

# الْحَاوِي فِي التَّفْسِيرِ

الشيخ

عبد الرحمن بن محمد القماش

المجلد السادس عشر

الأجزاء من ٢٩٧ إلى ٣١٦

# الْحَاوِي فِي التَّفْسِيرِ

الشيخ عبد الرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

قُلْ هُوَ اللّٰهُ اَحَدٌ ❀ اللّٰهُ

الصَّمَدُ ❀ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ❀

وَلَمْ يَكُنْ لَهٗ كُفُوًا اَحَدٌ ❀

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرآن  
الكريم حيث تخنوي على ٨٤٠ جزءاً "موزعة على ٤١ مجلداً"  
بذل فيه الشيخ الجليل "عبد الرحمن بن محمد القماش" جهداً  
كبيراً "وأسطورياً" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة  
وتر إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة  
في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتر إكمال ملفات PDF  
في آذار - نيسان ٢٠١٢ \*



# محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع الفرعي	الموضوع	الجزء
2	الآية 175 الى الآية 179	سورة الاعراف	297
347	الآية 180 الى الآية 183	=	298
635	الآية 184 الى الآية 186	=	299
833	الآية 187 الى الآية 193	=	300
1368	الآية 194 الى الآية 203	=	301
1822	الآية 204 الى الآية 206	=	302
2481	فصول مهمة	سورة الانفال	303
2829	فصل في الوقف والابتداء	=	304
3142	الآية 1 الى الآية 4	=	305
3542	الآية 5 الى الآية 10	=	306
3832	الآية 11 الى الآية 14	=	307
4091	الآية 15 الى الآية 18	=	308
4363	الآية 19 الى الآية 24	=	309
4737	الآية 25 الى الآية 32	=	310
5149	الآية 33 الى الآية 37	=	311
5394	الآية 38 الى الآية 40	=	312
5736	الآية 41 الى الآية 42	=	313
6231	الآية 43 الى الآية 52	=	314
6618	الآية 53 الى الآية 58	=	315
6845	الآية 59 الى الآية 60	=	316

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوى فى تفسير القرآن الكريم  
ويسمى (جنة المشتاق فى تفسير كلام الملك الخلاق)  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورسُلي - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والتسعون بعد المائتين  
حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والتسعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 175 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 179 ﴾ من نفس السورة

(4/297)

قوله تعالى ﴿ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

الْغَاوِينَ ﴾ (175)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر لهم ما أخذ عليهم في كتابهم من الميثاق الخاص الذي انسلخوا منه ، واتبعه الميثاق

العام الذي قطع بع الأعداء ، أتبعهما بيان ما يعرفونه من حال من انسلخ من الآيات ،

فأسقطه الله من ديوان السعداء ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يتلو عليهم ، لأنه - مع

الوفاء بتبكيتهم - من أدلة نبوته الموجبة عليهم اتباعه ، فذكره ما وقع له في نبذ العهد

والانسلخ من الميثاق بعد أن كان قد أعطى الآيات وأفرغ عليه من الروح فقال :

﴿ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي اقرأ شيئاً بعد شيء ﴿ عليهم ﴾ أي اليهود وسائر الكفار الخلق كلهم

﴿ نأ الذي ﴾ وعظم ما أعطاه بمظهر العظمة ولفظ الإيتاء بعد ما عظم خبره بلفظ الإنباء  
فقال: ﴿ آتينا ﴾ .

ولما كان تعالى قد أعطاه من إجابة الدعاء وصحة الرؤيا وغير ذلك مما شاء سبحانه أمراً  
عظيماً بحيث دلّه تعالى دلالة لا شك فيها ، وكانت الآيات كلها متساوية الأقدام في الدلالة  
وإن كان بعضها أقوى من بعض ، قال تعالى: ﴿ آياتنا ﴾ وهو بلعام من غير شك للسباق  
واللحاق ، وقيل: وهو رجل بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدين فرشاه فتبع دينه  
فاقتن به الناس ، وقيل: هو أمية بن أبي الصلت الثقي الذي قال فيه النبي - صلى الله عليه  
وسلم - " آمن شعره وكفر قلبه " قاله عبد الله بن عمرو وسعيد بن المسيب وزيد ابن أسلم  
، وقيل: هو أبو عامر الراهب الذي سماه النبي - صلى الله عليه وسلم - الفاسق ، وقيل:  
نزلت في منافقي أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنكروه .

(5/297)

---

ولما كان الذي جراًهم على عظمتهم سبحانه ما أنعم عليهم به من إعطاء الكتاب ظناً منهم  
أنه لا يشقيهم بعد ذلك ، رهبهم ببيان أن الذي سبب له هذا الشقاء هو إيتاء الآيات فقال:  
﴿ فانسلك منها ﴾ أي فارقها بالكييلة كما تنسلخ الحية من قشرها ، وذلك بسبب أنه لما



كان مجاب الدعوة سأله ملك زمانه الدعاء على موسى وقومه فامتنع فلم يزل يرغبه حتى خالف أمر الله اتباعاً لهوى نفسه ، فتمكن من الشيطان وأشار عليه أن يرسل إليهم النساء مزيّنات ويأمرهن أن لا يمتنعن من أحد ، فأشقاها الله ، وهذا معنى ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ أي فأدركه مكره فصار قريناً له ﴿ فكان ﴾ أي فتسبب عن إدراك الشيطان له أن كان ﴿ من الغاوين ﴾ أي الضالين الراكبين هوى نفوسهم ، وعبر في هذه القصة بقوله : ﴿ اتل ﴾ دون ﴿ وأسألهم عن ﴾ [ الأعراف : 163 ] نحو ما مضى في القرية ، لأن هذا الخبر مما يحبون ذكره لأن سلخه من الآيات كان لأجلهم ، فهو شرف لهم ، فلو سألهم عنه لبادروا إلى الإخبار به ولم يتلثموه فلا تكون تلاوته - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك لما أنزل في شأنه واقعاً موقع ما لو أخبرهم به قبل ، ولعل المقصود الأعظم من هذه الآية والتي قبلها الاستدلال على كذب دعواهم في قولهم ﴿ سيغفر لنا ﴾ [ الأعراف : 169 ] بما هم قائلون به ، فيكون من باب الإلزام ، وكأنه قيل : أتم قائلون بأن من أشرك لا يغفر له لتركه ما نصب له من الأدلة حتى إنكم لتقولون ﴿ ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ [ آل عمران : 75 ] لذلك ، فما لكم توسعون المغفرة لكم في ترك ما أخذ عليكم به الميثاق الخاص وقد ضيقتموها على غيركم في ترك ما أخذ عليهم به الميثاق العام ؟ ما ذلك إلا مجرد هوى ، فإن قلت : الأمر في أصل التوحيد أعظم فلا يقاس عليه ، قيل لكم ؛ أليس المعبود قد حرم الجميع ؟ وعلى التنزل فمن المسطور في كتابكم أمر بلعام وأنه ضل ، وقد كان أعظم من أحباركم ، فإننا

آتيناه الآيات من غير واسطة رسول ، وكان سبب هلاكه - كما تعلمون - وخروجه  
من ربة الدين وإحلاله دمه مشورته على ملك زمانه بأن يرسل النساء إلى عسكر بني  
إسرائيل متزينات غير ممتنعات ممن أرادهن ، وذلك من الفروع التي هي أخف من باب  
الأموال ، فقد مجتم كذبكم في قولكم ﴿ سيغفر لنا ﴾ وأنكم لم تتبعوا فيه إلا الهوى كما تبعه  
بلعام فانظروا ما فعل به . انتهى انتهى . اه ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 150 . 152 ﴾

(6/297)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد رحمهم الله : نزلت هذه الآية في بلعم بن باعوراء ،  
وذلك لأن موسى عليه السلام قصد بلده الذي هو فيه ، وغزا أهله وكانوا كفاراً ، فطلبوا  
منه أن يدعو على موسى عليه السلام وقومه ، وكان مجاب الدعوة ، وعنده اسم الله

الأعظم فامتنع منه ، فما زالوا يطلبونه منه حتى دعا عليه فاستجيب له ووقع موسى وبنو

إسرائيل في التيه بدعائه ، فقال موسى : يا رب بأي ذنب وقعنا في التيه .

فقال : بدعاء بلعم .

فقال : كما سمعت دعاءه علي ، فاسمع دعائي عليه ، ثم دعا موسى عليه أن ينزع منه اسم

الله الأعظم والإيمان ، فسلخه الله مما كان عليه ونزع منه المعرفة .

فخرجت من صدره كحمامة بيضاء فهذه قصته .

ويقال أيضاً : إنه كان نبياً من أنبياء الله ، فلما دعا عليه موسى اتزع الله منه الإيمان وصار

كافراً . (1)

وقال عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم ، وأبوروق : نزلت هذه الآية في

أمية بن أبي الصلت ، وكان قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت ،

ورجا أن يكون هو ، فلما أرسل الله محمداً عليه الصلاة والسلام حسده ، ثم مات كافراً ،

ولم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " آمن

شعره وكفر قلبه " يريد أن شعره كشعر المؤمنين ، وذلك أنه يوحد الله في شعره ، ويذكر

دلائل توحيده من خلق السموات والأرض ، وأحوال الآخرة ، والجنة والنار .

---

(1) لا يخفى ما في هذا الكلام من البعد البعيد .

كيف يرتد نبي من الأنبياء عن الإيمان ، وأين هذا الكلام من قوله تعالى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ  
يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ . والله أعلم .

(7/297)

---

وقيل : نزلت في أبي عامر الراهب الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم الفاسق كان  
يترهب في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام وأمر المنافقين باتخاذ مسجد ضرار  
، وأتى قيصر واستجده على النبي صلى الله عليه وسلم ، فمات هناك طريداً وحيداً ،  
وهو قول سعيد بن المسيب .

وقيل : نزلت في منافقي أهل الكتاب ، كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم ، عن الحسن  
والأصم وقيل : هو عام فيمن عرض عليه الهدى فأعرض عنه ، وهو قول قتادة ، وعكرمة  
، وأبي مسلم .

فإن قال قائل : فهل يصح أن يقال : إن المذكور في هذه الآية كان نبياً ، ثم صار كافراً ؟  
قلنا : هذا بعيد ، لأنه تعالى قال : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [ الأنعام : 124 ]  
وذلك يدل على أنه تعالى لا يشرف عبداً من عبده بالرسالة ، إلا إذا علم امتيازَه عن سائر  
العبيد بمزيد الشرف ، والدرجات العالية ، والمناقب العظيمة ، فمن كان هذا حاله ،

فكيف يليق به الكفر ؟

أما قوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلْخْ مِنْهَا ﴾ ففيه قولان :

القول الأول : ﴿ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ يعني : علمناه حجج التوحيد ، وفهمناه أدلته ، حتى صار عالماً بها ﴿ فَانْسَلْخْ مِنْهَا ﴾ أي خرج من محبة الله إلى معصيته ، ومن رحمة الله إلى سخطه ، ومعنى انسلخ : خرج منها .  
يقال لكل من فارق شيئاً بالكلية انسلخ منه .

(8/297)

---

والقول الثاني : ما ذكره أبو مسلم رحمه الله ، فقال قوله : ﴿ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ أي بينها فلم يقبل وعرى منها ، وسواء قولك : انسلخ ، وعرى ، وتباعد ، وهذا يقع على كل كافر لم يؤمن بالأدلة ، وأقام على الكفر ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ [ النساء : 47 ] وقال في حق فرعون : ﴿ وَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ [ طه : 56 ] وجائز أن يكون هذا الموصوف فرعون ، فإنه تعالى أرسل إليه موسى وهارون ، فأعرض وأبى ، وكان عادياً ضالاً متبعاً للشيطان .

واعلم أن حاصل الفرق بين القولين : هو أن هذا الرجل في القول الأول ، كان عالماً بدين الله وتوحيده ، ثم خرج منه ، وعلى القول الثاني لما آتاه الله الدلائل والبيّنات امتنع من قبولها ، والقول الأول أولى ، لأن قوله انسلخ منها يدل على أنه كان فيها ثم خرج منها ، وأيضاً فقد ثبت بالأخبار أن هذه الآية إنما نزلت في إنسان كان عالماً بدين الله تعالى ، ثم خرج منه إلى الكفر والضلال .

أما قوله : ﴿ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ ففيه وجوه : الأول : أتبعه الشيطان كفار الإنس وغواتهم ، أي الشيطان جعل كفار الإنس أتباعاً له .

والثاني : قال عبد الله بن مسلم ﴿ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي أدركه .

يقال : أتبعته القوم .

أي لحقتهم .

قال أبو عبيدة : ويقال : أتبعته القوم ، مثال : أفعلت إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم .

ويقال : ما زلت أتبعهم حتى أتبعتهم .

أي حتى أدركتهم .

وقوله ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي أطاع الشيطان فكان من الظالمين .

قال أهل المعاني : المقصود منه بيان أن من أوتي الهدى ، فانسلخ منه إلى الضلال والهوى

والعمى ، ومال إلى الدنيا ، حتى تلاعب به الشيطان كان منتهاه إلى البوار والردى ، وخاب

في الآخرة والأولى ، فذكر الله قصته ليحذر الناس عن مثل حالته . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب ج 15 ص 45.46 ﴾

(9/297)

وقال السمرقندي :

﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾

أَيُّ إِن لَّمْ يَرْجِعُوا بِذِكْرِ الْمِيثَاقِ وَلَمْ يَتُوبُوا فَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴿ نَبَأُ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ﴾ أَي خَيْرَ الَّذِي  
أَعْطَيْنَاهُ ﴿ ءَايَاتِنَا ﴾ يَعْنِي : أَكْرَمْنَاهُ بِاسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ .

ويقال : ﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : الكتاب وهي علم التوراة وغيره ﴿ فَاَنْسَلِخْ مِنْهَا ﴾  
يعني : خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها .

ويقال : تهاون بها ولم يعرف حقها ، ولا حرمتها ، وخرج منها ﴿ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ يقول  
: غَرَّهُ الشَّيْطَانُ ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أَي فَصَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَفِي الضَّالِّينَ .

قال بعضهم : هو بلعم بن باعوراء كان عابداً من عباد بني إسرائيل ، وكان مستجاب

الدعوة ، فنزع الله تعالى الإيمان عنه بدعاء موسى عليه السلام ، وذلك أن موسى عليه

السلام قاتل فرعوناً من الفراعنة فجمع ذلك الفرعون الكهنة والسحرة ، فقال لهم : أعينوني

على هؤلاء يعني : قوم موسى فقالوا : لن نستطيعهم ، ولكن بجوارك رجل منهم فلو بعثت إليه واستعنت به ، فبعث الملك إلى بلعم فلم يجبه ، فبعث الملك إلى امرأة بلعم الهدايا وطلب منها بأن تأمره بأن يجيب الملك ، فجاءته امرأته وقالت : نحن في جوار هذا الملك فلا بد لك من إجابته .

فأجابهم إلى ذلك ، وركب أتاناً له ، وخرج إليهم فسار حتى إذا كان في بعض الطريق وقفت أتانته فضربها ، فلما ألح عليها كلمته الأتان وقالت : انظر إلى ما بين يديك فنظر فإذا هو جبريل قال له : خرجت مخرجا ما كان ينبغي لك أن تخرج .  
فإذا خرجت فقل حقاً قال : فلما قدم عليه أمر له بالذهب والفضة والخدم والفرش فقبل .  
فقال له : قد دعوتك لدعوي علي هذا العسكر دعوة .  
قال : غداً .

فلما تلاقى القوم قال بلعم : إن بني إسرائيل أمة موسى ملعون من لعنهم ومبارك من بارك عليهم .

فقالوا له : ما زدتنا إلا خبالاً .

قال بلعم : ما استطعت غير ما رأيت .



---

ولكني أدلك على أمر إن فعلته فوقعوا به خذلوا ونصرت عليهم ، تعمد إلى نساء حسان  
فتجعل عليهم الحلبي والثياب والعطر ثم ترسلهن في عسكرهم .  
فإن وقعوا بهن خذلوا .

ففعل ذلك فما تعرض لهن منهم إلا سفهاؤهم فخذلوا .

فأخبر بذلك موسى فدعا عليه فنزع الله منه الإيمان .

وقال بعضهم : إنما هو أمية بن أبي الصلت قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان وكان يخبر  
أن نبينا يبعث وكان قد أظل زمانه .

وكان يرى أن الوحي ينزل عليه لكثرة علمه .

فلما سمع بخروج النبي صلى الله عليه وسلم وقصته كفر حسداً له .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع شعره قال : " آمن لسانه وكفر قلبه " فذلك قوله :

﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر

العلوم - 1 ص ﴿

وقال الثعلبي :

﴿ وَاْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا ﴾

اختلفوا فيه .

فقال عبد الله بن مسعود : هو بلعم بن ابرة . وقال ابن عباس : هو بلعم بن باعورة . وقال

مجاهد : هو بلعام بن باعر . وقال مقاتل : هو بلعام بن باعور بن ماث بن لوط . عطية عن

ابن عباس : هو من بني إسرائيل .

وقال علي بن أبي طلحة : هو من الكنعانيين من مدينة الجبارين ، وقال مقاتل : هو من مدينة

بلقا ، وسميت بلقا لأن ملكها كان رجلاً يقال له : بالق وكانت وصيته على ما ذكره ابن

عباس وابن إسحاق والسدي وغيرهم : إن موسى ( عليه السلام ) لما قصد حرب

الجبارين ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم إلى بلعم وكان عنده اسم الله

الأعظم .

فقالوا : إن موسى رجل شديد ومعه جنود كثيرة وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا

ويجلبها بني إسرائيل وأنا قومك وبنو عمك وليس لنا قول وأنت رجل مجاب الدعوة فأخرج

وإدع الله تعالى أن يرد عنا موسى وقومه فقال : ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون كيف

أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإني إن فعلت هذا ذهبت دنيائي وآخرتي . وقالوا

ما لنا من [ نزل ] وراجعوه في ذلك قال : حتى أمر ربي ، وكان لا يدعوه حتى ينظر ما يؤمر

في المنام فيأمرني الدعاء عليهم .

فقيل له في المنام : لا تدع عليهم ، فقال لقومه : إني قد أمرت ربي في الدعاء عليهم وإني قد نهيت ، فهدوا له هدية ، فقبلها ثم راجعوه وقالوا : أدع عليهم ، فقال : حتى أوامر فلما أمر لم يجيء إليه شيء . فقال : قد أمرت فلم يجيء إلي شيء ، فقالوا : لو كرر ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرة الأولى . فلم يزالوا به [ يروقونه ] ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتن فركب [ أتاناً ] له متوجهاً إلى جبل يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له جسبان .

(12/297)

---

فلما سار عليها غير كثير رضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا أذاقها قامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى رضت ، ففعل بها مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى رضت فضربها حتى إذا أذاقها أذن الله لها بالكلام فتكلمت حجة عليه فقالت : ويحك يا بلعم أين تذهب ألا ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا لنذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم ، فلم ينزع عنها فحلى الله سبيلها فانطلقت حتى إذا أشرفت به على جبل جسبان جعل يدعو عليهم فلا يدعو عليهم بشيء إلا صرف به لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف مسأله إلى بني إسرائيل .

فقال له قومه : أتدري يا بلعم ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا ، قال : فهذا ما لا أملك هذا شيء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوق وقع على صدره فقال لهم : قد ذهبت الآن مني الدنيا والآخرة ، فلم يبق إلا المكر والحيلة فسأموهم لكم وأحتال ، اجملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يتعدوا فيه ومروهن فلا تمتنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنا رجل واحد منهم يفتنوهم ففعلوا .

فلما دخل النساء العسكر مرّت امرأة بين الكنعانيين اسمها بشتي بنت صور برجل من عظماء بني إسرائيل يُقال له زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليه السلام) فقام إليها فأخذ بيدها حين أفتنه جمالها ثم أقبل حتى وقف على موسى فقال : إني أظنك ستقول هذه حرام عليك قال : أجل هي حرام عليك لا تقربها قال : فوالله لا نطيعك في هذا ثم دخل بها قبته فوق وقع عليها فأرسل الله الطاعون على بني إسرائيل في الوقت .

(13/297)

---

وكان لفنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى رجل قد أعطى بسطة في الخلق وقوة في البطش وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون [يمجس]

في بني إسرائيل وأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليه القبة وهما متضاجعان [ فاستقبلها ] مجرته ثم خرج بهما رافعا بهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته .

وكان [ يكره العيزار ] وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك فرجع الطاعون .

فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله

فنحاص فوجوده قد هلك منهم سبعون ألفاً في ساعة من نهار ، فمن هنالك يعطي بنو

إسرائيل ولد فنحاص كل ذبيحة ذبجوها الفشة والذراع واللحي ، لاعتماده بالحربة على

خاصرته وأخذه إياها بذراعه وبأسناده إياها إلى لحيته ، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم

لأنه كان [ بكراً ] لعيزار بن هارون وفي بلعم أنزل الله تعالى : ﴿ وَاْتَلِ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ

ءَايَاتِنَا ﴾ الآية .

(14/297)

---

وقال مقاتل : إن ملك البلقاء قال لبلعام : أدع على موسى ، فقال : إنه من أهل ديني لا أدعو

عليه فنصبت خشبة ليصلب فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو عليهم ، فلما عين

عسكرهم قامت به الأتان ووقفت فضربها فقالت : لم تضربني إني مأمورة فلا تضلمني

وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع وأخبر الملك ، فقال : لتدعون عليه أو لأصلبنا فدعا على موسى بالاسم الأعظم ألا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى وبنو إسرائيل في التيه بدعائه فقال موسى : يارب [بأي] ذنب وقعنا في التيه قال : بدعاء العالم ، قال : فكما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه فدعا موسى عليه أن ينزع منه الاسم الأعظم والإيمان فسلخه الله تعالى مما كان عليه ونزع منه المعرفة فخرجت من صدره كحمامة بيضاء فذلك قوله تعالى ﴿ فانسُخِ مِنْهَا ﴾ فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية .

وقال عبد الله بن عمر بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وأبو روق : " نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي وكانت قصته أنه كان في ابتداء [أمره] قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول . فلما أرسل محمد (عليه السلام) حسده وكان قصد بعض الملوك فلما رجع مرّ على قتلى بدر فسأل عنهم فقيل قتلهم محمد فقال : لو كان نبياً ما قتل أقرباءه . فلما مات أمية أتت أخته فارعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وفاة أخيها فقالت : بينا هو قد [أنا فنام على سريرى فأقبل طائران] ونزلا فتعد أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه : ادّعي ؟ قال : ادّعي ، قال : أزكي ؟ قال : أبي ، قالت : فسألته عن ذلك . قال : خيراً زيدي ،

فصرف عني ثم غشي عليه فلما أفاق قال :  
كل عيش وإن تطاول دهرًا \* صائر أمره إلى أن يزولا  
ليتني كنت قبل ما بدا لي \* في قلال الحبال أرعى الوعولا

(15/297)

---

يوم الحساب يوم عظيم \* شاب فيه الصغير نوماً ثقيلاً  
ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدني شعر أخيك . فأنشدته :  
لك الحمد والنعماء والفضل ربنا \* ولا شيء أعلى منك جداً وأجد  
ملك على عرش السماء مهيمن \* لعزته تعنو الوجوه وتسجد  
وهي قصيدة طويلة حتى أتت على آخرها . وأنشدته قصيدته :  
وقف الناس للحساب جميعاً \* فشقي معذب وسعيد  
ثم أنشدته قصيدته التي فيها

عند ذي العرش يعرضون عليه \* يعلم الجهر والسرار الخفيا  
يوم يأتي الرحمن وهو رحيم \* إنه كان وعده مأتياً  
يوم يأتيه مثل ما قال فرد \* ثم لا بد راشداً أو غويًا

أو سعيداً سعادةً أنا أرجو\* أو مهاناً لما اكتسبت شقياً  
إن أوءأخذ بما أجمرت فإني\* سوف ألقى في العذاب قويا  
ورب إن تعفو فالمعافاة ظني\* أو تعاقب فلم تعاقب برياً  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن شعره وكفر قلبه ".  
وأنزل الله عز وجل: ﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا ﴾ الآية .  
ومنهم من قال : إنها نزلت في البسوس .

وكان رجلاً قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات . وكانت له امرأة وكان له منها ولد  
فقال له : اجعل منها دعوة واحدة لي . فقال : لك منها واحدة ، فما تريدن ؟ فقالت :  
ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فدعا لها فجعلت أجمل امرأة في بني إسرائيل  
 . فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه فغضب الرجل . ودعا عليها فصارت كلبة  
تبأحة فذهبت فيها دعوتان ، فجاء بنوها فقالوا : ليس لنا على هذا قرار دعوت على أمنا  
فصارت كلبة تبأحة والناس يُعيروننا ادعو الله أن يردها على الحال التي كانت عليها ، فدعا  
الله عز وجل فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات .

وقال سعيد بن المسيب : " نزلت في أبي عامر بن النعمان بن صيفي الراهب الذي سَمَّاه  
النبي صلى الله عليه وسلم الفاسق .



وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوخ فقدم المدينة وقال للنبي صلى الله عليه وسلم ما هذا الذي جئت به .

(16/297)

قال : " جئت بالحنفية دين إبراهيم " ، فقال : أنا جئتُها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لست عليها ولكنك أدخلت إبليس فيها " ، فقال أبو عامر : أمات الله كاذباً منا طريداً وحيداً فخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا القوة والسلاح وابتوا إلى مسجداً ثم أتى الراهب قيصر وأتى بجند ليخرج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المدينة فذلك قوله : ﴿ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [ التوبة : 107 ] يعني انتظاراً لمجيئه فمات بالشام طريداً وحيداً .

وقال عبادة بن الصامت : نزلت في قريش أتاهم الله الآيات فانسلخوا منها فلم يقبلوها ، فقال الحسن وابن كيسان : نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم .

وقال عمرو بن دينار : سئل عكرمة عن هذه الآية فقال : هذا وهذا ليست في خاصة .

وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله فذلك قوله : ﴿ وَاِتْلُ ﴾

عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴿٤﴾ .

وقال ابن عباس والسدي: هي اسم الله الأعظم . وقال ابن زيد: كان لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه .

وقال ابن عباس في رواية أخرى: أعظم أنها كتاباً من كتب الله .

مجاهد: هو نبي من بني إسرائيل يقال له بلعم أوتي النبوة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه .

﴿ فانسَخ ﴾ [خرج] ﴿ مِنْهَا ﴾ ﴿ كما تنسَخ الحَيَّة من جلدِها ﴾ ﴿ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَان ﴾ ﴿ أَي لِحْقِهِ وَأَدْرَكَه ﴾ ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح

﴿ 4 ﴾

(17/297)

فائدة

قال إمام المفسرين ، الطبري رحمه الله : " والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتلو على قومه خبر رجل كان صالحاً آتاه الله حججه وأدلته ، وهي " الآيات " . . . وجائز أن يكون الذي آتاه الله ذلك : " بلعم " ، وجائز أن يكون

"أمية" ولا خبر بأي الرجلين المعنيّ - يوجب الحجة ، ولا في العقل دلالة على أي ذلك ،  
المعنيّ به من أيّ . فالصواب أن يقال فيه ما قال الله ، ونقرّ بظاهر التنزيل ، على ما جاء به  
الوحي من الله " التفسير انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبري ح 13 ص 260 ﴾

(18/297)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءآيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه بلعام بن عوراء ، واختلفوا فيه فقيل كان من اليمن ، وقيل كان من الكنعانيين ،

وقيل من بني صال بن لوط ، قاله ابن عباس ، وابن مسعود .

والثاني : أنه أمية بن أبي الصلت الثقفي ، قاله عبد الله بن عمرو .

والثالث : أنه من أسلم من اليهود والنصارى وناقق ، قاله عكرمة .

وفي الآيات التي أوتيتها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه اسم الله الأعظم الذي تجاب به الدعوات ، قاله السدي وابن زيد .

والثاني : أنها كتاب من كتب الله . قاله ابن عباس .

والثالث : أنه أوتي النبوة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه ، قاله مجاهد ، وهو غير صحيح لأن الله لا يصطفى لنبوته إلا من يعلم أن لا يخرج عن طاعته إلى معصيته .

وفي قوله : ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ وجهان :

أحدهما : فانسوخ من العلم بها لأنه سيسلب ما أوتي منها بالمعصية . والثاني : أنه انسوخ منها أي من الطاعة بالمعصية مع بقاء علمه بالآيات حتى حكي أن بلعام رُئي على أن يدعو على قوم موسى بالهلاك فسها فدعا على قومه فهلكوا .

﴿ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الشيطان صيره لنفسه تابعا بإجابته له حين أغواه .

والثاني : أن الشيطان متبع من الإنس على ضلالتهم من الكفر .

والثالث : أن الشيطان لحقه فأغواه ، يقال اتبعت القوم إذا لحقتهم ، وتبعتم إذا سرت

خلفهم ، قاله ابن قتيبة .

﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من الهالكين .

الثاني : من الضالين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم ﴾ الآية

﴿ اتل ﴾ معناه قص واسرد ، والضمير في ﴿ عليهم ﴾ عائد على حاضري محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار وغيرهم ، واختلف المتأولون في الذي أوتي الآيات ، فقال عبد الله بن مسعود وغيره : هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدين داعياً إلى الله تعالى وإلى الشريعة وعلمه من آيات الله ما يمكن أن يدعوبه وإليه ، فلما وصل رشاه الملك وأعطاه على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ، ففعل وفتن الملك به الناس وأضلهم ، وقال ابن عباس : هو رجل من الكنعانيين الجبارين اسمه بلعم ، وقيل بلعام بن عابر ، وقيل ابن أبر ، وقيل غير هذا مما ذكره تطويل ، وكان في جملة الجبارين الذي غزاهم موسى عليه السلام ، فلما قرب منهم موسى لجؤوا إلى بلعام وكان صالحاً مستجاب الدعوة ، وقيل كان عنده علم من صحف إبراهيم ونحوها ، وقال مجاهد كان رشح للنبوءة وأعطىها فرشاه قومه على أن يسكت ففعل .

(20/297)

---

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول مردود لا يصح عن مجاهد، ومن أعطي النبوة فقد أعطي العصمة ولا بد، ثبت هذا بالشرع، وقد نص معنى ما قلته أبو المعالي في كتاب الشامل، وقيل كان يعلم اسم الله الأعظم، قاله ابن عباس أيضاً، وهذا الخلاف في المراد بقوله: ﴿آيَاتنا﴾، فقال له قومه ادع الله تعالى على موسى وعسكره، فقال لهم وكيف أدعوا على نبي مرسل، فما زالوا به حتى فتنوه فخرج حتى أشرف على جبل يرى منه عسكر موسى، وكان قد قال لقومه لا أفعل حتى أستأمر ربي ففعل فنهى عن ذلك، فقال لهم قد نهيت، فما زالوا به قال أستأمر ربي ثانية ففعل فسكت عنه فأخبرهم فقالوا له إن الله لم يدع نهيك إلا وقد أراد ذلك، فخرج، فلما أشرف على العسكر جعل يدعو على موسى فتحول لسانه بالدعاء لموسى والدعاء على قومه، فقالوا له ما تقول؟ فقال إني لا أملك إلا هذا وعلم أنه قد أخطأ، فروي أنه خرج لسانه على صدره، فقال لقومه إني قد هلكت ولكن لم تبق لكم إلا الحيلة فأخرجوا النساء إلى عسكر موسى على جهة التجرد وغيره ومروهن ألا تمتنع امرأة من رجل فإنهم إذا زنوا هلكوا، ففعلوا فخرج النساء فزنى بهن رجال بني إسرائيل، وجاء فنحاص بن العيزار بن هارون، فانتظم برمحه امرأة ورجلاً من بني إسرائيل، ورفعهما على أعلى لرمح فوق في بني إسرائيل الطاعون فمات منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً، ثم ذكر المعزز عن أبيه أن موسى عليه السلام قتل بعد ذلك الرجل المنسلخ من آيات الله، قال المهدوي: روي أنه دعا على موسى أن لا يدخل مدينة

الجبارين فأجيب ، ودعا عليه موسى صلى الله عليه وسلم أن ينسى اسم الله الأعظم  
فأجيب قال الزجاج: وقيل إن الإشارة إلى مناقبي أهل الكتاب .

(21/297)

---

قال القاضي أبو محمد : وصواب هذا أن يقال إلى كفار أهل الكتاب لأنه لم يكن منهم منافق  
إنما كانوا مجاهرين ، وفي هذه القصة روايات كثيرة اختصرتها لتعذر صحتها واقتصرت  
منها على ما يخص ألفاظ الآية ، وقالت فرقة : المشار إليه في الآية رجل كان قد أعطي  
ثلاث دعوات مستجابات فترك أن يدعوبها في مصالح العباد فدعا بواحدة أن ترجع امرأته  
أجمل النساء ، فكان ذلك ، فلما رأت نفسها كذلك أبغضته واحتقرته فدعا عليها ثانية  
فمسخت كلبه ، فشفع لها بنوها عنده فانصرفت إلى حالها فذهب الدعوات ، وقال عبد  
الله بن عمرو بن العاصي المشار إليه في الآية أمية بن أبي الصلت ، وكان قد أوتي علماً ،  
وروي أنه جاء يريد الإسلام فوصل إلى بدر بعد الوقعة بيوم أو نحوه فقال من قتل هؤلاء ؟  
فقيل محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا حاجة لي بدين من قتل هؤلاء ، فارتد ورجع ،  
وقال : الآن حلت لي الخمر ، وكان قد حرّمها على نفسه ، فمر حتى لحق بقوم من ملوك  
حمير فنادهم حتى مات ، و ﴿ انسلخ ﴾ عبارة عن البراءة منها والانفصال والبعد

كالسليخ من الثياب، والجلد و ﴿ أتبعه ﴾ صيره تابعا كذا قال الطبري إما لضلالة رسمها له  
وإما لنفسه، وقرأ الجمهور " فأتبعه " بقطع الألف وسكون التاء، وهي راجحة لأنها  
تضمن أنه لحقه وصار معه، وكذلك ﴿ فأتبعه شهاب ﴾ [ الحجر: 18 ] و ﴿ فأتبعهم  
فرعون ﴾ [ يونس: 90 ] وقرأ الحسن فيما روى عنه هارون " فأتبعه " بصلة الألف  
وشد التاء وكذلك طلحة بن مصرف بخلاف، وكذلك الخلاف عن الحسن على معنى  
لازمه " اتبعه " بالإغواء حتى أغواه، و ﴿ من الغاوين ﴾ أي من الضالين . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(22/297)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾

قال الزجاج : هذا نسق على ما قبله ، والمعنى : أتل عليهم إذ أخذ ربك ، ﴿ واتل عليهم  
نبا الذي آتيناها آياتنا ﴾ وفيه ستة أقوال .

أحدها : أنه رجل من بني إسرائيل ، يقال له : بلعم بن أبر ، قاله ابن مسعود .

وقال ابن عباس : بلعم بن باعوراء .



وروي عنه : أنه بلعام بن باعور ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، والسدي .

وروي العوفي عن ابن عباس أن بلعماً من أهل اليمن .

وروي عنه ابن أبي طلحة أنه من مدينة الجبارين .

والثاني : أنه أمية بن أبي الصلت ، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسعيد بن المسيب ،

وأبوروق ، وزيد بن أسلم ، وكان أمية قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولاً ، ورجا

أن يكون هو ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، حسده وكفر .

والثالث : أنه أبو عامر الراهب ، روى الشعبي عن ابن عباس قال الأنصار : تقول هو

الراهب الذي بُني له مسجد الشقاق ، وروي عن ابن المسيب نحوه .

والرابع : أنه رجل كان في بني إسرائيل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له

امرأة له منها ولد ، وكانت سمجة دميمة ، فقالت : ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني

إسرائيل ، فدعا الله لها ، فلما علمت أنه ليس في بني إسرائيل مثلها ، رغبت عن زوجها

وأرادت غيره ، فلما رغبت عنه ، دعا الله أن يجعلها كلبه تبأحةً ، فذهبت منه فيها

دعوتان ، فجاء بنوها وقالوا : ليس بنا على هذا صبر أن صارت أمنا كلبه تبأحة يعيرنا

الناس بها ، فدعا الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليها أولاً ، فدعا الله ، فعادت كما

كانت ، فذهبت فيها الدعوات الثلاث ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، والذي روي لنا في

هذا الحديث " وكانت سمجة " بكسر الميم ، وقد روى سيبويه عن العرب أنهم يقولون :

رجل سَمَّج : بتسكين الميم ، ولم يقولوا : سَمَّج ؛ بكسرها .

والخامس : أنه المنافق ، قاله الحسن .

(23/297)

---

والسادس : أنه كل من انسلخ من الحق بعد أن أُعطيَه من اليهود والنصارى والحنفاء ، قاله  
عكرمة .

وفي الآيات خمسة أقوال .

أحدها : أنه اسم الله الأعظم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال ابن  
جبير .

والثاني : أنها كتاب من كتب الله عز وجل .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : هو بلعام ، أوتي كتاباً فانسلك منه .

والثالث : أنه أوتي النبوة ، فرشاه قومه على أن يسكت ، ففعل وتركهم على ما هم عليه ،  
قاله مجاهد ، وفيه بُعد ، لأن الله تعالى لا يصطفى لرسالته إلا معصوماً عن مثل هذه الحال .  
والرابع : أنها حُجج التوحيد ، وفهم أدلته .

والخامس : أنها العلم بكتب الله عز وجل ، والمشهور في التفسير أنه بلعام ، وكان من أمره

على ما ذكره المفسرون أن موسى عليه السلام غزا البلد الذي هو فيه ، وكانوا كفاراً ،  
وكان هو مجاب الدعوة ، فقال ملكهم : ادع على موسى ، فقال : إنه من أهل ديني ، ولا  
ينبغي لي أن أدعو عليه ، فأمر الملك أن تنحت خشبة لصلبه ، فلما رأى ذلك ، خرج على  
أتان له ليدعو على موسى ، فلما عاين عسكرهم ، وقفت الأتان فضر بها ، فقالت : لم  
تضربني ، وهذه نار توقد قد منعتني أن أمشي ؟ فارجع ، فارجع إلى الملك فأخبره ، فقال :  
إما أن تدعو عليهم ، وإما أن أصلبك ، فدعا على موسى باسم الله الأعظم أن لا يدخل  
المدينة ، فاستجاب الله له ، فوقع موسى وقومه في التيه بدعائه ، فقال موسى : يا ربِّ بأبي  
ذنب وقعنا في التيه ؟ فقال : بدعاء بلعم ، فقال : يا رب فكما سمعت دعاءه عليّ ، فاسمع  
دعائي عليه ، فدعا الله أن ينزع منه الاسم الأعظم ، فنزع منه .  
وقيل : إن بلعام أمر قومه أن يزئبوا النساء ويرسلوهنَّ في العسكر ليفشوا الزنا فيهم ، فأنصروا  
عليهم .  
وقيل : إن موسى قتله بعد ذلك .

(24/297)

---

وروى السدي عن أشياخه أن بلعم أتى إلى قومه متبرِّعاً ، فقال : لا ترهبوا بني إسرائيل ، فانكم إذا خرجتم لقتالهم ، دعوتُ عليهم فهلَكوا ، فكان فيما شاء عندهم من الدنيا ، وذلك بعد مضي الأربعين سنة التي تاهوا فيها ، وكان نبيهم يوشع لا موسى .

قوله تعالى : ﴿ فانسَلْخ منها ﴾ أي : خرج من العلم بها .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعْ الشَّيْطَانَ ﴾ قال ابن قتيبة : أدركه .

يقال : اتَّبَعْتُ القوم : إذا لَحَقْتَهُمْ ، وتَبَعْتُهُمْ : سرتُ في أثرهم .

وقرأ طلحة بن مصرف : " فاتَّبعه " بالتشديد .

وقال اليزيدي : أتَّبَعَهُ واتَّبَعَهُ : لغتان .

وكان " أتَّبَعَهُ " خفيفة بمعنى : قفاه ، " واتَّبَعَهُ " مشددة : حذا حذوه .

ولا يجوز أن تقول : أتَّبَعْنَاكَ ، وأنت تريد : أتَّبَعْنَاكَ ، لأن معناها : اقتدينا بك .

وقال الزجاج : يقال : تبع الرجل الشيء واتَّبَعَهُ بمعنى واحد .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾ [ البقرة : 38 ] وقال : ﴿ فَاتَّبِعْهُمْ فَرَعُونَ ﴾ [

يونس : 90 ] .

قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : من الضالين ، قاله مقاتل .

والثاني: من الهالكين الفاسدين، قاله الزجاج. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص



(25/297)

وقال القرطبي:

﴿ وَاْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

ذكر أهل الكتاب قصة عرفوها في التوراة.

واختلف في تعيين الذي أوتي الآيات.

فقال ابن مسعود وابن عباس: هو بلعام بن باعوراء، ويقال ناعم، من بني إسرائيل في زمن

موسى عليه السلام، وكان بحيث إذا نظر رأى العرش.

وهو المعنى بقوله: ﴿ وَاْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ ولم يقل آية، وكان في مجلسه اثنتا

عشرة ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه.

ثم صار بحيث أنه كان أول من صنّف كتاباً في أن "ليس للعالم صانع".

قال مالك بن دينار: بُعث بلعام بن باعوراء إلى ملك مدين ليدعوه إلى الإيمان؛ فأعطاه

وأقطعه فاتبع دينه وترك دين موسى؛ ففيه نزلت هذه الآيات.

روى المُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ بِلْعَامٍ قَدْ أُوتِيَ النَّبُوءَةَ، وَكَانَ مَجَابَ الدَّعْوَةَ، فَلَمَّا أَقْبَلَ مُوسَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَرِيدُ قِتَالَ الْجَبَّارِينَ، سَأَلَ الْجَبَّارُونَ بِلْعَامَ بْنَ بَاعُورَاءَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مُوسَى فَمَامَ لِيَدْعُوَ فَتَحَوَّلَ لِسَانَهُ بِالِدَّعَاءِ عَلَى أَصْحَابِهِ.

فقيل له في ذلك؛ فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون؛ واندلع لسانه على صدره.

فقال: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة، وسأمر لكم، فإنني أرى أن تخرجوا إليهم فتيا تكلم فإن الله يبغض الزنى، فإن وقعوا فيه هلكوا؛ ففعلوا فوق بنو إسرائيل في الزنى، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً، وقد ذكر هذا الخبر بكما له الثعلبي وغيره.

وروي أن بلعام بن باعوراء دعا الأيدي دخل موسى مدينة الجبارين، فاستجيب له وبقي في التيه.

فقال موسى: يا رب بأي ذنب بقينا في التيه.

فقال: بدعاء بلعام.

قال: فكما سمعت دعاءه علي فاسمع دعائي عليه.

فدعا موسى أن ينزع الله عنه الاسم الأعظم؛ فسلخه الله ما كان عليه، وقال أبو حامد في آخر كتاب منهاج العارفين له: وسمعت بعض العارفين يقول إن بعض الأنبياء سأل الله تعالى عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات، فقال الله تعالى: لم يشكرني يوماً من الأيام على ما أعطيته، ولو شكرني على ذلك مرة لما سلبته.

وقال عكرمة: كان بلعام نبياً وأوتي كتاباً.

وقال مجاهد: إنه أوتي النبوة؛ فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه.

قال الماوردي: وهذا غير صحيح؛ لأن الله تعالى لا يصطفي لنبوته إلا من علم أنه لا يخرج عن طاعته إلى معصيته.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وزيد بن أسلم: نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت، وتمنى أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به.

وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آمن شعره وكفر قلبه" وقال سعيد بن المسيب: نزلت في أبي عامر بن صيفي، وكان يلبس المسوح في الجاهلية؛ فكفر بالنبى صلى الله عليه وسلم.

وذلك أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فقال: يا محمد، ما هذا الذي

جئت به ؟ قال : " جئتُ بالحنيفة دين إبراهيم " قال : فإني عليها .  
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لستَ عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها " فقال أبو  
عامر : أَمَاتَ اللهُ الكاذبَ منا طريداً وحيداً .  
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " نعم أَمَاتَ اللهُ الكاذبَ منا كذلك " وإنما قال هذا يُعَرِّضُ  
برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث خرج من مكة .  
فخرج أبو عامر إلى الشام ومراً إلى قيصر وكتب إلى المنافقين : استعدوا فإني آتيكم من عند  
قيصر بجند لُنخرج محمداً من المدينة ؛ فمات بالشام وحيداً .

(27/297)

---

وفيه نزل : ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ [التوبة : 107] وسيأتي  
في براءة .

وقال ابن عباس في رواية : نزلت في رجل كان له ثلاث دعوات يُستجاب له فيها ، وكانت له  
امرأة يقال لها " البسوس " فكان له منها ولد ؛ فقالت : اجعل لي منها دعوة واحدة .  
فقال : لك واحدة ، فما تأمرين ؟ قالت : ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل .  
فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه ؛ فدعا الله عليها أن يجعلها كلبه نباحة .



فذهب فيها دعوتان؛ فجاء بنوها وقالوا: لا صبر لنا عن هذا، وقد صارت أمنا كلبة  
يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردها كما كانت؛ فدعا فعادت إلى ما كانت، وذهبت  
الدعوات فيها.

والقول الأول أشهر وعليه الأكثر.

قال عبادة ابن الصامت: نزلت في قريش، آتاهم الله آياته التي أنزلها الله تعالى على محمد  
صلى الله عليه وسلم فانسلخوا منها ولم يقبلوها.  
قال ابن عباس: كان بلعام من مدينة الجبارين.  
وقيل: كان من اليمن.

﴿ فانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أي من معرفة الله تعالى، أي نزع منه العلم الذي كان يعلمه.

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: " العلم علما ن علم في القلب فذلك العلم النافع  
وعلم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على ابن آدم " فهذا مثل علم بلعام وأشباهه،  
نعوذ بالله منه؛ ونسأله التوفيق والممات على التحقيق.

والانسلاخ: الخروج؛ يقال: انسلاخت الحية من جلدها أي خرجت منه.

وقيل: هذا من المقلوب، أي انسلاخت الآيات منه.

﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي لحق به؛ يقال: أتبع القوم أي لحقتهم.

وقيل : نزلت في اليهود والنصارى ، انتظروا خروج محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(28/297)

وقال ابن كثير :

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

(175) ﴿

قال عبد الرزاق ، عن سفيان الثوري ، عن الأعمش ومنصور ، عن أبي الضحى ، عن

مسروق ، عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، في قوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ

الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا [ فَاتَّبَعَهُ ] ﴾ الآية ، قال : هو رجل من بني إسرائيل ، يقال له

: بلعم بن أبر . وكذا رواه شعبة وغير واحد ، عن منصور ، به .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن ابن عباس [ رضي الله عنهما ] هو صيفي بن

الراهب .

قال قتادة : وقال كعب : كان رجلا من أهل البلقاء ، وكان يعلم الاسم الأكبر ، وكان مقيما

ببيت المقدس مع الجبارين .

وقال العوفي ، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] هو رجل من أهل اليمن ، يقال له : بلعم ،  
أتاه الله آياته فتركها .

وقال مالك بن دينار : كان من علماء بني إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، يقدمونه في  
الشدائد ، بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدّين يدعو إلى الله ، فأقطعه وأعطاه ، فتبع دينه  
وترك دين موسى ، عليه السلام .

وقال سفيان بن عيينة ، عن حصّين ، عن عمران بن الحارث ، عن ابن عباس [رضي الله  
عنهما] هو بلعم بن باعر . وكذا قال مجاهد وعكرمة .

وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا إسرائيل ، عن مغيرة ، عن  
مجاهد ، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] قال : هو بلعام - وقالت ثقيف : هو أمية بن  
أبي الصلت .

وقال شعبة ، عن يعلى بن عطاء ، عن نافع بن عاصم ، عن عبد الله بن عمرو [رضي الله  
عنهما] في قوله : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ قال : هو صاحبكم أمية بن  
أبي الصلت .

وقد روي من غير وجه ، عنه وهو صحيح إليه ، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه ، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ، ولكنه لم ينتفع بعلمه ، فإنه أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته ، وظهرت لكل من له بصيرة ، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه ، وصار إلى موالة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة ، قبحه الله [تعالى] وقد جاء في بعض الأحاديث : " أنه ممن آمن لسانه ، ولم يؤمن قلبه " ؛ فإن له أشعارا ربانية وحكما وفصاحة ، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان عن أبي سعيد الأعمور ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ قال : هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت : اجعل لي منها واحدة . قال : فلك واحدة ، فما الذي تريدن ؟ قالت : ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل . فدعا الله ، فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه ، وأرادت شيئا آخر ، فدعا الله أن يجعلها كلبة ، فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان . فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها ، فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها ، فدعا الله ، فعادت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث ، وسميت البسوس . (1) غريب .

---

(1) ورواه أبو الشيخ في تفسيره كما في الدر المنثور (608/3) .

(30/297)

---

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : هو رجل من مدينة الجبارين ، يقال له : " بلعام " وكان يعلم اسم الله الأكبر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره من علماء السلف : كان [رجلا] مجاب الدعوة ، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه .

وأغرب ، بل أبعد ، بل أخطأ من قال : كان قد أوتي النبوة فانسلك منها . حكاها ابن جرير ، عن بعضهم ، ولا يصح

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : لما نزل موسى بهم - يعني بالجبارين - ومن معه ، أتاه يعني بلعام - أتاه بنوعمه وقومه ، فقالوا : إن موسى رجل حديد ، ومعه جنود كثيرة ،

وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه . قال : إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ، ذهبت دنيابي وآخرتي . فلم يزالوا به حتى دعا عليهم ، فسلخه

الله ما كان عليه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [



وقال السدي : إن الله لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [المائدة : 26] بعث يوشع بن نون نبيا ، فدعا بني إسرائيل ، فأخبرهم أنه نبي ، وأن الله [قد] أمره أن يقاتل الجبارين ، فبايعوه وصدقوه . وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له : " بلعم " وكان عالماً ، يعلم الاسم الأعظم المكتوم ، فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين وقال لهم : لا ترهبوا بني إسرائيل ، فإني إذا خرجتم ثقاتلونهم ادعوا عليهم دعوة فيهلكون ! وكان عندهم فيما شاء من الدنيا ، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء ، يعظمن فكان ينكح أتاناً له ، وهو الذي قال الله تعالى ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾

(31/297)

---

وقوله : ﴿ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي : استحوذ عليه وغلبه على أمره ، فمهما أمره امتثل

وأطاعه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي : من الهالكين الخائرين البائرين .

وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال :

حدثنا محمد بن مرزوق ، حدثنا محمد بن بكر ، عن الصلت بن بهرام ، حدثنا الحسن ،

حدثنا جُنْدُبُ البجلي في هذا المسجد ؛ أن حذيفة - يعني بن اليمان ، رضي الله عنه -  
حدثه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن ،  
حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان ردء الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله ، انسلخ منه ، ونبذه  
وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ، ورماه بالشرك" . قال : قلت : يا نبي الله ، أيهما  
أولى بالشرك : المرمي أو الرامي ؟ قال : "بل الرامي" .

هذا إسناد جيد (1) والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين ، ولم يرم بشيء سوى  
الإرجاء ، وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، وغيرهما . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ تفسير ابن كثير ح 3 ص 506 . 509 ﴾

---

(1) ورواه البزار في مسنده برقم (175) من طريق : حدثنا محمد بن مرزوق والحسن بن  
أبي كبشة ، حدثنا محمد بن بكر البرساني به . قال الهيثمي في الجمع (1/188) :  
"إسناده حسن" .

(32/297)

---

وقال الثعالبي :

قوله سبحانه : ﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ .

قال ابن عباس : هورجل من الكنعانيين الجبارين ، اسمه بلعم بن باعوراء ، وقيل : بلعام بن باعر .

وقيل : غير هذا ، وكان في جملة الجبارين الذي غزاهم موسى عليه السلام ، فلما قرب منهم موسى ، لجؤوا إلى بلعام ، وكان صالحاً مستجاب الدعوة ، وقيل : كان عنده علم من صحف إبراهيم ونحوها .

(33/297)

---

وقيل : كان يعلم اسم الله الأعظم ، قاله ابن عباس أيضاً ، وهذا الخلاف هو في المراد بقوله : ﴿ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ ، فقال له قومه : ادع الله على موسى وعسكره ، فقال لهم : وكيف أدعو على نبي مرسل ، فما زالوا به حتى قنوه ، فخرج حتى أشرف على جبل يرى منه عسكر موسى ، وكان قد قال لقومه : لا أفعل حتى أستأمر ربي ، ففعل ، فنهى عن ذلك ، فقال لهم : قد نهيت ، فما زالوا به حتى قال : سأستأمر ثانية ، ففعل ، فسكت عنه ، فأخبرهم ، فقالوا له : إن الله لم يدع نبيك إلا وقد أراد ذلك ، فخرج ، فلما أشرف على العسكر ، جعل يدعو على موسى ، فتحوّل لسانه بالدعاء لموسى ، والدعاء على قومه ، فقالوا له : ما تقول ؟ فقال : إني لا أملك هذا ، وعلم أنه قد أخطأ ، فروي أنه قد خرج



لِسَانَهُ عَلَى صَدْرِهِ ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ : إِنِّي قَدْ هَلَكْتُ ، وَلَكِنْ لَمْ يَبْقَ لَكُمْ إِلَّا الْحِيلَةُ ، فَأَخْرَجُوا  
النِّسَاءَ إِلَى عَسْكَرِ مُوسَى عَلَى جِهَةِ التَّجْرِ وَغَيْرِهِ ، وَمُرُوهُنَّ أَلَّا تَمْتَنَعَ امْرَأَةٌ مِنْ رَجُلٍ ،  
فَإِنَّهُمْ إِذَا زَنَوْا هَلَكُوا ، ففَعَلُوا ، فَخَرَجَ النِّسَاءُ ، فَزَنَى بِيَهِنَّ رَجَالٌ [ مِنْ ] بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَجَاءَ  
فِنْحَاصُ بْنُ الْعِيزَارِ بْنِ هَارُونَ ، فَاتَّظَمَ بِرُمُوحِهِ امْرَأَةً وَرَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَرَفَعَهُمَا  
عَلَى الرَّمْحِ ، فَوَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ الطَّاعُونَ ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي سَاعَةٍ [ وَاحِدَةٍ ] سَبْعُونَ أَلْفًا ،  
ثُمَّ ذَكَرَ الْمُعْتَمِرُ عَنْ أَبِيهِ : أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْمُنْسَلَخَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .  
قَالَ الْمُهَدَوِيُّ : رُوِيَ أَنَّهُ دَعَا عَلَى مُوسَى الْأَيْدُخْلَ مَدِينَةَ الْجَبَّارِينَ ؛ فَأَجِيبَ ، وَدَعَا عَلَيْهِ  
مُوسَى أَنْ يُنْسَى اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمَ ؛ فَأَجِيبَ ، وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ رَوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى  
صِحَّةِ إِسْنَادٍ ، وَ ﴿ انْسَلَخَ ﴾ : عِبَارَةٌ عَنِ الْبِرَاءَةِ مِنْهَا ، وَالْإِنْفِصَالِ وَالْبُعْدِ ، كَالْمُنْسَلَخِ  
مِنَ الثِّيَابِ وَالْجِلْدِ ، وَ " اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ " ، أَيُّ : صَيَّرَهُ تَابِعًا ؛ كَذَا قَالَ الطَّبْرِيُّ : أَمَا الضَّلَالَةُ  
رَسَمَهَا لَهُ ، وَإِمَا لِنَفْسِهِ ، وَ ﴿ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ ، أَيُّ : ﴿ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ الجواهر الحسان ح 1 ص ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ واتل عليهم ﴾

يعني واقرأ على قومك يا محمد ﴿ نبأ ﴾ يعني خبر ﴿ الذي آتيناها آياتنا ﴾ اختلفا فيه فقال ابن عباس : هو بلعم بن باعوراء ، وقال مجاهد : بلعام بن باعر ، وقال ابن مسعود : هو بلعم بن أبر ، قال عطية قال ابن عباس : إنه كان من بني إسرائيل وفي رواية أخرى عنه أنه كان من الكنعانيين من بلد الجبارين ، وقال مقاتل : هو من مدينة البلقاء وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس ومحمد بن إسحاق والسدي وغيرهم من أصحاب الأخبار والسير قالوا : إن موسى لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه وكان عنده اسم الله الأعظم ، فقالوا : إن موسى رجل حديد وأن معه جنوداً كثيرة وأنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع الله أن يردهم عنا .

(35/297)

---

فقال : ويلكم نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي ؟ فراجعوه وألحوا عليه فقال : حتى أوامر ربي

وكان لا يدعو حتى يؤمر ربه في المنام فأتى في المنام فقبل له لا تدع عليهم فقال لقومه: إني قد أمرت ربي فنهاني أن أدعو عليهم فأهدوا له هدية فقبلها وراجعوه فقال حتى أوامر ربي فأمر فلم يوح إليه شيء فقال قد أمرت ربي فلم يوح إلي بشيء فقالوا له: لو كرر ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك أول مرة فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه فافتن فركب أتاناً له متوجهاً إلى جبل يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال لذلك الجبل جبل حسان فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت وركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت فضربها حتى قامت فركبها فم تسر به كثيراً حتى ربضت فضربها حتى أزلقها فأذن الله لها في الكلام وأنطقها له فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعام أتدري أين تذهب أما ترى الملائكة أمامي يردوني عن وجهي وهذا ويحك أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين فتدعو عليهم فلم ينزع فخلى الله سبيل الأتان فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على جبل حسان ومعه قومه جعل يدعو فلم يدع بشيء إلا صرف الله به لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بني إسرائيل فقال له قومه يا بلعام أتدري ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا ما لا أملكه هذا شيء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لقومه: قد ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق لي إلا المكر والحيلة فسأموكم لكم وأحتال، ثم قال: جملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى عسكر بني إسرائيل لبيعنها عليهم ومروهن أن لا تمتنع امرأة نفسها من رجل

أرادها فإنه إن زنى رجل منهم بواحدة منهن كُفيتموهم ففعلوا ذلك فلما دخل النساء على  
العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستى بنت صور على رجل من عظماء

(36/297)

---

بني إسرائيل يقال له زمري بن شلوم وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فقام إلى المرأة وأخذ  
بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى وقال إني لأظنك أنك  
تقول هذه حرام عليك فقال أجل هي حرام عليك لا تقربها قال والله إني لا أطيعك في هذا  
ثم قام ودخل بها إلى قبته فوق عليها فأرسل الله عزَّ وجلَّ الطاعون على بني إسرائيل في  
ذلك الوقت .

(37/297)

---

وكان فنحاص بن العيزار بن هارون وكان صاحب أمر موسى وكان رجلاً فظاً قد أعطي  
بسطة من الخلق وقوة في البطش ، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلون ما صنع فجاء  
والطاعون يجوس في بني إسرائيل فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل

عليهما القبة وهما متضاجعان فطعنهما بحربة فانتظهما ثم خرج بهما وهورافعهما إلى السماء وقد أخذ الحربة بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر بن العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن عصاك ورفع الطاعون من بني إسرائيل فحسب من مات منهم في ذلك الطاعون فيما بين أن أصاب ذلك الرجل المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجوده قد هلك سبعون ألفاً في ساعة واحدة من النهار فمن هنالك يعطي بنو إسرائيل لولد فنحاص من كل ذبيحة يذبحونها الفشة والذراع واللحي لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياه بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته ويعطوهم البكر من كل أموالهم لأنهم كان بكر العيزار وفي بلعام أنزل الله ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ﴾ الآية ، وقال مقاتل : إن ملك البلقاء قال لبلعام ادع الله على موسى فقال بلعام إنه من أهل ديني ولا أدعو عليه فنصب له خشبة ليصلبه عليها فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو على موسى فلما عاين عسكرهم وقفت به الأتان فضربها فقالت : لم تضربني وأنا مأمورة وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع إلى الملك فأخبره بذلك فقال لتدعون عليه أو لأصلبناك فدعا على موسى بالاسم الأعظم ان لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى ومن معه من بني إسرائيل في التيه بدعاء بلعام عليه فقال موسى يا رب بأي ذنب وقعت في التيه قال بدعاء بلعام قال فكما سمعت دعاءه علي فاسمع دعائي عليه فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان فنزع الله سبحانه وتعالى منه

المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء فذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ آتيناها آياتنا فانسلخ منها ﴾ .

(38/297)

---

فإن قلت هذه القصة ذكرها جماعة من المفسرين وفيها أن موسى عليه السلام دعا على بلعام بأن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان وكيف يجوز لموسى عليه السلام مع علو منصبه في النبوة أن يدعو على إنسان بالكفر بعد الإيمان أو يرضى له بذلك قلت الجواب عنه من وجوه :

أحدها : منع صحة هذه القصة لأنها من الإسرائيليات ولا يلتفت إلى ما يسطره أهل الأخباره إذا خالف الأصول .

الوجه الثاني : أن سبب وقوع بني إسرائيل في التيه هو عبادتهم العجل أو قولهم لموسى عليه السلام اجعل لنا إلهاً فكان ذلك هو سبب وقوعهم في التيه لادعاء بلعام عليهم .

(39/297)

---

الوجه الثالث : على تقدير صحة هذه القصة وأن موسى عليه السلام دعا على بلعام أن  
موسى عليه السلام لم يدع عليه إلا بعد أن ثبت عنده أن بلعام كفر وارتد عن الإيمان بدعائه  
على موسى وإيثاره الحياة الدنيا فدعا عليه مقابلة لدعائه عليه والله سبحانه وتعالى أعلم  
بحقيقة ذلك كله والمقصود من ذلك تنزيه منصب النبوة عما ينقله أصحاب الأخبار في  
كتبهم من غير نظر فيه ولا بحث عن معناه وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن  
المسيب وزيد بن أسلم : نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي وكانت قصته أنه  
كان قد قرأ الكتب القديمة وعلم أن الله سبحانه وتعالى مرسل رسولاً فرجاً أن يكون هو  
ذلك الرسول فلما أرسل محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وشرفه الله بالنبوة حسده وكذبه  
وكان أمية صاحب حكمة وشعر ومواعظ حسنة فقصده بعض الملوك فلما رجع مر على  
قتلى بدر فسأل عنهم ف قيل له : قتلهم محمد فقال : لو كان نبياً ما قتل أقرباه فلما مات أمية  
أتت أخته فازعة إلى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فسأله رسول الله ( صلى الله  
عليه وسلم ) عن وفاة أخيها : بينا هو راقد أتاه اثنان فكشفا سقف البيت ونزلا فقعد  
أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله فقال الذي عند رجله فقال للذي عند رأسه :  
أوعى قال وعى قال أزكى قال أبى قالت فسألته عن ذلك فقال : خير أريد بي فصرف عني  
ثم غشي عليه فلما أفاق من غشيته قال شعراً :  
كل عيش وإن تطاول دهرًا . . .

صائر مرة إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي . . .

في قلال الجبال أرعى الوعولا

إن يوم الحساب يوم عظيم . . .

شاب فيه الصغير يوماً ثقيلاً

(40/297)

---

فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنشدني من شعر أخيك فأنشدته بعض قصائده فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "أمن شعره وكفر قلبه" فأنزل الله: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴿ الآية وفي رواية عن ابن عباس: أنها نزلت في البسوس وهو رجل من بني إسرائيل وكان قد أعطي ثلاث دعوات مستجابات وكانت له امرأة منها أولاد فقالت له اجعل لي منها دعوة فقال لك منها واحدة كما تريدن قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا لها فصارت أجمل النساء فلما علمت أنه ليس في نساء بني إسرائيل مثلها رغبت عنه فغضبت فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهب فيها دعوتان فجاء بنوها إلى أبيهم وقالوا ليس لنا على هذا الأمر قرار صارت أمنا



كلبا نباحة والناس تعيرنا بذلك فادع الله أن يردّها إلى حالها الأول فدعا فعادت كما كانت فذهب فيها الدعوات جميعاً والقولان الأولان أشهر .

وقال الحسن وابن كيسان : نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي ( صلى الله عليه وسلم ) بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروه ، وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله وقوله تعالى ﴿ آتِنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ قال ابن عباس : كان يعلم اسم الله الأكبر وقال ابن زيد كان لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، وقال السدي : كان يعلم اسم الله الأعظم .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس : أنه أوتي كتاباً وقيل آتاه الله حجة وأدلة وهي الآيات التي أوتيتها ﴿ فانسخ منها ﴾ يعني فخرج من الآيات التي كان الله آتاه إياها كما تنسخ الحية من جلدها ، وقال ابن عباس : نزع منه العلم ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ يعني لحقه وأدركه وصيره الشيطان تابعاً لنفسه في معصية الله يخالف أمر ربه ويطيع الشيطان وهوواه .

قوله تعالى : ﴿ فكان من الغاوين ﴾ يعني من الهالكين الضالين بما خالف ربه وأطاع هواه وشيطانه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَاْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾  
أي ﴿ وَاْتَلُّ ﴾ على من كان حاضراً من كفار اليهود وغيرهم ولما كان تعالى قد ذكر أخذ  
الميثاق على توحيدته تعالى وتقرير ربوبيته وذكر إقرارهم بذلك وإشهادهم على أنفسهم  
ذكر حال من آمن به ، ثم بعد ذلك كفر كحال اليهود كانوا مقرين منتظرين بعثة رسول الله (   
صلى الله عليه وسلم ) لما أطلعوا عليه من كتب الله المنزلة وتبشيرها به ، وذكر صفاته  
فلما بعث كفروا به فذكروا أن ما صدر منهم هو طريقة لأسلافهم اتبعوها واختلف  
المفسرون في هذا الذي آتاه الله آياته ﴿ فانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ فقال عكرمة : هو كل من انسَلَخَ  
من الحق بعد أن أعطيه من اليهود والنصارى والحنفاء ، وقال عبادة بن الصامت : هم  
قريش أنتهم أوامر الله ونواهيه والمعجزات فانسَلَخُوا مِنَ الْآيَاتِ وَلَمْ يَقْبَلُوهَا فَعَلَى هَذِينَ  
الْقَوْلِينَ يَكُونُ ﴿ الَّذِي ﴾ مفرداً أريد به الجمع ، وقال الجمهور : هو شخص معين ، فقيل :  
هو بلعم ، وقيل : هو بلعام وهو رجل من الكنعانيين أوتي بعض كتب الله ، وقيل : كان يعلم  
اسم الله الأعظم واختلف في اسم أبيه .  
وقال ابن مسعود : هو أبره .

---

وقال ابن عباس باعوراء ، وقال مجاهد والسدي : باعرويه روى أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى وقال : كيف أدعو على من معه الملائكة فألحوا عليه حتى فعل وقد طول المفسرون في قصته وذكروا ما الله أعلم به ، وقيل هو رجل من علماء بني إسرائيل ، وقال ابن مسعود : بعثه موسى عليه السلام نحو مدین داعياً إلى الله وإلى شريعته وعلم من آيات الله ما يدعونه فكان مجاب الدعوة فلما فارق دين موسى سلخ الله منه الآيات ، وقيل : اسمه ناعم كان في زمن موسى وكان مجت اسم بلد كان إذا نظر رأى العرش وكان في مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين يكتبون عنه وهو أول من صنف كتاباً إنه ليس للعالم صانع ، وقيل هو رجل من بني إسرائيل أعطى ثلاث دعوات مستجابة يدعو بها في مصالح العباد فجعلها كلها لامرأته وكانت قبيحة فسأته فدعا الله فجعلها جميلة فمالت إلى غيره فدعا الله عليها فصارت كلبة نباحة وكان لها منها بنون فتضرعوا إليه فدعا الله فصارت إلى حالتها الأولى

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وابن المسيب وزيد بن أسلم وأبوروق : وهو أمية بن أبي الصلت الثقفي قرأ الكتب وعلم أنه سيبعث نبي من العرب ورجا أن يكون إياه وكان ينظم الشعر في الحكم والأمثال فلما بعث محمد ( صلى الله عليه وسلم ) حسده ووفد على بعض الملوك وروي أنه جاء يريد الإسلام فوصل إلى بدر بعد الوقعة بيوم أو نحوه فقال من

قتل هؤلاء فقيل : محمد فقال : لا حاجة لي بدين من قتل هؤلاء فارتد ورجع وقال : الآن  
حلت لي الخمر وكان قد حرم الخمر على نفسه فلحق بقوم من ملوك حمير فنادمهم حتى  
مات وقدمت أخته فارعة على رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) واستشدها من  
شعره فأنشده عدة قصائد فقال ( صلى الله عليه وسلم ) : " آمن شعره وكفر قلبه وهو  
الذي قال فيه تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ .

(43/297)

---

" وقال سعيد بن المسيب أيضاً : هو أبو عامر بن النعمان بن صيفي الراهب سماه رسول  
الله ( صلى الله عليه وسلم ) : الفاسق وكان ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وهو الذي  
بني له المنافقون مسجد الضرار جرت بينه وبين النبي ( صلى الله عليه وسلم ) محاورة فقال  
أبو عامر : أمت الله الكاذب منا طريداً وحيداً وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بالقوة  
والسلاح ثم أتى قيصر واستجاشه ليخرج محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) وأصحابه من  
المدينة فمات بالشام طريداً شريداً وحيداً ، وقيل : غير هذا والأولى في مثل هذا إذا ورد  
عن المفسرين أن تحمل أقاويلهم على التمثيل لا على الحصر في معين فإنه يؤدي إلى  
الاضطراب والتناقض والخلاف في ﴿ آتيناه آياتنا ﴾ مترتب على من عنى الذي آتيناه

أذلك اسم الله الأعظم أو الآيات من كتب الله أو حجج التوحيد أو من آيات موسى أو العلم  
بمجيء الرسول والانسلاخ من الآيات مبالغة في التبري منها والبعد أي لم يعمل بما اقتضته  
نعمتنا عليه من إتيانه آياتنا جعل كأنه كان ملتبساً بها كالثوب فانسلخ منها وهذا من إجراء  
المعنى مجرى الجزم وقول من قال : إنه من المقلوب أي إلا انسلخت الآيات عنه لا ضرورة  
تدعو إليه ، وقال سفيان : إن الرجل ليذنب ذنباً فينسى باباً من العلم .

(44/297)

---

وقرأ الجمهور : ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ من أتبع رباعياً أي لحقه وصار معه وهي مبالغة في  
حقه إذ جعل كأنه هو إمام للشيطان يتبعه وكذلك ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ أي عدا  
وراءه ، قال القتيبي تبعه من خلفه واتبعه أدركه ولحقه كقوله : ﴿ فاتبعوهم مشرقين ﴾ أي  
أدركوهم فعلى هذا يكون متعدياً إلى واحد وقد يكون اتبع متعدياً إلى اثنين كما قال تعالى :  
﴿ وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان فيقدر هذا ﴾ ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ خطواته أي جعله الشيطان  
يتبع خطواته فتكون الهمة فيه للتعدي إذ أصله تبع هو خطوات الشيطان ، وقرأ طلحة  
بجلاف والحسن فيما روى عنه هارون ﴿ فأتبعه ﴾ مشدداً بمعنى تبعه ، قال صاحب  
كتاب اللوامح : بينهما فرق وهو أن تبعه إذا مشى في أثره واتبعه إذا وراه مشياً فأما ﴿

فأتبعه ﴿﴾ بقطع الهمزة فمما يتعدى إلى مفعولين لأنه منقول من تبعه وقد حذف في العامة  
أحد المفعولين ، وقيل فأتبعه بمعنى استتبعه أي جعله له تابعا فصار له مطيعا سامعا ، وقيل  
معناه : تبعه شياطين الإنس أهل الكفر والضلال ، ﴿﴾ فكان من الغاوين ﴿﴾ يحتمل أن  
تكون ﴿﴾ كان ﴿﴾ باقية الدلالة على مضمون الجملة واقعا في الزمان الماضي ويحتمل أن  
تكون كان بمعنى صار أي صار من الضالين الكافرين ، قال مقاتل : من الضالين ، وقال  
الزجاج : من الهاكين الفاسدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿﴾ البحر المحيط ج 4 ص ﴿﴾

(45/297)

وقال أبو السعود :

﴿﴾ واتل عليهم ﴿﴾

عطفُ على المضمر العاملِ في إذ أخذُ واردٌ على نمطه في الإنباء عن الحور بعد الكور  
والضلالة بعد الهدى أي واتل على اليهود ﴿﴾ نبأ الذي آتيناها آياتنا ﴿﴾ أي خبره الذي له  
شأنٌ وخطر ، وهو أحدُ علماء بني إسرائيل . وقيل : هو بلعم بن باعوراء أو بلعام بن باعر  
من الكنعانيين أوتي علمَ بعضِ كتبِ الله تعالى ، وقيل هو أمية بن أبي الصلت وكان قد قرأ  
الكتبَ وعلم أن الله تعالى مرسلٌ في ذلك الزمان رسولا ، ورجا أن يكون هو الرسول فلما

بعث الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به ، والأول هو الأنسب بمقام توبيخ  
اليهود بهناتهم ﴿ فانسَلخ مِنْهَا ﴾ ﴿ أي من تلك الآيات انسَلخَ الجِلد من الشاة ولم يُخَطِرْها  
بِباله أصلاً أو أُخْرِجَ مِنْهَا بِالْكَلِيَّةِ بِأَنْ كَفَرَ بِهَا وَبَنَذَهَا رِوَاءَ ظَهْرِهِ ، وَأَيَّ مَا كَانَ فَالتَّعْيِيرُ عَنْهُ  
بِالْإِنْسَالِخِ الْمُنْبِيِّ عَنْ اتِّصَالِ الْحَيْطِ بِالْمُحَاطِ خَلْقَةً وَعَنْ عَدَمِ الْمَلَاقَاةِ بَيْنَهُمَا أَبَدًا لِلْإِيذَانِ  
بِكَمَالِ مَبَايِنَتِهِ لِلآيَاتِ بَعْدَ أَنْ كَانَ بَيْنَهُمَا كَمَالُ الْإِتِّصَالِ ﴾ ﴿ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ ﴿ أَي تَبِعَهُ  
حَتَّى لَحِقَهُ وَأَدْرَكَهُ فَصَارَ قَرِينًا لَهُ وَهُوَ الْمَعْنَى عَلَى قِرَاءَةِ فَاتَّبَعَهُ مِنَ الْإِقْتِعَالِ ، وَفِيهِ تَلْوِيحٌ بِأَنَّهُ  
أَشَدُّ مِنَ الشَّيْطَانِ غَوَايَةً أَوْ أَتْبَعَهُ خُطُوتَهُ ﴾ ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ ﴿ فَصَارَ مِنْ زَمْرَةِ الضَّالِّينَ  
الرَّاسِخِينَ فِي الْغَوَايَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنَ الْمْتَهِدِينَ ، وَرَوَى أَنْ قَوْمَهُ طَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى  
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : كَيْفَ أَدْعُوا عَلَى مَنْ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ ؟ فَلَمْ يَزَلُوا بِهِ حَتَّى فَعَلَ ،  
فَبَقُوا فِي التِّيهِ ، وَيُرَدُّ أَنْ التِّيهِ كَانَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَوْحًا وَرَاحَةً ، وَإِنَّمَا عُدَّ بِهِ بَنُو  
إِسْرَائِيلَ وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ بَدْعَاءَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ كَمَا مَرَّ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ . انْتَهَى انْتَهَى . ا

هـ ﴿ تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ح 3 ص ﴾ ﴿

وقال الألوسي :

﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ تعطف على المضمرة العامل في ﴿ إِذْ أَخَذَ ﴾ [الأعراف : 172]

وارد على نمط الأنباء عن الحور بعد الكور ، أي واقرأ على اليهود أو على قومك كما في

الخازن ﴿ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا ﴾ أي خبره الذي له شأن وخطر ، وهو كما روى ابن

مردويه وغيره من طرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بلعم بن باعوراء وفي لفظ

بلعام بن باعر وكان من الكنعانيين ، وفي رواية عنه .

وعن أبي طلحة أنه من بني إسرائيل ، وأخرج ابن عساكر عن ابن شهاب أنه أمية بن أبي

الصلت .

وأخرج أبو الشيخ عن الخبر أنه رجل من بني إسرائيل له زوجة تدعى البسوس ، وفي رواية

أخرى أخرجها ابن أبي حاتم عنه أنه النعمان بن صيفي الراهب ، وكونه إسرائيلياً أنسب

بالمقام كما لا يخفى ، والأشهر أنه بلعام أو بلعم وكان قد أوتي علماً ببعض كتب الله تعالى ،

ودون ذلك في الشهرة أنه أمية وكان قد قرأ بعض الكتب ﴿ فانسَخَ مِنْهَا ﴾ أي من تلك

الآيات انسخ الجلد من الشاة ، والمراد أنه خرج منها بالكلية بأن كُفِرَ بها ونبذها وراء

ظهره ، وحقبة السلخ كشط الجلد وإزالته بالكلية عن السلوخ عنه ، ويقال لكل شيء

فارق شيئاً على أتم وجه انسخ منه ، وف التعبير به ما لا يخفى من المبالغة ، واستأنس

بعضهم بهذه الآية لأن العلم لا ينزع من الرجال حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ فانسَخَ مِنْهَا



﴿ ولم يقل عز شأنه فانسخت منه ﴾ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴿ أَي لِحَقِّهِ وَأَدْرَكَهُ كَمَا قَالَ  
الراغب بعد أن لم يكن مدرَكًا له لسبقه بالإيمان والطاعة ، وقال الجوهرى يقال : أتبع  
القوم إذا سبقوك فلحقهم وكان المعنى جعلتهم تابعين لي بعد ما كنت تابعا لهم ، وفيه  
حينئذ مبالغة في اللحق إذ جعل كأنه إمام للشيطان والشيطان يتبعه وهو من الذم بمكان ،  
ونظيره في ذلك قوله :

وكان قتي من جند إبليس فارتقى . . .  
به الحال حتى صار إبليس من جنده

(47/297)

---

وصرح بعضهم بأن معناه استتبعه أي جعله تابعا له ، وهو على ما قيل متعد لمفعولين حذف  
ثانيهما أي أتبعه خطواته .

وقرىء ﴿ فَاتَّبَعَهُ ﴾ من الافتعال ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ فصار من زمرة الضالين  
الراسخين في الغواية بعد أن كان مهتدياً ، وكيفية ذلك على القول بأنه بلعام أن موسى عليه  
السلام لما قصد حرب الجبارين أتى قوم بلعام إليه وكان عنده اسم الله تعالى الأعظم فقالوا  
له : إن موسى عليه الصلاة والسلام رجل حديد وإن معه جنوداً كثيرة وإنه قد جاء

ليخرجنا من أرضنا فادع الله تعالى أن يرده عنا ، فقال : ويلكم نبي الله تعالى ومعه الملائكة  
والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله تعالى ما أعلم وإني إن فعلت ذهبت دنياي  
وآخرتي فألحوا عليه ، فقال : حتى أوامر ربي فأتى في المنام وقيل له : لا تفعل فأخبر قومه  
فأهدوا له هدية فقبلها ولم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه فجعل يدعو على موسى عليه  
الصلاة والسلام وقومه إلا أن الله تعالى جعل يصرف لسانه إلى الدعاء على قومه نفسه ،  
فقالوا له : يا بلعام أتدري ما تصنع إنك تدعو علينا ، فقال : هذا أمر قد غلب الله تعالى  
عليه فاندلع لسانه ووقع على صدره ، فقال : يا قوم قد ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق إلا  
المكر والحيلة جملوا النساء وأرسلوهن وأمروهن أن لا يمنعن أنفسهن فإن القوم سفر وإن الله  
سبحانه وتعالى يبغض الزنا وإن هم وقعوا فيه هلكوا ففعلوا ذلك فافتن زمرى بن شلوم  
رأس سبط شمعون بن يعقون بامرأة منهن تسمى كستي بنت صور فنهاه موسى عليه السلام  
عن الفاحشة فأبى وأدخلها قبه وزنا بها فوقع فيهم الطاعون حتى هلك منهم سبعون ألفاً  
ولم يرتفع حتى قتلها فنحاص بن العيزار بن هارون وكان غائباً أول الأمر .

(48/297)

---

وعن مقاتل أن ملك البلقاء قال له : ادع الله تعالى على موسى عليه السلام ، فقال : إنه من أهل ديني ولا أدعو عليه فنصب له خشبة ليصلبه عليها فدعا بالاسم الأعظم أن لا يدخل الله تعالى موسى عليه السلام المدينة فاستجيب له ووقع بنو إسرائيل في التيه ، فقال موسى : يا رب بأي ذنب هذا ؟ فقال سبحانه وتعالى : بدعاء بلعام ، فقال : رب كما سمعت دعاؤه علي فاسمع دعائي عليه فدعا الله جل شأنه أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان فنزع الله تعالى عنه المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء .

ورد هذا بأن التيه كان روحاً وراحة لموسى عليه السلام وإنما عذب به بنو إسرائيل وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام ، على أن في الدعاء بسلب الإيمان مقالاف ، وأنا أعجب لم لم يدع هذا الشقي بالاسم الأعظم الذي كان يعلمه على ملك البلقاء ليخلص من شره ؟ ودعا على موسى عليه السلام ما هي إلا جهالة سوداء ، وجاء في كلام أبي المعتمر أنه كان قد أوتي النبوة ، ويرده أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوز عليهم الكفر عند أحد من العقلاء وكان مراده من النبوة ما أوتيته من الآت ، وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم : " من حفظ القرآن فقد طوى النبوة بين جنبيه " .

(49/297)

---

وأخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار أنه كان من علماء بني إسرائيل وكان موسى عليه السلام يقدمه في الشدائد ويكرهه وينعم عليه فبعثه إلى ملك مدين دعوهم إلى الله تعالى وكان مجاب الدعوة فترك دين موسى عليه السلام واتبع دين الملك ، وهذه الرواية عندي أولى مما تقدم بالقبول ، وأما على القول بأنه أمية فهو أنه كان قد قرأ الكتب القديمة وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً فرجاً أن يكون هو ذلك الرسول ، فاتفق أن خرج إلى البحرين وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام هناك ثماني سنين ثم قدم فلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه فدعاه إلى الإسلام ، وقرأ عليه سورة يس حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجرجليه فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ فقال : أشهد أنه على الحق قالوا : فهل تبعه ؟ قال : حتى أنظر في أمره فخرج إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم فلما أخبر بها ترك الإسلام وقال : لو كان نبياً ما قتل ذوي قرابته فذهب إلى الطائف ومات به فأنت أخته الفارعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها عن وفاته

فذكرت له أنه أنشد عند موته :

كل عيش وإن تطاول دهرا . . .

صائر مرة إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي . . .

في قلال الجبال أرعى الوعولا

إن يوم الحساب يوم عظيم . . .

شاب فيه الصغير يوماً ثقيلاً

ثم قال لها عليه الصلاة والسلام: أنشدني من شعر أخيك فأنشدته:

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا . . .

ولا شيء أعلى منك جداً وأمجد

ملك على عرض السماء مهيمناً . . .

لعزته تعنوا الوجوه وتسجد

من قصيدة طويلة أتت على آخرها، ثم أنشدته قصيدته التي يقول فيها:

وقف الناس للحساب جميعاً . . .

فشقي معذب وسعيد

والتي فيها:

عند ذي العرش يعرضون عله . . .

يعلم الجهر والسرار الخفيا

يوم يأتي الرحمن وهو رحيم . . .

إنه كان وعده مأتياً

رب إن تعف فالمعافاة ظني . . .

أو تعاقب فلم تعاقب برياً

(50/297)

---

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أخاك آمن شعره وكفر قلبه، وأنزل الله تعالى الآية.

وأما على القول بأنه النعمان فهو أنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح فقدم المدينة فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما هذا الذي جئت به؟ فقال عليه الصلاة والسلام: الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام.

قال: فأنا عليها.

فقال عليه الصلاة والسلام: لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها.

فقال: أمت الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً، ثم خرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا السلاح، ثم أتى قيصر وطلب منه جنداً ليخرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة فمات بالشام طريداً وحيداً.

وأما على القول بأنه زوج البسوس، فقد أخرج ابن أبي حاتم.

وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه رجل أعطى ثلاث دعوات  
مستجابات ، وكانت له امرأة تدعى البسوس له منها ولد فقالت : اجعل لي منها واحدة .  
قال : فما الذي تريدن ؟ قالت : ادع الله تعالى أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا  
الله تعالى فجعلها أجمل امرأة فيهم ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت  
شيئاً آخر فدعا الله تعالى أن يجعلها كلبة فصارت كلبة فذهبت دعوتان ، فجاء بنوها  
فقالوا : ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فادع الله تعالى أن  
يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا فعادت كما كانت فذهبت الدعوات الثلاث فيها ،  
ومن هنا يقال : أشأم من البسوس ، وفي الخازن أن البسوس اسم لذلك الرجل ، وليس  
بشيء ، وهذه الرواية لا يساعد عليها نظم القرآن الكريم كما لا يخفى ، والذي نعرفه أن  
البسوس التي يضرب بها المثل هي بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة بن ذهل  
الشيباني قاتل كليب ، وفي قصتها طول وقد ذكرها الميداني وغيره .  
وعن الحسن .

(51/297)

---

وابن كيسان أن المراد بهذا الذي أوتي الآيات فانسخ منها منافقوا أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ولم يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم إيماناً صحيحاً ، ويبعد ذلك أفراد الموصول وعن قتادة أن هذا مثل لمن عرض عليه الهدى واستعد له فأعرض عنه وأبى أن يقبله ، وفيه بعد ومخالفة للروايات المشهورة ، وأوهن الأقوال عندي قول أبي مسلم : إن المراد به فرعون والمراد بالآيات الحجج والمعجزات الدالة على صدق موسى عليه السلام ، وكأنه قيل : واتل عليهم نبأ فرعون إذ آتيناه الحجج الدالة على صدق موسى عليه السلام فلم يقبلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص



(52/297)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأُتِلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

أعقب ما يُفيد أن التوحيد جعل في الفطرة بذكر حالة اهتداء بعض الناس إلى نبذ الشرك في مبدأ أمره ثم تعرّض وساوس الشيطان له بتحسين الشرك .

ومناسبتها للتي قبلها إشارة العبرة من حال أحد الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد



والامتثال لأمر الله ، وأمده الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه في الفطرة ، ثم لم ينفعه ذلك كله حين لم يقدر الله له الهدى المستمر .

وشأن القصص المفتحة بقوله : ﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أن يقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصة بقرينة قوله : ﴿ ذَلِكَ مِثْلَ الْقَوْمِ ﴾ الخ ، ويحصل من ذلك أيضاً تعليم مثل قوله : ﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ [يونس : 71] ﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الشعراء : 69] ﴿ تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ [القصص : 3] ونظائر ذلك ، فضمير ﴿ عليهم ﴾ راجع إلى المشركين الذين وجهت إليهم العبر والمواعظ من أول هذه السورة ، وقصت عليهم قصص الأمم مع رسلهم ، على أن توجيه ضمائر الغيبة إليهم أسلوب متبع في مواقع كثيرة من القرآن ، كما قدّمناه غير مرة ، فهذا من قبيل رد العجز على الصدر .

ومناسبة فعل التلاوة لهم أنهم كانوا قوماً تغلب عليهم الأمية فأراد الله أن يبلغ إليهم من التعليم ما يساؤون به حال أهل الكتاب في التلاوة ، فالضمير الجرور بـ (على) عائد إلى معلوم من السياق وهم المشركون ، وكثيراً ما يجيء ضمير جمع الغائب في القرآن مراداً به المشركون كقوله : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [النبأ : 1] .

والنبا الخبر المروي .

وظاهر اسم الموصول المفرد أن صاحب الصلة واحد معيّن ، وأن مضمون الصلة حال من أحواله التي عرف بها ، والأقرب أن يكون صاحب هذا النبأ ممن للعرب إمام بمجمل خبره .

(53/297)

---

فقيل المعنى به أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وروي هذا عن عبد الله بن عمرو بن العاصي ، بأسانيد كثيرة عند الطبري ، وعن زيد بن أسلم ، وقال القرطبي في "التفسير" هو الأشهر ، وهو قول الأكثر ذلك أن أمية بن أبي الصلت الثقفي كان ممن أراد اتباع دين غير الشرك ، طالباً دين الحق ، ونظر في التوراة والإنجيل فلم ير النجاة في اليهودية ولا النصرانية ، وتزهد وتوخى الحنيفية دين إبراهيم ، وأخبر أن الله يبعث نبياً في العرب ، فطمع أن يكونه ، ورفض عبادة الأصنام ، وحرّم الخمر ، وذكر في شعره أخباراً من قصص التوراة ، ويروى أنه كانت له إلهامات ومكاشفات وكان يقول:

كل دين يوم القيامة عند . . .

الله إلا دين الحنيفية زور

وله شعر كثير في أمور الإلهية ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أسف أن لم يكن هو الرسول المبعوث في العرب ، وقد انفق أن خرج إلى البحرين قبل البعثة وأقام هنالك ثمان

سنين ثم رجع إلى مكة فوجد البعثة ، وتردد في الإسلام ، ثم خرج إلى الشام ورجع بعد  
وقعة بدر فلم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم حسداً ، ورثى من قُتل من المشركين يوم بدر  
، وخرج إلى الطائف بلاد قومه فمات كافراً .

وكان يذكر في شعره الثواب والعقاب واسم الله وأسماء الأنبياء ، وقد قال فيه النبي صلى  
الله عليه وسلم "كاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم" وروى عن أمية أنه قال لما مرض مَرَض  
موته "أنا أعلم أن الحنيفة حق ، ولكن الشك يداخلني في محمد" .

فمعنى ﴿ آتِنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ أن الله ألهم أمية كراهية الشرك ، وألقى في نفسه طلب الحق ،  
ويسر له قراءة كتب الأنبياء ، وحبب إليه الحنيفة ، فلما انفتح له باب الهدى وأشرق نور  
الدعوة المحمدية كآبر وحسد وأعرض عن الإسلام ، فلا جرم أن كانت حاله أنه انسلخ عن  
جميع ما يسر له ، ولم ينتفع به عند إبان الانتفاع ، فكان الشيطان هو الذي صرفه عن الهدى  
فكان من الغاوين ، إذ مات على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم

(54/297)

---

وقال سعيد بن المسيب نزلت في أبي عامر بن صيفي الراهب ، واسمه النعمان الخزرجي ،  
وكان يلقب بالراهب في الجاهلية لأنه قد تنصّر في الجاهلية ، ولبس المسوح وزعم أنه على

الحنيفية ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة دخل على النبي صلى الله عليه  
وسلم فقال : " يا محمد ما الذي جئت به قال جئت بالحنيفية دين إبراهيم قال فإني عليها  
فقال النبي لست عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها " فكفر وخرج إلى مكة يجرّض  
المشركين على قتال النبي صلى الله عليه وسلم ويخرج معهم ، إلى أن قاتل في حنين بعد فتح  
مكة ، فلما انهزمت هوازن يسّ وخرج إلى الشام فمات هنالك .  
وذهب كثير من المفسرين إلى أنها نزلت في رجل من الكنعانيين ، وكان في زمن موسى عليه  
السلام يقال له : بلعام بن باعور ، وذكروا قصته فخلطوها وغيرها واختلفوا فيها ،  
والتحقيق أن بلعام هذا كان من صالحى أهل مدين وعرفا فيهم في زمن مرور بني إسرائيل  
على أرض ( مؤاب ) ولكنه لم يتغير عن حال الصلاح ، وذلك المذكور في سفر العدد من  
التوراة في الاصحاحات 22 23 24 فلا ينبغي الالتفات إلى هذا القول لاضطرابه  
واختلاطه .

والإتياء هنا مستعار للإطلاع وتيسير العلم مثل قوله ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ﴾ [ البقرة : 251 ] .

و" الآيات " دلائل الوحدانية التي كرهت إليه الشرك وبعثه على تطلب الحنيفية بالنسبة  
لأمية بن أبي الصلت ، أو دلائل الإنجيل على صفة محمد صلى الله عليه وسلم بالنسبة  
للراهب أبي عامر بن صيفي .

والانسلاخ حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده حينما يُسْلَخُ عنه جلده ، والسْلَخُ إزالة  
جلد الحيوان الميت عن جسده ، واستعير في الآية للانفصال المعنوي ، وهو ترك التلبس  
بالشيء أو عدم العمل به ، ومعنى الانسلاخ عن الآيات الإقلاع عن العمل بما تقتضيه ،  
وذلك أن الآيات أعلمته بفساد دين الجاهلية .

(55/297)

---

وَأَتَّبَعَهُ بِهَمْزَةٍ قَطْعٍ وَسَكُونِ الْمِثْنَةِ الْفَوْقِيَةِ بِمَعْنَى لِحْقَةٍ غَيْرِ مُفْلَتٍ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ  
ثَاقِبٌ ﴾ [ الصافات : 10 ] ﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ [ طه : 78 ] وهذا أخص  
من اتّبعه بتشديد المِثْنَةِ ووصل الهمزة .

والمراد بالغاوين : المتصفين بالغي وهو الضلال ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أشد مبالغة في  
الاتصاف بالغواية من أن يقال : وغوى أو كان غاويًا ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قَدْ  
ضَلَلْتَ إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ في سورة الأنعام ( 56 ) .

ورتبت أفعال الانسلاخ والاتباع والكون من الغاوين بقاء العطف على حسب ترتيبها في  
الحصول ، فإنه لما عاند ولم يعمل بما هداه الله إليه حصلت في نفسه ظلمة شيطانية مكنت  
الشیطان من استخدامه وإدامة إضلاله ، فالانسلاخ على الآيات أثرٌ من وسوسة الشيطان

، وإذا أطاع المرء الوسوسة تمكن الشيطان من مقاده ، فسخره وأدام إضلاله ، وهو المعبر عنه باتبعه ﴿ فصار بذلك في زمرة الغواة المتمكنين من الغواية . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(56/297)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَاْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

﴿ (175) ﴾

ولأنهم قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا خبر

هؤلاء فيقول : ﴿ وَاْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ .

والنبا هو الخبر المهم وله جدوى اعتبارية ويمكن أن ننتفع به وليس مطلق خبر . ولذلك

يقول سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ \* عَنْ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿ [ النبا :

[ 2-1

كما يقول ﴿ وَاْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ ، كأن هذا النبا كان مشهوراً جداً ،

ويقال : إنه قد قيل في " ابن بعوراء " أو أمية بن أبي الصلت ، أو عامر الراهب ، أو هو

واحد من هؤلاء ، والمهم ليس اسمه ، المهم أن إنساناً آتاه الله آياته ثم انسلخ من الآيات ،  
فبدلاً من أن ينتفع بها صيانة لنفسه ، وتقرباً إلى ربه ﴿ فانسَلخ مِنْهَا ﴾ واتبع هواه ومال  
إلى الشيطان .

(57/297)

---

وكلمة " انسلخ " دليل على أن الآيات محيطة بالإنسان إحاطة قوية لدرجة أنها تحتاج  
جبروت معصية لينسلخ الإنسان منها ؛ لأن الأصل في السلخ إزاحة جلد الشاة عنها ،  
فكان ربنا يوضح أنه سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الآيات فانسَلخ منها ، وهذا يعني أن  
الآيات تحيط بالإنسان كما يحيط الجلد بالجسم ليحفظ الكيان العام للإنسان ؛ لأن هذا  
الكيان العام فيه شرايين ، وأوردة ، ولحم ، وشحم ، وعظام . وجعل الله التكاليف  
الإيمانية صيانة للإنسان ، ولذلك سمي الخارج عن منهج الله " فاسقاً " مثله مثل الرطوبة من  
البلح ، فبعد أن تضرب الشمس البلحة يتبخر منها بعض من الماء ، فتكمش ثمرة البلحة  
داخل قشرتها وتظهر الرطوبة من القشرة ، ولذلك سمي الخارج عن المنهج " فاسقاً " من  
فسوق الرطوبة عن قشرتها ، والله عز وجل يقول هنا : ﴿ ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا ﴾ . وكان يجب  
الأيغل عنها ، لأن الإتيان نعمة جاءت ليحافظ الإنسان عليها ، لكن الإنسان انسلخ من

الآيات .

ونعرف جميعاً ثوب الثعبان وهو على شكل الثعبان تماماً ، ويغير الثعبان جلده كل فترة ، ولا ينخلع من الجلد القديم إلا بعد أن يكون الجلد الذي تحته قد نضج ، وصلاح لتحمل الطقس والجو ، وكذلك حين يندلق سائل ساخن على جلد الإنسان ، تلاحظ تورم المنطقة المصابة وتكون بعض المياه فيها ، وله أفرغ الإنسان هذه المياه تصاب هذه المنطقة بالتهاب ، أما إذا تركها فهي تحمي المنطقة المصابة إلى أن يتربى الجلد تحتها وتجف وتنفصل عن الجسم ، وكذلك نعلم أن الشاة - مثلاً - لا تسليخ نفسها . بل نحن نسلخها ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ . . . ﴾ [يس : 37]

(58/297)

---

فكان الليل كان مجلداً ومغلفاً بالنهار ، والليل أسود ، والنهار فيه الضوء ، ونعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف ، وكذلك اللون الأبيض ليس من ألوان الطيف ؛ لأن ألوان الطيف : الأحمر ، البرتقالي ، الأصفر ، الأخضر ، الأزرق ، النيلي ، البنفسجي ، واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية ، لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت لك منها أشعة لعينيك ، واللون الأسود يمتص كل الأشعة التي تأتي عليه فلا يرد إلى العين شعاع منها



فتراه مظلماً .

والأبيض هو مزيج من ألوان متعددة إن مزجتها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض ، وهكذا نعلم أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً ، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك ، والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك . وقوله الحق : ﴿ نَسَلْخُ مِنْهُ النَّهَارُ ﴾ كأن سواد الليل جاء يغلف بياض النهار .

وإذا انسلك من آتاه خبر الإيمان عن المنهج يقول الشيطان : إنه يصلح لأن يتبعني ، وكان الشيطان حين يجد واحداً فيه أمل ، فهو يجري وراءه مخافة أن يرجع إلى ما آتاه الله من الكتاب الحامل للمنهج ، ويزكي الشيطان في نفس هذا الإنسان مسألة الخروج عن منهج ربنا .

(59/297)

---

وقلنا من قبل : إن المعاصي تأتي مرة من شهوة النفس ، ومرة من تزيين الشيطان وأوضحنا الفارق ، وقلنا : إن الشيطان لا يجرو عليك إلا إن أوضحت للشيطان سلوكك أن له أملاً فيك ، لكن إن اهتديت وأصلحت من حالك فالشيطان يوسوس للإنسان في الطاعة ويحاول أن يكرهه فيها ، والشيطان لا يذهب - مثلاً - إلى الخمار ، بل يقعد عند

الصراط المستقيم ليرى جماعة الناس التي تتجه إلى الخير ، أما الآخرون فنفسهم جاهزة له . إذن فالشيطان ساعة يرى واحداً بدأ في الغفلة عن الآيات فهو يلاحقه مخافة أن تستهويه .

الآيات ثانية ، ولذلك لا بد لنا أن نفرق بين الدافع إلى المعصية هل هو من النفس أم من نزغ الشيطان ، فإن جاءت المعصية وحدثك نفسك بأن تفعلها ثم عزت عليك تلك المعصية لأي ظرف طارئ ثم ألححت عليها ذاتها مرة ثانية ، فاعلم أنها شهوة نفسك . لكن إن عزت عليك ثم فكرت في معصية ثانية فهذا من نزغ الشيطان ؛ لأن الشيطان لا يريدك عاصياً بمعصية مخصوصة ، بل يريدك بعيداً عن المنهج فقط ، لكن النفس تريد معصية بعينها وتقف عندها ، فإن رأيت معصية وقفت عندها نفسك ، فاعلم أنها من نفسك ، وإن امتنعت عليك معصية وتركتها ، ثم فكرت في معصية ثانية . فهذا نزغ من الشيطان -

ويقول الحق : ﴿ . . . فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف : 175]

الغاوي والغوي هو من يضل عن الطريق وهو الممعن في الضلال ، ونعلم أن الهدى هو الطريق الموصل للغاية ، ومن يشذ عن الطريق الموصل للغاية يضل أو يتوه في الصحراء . وهو الذي يُسمى " الغاوي " ، وما دام من الغاوين عن منهج الله فالفساد ينشأ منه لأنه فسد في نفسه ويفسد غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي صـ ﴾

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

﴿ (175) ﴾

أخرج الفريابي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود ﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ قال : هورجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن أبر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : هو بلعم بن باعوراء . وفي لفظ : بلعام بن عامر الذي أوتي الاسم كان في بني إسرائيل . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا . . . ﴾ الآية . قال : هورجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم ، تعلم اسم الله الأكبر ، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل جديد ومعه جنود كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه . قال : إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه مضت دنياي وآخرتي ، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم ، فسلخ مما

كان فيه . وفي قوله ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ قال : إن حمل الحكمة لم يحملها وإن ترك لم يهد لخير ، كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن طرد لهث .

(61/297)

---

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه . . . ﴾ الآية . قال : هورجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكان له امرأة له منها ولد فقالت : اجعل لي منها واحدة . قال : فلك واحدة ، فما الذي تريدن ؟ قالت : ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل . فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئاً آخر ، فدعا الله أن يجعلها كلبة ، فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان ، فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها ، فادع الله أن يردنا إلى الحال التي كانت عليه ، فدعا الله فعادت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث وسميت البسوس .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هورجل يدعى بلعم من أهل اليمن ، آتاه الله آياته فتركها .

وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ

والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمر ❦ وائل عليهم نبأ الذي آتيناها آياتنا فانسلك  
منها ❦ قال : هو أمية بن أبي الصلت الثقفي . وفي لفظ : نزلت في صاحبكم أمية بن أبي  
الصلت .

وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال : " قدمت الفارغة أخت أمية بن أبي  
الصلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لها " هل تحفظين من  
شعر أخيك شيئاً ؟ قالت : نعم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا فارعة إن مثل  
أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلك منها " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن شهاب قال : قال أمية بن أبي الصلت :  
الرسول لنا منا يخبرنا . . . ما بعد غائتنا من رأس نجرانا

(62/297)

---

قال : ثم خرج أمية إلى البحرين ، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام أمية بالبحرين  
ثمانين سنين ، ثم قدم فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه ، فدعاه  
النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وقرأ عليه بسم الله الرحمن الرحيم ❦ يس والقرآن  
الحكيم ❦ [ يس : 1 - 2 ] حتى فرغ منها وثب أمية يجرجليه ، فتبعته قرش تقول : ما

تقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على الحق. قالوا: فهل تتبعه؟ قال: حتى أنظر في أمره. ثم خرج أمية إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم، فلما أخبر بقتلى بدر ترك الإسلام ورجع إلى الطائف. فمات بها، قال: ففيه أنزل الله ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن نافع بن عاصم بن عروة ابن مسعود قال: إني لفي حلقة فيها عبد الله بن عمر، فقرأ رجل من القوم الآية التي في الأعراف ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ فقال: أتدرون من هو؟ فقال بعضهم: هو صيفي بن الراهب. وقال بعضهم: هو بلعم رجل من بني إسرائيل. فقال: لا. فقالوا: من هو؟ قال: أمية بن أبي الصلت.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الشعبي في هذه الآية ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ قال: قال ابن عباس: هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن باعورا، وكانت الأنصار تقول: هو ابن الراهب الذي بنى له مسجد الشقاق، وكانت تقيف تقول: هو أمية بن أبي الصلت.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هو صيفي بن الراهب. وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال: هو نبي في بني إسرائيل يعني بلعم، أوتي النبوة فرشاه قومه على أن يسكت، ففعل وتركهم على ما هم عليه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ فانسُلخ منها ﴾ قال: نزع منه العلم. وفي قوله ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ قال: رفعه الله بعلمه. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال: بعث نبي الله موسى بلعام بن باعورا إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله، وكان مجاب الدعوة وكان من علماء بني إسرائيل، فكان موسى يقدمه في الشدائد فاقطعه وأرضاه فترك دين موسى وتبع دينه، فأنزل الله ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب في قوله ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ﴾ قال: كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ قال: هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ قال: لو شئنا لرفعناه بإتيائه الهدى فلم يكن للشيطان عليه سبيل، ولكن الله يبتلي من يشاء من عباده ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ قال: أبى أن يصحب الهدى ﴿ فمثلته كمثل الكلب... ﴾ الآية.

قال : هذا مثل الكافر ميت الفؤاد كما أميت فؤاد الكلب .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ قال : أناس من اليهود والنصارى والحنفاء ممن أعطاهم الله من آياته وكتابه ﴿ فانسلخ منها ﴾ فجعله مثل الكلب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ولوشئنا لرفعناه بها ﴾ قال : لدفعنا عنه بها ﴿ ولكنه أخذ إلى الأرض ﴾ قال : سكن ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ إن تطرده بدابتك ورجليك وهو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ ولكنه أخذ إلى الأرض ﴾ قال : ركن نزع .

(64/297)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ إن تحمل عليه ﴾ قال : أن تسع عليه .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ إن تحمل عليه يلهث ﴾ قال :



الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له ، إنما فؤاده منقطع كان ضالاً قبل وبعد .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن المعتمر قال : سئل أبو المعتمر عن هذه الآية ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ فحدث عن سيار أنه كان رجلاً يقال له بلعام ، وكان قد أوتي النبوة ، وكان مجاب الدعوة ، ثم أن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام فرعب الناس منه رعباً شديداً ، فأثوا بلعام فقالوا : ادع الله على هذا الرجل قال : حتى أوامر ربي ؟ فوامر في الدعاء عليهم ، فقيل له : لا تدع عليهم فإن فيهم عبادي وفيهم نبيهم ، فقال لقومه : قد وأمرت في الدعاء عليهم وإني قد نهيت . قال : فاهدوا إليه هدية فقبلها ، ثم راجعوه فقالوا : ادع الله عليهم . فقال : حتى أوامر ، فوامر فلم يحار إليه شيء .

فقال : قد وأمرت فلم يحار إلى شيء . فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك الأولى ، فأخذ يدعو عليهم ، فإذا دعا جرى على لسانه الدعاء على قومه ، فإذا أرسل أن يفتح على قومه جرى على لسانه أن يفتح على موسى وجيشه ، فقالوا : ما نراك إلا تدعو علينا . . . ! قال : ما يجري على لساني إلا هكذا ، ولو دعوت عليهم ما استجيب لي ، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم ، إن الله يبغض الزنا وإن هم وقعوا

بالزنا هلكوا فأخرجوا النساء فإنهم قوم مسافرون ، فعسى أن يزنوا فيهلكوا ، فأخرجوا  
النساء تستقبلهم فوقعوا بالزنا ، فسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً .

(65/297)

---

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ  
منها ﴾ قال : كان اسمه بلعم ، وكان يحسن اسماً من أسماء الله ، فغزاهم موسى في سبعين  
ألفاً ، فجاءه قومه فقالوا : ادع الله عليهم - وكانوا إذا غزاهم أحد أتوه فدعا عليهم فهلكوا  
- وكان لا يدعو حتى ينام فينظر ما يؤمر به في منامه ، فنام فقيل له : ادع الله لهم ولا تدع  
عليهم ، فاستقيظ فأبى أن يدعو عليهم فقال لهم : زينوا لهم النساء فإنهم إذا رأوهن لم  
يصبروا حتى يصيبوا من الذنوب قد ألوا عليهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3  
ص ﴾

(66/297)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾

الجمهور على أتبعه رباعياً، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه متعدّ لواحد بمعنى أدركه ولحقه، وهو بالمغنة في حقه حيث جعل إماماً

للشياطين.

ويحتمل أن يكون متعدّياً لاثنين؛ لأنه منقول بالهمزة من "تبع"، والمفعول الثاني محذوفٌ

تقديره: أتبعه الشيطان خطواته، أي: جعله تابِعاً لها، ومن تعديّه لاثنين قوله تعالى: ﴿

وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ [الطور: 21].

وقرأ الحسنُ وطلحةُ بخلافِ عنه: فَاتَّبَعَهُ بِتَشْدِيدِ التَّاءِ، فهل "تبعه" واتبعه بمعنى أو بينهم

فرق؟

قيل بكل منهما، وأبدى بعضهم الفرق بأن "تبعه" مشى في أثره، و"اتبعه" إذا وازأه في

المشي.

وقيل: "اتبعه" بمعنى: استتبعه.

ومعنى الآية: أتبعه الشيطان كفار الإنس وغواتهم أي الشيطان جعل كفار الإنس أتباعاً

له.

وقال عبد الله بن مسلم: "فأتبعه الشيطان".

أي: أدركه.

ويقال: تبعت القوم، إذا لحقتهم.

قال أبو عبيد: يقال: أتبع القوم مثل: أفعلت إذا كانوا قد سبقوك فالحقتهم وقوله ﴿

فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي: أطاع الشيطان فكان من الضالين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير

ابن عادل ج 9 ص 387.388 ﴾

(67/297)

---

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

﴿ (175) ﴾

الحق - سبحانه - يظهر الأعداء في دار الخلة ثم يردُّهم إلى سابق القسمة، ويُبرزُ الأولياء

بنعت الخلاف والزلة، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة.

ويقال أقامه في محل القرية، ثم أبرز له من مكان المكر ما أعدَّ له من سابق التقدير؛ فأصبح

والكلُّ دونه رتبة ، وأمسى والكلب فوقه - مع خساسته . . وفي معناه أنشدوا :

فبيننا بجيرٍ والدُّنَى مطمئنة . . . وأصبح يوماً - والزمان تقلباً

ويقال ليست العبرة بما يلوح في الحال ، إنما العبرة بما يؤول إليه في المآل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 587 ﴾

(68/297)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (176) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا السياق موهماً لمن لم يرسخ قدمه في الإيمان أن الشيطان له تأثير مستقل في

الإغواء ، نفى ذلك غيره على هذا المقام في مظهر العظمة فقال : ﴿ ولو شئنا ﴾ أي أن

نرفعه بها على ما لنا من العظمة التي من دنا ساحتها بغير إذن محق ﴿ لرفعناه ﴾ أي في

المنزلة رفعة دائمة ﴿ بها ﴾ أي الآيات حتى لا يزال عاملاً بها .

ولما علق الأمر بالمشيئة تنبيهاً على أنها هي السبب الحقيقي وإن ما لم يشأ سبحانه لا يكون ، وكان التقدير : ولكننا لم نشأ ذلك وشنأنا له الكفر فأخذناه - إلى آخره ، عبر عنه تعليماً للأدب في إسناد الخير إلى الله والشر إلى غيره وإن كان الكل خلقه حفظاً - لعقول الضعفاء من إيهام نقص أو إدخال لبس بقوله مسنداً نقصه إليه : ﴿ ولكنه أخذ ﴾ أي فعل فعل من أوقع الخلد - وهو الدوام - وأوجده ﴿ إلى الأرض ﴾ أي رمى بنفسه إلى الدنيا رمياً ، تهالكاً على ما فيها من الملاذ الحيوانية والشهوات النفسانية ﴿ واتبع ﴾ أي اتباعاً شديداً ﴿ هواه ﴾ فأعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات مقدماً لداعي نفسه على داعي روجه ، لأن القلب الذي هو تيجتهما في عالم الأمر له وجهان : وجه إلى الروح العلوي الروحاني الذي هو الأب ، وله الذكورة المناسبة للعلو ؛ ووجه إلى النفس التي هي الروح الحيواني التي هي الأم ولها المناسبة للأرض بالأنوثة وبأن أصلها من التراب الذي له الرسوب بوضع الجبلية فالتقدير : فحط نفسه خطأً عظيماً ، لأننا لم نشأ رفعه بما أعطيناه من الآيات ، وإنما جعلناه وبالاً عليه ، فلا يغتر أحد بما أوتي من المعارف ، وما حاز من المفاخر واللطائف ، فإن العبرة بالخواتيم ، ولنا بعد ذلك أن نفعل ما نشاء .

ولما كان هذا حاله ، تسبب عنه أن قال تعالى : ﴿ فمثلته ﴾ أي مع ما أوتي من العلم في اتباعه لجرد هواه من غير دليل بعد الأمر بمخالفة الهوى ﴿ كمثل الكلب ﴾ أي في حال دوام اللهث .

ولما كان كأنه قيل : مثله في أي أحواله ؟ قال : في كونه ﴿ إن تحمل عليه ﴾ أي لتضربه  
﴿ يلهث أو تتركه يلهث ﴾ فإن أوجب لك الحمل عليه ظن أن لهثه لما حاول من ذلك  
التعب ردك عنه لهثه في الدعة ، فتعلم حينئذ أنه ليس له سبب إلا اتباع الهوى ، فتابع الهوى  
مثل الكلب كما بين ، ومثال هذا المنسلخ الجاهل الذي لا يتصور أن يتبع غير الهوى ، لأنه  
يتبع الهوى مع إتياء الآيات فبعد الانسلاخ منها أولى ، فقد وضح تشبيه مثله بمثل الكلب ، لا  
تشبيه مثله بالكلب ؛ وهذه القصة تدل على أن من كانت نعم الله في حقه أكثر ، كان بعده  
عن الله إذا أعرض عنه أعظم وأكبر .

ولما تقرر المثالان ، وكان كل منهما منطبقاً على حالة كل مكذب ، كانت النتيجة قوله :  
﴿ ذلك ﴾ أي كل من المثلين ﴿ مثل القوم ﴾ أي الأقوياء ما يحاولونه ﴿ الذين كذبوا ﴾  
بآياتنا ﴿ أي في أن تركهم لها إنما هو بمجرد الهوى ، لأن لها من الظهور والعظمة بنسبتها إلينا  
ما لا يخفي على من له أدنى بصيرة ﴾ فاقصص القصص ﴿ أي فأخبر الإخبار العظيم  
الذي تبعت به مواقع الوقائع وآثار الأعيان حتى لم تدع في شيء منها لبساً على كل من  
يسمع لك من اليهود وغيرهم ، وهو مصدر قص الشيء - إذا تبع أثره واستقصى في ذلك

﴿ لعلمهم يتفكرون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى تفكره في هذه الآيات ، فيعلمون أنه لا يأتي بمثلها من غير معلم من الناس إلا نبي فيردهم ذلك إلى الصواب حذراً من مثل حال هذا . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 152. 153 ﴾

(70/297)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾

قال أصحابنا معناه : ولو شئنا رفعناه للعمل بها ، فكان يرفع بواسطة تلك الأعمال الصالحة منزله ، ولفظة ( لو ) تدل على انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، فهذا يدل على أنه تعالى قد لا يريد الإيمان ، وقد يريد الكفر .

وقالت المعتزلة : لفظ الآية يحتمل وجوهاً أخرى سوى هذا الوجه .

فالأول : قال الجبائي معناه : ولو شئنا لرفعناه بأعماله ، بأن نكرمه ، ونزيل التكليف عنه ، قبل ذلك الكفر حتى نسلم له الرفعة ، لكننا رفعناه بزيادة التكليف بمنزلة زائدة ، فأبى أن يستمر على الإيمان .



الثاني : لو شئنا لرفعناه ، بأن نحول بينه وبين الكفر ، قهراً وجبراً ، إلا أن ذلك ينافي التكليف .

فلا جرم تركناه مع اختياره .

والجواب عن الأول : أن حمل الرفعة على الإمامة بعيد ، وعن الثاني : أنه تعالى إذا منعه منه قهراً ، لم يكن ذلك موجباً للشواب والرفعة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ قال أصحاب العربية : أصل الإخلاق اللزوم على الدوام ، وكأنه قيل : لزم الميل إلى الأرض ، ومنه يقال : أخلد فلان بالمكان ، إذا لزم الإقامة به .

قال مالك بن سويد :

بأبناء حي من قبائل مالك . . وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

قال ابن عباس : ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ يريد مال إلى الدنيا ، وقال مقاتل : بالدنيا ، وقال الزجاج : سكن إلى الدنيا .

قال الواحدي: فهؤلاء فسروا الأرض في هذه الآية بالدنيا، وذلك لأن الدنيا هي الأرض، لأن ما فيها من العقار والضياع وسائر أمتعتها من المعادن والنبات والحيوان مستخرج من الأرض، وإنما يقوى ويكمل بها، فالدنيا كلها هي الأرض، فصح أن يعبر عن الدنيا بالأرض، ونقول: لوجاء الكلام على ظاهره لثقل لوشئنا لرفعناه، ولكننا لم نشأ، إلا أن قوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ لما دل على هذا المعنى لا جرم أقيم مقامه قوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ معناه: أنه أعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات واتبع الهوى، فلا جرم وقع في هاوية الردى، وهذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم، وذلك لأنه تعالى بعد أن خص هذا الرجل بآياته وبيناته، وعلمه الاسم الأعظم، وخصه بالدعوات المستجابة، لما اتبع الهوى انسلخ من الدين وصار في درجة الكلب، وذلك يدل على أن كل من كانت نعم الله في حقه أكثر، فإذا أعرض عن متابعة الهدى وأقبل على متابعة الهوى، كان بعده عن الله أعظم، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: "من ازداد علماً، ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعداً" أو لفظ هذا معناه.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ﴾ قال الليث: اللهث هو أن الكلب إذا ناله الإعياء عند شدة العدو وعند شدة الحر، فإنه يدلغ لسانه من العطش.

---

واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب ، وإنما وقع بالكلب اللاهث ، وأخس الحيوانات هو الكلب ، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث ، فمن آتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا ، وأخذ إلى الأرض ، كان مشبهاً بأخس الحيوانات ، وهو الكلب اللاهث ، وفي تقرير هذا التمثيل وجوه : الأول : أن كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث في حال الإعياء ، وفي حال الراحة ، وفي حال العطش ، وفي حال الري ، فكان ذلك عادة منه وطبيعة ، وهو مواظب عليه كعادته الأصلية ، وطبيعته الخسيسة ، للأجل حاجة وضرورة ، فكذلك من آتاه الله العلم والدين أغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس ، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا ، ويلقى نفسه فيها ، كانت حاله كحال ذلك اللاهث ، حيث واظب على العمل الخسيس ، والفعل القبيح ، لمجرد نفسه الخبيثة . وطبيعته الخسيسة ، للأجل الحاجة والضرورة .

والثاني : أن الرجل العالم إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا ، فذاك إنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها ، ولا شك أنه عند ذكر تلك الكلمات ، وتقرير تلك العبارات يدلع لسانه ، ويخرجه لأجل ما تمكن في قلبه من حرارة الحرص وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا ، فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب الذي أخرج لسانه أبداً من غير حاجة ولا ضرورة ، بل بمجرد الطبيعة الخسيسة والثالث : أن

الكلب اللاهث لا يزال لهثة ألبته ، فكذلك الإنسان الحريص لا يزال حرصه ألبته .  
أما قوله تعالى : ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثٌ ﴾ فالمعنى أن هذا الكلب إن شد عليه وهيج لهث وإن ترك أيضاً لهث ، لأجل أن ذلك الفعل القبيح طبيعة أصلية له ، فكذلك هذا الحريص الضال إن وعظته فهو ضال ، وإن لم تعظه فهو ضال لأجل أن ذلك الضلال والخسارة عادة أصلية وطبيعية ذاتية له .  
فإن قيل : ما محل قوله : ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثٌ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثٌ ﴾ .

(73/297)

---

قلنا : النصب على الحال ، كأنه قيل كمثل الكلب ذليلاً لاهثاً في الأحوال كلها .  
ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ فعم بهذا التمثيل جميع المكذبين بآيات الله قال ابن عباس : يريد أهل مكة كانوا يتمنون هادياً يهديهم وداعياً يدعوهم إلى طاعة الله ، ثم جاءهم من لا يشكون في صدقه ودياته فكذبوه ، فحصل التمثيل بينهم وبين الكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث لأنهم لم يهتدوا لما تركوا ولم يهتدوا لما جاءهم الرسول فبقوا على الضلال في كل الأحوال مثل هذا الكلب الذي بقي على اللهث في كل الأحوال .

ثم قال: ﴿ فاقصص القصص ﴾ يريد قصص الذين كفروا وكذبوا أنبياءهم ﴿ لَعَلَّهُمْ  
يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يريد يتعظون. انتهى انتهى. ١٠ هـ ﴿ مفاتيح الغيب - 15 ص 46-48 ﴾

(74/297)

وقال السمرقندي:

﴿ وَكُوشِنًا لِرَفْعِنَاهُ بِهَا ﴾

يعني: بالآيات ويقال: رفعناه في الآخرة بما علمناه من آياتنا ﴿ ولكنه أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾  
يعني: أمية بن أبي الصلت أو بلعم بن باعوراء مال إلى الدنيا ورضي بها ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾  
أي هوى نفسه ويقال: عمل بهوى المرأة وترك رضى الله ويقال: أخذ مسافل الأمور وترك  
معاليها ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ يقول: مثل بلعم كمثل الكلب ﴿ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾  
﴿ يقول: إن طردته فهو يلهث ﴾ أو تُرِكَهُ يَلْهَثْ ﴾ يعني: وإن تركته فهو يلهث.

قال القتيبي: كل شيء يلهث من إعياء أو عطش ما خلا الكلب.

فإنه يلهث في حال الراحة والصحة والمرض.

فضرب الله تعالى به مثلاً يعني: كما أن الكلب إن طردته أو تركته يلهث فكذلك بلعم أو أمية

بن أبي الصلت إن وعظته لم يتعظ وإن تركته لم يفعل.

وقال مجاهد : يعني الكفار إن قرىء عليهم الكتاب لم يقبلوا ، وإن لم يقرأ عليهم لم يعملوا هم أهل مكة .

﴿ ذلك مثلُ القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ يعني : ذلك صفة الذين جحدوا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ فاقصص القصص ﴾ أي اقرأ عليهم القرآن ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ أي : لكي يتعظوا بأمثال القرآن ويؤمنوا به .

قوله تعالى : ﴿ ساء مثلاً ﴾ يعني : بس مثل ﴿ القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ يعني : بس مثل من كان مثل الكلب ، وإنما ضرب المثل بالكل تقييحاً لمذهبهم .

ويقال : ﴿ بس مثل القوم الذين كذبوا ﴾ وكانت صفتهم مثل صفة بلعم وهم أهل مكة كذبوا بآياتنا ، فلم يؤمنوا بها مثل بلعم ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ يعني : يظلمون بأنفسهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بجر العلوم ح 1 ص ﴾

(75/297)

وقال الثعلبي :

﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾

أي فضلناه وشرفناه ورفعنا منزلته بالآيات . وقال ابن عباس : رفعناه بها .

وقال مجاهد وعطاء: يعني لرفعنا عنه الكفر بالآيات وعصمناه.

﴿ ولكنهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ قال سعيد بن جبير: ركن الى الأرض . مجاهد : سكن .

مقاتل : رضي بالدنيا . أبو عبيدة : لزمها وأبطأ ، والمخلد من الرجال هو الذي يبطن

شبيهه ومن الدواب التي تبقى ثناياها حتى تخرج رباعتها .

قال الزجاج : خلد وأخلد واحد وأجعله من الخلود وهو الدوام والمقام يقال خلد فلان

بالمقام إذا أقام به . ومنه قول زهير :

لمن الديار غشيتها بالغرقد . . . كالوحي في حجر المسيل المخلد

يعني : المقيم .

وقال مالك بن نويرة :

فما نبأ حيي من قبائل مالك . . . وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ قال الكلبي : يتبع [ خسيس ] الأمور ويترك معاليها .

وقال أبو روق : اختار الدنيا على الآخرة . وقال ابن زيد : كان هواه مع [ القدم ] قال

عطاء : أراد الدنيا وأطاع شيطانه ، وقال يمان : واتبع هواه أي امرأته لأنها حملته على

الخيانة .

﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ﴾ قال مجاهد : هو مثل الذي

يقرأ الكتاب ولا يعمل به ، وقال ابن جريج : الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له إن تحمل عليه

يلهث أو تتركه يلهث وهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع .

وروى معمر عن بعضهم قال : هو الكافر ضال إن وعظته أو لم تعظه .

(76/297)

---

قال ابن عباس : معناه إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها وإن تتركه لم يهتد بخير كالكلب إن كان [ رابضاً ] لهث وإن طرد لهث . وقال الحسن : هو المنافق لا ينب إلى الحق دعي أو لم يدع وعظ أو لم يوعظ [ كالكلب ] يلهث طرد أو ترك ، قال عطاء : ينبح إن يحمل عليه وإن لم يحمل ، وقال القتيبي : كل شيء يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب ، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة ، وحال الصحة وحال المرض ، وحال [ الجوع ] وحال العطش فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته .

فقال : إن وعظته فهو ضال وإن تتركه فهو ضال كالكلب إن طردته لهث وإن تتركه لهث ونظيره قوله ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ [ الأعراف : 193 ] ﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ روى محمد بن إسحاق عن سالم [ أبي الخضر ] قال : يعني مثل بني إسرائيل أي إن جئتهم بخبر ما كان فيهم ما غاب عنك ( لعلمهم يتفكرون ) .



فيعرفون أنه لم يأت بهذا الخبر عما مضى فيهم إلا نبي يأتيهم خبر السماء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(77/297)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَكُوشِنَا لِرَفْعِنَاهُ بِهَا ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يعني لأمتناه فلم يكفر .

والثاني : لحلنا بينه وبين الكفر فيصير إلى المنزلة المرفوعة معصوماً ، قاله مجاهد .

﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي ركن إليها . وفي ركونه إليها وجهان :

أحدهما : أنه ركن إلى أهلها في استنزالهم له ومخادعتهم إياه .

والثاني : أنه ركن إلى شهوات الأرض فشغلته عن طاعة الله ، وقد بين ذلك قوله تعالى ﴿

وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ .

ثم ضرب مثله بالكلب ﴿ . . . إِنْ تَحُمَّ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكُهُ يَلْهَثُ ﴾ وفي تشبيهه بالكلب

اللاهث وجهان :

أحدهما : لدناؤه ومهاتته .

الثاني : لأن لهث الكلب ليس بنافع له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(78/297)

وقال ابن عطية :

﴿ ولو شئنا لرفعناه ﴾

قالت فرقة معناه لأخذناه كما تقول رفع الظالم إذا هلك ، والضمير في : ﴿ بها ﴾ عائد على المعصية في الانسلاخ وابتداء وصف حاله بقوله تعالى : ﴿ ولكنه أخذ إلى الأرض ﴾ فهي عبارة عن إمهاله وإملاء الله له ، وقال ابن أبي نجيح ﴿ لرفعناه ﴾ معناه لتوفيناه قبل أن يقع في المعصية ورفعناه عنها ، والضمير على هذا عائد على الآيات ، ثم ابتداء وصف حاله ، وقال ابن عباس وجماعة معه معنى ﴿ لرفعناه ﴾ أي لشرفنا ذكره ورفعناه منزلته لدينا بهذه الآيات التي آتيناها ، ﴿ ولكنه أخذ إلى الأرض ﴾ فالكلام متصل ، ذكر فيه السبب الذي من أجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره ، فمن أوتي هذا ، و ﴿ أخذ ﴾ معناه لازم وتقايس وثبت ، والمخلد الذي يثبت شبابه فلا يغشاه الشيب ومنه الخلد

، ومنه قول زهير: [الكامل]

لمن الديار غشيتها بالفد فد . . . كالوحي في حجر المسيل المخلد

(79/297)

---

وقوله: ﴿ إلى الأرض ﴾ يحتمل أن يرد إلى شهواتنا ولذاتها وما فيها من الملاذ ، قاله السدي وغيره ، ويحتمل أن يرد بها العبارة عن الأسفل والأخس كما يقال فلان في الحضيض ، ويتأيد ذلك من جهة المعنى المعقول وذلك أن الأرض وما ارتكز فيها هي الدنيا وكل ما عليها فان ، من أخذ إليه فقد حرم حظ الآخرة الباقية ، وقوله: ﴿ فمثل كمثل الكلب ﴾ قال السدي وغيره: إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه يلهث كما يلهث الكلب فشبه به صورة وهيئة ، وقال الجمهور إنما شبه به في أنه كان ضالاً قبل أن يؤتى الآيات ثم أوتيتها فكان أيضاً ضالاً لم تنفعه ، فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللهث في حال حمل المشقة عليه وتركه دون حمل عليه ، وتحرير المعنى فالشيء الذي تتصوره النفوس من حاله هو كالذي تصور من حال الكلب ، وبهذا التقدير يحسن دخول الكاف على " مثل " ، واللهث تنفس بسرعة وتحرك أعضاء الفم معه وامتداد اللسان ، وأكثر ما يعتري ذلك مع الحر والتعب ، وهو في الفرس ضبح ، وخلقة الكلب أنه يلهث على كل حال ، وذكر الطبري أن معنى ﴿

إن تحمل عليه ❁ أي تطرده وحكاه عن مجاهد وابن عباس .

قال القاضي أبو محمد : وذلك داخلي جملة المشقة التي ذكرنا ، وقوله : ❁ ذلك مثل القوم

❁ أي هذا المثل يا محمد مثل هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة

ثم جئتهم بذلك فبقوا على ضلالتهم ولم ينتفعوا بذلك ، فمثلهم كمثل الكلب ، وقوله : ❁

فاقص القصص ❁ أي اسرد ما يعلمون أنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا أهل الكتب

الماضية ولست منهم ❁ لعلمهم يتفكرون ❁ في ذلك فيؤمنون . انتهى انتهى . اهـ ❁ المحرر

الوجيز حـ 2 ص ❁

(80/297)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ❁ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ❁

في هاء الكناية في "رفعناه" قولان .

أحدهما : أنها تعود إلى الإنسان المذكور ، وهو قول الجمهور ؛ فيكون المعنى : ولو شئنا

لرفعنا منزلة هذا الإنسان بما علمناه .

والثاني : أنها تعود إلى الكفر بالآيات ، فيكون المعنى : لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا ،

وهذا المعنى مروى عن مجاهد .

وقال الزجاج: لو شئنا حللنا بينه وبين المعصية .

قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي: ركن إلى الدنيا وسكن .

قال الزجاج: يقال: أخلد وأخلد ، والأول أكثر في اللغة .

والأرض ها هنا : عبارة عن الدنيا ، لأن الدنيا هي الأرض بما عليها .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنه ركن إلى أهل الدنيا ، ويقال : إنه أرضى امرأته بذلك ، لأنها حملته عليه ،

وقيل : أرضى بني عمه وقومه .

والثاني : أنه ركن إلى شهوات الدنيا ، وقد بين ذلك بقوله : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ والمعنى : أنه

انقاد لما دعاه إليه الهوى .

قال ابن زيد : كان هواه مع قومه .

وهذه الآية من أشد الآيات على أهل العلم إذا مالوا عن العلم إلى الهوى .

قوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ﴾ معناه : أن هذا

الكافر ، إن زجرته لم ينزجر ، وإن تركته لم يهتد ، فالحالتان عنده سواء كحالتى الكلب ،

فانه إن طرد وحُمل عليه بالطرد كان لاهثاً ، وإن ترك ورض كان أيضاً لاهثاً ، والتشبيه

بالكلب اللاهث خاصة ؛ فالمعنى : فمثله كمثل الكلب لاهثاً ، وإنما شبهه بالكلب

اللاهث ، لأنه أحسنُ الأمثال على أحسن الحالات وأبشعها .

وقال ابن قتيبة : كل لاهث إنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب ، فإنه يلهث في حال راحته وحال كلاله ، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته ، فقال : إن وعظته فهو ضال ، وإن لم تعظه فهو ضال ، كالكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث ، أو تركته على حاله رابضاً لهث .

(81/297)

---

قال المفسرون : زُجِرَ في منامه عن الدعاء على بني إسرائيل فلم ينزجر ، وخاطبته أتانة فلم ينته ، فضرب له هذا المثل ولسائر الكفار ؛ فذلك قوله : ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ لأن الكافر إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال ؛ وهو مع إرسال الرسل إليه كمن لم يأت به رسول ولا بينة .

قوله تعالى : ﴿ فاقصص القصص ﴾ قال عطاء : قصص الذين كفروا وكذبوا أنبياءهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

(82/297)

---

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَكُوشِنًا لِّرَفْعِنَاهُ ﴾ يريد بلعام .

أي لوشننا لأمتناه قبل أن يعصي فرفعناه إلى الجنة .

﴿ بِهَا ﴾ أي بالعمل بها .

﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي ركن إليها ؛ عن ابن جبير والسدي .

مجاهد : سكن إليها ؛ أي سكن إلى لذاتها .

وأصل الإخلاد اللزوم .

يقال : أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه .

قال زهير :

لمن الديار غشيتها بالغرقد . . .

كالوحي في حجر المسيل المخلد

يعني المقيم ؛ فكأن المعنى لزم لذات الأرض فعبّر عنها بالأرض ، لأن متاع الدنيا على وجه

الأرض .

﴿ وَاتَّبِعْ هَوَاهُ ﴾ أي ما زين له الشيطان .

وقيل : كان هواه مع الكفار .

وقيل : اتبع رضا زوجته ، وكانت رَغِبَتْ في أموال حتى حملته على الدعاء على موسى .

﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ ابتداء وخبر .

﴿ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾ شرط وجوابه .

وهو في موضع الحال ، أي فمثله كمثل الكلب لاهثاً .

والمعنى : أنه على شيء واحد لا يرعوي عن المعصية ؛ كمثل الكلب الذي هذه حالته

فالمعنى : أنه لاهث على كل حال ، طردته أو لم تطرده .

قال ابن جرير : الكلب منقطع الفؤاد ، لا فؤاد له ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ؛

كذلك الذي يترك الهدى لا فؤاد له ، وإنما فؤاده منقطع .

قال القتيبي : كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب فإنه يلهث في حال

الكلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الري وحال العطش .

فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال : إن وعظته ضلّ وإن تركته ضلّ ؛ فهو كالكلب إن

تركته لهث وإن طردته لهث ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى لَيَتَّبِعُكُمْ سَوَاءً

عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ [الأعراف : 193] .

قال الجوهري : لهث الكلب ( بالفتح ) يلهث لهثاً ولهائثاً ( بالضم ) إذا أخرج لسانه من

التعب أو العطش ؛ وكذلك الرجل إذا أعْيِيَ .



---

وقوله: ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يُلَهِثْ ﴾ لأنك إذا حملت على الكلب نبیح وولى هاربا ، وإذا تركته شدّ عليك ونبیح ؛ فيتعب نفسه مقبلاً عليك ومدبراً عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان .

قال الترمذي الحكيم في نواذر الأصول : إنما شبهه بالكلب من بين السباع لأن الكلب ميت الفؤاد ، وإنما لهاثة لموت فؤاده .

وسائر السباع ليست كذلك فلذلك لا يلهثن .

وإنما صار الكلب كذلك لأنه لما نزل آدم صلى الله عليه وسلم إلى الأرض شمت به العدو ، فذهب إلى السباع فأشلاهم على آدم ، فكان الكلب من أشدهم طلباً .

فنزل جبريل بالعصا التي صرفت إلى موسى بمدين وجعلها آية له إلى فرعون وملئه ، وجعل فيها سلطاناً عظيماً وكانت من آس الجنة ؛ فأعطاها آدم صلى الله عليه وسلم يومئذ

ليطرد بها السباع عن نفسه ، وأمره فيما روي أن يدنو من الكلب ويضع يده على رأسه ، فمن ذلك ألقه الكلب ومات الفؤاد منه لسلطان العصا ، وألف به وبولده إلى يومنا هذا ،

لوضع يده على رأسه وصار حارساً من حُرّاس ولده .

وإذا أدب وعلم الاضطهاد تأدب وقبل التعليم ؛ وذلك قوله : ﴿ تَعَلَّمُوْنَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّٰهُ

﴿ [ المائدة : 5 ] .

السَّدِّي: كان بلعام بعد ذلك يلهث كما يلهث الكلب .

وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عامٌ في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به .

وقيل : هو في كل منافق .

والأول أصح .

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ﴾

أي إن تحمل عليه بدابتك أو برجلك يلهث أو تتركه يلهث .

وكذلك من يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه .

وقال غيره : هذا شرٌّ تمثيل ؛ لأنه مثله في أنه قد غلب عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه

ضراً ولا نفعاً بـكل لاهتٍ أبداً ، حُمِلَ عليه أو لم يحمل عليه ؛ فهو لا يملك لنفسه ترك

اللّهتان .

(84/297)

---

وقيل : من أخلاق الكلب الوقوع بمن لم يخفه على جهة الابتداء بالجفاء ، ثم تهدأ طائشته

بنيل كل عوض خسيس .

ضربه الله مثلاً للذي قبل الرشوة في الدين حتى انسلخ من آيات ربه .

فدلت الآية لمن تدبرها على ألا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه؛ إذ لا يدري بما يُختم له .

ودلت على منع أخذ الرشوة لإبطال حق أو تغييره .

وقد مضى بيانه في "المائدة" .

ودلت أيضاً على منع التقليد لعالم إلا بحجة بينها؛ لأن الله تعالى أخبر أنه أعطى هذا آياته

فانسلك منها فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره وألا يقبل منه إلا بحجة .

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ \* سَاءَ

مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ \* أي هو مثل جميع الكفار . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

(85/297)

وقال ابن كثير:

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ يقول تعالى:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه

إياها ، ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي: مال إلى زينة الدنيا وزهرتها ، وأقبل على

لذاتها ونعيمها ، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهي .

وقال أبو الزاهرية في قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ قال: تراءى له الشيطان على غلوة من قنطرة بانياس، فسجدت الحمارة لله، وسجد بلعام للشيطان. وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير، وغير واحد.

(86/297)

---

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: وكان من قصة هذا الرجل: ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه: أنه سئل عن هذه الآية: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا [ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ] ﴾ فحدث عن سيار أنه كان رجلا يقال له بلعام، وكان قد أوتي النبوة وكان مجاب الدعوة، قال: وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام - أو قال: الشام - قال فرعب الناس منه رعباً شديداً، قال: فأتوا بلعام، فقالوا: ادع الله على هذا الرجل وجيشه! قال: حتى أوامر ربي - أو: حتى أوامر - قال: فوامر في الدعاء عليهم، فقيل له: لا تدع عليهم، فإنهم عبادي، وفيهم نبيهم. قال: فقال لقومه: إني قد أمرت ربي في الدعاء عليهم، وإني قد نهيت. فأهدوا له هدية فقبلها، ثم راجعوه فقالوا: ادع عليهم. فقال: حتى أوامر. فوامر، فلم يحر إليه شيء. فقال: قد وامت فلم يحر إلى شيء! فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى. قال:

فأخذ يدعو عليهم ، فإذا دعا عليهم ، جرى على لسانه الدعاء على قومه ، وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه دعا أن يفتح لموسى وجيشه - أو نحواً من ذاك إن شاء الله . قال ما نراك تدعو إلا علينا . قال : ما يجري على لساني إلا هكذا ، ولو دعوت عليه أيضاً ما استجيب لي ، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم . إن الله يبغض الزنا ، وإنهم إن وقعوا بالزنا هلكوا ، ورجوت أن يهلكهم الله ، فأخرجوا النساء يستقبلنهم ؛ فإنهم قوم مسافرون ، فعسى أن يزنوا فيهلكوا . قال : ففعلوا . قال : فأخرجوا النساء يستقبلنهم . قال : وكان للملك ابنة ، فذكر من عظمها ما الله أعلم به ! قال : فقال أبوها - أو بلعام - : لا تمكني نفسك إلا من موسى ! قال : ووقعوا في الزنا . قال : وأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل ، قال : فأرادها على نفسه ، فقالت : ما أنا

(87/297)

---

بممكنة نفسي إلا من موسى . قال : فقال : إن منزلي كذا وكذا ، وإن من حالي كذا وكذا . قال : فأرسلت إلى أبيها تستأمره ، قال : فقال لها : فأمكنيه قال : ويأتيهما رجل من بني هارون ومعه الرمح فيقطعنها . قال : وأيده الله بقوة . فانتظهما جميعاً ، ورفعها على رمحها فراهما الناس - أو كما حدثت - قال : وسلط الله عليهم الطاعون ، فمات منهم

سبعون ألفاً .

قال أبوالمعتمر : فحدثني سيار : أن بلعاماً ركب حمارة له حتى أتى العلوبي - أوقال :  
طريقاً من العلوبي - جعل يضربها ولا تُقدّم ، وقامت عليه فقالت : علام تضربني ؟ أما ترى  
هذا الذي بين يديك ؟ فإذا الشيطان بين يديه ، قال : فنزل وسجد له ، قال الله تعالى : ﴿  
وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ بِبَأِّ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾  
قال : فحدثني بهذا سيار ، ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره .  
قلت : هو بلعام - ويقال : بلعم - بن باعوراء ، ابن أبر . ويقال : ابن باعور بن شهوم بن  
قوשתم ابن ماب بن لوط بن هاران - ويقال : ابن حران - بن أزر . وكان يسكن قرية من  
قرى البلقاء .

قال ابن عساکر : وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم ، فانسلك من دينه ، له ذكر في  
القرآن . ثم أورد من قصته نحو ما ذكرنا ها هنا ، وأورده عن وهب وغيره ، والله أعلم .

(88/297)

---

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبي النضر ؛ أنه حدث : أن موسى ، عليه السلام  
، لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام ، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له : هذا موسى بن

عمران في بني إسرائيل ، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ، وإنا قومك ، وليس لنا منزل ، وأنت رجل مجاب الدعوة ، فأخرج فادع الله عليهم . قال : ويلكم ! بني الله معه الملائكة والمؤمنون ، كيف أذهب أدعو عليهم ، وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ ! قالوا له : ما لنا من منزل ! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه ، حتى فتنوه فافتن ، فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل ، وهو جبل حُسبان ، فلما سار عليها غير كثير ، رضت به ، فنزل عنها فضربها ، حتى إذا

(89/297)

---

أذلقها قامت فركبها . فلم تسر به كثيراً حتى رضت به ، فضربها حتى إذا أذلقها أذن الله لها فكلمته حجة عليه ، فقالت : ويحك يا بلعم : أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا ؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها يضربها ، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك . فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حُسبان ، على عسكر موسى وبني إسرائيل ، جعل يدعو عليهم ، ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل . فقال له قومه : أتدري يا بلعم ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم ، وتدعو علينا ! قال : فهذا ما لا

أملك ، هذا شيء قد غلب الله عليه ! قال : واندلع لسانه فوق على صدره ، فقال لهم :  
قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأموكم لكم وأحتال ،  
جَمَلُوا النساء وأعطوهن السلع ، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ، ومروهن فلا تمنع  
امرأة نفسها من رجل أرادها ، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفيتموهم ، ففعلوا . فلما  
دخل النساء العسكر ، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها "كسبي ابنة صور ، رأس أمته"  
برجل من عظماء بني إسرائيل ، وهو "زمرى بن شلوم" ، رأس سبط بني سمعان بن يعقوب  
بن إسحاق بن إبراهيم ، عليهم السلام ، فقام إليها ، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ، ثم  
أقبل بها حتى وقف بها على موسى ، عليه السلام ، فقال : إني أظنك ستقول هذا حرام  
عليك ؟ قال : أجل ، هي حرام عليك ، لا تقربها . قال : فوالله لا نطيعك في هذا . ثم  
دخل بها قبته فوق عليها . وأرسل الله ، عز وجل ، الطاعون في بني إسرائيل ، وكان  
فنحاص بن العيزار بن هارون ، صاحب أمر موسى ، وكان غائبا حين صنع زمرى بن  
شلوم ما صنع ، فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل ، فأخبر الخبر ، فأخذ حربته ،  
وكانت من حديد كلها ، ثم دخل القبة وهما متضاجعان ، فانتظمتها بحربته ، ثم خرج بهما  
رافعهما إلى



---

السماء ، والحربة قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه على خاصرته ، وأسند الحربة إلى  
لَحْيَيْهِ - وكان بكر العيزار - وجعل يقول : اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك . ورفع الطاعون ،  
فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله  
فنحاص ، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفا - والمقل لهم يقول : عشرون ألفا - في  
ساعة من النهار . فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القبة  
والذراع واللحى - لاعتماده بالحربة على خاصرته ، وأخذه إياها بذراعه ، وإسناده  
إياها إلى لحييه - والبكر من كل أموالهم وأنفسهم ؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار . ففي بلعام بن  
باعوراء أنزل الله : ﴿ وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا [ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ]  
﴿ - إلى قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾  
وقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ اختلف  
المفسرون في معناه فأما على سياق ابن إسحاق ، عن سالم بن أبي النضر : أن بلعاما اندلع  
لسانه على صدره - فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك . وقيل :  
معناه : فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه ، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم  
الدعاء ، كالكلب في لهثه في حالتيه ، إن

حملت عليه وإن تركته ، هويلهث في الحالين ، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه ؛ كما قال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: 6] ، ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة: 80] ونحو ذلك .

وقيل : معناه : أن قلب الكافر والمنافق والضال ، ضعيف فارغ من الهدى ، فهو كثير الوجيب فعبر عن هذا بهذا ، نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره .  
وقوله تعالى : ﴿ فَأَقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَأَقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي : لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام ، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته ، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه - في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب - في غير طاعة ربه ، بل دعا به على حزب الرحمن ، وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان ، كليم الله موسى بن عمران ، [عليه السلام] ؛ ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : فيحذروا أن يكونوا مثله ؛ فإن الله قد أعطاهم علماً ، وميزهم على من عداهم من الأعراب ، وجعل

بأيديهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس  
وأولاهم باتباعه ومناصرتة ومؤازرتة ، كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به ؛ ولهذا من  
خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد ، أحل الله به ذل في الدنيا موصولا بذل  
الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير ح 3 ص 509.512 ﴾

(92/297)

وقال الثعالبي :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾

قال ابن عباس وجماعة : معنى "الرفعنا" لشرفنا ذكره ، ورفعنا منزلته لدينا ؛ بهذه الآيات  
التي آتيناها ، ولكنه أخذ إلى الأرض ، أي : تقاعس إلى الحضيض الأسفل الأخص من  
شهوات الدنيا ولذاتها ؛ وذلك أن الأرض وما ارتكن فيها : هي الدنيا وكل ما عليها فان ،  
ومن أخذ إلى الفاني ، فقد حرم حظ الآخرة الباقية .

\* ت \* : قال الهروي : قوله : ﴿ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ : معناه : سكن إلى لذاتها ، واتبع  
هواه ، يقال : أخذ إلى كذا ، أي : ركن إليه واطمأن به .  
انتهى .

قال عَبْدُ الْحَقِّ الإِشْبِيلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي "العاقبة": واعلم رحمك الله؛ أَنَّ لِسُوءِ الخاتمةِ أَعادنا اللهُ مِنْها أسباباً، ولها طرقٌ وأبوابٌ، أعظَمُها: الإِكبابُ على الدنيا، والإِعراضُ عن الآخرة، وقد سَمِعْتُ بِقِصَّةِ بُلْعَامِ بْنِ بَاعُورَاءَ، وما كان آتاه اللهُ تعالى من آياته؛ وأُطلِعَهُ عليه من بَيِّناته؛ وما أراه من عِجائبِ مَلَكُوتِهِ، أُخِلِدَ إلى الأَرْضِ، واتبع هواه؛ فَسَلَبَهُ اللهُ سِجَّانَهُ جَمِيعَ ما كان أعطاه؛ وَتَرَكَه مَعَ مَنْ اسْتَمالَهُ وَأَغَواهُ. انتهى.

وقوله: ﴿فَمَثَلُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾، شُبِّهَ بِهِ فِي أَنَّهُ كان ضالًّا قَبْلَ أن يُؤْتَى الآياتِ، ثم أُوتِيها، فَكان أَيْضاً ضالًّا لَمْ تَنْفَعَهُ، فَهو كَالْكَلْبِ فِي أَنَّهُ لا يَفارِقُ اللَّهْتَ فِي كلِّ حالٍ؛ هذا قول الجمهور.

وقال السَّدِيُّ وغيره: إِنَّ هذا الرَّجُلَ عُوِّبَ فِي الدنيا، فَإِنَّه كان يَلْهَثُ كما يَلْهَثُ الكَلْبُ، فَشُبِّهَ بِهِ صُورَةً وَهَيْئَةً، وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ، عن ابن عباس؛ أَنَّ مَعْنَى: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾: إِنَّ تَطَرَّدَهُ.

(93/297)

---

وقوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾، أَي: هذا المثل، يا محمد، مثل هؤلاء الذين كانوا ضالِّين قَبْلَ أن تأتيهم بالهدى والرِّسالة، ثم جَسَّتْ بِها، فَبَقُوا على ضلالتهم، ولم

يَنْتَفِعُوا بِذَلِكَ ، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْكَلْبِ .

وقوله : ﴿ فاقصص القصص ﴾ ، أي : اسرد عليهم ما يعلمون أنه من الغيوب التي لا يعلمها

إلا أهل الكتب الماضية ولست منهم ؛ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ذلك ؛ فيؤمنوا . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان ح 1 ص ﴾

(94/297)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾

يعني رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات التي أوتيتها .

وقال ابن عباس : لرفعناه ، وقال ابن عباس : لرفعناه بعمله بها ، وقال مجاهد وعطاء :

معناه لو شئنا لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ يعنيك

ولكنه سكن إلى الدنيا ومال إليها ورضي بها وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام والأرض

هنا عبارة عن الدنيا لأن الأرض عبارة عن المفاوز والقفار وفيها المدن والضيايع والمعادن

والنبات ومنها يستخرج ما يعاش به في الدنيا فالدنيا كلها هي الأرض ﴿ واتبع هواه ﴾

يعني أنه أعرض عن التمسك بما أتاه الله من الآيات واتبع الهوى فخرس دنياه واخرته ووقع في

هاوية الردى والهلاك وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى وذلك لأن الله خص هذا الرجل بآياته وحكمته وعلمه اسمه العظم وجعل دعاءه مستجاباً ثم إنه اتبع هواه وركن إلى الدنيا ورضي بها عوضاً عن الآخرة نزع منه ما كان أعطيه وانسلخ من الدين فخر الدنيا والآخرة ومن الذي يسلم من الميل إلى الدنيا واتباع الهوى إلا من عصمه الله بالورع وثبته بالعلم وبصره بعيوب نفسه .

(95/297)

---

عن كعب بن مالك الأنصاري قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " ما ذئبان جائعان أرسلاني غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والسرف لدينه " أخرجه الترمذي ثم ضرب الله مثلاً لهذا الرجل الذي أتاه آياته فانسلخ منها واتبع هواه فقال تعالى ﴿ فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ يقال لهث الكلب يلهث إذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند الإعياء والتعب وهذا مثل ضربه الله لمن أتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات وهو الكلب في أخس أحواله وهو اللهث لأن الكلب في حال لهثه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضررها كذلك العالم الذي يتبع هواه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضررها في الآخرة لأن التمثيل

به على أن يلهث على كل حال إن حملته عليه أو تركته كان لاهثاً وذلك عادة منه وطبيعة  
وهي مواظبته على اللهث دائماً فكذلك من أتاه الله العلم والدين وأغناه عن التعرض لحطام  
الدنيا الحسيسة ، ثم إنه مال إليها وطلبها كانت حالته كحال الكلب اللاهث وقيل : إن  
العالم إذا توصل بعلمه إلى طلب الدنيا فإنه يظهر علومه عند أهلها ويدل لسانه في تقرير  
تلك العلوم وبيانها وذلك لأجل ما يحصل عنده من حرارة الحرص الشديد وشدة العطش  
إلى الفوز بمطلوبه من الدنيا فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الذي أدل لسانه من اللهث  
في غير حاجة ولا ضرورة .

(96/297)

---

ومعنى أن تحمل عليه يلهث ، أو تركه يلهث أي إن شددت عليه وأهجت لهث وإن تركته  
على حاله لهث لأن اللهث طبيعة أصلية فيه فكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته  
فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه وإن تركته ولم تعظه فهو حريص أيضاً لأن الحرص  
على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب ❀ ذلك مثل  
القوم الذين كذبوا بآياتنا ❀ يعني أن المثل الذي ضربناه للذي آتينا آياتنا فانسلك منها مثل  
القوم الذين كذبوا بآياتنا فعم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحد لها فوجه التمثيل

بينهم وبين الكلب اللاهث أنهم إذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا وإن تركوا لم يهتدوا  
أيضاً بل هم ضلّال في كل حال ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ فاقصص القصص ﴾ وهذا  
خطاب للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) يعني فاقصص القصص يا محمد على قومك أي  
أخبار من كُفرت بآيات الله ﴿ لعلمهم يتفكرون ﴾ يعني فيتعظون ، وقيل : هذا المثل لكفار  
مكة وذلك أنهم كانوا يتمنون هادياً يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله فلما جاءهم محمد ( صلى  
الله عليه وسلم ) يدعوهم إلى الله وإلى طاعته وهم يعرفونه ويعرفون صدقه كذبه ولم  
يقبلوا منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

(97/297)

وقال أبو حيان :

﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ .  
أي ولو أردنا أن نشرفه ونرفع قدره بما آتينا من الآيات لفعلنا ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض  
﴿ أي ترامى إلى شهوات الدنيا ورغب فيها واتبع ما هو ناشئ عن الهوى وجاء  
الاستدراك هنا تنبيهاً على السبب الذي لأجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره ممن أوتي  
الهدى فآثره وأتبعه و ﴿ أخلد ﴾ معناه رمى بنفسه إلى الأرض أي إلى ما فيها من الملاذ



والشهوات قال معناه ابن عباس ومجاهد والسدي ، ويحتمل أن يريد بقوله ﴿ أخذ إلى الأرض ﴾ أي مال إلى السفاهة والردالة كما يقال : فلان في الحضيض عبارة عن انحطاط قدره بانسلاخه من الآيات قال معناه الكرمانبي .

قال أبو روق : غلب على عقله هواه فاختر دنياه على آخرته ، وقال قوم : معناه لرفعناه بها لأخذناه كما تقول رفع الظالم إذا هلك والضمير في ﴿ بها ﴾ عائد على المعصية في الانسلاخ وابتدىء وصف حاله بقوله ﴿ ولكنه أخذ ﴾ ، وقال ابن أبي نجيح ﴿ لرفعناه ﴾ لتوفيناه قبل أن يقع في المعصية ورفعناه عنها والضمير للآيات ثم ابتدىء وصف حاله والتفسير الأول أظهر وهو مروى عن ابن عباس وجماعة ولم يذكر الزمخشري غيره وهو الذي يقتضيه الاستدراك لأنه على قول الإهلاك بالمعصية أو التوفي قبل الوقوع فيها لا يصح معنى الاستدراك والضمير في ﴿ لرفعناه ﴾ في هذه الأقوال عائد على الذي أوتي الآيات وإن اختلفوا في الضمير في ﴿ بها ﴾ على ما يعود وقال قوم الضمير في ﴿ لرفعناه ﴾ على الكفر المفهوم مما سبق وفي ﴿ بها ﴾ عائد على الآيات أي ولو شئنا لرفعنا الكفر بالآيات وهذا المعنى روي عن مجاهد وفيه بعد وتكلف .

قال الزمخشري: (فإن قلت) : كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟ (قلت) : المعنى ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات فذكر المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل ولو لزمها لرفعناه بها ألا ترى إلى قوله ولكنه ﴿ أخذ إلى الأرض ﴾ فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله فوجب أن يكون ﴿ ولو شئنا ﴾ في معنى ما هو فعله ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: ﴿ ولو شئنا لرفعناه ﴾ ولكننا لم نشأ انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

(99/297)

---

﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ أي فصفته ﴿ إن تحمل عليه ﴾ الحكمة لم يحملها وإن تركته لم يحملها كصفة الكلب إن كان مطروداً لهث وإن كان رابضاً لهث قاله ابن عباس ، وقيل : شبه المتهاك على الدنيا في قلقه واضطرابه على تحصيلها ولزومه ذلك بالكلب في حالته هذه التي هي ملازمة له حالة تهيجه وتركه وهي كونه لا يزال لاهنا وهي أحسن أحواله وأرذلها كما أن المتهاك على الدنيا لا يزال تبعاً قلقاً في تحصيلها قال الحسن هو مثل المنافق لا ينيب إلى الحق دعي أو لم يدع أعطي أو لم يعط كالكلب يلهث

طرداً وتركاً انتهى ، وفي كتاب الحيوان دلت الآية على أن الكلب أخس الحيوان وأذله  
لضرب الحسة في المثل به في أخس أحواله ولو كان في جنس الحيوان ما هو أخس من الكلب  
ما ضرب المثل إلا به ، قال ابن عطية : وقال الجمهور إنما شبه في أنه كان ضالاً قبل أن يؤتى  
الآيات ثم أوتيتها أيضاً ضالاً لم تنفعه فهو كالكلب في أنه لا يفارق الله في حال حمل المشقة  
عليه أو تركه دون حمل عليه ، وقال السدي وغيره هذا الرجل خرج لسانه على صدره  
وجعل يلهث كما يلهث الكلب ، وقال الزمخشري : وكان حق الكلام أن يقال ﴿ ولو شئنا  
لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ فحططناه ووضعنا منزلته فوق قوله : ﴿ فمثله  
كمثل الكلب ﴾ موقع فحططناه أبلغ حظ لأن تمثيله بالكلب في أخس أحواله وأرذلها في  
معنى ذلك انتهى وفي قوله وكان حق الكلام إلى آخره سوء أدب على كلام الله تعالى وأما  
قوله فوق قوله ﴿ فمثله ﴾ إلى آخره فليس واقعاً موقع ما ذكر لكن قوله ﴿ ولكنه أخلد  
إلى الأرض ﴾ وقع موقع فحططناه إلا أنه لما ذكر الإحسان إليه أسند ذلك إلى ذاته الشريفة  
فقال ﴿ آتيناه آياتنا ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ ولما ذكر ما هو في حق الشخص إساءة أسنده  
إليه فقال ﴿ فانسلخ منها ﴾ وقال : ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ والله تعالى في الحقيقة  
هو الذي سلخه من الآيات وأخلده إلى الأرض فجاء على حد

قوله

﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ وقوله: ﴿ فأراد ربك أن يبلغنا ﴾ في نسبة ما كان حسناً إلى الله ونسبة ما كان بخلافه إلى الشخص وهذه الجملة الشرطية في موضع الحال أي لاهتأ في الحالتين قاله الزمخشري وأبو البقاء .

وقال بعض شراح كتاب المصباح: وأما الشرطية فلا تكاد تقع بتمامها موضع الحال فلا يقال جاءني زيد إن يسأل يعط على الحال بل لو أريد ذلك لجعلت الجملة الشرطية خبراً عن ضمير ما أريد الحال عنه نحو جاء زيد هو وإن يسأل يعط فيكون الواقع موقع الحال هو الجملة الإسمية لا الشرطية ، نعم قد أوقعوا الجمل المصدرية بحرف الشرط موقع الحال ولكن بعد ما أخرجوها عن حقيقة الشرط وتلك الجملة لم تخلُ من أن يُعطف عليها ما يناقضها أو لم يعطف والأول ترك الواو مستمرّ فيه نحو أتيتك إن أتيتني وإن لم تأتني إذ لا يخفى أن النقيضين من الشرطين في مثل هذا الموضع لا يبقيان على معنى الشرط بل يتحولان إلى معنى التسوية كالأستفهامين المتناقضين في قوله ﴿ أأذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ وأما الثاني فلا بدّ من الواو نحو أتيتك وإن لم تأتني ولو ترك الواو لالتبس بالشرط حقيقة انتهى فقوله ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ من قبيل الأول لأن الحمل عليه والترك نقيضان .

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي ذلك الوصف وصف ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾  
﴿ صفته كصفة الكلب لاهتاً في الحالتين فكما شبّه وصف المؤتى الآيات المنسلخ منها ﴾  
بالكلب في أحسن حالاته كذلك شبّه به المكذبون بالآيات حيث أوتوها وجاءتهم  
واضحات تقتضي التصديق بها فقابلوها بالتكذيب وانسلخوا منها واحتمل ﴿ ذلك ﴾  
أن يكون إشارة لمثل المنسلخ وأن يكون إشارة لوصف الكلب واحتمل أن تكون أداة  
التشبيه محذوفة من ذلك أي صفة ذلك صفة الذين كذبوا واحتمل أن تكون محذوفة من  
﴿ مثل القوم ﴾ أي ذلك الوصف وصف المنسلخ أو وصف الكلب كمثل ﴿ الذين ﴾  
كذبوا بآياتنا ﴿ ويكون أبلغ في ذم المكذبين حيث جعلوا أصلاً وشبه بهم ، قال ابن عطية :  
أي هذا المثل يا محمد مثل هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة ثم  
جسّتهم بذلك فبقوا على ضلالهم ولم ينتفعوا بذلك فمثلهم كمثل الكلب ، وقال الزمخشري :  
﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ من اليهود بعدما قرؤوا بعثة رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) في  
التوراة وذكر القرآن المعجز وما فيه وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به ،  
وقال ابن عباس : يريد كفار مكة لأنهم كانوا يتمنون هادياً يهديهم وداعياً يدعوهم إلى طاعة

الله ثم جاءهم من لا يشك في صدقه وديانته ونبوته فكذبوه فحصل التمثيل بينهم وبين الكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث لأنهم لم يهتدوا لما تركوا ولم يهتدوا لما جاءهم الرسول فبقوا على الضلال في كل الأحوال مثل الكلب الذي يلهث على كل حال انتهى ، وتلخص أهؤلاء القوم المكذبون بالآيات عامّ أم خاص باليهود أم بكفار مكة أقوال ثلاثة والأظهر العموم .

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ .

(102/297)

---

أي فاسرد أخبار القرون الماضية كخبر بلعام أو من فسّر به المنسلخ إذ هو من القصص الذي لا يعلمه إلا من درس الكتب إذ هو من خفي أخبارهم ففي إخبارك بذلك أعظم معجز ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ فيما جرى على المكذبين فيكون ذلك عبرة لهم ورادعاً عن التكذيب وأن يكونوا أخباراً شنيعة تقصّ كما قصّ خبر ذلك المنسلخ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(103/297)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾

كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان مناطِ ما ذُكر من انسلاخه من الآياتِ ووقوعه في مهاوي الغواية ، ومفعول المشيئة محذوفٌ لوقوعها شرطاً وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاءِ على القاعدة المستمرة ، أي ولو شئنا رفعه ﴿ لرفعناه ﴾ أي إلى المنازلِ العاليةِ للأبرارِ العالمين بتلك الآياتِ العالمين بموجبها ، لكن لا بمحض مشيئتنا من غير أن يكون له دخلٌ في ذلك أصلاً فإنه منافٍ للحكمة التشريعية المؤسسة على تعليق الأجزية بالأفعال الاختيارية للعباد ، بل مع مباشرته للعمل المؤدِّي إلى الرفع بصرف اختياره إلى تحصيله كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ بِهَا ﴾ أي بسبب تلك الآياتِ بأن عملٍ بموجبها فإن اختياره وإن لم يكن مؤثراً في حصوله ولا في ترتب الرفع عليه بل كلاهما بخلق الله تعالى لكن خلقه تعالى منوطٌ بذلك ألبتة حسب جريان العادة الإلهية ، وقد أشير إلى ذلك في الاستدراك بأن أسند ما يؤدي إلى تقيض التالي إليه حيث قيل : ﴿ ولكنه أخذ إلى الأرض ﴾ مع أن الإخلاق إليها أيضاً مما لا يتحقق عند صرف اختياره إليه بخلقته تعالى كأنه قيل : لو شئنا رفعه بمباشرته لسببه لرفعناه بسبب تلك الآيات التي هي أقوى أسباب الرفع ولكن لم نشأه لمباشرته لسبب تقيضه فترك في كل من المقامين ما ذكر في الآخر تعويلاً على إشعار المذكور بالمطوي كما في قوله

تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾  
وتخصيص كل من المذكورين بمقامه للإيدان بأن الرفع مرادُّ له تعالى بالذات وتفضُّل محض  
عليه لا دخل فيه لفعله حقيقة، كيف لا وجميع أفعاله ومبادئها من نعمه تعالى وتفضلاته،  
وإن تقيضه إنما أصابه بسوء اختياره على موجب الوعيد لا بالإرادة الذاتية له سبحانه كما  
قيل في وجه ذكر الإرادة مع الخير، والمس مع الضر في الآية المذكورة وهو الشرُّ في جريان  
السنة

(104/297)

---

القرآنية على إسناد الخير إليه تعالى وإضافة الشرِّ إلى الغير كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا  
مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ﴾ ونظائره، والإخلاق إلى الشيء الميل إليه مع الاطمئنان به والمرادُّ  
بالأرض الدنيا وقيل: السفالة، والمعنى ولكنه أثر الدنيا الدنية على المنازل السنية، أو  
الضعة والسفالة على الرفعة والجلالة ﴿واتبع هواه﴾ معرضاً عن تلك الآيات الجليلة  
فانحط أبلغ انحطاط وارتد أسفل سافلين وإلى ذلك أشير بقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُ كَمَثَلِ  
الْكَلْبِ﴾ لما أنه أحسن الحيوانات وأسفلها، وقد مثَّل حاله بأحسن أحواله وأذلها حيث  
قيل: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ أي فحاله التي هي مثل في السوء كصفته



في أرذل أحواله وهي حالة دوام اللهث به في حالي التعب والراحة فكأنه قيل: فتردّي إلى ما لا غاية وراءه في الخسة والدناءة، وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية بأن يقال: فصار مثله كمثل الكلب الخ للإيدان بدوام اتصافه بتلك الحالة الخسيسة وكمال استمراره عليها، والخطاب في فعل الشرط لكل أحد ممن له حظ من الخطاب فإنه أدخل في إشاعة فظاعة حاله، واللهث إدلاع اللسان بالتنفس الشديد، أي هو ضيق الحال مكروب دائم اللهث سواء هيجته وأزعجته بالطرد العنيف أو تركته على حاله فإنه في الكلاب طبع لا تقدر على نفخ الهواء المتسخن وجلب الهواء البارد بسهولة لضعف قلبها وانقطاع فؤادها بخلاف سائر الحيوانات فإنها لا تحتاج إلى التنفس الشديد ولا يلحقها الكرب والمضايقة إلا عند التعب والإعياء، والشرطية مع أختها تفسير لما أبهم في المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه، لا محل له من الإعراب على منهاج قوله تعالى:

(105/297)

---

﴿ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ إثر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ وقيل: هي في محل نصب على الحالية من الكلب بناءً على خروجهما من حقيقة الشرط وتحويلهما إلى معنى التسوية حسب تحول الاستفهامين المتناقضين إليه في مثل

قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا ﴾ كأنه قيل: لاهثاً في الحالتين وأياً ما كان فالأظهر أنه تشبيهٌ للهيئة المنتزعة مما اعتراه بعد الانسلاخ من سوء الحال واضطراب القلب ودوام القلق والاضطراب وعدم الاستراحة بمجال من الأحوال بالهيئة المنتزعة مما ذكر من حال الكلب . وقيل : لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فتدلى على صدره وجعل يلهث كالكلب إلى أن هلك .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الحالة الخسيسة منسوبة إلى الكلب أو إلى المنسلخ ، وما فيه من معنى البعد للإيدان يُبعد منزلتها في الخسة والدناءة أي ذلك المثل السيء ﴿ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا ﴾ وهم اليهود حيث أوتوا من نعت النبي عليه الصلاة والسلام وذكر القرآن المعجز وما فيه فصدقوه وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستقبحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿ فاقصص القصص ﴾ القصص مصدرٌ وسُمِّيَ به المفعول كالسلب واللام للعهد والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي إذا تحقق أن المثل المذكور مثل هؤلاء المكذبين فاقصصه عليهم حسبما أوحى إليك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيقفون على جليلة الحال وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال ويعلمون أنك قد علمته من جهة الوحي فيزدادون إيقاناً بك . والجملة في محل النصب على أنها حالٌ من ضمير المخاطب أو على أنها مفعولٌ له أي فاقصص القصص

راجياً لتفكرهم أي أوجاء لتفكرهم . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص



(106/297)

وقال الأوسى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾

كلام مستأنف مسوق لبيان ما ذكر من الانسلاخ وما يتبعه ، وضمير ﴿ رفعناه ﴾ للذي  
وضمير ﴿ ووصى بها ﴾ للآيات ، والباء سببية ، ومفعول المشيئة محذوف هو مضمون  
الجزاء كما هو القاعدة المستمرة ، أي لو شئنا رفعه لرفعناه إلى منازل الأبرار بسبب تلك  
الآيات والعمل بما فيها ؛ وقيل : الضمير المنصوب للكفر المفهوم من الكلام السابق ، أي لو  
شئنا لأزلنا الكفر بالآيات ، فالرفع من قولهم : رفع الظلم عنا وهو خلاف الظاهر جداً وإن  
روي عن مجاهد ، ومثله بل أبعد وأبعد ما نقل عن البلخي .

والزجاج من إرجاع ضميرها للمعصية .

﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي ركن إلى الدنيا ومال إليها ، وبذلك فسره السدي .

وابن جبير ، وأصل الإخلاق اللزوم للمكان من الخلود ، ولما في ذلك من الميل فسره ،

وتفسير الأرض بالدنيا لأنها حاوة لملاذها وما يطلب منها .

وقال الراغب : المعنى ركن إلى الأرض ظاناً أنه مخلد فيها ، وفسر غير واحد الأرض بالسفالة ﴿ واتبع ﴾ في إثارة الدنيا وأعرض عن مقتضى تلك الآيات الجليلة ، وفي تعليق الرفع بالمشيئة ثم الاستدراك عنه بفعل العبد تنبيه كما قال ناصر الدين : على أن المشيئة سبب لفعله المؤدى إلى رفعه وأن عدمه دليل عدمها دلالة انتفاء المسبب على انتفاء سببه ، وأن السبب الحقيقي هو المشيئة ؛ وأن ما نشاهده من الأسباب وسائط معتبرة ف حصول المسبب من حيث إن المشيئة تعلقت به كذلك ، وكان من حقه كما قال أن يقول : ولكنه أعرض عنها ، فأوقع موقعه ما ذكر مبالغة لأنه كناية عنه والكناية أبلغ من التصريح ، وتنبيهاً على ما حملة عليه وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وما أطف نسبة إتيان الآيات والرفع إليه تعالى ونسبة الانسلاخ والإخلاق إلى العبد مع أن الكل من الله تعالى إذفه من تعليم العباد حسن الأدب ما فيه ، ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم : " اللهم إن الخير بيدك والشر ليس إليك " .

(107/297)

---

والزمن مشري لما رأى أن ظاهر الآية مخالف لمذهبه دال على وقوع الكائنات بمشيئة الله تعالى  
أخلد إلى التأويل ، فجعل المشيئة مجازاً عن سببها وهو لزوم العمل بالآات بقريئة  
الاستدراك بما هو فعل العبد المقابل للزوم الآيات وهو الإخلاد إلى الأرض ، أي ولولزمها  
لرفعناه وهو من قبيل نزع الحنف قبل الوصول إلى الماء والمصير إلى الجواز قبل أوانه لجواز أن  
يكون ﴿ لَوْ شِئْنَا ﴾ باقياً على حقيقته و﴿ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ مجازاً عن سببه الذي  
هو عدم مشيئة الرفع بل الإخلاد ، ولم عتمد على عكازته لفوت المقابلة حينئذٍ ، وفي  
"الكشف" أن حمل المشيئة على ما هي مسببة عنه في زعمه ليس أولى من حمل الإخلاد  
على ما هو مسبب عنه في زعمنا كيف وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ استدراك  
لقوله :

﴿ فَنَسَلْخُ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : 175] على أن الإخلاد هو الميل ، والإرادة والميل  
ونحوهما من المعاني ليست من أفعال العباد بالاتفاق نعم الجزم المقارن من فعل القلب فعل  
القلب عندهم ، ثم قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ [الأعراف : 178] وقوله  
تعالى : ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ [الأعراف : 179] يؤكدان ما عليه أهل السنة أبلغ تأكيد  
ولكن الزمن مشري لا يعباً بذلك ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ وهو الحيوان المعروف وجمعه  
أكلب وكلاب وكلابات كما قال ابن سيده وكليب كعبيد وهو قليل ويجمع أكلب على  
أكلب ؛ وبه يضرب المثل في الخساسة لأنه يأكل العذرة ويرجع في قيئه والجيفة أحب إليه من

اللحم الغريض نعم هو أحسن من الرجل السوء ، ومما ينسب إلى الشافعي رضي الله تعالى  
عنه :

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة . . .

وليتنا ما نرى ممن نرى أحداً

إن الكلاب تهدأ في مراتبها . . .

والناس ليس بهاد شرهم أبداً

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن الفقيه منصور أنه كان نشد لنفسه :

الكلب أحسن عشرة . . .

وهو النهاية في الحساسة

ممن ينازع في الريا . . .

سنة قبل أوقات الرياسة

(108/297)

---

والمثل بمعنى الصفة كما قال غير واحد فصفته كصفة الكلب ، وقيل المراد أنه كالكلب في

الحسنة ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ أي شددت عليه وطرده ﴿ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكُهُ ﴾ على حاله

﴿ يَلْهَثُ ﴾ أي أنه دائم اللهث على كل حال ، واللهث ادلاع اللسان بالنفس الشديد وذلك طبع في الكلب لا يقدر على نغص الهواء المتسخن وجلب الهواء البارد بسهولة لضعف قلبه وانقطاع فؤاده بخلاف سائر الحيوانات فإنها لا تحتاج إلى النفس الشديد ولا يلحقها الكرب والمضايقة إلا عند التعب والإعياء ، وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية بأن يقال : فصار مثله كمثل الخ للإيدان بدوام اتصافه بتلك الحالة الخسيسة وكمال استمراره عليها ، والخطاب في فعلي الشرط لكل أحد ممن له حظ من الخطاب فإنه أدخل في إشاعة فظاعة حاله ، والجملتان الشرطيتان قيل لا محل لهما من الإعراب لأنهما تفصيل لما أجمل في المثل وتفسير لما أبهم فيه ببيان وجه الشبه على منهاج قوله تعالى : ﴿ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59] أثر قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ [آل عمران : 59] وقيل : إنهما ف محل النصب على الحالية من الكلب بناءً على تحولهما إلى معنى التسوية كما تحول الاستفهام إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ [البقرة : 6] كأنه قيل لاهتأ في الحالين ، والجملة الشرطية كما قدمنا تقع حالاً مطلقاً ، وقال صاحب الضوء : إنها لا تكاد تقع كذلك بتمامها بل إذا أريد وقوعها حالاً جعلت خبراً عن ذي الحال نحو جاءني زيد وهو أن تسأله يعطك فتجعل جملة اسمية مع الواو لأن الشرط لصدارته لا يكاد يرتبط بما قبله إلا أن يكون هناك فضل قوة .

نعم جوز إذا أخرجتها عن حقيقتها سواء عطف عليها النقيض وحينئذٍ يجب ترك الواو  
كما فيما نحن فيه أو لم يعطف وحينئذٍ يجب الواو لئلا يحصل الالتباس بالشرط الحقيقي نحو  
أتيك وإن لم تأتني ، والتشبيه قيل من تشبيه المفرد بالمفرد ، وقيل وعليه كثير من المحققين أنه  
تشبيه للهيئة المنتزعة مما عراه بعد الانسلاخ من سوء الحال واضطراب القلب ودوام القلق  
والاضطراب وعدم الاستراحة مجال من الأحوال بالهيئة المنتزعة مما ذكر ف حال الكلب ،  
وجاء وقد أشرنا إليه سابقاً أن بلعام لما دعا على موسى عليه السلام خرج لسانه فتدلى  
على صدره وجعل يلهث كالكلب إلى أن هلك فوجه الشبه إما عقلي أو حسي ﴿ ذلك  
﴿ إشارة إلى وصف الكلب أو المنسلخ من الآيات وما فيه من الإيدان بالبعد لما مر غير  
مرة .

﴿ مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ يريد كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما  
أهل مكة كانوا يتمنون هادياً يهديهم وداعياً يدعوهم إلى طاعة الله تعالى ثم لما جاءهم من لا  
يشكون في صدقه وأمانته كذبوه وأعرضوا عن الآيات ولم يؤمنوا بها أو اليهود كما قال غير  
واحد حيث قرأوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة وذكر القرآن المعجز وما فيه



فصدقوه وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به  
فانسأخوا من حكم التوراة أو الأعم من هؤلاء وهؤلاء من كل من اتصف بهذا العنوان كما  
في الخازن وبه أقول ، ويدخل اليهود في ذلك دخولاً أولياً ﴿ فاقصص القصص ﴾ القصص  
مصدر سمي به المفعول كالسلب ، واللام فيه للعهد ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها  
أي إذا تحقق أن المثل المذكور مثل هؤلاء المكذبين فاقصص ذلك عليهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ  
﴿ فينزعرون عما هم عليه من الكفر والضلال ، والجملة في موضع الحال من ضمير  
المخاطب أو في موضع المفعول له أي فاقصص راجياً لتفكرهم أو رجاءاً لتفكرهم . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(110/297)

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى : ﴿ ولو شئنا لرفعناها بها ﴾

أفاد أن تلك الآيات شأنها أن تكون سبباً للهداية والتزكية ، لو شاء الله له التوفيق وعصمه  
من كيد الشيطان وقتته فلم ينسأخ عنها ، وهذه عبرة للموفقين ليعلموا فضل الله عليهم في  
توفيقهم ، فالمعنى : ولو شئنا لزاد في العمل بما آتيناها من الآيات فلرفعها الله بعلمه .

والرفعة مستعارة لكمال النفس وزكائها ، لأن الصفات الحميدة تُخيل صاحبها مرتفعاً على من دونه ، أي لو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلاً وزكاءً وتميزاً بالفضل ، فمعنى لرفعناه ليسرنا له العمل بها الذي يشرف به .

وقد وقع الاستدراك على مضمون قوله : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ بذكر ما يناقض تلك المشيئة الممتعة ، وهو الاستدراك بأنه انعكست حاله فأخذ إلى الأرض ، أي ركن ومال إلى الأرض ، والكلام تمثيل لحال المتلبس بالنقائص والكفر بعد الإيمان والتقوى ، مجال من كان مرتفعاً عن الأرض فنزل من اعتلاء إلى أسفل ، فبذكر الأرض علم أن الإخلاء هنا ركون إلى السفلى أي تلبس بالنقائص والمفاسد .

واتباع الهوى ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة ، على ما يدعو إليه الحق والرشد ، فالاتباع مستعار للاختيار والميل ، والهوى شاع في المحبة المذمومة الخاسرة عاقبتها .

وقد تفرع على هذه الحالة تمثيله بالكلب اللاهث ، لأن اتصافه بالحالة التي صيرته شبيهاً مجال الكلب اللاهث تفرع على إخلاءه إلى الأرض واتباع هواه ، فالكلام في قوة أن يقال : ولكنه أخذ إلى الأرض فصار في شقاء وعناد ، كمثل الكلب الخ .

واستعمال القرآن لفظ المثل بعد كاف التشبيه مألوف بأنه يراد به تشبيه الحالة بالحالة ، وتقدم قوله تعالى ؛

﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ في سورة البقرة ( 17 ) ، فلذلك تعين أن التشبيه هنا لا يخرج عن المعارف في التشبيه المركب ، فهذا الضال تحمل كلفة اتباع الدين الصالح وصار يطلبه في حين كان غير مكلف بذلك في زمن الفترة فلقى من ذلك نصباً وعناء ، فلما حان حين اتباع الحق ببعثة محمد تحمل مشقة العناد والإعراض عنه في وقت كان جديراً فيه بأن يستريح من عنائه ؛ لحصول طلبته فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الموصوف باللهث ، فهو يلهث في حالة وجود أسباب اللهث من الطرد والإرهاب والمشقة وهي حالة الحمل عليه ، وفي حالة الخلو عن ذلك السبب وهي حالة تركه في دعة ومسالمة ، والذي ينبه على هذا المعنى هو قوله ﴿ أو تركه ﴾ .

وليس لشيء من الحيوان حالة تصلح للتشبيه بها في الحالتين غير حالة الكلب اللاهث ، لأنه يلهث إذا أُتعب وإذا كان في دعة ، فاللهث في أصل خلقته .

وهذا التمثيل من مبتكرات القرآن فإن اللهث حالة تؤذن بخرج الكلب من جراء عسر

تنفسه عن اضطراب باطنه وإن لم يكن لا اضطراب باطنه ، سبب آت من غيره فمعنى ﴿

إن تحمل عليه ﴾ إن تطارده وتهاجمه .

مشتق من الحَمَل الذي هو الهجوم على أحد لِقَتاله ، يقال حمل فلانٌ على القوم حملة شعواء  
أو حملة منكرة .

وقد أغفل المفسرون توضيحه ، وأغفل الراغب في " مفردات القرآن " هذا المعنى لهذا  
الفعل .

فهذا تشبيهٌ تمثيل مُركب منزعجةٌ فيه الحالة المشبهة والحالة المشبه بها من متعدد ، ولما ذُكر  
﴿ تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ في شق الحالة المشبه بها ، تعين أن يكون لها مقابل  
في الحالة المشبهة ، وتتقابل أجزاء هذا التمثيل بأن يشبه الضال بالكلب ، ويشبه شقاؤه  
واضطراب أمره في مدة البحث عن الدين بلهث الكلب في حالة تركه في دعة ، تشبيه  
المعقول بالحسوس ، ويشبه شقاؤه في إعراضه عن الدين الحق عند مجيئه بلهث الكلب في  
حالة طرده وضربه تشبيه المعقول بالحسوس .

(112/297)

---

وقد أغفل هذا الذين فسروا هذه الآية فقرروا التمثيل بتشبيه حالة بسيطة بمجالة بسيطة في  
مجرد التشويه أو الخسة .

فيؤول إلى أن الغرض من تشبيهه بالكلب إظهار خسة المشبه ، كما درج عليه في

"الكشاف" ، ولو كان هذا هو المراد لما كان لذكر ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرِكْهُ يَلْهَثُ ﴾ كبير جدوى ، بل يقتصر على أنه تشويه الحالة المشبه بها ، لتكسب الحالة المشبهة تشويها ، وذلك تقصير في حق التمثيل .

والكلب حيوان من ذوات الأربع ذو أنياب وأظفار كثير النبح في الليل قليل النوم فيه كثير النوم في النهار ، يألف من يعاشره ويحرس مكانه من الطارقين الذين لا يألفهم ، ويحرس الأنعام التي يعاشرها ، ويعدو على الذئب ، ويقبل التعليم ، لأنه ذكي .  
ويلهث إذا أتعب أو اشتد عليه الحر ، ويلهث بدون ذلك ، لأن في خلقته ضيقاً في مجاري النفس يرتاح له باللهث .

وجملة : ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرِكْهُ يَلْهَثُ ﴾ في موضع الحال من الكلب والخطاب في ﴿ تَحْمِلْ ﴾ وتترك لمخاطب غير معين ، والمعنى إن يحمل عليه حامل ، أو يتركه تارك .  
واللهث : سرعة التنفس مع امتداد اللسان لضيق النفس ، وفعله بفتح الهاء وبكسرهما ، ومضارعه بفتحها لا غير ، والمصدر اللهث بفتح اللام والهاء ويقال للهات بضم اللام ، لأنه من الأدواء ، وليس بصوت .

جملة مبيّنة لجملة : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ الآيتين ، والمثال الحال أي ذلك التمثيل مثل للمشركين المكذبين بالقرآن ، تشبيهه بليغ ، لأن حالة الكلب المشته شبهة بحال المكذبين وليست عينها .

والإشارة بذلك إلى ﴿الذي آتيناه آياتنا﴾ ، وهو صاحب القصة ، هو مثل المشركين ،  
لأنهم شابوه في أنهم أتوا القرآن فكذبوا به ، فكانت حالهم كحال ذلك المكذب ، والأظهر  
أن تكون الإشارة إلى المثل في قوله : ﴿ كمثل الكلب ﴾ أي حال الكلب المذكورة كحال  
المشركين المكذبين في أنهم كانوا يودون معرفة دين إبراهيم ، ويتمنون مساواة أهل الكتاب  
في العلم والفضل ، فكانوا بذلك في عناء وحيرة في الجاهلية فلما جاءهم رسول منهم  
بكتاب مبين انتقلوا إلى عناء معاندته كقوله تعالى : ﴿ أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب  
لكننا أهدي منهم ﴾ [ الأنعام : 157 ] وهذا تأويل ما روي عن عبادة بن الصامت أن آية  
﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ﴾ إلى آخرها نزلت في قريش .  
وُفِرْع على ذلك الأمر بقوله : ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أي اقصص هذه  
القصة وغيرها ، وهذا تذييل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن ،  
فإن في القصص تفكراً وموعظة ، فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم ، لأن للأمثال  
واستحضار النظائر شأناً عظيماً في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس  
الذاهلة أو المتغافلة ، لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس ،

بجلاف التذكير الجرد عن التنظير بالشيء المحسوس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير

﴿ 8 ص ﴾

(114/297)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَكُوشِنَا لِرَفْعِنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾

وهنا أمران اثنان ، الرفعة : وهو العلو والتسامي ، ويأتي بعدها الأمر الثاني وهو الإخلاق

إلى الأرض أي إلى التسفل ، والفعالان منسوبان لفاعلين مختلفين .

﴿ وَكُوشِنَا لِرَفْعِنَاهُ ﴾ ، والفعل رفع هنا مسند لله . ولكنه اختار أن يخلد في الأرض .

وجاء الأمر كذلك لأن الرفعة من المعقول أن تنسب لله . لكن التسفل لا يصح أن ينسب لله

، وكان كل فعل هو بأمر صاحب الكون . وربنا هنا يرفع من يسير على المنهج ، وحين يقول

الحق تبارك وتعالى ﴿ وَكُوشِنَا ﴾ أي أنها مشيئتنا . فلو أردنا أن نرفعه كانت المشيئة

صالحة ، لكن هذا الأمر ينقض الاختيار ، والحق يريد أن يُبقي للإنسان الاختيار ، فإن

اختار الصواب فأهلا به وجزاؤه الجنة ، وإن أراد الضلال فلسوف يلقى العذاب الحق ،

ولمزيد من الاعتبار بقصص القرآن اقرأ معي قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام : ﴿

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا \* قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿ [الكهف: 65-66]

ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأب على أن عبداً من عباد الله تقرب إلى الله فاتبعه موسى ليقول له: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ .

وفي هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم ممن أعطاه الله العلم . وجاء القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم .

وماذا قال العبد الصالح؟ لقد عذر موسى وقال: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا \* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ [الكهف: 67-68]

(115/297)

---

أي أنك يا موسى لن تصبر لا لنقص فيك ، بل لأنك ستري أموراً لا تعرف أخبارها . لكن سيدنا موسى قال له لا: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ وأصرّ موسى أن يتبع العبد الصالح وأنه لن يعصي له أمراً ، واشترط العبد الصالح ألا يسأله سيدنا موسى عن شيء إلا أن يحدثه العبد الصالح . وكان كل ذلك مجرد كلام نظري ، فيه أخذ ورد ، وحين جاء الواقع تغير الموقف تماما . بعد أن ركبوا في السفينة وخرقها العبد الصالح ، لم يصبر سيدنا موسى



بل قال: ﴿ . . . لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف: 71]

وهكذا أثبتت التجربة العملية أن موسى لم يصبر على أفعال العبد الصالح، وحين ذكره العبد الصالح بما وعد به من الأيسال، تراجع موسى، وتكرر السؤال، وتكرر التذكير. إلى أن أوضح العبد الصالح لموسى كل أسرار ما لم يحط به علما وهنا يقول الحق: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ لماذا؟ . لأن مشيئة الله مشيئة مطلقة، يفعل ما يريد، ولكنه سبحانه قد سبق منه أن جعل للاختيار جزاءً، لهذا لم يرفعه مع أنه مخالف، لأنها سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وسنة الله أن من عمل عملاً طيباً يثبه الله عليه . ومن عمل سوءاً يعاقبه، ومشيئته سبحانه مطلقة، ولا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه .

والمقضى مشيئة الله فهو يعذب المذنب بعدله ويثيب الطائع بفضله، وله سبحانه مطلق الإرادة فهو عزيز، وحكيم في كل فعل . ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ . . . ﴾ [الأعراف: 176]

﴿ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ، أي أنه اختار أن ينزل إلى الهاوية، رغم أن الحق هدى الإنسان وبين له طريق الخير ليسلكه فيصعد إلى العلو، والحق يقول: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفْرًا بِآيَاتِهِ وَإِذَا نَادَى السَّمْعُ وَالْبُصُورُ وَالْأَنْفُ وَالْأَبْصَارُ وَالْأَفْئِدَةُ سَبِّحُوا لَهُ مِمَّا حَفَّتْ جَنَابُهُ الرَّبُّ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَلَوًّا مُبِينًا ﴾ [الأعراف: 176] . . . ﴿ عَلَيْكُمْ [ الأنعام: 151]

---

ونخطئ حين نفهم أن " تعالوا " بمعنى " أقبلوا " فقط وهذا فهم ناقص ، إنها دعوة للقبول وإلى العلو ، لأنه سبحانه وتعالى يشرع لنا حتى لا نلزم منهج الأرض السفلى . بل نرتقي ونأخذ منهج الله الذي يضمن لنا العلو . وكأنه سبحانه يقول : تعالوا وتساموا في أخذ منهجكم من الله العلي الأعلى وإياكم أن تأخذوا منهجكم مما وضعه البشر ويناقض ما جاء في شرع الله ، لأن في هذا تسفلا ونزولا إلى الحضيض . ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ . . . ﴾ [ الأعراف : 176 ]

ويقال : " حملت على الكلب " ، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده وتنهره ، فهذا تفسير لقوله : " تحمل عليه " ، أي أنك تحمل عليه طردا أو زجرا ؛ لذلك يلهث ، وأن تركت الكلب بدوح حمل عليه طردا أو زجرا فهو يلهث ، لأن طبيعته أنه لاهث دائما ، وهذه الخاصية في الكلب وحده ، حيث يتنفس دائما بسرعة مع إخراج لسانه .

(117/297)

---

ونعلم أن الحيوانات لا تلهث إلا أن فرعت فتجري ، لتفوت من الألم أو من العذاب الذي يترصدها من كائن آخر ، وحين يجري الحيوان فهو يحتاج لطاقة ، فيدق القلب بشدة ليدفع الدم بما فيه من غذاء إلى كل الجسم ، ولا بد للقلب أن يتعاون مع الرئة التي تمد الدم بالهواء . ونلاحظ أن الكائن الحي حين يجلس برتابة فهو لا يلحظ تنفسه ، لكن إذا جرى يلحظ أن تجويف الصدر أو سعة الصدر تنقبض وتنسبط لتسحب " الأوكسجين " من الهواء لتصل به للدم بكمية تناسب الحركة الجديدة ، فيحاول أن يتنفس أكثر . ولا تفعل الحيوانات مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجمة ، لكن الكلب وحده هو الذي يفعلها ، جائعاً أو شعبان ، عطشان أو غير عطشان ، مزجوراً أو غير مزجور ، إنه يلهث دائماً . ولماذا يشبهه سبحانه بالكلب اللاهث ؟ ؛ لأن الذي يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً ؛ لأنه متبع لهواه ، وتتحكم فيه شهواته . وحين تتحقق له شهوة الآن ، يتساءل هل سيفعل مثلها غداً ؟ وتملك الشهوة كل وقته ، لذلك يعيش في كرب مستمر ، لأنه يخاف أن يفوته النعيم أو أن يفوت هو النعيم ، ويصير حاله كحال الكلب يلهث آمناً أو غير آمن ، جائعاً أو غير جائع ، عطشان أو غير عطشان .

﴿ . . . فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 176]

هكذا يكون مصير من كذب بالآيات .

وقول الحق: ﴿ فاقصص القصص ﴾ يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً ، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتي سبحانه بلقطة جديدة ، لتعدد ما في القصة الواحدة من العبر ، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لقال لنا روايته مرة واحدة . ونجد في القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل ، ومن قصص المبطلين مع المحقين ، ومن قصص المعاندين مع الرسل ؛ لأن القصة أمر واقعي ، والتقنين للمناهج أمر لفظي ، فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع ؛ لأن واقع الحياة يعطي القصة القولية حرارة وسخونة فلا يظل المنهج مجرد كلام نظري معزول عن الواقع .

وهكذا بين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية ، أنه سبحانه قد أنزل علم منهجه بواسطة الرسل إلى بعض خلقه ، فمنهم من يأخذ منهج الله بالاستيعاب أولاً ، وتوظيف ما علم ثانياً ، وبذلك يرتفع من منطلق الأرض إلى منطلق السماء . ومن يعطيه الله ذلك المنهج ، ما كان يصح له أن يترك ارتفاعه إلى السماء ، ليهبط إلى مستوى الأرض . وهذا ما يفعله البشر حين يقننون لأنفسهم ، ويضعون نظم الحياة على وفق هواهم ، وعلى وفق نظمهم ، ويتركون

منهج الله الذي خلقهم وصنعهم ووضع لهم قانون صياتهم .

وهذا كلام نظري له واقع في ابن " باعوراء " ، هذا الذي آتاه الله العلم ، ولكنه أخلد في الأرض ولم يتبع ما علم ، فانسخ من المنهج كما تنسلخ الشاة من جلدها وقال فيه الحق :  
﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ . . . ﴾ [ الأعراف :

[ 176

(119/297)

---

ومن يريد أن يرفعه الله إلى السماء بالوحي بالمنهج ثم يهبط إلى الأرض نجد الحق سبحانه وتعالى يمثل حاله مجال الكلب ، مع الفارق بين الاثنين ؛ لأن الكلب يلهث غريزة . فهو غير مذموم حين يلهث وهو مطرود ، ويلهث غير مطرود فهذه غريزة فيه ، ولا يذم على هذه ولا على تلك ، لكن الإنسان الذي فطره الله على حب الخير وميزه غرائزه بمنهج عقلي يصون حركته ما كان يصح له أن يفعل ذلك ولا ينبغي أن تقولوا : وما ذنب الكلب في أنه يلهث ، ويضرب به المثل في الكفر ؟ لأن الكلب يفعلها غريزة ، وهو بغير تكليف فيفعل ما يشاء ، أما الإنسان الذي ارتفع بكفره وميزه الله بأن يختار بين البديلات ما كان يصح له أن يصل إلى هذا المستوى ، ومثل هذا السلوك في الكلب محمود فيه لأن طبيعته هكذا ، وإياك أن تقول

: لماذا ربنا يضرب المثل بأشياء وما ذنبها هي ؟

والحق - سبحانه - هو القائل عن اليهود :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . . . ﴾ [الجمعة

: 5]

هل الحمار حين يحمل أسفاراً يستحق الذم لأنه لم يفقه ما في الأسفار ؟ الجواب لا ؛ لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما في الأسفار ، بل مهمته أن يحمل ما عليه فقط ، وكان الحق يقول : لا تكونوا مثل الحمار الذي يكتفي من الخير بأن يحمله ، ولكن أريد منكم أن تحملوا المنهج وأن تنفعوا بما يحويه من التشريع . إذن فهذه الأمثلة ليست ذماً للكلب ، ولا هي ذماً للحمار . إنما ذم لمن يشبه بهما ؛ لأنه نزل إلى مرتبة لم يردده الله لها ، وأراد الله المثل فيها بشيء لا تدم منه ، ولكنه مذموم من الإنسان .

(120/297)

---

والإنسان الذي لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة في الحياة ، حتى وإن كان في نعمة ، لأنه معزول عن الله ، وما دام معزولاً عن الله تجده دائماً التساؤل : أيدوم لي هذا النعيم أولاً أيدوم ؟ ويعيش دائماً في قلق ورعب مخافة أن يفوت النعيم أو الأيدوم له النعيم ، ومثله

كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعبته . ﴿ ذَلِكُمْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ﴾  
فاقص القصص لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿

إذن حين يضرب الله لنا مثلاً من الأمثال الواقعية في هذا الرجل المسمى "ابن باعوراء" ،  
فسبحانه يعطينا واقعاً لما حدث بالفعل .

أي أن الذي يريد الله أن يرفعه بما علمه من منهج فانسح من دينه فهو مثل القوم الذين كذبوا  
بآيات الله ، ولستم بدعاً في هذا ، فالله يريد أن يرفعكم بمنهج السماء وأنتم تخلدون إلى  
الأرض ، وقد حدث هذا مع ابن باعوراء ، وكلمة "مثل" إذا سمعتها هي من مادة "ال" م  
وال "ث" وال "لام" ، وتنطق كما يأتي : إما أن تنطقها مثل "يكسر الميم وسكون الثاء" ،  
وإما أن تنطقها مثل "بفتح الميم والثناء" ، والمثل هو المشابه والنظير ، فتقول : فلان مثل  
فلان في الكرم ، في العلم ، في الطول ، في العرض ، وبذلك أعطيت تشبيه ما هو مجهول  
للمخاطب بما هو معلوم له .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . . . ﴿ [الشورى : 11] ﴾

أي لا أحد يشبهه في شيء ؛ لأنه منزه في الذات والصفات والأفعال .  
وأيضاً تقول : هذا مثل هذا ؛ أي أن فلاناً المشبه به يكون أعلى منه فيما يشبهه به ، لكن  
الناس لا تعرف ذلك . وإن كان المشبه به ذائع الصيت ؛ بحيث يجري اسمه على كل لسان ؛

فنحن نقول: إنه مَثَلٌ؛ كقولنا عن الكريم: "هو حاتم" لأن شهرة حاتم في الكرم جعلته مَثَلًا

(121/297)

---

والفرق أنك إذا قلت في فلان إنه يشبه حاتمًا في الكرم، فقد تكون أول من يخبر عنه، ولك أن تأتي بواحد له شهرة ذائعة الصيت على كل لسان؛ فهذا مَثَلٌ، كأن تقول: مَثَلُ حاتم في الكرم، أو مَثَلُ عنترَةَ في الشجاعة. والمَثَلُ في الذكاء إياس، لأن كل واحد منهم مشهور بصفة، ولذلك لما مدح الشاعر الخليفة قال فيه: إقدام عمرو (في شجاعته) في سماحة حاتم (أي الطائي) في حلم أحنف (الأحنف بن قيس وكان مشهوراً بالحلم عند العرب) وفي ذكاء إياس. وقال رجل من القوم: كيف تُشَبَّهُ الأمير بصعاليك العرب؟ إن الأمير فوق من ذكرت جميعاً.

ما عمرو بالنسبة للأمير؟!

وما حاتم بالنسبة للأمير؟!

فقال الشاعر:

وشبهه المداح في الباس والندى . . . بمن لوراه كان أصغر خادم



ففي جيشه خمسون ألفاً كعنتر . . . وفي خُزْنِه ألف ألف كحاتم  
أي أن عنده أمثال حاتم وأمثال عنتر . فما كان منه إلا أن أسعفته ذاكرته وبديهيته ؛ فقال  
:

لا تنكروا ضربي له من دونه . . . مثلاً شروداً في الندى والباس  
فالله قد ضرب الأقل لنوره . . . مثلاً من المشكاة والنبراس  
وكان الشاعر يقول : أنا ضربت بهم المثل لأنهم أصبحوا المثل المشهور والأمثال لا تتغير .  
وأنت تقدر في المثل ، فقد تقول : فلان حاتم ، وحاتم انقضى عمره ، لكنه قد صار مثلاً  
مشهوراً في التاريخ ، أو تقول : " فلان عنتر " ، أو " فلان إياس " ، وفي ذلك يرتقي التشبيه ،  
بأن صار المشبّه به مشهوراً معلوماً متوارداً على الألسنة وكل واحد يشبه به .

(122/297)

---

ويعرفون المثل بأنه : قول شبّه مورده بمضربه ، أي أنك تشبه الحالة التي قيل فيها المثل أولاً ،  
ومثال ذلك : حينما أرسل عظيمٌ من عظماء العرب خاطبةً اسمها " عصام " لتخطب له أمّ  
إياس ؛ فقد بلغه أنها جميلة وأنها وأنها ، فقال : اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف ،  
فذهبت الخاطبة وخلت أم الفتاة بينها وبينها ، وقالت لها : يا هذه ، هذه خالتك جاءت

لتنظر إلى بعض أمرك فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجهه وخلق ، وناطقها فيما استنطقك به . ثم أرسلت إلى خباء ، ونظرتها كلها وفحصتها فحصاً شاملاً . فلما عادت إلى من أرسلها ، وكان ينتظرها في شوق وكأنه على أحر من الجمر ، قال لها : " ما وراءك يا عصام ؟ " قالت : " أبدي المخض عن الزبد " أي أن الرحلة جاءت بفائدة . وأصبح العرب بعد ذلك كلما أرسلوا رسولا ذكرا أو أنثى أو مشى أو جمعا ؛ وبعد أن يعود إليهم ويستعملوا منه عن نتيجة رحلته ، فهم يقولون له : " ما وراءك يا عصام ؟ " ، ولو كان رجلاً ، لأن الأمثال لا تغير . وكل شيء يجدي الجهد فيه يقال عنه : " أبدي المخض عن الزبد " .

فحين ينجح الولد ويأتي بالمجموع المناسب يقال : " أبدي المخض عن الزبد " .  
والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾ [البقرة: 26]

وكانوا قد قالوا : كيف يضرب الله المثل ببعوضة ؛ وقال سبحانه : ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ . . . ﴾ [الحج: 73]

لقد فهموا قوله: " فما فوقها " أنها أكبر منها ، والمراد غير ذلك ؛ لأنه سبحانه ضرب المثل بالأقل ؛ لذلك قال : " فما فوقها " من باب فما فوقها في الاحتقار منكم والقلة في الحجم مما تنكرونه ، وهو الضالة . وحتى تفهم ذلك نسمع أحياناً : فلان مريض . ويراد السامع وفلان فوقه في المرض . ونجد " فوقه " هنا لا تعني المرض الأقل ، بل المرض الأكثر شدة :

﴿ . . . ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [

الأعراف : 176 ]

والكلام موجه لليهود : أي أتم يا بني إسرائيل مثلكم مثل الرجل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، ولقد جاءت لكم في التوراة بشارة بمحمد ، ووصفته بسمات وعلامات ، بحيث إذا رآه الإنسان يعرف أنه الرسول الذي جاء ذكره في التوراة ، ويعرفه الواحد منكم كما يعرف ابناً له ، لأنه مذكور لكم بنصه ونعته وشكله وطوله ، وعرضه . وكنتم تستفتحون به على العرب . لكنكم امتنعتم عن التصديق بالآيات ، وعندما جاءكم بما عرفتم عنه كفرتم به . وصار مثلكم كمثل الرجل الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها . ﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ﴾

وهم بعنادهم وغيهم وكفرهم قد كذبوا بالآيات الكونية التي يراها البصر ؛ السماء والأرض والشمس ، والآيات المعجزات التي ثبت بها الرسول صدق بلاغه عن الله ، وكذلك آيات القرآن التي تحمل منهج الله .

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ ﴿ وعليك يا محمد أن تقصص القصص وأن تقول ما حدث وما كان ، وأنت لن تحكي الأمر التافه ، بل ستحكي ما يقال له قصص ويكون فيه عبرة ؛ تنفع بها حركة المجتمع .

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، ونعلم أن القرآن قد جاء فيه الأمر بالتفكر والتذكر والتدبر .

والتفكر - كما نعرف - هو عمل العقل في المقارنات بين البديلات المتنوعة ليرجح بدلاً على بديل فتعقل به القضايا .

(124/297)

---

والتذكر يعني إن غفلت عن هذا فتذكره ، حتى يزيج عنك الغفلة عن القضية المعلومة .  
أما التدبر فهو أيضاً بحث عقلي . فلا تنظر إلى واجهة الأشياء ، بل إلى كلية الأشياء من جميع جهاتها بواجهة وجوانب وخلف ، وما ينتج عنها . وعلى سبيل المثال يقال : انظر خلف العبارة ، لتجد المعنى الخفي فيما يقال . والمثال في قول الحق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾ [البقرة: 26]

وحيث تفكرنا وتدبرنا وجدنا أن معنى " فما فوقها " لا يعني الأعلى منها في القوة ، بل الأعلى

منها في الضعف الذي أنكروه . لذلك لا يجب أن تنظر إلى معنى ومدلول اللفظ حسب ظاهره فقط ، بل لما خلف اللفظ ، ومعطياته .

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أي يتفكرون في أسلوب توجيه المنهج ؛ لعلهم يؤمنون وهذه فائدة القصص . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(125/297)

فائدة

قال التستري :

وقوله تعالى : ﴿ وَكُوشِنَا لِرَفْعِنَاهُ بِهَا ﴾ [ 176 ] يعني بلعام بن باعوراء ، ﴿ ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه ﴾ [ 176 ] وأعرض لمتابعة هواه ، وأن الله تعالى قسم الأعضاء في الهوى لكل عضو حظاً منه ، فإذا مال عضو من أعضائه إلى الهوى يرجع ضره إلى القلب .

واعلموا أن للنفس سراً ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ [ النازعات : 24 ] .

فقال : كيف نسلم من الهوى ؟ فقال : من ألزم نفسه الأدب سلم منه ، فإنه من قهر نفسه

بالأدب عبد الله عزَّ وجلَّ بالإخلاص .

قال : وللنفس سبع حجب سماوية ، وسبع حجب أرضية ، فكلما يدفن العبد نفسه أرضاً سما قلبه سماء ، فإذا دفن النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش .  
وقد حكى عن كهمس أنه كان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة ، وكان يسلم بين كل ركعتين ،  
ثم يقول لنفسه : قومي يا مأوى كل شر ما رضيت عنك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير  
التستري ص 69 . 70 ﴾

(126/297)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾

الضمير في : رَفَعْنَاهُ الظاهر عودُه على الذي أوتي الآيات ، والمجرور عائِد على الآيات  
والتقديرُ : ولو شئنا رفعناه للعمل بها ، أي : رفعناه درجة بتلك الآيات .

قال ابن عباس : لرفعناه بعمله .

وقيل : المنصوب يعودُ على الكفر المفهوم ممَّا سبق ، والمجرور على الآيات ، أي : لرفعنا

الكفر بما ترى من الآيات .

قال مجاهد وعطاء .

وقيل : الضمير الجرور يعود على المعصية والمنصوب على " الذي " والمراد بالرفع : الأخذُ

، كما تقول : رُفِعَ الظَّالِمُ ، أَي قُلِعَ وَأَهْلِكَ أَي : لأهلكناه بسبب المعصية .

وهذه أقوال بعيدة ، ولا يظهر الاستدراك إلا على الوجه الأوّل .

قوله ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ " أَخْلَدَ " أي : ترامى بنفسه .

أي : ركن إلى الدنيا ومال إليها .

قال أهل العربية : أصله من الإخلاق ، وهو الدوامُ واللزومُ ، فالمعنى : لَزِمَ المَيْلَ إِلَى الْأَرْضِ

قال مالك بن نُويرة : [ الطويل ]

2622 - بِأَبْنَاءِ حَيٍّ مِنْ قِبَائِلِ مَالِكٍ . . .

وعمرُ بنِ يَرْبُوعٍ أَقَامُوا فَأَخْلَدُوا

ومنه يقال : أَخْلَدَ فلان بالمكان ، إذا لزم الإقامة به .

قال ابن عَبَّاسٍ : يريد مال إلى الدُّنيا .

وقال مقاتل : رَضِيَ بالدُّنيا .

وقال الزجاج : ركن إلى الدُّنيا .

قال الواحدِيُّ فَهؤلاءِ فَسَّرُوا " الْأَرْضَ " في هذه الآية بالدنيا ؛ وذلك لأنَّ الدنيا هي الْأَرْضُ ؛

لأن ما فيها من القفار والضياء كلها أرض ، وسائر أمتعتها من المعادن والنبات والحيوان  
يستخرج من الأرض وإنما يقوى ويكمل بها ، فالدنيا كلها هي الأرض فصلح أن يعبر عن  
الدُّنيا بالأرض .

قوله : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ﴾ ، الجملة الشرطية في  
محل نصب على الحال ، أي : لاهثاً في الحالتين .

قال بعضهم : وأما الجملة الشرطية فلا تكاد تقع بتمامها موضع الحال .

فلا يقال : جاء زيدٌ إن يسأل يُعط .

على الحال ، بل لو أريد ذلك لجعلت الجملة فلا يقال : جاء زيدٌ إن يسأل يُعط فتكون الجملة  
الاسمية هي الحال .

نعم قد أوقعوا الشرطية موقع الجحال ، ولكن بعد أن أخرجوها عن حقيقة الشرط .

(127/297)

---

وتلك الجملة لا تخلو من أن يُعطفَ عليها ما ينقاضها ، أو لم يُعطف ، فالأولُ : يستمرُّ فيه تركُ  
الواو ، نحو : أتيتك إن أتيتني وإن لم تأتني ، إذ لا يخفى أن النقيضين من الشرطين في مثل هذا  
الموضع لا يبقيان على معنى الشرط ، بل يتحولان إلى معنى التسوية ، كالأستفهامين



المتناقضين في قوله: ﴿أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: 6 - يس: 10].

والثاني: لا بدَّ فيه من الواو نحو: أَتَيْتُكَ، وإن لم تأتني؛ لأنه لو تركت الواو فقليل: أَتَيْتُكَ إِنْ لَمْ تَأْتِنِي لِاتَّبَسَ، إِذَا عُرِفَ هَذَا فَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ﴾ من قبيل النوع الأول؛ لأنَّ الحَمْلَ عَلَيْهِ، وَالتَّرْكَ تَقْيِضَانِ.

والكَلْبُ يُجْمَعُ فِي الْقَلَّةِ "أَكْلَبٌ"، وَفِي الْكَثْرَةِ عَلَى "كَلَاتٍ"، وَشَذَّوْا فَجَمَعُوا "أَكْلَبًا" عَلَى "أَكَالِبٍ"، وَ"كِلَابًا" عَلَى "كِلَابَاتٍ"، وَأَمَّا "كَلِيبٌ" فَاسْمُ جَمْعٍ؛ كـ "فَرِيقٌ"، لَا جَمْعَ، قَالَ طَرْفَةُ: [الطويل]

2623 - تَعَفَّقَ بِالْأَرْضِ لَهَا وَأَرَادَهَا . . .

رِجَالٌ فَبَذَتْ نَبْلَهُمْ وَكَلِيبٌ

وَتَقَدَّمَ هَذِهِ الْمَادَّةُ فِي الْمَائِدَةِ.

ويقال: لَهَثَ يَلْهَثُ بفتح العين في الماضي والمضارع "لَهَثًا"، و"لُهَثًا" بفتح اللام وضمها، وهو خروج لسانه في حالة راحته وإعيائه، وأمَّا غيره من الحيوان، فلا يلهث إلا إذا أعييا، أو عطش، والذي يظهر أن هذه الجملة الشرطية لا محل لها من الإعراب، لأنها مفسرة للمثل المذكور، وهذا معنى واضح لقولهم في قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل

عمران: 59] أن الجملة من قوله من تراب مفرقة لقوله تعالى: ﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ

كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: 59].

قوله: ﴿ ذَلِكُمْ مَثَلُ الْقَوْمِ ﴾ يجوز أن يُشارَ به: ذلك إلى صفة " الكلب " ، ويجوز أن يُشار به إلى المنسلخ من الآيات ، أو إلى الكلب ، وأداة التشبيه محذوفة من ذلك أي: صفة المنسلخ ، أو صفة الكلب مثل الذين كذبوا ، ويجوز أن يكون المحذوف من: " مثل القوم " أي: ذلك الوصف ، وهو وصف المنسلخ ، أو وصف الكلب كمثل القوم. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 388-391 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ .

لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تلحقه الشقاوة الأبدية ، ولكن من قصمته السوابق لم تنعشه اللواحق .

قوله جل ذكره: ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ .

إذا كانت مساكنة آدم للجنة وطمعه في الخلود فيها أوجبا خروجه عنها فالركون إلى الدنيا - متى يوجب البقاء فيها ؟ .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ .

موافقة الهوى تُنزلُ صاحبها من سماءِ العزِّ إلى ترابِ الذلِّ ، وتلقيه في وهدة الهوان ؛ ومن لم يُصدِّقِ علماً فعن قريبٍ يقاسيه وجوداً .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ .

من أخلاق الكلب التعرُّضُ لمن لم يُخفِه على جهة الابتداء ، ثم الرضاء عنه بلقمة . .  
كذلك الذي ارتدَّ عن طريق الإرادة يصير ضيق الصدر ، سيئ الخلق ، يبدأ بالجفاء كلَّ بريء ، ثم يهدأ طياشةً بنيل كلِّ عرضٍ خسيس .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

المحجوب عن الحقيقة عنده الإساءة والإحسان (سيان) ، فهو في الحالين : إمّا صاحب ضجرٍ أو صاحب بَطَرٍ ، لا يحمل الحنة إلا زوال الدولة ، ولا يقابل النعمة إلا بالنعمة ، فهو في الحالين محجوبٌ عن الحقيقة .

ويقال الكلب نجاسته أصلية ، وخساسته كلية ، كذلك المردوده في الصفة ؛ له نقصان القيمة وحرمان القسمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات ح 1 ص 587 .

---

قوله تعالى ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ ﴾ (177) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ظهر بهذا أن مثل الكلب الذي اكتسب من ممثوله من السوء والقذارة ما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى مثل المكذبين بالآيات ، أتج ذلك قوله تأكيداً لذمهم وزجرهم : ﴿ ساء مثلاً القوم ﴾ أي مثل القوم ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي فلو لم يكن عليهم درك في فعلهم أن لا تنزل هذا المثل عليهم لكان أعظم زاجراً له أدنى مروءة ، لأنهم نزلوا عما لمن يتبعها من العظمة إلى ما ظهر بهذا المثل من الخسة ، فكيف وهم يضررون أنفسهم بذلك ولا يضررون إياها ، وذلك معنى قوله : ﴿ وأنفسهم ﴾ أي خاصة ﴿ كانوا يظلمون ﴾ أي كان ذلك في طبعهم جبلة لهم ، لا يقدر غير الله على تغييره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ

﴿ 153

(130/297)

---

## فصل

قال الفخر :

﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ (177) ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال بعد تمثيلهم بالكلب ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وزجر بذلك عن الكفر والتكذيب أكده في باب الزجر بقوله تعالى : ﴿ سَاءَ مَثَلًا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الليث : ساء يسوء فعل لازم ومتعد يقال : ساءت الشيء يسوء فهو سيء إذا قبح وساءه يسوءه مساءة .

قال النحويون : تقديره ساء مثلاً ، مثل القوم انتصب مثلاً على التمييز لأنك إذا قلت ساء جاز أن تذكر شيئاً آخر سوى مثلاً ، فلما ذكرت نوعاً ، فقد ميزته من سائر الأنواع وقولك القوم ارتفاعه من وجهين : أحدهما : أن يكون مبتدأ ويكون قولك ساء مثلاً خبره والثاني : أنك لما قلت ساء مثلاً .

قيل لك : من هو ؟ قلت القوم ، فيكون رفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف .

وقرأ الجحدري : ساء مثل القوم .

البحث الثاني : ظاهر قوله : ﴿ سَاءَ مَثَلًا ﴾ يقتضي كون ذلك المثل موصوفاً بالسوء ،

وذلك غير جائز ، لأن هذا المثل ذكره الله تعالى ، فكيف يكون موصوفاً بالسوء ، وأيضاً فهو يفيد الزجر عن الكفر والدعوة إلى الإيمان ، فكيف يكون موصوفاً بالسوء ، فوجب أن يكون الموصوف بالسوء ما أفاده المثل من تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم عنها ، حتى صاروا في التمثيل بذلك بمنزلة الكلب اللاهث .

أما قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ فإما أن يكون معطوفاً على قوله :

﴿ كَذَّبُوا ﴾ فيدخل حينئذ في حيز الصلة بمعنى الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم ، وإما أن يكون كلاماً منقطعاً عن الصلة بمعنى وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب ، وإما تقديم المفعول ، فهو للاختصاص كأنه قيل وخصوا أنفسهم بالظلم وما تعدى أثر ذلك الظلم عنهم إلى غيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ

﴿ 48

(131/297)

وقال الثعلبي :

﴿ سَاءَ مَثَلًا ﴾ أي بس المثل مثلاً حال من المثل المضمرة .

كما قال جرير :

فنعم الزاد زاد أيك زادا . . . هذا إذا جعلت ( ساء ) من فعل المثل ورفعت القوم بدلاً من الضمير فيه . وإن حولت فعله إلى القوم ورفعتهم به كان [ انتهاء ] به على التمييز ، يريد سأمثل القوم فلما حولته إليهم خرج المثل مفسراً كما يقال : قربه عينا وضاق ذرعاً ، متى ما سقط التنوين عن المميز [ المخفض ] بالإضافة دليله قراءة [ الجحدري ] والأعمش سأمثل القوم بالاضافة ، وقال أبو حاتم : يريد بها ( مثلاً ) مثل القوم فحذف مثل .

وأقام القوم [ به أمة ] فرفعهم كقوله : ﴿ وَسئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ [ يوسف : 82 ] . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ ساء مثلاً ﴾

قال الزجاج : التقدير ساء مثلاً مثل القوم ، لأن الذي بعد " بس " و " نعم " إنما يتفسر من نوعه ، كما نقول بس رجالاً زيد ، ولما انحذف مثل أقيم القوم مقامه ، والرفع في ذلك بالابتداء والخبر فيما تقدم ، وقرأ الجحدري " ساء مثل القوم " ، ورفع مثل على هذه القراءة ب ﴿ ساء ﴾ ، ولا تجري ﴿ ساء ﴾ مجرى " بس " إلا إذا كان ما بعدها منصوباً ، قال أبو عمرو والداني : قرأ الجحدري " مثل " بكسر الميم ورفع اللام ، وقرأ الأعمش " مَثَلٌ " بفتح الميم والثاء ورفع اللام .

قال القاضي أبو محمد : وهذا خلاف ما ذكر أبو حاتم فإنه قال : قرأ الجحدري والأعمش "

ساء مثل " بالرفع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ ساء مثلاً ﴾

يقال : ساء الشيء يسوء : إذا قُبِحَ ، والمعنى : ساء مثلاً مثل القوم ، فحذف المضاف ،

فُنصب "مثلاً" على التمييز .

قوله تعالى : ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ أي : يضرُّون بالمعصية . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(132/297)

وقال القرطبي :

قوله : ﴿ ساءَ مثلاً القوم ﴾

يقال : ساء الشيء قُبِحَ ، فهو لازم ، وساء يسوء مَسَاءةً ، فهو متعدِّدٌ ؛ أي قُبِحَ مثْلهم .

وتقديره : ساء مثلاً مثل القوم ؛ فحذف المضاف ، ونصب "مثلاً" على التمييز .

قال الأخفش : فجعل المثل القوم مجازاً .

والقوم مرفوع بالابتداء أو على إضمار مبتدأ .



التقدير : ساء المثل مثلاً هو مثل القوم .

وقدره أبو عليّ : ساء مثلاً مثل القوم .

وقرأ عاصم الجحدري والأعمش "ساء مثل القوم" رفع مثلاً بساء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

(133/297)

وقال أبو حيان :

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾

﴿ ساء ﴾ بمعنى بسّ وتقدم لنا أن أصلها التعدي تقول : ساءني الشيء يسوءني ثم لما

استعملت استعمال بسّ بنيت على فعل وجرت عليها أحكام بسّ و ﴿ مثلاً ﴾ تمييز

للضمير المستكن في ساء فاعلاً وهو مفسر بهذا التمييز وهو من الضمائر التي يفسرها ما

بعدها ولا ينتهي ولا يجمع على مذهب البصريين وعن الكوفيين خلاف مذكور في النحو ولا

بد أن يكون المخصوص بالذم من جنس التمييز فاحتج إلى تقدير حذف أما في التمييز أي

ساء أصحاب مثل القوم وأما في المخصوص أي ساء مثلاً مثل القوم وهذه الجملة تأكيد

للجملة السابقة ، وقال أبو عبد الله الرازي ظاهره يقتضي أن يكون ذلك المثل موصوفاً

بالسوء وذلك غير جائز لأن هذا المثل ذكره الله تعالى فكيف يكون موصوفاً بالسوء  
فوجب أن يكون الموصوف بالسوء ما أفاده المثل من تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها  
حتى صاروا في التمثيل لذلك بمنزلة الكلب اللاهث انتهى وليس كما ذكر ليس هنا ضرب  
مثل والمثل لفظ مشترك بين الوصف وبين ما يضرب مثلاً والمراد هنا الوصف فمعنى ﴿  
مثله كمثل الكلب﴾ أي وصفه وصف الكلب وليس هذا من ضرب المثل بل كما قال

(134/297)

---

﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ أي صفتهم كصفة الذي استوقد وكقوله ﴿ مثل  
الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي صفتها وإذا تقرر هذا فقوله ساء مثلاً معناه بس ووصفاً  
فليس من ضرب المثل في شيء ، وقرأ الحسن وعيسى بن عمر والأعمش : ساء مثل بالرفع  
﴿ القوم ﴾ بالخفض واختلف على الجحدري فقيل : كقراءة الأعمش ، وقيل : بكسر  
الميم وسكون الثاء وضم اللام مضافاً إلى ﴿ القوم ﴾ والأحسن في قراءة المثل بالرفع أن  
يكتفى به ويجعل من باب التعجب نحو لقضو الرجل أي ما أسوأ مثل القوم ويجوز أن يكون  
كبس على حذف التمييز على مذهب من يجيزه التقدير ساء مثل القوم أو على أن يكون  
المخصوص ﴿ الذين كذبوا ﴾ على حذف مضاف أي بس مثل القوم مثل ﴿ الذين ﴾

كذبوا لتكون الذين مرفوعاً إذ قام مقام مثل المحذوف لا مجروراً صفة للقوم على تقدير حذف التمييز .

﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على الصلة ويحتمل أن يكون استئناف إخبار عنهم بأنهم كانوا يظلمون أنفسهم والزمخشري على طريقته في أن تقديم المفعول يدل على الحصر فقدره وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب ، قال : وتقديم المفعول به لاختصاص كأنه قيل وخصوا أنفسهم بالظلم ولم يتعد إلى غيرها . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(135/297)

وقال أبو السعود :

﴿ سَاءَ مَثَلًا ﴾

استئناف مسوق لبيان كمال قبح حال المكذبين بعد بيان كونه كحال الكلب أو المنسلخ ، وساء بمعنى بس وفاعلها مضمرة فيها ومثلاً تمييز مفسر له والمخصوص بالذم قوله تعالى : ﴿ القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وحيث وجب التصادق بينه وبين الفاعل والتمييز وجب المصير إلى تقدير مضاف إما إليه وهو الظاهر أي ساء مثلاً مثل القوم الخ ، أو إلى التمييز أي

ساء أصحابُ مثلِ القومِ الخ، وقرىء ساء مثل القوم، وإعادةُ القومِ موصوفاً بالموصول مع كفاية الضمير بأن يقال: ساء مثلاً مثلهم للإيدان بأن مدار السوء ما في حيز الصلة ولربط قوله تعالى: ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ به فإنه إما معطوفٌ على كذبوا داخلٌ معه في حكم الصلة بمعنى جمعوا بين تكذيب آياتِ الله بعد قيام الحجةِ عليها وعلمهم بها وبين ظلمهم لأنفسهم خاصة أو منقطع عنه بمعنى وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم، فإن وباله لا يتخطاها. وأياً ما كان ففي يظلمون لمحٌ إلى أن تكذبتهم بالآيات متضمنٌ للظلم بها وأن ذلك أيضاً معتبرٌ في القصر المستفاد من تقديم المفعول. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

(136/297)

وقال الأوسى:

﴿ ساء مثلاً ﴾

استئناف مسوق لبيان كمال قبح المكذبين بعد البيان السابق، وساء بمعنى بس وفاعلها مضمرة ومثلاً تمييز مفسر له، ويستغني بتذكير التمييز وجمعه وغيرهما عن فعل ذلك بالضمير، وأصلها التعدي لواحد، والمخصوص بالذم قوله سبحانه وتعالى: ﴿ القوم

الذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴿١٠﴾ وحيث وجب صدق الفاعل والتمييز والمخصوص على شيء واحد والمثل مغاير للقوم لزم تقدير محذوف من المخصوص وهو الظاهر أو التمييز أي ساء مثلاً مثل القوم أو ساء أهل مثل القوم.

وفي الحواشي الشهائية أنه قرئ بإضافة ﴿ مَثَلٌ ﴾ بفتحين و ﴿ مَثَلٌ ﴾ بكسر فسكون للقوم ورفع فساء للتعجب وتقديرها على فعل بالضم كقضوا الرجل و ﴿ مَثَلُ الْقَوْمِ ﴾ فاعل أي ما أسوأهم ، والموصول في محل جر صفة للقوم أو هي بمعنى بس ﴿ وَمَثَلٌ ﴾ فاعل والموصول هو المخصوص في محل رفع بتقدير مضاف أي مثل الذين الخ .

وقدر أبو حيان في هذه القراءة تمييزاً ، ورد السمين بأنه لا يحتاج إلى التمييز إذا كان الفاعل ظاهراً حتى جعلوا الجمع بينهما ضرورة ، وفيه ثلاثة مذاهب المنع مطلقاً والجواز كذلك والتفصيل فإن كان مغايراً جاز نحو نعم الرجل شجاعاً زيد وإلا امتنع ، وبعضهم يجعل المخصوص محذوفاً وفي كونه ما هو خلاف وإعادة القوم موصوفاً بالموصول مع كفاية الضمير بأن يقال ساء مثلاً مثلهم للإيدان بأن مدار السوء ما في حيز الصلة وليربط قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿١١﴾ به فإنه إما معطوف على كذبوا داخل معه في حكم الصلة بمعنى جمعوا بين أمرين قبيحين التكذيب وظلمهم أنفسهم خاصة أو منقطع عنه بمعنى وما ظلموا إلا أنفسهم فإن وبالها لا يتخطاها ، وأياً ما كان ففي ذلك ملح إلى أن تكذبتهم بالآيات متضمن للظلم بها وأن ذلك أيضاً معتبر في القصر المستفاد من التقديم ،

وصرح الطيبي والقطب وغيرهما أن الجملة على تقدير الانقطاع تذييل وتأکید للجملة التي قبلها ، ويشعر كلام بعضهم أن تقديم المفعول على الوجه الأول لرعاية الفاصلة وعلى الوجه الثاني للإشارة إلى التخصيص وأن سبب ظلمهم أنفسهم هو التكذيب ، وفيه خفاء كما لا يخفى ، هذا ثم أن هذه الآيات مما تربي علماء السوء بثلاثة الأثافي ، وقد ذكر مولانا الطيبي طيب الله ثراه أن من تفكر في هذا المثل وسائر الأمثال المضروبة في التنزيل في حق المشركين والأصنام من بيت العنكبوت والذباب تحقق له أن علماء السوء أسوأ وأقبح من ذلك فما أنعاه من مثل عليهم وما هم فييه من التهالك في الدنيا مالها وجاهها والركون إلى لذاتها وشهواتها من متابعة النفس الأمارة وإرخاء زمامها في مرامها عافانا الله تعالى والمسلمين من ذلك .

(137/297)

---

ونقل عن مولانا شيخ الإسلام شهاب الدين السهروردي أنه كتب إلى الإمام فخر الدين الرازي تعمد هما الله تعالى برضوانه من تعين في الزمان لنشر العلم عظمت نعمة الله تعالى عليه فينبغي للمتيقظين الحذاق من أرباب الديانات أن يمدوه بالدعاء الصالح ليصفي الله تعالى مورد علمه بحقائق التقوى ومصدره من شوائب الهوى إذ قطرة من الهوى تكدر مجراً

من العلم ونوازع الهوى المركوز في النفوس المستصحبة إياه من محتدها من العالم السفلي إذا  
شابت العلم حطته من أوجه وإذا صفت مصادر العلم وموارده من الهوى أمدته كلمات  
الله تعالى التي ينفد البحر دون نفاذها ويبقى العلم على كمال قوته ، وهذه رتبة الراسخين في  
العلم لا المترسمين به وهم ورثة الأنبياء عليهم السلام كر عملهم على علمهم وتناوب العلم  
والعمل فيهم حتى صفت أعمالهم ولطفت وصارت مسامرات سرية ومحاورات روحية  
وتشكلت الأعمال بالعلوم لكان لطافتها وتشكلت العلوم بالأعمال لقوة فعلها وسرايتها إلى  
الاستعدادات ، وفي اتباع الهوى إخلاد إلى الأرض قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا  
وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الأعراف : 176] فتطهير نور الفكرة عن رذائل  
التخيلات والارتهان بالموهومات التي أورثت العقول الصغار والمداهنة للنفوس القاصرة هو  
من شأن البالغين من الرجال فتصحب نفوسهم الطاهرة المملأ الأعلى فتسرح في ميادين  
القدس ، فالنزاهة النزاهة من محنة حطام الدنيا والفرار الفرار من استحلاء نظر الخلق  
وعقائدهم فتلك مصارع الأدوان ، وطالب الرفيق الأعلى مكلم محدث ، والتعريفات  
الإلهية واردة عليه لمكان علمه بصورة الابتلاء واستئصاله شأفة الابتلاء بصدق الالتجاء  
وكثرة ولوجه في حريم القرب الإلهي وانغماسه مع الأنفاس في بحار عين اليقين وغسله نفض  
دلائل البرهان بنور العيان فالبرهان للأفكار لا للأسرار إلى آخر ما قال ، ويا لها من موعظة

حكيم ونصيحة حميم نسأل الله تعالى أن يهدينا لما

أشارت إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(138/297)

وقال القاسمي :

﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ ﴾ [ 177 ] .

﴿ سَاءَ ﴾ أي : ما مثل به ﴿ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾

أي : حيث شبهوا بالكلاب ، إما في استواء الحالتين في النقصان وأنهم ضالون ، وعظوا أم لم يوعظوا كما قدمنا ، وإما في الخسة ، فإن الكلاب لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز الهدى والعلم ، وأقبل على هواه ، صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله .

ولهذا ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال : > ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه < .

﴿ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ ﴾ اعلم أن من السلف من ذهب إلى أن هذه الآية مثل ضربه

الله لمن عرض عليه الإيمان فأبى أن يقبله وتركه ، وهو قول قتادة وعكرمة واختاره أبو مسلم



، حيث قال : قوله : ﴿ أَتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ أي : بينها ، فلم يقبل ، وعري منها .  
وسواء قولك : انسلخ وعري وتباعد ، وهذا يقع على كافر لم يؤمن بالأدلة ، وأقام على  
الكفر .

قال : نظيره قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ ،  
وقال في حق فرعون : ﴿ وَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ .

ومنهم من ذهب إلى أن الموصول فيها أريد به معين ، فروي عن عبد الله بن عمر وسعيد بن  
المسيب وزيد ابن أسلم وأبي روق أنه أمية بن أبي الصلت ، فإنه كان قد قرأ الكتب ، وعلم  
أن الله مرسل رسولا في ذلك الوقت ، ورجا أن يكون هو ، فلما أرسل الله محمدا عليه  
الصلاة والسلام ، حسده ، ثم مات كافرا ، ولم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي  
قال فيه رسول الله : < إنه آمن شعره وكفر قلبه > يريد أن شعره كشعر المؤمنين ، وذلك أنه  
يوحد الله في شعره ، ويذكر دلائل توحيده .

(139/297)

---

وقيل : نزلت في أبي عامر الراهب ، الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم الفاسق ، كان  
يترهب في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر المنافقين باتخاذ مسجد

الضرار والشقاق ، وأتى قيصر واستجده على النبي صلى الله عليه وسلم ، فمات هناك طريداً وحيداً . وهو قول سعيد بن المسيب .

وقيل نزلت في منافقي أهل الكتاب ، كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنكروه .  
عن الحسن والأصم .

وقيل : إنه فرعون ، والآيات آيات موسى ، كأنه لما اقتص أنبياء بني إسرائيل عاد إلى قصة فرعون وضرب المثل .

ومن الأقوال التي تناقلها المفسرون أنها نزلت في بلعام بن بعور ، ويحكون عنه قصة لم تُروى في جوامع الآثار الصحيحة عندنا ، ولا هي مطابقة لما عند أهل الكتاب .

فقد ذكر نبؤه في الفصل الثاني والعشرين والثالث والعشرين من سفر العدد ، من تاريخ التوراة ، بغير ما يرويه المفسرون عنه ، ثم رأيت الجشمي لم يصحح ذلك ، فحمدت المولى على الموافقة . وعبارته :

وعن مجاهد قال : هونبي يقال له بلعم ، رشاه قومه فكفر . وهذا لا يجوز ، لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر ، لأن ذلك ينفر الخلق عن الأنبياء ، والقبول منهم ، ويحقرهم في النفوس ، ولأنهم حجج الله على خلقه اصطفاهم .

فالأقرب أنه لا يصح عن مجاهد . انتهى .

وهو كذلك لأن من قرأ نبأه السفر المتقدم ، رأى من ثباته ، وعدم موافقه لبالاق ، ملك

مؤاب ، على ما أراد منه - ما يبرئه عن ذلك .

تنبيه :

قال الجشمي : إن قيل : كيف تتصل الآية بما قبلها ؟

قلنا : على القول بأنه عنى بها فرعون فقد اتصلت قصته بقصة بني إسرائيل .

وقيل لما نهى عن تقليد الآباء في الدين ، بين في هذه الآية حال علماء السوء ، الذين يختارون

الدنيا على الآخرة ، نهياً عن تقليدهم واتباعهم ، كما نهى عن تقليد الآباء .

وقيل : لما تقدم ذكر أخذ الميثاق ، بين حال من آتاه الله الآيات فانسخ منها ولم يتبعها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 7 ص 226 . 228 ﴾

(140/297)

وقال ابن عاشور :

﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ (177) ﴾

جملة مستأنفة لأنها جعلت إنشاء ذم لهم ، بأن كانوا في حالة شنيعة وظلموا أنفسهم .

والظلم هنا على حقيقته فإنهم ظلموا أنفسهم بما أحلوه بها من الكفر الذي جعلهم مذمومين

في الدنيا ومعذبين في الآخرة .

وتقديم المفعول للاختصاص ، أي ما ظلموا إلا أنفسهم ، وشأن العاقل أن لا يؤذي نفسه ،  
وفيه إزالة تبجحهم بأنهم لم يتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم ظناً منهم أن ذلك يغيظه  
ويغضب المسلمين ، وإنما يضرُّون أنفسهم .

وجملة : ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على الصلة باعتبار أنهم  
معروفون بضمون هذه الجملة عند النبي والمسلمين ، ويجوز أن تكون معطوفة على جملة :  
﴿ ساء مثلاً القوم ﴾ فتكون تذيلاً للجملة التي قبلها إخباراً عنهم بأنهم في تكذيبهم ،  
وإتفاء من القصص ما ظلموا إلا أنفسهم .

وقوله : ﴿ كانوا يظلمون ﴾ أقوى في إفادة وصفهم بالظلم من أن يقال : وظلموا أنفسهم ،  
كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ في سورة الأنعام ( 75 ) . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(141/297)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ (177)

والحق قال فيهم من قبل : إنهم كذبوا بآياتنا ، وضرب لهم المثل بآين باعوراء وكان مشهوراً

في أيامهم ، لكنهم فاقوا ابن باعوراء لأنه كان فرداً وهم جماعة ؛ لذلك لا تقل إن في المسألة تكراراً ؛ لأن المثل من قبل ما كان على فرد واحد ، أوتي آيات الله فانسلك منها ، ولكنهم كانوا جماعة . لذلك فانسلاخهم عن المنهج يجعل موقفهم أشد سوءاً . ❀ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ❀

و"ساء" أي قُبِح ، وحين نقول : ساء فلان ؛ أي قبح أمره ، ولكن أي أمر من أموره هو القبيح ؟ فنقول : ساء صحة أي صار مريضاً أو ساء حالاً أي صار فقيراً ، أو ساء خلقاً أي صار شرساً ، وأنت حين نقول : ساء ، فهذا السوء عام له جوانب متعددة ، ويتقضي الأمر التمييز .

(142/297)

---

و"ساء مثلاً" أي ساء من جهة المثل ، والمثل في ذاته لا يسوء ؛ لأن الله تعالى يضرب المثل لنا . والمثل إنما يجيء ليبين ويشرح ويوضح ، والمعنى هنا : ساء مثلاً حال القوم . أو القوم أنفسهم هم الذين ساءوا . لأنهم حين كذبوا بالآيات ظلموا أنفسهم ، فالتكذيب منهم لم يعرقل منهج الله في الأرض ، ولم يعرقلوا بالتكذيب شيئاً في كون الله تعالى ، فالكون بنظامه ونسقه يسير بإرادته سبحانه وآيات الكون سائرة . إذن كان تكذيبهم بآيات لن يضير أبداً

في أي شيء . والخيبة إنما تقع عليهم . وإن كان التكذيب في الآيات المعجزات فقد بقي ذكر المعجزات إلى الآن . وهم الذين خابوا ، وإن كانوا قد كذبوا بآيات المنهج فهم أيضاً الذين خسروا ولم يصب الآيات الإعجازية أو القرآنية أي شيء . وهم قد ظلموا أنفسهم ومثلهم في ذلك مثل المريض الذي لم يسمع كلام الطبيب فإنه يسيء إلى نفسه ولن يضر الطبيب شيء ، والله سبحانه قد أعطانا المنهج لتستقيم به حركة الحياة ، فمن يأخذه ينفع نفسه ، ومن لا يأخذه لن يضر الله شيئاً .

هم إذن ظلموا أنفسهم ، ومن يظلم نفسه كان هو أول عدو لها ولن يضر الله شيئاً ، ولا الرسول ، ولا المجتمع . . . ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ ﴾ [الأعراف: 177] وحين تجد معمولاً تقدم على عامله - قاعدة نحوية - فعلم أن هناك ما يسمى بالقصر في علم البلاغة ، وقد نقول : " يظلمون أنفسهم " ويصح أن تعطف قائلاً : ويظلمون الناس . ولكن حين نقول : أنفسهم يظلمون ، فمعنى ذلك أنه لا يتعدى ظلمهم أنفسهم ، ويكون الكلام فيه قصر وتخصيص ، مثلما نقول : " لله الأمر من قبل ومن بعد " ، أي أن الأمر لا يتعدى إلى غيره أبداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(143/297)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

قوله : "ساء مثلاً"

"ساء" بمعنى : بُسَّ ، وفاعلها مضمرة فيها ، ومثلاً تمييزٌ مفسرٌ له ، وقد تقدم [النساء 38] أن فاعل هذا الباب إذا كان ضميراً يُفسرُ بما بعده ويُستغنى عن تشنيته وجمعه وتأنيته بتثنية التمييز وجمعة وتأنيته عند البصريين ، وتقدم أن "ساء" أصلها التَّعَدِّي لمفعول ، والمخصوص بالذم لا يكون إلا من جنس التمييز ، والتمييز مفسرٌ للفاعل فهو هو ، فلزم أن يصدق الفاعل والتمييز والمخصوص على شيءٍ واحدٍ ، إذا عُرف هذا فقوله : "القوم" يرُصادقُ على التمييز والفاعل فلا جرم أنه لا بدَّ من تقدير محذوفٍ إمّا من التمييز ، وإمّا من المخصوص .

فالأوّل يقدر : ساء أصحابٌ مثل أو أهلٌ مثل القوم ، والثاني يقدر : ساء مثلاً مثل القوم ، ثم حذف المضاف في التقديرين ، وأقيم المضافُ إليه مقامه ، وهذه الجملةُ تأكيدٌ للتي قبلها . وقرأ الحسنُ والأعمشُ وعيسى بن عمر : "ساءٌ مثلُ القومِ" برفعٍ "مثل" مضافاً للقوم . وروي عن الجحدري كذلك ، وروي عنه كسر الميم وسكون الثاء ورفع اللام وجرُّ "القوم" وهذه القراءةُ المنسوبةُ لهؤلاء الجماعةُ تحتمل وجهين :

أحدهما : أن تكون "ساءٌ" للتعجب ، مبنيةٌ تقديراً على "فعل" بضم العين كقولهم :

لَقَضُوا الرَّجُلُ ، و "مَثَلُ الْقَوْمِ" فاعلٌ بِهَا ، والتقدير : ما أسوأ مثل القوم ، والموصولُ على هذا في محل جر ، نعتاً لـ "قوم" .

والثاني : أنها بمعنى "بُسَّ" و "مثل القوم" فاعل ، والموصولُ على هذا في محل رفع ؛ لأنه المخصوصُ بالذمِّ ، وعلى هذا لا بد من حذف مضاف ، ليتصادق الفاعلُ والمخصوصُ على شيءٍ واحدٍ ، والتقدير : ساءَ مثل القومِ مثل الذين ، وقدراً أبو حيان تمييزاً في هذه القراءة وفيه نظر ؛ إذ لا يحتاج إلى تمييز ، إذا كان الفاعلُ ظاهراً ، حتى جعلوا الجمع بينهما ضرورةً ، كقول الشاعر : [الوافر]

2624 - تَزَوَّدَ مِثْلَ زَادِ أَبِيكَ فِينَا . . .

فِنِعْمَ الزَّادُ زَادُ أَبِيكَ زَادًا

وفي المسألة ثلاثة مذاهب : الجوازُ مطلقاً ، والمنعُ مطلقاً ، والتفصيلُ ، فإن كان مغايراً في اللفظ ومفيداً فائدةً جديدةً جاز نحو : نعم الرجلُ شجاعاً زيدٌ ؛ وعليه قوله : [الوافر]

2625 - تَخَيَّرَهُ وَلَمْ يَعْدِلْ سِوَاهُ . . .

فِنِعْمَ الْمَرْءُ مِنْ رَجُلٍ تَهَامِي

فصل

قال الليثُ : ساءَ يَسُوءُ : فعلٌ لازمٌ ومتعدٍ ، يقالُ ساءَ الشيءُ يَسُوءُ فهو سيئٌ وساءَهُ يَسُوءُهُ مَسَاءَةً ، إذا قبح .



فإن قيل : ظاهر قوله : " سَاءَ مَثَلًا " يقتضي كون ذلك المثل موصوفاً بالسُّوء ، وذلك غير جائز ؛ لأن هذا المثل ذكره الله تعالى ، فكيف يكون موصوفاً بالسُّوء ؟ وأيضاً فهو يفيد الزجر عن الكُفر والدَّعوة إلى الإيمان ، فكيف يكون موصوفاً بالسُّوء ؟ فالجواب : أن الموصوف بالسُّوء ما أفاده المثل من تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها ، حتى صاروا في التمثيل بذلك بمنزلة الكلب اللأهث .

قوله : ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ " أَنْفُسُهُمْ " مفعول لـ " يَظْلِمُونَ " وفيه دليل على تقديم خبر " كان " عليها ؛ لأن تقديم المفعول يؤذن بتقديم العامل غالباً ، لأنَّ ثمَّ مواضع يمتنع فيها ذلك نحو : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [ الضحى : 9 ] فـ " الْيَتِيمَ " مفعول بـ " تقهر " ولا يجوز تقديم " تقهر " على جازمه ، وهو محتمل للبحث .

وهذه الجملة الكونية تحتمل وجهين :

أحدهما : أن تكون نسقاً على الصلة وهي " كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " والمعنى : الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله ، وظلم أنفسهم .

والثاني : أن تكون مستأنفة ، أي : وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب ، وعلى كلا القولين فلا

محل لها ، وقُدِّمَ المفعولُ ، ليفيدَ الاختصاصَ وهذا على طريق الزمخشريِّ وأنظاره كأنَّهُ قيل  
: وخصوا أنفسهم بالظلم ، وما تعدى أثر ذلك الظلم عنهم إلى غيرهم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 391.393 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) ﴾

أي صفته أدنى من نعت من بُلي بالإعراض الأزيي ، وأيُّ نعتٍ أعلى من وصف من أُكْرِمَ  
بالقبول الأبدِيّ ؟ وأيُّ حيلةٍ تنفع مع من يُخلق الحيلة ؟ وكيف نصحُّ الوسيلةُ إلا لمن منه

الوسيلة ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 588 ﴾

(145/297)

---

قوله تعالى ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك محل عجب ممن يميل عن المنهج بعد إيضاحه هذا الإيضاح الشافي ، قال

جواباً لمن كأنه قال: فما لهم لا يؤمنون؟ مفصلاً لقوله ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ [الأعراف 176]: ﴿من يهد الله﴾ أي يخلق الهداية في قلبه الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه ﴿فهو المهدي﴾ أي لا غيره.

ولما كان في سياق الاستدلال على أن أكثر الخلق هالك بالفسق ونقض العهد، وحد  
﴿المهدي﴾ [الأعراف: 177] نظراً إلى لفظ ﴿من﴾ وجمع الضال نظراً إلى معناها  
فقال: ﴿ومن يضل فأولئك هم﴾ أي البعداء البغضاء خاصة لا غيرهم  
﴿الخاسرون﴾ إذ لا فعل لغيره أصلاً، والآية من فذلكة ما مضى، وما أحسن ختمها  
بالخسران في وعظ من ترك الآخرة بإقباله على أرباح الدنيا وأعرضها الفانية، ثم تعقيبها  
بذرة جهنم الذين لا أخسر منهم.

(146/297)

---

ذكر قصة بلعام من التوراة - قال في السفر الرابع منها بعد أن ساق قتالهم لسيحون ملك  
الأمورانيين: وفرق المؤابيون من الشعب فرقا شديداً لأنهم رأوه شعباً عظيماً، فاضطرب  
المؤابيون ورجفت قلوبهم خوفاً من بني إسرائيل، وقال ملك مؤاب لأشياخ مدين: اعلموا  
أن هذا الجمع يرتعي حرثنا، ولا يدع أحداً إلا أهلكه، ويرتعي كل من حولنا كما يرتعي

الثور عشب الأرض ، وكان ملك الموابيين في ذلك الزمان بالاق بن صفور ، فأرسل رسلاً إلى بلعام بن بعور العراف المعبر للأحلام الذي كان ينزل على شاطئ النهر قريباً من أرض بني عمون ليدعوه إليه فيستعين به : أخبرك أنه قد خرج شعب من أرض مصر ، فغشى وجه الأرض كلها ، وقد نزلوا جبالنا ، فأطلب إليك أن تأتي وتلعن هذا الشعب لأنه أقوى وأعز منا ، لعلنا نقدر أن نحاربه ونهلكه عن جديد الأرض ، لأنني عارف أن الذي تباركه هو مبارك ، والذي تلعنه هو ملعون ، وانطلق أشياخ مؤاب وأشياخ مدين ومعهم هدايا وجوائز ، فأتوا بلعام فقالوا له قول بالاق ، فقال لهم : بيتوا ها هنا ليلتكم هذه فأخبركم بما يقول الرب ، فأقام أشراف مؤاب عند بلعام ، فأتى ملك الله بلعام وقال له : من القوم الذين أتوك ؟ قال بلعام للملاك : بالاق بن صفور ملك مؤاب أرسل إلي وقال : قد خرج شعب من أرض مصر فملاً وجه الأرض ، فأقبل إلينا حتى تلعنه ، لعلني أقدر أن أجاهده وأهلكه ، وقال الملاك لبلعام : لا تنطلق مع القوم ولا تلعن الشعب لأنه مبارك ، فقال بلعام بكراً لعظماء بالاق : انطلقوا إلى صاحبكم ، لأن الرب لم يجب أن يدعني أنطلق معكم ، ونهض عظماء مؤاب فأتوا بالاق وقالوا له : لم يهؤبلعام إتيانك معنا ، فعاد بالاق أيضاً فأرسل رسلاً أعظم وأكرم من الأولين ، فأتوا بلعام وقالوا له : هكذا يقول بالاق بن صفور : لا تمتنع أن تأتيني لأنني سأعظمك وأكرمك جداً ، وما قلت لي من شيء فعلت ، وأقبل إلينا لتلعن لي - هذا الشعب ، فرد بلعام على رسل بالاق قائلاً : لو

أن بالاق أعطاني ملء بيته ذهباً وفضة لم أقدر أن أتعدى قول ربي وإلهي ، ولا أحميد عن قول صغير ولا كبير من أقواله ، فخرجوا أتم أيضاً عندنا ليلتكم هذه حتى أنظر ما يخبروني ملاك الله من أمركم ، فنزل وحي الله على بلعام ليلاً ، وقال له : إن كان هؤلاء القوم إنما أتوك ليدعوك فقم فانطلق معهم ، ولكن إياك أن تعمل إلا ما أقول فنهض بلعام بكرة وأسرج أتاناه وانطلق مع عظماء مؤاب ، فقال ملاك الرب في الطريق ليكون له لهداً ، فرأت الأتان ملاك الله قائماً في الطريق مخترطاً سيفه ممسكه في يده ، فحادت عن الطريق وسارت في الحرث ، فضربها بلعام ليردها إلى الطريق ، فقام ملاك الرب في طريق ضيق بين كرمين فرأت الأتانة ملك الرب فزحمت الحائط وضغطت رجل بلعام في الحائط ، فعاد يضربها أيضاً ، ثم عاد ملاك الرب وقام في موضع ضيق حيث ليس لها موضع تحيد منه يمينة ولا يسره ، فبصرت بملاك الرب ورضت تحت بلعام ، فاشتد غضب بلعام وضرب الأتان بالعصا ، وفتح الرب فم الأتان وقالت لبلعام : ما الذي صنعت بك حتى ضربتني ثلاث مرات ؟ قال بلعام : لأنك زريت بي ، ولو أنه كان في يدي سيف كنت قد قتلتك الآن ، فقالت : ألسنتك التي تركبني منذ صباك إلى اليوم ؟ هل صنعت مثل هذا الصنع قط ؟ قال لها : لا وجلى الرب

عن بصر بلعام فرأى ملك الله قائماً في الطريق مخترطاً سيفه ممسكه بيده ، فجنأ وخر على وجهه ساجداً ، فقال له ملاك الرب : ما بالك ضربت أتانك ثلاث مرات أنا الذي خرجت لأكون لك لداً ، لأنك أخذت في طريق خلافاً لأمرى ، فلما رأيتي الأتان حادت عني ثلاث مرات ، ولو أنها لم تحد عني كنت قتلتك وأبقيت عليها ، قال بلعام لملاك الرب : أسأت وأجرمت ، لم أعلم أنك قائم بإزائي في الطريق ، فالآن إن كان انطلاقي مما تكرهه رجعت ، قال ملاك الرب لبلعام : انطلق مع القوم وإياك أن تفعل شيئاً إلا ما أقول لك ! فانطلق بلعام ، فسمع بالاق فخرج ليلتقاه وقال بالاق : لم تأتني ؟ قال :

(148/297)

---

قد أتيتك الآن ، لعلك تظن أنني أقدر أن أقول شيئاً إلا القول الذي يجريه الله على لساني به أنطق ، فلما كان الغد عمد بالاق إلى بلعام وأصعده إلى بيت بعل الصنم ، فرأى من هناك أقاصي منازل شعب إسرائيل ، وقال بلعام لبالاق : ابني لي هاهنا سبعة مذابح ، وهيبى لي سبعة ثيران وسبعة كباش ، وفعل بالاق كما قال له بلعام ، ورفع بالاق الكباش والثيران على المذبح قرباناً ، وقال بلعام لبالاق : قم هاهنا عند قرابينك حتى أنطلق أنا ، لعل الرب يوحى إلي ما أهواه ، وأنا مظهر لك ما يوحى به ، فانطلق فظهر الله وأهمله قولاً وقال له :

انطلق إلى بالاق وقل له هذا القول ، فأتاه وهو قائم عند قرايينه وجميع قواد مؤاب معه ،  
ورفع بلعام صوته بأمثاله وقال : ساقني بالاق ملك المؤابيين من أرام التي في المشرق ، وقال لي  
: أقبل حتى تلعن يعقوب وتهلك آل إسرائيل ، فكيف ألعنه ولم يلعنه الله ، وكيف أهلكه  
والرب لا يريد هلاكه ، رأته من رؤوس الجبال ، ونظرت إليه من فوق الآكام وإذا هو شعب  
وحده لا يعد مع الشعوب ، ومن يقدر يحصي جميع عدد يعقوب ، أو من يقدر يحصي عدد  
ربع بني إسرائيل ، تموت نفسي موتاً ويكون آخري إلى آخرهم ، قال بالاق لبلعام : دعوتك  
تلعن أعدائي فإذا أنت تباركهم وتدعوا لهم ، فرد بلعام قائلاً : الذي يلهمني الرب ويجري  
على لساني إياه أحفظ ، وبه أنطق : قال له بالاق : مر معي إلى موضع آخر لنراهم من هناك  
، وإنما أسوقك لترى آخرهم ولا تراهم أجمعين ، وانطلق به إلى حقل الريبة وأقامه على رأس  
الأكمة ، وابتنى هناك سبعى مذابح ، وقرب عليها الثيران والكباش ، قال بلعام : قف  
ها هنا عند قرايينك حتى أنطلق أنا الآن ، فانظر ما الذي يقال ؟ وتجلى الرب على بلعام  
وأجرى على فيه قولاً وقال له : انطلق إلى بالاق فأخبره بهذا القول ، فأتاه وهو قائم عند  
قرايينه ومعه أشراف مؤاب ، فرفع بلعام صوته بأمثاله وقال : انهض بالاق واسمع قولي  
وأصغ لشهادتي يا ابن صفور !

(149/297)

---

اعلم أن الله ليس مثل الرجل يحلف ويكذب؛ إذا قال الرب قولاً فعله، وكلامه دائم إلى الأبد، ساقني لأعود وأبرك، ولا أرد البركة ولا أخالف ما أمرت به، لست أرى في آل يعقوب إثماً ولا غدرًا عند بني إسرائيل ولا ظلمًا، لأن الله ربه معه الله الذي أخرجهم من مصر بعزة وعظمة قوية، ولست أرى في آل يعقوب طيرة، ولا حساب نجوم أو عرف بين بني إسرائيل، كيف أقول والشعب قائم مثل الضرعام لا يربض حتى يفترس فريسته ويشرب دم القتل، فقال بالاق لبلعام: أطلب أن لا تلعنه ولا تدعوا له، فرد بلعام على بالاق قائلاً: أأنت قلت لك: إني إنما أنطق بما يقول لي الرب، فقال بالاق: انطلق بنا إلى موضع آخر، لعل الله يرضى بغير هذا فتلعنه لي هناك، فأصعده إلى رأس فغور الذي يازاء إستمون، فأمره بمثل ما تقدم من الذبح والقربان، فرأى بلعام أن الرب يجب أن يدعول بني إسرائيل، ولم ينطلق كما كان ينطلق في كل وقت ليطلب الوحي، ولكن أقبل بوجهه إلى البرية ومد بصره، فرأى بني إسرائيل نزولاً قبائل قبائل فحل عليه روح الله، ورفع صوته بأمثاله وقال: قل يا بلعام بن بعور، قل أيها الرجل الذي أجلى عن بصره، قل أيها الذي سمع قول الله ورأى رؤيا الله وهو ملقى وعيناه مفتوحتان، ما أحسن منزلك يا يعقوب ومنازلك يا إسرائيل! وخيمك كالأدوية الجارية، ومثل الفراديس التي على شاطئ النهر، ومثل الجنى الذي ركزه الله، ومثل شجر الأرز على شاطئ النهر يخرج رجل من بينه وذريته أكثر من الماء



الكثير، ويعظم على الملك، وذلك بقوة الله الذي أخرجهم من أرض مصر بغير توقف رثماً، يأكل خيرات الشعوب أعدائه ويكسر عظامهم ويقطع ظهورهم، رتع وربض كالأسد ومثل شبل الليث، ومن يقدر أن يبعثه، يبارك مباركوك ويلعن لاعنوك، فاشتد غضب بالاق على بلعام وصفق بيديه متلهفاً وقال: دعوتك للعن أعدائي، فماذا أنت تباركهم وتدعو لهم ثلاث مرات، انصرف الآن إلى بلادك، قد كنت

(150/297)

---

عزمت على إكرامك وإجازتك فإذا الرب قد أحرمك ذلك، فرد بلعام على بالاق قائلاً: قد كنت قلت لرسلك الذين أرسلتهم إليّ أنه لو وهب لي بالاق ملء بيته من ذهب وفضة لم أقدر أتعدى عن قول الرب، ولكن إنما انطق ما يلهمني الرب، فأنا أنطلق الآن إلى أرضي، فأسمع ما أشير عليك وأخبرك ما يصنع هذا الشعب بشعبك آخر الأيام، ثم رفع صوته بأمثاله وقال: قل يا بلعام بن بعور قل أيها الرجل الجلي عن بصره! قل أيها الذي سمع قول الله وعلم علم العلي ورأى رؤيا الله إذ هو ملقى وعيناه مفتوحتان! فإني رأيت وإذا ليس ظهوره الآن وإن كان متدانفاً، ونظرت في أمره وإذا ليس بقريب، يشرق نجم من آل يعقوب، ويقوم رئيس من بني إسرائيل، ويهلك جبابرة من مؤاب ويبيد جميع بني شيث، وتثير أدوم ميراثه،

وساعير ووراثه أعدائه يصير له ، ويستفيد بنو إسرائيل قوة بقوته - ونحو ذلك من الكلام الذي فيه ما يكون سبباً لانسلاخه من الآيات ، لكن ذكر المفسرون أنه أشار عليه باختلاط نساء بلاده ببني إسرائيل متزينات غير ممتنعات ممن أرادهن منهم ليزنوا بهن فيحل بهم الرجز ، فوقع بهم ذلك ، وهو الصواب لأنه ستأتي الإشارة إليه في التوراة عند فتح مدين بقوله : لماذا أبقيتم على الإثاث وهن كن عشرة لبني إسرائيل عن قول بلعام ومشورته - وسيأتي ذلك قريباً ، وما فيه من ذكر الوحي فهو محمول على المنام أو غير ذلك مما يليق ؛ ثم قال : وقام بلعام ورجع منصرفاً إلى بلاده وبالاق أيضاً رجع إلى بيته ، وسكن بنو إسرائيل شاطيم ، وبدأ الشعب أن يسفح مع بنات مؤاب ، ودعون الشعب إلى ذبائح آلهتهم ، وأكل الشعب - من ذبائحهم وسجدوا لآلهتهم ، وكمل بنو إسرائيل لعبادة بعليون الصنم ، فاشتد غضب الله على بني إسرائيل ، فقال الرب لموسى اعمد إلى جميع بني إسرائيل فافضحهم ، فقال موسى : يقتل كل رجل منكم كل من أخطأ وسجد لبعليون ، وإذا رجل من بني إسرائيل قد أتى بجرأة أمام إخوته من غير أن يستحي ،

(151/297)

---

فدخل على امرأة مدينية وموسى وبنو إسرائيل يكون في باب قبة الآمد ، فرآه فنحاس بن  
اليعازر بن هارون الحبر فنهض من الجماعة غضباً لله وأخذ بيده رماً ودخل إلى بيت  
الذي كانا فيه فطعنهما بالرمح فقتلتهما ، فكف الموت الفاشي عن بني إسرائيل ، وكان عدد  
الذين ماتوا في الموت البغثة أربعة وعشرين ألفاً ، وكلم الرب موسى وقال له : فنحاس  
صرف غضبي عن بين إسرائيل وغار غيرة لله بينهم وطهر بني إسرائيل ، وكان اسم القاتل  
الذي قتل مع المدينية زمري ابن سلو ، وكان رئيساً في قبيلة شمعون ، وكانت المرأة المدينية  
كزبي بنت صور ، وكان أبوها - من رؤساء أهل مدين ، وقال بعض المفسرين : أنه خرج  
رافعاً الحربة إلى السماء ، قد اعتمد بمرفقه على خاصرته ، وأسند الحربة إلى لحيته ، فمن  
هنالك يعطي بنو إسرائيل ولد فنحاس من كل ذبيحة القبة والذراع واللحم والبكر من كل  
أموالهم وأنفسهم لأنه كان بكر العيزار بن هارون .

(152/297)

---

ثم كلم الرب موسى وقال له : ضيق على أهل مدين وأهلكهم كما ضيقوا عليكم ولحسوكم  
، ثم قال : ثم كلم الرب موسى وقال له : إني لمنتم من المدينين ما صنعوا بين بني إسرائيل ،  
ثم تقص إلى شعبك ، ثم قال موسى للشعب : يتسلح منكم قوم للحرب لينتموا للرب من

المدنيين ، وليكونوا اثني عشر ألفاً ، فانتخب موسى من بني إسرائيل ألفاً من كل سبط ،  
اثني عشر أبطالاً مسلحين وأرسلهم ، وصير قائدهم فنحاس بن اليعازر الحبر ومعه  
أوعية القدس وقرون ينفخ بها ، وثقوا على مدين كما أمر الرب موسى وقتلوا كل ذكر فيها  
وقتلوا ملوك مدين مع القتلى ، وقتل بلعام بن بعور معهم في الحرب ، وسبى بنو إسرائيل نساء  
مدين واتهبوا مواشيهم وسلبوا جميع دوابهم وأموالهم وأخربوا جميع قرى مساكنهم وأتو بما  
انتهبوه إلى موسى ، وخرج موسى وجميع عظماء الجماعة فتلقوهم خارج العسكر ،  
وغضب موسى على رؤساء الأحرار ورؤساء الألوف والمئين الذي أتوه من الحرب فقال  
لهم : لماذا أبقيتم على الإناث وهن كن عثرة لبني إسرائيل عن قول بلعام ومشورته ، وقتلوا  
وغدروا وتمردوا على الرب في أمر فغور - وفي نسخة السبعين : فإن هؤلاء كن شيئاً لبني  
إسرائيل تقوم بلعام أن يتباعدوا ويتهاونوا بكلمة الرب من أجل فغور - فواقعت السخطة  
جماعة الرب - وفي نسخة الأخرى : وتسلب الموت على جماعة الرب - بغنة ، فاقتلوا  
الآن جميع الذكورة من الصبيان ، وكل امرأة أدركت وعقلت وعرفت الرجال فاقتلوها ،  
وأبقوا على جميع النساء اللواتي لم يعرفن الرجال وأما أتم فانزلوا خارجاً عن العسكر سبعة  
أيام - إلى آخر ما مضى قريباً في الآصار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 153  
158. ﴿

## فصل

قال الفخر:

﴿ مِنْ يُهْدِي اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (178)

في الآية مسألتان:

المسألة الأولى:

اعلم أنه تعالى لما وصف الضالين بالوصف المذكور وعرف حالهم بالمثل المذكور بين في هذه الآية أن الهداية من الله ، وأن الضلال من الله تعالى ، وعند هذه اضطربت المعتزلة ، وذكروا في التأويل وجوهاً كثيرة: الأول: وهو الذي ذكره الجبائي وارتضاه القاضي أن المراد من يهده الله إلى الجنة والثواب في الآخرة ، فهو المهتدي في الدنيا ، السالك طريقة الرشد فيما كلف ، فبين الله تعالى أنه لا يهدي إلى الثواب في الآخرة إلا من هذا وصفه ، ومن يضلله عن طريق الجنة ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ والثاني: قال بعضهم إن في الآية حذفاً ، والتقدير: من يهده الله فقبل وتمسك بهداه فهو المهتدي ، ومن يضلل بأن لم يقبل فهو الخاسر .

الثالث: أن يكون المراد من يهده الله بمعنى أن من وصفه الله بكونه مهتدياً فهو المهتدي ، لأن ذلك كالممدوح ومدح الله لا يحصل إلا في حق من كان موصوفاً بذلك الوصف الممدوح ، ومن

يضلل أي ومن وصفه الله بكونه ضالاً ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ والرابع: أن يكون المراد من يهده الله بالألطف وزيادة الهدى فهو المهتمي ومن يضل عن ذلك لما تقدم منه من سوء اختياره، فأخرج لهذا السبب تلك الألطف من أن يؤثر فيه فهو من الخاسرين .  
واعلم أنا بينا أن الدلائل العقلية القاطعة، قد دلت على أن الهداية والإضلال لا يكونان إلا من الله من وجوه: الأول: أن الفعل يتوقف على حصول الداعي وحصول الداعي ليس إلا من الله فالفعل ليس إلا من الله .

الثاني: أن خلاف معلوم الله ممتنع الوقوع، فمن علم الله منه الإيمان لم يقدر على الكفر وبالضد .

الثالث: أن كل أحد يقصد حصول الإيمان والمعرفة، فإذا حصل الكفر عقبيه علمنا أنه ليس منه بل من غيره، ثم نقول:

(154/297)

---

أما التأويل الأول: فضعيف لأنه حمل قوله: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ على الهداية في الآخرة إلى الجنة وقوله: ﴿ فَهُوَ الْمَهْتَمَى ﴾ على الاهتداء إلى الحق في الدنيا، وذلك يوجب ركافة في النظم، بل يجب أن تكون الهداية والاهتداء راجعين إلى شيء واحد، حتى يكون الكلام

حسن النظم .

وأما الثاني : فإنه التزام لإضمار زائد ، وهو خلاف اللفظ ، ولو جاز فتح باب أمثال هذه الإضمارات لانقلب النفي إثباتاً وإثبات نفياً ، ويخرج كلام الله عز وجل من أن يكون حجة ، فإن لكل أحد أن يضمري في الآية ما يشاء ، وحينئذ يخرج الكل عن الإفادة .  
وأما الثالث : فضعيف لأن قول القائل فلان هدى فلانا لا يفيد في اللغة البتة أنه وصفه بكونه مهتدياً ، وقياس هذا على قوله فلان ضلل فلانا وكفره ، قياس في اللغة وأنه في نهاية الفساد والرابع : أيضاً باطل لأن كل ما في مقدور الله تعالى من الألفاظ ، فقد فعله عند المعزلة في حق جميع الكفار ، فحمل الآية على هذا التأويل بعيد ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ فَهُوَ الْمَهْتَدَى ﴾ يجوز إثبات الياء فيه على الأصل ، ويجوز حذفها طلباً للتخفيف كما قيل في بيت الكتاب :

فطرت بمنصلي في معاملات . . دوامي الأيد يخبطن السريحا  
ومن أبياته أيضاً :

كخوف ريش حمامة نجدية . . مسحت بماء البين عطف الأثم  
قال أبو الفتح الموصلي يريد كخواف محذوف الياء .

وأما قوله: ﴿ وَمَنْ يُضِلِّ ﴾ يريد ومن يضلله الله ويخذه ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي خسروا الدنيا والآخرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 48. 49 ﴾

(155/297)

وقال ابن عطية:

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

وختمت هذه الآيات التي تضمنت ضلال أقوام والقول فيه بأن ذلك كله من عند الله، الهداية منه وبخلقه واختراعه وكذلك الإضلال، وفي الآية تعجب من حال المذكورين، ومن أضل فقد حتم عليه بالخسران، والثواب والعقاب متعلق بكسب ابن آدم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال القرطبي:

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178) ﴾

تقدم معناه في غير موضع.

وهذه الآية ترد على القدرية كما سبق، وترد على من قال إن الله تعالى هدى جميع المكلفين ولا يجوز أن يضل أحداً. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾



وقال الخازن :

قوله : ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ﴾

يعني من يرشده الله إلى دينه فهو المهتدي ، وقيل : معناه من يتول الله هدايته وإرشاده فهو

المهتدي ﴿ ومن يضل ﴾ يعني ومن يتول الضلالة ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ يعني في

الآخرة وفي الآية دليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الهادي المضل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن - 2 ص ﴾

(156/297)

وقال أبو حيان :

﴿ من يهد الله فهو المهتدي ومن يضل فأولئك هم الخاسرون ﴾ لما تقدم ذكر المهتدين

والضالين حبر تعالى : أنه هو المتصرف فيهم بما شاء من هداية وضلال وتقرر من مذهب

أهل السنة أنه تعالى هو خالق الهداية والضلال في العبد وللمعتزلة في هذا ونظائره تأويلات ،

قال الجبائي : وهو اختيار القاضي ﴿ من يهد الله ﴾ إلى الجنة والثواب في الآخرة ﴿ فهو

المهتدي ﴾ في الدنيا السالك طريق الرشيد فيما كلف فبين أنه لا يهدي إلى الثواب في الآخرة

إلا من هذا وصفه ومن يضلله عن طريق الجنة ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ ، وقال

بعضهم: في الكلام حذف أي ﴿ من يهد الله ﴾ فيقبل ويهتدي بهداه ﴿ فهو المهتدي ومن  
يضل ﴾ بأن لم يقبل فهو الخاسر ، وقال بعضهم: المراد من وصفه الله بأنه مهتدٍ ﴿ فهو  
المهتدي ﴾ لأن ذلك مدح ومدح الله لا يحصل إلا في حق من كان موصوفاً بذلك ﴿ ومن  
يضل ﴾ أي ومن يصفه بكونه ضالاً فهو الخاسر ، وقال بعضهم: من آتينا الألفاظ وزيادة  
الهدى ﴿ فهو المهتد ﴾ ﴿ ومن يضل ﴾ عن ذلك لما تقدم منه بسوء اختياره فأخرج  
لهذا السبب تلك الألفاظ من أن تؤثر فيه فهو الخاسر وهذه التأويلات كلها متكلفة بعيدة  
وظاهر الآية يرد على القدرية والمعزلة و ﴿ فهو المهتدي ﴾ حمل على لفظ من و ﴿  
فأولئك هم الخاسرون ﴾ حمل على معنى من وحسنه كونه فاصلة رأس آية . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(157/297)

وقال أبو السعود :

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾

لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يقصَّ قصصَ المنسلخِ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم  
كمثله ليتفكروا فيه ويتركوها ما هم عليه من الإخلاق إلى الضلالة ويهدوا إلى الحق عقب

ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل وإنما العظة والتذكير من قبل  
الوسائط العادية في حصول الاهتداء من غير تأثير لها فيه سوى كونها دواعي، إلى صرف  
العبد اختياره نحو تحصيله حسبما نيظ به خلق الله تعالى إياه كسائر أفعال العباد، فالمراد  
بهذه الهداية ما يوجب الاهتداء قطعاً لكن لا لأن حقيقتها الدلالة الموصلة إلى البغية البتة،  
بل لأنها الفرد الكامل من حقيقة الهداية التي هي الدلالة إلى ما يوصل إلى البغية أي ما من  
شأنه الإيصال إليها كما سبق تحقيقه في تفسير قوله تعالى ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وليس المراد  
مجرد الإخبار باهتداء من هداه الله تعالى حتى يتوهم عدم الإفادة بحسب الظاهر لظهور  
استلزام هدايته تعالى للاهتداء، ويحمل النظم الكريم على تعظيم شأن الاهتداء والتنبيه  
على أنه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه بل هو قصر الاهتداء  
على من هداه الله تعالى حسبما يقتضي به تعريف الخبر، فالمعنى من يهده الله أي يخلق فيه  
الاهتداء على الوجه المذكور. فهو المهتدي لا غير كائناً من كان ﴿ وَمَنْ يُضِلِّ ﴾ بأن لم  
يخلق فيه الاهتداء بل خلق فيه الضلالة لصرف اختيارها نحوها ﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾  
الموصوفون بالضلالة على الوجه المذكور ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي الكاملون في الخسران لا  
غير، وإفراد المهتدي نظراً إلى معناها للإيدان باتحاد منهاج الهدى وتفرق طرق الضلال.  
انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 3 ص ﴾

وقال الأوسى :

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ ﴾ ﴿ تذييل وتأکید لما تضمنته

القصة السابقة على ما يشير إليه كلام بعضهم .

وقال آخر : إنه تعالى لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقص على أولئك الضالين قصص

أخيهم ليتفكروا ويتركوا ما هم عليه عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهته

سبحانه وتعالى وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية في حصول الاهتداء لكونها

دواعي إلى صرف المكلف اختياره نحو تحصيله حسبما نيط به خلق الله تعالى إياه ،

والمراد بهذه الهداية ما يوجب الاهتداء قطعاً لأن حقيقتها الدلالة الموصلة إلى البغية كما

يوهمه كلام بعض الأصحاب بل لأنها الفرد الكامل من حقيقة الهداية التي هي الدلالة إلى ما

يوصل لإسنادها إلى الله تعالى وتفرع الاهتداء عليها ومقابلتها بالضلال وما معه ولا يخفى

أن الهداية بهذا المعنى يلزمها الاهتداء فيكون الإخبار باهتداء من هداه الله تعالى على ما

قيل على حد الإخبار في شعري شعري وهو يفيد تعظيم شأن الاهتداء وأنه في نفسه كمال

جسيم ونفع عظيم وأنه كاف في نيل كل شرف في الأولى والعقبى .

واختار بعض المحققين أنه ليس المقصود مجرد الإخبار بما ذكر ليتوهم عدم الإفادة بحسب

الظاهر ويصار إلى توجيهه بذلك بل هو قصر الاهتداء على من هداه الله تعالى حسبما

يقضي به تعريف الخبر ، فالمعنى من يخلق فيه الاهتداء فهو المهتمي لا غير كائناً من كان ولا يخلو عن حسن إلا أنه قد يقال : إن الأول أوفق بالمقابل ، وإفراد المهتمي لا غير كائناً من كان ولا يخلو عن حسن إلا أنه قد يقال : إن الأول أوفق بالمقابل ، وإفراد المهتمي رعاية للفظ ﴿ من ﴾ ، وجمع الخاسرين رعاية لمعناها للإيدان بأن الحق واحد وطرق الضلال متشعبة ، وفي الآية تصريح بأن الهدى والضلال من الله تعالى فسبحان من أضل المعتزلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(159/297)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178) ﴾

هذه الجملة تذييل للقصة والمثل وما أعقبا به من وصف حال المشركين ، فإن هذه الجملة تُحصل ذلك كله وتجري مجرى المثل ، وذلك أعلى أنواع التذييل ، وفيها تنويه بشأن المهتمين وتلقين للمسلمين للتوجه إلى الله تعالى بطلب الهداية منه والعصمة من مزالق الضلال ، أي فالذين لم يهتدوا إلى الحق بعد أن جاءهم دلت حالهم على أن الله غضب عليهم فحرمهم التوفيق .

والهداية حقيقتها إبانة الطريق ، وتطلق على مطلق الإرشاد لما فيه النفع سواء اهتدى  
المهدي إلى ما هُدي إليه أم لم يهتد ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا  
﴿ [الإنسان : 3] وقال : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [ ]  
فصلت : 17 ] .

(160/297)

---

ثم قد علم أن الفعل الذي يسند إلى الله تعالى إنما يراد به اتقن أنواع تلك الماهية وأدومها ، ما  
لم تقم القرينة على خلاف ذلك ، فقوله : ﴿ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ يُعْنَى بِهِ مَنْ يَقْدِرُ اللَّهُ اهْتِدَاءَهُ ،  
وليس المعنى من يرشده الله بالأدلة أو بواسطة الرسل ، وقد استفيد ذلك من القصة المذيلة  
فإنه قال فيها : ﴿ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ [الأعراف : 175] فإتاء الآيات ضرب من  
الهداية بالمعنى الأصلي ، ثم قال فيها ﴿ فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا ﴾ [الأعراف : 175] وقال ﴿  
وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الأعراف : 176] وقال : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ  
بِهَا ﴾ [الأعراف : 176] فعلمنا أن الله أرشده ، ولم يقدر له الاهتداء ، فالحالة التي  
كان عليها قبل أن يخلد إلى الأرض ليست حالة هدى ، ولكنها حالة تردد وتجربة ، كما  
تكون حالة المنافق عند حضوره مع المسلمين إذ يكون متلبساً بحاسن الإسلام في الظاهر

، ولكنه غير مبطن لها كما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ﴾ في سورة البقرة ( 17 ) ، فتعين أن يكون المعنى هنا : من يقدر الله له أن يكون مهتدياً فهو المهتدي .

والقصر المستفاد من تعريف جزأى الجملة ﴿ فهو المهتدي ﴾ قصر حقيقي ادعائي باعتبار الكمال واستمرار الاهتداء إلى وفاة صاحبه ، وهي مسألة الموافاة عند الأشاعرة ، أي وأما غيره فهو وإن بان مهتدياً فليس بالمهتدي لينطبق هذا على حال الذي أوتي الآيات فانسسخ منها وكان الشأن أن يرفع بها .

وبهذا تعلم أن قوله ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ﴾ ليس من باب قول أبي النجم :  
وشعري شعري . . .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم " من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله " لأن ذلك فيما ليس في مفاد الثاني منه شيء زائد على مفاد ما قبله بخلاف ما في الآية فإن فيها القصر .

(161/297)

---

وكذلك القول في ﴿ ومن يضل فأولئك هم الخاسرون ﴾ ﴿ وزيد في جانب الخاسرين الفصل باسم الإشارة لزيادة الاهتمام بتمييزهم بعنوان الخسران تحذيراً منه ، فالقصر فيه مؤكد .  
وجُمع الوصف في الثاني مراعاة لمعنى ( مَنْ ) الشرطية ، وإنما روعي معنى ( من ) الثانية دون الأولى ؛ لرعاية الفاصلة وتبين أن ليس المراد بـ ( مَنْ ) الأولى مفرداً .  
وقد عُلم من مقابلة الهداية بالإضلال ، ومقابلة المهدي بالخاسر أن المهدي فائز راجح فحذف ذكر ربحه إيجازاً .

والخسران استعير لتحصيل ضد المقصود من العمل كما يستعار الربح لحصول الخير من العمل كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ في هذه السورة ( 9 ) ، وفي قوله : ﴿ فما رجت تجارتهم ﴾ في سورة البقرة ( 16 ) .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(162/297)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178) ﴾

وهذه الآية هي الوحيدة التي جاء فيها سبحانه وتعالى : ﴿ المهدي ﴾ - بالياء - بينما



جاء المولى سبحانه وتعالى بكلمة "المهتد" - من غير ياء - في آيات متعددة عدا هذه الآية :

واقرا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدُ . . . ﴾ [الإسراء: 97]

ويقول الحق: ﴿ . . . فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: 26]

وكذلك تأتي الكلمة بدون "ياء" في قوله سبحانه: ﴿ . . . مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدُ وَمَنْ

يُضِلُّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف: 17]

والمعركة الخاصة بقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال أيضا ذبول هذه المعركة

موجودة إلى الآن ، وأوضحنا هذه القضية من قبل ولكننا نكررها للتأكيد ولتستقر في

الأذهان ، لأن هناك دائما من يقول : إذا كان الله هو الهادي والمضل ، فلماذا يعذبني إن

ضللت ؟ . وشاع هذا السؤال وأخذ المستشرقون والفلاسفة ويراد منه إيجاد مبرر

للنفس العاصية غير الملتزمة . ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة

الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لا تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت ؟ . إن اقتصارك

على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت

المسألة التي فيها ضرر . ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

وضربنا من قبل أمثلة كثيرة . لنفرق في هذه المسائل بين المختلفين ؛ لأن الجهة عندهم

منفكة وهم قد ناقشوا مسألة " خلق أفعال العباد " وتساءلوا : مَنْ خلق هذه الأفعال ؟  
هل خلقها الله أم أن العبد يخلق أفعاله ؟ .

(163/297)

---

ونسأل : ما هو الفعل ؟ . إنه توجيه طاقة لإحداث حدث ؛ فطاقة اليد أنها تعمل أي عمل  
تريده منها ؛ قد تضرب بها إنساناً أو تحمل بها إنساناً واقعاً على الأرض ، أو تربت بها على  
اليتيم .

إذن ففي اليد طاقة تصلح لأن تفعل الخير وتفعل الشر ، وأنت لحظة أن تضرب إنساناً ؛ فأبي  
عضلة تحركها حين ترتفع اليد لتضرب ؟ . إنك بمجرد رغبتك في أن تضرب ؛ تضرب ؛  
عكس الإنسان الآلي حين يرفع شيئاً ، فله أجزاء وأزرار تعمل . وكلها آلات .

وأنت حين تربت على كتف يتيم ، ما هي الأعضاء والأجهزة التي تحركها لتعمل هذا  
العمل ؟ . إذن فالله هو الذي خلق فيك الانفعال للفعل . فإن نظرت إلى ذلك ، فكل فعل  
من الله ، ولكن توجيهه الجارحة إلى الفعل هو محل التكليف .

إذن فأنت تحاسب لأنك فعلت ، لا لأنك خلقت ؛ لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه  
وتعالى ، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل اللسان فيه طاقة مخلوقة لبيان ما في

النفس؛ إن أردت أن تقول بها "لا إله إلا الله" صلحت، وصالحت كذلك عند الملحد أن يقول - والعياذ بالله - لا يوجد إله . واللسان لم يعص في هذه ولا في تلك .

إذن فالذي خلق قدرة الجارحة على الفعل هو الله . وأنت توجه الجارحة، إذن فكل الأفعال مخلوقة لله، لكن توجيه الطاقة للفعل بالميل والاختيار إنما يكون من العبد . والحق سبحانه وتعالى يهدي الجميع بالمنهج، ومن يقبل عليه بنية الإيمان، يعينه على ذلك، ولذلك لا يصح أن نختلف في مسألة مثل هذه، وأن نسأل من خلق الأفعال، بل علينا أن نحدد الأفعال وكيف توجد، وما دور الإنسان فيها؛ لأننا نعلم أن الله قد يسلب طاقة الفعل على الأحداث، مثل من يريد أن يؤذي إنساناً بيده لكنه يصاب بشلل فلا يقدر أن يرفع يده . ولو كان هو الذي يخلق لرفع يده وأذى بها من أراد، لكنه لا يخلق الطاقة الصانعة للفعل .

(164/297)

---

وعلى ذلك تكون الهداية نوعين: هداية دلالة، وهي للجميع؛ للمؤمن والكافر؛ لأن الحق لم يدل المؤمن فقط، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به، فمن يقبل على الإيمان به؛ فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة . فيأخذ بيده، ويعينه، ويجعل الإيمان خفيفاً

على قلبه ، ويعطي له طاقة لفعل الخير ، ويشرح له صدره وييسر له أمره : وسبحانه القائل :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ . . . ﴾ [البقرة: 282]

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ . . . وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف :

[ 178

فإذا كان الله قد عمّم حكماً ثم خصّصه ، فالتخصيص هو الذي يحكم التعميم .

ويقول ربنا عز وجل : إن من شاء هدايته فهو سبحانه وتعالى يعطيه الهداية ، ومن شاء له

الضلال زاده ضلالاً ، وقد بين أن من شاء هدايته يهتدي وهذه معونة من الله ، والكافر لا

يهتدي وكذلك الظالم ، والفاسق ؛ لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا

يمنع سبحانه وتعالى عنهم هداية المعونة . وتقرأ في القرآن الكريم ما يوضح هذه المسألة ،

فهو سبحانه يقول : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى . . . ﴾ [

فصلت : 17]

والهداية التي كانت تقوم ثمود إنما هي هداية الدلالة ، وليست هداية المعونة .

ويقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17]

أي أنه سبحانه قد زاد من اختاروا الهداية ، بالمعونة وجعل بينهم وبين النار وقاية ، والحق

سبحانه وتعالى يقول لرسوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . . . ﴾ [القصص : 56]

أي أنك يا محمد لن تعين أحداً على الطاعة لأن هذا أمر يملكه ربك .

ويقول سبحانه لرسوله: ﴿ . . . وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: 52]

[

أي أنك يا محمد تهدي هداية الدلالة بالمنهج الذي أنزله الله إليك .

(165/297)

---

إذن إذا رأيت فعلاً أو حدثاً مُثبِتاً لواحد ومنفياً عنه . فاعلم أن الجهة منفكة ، والكلام

هنا للحكيم عليم . ولماذا يقول الحق سبحانه: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلُّ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: 178]

لأن الحق سبحانه وتعالى حين ينصرف عن معونة عبده ، فعلى العبد أن يواجه حركة الحياة

وحده بدون مدد من خالقه . ويعيش وحالته كرب ، سواء كان في يسر مادي أو في عسر

. هذا إن اعتبر أن الدنيا هي كل شيء ، فإذا أضيف إلى ذلك غفلته عن أن الدنيا معبر

للآخرة ، فالخسارة تكون كبيرة حقاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(166/297)

---

## "فصل"

قال السيوطي :

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الخطبة

" الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، من يهده الله فلا

مضل له ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

."

وأخرج مسلم والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر

قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته " نحمد الله وثني عليه بما هو

أهله ، ثم يقول : من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له ، أصدق الحديث كتاب

الله وأحسن الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة

ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، ثم يقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ."

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن

أصابه من ذلك النور يومئذ شيء اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم

على علم الله " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾

راعى لفظ "مَنْ" فأفرد، وراعى معناها في قوله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فجمع،

وياء "المُهْتَدِي" ثابتة عند جميع القراء، لثبوتها في الرسم، وسيأتي الخلاف في التي في

الإسراء.

وقال الواحدي: فهو المُهْتَدِي يجوز إثبات الياء فيه على الأصل، ويجوز حذفها استخافاً؛

كما قيل في بيت الكتاب: [الوافر]

فَطَرْتُ بِمَنْصُلِي فِي يَعْمَلَاتٍ . . .

دَوَامِي الْأَيْدِ يَخْبِطُنَ السَّرِيحَا

وعنه: [الكامل]

2627 - كَنُوحِ رِيَشِ حَمَامَةٍ نَجْدِيَّةٍ . . .

وَمَسَحَتْ بِاللِّثْنِ عَصْفَ الْإِثْمِدِ

قال ابن جني : شبه المضاف إليه بالتنون فحذف له الياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن

عادل ح 9 ص 393 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178) ﴾

ليست الهداية من حيث السعاية ، إنما الهداية من حيث البداية ، وليست الهداية بفكر

العبد ونظره ، إنما الهداية بفضل الحق وجميل ذكره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف

الإشارات ح 1 ص 589 ﴾

(168/297)

ومن فوائد الشوكاني في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ

(175) ﴾

قوله : ﴿ واتل ﴾ معطوف على الأفعال المقدرّة في القصص السابقة وإيراد هذه القصة



منه سبحانه ، وتذكير أهل الكتاب بها ، لأنها كانت مذكورة عندهم في التوراة .  
وقد اختلف في هذا الذي أوتي الآيات ﴿ فانسَخ مِنْهَا ﴾ فقيل : هو بلعم بن باعوراء ،  
وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة .

وقيل : كان قد أوتي النبوة ، وكان مجاب الدعوة ، بعثه الله إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان ،  
فأعطوه الأعطية الواسعة ، فاتبع دينهم ، وترك ما بعث به ، فلما أقبل موسى في بني إسرائيل  
لقتال الجبارين ، سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى ، فقام ليدعو عليه  
فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه ، فقيل له في ذلك فقال : لا أقدر على أكثر مما  
تسمعون .

واندلع لسانه على صدره ، فقال قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، فلم يبق إلا المكر  
والخدعة والحيلة ، وسأمكر لكم ، وإني أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم ، فإن الله يبغض الزنا  
، فإن وقعوا فيه هلكوا ، فوقع بنو إسرائيل في الزنا ، فأرسل الله عليهم الطاعون ، فمات  
منهم سبعون ألفاً .

وقيل : إن هذا الرجل اسمه باعم ، وهو من بني إسرائيل .  
وقيل المراد به أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولا  
في ذلك ، فلما أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به .  
وقيل هو أبو عامر بن صيفي وكان يلبس المسوح في الجاهلية ، فكفر بمحمد صلى الله عليه

وسلم .

وقيل : نزلت في قريش آتاهم الله آياته التي أنزلها على محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا

بها .

وقيل : نزلت في اليهود والنصارى ، انتظروا خروج محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به .

(169/297)

---

قوله : ﴿ فانسَلَخْ مِنْهَا ﴾ أي : من هذه الآيات التي أوتيتها ، كما تنسلخ الشاة عن جلدها ، فلم يبق له بها اتصال ﴿ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ عند انسلاخه عن الآيات ، أي لحقه فأدركه ، وصار قريناً له ، أو فأتبعه خطواته ، وقرىء " فاتبعه " بالتشديد بمعنى تبعه ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ المتمكنين في الغواية وهم الكفار .

قوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ الضمير يعود إلى الذي أوتي الآيات ، والمعنى : لو شئنا رفعه : بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها ، أي بسببها ، ولكن لم نشأ ذلك لانسلاخه عنها ، وتركه للعمل بها .

وقيل المعنى : ولو شئنا لأمتناه قبل أن يعصي فرفعناه إلى الجنة بها ، أي بالعمل بها ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أصل الإخلاق : اللزوم ، يقال أخلد فلان بالمكان إذا قام به

ولزمه ، والمعنى هنا : أنه مال إلى الدنيا ورغب فيها ، وأثرها على الآخرة ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾  
﴿ أي : اتبع ما يهواه ، وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله ، وهو حطام الدنيا .  
وقيل : كان هواه مع الكفار .

وقيل : اتبع رضا زوجته ، وكانت هي التي حملته على الانسلاخ من آيات الله .  
قوله : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ ﴿ أي : فصار لما انسلاخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطاً إلى  
أسفل رتبة ، مشابهاً لأخس الحيوانات في الدناءة مما ثلأله في أقبح أوصافه ، وهو أنه يلهث  
في كلاله قصداً الإنسان له وتركه .

فهو لاهث سواء زجر أو ترك ، طرد أو لم يطرد ، شدّ عليه أو لم يشد عليه ، وليس بعد هذا  
في الخسة والدناءة شيء ، وجملة ﴿ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ ﴿ في محل نصب  
على الحال ، أي مثله كمثل الكلب حال كونه متصفاً بهذه الصفة ، والمعنى : أن هذا  
المنسلاخ عن الآيات لا يروعى عن المعصية في جميع أحواله ، سواء وعظه الواعظ ، وذكره  
المذكر ، وزجره الزاجر ، أو لم يقع شيء من ذلك .

(170/297)

---

قال القتيبي: كل شيء يلهث، وإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في

حال الكلال، وحال الراحة، وحال المرض، وحال الصحة، وحال الري، وحال

العطش.

فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته؛ فقال: إن وعظته ضلّ، وإن تركته ضلّ، فهو كالكلب إن

تركته لهث، وإن طردته لهث، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ

عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: 193] واللّهث: إخراج اللسان

لتعب أو عطش أو غير ذلك.

قال الجوهري: لهث الكلب بالفتح يلهث لهثاً ولهثاً بالضم إذا أخرج لسانه من التعب أو

العطش، وكذلك الرجل إذا أعيأ.

قيل معنى الآية: أنك إذا حملت على الكلب نبج وولى هارباً، وإن تركته شدّ عليك ونبج،

فيتعب نفسه مقبلاً عليك ومديراً عنك، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من

إخراج اللسان.

والإشارة بقوله ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدّم من التمثيل بتلك الحالة الخسيسة.

وهو مبتدأ وخبره ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾ أي: ذلك المثل الخسيس مثل القوم

الذين كذبوا بآياتنا من اليهود، بعد أن علموا بها وعرفوها، فحرفوا وبدّلوا، وكنموا صفة

رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبوا بها ﴿فاقص القصص﴾ أي فاقصص عليهم

هذا القصص الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات ، فإن مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين تقص عليهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ذلك ويعملون فيه أفهامهم ، فينزعون عن الضلال ، ويقبلون على الصواب .

(171/297)

---

قوله : ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم البالغة في القبح إلى الغاية ، يقال ساء الشيء قبح ، فهو لازم ، وساءه يسوؤه مساءة : فهو متعد وهو من أفعال الذم : كبس ، وفاعله ضمير مستتر فيه ، و ﴿ مَثَلًا ﴾ تمييز مفسر له ، والمخصوص بالذم هو ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ، ولا بد من تقدير مضاف محذوف لأجل المطابقة ، أي : ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا . وقال الأخفش : جعل المثل القوم مجازاً ، والقوم مرفوع بالابتداء أو على إضمار مبتدأ ، التقدير : ساء المثل مثلاً هو مثل القوم ، كذا قال .  
وقدره أبو علي الفارسي : ساء مثلاً مثل القوم كما قدمنا .  
وقرأ الجحدري والأعمش " وَسَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ " .  
قوله : ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ ﴾ أي : ما ظلموا بالكذب إلا أنفسهم ، لا يتعدها

ظلمهم إلى غيرها ولا يتجاوزها .

والجملة معطوفة على التي قبلها على معنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى ﴾ ﴿ لَمَّا أَمْرَبَهُ وَشَرَعَهُ لِعِبَادِهِ ﴾ ﴿ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون في الخسران ، من هداه فلا مضلَّ له ، ومن أضله فلا هادي له ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وقد أخرج الفريابي ، وعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود ، في قوله : ﴿ وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ قال : هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن آبر . وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، من طرق عن ابن عباس قال : هو بلعم بن باعوراء .

وفي لفظ : بلعام بن باعر الذي أوتي الاسم كان في بني إسرائيل .

(172/297)

---

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ قال : هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم ، تعلم اسم الله

الأكبر ، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد ، ومعه جنود كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يردّ عنا موسى ومن معه ، قال : إني إن دعوت الله أن يردّ موسى ومن معه مضت دنيائي وآخرتي ، فلم يزالوا به حتى دعا الله فسلب ما كان فيه .

وفي قوله : ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ قال : إن حمل الحكمة لم يحملها ، وإن ترك لم يهد لخير ، كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن يتردد لهث .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، في الآية قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت : اجعل لي منها واحدة ، قال : فلك واحدة فما الذي تريدين ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل ؛ فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه ، وأرادت شيئاً آخر ، فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان ، فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها ، فادع الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليه ، فدعا الله فعادت كما كانت فذهبت الدعوات الثلاث وسميت البسوس .

وأخرج عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن عبد الله بن عمرو ، في الآية : قال : هو أمية بن أبي الصلت

الثقفي ، وفي لفظ : نزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت .  
وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عنه نحوه .

(173/297)

---

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن الشعبي في هذه الآية قال : قال ابن عباس هو  
رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء ، وكانت الأنصار تقول : هو ابن الراهب  
الذي بنى له مسجد الشقاق .

وكانت ثقيف تقول : هو أمية بن أبي الصلت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : هو صيفي بن الراهب .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عنه ، في قوله : ﴿ فانسُخ  
مِنْهَا ﴾ قال : نزع منه العلم ، وفي قوله : ﴿ وَكُوشِنَا لِرَفْعِنَاهُ بِهَا ﴾ قال : رفعه الله بعلمه .  
وأخرج مسلم ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ،  
عن جابر بن عبد الله ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته يحمد الله  
ويتثنى عليه بما هو أهله ، ثم يقول : " من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ،  
أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرّ



الأمر محدثاتها ، وكل محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار " ثم يقول :  
" بعثت أنا والساعة كهاتين " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ج 2 ص ﴾

(174/297)

قوله تعالى ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (179)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضت هذه القصص فأسفرت عن أن أكثر الخلق هالك ، صرح بذلك فقال مقسماً  
لأنه لا يكاد يصدق أن الإنسان يكون - أضل من البهائم ، عاطفاً على ما تقديره : هؤلاء  
الذين قصصنا عليكم أخباركم ذرأناهم لجهنم : ﴿ ولقد ﴾ وعزتنا وجلالنا ﴿ ذرأنا ﴾  
أي خلقنا بعظمتنا وأنشأنا وبنينا ونشرنا ﴿ لجهنم كثيراً ﴾ أي وألجاناهم إليها ولم يجعل  
بينهم وبينها حائلاً .

ولما كانوا يعظمون الجن ويخافونهم ويضلون بهم ، بدأ بهم فقال : ﴿ من الجن ﴾ أي بنصيبهم

أنفسهم آلهة يضلّاهم الإنسان في تزيين عبادتهم غير الله ، فهم في الحقيقة المعبودون لا الحجارة ، ونحوها ﴿ والإنس ﴾ أي عبادتهم لمن لا يصلح ، وعلم أن الآية صالحة لأن تكون معطوفة على الجملة التي قبلها فهي من فذلكة ما تقدم .

ولما كان كأنه قيل : ما لهم رضوا لأنفسهم بطريق جهنم ؟ قيل : ﴿ لهم ﴾ ولما كان السياق للتفكر ، بدأ بالقلوب فقال : ﴿ قلوب لا يفقهون بها ﴾ أي الفقه الذي كفوا به ، وهو النظر في أدلة التوحيد وثبوت النبوة وما تفرغ عن ذلك ، وهو الفقه المسعد ، عد غيره عدماً لأنه لم ينفعهم النفع المقصود في الحقيقة ، وما أحسن التعبير بالفقه في السياق إقامه الأدلة التي منها إرسال الرسل وإنزال الكتب .

ولما كان البصر أعم من السمع ، لأنه ينتفع به الصغير الذي لا يفهم القول ، وكذا كل من في حكمه ، قدمه فقال : ﴿ ولهم أعين ﴾ ولما لم يترتب عليهما الإبصار النافع في الآخرة الباقية ، نفى إبصارهم وإن كانوا أحدّ الناس إبصاراً فقال : ﴿ لا يبصرون بها ﴾ أي الآيات المرئية إبصار تفكر واعتبار ﴿ ولهم آذان ﴾ ولما لم يترتب على سماعها ما ينفعهم ، نفاه على نحو ما مضى فقال : ﴿ لا يسمعون بها ﴾ أي الآيات المسموعة وما يدل عليها سماع ادكار وافتكار ، ولما سلبت عنهم هذه المعاني كانت النتيجة : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء من المعاني الإنسانية ﴿ كالأنعام ﴾ أي في عدم الفقه ، ولما كانوا قد زادوا على ذلك تفقد نفع السمع والبصر قال : ﴿ بل هم أضل ﴾ لأنهم إما معاند وإما جاهل بما يضره

وينفعه ، والأنعام تهرب إذا سمعت صوتاً منكراً فرأت بعينها أنه يترتب عليه ضررها ،  
وتنتظر ما ينفعها من الماء والمرعى فتقصده ، والأنعام لا قدرة لها على ما يترتب على هذه  
المدارك من الفقه .

(175/297)

---

وهؤلاء مع قدرتهم على ذلك أهملوه فنزلوا عن رتبتها درجة كما أن من طلب الكمال  
وسعى له سعيه مع نزاع الشهوات علا عن درجة الملائكة بما قاسى من الجهاد .  
ولما تشاركوا الأنعام بهذه في الغفلة وزادوا عليها ، أنتج ذلك قطعاً على طريق الحصر :  
﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الغافلون ﴾ لا الأنعام ، فإنها -  
وإن كانت غافلة عما يراد بها - غير خالدة في العذاب ، فلم تشاركهم في العمى والصمم  
عما ينفعها ولا في الغفلة عن الخسارة الدائمة ، فقد أشارت الآية إلى تفضيل الإنسان على  
الملك كما اقتضته سورة الزيتون ، لأنه جعل في خلقه وسطاً بين الملك الذي هو عقل صرف  
والحيوان الذي هو شهوة مجردة ، فإن غلب عقله كان أعلى بما عاجله من جهاد الشهوات  
فكان في

﴿ أحسن تقويم ﴾ [ التين : 5 ] وإن غلبت شهوته كان أسفل من الحيوان بما أضع من

عقله فكان ﴿أسفل سافلين﴾ [التين: 5]. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ

﴿159.158﴾

(176/297)

فصل

قال الفخر:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾

هذه الآية هي الحجة الثانية في هذا الموضوع على صحة مذهبنا في مسألة خلق الأفعال وإرادة الكائنات وتقريره من وجوه: الأول: أنه تعالى بين باللفظ الصريح أنه خلق كثيراً من الجن والإنس لجهنم، ولا مزيد على بيان الله.

الثاني: أنه تعالى لما أخبر عنهم بأنهم من أهل النار، فلو لم يكونوا من أهل النار انقلب علم الله جهلاً وخبره الصدق كذباً وكل ذلك محال والمفضي إلى المحال محال، فعدم دخولهم في النار محال، ومن علم كون الشيء محالاً امتنع أن يريده، فثبت أنه تعالى يمتنع أن يريد أن لا يدخلهم في النار، بل يجب أن يريد أن يدخلهم في النار، وذلك هو الذي دل عليه لفظ الآية. الثالث: أن القادر على الكفر إن لم يقدر على الإيمان، فالذي خلق فيه القدرة على الكفر،

فقد أراد أن يدخله في النار ، وإن كان قادراً على الكفر وعلى الإيمان معاً امتنع رجحان أحد الطرفين على الآخر لا مرجح ، وذلك المرجح إن حصل من قبله لزم التسلسل ، وإن حصل من قبله تعالى ، فلما كان هو الخالق للداعية الموجبة للظفر ، فقد خلقه للنار قطعاً .  
الرابع : أنه تعالى لو خلقه للجنة وأعانه على اكتساب تحصيل ما يوجب دخول الجنة ، ثم قدرنا أن العبد سعى في تحصيل الكفر الموجب للدخول في النار ، فحينئذ حصل مراد العبد ، ولم يحصل مراد الله تعالى ، فيلزم كون العبد أقدر وأقوى من الله تعالى ، وذلك لا يقوله عاقل ، والخامس : أن العاقل لا يريد الكفر والجهل الموجب لاستحقاق النار ، وإنما يريد الإيمان والمعرفة الموجبة لاستحقاق الثواب والدخول في الجنة ، فلما حصل الكفر والجهل على خلاف قصد العبد وضد جهده واجتهاده ، وجب أن لا يكون حصوله من قبل العبد ، بل يجب أن يكون حصوله من قبل الله تعالى .

(177/297)

---

فإن قالوا : العبد إنما سعى في تحصيل ذلك الاعتقاد الفاسد الباطل ، لأنه اشتبه الأمر عليه وظن أنه هو الاعتقاد الحق الصحيح .

فنقول : فعلى هذا التقدير : إنما وقع في هذا الجهل لأجل ذلك الجهل المتقدم ، فإن كان

إقدامه على ذلك الجهل السابق لجهل آخر لزم التسلسل وهو محال ، وإن انتهى إلى جهل حصل ابتداءً لالسابقة جهل آخر ، فقد توجه الإلزام وتأكد الدليل والبرهان ، فثبت أن هذه البراهين العقلية ناطقة بصحة ما دل عليه صريح قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ قالت المعتزلة : لا يمكن أن يكون المراد من هذه الآية ما ذكرتم ، لأن كثيراً من الآيات دالة على أنه أراد من الكل الطاعة .  
والعبادة والخير والصلاح .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ \* لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الفتح : 8 ، 9] وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء : 64] وقال : ﴿ وَقَدْ صَرَفْنَا بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا ﴾ [الفرقان : 50] وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الحديد : 9] وقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد : 25] وقال : ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ [إبراهيم : 10] وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] وأمثال هذه الآيات كثيرة ، ونحن نعلم بالضرورة أنه لا يجوز وقوع التناقض في القرآن ، فعلمنا أنه لا يمكن حمل قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ على ظاهره .

---

الوجه الثاني: أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ وهو تعالى إنما ذكر ذلك في معرض الذم لهم، ولو كانوا مخلوقين للنار، ولما كانوا

قادرين على الإيمان ألبتة وعلى هذا التقدير فيقبح ذمهم على ترك الإيمان.

الوجه الثالث: وهو أنه تعالى لو خلقهم للنار لما كان له على أحد من الكفار نعمة أصلاً، لأن منافع الدنيا بالقياس إلى العذاب الدائم، كالقطرة في البحر، وكان كمن دفع إلى إنسان حلواً مسموماً فإنه لا يكون منعماً عليه، فكذا ههنا.

ولما كان القرآن مملوئاً من كثرة نعمة الله على كل الخلق، علمنا أن الأمر ليس كما ذكرتم.

الوجه الرابع: أن المدح والذم، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب يبطل هذا المذهب الذي ينصرونه.

الوجه الخامس: لو أنه تعالى خلقهم للنار، لوجب أن يخلقهم ابتداءً في النار، لأنه لا فائدة في أن يستدرجهم إلى النار بخلق الكفر فيهم.

الوجه السادس: أن قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ متروك الظاهر، لأن جهنم اسم لذلك الموضع المعين، ولا يجوز أن يكون الموضع المعين مراداً منه، فثبت أنه لا بد وأن يقال: إن ما أراد الله تعالى بخلقهم منهم محذوف، فكأنه قال: ولقد ذرأنا لكي يكفروا فيدخلوا جهنم،

فصارت الآية على قولهم متروكة الظاهر ، فيجب بناؤها على قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ لأن ظاهرها يصح دون حذف .

(179/297)

الوجه السابع : أنه إذا كان المراد أنه إذا ذرأهم لكي يكفروا فيصيروا إلى جهنم ، عاد الأمر في تأويلهم إلى أن هذه اللام للعاقبة ، لكنهم يجعلونها للعاقبة مع أنه لا استحقاق للنار ، ونحن قد قلنا على عاقبة حاصلة مع استحقاق النار ، فكان قولنا أولى ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل هذه الآية على ظاهرها ، فوجب المصير فيه إلى التأويل ، وتقديره : أنه لما كانت عاقبة كثير من الجن والأنس ، هي الدخول في نار جهنم ، جائز ذكر هذه اللام بمعنى العاقبة ، ولهذا نظائر كثيرة في القرآن والشعر : أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ [ الأنعام : 105 ] ومعلوم أنه تعالى ما صرفها ليقولوا ذلك ، لكنهم لما قالوا ذلك ، حسن ورود هذا اللفظ ، وأيضاً قال تعالى :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ [ يونس : 88 ] وأيضاً قال تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [

القصص : 8 ] وهم ما التقطوه لهذا الغرض إلا أنه لما كانت عاقبة أمرهم ذلك ، حسن هذا



اللفظ ، وأما الشعر فأبيات قال :

وللموت تغدوا الوالدات سخالها . . كما لخراب الدهر تبني المساكن

وقال :

أموالنا لذوي الميراث نجمعها . . ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال :

له ملك ينادي كل يوم . . لدوا للموت وابنوا للخراب

وقال :

وأم سماك فلا تجزعي . . فଲلموت ما تلد الوالدة

هذا منتهى كلام القوم في الجواب .

واعلم أن المصير في التأويل إنما يحسن إذا ثبت بالدليل امتناع العقل حمل هذا اللفظ على

ظاهره ، وأما لما ثبت بالدليل أنه لاحق إلا ما دل عليه ظاهر اللفظ ، كان المصير إلى التأويل

في مثل هذا المقام عبثاً .

(180/297)

---

وأما الآيات التي تمسكوا بها في إثبات مذهب المعتزلة ، فهي : معارضة بالبحار الزاخرة  
المملوءة من الآيات الدالة على مذهب أهل السنة ، ومن جملتها ما قبل هذه الآية وهو قوله :  
﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا تُطِيقُ فَتُؤْتَىٰ مِنْهُ خِيسًا ﴾ [الأعراف : 178]  
وهو صريح مذهبنا ، وما بعد هذه الآية وهو قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ  
مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ \* وَأَمْ لِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿ [الأعراف : 182 ، 183] ولما  
كان ما قبل هذه الآية وما بعدها ليس ، إلا ما يقوي قولنا ويشيد مذهبنا ، كان كلام المعتزلة  
في وجوب تأويل هذه الآية ضعيفا جدا .

أما قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ  
بِهَا ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في خلق الأعمال فقالوا : لا شك أن أولئك  
الكفار كانت لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ، ولا شك أنه كانت لهم أعين  
يبصرون بها المرئيات ، وآذان يسمعون بها الكلمات ، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية  
تقييدها بما يرجع إلى الدين ، وهو أنهم ما كانوا يفقهون بقلوبهم ما يرجع إلى مصالح الدين ،  
وما كانوا يبصرون ويسمعون ما يرجع إلى مصالح الدين .

وإذا ثبت هذا فنقول : ثبت أنه تعالى كلفهم بتحصيل الدين مع أن قلوبهم وأبصارهم

وأسماعهم ما كانت صالحة لذلك ، وهو يجري مجرى المنع عن الشيء والصد عنه مع الأمر به ، وذلك هو المطلوب قالت المعتزلة لو كانوا كذلك ، لقبح من الله تكليفهم ، لأن تكليف من لا قدرة له على العمل قبيح غير لائق بالحكيم .

فوجب حمل الآية على أن المراد منه أنهم بكثرة الإعراض عن الدلائل وعدم الالتفات إليها صاروا مشبهين بمن لا يكون له قلب فاهم ولا عين باصرة ولا أذن سامعة .

(181/297)

---

والجواب : أن الإنسان إذا تأكدت نفرتة عن شيء ، صارت تلك النفرة المتأكدة الراسخة مانعة له عن فهم الكلام الدال على صحة الشيء ، ومانعة عن إِبصار محاسنه وفضائله ، وهذه حالة وجدانية ضرورية يجدها كل عاقل من نفسه .

ولهذا السبب قالوا في المثل المشهور حُبك الشيء يعمي ويصم .

إذا ثبت هذا فنقول : إن أقواماً من الكفار بلغوا في عداوة الرسول عليه الصلاة والسلام وفي بغضه وفي شدة النفرة عن قبول دينه والاعتراف برسالته هذا المبلغ وأقوى منه ، والعلم الضروري حاصل بأن حصول البغض والحب في القلب ليس باختيار الإنسان ، بل هو حاصل في القلب شاء الإنسان أم كره .

إذا ثبت هذا فنقول : ظهر أن حصول هذه النفرة والعداوة في القلب ليس باختيار العبد ،  
وثبت أنه متى حصلت هذه النفرة والعداوة في القلب ، فإن الإنسان لا يمكنه مع تلك النفرة  
الراسخة والعداوة الشديدة تحصيل الفهم والعلم ، وإذا ثبت هذا ثبت القول بالجبر لزوماً لا  
محيص عنه .

ونقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خطبة في تقرير هذا المعنى وهو في غاية الحسن .

(182/297)

---

روى الشيخ أحمد البيهقي في كتاب "مناقب الشافعي" رضي الله تعالى عنه عن علي بن  
أبي طالب رضي الله عنه أنه خطب الناس فقال وأعجب ما في الإنسان قلبه فيه مواد من  
الحكمة وأضدادها ، فإن سرح له الرجاء أوله الطمع ، وإن هاج له الطمع أهلكه الحرص ،  
وإن أهلكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن سعد بالرضا  
شقي بالسخط ، وإن ناله الخوف شغله الحزن وإن أصابته المصيبة قتله الجزع ، وإن وجد  
مالاً أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة شغله البلاء ، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف ، فكل  
تقصير به مضر وكل إفراط له مفسد وأقول : هذا الفصل في غاية الجلالة والشرف ، وهو  
كالمطلع على سر مسألة القضاء والقدر ، لأن أعمال الجوارح مربوطة بأحوال القلوب ، وكل

حالة من أحوال القلب فإنها مستندة إلى حالة أخرى حصلت قبلها ، وإذا وقف الإنسان على هذه الحالة علم أنه لا خلاص من الاعتراف بالجبر ، وذكر الشيخ الغزالي رحمه الله في كتاب "الإحياء" فصلاً في تقرير مذهب الجبر .

ثم قال فإن قيل : إني أجد من نفسي أنني إن شئت الفعل فعلت ، وإن شئت الترك تركت ، فيكون فعلي حاصلًا بي لا بغيري ثم قال : وهب أنك وجدت من نفسك ذلك إلا أنا نقول : وهل تجد من نفسك أنك إن شئت أن تشاء شيئاً شئت ، وإن شئت أن لا تشاء لم تشأه ، ما أظنك أن تقول ذلك ، وإلا لذهب الأمر فيه إلى ما لا نهاية له : بل شئت أو لم تشأ فإنك تشاء ذلك الشيء ، وإذا شئت فشئت أو لم تشأ فعلته ، فلا مشيئتك به ولا حصول فعلك بعد حصول مشيئتك بك فالإنسان مضطر في صورة مختار .

المسألة الثانية :

احتج العلماء بقوله تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ على أن محل العلم هو القلب ، لأنه تعالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم في معرض الذم ، وهذا إنما يصح لو كان محل الفهم والفقه هو القلب ، والله أعلم .

(183/297)

---

أما قوله: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فتقديره أن الإنسان وسائر الحيوانات متشاركة في قوى الطبيعة الغذائية والنامية والمولدة، ومتشاركة أيضاً في منافع الحواس الخمس الباطنة والظاهرة وفي أحوال التخيل والتفكير والتذكر، وإنما حصل الامتياز بين الإنسان وبين سائر الحيوانات في القوة العقلية والفكرية التي تهديه إلى معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به: فلما أعرض الكفار عن اعتبار أحوال العقل والفكر ومعرفة الحق والعمل بالخير كانوا كالأنعام.

ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الحيوانات لا قدرة لها على تحصيل هذه الفضائل، والإنسان أعطي القدرة على تحصيلها، ومن أعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أخص حالاً ممن لم يكتسبها مع العجز عنها. فلهذا السبب قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وقال حكيم الشعراء: الروح عند إله العرش مبدؤه . . وتربة الأرض أصل الجسم والبدن قد ألف الملك الحنان بينهما . . ليصلحا لقبول الأمر والحنن

فالروح في غربة والجسم في وطن . . فاعرف ذمام الغريب النازح الوطن وقيل في تفسير قوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وجوه أخرى فقيل: لأن الأنعام مطيعة لله تعالى والكافر غير مطيع، وقال مقاتل: هم أخطأ طريقاً من الأنعام، لأن الأنعام تعرف ربها وتذكره، وهم لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه.

وقال الزجاج: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتسعى في تحصيل منافعها وتحتز عن مضارها، وهؤلاء الكفار وأهل العناد أكثرهم يعلمون أنهم معاندون ومع ذلك فيصرون عليه، ويلقون أنفسهم في النار وفي العذاب، وقيل إنها تفر أبداً إلى أربابها، ومن يقوم بمصالحها، والكافر يهرب عن ربه وإلهه الذي أنعم عليه بنعم لا حد لها.

(184/297)

---

وقيل: لأنها تضل إذا لم يكن معها مرشد، فأما إذا كان معها مرشد قلما تضل، وهؤلاء الكفار قد جاءهم الأنبياء وأنزل عليهم الكتب وهم يزدادون في الضلال ثم إنه تعالى ختم الآية فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ قال عطاء: عما أعد الله لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب ح 15 ص 54.50﴾

(185/297)

---

وقال السمرقندي:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾

يعني : خلقنا لجهنم كثيراً ﴿ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ فإن قيل : قد قال في آية أخرى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] فأخبر أنه خلق الجن والإنس لعبادته .

وها هنا يقول : خلقهم لجهنم .

قيل له : قد خلقهم للأمرين جميعاً منهم من يصلح لجهنم فخلقها لها ، ومنهم من يصلح للعبادة فخلقها لها ، ولأن من لا يصلح لشيء لا يخلق له ذلك الشيء .

ويقال معنى قوله : ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ يعني : إلا للأمر والنهي .

ويقال : ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ يعني : إلا لكي يمشيهم أن يعبدوا ، وقد بينت لهم الطريق .  
ويقال : في هذه الآية تقديم وتأخير .

ومعناه : ولقد ذرأنا جهنم لكثير من الجن والإنس .

ثم وصفهم فقال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ يعني : لا يعقلون بها .

الحق كما قال في آية أخرى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : 7] ثم قال : ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾

يعني : الهدى ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ يعني : الهدى .

ثم ضرب لهم مثلاً آخر فقال : ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ فشبهم بالأنعام لقلّة رغبتهم وتغافلهم

عن الحق .



يعني : إنهم كالأنعام في ذهنهم لا في صورهم .

لأنه ليس للأنعام إلا الأكل والشرب ، فهي تسمع ولا تعقل ، كذلك الكافر هو غافل عن الأمر والنهي والوعد والوعيد .

ثم قال : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ سبباً يعني : الكفار أخطأ طريقاً من الأنعام ، لأن الأنعام إذا عرفت أنها تركت الطريق رجعت إلى الطريق ، والكفار لا يرجعون إلى الطريق .  
ولأن الأنعام تعرف ربها ، والكفار لا يعرفون ربهم .

ويقال : لما نزلت هذه الآية ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ تضرعت الأنعام إلى ربها .  
فقلت : يا ربنا شبهت الكفار بنا ونحن لا ننكر وحدانيتك .

(186/297)

فأعذر الله تعالى الأنعام .

فقال : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ من الأنعام لأن الأنعام مطيعة لله تعالى .  
والكفار غير مطيعين لله تعالى .

ثم قال : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ يعني : عن أمر الله تعالى وعمّا ينفعهم .  
قال الفقيه أبو الليث : حدثنا أبو جعفر .

قال : حدثنا أبو يعقوب إسحاق بن عبد الله القاري .

قال : حدثنا حازم بن يحيى الحلواني .

قال : حدثنا الحسين بن الأسود .

قال : حدثنا أبو أسامة عن يزيد بن سنان عن أبي منيب الحمصي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خَلَقَ اللهُ الْجِنَّ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ صِنْفًا حَيَّاتٍ وَعَقَارِبَ وَخَشَاشَ الْأَرْضِ ، وَصِنْفًا كَالرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ ، وَصِنْفًا عَلَيْهِمُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، وَخَلَقَ اللهُ الْإِنْسَ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ صِنْفًا كَالْبَهَائِمِ وَهُمْ الْكُفَّارُ ، قال : قال الله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ وَصِنْفًا آخَرَ أَجْسَادُهُمْ كَأَجْسَادِ بَنِي آدَمَ وَأَرْوَاحُهُمْ كَأَرْوَاحِ الشَّيَاطِينِ ، وَصِنْفًا فِي ظِلِّ اللهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 1 ص 1 ﴾

(187/297)

وقال الثعلبي :

قوله تعالى ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾

وإنما قال ذلك لنفاد علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم بربهم ويُسمي بعض أهل المعاني

هذه اللام لام [الصيرورة] فيه كقوله: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: 8] . وأنشدوا:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها . . . [ودورنا] لخراب الدهر نبنينا  
وقال الآخر:

فلموت تغدو والودات سخالها . . . كما لخراب الدهر تبنى المساكن  
وروى عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال: ﴿إن الله تعالى  
كما ذرأ الجهنم ما ذرأ كان ولد الزنا من ذرأ الجهنم﴾ ، ثم وصفهم فقال ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا  
يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ولا يعلمون الخير والهدى ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ طريق الحق  
والرشاد ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ مواظ الله والقرآن فيفكرون ويعتبرون بها  
فيعرفون بذلك توحيد الله ثم يعملون بتحقيق [النبوة] فأتينا بهم ثم ضرب لهم مثلاً في الجهل  
والاقتصاد على الشرب والأكل وبعدهم من موجبات العمل . وقال عزم من قائل ﴿أولئك  
كالأنعام بل هم أضلُّ﴾ لأن الأنعام تعرف ربها وتذكره ويطيعوه والكافرون لا يعرفون ربهم  
ولا يطيعونه وفي الخبر: "كل شيء أطوع لله من ابن آدم" .

﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشف والبيان ح 4 ص﴾

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ ، ﴿ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ أي

خلقنا ممن يصير إلى جهنم بكفره ومعصيته .

و ﴿ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أراد أولاد الزنى لأنهم من النطف الخبيثة مخلوقين ، فهم أكثر الناس إسراعاً إلى

الكفر والمعصية فيصيرون جامعين بين [ سوء ] المعتقد وخبث المولد .

والقول الثاني : أنه على العموم في أولاد الزنى والرشدة فيمن ولد من نكاح أو سفاح لأنهم

مؤاخذون على أفعالهم لا على مواليدهم التي خبثت بأفعال غيرهم .

﴿ لَّهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ الحق .

﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ الرشد .

﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الوعظ ، فصاروا بترك استعمالها بمثابة من عدمها ، قال

مسكين الدرامي :

أعمى إذا ما جارتني خرجت . . . حتى يُواري جارتني الجدر

وأصم عما كان بينهما . . . سمعي وما في سمعي الوقر . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ النكت

والعيون ح 2 ص ﴿

وقال ابن عطية:

قوله تعالى: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾

خبر من الله تعالى أنه خلق لسكنى جهنم والاحتراق فيها كثيراً، وفي ضمنه وعيد للكفار، و"ذرأاً" معناه خلق وأوجد مع بث ونشر، وقالت فرقة اللام في قوله: ﴿ لجهنم ﴾ هي لام العاقبة أي ليكون أمرهم ومآلهم لجهنم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ليس بصحيح ولام العاقبة إنما يتصور إذا كان فعل الفاعل لم يقصد به ما يصير الأمر إليه، وهذه اللام مثل التي في قوله الشاعر:

يا أم فروكفي اللوم واعتري . . . فكل والدة للموت تلد

وأما هنا فالفعل قصد به ما يصير الأمر إليه من سكتاهم جهنم، وحكى الطبري عن

سعيد بن جبير أنه قال أولاد الزنا مما ذرأ الله لجهنم ثم أسند فيه حديثاً من طريق عبد الله

بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله ﴿ كثيراً ﴾ وإن كان ليس بنص في أن

الكفار أكثر من المؤمنين فهو ناظر إلى ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم " قال الله لآدم

أخرج بعث النار فأخرج من كل ألف تسعة وتسعين وتسعمائة " .

وصفت هذه الصنيفة الكافرة المعرضة عن النظر في آيات الله بأن قلوبهم لا تفقه ، والفقه  
الفهم ، وأعينهم لا تبصر ، وأذانهم لا تسمع ، وليس الغرض من ذلك نفي هذه الإدراكات  
عن حواسهم جملة وإنما الغرض نفيها في جهة ما كما تقول : فلان أصم عن الخنا .

ومنه قول مسكين الدارمي : [الكامل أخذ مضمراً]

أعمى إذا ما جارتي خرجت . . . حتى يوارى جارتي السترُ

وأصم عما كان بينهما . . . عمداً وما بالسمع من وقر

ومنه قول الآخر : [الوافر]

وعوراء الكلام صممت عنها . . . ولو أنني أشاء بها سميع

وبادرة وزعت النفس عنها . . . وقد بقيت من الغضب الضلوع

ومنه قول الآخر في وصاة من يدخل إلى دار ملك : [مخلع البسيط]

وادخل إذا ما دخلت أعمى . . . واخرج إذا ما خرجت أخرسُ

(190/297)

---

فكان هؤلاء القوم لما لم ينفعهم النظر بالقلب ولا بالعين ولا ما سمعوه من الآيات والمواعظ  
استوجبوا الوصف بأنهم ﴿ لا يفقهون ﴾ و ﴿ لا يبصرون ﴾ و ﴿ لا يسمعون ﴾ وفسر

مجاهد هذا بأن قال : لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أمر الآخرة وأعين لا يبصرون بها الهدى وأذان لا يسمعون بها الحق ، و ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره من الكفرة وشبههم بالأنعام في أن الأنعام لا تفقه قلوبهم الأشياء ولا تعقل المقاييس ، وكذلك ما تبصره لا يتحصل لها كما يجب ، فكذلك هؤلاء ما يبصرونه ويسمعونه لا يتحصل لهم منه علم على ما هو به حين أبصر وسمع ، ثم حكم عليهم بأنهم ﴿ أضل ﴾ ، لأن الأنعام تلك هي بنيتها وخلقتها لا تقصر في شيء ولا لها سبيل إلى غير ذلك ، وهؤلاء معدون للفهم وقد خلقت لهم قوى يصفونها وأعطوا طرقاً في النظر فهم بغفلتهم وإعراضهم يلحقون أنفسهم بالأنعام فهم أضل على هذا ، ثم بين بقوله : ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ الطريق الذي به صاروا أضل من الأنعام وهو الغفلة والتقصير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(191/297)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا ﴾ أي : خلقنا .

قال ابن قتيبة : ومنه ذرية الرجل ، إنما هي الخلق منه ، ولكن همزها يتركه أكثر العرب .

قوله تعالى: ﴿لجهنم﴾ هذه اللام يسميها بعض أهل المعاني لام العاقبة، كقوله: ﴿

ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: 8] ومثله قول الشاعر:

أموالنا لذوي الميراث نجمها . . .

ودورنا لخراب الدهر نثنيها

ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز يعزيه بموت ابنه، فقال:

تعزاً أمير المؤمنين فإنه . . .

لما قد ترى يغذى الصغير ويولد

وقد أخبر الله عز وجل في هذه الآية بنفاذ علمه فيهم أنهم يصيرون إليها بسبب كفرهم.

قوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ لما عرض القوم عن الحق والتفكر فيه، كانوا

بمنزلة من لم يفقه ولم يبصر ولم يسمع.

وقال محمد بن القاسم النحوي: أراد بهذا كله أمر الآخرة، فانهم يعقلون أمر الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أولئك كالأنعام﴾ شبههم بالأنعام لأنها تسمع وتبصر، ولا تعتبر، ثم قال:

﴿بل هم أضل﴾ لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها، فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء

يعلم أكثرهم أنه معاند، فيقدم على النار، ﴿أولئك هم الغافلون﴾ عن أمر الآخرة.

انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير حـ 3 ص﴾



وقال القرطبي :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾

أخبر تعالى أنه خلق للنار أهلاً بعدله ، ثم وصفهم فقال : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ أي بمنزلة من لا يفقه ؛ لأنهم لا ينتفعون بها ، ولا يعقلون ثواباً ولا يخافون عقاباً .

﴿ وَأَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ الهدى .

﴿ وَأَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ المواعظ .

وليس الغرض نفي الإدراكات عن حواسهم جملة كما بيناه في "البقرة" .

﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ لأنهم لا يهتدون إلى ثواب ، فهم كالأنعام ؛ أي همتهم

الأكل والشرب ، وهم أضل لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها وتتبع مالكتها ، وهم بخلاف ذلك .

وقال عطاء : الأنعام تعرف الله ، والكافر لا يعرفه .

وقيل : الأنعام مطيعة لله تعالى ، والكافر غير مطيع .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ أي تركوا التدبر وأعرضوا عن الجنة والنار . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ولقد ذرأنا ﴾ يعني خلقنا ﴿ لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾  
أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار وهم الذين حقت عليهم  
الكلمة الأزلية بالشقاوة ومن خلقه الله للنار فلا حيلة له في الخلاص منها .

واستدل البغوي على صحة هذا التأويل بما رواه عن عائشة قال: دعي رسول الله ( صلى  
الله عليه وسلم ) إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من  
عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلاً  
خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم  
أخرجه مسلم .

قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم: أجمع من يعتد به من علماء المسلمين أن من  
مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة لأنه لي مكلفاً وتوقف فيهم بعض من لا يعتد به  
لحديث عائشة هذا .

وأجاب العلماء عنه بأنه لعله ( صلى الله عليه وسلم ) نهاها عن المسارعة إلى القطع من

غير أن يكون عندها دليل قاطع كما أنكر على سعد بن أبي وقاص لفظة "إني لأراه مؤمناً" فقال: "أو مسلماً" الحديث، ويحتمل أن (صلى الله عليه وسلم) قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة فلما علم ذلك قال به، وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب قال الأكثرون: هم في النار تبعاً لأبائهم وتوقف طائفة فيهم والثالث وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة ويستدل له بأشياء منها خبر إبراهيم الخليل (صلى الله عليه وسلم) حين رآه النبي (صلى الله عليه وسلم) في الجنة وحوله أولاد الناس فقالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: "وأولاد المشركين" رواه البخاري في صحيحه ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وما كنا معذنين حتى نبعث رسولاً ﴾ ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول الرسول حتى يبلغ وهذا متفق عليه والله أعلم.

(194/297)

---

وفي الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة في أن الله خالق أعمال العباد جميعها خيراً وشرها وأن الله سبحانه وتعالى يبين بصريح اللفظ أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار ولا تزيد على بيان الله لأن العاقل لا يختار لنفسه دخول النار فلما عمل بما يوجب دخول النار به علم أنه له من يضطره إلى ذلك العمل الواجب إلى دخول النار وهو الله، وقيل

: اللام في جهنم للعاقبة أي عاقبتهم جهنم ، ثم وصفهم فقال تعالى : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ يعني : لا يفهمون بها ولا يعقلون بها وأصل الفقه في اللغة الفهم والعلم بالشيء ثم صار علماً على اسم العلم في الدين لشرفه على غيره من العلوم يقال : فقه الرجل يفقه فهو فقيه إذا فهم ومعنى الآية لهم قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله ولا يتدبرونها ولا يعلمون بها الخير والهدى لإعراضهم عن الحق وتركهم قبوله ﴿ ولهم أعين لا يبصرون بها ﴾ يعني لا يبصرون بها طريق الحق والهدى ولا ينظرون بها في آيات الله وأدلة توحيده ﴿ ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ يعني لا يسمعون آيات القرآن ومواعظه فيعتبرون بها ، قال أهل المعاني : إن الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحتهم المتعلقة بالدنيا ولهم أعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات وهذا لا يشك فيه .

ولما وصفهم الله بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس الإدراكية علم بذلك أن المراد بذلك يرجع إلى مصالحتهم في الآخرة وحاصل هذا الكلام أنهم مع وجود هذه الحواس لا ينتفعون بها فيما ينفعهم في أمور الدين والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ومنه قول الشاعر :

وعوراء الكلام صمت عنها . . .

وإني إن أشاء بها سمع

فإنه أثبت له صمماً مع وجود السمع .

قال مجاهد : لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أمر الآخرة ولهم أعين لا يبصرون بها الهدى  
ولهم آذان لا يسمعون بها الحق .

(195/297)

---

ثم ضرب لهم مثلاً فقال سبحانه وتعالى : ﴿ أولئك كالأنعام ﴾ يعني أن الذين ذرأهم لجهنم  
وهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية كالأنعام وهي البهائم التي لا تفهم ولا تعقل وذلك لأن  
الإنسان وسائر الحيوانات مشتركون في هذه الحواس الثلاثة التي هي القلب والبصر  
والسمع .

وإنما فضل الإنسان على سائر الحيوانات بالعقل والإدراك والفهم المؤدي إلى معرفة الحق من  
الباطل والخير والشر فإذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه فلا فرق بينه وبين الأنعام التي  
لا تدرك شيئاً ثم قال تعالى : ﴿ بل هم أضل ﴾ يعني : بل إن الكفار أضل من الأنعام لأن  
الأنعام تعرق ما يضرها وما ينفعها والكافر لا يعرف ذلك فصار أضل من الأنعام ولأن الأنعام  
لم تعط القوة الفعلية والإنسان قد أعطيها فإذا لم يستعملها فيما ينفعه صار أحسن حالاً من  
الأنعام .

وقيل : إن الأنعام مطيعه الله والكافر غير مطيع لله ، فصارت الأنعام أفضل منه ثم قال تعالى

﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ يعني عن ضرب هذه الأمثال لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الخازن ح 2 ص ﴿

(196/297)

وقال أبو حيان :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ .

هذا إخبار منه تعالى بأنه خلق لجهنم كثيراً من الصنفين ، ومناسبة هذا لما قبله أنه لما ذكر أنه هو الهادي وهو المضل أعقبه بذكر من خلق للخسران والنار وذكر أوصافهم فيما ذكر وفي ضمنه وعيد الكفار والمعنى لعذاب جهنم واللام للصيرورة على قول من أثبت لها هذا المعنى أو لما كان ما لهم إليها جعل ذلك سبباً على جهة المجاز فقد رد ابن عطية قول من زعم أنها للصيرورة ، فقال : وليس هذا بصحيح ولام العاقبة إنما يتصور إذا كان فعل الفاعل لم يقصد به ما يصير الأمر إليه ، وأما هنا فالفعل قصد به ما يصير الأمر إليه من سكناتهم لجهنم انتهى ، وإنما ذهب إلى أنها لام العاقبة والصيرورة لأنه تعالى قال ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ فإثبات كونها للعلة ينافي قوله ﴿ إلا ليعبدون ﴾ وأنشدوا دليلاً على إثبات معنى الصيرورة للام قول الشاعر :

الأكل مولود فللموت يولد . . .

ولست أرى حياً لحي يخذ

وقول الآخر:

فللموت تغدو والوداد سخالها . . .

كما لخراب الدرّ تبني المساكن

ودعوى القلب فيه وإنّ تقديره ولقد ذرأنا جهنم لكثير غير سديد لأنّ القلب لا يكون إلا في

الشعر على الصحيح ولفظة كثير لا تشعر بالأكثر ولكن ثبت في الحديث أن بعث النار أكثر

لقول الله لآدم أخرج بعث النار من ذريتك فأخرج من كل ألف تسعة وتسعين وتسعمائة

وهؤلاء المخلوقون لجهنم هم الذين طبع الله على قلوبهم فلا يتأتى منهم إيمان البتة وتفسير

ابن جبير: انهم أولاد الزنا ليس بجيد .

❖ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ❖ .

لما كانوا لا يتدبرون شيئاً من الآيات ولا ينظرون إليها نظر اعتبار ولا يسمعونها سماع تفكر

جعلوا كأنهم فقدوا الفقه بالقلوب والإبصار بالعيون والسماع بالأذان وليس المراد نفي هذه

الإدراكات عن هذه الحواس وإنما المراد نفي الانتفاع بها فيما طلب منهم من الإيمان .

(197/297)

وقال مسكين الدرامي :

أعمى إذا ما جارتني خرجت . . .

حتى يوارى جارتى الستر

وأصم عن ما كان بينهما . . .

عمداً وما بالسمع لي وقر

وفسر مجاهد هذا فقال : ﴿ لا يفقهون بها ﴾ شيئاً من أمور الآخرة ﴿ ولا يبصرون بها ﴾

﴿ الهدى ﴾ ولا يسمعون بها ﴿ الحق انتهى ، وفي قوله ﴾ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾

دليل على أن القلب آلة للفقه والعلم كما أن العين آلة للإبصار والأذن آلة للسمع ، وقال

الزمخشري : وجعلهم لإغراقهم في الكفر وشدة شكائهم فيه وإنه لا يتأتى منهم إلا أفعال

أهل النار مخلوقين للنار دلالة على توغّلهم في الموجبات وتمكّنهم فيما يؤهلهم لدخول النار ،

ومنه كتاب عمر إلى خالد بن الوليد : بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك دلوّاً عجن بجمر وإني

لأظنكم يا آل المغيرة ذرء النار .

ويقال لمن كان غريقاً في بعض الأمور ما خلق فلان إلا للنار والمراد وصف أحوالهم في عظم

ما أقدموا عليه في تكذيب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) مع علمهم أنه النبي الموعود

وأنهم من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم كأنهم خلقوا للنار انتهى ، وهو تكثير



في الشرح.

﴿ أولئك كالأنعام ﴾ أي في عدم الفقه في العواقب والنظر للاعتبار والسماع للتفكر ولا يهتمون بغير الأكل والشرب .

(198/297)

---

﴿ بل هم أضل ﴾ قال الزمخشري : ﴿ بل هم أضل ﴾ سبيلاً من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبر ، وقيل الأنعام تبصر منافعها من مضارها فتلزم بعض ما تبصره وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار ، وقال ابن عطية : حكم عليهم بأنهم أضل لأن الأنعام ركب في بنيتها وخلقتها أن لا تفكر في شيء وهؤلاء هم معدون للفهم وقد خلقت لهم قوى يصرفونها وأعطوا طرفاً من النظر فهم بغفلتهم وإعراضهم يلحقون أنفسهم بالأنعام فهم أضل على هذا انتهى ، وقيل ﴿ هم أضل ﴾ لأنهم يعصون والأنعام لا تعصي ، وقيل الأنعام تعرف ربها وتسبح له والكفار لا يعرفونه ولا يدعونهم وروي : كل شيء أطوع لله من ابن آدم ، وقال أبو عبد الله الرازي : الإنسان وسائر الحيوان يشاركه في قوى الطبيعة الغذائية والنامية والمولدة وفي منافع الحواس الخمس الظاهرة والباطنة وفي أحوال التخيل والتفكر والتذكر وإنما يحصل الامتياز بين الإنسان وغيره بالقوة العقلية والفكرية التي تهديه إلى معرفة

الحق لذاته والخير لأجل العمل به فلما أعرض الكفار من أغراض أحوال العقل والفكر  
ومعرفة الحق والعمل بالخير كانوا كالأنعام ، ثم قال : ﴿ بل هم أضل ﴾ لأن الحيوانات لا  
قدرة لها على تحصيل الفضائل والإنسان أعطي القدرة على تحصيلها ومن أعرض عن  
اكتساب الفضل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أحسن حالاً ممن لم يكتسبها مع  
العجز فلهاذا قال : ﴿ بل هم أضل ﴾ انتهى .

(199/297)

---

وقيل : الأنعام تفرّ إلى أربابها ومن يقوم بمصالحها والكافر يهرب عن ربه الذي أنعمه عليه لا  
تحصي ، وقيل : الأنعام تضل إذا لم يكن معها مرشد وقلما تضل إذا كان معها وهؤلاء قد  
جاءتهم الرسل وأنزلت عليهم الكتب وهم يزدادون في الضلال انتهى ، وأقول هذا  
الإضراب ليس على جهة الإبطال للخبر السابق من تشبيههم بالأنعام ولا يجوز أن تكون  
جهة المبالغة في الضلال هي جهة التشبيه لأنه يؤدي إلى كذب أحد الخبرين وذلك مستحيل  
في حق الله تعالى وكلام من تقدم من المفسرين يدل على أنه تعالى شبههم بالأنعام فيما ذكر  
وأنهم أضل من الأنعام فيما وقع التشبيه فيه وهو لا يجوز لما ذكرناه فالمعول عليه أن جهة  
التشبيه مخالفة لجهة المبالغة في الضلال وأن هذا الإضراب ليس على سبيل الإبطال بمدلول

الجملة السابقة ﴿ بل هم أضل ﴾ إضراب دال على الانتقال من إخبار إلى إخبار فالجملة الأولى شبههم بالأنعام في انتفاء منافع الإدراكات المؤدية إلى امتثال ما جاءت به الرسل والجملة الثانية أثبت لهم المبالغة في ضلال طريقهم التي يسلكونها فالموصوف بالمبالغة في الضلال طريقهم وحذف التمييز وتقديره: ﴿ بل هم أضل ﴾ طريقاً منهم وبين هذا قوله تعالى:

﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام ﴾ أي في انتفاء السمع للتدبر والعقل ﴿ بل هم أضل سبيلاً ﴾ أي بل سبيلهم أضلّ فالحكوم عليه أولاً غير المحكوم عليه آجراً والمحكوم به أيضاً مختلف.

﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ هذه الجملة بين تعالى بها سبب كونهم أضلّ من الأنعام وهو الغفلة.

وقال عطاء: عن ما أعدّ الله لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب. انتهى انتهى. اهـ

﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(200/297)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾

كلامٌ مستأنفٌ مقررٌ لمضمون ما قبله بطريق التذييل أي خلقنا ﴿ لِجَهَنَّمَ ﴾ أي لدخولها والتعذيب بها ، وتقديمه على قوله تعالى : ﴿ كَثِيرًا ﴾ أي خلقاً كثيراً مع كونه مفعولاً به لما في توابعه من نوع طول يؤدي توسيطه بينهما وتأخيرُه عنها إلى الإخلال بجزالة النظم الكريم وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ متعلقٌ بمحذوف هو صفةٌ لكثيراً أي كائناً منهما وتقديمُ الجنِّ لأنهم أعرقٌ من الإنس في الاتصاف بما نحن فيه من الصفات وأكثرُ عدداً وأقدمُ خلقاً ، والمرادُ بهم الذين حقت عليهم الكلمةُ الأزليةُ بالشقاوة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يؤدي إلى ذلك بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبداً بل يُصِرُّون على الباطل من غير صارفٍ يلويهم ولا عاطفٍ يشيهم من الآيات والنذر فهذا الاعتبارُ جعل خلقهم مُغَيَّاً بها كما أن جميعَ الفريقين باعتبار استعدادهم الكاملِ الفطري للعبادة وتمكينهم التام منها جعل خلقهم مُغَيَّاً بها كما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(201/297)

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ في محل نصب على أنه صفة أخرى لكثيراً ﴿لا يفقهون بها﴾  
 ﴿في محل الرفع على أنه صفة لقلوب مؤكدة لما يفيدته تنكيرها وإبهامها من كونها غير  
 معهودة مخالفة لسائر أفراد الجنس فاقدة لكماله بالكلية لكن لا بحسب الفطرة حقيقة بل  
 بسبب امتناعهم عن صرفها إلى تحصيله، وهذا وصف لها بكمال الإغراق في القساوة  
 فإنها حيث لم يأت منها الفقه مجال فكأنها خلقت غير قابلة له رأساً وكذا الحال في أعينهم  
 وآذانهم، وحذف المفعول للتعميم أي لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئاً مما من  
 شأنه أن يفقه، فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولاً أولياً، وتخصيصه بذلك  
 مُخل بالإفصاح عن كنه حالهم ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الكلام فيه كما فيما عطف  
 هو عليه، والمراد بالأبصار والسمع المنقيين ما يختص بالعقل من الإدراك على ما هو  
 وظيفة الثقلين لا ما يتناول مجرد الإحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الأنعام، أي لا  
 يبصرون بها شيئاً من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجاً  
 أولياً ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي شيئاً من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية  
 تناولاً أولياً، وإعادة الخبر في الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بأن يقال: وأعين لا  
 يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها لتقرير سوء حالهم، وفي إثبات المشاعر الثلاثة لهم ثم  
 وصفها بعدم الشعور دون سلبها عنهم ابتداءً بأن يقال: ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين  
 يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها من الشهادة بكمال رسوخهم في الجهل والغواية ما لا يخفى

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات ، وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعده منزلتهم في الضلال أي أولئك الموصوفون بالأوصاف المذكورة ﴿

(202/297)

---

كالانعام ﴿ أي في انتفاء الشعور على الوجه المذكور ، أو في أن مشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها ﴾ ﴿ بل هم أضل ﴾ فإنها تدرك ما من شأنها أن تدركه من المنافع والمضار فتجتهد في جلبها وسلبها غاية جهدهما مع كونها بمعزل من الخلود ، وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لا يميزون بين المنافع والمضار بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم ويُقدِّمون على العذاب الخالد ، وقيل : لأنها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه ، وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه وفي الخبر " كل شيء أطوع لله من ابن آدم "

﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بما مر من مثلية الأنعام والشرية منها ﴿ هم الغافلون ﴾ الكاملون في الغفلة المستحقون لأن يخص بهم الاسم ولا يطلق على غيرهم ، كيف لا وإنهم لا يعرفون من شؤون الله عز وجل ولا من شؤون ما سواه شيئاً فيشركون به سبحانه وليس كمثلته

شيءٌ وهو السميع البصير أصنامهم التي هي من أحسن مخلوقاته تعالى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

(203/297)

وقال الأوسى :

﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ كلام مستأنف مقرر لمضمون ما قبله بطريق التذييل ، والذراً بالهمزة

الخلق وبذلك فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وغيره أي والله تعالى لقد خلقنا ﴿

لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ وهم المصرون على الكفر في علمه سبحانه وتعالى ،

واللام للعاقبة عند الكثير كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾ [يونس : 88] وقول الشاعر :

له ملك ينادي كل يوم . . .

لدوا للموت وابنوا للخراب

وفي "الكشاف" أنهم جعلوا لإغراقهم في الكفر وشدة شكائهم فيه وأنه لا يأتى منهم إلا

أفعال أهل النار مخلوقين للنار دلالة على توغّلهم في الموجبات وتمكّنهم فيما يؤهلهم لدخولها

، وأشار إلى أن ذلك تذييل لقصة اليهود بعد ما عد من قبائحهم تسليّة لرسول الله صلى الله

عليه وسلم كأنه قيل: إنهم من الذين لا ينجح فيهم الإنذار فدعهم واشتغل بأمر نفسك ومن هو على دينك في لزوم التوحيد ، والآية على ما قال من باب الكناية الإيمائية عند القطب قدس سره ويفهم كلامه أن الذي دعا الزمخشري إلى ذلك لزوم كون الكفر مراداً لله تعالى إذا أريد الظاهر وهو خلاف مذهبه ، وأنت تعلم أن الكثير من أهل السنة تأولوا الآية بجمل اللام على ما علمت لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] فإن تعليل الخلق بالعباد يابى تعليله بجهنم ودخولها ، نعم ذهب ابن عطية منا إلى الحمل على الظاهر وكون اللام للتعليل ، وادعى أناس أن التأويل مخالف للأحاديث الواردة في الباب كـ بعض الأحاديث السابقة في آية أخذ الميثاق ، وما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن قتادة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى خلق آدم عليه السلام ثم أخذ الخلق من ظهره فقال هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي قال قائل : فعلى ماذا العمل ؟ قال : على موافقة القدر " وما أخرجه محيي السنة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت : أدرك النبي صلى الله عليه وسلم جنازة صبي من صبيان الأنصار فقلت : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى له عصفور من عصافير الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وما يدريك إن الله تعالى خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم " إلى غير ذلك .



(204/297)

---

وإلى هذا ذهب الطيبي وأيده بما أيده وادعى أن فائدة القسم التنبيه على قلع شبه من عسى أن يتصدى لتأويل الآية وتحريف النص القاطع ، ونقل عن الإمام أن الآية حجة لصحة مذهب أهل السنة في مسألة خلق الأعمال إرادة الكائنات لأنه سبحانه وتعالى صرح بأنه جل وعلا خلق كثيراً من الجن والإنس لجهنم ولا مزيد لبيان الله تعالى ، ولا يخفى أن الحمل على الظاهر مخالف لظاهر الآية التي ذكرناها ، وفي الكتاب الكريم كثير مما يوافقها على أن التعليل الحقيقي لأفعاله تعالى يمنع عنه في المشهور الإمام الأشعري وأصحابه .

(205/297)

---

وقال بعض الجلة : المراد بالكثير الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ولكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يؤدي إلى ذلك بل لعلمه سبحانه وتعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبداً بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يشيهم من الآيات والنذر ، فهذا الاعتبار جعل خلقهم مغياً بجهنم كما أن جمع الفريقين باعتبار

استعدادهم الكامل الفطري للعبادة وتمكنهم التام منها جعل خلقهم مغياً بها كما نطق به قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56] انتهى، وعندى أنه لا محيص من التأويل في هذا المقام فتدبر ولا تغفل، ثم إن الجار الأول متعلق بما عنده وتقديمه على المفعول الصريح لما في توابعه من نوع طول يؤدي توسيطه بما بينهما وتأخيرهم عنهما إلى الإخلال بجزالة النظم الجليل، والجار الثاني متعلق بمحذوف وقع صفة لكثير، وتقديم الجن لأنهم أعرف من الإنس في الاتصاف بما ذكر من الصفات وأكثر عدداً وأقدم خلقاً ولا يشكل أنهم خلقوا من النار فلا يشق عليهم دخولها ولا يضرهم شيئاً لأننا نقول في دفع ذلك على علته خلقهم من النار بمعنى أن الغالب عليهم الجزء الناري لا يابى تضرهم بها فإن الإنس خلقوا من الطين ويتضررون به، ويوضح ذلك أن حقيقة النار لم تبق فيهم على ما هي عليه قبل خلقهم منها كما أن حقيقة الطين لم تبق في الإنس على ما هي عليه قبل خلقهم منها على أن المخلوق من نار هو البدن والمعذب هو الروح وليست مخلوقة منها وعذاب الروح في قالب ناري معقول كعذابها في قالب طيني، وقوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ قُلُوبٌ ﴾ في محل النصب على أنه صفة أخرى لكثير، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ في محل الرفع على أنه صفة لقلوب مبينة لكونها غير معهودة مخالفة لسائر أفراد الجنس فاقدة لما ينبغي أن يكون أو هي مؤكدة لما يفيدته تنكيرها وإيهاها من كونها كذلك،

وأريد بالقلب اللطيفة الإنسانية ، وبالفقه الفهم وهو المعنى اللغوي له ، يقال : فقه بالكسر أي فهم وفقه بالضم إذا صار فقيهاً أي فهماً أو عالماً بالفقه بالمعنى العرفي المبين في كتب الأصول ، والفعل هنا متعد إلا أنه حذف مفعوله للتعميم أي لهم قلوب ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئاً مما شأنه أن يفهم فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولاً أولاً ، وكذا الكلام في قوله جل وعلا : ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ فيقال : المراد لا يبصرون بها شيئاً من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجاً أولاً ، وكذا يقال في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ حيث يراد لا يسمعون بها شيئاً من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية على طرز ما سلف ، وأمر الوصفية في الأخيرين مثله في الأول ، والمراد بالإبصار والسماع المنفيين ما يختص بالعقلاء من الإدراك على ما هو وظيفة الثقلين لا ما يتناول مجرد الإحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الإنعام ، وجاء في كلامهم نحو فلان لا يسمع الخنا أي لا يعتني به ولا يصرف سمعه إليه ولا يقبله ، ومن ذلك قول الشاعر :

وعوراء الكلام صممت عنها . . .

وإني لو أشاء لها سميع

(207/297)

---

وفي إعادة الخبر في الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بدون ذلك بأن يقال : وأعين لا يبصرون بها وأذان لا يسمعون بها ما لا يخفى من تقرير سوء حالهم ، وكذا في إثبات المشاعر الثلاثة لهم ثم وصف كل بما وصف به دون سلبها عنهم ابتداءً بأن يقال : ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا أذان يسمعون بها ما لا يخفى على ما قيل من الشهادة بكمال رسوخهم في الجهل والغواية ، وتفسير الآية على هذا الوجه واعتبار حذف المفعول لما ذكرنا من الأفعال الثلاثة هو الذي اختاره بعض المحققين لما فيه من الإفصاح بكنه حالهم على ما يشار إليه ، واختار بعضهم التخصيص أي لا يفقهون الحق ودلائله ولا يبصرون ما خلق الله تعالى إبطار اعتبار ولا يسمعون الآيات والمواعظ سماع تأمل وتفكر ، وأياً ما كان فالمراد أنهم لم يصفروا ما خلق لهم لما خلق له فكأنهم خلقوا كذلك ، ولو أريدت الحقيقة لم يتوجه الذم ولم تقم الحجة ؛ ومن ادعاها قال : إن ذلك بسبب إفاضة الحكيم حسب الاستعداد الأزلي الغير المجعول فالذم بذلك لادلالته على سوء الاستعداد لأنه

كالأثر له ، وبالجملة لا تقوم الآية دلالاً للجبر الصرف ولو ضم إليها ما قبل ، والجبر المتوسط مما قال به أهل الحق وهولبن خالص أخرج من بين فرث ودم ، وحاصله عند بعض المشايخ أن العبد مختار مجبور باختاره ، ولعل كلام حجة الإسلام الغزال حث قال من كلام طول : فإن قلت : إني أجد في نفسي أنني إن شئت الفعل فعلت وإن شئت الترك تركت فكون فعلي حاصلًا بي ولا بغيري ، أجبنا وقلنا : هب إنك وجدت من نفسك ذلك إلا أنا نقول : وهل تجد من نفسك إنك إن شئت أن تشاء شئت وإن شئت أن لا تشاء لم تشأ ؟ ما أظنك تقول ذلك وإلا لذهب الأمر فيه إلى ما لا ينهية له فلا مشيئتك بك ولا حصول فعلك بعد حصول مشيئتك بك وإنما أنت مضطر في صورة مختار انتهى .

(208/297)

---

يرجع إلى ما ذكرنا ، وقد استوفينا الكلام في هذا البحث في كتابنا الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية وهو لعمرى من مشكلات المباحث التي سألت عنها الإيرانيون .

﴿ أولئك ﴾ أي الموصوفن بالأوصاف المذكورة ﴿ كالأنعام ﴾ أي في انتفاء الشعور على الوجه المذكور ، وقيل في أن مشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها وكان وجه الشبه مدرك مما قبل فتكون الجملة كالتأكيد له فلذا فصلت عنه ﴿ بل هم أضلُّ

﴿ من الأنعام لأنها تدرك ما من شأنها أن تدركه من المنافع والمضار فتجهد في جلبها  
وسلبها غاية ما يمكنها وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لم يميزوا بين المنافع والمضار بل يعكسون  
الأمر فيتركون النعيم ويقدمون على العذاب الأليم ، وقيل : لأنها إذا زجرت انزجرت وإذا  
أرشدت إلى طريق اهتدت وهؤلاء لا يهتدون إلى شيء من الخيرات .  
وقيل : لأنها لم تعط قدرة على تحصيل الفضائل وهؤلاء أعطوا ولم ينتفعوا بما أعطوا ، ولأنها  
وإن لم تكن مطيعة لم تكن عاصية وهؤلاء عصاة فهم أسوأ حالاً منها .  
وقال بعضهم : لأنها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه  
ولا يطيعونه ، وبالجملة كون هؤلاء أضل مما لا شك فيه ووجوه ذلك كثيرة ولا تنافي بين  
الخبرين كما لا يخفى .

﴿ أولئك ﴾ أي المنعوتون بما ذكر من مثلية الأنعام والشرية منها ﴿ هم الغافلون ﴾ أي  
الكاملون في الغفلة عما فيه صلاحهم .

وقال عطاء : عما أعد الله تعالى لأولياته من الثواب ولأعدائه من العقاب ، وجعل بعضهم  
هذه الجملة كالبيان للجملة قبلها فلذا فصلت عنها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 9

ص ﴿

وقال الشوكاني :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ أي خلقنا .

وقد تقدم بيان أصل معناه مستوفى ، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، ﴿ لِجَهَنَّمَ ﴾

أي : للتعذيب بها ﴿ كَثِيرًا ﴾ أي خلقنا كثيرا ﴿ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ أي من طائفتي الجن  
والإنس ، جعلهم سبحانه للنار بعدله ، وعمل أهلها يعملون .

وقد علم ما هم عاملون قبل كونهم ، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة ، ثم وصف هؤلاء  
فقال : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ كما يفقه غيرهم بعقولهم .

وجملة ﴿ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ في محل رفع على أنها صفة لقلوب .

وجملة ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ ﴾ في محل نصب صفة ل ﴿ كَثِيرًا ﴾ جعل سبحانه قلوبهم لما كانت

غير فاقهة لما فيه نفعهم وإرشادهم ، غير فاقهة مطلقاً ، وإن كانت تفقه في غير ما فيه النفع  
والرشد فهو كالعدم ، وهكذا معنى ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ

بِهَا ﴾ فإن الذي اتقى من الأعين هو إيبصار ما فيه الهداية بالتفكير والاعتبار ، وإن كانت

مبصرة في غير ذلك ، والذي اتقى من الأذان هو سماع المواعظ النافعة ، والشرائع التي

اشتملت عليها الكتب المنزلة .

وما جاءت به رسل الله ، وإن كانوا يسمعون غير ذلك .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى هؤلاء المتصفين بهذه الأوصاف كالأنعام في انتفاء

انتفاعهم بهذه المشاعر ، ثم حكم عليهم بأنهم أضلّ منها ، لأنها تدرك بهذه الأمور ما  
ينفعها ويضرّها ، فينتفع بما ينفع ، وتجنب ما يضرّ ، وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضرّ  
باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به ، ثم حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم  
التمييز الذي هو من شأن من له عقل وبصر وسمع .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ ولقد  
ذرأنا ﴾ قال : خلقنا .

(210/297)

---

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن الحسن في الآية قال خلقنا لجهنم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن النجار ، عن عبد الله

بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله لما ذرأ لجهنم من ذرأ كان ولد

الزنا من ذرأ لجهنم " وأخرج ابن جرير ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ قال

: لقد خلقنا لجهنم ﴿ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ﴾ قال : لا يفقهون شيئاً من أمور الآخرة ﴿



وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿١﴾ وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴿٢﴾ الْحَقُّ ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ  
كَالْأَنْعَامِ ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ شِرَاءً مِنَ الْأَنْعَامِ ، فَقَالَ : ﴿٣﴾ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴿٤﴾ ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ الْغَافِلُونَ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿٥﴾ فتح القدير ح 2 ص ﴿٦﴾

(211/297)

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

﴿٧﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴿٨﴾

هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُكَذِّبِينَ بآيَاتِ اللَّهِ الْمُنزَّلَةِ عَلَى رَسُولِهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

عَلَى مَا أُيِّدَهَا بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ ، وَهُوَ مِثْلُ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ آيَاتَهُ فَكَانَ عَالِمًا بِهَا

حَافِظًا لِقَوَاعِدِهَا وَأَحْكَامِهَا ، قَادِرًا عَلَى بَيَانِهَا وَالْجِدْلِ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُؤْتِ الْعَمَلَ مَعَ الْعِلْمِ

، بَلْ كَانَ عَمَلُهُ مُخَالَفًا لِعِلْمِهِ تَمَامَ الْمُخَالَفَةِ ، فَسَلِبَهَا ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي لَا يُعْمَلُ بِهِ لَا يَلْبَثُ أَنْ

يَزُولَ ، فَاشْتَبَهَ الْحَيَّةَ الَّتِي تَنْسَلِخُ مِنْ جِلْدِهَا وَتَخْرُجُ مِنْهُ وَتَتْرِكُهُ عَلَى الْأَرْضِ (وَيُسَمَّى هَذَا

الْجِلْدُ الْمَسْلُوحُ) أَوْ كَانَ فِي التَّبَاطُبِ بَيْنَ عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ كَالْمَنْسَلِخِ مِنَ الْعِلْمِ التَّارِكِ لَهُ ، كَالثُّوبِ

الَّذِي يُخْلَقُ يَلْقِيهِ صَاحِبُهُ ، وَالثُّعْبَانُ يَتَجَرَّدُ مِنْ جِلْدِهِ حَتَّى لَا تَبْقَى لَهُ بِهِ صِلَةٌ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِ

الشَّاعِرِ :

خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لِمُكْرَمَةٍ . . . فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا  
رُزِقُوا ، وَمَا رُزِقُوا سَمَاحِيْدٍ . . . فَكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا

(212/297)

فَحَاصِلُ مَعْنَى الْمَثَلِ : أَنَّ الْمُكْذِبِيْنَ بآيَاتِ اللّٰهِ تَعَالَى الْمُنزَلَةِ عَلَي رَسُوْلِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللّٰهِ  
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، عَلَي اِيْضَاحِهَا بِالْحُجْجِ وَالِدَّلَالِ ، كَالْعَالَمِ الَّذِي حُرْمَ ثَمَرَةِ الْاْتِنْفَاعِ مِنْ عِلْمِهِ  
زِلَانٌ كَلَّا مِنْهُمَا لَمْ يَنْظُرْ فِي الْآيَاتِ نَظْرًا تَامِلًا وَاعْتِبَارًا وَاِخْلَاصًا .  
وَهَاكَ تَفْسِيْرُ الْآيَاتِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ نَظْمُهَا الْعَرَبِيُّ ، وَيَتْلُوهُ مَا وَرَدَ مِنَ الرِّوَايَاتِ فِيْهَا ، وَنَظْرَةٌ  
فِيْهَا : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي اٰتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا التَّلَاوَةَ : الْقِرَاءَةَ وَالِقَاءَ الْكَلَامِ الَّذِي يُعَادُ  
وَيُكْرَرُ لِلْاَعْتِبَارِ بِهِ ، وَالضَّمِيْرُ فِي (عَلَيْهِمْ) لِلنَّاسِ الْمُخَاطَبِيْنَ بِالِدَّعْوَةِ ، وَأَوْلَهُمْ كَهَارُ مَكَّةَ ،  
وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ ، وَقِيْلَ : لِلْيَهُودِ ؛ لِأَنَّ الْمَثَلَ تَابِعٌ لِقِصَّةِ مُوسَى فِي السُّورَةِ . وَالنَّبَأُ : الْخَبْرُ  
الَّذِي لَهُ شَأْنٌ ، وَهَذَا الَّذِي آتَاهُ اللّٰهُ آيَاتِهِ مِنْ مُبْهَمَاتِ الْقُرْآنِ ، لَمْ يُبَيِّنِ اللّٰهُ وَلَا رَسُوْلُهُ فِي  
حَدِيثٍ صَحِيْحٍ عَنْهُ اسْمُهُ وَلَا جِنْسَهُ وَلَا وَطَنَهُ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَا دَخَلَ لَهَا فِيْمَا أُنزِلَ  
اللّٰهُ تَعَالَى الْآيَاتِ لِبَيَانِهِ ، وَأَنْسَلَخْنَاهُ مِنْهَا : تَجَرَّدَهُ وَأَنْسَلَخْنَاهُ مِنْهَا وَتَرَكْنَاهُ إِيَّهَا بِحَيْثُ لَا يَلْتَقُ

إِلَيْهَا لَاهْتِدَاءٌ وَلَا اعْتِبَارٌ وَلَا عَمَلٌ ، وَالتَّعْيِيرُ بِالْأَسْلَاحِ الْمُسْتَعْمَلِ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي خُرُوجِ  
الْحَيَاتِ وَالنَّعَائِينَ أحياناً مِنْ جُلُودِهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُتَمَكِّناً مِنْهَا ظَاهِراً أَلَا بَاطِئاً .

(213/297)

---

فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ أَيُّ : فَتَرَبَّ عَلَى أَسْلَاحِهِ مِنْهَا  
بِاخْتِيَارِهِ أَنْ لِحَقَّهُ الشَّيْطَانُ ، فَأَدْرَكَهُ وَتَمَكَّنَ مِنَ الْوَسْوَسةِ لَهُ ، إِذْ لَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ مِنْ نُورِ الْعِلْمِ  
وَالْبَصِيرَةِ مَا يَحُولُ دُونَ قَبُولِ وَسْوَسةِ ، وَأَعْتَبَ ذَلِكَ أَنَّ صَارَ مِنَ الْغَاوِينَ ، أَيِ الْفَاسِدِينَ  
الْمُفْسِدِينَ .

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا أَيُّ : وَلَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَرْفَعَهُ بِتِلْكَ الْآيَاتِ إِلَى دَرَجَاتِ الْكَمَالِ وَالْعِرْفَانِ ،  
الَّتِي تُقْرَنُ فِيهَا الْعُلُومُ بِالْأَعْمَالِ : يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (58)  
: 11) - لَفَعَلْنَا ، بِأَنْ نَخْلُقَ لَهُ الْهُدَايَةَ خَلْقًا ، وَنَحْمِلَهُ عَلَيْهَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا  
يُعْجِزُنَا ، وَإِنَّمَا هُوَ مُخَالَفٌ لِسُنَّتِنَا .

(214/297)

وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ أَيُّ: وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ التَّسْفَلَ الْمُنَافِي لِتِلْكَ الرَّفْعَةِ  
بِأَنَّهُ أَخْلَدَ وَمَالَ إِلَى الْأَرْضِ وَزِينَتِهَا ، وَجَعَلَ كُلَّ حِظِّهِ مِنْ حَيَاتِهِ التَّمَتُّعَ بِمَا فِيهَا مِنَ اللَّذَائِدِ  
الْجَسَدِيَّةِ ، فَلَمْ يَرْفَعْ إِلَى الْعَالَمِ الْعُلُويِّ رَأْسًا ، وَلَمْ يُوجِّهْ إِلَى الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ الْخَالِدَةِ عَزْمًا ،  
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَرَاعَ فِيهِ الْإِهْتِدَاءَ بِشَيْءٍ مِمَّا آتَيْنَاهُ مِنْ آيَاتِنَا ، وَقَدْ مَضَتْ سَنَتُنَا فِي  
خُلُقِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ يُكُونُ مُخْتَارًا فِي عَمَلِهِ الْمُسْتَعِدَّ لَهُ فِي أَصْلِ فِطْرَتِهِ ، لِيَكُونَ الْجَزَاءُ  
عَلَيْهِ بِحَسَبِهِ ، وَأَنْ يُنْتَلِيَهُ وَنَمْتَحِنَهُ بِمَا خَلَقْنَا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مِنَ الزَّيْنَةِ وَالْمُسْتَلَذَاتِ إِنَّا  
جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (18 : 7) وَتَوَلَّى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ  
مَا تَوَلَّى مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا  
مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ  
مَشْكُورًا كُلًّا نَمِدُّ هُوَاءً وَهَوَاءً مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انظُرْ كَيْفَ  
فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (17 : 18 - 21) .

(215/297)

---

وَقَدْ مَضَتْ سَنَتُنَا أَيْضًا بِأَنَّهُ اتَّبَعَ الْإِنْسَانَ لِهَوَاهُ بِتَحْرِيهِ وَتَشْهِيهِ مَا تَمِيلُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ فِي كُلِّ  
عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ ، دُونَ مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ وَالْفَائِدَةُ لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ جَسَدٌ

وَرُوحٌ، يُضِلُّهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الْمُوصَلَةَ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَتَعَسَّفُ بِهِ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ الْمُرْدِيَةِ الْمُهْلِكَةِ . قَالَ تَعَالَى لِخَلِيفَتِهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (38 : 26) وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ مَا أَوْحَاهُ إِلَى كَلِيمِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذِكْرِ السَّاعَةِ : فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ فَتَرْدَى (20 : 16) وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ لِخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِ صَلَوَاتُهُ وَسَلَامُهُ : أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (25 : 43) وَالآيَاتُ فِي ذَمِّ الْهَوَى وَالنَّهْيِ عَنْهُ كَثِيرَةٌ ، وَحَسْبُكَ مِنْهَا قَوْلُهُ : وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ (23 : 71) .

(216/297)

---

وَحَاصِلُ مَعْنَى الشَّرْطِ وَالْإِسْتِدْرَاكِ : أَنَّ مِنْ شَأْنِ مَنْ أُوتِيَ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ تَرْتَقِيَ نَفْسُهُ ، وَتَرْتَفِعَ فِي مَرَاتِقِ الْكَمَالِ دَرَجَتُهُ ، لِمَا فِيهَا مِنَ الْهُدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ وَالذِّكْرِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ لِمَنْ أَخَذَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَتَلَقَّاهَا بِهِذِهِ النَّبِيَّةِ : " وَإِنَّمَا لِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى " وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَنْوِ ذَلِكَ لَمْ تَتَّوَجَّهْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَإِنَّمَا تَلَقَّى الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ اتِّفَاقًا بَغَيْرِ قَصْدٍ ، أَوْ بِنِيَّةِ كَسْبِ الْمَالِ وَالجَاهِ ، وَوَجَدَ مَعَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ مَا يَصْرِفُهُ عَنِ الْإِهْتِدَاءِ بِهَا فَلَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْهَا ، وَأَسْرَعُ بِهِ أَنْ يَنْسَلِخَ مِنْهَا ، فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا زِلَانَهَا فِي نَفْسِهَا هُدًى وَنُورٌ ، وَلَكِنْ تَعَارَضَ

المُقْتَضَى وَالْمَانِعُ ، وَهُوَ إِخْلَادُهُ إِلَى الْأَرْضِ وَاتِّبَاعُ هَوَاهُ :  
قَالُوا فَلَانُ عَالِمٌ فَاضِلٌ . . . فَأَكْرَمُوهُ مِثْلَمَا يَقْتَضِي  
فَقُلْتُ : لَمَّا لَمْ يَكُنْ عَامِلًا . . . تَعَارَضَ الْمَانِعُ وَالْمُقْتَضِي

(217/297)

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ بِاللَّهْثِ بِالْفَتْحِ وَاللَّهْثُ بِالضَّمِّ :  
التَّنَفُّسُ الشَّدِيدُ مَعَ إِخْرَاجِ اللِّسَانِ ، وَيَكُونُ لِغَيْرِ الْكَلْبِ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ وَالْإِعْيَاءِ أَوْ  
الْعَطَشِ ، وَأَمَّا الْكَلْبُ فَيَلْهَثُ فِي كُلِّ حَالٍ ، سَوَاءً أَصَابَهُ ذَلِكَ أَمْ لَا ، وَسَوَاءً حَمَلَتْ عَلَيْهِ  
تُهَدِّدُهُ بِالضَّرْبِ أَمْ تَرَكْتَهُ وَادِّعَا آمِنًا ، وَهَذَا الرَّجُلُ صِفَةُ كَصِفَةِ الْكَلْبِ فِي حَالَتِهِ هَذِهِ ،  
وَهِيَ أَحْسَنُ أَحْوَالِهِ وَأَقْبَحُهَا ، وَالْمُرَادُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ كَانَ مِنْ إِخْلَادِهِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَاتِّبَاعِ  
هَوَاهُ فِي أَسْوَأِ حَالٍ ، خِلَافًا لِمَا كَانَ يَبْغِي مِنْ نِعْمَةِ الْعَيْشِ وَرَاحَةِ الْبَالِ ، فَهُوَ فِي هَمٍّ دَائِمٍ  
مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يَهْتَمَّ بِهِ ، وَمَا شَأْنُهُ إِلَّا يَهْتَمُّ بِهِ مِنْ صَغَائِرِ الْأُمُورِ وَخَسَائِسِ الشَّهَوَاتِ ، كَدَابِ  
عِبَادِ الْأَهْوَاءِ

وَصِغَارِ الْهَمِّ تَرَاهُمْ كَاللَّاهِثِ مِنَ الْإِعْيَاءِ وَالتَّعَبِ ، وَإِنْ كَانَ مَا يَعْنُونَ بِهِ ، وَيَحْمِلُونَ هَمَّهُ  
حَقِيرًا لَا يُتَعَبُ وَلَا يُعْيِي ، وَلَا تَرَى أَحَدًا مِنْهُمْ رَاضِيًا بِمَا أَصَابَهُ مِنْ شَهَوَاتِهِ وَأَهْوَاتِهِ ، بَلْ

يَزِيدُ طَمَعًا وَتَعَبًا كَلَّمَا أَصَابَ سَعَةً وَقَضَىٰ أَرْبًا :  
فَمَا قَضَىٰ مِنْهَا أَحَدٌ لَبَاتَهُ . . . وَلَا انْتَهَىٰ أَرْبٌ إِلَّا إِلَىٰ أَرْبٍ

(218/297)

---

ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَيُّ : ذَلِكَ الْأَمْرُ الْبَعِيدُ الشَّأْوِ فِي الْغُرَابَةِ هُوَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ  
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا مِنَ الْجَاهِدِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، وَالْمُقَلِّدِينَ الْجَاهِلِينَ ، كَذَّبُوا لَظَنَّهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ بِهَا  
يَسْلُبُهُمْ مَا يَفْخَرُونَ بِهِ مِنَ الْعِزَّةِ وَالْعِظْمَةِ بِاتِّبَاعِهِمْ لغيرِهِمْ ، وَيَحِطُّ مِنْ قَدْرِ آبَائِهِمْ  
وَأَجْدَادِهِمُ الَّذِينَ قَلَّدُوهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ ، وَيَحُولُ دُونَ تَمَتُّعِهِمْ بِمَا يَشْتَهُونَ مِنْ لَذَائِهِمْ ، فَلِهَذَا  
الظَّنِّ الْبَاطِلِ لَمْ يَنْظُرُوا فِي الْآيَاتِ نَظَرَ تَفَكُّرٍ وَاسْتِقْلَالٍ ، وَتَبَصَّرَ وَاسْتَدَّلَّ ، بَلْ نَظَرُوا إِلَيْهَا  
- لَا فِيهَا - مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ أَنَّ اتِّبَاعَهَا يَحِطُّ مِنْ أَقْدَارِهِمْ ، وَيُعَدُّ اعْتِرَافًا بِضَلَالِ  
سَلَفِهِمُ الَّذِينَ يَفْخَرُونَ بِهِمْ ، وَيَحْرِمُهُمُ التَّمَتُّعَ بِحُظُوظِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ .

(219/297)

---

فَكَانَ مِثْلَهُمْ مِثْلَ الَّذِي أُوتِيَ الْآيَاتِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ، وَذَلِكَ لَا يَعِيبُ الْآيَاتِ ، وَإِنَّمَا يَعِيبُ أَهْلَ  
الْأَهْوَاءِ الَّذِينَ حَرَمَهُمْ سُوءُ اخْتِيَارِهِمُ الْاِتِّفَاعَ بِهَا ، وَكَانَ مِنْ إِنْسَانٍ حُرِّمَ الْاِتِّفَاعَ بِمَوَاهِبِهِ  
الْفِطْرِيَّةِ بَعْدَ اسْتِعْمَالِهِ إِيَّاهَا فِيمَا يَرْفَعُهُ دَرَجَاتٍ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَكَانَ مِنْ إِنْسَانٍ  
اسْتَعْمَلَ حَوَاسَهُ فِي الضَّرِّ ، وَعَقْلَهُ وَذَكَاءَهُ فِي الشَّرِّ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ  
يُظَلِّمُونَ ، فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ أَيُّ : فَاقْصُصِ أَيُّهَا الرَّسُولُ قِصَصَ ذَلِكَ الرَّجُلِ  
الْمُشَابِهَةِ حَالِهِ لِحَالِ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ فِي مَبْدَأِ أَمْرِهِ وَغَايَتِهِ ،  
وَمَعْنَاهُ وَصُورَتِهِ ، رَجَاءً أَنْ يَتَفَكَّرُوا فِيهِ فَيَحْمِلُهُمْ سُوءُ حَالِهِمْ ، وَقُبْحُ مِثْلِهِمْ عَلَى التَّفَكُّرِ  
وَالتَّامُّلِ ، فَإِذَا هُمْ تَفَكَّرُوا فِي ذَلِكَ تَفَكَّرُوا فِي الْمَخْرَجِ مِنْهُ ، وَنَظَرُوا فِي الْآيَاتِ ، وَمَا فِيهَا  
مِنَ الْبَيِّنَاتِ بَعَيْنِ الْعَقْلِ وَالْبَصِيرَةِ ، لَا بَعَيْنِ الْهَوَى وَالْعَدَاوَةِ ، وَلَا طَرِيقَ لِهَدَايَتِهِمْ غَيْرُ هَذِهِ ،  
وَالآيَةُ تُدَلُّ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ فِي تَأْثِيرِ الْكَلَامِ ، وَكَوْنِهِ أَقْوَى مِنْ سُوقِ الدَّلَائِلِ  
وَالْحُجَجِ الْمَجْرَدَةِ ، وَيَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِ التَّفَكُّرِ ،

(220/297)

---

وَكَوْنِهِ مَبْدَأَ الْعِلْمِ وَطَرِيقَ الْحَقِّ ؛ وَلِذَلِكَ حَثَّ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ ، وَيَبِينُ أَنَّ  
الْآيَاتِ وَالذَّلَائِلِ إِنَّمَا تُسَاقُ إِلَى الْمُتَفَكِّرِينَ ؛ لِأَنَّ هُمْ الَّذِينَ يَعْقِلُونَهَا وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا .



وَقَدْ تَكَرَّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي عِدَّةِ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ضَارِبًا مَثَلًا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْغُرُورِ بِهَا يُنَاسِبُ سِيَاقَنَا هَذَا: إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (10: 24) وَقَدْ قَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْغَرْبِ: إِنَّ الْفَارِقَ الْحَقِيقِيَّ بَيْنَ الْإِنْسَانِ الْمَدِينِيِّ، وَالْإِنْسَانِ الْوَحْشِيِّ هُوَ التَّفَكُّرُ اتَّهَى. فَبِقَدْرِ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُنْزَلَةِ عَلَى رَسُولِهِ، وَآيَاتِهِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَفَاقِ، وَسُنَنِهِ وَحِكْمِهِ فِي الْبَشَرِ وَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، يَكُونُ ارْتِقَاءُ النَّاسِ فِي الْعُلُومِ وَالْأَعْمَالِ، مِنْ دِينِيَّةٍ وَدُنْيَوِيَّةٍ.

(221/297)

---

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ أَيُّ: سَاءَ مَثَلٍ أَوْلِكَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فِي الْأَمْثَالِ، وَقَبِّحَتْ صِفَتُهُمْ فِي الصِّفَاتِ، وَمَا كَانُوا بِمَا اخْتَارُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ، وَمَنْ النَّظَرِ إِلَيْهَا نَظَرَ الْعَدُوِّ الشَّانِي يَظْلِمُونَ أَحَدًا، وَإِنَّمَا يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ وَحَدَهَا بِحَرْمَانِهَا مِنَ الْاهْتِدَاءِ بِهَا، وَمَا يُعْتَبَرُ ذَلِكَ مِنْ حَرْمَانِ سَعَادَةٍ

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ . هَذَا مَا فَهَمْتُهُ مِنْ مَعْنَى الْآيَاتِ كَتَبْتُهُ (بِمَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ) وَلَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ  
مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ اسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْفَهْمِ ، وَكُنْتُ قَرَأْتُ تَفْسِيرَهَا فِي بَعْضِ الْكُتُبِ ، وَلَكِنْ لَمْ  
يَبْقَ مِنْهُ فِي ذَهْنِي إِلَّا تَنَازُعُ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ فِي تَفْسِيرِ : وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا هَلْ يُدَلُّ  
عَلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِضَلَالِ الرَّجُلِ أَمْ لَا ؟ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَأَنَّ كُلَّ  
شَيْءٍ يَفْعَلُهُ بِمَشِيئَتِهِ ، وَلَكِنْ مَشِيئَتُهُ تَجْرِي فِي الْعَالَمِ بِمُقْتَضَى سُنَنِهِ وَتَقْدِيرِهِ - وَإِلَّا مَا وَرَدَ  
فِي الرُّوَايَاتِ الْمَأْثُورَةِ مِنْ قِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ آيَاتِهِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ، وَأَنَّ أَكْثَرَهَا عَلَى أَنَّهُ  
مِنْ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ وَأَنَّ اسْمَهُ (بِلَعَامٍ) وَاسْمُ

(222/297)

---

أَبِيهِ (بَاعُورًا) وَهَذَا مِمَّا تَلَقَّاهُ أَوْلِيَاكَ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَصَارَ يَنْقَلُهُ بَعْضُهُمْ  
لِثِقَتِهِمُ بِالرَّوَايِ ، لِكَوْنِهِ مِمَّنْ اغْتَرَوْا بِصَلَابَتِهِمْ كَكُتُبِ الْأَخْبَارِ وَوَهَبِ بْنِ مُنَبِّهِ ، وَهَآكَ  
خُلَاصَةٌ تِلْكَ الرُّوَايَاتِ ، مُنْقُولَةٌ عَنِ الدَّرِّ الْمُنْشُورِ لِلْحَافِظِ السُّيُوطِيِّ .  
قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَأَتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا الْآيَةَ أَخْرَجَ الْفَرِيَابِيُّ  
وَعَبْدُ الرَّزَاقِ وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَالتَّسَائِيُّ وَأَبْنُ جَرِيرٍ وَأَبْنُ الْمُنْذِرِ وَأَبْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ

وَالطَّبْرَانِيُّ وَأَبْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ : وَأَتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا قَالَ : هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ بُلْعَمُ بْنُ أَبَرَ ، وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَأَبْنُ جَرِيرٍ ، وَأَبُو الشَّيْخِ وَأَبْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طُرُقٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : هُوَ بُلْعَمُ بْنُ بَاعُورَاءَ وَفِي لَفْظٍ بِلْعَامُ بْنُ عَامِرٍ : الَّذِي أُوتِيَ الْاسْمَ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ .

(223/297)

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَأَبْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : وَأَتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا الْآيَةَ . قَالَ : رَجُلٌ مِنْ مَدِينَةِ الْجَبَّارِينَ يُقَالُ لَهُ بُلْعَمُ تَعَلَّمَ اسْمَ اللَّهِ الْأَكْبَرَ ، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِمْ مُوسَى أَنَّهُ بَنُو عَمِّهِ وَقَوْمِهِ فَقَالُوا : إِنَّ مُوسَى رَجُلٌ حَدِيدٌ وَمَعَهُ جُنُودٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِنَّهُ إِنْ يَظْهَرَ عَلَيْنَا يُهْلِكُنَا فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ عَنَّا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، قَالَ : إِنِّي إِنْ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ مَضَتْ دُنْيَايَ وَأَخْرَجْتَنِي . فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى دَعَا عَلَيْهِمْ فَانْسَلَخَ مِمَّا كَانَ فِيهِ . وَفِي قَوْلِهِ : إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرُكُهُ يَلْهَثُ قَالَ : إِنْ حَمَلَ الْحِكْمَةَ لَمْ يَحْمِلْهَا ، وَإِنْ تَرَكَ لَمْ يَهْتَدِ لِخَيْرٍ ، كَالْكَلْبِ إِنْ كَانَ رَابِضًا لَهَثَ وَإِنْ طُرِدَ لَهَثَ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : وَأَتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ الْآيَةَ . قَالَ : هُوَ رَجُلٌ أُعْطِيَ ثَلَاثَ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُ فِيهِنَّ ، وَكَانَتْ لَهَا امْرَأَةٌ لَهُ مِنْهَا وَكَلْبٌ ، فَقَالَتْ

: اجعل لي منها واحدة، قال: فلك واحدة، فما الذي تريدان؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت

(224/297)

عنه، وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة، فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار، قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليه، فدعا الله فعادت كما كانت، فذهبت الدعوات الثلاث وسميت البسوس.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال، هورجل يدعى بلعم من أهل اليمن أتاه الله آياته فتركها. وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو وأتاهم نبال الذي أتيناها آياتنا فانسأخ منها قال: هو أمية بن أبي الصلت الثقفي، وفي لفظ نزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت، وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: قدمت الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فقال لها:

"هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً؟" قالت: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا فارعة إن مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسخ منها".  
وأخرج ابن عساكر عن ابن شهاب قال: قال أمية بن أبي الصلت:

(225/297)

ألا رسول لنا منا يخبرنا . . . ما بعد غائتنا من رأس نجرانا  
قال: ثم خرج أمية إلى البحرين وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام أمية بالبحرين  
ثمانين سنين، ثم قدم فلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه،  
فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه: بسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن  
الحكيم (36: 1، 2) حتى فرغ منها، وثب أمية يجر رجليه فتبعته قرش تقول: ما  
تقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على الحق، قالوا: فهل تتبعه؟ قال: حتى أنظر في أمره،  
ثم خرج أمية إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم، فلما أخبر بقتلى بدر ترك  
الإسلام، ورجع إلى الطائف فمات بها، قال: ففيه أنزل الله وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا  
فانسخ منها. وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن نافع بن  
عاصم بن عروة بن مسعود قال: إني لفي حلقة فيها عبد الله بن عمرو فقرأ

(226/297)

رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ الْآيَةِ الَّتِي فِي الْأَعْرَافِ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَقَالَ:  
أَتَدْرُونَ مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صَيْفِيُّ بْنُ الرَّاهِبِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ بُلْعَمُ رَجُلٌ مِنْ  
بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ: لَا. فَقَالُوا: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: أُمِّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ.

(227/297)

وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنَ مَرْدُوَيْهِ عَنِ الشَّعْبِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ  
آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ بُلْعَمُ بْنُ بَاعُورًا،  
وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ تَقُولُ: هُوَ ابْنُ الرَّاهِبِ الَّذِي بُنِيَ لَهُ مَسْجِدُ الشَّقَاقِ، وَكَانَتْ تُقَيِّفُ تَقُولُ:  
هُوَ أُمِّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ، وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُوَ صَيْفِيُّ بْنُ الرَّاهِبِ  
، وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ مُجَاهِدٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: هُوَ نَبِيُّ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَعْنِي "بُلْعَمُ" أَوْ تِي  
النُّبُوَّةَ فَرَسَاهُ قَوْمُهُ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ فَفَعَلَ وَتَرَكَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ  
الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: فَانْسَلَخَ مِنْهَا قَالَ: نَزَعَ مِنْهُ الْعِلْمُ

. وَفِي قَوْلِهِ : وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا قَالَ : لَرَفَعَهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ . وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ : بَعَثَ نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى بِلَعَامِ بْنِ بَاعُورٍ إِلَى مَلِكِ مَدْيَنَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَكَانَ مُوسَى يُقَدِّمُهُ فِي الشَّدَائِدِ ، فَاقْطَعَهُ وَأَرْضَاهُ فَتَرَكَ دِينَ مُوسَى وَتَبِعَ دِينَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : وَأَتَلُوا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ كُؤْبِ فِي قَوْلِهِ : وَأَتَلُوا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا

(228/297)

قَالَ : كَانَ يَعْلَمُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ .  
وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : وَأَتَلُوا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا قَالَ : هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لَمَنْ عَرَضَ عَلَيْهِ الْهُدَى فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ وَتَرَكَهُ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا قَالَ : لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِآيَاتِهِ الْهُدَى ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُبْتَلِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ قَالَ : أَبِي أَنْ يَصْحَبَ الْهُدَى ، فَمِثْلُهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ الْآيَةِ ، قَالَ : هَذَا مِثْلُ الْكَافِرِ مِثِّ الْفُؤَادِ كَمَا أُمِيتَ فُؤَادُ الْكَلْبِ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي قَوْلِهِ : وَأَتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ  
آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا قَالَ : أَنَا سُبُّ مِنَ الْيَهُودِ وَالتَّصَارِي وَالْحُنَفَاءِ مِمَّنْ أُعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنْ آيَاتِهِ  
وَكِتَابِهِ فَانْسَلَخُوا مِنْهَا فَجَعَلَهُمْ مِثْلَ الْكَلْبِ .

(229/297)

وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي  
قَوْلِهِ : وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا قَالَ : لَدَفَعْنَا عَنْهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ قَالَ : سَكَنَ إِنْ  
تَحْمَلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ : إِنْ تَطْرُدُهُ بِدَائِكَ وَرَجَلَيْكَ ، وَهُوَ مِثْلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْكِتَابَ  
وَلَا يَعْمَلُ بِهِ ، وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ  
: وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ قَالَ : رَكَنَ ، نَزَعَ . وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ  
الْحُسَيْنِ فِي قَوْلِهِ : إِنْ تَحْمَلُ عَلَيْهِ قَالَ : إِنْ تَسَعَّ عَلَيْهِ ، وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ  
ابْنِ جُرَيْجٍ فِي قَوْلِهِ : إِنْ تَحْمَلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ قَالَ : الْكَلْبُ مُنْقَطِعُ الْفُوَادِ لَا فُوَادَ لَهُ ، مِثْلُ الَّذِي  
يُتْرَكُ الْهُدَى ، لَا فُوَادَ لَهُ ، إِنَّمَا فُوَادُهُ مُنْقَطِعٌ كَانَ ضَالًّا قَبْلَ أَنْ يُبْعَدَ .

(230/297)



وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ الْمُعْتَمِرِ قَالَ : سَأَلَ أَبُو الْمُعْتَمِرِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ  
نَبَأَ الَّذِي أَتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَحَدَّثَ عَنْ سَيَّارٍ : أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ : " بُلْعَامُ " وَكَانَ  
قَدْ أُوتِيَ النُّبُوَّةَ ، وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ ثُمَّ إِنَّ مُوسَى أَقْبَلَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يُرِيدُ الْأَرْضَ الَّتِي  
فِيهَا " بُلْعَامُ " فَرَعِبَ النَّاسُ مِنْهُ رُعْبًا شَدِيدًا فَاتُوا بُلْعَامَ فَقَالُوا : ادْعُ اللَّهَ عَلَيَّ هَذَا الرَّجُلِ  
قَالَ : حَتَّى أَوْامِرَ رَبِّي فَأَمَرَ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ فَقِيلَ لَهُ : لَا تَدْعُ عَلَيْهِمْ : ، فَإِنَّ فِيهِمْ عِبَادِي ،  
وَفِيهِمْ نَبِيُّهُمْ . فَقَالَ لِقَوْمِهِ : قَدْ أَمَرْتُ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَإِنِّي قَدْ نَهَيْتُ ، قَالَ : فَأَهْدُوا  
إِلَيْهِ هَدْيَةً فَاقْبَلُهَا ، ثُمَّ رَاجَعُوهُ فَقَالُوا : ادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : حَتَّى أَوْامِرَ ، فَأَمَرَ فَلَمْ يُحَارَ  
إِلَيْهِ شَيْءٌ ، فَقَالَ : قَدْ أَمَرْتُ فَلَمْ يُحَارَ إِلَيَّ شَيْءٌ ، فَقَالُوا : لَوْ كَرِهَ رَبُّكَ أَنْ تَدْعُو عَلَيْهِمْ لَنَهَاكَ  
كَمَا نَهَاكَ الْمَرَّةَ الْأُولَى ، فَأَخَذَ يَدْعُو عَلَيْهِمْ فَإِذَا دَعَا جَرَى عَلَى لِسَانِهِ الدُّعَاءُ عَلَى قَوْمِهِ  
فَإِذَا أُرْسِلَ أَنْ يَفْتَحَ عَلَى قَوْمِهِ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ أَنْ يَفْتَحَ عَلَى مُوسَى وَجَيْشِهِ ، فَقَالُوا : مَا  
نَرَاكَ إِلَّا تَدْعُو عَلَيْنَا . قَالَ : مَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِي إِلَّا هَكَذَا ، وَلَوْ دَعَوْتُ عَلَيْهِمْ مَا  
اسْتَجِيبَ لِي ، وَلَكِنْ سَادُّكُمْ عَلَى أَمْرِ عَسَى أَنْ يَكُونَ فِيهِ هَلَاكُكُمْ . إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الزَّانَا ،  
وَإِنَّهُمْ وَقَعُوا

---

بِالزَّنَا هَلَكُوا ، فَأَخْرَجُوا النِّسَاءَ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ مُسَافِرُونَ فَعَسَى أَنْ يَزُونُوا فِيهِمْ هَلَكُوا .  
فَأَخْرَجُوا النِّسَاءَ تَسْتَقْبِلُهُمْ فَوَقَعُوا بِالزَّنَا ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الطَّاعُونَ فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ  
أَلْفًا ، وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ فِي قَوْلِهِ : وَآتَى عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا  
فَانسَلَخَ مِنْهَا قَالَ : كَانَ اسْمُهُ " بِلْعَلْم " وَكَانَ يُحْسِنُ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ ، فَغَزَاهُمْ مُوسَى  
فِي سَبْعِينَ أَلْفًا ، فَجَاءَهُ قَوْمُهُ فَقَالُوا : ادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ ، وَكَانُوا إِذَا غَزَاهُمْ أَحَدٌ أَتَوْهُ فَدَعَا  
عَلَيْهِمْ فَهَلَكُوا ، وَكَانَ لَا يَدْعُو حَتَّى يَنَامَ فَيَنْظُرُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ فِي مَنَامِهِ ، فَتَنَامُ ، فَقِيلَ لَهُ : ادْعُ اللَّهَ  
لَهُمْ وَلَا تَدْعُ عَلَيْهِمْ ، فَاسْتَيْقِظَ فَأَبَى أَنْ يَدْعُو عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لَهُمْ : زَيْنُوا لَهُمُ النِّسَاءَ فَإِنَّهُمْ إِذَا  
رَأَوْهُمْ لَمْ يَصْبِرُوا حَتَّى يُصِيبُوا مِنَ الذُّنُوبِ قَدْ آلُوا عَلَيْهِمْ .

(232/297)

---

ذَلِكَ مَا لَخِصَّهُ السُّيُوطِيُّ عَنْ رِوَاةِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ ، وَكُلُّهُ مِمَّا انْخَدَعَ بِهِ بَعْضُ الصَّحَابَةِ  
وَالتَّابِعِينَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ إِنْ صَحَّتِ الرِّوَايَاتُ عَنْهُمْ ، وَبَعْضُهَا قَوِيٌّ السَّنَدِ . وَقَدْ أوردَ  
الْحَافِظُ أَبُو عَسَاكَرٍ فِي تَارِيخِهِ جُلَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ ، وَزَادَ عَلَيْهَا وَاتَّقَدَ بَعْضُهَا ، وَذَكَرَ أَنَّ  
مِنْ رِوَايَاتِهَا كَعْبُ الْأَخْبَارِ وَوَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ ، وَمِمَّا عَزَاهُ إِلَى رِوَايَةِ وَهْبٍ وَفِيهِ مُخَالَفَةٌ لغيرِهِ أَنَّ

قِصَّةُ بَلْعَامَ كَانَتْ فِي قِتَالِ فِرْعَوْنَ مِنَ الْفِرَاعِنَةِ لِأَمَّةِ مُوسَى بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَأَنَّ بَلْعَامَ مِنْ أَنْبِيَاءِ  
بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَذَكَرَ عَنْهُ رَوَايَةٌ أُخْرَى ، وَقَالَ بَعْدَ سِيَاقٍ طَوِيلٍ لِلْقِصَّةِ لَا حَاجَةَ إِلَى تَقْلِهِ مَا  
نَصُّهُ :

" وَحَكَيْتُ هَذِهِ الْقِصَّةَ عَنْ كَعْبٍ ، وَفِيهَا أَنَّ مَعْسَكَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ بَارِضٍ كَعْبَانَ  
مِنَ الشَّامِ ، بَيْنَ أَرِيحَا وَبَيْنَ الْأَرْدُنِّ وَجَبَلِ الْبَلْقَاءِ وَالتَّيِّهِ فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ ، ثُمَّ سَاقَ  
الْقِصَّةَ عَلَى نَمَطٍ مَا تَقَدَّمَ إِلَّا أَنَّ فِيهَا بَدَلَ " أَنْدَلَعَ لِسَانُهُ " وَجَاءَتْهُ لَمْعَةٌ فَأَخَذَتْ بَصْرَهُ فَعَمِيَ

" وَحَكِي عَنِ وَهَبٍ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ بَلْعَامَ أَخَذَ أُسِيرًا فَأَتَى بِهِ إِلَى مُوسَى فَقَتَلَهُ (قَالَ) : وَهَكَذَا  
كَانَتْ سُنَّتُهُمْ ، أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ الْأَسْرَى (قَالَ) : فَقَوْلُهُ تَعَالَى : فَانْسَلَخْ مِنْهَا يَقُولُ : الْأَسْمُ الْأَعْظَمُ  
الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ إِيَّاهُ .

(233/297)

---

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزَّهْرِيِّ عَنِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " كَانَ مَثَلُ بَلْعَامَ بْنِ بَاعُورَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَثَلِ أُمِّيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ فِي  
هَذِهِ الْأُمَّةِ " (قَالَ ابْنُ عَسَاكِرَ) قُلْتُ : وَالْحَدِيثُ مُوقُوفٌ عَلَى ابْنِ الْمُسَيْبِ ، فَتَأَمَّلْ (؟ ؟)

(قال) " وأقول: في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر العدد من التوراة ذكر بلعام وقصته مطولة، وهي أشبه برواية وهب غير أن الذين دونوا التوراة الموجودة اليوم برءوا بلعام فقالوا: إنه ذهب إلى منزله، ولم يدع على بني إسرائيل ولم يصبه شيء. فإن كانت الآيات نزلت في حكاية بلعام فيكون القرآن قد أظهر ما كتبه التوراتيون، وأظهر ما خبئوه، ويكون هذا من جملة المعجزات الدالة على أن القرآن من عند الله تعالى، وإن كانت في غيره فالله أعلم بمن نزلت؛ وعلى أن الصحيح أن الآيات شاملة لكل من كانت هذه صفته من كل من أتاه الله الآيات التي هي الحجج التي جاء بها الأنبياء ثم إنه أنسخ منها - إلى أن قال - والصواب

في تفسير هذه الآية: أنه لا يخص منه شيء إذا كان لا دالة على خصوصه من خبر ولا عقل " انتهى المراد من كلام ابن عساكر.

(234/297)

أقول: إن هذا الحافظ كان مطلعاً على التوراة التي في أيدي أهل الكتاب، وهي عين التي بين أيدينا منها إلا ما في اختلاف الترجمات القديمة والحديثة من الفروق، وهي وإن كان فيها اختلاف في المعاني فلن يصل إلى الحد الذي في روايات وهب وكعب وغيرهما من

رُؤَاةِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الْكَاذِبَةِ ، وَأَبْنِ عَسَاكِرٍ يُرْجِحُ قَوْلَ وَهْبٍ عَلَى مَا فِي التَّوْرَةِ لِأَنَّهُ ثَقَّةٌ  
عِنْدَهُ فِي الرِّوَايَةِ ، وَيَعُدُّ رِوَايَتَهُ دَلِيلًا عَلَى مُعْجَزَةِ الْقُرْآنِ ، وَلَوْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي آتَاهُ  
اللَّهُ آيَاتِهِ هُوَ بُلْعَامُ هَذَا ، أَوْ لَوْ صَحَّ هَذَا فِي خَيْرِ مُسْنَدٍ مُتَّصِلٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ . لَكَانَ صَحِيحًا ، وَلَكِنْ يُجِبُ أَنْ نَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ جَاءَ وَهْبٌ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ ، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ  
إِلَّا رَاوِيًا لِمَا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَمَا قَالَهُ مُخَالَفٌ لِمَا عِنْدَهُمْ .

وَقِصَّةُ بُلْعَامِ مُفْصَلَةٌ فِي الْفُصُولِ (22 - 24) مِنْ سِفْرِ الْعَدَدِ ، وَفِيهَا أَنَّهَا وَقَعَتْ فِي "   
عَرَبَاتِ مُوَابَ مِنْ عِبْرِ أَرْضِ أَرِيحَا " مِنْ أَرْضِ مَدْيَنَ كَمَا نَقُولُ (أَوْ مَدْيَانَ كَمَا يَقُولُونَ) وَأَنَّ  
بَالَاقَ بْنَ صِفُورَ (بِكْسْرِ الصَّادِ الْمُهْمَلَةِ وَتَشْدِيدِ الْفَاءِ) مَلِكَ الْمَوَابِيِّينَ طَلَبَ مِنْ بُلْعَامِ بْنِ  
بَاعُورَ أَنْ يَلْعَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَوَعَدَهُ بِمَالٍ كَثِيرٍ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى بُلْعَامَ أَلَّا  
يَفْعَلَ فَلَمْ يَفْعَلْ .

(235/297)

---

وَفِي قَامُوسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلدُّكْتُورِ "بُوسْتِ" أَنَّ بُلْعَامَ هَذَا مِنْ قَرْيَةٍ فَتُورَ مِنْ بَيْنِ النَّهْرَيْنِ  
قَالَ : وَكَانَ نَبِيًّا مَشْهُورًا فِي جَبَلِهِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ مُوَحَّدًا يَعْبُدُ  
اللَّهُ (! ! ) وَلَيْسَ ذَلِكَ بِعَجِيبٍ لِأَنَّهُ مِنْ وَطَنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ، حَيْثُ يُظَنُّ أَنَّ جُرْثُومَةَ تِلْكَ

الْعِبَادَةُ كَانَتْ لَمْ تَزَلْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ فِي أَيَّامِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، وَقَدْ  
ذَاعَ صِيْتُ هَذَا النَّبِيِّ بَيْنَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ ، فَعَلَّا شَأْنَهُ ، وَصَارَتْ النَّاسُ تُقْصِدُهُ مِنْ جَمِيعِ  
أَنْحَاءِ الْبِلَادِ لِيَتَنَبَّأَ لَهُمْ عَنْ أُمُورٍ مُخْتَصَّةٍ بِهِمْ ، أَوْلِيْبَارِكُهُمْ وَيُبَارِكُ مُقْتَنِيَاتِهِمْ وَمَا أَشْبَهَ " ثُمَّ  
ذَكَرَ حِكَايَةَ مَلِكِ مُوَابَ مَعَهُ ، فَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ بُلْعَامُ عِرَاقِيًّا لَا إِسْرَائِيلِيًّا وَلَا مُوَابِيًّا .  
وَذَكَرَ الْبُسْتَانِيُّ فِي دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْعَرَبِيَّةِ مُلْخَصَ قِصَّةِ بُلْعَامِ " ثُمَّ قَالَ : وَبَعْضُ مُفَسِّرِي  
(الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ) الْمُدَقِّقِينَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ قِصَّةَ "بُلْعَامِ" الْمُدْرَجَةَ فِي سِفْرِ الْعَدَدِ مِنْ  
الْإِصْحَاحِ (22 - 24) دَخِيلَةٌ الْخُ . فَتَأَمَّلْ ! .

(236/297)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةَ لَا يُعْتَدُّ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا قِيَمَةٌ لِأَسَانِيدِهَا ؛ لِأَنَّ  
مَنْ يَنْتَهِي إِلَيْهِ السَّنَدُ قَدْ اغْتَرَّ بِبَعْضِ مُلَفِّقِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ حَتْمًا ، وَقَدْ رَأَيْنَا شَيْخَ الْمُفَسِّرِينَ  
ابْنَ جَرِيرٍ لَمْ يُعْتَدِّ بِهَا . وَبَرُّجُو - وَقَدْ رَاجَعْنَا أَشْهَرَ مَا لَدَيْنَا مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ - أَنْ يَكُونَ مَا  
بَيْنَنَا بِهِ مَعْنَى الْآيَاتِ أَصَحَّهَا وَأَكْبَرُهَا فَائِدَةً .

وَأَكْبَرُ وَجْوهِ الْعِبْرَةِ فِيهَا مَا نَرَاهُ مِنْ حَالِ عُلَمَاءِ الدُّنْيَا اللَّابِسِينَ لِبَاسِ عُلَمَاءِ الدِّينِ ، الَّذِينَ هُمْ  
أَظْهَرُ مَظَاهِرِ الْمَثَلِ فِي الْأَنْسِلَاحِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَالْإِخْلَادِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَاتِّبَاعِ أَهْوَاءِهِمْ

وَتَفَانِيهِمْ فِي إِرْضَاءِ الْحُكَّامِ ، وَإِنْ كَانُوا مُرْتَدِّينَ ، وَالْعَوَامِ وَإِنْ كَانُوا مُبْتَدِعَةً خُرَافِيَّينَ ، وَهُمْ  
فِتْنَةٌ لِلنَّابِئَةِ الْعَصْرِيَّةِ تَصَدُّهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَلِلْعَوَامِ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الْخُرَافَاتِ وَالْأَوْهَامِ ،  
وَمِنْهَا عِبَادَةُ الْقُبُورِ بِدُعَاءِ مَوْتَاهَا فِيمَا لَا يُطَلَّبُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالطَّوَافُ بِهَا وَالنُّذُرُ لَهَا  
وغير ذلك ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ  
وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ

(237/297)

---

لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ هَاتَانِ الْآيَاتَانِ مُقَرَّرَتَانِ  
لِمَضْمُونِ الْمَثَلِ فِي الْآيَاتِ قَبْلَهَا ، وَهُوَ أَنَّ أَسْبَابَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ إِنَّمَا يَنْتَهِي كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا  
بِالْمَرْءِ الْمُسْتَعِدِّ إِلَى كُلِّ مِنَ الْغَايَتَيْنِ ، وَالْعُرْضَةُ لِسُلُوكِ كُلِّ مِنَ النَّجْدَيْنِ ، بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَالسَّيْرِ  
عَلَى سُنَنِهِ فِي اسْتِعْمَالِ مَوَاهِبِهِ وَهَدَايَاتِهِ الْفِطْرِيَّةِ ، مِنَ الْعَقْلِ وَالْحَوَاسِّ فِي أَحَدِ السَّبِيلَيْنِ  
إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (76 : 3) وَقَدْ أَجْمَلَ تَعَالَى هَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ  
الْأُولَى وَفَصَّلَهُ فِي الثَّانِيَةِ بِإِجَازٍ بَدِيعٍ فَقَالَ : مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي أَيُّ : مَنْ يُوَفِّقُهُ اللَّهُ  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِسُلُوكِ سَبِيلِ الْهُدَى بِاسْتِعْمَالِ عَقْلِهِ وَحَوَاسِّهِ ، بِمُقْتَضَى سُنَّةِ الْفِطْرَةِ

وَأَرْشَادِ الدِّينِ ، فَهُوَ الْمُهْتَدِي الشَّاكِرُ لِنِعْمَةِ تَعَالَى ، الْفَائِزُ بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ يُضِلُّ  
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ أَيُّ وَمَنْ يَخْذُلُهُ بِالْحَرَمَانِ مِنْ هَذَا التَّوْفِيقِ ، فَيَتَّبِعْ هَوَاهُ وَشَيْطَانَهُ فِي  
تَرْكِ اسْتِعْمَالِ عَقْلِهِ وَحَوَاسِسِهِ فِي فَهْمِ آيَاتِهِ تَعَالَى وَشُكْرِ نِعْمِهِ ، فَهُوَ الضَّالُّ الْكُفُورُ الْخَاسِرُ  
لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُ يَخْسِرُ بِذَلِكَ مَوَاهِبَ نَفْسِهِ الَّتِي كَانَ بِهَا إِنْسَانًا مُسْتَعِدًّا  
لِلسَّعَادَةِ فَتَقْوَتُهُ هَذِهِ السَّعَادَةُ فَوْتًا إِضَافِيًّا فِي الدُّنْيَا وَحَقِيقِيًّا فِي الْآخِرَةِ .

(238/297)

---

وَفِي آيَةِ مَنْ مَحَاسِنِ الْبَدِيعِ الْاِحْتِبَاكُ ، وَهُوَ حَذْفُ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ مِنَ الْجُمْلَةِ الْأُولَى لِلْعِلْمِ بِهِ  
مِنْ إِبْتِاتِ نَظِيرِهِ وَمُقَابِلِهِ - وَهُوَ الْخُسْرَانُ - فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ ، وَحَذْفُ الضَّالِّ مِنَ الْجُمْلَةِ  
الثَّانِيَةِ لِإِبْتِاتِ مُقَابِلِهِ وَهُوَ الْمُهْتَدِي فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى ، وَإِفْرَادُ الْمُهْتَدِي فِي الْأُولَى  
مُرَاعَاةَ اللَّفْظِ (مَنْ) ، وَجَمْعُ الْخَاسِرِينَ فِي الثَّانِيَةِ مُرَاعَاةَ لِمَعْنَاهَا فَإِنَّهَا مِنْ صِيغِ الْعُمُومِ ،  
وَحِكْمَةُ إِفْرَادِ الْأَوَّلِ ، الْإِشَارَةُ بِهِ إِلَى أَنَّ الْحَقَّ الْمُرَادَ مِنَ الْهِدَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ نَوْعٌ وَاحِدٌ وَهُوَ  
الْإِيمَانُ الْمُشْمِرُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَحِكْمَةُ جَمْعِ الثَّانِي ، الْإِشَارَةُ إِلَى تَعَدُّدِ أَنْوَاعِ الضَّلَالِ كَمَا  
تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مُفَصَّلًا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا  
فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ



(6 : 153) وَتَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (2 : 257) الْآيَةُ .

(239/297)

ثُمَّ فَصَّلَ تَعَالَى مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْأَجْمَالِ بِقَوْلِهِ : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا . (الذَّرْءُ) فَسَّرُوهُ بِالْخَلْقِ ، وَذَرَأْنَا : خَلَقْنَا ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ مُرَادٌ ، وَلِكُلِّ مَادَّةٍ مَعْنَى خَاصٌّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى مَادَّةٍ " خَلَقَ " وَسُنْعِيْدُهُ ، وَقَالَ الرَّاعِبُ : الذَّرْءُ (إِظْهَارُ اللَّهِ تَعَالَى مَا أْبْدَأَهُ) يُقَالُ : ذَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ أَيُّ أَوْجَدَ أَشْخَاصَهُمْ ، وَذَكَرَ هَذِهِ الْآيَةَ وَغَيْرَهَا وَقَالَ : وَقُرِئَ تَذَرُّوهُ الرِّيحُ ، وَفِي اللِّسَانِ بَعْدَ تَفْسِيرِ الذَّرْءِ بِالْخَلْقِ وَالْإِسْتِشْهَادِ بِالْآيَةِ : وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : جَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّوكُمْ فِيهِ (42 : 11) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ : الْمَعْنَى يَذُرُّوكُمْ بِهِ أَيُّ يَكْتَرِكُمْ بِجَعْلِهِ مِنْكُمْ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا . . ثُمَّ قَالَ : " أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ " وَكَانَ الذَّرْءُ مُخْتَصًّا بِخَلْقِ الذَّرِّيَّةِ . وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . كَتَبَ إِلَى خَالِدٍ " وَإِنِّي لَأُظَنُّكُمْ أَلَّ الْمُغْيِرَةِ ذَرْءَ النَّارِ " يَعْنِي خَلَقَهَا الَّذِينَ خَلَقُوا لَهَا ، وَيُرْوَى

(ذُرُوءُ النَّارِ) ، يَعْنِي الَّذِينَ يُفَرِّقُونَ فِيهَا ، مَنْ ذَرَّتِ الرِّيحُ التُّرَابَ إِذَا فَرَّقَتْهُ اُنْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ .  
وَفِي الْأَسَاسِ : ذَرَأْنَا الْأَرْضَ وَذَرَوْنَاهَا ، وَذَرَأَ اللَّهُ الْخُلُقَ وَبَرَأَ الْخُ .

(240/297)

فَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَعَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ اسْتِعْمَالَ الْقُرْآنِ لِهَذَا الْحَرْفِ فِي النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ وَالْإِنْسَانَ  
خَاصَّةً ، عَلِمْتَ أَنَّ الذَّرْعَ فِي أَصْلِ اللَّغَةِ بِمَعْنَى بَثِّ الْأَشْيَاءِ وَبَذْرِهَا وَتَفْرِيقِهَا وَتَكْثِيرِهَا ،  
وَأَنَّ إِسْنَادَهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَعْنَى خَلْقِ ذَلِكَ أَيْ إِيجَادِهِ ، كَمَا أَنَّ أَصْلَ مَعْنَى الْخُلُقِ التَّقْدِيرُ  
، وَيُسْنَدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَعْنَى إِيجَادِ الْأَشْيَاءِ بِتَقْدِيرِ وَنِظَامٍ لَا جِزَافًا ؛ وَلِهَذَا عَطَفَ الذَّرْعُ  
وَالْبَرْعُ عَلَى الْخُلُقِ فِي حَدِيثِ الدُّعَاءِ الْمُتَقَدِّمِ .

وَالْجَنُّ " الْأَحْيَاءُ الْعَاقِلَةُ الْمُكَلَّفَةُ الْخَفِيَّةُ غَيْرُ الْمُدْرِكَةِ بِحَوَاسِّ الْبَشَرِ ، وَلَعَلَّ تَقْدِيمَهُمْ هُنَا  
فِي الذِّكْرِ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ جَهَنَّمَ لِأَنَّهُمْ أَجْدَرُ وَأَعْرَقُ فِي الصِّفَاتِ الْآتِيَةِ الَّتِي هِيَ  
سَبَبُ اسْتِحْقَاقِهَا ، وَكَوْنُ خُلُقِ أَصْلِ نَوْعِهِمْ وَأَوَّلِهِ مِنْ  
مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، لَا يَقْتَضِي عَدَمَ تَأَلُّمِهِمْ

مِنَ النَّارِ كَمَا قَدْ يُتَوَهَّمُ ، فَإِنَّ بَيْنَ حَقِيقَةِ نَوْعِ الْبَشَرِ وَحَقِيقَةِ الطِّينِ الَّذِي خُلِقَ أَبُوهُمْ مِنْهُ بَوْنًا  
عَظِيمًا يُقَاسُ عَلَيْهِ الْجَنُّ .

---

وَالْقُلُوبُ " جَمْعُ قَلْبٍ ، وَهُوَ يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الْمُضْغَةِ الصَّنَوْبَرِيَّةِ الشَّكْلِ الَّتِي فِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ مِنْ جَسَدِ الْإِنْسَانِ ، إِذَا كَانَ مَوْضِعَ الْكَلَامِ جَسَدَ الْإِنْسَانِ ، وَيُطْلَقُ عِنْدَ الْكَلَامِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَإِدْرَاكِهِ وَعِلْمِهِ وَشَعُورِهِ وَتَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي أَعْمَالِهِ ، عَلَى الصِّفَةِ النَّفْسِيَّةِ وَاللَّطِيفَةِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ الْحُكْمِ فِي أَنْوَاعِ الْمُدْرَكَاتِ ، وَالشُّعُورِ الْوَجْدَانِيِّ لِلْمُؤَلَّمَاتِ وَالْمَلَائِمَاتِ ، أَعْنِي أَنَّهُ يُطْلَقُ بِمَعْنَى الْعَقْلِ ، وَبِمَعْنَى الْوَجْدَانِ الرُّوحِيِّ ، الَّذِي يُعْبَرُ عَنْهُ فِي عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ بِالضَّمِيرِ ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ صَحِيحٌ . وَاشْتِقَاقُ الْعَقْلِ مِنْ عَقْلِ الْبَعِيرِ لِمَنْعِهِ مِنَ السَّيْرِ ، وَفِي مَعْنَى الْقَلْبِ اللَّبِّ الَّذِي هُوَ جَوْهَرُ الشَّيْءِ وَيَكْتَرُ فِي التَّنْزِيلِ ، وَمِنْهُ النَّهْيَةُ وَجَمْعُهَا نَهْيٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه : إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ . ( 20 : 128 ) .

وَمِنْ اسْتِعْمَالِهِ فِي مَعْنَى الْعَقْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجِّ: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ  
 لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي  
 الصُّدُورِ (22 : 46) وَهِيَ بِمَعْنَى الْآيَةِ الَّتِي نَفَسَرْنَا ، وَحَذَفَ مِنْهَا " أَوْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ  
 بِهَا " اسْتِغْنَاءً عَنْهُ بِدَلَالَةِ مَا بَعْدَهُ عَلَيْهِ ، وَالآيَاتُ الْمُبْصِرَةُ بِالْأَعْيُنِ فِي السِّيَاحَةِ فِي الْأَرْضِ  
 أَكْثَرُ مِنَ الْمَسْمُوعَةِ ، وَمِنْ اسْتِعْمَالِهِ فِي مَعْنَى الْوَجْدَانِ النَّفْسِيِّ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ  
 . وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ (39 : 45) وَقَوْلُهُ فِي  
 سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَالْأَنْفَالِ سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ (8 : 12) وَقَوْلُهُ فِي  
 النَّازِعَاتِ : قُلُوبٌ يَوْمِيذٍ وَاجِفَةٌ (79 : 8) فَالاشْمِزَّازُ وَالرَّعْبُ وَالْوَجِيفُ شُعُورٌ  
 وَجِدَانِيٌّ ، لَا حُكْمٌ عَقْلِيٌّ ، وَقَدْ يَسْتَعْمِلُ الْمَعْنِيَيْنِ مَعًا ، وَالْأَقْرَبُ أَنْ مِنْهُ فَتَقَهُ الْقُلُوبُ هُنَا ،  
 فَإِنَّ الْفِتْقَةَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِنَوْعٍ مِنَ الْأِدْرَاكِ ، يَصْحَبُهُ وَجْدَانٌ يُبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ ، كَمَا يُعْلَمُ مِمَّا  
 نَذَرْنَاهُ فِي تَحْقِيقِ مَعْنَاهُ ، وَقَدْ يَتَعَارَضُ مُتَقَضِي الْعَقْلِ وَالْوَجْدَانِ ، كَوَجْدَانِ اللَّذَّةِ وَاللَّامِ  
 وَالْحُبِّ وَالْبُغْضِ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَى أَعْمَالٍ مُخَالَفَةٍ لِحُكْمِ الْعَقْلِ فِي الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ .

(243/297)

وَسَبَبُ اسْتِعْمَالِ الْقَلْبِ بِمَعْنَى الْوَجْدَانِ الْحِسِّيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ وَهُوَ الضَّمِيرُ ، مَا يَشْعُرُ  
بِهِ الْمَرْءُ مِنْ انْقِبَاضٍ أَوْ انْشِرَاحٍ عِنْدَ الْخَوْفِ وَالِاشْمِزَازِ أَوْ السُّرُورِ وَالِابْتِهَاجِ ؛ وَكَذَلِكَ قَالَ  
النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِوَابِصَةَ حِينَ جَاءَ يَسْأَلُهُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ وَقَدْ عَلِمَ - صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَلِكَ قَبْلَ السُّؤَالِ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ ، الْبِرُّ مَا أَطْمَأَنَّنْتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَأَطْمَأَنَّ  
إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ رَوَاهُ  
الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالِدَارِمِيُّ

يَأْسِنَادٍ حَسَنٍ وَمُسْلِمٍ مُخْتَصِرًا ، ثُمَّ تَوَسَّعُوا فِي اسْتِعْمَالِهِ فَاسْتَعْمَلُوهُ بِمَعْنَى الْإِدْرَاكِ  
الْعَقْلِيِّ الْمُؤَثِّرِ فِي النَّفْسِ لَا مُطْلَقَ التَّصَوُّرِ وَالتَّصَدِيقِ . فَهُوَ لَا يُنَافِي كَوْنَهُ مَرَكِزَهُمَا الدِّمَاغُ ،  
عَلَى أَنَّ اسْتِعْمَالَاتِ اللُّغَوِيَّةِ ، لَا يَجِبُ أَنْ تُوَافِقَ الْحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّةَ .

وَ" الْفِقْهُ " قَدْ فَسَّرُوهُ بِالْعِلْمِ بِالشَّيْءِ وَالْفَهْمِ لَهُ - وَكَذَا بِالْفِطْنَةِ كَمَا فِي جُلِّ الْمَعَاجِمِ أَوْ كُلِّهَا  
، وَقَالُوا : فِقْهُ ( كَعِلْمٍ وَفَهْمٍ ) وَزَنَا وَمَعْنَى ، وَقَالُوا : فِقْهُ ( كَكْرَمٍ وَضَخْمٍ ) فَقَاهَةٌ أَيُّ صَارَ  
الْفِقْهُ وَصَفًا وَسَجِيَّةً لَهُ ، وَقَالَ الرَّاعِبُ : الْفِقْهُ هُوَ التَّوَصُّلُ بِعِلْمٍ شَاهِدٍ إِلَى عِلْمٍ غَائِبٍ .  
قَالَ السُّيُوطِيُّ بَعْدَ نَقْلِهِ : فَهُوَ أَخْصُّ مِنَ الْعِلْمِ .

وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي النَّهَائِيَّةِ: إِنَّ اشْتِقَاقَهُ مِنَ الشَّقِّ وَالْفَتْحِ . أَيُّ هَذَا مَعْنَاهُ الْأَصْلِيُّ فَهُوَ  
كَالْفَقِّ بِالْهَمْزَةِ ، وَهِيَ تَعَاقُبُ مَعَ الْهَاءِ لِاتِّحَادِ مَخْرَجِهِمَا ، وَذَكَرَ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ هَذَا ،  
وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْفِقْهَ بِالشَّيْءِ هُوَ مَعْرِفَةُ بَاطِنِهِ ، وَالْوُصُولُ إِلَى أَعْمَاقِهِ ، فَمَنْ لَا يَعْرِفُ  
مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا ظَوَاهِرَهَا لَا يُسَمَّى فَقِيهًا ، وَذَكَرَ أَصْحَابُ الْمَعَاجِمِ أَنَّ اسْمَ الْفِقْهِ غَلَبَ عَلَى  
عِلْمِ فُرُوعِ الشَّرِيعَةِ ، أَيُّ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ ، وَهُوَ اصْطِلَاحُ حَادِثٍ لَا يُفَسِّرُ بِهِ مَا وَرَدَ  
فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَ كُلَّ مَنْ يَعْرِفُ هَذِهِ  
الْفُرُوعَ فَقِيهًا ، كَمَا تَرَى مِنْ عِبَارَةِ الْغَزَالِيِّ الْآتِيَةِ ، وَغَيْرِهِ مَا هُوَ أَوْضَحُ مِنْهَا ، فَقَدْ اشْتَرَطُوا  
فِيهِ مَعْرِفَتَهَا بِدَلَالِهَا .

(245/297)

وَذَكَرَ الْغَزَالِيُّ فِي (بَيَانِ مَا يَدُلُّ مِنَ الْفَاطِ الْعُلُومِ) أَنَّ لَفْظَ الْفِقْهِ تَصَرَّفُوا فِيهِ بِالتَّخْصِيسِ لَا  
بِالنَّقْلِ وَالتَّحْوِيلِ ، إِذْ خَصَّصُوهُ بِمَعْرِفَةِ الْفُرُوعِ الْغَرِيبَةِ فِي الْفَتَاوَى وَالْوُقُوفِ عَلَى دَقَائِقِ عِلْمِهَا  
... (قَالَ) ، وَلَقَدْ كَانَ اسْمُ الْفِقْهِ فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ مُطْلَقًا عَلَى عِلْمِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ ،  
وَمَعْرِفَةِ دَقَائِقِ آفَاتِ النَّفُوسِ ، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ ، وَقُوَّةِ الْإِحَاطَةِ بِحَقَارَةِ الدُّنْيَا ، وَشِدَّةِ  
التَّلَطُّعِ إِلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ ، وَاسْتِيْلَاءِ الْخَوْفِ عَلَى الْقَلْبِ ، وَيَدُلُّكَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: لِيَتَفَقَّهُوا

فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ (9 : 122) وَمَا يَحْصُلُ  
بِهِ الْإِنذَارُ وَالتَّخْوِيفُ هُوَ هَذَا الْفِقْهُ دُونَ تَفْرِيعَاتِ الطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ وَاللَّعَانِ وَالسَّلَامِ وَالْإِجَارَةِ  
، فَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ بِهِ إِنذَارٌ وَلَا تَخْوِيفٌ ، بَلِ التَّجَرُّدُ لَهُ عَلَى الدَّوَامِ يُقَسِّي الْقَلْبَ وَيَنْزِعُ  
الْخَشْيَةَ مِنْهُ ، كَمَا نَشَاهِدُ الْآنَ مِنَ الْمُتَجَرِّدِينَ لَهُ . وَقَالَ تَعَالَى : لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا  
وَأَرَادَ بِهِ مَعَانِيَ الْإِيمَانِ دُونَ الْفُتُوَى اهـ . وَرُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ تَفْسِيرُهُ بِمَعْرِفَةِ النَّفْسِ مَا لَهَا  
وَمَا عَلَيْهَا .

(246/297)

وَأَقُولُ : ذُكِرَتْ هَذِهِ الْمَادَّةُ فِي عِشْرِينَ مَوْضِعًا مِنَ الْقُرْآنِ تِسْعَةَ عَشَرَ مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ  
الْمُرَادَ بِهِ نَوْعٌ خَاصٌّ مِنْ دِقَّةِ الْفَهْمِ ، وَالتَّعَمُّقِ فِي الْعِلْمِ ، الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْإِتِّفَاعُ بِهِ ،  
وَأَخْطَرُهُ نَفْيُ الْفِقْهِ عَنِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُدْرِكُوا كُنْهَ الْمُرَادِ مِمَّا نَفَى فَفَقَهُ عَنْهُمْ ،  
فَفَاتَتْهُمْ الْمَنْفَعَةُ مِنَ الْفَهْمِ الدَّقِيقِ ، وَالْعِلْمِ الْمُتَمَكِّنِ مِنَ النَّفْسِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ قَوْمٍ شَعِيبَ لِنَبِيِّهِمْ  
:

مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ (11 : 91) وَإِنْ تَرَاعَى لَغَيْرِ الْفَقِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَفْهَمُونَ  
كُلَّ مَا يَقُولُ فَهَمًّا سَطْحِيًّا سَازِجًا ؛ لِأَنَّهُ يُكَلِّمُهُمْ بِلُغَتِهِمْ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُونُوا يُبَلِّغُونَ مَا فِي أَعْمَاقِ

بَعْضِ الْحِكْمِ وَالْمَوَاعِظِ مِنَ الْغَايَاتِ الْبَعِيدَةِ لِعَدَمِ تَصَدِّيقِهِمْ إِيَّاهُ ، وَعَدَمِ احْتِرَامِهِمْ لَهُ ، وَلِأَنَّهُ  
مُخَالَفٌ لِتَقَالِيدِهِمْ وَأَهْوَاءِهِمْ الصَّادَةِ لَهُمْ عَنِ التَّكْفِيرِ فِيهِ وَالْإِعْتِبَارِ بِهِ ، وَأَمَّا الْمَوْضِعُ  
الْعِشْرُونَ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةَ عَنْ نَبِيِّهِ مُوسَى : وَأَحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي  
(20 : 27 ، 28) وَهُوَ لَا يُنَافِي مَا ذَكَرْنَا لِأَنَّ فَصَاحَةَ لِسَانِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الدِّينِ وَالْوَاعِظِ  
الْمُنْذِرِ تَعِينٌ عَلَى تَدَبُّرِ مَا يَقُولُ وَفَقْهِهِ .

(247/297)

إِذَا نَمَّهَذَا هَذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا  
مَعْنَاهُ : نُقَسِمُ أَنَّا قَدْ خَلَقْنَا وَبَشَّنَا فِي الْعَالَمِ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لِأَجْلِ سُكْنَى جَهَنَّمَ  
وَالْمُقَامِ فِيهَا ، أَيُّ : كَمَا ذَرَأْنَا لِلْجَنَّةِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَهُوَ مُقْتَضَى اسْتِعْدَادِ الْفَرِيقَيْنِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ  
وَسَعِيدٌ (11 : 105) فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (42 : 7) وَبِمَاذَا كَانَ هُوَ لَاءِ  
مُعَدِّينَ لِجَهَنَّمَ دُونَ الْجَنَّةِ ، وَمَا صِفَاتُهُمُ الْمُؤَهَّلَةُ لِذَلِكَ ؟ .

(الْجَوَابُ) : ذَلِكَ بَأَنَّ لَهُمْ قُلُوبًا لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا الْخُبْرَ . أَيُّ لَا يَفْقَهُونَ  
بِقُلُوبِهِمْ مَا تَصْلُحُ وَتَزَكِّي بِهِ أَنْفُسُهُمْ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ الْمُطَهَّرِ لَهَا مِنَ الْخُرَافَاتِ وَالْأَوْهَامِ ، وَمَنْ



المَهَانَةِ وَالصَّغَارِ ؛ فَإِنَّ مَنْ يُعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى وَحْدَهُ عَنِ إِيمَانٍ وَمَعْرِفَةٍ تَعْلُو نَفْسُهُ ، وَتَسْمُو  
بِمَعْرِفَةِ رَبِّهِ رَبِّ

(248/297)

العَالَمِينَ ، وَمُدَبِّرِ الكُونِ بِتَقْدِيرِهِ وَسُنَنِهِ ، فَلَا تَذِلُّ نَفْسُهُ بِدُعَاءِ غَيْرِهِ ، وَالخَوْفِ مِنْهُ ،  
وَالرَّجَاءِ فِيهِ ، وَالِاتِّكَالِ عَلَيْهِ ، بَلْ يُطَلَّبُ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَحْدَهُ ، فَإِنْ كَانَ مِمَّا  
أَقْدَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ خَلْقَهُ بِإِعْلَامِهِمْ بِأَسْبَابِهِ وَتَمَكِينِهِمْ مِنْهَا طَلَبَهُ بِسَبَبِهِ ، مُرَاعِيًا فِي  
طَلَبِهِ مَا عَلِمَهُ مِنْ مُقَادِيرِ الخُلُقِ وَسُنَنِهِ ، وَذَلِكَ عَيْنُ الطَّلَبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا سِيَّمَا فِي نَظَرِ  
العَالَمِ بِمَا ذَكَرَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ تَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لِهِدَايَتِهِ إِلَى العِلْمِ بِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ سَبَبِهِ  
، وَإِقْدَارِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ وَسَائِلِهِ ، أَوْ تَسْخِيرِ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ لِمُسَاعَدَتِهِ عَلَيْهِ  
، أَوْ إِيصَالِهِ إِلَيْهِ ، مِمَّنْ أَعْطَاهُمْ مِنْ أُسْبَابِهِ مَا لَمْ يُعْطِهِ ، كَالأَطِبَّاءِ لِمُدَاوَاةِ الأَمْرَاضِ ،  
وَأَقْوِيَاءِ الأَبْدَانِ لِرَفْعِ الأَثْقَالِ ، وَالعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ لِبَيَانِ الحَقِيقَةِ وَحَلِّ الإِشْكَالِ . وَلَا يَتَوَجَّهُ  
مِثْلُ هَذَا العَارِفِ المُوَحَّدِ فِي طَلَبِ شَيْءٍ إِلَى غَيْرِ مَا يَعْرِفُ البَشَرُ مِنَ الأَسْبَابِ المُطْرَدَةِ ،  
وَالوَسَائِلِ المُعْقُولَةِ المُجَرَّدَةِ ، كَالرُّقَى وَالنَّشْرَاتِ ، وَالتَّنَاجُوسِ وَالطَّلَسْمَاتِ ، وَالعَزَائِمِ  
وَالتَّبْخِيرَاتِ ،

وَلَا كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ، دَعِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِمْ بِمَا يُعَدُّ مِنَ الْعِبَادَاتِ ،  
كَالدُّعَاءِ الَّذِي هُوَ

(249/297)

---

مُخِ الْعِبَادَةِ ، وَالرُّكْنَ الْأَعْظَمُ فِيهَا كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ  
أَحَدًا (72 : 18) وَيَقُولُ : بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا  
تُشْرِكُونَ (6 : 41) وَيَقُولُ : إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ  
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (3 : 175) وَيَقُولُ : اتَّخَشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ (9 : 13) وَيَقُولُ : فَلَا  
تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِي (2 : 150) الْخُ . وَيَقُولُ : وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا (5 : 23) وَيَقُولُ :  
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (14 : 12) .

(250/297)

---

ذَلِكَ بِأَنَّ لَهُمْ قُلُوبًا لَا يَفْقَهُونَ بِهَا أَنْ تَرَكَ الشُّرُورَ وَالْمُنْكَرَاتِ ، وَالْحِرْصَ عَلَى أَعْمَالِ  
الْخَيْرَاتِ - وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ : وَاجْتِنَابَ الرَّذَائِلِ ، وَالتَّحَلِّيَ بِالْفَضَائِلِ - مَنَاطُ سَعَادَةِ الدُّنْيَا

، وَبِهَا مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تَمَّ اسْتِعْدَادُ لِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّهَا لَا يُمَكِّنُ أَخْذُ النَّاسِ بِهَا فِعْلاً وَتَرْكًا ، وَسِرًّا وَجَهْرًا ، إِلَّا بِالتَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ الصَّحِيحَةِ ؛ وَلِذَلِكَ نَرَى أَعْلَمَهُمْ بِصِفَاتِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَأَخْلَاقِهَا ، وَقَوَائِنِ التَّرْبِيَةِ الصُّورِيَّةِ وَأَدَابِهَا ، يَجُنُّونَ عَلَى أَجْسَادِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ بِالسَّرَافِ فِي الشَّهَوَاتِ ، وَالْأَحْيَالِ عَلَى كَثْرَةِ الْمُقْتَنِيَّاتِ ، وَالتَّعَالِيِ عَلَى الْأَقْرَانِ وَاللَّذَاتِ ، فَيَجْتَرِحُونَ فَوَاحِشَ الزَّانَا وَاللَّوَاطِ ، وَيَقْتَرِفُونَ جَرِيْمَتِي الرِّشْوَةِ وَالْقِمَارِ ، وَيَسْتَحِلُّونَ مُنْكَرَاتِ الْحَسَدِ وَالْإِسْتِكْبَارِ ، وَمِنْهُمْ أَكْثَرُ الْخَوْنَةِ أَعْوَانُ الْأَجَانِبِ عَلَى اسْتِعْبَادِ أُمَّتِهِمْ ، وَامْتِلَاكِ أَوْطَانِهِمْ .

ذَلِكَ بَأَنَّ لَهُمْ قُلُوبًا لَا يَفْقَهُونَ بِهَا مَعْنَى الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ ، وَاللَّذَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، وَالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (30 : 7) .

(251/297)

---

ذَلِكَ بَأَنَّ لَهُمْ قُلُوبًا لَا يَفْقَهُونَ بِهَا مَعْنَى الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَفَاقِ ، وَلَا آيَاتِهِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا رُسُلَهُ مِنْ عِلْمِيَّاتٍ وَكُوتِبَاتٍ ، وَأَظْهَرَ آيَاتِهِ الْعِلْمِيَّةِ الْبَاقِيَّةِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ ، مَا أَوْدَعَهُ مِنْهَا فِي كِتَابِهِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَى رَسُولِهِ الْأُمِّيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، كَالْعُلُومِ الْإِلَهِيَّةِ وَالتَّشْرِيْعِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَأَخْبَارِ الْغَيْبِ الْمَاضِيَّةِ وَالْآتِيَّةِ ، فَهُمْ يُنْظَرُونَ فِي

ظواهر هذه الآيات ، وتكلفون لها غرائب التأويلات ؛ ولذلك قال تعالى في موضوع الآيات : قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يُبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (6) : (65) وَقَالَ : وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدُّ

(252/297)

---

فَصَلَّنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ (6 : 98) وَقَالَ فِي عَدَمِ فَفَهُمْ لِقُرْآنٍ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (6 : 25) وَهَذِهِ الْآيَةُ جَمَعَتْ حُرْمَاتِهِمْ لِهَدَايَةِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ ، فَهِيَ شَاهِدٌ لِّكُلِّ مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا ، وَمِثْلَهَا فِي سُورَتِي الْإِسْرَاءِ (17 : 45 و 46) وَالْكَهْفِ (18 : 57) وَلَكِنَّ الشَّاهِدَ فِيهِمَا عَلَىٰ نَفْيِ هَدَايَةِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ فَقَطُّ ؛ إِذْ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْمَوْضُوعِ .

(253/297)

---

ذَلِكَ بَأَنَّ لَهُمْ قُلُوبًا لَا يَفْقَهُونَ بِهَا أَسْبَابَ النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ رُوحِيَّةٍ وَعَقْلِيَّةٍ ،  
وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَآلِيَّةٍ ، الَّتِي نَصَرَ اللَّهُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ثُمَّ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْمَدِينِيِّينَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَجَعَلَ الْعَشْرَةَ مِنْهُمْ  
أَهْلًا لَغَلْبِ الْمِائَةِ فِي طُورِ الْقُوَّةِ ، وَالْمِائَةَ أَهْلًا لَغَلْبِ الْمِائَتَيْنِ فِي طُورِ الضَّعْفِ ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ  
بَأَنَّ الْكُفَّارَ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (الأنفال 8 : 65 ، 66) وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ : لَأَتُمُّ أَشَدُّ  
رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (59 : 13) فَمِنْ آيَاتِ الدِّينِ فِي  
الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ أَفْقَهُ مِنَ الْكَافِرِ بِنُظْمِ الْحَرْبِ وَأَسْبَابِ النَّصْرِ الصُّورِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ ، وَأَكْمَلَ  
اتِّصَافًا بِهَا ، وَتَمَتَّعًا بِثَمَرِهَا ، فَأَيْنَ هَذَا الْإِيمَانُ ، مِنْ مُسْلِمِي هَذَا الزَّمَانِ ؟ .

(254/297)

---

ذَلِكَ بَأَنَّ لَهُمْ قُلُوبًا لَا يَفْقَهُونَ بِهَا سُنَنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْاجْتِمَاعِ ، وَتَأْثِيرَ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ فِي جَمْعِ  
الْكَلِمَةِ وَقُوَّةِ الْجَمَاعَاتِ ، وَلَا سِيَّمَا فِي عَهْدِ النَّبُوَّةِ وَزَمَنِ الْمُعْجَزَاتِ ، وَلَا يَفْقَهُونَ بِهَا إِدَالَةَ  
اللَّهِ لِأَهْلِ الْحَقِّ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ ، بَلْ يَحْكُمُونَ فِي ذَلِكَ بِمَا يَبْدُو لِعُقُولِهِمُ الْقَاصِرَةِ مِنَ الظُّوَاهِرِ  
، دُونَ مَا وَرَاءَهَا مِنَ الْفِقْهِ الْبَاطِنِ ، كَمَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ فِي آخِرِ سُورَةِ التَّوْبَةِ

مِنْ كُفْرِهِمْ لَا يَزِدَادُونَ بِنُزُولِ سُورِ الْقُرْآنِ إِلَّا رَجْسًا ، أَيْ خُبثًا وَنِفَاقًا ، وَكُفْرُهُمْ يُفْنُونَ  
وَيُمْتَحِنُونَ مِرَارًا ، وَلَا يُفِيدُهُمْ ذَلِكَ تَوْبَةً وَلَا ادِّكَارًا ، حَتَّى إِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَرُّوا مِنْ  
سَمَاعِهَا فِرَارًا ، لَا يَخَافُونَ أَنْ يَرَاهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ يَخَافُونَ أَنْ يَرَاهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ  
سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا  
يَفْقَهُونَ (9 : 127) وَمَا حَكَاهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي سُورَتِهِمْ مِنْ قَصْرِ نَظَرِهِمْ وَظُلْمَةِ بَصِيرَتِهِمْ  
؛ إِذْ تَوَهَّمُوا

(255/297)

أَنَّهُمْ يُتَمَنَّوْنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ بِتَرْكِ الْإِنْفَاقِ عَلَى إِخْوَانِهِمُ الْمُهَاجِرِينَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَافٍ فِيهِمْ  
إِنْفِصَا ضِهِمْ مِنْ حَوْلِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ  
عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ  
(63 : 7) أَي لَا يَفْقَهُونَ سِرَّ كِفَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَكِفَايَتَهُ لَهُمْ ، وَلَا يَفْقَهُونَ أَنَّ  
سَبَبَ إِنْفَاقِ الْأَنْصَارِ الْأَبْرَارِ - رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - هُوَ الْإِيمَانُ الصَّادِقُ ، الَّذِي هُوَ أَقْوَى  
الْبَوَاعِثِ عَلَى بَذْلِ الْمَالِ وَالنَّفْسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى اِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ، فَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِمْ قَوْلُهُمْ :  
لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - إِلَّا احْتِقَارُهُمْ لَهُمْ عَلَى نِفَاقِهِمْ ، وَثَبَاتُهُمْ هُمْ عَلَى إِنْفَاقِهِمْ

- لا يفقهون هذا ولا ذلك؛ لأنهم محرومون من وجدان الإيمان، وإيثار ما عند الله تعالى على جميع ما في هذه الدار الفانية من متاع.

(256/297)

وجملة القول: أن نفي الفقاهاة عن قلوب المخلوقين لجهنم يشمل كل ما ذكرنا، وما في معناه من أمور الدين وأمور الدنيا من حيث علاقتها بالدين وتكميل النفس. ومن العبرة فيه: أن الذين يدعون الإيمان في هذا الزمان لهم قلوب لا يفقهون بها ما ذكر، ولا يعلمون أن من فقهه فهو المخلوق للجنة، كما يؤخذ من الحكم على أن من لم يفقهه مخلوق لجهنم، بل صار كثير ممن لا يوصفون بإيمان ولا إسلام يفقهون من سنن الله تعالى المشار إلى بعضها في القرآن ما لا يفهمون، كأسباب النصر في الحرب؛ ولذلك نراهم ينصرون فيها على هؤلاء. والله تعالى يقول للمؤمنين: **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (47: 4)** ويقول فيهم: **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47: 30)** وليس المعنى أنه ينصرهم بخوارق العادات، بل إنهم بمتقضى الإيمان هم الذين يفقهون أسباب النصر المادية والمعنوية. وبقاهاة الأمر تقتضي العمل بموجبه، والآيات حجة على المسلمين الجغرافيين بأنهم غير مؤمنين، وأن لدى أعدائهم من العلم وأخلاق الإيمان أكثر مما عندهم، وإن لم

يُبَلِّغُوا بِهَا مَرْتَبَةَ الْإِيمَانِ الْإِسْلَامِيِّ الْكَامِلِ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يَعْدُونَ جَهْلَهُمْ وَخِذْلَانَهُمْ حُجَّةً  
عَلَى

(257/297)

الْإِسْلَامِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ هُوَ سَبَبُ حَرَمَانِهِمُ النَّصْرَ ، وَالتَّرَقِّيَ فِي مَعَارِجِ الْعُمُرَانِ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ  
قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ ، وَلَا يَدْرُونَ مَا الْكِتَابُ  
وَمَا الْإِيمَانُ ، فَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ أَجْهَلُ وَأَضَلُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا حُجَّةً عَلَى الْقُرْآنِ .  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يُقَالَ : لَيْسَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَفْقَهُونَ بِهَا ؛ لِأَنَّ إِثْبَاتَ  
خَلْقِ الْقُلُوبِ لَهُمْ ، هُوَ مَوْضِعُ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّعْبِيرُ الْآخِرُ يَصْدُقُ بِأَمْرَيْنِ : بَعْدَمِ  
وُجُودِ الْقُلُوبِ لَهُمْ بِالْمَرَّةِ ، وَبِوُجُودِ قُلُوبٍ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَفِي الْحَالَةِ الْأُولَى لَا تَقُومُ عَلَيْهِمْ  
حُجَّةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْتُوا آلَةَ التَّكْلِيفِ وَهُوَ الْعَقْلُ وَالْوَجْدَانُ ، فَلَا تَكُونُ الْعِبَارَةُ نَصًّا فِي قِيَامِ  
الْحُجَّةِ لِاحْتِمَالِهَا عَدَمَ التَّكْلِيفِ . وَإِنَّمَا قَالَ : لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ يَقُلْ : " لَا تَفْقَهُ " ؛ لِبَيَانِ أَنَّ  
هُمْ الْمُؤَاخِذُونَ بَعْدَمِ تَوْجِيهِهِ إِرَادَتِهِمْ لِفَقْهِ الْأُمُورِ ، وَكَتْنَاهُ الْحَقَائِقِ ، وَيُقَالُ مِثْلُ هَذَا وَمَا  
قَبْلَهُ فِيمَا بَعْدَهُ وَهُوَ :

(258/297)



---

وَلَهُمْ أُعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا وَمَعْنَى الْجُمْلَتَيْنِ يُفْهَمُ إِجْمَالًا مِمَّا فَسَّرْنَا  
بِهِ فِقْهَ الْقُلُوبِ تَفْصِيلًا ، أَيُّ: وَلَهُمْ أَبْصَارٌ وَأَسْمَاعٌ لَا يُوْجِهُونَهَا إِلَى التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ فِيمَا يَرُونَ  
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، وَفِيمَا يَسْمَعُونَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى رُسُلِهِ ، وَمِنْ أَخْبَارِ  
التَّارِيخِ الدَّالَّةِ عَلَى سُنَنِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ ، فَيَهْتَدُوا بِكُلِّ مِنْهَا إِلَى مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ فِي  
دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ ، وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فَيُؤْخَذُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةِ الْمُرشِدَةِ إِلَى النَّظَرِ فِي  
آيَاتِهِ تَعَالَى فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَفَاقِ ، وَفِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ ، وَكَذَا الْأَسْتِفَادَةَ مِمَّا يَرَوْنَ وَيُؤَثَّرُونَ  
تَارِيخَ الْبَشَرِ ؛ فَإِنَّ الْأَذَانَ قَدْ خُلِقَتْ لِلْإِنْسَانِ لِيَسْتَفِيدَ مِنْ كُلِّ مَا يَسْمَعُ ، لَا مِنَ الْقُرْآنِ فَقَطْ  
، كَمَا أَنَّ الْأَبْصَارَ خُلِقَتْ لَهُ لِيَسْتَفِيدَ مِنْ كُلِّ مَا يَبْصُرُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى كَمَالِهِ بِتَوْجِيهِ  
إِرَادَتِهِ إِلَى اسْتِعْمَالِ كُلِّ مِنْهُمَا فِيمَا خُلِقَ لَهُ . قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْمَسْجِدَةِ : أَوَلَمْ  
يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ  
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا  
يُبْصِرُونَ (32 : 26 ، 27) فَهَذَا مِثْلَانِ لِلآيَاتِ الْبَصَرِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ ، وَأَمْثَالُهَا كَثِيرٌ ،

(259/297)

---

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الَّذِينَ يُسَمُّونَ أَنفُسَهُمْ أَهْلَ الْقُرْآنِ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا مِنْهَا ، وَكَيْسَ الْفَقْهُ عِنْدَهُمْ إِلَّا  
تَقْلِيدَ عُلَمَاءِ فُرُوعِ الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ فِيمَا كَتَبُوهُ مِنْهَا ، وَقَدْ يَكُونُ فِي حِكَايَتِهَا دُونَ الْعَمَلِ بِهَا  
.!!

(260/297)

---

وَفِي مَعْنَى مَا هُنَا مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ جَهَنَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الَّذِينَ عَلَّمَ اللَّهُ رُسُوحَهُمْ فِي الْكُفْرِ ،  
وَبَيَّنَّا لَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً  
(2 : 7) فَقَدْ بَيَّنَّ بِضَرْبِ مِنَ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ عَدَمَ اتِّفَاعِهِمْ بِمَوَاهِبِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ  
وَالْأَبْصَارِ الَّتِي هِيَ آتَاتُ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ ، وَطُرُقُ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ . وَقَوْلُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ  
بِتَشْبِيهِهِ أَبْلَغَ : صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (2 : 18) وَمِثْلُهُ الْمَثَلُ : وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (2 : 171)  
وَقَوْلُهُ فِيهِمْ مِنْ سُورَةِ النَّحْلِ : أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ  
هُمُ الْغَافِلُونَ (16 : 108) وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ : أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ  
اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا  
تَذَكَّرُونَ (45 : 23) وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ بَعْدَ ذِكْرِ هَلَاكِ عَادٍ : وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ

فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا  
أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ (26 : 46) وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي  
سُورَةِ الْأَنْفَالِ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(261/297)

وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ  
عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ  
مُعْرِضُونَ (8 : 20 - 23)

أَيُّ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ سَمَاعَ تَفْقَهُ وَاعْتِبَارٍ ، وَالْحَالُ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ تَوَلَّوْا عَنْهُ  
الاسْتِجَابَةَ وَهُمْ مُعْرِضُونَ .

كَرَّرَ الرَّبُّ الْحَكِيمُ بَيَانَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ بِأَسَالِيبٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي الْبَلَاغَةِ ، كَالْتَشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ  
وَالِاخْتِجَاجِ ، وَبَيَانَ السُّنَنِ الْجَمَاعِيَّةِ ؛ لِأَجْلِ التَّأْيِيرِ وَالتَّذْكِيرِ وَالْإِنذَارِ ، لِمَنْ لَمْ يَفْقَدْ  
اسْتِعْدَادَ الْهُدَايَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ ؛ وَلِأَجْلِ الْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا نَرَىٰ فِي آيَاتِ الْأَنْفَالِ  
، وَمَعَ هَذَا التَّكْرَارِ الْبَالِغِ حَدَّ الْأَعْجَازِ فِي الْبَلَاغَةِ ، نَرَىٰ أَكْثَرَ الْمُسْلِمِينَ أَشَدَّ إِهْمَالًا مِنْ  
غَيْرِهِمْ لِاسْتِعْمَالِ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأَفْئِدَتِهِمْ فِي النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ فِي الْأَنْفُسِ

وَالْآفَاقِ زِلَاثُهُمْ مِنْ أَجْهَلِ الشُّعُوبِ بِالْعُلُومِ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَا آيَاتُهُ تَعَالَى فِي أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ  
وَمَشَاعِرِهِ وَقُوَاهُ الْعَقْلِيَّةِ وَانْفِعَالَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ ،

(262/297)

وَآيَاتِهِ فِي الْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ وَالْهَوَاءِ وَالْمَاءِ وَالْبُخَارِ ، وَالْغَازَاتِ الَّتِي تَتَرَكَّبُ مِنْهَا  
هَذِهِ الْمَوَادُّ وَغَيْرُهَا ، وَسُنَنِ النُّورِ وَالْكَهْرِبَاءِ وَالْهَيْئَةِ الْفَلَكَيَّةِ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْهُمْ حِطًّا مِنْ  
هَذِهِ الْعُلُومِ فَإِنَّمَا أَخَذَهُ عَنِ الْإِفْرِجِ أَوْ تَلَامِيذِهِمُ الْمُتَفَرِّجِينَ فَكَانَ مُقَدِّدًا فِيهِ لَهُمْ لَا مُسْتَقِلًّا ،  
وَلَمْ يَتَجَاوَزْ طَرِيقَهُمْ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَنَافِعِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لِأَجْلِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا ، مِنْ غَيْرِ مَلَا حِظَّةٍ كَوْنَهَا آيَاتٍ دَالَّةٍ عَلَى أَنَّ لَهَا رَبًّا خَالِقًا مُدَبِّرًا عَلِيمًا حَكِيمًا مُرِيدًا  
قَدِيرًا رَحِيمًا ، يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ ، وَأَنْ يُخْشَى وَيُحَبَّ فَوْقَ كُلِّ أَحَدٍ ، وَأَنْ تَكُونَ  
مَعْرِفَتُهُ وَالزُّلْفَى عِنْدَهُ ، وَرَجَاءُ لِقَائِهِ فِي الْآخِرَةِ مُنْتَهَى كُلِّ غَايَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَلَوْ قَصَدُ أَوْلَاكَ  
الْعُلَمَاءُ هَذَا مِنَ الْعِلْمِ لِأَصَابُوهُ ؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ بِمَقَاصِدِهَا وَ" إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ " وَلَكِنَّهُمْ  
غَفَلُوا عَنْهُ ؛ وَلَعَلُّوا إِرَادَتَهُمْ بِمَا دُونَهُ ؛ وَلِهَذَا كَانَ عِلْمُهُمْ عَلَى سَعْتِهِ نَاقِصًا أَقْبَحَ نَقْصٍ ، وَكَانَ  
الْإِنْتِفَاعُ بِهِ مَشُوبًا بِضَرَرٍ عَظِيمٍ بِاسْتِعْمَالِ مَا هَدَاهُمْ إِلَيْهِ الْعِلْمُ مِنْ خَوَاصِّ الْأَشْيَاءِ فِي  
الْحَرْبِ وَالْآلَاتِ الْقِتَالِ . الَّتِي تَدْمُرُ الْعُمُرَانَ وَتَسْحَقُ الْأُلُوفَ الْكَثِيرَةَ مِنَ الْبَشَرِ فِي وَقْتِ

قَصِيرٍ - وَبِهَذَا يَصْدُقُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الَّذِي اسْتَعْمَلُوا عُقُولَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ

فِي اسْتِنْبَاطِ

(263/297)

حَقَائِقِ الْعُلُومِ وَنَفْعِهَا الْمَادِّيِّ الْعَاجِلِ ، مَا يَصْدُقُ عَلَى الَّذِينَ أَهْمَلُوا اسْتِعْمَالَهَا ، وَآثَرُوا  
الْجَهْلَ عَلَى الْعِلْمِ بِهَا ، مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ :  
أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أَيْ : أُولَئِكَ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ كَالْأَنْعَامِ مِنْ  
إِبِلٍ وَبَقَرٍ وَغَنَمٍ ، فِي كَوْنِهِمْ لَا حِطَّ لَهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ إِلَّا اسْتِعْمَالَهَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ  
بِمَعِيشَتِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا مِنَ الْأَنْعَامِ لِأَنَّ هَذِهِ لَا تَجْنِي عَلَى  
أَنْفُسِهَا بِتَجَاوُزِ سُنَنِ الْفِطْرَةِ ، وَحُدُودِ الْحَاجَةِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي أَكْلِهَا وَشُرْبِهَا وَنَزْوَاتِهَا بَلْ تَقْفُ  
فِيهِ عِنْدَ قَدْرِ الْحَاجَةِ الَّتِي تَحْفَظُ بِهَا الْحَيَاةَ الشَّخْصِيَّةَ وَالنَّوْعِيَّةَ ، وَأَمَّا عِبِيدُ الشَّهَوَاتِ مِنَ  
النَّاسِ فَهُمْ يُسْرِفُونَ فِي كُلِّ ذَلِكَ إِسْرَافًا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ أَمْرَاضٌ كَثِيرَةٌ يُقَلُّ فِيهِمْ مَنْ يُسَلِّمُ مِنْهَا كُلَّهَا ،  
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَاهِدُ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ جِهَادًا يُفْرِطُ فِيهِ بِحُقُوقِ الْبَدَنِ فَلَا يُعْطِيهِ الْغِذَاءَ

الْكَافِي

وَيُقَصِّرُ فِي حُقُوقِ الزَّوْجِيَّةِ ، أَوْ يَقَطِّعُ عَلَى نَفْسِهِ طَرِيقَهَا بِالرَّهْبَانِيَّةِ ، فَيَجْنِي عَلَى شَخْصِهِ  
وَعَلَى نَوْعِهِ بِالتَّقْرِيطِ كَمَا يَجْنِي عَلَيْهِمَا عَبِيدُ اللِّذَاتِ بِالإِفْرَاطِ ، دَعِ الْجِنَايَةَ عَلَى الأَخْلَاقِ

(264/297)

وَالآدَابِ وَعَلَى الأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ ، وَهَدَايَةَ الإِسْلَامِ تَحْظُرُ هَذَا وَذَلِكَ ، وَتُوجِبُ الأَكْلَ مِنَ  
الطَّيِّبَاتِ وَالزَّوْاجِ بِشَرْطِهِ ، وَتُحْرِمُ الإِسْرَافَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَوْ اهْتَدَى النَّاسُ بِالْقُرْآنِ فِي  
فَقْهِ أَسْرَارِ الخَلْقِ وَمَنَافِعِهِ لَجَمَعُوا بِهَا بَيْنَ ارْتِقَائِهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِمَعَادِهِمْ ،  
وَأَتَّقُوا هَذَا الإِسْرَافَ فِي الشَّهَوَاتِ وَالتَّنَازُعِ عَلَيْهَا الَّذِي أَفْسَدَ مَدِينَةَ الإِفْرَاجِ بِمَا يَشْكُو مِنْهُ  
جَمِيعُ حُكَمَائِهِمْ ، وَيَجْزُمُونَ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمْ .

(265/297)

أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ أَيُّ أُولَئِكَ المَوْصُوفُونَ بِكُلِّ مَا ذَكَرَهُمُ الغَافِلُونَ التَّامُّو الغَفَلَةَ عَمَّا فِيهِ  
صَلَاحُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ فِي الحَيَاتَيْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَمِيعًا ، أَوْ خَيْرِهِمَا وَأَكْمَلِهِمَا وَأَدْوَمَهُمَا  
وَهِيَ الثَّانِيَّةُ ، فَهَمَّ طَبَقَاتٌ عَلَى دَرَجَاتٍ فِي الغَفَلَةِ ، الغَافِلُونَ عَنِّ أَنْفُسِهِمْ ، الغَافِلُونَ عَنِّ

اسْتَعْمَالِ عُقُولِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ فِي أَفْضَلِ مَا خُلِقَتْ لِأَجْلِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، الْغَافِلُونَ  
عَنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَفَاقِ الَّتِي تُهْدِي إِلَى مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ نَفْسَهُ وَرَبَّهُ ، الْغَافِلُونَ عَنْ  
ضُرُورِيَّاتِ حَيَاتِهِمْ الشَّخْصِيَّةِ . وَحَيَاتِهِمُ الْقَوْمِيَّةِ ، وَحَيَاتِهِمُ الْمَلِيَّةِ ، الَّذِينَ يُعَدُّونَ كَالْأَنْعَامِ  
مِنْ وَجْهِ آخَرَ غَيْرِ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنْ مُجَافَاةِ سُنَنِ الْفِطْرَةِ ، وَهُوَ حَقَارَتُهُمْ وَمَهَاتَتُهُمُ الشَّخْصِيَّةِ  
وَالْقَوْمِيَّةِ بَيْنَ الْأُمَّمِ وَالدُّوَلِ وَتَسْخِيرِ غَيْرِهِمْ لَهُمْ كَمَا يُسْخَرُ الْأَنْعَامُ فِي سَبِيلِ مَعِيشَتِهِ .

(266/297)

---

فَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ مِنَ الْغَافِلِينَ : هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ يُنُسَ ، بَعْدَ التَّذْكِيرِ  
بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاسْتَوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ ، وَتَدْيِيرِهِ أَمْرَ الْعَالَمِ وَكُونِهِ يُبْدِئُ الْخَلْقَ  
ثُمَّ يُعِيدُهُ - وَالْإِعَادَةُ فِي الْعَادَةِ أَهْوَنُ مِنَ الْبَدْءِ - وَالتَّذْكِيرُ بِآيَاتِهِ فِي جَعْلِ الشَّمْسِ ضِيَاءً  
وَالْقَمَرِ نُورًا وَتَقْدِيرِهِ مَنَازِلَ زَلِيلَةٍ مِنْهَا عَدَدُ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ، وَآيَاتِهِ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ  
وَالنَّهَارِ ، وَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ - قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ - إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا  
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَا وَاهَمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا  
يُكْسِبُونَ (10 : 7 ، 8) فَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ النَّارَ مَا وَى الْغَافِلِينَ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ، أَيْ عَنْ  
دَلَالَتِهَا عَلَى وُجُودِ خَالِقِهَا وَمُدَبِّرِ النِّظَامِ فِيهَا ، وَكُونِ إِعَادَةِ خَلْقِ الْبَشَرِ وَغَيْرِهِمْ فِي طَوْرٍ

أَخْرَجَ لَتَعَاصَى عَلَى قُدْرَتِهِ ، وَهُوَ مِنْ مُقْتَضَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَعَنْ كَوْنِ مَعْرِفَتِهِ تَعَالَى  
أَعْلَى أَنْوَاعِ الْمَعْرِفَةِ ، وَكَوْنِ التَّنْعَمِ الرُّوحَانِيِّ بِلِقَائِهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي دَارِ الْكِرَامَةِ أَسْمَى أَنْوَاعِ  
النَّعِيمِ ، وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْغَافِلُونَ عَمَّا ذُكِرَ - مِنْ أَكْبَرِ

(267/297)

---

الْعُلَمَاءِ بِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمِهِ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ الْعُلُوبِيِّ وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ ، بَلْ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى  
هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ أَتَمُّ وَأَبْغُ وَأَظْهَرُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ فَطِنُوا لِدَلَالَتِهَا عَلَى مَا ذُكِرَ ، وَفَقَهُوهُ كَمَا يَجِبُ لَكَانُوا  
أَسْعَدَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَأَبْعَدَ عَنْ شُرُورِهَا وَمَفَاسِدِهَا مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ الْآنَ ،  
وَلَا سَتَعْدُوا بِذَلِكَ لِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ أَكْمَلَ اسْتِعْدَادٍ .

كَذَلِكَ يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الرُّومِ : يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ  
عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (30 : 7) فَانظُرْ إِلَى بِلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي إِعَادَةِ ضَمِيرِ (هُمْ) وَهُوَ  
لِلتَّكْيِيدِ الَّذِي اقْتَضَاهُ وَصْفُهُمْ بِالْعِلْمِ الَّذِي مِنْ شَأْنِ صَاحِبِهِ عَدَمُ الْغَفْلَةِ .

(268/297)

---



تلك الصفات هي صفات من خلقوا السكنى الجحيم ، وما يقابلها فهو صفات أهل دار  
النعيم ، فأهل النار بنص كتاب الله تعالى هم الأغنياء الجاهلون الغافلون الذين لا يستعملون  
عقولهم في فقه حقائق الأمور ، ولا يستعملون أسماعهم وأبصارهم في استنباط المعارف  
، واستفادة العلوم ، ومعرفة آيات الله الكونية ، وفقه آياته التنزيلية ، وهما سبب كمال  
الإيمان والباعث النفسى على كمال الإسلام والإحسان ، ولن ترى في كتب التفسير الكثيرة  
من بته قراءة كتاب الله تعالى إلى هذه المعاني الهادية إلى سبيله وصراطه المستقيم ، على  
أن أكثر المسلمين قد اتخذوا كتاب الله مهجوراً ، فإذا سألت أشهرهم بعلم التفسير عن  
معنى هذه الآية قال لك : إن الله تعالى خلق للنار خلقاً هم على الكفر والمعاصي  
مجبورون ، لهم قلوب ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئاً مما من شأنه أن يفهم ، فيدخل فيه  
ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دحواً أولياً - ، ولهم أعين لا يبصرون بها شيئاً من  
المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجاً أولياً - ولهم آذان لا  
يسمعون بها شيئاً من المسموعات ، فيتناول الآيات التنزيلية على طرز ما سلف " انتهى  
مُلخصاً من روح المعاني ،

وَمَا زَادَ عَلَيْهِ فِيهِ فَكَلَامٌ فِي الْأَعْرَابِ وَنُكْتِ التَّعْيِيرِ ، وَتَحْقِيقُ لِمَعْنَى الْجَبْرِ عِنْدَ بَعْضِ  
الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَهُوَ زُبْدَةٌ مَا فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ ، وَأَهْلُ النَّارِ عِنْدَهُمْ مَنْ يُسَمُّونَهُمْ كَافِرِينَ ،  
وَأَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْ يُسَمُّونَهُمْ مُسْلِمِينَ ، إِنْ كَانُوا يَجْهَلُونَ حَقَائِقَ هَذِهِ الْأُمُورِ ، وَيُصِرُّونَ عَلَى  
الْفُجُورِ ، اتِّكَالًا عَلَى شَفَاعَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ ، الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ مَعَ اللَّهِ أَوْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِمُهَيَّمَاتِ  
الْأُمُورِ ، وَيَذُبُّونَ لَهُمُ النَّسَائِكَ ، وَيَنْذِرُونَ لَهُمُ التَّنْذُورَ ،

(270/297)

وَهِيَ عِبَادَاتٌ لِغَيْرِ اللَّهِ يَخْرُجُونَ بِهَا مِنْ حَظِيرَةِ الْإِيمَانِ ، وَالْاِحْتِجَاجُ بِالآيَةِ عَلَى الْجَبْرِ غَفْلَةٌ  
وَجَهْلٌ بَلْ هِيَ كَسَائِرُ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نَوْطِ الْجَزَاءِ بِالْعَمَلِ وَمَعْنَاهَا : أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَلَّفِينَ  
مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ قَدْ تَرَكُوا اسْتِعْمَالَ عُقُولِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ الْبَاطِنَةَ وَالظَّاهِرَةَ فِي عِلْمِ الْهُدَى ،  
الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْأَعْمَالُ الْمُزَكِّيَّةُ لِلنَّفْسِ ، فَكَانُوا بِذَلِكَ أَهْلَ جَهَنَّمَ ، وَلَيْسَ فِيهَا أَنَّهُ تَعَالَى  
ذَرَأَهُمْ لِيَهَنَّمُوا لِدَوَاتِهِمْ ؛ فَإِنَّ ذَوَاتِ الْجِنْسَيْنِ كُلِّهَا مُتَشَابِهَةٌ ، وَلَمْ يَقُلْ إِنَّهُ خَلَقَهُمْ عَاجِزِينَ  
عَنْ اسْتِعْمَالِ تِلْكَ الْقُوَى فِي أَسْبَابِ الْهُدَى بَلْ قَالَ : إِنَّهُمْ هُمْ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِي ذَلِكَ وَقَالُوا لَوْ  
كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ  
(67 : 10 ، 11) وَلَكِنَّ الْجَدَلَ فِي الْمَذَاهِبِ هُوَ الَّذِي أَوْهَمَهُمْ ، وَنَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ

هَدَانَا إِلَى تَفْسِيرِ آيَةِ الشَّوَاهِدِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْإِنْسَانِ وَالْأَكْوَانِ ،  
وَهُوَ مَا لَمْ نَطَّلِعْ عَلَى مِثْلِهِ وَلَا مَا يَحُومُ حَوْلَهُ الْإِنْسَانُ ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ، مِمَّا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ  
فَالْحَمْدُ لَهُ ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار ح 9 ص 339-360 ﴾

(271/297)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾

عطف على جملة : ﴿ وَاَتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ [الأعراف : 175] ،

والمناسبة أن صاحب القصة المعطوف عليها انتقل من صورة الهدى إلى الضلال ، لأن الله  
لما خلقه خلقه ليكون من أهل جهنم ، مع ما لها من المناسبة للتذييل الذي ختمت به القصة  
وهو قوله : ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ﴾ [الأعراف : 178] الآية .

وتأكيد الخبر بلام القسم ويقصد تحقيقه لأن غرابته تنزل سامعه خالي الذهن منه  
منزلة المتردد في تأويله ، ولأن المخبر عنهم قد وصفوا بـ ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ إلى  
قوله ﴿ بل هم أضل ﴾ ، والمعنى بهم المشركون ، وهم ينكرون أنهم في ضلال ويحسبون  
أنهم يحسنون صنعا ، وكانوا يحسبون أنهم أصحاب أحلام وأفهام ، ولذلك قالوا للرسول

صلى الله عليه وسلم في معرض التهكم ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرء ﴾ [ فصلت : 5 ] .

والذرة الخلق وقد تقدم في قوله : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ في سورة الأنعام ( 136 ) .

واللام في لجهنم ﴿ للتعليل ، أي خلقنا كثيراً لأجل جهنم .

وجهنم مستعملة هنا في الأفعال الموجبة لها بعلاقة المسببية ، لأنهم خلقوا لأعمال الضلالة المفضية إلى الكون في جهنم ، ولم يُخلقوا لأجل جهنم ، لأن جهنم لا يقصد إيجاد خلق لتعيرها ، وليست اللام العاقبة ؛ لعدم انطباق حقيقتها عليها ، وفي "الكشاف" جعلهم لاغراقهم في الكفر ، وأنهم لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار ، مخلوقين للنار دلالة على تمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار انتهى انتهى . اهـ ، وهذا يقتضي أن تكون الاستعارة في ﴿ ذرأنا ﴾ وهو تكلف راعى به قواعد الاعتزال في خلق أفعال العباد وفي نسبة ذلك إلى الله تعالى .

وتقديم الجرور على المفعول في قوله : ﴿ لجهنم كثيراً ﴾ ليظهر تعلقه بـ ﴿ ذرأنا ﴾ .

(272/297)

---

ومعنى خلق الكثير لأعمال الشر المفضية إلى النار: أن الله خلق كثيراً فجعل في نفوسهم قُوًى من شأنها إفساد ما أودعه في الناس من استقامة الفطرة المشار إليها في قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: 172] وهي قوى الشهوة والغضب فخلقها أشد سلطاناً على نفوسهم

من القوة الفطرية المسماة بالحكمة، فجعلت الشهوة والغضب المسمَّين بالهوى تغلب قوة الفطرة، وهي الحكمة والرشاد، فترجح نفوسهم دواعي الشهوة والغضب فتتبعها وتعرض عن الفطرة، فدلائل الحق قائمة في نفوسهم، ولكنهم ينصرفون عنها؛ لغلبة الهوى عليهم فبحسب خلقه نفوسهم غير ذات عزيمة على مقاومة الشهوات: جُعِلُوا كَأَنَّهُمْ خَلَقُوا لِحَبْسِهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَخْلُقْ فِيهِمْ دَوَاعِيَ الْحَقِّ فِي الْفِطْرَةِ.

والجن خلق غير مرئي لنا، وظاهر القرآن أنهم عقلاء، وأنهم مطبوعون على ما خلقوا لأجله من نفع أو ضرر، وخير أو شر، ومنهم الشياطين، وهذا الخلق لا قبل لنا بتفصيل نظامه ولا كيفيات تلقيه لمراد الله تعالى منه.

وقوله: ﴿ لَّهُمْ قُلُوبٌ ﴾ حال أو صفة لخصوص الإنس، لأنهم الذين لهم: قلوب، وعقول، وعيون وأذان، ولم يعرف للجن مثل ذلك، وقد قدم الجن على الإنس في الذكر، ليتعين كون الصفات الواردة من بعد صفات الإنس وتقرينة قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾.

﴿ القلوب ﴾ اسم لموقع العقول في اللغة العربية، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ

على قلوبهم ﴿ في سورة البقرة (7) .

والفقه تقدم عند قوله : ﴿ لعلمهم يفقهون ﴾ في سورة الأنعام (65) .

(273/297)

---

ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع عن آلتها الكائنة فيهم أنهم عطلوا أعمالها بترك استعمالها في أهم ما تصلح له : وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي ، ويدفع به الضرر الأبدي ، لأن الآت الإدراك والعلم خلقها الله لتحصيل المنافع ودفع المضار ، فلما لم يستعملوها في جلب أفضل المنافع ودفع أكبر المضار ، نفي عنهم عملها على وجه العموم للمبالغة ، لأن الفعل في حيز النفي يعم ، مثل النكرة ، فهذا عام أريد به الخصوص للمبالغة لعدم الاعتداد بما يعلمون من غير هذا ، فالنفي إستعارة بتشبيه بعض الموجود بالمعدوم كله .

وليس في تقديم الأعين على الأذان مخالفة لما جرى عليه اصطلاح القرآن من تقديم السمع على البصر لتشريف السمع يتلقى ما أمر الله به كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ [البقرة : 7] لأن الترتيب في آية سورة الأعراف هذه سلك طريق الترقى من القلوب التي هي مقر المدركات إلى الآت الإدراك

الأعين ثم الأذان فللاذان المرتبة الأولى في الارتقاء .

وجملة : ﴿ أولئك كالأنعام ﴾ مستأنفة لابتداء كلام بتفطيع حالهم فجعل ابتداء كلام ليكون أدعى للسامعين .

وعرفوا بالإشارة لزيادة تمييزهم بتلك الصفات ، وللتنبية على أنهم بسببها أحرىاء بما سيدكر من تسويتهم بالأنعام أو جعلهم أضل من الأنعام ، وتشبيهم بالأنعام في عدم الانتفاع بما ينتفع به العقلاء فكان قلوبهم وأعينهم وآذانهم ، قلوب الأنعام وأعينها وآذانها ، في أنها لا تقيس الأشياء على أمثالها ، ولا تنتفع ببعض الدلائل العقلية فلا تعرف كثيراً مما يفضي بها إلى سوء العاقبة .

و(بل) في قوله : ﴿ بل هم أضل ﴾ للانتقال والترقي في التشبيه في الضلال وعدم الانتفاع بما يمكن الانتفاع به ، ولما كان وجه الشبه المستفاد من قوله : ﴿ كالأنعام ﴾ يؤول إلى معنى الضلال ، كان الارتقاء في التشبيه بطريقة اسم التفضيل في الضلال .

(274/297)

---

ووجه كونهم أضل من الأنعام : أن الأنعام لا يبلغ بها ضلالها إلى إيقاعها في مهاوي الشقاء الأبدي ، لأن لها إلهاماً تنصي به عن المهالك كالتردي من الجبال والسقوط في الهوآت ،

هذا إذا حمل التفضيل في الضلال على التفضيل في جنسه وهو الأظهر ، وإن حمل على التفضيل في كيفية الضلال ومقارناته كان وجهه أن الأنعام قد خلق إدراكها محدوداً لا يتجاوز ما خلقت لأجله ، فنقصان انتفاعها بمشاعرهما ليس عن تقصير منها ، فلا تكون بمحل الملامة ، وأما أهل الضلالة فإنهم حجروا أنفسهم عن مدركاتهم ، بتقصير منهم وإعراض عن النظر والاستدلال فهم أضل سبيلاً من الأنعام .

وجملة : ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ تعليل لكونهم أضل من الأنعام وهو بلوغهم حد النهاية في الغفلة ، وبلوغهم هذا الحد أفيد بصيغة القصر الادعائي إذا دُعي انحصار صفة الغفلة فيهم بحيث لا يوجد غافل غيرهم لعدم الاعتداد بغفلة غيرهم كل غفلة في جانب غفلتهم كالأغفلة ، لأن غفلة هؤلاء تعلقت بأجدر الأشياء بأن لا يغفل عنه ، وهو ما تقضي الغفلة عنه بالغافل إلى الشقاء الأبدي ، فهي غفلة لا تدارك منها ، وعشرة لالعي لها .

والغفلة عدم الشعور بما يحق الشعور به ، وأطلق على ضلالهم لفظ الغفلة بناء على تشبيه

الإيمان بأنه أمر بين واضح يعد عدم الشعور به غفلة ، ففي قوله : ﴿ هم الغافلون ﴾

استعارة مكنية ضمنية ، والغفلة من روادف المشبه به ، وفي وصف ﴿ الغافلون ﴾

استعارة مصرحة بأنهم جاهلون أو منكرون .

وقد وقع التدرج في وصفهم بهذه الأوصاف من نفي انتفاعهم ، بمداركهم ثم تشبيههم



بالأنعام، ثم الترقى إلى أنهم أضل من الأنعام، ثم قصر الغفلة عليهم. انتهى انتهى. اهـ

﴿ التحرير والتنوير - 8 ص ﴾

(275/297)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾

وذراً، بمعنى بث ونشر، وقد قال الحق سبحانه وتعالى في أول سورة النساء: ﴿ وَبَثَّ

مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

كما يقول الحق أيضاً: ﴿ يَذُرُّكُمْ فِيهِ ﴾

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ . . . ﴾ [

الأعراف: 179]

ونعرف أن في الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهي كل ما عدا الإنسان والجن؛ لأن كلامهما

في سلك الاختيار، وهم من يقول عنهم ربنا في سورة الرحمن: ﴿ سَنَفُخُ لَكُمْ فِيهِ الثَّقَلَانِ

﴿

وذراً معناها بثنا ونشرنا وكثرنا، وكلمة كثير لا تعني أن المقابل قليل، فقد يكون الشيء

كثيراً ومقابله أيضاً كثير، والحق سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ . . . ﴾ [الحج: 18]

إذن كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه وتسبحه، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط، حيث يقول الحق في ذات الآية: ﴿ وَكثيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ . . . ﴾ [الحج: 18]

أي هناك كثير يسجدون ويخضعون لله . ومقابل ذلك كثير كفروا ولم يسجدوا وحق عليهم العذاب . وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾



فقد يثور في الأذهان سؤال هو:

هل أنت خالقهم يا رب جهنم، ماذا تستطيعون إذن؟ ولا شيء في قدرتهم ما دمت قد خلقتهم لذلك؟

(276/297)

---

ونقول: لا . ولنلفت الأنظار إلى أن في اللغة ما يسمى "لام العاقبة" ، وهو ما يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عنا كنت تقصده وتريده؛ لأن القصد في الخلق هو العبادة مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56] ومعنى العبادة طاعة الأمر، والكف عن المنهي عنه، والمأمور صالح أن يفعل ولا يفعل، فالعبادة - إذن - تستدعي وجود طائع ووجود عاصٍ، وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى ومنزه سبحانه وتعالى: يأتي لك من يروي لحظة من سيرة إنسان ويقول لك: لماذا يقف منك هذا الموقف العدائي، أليس هو الذي أخذته معك لتوظفه؟ فترد عليه: "زرعته ليقلعي". هل كان وقت مجيئك به كنت تريده أن يقلعك؟ لا . ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا .

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار، لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه، فمنهم من آمن وأصلح فدخل الجنة، ومنهم من عصى فدخل النار وهذا اسمه "لام العاقبة"، أي ما صار إليه غير مرادك منه، ومثال ذلك حينما قال الله سبحانه لأم موسى: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ \* فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً . . . . \*

[القصص: 7-8]

هل التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً؟ لا، لأن زوجة فرعون قالت: ﴿ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي ﴾

وَلَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا . . . ﴿ [القصص: 9]

فقد كانت علة الالتقاط - إذن - هي أن يكون قرّة عين ، لكنه صار عدواً في النهاية ، وهذا اسمه - كما قلت - لام العاقبة .

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار ، في قوله الحق : ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾

(277/297)

---

لأن علة الخلق في الأصل هي العبادة ، والعبادة تقتضي طائعاً وعاصياً ، فالذي يطيع يدخل الجنة ، والذي يعصي يدخل النار ، والله المثل الأعلى ، أذكركم بالمثل الذي ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدراسة والطلبة فيقول العميد أو المدير : إننا نعلم جيداً من هم أهل للرسوب ومن هم أهل للنجاح وإن شئت أقول لك عليهم وأحددهم . لم يقل العميد أو المدير لأنه يتحكم في إجابات الطلبة ، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه ، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . وعلى ذلك فإن قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾

يعني أننا نشرنا وبشنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، وهم من يعرضون عن منهجنا ، ثم يأتي

بالحيثيات لذلك وهي أولا: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا . . .﴾ [الأعراف: 179]

وثانياً: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا . . .﴾ [الأعراف: 179]

وثالثاً: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]

ولقائل أن يقول: إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم؟ . ومادامت عيونهم

مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم؟ وكذلك مادامت الأذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا

يعاقبون؟ . ونقول: لا، لم يخلقهم الله للعذاب، لكنهم انشغلوا بما استحوز عليهم من

شهواتهم، وصارت عقولهم لا تفكر في شيء غيره وتخطط للحصول على الشهوة،

وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها، وكذلك الأذان . وكل منهم يرى غير مراد الرؤية،

ويسمع غير مراد السمع .

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذان . . أن فقه القلب هو فهم القضايا التي

تنتهي إليها الإدراكات . ونعلم أن الإدراكات تأتي بواسطة الحواس الخمس، فنحن نعرف

أن الحرير ناعم باللمس، ونعرف أن المسك رائحته طيبة بالشم، ونعلم أن العسل حلو

الطعم بالذوق .

(278/297)

إذن لكل وسيلة إدراك ، وهي من الحسّات ، وبعد أن تتكون الحسّات يمتلك الإنسان

خميرة علمية في قلبه وتنضج لتصير قضية عقلية منتهية ومسلماً بها .

وكلنا يعرف أن النار محرقة ؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسه ، فيعرف أن النار محرقة

، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى . إذن فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية

وملكاتها الحواس الظاهرة ، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياس وزن الأشياء

بالحمل . وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العضل ؛ لأنك حين تحمل

شيئاً قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقيلاً .

وحينما ترى واحداً من قريب وواحداً من بعيد ، فهذه اسمها حاسة البعد ، وكذلك

حاسة البين وهي التي تميز بها سُمك القماش مثلاً .

كل الحواس - إذن - تربي المعاني عند الإنسان وحين تربي المعاني في النفس الإنسانية

تكون القضايا التي تستقر في القلب .

ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ

بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [

النحل : 78 ]

ونعود إلى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾

والفقه هو الفهم ويصير الفهم قضية مرجحة انتهى إليها الاقتناع من المرائي والحسّات ، لكن

هؤلاء الكافرين لا يرون بأعينهم إلى هواهم ، وكذلك لا تسمع آذانهم إلا ما يروق لهم ، فلا يستمعون إلى الهدى ، ولا يلتفتون إلى الآيات التي يستدلون بها على الخالق فتعيش قلوبهم بلا فقه ، فهم إذن لهم قلوب وأعين وآذان بدليل أنهم فقهوا بها وسمعوا بها ورأوا بها الأشياء التي تروق لانحرافهم .

ويصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء فيقول : ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ

الغافلون ﴿

(279/297)

---

وهنا وقفة لإثارة سؤال هو : ما ذنب الأنعام التي تُشبه بها الكفار ؟ إن الأنعام غير مكلفة وليس لأي منها قلب يفقه أو عين تبصر آيات الله أو آذان تسمع بها آيات الله . هي فقط ترى المرعى فتذهب إليه ، وترى الذئب فتفر منه ، وتعود على أصوات تتحرك بها ، وكافة الحيوانات تحيا بالية الغريزة ، ويهتدي الحيوان إلى أموره النافعة له وإلى أموره الضارة به بغريزته التي أودعها الله فيه ، لا بعقله .

والإنسان منا لا يتعد عن الضرر إلا حين يجربه ويجد فيه ضرراً . لكن الحيوان يتعد عن الضرر من غير تجربة بل بالغريزة ، لأن الحيوان ليس له عقل وكذلك ليس له قدرة اختيار بين

البديلات ، وفطره الله على غريزة تُسَيِّرُهُ إلى مقومات صالحة ، ومثال ذلك : أنه قد يوجد الحيوان في بيئة ما ، ويعطي الله له لونا يماثل لون هذه البيئة ليحمي نفسه من حيوانات أقوى منه .

ومثال آخر : نحن نعلم أن الحيوان مخلوق لينفع الإنسان ، ولا بد أن يتناسل ليؤدي ما يحتاج إليه الإنسان من ذرية هذا الحيوان ويمارس الحيوان العملية الجنسية كوسيلة للتناسل وليست كما هي في الإنسان ، حيث تصير في بعض الأحيان غاية في ذاتها ، بجانب أنها وسيلة للنسل . ولذلك نجد كثيراً من ظواهر الحياة المتعلقة بالإنسان قد تعلمها من الحيوان مثلما قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ . . . ﴾ [المائدة : 31]

إذن فالغراب مَهْدِيٌّ بغريزته إلى كل متطلباته ، ولذلك نجد من يقول : كيف نشبه الضال بالأنعام ؟ نقول : إن الضال يختلف عن الأنعام في أنه يملك الاختيار وقد رفع فوق الأنعام ، لكنه وضع نفسه موضع الأنعام حين لم يستخدم العقل كي يختار به بين البدائل .

(280/297)

---



وبذلك صار أضل من الأنعام، وكلمة "أضل" تبين لنا أن الأنعام ليست ضالة، لأنها  
محكومة بالغريزة لا اختيار لها في شيء . لكن الكفار الذين ذرأهم ربنا لجهنم من الجن  
والإنس ، لا يعرفون ربهم ، بينما الأنعام ، والجمادات والنباتات تعرف ربها لأن الحق يقول :  
﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . ﴾ [الإسراء: 44]

[

إذن فالأنعام تعرف ربنا وتسبحه وتحمده . وفي آية أخرى يقول المولى تبارك وتعالى :  
﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . ﴾ [النور: 41]  
وعلى ذلك فكل الجماد - إذن - بعلم صلاته وتسبيحه .

ولذلك قصصنا قصة من قصص العارفين بالله حين يجلسون مع بعضهم البعض كوسيلة  
تنشيط إلى غايات وأهداف سامية . والعارف بالله من هؤلاء الصالحين يستقبل الأحسن  
منه في العبادة بالضحك ، أما الأحسن منه في أمور الدنيا فيستقبله " بالتكشير " ، وقال  
واحد منهم لآخر : أتشتاق إلى ربك ؟ فرد عليه : لا .

تساءل الآخر : كيف تقول ذلك ؟ .

قال له : نعم . إنما يُشْتَقُّ إِلَى غَائِبٍ . . . ﴿ أَوْلَيْكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَيْكَ هُمْ

الغافلون ﴾ [الأعراف: 179]

ولا تظن أن الضلال لعدم وجود منهج ، أو لعدم مُذَكِّرٍ ، أو لعدم وجود مُنْذِرٍ أو مُبَشِّرٍ . بل

هي غفلة منهم ، فالأمور واضحة أمامهم ، لكنهم يهملونها ويغفلون عنها . انتهى انتهى . ا

﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(281/297)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ قال :  
خلقنا .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ قال : خلقنا لجهنم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو قال : قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله لما ذرأ لجهنم من ذرأ ، كان ولد الزنا من ذرأ لجهنم  
." .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وأبو يعلى وابن أبي حاتم وأبو  
الشيخ وابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خلق الله

الجن ثلاثة أصناف . صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض ، وصنف كالريح في الهواء ،  
وصنف عليهم الحساب والعقاب . وخلق الله الإنس ثلاثة أصناف . صنف كالبهائم ،  
قال الله ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها وهم أعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها  
أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ وجنس أجسادهم أجساد بني آدم ، وأرواحهم أرواح  
الشياطين ، وصنف في ضل الله يوم لا ظل إلا ظله " .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ قال : لقد خلقنا لجهنم ﴿  
لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ قال : لا يفقهون شيئاً من أمر الآخرة ﴿ وهم أعين لا يبصرون  
بها ﴾ الهدى ﴿ وهم آذان لا يسمعون بها ﴾ الحق ، ثم جعلهم كالأنعام ، ثم جعلهم شراً  
من الأنعام فقال ﴿ بل هم أضل ﴾ ثم أخبر أنهم الغافلون . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(282/297)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ الآية .

اللام في [قوله] لجهنم يجوز فيها وجهان :

أحدهما : أنها لام الصيرورة والعاقبة ، وإنما احتاج هذا القائل إلى كونها لام العاقبة كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] فهذه علة معتبرة محسولة ، فكيف تكون هذه العلة أيضاً ؟ وأورد من ذلك أيضاً قول الشاعر : [الوافر]

2628 - لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ . . . . .

وقول الآخر : [الطويل]

2629 - الْأَكْلُ مَوْلُودٌ فَلِلْمَوْتِ يُوَلَدُ . . .

وَلَسْتُ أَرَى حَيًّا لِحَيٍّ يُخَلَدُ

وقول الآخر : [الطويل]

2630 - فَلِلْمَوْتِ تَغْذُو الْوَالِدَاتُ سُخَالَهَا . . .

كَمَا لِحَرَابِ الدُّورِ تُبْنِي الْمَسَاكِنَ

الثاني : أنها للعلة ، وذلك أنهم لما كان ما لهم إليها ، جعل ذلك سبباً على طريق المجاز .

وقد رد ابن عطية على من جعلها لام العاقبة ، فقال : وليس هذا بصحيح ولام العاقبة إنما

تُصَوَّرُ إِذَا كَانَ فِعْلُ الْفَاعِلِ لَمْ يُقْصَدْ مُصِيرُ الْأَمْرِ إِلَيْهِ ، وَأَمَّا هُنَا فَالْفِعْلُ قُصِدَ بِهِ مَا يَصِيرُ

الْأَمْرُ إِلَيْهِ مِنْ سُكْنَاهُمْ لِحَبْنِهِمْ وَاللَّامُ عَلَى هَذَا مُتَعَلِّقَةٌ بِذَرَانَا ، وَيَجُوزُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَحْذُوفٍ

عَلَى أَنَّهُ حَالٌ مِنْ كَثِيرًا ؛ لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ صِفَةٌ لَهَا ، لَوْ تَأَخَّرَ ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى ادِّعَاءِ قَلْبٍ ،

وَأَنَّ الْأَصْلَ : ﴿ ذُرَّانَا لِحَبَّتِهِمْ كَثِيرًا ﴾ ؛ لِأَنَّهُ ضَرُورَةٌ أَوْ قَلِيلٌ ، وَ" مِنَ الْجِنِّ " صِفَةٌ " كَثِيرًا " .

قوله : " لَهُمْ قُلُوبٌ " .

جملة في محل نصب إما صفة لـ " كَثِيرًا " أيضاً ، وإما حالاً من : " كَثِيرًا " وإن كان نكرة لتخصُّصه بالوصف ، أو من الضمير المستكن في مِنَ الْجِنِّ ؛ لِأَنَّهُ تَحْمَلُ ضَمِيرًا ، لوقوعه صفة ، ويجوز أن يكون لهم على حدته هو الوصف ، أو الحال ، وقلوب فاعل به فيكون من باب الوصف بالمفرد ، وهو أولى .

وقوله : " لَا يَفْقَهُونَ بِهَا " وكذلك الجملة المنفية في محل التعت لما قبلها ، وهذا الوصف يكاد يكون لازماً ، لوروده في غير القرآن ؛ لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ بَدْوَنَهُ ؛ لوقلت : لزيد قلبٌ وله عينٌ ، وسكت لم يظهر لذلك كبير فائدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 395 .

399 . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَّانَا لِحَبَّتِهِمْ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ .

من خلقه لجهنم - متى يستوجب الجنات ؟

وَمَنْ أَهْلَهُ لِّلسَّخَطَةِ - أَنِّي يَسْتَحِقُّ الرِّضْوَانَ ؟

ولولا انسداد البصائر والإفائي إشكال بقي بعد هذا الإيضاح؟

(283/297)

ويقال هم - اليوم - في جحيم الجحود ، مُقَرَّبِينَ فِي أَصْفَادِ الْخِزْلَانِ ، مُلْبَسِينَ ثِيَابِ الْحَرَمَانِ ،  
طَعَامُهُمْ ضَرْبُ الْوَحْشَةِ ، وَشَرَابُهُمْ حَمِيمُ الْفِرْقَةِ ، وَغَدَا هُمْ فِي جَحِيمِ الْحَرْقَةِ كَمَا فَصَّلَ فِي  
الكتابِ شَرَعَ تِلْكَ الْحَالَةَ .

قوله جل ذكره: ﴿ لَّهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ  
بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

أي لا يفقهون معاني الخطاب كما يفهم المحدثون ، وليس لهم تمييز بين خواطر الحق وبين

هواجس النفس ووساوس الشيطان ، ولهم أعين لا يبصرون بها شواهد التوحيد

وعلامات اليقين ؛ فلا ينظرون إلا من حيث الغفلة ، ولا يسمعون إلا دواعي الفتنة ، ولا

ينخرطون إلا مع من سلك ركوب الشهوة .

﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ : لِأَنَّ الْأَنْعَامَ قَدْ رُفِعَ عَنْهَا التَّكْلِيفُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا

وَفَاقُ الشَّرْعِ فَلَيْسَ مِنْهَا أَيْضًا خِلَافُ الْأَمْرِ .

والأنعامُ لا يهْمُها إلا الاعتلاف ، وما تدعو الحيلة من مباشرة الجنس ، فكذلك من أُقيم

بشواهد نفسه وكان من المربوطين بأحكام النفس ، وفي معناه أنشدوا :

نهارك يا مغرورٌ سهوٌ وغفلةٌ . . . وليلك نومٌ والردي لك لازمٌ

وسعيك فيها سوف تكره غيبه . . . كذلك في الدنيا تعيش البهائم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 589.590 ﴾

(284/297)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحاوي في تفسير القرآن الكريم

وَيُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورْسُلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والتسعون بعد المائتين  
حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/298)

---

الجزء الثامن والتسعون بعد المائتين  
من الآية ﴿ 180 ﴾ من سورة الأعراف  
وحتى الآية ﴿ 183 ﴾ من نفس السورة

(4/298)

---

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ  
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (180)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :



ولما أنتج هذا أن لهم الأسماء السوأي وللمعبوداتهم أسوأ منها ، عطف عليه دفعا لوهم من  
يتوهم بالحكم بالضلال والذرع لجهنم ما لا يليق ، وتنبيهاً على أن الموجب لدخول جهنم  
الغفلة عن ذكر الله ودعائه - قوله : ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعلى المحيط بجميع صفات  
الكمال وحده ﴿ الأسماء ﴾ ولما كان الاسم إذا لحظت فيه المناسبة كان بمعنى الصفة ،  
أنت في قوله ﴿ الحسنی ﴾ أي كلها باتصافه دون غيره بصفات الكمال التي كل واحدة منها  
أحسن شيء وأجمله وتنزهه عن شوائب النقص وسمات الحدث ، فكل أفعاله حكمة  
وإنما كان مختصاً بذلك لأن الأشياء غيره ممكنه لتغيرها ، وكل ممكن محتاج وأدنى ما يحتاج  
إلى مرجح يرجح وجوده ، وبذلك نعلم وجود المرجح ونعلم أن ترجيحه على سبيل  
الصحة والاختيار لا الوجوب ، وإلا لدام العالم بدوامه ، وبذلك ثبتت قدرته ، وتكون  
أفعاله محمكة ثبت علمه فثبتت حياته وسمعه وبصره وكلامه وإرادته ووحدانيته ، وإلا  
لوقع التنازع فوق الخلل ، فالعلم بصفاته العلى ليس في درجة واحدة بل مترتباً ، وعلم بهذا  
أن الكمال له لذاته ، وأما غيره فكماله به وهو بذاته غرق في بحر الفناء واقع في حضيض  
النقصان ﴿ فادعوه ﴾ أي فصفوه وسموه واسألوه ﴿ بها ﴾ لتنجوا من جهنم وتناولوا كل ما  
تحمد عاقبته ، فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله أقبل على الدنيا وشهواتها فوقع في نار  
الحرص وزمهير الحرمان ولا يزال في رغبة إلى رغبة حتى لا يبقى له مخلص ، وإذا أقبل على  
الذكر تخلص عن نيران الآفات واستشعر بمعرفة الله حتى تخلص من رق الشهوات فيصير

حراً فيسعد بجميع المرادات ، وكثرة الأسماء لا تقدر في التوحيد بل تدل على عظيم  
المسمى ﴿ وذروا ﴾ أي اتركوا على حالة ذرية ﴿ الذين يلحدون ﴾ أي يميلون عما حد  
لهم بزيادة فيشبهوا أو نقص فيعطوا ﴿ في أسمائه ﴾ أي فيطلقونها على غيره بأن يسموه إلهاً  
، فيلزمهم أن يطلقوا عليه جميع أوصاف الإله .

(5/298)

---

فقد الحدوا في البعض بالفعل وفي الباقي باللزوم ، أو بأن يسموه بما لم يأذن فيه ، وما لم يأذن  
فيه تارة يكون مأذوناً فيه في الجملة كالضار فلا يجوز ذكره إلا مع النافع ، وتارة لا ، مثل  
إطلاق الأب عليه والجسم ، وكذا كل ما أوهم نقصاً ، فلم يكن أحسن ، ولورود إطلاق  
بعض اشتقاقته عليه مثل علم لا يجوز أن يقال لأجله : معلم ، وكذا لحبهم لا يجوز لأجله أن  
يقال : يا خالق الديدان والقرود مثلاً ، وكذا لا يجوز أن يذكر اسم لا يعرف الذاكراً معناه ولو  
كان الناس يفهمون منه مدحاً كما يقول البعض البدو : يا أبيض الوجه ! يا أبا المكارم ! فإن  
ذلك كله إلحاد ، وهذا الفعل يستعمل مجرداً فيقال : لحد في كذا وألحد فيه - بمعنى واحد ،  
وهو العدول عن الحق والإدخال فيه ما ليس منه - نقله أبو حيان عن ابن السكيت ؛ وقال  
الإمام أبو القاسم علي بن جعفر بن القطاع في كتاب الأفعال : لحد الميت لحداً وألحدته : شق

له القبر، وإلى الشيء وعنه وفي الدين: مال، وقرئ بهما كذلك.

ولما كان كأنه قيل: فما يفعل بمن أُلحد؟ وكان المرهب إيقاع الجزاء، لا كونه من معين، قال  
بانياً للمفعول: ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ أي في الدنيا والآخرة بوعده لا خلف فيه ﴿مَا كَانُوا﴾ أي  
بجبلاتهم ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أي فيفعل بهم من أنواع الإهانة والعقوبة ما يوجب وصفهم بأقبح  
الأوصاف ضد ما كانوا يسمعون في الدنيا ممن يدانيهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر ح  
3 ص 159. 161﴾

(6/298)

فصل

قال الفخر:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ (180)﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف المخلوقين لجهنم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أمر بعده بذكر  
الله تعالى فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا كالتنبيه على أن الموجب  
لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكر الله.

والمخلص عن عذاب جهنم هو ذكر الله تعالى وأصحاب الذوق والمشاهدة يجدون من أرواحهم أن الأمر كذلك فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله ، وأقبل على الدنيا وشهواتها وقع في باب الحرص وزمهير الحرمان ، ولا يزال ينتقل من رغبة إلى رغبة ومن طلب إلى طلب ، ومن ظلمة إلى ظلمة ، فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله ومعرفة الله تخلص عن نيران الآفات وعن حسرات الخسارات ، واستشعر بمعرفة رب الأرض والسماوات وفي الآية مسائل :  
المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ الْحَسَنَى ﴾ مذكور في سور أربعة : أولها : هذه السورة .  
وثانيها : في آخر سورة بني إسرائيل في قوله : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرِّحْمَانَ أَيَّامًا تَدْعُونَ ﴾  
فله الأسماء الحسنَى ﴿ [الإسراء : 110] وثالثها : في أول طه وهو قوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى ﴾ [ طه : 8 ] ورابعها : في آخر الحشر وهو قوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى ﴾ [ الحشر : 24 ] .

إذا عرفت هذا فنقول : ﴿ الاسماء ﴾ ألفاظ دالة على المعاني فهي إنما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها ، ولا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال ، وهي محصورة في نوعين : عدم افتقاره إلى غيره ، وثبوت افتقار غيره إليه .

---

واعلم أن لنا في تفسير أسماء الله كتاباً كبيراً كثيراً الدقائق شريف الحقائق سميناه "بلوامع  
البيئات في تفسير الأسماء والصفات" ، من أراد الاستقصاء فيه فليرجع إليه ، ونحن نذكر  
ههنا لمعاً ونكتاً منها .

فنقول : إن أسماء الله يمكن تقسيمها من وجوه كثيرة .

الوجه الأول : أن نقول : الاسم إما أن يكون اسماً للذات ، أو لجزء من أجزاء الذات ، أو  
لصفة خارجة عن الذات قائمة بها .

أما اسم الذات فهو المسمى بالاسم الأعظم ، وفي كشف الغطاء عما فيه من المباحثات  
أسرار .

وأما اسم جزء الذات فهو في حق الله تعالى محال ، لأن هذا إنما يفعل في الذات المركبة من  
الأجزاء ، وكل ما كان كذلك فهو ممكن ، فواجب الوجود يمتنع أن يكون له جزء .

وأما اسم الصفة فنقول : الصفة إما أن تكون حقيقية أو إضافية أو سلبية ، أو ما يتركب  
عن هذه الثلاثة ، وهي أربعة ، لأنه إما أن يكون صفة حقيقية مع إضافة أو مع سلب أو  
صفة سلبية مع إضافة أو مجموع صفة حقيقية وإضافة وسلبية .

أما الصفة الحقيقية العارية عن الإضافة فكقولنا موجود عند من يقول : الوجود صفة ، أو  
قولنا واحد ، عند من يقول : الوحدة صفة ثانية ، وكقولنا حي ، فإن الحياة صفة حقيقية

عارية عن النسب والإضافات ، وأما الصفة الإضافية المحضة فكقولنا : مذكور ومعلوم ،  
وأما الصفة السلبية ، فكقولنا : القدوس السلام .

وأما الصفة الحقيقية مع الإضافة ، فكقولنا : عالم وقادر ، فإن العلم صفة حقيقية ، وله  
تعلق بالمعلوم والقادر ، فإن القدرة صفة حقيقية ، ولها تعلق بالمقدور ، وأما الصفة  
الحقيقية مع السلبية .

فكقولنا : قديم أزلي ، لأنه عبارة عن موجود لا أول له .  
وأما الصفة الإضافية مع السلبية ، فكقولنا : أول .

(8/298)

---

فإنه هو الذي سبق غيره وما سبقه غيره ، وأما الصفة الحقيقية مع الإضافة والسلب ،  
فكقولنا : حكيم ، فإنه هو الذي يعلم حقائق الأشياء ، ولا يفعل ما لا يجوز فعله فصفة العلم  
صفة حقيقية ، وكون هذه الصفة متعلقة بالمعلومات ، نسب وإضافات ، وكونه غير فاعل  
لما لا ينبغي سلب .

إذا عرفت هذا فنقول : السلوب ، غير متناهية ، والإضافات أيضاً غير متناهية ، فكونه  
خالقاً للمخلوقات صفة إضافية ، وكونه محيياً ومميتاً إضافات مخصوصة ، وكونه رازقاً

أيضاً إضافة أخرى مخصوصة .

فيحصل بسبب هذين النوعين من الاعتبارات أسماء لا نهاية لها لله تعالى ، لأن مقدوراته غير متناهية ، ولما كان لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته ، وإنما السبيل إلى معرفته بمعرفة أفعاله فكل من كان وقوفه على أسرار حكمته في مخلوقاته أكثر ، كان علمه بأسماء الله أكثر .

ولما كان هذا مجراً لا ساحل له ولا نهاية له ، فكذلك لا نهاية لمعرفة أسماء الله الحسنى .

النوع الثاني : في تقسيم أسماء الله ما قاله المتكلمون : وهو أن صفات الله تعالى ثلاثة أنواع : ما يجب ، ويجوز ، ويستحيل على الله تعالى .

ولله تعالى بحسب كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة أسماء مخصوصة .

والنوع الثالث : في تقسيم أسماء الله أن صفات الله تعالى إما أن تكون ذاتية ، أو معنوية ، أو كانت من صفات الأفعال .

والنوع الرابع : في تقسيم أسماء الله تعالى إما أن يجوز إطلاقها على غير الله تعالى ، أو لا يجوز .

أما القسم الأول : فهو كقولنا : الكريم الرحيم العزيز اللطيف الكبير الخالق ، فإن هذه الألفاظ يجوز إطلاقها على العباد ، وإن كان معناها في حق الله تعالى مغايراً لمعناها في حق العباد .

وأما القسم الثاني فهو كقولنا : الله الرحمن .

أما القسم الأول: فإنها إذا قيدت بقيود مخصوصة صارت بحيث لا يمكن إطلاقها إلا في حق الله تعالى كقولنا: يا أرحم الراحمين، ويا أكرم الأكرمين، ويا خالق السموات والأرضين.

(9/298)

---

النوع الخامس: في تقسيم أسماء الله أن يقال: من أسماء الله ما يمكن ذكره وحده، كقولنا: يا الله يا رحمن يا حي يا حكيم، ومنها ما لا يكون كذلك، كقولنا: مميت وضار، فإنه لا يجوز إفراده بالذكر، بل يجب أن يقال: يا محيي يا مميت يا ضار يا نافع.

النوع السادس: في تقسيم أسماء الله تعالى أن يقال: أول ما يعلم من صفات الله تعالى كونه محدثاً للأشياء مرجحاً لوجودها على عدمها، وذلك لأننا إنما نعلم وجوده سبحانه بواسطة الاستدلال بوجود الممكنات عليه، فإذا دل الدليل على أن هذا العالم المحسوس ممكن الوجود والعدم لذاته، قضى العقل بافتقاره إلى مرجح يرجح وجوده على عدمه، وذلك المرجح ليس إلا الله سبحانه، فثبت أن أول ما يعلم منه تعالى هو كونه مرجحاً ومؤثراً، ثم نقول ذلك المرجح إما أن يرجح على سبيل الوجوب أو على سبيل الصحة والأول باطل، والإلدام العالم بدوامه، وذلك باطل، فبقي أنه إنما رجح على سبيل الصحة



وكونه مرجحاً على سبيل الصحة ، ليس إلا كونه تعالى قادراً ، فثبت أن المعلوم منه بعد العلم بكونه مرجحاً ، هو كونه قادراً .

ثم إننا بعد هذا نستدل بكون أفعاله محكمة متقنة على كونه عالماً ، ثم إننا إذا علمنا كونه تعالى قادراً عالماً ، وعلمنا أن العالم القادر يمتنع أن يكون إلهياً ، علمنا من كونه قادراً عالماً ، كونه حياً .

فظهر بهذا أنه ليس العلم بصفاته تعالى وبأسمائه واقعاً في درجة واحدة ، بل العلم بها علوم مترتبة يستفاد بعضها من بعض .

المسألة الثانية :

(10/298)

---

قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ الْحَسَنَى ﴾ يفيد الحصر ، ومعناه أن الأسماء الحسنى ليست إلا لله تعالى ، والبرهان العقلي قد يدل على صحة هذا المعنى ، وذلك لأن الموجود إما واجب الوجود لذاته ، وإما ممكن لذاته ، والواجب لذاته ليس إلا الواحد وهو الله سبحانه ، وأما ما سوى ذلك الواحد ، فهو ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته ، فهو محتاج في ماهيته وفي وجوده وفي جميع صفاته الحقيقية والإضافية والسلبية إلى تكوين الواجب لذاته ، ولولاه

لبقي على عدم المحض والسلب الصرف ، فالله سبحانه كامل لذاته ، وكمال كل ما سواه  
فهو حاصل بجوده وإحسانه ، فكل كمال وجلال وشرف ، فهو له سبحانه بذاته ولذاته  
وفي ذاته ، ولغيره على سبيل العارية ، والذي لغيره من ذاته ، فهو الفقر والحاجة والنقصان  
والعدم ، فثبت بهذا البرهان البين أن الأسماء الحسنى ليست إلا لله ، والصفات الحسنى  
ليست إلا لله ، وأن كل ما سواه ، فهو غرق في بحر الفناء والنقصان .

المسألة الثالثة :

دلت هذه الآية على أن أسماء الله ليست إلا لله ، والصفات الحسنى ليست إلا لله ، فيجب  
كونها موصوفة بالحسن والكمال فهذا يفيد أن كل اسم لا يفيد في المسمى صفة كمال  
وجلال فإنه لا يجوز إطلاقه على الله سبحانه ، وعند هذا نقل عن جهم بن صفوان أنه قال  
: لا أطلق على ذات الله تعالى اسم الشيء .

قال : لأن اسم الشيء يقع على أحسن الأشياء وأكثرها حقارة وأبعدها عن درجات  
الشرف ، وإذا كان كذلك وجب القطع بأنه لا يفيد في المسمى شرفاً ورتبة وجلالة .  
وإذا ثبت هذا فنقول : ثبت بمقتضى هذه الآية أن أسماء الله يجب أن تكون دالة على  
الشرف والكمال ، وثبت أن اسم الشيء ليس كذلك فامتنع تسمية الله بكونه شيئاً .

---

قال ومعاذ الله أن يكون هذا نزاعاً في كونه في نفسه حقيقة وذاتاً وموجوداً ، إنما النزاع وقع في محض اللفظ ، وهو أنه هل يصح تسميته بهذا اللفظ أم لا ؟ فأما قولنا إنه منشىء الأشياء ، فهو اسم يفيد المدح والجلال والشرف ، فكان إطلاق هذا الاسم على الله حقاً ، ثم أكد هذه الحجة بأنواع أخر من الدلائل .

فالأول : قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [ الشورى : 11 ] معناه ليس مثل مثله شيء ، ولا شك أن عين الشيء مثل لمثل نفسه .  
فلما ثبت بالعقل أن كل شيء فهو مثل مثل نفسه ، ودل الدليل القرآني على أن مثل مثل الله ليس بشيء ، كان هذا تصريحاً بأنه تعالى غير مسمى باسم الشيء ، وليس لقائل أن يقول "الكاف" في قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ ﴾ حرف زائد لا فائدة فيه ، لأن حمل كلام الله على اللغو والعبث وعدم الفائدة بعيد .

الحجة الثانية : قوله تعالى : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام : 102 الرعد : 16 غافر : 62 ] ولو كان تعالى داخلاً تحت اسم الشيء لزم كونه تعالى خالقاً لنفسه وهو محال .  
لا يقال هذا عام دخله التخصيص ، لأننا نقول هذا كلام لا بد من البحث عنه فنقول : ثبت بحسب العرف المشهور أنهم يقيمون الأكثر مقام الكل ، وقيمون الشاذ النادر مقام العدم .  
إذا ثبت هذا فنقول : إنه إذا حصل الأكثر الأغلب وكان الغالب الشاذ الخارج نادراً ،

ألقوا ذلك الأكر بالكل ، وألقوا ذلك النادر بالمعدوم ، وألقوا لفظ الكل عليه ، وجعلوا ذلك الشاذ النادر من باب تخصيص العموم .

وإذا عرفت هذا فنقول : إن بتقدير أن يصدق على الله تعالى اسم الشيء كان أعظم الأشياء هو الله تعالى ، وإدخال التخصيص في مثل هذا المسمى يكون من باب الكذب ، فوجب أن يعتقد أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء حتى لا يلزمنا هذا المحذور .

(12/298)

---

الحجة الثالثة : هذا الاسم ما ورد في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وما رأينا أحداً من السلف قال في دعائه يا شيء ، فوجب الامتناع منه ، والدليل على أنه غير وارد في كتاب الله أن الآية التي توهم اشتغالها على هذا الاسم قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [ الأنعام : 19 ] وقد بينا في سورة الأنعام أن هذه الآية لا تدل على المقصود ، فسقط الكلام فيه .

فإن قال قائل : فقولنا : موجود ومذكور وذات ومعلوم ، ألفاظ لا تدل على الشرف والجلال فوجب أن تقولوا إنه لا يجوز إطلاقها على الله تعالى .

فنقول : الحق في هذا الباب التفصيل ، وهو أنا نقول : ما المراد من قولك : إنه تعالى شيء ،

وذا ت ، وحققة ؟ إن عنت أنه تعالى في نفسه ذات وحققة وثابت وموجود وشيء ، فهو كذلك من غير شك ولا شبهة ، وإن عنت به أنه هل يجوز أن ينادى بهذه الألفاظ أم لا ؟ فنقول لا يجوز .

لأننا رأينا السلف يقولون : يا الله يا رحمن يا رحيم إلى سائر الأسماء الشريفة ، وما رأينا ولا سمعنا أن أحداً يقول : يا ذات يا حقيقة يا مفهوم ويا معلوم ، فكان الامتناع عن مثل هذه الألفاظ في معرض النداء والدعاء واجباً لله تعالى .  
والله أعلم .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ يدل على أنه تعالى حصلت له أسماء حسنة ، وأنه يجب على الإنسان أن يدعو الله بها ، وهذا يدل على أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية .

ومما يؤكد هذا أنه يجوز أن يقال : يا جواد ، ولا يجوز أن يقال : يا سخي ، ولا أن يقال يا عاقل يا طبيب يا فقيه .

وذلك يدل على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية .

المسألة الخامسة :

---

دلت الآية على أن الاسم غير المسمى لأنها تدل على أن أسماء الله كثيرة لأن لفظ الأسماء لفظ الجمع ، وهي تفيد الثلاثة فما فوقها ، فثبت أن أسماء الله كثيرة ولا شك أن الله واحد ، فلزم القطع بأن الاسم غير المسمى وأيضا قوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ يقتضي إضافة الأسماء إلى الله ، وإضافة الشيء إلى نفسه محال .

وأیضا فلوقيل : والله الذوات لكان باطلاً .

ولما قال : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ ﴾ كان حقا وذلك يدل على أن الاسم غير المسمى .

المسألة السادسة :

قوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ يدل على أن الإنسان لا يدعوره إلا بتلك الأسماء الحسنى ، وهذه الدعوة لا تتأتى إلا إذا عرف معاني تلك الأسماء ، وعرف بالدليل أن له إلهاً ورباً خالقاً موصوفاً بتلك الصفات الشريفة المقدسة ، فإذا عرف بالدليل ذلك فحينئذ يحسن أن يدعوره بتلك الأسماء والصفات ، ثم إن تلك الدعوة شرائط كثيرة مذكورة بالاستقصاء في كتاب "المنهاج" لأبي عبد الله الحلي ، وأحسن ما فيه أن يكون مستحضراً الأمرين : أحدهما : عزة الربوبية .

والثانية : ذلة العبودية .

فهناك يحسن ذلك الدعاء ويعظم موقع ذلك الذكر .

فأما إذا لم يكن كذلك كان قليل الفائدة ، وأنا أذكر لهذا المعنى مثلاً ، وهو أن من أراد أن يقول في تحريمه صلواته الله أكبر ، فإنه يجب أن يستحضر في النية جميع ما أمكنه من معرفة آثار حكمة الله تعالى في تخلق نفسه وبدنه وقواه العقلية والحسية أو الحركية ، ثم يتعدى من نفسه إلى استحضار آثار حكمة الله في تخلق جميع الناس ، وجميع الحيوانات ، وجميع أصناف النبات والمعادن ، والآثار العلوية من الرعد والبرق والصواعق التي توجد في كل أطراف العالم ، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى في تخلق الأرضين والجبال والبحار والمفاوز ، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى في تخلق طبقات العناصر السفلية والعلوية ، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى في تخلق أطباق السموات على سعتها وعظمتها ، وفي تخلق أجرام النيرات من الثوابت والسيارات ، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى في تخلق الكرسي وسدرة المنتهى ، ثم يستحضر آثار قدرته في تخلق العرش العظيم المحيط بكل هذه الموجودات ، ثم يستحضر آثار قدرته في تخلق الملائكة من حملة العرش والكرسي وجنود عالم الروحانيات ، فلا يزال يستحضر من هذه الدرجات والمراتب أقصى ما يصل إليه فهمه وعقله وذاكره وخاطره وخياله ، ثم عند استحضار جميع هذه الروحانيات

والجسمانيات على تفاوت درجاتها وتباين منازلها ومراتبها ، ويقول الله أكبر ، ويشير بقوله الله إلى الموجود الذي خلق هذه الأشياء وأخرجها من العدم إلى الوجود ، ورتبها بما لها من الصفات والنعوت ، ويقول أكبر أي أنه لا يشبه لكبريائه وجبروته وعزه وعلوه وصمديته هذه الأشياء بل هو أكبر من أن يقال : إنه أكبر من هذه الأشياء .

فإذا عرفت هذا المثال الواحد فقس الذكر الحاصل مع العرفان والشعور ، وعند هذا يفتح على عقلك نسمة من الأسرار المودعة تحت قوله : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ ففيه مسائل :

(15/298)

المسألة الأولى :

قرأ حمزة ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ ووافقه عاصم والكسائي في النحل .

قال الفراء : ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ و ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ لغتان : يقال : لحدت لحداً وألحدت ، قال

أهل اللغة : معنى الإلحاد في اللغة الميل عن القصد .

قال ابن السكيت : الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه .



يقال : قد أُلْحِدَ في الدين ولُحِدَ ، وقال أبو عمرو من أهل اللغة : الإلحاد : العدل عن الاستقامة والانحراف عنها .

ومنه اللحد الذي يحفر في جانب القبر .

قال الواحدي رحمه الله : والأجود قراءة العامة لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ إِلْحَادٌ ﴾ [

الحج : 25] والإلحاد أكثر في كلامهم لقولهم : ملحد ، ولا تكاد تسمع العرب يقولون لاحد .

المسألة الثانية :

قال المحققون : الإلحاد في أسماء الله يقع على ثلاثة أوجه : الأول : إطلاق أسماء الله المقدسة الطاهرة على غير الله ، مثل أن الكفار كانوا يسمون الأوثان بأهة ، ومن ذلك أنهم سمو أصناماً لهم باللات والعزى والمناة ، واشتقاق اللات من الإله ، والعزى من العزيز ، واشتقاق مناة من المنان .

وكان مسيلمة الكذاب لقب نفسه بالرحمن .

والثاني : أن يسموا الله بما لا يجوز تسميته به ، مثل تسمية من سماه أباً للمسيح .

وقول جمهور النصارى : أب ، وابن ، وروح القدس ، ومثل أن الكرامية يطلقون لفظ الجسم

على الله سبحانه ويسمون به ، ومثل أن المعتزلة قد يقولون في أثناء كلامهم ، لو فعل تعالى

كذا وكذا لكان سفيهاً مستحقاً للذم ، وهذه الألفاظ مشعرة بسوء الأدب .

قال أصحابنا : وليس كل ما صح معناه جاز إطلاقه باللفظ في حق الله ، فإنه ثبت بالدليل أنه سبحانه هو الخالق لجميع الأجسام ، ثم لا يجوز أن يقال : يا خالق الديدان والقروذ والقردان ، بل الواجب تنزيه الله عن مثل هذه الأذكار ، وأن يقال : يا خالق الأرض والسموات يا مقيل العثرات يا راحم العبرات إلى غيرها من الأذكار الجميلة الشريفة .

(16/298)

---

والثالث : أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه ولا يتصور مسماه ، فإنه ربما كان مسماه أمراً غير لائق بجلال الله ، فهذه الأقسام الثلاثة هي الإلحاد في الأسماء .  
فإن قال قائل : هل يلزم من ورود الأول في إطلاق لفظه على الله تعالى أن يطلق عليه سائر الألفاظ المشتقة منه على الإطلاق ؟

قلنا : الحق عندي أن ذلك غير لازم لافي حق الله تعالى ، ولا في حق الملائكة والأنبياء وتقريره : أن لفظ "علم" ورد في حق الله تعالى في آيات منها قوله : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 31] ﴿ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [النساء: 113] ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: 65] ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ [الرحمن: 1، 2] ثم لا يجوز أن يقال في حق الله تعالى يا معلم ، وأيضاً ورد قوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: 54]

ثم لا يجوز عندي أن يقال يا محب .

وأما في حق الأنبياء ، فقد ورد في حق آدم عليه السلام : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمَ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [

طه : 121 ] ثم لا يجوز أن يقال إن آدم كان عاصياً غاوباً ، وورد في حق موسى عليه

السلام ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ ﴾ [ القصص : 26 ] ثم لا يجوز أن يقال إنه عليه السلام كان

أجيراً ، والضابط أن هذه الألفاظ الموهمة يجب الاقتصار فيها على الوارد ، فأما التوسع

بإطلاق الألفاظ المشتقة منها فهي عندي ممنوعة غير جائزة .

ثم قال تعالى : ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فهو تهديد ووعيد لمن أُلْحِدَ في أسماء الله .

قلت المعتزلة : الآية قد دلت على إثبات العمل للعبد ، وعلى أن الجزاء مفرع على عمله

وفعله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 54.59 ﴾

(17/298)

فصل

قال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ

سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

هذه آية عظيمة من الآي التي جمعت العقائد والأعمال ، وقد كنا تكلمنا عليها في  
مجالس أنوار الفجر أزمنة كثيرة ، ثم أنعم الله بأن أخرجنا نكتها المتصودة من الوجهين  
جميعاً في كتاب الأمد الأقصى " ، وفيها سبع مسائل :

المسألة الأولى : قوله تعالى : ﴿ الأسماء ﴾ : حقيقة الاسم كل لفظ جعل للدلالة على  
المعنى إن لم يكن مشتقاً ، فإن كان مشتقاً فليس باسم ، وإنما هو صفة ، هذا قول  
النحاة .

أخبرنا الأستاذ الرئيس الأجل المعظم فخر الرؤساء أبو المظفر محمد بن العباس لفظاً قال  
: سمعت الأستاذ المعظم عبد القاهر الجرجاني يقول : سمعت أبا الحسن ابن أخت أبي  
علي يقول : سمعت خالي أبا علي يقول : كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالْحَضْرَةِ  
جماعة من أهل المعرفة فيهم ابن خالويه إلى أن قال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين  
اسماً .

فتبسّم أبو علي ، وقال : ما أحفظ له إلا اسماً واحداً ، وهو السيف .  
فقال ابن خالويه : فأين المهند ؟ وأين الصارم ؟ وأين الرسوب ؟ وأين المخدم وجعل  
يعدد .

فقال أبو علي : هذه صفات .

---

وَكَانَ الشَّيْخُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَسْمِ وَالصِّفَةِ .

وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ أُسِّسَهَا سَبِيوِيهِ لِيُرْتَّبَ عَلَيْهَا قَانُونًا مِنَ الصَّنَاعَةِ فِي التَّصْرِيفِ وَالْجَمْعِ  
وَالتَّصْغِيرِ ، وَالْحَذْفِ وَالزِّيَادَةِ وَالتَّسْبِئَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ ؛ إِذْ لَحِظَ ذَلِكَ فِي مَجَارِي  
العَرَبِيَّةِ ، وَهُوَ أَمْرٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الشَّرِيعَةُ بَعْضُهَا ، وَلَا تَرُدُّهُ بَقْصُدٍ ؛  
فَلَا مَعْنَى لِإِنْكَارِهَا لِلْقَوْمِ أَوْ إِقْرَارِهَا .

المَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ : قَالَ سَخِيفٌ مِنْ جُمْلَةِ الْمَغَارِبَةِ : عَدَدَتْ أَسْمَاءَ اللَّهِ فَوَجَدَتْهَا ثَمَانِينَ ،  
وَجَعَلَ يُعَدُّ الصِّفَاتِ النَّحْوِيَّةَ ، وَيَا لَيْتَنِي أَدْرَكْتُهُ ؛ فَلَقَدْ كَانَتْ فِيهِ حُشَاشَةٌ لَوْ تَفَاوَضْتُ  
مَعَهُ فِي الْحَقَائِقِ لَمْ يَكُنْ بَدٌّ مِنْ قَبُولِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(19/298)

---

وَلَيْسَ الْعَجَبُ مِنْهُ ؛ إِنَّمَا الْعَجَبُ مِنَ الطُّوسِيِّ أَنْ يَقُولَ : وَقَدْ عَدَدْتُ بَعْضُ حُفَاطِ الْمَغْرِبِ  
الْأَسْمَاءَ فَوَجَدَهَا ثَمَانِينَ حَسْبَمَا نَقَلَهُ إِلَيْهِ طَرِيدٌ طَرِيفٌ بِبُورْقَةِ الْحُمَيْدِيِّ ، وَإِنَّمَا وَقَعَ فِي  
ذَلِكَ أَبُو حَامِدٍ بِجَهْلِهِ بِالصَّنَاعَةِ ، أَمَا إِنَّهُ كَانَ فَصِيحًا ذَرَبَ الْقَوْلِ ، ذَرَبَ اللِّسَانِ فِي  
الاسْتِرْسَالِ عَلَى الْكَلِمَاتِ الصَّابِتَةِ ، لَكِنَّ الْقَانُونَ كَانَ عَنْهُ نَائِيًا ، وَالْعَالَمُ عِنْدَنَا اسْمٌ ، كَرِيدٌ

اسْمٌ، وَأَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى الْوُجُودِ، وَالْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى الْوُجُودِ وَمَعْنَى مَعَهُ زَائِدٌ عَلَيْهِ،  
وَالَّذِي يُعْضَدُ ذَلِكَ أَنَّ الصَّحَابَةَ وَعُلَمَاءَ الْإِسْلَامِ حِينَ عَدَّدُوا الْأَسْمَاءَ ذَكَرُوا الْمُشْتَقَّ  
وَالْمُضَافَ وَالْمُطْلَقَ فِي مَسَاقٍ وَاحِدٍ إِجْرَاءً عَلَى الْأَصْلِ، وَبِذَا لِلْقَاعِدَةِ النَّحْوِيَّةِ.  
الْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ: "قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ الْحُسْنَى ﴾ وَفِي وَصْفِهَا بِذَلِكَ خَمْسَةٌ أَقْوَالٌ: الْأَوَّلُ:  
مَا فِيهَا مِنْ مَعْنَى التَّعْظِيمِ؛ فَكُلُّ مَعْنَى مُعْظَمٍ يُسَمَّى بِهِ سُبْحَانَهُ.  
الثَّانِي: مَا وَعِدَ عَلَيْهَا مِنَ الثَّوَابِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ.  
الثَّلَاثُ: مَا مَالَتْ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ مِنَ الْكِرَامِ وَالرَّحْمَةِ.  
الرَّابِعُ: أَنَّ حَسْبَهَا شَرَفُ الْعِلْمِ بِهَا، فَإِنَّ شَرَفَ الْعِلْمِ بِشَرَفِ الْمَعْلُومِ، وَالْبَارِي أَشْرَفُ  
الْمَعْلُومَاتِ؛ فَالْعِلْمُ بِأَسْمَائِهِ أَشْرَفُ الْعُلُومِ.

(20/298)

الخَامِسُ: أَنَّهُ مَعْرِفَةُ الْوَاجِبِ فِي وَصْفِهِ وَالْجَائِزِ وَالْمُسْتَحِيلِ عَلَيْهِ؛ فَيَأْتِي بِكُلِّ ذَلِكَ عَلَى  
وَجْهِهِ وَيُقَرَّرُهُ فِي نَصَابِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي الْمُقْسَطِ حَقِيقَةَ الْحُسْنِ وَأَقْسَامَهُ، وَمَنْ حَصَلَ  
هَذِهِ الْمَعَانِي فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ نَالَ الْحُسْنَ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ، وَحَصَلَ لَهُ الْقَطْعُ بِالتَّوْفِيقِ.  
الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: فِي سَبَبِ نَزُولِهَا: رُوِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ سَمِعُوا الْمُسْلِمِينَ يَدْعُونَ "اللَّهُ" مَرَّةً

و" الرَّحْمَنَ " أُخْرَى ، و" الْقَادِرَ " بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَالُوا : أَيْنَهَانَا مُحَمَّدٌ عَنِ الْأَصْنَامِ وَهُوَ ،  
يَدْعُوا إِلَهَةً كَثِيرَةً ؟ فَنَزَلَتْ : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ ﴿ أَيُّ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ إِلَهُ  
وَاحِدٌ ، وَلَيْسَتْ بِاللَّهِ مُتَعَدِّدَةً .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : مَا هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي أَضَافَهَا اللَّهُ ؟ : وَفِي ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ :  
أَنَّهَا أَسْمَاءُ كُلِّهَا الَّتِي فِيهَا التَّعْظِيمُ وَالْإِكْبَارُ .  
الثَّانِي : أَنَّهَا الْأَسْمَاءُ التَّسْعَةُ وَالتَّسْعُونَ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ : ﴿ إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً  
وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ﴾ .

الثَّلَاثُ : أَنَّهَا الْأَسْمَاءُ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا أُدْلَةُ الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَهِيَ سَبْعَةٌ تَرْتَّبُ عَلَى الْوُجُودِ :  
الْعِلْمُ ، وَالْقُدْرَةُ ، وَالْإِرَادَةُ ، وَالسَّمْعُ ، وَالْبَصَرُ ، وَالْكَلَامُ ، وَالْحَيَاةُ .

(21/298)

---

نَقُولُ : الْقَادِرُ الْعَالِمُ الْمُرِيدُ الْحَيُّ الْمُتَكَلِّمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، وَفِي تَرْتِيبِهَا تَقْرِيبٌ بَيْنَاهُ فِي  
كُتُبِ الْأَصُولِ ، وَكُلُّ اسْمٍ لِلَّهِ فَإِلَى هَذِهِ الْأَصُولِ يَرْجِعُ ، لَكِنَّ الصَّحِيحَ عِنْدِي أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا  
التَّسْعَةُ وَالتَّسْعُونَ الَّتِي عَدَّدَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ .  
فَإِنْ قِيلَ : وَهَلْ إِلَى مَعْرِفَتِهَا سَبِيلٌ ؟ قُلْنَا : حَلَّقَ الْعُلَمَاءُ عَلَيْهَا ، وَسَارُوا إِلَيْهَا فَمِنْ جَائِرٍ

وَقَاصِدٍ ، وَالْقَاصِدُ فِي الْأَكْثَرِ وَقَفٌ دُونَ الْمَرَامِ ، وَالْجَائِزُ لَيْسَ فِيهِ كَلَامٌ .  
 فَأَمَّا مَنْ وَقَفَ عَلَى الْأَمْرِ فَمَا عَرَفْتَهُ إِلَّا الْإِسْفَرَايِنِيَّ وَالطُّوسِيَّ .  
 إِلَّا أَنَّ الطُّوسِيَّ تَقَلَّلَ فِيهَا فَتَزَلَّزَلَ عَنْهَا ، وَأَمَّا الْإِسْفَرَايِنِيَّ فَأَسْنَدَ طَرِيقَهُ وَوَضَحَ تَحْقِيقَهُ .  
 وَالَّذِي أَدْلَكُمُ عَلَيْهِ أَنْ تَطْلُبُوهَا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، فَإِنَّهَا مَخْبُوءَةٌ فِيهِمَا كَمَا خُبَّتْ سَاعَةٌ  
 الْجُمُعَةِ فِي الْيَوْمِ ، وَبَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي الشَّهْرِ رَغَبَةً ، وَالْكَبَائِرُ فِي الذُّنُوبِ رَهْبَةً ؛ لِتَعَمَّ الْعِبَادَاتُ  
 الْيَوْمَ بِجَمِيعِهِ وَالشَّهْرَ بِكُلِّيَّتِهِ ، وَلِيَقَعَ الْأَجْتِنَابُ لِجَمِيعِ الذُّنُوبِ .  
 وَكَذَلِكَ أَخْفَيْتُ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ الْمُتَعَدِّدَةَ فِي جُمْلَةِ الْأَسْمَاءِ الْكَلِّيَّةِ ، لِنَدْعُوهُ بِجَمِيعِهَا ،  
 فَنُصِيبُ الْعَدَدَ

(22/298)

الْمَوْعُودَ بِهِ فِيهَا ، فَأَمَّا تَعْدِيدُهَا بِالْقُرْآنِ فَقَدْ وَهَمَ فِيهِ إِمَامَانِ : سُفْيَانُ ، وَأَبْنُ شُعْبَانَ ، وَقَدْ  
 سَقَنَاهُ بِغَايَةِ الْبَيَانِ وَنَصَّهُ : سُورَةُ الْحَمْدِ فِيهَا خَمْسَةٌ أَسْمَاءٍ : اللَّهُ ، الرَّبُّ ، الرَّحْمَنُ ،  
 الرَّحِيمُ ، مَالِكٌ .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ فِيهَا ثَلَاثُونَ اسْمًا : مُحِيطٌ ، قَدِيرٌ ، عَلِيمٌ ، حَكِيمٌ ، ذُو الْفَضْلِ ، الْعَظِيمُ ، بَصِيرٌ  
 ، وَاسِعٌ ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ ، سَمِيعٌ ، التَّوَّابُ ، الْعَزِيزُ ، رَعُوفٌ ، شَاكِرٌ ، إِلَهٌ وَاحِدٌ ، غَفُورٌ ،



شَدِيدُ الْعَذَابِ ، قَرِيبٌ ، شَدِيدُ الْعِقَابِ ، سَرِيعُ الْحِسَابِ ، حَلِيمٌ ، خَيْرٌ ، حَيٌّ ، قَيُّومٌ ،  
عَلِيُّ ، عَظِيمٌ ، وَلِيُّ ، غَنِيٌّ ، حَمِيدٌ ، مَوْلَى .

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ فِيهَا عَشْرَةُ أَسْمَاءٍ : عَزِيزٌ ، ذُو انْتِقَامٍ ، وَهَّابٌ ، قَائِمٌ بِالْقِسْطِ ، جَامِعُ  
النَّاسِ ، مَالِكُ الْمُلْكِ ، خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ، شَهِيدٌ ، خَيْرُ النَّاصِرِينَ ، وَكِيلٌ .

سُورَةُ النَّسَاءِ فِيهَا سَبْعَةٌ أَسْمَاءٍ : الرَّقِيبُ ، الْحَسِيبُ ، كَثِيرُ الْعَفْوِ ، النَّصِيرُ ، مُقِيتٌ ،  
جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا .

سُورَةُ الْمَائِدَةِ فِيهَا اسْمَانِ : عَلَامُ الْغُيُوبِ ، خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ فِيهَا سَبْعَةٌ عَشْرَ أَسْمَاءٍ : فَاطِرٌ ، قَاهِرٌ ، شَهِيدٌ ، شَفِيعٌ ، خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ، الْحَقُّ ،  
أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ، الْقَادِرُ ، فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، فَالِقُ الْأَصْبَاحِ ، جَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا ،  
مُخْرِجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، سَرِيعُ الْعِقَابِ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ،  
اللطيفُ ، الْحَكِيمُ .

(23/298)

سُورَةُ الْأَعْرَافِ فِيهَا أَرْبَعَةٌ أَسْمَاءٍ : خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ، أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، خَيْرُ  
الْغَافِرِينَ .

سُورَةُ بَرَاءَةٍ فِيهَا اسْمٌ: مُخْرِي الْكَافِرِينَ .

سُورَةُ هُودٍ فِيهَا سَبْعَةُ اسْمَاءٍ: أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، حَفِيزٌ ، مُجِيبٌ ، قَوِيٌّ ، مَجِيدٌ ، وَدُودٌ ،  
فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ .

سُورَةُ يُوسُفَ فِيهَا ثَلَاثَةُ اسْمَاءٍ: الْمُسْتَعَانُ ، الْقَاهِرُ ، الْحَافِظُ .

سُورَةُ الرَّعْدِ فِيهَا سِتَّةُ اسْمَاءٍ: ذُو مَغْفِرَةٍ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، الْكَبِيرُ ، الْمُتَعَالُ ،  
شَدِيدُ الْمِحَالِ ، الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ .

سُورَةُ الْحَجْرِ فِيهَا اسْمَانِ: الْوَارِثُ ، الْخَلَّاقُ .

سُورَةُ النَّحْلِ فِيهَا اسْمٌ وَاحِدٌ: كَفِيلٌ .

سُورَةُ الْكَهْفِ فِيهَا ثَلَاثَةُ اسْمَاءٍ: مُقْتَدِرٌ ، ذُو الرَّحْمَةِ ، الْمَوْئِلُ .

سُورَةُ مَرْيَمَ فِيهَا اسْمٌ وَاحِدٌ: وَهُوَ حَفِيٌّ .

سُورَةُ طهَ فِيهَا اسْمَانِ: الْمَلِكُ ، خَيْرٌ وَأَبْقَى .

سُورَةُ اقْتَرَبَ فِيهَا ثَلَاثَةُ اسْمَاءٍ: الْحَاسِبُ ، خَيْرُ الْوَارِثِينَ ، الْفَاعِلُ .

سُورَةُ الْحَجِّ فِيهَا اسْمٌ وَاحِدٌ: الْمَكْرَمُ .

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا اسْمَانِ: أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ .

سُورَةُ النُّورِ فِيهَا اسْمَانِ: نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، الْمُبِينُ .

سُورَةُ الْفُرْقَانِ فِيهَا اسْمٌ: الْهَادِي .

سُورَةُ النَّملِ : الْكَرِيمُ .  
سُورَةُ الرُّومِ : مُحْيِي الْمَوْتِ .  
سُورَةُ سَبَأٍ فِيهَا : الْفَتْاحُ .  
سُورَةُ فَاطِرٍ اسْمٌ وَاحِدٌ : شُكُورٌ .  
سُورَةُ ص اسْمٌ وَاحِدٌ : الْغَفَارُ .  
سُورَةُ الزُّمَرِ فِيهَا اسْمَانِ : سَالِمٌ ، كَافٌ .

(24/298)

---

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا خَمْسَةٌ اسْمَاءٍ : غَافِرُ الذَّنْبِ ، وَقَابِلُ التَّوْبِ ، ذُو الطَّلُوعِ ، رَفِيعُ  
الدَّرَجَاتِ ، ذُو الْعَرْشِ .  
سُورَةُ فَصَّلَتْ : ذُو عِقَابٍ .  
سُورَةُ الزُّخْرُفِ فِيهَا : الْمُبْرَمُ .  
سُورَةُ الدُّحَانِ فِيهَا ثَلَاثَةٌ اسْمَاءٍ : الْمُنذِرُ ، الْمُرْسِلُ ، الْمُنْتَقِمُ .  
سُورَةُ ق : أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .  
سُورَةُ وَالذَّارِيَاتِ فِيهَا خَمْسَةٌ اسْمَاءٍ : الْمَوْسِعُ ، الْمَاهِدُ ، الرَّزَّاقُ ، ذُو الْقُوَّةِ ، الْمَتِينُ .

سُورَةُ وَالطُّورِ فِيهَا اسْمٌ وَاحِدٌ: الْبُرُّ.

سُورَةُ اقْتَرَبَ فِيهَا اسْمٌ وَاحِدٌ: الْمَلِكُ الْمُقْتَدِرُ.

سُورَةُ الرَّحْمَنِ فِيهَا اسْمٌ وَاحِدٌ: ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ فِيهَا ثَلَاثَةُ اسْمَاءٍ: الْخَالِقُ، الزَّارِعُ، الْمُنْشِئُ.

سُورَةُ الْحَدِيدِ فِيهَا أَرْبَعَةُ اسْمَاءٍ: الْأَوَّلُ، الْآخِرُ، الظَّاهِرُ،

الْبَاطِنُ.

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ فِيهَا اسْمَانِ: رَابِعٌ ثَلَاثَةٌ، سَادِسٌ خَمْسَةٌ.

سُورَةُ الْحَشْرِ فِيهَا ثَمَانِيَةُ اسْمَاءٍ: الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهِيمِنُ [الْعَزِيزُ]، الْجَبَّارُ

، الْمُسَكِّبُ، الْبَارِيُّ، الْمُصَوِّرُ.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ فِيهَا: ذُو الْمَعَارِجِ.

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ فِيهَا اسْمٌ وَاحِدٌ: أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ.

سُورَةُ سَبِّحِ فِيهَا اسْمٌ وَاحِدٌ: الْأَعْلَى.

سُورَةُ الْقَلَمِ فِيهَا اسْمٌ وَاحِدٌ: الْأَكْرَمُ.

سُورَةُ التَّوْحِيدِ فِيهَا اسْمَانِ: أَحَدٌ، صَمَدٌ.

وَقَدْ زَادَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا فِيهَا : شَيْءٌ ، مَوْجُودٌ ، كَائِنٌ ، ثَابِتٌ ، نَفْسٌ ، عَيْنٌ ، ذَاتٌ ، دَاعٍ ،  
مُسْتَجِيبٌ ، مُمْلِيٌ ، قَائِمٌ ، مُتَكَلِّمٌ ، مُبْقٍ ، مُغْنٍ ، غَيْرٌ ، قَاضٍ ، مُقَدَّرٌ ، فَرْدٌ ، مُبِلٌ ، جَاعِلٌ  
، مُوجِدٌ ، مُبْدِعٌ ، دَارِيٌّ .

قَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : وَمِنْ هَذَا مَا جَاءَ عَلَى لَفْظِهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ،  
وَمِنْهَا مَا أُخِذَ مِنْ فِعْلٍ ، وَمِنْهَا مَا جَاءَ مُضَافًا فَذَكَرَهُ مُجَرَّدًا عَنِ الْإِضَافَةِ ، وَكَذَلِكَ  
وَجَدْنَاهُ فِي سَائِرِ الْأَسْمَاءِ الْمُتَقَدِّمَةِ ؛ فَهَذِهِ هِيَ الْأَسْمَاءُ الْمَعْدُودَةُ بِصِفَاتِهَا قُرْآنًا وَسُنَّةً .  
وَفِي الْحَدِيثِ الْمَطْلُوقِ أَسْمَاءٌ غَيْرُ ذَلِكَ ، كَقَوْلِنَا : الطَّيِّبُ ، وَالسَّيِّدُ ، وَالطَّبِيبُ ؛ وَأَعْدَادٌ  
سِوَاهَا .

وَمَا مِنْهَا اسْمٌ إِلَّا جَمِيعُهُ مُشْتَقٌّ ، حَتَّى إِنْ أَهْلَ اللُّغَةِ اتَّفَقُوا عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ  
مُشْتَقٌّ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْأَمْدِ ، فَلَا وَجْهَ لِقَوْلِهِمْ الْفَاسِدِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَقَدْ شَرَحْنَا مَعْنَى كُلِّ اسْمٍ فِي  
الْأَمْدِ عَلَى الْإِسْتِيفَاءِ ، فَلْيُنْظَرُ هُنَالِكَ ؛ وَعَدَدْنَاهَا عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ،  
وَذَكَرَهُ الْأَئِمَّةُ ؛ فَانْتَهَتْ إِلَى سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ .

الْأَوَّلُ : اللَّهُ ؛ وَهُوَ اسْمُهُ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَرْجَعُ إِلَيْهِ كُلُّ اسْمٍ ، وَيُضَافُ إِلَى تَفْسِيرِهِ كُلِّ مَعْنَى ،

وَحَقِيقَتُهُ الْمُنْفَرِدُ فِي

ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ عَنْ نَظِيرٍ، فَهَذِهِ حَقِيقَةُ الْإِلَهِيَّةِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ اللَّهُ.

(26/298)

الثَّانِي: الْوَاحِدُ؛ وَهُوَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ فِي صِفَاتٍ وَلَا ذَاتٍ وَلَا أَعْمَالٍ.

الثَّلَاثُ: الْكَائِنُ؛ وَهُوَ الْمَوْجُودُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ.

الرَّابِعُ: الْقَائِمُ، إِذَا ذَكَرْتَهُ مُطْلَقًا فَهُوَ الَّذِي يَسْتَعْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِنْ ذَكَرْتَهُ مُضَافًا فَهُوَ

قَائِمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِالْوُجُودِ فَمَا وَرَاءَهُ.

الخَامِسُ وَالسَّادِسُ وَالسَّابِعُ: الْقَيُّومُ، وَالْقَيَّامُ، وَالْقَيِّمُ، وَهُوَ الدَّائِمُ الْقَائِمُ عَلَى شَيْءٍ.

الثَّامِنُ: الْكَافِي؛ مَنْ كَفَى إِذَا قَامَ بِالْأَمْرِ، أَوْ دَفَعَ عَنْهُ مَا يَتَوَقَّعُ.

التَّاسِعُ: الْحَقُّ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ.

العَاشِرُ وَالْحَادِي عَشَرَ وَالثَّانِي عَشَرَ: الْمَلِكُ، الْمَالِكُ، الْمَلِيكُ، وَهُوَ الْحَاكِمُ لِكُلِّ شَيْءٍ

مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَيْهِ.

الثَّلَاثَ عَشَرَ: الْقُدُّوسُ، وَهُوَ الْمُطَهَّرُ عَنْ كُلِّ نَقْصَانٍ.

الرَّابِعَ عَشَرَ: السَّلَامُ؛ الَّذِي لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ عَيْبٌ، وَسَلِمَ الْخَلْقُ مِنْ ظُلْمِهِ وَغَيْبِهِ، وَبِهِ زَادَ

عَلَيْهِ .

الخَامِسَ عَشَرَ : الْعَزِيزُ : الَّذِي لَا يُغَالَبُ ؛ وَلَا يَكُونُ مَعَهُ غَالِبٌ .

السَّادِسَ عَشَرَ : الْجَبَّارُ : الَّذِي يَسْتَغْنِي عَنْ الْأَتْبَاعِ ، وَلَا يَحْنُو عِنْدَ التَّعْذِيبِ ، وَلَا يَحْنَقُ عِنْدَ الْغَضَبِ .

السَّابِعَ عَشَرَ : الْمُتَكَبِّرُ ؛ وَهُوَ الَّذِي لَا مِقْدَارَ لَشَيْءٍ عِنْدَهُ .

الثَّامِنَ عَشَرَ : الْعَلِيُّ الَّذِي لَا مَكَانَ لَهُ .

التَّاسِعَ عَشَرَ : الْكَبِيرُ الَّذِي لَا يُتَصَوَّرُ عَلَيْهِ مِقْدَارٌ .

الْمَوْفِي عِشْرِينَ : الْعَظِيمُ : الَّذِي يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ التَّحْدِيدُ .

(27/298)

---

الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ : الْجَلِيلُ ؛ وَهُوَ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْحُدُوثِ .

الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ : الْمَجِيدُ ؛ هُوَ الَّذِي لَا يُسَاوَى فِيمَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْمَدْحِ .

الثَّلَاثُ وَالْعِشْرُونَ : الْجَمِيلُ ؛ هُوَ الَّذِي لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ .

الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

: الْحَسِيبُ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ عَلَى الْإِنْفِرَادِ ، وَيُحْصِي كُلَّ شَيْءٍ وَيَقُومُ عَلَيْهِ .

الخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ: الصَّمَدُ؛ الَّذِي لَا يَجْرِي فِي الْوَهْمِ، وَلَا يُقْصَدُ فِي الْمَطَالِبِ غَيْرُهُ.

السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ: الْغَنِيُّ؛ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ.

السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ؛ لَا يَلْحَقُ مَرْتَبَهُ أَحَدٌ بِحَالٍ.

الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ: ذُو الطَّوْلِ يُقَالُ فِيهِ الْقَادِرُ وَالْغَنِيُّ وَالْمُنْعَمُ.

التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ: ذُو الْفَضْلِ؛ وَهُوَ الْمُنْعَمُ يُؤْتِي مَنْ يَشَاءُ.

المُوفِي ثَلَاثِينَ: السَّيِّدُ: الْمُنْفَرِدُ بِالْكَمَالِ.

الحَادِي وَالثَّلَاثُونَ: الْكَرِيمُ؛ وَهُوَ الَّذِي تَعَمُّ إِرَادَتُهُ.

الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ: الطَّيِّبُ: الْمُتَقَدِّسُ عَنِ الْآفَاتِ.

الثَّلَاثُ وَالثَّلَاثُونَ: الْأَوَّلُ؛ الَّذِي لَا أُبْتَدَأُ لَهُ.

الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ: الْآخِرُ؛ الَّذِي لَا انْتِهَاءَ لَهُ.

الخَامِسُ وَالثَّلَاثُونَ: الْبَاقِي؛ هُوَ الَّذِي لَا يَفْنَى.

وَهُوَ الْوَارِثُ، وَهُوَ الدَّائِمُ؛ وَهُمَا السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ وَالسَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ.

الثَّامِنُ وَالثَّلَاثُونَ: الظَّاهِرُ؛ وَهُوَ الَّذِي يُدْرِكُ بِالْذَّلِيلِ.

التَّاسِعُ وَالثَّلَاثُونَ: الْبَاطِنُ؛ وَهُوَ الَّذِي لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ.



المُوفِي أَرْبَعِينَ: اللطيفُ، العالمُ بالخبايا، المهتبلُ بالعطايا، القادرُ، والمقتدرُ، والقديرُ،  
والقويُّ فأكملُ بها أربعةً وأربعونَ .

الخامسُ والأربعونُ: المقيتُ، وهو القادرُ الذي لا يعجزه شيءٌ، المؤتي لكلِّ شيءٍ قوتهُ .  
السادسُ والأربعونُ: المتينُ؛ وهو الذي لا يلحقه ضعفٌ .

الثامنُ والأربعونُ: المحيطُ، وهو الذي لا يخرجُ شيءٌ عن علمه وقدرته وإرادته .

التاسعُ والأربعونُ والمُوفِي خمسينَ: الواسعُ، والموسعُ، وهو الذي عمّت قدرته وإرادته  
وعلمه كلَّ شيءٍ، وكذلك بصره  
وسمعه وكلامه .

العليمُ، والعالمُ، والعلامُ؛ فهذه ثلاثةٌ وخمسونَ اسمًا .

الرابعُ والخمسونُ، والخامسُ والخمسونُ: السميعُ، وهو الذي يسمعُ كلَّ موجودٍ .

والبصيرُ، وهو الذي يرى كلَّ موجودٍ، ويعلمُ المعدومَ والموجودَ .

السادسُ والخمسونُ: الشهيدُ؛ الحاضرُ مع كلِّ موجودٍ بالقُدرةِ والعلمِ والسمعِ والبصرِ .

السابعُ والخمسونُ: الخبيرُ: العالمُ بالخبايا .

الثامنُ والخمسونُ: الطيبُ؛ وهو العالمُ بالمنافعِ .

التاسعُ والخمسونُ: المحصيُّ، وهو الذي ضبطَ علمه وقدرته وإرادته كلَّ شيءٍ .

المُوفِّي سِتِّينَ : المُقَدِّرُ ، وَهُوَ الَّذِي رَتَّبَ مَقَادِيرَ الْأَشْيَاءِ بِحِكْمَةٍ مُنَاسِبَةٍ .  
الْحَادِي وَالسُّتُونَ : الرَّقِيبُ : الَّذِي لَا يَشْغُلُهُ شَأْنٌ عَنُ شَأْنٍ .

(29/298)

الثَّانِي وَالسُّتُونَ : الْقَرِيبُ بِالْعِلْمِ الَّذِي لَا يَخْتَصُّ بِمَكَانٍ .  
الثَّلَاثُ وَالسُّتُونَ : الْحَيُّ .  
الرَّابِعُ وَالسُّتُونَ : الْمُرِيدُ .

الخَامِسُ وَالسُّتُونَ : الْحَكْمُ ، وَهُوَ يَتَصَرَّفُ فِي الدُّعَاءِ فِعْلًا ، تَقُولُ : يَا مَنْ يُفَعِّلُ مَا يَشَاءُ ،  
وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ، صَرَفَنِي بِطَاعَتِكَ ، وَاحْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ يُخَاصِمُنِي فِيكَ .  
السَّادِسُ وَالسُّتُونَ وَالسَّابِعُ وَالسُّتُونَ : الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ : الَّذِي يُرِيدُ الْخَيْرَ لِعِبَادِهِ عَلَى الْعُمُومِ  
وَالْخُصُوصِ .

الثَّامِنُ وَالسُّتُونَ : الْمُحِبُّ ، وَيَتَصَرَّفُ فِعْلًا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .  
وَكَذَلِكَ الْمُبْغِضُ ، فَالَّذِي يَرْجِعَانِ إِلَيْهِ إِرَادَةُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، وَهُوَ التَّاسِعُ وَالسُّتُونَ .  
المُوفِّي سَبْعِينَ : الرِّضَا ؛ يَتَصَرَّفُ فِعْلًا ، وَهُوَ إِرَادَةُ مَا يَكُونُ فَوْقَ الْإِسْتِحْقَاقِ .  
الْحَادِي وَالسَّبْعُونَ : السَّخَطُ ، يَتَصَرَّفُ فِعْلًا .

وَهُوَ إِرَادَةُ خِلَافِ الرِّضَا ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي الكَرَاهِيَّةِ فِي كِتَابِ الأَصُولِ .

الثَّانِي والسَّبْعُونَ : الوُدُودُ ، وَهُوَ الَّذِي يُفَعَلُ

الْخَيْرَ مَعَ مَنْ يُسْتَحِقُّهُ وَمَعَ مَنْ لَا يُسْتَحِقُّهُ .

الثَّلَاثُ والسَّبْعُونَ : العَفْوُ ؛ وَهُوَ الَّذِي يُرِيدُ تَسْهِيلَ الأُمُورِ .

الرَّابِعُ والسَّبْعُونَ : الرِّءُوفُ ؛ وَهُوَ الكَثِيرُ الرَّحْمَةِ .

الخَامِسُ والسَّبْعُونَ : عَدُوُّ الكَافِرِينَ ، وَهُوَ البَعِيدُ بِالعِقَابِ .

السَّادِسُ والسَّبْعُونَ : الوَلِيُّ ، وَهُوَ القَرِيبُ بِالثَّوَابِ وَالتَّعَمُّرِ .

السَّابِعُ والسَّبْعُونَ : الصَّبْرُ ؛ الَّذِي يُرِيدُ تَأْخِيرَ العِقَابِ .

(30/298)

الثَّامِنُ والسَّبْعُونَ : الحَلِيمُ ، الَّذِي يُرِيدُ إِسْقَاطَ العِقَابِ .

التَّاسِعُ والسَّبْعُونَ : المُعَزُّ ، وَهُوَ الَّذِي يُعَزُّ أَوْلِيَاءَهُ .

المُوفِي ثَمَانِينَ : الحَفِيُّ ، وَهُوَ غَايَةُ البِرِّ .

الحَادِي وَالثَّمَانُونَ : الوَلِيُّ ، وَهُوَ المُحِبُّ لِأَوْلِيَاءِهِ .

الثَّانِي وَالثَّمَانُونَ : خَيْرُ الفَاصِلِينَ : الَّذِينَ يُمَيِّزُ المُخْتَلِفَاتِ بِقَوْلِهِ .

الثَّالِثُ وَالثَّمَانُونَ: الْمُبِينُ، وَهُوَ الَّذِي يَعْرِفُ عِبَادَهُ بِكَلَامِهِ مُرَادُهُ؛ وَذَلِكَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ  
خَاصَّةً.

الرَّابِعُ وَالثَّمَانُونَ: الصَّادِقُ: مَنْ لَا يُوجَدُ خَبْرُهُ بِخِلَافٍ مَخْبَرِهِ.  
الخَامِسُ وَالثَّمَانُونَ: الْهَادِي؛ وَهُوَ الَّذِي يَعْرِفُ الْمُرَاشِدَ، وَيُوقِّعُ لَهَا.  
السَّادِسُ وَالثَّمَانُونَ: الرَّشِيدُ بِمَعْنَى الْمُرْشِدِ، وَيَرْجِعُ إِلَى الْهَادِي.  
السَّابِعُ وَالثَّمَانُونَ: نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَرْجِعُ إِلَى الْهُدَى.  
الثَّامِنُ وَالثَّمَانُونَ: الْمُؤْمِنُ، يُصَدِّقُ نَفْسَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ وَيُخَلِّصُهُمْ مِنَ الْعِقَابِ.  
التَّاسِعُ وَالثَّمَانُونَ: الْمُهَيِّمُنُ، فِيهِ كَلَامٌ كَثِيرٌ يَرْجِعُ إِلَى الرَّقِيبِ.  
الْمُوفِي تَسْعِينَ: الْحَمِيدُ، يُثْنِي عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيُثْنُونَ عَلَيْهِ.  
الْحَادِي وَالتَّسْعُونَ: الشُّكُورُ، وَهُوَ الَّذِي يُمْدِحُ عَلَى الْفِعْلِ خَاصَّةً.  
الثَّالِثُ وَالتَّسْعُونَ: غَيُورٌ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَحْرِمُ سِوَاهُ.  
الثَّالِثُ وَالتَّسْعُونَ: الْحَكِيمُ، مُحْكَمُ الْأَشْيَاءِ بِخَلْقِهَا عَلَى نِظَامٍ وَتَدْيِيرٍ.  
الرَّابِعُ وَالتَّسْعُونَ: التَّوَّابُ،  
الَّذِي يَرْجِعُ بِالْعَبْدِ مِنْ حَالِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى حَالِ الطَّاعَةِ.

الخامسُ والتسعون: الفتح، يفتح غلق العدم بالوجود، وغلق الجهل بالعلم، وغلق الرزق بالعطاء؛ وذلك كثير.

ومثله الحكم قال الله تعالى: ﴿ أَغْيِرَ اللَّهُ أُمَّتِي حَكَمًا ﴾ وهو الخامسُ والتسعون.

السادسُ والتسعون: القاضي؛ وهو الذي لا يردُّ حكمه.

السابعُ والتسعون: الكفيل، الملتزم لثواب عباده ورزقهم.

الثامنُ والتسعون: المبرم، هو الذي إذا عقد لم يحلَّ عقده.

التاسعُ والتسعون: المنذر، هو الذي يعرف بكلامه عباده وعيده.

الموفي مائة: المدبر، وهو الذي يعلم الانتهاء قبل الابتداء، فيرده عليه.

الممتحن، البالي، المبلي، المبتي، هو الذي يكلف عباده الوظائف؛ ليعلم من حالهم

في القبول والردِّ مشاهدة ما علم غيبًا، وبها تمت مائة وأربعة.

الخامسُ بعد المائة: الفاتن، وهو المبتي؛ لأنه يرجع إلى الاختبار.

السادسُ بعد المائة: الربُّ، وهو الذي ينقل الأشياء من حال إلى حال، ويبدلهم بصفة بعد

صفة في طريق التموُّ والإنشاء.

السابعُ بعد المائة: العدل، وهو الذي تأتي أفعاله على مقتضى إرادته.

الثامنُ بعد المائة: الخالق، وهو الذي يوجد بعد العدم، ويقدر الأشياء على الأحوال.

التَّاسِعُ بَعْدَ الْمِائَةِ: الْبَارِيُّ؛ مُنْشَى الْبَرِيَّةِ مِنَ الْبَرِيِّ، وَهُوَ التُّرَابُ.

الْعَاشِرُ بَعْدَ الْمِائَةِ: الْمُصَوِّرُ، وَهُوَ الَّذِي يَرْتَبُ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى صِفَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ  
وَهَيْئَاتٍ مُتَغَايِرَاتٍ.

الْحَادِي عَشَرَ بَعْدَ الْمِائَةِ: الْمُبْدِيُّ؛ وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي بِأَوَائِلِ الْأَشْيَاءِ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ.  
الثَّانِي عَشَرَ بَعْدَ

الْمِائَةِ: الْمُعِيدُ، وَهُوَ الَّذِي يَرُدُّهَا، بَعْدَ الْفَنَاءِ، كَمَا كَانَتْ وَجُودًا وَصِفَةً وَوَقْتًا.

الثَّلَاثَ عَشَرَ بَعْدَ الْمِائَةِ: فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، الَّذِي أَنْشَأَهَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ وَقَبْلَ كُلِّ  
مُنْشَى.

الرَّابِعَ عَشَرَ بَعْدَ الْمِائَةِ: الْمُحْيِي، وَيُقَابِلُهُ الْمُمِيتُ، وَهُوَ الْخَامِسَ عَشَرَ بَعْدَ الْمِائَةِ، يُحْيِي  
الْخَلْقَ بِالْوُجُودِ وَالْحَرَكَةِ وَالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْهُدَى، وَيُمِيتُهُمْ بِذَلِكَ إِلَى سَائِرِ مُتَعَلِّقَاتِ  
الْإِحْيَاءِ، حَسْبَمَا رَتَّبْنَاهُ فِي كِتَابِ الْأَمَدِ الْأَقْصَى.

السَّادِسَ عَشَرَ بَعْدَ الْمِائَةِ: الْجَامِعُ، وَهُوَ تَأْلِيفُ الْمُفْتَرِقِ.

السَّابِعَ عَشَرَ بَعْدَ الْمِائَةِ: الْمُعَزُّ، وَفِي مُقَابَلَتِهِ الْمُدِلُّ، وَهُوَ الَّذِي يَرْفَعُ مِقْدَارَ أَوْلِيَائِهِ،

وَيَحُطُّ مِقْدَارَ أُعْدَائِهِ .

الثَّامِنَ عَشَرَ بَعْدَ الْمِائَةِ : مُخْزِي الْكَافِرِينَ ؛ وَالْخِزْيُ هُوَ فِعْلٌ مَا يُسْتَحْيَا مِنْهُ .

التَّاسِعَ عَشَرَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الْعَفْوُ ؛ وَهُوَ الَّذِي يُسْقَطُ حَقَّهُ بَعْدَ الْوُجُوبِ .

العِشْرُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الْقَهَّارُ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَغْلِبُ الْعِبَادَ .

(33/298)

الحَادِي وَالْعِشْرُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الْوَهَّابُ ؛ وَهُوَ الَّذِي يُعْطِي مَنْ غَيْرِ تَوَقُّعِ عَوَضٍ .

الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الرَّزَاقُ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَهَبُ الْغِذَاءَ وَالْاِكْتِسَاءَ مِنْ رِيَاشٍ

وَمَعَاشٍ .

الثَّلَاثُ وَالْعِشْرُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : جَوَادٌ ، وَهُوَ الْكَثِيرُ الْعَطَاءِ .

الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ وَالْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الْخَافِضُ ، الرَّافِعُ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَحُطُّ

دَرَجَةَ أُعْدَائِهِ ، وَيُعْلِي مَنَازِلَ أَوْلِيَائِهِ وَمَقَادِيرَهُمْ دُنْيَا وَآخِرَةً ؛ جَاهًا وَمَالًا ، عَمَلًا

وَاعْتِقَادًا .

السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ وَالسَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الْقَابِضُ ، الْبَاسِطُ ؛ وَهُوَ الَّذِي لَا

يَتَصَرَّفُ عَبْدُهُ وَلَا يَنْبَسِطُ إِلَّا بِقُدْرَتِهِ ، وَفِي حَيْزِ مَشِيئَتِهِ ؛ فَإِنَّ خَلْقَ لَهُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْعُمُومِ

تَبَسَّطُ

عَلَى مَا خُلِقَتْ لَهُ ، وَإِنْ خَلَقَهَا عَلَى الْخُصُوصِ تَعَلَّقَتْ بِمَا خُلِقَتْ لَهُ وَقَدَّرَتْ بِهِ .  
الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ وَالتَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الْمُقَدَّمُ ، وَالْمُؤَخَّرُ ؛ وَذَلِكَ مَعْنَى يَرْجِعُ  
إِلَى الْأَوْقَاتِ ، يَخْلُقُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ، بِحَسَبِ مَا عَلِمَهُ وَقَضَاهُ وَقَدَّرَهُ ؛ لَيْسَ لِأَحَدٍ ذَلِكَ  
إِلَّا لَهُ .

الثَّلَاثُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الْمُقْسِطُ ؛ وَهُوَ الَّذِي تَجْرِي أَحْكَامُهُ عَلَى مُقْتَضَى إِرَادَتِهِ .  
الْحَادِي وَالثَّلَاثُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : النَّصِيرُ ؛ وَهُوَ الَّذِي يُتَابِعُ الْأَاءَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَيَكْفُ عَنْهُمْ  
عَادِيَةً أَعْدَائِهِ .

(34/298)

---

الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الشَّافِي ؛ وَهُوَ الَّذِي يَهَبُ الصِّحَّةَ بَعْدَ الْمَرَضِ .  
الثَّلَاثُ وَالثَّلَاثُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : مُقَلَّبُ الْقُلُوبِ ؛ وَهُوَ اسْمٌ عَظِيمٌ ، مَعْنَاهُ مُصَرِّفُهَا أَسْرَعَ مِنْ مَرِّ  
الرِّيحِ عَلَى اخْتِلَافِ فِي الْقَبُولِ وَالرَّدِّ وَالْيَقِينِ وَالشَّكِّ ، وَالْإِرَادَةِ وَالْكَرَاهِيَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ  
الْأَوْصَافِ .

الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ وَالْخَامِسُ وَالثَّلَاثُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الضَّارُّ ، النَّافِعُ ؛ وَهُوَ خَالِقُ الْأَلَمِ الَّذِي يَقَعُ



بِهِ مُوَازَنَةٌ .

وَالنَّفْعُ هُوَ كُلُّ مَا لَا أَلَمَ فِيهِ ؛ وَهُوَ نَعِيمُ الْجَنَّةِ ، فَأَمَّا الدُّنْيَا فَلَا تَخْلُو مِنْهُمَا عَنْ الْإِشْتِرَاكِ .  
السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : ذُو الْمَعَارِجِ يَعْنِي الَّذِي يُؤْتِي الْمَنَازِلَ ، وَيُصَرِّفُ الْأُمُورَ عَلَى الْمَرَاتِبِ ، وَيُنَزِّلُ الْمَأْمُورِينَ عَلَى الْمَقَادِيرِ .  
السَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ؛ الْمَنَازِلُ لِلَّهِ يُؤْتِيهَا مَحْمُودَةً لِمَنْ يَحِبُّ ، وَمَذْمُومَةً لِمَنْ يَبْغِضُ .

الثَّامِنُ وَالثَّلَاثُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ، هُوَ الَّذِي يُظْهِرُ خِلَافَ مَا يُبْطِنُ .  
التَّاسِعُ وَالثَّلَاثُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : مُتَمُّ نُورِهِ ؛ أَيُّ يَدُومُ وَلَا يَنْقَطِعُ ، وَيُظْهِرُ وَلَا يَخْفَى ، فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ بِالْإِيمَانِ ؛ وَيُبَيِّنُ

أَيْدِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْجَوَازِ عَلَى الصِّرَاطِ ، وَفِي الْجَنَّةِ بِالنَّعِيمِ الدَّائِمِ .  
الْمُوفِي أَرْبَعِينَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الْوَكِيلُ ؛ وَهُوَ الَّذِي يُلْقِي إِلَيْهِ الْخَلْقُ مَقَالِيدَهُمْ ، فَلَا يَقُومُ بِهَا أَحَدٌ غَيْرَهُ .

الْحَادِي وَالْأَرْبَعُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الْمُسْتَعَانُ ؛ وَهُوَ الَّذِي لَا يَطْلُبُ الْعُونَ وَهُوَ خَلْقُ الْقُدْرَةِ عَلَى الطَّاعَةِ إِلَّا مِنْهُ .

الثَّانِي وَالْأَرْبَعُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الْمَعْبُودُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُتَذَلُّ إِلَّا لَهُ .

الثَّلَاثُ وَالْأَرْبَعُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ : الْمَذْكُورُ ؛ وَهُوَ الَّذِي لَا يَجْرِي لِسَانُ الْإِلَهِ ، وَلَا يَعْمُرُ خَاطِرُهُ إِلَّا بِذِكْرِهِ ، وَلَا يُرَى شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ فِيهِ بِأَدْلَتِهِ وَأَثَارِ صُنْعَتِهِ .

الخَامِسُ وَالْأَرْبَعُونَ وَالسَّادِسُ وَالْأَرْبَعُونَ وَمِائَةٌ : أَهْلُ التَّقْوَى ، وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ؛ الَّذِي لَا يُتَقَى سِوَاهُ ، وَلَا يُغْفَرُ الذُّنُوبَ غَيْرُهُ الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : هَذَا مُنْتَهَى مَا حَضَرَ مِنْ ذِكْرِ الْأَسْمَاءِ لِلتَّضَرُّعِ وَالِاتِّهَالِ ؛ وَقَدْ بَقِيَ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِينَ اسْمًا ضَمَّنَّاهَا كِتَابَ الْأَمَدِ " ، هَذِهِ أُصُولُهَا .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ فَهَذَا هُوَ قِسْمُ الْعَمَلِ .

وَالدُّعَاءُ فِي اللُّغَةِ وَالْحَقِيقَةِ هُوَ الطَّلِبُ ؛ أَيُّ اطْلُبُوا مِنْهُ بِأَسْمَائِهِ ، فَيُطَلَبُ بِكُلِّ اسْمٍ مَا يَلِيقُ بِهِ ، نَقُولُ : يَا رَحِيمُ ارْحَمْنِي ، يَا حَكِيمُ احْكُمْ لِي ، يَا رَزَاقُ ارْزُقْنِي ، يَا هَادِي اهُدِنِي .

وَإِنْ دَعَوْتَ بِاسْمٍ عَامٍ قُلْتَ : يَا مَالِكُ ارْحَمْنِي ، يَا عَزِيزُ احْكُمْ لِي ، يَا لَطِيفُ ارْزُقْنِي .

وَإِنْ دَعَوْتَ بِالْأَسْمِ الْأَعْظَمِ قُلْتَ: يَا اللَّهُ، فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِكُلِّ اسْمٍ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ  
الْأَمَدِ، وَلَا تَقُلْ يَا رِزَاقُ أَهْدِنِي إِلَّا أَنْ تُرِيدَ يَا رِزَاقُ ارْزُقْنِي الْهُدَى، وَهَكَذَا رَتَّبَ دُعَاكَ  
عَلَى اعْتِقَادِكَ تَكُنُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ يُقَالُ: الْهَدَى  
وَلَحَدَ: إِذَا مَالَ.

وَالْإِلْحَادُ يَكُونُ بَوَجهَيْنِ: بِالزِّيَادَةِ فِيهَا، وَالتُّنْقِصَانِ مِنْهَا، كَمَا يَفْعَلُهُ الْجُهَالُ الَّذِينَ يَخْتَرِعُونَ  
أَدْعِيَةً يُسَمُّونَ فِيهَا الْبَارِيَّ بِغَيْرِ أَسْمَائِهِ وَيَذْكُرُونَهُ بِمَا لَمْ يَذْكُرْهُ مِنْ أَعْمَالِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ،  
مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ؛ فَحَذَارِ مِنْهَا، وَلَا يَدْعُونَ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا بِمَا فِي الْكُتُبِ الْخَمْسَةِ؛ وَهِيَ  
كِتَابُ الْبُخَارِيِّ، وَمُسْلِمٍ، وَالتِّرْمِذِيِّ، وَأَبِي دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيِّ؛ فَهَذِهِ الْكُتُبُ هِيَ بَدْءُ  
الْإِسْلَامِ، وَقَدْ دَخَلَ فِيهَا مَا فِي الْمَوْطَأِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ التَّصَانِيفِ؛ وَذَرُوا سِوَاهَا، وَلَا  
يَقُولَنَّ أَحَدٌ: أَخْتَارُ دُعَاءَ كَذَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اخْتَارَ لَهُ، وَأَرْسَلَ بِذَلِكَ إِلَى الْخَلْقِ رَسُولَهُ.  
انتهى انتهى. اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربي ح 2 ص ﴾

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

وذلك أن رجلاً دعا الله في صلاته ، ودعا الرحمن .

فقال أبو جهل : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو

ربين اثنين ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ الرحمن الرحيم الملك

القدوس ونحوه .

فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الرجل فقال : " ادعُ الله أو ادعُ الرحمن رَغْمًا لِأَنَّ

المُشْرِكِينَ " ويقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ يعني : الصفات العلى ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

﴿

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً

وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدَةً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمِنْ أَسْمَائِهِ عَزَّ وَجَلَّ الرَّحْمَنُ

الرَّحِيمُ " وقد ذكرنا تفسيرها ومن أسمائه الأحد وأصله الواحد بمعنى الواحد ، وهو الذي

ليس كمثلته شيء ، ومنها الصمد وهو السيد الذي صمد إليه كل شيء أي قصده .

ومنها القيوم وهو البالغ في القيام بكل ما خلق .

ومنها الولي يعني : المتولي أمور المؤمنين .

ومنها اللطيف وهو الذي يلطف بالخلق من حيث لا يعلمون ، ولا يقدررون ومنها الودود

الحب الشديد المحبة .

ومنها الظاهر والباطن الذي يعلم ما ظهر وما بطن .

ومنها البديع الذي ابتدع الخلق على غير مثال .

ومنها القدوس أي ذو البركة .

ويقال : الظاهر ومنها الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء .

ومنها الحنان أي ذو الرحمة والعطف .

ومنها المنان الكثير المنّ على عباده .

ومنها الفتاح يعني : الحاكم .

ومنها الديان يعني : المجازي .

ومنها الرقيب : يعني الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء .

ومنها ذو القوة المتين يعني الشديد القوة على أمره .

ومنها الوكيل الذي يتوكل بالقيام بجميع ما خلق .

ومنها السبوح الذي تنزهه عن كل سوء ومنها السلام يعني : الذي سلّم الخلق من ظلمه .

ومنها المؤمن الذي أمن الخلق من ظلمه .

---

ومنها العزيز أي: المنيع الذي لا يغلبه شيء .

ومنها المهيمن يعني: الشهيد .

ومنها الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد .

ومنها المتكبر الذي تكبر عن ظلم العباد .

ومنها البارئ يعني: الخالق وسائر الأسماء التي ثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعن الصحابة رضي الله عنهم .

وقال الزجاج: لا ينبغي لأحد أن يدعو بما لم يصف به نفسه ، ولم يسم به نفسه ، فيقول: يا

جواد ولا ينبغي له أن يقول: يا سخي ، لأنه لم يسم به نفسه .

وكذلك يقول: يا قوي ولا يقول: يا جلد .

ثم قال: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ قرأ حمزة ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ بنصب الياء

والحاء .

وقرأ الباقر بضم الياء وكسر الحاء ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ فمن قرأ بالنصب فمعناه: وذروا

الذين يميلون في أسمائه يعني: يُحَوِّرون ويمارون في أسمائه ويعدلون ، فسموا اللات والعزى .

ومن قرأ بالضم فمعناه: وذروا الذين يجادلون ويمارون في أسمائه .

ويقال: إن الله تعالى قد احتج على الكفار بأربعة أشياء بالخلق .

وهو قوله تعالى: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: 11] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [لقمان: 11] وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ [الحج: 73] والثاني في الملك وهو قوله ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَكْدًا سَبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَاتُونَ ﴾ [البقرة: 116].

(39/298)

---

وقال في الأوثان ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الزمر: 43] والثالث في القوة وهو قوله: ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كَمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: 20] ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11] ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ [هود : 61] ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : 58] وقال في الأوثان :  
﴿ اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ  
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴾ [الأعراف : 195] فوصفهم  
بالعجز .

والرابع بالأسماء فقال ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ وقال في الأوثان ﴿ وَذَرُّوا الَّذِينَ  
يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ ويقال : إن الكفار أرادوا أن يسموا آلهتهم الله فجرى على لسانهم  
اللات وقال أهل اللغة : إنما سمي اللات لأنه كان عنده رجل كان يلت السويق .  
وأرادوا أن يسموا العزيز فجرى على لسانهم العزى .  
وأرادوا أن يسموا منان فجرى على لسانهم مناة .  
وبقيت تلك الأسماء للأصنام .  
وأصل الإلحاد هو الميل ولهذا سمي اللحد لحداً لأنه في ناحية .



ثم قال ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : وسيهانون ويعاقبون بما كانوا يعملون من

الشرك والإلحاد في الأسماء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بجز العلوم ح 1 ص ﴾

(41/298)

وقال الثعلبي :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

قال مقاتل : وذلك أن رجلاً دعا الله في صلواته ودعا الرحمن ، فقال رجل من مشركي مكة

: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعورين اثنين ، فأنزل

الله ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ وهو تائيت الأحسن كالكبرى والأكبر والصغرى

والأصغر ، والأسماء الحسنى هي الرحمن الرحيم . الملك القدوس السلام ونحوها .

الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله تبارك وتعالى

تسعة وتسعين اسماً ، مائة غير واحدة ، من أحصاها كلها دخل الجنة " .

﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ . قال ابن عباس : يكذبون ، وقال قتادة :

يشركون ، وقال عطاء : ظامئون ، زيد بن أسلم : يميلون عن الحق . ابن عباس ومجاهد :

هم المشركون . وإلحادهم في أسماء الله عز وجل أنهم عدلوا بها عما هي عليه فسموا بها

أوثانهم وزادوا فيها ونقصوا منها فاشتقوا اللات من الله تعالى والعزى من العزيز ومنات من  
المتان .

وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله تعالى يسميه بما لم يسم به ولا ينطق به كتاب ولا دعا  
إليه رسول ، وأصل الإلحاد الميل والعدول عن القصد ومنه لحد القبر . فيقال: ألحد يلحد  
إلحاداً ولحد يلحد لحداً ولحوداً إذا مال .

وقد قرئ بهما جميعاً فقرأ يحيى بن رثاب والأعمش وحمزة: بفتح الياء والحاء هاهنا وفي  
النحل (رحم) . وقرأ الباقون: بضم الياء وكسر الحاء وهما لغتان [صحيحتان] .

وأما الكسائي فإنه قرأ التي في النحل بفتح الياء والحاء وفي الأعراف (رحم) بالضم وكل  
يفرق بين الإلحاد واللحود فيقول: الإلحاد العديل عن القصد والحد واللحود الركون ،

ويزعم أن التي في النحل يعني الركون ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الآخرة . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(42/298)

وقال الماوردي:

قوله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

قال ابن عباس : كل أسمائه حسنى وفي المراد بالحسنى ها هنا وجهان :

أحدهما : ما مالت إليه القلوب من ذكره بالعفو والرحمة دون السخط والنقمة .

والثاني : أسماءه التي يستحقها لنفسه ولفعله ومنها صفات هي طريقة المعرفة به ، وهي

تسعة :

القديم الأول قبل كل شيء . والباقي بعد فناء كل شيء . والقادر الذي لا يعجزه شيء

والعالم الذي لا يخفى عليه شيء . والحلي الذي لا يموت . والواحد الذي ليس كمثل شيء

والسميع البصير الذي لا يعزب عنه شيء والغني بنفسه عن كل شيء .

وفي دعائه بها وجهان :

أحدهما : نداؤه بها عند الرغبة إليه في الدعاء والطلب .

والثاني : تعظيمه بها تعبدًا له بذكرها .

﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه يكذبون ، قاله ابن عباس .

والثاني : يشركون ، قاله قتادة .

والثالث : يحورون ، قاله الأخفش .

وفي إلحادهم فيها قولان :

أحدهما : اشتقاقهم آلهتهم من أسماء الله ، كما سموا بعضها باللات اشتقاقاً من الله ،

وبعضها بالعزى اشتقاقاً من العزيز، قاله ابن عباس، ومجاهد.

والثاني: تسميتهم الأوثان آلهة والله عز وجل أبا المسيح وعزير. انتهى انتهى. اهـ

﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(43/298)

وقال ابن عطية:

قوله تعالى: ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ الآية،

السبب في هذه الآية على ما روي، أن أبا جهل سمع بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فيذكر الله في قراءته ومرة يقرأ فيذكر الرحمن ونحو هذا فقال: محمد يزعم أن الإله واحد وهو إنما يعبد لآهلة كثيرة فنزلت هذه ﴿ الأسماء ﴾ هنا بمعنى التسميات إجماعاً من المتأولين لا يمكن غيره، و﴿ الحسنى ﴾: مصدر ووصف به، ويجوز أن تقدر ﴿ الحسنى ﴾ فعلى مؤنثه أحسن، فأفرد وصف جميع ما لا يعقل كما قال ﴿ ما رب أخرى ﴾ [ طه: 18 ] وكما قال ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾ [ سبأ: 10 ] وهذا كثير، وحسن الأسماء إن أم يتوجه بتحسين الشرع لإطلاقها، والنص عليها، وانضاف إلى ذلك أيضاً أنها إنما تضمنت معاني حسناً شريفة.

واختلف الناس في الاسم الذي يقتضي مدحاً خالصاً ولا يتعلق به شبهة ولا اشتراك ، إلا أنه لم ير منصوصاً هل يطلق ويسمى الله به ؟ فنص ابن الباقلاني على جواز ذلك ونص أبو الحسن الأشعري على منع ذلك ، والفقهاء والجمهور على المنع ، وهو الصواب أن لا يسمى الله تعالى إلا باسم قد أطلقته الشريعة ووقفت عليه أيضاً ، فإن هذه الشريطة التي في جواز إطلاقه من أن تكون مدحاً خالصاً لا شبهة فيه ولا اشتراك أمر لا يحسنه إلا الأقل من أهل العلوم فإذا أبيح ذلك تسور عليه من يظن بنفسه الإحسان وهو لا يحسن فأدخل في أسماء الله ما لا يجوز إجماعاً ، واختلف أيضاً في الأفعال التي في القرآن مثل قوله :

(44/298)

---

﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ [ البقرة : 15 ] ﴿ ومكر الله ﴾ [ آل عمران : 54 ] ونحو ذلك هل يطلق لها اسم الفاعل ؟ فقالت فرقة : لا يطلق ذلك بوجه ، وجوزت فرقة أن يقال ذلك مقيداً بسببه فيقال : الله مستهزىء بالكافرين وماكر بالذين يمكرون بالدين ، وأما إطلاق ذلك دون تقييد فممنوع إجماعاً ، والقول الأول أقوى ولا ضرورة تدفع إلى القول الثاني لأن صيغة الفعل الواردة في كتاب الله تغني ومن أسماء الله تعالى ما ورد في القرآن ومنها ما ورد في الحديث وتواتر ، وهذا هو الذي ينبغي أن يعتمد عليه ، وقد ورد في

الترمذي حديث عن أبي هريرة ونص فيه تسعة وتسعين اسماً ، وفي بعضها شذوذ وذلك الحديث ليس بالمتواتر وإنما المتواتر منه قول النبي صلى الله عليه وسلم " إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة " ، ومعنى أحصاها عدّها وحفظها وتضمن ذلك الإيمان بها والتعظيم لها والرغبة فيها والعبرة في معانيها ، وهذا حديث البخاري ، والمتحصل منه أن الله تعالى هذه الأسماء مباحاً إطلاقها وورد في بعض دعاء النبي صلى الله عليه وسلم " يا حنان يا منان " ولم يقع هذا الاسم في تسمية الترمذي .  
وقوله : ﴿ فادعوه بها ﴾ إياحة بإطلاقها ، وقوله تعالى : ﴿ وذروا الذين ﴾ قال ابن زيد : معناه اتركوهم ولا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم ، فالآية على هذا منسوخة بالقتال ، وقيل : معناه الوعيد كقوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ [المدثر : 11] وقوله : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ [الحجر : 3] ويقال الحد ولحد بمعنى جار ومال وانحرف ، وأحد أشهر ، ومنه قول الشاعر : [الرجز]

(45/298)

---

ليس الإمام بالشحيح الملحد . . . قال أبو علي : ولا يكاد يسمع لأحد وفي القرآن ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد ﴾ [الحج : 25] ومنه لحد القبر المائل إلى أحد شقيه ، وقرأ أبو عمرو وابن

كثير ونافع وعاصم وابن عامر "يُلحِدون" بضم الياء وكسر الحاء وكذلك في النحل  
والسجدة، وقرأ حمزة الأحرف الثلاثة "يَلحَدون" بفتح الياء والحاء وكذلك ابن وثاب  
وطلحة وعيسى والأعمش، ومعنى الإلحاد في أسماء الله عز وجل أن يسموا اللات نظيراً  
إلى اسم الله تعالى قاله ابن عباس: والعزى نظيراً إلى العزيز، قاله مجاهد، ويسمون الله رباً  
ويسمون أوثانهم أرباباً ونحو هذا، وقوله: ﴿سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وعيد محض  
بعذاب الآخرة، وذهب الكسائي إلى الفرق بين إلحاد ولد وزعم أن إلحاد بمعنى مال  
وانحرف ولحاد بمعنى ركن وانضوى، قال الطبري: وكان الكسائي يقرأ جميع ما في القرآن  
بضم الياء وكسر الحاء إلا التي في النحل فإنه كان يقرأها بفتح الياء والحاء وينزع أنها بمعنى  
الركن وكذلك ذكر عنه أبو علي. انتهى انتهى. ١٠ هـ ﴿المحرر الوجيز ح 2 ص﴾

(46/298)

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾

سبب نزولها: أن رجلاً دعا الله في صلاته، ودعا الرحمن، فقال أبو جهل: أليس يزعم  
محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعواثنين؟ فأنزل الله هذه الآية،

قاله مقاتل : فأما الحسنى ، فهي تأنيث الأحسن .

ومعنى الآية أن أسماء الله حسنى ، وليس المراد أن فيها ما ليس بحسن .

وذكر الماوردي أن المراد بذلك ما مالت إليه النفوس من ذكره بالعفو والرحمة دون السخط والنقمة .

وقوله : ﴿ فادعوه بها ﴾ أي : نادوه بها ، كقولك : يا الله يا رحمن .

قوله تعالى : ﴿ وذروا الذين يُلحدون في أسمائه ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ،

وعاصم ، وابن عامر : ﴿ يُلحدون ﴾ بضم الياء ، وكذلك في [ النحل : 103 ] و [

السجدة ] [ فصلت : 40 ] .

وقرأ حمزة : " يلحدون " بفتح الحاء والياء فيهن ، ووافقه الكسائي ، وخلف في [ النحل :

103 ] .

قال الاخفش : الحَدَ ولَحَدَ : لغتان ، فمن قرأ بهما أراد الأخذ باللغتين ، فكأن الإلحاد :

العدول عن الاستقامة ، وقال ابن قتيبة : يجورون عن الحق يعدلون ؛ [ فيقولون اللات

والعزى ومناة وأشباه ذلك ] ومنه لحدُ القبر ، لأنه في جانب .

قال الزجاج : ولا ينبغي لأحد أن يدعوه بما لم يسم به نفسه ، فيقول : يا جواد ، ولا يقول : يا

سخي ، ويقول : يا قوي ، ولا يقول : يا جلد ، ويقول : يا رحيم ، ولا يقول : يا رفيق ، لأنه لم

يصف نفسه بذلك .



قال أبو سليمان الخطابي: ودليل هذه الآية أن الغلط في أسمائه والزيغ عنها إلحادٌ، ومما يُسمع على السنة العامة قولهم: يا سبحانُ، يا برهانُ، وهذا مهجور مستهجن لا قدوة فيه، وربما قال بعضهم: يا رب طه ويس .  
وقد أنكر ابن عباس على رجل قال: يا رب القرآن .

(47/298)

---

وروي عن ابن عباس أن إلحادهم في أسمائه أنهم سمّوا بها أوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان .

فصل

والجمهور على أن هذه الآية محكمة، لأنها خارجة مخرج التهديد، كقوله: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ [المدثر: 11]، وقد ذهب بعضهم إلى أنها منسوخة بآية القتال، لأن قوله: ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ يقتضي الإعراض عن الكفار، وهذا قول ابن زيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

(48/298)

---

وقال النسفي :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

التي هي أحسن الأسماء لأنها تدل على معانٍ حسنة؛ فمنها ما يستحقه بحقائه كالقديم

قبل كل شيء ، والباقي بعد كل شيء ، والقادر على كل شيء ، والعالم بكل شيء ،

والواحد الذي ليس كمثلته شيء ، ومنها ما تستحسنه الأنفس لآثارها كالغفور والرحيم

والشكور والحليم ، ومنها ما يوجب التحلق به كالفضل والعفو ، ومنها ما يوجب مراقبة

الأحوال كالسميع والبصير والمقتدر ، ومنها ما يوجب الإجلال كالعظيم والجبار والمتكبر

﴿ فادعوه بِهَا ﴾ فسموه بتلك الأسماء ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ واتركوا

تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى ، وذلك أن

يسمونه بما لا يجوز عليه نحو أن يقولون : يا سخي يا رفيق ، لأنه لم يسم نفسه بذلك .

ومن الإلحاد تسميته بالجسم والجوهر والعقل والعلة ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ حمزة لحد وألحد مال

﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفي حـ 2 صـ 87 ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ أمر بإخلاص العبادة لله ،

ومجانبة المشركين والملحدين .

قال مقاتل وغيره من المفسرين : نزلت الآية في رجل من المسلمين ، كان يقول في صلاته : يا

رحمن يا رحيم .

فقال رجل من مشركي مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما

بال هذا يدعورين اثنين ؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

﴿ .

الثانية جاء في كتاب الترمذي وسنن ابن ماجه وغيرهما حديث عن أبي هريرة عن النبي

صلى الله عليه وسلم نص فيه أن لاله تسعة وتسعين اسماً ؛ في أحدهما ما ليس في الآخر .

وقد بينا ذلك في ( الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ) .

قال ابن عطية وذكر حديث الترمذي وذلك الحديث ليس بالمتواتر ، وإن كان قد قال فيه أبو

عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح ، وهو ثقة عند أهل

الحديث .

وإنما المتواتر منه قوله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة" ومعنى "أحصاها" عدّها وحفظها .

وقيل غير هذا مما بيناه في كتابنا .

وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذيّ، وذكرنا من الأسماء ما اجتمع عليه وما اختلف فيه مما وقفنا عليه في كتب أئمتنا ما يُنَيّف على مائتي اسم .

وذكرنا قبل تعيينها في مقدمة الكتاب اثنين وثلاثين فصلاً فيما يتعلق بأحكامها ، فمن أرادَه وقف عليه هناك وفي غيره من الكتب الموضوععة في هذا الباب .

والله الموفق للصواب ، لأرب سواه .

الثالثة واختلف العلماء من هذا الباب في الاسم والمسمى ، وقد ذكرنا ما للعلماء من ذلك في (الكتاب الأسنى) .

قال ابن الحصار: وفي هذه الآية وقوع الاسم على المسمى ووقوعه على التسمية .

(50/298)

---

فقوله: ﴿ وَكَلِّهِ ﴾ وقع على المسمى ، وقوله: ﴿ الْأَسْمَاءُ ﴾ وهو جمع اسم واقع على التسميات .

يدل على صحة ما قلناه قوله: ﴿ فادعوه بها ﴾ ، والهاء في قوله: ﴿ فادعوه ﴾ تعود على المسمى سبحانه وتعالى ، فهو المدعو .

والهاء في قوله "بها" تعود على الأسماء ، وهي التسميات التي يدعى بها لا غيرها . هذا الذي يقتضيه لسان العرب .

ومثل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد " الحديث .

وقد تقدم في "البقرة" شيء من هذا .

والذي يذهب إليه أهل الحق أن الاسم هو المسمى ، أو صفة له تتعلق به ، وأنه غير التسمية .

قال ابن العربي عند كلامه على قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ : فيه ثلاثة أقوال . قال بعض علمائنا : في ذلك دليل على أن الاسم المسمى ؛ لأنه لو كان غيره لوجب أن تكون الأسماء لغير الله تعالى .

الثاني قال آخرون : المراد به التسميات ؛ لأنه سبحانه واحد والأسماء جمع .

قلت ذكر ابن عطية في تفسيره أن الأسماء في الآية بمعنى التسميات إجماعاً من المتأولين لا يجوز غيره .

وقال القاضي أبو بكر في كتاب التمهيد : وتأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لله

تسعة وتسعون اسما من أحصاها دخل الجنة "أي أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف ،  
وهي عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى ، منها ما يستحقه لنفسه ومنها ما  
يستحقه لصفة تتعلق به ، وأسماءه العائدة إلى نفسه هي هو ، وما تعلق بصفة له فهي أسماء  
له .

ومنها صفات لذاته .

ومنها صفات أفعال .

وهذا هو تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ أي التسميات  
الحسنى .

الثالث قال آخرون منهم : ولله الصفات .

الرابعة سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى لأنها حسنة في الأسماع والقلوب ؛ فإنها تدل  
على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله .  
والحسنى مصدر ووصف به .

ويجوز أن يقدر "الحُسْنَى" فُعْلَى ، مؤنث الأحسن ؛ كالكبرى تأنث الأكبر ، والجمع الكُبر والحُسْن .

وعلى الأول أفرد كما أفرد وصف ما لا يعقل ؛ كما قال تعالى : ﴿ مَا رَبُّ أُخْرَى ﴾ [ طه : 18 ] و ﴿ يَا جِبَالَ أُؤْبِي مَعَهُ ﴾ [ سبأ : 10 ] .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ أي اطلبوا منه بأسمائه ؛ فيطلب بكل اسم ما يليق به ، تقول : يا رحيم ارحمني ، يا حكيم احكم لي ، يا رازق ارزقني ، يا هادي اهدني ، يا فتاح افتح لي ، يا تواب تب عليّ ؛ هكذا .

فإن دعوت باسم عام قلت : يا مالك ارحمني ، يا عزيز احكم لي ، يا لطيف ارزقني .

وإن دعوت بالأعمّ الأعظم قلت : يا الله ؛ فهو متضمن لكل اسم .

ولا تقول : يا رزاق اهدني ؛ إلا أن تريد يا رزاق ارزقني الخير .

قال ابن العربيّ : وهكذا ، رتب دعائك تكن من المخلصين .

وقد تقدّم في "البقرة" شرائط الدعاء ، وفي هذه السورة أيضاً .

والحمد لله .

السادسة أدخل القاضي أبو بكر ابن العربيّ عدّة من الأسماء في أسمائه سبحانه ، مثل مِتَم

نوره ، وخير الوارثين ، وخير الماكرين ، ورابع ثلاثة ، وسادس خمسة ، والطّيب ، والمعلّم ؛

وأمثال ذلك .

قال ابن الحصار : واقتدى في ذلك بابن بَرَّجَان ، إذ ذكر في الأسماء "النظيف" وغير ذلك مما لم يرد في كتاب ولا سنة .

قلت : أمّا ما ذكر من قوله "مما لم يرد في كتاب ولا سنة" فقد جاء في صحيح مسلم "الطيب" .

وخرج الترمذي "النظيف" .

وخرج عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه : "رب أعني ولا تعن عليّ وانصرني ولا تنصر عليّ وامكر لي ولا تمكر عليّ" الحديث .  
وقال فيه : حديث حسن صحيح .

فعلى هذا جائز أن يقال : يا خير الماكرين امكر لي ولا تمكر عليّ .  
والله أعلم .

وقد ذكرنا "الطيب" ، والنظيف " في كتابنا وغيره مما جاء ذكره في الأخبار ، وعن السلف الأخيار ، وما يجوز أن يسمى به ويدعى ، وما يجوز أن يسمى به ولا يدعى ، وما لا يجوز أن يسمى به ولا يدعى .



حسب ما ذكره الشيخ أبو الحسن الأشعريّ .

وهناك يتبين لك ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فيه مسألان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ الإلحاد : الميل وترك القصد ؛ يقال : ألحد الرجل في الدين .

وألحد إذا مال .

ومنه اللحد في القبر ؛ لأنه في ناحيته .

وقرىء "يُلْحِدُونَ" لغتان والإلحاد يكون بثلاثة أوجه : أحدها بالتغيير فيها كما فعله المشركون ، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه فسمّوا بها أو ثابتهم ؛ فاشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان قاله ابن عباس وقتادة .

الثاني بالزيادة فيها .

الثالث بالنقصان منها ؛ كما يفعله الجهال الذين يخرعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه ، ويذكرونه بغير ما يذكر من أفعاله ؛ إلى غير ذلك مما لا يليق به .

قال ابن العربيّ : "فَحَذَارِ مِنْهَا ، ولا يدعون أحدكم إلا بما في كتاب الله والكتب الخمسة ؛ وهي البخاريّ ومسلم والترمذيّ وأبو داود والنسائيّ .

فهذه الكتب التي يدور الإسلام عليها ، وقد دخل فيها ما في الموطأ الذي هو أصل التصانيف ، وذروا ما سواها ، ولا يقولنَّ أحدكم أختار دعاء كذا وكذا ؛ فإن الله قد اختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله صلى الله عليه وسلم .

الثانية معنى الزيادة في الأسماء التشبيه ، والنقصان التعطيل .

فإن المشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه ، والمعطلة سلبوه ما اتصف به ، ولذلك قال أهل الحق : إن ديننا طريق بين طريقين ، لا بتشبيه ولا بتعطيل .

وسئل الشيخ أبو الحسن البوشنجي عن التوحيد فقال : إثبات ذات غير مشبهة بالذوات ، ولا معطلة من الصفات .

وقد قيل في قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ ﴾ معناه اتركوهم ولا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم .

فالآية على هذا منسوخة بالقتال ؛ قاله ابن زيد .

(53/298)

---

وقيل : معناه الوعيد ؛ كقوله تعالى : ﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ [المدثر : 11] .

وقوله : ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ [الحجر : 3] .

وهو الظاهر من الآية؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . والله أعلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿تفسير القرطبي ح 7 ص﴾

(54/298)

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾

قال مقاتل: إن رجلاً دعا الله في صلواته ودعا الرحمن فقال بعض مشركي مكة قال ابن

الجوزي: هو أبو جهل إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا

يدعوا اثنين فأنزل الله هذه الآية ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ والحسنى تأنيث الأحسن،

ومعنى الآية أن أسماء الله سبحانه وتعالى المقدسة كلها حسنى وليس المراد أن فيها ما

ليس بحسن والمعنى أن الأسماء الحسنى ليس إلا لله لأن هذا اللفظ يفيد الحصر .

وقيل إن الأسماء أفاض دالة على معان فهي إنما تحسن بمعانيها ولا معنى للحسن في حق الله

تبارك وتعالى إلا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال وهي محصورة في نوعين:

أحدهما: عدم افتقاره إلى غيره .

الثاني: افتقاره إليه وإنه هو المسمى بالأسماء الحسنى (ق) .

عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر" وفي رواية "من أحصاها" وفي رواية أخرى "لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر" وفي رواية "من أحصاها" وفي رواية أخرى "لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحداً لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر" قال البخاري: أحصاها حفظها .

(55/298)

---

وفي رواية عن الترمذي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقدر المعدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو

الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور  
الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور " قال الترمذي : حدثنا به غير واحد عن  
صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث قال  
وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ولا  
نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء التي في هذا الحديث .  
قال ابن الأثير : وفي رواية ذكرها رزين أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) تلا قوله والله  
الأسماء الحسنی فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون فقال  
: " إن لله تبارك وتعالى تسع وتسعين اسماً " الحديث .

(56/298)

---

قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى : اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه  
حصر لأسمائه سبحانه وتعالى وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين  
وإنما المقصود من الحديث أن هذه التسعة والتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة فالمراد  
عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء ولهذا جاء في الحديث الآخر  
" أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك " وقد ذكر

المحافظ أبو بكر العربي المالكي عن بعضهم أن لله ألف اسم .

قال ابن العربي : وهذا قليل .

وقوله ( صلى الله عليه وسلم ) : " من أحصاها دخل الجنة " تقدم فيه قول البخاري أن

معناه حفظها وهو قول أكثر المحققين وبعضه الرواية الأخرى من حفظها دخل الجنة .

وقيل : المراد من الإحصاء العدد أي عدها في الدعاء بها .

وقيل معناه من أطاقها وأحسن المراعاة لها والمحافظة على ما تقتضيه وصدق بمعانيها

وعمل بمقتضاها دخل الجنة وقيل معنى أحصاها أحضر بياله عند ذكرها معناه وتفكر في

مدلولها معتبراً متديراً ذاكراً راغباً راهباً معظماً لها ولمسماها ومقدساً لذات الله سبحانه

وتعالى وأن يخطر بياله عند ذكر كل اسم الوصف الدال عليه ، وقوله والله وتر يجب الوتر

الوتر الفرد ومعناه في وصف الله تعالى أنه الواحد الذي لا شريك له ولا نظير فيه تفضيل

الوتر في الأعمال لأن أكثر الطاعات وتروفيه دليل على أن أشهر أسمائه سبحانه وتعالى الله

لإضافة الأسماء إليه فيقال الرؤوف والكريم واللطيف من أسماء الله ولا يقال من أسماء الله

الرؤوف والكريم واللطيف الله وقد قيل إن لفظة الله هو الاسم الأعظم .

(57/298)

---

قال أبو القاسم القشيري: فيه دليل على أن الاسم هو المسمى إذ لو كان غيره لكانت  
الأسماء لغيره وقد قال ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ وقال الإمام فخر الدين  
الرازي: دلت الآية على أن الاسم غير المسمى لا تدل على أن أسماء الله كثيرة لأن لفظ  
الأسماء الجمع وهو يفيد الثلاثة فما فوقها فثبت أن أسماء الله كثيرة ولا شك أن الله واحد  
فلزم القطع بأن الاسم غير المسمى وأيضاً قوله سبحانه وتعالى: ولله الأسماء يقتضي  
إضافة الأسماء إلى الله وإضافة الشيء إلى نفسه محال.

وقال غيره: الاسم عبارة عن اللفظ الدال على الشيء المسمى به فهو غيره.  
وقال أهل اللغة: إنما جعل الاسم تنويهاً على المعنى لأن المعنى تحت الاسم والتسمية غير  
الاسم لأن التسمية عبارة عن وضع اللفظ المعين لتعريف ذات الشيء والاسم عبارة عن  
تلك اللفظة المعينة والفرق ظاهر.

قال العلماء: وكما يجب تنزيه الله عن جميع النقائص فكذلك يجب تنزيه أسمائه أيضاً وقوله  
سبحانه وتعالى: ﴿ فادعوه بها ﴾ يعني ادعوا الله بأسمائه التي سمي بها نفسه أو سماه بها  
رسوله ففيه دليل على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية ومما يدل على صحة هذا  
القول ويؤكد أنه يجوز أن يقال يا جواد ولا يجوز أن يقال يا سخي ويجوز أن يقال يا عالم ولا  
يجوز أن يقال يا عاقل ويجوز أن يقال يا حكيم ولا يجوز أن يقال يا طيب وللدعاء شرائط  
منها أن يعرف الداعي معاني الأسماء التي يدعوبها ويستحضر في قلبه عظمة المدعو

سبحانه وتعالى ويخلص النية في دعائه مع كثرة التعظيم والتبجيل والتقديس لله ويعزم  
المسألة مع رجاء الإجابة ويعترف الله سبحانه وتعالى بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية فإذا  
فعل العبد ذلك عظم موضع الدعاء وكان له تأثير عظيم ❁ وذروا الذين يلحدون في  
أسمائه ❁ معنى الإلحاد في اللغة الميل عن القصد والعدول عن الاستقامة .

(58/298)

---

وقال ابن السكيت : الملحد العادل عن الحق المدخل في ما ليس منه يقال ألحد في الدين  
إلحاداً إذا عدل عنه ومال إلى غيره .

قال المحققون : الإلحاد يقع في أسماء الله تعالى على وجوه :

أحدها : إطلاق أسماء الله على غيره وذلك أن المشركين سمو أصنامهم بالآلهة واشتقوا  
لها أسماء من أسماء الله تعالى فسموا اللات والعزى ومناة واشتقاق اللات من الإله والعزى  
من العزيز ومناة من المنان وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد .

الوجه الثاني : وهو قول أهل المعاني أن الإلحاد في أسماء الله هو تسميته بما لم يسم به نفسه  
ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لأن أسماء الله سبحانه وتعالى كلها توقيفية كما تقدم فلا  
يجوز فيها غير ما ورد في الشرع بل ندعو الله بأسمائه التي وردت في الكتاب والسنة على



وجه التعظيم .

الوجه الثالث : مراعاة حسن الأدب في الدعاء فلا يجوز أن يقال يا ضار يا مانع يا خالق

القردة على انفراد بل يقال يا ضرا يا نافع يا خالق الخلق .

الوجه الرابع : أن لا يسمي الله العبد باسم لا يعرف معناه فإنه ربما سماه باسم لا يليق إطلاقه

على جلال الله سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يسمى به لما فيه من الغرابة .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ يعني في الآخرة ففيه وعيد

وتهديد لمن أهدى في أسماء الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

(59/298)

وقال أبو حيان :

﴿ والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا

يعملون ﴾

قال مقاتل : دعا رجل الله تعالى في صلاته ومرة دعا الرحمن ، فقال أبو جهل : أليس يزعم

محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعواثنين فنزلت ، ومناسبتها لما

قبلها أنه تعالى لما ذكر أنه ذرأ كثيراً من الجن والإنس للنار ذكر نوعاً منهم وهم ﴿ الذين

يلحدون في أسمائه ﴿ وهم أشد الكفار عتياً أبوجهل وأضرابه وأيضاً لما نبه على أن دخولهم جهنم هو للغفلة عن ذكر الله والمخلص من العذاب هو ذكر الله أمر بذكر الله بأسمائه الحسنی وصفاته العلا والقلب إذا غفل عن ذكر الله وأقبل على الدنيا وشهواتها وقع في الحرص ، وانتقل من رغبة إلى رغبة ومن طلب إلى طلب ومن ظلمة إلى ظلمة ، وقد وجدنا ذلك بالذوق حتى إن أحدهم ليصلي الصلوات كلها قضاءً في وقت واحد فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله تعالى تخلص من آفات الغفلة وامتل ما أمره الله به واجتنب ما نهى عنه .

قال الزمخشري : التي هي أحسن الأسماء لأنها لا تدل على معان حسنة من تحميد وتقديس وغير ذلك انتهى ، فالحسنی هي تأنيث الأحسن ووصف الجمع الذي لا يعقل بما يوصف به الواحدة كقوله ﴿ ولى فيها مأرب أخرى ﴾ وهو فصيح ولو جاء على المطابقة للجمع لكان التركيب الحسن على وزن الآخر كقوله ﴿ فعدة من أيام آخر ﴾ لأن جمع ما لا يعقل يخبر عنه ويوصف بجمع المؤنثات وإن كان المفرد مذكراً ، وقيل : ﴿ الحسنی ﴾ مصدر ووصف به ، قال ابن عطية : و ﴿ والأسماء ﴾ هاهنا : بمعنى التسميات إجماعاً من المتأولين لا يمكن غيره انتهى .

---

ولا تحرير فيما قال لأن التسمية مصدر والمراد هنا الألفاظ التي تطلق على الله تعالى وهي الأوصاف الدالة على تغاير الصفات لا تغاير الموصوف كما تقول جاء زيد الفقيه الشجاع الكريم وكون الاسم الذي أمر تعالى أن يدعى به حسناً هو ما قرره الشرع ونص عليه في إطلاقه على الله ومعنى ﴿ فادعوه بها ﴾ أي نادوه بها كقولك : يا الله يا رحمن يا مالك وما أشبه ذلك ، وقال الزمخشري : فسّمّوه بتلك الأسماء جعله من باب دعوت ابني عبد الله أي سمّيته بهذا الاسم واختلف في الاسم الذي يقتضي مدحاً خالصاً ولا تتعلق به شبهة ولا اشتراك إلا أنه لم يرد منصوصاً هل يطلق ويسمى الله تعالى به فنص القاضي أبو بكر الباقلاني على الجواز ونص أبو الحسن والأشعري على المنع ، وبه قال الفقهاء والجمهور وهو الصواب واختلف أيضاً في الأفعال التي في القرآن كقوله تعالى :

﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ و ﴿ يمكرون ويمكر الله ﴾ هل يطلق عيه منه تعالى اسم فاعل مقيد بمتعلقه فيقال الله مستهزئ بالكافرين وماكر بالذين يمكرون فجوز ذلك فرقة ومنعت منه فرقة وهو الصواب وأما إطلاق اسم الفاعل بغير قيده فالإجماع على منعه ، وروى الترمذي في جامعه من حديث أبي هريرة النص على تسعة وتسعين اسماً مسرودة اسماً اسماً ، قال ابن عطية : وفي بعضها شذوذ وذلك الحديث ليس بالمتواتر وإن كان قد قال فيه أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من طريق حديث صفوان بن صالح وهو ثقة

عند أهل الحديث وإنما المتواتر منه قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة" ومعنى أحصاها عدّها وحفظها وتضمّن ذلك الإيمان بها والتعظيم لها والعبرة في معانيها وهذا حديث البخاري انتهى ، وتسمية هذا الحديث متواتراً ليس على اصطلاح المحدثين في المتواتر وإنما هو خبر آحاد .

(61/298)

---

وفي بعض دعاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يا حنان يا منان" ولم يردا في جامع الترمذي وقد صنّف العلماء في شرح أسماء الله الحسنى كأبي حامد الغزالي وابن الحكم بن بركان وأبي عبد الله الرازي وأبي بكر بن العربي وغيرهم ، قال الزمخشري : ويجوز أن يراد والله الأوصاف الحسنى وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق وصفوه بها ﴿ وذروا الذين يلحدون ﴾ في صفاته فيصفونه بمشبهة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها ، وقيل : معنى قوله ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ اتركوهم ولا تتجاهوهم ولا تعرضوا لهم قاله ابن زيد فتكون الآية على هذا منسوخة بالقتال ، وقيل : معناه الوعيد كقوله ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ وقوله ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ وقال الزمخشري واطركو تسمية الذين يميلون عن

الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه كما سمعنا البدو بجهلهم يقولون: يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا سخي، أو أن يابوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى نحو أن يقولوا: يا الله ولا يقولوا: يا رحمن، وقيل: معنى الإلحاد في أسمائه تسميتهم أو ثنائهم اللات نظراً إلى اسم الله تعالى والعزى نظراً إلى العزيز قاله مجاهد، ويسمون الله أبا وأوئانهم أرباباً ونحو هذا، وقال ابن عباس: معنى ﴿يلحدون﴾ يكذبون، وقال قتادة: يشركون، وقال الخطابي: الغلط في أسمائه والزبغ عنها إلحاد، وقرأ حمزة: ﴿يلحدون﴾ بفتح الياء والحاء وكذا في النحل والسجدة وهي قراءة ابن وثاب والأعمش وطلحة وعيسى، وقرأ باقي السبعة بضم الياء وكسر الحاء فيهنّ و﴿سيجزون﴾ وعيد شديد واندرج تحت قوله ﴿ما كانوا يعملون﴾ الإلحاد في أسمائه وسائر أفعالهم القبيحة. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط ح 4 ص﴾

(62/298)

وقال أبو السعود :

﴿ولله الأسماء الحسنى﴾

تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلين بذلك الغافلين عنه سبحانه

عما يليق به من الأمور وما لا يليق به إثر بيان غفلتهم التامة وضلالتهم الطامة ، والحسنى  
تأنيثُ الأحسن أي الأسماء التي هي أحسنُ الأسماء وأجلها لإنباتها عن أحسن المعاني  
وأشرفها ﴿ فادعوه بها ﴾ أي فسموه بتلك الأسماء ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه  
﴿ الإلحادُ واللحدُ : الميل والانحراف يُقال : لحد وألحد إذا مال عن القصد ، وقرىء  
يلحدون من الثلاثي أي يميلون في شأنها عن الحق إلى الباطل ، إما بأن يسموه تعالى بما لا  
توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسداً كما في قول أهل البدو : يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا  
سخي ونحو ذلك ، فالمرادُ بالترك المأمور به : الاجتنابُ عن ذلك ، وبأسمائه : ما أطلقوه  
عليه تعالى وسموه به على زعمهم لا أسماؤه تعالى حقيقةً وعلى ذلك يُحمل ترك الإضمار  
بأن يقال : يلحدون فيها ، وإما بأن يعدلون عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة كما قالوا  
: وما الرحمن ؟ ما نعرف سوى رحمان اليمامة . فالمرادُ بالترك الاجتنابُ أيضاً وبالأسماء  
أسماءه تعالى حقيقةً فالمعنى سُموه تعالى بجميع أسمائه الحسنی واجتنبوا إخراج بعضها من  
البين ، وإما بأن يُطلقوها على غيره تعالى كما سُموا أصنامهم آلهة ، وإما بأن يشتقوا من  
بعضها أسماءً أصنامهم كما اشتقوا اللات من الله تعالى والعزى من العزيز ، فالمراد بالأسماء  
أسماءه تعالى حقيقةً كما في الوجه الثاني . والإظهارُ في موقع الإضمار مع التجريد عن  
الوصف في الكل للإيدان بأن إلحادهم في نفس الأسماء من غير اعتبار الوصف ، وليس  
المرادُ بالترك حينئذ الاجتناب عن ذلك إذا لا يتوهم صدور مثل هذا الإلحاد عن المؤمنين

لِيُؤْمَرُوا بِتَرْكِهِ بَلْ هُوَ الْإِعْرَاضُ عَنْهُمْ وَعَدَمُ الْمَبَالَاةِ بِمَا فَعَلُوا تَرْقُبًا لِنَزُولِ الْعُقُوبَةِ بِهِمْ عَنْ قَرِيبٍ  
كَمَا هُوَ الْمَتَبَادِرُ

(63/298)

---

من قوله: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فإنه استئنافٌ وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ من  
الأمر بعدم المبالاة والإعراض عن المجازاة، كأنه قيل: لم لا نبالي بالحادثهم ولا نتصدى  
لمجازاتهم؟ فقيل: لأنه سينزل بهم عقوبته وتشفون بذلك عن قريب. وأما على الوجهين  
الأولين فالمعنى اجتنبوا الحادثهم كيلا يصيبكم ما أصابهم فإنه سينزل بهم عقوبة الحادثهم.  
انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 3 ص ﴾

(64/298)

---

وقال الأوسى:

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

قل: تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلين بذلك الغافلين عنه

سبحانه وتعالى و عما يليق بشأنه عز شأنه إثرياً بيان غفلتهم التامة وضلالهم الطامة ،  
وسياتي إن شاء الله تعالى وجه آخر لذكر ذلك .

والمراد بالأسماء كما قال حجة الإسلام الغزالي وغيره الألفاظ المصوغة الدالة على المعاني  
المختلفة ، والحسنى تأنيث الأحسن أفعال تفضيل ، ومعنى ذلك أنها أحسن الأسماء  
وأجلها لأنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها ، وقيل : المراد بالأسماء الصفات ويكون من  
قولهم طار اسمه في البلاد أي صييته ونعته ، والجمهور على الأول لقوله عز اسمه : ﴿  
فادعوه بها ﴾ لأنه إما من الدعوة بمعنى التسمية كقولهم : دعوت زيداً أو يزيداً أي سميته أو  
من الدعاء بمعنى النداء كقولهم : دعوت زيداً أي ناديته ، وعلى التقديرين إنما يلائم ظاهر  
المعنى الأول على ما قيل .

﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ أي يميلون وينحرفون فيها عن الحق إلى الباطل  
يقال : ألحد إذا مال عن القصد والاستقامة ، ومنه لحد القبر لكونه في جانبه بخلاف الضريح  
فإنه في وسطه ، وقرأ حمزة هنا وفي فصلت ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ بالفتح من الثلاثي والمعنى  
واحد ، وروى أبو عبيدة عن الأحمر أن ألحد بمعنى مارى وجادل ، ولحد بمعنى مال  
وانحرف ، واختار الواحدي قراءة الجمهور قال : ولا يكاد يسمع لأحد بمعنى ملحد ،  
والإلحاد في أسمائه سبحانه أن يسمى بما لا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسداً كما في قول  
أهل البدو يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه يا سخي ونحو ذلك ، فالمراد بالترك المأمور به



الاجتناب عن ذلك ، وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم لأسماءه تعالى حقيقة ، وعلى ذلك يحمل ترك الإضمار بأن يقال : يلحدون بها ، وما قيل : إنه أريد بالأسماء التسميات فلذا ترك الإضمار ليس بشيء ، ومن فسر الإلحاد في الأسماء بما ذكر ذهب إلى أن أسماء الله تعالى توقيفية يراعي فيها الكتاب والسنة والإجماع فكل اسم ورد في هذه الأصول جاز إطلاقه عليه جل شأنه وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه وإن صح معناه ، وبهذا صرح أبو القاسم القشيري في مفاتيح الحجج ومصابيح النهج ، وفي أبحار الأفكار للآمدي ليس مأخذ جواز تسميات الأسماء الحسنی دليلاً عقلياً ولا قياساً لفظياً وإلا لكان تسمية الرب تعالى فقيهاً عاقلاً مع صحة معاني هذه التسميات في حقه وهي العلم والفقهاء أولى من تسميته سبحانه وتعالى بكثير مما يشكل ظاهره بل مأخذ ذلك إنما هو الإطلاق والإذن من الشارع فكل ما ورد الإذن به منه جوزناه وما ورد المنع منه منعناه وما لم يوجد فيه إطلاق ولا منع فقد قال بعض أصحابنا بالمنع منه وليس القول بالمنع مع عدم وروده أولى من القول بالجواز مع عدم وروده إذ المنع والجواز حكمان ، وليس إثبات أحدهما مع عدم الدليل أولى من الآخر بل الحق في ذلك هو

الوقف وهو أن لا نحكم بجواز ولا منع والمتبع في ذلك كله الظواهر الشرعية كما هو المتبع في سائر الأحكام وهو أن يكون ظاهراً في دلالة وفي صحته ولا يشترط فيه القطع كما ذهب إليه بعض الأصحاب لكون المنع والجواز من الأحكام الشرعية ، والفرقة بين حكم وحكم في اشتراط القطع في أحدهما دون الآخر تحكم لا دليل عليه انتهى ، وأنت تعلم أن المشهور التفرقة بين الأحكام الأصولية الاعتقادية والأحكام الفرعية العملية كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى قريباً ، وخلاصة الكلام في هذا المقام أن علماء الإسلام اتفقوا على جواز إطلاق الأسماء والصفات على الباري تعالى إذا ورد بها الإذن من الشارع وعلى امتناعه إذا ورد المنع عنه ، واختلفوا حيث لا إذن ولا منع في جواز إطلاق ما كان سبحانه وتعالى متصفاً بمعناه ولم يكن من الأسماء الأعلام الموضوعية في سائر اللغات إذ ليس جواز إطلاقها عليه تعالى محل نزاع لأحد ، ولم يكن إطلاقه موهماً نقصاً بل كان مشعراً بالمدح فمنعه جمهور أهل الحق مطلقاً للخطر ، وجوزته المعتزلة مطلقاً ، ومال إليه القاضي أبو بكر لشيوع إطلاق نحو خدا وتكرى من غير نكير فكان إجماعاً ، ورد بأن الإجماع كاف في الإذن الشرعي إذا ثبت .

واعترضه أيضاً أمام الحرمين بأنه قول بالقياس وهو حجة في العمليات والأسماء والصفات من العمليات ، وروى بعضهم عنه التوقف ، وذكر في "شرح المواقف" أن القاضي أبا بكر ذهب إلى أن كل لفظ دل على معنى ثابت لله تعالى جاز إطلاقه عليه إذا لم يكن موهماً لما لا

يليق بذاته تعالى ، ثم قال : وقد يقال : لا بد مع نفي ذلك الإيهام من الإشعار بالتعظيم حتى يصح الإطلاق بلا توقف وجعل مذهب المعتزلة غير مذهبه والمشهور ما ذكرناه .

(66/298)

---

وفصل الغزالي قدس سره فجوز إطلاق الصفة وهو ما دل على معنى زائد على الذات ومنع إطلاق الاسم وهو ما يدل على نفس الذات محتجاً بإباحة الصدق واستحبابه والصفة لتضمنها النسبة الخبرية راجعة إليه وهي لا تتوقف إلا على تحقق معناها بخلاف الاسم فإنه لا يتضمن النسبة الخبرية وأنه ليس إلا للأبوين أو من يجري مجراهما .  
وأجيب بأن ذلك حيث لا مانع من استعمال اللفظ الدال على تلك النسبة والخطر قائم ،  
وأين التراب من رب الأرباب ؟ .

واختار جمع من المتأخرين مذهب الجمهور قالوا : فيطلق ما سمع على الوجه الذي سمع ولا يتجاوز ذلك إلا الف التعرف والتنكر سواء أوهم كالصبور والشكور والجبار والرحيم أو لم يوهم كالقادر والعالم ، والمراد بالسمعي ما ورد به كتاب أو سنة صحيحة أو إجماع لأنه غير خارج عنهما في التحقيق بخلاف الضعيفة والقياس أيضاً إن قلنا : إن المسألة من العمليات أما إن قلنا : إنها من العمليات فالسنة الضعيفة كالحسنة إلا الواهية جداً ، والقياس

كالإجماع، وأطلق بعضهم المنع في القياس وهو الظاهر لاحتمال إيهام أحد المترادفين دون الآخر.

وجعل بعضهم من الثابت بالقياس المترادفات من لغة أو لغات، وليس بذاك، ومن الثابت بالإجماع الصانع والموجود والواجب والقديم، قيل: والعلة، وقيل: الصانع والقديم مسموعان كالحنان والمنان، ونص بعض المحققين على أنه يمنع إطلاق غير المضاف إذا كان مرادفاً للمضاف المسموع قياساً كما يمنع إطلاق ما ورد على وجه المشاكلة والمجاز، وأنه لا يكفي ورود الفعل والمصدر ونحوهما في صحة إطلاق الوصف فلا يطلق الحارث والزراع والرامي والمستهزىء والمنزل والماكر عليه سبحانه وتعالى وإن جاءت آيات تشعر بذلك.

(67/298)

---

هذا ومن الناس من قال: إن الألفاظ الدالة على الصفات ثلاثة أقسام: الأول ما يدل على صفات واجبة وهو أصناف: منها ما يصح إطلاقه مفرداً لا مضافاً نحو الموجود والأزلي والقديم وغيرها، ومنها ما يصح إطلاقه مفرداً ومضافاً إلى ما لا هجئة فيه نحو الملك والمولى والرب والخالق.

ومنها ما يصح مضافاً غير مفرد نحوياً منشىء الرفات ومقيل العثرات، والثان ما يدل على

صفات ممتنعة نحو اليد والوجه والنزول والجمي ء فلا يصح إطلاقه البتة ، وإن ورد به السمع  
كان التأويل من اللوازم .

والثالث ما لا يدل على صفات واجبة ولا ممتنعة بل يدل على معان ثابتة نحو المكر والخداع  
وأمثالهما فلا يصح إطلاقه إلا إذا ورد التوقيف ، ولا يقال : يا مكاريا خداع البتة وإن كان  
مذكوراً ما يدل عليه كقوله تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : 54] انتهى ،  
ولا يخفى ما فيه .

وذكر الطيبي أن الحق الاعتماد في الإطلاق على الإطلاق على التوقيف ، وأن كل ما أذن  
الشارع أن يدعي به الله عز وجل سواء كان مشتقاً أو غير مشتق فهو اسم ، وكل ما نسب  
إليه سبحانه وتعالى من غير ذلك الوجه سواء كان مؤولاً أو غير مؤول فهو وصف ؛ وجعل  
الحي وصفاً والكريم اسماً وادعى أنه يقال يا كريم ولا يقال يا حي مع ورود اللفظين فيه  
سبحانه وتعالى فيما أخرجه أبو داود .

والترمذي من حديث سلمان رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه  
قال : " الله تعالى حي كريم يستحي إذا رفع العبد يده أن يردّها صفراً حتى يضع فيها خيراً  
" وذكر أن التعريف في الأسماء للعهد وأنه لا بد من المعهود لأنه سبحانه وتعالى أمر بالدعاء  
بها ونهى عن الدعاء بغيرها وأوعد على ذلك .

---

وروى الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة" وفي رواية أحصاها، وفي أخرى "إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً" وأوتي فيه بالفضل والتأكيد لتلايد على ما ورد.

وجاءت معدودة في بعض الروايات بقوله عليه الصلاة والسلام "هو الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرفع المعز المذل السميع البصير الحكيم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المحيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباحث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواحد الماجد الواحد الصمد القادر المقدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعال البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور".

ونقل عن أهل البيت رضي الله تعالى عنهم غير ذلك وأخذوها من القرآن؛ وجاء أيضاً

عندنا ما يخالف هذه الرواية في بعض الأسماء .

وذكر غير واحد من العلماء أن هذه الأسماء منها ما يرجع إلى صفة فعلية ومنها ما يرجع إلى

صفة نفسية ومنها ما يرجع إلى صفة سلبية .

(69/298)

---

ومنها ما اختلف في رجوعه إلى شيء مما ذكر وعدم رجوعه وهو الله والحق أنه اسم للذات

وهو الذي إليه يرجع الأمر كله ، ومن هنا ذهب الجليل إلى أنه الاسم الأعظم ، وتنقسم قسمة

أخرى إلى ما لا يجوز إطلاقه على غيره سبحانه وتعالى كالله والرحمن وما يجوز كالرحيم

والكريم وإلى ما يباح ذكره وحده كأكثرها وإلى ما لا يباح ذكره كذلك كالميت والضار فإنه

لا يقال : يا ميت يا ضار بل يقال : يا محيي يا مميت يا نافع يا ضار ، والذي أراه أنه لا حصر

لأسمائه عزت أسمائه في التسعة والتسعين ، ويدل على ذلك ما أخرجه البيهقي عن ابن

مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصابه هم أو حزن فليقل : اللهم

إني عبدك وابن عبدك وابن أمك ناصيتي في يدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك

أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو

استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وذهاب همي

وجلاء حزني " الحديث ، وهو صريح في عدم الحصر لمكان أو أو .  
وحكى محيي الدين النووي اتفاق العلماء على ذلك وأن المقصود من الحديث الإخبار بأن  
هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة وهو لا ينافي أن له تعالى أسماء غيرها غير  
موصوفة بذلك .

ونقل أبو بكر بن العربي عن بعضهم أن له سبحانه وتعالى ألف اسم ثم قال : وهذا قليل وهو  
كما قال .

(70/298)

---

وعن بعضهم أنها أربعة آلاف ، وعن بعض الصوفية أنها لا تكاد تحصى ، والمختار عندي  
عدم توقف إطلاق الأسماء المشتقة الراجعة إلى نوع من الصفات النفسية وال فعلية وكذا  
الصفات السلبية عليه تعالى على التوقيف الخاص بل يصح الإطلاق بدونه لكن بعد  
التحري التام وبذل الوسع فيما هونص في التعظيم والتحفظ إلى الغاية عما يوهم أدنى أدنى  
نقص معاذ الله تعالى في حقه سبحانه لأننا ما ذنون بتعظيم الله تبارك وتعالى بالأقوال  
والأفعال ولم يجد لنا حد فيه ؛ فمتى كان في الإطلاق تعظيم له عز وجل كان ما ذونا به ،  
والتكليف منوط بالوسع ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ فبعد بذل الوسع في التعظيم



يرتفع الحرج.

وحديث الخطر الذي يذكرونه يستدعي أن لا يصح إطلاق ما ثبت تواتراً إطلاقه عليه  
جل وعلا أو اجتمعت الأمة على إطلاقه لأن الثبوت فيما عدا ذلك ظني والخطر فيه يقيني  
، والأسماء المتقدمة آنفاً لم يوجد في كثير من الروايات ذكرها وهي مشهورة من حديث  
الترمذي ، وقد قال : إنه حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديثه  
وهو ثقة عند أهل الحديث ، وأنت تعلم أن هذا القدر لا يثبت به اليقين بل ولا بمثله ومثله ،  
على أن عد بعض أهل البيت كما في الدر المنثور للتسعة والتسعين وكذا غيرهم كما لا  
يخفى على المتبحر يخالف هذا العد ، وسند ذلك الخبر وإن لم يكن في المائة كسند هذا إلا  
أنه لا أقل يورث الشبهة اللهم إلا أن يقال : حصل الإجماع على ما في حديث الترمذي دون ما  
في حديث غيره المخال له لكن لم أقف على من حكى ذلك .

(71/298)

---

ثم إن هذه الأسماء المذكورة مما ذكرنا لا مانع من الدعاء بها ومن إجرائها اخباراً عنه  
سبحانه وتعالى أو أوصافاً له جل وعز وكلها حسنى ، وتسميتها بذلك من جهة أنها  
بالمعنى المراد منها بالنسبة إليه تعالى مختصة به جل وعلا اختصاص الاسم ولا تطلق على

غيره بالمعنى المراد منها حال إطلاقها على الله تعالى وإنما تطلق على الغير بمعنى آخر ليس بينه وبين ذلك المعنى إلا كما بين السواد والبياض فإن بينهما غاية البعد الذي لا يتصور أن يكون بعد فوّه لكنهما متشاركان في العرضية واللونية والمدركية بالبصر وأمور آخر سوى ذلك ، وبهذا لا يعد البياض مماثلاً للسواد أو بالعكس لأن المماثلة عبارة عن المشاركة في النوع والماهية وهي مفقودة هنا وكذا هي مفقودة بين العلم مثلاً الذي يوصف الله تعالى به والعلم الذي يوصف غيره سبحانه وتعالى به ولا يعلم حقيقة ذلك وماهية إلا الله تعالى كما لا يعرف حقيقة الله تعالى إلا الله تعالى في الدنيا والآخرة .

نعم لو قال قائل : لا أعرف إلا الله تعالى صدق ولكن من جهة أخرى ، ونهاية معرفة العارفين العجز عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة أنهم لا يعرفونه فإذا انكشف لهم ذلك فقد عرفوا وبغلو المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته سبحانه وتعالى .

(72/298)

---

وهذا الذي أشار إليه الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه حيث قال : العجز عن درك الإدراك إدراك بل هو الذي عناه سيد البشر صلى الله عليه وسلم بقوله : " لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " فإنه عليه الصلاة والسلام أراد إني لا أحيط بحامدك

وصفات إلهيتك وإنما أنت المحيط به وحدك لا أني أعرف منك ما لا أستطيع التعبير عنه  
بلساني ، وتفاوت درجات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والملائكة والأولياء في المعرفة إنما  
هو بالوقوف على عجائب آياته في ملكوت السموات والأرض وخلق الأرواح والأجساد  
وحينئذ يتفاوتون في معرفة الأسماء والصفات ، ومعرفة أن زيدا عالماً مثلاً ليست كمعرفة  
تفاصيل علومه كما لا يخفى ، ولا يرد على ما ذكرنا من الاختصاص أنه يأباه تقسيمهم  
أسماءه تعالى إلى مختص كالرحمن وغير مختص كالرحيم لأن مرادهم بالمختص ما اعتبر في  
مفهومه المطابق ما يمنع من الإطلاق على الغير ، وقد نص البيضاوي على أن معنى الرحمن  
المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها وذلك لا يصدق على غير تعالى فلذا لا يوصف به ،  
وبغير المختص ما لم يعتبر في مفهومه ذلك بل اعتبر فيه معنى عام فيطلق لذلك على الله تعالى  
وعلى غيره ، لكن حال إطلاقه عليه تعالى يراد الفرد الكامل من ذلك المفهوم الذي لا يليق  
ولا يمكن أن يثبت إلا لله عز وجل ، وقد يقال : لا فرق بين الأسماء المشتقة التي يوجد في  
الغير مبدأ اشتقاقها في الجملة من حيث أن اعتبار ذلك الوجود يقتضي عدم الاختصاص ،  
واعتماد الوجود على أتم وجهه وأكمله يقتضي اختصاص من غير تفرقة بين اسم واسم إلا  
أنا حكمنا بالاختصاص في بعض وعدمه في آخر الأمر آخر كالأستعمال وعدم الاستعمال  
وأذن الشارع وعدم إذنه فلا يابى ما قلناه أيضاً نعم اعتبار الاختصاص بالله تعالى في

الأسماء المذكورة في الآية لا يتأتى فيها بناء على أن تقديم الخبر يفيد الاختصاص أيضاً  
فيكون المعنى لله لا غيره الأسماء التي تختص به تعالى ولا

(73/298)

---

تطلق على غيره ، ويؤذل إلى أن الأسماء المختصة به سبحانه وتعالى مختصة به جل وعلا  
وهو مما لا فائدة فيه ، وحينئذ لا بد إما من حمل الأسماء على الصفات كما قال البعض ،  
ومعنى الحسنى الكاملة من كل وجه أي لله تعالى لا غيره الصفات الكاملة لأن صفات غيره  
سبحانه وتعالى كيفما كانت ناقصة لا أقل من أن العدم محيط بطرفيها ، ومعنى فادعوه بها  
الحسموه بما يشق منها أو نادوه بذلك وذروا الذين يميلون عن الحق في صفاته فيسمون بها  
غيراً أو يدعون معتقدين الشركة ودعوهم وإلحادهم ، وإما من ارتكاب ضرب من التجوز ،  
وما ذكره الطيبي من أن التعريف في الأسماء للعهد إلى آخر ما قاله مما لا أظنك في مرية من  
ركاكة فتأمل .

وجوز أن يراد بالإلحاد العدول عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة كما قالوا : وما  
الرحمن ؟ إنا لا نعرف إلا الرحمن اليمامة ، وعليه فالمراد بالترك الاجتناب كما أريد أولاً  
بالأسماء أسماؤه تعالى حقيقة ، فالمعنى سموه تعالى بجميع أسمائه واجتنبوا إخراج بعضها

من البين ، وأن يراد به إطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كالكلمات من الله تعالى والعزى من العزيز ، فالمراد من الأسماء أسماءه تعالى حقيقة ، والإطهار في موضع الإضمار مع التجريد عن الوصف في الكل للإيدان بأن إلحادهم في نفس الأسماء من غير اعتبار الوصف .

والمراد بالترك الإعراض وعدم المبالاة بما فعلوا ترقباً لنزول العقوبة فيهم عن قريب كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فإنه استئناف وقع جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل : لم الانبالي ؟ فقيل : لأنه سينزل بهم عقوبة وتشتفون عن قريب ، والمعنى على الأمر بالاجتناب اجتنبوا إلحادهم كيلا يصيبكم ما يصيبهم فإنه سينزل بهم عقوبة ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(74/298)

وقال الشوكاني :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

هذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بماله من الأسماء ، على الجملة دون التفصيل ، والحسنى تأنيث الأحسن ، أي التي هي أحسن الأسماء لدالاتها على أحسن

مسمى وأشرف مدلول ، ثم أمرهم بأن يدعوها عند الحاجة ، فإنه إذا دعي بأحسن  
أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة ، وقد ثبت في الصحيح : " إن لله تسعة وتسعين اسماً  
من أحصاها دخل الجنة " وسيأتي ، ويأتي أيضاً بيان عددها ، آخر البحث إن شاء الله .  
قوله : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمِهِ ﴾ الإلحاد : الميل وترك القصد .

يقال لحد الرجل في الدين وألحد : إذا مال ، ومنه اللحد في القبر ، لأنه في ناحية ، وقرىء  
" يلحدون " وهما لغتان ، والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه ، إما بالتغيير  
كما فعله المشركون ، فإنهم أخذوا اسم اللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان  
؛ أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها ، أو بالنقصان منها بأن  
يدعوه ببعضها دون بعض .

ومعنى ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ ﴾ أتركوهم ولا تحاجوهم ، ولا تعرضوا لهم ، وعلى  
هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال ، وقيل معناه الوعيد كقوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ  
خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ [ المدثر : 11 ] ، وقوله : ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا ﴾ [ الحجر : 3 ]  
وهذا أولى لقوله : ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فإنه وعيد لهم بنزول العقوبة ، وتحذير  
للمسلمين أن يفعلوا كفعالهم .

وقد ذكر مقاتل وغيره من المفسرين ، أن هذه الآية نزلت في رجل من المسلمين كان يقول في

صلاته يا رحمن يا رحيم ، فقال رجل من المشركين اليس يزعم محمد وأصحابه أنهم  
يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعورين اثنين ؟ حكى ذلك القرطبي .

(75/298)

---

وقد أخرج أحمد ، والبخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ،  
وأبو عوانة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن منده ، وابن مردويه ، وأبو نعيم  
، والبيهقي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لله تسعة  
وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة إنه وتر يحب الوتر " وفي لفظ ابن  
مردويه وأبي نعيم " من دعا بها استجاب الله دعاءه " وزاد الترمذي في سننه بعد قوله "  
يجب الوتر " " هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ،  
المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، الباري ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ،  
الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ،  
البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ،  
الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، الجيب ، الواسع ،  
الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ،

الحميد ، المحصى ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ،  
الأحد ، الصمد ، القادر ، المقدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ،  
الوالي ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام  
، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي  
، الوارث ، الرشيد ، الصبور .

هكذا أخرج الترمذي هذه الزيادة عن الجوزجاني ، عن صفوان بن صالح ، عن الوليد بن  
مسلم ، عن شعيب بن أبي حمزة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعة  
وقال : هذا حديث غريب .

(76/298)

---

وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة ، ولا يعلم في كثير شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا  
في هذا الحديث .

ورواه ابن حبان في صحيحه ، وابن خزيمة ، والحاكم من طريق صفوان بإسناده السابق .  
ورواه ابن ماجه في سننه من طريق أخرى ، عن موسى ابن عقبة ، عن الأعرج ، عن أبي  
هريرة مرفوعاً ، فسر الأسماء المتقدمة بزيادة ونقصان .



قال ابن كثير في تفسيره والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه .

وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم ، وعبد الملك بن محمد الصنعاني ، عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أي أنهم جمعوها من القرآن كما روي عن جعفر بن محمد ، وسفيان بن عيينة ، وأبي زيد اللغوي .

قال : ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين ، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن يزيد بن هارون ، عن فضيل ابن مرزوق ، عن أبي سلمة الجهني ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن ، فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك وأمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحاً " فقل يا رسول الله ألا تعلمها ؟ فقال : " بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها " وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان في صحيحه بمثله انتهى .

وأخرجه البيهقي أيضاً في الأسماء والصفات .

قال ابن حزم: جاءت في إحصائها، يعني الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً.

(77/298)

---

وقد أخرجها بهذا العدد الذي أخرجه الترمذي، وابن مردويه، وأبو نعيم، عن ابن عباس، وابن عمر قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرناه، ولا أدري كيف إسناده. وأخرج ابن أبي الدنيا، والطبراني كلاهما في الدعاء، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أبي هريرة: إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة: أسأل الله الرحمن، الرحيم، الإله، الرب، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباري، المصور، الحليم، العليم، السميع، البصير، الحي، القيوم، الواسع، اللطيف، الخبير، الحنان، المنان، البديع، الغفور، الودود، الشكور، المجيد، المبدىء، المعيد، النور، الباريء - وفي لفظ: القائم - الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العفو، الغفار، الوهاب، الفرد - وفي لفظ: القادر - الأحد، الصمد، الوكيل، الكافي، الباقي، المغيث، الدائم، المتعالي، ذا الجلال والإكرام، المولى، البصير، الحق، المتين، الوارث، المنير، الباعث، التقدير - وفي لفظ: الجيب - الحبي، المميت

الحميد - وفي لفظ: الجميل - الصادق، الحفيظ، المحيط، الكبير، القريب، الرقيب،  
الفتاح، التواب، القديم، الوتر، الفاطر، الرزاق، العلام، العلي، العظيم، الغني، الملك،  
المقدر، الأكرم، الرؤوف، المدبر، المالك، القاهر، الهادي، الشاكر، الكريم، الرفيع،  
الشهيد، الواحد، ذا الطول، ذا المعارج، ذا الفضل، الخلاق، الكفيل، الجليل.  
وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال: سألت أبي جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء  
التسعة والتسعين التي من أحصاها دخل الجنة؟ فقال: هي في القرآن، ففي الفاتحة خمسة  
أسماء: يا الله، يا ربّ، يا رحمن، يا رحيم، يا ملك.

(78/298)

---

وفي البقرة ثلاثة وثلاثون اسماً: يا محيط، يا قدير، يا عليم، يا حكيم، يا علي، يا عظيم،  
يا تواب، يا بصير، يا ولي، يا واسع، يا كافي، يا رؤوف، يا بديع، يا شاكر، يا واحد، يا  
سميع، يا قابض، يا باسط، يا حيّ، يا قيوم، يا غني، يا حميد، يا غفور، يا حلیم، يا إله،  
يا قريب، يا مجيب، يا عزيز، يا نصير، يا قوي، يا شديد، يا سريع، يا خير.  
وفي آل عمران: يا وهاب، يا قائم، يا صادق، يا باعث، يا منعم، يا متفضل.  
وفي النساء: يا رقيب، يا حسيب، يا شهيد، يا مقيت، يا وكيل، يا عليّ، يا كبير.

وفي الأنعام: يا فاطر، يا قاهر، يا لطيف، يا برهان.

وفي الأعراف: يا محيي، يا مميت.

وفي الأنفال: يا نعم المولى، يا نعم النصير، وفي هود: يا حفيظ، يا مجيد، يا ودود، يا

فعال لما تريد.

وفي الرعد: يا كبير، يا متعالي.

وفي إبراهيم: يا منان، يا وارث.

وفي الحجر: يا خلاق.

وفي مريم: يا فرد.

وفي طه: يا غفار.

وفي قد أفلح: يا كريم.

وفي النور: يا حق، يا مبين.

وفي الفرقان: يا هادي.

وفي سبأ: يا فتاح.

وفي الزمر: يا عالم.

وفي غافر: يا قابل التوب، يا ذا الطول، يا رفيع.

وفي الذاريات: يا رزاق، يا ذا القوة، يا متين.

وفي الطور : يا برّ .

وفي اقتربت : يا مقدر ، يا ملك .

وفي الرحمن : يا ذا الجلال والإكرام ، يا رب المشرقين ، يا ربّ المغربين ، يا باقي ، يا معين .

وفي الحديد : يا أوّل ، يا آخر ، يا ظاهر ، يا باطن .

وفي الحشر : يا ملك ، يا قدّوس ، يا سلام ، يا مؤمن ، يا مهيمن ، يا عزيز ، يا جبار ، يا متكبر

، يا خالق ، يا بارىء ، يا مصوّر .

وفي البروج : يا مبدىء ، يا معيد .

وفي الفجر : يا وتر .

وفي الإخلاص : يا أحد ، يا صمد .

انتهى .

وقد ذكر ابن حجر في التلخيص أنه تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حرّرها منه تسعة

وتسعين ثم سردها فاجثه .

ويؤيد هذا ما أخرجه أبو نعيم ، عن ابن عباس ، وابن عمر ، قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة ، وهي في القرآن " وأخرج البيهقي ، عن عائشة أنها قالت : " يا رسول الله علمني اسم الله الذي إذا دعى به أجاب ، قال لها : " قومي فتوضيء وادخلي المسجد فصلي ركعتين ثم ادعي حتى أسمع " ، ففعلت ؛ فلما جلست للدعاء قال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم وفقها " ، فقالت : اللهم إني أسألك بجميع أسمائك الحسنى كلها ما علمنا منها وما لم نعلم ، وأسألك باسمك العظيم الأعظم الكبير ، الأكبر ، الذي من دعاك به أجبت ، ومن سألك به أعطيت ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أصبته أصبته " وقد أطال أهل العلم الكلام على الأسماء الحسنى حتى أن ابن العربي في شرح الترمذي حكى عن بعض أهل العلم أنه جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمِهِ ﴾ قال : الإلحاد ، أن يدعو اللات والعزى في أسماء الله .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عنه ، قال : الإلحاد التكذيب .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج ، في الآية قال : اشتقوا العزى من العزيز ، واشتقوا اللات من الله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عطاء في الآية قال : الإلحاد المضاهاة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش أنه قرأ ﴿ يَلْحَدُونَ ﴾ من لحد ، وقال تفسيرها :  
يدخلون فيها ما ليس منها .

وأخرج عبد الرزاق بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة ، في الآية قال : يشركون . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(80/298)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

تأنيث الأحسن أي الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها لأنها دالة على معاني هي  
أحسن المعاني وأشرفها والمراد بها الألفاظ الدالة الموضوعية على المعاني المختلفة دل على  
أن الاسم غير المسمى ولو كان هو المسمى لكان المسمى عدد الأسماء وهو محال .

قال الإمام الغزالي : الحق أن الاسم غير التسمية وغير المسمى فإن هذه ثلاثة أسماء متباينة

غير مترادفة ﴿ فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ فسموه بتلك الأسماء

واذكروه بها وفي الحديث : "إتسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة"

، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ،

العزیز، الجبار، المتکبر، الخالق، الباریء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق،  
الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصیر،  
الحکم، العدل، اللطیف، الخیر، الحلیم، العظیم، الغفور، الشکور، العلی، الکبیر،  
الحفیظ، المقیت، الحسیب، الجلیل، الکریم، الرقیب، الجیب، الواسع، الحکیم،  
الودود، الجید، الباعث، الشهید، الحق، الوکیل، القوی، المتین، الولی، الحمید،  
المحصی، المبدیء، المعید، المحیی، الممیت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد،  
الصمد، القادر، المقدر، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالی،  
المتعالی، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالک، الملك، ذو الجلال والإکرام،  
المقسط، الجامع، الغنی، المغنی، المانع، الضار، النافع، النور، الهادی، البدیع، الباقي،  
الوارث، الرشید، الصبور".

(81/298)

---

واستحسن المشايخ المتقدمون أن يبدأ أولاً ويقول اللهم إني أسألك يا رحمن يا رحيم إلى  
آخره فيجيء بجميع الأسماء بحرف النداء ثم يقول في آخر الكل أن تصلي على محمد وآله  
وأن ترزقني.



وجميع من يتعلق بي بتمام نعمك ودوام عافيتك يا أرحم الراحمين كما في "الأسرار المحمدية"  
قال عبد الرحمن البسطامي في "ترويح القلوب": إن العارفين يلاحظون في الأسماء آلة  
التعريف وأصل الكلمة.

والملازمة يطرحون منها آلة التعريف لأنها زائدة على أصل الكلمة ومن السر المكنون في  
الدعاء أن تأخذ حروف الأسماء التي تذكر بها مثل قولك الكبير المتعال ولا تأخذ الألف  
واللام، بل تأخذ كبير متعال وتنظر كم لها من الأعداد بالجمل الكبير فتذكر ذلك العدد في  
موضع خال من الأصوات بالشرائط المعبرة عند أهل الخلوات لا تزيد على العدد ولا تنقص  
منه، فإنه يستجلب لك للوقت وهو الكبريت الأحمر ياذن الله تعالى فإن الزيادة على العدد  
المطلوب إسراف والنقص منه إخلال والعدد في الذكر بالأسماء كأسنان المفتاح لأنها إن  
زادت أو نقصت لا تفتح باب الإجابة البتة فافهم السر وحسن الدر.

واعلم: أنه لما كانت المقامات الدنية ثلاثة، مقام الإسلام ومقام الإيمان، ومقام الإحسان،  
ومراتب الجنان المرتبة على الإحصاء لأهل الدين ثلاثاً، جنة الأعمال.  
وجنة الميراث، وجنة الامتنان لا جرم كانت أنواع الإحصاء ثلاثة.

التعلق في مقام الإسلام ، والتخلق في مقام الإيمان ، والتحقق في مقام الإحسان ، وإحصاؤها بالتعلق في مقام الإسلام هو أن يتطلب السالك آثار كل اسم منها في نفسه وبدنه وجميع فواه وأعضائه وأجزائه وجزئياته في جميع حالاته وهيئاته النفسانية والجسمانية وفي جملة تطوراته وأنواع ظهوراته ، فيرى جميع ذلك من أحكام هذه الأسماء وآثارها فيقابل كل أثر بما يليق به كمقابلة الأنعام بالشكر والبلاء بالصبر وغير ذلك فبمثل هذا الإحصاء يدخل جنة الأعمال التي هي محل ستر الأغراض الزائلة بالأعيان الثابتة الباقية ، وهي التي أخبر عنها إبراهيم الخليل عليه السلام بأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد ، وإحصاؤها بالتخلق في مقام الإيمان يكون بتطلع الروح الروحانية إلى حقائق هذه الأسماء ومعانيها ومفهوماتها ، والتخلق بكل اسم منها على نحو ما أمر به من قوله عليه السلام : "تخلقوا بأخلاق الله" بحيث يكون المتخلق هو عين ذلك الاسم أي يفعل عنه ما يفعل عن ذلك الاسم فبمثل هذا الإحصاء يدخل هذا المتخلق جنة الميراث التي هي أعلى من الجنة الأولى بل هي باطنها المنزل منها بمنزلة عالم الملكوت من عالم الملك وهي المشار إليها بقوله عليه السلام : "ما منكم من أحد إلا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإذا مات ودخل النار ورث منزله أهل الجنة وإن شتم فاقروا وأولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون" وإحصاؤها بالتحقق في مقام الإحسان يكون بالتقوى والانخلاع عما قام بك أو ظهر فيك من الصور والمعاني المتسمة بسمة الحدوث والاستار بسبحات الخصرة

الحقية والاحتجاب بسجف أستارها وأعيانها .

كما قال :

تسترت عن دهري بظل جناحه

بحيث أرى دهري وليس يراني

فلو تسأل الأيام ما أسمى ما درت

وأين مكاني ما درين مكاني

(83/298)

---

فبمثل هذا الإحصاء يدخل المتحقق جنة الامتنان التي هي محل سرغيب الغيب المشار إليها بقوله عليه الصلاة والسلام: "ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" وإليها الإشارة أيضاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ \* فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: 54 ، 55) قال ابن ملك: من أحصاها أي من أطاق القيام بحق هذه الأسماء وعمل بمقتضاها بأن وثق بالرزق إذا قال الرزاق وعلم أن الخير والشر من الله تعالى إذا قال الضار النافع فشكر على المنفعة وصبر على المضرة وعلى هذا سائر الأسماء وقيل معناه من عقل معانيها وصدقها وقيل معناه من عدها كلمة تبركاً وإخلاصاً .

وقال البخاري: المراد به حفظها وهذا هو الأظهر لأنه جاء في الرواية الأخرى من حفظها مكان من أحصاها انتهى ولا يظن أن أسماء الله تعالى منحصرة في هذا المقدار بل هي أشهر الأسماء ويجوز أن تتفاوت فضيلة أسماء الله تعالى بتفاوت معانيها كالجلال والشرف ويكون التسعة والتسعون منها تجمع أنواعاً للمعاني المنبئة عن الجلال لا يجمع ذلك غيرها فتختص بزيادة شرف ويدل على أن أسماء الله تعالى كثيرة قوله عليه السلام: "ما أصاب أحداً هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله عنه كل همه وحزنه وأبدل مكانه فرح" وعن بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال صلى الله عليه وسلم "دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطي وإذا دعى به أجاب".

(84/298)

---

واعلم : أن اسم الله أعظم الأسماء التسعة والتسعين لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها حتى لا يشذ منها شيء وسائر الأسماء لا يدل أحادها إلا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره ، ولأنه أخص الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازاً وسائر الأسماء قد يسمى بها غيره كالقادر والعليم والرحيم وغيرها وقد جعل العلماء من خصائص هذا الاسم أنه ينسب جميع أسماء الحق إليه ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (الأعراف : 180) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان ح 3 ص 361.359 ﴾

(85/298)

وقال القاسمي :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [ 180 ] .

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ روى مقاتل أن رجلاً دعا الله في صلاته ، ودعا الرحمن ، فقال بعض المشركين : إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعو اثنين ؟ فنزلت الآية .

والحسنى تأنيث الأحسن ، والمعنى : لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها ، لإنبائها  
عن أحسن المعاني وأشرفها : ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ أي :  
يميلون عن الإقرار بها ويحددونها ، يعدلون عنها كفراً بها .

كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا  
وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ أي : زادهم ذكر الرحمن نفوراً ، ولذا قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ  
ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾  
يعني في الآخرة ، من جحدهم إياها ونفورهم عن الإيمان بها .

تنبيهات :

الأول : قال السيد محمد بن المرتضى اليماني في " إيثار الحق " : مقام معرفة كمال هذا الرب  
الكريم ، وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد ، الذي لا بد منه ، لأن  
كمال الذات بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة ، ولا كمال لذات لانعت لها ولا اسم .  
ولذلك عد مذهب الملاحدة في مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكائدهم للإسلام ، فإنهم  
عكسوا المعلوم عقلاً وسمعاً ، فذموا الأمر الحمود ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النفي  
والجحد المحض ، وضادوا كتاب الله ونصوصه الساطعة .  
قال الله جل جلاله : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ الآية .

---

وقال: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ الآية، فما كان منها منصوباً في كتاب الله، وجب الإيمان به على الجميع، والإنكار على من جحده، أو زعم أن ظاهره اسم ذم لله سبحانه، وما كان في الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته، وما نزل عن هذه المرتبة، أو كان مختلفاً في صحته، لم يصح استعماله، فإن الله أجل من أن يسمى باسم لم يتحقق أنه تسمى به. انتهى.

الثاني: روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: > إن لله تسعة وتسعين اسماً، من حفظها دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر <، وفي رواية: > من أحصاها <، ثم قال: ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. ورواه ابن ماجة أيضاً. فسرد الأسماء بزيادة وتقصان.

قال الحافظ ابن كثير: والذي عول عليه جماعة من الحفاظ، أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي. انتهى. وقال النووي: اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى. وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما المقصود من الحديث

الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها ، لا الإخبار بمحصرها . ولهذا جاء في الحديث الآخر : < أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك > . وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم ، أن لله ألف اسم . انتهى .

(87/298)

---

وقال السيد اليماني في " إيثار الحق " : عادة المتكلمين أن يقتصروا هنا على اليسير من الأسماء ، لا ينبغي ترك شيء منها ، ولا اختصاره ! فإن ذلك كالإختصار للقرآن الكريم ، ولو كان منها شيء لا ينبغي اعتقاده ولا ذكره ، ما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم . وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ما ورد في الحديث المشهور في تعدادها ، مع الإختلاف الشهير في صحته . وحسبك أن البخاري ومسلما تركا تخريجه مع رواية أوله . وانفاقهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه ، ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم في وعده ، من أحصاها بالجنة كما اتفق على صحته .

وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه إسم غير تلك الأسماء . فأما إذا كانت أسماؤه سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الإقتصار على ما في كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر وقد ثبت أن



أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروي بالضرورة والنص . أما الضرورة ، فإن في كتاب الله أكثر من ذلك ، وأما النص ، فحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : > ما قال عبد أصابه همٌّ أو حزنٌ : اللهم إني عبد وابن عبدك وابن أمك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هلك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً < - رواه أحمد ، وأبو عوانة في " صحيحه " وأبو يعلى والبزار .

ثم أخذ اليماني يذكر ما وجدته من الأسماء منصوصاً ، غير معرَّج على التقليد . فانظره في " إثارة الحق " فإنه جوّد البحث بمنزعة شريف .

(88/298)

---

الثالث : قال بعض مفسري الزيدية في قوله تعالى : ﴿ فادعوه بها ﴾ : المعنى سموه بها ، وفي ذلك أمر بدعائه بالأسماء الحسنی ، وهو أمر ندب إذا حمل على التلاوة بالتسعة والتسعين ، وحث على ذلك في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ، وإن أريد بالتسمية بما

فيه مدح، دون ما فيه إلحاد، فذلك وجوب .

الرابع: قال السيد اليماني في "إيثار الحق": هل يجوز تسمية محمداً الرب تعالى وأسمائه

الحسنى صفات له سبحانه وتعالى؟

قال الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ ، وذكر أهل التفسير واللغة أنه الوصف الأعلى ،

وكذلك جاء في كلام علي عليه السلام أنه قال: فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من

صفته - ذكره السيد أبو طالب في "الأمالي" بإسناده، والسيد الرضي في "النهج"

كلاهما في جوابه عليه السلام، على الذي قال له: صف لنا نار ربنا - .

وهذا لا يعارض قوله عز وجل: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ، لأنه لم ينزه ذاته عن

الوصف مطلقاً، حتى يعم الوصف الحسن، وإنما ينزه عن وصفهم له بالباطل القبيح .

انتهى . انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل ح 7 ص 230. 233﴾

(89/298)

وقال ابن عاشور:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾

هذا خطاب للمسلمين، فتوسطه في خلال مذام المشركين؛ لمناسبة أن أفضع أحوال

المعدودين لجنهم هو حال إشراكهم بالله غيره ، لأن في ذلك إيظالاً لأخص الصفات بمعنى

الإلهية : وهي صفة الوحدانية وما في معناها من الصفات نحو الفرد ، الصمد .

وينصوي تحت الشرك تعطيل صفات كثيرة مثل : الباعث ، الحسيب ، والمعيد ، ونشأ عن

عناد أهل الشرك إنكار صفة الرحمن .

فعقت الآيات التي وصفت ضلال إشراكهم بتبنيه المسلمين للاقبال على دعاء الله بأسمائه

الدالة على عظيم صفات الإلهية ، والدوام على ذلك ، وأن يُعرضوا عن شغب المشركين

وجداهم في أسماء الله تعالى .

وقد كان من جملة ما يتورك به المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، أن

أنكروا اسمه تعالى الرحمن ، وهو إنكار لم يقدمهم عليه جهالهم بأن الله موصوف بما يدل عليه

وصف (رحمان) من شدة الرحمة ، وإنما أقدمهم عليه ما يقدم كل معاند من تطلب

التغليظ والتخطفة للمخالف ، ولو فيما يعرف أنه حق ، وذكر ابن عطية ، وغيره .

أنه روي في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ أن أبا جهل

سمع بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فيذكر الله في قراءته ، ومرة يقرأ فيذكر

الرحمان فقال أبو جهل "محمد يزعم أن الإله واحد وهو إنما يعبد آلهة كثيرة" فنزلت هذه

الآية .

فَعَطْفُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى التِّي قَبْلَهَا عَطْفُ الْإِخْبَارِ عَنْ أَحْوَالِ الْمُشْرِكِينَ وَضَلَالِهِمْ ، وَالْغَرَضُ مِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ .

(90/298)

---

وَتَقْدِيمُ الْجُرُورِ الْمُسْنَدِ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ؛ لِجَرْدِ الْإِهْتِمَامِ الْمَفِيدِ تَأْكِيدَ اسْتِحْقَاقِهِ إِيَّاهَا ، الْمُسْتَفَادِ مِنَ اللَّامِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ اتِّسَامَهُ بِهَا أَمْرٌ ثَابِتٌ ، وَذَلِكَ تَمْهِيدٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ ، وَقَدْ التَزَمَ مِثْلَ هَذَا التَّقْدِيمِ فِي جَمِيعِ الْآيِ التِّي فِي هَذَا الْغَرَضِ مِثْلَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ( 110 ) ﴿ فَالْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ وَسُورَةِ طه ( 8 ) ﴿ فَالْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ وَفِي سُورَةِ الْحَشْرِ ( 24 ) ﴿ فَالْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ وَكُلِّ ذَلِكَ تَأْكِيدٌ لِلرَّدِّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ أَنَّ يَكُونُ بَعْضُ الْأَسْمَاءِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ أَوْ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْمَاءَ لِلَّهِ تَعَالَى بِتَخْيِيلِهِمْ أَنَّ تَعَدُّدَ الْأَسْمَاءِ تَعَدُّدٌ لِلْمَسْمُومِ تَمْوِيهَاً عَلَى الدِّهْمَاءِ .

وَالْأَسْمَاءُ هِيَ الْأَلْفَاظُ الْمَجْعُولَةُ أَعْلَاماً عَلَى الذَّاتِ بِالتَّخْصِيسِ أَوْ بِالْغَلْبَةِ فَاسْمُ الْجَلَالَةِ وَهُوَ ( اللَّهُ ) عِلْمٌ عَلَى ذَاتِ الْإِلَهِ الْحَقِّ بِالتَّخْصِيسِ ، شَأْنُ الْأَعْلَامِ ، وَ ( الرَّحْمَنُ ) وَ ( الرَّحِيمُ ) اسْمَانِ لِلَّهِ بِالْغَلْبَةِ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ لَفْظٍ مُفْرَدٍ دَلَّ عَلَى صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ، وَأُطْلِقَ إِطْلَاقاً

الأعلام نحو الرب، والخالق، والعزیز، والحكيم، والغفور، ولا يدخل في هذا ما كان  
مركباً إضافياً نحو: ذو الجلال، ورب العرش، فإن ذلك بالأوصاف أشبه، وإن كان دالاً  
على معنى لا يليق إلا بالله نحو: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاحة: 4].  
والحسنى مؤنث الأحسن، وهو المتصف بالحسن الكامل في ذاته، المقبول لدى العقول  
السليمة المجردة عن الهوى، وليس المراد بالحسن الملاءمة لجميع الناس، لأن الملاءمة  
وصف إضافة نسبي، فقد يلائم زيدا ما لا يلائم عمراً، فلذلك فالحسنُ صفة ذاتية للشيء  
الحسن.

(91/298)

---

ووصف الأسماء بـ ﴿الحسنى﴾: لأنها دالة على ثبوت صفات كمال حقيقي، أما  
بعضها فالأن معانيها الكاملة لم تثبت إلا لله نحو الحي، والعزیز، والحكيم، والغني، وأما  
البعض الآخر فالأن معانيها مطلقاً لا يحسن الاتصاف بها إلا في جانب الله نحو المتكبر،  
والجبار، لأن معاني هذه الصفات وأشباهاها كانت نقصاً في المخلوق من حيث أن المتسم  
بها لم يكن مستحقاً لها لعجزه أو لحاجته، بخلاف الإله، لأنه الغني المطلق، فكان اتصافُ  
المخلوق بها منشأ فساد في الأرض، وكان اتصاف الخالق بها منشأ صلاح، لأنها مصدر

العدالة والجزاء القسط .

والتفريع في قوله: ﴿ فادعوه بها ﴾ ﴿ تفريع عن كونها أسماء له ، وعن كونها حسنى ، أي فلا حرج في دعائه بها ؛ لأنها أسماء متعددة لمسمى واحد ، لا كما يزعم المشركون ، ولأنها حسنى فلا ضير في دعاء الله تعالى بها .

وذلك يشير إلى أن الله يُدعى بكل ما دل على صفاته وعلى أفعاله .

وقد دلت الآية على أن كل ما دل على صفة الله تعالى وشأن من شؤونه على وجه التقريب للأفهام بحسب المعتاد يسوغ أن يُطلق منه اسم لله تعالى ما لم يكن مجيئه على وجه المجاز نحو ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ [البقرة: 15] أو يؤهم معنى نقص في متعارف الناس نحو الماكر من قوله: ﴿ والله خير الماكرين ﴾ [آل عمران: 54] .

(92/298)

---

وليست أسماء الله الحسنى منحصرة في التسعة والتسعين الواردة في الحديث الصحيح عن الأعرج ، وعن أبي رافع ، وعن همام بن منبه ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة " لأن الحديث الصحيح ليس فيه ما يقتضي حصر الأسماء في ذلك العدد ، ولكن تلك الأسماء ذات العدد لها تلك

المزية ، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا فقال يا حنان يا منان ولم يقع هذان الاسمان فيما روي من التسعة والتسعين ، وليس في الحديث المروي بأسانيد صحيحة مشهورة تعيين الأسماء التسعة والتسعين ، ووقع في "جامع الترمذي" من رواية شعيب بن أبي حمزة ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة بعد قوله : "دخل الجنة" هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمان الرحيم إلى آخرها ، فعين صفات لله تعالى تسعا وتسعين ، وهي المشهورة بين الذين تصدوا لبيانها ، قال الترمذي : "هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث ، ولا نعلم في شيء من الروايات لها إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث " .

وتعيين هذه الأسماء لا يقتضي أكثر من أن مزيتها أن من أحصاها وحفظها دخل الجنة ، فلا يمنع أن تعد لله أسماء أخرى .

وقد عد ابن برحان الإشبيلي في كتابه "أسماء الله الحسنى" مائة واثنين وثلاثين اسماً مستخرجة من القرآن والأحاديث المقبولة ، وذكر القرطبي : أن له كتاباً سماه "الأسنى في شرح الأسماء الحسنى" ذكر فيه من الأسماء ما يُنصف على مائتي اسم ، وذكر أيضاً أن أبا بكر بن العربي ذكر عدة من أسمائه تعالى مثل مُتَمَّ نوره ، وخير الوارثين ، وخير الماكرين ، ورابع ثلاثة ، وسادس خمسة ، والطيب ، والمعلم إلخ .

---

ولا تخفى سماجة عد نحو رابع ثلاثة ، و سادس خمسة ، فإنها وردت في القرآن في سياق  
المجاز الواضح ولا مناص من تحكيم الذوق السليم ، وليس مجرد الوقوف عند صورة  
ظاهرة من اللفظ ، وذكر ابن كثير في "تفسيره" عن كتاب "الأحوذى في شرح الترمذي" لعله  
يعني "عارضه الأحوذى" "أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله تعالى ألف  
اسم" ولم أجده في نسخ "عارضه الأحوذى" لابن العربي ، ولا ذكره القرطبي وهو من  
خاصة تلاميذ ابن العربي ، والموجود في كتاب "أحكام القرآن" له أنه حضره منها مائة  
وستة وأربعون اسماً وساقها في كتاب "الأحكام" ، وسقط واحد منها في المطبوعة ، وذكر  
أنه أبلغها في كتابه "الآمد" (أي "الآمد الأقصى") في شرح الأسماء إلى مائة وستة وسبعين  
اسماً .

قال ابن عطية : واختلف في الاسم الذي يقتضي مدحاً خالصاً ، ولا تتعلق به شبهة ولا  
اشتراك إلا أنه لم يرد منصوباً هل يطلق ويسمى الله به ، فنصُ الباقلاني على جواز ذلك ،  
ونص أبي الحسن الأشعري على منع ذلك ، والفقهاء والجمهور على المنع ، والصواب : أن لا  
يُسمى الله تعالى إلا باسم قد أطلقته الشريعة ، وأن يكون مدحاً خالصاً لا شبهة فيه ولا  
اشتراك أمر لا يحسنه ، إلا الأقل من أهل العلوم ، فإذا أبيض ذلك تسور عليه من يظن بنفسه  
الإحسان ، فادخل في أسماء الله ما لا يجوز إجماعاً .



واختلف في الأفعال التي في القرآن نحو ﴿الله يستهزىء بهم﴾ [البقرة: 15] و ﴿مكر الله﴾ [آل عمران: 54] ونحو ذلك هل يطلق منها اسم الفاعل ، فقالت فرقة : لا يُطلق ذلك بوجه ، وجوزت فرقة أن يقال ذلك مقيداً بسببه نحو : الله ماكر بالذين يمكرون بالدين ، وأما إطلاق ذلك دون تقييد فممنوع إجماعاً .

(94/298)

---

والمراد من ترك ﴿الذين يلحدون في أسمائه﴾ الإمساك عن الاسترسال في محاجتهم لظهور أنهم غير قاصدين معرفة الحق ، أو ترك الإصغاء لكلامهم ؛ لتلايفتنا عامة المؤمنين بشبهاتهم ، أي اتركوهم ولا تغلبوا أنفسكم في مجادلتهم ، فإني سأجزئهم وقد تقدم معنى "ذر" عند قوله تعالى : ﴿وذرا الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً﴾ في سورة الأنعام (70) .

والإلحاد : الميل عن وسط الشيء إلى جانبه ، وإلى هذا المعنى ترجع مشتقاته كلها ، ولما كان وسط الشيء يشبهه به الحق والصواب ، استتبع ذلك تشبيه العدو عن الحق إلى الباطل بالإلحاد ، فأطلق الإلحاد على الكفر والإفساد ، ويُعدى حينئذ به (في) لتنزيل الجرور بها منزلة المكان للإلحاد ، والأكثر أن يكون ذلك عن تعمد للإفساد ، ويقال : لحد

وأحد ، والأشهر أحد .

وقرأ من عدا حمزة يُلحدون ﴿ بضم الياء وكسر الحاء من أحد المهموز ، وقرأه حمزة وحده

: بفتح الياء والحاء ، من لحد المجرد .

وإضافة الأسماء إلى الله تُوذَن بأن المقصود أسماءه التي ورد في الشرع ما يقتضي تسميته

بها .

ومعنى الإلحاد في أسماء الله جعلها مظهراً من مظاهر الكفر ، وذلك بإنكار تسميته تعالى

بالأسماء الدالة على صفات ثابتة له ، وهو الأحق بكامل مدلولها فإنهم أنكروا الرحمان ،

كما تقدم ، وجعلوا تسميته به في القرآن وسيلة للتشنيع ، ولمز النبي عليه الصلاة والسلام بأنه

عدد الآلهة ، ولا أعظم من هذا البهتان والجور في الجدل ، فحُق بأن يُسمى إلحاداً ؛ لأنه

عدول عن الحق بقصد المكابرة والحسد .

وهذا يناسب أن يكون حرف ( في ) من قوله : ﴿ في أسماءه ﴾ مستعملاً في معنى التعليل

كقول النبي صلى الله عليه وسلم " دَخَلَتْ امرأة النار في هرة " الحديث ، وقول عمر بن أبي

ربيعة:

وعصيتُ فيك أقاربي فتقطعت . . .

بيني وبينهم عرى أسبابي

---

وقد جوز المفسرون احتمالات أخرى في معنى الإلحاد في أسمائه: منها ثلاثة ذكرها الفخر ، وأنا لا أراها مُلاقية لإضافة الأسماء إلى ضميره تعالى ، كما لا يخفى عن الناظر فيها .  
وجملة: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تنزل منزلة التعليل للأمر بترك الملحدين ، فلذلك فصلت ، أي لا تهتموا بإلحادهم ولا تحزنوا له ، لأن الله سيجزيهم بسوء صنيعهم ، وسمي الإلحادهم عملاً؛ لأنه من أعمال قلوبهم وألسنتهم .  
و( ما ) موصولة عامة أي سيجزون بجميع ما يعملونه من الكفر ، ومن جملة ذلك الإلحادهم في أسمائه .

والسين للاستقبال ، وهي تفيد تأكيد .

وقيل: ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ دون ما عملوا أو ما يعملون للدلالة على أن ذلك العمل سنة لهم ومتجدد منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(96/298)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ نقول: أنه لا يوجد لغير الله اسم يوصف بأنه من الحسنى، إن قلت عن إنسان إنه "كريم"، فهذا وصف، وكذلك إن قلت إنه "حليم"، وكلها صفات عارضة في حادث، ولا تصير أسماء حسنى إلا إذا وصف الله بها. فأنت -مثلاً- لك قدرة تفعل أفعالاً متعددة، والله قدرة، لكن قدرتك حادثة من الأغيار، بدليل أنها تسلب منك لتصير عاجزاً، أما قدرة الله تعالى فلها طلاقة لا يجدها شيء. فهي قدرة مطلقة. وأنت قد تكون غنياً، لك غنى، والله غنى، لكن ثراءك محدود، وأما غنى الله فإنه غير محدود.

إذن الأسماء الحسنى على إطلاقها هي لله، وإن وجدت في غيره صارت صفات محدودة مهما اتسعت. ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

والحسنى . . . تأنيث لكلمة "الأحسن" اسم تفضيل، وهي الأسماء الحسنى في صلاحية الألوهية لها، وصلاحيتها للألوهية. وحين تقول عنه سبحانه: إنه "رحيم"، فهذا أمر أحسن عندي وعندك لأنني أنظر إلى رحمته لي، وأنت تنظر إلى رحمته لك. وحين تقول: "غفار" فأنت وأنا وكل من يسمعها تعود عليه.

وحين تقول: "قهار" وأنت مذنب ستخاف، وهي صفة حسنى بالنسبة للإله؛ لأن الإله لا بد أن تكون له صفات جمال وصفات جلال، فصفات الجمال لمن أطاع، وصفات الجلال لمن عصى. ولذلك لا تأخذ النعم بمدلولها عندك، بل خذ النعم بمرادات الله تعالى فيها.

وساعة يتكلم الحق سبحانه وتعالى قائلا: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ فبأي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ يٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ فبأي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴾ فبأي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ [الرحمن : 31-36]

فهل إرسال الشواظ من النار والنحاس نعمة يقول بعدها: ﴿ فبأي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾



نقول: نعم، هي نعمة كبيرة، لأنه سبحانه وتعالى ينبهنا قبل أن توجد النار، أن النار قوية، ويعطي لك نعمة العظة والاعتبار. وعظته وتنبيهه - إذن - قبل أن توجد النار نعمة كبرى، وأيضا هي نعمة بالنسبة للمقابل، فحين يطيعه المؤمنون في الدنيا ويلزمون أنفسهم بمنهج الله، فلهم ثواب حق الالتزام، والمقابل لهم الذين لم يلتزموا وأخذوا الخروج عن المنهج غاية، يتوعدهم سبحانه بالعقاب، وهذه نعمة كبرى. ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ والحق سبحانه وتعالى عرفنا اسمه بالبلاغ منه، لأننا قد نعرف مسماه من القوى القادرة وهي التي تعرف بالعقل، لكن العقل لا يقدر أن يعرف الاسم. وسبق أن قلت: لنفترض أن

أناساً يجلسون في حجرة ثم طرق الباب . هنا يجمع الكل على أن طارقاً بالباب ، لكن حين دخلوا في التصور اختلفوا ، فواحد يقول : إن الطارق رجل ، فيرد الآخر : لا إنها امرأة لأن نقرتها خفيفة ، ويقول ثالث : هذه النقرة على الباب تأتي من أعلاه وهي دليل على أن الطارق ضخم ، وهو نذير لأنه يطرق بشدة ، ويختلف تصور كل الحضور عن الطارق ، ولا أحد يعرف اسمه .

إذن حين تريد أن تعرف من الطارق ، فأنت تسأله من أنت ؟ فيقول لك " اسمه " .

(98/298)

---

إذن فإن الاسم لا يدرك بالعقل . ومن خلق الخلق كله قوي ، قادر ، حكيم ، عليم ، لأن عملية الخلق تقتضي كل هذا . أما اسم الله . فهذه مسألة لا يعرفها العقل وتحتاج إلى توقيف . إذن فأسماء الله تبارك وتعالى توقيفية ، فحين يقول لنا : هذه أسمائي فإننا ندعوه بها ، وما لم يقل لنا عليه لا دعوة لنا به ، ولذلك يقول تعالى : ﴿ فادعوه بها ﴾ فإذا أنت نقلت هذا إلى غيره . فأنت تدعوا بالأسماء الحسنی سواه ، مثلاً كذاب اليمامة مسيلمة سمي نفسه الرحمن ، وبذلك أُلحِد في اسم الله حيث نقل أحد أسماء ربنا إلى ذاته ، ومثله فعل غيره ، ألم يسموا " اللات " من الله ؟ . ألم يسموا " العزى " من العزيز ؟ . ألم يسموا

"مناة" من المنان؟ . كل هؤلاء الحدوا في أسماء الله التي لا ندعو غيره بها ، ولذلك ورد  
عنه صلى الله عليه وسلم قوله في دعائه : " اللهم أني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي  
بيدك ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو  
أنزله في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل  
القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء همي وذهاب حزني وغمي "

إذن فهذه الأسماء وضعها ربنا لنفسه ، لأنها لا تعرف بالعقل . أما إذا نظرت إلى الأوصاف  
المبدعة للخلق فانت تعرف على هذه الأوصاف ؛ لأنه تعالى خلق الكون بحكمة وتدير  
وقدره . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نحن نؤسس مصانع كثيرة وكبيرة لتصنع  
المصاييح ، فنصنع زجاجاً ونفرغه من الهواء ، ونضع داخله أسلاكاً تتحمل ذبذبة  
الكهرباء ، وبعد استخدام هذه المصاييح لفترة تفسد ، بينما الشمس تضيء الكون كل  
هذا العمر ، من بدء الخلق ، ولا تحتاج منا إلى قطعة غيار .  
وحين نقول هو : " حكيم " ، نقولها ونرى أثر ذلك في حركة الكواكب التي تسير منسجمة ،  
وكل كوكب يدور في فلكه ولا يصطدم بآخر ، وهذا دليل على أن الكواكب قد خلقت  
بحكمة .

---

وينبها الحق سبحانه وتعالى أن ندعوه بالأسماء الحسنى في قوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ لأنه يريد من خلقه دائماً أن يذكره؛ لأنه هو الرب الذي خلق من عَدَمٍ، وأمد من عُدْمٍ .

وصان الخلق بقيومية، وحين تأتي لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء الله الحسنى وتنادي الله بها ، وحين تريد أن تتقرب إلى الله لا تناديه إلا بالاسم الذي وضعه لنفسه وهو " الله " ، لأن هذا هو اسم علم على واجب الوجود ، وأسماء الله الحسنى كلها صفات وصلت إلى مرتبة الأسماء ، وهناك أسماء تدل على مجموع الصفات .

ولله المثل الأعلى : أنت تقول : " زيد " فيعرف السامع أن هذا اسم علم على شخص اسمه زيد ، ثم له صفات أخرى ، كأن يكون تاجراً ، أو عالماً متفقها في العلم ، أو مهندساً . لكن الاسم العلم هو زيد وهو الذي لا يشترك معه أحد من معارفك فيه وهو زيد ، لكن الصفات الأخرى قد يشترك معه فيها غيره .

والأسماء لله نوعان ، اسم يدل على ذات الله ، الذات المجردة عن أي شيء وهو الله ، ولكن هناك صفات لله مثل الرحمن والرحيم والملك والقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن ، وهذه صفات ارتقت في السمو والعلو لأنه لا أعلى منها ، حتى أصبحت إذا أطلقت إطلاق



الكمال الأعلى لا تنصرف إلا لله . فصارت أسماء .

قد نقول فلان غني ، وفلان كريم ، وفلان حكيم ، لكن الغنى على إطلاقه هو لله تعالى .

(100/298)

---

والأسماء الحسنی ناشئة من صفات مبالغة في العلو فيها ، لأنه سبحانه الأكمل فيها وهي في الأصل صفات لها متعلقات فعلية ، وهذه نوعان اثنان : نوع يطلق على الله منها اسم ومقابله ، ونوع يطلق عليه الاسم ولا يطلق عليه المقابل ، ونأتي بصفة شبيهة بالاشتقاق ، فنقول : " غني " ، ونقول : " مغني " فهو غني في صفة ذاته قبل أن يوجد من يُغنيه ، ومغني وجدت بعد وجود من يُغنيه من عباده ، وسبحانه حي في ذاته ، ومحبي لغيره ، والإحياء صفة فعل في الغير . ولا بد لها من مقابل ، فنقول : محبي ومميت . ولم نقل حي ومقابله ، الغير . إذن فالاسم الذي ترى له مقابلاً هو صفات الفعل ، أما صفات الذات فهي التي لا يوجد لها المقابل . ويلحدون في أسماء الله أي يميلونها إلى غير الله وينقلها الواحد منهم لغير الله أو يأتي باسم للغير ويطلقه على الله ، أو يطلق اسماً ليس له معنى أو لا يفهم منه أي معنى على الله . إذن " الإلحاد " يأتي في ثلاثة أشياء : إما أن ينقل أحد أسماء الله إلى غير الله ، أو يأتي باسم للغير ويطلقه على الله ، أو يطلق اسماً لله من غير أن يكون قد أنزله الله توقيفياً

﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ونعلم أن " العمل " هو اسم للحدث من أي جارحة ؛ فنطق اللسان عمل ، وشم الأنف عمل ، ونعلم أن هناك ما يسمى ب [ قول وفعل ] ، والفعل عمل الجوارح ما عدا اللسان ؛ والقول عمل اللسان ، والاثنان يطلق عليهما عمل ، ولذلك يقول الحق : تبارك وتعالى في سورة الصف :

﴿ لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [ الآية : 2 ] .

إذن فالقول مقابله الفعل ، والجزاء هنا على الفعل والقول لأن كليهما عمل .  
وإذا كان لله أسماء كثيرة ، فهل يجوز هنا لنا أن نأخذ من فعل الله في شيء اسماء له ؟  
وخصوصاً انه القائل : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . . ﴾ [ البقرة : 31 ]

(101/298)

---

وهو القائل أيضاً : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ . . . ﴾ [ النساء : 113 ]  
هل يمكن أن نقول : إن الله معلم ؟ وهل يصح أن نأخذ من قوله : ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [ الطارق : 16 ]  
اسماً هو كائد ؟

لا يجوز ذلك لأن أسماء الله توقيفية ، وإن رأيت فعلاً منسوباً لله فقف عند الفعل فقط ولا تأخذ منه اسماً لله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(102/298)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (180) ﴾

أخرج البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وأبو عوانة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وأبو عبد الله بن منده في التوحيد وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر " .

وأخرج أبو نعيم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لله مائة اسم غير اسم ، من دعا بها استجاب الله له دعاءه " .

وأخرج الدارقطني في الغرائب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال: قال الله عز وجل: لي تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة ".  
وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحد ، من أحصاها دخل الجنة " .

(103/298)

---

وأخرج الترمذي وابن المنذر وابن حبان وابن منده والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يجب الوتر ، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، الحميد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدئ ، المعيد ، الحبي ،

المميت، الحمي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقدر،  
المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف  
، مالك، الملك، ذو الجلال والإكرام، الوالي، المتعال، المقسط، الجامع، الغني، المغني،  
المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور".

(104/298)

---

وأخرج ابن أبي الدنيا في الدعاء والطبراني كلاهما وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبو  
نعيم والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن لله تسعة  
وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة، أسأل الله الرحمن، الرحيم، الإله الرب، الملك،  
القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور  
، الحليم، العليم، السميع، البصير، الحمي، القيوم، الواسع، اللطيف، الخبير، الحنان،  
المنان، البديع، الغفور، الودود، الشكور، المجيد، المبدئ، المعيد، النور، البادئ،  
وفي لفظ: القائم، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العفو، الغفار، الوهاب، الفرد، وفي  
لفظ: القادر، الأحد، الصمد، الوكيل، الكافي، الباقي، المغيث، الدائم، المتعالي، ذا  
الجلال، والإكرام، المولى، النصير، الحق، المبين، الوارث، المنير، الباعث، القدير، وفي

لفظ: الجيب، المحيي، المميت، الحميد، وفي لفظ: الجميل، الصادق، الحفيظ، المحيط،  
الكبير، القريب، الرقيب، الفتاح، التواب، القديم، الوتر، الفاطر، الرزاق، العلام،  
العلي، العظيم، الغني، المليك، المقدر، الإكرام، الرؤوف، المدبر، المالك، القاهر،  
الهادي، الشاكر، الكريم، الرفيع، الشهيد، الواحد، ذا الطول، ذا المعارج، ذا الفضل،  
الكفيل، الجليل".

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لله  
تسعة وتسعون اسماً، من أحصاها دخل الجنة وهي في القرآن".

(105/298)

---

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال: سألت أبي جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء  
التسعة والتسعين التي من أحصاها دخل الجنة؟ فقال: هي في القرآن، ففي الفاتحة خمسة  
أسماء. يا الله، يا رب، يا رحمن، يا رحيم، يا مالك. وفي البقرة ثلاثة وثلاثون اسماً: يا  
محيط، يا قدير، يا علیم، يا حكيم، يا علي، يا عظيم، يا تواب، يا بصير، يا ولي، يا  
واسع، يا كافي، يا رؤوف، يا بديع، يا شاكر، يا واحد، يا سميع، يا قابض، يا باسط، يا  
حي، يا قيوم، يا غني، يا حميد، يا غفور، يا حلیم، يا إله، يا قريب، يا مجيب، يا عزيز،

يا نصير، يا قوي، يا شديد، يا سريع، يا خبير. وفي آل عمران: يا وهَّاب، يا قائم، يا صادق، يا باعث، يا منعم، يا متفضل. وفي النساء: يا رقيب، يا حسيب، يا شهيد، يا مقيت، يا وكيل، يا علي، يا كبير. وفي الأنعام: يا فاطر، يا قاهر، يا لطيف، يا برهان. وفي الأعراف: يا محيي، يا مميت. وفي الأنفال: يا نعم المولى، يا نعم النصير. وفي هود: يا حفيظ، يا مجيد، يا ودود، يا فعال لما يريد. وفي الرعد: يا كبير، يا متعال. وفي إبراهيم: يا منَّان، يا وارث. وفي الحجر: يا خلاق. وفي مريم: يا فرد. وفي طه: يا غفار. وفي قد أفلح: يا كريم. وفي النور: يا حق، يا مبین. وفي الفرقان: يا هادي. وفي سبأ: يا فتاح. وفي الزمر: يا عالم. وفي غافر: يا غافر، يا قابل التوبة، يا ذا الطول، يا رفيع. وفي الذاريات: يا رزاق، يا ذا القوة، يا متين. وفي الطور: يا بر. وفي اقتربت: يا ملك، يا مقتدر. وفي الرحمن: يا ذا الجلال والإكرام، يا رب المشرقين، يا رب المغربين، يا باقي، يا مهيمن. وفي الحديد: يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن. وفي الحشر: يا ملك، يا قدوس، يا سلام، يا مؤمن، يا مهيمن، يا عزيز، يا جبار، يا متكبر، يا خالق، يا بارئ، يا مصوّر.

(106/298)

---

وفي البروج: يا مبدىء ، يا معيد . وفي الفجر: يا وتر . وفي الإخلاص: يا أحد ، يا صمد .  
وأخرج البيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم " من أصابه هم أو حزن فليقل: اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن  
أمتك ، ناصيتي في يدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك  
سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم  
الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وذهاب همي ، وجلاء  
حزني ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما قالهن مهموم قط إلا أذهب الله همه  
وأبدله بهمه فرجاً . قالوا: يا رسول الله أفلا تتعلم هذه الكلمات؟ قال: بلى ، فتعلموهن  
وعلموهن " .

وأخرج البيهقي عن عائشة . أنها قالت: يا رسول الله علمني اسم الله الذي إذا دعى به  
أجاب . قال لها " قومي فتوضئي وادخلي المسجد فصلي ركعتين ، ثم ادعي حتى أسمع .  
ففعلت ، فلما جلست للدعاء قال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم وفقها . فقالت: اللهم  
إني أسألك بجميع أسمائك الحسنی كلها ما علمنا منها وما لم نعلم ، وأسألك باسمك العظيم  
الأعظم الكبير الأكبر الذي من دعاك به أجبتة ، ومن سألك به أعطيتة . قال النبي صلى  
الله عليه وسلم: أصبته أصبته " .

قوله تعالى: ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائهم ﴾ .



أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الإلحاد التكذيب .  
وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ قال :  
اشتقوا العزى من العزيز ، واشتقوا اللات من الله .  
وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في الآية قال : الإلحاد المضاهاة .  
وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش أنه قرأ ﴿يلحدون﴾ بنصب الياء والحاء من اللحد ،  
وقال تفسيرها يدخلون فيها ما ليس منها .

(107/298)

---

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿وذروا الذين يلحدون في  
أسمائه﴾ قال : يشركون .  
وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿يلحدون في أسمائه﴾ قال : يكذبون في  
أسمائه . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور ح 3 ص﴾

(108/298)

---

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (180)

سبحان مَنْ تَعَرَّفَ إِلَى أَوْلِيَائِهِ بِنِعْوَتِهِ وَأَسْمَائِهِ فَعَرَفَهُمْ أَنَّهُ مَنْ هُوَ ، وَبِأَيِّ وَصْفٍ هُوَ ، وَمَا الْوَاجِبُ فِي وَصْفِهِ ، وَمَا الْجَائِزُ فِي نِعْتِهِ ، وَمَا الْمَمْتَنِعُ فِي حَقِّهِ وَحِكْمِهِ ؛ فَتَجَلَّى لِقُلُوبِهِمْ بِمَا يَكْشِفُهُمْ بِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَإِنَّ الْعُقُولَ مَحْجُوبَةً عَنِ الْهَجُومِ بِذَوَاتِهَا بِمَا يَصِحُّ إِطْلَاقُهُ فِي وَصْفِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاقِفَةً عَلَى الْوَاجِبِ وَالْجَائِزِ وَالْمَمْتَنِعِ فِي ذَاتِهِ ، فَلِلْعَقْلِ الْعُرْفَانِ بِالْجُمْلَةِ ، وَبِالضَّرْعِ الْإِطْلَاقِ وَالْبَيَانِ فِي الْإِخْبَارِ ، وَالْقَوْلِ فِيْمَا وَرَدَ بِهِ التَّوْفِيقُ يُطْلَقُ ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ التَّوْفِيقُ يُمْتَنَعُ . وَيُقَالُ مَنْ كَانَ الْغَالِبَ عَلَيْهِ وَصَفٌ مِنْ صِفَاتِهِ ذَكَرَهُ بِمَا يَقْتَضِي هَذَا الْوَصْفَ ؛ فَمَنْ كَانَ مَكَاشِفًا بَعْطَاءَهُ ، مَرْبُوطَ الْقَلْبِ بِأَفْضَالِهِ فَالْغَالِبُ عَلَى قَالَتِهِ الشَّنَاءُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ الْوَهَابُ وَالْبَارُ وَالْمُعْطِي وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ . وَمَنْ كَانَ مَجْذُوبًا عَنْ شَهُودِ الْإِنْعَامِ ، مَكَاشِفًا بِنِعْتِ الرَّحْمَةِ فَالَّذِي يَغْلِبُ عَلَى ذِكْرِهِ وَصْفُهُ بِأَنَّهُ الرَّحْمَنُ وَالرَّحِيمُ وَالْكَرِيمُ وَمَا فِي مَعْنَاهُ . وَمَنْ سَمَتُ هِمَّتُهُ عَنْ شَهُودِ وَجُودِهِ ، وَاسْتَهْلَكَ فِي حَقَائِقِ وَجُودِهِ فَالْغَالِبُ عَلَى لِسَانِهِ الْحَقُّ . وَلِذَلِكَ فَأَكْثَرُ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهُ : " الْبَارِي " لِأَنَّهُمْ فِي التَّرْقِي فِي شَهُودِ الْفِعْلِ إِلَى شَهُودِ الْفَاعِلِ . وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ فَالْغَالِبُ عَلَى لِسَانِهَا " الْحَقُّ " لِأَنَّهُمْ

مُخْتَطَفُونَ عَنْ شَهَادِ الْآثَارِ ، مُحْتَقِقُونَ بِحَقَائِقِ الْوُجُودِ .

وقال إنَّ اللهَ - سبحانه - وقف الخلق بأسمائه فهم يذكرونها قائلَةً ، وتعزَّزَ بذاته ، والعقول

- وإنَّ صَفَتُ لَا تَهْجُمُ عَلَى حَقَائِقِ الْإِشْرَافِ ، إِذِ الْإِدْرَاكُ لَا يَجُوزُ عَلَى الْحَقِّ ؛ فَالْعَقُولُ

عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الحيرة عند التعرض للإحاطة ، والمعارف تائهة عند قصد

الإشراف على حقيقة الذات ، والأبصار حسيرةٌ عند طلب الإدراك في أحوال الرؤية ،

والحق سبحانه عزيز ، وباستحقاق نعوت التعالي مُتَقَرِّدٌ .

قوله : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ : الإلحاد هو الميل

عن القصد ، وذلك على وجهين بالزيادة والنقصان ؛ فأهل التمثيل زادوا فألحدوا ، وأهل

التعطيل نقصوا فألحدوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات - ح 1 ص 590 .

﴿ 591

(109/298)

---

فصل في بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بمعاني صفاته

وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه

قال حجة الإسلام الغزالي عليه رحمة الله :

اعلم أن من لم يكن له حظ من معاني أسماء الله عز وجل إلا بأن يسمع لفظه ويفهم في اللغة  
معنى تفسيره ووضعه ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى فهو مبخوس الحظ نازل  
الدرجة ليس يحسن به أن يتبجح بما ناله فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة حاسة  
السمع التي بها تدرك الأصوات وهذه رتبة تشارك البهيمة فيها وأما فهم وضعه في اللغة فلا  
يستدعي إلا معرفة العربية وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوي بل الغبي اللغوي البدوي  
وأما اعتقاد ثبوت معناه لله سبحانه وتعالى من غير كشف فلا يستدعي إلا فهم معاني  
الألفاظ والتصديق بها وهذه رتبة يشارك فيها العامي بل الصبي فإنه بعد فهم الكلام إذا  
ألقي إليه هذه المعاني تلقاها وتلقنها واعتقدتها بقلبه وصمم عليها وهذه درجات أكثر  
العلماء فضلا عن غيرهم ولا ينكر فضل هؤلاء بالإضافة إلى من لم يشاركهم في هذه  
الدرجات الثلاث ولكنه نقص ظاهر بالإضافة إلى ذروة الكمال فإن حسنات الأبرار  
سيئات المقربين بل حظوظ المقربين من معاني أسماء الله تعالى ثلاثة  
الحظ الأول معرفة هذه المعاني على سبيل المكاشفة والمشاهدة حتى يتضح لهم حقائقها  
بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ وينكشف لهم اتصاف الله عز وجل بها انكشافا يجري  
في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان  
بصفاته الباطنة التي يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهر وكم بين هذا وبين الاعتقاد  
المأخوذ من الآباء والمعلمين تقليدا والتصميم عليه وإن كان مقرونا بأدلة جدلية كلامية

الحظ الثاني من حظوظهم استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ليقتربوا بها من الحق قربا بالصفة لا بالمكان فيأخذوا من الاتصاف بها شيئا بالملائكة المقربين عند الله عز وجل ولن يتصور أن يمتلئ القلب باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الكمال والجلال وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنا للمستعظم بكماله فإن لم يكن بكماله فينبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة ولا يخلو عن هذا الشوق أحد إلا لأحد أمرين إما لضعف المعرفة واليقين بكون الوصف المعلوم من أوصاف الجلال والكمال وإما لكون القلب ممتلئا بشوق آخر مستغرقا به فالتلميذ إذا شاهد كمال أستاذه في العلم انبعث شوقه إلى التشبه والافتداء به إلا إذا كان مملوءا بالجوع مثلا فإن استغراق باطنه بشوق القوت ربما يمنع انبعث شوق العلم ولهذا ينبغي أن يكون الناظر في صفات الله تعالى خاليا بقلبه عن إرادة ما سوى الله عز وجل فإن المعرفة بذر الشوق ولكن مهما صادف قلبا خاليا عن حسيكة الشهوات فإن لم يكن خاليا لم يكن البذر منجحا

الحظ الثالث السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها  
وبه يصير العبد ربانياً أي قريباً من الرب تعالى وبه يصير رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة  
فإنهم على بساط القرب فمن ضرب إلى شبه من صفاتهم نال شيئاً من قربهم بقدر ما نال  
من أوصافهم المقربة لهم إلى الحق تعالى

(111/298)

---

فإن قلت طلب القرب من الله عز وجل بالصفة أمر غامض تكاد تشمئز القلوب عن قبوله  
والتصديق به فزده شرحاً تكسر به سورة إنكار المنكرين فإن هذا كالمُنكر عند الأكثرين  
إن لم تكشف حقيقته فأقول لا يخفى عليك ولا على من ترعرع قليلاً من درجة عوام العلماء  
أن الموجودات منقسمة إلى كاملة وناقصة والكامل أشرف من الناقص ومهما تفاوتت  
درجات الكمال واقتصر منتهى الكمال على واحد حتى لم يكن الكمال المطلق إلا له ولم  
يكن للموجودات الأخر كمال مطلق بل كانت لها كمالات متفاوتة بالإضافة فأكملها أقرب  
لا محالة إلى الذي له الكمال المطلق أعني قريباً بالرتبة والدرجة لا بالكمال  
ثم الموجودات منقسمة إلى حية وميتة وتعلم أن الحي أشرف وأكمل من الميت وأن درجات  
الأحياء ثلاثة درجة الملائكة ودرجة الإنس ودرجة البهائم ودرجة البهائم أسفل في نفس

الحياة التي بها شرفها لأن الحي هو الإدراك الفعال وفي إدراك البهيمية نقص وفي فعلها نقص أما إدراكها فنقصانه أنه مقصور على الحواس وإدراك الحس قاصر لأنه لا يدرك الأشياء إلا بمماسة أو بقرب منها فالحس معزول عن الإدراك إن لم يكن مماسة ولا قرب فإن الذوق واللمس يحتاجان إلى المماسة والسمع والبصر والشم يحتاج إلى القرب وكل موجود لا يتصور فيه المماسة والقرب فالحس معزول عن إدراكه في الحال وأما فعلها فهو أنه مقصور على مقتضى الشهوة والغضب لا باعث لها سواهما وليس لها عقل يدعو إلى أفعال مخالفة لمقتضى الشهوة والغضب

وأما الملك فدرجته أعلى الدرجات لأنه عبارة عن موجود لا يؤثر القرب والبعد في إدراكه بل لا يقتصر إدراكه على ما يتصور فيه القرب والبعد إذ القرب والبعد يتصور على الأجسام والأجسام أحسن أقسام الموجودات ثم هو مقدس عن الشهوة والغضب فليست أفعاله بمقتضى الشهوة والغضب بل داعيه

إلى الأفعال أمر أجل من الشهوة والغضب وهو طلب التقرب إلى الله عز وجل

(112/298)

---

وأما الإنسان فإن درجته متوسطة بين الدرجتين وكأنه مركب من بهيمية وملكية والأغلب عليه في بداية أمره البهيمية إذ ليس له أولاً من الإدراك إلا الحواس التي يحتاج في الإدراك بها إلى طلب القرب من المحسوس بالسعي والحركة إلى أن يشرق عليه بالآخرة نور العقل المتصرف في ملكوت السموات والأرض من غير حاجة إلى حركة بالبدن وطلب قرب أو مماسة مع المدرك به بل مدركه الأمور المقدسة عن قبول القرب والبعد بالمكان وكذلك المستولي عليه أولاً شهوته وغضبه وبحسب مقتضاهما انبعثته إلى أن يظهر فيه الرغبة في طلب الكمال والنظر للعاقبة وعصيان مقتضى الشهوة والغضب فإن غلب الشهوة والغضب حتى ملكهما وضعفاً عن تحريكه وتسكينه أخذ بذلك شبهاً من الملائكة وكذلك إن فطم نفسه عن الجمود على الخيالات والمحسوسات وأنس بإدراك أمور تجل عن أن ينالها حس أو خيال أخذ شبهاً آخر من الملائكة فإن خاصية الحياة الإدراك والعقل وإليهما يتطرق النقصان والتوسط والكمال ومهما اقتدى بالملائكة في هاتين الخاصيتين كان أبعد عن البهيمية وأقرب من الملك والملك قريب من الله عز وجل والقريب من القريب قريب

فإن قلت فظاهر هذا الكلام يشير إلى إثبات مشابهة بين العبد وبين الله تعالى لأنه إذا تخلق بأخلاقه كان شبيهاً له ومعلوم شرعاً وعقلاً أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثل شيء وأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء فاقول مهما عرفت معنى المماثلة المنفية عن الله عز وجل



عرفت أنه لا مثل له ولا ينبغي أن يظن أن المشاركة في كل وصف توجب المماثلة  
افتري أن الضدين يتماثلان وبينهما غاية البعد الذي لا يتصور أن يكون بعد

(113/298)

---

فوقه وهما متشاركان في أوصاف كثيرة إذ السواد يشارك البياض في كونه عرضا وفي كونه  
لونا وفي كونه مدركا بالبصر وأمور أخر سواها أفتري أن من قال إن الله عز وجل موجود لا  
في محل وإنه سميع بصير عالم مرید متكلم حي قادر فاعل والإنسان أيضا كذلك فقد شبه  
وأثبت المثل هيئات ليس الأمر كذلك ولو كان كذلك لكان الخلق كلهم مشبهة إذ لا أقل من  
إثبات المشاركة في الوجود وهو موهم للمشابهة بل المماثلة عبارة عن المشاركة في النوع  
والماهية والفرس وإن كان بالغيا في الكياسة لا يكون مثلا للإنسان لأنه مخالف له بالنوع وإنما  
يشابهه بالكياسة التي هي عارضة خارجة عن الماهية المقومة لذات الإنسانية  
والخاصية الإلهية أنه الموجود الواجب الوجود بذاته الذي عنه يوجد كل ما في الإمكان  
وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال وهذه الخاصية لا يتصور فيها مشاركة البتة  
والمماثلة بها لا تحصل فكون العبد رحيمًا صبورًا شكورًا لا يوجب المماثلة ككونه سمعيًا  
بصيرًا عالمًا قادرًا حيا فاعلا بل أقول الخاصية الإلهية ليست إلا لله تعالى ولا يعرفها إلا الله

ولا يتصور أن يعرفها إلا هو أو من هو مثله وإذا لم يكن له مثل فلا يعرفها غيره فإذا الحق ما  
قاله الجنيد رحمه الله حيث قال لا يعرف الله إلا الله ولذلك لم يعط أجل خلقه إلا اسما  
حجبه به فقال سبح اسم ربك الأعلى 87 سورة الأعلى الآية 1 فوالله ما عرف الله غير  
الله في الدنيا والآخرة وقيل لذي النون وقد أشرف على الموت ماذا تشتهي فقال أن أعرفه  
قبل أن أموت ولو بلحظة وهذا الآن يشوش قلوب أكثر الضعفاء ويوهم عندهم القول بالنفي  
والتعطيل وذلك لعجزهم عن فهم هذا الكلام  
وأنا أقول لو قال القائل لا أعرف الله كان صادقا ولو قال أعرف الله كان صادقا ومعلوم أن  
النفي والإثبات لا يصدقان معا بل يتقاسمان

(114/298)

---

الصدق والكذب فإن صدق النفي كذب الإثبات وبالعكس ولكن إذا اختلف وجه الكلام  
تصور الصدق في القسمين وهو كما لو قال القائل لغيره هل تعرف الصديق أبا بكر رضي الله  
عنه فقال والصديق ممن يجهل ولا يعرف أو يتصور في العالم من لا يعرفه مع ظهوره واشتهاره  
واتسار اسمه فهل على المنابر إلا حديثه وهل في المساجد إلا ذكره وهل على الألسنة إلا  
ثناؤه ووصفه لكان هذا القائل صادقا ولو قيل لآخر هل تعرفه فقال ومن أنا حتى أعرف

الصديق هيئات لا يعرف الصديق سوى الصديق أو من هو مثله أو فوقه ومن أين لي أن  
أدعي معرفته أو أطمع فيها وإنما مثلي يسمع اسمه وصفته فأما أن يدعي معرفته فذلك  
محال فهذا أيضا صادق وله وجه وهو أقرب إلى التعظيم والاحترام  
وهكذا ينبغي أن يفهم قول من قال أعرف الله وقول من قال لا أعرف الله  
بل لو عرضت خطأ منظوما على عاقل وقلت هل تعرف كاتبه فقال لا صدق ولو قال نعم  
كاتبه هو الإنسان الحي القادر السميع البصير السليم اليد العالم بصناعة الكتابة فإذا عرفت  
كل هذا منه فكيف لا أعرفه فهذا أيضا صدق ولكن الأحق والأصدق قوله لا أعرفه فإنه  
بالحقيقة ما عرفه وإنما عرف احتياج الخط المنظوم إلى كاتب حي عالم قادر سميع بصير  
سليم اليد عالم بصناعة الكتابة ولم يعرف الكاتب نفسه فكذلك الخلق كلهم لم يعرفوا إلا  
احتياج هذا العالم المنظوم المحكم إلى صانع مدبر حي عالم قادر  
وهذه المعرفة لها طرفان أحدهما يتعلق بالعالم ومعلومه احتياجه إلى مدبر والآخر يتعلق  
بالله عز وجل ومعلومه أسامي مشتقة من صفات غير داخلية في حقيقة الذات وماهيتها  
فإننا قد بينا أنه إذا أشار المشير إلى شيء

(115/298)

---

وقال ما هو لم يكن ذكر الأسماء المشتقة جواباً أصلاً فلو أشار إلى شخص حيوان فقال ما هو فقل طويل أو أبيض أو قصير أو أشار إلى ماء فقال ما هو فقل بأنه بارد أو أشار إلى نار وقال ما هو فقل حار فكل ذلك ليس بجواب عن ماهية البتة والمعرفة بالشيء هي معرفة حقيقته وماهيته لا معرفة الأسماء المشتقة فإن قولنا حار معناه شيء مبهم له وصف الحرارة وكذلك قولنا قادر وعالم معناه شيء مبهم له وصف العلم والقدرة فإن قلت فقولنا إنه الواجب الوجود الذي عنه وحده يوجد كل ما في الإمكان وجوده عبارة عن حقيقته وحده وقد عرفنا هذا فأقول هيئات فقولنا واجب الوجود عبارة عن استغنائه عن العلة والفاعل وهذا يرجع إلى سلب السبب عنه وقولنا يوجد عنه كل موجود يرجع إلى إضافة الأفعال إليه وإذا قيل لنا ما هذا الشيء وقلنا هو الفاعل لم يكن جواباً وإذا قلنا هو الذي له علة لم يكن جواباً فكيف قولنا هو الذي لا علة له لأن كل ذلك نابع عن غير ذاته وعن إضافة له إلى ذاته إما بنفي أو إثبات وكل ذلك أسماء وصفات وإضافات فإن قلت فما السبيل إلى معرفته فأقول لو قال لنا صبي أو عنين ما السبيل إلى معرفة لذة الوقاع وإدراك حقيقته قلنا ها هنا سبيلان أحدهما أن نصفه لك حتى تعرفه والآخر أن تصبر حتى تظهر فيك غريزة الشهوة ثم تباشر الوقاع حتى تظهر فيك لذة الوقاع فتعرفه وهذا السبيل الثاني هو السبيل المحقق المفضي إلى حقيقة المعرفة فأما الأول فلا يفضي إلا إلى توهم وتشبيه للشيء بما لا يشبهه إذ غايتنا أن نمثل لذة الوقاع

عنده بشيء من اللذات التي يدركها العين كذرة الطعام  
والشراب الحلو مثلاً فنقول له أما تعرف أن السكر لذيذ فإنك تجد عند تناوله حالة طيبة  
وتحس في نفسك راحة قال نعم قلنا فالجماع أيضاً كذلك أفترى أن هذا يفهمه حقيقة لذة  
الجماع كما هي حتى ينزل في معرفته منزلة من ذاق تلك اللذة وأدركها هيئات إنما غاية هذا  
الوصف إيهام وتشبيه خطأ وتفهم ومشاركة في الاسم

(116/298)

---

أما الإيهام فهو أنه يتوهم أن ذلك أمر طيب على الجملة وأما التشبيه فهو أنه يشبهه بحلاوة  
السكر وهو خطأ إذ لا مناسبة بين حلاوة السكر ولذة الوقاع وأما المشاركة في الاسم فهو  
أنه يعلم أنه مستحق أن يسمى لذة ومهما ظهرت الشهوة وذاق علم قطعاً أنه لا يشبهه حلاوة  
السكر وأن ما كان توهمه لم يكن على الوجه الذي توهمه نعم يعلم أن الذي كان قد سمع من  
اسمه وصفته وأنه لذيذ وطيب كان صادقاً بل كان أصدق عليه منه على حلاوة السكر  
فكذلك لمعرفة الله سبحانه وتعالى سبيلان أحدهما قاصر والآخر مسدود

أما القاصر فهو ذكر الأسماء والصفات وطريقة التشبيه بما عرفناه من أنفسنا فإننا لما عرفنا  
أنفسنا قادرين عالمين أحياء متكلمين ثم سمعنا ذلك في أوصاف الله عز وجل أو عرفناه

بالدليل فهمناه فهما قاصرا كهم العنين لذة الوقاع بما يوصف له من لذة السكر بل حياتنا  
وقدرتنا وعلمنا أبعد من حياة الله عز وجل وقدرته وعلمه من حلاوة السكر من لذة  
الوقاع بل لا مناسبة بين البعدين وفائدة تعريف الله عز وجل بهذه الأوصاف أيضا إيهام  
وتشبيه ومشاركة في الاسم لكن يقطع التشبيه بأن يقال ليس كمثله شيء فهو حي لا  
كالأحياء وقادر لا كالتاديرين كما تقول الوقاع لذيذ كالسكر ولكن تلك اللذة لا تشبه هذه  
البتة ولكن تشاركها في الاسم

(117/298)

---

وكأننا إذا عرفنا أن الله تعالى حي قادر عالم فلم نعرف إلا أنفسنا ولم نعرفه إلا بأنفسنا إذ  
الأصم لا يتصور أن يفهم معنى قولنا إن الله سميع ولا الأكمه يفهم معنى قولنا إنه بصير ولذلك  
إذا قال القائل كيف يكون الله عز وجل عالما بالأشياء فنقول كما تعلم أنت الأشياء فإذا  
قال فكيف يكون قادرا فنقول كما تقدر أنت فلا يمكنه أن يفهم شيئا إلا إذا كان فيه ما  
يناسبه فيعلم أولا ما هو متصف به ثم يعلم غيره بالمقايسة إليه فإن كان لله عز وجل وصف  
وخاصية ليس فينا ما يناسبه ويشاركه في الاسم ولو مشاركة حلاوة السكر لذة الوقاع لم  
يتصور فهمه البتة فما عرف أحد إلا نفسه ثم قاييس بين صفات الله تعالى وصفات نفسه

وتعالى صفاته عن أن تشبه صفاتنا فتكون هذه معرفة قاصرة يغلب عليها الإيهام والتشبيه فينبغي أن تقتن بها المعرفة بنفي المشابهة وينفي أصل المناسبة مع المشاركة في

الاسم

وأما السبيل الثاني المسدود فهو أن ينتظر العبد أن تحصل له الصفات الربوبية كلها حتى يصير ربا كما ينتظر الصبي أن يبلغ فيدرك تلك اللذة وهذا السبيل مسدود ممتنع إذ استحيل أن تحصل تلك الحقيقة لغير الله تعالى وهذا هو سبيل المعرفة المحققة لا غير وهو مسدود

قطعا إلا على الله تعالى

فإذا استحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة غير الله بل أقول استحيل أن يعرف النبي غير النبي وأما من لا نبوة له فلا يعرف من النبوة إلا اسمها وأنها خاصية موجودة لإنسان بها يفارق من ليس نبيا ولكن لا يعرف ماهية تلك الخاصية إلا بالتشبيه بصفات نفسه

بل أزيد وأقول لا يعرف أحد حقيقة الموت وحقيقة الجنة والنار إلا بعد الموت ودخول الجنة أو النار لأن الجنة عبارة عن أسباب ملذة ولو فرضنا شخصا لم يدرك قط لذة لم يمكننا

أصلا أن نفهمه الجنة تفهيمًا يرغبه في طلبها

(118/298)

---

والنار عبارة عن أسباب مؤلمة ولو فرضنا شخصا لم يقاس قط الماء لم يمكننا قط أن نفهمه

النار فإذا قاساه فهمناه إياه بالتشبيه بأشد ما قاساه وهو ألم النار

وكذلك إذا أدرك شيئا من اللذات فغایتنا أن نفهمه الجنة بالتشبيه بأعظم ما ناله من اللذات

وهي المطعم والمنكح والمنظر فإن كان في الجنة لذة مخالفة لهذه اللذات فلا سبيل إلى تفهيمه

أصلا إلا بالتشبيه بهذه اللذات كما ذكرناه في تشبيه لذة الوقاع بجلاوة السكر ولذات الجنة

أبعد من كل لذة أدركناها في الدنيا من لذة الوقاع عن لذة السكر بل العبارة الصحيحة عنها

أنها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فإن مثلناها بالأطعمة قلنا مع

ذلك لا كهذه الأطعمة وإن مثلناها بالوقاع قلنا لا كالوقاع المعهود في الدنيا فكيف يتعجب

المتعجبون من قولنا لم يحصل أهل الأرض والسماء معرفة من الله تعالى إلا على الصفات

والأسماء ونحن نقول لم يحصلوا من الجنة إلا على الصفات والأسماء وكذلك في كل ما سمع

الإنسان اسمه وصفته وما ذاقه وما أدركه ولا انتهى إليه ولا اتصف به

فإن قلت فماذا نهاية معرفة العارفين بالله تعالى فنقول نهاية معرفة العارفين عجزهم عن

المعرفة ومعرفةهم بالحقيقة أنهم لا يعرفونه وأنه لا يمكنهم البتة معرفته وأنه يستحيل أن يعرف

الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله عز وجل فإذا انكشف لهم ذلك

انكشافا برهانيا كما ذكرناه فقد عرفوه أي بلغوا المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من

معرفة



وهو الذي أشار إليه الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه حيث قال العجز عن درك  
الإدراك إدراك بل هو الذي عناه سيد البشر صلوات الله عليه وسلامه حيث قال لا  
أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على  
نفسك ولم يرد به أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه في العبارة عنه بل معناه إني لا أحيط  
بمحامدك وصفات إلهيتك وإنما أنت المحيطة بها وحدك

(119/298)

---

فإذا لا يحظى مخلوق في ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة وأما اتساع المعرفة فإنها  
تكون في معرفة أسمائه وصفاته  
فإن قلت فيماذا تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء والأولياء في معرفته إن كان لا يتصور  
معرفة فأقول قد عرفت أن للمعرفة سبيلين أحدهما السبيل الحقيقي وذلك مسدود إلا في  
حق الله تعالى فلا يهتز أحد من الخلق لنيله وإدراكه إلا ردت سبحات الجلال إلى الحيرة ولا  
يشرب أحد لملاحظته إلا غصت الدهشة طرفه  
وأما السبيل الثاني وهو معرفة الصفات والأسماء فذلك مفتوح للخلق وفيه تتفاوت مراتبهم  
فليس من يعلم أنه عز وجل عالم قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت

السموات والأرض وخلق الأرواح والأجساد واطلع على بدائع المملكة وغرائب الصنعة  
ممعنا في التفصيل ومستقصيا دقائق الحكمة ومستوفيا لطائف التدبير ومتصفا بجميع  
الصفات الملكية المقربة من الله عز وجل نائلا لتلك الصفات نيل اتصاف بها بل بينهما من  
البون العظيم ما لا يكاد يحصى وفي تفاصيل ذلك ومقاديره تفاوت الأنبياء والأولياء  
ولن يصل إلى فهمك هذا إلا بمثال والله المثل الأعلى سورة النحل / الآية 60 ولكنك تعلم أن  
العالم التقي الكامل مثلامثل الشافعي رضي الله عنه يعرفه بواب داره ويعرفه المزني رحمه  
الله تلميذه فالبواب يعرفه أنه عالم بالشرع ومصنف فيه ومرشد خلق الله عز

(120/298)

---

وجل إليه على الجملة والمزني يعرفه لا كمعرفة البواب بل معرفة محيطية بتفاصيل صفاته  
ومعلوماته بل العالم الذي يحسن عشرة أنواع من العلوم لا يعرفه بالحقيقة تلميذه الذي لم يحصل  
إلا نوعا واحدا فضلا عن خادمه الذي لم يحصل شيئا من علومه بل الذي حصل علما  
واحدا فإنما عرف على التحقيق عشره إن ساواه في ذلك العلم حتى لم يقصر عنه فإن قصر  
عنه فليس يعرف بالحقيقة ما قصر عنه إلا بالاسم وإيهام الجملة وهو أنه يعرف أنه يعلم شيئا  
سوى ما علمه فكذلك فافهم تفاوت الخلق في معرفة الله تعالى بقدر ما انكشف لهم من

معلومات الله عز وجل وعجائب مقدوراته وبدائع آياته في الدنيا والآخرة والملك  
والملكوت تزداد معرفتهم بالله عز وجل وتقرب معرفتهم من معرفة الحقيقة من معرفة الله  
تعالى

فإن قلت فإذا لم يعرفوا حقيقة الذات واستحال معرفتها فهل عرفوا الأسماء والصفات  
معرفة تامة حقيقية قلنا هيئات ذلك أيضا لا يعرفه بالكمال والحقيقة إلا الله عز وجل لأننا  
إذا علمنا أن ذاتا عالمة فقد علمنا شيئا مبهما لا ندري حقيقته لكن ندري أن له صفة العلم  
فإن كانت صفة العلم معلومة لنا حقيقة كان علمنا بأنه عالم علما تاما بحقيقة هذه الصفة  
والإفلا ولا يعرف أحد حقيقة علم الله عز وجل إلا من له مثل علمه وليس ذلك إلا له فلا  
يعرفه أحد سواه وإنما يعرفه غيره بالتشبيه بعلم نفسه كما أوردنا من مثال التشبيه بالسكر  
وعلم الله عز وجل لا يشبه علم الخلق البتة فلا يكون معرفة الخلق به معرفة تامة حقيقية بل  
إيهامية تشبيهية

ولا تتعجب من هذا فإني أقول لا يعرف الساحر إلا الساحر نفسه أو ساحر مثله أو فوقه  
فأما من لا يعرف السحر وحقيقته وماهيته لا يعرف من الساحر إلا اسمه ويعرف أن له  
علما وخاصة لا يدري ما ذلك العلم إذ لا يدري معلومه ولا يدري ما تلك الخاصة نعم  
يدري أن تلك الخاصة وإن

---

كانت مبهمّة فهي من جنس العلوم وثمرتها تغيير القلوب وتبديل أوصاف الأعيان والتفريق بين الأزواج وهذا بمعزل عن معرفة حقيقة السحر ومن لم يعرف حقيقة السحر لا يعرف حقيقة الساحر لأن الساحر من له خاصية السحر وحاصل اسم الساحر أنه اسم مشتق من تلك الصفة إن كانت مجهولة فهو مجهول وإن كانت معلومة فهو معلوم والمعلوم من السحر لغير الساحر وصف عام بعيد عن الماهية وهو أنه من جنس العلوم فإن اسم العلم ينطلق عليه

فكذلك الحاصل عندنا من قدرة الله عز وجل أنه وصف ثمرته وأثره وجود الأشياء وينطلق عليه اسم القدرة لأنه يناسب قدرتنا مناسبة لذة الوقاع لذة السكر وهذا كله بمعزل عن حقيقة تلك القدرة نعم كلما ازداد العبد إحاطة بتفاصيل المقدورات وعجائب الصنع في ملكوت السموات كان حظه من معرفة صفة القدرة أوفر لأن الثمرة تدل على المشر كما أنه كلما ازداد التلميذ إحاطة بتفاصيل علوم الأستاذ وتصانيفه كانت معرفته له أكمل واستظامه له أتم

فإلى هذا يرجع تفاوت معرفة العارفين ويتطرق إليه تفاوت لا يتناهى لأن ما لا يقدر الآدمي على معرفته من معلومات الله تعالى لا نهاية له وما يقدر عليه أيضا لا نهاية له وإن كان ما يدخل منه في الوجود متناهيا ولكن مقدور الآدمي من العلوم لا نهاية له نعم الخارج إلى

الوجود متفاوت في الكثرة والقلة وبه يظهر التفاوت وهو كالتفاوت بين الناس في القدرة  
الحاصلة لهم بالغنى بالمال فمن واحد يملك الدائق والدرهم ومن آخر يملك الألفا فكذلك  
العلوم بل التفاوت في العلوم أعظم لأن المعلومات لا نهاية لها وأعيان الأموال أجسام  
والأجسام متناهية لا يتصور أن تنتهي النهاية عنها  
فإذا قد عرفت كيف يتفاوت الخلق في مجار معرفة الله عز وجل وأن

(122/298)

---

ذلك لا نهاية له وعرفت أن من قال لا يعرف الله غير الله فقد صدق وأن من قال لا أعرف  
إلا الله فقد صدق أيضا فإنه ليس في الوجود إلا الله عز وجل وأفعاله فإذا نظر إلى أفعاله من  
حيث هي أفعاله وكان مقصور النظر عليه ولم يره من حيث هو سماء وأرض وشجر بل من  
حيث أنه صنعه فلم يجاوز معرفته حضرة الربوبية فيمكنه أن يقول ما أعرف إلا الله وما  
أرى إلا الله عز وجل

ولو تصور شخص لا يرى إلا الشمس ونورها المنتشر في الآفاق يصح منه أن يقول ما أرى إلا  
الشمس فإن النور الفايض منها هو من جملتها ليس خارجا منها وكل ما في الوجود نور من  
أنوار القدرة الأزلية وأثر من آثارها

وكما أن الشمس ينبوع النور الفايض على كل مستنير فكذلك المعنى الذي قصرت العبارة عنه فعبّر عنه بالقدرة الأزلية للضرورة وهو ينبوع الوجود الفايض على كل موجود فليس في الوجود إلا الله عز وجل فيجوز أن يقول العارف لا أعرف إلا الله  
ومن العجائب أن يقول لا أعرف إلا الله ويكون صادقا ويقول لا يعرف الله إلا الله عز وجل ويكون أيضا صادقا ولكن ذلك بوجه وهذا بوجه ولو كذبت المتناقضات إذا اختلفت وجوه الاعتبارات لما صدق قوله تعالى وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى سورة الأنفال الآية 17 ولكنه صادق لأن للرمي اعتبارين هو منسوب إلى العبد بأحدهما ومنسوب إلى الرب تعالى بالثاني فلا تناقض فيه

ولنقبض ها هنا عنان البيان فقد خضنا لجة بحر لا ساحل له وأمثال هذه الأسرار لا ينبغي أن تبذل بإيداع الكتب وإذ جاء هذا عرضا غير مقصود فلنكف عنه ولنرجع إلى شرح معاني أسماء الله الحسنى على التفصيل . انتهى انتهى . اهـ ❁ المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص 58.45 ❁

(123/298)

---

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

خاتمة لهذا الفصل واعتذار

اعلم أنه إنما حملني على ذكر هذه التنبهات ردف هذه الأسماء والصفات قول رسول الله  
تخلقوا بأخلاق الله تعالى وقوله عليه الصلاة والسلام إن لله كذا وكذا خلقا من تخلق بواحد  
منها دخل الجنة وما تداولته السنة الصوفية من كلمات تشير إلى ما ذكرناه لكن على وجه  
يوهم عند غير المحصل شيئا من معنى الحلول والاتحاد وذلك غير مظنون بعقل فضلا عن  
المتميزين بخصائص المكاشفات ولقد سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي يحكي عن شيخه  
أبي القاسم الكركاني قدس الله روحهما أنه قال إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا  
للعبد السالك وهو بعد في السلوك غير واصل وهذا الذي ذكره إن أراد به شيئا يناسب ما  
أوردناه فهو صحيح ولا يظن به إلا ذلك ويكون في اللفظ نوع من التوسع والاستعارة فإن  
معاني الأسماء هي صفات الله تعالى وصفاته لا تصير صفة لغيره ولكن معناه أنه يحصل له  
ما يناسب تلك الأوصاف كما يقال فلان حصل علم أستاذه وعلم الأستاذ لا يحصل  
للتلميذ بل يحصل له مثل علمه

وإن ظن ظان أن المراد به ليس ما ذكرناه فهو باطل قطعاً فإني أقول قول القائل إن معاني  
أسماء الله سبحانه وتعالى صارت أوصافاً له لا يخلو إما أن يعني به عين تلك الصفات أو  
مثلاً فإن عني به مثلاً فلا يخلو إما عني به مثلاً مطلقاً من كل وجه وإما أنه عني به مثلاً

من حيث الاسم والمشاركة في

عموم الصفات دون خواص المعاني فهذان قسمان وإن عني به عينها فلا يخلو إما أن يكون  
بطريق انتقال الصفات من الرب إلى العبد أو لا انتقال فإن لم يكن بالانتقال فلا يخلو إما أن  
يكون باتحاد ذات العبد بذات الرب حتى يكون هو هو فتكون صفاته وإما أن يكون بطريق  
الحلول وهذه أقسام ثلاثة وهو الانتقال والاتحاد والحلول وقسمان مقدمان

(124/298)

---

فهذه خمسة أقسام الصحيح منها قسم واحد وهو أن يثبت للعبد من هذه الصفات أمور  
تناسبها على الجملة وتشاركها في الاسم ولكن لا تماثلها مماثلة تامة كما ذكرناه في التنبهات  
وأما القسم الثاني وهو أن يثبت له أمثالها على التحقيق فمحال فإن من جملة أن يكون له  
علم محيط بجميع المعلومات حتى لا يعزب عنه ذرة في الأرض ولا في السموات وأن يكون له  
قدرة واحدة تشمل جميع المخلوقات حتى يكون هو بها خالق الأرض والسموات وما  
بينهما وكيف يتصور هذا الغير الله تعالى وكيف يكون العبد خالق السموات والأرض وما  
بينها وهو من جملة ما بينهما فكيف يكون خالق نفسه ثم إن ثبتت هذه الصفات لعبد  
يكون كل واحد منهما خالق صاحبه فيكون كل واحد خالقاً من خلقه وكل ذلك ترهات



## ومحالات

وأما القسم الثالث وهو انتقال عين صفات الربوبية فهو أيضا محال لأن الصفات يستحيل مفارقتها للموصوفات وهذا لا يختص بالذات القديمة بل لا يتصور أن ينتقل عين علم زيد إلى عمرو بل لا قيام للصفات إلا بخصوص الموصوفات ولأن الانتقال يوجب فراغ المنقل عنه فيوجب أن تعرى الذات التي عنها انتقال الصفات الربوبية فتعرى عن الربوبية وصفاتها وذلك أيضا ظاهر الاستحالة

وأما القسم الرابع وهو الاتحاد فذلك أيضا أظهر بطلانا لأن قول القائل إن العبد صار هو الرب كلام متناقض في نفسه بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه وتعالى عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحالات ونقول قولا مطلقا إن قول القائل إن شيئا صار شيئا آخر محال على الإطلاق لأننا نقول إذا عقل زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل إن زيدا صار عمروا واتحد به فلا يخلو عند الاتحاد إما أن يكون كلاهما موجودين أو كلاهما معدومين أو زيد موجودا وعمرو معدوما أو بالعكس ولا يمكن قسم وراء هذه الأربعة

(125/298)

---

فإن كانا موجودين فلم يصر عين أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود وإنما  
الغاية أن يتحد مكانهما وذلك لا يوجب الاتحاد فإن العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع في  
ذات واحدة ولا تتباين محالها ولا تكون القدرة هي العلم ولا الإرادة ولا يكون قد اتحد  
البعض ببعض

وإن كان معدومين فما اتحدا بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث  
وإن كان أحدهما معدوما والآخر موجودا فلا اتحاد إذ لا يتحد موجود بمعدوم  
فالاتحاد بين شيئين مطلقا محال وهذا جار في الذوات المتماثلة فضلا عن المختلفة فإنه  
يستحيل أن يصير هذا السواد ذاك السواد كما يستحيل أن يصير هذا السواد ذلك البياض  
أو ذلك العلم والتباين بين العبد والرب أعظم من التباين بين السواد والبياض والجهل والعلم  
فأصل الاتحاد إذا باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو لا يكون إلا بطريق التوسع  
والتجوز اللائق بعادة الصوفية والشعراء فإنهم لأجل تحسين موقع الكلام من الإفهام يسلكون  
سبيل الاستعارة كما يقول الشاعر

أنا من أهوى ومن أهوى أنا . . . نحن روحان حللنا بدنا

وذلك مؤول عند الشاعر فإنه لا يعني به أنه هو تحقيقا بل كأنه هو فإنه مستغرق الهم به كما  
يكون هو مستغرق الهم بنفسه فيعبر عن هذه الحالة بالاتحاد على سبيل التجوز

---

وعليه ينبغي أن يحمل قول أبي يزيد رحمه الله حيث قال انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فإذا أنا هو ويكون معناه أن من ينسلخ من شهوات نفسه وهوها وهمها فلا يبقى فيه متسع لغير الله ولا يكون له هممة سوى الله سبحانه وتعالى وإذا لم يحل في القلب إلا جلال الله وجماله حتى صار مستغرقا به يصير كأنه هو لا أنه هو تحقيقا و فرق بين قولنا كأنه هو وبين قولنا هو هو لكن قد يعبر بقولنا هو هو عن قولنا كأنه هو كما أن الشاعر تارة يقول كأنني من أهوى وتارة يقول أنا من أهوى وهذه مزلة قدم فإن من ليس له قدم راسخ في المعقولات ربما لم يميز له أحدهما عن الآخر فينظر إلى كمال ذاته وقد تزين بما تالأ فيه من حلية الحق فيظن أنه هو فيقول أنا الحق

وهو غلط غلط النصراني حيث رأوا ذلك في ذات المسيح عيسى عليه السلام فقالوا هو الإله بل هو غلط من ينظر إلى امرأة قد انطبع فيها صورة متلونة بتلونه فيظن أن تلك الصورة هي صورة المرأة وأن ذلك اللون لون المرأة وهيئات بل المرأة في ذاتها لا لون لها وشأنها قبول صور الألوان على وجه يتخايل إلى الناظرين إلى ظاهراً الأمور أن ذلك صورة المرأة حتى إن الصبي إذا رأى إنسانا في المرأة ظن أن الإنسان في المرأة فكذلك القلب خال عن الصور في نفسه وعن الهيئات وإنما هيأته قبول معاني الهيئات والصور والحقائق فما يحله يكون كالمتحد به لا أنه متحد به تحقيقا ومن لا يعرف

الزجاج والخمر إذا رأى زجاجة فيها خمر لا يدرك تباينهما فتارة يقول لا خمر وتارة يقول لا

زجاجة كما عبر عنه الشاعر حيث قال

رق الزجاج وراقت الخمر . . . فتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح . . . وكأنما قدح ولا خمر

وقول من قال منهم أنا الحق فيما أن يكون معناه معنى قول الشاعر

أنا من أهوى ومن أهوى أنا . . .

وإما أن يكون قد غلط في ذلك كما غلط النصارى في ظنهم اتحاد اللاهوت بالناسوت

(127/298)

---

وقول أبي يزيد رحمه الله إن صح عنه سبحانه ما أعظم شأنني إما أن يكون ذلك جارياً

على لسانه في معرض الحكاية عن الله عز وجل كما لو سمع وهو يقول لا إله إلا أنا فاعبدني

لكان يحمل على الحكاية وإما أن يكون قد شاهد كمال حظه من صفة القدس على ما

ذكرنا في الترقبي بالمعرفة عن الموهومات والمحسوسات وبالهمة عن الحظوظ والشهوات

فأخبر عن قدس نفسه وقال سبحانه ورأى عظم شأنه بالإضافة إلى شأن عموم الخلق

فقال ما أعظم شأنني وهو مع ذلك يعلم أن قدسه وعظم شأنه بالإضافة إلى الخلق ولا نسبة

له إلى قدس الرب تعالى وتقدس وعظم شأنه ويكون قد جرى هذا اللفظ في سكره  
وغلبات حاله فإن الرجوع إلى الصحو واعتدال الحال يوجب حفظ اللسان عن الألفاظ  
الموهمة وحال السكر ربما لا يحتمل ذلك فإن جاوزت هذين التأويلين إلى الاتحاد فذلك  
محال قطعاً فلا ينظر إلى مناصب الرجال حتى يصدق بالحال بل ينبغي أن يعرف الرجال  
بالحق لا الحق بالرجال

وأما القسم الخامس وهو الحلول فذلك يتصور أن يقال إن الرب  
تبارك وتعالى حل في العبد أو العبد حل في الرب تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين وهذا لو  
صح لما أوجب الاتحاد ولا أن يتصف العبد بصفات الرب فإن صفات الحال لا تصير صفة  
الحل بل تبقى صفة للحال كما كان ووجه استحالة الحلول لا يفهم إلا بعد فهم معنى الحلول  
فإن المعاني المفردة إذا لم تدرك بطريق التصور لم يمكن أن يفهم نفيها أو إثباتها فمن لا يدري  
معنى الحلول فمن أين يدري أن الحلول موجود أو محال  
فنقول المفهوم من الحلول أمران

أحدهما النسبة التي بين الجسم وبين مكانه الذي يكون فيه وذلك لا يكون إلا بين جسمين  
فالبريء عن معنى الجسمية يستحيل في حقه ذلك

---

والثاني النسبة التي بين العرض والجوهر فإن العرض يكون قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذلك محال على كل ما قوامه بنفسه فذبح عنك ذكر الرب تعالى وتقدس في هذا المعرض فإن كل ما قوامه بنفسه يستحيل أن يحل فيما قوامه بنفسه إلا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام فلا يتصور الحلول بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب وإذا بطل الحلول والانتقال والاتحاد والاتصاف بأمثال صفات الله سبحانه وتعالى على سبيل الحقيقة لم يبق لقولهم معنى إلا ما أشرنا إليه في التنبيهات وذلك يمنع من إطلاق القول بأن معاني أسماء الله تعالى تصير أوصافاً للعبد إلا على نوع من التقييد خال عن الإيهام وإلا فمطلق هذا اللفظ موهوم

فإن قلت فما معنى قوله إن العبد مع الاتصاف بجميع ذلك سالك لا واصل فما معنى السلوك وما معنى الوصول على رأي هذا القائل فاعلم أن السلوك هو تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن والعبد في جميع ذلك مشغول بنفسه عن ربه سبحانه وتعالى إلا أنه

مشتغل بتصفية باطنه ليستعد للوصول وإنما الوصول هو أن ينكشف له جليلة الحق ويصير مستغرقاً به فإن نظر إلى معرفته فلا يعرف إلا الله وإن نظر إلى همته فلا همته له سواه فيكون كله مشغولاً بكله مشاهدة وهما لا يلتفت في ذلك إلى نفسه ليعمر ظاهره بالعبادة أو باطنه

بتهديب الأخلاق وكل ذلك طهارة وهي البداية وإنما النهاية أن ينسلخ من نفسه بالكلية  
ويتجرد له فيكون كأنه هو وذلك هو الوصول عنده

(129/298)

---

فإن قلت كلمات الصوفية بناء على مشاهدات انفتحت لهم في طور الولاية والعقل يقصر  
عن درك ذلك وما ذكرتموه تصرف ببضاعة العقل فاعلم أنه لا يجوز أن يظهر في طور الولاية  
ما يقضي العقل باستحالة نعم يجوز أن يظهر ما يقصر العقل عنه بمعنى أنه لا يدركه بمجرد  
العقل مثاله أنه يجوز أن يكشف الولي بأن فلانا سيموت غدا ولا يدرك ذلك ببضاعة العقل  
بل يقصر العقل عنه ولا يجوز أن يكشف بأن الله سبحانه وتعالى غدا سيخلق مثل نفسه  
فإن ذلك يحيله العقل لأنه يقصر عنه وأبعد من ذلك أن يقول إن الله تبارك وتعالى سيجعلني  
مثل نفسه وأبعد منه أن يقول إن الله عز وجل سيصيرني نفسه أي أصير أنا هو لأن معناه  
أني حادث والله تعالى وتقدس يجعلني قديما ولست خالق السموات والأرضين والله  
يجعلني خالق السموات والأرضين وهذا معنى قوله نظرت فإذا أنا هو إذا لم يؤول ومن  
صدق بمثل هذا فقد انخلع عن غريزة العقل ولم يتميز عنده ما يعلم عما لا يعلم فليصدق بأنه  
يجوز أن يكشف ولي بأن الشريعة باطلة وأنها إن كانت حقا فقد قلبها الله باطلا وأنه جعل

جميع أقاويل الأنبياء كذبا وإن من قال يستحيل أن ينقلب الصدق كذبا فإنما يقوله ببضاعة العقل فإن انقلاب الصدق كذبا ليس بأبعد من انقلاب الحادث قديما والعبد ربا ومن لم يفرق بين ما أحاله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أحسن من أن يخاطب فليترك وجهه . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص 150 . 156 ﴾

(130/298)

---

فصل فيما يجري صفة أو خبرا على الرب تبارك وتعالى

قال ابن القيم :

ما يجري صفة أو خبرا على الرب تبارك وتعالى أقسام أحدها ما يرجع إلى نفس الذات كقولك ذات وموجود وشيء الثاني : ما يرجع إلى صفات معنوية كالعليم والقدير والسميع الثالث : ما يرجع إلى أفعاله نحو : الخالق والرزاق الرابع : ما يرجع إلى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتا إذ لا كمال في العدم المحض كالقدوس والسلام الخامس : ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة

(131/298)



---

أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد نحو المجيد العظيم الصمد فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة فمنه استمجد المرخ والغفار وأجد الناقة علفا ومنه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنا بطلب الصلاة من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم كما علمناه لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه كما تقول: "اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ولا يحسن إنك أنت السميع البصير" فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: "أظنوا بياذا الجلال والإكرام" ومنه "اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام" فهذا سؤال له وتوسل إليه وبجمده وأنه الذي لا إله إلا هو المنان فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعا عند المسؤل وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة وقد فتح لمن بصره الله تعالى تفسر الاسم الإلهي العظيم والصمد ولنرجع إلى المقصود وهو وصفه تعالى بالاسم المتضمن لصفات عديدة فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال وكذلك الصمد قال ابن عباس هو السيد الذي كمل في

سؤدده وقال ابن وائل هو السيد الذي انتهى سؤدده وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدود فقد صمد له كل شيء وقال ابن الأنباري: "لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم" واشتقاقه يدل على هذا فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه واجتمعت فيه صفات السؤدود وهذا أصله في اللغة كما قال:

(132/298)

---

الأبكر الناعي بخير بني أسد . . . بعمر وبن يربوع وبالسيد الصمد  
والعرب تسمي أشرفها بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه واجتماع صفات  
السيادة فيه السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر وذلك قدر  
زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد العفو القدير الحميد المجيد وهكذا عامة الصفات  
المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن فإن الغنى صفة كمال والحمد كذلك واجتماع الغنى  
مع الحمد كمال آخر فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما وكذلك العفو  
القدير والحميد المجيد والعزيم الحكيم فتأمله فإنه من أشرف المعارف تسليط صفات  
السلب على أسماء الله تعالى وأما صفات السلب المحض فلا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن

تكون متضمنة لثبوت كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية والسلام المتضمن لبراءته  
من كل نقص يضاد كماله وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتاً كقوله تعالى:  
﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته وكذلك قوله تعالى:  
﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ متضمن لكمال قدرته وكذلك قوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ  
مِثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ متضمن لكمال علمه وكذلك قوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ متضمن لكمال  
صمديته وغناه وكذلك قوله: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ متضمن لتفرده بكماله وأنه لا  
نظير له وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ متضمن لعظمته وأنه جل عن أن يدرك  
بحيث يحاط به وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب ويجب أن تعلم هنا  
أمور .

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته  
كالشيء والموجود والقائم بنفسه فإنه يجبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنی وصفاته  
العلیاء .

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه بل يطلق عليه منها كمالها وهذا كالمريد والفاعل والصانع فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق بل هو الفعال لما يريد فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلا وخبرا .

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدا أن يشتق له منه اسم مطلق كما غلط فيه بعض المتأخرين فجعل من أسمائه الحسنى المضل الفاتن الماكر تعالى الله عن قوله فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة والله أعلم .

الرابع: أن أسمائه عز وجل الحسنى هي أعلام وأوصاف والوصف بها لا ينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم لأن أوصافهم مشتركة فناقتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالى .

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات دلالة على الذات والصفة بالمطابقة ودلالة على أحدهما بالتضمن ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم .

السادس: أن أسمائه الحسنى لها اعتباران اعتبار من حيث الذات واعتبار من حيث الصفات فهي بالاعتبار الأول مترادفة وبالاعتبار الثاني متباينة .

السابع: أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي وما يطلق عليه من الأخبار لا

يجب أن يكون توقيفاً كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع .  
الثامن : أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل فيخبر به عنه فعلا ومصدرا ونحو السميع البصير القدير يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ هذا إن كان الفعل متعديا فإن كان لازما لم يخبر عنه به نحو الحي بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال حي .

(134/298)

---

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم فالرب تبارك وتعالى فعالة عن كماله والمخلوق كماله عن فعالة فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل فالرب لم ينزل كاملا فحصلت أفعاله عن كماله لأنه كامل بذاته وصفاته فأفعاله صادرة عن كماله كمل ففعل والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقا له تعالى أو أمرا إما علم بما كونه أو علم بما

شرعه ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنی وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى  
بمقتضيه فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنی وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد  
والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه فأمره كله مصلحة  
وحكمة ولطف وإحسان إذ مصدره أسماءه الحسنی وفعله كله لا يخرج عن العدل  
والحكمة والمصلحة والرحمة إذ مصدره أسماءه الحسنی فلا تفاوت في خلقه ولا عبث ولم  
يخلق خلقه باطلا ولا سدى ولا عبثا وكما أن كل موجود سواء فيأبجاده فوجود من سواء  
تابع لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواء فالعلم  
بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى  
جميع العلوم إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم لأن المعلومات هي من مقتضاها  
ومرتبطة بها وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى ولهذا لا تجد فيها خلا  
ولا تفاوتاً لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله إما أن يكون لجهله به أو لعدم حكمته  
وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض

(135/298)

---

الحادي عشر: أن أسماءه كلها حسنى ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً وقد تقدم أن من  
أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق والرازق والمحيي والمميت وهذا يدل على أن  
أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم ولم تكن أسماءه كلها  
حسنى وهذا باطل فالشر ليس إليه فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل في  
أفعاله فالشر ليس إليه لا يضاف إليه فعلاً ولا وصفاً وإنما يدخل في مفعولاته وفرق بين الفعل  
والمفعول فالشر قائم بمفعوله المبين  
له لا بفعله الذي هو فعله فتأمل هذا فإنه خفي على كثير من المتكلمين وزلت فيه أقدام  
وضلت فيه أفهام وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه والله يهدي من يشاء إلى  
صراط مستقيم

(136/298)

---

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة وهذا هو قطب  
السعادة ومدار النجاة والفلاح المرتبة الأولى: إحصاء ألقابها وعددها المرتبة الثانية:  
فهم معانيها ومدلولها المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ  
فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهو مرتبتان

إحداهما : دعاء ثناء وعبادة والثاني : دعاء طلب ومسألة فلا يثنى عليه إلا بأسمائه  
الحسنى وصفاته العلى وكذلك لا يسأل إلا بها فلا يقال يا موجود أو يا شيء أو يا ذات  
اغفر لي وارحمني بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب فيكون السائل  
متوسلا إليه بذلك الاسم ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها  
مطابقة لهذا وهذه العبارة أولى من عبارة من قال يتخلق بأسماء الله فإنها ليست بعبارة  
سديدة وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة وأحسن منها عبارة  
أبي الحكم بن برهان وهي التعبد وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن وهي الدعاء  
المتضمن للتعبد والسؤال فمراتبها أربعة أشدها إنكارا عبارة الفلاسفة وهي التشبه  
وأحسن منها عبارة من قال التخلق وأحسن منها عبارة من قال التعبد وأحسن من الجميع  
الدعاء وهي لفظ القرآن .

الثالث عشر : اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد كالحي والسميع  
والبصير والعليم والتقدير والملك ونحوها : فقالت : طائفة من المتكلمين هي حقيقة في العبد  
مجاز في الرب وهذا قول غلاة الجهمية وهو أخبث الأقوال وأشدها فسادا الثاني : مقابله  
وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد وهذا قول أبي العباس الناشئ الثالث : أنها حقيقة  
فيهما وهذا قول أهل السنة وهو الصواب واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها  
حقيقة فيهما وللرب



(137/298)

---

تعالى منها ما يليق بجلاله وللعبد منها ما يليق به وليس هذا موضع التعرض لما أخذ هذه الأقوال وإبطال باطلها وتصحيح صحيحها فإن الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها في هذا الباب ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سفرين أو أكثر.

(138/298)

---

الرابع عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد اعتباره مضافا إلى الرب مختصا به اعتباره مضافا إلى العبد مقيدا به فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتا للرب والعبد وللرب منه ما يليق بكماله وللعبد منه ما يليق به وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات والعليم والتقدير وسائر الأسماء فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباته للرب تعالى لا محذور فيه بوجه بل ثبتت له على وجه لا يماثله فيه خلقه ولا يشابههم فمن

نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق أُلحِد في أسمائه ووجد صفات كماله ومن أثبت له على وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه ومن شبه الله بخلقه فقد كفر ومن أثبت له على وجه لا يماثل فيه خلقه بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد بريء من فرث التشبيه ودم التعطيل وهذا طريق أهل السنة وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو عال عليه وكونه محمولا به مفتقرا إليه محاطا به كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى وما لزم صفة من جهة اختصاصه تعالى بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق فإذا أخطت بهذه القاعدة خبرا وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين آفة

(139/298)

---

التعطيل وآفة التشبيه فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة فخلصت من التعطيل ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهمهم

فخلصت من التشبيه فتدبر هذا الموضع واجعله جنك التي ترجع إليها في هذا الباب والله  
الموفق للصواب الخامس العشر: أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة أمران  
لفظيان وأمران معنويان فاللفظيان ثبوتي وسلبى فالثبوتي أن يشتق للموصوف منها  
الموصوف ويخبر بها عنه والسلبى أن لا يعود حكمها إلى غيره ولا يكون خبرا عنه وهي  
قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات فلنذكر من ذلك مثلا واحدا وهو صفة الكلام  
فإنه إذا قامت بمحل كانت هو التكم دون من لم تقم به وأخبر عنه بها وعاد حكمها إليه  
دون غيره فيقال قال وأمر ونهى ونادى وناجى وأخبر وخاطب وتكلم وكلم ونحو ذلك  
وامتنعت هذه الأحكام لغيره فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به وسلبها  
عن غيره على عدم قيامها به وهذا هو أصل السنة الذي ردوا به على المعتزلة والجهمية  
وهو من أصح الأصول طردا وعكسا .

(140/298)

---

السادس عشر: أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد فإن الله تعالى  
أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل كما في  
الحديث الصحيح: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو

استأثرت به في علم الغيب عندك" صحيح على الراجح فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمي به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه وقسم أنزل به كتابه فتعرف به إلى عباده وقسم استأثر به في علم غيبه فلم يطلع عليه أحد من خلقه ولهذا قال استأثرت به أي انفردت بعلمه وليس المراد انفراده بالتسمي به لأن هذا الإنفراد ثابت في الأسماء التي أنزل الله بها كتابه ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة: "يفتح علي من محامده بما لا أحسنه الآن" رواه البخاري ومسلم وتلك المحامد تفي بأسمائه وصفاته ومنه قوله: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" رواه مسلم وأبو داود وغيرهما وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة" رواه البخاري ومسلم فالكلام جملة واحدة وقوله: "ومن أحصاها دخل الجنة" صفة لا خبر مستقبل والمعنى له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها وهذا كما تقول لفلان مائة مملوك وقد أعدهم للجهاد فلا ينفي هذا أن يكون له ممالك سواهم معدون لغير الجهاد وهذا لا خلاف بين العلماء فيه .

(141/298)

---

السابع عشر: أن أسماء تعالى منها ما يطلق عليه مفردا ومقترنا بغيره وهو غالب الأسماء  
فالقدير والسميع والبصير والعزیز والحكيم وهذا يسوع أن يدعى به مفردا ومقترنا بغيره  
فتقول: يا عزيز يا حلیم يا غفور يا رحيم وأن يفرد كل اسم وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه  
بما يسوع لك الأفراد والجمع ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده بل مقرونا بمقابله كالمانع والضار  
والمنتقم فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو فهو المعطي  
المانع الضار النافع المنتقم العفو المعز المذل لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله  
لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعا ونفعا وضرا  
وعفوا وانتقاما وأما أن يشئ عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوع فهذه الأسماء  
المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض  
فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد ولذلك لم تجيء مفردة ولم تطلق عليه إلا مقترنة  
فاعلمه فلو قلت: يا مذل يا ضار يا مانع وأخبرت بذلك لم تكن مثنيا عليه ولا حامدا له  
حتى تذكر مقابلهما .

الثامن عشر: أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال وصفات نقص وصفات لا تقتضي  
كمالا ولا نقصا وإن كانت القسمية التقديرية تقتضي قسما رابعا: وهو ما يكون كمالا ونقصا  
باعتبارين والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة وموصوف بالقسم الأول وصفاته كلها  
صفات كمال محض فهو موصوف من الصفات

بأكملها وله من الكمال أكمله وهكذا أسماءه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء  
وأكملها فليس في الأسماء أحسن منها ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها وتفسير  
الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمرادف محض بل هو على سبيل التقريب والتفهيم وإذا  
عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن  
شائبة عيب أو نقص فله من صفة الإدراكات العليم الخبير دون العاقل الفقيه والسميع  
البصير دون السامع والباصر والناظر ومن صفات الإحسان البر الرحيم الودود دون  
الرفيق والشفوق ونحوهما وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف وكذلك الكريم دون  
السخي والخالق البارئ المصور دون الفاعل الصانع المشكل والغفور العفودون الصفوح  
الساتر وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها وما لا يقوم غيره  
مقامه فتأكل ذلك فأسماءه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات فلا تعدل عما  
سمى به نفسه إلى غيره كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله إلى ما وصفه به  
المبطلون والمعطلون .

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنی ما يكون دالا على عدة صفات ويكون ذلك الاسم

متناولا لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها كما تقدم بيانه كاسمه العظيم  
والجيد والحمد كما قال ابن عباس: فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: "الحمد:  
السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف: الذي قد كمل في شرفه والعظيم: الذي قد كمل  
في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد  
كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده وهو الله سبحانه إسناده  
ضعيف " هذه صفة لا تنبغي إلا له ليس له كفوا أحد وليس كمثله شيء سبحان الله  
الواحد القهار هذا لفظه وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء  
الحسنى ففسر الاسم بدون معناه ونقصه من حيث لا يعلم فمن لم يحيط بهذا علما بنحس  
الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه قد بره .

(143/298)

---

العشرون: وهي الجامعة لما تقدم من الوجوه وهي معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيه  
قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ  
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق  
الثابت لها وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته لحد فمنه اللحد وهو الشق في جانب

القبر الذي قد مال عن الوسط ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل قال ابن السكيت: "الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه" ومنه الملحد وهو مفتعل من ذلك وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا﴾ أي من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجئ إليه وتبتهل فتميل إليه عن غيره تقول العرب التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع أحدها: أن يسمى الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإلهية والعزى من العزيز وتسميتهم الصنم إلها وهذا إلحاد حقيقة فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وأهتهم الباطلة الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أبا وتسمية الفلاسفة له موجبا بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخصب اليهود إنه فقير وقولهم إنه استراح بعد أن خلق خلقه وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ﴾ وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحكي والرحيم والمتكلم والمريد ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلا وشرعا ولغة وفطرة وهو يقابل إلحاد المشركين فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لأهتهم وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها



---

فكلاهما ملحد في أسمائه ثم الجهمية وفروخهم متفوتون في هذا الإلحاد فمنهم الغالي  
والمتوسط والمنكوب وكل من جحد شيئاً عما وصف الله به نفسه

(145/298)

---

أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر وخامسها: تشبيه صفاته  
بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة  
فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد  
وتفرقت بهم طرقه وبراؤه الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله فلم يصفوه إلا  
بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته ولم يشبهوها بصفات خلقه ولم يعدلوا بها عما أنزلت  
عليه لفظاً ولا معنى بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان  
إثباتهم بريئاً من التشبيه وتنزيههم خلياً من التعطيل لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً أو  
عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً وأهل السنة وسط في النحل كما أن أهل الإسلام وسط في  
الملل توقد مصابيح معارفهم من: ﴿ شَجَرَةٌ مُبَارَكَةٌ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا  
يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فنسأل الله تعالى أن

يهدينا لنوره ويسهل لنا السبيل إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله إنه قريب مجيب فهذه  
عشرون فائدة مضافة إلى القاعدة التي بدأنا بها في أقسام ما يوصف به الرب تبارك وتعالى  
فعليك بمعرفتها ومراعاتها ثم اشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلبا عاقلا ولسانا قائلا  
ومحلا قابلا وإلا فالسكوت أولى بك فجناب الربوبية أجل وأعز مما يخطر بالبال أو يعبر عنه  
المقال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكل شيء علما  
وعسى الله أن يعين بفضلته على تعليق شرح الأسماء الحسنى مراعيًا فيه أحكام هذه  
القواعد برياً من الإلحاد في أسمائه وتعطيل صفاته فهو المان بفضلته والله ذو الفضل العظيم.  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ بدائع الفوائد ح 1 ص 159. 170 ﴾

(146/298)

---

فصول ثلاثة مهمة لحجة الإسلام الغزالي

قال عليه سحائب الرحمة :

الفصل الأول في بيان أن أسماء الله تعالى من حيث التوقيف غير مقصورة على تسعة

وتسعين

بل ورد التوقيف بأسماء سواها إذ في رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه إبدال لبعض

هذه الأسماء بما يقرب منها وإبدال بما لا يقرب فأما الذي يقرب فالأحد بدل الواحد  
والقاهر بدل القهار والشاكر بدل الشكور والذي لا يقرب كالهادي والكافي والدائم والبصير  
والنور والمبين والجميل والصادق والمحيط والقريب والقديم والوتر والفاطر والعلام والملك  
والأكرم والمدبر والرفيع وذو الطول وذو المعارج وذو الفضل والخلاق  
وقد ورد أيضا في القرآن ما ليس متفقا عليه في الروايتين جميعا كالمولى والنصير والغالب  
والقريب والرب والناصر ومن المضافات كقوله تعالى شديد العقاب وقابل التوب وغافر  
الذنب ومولج الليل في النهار ومولج النهار في الليل ومخرج الحي من الميت ومخرج الميت من  
الحي

وقد ورد في الخبر أيضا السيد إذ قال رجل لرسول الله يا سيد فقال السيد هو الله عز وجل  
وكأنه قصد المنع من المدح في الوجه والإفقد قال أنا سيد ولد آدم ولا فخر والديان أيضا قد  
ورد وكذا الحنان والمنان وغير ذلك مما لو تتبع في الأحاديث لوجد

ولو جوز اشتقاق الأسماء من الأفعال فستكثر هذه الأسماء المشتقة لكثرة الأفعال  
المنسوبة إلى الله تعالى في القرآن كقوله تعالى يكشف السوء 27 سورة النمل الآية 62  
ويقذف بالحق 34 سورة سبأ الآية 38 ويفصل بينهم 22 سورة الحج الآية 17 و32  
سورة السجدة الآية 25 وقضينا إلى بني إسرائيل 17 سورة الإسراء الآية 4 فيشتق له من

ذلك الكاشف والقاذف بالحق والفاصل والقاضي

ويخرج ذلك عن الحصر وفيه نظر سيأتي

(147/298)

---

والغرض أن نبين أن الأسماء ليست هي التسعة والتسعين التي عددناها وشرحناها ولكننا  
جرينا على العادة في شرح تلك الأسماء فإنها هي الرواية المشهورة وليست هذه  
التعديلات والتفصيلات المروية عن أبي هريرة في الصحيحين إنما الذي تشتمل عليه  
الصحيح قوله إن الله سبحانه وتعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة أما بيان  
ذلك وتفصيله فلا

ومما وقع عليه الاتفاق بين الفقهاء والعلماء من الأسماء المرید والمتكلم والموجود والشيء  
والذات والأزلي والأبدي وإن ذلك مما يجوز إطلاقه في حق الله سبحانه وتعالى وورد في  
الحديث لا تقولوا جاء رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى لكن قولوا جاء شهر  
رمضان وكذلك ورد عن رسول الله أنه قال ما أصاب أحدا هم ولا حزن فقال اللهم إني  
عبدك وابن عبدك وابن أمك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل  
اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به

في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن

ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله عز وجل همه وحزنه

وأبدل مكانه فرحا وقوله استأثرت به في علم الغيب عندك يدل على أن الأسماء غير

محصورة فيما وردت به الروايات المشهورة وعند هذا ربما يخطر ببالك طلب الفائدة في

الحصر في تسعة وتسعين ولا بد من ذكرها

الفصل الثاني في بيان فائدة الإحصاء والتخصيص بتسعة وتسعين

وفي هذا الفصل أنظار في أمور فلنوردها في معرض الأسئلة

(148/298)

---

فإن قال قائل أسماء الله سبحانه وتعالى هل تزيد على تسعة وتسعين أم لا فإن زادت فما

معنى هذا التخصيص ومن يملك ألف درهم لا يجوز أن يقول القائل إن له تسعة وتسعين

درهما لأن الألف وإن اشتمل على ذلك ولكن تخصيص العدد بالذكر يفهم نفي ما وراء

المعدود وإن كانت الأسماء غير زائدة على هذا العدد فما معنى قوله أسألك بكل اسم

هولك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم

الغيب عندك فإن هذا صريح في أنه استأثر ببعض الأسماء وكذلك قال في رمضان إنه من

أسماء الله تعالى وكذلك كان السلف يقولون فلان أوتي الاسم الأعظم وكان ينسب ذلك إلى

بعض الأنبياء والأولياء وذلك يدل على أنه خارج عن التسعة والتسعين

فنقول إن الأشبه أن الأسماء زائدة على تسعة وتسعين لهذه الأخبار وأما الحديث الوارد

في الحصر فإنه يشتمل على قضية واحدة لا على قضيتين وهو كالمالك الذي له ألف عبد

مثلا فيقول القائل إن للملك تسعة وتسعين عبدا من استظهر بهم لم يقاومه الأعداء فيكون

التخصيص لأجل حصول الاستظهار بهم إما لمزيد قوتهم وإما لكفاية ذلك العدد في دفع

الأعداء من غير حاجة إلى زيادة الاختصاص الوجود بهم

ويحتمل أن تكون الأسماء غير زائدة على هذا العدد ويكون لفظ الخبر مشتملا على

قضيتين إحداهما أن الله تعالى تسعة وتسعين اسما والثاني أن من أحصاها دخل الجنة حتى

لواقصر على ذكر القضية الأولى كان الكلام تاما وعلى المذهب الأول لا يمكن الاقتصار

على ذكر القضية الأولى

وذا هو الأسبق إلى الفهم من ظاهر هذا الحصر ولكنه بعيد من وجهين

أحدهما أن هذا يمنع أن يكون من الأسماء ما استأثر الله به في علم الغيب عنده وفي

الحديث إثبات ذلك

والثاني أنه يؤدي إلى أن يختص بالإحصاء نبي أو ولي ممن أوتي الاسم الأعظم حتى يتم العدد

به وإلا فيكون ما أحصى وراء ذلك ناقصا عن العدد أو كان الاسم خارجا عن العدد

فيبطل به الحصر

(149/298)

---

والأظهر أن رسول الله ذكر هذا في معرض الترغيب للجماهير في الإحصاء والاسم الأعظم  
لا يعرفه الجماهير

فإن قيل فإذا كان الأظهر أن الأسماء زائدة على تسعة وتسعين فلو قدرنا مثلا أن الأسماء  
ألف وأن الجنة تستحق بإحصاء تسعة وتسعين منها فهي تسعة وتسعون بأعيانها أو تسعة  
وتسعون أيها كان حتى إن من بلغ ذلك المبلغ في الإحصاء استحق دخول الجنة وحتى إن من  
أحصى ما رواه أبو هريرة مرة دخل الجنة ولو أحصى أيضا ما اشتملت الرواية الثانية عليه  
أيضا دخل الجنة إذا قدرنا أن جميع ما في الروايتين من أسماء الله تعالى

فتقول الأظهر أن المراد به تسعة وتسعون بأعيانها فإنها إذا لم تعين لم تظهر فائدة الحصر  
والتخصيص فإن قول القائل إن للملك مئة عبد من استظهر بهم لم يقاومه عدو وإنما يحسن مع  
كثرة عبيد الملك إذا اختص مئة من

بينهم بمزيد قوة وشوكة فأما إذا حصل ذلك بأي مئة كان من جملة العبيد لم يحسن نظم الكلام

فإن قيل فما بال تسعة وتسعين من الأسماء اختصت بهذه القضية مع أن الكل أسماء الله

سبحانه وتعالى

فنقول الأسماء يجوز أن تتفاوت فضيلتها لتفاوت معانيها في الجلالة والشرف فيكون تسعة وتسعون منها تجمع أنواعا من المعاني المنبئة عن الجلال لا يجمع ذلك غيرها فتختص بزيادة

شرف

فإن قيل فاسم الله الأعظم داخل فيها أم لا فإن لم يدخل فكيف يختص مزيد الشرف بما هو خارج عنها وإن كان داخلا فيها فكيف ذلك وهي مشهورة والاسم الأعظم يختص بمعرفته نبي أو ولي وقد قيل إن آصف إنما جاء بعرش بلقيس لأنه كان قد أوتي الاسم الأعظم وهو سبب كرامات عظيمة لمن عرفه

(150/298)

---

فنقول يحتمل أن يقال إن اسم الله الأعظم خارج عن هذا العدد الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه ويكون شرف هذه الأسماء المعدودة بالإضافة إلى جميع الأسماء المشهورة عند الجماهير لا بالإضافة إلى الأسماء التي يعرفها الأولياء والأنبياء ويحتمل أن يقال إنها تشتمل على اسم الله الأعظم ولكنه مبهم فيها لا يعرفه بعينه إلا ولي إذ ورد في الخبر عن النبي أنه قال



اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم 2 سورة  
البقرة الآية 163 و فاتحة آل عمران ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم 3 سورة آل عمران الآية  
1 وروي أن رسول الله سمع رجلا يدعو وهو يقول اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك  
أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فقال والذي  
نفسى بيده لقد سألت الله تعالى باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى  
فإن قيل فما سبب تخصيص هذا العدد من بين سائر الأعداد ولم يبلغ مئة وقد قارب ذلك  
قلنا فيه احتمالان

أحدهما أن يقال لأن المعاني الشريفة بلغت هذا المبلغ لأن العدد مقصود ولكن وافقت  
المعاني هذا العدد كما أن الصفات عند أهل السنة سبع وهي الحياة والعلم والقدرة  
والإرادة والسمع والبصر والكلام لأنها سبع ولكن صفات الربوبية لا تتم إلا بها

(151/298)

---

والثاني وهو الأظهر أن السبب فيه بيان ما ذكره رسول الله حيث قال مئة إلا واحدة والله  
وترى حجب الوتر وإلا أن هذا يدل على أن هذه الأسماء هي بالتسمية الإرادية الاختيارية لا  
من حيث انحصار صفات الشرف فيها لأن ذلك يكون لذاته لا بالإرادة ولا يقول أحد إن

صفات الله سبحانه وتعالى سبع لأنه وتر ويجب الوتر بل ذلك لذاته وإلهيته والعدد فيه غير مقصود بل ليس وجود ذلك بقصد قاصد وإرادة مرید حتى يقصد الوتر دون غيره وهذا يكاد يؤيد الاحتمال الذي ذكرناه وهو أن الأسمي التي سمى الله سبحانه وتعالى بها نفسه هي تسعة وتسعون لا غير وأنه إنما لم يجعلها مئة لأنه يجب الوتر وسنشير إلى ما يؤيد هذا الاحتمال

فإن قيل فهذه الأسماء التسعة والتسعون هل عدها رسول الله وأحصاها قصداً إلى جمعها أو ترك جمعها إلى من يلتقطها من الكتاب والسنة والأخبار الدالة عليه فنقول الأظهر وهو الأشهر أن ذلك مما أحصاه رسول الله وجمعها قصداً إلى جمعها وتعليمها على ما نقله أبو هريرة رضي الله عنه إذ ظاهر الكلام هو الترغيب في الإحصاء وذلك مما يعسر على الجماهير إذا لم يذكره رسول الله على سبيل الجمع وهذا يدل على صحة رواية أبي هريرة رضي الله عنه وقد قبل الجماهير روايته المشهورة التي أجرينا شرحنا على منوالها

وقد تكلم أحمد البيهقي على رواية أبي هريرة وذكر أنها من رواية من فيه ضعف وأشار أبو عيسى الترمذي في مسنده إلى شيء من ذلك ويدل على ضعف هذه الرواية سوى ما ذكره المحدثون ثلاثة أمور

أحدها اضطراب الرواية عن أبي هريرة إذ عنه روايتان وبينهما تباين ظاهر في الإبدال

والتغيير

والثاني أن روايته ليست تشتمل على ذكر الحنان والمنان ورمضان وجملة من الأسماء التي

وردت الأخبار بها

والثالث أن الذي أورد في الصحيح هذا القدر وهو قوله إن لله تسعة وتسعين اسماً من

أحصاها دخل الجنة

(152/298)

---

وأما ذكر الأسماء فلم تورد في الصحيح بل وردت به رواية غريبة وفي إسنادها ضعف

وهذا القدر الظاهر يدل على أن الأسماء لا تزيد على هذا العدد وإنما حملنا على الميل

عن الظاهر خروج بعض هذه الأسماء عن رواية أبي

هريرة فإن ضعفنا الرواية التي فيها عدد الأسماء اندفع عنها جملة من الإشكالات

فإننا نقول الأسماء هي تسعة وتسعون فقط سمي الله سبحانه وتعالى بها نفسه ولم يكملها

مئة لأنه وتر يجب الوتر ويدخل في جملتها الحنان والمنان وغيرهما ولا يمكن معرفة جميعها إلا

بالبحث في الكتاب والسنة إذ يصح جملة منها في كتاب الله سبحانه وتعالى وجملة في

الأخبار ولم أعرف أحداً من العلماء اعتنى بطلب ذلك وجمعه سوى رجل من حفاظ

المغرب يقال له علي بن حزم فإنه قال رحمه الله صح عندي قريب من ثمانين اسماً يشتمل عليها الكتاب والصحاح من الأخبار والباقي ينبغي أن يطلب من الأخبار بطريق الاجتهاد وأظن أنه لم يبلغه الحديث الذي فيه عدد الأسماء وإن كان بلغه فكأنه استضعف إسناده إذ عدل عنه إلى الأخبار الواردة في الصحاح وإلى التقاط ذلك منها وعلى هذا فمن أحصاها أي جمعها وحفظها نال تعباً شديداً في اجتهاده فبالحرى أن يدخل الجنة وإلا فإحصاء ما وردت الرواية به مرة واحدة سهل على اللسان نعم قد ورد في بعض الألفاظ الصحاح من حفظها دخل الجنة والحفظ يوجب إلى مزيد تعب فهذا ما يظهر لي من الاحتمالات في هذا الحديث وأكثر ذلك مما لم يتعرض له وهي أمور اجتهادية لا تعلم إلا بتخمين فإنها خارجة عن مجاري العقول والله أعلم

الفصل الثالث في أن الأسماء والصفات المطلقة على الله عز وجل هل تقف على التوقيف أم تجوز بطريق العقل

(153/298)

---

والذي مال إليه القاضي أبو بكر أن ذلك جائز إلا ما منع منه الشرع أو أشعر بما يستحيل معناه على الله سبحانه وتعالى فأما ما لا مانع فيه فإنه جائز والذي ذهب إليه الأشعري أن

ذلك موقوف على التوقيف فلا يجوز أن يطلق في حق الله تعالى ما هو موصوف بمعناه إلا إذا  
أذن فيه والمختار عندنا أن نفصل ونقول كل ما يرجع إلى الاسم فذلك موقوف على الإذن  
وما يرجع إلى الوصف فذلك لا يقف على الإذن بل الصادق منه مباح دون الكاذب ولا يفهم  
هذا إلا بعد فهم الفرق بين الاسم والوصف

فنقول الاسم هو اللفظ الموضوع للدلالة على المسمى فزيد مثلا اسمه زيد وهو في نفسه  
أبيض وطويل فلو قال له قائل يا طويل يا أبيض فقد دعاه بما هو موصوف به وصدق ولكنه  
عدل عن اسمه إذ اسمه زيد دون الطويل والأبيض وكونه طويلا أبيض لا يدل على أن الطويل  
اسمه بل تسميتنا الولد قاسما وجامعا لا يدل على أنه موصوف بمعاني هذه الأسماء بل دلالة  
هذه الأسماء وإن كانت معنوية عليه كدلالة قولنا زيد وعيسى وما لا معنى له بل إذا سميناه  
عبد الملك فلسنا نعني به أنه عبد الملك ولذلك نقول عبد الملك اسم مفرد كعيسى وزيد  
وإذا ذكر في معرض الوصف كان مركبا وكذلك عبد الله لذلك يجمع فيقال عبادة ولا يقال  
عباد الله

(154/298)

---

وإذا فهمت معنى الاسم فاسم كل أحد ما سمي به نفسه أو سماه به وليه من أبيه أو سيده  
والتسمية أعني وضع الاسم تصرف في المسمى ويستدعي ذلك ولاية والولاية للإنسان على  
نفسه أو على عبده أو على ولده فلذلك تكون التسميات إلى هؤلاء ولذلك لو وضع غير  
هؤلاء اسما على مسمى ربما أنكره المسمى وغضب على المسمى وإذا لم يكن لنا أن نسمي  
إنسانا أي لا نضع له اسما فكيف نضع لله تعالى اسما وكذلك أسماء رسول الله معدودة وقد  
عدها وقال إن لي أسماء أحمد ومحمد والمقفي والمحي والعاقب وبنو التوبة وبنو الرحمة  
وبنو الملحمة وليس لنا أن نزيد على ذلك في معرض التسمية بل في معرض الإخبار عن  
وصفه فيجوز أن نقول إنه عالم ومرشد ورشيد وهاد وما يجري مجراه كما نقول لزيد إنه  
أبيض طويل لا في معرض التسمية بل في معرض الإخبار عن وصفه فيجوز أن نقول إنه عالم  
ومرشد ورشيد وهاد وما يجري مجراه كما نقول لزيد إنه أبيض وطويل لا في معرض التسمية  
بل في معرض الإخبار عن صفته وعلى الجملة فهذه مسألة فقهية إذ هو نظري في إباحة لفظ  
وتحريمه

فنقول أما الدليل على المنع من وضع اسم لله سبحانه وتعالى هو المنع من وضع اسم لرسول  
الله لم يسم به نفسه ولا سماه به ربه تعالى ولا أبواه وإذا منع في حق الرسول بل في حق آحاد  
الخلق فهو في حق الله أولى وهذا نوع قياس فقهي تبني على مثله الأحكام الشرعية  
وأما دليل إباحة الوصف فهو أنه خبر عن أمر والخبر ينقسم إلى صدق وكذب والشرع قد

دل على تحريم الكذب في الأصل فالكذب حرام إلا بعارض ودل على إباحة الصدق

فالصدق حلال إلا بعارض وكما أنه يجوز لنا

(155/298)

---

أن نقول في زيد إنه موجود فكذلك في حق الله تعالى ورد به الشرع أو لم يرد ونقول إنه قديم وإن قدرنا أن الشرع لم يرد به وكما أنا لا نقول لزيد إنه طويل أشقر لأن ذلك ربما يبلغ زيدا فيكرهه لأن فيه إيهام نقص فكذلك لا نقول في حق الله سبحانه وتعالى ما يوهم نقصا البتة فأما ما لا يوهم نقصا أو يدل على مدح فذلك مطلق ومباح بالدليل الذي أباح الصدق مع السلامة عن العوارض المحرمة

ولذلك قد يمنع من إطلاق لفظ فإذا قرن به قرينة جوزناه فلا يجوز أن يقال لله سبحانه وتعالى يا زارع يا حارث ويجوز أن يقال من وطئ فأمنى فليس هو الحارث وإنما الله تعالى وتقدس هو الحارث ومن بث البذر فليس هو الزارع وإنما الله هو الزارع ومن رمى فليس هو الرامي وإنما الله هو الرامي كما قال تعالى وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى 8 سورة الأنفال الآية 17 ولا نقول لله سبحانه وتعالى يا مذل ونقول يا معزيا مذل فإنه إذا جمع بينهما كان وصف المدح إذ يدل على أن طرفي الأمور بيديه

وكذلك في الدعاء ندعو الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى كما أمرنا به وإذا جاوزنا  
الأسامي دعواته بصفات المدح والجلال فلا نقول يا موجود يا محرك يا مسكن بل نقول يا مقبل  
العثرات يا منزل البركات يا ميسر كل عسير وما يجري مجراه كما أنا إذا نادينا إنسانا فإما أن  
نناديه باسمه أو بصفة من صفات المدح كما نقول يا شريف يا فقيه ولا نقول يا طويل يا أبيض  
إلا إذا قصدنا الاستحغار وأما إذا استخبرنا عن صفاته أخبرنا بأنه أبيض اللون أسود  
الشعر ولا يذكر ما يكرهه إذا بلغه وإن كان صدقا لعارض الكراهة وإنما يكره ما يقدر فيه  
نقصا

(156/298)

---

فكذلك إذا استخبرنا عن محرك الأشياء ومسكنها ومسودها ومبيضا قلنا هو الله  
سبحانه وتعالى ولا نتوقف في نسبة الأفعال والأوصاف إليه إلى إذن وارد فيه على  
الخصوص بل الإذن قد ورد شرعا في الصدق إلا ما يستثنى عنه بعارض والله تعالى هو  
الموجود والموجد والمظهر والمخفي والمسعد والمشقي والمبقي والمفني وكل ذلك يجوز  
إطلاقه وإن لم يرد فيه توقيف

فإن قيل فلم لا يجوز أن يقال له العارف والعامل والفظن والذكي وما يجري مجراه



قلنا إنما المانع من هذا وأمثاله ما فيه من إيهامات وما فيه إيهام لا يجوز إلا بالإذن كالصبور  
والحليم والرحيم فإن فيه إيهاما ولكن الإذن قد ورد به وأما هذا فلم يرد به الإذن والإيهام  
فيه أن العاقل هو الذي له معرفة تعقله أي تمنعه إذ يقال عقله عقله والفتنة والذكاء يشعران  
بسرعة الإدراك لما غاب عن المدرك والمعرفة قد تشعر بسبق نكرة فلا يمنع عن إطلاق  
شيء منه إلا شيء مما ذكرناه فإن حقق لفظ لا يوهم أصلا بين المتقاهمين ولم يرد الشرع بالمنع  
منه فإننا نجوز إطلاقه قطعا والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . ١٠ هـ ❀  
المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص 164. 176 ❀

(157/298)

قوله تعالى ❀ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181) ❀

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر تعالى عن ذرء جهنم من القبليتين ، تشوف السامع إلى معرفة حال الباقيين منهما ،  
فقال مصرحاً بالخبر عنهم عاطفاً على ❀ ولقد ذرأنا ❀ [الأعراف : 179] مشيراً بمن  
التبعية إلى قتلهم تصديقا لقوله ❀ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ❀ [الأعراف : 102]

[ ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ أمة ﴾ أي جماعة عرفت من هو أهل لأن يؤم ويهتدى به فقصدته فاقتبست من أنواره فصارت هي أهلاً لأن تقصد ويؤتم بها .

ولما أفهم لفظ الأمة هذا صرح به في قوله : ﴿ يهدون بالحق ﴾ أي الثابت الذي يطابقه الواقع ﴿ وبه ﴾ أي الحق خاصة ﴿ يعدلون ﴾ أي يجعلون الأمور متعادلة ، لا زيادة في شيء منها على ما ينبغي ولا نقص ، لأننا وفقناهم فكشفنا عن بصائرهم حجاب الغفلة التي ألزمتها أولئك ، قال أكثر المفسرين : هم أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ورواه بعضهم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأبهم الأمر بعد تعيين قوم موسى عليه السلام تعظيماً لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 161 ﴾

(158/298)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (181)

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ [ الأعراف : 179

[ فأخبر أن كثيراً من الثقلين مخلوقون للنار أتبعه بقوله : ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ

يَعْدُلُونَ ﴿ لِيُبَيِّنَ أَيْضاً أَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَخْلُوقُونَ لِلْجَنَّةِ .

واعلم أنه تعالى ذكر في قصة موسى قوله : ﴿ وَمَنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ

يَعْدُلُونَ ﴾ [الأعراف : 159] فلما أعاد الله تعالى هذا الكلام ههنا حملة أكثر المفسرين

على أن المراد منه قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، روى قتادة وابن جريج عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنها هذه الأمة وروى أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام قال : " هذه فيهم وقد

أعطى الله قوم موسى مثلها " وعن الربيع بن أنس أنه قال : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم

هذه الآية فقال : " إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم " وقال ابن عباس

يريد أمة محمد عليه الصلاة والسلام المهاجرين والأنصار .

قال الجبائي : هذه الآية تدل على أنه لا يخلو زمان البتة عن قوم بالحق ويعمل به ويهدي إليه

وأنهم لا يجتمعون في شيء من الأزمنة على الباطل ، لأنه لا يخلو إما أن يكون المراد زمان

وجود محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الزمان الذي نزلت فيه هذه الآية .

أو المراد أنه قد حصل زمان من الأزمنة حصل فيه قوم بالصفة المذكورة ، أو المراد ما ذكرنا

أنه لا يخلو زمان من الأزمنة عن قوم موصوفين بهذه الصفة والأول باطل .

لأنه قد كان ظاهراً لكل الناس أن محمداً وأصحابه على الحق ، فحمل الآية على هذا

المعنى يخرج عن الفائدة ، والثاني باطل أيضاً ، لأن كل أحد يعلم بالضرورة أنه قد حصل

زمان ما في الأزمنة الماضية حصل فيه جمعٌ من المحقين ، فلم يبق إلا القسم الثالث .

وهو أدل على أنه ما خلا زمان عن قوم من المحقنين وأن إجماعهم حجة ، وعلى هذا التقدير

فهذا يدل على أن إجماع سائر الأمم حجة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15

ص 60 ﴾

(159/298)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾

يعني : جماعة وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم يهدون بالحق يعني يدعون إلى الحق

ويأمرون بالحق ﴿ وَيَهْدُونَ ﴾ يعني بالحق يعملون وذلك أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِن

قَوْمٍ مَوْسَىٰ أُمَّةً يُهْدُونَ بِالْحَقِّ وَيَهْدُونَ ﴾ [الأعراف : 159] قال أناس من أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله قد ذكر الله تعالى هؤلاء الرهط بالخير

الجسيم من بني إسرائيل إن آمنوا بك وجعل لهم أجرين ، ولنا أجراً واحداً ، وقد صدقناك

والرسل والكتب فنزل ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً ﴾ يعني : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَيَهْدُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 1 ص 1

وقال الثعلبي :

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً ﴾

عصبة ﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ قال قتادة وابن جريح: " بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال: " هي أحق بالحق يأخذون ويقضون ويعطون وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " .

قال الربيع بن أنس: " قرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال: " إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى " (عليه السلام) .

عن عمير بن هاني قال: سمعت معاوية على هذا المنبر يقول: " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من غالطهم حتى يأتي أمر الله عز وجل ، وهم ظاهرون على الناس " .

وقال ابن حيان: هم مؤمنو أهل الكتاب . وقال عطاء: هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان قد سماهم الله تعالى في سورة براءة .

وقال الكلبي: هم من جميع الخلق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(160/298)

---

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾

فيهم قولان :

أحدهما : العلماء .

والثاني : أنهم هذه الأمة . روى ذلك قتادة ، وابن جريج عن النبي صلى الله عليه وسلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

هذه آية تتضمن الخبر عن قوم مخالفين لمن تقدم ذكرهم في أنهم أهل إيمان واستقامة وهداية ،

وظاهر لفظ هذه الآية يقتضي كل مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة ، قال

النحاس : فلا تخلو الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق .

قال القاضي ابو محمد : سواء بعد صوته أو كان خاملاً ، وروى عن كثير من المفسرين أنها

في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وروى في ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : " هذه الآية لكم ، وقد تقدم مثلها لقوم موسى " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر

الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُودًا بِالْحَقِّ ﴾

أي : يعملون به ، ﴿ وَبِهِ يَعدُلُونَ ﴾ أي : وبالعامل به يعدلون .

وفيمن أريد بهذه الآية أربعة أقوال .

أحدها : أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون باحسان من هذه الأمة ، قاله ابن عباس .

وكان ابن جريج : يقول : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " هذه أمتي ، بالحق

يأخذون ويعطون ويقضون " وقال قتادة : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تلا

هذه الآية قال : " هذه لكم وقد أعطي القوم مثلها " ثم يقرأ : ﴿ وَمَنْ قَوْمَ مُوسَىٰ أُمَّةً يَهُودًا

بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعدُلُونَ ﴾ [ الأعراف : 159 ] .

والثاني : أنهم من جميع الخلق ، قاله ابن السائب .

والثالث : أنهم الأنبياء .

والرابع : أنهم العلماء .

ذكر القولين الماوردي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُودًا بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعدُلُونَ ﴾ (181)

في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "هم هذه الأمة" وروى أنه قال: "هذه لكم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها".

وقرأ هذه الآية وقال: "إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم" فدلّت الآية على أن الله عز وجل لا يُخلي الدنيا في وقت من الأوقات من داعٍ يدعو إلى الحق.

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(162/298)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ ومما خلقنا أمة ﴾ يعني جماعة وعصابة ﴿ يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ قال ابن عباس: يريد أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان.

قال قتادة: بلغنا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا قرأ هذه الآية قال "هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون" ﴿ ق ﴾ عن معاوية قال وهو يخطب سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول "لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على



ذلك " وفي الآية دليل على أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدي إليه . انتهى انتهى .

اه ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

(163/298)

وقال أبو حيان :

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحقّ وبه يعدلون ﴾

لما ذكر من ذرأ للنار ذكر مقابلهم وفي لفظة ﴿ وممن ﴾ دلالة على التبويض وأن المعظم من

المخلوقين ليسوا هداة إلى الحق ولا عادلين به ، قيل : هم العلماء والدعاء إلى الدين ، وقيل :

هم مؤمنو أهل الكتاب قاله ابن الكلبي وروي عن قتادة وابن جريج ، وقيل : هم المهاجرون

والأنصار والتابعون لهم بإحسان ، وقال ابن عباس : هم أمة محمد ( صلى الله عليه وسلم

( وعليه أكثر المفسرين وروي في ذلك أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) كان إذا قرأها

قال : " هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها " ﴿ ومن قوم موسى ﴾ الآية وعنه (

صلى الله عليه وسلم ) : " إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم "

والظاهر أن هذه الجملة أخبر فيها أن من خلق أمة موصوفون بكذا فلا يدل على تعيين لا في

أشخاص ولا في أزمان وصلاح لكل هاد بالحق من هذه الأمة وغيرهم وفي زمان الرسول

وغيره، كما أن مقابلهما في قوله ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ لا يدل على تعيين أشخاص ولا زمان وإنما هذا تقسيم للمخلوق للنار والمخلوق للجنة ولذلك قيل: إن في الكلام محذوفاً تقديره ﴿ ومن خلقنا ﴾ يدل عليه إثبات مقابله في قوله ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ .

وقال الجبائي: هذه الآية تدل على أن لا يخلو زمان البتة ممن يقوم بالحق ويعمل به ويهدي إليه وأنهم لا يجتمعون في شيء من الأزمنة على الباطل انتهى، والآية لا تدل على ما زعم الجبائي وما قاله مخالف لما روي من أنه لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ولا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله ولا تقوم الساعة حتى يسري على كتاب الله فلا يبقى منه حرف أو كما قال: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(164/298)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

بيان إجمالي لحال من عدا المذكورين من الثقلين الموصوفين بما ذكر من الضلال والإلحاد عن الحق، ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ، إما باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف وما

بعده خبره كما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ الخ، أي وبعض من خلقنا أو بعض من خلقنا أمة أي طائفة كثيرة يهدون الناس ملتبسين بالحق أو يهدونهم بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة، وبالحق يحكمون في الحكومات الجارية فيما بينهم ولا يجورون فيها .

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا قرأها : " هذه لكم وقد أعطيت بين أيديكم مثلها " ومن قوم موسى أمة الآية وعنه عليه الصلاة والسلام : " إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى " وروي : " لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله " وروي : " لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون " وفيه من الدلالة على صحة الإجماع ما لا يخفي . والاختصار على نعمتهم بهداية الناس للإيدان بأن اهتداءهم في أنفسهم أمر محقق غني عن التصريح به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

(165/298)

وقال الأوسى :

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

قيل بيان إجمالي لحال من عدا المذكورين من الثقلين الموصوفين بما ذكر من الضلال على أتم وجه ، وهو عند جمع من المحققين على ما ظهر للعلامة الطيبي عطف على جملة ﴿ وَكَذَلِكَ ذَرَأْنَا ﴾ [الأعراف: 179] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَهْدُونَ ﴾ الخ إذا أخذ بجملته وزيدته كان كالمقابل لقوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ ﴾ إلى ﴿ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: 179] وكلتا الآيتين كالنشر لقوله عز شأنه: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: 178] وهو كالتذييل لحديث الذي أوتي آيات الله تعالى والأسماء العظام فانسخ منها وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الأعراف: 180] اعتراض لمناسبة حديث الأسماء حديث أسماء الله تعالى العظام التي أوتيها ذلك المنسلخ كما في بعض الروايات وقد تعلق بقوله عز شأنه: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: 179] باعتبار أنه كالتنبية على أن الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكر الله تعالى وعن أسمائه الحسنى ، وأرباب الذوق والمشاهدة يجدون ذلك من أرواحهم لأن القلب إذا غفل عن ذكر الله تبارك وتعالى وأقبل على الدنيا وشهواتها وقع في نار الحرص ولا يزال يهوى من ظلمة إلى ظلمة حتى ينتهي إلى درجات الحرمان ، وبخلاف ذلك إذا انفتح على القلب باب الذكر فإنه يقع في جنة القناعة ولا يزال يترقى من نور إلى نور حتى ينتهي إلى أعلا درجات الإحسان ، ﴿ وَمَنْ ﴾ أما نكرة موصوفة أو بمعنى الذي ، والمراد بعض من خلقنا أو بعض ممن خلقنا طائفة جليلة كثيرة يهدون الناس ملتبسين بالحق

أويهدونهم بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة وبالحق يحكمون في الحكومات الجارية  
فيما بينهم ولا يجورون فيها .

(166/298)

---

أخرج ابن جرير وغيره عن ابن جريج أنه قال : ذكر لنا " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :  
هذه أمتي " .

وأخرج عن قتادة أنه قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأ هذه الآية : "  
هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " .  
وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من أمتي  
قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام " .

وروى الشيخان عن معاوية والمغيرة بن شعبة قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
" لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله تعالى لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم  
على ذلك " .

واستدل الجبائي بالآية على صحة الإجماع في كل عصر سواء في ذلك عصر النبي صلى الله  
عليه وسلم والصحابة رضي الله تعالى عنهم وغيره إذ لو اختلف لم يكن لذكره فائدة لأنه

معلوم ، وعلى أنه لا يخلو عصر عن مجتهد إلى قيام الساعة لأن المجتهدين هم أرباب الإجماع ،  
قيل : وهو مخالف لما روى من أنه لا تقوم الساعة إلا على أشرار الخلق ، ولا تقوم الساعة  
حتى لا يقال في الأرض الله ، وأجيب بأن ذلك الزمان ملحق بيوم القيامة لمعايقته له ، والمراد  
عدم خلو العصر عن مجتهد فيما عداه ، وقيل : المراد من الخبرين الإشارة إلى غلبة الشر فلا  
ينافي وجود النزر من أهل ذلك العنوان ، والواحد منهم كاف وهو حينئذ الأمة ، والاقتصار  
على نعمتهم بهداية الناس للإيدان بأن اهتداءهم في أنفسهم أمر محقق غني عن التصريح .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني - 9 ص ﴾

(167/298)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

عطف على جملة : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ [ الأعراف : 179 ]

الآية ، والمقصود : التنويه بالمسلمين في هديهم واهتدائهم ، وذلك مقابلة لحال المشركين في  
ضلالهم ، أي عرض عن المشركين ، فإن الله أغناك عنهم بالمسلمين ، فما صدقُ "الأمة"  
هم المسلمون بقرينة السياق كما في قول لبيد :

تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا . . .

أَوْ يَعْتَلِقُ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامُهَا

يُرِيدُ نَفْسَهُ فَإِنَّهَا بَعْضُ النَّفُوسِ .

روى الطبري عن قتادة قال بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأ هذه الآية:

" هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها " .

وقوله: ﴿ وَمَنْ قَوْمَ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهُودًا بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ وبقية الفاظ الآية عرف

تفسيرها من نظره المقدمة في هذه السورة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص



(168/298)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُودًا بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (181)

وبعد أن قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ أراد أن يطمئن أهل

منهج الله ، فلم يقل: " كل الناس " ، بل كثير من الجن والإنس " ، وعرفنا المقابل يكون كثيراً

أيضاً بدليل قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ أي

كثير من الناس يسجدون لله وكثير حق عليهم العذاب .

ويعني قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [

الأعراف : 181 ]

أن كون الله لا يخلو من هداة مهديين ، تستمر الأسوة السلوكية في المجتمع . والأسوة السلوكية في المجتمع هي التي تربي عقائد المواجد عند الصغار ، فالصغير لا يعرف كيف يصلي ، ولا كيف يصوم ، ولا يميز بين الكذب والصدق ولكنه يتعلم بالتقليد لوالديه ، فالطفل حين يرى والده وأمه ساعة يُؤذَنُ للصلاة يقوم كل منهما إلى الوضوء وأداء الصلاة ، هنا يتعلم الطفل كيفية الصلاة ، وحين يتكلم إنسان في سيرة آخر ، يقول الأب أو الأم : لا داعي للخوض في سيرة الآخرين حتى لا نحبط حسناتنا ؛ بذلك يتعلم الطفل كيف يصون لسانه عن الخوض في سيرة الغير ، لأن الأسوة السلوكية تنضح عليه ، بدليل أن الصغير الذي لم يبلغ مبلغ الفهم إذا سمع المؤذن بعد ذلك يقوم من نفسه ليحضر سجادة الصلاة ويقلد والده ووالدته .

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

إنهم في حكمهم على الأشياء يقيمون العدل بالحق ، أو أن يكون العدل هو نفي الشرك ،

وقد يكون العدل في مسألة الكبائر ، أو يقيمون العدل في مسألة الحقوق بين الناس . ﴿

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً ﴾



وقوله في الآية الكريمة: "أمة" يعني أن صفات الكمال المنهجية أكثر من أن يحيط بها واحد لينفذها كلها ، فكل واحد له جزء يقوم به ، فهناك من يتميز بالصدق ، وآخر في الشجاعة ، وثالث في الكرم ، وهكذا تبقى الأسوة في مجموع الصفات الحسنة ، وقد ميز الله سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه السلام - فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : 120]

أي أنه جامع لخصال الخير التي لا توجد إلا في مجتمع واسع ، ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

وأي أمة من أمم الأرض - إذن - هي التي تهدي بالحق ؟ لقد سبحانه في قوم موسى ! ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ . . . ﴾ [الأعراف : 159]

ثم جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول بعده ، لذلك تظل هذه الأمة المسلمة مأمونة على صيانة منهج الله إلى قيام الساعة .

فإذا رأيت إلحاداً انتشر فاعلم أن لله مدداً ، وكلما زاد الناس في الإلحاد ، زاد الله في المدد ،

وحتى إن صارت بلد مسلمة غارقة في الفسق فقد يكون فيها واحد يجمع كل هذه الصفات الكريمة الهادية إلى الحق لتبقى شريعة الله مصونة بالسلوكيين التابعين لمنهج الله .

(170/298)

---

إذن فالحق سبحانه وتعالى ترك للفساد أن يصنع الشر ، ولسائل أن يسأل : ما لزوم هذا الشر في كون خلقه الله على هيئة محكمة ؟ نقول ! لولا أن الناس يضارون بالشر ؛ لما تنبهوا إلى حلاوة الخير ، ولو أن الإنسان لم يصب من أصحاب الباطل بسوء ؛ ما تحمس للحق أحدٌ ، ولا عرف الناس ضرورة أن يتأصل الحق في الوجود ، فللشر - إذن - رسالته في الوجود . وهو أن يهيج إلى الخير ، فكما ذرأ الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس ؛ أوضح سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ في الحكم ، عدلاً في القمة ؛ وهو ألا يشركوا بالله شيئاً ، لأن أول مخالفة لقضية العدل هي مخالفة الشرك وهو ظلم عظيم ، فالشرك والعباد بالله ينقل الأمر من مستحقه إلى غير مستحقه ، وكذلك تحريم ما أحل الله ، أو حل ما حرم الله ، وكل ذلك ظلم ، وكذلك عدم حفظ التوازن في الحقوق بين الناس ، فإن لم يحرص العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم وولي ومسلط ؛ سنجد كل إنسان وهو يرضن بجهد في الحياة يكتفي بأن يصنع على قدر حاجته بحيث لا

يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً ، فلا يتحرك في الحياة إلا حركة محدودة ، ولا يعمل إلا بقدر ما يكفيه فقط ، فإذا ما حدث ذلك ؛ فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرّون على الحركة الإيجابية أي فائض ليعيشوا به .

إذن أراد الله أن يضمن بالعدل عرق وتعب كل واحد . فأوضح له أن ما تكسبه من حل هو ملك لك . لكنّ لله حق فيه ، وأنت لك الباقي ، حتى يجد الضعيف الذي لا يقدر على حركة الحياة من يقينه ، ولذلك يحذر المنهج الإيمانى بقوله : إياك أن تستكثر أن تدفع للضعيف ، لأن قوتك التي استعملتها في تحصيل هذا المال إنما هي عرض لا يدوم لك ، فإن أخذنا منك وأنت قويُّ قادر على الحركة ، سنأخذك حينما تكون عاجزاً لا تقدر على الحركة ، وذلك هو التأمين والعدالة .

(171/298)

---

وبالنسبة للأمة في تلك الآية ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ فقد جاء في الآثار أن المراد بالأمة في هذه الآية الأمة المحمدية ، قال قتادة : بلغني " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا قرأ هذه الآية : هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون "

ويخاطب النبي صلى الله عليه وسلم صحابته بقوله: هذه لكم، أي في أمتكم ويؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . . . ﴾ [آل عمران: 110]

وكلمة "الناس" هنا تفيد أن الله لم يجعل خيرية الأمة المحمدية وهي أمة الإجابة للمؤمنين فقط، بل جعل خيريتها للناس جميعاً؛ مؤمنهم وكافرهم. ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

وذكر "أمة" لأن خصال الخير لا يمكن أن تجتمع في إنسان واحد، بل كل واحد يأخذ لمسة من خير، هذا فيه ذكاء، وذاك فيه شجاعة، وذاك عنده مال، وذلك له خلق. فكان الأمة المحمدية قد وجد في أفرادها ما يجمع المواهب الصالحة للخلافة في الأرض. ويأتي الحق بعد ذلك بمقابلهم، لأن مجيء الشيء بمقابلة أدمى إلى أن يتمكن من النفس فيقول سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(172/298)

---

## "فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (181) ﴿

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريح في قوله ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ قال : ذكر لنا النبي صلى الله عليه وسلم قال " هذه أمتي بالحق يحكمون ويتقضون ويأخذون ويعطون " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ قال : بلغنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأها " هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ، ﴿ وَمَنْ قَوْمَ مُوسَى أُمَّةً يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [ الأعراف الآية 159 ] " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل " .

وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال : لتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة ، يقول الله ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ فهذه هي التي تنجو من هذه الأمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله تعالى: (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق) الآية.

"من" يجوز أن تكون موصولة أو نكرة موصوفة، و"يهدون" صفة ل"أمة".

وقال بعضهم: في الكلام حذف تقديره: (ومن خلقنا للجنة، يدل على ذلك ما ثبت لمقابلهم

وهو قوله: (ولقد ذرأنا لجهنم). انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص

402 ﴾ .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181) ﴾

أجرى الحق - سبحانه - سنته بالأخيلي البسيطة من أهل لها هم الغياث وبهم دوام الحق

في الظهور، وفي معناه قالوا:

إذا لم يكن قطب... فمن ذا يديرها؟

فهدايتهم بالحق أنهم يدعون إلى الحق ، ويدلون على الحق ، ويتحركون بالحق ، ويسكنون  
للحق بالحق ، وهم قائمون بالحق ؛ يصرفهم الحق بالحق أولئك هم غياث الخلق ؛ بهم يُسْتَقُونَ  
إذا قحطوا ، ويُمَطَّرُونَ إذا أُجْدِبُوا ، وَيُجَابُونَ إذا دَعَوْا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف  
الإشارات ح 1 ص 591-592 ﴾

(174/298)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (182) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين حال الهادين المهديين ، وكان أصل السياق الضالين المضلين ، أتبعه بقية الحديث  
عنهم على وجه ملوح بأن علة الهداية التوفيق ، فقال عاطفاً على تقديره : فنحن نعلي  
أمرهم ونطيب ذكركم : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا ﴾ أي نسبوا الرسل إلى الكذب بسبب إتيانهم  
﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ على ما يشاهد من عظمتها ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ أي نستنزلهم ونستدنيهم  
بوعده لا خلف فيه إلى ما نريد بهم من الشر العظيم درجة درجة بسبب أنهم كلما أحدثوا  
جريمة أسبغنا عليهم نعمة ، وإذا عملوا طاعة قصرنا عنهم في الإنعام ، أو ضربناهم بسوط

الانتقام ، فيظنون أن المعاصي سبب النعم فينسلخون من الدين ، ولذلك قال : ﴿ من  
حيث لا يعلمون ﴾ أي فيرتكبون ما يتعجب من مداناته فضلاً عن مباشرته ومعاناته من له  
أدنى بصيرة حتى يكمل ما نريد منهم من المعاصي ، وهو من أدلة ﴿ سأصرف عن  
آياتي ﴾ وأتى في الاستدراج بأداة العظمة وفي الإملاء بضمير الواحد فقال ﴿ وأملي  
لهم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 ص 161 ﴾

(175/298)

## فصل

قال الفخر :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الأمة الهادية العادلة ، أعاد ذكر المكذبين بآيات الله تعالى ، وما  
عليهم من الوعيد ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ وهذا يتناول جميع المكذبين ، وعن  
ابن عباس رضي الله عنهما : المراد أهل مكة ، وهو بعيد ، لأن صفة العموم يتناول الكل ،  
إلا ما دل الدليل على خروجه منه .

وأما قوله : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ فالاستدراج الاستفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو



الاستئزال ، درجة بعد درجة ، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه ، وأدرج الكتاب طواه شيئاً بعد شيء ودرج القوم ، مات بعضهم عقيب بعضهم ، ويحتمل أن يكون هذا اللفظ مأخوذ من الدرج وهو لف الشيء وطيه جزءاً فجزأ .

إذا عرفت هذا فالمعنى سنقر بهم إلى ما يهلكهم ، ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم ، وذلك لأنهم كلما أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم باباً من أبواب النعمة والخير في الدنيا ، فيزدادون بطراً وانهماكاً في الفساد وتمادياً في الغي ، ويتدرجون في المعاصي بسبب ترادف تلك النعم ، ثم يأخذهم الله دفعة واحدة على غرتهم أغفل ما يكون ، ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما حمل إليه كنوز كسرى : " اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً فإني سمعتك تقول ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 60.61 ﴾

(176/298)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾

يعني : بمحمد والقرآن ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ يعني : سنأخذهم بالعذاب ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿ يعني : من حيث لا يشعرون .

وقال الكلبي : يعني نزيّن لهم فنهلكهم من حيث لا يعلمون .

يقول : سنأتيهم وهم المستهزئون فيقتل كل رجل منهم بغير قتلة صاحبه .

وقال القتيبي : الاستدراج أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً .

ويقال : استدراج فلان فلاناً يعني : يعرف ما عنده وأصل هذا من الدرجة لأن الراقي يرقى

درجة درجة .

فاستعير من هذا كقوله تعالى ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ [المرسلات : 1] يعني : الملائكة

يتابعون بعضهم بعضاً كعرف الفرس .

وقوله تعالى : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن

المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ [التوبة : 67]

يمسكون عن العطية .

وقال السدي : ﴿ سنستدرجهم ﴾ يعني : كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة

وأنسيناهم شكرها ، ثم نأخذهم من حيث لا يعلمون ، فذلك الاستدراج . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ بحر العلوم ج 1 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قال بعضهم : سنأخذهم بالعذاب ، وقال الكلبي : نزين لهم أعمالهم فنهلكهم . وقال الضحاك : كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة ، وقال الخليل بن أحمد : سنطوي وإن أعمارهم في اغترار منهم .

وقال أبو عبيدة والمؤرخ : الاستدراج أن يأتيه من حيث لا يعلم .

وقال أهل المعاني : الاستدراج أن ندرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً ولا يباغت ولا يجاهر . يقال : استدراج فلاناً حتى تعرف ما صنع أي لا يجاهر ولا يهجم عليه ، قال : ولكن استخرج ما عنده قليلاً قليلاً وأصله من [ الدرج ] وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مرقاة مرقاة فاستعير [ هذا عنه ] . ومنه الكتاب إذا طوى شيئاً بعد شيء ، ودرج القوم إذا مات بعضهم في دار بعض ، ودرج الصبي إذا قارب من خطاه في المشي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

وقال الماوردي :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

والاستدراج أن تنطوي على حالة منزلة بعد منزلة .

وفي اشتقاقه قولان :

أحدهما : أنه مشتق من الدرج لانطوائه على شيء بعد شيء .

والثاني : أنه مشتق من الدرجة لانخطاطه من منزلة بعد منزلة .

وفي المشار إليه باستدراجهم قولان :

أحدهما : استدراجهم إلى الهلكة .

والثاني : الكفر .

وقوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يعلمون بالاستدراج .

والثاني : لا يعلمون بالهلكة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 ص ﴾

(178/298)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ﴾

الآية وعيد ، والإشارة إلى الكفار و ﴿ سنستدرجهم ﴾ معناه سنسوقهم شيئاً بعد

شيء ودرجة بعد درجة بالنعيم عليهم والإمهال لهم حتى يغتروا ويظنوا أنهم لا ينالهم

عقاب ، وقوله : ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ معناه من حيث لا يعلمون أنه استدراج لهم ،  
وهذه عقوبة من الله على التكذيب بالآيات ، لما حتم عليهم بالعذاب أملى لهم ليزدادوا إثماً  
وقرأ ابن وثاب والنخعي " سيستدرجهم " بالياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح

﴿ 2 ص

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾

قال أبو صالح عن ابن عباس : هم أهل مكة .

وقال مقاتل : نزلت في المستهزئين من قريش .

قوله تعالى : ﴿ سنستدرجهم ﴾ قال الخليل بن أحمد : سنطوي أعمارهم في اغترار

منهم .

وقال أبو عبيدة : الاستدراج : أن يُدرج إلى الشيء في خُفية قليلاً قليلاً ولا يُهجم عليه ،

وأصله : من الدَّرَجَة ، وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مَرَقاة مَرَقاة ؛ ومنه : دَرَجَ

الكتابَ : إذا طواه شيئاً بعد شيء ؛ ودرج القوم : إذا ماتوا بعضهم في إثر بعض .

وقال اليزيدي : الاستدراج : أن يأتيه من حيث لا يعلم .

وقال ابن قتيبة : هو أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً من حيث لا يعلمون ، ولا يباغتهم به ولا

يجاهرهم .

وقال الأزهري: سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون؛ وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغتبطهم به ويركون إليه، ثم يأخذهم على غرَّتهم أغفل ما يكونون.  
قال الضحاك: كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة.

وفي قوله: ﴿من حيث لا يعلمون﴾ قولان.

أحدهما: من حيث لا يعلمون بالاستدراج.

والثاني: بالهلكة. انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير حـ 3 ص﴾

(179/298)

وقال القرطبي:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182)﴾

أخبر تعالى عن كذب آياته أنه سيستدرجهم.

قال ابن عباس: هم أهل مكة.

والاستدراج هو الأخذ بالتدرج، منزلة بعد منزلة.

والدرج: لف الشيء؛ يقال: أدرجته ودرجته.

ومنه أدرج الميت في أكفانه.

وقيل : هو من الدرّجة ؛ فالاستدراج أن يُحطَّ درجة بعد درجة إلى المقصود .

قال الضحاك : كلما جدّوا لنا معصية جدّنا لهم نعمة .

وقيل لذي النون : ما أقصى ما يخدم به العبد ؟ قال : بالألطف والكرامات ؛ لذلك قال

سبحانه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ نسبع عليهم النعم وننسيهم الشكر ؛

وأنشدوا :

أحسنتَ ظنك بالأيام إذ حسنتُ . . .

ولم تخفُ سوءَ ما يأتي به القدرُ

وسالمتكَ الليالي فاغررتَ بها . . .

وعند صفو الليالي يحدثُ الكدرُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾

يريد به جميع المكذبين بآيات الله وهم الكفار .

وقيل : المراد بهم أهل مكة والأول أولى لأن صيغة العموم تتناول الكل إلا ما دل الدليل على

خروجه منه ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ قال الأزهري : سنأخذهم قليلاً

من حيث لا يحتسبون وذلك أن الله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به

ويركون إليه ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون وقيل معناه سنقرّبهم إلى ما يهلكهم

ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لأنهم كانوا إذا أتوا بجرم أو أقدموا على  
ذنب فتح الله عليهم من أبواب الخير والنعمة في الدنيا فيزدادون تمادياً في الغي والضلال  
ويندرجون في الذنوب والمعاصي فيأخذهم الله أخذه واحدة أغفل ما يكونون عليه .  
وقال الضحاك : معناه كلما جددوا معصية جددنا نعمة .

وقال الكلبي : نزين أعمالهم ثم نهلكهم بها ، وقال سفیان الثوري : نسبغ عليهم النعم ثم  
نسلبهم الشكر .

روي أن عمر بن الخطاب لما حمل إليه كنوز كسرى قال : اللهم إني أعوذ بك أن أكون  
مستدرجاً فإني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون .

قال أهل المعاني : الاستدراج أن يندرج الشيء إلى الشيء في خفية قليلاً ومنه درج الصبي  
إذا قارب بين خطاه في المشي ومنه درج الكتاب إذا أطواه شيئاً بعد شيء . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

(180/298)

وقال أبو حيان :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ .



قال الخليل بن أحمد : سنطوي أعمارهم في اغترار منهم ، وقال أبو عبيدة : الاستدراج أن تدرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً ولا تهجم عليه وأصله من الدرجة وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مرقاة مرقاة ومنه درج الكتاب طواه شيئاً بعد شيء ودرج القوم ماتوا بعضهم في أثر بعض ، وقال ابن قتيبة : هو أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً من ﴿ حيث لا يعلمون ﴾ ولا يتابعهم به ولا يجاهرهم ، وقال الأزهري سناخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون وذلك أن الله تعالى يفتح باباً من النعمة يغتبطون به ويركون إليه ثم يأخذهم على غرثهم أغفل ما يكون انتهى ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه والمعنى سنسترقهم شيئاً بعد شيء ودرجة بعد درجة بالنعمة عليهم والإمهال لهم حتى يغتروا ويظنوا أنهم لا يناهم عقاب ، وقال الجبائي ﴿ سنستدرجهم ﴾ إلى العقوبات حتى يقعوا فيها من حيث لا يعلمون استدراجاً لهم إلى ذلك فيجوز أن يكون هذا العذاب في الدنيا كالقتل ويجوز أن يكون عذاب الآخرة ، وقال الزمخشري : ومعنى ﴿ سنستدرجهم ﴾ سنستدينهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم وذلك أن يواتر الله نعمة عليهم مع انهماكهم في الغي فكلما جدّ عليهم نعمة ازدادوا بطراً وجدّوا معصيةً فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ظانين أن مواترة النعم أثرة من الله وتقريب ، وإنما هي خذلان منه وتبعيد فهذا استدراج الله نعوذ بالله تعالى منه ، من حيث لا يعلمون قيل : بالاستدراج ، وقيل : بالهلاك ، وقرأ النخعي وابن وثاب : سيستدرجهم بالياء

فاحتمل أن يكون من باب الالتفات واحتمل أن يكون الفاعل ضمير التكذيب المفهوم من ﴿

كذبوا ﴾ أي سيستدرجهم هو أي التكذيب قال الأعشى: في الاستدراج:

فلو كنت في جبٍّ ثمانين قامة . . .

ورقيت أسباب السماء بسلم

ليستدرجك القول حتى تهزه . . .

وتعلم أنني عنكم غير مفحم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(181/298)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾

شروعٌ في تحقيق الحق الذي به يهدي الهادون وبه يعدل العادلون ، وحمل الناس على  
الاهتداء به على وجه الترهيب ، ومحل الموصول الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده من

الجملة الاستقبالية ، وإضافة الآيات إلى نون العظمة لتشير فيها واستعظام الإقدام على

تكذيبها ، أي والذين كذبوا بآياتنا التي هي معيار الحق ومصداق الصدق والعدل ﴿

سنستدرجهم ﴾ أي نستدنيهم البتة إلى الهلاك شيئاً فشيئاً ، والاستدراج استفعال من

درج إما بمعنى صعد ثم اتسع فيه فاستعمل في كل نقل تدريجي سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة ، وإما بمعنى مشى مشياً ضعيفاً ، وإما بمعنى طوى ، والأول هو الأنسب بالمعنى المراد الذي هو النقل إلى أعلى درجات المهلك ليبلغ أقصى مراتب العقوبة والعذاب ، ثم استعير لطلب كل نقل تدريجي من حال إلى حال من الأحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه بحيث يزعم أن ذلك ترق في مراقبي منافعه مع أنه في الحقيقة ترد في مهاوي مصارعه ، فاستدراجه سبحانه إياهم أن يواتر عليهم بالنعيم مع انهماكهم في الغي فيحسبوا أنها لطف لهم منه تعالى فيزدادوا بطراً وطغياناً لكن لا على أن المطلوب تدرجهم في مراتب النعم بل هو تدرجهم في مدارج المعاصي إلى أن يحق عليهم كلمة العذاب على أفضع حال وأشنعها ، والأول وسيلة إليه وقوله تعالى : ﴿ مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ متعلق بمضمر وقع صفة لمصدر الفعل المذكور ، أي سنستدرجهم استدراجاً كأننا من حيث لا يعلمون أنه كذلك بل يحسبون أنه أثر من الله عز وجل وتقريب منه ، وقيل : لا يعلمون ما يراد بهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 3 ص ﴾

(182/298)

---

وقال الألوسی :

﴿ والذین کذبوا بآياتنا ﴾

ولم تنفعهم هداية الهادين كأهل مكة وغيرهم ، واقتصر بعضهم على الأولين والعموم أولى ، وإضافة الآيات إلى ضمير العظمة لتشير فيها واستعظام الإقدام على تكذيبها ، والموصول في محل الرفع على أنه مبتدأ خبره جملة ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ أي سنستدنيهم البتة إلى الهلاك شيئاً فشيئاً ، وجوز أن يكون في محل نصب بفعل محذوف يفسره المذكور ، والاستدراج استفعال من الدرجة بمعنى النقل درجة بعد درجة من سفلى إلى علو فيكون استصعاداً أو بالعكس فيكون استنزالاً وقد استعمله الأعشى في قوله :

فلو كنت في جب ثمانين قامة . . .

ورقيت أسباب السماء بسلم

ليستدرجك القول حتى تهره . . .

وتعلم أني عنكم غير مفحم

في مطلق معناه ، وقال بعضهم : هو استفعال من درجة إما بمعنى صعد ثم اتسع فيه

فاستعمل في كل نقل تدريجي سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة ، وإما

بمعنى مشى مشياً ضعيفاً ومنه درج الصبي وإما بمعنى طوى ومنه أدرج الكتاب ثم استعير

لطلب كل نقل تدريجي من حال إلى حال من الأحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه ،

واستدراجه تعالى إياهم بإدرار النعم عليهم مع إنهما كهم في الغي ، ولذا قيل : إذا رأيت الله تعالى أنعم على عبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مستدرج ، وهذا يمكن حمله على الاستعداد باعتبار نظرهم وزعمهم أن متواترة النعم إثرة من الله تعالى وهو الظاهر ، وعلى الاستئزال باعتبار الحقيقة فإن الجبلة الإنسانية في أصل الفطرة سليمة متهيئة لقبول الحق لقضية كل مولود يولد على الفطرة فهو في بقاع التمكّن على الهدى والدين فإذا أخلد إلى الأرض واتبع الشهوات وارتكب المعاصي والسيئات ينزل درجة درجة إلى أن يصير أسفل السافلين ، وأياً ما كان فليس المطلوب إلا تدرجهم في مدارج المعاصي إلى أن يحق عليهم كلمة العذاب الأخروي أو الدنيوي على ما قيل على أفطع حال وأشنعها وإدرار النعم وسيلة إلى ذلك ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه كذلك بل يحسبون أنه إثرة من الله تعالى ، وقيل : لا يعلمون ما يراد بهم ، والجار والمجرور متعلق بمضمر وقد صفة لمصدر الفعل المذكور أي سنستدرجهم استدراجاً كأننا من حيث لا يعلمون . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(183/298)

---

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى : ( والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم )

والذين كذبوا بالآيات هم المشركون الذين كذبوا بالقرآن ، وقد تقدم وجه تعدية فعل  
التكذيب بالباء ؛ ليدل على معنى الإنكار عند قوله تعالى : ﴿ قل إني على بينة من ربي  
وكذبتم به ﴾ في سورة الأنعام ( 57 ) .

والاستدرج مشتق من الدرّجة بفتحين وهي طبقة من البناء مرتفعة من الأرض بقدر ما  
ترتفع الرّجل للارتقاء منها إلى ما فوقها تيسيراً للصعود في مثل العلو أو الصومعة أو البرج ،  
وهي أيضاً واحدة الأعواد المصفوفة في السلم يرتقى منها إلى التي فوقها ، وتسمى هذه  
الدرجة مرقاة ، فالسين والتاء في فعل الاستدرج للطلب ، أي طلب منه أن يتدرج ، أي  
صاعداً أو نازلاً ، والكلام تمثيل لحال القاصد إبدال حال أحد إلى غيرها بدون إشعاره ،  
بحال من يطلب من غيره أن ينزل من درجة إلى أخرى بحيث ينتهي إلى المكان الذي لا  
يستطيع الوصول إليه بدون ذلك ، وهو تمثيل بديع يشتمل على تشبيهات كثيرة ، فإنه مبني  
على تشبيه حسن الحال برفعة المكان وضده بسفالة المكان ، والقرينة تعين المقصود من  
انتقال إلى حال أحسن أو أسوأ .

ومما يشير إلى مراعاة هذا التمثيل في الآية قوله تعالى : ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ ولما  
تضمن الاستدرج معنى الإيصال إلى المقصود علق بفعله مجرور بمن الابتدائية أي مبتدئاً

استدراجهم من مكان لا يعلمون أنه مفض بهم إلى المبلغ الضار ، ف ﴿ حيث ﴾ هنا  
للمكان على أصلها ، أي من مكان لا يعلمون ما يفضي إليه ، وحذف مفعول يعلمون لدلالة  
الاستدراج عليه ، والتقدير : لا يعلمون تدرجه ، وهذا مؤذن بأنه استدراج عظيم لا يظن  
بالمفعول به أن يتفطن له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(184/298)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) ﴾  
وهؤلاء هم المقابلون للذين خلقهم الله أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، والآيات جمع آية ، وقلنا  
: إن الآيات التي في الكون ثلاث ؛ آيات تنظرها تهدي بها إلى من صنع ذلك الكون المترامي  
الأطراف بتلك الدقة العظيمة ، وذلك الأحكام المتقن ، آيات تلفتك مثل الليل والنهار  
والشمس والقمر ، وكذلك آيات تخرق ناموس الكون لتثبت صدق الرسول بالبلاغ عن الله ،  
وآيات قرآنية تحمل منهج الله . والذين كذبوا بآيات الله الكونية ولم يعتبروا بها ، ولم يستنبطوا  
منها وجود إله قوي قادر حكيم ، وكذبوا الآيات المعجزات لصدق النبوة ، وكذلك كذبوا  
آيات القرآن فلم يعملوا بها ، ولم يتمسكوا بها ؛ هؤلاء يلقون الحكم من الله فلن يدخلهم الحق

النار فقط ، بل لهم عذاب أقرب من ذلك في الدنيا ، لأن المسألة لو أجلت كلها للآخرة  
لاستشرى بغي الظالم الذي لا يؤمن بالحياة الآخرة ، لكن من يؤمن بالآخرة هو من سيحيا  
بأدب الإيمان في الكون ، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج . عكس من يعربد في  
الكون ؛ لذلك لا بد أن يأتي العقاب لمن يعربد في الكون أثناء الحياة الدنيا ، وسبحانه وتعالى  
القائل : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ . . . ﴾ [الطور : 47]  
أي أن لهم عذاباً قبل الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك عن العذاب في الدنيا : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ  
حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(185/298)

---

وحين نقول : أنا استدرجت فلانا ، فأنت تعني أنك أخذت تحتال عليه حتى يقرب بما فعل ،  
مثل وكيل النيابة حين يحقق مع المجرم ، ويحاصره بالأسئلة من هنا ، ومن هناك ، إلى أن يقر  
ويعترف ، وهذا هو الاستدراج . و " الاستدراج " من الدرج ونسميه في لغتنا اليومية "  
السلم " وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فمن المستحيل على  
الإنسان أن يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلاً في عمارة ما ، ولذلك صمموا



الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس ، وهناك من يجعل علو الدرجة مثلاً اثني عشر سنتيمتراً بحيث يستطيع كل إنسان أن يرفع قدمه ويضعها على الدرج دون إرهاق النفس ، وهذا يعني أننا نستدرج العلو لنصل إليه أو ننزل منه .

وقد خصوا في الآخرة الجنة بالدرجات العليا ، والنار بالدرجات السفلى .

وهنا يقول الحق : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [

الأعراف : 182 ]

أي نأخذهم درجة درجة ، ونعطي لهم نعمة ثم نرهبهم بما وصلوا إليه ، كما قال سبحانه

من قبل : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً . . . ﴾ [ الأنعام : 44 ]

لأن الله حين يريد أن يعاقب واحداً على قدر جرمه في حق أخيه الإنسان في الدنيا يأخذه

من أول جرم ؛ لأن الأخذة في هذه الحالة ستكون لينة ، لكنه يملئ له ويعليه ثم يلقيه من عل

. ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا

أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً . . . ﴾ [ الأنعام : 44 ]

وهكذا يكون الأخذ أخذ عزيز مقدر .

---

وحيث يستدرج البشرُ، فإن الطرف المستدرج له أيضاً ذكاء، ويعرف أن هذا نوع من الكيد  
وفخ منصوب له، لكن حين يكون ربنا القوي العزيز هو الذي يستدرج فلن يعرف أحد كيف  
يفلت . والعلة في قوله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ هي قوله: ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ لأن  
البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ تفسير الشعراوي ص



(187/298)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ( والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم ) الآية .

والذين فيه وجهان : أظهرهما : أنه مبتدأ ، وخبره الجملة الاستقبالية بعده .

والثاني : أنه منصوب على الاشتغال بفعل مقدر تقديره : سنستدرج الذين كذبوا ،

والاستدراج التقريب منزلة منزلة ، والأخ قليلا قليلا من الدرج ؛ لأن الصاعد يرقى درجة

درجة وكذلك النازل .

وقيل : هو مأخوذ من الدرج وهو الطي ، ومنه درج الثوب : طواه ، ودرج الميت مثله ،  
والمعنى : تطوى آجالهم .

وقرأ النخعي وابن وثاب : سيستدرجهم بالياء ، فيحتمل أن يكون الفاعل البارئ تعالى  
وهو التقات من المتكلم إلى الغيبة ، وأن يكون الفاعل ضمير التكذيب المفهوم من قوله : "

كذبوا " ؛ وقال الأعشى في الاستدراج : [ الطويل ]

2637 - فلو كنت في جب ثمانين قامة

ورقيت أسباب السماء بسلم

ليستدرجك القول حتى تهره

وتعلم أنني عنكم غير مفحم

(فصل)

ويقال : درج الصبي : إذا قارب بين خطاه ، ودرج القوم : مات بعضهم إثر بعض . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 403 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) ﴾

الاستدراج أن يلقي في أوهامهم أنهم من أهل الوصلة ، وفي الحقيقة : السابق لهم من القسمة

حقائقُ الفرقة .

ويقال الاستدراجُ انتشار الصيت بالخير في الخلق ، والانطواء على الشر - في السر - مع الحق .

ويقال الاستدراجُ الأيْزْدَادُ في المستقبل صحبةً إلا اِزْدَادُ في الاستحقاق نقصان رتبة .  
ويقال الاستدراجُ الرجوع من توهم صفاء الحال إلى ركوب قبيح الأعمال ، ولو كان صادقاً في حاله لكان معصوماً في أعماله .

ويقال الاستدراجُ دعاوى عريضة صدرت عن معانٍ مريضة .  
ويقال الاستدراجُ إفاضة البرِّ مع ( . . . ) الشكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات  
ح 1 ص 592 ﴾

(188/298)

قوله تعالى ﴿ وَأْمِلْ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (183)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

﴿ وَأْمِلْ لَهُمْ ﴾ أي أمهلهم بوعدهم جازماً زماناً طويلاً وأمد لهم وهم يعصون حتى يظنون أن

الله يحبهم حتى يزيدوا في ذلك لأنهم لا يفعلون شيئاً إلا برادي ولا يفوتوني ولم يأت بهما على نهج واحد ، لأن الاستدراج يكون بواسطة وبغيرها ، فكأنه قال : سأستدرجهم بنفسى من غير واسطة تارة ومن أتيح لهم النعم على يده من عبيدي وجنودي أخرى ، وأما الإملاء وهو تطويل الأجل - فلا يتصور أن يكون إلا من الله تعالى .

ولما كان هذا موجبا لهم - ولابد - الإصرار على المعاصي حتى يصلوا إلى ما حكم عليهم به من النار ، قال مستأنفاً ﴿ إن كيدي ﴾ أي فعلي الذي ظاهرة رفعة وباطنه ضيعة - ظاهره إحسان وباطنه خذلان ﴿ متين ﴾ أي شديد قوي لا يمكن أحداً قطعه ، قال الإمام بعد تأويل للمعزله حملهم عليه إيجابهم رعاية الأصلح : وأنا شديد التعجب من المعزله ، يرون القرآن كالبحر الذي لا ساحل له مملوءاً من هذه الآيات ، والدلائل العقلية القاهرة مطابقة لها ، ثم يكتفون في تأويلها - أي عن أنه تعالى يريد الشر - بهذه الوجوه الضعيفة إلا أن علمي بما أراد الله كائن ، مزيل هذا التعجب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم

الدرر ح 3 ص 161. 162 ﴿

(189/298)

---

## فصل

قال الفخر :

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

الإملاء في اللغة الإمهال وإطالة المدة وتقيضه الإعجال والملى زمان طويل من الدهر ومنه

قوله : ﴿ واهجرني ملياً ﴾ [ مريم : 46 ] أي طويلاً .

ويقال ملوطة وملوطة وملوطة من الدهر أي زمان طويل ، فمعنى ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي أمهلهم

وأطيل لهم مدة عمرهم ليتمادوا في المعاصي ولا أعاجلهم بالعقوبة على المعصية ليقنعوا

عنها بالتوبة والإنابة .

وقوله : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ قال ابن عباس : يريد إن مكري شديد ، والمتين من كل شيء

هو القوي يقال متن متانة .

واعلم أن أصحابنا احتجوا في مسألة القضاء والقدر بهذه الألفاظ الثلاثة ، وهي

الاستدراج والإملاء والكيد المتين ، وكلها تدل على أنه تعالى أراد بالعبد ما يسوقه إلى

الكفر والبعد عن الله تعالى ، وذلك ضد ما يقوله المعتزلة .

أجاب أبو علي الجبائي ، بأن المراد من الاستدراج ، أنه تعالى استدرجهم إلى العقوبات

حتى يقعوا فيها من حيث لا يعلون ، استدرجاً لهم إلى ذلك حتى يقعوا فيه بغتة ، وقد

يجوز أن يكون هذا العذاب في الدنيا كالقتل والاستئصال ، ويجوز أن يكون عذاب الآخرة .

قال وقد قال بعض المجبرة المراد : سنستدرجهم إلى الكفر من حيث لا يعلمون .

قال : وذلك فاسد ، لأن الله تعالى أخبر بتقدم كفرهم ، فالذي يستدرجهم إليه فعل

مستقبل ، لأن السين في قوله : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ يفيد الاستقبال ، ولا يجب أن يكون

المراد : أن يستدرجهم إلى كفر آخر لجواز أن يميتهم قبل أن يوقعهم في كفر آخر ، فالمراد إذن

: ما قلناه ، ولأنه تعالى لا يعاقب الكافر بأن يخلق فيه كفراً آخر ، والكفر هو فعله ، وإنما

يعاقبه بفعل نفسه .

(190/298)

---

وأما قوله : ﴿ وَأَمْلى لَهُمْ ﴾ فمعناه : أني أبقىهم في الدنيا مع إصرارهم على الكفر ، ولا

أعاجلهم بالعقوبة لأنهم لا يفوتوني ولا يعجزوني ، وهذا معنى قوله : ﴿ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴾

لأن كيده هو عذابه ، وسماه كيذاً لنزوله بالعباد من حيث لا يشعرون .

والجواب عنه من وجهين : الأول : أن قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ معناه

: ما ذكرنا أنهم كلما زادوا تمادياً في الذنب والكفر ، زادهم الله نعمة وخيراً في الدنيا ،

فيصير فوزهم بلذات الدنيا سبباً لتماديهم في الإعراض عن ذكر الله وبعداً عن الرجوع إلى

طاعة الله ، هذه حالة نشاهدها في بعض الناس ، وإذا كان هذا أمراً محسوساً مشاهداً

فكيف يمكن إنكاره .

الثاني : هب أن المراد منه الاستدراج إلى العقاب ، إلا أن هذا أيضاً يبطل القول بأنه تعالى ما أراد بعبده إلا الخير والصلاح ، لأنه تعالى لما علم أن هذا الاستدراج ، وهذا الإمهال مما قد يزيد به عتواً وكفراً وفساداً واستحقاق العقاب الشديد ، فلو أراد به الخير لأماته قبل أن يصير مستوجباً لتلك الزيادات من العقوبة بل لكان يجب في حكمته ورعايته للمصالح أن لا يخلقه ابتداءً صوناً له عن هذا العقاب ، أو أن يخلقه لكنه يميته قبل أن يصير في حد التكليف ، أو أن لا يخلقه إلا في الجنة ، صوناً له عن الوقوع في آفات الدنيا وفي عقاب الآخرة ، فلما خلقه في الدنيا وألقاه في ورطة التكليف .

(191/298)

---

وأطال عمره ومكنه من المعاصي مع علمه بأن ذلك لا يفيد إلا مزيد الكفر والفسق واستحقاق العقاب ، علمنا أنه ما خلقه إلا للعذاب وإلا للنار ، كما شرحه في الآية المتقدمة ، وهي قوله : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ [الأعراف : 179] وأنا شديد التعجب من هؤلاء المعتزلة ، فإنهم يرون القرآن كالبحر الذي لا ساحل له مملو من هذه الآيات والدلائل العقلية القاهرة القاطعة مطابقة لها ، ثم إنهم يكتفون في تأويلات هذه



الآيات بهذه الوجوه الضعيفة والكلمات الواهية، إلا أن علمي بأن ما أراد الله كائن ينزل هذا التعجب، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 61.62 ﴾

(192/298)

وقال السمرقندي :

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ يعني : وأمهلم ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ يعني : عقوبتي شديدة.

ويقال : إن صنيعي محكم.

ويقال : إن أخذي شديد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 1 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾

يعني أمهلم وأطيل من الملاواة وهو الدهر ، ومنه مليت أي غشت دهرًا ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

﴿ أي أخذي قوي مديد قلت : في المستهزئين ، فقتلهم الله في ليلة واحدة . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(193/298)

---

وقال ابن عطية:

وقوله: ﴿أَمَلِي﴾ معناه أُوخِر ملاءة من الدهر أي مدة وفيها ثلاث لغات فتح الميم  
وضمها وكسرها، وقرأ عبد الحميد عن ابن عامر "أن كيدي" على معنى لأجل أن كيدي  
، وقرأ جمهور الناس وسائر السبعة "إن كيدي" على القطع والاستئناف، و﴿متين﴾  
معناه قوي، قال الشاعر: [الطويل]

لِإِلِّ عَلَيْنَا وَاجِبٌ لَانُضِيعَهُ . . . متين قواه غير منتكثِ الحبلِ

وروى ابن إسحاق في هذا البيت أمين قواه، وهو من المتن الذي يحمل عليه لقوته، ومنه قول  
الشاعر وهو امرؤ القيس: [المقارب]

لها متنان حظا كما . . . أكبَّ على ساعديه النمر

وهما جنبتا الظهر، ومنه قول الآخر:

عدلي عدول اليأس وافتح يبتلى . . . أفانين من الهوب شد ممانن

ومنه قول امرئ القيس: [الطويل]

ويجدي على صم صلاب ملاطس . . . شديداً عقد لينات متان

ومنه الحديث في غزوة بني المصطلق فمتن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس أي سار

بهم سيرا شديداً لينقطع الحديث بقول ابن أبي بن سلول لئن رجعنا إلى المدينة . انتهى

انتهى . اه ﴿ الحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَأْمِلِي لَهُم ﴾

الإملاء : الإمهال والتأخير .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِين ﴾ قال ابن عباس : إن مكري شديد .

وقال ابن فارس : الكيد : المكر ؛ فكل شيء عالجته فأنت تكيدُه .

قال المفسرون : مكر الله وكيدُه : مجازاة أهل المكر والكيد على نحو ما بينا في سورة [

البقرة : 15] و [آل عمران : 54] من ذكر الاستهزاء والخداع والمكر . انتهى انتهى . اه

﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(194/298)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَأْمِلِي لَهُم ﴾

أي أطيل لهم المدة وأمهلم وأؤخر عقوبتهم .

﴿ إِنَّ كَيْدِي ﴾ أي مكري .

﴿ مَتِينٌ ﴾ أي شديد قويّ .

وأصله من المتن ، وهو اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب .

قيل : نزلت في المستهزئين من قريش ، قتلهم الله في ليلة واحدة بعد أن أمهلهم مدّة .

نظيره ﴿ حتى إذا فرحوا بما آوتوا أخذناهم بغتة ﴾ [ الأنعام : 44 ] . وقد تقدّم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن :

﴿ وأملي لهم ﴾

يعني وأمهلهم وأطيل مدة أعمارهم .

والإملاء في اللغة الإمهال وإطالة المدة والمعنى إني أطيل مدة أعمارهم ليطمادوا في الكفر

والمعاصي ولا أعاجلهم بالعقوبة ولا أفتح لهم باب التوبة ﴿ إن كيدي متين ﴾ يعني إن

أخذي شديد والمتين من كل شيء هو القوي الشديد .

وقال ابن عباس : معناه إن مكري شديد .

قال المفسرون : نزلت هذه الآية في المستهزئين من قريش وذلك أن الله سبحانه وتعالى

أمهلهم ثم قتلهم في ليلة واحدة وفي هذه الآية دليل على مسألة القضاء والقدر وأن الله

سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وأملى لهم إن كيدي متين ﴾

معطوف على ﴿ سنستدرجهم ﴾ فهو داخل في الاستقبال وهو خروج من ضمير التكلم

بنون العظمة إلى ضمير تكلم المفرد والمعنى أؤخرهم ملاوة من الدهر أي مدة فيها طول

والملاوة بفتح الميم وضمها وكسرها ومنه ﴿ واهجرني ملياً ﴾ أي طويلاً وسمي فعله

ذلك بهم كيداً لأنه شبيه بالكيد من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان ، قال

ابن عباس : يريد أن مكري شديد ، وقيل : إن عذابي وسماه كيداً لنزوله بالعباد من حيث

لا يشعرون والمتين من كل شيء القوي يقال : متن متانه وهذا إخبار عن المكذبين عموماً ،

وقيل : نزلت في المستهزئين من قريش قتلهم الله في ليلة واحدة بعد أن أمهلهم مدة ، وقرأ عبد

الحميد عن ابن عامر أن كيدي بفتح الهمزة على معنى لأجل ﴿ أن كيدي ﴾ ، وقرأ

الجمهور بكسرها على الاستئناف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وأملى لهم ﴾

عطفٌ على سنستدرجهم غيرُ داخلٍ في حكم السين ، لما أن الإملاء الذي هو عبارةٌ عن الإمهال والإطالة ليس من الأمور التدريجية كالاستدراج الحاصل في نفسه شيئاً فشيئاً ، بل هو فعلٌ يحصلُ دفعةً ، وإنما الحاصلُ بطريق التدرُّج آثاره وأحكامه لا نفسه كما يلوح به تغييرُ التعبير بتوحيد الضمير مع ما فيه من الاقتان المنبئ عن مزيد الاعتناء بمضمون الكلام لابتنائه على تجديد القصد والعزيمة ، وأما أن ذلك للإشعار بأنه بمحض التقدير الإلهي والاستدراج بتوسط المدبّرات فمبناه دلالة نون العظمة على الشركة وأنى ذلك ، والاحترز عن إيرادها في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُنَالِي لَهُمْ ﴾ الآية ، بل إنما إيرادها في أمثال هذه الموارد بطريق الجريان على سنن الكبرياء ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ تقريرٌ للوعيد وتأكيده له أي قوياً لا يدفع بقوة ولا بحيلة ، والمراد به إما الاستدراج والإملاء مع تبيجهما التي هي الآخذ الشديد على غرة قسميته كيداً لما أن ظاهره لطفٌ وباطنه قهراً ، وإما نفس ذلك الآخذ فقط فالتسمية لكون مقدماته كذلك ، وأما أن حقيقة الكيد ، هو الآخذ على خفاء من غير أن يُعتبر فيه إظهارُ خلافٍ ما أبطنه فمما لا تعويل عليه مع عدم مناسيته للمقام ضرورة استدعائه لاعتبار القيد المذكور حتماً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

وقال الأوسى :

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي مهلهم والواو للعطف وما بعده معطوف على ﴿ سنستدرجهم ﴾ [الأعراف : 182] غير داخل في حكم السين لما أن الإمهال ليس من الأمور التدريجية كالاستدراج الحاصل في نفسه شيئاً فشيئاً بل هو مما يحصل دفعة والحاصل بطريق التدرج آثاره وأحكامه ليس إلا ، ويلوح بذلك تغيير التعبير بتوحيد الضمير مع ما فيه من الاقتنان المنبىء عن مزيد الاعتناء بضمون الكلام لابتنائه على تجديد القصة والعزيمة ، وجعله غير واحد داخلًا في حكمها ، ولا يخفى التوحيد حينئذ ، وقيل : إنه كلام مستأنف أي وأنا أملي لهم ، والخروج من ذلك الضمير إلى ضمير المتكلم المفرد شبيه الالتفات واستظهر أنه من التلوين .

وما قيل : إن هذا للإشعار بأن الإمهال بمحض التقدير الإلهي وذاك للإشارة إلى أن الاستدراك بتوسط المدبرات ليس بشيء لمكان ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : 187] ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ تقرير للوعيد وتأكيده ، والمتين من المتانة بمعنى الشدة والقوة ، ومنه المتن للظهر أو اللحم الغليظ في جاني الصلب ، وفسر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الكيد بالمكر .

وفسره بعضهم بالاستدراك والإملاء مع تيجتهما ، وتسميته كيداً لما أن ظاهره لطف

وباطنه قهر ، وبعضهم بنفس الأخذ فقط فتسميته حينئذ بذلك قيل : لكون مقدماته  
كذلك ، وقيل : لنزوله بهم من حيث لا يشعرون ، وإيما كان فالمعنى إن كيدي قوي لا يدافع  
بقوة ولا بجيلة ، والآية حجة لأهل السنة في مسألة القضاء والقدر .  
وادعى بعض المفسرين أنها نزلت في المستهزئين من قريش أمهلهم الله تعالى ثم أخذهم في يوم  
بدر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(197/298)

---

وقال ابن عاشور :  
قوله : ( وأملي لهم )  
والإملاء إفعال وهو الإمهال ، وهمزة هذا المصدر منقلبة عن واو ، مشتق من الملاوة مثلثة  
الميم ، وهي مدة الحياة يقال أملاه وملاه إذا أمهله وأخره ، كلاهما بالالف دون همز فهو  
قريب من معنى عمره ، ولذلك يقال في الدعاء بالحياة ملاك الله .  
واللام في قوله : ﴿ لهم ﴾ هي اللام التي تسمى : لام التبيين ، ولها استعمالات كثيرة فيها  
خفاء ومرجعها : إلى أنها يقصد منها تبيين اتصال مدخولها بعامله لخفاء في ذلك الاتصال ،  
فإن اشتقاق أملي من الملو اشتقاق غير ممكن ، لأن المشتق منه ليس فيه معنى الحدث ، فلم



يجيء منه فعل مجرد ، فاحتيج إلى اللام ، لتبيين تعلق المفعول بفعله .  
وأما قولهم : أملئ للبعير بمعنى أطال له في طوله في المرعى ، فهو جاء من هذا المعنى بضرب  
من المجاز أو الاستعارة .

فجملته : ﴿ إن كيدي متين ﴾ في موضع العلة للجملتين قبلها ، فإن الاستدراج والإملاء  
ضرب من الكيد ، وكيد الله متين أي قوي لا انفلات منه للمكيد .

وموقع (إن) هنا موقع التفریع والتعليل ، كما قال عبد القاهر : إنها تغني في مثل هذا الموقع  
غناء الفاء ، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ في  
سورة آل عمران ( 96 ) ، أي : يكون ذلك الاستدراج وذلك الإملاء بالغين ما أردناه بهم  
لأن كيدي قوي .

ولما كان ﴿ أملئ ﴾ معطوفاً على ﴿ سنستدرجهم ﴾ ، فهو مشارك له في الدخول  
تحت حكم الاستقبال ، أي : وسأملئ لهم .

والمغايرة بين فعلي (نستدرج) و (أملئ) في كون ثانيهما بهمزة المتكلم ، وأولهما بنون  
العظمة مغايرة اقتضتها الفصاحة من جهة ثقل الهمزة بين حرفين متماثلين في النطق في ﴿  
سنستدرجهم ﴾ وللتقنن والاكفاء بحصول معنى التعظيم الأول .

---

و(الكيد) لم يضبط تحديد معناه في كتب اللغة، وظاهرها أنه يرادف المكر والحيلة، وقال الراغب: "ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموماً وممدوحاً وإن كان يستعمل في المذموم أكثر وهو يقتضي أن الكيد أخص من الاحتيال وما ذلك إلا لأنه غلب استعماله في الاحتيال على تحصيل ما لو اطلع عليه المكيد لا حترز منه، فهو احتيال فيه مضرة ما على المفعول به، فمراد الراغب بالمذموم المذموم عند المكيد لا في نفس الأمر" وقال ابن كمال باشا: الكيد الأخذ على خفاء، ولا يعتبر فيه إظهار الكائد خلاف ما يبطنه. ويتحصل من هذه التديقات: أن الكيد أخص من الحيلة ومن الاستدراج. ووقوع جملة: ﴿إن كيدي متين﴾ موقع التعليل يقتضي أن استدراجهم والإملاء لهم كيد، فيفيد أنه استدراج إلى ما يكرهونه، وتأجيل لهم إلى حلول ما يكرهونه، لأن مضمون الجملة الثانية على هذا شامل لمضمون الجملة السابقة مع زيادة الوصف، المتين، ما لو حمل الكيد على معنى الأخذ على خفاء بقطع النظر عن إظهار خلاف ما يخفيه، فإن جملة: إن كيدي متين لا تفيد إلا تعليل الاستدراج والإملاء بأنهما من فعل من يأخذ على خفاء دون تلوين أخذه بما يغير المأخوذ، فكأنه قال: سنستدرجهم من حيث لا يعلمون كائدين لهم، إن كيدي متين.

وإطلاقه هنا جاء على طريقة التمثيلية بتشبيه الحال التي يستدرج الله بها المكذبين مع

تأخير العذاب عنهم إلى أمد هم بالغوه، مجال من يهيبىء أخذاً لعدوه مع إظهار المصانعة  
والمحاسنة؛ ليزيد عدوه غروراً، وليكون وقوع ضرر الأخذ به أشد وأبعد عن الاستعداد  
لتلقيه.

و(المتين) القوي، وحقيقته القوي المتين أي الظهر، لأن قوة متنه تمكنه من الأعمال الشديدة  
، ومتن كل شيء عموده وما يتماسك به. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير ح 8 ص



(199/298)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ (183)﴾

والإملاء هو الإمهال وهو التأخير، أي أنه لا يأخذهم مرة واحدة، فساعة يقوم الفاسد  
بالكثير من الشر في المجتمع، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات، ونسمع دائماً من  
يقول: لو لم يكن هناك إيمان لأكل الناس بعضهم بعضاً، فالإيمان يُعطي الأسوة واليقين.  
والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى، بل هو إمهال فقط، ثم يأخذه الله أخذ  
عزيز مقتدر، وهنا يوضح الحق: إذا كنت سأستدرج وسأملّي فاعلم أن كيدي متين.

والكيد هو المكر ، والمكر أخذهم من حيث لا يشعرون وهو عملية خفية تسوء الممكور به .

وهو تدير خفي حتى لا يملك الممكور به ملكات الدفع . وإذا كان البشر يمكرون ويدبرون تديراً يخفى على بعضهم ، فماذا حين يدبر الله للكافرين مكيدة أو مكرًا ؛ أيسطيع واحد أن يكشف من ذلك شيئاً ؟ . طبعاً لن يستطيع أحد ذلك . هذا هو معنى ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ ؛ ومتين أي قوي ، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر ، ونعرف أن الظهر مُكُونٌ من عمود فقري وفقرات عظيمة ، تحيط بها عضلات . فلو كان العمود الفقري من عظم فقط لكان أي حمل عليه يكسره . فشاءت تجليات ربنا عز وجل واقتضت رحمته وقدرته أن يحاط هذا العظام بعضلتين كبيرتين ، وهما ما نسميه في عرف الجزائر " الفلتو " لحماية الظهر وتقويته ووقايته .

وإذا نظرنا إلى كلمة " متين " ، نجد " المتن " هو الشيء العمودي في الأشياء ، وفي العلم مثلاً ندرس الفقه وندرس النحو ، ويقال : هذا هو المتن في الفقه ، أي الكلام الموجز الذي يحتزل العلم في كلمات محددة ، والذكي هو من يستوعبه . وغالباً مع المتن الموجز شرحاً للمتن ، ثم حاشية للمتن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(200/298)

## "فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي ﴿ سنستدرجهم ﴾ يقول : سنأخذهم ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ قال : عذاب بدر .

وأخرج أبو الشيخ عن يحيى بن المثنى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ قال : كلما أحدثوا ذنباً جددنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن سفيان في قوله ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ قال : نسبغ عليهم النعم ونمنعهم شكرها .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي ﴿ وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ يقول : كف عنهم وأخرهم على رسلكم ان مكري شديد ، ثم نسخها الله فأنزل الله ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كيد الله العذاب والنقمة . انتهى انتهى . ١٥

﴿ الدر المنثور ج 3 ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: (وأملئ لهم)

جوز أبو البقاء فيه أن يكون خبر مبتدأ مضمر، أي: وأن أملئ وأن يكون مستأنفاً، وأن يكون معطوفاً على سنسدرج، وفيه نظر: إذ كان من الفصاحة لو كان كذا لكان ونملي بنون العظمة. ويجوز أن يكون هذا قريباً من الالتفات والإملاء: الإمهال والتطويل، والمتين: القوي، ومنه المتن وهو الوسط؛ لأنه أقوى ما في الحيوان، وقد متن يمتن متانة أي: قوي.

وقرأ العامة إن كيدي بالكسر على الاستئناف المشعر بالعلية.

وقرأ ابن عامر في رواية عبد الحميد أن كيدي بفتح الهمزة على العلة.

والملي: زمان طويل من الدهر، ومه قوله: (واهجرني مليا) [مريم: 46] أي: طويلاً،

والمعنى: أطيل لهم مدة أعمارهم ليتمادوا في المعاصي، ولأعاجلهم في العقوبة، ليقنعوا

عن المعصية بالتوبة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 404 ﴾ .

باختصار.

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابوري فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (172)

إلى قوله تعالى :

﴿ وَأْمُرْ لِيهِمْ أَنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴾ (183)

التفسير : لما شرح قصة موسى على أقصى الوجوه ذكر ما يجري مجرى تقرير الحجة على جميع المكلفين . وفي الآية للمفسرين قولان : أحدهما ما روى مسلم بن يسار الجهني ان عمر بن الخطاب قال : سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : "إن الله تبارك خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون . قال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على

عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت في عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار "

(203/298)

---

وهذا القول ذهب إليه كثير من قدماء المفسرين كسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والضحاك وعكرمة والكلبي وابن عباس . وأما المعتزلة وأصحاب النظر والمعقولات فإنهم فسروا الآية بأنه تعالى أخرج الذرية وهم الأولاد من أصلاب آبائهم ، وذلك الإخراج أنهم كانوا نطفة فأخرجها الله تعالى إلى أرحام الأمهات وجعلها علقة ثم مضغة ثم جعلهم بشراً سوياً وخلقاً كاملاً ، ثم أشهدهم على أنفسهم بما ركب في عقولهم من دلائل وحدانيته وعجائب خلقته وغرائب صنعته وكأنه قرره وقال ﴿ أَلست بربكم ﴾ وكانهم ﴿ قالوا بلى ﴾ أنت ربنا ﴿ شهدنا على أنفسنا ﴾ وأقررنا بوحدانيتك . وباب التمثيل باب واسع في كلام الله ورسوله وفي كلام العرب نظيره ﴿ فقال له وللأرض اثنا طوعاً أو كرهاً ﴾ قالنا أتينا طائعين ﴿ [ فصلت : 11 ] وقال الشاعر .

(204/298)



---

امتلاً الحوض وقال قطني . . . وهذا القول الثاني غير منافٍ للقول الأول ولا هو مطعون في نفسه إنما الكلام في صحة القول الأول . والمنكرون طعنوا فيه بوجوه : منها أن قوله ﴿ من ظهورهم ﴾ بدل ﴿ من بني آدم ﴾ بدل البعض من الكل . فالمعنى وإذا أخذ ربك من ظهور بني آدم . وعلى هذا فلم يذكر الله تعالى أنه أخذ من ظهر بني آدم شيئاً . ويمكن أن يجاب بأنه تعالى يعلم أن الشخص الفلاني يتولد من آدم ومن فلان فلان آخر فعلى الترتيب الذي علم دخولهم في الوجود يخرجهم ويميز بعضهم من بعض فثبت إخراج الذرية من ظهور بني آدم بالقرآن ، وثبت إخراج الذرة من ظهر آدم بالخير ، فوجب المصير إليهما معاً صوتاً للآية والخبر عن الطعن . ومنها أن أولئك الذر إن لم يكونوا عقلاء لم يمكن أخذ الميثاق منهم وإن كانوا عقلاء وجب أن يتذكروا تلك الحالة في هذا الوقت ، وبهذا الدليل بعينه يبطل التناسخ . ويحتمل أن يجاب بالفرق وذلك أنا إذا كنا في أبدان أخرى وبقينا فيها سنين ودهوراً امتنع في مجرى العادة نسيانها ، وأما أخذ هذا الميثاق فإنما حصل في أسرع زمان فلم يبعد حصول النسيان فيه . ومنها أن جميع الخلق من أولاد آدم جمع عظيم وجم غفير ، وصلب آدم على صغره لن يتسع لذلك المجموع على أن البنية شرط لحصول الحياة والعقل والفهم فكل واحدة من أولئك الذر لها بنية وإن كانت صغيرة والمجموع يبلغ مبلغاً عظيماً في الحجمية والمقدار ، وأجيب بأن البنية عندنا ليست شرطاً في الحياة والعقل . فمن الجائز

أن يكون كل من الذر جوهراً فرداً . ومنها أن فائدة أخذ الميثاق أن يكون حجة عليهم في ذلك الوقت أو في الدنيا ، والإجماع منعقد على أنهم بسبب ذلك لا التكليف على الطفل فكيف يتوجه على الذر؟ وأجيب بأنه لا يسأل عما يفعل .

(205/298)

---

وإن المعزلة إذا أرادوا تصحيح القول بوزن الأعمال وإنطاق الجوارح قالوا لا يبعد أن يكون لبعض المكلفين في إسماع هذه الأشياء نطق فكذا ههنا ، ولا يبعد أن يكون لبعض الملائكة في تمييز السعداء من الأشقياء في وقت أخذ الميثاق نطق . وقيل : إن الله تعالى يذكرهم ذلك الميثاق يوم القيامة . ومنها أنه سبحانه قال ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [ المؤمنون : 12 ] وقال ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق ﴾ [ الطارق : 5 ، 6 ] وكون أولئك الذر أناساً ينافي كون الإنسان مخلوقاً من الماء والطين . والجواب لا يجوز أن يخرج الله تعالى من صلب آدم ذرة من الماء ثم منها ذرة أخرى وهلم جرا إلى آخر نسلها ثم يعدم الكل أو يميتها فتحصل الحياة للإنسان أربع مرات : أولها ؟ وقت الميثاق ، وثانيها : في الدنيا ، وثالثا : في القبر ، ورابعها في القيامة ، ويحصل له الموت ثلاثة مرات بين كل حياتين واحد . ولا ينافي هذا حكاية قول الكفرة ﴿ ربنا أمنا اثنتين وأحييتنا اثنتين

﴿ غافر : 11 ﴾ لأنهم قالوا ذلك بناء على حسب ظنونهم . أما قوله ﴿ أن تقولوا ﴾  
فالتقدير : وأشهدهم على أنفسهم بكذا لتلايقولوا أو كراهة أن يقولوا ﴿ يوم القيامة أنا كنا  
عن هذا ﴾ المشهود له ﴿ غافلين ﴾ من قرأ بياء الغيبة فلأن الكلام على الغيبة وهو قوله  
﴿ من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ﴾ لتلايقولوا . ومن قرأ على  
الخطاب فلأنه قد جرى في الكلام خطاب وهو قوله ﴿ ألت بربكم ﴾ وكلا الوجهين  
حسن لأن الغائبين هم المخاطبون في المعنى . ﴿ أويقولوا ﴾ يعني الكفار إنما أشركنا لأن  
آباءنا أشركوا فقلدناهم في ذلك الشرك فكان الذنب لأسلافنا فكيف تعذبنا على هذا  
الشرك وهو معنى قوله ﴿ أفهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ والحاصل أن الله تعالى لما أخذ  
عليهم الميثاق امتنع منهم التمسك بهذا العذر . وعند المعتزلة معناه أشهدنا عليهم كراهة  
أن يقولوا إنما أشركنا على سبيل التقليد

(206/298)

---

لأسلافنا لأن نصب الأدلة على التوحيد قائم فلا عذر معهم في الإعراض عنه والإقبال على  
التقليد والاقداء بالآباء . وقال في الكشاف : المراد ببني آدم أسلاف اليهود الذين أشركوا  
بالله ، وذررياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله من أخلافهم المقتدين بآبائهم لأن الآيات

السابقة في شأن اليهود . وكذلك قوله ﴿ واتل عليهم ﴾ أي على اليهود ﴿ نبأ الذي آتيناہ  
آياتنا ﴾ أما قوله ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿ فصل الآيات ﴾ لهم  
﴿ لعلمهم يرجعون ﴾ وإرادة أن يرجعوا إلى الحق ويعرضوا عن الباطل فصلها أو يرجعوا  
إلى ما أخذ الله عليهم من الميثاق في التوحيد . ولبعض العلماء في الآية قول ثالث وهو أن  
الأرواح البشرية موجودة قبل الأبدان والإقرار بوجود الإله من لوازم ذاتها وحقائقتها ،  
وهذا العلم ليس مما يحتاج في تحصيله إلى كسب وطلب وهو المراد بأخذ الميثاق عليهم ،  
لكنها بعد التعلق بالأبدان يشغلها التعلق عن معلومها فرمما تذكر بالتذكير والتنبيه وربما لا  
تذكر ﴿ واتل عليهم ﴾ على بني آدم أو اليهود خاصة .

(207/298)

---

وقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد : نزلت في بلعم بن باعوراء ؛ وذلك أن موسى عليه  
السلام قصد بلده الذي هو فيه وغزا أهله وكانوا كفاراً فطلبوا أن يدعو على موسى  
وقومه . وكان مجاب الدعوة وعنده اسم الله الأعظم . فامتنع منه فما زالوا يطلبونه منه  
حتى دعا عليهم فاستجيب له ووقع موسى عليه السلام وبنو إسرائيل بدعائه في التيه .  
فقال موسى : يا رب بأيّ ذنب وقعنا في التيه ؟ فقال : بدعاء بلعم . فقال : كما سمعت

دعاه عليّ فاسمع دعائي عليه . ثم دعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم  
والإيمان فسلخه الله تعالى مما كان عليه ونزع عنه المعرفة فخرجت من صدره كحمامة  
بيضاء فهذه قصته . ويقال أيضاً أنه كان نبياً من أنبياء الله تعالى فلما دعا عليه موسى عليه  
السلام انتزع الله تعالى منه الإيمان فكان كافراً وهذا بعيد لأنه سبحانه قال ﴿ الله أعلم  
حيث يجعل رسالاته ﴾ [ الأنعام : 124 ] وفيه أنه تعالى لا يشرف عبداً من عبده  
بالرسالة إلا إذا علم امتيازه عن سائر عبده بمزيد الشرف والفضل ، ومن كان هذا حاله  
فكيف يليق به الكفر ؟ وقال عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وأبوروق  
: نزلت في أمية بن أبي الصلت وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى يرسل رسولاً في ذلك  
الوقت فرجا أن يكون هو فلما أرسل الله محمد صلى الله عليه وآله حسده ثم مات كافراً  
ولم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد  
كاد يسلم " وذلك أنه يوحد الله تعالى في شعره وذكر دلائل توحيده من خلق السماء  
والأرض وأحوال الآخرة والجنة والنار . وقيل : نزلت في أبي عامر الراهب الذي سماه النبي  
صلى الله عليه وسلم بالفاسق وكان يتزهّد في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام  
وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار وأتى قيصر واستجده على النبي صلى الله عليه وآله  
فمات هناك طريداً وحيداً وهو قول سعيد ابن المسيب . وقيل : نزلت في منافقي أهل

---

الكتاب وكانوا يعرفون أن النبي صلى الله عليه وسلم نبي الحق عن الحسن والأصم . وروى  
عكرمة عن ابن عباس قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيها ، وكانت له  
امرأة يقال لها البسوس وكان له منها ولد وكان يحبها فقالت : اجعل لي منها دعوة . قال :  
لك منها واحدة فماذا تأمرين ؟ قالت : ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل . فلما  
علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئاً آخر فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة  
نباحة فذهب فيها دعوتان ، وجاء بنوها فقالوا : ليس لنا على هذا إقرار قد صارت أمنا  
كلبة نباحة يعيرنا بها الناس فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها ، فدعا الله فعادت  
كما كانت وذهبت الدعوات الثلاث وبها يضرب المثل فيقال : " أشأم من البسوس " .

(209/298)

---

وقيل : هو عام فيمن عرض عليه الهدى فأعرض عنه وهو قول قتادة وعكرمة وأبي  
مسلم . ومعنى قوله ﴿ آتيناها آياتنا ﴾ عند الأكثرين علمناه حجج التوحيد وفهمناه أدلته  
حتى صار عارفاً بها ﴿ فانسخ منها ﴾ فخرج من محبة الله تعالى إلى معصيته ومن  
رحمته إلى سخطه . يقال لكل من فارق شيئاً بالكلية إنه انسخ منه . وقال أبو مسلم ﴿

آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴿ أي بينها فلم يقبل وعري منها وتباعد كما هو شأن كل كافر لم  
يؤمن بالأدلة وأقام على الكفر . والقول الأول أولى لأن الانسلاخ يدل على أن الشيء كان  
موجوداً فيه ثم خرج منه لا على إنه لم يوجد فيه أصلاً . وأيضاً ثبت بالأخبار أن الآية نزلت  
في إنسان كان عارفاً بدين الله ثم خرج من المعرفة إلى الكفر والغواية وذلك قوله ﴿ فأتبعه  
الشیطان ﴾ أي أدركه ولحقه وصار قريباً له ، أو أتبعه الشيطان خطواته أو كفار الإنس  
وغواتهم أي الشيطان جعل كفار الإنس أتباعاً له ﴿ فكان من الغاوين ﴾ في علم الله تعالى  
أو فصار منهم ﴿ ولو شئنا لرفعناه ﴾ إلى منازل الأبرار ﴿ بها ﴾ أي بتلك الآيات ﴿  
ولكنه أخذ إلى الأرض ﴾ أصل الإخلاء اللزوم على الدوام فكأنه قيل : لزم الميل إلى  
الأرض ومنه أخذ فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به . قال ابن عباس : معناه مال إلى الدنيا .  
وقاتل مقاتل : رضي بالدنيا . وقال الزجاج : سكن إلى الدنيا . وقال الواحدي : فهؤلاء  
فسروا الأرض بالدنيا لأن ما في الدنيا من الضياع والعقار كلها أرض وسائر أمتعتها من  
المعادن والنبات والحيوان يستخرج من الأرض وبها يكمل ويقوى ، ومعنى قوله ﴿ واتبع  
هواه ﴾ أنه أعرض عن التمسك بما آتاه من الآيات ، ثم إنه لوجاء الكلام على ظاهره لقليل :  
ولو شئنا لرفعنا بها ولكننا لم نشأ إلا أن قوله ﴿ ولكنه أخذ إلى الأرض ﴾ لما دل على هذا  
المعنى لا جرم أقيم مقامه . قالت الأشاعرة : لفظة " لو " تدل على أن الله تعالى قد لا يريد  
الإيمان ويريد الكفر . وقال الجبائي : معناه ولو شئنا

(210/298)

---

لرفعناه بأعماله بأن يحترمه ونزيل التكليف عنه قبل ذلك الكفر حتى تسلم له الرفعة لكننا عرضناه بزيادة التكليف لمنزلة زائدة فأبى أن يستمر على الإيمان ، أو المراد لو شئنا لرفعناه بأن نحول بينه وبين الكفر قهراً أو جبراً إلا أن ذلك ينافي التكليف فلا جرم تركناه مع اختياره . وقال صاحب الكشاف : ومعناه لو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها ، وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات فذكرت المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل : ولو لزمها لرفعناه بها ألا ترى إلى قوله ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله فوجب أن يكون ﴿ ولو شئنا ﴾ في معنى ما هو فعله .

(211/298)

---

ثم وضع قوله ﴿ فمثله كمثل الكلب ﴾ موضع فحططناه أبلغ حط لأن تمثيله بالكلب في أحسن أحواله وأذلها في هذا المعنى ومحل قوله ﴿ أن تحمل عليه ﴾ النصب على الحل كأنه



قيل : كمثل الكلب ذليلاً دائماً الذلة لاهثاً في الحالين ، ويجوز أن يكون تفسيراً للمثل كما مر .  
قال الليث : اللهث هو أن الكلب ونحوه إذا ناله الإعياء عند شدة العدو وعند شدة الحر  
فإنه يدلع لسانه من العطش ، وكل شيء يلهث فإنه يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب  
اللاهث فإنه يلهث في جميع أحواله لا الحاجة وضرورة بل لطبيعته الخسيسة . فمعنى الآية  
أن هذا الكلب إن شدّ عليه وهيج لهث ، وإن ترك لهث أيضاً لأجل أن ذلك الفعل القبيح  
طبيعة أصلية له . عن ابن عباس : الكلب منقطع الفؤاد يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل  
عليه . قيل : لما دعا بلعم على موسى خرج لسانه فوق على صدره وجعل يلهث كما يلهث  
الكلب فيكون هذا وجه التمثيل . واعلم أن التمثيل ما وقع بجميع الكلاب وإنما وقع  
بالكلب اللاهث وأخس الحيوانات هو الكلب وأخس الكلاب هو اللاهث ، وإن الرجل  
إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا فذلك إنما يكون لأجل أن يورد عليهم أنواع علومه ويظهر  
عندهم فضائل نفسه ومناقبها ، ولا شك أنه عند ذكر تلك الكلمات يدلع لسانه ويخرجه  
لأجل ما تمكن من قلبه من حرارة الحرص وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا فكانت حاله  
شبيهة بمجال ذلك الكلب الذي أخرج لسانه أبداً من غير حاجة ولا ضرورة بل لمجرد  
الطبيعة الجسدية . وأيضاً هذا الحريص الضال إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال  
لأجل أن ذلك الضلال والخسار عادة أصيلة وطبيعة ذاتية له كما أن ذلك الكلب إن شدّ  
عليه لهث وإن ترك لهث . ثم عمم بالتمثيل جميع المكذبين الضالين فقال ﴿ ذلك مثل القوم

الذين كذبوا بآياتنا ﴿ وقال ابن عباس : يريد أهل مكة كانوا يتمنون هادياً يهديهم وداعياً يدعوهم إلى طاعة الله ، ثم لما جاءهم من لا يشكون في صدقه وديانته كذبوه . وقيل : هم اليهود قرأوا نعت رسول

(212/298)

---

الله صلى الله عليه وسلم في التوراة وذكر القرآن المعجز وما فيه وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . ﴿ فاقصص القصص ﴾ يريد قصص المكذبين أو قصص بلعم الذي هو نحو قصص المكذبين ﴿ لعلمهم يتفكرون ﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذ ساروا نحو سيرته .

(213/298)

---

ثم ذكر تأكيداً آخر في باب التحذير فقال ﴿ ساء مثلاً لقوم ﴾ ولا بد من تقدير مضاف ليناسب التمييز المخصوص بالذم فيصير التقدير : ساء مثلاً لقوم ، أو ساء أصحاب مثل القوم . وفي ﴿ ساء ﴾ ضمير مبهم يفسره المنصوب بعده . وظاهر الآية يقتضي كون المثل

مذموماً فقيل: كيف يتصور ذلك مع أن الله تعالى ذكره؟ والجواب أن الذم إنما يتوجه إلى ما أفاده المثل من تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها حتى صاروا في ذلك بمنزلة الكلب اللاهث. أما قوله ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ ﴾ ﴿ فِيمَا أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى كَذِبِهَا فَيَدْخُلُ فِي حَيْزِ الصَّلَةِ بِمَعْنَى الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ التَّكْذِيبِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَظَلَمِ أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مَنْقَطَعًا بِمَعْنَى وَمَا ظَلَمُوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ بِالتَّكْذِيبِ ، وَتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ لِلِاخْتِصَاصِ كَأَنَّهُ قِيلَ : وَخَصَّوْا أَنْفُسَهُمْ بِالظُّلْمِ لَمْ يَتَعَدَّهَا إِلَى غَيْرِهَا . ثُمَّ يَبِينُ أَنَّ الْهُدَايَةَ وَالضَّلَالَاتِ بِتَقْدِيرِهِ فَقَالَ ﴿ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾ وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْفِعْلِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ " مِنْ " مَفْرَدٌ الْفِعْلُ وَمِنْ حَيْثُ إِنَّ اهْتَدَى مَطَاوِعَ هَدَى ﴿ وَمَنْ يَضَلُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَعْنَى لِأَنَّ مِنْ مَعْنَاهُ هَهُنَا الْجَمْعُ وَلِأَنَّ الْخَسَارَ لَيْسَ مَطَاوِعٌ وَالْإِضْلَالُ بِلِ الْإِضْلَالِ . مَطَاوِعٌ لَهُ وَالْخَسَارُ لِأَنَّهُ الْمَلْزَمُ . وَلَا يَخْفَى أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ مُوَافِقٌ لِمَعْتَقَدِ الْأَشَاعِرَةِ أَنَّ الْهُدَايَةَ وَالضَّلَالَاتِ بِلِ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ بِمَخْلُقِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْمَعْتَزَلَةُ أَوْلَاهَا بِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَالثَّوَابِ فَهُوَ الْمُهْتَدِي فِي الدُّنْيَا ، وَمَنْ يَضَلُّهُ عَنِ الْجَنَّةِ وَالثَّوَابِ يَضَلُّهُ عَنِ طَرِيقِ الْجَنَّةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : التَّقْدِيرُ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَتَقْبَلُ هِدَايَةَ الْمُهْتَدِي ، وَمَنْ يَضَلُّ بِأَنَّ لَمْ يَقْبَلْ فَهُوَ الْخَاسِرُ . وَقِيلَ : مَنْ يَهْدِيهِ اللَّهُ بِالْأَلْطَافِ وَزِيَادَةِ الْهُدَى فَهُوَ الْمُهْتَدِي ، وَمَنْ يَضَلُّهُ عَنِ ذَلِكَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْهُ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِ فَأَخْرَجَ لِهَذَا السَّبَبِ تِلْكَ الْأَلْطَافِ مِنْ أَنَّ تَوَثَّرَ فِيهِ فَهُوَ الْخَاسِرُ ، وَزَيْفٌ بِالْعِلْمِ

والداعي وبأن الأصل عدم الإضرار وبأن كل ما في مقدور الله تعالى من الألفاظ فقد فعله  
عند المعتزلة في حق جميع الكفار وبالآية بعدها وهي قوله ﴿

(214/298)

---

ولقد ذرأنا ﴿ إلى آخره . وذلك أنه بين أنه خلق كثيراً من الجن والإنس لجهنم وقد علم ذلك  
في الأزل وخلاف مقدوره ومعلومه محال . وأيضاً العاقل لا يريد الكفر والجهل . الموجبين  
لدخول النار ، فحصول ذلك على خلاف قصده واجتهاده لا يكون إلا من قبل غيره ، ولا  
يتسلسل بل ينتهي إلى مسبب الأسباب لا محالة . لا يقال العبد إنما يسعى في تحصيل ذلك  
الاعتقاد الباطل لأنه اشتبه الأمر عليه وظنه اعتقاداً صحيحاً لأننا نقول على هذا التقدير  
إنما وقع في هذا الجهل لأجل جهل متقدم ، ولا تسلسل بل ينتهي إلى جهل حصل ابتداءً  
فيتوجه الإلزام . قالت المعتزلة : الآيات الدالة على أنه سبحانه أراد من العبد الطاعة  
والعبادة والخير فقط كثيره كقوله

(215/298)

---

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] وأيضاً أنه قال في معرض

الذم ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ إلى آخره . ولو كانوا مخلوقين للنار غير قادرين على الإيمان لم يحسن ذمهم . وأيضاً لو خلقهم للنار لما كان له نعمة على الكفار أصلاً لأن منافع الدنيا بأسرها لا اعتداد بها في جنب العذاب الدائم لكن القرآن مملوء من أنه تعالى منعم على جميع الخلاق . وأيضاً مذهبكم يوجب أن لا يكون للمدح والذم والثواب والعقاب والترغيب والترهيب فائدة ، ولو خلقهم للنار لوجب أن يخلقهم في النار ابتداءً لأنه لا فائدة في أن يستدرجهم إلى النار بخلق الكفر فيهم . وأيضاً الآية متروكة الظاهر لأن لام

الاختصاص لا تنفيد فيها إلا إذا قدر " ولقد ذرأناهم " لكي يكفروا فيصيروا إلى جهنم

فيجب بناؤها على قوله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56]

لأن ظاهره يصح من غير حذف . وعلى هذا أوجب أن تؤول الآية بأن اللام فيها لام العاقبة

كقوله ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً ﴾ [القصص : 8] أو يقال إنه جعلهم

لإغراقهم في الكفر وشدة شكائهم فيه كأنهم مخلوقون للنار كقولهم ما خلق فلان إلا لكذا

إذا كان غريباً في بعض الأمور . وأجيب إجمالاً بأنه لا يسأل عما يفعل ، وتفصيلاً بأن النعمة

وإن قلت فهي في نفسها نعمة ، وبأن الوسائط معتبرة ، وبأن حمل اللام على العاقبة تجوز لا

يصار إليه إلا لضرورة تصحيح المعنى ، وههنا لا ضرورة فقد تعاضدت الدلائل العقلية

كالعلم والداعي والنقلية كآيات كثيرة على أن الكل من الله فوجب المصير إلى طرف الجبر

ولا سيما فإن ما قبل هذه الآية وهو قوله ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ﴾ وما بعدها وهو قوله ﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم ﴾ يدل على ما قلنا . وأيضاً لا ريب أن أولئك الكفار كانت لهم قلوب يفقهون بها مصالح الدنيا ، وكذا أعين مبصرة وأذان سامعة ، فالمراد أنهم كانوا يفقهون ويبصرون ويسمعون ما يرجع إلى مصالح

(216/298)

---

الدين . ثم إنه تعالى كلفهم تحصيل الدين مع عدم القابلية كيف وإن الكفار بلغوا في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي شدة النفرة عن قبول دينه مبلغاً لا يكتنه كنهه . والعلم الضروري حاصل بأن حصول الحب والبغض في القلب ليس باختيار الإنسان بل هو حالة حاصلة في القلب كره الإنسان أو أراد ، حنئذ يثبت القول بالجبر . وروى الشيخ أحمد البهقي في كتاب مناقب الشافعي أن علي بن أبي طالب عليه السلام خط الناس فقال : وأعجب ما في الإنسان قلبه فيه مواد من الحكمة وأضدادها ، فإن سرح له الرجاء أوله الطمع ، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن سعد بالرضا شقي بالسخط ، وإن ناله الخوف شغله الحزن

، وإن أصابته المصيبة قتله الجرع ، وإن وجد ما لا أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة شغله  
البلاء ، وإن أجهدته الجوع قعد به الضعف ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد .

(217/298)

---

وهذا الفصل كالمطلع على سر مسألة القضاء والقدر لأن أعمال الجوارح مربوطة بأحوال  
القلوب ، وكل حالة من أحوال القلب فإنها مستندة إلى حالة أخرى حصلت قبلها . وإذا  
وقف الإنسان على هذه الحالة علم أنه لا خلاص من الاعتراف بالجبر . وذكر الإمام الغزالي  
في الإحياء فصلاً ثم قال : فإن قلت أني أجد من نفسي أني إن شئت الفعل فعلت وإن  
شئت الترك تركت فيكون فعلي حاصلاً بي لا بغيري . أجبنا وقلنا : هب أنك وجدت من  
نفسك ذلك إلا أنا نقول : وهل تجد من نفسك أنك إن شئت أن تشاء شيئاً شئت ، وإن  
شئت أن لا تشاء لم تشأ ، ما أظنك تقول ذلك وإلا لذهب الأمر فيه إلى ما لا نهاية له ، فلا  
مشيئتك بك ولا حصول فعلك بعد حصول مشيئتك بك وإنما أنت مضطر في صورة  
مختار . والله تعالى أعلم . قال بعض العلماء أنه تعالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم في معرض  
الذم ، وفيه دليل على أن محل الفقه هو القلب . وأقول : ليس المراد بالقلب ههنا اللحم  
الصنوبري بل اللطيفة الربانية التي بها يكون الإنسان إنساناً وقد يعبر عنها بالنفس الناطقة

وبالروح. أما قوله ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ فتقريره أن الإنسان يشاركه سائر الحيوان في القوى الطبيعية الغذائية والنامية والمولدة، وفي منافع الحواس الخمس الظاهرة، وفي أحوال التخيل والتفكر. وإنما يحصل الامتياز بالقوة العقلية والفكرية التي تهديه إلى معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به فإذا لم تحصل هذه الغاية للإنسان صار في درجة الأنعام بل أضل وأدون لأن الذي أعرض عن اكتساب الفضائل مع القدرة على تحصيلها من حيث النوع كان أخس حالاً ممن لم يكتسبها مع العجز عنها. وقيل: وجه الأضلية أن الأنعام مطيعة لله والكافر غير مطيع. وقال مقاتل: الأنعام تعرف ربها وتبصر منافعها ومضارها فتسعى في تحصيلها ودفعها، وهؤلاء الكفار أكثرهم معاندون مصرون وقيل: إنها تفرأبداً إلى أربابها ومن يقوم بمصالحها، والكافر يهرب عن ربه إلى الأصنام. وقيل

(218/298)

---

:إنها لا تضل إذا كان معها مرشد والكافر يضل بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ الكاملون في الغفلة. وقال عطاء: إنهم الغافلون عما أعد الله لأولياته من الثواب ولأعدائه من العقاب. ثم نبه بقوله ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ على أن الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكره سبحانه، والمخلص من عذاب جهنم هو ذكره،



وكل من له ذوق وجد من نفسه أن الأمر كذلك فإن القلب إذا غفل عن الذكر وأقبل على الدنيا وقع في نار الحرص وزمهير الحرمان ولا يزال ينتقل من رغبة إلى رغبة ومن طلب إلى طلب ومن ظلمة إلى ظلمة فإذا فتح على قلبه الذكر خلس من نيران الآفات وخسران الحشرات إلى معرفة رب الأرض والسموات .

(219/298)

---

وهذا اللفظ مذکور في ثلاثة مواضع آخر : في آخر بني إسرائيل وفي أول طه وفي آخر الحشر . ومعنى حسن الأسماء حسن معانيها ومفهوماتها لأنها أسماء دالة على معاني الكمال ونعوت الجلاوهي محصورة في نوعين : عدم اقتقاره تعالى إلى غيره وثبوت افتقار غيره إليه . وقد عرفت في تفسير البسملة أن أسماء الله تعالى لا تكاد تنحصر بحسب السلوب والإضافات ، فكل من كان وقوفه على أسرار حكمه في مخلوقاته أكثر كان علمه بأسماء الله الحسنی أكثر . والآن نقول : إن من تقسيمات أسماء الله ما يقوله المتكلمون من أن صفات الله أنواع ما يجب وما يجوز وما يستحيل عليه تعالى . ومنها أن يقال إن أسماء الله إما أن يجوز إطلاقها على غيره كالرحيم والكریم وإن كان معناها في حق الله مغايراً لمعناها في حق غيره ، وإما أن لا يجوز نحو " الله " و " الرحمن " . وقد يقيد القسم الأول

بقيود مثل "يا أرحم الراحمين" و "يا أكرم الأكرمين" و "يا خالق السموات والأرضين" .  
ومنها أن يقال من الأسماء ما يمكن ذكره وحده كقولنا "يا الله يا رحمن يا حي يا حكيم" .  
ومنها ما لا يكون كذلك كقولنا "ميت" و "ضار" فإنه لا يجوز إفراده بالذكر بل يجب أن  
يقال "يا محيي يا مميت يا ضار يا نافع" . ومنها أن يقال أول ما يعلم من صفات الله تعالى كونه  
محدثاً للأشياء مرجحاً لوجودها على عدمها ، وذلك إنما يعلم بواسطة الاستدلال بوجود  
الممكنات عليه ، وذلك المرجح إما أن يرجح على سبيل الوجوب أو على سبيل الصحة ،  
والأول باطل والإلزام دوام العالم بدوامه ، والثاني هو المعنى بكونه قادراً . ثم إننا بعد هذا  
نستدل بكون أفعاله محكمة متقنة على كونه عالماً ثم نقول : إن القادر العالم يمتنع أن لا يكون  
حياً فظهر أن العلم بصفاته وبأسمائه ليس واقعاً في درجة واحدة بل العلم بها علوم مترتبة  
يستفاد بعضها من بعض ، ومن البين أن الأسماء الحسنى لا تكون إلا لله تعالى لأن كل  
الشرف والجلالة يستلزم وجوب

(220/298)

---

الوجود ، وكل نقص وخساسة فإنه يعقب الإمكان وكل اسم لا يفيد في المسمى صفة كمال وجلال فإنه لا يجوز إطلاقه على الله تعالى . ومن هنا اختلف في أنه هل يطلق عليه اسم الشيء أم لا ؟ وقد مر تحقيق ذلك في تفسير البسملة وفي الأنعام في قوله

(221/298)

---

﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله ﴾ [ الأنعام : 19 ] أما قوله ﴿ فادعوه بها ﴾ ففيه دليل على أن الإنسان لا يجوز أن يدعوه إلا بتلك الأسماء الحسنى بعد أن عرف معانيها ويكون مستحضراً الأمرين : عزة الربوبية وذلة العبودية ، كما أنه في قوله عند التحريم " الله أكبر " يشير إلى أنه لا نسبة لكبريائه وعظمته إلى ما سواه من الروحانيات والجسمانيات والعلويات والسفليات وإنما هو أكبر من هذه الأشياء وأكبر من أن يقال له أكبر من هذه الأشياء ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ قال ابن السكيت : الملحد العادل عن الحق والمدخل فيه ما ليس منه . يقال قد ألحد في الدين ولحد . وقال غيره من أهل اللغة : الإلحاد العدول عن الاستقامة والانحراف عنها ومنه للحد الذي يحفر إلى جانب القبر . قال الواحدي : الأجود قراءة العامة ولا يكاد يسمع من العرب لأحد بمعنى ملحد . والإلحاد في أسماء الله تعالى يقع على ثلاثة أوجه : الأول : إطلاق أسمائه المقدسة على الأصنام

كاشتقاقهم اللات من الله والعزى من العزيز ، ومناة من المنان ، وكان مسيلمة الكذاب  
يسمى نفسه الرحمن . والثاني أن يسموه بما لا يجوز عليه كما سمع عن البدو وإن قالوا بجهلهم  
" يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ، يا نحى " بناء على أن النخوة مدح . الثالث : أن يابوا  
تسميته ببعض أسمائه الحسنى كالرحمن مثلاً . قال بعض العلماء : إن ورود الإذن في بعض  
الأسماء لا يجوز إطلاق سائر الألفاظ المشتقة منه عليه ، فلا يجوز أن يقال " يا معلم " وإن  
ورد ﴿ وعلم آدم الأسماء ﴾ [ البقرة : 31 ] وكذا في حق الأنبياء لا يجوز أن يقال إن آدم  
عاصٍ أو غاوٍ وإن ورد ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ [ طه : 121 ] ثم أوعد الملحدون  
في أسمائه بقوله ﴿ سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ ثم لما أخبر أن كثيراً من الثقلين مخلوقون  
لنار حكى أن بعضاً منهم مخلوقون للجنة فقال ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ﴾ وقد مر  
مثل هذه الآية في قصة موسى فعن قتادة وابن

(222/298)

---

جريح وابن عباس أن المراد في الآية أمة محمد صلى الله عليه وآله . وروى الربيع أن النبي  
صلى الله عليه وسلم كان يقول : " إذ قرأها هذه الكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها "  
وعن الربيع بن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال : " إن من أمتي قوماً

على الحق حتى ينزل عيسى " وعن الكلبي : هم الذين آمنوا من أهل الكتاب . وقال  
الجبائي : هم العلماء والدعاة إلى الدين في كل حين ثم أعاد ذكر المكذبين وما عليهم من  
الوعيد فقال ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ قال ابن عباس : يري أهل مكة والظاهر أنه عام .  
والاستدراج استفعال من الدرجة ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه ، وأدرج الكتاب  
إذا طواه شيئاً بعد شيء .

(223/298)

---

ومعنى الآية سنقر بهم إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ ما يراد  
بهم . وذلك أنهم كلما أقدموا على ذنب فتح الله عليهم باباً من أبواب الخير فيزدادون بطراً  
وانهماكاً في الغي والفساد ، ثم يأخذهم أغفل ما يكونون ﴿ وأملئ لهم مدة  
عمرهم ﴾ إن كيدي متين ﴿ عن ابن عباس : يريد أن مكري شديد والمتين من كل شيء  
هو القوي . يقال متن متانة . واحتجت الأشاعرة بألفاظ الاستدراج والإملاء والكيد في  
مسألة القضاء والقدر حتى قال بعض المجبرة : المراد سنستدرجهم إلى الكفر مع أنه فاسد  
لأن جزاء الكفر لا يكون كفراً آخر . وحملها المعتزلة على أن المراد سنستدرجهم إلى  
العقوبات إما في الدنيا وفي الآخرة ، وزيف بأن هذا الاستدراج والإمهال مما يزيد الكافر به

كفراً وعتواً واستحقاقاً للعقاب ، فلو أراد به الخير لأماته قبل أن يصير مستوجباً لتلك  
الزيادات من العقوبة بل كان يجب في حكمته ورعايته للأصلح أن لا يخلق ابتداءً ، أو يميته  
قبل التكليف لما خلقه وألقاه في ورطة التكليف وأمهله ومكثه من المعاصي مع علمه بأن  
كل ذلك لا يفيد إلا مزيد استحقاق العقاب علمنا أنه ما خلقه إلا للنار كما قال ﴿ لقد  
ذرأنا لجهنم ﴾ الآية . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 343 . 353 ﴾

(224/298)

---

فصل في التفسير الإشاري في الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابوري :

التأويل : ﴿ وإذا أخذ ربك ﴾ لم يقل " ربكم " ليعلم أن في الآية غموضاً لا يطلع عليه غيره  
صلى الله عليه وسلم وغير من أنعم الله به عليه من خواص متابعيه صلى الله عليه وسلم ،  
وأنه تعالى لم يكلم أحداً وهو يجيبه في العدم إلا بني آدم كلمهم وهم غير موجودين وأجابوه  
وهم معدومون فجرى بالجود ما جرى لا بالجود ، فهذا بدايتهم وإلى أن تنتهي نهايتهم بأن  
يكون الله تعالى سمعهم وأبصارهم وألسنتهم ﴿ إنما أشرك آباؤنا ﴾ بأن رضوا بالأثنية  
وما جعلوا إلى الوحدة بالفناء في الله ﴿ بما فعل المبطلون ﴾ الذين أبطلوا استعداد الرجوع

إلى الوحدة لله ﴿ ولعلمهم يرجعون ﴾ بهذه الدلالات من البداية إلى النهاية وهو مقام الوحدة ﴿ فانسخ منها ﴾ أي وقع فرخ همته العلية عن ذكر طلب الحق ومحبه فأدر كته هزة الشيطان وجعلته من الهالكين ليعلم أن المعصوم من عصمة الله وأن السلك الواصل يجب أن لا يأمن مكر الله فلا يفتح على نفسه أبواب التمتع والترفة ، ولا يميل إلى حب المال والجاه ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً ﴾ وهم مظاهر القهر ﴿ فادعوه بها ﴾ بأن تصفوا بصفاته بالنيات الصالحات والأعمال الزاكيات ثم تتخلقوا بها بالأحوال بتصفية مرآة القلب ومراقبته عن التعلق بما سوى الله تعالى ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ بأن لم توافق أقوالهم أفعالهم ﴿ سنستدرجهم ﴾ فينحطون عن مراتبهم بالتدرج والله أعلم . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 353.354 ﴾

(225/298)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب : الحاوي في تفسير القرآن الكريم  
وَيُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورُسُلَى - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والتسعون بعد المائتين  
حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/299)

---

الجزء التاسع والتسعون بعد المائتين  
من الآية ﴿ 184 ﴾ من سورة الأعراف  
وحتى الآية ﴿ 186 ﴾ من نفس السورة

(4/299)

---



قوله تعالى ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (184)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان السياق من أول السورة لإنذارهم ، وكان لا بد في صحة الإنذار من تصحيح الرسالة ، وختم بأمر الاستدراج ، وكانوا قد واقعوا من المعاصي ما لا يجترىء عليه إلا مطموس البصيرة ، وكان عندهم أن من قال : إنهم على حال سييء ، - مع ما هم فيه من النعم الظاهر - مجنون ، وكان التقدير دلالة على صحة الاستدراج ؛ ألميروا أنهم يقدمون على ما لا يرضاه لنفسه عاقل من عبادتهم للحجر وشماختهم عن أكمل البشر ووصفه بالجنون ووصفهم أفضل الكلام بالسحر والكذب إلى غير ذلك مما يغضب من ليس النفع والضرر إلا بيده ، وهو مع ذلك يوالي عليهم النعم ، ويدفع عنهم النقم ، هل ذلك إلا استدراج ؛ قال منكرًا عليهم عطفًا على ما أرشد السياق والعطف على غير معطوف عليه إلى تقديره : ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ أي يعملوا أفكارهم ويمعنوا في ترتيب المقدمات ليعلموا أنه لا يتوجه لهم طعن يورث شبهة بوجه من الوجوه ، وبين المراد من هذا التفكير وعينه بقوله : ﴿ ما بصاحبهم ﴾ أي الذي طالت خبرتهم لأنه أمتهم عقلاً وأفضلهم شمائل ولم يقل : ما برسولي ونحوه ، لتلايقول متعنتهم ما لا يخفى ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ من جنة ﴾ أي حالة من حالات الجنون .

ولما نفى أن يكون به شيء مما نسبوه إليه واقتزوه عليه فثبتت رسالته ، حصر أمره في  
الندارة لأنها النافعة لهم مع أن المقام لها في هذه السورة فقال : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هو إلا ﴾  
نذير ﴿ أي بالغ في نذارته ﴾ مبين ﴿ أي موضح للطريق إيضاحاً لا يصل إلى غيره ، ومن  
أدلة ذلك عجز الخلق عن معارضة شيء مما يأتي به من أنه أحسن الناس خلقاً وأعلاهم  
خلقاً وأفضلهم عشرة وأرضاهم طريقة وأعد لهم سيرة وأطهرهم سريرة وأشرفهم عملاً  
وأحكمهم علماً وأرصنهم رأياً وأعظمهم عقلاً وأشدهم أمانة وأظهرهم نبلاً . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 162 ﴾

(5/299)

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ فبأي ﴾ بتلين الهمزة حيث كان : الأصفهاني عن ورش وحمزة في الوقف  
﴿ ويذرهم ﴾ بالياء مرفوعاً : أبو عمرو وسهل ويعقوب وعاصم غير عياش والمفضل  
﴿ ويذرهم ﴾ بالياء مجزوماً : عياش وحمزة وعلي وخلف . الباقر : بالنون مرفوعاً ﴿  
أن أنا إلا ﴾ بالمد : أبو نشيط ﴿ شركاً ﴾ بكسر الشين وسكون الراء : أبو جعفر ونافع

وأبو بكر وحماد . الآخرون : ﴿ شركاء ﴾ ﴿ على الجميع ﴾ ﴿ يتبعوكم ﴾ ﴿ مخففاً : نافع .  
الباقون : بالتشديد . ﴿ يبطشون ﴾ ﴿ بضم الطاء يزيد ﴾ ﴿ قل ادعوا ﴾ ﴿ بكسر اللام  
للساكين وكذا بابه : حمزة وعاصم وسهل ويعقوب وعياش . الآخرون : بالضم للإتباع ﴿  
كيدوني ﴾ ﴿ بالياء في الحاليين : سهل ويعقوب وابن شنبوذ عن قنبل ، وافق أبو عمرو ويزيد  
وإسماعيل والحلواني عن هشام في الوصل ﴾ ﴿ ينظرون ﴾ ﴿ بالياء في الحاليين : يعقوب وافق  
سهل وعياش في الوصل . ﴿ إن وليّ الله ﴾ ﴿ بياء واحدة مشددة : أبو زيد عن المفضل  
وشجاع وعياش إذا قرأ الإدغام الكبير ﴾ ﴿ وليي ﴾ ﴿ بثلاث يآت : رويس والبرجمي .  
الباقون : بياءين أولاهما مشددة مكسورة والثانية مفتوحة .

(6/299)

---

الوقوف : ﴿ من جنة ﴾ ﴿ ط ﴾ ﴿ ميين ﴾ ﴿ ه ﴾ ﴿ من شيء ﴾ ﴿ لا لأن التقدير وفي أن عسى  
﴿ أجلهم ﴾ ﴿ ط لابتداء الاستفهام مع الفاء ﴾ ﴿ يؤمنون ﴾ ﴿ ه ﴾ ﴿ هادي له ﴾ ﴿ ط لمن قرأ  
﴿ ويذرهم ﴾ ﴿ . بالرفع على الاستئناف ، ومن جزم فلا وقف لأنه معطوف على موضع  
﴿ فلا هادي له ﴾ ، ﴿ يعمهون ﴾ ﴿ ه ﴾ ﴿ مرساها ﴾ ﴿ ط ﴾ ﴿ عند ربي ﴾ ﴿ ج لاختلاف  
الجمليتين ﴾ ﴿ إلهو ﴾ ﴿ ط ﴾ ﴿ والأرض ﴾ ﴿ ط ﴾ ﴿ بغة ﴾ ﴿ ط ﴾ ﴿ عنها ﴾ ﴿ ط ﴾ ﴿ لا

يعلمون ﴿ ه ﴾ ما شاء الله ﴿ ط ﴾ من الخير ﴿ ج ﴾ لاحتمال أن يفسر السوء بالجوع  
فيكون معطوفاً على جواب «لو». واحتمال أن يفسر بالجنون الذي نسبوه إليه فيكون  
ابتداءً نفي ﴿ يؤمنون ﴾ ه ﴿ إليها ﴾ ج لأجل الفاء ﴿ فمرت به ﴾ ج لذلك ﴿  
الشاكرين ﴾ ه ﴿ فيما آتاها ﴾ ج لابتداء التنزيه ووجه الوصل تعجيل التنزيه ﴿  
يشركون ﴾ ه ﴿ وهم يخلقون ﴾ ه والوصل أولى للعطف ﴿ ينصرون ﴾ ه ﴿ لا يتبعوكم  
﴿ ط ﴾ صامتين ﴿ ه ﴾ صادقين ﴿ ه ﴾ يمشون بها ﴿ زلأن «أم» عاطفة مع أنها  
في معنى ابتداء استفهام للإنكار الثانية والثالثة كذلك ﴿ يسمعون بها ﴾ ط ﴿ ينظرون  
﴿ ه ﴾ الكتاب ﴿ ط والوصل أولى لتكون الواو عاطفة ﴿ الصالحين ﴾ ه ﴿  
وينصرون ﴿ ه ﴾ لا يسمعوا ﴿ ط ﴾ لا يبصرون ﴿ ه ﴾ انتهى انتهى . اه ﴿ غرائب  
القرآن ح 3 ص 354.355 ﴿

(7/299)

فصل

قال الفخر:

﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (184) ﴾

واعلم أنه تعالى لما بالغ في تهديد المعرضين عن آياته ، الغافلين عن التأمل في دلائله وبيناته ، عاد إلى الجواب عن شبهاتهم .

فقال : ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ ﴾ والتفكر طلب المعنى بالقلب وذلك لأن فكرة القلب هو المسمى بالنظر ، والتعقل في الشيء والتأمل فيه والتدبر له ، وكما أن الرؤية بالبصر حالة مخصوصة من الانكشاف والجلاء ، ولها مقدمة وهي تقليب الحدقة إلى جهة المرئي : طلباً لتحصيل تلك الرؤية بالبصر ، فكذلك الرؤية بالبصيرة ، وهي المسماة بالعلم واليقين ، حالة مخصوصة في الانكشاف والجلاء ، ولها مقدمة وهي تقليب حدقة العقل إلى الجوانب ، طلباً لذلك الانكشاف والتجلي ، وذلك هو المسمى بنظر العقل وفكرته ، فقوله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ أمر بالفكر والتأمل والتدبر والتروي لطلب معرفة الأشياء كما هي عرفانا حقيقياً تاماً ، وفي اللفظ محذوف .

والتقدير : أولم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم من جنة ، والجنة حالة من الجنون ، كالجلسة والركبة ودخول " من " في قوله : ﴿ مِّنْ جَنَّةٍ ﴾ يوجب أن لا يكون به نوع من أنواع الجنون . واعلم أن بعض الجهال من أهل مكة كانوا ينسبونهم إلى الجنون لوجهين : الأول : أن فعله عليه السلام كان مخالفاً لفعلهم ، وذلك لأنه عليه السلام كان معرضاً عن الدنيا مقبلاً على الآخرة ، مشغلاً بالدعوة إلى الله ، فكان العمل مخالفاً لطريقتهم ، فاعتقدوا فيه أنه مجنون .

قال الحسن وقتادة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قام ليلاً على الصفا يدعوه فخذاً فخذاً  
من قریش .

(8/299)

---

فقال يا بني فلان يا بني فلان ، وكان يحذرهم بأس الله وعقابه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم  
هذا مجنون ، واظب على الصياح طول هذه الليلة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وحثهم على  
التفكر في أمر الرسول عليه السلام ، ليعلموا أنه إنما دعا للإنذار لا لما نسبه إليه الجهال .  
الثاني : أنه عليه السلام كان يغشاه حالة عجيبة عند نزول الوحي فيتغير وجهه ويصفر لونه  
، وتعرض له حالة شبيهة بالغشي ، فالجهال كانوا يقولون إنه جنون فالله تعالى بين في هذه  
الآية أنه ليس به نوع من أنواع الجنون ، وذلك لأنه عليه السلام كان يدعوهم إلى الله ، وقيم  
الدلائل القاطعة والبيّنات الباهرة ، بألفاظ فصيحة بلغت في الفصاحة إلى حيث عجز  
الأولون والآخرون عن معارضتها ، وكان حسن الخلق ، طيب العشرة ، مرضي الطريقة  
تقي السيرة ، مواظباً على أعمال حسنة صار بسببها قدوة للعقلاء العالمين ، ومن المعلوم  
بالضرورة أن مثل هذا الإنسان لا يمكن وصفه بالجنون ، وإذا ثبت هذا ظهر أن اجتهاده  
على الدعوة إلى الدين إنما كان لأنه نذير مبين ، أرسله رب العالمين لترهيب الكافرين ،

وترغيب المؤمنين ، ولما كان النظر في أمر النبوة مفرعاً على تقرير دلائل التوحيد ، لا جرم  
ذكر عقيبه ما يدل على التوحيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 15 صـ 62 ﴾

(9/299)

وقال السمرقندي :

﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾

يعني : أهل مكة فيما يأمرهم محمد صلى الله عليه وسلم أن يعبدوا خالقهم ، ورازقهم ،  
وكاشف الضر عنهم ، ولا يعبدوا من لا يقدر على شيء منه أمثل هذا يكون مجنوناً .

ويقال : معناه ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ في دلائل النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ليستدلوا  
بأنه نبي وقد تم الكلام .

ثم استأنف فقال ﴿ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ ﴾ ويقال : هذا على وجه البناء .

ومعناه : أولم يتفكروا ليعلموا ﴿ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ ﴾ يعني : جنوناً .

ويقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم صعد ذات ليلة الصفا ، فدعا قريشاً إلى عبادة الله  
تعالى بأسمائهم فرداً فرداً ، فقال بعضهم : إن صاحبكم مجنون .

فوعظهم الله تعالى فقال ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ يقول : أولم يجالسوه ويكلموه هل به من جنون

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْوَالِي الْمُنِيرُ ﴾ ﴿ أَيُّ رَسُولٍ بَيْنَا .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بواحدة أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادِي ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ الْوَالِي الْمُنِيرُ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : 46] . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 1 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ ﴾

قتادة : ذكر لنا " أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قام على الصفا ليلاً فجعل يدعوق ريشاً  
فخذاً فخذاً يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله عز وجل ، ووقائعه فقال قائلهم : إن  
صاحبكم هذا لجنون بات يصوت حتى الصباح فأنزل الله ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ  
مِنْ جَنَّةٍ ﴾ " ما بمحمد من جنون .

﴿ إِنَّهُ هُوَ ﴾ ما هو ﴿ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ مخوف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان

ح 4 ص ﴿



وقال ابن عطية:

قوله: ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم﴾ الآية،

تقرير يقارنه توبيخ للكفار، والوقف على قوله ﴿أولم يتفكروا﴾ ثم ابتداء القول بنفي ما ذكره فقال: ﴿ما بصاحبهم من جنة﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يكون المعنى أولم يتفكروا أنه ما بصاحبهم من جنة، وسبب نزول هذه الآية فيما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد ليلاً على الصفا فجعل يدعو قبائل قريش، يا بني فلان، يا بني فلان يحذرهم ويدعوهم إلى الله فقال بعض الكفار حين أصبحوا هذا مجنون بات يصوت حتى الصباح فنفى الله عز وجل ما قالوه من ذلك في هذا الموطن المذكور وفي غيره، فإن الجنون بعض ما رموه به حتى أظهر الله نوره، ثم أخبر أنه نذير أي محذر من العذاب، ولفظ النذارة إذا جاء مطلقاً فإنما هو في الشر، وقد يستعمل في الخير مقيداً به، ويظهر من رصف الآية أنها باعثة لهم على الفكرة في أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه ليس به جنة كما أحالهم بعد هذه الآية على النظر ثم بين المنظور فيه كذلك أحال هنا على الفكرة ثم بين المتفكر فيه. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز ح 2 ص﴾

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾

سبب نزولها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، علا على الصفا ليلة، ودعا قريشاً

فخذاً فخذاً: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، فحذّرهم بأس الله وعقابه، فقال  
قائلهم: إن صاحبكم هذا مجنون، بات يصوت حتى الصباح، فنزلت هذه الآية، قاله  
الحسن، وقتادة.

ومعنى الآية: أولم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم من جنة، أي: جنون، فحثهم على التفكير  
في أمره ليعلموا أنه بريء من الجنون.

﴿ إن هو ﴾ أي: ما هو ﴿ الإنذير ﴾ أي: مخوف ﴿ مبين ﴾ يبين طريق الهدى.  
انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير ﴾ 3 ص ﴿

(11/299)

وقال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿ أولم يتفكروا ﴾

أي فيما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم.

والوقف على "يتفكروا" حسن.

ثم قال: ﴿ ما بصاحبهم من جنة ﴾ ردّ لقولهم: ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك  
لمجنون ﴾ [الحجر: 6].

وقيل: نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ليلة على الصفا يدعوقريشاً ،  
فخذاً فخذاً؛ فيقول: "يا بني فلان".

يحذرهم بأس الله وعقابه .

فقال قائلهم: إن صاحبهم هذا المجنون ، بات يصوت حتى الصباح . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أُولَئِكَ تَفَكَّرُوا مَا بَصَّحْتَهُمْ ﴾

يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ من جنّة ﴾ يعني من جنون قال قتادة ذكر لنا أن  
نبي الله (صلى الله عليه وسلم) قام على الصفا ليلاً فجعل يدعوقريشاً فخذاً فخذاً "يا  
بني فلان يا بني فلان إني لكم نذير مبين" وكان يحذرهم بأس الله ووقائعه فقال قائلهم: إن  
صاحبكم هذا المجنون بات يصوت إلى الصباح فأُنزل الله: ﴿ أُولَئِكَ تَفَكَّرُوا ﴾ والتفكر  
التأمل وإعمال الخاطر في عاقبة الأمر والمعنى أُولَئِكَ تَفَكَّرُوا فيعلموا ما بصَّحْتَهُمْ يعني محمداً  
(صلى الله عليه وسلم) من جنّة والجنّة .

حالة من الجنون وإدخال لفظة من في قوله من جنّة يوجب أن لا يكون به نوع من أنواع الجنون  
وإنما نسبوه إلى الجنون وهو بريء منه لأنهم رأوا أنه (صلى الله عليه وسلم) خالفهم في  
الأقوال والأفعال لأنه كان معرضاً عن الدنيا ولذاتها مقبلاً على الآخرة ونعيمها مشغلاً

بالدعاء إلى الله وإنذارهم بأسه ونقمة ليلاً ونهاراً من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك  
نسبوه إلى الجنون فبرأه الله سبحانه وتعالى من الجنون فقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما هو  
﴿إِلَّا نَذِيرٌ مِّبِينٌ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير الخازن ح 2 ص﴾

(12/299)

وقال أبو حيان:

﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّبِينٌ﴾

قال الحسن وقتادة: سبب نزولها أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صعد ليلاً على  
الصفا فجعل يدعو قبائل قريش يا بني فلان يا بني يحذرهم ويدعوهم إلى الله تعالى، فقال  
بعض الكفار حين أصبحوا: هذا مجنون بات يصوت حتى الصباح، وكانوا يقولون: شاعر  
مجنون فنفى الله عز وجل عنه ما قالوه، ثم أخبر أنه محذر من عذاب الله والآية باعثة لهم  
على التفكير في أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وانتفاء الجنة عنه وهذا الاستفهام قيل  
: معناه التوبيخ، وقيل: التحريض على التأمل والجنة كما قال تعالى

(13/299)

---

﴿ من الجنة والناس ﴾ والمعنى من مس جنة أو تخبيط جنة ، وقيل : هي هيئة كالجلسة والركبة أريد بها المصدر أي ما بصاحبهم من جنون والظاهر أن ﴿ يتفكروا ﴾ معلق عن الجملة المنفية وهي في موضع نصب بيتفكروا بعد إسقاط حرف الجر لأن التفكير من أعمال القلوب فيجوز تعليقه والمعنى أو لم يتأملوا ويتدبروا في انتفاء هذا الوصف عن الرسول فإنه منتف لا محالة ولا يمكن لمن أنعم الفكر في نسبة ذلك إليه ، وقيل ثم مضمير محذوف أي فيعلموا ما بصاحبهم من جنة قالوا الحوفي ، وزعم أن تفكروا لا تعلق لأنه لا يدخل على الجمل قال : ودل التفكير على العلم ، وقال أصحابنا : إذا كان فعل القلب يتعدى بحرف جر قدرت الجملة في موضع جر بعد إسقاط حرف الجر ومنهم من زعم أنه يضمن الفعل الذي تعدى بنفسه إلى واحد أو بحرف جر إلى واحد معنى ما يتعدى إلى اثنين فتكون الجملة في موضع المفعولين فعلى هذين الوجهين لا حاجة إلى هذا المضمير الذي قدره الحوفي ، وقيل تم الكلام على قوله ﴿ يتفكروا ﴾ ثم استأنف إخباراً بانتفاء الجنة وإثبات النذارة ، وقال أبو البقاء : في ما وجهان أحدهما : أنها باقية وفي الكلام حذف تقديره أو لم يتفكروا في قولهم به جنة ، والثاني أنها استفهام أي أو لم يتفكروا أي شيء بصاحبهم من الجنون مع انتظام أقواله وأفعاله ، وقيل هي بمعنى الذي تقديره أو لم يتفكروا في ما بصاحبهم وعلى هذا يكون الكلام خرج على زعمهم انتهى وهي تخريجات ضعيفة ينبغي أن ينزه القرآن عنها وتفكر ما

ثبت في اللسان تعليقه فلا ينبغي أن يعدل عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4

ص ﴿

(14/299)

وقال أبو السعود :

﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ ﴾

كلامٌ مبتدأٌ مسوقٌ لإنكارٍ عدمِ تفكرهم في شأنه عليه الصلاة والسلام وجهلهم بحقيقة حاله الموجبة للإيمان به وبما أنزل عليه من الآيات التي كذبوا بها ، والهمزة للإنكار والتعجب والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر يستدعيه سباق النظم الكريم وسياقه ، و ( ما ) إما استفهامية إنكارية في محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم ، وإما نافية أسمها جنة وخبرها بصاحبهم ، والجنة من المصادر التي يراد بها الهيئة كالرغبة والجلسة ، وتنكيرها للتقليل والتحقير ، والجملة معلقة لفعل التفكير لكونه من أفعال القلوب ومحلها على الوجهين النصب على نزع الجار أي كذبوا بها ولم يتفكروا في أي شيء من جنون ما كائن بصاحبهم الذي هو أعظم الأمة الهادية بالحق وعليه أنزلت تلك الآيات ، أو في أنه ليس بصاحبهم شيء من جنة حتى يؤدبهم التفكير في ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحة نبوته فيؤمنوا به وبما أنزل عليه

من الآيات ، وقيل قد تم الكلام عند قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ أي أكذبوا بها ولم يفعلوا التفكير ؟ ثم ابتدئ فقيل : أي شيء بصاحبهم من جنة ما على طريقة الإنكار والتعجيب والتبكي ، أو قيل : ليس بصاحبهم شيء منها ، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم للإيدان بأن طول مصاحبته له عليه الصلاة والسلام عن شائبة ما ذكر ففيه تأكيد للنكير وتشديد له ، والتعرض لنفي الجنون عنه عليه الصلاة والسلام مع وضوح استحالة ثبوته له عليه الصلاة والسلام لما أن التكلم بما هو خارق لقضية العقول والعادات لا يصدر إلا عن به مس الجنون كيفما اتفق من غير أن يكون له أصل ومعنى ، أو عن له تأييد إلهي يخبر به عن الأمور الغيبية ، وإذ ليس به عليه السلام شائبة الأول تعين أنه عليه الصلاة والسلام مؤيد من عند الله تعالى ، وقيل : إنه عليه الصلاة والسلام علا الصفا ليلاً فجعل يد عوقريشاً فخذاً

(15/299)

---

فخذاً يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا مجنونٌ بات يهوت إلى الصباح فنزلت . فالتصريحُ بنفي الجنون حينئذٍ للرد على عظيمتهم الشنعاء ، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم واردٌ على شاكلة كلامهم مع ما فيه من النكتة المذكورة ، وقوله

تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جملة مقررة لمضمون ما قبلها ومبينة لحقيقة حاله عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أي ما هو صلى الله عليه وسلم إلا مبالغ في الإنذار مظهر له غاية الإظهار إبرازاً لكمال الرأفة ومبالغة في الإعذار. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير أبي السعود ح 3 ص



(16/299)

وقال الألوسي:

﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (184)

ثم إنه سبحانه وتعالى لما بالغ في تهديد الملحدّين المعرضين الغافلين عن آياته والإيمان برسوله عليه الصلاة والسلام عقب ذلك على ما قيل بالجواب عن شبهتهم وإنكار عدم تفكرهم

فقال عز من قائل:

(أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ) فالهمزة للإنكار والتوبيخ والواو للعطف على مقدر

يستدعيه السياق والسباق والخلاف في مثل هذا التركيب مشهور وقد تقدمت الإشارة

إليه



و( ما ) قال أبو البقاء تحتل أن تكون إستفهامية إنكارية في محل الرفع بالإبتداء والخبر ( بصاحبهم ) وأن تكون نافية إسمها ( جنة ) وخبرها ( بصاحبهم ) وجوز أن تكون موصولة وفيه بعد والجنة مصدر كالجلسة بمعنى الجنون وليس المراد به الجن كما في قوله تعالى ( من الجنة والناس ) لأنه يحتاج إلى تقدير مضاف أي مس جنة أو تحببها والتكثير للتقليل والتحقير والتفكير التأمل وأعمال الخاطر في الأمر وهو من أفعال القلوب فحكمه حكمها في أمر التعليق ومحل الجملة على الوجهين نصب على نزع الخافض ومحل الموصول نصب على ذلك في الوجه الأخير أي أكذبوا ولم يتفكروا في أي شيء من جنون ما كائن بصاحبهم الذي هو أعظم الهادين للحق وعليه أنزلت الآيات أو في أنه ليس بصاحبهم من جنة حتى يؤديهم التفكير في ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحة نبوته فيؤمنوا به وبما أنزل عليه من الآيات أو في الذي بصاحبهم من جنة بزعمهم ليعلموا أن ذلك ليس من الجنة في شيء فيؤمنوا واختار الطبرسي أن الكلام قد تم عند قوله تعالى ( أولم يتفكروا ) أي أكذبوا ولم يتفكروا في أقواله وأفعاله أو أولم يفعلوا التفكير ثم ابتدئ فقل أي شيء بصاحبهم من جنة ما على طريقة الإنكار والتعجب والتبكيث أو قيل ليس بصاحبهم شيء منها والمراد بصاحبهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بذلك لتأكيد النكير وتشديده لأن الصحبة مما يطلعهم على نزاهته صلى الله تعالى عليه وسلم عن شائبة مما ذكر والتعرض لنفي الجنون عنه عليه الصلاة والسلام مع وضوح إستحالة ثبوته له لما أن المتكلم

بما هو خارق لا يصدر إلا عمّن به مس من الجنة كيفما اتفق من غير أن يكون له أصل أو  
عمّن له تأييد إلهي يخبر به عن الغيوب وإذ ليس به عليه الصلاة والسلام شيء من الأول  
تعين الثاني وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة قال ذكر لنا أن نبي الله صلى الله تعالى عليه  
وسلم قام على الصفا فدعا قريشا فخذوا فخذوا يا بني

(17/299)

---

فلان يحذرهم بأس الله تعالى ووقائعه إلى الصباح حتى قال قائلهم إن صاحبكم هذا المجنون  
بات يهوت حتى أصبح فأنزل الله تعالى الآية وعليه فالتصريح بنفي الجنون للرد على  
عظيمتهم الشنعاء عند من له أدنى عقل والعبير بصاحبهم وارد على مشاكلة كلامهم مع ما  
فيه من النكته السالفة وذكر بعضهم في سبب النزول أنهم كانوا إذا رأوا ما يعرض له صلى  
الله تعالى عليه وسلم من برحاء الوحي قالوا جن فنزلت: "إن هو إلا نذير مبين" تقرير لما  
قبله وتكذيب لهم فيما يزعمونه حيث تبين فيه حقيقة حاله صلى الله تعالى عليه وسلم أي  
ما هو عليه الصلاة والسلام إلا مبالغ في الإنذار مظهر له غاية الإظهار. انتهى انتهى. اهـ

﴿روح المعاني ح 9 ص﴾

(18/299)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (184)

لما كان تكذيبهم بالآيات منبعاً عن تكذيبهم من جاء بها ، وناشئاً عن ظن أن آيات الله لا يجيء بها البشر ، وأن من يدعي أنه مرسل من الله مجنون ، عقب الإخبار عن المكذبين ووعيدهم بدعوتهم للنظر في حال الرسول ، وأنه ليس بمجنون كما يزعمون .

واستعمال العرب همزة الاستفهام مع حروف العطف المشتركة في الحكم استعمال عجيب تقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم أستكبرتم ﴾ في سورة البقرة (87) .

والجملة مستأنفة ، وهي ابتداء كلام في محاجتهم وتنبههم بعد الإخبار عنهم بأنهم مستدرجون ومملى لهم .

والاستفهام للتعجب من حالهم والانكار عليهم ، و ( ما ) في قوله : ﴿ ما بصاحبهم من جنة ﴾ نافية كما يؤذن به دخول ( من ) على منفي ما ، لتأكيد الاستغراق .

وفعل ﴿ يتفكروا ﴾ منزل منزلة اللازم ، فلا يقدر له متعلق للاستغناء عن ذلك بما دل عليه النفي في قوله : ﴿ ما بصاحبهم من جنة ﴾ أي ألم يكونوا من المفكرين أهل النظر ، والفعل المعلق عن العمل لا يقدر له مفعول ولا متعلق .

والمقصود من تعليق الفعل هو الانتقال من علم الظان إلى تحقيق الخبر المظنون وجعله قضية

مستقلة، فيصير الكلام بمنزلة خبرين خبر من جانب الظان ونحوه، وخبر من جانب

المتكلم دخل في قسم الوقعات فنحو قوله تعالى: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ [

الأنبياء: 65] هو في قوة أن يقال: لقد علمت لا ينطقون ما هؤلاء ينطقون، أي ذلك

علمك وهذا علمي، وقوله هنا: ﴿أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾ في قوة: أو لم

يتفكروا صاحبهم غير مجنون، ما بصاحبهم من جنة.

فتعليق أفعال القلب ضرب من ضروب الإيجاز، وأحسب هذا هو الغرض من أسلوب

التعليق لم يُنبه عليه علماء المعاني، وأن خصائص العربية لا تنحصر.

(19/299)

---

و"الصاحب" حقيقته الذي يلازم غيره في حالة من سفر أو نحوه، ومنه قوله تعالى: ﴿يا

صاحبي السجن﴾ [يوسف: 41]، وسميت الزوجة صاحبة، ويطلق مجازاً على

الذي له مع غيره حادث عظيم وخبر، تنزيلاً لملازمة الذكر منزلة ملازمة الذات، ومنه قول

أبي معبد الخزاعي لامراته، أم معبد، لما أخبرته بدخول النبي صلى الله عليه وسلم بيتها

في طريق الهجرة ووصفت له هديه وبركته: "هذا صاحب قریش"، وقول الحجاج في

بعض خطبه لأهل العراق "الستُّ أصحابي بالأهواز حين رتم الغدر واستبطنتم الكفر"  
يريد أنهم الذين قاتلوه بالأهواز، فمعنى كونهم أصحابه أنه كثر اشتغاله بهم، وقول الفضل

بن عباس اللّهي:

كلُّ له تبةٌ في بغيض صاحبه . . .

بنعمة الله تليكم وتقلونا

فوصفُ الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه صاحب الذين كذبوا بالآيات: هو بمعنى الذي  
اشتغلوا بشأنه ولزموا الخوض في أمره، وقد تكرر ذلك في القرآن كقوله تعالى: ﴿ وما

صاحبكم بمجنون ﴾

[التكوير: 22].

والجنة بكسر الجيم اسم للجنون، وهو الخبال الذي يعتري الإنسان من أثر مس الجن إياه في  
عرف الناس، ولذلك علق الجنة بفعل الكون المقدر، بحرف الباء الدال على الملازمة.  
وإنما أنكر عليهم وعُجِبَ من إعراضهم عن التفكير في شأن الرسول عليه الصلاة والسلام  
أنه غير مجنون، رداً عليهم وصفهم إياه بالجنون ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك  
لمجنون ﴾ [الحجر: 6]، ﴿ وقالوا معلمٌ مجنونٌ ﴾ [الدخان: 14] وهذا كقوله تعالى  
: ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ [التكوير: 22].

وجملة: ﴿ إن هو إلا نذير مبين ﴾ استئناف بياني لجواب سائل منهم يقول: فماذا شأنه،

أوهي تقرير لحكم جملة: ﴿ ما بصاحبهم من جنة ﴾ ففصلت لكمال الاتصال بينهما  
المغني عن العطف .

(20/299)

---

والنذير المحذر من شيء يضر ، وأصله الذي يخبر القوم بقدم عدوهم ، ومنه المثل "أنا  
النذير العريان" يقال أنذر نذارة بكسر النون مثل بشارة فهو منذر ونذير .  
وهذا مما جاء فيه فعيل في موضع مُفْعَل ، مثل الحكيم ، بمعنى المحكم ، وقول عمرو بن  
معديكرب:

أمن رِيحانة الداعي السميعُ . . .  
أي المُسْمَع .

والمبين اسم فاعل من أبان إذا أوضح ، ووقع هذا الوصف عقب الإخبار بـ (نذير) يقتضي  
أنه وصف للخبر ، فالمعنى أنه النذير المبين لنذارته بحيث لا يغادر شكاً في صدقه ، ولا في  
تصوير الحال المحذر منها ، فالغرض من اتباع "النذير" بوصف "المبين" التعريض بالذين لم  
ينصاعوا لنذارته ، ولم يأخذوا حذرهم من شر ما حذرهم منه ، وذلك يقطع عذرهم .  
ويجوز جعل ﴿ مبين ﴾ خبراً ثانياً عن ضمير صاحبهم ، والمعنى أنه نذير وأنه مبين فيما

يبلغه من نذارة وغيرها .

والقصر المستفاد من النفي والاستثناء قصر موصوف على صفة ، وهو يقتضي انحصار أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم في النذارة والبيان ، وذلك قصر إضافي ، هو قصر قلب ، أي هو نذير مبين لا مجنون كما يزعمون ، وفي هذا استغناء أو تسفيه لهم بأن حاله لا يلبس مجال المجنون للبون الواضح بين حال النذارة البينة وحال هذيان المجنون .

فدعواهم جنونه : إما غباوة منهم بحيث التبت عليهم الحقائق المتمايزة ، وإما مكابرة وعناد وافتراء على الرسول . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ التحرير والتنوير - 8 ص ﴾

(21/299)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (184) ﴾  
وهنا ينبه الحق سبحانه وتعالى كل الخلق أن يتفكروا في أمر الرسول المبلغ الذي ينقل عن القوة العليا مرادها من الخلق . وأول ما يستحق التفكير فيه أن نعرف هل هذا الإنسان الذي يقول عنه رسول صادق أو غير صادق ؟ ولقد ثبت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل نزول الرسالة عليه ، وجاءت الرسالة لتأخذ بيد الخلق إلى الإيمان بالله

. لكنهم لا يريدون أن يسمعو ، ليوجدوا لأنفسهم مبررات بالنكوص عن المنهج ، فقال بعضهم اتهاما للرسول : إنه مجنون ، مثلما قال بعضهم من قبل : إنه ساحر ، وكاهن ، وقالوا : شاعر ، ويرد ربنا على كل تلك الأقاويل .  
وتساءل : من هو المجنون ؟ .

نعلم أن المجنون هو من فقد التوازن الفكري في الاختيار بين البدائل ، وحين يأخذ منه هذه القدرة على التوازن الفكري ، يصبح غير أهل للتكليف ؛ لأن التكليف فيه اختيار أن تفعل كذا ولا تفعل كذا ، والمجنون لا يملك القدرة على هذا الترجيح .

والحق سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان إلا حين يبلغ ويعقل ؛ لأنه حين يبلغ تصير له ذاتية مستقلة عن أهله وعن أبيه وأمه ؛ لذلك نلاحظ الطفل وهو صغير يختار له والده أو والدته الملابس والطعام ، وبعد أن يكبر نجد الطفل قد صار مرافقاً يتمرّد ويقرر أن يختار لنفسه ما يريد لأنه قد صارت له ذاتية ، والذاتية - كما نعلم - توجد في النبات وفي الحيوان والإنسان وذلك بمجرد أن يصير الفرد منها قادراً على إنجاب مثله ، سواء كان هذا الفرد من النبات أو الحيوان أو الإنسان . أما إن كان الإنسان قد صارت له ذاتية في الإنجاب والنسل ، وليست له ذاتية ناجحة عاقلة في التفكير ؛ فهنا يسقط عنه التكليف ؛ لأنه مكره بفقدان العقل .



وهكذا نعرف أن التكليف يسقط عن الذي لم يبلغ ، والمجنون والمكروه بمن هو أقوى منه ، وهذه عدالة الجزاء من الحق ، وهكذا نجد أن التكليف لا يلزم إلا من بلغ جسمه ونضج عقله ، وبهذا يحرس ربنا الكون بقيوميته .

وإذا كان المجنون هو فاقد الميزان العقلي الذي يختار بين البديلات ، فكيف يقولون ذلك على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو قد عاش بينهم ، ولم يكن قط فاقد الميزان الاختيار بين البديلات ، بل كانوا يعتبرونه الصادق الأمين ، وكانوا يحفظون عنده كل غال نفيس لهم حتى وهم كفرون به . وخلقه الفاضل ذاتي مستمر ودائم .

لقد قالوا ذلك على محمد ظلماً له ، وبغوغائية ، وكل واحد يلقي اتهاماً ليس له من الواقع نصيب ؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ . . . ﴾ [ سبأ :

[ 46

أي أن يجلس كل اثنين ويتدارسا : هل محمد عاقل أم مجنون ؟ وسيجد كل منهما من واقع تجربته أن محمداً هو أكثر الناس أمانة ، وكان الجميع يسمونه الأمين ، حتى قبل أن يتصل به الوحي ، وليس من المعقول أن يضره الوحي ، أو أن يفقد بالوحي توازنه الخلقي ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ \* مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ \* وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ \*

وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿ [ القلم : 1-4 ]

كان خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم خُلُقًا عَظِيمًا ؛ لأن الخُلُق هو الصفات التي تُوهل الإنسان لأن يعيش في مجتمع سليم وهو مسلم . وما دام خُلُقُه سَلِيمًا ، فمعيار الحكم عنده سليم .

(23/299)

وبعد ذلك قالوا عنه : إنه " ساحر " ، وتقول لهؤلاء : لماذا إذن لم يسحر كبار رجال قريش

ليؤمنوا برسالته ؟ إن كل ذلك جدل خائب ، والمسألة ليس فيها سحر على الإطلاق . ﴿

أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿

الجَنَّة التي تقولون عليها وتفترون بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم - هي منتهى

العقل ومنتهى الخلق ، فمحمد صلى الله عليه وسلم نذير واضح ، جاءكم أولاً بالبشارة

لكنكم في غيكم لا تستحقون البشارة ، بل تستحقون الإنذار . انتهى انتهى . اه ﴿ تفسير

الشعراوى ص ﴿

(24/299)

---

"فصل"

قال السيوطي:

﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (184) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قام على الصفا، فدعا قريشاً فخذوا فخذاً: يا بني فلان يا بني فلان، يحذروهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح، حتى قال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت حتى أصبح، فأنزل الله ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(25/299)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ ﴾ .

يجوز في "ما" أوجه:

أحدها: أن تكون استفهامية في محل رفع بالابتداء، والخبر "بصاحبهم" أي: أي شيء  
استقرَّ بصاحبهم من الجنون؟ ف: الجنة: مصدرٌ يراد بها الهيئة، ك: الرِّكبة، والجلسة.  
وقيل: المراد بالجنة: الجنُّ، كقوله ﴿مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: 6] ولا بدَّ حينئذٍ  
من حذف مضافٍ.

أي: مسَّ جنة، أو تحييط جنة.

والثاني: أن "ما" نافية، أي: ليس بصاحبهم جنون، ولا مسَّ جن.

وفي هاتين الجملتين أعني الاستفهامية أو المنفية، فيهما وجهان:

أظهرهما: أنهما في محل نصب بعد إسقاط الخافض؛ لأنَّهما علَّقا "التفكر"؛ لأنَّه من أفعال  
القلوب.

والثاني: أن الكلام تمَّ عند قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، ثمَّ ابتدا كلاماً آخر، إمَّا استفهام  
إنكار، وإمَّا نفيًا.

وقال الحوفيُّ إنَّ "ما بصاحبهم" معلقةٌ لفعلٍ محذوف، دلَّ عليه الكلام، والتقدير: أو لم  
يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم.

قال: و"تفكر" لا يعلِّق؛ لأنَّه لم يدخل على جملة.

وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّهم نصُّوا على أن فعل القلب المتعدِّي بحرف جرٍّ أو إلى واحد إذا علّقَ هل يبقى على حاله أو يُضمَّن ما يتعدَّى لاثنتين؟

الثالث: أن تكون "ما" موصولة بمعنى "الذي"، تقديره: أو لم يتفكروا في الذي بصاحبهم وعلى هذا يكون الكلام خرج على زعمهم، وعلى قولنا: إنها نافية يكون "من جنة" مبتدأ، ومن مزيدة فيه، وبصاحبهم خبره، أي: ما جنة بصاحبهم. انتهى انتهى. ١٠ هـ  
﴿ تفسير ابن عادل - 9 ص 404.405 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين (184) ﴾  
أولم يتأملوا بأنوار البصائر ليشهدوا أخلاق آثار التقريب بجملة أحواله - عليه السلام -  
ليعلموا أن ذلك الشاهد ليس بشاهد متحصر.

ويقال إن برود الواسطة - صلوات الله عليه وعلى آله - كانت بنسيم القربة معطرة، ولكن لا يدرك ذلك التشرُّ إلا بشمِّ العرفان، فمن فقد ذلك - فأبي خبر له عن حقيقة حاله -  
صلوات الله عليه. انتهى انتهى. ١٠ هـ ﴿ لطائف الإشارات - 1 ص 592.593 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (185) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان النظري أمر النبوة مفرعاً على تقرير أدلة التوحيد ، وكان المقصود من الإنذار الرجوع عن الإلحاد ، قال منكرًا عليهم عدم النظري في دلائل التوحيد الراد عن كل حال سييء : ﴿ أولم ﴾ ولما كان الأمر واضحاً قال : ﴿ ينظروا ﴾ أي نظر تأمل واعتبار ، ودل على أنه بالبصيرة لا البصر بالصلة ، فقال إشارة إلى كل ذرة فيها دلائل جملة ﴿ في ملكوت ﴾ وعظم الأمر بقوله : ﴿ السماوات والأرض ﴾ أي ملكهما البالغ من حد العظمة أمراً باهراً بظاهره الذي يعرفونه وباطنه الذي يلوح لهم ولا يدركونه .

ولما كانت أدلة التوحيد تفوت الحصر ، ففي كل ذرة برهان قاهر ودليل ساطع باهر ، قال : ﴿ وما ﴾ أي وفيما ﴿ خلق الله ﴾ أي على ما له من الجلال والجمال ﴿ من شيء ﴾ أي غيرهما ، ليعلموا أنه لا يقدر على شيء من ذلك فضلاً عن ذلك غيره ، ويتحققوا أن كتابه

سبحانه مبانين لجميع مخلوقاته فيعلموا أنه صفة سبحانه وكلامه ، فلا يحدوا في أسمائه فلا  
يسموا بشيء منها غيره لما ظهر لهم من تمام قدرته وتمام عجزه عن كل شيء ومن شمول  
علمه وتناهي جهل غيره بكل شيء إلى غير ذلك حتى يعلموا بعضامة هذا الكون أنه  
سبحانه عظيم ، ويقهره لك شيء أنه قهار شديد ، ويعجزه كل شيء عن كل شيء من  
أمره أنه عزيز ، وبإسباغه النعمة أنه رحيم كريم إلى غير ذلك من أسمائه الحسنی وصفاته  
العلی التي تنطق الأشياء بها باللسنة الأحوال وتحدث بها صدور الكائنات وإن لم يكن لها  
مقال ، ويشرحها كلام التدبير بما له من الكمال ﴿ وأن عسى ﴾ أي وينظروا في الإشفاق  
والخوف من أنه ممكن وخليق وجدير ﴿ أن يكون قد اقترب ﴾ أي دنا دنواً عظيماً  
﴿ أجلهم ﴾ أي الذي لا شك عندهم في كونه بموته من موتات هذه الأمم التي أسلفنا  
أخبارهم كفس واحدة أو بالتدرج فيبادروا بالإيمان به خشية انخرام الأجل للنجاة من  
أعظم الوجل ، فإن كل عاقل إذا جوز خطراً ينبغي له أن ينظر في عاقبته ويجتهد في الخلاص  
منه .

ولما كان قد تقدم في أول السورة النهي عن التحرج من الإنذار بهذا الكتاب ، وبأن بهذه الآيات أنه - صلى الله عليه وسلم - اتصف بالإنذار به حق الاتصاف ، وبأن القرآن مبين لجميع المخلوقات ، فثبت أنه كلام الله ؛ تسبب عن ذلك الإنكار على من يتوقف عن الإيمان به ، والتخويف من إحلال أجله قبل ذلك فيقع فيما لا يمكنه تداركه ، وذلك في أسلوب دال على أن الإيمان بعد هذا البيان مما لا يسوغ التوقف فيه إلا لانتظار كلام آخر فقال : ﴿ فبأي حديث ﴾ أي كلام يتجدد له في كل واقعة بيان المخلص منها ﴿ بعده ﴾ أي بعد هذه الرتبة العظيمة ﴿ يؤمنون ﴾ فقد دلت هذه الآية على أن للإيمان طريقين : أحدهما سمعي ، والآخر عقلي ، قال الحرالي في كتاب له في أصول الفقه : الحكم إنما يتلقى من خطاب الله البالغ على السنة رسله ، وقد اتضح واشتهر أن السمع من طرق تفهم خطاب الله الذي تبلغه الرسل ، وكذلك أيضاً قد تحقق لقوم من أولي الأبواب أن الرؤية وسائر الحواس طريق من طرق تفهم خطاب الله أيضاً ، يعي منه اللب العقلي معنى الإرسال في كتابه المخلوق كما يعي العقل معنى الإرسال من مفهوم كلامه المنطوق ، وقوم ممن فهم من مرئي كتاب الله المشهود إرسالاً ولقن أحكاماً يسمون الحنيفيين كتس ابن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل ، وقد شهد لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن كل واحد منهم " يبعث أمه واحدة " لاهتدائه من نفسه من غير رسالة هاد خارج عنه ، بل من رسول موجدته وإحساسه للعالم ، ولأنه إنما أخذ بكلية حكم الإيمان ووجوب المناصفة مع الخلق من شهود خلق الله ،



وصار مع ذلك يتربص تأكيد ما يحصل له عقلاً من مسموع خطاب الله ، وعلى نحو هذه الحال - وأتم هي - حال الأنبياء والصدّيقين قبل مورد الوحي على النبي وقبل سماع صدّيقه وارد وحيه ، وهؤلاء هم - الذين لا يتوقفون عن الإيمان بالنبي عند ابتداء دعوته ، وكما أن النبي لا يلزم ويحكم بل يبلغ عن الله فكذلك نظر العقل لا يلزم ولا

(29/299)

---

يحكم بل يبلغ عن الله فيكون الحكم الذي هو تصرف الحق في أفعال الخلق بهذا على ضربين ، شرعي أي مأخوذ من الإرسال الشرعي ، وعقلي أي مأخوذ من الإرسال العقلي ، وحاصل ذلك أن العالم المشهود مبين عن أمر الله ، وكل مبين مبلغ ، فالعلم مبلغ أي بما يفهمه الفاهم من كلامه عن الله ، فإن النحاة قالوا - كما ذكره ابن عصفور في شرح الإيضاح لأبي علي وكذا غيره : إن الكلام في الإصطلاح لا يقع إلا على اللفظ المركب وجوداً أو تقديراً المفيد بالوضع ، قال : واحترزوا باللفظ عما يقال له كلام لغة وليس بلفظ كالخط والإشارة وما في النفس وما يفهم من حال الشيء ، وقال الحرالي : نحو حال الخجل والغضب ، وبالفعل نحو الإشارة باليد والعقد بالأنامل وبآثار الفعل كالصنائع والأعمال ، وباللفظ الذي

يلفظ به القلب إلى ظاهر اللسان ، وبآثار رقوم يحاذي بها حذو مفهوم اللفظ وهو الخط -

انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 163.164 ﴾

(30/299)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾

فقال : ﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ واعلم أن دلائل ملكوت

السموات والأرض على وجود الصانع الحكيم القديم كثيرة ، وقد فصلناها في هذا

الكتاب مراراً وأطواراً فلافائدة في الإعادة .

ثم قال : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ والمقصود التنبيه على أن الدلائل على التوحيد غير

مقصورة على السموات والأرض .

بل كل ذرة من ذرات عالم الأجسام والأرواح فهي برهان باهر ، ودليل قاهر على التوحيد ،

ولنقرر هذا المعنى بمثال .

فنتقول : إن الضوء إذا وقع على كوة البيت ظهر الذرات والهبات ، فلنفرض الكلام في ذرة

واحدة من تلك الذرات فنقول: إنها تدل على الصانع الحكيم من جهات غير متناهية ،  
وذلك لأنها مختصة بحيز معين من جملة الأحياء التي لا نهاية لها في الخلاء الذي لا نهاية له ،  
وكل حيز من تلك الأحياء الغير المتناهية ، فرضنا وقوع تلك الذرة فيه كان اختصاصها  
بذلك الحيز المعين من الممكنات والجائزات ، والممكن لا بد له من مخصص ومرجح وذلك  
المخصص إن كان جسماً عاد السؤال فيه ، وإن لم يكن جسماً فهو الله سبحانه ، وأيضاً  
فتلك الذرة لا تخلو عن الحركة والسكون ، وكل ما كان كذلك فهو محدث ، وكل محدث فإن  
حدوثه لا بد وأن يكون مختصاً بوقت معين مع جواز حصوله قبل ذلك وبعده ، فاخصاه  
بذلك الوقت المعين الذي حدث فيه ، لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص قديم فإن كان  
ذلك المخصص جسماً عاد السؤال فيه ، وإن لم يكن جسماً فهو الله سبحانه وتعالى ،  
وأيضاً أن تلك الذرة مساوية لسائر الأجسام في التحيز والحجمية .  
ومخالفة لها في اللون والشكل والطبع والطعم وسائر الصفات .

(31/299)

---

واختصاصها بكل تلك الصفات التي باعتبارها خالفت سائر الأجسام ، لا بد وأن يكون  
من الجائزات ، والجائز لا بد له من مرجح ، وذلك المرجح إن كان جسماً عاد البحث الأول

فيه ، وإن لم يكن جسماً فهو الله سبحانه ، فثبت أن تلك الذرة دالة على وجود الصانع من جهات غير متناهية ، واعتبارات غير متناهية ، وكذا القول في جميع أجزاء العالم الجسماني والروحاني ، مفرداته ومركباته وسفلياته وعلوياته وعند هذا يظهر لك صدق ما قال الشاعر :

وفي كل شيء له آية . . تدل على أنه واحد

وإذا عرفت هذا فحينئذ ظهرت الفائدة لك من قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ولما نبه الله تعالى على هذه الأسرار العجيبة والدقائق اللطيفة ، أردفه بما يوجب الترغيب الشديد في الإتيان بهذا النظر والتفكير فقال : ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ ولفظة ﴿ أَنْ ﴾ في قوله : ﴿ وَأَنْ عَسَى ﴾ هي المخففة من الثقلية تقديره : وأنه عسى ، والضمير ضمير الشأن ، والمعنى : لعل آجالهم قربت فهلكوا على الكفر ويصيروا إلى النار ، وإذا كان هذا الاحتمال قائماً وجب على العاقل المسارعة إلى هذه الفكرة ، والمبادرة إلى هذه الرؤية ، سعياً في تخلص النفس من هذا الخوف الشديد والخطر العظيم ، ولما ذكر تعالى هذه البيانات الجلية والدلائل العقلية قال : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأعراف : 185 ] وذلك لأنهم إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن مع ما فيه من هذه التنبيهات الظاهرة والبيّنات الباهرة ، فكيف يرضى منهم الإيمان بغيره .  
واعلم أن هذه الآية دالة على مطالب كثيرة .

المطلب الأول: أن التقليد غير جائز ولا بد من النظر والاستدلال، والدليل على أن الأمر كذلك قوله: ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ .

(32/299)

---

والمطلب الثاني: أن أمر النبوة متفرع على التوحيد، والدليل عليه أنه لما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أتبعه بذكر ما يدل على التوحيد، ولولا أن الأمر كذلك، لما كان إلى هذا الكلام حاجة.

والمطلب الثالث: تمسك الجبائي والقاضي بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ على أن القرآن ليس قديماً قالوا: لأن الحديث ضد القديم، وأيضاً فلفظ الحديث يفيد من جهة العادة حدوثه عن قرب، ولذلك يقال: إن هذا الشيء حديث، وليس بعتيق فيجعلون الحديث ضد العتيق الذي طال زمان وجوده، ويقال: في الكلام إنه حديث، لأنه يحدث حالاً بعد حال على الأسماع.

وجوابنا عنه: أنه محمول على الألفاظ من الكلمات ولا نزاع في حدوثها.

المطلب الرابع: أن النظر في ملكوت السموات والأرض لا يكون إلا بعد معرفة أقسامها وتفصيل الكلام في شرح أقسامها، أن يقال كل ما سوى الله تعالى، فهو إما أن يكون متحيزاً

أو حالاً في المتحيز أو لا متحيزاً ، ولا حالاً في المتحيز ، أما المتحيز فإما أن يكون بسيطاً ،  
وإما أن يكون مركباً ، أما البسائط فهي إما علوية وإما سفلية ، أما العلوية فهي الأفلاك  
والكواكب ، ويندرج فيما ذكرناه العرش والكرسي ، ويدخل فيه أيضاً الجنة والنار ،  
والبيت المعمور ، والسقف المرفوع واستقص في تفصيل هذه الأقسام ، وأما السفلية فهي :  
طبقات العناصر الأربعة ، ويدخل فيها البحار والجبال والمفاوز ، وأما المركبات فهي أربعة  
الآثار العلوية والمعادن والنبات والحيوان ، واستقص في تفصيل أنواع هذه الأجناس الأربعة  
، وأما الحال في المتحيز وهي الأعراض ، فيقرب أجناسها من أربعين جنساً ، ويدخل تحت  
كل جنس أنواع كثيرة ، ثم إذا تأمل العاقل في عجائب أحكامها ولوازمها وآثارها ومؤثراتها  
فكانه خاض في بحر لا ساحل له .

(33/299)

---

وأما القسم الثالث : وهو أن الموجود لا يكون متحيزاً ولا حالاً في المتحيز ، فهو قسمان ،  
لأنه إما أن يكون متعلقاً بأجسام بالتدبير والتحريك ، وهو المسمى بالأرواح ، وإما أن لا  
يكون كذلك ، وهي الجواهر القدسية المبرأة عن علائق الأجسام .  
أما القسم الأول فأعلاها وأشرفها الأرواح الثمانية المقدسة الحاملة للعرش ، كما قال تعالى

:

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: 17] وتتلوها الأرواح المقدسة  
المشاركة إليها بقوله سبحانه: ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ  
رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر: 75] وتتلوها سكان الكرسي، وإيهم الإشارة بقوله: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي  
يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ  
وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البقرة: 255] وتتلوها الأرواح المقدسة في  
طبقات السموات السبع .

﴿ وَالصَّافَاتِ صَفًّا فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ [الصفات  
: 31] ومن صفاتهم، أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، لا  
يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

واعلم أن هذا الذي ذكرناه وفصلناه من ملك الله وملكوته كالقطرة في البحر ففعل الله  
سبحانه له ألف ألف عالم وراء هذا العالم، وله في كل واحد منها عرش أعظم من هذا  
العرش، وكرسي أعلى من هذا الكرسي، وسموات أوسع من هذه السموات، وكيف  
يمكن إحاطة عقل البشر بكمال ملك الله وملكوته، بعد أن سمع قوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ  
رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: 31] فإذا استحضر الإنسان هذه الأقسام في عقله وأراد  
الخوض في معرفة أسرار حكمته وإهيته فهم قوهم: ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما

عَلَّمْتَنَا ﴿ [البقرة: 32] ونعم ما قال أبو العلاء المعري:

يا أيها الناس كم لله من فلك . . تجري النجوم به والشمس والقمر

هنا على الله ماضينا وغابنا . . فما لنا في نواحي غيره خطر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب ج 15 ص 63.65 ﴾

(34/299)

فصل

قال ابن العربي:

قوله تعالى: ﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ

عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فيها ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: أمر الله تعالى بالنظر في آياته، والاعتبار بمخلوقاته في أعداد كثيرة من

آي القرآن، أراد بذلك زيادة في اليقين، وقولا في الإيمان، وتثبيتا للقلوب على التوحيد.

وقد روى ابن القاسم عن مالك: قال: قيل لأم الدرداء: ما كان أكثر شأن أبي الدرداء؟

قالت: كان أكثر شأنه التفكير.



قِيلَ لَهُ: أَفَتَرَى الْفِكْرَ عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ؟ قَالَ: نَعَمْ.

هُوَ الْبَقِيَّةُ.

وَقِيلَ لِابْنِ الْمُسَيَّبِ فِي الصَّلَاةِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ.

فَقَالَ: لَيْسَتْ هَذِهِ عِبَادَةٌ؛ إِنَّمَا الْعِبَادَةُ الْوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ وَالْفِكْرُ فِي أَمْرِ اللَّهِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ: [حَقِيقَةُ التَّفَكُّرِ]: حَقِيقَةُ التَّفَكُّرِ هُنَا تَرْدِيدُ الْعِلْمِ فِي الْقَلْبِ بِالْخَبَرِ عَنْهُ.

(35/299)

---

وَالْكَلَامُ حَقِيقَةٌ هُوَ مَا يَجْرِي فِي النَّفْسِ، وَالْحُرُوفُ وَالْأَصْوَاتُ عِبَارَةٌ عَنْهُ، وَأَقْلَمًا  
يَحْضُرُ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْعِلْمِ عِلْمَانِ اثْنَانِ: أَحَدُهُمَا نَسَقُ الْآخِرِ، وَمِثَالُهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْجَنَّةَ  
مَطْلُوبَةٌ، وَأَنَّ الْمَوْصَلَ إِلَيْهَا أَكْدُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَحِينَئِذٍ يَجْتَهِدُ فِي الْعَمَلِ؛ وَأَكْدُ مِنْ هَذَا  
أَنْ تَعْلَمَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ بِمَعْرِفَتِهِ وَمَعْرِفَةِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَمَلَكَوْتِهِ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ؛ وَلَا  
يَحْصُلُ ذَلِكَ إِلَّا بِالنَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ، وَهِيَ لَا تُحْصَى كَثْرَةً؛ وَأَمَّا نَهَا السَّمَوَاتِ، فَتَرَى  
كَيْفَ بُنِيَتْ وَزِينَتْ مِنْ غَيْرِ فُطُورٍ وَرُفَعَتْ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَخُولِفَ مِقْدَارُ كَوَاكِبِهَا، وَنُصِبَتْ  
سَائِرَةٌ شَارِقَةٌ وَغَارِبَةٌ تَبْرَةٌ، وَمَمْحُوءَةٌ؛ كُلُّ ذَلِكَ بِحِكْمَةٍ وَمَنْفَعَةٍ.

وَالْأَرْضَ فَانظُرْ إِلَيْهَا كَيْفَ وُضِعَتْ فِرَاشًا ، وَوُطِّتْ مَهَادًا ، وَجُعِلَتْ كَهَاتَا ، وَأُنْبِتَتْ  
مَعَاشًا ، وَأُرْسِيَتْ بِالْجِبَالِ ، وَزَيَّنَتْ بِالنَّبَاتِ ، وَكُرِّمَتْ بِالْأَقْوَاتِ ، وَأُرْصِدَتْ لِتَصْرِفَ  
الْحَيَوَانَاتِ وَمَعَاشِهَا ؛ وَكُلُّ جُزْءٍ مِنْ ذَلِكَ فِيهِ عِبْرَةٌ تَسْتَعْرِقُ الْفِكْرَةَ : وَالْحَيَوَانُ أَحَدُ  
قِسْمِي الْمَخْلُوقَاتِ ، وَالثَّانِي الْجَمَادَاتُ ؛ فَانظُرْ فِي أَصْنَافِهَا ، وَاخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا  
وَأَجْنَاسِهَا ، وَأَنْقِيَادِهَا وَشَرَسِهَا ، وَتَسْخِيرِهَا فِي الْإِتِّفَاعِ بِهَا ، زِينَةً وَقُوَّةً ، وَتَقَلُّبًا فِي  
الْأَرْضِ .

(36/299)

وَالْبَحَارُ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ عِبْرَةً ، وَأَدْلَاهَا عَلَى سَعَةِ الْقُدْرَةِ فِي سَعَتِهَا ، وَاخْتِلَافِ خَلْقِهَا ،  
وَتَسْيِيرِ الْفَلَكَ فِيهَا ، وَخُرُوجِ الرِّزْقِ مِنْهَا ، وَالإِتِّفَاعِ فِي الإِتِّقَالِ إِلَى الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ بِالإِتِّقَالِ  
الْوَيْدَةِ بِهَا .

وَالهَوَاءُ فَإِنَّهُ خُلِقَ مُحْسُوسٌ بِهِ قَوَامُ الرُّوحِ فِي الْإِنْسَانِ وَحَيَوَانِ الْبَرِّ ، كَمَا أَنَّ الْمَاءَ قَوَامُ لِرُوحِ  
حَيَوَانِ الْبَحْرِ ، فَإِذَا فَارَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَوَامَهُ هَلَكَ ، وَانظُرْ إِلَى رُكُودِهِ ثُمَّ اضْطِرَابِهِ ،  
وَهُوَ بِالرِّيحِ .

وَالإِنْسَانُ أَقْرَبُهَا إِلَيْهَا نَظْرًا ، وَأَكْثَرُهَا إِنْ بَحَثَ عِبْرًا ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَفْسِهِ مِنْ حِينَ كَوْنِهَا مَاءً

دَافِقًا إِلَى كَوْنِهِ خَلْقًا سَوِيًّا ، يُعَانُ بِالْأَغْذِيَّةِ ، وَيُرَبِّي بِالرَّفِقِ ، وَيُحْفَظُ بِاللَّبَنِ حَتَّى يَكْتَسِبَ  
الْقُوَى ، وَيُبْلَغُ الْأَشَدَّ ؛ فَإِذَا بِهِ قَدْ قَالَ أَنَا وَأَنَا ، وَنَسِيَ حِينَ أَتَى عَلَيْهِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ  
شَيْئًا مَذْكُورًا ، وَسَيَعُودُ مَقْبُورًا .

وَهَذَا زَمَانٌ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا ، فَيَا وَيْحَهُ إِنْ كَانَ مَحْسُورًا فَيَنْظُرُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ عَبْدٌ مَرْبُوبٌ ،  
مُكَلَّفٌ مَخُوفٌ بِالْعَذَابِ إِنْ قَصَرَ ، مُرْجَى بِالنَّوَابِ إِنْ ائْتَمَرَ ، فَيُقْبَلُ عَلَى عِبَادَةِ مَوْلَاهُ ، فَإِنَّهُ  
وَإِنْ كَانَ لَا يَرَاهُ يَرَاهُ ، وَلَا يَخْشَى النَّاسَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يَخْشَاهُ ، وَلَا يَتَكَبَّرُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ عِبَادِ  
اللَّهِ فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ أَقْدَارِ ، مَشْحُونٌ مِنْ أَوْضَارِ ، صَائِرٌ إِلَى جَنَّةٍ إِنْ أَطَاعَ ، أَوْ إِلَى نَارِ .

(37/299)

وَلِذَلِكَ كَانَ شَيْوَحْنَا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَنْظُرَ الْمَرْءُ فِي الْأَبْيَاتِ الْحِكْمِيَّةِ الَّتِي جَمَعَتْ هَذِهِ

الْأَوْصَافَ الْعِلْمِيَّةَ : كَيْفَ يَزْهَى مِنْ رَجِيْعِهِ أَبَدَ الدَّهْرِ ضَجِيْعُهُ فَهُوَ مِنْهُ وَإِلَيْهِ وَأَخُوهُ

وَرَضِيْعُهُ وَهُوَ يَدْعُوهُ إِلَى الْحَشِّ بِصَغْرِ فَيُطِيْعُهُ

الْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ : أَيُّ الْعَمَلَيْنِ أَفْضَلُ : التَّفَكُّرُ أَمْ الصَّلَاةُ ؟ : اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ النَّاسُ ، فَصَغَوْا

أَيُّ مَيْلِ الصُّوفِيَّةِ إِلَى أَنَّ الْفِكْرَةَ أَفْضَلُ ، فَإِنَّهَا تُثْمِرُ الْمَعْرِفَةَ ، وَهِيَ أَفْضَلُ الْمَقَامَاتِ

الشَّرْعِيَّةِ .

وَصَغُوُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنْ الصَّلَاةَ وَالذِّكْرَ أَفْضَلَ؛ لِمَا رُوِيَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحَثِّ وَالِدُّعَاءِ إِلَيْهَا ،  
وَالْتَرغِيبِ فِيهَا ، وَالْإِعَاذِ بِمَنَازِلِهَا وَثَوَابِهَا .  
وَالَّذِي عِنْدِي فِيهِ أَنَّ النَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فَمَنْ كَانَ شَدِيدَ الْفِكْرِ ، قَوِيَّ النَّظَرِ ، مُسْتَمِرَّ الْمِرْرِ ،  
قَادِرًا عَلَى الْأَدِلَّةِ ، مُتَبَحِّرًا فِي الْمَعَارِفِ ، فَالْفِكْرُ لَهُ أَفْضَلُ ، وَمَنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَالْأَعْمَالُ  
أَقْوَى لِنَفْسِهِ ، وَأَثْبَتُ لِعُودِهِ .

(38/299)

---

ثَبَّتَ عَنْ ﴿ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ زَوْجِهِ  
مَيْمُونَةَ ، وَبَاتَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَعَهُ فِي لَيْلَةٍ لَمْ تَكُنْ مَيْمُونَةَ تُصَلِّي فِيهَا ، فَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَزَوْجُهُ فِي طُولِ الْوَسَادَةِ ، وَاضْطَجَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي عَرْضِهَا ؛ فَلَمَّا  
انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ ، أَوْ بَعْدَهُ ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ النَّوْمَ عَنْ  
وَجْهِهِ ، ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ ؛ ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنْ  
مُعَلَّقٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ وَضُوءًا خَفِيفًا ، ثُمَّ صَلَّى خَمْسَ عَشْرَةَ رُكْعَةً .  
﴿ فَانظُرُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى جَمْعِهِ بَيْنَ الْفِكْرَةِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ لِتَأْكِيدِ الْمَعْرِفَةِ وَتَحْدِيدِهَا

حَتَّى تَجَدَّدَتْ لَهُ حَيَاةٌ بِالْهَبِّ مِنَ النَّوْمِ ، ثُمَّ إِقْبَالِهِ عَلَى الصَّلَاةِ بَعْدَهَا ؛ فَهَذِهِ السُّنَّةُ الَّتِي  
تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا .

فَأَمَّا طَرِيقَةُ الصُّوفِيَّةِ فَإِنْ يَكُونُ الشَّيْخُ مِنْهُمْ يَبْقَى  
يَوْمًا وَكَلِيلَةً أَوْ شَهْرًا مُفَكِّرًا لَا يَقْرُفُ طَرِيقَةَ بَعِيدَةٍ عَنِ الصَّوَابِ غَيْرَ لَائِقَةٍ بِالشَّرْعِ وَلَا مُسْتَمِرَّةٍ  
عَلَى السُّنَنِ . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربي ح 2 ص ﴾

(39/299)

وقال السمرقندي :

وعظهم ليعتبروا في صنعه فيوحده فقال : ﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
﴿ أَي فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴿ فِي السَّمَاءِ مِنَ الشَّمْسِ  
وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَيَعْتَبِرُوا ، وَيُؤْمِنُوا  
بِأَنَّ الَّذِي خَلَقَ الَّذِي تَرُونَ ، هُوَ رَبٌّ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ وَأَنْ عَسَى ﴿ يَعْنِي : وَيَنْظُرُوا  
فِي أَنَّ عَسَى ﴿ أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ﴾ يَعْنِي : قَدْ دَنَا هَلَاكُهُمْ ﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ  
يُؤْمِنُونَ ﴾ يَعْنِي : إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْقُرْآنِ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ يُؤْمِنُوا بَعْدَ الْقُرْآنِ .

لأن هذا آخر الكتب نزولاً وليس بعده كتاب ينزل . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ بحر العلوم ح 1

ص ﴿

وقال الثعلبي :

﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ﴾

ملك ﴿ السماوات والأرض وما خلق الله ﴿ فيهما ﴿ من شيءٍ وَأَنْ عَسَى ﴿ وهي أن  
لعل ﴿ أن يكون قد اقترب أجلهم ﴿ فيهلكوا على الكفر ويصبروا إلى العذاب ﴿ فَبِأَيِّ  
حَدِيثٍ بَعْدَهُ ﴿ بعد القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴿ . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4

ص ﴿

(40/299)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الآية

،  
هذا أيضاً توبيخ للكفار وتقرير ، والنظر هنا بالقلب عبرة وفكراً ، و ﴿ ملكوت ﴾ بناء  
عظمة ومبالغة ، وقوله : ﴿ وما خلق الله من شيء ﴾ لفظ يعم جميع ما ينظر فيه ويستدل  
به من الصنعة الدالة على الصانع ومن نفس الإنس وحواسه ومواضع رزقه ، و " الشيء "

واقع على الموجودات ، وقوله : ﴿ وإن عسى ﴾ عطف على قوله : ﴿ في ملكوت ﴾  
و ﴿ أن ﴾ الثاني في موضع رفع ب ﴿ عسى ﴾ ، والمعنى توقيفهم على أن لم يقع لهم نظر  
في شيء من هذا ولا في أنه قربت آجالهم فماتوا ففات أوان الاستدراك ووجب عليهم  
المحذور ، ثم وقفهم بأي حديث أو أمر يقع إيمانهم وتصديقهم إذا لم يقع بأمر فيه نجاتهم  
ودخولهم الجنة ، ونحو هذا المعنى قول الشاعر : [ الطويل ]

وعن أي نفس بعد نفسي أقاتل . . . والضمير في قوله : ﴿ بعده ﴾ يراد به القرآن ، وقيل  
المراد به محمد صلى الله عليه وسلم وقصته وأمره أجمع ، وقيل هو عائد على الأجل بعد  
الأجل إذ لا عمل بعد الموت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزي :

ثم حثهم على النظر المؤدي إلى العلم فقال : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض  
﴿ ليستدلوا على أن لها صانعاً مدبراً ؛ وقد سبق بيان الملكوت في سورة [ الأنعام : 75  
.[

قوله تعالى : ﴿ وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلمهم ﴾ قرأ ابن  
مسعود ، وأبيُّ والجحدري : " آجالهم " .

ومعنى الآية : أولم ينظروا في الملكوت وفيما خلق الله من الأشياء كلها ، وفي أن عسى أن

تكون آجالهم قد قربت فيهلكوا على الكفر، ويصيروا إلى النار ﴿ فبأي حديث بعده  
يؤمنون ﴾ يعني القرآن وما فيه من البيان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(41/299)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ عجب من إعراضهم عن النظر في آياته ؛ ليعرفوا

كمال قدرته ، حسب ما بيناه في سورة "البقرة" .

والملكوت من أبنية المبالغة ، ومعناه الملك العظيم .

وقد تقدم .

الثانية استدل بهذه الآية وما كان مثلها من قوله تعالى : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ [ ق : 6 ]

وقوله : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [ الغاشية : 17 ] الآية .

وقوله : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [ الذاريات : 21 ] من قال بوجوب النظر في



آياته والاعتبار بمخلوقاته .

قالوا : وقد ذم الله تعالى من لم ينظر ، وسلبهم الانتفاع بجواسمهم فقال : ﴿ لَّهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ الآية .

وقد اختلف العلماء في أول الواجبات ، هل هو النظر والاستدلال ، أو الإيمان الذي هو التصديق الحاصل في القلب الذي ليس من شرط صحته المعرفة .

فذهب القاضي وغيره إلى أن أول الواجبات النظر والاستدلال ؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يعلم ضرورة ، وإنما يعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة التي نصبها لمعرفة .

وإلى هذا ذهب البخاري رحمه الله حيث بَوَّبَ في كتابه ( باب العلم قبل القول والعمل لقول الله عز وجل : ﴿ فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ) [ محمد : 19 ] .

قال القاضي : من لم يكن عالماً بالله فهو جاهل ، والجاهل به كافر .

قال ابن رشد في مقدماته : وليس هذا بالبين ؛ لأن الإيمان يصح باليقين الذي قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد ، وبأول وهلة من الاعتبار بما أرشد الله إلى الاعتبار به في غير ما آية .

قال : وقد استدل الباجي على من قال إن النظر والاستدلال أول الواجبات بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلد مؤمنين .

قال : فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحاً لما صح أن يسمى مؤمناً إلا من عنده علم بالنظر والاستدلال .

قال : وأيضاً فلو كان الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم : لا يحل لكم قتلنا ؛ لأن من دينكم أن الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال فأخرونا حتى ننظر ونستدل .

قال : وهذا يؤدي إلى تركهم على كفرهم ، وألا يقتلوا حتى ينظروا ويستدلوا . قلت : هذا هو الصحيح في الباب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " وترجم ابن المنذر في كتاب الأشراف ( ذكر صفة كمال الإيمان ) أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأن كل ما جاء به محمد حق ، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام وهو بالغ صحيح العقل أنه مسلم .

وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مرتداً يجب عليه ما يجب على المرتد .

وقال أبو حفص الزنجاني وكان شيخنا القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد السمناني يقول :

أول الواجبات الإيمان بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به ، ثم النظر والاستدلال المؤديان إلى معرفة الله تعالى ؛ فيتقدم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله .  
قال : وهذا أقرب إلى الصواب وأرفق بالخلق ؛ لأن أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال .

(43/299)

---

فلو قلنا : إن أول الواجبات المعرفة بالله لأدّى إلى تكفير الجَمِّ الغفير والعدد الكثير ، وألا يدخل الجنة إلا آحاد الناس ، وذلك بعيد ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قطع بأن أكثر أهل الجنة أُمَّته ، وأن أُمَّم الأنبياء كلهم صف واحد وأُمَّته ثمانون صفا .  
وهذا يبيّن لا إشكال فيه .  
والحمد لله .

الثالثة ذهب بعض المتأخرين والمتقدمين من المتكلمين إلى أن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها والأبحاث التي حرروها لم يصح إيمانه وهو كافر ؛ فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين ، وأول من يبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه .  
وقد أورد على بعضهم هذا فقال : لا تشنع عليّ بكثرة أهل النار .

أو كما قال

قلت : وهذا القول لا يصدر إلا من جاهل بكتاب الله وسنة نبيه ؛ لأنه ضيق رحمة الله

الواسعة على شِردمة يسيرة من المتكلمين ، واقتحموا في تكفير عامّة المسلمين .

أين هذا من " قول الأعرابي الذي كشف عن فرجه ليبول ، وانتهره أصحاب النبي صلى الله

عليه وسلم : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد حجرت واسعاً " خرّجه البخاري والترمذي

وغيرهما من الأئمة .

أترى هذا الأعرابي عرف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان ؟ وأن رحمته وسعت كل

شيء ، وكم من مثله محكوم له بالإيمان .

بل اكتفى صلى الله عليه وسلم من كثير ممن أسلم بالنطق بالشهادتين ، وحتى إنه اكتفى

بالإشارة في ذلك .

ألا تراهما " قال للسوداء : " أين الله " ؟ قالت : في السماء .

قال : " من أنا " ؟ قالت : أنت رسول الله .

قال : " أعتقها فإنها مؤمنة " ولم يكن هناك نظر ولا استدلال ، بل حكم بإيمانهم من أول

وهلة ، وإن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة .

والله أعلم .

الرابعة ولا يكون النظر أيضاً والاعتبار في الوجوه الحسان من المرد والنسوان .

(44/299)

---

قال أبو الفرج الجوزي : قال أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري بلغني عن هذه الطائفة التي تسمع السماع أنها تضيف إليه النظر إلى وجه الأمد ، وربما زينته بالحلى والمصبغات من الثياب ، وتزعم أنها تقصد به الازدياد في الإيمان بالنظر والاعتبار والاستدلال بالصنعة على الصانع .

وهذه النهاية في متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم .

قال أبو الفرج : وقال الإمام أبو الوفاء بن عقيل لم يحلّ الله النظر إلا على صورة لا ميل للنفس إليها ، ولا حظ للهوى فيها ؛ بل عبرة لا يمازجها شهوة ، ولا يقارنها لذة .  
ولذلك ما بعث الله سبحانه امرأة بالرسالة ، ولا جعلها قاضياً ولا إماماً ولا مؤذناً ؛ كل ذلك لأنها محل شهوة وقتنة .

فمن قال : أنا أجد من الصور المستحسنة عبراً كذبناه .

وكل من ميز نفسه بطبيعة تخرجه عن طباعنا كذبناه ، وإنما هذه خُدع الشيطان

للمدعين .

وقال بعض الحكماء : كل شيء في العالم الكبير له نظير في العالم الصغير ، ولذلك قال تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] وقال : ﴿ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا

تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] .

وقد بينا وجه التمثيل في أول "الأنعام" .

فعلى العاقل أن ينظر إلى نفسه ويتفكر في خلقه من حين كونه ماء دافقاً إلى كونه خلقاً سوياً ،

يُعان بالأغذية ويربى بالرفق ، ويحفظ باللين حتى يكتسب القوى ويبلغ الأشد .

وإذا هو قد قال : أنا ، وأنا ، ونسي حين أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ،

وسيعود مقبوراً ؛ فيا ويحه إن كان محسوراً .

(45/299)

---

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ \* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ

مَكِينٍ إِلَى قَوْلِهِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : 12 - 16] فينظر أنه عبد مربوب مكلف ، مخوف

بالعذاب إن قصر ، مرتجياً بالثواب إن ائتم ، فيقبل على عبادة مولاه فإنه وإن كان لا يراه يراه

ولا يخشى الناس والله أحق أن يخشاه ، ولا يتكبر على أحد من عباد الله ؛ فإنه مؤلف من

أقذار ، مشحون من أضرار ، صائر إلى جنة إن أطاع أو إلى نار .

وقال ابن العربيّ : وكان شيوخنا يستحبون أن ينظر المرء في الآيات الحكيمية التي جمعت

هذه الأوصاف العلمية :

كيف يزهُو من رجبِعه . . .

أبد الدهر ضجبِعه

فهو منه وإليه . . .

وأخوه ورضبِعه

وهو يدعوه إلى الحشَى . . .

بصُغر فيطِبعه

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ معطوف على ما قبله ؛ أي وفيما خلق الله من

الأشياء .

﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي وفي آجالهم التي عسى أن تكون قد قربت

؛ فهو في موضع خفض معطوف على ما قبله .

وقال ابن عباس : أراد باقتراب الأجل يوم بدر ويوم أُحد .

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بأيّ قرآن غير ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

يصدقون .

وقيل : الهاء للأجل ، على معنى بأيّ حديث بعد الأجل يؤمنون حين لا ينفع الإيمان ؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(46/299)

وقال الخازن :

ثم حثهم على النظر المؤدي إلى العلم بالوحدانية فقال سبحانه وتعالى : ﴿ أو لم ينظروا ﴾  
يعني نظر اعتبار واستدلال ﴿ في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾  
والمقصود التنبيه على أن الدلالة على الوحدانية ووجود الصانع القديم غير مقصورة على ملك السموات والأرض بل كل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى وبرأه فيه دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى وأثار قدرته كما قال الشاعر :

" وفي كل شيء له آية "

تدل على أنه واحد "

﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ والمعنى ولعل أجلهم يكون قد اقترب فيموتوا  
على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا إلى النار وإذا كان الأمر كذلك وجب على العاقل  
المبادرة إلى التفكير والاعتبار والنظر المؤدي إلى الفوز بالنعيم المقيم ﴿ فبأي حديث بعده



﴿ يعني القرآن ﴾ ﴿ يؤمنون ﴾ يعني يصدقون .

والمعنى فبأي كتاب بعد الكتاب الذي جاء به محمد ( صلى الله عليه وسلم ) يصدقون  
وليس بعد محمد نبي ولا بعد كتابه كتاب لأنه خاتم الأنبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع  
الوحي بعد محمد ( صلى الله عليه وسلم ) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ج 2 ص



(47/299)

وقال أبو حيان :

﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾  
لما حضهم على التفكير في حال الرسول وكان مفرعاً على تقرير دليل التوحيد أعقب بما يدل  
على التوحيد ووجود الصانع الحكيم والملك العظيم وتقدم شرح ذلك في قوله ﴿  
أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ ولم يتقصر على ذكر  
النظر في الملكوت بل نبه على أن كل فرد فرد من الموجودات محل للنظر والاعتبار  
والاستدلال على الصانع الحكيم ووحدانيتها كما قال الشاعر :  
وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه الواحد

﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ و ﴿ أن ﴾ معطوف على ﴿ ما ﴾ في قوله  
و ﴿ ما خلق ﴾ ونجوا على انتفاء نظرهم في ملكوت السموات والأرض وهي أعظم  
المصنوعات وأدلتها على عظمة الصانع ثم عطف عليه شيئاً عاماً وهو قوله وما خلق الله  
من شيء فاندرج السموات والأرض في ما خلق ثم عطف عليه شيئاً يخص أنفسهم وهو  
انتفاء نظرهم وتفكرهم في أن أجلهم قد اقترب فيبادرهم الموت على حالة الغفلة عن النظر  
في ما ذكر فيؤول أمرهم إلى الخسار وعذاب النار نبههم على الفكر في اقتراب الأجل لعلهم  
يبادرون إليه وإلى طلب الحق وما يخلصهم من عذاب الله قبل مقانصة الأجل وأجلهم وقت  
موتهم ، وقال الزمخشري : يجوز أن يراد باقتراب الأجل اقتراب الساعة ﴿ وأن ﴾ هي  
المخففة من الثقيلة واسمها محذوف ضمير الشأن وخبرها عسى وما تعلق به وقد وقع  
خبر الجملة غير الخبرية في مثل هذه الآية وفي مثل

(48/299)

---

﴿ والخامسة أن غضب الله عليها ﴾ فغضب الله عليها جملة دعاء وهي غير خبرية فلو  
كانت ﴿ أن ﴾ مشددة لم تقع ﴿ عسى ﴾ ولا جملة الدعاء لها لا يجوز علمت أن زيدا

عسى أن يخرج ولا علمت أن زيدا لعنه الله وأنت تريد الدعاء وأجاز أبو البقاء أن تكون ﴿ أن ﴾ هي المخففة من الثقيلة وأن تكون مصدرية يعني أن تكون الموضوع على حرفين وهي الناصبة للفعل المضارع وليس بشيء لأنهم نصوا على أنها توصل بفعل متصرف مطلقاً يعنون ماضياً ومضارعاً وأمرأً فشرطوا فيه التصرف ، و ﴿ عسى ﴾ فعل جامد فلا يجوز أن يكون صلة لأن و ﴿ عسى ﴾ هنا تامة وأن يكون فاعل بها نحو قولك عسى أن تقوم واسم ﴿ يكون ﴾ .

قال الحوفي : ﴿ أجلهم ﴾ وقد اقترب الخبر ، وقال الزمخشري وغيره : اسم يكون ضمير الشأن فيكون ﴿ قد اقترب أجلهم ﴾ في موضع نصب في موضع خبر ﴿ يكون ﴾ و ﴿ أجلهم ﴾ فاعل باقرب وما أجازته الحوفي فيه خلاف فإذا قلت كان يقوم زيد فمن النحويين من زعم أن زيدا هو الاسم ويقوم في موضع نصب على الخبر ومنهم من منع ذلك ويجعل في ذلك ضمير الشأن والجواز اختيار ابن مالك والمنع اختيار ابن عصفور وقد ذكرنا هذه المسألة مستوفاة التقسيم والدلائل في شرحنا لكتاب التسهيل .

﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ معنى هذه الجملة وما قبلها توقيفهم وتوبيخهم على أنه لم يقع منهم نظر ولا تدبر في شيء من ملكوت السموات والأرض ولا في مخلوقات الله تعالى ولا في اقتراب آجالهم ثم قال ﴿ فبأي حديث ﴾ أو أمر يقع إيمانهم وتصديقهم إذ لم يقع بأمر فيه نجاتهم ودخولهم الجنة ونحوه قول الشاعر :

فغن أي نفس بعد نفسي أقاتل . . .

والمعنى إذا لم أقاتل عن نفسي فكيف أقاتل عن غيرها ولذلك إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث الذي هو الصدق المحض وفيه نجاتهم وخلصهم فكيف يصدقون بحديث غيره والمعنى أنه ليس من طباعهم التصديق بما فيه خلاصهم والضمير في ﴿ بعده ﴾ للقرآن أو الرسول وقصته وأمره أو الأجل إذ لا عمل بعد الموت أقوال ثلاثة .

قال الزمخشري: ( فإن قلت ) : بم يتعلق قوله ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ ، ( قلت ) : بقوله : ﴿ عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ كأنه قيل : لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت ما ينتظرون بعد وضوح الحق وبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(49/299)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

استئناف آخر مسوق للإنكار والتوبيخ بإخلالهم بالتأمل في الآيات التكوينية المنصوبة في الآفاق والأنفس الشاهدة بصحة مضمون الآيات المنزلة إثر ما نعي عليهم إخلالهم بالتفكر

في شأنه عليه الصلاة والسلام، والهمزة لما ذكر من الإنكار والتعجب والتوبيخ، والواو  
للعطف على المقدر المذكور أو على الجملة المنفية بلم، والملك العظيم، أي  
أكذبوا بها أو ألم تفكروا فيما ذكر ولم ينظروا نظرًا تأمل فيما تدل عليه السموات والأرض من  
عِظَمِ الْمَلِكِ وَكَمَالِ الْقُدْرَةِ ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ ﴾ أي وفيما خلق فيهما على أنه عطفُ على  
ملكوت، وتخصيصه بهما لكمال ظهور عِظَمِ الْمَلِكِ فِيهِمَا، أو وفي ملكوت ما خلق على أنه  
عطفُ على السموات والأرض، والتعميمُ لاشتراك الكل في الدلالة على عِظَمِ الْمَلِكِ فِي  
الْحَقِيقَةِ وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقوله تعالى: ﴿  
مِنْ شَيْءٍ ﴾ بيانُ لما خلق مفيدٌ لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بجلال المصنوعات دون  
دقائقها، والمعنى أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق فيهما من جليل  
ودقيقٍ مما ينطلق عليه اسمُ الشيء ليدلهم ذلك على العلم بوحدانيتها تعالى وسائر شؤونه  
التي ينطق بها تلك الآيات فيؤمنوا بها لاتحادهما في المدلول فإن كل فرد من أفراد الأكوان مما  
عزَّوهان دليلٌ لائحٌ على الصانع المجيد وسبيلٌ واضحٌ إلى عالم التوحيد، وقوله تعالى: ﴿  
وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ﴾ عطف على ملكوت، وأن مخففةً من أن، واسمها  
ضميرُ الشأن وخبرها عسى مع فاعلها الذي هو أن يكون، واسمُ يكون أيضاً ضميرُ الشأن  
، والخبرُ قد اقترب أجلهم والمعنى أولم ينظروا في أن الشأن عسى أن يكون الشأنُ قد اقترب

أجلهم وقد جوز أن يكون اسمٌ يكون (أجلهم) وخبرها (قد اقترب) على أنها جملة من فعل وفاعل هو ضمير أجلهم لتقدمه حكماً وأياً ما كان

(50/299)

فمناط الإنكار والتويخ تأخيرهم للنظر والتأمل أي لعلمهم يموتون عما قريب فما لهم لا يسارعون إلى التدبر في الآيات التكوينية الشاهدة بما كذبه من الآيات القرآنية، وقد جوز أن يكون الأجل عبارة عن الساعة والإضافة إلى ضميرهم لملاستهم لها من جهة إنكارهم لها ومجثهم عنها.

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ قطعُ لاحتمال إيمانهم رأساً ونفي له بالكلية مترتبٌ على ما ذكر من تكذيبهم بالآيات وإخلالهم بالتفكير والنظر، والباءُ متعلقةٌ بيؤمنون وضميرٌ بعده للآيات على حذف المضاف المفهوم من كذبوا والتذكيرُ باعتبار كونها قرآناً أو بتأويلها بالمذكور وإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة والمعنى أكذبوا بها ولم يتفكروا فيما يوجب تصديقها من أحواله عليه الصلاة والسلام وأحوال المصنوعات فبأي حديث يؤمنون بعد تكذيبه ومعه مثل هذه الشواهد القوية كلا وهيهات، وقيل: الضمير للقرآن والمعنى فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في البيان، وقيل هو إنكار

وتبكيتم لهم مترتباً على إخلالهم بالمسارعة إلى التأمل فيما ذكر كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا؟ وقيل: الضمير لأجلهم، والمعنى فبأي حديث بعد انقضاء أجلهم يؤمنون؟ وقيل: للرسول عليه الصلاة والسلام على حذف مضاف أي فبأي حديث بعد حديثه يؤمنون وهو أصدق الناس. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

(51/299)

وقال الألوسي:

﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾

ثم لما كان أمر النبوة مفرعاً على التوحيد ذكر سبحانه ما يدل عليه فقال جل شأنه

﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فهو مسوق للإنكار والتوبيخ بإخلالهم

بالتأمل بالآيات التكوينية إثر مانعي عليهم مانعي، والهمزة هنا كالمهمزة فيما قبل، والواو

للعطف على مقدر كما تقدم أو على الجملة المنفية بلم، والملوكوت الملك العظيم، أي

أكذبوا أو لم يتفكروا فيما ذكر ولم ينظروا نظر تأمل واستدلال فيما يدل على كمال قدرة

الصانع ووحدة المبدع وعظيم شأن المالك ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه ذاك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وكان التعبير بالنظر هنا دون التفكير الذي عبر به فيما قبل للإشارة إلى أن الدليل هنا أوضح منه فيما تقدم .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على ملكوت وتخصيصه بالسموات والأرض لكما لظهور عظم الملك فيهما ، وأن يكون عطفاً على المضاف هو إليه فيكون منسحباً على الجميع ، والتعميم لاشتراك الكل في عظم الملك في الحقيقة ، و ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بيان ﴿ لَمَّا ﴾ ، وفي ذلك تنبيه على أن الدلالة على التوحيد غير مقصورة على السموات والأرض بل كل ذرة من ذرات العالم دليل على توحيده :

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

وهذا أمر متفق عليه عند العقلاء .

(52/299)

---

نعم منهم من جعل وجه الدلالة الحدوث وهو الذي عليه معظم المتكلمين ، ومنهم من جعل وجهها الإمكان وهو الذي عليه الفلاسفة واختاره بعض المتكلمين ، ورجح الأول قطب



عصره الشيخ خالد المجددي قدس سره في تعليقاته على حواشي عبد الحكيم على  
الخيالي فارجع إليها ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ عطف  
على ملكوت فهو معمول لينظروا لكن لا يعتبر فيه بالنظر إليه أنه للاستدلال بناء على ما  
قالوا : إن قيد المعطوف عليه لا يلزم ملاحظته في المعطوف ، وقد تقدم الكلام في ذلك ، وأن  
مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وخبرها عسى مع فاعلها الذي هو ﴿ أَنْ يَكُونَ ﴾ ،  
، وخبر ضمير الشأن لا يشترط فيه الخبرية ولا يحتاج إلى التأويل كما نص عليه المحققون فلا  
معنى للمناقشة في ذلك ، واسم يكون أيضاً ضمير الشأن والخبر ﴿ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ ،  
ولم يجعلوا هذا من باب التنازع لأن تنازع كان وخبرها مما لم يعهد إلا لأن ذلك خلاف الأصل  
لما فيه من الإضمار قبل الذكر لأن ذلك لازم على جعل الاسم ضمير الشأن ولا ضمير في كل  
، وأمر التكرار فيما ذكرنا سهل فلا يرتكب له خلاف المعهود خلافاً للقطب الرازي ،  
وجوز أبو البقاء أن تكون مصدرية ، وتعقب بأنها لا توصل إلا بالفعل المتصرف وعسى  
ليست كذلك ، والمعنى أو لم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب  
الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مغافصة الموت ومفاجأته ونزول العذاب ، فالمراد بأجلهم  
أجل موتهم ، وجوز أن يكون عبارة عن الساعة ، والإضافة إلى ضميرهم لملاستهم لها من  
جهة إنكارهم إياها ومجثم عنها ، وقوله جل وعلا : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾  
قطع لاحتمال إيمانهم رأساً ونفي له بالكلية بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر ، والباء

متعلقة بيؤمنون ، وضمير بعده للقرآن على ما ذهب إليه غالب المفسرين وهو معلوم من السياق ، والحديث بمعنى الكلام فلا دليل في الآية

(53/299)

---

لمن يزعم حدوث القرآن ، وقيل : ولئن سلمنا كونه دليلاً يراد من القرآن الألفاظ وهي محدثة على المشور ، والمعنى إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو النهاية في البيان فبأي كلام يؤمنون بعده ، وقيل : الضمير للآيات على حذف المضاف المفهوم من

﴿ كَذَّبُوا ﴾ والتذكير باعتبار كونها قرآناً أو بتأويلها بالمذكور أو إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة .

والمعنى أكذبوا بالآيات ولم يتفكروا فيما يوجب تصديقها من أحواله عليه الصلاة والسلام وأحوال المصنوعات فبأي حديث بعد تكذيبها يؤمنون ، وفيه بعد ، وقيل : إنه يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم بتقدير مضاف أيضاً أي بعد حديثه يؤمنون وهو أصدق الناس ، وقيل : المراد بعد هذا الحديث ، وقيل : بعد الأجل أي كيف يؤمنون بعد انقضاء أجلهم ؟ ، وجعل الزمخشري ذلك مرتبطاً بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ عَسَى ﴾ الخ ارتباطاً التسبب عنه ، والضمير للقرآن كأنه قيل : لعل أجلهم قد اقترب فما بالهم لا يبادرون الإيمان

بالقرآن قبل الموت وماذا ينظرون بعد وضوح الحق وبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا ، وتقدير ما قدر عند "صاحب الكشف" ليس لأنه لا بد من تقديره ليستقيم الكلام بل للتنبيه على معنى الاستبطاء الذي في ضمن أي ، وأنه ليس بعد هذا البيان الواضح أمر ينتظر . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿روح المعاني ج 9 ص ﴾

(54/299)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾

ترق في الإنكار والتعجب من حالهم في إعراضهم عن النظر في حال رسولهم .

إلى الإنكار والتعجب من إعراضهم عن النظر فيما هو أوضح من ذلك وأعم ، وهو ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء مما هو آيات من آيات وحدانية الله

تعالى التي دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان بها .

والمناسبة بين الكلامين : أن دعوة الرسول إلى التوحيد وإبطال الشرك هو من أكبر بواعثهم

على تكذيبه ﴿ اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشيء عجب ﴾ [ ص : 5 ] .

وعُدِّي فعل ( النظر ) إلى متعلقه بحرف الظرفية ، لأن المراد التأمل بتدبر ، وهو التفكير كقوله

تعالى: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات: 21] وتقول نظرت في شأنني ، فدل  
بحرف الظرفية على أن هذا التفكير عميق متغلغل في أصناف الموجودات وهي ظرفية  
مجازية .

والملكوت الملك العظيم ، وقد مضى عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت  
السموات والأرض ﴾ في سورة الأنعام (75) .

وإضافته إلى السماء والأرض بيانية أي الملك الذي هو السماوات والأرض أي ملك الله  
لهما ، فالمراد السماء بمجموعها والأرض بمجموعها الدالين على عظم ملك الله تعالى .

وعطف ﴿ وما خلق الله من شيء ﴾ على ﴿ ملكوت ﴾ فقسّم النظر إلى نظري  
عظيم ملك الله تعالى ، وإلى نظري مخلوقاته ودقائق أحوالها الدالة على عظيم قدرة الله  
تعالى ، فالنظر إلى عظمة السموات والأرض دليل على عظم ملك الله تعالى فهو الحقيق

بالإلهية دون غيره ، والنظر إلى المخلوقات دليل على عظم قدرته تعالى ، وأنه المنفرد  
بالصنع فهو الحقيق بالإلهية ، فلو نظروا في ذلك نظر اعتبار ؛ لعلموا أن صانع ذلك كله ليس  
إلا إله واحد ، فلزال إنكارهم دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إبطال الشرك .

(55/299)

وقوله: ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ﴾ معطوف على ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

و﴿ أَنْ ﴾ هذه هي أن المفتوحة الهمزة المشددة النون خفت ، فكان اسمها ضمير شأن مقدراً .

وجملة: ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونَ ﴾ إلخ خبر ضمير الشأن .

و﴿ أَنْ ﴾ التي بعد عسى مصدرية هي التي تزداد بعد عسى غالباً في الاستعمال .

واسمُ ﴿ يَكُونَ ﴾ ضمير شأن أيضاً محذوف ، لأن ما بعد (يكون) غير صالح لأن يعتبر اسماً لكان ، والمعنى ألم ينظروا في توقع قرب أجلهم .

وصيغ الكلام على هذا النظم ؛ لإفادة تهويل الأمر عليهم وتخويفهم ، بجعل متعلق النظر من معنى الإخبار للدلالة على أنه أمر من شأنه أن يخطر في النفوس ، وأن يتحدث به الناس ، وأنه قد صار حديثاً وخبراً فكأنه أمر مسلم مقرر .

وهذا موقع ضمير الشأن حيثما ورد ، ولذلك يسمى : ضمير القصة اعتداداً بأن جملة خبره قد صارت شيئاً مقررراً ومما يقصه الناس ويتحدثون به .

ومعنى النظر في توقع اقتراب الأجل ، التخوف من ذلك .

والأجل المضاف إلى ضمير المكذبين هو أجل الأمة لأجل الأفراد ، لأن الكلام تهديد

بأجل غير متعارف ، نبههم إلى التفكير في توقع حلول الاستئصال بهم وإهلاكهم كما هلك

المكذوبون من قبلهم ، لأنهم إذا تفكروا في أن صاحبهم ليس بمجنون حصل لهم العلم بأنه من العقلاء ، فما كان العاقل بالذي يحدث لقومه حادثاً عظيماً مثل هذا ، ويحدث لنفسه عناء كهذا العناء لغير أمر عظيم جاء به ، وما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، وإذا نظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء علموا أن الله الملك الأعظم ، وأنه خالق المخلوقات ، فأيقنوا بأنه الإله الواحد ، قال ذلك إلى تصديق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإبطال معتقدهم تعدد الآلهة أو آل في أقل الاحتمالات إلى الشك في ذلك ، فلا جرم أن يفضي بهم إلى النظر في توقع مصيرهم مثل ما صار إليه المكذوبون من قبلهم .

(56/299)

---

ويجوز أن يكون المراد بالأجل مجيء الساعة ، وانقراض هذا العالم ، فهو أجلهم وأجل غيرهم من الناس فيكون تحويفاً من يوم الجزاء .

ومن بدع نظم هذه الآيات : أنه لما أريد التبصر والتفكير في ثبوت الحقائق والنسب في نفس الأمر مجيء مع فعلى القلب بصيغة القضية والخبر في قوله : ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴾ [الأعراف : 184] وقوله : ﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ ولما

أريد التبصر والتفكر في صفات الذات جعل فعل القلب متعلقاً بأسماء الذات في قوله :

﴿ أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ .

ثم فرع على التهديد والوعيد توييخهم والإنكار عليهم بطريقة الاستفهام التعجيبى المفيد

للاستبعاد بقوله : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ فهو تعجيب مشوب باستبعاد للإيمان

بما أبلغ إليهم الله بلسان رسوله عليه الصلاة والسلام ، وما نصب لهم من الآيات في أصناف

المخلوقات ، فإن ذلك كله قد بلغ منتهى البيان قولاً ودلالة بحيث لا مطمع أن يكون غيره أدل

منه .

و(أي) هنا اسم أشرب معنى الاستفهام ، وأصله اسم مبهم يفسره ما يضاف هو إليه ،

وهو اسم لحصة متميزة عما يشاركها في نوع من جنس أو صفة ، فإذا أشرب (أي) معنى

الاستفهام ، كان للسؤال عن تعيينين مشارك لغيره في الوصف المدلول عليه بما تضاف إليه )

أي ( طلباً لتعيينه ، فالمسؤول عنه بها مُساو لمماثل له معروف فقوله : ﴿ فبأي حديث

﴿ سؤال عن الحديث المجهول المماثل للحديث المعروف بين السائل والمسؤول وسيأتي

الكلام على (أي) عند قوله تعالى : ﴿ فستبصر ويبصرون بأيكم المقفون ﴾ في سورة

القلم (5 ، 6) .

والاستفهام هنا مستعمل في الإنكار ، أي لا يؤمنون بشيء من الحديث بعد هذا الحديث .

وحقيقة الحديث أنه الخبر والقصة الحادثة ﴿ هل أتاك حديثُ ضيف إبراهيم ﴾ [

الذاريات : 24] ويطلق مجازاً على الأمر الذي من شأنه أن يصير حديثاً وهو أعم من المعنى الحقيقي .

(57/299)

---

ف "الحديث" هنا إن حُمل على حقيقته جاز أن يراد به القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ ﴾ فليأتوا بحديثٍ مثله ﴿ ﴾ [الطور : 34] فيكون الضمير في قوله : ﴿ ﴾ بعده ﴿ ﴾ بمعنى بعد القرآن ، أي بعد نزوله ، وجاز أن يراد به دعوى محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة من عند الله ، وكلا الاحتمالين يناسب قوله : ﴿ ﴾ أولم تفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴿ ﴾ [الأعراف : 184] .

والباء في قوله : ﴿ ﴾ فبأي حديث ﴿ ﴾ على هذا باء التعديّة لتعديّة فعل ﴿ ﴾ يؤمنون ﴿ ﴾ ، وإن حمل على المجاز شمل القرآن وغيره من دلائل المصنوعات باعتبار أنها من شأنها أن يتحدث الناس بها كما في قوله : ﴿ ﴾ فبأي حديثٍ بعد الله وآياته يؤمنون ﴿ ﴾ [الجاثية : 6] [فيكون الضمير في قوله : ﴿ ﴾ بعده ﴿ ﴾ عائداً على معنى المذكور أي ما ذكر من ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، وأفرد الضمير لتأويله بالمذكور كما في قوله تعالى : ﴿ ﴾ وآتوا النساء صدقاتهن نحلةً فإن طبن



لكم عن شيءٍ منه نفساً ﴿ في سورة النساء (4) أي فبأي شيءٍ يستدل عليهم غير ما ذكر بعد أن لم ينتفعوا بدلالة ما ذكر ، ولم يؤمنوا له فلا يرجى منهم إيمان بعد ذلك .  
والباء على هذا الوجه للسببية متعلقة بيؤمنون ﴿ و ( بعد ) هنا مستعارة لمعنى غير ، لأن الظروف الدالة على المباعدة والمفارقة تستعمل استعمال المغاير قال تعالى : ﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ [ الجاثية : 23 ] وحمل ( بعد ) على حقيقتها هنا يوجب إلى تأويل ، ويخرج الكلام عن سواء السبيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(58/299)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾  
وبذلك ينتقل الجدل من الرسول المباشر لهم الذي يأخذ بيدهم إلى الإيمان الأعلى ، ينتقل الجدل إلى التفكير ومسئوليته : ﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾  
والتفكير هو أعمال العقل حتى لا يقولنَّ أحد : إن رسول الله مجنون ، لأن مجرد النظر في الكون يجعل الإنسان راثياً للسماء مرفوعة بلا عمد ، والأرض مبسوطة والهواء يتحرك في انتظام دقيق . ﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

إذن فوقنا سماء ، وهناك ما فوق السماء ، وتحتنا الأرض ، وفيها ما تحت الأرض ، وهناك بين السموات والأرض . وما نراه في الظاهر هو ما يسمونه "مُلْك" أما الخفي عنك الذي لا تقدر أن تصل إليه بمعادلات تستخرج منها النتائج فاسمه "ملكوت" .

ويقول سبحانه في سيدنا إبراهيم: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

.. ﴿ [الأنعام: 75]

فكلمة "ملكوت" معناها مبالغة في الملك ، مثل رهبوت أي الرهبة الشديدة ، ورحموت أي الرحمة الشديدة ، وكلها صيغة "فعلوت" وهي صيغة المبالغة . ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴿

(59/299)

---

ونحن نرى السماء والأرض بوضوح ، ولكن العظمة والسر ليسا في السماء والأرض فقط ، بل هناك أشياء دقيقة جداً ، بلغت من اللطف أنها لا تدرك بالنظر ، ومع ذلك فإن فيها الحكمة العليا للخلق . وأنت قد ترى ساعة "بيج بن" الشهيرة في لندن وتكاد أن تكون أضخم ساعة في العالم ، لكن الصانع المحترف من البشر صنع ساعة يد صغيرة في حجم الخاتم ، ونبهر ونعجب بدقة عمله وصنعه . فما بالنا بالخالق الأعظم الذي يعظم خلقه

من السموات والأرض لأنها فوق إدراكات البشر ، وخلق أيضاً مخلوقات دقيقة لطيفة لا تستطيع أن تدركها أنت بمجرد النظر ، كالميكروب ، أو تدركها بصعوبة كالذبابة والبعوضة وبكل هذه الكائنات كل مقومات حياتها ، حتى الكائن الذي لا معدة له يجهزه خالقه بقدره على امتصاص الدماء مباشرة بعقله أو غريزته ويسعى لياكل ويملا معدته وله أجهزة تحول غذائه ليكون دماً .

إذن فليست العظمة مقصورة على خلق السموات والأرض فقط ، لذلك يقول الحق : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي من أول شيء يقال له شيء ، صار محكوماً عليه وجودياً ، بأنك إن نظرت إليه ستجد الأجهزة التي نعطي له الحياة ، وتعينه ، حتى وإن كانت حواس استشعارية في ذات هذا الكائن ، ولا يقوى عليها صاحب العقل . مثال ذلك : نجد أن ما يفر قبل حدوث الزلازل هو الحمير التي تتهمها بالغباء .

وحين يتأمل العقل ما وصل إليه العلم في البحث في عالم الحيوان وعالم البحار ، سنجد الإيمان بضرورة وجود خالق حكيم . وإن كان الكافرون مصروفين عن النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من كائنات قد لا تراها العين المجردة ، كان عليهم أن يراعوا مصلحتهم فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم .

إننا نعلم أن الإنسان جنس ، وأن له نوعين : نوع ذكورة ، ونوع أنوثة ، وبينهما جنس مشتبه  
نسميه الخنثى ، والأجناس لها أفراد متعددة . وكل واحد له خلق ، وكل واحد له موهبة ،  
وكل واحد له مهمة . وساعة يطلب منا الحق : إياك أن تستصغر شيئاً منك ضد فيرك ،  
وإياك أن تستكثر شيئاً منك لغيرك ، ويجب عليك أن تجعل كلمة " شيء " هذه هي  
المقياس ، ولذلك يقول لك الشرع : إنك حين تقدم حسنة إياك أن تستكثرها ، بل قل هي  
ليست بشيء ذي بال . وإن همّ واحد بعمل سيئة فلا يقل : وماذا ستفعل لي سيئة  
واحدة ؟ مستصغراً شأن هذه السيئة . وهذا نقول له : لا ، لأن كلمة " شيء " يجب أن  
تحكم الكون . إنك إن نظرت لهذه المسألة قد تجد واحداً مثلاً ضئيل التكوين ، ولا بسطة  
له في جسمه ، لكن من الجائز أن له موهبة كبيرة ، وقد تجد إنساناً آخر متين التكوين وليست  
عنده أية موهبة ؛ لأن الله قد يعطي الضئيل فكراً عميقاً ، أو حيلة كبيرة ، أو موهبة خاصة  
في أي شيء . فلا تنظر إلى شيء قليل في أي إنسان ، بل انظر إلى الشيء الجميل الذي فيه  
وهو المخفي عنك في نفسك . ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ

بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿﴾

---

ولماذا تأتي هنا حكاية اقتراب الأجل؟ وللإجابة عن التساؤل أقول: إنها هامة جداً؛  
لأننا مادمنّا أفراداً أي جنسين أو ثلاثة أجناس، وقال عنا ربنا إننا خلفاء في الأرض،  
فعلينا أن نعلم أن الخليفة في الأرض جاء ليخلف من سبقوه، وقد يُميت ربنا أي إنسان في  
سن شهر أو سنة، أو سنتين أو خمسين عاماً؛ لأن العمر بالنسبة لكل إنسان هو أمر قد  
اختص به الحق - تبارك وتعالى - نفسه ولا يعلمه أحد؛ لأن غاية المتساوي لا بد أن تكون  
متساوية، وعلى سبيل المثال: إن سألنا طلبة كلية الحقوق عن غايتهم من دراسة الحقوق  
قالوا: لنيل إجازة الليسانس، وسنجد منهم الطويل، والقصير، والأبيض، والأسود،  
والذكي والغبي، والقوي والضعيف، وهم لا يتفنون إلا على دراسة الحقوق، وكذلك لا  
تساوي جميعاً كبشر إلا أمام الموت، فهناك من يموت وهو في بطن أمه، ومن يموت وهو طفل  
، ومن يموت وهو قتي . وإن كنا نختلف فيما بقي بعد ذلك، والمؤمن أو الكافر يرى هذه  
الأحداث أمامه ولا يستطيع أن يقول: لالن أموت .  
ومادمت ستموت فانظر إلى مصلحتك أنت، لتتاب على ما فعلت في الدنيا بدلاً من أن  
تعاقب، فعسى أن يكون قد اقترب أجلك وأنت لا تعرف متى يجيء الأجل، وإيهام الأجل  
من الله لنا إشاعة للأجل، والإيهام هو أوضح أنواع البيان، فحين يريد ربنا أن يوضح أمراً  
توضيحياً كاملاً فهو يبهمه .

ومثال ذلك : لو جعل الله للموت سنّاً ، لصار الأمر محددًا بلا أمل . لكنه سبحانه لم يجعل للموت سنّاً أو سبباً ، وأشاعة في كل زمن ، والإنسان عرضة لأن يستقبل الموت في أي لحظة ، ونزل الموت لا يتوقف على سبب ، فقد يأتي بسبب وقد يأتي بغير سبب ، وما دام الإنسان يستقبل الموت في أي وقت ، فعلى العاصي ألا يستقبل الموت وهو على عصيان لله .

(62/299)

---

وإياك أن تقول : كيف مات فلان وهو غير مريض ؟ ؛ لأن هناك العديد من الأسباب للموت ، واعلم أن الموت بدون أسباب هو السبب ، فالإنسان الذي يفقده بالموت ، مات لأن أجله قد انتهى ، والحق هنا يوضح : أيها الكافرون ألا تعلمون أن منكم من مات وعمره سنة ومن مات وعمره سنتان ، ومن مات وعمره ثلاث سنوات ، ومن مات وهو ظالم ، ومن مات وهو مظلوم ، ولو لم تكن هناك حياة ثانية فماذا تساوي هذه الحياة ؟ . وما ذنب الذي لم يعيش في الدنيا إلا شهراً ؟ لا بد أن تعرفوا أن هناك غاية تنتظركم ، غايات فردية هي آجال الناس بذواتهم ، وآجال إجماعية تتمثل في يوم القيامة .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

يوضح الحق تبارك وتعالى : إنه إذا كان هذا الحديث الذي أنزلته إليهم وفيه ما فيه من الإعجاز ومن الإبداع ، ويجمع كل أنواع الكمالات ، فماذا يريدون أكثر من ذلك ؟ وهل في اتباعهم للأهواء ولتقنيات بعضهم لبعض سعادة لهم ؟ بالعكس إنهم يشقون بذلك . وكان يجب عليهم أن يتأدبوا مع الله ومع الرسول .

ولذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(63/299)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾

أخرج أحمد وابن أبي شيبة في المصنف عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رأيت ليلة أسري بي ، فلما انتهينا إلى السماء السابعة نظرت فوقي فإذا أنا برعد وبرق وصواعق . قال : وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء أكلة الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا ،

فنظرت إلى أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال :  
هذه الشياطين يخرجون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض ،  
ولولا ذلك لرأوا العجائب " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(64/299)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" وأن عسى "

و" أن " فيها وجهان :

أصحهما : أنها المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الأمر والشأن ، والمعنى : لعل آجالهم  
قربت فهلكوا على الكفر ويصيروا إلى النار ، وإذا كان هذا الاحتمال قائماً ؛ وجب على  
العاقل المسارعة إلى هذا الفكر ، ليسعى في تخليص نفسه من هذا الخوف الشديد ، و"  
عسى " وما حيزها في محلّ الرفع خبراً لها ، ولم يفصل بين " أن " والخبر وإن كان فعلاً ؛ لأنّ  
الفعل الجامد الذي لا يتصرف يشبه الأسماء ، ومثله ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾  
[ النجم : 39 ] ﴿ والخامسة أن غضب الله عليها ﴾ [ النور : 9 ] في قراءة نافع لأنه



دعاء .

فصل

وقد وقع خبرٌ " أن " جملةً طلبيةً في هاتين الآيتين الأخيرتين ، فإنَّ عَسَى للإنشاء و " غَضِبَ  
الله " دعاء .

(65/299)

والثاني : أنها المصدرية ؛ قاله أبو البقاء ، يعني التي تنصب المضارع ، الثنائية الوضع ، وهذا  
ليس بجيدٍ ؛ لأنَّ النُّحاة نَصُّوا على أنَّ المصدرية لا تُوصَلُ غلاً بالفعل المتصرف مطلقاً ، أي  
: ماضٍ ، ومضارعٍ وأمر ، و " عَسَى " لا يتصرف فكيف يقع صلة لها ؟ وأنَّ على كلا  
الوجهين في محل جر نسقاً على " ملكوت " ، أي : أو لم ينظروا في أنَّ الأمر والشأن عسى أن  
يكون ، و " أن يكون " فاعل " عَسَى " وهي حينئذٍ تامَّةٌ ؛ لأنها متى رفعت " أن " وما في  
حيزها كانت تامَّةً ، ومثلها في ذلك : أو شك ، واخْلُوق .

وفي اسم : " يكون " قولان :

أحدهما : هو ضميرُ الشَّانِ ، ويكونُ : ﴿ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ﴾ خبراً لها .

والثاني : أنه : " أَجْلُهُمْ " ، و " قَدْ اقْتَرَبَ " جملةٌ من فعلٍ وفاعلٍ هو ضميرُ " أَجْلُهُمْ " ولكن

قدّضم الخبر وهو جملة فعلية على اسمها .

وقد تقدّم أن ابن مالك يجيزه وابن عصفور يمنعه عند قوله : ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ ﴾ [

الأعراف : 137] .

قوله : " فَبَائِي " مُتَعَلِّقٌ بـ " يُؤْمِنُونَ " وهي جملة استفهامية سبقتُ للتعجب ، أي : إذا لم

يُؤْمِنُوا بهذا الحديث فكيف يُؤْمِنُونَ بغيره ؟ والهَاءُ فِي : " بَعْدَهُ " تَحْتَمِلُ الْعُودَ عَلَى الْقِرَآنِ

وَأَنْ تَعُودَ عَلَى الرَّسُولِ ، وَيَكُونُ الْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ مِضَافٍ ، أَي : بَعْدَ خَبْرِهِ وَقِصَّتِهِ ، وَأَنْ

تَعُودَ عَلَى : " أَجْلُهُمْ " ، أَي : إِنَّهُمْ إِذَا مَاتُوا وَانْقَضَى أَجْلُهُمْ ؛ فَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بَعْدَ انْقِضَاءِ

أَجْلِهِمْ ؟

(66/299)

قال الزمخشري : فَإِنْ قُلْتَ : بِمِ تَعَلَّقَ قَوْلُهُ : ﴿ فَبَائِي حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ قُلْتَ :

بِقَوْلِهِ : ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ﴾ ؛ كَأَنَّهُ قِيلَ : لَعَلَّ أَجْلَهُمْ قَبْدَ اقْتِرَابِ فَمَا

لَهُمْ لَا يَبَادِرُونَ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقِرَآنِ قَبْلَ الْمَوْتِ ، وَمَاذَا يَنْتَظِرُونَ بَعْدَ وَضُوحِ الْحَقِّ ؟ وَبَائِيَّ

حَدِيثٍ أَحَقُّ مِنْهُ يَرُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا ؟ يَعْنِي التَّعَلُّقَ الْمَعْنَوِيَّ الْمُرْتَبِطَ بِمَا قَبْلَهُ لَا الصَّنَاعِيَّ وَهُوَ

واضح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تَفْسِيرُ ابْنِ عَادِلٍ ح 9 ص 406 . 407 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾



أطلع الله - سبحانه - أقمار الآيات ، وأماط عن ضيائها سحب الشبهات ؛ فمنّ

استضاء بها ترقى إلى شهود القدرة .

ويقال الأح الله تعالى - لقلوب الناظرين بعيون الفكر - حقائق التحصيل ؛ فمنّ لم يعرج في

أوطان التصير أنزلته مراكب السرّ بساحات التحقق .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ .

الناس في مغالط آمالهم ناسون لوشيك آجالهم ، فكم من ناسج لأكفانه ! وكم من بان

لأعدائه ! وكم من زارع لم يحصد زرعه !

هيئات ! الكبش يعتف والقصاب مستعد له !

ويقال سرعة الأجل تنغص لذة الأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص

---

قوله تعالى ﴿ مِنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (186) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك كله من أعجب العجب ، كانت فذلكته قطعاً تعليلاً لما قبله من إعراضهم عما لا ينبغي الإعراض عنه دليلاً على أن الأمر ليس إلا بيد منزله سبحانه قوله : ﴿ من يضل الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ فلا هادي ﴾ أصلاً ﴿ له ﴾ بوجه من الوجوه ؛ ولما دل بالإفراد على أن كل فرد في قبضته ، وكان التقدير : بل يستمر على ضلاله ، وعطف عليه بضمير الجمع دلالة على أن جمعهم لا يغني من الله شيئاً فقال : ﴿ ويذره ﴾ أي يتركهم على حالة قبيحة ، وعبر بالظرف إشارة إلى إحاطة حكمه بهم فقال : ﴿ في طغيانهم ﴾ أي تجاوزهم للحدود حال كونهم ﴿ يعمهُون ﴾ أي يتحiron ويترددون في الضلال لا يعرفونه طريقاً ولا يفهمون حجة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص

﴿ 165

(68/299)

---

## فصل

قال الفخر :

﴿ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (186)

اعلم أنه تعالى عاد في هذه الآية مرة أخرى إلى نعت أحوال الضالين المكذبين فقال : ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ واعلم أن استدلال أصحابنا بهذه الآية على أن الهدى والضلال من الله مثل ما سبق في الآية السالفة ، وتأويلات المعتزلة ، وجوابنا عنها مثل ما تقدم فلا فائدة في الإعادة ، وقوله : ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ رفع بالاستئناف وهو مقطوع عما قبله ، وقرأ أبو عمرو " ويدرهم " بالياء ورفع الراء لتقدم اسم الله سبحانه ، وقرأ حمزة والكسائي بالياء والجزم ، ووجه ذلك فيما يقول سيبويه : إنه عطف على موضع الفاء وما بعدها من قوله : ﴿ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ لأن موضع الفاء وما بعدها جزم لجواب الشرط ، فحمل " ويدرهم " على موضع الذي هو جزم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15

ص 65 ﴿

وقال السمرقندي :

﴿ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾

أي : من يخذله الله عن دين الإسلام فلا هادي له إلى الهدى ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي : يتركهم في ضلالتهم يترددون .

قرأ أبو عمرو ﴿ وَيَذَرُهُمْ ﴾ بالياء وضم الراء على معنى الخبر .  
وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ بالنون وضم الراء ،  
وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ وَيَذَرُهُمْ ﴾ بالياء وجزم الراء وجعلوه  
جواب الشرط .

ومعناه : من يضل الله يذره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 1 ص ﴾

(69/299)

---

وقال الثعلبي :  
ثم بين العلة في إعراضهم عن القرآن وتركهم الإيمان فقال عز من قائل : ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا  
هَادِيَ ﴾ فلا مرشد له ﴿ وَيَذَرُهُمْ ﴾ قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بالياء ، لأن ذكر الله  
سبحانه قد مر من قبل . والباقون بالنون ، لأنه كلام [ مستأنف ] ومن جزم الراء فهو ممدود  
على يضل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : معنى يضلّه يحكم بضلّاته في الدين .

والثاني : يضلّه عن طريق الجنة إلى النار .

﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ والطغيان إفراط العدوان .

وفي ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ وجهان :

أحدهما : يتحIRON ، والعمه في القلب كالعمى في العين .

والثاني : يترددون ، قاله قطرب واستشهد بقول الشاعر :

متى يعمه إلى عثمان يعمه . . . إلى ضخم السرادق والقطار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت

والعيون ح 2 ص ﴿

(70/299)

وقال ابن عطية :

﴿ مَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

هذا شرط وجواب مضمّنه اليأس منهم والمقت لهم لأن المراد أن هذا قد نزل بهم وأنهم

مثال لهذا ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والحسن وأبو جعفر والأعرج وشيبة وأبو عبد

الرحمن وقتادة " ونذرهم " بالنون ورفع الراء وكذلك عاصم في رواية أبي بكر ، وروى عنه

حفص و" يذُرهم " بالياء والرفع ، وقرأها أهل مكة وهذا على إضمار مبتدأ ونحن نذرهم  
أو على قطع الفعل واستئناف القول ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وفيما ذكر أبو حاتم  
بالياء والجزم ، وقرأها كذلك طلحة بن مصرف والأعمش " ويذُرهم " بالياء والجزم عطفاً  
على موضع الفاء وما بعدها من قوله ﴿ فلا هادي له ﴾ لأنه موضع جزم ، ومثله قول أبي

داود : [ الوافر ]

فأبلوني بليتكم لعلي . . . أصالحكم واستدرج بوي

ومنه قول الآخر : [ الكامل ]

أنى سلكت فإنني لك كاشح . . . وعلى انتقاصك في الحياة وأزدد

قال أبو علي ومثله في الحمل على الموضع قوله تعالى : ﴿ لولا أخرتني إلى أجل قريب

فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ [ المنافقون : 10 ] لأنك لو لم تلحق الفاء لقلت أصدق ،

وروى خارجة عن نافع " ونذرهم " بالنون والجزم ، و" الطغيان " الإفراط في الشيء وكأنه

مستعمل في غير الصلاح ، و" العمه " الحيرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص



وقال ابن الجوزي :

ثم ذكر سبب إعراضهم عن الإيمان ، فقال : ﴿ من يضل الله فلا هادي له ويذُرهم ﴾ قرأ

ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : " ونذرهم " بالنون والرفع .



وقرأ أبو عمرو: بالياء والرفع.

وقرأ حمزة، والكسائي: "ويذرُهُم" بالياء مع الجزم خفيفة.

فمن قرأ بالرفع، استأنف، ومن جزم "ويذرُهُم" عطفَ على موضع الفاء.

قال سيبويه: وموضعها جزم؛ فالمعنى: من يضلُّ اللهُ يذَرُهُ؛ وقد سبق في سورة [البقرة]:

15 [معنى الطغيان والعمه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(71/299)

وقال القرطبي:

﴿ مَنْ يُضِلُّ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186) ﴾

بين أن إعراضهم لأن الله أضلهم.

وهذا رد على القدرية.

﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ بالرفع على الاستئناف.

وقرىء بالجزم حملاً على موضع الفاء وما بعدها.

﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يتحيرون.

وقيل: يترددون.

وقد مضى في أول "البقرة" مستوفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾  
وقال الخازن :

ثم ذكر علة إعراضهم عن الإيمان فقال سبحانه وتعالى : ﴿ من يضل الله فلا هادي له ﴾  
يعني أن إعراض هؤلاء عن الإيمان لإضلال الله إياهم فلو هداهم لآمنوا ﴿ ويذرهم في  
طغيانهم يعمهون ﴾ يعني ويتركهم في ضلالهم وتماديهم في الكفر يترددون متحيرين لا  
يهتدون سبيلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾  
وقال أبو حيان :

﴿ من يضل الله فلا هادي له ﴾ .

نفى نفيًا عامًا أن يكون هاد لمن أضله الله فتضمن اليأس من إيمانهم والمقت بهم .

﴿ ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ .

قرأ الحسن وقتادة وأبو عبد الرحمن وأبو جعفر والأعرج وشيبة والحرميان وابن عامر  
ونذرهم بالنون ورفع الراء وأبو عمرو وعاصم بالياء ورفع الراء وهو استئناف إخبار قطع  
الفعل أو أضمر قبله ونحن فيكون جملة اسمية ، وقرأ ابن مصرف والأعمش والأخوان وأبو  
عمرو فيما ذكر أبو حاتم بالياء والجزم وروى خارجة عن نافع بالنون والجزم وخرج سكنون  
الراء على وجهين أحدهما أنه سكن لتوالي الحركات كقراءة ﴿ وما يشعركم ﴾ وينصركم  
فهو مرفوع والآخر أنه مجزوم عطفاً على محل فلا هادي له فإنه في موضع جزم فصار مثل قوله

﴿ فهو خير لكم ﴾ ونكفر في قراءة من قرأ بالجزم في راء ونكفر .

ومثل قول الشاعر :

أنى سلكت فإنني لك كاشح . . .

وعلى انتقاصك في الحياة وازدد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(72/299)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾

استئنافٌ مقررٌ لما قبله منبىءٌ عن الطبع على قلوبهم وقوله تعالى : ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي

طغيانهم ﴾ بالياء والرفع على الاستئناف أي وهو يذرهم ، وقرىء بنون العظمة على

طريقة الالتفات ، أي ونحن نذرهم ، وقرىء بالياء والجزم عطفاً على محل فلا هادي له كأنه

قيل : من يضل الله لا يهده أحدٌ ويذرهم ، وقد روي الجزم بالنون عن نافع وأبي عمرو في

الشواذ وقوله تعالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يترددون ويتحIRON ، حالٌ من مفعول يذرهم ،

وتوحيد الضمير في حيز النفي نظراً إلى لفظ مَنْ وجمعه في حيز الإثبات نظراً إلى معناها

للتنصيص على شمول النفي والإثبات للكل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3

وقال الأوسى :

قوله عزَّ شأنه ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾

استئناف مقرر لما قبله مبني على الطبع على قلوبهم ، والمراد استمرار النفي لانفي الاستمرار ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طغيانهم ﴾ بالياء والرفع على الاستئناف أي وهو يذرهم ، وقرأ غير واحد بنون العظمة على طريقة الالتفات أي ونحن نذرهم ، وقرأ حمزة .

والكسائي بالياء والجزم عطفاً على محل الجملة الاسمية الواقعة جواب الشرط كأنه قيل : من يضل الله لا يهده أحد ويذرهم ، ويحتمل أن يكون ذلك تسكيناً للتخفيف كما قرئ ﴿ يشعركم ﴾ [ الأنعام : 109 ] و ﴿ ينصركم ﴾ [ الملك : 20 ] وقد روى الجزم مع النون عن نافع .

وأبي عمرو في الشواذ ، وتخرجه على أحد الاحتمالين ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ حال من مفعول يذرهم ، والعمه التردد في الضلال والتحير أو أن لا يعرف حجة ، وإفراد الضمير في حيز النفي رعاية للفظ ﴿ مِنْ ﴾ وجمعه في حيز الإثبات رعاية لمعناها للتنصيص على شمول النفي والإثبات لكل كما قيل هذا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَنَا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ حَالِ الْمَخْلُوقِينَ لِجَهَنَّمَ فِي عَدَمِ اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ  
وَمَشَاعِرِهِمْ فِي الْإِعْتِبَارِ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَالتَّفَقُّهِ فِي تَزَكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ بِالْعِلْمِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَتَرْتَّبُ  
عَلَيْهِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْإِهْمَالُ أَعْقَبَهُمُ الْغَفْلَةَ التَّامَّةَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَمَا فِيهِ صَلَاحُهَا  
مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَشُكْرِهِ وَالتَّنَائُلِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ - وَقَفَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ  
فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِدَوَاءِ هَذِهِ الْغَفْلَةِ ، وَأَقْرَبِ الْوَسَائِلِ لِلْمَخْرَجِ مِنْهَا إِلَىٰ ضِدِّهَا فَقَالَ :  
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا الْأَسْمَاءُ جَمْعُ اسْمٍ ، وَهُوَ اللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَىٰ الذَّاتِ فَقَطُّ  
، أَوْ عَلَىٰ الذَّاتِ مَعَ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهَا ، سَوَاءٌ كَانَ مُشْتَقًّا ، كَالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْخَالِقِ الرَّازِقِ  
، أَوْ مُصَدَّرًا ، كَالرَّبِّ وَالسَّلَامِ وَالْعَدْلِ . وَالْحُسْنَىٰ جَمْعُ أَحْسَنَ ، وَالْمَعْنَىٰ :

وَلِلَّهِ دُونَ غَيْرِهِ جَمِيعُ الْأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى أَحْسَنِ الْمَعَانِي وَأَكْمَلِ الصِّفَاتِ ، فَادْعُوهُ أَيُّ  
سَمُوهُ وَأَذْكُرُوهُ وَنَادُوهُ بِهَا ، لِمُجَرَّدِ الثَّنَاءِ ، وَعِنْدَ السُّؤَالِ وَطَلَبِ الْحَاجَاتِ ، فَمِنْ الذِّكْرِ  
لِمَحْضِ الثَّنَاءِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ : اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2 : 255) إِنْخ . وَآخِرُ سُورَةِ  
الْحَشْرِ : هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا  
إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا  
يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (59 : 22 - 24) وَقَدْ وَرَدَ فِي السُّنَّةِ الدُّعَاءُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ  
، وَأَنْ يَقُولَ قَبْلَهَا " أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ " رَوَاهُ  
الترمذي والدارمي وابن السنني من حديث معقل بن يسار .

(75/299)

وَلِذِكْرِ الْمَحْضِ فَوَائِدٌ كَثِيرَةٌ فِي تَغْذِيَةِ الْإِيمَانِ ، وَمُرَاقَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُبِّهِ وَالْخُشُوعِ لَهُ ،  
وَالرَّغْبَةِ فِيمَا عِنْدَهُ ، وَاحْتِقَارِ مَصَائِبِ الدُّنْيَا ، وَقَلَّةِ الْمُبَالَاهِ وَالتَّالَمِ لِمَا يَفُوتُ الْمُؤْمِنَ مِنْ  
نِعِيمِهَا ، وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : مَنْ نَزَلَ بِهِ غَمٌّ أَوْ كَرْبٌ أَوْ أَمْرٌ مِمُّهُ فَلْيَقُلْ : لَا إِلَهَ  
إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ .  
وَمِنَ الذِّكْرِ بِصِيغَةِ النِّدَاءِ مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَمِعَ رَجُلًا وَهُوَ  
يَقُولُ

"

يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَقَالَ : قَدْ اسْتَجِيبَ لَكَ فَسَلْ " وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ مِنْ  
حَدِيثِ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِفَاطِمَةَ :  
مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَسْمَعِي مَا أَوْصِيكَ بِهِ ؟ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ : يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ  
بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ ، أَصْلِحْ شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ  
صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ ، وَأَقْرَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ عَلَى ذَلِكَ .  
وَالْأَدْعِيَةُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى نِدَاءً أَوْ غَيْرَ نِدَاءٍ كَثِيرَةٌ ، تُرَاجَعُ فِي كِتَابِ الْأَذْكَارِ لِلنَّوَوِيِّ ،  
وَكِتَابِ الْحِصْنِ الْحَصِينِ لِابْنِ الْجَزَرِيِّ وَغَيْرِهِمَا مِنْ كُتُبِ السُّنَّةِ .

(76/299)

---

وَأَسْمَاءُ اللَّهِ كَثِيرَةٌ ، وَكُلُّهَا حُسْنَى بِدَلَالَةِ كُلِّ مِنْهَا عَلَى مُنْتَهَى كَمَالِ مَعْنَاهُ ، وَتَفْضِيلِهَا عَلَى  
مَا يُطْلَقُ مِنْهَا عَلَى الْمَخْلُوقِينَ ، كَالرَّحِيمِ وَالْحَكِيمِ وَالْحَفِيظِ وَالْعَلِيمِ .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ الشَّرْوَطِ وَكِتَابِ التَّوْحِيدِ وَمُسْلِمٍ فِي الذِّكْرِ . قَالَ مُسْلِمٌ : وَزَادَ هَمَامٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّهُ تُرِيحُ بُِ الْوَتْرِ وَفِي الرَّوَايَةِ الْآخَرَى لَهُ : إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُرِيحُ الْوَتْرَ (قَالَ) : وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي عُمَرَ " مَنْ أَحْصَاهَا " اهـ . وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الدَّعَوَاتِ بِلَفْظِ : لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدَةً مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ يُرِيحُ الْوَتْرَ وَقَوْلُهُ : " إِلَّا وَاحِدَةً " بِالتَّائِيثِ وَجَهَّهُ ابْنُ مَالِكٍ لِأَنَّهُ بَاعْتِبَارِ التَّسْمِيَةِ أَوِ الصِّفَةِ أَوِ الْكَلِمَةِ .

(77/299)

---

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ مِنْ طَرِيقِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَسَرَدًا فِيهِ الْأَسْمَاءُ التِّسْعَةُ وَالتِّسْعِينَ ، وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا أَيْضًا مِنْ طَرِيقِهِ ، وَفِي سَرْدِ الْأَسْمَاءِ اخْتِلَافٌ فِي الرَّوَايَاتِ ، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُحَدِّثُونَ فِي سَرْدِ الْأَسْمَاءِ ، هَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ أَوْ مُدْرَجٌ فِي الْحَدِيثِ مِنْ بَعْضِ الرَّوَاةِ ؟ وَالرَّاجِحُ أَنَّهُ مُدْرَجٌ لَا مَرْفُوعٌ ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ الشَّيْخَانُ لِتَفَرُّدِ الْوَلِيدِ بِهِ ، وَالْاِخْتِلَافُ عَلَيْهِ فِيهِ



، وَتَدْلِيْسِهِ وَاحْتِمَالِ الْإِدْرَاجِ كَمَا قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ ، وَرُؤْيِي مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى أَوْضَعُفَ  
مِنْ هَذِهِ ، وَهَذَا سَرْدُ الْأَسْمَاءِ فِي أَمْثَلِ الطَّرُقِ عَنِ الْوَلِيدِ مِنْ جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ كَمَا قَالَ  
الْحَافِظُ :

" هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ، الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ  
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ ، الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ  
الْقَابِضُ الْبَاسِطُ ، الْخَافِضُ الرَّافِعُ ، الْمُعِزُّ الْمُدِلُّ ، السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، الْحَكَمُ الْعَدْلُ ، اللَّطِيفُ  
الْخَبِيرُ ، الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ ، الْغَفُورُ الشَّكُورُ ، الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، الْحَفِيزُ الْمُقِيتُ ، الْحَسِيبُ  
الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ ، الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ ، الْوَدُودُ الْمَجِيدُ ، الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ ،  
الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ ، الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ، الْمُخْصِي الْمُبْدِي الْمُعِيدُ ، الْمُخْبِي الْمُمِيتُ ،  
الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، الْوَاجِدُ

(78/299)

---

الْمَاجِدُ ، الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ، الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ ، الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخَّرُ ، الْأَوَّلُ الْآخِرُ ، الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ  
الْوَالِي الْمَتَعَالِي ، الْبَرُّ التَّوَّابُ ، الْمُنْتَقِمُ الْعَفْوُ الرَّؤُوفُ ، مَالِكُ الْمَلِكِ ، ذُو الْجَلَالِ  
وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ ، الْغَنِيُّ الْمَغْنِي الْمَانِعُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، النُّورُ الْهَادِي ، الْبَدِيعُ الْبَاقِي

الوارث، الرَّشِيدُ الصَّبُورُ " .

أورد هذه الأسماء الحافظ ابن حجر في الفتح، وذكر اختلاف الروايات فيها وإنكار بعض كبار العلماء لرفعها، كابن حزم والداودي والقاضي أبي بكر بن العربي - والأقوال في حصرها وما أخذها ثم قال : .

(79/299)

" وإذا تقرر رُحان أن سرد الأسماء ليس مرفوعاً، فقد اعنتى جماعة بتبعية من القرآن من غير تقييد بعدد، فروينا في كتاب المائتين لأبي عثمان الصابوني بسنده إلى محمد بن يحيى الذهلي أنه استخرج الأسماء من القرآن، وكذا أخرج أبو نعيم عن الطبراني عن أحمد بن عمر، والخلال عن ابن أبي عمر، وحدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال: سألت جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء الحسنی فقال: هي في القرآن، ورؤينا في فوائد تمام من طريق أبي الطاهر بن السرج عن حبان بن نافع عن سفيان بن عيينة الحديث، يعني حديث " إن لله تسعة وتسعين اسماً قال: فوعدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فأبطأ، فأتينا أبا زيد فأخرجها لنا، فعرضناها على سفيان فنظر فيها أربع مرات وقال: نعم هي هذه .

"وَهَذَا سِيَاقُ مَا ذَكَرَهُ جَعْفَرٌ وَأَبُو زَيْدٍ قَالَا : فِي الْفَاتِحَةِ خَمْسَةٌ : اللَّهُ ، رَبُّ ، الرَّحْمَنُ  
الرَّحِيمُ ، مَالِكٌ ، وَفِي الْبَقَرَةِ : مُحِيطٌ ، قَدِيرٌ ، عَلِيمٌ ، حَكِيمٌ ، عَلِيٌّ ، عَظِيمٌ ، تَوَّابٌ ، بَصِيرٌ  
، وَلِيٌّ ، وَاسِعٌ ، كَافٍ ، رُؤُوفٌ ، بَدِيعٌ ، شَاكِرٌ ، وَاحِدٌ ، سَمِيعٌ ، قَابِضٌ ، بَاسِطٌ ، حَيٌّ ،  
قَيُّومٌ ، غَنِيٌّ ، حَمِيدٌ ، غَفُورٌ ، حَلِيمٌ ، وَزَادَ جَعْفَرٌ : إِلَهٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ ، عَزِيزٌ نَصِيرٌ ، قَوِيٌّ  
شَدِيدٌ ، سَرِيعٌ خَبِيرٌ ، قَالَ وَفِي آلِ عِمْرَانَ ، وَهَابٌ ، قَائِمٌ . زَادَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ : بَاعَثُ  
مُنْعَمٌ مُتَفَضِّلٌ ، وَفِي النَّسَاءِ : رَقِيبٌ حَسِيبٌ شَهِيدٌ مُقِيتٌ وَكِيلٌ . زَادَ جَعْفَرٌ : عَلِيٌّ كَبِيرٌ  
. وَزَادَ سُفْيَانُ : عَفْوٌ ، وَفِي الْأَنْعَامِ : فَاطِرٌ قَاهِرٌ . زَادَ جَعْفَرٌ : مُمِيتٌ غَفُورٌ بَرَهَانَ .  
وَزَادَ سُفْيَانُ : لَطِيفٌ خَيْرٌ قَادِرٌ ، وَفِي الْأَعْرَافِ : مُحْيِيٌّ مُمِيتٌ ، وَفِي الْأَنْفَالِ : نِعْمَ الْمَوْلَى  
وَنِعْمَ النَّصِيرُ ، وَفِي هُودٍ : حَفِيزٌ مُجِيدٌ ، وَدُودٌ ، فَعَّالٌ لَمَّا يُرِيدُ ، زَادَ سُفْيَانُ : قَرِيبٌ  
مُجِيبٌ ، وَفِي الرَّعْدِ : كَبِيرٌ مُتَعَالٍ ، وَفِي إِبْرَاهِيمَ : مَنَّانٌ . زَادَ جَعْفَرٌ : صَادِقٌ وَارِثٌ ،  
وَفِي الْحَجْرِ : خَلَّاقٌ ، وَفِي مَرْيَمَ : صَادِقٌ وَارِثٌ . زَادَ  
جَعْفَرٌ : فَرْدٌ ، وَفِي طهٍ عِنْدَ جَعْفَرٍ وَحْدَهُ : غَفَّارٌ ، وَفِي الْمُؤْمِنِينَ : كَرِيمٌ ، وَفِي التَّوْرِ : حَقٌّ

مُبِينٌ . زَادَ سُفْيَانُ : نُورٌ ، وَفِي الْفُرْقَانِ : هَادٍ ، وَفِي سَيِّ : فَتَاحٌ ، وَفِي الزُّمَرِ : عَالِمٌ ، عِنْدَ  
جَعْفَرٍ وَحَدُّهُ ، وَفِي الْمُؤْمِنِ

(81/299)

غَافِرٌ قَابِلٌ ذُو الطَّوْلِ . زَادَ سُفْيَانُ : شَدِيدٌ ، وَزَادَ جَعْفَرٌ : رَفِيعٌ ، وَفِي الذَّارِيَاتِ : رَزَاقٌ  
ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ، بِالتَّاءِ ، وَفِي الطُّورِ : بَرٌّ ، وَفِي اقْتَرَبْتُ : مُقْتَدِرٌ . زَادَ جَعْفَرٌ : مَلِيكٌ ، وَفِي  
الرَّحْمَنِ : ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، زَادَ جَعْفَرٌ : رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ، بَاقٍ مُعِينٌ ،  
وَفِي الْحَدِيدِ : أَوَّلُ آخِرِ ظَاهِرٍ بَاطِنٌ ، وَفِي الْحَشْرِ : قُدُّوسٌ سَلَامٌ مُؤْمِنٌ مَهِيْمٌ عَزِيزٌ جَبَّارٌ  
مُتَكَبِّرٌ خَالِقٌ بَارِئٌ مُصَوِّرٌ ، زَادَ جَعْفَرٌ : مَلِكٌ ، وَفِي الْبُرُوجِ : مُبْدِئٌ مُعِيدٌ ، وَفِي الْفَجْرِ :  
وَتَرَعِنْدَ جَعْفَرٍ وَحَدُّهُ ، وَفِي الْإِخْلَاصِ : أَحَدٌ صَمَدٌ . هَذَا آخِرُ مَا رُوِيَ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَبِي  
زَيْدٍ وَتَقْرِيرِ سُفْيَانَ مِنْ تَتَبِعَ الْأَسْمَاءَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَفِيهَا اخْتِلَافٌ شَدِيدٌ وَتَكَرَّرٌ وَعِدَّةٌ  
أَسْمَاءٌ لَمْ تَرُدْ بِلَفْظِ الْأِسْمِ ، وَهِيَ : صَادِقٌ ، مُنْعَمٌ ، مُتَفَضِّلٌ ، مَنَّانٌ ، مُبْدِئٌ ، مُعِيدٌ ،  
بَاعِثٌ ، قَابِضٌ ، بُرْهَانٌ ، مُعِينٌ ، مُمِيتٌ ، بَاقٍ .

" وَوَقَفْتُ فِي كِتَابِ الْمُقْصِدِ الْأَسْنَى لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الزَّاهِدِ أَنَّهُ تَتَبَعَ  
الْأَسْمَاءَ مِنَ الْقُرْآنِ فَتَأَمَّلَتْهُ فَوَجَدْتُهُ كَرَّرَ أَسْمَاءً ، وَذَكَرَ مَا لَمْ أَرَهُ فِيهِ بِصِيغَةِ الْأِسْمِ :

الصَّادِقَ وَالْكَاشِفَ وَالْعَلَّامَ ، وَذَكَرَ مِنَ الْمُضَافِ : الْفَالِقَ مِنْ قَوْلِهِ : فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى (6)  
: (95) وَكَانَ يُلْزِمُهُ أَنْ يَذْكَرَ " الْقَابِلَ " مِنْ قَوْلِهِ : قَابِلِ التَّوْبِ (40 : 3) .

(82/299)

" وَقَدْ تَبَعْتُ مَا بَقِيَ مِنَ الْأَسْمَاءِ مِمَّا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ بِصِيغَةِ الْأِسْمِ مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ فِي رِوَايَةِ  
الْتِّرْمِذِيِّ ، وَهِيَ : الرَّبُّ الْإِلَهُ الْمُحِيطُ ، الْقَدِيرُ الْكَافِي ، الشَّاكِرُ الشَّدِيدُ ، الْقَائِمُ الْحَاكِمُ ،  
الْفَاطِرُ الْغَافِرُ الْقَاهِرُ ، الْمَوْلَى النَّصِيرُ ، الْغَالِبُ الْخَالِقُ ، الرَّفِيعُ ، الْمَلِكُ ، الْكَفِيلُ ، الْخَلَّاقُ  
، الْأَكْرَمُ ، الْأَعْلَى ، الْمُبِينُ - بِالْمَوْحَدَةِ - الْحَفِيُّ - بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ وَالْفَاءِ - الْقَرِيبُ ، الْأَحَدُ  
، الْحَافِظُ . فَهَذِهِ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ اسْمًا إِذَا انْضَمَّتْ إِلَى الْأَسْمَاءِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي رِوَايَةِ  
الْتِّرْمِذِيِّ مِمَّا وَقَعَتْ فِي الْقُرْآنِ بِصِيغَةِ الْأِسْمِ تَكْمُلُ بِهَا التَّسْعَةُ وَالْتِّسْعُونَ ، وَكُلُّهَا فِي الْقُرْآنِ  
لَكِنَّ بَعْضَهَا بِإِضَافَةٍ كَالشَّدِيدِ مِنْ شَدِيدِ الْعِقَابِ (2 : 196) وَالرَّفِيعِ مِنْ رَفِيعِ الدَّرَجَاتِ  
(40 : 15) وَالْقَائِمِ مِنْ قَوْلِهِ : قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (13 : 33) وَالْفَاطِرِ مِنْ  
فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ (35 : 1) وَالْقَاهِرِ مِنْ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ (6 : 18) وَالْمَوْلَى  
وَالنَّصِيرِ مِنْ نَعْمِ الْمَوْلَى وَنَعْمِ النَّصِيرِ (8 : 40) وَالْعَالِمِ مِنْ عَالِمٍ

(83/299)

---

الْغَيْبِ (6 : 73) وَالْخَالِقِ مِنْ قَوْلِهِ : خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (13 : 16) وَالْغَافِرِ مِنْ غَافِرِ  
الذَّنْبِ (3 : 40) وَالْغَالِبِ مِنْ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ (12 : 21) وَالْحَافِظِ مِنْ قَوْلِهِ :  
فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا (12 : 64) وَمِنْ قَوْلِهِ : وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12 : 12) وَقَدْ وَقَعَ نَحْوُ  
ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي فِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ وَهِيَ الْمُحِبِّي مِنْ قَوْلِهِ : لِمُحِبِّي الْمَوْتَى (41 :  
39) وَالْمَالِكِ مِنْ قَوْلِهِ : مَالِكُ الْمَلِكِ (3 : 26) وَالتُّورِ مِنْ قَوْلِهِ : نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
(24 : 35) وَالْبَدِيعِ مِنْ قَوْلِهِ : بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2 : 117) وَالْجَامِعِ مِنْ قَوْلِهِ :  
جَامِعُ النَّاسِ (3 : 9) وَالْحَكَمِ مِنْ قَوْلِهِ : أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أُمَّتِي حَكَمًا (6 : 114)  
وَالْوَارِثِ مِنْ قَوْلِهِ : وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (15 : 23) وَالْأَسْمَاءِ الَّتِي تُقَابِلُ هَذِهِ مِمَّا وَقَعَ فِي  
رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ مِمَّا لَمْ يَقَعْ فِي الْقُرْآنِ بِصِيغَةِ الْأِسْمِ ، وَهِيَ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ اسْمًا : الْقَابِضُ  
الْبَاسِطُ ، الْخَافِضُ الرَّافِعُ ، الْمُعْزِزُ الْمُدِلُّ ، الْعَدْلُ الْجَلِيلُ ، الْبَاعِثُ الْمُحْصِي ، الْمُبْدِيُّ  
الْمُعِيدُ الْمُمِيتُ ، الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ ، الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ ، الْوَالِي ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، الْمُقْسِطُ  
الْمُغْنِي ، الْمَانِعُ الضَّارُّ ، النَّافِعُ الْبَاقِي ، الرَّشِيدُ الصَّبُورُ .

"فَإِذَا اقْتَصَرَ مِنْ رِوَايَةِ التَّرْمِذِيِّ عَلَى مَا عَدَا هَذِهِ الْأَسْمَاءِ ، وَأُبْدِلَتْ بِالسَّبْعَةِ وَالْعِشْرِينَ  
الَّتِي ذَكَرْتُهَا ، خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا ، وَكُلُّهَا فِي الْقُرْآنِ وَارِدَةٌ بِصِيغَةِ الْأَسْمِ ،  
وَمَوَاضِعُهَا كُلُّهَا ظَاهِرَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا قَوْلَهُ " الْحَفِي " فَإِنَّهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ فِي قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ :  
سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (19 : 47) وَقَلَّ مَنْ تَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ .  
" وَلَا يَبْقَى بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا النَّظَرُ فِي الْأَسْمَاءِ الْمُشْتَقَّةِ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ : الْقَدِيرِ وَالْمُقْتَدِرِ  
وَالْقَادِرِ ، وَالْغَفُورِ وَالْغَفَّارِ وَالْغَافِرِ ، وَالْعَلِيِّ وَالْأَعْلَى وَالْمُتَعَالِ ، وَالْمَلِكِ وَالْمَلِكِ وَالْمَالِكِ ،  
وَالْكَرِيمِ وَالْأَكْرَمِ ، وَالْقَاهِرِ وَالْقَهَّارِ ، وَالْخَالِقِ وَالْخَلَّاقِ ، وَالشَّاكِرِ وَالشُّكُورِ ، وَالْعَالِمِ  
وَالْعَلِيمِ : فَإِمَّا أَنْ يُقَالَ : لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مِنْ عَدِّهَا ؛ فَإِنَّ فِيهَا التَّغَايُرَ فِي الْجُمْلَةِ ، فَإِنَّ بَعْضَهَا  
يَزِيدُ بِخُصُوصِيَّةٍ عَلَى الْآخَرِ لَيْسَتْ فِيهِ ، وَقَدْ وَقَعَ الْإِنْفَاقُ عَلَى أَنَّ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ اسْمَانِ  
مَعَ كَوْنِهِمَا مُشْتَقَّيْنِ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَوْ مَنَعَ مِنْ عَدِّ ذَلِكَ لِلزَّمِّ الْأَيْعَدَّ مَا يَشْتَرِكُ الْأَسْمَانِ  
فِيهِ مِثْلًا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى ، مِثْلَ الْخَالِقِ الْبَارِي الْمُصَوِّرِ لَكِنَّهَا عُدَّتْ لِأَنَّهَا وَلَوْ اشْتَرَكَتْ فِي  
مَعْنَى الْإِيْجَادِ وَالْإِخْتِرَاعِ فَهِيَ مُغَايِرَةٌ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى . وَهِيَ أَنَّ الْخَالِقَ يُفِيدُ الْقُدْرَةَ

عَلَى الْإِيجَادِ وَالْبَارِي يُفِيدُ الْمُوجِدَ لِجَوْهَرِ الْمَخْلُوقِ ، وَالْمُصَوِّرُ يُفِيدُ خَالِقَ الصُّورَةِ فِي تِلْكَ  
الذَّاتِ الْمَخْلُوقَةِ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ الْمَغَايِرَةَ لَمْ يَمْتَنِعْ عَدُّهَا أَسْمَاءَ مَعَ وُرُودِهَا وَالْعِلْمُ  
عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا سَرْدُهَا لِتَحْفَظَ ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ إِعَادَةٌ ، وَلَكِنَّهُ يُغْتَفَرُ لِهَذَا  
الْقَصْدِ " اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ، السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ ، الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ ، الْجَبَّارُ  
الْمُتَكَبِّرُ ، الْخَالِقُ الْبَارِيُّ الْمُصَوِّرُ ، الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ ، التَّوَّابُ الْوَهَّابُ ، الْخَلَّاقُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ ،  
الْعَلِيمُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ ، الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ،  
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، الْمُحِيطُ الْقَدِيرُ ، الْمَوْلَى النَّصِيرُ ، الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ ، الْقَرِيبُ الْمُجِيبُ ، الْوَكِيلُ  
الْحَسِيبُ ، الْحَفِيزُ الْمُقِيتُ ، الْوَدُودُ الْمَجِيدُ ، الْوَارِثُ الشَّهِيدُ ، الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ، الْحَقُّ  
الْمُبِينُ ، الْقَوِيُّ الْمَتِينُ ، الْغَنِيُّ الْمَالِكُ الشَّدِيدُ ، الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ ، الْقَاهِرُ الْكَافِي ، الشَّاكِرُ  
الْمُسْتَعَانُ ، الْفَاطِرُ الْبَدِيعُ الْغَافِرُ ، الْأَوَّلُ الْآخِرُ ، الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ ، الْكَفِيلُ الْغَالِبُ ، الْحَكَمُ  
الْعَادِلُ الرَّفِيعُ ، الْحَافِظُ الْمُنْتَقِمُ ، الْقَائِمُ الْمُحْيِي ، الْجَامِعُ الْمَلِكُ

(86/299)

---

الْمُتَعَالِي ، النُّورُ الْهَادِي ، الْغَفُورُ الشُّكُورُ ، الْعَفُورُ الرَّؤُوفُ ، الْأَكْرَمُ الْأَعْلَى ، الْبَرُّ الْحَفِيُّ ،  
الرَّبُّ الْإِلَهِ ، الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ " .



ثُمَّ قَالَ الْحَافِظُ: وَقَدْ اِخْتَلَفَ فِي هَذَا الْعَدَدِ ، هَلِ الْمُرَادُ بِهِ حَصْرُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى فِي هَذِهِ ؟ أَوْ أَنَّهَا مِنْ ذَلِكَ ؟ ، وَلَكِنْ اخْتَصَّتْ هَذِهِ لِأَنَّ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، فَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى الثَّانِي ، وَنَقَلَ النَّوَوِيُّ اتِّفَاقَ الْعُلَمَاءِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ حَصْرُ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ اسْمٌ غَيْرُ هَذِهِ التَّسْعَةِ وَالتَّسْعِينَ ، وَإِنَّمَا مَقْصُودُ الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، فَالْمُرَادُ الْإِخْبَارُ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ بِإِحْصَائِهَا لَا الْإِخْبَارُ بِحَصْرِ الْأَسْمَاءِ ، وَبُيُودُهُ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ : " أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسِكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتُ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ " ، وَعِنْدَ مَالِكٍ عَنِ الْأَخْبَارِ فِي دُعَاءٍ " وَأَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ

(87/299)

الْحُسْنَى مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ " وَأُورِدَ الطَّبْرِيُّ عَنْ قَتَادَةَ نَحْوَهُ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ أَنَّهَا دَعَتْ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِنَحْوِ ذَلِكَ ، وَسَيَأْتِي فِي الْكَلَامِ عَنِ الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ . وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْمَخْصُوصَةِ بِهَذَا الْعَدَدِ ، وَلَيْسَ فِيهِ مَنَعٌ مَا عَدَاهَا مِنَ الزِّيَادَةِ ، وَإِنَّمَا التَّخْصِيفُ لِكُونِهَا أَكْثَرَ الْأَسْمَاءِ وَأَبْيَنَهَا

مَعَانِي . وَخَبَرُ الْمُتَبَدِّأِ فِي الْحَدِيثِ هُوَ قَوْلُهُ : " مَنْ أَحْصَاهَا " لَأَقُولُهُ : " لِلَّهِ " وَهُوَ كَقَوْلِكَ  
لِزَيْدٍ أَلْفُ دِرْهَمٍ أَعَدُّهَا لِلصَّدَقَةِ ، وَلِعَمْرٍو مِائَةٌ تُؤَبِّ مِنْ زَارِهِ أَلْبَسَهُ إِيَّاهَا " . وَقَالَ  
الْقُرْطُبِيُّ فِي الْمُبْتَهَمِ نَحْوَ ذَلِكَ ، وَنَقَلَ ابْنُ بَطَّالٍ عَنِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرِ بْنِ الطَّيِّبِ قَالَ : لَيْسَ  
فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ إِلَّا هَذِهِ الْعِدَّةُ ، وَإِنَّمَا مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ  
أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ . وَيَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْحَصْرِ أَنَّ أَكْثَرَهَا صِفَاتٌ ، وَصِفَاتُ اللَّهِ لَا  
تَنَاهَى ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ الدُّعَاءَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ لِأَنَّ الْحَدِيثَ مُبْنِيٌّ عَلَى قَوْلِهِ : وَلِلَّهِ  
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (7 : 180) فَذَكَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهَا  
تَسْعَةٌ وَتَسْعُونَ فَيُدْعَى بِهَا ، وَلَا يُدْعَى بِغَيْرِهَا ، حَكَاهُ ابْنُ بَطَّالٍ عَنِ الْمُهَلَّبِ ، وَفِيهِ نَظَرٌ ؛  
لِأَنَّهُ ثَبَتَ فِي أَخْبَارِ صَحِيحَةِ الدُّعَاءِ بِكَثِيرٍ مِنْ

(88/299)

الْأَسْمَاءِ الَّتِي لَمْ تَرُدْ فِي الْقُرْآنِ ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ : " أَنْتَ الْمُقَدَّمُ  
وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ " وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَقَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ : لَمَّا كَانَتْ الْأَسْمَاءُ مِنَ الصِّفَاتِ ، وَهِيَ  
إِمَّا ثُبُوتِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ كَالْحَيِّ ، أَوْ إِضَافِيَّةٌ كَالْعَظِيمِ ، وَإِمَّا سَلْبِيَّةٌ كَالْقُدُّوسِ ، وَإِمَّا مِنْ حَقِيقِيَّةِ  
وَإِضَافِيَّةِ كَالْقَدِيرِ ، أَوْ مِنْ سَلْبِيَّةِ وَإِضَافِيَّةِ كَالأَوَّلِ وَالآخِرِ ، وَإِمَّا مِنْ حَقِيقِيَّةِ وَإِضَافِيَّةِ

وَسَلْبِيَّةٌ كَالْمَلِكِ ، وَالسُّلُوبُ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ ؛ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِأَنَّ نَهَائِيَةَ قَادِرٌ عَلَى مَا لَا نَهَائِيَةَ لَهُ ، فَلَا  
يُمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ

اسْمٌ فَيَلْزَمُ أَنْ لَا نَهَائِيَةَ لِأَسْمَائِهِ ، وَحَكَى الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ لِلَّهِ أَلْفَ  
اسْمٍ ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : وَهَذَا قَلِيلٌ فِيهَا . وَنَقَلَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ لِلَّهِ أَرْبَعَةَ أَلْفِ  
اسْمٍ اسْتَأْثَرَ يَعْلَمُ أَلْفٍ مِنْهَا ، وَأَعْلَمَ الْمَلَائِكَةُ بِالْبَقِيَّةِ ، وَالْأَنْبِيَاءُ بِالْفَيْنِ مِنْهَا ، وَسَائِرَ النَّاسِ  
بِأَلْفٍ . وَهَذِهِ دَعْوَى تَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ ، وَاسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ لِأَنَّهُ ثَبَتَ فِي نَفْسِ  
حَدِيثِ الْبَابِ " إِنَّهُ يُتْرَى حَبُّ الْوَتْرِ " الرَّوَايَةُ

(89/299)

الَّتِي سُرِدَتْ فِيهَا الْأَسْمَاءُ لَمْ يُعَدَّ فِيهَا الْوَتْرُ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ لَهُ أَسْمَاءً آخَرَ غَيْرَ التَّسْعَةِ  
وَالتَّسْعِينَ ، وَتَعَقَّبَهُ مَنْ ذَهَبَ إِلَى الْحَصْرِ فِي التَّسْعَةِ وَالتَّسْعِينَ كَأَبْنِ حَزْمٍ بِأَنَّ الْخَبَرَ الْوَارِدَ  
لَمْ يُثَبِّتْ رَفْعَهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُدْرَجٌ كَمَا تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ ، وَاسْتَدَلَّ أَيْضًا عَلَى عَدَمِ الْحَصْرِ  
بِأَنَّهُ مَفْهُومٌ عَدَدٌ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، وَأَبْنُ حَزْمٍ مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى الْحَصْرِ فِي الْعَدَدِ الْمَذْكُورِ ، وَهُوَ  
لَا يَقُولُ بِالْمَفْهُومِ أَصْلًا ، وَلَكِنَّهُ احْتَجَّ بِالتَّأَكِيدِ فِي قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إِلَّا  
وَاحِدًا " قَالَ : لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ أَنْ يَكُونَ لَهُ اسْمٌ زَائِدٌ عَلَى الْعَدَدِ الْمَذْكُورِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِائَةٌ

اسْمٌ؛ فَيَبْطُلُ قَوْلُهُ "مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا" وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ لَيْسَ بِحُجَّةٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ زِلَّانَ  
الْحَصْرَ الْمَذْكُورَ عِنْدَهُمْ بِاعْتِبَارِ الْوَعْدِ الْحَاصِلِ لِمَنْ أَحْصَاهَا ، فَمَنْ ادَّعَى أَنَّ الْوَعْدَ وَقَعَ  
لِمَنْ أَحْصَى زَائِدًا عَلَى ذَلِكَ خَطَأً ، وَلَا يَلْزِمُ مِنْ ذَلِكَ أَلَّا يَكُونَ هُنَاكَ اسْمٌ زَائِدٌ ، وَاحْتِجَّ  
بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ (7) :  
180) وَقَدْ قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ : مِنَ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَائِهِ تَسْمِيَتُهُ بِمَا لَمْ يَرِدْ فِي الْكِتَابِ أَوْ  
السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا فِي آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ عِدَّةً ، وَخَتَمَ ذَلِكَ بِأَنَّ قَالَ : لَهُ  
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (59 : 24) قَالَ : وَمَا

(90/299)

---

يُتَخَيَّلُ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الْعَدَدِ الْمَذْكُورِ لَعَلَّهُ مُكْرَرٌ مَعْنَى وَإِنْ تَغَايَرَ لَفْظًا ، كَالْغَافِرِ وَالْغَفَّارِ  
وَالْغَفُورِ مَثَلًا فَيَكُونُ الْمَعْدُودُ مِنْ ذَلِكَ وَاحِدًا فَقَطْ ، فَإِذَا اعْتَبِرْتَ ذَلِكَ وَجَمَعْتَ الْأَسْمَاءَ  
الْوَارِدَةَ نَصًّا فِي الْقُرْآنِ ، وَفِي الصَّحِيحِ مِنَ الْحَدِيثِ لَمْ تَزِدْ عَلَى الْعَدَدِ الْمَذْكُورِ ، وَقَالَ غَيْرُهُ  
: الْمُرَادُ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا مَا جَاءَ فِي  
الْحَدِيثِ إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا فَإِنْ ثَبَتَ الْخَبْرُ الْوَارِدُ فِي تَعْيِينِهَا وَجَبَ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ ،  
وَإِلَّا فَلْيَتَّبِعْ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ ، فَإِنَّ التَّعْرِيفَ فِي الْأَسْمَاءِ لِلْعَهْدِ فَلَا بُدَّ مِنْ

المعهود ، فإنه أمر بالدعاء بها ، ونهى عن الدعاء بغيرها ، فلا بد من وجود الأمر به .  
 (قلت) : والحوالة على الكتاب العزيز أقرب ، وقد حصل بحمد الله تبعها كما قدمته ،  
 وبقي أن يعمد إلى ما تكرر لفظاً ومعنى من القرآن فيقتصر عليه ، ويتبع من الأحاديث  
 الصحيحة تكملة العدة المذكورة فهو نمط آخر من التسبع عسى الله أن يعين عليه بحوله  
 وقوته آمين اهـ . (فتح) والمتبادر من الحديث أنه جملتان ، فالأسماء الشرعية في الإسلام  
 99 وكان الحافظ أجدر العلماء بما رجاه في آخر كلامه .

(91/299)

وذروا الذين يلحدون في أسمائه أي: ادعوه بها أيها المؤمنون ، واتركوا وأهملوا بلا مبالاة  
 جميع الذين يلحدون في أسمائه بالميل بالفاظها أو معانيها عن منهج الحق الوسط ، إلى  
 بنيات الطرق ومفرق السبل ، من تحريف أو تأويل ، أو تشبيه أو تعطيل ، أو شرك أو  
 تكذيب ، أو زيادة أو نقصان ، أو ما ينافي وصفها بالحسنى وهو منتهى الكمال ، ذروا  
 هؤلاء الملحدين ، ولا تبالوا بهم ، وكان قائلاً يقول : ولماذا نذرهم في خوضهم يعمهون ؟  
 فأجاب بقوله تعالى : سيجزون ما كانوا يعملون أي: سيلقون جزاء عملهم عن قريب ،  
 بعضهم في الدنيا قبل الآخرة ، وإنما يعمهم جميعهم عقاب الآخرة ، إلا من تاب منهم قبل

الموت .

وإننا نفضل هذا التفسير الإجمالي بعض التفصيل لفظاً ومعنى فنقول :

(92/299)

"ذروا" أمر لم يرد في اللغة استعمال ماضيه ولا مصدره، وهو بمعنى الترك والإهمال، فهو بوزن ودع الشيء يدعه ودعا، ومعناه، إلا أن هذا قد استعمل ماضيه ومصدره قليلاً، وذلك لم يستعمل منه إلا المضارع "يذر" والأمر "ذر" وتعدّد ذكرها في التنزيل، وزعم الراغب في مفرداته أن معناه: قذف الشيء لقلّة الاعتدال به، وأورد من الشواهد عليه من القرآن ما هو ظاهر فيه، وأشار إلى شاهد واحد يخالفه في الظاهر، ووعد ببيان دخوله في موضع آخر، ولعله يعني تفسيره للقرآن، وهو قوله تعالى: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً (2: 234) ولم يقل: ويتركون ويخلفون، ولعله أجاب عنه بأن المراد: ويتركون أزواجهن عرضة للإهمال، وعدم الإنفاق عليهن، فليوصوا لهنّ، وإلا كانوا همّ المهملين لهنّ، والقاذبين بهنّ في بديء الإهمال والحاجة. ويردّ عليه أيضاً قوله تعالى حكاية عن المخلفين في سورة الفتح: ذرونا تتبعكم (48: 15) وكل ما عداه من استعمال القرآن لهذه الكلمة يظهر فيه معنى الترك لعدم المبالاة والاهتمام. لا القذف كما

عَبْرِيهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي نَاقَةِ صَالِحٍ حِكَايَةً عَنْهُ : فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ (7) :  
(73) وَأَظْهَرَ مِنْهُ قَوْلُهُ

(93/299)

تَعَالَى : مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ (3 : 179) أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ  
لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (7 : 127) رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ (71 : 26) وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ  
يَوْمًا ثَقِيلًا (76 : 27) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (26 : 166)  
وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ

(75 : 21) ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (6 : 91) فَذَرَهُمْ وَمَا يَنْقُرُونَ (6 : 112)  
فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلِاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (43 : 83) إلخ .  
وَأَمَّا الْإِلْحَادُ فَمَعْنَاهُ الْعَامُّ الْمَيْلُ وَالْأَزْوَارُ عَنِ الْوَسْطِ حِسًّا أَوْ مَعْنَى ، وَالْأَوَّلُ الْأَصْلُ فِيهِ  
كَأَمثَالِهِ ، وَمِنْهُ لِحْدُ الْقَبْرِ لِلْمَيِّتِ ، وَهُوَ مَا يُحْفَرُ فِي جَانِبِ الْقَبْرِ مِنْ جِهَةِ الْقِبْلَةِ مَا ثَلَا عَنْهُ  
وَسَطُهُ .

وَيُسَوَّى بِنَاءٍ وَنَحْوِهِ ، وَيُوضَعُ فِيهِ الْمَيِّتُ ، وَيُقَابَلُهُ الضَّرِيحُ أَوْ الشَّقُّ ، وَهُوَ وَضْعُهُ فِي  
وَسَطِ الْقَبْرِ (وَاللِحْدُ أَفْضَلُ فِي الشَّرْعِ) يُقَالُ : لِحْدَ الْقَبْرِ وَالْحَدَّهُ ، وَلِحْدَ الْمَيِّتِ وَالْحَدَّ ،

أَيُّ جَعَلَ لَهُ لِحْدًا ، وَمِنْ كَلَامِهِمْ : الْحَدَّ السَّهْمُ الْهَدَفَ ، أَيُّ مَالٍ فِي أَحَدِ جَانِبَيْهِ ، وَلَمْ يُصِبْ وَسَطَهُ ، وَلَمَّا كَانَ " خِيَارُ الْأُمُورِ أَوْ سَاطِهَا " كَانَ الْأَنْحِرَافُ عَنِ الْوَسَطِ مَذْمُومًا ، وَمِنْهُ أُخِذَ التَّعْبِيرُ عَنِ الْكُفْرِ وَالتَّعْطِيلِ وَالتَّشَكُّ فِي اللَّهِ تَعَالَى بِالِإِلْحَادِ وَسُمِّيَ ذُوهُهُ الْمَلْحَدَةُ وَالْمُلْحِدُونَ .

(94/299)

قَالَ الرَّاعِبُ : اللَّحْدُ حُفْرَةٌ مَائِلَةٌ عَنِ الْوَسَطِ ، وَقَدْ لِحَدَ الْقَبْرِ حَفْرَهُ وَالْحَدَّهُ ، وَقَدْ لِحَدْتُ الْمَيِّتَ وَالْحَدْتُهُ : جَعَلْتُهُ فِي اللَّحْدِ ، وَيُسَمَّى اللَّحْدُ مُلْحَدًا ، وَهُوَ اسْمٌ مَوْضِعٌ مِنَ الْحَدْتِهِ . وَلِحَدَّ بِلِسَانِهِ إِلَى كَذَا مَالٍ . قَالَ تَعَالَى : لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ (16 : 103) مِنْ لِحَدٍ ، وَقُرَيْشٌ (يُلْحِدُونَ) مِنْ الْحَدِّ ، وَالْحَدَّ فَلَانٌ : مَالٌ عَنِ الْحَقِّ ، وَالِإِلْحَادُ ضَرْبَانٌ : إِلْحَادٌ إِلَى الشَّرِكِ بِاللَّهِ ، وَالِإِحَادُ إِلَى الشَّرِكِ بِالسَّبَابِ ، فَالْأَوَّلُ يُنَافِي الْإِيمَانَ وَيُبْطِلُهُ ، وَالثَّانِي يُوهِنُ عِرَاهُ وَلَا يُبْطِلُهُ ، وَمِنْ هَذَا التَّحْوِيقُ : وَمَنْ يَرُدُّ فِيهِ بِالْحَادِ بظلم نذقه مِنْ عَذَابِ الْإِيمِ (22 : 25) وَقَوْلُهُ : الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ (7 : 180) وَالِإِلْحَادُ فِي أَسْمَائِهِ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يُوصَفَ بِمَا لَا يَصِحُّ وَصْفُهُ بِهِ ، وَالثَّانِي أَنْ يَتَأَوَّلَ أَوْصَافَهُ عَلَى مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ اهـ .



أَقُولُ: قَرَأَ حَمَزَةٌ (يَلْحِدُونَ) بِفَتْحِ الْيَاءِ هُنَا ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي فَصَلَتٍ: إِنَّ الَّذِينَ  
يَلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا (41 : 40) مِنْ لِحْدٍ ، وَالْبَاقُونَ بَضْمَهَا مِنْ الْحَدِّ ،  
وَمَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ كَمَا عَلِمْتَ ، وَأَخْطَأُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْأَوَّلَ لَا يَكَادُ يُسْمَعُ .

(95/299)

---

وَفِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الْإِلْحَادُ التَّكْذِيبُ ، وَقَالَ فِي  
تَفْسِيرِهِ هُنَا : اشْتَقُّوا الْعُزْمَى مِنَ الْعَزِيزِ ، وَاللَّاتِ مِنَ اللَّهِ ، وَعَنِ الْأَعْمَشِ أَنَّهُ قَرَأَ "يَلْحِدُونَ"  
بِفَتْحِ الْيَاءِ مِنَ الْحَدِّ وَفَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا ، وَعَنْ قَتَادَةَ فِي تَفْسِيرِهِ  
رَوَيْتَانِ إِحْدَاهُمَا : يُشْرِكُونَ وَالثَّانِيَةُ : يُكْذِبُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، وَمُدْخَصُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ : أَنَّ  
مِنَ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ تَعَالَى التَّكْذِيبَ بِهَا ، وَإِنْكَارَ مَعَانِيهَا ، وَتَحْرِيفَهَا بِالتَّأْوِيلِ وَنَحْوِهِ ،  
وَتَسْمِيَتُهُ تَعَالَى بِمَا لَمْ يُسَمَّ بِهِ نَفْسُهُ ، وَبِمَا لَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ ، وَإِشْرَاكَ غَيْرِهِ بِهِ فِيهَا ،  
وَهَذَا قِسْمَانِ : إِشْرَاكَ فِي التَّسْمِيَةِ ، وَهُوَ يُقْصَرُ عَلَى الْأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ  
وَالرُّبُوبِيَّةِ وَخَصَائِصِهِمَا ، وَإِشْرَاكَ فِي الْمَعَانِي وَهِيَ قِسْمَانِ : مَعَانٍ خَاصَّةٌ بِاللَّوْهِيَّةِ  
وَالرُّبُوبِيَّةِ ، وَمَعَانٍ غَيْرِ خَاصَّةٍ فِي نَفْسِهَا ، وَإِنَّمَا الْخَاصُّ بِهِ  
تَعَالَى كَمَالُهَا ، وَهُوَ مَعْنَى كَوْنِهَا الْحُسْنَى كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَقْدِيمُ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى أَي: لَهُ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ .  
فَالْحَادُ فِي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى أَقْسَامٌ .

(96/299)

(1) التَّغْيِيرُ فِيهَا بِوَضْعِهَا لِغَيْرِهِ مِمَّا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ ، كَمَا وَرَدَ فِي " اللَّاتِ وَالْعَزَّى ، وَتَقَدَّمَ قَرِيبًا ، قِيلَ : وَ " مَنَاءٌ " مِنْ أَسْمِهِ تَعَالَى الْمَنَانِ ، فَإِنْ صَحَّ كَانَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ تُطْلِقُ هَذَا الْأِسْمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَا فِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ لِأَسْمَائِهِ تَعَالَى ، وَلَكِنْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ . وَأَمَّا لَفْظُ " اللَّاتِ " فَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ أَنْتَوُا بِهِ اسْمَ الْجَلَالَةِ ، " وَالْعَزَّى " مُؤَنَّثُ الْأَعَزِّ ، كَالْفُضْلَى مُؤَنَّثُ الْأَفْضَلِ ، وَالْحُسْنَى مُؤَنَّثُ الْأَحْسَنِ .

(2) تَسْمِيَتُهُ تَعَالَى بِمَا لَمْ يُسَمَّ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ أَوْ مَا صَحَّ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، قَالَ بَعْضُهُمْ : أَوْ أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ، فَإِنَّهُ كَمَا قِيلَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُسْتَدَدٍ مِنْهُمَا ، وَمِنْهُ " وَاجِبُ الْوُجُودِ وَالْوَاجِبُ " - لَكِنْ يَحْتَاجُ هَذَا إِلَى قَرِينَةٍ لِأَنَّ اسْتِعْمَالَهُ فِي كُلِّ وَاجِبٍ عَقْلِيٍّ ، وَكُلِّ وَاجِبٍ شَرْعِيٍّ هُوَ الْأَكْثَرُ - (قَالَ) : " وَالْقَدِيمُ وَالصَّانِعُ ، وَقِيلَ هُمَا مَسْمُوعَانِ " وَأَقُولُ : إِنَّ الْوَاجِبَ وَوَالْوُجُودَ وَالصَّانِعَ مِنْ اصْطِلَاحِ الْمُتَكَلِّمِينَ

لَا يَثْبُتُ كَوْنُهَا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِجْمَاعِ الَّذِي قَالُوا إِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مُسْتَدٍّ مِنَ الْكِتَابِ أَوْ  
السُّنَّةِ عِنْدَ أَهْلِهِ ، وَلِلصَّانِعِ مَا خَذَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ التَّمَلُّ : صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ  
شَيْءٍ (27 : 88) عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِجَوَازِ مِثْلِهِ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، وَيَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مِنْ أَسْمَاءِهِ  
الْمُتَقَنُ أَيْضًا ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ بَابَ الْإِخْبَارِ عَنْهُ تَعَالَى بِأَفْعَالِهِ أَوْسَعُ مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ الْأَسْمَاءِ  
عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْأِسْمَ فِي الْأَصْلِ : مَا دَلَّ عَلَى الذَّاتِ ، وَلَا يُعْتَبَرُ فِيهِ اتِّصَافُ الْمُسَمَّى بِمَعْنَى  
الْإِسْمِ إِنْ كَانَ لَهُ مَعْنَى غَيْرُ الْعِلْمِيَّةِ كَرَيْدٍ وَحَارِثٍ وَفَضْلٍ ، وَمَا أُطْلِقَ لِأَجْلِ مَعْنَاهُ فَقَطُّ  
يُسَمَّى وَصْفًا وَنَعْمًا كَالْحَارِثِ يُوصَفُ بِهِ مَنْ يَحْرَثُ الْأَرْضَ ، وَالظَّالِمَ لِمَنْ يَجُورُ فِي فِعْلِهِ أَوْ  
حُكْمِهِ ، وَقَدْ يُقْصَدُ بِالْإِسْمِ الْعِلْمِ الْوَصْفُ مَعَ الْعَمَلِيَّةِ مِنْ بَابِ التَّفَاوُلِ أَوِ الْمَدْحِ ، فَإِنَّ لِمَح  
عِنْدَ الْإِطْلَاقِ أَدْخُلُوا عَلَيْهِ الْأَلْفَ وَاللَّامَ فَقَالُوا الْحَارِثُ وَالْفَضْلُ وَالْأَفْلَا ، وَهَذَا سَمَاعِيٌّ لَا  
قِيَاسِيٌّ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَمِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْمَنْقُولَةِ عَنْ اسْمِ فَاعِلٍ كَالْخَالِقِ وَالرَّازِقِ  
وَالْمُؤْمِنِ وَالْمُهَيِّمِ ، أَوْ صِفَةٍ مُشَبَّهَةٍ كَالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَوْ مُصَدَّرٍ كَالسَّلَامِ وَالْعَدْلِ ، فَكُلُّهَا  
يُرَاعَى فِيهَا الْمَعْنَى الْوَصْفِيَّةُ فَتُسَمَّى صِفَاتٌ ، وَالدَّلَالَةُ عَلَى الذَّاتِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَدْلُولِهِ  
الْوَصْفِيَّةُ فَتُسَمَّى أَسْمَاءً .

وَيُقْتَصَرُ فِيهَا كُلُّهَا عَلَى التَّوَقُّفِ ، وَلَيْسَ مِنْهُ الْوَاجِبُ وَالصَّانِعُ وَالْمَوْجُودُ ، وَلَكِنْ يَجُوزُ  
الْإِخْبَارُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ عَنْهُ تَعَالَى ، فَيُقَالُ : إِنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ وَوَاجِبٌ ، وَهُوَ صَانِعٌ كُلِّ شَيْءٍ ،  
وَالْمُتَمَتِّنُ لِكُلِّ مَا خَلَقَهُ ، وَلَا يُقَالُ فِي الدُّعَاءِ وَالْتِدَاءِ : يَا وَاجِبٌ أَوْ يَا صَانِعٌ اغْفِرْ لِي مَثَلًا ،  
بِهَذَا الْقَدْرِ يَصِحُّ كَلَامُ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُشْتَقَّ لَهُ تَعَالَى أَسْمَاءٌ مِنْ كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ  
نَفْسِهِ وَلَوْ بِصِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ ، فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ بِإِطْلَاقِ اسْمِ الزَّارِعِ عَلَيْهِ تَعَالَى مِنْ قَوْلِهِ : أَتَيْتُمْ  
تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ

(56 : 64) وَلَا الْمَاكِرِينَ مِنْ قَوْلِهِ : وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (3 : 54) وَلَا  
الْمُخَادِعِ أَوْ الْخَادِعِ مِنْ : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ (4 : 142) وَلَكِنْ  
عَدُّوا مِنْهَا بَعْضَ الصِّفَاتِ الْمُضَافَةِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الشَّدِيدِ وَالرَّفِيعِ وَالْقَائِمِ وَالْفَاطِرِ ، وَالْفَرْقُ  
بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنَّ هَذِهِ ذُكِرَتْ فِي سِيَاقِ التَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا تِلْكَ فَذُكِرَتْ فِي سِيَاقِ  
الْإِحْتِجَاجِ أَوْ مِنْ بَابِ الْمَشَاكَلَةِ ، وَاسْمُ الصِّفَةِ لَا بُدَّ أَنْ يُدَلَّ عَلَى الْكَمَالِ بِمُجَرَّدِ إِطْلَاقِهِ  
وَلَيْسَ هَذَا مِنْهُ .

وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْحَقِّ عَلَى أَنَّ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ تَعَالَى تَوْقِيفِيَّةٌ ، وَنَصُّوا عَلَى إِثْبَاتِ

(99/299)

كُلُّ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ دُعَاءً وَوَصْفًا لَهُ ، وَإِخْبَارًا عَنْهُ ، وَعَلَى مَنْعِ  
كُلِّ مَا دَلَّ عَلَى مَنْعِهِ ، وَمِنْهُ كُلُّ مَا يُسَمَّى إِحَادًا فِي أَسْمَائِهِ ، وَكُلُّ مَا أُوْهِمَ تَقْصًا أَوْ كَانَ  
مُنَافِيًا لِلْكَمَالِ وَلِوَصْفِ الْحُسْنَى ، وَقَدْ مَنَّ جُمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ كُلِّ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الشَّارِعُ  
مُطْلَقًا ، وَجَوَزَ الْمُعْتَرِزُ مَا صَحَّ مَعْنَاهُ ، وَدَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى اتِّصَافِهِ بِهِ ، وَلَمْ يُؤْهِمِ إِطْلَاقُهُ تَقْصًا  
، وَالْفَلَاسِفَةُ أَوْسَعُ حَرِيَّةً فِي هَذَا الْإِطْلَاقِ . . . وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ سِينَا :  
مُدِيرُ الْكُلِّ أَنْتَ الْقَصْدُ وَالْغَرَضُ . . . وَأَنْتَ عَنْ كُلِّ مَا قَدْ فَاتْنَا عِوَضُ  
مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ خَرْدَلَةٍ . . . سَوِيَّ جَلَالِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ مَرَضٌ

(100/299)

وَقَدْ عَدُّوا عَلَيْهِ مِنْ إِسَاءَةِ الْأَدَبِ قَوْلَهُ لِخَالِقِهِ : فَاعْلَمْ ذَلِكَ السَّفَارِينِي فِي شَرْحِ  
عَقِيدَتِهِ الْخِلَافِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْمُعْتَرِزِ ثُمَّ قَالَ : وَمَالِ إِلَيْهِ - أَيُّ قَوْلِ الْمُعْتَرِزِ بِالْجَوَازِ -  
بَعْضُ الْأَشَاعِرَةِ كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِي ، وَتَوَقَّفَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ الْجُوَيْنِيُّ ، وَفَصَّلَ

الغزالي فُجُوزَ إِطْلَاقِ الصِّفَةِ ، وَهِيَ مَا دَلَّ عَلَى مَعْنَى زَائِدٍ عَلَى الذَّاتِ ، وَمَنَعَ إِطْلَاقِ اسْمِ  
 ، وَهُوَ مَا دَلَّ عَلَى نَفْسِ الذَّاتِ ، وَاحْتِجَّ لِلْقَوْلِ الْمُعْتَمَدِ " أَنَّهَا تَوْقِيفِيَّةٌ " بِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى  
 النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَا لَيْسَ مِنْ أَسْمَائِهِ فَالْبَّارِي أَوْلَى ، وَتَعَلَّقَ الْمُعْتَزِلَةُ بِأَنَّ  
 أَهْلَ كُلِّ لُغَةٍ يُسَمُّونَهُ سُبْحَانَهُ بِاسْمٍ مُخْتَصٍّ بِلُغَتِهِمْ كَقَوْلِهِمْ (خداى) وَشَاعَ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ ،  
 وَرَدَّ بِأَنَّهُ لَوْ ثَبَتَ لَكَانَ كَافِيًا فِي الْأُذَانِ الشَّرْعِيِّ ، وَنَقَلَ الْأَلُّوسِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ سِيَاقَ  
 السَّفَارِينِيِّ إِلَى احْتِجَاجِ الْمُعْتَزِلَةِ بِعَدَمِ انْكَارِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى إِطْلَاقِ الْفُرْسِ (خدا)  
 وَزَادَ عَلَيْهِ اسْمُ (تكرى) وَهُوَ تَرْكِيٌّ وَكَافُهُ نُونٌ فِي النَّطْقِ ، وَقَالَ لَهُمْ ادَّعُوا أَنَّ هَذَا إِجْمَاعٌ  
 ، وَأَنَّهُ لَوْ ثَبَتَ لَكَانَ كَافِيًا فِي الْأُذَانِ الشَّرْعِيِّ .

(101/299)

وَأَقُولُ : إِنَّ لَفْظِي " خدا وتكرى " هُمَا اسْمُ الْعَلْمِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقِ الْخَلْقِ ، وَذَلِكَ مِنْ  
 قَبِيلِ التَّرْجَمَةِ لَاسْمِ الْجَلَالَةِ (الله) وَلَيْسَ مِنْ إِطْلَاقِ اسْمٍ جَدِيدٍ عَلَيْهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى نَصٍّ أَوْ  
 دَلِيلٍ شَرْعِيِّ ، وَمِثْلُهُ تَرْجَمَةٌ مَا يُمَكِّنُ تَرْجَمَتُهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ، وَهُوَ الْمُشْتَرَكُ فِي  
 اللُّغَاتِ ، وَلَا سِيَّمَا الرَّاقِيَّةَ مِنْهَا كَالْفَارْسِيَّةِ ، فَهُوَ جَائِزٌ بِخِلَافِ تَرْجَمَةِ مَا لَا يُوْجَدُ لَهُ مُرَادِفٌ  
 فِي غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ ، كَالرَّحْمَنِ وَالْقِيَوْمِ - كَمَا نَعْتَقِدُ - وَمَنَعَ الْغَزَالِي فِي كِتَابِ (إِلْجَامِ الْعَوَامِّ)

## ترجمة

صِفَاتِ اللَّهِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمُتَشَابِهَاتِ مِنْهَا لِمَا فِيهَا مِنْ  
خَطَرِ مُخَالَفَةِ مُرَادِهِ تَعَالَى ، وَقَالَ : إِنَّ بَعْضَهَا لَا مُرَادِفَ لَهُ فِي غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَبَعْضُهَا  
مُرَادِفٌ فِي الْحَقِيقَةِ دُونَ الْمَجَازِ كَالْيَدِ ، فَهِيَ تُطْلَقُ فِي الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الْجَارِحَةِ مِنْ أَعْضَاءِ  
الْإِنْسَانِ ، وَلَهَا عِدَّةٌ مَعَانَ مَجَازِيَّةٌ كَالنِّعْمَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالتَّصَرُّفِ مَثَلًا ، وَقَدْ أُضِيفَتْ إِلَيْهِ  
تَعَالَى فِي مَوَاضِعَ قَدْ تَخَلَّفَ مَعَانِيهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (48 : 10) بِيَدِهِ  
الْمَلِكُ (67 : 1) بِيَدِكَ الْخَيْرُ (3 : 26) لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ (38 : 75) بِلِ يَدَاهُ  
مَبْسُوطَتَانِ (5 : 64) فَلَا يُمَكِّنُ وَضِعَ كَلِمَةِ تَرْجُمَةِ يَدٍ بِالْفَارِسِيَّةِ لِتَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلِّهَا  
. انْتَهَى بِالْمَعْنَى ، وَقَدْ أُورِدَتْ لَفْظَةً فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

(102/299)

---

ثُمَّ إِنَّ الْأَلُوسِيَّ نَقَلَ مُوَافَقَةَ الْقَاضِي الْبَاقِلَانِيِّ لِلْمُعْتَزَلَةِ ، وَذَكَرَ أَنَّ إِمَامَ الْحَرَمِيِّنِ اعْتَرَضَهُ بِأَنَّهُ  
قَوْلٌ بِالْقِيَاسِ ، وَهُوَ حُجَّةٌ فِي الْعَمَلِيَّاتِ دُونَ الْعِلْمِيَّاتِ ، وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنْهَا (قَالَ) :  
وَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنْهُ التَّوَقُّفَ ، ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَ الْغَزَالِيِّ الْمُتَقَدِّمِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ احْتَجَّ لَهُ بِإِبَاحَةِ الصِّدْقِ

وَاسْتِحْبَابِهِ ، وَالصِّفَةُ لِتَضَمُّنِهَا النَّسْبَةَ الْخَبَرِيَّةَ رَاجِعَةً إِلَيْهِ ، وَهِيَ لَا تَتَوَقَّفُ إِلَّا عَلَى تَحْقِيقِ  
مَعْنَاهَا ، بِخِلَافِ الْأَسْمِ فَإِنَّهُ لَا يَتَضَمَّنُ النَّسْبَةَ الْخَبَرِيَّةَ ، وَإِنَّهُ لَيْسَ إِلَّا لِلأَبْوِينِ أَوْ مِنْ يَجْرِي  
مَجْرَاهُمَا . (قَالَ الأَلُوسِيُّ) وَأَجِيبُ بَأَنَّ ذَلِكَ حَيْثُ لَا مَانِعَ مِنْ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى  
تِلْكَ النَّسْبَةِ - وَالْخَطَرُ قَائِمٌ - وَأَيْنَ التَّرَابُ مِنْ رَبِّ الأَرْبَابِ ؟ اهـ .

(103/299)

وَأَقُولُ : مِثَالُ مَا ذَكَرُوهُ ، وَصَفَهُ تَعَالَى بِالْعَقْلِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْكَمَالُ فِي غَرَائِزِ الْبَشَرِ ، وَلَمْ  
يَرُدْ بِهِ الشَّرْعُ ، وَيَدُلُّ عَلَى مَنَعِهِ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ أَيْضًا أَنَّ مَعْنَى الْعَقْلِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَدْخُلُ  
فِيهِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مَادَّتُهُ ، وَهِيَ عَقْلُ الْبَعِيرِ ، أَيْ رِبْطُ ذِرَاعِهِ وَوَضِيفُهُ وَشَدَّهِمَا بِالْعَقَالِ  
(وَهُوَ بِالْكَسْرِ الْحَبْلُ الَّذِي يُعْقَلُ بِهِ الْبَعِيرُ وَغَيْرُهُ) لِمَنَعِهِ مِنَ الْمَشْيِ ، وَذَلِكَ أَنَّ عَقْلَ الْإِنْسَانِ  
مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَعْقِلَهُ أَيُّ يَمْنَعُهُ مِمَّا لَا يَنْبَغِي لَهُ ، وَهَذَا الْمَعْنَى لَا يَلِيْقُ بِالْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ،  
فَقَاعِدَةُ الْغَزَالِيِّ فِي الصِّفَاتِ تَقْتَضِي تَحْكِيمَ رَأْيِ كُلِّ أَحَدٍ فِي وَصْفِ خَالِقِهِ بِمَا يَرَاهُ هُوَ  
حُسْنًا أَوْ كَمَالًا ، وَقَدْ يَكُونُ فِي رَأْيِ غَيْرِهِ مِمَّنْ هُمْ أَعْلَمُ مِنْهُ غَيْرَ حُسْنٍ وَلَا كَمَالٍ ، وَهَذَا  
ظَاهِرٌ عَقْلًا لَا نَقْلًا فَالْحَقُّ الْأَيْطَلِقُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الصِّفَاتِ إِلَّا مَا أَدْنَى بِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَى



لِسَانَ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

(3) تَرَكَ تَسْمِيَةَ بِمَا سَمِيَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِمَا وَصَفَهَا بِهِ ، وَمِثْلُهُ إِسْنَادُ مَا أَسْنَدَهُ

(104/299)

---

تَعَالَى إِلَى نَفْسِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ - بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَلِيْقُ بِهِ تَعَالَى ، أَوْ أَنَّهُ يُؤْهِمُ تَقْصًا فِي حَقِّهِ  
عَزَّ وَجَلَّ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ أَعْلَمُ مِنْهُ تَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ وَجَلَّتْ صِفَاتُهُ ، وَأَعْلَمُ مِنْ  
رَسُولِهِ صَلَوَاتُهُ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ ، وَمَا لَا يَلِيْقُ ، وَمِمَّا يُؤْهِمُ تَقْصَ التَّشْبِيهِ أَوْ غَيْرَ  
التَّشْبِيهِ ، كَامْتِنَاعِ بَعْضِ الْمُبْتَدَعَةِ مِنْ ذِكْرِ بَعْضِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى  
الَّتِي زَعَمُوا وَجُوبَ تَأْوِيلَهَا فِي

(105/299)

---

عَقَائِدِهِمْ وَدُرُوسِهِمْ ، وَعَدَمَ ذِكْرِهَا فِي مَجَالِسِهِمْ إِلَّا مَقْرُونَةً بِالتَّأْوِيلِ وَادِّعَاءِ أَنَّ مَعْنَاهَا  
غَيْرُ مُرَادٍ ، وَقَدْ غَلَا بَعْضُ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى فِي التَّأْوِيلِ غُلُوًّا الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ  
أَوْ أَشَدَّ ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَوْا السَّلَاطِينَ بِسَجْنِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ لِذِكْرِ هَذِهِ

الآيات والأحاديث في كُتبه ودروسه كصفة علو الله تعالى على خلقه ، ومنها اسم العليّ  
والمُتعال ، ومنها آيات الاستواء على العرش ، وأحاديث النزول من السماء ، وانتهى بهم  
الأمر إلى أن يطلبوا منه التوبة من ذكر هذه الآيات والأحاديث للعامة ، وأن يتعهد بذلك كتابةً  
، وهذا من أعاجيب تعصب المذاهب ، والغرور في تحكيم العقل : أي الآراء النظرية  
في النصوص ، وإن ادعاء أن بعض كلام الله وحديث رسوله مما يجب كتمانهُ واستبدال  
نظريات بعض المتأخرين أمثالهم به لمطعن كبير في الدين ، وفي سلف الأمة الصالحة ،  
وهذا النوع من الإلحاد هو غير التأويل للأسماء والصفات وهو القسم الآتي من الإلحاد فيها

(106/299)

(4) تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وضعت له بضروب من التأويل تقتضي التشبيه  
أو التعطيل ، فالمشبهة ذهبت إلى جعل الرب القدوس الذي ليس كمثلته شيء كرجل من  
خلقهِ ، زاعمة أنه وصف نفسه بصفات يدل مجموعها على ذلك كالسمع والبصر والكلام  
والوجه واليد والرجل والضحك والرضا والغضب ، والجهمية ذهبت إلى تأويل جميع  
صفات الله تعالى حتى جعلته كالعدم . وأهل السنة والجماعة الذين قال الله تعالى : فيهم

: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (2 : 143) هُمُ الَّذِينَ جَمَعُوا  
بَيْنَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ ، فِي تَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَبَيْنَ  
وَصْفِهِ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَتَسْمِيَّتِهِ بِمَا سَمَّى بِهِ نَفْسَهُ ، وَإِسْنَادِ مَا أَسْنَدَهُ إِلَى نَفْسِهِ مِنْ  
الْأَفْعَالِ ، كَالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ وَالْعُلُوعِ عَلَى الْخَلْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . اثْبُتُوا

(107/299)

لَهُ كُلُّ ذَلِكَ مَعَ كَمَالِ التَّنْزِيهِ ، فَقَالُوا : إِنَّ لَهُ رَحْمَةً لَيْسَتْ كَرَحْمَةِ الْمَخْلُوقِ ، وَغَضَبًا لَا يُشْبَهُ  
غَضَبَ الْمَخْلُوقِ ، وَاسْتِوَاءً عَلَى عَرْشِهِ لَيْسَ كَاسْتِوَاءِ الْمُلُوكِ الْمَخْلُوقِينَ عَلَى عُرُوشِهِمْ ،  
وَإِنَّهُ تَعَالَى عَلَّمَنَا بِمَا بَيْنَ لَنَا مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ كُلِّ مَا أَوْجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْلَمَهُ مِنْ  
عَظَمَتِهِ وَكَمَالِهِ وَجَمَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَلَا يُمَكِّنُ بَيَانَ ذَلِكَ لَنَا إِلَّا بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا  
فِي شُؤْنِ أَنْفُسِنَا ، وَعَلَّمَنَا مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، فَعَصَمْنَا بِهَذَا التَّنْزِيهِ . أَنْ يُضِلَّنَا  
الِاشْتِرَاكُ اللَّفْظِيُّ فَنَقَعُ فِي التَّشْبِيهِ .

(5) إِشْرَاكٌ غَيْرُهُ فِيمَا هُوَ خَاصٌّ بِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ بِاللَّفْظِ كَاسْمِ الْجَلَالَةِ (اللَّهُ) وَالرَّحْمَنِ ،  
وَرَبِّ الْعَالَمِينَ - وَمَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْإِضَافَاتِ كَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
أَوْ رَبِّ الْكُعْبَةِ ، أَوْ رَبِّ الْبَيْتِ - إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْكُعْبَةُ قَالَ تَعَالَى : فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ

(106 : 3) وَأَمَّا إِذَا أُضِيفَ لَفْظُ رَبِّ إِلَى بَيْتِ آخَرٍ مِنْ بُيُوتِ النَّاسِ فِي كَلَامٍ بَعِيْنِهِ فَلَا  
بَأْسَ ، كَأَنْ تَقُولَ وَأَنْتَ فِي بَيْتِ أَحَدِ النَّاسِ ، وَقَدْ حَضَرَتِ الصَّلَاةُ الْإِمَامَةَ حَقُّ رَبِّ

(108/299)

---

الْبَيْتِ ، أَوْ لِيَوْمِنَا رَبُّ الْبَيْتِ . أَوْ تَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْلِسَ فِي كُرْسِيِّ صَاحِبِ الْبَيْتِ أَوْ  
عَلَى الْحَشِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِهِ : هَذِهِ تَكْرِمَةٌ رَبِّ الْبَيْتِ ، وَقَدْ نَهَيْنَا عَنِ الْجُلُوسِ عَلَيْهَا بِدُونِ  
إِذْنِهِ . وَقَالُوا : إِنَّ كَلِمَةَ الرَّبِّ مَعْرِفَةٌ خَاصَّةٌ بِهِ تَعَالَى . وَيَرْجَحُ هَذَا الْقَوْلُ حَيْثُ لَا قَرِيْنَةَ  
تَصْرَفُ الْلفظِ إِلَى غَيْرِهِ .

(109/299)

---

وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ أَبُو حَجْرٍ فِي شَرْحِهِ لِحَدِيثِ اللَّهِ تَسْعَةَ وَتِسْعُونَ اسْمًا مِنَ الْفَتْحِ بَحْثَ  
انْعِقَادِ الْيَمِينِ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ الْحَنْفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَأَبْنِ حَزْمٍ مُطْلَقًا ثُمَّ قَالَ :  
وَالْمَعْرُوفُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْأَسْمَاءَ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ :  
(أَحَدُهَا) مَا يَخْتَصُّ بِاللَّهِ تَعَالَى ، كَاسْمِ الْجَمَالَةِ وَالرَّحْمَنِ وَرَبِّ الْعَالَمِينَ فَهَذَا يَنْعَقِدُ الْيَمِينُ

به إِذَا أُطْلِقَ ، وَلَوْ نَوَى بِهِ غَيْرُهُ (ثَانِيهَا) مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِهِ ، وَلَكِنَّ الْغَالِبَ إِطْلَاقُهُ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يُقَيَّدَ فِي حَقِّ غَيْرِهِ بِضَرْبٍ مِنَ التَّقْيِيدِ كَالْجَبَّارِ وَالْحَقِّ وَالرَّبِّ وَنَحْوِهَا ، فَالْحَلْفُ بِهِ يَمِينٌ فَإِنْ نَوَى بِهِ غَيْرَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِيَمِينٍ . (ثَالِثُهَا) مَا يُطْلَقُ فِي حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ غَيْرِهِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ . كَالْحَيِّ وَالْمُؤْمِنِ فَإِنْ نَوَى بِهِ غَيْرَ اللَّهِ أَوْ أُطْلِقَ فَلَيْسَ بِيَمِينٍ ، وَإِنْ نَوَى اللَّهُ تَعَالَى فَوَجْهَانِ ، صَحَّحَ النَّوَوِيُّ أَنَّهُ يَمِينٌ ، وَكَذَا فِي الْمُحَرَّرِ . وَخَالَفَ فِي الشَّرْحَيْنِ فَصَحَّحَ أَنَّهُ لَيْسَ بِيَمِينٍ ، وَاخْتَلَفَ الْحَنَابِلَةُ فَقَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى : لَيْسَ بِيَمِينٍ ، وَقَالَ الْمُجَدُّ بْنُ تَيْمِيَّةَ فِي الْمُحَرَّرِ : أَنَّهَا يَمِينٌ .

(110/299)

(6) إِشْرَاكَ غَيْرِهِ تَعَالَى فِي مَعَانِي أَسْمَائِهِ الْخَاصَّةِ مَعَ تَغْيِيرِ اللَّفْظِ ، كِإِطْلَاقِ لَفْظِ (الْوَسِيلَةِ) عَلَى بَعْضِ الصَّالِحِينَ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِقَضَاءِ الْحَاجَاتِ ، وَرَفْعِ الْكُرْبَاتِ ، وَكَفَايَةِ الْمُهَمَّاتِ ، مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ وَالْعَادَاتِ ، كَطَلَبِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْوَاتِ ، فَلَفْظُ الْوَسِيلَةِ هُنَا بِمَعْنَى (الِإِلَهِ) إِذْ مَعْنَاهُ الْمَعْبُودُ ، وَالِدُّعَاءُ مُخِ الْعِبَادَةِ وَأَعْظَمُ أَرْكَانِهَا كَمَا بَيَّنَّا مَرَارًا ، أَوْ (الرَّبِّ) الْمُدَبِّرِ لِلْأَمْرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ - فَهَذَا الْإِحَادُ فِي مَعَانِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَا فِي الْفَاظِهَا .

(7) إِشْرَاكُ غَيْرِهِ فِي كَمَالِ أَسْمَائِهِ التَّامِ الَّذِي وَصِفَتْ لِأَجْلِهِ بِالْحُسْنَى ، كَمَنْ يَزْعُمُ أَوْ  
يَعْتَقِدُ أَنَّ لغيرِهِ تَعَالَى رَحْمَةً كَرَحْمَتِهِ وَرَأْفَةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي أَسْمَائِهِ كَالْمُجِيبِ مَثَلًا ،  
قَالَ تَعَالَى وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (2 : 186)  
وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ رَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (11 : 61)  
وَأَنَّ بَعْضَ الَّذِينَ يَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ مِنَ الْمَوْتَى يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ وَأَسْرَعُ فِي إِجَابَتِهِمْ مِنَ اللَّهِ  
تَعَالَى ، فَيَجْمَعُونَ بِذَلِكَ بَيْنَ الشَّرِكِينَ : شَرِكِ دُعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ ، مَعَ اعْتِقَادِ إِجَابَتِهِ لِلدُّعَاءِ -  
وَاللَّهُ يَقُولُ : أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ  
اللَّهُ (27 : 62) أَيُّ : لَا يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِلَّا اللَّهُ . فَهُوَ إِلَهُ الْمُسْتَحِقِّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ ،  
وَالْكَفَرُ بِهِ بِتَفْضِيلِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي سُرْعَةِ الْإِجَابَةِ ، وَقَدْ سَمِعْتُ امْرَأَةً مِصْرِيَّةً تَدْعُو  
وَتَسْتَعِيثُ فِي

أمر أهمها: يا مَبُولِي يا مَبُولِي . . . فقلت لها بعد أن هدأ روعها: لماذا تدعين المَبُولِي  
ولا تدعين الله تعالى؟ قالت: المَبُولِي ما "يستناش" - أي لا يُهمل، ولا يتأخر في إجابة  
من دَعاه واستغاث به - وذكرت حكاية مُناقلة بين أمثالها وهي: أن رجلاً كان قد سرق  
سمكة فسيخ وأكلها، فحلفه صاحبها يمينا بالمَبُولِي، فحلف به فقياه الفسيخة، ولمثل  
هذه الحكايات يتجرأ أمثال هؤلاء على الحلف بالله تعالى كذبا، ولا يتجرؤون على  
الحلف بمعتقداتهم، وهذا نوع آخر من تفضيلهم إياهم على رب العالمين، وهو من إحد  
الشرك الصريح، ويؤمنون معه أنهم من المسلمين، ويتأول لهم علماء الجُمود المضلين،  
وينبزون من أنكر عليهم بلقب وهابيين ويمقتون هذا اللقب وإن صار بمعنى الموحدين .

(113/299)

وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا  
يَعْلَمُونَ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوْلَمْ  
يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ  
اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ  
يَعْمَهُونَ بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى مَعَ قَوْمِهِ الَّتِي خُتِمَتْ بِهَا قِصَصُ الرُّسُلِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ

بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لَنَا فِي بَعْضِ آيَاتِ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ شُؤْنِ الْبَشَرِ الْعَامَّةِ فِي الْإِيمَانِ وَالشِّرْكِ  
وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ ، وَمَا لِفَسَادِ الْفِطْرَةِ ، وَإِهْمَالِ مَوَاهِبِهَا مِنَ الْعَقْلِ وَالْحَوَاسِّ مِنْ سُوءِ الْمَالِ  
، وَأَرْشَدَنَا فِي آخِرِهَا إِلَى مَا يُصْلِحُ فِسَادَ الْفِطْرَةِ مِنْ دُعَائِهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى ، وَإِلَى مَا  
لِلْإِحَادِ فِيهَا مِنْ سُوءِ الْجَزَاءِ فِي الْعُقْبَى ، ثُمَّ قَفَى عَلَى هَذِهِ الْبِضْعِ الْآيَاتِ بِبِضْعِ آيَاتٍ أُخْرَى  
فِي شَأْنِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِدَأْهَا بِوَصْفِ أُمَّةِ الْإِجَابَةِ وَتَنَى بِذِكْرِ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ ،  
وَتَلَّتْ بِتَفْنِيدِ

(114/299)

---

مَا عَرَضَ لَهُمْ مِنَ الشُّبْهَةِ ، فَالْإِرْشَادُ إِلَى التَّفَكُّرِ الْمُوصِّلِ إِلَى فِقْهِ الْأُمُورِ ، وَمَا فِي حَقَائِقِهَا  
مِنَ الْعِبْرَةِ ، وَإِلَى النَّظَرِ الْهَادِي إِلَى مَا خَذَ الْبُرْهَانَ وَالْحُجَّةَ ، لِمَعْرِفَةِ صِدْقِ الرَّسُولِ ، وَمَا  
فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، فَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ الْمُؤَثِّرَةُ فِي النَّفْسِ الْمُسْتَعِدَّةِ  
بِالتَّذْكِيرِ بِقُرْبِ الْأَجْلِ ، وَالْإِحْتِيَاظِ لِلِقَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَخَتَمَهَا بِبَيَانِ عَدَمِ الطَّمَعِ فِي  
هِدَايَةِ مَنْ قَضَتْ سُنَّةَ اللَّهِ بِضَلَالِهِ ، وَتَرَكَهُ يَعْصِيهِ فِي طُغْيَانِهِ . قَالَ تَعَالَى :  
وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا  
لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَكَلَّمَهُمَا تَفْصِيلٌ لِجَمَالِ قَوْلِهِ تَعَالَى : مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ



الْمُهْتَدِي الْإِخْبَادُ بِيَانِ حَالِ مَنْ أَضَلَّهُمْ ، وَهُمْ الَّذِينَ أَهْمَلُوا  
اسْتِعْمَالَ قُلُوبِهِمْ ، وَأَبْصَارِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ فِي فَهْمِ آيَاتِ اللَّهِ ، وَأَنْهُمْ كَثِيرُونَ ، وَلَكِنَّهُ مَا  
سَمَّاهُمْ أُمَّةً لِأَنَّهُمْ لَا تَجْمَعُهُمْ فِي الضَّلَالِ جَامِعَةً ، وَلِأَنَّ الْبَاطِلَ كَثِيرٌ وَسَبْلُهُ مُتَفَرِّقَةٌ ، ثُمَّ ذَكَرَ  
هُنَا حَالَ مَنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ أَنَّ أُمَّةً ، أَيَّ جَمَاعَةٍ كَبِيرَةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ شُعُوبٍ وَقَبَائِلٍ  
كَثِيرَةٍ ، يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ دُونَ غَيْرِهِ يَعْدِلُونَ ، فَسَبَّلُهُمْ وَاحِدَةً لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ لَا تَعَدَّدُ ،  
هُؤُلَاءِ هُمُ أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

(115/299)

---

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَا التَّرْكِيْبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ  
بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) فَلْيُرَاجِعْ فَهُوَ قَرِيبٌ ، فَهَاتَانِ الْآيَاتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ لِقُرْبِ الشَّبهِ بَيْنَ  
أُمَّةِ مُوسَى وَأُمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَقُرْبِ الشَّبهِ بَيْنَهُمَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ أَيْضًا  
وَإِنَّمَا قَالَ : وَمِمَّنْ خَلَقْنَا الْإِخْلَامَ لِمُنَاسَبَةِ قَوْلِهِ فِي مُقَابَلَةٍ : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا أُيُّ : خَلَقْنَا فَهَذَا كَقَوْلِ  
ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ مِنْ صِفَتِهِمْ كَذَا ، وَهُنَا يَقُولُ : وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُيُّ : لِلْجَنَّةِ أُمَّةٌ صِفَتُهُمْ كَذَا وَكَذَا .

(116/299)

أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يُهْدُونَ بِالْحَقِّ قَالُ : ذَكَرْنَا أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : هَذِهِ أُمَّتِي ، بِالْحَقِّ يَحْكُمُونَ وَيَقْضُونَ ، وَيَأْخُذُونَ وَيُعْطُونَ وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ قَتَادَةَ فِيهَا قَالَ : بَلَّغْنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَقُولُ إِذَا قَرَأَهَا : " هَذِهِ لَكُمْ وَقَدْ أُعْطِيَ الْقَوْمُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِثْلَهَا " وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يُهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قَالَ : لَتَفْرُقَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَيَّ ثَلَاثَ وَسَبْعِينَ فَرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فَرْقَةً ، يَقُولُ اللَّهُ : وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يُهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ فَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تَنْجُو مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ اهـ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشَّقَّ الْأَوَّلَ مِنْ هَذَا الْأَثَرِ مَرْفُوعٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَذَكَرَهُ عَلِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَلِيُفَسِّرَ بِهِ الْفَرْقَةَ النَّاجِيَةَ ، وَقَدْ فَسَّرَهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ بِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَسْتَقِيمُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُوَ وَأَصْحَابُهُ ، وَمَعْنَى التَّفْسِيرَيْنِ وَاحِدٌ فِي مَالِهِمَا ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ أُمَّةٌ الْإِجَابَةُ لِدَعْوَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

(117/299)

ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ الْمَكْذِبِينَ مِنْ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ فَقَالَ :

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ الْاسْتِدْرَاجُ مَا خُذُ مِنَ الدَّرَجِ  
مَصْدَرِ دَرَجٍ، أَوْ مِنَ الدَّرَجَةِ وَهِيَ الْمِرْقَاةُ، يُقَالُ: دَرَجَ الْكِتَابَ وَالثَّوبَ وَأَدْرَجَهُ إِذَا طَوَّاهُ،  
وَيُعْبَرُ بِالدَّرَجِ - وَهُوَ الْمَصْدَرُ - عَنِ الْمُدْرَجِ أَيِ الْمَطْوِيِّ، وَيُقَالُ: دَرَجَ فُلَانٌ بِمَعْنَى مَاتَ،  
وَهَذِهِ آثَارُ قَوْمٍ دَرَجُوا أَيِ انْقَرَضُوا، جَعَلَهُ الرَّاعِبُ مَجَازًا بِالِاسْتِعَارَةِ، وَلَكِنَّ الزَّمْخَشَرِيَّ  
ذَكَرَهُ فِي حَقِيقَةِ الْأَسَاسِ وَقَالَ وَاسْتَدْرَجَهُ: رَقَّاهُ مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى دَرَجَةٍ، وَقِيلَ: اسْتَدْعَى  
هَلَكَةً مِنْ دَرَجٍ إِذَا مَاتَ. وَقَالَ الرَّاعِبُ فِي "سَنَسْتَدْرِجُهُمْ" مِنَ الْآيَةِ: قِيلَ مَعْنَاهُ  
سَنَطْوِيهِمْ طَيَّ الْكِتَابِ، عِبَارَةٌ عَنْ إِغْفَالِهِمْ نَحْوُ: وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا (18):  
(28) وَقِيلَ مَعْنَاهُ: سَنَأْخُذُهُمْ دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ، وَذَلِكَ إِذْ نَأْوُهُمْ مِنَ الشَّيْءِ شَيْئًا فَشَيْئًا  
كَالْمِرَاقِيِّ وَالْمَنَازِلِ فِي ارْتِقَائِهَا وَنَزُولِهَا اهـ .

(118/299)

---

أَقُولُ: وَالْمُرَادُ عَلَى هَذَا أَنَّهُمْ يَسْتَرْسِلُونَ فِي غِيْبِهِمْ وَضَلَّالِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرُونَ شَيْئًا مِنْ  
عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ وَلِجَهْلِهِمْ سُنَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمُنَازَعَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْمُصَارَعَةِ بَيْنَ  
الصَّارِ وَالنَّافِعِ، وَكَوْنِ الْحَقِّ يَدْمَعُ الْبَاطِلَ، وَمَا يَنْفَعُ النَّاسَ يَصْرَعُ مَا يَضُرُّهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى

: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (21 : 18) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : فَأَمَّا  
الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (13 : 17) وَأَمَّا الْمَعْنَى  
عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ فَهُوَ إِذْ أُنذِرُهُمْ بِهَذِهِ الْعَاقِبَةِ ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَأْخُذُهُمْ بِالْعِقَابِ وَيَنْصُرُ  
رَسُولَهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ بِالتَّدْرِيجِ وَكَذَلِكَ كَانَ .

(119/299)

وَالْجَمْعُ بَيْنَ مَعْنَيْهِ الْاسْتِدْرَاجِ جَائِزٌ هُنَا لِظُهُورِهِ فِيمَنْ نَزَلَ فِيهِمْ أَوَّلًا ، وَبِالذَّاتِ وَهُمْ كَهَارُ  
قُرَيْشِ الْجَاحِدُونَ وَالْمُبَالِغُونَ فِي عَدَاوَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَدْ كَانُوا مُغْتَرِبِينَ  
بِكَثْرَتِهِمْ وَثَرْوَتِهِمْ لَا يَعْتَدُونَ بِهِ وَلَا بغيرِهِ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ أَوَّلًا ، وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الضُّعَفَاءِ الْفُقَرَاءِ فَمَا  
زَالُوا يَتَدَرَّجُونَ فِي عَدَاوَتِهِمْ لَهُ وَقِتَالِهِمْ إِيَّاهُ حَتَّى أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ فَلَمْ  
يَعْتَبِرُوا ، ثُمَّ زَادَهُمْ غُرُورًا ظُهُورُهُمْ فِي آخِرِ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ وَقَالَ قَائِدُهُمْ أَبُو سُفْيَانَ " يَوْمَ بَدْرٍ  
بَدْرٌ " - إِلَى أَنْ كَانَ الْفَتْحُ الْأَعْظَمُ ، فَهَذَا كُلُّهُ اسْتِدْرَاجٌ بِمَعْنَى التَّنْقِلِ فِي مَدَارِحِ الْغُرُورِ ،  
وَبِمَعْنَى اخْتِذِ اللَّهُ إِيَّاهُمْ ، وَإِظْهَارِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنْ اتَّبَعَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ  
حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ سُنَنَهُ تَعَالَى فِي هَذَا وَلَا ذَاكَ .

وَقَدْ فَسَّرَ السُّدِّيُّ الْاسْتِدْرَاجَ بِالْمَعْنَى الثَّانِي ، فَجَعَلَهُ خَاصًّا بِأَخْذِهِمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ .

وَفَسَّرَ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ الْأَسْتِدْرَاجَ بِمَعْنَاهُ الْعَامُّ فِي اللُّغَةِ ، كَاغْتِرَارِ الْعُصَاةِ بِالنِّعَمِ الَّتِي  
تُنْسِيهِمُ التَّوْبَةَ ، وَتُلْهِيُهُمْ عَنِ شُكْرِ النِّعَمِ ، وَاقْتِصَارِهِمْ عَلَيْهِ غَفْلَةً عَنِ سَبَبِ النُّزُولِ ، وَمَنْ  
أَنْزَلَ فِيهِمْ فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَلَمِ : فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ  
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (68 : 44) وَقَفَّى عَلَيْهَا بِمِثْلِ مَا هُنَا - وَالسُّورَتَانِ  
مَكِّيَّتَانِ - وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينُ الْإِمْلَاءِ : الْإِمْدَادُ فِي الزَّمَنِ وَالْإِمْهَالُ  
وَالتَّأخِيرُ ، مُشْتَقٌّ مِنَ الْمَلُوءِ وَالْمَلَاوَةِ ، وَهِيَ الطَّائِفَةُ الطَّوِيلَةُ مِنَ الزَّمَنِ ، وَالْمَلَوَانِ : اللَّيْلُ  
وَالنَّهَارُ . قَالَ الرَّاعِبُ : وَحَقِيقَتُهُ تَكَرَّرُهُمَا وَامْتِدَادُهُمَا ، يُقَالُ : أُمْلَى لَهُ إِذَا أَمَّهَلَهُ طَوِيلًا ،  
وَأُمْلَى لِلْبَعِيرِ إِذَا أَرْخَى لَهُ الزِّمَامَ ، وَوَسَّعَ لَهُ فِي الْقَيْدِ وَلِيَتَّسِعَ لَهُ الْمَرْعَى . وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا  
(19 : 46) أَي زَمَنًا طَوِيلًا وَالْمَلَا بِالْقَصْرِ الْمَفَازَةَ الْوَاسِعَةَ الْمُمْتَدَّةَ ، وَأَمَّا الْإِمْلَاءُ لِلْكَاتِبِ  
بِمَعْنَى تَلْقِينِهِ مَا يَكْتُبُ فَاصْلُهُ أُمَّلَّ ، فَهُوَ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ .

وَالْكِيدُ كَالْمَكْرِ هُوَ التَّدْبِيرُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ غَيْرُ ظَاهِرِهِ ، بِحَيْثُ يُنْخَدَعُ الْمَكِيدُ لَهُ بِمَظْهَرِهِ  
فَلَا يَفْطِنُ لَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى مَا يَسُوءُهُ مِنْ مَخْبَرِهِ وَغَايَتِهِ ، وَأَكْثَرُهُ اِحْتِيَالٌ مَذْمُومٌ ، وَمِنْهُ  
الْمَحْمُودُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ الْمَصْلَحَةُ ، كَكَيْدِ يُوسُفَ لِأَخِيهِ الشَّقِيقِ مِنْ إِخْوَتِهِ لِأَبِيهِ  
بِرِضَاهُمْ وَمُقْتَضَى شَرِيْعَتِهِمْ ؛ وَلِذَلِكَ أُسْنِدُ وَأُضِيفَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مِثْلِ هَذَيْنِ  
الْمَوْضِعَيْنِ ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ إِضَافَةَ الْكَيْدِ وَالْمَكْرِ أَوْ إِسْنَادَهُمَا إِلَيْهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ  
مِنْ بَابِ الْمَشَاكَلَةِ ، أَوْ مُتَأَوَّلٌ بِمَعْنَى الْعِقَابِ وَالْجَزَاءِ ، وَمَا بَيَّنَّاهُ أَدَقُّ . وَالْمَتِينُ الْقَوِيُّ  
الشَّدِيدُ .

(122/299)

وَمَعْنَى الْآيَةِ : وَأَمْهَلُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ الْمُسْتَدْرَجِينَ فِي الْعُمُرِ ، وَأَمْدٌ لَهُمْ فِي أَسْبَابِ  
الْمَعِيشَةِ ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى الْحَرْبِ بِمُقْتَضَى سُنَّتِي فِي نِظَامِ الْجَمَاعَةِ لِلْبَشَرِ كَيْدًا لَهُمْ وَمَكْرًا  
بِهِمْ لَا حُبًّا فِيهِمْ وَنَصْرًا لَهُمْ فَذَرَهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينَ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ  
وَنَبِينٍ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (23 : 54 - 56) وَإِنْ تَسَّأَلَ عَنْ كَيْدِي فَهُوَ  
قَوِيٌّ مَتِينٌ . قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا رَوَاهُ الشَّيْخَانُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ  
أَبِي مُوسَى : إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلِتْهُ فَمَعْنَى هَذَا الْإِمْلَاءِ أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ

تَعَالَى فِي الْأُمَّمِ وَالْأَفْرَادِ قَدْ مَضَتْ بِاللَّيْئِ كُنْ عِقَابُهُمْ بِمُقْتَضَى الْأَسْبَابِ الَّتِي قَامَ بِهَا نِظَامُ  
الْخَلْقِ ، فَالْمَخْذُولُ إِذَا بَغَى وَظَلَمَ وَلَمْ يَنْزِلْ بِهِ الْعِقَابُ الْإِلَهِيُّ عَقِبَ ظُلْمِهِ يَزْدَادُ  
بُغْيًا وَظُلْمًا ، وَلَا يَحْسِبُ لِلْعَوَاقِبِ حِسَابًا ، فَيَسْتَرْسِلُ فِي ظُلْمِهِ إِلَى أَنْ تَحْقِيقَ بِهِ عَاقِبَةُ  
ذَلِكَ ، بِأَخْذِ الْحُكَّامِ لَهُ أَوْ تَوَرُّطِهِ فِي مَهْلَكَةٍ أُخْرَى ، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى .

(123/299)

وَقَدْ نَقَلْنَا فِي أَوَائِلِ هَذَا التَّفْسِيرِ عَنْ شَيْخِنَا الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ أَنَّ عَذَابَ الْأُمَّمِ فِي الدُّنْيَا مُطْرَدٌ  
، وَأَمَّا عَذَابُ الْأَفْرَادِ فَقَدْ يَتَخَلَّفُ وَيُرْجَأُ إِلَى الْآخِرَةِ . وَحَقَّقْنَا فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى أَنَّ  
عِقَابَ الْأُمَّمِ وَبَعْضَ عِقَابِ الْأَفْرَادِ أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ لِدُنُوبِهِمْ ، فَالْأُمَّمُ وَالشُّعُوبُ الْبَاغِيَةُ الظَّالِمَةُ لَا  
بُدَّ أَنْ يَزُولَ سُلْطَانُهَا وَتَدُولَ دَوْلَتُهَا ، وَالسُّكْرُ وَالزَّنَاءُ لَا يَسْلَمَانِ مِنَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي سَبَبُهَا  
السُّكْرُ وَالزَّنَاءُ ، وَالْمُقَامِرُ قَلَّمَا يَمُوتُ إِلَّا فَقِيرًا مُعْدَمًا إِنْ خُ .

وَقَدْ سَرَدْنَا الشَّوَاهِدَ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى عَلَى عِقَابِ الْأُمَّمِ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي صَدَّقَتْهَا شَوَاهِدُ  
التَّارِيخِ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ ، وَسَتُصَدِّقُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَمَا كَانَتْ الْحَرْبُ الْآخِرَةُ  
الْعُظْمَى إِلَّا بَعْضَ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى لِلَّذِينَ صَلُّوا نَارَهَا بِيَغْيِهِمْ وَفُسُوقِهِمْ ، وَسَيَرُونَ مَا هُوَ شَرُّ

مِنْهَا إِذَا لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ غِيْبِهِمْ .

بَعْدَ هَذَا أَرْشَدَهُمْ إِلَى الْمَخْرَجِ مِنْ أَكْبَرِ شُبُهَةِ لَهُمْ عَلَى الرَّسَالَةِ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(124/299)

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةِ الْجَنَّةِ بِالْكَسْرِ النَّوعِ الْخَاصُّ مِنَ الْجُنُونِ ، فَهُوَ اسْمٌ هَيْئَةٌ ، وَاسْمٌ لِلْجَنِّ أَيْضًا ، وَلَا يَصِحُّ هُنَا إِلَّا بِتَقْدِيرٍ مُضَافٍ ، أَيُّ مِنْ مَسِّ جَنَّةٍ - وَقَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ نُوحٍ أَوَّلِ رُسُلِهِ إِلَى قَوْمٍ مُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ اتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ فَقَالُوا بَعْدَ قَوْلِهِمْ إِنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ يُرِيدُ أَنْ يُتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ : إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (23 : 25) وَفِي سُورَةِ الْقَمَرِ عَنْهُمْ : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (54 : 9) وَفِي سُورَةِ الشُّعْرَاءِ حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - فِي مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (26 : 27) وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ فِي سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ : فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (51 : 39) ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ جَمِيعَ الْكُفَّارِ كَانُوا يَقُولُونَ هَذَا الْقَوْلَ فِي رُسُلِهِمْ فَقَالَ : كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَنْتَ أَصَوُّوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (51 : 52) ،



وَفِي مَعْنَى آيَةِ الْأَعْرَافِ فِي خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ عِدَّةٌ آيَاتٍ (مِنْهَا) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي كَهْفٍ  
مَكَّةَ مِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ: أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ

(125/299)

أَبَاءَهُمُ الْأُولِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ  
وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (23 : 68 - 70) وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ  
نَدَلَّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَنْبِئُكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ  
بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (34 : 7 ، 8) ثُمَّ قَالَ فِيهَا :  
قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشَىٰ وِفْرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ  
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (34 : 46) وَهَذِهِ شَبِيهَةٌ بِآيَةِ الْأَعْرَافِ . وَفِي  
أَوَّلِ سُورَةِ الْحَجْرِ: وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ  
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

(15 : 6 ، 7) وَفِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ: وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا الْهَيْئَةَ لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (37) :

(36) وَفِي سُورَةِ الطُّورِ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ: فَذَكَرْنَاكَ أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ

(52 : 29) وَمِثْلُهُ: ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (68 : 1 ، 2)

وَفِي آخِرِهَا : وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (68 : 51 ، 52) وَفِي سُورَةِ  
التَّكْوِينِ بَعْدَ وَصْفِ مَلِكِ الْوَحْيِ : وَمَا صَاحِبِكُمْ بِمَجْنُونٍ (81 : 22) .

(126/299)

رَوَى أَبْنَاءُ حُمَيْدٍ وَجَرِيرٍ وَالْمُنْدَرِ وَأَبُو حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : ذَكَرْنَا : " أَنَّ نَبِيَّ  
اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَامَ عَلَى الصَّافَا فَدَعَا قُرَيْشًا فَخَذَا فَخَذَا : يَا بَنِي فَلَانَ يَا  
بَنِي فَلَانَ يُحَذِّرُهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَوَقَائِعِ اللَّهِ إِلَى الصَّبَاحِ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ : إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا  
لَمَجْنُونٌ بَاتَ يَهْوَنُ (أَيَّ يَصِيحُ) حَتَّى أَصْبَحَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ  
جَنَّةٍ .

قَدْ عَلِمْنَا بِمَا سَبَقَ أَنَّ جَمِيعَ الْكُفَّارِ كَانُوا يَرْمُونَ رَسُولَهُمْ بِالْجُنُونِ ؛ لِأَنَّهُمْ ادَّعَوْا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
خَصَّهُمْ بِرِسَالَتِهِ وَوَحْيِهِ عَلَى كَوْنِهِمْ بَشَرًا كَثِيرَهُمْ لَا يَمْتَازُونَ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ بِمَا يَفُوقُ أَفْقَ  
الْإِنْسَانِيَّةِ ، كَمَا عَلِمَ مِنْ نَشَاتِهِمْ وَمَعِيشَتِهِمْ ؛ وَلِأَنَّهُمْ ادَّعَوْا مَا لَا يُعْهَدُ لَهُ عِنْدَهُمْ نَظِيرٌ ، وَلَيْسَ  
مِمَّا تَصِلُ إِلَيْهِ عُقُولُهُمْ بِالتَّفَكِيرِ ، وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْبَلَى خَلْقًا جَدِيدًا ؛  
وَلِأَنَّ كَلَامَهُمْ كَانَ يَدَّعِي أَنَّ النَّاسَ مُخْطِئُونَ وَهُوَ الْمُصِيبُ ، وَضَالُونَ وَهُوَ الْمُهْتَدِي ،

وَخَاسِرُونَ وَهُوَ الْمُفْلِحُ، إِلَّا مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْهُمْ - وَلَا تَنْتَهُمُ نَهَوًا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْكُرُوا أَنَّهَا  
بِالدُّعَاءِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّذْوِيرِ لَهَا تَقَرَّبُ

(127/299)

الْمُتَوَسِّلِينَ بِهَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَتَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَهُ، وَأَثْبَتُوا أَنَّ الشَّفَاعَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ  
عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، مَنْ رَضِيَ لَهُ لِمَنْ رَضِيَ عَنْهُ فَلَا اسْتِقْطَالَ لِهَوْلَاءِ اللَّهِ بِالشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ لِمَنْ  
تَوَسَّلَ بِهِمْ - وَشَرَعُوا أَنَّهُ لَا يُدْعَى مَعَ اللَّهِ أَحَدٌ مِنْ مَلَكَ كَرِيمٍ، وَلَا صَالِحٍ عَظِيمٍ، فَضْلًا عَنْ  
صُورِهِمْ وَتَمَاثِلِهِمْ الْمَذْكُورَةَ بِهِمْ وَقُبُورِهِمْ الْمُشْرِفَةَ بِرِفَاتِهِمْ مَعَ أَنَّ الْمَذْنِبَ الْعَاصِيَ لَا يَلِيقُ بِهِ  
فِي رَأْيِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُدْعَوْا اللَّهُ تَعَالَى بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَلَا وَسِيلَةٍ تَدْنِسُهُ بِالذُّنُوبِ، فَيَحْتَاجُ  
إِلَى مَنْ يَقْرُبُهُ إِلَيْهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ الطَّاهِرِينَ، وَشَبَّهْتُهُمْ أَنَّ الْمُلُوكَ الْعِظَامَ فِي الدُّنْيَا لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ  
عَلَيْهِمْ إِلَّا بِإِذْنِ وَزَرَائِهِمْ وَحُجَّابِهِمْ، وَمِنْ الْغَرِيبِ أَنَّ هَذِهِ الشُّبُهَةَ الشَّرِكِيَّةَ لَا تَزَالُ مُتَسَلِّسَةً  
فِي جَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ، حَتَّى مَنْ أَشْرَكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ خَالَفُوا نُصُوصَ  
الْكِتَابِ الْإِلَهِيَّةِ وَسُنَّةِ الرَّسُلِ، إِلَى أَعْمَالِ الْوَتَنِيِّينَ، وَلَا يَرُونَ بِأَسَافِي تَشْبِيهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ  
وَأَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، بِالْمُلُوكِ الظَّالِمِينَ الْمُسْتَبِدِّينَ .

وَأَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ فَلَا سُنْفَهَامُ فِيهِ لِلإِنكَارِ وَالتَّوْبِيخِ ، وَهُوَ دَاخِلٌ عَلَى فِعْلِ حُذْفِ اللَّعْمِ بِهِ مِنْ سِيَاقِ الْقَوْلِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَمْثَالِهِ ، وَالتَّقْدِيرُ : أَكْذَبُوا الرَّسُولَ وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي حَالِهِ مِنْ أَوَّلِ

(128/299)

نَشَأَتِهِ ، وَفِي حَقِيقَةِ دَعْوَتِهِ ، وَدَلَائِلِ رِسَالَتِهِ ، وَآيَاتِ وَحْدَانِيَّةِ رَبِّهِ ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى إِعَادَةِ الْخَلْقِ كَمَا بَدَأَهُمْ وَحِكْمَتِهِ فِي ذَلِكَ - فَإِنَّ حُذْفَ مَعْمُولِ التَّفَكُّرِ يُؤْذَنُ بِعُمُومِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَقَامُ مِمَّا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ كَمَا هِيَ الْقَاعِدَةُ الْمَعْرُوفَةُ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي .

(129/299)

أَلَا فَلْيَتَفَكَّرُوا ؛ فَالْمَقَامُ مَقَامُ تَفَكُّرٍ وَتَأَمُّلٍ إِنَّهُمْ إِنْ تَفَكَّرُوا أَوْشَكَ أَنْ يَعْرِفُوا الْحَقَّ ، وَمَا الْحَقُّ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ جُمْلَةً مُسْتَأْنَفَةً لِبَيَانِ الْحَقِّ فِي أَمْرِ الرَّسُولِ نَفِيًّا وَإِثْبَاتًا ، فَهِيَ نَافِيَةٌ لِمَا رَمَوْهُ بِهِ مِنَ الْجُنُونِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَقَوْلِهِ : وَمَا صَاحِبِكُمْ بِمَجْنُونٍ وَمِثْلَهَا آيَةٌ سَيَأْتِي : ثُمَّ تَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ ؛ وَلِذَلِكَ خُصِّمَتْ بِنَفْيِ كُلِّ صِفَةٍ عَنْهُ فِي مَوْضِعِ رِسَالَتِهِ إِلَّا كَوْنَهُ مُنْذِرًا مُبَلِّغًا عَنْ رَبِّهِ ، فَقَالَ هُنَا : إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

الإِنذَارُ تَعْلِيمٌ وَإِرْشَادٌ مُّقْتَرَنٌ بِالتَّخْوِيفِ مِنْ مُخَالَفَتِهِ ، أَيْ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ ، لَيْسَ إِلا مُنْذِرًا  
نَاصِحًا ، وَمُبَلِّغًا عَنِ اللَّهِ مُبِينًا ، يُنْذِرُكُمْ مَا يَحِلُّ بِكُمْ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِذَا لَمْ  
تَسْتَجِيبُوا لَهُ ، وَقَدْ دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ فِي الدُّنْيَا بِجَمْعِ كَلِمَتِكُمْ ، وَإِصْلَاحِ أَفْرَادِكُمْ  
وَمُجْتَمَعِكُمْ ، وَالسِّيَادَةَ عَلَى غَيْرِكُمْ ، وَيُحْيِيكُمْ فِي الْآخِرَةِ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ . وَقَالَ هُنَاكَ : إِنَّ  
هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ  
(34 : 46) .

(130/299)

---

وَقَدْ عَبَّرَ عَنْهُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، وَفِي آيَةِ التَّكْوِيرِ بِالصَّاحِبِ لَهُمْ : لِتَذْكَيرِهِمْ بِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ  
مِنْ أَوَّلِ نَشَأَتِهِ إِلَى أَنْ تَجَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، فَمَا عَلَيْهِمْ إِلا أَنْ يَتَفَكَّرُوا حَقَّ التَّفَكُّرِ فِي  
سِيرَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْمَعْقُولَةِ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الشُّذُوزَ وَمُجَافَاةَ الْمَعْقُولِ لَيْسَ مِنْ دَأْبِهِ ، وَلَا مِمَّا عُنِدَ  
عَنْهُ ، وَكَذَلِكَ الْكُذْبُ كَمَا قَالَ بَعْضُ زُعَمَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ : إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُذِبْ قَطُّ  
عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَفِيكَذِبُ عَلَى اللَّهِ ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي أَوْلِيكَ الزُّعَمَاءِ : فَإِنَّهُمْ لَا  
يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (6 : 33) .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِنَا هَذَا شُبُهَةَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الرَّسْلِ بِكُونِهِمْ بَشَرًا مَعَ الرَّدِّ عَلَيْهَا كَذَلِكَ  
شُبُهَاتُهُمْ عَلَى الْبُعْثِ مَعَ الرَّدِّ عَلَيْهَا .

(131/299)

وَلَوْ تَفَكَّرَ مُشْرِكُ مَكَّةَ فِي نَشْأَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَخْلَاقِهِ وَأَدَابِهِ ، وَمَا  
جَرَّبُوا مِنْ أَمَاتِهِ وَصِدْقِهِ مِنْ صُبُوتِهِ إِلَى أَنْ أَكْهَلَ ، ثُمَّ تَفَكَّرُوا فِي مَا قَامَ يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنْ  
تَوْحِيدِ اللَّهِ بِعِبَادَتِهِ وَحَدُّهُ ، وَمِنْ كَوْنِ حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ تَقْضِي  
تَنْزُّهُهُ عَنِ الْعَبَثِ (وَمِنْهُ) أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِنْسَانُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْعَاقِلُ الْبَاحِثُ عَنْ حَقَائِقِ  
الْأَشْيَاءِ مِنْ مَاضٍ وَحَاضِرٍ وَآتٍ ، وَيُنْتَهِي وَجُودَهُ بِالْعَدَمِ الْمَحْضِ الَّذِي هُوَ فِي نَفْسِهِ مُحَالٌ  
ثُمَّ لَوْ تَفَكَّرُوا فِي سُوءِ حَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ (كِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ) وَالْأَدْبِيَّةِ وَالْمَدِينِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَمَا  
دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ إِصْلَاحِهَا كُلِّهَا ، لَعَلِمُوا أَنَّ هَذَا الْإِصْلَاحَ الدِّينِيَّ وَالْأَدْبِيَّ وَالْاجْتِمَاعِيَّ  
وَالسِّيَاسِيَّ لَا يُثْمِرُ إِلَّا السِّيَادَةَ وَالسَّعَادَةَ ، وَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرُهُ جُنُونٌ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ  
، بَلْ إِذَا كَانَ فِيهِ شَيْءٌ غَيْرٌ مَعْقُولٌ ، فَهُوَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعِلْمُ الْعَالِيُّ وَالْإِصْلَاحُ  
الْكَامِلُ مِنْ رَأْيِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأُمِّيِّ النَّاشِئِ بَيْنَ الْأُمِّيِّينَ ، وَلَا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْبَلَاغَةُ  
الْمُعْجِزَةُ لِلْبَشَرِ فِي أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ وَنَظْمِهِ مِنْ كَسْبِ مُحَمَّدٍ الَّذِي بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ ، وَلَمْ يَنْظُمْ

قَصِيدَةٌ، وَلَا ارْتَجَلَ خُطْبَةً، وَأَنَّ هَذِهِ الْحُجَجَ الْبَالِغَةَ عَلَى كُلِّ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْقُرْآنُ،

وَالْبَرَاهِينُ

(132/299)

---

الْعَقْلِيَّةُ وَالْعِلْمِيَّةُ الْكَوْنِيَّةُ، لَا يَأْتِي أَنْ تَأْتِيَ فِجَاءَةً مِنْ ذِي عَزْلَةٍ لَمْ يُنَاطَرْ وَلَمْ يُفَاخَرْ وَلَمْ يُجَادَلْ  
أَحَدًا فِيمَا مَضَى مِنْ عُمُرِهِ كَمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - فَإِذَا تَفَكَّرُوا فِي هَذَا كَلِّهِ جَزَمُوا بِأَنَّ هَذَا  
كَلَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى

الْقَاهُ فِي رُوعِهِ، وَنَزَلَ مِنْ لَدُنْهُ عَلَى رُوحِهِ، وَعَلِمُوا أَنَّ اسْتِبْعَادَهُمْ لَذَلِكَ جَهْلٌ مِنْهُمْ، فَاللَّهُ  
تَعَالَى الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ؛ وَلِهَذَا حَثَّ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي هَذَا  
الْمَقَامِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا، وَذَكَرَ بَعْدَهَا كَوْنَهُ نَذِيرًا مُبِينًا، وَنَذِيرًا بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ

شَدِيدٍ .

(133/299)

---

ثُمَّ إِنَّهُ دَعَاهُمْ بَعْدَ هَذَا إِلَى التَّنْظُرِ وَالِاسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ فَقَالَ: أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكَوتِ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمُ الْمَلَكَوتُ  
: الْمَلِكُ الْعَظِيمُ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ صِيغَةُ (فَعَلُوتَ) وَالْمُرَادُ بِمَلَكَوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
مَجْمُوعُ الْعَالَمِ لِأَنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِهِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ أَظْهَرَ فِي الْعَالَمِ  
فِي جُمْلَتِهِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ قَدِيمًا أَزَلِيًّا ، وَلَا نِزَاعَ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْكُونِ فِي إِمكَانِهِ ، وَلَا فِي  
حُدُوثِ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُونَ فِي مَصْدَرِهِ وَمَمَّ وَجَدَ ، وَهُوَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ  
عَدَمٍ مَحْضٍ لِأَنَّ الْعَدَمَ الْمَحْضَ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْخَارِجِ بَلْ هُوَ أَمْرٌ فَرَضِيٌّ ، فَلَا يُعْقَلُ أَنْ  
يَصْدُرَ عَنْهُ وَجُودٌ ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُ قَدْ أُوجِدَ الْبَعْضَ الْآخَرَ ، وَهَذَا بَدِيهِيٌّ  
وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ ، فَلَا بُدَّ إِذَا مِنْ أَنْ يَكُونَ صَادِرًا عَنْ وَجُودٍ آخَرَ غَيْرِهِ ، وَهُوَ اللَّهُ  
وَاجِبُ الْوُجُودِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا النِّظَامَ الْعَامَّ فِي الْمَلَكَوتِ الْأَعْظَمِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَصْدَرَهُ وَاحِدٌ  
، وَتَدْوِينُهُ رَاجِعٌ إِلَى عِلْمٍ عَلِيمٍ وَاحِدٍ ، وَحِكْمَةٍ حَكِيمٍ وَاحِدٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَّ خَلَقُوا  
مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (52 : 35 ،

. (36)

(134/299)



وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَكْذَبُوا الرَّسُولَ الْمَشْهُورَ بِالْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ، وَقَالُوا: إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ. وَهُوَ  
الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ بِالرِّوَايَةِ وَالْعَقْلِ، حَتَّى جَعَلُوا تَحْكِيمَهُ فِي تَنَازُعِهِمْ عَلَى رُفْعِ الْحِجْرِ  
الْأَسْوَدِ هُوَ الْحُكْمُ الْفَصْلُ - وَلَمْ يَنْظُرُوا نَظَرَ تَأَمُّلٍ وَاسْتِدْلَالٍ فِي مَجْمُوعِ مَلَكَاتِ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ عَلَى عَظَمَتِهِ، وَالنِّظَامِ الْعَامِ الَّذِي قَامَ بِجُمْلَتِهِ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ فِي كُلِّ  
مِنْهُمَا، وَإِنْ دَقَّ وَصَغُرَ، وَخَفِيَ وَاسْتَرَّ، فَنِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى عِلْمِهِ  
وَقُدْرَتِهِ، وَمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَكَوْنِهِ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا عَبَثًا، وَلَا يَتْرُكُ  
النَّاسَ سُدًى، تَدُلُّ عَلَى

ذَلِكَ بِوُجُودِ ذَلِكَ الشَّيْءِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَتَرْجِيحِ كُلِّ وَصْفٍ مِنْ أَوْصَافِهِ عَلَى مَا يُقَابِلُهُ،  
وَبِمَا فِيهَا مِنْ فَائِدَةٍ وَمَنْفَعَةٍ، فَكَيْفَ بِالْمَلَكَاتِ الْأَعْظَمِ فِي

(135/299)

---

جُمْلَتِهِ، وَالنِّظَامِ الْبَدِيعِ الَّذِي قَامَ هُوَ بِهِ؟ أَكْذَبُوا وَقَالُوا مَا قَالُوا، وَلَمْ يَنْظُرُوا فِي الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ  
، وَلَا فِي ذَرَّاتِ الْعَالَمِ الْأَصْغَرِ، نَظَرَ تَأَمُّلٍ وَاعْتِبَارٍ، وَتَفَكُّرٍ وَاسْتِدْلَالٍ، وَلَا فِيمَا عَسَى أَنْ  
يَكُونَ عَلَيْهِ الشَّانُ مِنْ اقْتِرَابِ أَجْلِهِمْ، وَقُدُومِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِسُوءِ عَمَلِهِمْ، فَأَجَلَ  
الْأَفْرَادِ مَهْمًا يَطُلُ فَهُوَ قَصِيرٌ، وَمَهْمًا يَبْعُدُ أَمَلُهُمْ فِيهِ فَهُوَ فِي الْحَقِّ الْوَاقِعِ قَرِيبٌ، وَلَوْ نَظَرُوا

فِي الْمَلَكُوتِ أَوْ فِي شَيْءٍ مَّا مِنْهُ ، وَاعْتَبِرُوا بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى آيَاهُ ، لَاهْتَدُوا بِدَلَالِهِ إِلَى  
تَصْدِيقِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ ، وَلَوْ نَظَرُوا فِي تَوَقُّعِ قُرْبِ أَجْلِهِمْ  
لَا حَتَا طَوْا لَأَنْفُسِهِمْ ، وَرَأَوْا أَنَّ مِنَ الْعَقْلِ وَالرَّوْيَةِ أَنْ يَقْبَلُوا إِذْ بَارَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
لَهُمْ ، لِأَنَّ خَيْرِيَّتَهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ظَاهِرَةٌ لَمْ يَكُونُوا يُنْكِرُونَهَا ، وَأَمَّا خَيْرِيَّتُهُ فِي الْآخِرَةِ فَهِيَ  
أَعْظَمُ إِذَا صَدَّقَ مَا يُقَرَّرُهُ مِنْ أَمْرِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَهُوَ صِدْقٌ وَحَقٌّ ، وَإِنْ صَحَّ أَنْكَارُهُمْ  
لَهُ - وَمَا هُوَ بِصَحِيحٍ - فَلَا ضَرَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِحْتِيَاطِ لَهُ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :  
قَالَ الْمُنَجِّمُ وَالطَّيِّبُ كِلَاهُمَا . . . لَا تَبْعَثُ الْأَمْوَاتُ ، قُلْتُ : إِلَيْكُمَا  
إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ . . . أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا

(136/299)

فَالْمَجْنُونُ إِذَا مَنْ يَتْرُكُ مَا فِيهِ سَعَادَةُ الدُّنْيَا بِاعْتِرَافِهِ ، وَسَعَادَةُ الْآخِرَةِ وَلَوْ عَلَى إِحْتِمَالٍ لَا  
ضَرَرَ فِي تَخَلُّفِهِ ، لَا مَنْ يَدْعُو إِلَى السَّعَادَتَيْنِ ، أَوْ إِلَى شَيْئَيْنِ يَجْزُمُونَ بِأَنَّ أَحَدَهُمَا نَافِعٌ  
قَطْعًا وَالْآخَرَ إِمَّا نَافِعٌ وَإِمَّا غَيْرُ ضَارٍّ . هَذَا مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ صَاحِبُهُمْ بِكِتَابِ رَبِّهِمْ مُؤَيَّدًا  
بِالْبُرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ ، لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ وَيَعْلَمُونَ .  
فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ وَرَدَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِنَصِّهَا فِي آخِرِ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ ، الْآيَةُ رَقْمٌ "

50 " الَّتِي أُقِيمَتْ فِيهَا الدَّلَائِلُ عَلَى الْبُعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَتَهْدِيدِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْوَيْلِ وَالْهَلَاكِ بَعْدَ تَقْرِيرِ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا . وَوَرَدَ فِي الْآيَةِ السَّادِسَةِ مِنْ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ (45) بَعْدَ التَّذْكِيرِ بِآيَاتِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَآيَاتِهِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ، وَآيَاتِهِ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ ، قَوْلُهُ : تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَالْحَدِيثُ فِي الْجَمِيعِ كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ هُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي رَسُولِهِ : إِنَّهُ هُوَ الْإِلَاحُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (7 : 184) وَفِي آيَةِ الْمُرْسَلَاتِ الْقَرِينَةِ فِي تَهْدِيدِ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ ، وَفِي آيَةِ الْجَاثِيَةِ افْتِتَاحِ السُّورَةِ بِذِكْرِ الْكِتَابِ ، فَيَكُونُ مَعْنَاهَا : فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ كِتَابِ

(137/299)

---

اللَّهُ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى وَآيَاتِهِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا بَعْدَهَا يُؤْمِنُونَ ؟ وَالْمُرَادُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَذِيرٌ مُبِينٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا أَنْذَرَ النَّاسَ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَيُّ الْقُرْآنِ . كَمَا أَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ : وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ (6 : 19)

(138/299)

---

وَهُوَ أَكْمَلُ كُتُبِ اللَّهِ بَيَانًا ، وَأَقْوَاهُمْ بُرْهَانًا ، وَأَقْرَبُهَا سُلْطَانًا ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَلَا مَطْمَعٍ فِي  
إِيمَانِهِ بغيره ، وَمَنْ لَمْ يَرَوْظَمَاهُ الْمَاءُ النَّقَاحُ الْمُبْرَدُ فَأَيُّ شَيْءٍ يَرَوِيهِ ؟ وَمَنْ لَمْ يُبْصِرْ فِي نُورِ  
النَّهَارِ فِي أَيِّ نُورٍ يُبْصِرُ ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ هَذَا اسْتِنَافٌ بَيَانِيٌّ  
مُتَقَرَّرٌ لِحُجْمَةِ هَذَا السِّيَاقِ ، وَمَعْنَى الْجُمْلَةِ الْمُرَادِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ هَذَا الْقُرْآنَ أَكْظَمَ  
أَسْبَابِ الْهُدَايَةِ ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ لِالْجَاحِدِينَ الْمُعَانِدِينَ ، وَجَعَلَ الرَّسُولَ الْمُبَلِّغَ  
لَهُ أَكْمَلِ الرَّسْلِ ، وَأَقْوَاهُمْ بُرْهَانًا فِي حَالِهِ وَعَقْلِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَكُونِهِ أُمِّيًّا - فَمَنْ فَقَدَ الْاسْتِعْدَادَ  
لِلْإِيمَانِ وَالْهُدَى بِهَذَا الْكِتَابِ ، عَلَى ظُهُورِ آيَاتِهِ وَقُوَّةِ بَيِّنَاتِهِ ، وَبِهَذَا الرَّسُولِ الْمُتَحَدَّى بِهِ ،  
فَهُوَ الَّذِي أَضَلَّهُ اللَّهُ ، أَيُّ قَضَتْ سُنَّتُهُ فِي نِظَامِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ ، وَارْتِبَاطِ الْمُسَبِّبَاتِ فِي  
أَعْمَالِهِ بِالْأَسْبَابِ ، بَأَنْ يَكُونَ ضَالًّا رَاسِخًا فِي الضَّلَالِ ، وَإِذَا كَانَ ضَالًّا بِمُقْتَضَى سُنَنِ  
اللَّهِ ، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؟ وَلَا قُدْرَةَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى تَغْيِيرِ سُنَنِهِ وَلَا تَبْدِيلِهَا .

(139/299)

وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أَيُّ: وَهُوَ تَعَالَى يَتْرُكُ هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ فِي طُغْيَانِهِمْ ، كَالشَّيْءِ  
الَّذِي لَا يَبَالِي بِهِ ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ يَعْمَهُونَ فِيهِ أَيُّ يَتَرَدَّدُونَ تَرَدُّدَ الْحَيْرَةِ وَالْغَمَّةِ لَا يَسْتَطِيعُونَ  
حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ، وَفِي هَذَا بَيَانٌ لِسَبَبِ ضَلَالِهِمْ مِنْ كَسْبِهِمْ ، وَهُوَ الطُّغْيَانُ ، أَيُّ

تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفُجُورِ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْعَمَةِ ، وَهُوَ التَّرَدُّ  
فِي الْحَيْرَةِ وَالْارْتِكَاسِ فِي الْعُمَّةِ ، وَقَدْ رُوِيَ فِي إِفْرَادِ الضَّمِيرِ أَوَّلًا لَفْظُ مَنْ " يُضِلُّ " وَفِي  
جَمْعِهِ آخِرًا مَعْنَاهَا وَهُوَ الْجَمْعُ ، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ . .

وَقَدْ عَلِمَ مِمَّا قَرَّرْنَاهُ أَنَّ إِسْنَادَ الْإِضْلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَجْبَرَهُمْ عَلَى الضَّلَالِ  
إِجْبَارًا ، وَأَعْجَزَهُمْ بِقُدْرَتِهِ عَنِ الْهُدَى فَكَانَ ضَلَالُهُمْ اضْطِرَارًا لَا اخْتِيَارًا ، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ  
مَارَسُوا الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ ، وَأَسْرَفُوا فِيهِمَا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى حَدِّ الْعَمَةِ فِي الطُّغْيَانِ ، فَفَقَدُوا  
بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ الْاخْتِيَارِيَّةَ مَا يُضَادُّهَا مِنَ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ .

وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِيَّ " يَذَرُهُمْ " يَأْسُكَانِ الرَّاءِ ، فَقِيلَ : هُوَ لِلتَّخْفِيفِ . وَقِيلَ : لِلْإِعْرَابِ  
بِالْعَطْفِ عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ ، وَقَرَأَهُ بَعْضُ الْقُرَّاءِ بِ " التُّونِ " عَلَى الْاَلْتِفَاتِ .  
(تَحْقِيقُ مَعْنَى الْفِكْرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ الْعَقْلِيِّ)

(140/299)

---

مِنْ تَحْقِيقِ الْمَبَاحِثِ اللَّفْظِيَّةِ فِي الْآيَاتِ كَلِمَاتِ التَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ الْعَقْلِيِّ ، وَقَدْ عُبِّرَ هُنَا بِالتَّفَكُّرِ  
فِي مَوْضُوعِ اسْتِبَانَةِ كَوْنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْسَ بِمَجْنُونٍ كَمَا زَعَمَ بَعْضُ  
غَوَاةِهِمْ ، وَبِالنَّظَرِ فِي جُمْلَةِ الْمَلَكُوتِ وَجُزْئِيَّاتِهِ فِي مَوْضُوعِ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ

مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَنَبِّينُ ذَلِكَ بِمَا تَطَهَّرُ بِهِ نَكَّةَ الْفَرْقِ بَيْنَ التَّعْبِيرَيْنِ ، وَيَجَلِي تَفْسِيرُ  
الْآيَتَيْنِ :

الفِكرُ بالكسرِ عبارةٌ عن التأمُّلِ في المعاني وتدبرها ، وهو اسمٌ من فِكرٍ فِكرٌ فِكرًا (من  
بابِ ضربٍ) وفِكرٌ بالتشديدِ وتفكيرٌ ، ومثله الفِكرَةُ والفِكرى . وفسرُوه أيضًا بإعمالِ  
الخاطرِ وإجالته في الأمور ، وقال الراغبُ : الفِكرَةُ مطرقةٌ للعلمِ إلى المعلومِ - والتفكيرُ  
جولانٌ تلك القوةُ بحسبِ نظرِ العقلِ . . . ولا يُقالُ إلا فيما يُمكنُ أن يحصلَ له صورةٌ في  
القلبِ ، ولهذا روي " تفكروا في آلاءِ الله ولا تفكروا في الله " إذ كان منزلها أن يُوصفَ  
بصورةٍ . ثم أورد الشواهدَ من الآياتِ ، ومنها آيةُ الأعرافِ هذه . ثم نقلَ عن بعضِ الأدباءِ  
أنَّ الفِكرَ مقلوبٌ عن الفِركِ لِكَنِّهِ يستعملُ في المعاني ، وهو فِركُ الأمورِ ويحثُّها طلبًا  
للوصولِ إلى حقيقتها اهـ .

(141/299)

---

وقال علماء المنطق : الفكرُ ترتيبُ أمورٍ معلومةٍ للتوصلِ إلى مجهولٍ تصوُّريٍّ أو تصديقيٍّ ،  
وهو ينافي الحكمَ على ظواهرِ الأشياءِ أو فيها بادي الرأيِ من غيرِ تمحيصٍ ولا تقديرٍ ،  
واستعمالُ القرآنِ للتفكيرِ والتفكيرِ يدلُّ على أنَّهما في العقلياتِ المحضَةِ أو في العقلياتِ

التي مبادئها حسيّاتٌ، فالإنسانُ يفكرُ فيما ينبغي أن يقولهُ في المواقفِ التي تميّزُ الأقوالُ،  
وفيما ينبغي أن يفعلهُ حيثُ تُنتقدُ الأفعالُ، ويفكرُ في أقوالِ الناسِ وأفعالِهِمْ، ويفكرُ في  
الأُمورِ الاجتماعيّةِ والأدبيّةِ والدينيّةِ والسياسيّةِ، ويفكرُ أيضًا في المُبصّراتِ  
كالمسموعاتِ والمعقولاتِ، وأكثرُ ما استعملهُ التّنزيلُ في آياتِ الله ودلائلِ وجودهِ  
ووَحدانيّتهِ وحِكمتهِ ورَحْمتهِ .

وأما النَّظْرُ فقد قال الرَّاعِبُ في تعريفهِ : هُوَ تَقْلِيْبُ البَصْرِ أَوِ البَصِيرَةِ فِي إِدْرَاكِ الشَّيْءِ  
وَرُؤْيِيهِ ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ التَّامُّلُ وَالْفَحْصُ ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ المَعْرِفَةُ الحَاصِلَةُ بَعْدَ الفَحْصِ وَهُوَ  
الرُّؤْيَةُ ، يُقالُ : نَظَرْتُ فَلَمْ تَنْظُرْ ، أَي لَمْ تَتَأَمَّلْ وَلَمْ تَتَرَوَّ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى :

(142/299)

---

قُلْ انظُرُوا مَا ذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (10 : 101) أَي تَأَمَّلُوا . وَاسْتِعْمَالُ النَّظْرِ فِي  
البَصْرِ أَكْثَرُ عِنْدَ العَامَّةِ ، وَفِي البَصِيرَةِ أَكْثَرُ عِنْدَ الخَاصَّةِ . اهـ . وَقَدْ اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ  
المَعْقُولِ مِنَ المَنَاطِقَةِ وَالمُتَكَلِّمِينَ فِي الفِكْرِ وَالنَّظْرِ ، هَلْ هُمَا مُتَرَادِفَانِ أَوْ أَحَدُهُمَا أَخْصُ  
مِنَ الأخرِ ؟ وَلَهُمْ كَلَامٌ طَوِيلٌ فِي ذَلِكَ أَكْثَرُهُ اصْطِلَاحِيٌّ غَيْرٌ مُقَيَّدٌ بِاسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ .  
وَاسْتِعْمَالُ القُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّظْرَ العَقْلِيَّ مُبْدَأٌ مِنْ مَبَادِيِ الفِكْرِ وَالتَّفَكِيرِ ، كَمَا أَنَّ مُبْدَأَهُ

هُوَ النَّظَرُ الْحِسِّيُّ فِي الْغَالِبِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (88) :

(17) إِنْخِ وَقَوْلِهِ : أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا (50 : 6) ؟ إِنْخِ . وَمِنْهُ النَّظَرُ فِي عَاقِبَةِ الْأُمَّمِ بِرُؤْيَةِ آثَارِهَا فِي عِدَّةِ آيَاتٍ ، وَالشَّوَاهِدُ عَلَى ذَلِكَ فِي التَّنْزِيلِ مَعْرُوفَةٌ فَلَا نَطِيلُ فِي سَرْدِهَا ، وَالآيَاتُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا جَمَعَتْ بَيْنَ الْمَبْدَأِ الْحِسِّيِّ ، وَهُوَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالْمَبْدَأِ الْفِكْرِيِّ وَهُوَ اقْتِرَابُ الْأَجَلِ ، وَهُمَا وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا يَدَّلَانِ

عَلَى بِنَاءِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ عَلَى قَاعِدَتَيْ : النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ ، وَالتَّفَكُّرِ ، اللَّذَيْنِ يَمْتَّازُ بِهِمَا الْأَفْرَادُ وَالْأُمَّمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ تفسير المنار ح

9 ص 361.386 ﴿

(143/299)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186) ﴾

هذه الجملة تعليل للإنكار في قوله : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 185]

، لإفادة أن ضلالهم أمر قدر الله دوامه ، فلا طمع لأحد في هديهم ، ولما كان هذا الحكم



حاقاً على من اتصف بالتكذيب ، وعدم التفكير في حال الرسول صلى الله عليه وسلم  
وعدم النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله ، وفي توقع اقتراب استيصالهم ،  
كان المحكوم عليهم بعدم الاهتداء فريقياً غير معروف للناس ، وإنما يفرد الله بعلمه ويُطلع  
عليه رسوله عليه الصلاة والسلام ، وينكشف بعض ذلك عند موت بعضهم على الشرك ،  
وهذه هي المسألة الملقبة بالموافاة عند علماء الكلام .

وعطف جملة : ﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ على جملة : ﴿ من يضل الله فلا  
هادي له ﴾ للإشارة إلى استمرار ضلالهم وانتفاء هديهم في المستقبل كما وقع في  
الماضي .

وتفسير : ﴿ نذرهم ﴾ تقدم في قوله تعالى : ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ﴾ في سورة  
الأنعام ( 70 ) وتفسير " طغيان " و ﴿ يعمهون ﴾ تقدم عند قوله : ﴿ في طغيانهم  
يعمهون ﴾ في سورة البقرة ( 15 ) .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر : ﴿ نذرهم ﴾ بالنون وبالرفع ، على أنه عطف جملة  
على جملة : ﴿ من يضل الله ﴾ على طريقة الالتفات من الغيبة إلى التكم .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : بالياء التحتية والجزم ، على أنه عطف على موضع ﴿  
فلا هادي له ﴾ وهو جواب الشرط .

وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب: بالياء التحتية وبالرفع والوجه ظاهر. انتهى انتهى. ا.

هـ ✽ التحرير والتنوير ح 8 ص ✽

(144/299)

وقال الشيخ الشعراوي:

✽ مَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186) ✽

وقد كرر الحق هذا كثيراً، لأن الأشياء التي قد يقف العقل فيها، أو تأخذ مذهب الحياة منها، ويكررها الله، ليجعلها في بؤرة الاهتمام دائماً، لعل هذا التكرار يصادف وعياً من السامع. وانظر إلى الحق وهو يعدد نعمه في سورة الرحمن فيقول بعد كل نعمة: ✽ فَبِأَيِّ

آلَاءِ رَبِّكَ مَا تُكْذِبَانِ ✽

إنه يكرر ذكر النعم ليستقر الأمر في ذهن السامع. ✽ مَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ✽

وسبحانه لا يرغم واحداً على أن يهتدي، فإن اهتدى فلنفسه، وإن لم يهتد فليشرب مرارة الضلال.

وكلنا نعرف أن الطبيب يكتب أسلوب العلاج للمريض، ليتم الشفاء بإذن من الله، الدواء إذن وسيلة إلى العافية، فإن رفض المريض تناول الدواء فهل في ذلك إساءة للطبيب؟ لا.

وكذلك منحج الله . ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾

لكن هل يريد الله الضلال لأحد ، لا ، بل سبحانه دعا الناس جميعاً بهداية الدلالة ، فمن اهتدى زاده بهداية المعونة ، ومن ضل فليذهب إلى الكفر كما شاء . ولذلك يقول لنا الشرع : إياك أن تشرك بالله شيئاً في أي عمل ؛ لأن ربنا يقول لنا في الحديث القدسي الذي يرويه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه فيقول : قال الله تبارك وتعالى : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه "

(145/299)

---

ومعنى الشركة في عرف البشر ، أن مجموعة من الناس عرفوا أن عمل كل منهم ومال كل منهم ، وموهبة كل منهم ، لا تكفي لإقامة مشروع ما ، لذلك يكونون شركة لإنتاج معين ، فهل هناك ما ينقص ربنا ليستكمله من آخر ؟ حاشا لله . بل إن مجرد توهم العبد بأن هناك شريكاً يجعل الله رافضاً لعبادة العبد المشرك . لذلك يقول في الحديث القدسي : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه " . وما دام ربنا قد تنازل عن رعايته له فليتلق المتاعب من حيث لا يدري .

ومن قوله تعالى : ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾

تبين أنه حين يحكم الله بضلال إنسان أو بهداية آخر فلن يستطيع البشر أن يعدل على الله ،  
ليجعل شيئاً من ضلال هو هدى ، أو شيئاً من هدى هو ضلال .

كما يتضح من تلك الآية الكريمة أن من في قلوبهم مرض يزيدهم الله مرضاً ويتركهم في  
طغيانهم يعمهون ، والعمه هو فقدان القلب للبصيرة ، والعمى هو فقدان العين للبصر . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(146/299)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ مَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب . انه خطب بالجابية فحمد الله وأثنى

عليه ، ثم قال : من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له . فقال له فتى بين يديه

كلمة بالفارسية ، فقال عمر لمترجم يترجم له : ما يقول ؟ قال : يزعم أن الله لا يضل أحداً .

فقال عمر : كذبت يا عدو الله ، بل الله خلقك وهو أضلك ، وهو يدخلك النار إن شاء

الله ، ولولا ولث عقد لضربت عنقك ، فتفرق الناس وما يختلفون في القدر . والله أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(147/299)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وَيَذَرُهُمْ "

قرأ الأخوان بالياء وجزم الفعل ، وعاصم وأبو عمرو بالياء أيضاً ، ورفع الفعل ، ونافع وابن كثير وابن عامر بالنون ورفع الفعل أيضاً ، وقد روي الجزم أيضاً عن نافع ، وأبي عمرو في

الشواذ .

فالرفع من وجه واحد ، وهو الاستئناف ، أي : وهو يذرههم ، ونحن نذرههم ، على حسب

القراءتين ، وأما السكون فيحتمل وجهين :

أحدهما : أنه جزم نسقاً على محل قوله : ﴿ فَلَاهَادِي لَهُ ﴾ ؛ لأن الجملة المنفية جوابٌ

للشرط فهي في محل جزم فعطف على محلها وهو كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَخَفُوهَا وَتُوتُوهَا

الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكْفَرُ ﴾ [ البقرة : 271 ] بجزم " يُكْفَرُ " ؛ وكقول الشاعر : [

[الكامل]

2639 - أَنِّي سَلَكَتُ فَإِنِّي لَكَ كَاشِحٌ . . .

وعلى انتقاصك في الحياة وأزدد

وأشده الواحدي أيضاً قول الآخر: [الوافر]

2640 - فَأَبْلُونِي بِلَيْتِكُمْ لَعَلِّي . . .

أصالحكم وأستدرج نويًا

قال: حمل "أستدرج" على موضع الفاء المحذوفة، من قوله: لَعَلِّي أَصَالِحُكُمْ.

والثاني: أنه سكون تخفيف، كقراءة أبي عمرو ﴿يَنْصُرُكُمْ﴾ [آل عمران: 160]

و﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ [الأنعام: 109] ونحوه، وأما الغيبة فجرياً على اسم الله تعالى،

والتكلم على الالتفات من الغيبة إلى التكلم تعظيماً ويعمّهون مترددون متحIRON. انتهى

انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل ح 9 ص 408﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿مَنْ يُضِلِّ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (186)

من حرم أنوار التحقيق فهو في ضباب الجهل، فهو يزل يمينا ويسقط شمالا. انتهى انتهى. اهـ

هـ ﴿لطائف الإشارات ح 1 ص 593﴾

## فصل

قال الخطيب الشربيني في الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ تَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ  
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) . . . الآيات ﴾

﴿ وإذ ﴾ أي : إذ يا محمد ﴿ تقنا ﴾ أي : رفعنا ﴿ الجبل فوقهم ﴾ أي : من أصله

﴿ كأنه ظلة ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : كأنه سقيفة والظلة كل ما أظلك

من سقف بيت أو سحابة أو جناح حائط والجمع ظلل وظلال ﴿ وظنوا ﴾ أي : أيقنوا

﴿ أنه واقع بهم ﴾ أي : ساقط عليهم بوعد الله بوقوعه إن لم يقبلوا أحكام التوراة .

روي أنهم لم يقبلوا أحكام التوراة لعظمتها وثقلها فرفع الله تعالى الطور على رؤوسهم مقدار

عسكرهم فكان فرسخاً في فرسخ ، وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم

فلما نظروا إلى الجبل خر كل واحد منهم ساجداً على حاجبه وهو ينظر بعينه اليمنى

خوفاً من سقوطه فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون : هي

السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة ، وقوله تعالى : ﴿ خذوا ﴾ هو على إضمار القول أي

: قلنا لهم خذوا أو قائلين خذوا ﴿ ما آتيناكم ﴾ أي : من الكتاب وقوله تعالى : ﴿ بقوة ﴾  
أي : بجد وعزم على تحمل مشاقه حال من واخذوا ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ أي : بالعمل به  
ولا تتركوه كالمنسي ﴿ لعلكم تتقون ﴾ أي : فضائح الأعمال ورذائل الأخلاق  
﴿ وإذ ﴾ أي : واذكري يا محمد حين ﴿ أخذ ربك من بني آدم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ من  
ظهورهم ﴾ بدل اشتمال مما قبله بإعادة الجار كما قاله السيوطي ، أو بدل بعض كما قاله  
البيضاوي ﴿ ذرياتهم ﴾ أي : بأن أخرج بعضهم من صلب بعض نسلاً بعد نسل كبحو ما  
يتوالدون كالذر ، ونصب لهم دلائل على ربوبيته وركب فيهم عقلاً عرفوا به ، كما جعل  
للجبال عقولاً حين خوطبوا بقوله تعالى : ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾ (سبا ، )

(149/299)

---

كما جعل تعالى للبعير عقلاً حتى سجد للنبي صلى الله عليه وسلم وكذا للشجرة حين  
سمعت لأمره وانقادت ، وكذا للنملة حين قالت : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾  
(النمل ، )

. وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر بآلف بعد الياء وكسر التاء على الجمع والباقون بغير آلف



وفتح التاء على التوحيد . ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ﴾ قال : ﴿ أأست بربكم قالوا

بلى ﴾

(150/299)

---

أنت ربنا ، وعن مسلم بن يسار الجهني أنه قال : إنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأل عنها فقال : "إنَّ الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريرة" فقال : خلفت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريرة ، فقال : هؤلاء إلى النار ويعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل : يا رسول الله فقيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنَّ الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار" وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لما خلق الله تعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذرّيته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان ويصاً من نور ، وعرضهم على آدم فقال : أي رب ، من هؤلاء ؟ قال : ذرّيتك ،

فرأى رجلاً منهم ، فأعجبه ويص ما بين عينيه ، فقال : يا رب من هذا ؟ قال : داود ، قال : يا رب كم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : يا رب زده من عمري أربعين سنة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انقضى عمر آدم إلا أربعين سنة جاءه ملك الموت ، فقال آدم : أولم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أولم تعطها ابنك داود ؟ فوجد آدم فجحدت ذريته ، ونسي آدم فأكل من الشجرة فنسيت ذريته ، وخطيء فخطت ذريته " أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

(151/299)

---

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أبصر آدم في ذريته قوما لهم نور ، فقال : يا رب من هم ؟ فقال : الأنبياء ، ورأى واحداً هو أشدهم نوراً ، فقال : يا رب من هو ؟ قال : داود ، قال : فكم عمره ؟ قال : ستون سنة ، قال آدم : هو قليل ، وكان عمر آدم ألف سنة ، فقال : يا رب زده من عمري أربعين سنة ، فلما تم عمر آدم تسعمائة وستين سنة أتاه ملك الموت ليقبض روحه ، فقال : بقي من أجلي أربعون سنة ، فقال : ألسنت قد وهبتها من ابنك داود ؟ فقال : ما كنت لأجعل لأحد من أجلي شيئاً ، فعند ذلك كتب لكل نفس أجلها " . وعن مقاتل أن الله تعالى مسح صفحة ظهر آدم اليمنى ، فخرج منه ذرية بيض كهية الذر

تتحرك ، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى ، فخرج منه ذريرة سود كهيئة الذرّ ، فقال : يا آدم هؤلاء ذريّتك ، ثم قال لهم : ألت بربكم ، قالوا : بلى ، فقال للبيض : هؤلاء في الجنة برحمتي ، وهم أصحاب اليمين ، وقال للسود : هؤلاء في النار ، ولا أبالي ، وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ، ثم أعادهم جميعاً في صلب آدم ، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وقال تعالى فيمن تقض العهد الأول ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ (الأعراف ، )

وقال بعض المفسرين : إنّ أهل السعادة أقرؤا طوعاً ، وقالوا : بلى ، وأهل الشقاوة قالوا بغتة وكرهاً ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ (آل عمران ، )

واختلفوا في موضع الميثاق ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : بيطن نعمان ، وهو واد إلى جنب عرفة ، وعنه أيضاً أنه بدهناء من أرض الهند ، وهو الموضع الذي أهبط فيه آدم عليه السلام ، وقال الكلبي : بين مكة والطائف .

فإن قيل : ما معنى قوله تعالى :

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ﴾ وإنما أخرجه من ظهر آدم ؟

---

أجيب : بأن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على ما يتوالدون فالأبناء من الآباء في الترتيب ، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم أنهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره ، فالمخرج من ظهورهم مخرج من ظهره .

وقوله : ﴿ شهدنا ﴾ أي : على أنفسنا بذلك وإنما أشهدهم على أنفسهم كراهة ﴿ أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا ﴾ التوحيد ﴿ غافلين ﴾ أي : لعدم الأدلة ، فلذلك أشركنا ، وقوله تعالى :

﴿ أو يقولوا ﴾ أي : لو لم ترسل إليهم الرسل ، عطف على ﴿ أن يقولوا ﴾ ، وقرأ أبو عمرو بالياء على الغيبة ، والباقون بالتاء على الخطاب ﴿ إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾ أي : قبل أن نوجد ﴿ وكنا ذرية من بعدهم ﴾ أي : فلم نعرف لنا مريباً غيرهم ، فكنا لهم تبعاً فشغلنا اتباعهم عن النظر ، ولم يأتنا رسول منبه ، فيتسبب عن ذلك إنكارهم في قولهم : ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ أي : من آبائنا ، قال أبو حيان : والمعنى أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مذكور بما تضمن العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حجتان : إحداهما : كنا غافلين ، والأخرى : كنا تبعاً لأسلافنا ، فكيف والذنب إنما هو لمن طرّق لنا وأضلنا ، انتهى .

فإن قيل : كيف يكون ذكر الميثاق عليهم حجة فإنهم لما أخرجوا من ظهر آدم ركب فيهم

العقل ، وأخذ عليهم الميثاق ، فلما أعيدوا إلى صلبه بطل ما ركب فيهم فتوالدوا ناسين  
لذلك الميثاق ؟

أجيب : بأن التذكير به على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره في النفوس ، وبذلك  
قامت الحجة عليهم يوم القيامة لإخبار الرسل إياهم بذلك الميثاق في الدنيا ، فمن أنكره كان  
معانداً ناقضاً للعهد ، ولزمتهم الحجة ، ولا تسقط الحجة بنسيانهم وعدم حفظهم بعد  
إخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات .

(153/299)

---

والمقصود من إيراد هذا الكلام هنا إلزام اليهود مقتضى الميثاق العام بعدما ألزمهم بالميثاق  
المخصوص بهم ، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ، ومنعهم من التقليد ،  
وحملهم على النظر والاستدلال كما قال تعالى :

﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل ذلك التفصيل البديع الجليل الرفيع ﴿ تفصل الآيات ﴾ أي : كلها  
لئلا يواقعوا ما لا يليق بجناينا جهلاً لعدم الدليل ﴿ ولعلمهم يرجعون ﴾ أي : عن التقليد  
واتباع الباطل .

﴿ واتل ﴾ أي : يا محمد ﴿ عليهم ﴾ أي : اليهود ﴿ نبأ ﴾ أي : خبر ﴿ الذي آتيناها آياتنا

فانسلاخ منها ﴿ أي : خرج بكفره كما تخرج الحية من جلدها ، وهو بلعم بن باعوراء من علماء بني إسرائيل ، وقيل : من الكنعانيين سئل أن يدعو على موسى ، وأهدي إليه شيء ، فدعا فانقلبت عليه ، واندلع لسانه على صدره ﴿ فاتبعه الشيطان ﴾ أي : لحقه ، وأدركه وصيره لنفسه تابعا في معصية الله تعالى ، فخالف أمر ربه وأطاع الشيطان وهواه ﴿ فكان من الغاوين ﴾ أي : من الضالين الهالكين .

(154/299)

---

وقصته على ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ، ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم ، وكان عنده اسم الله الأعظم ، فقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جند كثير ، وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ، وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله تعالى أن يردهم عنا ، فقال : ويلكم نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ وأني إن فعلت هذا ذهبت دنيائي وآخرتي ، فراجعوه وألحوا عليه ، فقال : حتى أوامر ربي ، وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به في المنام ، فوامر في الدعاء عليهم ، فقيل له في المنام : لا تدع عليهم ، فقال لقومه : إني قد وامت ربي ، وإني نهيت أن أدعو عليهم ،

فأهدوا إليه هدية ، فقبلها وراجعوه فقال : حتى أوامر ربي ، فوامر فلم يؤمر بشيء ، فقال :  
قد وامت ربي فلم يأمرني بشيء ، فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في  
المرّة الأولى ، فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتوه ، فافتتن ، فركب أتاناً له متوجهاً إلى جبل  
يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له : حسبان ، فلما سار على أتانه غير بعيد رضت ،  
فنزل عنها وضربها فقامت ، فركبها فلم تسر به كثيراً حتى رضت ، فضربها فأذن الله  
تعالى لها في الكلام وأنطقها له فكلمته حجة عليه ، فقالت : ويحك يا بلعم أين تذهب ؟ أما  
ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي ؟ ويحك أتذهب إلى بني الله والمؤمنين فتدعو  
عليهم ؟ فلم ينزجر فخلى الله تعالى سبيل الأتان ، فانطلقت به حتى أشرف على جبل  
حسبان ، فجعل يدعو عليهم فلا يدعوا بشر إلا صرف الله تعالى به لسانه إلى قومه ، ولا  
يدعوا لقومه بخير إلا صرف الله تعالى به لسانه إلى بني إسرائيل ، فقال له قومه : يا بلعم أتدري  
ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا ، فقال : هذا ما لا أملكه هذا شيء قد غلب الله  
عليه ، فاندلع لسانه فوق على صدره ، فقال لهم : قد ذهب الآن مني

(155/299)

---

الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال ، احملوا النساء وزينوهنّ  
وأعطوهنّ السلع ، ثم أرسلوهنّ إلى عسكر بني إسرائيل يبعنها فيه ، ومروهنّ أن لا تمتنع  
امرأة نفسها من رجل أرادها ، فإنه إن زنا رجل بواحدة كفيتموهم ، ففعلوا فلما دخل  
النساء العسكر مرّت امرأة من الكنعانيين على رجل من عظماء بني إسرائيل وكان رأس  
سبط شمعون بن يعقوب فقام إلى المرأة وأخذ بيدها حتى أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى  
وقف على موسى وقال : إني لأظنك أن تقول هذه حرام عليك ، قال : أجل هي حرام  
عليك لا تقربها قال : فوالله لا نطيعك ، ثم دخل بها قبته فوقع عليها فأرسل الله تعالى  
عليهم الطاعون في الوقت فهلك منهم سبعون ألفاً في ساعة من النهار  
وقيل : الآية نزلت في أمية بن أبي الصلت كان قد قرأ الكتب وعلم أنّ الله تعالى يرسل رسولاً  
في ذلك الزمان ورجا أن يكون هو فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم حسده وكفر  
به .

وقيل : نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبيّ صلى الله عليه وسلم كما  
يعرفون أبناءهم ، وقيل : إنها نزلت في البسوس وهو رجل من بني إسرائيل وكان قد أعطى  
ثلاث دعوات مستجابات وكان له امرأة وكان له منها أولاد فقالت له : اجعل لي منها دعوة  
فقال لها : لك منها واحدة فما تريدين ؟ قالت : ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني  
إسرائيل فدعا الله تعالى فصارت أجمل النساء في بني إسرائيل فلما علمت أنه ليس في بني



إسرائيل أجمل منها رغبت عنه فغضب ودعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهبت فيها  
دعوتان فجاء بنوها وقالوا : ليس لنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة نباحة وقد عيرنا  
الناس ادع الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله تعالى فعادت كما كانت  
فذهب فيها الدعوات كلها وقيل غير ذلك ، ويدل للقول الأوّل

(156/299)

---

قوله تعالى : ﴿ ولو شئنا لرفعناه ﴾ أي : منازل الأبرار ﴿ بها ﴾ أي : بسبب تلك الآيات  
﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ أي : مال إلى الدنيا ، قال البيضاوي : أو السفالة ، قال  
الجوهري : السفالة بالضم تقيض العلو ، وبالفتح النذالة ﴿ واتبع هواه ﴾ أي : في آثار الدنيا  
، واسترضى قومه ، وأعرض عن مقتضى الآيات ، وإنما علق رفعه بمشيئة الله تعالى ، ثم  
استدرك عنه بفعل العبد تنبيهاً على أن المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه ، وأنّ عدمه  
دليل عدمها دلالة انتفاء المسبب على انتفاء سببه ، وأنّ السبب الحقيقي هو المشيئة ، وأن  
ما نشاهده من هذه الأسباب وسائط معتبرة في حصول المسبب من حيث أن المشيئة  
تعلقت به كذلك .

(157/299)

وكان مقتضى ظاهر الكلام أن يقول: ولكنه أعرض عنها، فأوقع موقعه أخلد إلى الأرض،  
واتبع هواه مبالغة وتنبهاً على ما حملة عليه، وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وهذه  
الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم، وذلك لأنه بعد أن خص هذا الرجل بآياته،  
وعلمه الاسم الأعظم وخصه بالدعوات المستجابة لما اتبع الهوى انسلخ من الدين، فصار  
في درجة الكلب، وذلك يدل على أن كل من كانت نعم الله تعالى في حقه أكثر، فإذا أعرض  
عن متابعة الهدى، وأقبل على متابعة الهوى كان بعده عن الله أعظم، وإليه الإشارة بقوله:  
"من ازداد علماً ولم يزد هدى فلم يزد من الله إلا بعداً" ﴿فمثله﴾ أي: فضفته التي هي  
مثل في الخسة ﴿كمثل الكلب﴾ أي: كمثلته في أخس أوصافه وهو ﴿إن تحمل عليه﴾  
أي: بالطرد والزجر ﴿يلهث﴾ أي: يدلح لسانه ﴿أو﴾ إن ﴿تتركه يلهث﴾ فهو يلهث  
دائماً سواء حمل عليه بالزجر والطرد أو ترك، وليس غيره من الحيوان كذلك، قيل: كل  
شيء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال والراحة؛  
لأن اللهث طبيعة أصلية فيه، فكذلك حال من كذب بآيات الله إن وعظته فهو ضال، وإن  
تركته فهو ضال، وكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا  
ينجع فيه، وإن تركته ولم تعظه فهو حريص أيضاً؛ لأن الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة  
له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : "الكلب منقطع الفؤاد يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه" ، ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال كأنه قيل : كمثل الكلب ذليلاً دائماً الذلة لاهتاً في الحالتين .

(158/299)

---

وقيل : لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقه على صدره ، وجعل يلهث كما يلهث الكلب ﴿ ذلك ﴾ أي : المثل ﴿ مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ فعم بهذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها ، ووجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث أنهم إذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا بل هم في ضلال على كل حال ﴿ فاقصص القصص ﴾ أي : فأخبر يا محمد قومك بهذه الأخبار التي سبقت بها مواقع الوقائع وآثار الأعيان حتى لم تدع في شيء منها لبساً على كل من يسمع لك من اليهود وغيرهم ﴿ لعلمهم يتفكرون ﴾ أي يتدبرون فيها فيؤمنون .

﴿ ساء ﴾ أي : بس ﴿ مثلاً القوم ﴾ أي : مثل القوم ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي : بعد قيام الحججة عليها وعلمهم بها ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ أي : كان ذلك في طبعهم جبلة لهم لا يقدر غير الله تعالى على تغييره ، وتقديم المفعول به للاختصاص ، كأنه قيل : وخصوا

أنفسهم بالظلم لم يتعدّوها إلى غيرها . وقوله تعالى :

﴿ من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾ تصريح بأن الهدى والضلال من الله تعالى ، وأن هداية الله تعالى تخص ببعض دون بعض ، وأنها مستلزمة للاهتداء ، والإفراد في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ والمعنى ، تنبيه على أن المهتمين كواحد لا اتحاد طريقتهم بخلاف الضالين ، والاقتصار في الإخبار عن هدى الله بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء ، وتنبيه على أنه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه ، وأنه المستلزم للقول بالنعم الأجلة والعنوان له .

أي : خلقنا ﴿ لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس ﴾ أخبر الله تعالى أنه خلق كثيراً من الجنّ والإنس للنار ، وهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ، ومن خلقه الله تعالى للنار فلا حيلة له في الخلاص منها .

(159/299)

---

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : " دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبيٍّ من الأنصار فقلت : يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ، ولم يدركه ، فقال : أو غير ذلك يا عائشة إنّ الله خلق الجنة ، وخلق لها أهلاً ، وهم

في أصلاب آباؤهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً ، وهم في أصلاب آباؤهم " أخرجهم مسلم .  
قال النووي في "شرح مسلم" : أجمع من يعتد به من علماء المسلمين أن من مات من أطفال  
المسلمين فهو في الجنة ؛ لأنه ليس مكلفاً ، وتوقف فيه من لا يعتد به لهذا الحديث ، وأجاب  
العلماء عنه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلة نهانا عن المسارعة إلى القطع من غير  
أن يكون عنها دليل قاطع كما أنكر على سعد بن أبي وقاص قوله : أعطه فإنني لأراه مؤمناً ،  
فقال : أو مسلماً ، قال بعضهم : ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم أن أطفال  
المسلمين في الجنة ، فلما علم ذلك أخبر به ، قال :

وأما أطفال المشركين ، ففيهم ثلاثة مذاهب ، قال الأكثرون : هم في النار تبعاً لآباؤهم ،  
وتوقف طائفة منهم ، والثالث وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون : أنهم من أهل الجنة  
، واستدلوا بأشياء منها حديث "إبراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبي صلى الله عليه  
وسلم في الجنة ، وحوله أولاد الناس ، قالوا : يا رسول الله وأولاد المشركين ، قال : وأولاد  
المشركين" رواه البخاري في صحيحه ومنها قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث  
رسولاً ﴾ (الإسراء ، )

ولا يتوجه على المولود التكليف ، ولا يلزمه قبول قول المرسل حتى يبلغ ، وهذا متفق عليه .

---

وفي الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة في أن الله تعالى خالق أفعال العباد جميعها خيراً وشرّها؛ لأنه تعالى بين باللفظ الصريح أنه خلق كثيراً من الجنّ والإنس للنار، ولا مزيد على بيان الله تعالى؛ ولأن العاقل لا يختار لنفسه دخول النار، فلما عمل بما يوجب عليه دخول النار به علم أنّ له من يضطرّه إلى ذلك العمل الموجب لدخول النار وهو الله تعالى.

وقالت المعتزلة: إن اللام في قوله: ﴿لجهم﴾، لام العاقبة، واستدلوا لذلك بآيات وأشعار، فمن الآيات قوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ (القصص، )

وهم ما التقطوه لهذا الغرض، ومنها قول موسى: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ (يونس، )  
ومن الأشعار قول بعضهم:

\*وللموت تغذ والوالدات سخاها\* \*كما لخراب الدهر تبني المساكن\*

وقال آخر:

\*أموالنا لذوي الميراث نجمعها\* \*ودورنا لخراب الدهر نبنيها\*

وقال آخر:

\*له ملك ينادي كل يوم\* \*لدوا للموت وابنوا للخراب\*

وقال آخر:

\*وأمّ شمال فلا تجزعي\* \*فللموت ما تدد الوالدات\*

(161/299)

---

وهذا مردود؛ لأنّ المصير إلى التأويل إنما يحسن إذا ثبت الدليل العقلي على امتناع حمل اللفظ على ظاهره، فإذا لم يثبت كان المصير إلى التأويل في هذا المقام عبثاً، فالحق مذهب أهل الحق جعلنا الله تعالى وأهل مودتنا منهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله، ثم وصف الله تعالى هؤلاء الذين أضلهم بقوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ أي: لا يبصرون بها طريق الحق والهدى ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ أي: الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر، وقال أهل المعاني: إنّ الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحتهم المتعلقة بالدنيا، ولهم أعين يبصرون بها المرئيات، وآذان يسمعون بها الكلمات، وهذا الاشك فيه، ولما وصفهم الله تعالى بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس الدراكة علم أنّ المراد من ذلك يرجع إلى مصالح الدين، وما فيه نفعهم في الآخرة، والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له، ومنه

قوله الشاعر:

\*وعوراء الكلام صممت عنها\* \*وإني إن أشاء بها سميع\*

(162/299)

---

فإنه أثبت له صمماً مع وجود السمع ولما سلب عنهم هذه المعاني كانت النتيجة ﴿أولئك﴾ أي: البعداء من المعاني الإنسانية ﴿كالأنعام﴾ في أنها لا تفهم ولا تعقل ذلك؛ لأن الإنسان وسائر الحيوانات مشتركة في هذه الحواس الثلاث التي هي القلب والبصر والسمع، وإنما فضل الإنسان على سائر الحيوانات بالعقل والإدراك والفهم المؤدّي إلى معرفة الحق من الباطل والخير من الشرّ، فإذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه كان لا فرق بينه وبين البهائم التي لا تدرك شيئاً، ولما كانوا قد زادوا على ذلك بفقد نفع هذه الحواس قال تعالى: ﴿بل هم أضلّ﴾ سبيلاً من الأنعام؛ لأنّ الأنعام تعرف ما يضرّها وما ينفعها، فإذا رأت ناراً مثلاً لا تقع فيها، وإذا رأت كلاً مثلاً دخلت فيه، والكافر لا يعرف ذلك؛ ولأنّ الحيوان لا قدرة له على تحصيل هذه الفضائل؛ والإنسان أعطي القدرة على تحصيلها، ومن أعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أخس حالاً ممن لم يكتسبها مع العجز عنها؛ ولأنّ الأنعام مطيعة لله تعالى، والكافر غير مطيع، ولأنّ الأنعام



تعرف ربها وتذكره، وهم لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه؛ ولأنها تضل إذا لم يكن معها مرشد ، فأما إذا كان معها مرشد فقل أن تضل ، وهؤلاء الكفار قد جاءهم الأنبياء وأنزل عليهم الكتب ، وهم يزدادون في الضلالة .

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ قال عطاء : عما أعد الله تعالى لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب .

﴿ والأسماء الحسنى ﴾ ذكر ذلك في أربع سور أولها هذه السورة ، وثانيها في آخر سورة بني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعونه الأسماء الحسنى ﴾ (الإسراء ، )

وثالثها في أول طه وهو قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ ( طه ، ) ورابعها في آخر الحشر في قوله تعالى : ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ﴾ (الحشر ، )

(163/299)

---

والحسنى مؤنث الأحسن كالكبرى والصغرى ﴿ فادعوه بها ﴾ أي : فسموه بتلك الصفات ، وللدعاء شروط منها أن يعرف الداعي معاني الأسماء التي يدعوبها ، ومنها أن

يستحضر في قلبه عظمة المدعو سبحانه وتعالى ، ومنها أن يخلص إليه في دعائه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة إنه وتر يجب الوتر" وكان صلى الله عليه وسلم يقول : "يا الله يا رحمن" فقال المشركون : إنَّ محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعواثنين فأَنْزل الله تعالى هذه الآية .

والأسماء الحسنی كما فی الحدیث "الله الذی لا إله إلا هو الرحمن الرحیم الملك القدوس السلام المؤمن المهیمن العزیز الجبار المتكبر الخالق الباریء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العلیم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصیر الحكم العدل اللطیف الخیر الحلیم العظیم الغفور الشکور العلیّ الكیر الحفیظ المقیط الحسیب الجلیل الكریم الرقیب الجیب الواسع الحکیم الودود المجید الباعث الشهید الحق الوکیل القوی المتین الولیّ الحمید المحصي المبدیء المعید المحیی الممیت الحیّ القیوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوال المتعال البرّ التوّاب المنتقم العفو الرؤوف مالک الملك ذو الجلال والإکرام المقسط الجامع الغنی المغنی المانع الضارّ النافع النور الهادی البدیع الباقي الوارث الرشید الصبور" ، رواه الترمذی .

---

قال النووي: اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه تعالى وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وقوله: "من أحصاها دخل الجنة" المراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء، ولهذا جاء في حديث آخر:

"أسألك بكل اسم سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك" وقد ذكر المحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم: "إن لله تعالى ألف اسم" قال ابن العربي:

وهذا قليل وقوله صلى الله عليه وسلم "من أحصاها دخل الجنة" قال البخاري: من حفظها، وهو قول أكثر المحققين، وتعضده الرواية الأخرى من حفظها دخل الجنة، وقيل: من أحضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر في مدلولها، وقوله صلى الله عليه وسلم "إن الله وتر يحب الوتر" الوتر الفرد، ومعناه في وصف الله تعالى: الواحد الذي لا شريك له ولا نظير واختلفوا هل الاسم الأعظم الله أو الحي القيوم وهل الاسم عين المسمى أو غيره؟ وفي ذلك خلاف، وقد حقت ذلك في مقدمتي على البسملة والحمدلة ﴿وذروا﴾ أي:

اتركوا ﴿الذين يلحدون﴾ أي: يميلون عن الحق ﴿في أسمائه﴾ أي: حيث اشتقوا منها أسماء لألهتهم كاللات من الله والعزى من العزيز، ومنات من المنان، وقال أهل المعاني:

الإلحاد في أسمائه تعالى هو أن تسميه بما لم يسم الله به نفسه، ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة؛ لأن أسماءه تعالى كلها توقيفية فيجوز أن يقال: يا جواد، ولا يجوز أن يقال: يا سخي

، ويجوز أن يقال: يا عالم، ولا يجوز أن يقال: يا عاقل، ويجوز أن يقال: يا حكيم، ولا يجوز أن يقال: يا طبيب ﴿سيجزون﴾ أي: في الدنيا والآخرة ﴿ما كانوا يعملون﴾ في هذا وعيد شديد لمن أهدى في أسمائه تعالى وهذا قبل الأمر بالقتال، وقرأ حمزة: "يلحدون" بفتح الياء والحاء من لحد، والباقون بضم الياء وكسر الحاء من أهدى.

(165/299)

---

ولما ذكر سبحانه وتعالى إنه خلق للنار طائفة ضالين مضلين ملحدين عن الحق ذكر أنه خلق للجنة أمة هادين في الحق عادلين في الأمر بقوله تعالى:

﴿ومن خلقنا أمة ﴿أي: جماعة﴾ يهدون بالحق وبه ﴿أي: بالحق﴾ خاصة ﴿يعدلون﴾ أي: يجعلون الأمور متعادلة لا زيادة في شيء منها على ما ينبغي ولا نقص؛ لأننا وفقناهم فكشفنا عن أبصارهم حجاب الغفلة التي ألزمتها أولئك، واستدل بذلك على صحة الإجماع؛ لأن المراد منه إن في كل قرن طائفة بهذه الصفة، وأكثر المفسرين إنهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم "لا تزال من أممي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله" رواه الشيخان، وعن معاوية رضي الله تعالى عنه قال وهو يخطب: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تزال من أممي أمة قائمة بأمر الله

لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك " إذ لو اقتص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة فإنه معلوم ، وعن الكلبي هم الذين آمنوا من أهل الكتاب ، وقيل : هم العلماء والدعاة إلى الدين .

﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي : القرآن أو غيره من أهل مكة أو غيرهم

﴿ سنستدرجهم ﴾ أي : سنستدنيهم إلى الهلاك قليلاً قليلاً ، وأصل الاستدراج

الاستبعاد والاستنزال درجة بعد درجة ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ أي : سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون ، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغبطون به ويركون إليه ، ثم يأخذهم على غرة أغفل ما يكونون .

(166/299)

---

وقيل : سنقرّبهم إلى ما يهلكهم ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم ؛ لأنهم كانوا إذا أتوا بذنب فتح الله تعالى عليهم من أبواب الخير والنعمة في الدنيا ، فيزدادوا بذلك تمادياً في الغي والضلالة ويتدرجوا في الذنوب والمعاصي بسبب ترادف النعم يظنون أن تواتر النعم يقرب من الله تعالى ، وإنما هي خذلان منه وتبعيد ، فهو استدراج الله تعالى فيأخذهم الله تعالى أخذة واحدة أغفل ما يكونون عليه ، وعن عمر بن الخطاب رضي الله

عنه لما حمل إليه كنوز كسرى قال: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً فإني سمعتك

تقول: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ .

﴿وأملهم﴾ أي: أمهلهم وأطيل مدة أعمارهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي ولا  
أعاجلهم بالعقوبة ولا أفتح لهم باب التوبة ﴿إن كيدي﴾ أي: أخذي ﴿متين﴾ أي:  
شديد وإنما سماه كيداً؛ لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان .

﴿أو لم تفكروا﴾ فيعلموا ﴿ما بصاحبهم﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿من

جنة﴾ أي: جنون .

(167/299)

---

روي أنه صلى الله عليه وسلم صعد على الصفا فدعاهم فخذاً فخذاً يا بني فلان يا بني  
فلان يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم: إن صاحبكم لجنون بات يهوت إلى الصباح،  
فنزلت، ومعنى: يهوت: يصوت، يقال: هيت به وهوت به أي: صاح قاله الجوهري،  
وإنما نسبوه إلى الجنون وهو بريء منه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم خالفهم في الأقوال  
والأفعال؛ لأنه كان معرضاً عن الدنيا ولذاتها مقبلاً على الآخرة ونعيمها مشتغلاً بالدعاء  
إلى الله تعالى وإنذارهم بأسه ونقمته ليلاً ونهاراً من غير ملال ولا ضجر، فعند ذلك نسبوه

إلى الجنون ، فبرأه الله تعالى من الجنون بقوله تعالى : ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هو إلا نذير مبين ﴾  
أي : بين الإنذار بحيث لا يخفى على ناظر ﴿ أولم ينظروا ﴾ أي : نظر اعتبار واستدلال  
﴿ في ملكوت السموات والأرض ﴾ أي : ملكهما البالغ ﴿ وما ﴾ أي : وفيما ﴿ خلق الله  
من شيء ﴾ أي : غيرهما مما يقع عليه الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها ليدل لهم  
على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكتها ومتولي أمرها ؛ ليظهر لهم  
صحة ما يدعوهم إليه ، وقوله تعالى : ﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب ﴾ أي : دنا  
﴿ أجلهم ﴾ عطف على ملكوت ، وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن وكذا  
اسم يكون ولا يصح أن تكون أن مصدرية خلافاً للبيضاوي قال التتازاني : لأن المصدرية  
لا تدخل الأفعال غير المتصرفة التي لا مصادر لها ، والمعنى أولم ينظروا في اقتراب آجالهم  
وتوقع حلولها ، فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مفاجأة الموت ونزول  
العذاب ، فلعل أجلهم قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا إلى النار ،  
فيجب على العاقل المبادرة إلى التفكير والاعتبار والنظر المؤدي إلى الفوز والنعيم الدائم  
﴿ فبأي حديث ﴾ أي : كتاب ﴿ بعده ﴾ أي : الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله  
عليه وسلم ﴿ يؤمنون ﴾ أي : يصدقون ، وليس بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبي ولا  
بعد كتابه كتاب ؛ لأنه خاتم

---

الأنبياء ، وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحي بعده صلى الله عليه وسلم  
فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ يدل على أن القرآن حادث كما  
تمسك به بعض المعتزلة أجيب : من جهة أهل السنة : بأن ذلك محمول على الألفاظ من  
الكلمات ولا نزاع في حداتها .

ثم ذكر تعالى علة إعراضهم عن الإيمان بقوله تعالى :

﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾ بوجه من الوجوه أي : إن إعراض هؤلاء عن الإيمان  
لإضلال الله إياهم ولو هداهم لآمنوا ﴿ ويذرهم ﴾ أي : يتركهم ﴿ في طغيانهم ﴾ أي :  
ضلالهم وتماديهم في الكفر ﴿ يعمهون ﴾ أي : يترددون متحيرين لا يهتدون سبيلاً ، وقرأ  
نافع وابن كثير وابن عامر : " ونذرهم " بالنون والباقون بالياء ، وجزم حمزة والكسائيّ الراء  
قال سيبويه : إنه عطف على محلّ الفاء وما بعدها من قوله تعالى : ﴿ فلا هادي له ﴾ ؛  
لأن موضع الفاء وما بعدها جزم لجواب الشرط ، ورفعها الباقي استئنافاً ، وهو مقطوع  
عما قبله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير ح 2 ص 279-285 ﴾

(169/299)

---



وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181) . . . الآيات ﴾

قوله : ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا ﴾ خبر مقدم و ﴿ أُمَّة ﴾ مبتدأ مؤخر ، و ﴿ يَهْدُونَ ﴾ وما

بعده صفة له .

ويجوز أن يكون ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا ﴾ هو المبتدأ كما تقدم في قوله : ﴿ وَمَنْ النَّاسَ مَنْ يَقُولُ

﴿ [ البقرة : 8 ] .

والمعنى : أن من جملة من خلقه الله أمة يهدون الناس متلبسين بالحق ، أو يهدونهم بما عرفوه

من الحق .

" و " بالحق ﴾ يَعْدِلُونَ ﴾ بينهم .

قيل : هم من هذه الأمة ، وإنهم الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين ، كما ورد في

الحديث الصحيح .

ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ والاستدراج : هو الأخذ بالتدرج منزلة بعد منزلة

، والدرج : كلف الشيء ، يقال أدرجته ودرجته ، ومنه إدارج الميت في أكفانه .

وقيل : هو من الدرجة ، فالاستدراج : أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود ، ومنه درج

الصبي : إذا قارب بين خطاه ، وأدرج الكتاب : طواه شيئاً بعد شيء ، ودرج القوم : مات

بعضهم في إثر بعض .

والمعنى : سنستدرجهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ، وذلك بإدرار النعم عليهم وإنسائهم شكرها ، فينهمكون في الغواية ، ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك ، وأنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة .

قوله : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ معطوف على سنستدرجهم ، أي أطيل لهم المدّة وأمهلهم ، وأؤخر عنهم العقوبة .

وجملة ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ مقرّرة لما قبلها من الاستدراج والإملاء ، ومؤكدة له .  
والكيد : المكر ، والمتين : الشديد القويّ ، وأصله من المتن وهو اللحم الغليظ الذي على جانب الصلب .

قال في الكشف : سماه كيداً ، لأنه شبيهه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان .

(170/299)

---

والاستفهام في ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ للإنكار عليهم ، حيث لم يتفكروا في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيما جاء به .

و"ما" في ﴿ مَا بِصَاحِبِهِمْ ﴾ للاستفهام الإنكاري ، وهي في محل رفع بالابتداء والخبر ﴿ بصاحبهم ﴾ ، والجنة مصدر ، أي وقع منهم التكذيب ، ولم يتفكروا أي شيء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون ، فإنهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلاً ، وقولهم زوراً وبهتاناً .  
وقيل إن "ما" نافية واسمها ﴿ مِّنْ جَنَّةٍ ﴾ وخبرها بصاحبهم ، أي ليس بصاحبهم شيء مما يدعونه من الجنون ، فيكون هذا رداً لقولهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [ الحجر : 6 ] ويكون الكلام قد تم عند قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ .  
والوقف عليه من الأوقاف الحسنة .

وجملة : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ مقررَةٌ لمضمون ما قبلها ، ومبينة لحقيقة حال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والاستفهام في ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ للإنكار والتقريع والتوبيخ ، ولتقصده التعجيب من إعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرته وتفردة بالإلهية ، والملكوت من أبنية المبالغة ، ومعناه الملك العظيم وقد تقدم بيانه .

والمعنى : إن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكير ، ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك إلى الإيمان به ، بل هم سادرون في ضلالتهم ، خائضون في غوايتهم ، لا يعملون فكراً ، ولا يمعنون نظراً .

قوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي : لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، ولا

فيما خلق الله من شيء من الأشياء كائناً ما كان ، فإن في كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين ،  
وموعظة للمتفكرين ، سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض ،  
أو من دقائقها من سائر مخلوقاته .

قوله : ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ معطوف على ملكوت .

(171/299)

---

و " أن " هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن وخبرها ﴿ عسى ﴾ وما بعدها  
، أي أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فيموتون عن  
قريب .

والمعنى : إنهم إذا كانوا يجوزون قرب آجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهدون به ، وينتفعون  
بالتفكر فيه والاعتبار به .

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ الضمير يرجع إلى ما تقدم من التفكير والنظر في الأمور  
المذكورة ، أي فبأي حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون ؟ وفي هذا الاستفهام من  
التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره ؛ وقيل الضمير للقرآن .  
وقيل لحمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل للأجل المذكور قبله .

وجملة ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ مقررة لما قبلها ، أي إن هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن أضله الله ، ومن يضلله فلا هادي له ، أي فلا يوجد من يهديه إلى الحق ، وينزعه عن الضلالة البتة ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قرىء بالرفع على الاستئناف ، وبالجزم عطفاً على محل الجزاء .

وقرىء بالنون .

ومعنى يعمهون : يتحيرون .

وقيل : يترددون ، وهو في محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج ، في قوله : ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " هذه أمتي بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون " وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة ، في الآية قال : بلغنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأها : " هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها " ﴿ وَمَنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : 159] .

(172/299)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى نزل " وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السدي في قوله : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول : سناخذهم من حيث لا يعلمون .

قال : عذاب بدر .

وأخرج أبو الشيخ ، عن يحيى بن المشني في الآية قال : كلما أحدثوا ذنباً جددنا لهم نعمة ، تنسيهم الاستغفار .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن سفيان في الآية قال : نسبغ عليهم النعمة ونمنعهم شكرها .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، والبيهقي عن ثابت البناني ، أنه سئل عن الاستدراج فقال : ذلك مكر الله بالعباد المضيعين .

وأخرج أبو الشيخ ، في قوله : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ يقول : أكف عنهم ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ إن مكري شديد ، ثم نسخها الله فأنزل ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [ التوبة :

. [ 5

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : كيد الله العذاب والنقمة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قام على الصفا ، فدعا قريشاً فخذوا فخذاً : يا بني فلان يا بني فلان ، يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائل : إن صاحبكم هذا لجنون بات يصوت حتى أصبح ، فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مَنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ الْبَاطِلُ الْمُزْمِنُ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(173/299)

---

فصل في التفسير الإشاري في الآيات السابقة

قال الألوسي :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [ الأعراف : 175 ] إشارة إلى من ابتلى بالحوار بعد الكور بأن سلك حتى ظهر له ما ظهر ثم رجع من الطريق لسوء استعداده وغلبة الشقاوة والعياذ بالله تعالى عليه ، وفي التعبير بانسلاخ ما لا يخفى ﴿ وَكُوشِنَا وَوَصِيَ بِهَا ﴾ إلى حظيرة القدس ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخَذَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي مال إلى أرض الطيبة السفلية ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ في إثارة السوى ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ في أخس أحواله ﴿ إِنَّ تَحْمِلُ عَلَيْهِ ﴾ بالزجر ﴿ يَلْهَثُ ﴾ يدلغ لسانه

مع التنفس الشديد ﴿ أَوْ تَرَكُهُ يَلْهَثُ ﴾ [الأعراف: 176] أيضاً .

والمراد أنه يلهث دائماً وكأنه إشارة إلى أن هذا المنسلخ لا يزال يطلق لسانه في أهل الكمال

سواء زجر عن ذلك أو لم يزجر ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ وهم

مظاهر القهر ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ الأسرار ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾

الحجج الكونية ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ الآيات التنزيلية فهم صم بكم عمي ﴿

أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ ليس لهم هم إلا الأكل والشرب ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: 179]

[منها لأنهم لا ينزجرون إذا زجروا ولا يهتدون إذا أرشدوا .

ومما يستبعد من طريق العقل ما نقله الإمام الشعراني عن شيخه علي الخواص قدس سره أن

البهائم مكلفون محتجاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا

أُمَّةٌ مِّمَّا لَكُمْ ﴾ [الأنعام: 38] مع قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [

فاطر: 24] وبما ورد عنه صلى الله عليه وسلم : " إنه ليؤخذ للشاة الجماء من الشاة

القرناء "

(174/299)



وهذا وإن كان في الشاة لكن لا قائل بالفرق ، ونقل عنه القول بأن كل ما في الوجود من حيوان ونبات وجماد حي دراك ، ثم قال : فقلت له فهل تشبيه الحق تعالى من ضل من عباده بالأنعام بيان لنقص الأنعام عن الإنسان أم لكما لها في العلم بالله تعالى ؟ فقال رضي الله تعالى عنه : لا أعلم ، ولكني سمعت بعضهم يقول : ليس تشبيهم بالأنعام نقصاً وإنما هو لبيان كمال مرتبتها في العلم بالله عز وجل حتى حارت فيه فالتشبيه في الحقيقة واقع في الحيرة لا في المحار فيه فلا أشد حيرة من العلماء بالله تعالى ، فأعلى ما يصل إليه العلماء في العلم بربهم سبحانه وتعالى مبتدأ البهائم الذي لم تنتقل عن أصله وإن كانت منتقلة في شؤونه بتنقل الشؤون الإلهية لأنها لا تثبت على حال ، ولذلك كان من وصفهم سبحانه وتعالى من هؤلاء القوم أضل سبيلاً من الأنعام لأنهم يريدون الخروج من الحيرة من طريق فكرهم ونظرهم ولا يمكن لهم ذلك ، والبهائم علمت ذلك ووقفت عنده ولم تطل الخروج عنه لشدة علمها بالله تعالى ، وذكر أنها ما سميت بهائم إلا لأن أمراً قد أبهم على غالب الخلق فلم يعرفوه كما عرفه أهل الكشف انتهى .

(175/299)

---

وهو كلام يورث المؤمن به حسداً للبهائم نفعنا الله تعالى بها وأعاذنا من الحسد ﴿ والله  
الأسماء الحسنى ﴾ التي يدبر كل أمر باسم منها ﴿ فادعوه بها ﴾ [الأعراف: 180]  
حسب المراتب وأعلاها الدعاء بلسان الفعل وهو التحلي بمعانيها بقدر ما يتصور في حق  
العبد وذلك حظ المقربين منها ، وذكر حجة الإسلام الغزالي قدس سره أن حظوظهم من  
معاني أسمائه تعالى ثلاثة: الأول: معرفتها على سبيل المكاشفة والمشاهدة حتى يتضح  
لهم حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ وينكشف لهم اتصاف الله تعالى بها  
انكشافاً يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة التي  
يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهره ، وكم بين هذا وبين الاعتقاد المأخوذ من الآباء  
والمعلمين تقليداً ، والتصميم عليه وإن كان مقروناً بأدلة جدلية كلامية .  
الثاني استعظامهم ما يكشف لهم من صفات الجلال والكمال على وجه ينبعث منه شوقهم  
إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ليقتربوا بها من الحق قرباً بالصفة لا بالمكان  
فياخذوا من الاتصاف بها شبهاً بالملائكة المقربين عند الله تعالى ، والخلو من هذا الشوق لا  
يكون إلا لأحد أمرين إما لضعف المعرفة ، وإما لكون القلب ممتلاً بشوق آخر مستغرقاً به .  
والثالث السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها ،  
وبذلك يصير العبد رانياً رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة شبيهاً بهم ، وحينئذ لا يؤثر القرب  
والبعد في إدراكه بل لا يقتصر إدراكه على ما يتصور فيه ذلك ويكون مقدساً عن الشهوة

والغضب فلا تكون أفعاله بمقتضاها بل الداعي إليها حينئذ طلب التقرب إلى الله تعالى ولا يلزم من هذا إثبات المماثلة بين الله سبحانه وتعالى وبين العبد ، وقد قال جل وعلا :

(176/299)

---

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] لأن المماثلة هي المشاركة في النوع والماهية لا مطلق المشاركة فالفرس الكيس وإن كان بالغاً في الكياسة ما بلغ لا يكون مماثلاً للإنسان لمخالفته له بالنوع وإن شابهه بالكياسة التي هي عارضة خارجة عن المقومات للإنسانية ؛ وأنت تعلم بأدنى التفات أنه لا يتصور الشركة بين الله تعالى الحي العليم المريد القادر المتكلم السميع البصير وبين العبد المتصف بالحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر إلا في إطلاق الاسم لا غير ، والكلام في خبر "لا زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل" الخ يستدعي الخوض في بحر لا ساحل له فخذ ما أتيناك ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمِهِ ﴾ يطلبون معانيها من غيره سبحانه وتعالى ويضيفونها إليه وهؤلاء مما ذرأهم سبحانه وتعالى لجهنم ﴿ سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 180] من الأحاد ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : 181] وهم المرشدون الكاملون ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ كالمنكرين على هؤلاء الأمة ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [

الأعراف: 182] أنا سنستدرجهم ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أمهلهم ﴿ إِن كِيدِي ﴾ أخذي  
﴿ مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: 183] شديد ، وقد جرت عادة الله تعالى في المنكرين على  
أوليائه أن يأخذهم أشد أخذ وقد شاهدنا ذلك كثيراً نعوذ بالله تعالى من مكره ، ﴿ أَوْلَمْ  
يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا مَنَّ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: 185]  
وهي الآيات التكوينية ، وقد تقدم معنى الملكوت وهو في مصطلح الصوفية قدس الله تعالى  
أسرارهم عبارة عن عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس وفسروا الملك بعالم الشهادة من  
المحسوسات الطبيعية كالعرش والكرسي وغيرهما وكل جسم يتركب من الاستقصات  
﴿ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ ﴿ إِذْ لَا هَادِيَ سِوَاهُ سَبْحَانَهُ

(177/299)

---

إلى الماء يسعى من يغص بلقمة . . .

إلى أين يسعى من يغص بماء

﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: 186] يترددون لأن استعدادهم

يقتضي ذلك ، والله تعالى الموفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 8 ص ﴾

(178/299)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوي في تفسير القرآن الكريم  
ويُسمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَأِقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورُسُلِي - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثلاثمائة  
حُقوقُ التَّسْخِخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

## الجزء الثلاثمائة

من الآية ﴿ 187 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 193 ﴾ من نفس السورة

(4/300)

قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين التوحيد والنبوة والقضاء والقدر ، أتبعه المعاد لتكمل المطالب الأربعة التي هي أمهات مطالب القرآن ، مبيناً ما اشتمل عليه هذا الكلام من تبلدهم في العمه وتلدهم في إشراك الشبه بقوله : ﴿ يسألونك ﴾ أي مكررين لذلك ﴿ عن الساعة ﴾ أي عن وقتها سؤال استهزاء ﴿ أيان مرساها ﴾ أي أي وقت ثبات ثقلها واستقراره ، والمرسى يكون مصدراً وزماناً ومكاناً ، من رست السفينة - إذا ثبتت بالحديدة المتشعبة ، وإنما كان هذا

بياناَ لعمهم فإنهم وقعوا بذلك في الضلال من وجهين : السؤال عما غيره لهم أهم ، وجعله على طريق الاستهزاء مع ما قام عليه من الأدلة ، وسيكرره في هذه السورة ، وكان اللائق بهم أن يجعلوا بدل السؤال عنها اتقاءها بالأعمال الصالحة .

ولما كان السؤال عن الساعة عاماً ثم خاصاً بالسؤال عن وقتها ، جاء الجواب عموماً عنها بقوله : ﴿ قل إنما علمها ﴾ أي علم وقت إرسائها وغيره ﴿ عند ربي ﴾ أي المحسن إليّ بإقامتها لينعم على تبعني وينتقم ممن تركني ، لم يطلع على ذلك أحداً من خلقه ، ولا يقيمها إلا في أحسن الأوقات وأنفعها لي ، وإخفاؤها أنفع للخلق لأنه أعظم لشأنها وأهيب ، فيكون أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية وأقرب إلى التوبة ، ثم خصصت من حيث الوقت بقوله مشيراً إلى أن لها شرطاً تتقدمها : ﴿ لا يجليها ﴾ أي بينها غاية البيان ﴿ لوقتها إلا هو ﴾ .

(5/300)

---

ولما كان قد أشار إلى ثقل الساعة بالإرساء ، وكان الشيء إذا جهل من بعض الوجوه أشكل وإذا أشكل ثقل ، قال : ﴿ ثقلت ﴾ أي الساعة فغاصت إلى حيث لم يتغلغل إليها علم العباد فأهمهم كلهم عليّ شأنها ، ولذلك عبر بالظرف فقال : ﴿ في السماوات

والأرض ﴿ أي نسبة أهلها إلى خفائها والخوف منها على حد سواء لأن مالكما قادر على ما يشاء ، وله أن يفعل ما يشاء - ثم قرر خفائها على الكل فقال : ﴿ لا تأتكم ﴾ أي في حالة من الحالات ﴿ إلا بغتة ﴾ أي على حين غفلة .

ولما كانوا قد ألحفوا في سؤاله - صلى الله عليه وسلم - عنها ، وكانت صفة الربوبية المذكورة في الجملة الأولى ربما حملت على سؤاله طمعاً في تعرفها من المحسن إليه ، قطع الأطماع بقوله مؤكداً للمعنى : ﴿ يسألونك ﴾ أي عن الساعة مطلقاً في وقت وقوعها وما يحصل من أمورها ويحدث من شدائد ها ، أي ويلحفون في سؤالك كلما أخبرتهم أنه لا يعلمها إلا الله ﴿ كأنك حفي ﴾ أي عالم بأمورها مستقص مبالغ في السؤال ﴿ عنها قل ﴾ أي قطعاً لسؤالهم ﴿ إنما علمها عند الله ﴾ أي الذي له جميع العزة والعظمة والكبرياء فلا يستطيع علم شيء مما عنده إلا بإذنه ، ولم يأذن في علمها لأحد من الخلق ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي الذين غلبت عليهم صفة الاضطراب ﴿ لا يعلمون ﴾ أي ليسوا من أهل العلم فهم بالسؤال عنها يستهزئون ، ولو كانوا من أهله ما كذبوك ، فوقعوا ما لا يعينهم من السؤال عنها وغيره من أنواع التعنت ، وتركوا ما ينجيهم ويغنيهم من المبادرة إلى الإيمان بهذا القرآن خوف انخرام الآجال وهم يهيمون في أدوية الضلال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 165 .



## فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبه :

الإسرائيليات في نسبة الشرك إلى آدم وحواء

ومن الروايات التي لا تصح ، ومرجعها إلى الإسرائيليات : ما ذكره بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبِّهَا لَنْ أُنْتِنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ 1 ، 2 ، 3 .

وهذه الآية تعتبر من أشكال آيات القرآن الكريم ؛ لأن ظاهرها يدل على نسبة الشرك لآدم وحواء ، وذلك على ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أن المراد بالنفس الواحدة : نفس آدم عليه السلام وبقوله : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ﴿ حواء رضي الله عنهما ، وقد أول العلماء المحققون الآية تأويلاً يتفق وعصمة الأنبياء في عدم جواز إسناد الشرك إليهم عليهم الصلاة والسلام ، كما سنبين ذلك إن شاء الله .

الحديث المرفوع ، والآثار الواردة في هذا :

وقد زاد الطين بلة ما ورد من الحديث المرفوع ، وبعض الآثار عن بعض الصحابة والتابعين ،

في تفسير قوله تعالى: ﴿جَعَلَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . وقد  
اغتر بهذه الروايات كثير من المفسرين ، كابن جرير 4 ، والثعلبي ، والبغوي 5

1 ليجد فيها سكن النفس وطمانينة القلب .

2 أي : باشرها كما باشر الرجل زوجته .

3 الأعراف : 189 ، 190 .

4 تفسير ابن جرير عند جرير عند تفسير هذه الآية .

5 تفسير البغوي على هامش تفسير ابن كثير ج 3 ص 611 ، 612 .

(7/300)

والقرطبي 1 ، وإن كان ضعف الروايات ، ولم تركز نفسه إليها ، واعتبرها من الإسرائيليات  
وصاحب " الدر المنثور " 2 .

والعجيب : أن إماما كبيرا له في رد الموضوعات والإسرائيليات فضل غير منكور ،  
ومفسرا متأخرا وهو : الإمام الألويسي قد انخدع بهذه المرويات ، فقال : وهذه الآية عندي  
من المشكلات ، وللعلماء فيها كلام طويل ، ونزاع عريض ، وما ذكرناه ، هو الذي يشير إليه  
الجبائي ، وهو مما لا بأس به بعد إغضاء العين عن مخالفته للمرويات . . . . ثم قال : " وقد

يقال: أخرج ابن جرير عن الخبر: أن الآية نزلت في تسمية آدم، وحواء ولديهما بعبد الحارث، ومثل ذلك لا يكاد يقال من قبل الرأي، وهو ظاهر في كون الخبر تفسيراً للآية . . . . . وأنت قد علمت أنه إذا صح الحديث فهو مذهبي، وأراه قد صح، ولذلك أحجم كميّت قلمي عن الجري، في ميدان التأويل، كما جرى غيره والله تعالى الموفق للصواب<sup>3</sup>.

وبعض المفسرين أعرض عن ذكر هذه الرويات، وذلك كما صنع صاحب الكشاف، وتابعه النسفي.

وبعض المفسرين عرض لها، ثم بيّن عدم ارتضائه لها، وذلك كما صنع الإمام القرطبي في تفسيره، فقال: ونحو هذا مذكور في ضعيف الحديث، وفي الترمذي وغيره، وفي الإسرائيليات كثير ليس لها إثبات، فلا يعول عليها من له قلب، فإن آدم وحواء، وإن غرهما بالله الغرور، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، على أنه قد سطر، وكتب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خدعها مرتين، خدعها في الجنة، وخدعها في الأرض"<sup>4</sup>.

---

1 تفسير القرطبي ج 7 ص 338-339.

2 الدر المنثور عند تفسير هذه الآية.

3 تفسير الألويسي : ج 9 ص 139 ، 142 .

4 تفسير القرطبي : ج 7 ص 338 .

(8/300)

فارس الحلبة الإمام ابن كثير :

ولكن فارس هذه الحلبة هو الإمام ابن كثير ، فقد نقد المرويات نقدا علميا أصيلا ، على مناهج المحدثين وطريقتهم في نقد الرواة وبين أصل هذه المرويات ، وأن مرجعها إلى الإسرائيليات ، وإني لأعجب كيف أن الإمام الألويسي ، وهو المتأخر الباقعة 1 ، لم يشر إلى كلامه ! ! لعله لم يطلع عليه .

وسأذكر كلام الإمام ابن كثير بنصه ، ويطوله لنفاسه ، وشدة الحاجة إليه في هذا المقام قال رحمه الله وأثابه :

يذكر المفسرون ههنا آثارا ، وأحاديث ، سأوردها وأبين ما فيها ، ثم تتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك إن شاء الله وبه الثقة .

قال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا عبد الصمد " قال 2 حدثنا عمرو بن إبراهيم ، قال :

حدثنا قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

"ولما وكّدت حواء طاف بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميه عبد الحارث ؛  
فإنه يعيش فسمته عبد الحارث ، فعاش ، وكان ذلك من وحي الشيطان ، وأمره " ،  
وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بنديار ، عن عبد الصمد بن الوارث به 3 ، ورواه  
الترمذي في تفسير هذه الآية ، عن محمد بن المثنى ، عن عبد الصمد ، به ، وقال : هذا  
حديث حسن غريب ، يعني : انفرد به راويه ، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ،  
ورواه بعضهم عن عبد الصمد ، ولم يرفعه ، يعني : لم ينسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .  
ورواه الحاكم في مستدركه ، من حديث عبد الصمد مرفوعا ، ثم قال : هذا حديث  
صحيح الإسناد 4 ، ولم يخرجاه ، ورواه الإمام أبو محمد ابن أبي حاتم في تفسيره ،

---

1 الذكي العارف الذي لا يفوته شيء كما في القاموس .

2 جرت عادة المحدثين أن يحذفوا من الأسانيد لفظ : "قال" خطأ ، ولكنهم ينطقون بها  
عند الرواية وقد ذكرتها خطأ حتى لا يشكل الأمر على قارئ السند .

3 يعني ببقية السند المذكور أولاً .

4 من المعروف عند المحدثين أن الحاكم متساهل في التصحيح ، فلا يؤخذ بقوله ولا سيما

في مثل هذا .

---

عن أبي زرعة الرازي ، عن هلال بن فياض ، عن عمر بن إبراهيم به ؛ أي : ببقية السند مرفوعاً وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه ، في تفسيره ، من حديث شاذ ابن فياض ، عن عمر بن إبراهيم مرفوعاً .

قلت -أي ابن كثير : وشاذ هو هلال ، وشاذ لقبه .

والغرض : أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري ، وقد وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم الرازي : لا يحتج به ، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر ، عن أبيه ، عن الحسن ، عن سمرة مرفوعاً . فالله أعلم .

الثاني : أنه قد روي من قول سمرة نفسه ، ليس مرفوعاً ، كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : حدثنا المعتمر عن أبيه قال : حدثنا بكر بن عبد الله ، عن سليمان التيمي ، عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب ، قال : "مي آدم ابنه عبد الحارث" .

والثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه ، قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع قال : حدثنا سهل بن يوسف ، عن عمرو ، عن الحسن : ﴿ جعل له شركاء فيما آتاهما ﴾ ، قال : كان هذا في بعض أهل الملل ، ولم يكن

بآدم، وحدثنا 1 محمد بن عبد الأعلى قال: حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عني بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده، يعني: ﴿جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ وحدثنا 2 بشر قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولادًا، فهودوا ونصروا 3. وقال ابن كثير: وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية

---

1، 2 القائل: "وحدثنا" هو ابن جرير.

3 فيه إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه" رواه البخاري ومسلم، وما روي عن الحسن رضي الله عنه ليس اختلاف تضاد، وإنما هو اختلاف تغاير في اللفظ، والمدلول واحد أو متقارب.

(10/300)

---

بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو، ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله، وورعه.

فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب؛ من

آمن منهم مثل كعب ، أو وهب بن منبه وغيرهما ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله ، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع ، والله أعلم 1 .

فأما الآثار ، فقال محمد بن إسحاق بن يسار ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : "كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادا فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله ، وعبيد الله ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت ، فأتاهما إبليس ، فقال : إنما لو سميتاه بغير الذي تسميانه به لعاش ، قال : فولدت له رجلا ، فسماه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله يقول :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى آخر الآية ، وقال العوفي عن ابن عباس : قوله في آدم : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ شككت أحملت أم لا ؟ ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبِّهَمَا ﴾ الآية ، فأتاهما الشيطان ، فقال : هل تدرين ما يولد لكما ؟ أم هل تدرين ما يكون أبهيمه أم لا ؟ وزين لهما الباطل ، إنه غوي مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان : إنكما لم تسمياه بي ، لم يخرج سويا ومات كما مات الأول ، فسميا ولدهما عبد الحارث ، فذلك قوله : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ الآية .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن شريك ، عن خصيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَعَشَّاهَا ﴾ : آدم "حملت" أتاهما إبليس لعنه الله فقال : إني صاحبكما الذي



أخرجتكما ، تطيعاني ، أو لأجعلن له قرني أيل 2 ، فيخرج من بطنك ،

1 تفسير ابن كثير والبغوي : ج 3 ص 611 ، 612 .

2 الأيل بضم الهمزة وكسرهما ، والياء فيها مشددة مفتوحة : ذكر الأوعال ، وهو التيس

الجبلي ، المصباح المنير .

(11/300)

فيشقه ، ولأفعلن ، ولأفعلن ، يخوفهما ، فسَمِيَاه 1 عبد الحارث ، فأيا أن يطيعاه ، فخرج  
ميتا ، ثم حملت ، يعني الثانية فأتاهما ، فقال لهما مثل الأول ، فأيا أن يطيعاه ، فخرج ميتا ،  
ثم حملت الثالثة ، فأتاهما أيضا فذكر لهما ، فأدر كهما حب الولد ، فسَمِيَاه عبد الحارث ،  
فذلك قوله تعالى : ﴿ جَعَلَالَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد ، وسعيد بن جبير ،  
وعكرمة ، ومن الطبقة الثانية : قتادة ، والسدي ، وغير واحد من السلف ، وجماعة من  
الخلف ، ومن المفسرين من المتأخرين : جماعات لا يحصون كثرة ، وكأنه والله أعلم مأخوذ  
من أهل الكتاب ، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب 2 ، كما رواه ابن أبي حاتم ، قال :  
حدثنا أبي ، قال : حدثنا أبو الجماهر ، قال : حدثنا سعيد يعني ابن بشير عن عقبة ، عن

قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب 3، قال:

لما حملت حواء أتاها الشيطان، فقال لها: أتطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سميته عبد

الحارث، فلم تفعل فولدت، فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل، ثم حملت

الثالثة، فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة، فهيبها، فأطاعا.

قال: وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب، وبعد أن بين أن أخبار

أهل الكتاب على ثلاثة أقسام:

1 فمنها ما علمنا صحته مما بأيدينا من كتاب أو سنة.

2 ومنها: ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضا.

3 ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته بقوله عليه الصلاة والسلام: "حدثوا

عن بني إسرائيل ولا حرج"، وهو الذي لا يصدق، ولا يكذب،

---

1 بصيغة الأمر.

2 وعلى هذا فلا يكون له حكم الرفع؛ لأنه سمعه من صحابي مثله.

3 ويكون أبي قد سمعه من بعض مسلمة أهل الكتاب.

قال : وهذا الأثر من الثاني أو الثالث فيه نظر 1 .

قال : فأما من حدث به : من صحابي أو تابعي ، فإنه يراه من القسم الثالث ؛ يعني : ما يحتمل الصدق ، والكذب ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق : آدم وحواء وإنما المراد من ذلك : المشركون من ذريته ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ 2 فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالاتطراد من الشخص إلى الجنس ، وهذا الذي ذهب إليه هذا الإمام الحافظ الناقد ابن كثير في تخريج الحديث والآثار هو الذي يجب أن يصار إليه ، وهو الذي ندين الله عليه ، ولا سيما أن التفسير الحق للآيتين لا يتوقف على شيء مما روى .

التفسير الصحيح للآيتين :

والحققون من المفسرين : منهم من نحى عن العلامة ابن كثير فجعل الآية الأولى في آدم وحواء وجعل قوله : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ الآية في المشركين من ذريتهما ، أي : جعلها أولادهما شركاء لله فيما آتاهما ، والمراد بهم ، الجنس ، أي : جنس الذكر والأنثى ، فمن ثم حسن قوله : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ بالجمع ، ويكون هذا الكلام من الموصول لفظاً المفصول معنى ، ومنهم من جعل الآيتين في ذرية آدم وحواء ، أي : خلقكم من نفس واحدة ، وهي نفس الذكر ، وجعل منها ، أي : من جنسها : زوجها وهي : الأنثى ، فلما آتاهما صالحاً ، أي : بشراً سوياً كاملاً ، جعلاً - أي : الزوجان الكافران - لله شركاء فيما

آتاهما ، وبذلك : أبدا لشكر الله ؛ كفرانا به وجحودا ، وعلى هذا : لا يكون لآدم وحواء ذكر ما في الآيتين ، وهناك تفاسير أخرى ، لست منها على ثلج ، ولا طمأنينة<sup>3</sup> . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 209.216 ﴾

---

1 هكذا في النسخة المطبوعة ، ولعلها : " وفيه نظر : أي : في كونه من القسم الثالث ؛ والذي أقطع به والله أعلم أنه من القسم الثاني ؛ لقيام الأدلة العقلية والنقلية على عصمة الأنبياء من مثل ذلك .

2 تفسير ابن كثير والبغوي : ج 3 ص 613 ، 614 ط المنار .

3 انظر تفاسير الكشاف ، والقرطبي ، وأبي السعود ، والآلوسي ، وغيرها .

(13/300)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾

اعلم أن في نظم الآية وجهين : الأول : أنه تعالى لما تكلم في التوحيد والنبوة والقضاء والقدر أتبعه بالكلام في المعاد ، لما بينا أن المطالب الكلية في القرآن ليست إلا هذه الأربعة .

الثاني : أنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ [ الأعراف : 185 ] باعثاً بذلك عن المثابرة إلى التوبة والإصلاح قال بعده : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ ليتحقق في القلوب أن وقت الساعة مكتموم عن الخلق ، فيصير ذلك حاملاً للمكلفين على المسارعة إلى التوبة وأداء الواجبات ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في أن ذلك السائل من هو ؟ قال ابن عباس : إن قوماً من اليهود قالوا يا محمد أخبرنا متى تقوم الساعة فنزلت هذه الآية ، وقال الحسن وقادة : إن قريشاً قالوا : يا محمد بيننا وبينك قرابة ، فاذا ذكر لنا متى الساعة ؟

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" : الساعة من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة ، أو لأن حساب الخلق يقضي فيها في ساعة واحدة فسمي بالساعة لهذا السبب أو لأنها على طولها كساعة واحدة عند الخلق .

المسألة الثالثة :

أيان معناه الاستفهام عن الوقت الذي يجيء ، وهو سؤال عن الزمان وحاصل الكلام أن أيان بمعنى متى ، وفي اشتقاقه قولان : المشهور أنه مأخوذ من الأين وأنكره ابن جني وقال : ﴿ أَيَّانَ ﴾ سؤال عن الزمان ، وأين سؤال عن المكان ، فكيف يكون أحدهما مأخوذاً من

الآخر.

والثاني: وهو الذي اختاره ابن جني أن اشتقاقه من أي فعلان منه، لأن معناه أي وقت ولفظة أي، فعل من أويت إليه، لأن البعض أو إلى مكان الكل متسانداً إليه هكذا.  
قال ابن جني: وقرأ السلمي (إيان) بكسر الهمز.

المسألة الرابعة:

(14/300)

---

مرساها "المرسي" ههنا مصدر بمعنى الإرساء لقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا  
وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: 41] أي إجراؤها وإرساؤها، والإرساء الإثبات يقال رسي  
يرسوا؛ إذا ثبت.

قال تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾ [النازعات: 32] فكان الرسول ليس اسماً لمطلق  
الثبت، بل هو اسم لثبات الشيء إذا كان ثقيلاً ومنه إرساء الجبل، وإرساء السفينة،  
ولما كان أثقل الأشياء على الخلق هو الساعة، بدليل قوله: ﴿ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ﴾ لا جرم سمي الله تعالى وقوعها وثبوتها بالإرساء.  
ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي لا يعلم الوقت الذي فيه يحصل قيام القيامة

إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [لقمان : 34]  
وقوله : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الحج : 7] وقوله : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ  
أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 15] ولما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : متى  
الساعة فقال عليه السلام : " ليس المسؤول عنها بأعلم من السائل "  
قال المحققون : والسبب في إخفاء الساعة عن العباد ؟ أنهم إذا لم يعلموا متى تكون ، كانوا  
على حذر منها ، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية ، ثم إنه تعالى أكد  
هذا المعنى فقال : ﴿ لَّا يُجَلِّبُهَا لَوْ قَتَمَهَا ﴾ التجلية إظهار الشيء والتجلي ظهوره ، والمعنى  
: لا يظهرها في وقتها المعين ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا يقدر على إظهار وقتها المعين بالإعلام  
والإخبار إلا هو .

ثم قال تعالى : ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والمراد وصف الساعة بالثقل ونظيره  
قوله تعالى : ﴿ وَيَذْرُونَ وَّرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان : 27] وأيضاً وصف الله تعالى  
زلزلة الساعة بالعظم فقال : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : 1] ووصف  
عذابها بالشدة فقال : ﴿ وَمَا هُمْ بِسَكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : 2] .

إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين في تفسير قوله : ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾  
وجوه : قال الحسن : ثقل مجيئها على السموات والأرض ، لأجل أن عند مجيئها شقت  
السموات وتكورت الشمس والقمر وانتثرت النجوم وثقلت على الأرض لأجل أن في ذلك  
اليوم تبدل الأرض غير الأرض ، وتبطل الجبال والبحار ، وقال أبو بكر الأصبم : إن هذا اليوم  
ثقل جداً على أهل السماء والأرض ، لأن فيه فناءهم وهلاكهم وذلك ثقل على القلوب .  
وقال قوم : إن هذا اليوم عظيم الثقل على القلوب بسبب أن الخلق يعلمون أنهم يصيرون  
بعدها إلى البعث والحساب والسؤال والخوف من الله في مثل هذا اليوم شديد .  
وقال السدي : ﴿ ثَقَلَتْ ﴾ أي خفيت في السموات والأرض ولم يعلم أحد من الملائكة  
المقربين والأنبياء المرسلين متى يكون حدوثها ووقوعها .  
وقال قوم : ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ثقل تحصيل العلم بوقتها المعين على أهل  
السموات والأرض ، وكما يقال في الحمل الذي يتعذر حمله أنه قد ثقل على حامله ،  
فكذلك يقال في العلم الذي استأثر الله تعالى به أنه يثقل عليهم .  
ثم قال : ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ وهذا أيضاً تأكيد لما تقدم وتقرير لكونها بحيث لا تجيء إلا  
بغثة فجأة على حين غفلة من الخلق .  
وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الساعة تفتجأ الناس ، فالرجل يصلح موضعه  
، والرجل يسقي ماشيته ، والرجل يقوم بسلعته في سوقه .



والرجل يخفض ميزانه ويرفعه " وروى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "   
والذي نفس محمد بيده لتقومن الساعة وإن الرجل ليرفع اللقمة إلى فيه حتى تحول الساعة   
بينه وبين ذلك "

ثم قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(16/300)

---

في الحفي وجوه: الأول: الحفي البار اللطيف قال ابن الأعرابي: يقال حفي بي حفاوة   
وتحفي بي تحفياً ، والحفي الكلام واللقاء الحسن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾   
أي باراً لطيفاً يجيب دعائي إذا دعوته ، فعلى هذا التقدير يسألونك كأنك بار بهم لطيف   
العشرة معهم وعلى هذا قول الحسن وقتادة والسدي ، ويؤيد هذا القول ما روي في تفسيره   
إن قريشاً قالت لمحمد عليه السلام: إن بيننا وبينك قرابة ، فاذا ذكر لنا متى الساعة .   
فقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أي كأنك صديق لهم بار بمعنى أنك لا تكون   
حفياً بهم ما داموا على كفرهم .

والقول الثاني : ﴿ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أي كثير السؤال عنها شديد الطلب لمعرفة ، وعلى هذا

القول ﴿ حَفِيٌّ ﴾ فعيل من الإحفاء وهو الإلحاح والإلحاف في السؤال ، ومن أكثر السؤال والبحث عن الشيء علمه ، قال أبو عبيدة هو من قولهم تحفى في المسألة ، أي استقصى .  
فقوله : ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أي كأنك أكثرت السؤال عنها وبالغت في طلب علمها .  
قال صاحب "الكشاف" : هذا الترتيب يفيد المبالغة ومنه إحفاء الشارب ، وإحفاء البقل استئصاله ، وأحفى في المسألة إذا ألحف ، وحفى بفلان وتحفى به بالغ في البربه ، وعلى هذا التقدير : فالقولان الأولان متقاربان .

#### المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ عَنْهَا ﴾ وجهان : الأول : أن يكون فيه تقديم وتأخير والتقدير : يسألونك عنها كأنك حفى بها ثم حذف قوله : "بها" لطول الكلام ولأنه معلوم لا يحصل الالتباس بسبب حذفه .

والثاني : أن يكون التقدير : يسألونك كأنك حفى بهم لأن لفظ الحفى يجوز أن يعدى تارة بالباء وأخرى بكلمة عن ويؤكد هذا الوجه بقراءة ابن مسعود ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهَا ﴾ .

#### المسألة الثالثة :

قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾ سؤال عن وقت قيام الساعة وقوله ثانياً:

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾ سؤال عن كنه ثقل الساعة وشدتها ومهابتها، فلم يلزم

التكرار:

أجاب عن الأول بقوله: ﴿إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ .

وأجاب عن الثاني بقوله: ﴿إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ والفرق بين الصورتين أن السؤال الأول

كان واقعاً عن وقت قيام الساعة.

والسؤال الثاني كان واقعاً عن مقدار شدتها ومهابتها، وأعظم أسماء الله مهابة وعظمة هو

قوله عند السؤال عن مقدار شدة القيامة الاسم الدال على غاية المهابة، وهو قولنا الله ثم

إنه تعالى ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفيه وجوه: أحدها:

ولكن أكثر الناس لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفيت معرفة وقته المعين عن الخلق.

انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب ح 15 ص 65.68﴾

(18/300)

وقال الجصاص:

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾ الآية.

قَوْلُهُ: ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿ قِيَامُهَا ﴾ .

وَأَيَّانَ بِمَعْنَى مَتَى ؛ وَهُوَ سُؤَالٌ عَنِ الزَّمَانِ عَلَى جِهَةِ الظَّرْفِ لِلْفِعْلِ ، فَلَمْ يُخْبِرْهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ وَقْتِهَا لِيَكُونَ الْعِبَادُ عَلَى حَذَرٍ مِنْهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَدْعَى إِلَى الطَّاعَةِ وَأُزْجَرَ عَنْ الْمَعْصِيَةِ .

وَالْمُرْسَى مُسْتَقَرُّ الشَّيْءِ الثَّقِيلِ ، وَمِنْهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ يُعْنِي الثَّابِتَاتُ ، وَرَسِيَتْ السَّفِينَةُ إِذَا ثَبَتَتْ فِي مُسْتَقَرِّهَا ، وَأُرْسَاهَا غَيْرُهَا أَثْبَتَهَا .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ كَانَ السَّائِلُونَ عَنِ السَّاعَةِ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ ﴾ .

وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿ سَأَلَتْ عَنْهَا قُرَيْشٌ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ قَالَ قَتَادَةُ غَفْلَةً ، وَذَلِكَ أَشَدُّهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: ﴿ ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى

أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلَمْ يُطِيقُوهُ إِذْ رَأَوْا كَلَهُ ﴾ ، وَقَالَ الْحَسَنُ ﴿ عَظُمَ وَصْفُهَا عَلَى أَهْلِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ ائْتِثَارِ النُّجُومِ وَتَكْوِيرِ السَّمَوَاتِ وَتَسْيِيرِ الْجِبَالِ ﴾ .

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿ ثَقُلَتْ عَلَى السَّمَوَاتِ فَلَا تُطِيقُهَا لِعَظَمِهَا ﴾ .

وقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ كَانَتْ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال مجاهد والضحاك ومعمّر: ﴿كانت  
عالم بها﴾ وعن ابن عباس والحسن وقتادة والسدي: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بهم  
على التقدير والتأخير، أي كأنك لطيفٌ ببرك إياهم، من قوله: ﴿إنه كان بي حفيًّا﴾  
ويقال إن أصل الحفا الإلحاح في الأمر، يقال: أحفى فلان فلانا إذا ألح في الطلب منه،  
وأحفى السؤال إذا ألح فيه، ومنه أحفى الشارب إذا استأصله واستقصى في أخذه.  
ومنه الحفا وهو أن يتسحج قدمه للإلحاح المشي بغير

(20/300)

نعل، والحفيُّ اللطيف ببرك الإلحاح بالبرك، وحفيٌّ عنها بمعنى عالم بها للإلحاح  
بطلب علمها وفي هذه الآية دليل على بطلان قول من يدعي العلم ببقاء مدة الدنيا،  
ويستدل بما روي أن الدنيا سبعة آلاف سنة، وأن الباقي منها من وقت بعث النبي صلى  
الله عليه وسلم خمسمائة سنة؛ لأنه لو كان كذلك لكان وقت قيام الساعة معلوماً، وقد  
أخبر الله تعالى أن علمها عنده وأنه لا يجليها لوقتها إلا هو، وأنها تأتي بغتة لم يتقدم لهم علم  
بها قبل كونها لأن ذلك معنى البغتة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار في  
بقاء مدة الدنيا وليس فيها تحديد للوقت، مثل قوله: ﴿بعثت والساعة كها تين﴾

وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى ، وَنَحْوُ قَوْلِهِ فِيمَا رَوَاهُ شُعْبَةُ وَغَيْرُهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِي  
نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : ﴿ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطْبَةً  
بَعْدَ الْعَصْرِ إِلَى مَغِيبِ الشَّمْسِ قَالَ : أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ هَذِهِ  
الشَّمْسِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ ﴾ وَمَا رَوَى ابْنُ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿  
أَجَلِكُمْ فِي أَجَلٍ مِنْ مَضَى قَبْلِكُمْ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ ﴾ وَنَحْوَهَا مِنْ  
الْأَخْبَارِ لَيْسَ فِيهَا

(21/300)

---

تَحْدِيدُ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ وَإِنَّمَا فِيهِ تَقْرِيبُ الْوَقْتِ وَقَدْ رُوِيَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَقَدْ  
جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أَنَّ مَبْعَثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَشْرَاطِهَا .  
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾  
فَإِنَّهُ قِيلَ إِنَّهُ بِالْأَوَّلِ عِلْمٌ وَقْتَهَا  
وَبِالْآخِرِ عِلْمٌ كُنْهًا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِلْجِصَّاصِ ح 3 ص ﴾

(22/300)

---

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ أي : قيام الساعة

﴿ أَيَّانَ مَرَسَاهَا ﴾ أي متى حينها وقيامها .

ويقال : هذا الكلام على الاختصار .

ومعناه : أي أوان قيامها .

ثم قال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ أي : علم قيام الساعة عند ربي وما لي بها من علم

﴿ لَا يُجَلِّبُهَا لَوْ قَتَهَا إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا يكشفها حينها إلا الله .

ويقال : لا يقدر أحد على إظهارها إلا هو .

يعني : إلا الله .

ويقال : لا يعلم أحد قيامها إلا هو ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ثقل علم قيام

الساعة على أهل السموات وأهل الأرض .

ويقال : ثقلت أي : خفي علمها ، وإذا خفي الشيء ثقل علمه .

ويقال : معناه ثقل حمل ذكرها لفضاعة شأنها وأمرها .

ثم قال : ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ يعني : فجأة .

ثم قال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ ﴾ قال مقاتل : كأنك استحفيت عنها السؤال

حتى علمتها .

وقال القتيبي : أي : كأنك حفي تطلب علمها .

ومنه يقال : تحفى فلان بالقوم إذا بالغ في البر .

ويقال : كأنك حفي عنها أي كأنك جاهل بها .

ويقال : في الآية تقديم ومعناه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ ﴾ يعني : كأنك عالم بها ﴿

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وروى إبراهيم بن يوسف بإسناده أن النبي صلى الله عليه وسلم

سأله رجل فقال : متى الساعة ؟ فقال : " مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ أَشْرَاطُ

السَّاعَةِ عَشْرَةٌ يُقْرَبُ فِيهَا الْمَاحِلُ وَيَطْرَفُ فِيهَا الْفَاجِرُ وَيَعْجَزُ فِيهَا الْمُنْصِفُ وَتَكُونُ الصَّلَاةُ

مِنَّا وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا وَالْأَمَانَةُ مَغْنَمًا وَاسْتِطَالَةُ الْقُرَاءِ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَكُونُ أَمَارَةُ الصَّبِيَّانِ وَسُلْطَانُ

النِّسَاءِ وَمَشُورَةُ الْإِمَاءِ "

ثم قال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يعني : علم قيامها عند الله ﴿ ولكن أكثر الناس لا

يَعْلَمُونَ ﴾ أنها كائنة ولا يصدقون بها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 1 ص ﴾



وقال الثعلبي :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾

قال ابن عباس : قال [ وجيل ] بن أبي فشير وسمؤال بن زيد : وهما من اليهود : يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فلنعلم متى هي ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .  
وقال قتادة : قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم إن بيننا وبينك قرابة فأشر إلينا متى الساعة فأنزل الله ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ يعني القيامة ﴿ أَيَّانَ ﴾ متى ، ومنه قول  
الراجز :

أيان تقضي حاجتي أيانا . . . أما ترى لنجحها إيانا

﴿ مُرْسَاهَا ﴾ قال ابن عباس : ومنتهاها ، وقال قتادة : قيامها . وأصل الكلمة الثبات والحبس ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ استأثر بعلمها ﴿ لَا يُجَلِّئُهَا لَوْقَتَهَا إِلَّا هُوَ ﴾ لا يجليها لا يكشفها ولا يظهرها .

وقال مجاهد : لا يأتي بها ، وقال السدي : [ لا يرسلها ] لوقيتها إلا هو ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يعني ثقل علمها على أهل السموات والأرض لحفائها فلا يعرفون مجيئها ووقيتها فلم يعلم قيامها ملك مقرب ولا نبي مرسل .

وقال الحسن : يقول إذا جاءت ثقلت على السموات والأرض وأهلها وكبرت وعظمت وذلك أنها إذا جاءت انشقت السموات وانتثرت النجوم وكورت الشمس وسيرت الجبال

. وليس من الخلق شيء إلا ويصيبه ضرر الساعة وثقلها ومشقتها ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾  
﴿ فجأة على غفلة منكم .

سعيد عن قتادة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " إن الساعة تهيج  
الناس والرجل يصلح حوضه والرجل يستقي ماشيته والرجل يقيم سلعته في السوق ويخفض  
ميزانه ويرفعه " .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال جبرئيل : تقوم الساعة  
عند ثلاث مواطن : إذا كثرت القول وقل العمل وعند قلة المواشي حتى يمضي كل رجل مما  
عنده ، وإذا قال الناس من يذكر الله فيها بدعة " .

(24/300)

---

﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ قال أهل التفسير في الآية تقديم وتأخير تقديرها .  
يسألونك عنها كأنك حفي أي [ بار فيهم ] صديق لهم قريب ، قاله ابن عباس وقتادة ، وقال  
مجاهد والضحاك : كأنك عالم بها وقد يوضع عن موضع مع الياء . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(25/300)

---

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أن السائل عنها اليهود ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن السائل عنها قريش ، قاله الحسن ، وقتادة .

﴿ أَيَّانَ مَرْسَاهَا ﴾ أما ﴿ أَيَّانَ ﴾ فمعنى متى ، ومنه قول الراجز :

أيان تقضي حاجتي أيانا . . . أما ترى لنجحها أوانا

وأما ﴿ مَرْسَاهَا ﴾ ففيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : قيامها ، قالها السدي .

والثاني : منتهاها ، قاله ابن عباس .

والثالث : ظهورها ، قاله الأخفش .

﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَأُجَلِّبَهَا لَوَقْتِهَا إِهْوَا ﴾ لا يعلم وقتها إلا هو ، نفيًا أن يعلمها

غير الله ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : كبر على أهل السموات والأرض مجيء الساعة ، قاله الحسن .

والثاني : ثقل عليهم قيام الساعة ، قاله السدي .

والثالث : معناه عظم وصفها على أهل السموات والأرض ، قاله ابن جريج .  
﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ يعني على غفلة لأنه لا يعلمها غير الله ، ولم ترد الأخبار عنها من

جهة الله فصار مجيئها بغتة وذلك أشد لها كما قال الشاعر :

وَأَنْكَأ شَيْءٌ حِينَ يَفْجُؤُكَ الْبَغْتُ . . . ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : معناه عالمٌ بها ، قاله مجاهد ، والضحاك ، وابن زيد ، ومعمر .

والثاني : معنى الكلام يسألونك عنها كأن حفي بهم ، على التقديم والتأخير ، أي كأنك

بينك وبينهم مودة توجب برهم ، من قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [ مريم : 46 ] قاله ابن

عباس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(26/300)

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ الآية ،

قال قتادة بن دعامة المراد يسألونك كفار قريش ، وذلك ان قريشاً قالت يا محمد إنا قرابتك

فأخبرنا بوقت الساعة ، قال ابن عباس : المراد بالآية اليهود ، وذلك أن جبل بن أبي قشير

وسمويل بن زيد قال له إن كنت نبياً فأخبرنا بوقت الساعة فإننا نعرفها فإن صدقت آمننا بك

، والساعة القيامة موت كل شيء كان حينئذ حياً وبعث الجميع ، هو كله يقع عليه اسم الساعة واسم القيامة ، و﴿ أيان ﴾ معناه متى وهو سؤال عن زمان وتضمنها الوقت بنيت ، وقرأ جمهور الناس " أيان " بفتح الهمزة ، وقرأ السلمي " إيان " بكسر الهمزة ، ويشبه أن يكون أصلها أي آن وهي مبنية على الفتح ، وقال الشاعر : [الرجز]  
أيان يقضي حاجتي أيانا . . . أما ترى لفعالها إيانا

قال أبو الفتح وزن " أيان " بفتح الهمزة فعلان وبكسرهما فعلان ، والنون فيهما زائدة ، و﴿ مرساها ﴾ رفع بالابتداء والخبر ، ﴿ أيان ﴾ ومذهب المبرد أن ﴿ مرساها ﴾ مرتفع بإضمار فعل ومعناه مثبتها ومنتهاها ، مأخوذة من أرسى يرسى ، ثم أمر الله عز وجل بالرد إليه والتسليم لعلمه ، و﴿ يجليها ﴾ معناه يظهرها والجلء البينة الشهود وهو مراد زهير بقوله : [الوافر] .

يمين أو نفار أو جلاء . . . وقوله : ﴿ ثقلت في السماوات والأرض ﴾ قال السدي ومعمّر عن بعض أهل التأويل : معناه ثقل أن تعلم ويوقف على حقيقة وقتها ، قال الحسن بن أبي الحسن معناه ثقلت هيئتها والفرع منها على أهل السماوات والأرض ، كما تقول خيف العدو في بلد كذا وكذا ، وقال قتادة وابن جريج : معناه ثقلت على السماوات والأرض أنفسها لتفطر السماوات وتبدل الأرض ونسف الجبال ، ثم أخبر تعالى خبراً يدخل فيه

الكل أنها لا تأتي إلا بغتة أي فجأة دون أن يتقدم منها علم بوقتها عند أحد من الناس ، و ﴿  
بغتة﴾ مصدر في موضع الحال .

(27/300)

---

وقوله تعالى : ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ الآية ، قال ابن عباس وقتادة ومجاهد :  
المعنى يسألونك عنها كأنك حفي أي متحف ومهتل ، وهذا ينحو إلى ما قالت قریش إنا  
قربتك فأخبرنا ، وقال مجاهد أيضاً والضحاك وابن زيد : معناه كأنك حفي في المسألة  
عنها والاشتغال بها حتى حصلت علمها ، وقرأ ابن عباس فيما ذكر أبو حاتم " كأنك حفي  
بها " ، لأن حفي معناه مهتل مجتهد في السؤال مبالغ في الإقبال على ما يسأل عنه ، وقد  
يجيء ﴿ حفي ﴾ وصفاً للسؤال ومنه قول الشاعر : [ الطويل ]

فلما التقينا بين السيف بيننا . . . لسائلة عنا حفي سؤلها

ومن المعنى الأول الذي يجيء فيه ﴿ حفي ﴾ وصفاً لسائل قول الآخر : [ الطويل ]

سؤال حفي عن أخي كأنه . . . بذكرته وسنان أو متواسن

ثم أمره ثانية بأن يسلم العلم تأكيداً للأمر وتهمماً به إذ هو من الغيوب الخمسة التي في قوله عز

وجل : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ﴾ [ لقمان : 34 ] ، وقيل العلم الأول

علم قيامها والثاني علم كنهها وحالها ، وقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ قال  
الطبري : معناه لا يعلمون أن هذا الأمر لا يعلمه إلا الله بل يظن أكثرهم أنه مما يعلم البشر .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ج 2 ص ﴾

(28/300)

---

وقال ابن الجوزي :  
قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾  
في سبب نزولها قولان .  
أحدهما : أن قوماً من اليهود قالوا : يا محمد ، أخبرنا متى الساعة ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله  
ابن عباس .  
والثاني : أن قريشاً قالت : يا محمد ، بيننا وبينك قرابة ، فبين لنا متى الساعة ؟ فنزلت  
هذه الآية ، قاله قتادة .  
وقال عروة : الذي سأله عن الساعة عتبة بن ربيعة .  
والمراد بالساعة هاهنا : التي يموت فيها الخلق .  
قوله تعالى : ﴿ أيان مرساها ﴾ قال أبو عبيدة : أي : متى مرساها ؟ أي : منتهاها .

ومرسا السفينة : حيث تنتهي .

وقال ابن قتيبة : ﴿ أيا ن ﴾ : بمعنى : متى ؛ و"متى" بمعنى : أي حين ، ونرى أن أصلها أي

أوان ، فحذفت الهمزة [ والواو ] ، وجعل الحرفان واحداً ، ومعنى الآية : متى ثبوتها ؟

يقال : رسا في الأرض ، أي : ثبت ، ومنه قيل للجبال : رواسي .

قال الزجاج : ومعنى الكلام : متى وقوعها ؟ .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما علمها عند ربي ﴾ أي : قد استأثر بعلمها ﴿ لا يُجلبها ﴾ أي : لا

يظهرها في وقتها ﴿ إلا هو ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : ثقل وقوعها على أهل السموات والأرض ، قاله ابن عباس ، ووجهه أن الكل

يخافونها ، محسنهم ومسيئهم .

والثاني : عظم شأنها في السموات والأرض ، قاله عكرمة ، ومجاهد ، وابن جريج .

والثالث : خفي أمرها ، فلم يعلم متى كونها ، قاله السدي .

والرابع : أن "في" بمعنى "على" فالمعنى : ثقلت على السموات والأرض ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ لا تأتاكم إلا بغتة ﴾ أي : فجأة .

قوله تعالى : ﴿ كأنك حفي عنها ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه من المقدم والمؤخر ، فتقديره : يسألونك عنها كأنك حفي ، أي : برئهم ، كقوله



: ﴿إنه كان بي حفيًا﴾ [مريم: 47].

قال العوفي عن ابن عباس ، وأسباط عن السدي : كأنك صديق لهم .

والثاني : كأنك حفي بسؤالهم ، مجيب لهم .

(29/300)

---

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : كأنك يعجبك سؤالهم .

وقال خصيف عن مجاهد : كأنك تحبُّ أن يسألك عنها .

وقال الزجاج : كأنك فرح بسؤالهم .

والثالث : كأنك عالم بها ، قاله الضحاك عن ابن عباس ، وهو قول ابن زيد ، والفراء .

والرابع : كأنك استحفيت السؤال عنها حتى علمتها ، قاله ابن أبي نجيح عن مجاهد .

وقال عكرمة : كأنك سؤول عنها .

وقال ابن قتيبة : كأنك معني بطلب علمها .

وقال ابن الأنباري : فيه تقديم وتأخير ، تقديره : يسألونك عنها كأنك حفيُّ بها ، والحفيُّ في

كلام العرب : المعنيُّ .

قوله تعالى : ﴿قل إنما علمها عند الله﴾ أي : لا يعلمها إلا هو ﴿ولكن أكثر الناس لا

يعلمون ﴿ قال مقاتل في آخرين : المراد بالناس هاهنا : أهل مكة .

وفي قوله : ﴿ لا يعلمون ﴾ قولان .

أحدهما : لا يعلمون أنها كائنة ، قاله مقاتل .

والثاني : لا يعلمون أن هذا مما استأثر الله بعلمه ، قاله أبو سليمان الدمشقي . انتهى انتهى .

اه ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(30/300)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾

"أَيَّانَ" سؤال عن الزمان ؛ مثل متى .

قال الراجز :

أَيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي أَيَّانَ . . .

أما ترى لنجحها أو أنا

وكانت اليهود تقول للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى

تقوم .

وروي أن المشركين قالوا ذلك لفرط الإنكار .

"مُرْسَاهَا" في موضع رفع بالابتداء عند سيبويه ، والخبر "إيان" .

وهو ظرف مبني على الفتح ؛ بني لأن فيه معنى الاستفهام .

"مُرْسَاهَا" بضم الميم ، من أرساها الله ، أي أثبتها ، أي متى مُثَبَّتْهَا ، أي متى وقوعها .

وبفتح الميم من رَسَتْ ، أي ثبتت ووقفت ؛ ومنه ﴿ وَقَدُورٌ رَأْسِيَّاتٍ ﴾ [سبا: 13

. [

قال قتادة: أي ثابتات .

﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ ابتداء وخبر ، أي لم يبينها لأحد ؛ حتى يكون العبد أبداً

على حذر ﴿ لَا يُجَلِّيَهَا ﴾ أي لا يظهرها .

﴿ لَوْ قَتَّهَا ﴾ أي في وقتها ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ .

والتجلية: إظهار الشيء ؛ يقال: جلا لي فلان الخبر إذا أظهره وأوضحه .

ومعنى ﴿ ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ﴿ خَفِيَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

وكل ما خفي علمه فهو ثقيل على الفؤاد .

وقيل: كبر مجيئها على أهل السموات والأرض ؛ عن الحسن وغيره .

ابن جريج والسدي: عظم وصفها على أهل السموات والأرض .

وقال قتادة وغيره: المعنى لا تطيقها السموات والأرض لعظمتها: لأن السماء تنشق

والنجوم تنثر والبحار تنضب .

وقيل : المعنى ثقلت المسألة عنها .

﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ، مصدر في موضع الحال ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾

﴿ أي عالم بها كثير السؤال عنها .

قال ابن فارس : الحفيّ العالم بالشيء .

والحفيّ : المستقصي في السؤال .

قال الأعشى :

فإن تسألني عني فيارب سائل . . .

حفيّ عن الأعشى به حيث أصدداً

(31/300)

---

يقال : أحفي في المسألة وفي الطلب ، فهو محفٍ وحفي على الكثير ، مثل مخصب  
وخصيب .

قال محمد ابن يزيد : المعنى يسألونك كأنك حفي بالمسألة عنها ، أي ملح .

يذهب إلى أنه ليس في الكلام تقديم وتأخير .

وقال ابن عباس وغيره : هو على التقديم والتأخير ، والمعنى : يسألونك عنها كأنك حفيّ بهم أي حفي يبرهم وفرح بسؤالهم .

وذلك لأنهم قالوا : بيننا وبينك قرابة فأسرّ إلينا بوقت الساعة .

﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ليس هذا تكريراً ، ولكن أحد

العلمين لوقوعها والآخر لكتبتها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(32/300)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾

قال قتادة : قالت قريش لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) أن بيننا وبينك قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال ابن عباس : قال جبل بن أبي قبشير وشمول بن زيد ، وهما من اليهود ، لرسول الله (

صلى الله عليه وسلم ) يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فإننا نعلم متى

الساعة فأنزل الله : يسألونك عن الساعة يعني عن خبر القيامة .

سميت ساعة لأنها تقوم في ساعة غفلة وبغلة أولان حساب الخلائق ينقضي فيها في ساعة

واحدة أيا ن سؤال استفهام عن الوقت الذي تقوم فيه الساعة ومعناه متى مر ساها .

قال ابن عباس : يعني منتهاها أي متى وقوعها .

قالوا والساعة الوقت الذي تموت فيه الخلاق وأصل الإرساء الثبات يقول رسا يرسو إذا

ثبت ﴿ قل ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿ إنما علمها عند ربي ﴾ أي لا يعلم الوقت الذي تقوم

فيه إلا الله استأثر الله بعلمها فلم يطلع عليه أحد ومر حديث الإيمان والإسلام والإحسان

وسؤال جبريل للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها

بأعلم من السائل .

قال المحققون : وسبب إخفاء علم الساعة ووقت قيامها عن العباد ليكونوا على خوف

وحذر منها لأنهم إذا لم يعلموا متى يكون ذلك الوقت كانوا على وجل وخوف وإشفاق منها

فيكون ذلك أدعى لهم إلى الطاعة والتوبة وأزجر لهم عن المعصية ﴿ لا يجلبها لوقتها إلا هو

﴿ قال مجاهد لا يأتي بها إلا هو ، وقال السدي : لا يرسلها لوقتها إلا هو والتجلية إظهار

الشيء بعد خفائه ، والمعنى : لا يظهرها لوقتها المعين إلا الله ولا يقدر على ذلك غيره ﴿

ثقلت في السموات والأرض ﴾ يعني ثقل أمرها وخفي علمها على أهل السموات والأرض

فكل شيء خفي فهو ثقيل شديد .

---

وقال الحسن : إذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والأرض وإنما ثقلت عليهم لأن فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقل على القلوب ﴿ لا تأتكم إلا بغتة ﴾ يعني فجأة على حين غفلة من الخلق ( ق ) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه وتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه وتقومن الساعة وهو يليب حوضه فلا يسقي فيه وتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها " اللقحة بفتح اللام وكسرهما : الناقة القريبة العهد بالنواج .

قوله : يليب حوضه ويروي يلو ط حوضه يعني يطينه ويصلحه يقال لاط حوضه يلبطه أو يلو طه إذا طينه وأصله من اللصوق .  
الأكلة : بضم الهمزة اللقمة .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ يعني يسألونك قومك عن الساعة كأنك حفي بها بمعنى بارّ بهم شفيق عليهم فعلى هذا القول فيه تقديم وتأخير تقديره يسألونك عنها كأنك حفي بهم .

قال ابن عباس : يقول كأن بينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم .

قال ابن عباس لما سأل الناس محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) عن الساعة سأله سؤال قوم

كانهم يرون أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) حفي بهم فأوحى الله إليه إنما علمها عند  
استأثر بعلمها فلم يطلع عليها ملكاً ولا رسولاً وقيل معناه يسألونك عنها كأنك حفي بها أي  
عالم بها من قولهم أحفيت في المسألة إذا بالغت في السؤال عنها حتى علمتها ﴿ قل ﴾  
يعني يا محمد ﴿ إنما علمها عند الله ﴾ يعني استأثر الله بعلمها فلا يعلم متى الساعة إلا الله

فإن قلت : قوله سبحانه وتعالى يسألونك عن الساعة أيان مرساها وقوله سبحانه وتعالى  
ثانياً يسألونك كأنك حفي عنها فيه تكرار ؟

قلت : ليس في تكرار لأن السؤال الأول سؤال عن وقت قيام الساعة والسؤال الثاني سؤال  
عن أحوالها من ثقلها وشدائدتها فلم يلزم التكرار .

(34/300)

---

فإن قلت : عبر عن الجواب في السؤال الأول بقوله تعالى : علمها عند ربي وعن الجواب في  
السؤال الثاني بقوله تعالى : علمها عند الله فهل من فرق بين الصورتين في الجوابين .  
قلت : فيه فرق لطيف وهو أنه لما كان السؤال الأول واقعاً عن قيام وقت الساعة عبر عن  
الجواب فيه بقوله تعالى علم وقت قيامها عند ربي .



ولما كان السؤال الثاني واقعاً عن أحوالها وشدائدھا وثقلها عبر عن الجواب فيه بقوله  
سبحانه وتعالى عند الله لأنه أعظم الأسماء ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ يعني لا  
يعملون أن علمها عند الله وأنه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه .  
وقيل : ولكن أكثر الناس لا يعلمون السبب الي من أجله أخفى علم وقت قيامها المغيب عن  
الخلق . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

(35/300)

---

وقال أبو حيان :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾

(36/300)

---

الضمير في ﴿ يسألونك ﴾ لقريش قالوا يا محمد إنا قرابتك فأخبرنا بوقت الساعة ، وقال  
ابن عباس : الضمير لليهود ، قال حسل بن أبي بشير وشمویل بن زيدان ان كنت نبياً فأخبرنا  
بوقت الساعة فإننا نعرفها فإن صدقت آمننا بك فنزلت ، ومناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر

التوحيد والنبوة والقضاء والقدر أتبع ذلك بذكر المعاد وأيضاً فلما تقدم قوله ﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ وكان ذلك باعثاً على المبادرة إلى التوبة أتى بالسؤال عن الساعة ليعلم أن وقتها مكتوم عن الخلق فيكون ذلك سبباً للمسارعة إلى التوبة و﴿ الساعة ﴾ القيامة موت من كان حينئذ حياً وبعث الجميع فيقع عليه اسم الساعة واسم القيامة و﴿ الساعة ﴾ من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا ، وقرأ الجمهور ﴿ أيان ﴾ بفتح الهمزة والسلمي بكسرها حيث وقعت وتقدم أنها لغة قومه سليمان و﴿ مرساها ﴾ مصدر أي متى إرساؤها وإثباتها إقرارها والرسو ثبات الشيء الثقيل ومنه رسا الجبل وأرسيت السفينة والمرسا المكان الذي ترسو فيه ، وقال الزمخشري : ﴿ مرساها ﴾ إرساؤها أو وقت إرسائها أي إثباتها وإقرارها انتهى ، وتقديره أو وقت إرسائها ليس بجيد لأن ﴿ أيان ﴾ اسم استفهام عن الوقت فلا يصح أن يكون خبراً عن الوقت إلا بمجاز لأنه يكون التقدير في أي وقت وقت إرسائها و﴿ أيان مرساها ﴾ مبتدأ وحكى ابن عطية عن المبرد أن ﴿ مرساها ﴾ مرتفع بإضمار فعل ولا حاجة إلى هذا الإضمار و﴿ أيان مرساها ﴾ جملة استفهامية في موضع البدل من ﴿ الساعة ﴾ والبدل على نية تكرار العامل وذلك العامل معلق عن العمل لأن الجملة فيها استفهام ولما علق الفعل وهو يتعدى بعن صارت الجملة في موضع نصب على إسقاط حرف الجر فهو بدل في الجملة على موضع عن الساعة لأن موضع الجرور نصب ونظيره في البدل قولهم عرفت زيداً أبو من هو

على أحسن المذاهب في تخريج هذه المسألة أعني في كون الجملة الاستفهامية تكون في موضع البدل .

(37/300)

﴿ قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ .

أي الله استأثر بعلمها ولما كان السؤال عن الساعة عموماً ثم خصص بالسؤال عن وقتها جاء الجواب عموماً عنها بقوله ﴿ قل إنما علمها عند ربي ﴾ ثم خصصت من حيث الوقت فقيل ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ وعلم الساعة من الخمس التي نصّ عليها من الغيب أنه تعالى لا يعلمها إلا الله والمعنى لا يظهرها ويكشفها لوقتها الذي قدر أن تكون فيه إلا هو قالوا : وحكمة إخفائها أنهم يكونون دائماً على حذر وإخفاؤها أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت لذلك ، وقال الزمخشري : لا يجليها لوقتها إلا هو أي لا تزال خفية ولا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة ﴿ لا يجليها ﴾ بالخبر عنها ، قل : مجيئها أحد من خلقه لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها انتهى ، وهو كلام فيه تكثير وعجمة .

﴿ ثقلت في السماوات والأرض ﴾ قال ابن جريج معناه ﴿ ثقلت ﴾ على ﴿ السماوات

والأرض ﴿ أنفـسها لتفـطر السماوات وتبـدّل الأرض ونسف الجبال ، وقال الحسن ﴾  
ثقلت ﴿ لهيبتها والفرع منها على أهل السماوات والأرض ، وقال السدي : معنى ﴾  
ثقلت ﴿ خفيت ﴿ في السماوات والأرض ﴾ فلم يعلم أحد من الملائكة المقربين  
والأنبياء المرسلين متى تكون وما خفي أمره ثقل على النفوس انتهى ، ويعبر بالثقل عن  
الشدة والصعوبة كما قال : ﴿ يذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ أي شديداً صعباً وأصله أن  
يتعدى بـعلى تقول ثقل عليّ هذا الأمر ، وقال الشاعر :  
ثقل على الأعداء . . .

(38/300)

---

فإما أن يدعى أن في بمعنى على كما قال بعضهم في قوله ﴿ ولأصلبـنكم في جذوع النخل  
﴿ أي ويضمن ثقلت معنى يتعدى بفي ، وقال الزمخشري : أي كل من أهلها من الملائكة  
والثقلين أهمه شأن الساعة وودّ أن يتجلى له علمها وشقّ عليه خفاؤها وثقل عليه أو  
ثقلت فيهما لأن أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدّها وأهوالها ولأنّ كل شيء لا يطيقها ولا  
يقوم لها فهي ثقيلة فيهما .

﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ أي فجأة على غفلة منكم وعدم شعور بمجيئها وهذا خطاب

عام لكل الناس وفي الحديث " أن الساعة تهجم والرجل يصلح حوضه والرجل يستقي  
ماشيته والرجل يسوم سائمه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه " ❁ يسألونك كأنك حفي  
عنها ❁ قال ابن عباس والسدي ومجاهد : ❁ كأنك حفي ❁ بسؤالهم أي محب له وعن  
ابن عباس أيضاً : كأنك يعجبك سؤالهم عنها وعنه أيضاً كأنك مجتهد في السؤال مبالغ في  
الإقبال على ما تسأل عنه ، وقال ابن قتيبة : كأنك طالب علمها ، وقال مجاهد أيضاً  
والضحك وابن زيد : معناه ❁ كأنك حفي ❁ بالسؤال ❁ عنها ❁ والاشتغال بها حتى  
حصلت عليها أي تحبه وتؤثره أو بمعنى أنك تكره السؤال لأنها من علم الغيب الذي استأثر  
الله به ولم يؤته أحداً .

(39/300)

---

وقال ابن عطية : أي محتف ومحتفل ، وقال الزمخشري : كأنك عالم بها وحقيقته كأنك بليغ  
في السؤال عنها لأن من بالغ في السؤال عن الشيء والتقدير عنه استحکم علمه فيه وهذا  
التركيب معناه المبالغة ومنه إحقاء الشارب واحتفاء النعل استئصاله وأحفي في المسألة  
ألحف وحفي بفلان وتحفي به بالغ في البر به انتهى ، وعن ابن تيمية بسؤالونك أي  
يسألونك عنها وتكون صلة ❁ حفي ❁ محذوفة والتقدير كأنك حفي بها أي معتن بشأنها

حتى علمت حقيقتها ووقت مجيئها أو كأنك حفي بهم أو معتن بأمرهم فتجيبهم عنها  
لزعمهم أن علمها عندك وحفي لا يتعدى بعن قال تعالى: ﴿إِنَّه كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فعداه  
بالباء وإما أن يتعلق بحفي على جهة التضمن لأن من كان حفياً بشيء أدركه وكشف عنه  
فالتقدير كأنك كاشف بحفاوتك عنها وإما أن تكون عن بمعنى الباء كما تكون الباء بمعنى  
عن في قوله، فإن تسألوني بالنساء فإنني، أي عن النساء، وقرأ عبد الله كأنك حفي بها  
بالباء مكان عن أي عالم بها بليغ في العلم بها.

﴿قل إنما علمها عند الله﴾ أي علم مجيئها في علم الله وظرفية ﴿عند﴾ مجازية كما  
تقول النحو عند سبويه أي في علمه وتكرير السؤال والجواب على سبيل التوكيد ولما جاء  
به من زيادة قوله ﴿كأنك حفي عنها﴾.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ قال الطبري: ﴿لا يعلمون﴾ أن هذا الأمر لا يعلمه إلا  
الله بل يظن أكثرهم أنه مما يعلمه البشر، وقيل: ﴿لا يعلمون﴾ أن القيامة حق لأن أكثر  
الخلق ينكرون المعاد ويقولون ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ الآية.

وقيل: ﴿لا يعلمون﴾ أي أخبرتك أن وقتها لا يعلمه إلا الله.  
وقيل ﴿لا يعلمون﴾ السبب الذي لأجله أخفيت معرفة وقتها والأظهر قول الطبري.

انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط ح 4 ص﴾

وقال ابن كثير:

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾  
﴿[الأحزاب: 63] قيل: نزلت في قريش. وقيل: في نفر من اليهود. والأول أشبه؛ لأن  
الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها؛  
كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: 38]، وقال  
تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ الْأَلَا  
إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: 18]  
وقوله: ﴿أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "منتهاها" أي:

متى محطها؟ وأيَّان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة؟

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لَوْحَتَهَا إِلَّا هُوَ﴾ أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم  
إذا سئل عن وقت الساعة، أن يردَّ علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي:  
يعلم جليلة أمرها، ومتى يكون على التحديد، [أي] لا يعلم ذلك [أحد] إلا هو تعالى؛

ولهذا قال: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال  
: ثقل علمها على أهل السماوات والأرض أنهم لا يعلمون. قال معمر: قال الحسن: إذا

جاءت ، ثقلت على أهل السماوات والأرض ، يقول : كَبُرَتْ عَلَيْهِمْ .  
وقال الضحاک ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : ليس  
شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة .

(41/300)

---

وقال ابن جُرَيْج : ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : إذا جاءت انشقت السماء  
وانتشرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وكان ما قاله الله ، عز وجل فذلك  
ثقلها .

واختار ابن جرير ، رحمه الله : أن المراد : ثَقُلَ علم وقتها على أهل السماوات والأرض ،  
كما قال قتادة .

وهو كما قاله ، كقوله تعالى : ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل  
السماوات والأرض ، والله أعلم .

وقال السدي [في قوله تعالى] ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقول : خفيت في  
السماوات والأرض ، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .  
﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [قال] يبعثهم قيامها ، تأتيهم على غفلة .



وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْتِيكُمُ الْبَغْتَةُ ﴾ ﴿ قَضَى اللَّهُ أَنَّهَا ﴾ ﴿ لَا تَأْتِيكُمُ الْبَغْتَةُ ﴾

قال: وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال "إن الساعة تهيج بالناس، والرجل

يصلح حوضه، والرجل يستقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق ويخفض ميزانه

ويرفعه" (1)

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن، عن

أبي هريرة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس

من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن

آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما

، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحه فلا يطعمه.

ولتقومن الساعة وهو يلبط حوضه فلا يستقي فيه. ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته

إلى فيه فلا يطعمها" (2)

---

(1) رواه الطبري في تفسيره (297/13) والثعلبي في تفسيره كما في "تخريج أحاديث

الكشاف" للزيلعي (475/1) وهو مرسل.

(2) صحيح البخاري برقم (6506).

---

وقال مسلم في صحيحه : حدثني زهير بن حرب ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : "تقوم الساعة والرجل يجلب اللقحة ، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة . والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم . والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم" (1)

وقوله [تعالى] ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَانَتْ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، فقيل : معناه : كما قال العوفي عن ابن عباس : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَانَتْ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ يقول : كأن بينك وبينهم مودة ، كأنك صديق لهم . قال ابن عباس : لما سأل الناس محمداً صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم ، فأوحى الله إليه : إنما علمها عنده ، استأثر بعلمها ، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولا .

وقال قتادة : قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن بيننا وبينك قرابة ، فأسررنا متى الساعة . فقال الله ، عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَانَتْ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ وكذا روي عن مجاهد ، وعكرمة ، وأبي مالك ، والسُّدِّي ، وهذا قول . والصحيح عن مجاهد - من رواية ابن أبي نجيح وغيره - : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَانَتْ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ قال : استخفيت عنها السؤال ، حتى علمت وقتها .

(1) صحيح مسلم برقم (2954) .

(43/300)

وكذا قال الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ يقول : كأنك عالم بها ، لست تعلمها ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾

وقال معمر ، عن بعضهم : ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ كأنك عالم بها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ كأنك عالم بها ، وقد أخفى

الله علمها على خلقه ، وقرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآية [لقمان : 34] .

ولهذا القول أرجح في المعنى من الأول ، والله أعلم ؛ ولهذا قال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ولهذا لما جاء جبريل ، عليه السلام ، في صورة أعرابي ، يعلم الناس أمر دينهم ، فجلس من

رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس السائل المسترشد ، وسأله عن الإسلام ، ثم عن

الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم قال : فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " ما المسؤل عنها بأعلم من السائل " أي : لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من

أحد ، ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآية (1)

وفي رواية: فسأله عن أشراط الساعة، ثم قال: "في خمس لا يعلمهن إلا الله". وقرأ هذه الآية، وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب: "صدقت"؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا جبريل أتاكم يعلمكم (2) دينكم" (3)

وفي رواية قال: "وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه". وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد، في أول شرح صحيح البخاري، والله الحمد والمنة (4)

ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جمهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هاء -

- 
- (1) رواه البخاري في صحيحه برقم (50) ومسلم في صحيحه برقم (9).
  - (2) في م، أ: "يعلمكم أمر".
  - (3) رواه البخاري في صحيحه برقم (50) ومسلم في صحيحه برقم (9).
  - (4) وانظر هذا المطلب في: شرح الحافظ ابن حجر "فتح الباري" (1/114).

على نحو من صوته - قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ويحك إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟" قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرء مع من أحب". فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث (1)

وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال: "المرء مع من أحب" (2) وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقين.

ففيه أنه، عليه السلام، كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته.

ولهذا قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالوا حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: "إن يعيش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم" (3) يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة.

ثم قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يونس بن محمد، عن حماد بن سلمة،

عن ثابت ، عن أنس ؛ أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، وعنده  
غلام من الأنصار يقال له محمد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن يعش هذا  
الغلام فعسى الأيدرکه الهرم حتى تقوم الساعة" . انفراد به مسلم (4)

---

(1) رواه مسلم في صحيحه برقم (2639) من حديث أنس بن مالك ، رضي الله عنه .  
(2) جاء من حديث أنس بن مالك وصفوان بن عسال وعبد الله بن مسعود وأبي موسى  
الأشعري : .

أما حديث أنس بن مالك فهو السابق ذكره .

وأما حديث صفوان بن عسال فرواه الترمذي في السنن برقم (3535) .

وأما حديث عبد الله بن مسعود فرواه البخاري في صحيحه برقم (6169) ومسلم في  
صحيحه برقم (2640) .

وأما حديث أبي موسى الأشعري فرواه البخاري في صحيحه برقم (6170) ومسلم في  
صحيحه برقم (2641) .

(3) صحيح مسلم برقم (2952) .

(4) صحيح مسلم برقم (2953) .

---

وحدثنا حجاج بن الشاعر ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا  
معبد بن هلال العنزي عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ؛ أن رجلا سأل النبي صلى الله  
عليه وسلم قال : متى الساعة ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم هنيهة ، ثم نظر  
إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة ، فقال : "إِنَّ عُمْرَ هَذَا لَمْ يَدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ" -  
قال أنس : ذلك الغلام من أترابي (1)

وقال : حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا عفان بن مسلم ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ،  
عن أنس قال : مر غلام للمغيرة بن شعبة - وكان من أقراني - فقال للنبي صلى الله عليه  
وسلم : "إِنَّ يُوْخِرُ هَذَا لَمْ يَدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ" (2)

ورواه البخاري في كتاب "الأدب" من صحيحه ، عن عمرو بن عاصم ، عن همام بن يحيى  
، عن قتادة ، عن أنس ؛ أن رجلا من أهل البادية قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ فذكر  
الحديث ،

---

(1) صحيح مسلم برقم (2953) .

(2) صحيح مسلم برقم (2953) .

---

وفي آخره: "فمر غلام للمغيرة بن شعبة"، وذكره (1)

وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بـ "ساعتكم" في حديث عائشة، رضي الله عنها.

وقال ابن جرير: أخبرني أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بشهر، قال: "تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله. وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة، تأتي عليها مائة سنة" رواه مسلم (2)

وفي الصحيحين، عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم انخرام ذلك القرن.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أنبأنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن مؤثر بن عفازة عن ابن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى"، قال: "فتذاكروا أمر الساعة"، قال: "فردوا أمرهم إلى إبراهيم، عليه السلام، فقال: لا أعلم لي بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا أعلم لي بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وجبتها فلا أعلم بها أحد إلا الله، عز وجل، وفيما عهد إليّ ربي، عز وجل، أن الدجال خارج"، قال: "ومعي



قضيبان ، فإذا رأني ذاب كما يذوب الرصاص " ، قال : " فيهلكه الله ، عز وجل ، إذا رأني ، حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم ، إن تحتي كافرًا تعالى فاقتله " . قال : " فيهلكهم الله ، عز وجل ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم " ، قال : " فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيطؤون بلادهم ، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يبرون على ماء إلا شربوه " ، قال : " ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم ، فأدعو الله ، عز وجل ، عليهم فيهلكهم ويميتهم ، حتى تجوى الأرض من تنريحهم - أي : تُنن - " قال : " فينزل الله المطر ، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر " .

---

(1) صحيح البخاري برقم (6167) .

(3) صحيح مسلم برقم (2538) .

(47/300)

---

قال أحمد : قال يزيد بن هارون : ثم تنسف الجبال ، وتمد الأرض مد الأديم - ثم رجع إلى حديث هشيم قال : ففيما عهد إلي ربي ، عز وجل ، أن ذلك إذا كان كذلك ، فإن الساعة

كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفاجئهم بولادها ليلاً أو نهاراً (1)

ورواه ابن ماجه ، عن بُندار عن يزيد بن هارون ، عن العوام بن حوشب بسنده ، نحوه (2)

فهؤلاء أكابر أولي العزم من المرسلين ، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين ، وإنما

ردوا

---

(1) المسند (375/1) .

(2) سنن ابن ماجة برقم (4081) وقال البوصيري في الزوائد (261/3) : " هذا

إسناد صحيح رجاله ثقات ، مؤثر بن عفازة ذكره ابن حبان في الثقات ، وباقي رجال

الإسناد ثقات " .

(48/300)

---

الأمر إلى عيسى عليه السلام ، فتكلم على أشراتها ؛ لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً  
لأحكام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقتل المسيح الدجال ، ويجعل الله هلاك يأجوج  
ومأجوج بركة دعائه ، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن أبي بكير حدثنا عبيد الله بن إباد بن لقيط قال :

سمعت أبي يذكر عن حذيفة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال

: " علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ، ولكن سأخبركم بمشاريطها ، وما يكون بين

يديها : إن بين يديها فتنة وهرجاً " ، قالوا : يا رسول الله ، الفتنة قد عرفناها ، فالهرج ما هو

؟ قال بلسان الحبشة: "القتل". قال ويُلقَى بين الناس التناكرُ، فلا يكاد أحد يعرف أحداً"  
(1) لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

وقال وكيع: حدثنا ابن أبي خالد، عن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ الآية [النازعات: 42].

ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، به (2) وهذا إسناد جيد قوي.

فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم [محمد] صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمقفي، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد، رضي الله عنهما:

"بعثت أنا والساعة كهاتين" (3) وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله تعالى أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن كثير ح 3 ص 518﴾  
522.

---

(1) المسند (389/5) قال الهيثمي في المجمع (309/7): "رجاله رجال

(2) سنن النسائي الكبرى برقم (11645) .

(3) أما حديث أنس بن مالك :

فأخرجه البخاري في صحيحه برقم (6504) ومسلم في صحيحه برقم (2951) .

وأما حديث سهل بن سعد :

فأخرجه البخاري في صحيحه برقم (4936) ومسلم في صحيحه برقم (2950) .

(49/300)

وقال أبو السعود :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾

استئنافٌ مسوقٌ لبيان بعض أحكام ضلالهم وطغيانهم أي عن القيامة ، وهي من الأسماء

الغالبة وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتةً أو لسرعة ما فيها من الحساب ، أو لأنها ساعةٌ

عند الله تعالى مع طولها في نفسها . قيل : إن قوماً من اليهود قالوا : يا محمدُ أخبرنا متى

الساعةُ إن كنت نبياً ؟ فإننا نعلم متى هي ، وكان ذلك امتحاناً منهم مع علمهم أنه تعالى قد

استأثر بعلمها ، وقيل : السائلون قریشٌ وقوله تعالى : ﴿ أَيَّانَ مَرَسَاهَا ﴾ بفتح الهمزة وقد

قرئ بكسرهما وهو ظرفُ زمانٍ متضمنٌ لمعنى الاستفهام ، ويليه المبتدأُ أو الفعل المضارعُ

دون الماضي بخلاف متى حيث يليها كلاهما ، قيل : اشتقاقه من أيّ فعلان منه لأن معناه أيّ وقتٍ وهو من أويتُ إلى الشيء لأن البعض آو إلى الكل متساندٌ إليه ، ومحلُّه الرفعُ على أنه خبرٌ مقدّمٌ ومرساها مبتدأٌ مؤخرٌ أي متى إرساؤها أي إثباتها وتقريرها ، فإنه مصدرٌ ميميٌّ من إرساه إذا أثبته وأقره ، ولا يكاد يُستعمل إلا في الشيء الثقيل كما في قوله تعالى : ﴿ والجبالُ إرساها ﴾ ومنه مرساةُ السفن ، ومحلُّ الجملة قيل : الجرُّ على البدلية من الساعة ، والتحقيقُ أن محلها نصبُ بنزع الخافضِ لأنها بدلٌ من الجارِ والمجرورِ لا من المجرورِ فقط كأنه قيل : يسألونك عن الساعة عن أيان مرساها ، وفي تعليق السؤالِ بنفس الساعةِ أولاً وبوقت وقوعها ثانياً تنبيهٌ على أن المقصدَ الأصليَّ من السؤالِ نفسها باعتبار حلولها في وقتها المعين لا وقتها باعتبار كونه محلاً لها وقد سلك هذا المسلكُ في الجواب الملقن أيضاً حيث أضيف العلمُ المطلوبُ بالسؤالِ إلى ضميرها فأخبرها باختصاصه به عز وجل حيث قيل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا ﴾ أي علمها بالاعتبار المذكور ﴿ عِنْدَ رَبِّي ﴾ ولم يقل إنما علم وقت إرسائها ومن لم يتنبه لهذه النكته حمل النظم الكريم على حذف المضاف ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة

إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للإيدان بأن توفيقه عليه الصلاة والسلام للجواب على  
الوجه المذكور من باب التربية والإرشاد ، ومعنى كونه عنده تعالى خاصة أنه تعالى قد  
استأثر به بحيث لم يخبر به أحداً من ملك مقرب أو نبي مرسل وقوله تعالى : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا  
لَوْقَتَهَا إِلَّا هُوَ ﴾ بيان لاستمرار تلك الحالة إلى حين قيامها وإقنات كلي عن إظهار أمرها  
بطريق الإخبار من جهته تعالى أو من جهة غيره لاقتضاء الحكمة التشريعية إياه فإنه ادعى  
إلى الطاعة وأزجر عن المعصية ، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك ، والمعنى لا  
يكشف عنها ولا يظهر للناس أمرها الذي تسألوني عنه إلا هو بالذات من غير أن يشعر به  
أحداً من المخلوقين فيتوسط في إظهاره لهم لكن لا بأن يخبرهم بوقتها قبل مجيئه كما هو  
المسؤول بل بأن يقيمها فيشاهدوها عياناً كما يفصح عنه التجلية المنبئة عن الكشف التام  
المزبل للإبهام بالكلية ، وقوله تعالى : ﴿ لَوْقَتَهَا ﴾ أي في وقتها ، قيدٌ للتجلية بعد ورود  
الاستثناء عليها لا قبله كأنه قيل : لا يجليها إلا هو في وقتها إلا أنه قدّم على الاستثناء للتنبيه  
من أول الأمر على أن تجليتها ليست بطريق الإخبار بوقتها ، بل بإظهار عينها في وقتها الذي  
يسألون عنه وقوله تعالى : ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ استئنافٌ كما قبله مقررٌ  
لمضمون ما قبله أي كبرت وشقت على أهلها من الملائكة والثقلين كل منهم أهمه خفاؤها  
وخرجها عن دائرة العقول وقيل : عظمت عليهم حيث يشفقون منها ويخافون شدائدّها  
وأحوالها وقيل : ثقلت فيهما إذ لا يطيقها منهما ومما فيهما شيء أصلاً والأول هو الأنسب

بما قبله وبما بعده من قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ فإنه أيضاً استئنافٌ مقررٌ  
لمضمون ما قبله فلا بد من اعتبار الثقل من حيث الحفاء أي لا تأتاكم إلا فجأة على غفلة

كما قال

(51/300)

عليه الصلاة والسلام:

"إن الساعة تهيجُ بالناس والرجل يُصلح حوضه والرجل يُسقي ماشيته والرجل يُقوم  
ساعته في سوقه والرجل يُخفِض ميزانه ويرفعه" ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾  
استئنافٌ مسوقٌ لبيان خطئهم في توجيه السؤال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بناءً  
على زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام عالمٌ بالمسؤول عنه أو أن العلمَ بذلك من مواجب  
الرسالة إثر بيان خطئهم في أصل السؤال بإعلام شأن المسؤول عنه، والجملة التشبيهية في  
محل النصب على أنها حالٌ من الكاف جيء بها بياناً لما يدعوهم إلى السؤال على زعمهم  
وإشعاراً بخطئهم في ذلك أي يسألونك مُشَبَّهاً حالٌ عندهم مجال من هو حفيٌّ عنها أي  
مبالغٌ في العلم بها فعيلٌ من حفيٍّ، وحقيقته كأنك مبالغٌ في السؤال عنها فإن ذلك في حكم  
المبالغة في العلم بها لما أن من بالغ في السؤال عن الشيء والبحث عنه استحکم علمه به،

ومبنى التركيب على المبالغة والاستقصاء ، ومنه إحقاء الشارب واحتفاء البقل أي  
استئصاله والإحقاء في المسألة أي الإلحاف فيها ، وقيل : ( عن ) متعلقة بيسألونك وقوله  
تعالى : ﴿ كَأَنَّكَ كَفِيٌّ ﴾ معترض ، وصلة حفي محذوفة أي حفي بها وقد قرىء كذلك  
وقيل : هو من الحفاوة بمعنى البر والشفقة فإن قريشاً قالوا له عليه الصلاة والسلام : إن بيننا  
وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة ؟ والمعنى يسألونك كأنك حفي تحفي بهم فتخصمهم  
بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوي أمرها عن غيرهم ، ففيه تخطئة لهم من جهتين ، وقيل : هو  
من حفي بالشيء بمعنى فرح به والمعنى كأنك فرح بالسؤال عنها تحبه مع أنك كاره له ، لما  
أنه تعرض لحرم الغيب الذي استأثر الله عز وجل بعلمه .

(52/300)

---

﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهُا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أمر صلى الله عليه وسلم بإعادة الجواب الأول تأكيداً  
للحكم وتقريراً له وإشعاراً بعلته على الطريقة البرهانية بإيراد اسم الذات المنبىء عن  
استباحتها لصفات الكمال التي من جملتها العلم وتمهيداً للتعريض بجهلهم بقوله تعالى : ﴿  
ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي لا يعلمون ما ذكر من اختصاص علمها به تعالى فبعضهم  
ينكرونها رأساً فلا يعلمون شيئاً مما ذكر قطعاً وبعضهم يعلمون أنها واقعة البتة ويزعمون



أنك واقفٌ على وقت وقوعها فيسألونك عنه جهلاً، وبعضهم يدعون أن العلم بذلك من  
موجب الرسالة فيتخذون السؤال عنه ذريعةً إلى القدرح في رسالتك، والمستثنى من هؤلاء  
هم الواقفون على جليلة الحال من المؤمنين، وأما السائلون عنها من اليهود بطريق الامتحان  
فهم منتظمون في سلك الجاهلين حيث لم يعملوا بعلمهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي  
السعود ح 3 ص ﴾

(53/300)

وقال الأوسى :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾

ثم لما تقدم ذكر اقتراب أجلهم عقبه سبحانه بذكر سؤالهم عن الساعة فقال تعالى : ﴿  
يسألونك عن الساعة ﴾ وقيل هو استئناف مسوق لبيان بعض طغيانهم وضلالهم ،  
والساعة في الأصل اسم لمقدار قليل من الزمان غير معين ، وهي عند المنجمين جزء من  
أربعة وعشرين جزءاً من الليل والنهار ، وتنقسم إلى معوجة ومستوية ، وتطلق في عرف  
الشرع على يوم موت الخلق وعلى يوم قيام الناس لرس العالمين ، وفسروها بيوم القيامة ، ولعل  
المراد منه أحد ذينك اليومين وإن كان المشهور فيه اليوم الآخر ، والظاهر أن المسؤل عنه

اليوم الأول ، وإليه ذهب الزجاج ، والساعة في ذلك من الأسماء الغالبة ، ووجه إطلاقها عليه وكذا على وقت القيام ظاهر إن أريد زمان الموت أو زمان القيام بدون ملاحظة الامتداد لظهور أنه قدر يسير في نفسه ، وإن أريد الزمان الممتد فإطلاقها عليه إما لجيئه بغتة كما قيل ، أو لأنه يدهش من يأتيهم فيقل عندهم أو يقل ما قبله ، أو لأنه على طوله قدر يسير عند الله تعالى ، أو لسرعة حسابه ، وجوز أن يكون تسميته بذلك من باب التسمية بالضد تملحاً كما يسمى الأسود كافوراً ، والسائل عن ذلك أناس من اليهود ، فقد أخرج ابن اسحق وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال : حمل بن أبي قشير . وسمول بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فإننا نعلم متى هي ؟ وكان ذلك امتحاناً منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها فأنزل الله تعالى الآية .

وذهب بعض إلى أن السائل قريش ، فقد أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير عن قتادة أن قريشاً قالوا : يا محمد أسر إلينا متى الساعة لما بيننا وبينك من القرابة ؟ فنزلت .

وقوله سبحانه :

﴿ أَيَّانَ مَرَسَاهَا ﴾ بفتح همزة أيان .

---

وقرأ السلمي بكسرها وهولغة فيها ، وهي ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام ويليهما  
المبتدأ أو الفعل المضارع دون الماضي بخلاف متى حيث يليها كلاهما ، والتحقيق أنها  
بسيطة مرتجلة ، وقيل : اشتقاقها من أي وهي فعلاز منه لأن معناه أي وقت ، وأي فعل ،  
وأى من أويت بمعنى رجعت لأن باب طويت وشويت أضعاف باب حيث ووعيت  
ولقربه منه معنى لأن البعض أو إلى الكل ومستند إليه .

وأصله على هذا أوي فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء فصار أيا وإنما لم تجعل أيا ن فعلا لا  
من أين لأنها ظرف زمان وأين ظرف مكان ، ومن الناس من زعم أن أصلها أي أو ان أو أي  
آن وليس بشيء .

وتعقب في الكشف حديث الاشتقاق من أي بأنه مخالف لما ذكره الزمخشري في سورة النمل  
ولو سمي به لكان فعلا من آن يبين ولا تصرف ، ثم قال : والوجه ما ذكره هناك لأن  
الاشتقاق في غير المتصرف لا وجه له .

ثم إنه ليس اشتقاقه من أي أو لي من اشتقاقه من الأين بمعنى الحينونة لأن أيا ن زمان وكأنه  
غره الاستفهام وليس بشيء لأنه بالتضمن كما في متى ونحوه ؛ وكذلك اشتقاق أي من  
أويت لا وجه له إلا أن الأظهر أنه يجوز الصرف وعدمه كما في حمار قبان اه .

وأجيب بأن ما ذكر أمر قدره للامتحان وليعلم حكمها إذا سمي بها فلا ينافي ما ذكره

الزخشي وكذا لاينا في التحقيق فتأمل ، وأياً ما كان فهي في محل الرفع على أنها خبر مقدم ومرساها مبتدأ مؤخر ؛ وهو مصدر ميمي من أرساه إذا أثبتته وأقره أي متى إثباتها وتقريرها ، ولا يكاد يستعمل الإرساء إلا في الشيء الثقيل كما في قوله تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾ [النازعات : 32] ومنه مرسة السفن ، ونسبته هنا إلى الساعة باعتبار تشبيه المعاني بالأجسام .

(55/300)

---

وجوز بعضهم أن يكون اسم زمان ، ولا يرد عليه أنه يلزم أن يكون للزمان زمان ، وفي جوازه خلاف الفلاسفة لأنه يؤول بمتى وقوع ذلك ، والجملة قيل في محل نصب على المفعولية به لقول محذوف وقع حالا من ضمير يسألونك أي يسألونك قائلين أيان مرساها ، وقيل في محل الجر على البدلية عن الساعة .

والتحقيق عند بعض جلة المحققين أن محلها نصب بنزع الخافض لأنها بدل من الجار والجرور لا من الجرور فقط ، وفي تعليق السؤال بنفس الساعة أولاً وبوقت وقوعها ثانياً تنبيه على أن المقصد الأصلي من السؤال نفسها باعتبار حلولها في وقتها المعين باعتبار كونه محلا لها ، وما في الجواب أعني قوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عُلِّمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ مخرج

على ذلك أيضاً أي إن علمها بالاعتبار المذكور عنده سبحانه لا غير فلا حاجة إلى أن يقال : إنما علم وقت إرسائها عنده عز وجل ، وبعضهم حيث غفل عن النكتة المشار إليها حمل النظم الجليل على حذف المضاف ، وإليه يشير كلام أبي البقاء ، ومعنى كون ذلك عنده عز وجل خاصة أنه استأثر به حيث لم يخبر أحداً به من ملك مقرب أو نبي مرسل ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم قيل للإيدان بأن توفيقه عليه الصلاة والسلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والإرشاد وهو أولى مما سنشير إليه إن شاء الله تعالى ، وقوله سبحانه : ﴿ لَا يَجْلِيهَا لَوْقَتَهَا إِلَّا هُوَ ﴾ بيان لاستمرار خفائها إلى حين قيامها واقنات كلي عن إظهار أمرها بطريق الأخبار ، والتجلية الكشف والإظهار ، واللام التوقيت واختلف فيها فقيل هي بمعنى في ، وقال ابن جني : بمعنى عند ، وقال الرضى : هي اللام المفيدة للاختصاص ، وهو على ثلاثة أضرب أما أن يختص الفعل بالزمان لوقوعه فيها إلا فحسب القرينة ، وفسرها هنا غير واحد بفي .

(56/300)

---

والمعنى لا يكشف عنها ولا يظهر للناس أمرها الذي تسألون عنه إلا الرب سبحانه بالذات من غير أن يشعر به أحد من المخلوقين فيتوسط في إظهاره لهم لكن لا بأن لا يخبرهم بوقتها

كما هو المسؤول بل بأن يقيمها فيعلموها على أتم وجه ، والجار والمجرور متعلق بالتجلية وهو قيد لها بعد ورود الاستثناء كأنه قيل : لا يجليها إلا هو في وقتها إلا أنه قدم للتنبية من أول الأمر على أن تجليها ليس بطريق الأخبار بوقتها بل باظهار عينها في وقتها الذي يسألون عنه ، وقوله تعالى : ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ استئناف كما قبله مقرر لما سبق ، والمراد كبرت وعظمت على أهلها حيث لم يعلموا وقت وقوعها .

(57/300)

---

وعن السدي أن من خفي عليه علم شيء كان ثقيلاً عليه ، وعن قتادة أن المعنى عظمت على أهل السموات والأرض حيث يشفقون منها ويخافون شدائدتها ، وفي رواية أخرى عنه أن المراد ثقل علمها عليهم فلا يعلمونها ، ويرجع إلى ما ذكر أولاً ، وقيل : المعنى ثقلت عند الوقوع على نفس السموات حتى انشقت وانتشرت تجومها وكورت شمسها وعلى نفس الأرض حتى سيرت جبالها وسجرت بحارها وكان ما كان فيها ، وإلى ذلك يشير ما روي عن ابن جريج وعليه فلا يحتاج إلى تقدير مضاف ، وكلمة في على سائر الأوجه استعارة منبهة على تمكن الفهل كما لا يخفى ﴿ لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أي إلفجأة على حين غفلة ، أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم لتقوم الساعة وقد نشر رجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقوم الساعة وقد  
انصرف الرجل بلبن لفتحته فلا يطعمه ولتقوم الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه  
ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها " ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أي  
عالم بها كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فيما أخرجه عنه ابن المنذر وغيره ﴿  
فحفي ﴾ فعيل من حفي عن الشيء إذا بحث عن تعرف حاله ، وذكر بعضهم أن الحفاوة  
في الأصل الاستقصاء في الأمر للاعتناء به قال الأعشى :

فإن تسألوا عني فيا رب سائل . . .

حفي عن الأعشى به حيث أصعدا

ومنه احفاء الشارب ، وتطلق أيضاً على البر واللفظ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾

﴿ [ مريم : 47 ] ، والمعنى المراد هنا متفرع على المعنى الأول لأن من بحث عن شيء

وسأل منه استحکم علمه به فإريد به لازم معناه مجازاً أو كناية وعدى الوصف بعن

اعتباراً لأصل معناه وهو السؤال والبحث ، وقيل : لأنه ضمن معنى الكشف ولولا ذلك

لعدي بالباء ، وجوز أبو البقاء أن تكون عن بمعنى الباء ، وروي عن الخبر .

وابن مسعود أنهما قرآ بها .

---

والجملة التشبيهية في محل نصب على أنها حال من مفعول يسألونك أي مشبها حالك  
عندهم مجال من هو حفي ، وقيل : إن عنها متعلق بيسألونك ، والجملة التشبيهية معترضة  
وصلة ﴿ حَفِيٌّ ﴾ محذوفة أي بها أو بهم بناء على ما قيل : إن حفي من الحفاوة بمعنى  
الشفقة فإن قريشاً قالوا له عليه الصلاة والسلام : إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى  
الساعة ؟ وروى ذلك عن قتادة وترجمات القرآن أيضاً ، والمعنى عليهم أنهم يظنون أن  
عندك علمها لكن تكتمه فلشفقتك عليهم طلبوا منك أن تخصمهم به وتعلق ﴿ عَنُّ ﴾  
على هذا الوجه بمحذوف كخبرهم وتكشف لهم عنها بعيد ، وقيل : هو من حفي  
بالشيء إذا فرح به ، وروى ذلك عن مجاهد .

(59/300)

---

والضحك وغيرهما ، والمعنى كأنك فرح بالسؤال عنها تحبه ، و ﴿ عَنُّ ﴾ على هذا  
متعلقة بحفي كما قيل : لتضمنه معنى السؤال ، والكلام على ما قال شيخ الإسلام  
استئناف مسوق لبيان خطئهم في توجيه السؤال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء  
على زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام عالم بالمسؤول عنه أو أن العلم بذلك من مقتضيات



الرسالة أثر بيان خطئهم في أصل السؤال باعلام بيان المسؤول عنه ، وفي الاتصاف في توجيه  
تكرير يسألونك أن المعهود في أمثال ذلك أن الكلام إذا بني على مقصد وعرض في أثناءه  
عارض فأريد الرجوع لتمة المقصد الأول وقد بعد عهده طرى ذكره لتصل النهاية بالبداية  
، وهنا لما ابتداء الكلام بقوله سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرَسَاهَا ﴾ ثم  
اعترض ذكر الجواب بقل إلى بغتة أريد تمة سؤا لهم عنها بوجه من الإنكار عليهم وهو  
المضمن في قوله سبحانه : ﴿ كَأَنَّكَ كَفِئَةٌ عَنْهَا ﴾ وهو شديد التعلق بالسؤال وقد بعد  
عهده فطرى ذكره ليليه تمامه ، ولا تراه أبداً يطري إلا بنوع من الإجمال ، ومن ثم لم يذكر  
المسؤول عنه وهو الساعة اكتفاء بما تقدم ، ثم لما كرر جل وعلا السؤال لهذه الفائدة كرر  
الجواب أيضاً مجملاً فقال عز من قائل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ومنه يعلم وجه ذكر  
الاسم الجليل هنا ، وذكر المحقق الأول أنه عليه الصلاة والسلام أمر باعادة الجواب الأول  
تأكيداً للحكم وتقريراً له واسعاراً بعلته على الطريق البرهانية بإيراد اسم الذات المنبىء  
عن استباحتها لصفات الكمال التي من جملتها العلم وتمهيداً للتعريض بجهلهم بقوله تعالى :  
﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وزعم الجبائي أن السؤال الأول كان عن وقت قيام  
الساعة وهذا السؤال كان عن كيفيةها وتفصيل ما فيها من الشدائد والأحوال قيل : ولذلك  
خص جوابه باسم الذات إذ هو أعظم الأسماء مهابة ، وإلى ذلك ذهب النيسابوري ونقل  
عن الإمام وغيره ، ولا أرى لهم

مسنداً في ذلك ، ومفعول العلم على ما يشير إليه كلام بعضهم محذوف أي لا يعلمون ما ذكر من اختصاص علمها به تعالى فبعضهم ينكرها رأساً فلا يسأل عنها إلا متلعباً ، وبعضهم يعلم أنها واقعة البتة ويزعم أنك واقف على وقت وقوعها فيسأل جهلاً ، وبعضهم يزعم أن العلم بذلك من مقتضيات الرسالة فيتخذ السؤال ذريعة إلى القدرح فيها ، والواقف على جليلة الحال ويسأل امتحانا ملحق بالجاهلين لعدم عمله بعلمه هذا ، وإنما أخفي سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكم التشريعية ذلك فإنه أدعي إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك ، ولو قيل بأن الحكمة التكوينية تقتضي ذلك أيضاً لم يبعد ، وظاهر الآيات أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم وقت قيامها .

نعم علم عليه الصلاة والسلام قربها على الإجمال وأخبر صلى الله عليه وسلم به .  
فقد أخرج الترمذي وصححه عن أنس مرفوعاً " بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى " وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً أيضاً " إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس " وجاء في غير ما أثر أن عمر الدنيا

سبعة آلاف سنة وأنه عليه الصلاة والسلام بعث في أواخر الألف السادسة ومعظم الملة في  
الألف السابعة .

(61/300)

---

وأخرج الجلال السيوطي عدة أحاديث في أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وذكر أن مدة  
هذه الأمة تزيد على ألف سنة ولا تبلغ الزيادة عليها خمسمائة سنة ، واستدل على ذلك  
بأخبار وآثار ذكرها في رسالته المسماة بالكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف وسمي  
بعضهم لذلك هذه الألف الثانية بالمخضمة لأن نصفها دنيا ونصفها الآخر أخرى ، وإذا لم  
يظهر المهدي على رأس المائة التي نحن فيها بنهدم جميع ما بناه كما لا يخفى على من راجعه ،  
وكأنني بك تراه منهدماف ، ونقل السفاريني عن الفلاسفة أنهم زعموا أن تدير العالم الذي  
نحن فيه للسنبلة فإذا تم دورها وقع الفساد والثور في العالم فإذا عاد الأمر إلى الميزان تجتمع  
المواد ويقدر النشور عودا ، وقال البكري : إن سلطان الحمل عندهم اثنا عشر ألف سنة  
وسلطان الثور دونه بألف وهكذا ينقص ألف إلى الحوت فيكون سلطانه ألف سنة  
ومجموع ذلك ثمانية وسبعون ألف سنة فإذا كملت انقضى عالم الكون والفساد ، ونقل ذلك  
عن عرمس وادعى أنه قال : إنه لم يكن في حكم الحمل والثور والجوزاء على الأرض حيوان

فلما كان حكم السرطان تكونت دواب الماء وهو أم الأرض ولما كان حكم الاسد تكونت  
الدواب ذوات الأربع ولما كان حكم السنبله تولد الإنسانان الأولان آدم نوس وحواء نوس ؛  
وزعم بعضهم أن مدة العالم مقدار قطع الكواكب الثابتة لدرج الفلك ، والكوكب منها يقطع  
البرج بزعمه في ثلاثة آلاف سنة فذلك ست وثلاثون ألف سنة انتهى .

(62/300)

---

ولا يخفى على من اطلع على كتب الأرصاد والزيجات أن الادوار عندهم ثلاثة أكبر  
وأوسط وأصغر ويسمونها التسييرات ، وهي على السوية في جميع البروج فالدور الأكبر ما  
يكون فيه قطع كل درجة بمائة سنة والأوسط ما يكون فيه قطع كل درجة بعشر سنين  
والأصغر ما يكون فيه قطع كل درجة بسنة ، وعدنهم دور أعظم ويسمونه أيضاً التسيير  
الأعظم وهو ما يكون فيه قطع كل درجة بألف سنة والتسيير اليوم في الميزان وقد مضى منه  
أربع درجات وست وخمسون دقيقة وإحدى وثلاثون ثانية واثنان عشرة ثالثة ، وإذا  
اعتبرت مدة ذلك من نقطة رأس الحمل إلى هنا بلغت مائة ألف سنة وأربعاً وثمانين ألف  
سنة وتسعمائة وثلاثاً وأربعين سنة ، وأن مدة حركة الثواب على ما نقل عن بطليموس في  
كل برج ألفان ومائة واثنان وستون سنة وثمانية أشهر وستة عشر يوماً وتسع عشرة ساعة

، وإذا ضرب ذلك في اثني عشر عدّة البروج خرج مدة قطعها الفلك كله وهو أقل مما ذكره ،  
بكثير ، ولعل المراد بدور البرج ما أريد بسلطانه من حكم تأثيره والتأثر العادي على ما يفهم  
من بعض كتب القوم بحكم الأصالة للبرج وهو الذي يفيض على الكوكب النازل فيه ، وكل  
ذلك مما لم ينزل الله تعالى به سلطاناً ، والحق الذي لا ينبغي المحيص عنه القول بحدوث العالم  
حدوثاً زمانياً ولا يعلم أوله إلا الله تعالى ، وكذلك عمر الدنيا وأول النشأة الإنسانية ومدة  
بقائها في هذا العالم وقدر زمان لبثها في البرزخ كل ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى ، وجميع ما  
ورد في هذا الباب أمور ظنية لا سند يعول عليه لأكثرها ، ووراء هذا أقوال لأهل الصين  
وغيرهم هي أدهى وأمر مما تقدم ، وبالجملة الباقي من عمر الدنيا عند من يقول بفنائها أقل  
قليل بالنسبة إلى الماضي من ذلك والله تعالى أعلم بحقيقة ما هنالك . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(63/300)

وقال القاسمي :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ أي : عن قيامها وحينها ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ أي : متى

إرساؤها أو وقت إرسائها ، أي : إثباتها وإقرارها .

والرسو يستعمل في الأجسام الثقيلة ، وإطلاقه على المعاني ، تشبيهاً لها بالأجسام .

﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ أي :

لا يظهرها في وقتها إلا هو .

﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : عظمت وكبرت على أهلها لهولها وما فيها من

الحاسبة والمجازاة ، أو ثقل علم وقتها على أهلها ، أو عظم وصفها على أهل السموات والأرض ، من انتشار النجوم ، وتكوير الشمس ، وتسيير الجبال : ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾

أي : فجأة على حين غفلة منكم .

﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أي : عالم بها : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : أن علمها عند الله ، لم يؤته أحداً من خلقه .

لطيفة :

قال الزمخشري : فإن قلت : لم كرر : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ و : ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ؟

قلت : للتأكيد ، وما جاء به من زيادة قوله : ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ وعلى هذا تكرير

العلماء الحذاق في كتبهم ، لا يخلون المكرر من فائدة زائدة . انتهى .

وقال الناصري " الإبتصاف " : وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا تلتفى إلى في الكتاب العزيز

، وهو أجل من أن يشارك فيها ، وذلك أن المعهود في أمثال هذا التكرير ، أن الكلام إذا بُني

على مقصد ، واعتراض في أثناءه عارض ، فأريد الرجوع لتسميم المقصد الأول ، وقد بعد

عهده ، طرِّي بذكر المقصد الأول ، لتصل نهايته ببدائته .  
وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال ، وسيأتي ، وهذا منها .

(64/300)

---

فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ ثم اعترض ذكر  
الجواب المضمن في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ إلى قوله : ﴿ بَعَثَهُ ﴾ أريد تميم  
سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم ، وهو المضمن في قوله : ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾  
وهو شديد التعلق بالسؤال ، وقد بعد عهده ، فطرِّي ذكره نظرية عامة ، ولا نراه أبداً يطرى  
إلا بنوع من الإجمال ، كالتذكرة للأول ، مستغنى عن تفصيله بما تقدم .

فمن ثم قيل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾

ولم يذكر المسؤول عنه ، وهو الساعة اكفاء بما تقدم فلما كرر السؤال لهذا الفائدة كرر  
الجواب أيضاً مجملاً ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

ويلاحظ هذه في تلخيص الكلام بعد بسطه . ومن أدق ما وقفت عليه العرب في هذا  
النمط من التكرير لأجل بعد العهد ، نظرية للذكر ، قوله :  
سَعَجَلْنَا لَنَا هَذَا وَالْحَقْنَا بِذَلِكَ شَحْمًا إِنْ قَدْ مَلَلْنَا بِجَلِّ

أي: فقط، فذكر الألف واللام، خاتمة للأول من الرجزين، ثم لما استفتح الرجز الثاني، استبعد العهد بالأولى، فطري ذكرها، وأبقى الأول في مكانها.

ومن ثم استدل ابن جني على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء، فهو بيت كامل، وليس بنصف، كما ذهب إليه أبو الحسن.

قال: ولو كان بيتاً واحداً، لم يكن عهد الأولى متباعداً، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها، ألا ترى أن عبيداً لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات، وجعل آخر المصراع الأول أ، لم يعدها أول المصراع الثاني، لأنها بيت واحد، فلم يرعدها بعيداً، وذلك قول عبيد بن الأبرص الأسدي:

يا خليلي اربعا واستخبرا ال منزل الدّارس عن أهل الحلال  
مثل سحق البرد عفى بعدك ال قطر مغناه وتأويب الشمال

(65/300)

---

إربعا: أقيما، الحلال: اسم امرأة، سحق البرد: يريد مثل البرد المسحوق أي: البالي، وعفى بالتشديد: محا، القطر: المطر، مغناه: هو الموضع الذي كانوا يسكنونه، والشمال - بالفتح والكسر - من الرياح، ما مهبه من مطلع الشمس وبنات نعش، وهي لا تكاد



تهب ليلاً، وتأويها : هبوبها النهار كله .

ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً . فانظر هذه النكته ، كيف بالغت العرب في رعايتها ، حتى عدت القريب بعيداً ، والمتقاصر مديداً ، فتأملها فإنها تحفة إنما تنفق عند الحذاق الأعيان ، في صناعتي العربية والبيان ، والله المستعان . انتهى .

والقصيدة بتمامها في " مختارات ابن الشجري " بالصفحة رقم 37 . انتهى انتهى . اهـ

﴿ محاسن التأويل ح 7 ص 226.227 ﴾

(66/300)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾

استئاف ابتدائي يذكر به شيء من ضلالهم ومحاوله تعجيزهم النبي صلى الله عليه وسلم بتعيين وقت الساعة .

ومناسبة هذا الاستئاف هي التعرض لتوقع اقتراب أجلهم في قوله : ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ

يكون قد اقترب أجلهم ﴾ [ الأعراف : 185 ] سواء أفسر الأجل بأجل إذهاب أهل

الشرك من العرب في الدنيا ، وهو الاستئصال ، أم فسر بأجلهم وأجل بقية الناس وهو قيام

الساعة ، فإن الكلام على الساعة مناسبة لكلا الأجلين .

وقد عرف من شنشنة المشركين إنكارهم ، البعثَ وتهكمهم بالرسول عليه الصلاة والسلام من أجل إخباره عن البعث ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مضى كل مُمزقٍ إنكم لفي خلقٍ جديدٍ أفترى على الله كذبا أم به جنةٌ ﴾ [سبأ : 7 ، 8] ، وقد جعلوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة ووقتها تعجيزاً له ، لتوهمهم أنه لما أخبرهم بأمرها فهو يدعي العلم بوقتها ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يومٍ لا تتأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون ﴾ [سبأ : 29 ، 30] .

فالسائلون هم المشركون ، وروى ذلك عن قتادة ، والضمير يعود إلى الذين كذبوا بآياتنا ، وقد حكى عنهم مثل هذا السؤال في مواضع من القرآن ، كقوله تعالى في سورة النازعات ( 42 ) ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ وقوله ﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون ﴾ [النبأ : 31] يعني البعثَ والساعة ، ومن المفسرين من قال : المعنى بالسائلين اليهود أرادوا امتحان رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن الساعة ، وهذا لا يكون سبب نزول الآية ، لأن هذه السورة مكية ، وقيل كلها ، وقيل إن آيتين منها نزلتا بالمدينة ، ولم يُعدوا هذه الآية ، فيما اختلف في مكان نزوله والسور التي حكى فيها مثل هذا السؤال مكية أيضاً نازلة قبل هذه السورة .

---

والساعة معرفةً باللام علم بالغلبة في اصطلاح القرآن على وقت فناء هذا العالم الدنيوي  
والدخول في العالم الآخروي ، وتسمى : يوم البعث ، ويوم القيامة .

﴿ أيان ﴾ اسم يدل على السؤال عن الزمان وهو جامد غير متصرف مركب من (أي) الاستفهامية و(آن) وهو الوقت ، ثم خففت (أي) وقلبت همزة (آن) ياء ليتأتى الإدغام ، فصارت (أيان) بمعنى أي زمان ، ويتعين الزمان المسؤول عنه بما بعد (أيان) ، ولذلك يتعين أن يكون اسم معنى لا اسم ذات ، إذ لا يخبر بالزمان عن الذات ، وأما استعمالها اسم شرط لعموم الأزمنة فذلك بالنقل من الاستفهام إلى الشرط كما نقلت (متى) من الاستفهام إلى الشرطية ، وهي توسيعات في اللغة تصيرُ معاني متجددة ، وقد ذكروا في اشتقاق (أيان) (احتمالات يرجعون بها إلى معاني أفعال ، وكلها غير مرضية ، وما ارتأيناه هنا أحسن منها .

فقوله : ﴿ أيان ﴾ خبر مقدم لصدارة الاستفهام ، و ﴿ مرساها ﴾ مبتدأ مؤخر ، وهو في الأصل مضاف إليه آن إذ الأصل أي (آن) آن مرسى الساعة .

وجملة : ﴿ أيان مرساها ﴾ في موضع نصب بقول محذوف دل عليه فعل ﴿ يسألونك ﴾ والتقدير : يقولون أيان مرساها ، وهو حكاية لقولهم بالمعنى ، ولذلك كانت الجملة في معنى البدل عن جملة : ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ .

والمُرْسَى مصدر ميمي من الإرساء وهو الإقرار يقال رسا الجبل ثبت ، وأرساه أثبته وأقره

، والإرساء الاستقرار بعد السير كما قال الأخطل :

وقال رائدُهم أرسوا نزاولها . . .

ومرسى السفينة استقرارها بعد المخر قال تعالى : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ [

هود : 41 ] ، وقد أطلق الإرساء هنا استعارة للوقوع تشبيهاً لوقوع الأمر الذي كان مترقباً

أو متردد فيه بوصول السائر في البر أو البحر إلى المكان الذي يريده .

(68/300)

---

وقد أمر الله رسوله بجوابهم جواب جد وإغضاء عن سوء قصدهم بالسؤال التهمك ،  
إظهاراً لنفي الوصمة عن وصف النبوة من جراء عدم العلم بوقت الساعة ، وتعليماً للذين  
يتربون أن يحصل من جواب الرسول عن سؤال المشركين علم للجميع بتعيين وقت الساعة  
فإذا أمر الساعة مما تتوجه النفوس إلى تطلبه .

فقد ورد في الصحيح أن رجلاً من المسلمين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :  
يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال رسول الله ما ذا أعددت لها ؟ فقال ما أعددت لها كبير  
عمل إلا أنني أحب الله ورسوله فقال أنت مع من أحببت . "

وعلم الساعة هو علم تحديد وقتها كما يُنبىء عنه السؤال ، وقوله : ﴿ لا يُجلبها لوقتها إلا هو ﴾ ، إضافة علم إلى ضمير الساعة على تقدير مضاف بينهما أي علم وقتها ، والإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله ، وظرفية ( عند ) مجازية استعملت في تحقيق تعلق علم الله بوقتها .

والحصر حقيقي : لأنه الأصل ، ولما دل عليه توكيده بعد في قوله : ﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾ ، والقصر الحقيقي يشتمل على معنى الإضافة وزيادة ، لأن علم الساعة بالتحديد مقصور على الله تعالى .

والتعريف بوصف الرب وإضافته إلى ضمير المتكلم إيماءً إلى الاستدلال على استئثار الله تعالى بعلم وقت الساعة دون الرسول المسؤول ففيه إيماء إلى خطأهم وإلى شبهة خطأهم .  
( والتجلية ) الكشف ، والمراد بها ما يشمل الكشف بالإخبار والتعيين ، والكشف بالإيقاع ، وكلاهما منفي الإسناد عن غير الله تعالى ، فهو الذي يعلم وقتها ، وهو الذي يُظهرها إذا أراد ، فإذا أظهرها فقد أجلاها .

واللام في قوله : ﴿ لوقتها ﴾ للتوقيت كالتي في قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ [ الإسراء : 78 ] .

ومعنى التوقيت ، قريب من معنى ( عند ) ، والتحقيق : أن معناه ناشئ عن معنى لام الاختصاص .

ومعنى اللام يناسب أحد معنيي الإجلاء ، وهو الإظهار ، لأنه الذي إذا حصل تم كشف أمرها ، وتحقق الناس أن القادر على إجلائها كان عالماً بوقت حلولها .  
وفصلت جملة : ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ لأنها تنزل من التي قبلها منزلة التأكيد والتقرير .

وقدم المجرور وهو ﴿ لوقتها ﴾ على فاعل ﴿ يجليها ﴾ الواقع استثناءً مفرغاً للاهتمام به تنبيهاً على أن تجلية أمرها تكون عند وقت حلولها لأنها تأتي بغتة .  
وجملة : ﴿ ثقلت في السماوات والأرض ﴾ معترضة لقصد الإفادة بهولها ، والإيماء إلى حكمة إخفائها .

وفعل ﴿ ثقلت ﴾ يجوز أن يكون مجرد الإخبار بشدة ، أمرها كقوله : ﴿ ويدررون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ .  
ويجوز أن يكون تعجبياً بصيغة فعل بضم العين فتقدر الضمة ضمة تحويل الفعل للتعجب ، وإن كانت هي ضمة أصلية في الفعل ، فيكون من قبيل قوله : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ [الكهف : 5] .

والثقل مستعار للمشقة كما يستعار العظم والكبر ، لأن شدة وقع الشيء في النفوس  
ومشقة عليها تحيل لمن خلت به أنه حامل شيئاً ثقيلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنا سنلقي  
عليك قولاً ثقيلاً ﴾ [المزمل : 5] أي شديداً تلقيه وهو القرآن ، ووصف الساعة بالثقل  
باعتبار ما هو مطروف في وقتها من الحوادث ، فوصفها بذلك مجاز عقلي ، والقرينة  
واضحة ، وهي كون الثقل بمعنى الشدة لا يكون وصفاً للزمان ، ولكنه وصف للأحداث ،  
فإذا أسند إلى الزمان ، فإسناده إليه إنما هو باعتباره ظرفاً للأحداث ، كقوله : ﴿ وقال  
هذا يوم عَصِيبٌ ﴾ [هود : 77] .

وثقل الساعة أي شدتها هو عظم ما يحدث فيها من الحوادث المهولة في السماوات والأرض  
، من تصادم الكواكب ، وانخرام سيرها ، ومن زلازل الأرض وفيضان البراكين ، والبحار ،  
وجفاف المياه ، ونحو ذلك مما ينشأ عن اختلال النظام الذي مكان عليه سير العالم ، وذلك  
كله يحدث شدة عظيمة على كل ذي إدراك من الموجودات .

(70/300)

---

ومن بديع الإيجاز تعدية فعل ﴿ ثَقَلْتُ ﴾ بحرف الظرفية الدال على مكان حلول الفعل ،  
وحذف ما حقه أن يتعدى إليه وهو حرف (إلى) الذي يدل على ما يقع عليه الفعل ، ليعم

كل ما تحويه السماوات والأرض مما يقع عملية عملية الثقل بمعنى الشدة .

وجملة : ﴿ لا تأتاكم إلا بغتة ﴾ مستأنفة جاءت تكملة للإخبار عن وقت حلول الساعة

، لأن الإتيان بغتة يحقق مضمون الإخبار عن وقتها بأنه غير معلوم إلا لله ، وبأن الله غير

مُظهره لأحد ، فدل قوله : ﴿ لا تأتاكم إلا بغتة ﴾ على أن انتفاء إظهار وقتها انتفاءً

متوغل في نوعه بحيث لا يحصل العلم لأحد مجلوها بالكنه ولا بالإجمال ، وأما ما ذكر لها من

أمارات في حديث سُؤال جبريل عن أماراتها فلا ينافي إتيانها بغتة ، لأن تلك الأمارات ممتدة

الأزمان بحيث لا يحصل معها تهيو للعلم مجلوها .

و"البغته" مصدر على زنة المرة من البغت وهو المفاجأة أي الحصول بدون تهيو له ، وقد

مضى القول فيها عند قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة ﴾ في سورة الأنعام (

. (31

وجملة : ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ مؤكدة لجملة : ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾

ومبينة لكيفية سؤا لهم فلذئنيك فصلت .

وحذف متعلق السؤال لعلمه من الجملة الأولى .

و ﴿ حفي ﴾ فعيل فيجوز أن يكون بمعنى فاعل مشتقاً من حفي به ، مثل غني فهو غني

إذا أكثر السؤال عن حاله تلطفاً ، ويكون المعنى كأنك أكثر السؤال عن وقتها حتى علمته

، فيكون وصف حفي كناية عن العالم بالشيء ، لأن كثرة السؤال تقتضي حصول العلم



بالمسؤول عنه ، وبهذا المعنى فسر في "الكشاف" فهو من الكناية بالسؤال عن طلب العلم ،  
لأن السؤال سبب العلم ، كقول السموأل أو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي أو غيرهما:  
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم . . .

فليس سواءً عالم وجهول

وقول عامر بن الطفيل:

طلقت إن لم تسألني أي فارس . . .

حليلك إذ لاقى صداء وختعها

وقول أنيف بن زبّان النبھاني:

(71/300)

فلما التقينا بينَ السيفِ بيننا . . .

لسائلةٍ عنا حفيِّ سؤالها

ويجوز أن يكون مشتقاً من أحفاه إذا ألح عليه في فعل ، فيكون فعياً بمعنى مُفعل مثل حكيم

، أي كأنك مُلح في السؤال عنها ، أي ملح على الله في سؤال تعيين وقت الساعة كقوله تعالى

: ﴿ إِن يُسْأَلُكُمْ فِيهَا فُجُفَكُم بِتُخْلُوا ﴾ [ محمد : 37 ] .

وقوله: ﴿كأنك حفي﴾ حال من ضمير المخاطب في قوله: ﴿يسألونك﴾ معترضة بين ﴿يسألونك﴾ ومتعلقه.

ويتعلق قوله: ﴿عنها﴾ على الوجهين بكل من ﴿يسألونك﴾ و ﴿حفي﴾ على نحو من التنازع في التعليق.

ويجوز أن يكون ﴿حفي﴾ مشتقاً من حفي به، كرضي بمعنى بالغ في الإكرام، فيكون مستعملاً في صريح معناه، والتقدير: كأنك حفي بهم أي مكرم لهم وملاطف فيكون تهكماً بالمشركين، أي يظهرون لك أنك كذلك ليستنزلوك للخوض معهم في تعيين وقت الساعة، روي عن ابن عباس: كأنك صديق لهم، وقال قتادة: قالت قريش ل محمد: إن بيننا قرابة فأسر إلينا متى الساعة فقال الله تعالى: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ وعلى هذا الوجه يتعلق ﴿عنها﴾ بـ ﴿يسألونك﴾ وحذف متعلق ﴿حفي﴾ لظهوره.

وبهذا تعلم أن تأخير ﴿عنها﴾ للإيفاء بهذه الاعتبارات.

وفي الآية إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا تتعلق همته بتعيين وقت الساعة، إذ لا فائدة له في ذلك، ولأنه لو اهتم بذلك لكان في اهتمامه تطلباً لإبطال الحكمة في إخفائها، وفي هذا إشارة إلى أن انتفاء علمه بوقتها لا ينافي كرامته على الله تعالى بأن الله أعطاه كمالاً نفسياً يصرفه عن تطلب ذلك، ولو تطلبه لأعلمه الله به، كما صرف موسى عليه السلام

عن الاستمرار على كراهة الموت حين حل أجله كيلا ينزع روحه وهو كاره، وهذه سرائر عالية بين الله وبين الصالحين من عباده.

(72/300)

---

وأكدت جملة الجواب الأولى بقوله: ﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾ تأكيداً لمعناها ليعلم أن ذلك الجواب لا يرجى غيره وأن الحصر المشتمل عليه قوله: ﴿ إنما علمها عند ربي ﴾ حصر حقيقي ثم عطف على جملة الجواب استدراك عن الحصر في قوله: ﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾ تأكيداً لكونه حصراً حقيقياً، وإبطالاً لظن الذين يحسبون أن شأن الرسل أن يكونوا عالمين بكل مجهول، ومن ذلك وقت الساعة بالنسبة إلى أوقاتهم يستطيعون إعلام الناس فيستدلون بعدم علم الساعة على عدم صدق مدعي الرسالة، وهذا الاعتقاد ضلالة ملازمة للعقول الأفنة، فإنها توهم الحقائق على غير ما هي عليه، وتوقن بما يخيل إليها، وتجعله أصولاً تبني عليها معارفها ومعاملاتها، وتجعلها حكماً في الأمور إثباتاً ونفياً، وهذا فرط ضلالة، وإنه لضعف على إيالة بتشديد الباء وتخفيفها، وقد حكى التاريخ القديم شاهداً مما قلناه وهو ما جاء في سفر دانيال من كتب الأنبياء الملحقة بالتوراة أن (بُخْتَنَصَّرَ) ملك بابل رأى رؤياً أزعجته وتطلب تعبيرها، فجمع

العرافين والمنجمين والسحرة وأمرهم أن يخبروه بصورة ما رآه في حلمه من دون أن يحكيه لهم ، فلما أجابوه بأن هذا ليس في طاقة أحد من البشر ولا يطلع على ما في ضمير الملك إلا الآلهة ، غضب ، واغتاظ ، وأمر بقتلهم ، وأنه أحضر دانيال النبي وكان من جملة أسرى بني إسرائيل في ( بابل ) وهدده بالقتل إن لم ينبئه بصورة رؤياه ، ثم بتعيرها ، وأن دانيال استنظره مدة ، وأنه التجأ إلى الله بالدعاء هو وأصحابه ( عزريا ) و ( ميشايل ) و ( حننيا ) فدعوا الله لينقذ دانيال من القتل ، وأن الله أوحى إلى دانيال بصورة ما رآه الملك فأخبر دانيال الملك بذلك ، ثم عبر له ، فنال حظوة لديه انظر الإصحاح الثاني من سفر دانيال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(73/300)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾

والمسؤول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسائل إما هم اليهود الذين سألوه عن الساعة ، وعن الروح ، وعن ذي القرنين ، فكان الجواب منه مطابقاً لما عندهم في التوراة لأنهم ظنوا أن الكلام الذي يقوله محمد إنما يأتي منه جزافاً بدون ضابط وليس من رب يُنزلهُ

. فلما أجاب بما عندهم في التوراة ، علموا أنه لا يقول الكلام من عنده ، ولذلك سألوهُ أيضاً

عن أهل الكهف وما حدث لهم ، وكانوا جماعة في الزمن الماضي ، واتفقوا معه على كل

شيء حدث لأهل الكهف إلا على الزمن فنزل القرآن يحدد هذا الزمن بقوله سبحانه : ﴿

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف : 25]

فقال اليهود : الثلاثمائة سنة نعرفها ، أما التسعة فلا نعرفها ، وما علموا أن الحق سبحانه

وتعالى يؤرخ لتاريخ الكون بأدق حسابات الكون لأن ربنا هو القائل : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ

عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ . . . ﴾ [التوبة : 36]

إذن التوقيات كلها حسب التوقيت العربي ، ونعلم أن الذين يريدون أن يحكموا التاريخ

حكماً دقيقاً فهم يؤرخون له بالهلال ، والمثال أن كل عالم البحار تكون الحسابات المائبة

فيها كلها بالهلال ، لأنه أدق ، وأيضاً فالهلال آية تعلمنا متى يبدأ الشهر ، ولا نعرف من

الشمس متى يبدأ الشهر ؛ لأن الشمس دلالة يومية تدل على النهار والليل ، بينما القمر دلالة

شهرية ، ومجموع الاثنى عشر هو الدلالة السنوية . لكنهم لم يفتنوا إلى هذه ، وأخذوا على

الثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي ، وأضاف الحق : ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ لأنك إن

حسبت الثلاثمائة سنة الشمسية بحساب السنة القمرية تزداد تسع سنين .

ومادة السؤال في القرآن ظاهرة صحيحة في الإيمان؛ لأن الإيمان إنما جاء ليحكم حركة الحياة  
ب " افعل " و " لا تفعل " ، وساعة يقول الشرع: افعل ، ففي ظاهر هذا الفعل مشقة ،  
وساعة يقول: لا تفعل ففي ظاهر هذا الطلب أنه سهل ومرغوب ، والمنع عنه يناقض  
شهوات النفس . وللتأكد من أن الأسئلة ظاهرة صحيحة من المؤمنين نجد أسئلة كثيرة  
موجهة لرسول الله من أمته ، حكاهما القرآن بصور متعددة ، ورد السؤال مرة بفعل مضارع  
مثل قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ ؛ ومرة ورد بصورة فعل ماضٍ " وإذا سألك " . وكثيراً ما  
جاء السؤال بهيئة المضارع ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ ، لأن المضارع يكون للحال وللإستقبال .  
وجاءت الأسئلة بالقرآن في صيغة المضارع خمس عشرة مرة ، وجاءت بصيغة الماضي مرة  
واحدة . وإن نظرت إلى الخمس عشرة مرة تجد كل مرة منها جاءت لتبين حكماً . وإذا  
نظرنا إلى مادة الفعل " يسأل " في القرآن وبترتيب المصحف ، نجد القرآن يقول : ﴿  
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلُوبِ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ . . . ﴾ [ البقرة : 189 ]  
ويقول سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ . . . ﴾



[ البقرة : 215 ]

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرِهِ بِهٖ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ . . . ﴿ [البقرة: 217]

القتل . . . ﴿ [البقرة: 217]

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .

. . . ﴿ [البقرة: 219]

ومرة أخرى يقول في ذات الآية السابقة: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ . . . ﴿

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ . . . ﴿ [البقرة:

[ 220

(75/300)

ويقول عز وجل: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَيْضِ قُلْ هُوَ أَذَىٌّ فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْحَيْضِ . . .

﴿ [البقرة: 222]

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ ﴿

وبعد ذلك في سورة الأعراف يقول: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا

عِنْدَ رَبِّي . . . ﴿ [الأعراف: 187]

وأيضاً يقول سبحانه: ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا . . . ﴿ [الأعراف: 187]

ثم يقول الحق: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ . . . ﴾ [ الأنفال: 1 ]

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي . . . ﴾ [

الإسراء: 85]

ويقول المولى سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلِ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [

الكهف: 83]

ويقول الحق: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ [ طه: 105 ]

ويجتم هذه الأسئلة بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا \* فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا

﴿ [ النازعات: 42-43 ]

تلك هي خمس عشرة آية جاء فيها الحق بقوله ﴿يَسْأَلُونَكَ ﴾ ، وآية واحدة يقول فيها

الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

﴿ . . . [ البقرة: 186 ]

(76/300)

---

والآيات الخمس عشرة التي جاء فيها الحق بصيغة المضارع ﴿يَسْأَلُونَكَ ﴾ نجد كل

جواب فيها مُصدراب "قل" وهو أمر للرسول: قل كذا، قل كذا، ولكن في الآية الواحدة



التي جاء فيها الفعل الماضي ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ ﴾ ، لم يقل : فقل إني قريب ، بل قال : ﴿  
فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ ﴾ ، لأن الله يعلم حب محمد لأمة ، وحرصه عليهم  
ولذلك يقول : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [ الشعراء : 3 ]  
ويقول سبحانه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [  
الكهف : 6 ]

ولذلك حين علم الحق علم وقوع : أن رسول الله مهمته بأمر أمته ومشغول بها وحرص على  
أن يشملها الله بمغفرته ورحمته والأيسؤوه فيها ، أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يرضيه  
في أمته . وقد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي  
الله عنهما " أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم صلى الله عليه  
وسلم ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ  
رَّحِيمٌ ﴾

وقول عيسى صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ  
العزيز الحكيم ﴾ فرفع يديه فقال : أمي أمي وبكى فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى  
محمد وربك أعلم فسأله ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما  
قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد إنا سنرضيك في أمك ولا  
نسوؤك "

وتأكيد العلم الحق تبارك وتعالى من حرص رسوله على أمته ، أراد أن يكرم هذه الأمة من نوع ما كرم به الرسول ، ف جاء الخطاب في آية الدعاء بدون " قل " . ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . . . ﴾ [البقرة: 186]

(77/300)

---

وأراد الله أن يبين لحمد ولأتمته أن الله يعلم لا بما تسألونه فقط ، بل يعلم ما سوف تسألونه عنه . لذلك نجد أربع عشرة آية تأتي فيها ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ وتكون الإجابة " قل " ، والآية الخامسة عشرة جاء فيها ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ وكانت الإجابة " فقل " تدل على " الفاء " على أن السؤال لم يقع بعد ، فكان الفاء دلت على شرط مقدر هو : إن سألك فقل ينسفاً ربي نسفاً ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [ الأعراف: 187 ]

" ويجليها " أي يظهرها ، وهناك ما يسمى " الجلوة " وما يسمى " الخلوة " ، و " الجلوة " أن يظهر الإنسان للناس ، و " الخلوة " أن يختلي عن الناس ، و " لا يجليها " أي لا يظهرها ، و "

لوقتها " ترى أنها مسبوقه باللام ، ويسمونها في اللغة العربية " لام التوقيت " ، مثلما يقول

الحق سبحانه : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكِ الشَّمْسِ . . . ﴾ [الإسراء : 78]

وهي بمعنى " عند " ، ومعنى دلوك الشمس ، أنها تتجاوز نصف السماء ، وتميل إلى

المغرب قليلاً . وقوله : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لَوْ قَتَّهَا إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا يبينها عند وقتها إلا هو سبحانه

وتعالى . ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾

والثقل يعني أن تكون كتلة الشيء أكبر من الطاقة التي تحمله ؛ لأن الكتلة إن تساوت مع

الطاقة فهي لا تنقل على الحمل .

(78/300)

---

أو أن الطاقة التي تحمل لم تقدر على جاذبية الأرض ؛ فيكون الشيء ثقيلًا ، وقد يكون هذا

الثقل أمراً مادياً ، كما يحمل الإنسان - مثلاً - على ظهره أردباً من القمح فيقدر على حمله

، لكنه إن زاده إلى أردب ونصف ، فالحمل يكون ثقيلًا على ظهره لأن طاقته لا تتحمل مثل

هذا الوزن " فينخ " به . ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

والثقل لا يكون مادياً فقط ، بل هو فكري وعقلي أيضاً ، مثال ذلك حين يقوم الطالب بحل

هندسي أو تمرين في مادة الجبر ، فالطالب يشعر أحياناً أن مثل هذا التمرين ثقيل على فكره

، وصعب الحل في بعض الأحيان .

وقد يكون الأمر ثقيلًا على النفس في ملكاتها ، مثل الهم جاثم على الصدر وثقل عليه ، وهو أقسى أنواع الثقل ، ولذلك فالشاعر القديم يقول :

ليس يحمل ما أطاق الظهر . . . ما الحمل إلا ما وعاه الصدر

إذن هناك ثلاثة أثقال : ثقل مادي ، وثقل فكري ، وثقل نفسي .

﴿ تَقَلَّتْ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ ، ونحن نعلم أن السموات فيها الملائكة . ونعلم أن الملائكة

أيضاً لا تعرف ميعاد الساعة ، ولا يحاول معرفتها إلا الإنسان بشهوة الفكر ، أما الملائكة

فهي ليست مكلفة لأنها لا اختيار لها ، وبعضها يخدم البشر ، وهم الملائكة الذين سجدوا

لآدم وهم الموكلون بمصالحه ، وبجياته ، وقد رضخوا لأمر الحق بأن هناك سيدياً جديداً

للكون . فكونوا جميعاً مسخرين في خدمته ، وهم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون ، ولهم

إلف بالخلق ، إلف كاره للعاصي ، وإلف محب للطائع . ومن يسير على منهج الله من البشر

يفرحون به . وإن وقع من الطائع زلة ، يأسون له ويتمنون ألا تقع منه زلة أخرى . ومن يسير

ضد منهج الله يغضبون منه ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه عنه أبو هريرة

رضي الله عنه : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط

منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً "

---

ونعلم أن المنفق سيأخذ ثواب إنفاقه ، أما الممسك فإن تلف ماله وصبر عليه فهو أيضاً ينال ثواباً عليه . وهكذا تدعونا الملائكة .

"ثقلت" هنا تعني أن ميعاد الساعة لا يعرفه إلا ربنا ، فلا يعرف ذلك الميعاد من هم في السموات وكذلك من هم في الأرض ، وكل من على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة ، وخصوصاً أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يعطي لها صورة توضح قوله الحق : ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾

ويخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالحالة التي تأتي عليها فيقول : "إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته والرجل يقيم سلعته في السوق والرجل يخفض ميزانه ويرفعه" ومثل هذه التوقعات تخيف .

وقوله الحق : ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أي أن الواقع في هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتي بغتة ، أي يجيء من غير استعداد نفسي لاستقباله . ويتابع سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ وحفي من الحفاوة ، والحفي هو الملح في طلب الأشياء ، مثل التلميذ الذي يتوقف عند درس لا يفهمه ، فيسأل هذا ، وذلك إلى أن يجد إجابة .

والحفى بالسؤال عن أمر يحاول أن يصل إليه ، والحفى أيضاً عالم بما يسأل عنه ، وسبب العلم أنه ألح في السؤال عليها .

والأمور التي يعالجها الإنسان إما أن يعالجها وهو مستقر في مكانه كالأمور الفكرية أو العضلية الموقوتة بمكان ، وقد يكون أمراً بعيداً عن مكانه ويريد أن يعالجه ، فيقطع المسافة إلى المكان الثاني لتحقيق هذه المهمة ، إنما يمشي ويسعى على رجليه ، و " يدوب " النعل الذي يضعه في قدميه من المشي فيقال عنه إنه : " حافي " .

(80/300)

---

ولذلك يقال : حفي فلان إلى أن وصل للشيء الفلاني ، أي سار مرات كثيرة وقطع عدة مسافات ، مزقت نعله حتى جعلته يمشي حافياً . وهنا يقول الحق على السنة القوم : ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أي أنك مُعْنَى بها ، ودائب السؤال عنها ، وعارف لها .  
وتأتي الإجابة من الحق : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾  
وفي ذات الآية سبق أن قال : ﴿ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾

والربوبية متعلقها الخلق ، والرعاية بالقيومية لمصالح البشر ، والأوهية متعلقها العبادة وتطبيق المنهج ، وجاء الحق في هذه الآية ، مرة بالربوبية ، ومرة بالأوهية . والأولى هي علة

الثانية ، فأنت أخذت الله معبوداً ، وأطعته لأنه خلقك ووضع لك المنهج ، ولا يذخر وسعاً  
بربوبيته أن يقدم للعبد الصالح كل شيء ويمنحه البركة ، وكذلك يعطي الكافر إن أخذ  
بالأسباب ولكن دون بركة وبغير ثواب في الدنيا أو الآخرة ، لذلك هو الإله الحق الذي تتبع  
منهجه . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾  
وأكثر الناس الذين يسألون عن موعد الساعة لا يعلمون أن ربنا قد أخفاها ، وسبحانه هو  
القائل : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ [ طه : 15 ]  
هم إذن لا يعلمون أن علمها عند الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(81/300)

لطيفة

قال في البحر المديد :

الإشارة : إذا أشرق نور اليقين في القلب صارت الأمور المستقبلية حاصلة ، والغائبة  
حاضرة ، والآجلة عاجلة ، فأهل اليقين الكبير قدّموا ما كان آتياً ، فحاسبوا أنفسهم قبل  
أن يحاسبوا ، ووزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم ، وجازوا الصراط بلسوكتهم المنهاج  
المستقيم ، ودخلوا جنة المعارف قبل حصول جنة الزخارف ، فالموت في حقهم إنما هو

انتقال من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام ، ومن دار الغرور إلى دار الهناء والسرور . وفي الحكم : « لو أشرق لك نور اليقين في قلبك ، لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها » .

قال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه : نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هي عليه ، فيحق به الحق ، ويبط به الباطل ، والآخرة حق ، والدنيا باطل ، فإذا أشرق نور اليقين في قلب العبد أبصر به الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه ، حتى كأنها لم تنزل ، فكانت أقرب إليه من أن يرتحل إليها ، فحق بذلك حقها عنده ، وأبصر الدنيا الحاضرة لديه ، قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب ، فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة ، فظهر له بطلانها ، حتى كأنها لم تكن ، فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادة في الدنيا والتجافي في زهرتها ، والإقبال على الآخرة ، والتهيؤ لنزول حضرتها ، ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور .

(82/300)

---

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ القَلْبَ انشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وانفَسَحَ » ، وقيل يا رَسُولَ اللَّهِ : هَلْ لَدُنكَ مِنْ عَلامَةٍ يُعْرَفُ بِهَا ؟ قال : « نَعَمْ . التَّجَافِي عَنْ دَارِ



الغُرُورِ ، وَالْإِنَابَةَ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالِاسْتِعْدَادَ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ « أَوْ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعي نفسه ، فلا تأمره بسوء ، ولا تطالبه بارتكاب منهي ، ولا تكون لهم همّة إلا المسارعة إلى الخيرات ، والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات ، وذلك لاستشعاره حلول الأجل ، وفوات صالح العمل ، وإلى هذا الإشارة بمجديشي حارثة ، ومعاذ رضي الله عنهما . رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْشِي إِذْ اسْتَقْبَلَهُ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ ؟ » قَالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ حَقًّا ، قَالَ : « انْظُرْ مَا تَقُولُ ، فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ؟ » فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي وَأَضْمَأْتُ نَهَارِي ، وَكَأَنِّي بَعْرَشُ رَبِّي بَارِزًا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَعَاوَنُونَ فِيهَا ، فَقَالَ : « أَبْصَرْتَ فَالزَّمْ ، عَبْدُ اللَّهِ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ . . . » إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ .

(83/300)

---

وروى أنس رضي الله عنه أيضاً : أن معاذ بن جبل دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي ، فقال له : « كيف أصبحت يا معاذ ؟ » فقال : أصبحتُ بالله مؤمناً ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنَّ لكل قول مصداقاً ، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول ؟ » فقال : يا نبيَّ الله ، ما أصبحتُ صباحاً قط إلا ظننتُ أني لا أمسي ، ولا أمسيتُ قط إلا ظننتُ إنني لا أصبح ، ولا خطوتُ خطوة قط إلا ظننتُ أني لا أتبعها أُخرى ، وكأني أنظرُ إلى كل أمةٍ جاثيةٌ تدعى إلى كتابها ، معها نبيُّها وأوثانها التي كانت تعبدُ من دون الله ، وكأني أنظرُ إلى عُقوبةِ أهلِ النَّارِ وثوابِ أهلِ الجنة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَرَفْتُ فالزَمَ » انظر بقية كلامه رضي الله عنه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المديد ح 2 ص 290.291 ﴾

(84/300)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾

أخرج ابن إسحق وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قال حمل بن أبي قشير ،

وسمّول بن زید ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما  
تقول ، فإننا نعلم ما هي ؟ فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها  
عند ربي ﴾ إلى قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .  
وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ أي  
متى قيامتها ﴿ قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ قال : قالت قريش : يا  
محمد أسر إلينا الساعة لما بيننا وبينك من القرابة . قال : ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها قل  
إنما علمها عند الله ﴾ قال : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول " تهج  
الساعة بالناس : والرجل يسقي على ماشيته ، والرجل يصلح حوضه ، والرجل يخفض  
ميزانه ويرفعه ، والرجل يقيم سلعته في السوق ، قضاء الله لا تأتكم إلا بغة " .  
وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أيان مرساها ﴾  
قال : منتهاها .  
وأخرج أحمد عن حذيفة قال " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة قال ﴿  
علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ ولكن أخبركم بمشاريطها ، وما يكون بين يديها ،  
إن بين يديها فتنة وهرجا . قالوا : يا رسول الله الفتنة قد عرفناها الهرج ما هو ؟ قال :  
بلسان الحبشة القتل " .

---

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال: "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة وأنا شاهد فقال "لا يعلمها إلا الله ولا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها ما بين يديها من الفتن والهرج. فقال رجل: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: بلسان الحبشة القتل، وأن تجف قلوب الناس، ويلقي بينهم التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً، ويرفع ذو الحجا ويبقى رجراجة من الناس، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً".

وأخرج مسلم وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بشهر "تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض يوم من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة".

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الشعبي قال: لقي عيسى جبريل فقال: السلام عليك يا روح الله. قال: وعليك يا روح الله. قال: يا جبريل متى الساعة؟ فانتفض جبريل في أجنحته، ثم قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة، أو قال ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن

مجاهد في قوله ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ يقول: لا يأتي بها إلا الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: هو يجليها لوقتها لا يعلم ذلك إلا الله .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ ثقلت في السماوات والأرض ﴾ قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ثقلت في السماوات والأرض ﴾ قال: ثقل علمها على أهل السماوات والأرض إنهم لا يعلمون ، وقال الحسن ، إذا جاءت ثقلت على أهل السماوات والأرض ، يقول: كبرت عليهم .

(86/300)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ ثقلت في السماوات والأرض ﴾ قال: إذا جاءت انشقت السماء ، وانتثرت النجوم ، وكوّرت الشمس ، وسيرت الجبال ، وما يصيب الأرض ، وكان ما قال الله ، فذلك ثقلها بهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ قال: فجأة آمنين .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"تقوم الساعة على رجل أكلته في فيه فلا يلوكها ولا يسيغها ولا يلفظها ، وعلى رجلين قد نشر بينهما ثوباً يتبايعانه فلا يطويانه ولا يتبايعانه " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لا تقوم الساعة حتى ينادي مناد : يا أيها الناس أتتكم الساعة ثلاثاً .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ لا يجليها لوقتها إلهو ﴾ يقول : لا يرسلها لوقتها إلهو ﴿ ثقلت في السماوات والأرض ﴾ يقول : خفيت في السموات والأرض ، فلم يعلم قيامها متى تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿ لا تأتكم إلا بغتة ﴾ قال : تبغتهم تأتيمهم على غفلة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ كأنك حفي عنها ﴾ قال : استحفيت عنها السؤال حتى علمتها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد وسعيد بن جبيرة في قوله ﴿ كأنك حفي عنها ﴾ قال أحدهما : عالم بها ، وقال الآخر : يجب أن يسأل عنها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ كأنك حفي عنها ﴾ قال : استحفيت عنها السؤال حتى علمتها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد وسعيد بن جبيرة في قوله ﴿ كأنك حفي عنها ﴾ قال أحدهما : عالم بها ، وقال الآخر : يجب أن يسأل عنها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾  
يقول: كأنك عالم بها أي لست تعلمها .

(87/300)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿كأنك حفي عنها﴾  
قال: لطيف بها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس  
﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ يقول: كان بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم ، قال ابن  
عباس: لما سأل الناس محمداً صلى الله عليه وسلم عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم  
يرون أن محمداً حفي بهم ، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده استأثر بعلمها ، فلم يطلع  
عليها ملكاً ولا رسولاً .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ قال: كأنك حفي  
بهم حين يأتونك يسألونك .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿يسألونك كأنك حفي﴾ بسؤالهم قال: كأنك تحب  
أن يسألوك عنها .

وأخرج عبد بن حميد عن عمرو بن دينار قال: كان ابن عباس يقرأ "كأنك حفيء بها" .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ قال: كأنك يعجبك أن يسألوك عنها لنخبرك بها فأخفاها منه فلم يخبره ، فقال ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ [النازعات: 43] وقال ﴿ أكاد أخفيها ﴾ [طه: 15] وقراءة أبي ﴿ أكاد أخفيها من نفسي ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم: إن بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة؟ فقال الله ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ . انتهى انتهى .  
اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(88/300)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾

فيه وجهان:

أحدهما: أن أَيَّانَ خبر مقدم، ومُرْسَاهَا مبتدأ مؤخر، والثاني: أن أَيَّانَ منصوب على الظرفِ بفعلٍ مضمَرٍ، ذلك الفعل رافع لـ "مُرْسَاهَا" بالفاعليَّة، وهو مذهب أبي العباس،



وهذه الجملة في محل نصب بدل من السّاعة بدل اشتمال ، وحينئذٍ كان ينبغي أن لا تكون في محل جرٍّ ؛ لأنها بدل [من] مجرور وقد صرح بذلك أبو البقاء فقال : والجملة في موضع جرّ بدلاً من السّاعة تقديره : يسألونك عن زمان حلول الساعة .

إلا أنه منع من كونها مجرورة المحلّان البدل في تية تكرار العامل ، والعامل هو يسألونك والسؤال تعلق بالاستفهام وهو متعدّد بـ " عن " فتكون الجملة الاستفهامية في محل نصب بعد إسقاط الخافض ، كأنه قيل : يسألونك أيان مرّسى السّاعة ، فهو في الحقيقة بدل من موضع عن السّاعة لأن موضع الجرور نصب ، ونظيره في البدل على أحسن الوجوه فيه : عرّفتُ زيدا أبو من هو .

و"أيان" ظرف زمان لتضمّنه معنى الاستفهام ، ولا يتصرّف ، يليه المبتدأ والفعل المضارع دون الماضي ، بخلاف "متى" فإنها يليها النوعان ، وأكثر ما يكون [أيان] استفهاماً ،

كقول الشاعر : [الرجز]

2641 - إِيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي أَيَّانَا . . .

أَمَا تَرَى لِفَعْلِهَا أَيَّانَا

وقد تأتي شرطية جازمة لفاعلين .

قال الشاعر : [البيسط]

2642 - أَيَّانَ نُؤْمِنُكَ تَأْمَنُ غَيْرَنَا وَإِذَا . . .

لَمْ تُدْرِكِ الْأَمْنَ مِنَّا لَمْ تَزَلْ حَذِرًا

وقال آخر: [الطويل]

2643 - إِذَا النَّعْجَةُ الْأَذْنَاءُ كَانَتْ بِقَفْرَةٍ . . .

فَأَيَّانَ مَا تَعْدِلُ بِهَا الرِّيحُ تُنْزِلُ

وَالْفَصِيحُ فَتَحَ هَمْزَتَهَا ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْعَامَّةِ .

وَقَرَأَ السُّلَمِيُّ بِكُسْرِهَا ، وَهِيَ بِلُغَةِ سُلَيْمٍ .

فصل

واختلف النحويون في أيَّان هل هي بسيطة أم مركبة؟

(89/300)

---

فذهب بعضهم إلى أن أصلها أي أو ان فحذفت الهمزة على غير قياس ، ولم يُعَوِّضْ مِنْهَا شَيْئًا ، وَقَلِبَتْ الْوَاوِيَاءَ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ ؛ فَاجْتَمَعَ ثَلَاثُ يَاءَاتٍ فَاسْتَقْبَلَتْ ذَلِكَ فَحُذِفَتْ إِحْدَاهُنَّ وَبُنِيَتْ الْكَلِمَةُ عَلَى الْفَتْحِ فَصَارَتْ أَيَّانَ .

واختلفوا فيها أيضًا هل هي مشتقة أم لا؟

فذهب أبو الفتح إلى أنها مشتقة من "أويت إليه" ؛ لأنَّ البضع أو إلى الكل ، والمعنى : أي

وقت ، وأي فعل ؟ ووزنه فَعْلَانُ أو فَعْلَانُ بحسب اللغتين ومنع أن يكون ومنه فعلاً مشتقةً  
من : "أين" ؛ لأنَّ "أين" ظرف مكان ، وأيان ظرفُ زمانٍ .  
ومُرْسَاهَا يجوز أن يكون اسم مصدر ، وأن يكون اسم زمان .  
وقال الزمخشريُّ : مُرْسَاهَا إِرْسَاؤُهَا ، أو وقت إِرْسَائِهَا : أي : إثباتها وإقرارها .  
قال أبو حيان : وتقديره : وقت إِرْسَائِهَا ليس بجيدٍ ؛ لأنَّ أَيَانَ استفهام عن الزمان فلا يصحُّ  
أن يكون خبراً عن الوقت إلاَّ بمجازٍ ، لأنه يكون التقدير : في أي وقتٍ وقتُ إِرْسَائِهَا وهو  
حسنٌ .

ويقال : رَسَا يَرْسُو : أي ثبت ، ولا يقال إلا في الشيء الثقيل ، نحو : رَسَتِ السَّفِينَةُ تَرْسُوًا  
وَأَرْسَيْتُهَا ، قال تعالى : ﴿ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ﴾ [النازعات : 32] ولما كان أثقل  
الأشياء على الخلق هو الساعة ؛ لقوله ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً  
﴿ لَا جَرَمَ سَمَّى اللَّهُ وَقْوَعَهَا وَثَبُوتَهَا بِالْإِرْسَاءِ .

قوله : ﴿ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ عَلِمَهَا مصدرٌ مضاف للمفعول ، والظرف خبره أي : أنَّ  
الله استأثر بعلمها لا يعلمها غيره .

وقوله لا يُجَلِّبُهَا أي لا يكشفها ولا يظهرها .  
والتَّجَلَّى هو الظهور .

قوله : " فِي السَّمَوَاتِ "

يجوزُ فيها وجهان ،

أحدهما : أن تكون " في " بمعنى " على " أي : على أهل السموات أو هي ثقيلة على نفس السموات والأرض ، لانشقاق هذه وزلزال ذي ، وهو قول الحسن .

(90/300)

والثاني : أنها على بابها من الظرفية ، والمعنى : حصل ثقلها ، وهو شدتها ، أو المبالغة في إخفائها في هذين الظرفين .

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾

هذه الجملة التشبيهية في محل نصب على الحال من مفعول : " يَسْأَلُونَكَ " وفي عنها وجهان : أحدهما : أنها متعلقة بيسألونك و : " كَأَنَّكَ حَفِيٌّ " معترض ، وصلتها محذوفة تقديره : خفي بها .

وقال أبو البقاء : في الكلام تقديم وتأخير ، ولا حاجة إلى ذلك ، لأن هذه كلها متعلقات للفعل ، فإن قوله ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ ﴾ حال كما تقدم .

والثاني : أن " عَنْ " بمعنى الباء كما تكون الباء بمعنى عن كقوله : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا ﴾ [

الفرقان : 259 ] ﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾ [ الفرقان : 25 ] ؛ لأن حفي لا

يتعدى بـ "عن" بل بالباء كقوله: ﴿كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: 47] أو يُضَمَّن معنى

شيء يتعدى بـ "عن" أي كأنك كاشف مجفوتك عنها .

والحفي: المستقصي عن الشيء ، المهتل به ، المعني بأمره ؛ قال: [الطويل]

2644 - سُؤَالَ حَفِيٍّ عَنِ أَخِيهِ كَأَنَّهُ . . .

بذكرته وسنان أو متواسن

وقال آخر: [الطويل]

2645 - فَلَمَّا التَّقِينَا بَيْنَ السَّيْفِ بَيْنَنَا . . .

لسائلة عنا حفي سؤلها

وقال الأعشى: [الطويل]

2646 - فَإِنْ تَسَالَى عَنِّي فَيَا رَبِّ سَائِلٍ . . .

حفي عن الأعشى به حيث أصددا

والإحفاء: الاستقصاء ؛ ومنه إحفاء الشوارب ، والحافي ؛ لأنه حفيت قدمه في استقصاء

السير .

قال الزمخشري: وهذا التركيب يفيد المبالغة .

قال أبو عبيدة: وهو من قولهم: تحفى بالمسألة أي: استقصى ، والمعنى: فإنك أكثر

السؤال عنها وبالغت في طلب علمها ، وقيل الحفاوة: البر واللف .

قال ابن الأعرابي: يقال حفي بي حفاوةً وتحفى بي تحفياً .  
والتحفي: الكلام واللقاء الحسن ، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: 47] أي  
باراً لطيفاً يجيب دعائي .

ومعنى الآية على هذا: [يسألونك] كأنك بارق بهم لطيف العشرة معهم ، قاله الحسن  
وقتادة والسدي ويؤيده ما روي في تفسيره: إن قريشاً قالوا لمحمد - عليه الصلاة والسلام  
-: إن بيننا وبينك قرابة فاذكر لنا متى الساعة؟ فقال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ  
عَنْهَا ﴾ [الأعراف: 187] أي: كأنك صديق لهم بار ، بمعنى أنك لا تكون حفياً بهم  
ما داموا على كفرهم .

وقرأ عبد الله حفي بها وهي تدل لمن ادعى أن " عن " بمعنى الباء ، وحفي فاعيل بمعنى:  
مفعول أي: محفواً .

وقيل: بمعنى فعل ، أي كأن مبالغ في السؤال عنها ومتطلع إلى علم مجيئها . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 409.413 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾

السائل عن الساعةِ رجلاًن ؛ مُنْكَرٌ يَعْجَبُ لِفَرْطِ جَهْلِهِ ، وَعَارِفٌ مُشْتَاقٌ يَسْتَعْجِلُ لِفَرْطِ شَوْقِهِ ، وَالْمُتَحَقِّقُ بِوُجُودِهِ سَاكِنٌ فِي حَالِهِ ؛ فَسَيَانٌ عِنْدَهُ قِيَامُ الْقِيَامَةِ وَدَوَامُ السَّلَامَةِ .  
ويقال الحق - سبحانه - استأثر بعلم الساعة ؛ فلم يُطْلِعْ عَلَى وَقْتِهَا نَبِيًّا وَلَا صَفِيًّا ،  
فَالْإِيمَانُ بِهَا غَيْبِيٌّ ، وَيَقِينُ أَهْلُ التَّوْحِيدِ صَادِقٌ عَنْ شَوَائِبِ الرَّيْبِ . ثُمَّ مُعْجَلٌ قِيَامَتِهِمْ  
يُوجِبُ الْإِيمَانَ بِمُوجَلِّهَا . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات - ج 1 ص 594 ﴾

---

(1) القيامة المعجلة التي يشير إليها هي (التي تقوم في اليوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق)  
اللطائف (م) 351 ، فالمقصود من العبارة إذا أن أهل الخصوص يؤمنون إيمان يقين بالقيامة  
المؤجلة لأنهم يشهدون ويدقون القيامة المعجلة ، وقد صدق القشيري إذ يقول في رسالته  
: (فما للناس غيب فلهم ظهور) الرسالة ص 198 .

(92/300)

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ  
لَاسْتَكْرَهْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (188) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان علم الغيب ملزوماً لجلب الخير ودفع الضر ، وكانت الساعة أدق علم الغيب ،  
أمره بنفي هذا اللزم فينتقي الأعم فينتقي باتفائه الأخص ، وقدم النفع لأنه أهم إلى النفس  
، وليس في السياق ما يوجب تأخيره بخلاف ما في سورة يونس عليه السلام ، فقال آمراً  
بإظهار ذل العبودية : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ ﴾ أي في وقت من الأوقات أصلاً ﴿ لِنَفْسِي نَفْعًا ﴾  
أي شيئاً من جلب النفع قليلاً ولا كثيراً ﴿ وَلَا ضَرًّا ﴾ كذلك ، فإن قدرتي قاصرة وعلمي  
قليل ، وكل من كان عبداً كان كذلك .

ولما كان من المعلوم بل المشاهد أن كل حيوان يضر وينفع ، أعلم أن ذلك إنما هو بالله فقال :  
﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد سواه أن يقدرني عليه .

ولما بين لهم بهذا أن سؤلهم عن الساعة وغيرها من المغيبات جهل منهم ، لأن حاله واضح  
في أنه لا يعلم من ذلك إلا ما علمه الله الذي اختص بعلم الغيب ، دل عليه بقوله : ﴿ وَلَوْ  
كُنْتُ ﴾ أي من ذاتي ﴿ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أي جنسه ﴿ لَاسْتَكْرَهْتُ ﴾ أي أوجدت  
لنفسي كثيراً ﴿ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ باستجلاب المنافع بنصب أسبابها .



(93/300)

---

ولما كان الضر لا يحتمل منه شيء قال: ﴿وما مسني السوء﴾ أي هذه الجنس بإقامة  
الموانع له عني لأن لازم إحاطة العلم شمول القدرة كما سيقرر إن شاء الله تعالى في سورة طه  
، ولما بين أن علم الغيب رتبة الإله ، ختم الآية ببيان رتبته ، فقال قالبا ما أدعوه فيه من  
الجنون لما بان بقوله : " يا بني عبد مناف ! اتقوا الله ، يا بني فلان يا بني فلان " وكذا ما لزم  
عن إلزامهم له بعلم الساعة من أنه يكون إلهاً : ﴿إن أنا إلا﴾ ولما كانت السورة للإنداز ،  
قدمه فقال : ﴿نذير﴾ أي مطلقاً للكافر ليرجع عن كفره ، والمؤمن ليثبت على إيمانه  
﴿وبشير لقوم يؤمنون﴾ أي خاصة ، أو الصفتان لهم خاصة بالنظر إلى النفع ، وأما ما لا  
نفع فيه فعدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر ح 3 ص 166.167﴾

(94/300)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه : الأول : أن قوله : ﴿ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أي أنا لا أدعي علم الغيب إن أنا إلا نذير وبشير ، ونظيره قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ [يونس : 48 ، 49] الثاني : روي أن أهل مكة قالوا : يا محمد ألا يخبرك ربك بالرخص والغلاء حتى نشترى فنريح ، وبالأرض التي تجذب لنتحل إلى الأرض الخصبة .  
فأنزل الله تعالى هذه الآية : الثالث : قال بعضهم : لما رجع عليه الصلاة والسلام من غزوة بني المصطلق جاءت ريح في الطريق ففرت الدواب منها ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بموت رفاة بالمدينة وكان فيه غيظ للمنافقين .

وقال " انظروا أين ناقتي " ، فقال عبد الله بن أبي مع قومه ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته .

فقال عليه الصلاة والسلام : " إن ناساً من المنافقين .

قالوا كيت وكيت وناقتي في هذا الشعب قد تعلق زمامها بشجرة " فوجدها على ما قال ،

فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ .

المسألة الثانية :

(95/300)

---

اعلم أن القوم لما طالبوه بالإخبار عن الغيوب وطالبوه بإعطاء الأموال الكثيرة والدولة العظيمة ذكر أن قدرته قاصرة وعلمه قليل ، وبين أن كل من كان عبداً كان كذلك والقدرة الكاملة والعلم المحيط ليسا إلا لله تعالى ، فالعبد كيف يحصل له هذه القدرة ، وهذا العلم ؟ واحتج أصحابنا في مسألة خلق الأعمال بقوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ والإيمان نفع والكفر ضر ، فوجب أن لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى ، وذلك يدل على أن الإيمان والكفر لا يحصلان إلا بمشيئة الله سبحانه ، وتقديره ما ذكرناه مراراً أن القدرة على الكفر إن لم تكن صالحة للإيمان ، فخالق تلك القدرة يكون مريداً للكفر ، وإن كانت صالحة للإيمان ، فخالق تلك القدرة يكون مريداً للكفر ، وإن كانت صالحة للإيمان امتنع صدور الكفر عنها بدلاً عن الإيمان إلا عند حدوث داعية جازمة ، فخالق تلك الداعية الجازمة يكون مريداً للكفر ، فثبت أن على جميع التقادير : لا يملك العبد لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله .

أجاب القاضي عنه بوجه: الأول: أن ظاهر قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وإن كان عاماً بحسب اللفظ إلا أنا ذكرنا أن سبب نزوله هو أن الكفار قالوا: يا محمد ألا يخبرك ربك بوقت السعر الرخيص قبل أن يغلو، حتى نشترى الرخيص فنزح عليه عند الغلاء، فيحمل اللفظ العام على سبب نزوله، والمراد بالنفع: تملك الأموال وغيرها، والمراد بالضر وقت القحط، والأمراض وغيرها.

(96/300)

---

الثاني: المراد لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً فيما يتصل بعلم الغيب، والدليل على أن المراد ذلك قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ الثالث: المراد: لا أملك لنفسي من الضر والنفع إلا قدر ما شاء الله أن يقدرني عليه ويمكنني منه، والمقصود من هذا الكلام بيان أنه لا يقدر على شيء إلا إذا أقره الله عليه.

واعلم أن هذه الوجوه بأسرها عدول عن ظاهر اللفظ، وكيف يجوز المصير إليه مع أنا أقمنا البرهان القاطع العقلي على أن الحق ليس إلا ما دل عليه ظاهر لفظ هذه الآية، والله أعلم.

المسألة الثالثة:

احتج الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم علمه بالغيب بقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ

الغيب لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ واختلّفوا في المراد من هذا الخير.

فقيل المراد منه: جلب منافع الدنيا وخيراتها، ودفع آفاتها ومضراتها، ويدخل فيه ما

يتصل بالخصب والجذب والأرباح والأكساب.

وقيل: المراد منه ما يتصل بأمر الدين، يعني: لو كنت أعلم الغيب كنت أعلم أن الدعوى إلى

الدين الحق تؤثر في هذا ولا تؤثر في ذلك، فكيف اشتغل بدعوة هذا دون ذلك.

وقيل: المراد منه: ما يتصل بالجواب عن السؤالات، والتقدير: لو كنت أعلم الغيب

لاستكثر من الخير.

والجواب: عن هذه المسائل التي سألوها عنها مثل السؤال عن وقت قيام الساعة وغيره.

أما قوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ ففيه قولان:

القول الأول: قال الواحدي رحمه الله: تم الكلام عند قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أي ليس بي جنون، وذلك لأنهم

نسبوه إلى الجنون كما ذكرنا في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ﴾ وهذا القول عندي بعيد

جداً ويوجب تفكك نظم الآية.

والقول الثاني: إنه تمام الكلام الأول، والتقدير: لو كنت أعلم الغيب لاستكثر من

تحصيل الخير، ولا حترزت عن الشر حتى صرت بحيث لا يمسيني سوء.

ولما لم يكن الأمر كذلك ظهر أن علم الغيب غير حاصل عندي ، ولما بين بما سبق أنه لا يقدر إلا على ما أقدر الله عليه ، ولا يعلم إلا ما أعطاه الله العلم به قال : ﴿ إِنَّا إِنَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ والنذير مبالغة في الإنذار بالعقاب على فعل المعاصي وترك الواجبات ، والبشير مبالغة في البشارة بالثواب على فعل الواجبات وترك المعاصي وقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه نذير وبشير للمؤمنين والكافرين إلا أنه ذكر إحدى الطائفتين وترك ذكر الثانية لأن ذكر إحداهما ، يفيد ذكر الأخرى كقوله : ﴿ سَرَّائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ [ النحل : 81 ] والثاني : أنه عليه الصلاة والسلام وإن كان نذيراً وبشيراً لكل إلا أن المنفع بتلك النذارة والبشارة هم المؤمنون .

فلهذا السبب خصهم الله بالذكر ، وقد بالغنا في تقرير هذا المعنى في تفسير قوله تعالى :

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [ البقرة : 2 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 68 .

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

قال مقاتل : يعني لا أقدر لنفسي أن أسوق إليها خيراً أو أدفع عنها ضراً حين ينزل بي

فكيف أملك علم الساعة ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ فيصيني ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾

أي غيب النفع والضرر إذ جاء ﴿ لَأَسْتَكْثِرُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ يعني :

لاستكثر من النفع وما أصابني الضر .

وقال الكلبي : إن أهل مكة قالوا له ألا يخبرك ربك بالبيع الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه فتربح

فيه ؟ فنزل قل لهم : ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ للجدوة

والقحط .

ويقال : لو كنت أعلم متى أموت لاستكثر من العمل الصالح .

وقال الضحاك : قال لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً يعني الغنى والفقر إلا ما شاء الله إن شاء

أغنى عبده وإن شاء أفقره ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أي مواضع الكنوز لاستخرجتها

وما مسني السوء يعني : الفقر ﴿ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي مخوف بالنار ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ يعني :

مبشراً بالجنة ﴿ لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : يصدقون بالبعث . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بجر العلوم

ح 1 ص ﴿

وقال الثعلبي :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

قال ابن عباس : إن أهل مكة قالوا : يا محمد ألا يخبرك بالسعر الرخيص قبل أن يغلافتشتره فتربح فيه ، والأرض الذي تريد أن تجذب فترتحل منها إلى ما قد أخصبت فأنزل الله تعالى .  
﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أي اجتناب نفع ولا دفع ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أي أملكه بتمليكه إياي ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾  
يعني المال ونهيات لسنة القحط ما يكفيها ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السَّوَاءَ ﴾ وما مسني الله [ بسوء ] .

وقال ابن جريج : ﴿ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ يعني الهدى والضلالة ولو كنت أعلم الغيب متى أموت لاستكثرت من الخير من العمل الصالح وما مسني السوء .  
قال ابن زيد : فاجتنب ما يكون من الشر وأتقيه . قال بعض أهل المعاني : ( لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من معرفته حتى لا يخفى عليّ شيء ﴾ ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السَّوَاءَ ﴾ يعني التكذيب .

وقال مقاتل : هذا متصل بالكلام الأول معناه : لا أقدر أن [ أسوق ] لنفسي خيراً أو أدفع عنها شراً حتى ينزل بي فكيف أعلم وأملك علم الساعة ؟ وتام الكلام قوله : لاستكثرت



من الخير، ثم ابتداءً فقال: (وما مسني السوء) [يعني الجنون].  
وقيل يعني لم يلحقني تكذيب ﴿إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون. انتهى  
انتهى. اهـ ﴿الكشف والبيان ح 4 ص﴾

(100/300)

وقال الماوردي:

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾

أي لا أملك القدرة عليهما من غير مانع ولا صاد.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يملكني إياه فأملكه بمشيئته.

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرَثُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: لاستكثرت من العمل الصالح، قاله الحسن، وابن جريج.

والثاني: لأعددت من السنة المخصصة للسنة المجدبة، قاله الفراء.

والثالث: وهو شاذ: لا شترت في الرخص وبعت في الغلاء.

﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدهما: ما بي جنون كما زعم المشركون، قاله الحسن.

والثاني : ما مسني الفقر لاستكثاري من الخير .

والثالث : ما دخلت على شبهة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(101/300)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

هذا أمر في أن يبالغ في الاستسلام ويتجرد من المشاركة في قدرة الله وغيبه وأن يصف نفسه لهؤلاء السائلين بصفة من كان بها فهو حري أن لا يعلم غيباً ولا يدعيه ، فأخبر أنه لا يملك من منافع نفسه ومضارها إلا ما سنى الله له وشاء ويسر ، وهذا الاستثناء منقطع ، وأخبر أنه لو كان يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأتي ولا استعداد لكل شيء استعداد من يعلم قدر ما يستعد له ، وهذا لفظ عام في كل شيء ، وقد خصص الناس هذا فقال ابن جريج ومجاهد : " لو كنت أعلم أجلي لاستكثرت من العمل الصالح " . وقالت فرقة : أوقات النصر لتوخيها ، وحكى مكي عن ابن عباس أن معنى لو كنت أعلم السنة المجدة لأعددت لها من المخصبة .

قال القاضي أبو محمد : وألفاظ الآية تعم هذا وغيره ، وقوله : ﴿ وما مسني ﴾ يحتمل

وجهين وبكليهما قيل، أحدهما أن ﴿ ما ﴾ معطوفة على قوله: ﴿ لاستكثرت ﴾ أي  
ولما مسني السوء والثاني أن يكون الكلام مقطوعاً تم في قوله: ﴿ لاستكثرت من الخير ﴾  
وابتداً يخبر بنفي السوء عنه وهو الجنون الذي رموه به، قال مؤرج السدوسي: ﴿ السوء  
﴿ الجنون بلغة هذيل، ثم أخبر بجملة ما هو عليه من النذارة والبشارة، و﴿ لقوم يؤمنون  
﴿ يحتمل معنيين: أحدهما أن يريد أنه نذير وبشير لقوم يطلب منهم الإيمان ويدعون إليه،  
وهؤلاء الناس أجمع، والثاني أن يخبر أنه نذير ويتم الكلام، ثم يتدىء يخبر أنه بشير للمؤمنين  
به، ففي هذا وعد لمن حصل إيمانه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴿

(102/300)

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ﴾

سبب نزولها: أن أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو،  
فتشتري فتربح، وبالأرض التي تريد أن تجذب، فترتحل عنها إلى ما قد أخصب؟ فنزلت  
هذه الآية، روي عن ابن عباس.

وفي المراد بالنتفع والضر قولان.

أحدهما : أنه عامٌ في جميع ما ينفع ويضر ، قاله الجمهور .

والثاني : أن النفع : الهدى ، والضرُّ : الضلالة ، قاله ابن جريج .

قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي : إلا ما أراد أن أملكه بتمليكه إياي ؛ ومن هو على هذه الصفة فكيف يعلم علم الساعة ؟ .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : لو كنت أعلم بجذب الأرض وقحط المطر قبل كون ذلك لهيئات لسنة الجذب ما يكفيها ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : لو كنت أعلم ما أربح فيه إذا اشتريته لاستكثرت من الخير ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح ، قاله مجاهد .

والرابع : لو كنت أعلم ما أسأل عنه من الغيب لأجبت عنه .

﴿وما مسني السوء﴾ أي : لم يلحقني تكذيب ، قاله الزجاج .

فأما الغيب : فهو كل ما غاب عنك .

ويخرج في المراد بالخيرها هنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه العمل الصالح .

والثاني : المال .

والثالث : الرزق .

قوله تعالى : ﴿ وما مسنيَ السوء ﴾ فيه أربعة اقوال .

أحدها : أنه الفقر ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه كل ما يسوء ، قاله ابن زيد .

والثالث : الجنون ، قاله الحسن .

والرابع : التكذيب ، قاله الزجاج .

فعلى قول الحسن ، يكون هذا الكلام مبتدأ ، والمعنى : وما بي من جنون إنما أنا نذير ،

وعلى باقي الأقوال يكون متعلقاً بما قبله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

(103/300)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيراً ولا أدفع عنها شراً ؛ فكيف أملك علم الساعة .

وقيل : لا أملك لنفسي الهدى والضلال .

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ في موضع نصب بالاستثناء .

والمعنى : إلا ما شاء الله أن يملكني ويمكنني منه .

وأُشَدَّ سَبِيوِيَه :

مهما شاء بالناس يفعل . . .

﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله عز

وجل مني من قبل أن يعرفنيه لفعلته .

وقيل : لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أذهب .

وقال ابن عباس : لو كنت أعلم سنة الجذب لحيأت لها في زمن الخصب ما يكفيني .

وقيل : المعنى لو كنت أعلم التجارة التي تنفق لأشترتها وقت كسادها .

وقيل : المعنى لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح ؛ عن الحسن وابن

جُرَيْج .

وقيل : المعنى لو كنت أعلم الغيب لأجبتُ عن كل ما أُسألُ عنه .

وكله مراد ، والله أعلم .

﴿ وَمَا مَسَّنِي السَّوَاءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هذا استئناف كلام ، أي ليس

بي جنون ؛ لأنهم نسبوه إلى الجنون .

وقيل : هو متصل ، والمعنى لو علمتُ الغيب لما مسَّنِي سوءٌ ولحذرت ، ودل على هذا قوله

تعالى : ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قَلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

قال ابن عباس: إن أهل مكة قالوا يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو

فتشتري به فتربح فيه عند الغلاء وبالأرض التي يريد أن تجذب فترحل عنها إلى ما قد

أخصبت فأنزل الله: ﴿ قَلْ لَا أَمْلِكُ ﴾ أي قل يا محمد لا أملك ولا أقدر لنفسي نفعاً أي

اجتلاب نفع بأن أربح فيما اشتريه ولا ضراً يعني ولا أقدر أن أدفع عن نفسي ضراً نزل بها

بأن أرتحل إلى الأرض الخصبة وأترك الجدبة ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ يعني أن أملكه وأقدر

عليه ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾ يعني ولو كنت أعلم وقت الخصب

والجذب لاستكثرت من المال ﴿ وما مسني السوء ﴾ يعني الضر والفقر والجوع.

وقال ابن جريج: معناه لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً من الهدى والضلالة ولو كنت أعلم

الغيب يريدون وقت الموت لاستكثرت من الخير يعني من العمل الصالح.

وقيل إن أهل مكة لما سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الساعة أنزل الله تعالى

الآية وهذه الآية ومعناه: أنا لا أدعي علم الغيب حتى أخبركم عن وقت قيام الساعة

وذلك لما طالبوه بالإخبار عن الغيوب فذكر أن قدرته قاصرة عن علم الغيب .

فإن قلت : قد أخبر (صلى الله عليه وسلم) عن المغيبات وقد جاءت أحاديث في الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته (صلى الله عليه وسلم) فكيف الجمع بينه وبين قوله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير؟

قلت : يحتمل أن يكون قاله (صلى الله عليه وسلم) على سبيل التواضع والأدب والمعنى لا أعلم الغيب إلا أن يطلعني الله عليه ويقدره لي .

(105/300)

---

ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلع الله على الغيب فلما أطلع الله أخبر به كما قال تعالى : ﴿ فلا يظهر على غيبة أحد إلا من ارتضى من رسول ﴾ أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ثم بعد ذلك أظهره الله سبحانه وتعالى عن أشياء من المغيبات فأخبر عنها ليكون ذلك معجزته ودلالة على صحة نبوته (صلى الله عليه وسلم) وقوله وما مسني سوء يعني الجنون وذلك أنهم نسبوه إلى الجنون وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من تحصيل الخير واحتزرت عن الشر حتى أصير بحيث لا يمسي السوء ويل معناه ولو كنت أعلم الغيب لأعلمتكم بوقت قيام الساعة حتى تؤمنوا وما مسني



السوء يعني قولكم لو كنت نبياً لعلمت متى تقوم الساعة ﴿ إن أنا إلا نذير ﴾ يعني ما أنا إلا رسول أرسلني الله إليكم أنذركم وأخوفكم عقابه إن لم تؤمنوا ﴿ وبشير ﴾ يعني وأبشر بثوابه ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ يعني يصدقون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

(106/300)

وقال أبو حيان :

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ﴾ .

(107/300)

قال ابن عباس : قال أهل مكة ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري وتربح وبالأرض التي تجذب فترحل عنها إلى ما أخصب فنزلت ، وقيل لما رجع من غزوة المصطلق جاءت رياح في الطريق فأخبرت بموت رفاعه وكان فيه غيظ المنافقين ، ثم قال انظروا أين ناقتي ، فقال عبد الله بن أبي : ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقتة ، فقال عليه السلام إن ناساً من المنافقين قالوا كيت وكيت

وناقتي في الشعب وقد تعلق زمامها بشجرة فردوها على فنزلت ، ووجه مناسبتها لما قبلها  
ظاهر جداً وهذا منه عليه السلام إظهار للعبودية وانتفاء عن ما يختص بالربوبية من القدرة  
وعلم الغيب ومبالغة في الاستسلام فلا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر فكيف  
أملك علم الغيب كما قال في سورة يونس ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل  
لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل ﴾ ﴿ وقد همنا النفع على الضرر  
لأنه تقدم من يهد الله فهو المهتدي ومن يضل فقدّم الهداية على الضلال وبعده لاستكثرت  
من الخير وما مسني السوء فناسب تقديم النفع وقدم الضرر في يونس على الأصل لأن العبادة  
لله تكون خوفاً من عقابه أولاً ثم طمعاً في ثوابه ولذلك قال ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً  
﴿ فإذا تقدم النفع فلسابقة لفظ تضمنه وأيضاً ففي يونس موافقة ما قبلها ففيها ﴿ ما لا  
يضرهم ولا ينفعهم ﴾ ﴿ ما لا ينفعنا ولا يضرنا ﴾ لأنه موصول بقوله ﴿ ليس لها من دون  
الله ولي ولا شفيع ﴾ وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها وفي يونس ﴿ ولا تدع من دون الله  
ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾ وتقدمه ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا  
ننجي المؤمنين ﴾ وفي الأنبياء قال ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم  
﴿ وتقدمه قول الكفار لإبراهيم في الحاجة ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ وفي  
الفرقان ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ﴾ وتقدمه ﴿ ألم ترى

---

إلى ربك كيف مدّ الظل ﴿﴾ ونعم كثيرة وهذا النوع من لطائف القرآن العظيم وساطع  
براهينه والاستثناء متصل أي إلا ما شاء الله من تمكيني منه فإني أملكه وذلك بمشيئة الله ،  
وقال ابن عطية : وهذا الاستثناء منقطع انتهى ، ولا حاجة لدعوى الانقطاع مع إمكان  
الاتصال .

(109/300)

---

﴿﴾ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴿﴾ أي لكانت حالي على  
خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واستغزار المنافع واجتناب السوء والمضار حتى لا  
يمسني شيء منها وظاهر قوله ﴿﴾ ولو كنت أعلم الغيب ﴿﴾ انتفاء العلم عن الغيب على  
جهة عموم الغيب كما روي عنه لا أعلم ما وراء هذا الجدار إلا أن يعلمنيه ربي بخلاف ما  
يذهب إليه هؤلاء الذين يدعون الكشف وأنهم بتصفية نفوسهم يحصل لها اطلاع على  
المغيبات وإخبار بالكوائن التي تحدث ، وما أكثر ادعاء الناس لهذا الأمر وخصوصاً في  
ديار مصر حتى أنهم لينسبون ذلك إلى رجل متصمخ بالنجاسة يظل دهره لا يصلي ولا  
يستنجي من نجاسته ويكشف عورته للناس حين يبول وهو عار من العلم والعمل الصالح

وقد خصص قوم هذا العموم فحكى مكى عن ابن عباس : لو كنت أعلم السنة المجدة  
لأعددت لها من المخصبة ، وقال قوم : أوقات النصر لتوخيها ، وقال مجاهد وابن جريج :  
لو كنت أعلم أجلي لاستكثرت من العمل الصالح ، وقيل : ولو كنت أعلم وقت الساعة  
لأخبرتكم حتى توقنوا ، وقيل : ولو كنت أعلم الكتب المنزلة لاستكثرت من الوحي ، وقيل  
: ولو كنت أعلم ما يريد الله مني قبل أن يعرفنيه لفعلته ، وينبغي أن تجعل هذه الأقوال وما  
أشبهها مثلاً لا تخصيصات لعموم الغيب والظاهر أن قوله ﴿ وما مسني سوء ﴾  
معطوف على قوله ﴿ لاستكثرت من الخير ﴾ فهو من جواب ﴿ لو ﴾ ويوضح ذلك أنه  
تقدم قوله ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ﴾ فقابل النفع بقوله ﴿ لاستكثرت من  
الخير ﴾ وقابل الضرّ بقوله ﴿ وما مسني سوء ﴾ ولأن المترتب على تقدير علم الغيب  
كلاهما وهما اجتلاب النفع واجتناب الضرّ ولم نصحب ما النافية جواب لو لأن الفصيح أن  
لا يصحبهما كما في قوله تعالى

(110/300)

---

﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ والظاهر عموم الخبر وعدم تعيين ﴿ سوء ﴾ ، وقيل  
: السوء تكذيبهم له مع أنه كان يدعي الأمين ، وقيل : الجذب ، وقيل : الموت ، وقيل : الغلبة

عند اللقاء ، وقيل : الخسارة في التجارة ، وقال ابن عباس : الفقر وينبغي أن تجعل هذه الأقوال خرجت على سبيل التمثيل لا الحصر فإن الظاهر في الغيب الخير والسوء عدم التعيين ، وقيل : ثم الكلام عند قوله ﴿ لا استكثر من الخير ﴾ ثم أخبر أنه ما مسّه السوء وهو الجنون الذي رموه به ، وقال مؤرّج السدوسي : ﴿ السوء ﴾ الجنون بلغة هذيل وهذا القول فيه تفكيك لنظم الكلام واقتصار على أن يكون جواب لو ﴿ لا استكثر من الخير ﴾ فقط وتقدير حصول علم الغيب يترتب عليه الأمران لا أحدهما فيكون إذ ذاك جواباً قاصراً .

﴿ إن أنا إنذار وبشير لقوم يؤمنون ﴾ لما نفى عن نفسه علم الغيب أخبر بما بعث به من النذارة ومتعلقها المخوفات والبشارة ومتعلقها بالمحبات والظاهرة تعلقها بالمؤمنين لأن منفعتها معاً وجدوا هما لا يحصل إلا لهم وقال تعالى : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ وقيل معنى ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ يطلب منهم الإيمان ويدعون إليه وهؤلاء الناس أجمع ، وقيل : أخبر أنه نذير وتم الكلام ومعناه أنه نذير للعالم كلهم ثم أخبر أنه بشير للمؤمنين به فهو وعد لمن حصل له الإيمان ، وقيل حذف متعلق النذارة ودل على حذفه إثبات مقابله والتقدير نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون كما حذف المعطوف في قوله ﴿ سراويل تقيكم الحرّ ﴾ أي والبرد وبدأ بالندارة لأن السائلين عن الساعة كانوا كفاراً أما مشركو قريش

وأما اليهود فكان الاهتمام بذكر الوصف من قوله ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أكد وأولى بالتقديم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط ح 4 ص﴾

(111/300)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾

شروع في الجواب عن السؤال ببيان عجزه عن علمها إثر بيان عجز الكل عنه وإبطال زعمهم الذي بنوا عليه سؤا لهم من كونه عليه الصلاة والسلام ممن يعلمها ، وإعادة الأمر لإظهار كمال العناية بشأن الجواب والتنبيه على استقلاله ومغايرته للأول ، والتعرض لبيان عجزه عما ذكر من النفع والضّر لإثبات عجزه عن علمها بالطريق البرهاني ، واللام إماماً متعلقاً بأمك أو بمحذوف وقع حالاً من نفعا أي لا أقدر لأجل نفسي على جلب نفع ما ولا على دفع ضرر ما ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أملكه من ذلك بأن يلهمني فيمكنني منه ويُقدرني عليه أولكن ما شاء الله من ذلك كائنٌ ، فالاستثناء منقطعٌ وهذا أبلغ في إظهار العجز ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ أي جنس الغيب الذي من جملة ما بين الأشياء من المناسبات المصححة عادة للسببية والمسببية ، ومن المباينات المستبعة للممانعة والمدافعة

﴿ لَأَسْتَكْثِرُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ أي لحصلت كثيراً من الخير الذي نيط تحصيله بالأفعال  
الاختيارية للبشر بترتيب أسبابه وودفع موانعه ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ أي السوء الذي  
يمكن التقصي عنه بالتوقي عن موجباته والمدافعة بموانعه لا سوء ما فإن منه ما لا مدفع له .

(112/300)

---

﴿ إِنِّ أَنَا الْإِنذِيرُ وَبَشِيرٌ ﴾ أي ما أنا إلا عبدٌ مرسلٌ للإنذار والبشارة شأنى حيازة ما  
يتعلق بهما من العلوم الدينية والدنيوية لا الوقوف على الغيوب التي لا علاقة بينها وبين  
الأحكام والشرائع وقد كشفت من أمر الساعة ما يتعلق به الإنذار من مجيئها لا محالة  
واقترابها ، وأما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الإنذار بل هو مما يقدح فيه لما مر من أن  
إيهامه أدمى إلى الانزجار عن المعاصي وتقديم النذير على البشير لما أن المقام مقام الإنذار  
وقوله تعالى : ﴿ لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ إما متعلقٌ بهما جميعاً لأنهم ينتفعون بالإنذار كما ينتفعون  
بالبشارة ، وإما بالبشير فقط وما يتعلق بالنذير للكافرين أي الباقيين على الكفر ، وبشير لقوم  
يؤمنون أي في أي وقت كان ففيه ترغيبٌ للكفرة في إحداث الإيمان وتحذيرٌ عن الإصرار  
على الكفر والطغيان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

(113/300)

وقال الأوسى :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

أي لا أملك لأجل نفسي جلب نفع ما ولا دفع ضرر ما .

والجار والمجرور كما قال أبو البقاء إما متعلق بأملك أو بمحذوف وقع حالا من نفعاً .

والمراد لا أملك ذلك في وقت من الأوقات ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أي إلا وقت مشيئته

سبحانه بأن يمكنني من ذلك فإني حينئذ أملكه بمشيئته ، فالاستثناء متصل وفيه دليل كما

قال الشيخ إبراهيم الكوراني على أن قدرة العبد مؤثرة بإذن الله تعالى ومشيئته ، وقيل :

الاستثناء منقطع أي لكن ما شاء الله تعالى من ذلك كائن ، وفيه على هذا من اظهار العجز

ما لا يخفى ، والكلام مسوق لإثبات عجزه عن العلم بالساعة على أتم وجه ، وإعادة الأمر

لاظهار العناية بشأن الجواب والتنبيه على استقلاله ومغايرته للأول ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ

الغيب ﴾ أي الذي من جملة ما بين الأشياء من المناسبات المصححة عادة للسببية

والمسببية ومن المباينات المستتعبة للمدافعة والممانعة ﴿ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ أي

لحصلت كثيراً من الخير الذي نيط بترتيب الأسباب ورفع الموانع ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾

أي السوء الذي يمكن التفصي عنه بالتوقي عن موجباته والمدافعة بموانعه وإن كان منه ما لا

مدفع له وكان عدم مس السوء من توابع استكثار الخير في الجملة ، ولذا لم يسلك في الجملة



الثانية نحو مسلك الجملة الأولى ، والاستلزام في الشرطية لا يلزم أن يكون عقلياً وكلياً بل يكفي أن يكون عادياً في البعض .

وقد حكم غير واحد أنه في الآية من العادي ، وبذلك دفع الشهاب ما قيل : إن العلم بالشيء لا يلزم منه القدرة عليه ومنشؤه الغفلة عن المراد .

وحمل الخير والسوء على ما ذكر هو الذي ذهب إليه جلة المحققين .  
وفسر بعض الأول بالربح في التجارة والفوز بالخصب .

(114/300)

---

والثاني بصد ذلك بناء على ما روي عن الكلبي أن أهل مكة قالوا ، يا محمد ألا تخبرنا بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فنشتري فربح ، وبالأرض التي تريد أن تجذب فنرتحل منها إلى ما قد أخصب فنزلت .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تفسير الأول بالربح في التجارة والثاني بالفقرة ، وقيل : الأول الجواب عن السؤال والثاني التكذيب ، وقيل : الأول الاشتغال بدعوة من سبقت له السعادة ، والثاني النصب الحاصل من دعوة من حقت عليه كلمة العذاب .  
وقيل : ونسب إلى مجاهد .

وابن جريج المراد من الغيب الموت ، ومن الخير الأكثر من الأعمال الصالحة ، ومن السوء ما لم يكن كذلك ، وقيل : غير ذلك ، والكل كما ترى ومنها ما لا ينبغي أن يخرج عليه التنزيل ، وقدم ذكر الخير على ذكر السوء لمناسبة ما قبل حيث قدم فيه ذكر النفع على ذكر الضر وسلك في ذكرهما هناك كذلك مسلك الترقى على ما قيل : فإن دفع المضار أهم من جلب المنافع ، وذكر النيسابوري أن أكثر ما جاء في القرآن إذ يؤتى بالضر والنفع معا تقديم لفظ الضر على النفع وهو الأصل لأن العابد إنما يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ثم يعبده طمعا في ثوابه ثانياً كما يشير إلى ذلك قوله تعالى :

(115/300)

---

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: 16] وحيث تقدم النفع على الضر كان ذلك لسبق لفظ تضمن معني نفع كما في هذه السورة حيث تقدم آنفاً لفظ الهداية على الضلال في قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلُّهُ ﴾ [الأعراف: 178] الخ وفي الرعد تقدم ذكر الطوع في قوله سبحانه : ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ وهو نفع ، وفي الفرقان تقدم العذب في قوله جل وعلا : ﴿ هَذَا عَذَابٌ فُرَاتٌ ﴾ [الفرقان: 53] وهو نفع ، وفي سبأ تقدم البسط في قوله تبارك اسمه : ﴿ رَبِّي يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [سبأ:

36] وليقس على هذا غيره، وابن جريح يفسر النفع هنا بالهدى والضر بالضلال، وبه تقوى نكته التقديم التي اعتبرها هذا الفاضل فيما نحن فيه كما لا يخفى .  
واستشككت هذه الآية مع ما صح أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بالمغيبات الجملة وكان الأمر كما أخبر، وعد ذلك من أعظم معجزاته عليه الصلاة والسلام، واختلف في الجواب فقيل: المفهوم من الآية نفي علمه عليه الصلاة والسلام إذ ذاك بالغيب المفيد لجلب المنافع ودفع المضار التي لا علاقة بينها وبين الأحكام والشرائع وما يعلمه صلى الله عليه وسلم من الغيوب ليس من ذلك النوع وعدم العلم به مما لا يطعن في منصبه الجليل عليه الصلاة والسلام.

وقد أخرج مسلم عن أنس .

وعائشة رضي الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون فقال: عليه الصلاة والسلام: " لو لم تفعلوا لصلح " فلم يفعلوا فخرج شيصاً فمر بهم صلى الله عليه وسلم فقال: ما لقحتم؟ قالوا: قلت كذا وكذا قال: " أتم أعلم بأمر دنياكم " وفي رواية أخرى له أنه عليه الصلاة والسلام قال حين ذكر له أنه صار شيصاً: " إن كان شيء من أمر دنياكم فشأنكم، وإن كان من أمر دينكم فإلى " وقد عد عدم علمه صلى الله عليه وسلم بأمر الدنيا كما لا في منصبه إذ الدنيا بأسرها لا شيء عند ربه .

---

وقيل : المراد نفي استمرار علمه عليه الصلاة والسلام الغيب ، ومجيء ﴿ كَانَ ﴾  
للاستمرار شائع ، ويلاحظ الاستمرار أيضاً في الاستكثار وعدم المس .

وقيل : المراد بالغيب وقت قيام الساعة لأن السؤال عنه وهو عليه الصلاة والسلام لم يعلمه  
ولم يخبر به أصلاً ، وحينئذ يفسر الخير والسوء بما يلائم ذلك كتعليم السائلين وعدم الطعن في  
أمر الرسالة من الكافرين ، وقيل : أل في الغيب للاستغراق وهو صلى الله عليه وسلم لم يعلم  
كل غيب فان من الغيب ما تفرد الله تعالى به كمعرفة كنه ذاته تبارك وتعالى ومعرفة وقت  
قيام الساعة على ما تدل عليه الآية .

وفي لباب التأويل للخازن في الجواب عن ذلك أنه يحتمل أن يكون هذا القول منه عليه الصلاة  
والسلام على سبيل التواضع والأدب ، والمعنى لا أعلم الغيب إلا أن يطلعني الله تعالى عليه  
ويقدره لي ، ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلع الله تعالى على الغيب فلما اطلعته أخبر  
به ، أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ثم بعد ذلك أظهره الله تعالى على  
أشياء من المغيبات ليكون ذلك معجزة له ودلالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم  
انتهى ، وفيه تأمل ؛ وكلام بعض المحققين يشير إلى ترجيح الأول .

---

ومعنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ على ذلك ما أنا إلا عبد مرسل للإنداز  
والبشارة وشأنى حيازة ما يتعلق بهما من العلوم لا الوقوف على الغيوب التي لا علاقة بينها  
وبينهما وقد كشفت من أمر الساعة ما يتعلق به الإنداز من مجيئها لا محالة واقترابها وأما  
تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الإنداز بل هو مما يقدر فيه لما مر من أن إيهامه ادعى إلى  
الطاعة وأزجر عن المعصية، وتقديم النذير لأن المقام مقام إنداز ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي  
يصدقون بما جئت به، والجار اما متعلق بالوصفين جميعاً والمؤمنون ينتفعون بالإنداز كما  
ينتفعون بالتبشير واما متعلق بالآخر ومتعلق الأول محذوف أي نذير للكافرين، وحذف  
ليطهر اللسان منهم.

وأراد بعضهم من الكافرين المستمرين على الكفر ومن مقابلهم الذين يؤمنون في أي وقت كان  
وحينئذ في الآية ترغيب للكفرة في أحداث الإيمان وتحذير عن الإصرار على الكفر  
والطغيان. انتهى انتهى. ١٠هـ ﴿روح المعاني ج ٩ ص ٩٠﴾

(118/300)

---

وقال صاحب المنار في الآيتين :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾

مُنَاسِبَةٌ هَذِهِ الْآيَةِ لَمَّا قَبْلَهَا أَنَّهَا إِرْشَادٌ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي أَمْرِ السَّاعَةِ الَّتِي يَنْتَهِي بِهَا أَجَلُ جَمِيعِ النَّاسِ ، فِي أَثَرِ الْإِرْشَادِ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي اقْتِرَابِ أَجَلٍ مَنْ كَانُوا فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ وَعَهْدِ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْهُمْ ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنَّهَا كَلَامٌ فِي السَّاعَةِ الْعَامَّةِ ، وَبَعْدَ الْكَلَامِ فِي السَّاعَةِ الْخَاصَّةِ . قَالَ تَعَالَى :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا السَّاعَةُ فِي اللُّغَةِ جُزْءٌ قَلِيلٌ غَيْرُ مُعَيَّنٍ مِنَ الزَّمَانِ ، وَتُسَمَّى سَاعَةً زَمَانِيَّةً ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَائِلِ هَذِهِ السُّورَةِ :

لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً (7 : 34) وَفِي اصْطِلَاحِ الْفَلَاحِيِّينَ جُزْءٌ مِنْ 24 جُزْءًا مُتَسَاوِيَةً مِنَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ، وَهِيَ تَنْقَسِمُ إِلَى سِتِّينَ دَقِيقَةً ، وَالدَّقِيقَةُ إِلَى سِتِّينَ ثَانِيَةً ، وَقَدْ صَارَ هَذَا التَّقْسِيمُ عُرْفًا عَامًّا فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ الْحَضَرِيَّةِ يُضْبَطُ بِالْأَلْفِ تُسَمَّى السَّاعَةُ ، وَكَانَ مَعْرُوفًا عِنْدَ الْعَرَبِ ، وَتَبَتَ فِي الْحَدِيثِ "يَوْمُ الْجُمُعَةِ اثْنَا عَشْرَةَ سَاعَةً" يَعْنِي نَهَارَهَا .

(119/300)

---

وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ: السَّاعَةُ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْجَمِيعُ سَاعَاتٌ وَسَاعٌ،  
وَجَاءَ نَا بَعْدَ سَوْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَبَعْدَ سَوَاعٍ. أَيُّ بَعْدَ هَدَاءٍ مِنْهُ - أَوْ بَعْدَ سَاعَةٍ. وَالسَّاعَةُ  
الْوَقْتُ الْحَاضِرُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ (30: 55) يَعْنِي  
بِالسَّاعَةِ الْوَقْتَ الَّذِي تَقُومُ فِيهِ الْقِيَامَةُ، فَلِذَلِكَ تَرَكَ أَنْ يُعْرَفَ أَيُّ سَاعَةٍ هِيَ. فَإِنَّ سُمِّيَتْ  
الْقِيَامَةُ سَاعَةً فَعَلَى هَذَا، وَالسَّاعَةُ الْقِيَامَةُ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: اسْمٌ لِلْوَقْتِ الَّذِي يُصْعَقُ فِيهِ  
الْعِبَادُ، وَالْوَقْتُ الَّذِي يُبْعَثُونَ فِيهِ وَتَقُومُ فِيهِ الْقِيَامَةُ، سُمِّيَتْ سَاعَةً لِأَنَّهَا تَفْجَأُ النَّاسَ فِي  
سَاعَةٍ فَيَمُوتُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِنْدَ الصَّيْحَةِ الْأُولَى الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: إِنْ كَانَتْ  
إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (36: 29) ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ تَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ  
وَالْحَدِيثِ، وَأَنَّهَا تَطْلُقُ فِي الْأَصْلِ بِمَعْنَيْنِ، وَهُمَا

(120/300)

---

مَا ذَكَرْنَا أَوَّلًا مِنَ السَّاعَةِ الزَّمَانِيَّةِ وَالسَّاعَةِ الْفَلَائِكِيَّةِ، وَقَالَ فِي الْمَعْنَى الْأَوَّلِ: يُقَالُ جَلَسْتُ  
عِنْدَكَ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ أَيُّ وَقْتًا قَلِيلًا مِنْهُ ثُمَّ اسْتَعِيرَ لِاسْمِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَى  
السَّاعَةِ فِي كُلِّ الْقُرْآنِ: الْوَقْتُ الَّذِي تَقُومُ فِيهِ الْقِيَامَةُ - يُرِيدُ أَنَّهَا سَاعَةٌ خَفِيفَةٌ يَحْدُثُ فِيهَا  
أَمْرٌ عَظِيمٌ، فَلِقَلَّةِ الْوَقْتِ الَّذِي تَقُومُ فِيهِ سَمَّاهَا سَاعَةً أَهْ أَقُولُ: الصَّوَابُ أَنَّهَا اسْتُعْمِلَتْ فِي

القرآن منكرة بمعنى الساعة الزمانية، ومعرفة بالالف واللام العهدية بمعنى الساعة  
الشريعة، وهي ساعة خراب هذا العالم، وموت أهل الأرض، وجمع بينهما في قوله  
تعالى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ (30 : 55) وقيل: إن هذا  
القول هو وجه تسميتها بالساعة .

والغالب في استعمال القرآن التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذي يكون بعد  
الموت، الذي يكون فيه الحساب، وما يتلوه من الجزاء - والتعبير بالساعة عن الوقت  
الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم، ويضطرب نظامه ويخرب بما يكون فيه من الأحوال  
يتلو بعضها بعضاً، فالساعة هي المبدأ، والقيامة هي الغاية، ففي الأولى

(121/300)

---

الموت والهلاك، وفي الآخرة البعث والجزاء . وبعض التعبيرات في كل منهما يحتمل  
حلوله محل الآخر في الغالب، وفي المعنى المشترك الذي يعم المبدأ والغاية . وحمل  
بعض المفسرين الآيات على القيامة الصغرى لكل فرد وهي ساعة موته، وزاد بعضهم  
القيامة الوسطى، وهي هلاك الجيل أو القرن، وفسروا به حديث "إذا وسد الأمر إلى  
غير أهله فاتظروا الساعة رواه البخاري من حديث أبي هريرة . وقد يراد بالساعة هنا



سَاعَةٌ زَوَالَ الدَّوْلَةِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ شُؤْنِهَا ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِحَدِيثِ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَقَدْ  
قَامَتْ قِيَامَتُهُ رَوَاهُ الدَّيْلَمِيُّ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا . وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ :  
كَانَ الْأَعْرَابُ يُسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ السَّاعَةِ فَنَظَرَ إِلَى أَحَدٍ  
إِنْسَانٍ مِنْهُمْ فَقَالَ " إِنِّي عِشْتُ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ " وَمِثْلُهُ مِنْ حَدِيثِ  
أَنَسٍ عِنْدَهُ أَيْضًا وَهُوَ أَصْرَحُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ لِإِضَافَةِ السَّاعَةِ إِلَيْهِمْ . قَالَ الدَّأُوْدِيُّ :  
هَذَا الْجَوَابُ مِنْ مَعَارِضِ الْكَلَامِ فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ لَهُمْ : لَا أُدْرِي - ابْتِدَاءً مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْجَفَاءِ  
، وَقَبْلَ تَمَكُّنِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ - لَارْتَابُوا ، فَعَدَلَ إِلَى إِعْلَامِهِمْ بِالْوَقْتِ الَّذِي يَنْقَرِضُونَ هُمْ  
فِيهِ . وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ : إِنَّ هَذَا الْجَوَابَ مِنَ الْأَسْلُوبِ

(122/300)

---

الْحَكِيمِ ، أَيْ دَعُوا السُّؤَالَ عَنْ وَقْتِ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى فَإِنَّهَا لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ ، وَاسْأَلُوا عَنِ  
الْوَقْتِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ انْقِرَاضُ عَصْرِكُمْ فَهُوَ أَوْلَى لَكُمْ ؛ لِأَنَّ مَعْرِفَتَكُمْ تَبْعَتِكُمْ عَلَى مُلَازِمَةِ  
الْعَمَلِ الصَّالِحِ قَبْلَ فَوْتِهِ ؛ لِأَنَّ أَحَدَكُمْ لَا يُدْرِي مِنَ الَّذِي يَسْبِقُ الْآخَرَ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ  
: كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتَكَلَّمُ بِأَشْيَاءَ عَلَى سَبِيلِ الْقِيَاسِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ مَعْمُولٌ  
بِهِ ، فَكَانَهُ لَمَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فِي قُرْبِ السَّاعَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ

(16 : 1) وَقَوْلُهُ :

وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ (16 : 77) حُمِلَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا لَا تَزِيدُ عَلَى مُضِيِّ قَرْنٍ وَاحِدٍ ، وَمَنْ ثُمَّ قَالَ فِي الدَّجَالِ " إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَبِيبُهُ " فَجَوَزَ خُرُوجَ الدَّجَالِ فِي حَيَاتِهِ . قَالَ : وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرٌ - وَذَكَرَ مِثْلُ مَا تَقَدَّمَ عَنِ الدَّأُوْدِيِّ ، وَرَجَّحَهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ .

وَمِمَّا اِخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ السَّاعَةِ فِيهِ بِالْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا (6 : 31) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا كُنتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنتُمْ السَّاعَةُ أُغْيِرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (6 : 40) ؟ وَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُهُمَا فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ .

(123/300)

---

وَحَيْثُ يُذَكَّرُ قِيَامُ السَّاعَةِ كَأَيَاتِ سُورَةِ الرُّومِ الثَّلَاثِ (12 و 14 و 55) وَآيَةِ سُورَةِ غَافِرٍ : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (40 : 46) فَالْمُتَبَادِرُ مِنْهُ غَايَتُهَا يَوْمَ الْبُعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ - وَحَيْثُ يُذَكَّرُ التَّكْذِيبُ بِهَا أَوِ الْمُمَارَاةُ فِيهَا ، فَالْمُرَادُ الْمَعْنَى الْعَامُّ لِكُلِّ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ وَأُوْعِدَ مِنْ أَمْرِ مُبَسَّسٍ بِهَا وَغَايَتُهَا .

وَحَيْثُ يُذَكَّرُ اقْتِرَابُ السَّاعَةِ أَوْ مَجِيئُهَا وَإِثْبَاتُهَا وَلَا سِيَّمَا إِذَا قُرِنَ بِبَعْتِهِ ، فَالْمُتَبَادِرُ مِنْهُ  
مَبْدَأُ الْقِيَامَةِ وَخَرَابُ الْعَالَمِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ السُّؤَالُ عَنْهَا فَإِنَّ السُّؤَالَ  
يَكُونُ عَنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ الْمُنْتَظَرِ فِي الْغَالِبِ ، وَمِنْهُ آيَةُ الْأَعْرَافِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا .  
فَقَوْلُهُ تَعَالَى : أَيَّانَ مُرْسَاهَا مَعْنَاهُ يَسْأَلُونَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ عَنْ السَّاعَةِ قَائِلِينَ : أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟  
أَيُّ مَتَى إِرْسَاؤُهَا وَحُصُولُهَا وَاسْتِقْرَارُهَا - أَوْ يَسْأَلُونَكَ عَنْهَا مِنْ حَيْثُ زَمَنَ مَجِيئُهَا  
وَبُتُوتُهَا بِالْوُقُوعِ وَالْحُصُولِ . . . فَأَيَّانَ ظَرْفُ زَمَانٍ ، وَمُرْسَاهَا ، مَصْدَرٌ مَعْنَاهُ إِرْسَاؤُهَا ،  
يُقَالُ : رَسَا الشَّيْءُ يَرُسُو : ثَبَتَ ، وَأُرْسَاهُ غَيْرُهُ ، وَمِنْهُ إِرْسَاءُ السَّفِينَةِ وَإِقْفَاهُ بِالْمُرْسَاةِ  
الَّتِي تُلْقَى فِي الْبَحْرِ فَتَمْنَعُهَا مِنَ الْجَرِيَانِ ، قَالَ تَعَالَى : بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا (11) :  
(41) وَقَالَ : وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (79 : 32) .

(124/300)

وَفِي السُّؤَالِ عَنْ زَمَنٍ وَقُوعِهَا بِحَرْفِ الْإِرْسَاءِ الدَّالِّ عَلَى اسْتِقْرَارِ مَا شَأْنُهُ الْحَرَكَةُ  
وَالْجَرِيَانُ أَوِ الْمِيدَانُ وَالْأَضْطْرَابُ - نَكَّةٌ دَقِيقَةٌ هِيَ فِي أَعْلَى دَرَجِ الْبَلَاغَةِ . وَهُوَ أَنَّ قِيَامَ  
السَّاعَةِ عِبَارَةٌ عَنْ انْتِهَاءِ أَمْرِ هَذَا الْعَالَمِ ، وَانْقِضَاءِ عُمْرِ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي تَدُورُ بِمَنْ فِيهَا  
مِنَ الْعَوَالِمِ الْمُتَحَرِّكِةِ الْمُضْطَرِبَةِ ، فَعَبَّرَ بِإِرْسَائِهَا عَنْ مُنْتَهَى أَمْرِهَا وَوُقُوفِ سَيْرِهَا ،

وَالسَّاعَةَ زَمَنٌ ، وَهُوَ أَمْرٌ مُّقَدَّرٌ ، لَا جِسْمَ سَائِرًا أَوْ مُسِيرًا ، وَمَا يَقَعُ فِيهَا وَيُعْبَرُ بِهَا عَنْهُ فَهُوَ  
حَرَكَةُ اضْطِرَابٍ وَزَلْزَالٍ ، لَا رُسُوءًا وَلَا إِرْسَاءً ، وَهُوَ أَمْرٌ مُّسْتَقْبَلٌ لَا حَاصِلٌ ، وَمُتَوَقَّعٌ لَا وَاقِعٌ  
، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (52 : 7 ، 8) مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَيَقَعُ حَقًّا ؛  
وَلِذَلِكَ عَلَّقَ بِهِ بَيَانَ مَا يَقَعُ فِيهِ بِقَوْلِهِ : يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ  
لِّلْمُكَذِّبِينَ

(152 : 9 - 11) فَلَمْ يُبَيِّنْ لِإِرْسَائِهَا مَعْنَى إِلَّا إِرْسَاءَ حَرَكَةِ هَذَا الْعَالَمِ فِيهَا ، وَإِنَّهُ لَتَغْيِيرٌ  
بَلِيغٌ ، لَمْ يُعْهَدْ لَهُ فِي كَلَامِ  
الْبَلْغَاءِ نَظِيرٌ ، وَلَمْ أَرَأْ أَحَدًا نَبَّهَ لِهَذَا . وَذَكَرَ السَّاعَةَ أَوَّلًا ، وَالِاسْتِفْهَامُ عَنْ زَمَنِ وَقُوعِهَا ثَانِيًا  
عَلَى قَاعِدَةٍ تَقْدِيمِ الْأَهَمِّ ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ .

(125/300)

---

قِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّائِلِينَ هُنَا الْيَهُودَ ، سَأَلُوهُ عَنْهَا امْتِحَانًا . قَالُوا : إِنْ كَانَ نَبِيًّا فَإِنَّهُ لَا يُعَيِّنُ  
لَهَا زَمَنًا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُطْلِعْ عَلَى ذَلِكَ أَحَدًا مِنْ رُسُلِهِ ، وَقِيلَ : قُرَيْشٌ . وَيُرْجَحُ أَنْ  
السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي مَكَّةَ أَحَدٌ مِنَ الْيَهُودِ ، وَصِيغَةُ "يَسْأَلُونَكَ" الْمُتَبَادِرُ مِنْهَا الْحَالُ  
لَا الْإِسْتِقْبَالَ الْبَعِيدُ ، وَفِي آيَةِ الْأَحْزَابِ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (33 : 63) وَهَذِهِ مَدِيَّةٌ .

قال ابن كثير بعد ترجيح كون السائلين من قریش : وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها ، وتكذيباً بوجودها كما قال تعالى : ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (10 : 48) وقال تعالى : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق إلا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد (42 : 18) وقوله : أيا نمرساها قال علي بن طلحة عن ابن عباس : منهاها . أي متى محطها ، وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة اه .

(126/300)

---

قل إنما علمها عند ربي قل أيها النذير : إن علم الساعة عند ربي وحده ، ليس عندي ولا عند غيري من الخلق شيء منه - وهذا يدل عليه لفظ "إنما" من الحصر ، كما قال تعالى في الآية التي فسرها النبي - صلى الله عليه وسلم - مفاتيح الغيب : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام (31 : 34) أي عنده لا عند أحد سواه - ومثله قوله تعالى : إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها (41 : 47) الآية . أي يرد إليه وحده لا إلى غيره . وأشبه الآيات الدالة على استئثار علم الله تعالى

بِالسَّاعَةِ بآيَةِ الْأَعْرَافِ آيَاتِنَ : آيَةُ الْأَحْزَابِ (33 : 63) وَذَكَرْنَا هَا أَنْفَا - وَآيَةُ أَوَّخِرِ  
النَّازِعَاتِ وَمَا بَعْدَهَا : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ  
مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا كَانَتْ لَهُمْ يَوْمَ يَمُوتُ يَوْمَئِذٍ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (79 :  
42 - 46) أَيُّ إِلَى رَبِّكَ وَحْدَهُ مِنْ دُونِكَ ، وَدُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ مُنْتَهَى أَمْرِ السَّاعَةِ الَّذِي  
يَسْأَلُونَكَ عَنْهُ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ لَأَهْلِ الْإِيمَانِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَهَا ، وَيَسْتَعِدُّونَ لَهَا لَا تَعْدُو  
وَضَيْفَتُهُ الْإِنذَارَ وَالتَّعْلِيمَ وَالْإِرْشَادَ .

(127/300)

---

فَهَذِهِ الْآيَاتُ كَأَيَّةِ الْأَعْرَافِ سُؤَالًا وَجَوَابًا ، فَالسُّؤَالُ عَنِ السَّاعَةِ مِنْ حَيْثُ إِرْسَاؤُهَا  
وَمُنْتَهَى أَمْرِهَا ، وَالْجَوَابُ رَدُّ ذَلِكَ إِلَى الرَّبِّ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ رَسُولِهِ ، فَمَا أَخْبَرَهُ بِهِ فِي  
قَوْلِهِ : إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا هُوَ مَا أَمَرَهُ أَنْ يُجِيبَ بِهِ فِي قَوْلِهِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي وَفِيهِ إِيْدَانٌ  
بِأَنَّ مَا هُوَ مِنْ شَأْنِ الرَّبِّ ، لَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ ، فَهُوَ تَعَالَى قَدْ رَبَّاهُ لِيَكُونَ مُنذِرًا وَمُبَشِّرًا

(128/300)

---

لَا لِلْخَبَارِ عَنِ الْغُيُوبِ بَأَعْيَانِهَا وَأَوْقَاتِهَا ، وَالْإِنذَارُ إِنَّمَا يُنَاطُ بِالْإِعْلَامِ بِالسَّاعَةِ وَأَهْوَالِهَا ،  
وَالنَّارِ وَسَلْسَلِهَا وَأَغْلَالِهَا ، وَلَا تَمُّ الْفَائِدَةُ مِنْهُ إِلَّا بِإِبْهَامِ وَقْتِهَا زَلِيخَشَى أَهْلُ كُلِّ زَمَنِ إِتْيَانَهَا  
فِيهِ ، وَالْإِعْلَامُ بِوَقْتِ إِتْيَانِهَا وَتَحْدِيدِ تَارِيخِهَا يُنَافِي هَذِهِ الْفَائِدَةَ بَلْ فِيهِ مَفَاسِدٌ أُخْرَى ، فَلَوْ  
قَالَ الرَّسُولُ لِلنَّاسِ : إِنَّ السَّاعَةَ تَأْتِي بَعْدَ الْفِي سَنَةٍ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا ، مَثَلًا - وَالْفَا سَنَةٍ فِي  
تَارِيخِ الْعَالَمِ وَالْآفِ السِّنِينَ تَعْدُ أَجَلًا قَرِيبًا - لَرَأَى الْمُكْذِبِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِهَذَا الْخَبَرِ ، وَيُلْحُونَ  
فِي تَكْذِيبِهِ ، وَالْمُرْتَابِينَ يَزْدَادُونَ ارْتِيَابًا ، حَتَّى إِذَا مَا قَرُبَ الْأَجَلُ وَقَعَ الْمُؤْمِنُونَ فِي رُغْبٍ  
عَظِيمٍ يَنْغَصُّ عَلَيْهِمْ حَيَاتُهُمْ ، وَيُوقِعُ الشَّلَلَ فِي أَعْضَائِهِمْ ، وَالتَّشْبِجَ فِي أَعْصَابِهِمْ ، حَتَّى لَا  
يَسْتَطِيعُونَ عَمَلًا وَلَا يَسِيغُونَ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرَجُ مِنْ مَالِهِ وَمَا يَمْلِكُهُ ، مِنْ  
حَيْثُ يَكُونُ الْكَافِرُونَ آمِنِينَ ، يَسْخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ وَقَعَ فِي أُورُبَّةَ أَنْ أَخْبَرَ بَعْضُ  
رِجَالِ الْكَنِيسَةِ الَّذِينَ كَانَ يُقَلِّدُهُمُ الْجُمْهُورُ بِأَنَّ الْقِيَامَةَ تَقُومُ فِي سَنَةِ كَذَا ، فَهَلَعَتِ الْقُلُوبُ ،  
وَاخْتَلَّتِ الْأَعْمَالُ ، وَأُهْمِلَ أَمْرُ الْعِيَالِ ، وَوَقَفَ الْمُصَدِّقُونَ مَا يَمْلِكُونَ عَلَى الْكِنَائِسِ  
وَالْأَدْيَارِ ، وَلَمْ تُهْدَأِ الْأَنْفُسُ ، وَيَثْبُ إِلَيْهَا رُشْدُهَا إِلَّا بَعْدَ ظُهُورِ كَذِبِ النَّبَاءِ بِمَجِيءِ أَجَلِهِ

(129/300)

---

دُونَ وَقُوعِهِ ، فَالْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ إِذَا فِي إِبْهَامِ أَمْرِ السَّاعَةِ الْعَامَّةِ لِلْعَالَمِ ، وَكَذَا السَّاعَةُ  
الْخَاصَّةُ بِأَفْرَادِ النَّاسِ ، أَوْ بِالْأُمَّمِ وَالْأَجْيَالِ ، وَجَعَلَهَا مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ،  
عَلَى مَا سَنَذَكُرُ فِي إِيضَاحِهِ ، فَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ حَضْرٍ أَمْرَهَا فِي عِلْمِهِ : .  
لَا يُجَلِّيْهَا لَوْ قَتَهَا إِلَّا هُوَ هَذَا جَوَابٌ عَنْ طَلَبِ مَعْرِفَةِ الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ إِرْسَاؤُهَا فِيهِ ، يُقَالُ  
: جَلَّ لِي الْأَمْرُ وَأَنْجَلَى ، وَجَلَّاهُ فَلَانَ تَجَلِيَّةً بِمَعْنَى : كَشَفَهُ وَأَظْهَرَهُ أَتَمَّ الْإِظْهَارِ . وَاللَّامُ  
الدَّاخِلَةُ عَلَى وَقْتِهَا تُسَمَّى لَامَ التَّوْقِيْتِ كَقَوْلِهِمْ : وَكُتِبَ هَذَا الْكِتَابُ لِعُرَّةِ الْمُحَرَّمِ أَوْ لِعَشْرِ  
مَضْيِنٍ أَوْ يَتَيْنٍ مِنْ صَفَرٍ . وَالْمَعْنَى : لَا يُكْشَفُ حِجَابُ الْخَفَاءِ عَنْهَا ، وَلَا يُظْهَرُهَا فِي  
وَقْتِهَا الْمَحْدُودِ عِنْدَ الرَّبِّ تَعَالَى إِلَّا هُوَ ، فَلَا  
وَسَاطَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ فِي إِظْهَارِهَا ، وَلَا الْأَعْلَامَ بِمِيقَاتِهَا ، وَإِنَّمَا وَسَاطَةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ  
السَّلَامُ فِي الْإِنذَارِ بِهَا .

(130/300)

---

وَقَفَى عَلَى هَذَا الْإِيْيَاسِ مِنْ عِلْمِ أَمْرَهَا ، وَالْإِنْبَاءِ بِوَقْتِ وَقُوعِهَا بِقَوْلِهِ فِي تَعْظِيمِ شَأْنِهَا وَسِرِّ  
إِخْفَاءِ وَقْتِهَا : ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيُّ : ثَقُلَ وَقَعُهَا وَعَظُمَ أَمْرُهَا فِي السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ عَلَى أَهْلِهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَبَاهَمُ بِأَهْوَالِهَا ، وَلَمْ



يُشْعِرُهُمْ بِمِيقَاتِهَا ، فَهُمْ يَتَوَقَّعُونَ أَمْرًا عَظِيمًا لَا يَدْرُونَ مَتَى يَفْجُؤُهُمْ وَقُوْعُهُ .  
رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ فِي تَفْسِيرِ الْجُمْلَةِ أَنَّهُ قَالَ : ثَقُلَ عَلَيْهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّهُمْ لَا  
يَعْلَمُونَ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : خَفِيَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلَا يَعْلَمُ قِيَامَهَا مَلَكٌ مُقْرَبٌ ، وَلَا  
نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، فَهَذَا الْقَوْلَانِ تَفْسِيرٌ لثِقَلِهَا بِفَقْدِ الْعِلْمِ بِهَا ، فَإِنَّ الْمَجْهُولَ ثَقِيلٌ عَلَى النَّفْسِ ،  
وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ عَظِيمًا ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَعْمَرٍ وَابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّ ثِقَلَهَا يَكُونُ يَوْمَ مَجِيئِهَا إِذَا  
الشَّمْسُ كُوِّرَتْ

(1 : 81) وَإِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكُوكَبَاتُ أُنثَرَتْ (82 : 1 ، 2) وَإِذَا رُجَّتِ  
الْأَرْضُ رُجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا 56 : 4 - 6 وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا وَصَفَهُ  
اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَمْرِ قِيَامِهَا . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ثِقَلِهَا : لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا يُصِيبُهُ مِنْ  
ضَرَرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلِكُلِّ رِوَايَةٍ وَجْهٌ صَحِيحٌ ، وَالْمُبَادِرُ مِنَ الْجُمْلَةِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا ، وَهُوَ  
يَتَّفِقُ مَعَ جُمْلَةِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ .

(131/300)

---

لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً أَيْ : فَجَاءَةً عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ، مِنْ غَيْرِ تَوَقُّعٍ وَلَا انْتِظَارٍ ، وَلَا إِشْعَارٍ وَلَا إِنْذَارٍ ،  
وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا الْقَوْلُ فِي التَّنْزِيلِ ، وَجَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنَ الصَّحِيحَيْنِ ، وَاللَّفْظُ

لِلْبُخَارِيِّ " وَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَّبَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ ،  
وَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ ، وَقَدْ أَنْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لُحِيحَتِهِ فَلَا يَطْعُمُهُ ، وَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيظُ  
حَوْضَهُ فَلَا يُسْتَقَى فِيهِ ، وَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أَكْتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهَا " .  
وَالْمَعْنَى : أَنَّهَا تَبْغُتُ النَّاسَ وَهُمْ مِنْهُمْ كُونَ فِي أُمُورِ مَعَايِشِهِمُ الْمُعْتَادَةِ . وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ  
تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَجِّ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ  
تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى  
وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (22 : 1 ، 2) .

(132/300)

فَيَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَخَافُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ ، وَأَنْ يَحْمِلَهُمُ الْخَوْفُ عَلَى مُرَاقَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي  
أَعْمَالِهِمْ فَيَلْتَزِمُوا فِيهَا الْحَقَّ ، وَيَتَحَرَّوْا الْخَيْرَ ، وَيَتَّقُوا الشَّرَّ وَالْمَعَاصِي ، وَلَا يَجْعَلُوا حَظَّهُمْ  
مِنْ أَمْرِ السَّاعَةِ الْجِدَالَ ، وَالْقِيلَ وَالْقَالَ . وَإِنَّا نَرَى بَعْضَ الْمُتَأَخِّرِينَ قَدْ شَغَلُوا الْمُسْلِمِينَ  
عَنْ ذَلِكَ بِيَحْتِ افْتِجْرِهِ بَعْضُ الْغَلَاةِ ، وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَبْقَ طُولَ  
عُمُرِهِ لَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةُ بَلْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ بَلْ  
زَعَمَ أَنَّهُ أَطْلَعَهُ عَلَى كُلِّ مَا فِي عِلْمِهِ ، فَصَارَ عِلْمُهُ كَعِلْمِ رَبِّهِ ، أَيُّ صَارَ نَدًّا وَشَرِيكًا لِلَّهِ

تَعَالَى فِي صِفَةِ الْعِلْمِ الْمُحِيطِ بِالْغُيُوبِ الَّتِي لَا نَهَايَةَ لَهَا ، وَمِنْ أَصُولِ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَاتِهِ ، وَلَا فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ ، وَالرَّسُولُ عَبْدُ اللَّهِ لَا يَعْلَمُ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا أَوْحَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ لِأَدَاءِ وَظِيْفَةِ التَّلْبِيغِ ، وَسَتَزِدَادُ عِلْمًا يُبْطِلَانِ هَذَا الْغُلُوبِ خَاصَّةً فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ التَّالِيَةِ ، وَلَكِنَّ الْغَلَاةَ يَرُونَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي مَدْحِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَعْظِيمِهِ أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ دُونَ صِفَاتِ رَبِّهِ وَالْهَيْهِ وَخَالِقِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ، فَكَذَّبُوا كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَشَبَّهُوا بِهِ بَعْضَ عَبِيدِهِ إِرْضَاءً لْغُلُوبِهِمْ ، وَمِثْلُ هَذَا الْغُلُوبِ يُعْرَفُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ

(133/300)

سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُعْلِمَ رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِوَقْتِ السَّاعَةِ ، بَعْدَ كُلِّ مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ فِي إِخْفَائِهَا وَاسْتِثْنَائِهِ بِعِلْمِهِ ، لَمَا أَكَّدَ كُلَّ هَذَا التَّأْكِيدِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : يَسْأَلُونَكَ كَانَتْ حَفِيٌّ عَنْهَا إِنْخُ . يَسْأَلُونَكَ هَذَا السُّؤَالُ كَانَتْ حَفِيٌّ مُبَالِغٌ فِي سُؤَالِ رَبِّكَ عَنْهَا - أَوْ يَسْأَلُونَكَ عَنْهَا كَانَتْ حَفِيٌّ بِهِمْ - فَعَنْهَا مُتَعَلِّقٌ بِ " يَسْأَلُونَكَ " ، وَجُمْلَةٌ كَانَتْ حَفِيٌّ مُعْتَرِضَةٌ . قَالَ فِي مَجَازِ الْأَسَاسِ : أَحْفَى فِي السُّؤَالِ : الْحَفَّ . . . وَهُوَ حَفِيٌّ عَنِ الْأَمْرِ : يَلْبِغُ فِي السُّؤَالِ عَنْهُ كَانَتْ حَفِيٌّ عَنْهَا وَقَالَ الْأَعْمَشِيُّ :

فَإِنْ تَسَأَلِي عَنِّي فَيَا رَبِّ سَأَلِ . . . حَفِيٍّ عَنِ الْأَعْمَشِيِّ بِهِ حَيْثُ أَصْعَدَا  
وَاسْتَحْفَيْتُهُ عَنْ كَذَا : اسْتَحْبِرْتُهُ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ . وَتَحْفَى بِي فَلَانٌ ، وَحَفِيٌّ بِي  
حَفَاوَةٌ ، إِذَا تَلَطَّفَ بِكَ ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِكَ أَه . أَقُولُ : وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ خَلِيلِهِ  
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا وَآلِهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (19 : 47) .

(134/300)

---

وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ عَنِ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا يَقُولُ : كَانَ بَيْنَكَ  
وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ كَأَنَّكَ صَدِيقٌ لَهُمْ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَمَّا سَأَلَ النَّاسُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ - عَنِ السَّاعَةِ سَأَلُوهُ سُؤَالَ قَوْمٍ كَانَتْهُمْ يَرُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا حَفِيٌّ بِهِمْ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ  
إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَهُ ، اسْتَأْثَرَ بِهِ فَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ مَلَكًا مُقْرَبًا وَلَا رَسُولًا . وَقَالَ قَتَادَةُ : قَالَتْ  
قُرَيْشٌ لِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ قَرَابَةٌ فَأَشِرْ إِلَيْنَا مَتَى السَّاعَةُ ؟  
فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَأَبِي  
مَالِكٍ وَالسُّدِّيِّ ، هَذَا قَوْلٌ ، وَالصَّحِيحُ عَنْ مُجَاهِدٍ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ وَغَيْرِهِ يَسْأَلُونَكَ  
كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قَالَ : اسْتَحْفَيْتُ عَنْهَا السُّؤَالَ حَتَّى عَلِمْتُ وَقْتَهَا . وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ  
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا يَقُولُ : كَأَنَّكَ عَالِمٌ بِهَا ، لَسْتُ تَعْلَمُهَا ، قُلْ : إِنَّمَا

عِلْمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ بَعْضِهِمْ ، كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا كَأَنَّكَ كَانَتْ عَالِمٌ بِهَا ، وَقَدْ أَخْفَى اللَّهُ  
عِلْمَهَا عَنْ خَلْقِهِ . وَقَرَأَ : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ (31 : 34) الْآيَةَ . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ :  
وَهَذَا الْقَوْلُ أَرْجَحُ فِي الْمَعْنَى مِنَ الْأَوَّلِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، وَلِهَذَا قَالَ :

(135/300)

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ هَذَا تَكَرَّرَ لِلْجَوَابِ فِي إِثْرِ تَكَرَّرِ السُّؤَالِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّكْيِيدِ  
وَالِإِيَّاسِ مِنَ الْعِلْمِ بِوَقْتِ مَجِيئِهَا ، وَتَخْطِئَةَ مَنْ يَسْأَلُونَ عَنْهُ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا اسْمَ الْجَلَالَةِ  
لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهِ لِدَاتِهِ ، كَمَا أَشْعَرْنَا قَبْلَهُ بِأَنَّهُ مِنْ شُؤْنِ رَبِّيَّتِهِ ، وَكُلُّ مَنْهُمَا  
مِمَّا يَسْتَحِيلُ عَلَى خَلْقِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ اخْتِصَاصَ عِلْمِهَا بِهِ تَعَالَى وَلَا حِكْمَةَ  
ذَلِكَ ، وَلَا أَدَبَ السُّؤَالِ ، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْمَقَامِ ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُ ذَلِكَ الْقَلِيلُونَ ،  
وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ مِنْ أَخْبَارِهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبِالسَّمَاعِ مِنْ رَسُولِهِ - صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَالَّذِينَ حَضَرُوا تَمَثُّلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِصِفَةِ رَجُلٍ وَسُؤَالَهُ النَّبِيِّ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْإِيمَانِ

وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانَ ثُمَّ عَنِ السَّاعَةِ . وَقَوْلَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُ عِنْدَ  
السُّؤَالِ الْأَخِيرِ : " وَمَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ " يَعْنِي أَنَّا سَوَاءٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، لَا

يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنَّا مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ .

(فَصَلُّ فِيمَا وَرَدَ فِي قُرْبِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا وَمَا قِيلَ فِي عُمَرِ الدُّنْيَا)

(136/300)

إِنَّ مَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مِنْ قُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ حَقٌّ مُقْتَبَسٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَايَةِ الْأَحْزَابِ  
الَّتِي ذَكَرْتُ قَرِيبًا ، وَمِثْلُهَا آيَةُ الشُّورَى وَمَا يُدْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (42 : 17) وَفِي  
مَعْنَاهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سِيَاقِ الرَّدِّ عَلَى مُنْكَرِي الْبَعْثِ وَالْإِعَادَةِ : وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلُ  
عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (17 : 51) وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْ قُرْبِهِ بِـ "لَعَلَّ" وَ"عَسَى" مَا يَنْسَبُ  
عَدَمَ إِطْلَاعِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ عَلَى وَقْتِهِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ قُرْبَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي مِقْدَارُهُ مِنْ مُبْدِئِهِ إِلَى  
غَايَتِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ مُنَاسِبٌ لَهُ ، وَلَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ عُمَرِ الدُّنْيَا وَيَقِي مِنْهُ - فَالْقُرْبُ وَالْبُعْدُ  
مِنَ الْأُمُورِ النَّسَبِيَّةِ ، وَالْمُرَادُ قُرْبُهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا مَضَى مِنْ عُمَرِ الدُّنْيَا ، وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ  
تَعَالَى .

وَمَا جَاءَ فِي الْأَثَارِ مِنْ أَنَّ عُمَرَ الدُّنْيَا سَبْعَةَ أَلْفِ سَنَةٍ - مَا خُوذَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي كَانَ  
يُنْتَهَى زَنَادِقَةُ الْيَهُودِ وَالْفُرْسِ فِي الْمُسْلِمِينَ حَتَّى رَوَوْهُ مَرْفُوعًا ، وَقَدْ اغْتَرَبَ بِهَا مَنْ لَا يَنْظُرُونَ  
فِي نَقْدِ الرِّوَايَاتِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ أَسَانِيدِهَا ، حَتَّى اسْتَنْبَطَ بَعْضُهُمْ مَا بَقِيَ مِنْ عُمَرِ الدُّنْيَا ،

وَلِجَلَالِ السُّيُوطِيِّ فِي هَذَا رِسَالَةٍ فِي ذَلِكَ قَدْ هَدَمَهَا عَلَيْهِ الزَّمَانُ ، كَمَا هَدَمَ أَمْثَالَهَا مِنْ  
التَّخَرُّصَاتِ وَالْأَوْهَامِ ، وَمَا بُثَّ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ مِنَ الْكَيْدِ لِلْإِسْلَامِ .

(137/300)

قَالَ السَّيِّدُ الْوَلُوسُ فِي إِثْرِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ : " وَإِنَّمَا أَخْفَى سُبْحَانَهُ أَمْرَ السَّاعَةِ لِاقْتِضَاءِ  
الْحِكْمَةِ الشَّرِيعِيَّةِ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى الطَّاعَةِ ، وَأَزْجُرُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، كَمَا أَنَّ إِخْفَاءَ  
الْأَجَلِ الْخَاصِّ لِلْإِنْسَانِ كَذَلِكَ . وَلَوْ قِيلَ بَأَنَّ الْحِكْمَةَ التَّكْوِينِيَّةَ تَقْتَضِي ذَلِكَ أَيْضًا لَمْ يُبْعَدُ ،  
وَوَظَاهِرُ الْآيَاتِ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَعْلَمْ وَقْتِ قِيَامِهَا . نَعَمْ عَلِمَ - صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قُرْبَهَا عَلَى الْإِجْمَالِ ، وَأَخْبَرَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهِ ، فَقَدْ أُخْرِجَ  
الْتَّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا : " بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ " وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ  
وَالْوَسْطَى . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا أَيْضًا : إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِيمَنْ مَضَى قَبْلَكُمْ  
مِنْ الْأُمَّمِ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ وَجَاءَ فِي غَيْرِ مَا أَثَرُ أَنَّ عُمَرَ الدُّنْيَا سَبْعَةَ  
الْأَلْفِ سَنَةٍ ، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعِثَ فِي أَوَاخِرِ الْأَلْفِ السَّادِسَةِ ، وَمُعْظَمُ الْمَلَةِ فِي  
الْأَلْفِ السَّابِعَةِ .

" وَأَخْرَجَ الْجَلَالُ السُّيُوطِيُّ عِدَّةَ أَحَادِيثَ فِي أَنَّ عُمَرَ الدُّنْيَا سَبْعَةَ الْأَلْفِ سَنَةٍ ، وَذَكَرَ أَنَّ

مُدَّةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَزِيدُ عَلَى أَلْفِ سَنَةٍ ، وَلَا تُبْلَغُ الزِّيَادَةُ خَمْسِمِائَةَ سَنَةٍ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ  
بِأَخْبَارٍ وَأَثَارٍ ذَكَرَهَا فِي رِسَالَتِهِ الْمُسَمَّاةِ (بِالْكَشْفِ عَنِ مُجَاوِزَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَلْفِ)  
وَسَمَّى بَعْضُهُمْ لِذَلِكَ هَذِهِ الْأَلْفَ الثَّانِيَةَ بِالْمُخَضَّرَةِ لِأَنَّ نِصْفَهَا دُنْيَا ، وَنِصْفَهَا الْآخِرَ  
أُخْرَى ، وَإِذَا لَمْ يُظْهَرْ الْمَهْدِيُّ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا يَنْهَدِمُ جَمِيعُ مَا بَنَاهُ فِيهَا كَمَا لَا  
يُخْفَى ، وَكَانِي بِكَ تَرَاهُ مُنْهَدِمًا " اهـ .

أَقُولُ : نَقَلْتُ هَذَا لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَرْجِعُونَ إِلَى هَذَا التَّفْسِيرِ فِي مِثْلِ هَذَا الْبَحْثِ ،  
فَأَحْبَبْتُ أَنْ يُعْرَفَ رَأْيُهُ فِي الْمَسْأَلَةِ مَنْ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ مَضَتْ الْمِائَةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا  
مُؤَلَّفُهُ بِرَأْسِهَا وَذَنْبِهَا وَهِيَ الْمِائَةُ الثَّلَاثَةُ عَشْرَةَ مِنَ الْهَجْرَةِ ، ثُمَّ مَضَى زُهَاءُ نِصْفِ الْمِائَةِ الَّتِي  
بَعْدَهَا وَهِيَ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ ، إِذْ نَكَبُ هَذَا الْبَحْثِ فِي سَنَةِ 1345 وَلَمْ يُظْهَرْ الْمَهْدِيُّ ،  
فَانْهَدَمَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ مَا بَنَاهُ السُّيُوطِيُّ عَفَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ مِنَ الْأَوْهَامِ الَّتِي جَمَعَهَا كَحَاطِبِ  
لَيْلٍ ، وَنَحْنُ نُورِدُ هُنَا مَا كَتَبَهُ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ لِحَدِيثِ " بَعَثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ " مِنْ  
شَرْحِهِ لِلْبُخَارِيِّ ، ثُمَّ تَقَفَى عَلَيْهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ .



---

بَدَأَ الْحَافِظُ شَرْحَهُ لِمَعْنَى الْحَدِيثِ بِأَقْوَالِ مُحَقِّقِي الْعُلَمَاءِ فِي مَعْنَى التَّشْبِيهِ بِالْأَصْبَعَيْنِ ،  
هَلِ الْمُرَادُ بِهِ قُرْبُ إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى ؟ أَمْ التَّفَاوُتُ الَّذِي بَيْنَهُمَا فِي الطُّولِ ؟ وَمَا الْمُرَادُ  
بِهِ ؟ وَالْأَرْجَحُ الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
وَبَيْنَ السَّاعَةِ نَبِيٌّ آخَرُ فَهِيَ تَلِيهِ . ثُمَّ قَالَ : وَلَا مُعَارَضَةَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ  
عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ (31 : 34) وَتَحْوِذِكَ زِلَّانَ عِلْمَ قُرْبَاهَا لَا يَسْتَلْزِمُ عِلْمَ وَقْتِ مَجِيئِهَا  
مُعَيَّنًا ، وَقِيلَ مَعْنَى الْحَدِيثِ : لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقِيَامَةِ شَيْءٌ ، هِيَ الَّتِي تَلِينِي كَمَا تَلِي  
السَّبَّابَةُ الْوُسْطَى ؟ . وَعَلَى هَذَا فَلَا تَنَافِي بَيْنَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى عَنِ  
السَّاعَةِ : لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَاهُ .

وَأَقُولُ : إِنَّ جُمْلَةَ مَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ قَدْ وَرَدَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ  
الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ (6 : 59) لَا فِي السَّاعَةِ ، وَلَكِنْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ تَفْسِيرُ

(140/300)

---

مَفَاتِحِ الْغَيْبِ بآيَةِ آخِرِ سُورَةِ لِقْمَانَ : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ (31 : 34)  
إِلَيْهِ . فِعْبَارَتُهُ صَحِيحَةٌ الْمَعْنَى لَا اللَّفْظُ ، وَلَعَلَّهُ أَرَادَ ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَثَابَهُ : "

وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: حَاوَلَ بَعْضُهُمْ فِي تَأْوِيلِهِ أَنْ نَسَبَهُ مَا بَيْنَ الْأَصْبَعَيْنِ كِنَسَبَةِ مَا يَبْقَى  
مِنَ الدُّنْيَا بِالنَّسَبَةِ إِلَى مَا مَضَى، وَأَنَّ جُمْلَتَهَا سَبْعَةُ أَلْفِ سَنَةٍ، وَاسْتَدَّ إِلَى أَخْبَارِ لَا  
تَصِحُّ، وَذَكَرَ مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي تَأْخِيرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ نِصْفَ يَوْمٍ، وَفَسَّرَهُ بِخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ  
، فَيُؤْخَذُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي يَبْقَى نِصْفُ سَبْعٍ وَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّا بَيْنَ السَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى فِي  
الطُّولِ . (قَالَ) :

وَقَدْ ظَهَرَ عَدَمُ صِحَّةِ ذَلِكَ لَوُقِعَ خِلَافُهُ ، وَمُجَاوِزَةَ هَذَا الْمِقْدَارِ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا ثَابِتًا لَمْ يَتَّعْ  
خِلَافُهُ " .

قُلْتُ: قَدْ انْصَافَ إِلَى ذَلِكَ مِنْذُ عَهْدِ عِيَاضٍ إِلَى هَذَا الْحِينِ ثَلَاثِمِائَةَ سَنَةٍ ، وَقَالَ ابْنُ  
العَرَبِيِّ قَيْلٌ: الْوَسْطَى تَزِيدُ عَلَى السَّبَابَةِ نِصْفَ سَبْعِهَا ، وَكَذَا الْبَاقِي مِنَ الدُّنْيَا مِنَ الْبَعْثَةِ  
إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ؟ قَالَ: وَهَذَا بَعِيدٌ ، وَلَا يُعْلَمُ مِقْدَارُ الدُّنْيَا ، فَكَيْفَ يَتَحَصَّلُ لَنَا نِصْفُ  
سَبْعِ أَمَدٍ مَجْهُولٍ ؟ فَالْصَّوَابُ الْإِعْرَاضُ عَنْ ذَلِكَ .

(141/300)

---

قُلْتُ: السَّابِقُ إِلَى ذَلِكَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ ، فَإِنَّهُ أَوْرَدَ فِي مُقَدِّمَةِ تَارِيخِهِ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ قَالَ: الدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جُمُعِ الْأَخِرَةِ سَبْعَةَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَقَدْ مَضَى سِتَّةَ أَلْفٍ وَمِائَةٍ

سَنَةٍ ، وَأُورِدَهُ مِنْ طَرِيقِ يَحْيَى بْنِ يَعْقُوبَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ  
عَنْهُ ، وَيَحْيَى هُوَ أَبُو طَالِبِ الْقَاضِي الْأَنْصَارِيُّ ، قَالَ الْبُخَارِيُّ : مُنْكَرُ الْحَدِيثِ ، وَشَيْخُهُ  
هُوَ فِقْهُهُ الْكُوفَةِ ، وَفِيهِ مَقَالٌ ، ثُمَّ أُورِدَ الطَّبْرِيُّ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ قَالَ : الدُّنْيَا سِتَّةُ أَلْفِ  
سَنَةٍ ، وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنْبِهٍ مِثْلُهُ ، أَرَادَ أَنَّ الَّذِي مَضَى مِنْهَا خَمْسَةُ أَلْفٍ وَسِتِّمِائَةِ سَنَةٍ ثُمَّ  
زَيْفَهُمَا وَرَجَّحَ مَا جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا سَبْعَةُ أَلْفٍ ثُمَّ أُورِدَ حَدِيثَ ابْنِ عُمَرَ الَّذِي فِي  
الصَّحِيحَيْنِ مَرْفُوعًا مَا أَجَلَكُمْ فِي أَجَلٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ إِلَّا مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ  
الشَّمْسِ وَمِنْ طَرِيقِ مُغِيرَةَ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ بَلْفِظٍ : مَا يَبْقَى لِأُمَّتِي مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا كَمِقْدَارِ  
مَا إِذَا صَلَّيْتُ الْعَصْرَ وَمِنْ طَرِيقِ

(142/300)

---

مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ " كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالشَّمْسُ عَلَى قُعَيْقِعَانَ  
مُرْتَفَعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَقَالَ : مَا أَعْمَارُكُمْ فِي أَعْمَارٍ مَنْ مَضَى إِلَّا كَمَا يَبْقَى مِنْ هَذَا النَّهَارِ مِمَّا  
مَضَى مِنْهُ " وَهُوَ عِنْدَ أَحْمَدَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ ، ثُمَّ أُورِدَ حَدِيثَ أَنَسٍ " خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمًا وَقَدْ كَادَتِ الشَّمْسُ تَغِيبُ " فَذَكَرْنَا نَحْوَ الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ عَنْ ابْنِ  
عُمَرَ ، وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ بِمَعْنَاهُ قَالَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ . إِنَّ مِثْلَ مَا يَبْقَى مِنَ الدُّنْيَا

فِيمَا مَضَى مِنْهَا كِبَيَّةٌ يَوْمَكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ وَحَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ أَخْرَجَهُ أَيْضًا ، وَفِيهِ  
عَلِيُّ بْنُ زَيْدِ بْنِ جَدْعَانَ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، وَحَدِيثُ أَنَسٍ أَخْرَجَهُ أَيْضًا وَفِيهِ مُوسَى بْنُ خَلْفٍ  
ثُمَّ جَمَعَ بَيْنَهُمَا بِمَا حَاصِلُهُ : أَنَّهُ حَمَلَ قَوْلَهُ " بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ " عَلَى مَا إِذَا صَلَّيْتَ فِي  
وَسَطٍ مِنْ وَقْتِهَا .

قُلْتُ : وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ لَفْظِ أَنَسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ . وَحَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ،  
فَالصَّوَابُ الْإِعْتِمَادُ عَلَيْهِ . وَلَهُ مَحْمَلَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّشْبِيهِ التَّقْرِيبُ ، وَلَا يُرَادُ  
حَقِيقَةٌ

(143/300)

---

المِقْدَارِ فِيهِ ، يَجْتَمِعُ مَعَ حَدِيثِ أَنَسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ عَلَى تَقْدِيرِ ثُبُوتِهِمَا ، وَالثَّانِي أَنْ يُحْمَلَ  
عَلَى ظَاهِرِهِ فَيُقَدَّمُ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ لِصِحَّتِهِ ، وَيَكُونُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مُدَّةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْرُ  
خُمْسِ النَّهَارِ تَقْرِيبًا ، ثُمَّ أَيْدِ الطَّبْرِيِّ كَلَامَهُ بِحَدِيثِ الْبَابِ ، وَحَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الَّذِي  
أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ ، وَلَفْظُهُ : " وَاللَّهِ لَا تَعْجِزُ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ نِصْفِ يَوْمٍ "  
وَرَوَاتُهُ ثَقَاتٌ ، وَلَكِنْ رَجَّحَ الْبُخَارِيُّ وَقْفَهُ ، وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي  
وَقَّاصٍ بَلْفَظٍ " إِنِّي لَأَرْجُو أَنَّ تَعْجِزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهِمْ أَنْ يُؤَخَّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ ، قِيلَ لِسَعْدٍ : كَمْ

نِصْفُ يَوْمٍ ؟ قَالَ خَمْسِمِائَةَ سَنَةٍ " وَرَوَاتُهُ مُوثِقُونَ إِلَّا أَنْ فِيهَا انْقِطَاعًا ، قَالَ الطَّبْرِيُّ :  
وَنِصْفُ الْيَوْمِ خَمْسِمِائَةَ سَنَةٍ أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ (22) :  
47) فَإِذَا انْضَمَّ إِلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ : إِنَّ الدُّنْيَا سَبْعَةُ أَلْفِ سَنَةٍ تَوَافَقَتِ الْأَخْبَارُ ، فَيَكُونُ  
الْمَاضِي إِلَى وَقْتِ الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ سِتَّةَ أَلْفِ سَنَةٍ وَخَمْسِمِائَةَ سَنَةٍ تَقْرِيْبًا ، وَقَدْ أُورِدَ  
السُّهَيْلِيُّ كَلَامَ الطَّبْرِيِّ وَأَيَّدَهُ بِمَا وَقَعَ عِنْدَهُ مِنْ حَدِيثِ الْمُسْتَوْرِدِ ، وَأَكَّدَ بِحَدِيثِ ابْنِ زَمْلٍ  
رَفَعَهُ " وَالدُّنْيَا سَبْعَةُ أَلْفِ سَنَةٍ يُعْتَبَرُ فِي آخِرِهَا " .

(144/300)

---

قُلْتُ : وَهَذَا الْحَدِيثُ إِنَّمَا هُوَ عَنْ ابْنِ زَمْلٍ ، وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ جَدًّا أَخْرَجَهُ ابْنُ السَّكَنِ فِي  
الصَّحَابَةِ ، وَقَالَ : إِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ فِي الصَّحَابَةِ ، وَأَبْنُ قَتَيْبَةَ  
فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ ، وَذَكَرَهُ فِي الصَّحَابَةِ أَيْضًا ابْنُ مَنْدَةَ وَغَيْرُهُ ، وَسَمَّاهُ بَعْضُهُمْ عَبْدَ اللَّهِ  
وَبَعْضُهُمُ الضَّحَّاكَ ، وَقَدْ أُورِدَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْمَوْضُوعَاتِ ، وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : الْفَاطَةُ  
مَصْنُوعَةٌ ، ثُمَّ بَيَّنَّ السُّهَيْلِيُّ أَنَّهُ لَيْسَ فِي حَدِيثِ نِصْفِ يَوْمٍ مَا يَنْفِي الزِّيَادَةَ عَلَى الْخَمْسِمِائَةِ  
قَالَ : وَقَدْ جَاءَ بَيَانُ ذَلِكَ فِيْمَا رَوَاهُ جَعْفَرُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بِلَفْظِ " إِنْ أَحْسَنْتُ أُمَّتِي  
فَبَقَاؤُهَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ - وَذَلِكَ أَلْفُ سَنَةٍ - وَإِنْ أَسَاءْتُ فَنِصْفُ يَوْمٍ " قَالَ : وَلَيْسَ فِي

قوله: بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَمَا تَبَيَّنَ مَا يُقَطَّعُ بِهِ عَلَى صِحَّةِ التَّأْوِيلِ الْمَاضِي، بَلْ قَدْ قِيلَ فِي  
تَأْوِيلِهِ إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّاعَةِ نَبِيٌّ مَعَ التَّقْرِيبِ لِمَجِيئِهَا ثُمَّ جَوَّزَ أَنْ يَكُونَ فِي عَدَدِ  
الْحُرُوفِ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّورِ مَعَ حَذْفِ الْمَكْرَرِ مَا يُوَافِقُ حَدِيثَ ابْنِ زَيْلٍ، وَذَكَرَ أَنَّ  
عَدَّتْهَا تِسْعِمِائَةً وَثَلَاثَةً.

(145/300)

قُلْتُ: وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَغَارِبَةِ فِي عَدَدِ الْحُرُوفِ، وَأَمَّا الْمَشَارِقَةُ فَيَنْقُصُ الْعَدَدُ  
عِنْدَهُمْ مِائَتَيْنِ وَعَشْرَةَ، فَإِنَّ السِّينَ عِنْدَ الْمَغَارِبَةِ بِثَلَاثِمِائَةٍ وَالصَّادَ بِسِتِّينَ، وَأَمَّا الْمَشَارِقَةُ  
فَالسِّينُ عِنْدَهُمْ سِتُونَ وَالصَّادُ تِسْعُونَ فَيَكُونُ الْمِقْدَارُ عِنْدَهُمْ سِتْمِائَةً وَثَلَاثَةً وَتِسْعِينَ،  
وَقَدْ مَضَتْ وَزِيَادَةٌ عَلَيْهَا مِائَةٌ وَخَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، فَالْحَمْلُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْحَبِطِيَّةِ  
بَاطِلٌ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ الزَّجْرُ عَنْ عَبْدِ أَبِي جَادٍ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ  
السَّحْرِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِبَعِيدٍ فَإِنَّهُ لَا أَصْلَ لَهُ فِي الشَّرِيعَةِ، وَقَدْ قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ  
الْعَرَبِيِّ، وَهُوَ مِنْ مَشَائِخِ السُّهَيْلِيِّ فِي فَوَائِدِ رِحْلَتِهِ مَا نَصَّهُ: وَمِنْ الْبَاطِلِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ  
فِي أَوَائِلِ السُّورِ، وَقَدْ تَحَصَّلَ لِي فِيهَا

(146/300)

---

عَشْرُونَ قَوْلًا وَأَزِيدُ، وَلَا أَعْرِفُ أَحَدًا يَحْكُمُ عَلَيْهَا بِعِلْمٍ، وَلَا يَصِلُ فِيهَا إِلَى فَهْمٍ، إِلَّا أَنِّي  
أَقُولُ - فَذَكَرَ مَا مُلَخَّصُهُ - أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ لَهَا مَدْلُولًا مُتَدَاوِلًا بَيْنَهُمْ لَكَانُوا  
أَوَّلَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَلْ تَلَّا عَلَيْهِمْ (ص وَحَم فَصَلَتْ)  
وغيرهما فلم يُنكروا ذلك، بل صرَّحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشويقهم إلى  
عشرة، وحرصهم على زلة، فدل على أنه كان أمرًا معروفًا بينهم لا إنكار فيه .

(147/300)

---

"قلت: وأما عدد الحروف بخصوصه فإنما جاء عن بعض اليهود كما حكاه ابن إسحاق  
في السيرة النبوية عن أبي ياسر بن أخطب وغيره: أنهم حملوا الحروف التي في أوائل  
السور على هذا الحساب، واستقصروا المدة أول ما نزل "الم" و"ال" فإنه نزل بعد ذلك  
(المص وطسم) وغير ذلك قالوا: ألبست علينا الأمر . وعلى تقدير أن يكون ذلك مرادًا  
فليحمل على جميع الحروف الواردة، ولا يحذف المكرر فإنه ما من حرف منها إلا وله  
سريخه، أو يقتصر على حذف المكرر من أسماء السور، ولو تكررت الحروف فيها  
فإن السور التي ابتدئت بذلك تسع وعشرون سورة، وعدد حروف الجميع ثمانية

وَسَبْعُونَ حَرْفًا ، وَهِيَ : الْمِسْتَةُ ، حَمِ سِتَّةٌ ، الرَّخْمَةُ ، طِسْمَانَتَانِ ، الْمِصْرُ الْكَعْبِيُّ  
 طه طس يس ص ق ن . فَإِذَا حُذِفَ مَا كُرِّرَ مِنَ السُّورَةِ وَهِيَ خَمْسٌ مِنْ : الم ، وَخَمْسٌ مِنْ  
 حم ، وَأَرْبَعٌ مِنَ الر ، وَوَاحِدَةٌ مِنْ طسم ، يَبْقَى أَرْبَعُ عَشْرَةَ سُورَةً ، عَدَدُ حُرُوفِهَا ثَمَانِيَةٌ  
 وَثَلَاثُونَ حَرْفًا ، فَإِذَا حُسِبَ عَدْدُهَا بِالْجَمَلِ الْمَغْرِبِيِّ بَلَغَتْ الْفَيْنِ وَسِتْمِائَةً وَأَرْبَعَةً  
 وَعِشْرِينَ ، وَأَمَّا بِالْجَمَلِ الْمَشْرِقِيِّ فَتَبْلُغُ الْفَا وَسَبْعِمِائَةً وَأَرْبَعَةً وَخَمْسِينَ . وَلَمْ أَذْكَرْ ذَلِكَ  
 لِيُعْتَمَدَ عَلَيْهِ إِلَّا لِأَبِينِ أَنَّ الَّذِي جَنَحَ إِلَيْهِ السُّهَيْلِيُّ لَا يَنْبَغِي الْأَعْتِمَادُ عَلَيْهِ لِشِدَّةِ التَّخَالُفِ فِيهِ

(148/300)

" وَفِي الْجُمْلَةِ فَأَقْوَى مَا يُعْتَمَدُ فِي ذَلِكَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ الَّذِي أَشْرَتْ إِلَيْهِ قَبْلُ ،  
 وَقَدْ أَخْرَجَ مَعْمَرٌ فِي الْجَامِعِ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ مَعْمَرٌ : وَبَلَغَنِي عَنْ عِكْرِمَةَ  
 فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (70 : 4) قَالَ : " الدُّنْيَا مِنْ أَوْلَاهَا  
 إِلَى آخِرِهَا يَوْمٌ ، مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ لَا يَدْرِي كَمْ مَضَى وَلَا كَمْ بَقِيَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى " ،  
 وَقَدْ حَمَلَ بَعْضُ شُرَاحِ الْمَصَابِيحِ حَدِيثَ " لَنْ تَعْجِزَ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَنْ يُؤَخَّرَهَا نِصْفَ يَوْمٍ " عَلَى  
 حَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَزَيْفَهُ الطَّبِيبِيُّ فَأَصَابَ .



وَأَمَّا زِيَادَةُ جَعْفَرٍ فَهِيَ مَوْضُوعَةٌ لِأَنَّهَا لَا تُعْرَفُ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ وَهُوَ مَشْهُورٌ بِوَضْعِ الْحَدِيثِ ،  
وَقَدْ كَذَّبَهُ الْأَئِمَّةُ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ سَنَدُهُ بِذَلِكَ ، فَالْعَجَبُ مِنَ السُّهَيْلِيِّ كَيْفَ سَكَتَ عَنْهُ مَعَ  
مَعْرِفَتِهِ بِحَالِهِ . وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ اهـ . سِيَاقُ الْحَافِظِ ابْنِ حَجْرٍ كُلُّهُ .

يَقُولُ مُحَمَّدٌ رَشِيدٌ : أَمَّا زِيَادَةُ جَعْفَرِ أَبِي ابْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ عَلَى حَدِيثِ ابْنِ زَمَلٍ فِي عُمَرِ  
الدُّبِّيِّ فَهُوَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ حَدِيثِ الْيَوْمِ وَنِصْفِ الْيَوْمِ فِي عُمَرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ

(149/300)

---

فَهُوَ مَوْضُوعٌ ، جَمَعَ السُّيُوطِيُّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ ابْنِ زَمَلٍ الْمَجْهُولِ الَّذِي حَكَمَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ  
بِوَضْعِهِ ، وَمَزَجَهَا بِسَائِرِ الرَّوَايَاتِ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَلَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ يُؤَيِّدُ مُرَادَهُ ، فَكَانَ  
رِسَالَتَهُ كُلَّهَا مُسْتَنْبَطَةً مِنَ الْخَبْرَيْنِ الْمَوْضُوعَيْنِ أَبِي الْمَكْذُوبِ وَبَيْنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَتَأَمَّلْ هَذَاكَ اللَّهُ تَعَالَى مَا يَفْعَلُ الْغُرُورُ بِظَوَاهِرِ الرَّوَايَاتِ حَتَّى فِي أَنْفُسِ  
الْمُسْتَعْلِينَ بِالْحَدِيثِ كَالسُّيُوطِيِّ الَّذِي عُدَّ مِنَ الْحَفَاطِ ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ زَمِيلُهُ السَّخَاوِيُّ ،  
وَكِلَاهُمَا مِنْ تَلَامِيذِ الْحَافِظِ ابْنِ حَجْرٍ .

(150/300)

وَقَدْ عَلِمَ مِمَّا ذَكَرَهُ الْحَافِظُ هُنَا أَنَّ بَطْلِي الْأِسْرَائِيلِيَّاتِ وَيَنْبُوَعِي الْخُرَافَاتِ كَعَبِ الْأَحْبَارِ  
وَوَهْبِ بْنِ مَنبَهٍ قَدْ بَتَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خُرَافَةً تَحْدِيدَ عُمَرِ الدُّنْيَا ، وَلَيْسَ أَصْلُهُ مِنْ  
مُخْتَرَعَاتِهِمَا فَهُوَ مَوْجُودٌ فِي كِتَابِ الْيَهُودِ حَتَّى فِيمَا يُسَمُّونَهُ التَّوْرَةَ ، وَلَكِنَّهُ فِيهَا سَبْعَةُ آلَافٍ  
فَجَعَلَاهُ سِتَّةَ آلَافٍ غِشًّا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَمَا يَدْرِينَا أَنَّ كُلَّ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ أَوْ الْمَوْقُوفَةِ مِنْهَا تَرْجِعُ  
إِلَيْهِمَا ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - لَمْ يَكُونُوا يَذْكُرُونَ مَا يَسْمَعُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ  
وَمِنَ التَّابِعِينَ عَلَى سَبِيلِ الرِّوَايَةِ وَالتَّنْقِلِ ، بَلْ يَذْكُرُونَهُ بِالْمُنَاسَبَاتِ مِنْ غَيْرِ عَزْوٍ غَالِبًا ، وَكَثِيرٌ  
مِنَ التَّابِعِينَ كَذَلِكَ ، بَلْ أَكْثَرُ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَلِذَلِكَ رُوِيَ أَكْثَرُهُ عَنْهُ بِالْعُنْعُنَةِ أَوْ بِقَوْلِهِ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَأَقْلَهُ بَلْفِظٍ " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ كَذَا ،  
وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَعَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ ، وَبَتَّ أَنَّهُ رُوِيَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ .  
وَمِنْ هُنَا نَجْزِمُ بِأَنَّ مَوْقُوفَاتِ الصَّحَابَةِ الَّتِي لَا مَجَالَ فِيهَا لِلْجَهَادِ وَالرَّأْيِ لَا يَكُونُ لَهَا قُوَّةُ  
الْمَرْفُوعِ كَمَا قَالَ الْمُحَدِّثُونَ إِلَّا إِذَا كَانَتْ لَيْسَتْ مِنْ قَبِيلِ الْأِسْرَائِيلِيَّاتِ .

وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي مَسْأَلَةِ قُرْبِ السَّاعَةِ بَعْدَ السُّيُوطِيِّ كَثِيرُونَ ، وَبَعْضُهُمْ فِيهَا مُصَنَّفَاتٌ كِبْهَجَةٌ  
النَّاظِرِينَ وَالْإِشَاعَةَ وَمِنْهُمْ الْعَلَّامَةُ السَّفَّارِينِيُّ فِي كُتُبِهِ ، وَالسَّيِّدُ ابْنُ الْأَمِيرِ الْيَمِينِيِّ وَالسَّيِّدُ  
أَبُو الطَّيِّبِ صَدِيقُ حَسَنِ خَانَ فِي كُتُبِهِ وَمِنْهَا كِتَابُ (الْإِذَاعَةُ لَمَّا كَانَ وَمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْ  
السَّاعَةِ) وَكَانَ مُعَاصِرًا لِلسَّيِّدِ مُحَمَّدِ الْاَلُوسِيِّ صَاحِبِ تَفْسِيرِ (رُوحِ الْمَعَانِي) وَقَدْ نُقِلَ  
عَنْ ابْنِ الْأَمِيرِ وَعَنْ الْحَافِظِ ابْنِ حَجَرَ . وَقَدْ لَخَّصَ ابْنُ الْأَمِيرِ كَلَامَ ابْنِ جَرِيرٍ وَمَا أوردَهُ  
عَلَيْهِ ابْنُ حَجَرَ ، ثُمَّ أوردَ خُلَاصَةَ كَلَامِ السُّيُوطِيِّ وردَهُ ، وَذَكَرَ أَنَّ الْحَقَّ الْوَاقِعَ يُخَالِفُهُ -  
وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْاَلُوسِيُّ بَعْدَهُ إِشَارَةً - وَهَآكِ مَا نَقَلَهُ

عَنْهُ صَاحِبُ الْإِذَاعَةِ السَّيِّدُ أَبُو الطَّيِّبِ صَدِيقُ حَسَنِ خَانَ الْمُعَاصِرُ لِلْاَلُوسِيِّ فِي هَذَا  
عَقِبَ مَا نَقَلَهُ مِنْ تَعْقِيبِ الْحَافِظِ عَلِيِّ ابْنِ جَرِيرٍ قَالَ : (قُلْتُ) : لَمَّا تَقَارَبَ انْخِرَامُ الْقُرْنِ  
التَّاسِعِ ذَكَرَ الْحَافِظُ السُّيُوطِيُّ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ فِي  
شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ وَمَعَهُ وَرَقَةٌ حَاصِلٌ مَا فِيهَا الْاِعْتِمَادُ عَلَى حَدِيثِ

(152/300)

---

أَنَّهُ لَا يَلْبِثُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي قَبْرِهِ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَأَنَّهُ أَفْتَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ  
اِعْتِمَادًا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ بَأَنَّ فِي الْمِائَةِ الْعَاشِرَةِ خُرُوجَ الْمُهَدِيِّ وَالِدِ الْجَالِ ، وَنُزُولُ

عيسى وسائر الآيات من أشرط الساعة، ثم قال السيوطي: على أن هذا الحديث باطل، وأطال الكلام في صدر رسالته التي سماها (الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف) ثم ذكر أن الذي دلت عليه الآثار أن هذه الأمة تزيد مدة بقائها في الدنيا على ألف سنة، وأنها لا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة، ثم اعتمد ما ذكره ابن جرير أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، قال: وذلك لأنه ورد من طرق أن مدة الدنيا من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة سبعة آلاف سنة، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث في آخر ألف السادس، وساق ما قدمناه من أدلة ابن جرير، بل قال وصحح ابن جرير هذا الأصل وعقده باباً. انتهى.

قال السيد الأمير (قلت) وما كان للسيوطي أن يعرض عن تعقبات الحافظ ابن حجر، بل كان يتعين عليه ذكرها وإقرارها أو ردّها، فإن تركه لها يوهم الناظر في كلامه وسكوته على تصحيح ابن جرير ليس كذلك كما عرفت.

(153/300)

---

"ثم استند السيوطي في جزمه ببقاء الأمة بعد ألف أقل من خمسمائة سنة إلى آثار ذكرها، منها ما أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال "يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة" وإلى أنه يلبث عيسى عليه السلام

أَرْبَعِينَ سَنَةً بَعْدَ قَتْلِهِ الدَّجَالَ ثُمَّ يَسْتَخْلَفُ رَجُلٌ مِنْ تَمِيمٍ يَبْقَى ثَلَاثَ سِنِينَ ، وَإِلَى أَنَّهُ يُبْقَى  
النَّاسُ بَعْدَ إِرْسَالِ اللَّهِ رِيحًا تَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِائَةَ سَنَةٍ لَا يَعْرِفُونَ  
دِينًا مِنَ الْأَدْيَانِ ، وَإِلَى أَنْ يَبِينَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعِينَ عَامًا ، وَإِلَى أَنَّهُ يُنْزَلُ عِيسَى عَلَى رَأْسِ مِائَةِ  
سَنَةٍ ، فَهَذِهِ مِائَةُ سَنَةٍ وَثَلَاثُ وَسِتُونَ سَنَةً ، وَنَحْنُ الْآنَ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ وَيُضَافُ إِلَيْهِ  
مِائَتَانِ وَثَلَاثُ وَسِتُونَ سَنَةً فَيَكُونُ الْجَمِيعُ 1460 وَعَلَى قَوْلِهِ إِنَّهُ لَا يَبْلُغُ خَمْسِمِائَةَ سَنَةٍ  
بَعْدَ الْأَلْفِ يَكُونُ مِنْهُ بَقَاءُ الْأُمَّةِ بَعْدَ الْأَلْفِ 1463 سَنَةً وَيُتَخَرَّجُ مِنْهُ أَنَّ خُرُوجَ الدَّجَالِ  
أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ فِتْنَتِهِ قَبْلَ انْحِرَامِ هَذِهِ الْمِائَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا وَهِيَ الْمِائَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ مِنْ  
الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنْتَهَى ، وَقَدْ تُوَفِّيَ ابْنُ الْأَمِيرِ سَنَةَ 1182 .

(154/300)

---

قَالَ صَاحِبُ الْإِدَاعَةِ : " أَقُولُ : وَقَدْ مَضَى إِلَى الْآنَ عَلَى الْأَلْفِ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَلَمْ  
يُظْهِرِ الْمُهَدِّيُّ ، وَلَمْ يُنْزَلِ عِيسَى وَلَمْ يُخْرَجِ الدَّجَالُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحِسَابَ لَيْسَ  
صَاحِبًا .

" ثُمَّ قَالَ السَّيِّدُ الْعَلَّامَةُ (قَلْتُ) : وَقَدْ أُخْرِجَ مُسْلِمٌ وَالْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا يَخْرُجُ  
الدَّجَالُ فَيَمُكِّثُ فِي أُمَّتِي أَرْبَعِينَ أَنْتَهَى ، هَكَذَا لَمْ يَتَمَيَّزِ الْعَدَدُ بِشَيْءٍ لَا بِالْأَيَّامِ ، وَلَا

بالشُّهُورِ ، وَلَا بِالسِّنِينَ ، فَلَوْ كَانَتْ سِنِينَ لَكَانَ ظُهُورُهُ مِنْ رَأْسِ سِتِّينَ مِنْ هَذَا الْقُرْنِ ، إِلَّا أَنَّهُ  
قَدْ ثَبَتَ

(155/300)

عِنْدَ أَحْمَدَ وَأَبْنِ خُزَيْمَةَ وَأَبِي يَعْلَى وَالْحَاكِمِ تَعْيِينَ الْأَرْبَعِينَ بَلِيَّةً ، فَهِيَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، وَقَالَ "   
يَوْمٌ مِنْهَا كَالسَّنَةِ ، وَيَوْمٌ كَالشَّهْرِ ، وَيَوْمٌ كَالْجُمُعَةِ ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ " وَعَلَى هَذَا يَكُونُ   
خُرُوجُهُ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ مِنْ هَذَا الْقُرْنِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ ، وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ لِتَمَّ نَزُولُ   
عِيسَى فِي رَأْسِهَا وَيَبْقَى عِيسَى مِنَ الْقُرْنِ الثَّلَاثِ عَشَرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَخَلِيفَتُهُ ثَلَاثَ سِنِينَ ،   
ثُمَّ تَطْلُعُ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا وَيَبْقَى النَّاسُ مِائَةً وَعِشْرِينَ بَعْدَ طُلُوعِهَا ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمِائَةَ   
الَّتِي يَبْقَى النَّاسُ فِيهَا لَا يَعْرِفُونَ دِينًا هِيَ مِنْ هَذِهِ الْمِائَةِ وَالْعِشْرِينَ . هَذَا خُلَاصَةٌ كَلَامِ   
السُّيُوطِيِّ فِي رِسَالَةِ الْكَشْفِ ، وَفِيهِ مَا عَرَفْتَ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيَّ مَا ذَكَرَهُ بِأَثَارٍ عَنِ السَّلَفِ   
كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا لَا تَقَالُ مِنْ قَبْلِ الرَّأْيِ فَلَهَا حُكْمُ الرَّفْعِ .   
(ثُمَّ قَالَ) : وَإِذَا أَحْطَتْ عِلْمًا بِجَمِيعِ مَا سُقِنَاهُ عَلِمْتَ بِأَنَّ الْقَوْلَ يَتَعَيَّنُ مُدَّةَ الدُّنْيَا مِنْ أَوْلَاهَا   
إِلَى آخِرِهَا بِأَنَّهُ سَبْعَةُ أَلْفِ سَنَةٍ لَمْ يُثَبِّتْ فِيهِ نَصٌّ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ ، وَغَايَةُ مَا فِيهِ أَثَارٌ عَنِ

السَّلفِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تُقَالُ إِلَّا عَنْ تَوْقِيفٍ فَلَعَلَّهَا مَا خُوذَتْ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَفِي  
أَسَانِيدِهَا مَقَالٌ ، وَقَدْ عَلِمَ تَغْيِيرُهُمْ لِمَا لَدَيْهِمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَنْ رَسُولِهِ

(156/300)

---

وَأَهْلَ الْكِتَابِ ، هُمُ الْقَائِلُونَ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً (2 : 80) وَنَقَلَ عَنْهُمْ  
الْمُفَسِّرُونَ أَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ مُدَّةَ الدُّنْيَا سَبْعَةَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَأَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ بِكُلِّ أَلْفِ عَامٍ يَوْمًا مِنْ  
هَذِهِ الْأَيَّامِ ، فَإِنَّهُ أَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ الْمُنْذِرِ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبْرَانِيَّ وَالْوَاحِدِيَّ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ أَنَّ يَهُودًا كَانُوا يَقُولُونَ : مُدَّةُ الدُّنْيَا سَبْعَةَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَإِنَّمَا نُعَذَّبُ بِكُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ يَوْمًا  
وَاحِدًا مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا فِي النَّارِ ، وَإِنَّمَا هِيَ سَبْعَةُ أَيَّامٍ ثُمَّ يَنْقَطِعُ الْعَذَابُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى :  
وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً (20 : 80) . إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ  
(2 : 81) انْتَهَى وَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ فِيمَا قَالُوهُ .

(157/300)

---

وَلَعَلَّ هَذَا الَّذِي نَقَلَهُ عَنِ السَّلَفِ مِنَ الْأَثَارِ الَّتِي سُقْنَاهَا وَسَاقَهَا ابْنُ جَرِيرٍ وَالسُّيُوطِيُّ فِي  
رِسَالَةِ الْكُشْفِ مَا خُوذَتْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذْ لَمْ يَثْبُتْ نَصُّ بَيِّنَةٍ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
- بِأَنَّ مُدَّةَ الدُّنْيَا كَذَا ، عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْأَثَارَ الْقَاضِيَةَ بِأَنَّ مُدَّتَهَا سَبْعَةُ أَلْفِ سَنَةٍ مُعَارِضَةٌ  
لِمَا أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : فِي يَوْمٍ كَانَ  
مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (70 : 4) قَالَا : هِيَ الدُّنْيَا أَوَّلَهَا إِلَى آخِرِهَا يَوْمَ مِقْدَارِهِ  
خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْتَهَى . فَهَذِهِ الْأَثَارُ مُعَارِضَةٌ كَمَا تَرَى ، وَإِنَّمَا ثَبَتَ عَنْهُ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ بَعَثَهُ مِنْ آيِ قِيَامِ السَّاعَةِ . أَنْتَهَى كَلَامُ السَّيِّدِ الْعَلَّامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ  
إِسْمَاعِيلَ الْأَمِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ .

(قَالَ صَاحِبُ الْأِذَاعَةِ) : وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ مَرْعِيُّ فِي بَهْجَةِ النَّاطِرِينَ بَعْدَ ذِكْرِ قَوْلِ السُّيُوطِيِّ  
فِي رِسَالَةِ الْكُشْفِ مَا نَصَّهُ : وَهَذَا مَرْدُودٌ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ تَكَلَّمَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ ظَنٌّ  
وَحُسْبَانٌ لَا يَقُومُ عَلَيْهِ بُرْهَانٌ . أَنْتَهَى .

(158/300)

---

وَقَالَ فِي الْأَشَاعَةِ بَعْدَ ذِكْرِ قَوْلِ السُّيُوطِيِّ : الَّذِي فَهِمَ مِنَ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الْمُهْدِيَّ يَمُكُّثُ فِي  
الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَأَنَّ عَيْسَى يَمُكُّثُ . بَعْدَ الدَّجَالِ أَرْبَعِينَ سَنَةً كَمَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ عَنْ



أَبْنِ مَسْعُودٍ ، فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ فِي الْأَرْبَعِينَ بَعْدَ الدَّجَالِ ، وَأَنَّ بَعْدَ عَيْسَى يَتَوَلَّى أُمَّرَاءُ مِنْهُمْ  
الْقَحْطَانِي يَتَوَلَّى إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَيُفْرَضُ لِبَقِيَّتِهِمْ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ  
عِشْرِينَ سَنَةً أَيْضًا إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ ، فَهَذِهِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً ، وَمَرَّ أَنَّ الدَّجَالَ يَمُكُّ  
أَرْبَعِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ سِنِينَ فَلَا أَقَلَّ مِنْ مُقَدَّارِ سِتِّينَ لِأَنَّ أَيَّامَهُ طَوَالَ ، وَأَنَّ بَعْدَ طُلُوعِ  
الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا يَمُكُّ النَّاسُ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ

(159/300)

الشَّرَارَ بَعْدَ الْخِيَارِ عِشْرُونَ وَمِائَةً سَنَةً ، وَوَرَدَ أَيْضًا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَتَمَتَّعُونَ بَعْدَ طُلُوعِهَا  
أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يَسْرِعُ فِيهِمُ الْمَوْتُ فَهَذِهِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَعِشْرُونَ سَنَةً . وَقَدْ مَضَى بَعْدَ الْأَلْفِ  
قَرِيبٌ مِنْ ثَمَانِينَ ، فَهَذِهِ أَرْبَعُمِائَةٍ وَإِلَى تَمَامِ هَذِهِ الْمِائَةِ تُبْلَغُ أَرْبَعُمِائَةٍ وَثَلَاثِينَ . وَقَدْ مَرَّ عَنِ  
السُّيُوطِيِّ أَنَّهَا لَا تُبْلَغُ خَمْسُمِائَةٍ بَلْ أَخَذَ بَعْضُهُمْ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ  
تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً (47 : 18) وَقَوْلِهِ : لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً أَنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ سَنَةً 1407 فَإِنَّ عَدَدَ  
حُرُوفِ "بَغْتَةً" 1407 وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَيُحْتَمَلُ خُرُوجُ الْمَهْدِيِّ عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْمِائَةِ ،  
وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُتَأَخَّرَ لِلْمِائَةِ الثَّانِيَةِ ، وَلَا يَفُوتُهَا قَطْعًا ، وَإِذَا تَأَخَّرَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُبْعَثَ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ  
هَذِهِ الْمِائَةِ مَنْ يُجَدِّدُ لِلْأُمَّةِ أَمْرَ دِينِهَا ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ مَشْهُورٍ . وَهَذِهِ كُلُّهَا مَطْنُونَاتٌ

وَرَدَ بِهَا أَحَادُ الْأَخْبَارِ ، بَعْضُهَا صِحَاحٌ ، وَبَعْضُهَا حِسَانٌ وَبَعْضُهَا ضِعَافٌ مَعَ شَوَاهِدَ  
وَبَعْضُهَا بَغِيرِ شَوَاهِدَ ، وَغَايَةٌ مَا ثَبَتَ بِالْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ الْكَثِيرَةِ الشَّهِيرَةِ الَّتِي بَلَغَتْ  
التَّوَاتُرَ الْمَعْنَوِيَّ وَجُودَ الْآيَاتِ الْعِظَامِ الَّتِي أَوْلَاهَا خُرُوجُ الْمَهْدِيِّ ، وَأَنَّهُ يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ  
وَكْدِ فَاطِمَةٍ يَمَلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مِلَّتْ جُورًا ، وَأَنَّهُ يُقَاتِلُ الرُّومَ فِي الْمَلْحَمَةِ وَيَفْتَحُ  
الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ ،

(160/300)

وَيَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي زَمَنِهِ وَيَنْزِلُ عَيْسَى وَيُصَلِّي خَلْفَهُ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ كُلِّهِ أُمُورٌ مَظْنُونَةٌ أَوْ  
مَشْكُوكَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . انْتَهَى .

(أَقُولُ) : قَدْ عَلِمْتَ مِنْ هَذِهِ التَّقُولِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي عُمَرِ الدُّنْيَا حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ صَحِيحٌ ، وَلَا  
حَسَنٌ وَأَنَّ الرِّوَايَاتِ فِيهِ إِمَّا ضَعِيفَةٌ وَإِمَّا مَوْضُوعَةٌ ، وَأَنَّ الرَّاجِحَ أَنَّ كُلَّ مَا وَرَدَ فِيهَا مِنْ  
مَرْفُوعٍ وَمَوْقُوفٍ وَمِنْ الْأَثَارِ فَهُوَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي بَثَّهَا فِي الْأُمَّةِ كُتُبُ الْأَخْبَارِ وَوَهَبُ بْنُ  
مُنَبِّهٍ وَأُمَّثَالُهُمَا ، وَلَوْ فَطِنَ الْحَافِظُ ابْنَ حَجَرَ لَدَسَّاسِهِمَا وَخَطَأَ مِنْ عَدْلُهُمَا مِنْ رِجَالِ  
الْجَرِّحِ وَالتَّعْدِيلِ لَخَفَاءُ تَلْبِيسِهِمَا عَلَيْهِمْ لَكَانَ تَحْقِيقُهُ لِهَذَا الْبَحْثِ أَتَمًّا وَأَكْمَلًا .  
وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ حَكِيمُ الْإِسْلَامِ الْجَمَاعِيِّ ابْنُ خَلْدُونَ فِي مُقَدِّمَتِهِ عِنْدَ الْكَلَامِ فِي

أُتِدَاءِ الدُّوَلِ وَالْأُمَّمِ وَمَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا قَالَ: " فَكَانَ الْمُعْتَمَدُ فِي ذَلِكَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ  
أَثَارًا مَنْقُولَةً عَنِ الصَّحَابَةِ وَخُصُوصًا مُسَلِّمَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلَ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ  
مُنْبَهٍ وَأَمثالِهِمَا

وَرَبَّمَا اقْتَبَسُوا بَعْضَ ذَلِكَ مِنْ ظَوَاهِرِ مَا ثَوَّرَهُ وَتَأْوِيلَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ " ثُمَّ ذَكَرَ مَبَاحِثَ السُّهَيْلِيِّ  
فِي كَلَامِ الطَّبْرِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُغْنِي عَنْهُ مَا تَقَدَّمَ ، وَذَكَرَ أَيْضًا كَلَامَ الصُّوفِيَّةِ فِي ذَلِكَ  
وَوُجُوهَ كَذِبِ الْجَمِيعِ .

(161/300)

---

وَكَذَلِكَ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلِيُّ بْنُ حَزْمٍ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 456) لَمْ يُعْبَأْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ  
الرِّوَايَاتِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَلَى طُولِ بَاعِهِ وَسِعَةِ حِفْظِهِ لِلْأَثَارِ ، وَقَدْ سَبَقَ الْقَاضِي  
عِيَاضًا وَالْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ ، وَأَبْنُ خَلْدُونَ فِي رَفْضِهِ لِمَا قِيلَ فِي عُمَرِ الدُّنْيَا ،  
وَعَجِبْتُ كَيْفَ غَفَلَ الْحَافِظُ عَنْ إِيْرَادِ مَا قَالَهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَلَى سِعَةِ إِطْلَاعِهِ . قَالَ  
بَعْدَ ذِكْرِ مَا كَانَ يَقُولُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي بَدْءِ الْخَلِيقَةِ مَا نَصَّهُ : وَأَمَّا نَحْنُ - يَعْنِي  
الْمُسْلِمِينَ - فَلَا نَقْطَعُ عَلَى عِلْمٍ عَدَدًا مَعْرُوفًا عِنْدَنَا ، وَمَنْ ادَّعَى فِي ذَلِكَ سَبْعَةَ أَلْفِ سَنَةٍ  
أَوْ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ فَقَدْ قَالَ مَا لَمْ يَأْتِ قَطُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهِ لَفْظَةٌ

تَصِحُّ ، بَلْ صَحَّ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خِلَافُهُ ، بَلْ تَقَطَّعَ عَلَيَّ أَنْ لِدُنْيَا أَمَدًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى . قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ (18 : 51) وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : مَا أَنْتُمْ فِي الْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي النَّوْرِ الْأَسْوَدِ ، أَوِ الشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي النَّوْرِ الْأَبْيَضِ وَهَذِهِ نِسْبَةٌ مَنْ تَدَبَّرَهَا وَعَرَفَ مَقْدَارَ عَدَدِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، وَنِسْبَةٌ مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنْ مَعْمُورِ الْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ الْأَكْثَرُ - عَلَيَّ أَنْ لِدُنْيَا أَمَدًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ

(162/300)

عَلَيْهِ السَّلَامُ : بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَضُمَّ أُصْبُعِيهِ الْمُقَدَّسَتَيْنِ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى وَقَدْ جَاءَ النَّصُّ بِأَنَّ السَّاعَةَ لَا يَعْلَمُ مَتَى تَكُونُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى لَا أَحَدَ سِوَاهُ - فَصَحَّ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِنَّمَا عَنَى شِدَّةَ الْقُرْبِ لَا فَضْلَ الْوُسْطَى عَلَيَّ السَّبَّابَةَ ، إِذْ لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ لَأَخَذَتْ نِسْبَةُ مَا بَيْنَ الْأَصْبُعَيْنِ ، وَنَسَبَ مِنْ طُولِ الْأَصْبُعِ - فَكَانَ يَعْلَمُ بِذَلِكَ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ ، وَهَذَا بَاطِلٌ ، وَأَيْضًا فَكَانَ تَكُونُ نِسْبَتُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِيَّانَا إِلَى مَنْ قَبْلَنَا بِأَنَّ كَالشَّعْرَةِ فِي النَّوْرِ كَذِبًا ، وَمَعَاذَ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، فَصَحَّ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِنَّمَا أَرَادَ شِدَّةَ الْقُرْبِ . وَلَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُنْذُ بُعِثَ أَرْبَعِمِائَةَ عَامٍ وَيَتَفٍ ،

وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا يَتَّبِعِي لِلدُّنْيَا ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْعَدَدُ الْعَظِيمُ لَا نِسْبَةَ لَهُ عِنْدَمَا سَلَفَ لِقَلَّتِهِ  
وَتَفَاهَيْتِهِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا مَضَى فَهُوَ الَّذِي قَالَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ أَنَا فِيمَنْ  
مَضَى كَالشَّعْرَةِ فِي الثَّوْرِ أَوِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ أَوْ كَلَامِ ابْنِ حَزْمٍ .

(163/300)

وَأَقُولُ : هَذَا كَلَامُ الْأُمَّةِ الْمُحَقِّقِينَ ، فَالَّذِينَ حَاوَلُوا تَحْدِيدَ عُمُرِ الدُّنْيَا وَمَعْرِفَةَ وَقْتِ قِيَامِ  
السَّاعَةِ إِرْضَاءً شَهْوَةَ الْإِتْيَانِ بِمَا يُهْمُ جَمِيعَ النَّاسِ ، لَمْ يَشْعُرُوا بِأَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ تَكْذِيبَ آيَاتِ  
الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةِ النَّاطِقَةِ بِأَنَّ السَّاعَةَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ  
تَعَالَى بِهِ ، وَأَنَّهَا تَأْتِيهِمْ بَعْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ - أَيُّ عَلَى غَيْرِ أَنْتَظَارٍ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا أَدْنَى  
عِلْمٍ . وَهَذَا الْبَلَاءُ كُلُّهُ مِنْ

(164/300)

دَسَائِسِ رُؤَاةِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَتَلْبِيسِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ وَالصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى ،  
وَمِنْ وَضَعِ بَعْضِ الْأَصْطِلَاحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، كَكُؤُنِ كَثْرَةِ الرِّوَايَاتِ الضَّعِيفَةِ

يُقَوِّي بَعْضَهَا بَعْضًا ، فَإِنَّ هَذَا إِنَّمَا يَصِحُّ فِي الْمَسَائِلِ الَّتِي لَا يُحْتَمَلُ إِرْجَاعُهَا إِلَى مَصْدَرٍ  
وَاحِدٍ يُعْنَى بِنَشْرِهَا وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا ، كَمَسْأَلَةِ الْمُهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ مَذْهَبٍ  
سِيَاسِيٍّ كَسَيِّ ثَوْبِ الدِّينِ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ رِوَايَاتِهِ لَا تَحُلُوْا سَانِدُهَا مِنْ شِيعِيٍّ ، وَأَنَّ الزَّنَادِقَةَ  
كَانُوا يُبْشِرُونَ الدَّعْوَةَ إِلَى ذَلِكَ تَمْهِيدًا لِسَلْبِ سُلْطَانِ الْعَرَبِ ، وَإِعَادَةِ مُلْكِ الْفُرْسِ ؟ وَكَكُونِ  
كَلَامِ الصَّحَابِيِّ فِيمَا لَا مَجَالَ لِلرَّأْيِ وَالْإِجْتِهَادِ فِيهِ لَهُ حُكْمُ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ إِلَى النَّبِيِّ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَيَجِبُ تَقْيِيدُ هَذَا فِيمَا لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ،  
وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْعَلَمَاءُ الْمُجْتَهِدُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَمِيرِيُّ فِي مَوْضُوعِنَا هَذَا كَمَا رَأَيْتَ  
أَنفًا .

هَذَا وَإِنْ لَمْ تَقْدِمِي أُمَّمَ الْحَضَارَةِ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْهُنُودِ وَالصِّينِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ أَقْوَالًا فِي عُمُرِ الدُّنْيَا  
وَتَارِيخِ الْبَشَرِ الْمَاضِي تَذَكُّرُ فِيهِ الْأَرْقَامُ بِالْوَفِّ السِّنِّينَ وَالْوَفِّ الْأَلُوفِ ، وَقَدْ بَنِي بَعْضُهُ عَلَى  
رِوَايَاتٍ مَا تُورَثُهُ عَنْ قَدَمَائِهِمْ ، وَبَعْضُهُ عَلَى اصْطِلَاحَاتٍ فَلَكَيَّةٍ وَأَوْهَامٍ تَنْجِيمِيَّةٍ لَا تَقِيدُ  
عِلْمًا صَحِيحًا .

(165/300)

---

وَأَمَّا عُلَمَاءُ الْكُونِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَلَهُمْ مَنَهِجٌ فِي عُمُرِ الْأَرْضِ الْمَاضِي، وَمَنْهَجٌ آخَرٌ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ وَأَثَارِهِمْ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ: مِنْهَجَانِ عِلْمِيَّانِ مُبْنِيَّانِ عَلَى مَا عُرِفَ بِالْحَفْرِ مِنْ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ، وَمَا كُشِفَ مِنْ أَثَارِ أَعْمَالِ الْبَشَرِ، وَمِنْ عِظَامِ مَوْتَاهُمْ وَرُفَاتِهِمْ، وَهُمْ يَجْزُمُونَ أَنَّ عُمُرَ الدُّنْيَا الْمَاضِي يُعَدُّ بِالْوَفِّ الْأَلْوَفِّ مِنَ السِّنِينَ، وَقَدْ وَجِدَتْ أَثَارُ الْبَشَرِ فِيهَا مِنْذُ مِائَاتِ الْأَلْوَفِّ مِنْهَا، وَذَلِكَ يَنْتُضُ مَا فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَنْتُضُ مِنَ الْقُرْآنِ كَلِمَةٌ وَلَا حَرْفًا وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (4): (82) وَكَذَلِكَ أَحَادِيثُ الرَّسُولِ الْقَطْعِيَّةُ أَوِ الصَّحِيحَةُ الْقَرِيبَةُ مِنَ الْقَطْعِيَّةِ، الَّتِي لَا شُبُهَةَ فِيهَا لِلدَّسَائِسِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ، وَلَا لِلْمَكَايِدِ الْفَارِسِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ. وَإِنَّا نَتَمُّ هَذَا الْبَحْثَ بِفَصْلِ وَجِيزٍ فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَأَمَارَاتِهَا؛ لِأَنَّ الْمَمْنَانَ فِي هَذَا الْفَصْلِ بِذِكْرِ أَهْمِهَا، وَفِيهَا الشُّبُهَاتُ مَا فِي مَسْأَلَةِ عُمُرِ الدُّنْيَا، وَقِيَامِ السَّاعَةِ الَّتِي هِيَ أَمَارَاتُهَا فَتَقُولُ:

أَشْرَاطُ السَّاعَةِ وَأَمَارَاتُهَا:

(166/300)

---

إِنَّ لِّلسَّاعَةِ أَشْرَاطًا ثَبَّتَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ تَعَالَى: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ (47: 18) الْأَشْرَاطُ جَمْعُ

شَرَطِ بِفَتْحَتَيْنِ ، كَأَسْبَابِ جَمْعِ سَبَبٍ ، وَهِيَ الْعَلَامَاتُ وَالْأَمَارَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى قُرْبِهَا  
وَأَعْظَمُهَا بَعْثَةُ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، بِآخِرِ هِدَايَةِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ لِأَنَّ بَعْثَهُ - صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ كَمَلَ بِهَا الدِّينُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ (5 : 3)  
وَبِكَمَالِهِ تَكْمُلُ الْحَيَاةُ

(167/300)

---

الْبَشَرِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ ، وَيَتْلُوهَا كَمَالُ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَادِيَّةِ ، وَمَا بَعْدَ الْكَمَالِ إِلَّا الزَّوَالُ لِأَنَّ  
الْبَقَاءَ فِي هَذَا الْعَالَمِ مُحَالٌ . وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ نَبِيَّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَبِيُّ السَّاعَةِ  
وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ الصَّحِيحِينَ بَعَثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ أُخْرَى فِي  
أَشْرَاطِ السَّاعَةِ يَدُلُّ بَعْضُهَا عَلَى أَنَّ الشَّهَوَاتِ الْمَادِيَّةَ تَتَنَازَعُ مَعَ الْهِدَايَةِ الرُّوحِيَّةِ ، فَيَكُونُ  
لَهَا الْغَلْبُ زَمَنًا ثُمَّ تُنْتَصِرُ الْهِدَايَةُ الرُّوحِيَّةُ زَمَنًا قَصِيرًا ، ثُمَّ يَغْلِبُ الضَّلَالُ وَالشَّرُّ وَالْفُجُورُ  
وَالْكَفْرُ ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ ، وَلَكِنْ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ اخْتِلَافًا  
وَتَعَارُضًا ، وَمَا يَنَافِي حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِخْفَائِهَا ، وَعَدَمِ إِطْلَاعِ الْخَلْقِ عَلَى وَقْتِهَا ،  
وَبَعْضُهَا ظَاهِرٌ فِي قُرْبِ قِيَامِ سَاعَةِ دَوْلَةِ الْعَرَبِ أَوْ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ .

(168/300)



---

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْوَارِدَةِ فِي إِقْبَالِ الدُّنْيَا وَسَعَتِهَا مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ حَدِيثُ  
جَبْرِيلَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وَفِيهِ أَنَّ  
جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا جَاءَ فِي صِفَةِ رَجُلٍ غَرِيبٍ ، وَسَأَلَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
- عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ لِيُعَلِّمَ الصَّحَابَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كَيْفَ يَسْأَلُونَ عَنْ  
دِينِهِمْ - ثُمَّ سَأَلَهُ عَنِ السَّاعَةِ قَالَ " فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ ؟ قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا . قَالَ : أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا  
، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ " وَرَوَى هَذَا السُّؤَالَ وَحْدَهُ  
أَبْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ خَالِيٍّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : " كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ فَاتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَقَالَ : مَا  
الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ، وَلَكِنْ سَأَحْدُثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا : إِذَا وَكَدَتِ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا  
فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ

الْحَفَاةُ الْعُرَاةُ رِعَاءُ الشَّاءِ رُؤُوسِ النَّاسِ فَذَلِكَ مِنْ أَسْرَاطِهَا ، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْغَنَمِ فِي  
الْبُنْيَانِ فَذَلِكَ مِنْ أَسْرَاطِهَا " قِيلَ : مَعْنَى وِلَادَةِ الْأُمَّةِ رَبَّتَهَا كَثْرَةُ السَّرَّارِيِّ وَأَوْلَادِ السَّبَّابِيَا -  
وَكَانَ لِهَذَا طَوْرٌ عَظِيمٌ فِي الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ - وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّ الْمُلُوكَ وَالْأُمَرَاءَ يَكُونُونَ  
مِنْ أَوْلَادِ السَّرَّارِيِّ لَا مِنْ أَوْلَادِ بَنَاتِ الْبُيُوتَاتِ الْعَرِيقَةِ فِي حُسْنِ التَّرْبِيَةِ وَعِلْمِ الْأَخْلَاقِ ،  
وَالْمُرَادُ بِصَيْرُورَةِ رِعَاءٍ (بِالْهَمْزَةِ) أَيُّ رِعَاةِ الْغَنَمِ وَأَهْلِ الْبَدَاوَةِ مِنْ أَصْحَابِ الثَّرْوَةِ وَالْبَذَخِ  
وَالْقُصُورِ الْعَالِيَةِ ، أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ رُؤَسَاءٌ لِلنَّاسِ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ،  
وَهَذَا قَدْ ظَهَرَ أَيْضًا فِي أُمَّتِنَا وَفِي غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَّمِ ، وَصَارَ بَعْضُ تَسْوُدِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ  
وَأُمَّتِهِمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَعْدُودًا فِي مَنَاقِبِهِ بَعْدَ فَسَادِ تَرْبِيَةِ كَثِيرٍ مِنْ أَسْرِ الْأَشْرَافِ  
وَالنُّبَلَاءِ وَاسْتِعْلَائِهِمْ عَلَى النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَكَانَ هَذَا مِنْ أَمَارَاتِ زَوَالِ الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ  
الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَهُوَ يَظْهَرُ فِي عِلَامَاتِ السَّاعَةِ الْخَاصَّةِ لَا الْعَامَّةِ .  
وَأَجْمَعَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةَ السَّنَدِ فِيمَا يَكُونُ قَبْلَ السَّاعَةِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ  
أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَرَوَى هُوَ وَغَيْرُهُ مَا ذَكَرَ فِيهِ فِي أَحَادِيثِ أُخْرَى مُفَصَّلَةً وَهَذَا نَصُّهُ عَنْ أَبِي  
هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا .

"لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَلَ فِتْنَانِ عَظِيمَتَانِ تَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ دَعَوَتْهَا وَاحِدَةٌ،  
وَحَتَّى يُبْعَثَ دَجَالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كَلْهَمٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ  
اللَّهِ، وَحَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ وَتَظْهَرَ  
الْفِتْنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ وَهُوَ الْقَتْلُ، وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ  
رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّى يَطَّوَّلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ، وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ  
الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ، وَحَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ  
أَمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا  
خَيْرًا (6: 158) وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ  
، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لُقْحَمَةٍ فَلَا يَطْعُمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيظُ  
حَوْضَهُ فَلَا يُسْتَقَى فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهَا " وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُ  
هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ .

(171/300)

---

وَفِي الْأَحَادِيثِ أَشْرَاطٌ وَأَمَارَاتٌ أُخْرَى بَعْضُهَا صَارَ عَادِيًّا، وَبَعْضُهَا غَرِيبًا، وَيَقُولُ  
عُلَمَاؤُنَا إِنَّ مِنْهُ مَا وَقَعَ، وَبَاقِيهِ يُتَوَقَّعُ، وَفِيهَا تَعَارُضٌ وَتَنَاقُضٌ وَمُشْكَلَاتٌ حَارَ الْعُلَمَاءُ فِي

الْجَمْعُ بَيْنَهَا ، وَإِنِّي أَتَكَلَّمُ عَنْهُ كَلَامًا إِجْمَالِيًّا عَامًّا ، وَأَبْسُطُ الْكَلَامَ فِي أَهْمَهَا بَسْطًا  
خَاصًّا ، وَلَا سِيَّمَا أَحَادِيثَ الدَّجَالِ وَالْمَهْدِيِّ ، فَالْقَلْبُ لَهُ السَّمْعُ وَوَجْهُهُ إِلَيْهِ النَّظَرُ ، فَهُوَ يُجَلِّي  
الْعِبْرَةَ لِمَنْ اعْتَبَرَ .

(نَظْرَةٌ فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَتَقَاسِيمِهَا وَمُشْكَلَاتِهَا)

(172/300)

---

اعْلَمُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ دِينِهِ ، أَنْ فِي رَوَايَاتِ الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ  
السَّاعَةِ مِنَ الْمُسْكَلَاتِ وَالتَّعَارُضِ مَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْرِفَهُ وَلَوْ إِجْمَالًا ، حَتَّى لَا تَكُونَ مُقَدِّمًا  
لِمَنْ يُظُنُّونَ أَنَّ كُلَّ مَا يَعْتَمِدُهُ أَصْحَابُ النَّقْلِ حَقٌّ ، وَلَا لِمَنْ يُظُنُّونَ أَنَّ كُلَّ مَا يَقُولُهُ أَصْحَابُ  
النَّظَرِيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ حَقٌّ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ  
أَحْسَنَهُ (39 : 17 ، 18) الْآيَةَ . وَقَالَ لِخَاتَمِ رُسُلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : قُلْ  
هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي (12 : 108) وَإِنِّي أُبَيِّنُ فِيهِ مَا  
يُطْمَئِنُّ بِهِ قَلْبُ الْقَانِعِ بِالْإِجْمَاعِ ، وَيُنْفَعُ بَابَ التَّحْقِيقِ لِطَالِبِ التَّفْصِيلِ ، فَأَقُولُ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ  
جَعَلُوا مَا رُويَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَأَمَارَاتِهَا ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : مَا وَقَعَ بِالْفِعْلِ مِنْذُ قُرُونٍ خَلَتْ  
إِلَى زَمَنِ كُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ عَدُّوه عَدًّا - وَمَا وَقَعَ بَعْضُهُ وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي

ازديادِ كالفنِّ والفسوقِ وكثرةِ الزنا وكثرةِ الدجالين وكثرةِ النساءِ وتشبههن بالرجالِ والكفرِ  
والشركِ حتى في بلادِ العربِ ، وما سيقعُ بينَ يدي الساعةِ مِنَ العلاماتِ الصغرى والكبرى  
- ومن الأولى قتالُ اليهودِ وفتحُ بيتِ المقدسِ والقسطنطينيةِ .

(173/300)

وتنقسمُ باعتبارِ آخرِ إلى ما عهدَ ويُعهدُ مثلهُ في كلِّ الأممِ مِنَ الفنِّ والقتالِ وسعةِ الدنيا  
وضيقها ، وقيامِ الدولِ وسقوطها ، والفسقِ من زنا ولواطٍ وسكرٍ ، إلخ . والأوبئةُ والزلازلُ  
وهذا لا يشعرُ جماهيرُ الناسِ بأنَّ له علاقةً ما بقيامِ الساعةِ الكبرى ، وإلى ما هو غريبٌ  
غيرُ مألوفٍ كظهورِ يأجوجَ ومأجوجَ والدجالِ والمهديِّ والمسيحِ وطلوعِ الشمسِ من  
مغربها ، وأمَّا الزلازلُ والخسوفُ وظهورُ النجومِ ذواتِ الأذنانِ أو الأذيالِ ، فقد صارتُ من  
الأُمورِ المعتادةِ المعروفةِ بينَ الناسِ .

وباعتبارِ ثالثٍ إلى ما هو علامةٌ على قيامِ ساعةِ الجيلِ أو الدولةِ ، كذهابِ الأمانةِ وتوسيدِ  
الأمرِ إلى غيرِ أهلهِ ، وما هو آيةٌ على قربِ الساعةِ العامةِ الكبرى .

ويردُّ مِنَ الأشكالِ على ما ذكرنا أنَّ ما وردَ مِنَ الأَشْرَاطِ الصغرى المعتادِ مثلها ، التي تقعُ  
عادةً بالتدريجِ لا يذكُرُ بقيامِ الساعةِ ، ولا تحصلُ به الفائدةُ التي من أجلها

أَخْبَرَ الشَّارِعُ بِقُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ - وَأَنَّ مَا وَرَدَ مِنَ الْأَشْرَاطِ الْكُبْرَى الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ يَضَعُ  
الْعَالَمَ بِهِ فِي مَأْمَنٍ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ قَبْلَ وَقُوعِهَا كُلِّهَا ، فَهُوَ مَانِعٌ مِنْ حُصُولِ تِلْكَ الْفَائِدَةِ ،  
فَالْمُسْلِمُونَ الْمُنْتَظِرُونَ لَهَا يَعْلَمُونَ

(174/300)

أَنَّ لَهَا أَشْرَاطًا تَقَعُ بِالتَّدْرِيجِ ، فَهُمْ آمِنُونَ مِنْ مَجِيئِهَا بَعْتَةً فِي كُلِّ زَمَنٍ ، وَإِنَّمَا يَنْتَظِرُونَ قَبْلَهَا  
ظُهُورَ الدَّجَالِ وَالْمُهْدِيِّ وَالْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَهَذَا الْاِعْتِقَادُ لَا يُفِيدُ  
النَّاسَ مَوْعِظَةً وَلَا خَشْيَةً ، وَلَا اسْتِعْدَادًا لِذَلِكَ الْيَوْمِ أَوْ تِلْكَ السَّاعَةِ ، فَمَا فَائِدَةُ الْعِلْمِ بِهِ إِذَا  
؟ وَهَلْ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ تَكُونَ فَائِدَتُهَا مَحْصُورَةٌ فِي وَقُوعِ الرَّعْبِ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ يُشَاهِدُونَ  
هَذِهِ الْآيَاتِ الْكُبْرَى ، وَلَا سِيَّمَا آخِرَ آيَةٍ مِنْهَا ؟ وَكَيْفَ يَتَفَقَّ هَذَا وَمَا وَرَدَ مِنْ كَوْنِ كُلِّ  
رَسُولٍ كَانَ يُخَوِّفُ قَوْمَهُ وَيُنذِرُهُمُ السَّاعَةَ وَالْدَّجَالَ قَبْلَهَا ؟ وَكَيْفَ وَقَعَ هَذَا مِنْهُمْ وَلَمْ  
يُصَدِّقَهُ الْوَاقِعُ وَمِثْلُهُ لَا يَكُونُ بِمَحْضِ الرَّأْيِ ؟ وَهَلْ كَانَ نَبِينَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
يُرِيدُ بِالْإِخْبَارِ بِهَا تَأْمِينَ النَّاسِ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ مُدَّةَ قُرُونٍ كَثِيرَةٍ إِلَى أَنْ تَظْهَرَ هَذِهِ الْأَشْرَاطُ  
؟ أَمْ كَانَ يَتَوَقَّعُ ظُهُورَهَا بَعْدَهُ فِي قَرْنِهِ أَوْ فِيمَا يَقْرُبُ مِنْهُ كَثِيرُهُ مِنَ الرُّسُلِ بِدَلِيلِ مَا وَرَدَ مِنْ  
تَجْوِيزِهِ ظُهُورَ الدَّجَالِ فِي زَمَنِهِ ، وَتَصَدِيقِهِ مَا حَكَاهُ تَمِيمُ الدَّارِيُّ مِنْ خَبَرِ الْجَسَّاسَةِ ،

وَكُونِ الدَّجَالِ مَحْبُوسًا فِي جَزِيرَةٍ ؟ .  
الإشكالُ والاشتباهُ في رواياتِ الدَّجَالِ :

(175/300)

قَدْ تَقَدَّمَ مَا قَالَهُ ابْنُ الْجَوَازِيِّ مِنْ كَوْنِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يُقَدَّرُ فِي هَذِهِ  
الْمَسَائِلِ تَقْدِيرًا ؛ إِذْ لَمْ يُوحِ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَخْبَارَهَا تَفْصِيلًا ، وَعَدَّ مِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي  
احْتِمَالِ ظُهُورِ الدَّجَالِ فِي زَمَنِهِ .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ أَحَادِيثِ ابْنِ صَيَّادٍ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ : قَالَ الْعُلَمَاءُ وَقَصَّتْهُ مُشْكَلَةٌ  
وَأَمْرُهُ مُشْتَبِهٌ . . . وَظَاهِرُ الْأَحَادِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يُوحِ إِلَيْهِ بِأَنَّ  
الْمَسِيحَ الدَّجَالَ وَلَا غَيْرَهُ ، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ بِصِفَاتِ الدَّجَالِ وَكَانَ فِي ابْنِ صَيَّادٍ قِرَائِنٌ  
مُحْتَمَلَةٌ ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يَقْطَعُ بِأَنَّهُ الدَّجَالُ وَلَا غَيْرُهُ ؛ وَلِهَذَا  
قَالَ لِعُمَرَ : " إِنْ يَكُنْ هُوَ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ قَتْلَهُ " اهـ . وَلَا بَأْسَ بِيَبَانِ مَا أَسَارَ إِلَيْهِ النَّوَوِيُّ مِنْ  
الإشكالِ والاشتباهِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ .

إِنَّ أَحَادِيثَ الدَّجَالِ مُشْكَلَةٌ مِنْ وَجْهِ : أَحَدُهَا : مَا ذَكَرْنَا مِنْ مُنَافَاتِهَا لِحِكْمَةِ إِذْكَارِ  
الْقُرْآنِ النَّاسَ بِقُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ وَإِتْيَانِهَا بَغْتَةً .

ثَانِيهَا : مَا ذَكَرَ فِيهَا مِنَ الْخَوَارِجِ الَّتِي تُضَاهِي أَكْبَرَ الْآيَاتِ الَّتِي أُيِّدَ اللَّهُ بِهَا أَوْلِي الْعِزْمِ مِنَ  
الْمُرْسَلِينَ أَوْ تَفُوقَهَا ، وَتَعْدُ شُبُهَةً عَلَيْهَا كَمَا قَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ ، وَعَدَّ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ  
ذَلِكَ مِنْ بُدْعِهِمْ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ مَا آتَاهُمْ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَّا لِهِدَايَةِ خَلْقِهِ ، الَّتِي هِيَ  
مُقْتَضَى سَبْقِ رَحْمَتِهِ لِعُضْبِهِ ، فَكَيْفَ يُؤْتِي الدَّجَالَ أَكْبَرَ الْخَوَارِقِ لِفِتْنَةِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنْ  
عِبَادِهِ ؟ فَإِنَّ مِنْ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ يُظْهَرُ عَلَى الْأَرْضِ كُلِّهَا فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ،  
وَقَدْ رَوَى أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ عَنْ حَسَّانِ بْنِ عَطِيَّةٍ مِنْ ثِقَاتِ التَّابِعِينَ أَنَّهُ لَا يَنْجُو مِنْ فِتْنَةِ  
الدَّجَالِ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ رَجُلٍ وَسَبْعَةَ أَلْفِ امْرَأَةٍ . قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ . وَهَذَا لَا يُقَالُ  
مِنْ قَبْلِ الرَّأْيِ فَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا أُرْسِلَهُ ؛ وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَخْذَهُ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ  
الْكِتَابِ . وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمُخْتَارُ عِنْدِي .

ثَالِثُهَا : وَهُوَ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ مَا قَبْلَهُ ، أَنَّ مَا عَزَمِي إِلَيْهِ مِنَ الْخَوَارِقِ مُخَالَفٌ لِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي  
خَلْقِهِ ، وَقَدْ ثَبَتَ بِنُصُوصِ الْقُرْآنِ الْقَطْعِيَّةِ أَنَّهُ لَا تَبْدِيلَ لِسُنَّتِهِ تَعَالَى وَلَا تَحْوِيلَ . وَهَذِهِ  
الرِّوَايَاتُ الْمُضْطَرِبَةُ الْمُتَعَارِضَةُ لَا تَصْلُحُ لِتَحْصِيصِ هَذِهِ النُّصُوصِ الْقَطْعِيَّةِ وَلَا لِمُعَارَضَتِهَا



رَابِعُهَا : اِسْتِمَالُ بَعْضِ هَذِهِ الْاَحَادِيثِ عَلٰى مُخَالَفَةِ بَعْضِ الْقَطْعِيَّاتِ الْاُخْرٰى مِنَ الدِّينِ  
كَتَخْلُفِ اَخْبَارِ الرَّسُلِ اَوْ كَوْنِهَا عِبْتًا وَاِقْرَارِهِمْ عَلٰى الْبَاطِلِ وَهُوَ مُحَالٌ فِي حَقِّهِمْ .  
خَامِسُهَا : اَنَّهَا مُتَعَارِضَةٌ تَعَارُضًا كَثِيرًا يُوْجِبُ تَسَاقُطَهَا كَمَا تَرٰى فِيمَا يَلِي . فَمِنْ ذَلِكَ  
التَّعَارُضِ اَنْ بَعْضَهَا يُصْرِحُ بِاَنَّهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَرٰى مِنَ الْمُحْتَمَلِ ظُهُورَ  
الدَّجَالِ فِي زَمَانِهِ ، وَاَنَّهُ يَكْفِي الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ شَرَّهُ ، وَبَعْضَهَا يُصْرِحُ بِاَنَّهُ يَخْرُجُ بَعْدَ فَتْحِ  
الْمُسْلِمِينَ لِبِلَادِ الرُّومِ وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ (وَمِنْهُ) اَنَّهُ كَانَ يَشْكُ فِي ابْنِ صَيَّادٍ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ  
هَلْ هُوَ الدَّجَالُ اَمْ لَا ؟ وَاَنَّهُ وَصَفَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الدَّجَالَ بِصِفَاتٍ لَا تَنْطَبِقُ  
عَلٰى ابْنِ صَيَّادٍ كَمَا قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِابِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - .  
وَمِنْ التَّعَارُضِ اَيْضًا اَنَّهُ يُصْرِحُ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ بِاَنَّهُ يَكُونُ مَعَهُ (اَيِ الدَّجَالِ) جَبَلٌ اَوْ جِبَالٌ  
مِنْ خُبْزٍ وَنَهْرٌ اَوْ اَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ وَعَسَلٍ ، كَمَا رَوَاهُ اَحْمَدُ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْبَعْثِ عَنْ رَجُلٍ مِنَ  
الْاَنْصَارِ ، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بِسَنَدٍ رِجَالٍ ثِقَاتٍ مَعَ

مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: " مَا سَأَلَ أَحَدُ النَّبِيِّ  
 - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الدَّجَالِ مَا سَأَلْتُهُ ، وَإِنَّهُ قَالَ لِي : مَا يَضُرُّكَ مِنْهُ ؟ قُلْتُ :  
 لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ مَعَهُ جَبَلٌ خُبْزٍ وَنَهْرٌ مَاءٍ . قَالَ : " بَلْ هُوَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ " وَفِي رِوَايَةٍ  
 مُسْلِمٍ " يَقُولُونَ إِنَّ مَعَهُ جَبَالَ خُبْزٍ وَلَحْمٍ وَنَهْرًا مِنْ مَاءٍ " وَقَدْ أَوْلُوا هَذَا التَّصْحِيحَ ذَاكَ ،  
 وَيَأْتِي قَوْلُ جَابِرٍ : " يَقُولُونَ إِنَّ مَعَهُ كَذَا وَكَذَا وَلَمْ يَقُلْ : إِنَّكَ قُلْتَ هَذَا .  
 وَمِنَ التَّعَارُضِ أَيْضًا مَا وَرَدَ مِنْ اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ فِي بَعْضِ  
 الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ عَلَى الْإِبْهَامِ . وَفِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ عِنْدَ  
 مُسْلِمٍ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ . وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لِمُسْلِمٍ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ  
 أَصْبَهَانَ ، وَفِي حَدِيثِ الْجَسَّاسَةِ عِنْدَهُ أَنَّهُ مَحْبُوسٌ بِدَيْرٍ أَوْ قَصْرِ فِي جَزِيرَةِ بَحْرِ الشَّامِ -  
 أَيْ الْبَحْرِ الْمَوْسَطِ وَهُوَ فِي الشَّمَالِ - أَوْ بَحْرِ الْيَمِينِ وَهُوَ فِي الْجَنُوبِ وَأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا ،  
 وَرَوَى أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ خُرَّاسَانَ ، وَقَدْ حَاوَلَ شَرَّاحُ الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرُهُمْ  
 الْجَمْعَ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ الْمُتَعَارِضَةِ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ فَجَاءُوا بِأَجْوِبَةٍ مُتَكَلِّفَةٍ رَدَّهَا الْمُحِقُّونَ كُلُّهَا  
 أَوْ أَكْثَرَهَا ، وَفِيهَا مِنَ الْمَشْكَالَاتِ

غَيْرُ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَلَا سِيَّمَا الرِّوَايَاتُ فِي ابْنِ صَيَّادٍ ، وَمَا كَانَ مِنْ حَلْفِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ  
- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عِنْدَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِنَّهُ هُوَ الدَّجَالُ ، وَإِقْرَارِهِ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِيَّاهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَمُتَابَعَةُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِيَّاهُ عَلَى هَذَا الْحَلْفِ  
كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ .

وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُهُمْ عَنِ الْأَخِيرِ بَأَنَّ هَذَا التَّقْرِيرَ قَدْ تَقَضَّهِ التَّصْرِيحُ مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ - لِعُمَرَ بِخِلَافِهِ حِينَ قَالَ لَهُ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ ، فَقَالَ : " إِنْ يَكُنْ هُوَ فَلَنْ تُسَلِّطَ  
عَلَيْهِ " إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ وَهُوَ فِي الصَّحِيحِ ، وَقَدْ رَدَّ الْحَافِظُ أَبُو جَبْرٍ بَعْضَ تَأْوِيلَاتِ  
الْحَافِظِ الْبَيْهَقِيِّ فِي مَوْلِدِ ابْنِ صَيَّادٍ وَصِفَاتِهِ وَفِي إِقْرَارِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
لِعُمَرَ عَلَى حَلْفِهِ ، وَعَدَّ قِصَّةَ تَمِيمِ الدَّارِيِّ مُرَجِّحَةً لِكُونِهِ غَيْرَ ابْنِ صَيَّادٍ ، وَكَوْنِ عُمَرَ كَانَ  
يَحْلِفُ حَلْفَهُ قَبْلَ سَمَاعِهِ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ - لِهَذَا أُخْصُ هَذَا الْحَدِيثَ بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ  
فَأَقُولُ إِنَّ فِيهِ عِدَّةَ مَبَاحِثٍ .

(180/300)

---

(1) كَانَ تَمِيمُ الدَّارِيُّ مِنْ عَرَبِ فِلَسْطِينَ (سُورِيَّة) وَقَدْ وُصِفَ بِأَنَّهُ كَانَ رَاهِبَ زَمَانِهِ ،  
وَقَدْ جَاءَ هُوَ وَأَخُوهُ نُعَيْمُ الْمَدِينَةَ فِي آخِرِ عَهْدِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَنَةَ تِسْعٍ

مِنَ الْهَجْرَةِ وَأَسْلَمًا ، وَحَدَّثَ هُوَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِحِكَايَةِ الْجَسَّاسَةِ  
الْغَرِيبَةِ ، وَذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ

بَعْدَ إِسْلَامِهِ مِنَ الْعِبَادِ وَمِنَ الْقَصَّاصِينَ ، وَلَمْ يُذْكَرْ لِأَحَدٍ شُبْهَةٌ فِيهِ بَلْ عَدُّوا مِنْ مُنَاقِبِهِ أَنَّ  
النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَوَى عَنْهُ ، وَسَتَعَلَّمَ مَا فِيهِ ، فَهَذِهِ مُقَدِّمَةٌ .

(2) رَاوِيَةُ الْحَدِيثِ عَنْهُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ بِطَوِيلِهِ وَمُشْكَلَاتِهِ هِيَ فَاطِمَةُ بِنْتُ قَيْسٍ مِنَ  
الْمُهَاجِرَاتِ وَقَالَتْ : " إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَمَعَ النَّاسَ فِي الْمَسْجِدِ رِجَالًا  
وَنِسَاءً وَحَدَّثَهُمْ عَلَى الْمِنْبَرِ بِمَا سَمِعَهُ مِنْ تَمِيمٍ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ " وَقَدْ رَوَاهُ عَنْهَا الشَّعْبِيُّ  
وَحَدُّهُ ، وَهُوَ عَلَى جَلَالَتِهِ قَدْ رَوَى عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ لَمْ يَرَهُمْ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُمْ ،  
وَلَكِنَّ الْمُحَدِّثِينَ أَثَنُوا عَلَى مَرَّاسِيلِهِ أَنَّهُ صَرَّحَ بِالسَّمَاعِ مِنْهَا ، وَسَيَأْتِي مَنْ رَوَاهُ غَيْرُهَا  
وغيره .

(181/300)

(3) مِنْ عِلَلِ الْحَدِيثِ إِذَا أَنَّهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهَا بِالتَّوَاتُرِ لِعَرَابَةِ  
مَوْضُوعِهِ وَلاَهْتِمَامِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهِ وَجَمْعِهِ النَّاسَ لَهُ وَتَحْدِيثِهِ بِهِ عَلَى  
الْمِنْبَرِ ، وَاسْتِشْهَادِهِ بِقَوْلِ تَمِيمٍ عَلَى مَا كَانَ حَدَّثَهُمْ بِهِ قَبْلَ إِسْلَامِهِ ، وَلِسَمَاعِ جُمْهُورِ

الصَّحَابَةِ لَهُ مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَمِنْ غَيْرِ الْمَعْقُولِ الْأَيْرُومِيِّ إِلَّا أَحَادِيثًا ، وَيُؤَيِّدُهُ  
امْتِنَاعُ الْبُخَارِيِّ عَنْ إِخْرَاجِهِ فِي صَحِيحِهِ لِشِدَّةِ تَحْرِيهِ ، وَقَدْ أَجَابَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ  
عِنْدَ شَرْحِ حَدِيثِ جَابِرٍ فِي ابْنِ صَيَّادٍ مِنْ كِتَابِ الْاِعْتِصَامِ عَنْ هَذَا الْاِغْلَالِ بِقَوْلِهِ : وَلِشِدَّةِ  
التَّبَاسِ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ . أَيِ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ ابْنِ صَيَّادٍ - سَلَكَ الْبُخَارِيُّ  
مَسَلَكَ التَّرْجِيحِ ، فَاقْتَصَرَ عَلَى حَدِيثِ جَابِرٍ عَنْ عُمَرَ فِي ابْنِ صَيَّادٍ ، وَلَمْ يُخْرِجْ حَدِيثَ  
فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فِي قِصَّةِ تَمِيمٍ ، وَقَدْ تَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ غَرِيبٌ فَرْدٌ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَقَدْ  
رَوَاهُ مَعَ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ أَبُو هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةُ وَجَابِرٌ أَمَّا أَبُو هُرَيْرَةَ فَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ مِنْ رِوَايَةِ  
الشَّعْبِيِّ عَنِ الْمُحْرِزِ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ أَبِيهِ بِطَوْلِهِ وَأَخْرَجَهُ

(182/300)

---

أَبُو دَاوُدَ مُخْتَصِرًا وَابْنُ مَاجَةَ عَقِبَ رِوَايَةِ الشَّعْبِيِّ عَنْ فَاطِمَةَ قَالِ الشَّعْبِيُّ : فَلَقِيتُ  
الْمُحْرِزَ فَذَكَرَهُ ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَى مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَأَمَّا حَدِيثُ عَائِشَةَ فَهُوَ  
فِي الرِّوَايَةِ الْمَذْكُورَةِ عَنِ الشَّعْبِيِّ ، قَالَ : ثُمَّ لَقِيتُ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَقَالَ : أَشْهَدُ عَلَى  
عَائِشَةَ حَدَّثْتَنِي كَمَا حَدَّثْتِكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ قَيْسٍ ، وَأَمَّا حَدِيثُ جَابِرٍ فَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ  
بِسَنَدٍ حَسَنٍ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ جَابِرٍ وَذَكَرَ لَفْظَهُ .

أقول: إن ما ذكره الحافظ لا ينفي كون الحديث من الأحاد، والمقام مقام التواتر لما ذكرناه من أسباب توفر الدواعي، ولا ينفي أيضا كونه غريبا أيضا، وإن لم يكن فردا فقد انحصرت الأسانيد لروايتها في الشعبي وفي فاطمة بنت قيس، وأما ما رواه

(183/300)

أبو داود من طريق الوليد بن عبد الله بن جميع عن ابن أبي سلمة عن جابر، فهو على كونه ليس من الصحيح - مختصر، وليس فيه إسناد الحكاية إلى تميم الداري بل لا يزيد لفظ المرفوع فيه عن هذه الجملة "بينما أناس يسرون في البحر فنقد طعامهم فرفعت لهم جزيرة فخرجوا يريدون الخبز فلقبتهم الجساسة" قال أبو الوليد بن عبد الله: فقلت لأبي سلمة وما الجساسة؟ قال امرأة تجر شعر جلد لها ورأسها قالت في هذا القصر. فذكر الحديث - وسأل عن نخل بيسان وعن عين زغر، قال: هو المسيح. فقال لي ابن أبي سلمة: إنه في هذا الحديث شيئا ما حفظته، قال شهد جابر أنه هو ابن صائد وفي نسخة - ابن صياد - فقلت: إنه قد مات قال وإن مات. قلت: فإنه قد أسلم. قال: وإن أسلم. قلت: فإنه قد دخل المدينة قال وإن دخل المدينة انتهى سياق أبي داود بحروفه.

أقول: وهو لا يُقوي تلك الروايات، وليس فيه شيءٌ من مُشكلاتها المعنوية وخرابها، بل قواه الحافظ بها فجعله حسناً لأجلها، وهو يعلم أن الوليد بن عبد الله بن جميع (بالتصغير) الزُهري راويه عن أبي سلمة ضعيف، وإن روى عنه مسلم فقد قال هو نفسه (أي الحافظ) في تهذيب التهذيب فيما زاده على أصله أن ابن حبان ذكره في الضعفاء، وقال إنه يُنفرد عن الإثبات بما لا يُشبه حديث الثقات، فلما فحش ذلك منه بطل الاحتجاج به، وذكر عن الحاكم أنه لو لم يخرج له مسلم لكان أولى اهـ. وفي رواية أبي داود عن فاطمة مخالفة لرواية مسلم من وجه آخر لا غرض لنا في ذكره؛ إذ لا نريد استقصاء كل ما في هذه الأحاديث من التعارض والخلاف.

(4، 5) من الأشكال المعنوي في هذه الحكاية أن تميمًا وأصحابه الثلاثين كانوا من عرب الشام، والمبادر أنهم ركبوا سفينتهم من بعض شعورهم في البحر المتوسط، وقد ذكرت فاطمة بنت قيس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال بعد أن سرد للناس الحكاية "فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم به عنه - أي الدجال - وعن المدينة ومكة. إلا إنه في بحر

---

الشَّامِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ - لَا بَلَّ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ . مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ ، مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ ؟ وَأَوْ مَا بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ . قَالَتْ : فَحَفِظْتُ هَذِهِ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اه . "

فَإِنْ صَحَّ الْحَدِيثُ رَوَايَةً فَهَذَا التَّرَدُّدُ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَكَانِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا تَمِيمُ الدَّارِيُّ فِي أَيِّ الْبَحْرَيْنِ هِيَ ؟ ثُمَّ إِضْرَابُهُ عَنْهُمَا وَجَزْمُهُ بِأَنَّهُ فِي جِهَةِ الْمَشْرِقِ الْإِنِّ . إِشْكَالٌ آخَرٌ فِي مَتْنِهِ يُنْظَرُ إِلَى اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ الْآخَرَى فِي مَكَانِ الدَّجَالِ بَعَيْنٍ وَيُنْظَرُ إِلَى اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ فِي ابْنِ صَيَّادٍ بِالْعَيْنِ الْآخَرَى ، وَيُنْظَرُ بِالْعَيْنَيْنِ كِلْتُمَا إِلَى سَبَبِ هَذَا التَّرَدُّدِ وَمُنَافَاتِهِ ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ كَلَامُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ الدَّجَالِ عَنْ وَحْيٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَسَأَتَكَلَّمُ فِي سَبَبِهِ فِي هَذَا الْبَحْثِ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّةِ الرِّوَايَةِ .



ثُمَّ أَيْنَ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ الَّتِي رَفَأَ إِلَيْهَا تَمِيمٌ وَأَصْحَابُهُ فِي سَفِينَتِهِمْ؟ إِنِّهَا فِي بَحْرِ الشَّامِ أَوْ بَحْرِ  
الْيَمَنِ كَمَا فِي اللَّفْظِ الْمَرْفُوعِ - إِنْ صَحَّ الْحَدِيثُ - أَيِ الْجِهَةِ الْمُقَابِلَةِ لِسَوَاحِلِ سُورِيَّةٍ مِنَ  
الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ ، أَوِ الْجِهَةِ الْمُجَاوِرَةِ لَشَوَاطِئِ الْيَمَنِ مِنَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْبَحْرَيْنِ  
قَدْ مَسَحَهُ الْبَحَّارَةُ فِي هَذِهِ الْأَزْمَنَةِ مَسْحًا ، وَجَابُوا سَطْحَهُمَا طَوْلًا وَعَرْضًا ، وَقَاسُوا  
مِيَاهَهُمَا عُمُقًا ، وَعَرَفُوا جَزَائِرَهُمَا فَرْدًا فَرْدًا ، فَلَوْ كَانَ فِي أَحَدِهِمَا جَزِيرَةٌ فِيهَا دِيرٌ أَوْ  
قَصْرٌ حُبَسَ فِيهِ الدَّجَالُ وَلَهُ جَسَّاسَةٌ فِيهَا تُقَابِلُ النَّاسَ ، وَتُنْقَلُ إِلَيْهِ الْأَخْبَارُ ، لَعَرَفَ ذَلِكَ  
كُلُّهُ كُلُّ النَّاسِ وَمَا قَالَهُ شَارِحُ الْمَشَارِقِ مِنْ نُقْلِ الدَّجَالِ فِي الْبَحْرَيْنِ أَوْ مِنَ الْجَانِبِ  
الشَّامِيِّ إِلَى الْجَانِبِ الْيَمَنِيِّ بِنَاءً عَلَى زَعْمِهِ أَنَّ الْبَحْرَ وَاحِدٌ - وَمَا قَالَهُ الْحَافِظُ مِنْ انْتِقَالِهِ  
إِلَى أَصْفَهَانَ وَلِيُخْرِجَ مِنْهَا مَعَ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ يَهُودِهَا - كِلَاهُمَا مِنَ الدَّعَاوَى الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا  
مِنَ النَّقْلِ ، وَلَا مِنَ الْمُقْبُولِ فِي نَظَرِ الْعَقْلِ ، وَإِنَّمَا يَسْتَنْبِطُونَهَا لِلْجَمْعِ بَيْنَ الرَّوَايَاتِ الْمُتَعَارِضَةِ  
الَّتِي يَعِزُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُرْجِعُوهَا إِلَى قَاعِدَتِهِمْ ، تَعَارَضَتْ فَتَسَاقَطَتْ ، حَتَّى إِنَّ الْحَافِظَ  
رَضِيَ لِنَفْسِهِ فِي هَذَا الْمَجْمَعِ أَنْ يُقَرِّقَ قَوْلَ مَنْ قَالَ إِنَّ ابْنَ صَيَّادٍ شَيْطَانٌ تَبَدَّى فِي صُورَةِ  
الدَّجَالِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ إِلَى أَنْ ذَهَبَ

إلى أَصْفَهَانَ الْخ . وَهُوَ يُحْفَظُ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ الْكَثِيرَةَ فِي وِلَادَتِهِ بِالْمَدِينَةِ وَنَشُوءِهِ فِيهَا ثُمَّ  
إِسْلَامِهِ وَحَجَّهِ ثُمَّ مَوْتِهِ فِيهَا ، عَلَى أَنَّهُ يُحْفَظُ بَعْضُ الرِّوَايَاتِ الْمُضْعَفَةِ لِهَذَا .

(6) فِي الْأَلْفَاظِ الْمَرْفُوعَةِ مِنْ حِكَايَةِ الْجَسَّاسَةِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يُقَرَّرَ  
تَمِيمًا عَلَى كُلِّ مَا حَكَاهُ ، بَلْ عَلَى بَعْضِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ : " فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي مِنْ حَدِيثِ تَمِيمٍ أَنَّهُ  
وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ بِهِ عَنْهُ (أَيُّ عَنِ الدَّجَالِ) وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ " أَيُّ ، أَنَّهُ لَا  
يَدْخُلُهُمَا . وَقَوْلُهُ بَعْدَهُ : " إِلَّا أَنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ أَوْ الْيَمَنِ ، لَا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ " إِلَى آخِرِ  
مَا تَقَدَّمَ

أَنفًا ، وَتَرْجِيحُ جَمِيعِ الْعُلَمَاءِ رَوَايَاتِ جِهَةِ الْمَشْرِقِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي بَحْرِ الشَّامِ ، وَلَا  
بِحْرِ الْيَمَنِ ؛ لِأَنَّ الشَّامَ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَالْيَمَنِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهَا ، فَلَا شَيْءَ  
مِنْهُمَا

بِمَشْرِقٍ . قَالَ الطَّبِيبِيُّ : لَمَّا تَيَقَّنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْوَحْيِ أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ نَفَى الْأَوَّلِينَ ،  
وظَاهِرُ الْعِبَارَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَدَّقَ تَمِيمًا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ؛  
وَلِذَلِكَ قَالَ : " إِلَّا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ " بِالتَّأَكِيدِ " إِنَّ " وَالْبَدْءِ بِأَدَاةِ الْاسْتِقْتِحِ  
" أَلَا " ثُمَّ كُوشِفَ فِي مَوْقِفِهِ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذَا وَلَا ذَاكَ ، بَلْ فِي جِهَةِ الْمَشْرِقِ .

(7) هَاهُنَا يَجِيءُ إِشْكَالٌ آخَرٌ ، وَهُوَ أَنَّ نَبِيَّ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِبَعْضِ قَوْلِ تَمِيمٍ يُبْطِلُ الثَّقَةَ بِهِ كُلَّهُ ، وَيَحْصُرُ عَجَبَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ مِنْهُ لَا يُعْرَفُ بِالرَّأْيِ ، وَهُوَ مُوَافَقَتُهُ لِمَا سَبَقَ إِخْبَارُهُ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ ظُهُورِ الدَّجَالِ وَكَوْنِهِ لَا يَدْخُلُ مَكَّةَ وَلَا الْمَدِينَةَ . وَإِنْ بَقِيَ الْأَعْجَابُ مِمَّا ذَكَرْتُمْ فِي مَحَلِّهِ ، وَقَدْ يَتَفَصَّلُونَ مِنْ هَذَا بَأَنَّ الدَّجَالَ كَانَ قَبْلَ إِسْلَامِ تَمِيمٍ ، وَحَدِيثُهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الَّتِي رَأَاهُ فِيهَا فَذَهَبَ إِلَى أَصْبَهَانَ أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ ، وَيُرَدُّ أَنْ مَا نَقَلَهُ عَنْهُ تَمِيمٌ صَرِيحًا فِيمَا يُنَافِي ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنَّ وَثَاقَةَ الشَّدِيدِ إِنَّمَا يُحَلُّ عِنْدَ الْإِذْنِ لَهُ فِي الْخُرُوجِ ، وَأَنَّهُ صَارَ قَرِيبًا بَعْدَ ظُهُورِ الْعَلَامَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا قَالَ : إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ وَإِنِّي أَوْشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ فَأَخْرَجُ فَأَسِيرُ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدْعُ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، إِلَّا مَكَّةَ وَطَيْبَةَ فَهَمَّا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ الْيَوْمِ . فَعَطَفَ الْخُرُوجَ عَلَى الْإِذْنِ بِـ " الْفَاءِ " وَالسَّيْرَ عَلَى الْخُرُوجِ بِـ " الْفَاءِ " نَصٌّ فِي أَنَّهُمَا عَلَى التَّعْقِيبِ لَا فَاصِلَ بَيْنَ هَذِهِ وَتِلْكَ ، وَالْأَقْرَبُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْمَشْكَلاتِ أَنْ تَكُونَ الرَّوَايَةُ مَصْنُوعَةً .

(8) نُنْتَقِلُ مِنْ هَذَا الْمُبْحَثِ إِلَى مَبْحَثِ قَوِيِّ الصَّلَةِ بِهِ ، وَهُوَ إِذَا لَمْ نَعُدَّ مَا فِيهِ مِنْ نَفْيِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمَا أَثْبَتَهُ تَمِيمٌ مِنْ وُجُودِ الدَّجَالِ فِي أَحَدِ الْبَحْرَيْنِ وَفَاقًا لِلْعَلَّامَةِ الطَّيْبِيِّ الشَّهِيرِ - فَهَلْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ حِكَايَتُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمَا حَدَّثَهُ بِهِ تَمِيمٌ تَصْدِيقًا لَهُ ؟ وَهَلْ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعْصُومًا مِنْ تَصْدِيقِ كُلِّ كَاذِبٍ فِي خَبَرٍ فَبَعْدُ تَصْدِيقُهُ لِحِكَايَةِ تَمِيمٍ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ فِيهَا ؟ وَيُعَدُّ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنْ إِشْكَالٍ وَارِدًا عَلَى حَدِيثِهِ لَهُ حُكْمُ الْمَرْفُوعِ ، وَفِي مَعْنَاهُ إِقْرَارُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِعُمَرَ عَلَى حَلْفِهِ بِأَنْ ابْنَ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَالُ كَمَا تَقَدَّمَ .

إِنْ مَا قَالُوهُ فِي الْعِصْمَةِ لَا يَدْخُلُ فِيهِ هَذَا ؛ فَالْمَجْمَعُ عَلَيْهِ هُوَ الْعِصْمَةُ فِي التَّلْبِغِ عَنِ

(190/300)

---

اللَّهِ تَعَالَى ، وَعَنْ تَعَمُّدِ عَصِيَانِهِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ . قَالَ السَّفَارِينِيُّ فِي شَرْحِ عَقِيدَتِهِ : قَالَ ابْنُ حَمْدَانَ فِي نَهَايَةِ الْمُبْتَدِئِينَ : وَإِنَّهُمْ مَعْصُومُونَ فِيمَا يُؤَدُّونَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَيْسُوا مَعْصُومِينَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ . وَقَالَ ابْنُ عَقِيلٍ فِي الْإِرْشَادِ : إِنَّهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَمْ يُعْصَمُوا فِي الْأَفْعَالِ بَلْ فِي نَفْسِ الْأَدَاءِ . قَالَ : وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الْكُذْبُ فِي الْأَقْوَالِ فِيمَا يُؤَدُّونَهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ : النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعْصُومٌ مِنْ تَعَمُّدِ الذَّنْبِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ

بِالْجَمَاعِ ، وَلَا يُعْتَدُ بِخِلَافِ بَعْضِ الْخَوَارِجِ وَالْحَشَوِيَّةِ الَّذِينَ نَقَلَ عَنْهُمْ تَجْوِيزُ ذَلِكَ الْإِخْتِ  
أَنْتَهَى مُلْخَصًا . وَتَصَدِّقُ الْكَاذِبَ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

كَانَ يُصَدِّقُ

(191/300)

بَعْضَ مَا يَفْتَرِي بِهِ الْمُنَافِقُونَ حَتَّى يُخْبِرَهُ اللَّهُ بِمَا كَانَ مِنَ الْمَصْلِحَةِ إِخْبَارُهُ بِهِ مِنْهُ ، كَمَا وَقَعَ  
فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَغَيْرِهَا ، وَصَدَّقَ بَعْضُ أَرْوَاجِهِ فِي الْقِصَّةِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ ،  
حَتَّى أَخْبَرَهُ تَعَالَى بِهِ وَبَانَ مِنْ أَسْرِّ إِلَيْهَا الْحَدِيثُ أَفْشَتْهُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : قَالَتْ مَنْ  
أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ تَبَانِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (66 : 3) وَتَرَدَّدَ فِي حَدِيثِ أَهْلِ الْإِفْكِ ، وَضَاقَ  
صَدْرُهُ زَمَنًا حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ آيَاتُ الْبِرَاءَةِ الْمَكْذَبَةِ لَهُمْ فِي سُورَةِ التَّوْرِ . فَعَلَى هَذَا لَا يَكُونُ  
ذِكْرُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِقِصَّةِ تَمِيمٍ فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي يَقُولُهُ هُوَ - صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، كَمَا أَنَّ مَا يَقُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِرَأْيِهِ وَظَنِّهِ لَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ مَا  
هُوَ مَعْصُومٌ مِنْهُ ، وَهُوَ تَعَمُّدُ الْكُذْبِ ، كَمَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَسْأَلَةِ تَلْقِيحِ  
النَّخْلِ : " إِنَّمَا ظَنَنْتُمْ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا

بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ " وَقَالَ فِيهَا أَيضًا : " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ " رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ .

(192/300)

وَقَالَ الْمُحَقِّقُ أَبُو دَقِيقٍ الْعِيدِي فِي مَسْأَلَةِ تَقْرِيرِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ أَوَائِلِ شَرْحِ  
الإمام إِذَا أُخْبِرَ فِي حَضْرَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ أَمْرٍ لَيْسَ فِيهِ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ  
، فَهَلْ يَكُونُ سُكُوتُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دَلِيلًا عَلَى مُطَابَقَةِ مَا فِي الْوَاقِعِ ، كَمَا وَقَعَ  
لِعُمَرَ فِي حَلْفِهِ عَلَى أَنَّ ابْنَ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَالُ فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ ، فَهَلْ يَدُلُّ عَدَمُ إِنْكَارِهِ عَلَى أَنَّ  
ابْنَ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَالُ كَمَا فَهَمَهُ جَابِرٌ حَتَّى صَارَ يَحْلِفُ عَلَيْهِ وَيَسْتَدِلُّ إِلَى حَلْفِ عُمَرَ ، أَوْ  
لَا يَدُلُّ ؟ فِيهِ نَظْرٌ . وَالْأَقْرَبُ عِنْدِي أَنَّهُ لَا يَدُلُّ لِأَنَّ مَا خُذَ الْمَسْأَلَةُ وَمَنَاطُهَا هُوَ الْعِصْمَةُ مِنْ  
التَّقْرِيرِ عَلَى

بَاطِلٍ ، وَذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى تَحْقِيقِ الْبُطْلَانِ وَلَا يَكْفِي فِيهِ عَدَمُ تَحْقِيقِ الصَّحَّةِ الْإِنْخِ . نَقْلُهُ  
عَنْهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ مُلَخَّصًا .

(193/300)

---

(9) إِنْ فِي رَوَايَاتِ هَذِهِ الْحِكَايَةِ اخْتِلَافَاتٌ أُخْرَى ، كَقَوْلِهِ فِي أُطُولِهَا عَنْ تَمِيمٍ : " إِنَّهُ رَكِبَ سَفِينَةً بَحْرِيَّةً مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَحْمٍ وَجُذَامٍ فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجَ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ ثُمَّ أَرْفَعُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرَبِ الشَّمْسِ فَجَلَسُوا فِي أَقْرَبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ " وَقَوْلِهِ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : " حَدَّثَنِي تَمِيمُ الدَّارِيُّ أَنَّ أَنَا سَأَلْتُ قَوْمَهُ كَانُوا فِي الْبَحْرِ فِي سَفِينَةٍ لَهُمْ فَانْكَسَرَتْ بِهِمْ فَرَكِبَ بَعْضُهُمْ عَلَى لَوْحٍ مِنَ الْأَوْحِ السَّفِينَةِ فَخَرَجُوا إِلَى سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : " إِنْ بَنِي عَمِّ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَكِبُوا فِي الْبَحْرِ " وَفِي رِوَايَةٍ : " إِنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ فَتَاهَتْ بِهِ سَفِينَةٌ فَسَقَطَ إِلَى جَزِيرَةٍ فَخَرَجَ إِلَيْهَا يَلْتَمِسُ الْمَاءَ فَلَقِيَ إِنْسَانًا يَجْرُ شَعْرُهُ " وَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ كُلُّهَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، وَالْاِخْتِلَافَاتُ فِيهَا مُتَعَدِّدَةٌ كَمَا تَرَى ، وَفِي سَائِرِ الرِّوَايَاتِ مَا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي حَدِيثِ الْجَسَّاسَةِ أَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْعِلَلِ وَالْاِخْتِلَافِ وَالْإِشْكَالِ مِنْ عِدَّةٍ

(194/300)

---

وَجُوهٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُصْنُوعٌ ، وَأَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ لَيْسَ لَهُ كُلُّ حُكْمِ الْمَرْفُوعِ ، وَكَذَا يُقَالُ فِي سَائِرِ أَحَادِيثِ الدَّجَالِ الْمُشْكَلَةِ الَّتِي انْتَقَدَهَا الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ مِنْ جِهَةِ صِنَاعَةِ عِلْمِ

أُصُولُ الْحَدِيثِ وَتَعَارُضِ الْمُتُونِ أَوْ مُخَالَفَتِهَا لِلْوَاقِعِ . وَعَدَّ مِنْ عِلَلِ بَعْضِهَا احْتِمَالُ كَوْنِهَا  
مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، فَقَدْ ذَكَرَ مَا أَخْرَجَهُ نَعِيمٌ بْنُ حَمَّادٍ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ مِنْ  
طَرِيقِ جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ وَشَرِيحِ بْنِ عُبَيْدٍ وَعَمْرٍو بْنِ الْأَسْوَدِ وَكَثِيرِ بْنِ مُرَّةٍ قَالُوا جَمِيعًا : "  
الدَّجَالُ لَيْسَ هُوَ يَأْنَسَانِ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ مُوثِقٌ بِسَبْعِينَ حَلْقَةً فِي بَعْضِ جَزَائِرِ الْيَمَنِ لَا  
يَعْلَمُ مِنْ أَوْثَقِهِ سُلَيْمَانُ النَّبِيُّ أَوْ غَيْرُهُ ؟ فَإِذَا آتَى ظُهُورَهُ فَكَ اللَّهُ عَنْهُ كُلِّ عَامٍ حَلْقَةٌ ، فَإِذَا بَرَزَ  
أَتَتْهُ آتَانٌ ، عَرَضُ مَا بَيْنَ أُذُنَيْهَا أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا فَيَضَعُ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْبَرًا مِنْ نُحَاسٍ ، وَيَقْعُدُ  
عَلَيْهِ وَيَتَّبِعُهُ قِبَائِلُ الْجِنِّ يَخْرُجُونَ لَهُ خَزَائِنَ الْأَرْضِ " .

قَالَ الْحَافِظُ بَعْدَ إِيرَادِ هَذَا : (قُلْتُ) وَلَا يُمَكِّنُ مَعَهُ كَوْنُ ابْنِ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَالُ ، وَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ  
مَعَ كَوْنِهِمْ ثَقَاتٍ تَلَقُّوْا ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ . وَأَخْرَجَ نَعِيمٌ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ كُتُبِ  
الْأَخْبَارِ أَنَّ الدَّجَالَ تَلَدُهُ أُمَّهُ بِقُوصٍ مِنْ أَرْضِ

(195/300)

---

مِصْرَ . (قَالَ) وَيَبِينُ مَوْلِدَهُ وَمَخْرَجَهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً . (قَالَ) وَلَمْ يَنْزَلْ خَبْرُهُ فِي التَّوْرَةِ  
وَالْإِنْجِيلِ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي بَعْضِ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ أَهْ ، وَأَخْلَقَ بِهَذَا الْخَبَرِ أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا فَإِنَّ  
الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَبْلَ نَبِيِّنَا أَنْذَرَ قَوْمَهُ الدَّجَالَ ، وَكَوْنُهُ يُوَلَّدُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ بِالْمُدَّةِ



المذكورة مخالفة لكونه ابن صياد ، وكونه موثقاً في جزيرة من جزائر البحر انتهى المراد  
من قول الحافظ . وهو في شرح كتاب الاعتصام من الفتح .

ومنه يعلم أن الحافظ لم يسلم من ضرب بعض هذه الروايات المضطربة المتعارضة  
المتنافرة ببعض ، وبأنه يعد احتمال الأخذ عن أهل الكتاب علة صحيحة لرد روايات  
الثقات ، ولو فيما لا مجال للعقل ولا للرأي فيه ، خلافاً لما زعمه الزرقاني به وتمسك به  
بعض أنصار الخرافات فعده مما له حكم المرفوع .

ومنه يعلم أيضاً أن يد بطل هذه الإسرائيليات الأكبر كعب الأخبار قد لعبت لعبها في مسألة  
الدجال (في كل وادٍ أثر من ثعلبة) وقول كعب : إن ما ذكره من ولادة الدجال بقوص في  
كتب بعض الأنبياء كذب وافتراء .

(196/300)

---

وهناك روايات أخرى عنه منها ما نقله الحافظ في شرح كتاب الفتن عن نعيم بن حماد في  
كتابة المذكور عنه قال (أي كعب) : يوجه الدجال فينزل عند باب دمشق الشرقي ، ثم  
يلتمس فلا يقدر عليه ، ثم يرى عند المياه التي عند نهر الكسوة ثم يطلب فلا يدرى أين  
توجه ، ثم يظهر بالمشرق فيعطى الخلافة ، ثم يظهر السحر ، ثم يدعي النبوة فتفرق الناس

عَنْهُ ، فَيَأْتِي النَّهْرَ فَيَأْمُرُهُ أَنْ يَسِيلَ فَيَسِيلُ ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَرْجِعَ فَيَرْجِعُ  
ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يُبَيِّسَ فَيُبَيِّسُ ، وَيَأْمُرُ جَبَلَ طُورٍ وَجَبَلَ زَيْتَا أَنْ يَنْتَظِحَا فَيَنْتَظِحَا ، وَيَأْمُرُ الرِّيحَ أَنْ  
تَثِيرَ سَحَابًا مِنَ الْبَحْرِ فَيَمْطُرُ الْأَرْضَ ، وَيَخُوضُ الْبَحْرَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثَ خَوْضَاتٍ فَلَا يَبْلُغُ  
حَقْوِيهِ ، وَإِحْدَى يَدَيْهِ أَطْوَلُ مِنَ الْأُخْرَى فَيَمُدُّ الطَّوِيلَةَ فِي الْبَحْرِ فَيَبْلُغُ قَعْرَهُ فَيُخْرِجُ مِنْ  
الْحَيَاتَانِ مَا يَرِيدُ اهـ .

بِمِثْلِ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ كَانَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ يَغْشَى الْمُسْلِمِينَ لِيُفْسِدَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَسُنَّتَهُمْ ،  
وَخُدِعَ بِهِ النَّاسُ لِأَظْهَارِ التَّقْوَى وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

(197/300)

---

وَجُمْلَةُ أَخْبَارِ الدَّجَالِ قَالُوا : إِنَّهَا مُتَوَاتِرَةٌ ، يَعْنُونَ التَّوَاتُرَ الْمَعْنَوِيَّ ، وَهُوَ أَنْ لَهَا أَصْلًا ، وَإِنْ لَمْ  
يَتَوَاتَرَ شَيْءٌ مِنْ رَوَايَاتِهَا . وَيَدُلُّ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ مِنْهَا عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

كُشِفَ لَهُ وَتَمَثَّلَ لَهُ ظُهُورُ دَجَالٍ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يُظْهِرُ لِلنَّاسِ خَوَارِقَ كَثِيرَةً وَغَرَائِبَ يَفْتِنُ بِهَا  
خُلُقَ كَثِيرًا ، وَأَنَّهُ مِنَ الْيَهُودِ ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَهُ وَيُقَاتِلُونَ الْيَهُودَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ الْمُقَدَّسَةِ  
وَيَنْتَصِرُونَ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ كُشِفَ لَهُ ذَلِكَ مُجْمَلًا غَيْرَ مُفَصَّلٍ وَلَا بُوْحِيٍّ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى - كَمَا

كشِفَ لَهُ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْفَنِّ - فَذَكَرَهُ فَتَنَّا قَلَهُ الرَّوَاةُ بِالْمَعْنَى فَأَخْطَأَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَتَعَمَّدَ  
الَّذِينَ كَانُوا يُثْبِتُونَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الدَّسَّ فِي رَوَايَاتِهِ ، وَلَا يُبْعَدُ أَنْ يَقُومَ طُلَّابُ الْمَلِكِ مِنَ الْيَهُودِ  
الصُّهُيُوتِيِّينَ بِتَدْيِيرِ فَنَّةٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى يَسْتَعِينُونَ عَلَيْهَا بِخَوَارِقِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْعَصْرِيَّةِ  
كَالْكَهْرِبَاءِ وَالْكِيمِيَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .  
(التَّعَارُضُ وَالْإِشْكَالَاتُ فِي أَحَادِيثِ الْمَهْدِيِّ)

(198/300)

وَأَمَّا التَّعَارُضُ فِي أَحَادِيثِ الْمَهْدِيِّ فَهُوَ أَقْوَى وَأَظْهَرُ ؛ وَالْجَمْعُ بَيْنَ الرُّوَايَاتِ فِيهِ أَعْسَرُ ،  
وَالْمُنْكَرُونَ لَهَا أَكْثَرُ ، وَالشُّبْهَةُ فِيهَا أَظْهَرُ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَعْتَدِ الشَّيْخَانِ بِشَيْءٍ مِنْ رَوَايَاتِهَا فِي  
صَحِيحَيْهِمَا . وَقَدْ كَانَتْ أَكْبَرُ مَثَارَاتِ الْفُسَادِ وَالْفَنِّ فِي الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ ؛ إِذْ تَصَدَّى  
كَثِيرٌ مِنْ مُحِبِّي الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ ، وَمِنْ أَدْعِيَاءِ الْوَلَايَةِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ ، لِذَعْوَى الْمَهْدَوِيَّةِ  
فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ ، وَتَأْيِيدِ دَعْوَاهُمْ بِالْقِتَالِ وَالْحَرْبِ ، وَبِالْبِدْعِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ حَتَّى  
خَرَجَ الْوَفُ الْوَلُوفِ عَنْ هِدَايَةِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَمَرَقَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السُّهْمُ مِنَ  
الرَّمِيَّةِ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ حَقِّ تَصَدِيقِ الْجَمَاهِيرِ مِنَ الْمَأْخَرِينَ بِخُرُوجِ مَهْدِيِّ يَجِدُّ الْإِسْلَامَ وَيُنْشُرُ

الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْأَنَامِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى الْإِسْتِعْدَادِ لظُهُورِهِ بِتَأْلِيفِ عَصَبِيَّةٍ قَوِيَّةٍ تَنْهَضُ  
بِرِعَايَتِهِ ، وَتُسَاعِدُهُ عَلَى إِقَامَةِ أَرْكَانِ إِمَامَتِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا ، بَلْ تَرَكُوا مَا يَجِبُ لِحِمَايَةِ  
الْبَيْضَةِ وَحِفْظِ سُلْطَانِ الْمِلَّةِ بِجَمْعِ كَلِمَةِ الْأُمَّةِ ، وَيَأْعِدَادِ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ حَوْلِ وَقْوَةٍ  
فَاتَكَلَّوْا وَتَوَاكَلَوْا ، وَتَنَازَعُوا وَتَحَاذَلُوا ، وَلَمْ يَعِظْهُمْ مَا نَزَعَ مِنْ مُلْكِهِمْ ، وَمَا سَلَبَ مِنْ  
مَجْدِهِمْ ، اتَّكَلَّا عَلَى قُرْبِ الْمَهْدِيِّ ، كَأَنَّهُ هُوَ الْمُعِيدُ الْمُبْدِيُّ ، فَهُوَ الَّذِي سِيرَدُ إِلَيْهِمْ

(199/300)

---

مُلْكِهِمْ ، وَيُجَدِّدُ لَهُمْ مَجْدَهُمْ ، وَيُعِيدُ لَهُمْ عَدْلَ شَرْعِهِمْ ، وَيَنْتَقِمُ لَهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ  
يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالْكَرَامَاتِ ، وَمَا يُؤَيِّدُ بِهِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ لَا بِالْبَوَارِيدِ أَوْ الْبُنْدُوقِيَّاتِ  
الصَّارِحَاتِ وَلَا بِالْمَدَافِعِ الصَّاحَاتِ ، وَلَا بِالذَّبَابَاتِ الْمُدْمِرَاتِ ، وَلَا بِأَسَاطِيلِ الْبِحَارِ  
السَّابِحَاتِ وَالْغَوَاصَّاتِ وَلَا بِأَسَاطِيلِ الْمَنَاطِيدِ وَالطَّيَّارَاتِ ، وَلَا بِالْغَازَاتِ الْخَانِقَاتِ .  
وَقَدْ كَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُشْرِكِينَ سِجَالًا ، وَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَنْفِرُونَ مِنْهُ خِفَافًا  
وَتِقَالًا ، فَهَلْ يَكُونُ الْمَهْدِيُّ أَهْدَى مِنْهُ أَعْمَالًا وَأَحْسَنُ حَالًا وَمَالًا ؟ كَلَّا .

(200/300)

---

وَقَدْ جَاءَهُمُ النَّذِيرُ، ابْنُ خَلْدُونَ الشَّهِيرُ، فَصَاحَ فِيهِمْ إِنَّ لَهِ تَعَالَى سُنَنًا فِي الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ  
وَالْعُمَرَانِ، مُطْرَدَةٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي مُصْحَفِ الْقُرْآنِ، وَصَحْفِ الْأَكْوَانِ  
، وَمِنْهَا أَنَّ الدُّوَلَ لَا تَقُومُ إِلَّا بِعَصَبِيَّةٍ، وَأَنَّ الْأَعَاجِمَ قَدْ سَلَبُوا الْعَصَبِيَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْعَرَّةَ  
النَّبَوِيَّةَ، فَإِنْ صَحَّتْ أَخْبَارُ هَذَا الْمَهْدِيِّ فَلَنْ يَظْهَرَ إِلَّا بَعْدَ تَجْدِيدِ عَصَبِيَّةِ هَاشِمِيَّةِ عَلَوِيَّةٍ،  
وَلَوْ سَمِعُوا وَعَقَلُوا، لَسَعَوْا وَعَمِلُوا، وَلَكَانَ اسْتِعْدَادُهُمْ لظُهُورِ الْمَهْدِيِّ بِالْإِهْتِدَاءِ بِسُنَنِ  
اللَّهِ تَعَالَى رَحْمَةً لَهُمْ، تَجَاهَ مَا كَانَ فِي أَخْبَارِهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالنَّقَمِ فِيهِمْ، وَرَبَّمَا أَعْنَاهُمْ عَنْ  
بَعْضِ مَا يَرْجُونَ مِنْ زَعَامَتِهِ إِنْ لَمْ يُغْنِهِمْ عَنْهُ كُلُّهُ .

(201/300)

---

كَانَتْ الْيَهُودُ اغْتَرَّتْ مِثْلَنَا بِظَوَاهِرِ مَا فِي كُتُبِ أَنْبِيَائِهِمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ بِظُهُورِ مَسِيحٍ فِيهِمْ يُعِيدُ  
لَهُمْ مَا فَقَدُوا مِنْ مُلْكِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، فَاتَّكَلُوا عَلَى مَا فَهِمَ أَحْبَارُهُمْ مِنْهَا بِمَحْضِ التَّقْلِيدِ  
الْأَصَمِّ الَّذِي لَا يَسْمَعُ، الْأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ، وَمَضَتِ الْقُرُونُ فِي إِثْرِ الْقُرُونِ وَهُمْ لَا  
يَزِدَادُونَ إِلَّا تَفَرُّقًا وَضَعْفًا، فَلَمَّا عَرَفَتْ أَجْيَالُهُمُ الْأَخِيرَةُ سُنَنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْعُمَرَانِ طَفِقُوا  
يَسْتَعِدُّونَ لِاسْتِعَادَةِ ذَلِكَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ، بِالسَّعْيِ إِلَى إِنْشَاءِ وَطَنِ يَهُودِيٍّ خَاصٍّ بِهِمْ

يُقيمون فيه قواعد العمران ، يارشاد العلوم والفنون العصرية ، التي يتعلمونها بما يحيون من لغتهم العبرانية ، وقد أنشؤوا لذلك مصرفاً مالياً خاصاً ، وما زالوا يجمعون لأجله الإعانات بالالوف والوف الالوف من الدنانير ، حتى إنهم استمالوا لمساعدتهم في هذا العهد ، أقوى دول الأرض .

(202/300)

هذا - والمسلمون لا يزالون يتكلمون على ظهور المهدي ، ويزعم دهماؤهم أنه سينتقض لهم سنن الله تعالى أو يبدلها تبديلاً ، وهم يتلون قوله تعالى : فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً (35 : 43) فإذا كان من أشرار الساعاة آيات ، وكان زمنها زمن خوارق العادات ، فهل يضرهم أن تأتيهم على هدى من ربهم وإقامة لشرعهم وعزة وسُلطان في أرضهم ؟ .

على أنهم أنشؤوا في العصور الأولى عصبية لأجل المهدي ، ولكنها جاهلية بل أنشؤوا المهدي المنتظر (عج) نفسه لأجل تلك العصبية المجوسية ، التي كانت تسعى لإزالة ملك الأمة العربية ، وإفساد دينهم الذي أعطاهم الملك والقوة ، ولأجل ذلك كثرت الاختلاف في اسم المهدي ونسبه وصفاته وأعماله ، وكان لكعب الأحبار جولة واسعة

فِي تَلْفِيْقِ تَلْكَ الْأَخْبَارِ .

الْإخْتِلَافُ وَالْإضْطِرَابُ فِي أَحَادِيثِ الْمُهْدِيِّ :

(203/300)

(مِنْهَا) أَنَّ أَشْهَرَ الرُّوَايَاتِ فِي اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ،  
وَفِي رِوَايَةٍ : أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَالشَّيْخَةُ الْإِمَامِيَّةُ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ  
الْعَسْكَرِيِّ وَهُمَا الْحَادِي عَشَرَ وَالثَّانِي عَشَرَ مِنْ أُمَّتِهِمُ الْمَعْصُومِينَ ، وَيَلْتَقِيَانِهِ بِالْحُجَّةِ  
وَالْقَائِمِ وَالْمُنْتَظَرِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ دَخَلَ السَّرْدَابَ فِي دَارِ أَبِيهِ فِي مَدِينَةِ (سُرَّ مِنْ رَأْيِ) الَّتِي  
تُسَمَّى الْآنَ " سَامِرًا " سَنَةَ 265 وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ تِسْعُ سِنِينَ ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ فِي السَّرْدَابِ حَيًّا  
، وَقَدْ رَفَعَ إِلَيْهِ بَعْضُ عُلَمَائِهِمُ الْمُبَاخِرِينَ أَسْئَلَةً شَرْعِيَّةً فِي رِقَاعِ كَانُوا يَلْقَوْنَهَا ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ  
كَانُوا يَجِدُونَ فَتَاوَاهُ مُدَوَّنَةً فِيهَا ، وَمَسَائِلُ هَذِهِ الرِّقَاعِ عِنْدَهُمْ أَصْحَابُ الْمَسَائِلِ وَالْأَحْكَامِ  
وَهُمْ كَلَّمَا ذَكَرُوهُ يُقْرَنُونَ اسْمَهُ بِحَرْفِي الْعَيْنِ وَالْجِيمِ هَكَذَا (عَجَّ) وَهُمَا مُتَقَطِفَانِ مِنْ  
جُمْلَةٍ : عَجَّلَ اللَّهُ خَلَاصَهُ .

(204/300)

وَزَعَمَتِ الْكَيْسَانِيَّةُ أَنَّ الْمَهْدِيَّ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ ، وَأَنَّهُ حَيٌّ مُقِيمٌ بِجَبَلِ رَضْوَى بَيْنَ  
أَسَدَيْنِ يَحْفَظَانِهِ ، وَعِنْدَهُ عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ يَفِيضَانِ مَاءً وَعَسَلًا وَمَعَهُ أَرْبَعُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ  
فَقَوْلُهُمْ فِيهِ كَقَوْلِ الْإِمَامِيَّةِ فِي الْمَهْدِيِّ بْنِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ ، وَرَضْوَى بَفَتْحِ الرَّاءِ جَبَلٌ  
جُهَيْنَةٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ مِنْ يَنْبَعِ ، وَسَبْعَ مَرَاحِلٍ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَيُقَالُ :  
إِنَّ السُّنُوسِيَّةَ يُعْتَقِدُونَ أَنَّ شَيْخَهُمُ الْمَهْدِيَّ السُّنُوسِيَّ هُوَ الْإِمَامُ الْمُنْتَظَرُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ  
إِنَّهُ اخْتَفَى ، وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَأَلُوا عَنْ مَوْتِهِ يَقُولُونَ الْحَيُّ يَمُوتُ . وَلَا يَقُولُونَ إِنَّهُ قَدْ  
مَاتَ .

وَرُوِيَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّمَا سُمِّيَ بِالْمَهْدِيِّ لِأَنَّهُ يَهْدِي إِلَى أَمْرِ خَفِيِّ وَسَيُخْرِجُ  
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا أَنْطَاكِيَّةٌ ، وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ إِنَّمَا سُمِّيَ الْمَهْدِيَّ لِأَنَّهُ  
يَهْدِي إِلَى أَسْفَارِ التَّوْرَةِ فَيُسْتَخْرِجُهَا مِنْ جِبَالِ الشَّامِ ، وَيَدْعُو  
إِلَيْهَا الْيَهُودَ فَتُسَلِّمُ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ ، رَوَاهُمَا أَبُو نَعِيمٍ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ ،  
وَرُوِيَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو الدَّانِي ، وَإِنَّمَا هُوَ مَا خُودٌ مِنْ تَضَلُّلَاتِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ .



وَالْمَشْهُورُ فِي نَسَبِهِ : أَنَّهُ عَلَوِيٌّ فَاطِمِيٌّ مِنْ وَكْدِ الْحَسَنِ ، وَفِي بَعْضِ الرَّوَايَاتِ : وَكْدِ  
الْحُسَيْنِ ، وَهُوَ يُوَافِقُ قَوْلَ الشَّيْخَةِ الْإِمَامِيَّةِ ، وَهُنَاكَ عِدَّةُ أَحَادِيثٍ مُصَرِّحَةٌ بِأَنَّهُ مِنْ وَكْدِ  
الْعَبَّاسِ . ( مِنْهَا ) مَا رَوَاهُ الرَّافِعِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لِلْعَبَّاسِ  
: " أَلَا أَبْشُرُكَ يَا عَمُّ ؟ إِنْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ الْأَصْفِيَاءُ ، وَمِنْ عَتْرَتِكَ الْخُلَفَاءُ ، وَمِنْكَ الْمَهْدِيُّ فِي

آخِرِ

الزَّمَانِ ، بِهِ يَنْشُرُ اللَّهُ الْهُدَى وَيُطْفِئُ نِيرَانَ الضَّلَالَةِ ، إِنْ اللَّهُ فَتَحَ بِنَا هَذَا الْأَمْرَ وَبِذُرِّيَّتِكَ يُخْتَمُ  
" وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَسَاكِرَ عَنْهُ مَرْفُوعًا أَيْضًا " اللَّهُمَّ أَنْصُرِ الْعَبَّاسَ وَوَكْدَ الْعَبَّاسِ ( ثَلَاثًا ) يَا  
عَمُّ أُمَّ عَلِمْتُ أَنَّ الْمَهْدِيَّ مِنْ وَكْدِكَ مُوَفَّقًا مَرْضِيًّا " قَالَ ابْنُ حَجَرٍ : رَجَالُهُ ثَقَاتٌ ، وَفِي  
مَعْنَاهُمَا أَحَادِيثُ أُخْرَى لِأَبِي هُرَيْرَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَعَلِيٍّ ، وَفِي حَدِيثِهِ التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الْمُرَادَ  
بِالْمَهْدِيِّ ثَلَاثُ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ .

(206/300)

---

وَفِي مَعْنَاهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ بِحَدِيثِ الرَّيَّاتِ ، وَذَكَرَهُ ابْنُ خَلْدُونَ مِنْ  
حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ، وَإِنَّ أَهْلَ بَيْتِي  
سَيَلْقَوْنَ مِنْ بَعْدِي بَلَاءً وَتَشْرِيدًا حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ رَايَاتُ سُودٍ الْخ .

وَهُوَ مِنْ طَرِيقِ زَيْدِ أَبِي زِيَادٍ وَهُوَ مِنْ شِيعَةِ الْكُوفَةِ ضَعْفُهُ الْأَكْثَرُونَ ، وَرَوَى لَهُ مُسْلِمٌ مَقْرُونًا  
بِغَيْرِهِ ، وَقَالَ شُعْبَةُ فِيهِ : كَانَ رَفَاعًا ، أَيْ يَرْفَعُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
الْأَحَادِيثَ الَّتِي لَا تُعْرَفُ مَرْفُوعَةً ، وَصَرَّحُوا بِضَعْفِ حَدِيثِهِ هَذَا . وَهَذَا كَأَحَادِيثِ  
أُخْرَى فِي نَسَبِ الْمُهَدِيِّ إِلَى الْعَبَّاسِ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ وَأَبِي نُعَيْمٍ وَالْخَطِيبِ  
الْبَغْدَادِيِّ رَوَايَاتٌ فِي التَّصْرِيحِ بِأَنَّ الْمُهَدِيَّ الْمُنْتَظَرَ هُوَ الْعَبَّاسِيُّ ، وَذَكَرَ قَبْلَهُ السَّفَّاحُ  
وَالْمَنْصُورُ . وَأَهْلُ الرِّوَايَةِ يَتَكَلَّفُونَ الْجَمْعَ بَيْنَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ وَمَا يَعَارِضُهَا بِاحْتِمَالٍ أَنْ  
يَكُونَ لِكُلِّ مِنَ الْعَبَّاسِ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ فِيهِ وِلَادَةٌ بَعْضُهَا مِنْ جِهَةِ الْأَبِّ وَبَعْضُهَا جِهَةَ الْأُمِّ  
، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْقَوْلِ الْمُخْتَصِرِ ، وَتَبَعَهُ الشُّوكَانِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَلَكِنَّ الْفَاطِمَةَ الْأَحَادِيثَ لَا  
تَتَّفِقُ مَعَ هَذَا الْجَمْعِ ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي أُمَّ الْمُهَدِيِّ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ عَلَى كَثْرَتِهَا .

(207/300)

وَسَبَبُ هَذَا الْاِخْتِلَافِ أَنَّ الشَّيْعَةَ كَانُوا يَسْعَوْنَ لِجَعْلِ الْخِلَافَةِ فِي آلِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

مِنْ ذُرِّيَةِ عَلِيِّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَيَضْعُونَ الْأَحَادِيثَ تَمْهِيدًا لِذَلِكَ فَفَطِنَ لِهَذَا الْأَمْرِ  
الْعَبَّاسِيُّونَ فَاسْتَمَالُوا بَعْضَهُمْ ، وَرَأَى أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَّاسَانِيُّ وَعَصِيْبَةُ أَنَّ آلَ عَلِيِّ يَغْلِبُ

عَلَيْهِمُ الزُّهْدُ ، وَأَنَّ بَنِي الْعَبَّاسِ كُنِيَ أُمَّيَّةَ فِي الطَّمَعِ فِي الْمُلْكِ فَعَمِلَ لَهُمْ تَوْسَلًا بِهِمْ إِلَى  
تَحْوِيلِ عَصِيَّةِ الْخِلَافَةِ إِلَى الْفُرْسِ ، تَمْهيدًا لِإِعَادَةِ الْمُلْكِ وَالْمَجُوسِيَّةِ وَحِينَئِذٍ وَضَعَتْ  
أَحَادِيثُ الْمَهْدِيِّ مُشِيرَةً إِلَى الْعَبَّاسِيِّينَ مُصْرَحَةً بِشَارَتِهِمْ (السَّوَادِ) وَأَشْهَرُهَا حَدِيثُ  
ثَوْبَانَ الْمَرْفُوعِ فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ يَقْتُلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ هَذَا ثَلَاثَةَ كُلِّهِمْ ابْنُ خَلِيفَةَ ، ثُمَّ لَا تَصِيرُ  
إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَطَّلِعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا لَمْ يَقْتُلَهُ قَوْمٌ - ثُمَّ ذَكَرَ  
شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ - فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايَعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلَجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ قَالَ  
السَّنَدِيُّ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى ابْنِ مَاجَةَ ، وَفِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ رِجَالُهُ  
ثِقَاتٌ . رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَقَالَ صَحِيحٌ عَلَى

(208/300)

---

شَرِيطِ الشَّيْخَيْنِ اهـ . فَهُوَ مِثَالٌ لِأَصَحِّ مَا رَوَاهُ فِي الْمَهْدِيِّ وَلَكِنْ فِي إِسْنَادِهِ عَبْدُ الرَّازِقِ  
بْنُ هَمَّامِ الصَّنَعَانِيُّ الشَّهِيرُ وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِالتَّشْبِيعِ ، وَعَمِّي فِي آخِرِ عُمُرِهِ فَخَلَطَ ، وَكَانَ مِنْ  
مَشَايِخِهِ عَمُّهُ وَهَبُ بْنُ مَنبِّهٍ وَنَاهِيكَ بِهِ - وَفِي سَنَدِهِ إِلَى ثَوْبَانَ أَبُو قَلَابَةَ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ  
وَهُمَا مُدَلَّسَانِ ، وَقَدْ عُنَعْنَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ ، وَلَمْ يَقُولَا إِنَّهُمَا سَمِعَاهُ فَإِذَا أَضْفَتِ إِلَى  
هَذَا طَعْنَ الطَّاعِنِينَ فِي عَبْدِ الرَّازِقِ ، وَمِنْهُمْ ابْنُ عَدِي الْقَائِلُ : إِنَّهُ حَدَّثَ بِأَحَادِيثٍ فِي

الفضائل لم يوافقته عليها أحدٌ، وما هو أعظم من ذلك من رمي بعضهم إياه بالكذب على مكاتبته من هذا الفن . - وإذا تذكرت مع أن أحاديث الفتن والساعة عامة، وأحاديث المهدي خاصة، وأنها كانت مهب رياح الأهواء والبدع، وميدان فرسان الأحزاب والشيع ، - تبين لك أين تضع هذه الرواية منها .

ولما انقضى أمر بني العباس، وكانت الأحاديث قد دوت، لم يسع القائلين بظهور المهدي إلا أن يقولوا: إن الرآيات السود المروية فيها غير رآيات بني العباس، على أن خصوصهم كانوا قد رووا في معارضتها رآيات ناطقة بأن رآيات المهدي تكون صفرًا، ورآيات في أن ظهوره من المغرب لا من المشرق .

(209/300)

---

قال مُحَمَّدُ بْنُ الصَّامِتِ: قُلْتُ لِلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : أَمَا مِنْ عِلَامَةٍ بَيْنَ يَدَيِ هَذَا الْأَمْرِ ؟ - يَعْنِي ظُهُورَ الْمَهْدِيِّ - قَالَ: بَلَى . قُلْتُ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: هَلَاكُ بَنِي

(210/300)

---

الْعَبَّاسُ وَخُرُوجُ السُّفْيَانِيِّ وَالْخَسْفُ بِالْبَيْدَاءِ . قُلْتُ : جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ، أَخَافُ أَنْ يَطُولَ  
 هَذَا الْأَمْرُ . فَقَالَ : إِنَّمَا هُوَ كِنِظَامِ سِلْكِ تَبِعَ بَعْضُهُ بَعْضًا . وَرَوَوْا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ -  
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَكَرَّمَ وَجْهَهُ قَالَ : تَكُونُ فِي الشَّامِ رَجْفَةٌ يَهْلِكُ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ  
 يَجْعَلُهَا اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَعَذَابًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَانظُرُوا إِلَى أَصْحَابِ  
 الْبَرَادِينِ الشُّهْبِ وَالرَّيَّاتِ الصُّفْرِ تَقْبَلُ مِنَ الْمَغْرِبِ حَتَّى تَحِلَّ بِالشَّامِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْجُوعِ  
 الْأَكْبَرِ ، وَالْمَوْتِ الْأَحْمَرِ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَانظُرُوا خَسْفَ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى دِمَشْقٍ يُقَالُ لَهَا  
 (حَرَسَاتًا) فَإِذَا كَانَ خَرَجَ ابْنُ أَكَلَةَ الْأَكْبَادِ مِنَ الْوَادِي الْيَابِسِ حَتَّى يَسْتَوِيَ عَلَى مِنْبَرِ دِمَشْقٍ  
 ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ فَانظُرُوا خُرُوجَ الْمَهْدِيِّ . انْتَهَى الْأَثَرُ الْمَرْوِيُّ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَنَحْنُ  
 نَعْلَمُ أَنَّ ابْنَ أَكَلَةَ الْأَكْبَادِ لَقِبَ مُعَاوِيَةَ ؛ لِأَنَّ أُمَّهُ أَخْرَجَتْ قَلْبَ حَمْرَةَ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ .  
 رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَوْمَ قَتْلِهِ فِي أَحَدِ فَمَضِغَتِهِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الرِّوَايَةُ قَدْ وُضِعَتْ فِيهَا يَظْهَرُ  
 بَعْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالتَّبَشِيرِ بِاتِّقَامِ الْمَهْدِيِّ مِنْ مُعَاوِيَةَ ؛ ثُمَّ حَمَلُوهَا عَلَى السُّفْيَانِيِّ الَّذِي  
 كَثُرَتْ الرِّوَايَاتُ فِي خُرُوجِهِ قَبْلَ الْمَهْدِيِّ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ مِنْ وَكْدِ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ  
 ، وَإِنَّهُ أَحَدُ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ

يَتَقَدَّمُونَهُ بَلْ شَرُّهُمْ ، وَالْآخَرُونَ هُمُ الْمُتَقَبُّونَ بِالْأَتَقَعِ وَالْأَصْهَبِ وَالْأَعْرَجِ وَالْكَنْدِيِّ  
وَالْجُرْهُمِيِّ وَالْقَحْطَانِيِّ ، وَفَارِسِ مِيدَانَ الْخُرَافَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ كَعَبِّ الْأَخْبَارِ تَفْصِيْلَاتُ  
لِخُرُوجِ هَؤُلَاءِ ، هِيَ كَالْتَفْسِيرِ لِلْآثَرِ الْعُلُوبِيِّ الْمَوْضُوعِ ، تَرَجُّعٌ فِي فَوَائِدِ الْفِكْرِ لِلشَّيْخِ مَرْعِي  
، وَعَقَائِدِ السَّفَارِينِيِّ وَغَيْرِهَا .

فَهَذَا نَمُودَجٌ مِنْ تَعَارُضِ الرِّوَايَاتِ وَتَهَاقُتِهَا فِي الْمَهْدِيِّ ، وَلَوْ ذَكَرْنَا مَا فِي كِتَابِ الشَّيْعَةِ  
وَالْمُتَّصِفَةِ فِي ذَلِكَ لَجِئْنَا بِالْعَجَبِ الْعُجَابِ ، وَتَمَحِيصِ الْقَوْلِ فِيهَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِسِفْرِ مُسْتَقِلِّ

خُلَاصَةِ الْقَوْلِ فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ :

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي أَحَادِيثِ الْفِتَنِ ، وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، وَأَمَارَاتِهَا وَسَبَبِ الْاِخْتِلَافِ  
وَالْتَعَارُضِ فِيْمَا يُخْتَصِرُ فِي الْمَسَائِلِ الْآتِيَةِ : (1) أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ  
يَكُنْ يَعْلَمُ الْغَيْبَ كَمَا يَأْتِي فِي الْآيَةِ الْتَالِيَةِ ، بَلْ هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، وَإِنَّمَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ  
تَعَالَى بِبَعْضِ الْغُيُوبِ بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ قَسْمَانٌ : صَرِيحٌ كَأَخْبَارِ الْمَلَائِكَةِ  
وَالسَّاعَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَمُسْتَنْبَطٌ مِنْ بَيَانِ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُنْصُوصَةِ فِيهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى :  
وَأَنْقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ

---

خَاصَّةً (8 : 25) وَقَوْلِهِ : وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا (17 : 16) فَكَانَ يَفْهَمُ مِنْهَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا لَا يَفْهَمُ غَيْرُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ فَمَنْ دُونَهُمْ عِلْمًا وَفَهْمًا ، كَمَا رُوِيَ عَنِ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ فِي آيَةٍ : وَاتَّقُوا فِتْنَةً أَنَّهُمْ قَرَأُوهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهَا تَقَعُ مِنْهُمْ حَيْثُ وَقَعَتْ فِي فِتْنَةِ قَتْلِ عُثْمَانَ وَفِي يَوْمِ الْجَمَلِ ، وَالرُّوَايَاتُ عَنِ الزُّبَيْرِ أوردَهَا الْحَافِظُ فِي أَوَّلِ شَرْحِ كِتَابِ الْفِتَنِ مِنَ الْبُخَارِيِّ .

(2) إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُهُ بِبَعْضِ مَا يَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بغيرِ الْقُرْآنِ مِنَ الْوَحْيِ ، كَسُؤَالِهِ لِرَبِّهِ أَلَّا يَجْعَلَ بَأْسَ أُمَّتِهِ بَيْنَهَا ، فَلَمْ يُعْطِهِ ذَلِكَ وَأَعْلَمَهُ أَنَّ سُنَّتَهُ فِي خَلْقِهِ لَا تَتَبَدَّلُ ، أَيْ وَأَنَّ هَذَا مِنْهَا ، رَاجِعُ تَفْسِيرِنَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ (65 : 6) الْإِنْخ . وَلَمْ يَكُنْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ سُنَّتِهِ تَعَالَى قَبْلَ إِعْلَامِهِ لَهُ .

(3) أَنَّهُ كَانَ يَمَثِّلُ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْضُ أُمُورِ الْمُسْتَقْبَلِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، كَمَا تَمَثَّلَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فِي عَرْضِ الْحَائِطِ ، وَكَمَا تَمَثَّلَ لَهُ فِي أَثْنَاءِ حَفْرِ الْخَنْدَقِ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِأَصْحَابِهِ مِنَ الْمَمَالِكِ ، وَكَمَا تَمَثَّلَتْ لَهُ الْفِتْنُ وَهُوَ مُشْرِفٌ عَلَى أُطَمٍ مِنْ أَطَامِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ : " هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : فَإِنِّي لَأَرَى الْفِتْنَ تَفْعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَوْقُوعِ الْقَطْرِ " وَظَهَرَ هَذَا فِي فِتْنَةِ قَتْلِ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَمِثْلُهُ حَدِيثُ الْفِتْنِ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ ، وَكَشَفَهُ هَذَا حَقٌّ ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْكِتَابِ : بُبُوءَاتٍ ، وَقَدْ ظَهَرَ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ كَالشَّمْسِ .

(4) أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَكُنْ يُخْبِرُ أَصْحَابَهُ بِكُلِّ مَا يُطْلَعُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ بِمَا كَانَ يَرَى الْمَصْلَحَةَ فِي إخبارِهِمْ بِهِ مَوْعِظَةً وَتَحْذِيرًا ، وَكَانَ يَخْصُ بَعْضَ أَصْحَابِهِ بِبَعْضِهَا كَمَا رُوِيَ فِي مَنَاقِبِ حُدَيْفَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَمَا كَانَ كُلُّ مَنْ سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا مِنْهَا يَفْهَمُ مُرَادَهُ كُلَّهُ ، وَإِذَا كَانُوا لَمْ يَفْهَمُوا تَأْوِيلَ بَعْضِ آيَاتِ الْقُرْآنِ فِي سُنَنِ اللَّهِ الْعَامَّةِ حَقَّ الْفَهْمِ التَّفْصِيلِيِّ كَمَا تَقَدَّمَ أَنفَاءً

(214/300)



عَنْ الزُّبَيْرِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ، وَإِذَا كَانَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ بَعْضَ آيَاتِ الْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ  
كَقَوْلِهِ تَعَالَى : حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ (2 : 187)  
فَلَا يُخْفَى عَلَيْهِمْ تَأْوِيلُ مَا خَصَّ بِهِ بَعْضَ الْأَفْرَادِ ، وَهُوَ مِمَّا لَمْ يُؤْمَرْ بِتَلْيِغِهِ لِلنَّاسِ كَافَّةً - ؛  
لأنه ليس من أصول الدين ولا من فروعه - أولى . وخفاء ذلك على من  
بعدهم أولى ، إلا من يقع تأويله في عهدهم كوصفه - صلى الله عليه وسلم - النساء  
المتهتكات في هذا العصر بالكاسيات العاريات إلخ .

(215/300)

---

(5) لا شك في أن أكثر الأحاديث قد روي بالمعنى كما هو معلوم وأنفق عليه العلماء ،  
ويدل عليه اختلاف رواة الصحاح في الفاظ الحديث الواحد حتى المختصر منها ، وما  
دخل على بعض الأحاديث من المدرجات ، وهي ما يدرج في اللفظ المرفوع من كلام  
الرواة . فعلى هذا كان يروي كل أحد ما فهمه ، وربما وقع في فهمه الخطأ ؛ لأن هذه أمور  
غيبية ، وربما فسّر بعض ما فهمه بالفاظ يزيد لها ، وإذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم -  
لم يطلع الله تعالى على كل ما أطلعته عليه من هذه المغيبات بالتفصيل ، وكان يجتهد في  
بعضها ويُقدّر ويأخذ بالقرآن كما قال النووي وابن الجوزي في تجويزه - صلى الله عليه

وَسَلَّمَ - أَنْ يَكُونَ ابْنُ صَيَّادِ الْيَهُودِيِّ الْمَعَاصِرِ لَهُ هُوَ الدَّجَالُ الْمُنْتَظَرُ ، وَكَذَا تَجْوِيزُهُ أَنْ  
يُظْهِرَ فِي زَمَنِهِ وَهُوَ حَيٌّ ، فَهَلْ مِنَ الْغَرَابَةِ أَنْ يَقَعَ الْخَطُّ وَالتَّعَارُضُ فِيمَا رُوِيَ عَنْهُ بِالْمَعْنَى  
بِقَدْرِ فَهْمِ الرُّوَاةِ .

(216/300)

(6) أَنَّ الْعَابِثِينَ بِالْإِسْلَامِ وَمُحَاوِلِي إِفْسَادِ الْمُسْلِمِينَ وَإِزَالَةِ مُلْكِهِمْ مِنْ زَنَادِقَةِ الْيَهُودِ  
وَالْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْإِبْتِدَاعِ وَأَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ الْعُلُوِّيَّةِ وَالْأُمُوِّيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ قَدْ وَضَعُوا  
أَحَادِيثَ كَثِيرَةً افْتَرَوْهَا ، وَزَادُوا فِي بَعْضِ الْأَثَارِ الْمَرْوِيَّةِ دَسَائِسَ دَسَّوْهَا ، وَرَاجَ كَثِيرٌ مِنْهَا  
يَظْهَرُ رُؤْيَاهَا لِلصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى ، وَلَمْ يُعْرَفْ بَعْضُ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ إِلَّا بِاعْتِرَافِ مَنْ  
تَابَ إِلَى اللَّهِ مِنْ وَاضِعِيهَا ، وَقَدْ كَانَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ يَقُولُ : إِنَّ الْإِسْلَامَ الصَّحِيحَ هُوَ مَا كَانَ  
عَلَيْهِ أَهْلُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ قَبْلَ ظُهُورِ الْفَنَنِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَثِقُ إِلَّا بِأَقْلٍ الْقَلِيلِ مِمَّا رُوِيَ فِي الصَّحَاحِ  
مِنْ أَحَادِيثِ الْفَنَنِ .

(217/300)

(7) إِن بَعْضَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ كَانُوا يَرُوءُونَ عَنْ كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَمَا كَلَّ مُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ صَادِقٌ ،  
وَمَا كَانُوا يُفَرِّقُونَ فِي الْأَدَاءِ بَيْنَ مَا سَمِعُوهُ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ مِنْ غَيْرِهِ  
وَمَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ بِمِثْلِ : سَمِعْتُ وَحَدَّثَنِي وَأَخْبَرَنِي ، وَمِثْلُ : عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ ، أَوْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، كَمَا فَعَلَ الْمُحَدِّثُونَ مِنْ  
بَعْدِ عِنْدَ وَضَعِ مُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا يَرُوي  
بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، وَعَنِ التَّابِعِينَ حَتَّى عَنْ كُتُبِ الْأَخْبَارِ وَأَمْثَالِهِ ، وَالْقَاعِدَةُ عِنْدَ أَهْلِ  
السُّنَّةِ أَنَّ جَمِيعَ الصَّحَابَةِ عُدُولٌ فَلَا يُخَلُّ جَهْلُ اسْمِ رَاوٍ مِنْهُمْ بِصِحَّةِ السَّنَدِ ، وَهِيَ قَاعِدَةٌ  
أَغْلَبِيَّةٌ لَا مُطْرَدَةٌ فَقَدْ كَانَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُنَافِقُونَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ : وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ  
أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ (9 : 101) مَرَدُوا عَلَيْهِ : أَحْكَمُوهُ  
وَصَلُّوهُ أَوْ صَلُّوهُ فِيهِ حَتَّى لَمْ يُعَدُّ يَطْهَرُ فِي سَيِّمَاهُمْ  
وَفَحْوَى كَلَامِهِمْ ، كَالَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ مِنْهُمْ : وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَعَرَفْتَهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ  
وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (47 : 30) .

وَلَكِنَّ الْبَلِيَّةَ فِي الرَّوَايَةِ عَنْ مِثْلِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ ، وَمِمَّنْ رَوَى عَنْهُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَبْنُ عَبَّاسٍ ،  
وَمُعْظَمُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ مَا خُوذَ عَنْهُ وَعَنْ تَلَامِيذِهِ ، وَمِنْهُمْ الْمُدَلِّسُونَ كَثَادَةً ، وَكَذَا غَيْرُهُ  
مِنْ كِبَارِ الْمُفَسِّرِينَ كَأَبْنِ جُرَيْجٍ .

(219/300)

فَكَلَّ حَدِيثٍ مُشْكَلٍ الْمَتْنِ أَوْ مُضْطَرَبِ الرَّوَايَةِ ، أَوْ مُخَالَفِ لِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ ، أَوْ  
لِأَصُولِ الدِّينِ أَوْ نُصُوصِهِ الْقَطْعِيَّةِ ، أَوْ لِلْحِسِّيَّاتِ وَأَمْثَالِهَا مِنَ الْقَضَايَا الْيَقِينِيَّةِ ، فَهُوَ مَطْنَةٌ  
لَمَّا ذَكَرْنَا فِي هَذِهِ التَّنْبِيهَاتِ ، وَسَبَقَ لَنَا بَيَانُ أَكْثَرِهَا فِي الْكَلَامِ عَلَى حَدِيثِ طُلُوعِ الشَّمْسِ  
مِنْ مَغْرِبِهَا فِي تَفْسِيرِ (6 : 158) مِنْ أَوَاخِرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ص 185 وَمَا بَعْدَهَا ج 8 ط  
الْهَيْئَةِ ، فَمَنْ صَدَّقَ رَوَايَةً مِمَّا ذَكَرَ ، وَلَمْ يَجِدْ فِيهَا إِشْكَالًا فَالْأَصْلُ فِيهَا الصِّدْقُ ، وَمَنْ  
ارْتَابَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا أَوْ أوردَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْمُرْتَابِينَ أَوْ الْمُشَكِّكِينَ إِشْكَالًا فِي مُتُونِهَا ،  
فَلْيَحْمِلْهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ عَدَمِ الثِّقَةِ بِالرَّوَايَةِ لِاحْتِمَالِ كَوْنِهَا مِنْ دَسَائِسِ الْأَسْرَائِلِيَّاتِ ، أَوْ  
خَطَأِ الرَّوَايَةِ بِالْمَعْنَى ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَشْرْنَا إِلَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْهَا ثَابِتًا بِالتَّوَاتُرِ  
الْقَطْعِيِّ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ شُبْهَةً عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمَعْلُومِ  
بِالتَّقَطُّعِ ، وَلَا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقَطْعِيَّاتِ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى يُبَارِكُ لَنَا فِي الْعُمْرِ ، وَيُوقِفُنَا

لِصِرْفِ مُعْظَمِهِ فِي خِدْمَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَضَعُ لِحَادِيثِ الْفَنِّ آيَاتِ السَّاعَةِ مُصَنَّفًا  
خَاصًّا بِهَا ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(220/300)

---

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ  
وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَذِهِ آيَةٌ مِنْ أَعْظَمِ أَصُولِ الدِّينِ وَقَوَاعِدِ  
عَقَائِدِهِ بَيَانَهَا لِحَقِيقَةِ الرِّسَالَةِ

وَالْفَصْلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرُّبُوبِيَّةِ وَاللَّوْهِيَّةِ ، وَهَدَمَهَا لِقَوَاعِدِ الشَّرْكِ وَمَبَانِي الْوَثْنِيَّةِ مِنْ أُسَاسِهَا ،  
وَمُنَاسَبَتُهَا لِمَا قَبْلَهَا : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ خَاتَمَ رُسُلِهِ فِيمَا قَبْلَهَا أَنْ يُجِيبَ السَّائِلِينَ لَهُ عَنِ  
السَّاعَةِ بِأَنَّ عِلْمَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، وَأَمْرَهَا بِيَدِهِ وَحْدَهُ - وَأَمْرُهُ فِي هَذِهِ أَنْ يُبَيِّنَ  
لِلنَّاسِ أَنَّ كُلَّ الْأُمُورِ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، وَأَنَّ عِلْمَ الْغَيْبِ كُلَّهُ عِنْدَهُ ، وَأَنَّ يَنْفِي كِلَا مِنْهُمَا  
عَنْ نَفْسِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا

(221/300)

---

يَسْأَلُونَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ السَّاعَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ مَنْصِبَ  
الرِّسَالَةِ قَدْ يَقْتَضِي عِلْمَ السَّاعَةِ وَغَيْرَهَا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ ، وَرَبَّمَا كَانَ يَظُنُّ بَعْضُ حَدِيثِي  
الْعَهْدِ بِالإِسْلَامِ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ يَقْدِرُ عَلَى مَا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ كَسْبُ الْبَشَرِ مِنْ جَلْبِ النَّفْعِ وَمَنْعِ  
الضَّرِّ عَنْ نَفْسِهِ ، وَعَمَّنْ يُحِبُّ أَوْ يَشَاءُ ، أَوْ مَنْعِ النَّفْعِ وَإِحْدَاثِ الضَّرِّ بِمَنْ يُكْرَهُ أَوْ بِمَنْ يَشَاءُ  
. فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّ مَنْصِبَ الرِّسَالَةِ لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا وَظِيفَةُ الرَّسُولِ  
التَّعْلِيمُ وَالإِرْشَادُ ، لَا الْخَلْقُ وَالإِيجَادُ ، وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَهُ  
اللَّهُ بَوَحْيِهِ ، وَأَنَّهُ فِيمَا عَدَا تَبْلِيغِ الْوَحْيِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بَشَرٌ كَسَائِرِ النَّاسِ : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ  
مِثْلَكُمْ يُوحَى إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ (18 : 110) قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي  
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا أَيُّ : قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِلنَّاسِ فِيمَا تُبَلِّغُهُمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ : إِنِّي لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي - أَيُّ  
وَلَا لِغَيْرِي بِالْأُولَى - جَلْبِ نَفْعٍ مَا فِي وَقْتٍ مَا ، وَلَا دَفْعِ ضَرَرٍ مَا فِي وَقْتٍ مَا ، فَوْقَ كَلِمَتِي  
النَّفْعِ وَالضَّرِّ نَكْرَتَيْنِ مَنْفِيَتَيْنِ يُفِيدُ الْعُمُومَ حَسَبِ الْقَاعِدَةِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَنَفْيِ عُمُومِ الْفِعْلِ  
يَقْتَضِي نَفْيَ عُمُومِ الْأَوْقَاتِ لَهُ . وَلَكِنَّ هَذَا الْعُمُومَ مُشْكِلٌ بِمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ تَمَكُّنِ  
كُلِّ

إِنْسَانٍ سَلِيمٍ الْأَعْضَاءِ مِنْ نَفْعِ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ الْكُسْبِيَّةِ ، وَدَفَعَ بَعْضَ الضَّرْرِ عَنْهَا ؛ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الشَّرِيعَةُ الضَّرْرَ وَالضَّرَّارَ .

وَيَجَابُ عَنْ هَذَا الْأَشْكَالِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا مُسْتَقِلًّا بِقُدْرَتِهِ ، وَإِنَّمَا يَمْلِكُ مَا يَمْلِكُهُ مِنْ ذَلِكَ بِتَمْلِكِ الرَّبِّ الْخَالِقِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَهُوَ الْمُرَادُ بِالِاسْتِنَاءِ ، أَيِ لَا أَمْلِكُ مِنْهُمَا (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) مِنْ نَفْعٍ أَقْدَرَنِي عَلَى جَلْبِهِ ، وَضُرٍّ أَقْدَرَنِي عَلَى مَنَعِهِ ، وَسَخَّرَ لِي أَسْبَابَهُمَا ، أَوْ إِلَّا وَقْتُ

مَشِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُمْكِنَنِي مِنْ ذَلِكَ ، فَالْمَعْنَى الْمُرَادُ عَلَى هَذَا هُوَ بَيَانُ عَجْزِ الْمَخْلُوقِ الذَّاتِيِّ ، وَكَوْنِ كُلِّ شَيْءٍ أَوْ تَبَهُ فَهُوَ بِمَشِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَا يَسْتَقِلُّ الْعَبْدُ بِشَيْءٍ مِنْهُ اسْتِقْلَالًا مُطْلَقًا ، وَلَا هُوَ يَمْلِكُهُ بَدَايَتُهُ لِذَاتِهِ ، بَلْ بِمَشِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَالِاسْتِنَاءُ عَلَى هَذَا مُتَّصِلٌ بِمَا قَبْلَهُ مُخَصَّصٌ لِعُمُومِهِ مُتَّيِّدٌ لِإِطْلَاقِهِ .

(223/300)

---

الثَّانِي : أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يَمْلِكُ بِمُقْتَضَى مَنْصِبِ الرِّسَالَةِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا لِنَفْسِهِ بِمَنْطُوقِ الْجُمْلَةِ ، وَلَا لِغَيْرِهِ بِمَفْهُومِهَا الْأَوَّلِيِّ ، مِمَّا يَعْجُزُ عَنْهُ بِمُقْتَضَى بَشَرِيَّتِهِ ، وَمَا

أَقْدَرُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى سُنَّتِهِ فِي عَالَمِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي هُوَ شَأْنُ الْخَالِقِ دُونَ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ الْجُمْلَةِ التَّالِيَةِ ، وَالِاسْتِثْنَاءُ عَلَى هَذَا مُنْفَصِلٌ عَمَّا قَبْلَهُ مُؤَكِّدٌ لِعُمُومِهِ ، أَيْ لَكِنَّ مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ كَانَ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : سُنُقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ (87 : 6 ، 7) وَقَوْلِهِ حِكَايَةً عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا (6) :

(80) وَقَوْلُهُ فِي خِطَابِ كَلِيمِهِ

مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ [011 027] إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ (27 : 10 ، 11) الْآيَةَ .

(224/300)

---

وَهَذَا الْوَجْهُ هُوَ الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا ؛ لِأَنَّ النَّاسَ قَدْ فِتِنُوا مِنْذُ قَوْمِ نُوحٍ بِمَنْ اصْطَفَاهُمْ اللهُ وَوَفَّقَهُمْ لِطَاعَتِهِ وَوَلَايَتِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمِنْ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَجَعَلُوهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ تَعَالَى فِيمَا يَرْجُوهُ عِبَادُهُ مِنْ نَفْعٍ يَسُوقُهُ إِلَيْهِمْ ، وَمَا يَخْشَوْنَهُ مِنْ شَرٍّ يَمْسُهُمْ ، فَيَدْعُوْنَهُ لِيُكْشِفَهُ عَنْهُمْ ، وَصَارُوا يَدْعُوْنَهُمْ كَمَا يَدْعُوْنَهُ لِذَلِكَ إِمَّا اسْتِقْلَالًا ، وَإِمَّا إِشْرَاكًَا ؛ إِذْ مِنْهُمْ مَنْ يُظَنُّ أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاهُمُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي خَلْقِهِ بِمَا هُوَ فَوْقَ الْأَسْبَابِ الَّتِي



مَنْحَهَا اللهُ تَعَالَى لِسَائِرِ النَّاسِ ، فَصَارُوا يَسْتَقْلُونَ بِالتَّنْفَعِ وَالضَّرِّ مَنْحًا وَمَنْعًا ، وَإِحْبَابًا وَسَلْبًا ،  
وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْتَقِدُ أَنَّ التَّصَرُّفَ الْغَيْبِيَّ الْأَعْلَى الَّذِي هُوَ فَوْقَ الْأَسْبَابِ الْكُسْبِيَّةِ الْمَمْنُوحَةِ  
لِلْبَشَرِ خَاصُّ بَرَبِهِمْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، وَلَكِنَّهُمْ يَظُنُّونَ مَعَ هَذَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ  
عِنْدَ اللهِ تَعَالَى كَوُزَرَاءِ الْمُلُوكِ وَحُجَّابِهِمْ وَبَطَانَتِهِمْ ، وَسَطَاءَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى  
رُتَبَتِهِمْ ، فَالْمَلِكُ الْمُسْتَبَدُّ بِسُلْطَانِهِ يُعْطِي هَذَا ، وَيَعْفُو عَنْ ذَنْبِ هَذَا بِوَسَاطَةِ هَؤُلَاءِ  
الْوُزَرَاءِ وَالْحُجَّابِ الْمُقْرَبِينَ عِنْدَهُ ، وَكَذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ وَيَغْفِرُ وَيَرْحَمُ وَيَنْتَقِمُ  
بِوَسَاطَةِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بِزَعْمِهِمْ ، فَهُمْ شُفَعَاءُ لِلنَّاسِ عِنْدَهُ تَعَالَى

(225/300)

يَقْرَبُونَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى كَمَا حَكَاهُ التَّنْزِيلُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَيَبْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ .  
وَفِي مِثْلِ هَذَا التَّشْبِيهِ الْوَثْنِيِّ ، وَتَمَثِيلِ تَصَرُّفِ الرَّبِّ الْعَظِيمِ الْغَنِيِّ عَنْ عِبَادِهِ بِتَصَرُّفِ  
الْمُلُوكِ الْمُسْتَبَدِّينَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَ إِلَى وُزَرَائِهِمْ وَبَطَانَتِهِمْ فِي حَمْلِهِ عَلَى مَا يَنْبَغِي  
لَهُ فِيهِمْ - قَالَ اللهُ تَعَالَى : فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ (16 : 74) وَبَيْنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا  
أَنَّ رُسُلَ اللهِ تَعَالَى وَهُمْ صَفْوَةُ خَلْقِهِ لَا يُشَارِكُونَ اللهُ تَعَالَى فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ ، وَلَا تَأْثِيرَ  
لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي عِلْمِهِ ، وَلَا فِي مَشِيئَتِهِ ، لِأَنَّهَا كَامِلَةٌ أَزَلِيَّةٌ لَا يَطْرَأُ عَلَيْهَا تَغْيِيرٌ ، وَأَنَّ الرِّسَالََةَ

الَّتِي اخْتَصَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا لَا يَدْخُلُ فِي مَعْنَاهَا إِقْدَارُهُمْ عَلَى النَّفْعِ وَالضَّرِّ بِسُلْطَانِ فَوْقِ  
الْأَسْبَابِ الْمُسَخَّرَةِ لِسَائِرِ الْبَشَرِ ، وَلَا مَنْحُهُمْ عِلْمَ الْغَيْبِ ، وَإِنَّمَا تَبْلِيغُ وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى  
وَبَيَانُهُ لِلنَّاسِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْحُكْمِ .

(226/300)

وَدَلِيلُنَا عَلَى اخْتِيَارِ هَذَا الْوَجْهِ : أَنَّ مَدَارَ الْعُبُودِيَّةِ عَلَى تَوَجُّهِ الْعِبَادِ إِلَى الْمَعْبُودِ فِيمَا  
يَرْجُونَ مِنْ نَفْعٍ وَيَخَافُونَ مِنْ ضَرٍّ ، فَاسْتَعْمَلَ اللَّفْظَانِ فِي التَّنْزِيلِ فِي بَيَانِ أَنَّ الرَّبَّ الْمُسْتَحَقَّ  
لِلْعِبَادَةِ هُوَ مَنْ يَمْلِكُ الضَّرَّ وَالنَّفْعَ ، غَيْرَ خَاضِعٍ وَلَا مُقَيَّدٍ بِالْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى :  
قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (5 : 76) وَقَوْلِهِ فِي عَجْلِ بَنِي  
إِسْرَائِيلَ : أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُونَ إِلَى اللَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ فَإِن يُرْجَعُوا إِلَى اللَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (20 : 89) وَقَوْلِهِ : قُلْ  
فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا (48 : 11) وَقَوْلِهِ : قُلْ  
مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا  
ضَرًّا

(13 : 16) وَقَوْلِهِ : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ  
لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (25 : 3) الْآيَةُ .

---

فَلَمَّا كَانَ مَلِكُ الضُّرِّ وَالتَّفْعِ بِهَذَا الإِطْلَاقِ خَاصًّا بِرَبِّ العِبَادِ وَخَالِقِهِمْ ، وَكَانَ طَلَبُ التَّفْعِ أَوْ  
كَشْفِ الضُّرِّ عِبَادَةً لَا يَجُوزُ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ عِبَادِهِ مَهْمَا يَكُنْ فَضْلُهُ تَعَالَى عَظِيمًا  
عَلَيْهِمْ - أَمْرَ اللَّهِ رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُصْرِحَ بِالبَلَاغِ عَنْهُ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ  
وَلَا لِغَيْرِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا الأَمْرُ لَهُ فِي القُرْآنِ مُبَالَغَةً فِي تَقْرِيرِهِ وَتَوْكِيدِهِ ، فَقَالَ  
تَعَالَى فِي سُورَةِ يُونُسَ : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ  
اللَّهُ (10 : 49) الآيَةَ ، وَقَالَ فِي سُورَةِ الجِنِّ : قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (72 :  
21) وَهَذِهِ الآيَةُ أبلغُ وَأَشْمَلُ مِمَّا فِي مَعْنَاهَا بِمَا فِيهَا مِنْ إِجْازٍ وَاحْتِبَاكٍ بِحَذْفِ مَا يُقَابَلُ  
الضُّرَّ وَالرُّشْدَ المَذْكُورَيْنِ ، وَهُمَا ضِدَّاهُمَا بِدَلَالَتِهِمَا عَلَيْهِمَا ، وَالتَّقْدِيرُ : لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا  
وَلَا نَفْعًا ، وَلَا رُشْدًا وَلَا غَوَايَةً ، وَهَذِهِ الآيَاتُ بِمَعْنَى مَا هُنَا تُؤَيِّدُ اخْتِيَارَنَا .

ثُمَّ أَمَرَهُ تَعَالَى أَنْ يَنْفِي عَنِ نَفْسِهِ عِلْمَ الْغَيْبِ مُسْتَدَلًّا عَلَيْهِ بِاتِّفَاءِ أَظْهَرَ مَنَافِعِهِ الْقَرِيبَةِ فَقَالَ :  
وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ الْخَيْرُ مَا يَرِغِبُ النَّاسُ فِيهِ  
مِنَ الْمَنَافِعِ الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ كَالْمَالِ وَالْعِلْمِ ، وَالسُّوءُ مَا يَرِغِبُونَ عَنْهُ مِمَّا يَسُوءُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ  
، وَيُرَادُ بِهِمَا هُنَا الْجِنْسُ الَّذِي يَصْدُقُ بَعْضُ أَفْرَادِهِ وَهُوَ الْخَيْرُ الَّذِي يُمَكِّنُ تَدَارُكُهُ  
وَتَحْصِيلُهُ ، وَالسُّوءُ الَّذِي يُمَكِّنُ الْأَسْتِعْدَادَ لِدَفْعِهِ بَعْلَمَ مَا يَأْتِي بِهِ الْغَدُ . وَالْجُمْلَةُ اسْتِدْلَالٌ  
عَلَى نَفْيِ عِلْمِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْغَيْبِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَا أُمَلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا  
ضَرًّا وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ - وَأَقْرَبُهُ مَا يَقَعُ فِي مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِي فِي الدُّنْيَا -  
لَأَسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ كَالْمَالِ وَأَعْمَالِ الْبِرِّ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ  
عُسْرَةٍ وَغَلَاءٍ مِثْلًا وَتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ ، وَلَمَا مَسَّنِي السُّوءُ الَّذِي يُمَكِّنُ الْأَحْتِيَاظَ لِدَفْعِهِ بَعْلَمُ  
الْغَيْبِ ، كَشِدَّةِ الْحَاجَةِ مِثْلًا ، وَمِنْ أُمَّثْلَتِهِ فِي الْعِبَادَةِ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي  
حُجَّةِ الْوَدَاعِ : " لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبُرْتُ مَا أَهْدَيْتُ وَلَوْ لَا أَنْ مَعِيَ الْهَدْيِ  
لَأَحْلَلْتُ " رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا - يَعْنِي لَوْ أَنَّهُ عَلِمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا يَحْصُلُ

(229/300)

مِنْ أَنْفِرَادِهِ دُونَ أَصْحَابِهِ بِسُوقِهِ الْهَدْيِ إِلَى الْحَرَمِ مِنْ مَشَقَّةِ فَسْخِهِمُ الْحَجَّ إِلَى عُمْرَةِ دُونِهِ ؛  
إِذْ لَا يُبَاحُ الْفَسْخُ وَالتَّحَلُّلُ بِالْعُمْرَةِ لِمَنْ مَعَهُ الْهَدْيُ ، لَمَّا سَاقَ الْهَدْيُ لِيُؤَافِقَ الْجُمْهُورَ فِي  
تَمَتُّعِهِمُ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ . وَمِنْ أُمَّثَلَتِهِ فِي الْإِدَارَةِ وَسِيَاسَةِ الْحَرْبِ مَا عَاتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ  
مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْأَعْمَى وَالتَّصَدِّيِّ لِلْأَغْنِيَاءِ ، وَمِنْ أَخْذِ الْفِدَاءِ مِنْ أُسْرَى بَدْرٍ ، وَمِنْ  
الْإِذْنِ بِتَخَلُّفِ الْمُنَافِقِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ سَنَةِ الْعُسْرَةِ ، وَلَمْ أَرَأْ أَحَدًا تَبَّهَ عَلَيَّ هَذَا النَّوْعِ مِنَ  
الْمُفْسِّرِينَ .

وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرٌ أَنَّهُ مُسْتَأْنَفٌ غَيْرُ مَعْطُوفٍ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، وَمَعْنَاهُ : وَمَا مَسَّنِيَ الْجُنُونَ كَمَا  
زَعَمَ الْجَاهِلُونَ ، فَيَكُونُ حَاصِلُ مَعْنَى الْآيَةِ نَفِي رَفْعِهِ إِلَى رُتْبَةِ الرَّبُّوبِيَّةِ الَّذِي افْتَنَّ بِمِثْلِهِ  
الْغَلَاةُ ، وَنَفِي وَضْعِهِ فِي أَدْنَى مَرْتَبَةِ الْبَشَرِيَّةِ الَّذِي زَعَمَتْهُ الْغَوَاةُ الْعَتَاةُ .  
وَبَيَانَ حَقِيقَةِ أَمْرِهِ ، وَمَا رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَدْرِهِ ، بِجَعْلِهِ فَوْقَ جَمِيعِ الْبَشَرِ بُوْحِيهِ ،  
وَوَسَاطَتِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، لَكِنْ فِي التَّلْبِيغِ وَالْإِرْشَادِ ، لَا فِي الْخُلُقِ وَالْإِيْجَادِ ، وَلَا فِي  
تَدْبِيرِ أُمُورِ الْعِبَادِ ؛ فَإِنَّ هَذَا شَأْنُ الرَّبُّوبِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ فِي أَعْلَى  
مَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ .

وَمِنْ نَكْتِ الْبَلَاغَةِ فِي الْقُرْآنِ بِتَقْدِيمِ اللَّفْظِ عَلَى مَا يُقَابَلُهُ فِي آيَةٍ وَتَأْخِيرِهِ فِي أُخْرَى : تَقْدِيمُ  
النَّفْعِ عَلَى الضَّرِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَتَأْخِيرُهُ وَتَقْدِيمُ الضَّرِّ عَلَيْهِ فِي آيَةِ سُورَةِ يُونُسَ الْمَذْكُورَةِ  
أَفْئًا . وَالْفَرْقُ الْمُحَسَّنُ لِذَلِكَ أَنَّ آيَةَ الْأَعْرَافِ جَاءَتْ بَعْدَ السُّؤَالِ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا  
؟ وَأَكْبَرُ فَوَائِدِ الْعِلْمِ بِالسَّاعَةِ ، وَهُوَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ - الْأِسْتِعْدَادُ لَهَا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ،  
وَأَتْقَاءِ أَسْبَابِ الْعِقَابِ فِيهَا ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ الْبَدْءَ بِنَفْيِ مَلِكِ النَّفْعِ لِنَفْسِهِ بِمِثْلِ هَذَا  
الْإِسْتِعْدَادِ ، وَتَأْخِيرِ مَلِكِ الضَّرِّ الْمُرَادُ بِهِ مَلِكُ دَفْعِهِ وَأَتْقَاءِ وَقُوعِهِ ، وَأَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ  
بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ حَتَّى فِيمَا دُونَ السَّاعَةِ زَمَنًا وَعَظْمُ شَأْنُهُ لَأَسْتَكْرَمَ مِنَ  
الْخَيْرِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْإِسْتِعْدَادِ لِلْمُسْتَقْبَلِ ، وَأَتَقَى أَسْبَابَ مَا يَمَسُّهُ مِنَ السُّوءِ فِيهِ كَالْأَمِثَلَةِ  
الَّتِي ذَكَرْنَاهَا .

(231/300)

وَأَمَّا آيَةُ سُورَةِ يُونُسَ ، فَقَدْ وَرَدَتْ فِي سِيَاقِ تَمَارِي الْكُفَّارِ فِيمَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْعِقَابِ  
عَلَى التَّكْذِيبِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ، وَاسْتَعْجَالِهِمْ إِيَّاهُ تَهَكُّمًا وَمُبَالَغَةً  
فِي الْجُحُودِ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُذَكَّرَ فِي جَوَابِهِمْ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لَهُمْ ضَرًّا كَتَعْجِيلِ الْعَذَابِ  
الَّذِي يُكَذِّبُونَ بِهِ ، وَلَا نَفْعًا كَالْتَّصُرِ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَى تَعْجِيلِ الْعَذَابِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَقَدْ

أَمْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُبَلِّغَهُمْ أَنْ أَمْرَ عَذَابِهِمْ تَعْجِيلًا أَوْ تَأْخِيرًا لِلَّهِ تَعَالَى وَحُدَّهُ، كَمَا أَمْرُهُ أَنْ يُنْفِي  
عَنْ نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى مَا اقْتَرَحُوهُ مِنَ الْآيَاتِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ تَعَالَى مِنْ مُقْتَرَحَاتِهِمْ فِي  
سُورَةِ الْإِسْرَاءِ مِنْ تَفْجِيرِ يَنْبُوعٍ فِي مَكَّةَ، وَإِيجَادِ جَنَّةٍ تَفْجَرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ  
إِسْقَاطِ السَّمَاءِ عَلَيْهِمْ كَسْفًا - وَهُوَ مِنَ الْعَذَابِ - الْإِخ. وَمِنْ أَمْرِهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُجِيبَهُمْ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا  
(17: 93) وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَيْضًا: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ  
يَشَاءُ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (17: 54) أَيُّ مُوَكَّلًا بِأَمْرِ ثَوَابِهِمْ وَعِقَابِهِمْ مُنْفِذًا  
لَهُ، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: وَإِنْ مَا نُرِيكَ

(232/300)

بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفِّيَنَّاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (13: 40).  
وَهَاكَ مَا وَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ فِي الْآيَةِ عَنْ تَفْسِيرِ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ قَالَ: "أَمْرُهُ اللَّهُ  
تَعَالَى أَنْ يُفَوِّضَ الْأُمُورَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُخْبِرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ الْمُسْتَقْبَلَ

(233/300)

وَلَا اطَّلَاعَ لَهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا أَطَّلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (72 : 26) الْآيَةَ ، وَقَوْلُهُ : وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ الثَّوْرِيِّ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ قَالَ : لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ مَتَى أَمُوتُ لَعَمِلْتُ عَمَلًا صَالِحًا ، وَكَذَا رَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ، وَقَالَ مِثْلَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ ، وَفِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّ عَمَلَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ دِيمَةً ، وَفِي رِوَايَةٍ كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثَبْتَهُ ، فَجَمِيعُ عَمَلِهِ كَانَ عَلَى مَنَوَالٍ وَاحِدٍ ، كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنْ يُرْشِدَ غَيْرُهُ إِلَى الْأَسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . " وَالْأَحْسَنُ فِي هَذَا مَا رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ أَيُّ : مِنَ الْمَالِ ، وَفِي رِوَايَةٍ لَعَلِمْتُ إِذَا اشْتَرَيْتُ شَيْئًا مَا أَرْبِحُ فِيهِ فَلَا أُبِيعُ شَيْئًا إِلَّا رِبْحْتُ فِيهِ وَلَا يُصِيبُنِي الْفَقْرُ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَقَالَ آخَرُونَ : مَعْنَى ذَلِكَ : لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَعْدَدْتُ لِلسَّنَةِ الْمُجْدِبَةِ مِنَ الْمُخْصَبَةِ ، وَلَوْ قَتِ الْغَلَاءِ مِنَ الرَّخْصِ . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ قَالَ : لَأَجْتَنِبُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرِّ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَأَتَّقِيهِ . " اهـ .



وَمَا قَلْنَاهُ أَعْمٌ وَأَصَحُّ .

هَذَا وَإِنَّا قَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ  
إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ (6 : 50) أَنَّ الْغَيْبَ قِسْمَانِ : حَقِيقِيٍّ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ،  
وَإِضَافِيٍّ يَعْلَمُهُ بَعْضُ الْخَلْقِ دُونَ بَعْضٍ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَنْفِي قُدْرَةَ الرَّسُولِ عَلَى التَّصَرُّفِ  
فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا هُوَ فَوْقَ كَسْبِ الْبَشَرِ ، وَتَنْفِي عَنْهُ عِلْمَ الْغَيْبِ بِهَذَا الْمَعْنَى ، إِلَّا مَا  
أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ بُوْحِيهِ لِتَعَلُّقِهِ بِوَضِيفَةِ الرَّسَالَةِ كَالْمَلَائِكَةِ وَالْحِسَابِ وَالنُّوَابِ وَالْعِقَابِ -  
وَأَنَّ مَا يُطَّلِعُ اللَّهُ عَلَيْهِ الرَّسُلُ مِنْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ مِنْ عِلْمِهِمُ الْكَسْبِيِّ ، بَلْ يَدْخُلُ فِي مَعْنَى  
الْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ النُّبُوَّةَ غَيْرُ مُكْتَسَبَةٍ .

(235/300)

وَأُورِدْنَا هُنَاكَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنْ سُورَةِ الْجِنِّ : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا  
إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ إِلَى قَوْلِهِ لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ (72 : 26 - 28)  
الْآيَةَ ، وَاسْتَطَرَدْنَا إِلَى تَفْنِيدِ مَا يَدَّعِيهِ بَعْضُ مَشَائِخِ طُرُقِ الصُّوفِيَّةِ أَوْ يَدَّعَى لَهُمْ ، مِنْ عِلْمِ  
الْغَيْبِ وَالتَّصَرُّفِ فِي مُلْكِ اللَّهِ أَحْيَاءً أَوْ أَمْوَاتًا بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا ثُمَّ أَطَلْنَا الْبَحْثَ

فِي عِلْمِ الْغَيْبِ فِي تَفْسِيرِ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ (6: 59) الْآيَةَ، وَتَكَلَّمْنَا فِيهِ عَنِ الْكَشْفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ بَعْضِ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَسْأَلَةِ الْغَيْبِ الْإِضَافِيِّ أَوْ الَّتِي لَا يَصِحُّ أَنْ تُسَمَّى غَيْبًا؛ لِأَنَّ لَهَا أَسْبَابًا فِطْرِيَّةً. وَفِي الْكَلَامِ عَلَى أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الَّتِي مَرَّبَكَ قَرِيبًا بَحْثٌ فِيمَا أُطْلِعَ اللَّهُ عَلَيْهِ رَسُولُهُ بِمَا دُونَ الْوَحْيِ مِنْ بَعْضِ الْحَوَادِثِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، كَمَثَلِ الْأَشْيَاءِ لَهُ تَمَثُّلًا مُتَقَاوِتًا فِي الْوُضُوحِ. وَهُوَ لَا يَعَارِضُ هَذِهِ الْآيَةَ كَمَا عَلِمْتُ.

(236/300)

إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَذَا بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِتَعْلِيلِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ نَفْيِ امْتِيَاذِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الْبَشَرِ بِمَلِكِ التَّنْفِيعِ وَالضَّرِّ مِنْ غَيْرِ طُرُقِ الْأَسْبَابِ وَسُنَنِ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ - وَنَفْيِ امْتِيَاذِهِ عَلَيْهِمْ بِعِلْمِ الْغَيْبِ، عَلَّمَهَا بَيَانٌ حَصَرَ امْتِيَاذَهُ عَلَيْهِمْ بِالتَّلْبِيغِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالتَّلْبِيغُ قِسْمَانِ: قِسْمٌ مُقْتَرَنٌ بِالتَّخْوِيفِ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَهُوَ الْإِنذَارُ، وَقِسْمٌ مُقْتَرَنٌ بِالتَّرغِيبِ فِي الثَّوَابِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَهُوَ الْبَشَارَةُ أَوْ التَّبَشِيرُ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يُوجِّهُ إِلَى جَمِيعِ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَالآيَاتِ فِيهِ كَثِيرَةٌ، وَيُوجِّهُ أَيْضًا إِلَى مَنْ يُؤْمِنُ، وَإِلَى مَنْ يُصِرُّ عَلَى كُفْرِهِ وَإِجْرَامِهِ مُطْلَقًا، وَإِذَا ذَكَرَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا فِي

سِيَاقٍ وَاحِدٍ يُخَصُّ الْكَافِرُونَ بِالْإِنذَارِ وَالْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ بِالتَّبَشِيرِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي أَوَّلِ  
سُورَةِ الْكَهْفِ الْإِنذَارَ الْمَطْلُوقَ بِالْقُرْآنِ ، ثُمَّ تَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ، وَإِنذَارَ  
مُتَّخِذِي الْوَلَدِ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْكَافِرِينَ . وَمِنَ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ  
مَرْيَمَ : لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (19 : 97) وَفِي مَعْنَاهُمَا آيَاتٌ أُخْرَى فِي  
الْمُقَابَلَةِ كَمَا تَرَى فِي أَوَائِلِ سُورَتِي الْبَقَرَةِ وَالْإِسْرَاءِ ، وَلَكِنْ بَدُونَ ذِكْرِ لَفْظِ الْإِنذَارِ .

(237/300)

---

والتَّبَشِيرُ لَا يُوجَّهُ إِلَى الْكَافِرِينَ وَالْمُجْرِمِينَ بَلْقَبِهِمْ إِلَّا بِأَسْلُوبِ التَّهْكُمِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى :  
فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3 : 21) عَلَى الْقَوْلِ الْمَشْهُورِ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ ، وَأَمَّا الْإِنذَارُ  
فَقَدْ يُوجَّهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ فَاطِرٍ :  
إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ (35 : 18) وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ يَسٍ :  
إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (36 : 11) .  
بِنَاءً عَلَى هَذَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ مُتَعَلِّقٌ بِالْوَصْفَيْنِ ، عَلَى  
مَعْنَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِإِنذَارِهِ فَيَزِيدُهُمْ خَشْيَةَ اللَّهِ وَاتِّقَاءً لِمَا يُسْخِطُهُ ،  
وَبِتَّبَشِيرِهِ فَيَزِيدُهُمْ شُكْرًا لَهُ بِعِبَادَتِهِ وَإِقَامَةِ سُنَنِهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالثَّانِي

الْمُتَّصِلِ بِهِ ، وَيَدُلُّ عَلَى حَذْفِ مُقَابِلِهِ فِيمَا قَبْلَهُ . وَالتَّقْدِيرُ : مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِيرٌ  
لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَوَجْهُهُ أَنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ التَّبْلِيغِ ، وَهُنَا لِكَ وَجْهٍ ثَالِثٌ وَهُوَ أَنَّ الْبَشَارَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ  
خَاصَّةً لِاتِّصَالِهَا بِهِمْ ، وَالْإِنذَارُ عَامٌّ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ ، وَقَدْ عُرِفَ وَجْهُهُ مِمَّا فَصَلَّنَاهُ .

(238/300)

وَقَدْ وَرَدَ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ حَصْرِ وَظَيْفَةِ الرَّسُولِ بِالْإِنذَارِ وَالتَّبَشِيرِ بِلَفْظَيْهِمَا مَعًا ، أَوْ  
بِأَحَدِهِمَا ، وَبِلَفْظِ التَّبْلِيغِ الْجَامِعِ لِهَاتَيْنِ آيَاتٍ كَثِيرَةٌ بَعْضُهَا بِالْإِثْبَاتِ بَعْدَ النَّفْيِ كَمَا هُنَا  
وَبَعْضُهَا يَأْتِي ، وَالْحَصْرُ بِكُلِّ مِنْهُمَا أَقْوَى النُّصُوصِ الْقَطْعِيَّةِ الدَّلَالَةِ ، وَمَعَ هَذَا التَّكْرَارِ  
وَالتَّوَكِيدِ كُلُّهُ يَأْتِي غَلَاةَ الْإِطْرَاءِ لِلرُّسُلِ وَلَمَنْ دُونَ الرُّسُلِ مِنَ الصَّالِحِينَ حَقِيقَةً أَوْ تَوْهَمًا إِلَّا  
أَنْ يُشْرِكُوهُمْ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي صِفَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ وَأَفْعَالِهِ .

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ سَبَأٍ : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
يَعْلَمُونَ (34 : 28) وَقَالَ فِي سُورَتَيْ الْإِسْرَاءِ وَالْفُرْقَانِ : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا  
وَقَالَ فِي سُورَتَيْ الْأَنْعَامِ وَالْكَهْفِ : وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَقَالَ فِي  
سُورَةِ النَّحْلِ : فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (16 : 35) وَفِي سُورَةِ يَسٍ حِكَايَةً عَنِ

الرُّسُلُ : وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (36 : 17) وَفِي سُورَتِي النُّورِ وَالْعُنُكُبُوتِ : وَمَا عَلَيَّ  
الرَّسُولُ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

(239/300)

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ الْحَصْرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَمْثَالِهَا إِضَافِيٌّ ؛ فَإِنَّ مِنْ وَطَائِفِ الرُّسُلِ بَيَانَ الْوَحْيِ  
وَالْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ  
اللَّهُ (4 : 105) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (16 :  
44) وَالْبَيَانُ يَكُونُ بِالْأَفْعَالِ كَالْأَقْوَالِ ، بَلِ الْأَفْعَالُ أَقْوَى دَلَالَةً وَأَعْصَى عَلَى تَأْوِيلِ الْمُحَرِّفِينَ  
. وَكَمَا قَدْ .

أَمَرَ تَعَالَى بِتَحْكِيمِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْخُضُوعِ لِحُكْمِهِ ، أَمَرَ بِالتَّاسِّي بِهِ  
فِي هَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ  
(21 : 33) .

قُلْنَا : إِنَّ هَذَا لَا يُنَافِي الْحَصْرَ الْحَقِيقِيَّ ؛ لِأَنَّ التَّلْبِيغَ لِدِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعَمَلِ  
وَالْحُكْمِ بِهِ وَتَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي التَّلْبِيغِ وَبَيَانِ الْوَحْيِ .

(240/300)

---

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَبِيدُ اللَّهِ تَعَالَى مُكْرَمُونَ ، لَا يُشَارِكُونَهُ فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَعْمَالِهِ ، وَلَا سُلْطَانَ لَهُمْ عَلَى التَّأْثِيرِ فِي عِلْمِهِ وَلَا فِي تَدْيِيرِهِ ، وَهُمْ بَشَرٌ كَسَائِرِ النَّاسِ لَا يَمْتَازُونَ عَلَى الْبَشَرِ فِي خَلْقِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ وَغَرَائِزِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَمْتَازُونَ بِاخْتِصَاصِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ بِوَحْيِهِ ، وَاصْطِفَائِهِمْ لِتَلْبِيغِ رِسَالَاتِهِ لِعِبَادِهِ ، وَبِمَا زَكَّاهُمْ وَعَصَمَهُمْ فَأَهْلَهُمْ لِأَنْ يَكُونُوا أُسْوَةً حَسَنَةً وَقُدْوَةً صَالِحَةً لِلنَّاسِ فِي الْعَمَلِ بِمَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار ح 9 ص 386.430 ﴾

(241/300)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

هذا ارتقاء في التبرُّو من معرفة الغيب ومن التصرف في العالم ، وزيادة من التعليم للأمة

بشيء من حقيقة الرسالة والنبوة ، وتمييز ما هو من خصائصها عما ليس منها .

والجملة مستأنفة ابتدائية قصد من استينافها الاهتمام بمضمونها ، كي توجه الأسماع إليها

، ولذلك أعيد الأمر بالقول مع تقدمه مرتين في قوله: ﴿ قل إنما علمها عند ربي . . .  
قل إنما علمها عند الله ﴾ [الأعراف: 187] للاهتمام باستقلال المقول، وأن لا يندرج  
في جملة المقول المحكي قبله، وخص هذا المقول بالإخبار عن حال الرسول عليه الصلاة  
والسلام نحو معرفة الغيب ليقطع من عقول المشركين توهم ملازمة معرفة الغيب لصفة النبوة،  
إعلاناً للمشركين بالتزام أنه لا يعلم الغيب، وأن ذلك ليس بطاعن في نبوته حتى يستيئسوا  
من تحديه بذلك، وإعلاماً للمسلمين بالتمييز بين ما تقتضيه النبوة وما لا تقتضيه، ولذلك  
نفى عن نفسه معرفة أحواله المغيبيّة، فضلاً على معرفة المغيبات من أحوال غيره إلا ما شاء  
الله.

في "تفسير البغوي"، عن ابن عباس: أن أهل مكة قالوا يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر  
الرخيص قبل أن يعلو فتشترى عند الغلاء، وبالأرض التي تريد أن تجذب فترتحل منها إلى  
التي قد أخصبت، فأنزل الله تعالى: ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله  
﴾ فيكون هذا من جملة ما توركوا به مثل السؤال عن الساعة، وقد جمع رد القولين في  
قول.

ومعنى الملك هنا الاستطاعة والتمكن، وقد تقدم بيانه عند قوله تعالى: ﴿ قل أتعبدون  
من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ﴾ في سورة المائدة (76)، والمقصود منه، هنا

: ما يشمل العلم بالنفع والضرر ، لأن المقام لنفي معرفة الغيب ، ولأن العلم بالشيء هو موجب توجه النفس إلى عمله .

(242/300)

---

وقدم النفع في الذكر هنا على الضرر : لأن النفع أحب إلى الإنسان ، وعكس في آية المائدة ؛ لأن المقصود تهوين أمر معبوداتهم ، وأنها لا يخشى غضبها .  
وإنما عطف قوله : ﴿ ولا ضراً ﴾ مع أن المرء لا يتطلب إضرار نفسه لأن المقصود تعميم الأحوال إذ لا تعدو أحوال الإنسان عن نافع وضار ، فصار ذكر هذين الضدين مثل ذكر المساء والصبح وذكر الليل والنهار والشر والخير وسيأتي مزيد بيان لهذا عند قوله تعالى : ﴿ ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ﴾ في سورة الفرقان ( 3 ) ، وجعل نفي أن يملك لنفسه نفعاً أو ضراً مقدمة لنفي العلم بالغيب ، لأن غاية الناس من التطلع إلى معرفة الغيب هو الإسراع إلى الخيرات المستقبلية بتهيئة أسبابها وتقريبها ، وإلى التجنب لمواقع الإضرار ، فنفي أن يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، يعم سائر أنواع الملك وسائر أنواع النفع والضرر ، ومن جملة ذلك العموم ما يكون منه في المستقبل وهو من الغيب .

والاستثناء من مجموع النفع والضرر ، والأولى جعله متصلاً ، أي إلا ما شاء الله أن يملكه



بأن يُعلمنيه ويُقدرني عليه ، فإن لم يشأ ذلك لم يطلعني على مواقعه وخلق الموانع من أسباب  
تحصيل النفع ، ومن أسباب اتقاء الضر ، وحمله على الاتصال يناسب ثبوت قدرة للعبد  
بجعل الله تعالى وهي المسماة بالكسب ، فإذا أراد الله أن يوجه نفس الرسول عليه الصلاة  
والسلام إلى معرفة شيء مغيب أطلعته عليه لمصلحة الأمة أو لإكرام الأمة له كقوله تعالى :  
﴿ إذ يريكهم الله في منامك ﴾ إلى قوله : ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ [ الأنفال :  
44 ] .

وقوله : ﴿ ولو كنت أعلم الغيب ﴾ الخ تكملة للتبرؤ من معرفة الغيب ، سواء منه ما كان  
يخص نفسه وما كان من شؤون غيره .

فحصل من مجموع الجملتين أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، في عالم الشهادة وفي عالم الغيب  
، وأنه لا يعلم شيئاً من الغيب ، مما فيه نفعه وضره وما عداه .

(243/300)

---

والاستدلال على انتقاء علمه بالغيب بانتقاء الاستكثار من الخير ، وتجنب السوء ،  
استدلال بأخص ما لو علم المرء الغيب لعلمه ، أول ما يعلم وهو الغيب الذي يهيم نفسه ،  
ولأن الله لو أراد إطلاعه على الغيب ؛ لكان القصد من ذلك إكرام الرسول صلى الله عليه

وسلم فيكون إطلاعه على ما فيه راحته أول ما ينبغي إطلاعه عليه ، فإذا اتقى ذلك كان انتقاء غيره أولى .

ودلي التالي ، في هذه القضية الشرطية ، هو المشاهدة من فوات خيرات دنيوية لم يتهياً لتحصيلها وحصول أسواء دنيوية ، وفيه تعريض لهم إذ كانوا يتعرضون له السوء .  
وجملة : ﴿ إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ من تمام القول المأمور به وهي مستأنفة ستيناها بيانياً ، ناشئاً عن التبرؤ من أن يملك لنفسه نفعاً أو ضراً لأن السامعين يتوهمون ما نفاه عن نفسه أخص صفات النبي فمن شأنهم أن تعجبوا من نفيه ذلك عن نفسه وهو يقول إنه رسول الله إليهم ، ويسألوا عن عمله ما هو بعد أن نفي عنه ما نفي ، فبين لهم أن الرسالة منحصرة في النذارة على المفاسد وعواقبها والبشارة بعواقب الانتهاء عنها واكتساب الخيرات .  
وإنما قدم وصف النذير على وصف البشير ، هنا : لأن المقام خطاب المكذبين المشركين ، فالنذارة أعلق بهم من البشارة .

وتقدم الكلام على النذير البشير عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ في سورة البقرة ( 119 ) .

(244/300)

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يتنازعُ تعلقه كل من ﴿نذير﴾ و ﴿بشير﴾: لأن الانتفاع بالأمرين يختص بالذين تهيئوا إلى الإيمان بأن يتأملوا في الآيات وينهوا من أنفسهم ويقولوا الحق على آبائهم، دون الذين جعلوا ديدنهم التكذيب والإعراض والمكابرة، فالمضارع مراد به الحال والاستقبال كما هو شأنه، ليشمل من تهيأ للإيمان حالاً ومآلاً، وأما شموله لمن آمنوا فيما مضى فهو بدلالة فحوى الخطاب إذ هم أولى، وهذا على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّحْشَاهَا﴾ [النازعات: 45].

وفي نظم الكلام على هذا الأسلوب من التنازع، وإيلاء وصف (البشير) بـ (قوم يؤمنون)، إيهام أن البشارة خاصة بالمؤمنين، وأن متعلق النذارة المتروك ذكره في النظم هو لأضداد المؤمنين، أي المشركين، وهذا المعنى مقصود على نحو قوله تعالى: ﴿لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ [الأحقاف: 12].

وهذه المعاني المستبعات مقصودة من القرآن، وهي من وجوه إعجازه لأن فيها استفادة معان وافرة من ألفاظ وجيزة. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير ح 8 ص﴾

(245/300)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

ويقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله : أتم تسألوني عن الساعة ، وأنا بشر ، وملتق فقط ، والإرسال بالمنهج يأتي من الله وأنا أبلغه ، ولا علم لي بموعد قيام الساعة ، ولا أملك لنفسي لا ضراً ولا نفعاً ، أي لا أملك أن أدفع الضر عني أو أجذب النفع لنفسي ، ولكن حين يسوق الله النفع أو يمنع الضر ، فالإنسان يملك ما يعطيه الله ، والعاقل حين يملك ، يقول : إن هذا ملك عرضي ، لا آمن أن ينزع مني . لذلك قال لنا الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ

اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمَلِكُ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : 26]

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

أي أن أحداً لا يملك شيئاً إلا ما شاء الله أن يملكه ، ورسول الله من البشر . ويضيف : ﴿ وَكَوُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ . . . ﴾ [الأعراف :

[ 188

ومحمد صلى الله عليه وسلم لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير ، فقد حارب ، وانتصر ، وحارب وانهزم ، وتاجر فربح ، ويسير عليه ما يسير على البشر ، ومرة يدبر الأمر الذي لم يكن فيه منهج من السماء ، فمرة يصيب ومرة يخطئ . فيصحح له الله ؛ لذلك يأتي القول

على لسانه بأمر من الله : لو كنت أعلم الغيب لما وقعت في كل هذه المسائل ، وكان أهل  
رسول الله من قريش قد قالوا : إنا أقاربك ، فقل لنا على موعد الساعة . حتى نستعد  
لملاقاتها .

ويتابع المولى سبحانه قوله : ﴿ وَمَا مَسَّنِي السَّوَاءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(246/300)

---

وساعة ترى " إن " فهي مرة تكون شرطية مثل : " إن ذاكرت تنجح " ، ومرة تكون للنفي  
وتجد بعدها اسما ، والمعنى : ما أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون . والكلام موجه إلى المؤمنين  
لأنهم هم الذين ينتفعون بالندارة وبالبشارة ، وما يُنذروا به لا يفعلوه ، وما يبشروا به يفعلوه .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(247/300)

---

لطيفة

قال في ملائكة التأويل :

قوله تعالى: "قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير" وفي يونس: "قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون"

للسائل أن يسأل هنا عن تقديم النفع في الأعراف وتأخيره في يونس؟ وعن تعقيب آية الأعراف بقوله: "لو كنت أعلم الغيب . . ." الآية وآية يونس بقوله: "لكل أمة أجل"؟ والجواب عن الأول: أنه لما تقدم سؤا لهم عن الساعة وتكرر في قوله: "يسألونك كأنك حفي عنها" أي عالم بها وكان ظاهر السياق يشير إلى أنهم كانوا يظنون أنه عليه السلام يعلمها فطلبوا تعريفهم بها وأن يخصهم بذلك ولا شك أن العلم بالشئ نفع لصاحبه فعرفهم أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا وتقدم ذكر النفع لأنه مشير إلى ما ظنوه أنه عنده من علمها فأعلمهم أنه سبحانه استأثر بعلمها وأنه عليه السلام لا يملك من ذلك شيئا إلا ما شاء الله له مما عدى علم الساعة لانفراده سبحانه عن خلقه بعلمها، "لا يجليها لقوتها إله هو" ثم تأكد هذا الغرض بقوله تعالى على لسان يبه عليه السلام: "ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير" وهذا كله بين التناسب.

(248/300)

---

وأما تأخير ما تقدم فى الأعراف فى سورة يونس وهو قوله: "قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً" فقدم الضر فللمتقدم قبله من قوله: "ويقولون متى هذا الوعد" فطلبوا تعجيل العذاب استهانة وتكديبا ولم يعلموا ما فى مطالبهم من المحنة والمضرة العاجلة فقال لهم عليه السلام بأمر الله تعالى إني لا أملك الضر ولا النفع لنفسى ولا لكم فلا تستعجلونى ذلك فليس بيدى فقدم الضر لأجل ما تقدم من طلبهم إياه وأخبروا أن لكل أمة أجلا لما شاء الله وقدره لهم: "إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" فقد وضع وجه التقديم والتأخير فى الضر والنفع وتوجيه التعقيب بما أعقب كل من الآيتين. انتهى انتهى. ١٠ هـ ﴿ ملاك التأويل ص 222. 223 ﴾

(249/300)

"فصل"

قال السيوطى:

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت

من الخير ﴾ قال: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ﴿

وما مسني السوء ❖ قال : ولا يصيبني الفقر .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ❖ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ❖ قال :  
الهدى والضلالة ❖ ولو كنت أعلم الغيب ❖ متى أموت ❖ لاستكثرت من الخير ❖ قال  
: العمل الصالح .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله ❖ وما مسني السوء ❖ قال : لاجتنبت  
ما يكون من الشر قبل أن يكون . انتهى انتهى . اهـ ❖ الدر المنثور ح 3 ص ❖

(250/300)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " لِنَفْسِي " فيه وجهان :

أحدهما : أنها متعلقة بـ " أملك " .

والثاني : أنها متعلقة بمحذوف على أنها حال من نفعا ؛ لأنه في الأصل صفة له لو تأخر ،

ويجوز أن يكون لِنَفْسِي معمولا بـ " نفعا " واللام زائدة في المفعول به تقوية للعامل ؛ لأنه فرع إذ

التقدير : لا أملك أن أنفع نفسي ولا أن أضرها ، وهو وجه حسن .



قوله ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ في هذا الاستثناء وجهان :

أظهرهما : أَنَّهُ مَتَّصِلٌ ، أَيُّ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ تَمَكِينِي مِنْهُ فَإِنِّي أَمْلِكُهُ .

والثاني : أَنَّهُ مَنْفَعَلٌ - وبه قال ابن عطية - ، وسبقة إليه مكِّيٌّ ، ولا حاجة تدعو إلى

ذلك .

قوله ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾

عطف على جواب " لو " وجاء هنا على أحسن الاستعمال من حيث أثبت اللام في

جواب " لو " المثبت ، وإن كان يجوز غيره ، كما تقدّم ، وحذف اللام من المنفي ، لأنه يمتنع

ذلك فيه .

وقال أبو حيان : ولم تصحب " ما " النافية - أي : اللام - وإن كان الفصحح إلا تصحبها ،

كقوله : ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر : 14] .

وفيه نظرٌ ؛ لأنهم نضوا على أن جوابها المنفي لا يجوز دخول اللام عليه .

قوله : ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ نذير لمن لا يصدق بما جئت به ، وبشير

بالجنة لقوم يصدقون .

وذكر إحدى الطائفتين ؛ لأن ذكر إحداهما يفيد ذكر الأخرى ، كقوله : ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ

الحر﴾ [النحل : 81] .

وقد يقال : إنه كان نذيراً وبشيراً لكل إلا أن المنفع بالندارة والبشارة هم المؤمنون كما تقدّم

في قوله: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: 2].

واللَّامُ في قوله [القوم] من باب التَّنَازُعِ، فعند البصريين تعلقُ بـ "بَشِيرٍ" لأنه الثَّانِي، وعند الكوفيين بالأول لسبقه.

ويجوز أن تكون المتعلق بالندارة محذوفاً، أي: نذير للكافرين ودل عليه ذكر مقابله كما تقدم.

أهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 414.416 ﴾ . باختصار.

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (188)

أمره بتصريح الإقرار بالتبري عن حوله ومُنْتَه، وأن قيامه وأمره ونظامه بطول ربه ومته؛ ولذلك تتجسس علي الأحوال، وتختلف الأطوار؛ فَمِنْ عُسْرٍ يَمَسُّنِي، ومن يسرٍ يخصني، ولو كان الأمر بمرادي، ولم يكن بيدٍ غيري قيادي تشابهت أحوالي في اليسر، وتشاكنت أوقاتي في البعد من العسر. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 594 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشري في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذِ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾

وَإِذِ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ قَلْعَانَهُ وَرَفَعْنَا ، كقوله : ورفعنا فوقهم الطور . ومنه : تق السقاء ،

إذا نفسه ليقطع الزبدة منه . والظلة : كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب . وقرئ بالطاء ،

من أهل عليه إذا أشرف وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ وَعَلِمُوا أَنَّهُ سَاقِطٌ عَلَيْهِمْ ، وذلك أنهم أبوا .

أن يقبلوا أحكام التوراة . لغاظها وثقلها ، فرفع الله الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم ،

وكان فرسخا في فرسخ . وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم ، فلما نظروا

إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل

فرقا من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهوديا يسجد إلا على حاجبه الأيسر ، ويقولون : هي

السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة . ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله . لم يبق جبل

ولا شجر ولا حجر إلا اهتز ، فلذلك لا ترى يهوديا تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وأنغض لها

رأسه « 1 » خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ . أى : وقلنا خذوا ما آتيناكم ، أوقائلين :

خذوا ما آتيناكم من الكتاب بِقُوَّةٍ وَعِزْمٍ عَلَى إِحْتِمَالِ مَشَاقِقِهِ وَتَكَالِيفِهِ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ مِنَ

الأوامر والنواهي ولا تنسوه .

أو واذكروا ما فيه من التعريض للثواب العظيم فارغبوا فيه . ويجوز أن يراد : خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوة إن كنتم تطيقونه ، كقوله إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا . واذكروا ما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار لعلكم تتقون ما أتم عليه . وقرأ ابن مسعود : وتذكروا . وقرئ : واذكروا ، بمعنى . وتذكروا .

(1) . قوله «وأنغض لها رأسه» أي حرك رأسه كالمتعجب . أفاده الصحاح . (ع)

(252/300)

[سورة الأعراف (7) : الآيات 172 إلى 174]

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174)

مِنْ ظُهُورِهِمْ بَدَلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ بَدَلُ الْبَعْضِ مِنَ الْكُلِّ . وَمَعْنَى أَخَذَ ذُرِّيَّاتِهِمْ مِنْ ظُهُورِهِمْ : إِخْرَاجَهُمْ مِنْ أَصْلَابِهِمْ نَسْلًا وَإِشْهَادَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ . وَقَوْلُهُ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَىٰ

شَهِدْنَا مِنْ بَابِ التَّمَثِيلِ وَالتَّخْيِيلِ «1» ! وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ نَصَبَ لَهُمُ الْأَدْلَةَ عَلَى رَبِيبَتِهِ  
وَوَحْدَانِيَتِهِ ، وَشَهِدَتْ بِهَا عَقُولُهُمْ وَبَصَائِرُهُمُ الَّتِي رَكِبَهَا فِيهِمْ وَجَعَلَهَا مُمَيِّزَةً بَيْنَ الضَّلَالَةِ  
وَالهُدَى ، فَكَأَنَّهُ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَقَرَّرَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ وَكَأَنَّهُمْ قَالُوا :  
بَلَى أَنْتَ رَبِّنَا ، شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَقْرَرْنَا بِوَحْدَانِيَتِكَ . وَبَابُ التَّمَثِيلِ وَاسِعٌ فِي كَلَامِ اللَّهِ  
تَعَالَى وَرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَفِي كَلَامِ الْعَرَبِ .

وَنظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي  
طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ وَقَوْلُهُ :

إِذْ قَالَتِ الْأُنثَى لِلْبَطْنِ الْحَقُّ «2»

قَالَتْ لَهُ رِيحُ الصَّبَا قَرَقَارٌ «3»

---

(1) . قَالَ مُحَمَّدٌ : «هَذَا مِنْ بَابِ التَّمَثِيلِ وَالتَّخْيِيلِ . . . الْح» قَالَ أَحْمَدُ : إِطْلَاقُ التَّمَثِيلِ  
أَحْسَنُ ، وَقَدْ وَرَدَ الشَّرْعُ بِهِ . وَأَمَّا إِطْلَاقُهُ التَّخْيِيلِ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى فَمُرْدُودٌ ، وَلَمْ يَرِدْ بِهِ  
سَمْعٌ ، وَقَدْ كَثُرَ إِنكَارُنَا عَلَيْهِ لِهَذِهِ اللَّفْظَةِ . ثُمَّ إِنَّ الْقَاعِدَةَ مُسْتَقْرَّةٌ عَلَى أَنَّ الظَّاهِرَ مَا لَمْ  
يُخَالِفِ الْمَعْقُولَ يَجِبُ إِقْرَارُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، فَلِذَلِكَ أَقْرَأَ الْأَكْثَرُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَحَقِيقَتِهِ  
وَلَمْ يَجْعَلُوهُ مَثَلًا . وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ الْإِخْرَاجِ وَالْمُخَاطَبَةِ فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ .

(2) . مَرَّ شَرْحُ هَذَا الشَّاهِدِ بِالْجُزْءِ الْأَوَّلِ ص 181 فَرَاجِعُهُ هُنَاكَ إِنْ شِئْتَ اه

مصححه .

(3) قالت له ريح الصبا قرقار واختلط المعروف بالإنكار

لأبي النجم العجلى . و«قرقار» اسم فعل بمعنى قرقر : أمر للسحاب لتنزيله منزلة العاقل ،  
أى : صوت بالرعد .

هذا قول سيبويه . وقال المبرد تبعاً للمازنى : هو حكاية صوت الرعد ، وهو على كل مبنى  
على الكسر على أصل التخلص من التقاء الساكنين ، لكنه على الأول متحمل للضمير ،  
فهو مركب . وعلى الثانى : لا ضمير فيه ، فهو مفرد ، لكن فيه أن حكاية الأصوات لا تفيد  
حثاً ولا زجراً . وهنا يفيد الحث لقربنة المقام ولا فعل لها ، وهذا له فعل . يقال : قرقرت  
الدجاجة إذا صوتت ، إلا أن يقال إن المعنى : صوت يا رعد قرقار . وقولهم . قرقرت  
الدجاجة ، مأخوذ من قرقار ، كما أخذوا العياط من عيط بكسرتين بينهما سكون ،  
حكاية لصوت المتلاعبين . واختلط يحتمل أنه أمر وهو أنسب بما قبله . ويحتمل أنه ماض .  
والمراد بالإنكار المنكر ، ولا قول للريح . وإنما شبهها حيث تسوق السحاب بمن يصح منه  
القول ، على طريق المكنية والقول تخييل . ويجوز أن يستعار القول لصوب السحاب ، على  
طريق التصريح . ويجوز أنه من باب الكناية . وعلى هذا النحو قوله فى ناقة صالح : فأتاها  
أحيمر كأخى السهم بغضب ، فقال كوني عقيراً . وصرف الممنوع الضرورة . وأضاف  
الملقى لغير الملقى ، ليدل على الملازمة لوجه شبه العاقر بالمبهم . أى قالت الصبا للسحاب  
: قرقر بالرعد . واختلط الأماكن التى اعتدت سقيها بالتي كنت لا تبلغها بالسقى ، أى سو

بين الجميع فيه . ويحتمل أن المعروف المطر والمنكر الرعد والبرق والصواعق ، أى افعل  
الجميع على أنه ماض ، فهو عطف على قالت . وليس من قول الريح . وعليه فيجوز أيضاً  
رفع المعروف ، ويكون الفعل لازماً . وهذا البيت من أبيات الكتاب .

(253/300)

---

ومعلوم أنه لا قول ثم ، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى أن تقولوا مفعول له ، أى فعلنا ذلك من  
نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول ، كراهة أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا  
غافلين لم ننبه عليه أو كراهة أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم  
فاقتدينا بهم ، لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم ، فلا عذر لهم في  
الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقداء بالآباء . كما لا عذر لآبائهم في الشرك -  
وأدلة التوحيد منصوبة لهم - فإن قلت : بنو آدم وذرياتهم من هم «1» ؟ قلت : عنى ببني  
آدم : أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله ، حيث قالوا : عزير ابن الله . وبذرياتهم : الذين  
كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخلافهم المقتدين بآبائهم . والدليل على  
أنها في المشركين وأولادهم :

قوله أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل والدليل على أنها في اليهود : الآيات التي عطف

عليها هي ، والتي عطفت عليها وهي على نطها وأسلوبها ، وذلك قوله وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ  
، إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ ، وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ، وَإِذْ تَتَّقِنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ، وَأَتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ  
الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا . أَفْتُهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ أَي كانوا السبب في شركنا ، لتأسيسهم  
الشرك ، وتقدمهم فيه ، وتركه سنة لنا وكذلك ومثل ذلك التفصيل البليغ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَهُمْ  
وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وإرادة أن يرجعوا عن شركهم نفضلها . وقرئ: ذريتهم ، على التوحيد .  
وَأَنْ يَقُولُوا : بِالْيَاءِ .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 175 إلى 176]

وَأَتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)  
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ  
يُلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ  
(176)

(1) . عاد كلامه . قال : «فان قلت بنو آدم وذرياتهم من هم . . . الخ» ؟ قال أحمد :  
والأظهر أنها شاملة لجملة بنى آدم فتدخل اليهود في عمومها ، لأن كل واحد من بنى آدم  
يصدق عليه الأمران جميعاً أنه ابن آدم وأنه ذريته ، ولا يخرج من هذا إلا آدم عليه السلام ،  
وإنما لم يذكر لظهوره ، ولا يخلو الكلام عن النوع المسمى في فن البلاغة باللف اختصاراً  
وإيجازاً .



وَأْتَلُّ عَلَيْهِمْ عَلَى الْيَهُودِ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا هُوَ عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ .  
وقيل : من الكنعانيين ، اسمه بلعم بن باعوراء أوتى علم بعض كتب الله فانسَلَخَ مِنْهَا مِنْ  
الآيات ، بَأَنْ كَفَرَ بِهَا وَنَبَذَهَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَلَحِقَهُ الشَّيْطَانُ وَأَدْرَكَهُ وَصَارَ  
قَرِينًا لَهُ . أَوْ فَاتَّبَعَهُ خَطْوَاتِهِ . وَقُرِئَ : فَاتَّبَعَهُ ، بِمَعْنَى فَتَّبَعَهُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ فَصَارَ مِنَ  
الضَّالِّينَ الْكَافِرِينَ . رَوَى أَنَّ قَوْمَهُ طَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَدْعُو عَلَى مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ فَأَبَى وَقَالَ :  
كَيْفَ أَدْعُو عَلَى مَنْ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ ، فَأَلْحَوْا عَلَيْهِ وَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى فَعَلَ وَكُوِّشْنَا لِرَفْعِنَاهُ بِهَا  
لِعَظْمَانِهِ وَرَفَعْنَاهُ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِتِلْكَ الْآيَاتِ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ مَالٍ إِلَى  
الدُّنْيَا وَرَغِبَ فِيهَا . وَقِيلَ : مَالٍ إِلَى السَّفَالَةِ . فَإِنْ قُلْتَ :

كَيْفَ عُلِقَ رَفْعُهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَلْعَلْ بِفَعْلِهِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِهِ الرِّفْعَ ؟ قُلْتَ : الْمَعْنَى : وَلَوْ  
لَزِمَ الْعَمَلُ بِالْآيَاتِ وَلَمْ يَنْسَلَخْ مِنْهَا لِرَفْعِنَاهُ بِهَا . وَذَلِكَ أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى رَفْعُهُ تَابِعَةٌ لِلزُّومِ  
الْآيَاتِ فَذَكَرْتَ الْمَشِيئَةَ . وَالْمُرَادُ : مَا هِيَ تَابِعَةٌ لَهُ وَمُسَبَّبَةٌ عَنْهُ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : وَلَوْ لَزِمَهَا  
لِرَفْعِنَاهُ بِهَا . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ فَاسْتَدْرَكَ الْمَشِيئَةَ بِإِخْلَادِهِ الَّذِي هُوَ  
فَعْلُهُ ، فَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ وَكُوِّشْنَا فِي مَعْنَى مَا هُوَ فَعْلُهُ ، وَلَوْ كَانَ الْكَلَامُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَوَجِبَ

أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكننا لم نشأ فمثله كمثل الكلب فصفتها التي هي مثل في الخسة  
والضعة كصفة الكلب في أحسن أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث «1» به واتصاله ،  
سواء حمل عليه - أى شدّ عليه وهيج فطرد - أو ترك غير متعرّض له بالحمل عليه . وذلك  
أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج منه وحرك ، وإلا لم يلهث ، والكلب يتصل  
لهثه في الحالتين جميعاً ، وكان حق الكلام أن يقال : ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخذ إلى  
الأرض فحططناه ووضعنا منزلته ، فوضع قوله فمثله كمثل الكلب موضع حططناه أبلغ  
حط ، لأن تمثيله بالكلب في أحسن أحواله وأذلها في معنى ذلك . وعن ابن عباس رضى  
الله عنه ، الكلب منقطع الفؤاد ، يلهث إن حمل عليه أو لم يجمل عليه . وقيل : معناه إن  
وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال ، كالكلب إن طردته فسعى لهث ، وإن تركته على  
حاله لهث . فإن قلت : ما محل الجملة الشرطية ؟ قلت : النصب على الحال ، كأنه قيل :  
كمثل الكلب ذليلاً دائماً الذلة لاهثاً في الحالتين . وقيل : لما دعا بلعم على موسى عليه  
السلام خرج لسانه فوق على صدره ، وجعل يلهث كما يلهث الكلب ذلك مثل القوم الذين  
كذبوا بآياتنا من اليهود بعد ما قرءوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ،

---

(1) . قوله «دوام اللهث به» في الصحاح لهث الكلب إذا خرج لسانه من التعب أو

العطش . وقوله تعالى إن تحمّل عليه يلهث أو تتركه يلهث لأنك إذا حملت على الكلب نباح

وولى هاربا . وإن تتركه شد عليك ونبج ، فيتعب نفسه في الحالين فيعتريه عند ذلك ما

يعتريه عند العطش من إخراج اللسان . (ع)

(255/300)

وذكر القرآن المعجز وما فيه ، وبشروا الناس باقتراب مبعثه ، وكانوا يستفتحون به فأقص قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم لعلهم يتفكرون فيحذرون مثل عاقبته ، إذ ساروا نحو سيرته ، وزاغوا شبه زيغته ، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحي فيزدادوا إيقانا بك وتزداد الحجة لزوما لهم .

[سورة الأعراف (7) : آية 177]

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَانفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177)

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ أَي مثل القوم . أو ساء أصحاب مثل القوم . وقرأ الجحدري ساء مثل القوم .

وَانفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ إما أن يكون معطوفا على كذبوا ، فيدخل في حيز الصلة بمعنى :

الذين جمعوا بين التكذيب ، بآيات الله وظلم أنفسهم . وإما أن يكون كلاما منقطعا عن

الصلة ، بمعنى : وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب ، وتقديم المفعول به للاختصاص ، كأنه

قيل :

وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدّها إلى غيرها .

[سورة الأعراف (7) : آية 178]

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلَّهُ فَاُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178)  
فَهُوَ الْمُهْتَدِي حَمَلٌ عَلَى اللَّفْظِ . وَفَاُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ حَمَلٌ عَلَى الْمَعْنَى .

[سورة الأعراف (7) : آية 179]

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا  
وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)  
كثيراً من الجنّ والإنس هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم . وجعلهم في  
أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار ،  
ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر ، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار  
العيون واستماع الأذان ، وجعلهم - لإعراقهم «1» في الكفر وشدة شكائهم فيه ، وأنه لا  
يأتي منهم إلا أفعال أهل النار - مخلوقين للنار ، دلالة على توغّلهم في الموجبات وتمكّنهم فيما  
يؤهلهم لدخول النار ومنه كتاب عمر رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد : بلغني أن أهل  
الشام اتخذوا لك دلوكا «2» عجن

(1) . قوله «لإعراقهم» يقال أعرق الشجر والنبات - بالعين المهملة - إذا امتدت عروقه

في الأرض . وأغرق النازع في القوس - بالمعجمة - أي استوفى مداها من الصحاح . (ع)

(2) . قوله «دلوكا» في الصحاح : الدلوك ما يدلك به من طيب وغيره . (ع) [ . . . . . ]

(256/300)

---

بجمر وإنى لأظنكم آل المغيرة ذره النار «1» . ويقال لمن كان عريقا في بعض الأمور : ما خلق فلان إلا لكذا . والمراد وصف حال اليهود «2» في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع علمهم أنه النبي الموعود . وأنهم من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم ، كأنهم خلقوا للنار أولئك كالأنعام في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبير بل هم أضلُّ من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبير أولئك هم الغافلون الكاملون في الغفلة . وقيل : الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره ، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار .

[سورة الأعراف (7) : آية 180]

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ (180)

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الْأَسْمَاءِ «3» ، لأنها ندل على معان حسنة من

تجديد وتقديس وغير ذلك فادعوه بها فسموه بتلك الأسماء وذروا الذين يلحدون في  
أسمائه واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنی  
، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه ، كما سمعنا البدوي يقولون بجهلهم «4» : يا أبا المكارم ،  
يا أبيض الوجه ، يا نخي . أو أن يابوا تسميته ببعض أسمائه الحسنی ، نحو أن يقولوا : يا الله ،  
ولا يقولوا : يا رحمن وقد قال الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أي ما تدعوا فله  
الأسماء الحسنی ويجوز أن يراد : ولله الأوصاف الحسنی «5» ، وهي الوصف بالعدل  
والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق

---

(1) . أخرجه أبو عبيد في غريبه : حدثني إسماعيل بن عياش عن حميد بن ربيعة عن  
سليمان بن موسى : أن عمر كتب إلى خالد - فذكره منقطعا .

(2) . قوله «والمراد وصف حال اليهود» إنما فسره بذلك لأنه تعالى يجب عليه الأصلح  
العبد عند المعتزلة ، وخلقهم لجهنم ليس أصلح له . وعند أهل السنة لا يجب عليه شيء .

(ع)

(3) . قال محمود : «معنى الحسنی التي هي أحسن الأسماء . . . الخ» قال أحمد : أي مما  
يجوز عليه وإن لم يرد إطلاقه شرعا ، كالشريف والعارف ، ونحو ذلك .

(4) . قال محمود : «كما سمعنا البدوي يقولون بجهلهم . . . الخ» قال أحمد : وفي هذا  
التأويل بعد ، لأن ترك الدعاء ببعض الأسماء لا يطلق عليه إلحاد في العرف ، وإنما يطلق

على فعل لا على ترك ، ولكن يتميز عن الوجه السالف بأنه أضاف الأسماء الملحد فيها إلى ذاته ، وهذا أدل على الرحمن منه على مثل أبيض الوجه ونحوه ، فان هذا ليس من أسمائه ، إلا أن يقال : أضافه إليه تنزيلا على زعمهم .

(5) . قال محمود : « ويجوز أن يراد : ولله الأوصاف الحسنى ، وهي الوصف بالعدل

والخير . . . الخ » قال أحمد :

لا يدع حشو العقائد الفاسدة في غير موضع يسعها ، فان يكن المراد الأوصاف ، فالحسنى منها وصف الله بعموم القدرة والانفراد بال مخلوقات ، حتى لا يشرك معه عباده في خلق أفعالهم . ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل ، وأن كل قضائه عدل ، وانه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم ، وأن وعده الصدق وقوله الحق ، وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها ، إلى غير ذلك من أوصافه الجليلة ، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيجحدونها ، ثم يزعمون أنه لا تشمل قدرته المخلوقات ، بل هي مقسومة بينه وبين عباده ، ويوجبون عليه رعاية ما يتوهمونه مصلحة ، ويجرون واسعا من مغفرته وعفوه وكرمه ، على الخطائين من موحيه ، إلى غير ذلك من الإلحاد المعروف بالطائفة المتلقين عدلية ، المزكين لأنفسهم وهو أعلم بمن اتقى .

(257/300)

فصفوه بها ، وذروا الذين يلحدون «1» في أوصافه فيصفونه بمشبهة القبائح وخلق  
الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها وقيل : إلحادهم في أسمائه :  
تسميتهم «2» الأصنام آلهة ، واشتقاقهم اللات من الله ، والعزى من العزيز .

[سورة الأعراف (7) : آية 181]

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181)

لما قال ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا فأخبر أن كثيرا من الثقلين عاملون بأعمال أهل النار ، أتبعه  
قوله وممّن خلقنا أمة يهدون بالحق وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا قرأها  
«هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها «3»» ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق  
وعنه صلى الله عليه وسلم «إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى عليه السلام  
«4»» وعن الكلبي :

هم الذين آمنوا من أهل الكتاب . وقيل : هم العلماء والدعاة إلى الدين .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 182 إلى 185]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ  
(183) أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ الْبَاقِي الْمُبِينُ (184) أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي  
مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ



## فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185)

- (1) . قوله «وذر الذين يلحدون» يريد أهل السنة القائلين : كل كائن فهو مراد ومخلوق له تعالى ولو شرا ، وتجاوز رؤيته ، خلافا للمعتزلة في كل ذلك ، كما تقرر في محله . (ع)
- (2) . قال محمود : «وقيل إلحادهم في أسمائه : تسميتهم . . . الخ» قال أحمد : وهذا تفسير حسن ملائم ، والله أعلم .
- (3) . ذكره الثعلبي عن قتادة وابن جريج . وإسناده إليها مذكور في أول كتابه .
- (4) . ذكره الثعلبي عن الربيع بن أنس ، وإسناده إليه في أول كتابه . رواه أحمد من حديث عمران بن حصين بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى يأتي أمر الله ، وينزل عيسى ابن مريم» وفي تاريخ البخاري عن عبد الطغاوى عن جابر نحوه ، ورواه أبو يعلى من وجه آخر ، وزاد «فيقول إمامهم : تقدم يا روح الله فيقول : أتم أحق أمر كرم به هذه الأمة» .

(258/300)

---

الاستدراج : استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد ، أو الاستنزال درجة بعد درجة .

قال الأعشى :

فلو كنت في جبّ ثمانين قامة ورقيت أسباب السّماء بسلم

ليستدر جنك القول حتى تهزّه وتعلم أنّي عنكم غير مفحم «1»

ومنه: درج الصبى إذا قارب بين خطاه. وأدرج الكتاب: طواه شيئاً بعد شيء. ودرج

القوم: مات بعضهم في أثر بعض. ومعنى سَنَسْتَدْرِجُهُمْ سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما

يهلكهم ويضاعف عقابهم مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ما يراد بهم. وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم

مع انهماكهم في الغي، فكلما جدّد عليهم نعمة ازدادوا بطراً وجدّدوا معصية، فيتدرّجون

في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانين أنّ مواترة النعم أثرة من الله وتقريب، وإنما هي

خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه وأُملي لَهُمْ عطف على

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ وهو داخل في حكم السين إن كَيْدِي مَتِينُ سَمَاهُ كَيْدًا لَأَنَّهُ شَبِيهٌ بِالْكَيْدِ، من

حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان ما بصاحبهم بمحمد صلى الله عليه

وسلم مِنْ جَنَّةٍ مِنْ جَنُونَ، وكانوا يقولون شاعر مجنون. وعن قتادة أنّ النبي صلى الله عليه

وسلم علا الصفا فدعاهم فخذوا فخذاً يجذرهم بأس الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم

هذا مجنون، بات يهوّت «2» إلى الصباح «3» أَوْلَمْ يَنْظُرُوا نَظْرَ اسْتِدْلَالٍ فِي مَلَكُوتِ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِيمَا تَدْلَانِ عَلَيْهِ مِنْ عَظْمِ الْمَلِكِ. والملكوت: الملك العظيم وما خلق

اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَفِيمَا خَلَقَ اللَّهُ مِمَّا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الشَّيْءِ، من أجناس لا يحصرها العدد ولا

يحيط بها الوصف وأنّ عسى أن محففة من الثقيلة، والأصل: وأنه عسى، على أن

الضمير ضمير الشأن . والمعنى : أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ولعلهم يموتون عما قريب ، فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم . قبل مغافصة الأجل «4» وحلول العقاب . ويجوز أن يراد باقتراب الأجل : اقتراب الساعة ، ويكون من «كان» التي فيها ضمير الشأن .

فإن قلت : بم يتعلق قوله فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ قلت : بقوله عسى أن يكون قد اقترب أجلهم كأنه قيل : لعل أجلهم قد اقترب ، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان

---

(1) . مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 395 فراجع إن شئت اه مصححه .

(2) . قوله «بات يهوت» أي يضح . (ع)

(3) . أخرجه الطبري بإسناد صحيح إلى قتادة قال «ذكر لنا - فذكره . فأنزل الله أولم

يتفكروا ما بصاحبهم من جنة الآية

(4) . قوله «قبل مغافصة الأجل» أي أخذه إياهم على حين غفلة . اه من الصحاح . (ع)

(259/300)

---

بالقرآن قبل الفوت ، وما ذا ينتظرون بعد وضوح الحق ، وبأي حديث أحق منه يريدون أن

يؤمنوا .

[سورة الأعراف (7) : آية 186]

مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَآ هَادِي لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)

قرئ وَيَذَرُهُمْ بِالْيَأْسِ وَالنُّونِ ، وَالرَّفْعِ عَلَى الْاِسْتِنَافِ ، وَيَذَرُهُمْ ، بِالْيَأْسِ وَالْجَزْمِ عَطْفًا عَلَى  
محل فَلَآ هَادِي لَهُ كَأَنَّهُ قِيلَ : مَنْ يَضِلُّ اللَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ وَيَذَرُهُمْ .

[سورة الأعراف (7) : آية 187]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ  
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187)

يَسْأَلُونَكَ قِيلَ إِنَّ قَوْمًا مِنَ الْيَهُودِ قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا مَتَى السَّاعَةُ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا ، فَإِنَّا نَعْلَمُ  
مَتَى هِيَ ، وَكَانَ ذَلِكَ امْتِحَانًا مِنْهُمْ ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهَا . وَقِيلَ :

السَّائِلُونَ قَرِيشَ . وَالسَّاعَةُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْغَالِبَةِ ، كَالنَّجْمِ لِلثَّرِيَا . وَسُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ بِالسَّاعَةِ ،  
لَوْقُوعِهَا بَغْتَةً أَوْ لِسُرْعَةِ حِسَابِهَا ، أَوْ عَلَى الْعَكْسِ لَطَوْلِهَا ، أَوْ لِأَنَّهَا عِنْدَ اللَّهِ عَلَى طَوْلِهَا

كَسَاعَةِ مِنَ السَّاعَاتِ عِنْدَ الْخَلْقِ . أَيَّانَ بِمَعْنَى مَتَى . وَقِيلَ : اشْتِقَاقُهُ مِنْ أَيْ فَعْلَانٍ مِنْهُ ،

لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَيْ وَقْتُ وَأَيْ فَعْلٍ ، مِنْ أَوَيْتَ إِلَيْهِ ، لِأَنَّ الْبَعْضَ أَوْ إِلَى الْكُلِّ مَتَسَانِدٌ إِلَيْهِ ، قَالَ ابْنُ

جَنِيٍّ ، وَأَبَى أَنْ يَكُونَ مِنْ «أَيْنَ» لِأَنَّهُ زَمَانٌ ، «وَأَيْنَ» مَكَانٌ . وَقَرَأَ السُّلَمِيُّ : إِيَّانَ ، بِكَسْرِ

الْهَمْزَةِ «1» مُرْسَاهَا إِرْسَاؤُهَا ، أَوْ وَقْتُ إِرْسَائِهَا ، أَيْ إِثْبَاتِهَا وَإِقْرَارِهَا . وَكُلُّ شَيْءٍ

ثقل رسوّه ثباته واستقراره . ومنه : رسى الجبل وأرسى السفينة . والمرسى : الأنجر الذي ترسى به ، ولا أثقل من الساعة ، بدليل قوله ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ والمعنى : متى يرسيها الله إنما علمها أى علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به ، لم يخبر به أحداً من ملك مقرب ولا نبي مرسل ، يكاد يخفيها من نفسه ، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت لذلك لا يُجَلِّبُهَا لَوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ أى لا تزال خفية ، لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة ، لا يجلبها «2» بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه ، لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أى كل من أهلها من الملائكة

---

(1) . قوله «وقرأ السلمى إيان بكسر الهمزة» في الصحاح «إيان» سؤال عن زمان

و«إيان» بكسر الهمزة لغة سليم . وبه قرأ السلمى إيان يُبْعَثُونَ . (ع) [ . . . . . ]

(2) . قوله «بغتة لا يجلبها» لعله : وقيل لا يجلبها ، بل لعله «أو لا يجلبها» . (ع)

(260/300)

---

والثقلين أهمه شأن الساعة ، ويودّه أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه . أو ثقلت فيها لأن أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدتها وأهوالها . أو لأن كل شيء لا يطيقها ولا

يقوم لها فهي ثقيلة فيها إلا بَعْتَةً إلا فجأة على غفلة منكم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم  
«إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه» 1« والرجل يسقى ماشيته ، والرجل  
يقوم سلعته في سوقه ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه» 2« كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا كَأَنَّكَ عَالَمٌ  
بِهَا . وحقيقته : كأنك بليغ في السؤال عنها» 3« ، لأن من بالغ في المسألة عن الشيء  
والتفكير عنه ، استحکم علمه فيه وورصن» 4« وهذا التركيب معناه المبالغة . ومنه :  
إحفاء الشارب . واحتفاء البقل : استئصاله . وأحفى في المسألة ، إذا الحف» 5« .  
وحفى بفلان وتحفى به : بالغ في البر به . وعن مجاهد : استحفيت عنها

---

(1) . قوله «والرجل يصلح حوضه» في البخاري : يليط حوضه . وروى «يلوط» أى  
يصلحه اه (ع)

(2) . أخرجه الطبري بالإسناد المذكور إلى قتادة قال ذكر لنا - فذكره ، وفي الصحيحين  
عن أبي هريرة رفعه «لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا  
يطويانه ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه - الحديث» .

(3) . قال محمود «معناه كأنك بليغ في السؤال عنها . . . الخ» قال أحمد وفي هذا النوع من  
التكرير نكتة لا تلتفى إلا في الكتاب العزيز ، وهو أجل من أن يشارك فيها ، وذلك أن المعهود  
في أمثال هذا التكرير أن الكلام إذا بنى على مقصد ، واعترض في أثناءه عارض فأريد  
الرجوع لتتميم المقصد الأول وقد بعد عهده ، طرى بذكر المقصد الأول لتتصل نهايته

ببدايته ، وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال ، وسيأتي وهذا منها ، فانه لما ابتدأ الكلام بقوله يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله قل إنما علمها عند ربي إلى قوله بَعَثَ أريد تميم سؤا لهم عنها بوجه من الإنكار عليهم ، وهو المضمن في قوله كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا وهو شديد التعلق بالسؤال ، وقد بعد عهده فطري ذكره نظرية عامة ، ولا نراه أبدا يطرى إلا بنوع من الإجمال كالتذكرة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم ، فمن ثم قيل يَسْئَلُونَكَ ولم يذكر المسؤل عنه وهو الساعة ، اكتفاء بما تقدم ، فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال قل إنما علمها عند الله ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد بسطه . ومن أدق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد نظرية للذكر قوله :

عجل لنا هذا وألحقنا بذال الشحم إنا قد مللناه يجمل

أى فقط ، فذكر الألف واللام خاتمة للأول من الرجزين ، ثم لما استفتح الرجز الثاني استبعد العهد بالأولى ، فطري ذكرها وأبقى الأولى في مكانها . ومن ثم استدل ابن جنى على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء فهو بيت كامل وليس بنصف ، كما ذهب إليه أبو الحسن ، قال : ولو كان بيتا واحدا لم يكن عهد الأولى متباعدا ، فلم يكن محتاجا إلى تكريرها . ألا ترى أن عبيدا لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات وجعل آخر المصراع الأول آل ، لم يعدها أول المصراع الثاني ، لأنها بيت واحد ، فلم ير عهدا بعيدا ، وذلك قوله :

يا خليلي أربعا واستخبر ال منزل الدارس من أهل الحلال  
مثل سحق البرد عنى بعدك ال قطر مغناه وتأويب الشمال  
ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتا ، فانظر هذه النكتة كيف بالغت العرب في رعايتها  
حتى عدت القريب بعيدا والمتقاصر مديدا ، فتأملها فإنها تحفة إنما تنفق عند الحذاق  
الأعيان في صناعتها العربية والبيان ، والله المستعان .

(4) . قوله «ورصن» أى : ثبت وتمكن اه . (ع)

(5) . قوله «إذا ألحف» أى ألح وعنف اه . (ع)

(261/300)

---

السؤال حتى علمت . وقرأ ابن مسعود : كأنك حفىّ بها ، أى عالم بها بليغ في العلم بها .  
وقيل عنها متعلق بيسألونك : أى يسألونك عنها كأنك حفىّ أى عالم بها . وقيل : إن قریشاً  
قالوا له إن بيننا وبينك قرابة ، فقل لنا متى الساعة ؟ فقيل : يسألونك عنها كأنك حفىّ  
تتحفى بهم فتختصمهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوى علمها عن غيرهم ، ولو أحبرت  
بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به ، لكنك مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص ،  
كسائر ما أوحى إليك .



وقيل : كأنك حفيّ بالسؤال عنها تحبه وتؤثره ، يعنى أنك تكره السؤال عنها لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به ولم يؤته أحداً من خلقه . فإن قلت : لمكرر يسألونك وإنما علمها عند الله ؟

قلت : للتأكيد ، ولما جاء به من زيادة قوله كأنك حفيّ عنها وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة ، منهم محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رحمهما الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه العالم بها ، وأنه المختص بالعلم بها .

[سورة الأعراف (7) : آية 188]

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي هُوَ إِظْهَارٌ لِلْعِبُودِيَّةِ وَالِاتِّقَاءِ عَمَّا يَخْتَصُّ بِالرَّبُوبِيَّةِ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ :  
أى أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كالممالك والعبيد إلا ما شاء ربي ومالكى من النفع لي والدفع عنى ولو كنت أعلم الغيب لكنت حالى على خلاف ما هي عليه ، ومن استكثر الخير ، واستغزار المنافع ، واجتناب السوء والمضار ، حتى لا يمسنى شيء منها . ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب ، وراجحاً وخاسراً في التجارات ، ومصيباً مخطئاً في التداير إن أنا إلا عبد أرسلات نذيراً وبشيراً ، وما من شأنى أنى أعلم الغيب لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعاً ، لأن النذارة

والبشارة إنما تنفعان فيهم .

أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالندير محذوفاً أي إلا نذير للكافرين ، وبشير لقوم

يؤمنون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف ح 2 ص 175 . 185 ﴾

(262/300)

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ

مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه الساعة هنا كما ذكرها أول السورة بما لم يذكره هناك من تهكمهم واستهزائهم ، وختم هنا بحصر العلم والقدرة في الله الموجب لتفرد به بالإلهية ، وكان الذي جرهم إلى ذلك الاستهزاء إشراكهم ، ذكر ما ذكر قبلها أول السورة من ابتداء الخلق على وجه الحصر المستلزم لتمام القدرة الموجب لنفي الشريك واعتقاد القدرة على الساعة وغيرها والصدق في كل ما وقع الإخبار به من أمرها وغيره الموجب للاستقامة في قبول

بشارته ونذارته والإقبال بالكلية على الخالق ، فقال مقررًا للتوحيد مؤكداً الأمره :

﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الذي خلقكم ﴾ أي ولم تكونوا شيئاً ﴿ من نفس واحدة ﴾ أي خلقها ابتداءً من تراب وهي آدم عليه السلام - كما مر بيانه ، ومن قدر على اختراع حي من شيء ليس له أصل في الحياة ، كان على إعادته حياً من ذلك الشيء بعد أن صار له أصل في الحياة أقدر .

ولما كان آدم عليه السلام بعد صيرورته لحماً ودماً أقرب إلى السببية لخلق ذات لحم ودم منه ، قال معبراً بالواو لأنه كاف في نفي الشرك الذي السياق للتحذير منه بخلاف الزمر فإنه للقهر ، وتأخير المسببات عن الأسباب مدة أدل عليه لأنه خلاف الأصل ، ﴿ وجعل ﴾ لأن الجعل - كما قال الحرالي - إظهار أمر عن سبب وتصيير ﴿ منها ﴾ أي لا من غيرها ﴿ زوجها ﴾ أي حواء من لحمها ودمها وعظمها .

(263/300)

---

ولما كان المراد بالنفس آدم عليه السلام وكان الزوج يقال على الذكر والأنثى ، استخدم ضميره في المذكر ذاكراً علة الجعل بقوله : ﴿ ليسكن ﴾ أي آدم هو المراد بالنفس هنا ، ولما كان الزوج هنا هو المرأة أنت الضمير فقال : ﴿ إليها ﴾ وتنقلكم من ذلك السكون منه إليها

- لأن النفس إلى الجنس أميل وعليه أقبل ، ولا سيما إن كان بعضاً ، ألا ترى إلى محبة الوالد لولده والقريب لقريبه ، وإنما منع سبحانه من نكاح الأصل والفرع لما في ذلك من الضرر وغيره من الحكم الكبار ، فيغشاها عند ما يسكن إليها فيحصل الحب والولادة فتتفرع النفوس من تلك النفس .

ولما كان السكون هنا كناية عن الجماع ، أعاده بلفظ أقرب منه - فقال مؤذناً بقرب غشيانها بعد جعلها ، أو ناسقاً له على ما تقديره : فسكن إليها فمالت نفسه إليها فلم يتمالك أن غشيتها ﴿ فلما تغشاها ﴾ أي غشيتها آدم عليه السلام المعبر عنه بالنفس بهمة عظيمة ﴿ حملت حملاً خفيفاً ﴾ أي لأنه نطفة ﴿ فمرت به ﴾ أي فعالجت به أعمالها وقامت وقعدت ، لم يعقها عن شيء من ذلك ، إعلاماً بأن أمرها فيه كان على عادة النساء التي نعرفها ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي صارت ثقيلة بكبره وتحركه في بطنها ﴿ دعوا الله ﴾ أي آدم وحواء عليهما السلام .

ولما ذكر الاسم الأعظم استحضاراً لأن المدعو هو الذي له جميع الكمال ، فهو قادر على ما دعوا به لأنه قادر على كل ما يريد ، ذكر صفة الإحسان رجاء القبول والامتنان فقال : ﴿ ربهما ﴾ أي الذي أحسن إليهما ، مقسمين ﴿ لئن آتيتنا صالحاً ﴾ أي ولداً لا عيب فيه ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ أي نحن وأولادنا على نعمتك علينا ، وذلك أنهما جوزا أن

يكون غير سوى لقدرة الله على كل ما يريد ، لأنه الفاعل المختار لا الطبيعة ولا غيرها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 167 . 168 ﴾

(264/300)

فصل

قال الفخر :

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ  
حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ﴿

اعلم أنه تعالى رجع في هذه الآية إلى تقرير أمر التوحيد وإبطال الشرك وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المروي عن ابن عباس ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وهي نفس آدم ﴿ وَجَعَلَ  
مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي حواء خلقها الله من ضلع آدم عليه السلام من غير أذى ﴿ فَلَمَّا  
تَغَشَّاهَا ﴾ آدم ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ أي ثقل الولد في بطنها أتاها إبليس  
في صورة رجل وقال : ما هذا يا حواء إني أخاف أن يكون كلباً أو بهيمة وما يدريك من أين  
يخرج ؟ أمن دبرك فيقتلك أو ينشق بطنك ؟ فخافت حواء ، وذكرت ذلك لآدم عليه

السلام ، فلم يزلوا في هم من ذلك ، ثم أتاهما وقال : إن سألت الله أن يجعله صالحاً سويّاً  
مثلك ويسهل خروجه من بطنك تسميه عبد الحرث ، وكان اسم إبليس في الملائكة الحرث  
فذلك قوله : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ أي لما آتاهما الله ولداً  
سويّاً صالحاً جعل له شريكاً أي جعل آدم وحواء له شريكاً ، والمراد به الحرث هذا تمام  
القصة .

واعلم أن هذا التأويل فاسد ويدل عليه وجوه : الأول : أنه تعالى قال : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا  
يُشْرِكُونَ ﴾ وذلك يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة .  
الثاني : أنه تعالى قال بعده : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ [ الأعراف :  
191 ] وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله  
تعالى ، وما جرى لإبليس اللعين في هذه الآية ذكر .

(265/300)

---

الثالث : لو كان المراد إبليس لقال : (أيشركون من لا يخلق شيئاً) ، ولم يقل (ما لا يخلق  
شيئاً) ، لأن العاقل إنما يذكر بصيغة "من" لا بصيغة "ما" الرابع : أن آدم عليه السلام كان  
أشد الناس معرفة بإبليس ، وكان عالماً بجميع الأسماء كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ

الأسماء كلها ❁ فكان لا بد وأن يكون قد علم أن اسم إبليس هو الحرث فمع العداوة  
الشديدة التي بينه وبين آدم ومع علمه بأن اسمه هو الحرث كيف سمى ولد نفسه بعبد الحرث  
؟ وكيف ضاقت عليه الأسماء حتى أنه لم يجد سوى هذا الاسم ؟ الخامس : أن الواحد  
منا لو حصل له ولد يرجو منه الخير والصلاح ، فجاءه إنسان ودعاه إلى أن يسميه بمثل هذه  
الأسماء لزجره وأنكر عليه أشد الإنكار .

فآدم عليه السلام مع نبوته وعلمه الكثير الذي حصل من قوله : ❁ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ  
كُلَّهَا ❁ [ البقرة : 31 ] وتجاربه الكثيرة التي حصلت له بسبب الزلة التي وقع فيها لأجل  
وسوسة إبليس ، كيف لم يتنبه لهذا القدر وكيف لم يعرف أن ذلك من الأفعال المنكرة التي  
يجب على العاقل الاحتراز منها السادس : أن بتقدير أن آدم عليه السلام ، سماه بعبد  
الحرث ، فلا يخلو إما أن يقال إنه جعل هذا اللفظ اسم علم له ، أو جعله صفة له ، بمعنى أنه  
أخبر بهذا اللفظ أنه عبد الحرث ومخلوق من قبله .

فإن كان الأول لم يكن هذا شركاً بالله لأن أسماء الأعلام والألقاب لا تنفد في المسميات  
فائدة ، فلم يلزم من التسمية بهذا اللفظ حصول الإشراك ، وإن كان الثاني كان هذا قولاً بأن  
آدم عليه السلام اعتقد أن لله شريكاً في الخلق والإيجاد والتكوين وذلك يوجب الجزم بتكفير  
آدم ، وذلك لا يقوله عاقل .

فثبت بهذه الوجوه أن هذا القول فاسد ويجب على العاقل المسلم أن لا يلتفت إليه .  
إذا عرفت هذا فنقول : في تأويل الآية وجوه صحيحة سليمة خالية عن هذه المفاسد .

(266/300)

---

التأويل الأول : ما ذكره الففال فقال : إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم ، وقولهم بالشرك ، وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول : هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية ، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل ، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك .  
فلما آتاها الله ولداً صالحاً سوياً ، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاها ، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين ، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين ، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام .  
ثم قال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزه الله عن ذلك الشرك ، وهذا جواب في غاية الصحة والسداد .

التأويل الثاني : بأن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه



وسلم ، وهم آل قصي ، والمراد من قوله : هو الذي خلقكم من نفس قصي وجعل من  
جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها ، فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح السوي  
جعلاه شركاء فيما آتاها حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف ، وعبد العزى ،  
وعبد قصي ، وعبد اللات ، وجعل الضمير في ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ لهما ولأعقابهما الذين  
اقتدوا بهما في الشرك .

(267/300)

---

التأويل الثالث : أن نسلم أن هذه الآية وردت في شرح قصة آدم عليه السلام وعلى هذا  
التقدير ففي دفع هذا الإشكال وجوه : الأول : أن المشركين كانوا يقولون إن آدم عليه السلام  
كان يعبد الأصنام ، ويرجع في طلب الخير ودفع الشر إليها ، فذكر تعالى قصة آدم وحواء  
عليهما السلام ، وحكى عنهما أنهما قالا : ﴿ لِنُؤْتِيَنَّا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾  
أي ذكرا أنه تعالى لو آتاها ولداً سوياً صالحاً لاشتغلوا بشكر تلك النعمة ، ثم قال : ﴿ فَلَمَّا  
ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَاهُ شُرَكَاءَ ﴾ فقوله : ﴿ جَعَلَاهُ شُرَكَاءَ ﴾ ورد بمعنى الاستفهام  
على سبيل الإنكار والتبعيد ، والتقرير : فلما آتاها صالحاً جعلاه شركاء فيما آتاها ؟  
ثم قال : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون

بالشرك وينسبونه إلى آدم عليه السلام ، ونظيره أن ينعم رجل على رجل بوجوه كثيرة من الأنعام ، ثم يقال لذلك المنعم : أن ذلك المنعم عليه يقصد ذمك وإيصال الشر إليك ، فيقول ذلك المنعم : فعلت في حق فلان كذا وأحسنت إليه بكذا وكذا وأحسنت إليه بكذا وكذا ، ثم إنه يقابلني بالشر والإساءة والبغي ؟ على التبعيد فكذا ههنا .

الوجه الثاني : في الجواب أن نقول : أن هذه القصة من أولها إلى آخرها في حق آدم وحواء ولا إشكال في شيء من ألفاظها إلا قوله : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَاهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ فنقول : التقدير ، فلما آتاهما ولداً صالحاً سوياً جعلناه شركاء أي جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وكذا فيما آتاهما ، أي فيما آتى أولادهما ونظيره قوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] أي واسأل أهل القرية .

فإن قيل : فعلى هذا التأويل ما الفائدة في التثنية في قوله : ﴿ جَعَلَاهُ شُرَكَاءَ ﴾ .

(268/300)

---

قلنا : لأن ولده قسمان ذكر وأُنثى فقوله : ﴿ جَعَلَاهُ ﴾ المراد منه الذكر والأنثى مرة عبر عنهما بلفظ التثنية لكونهما صنفين ونوعين ، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع ، وهو قوله تعالى

: ﴿ فَعَالَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

الوجه الثالث : في الجواب سلمنا أن الضمير في قوله : ﴿ جَعَلَالَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ﴾  
عائد إلى آدم وحواء عليهما السلام ، إلا أنه قيل : إنه تعالى لما آتاهما الولد الصالح عزما على  
أن يجعلاه وقفاً على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الإطلاق .  
ثم بدا لهم في ذلك ، فتارة كانوا ينتفعون به في مصالح الدنيا ومنافعها ، وتارة كانوا يأمرونه  
بخدمة الله وطاعته .

وهذا العمل وإن كان من اقربة وطاعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فلماذا قال  
تعالى : ﴿ فَعَالَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ والمراد من هذه الآية ما نقل عنه عليه الصلاة  
والسلام أنه قال حاكياً عن الله سبحانه : " أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملاً  
أشرك فيه غيري تركته وشركه " وعلى هذا التقدير : فالإشكال زائل .

الوجه الرابع : في التأويل أن نقول : سلمنا صحة تلك القصة المذكورة ، إلا أنا نقول : إنهم  
سماوا بعبد الحرث لأجل أنهم اعتقدوا أنه إنما سلم من الآفة والمرض بسبب دعاء ذلك  
الشخص المسمى بالحرث ، وقد يسمى المنعم عليه عبداً للمنعم .

يقال في المثل : أنا عبد من تعلمت منه حرفاً ، ورأيت بعض الأفاضل كتب على عنوان :  
كتابة عبد وده فلان .

قال الشاعر :

وإني لعبد الضيف ما دام ثاويًا . . ولا شيمة لي بعدها تشبه العبد

(269/300)

---

فآدم وحواء عليهما السلام سميا ذلك الولد بعبد الحرت تنبيهاً على أنه إنما سلم من الآفات بركة دعائه ، وهذا لا يقدح في كونه عبد الله من جهة أنه مملوكه ومخلوقه ، إلا أننا قد ذكرنا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فلما حصل الاشتراك في لفظ العبد لا جرم صار آدم عليه السلام معاتباً في هذا العمل بسبب الاشتراك الحاصل في مجرد لفظ العبد ، فهذا جملة ما نقوله في تأويل هذه الآية .

المسألة الثانية :

في تفسير ألفاظ الآية وفيها مباحث :

البحث الأول : قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ المشهور أنها نفس آدم وقوله : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ المراد حواء .

قالوا ومعنى كونها مخلوقة من نفس آدم ، أنه تعالى خلقها من ضلع من أضلاع آدم .

قالوا : والحكمة فيه أن الجنس إلى الجنس أميل ، والجنسية علة الضم ، وأقول هذا الكلام

مشكل لأنه تعالى لما كان قادراً على أن يخلق آدم ابتداءً فما الذي حملنا على أن نقول أنه تعالى خلق حواء من جزء أجزاء آدم ؟ ولم لا نقول : إنه تعالى خلق حواء أيضاً ابتداءً ؟  
وأيضاً الذي يقدر على خلق إنسان من عظم واحد فلم لا يقدر على خلقه ابتداءً ، وأيضاً الذي يقال : إن عدد أضلاع الجانب الأيسر أنقص من عدد أضلاع الجانب الأيمن فيه مؤاخذه تنبي عن خلاف الحس والتشريح .

بقي أن يقال : إذا لم نقل بذلك ، فما المراد من كلمة ﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ فنقول : قد ذكرنا أن الإشارة إلى الشيء تارة تكون بحسب شخصه ، وأخرى بحسب نوعه قال عليه الصلاة والسلام : " هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به " وليس المراد ذلك الفرد المعين بل المراد ذلك النوع .

(270/300)

---

وقال عليه الصلاة والسلام : " في يوم عاشوراء هذا هو اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون " والمراد خلق من النوع الإنساني زوجة آدم ، والمقصود التنبيه على أنه تعالى جعل زوج آدم إنساناً مثله قوله : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ أي جامعها ، والغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشاها وتغشاها إذا علاها ، وذلك لأنه إذا علاها فقد صار كالغاشية لها ، ومثله

يجللها ، وهو يشبه التغطي واللبس .

قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ وقوله : ﴿ حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا ﴾ قالوا

يريد النطفة والمني والحمل بالفتح ما كان في البطن أو على رأس الشجر ، والحمل بكسر

الحاء ما حمل على ظهر أو على الدابة .

وقوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ أي استمرت بالماء والحمل على سبيل الحفة ، والمراد أنها كانت

تقوم وتقع وتمشي من غير ثقل .

قال صاحب "الكشاف" : وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ بالتخفيف وقرأ غيره

﴿ فمارت به ﴾ من المربة .

كقوله : ﴿ أَفْتَمَارُونَهُ ﴾ [النجم : 12] وفي قراءة أخرى ﴿ أَفْتَمَارُونَهُ ﴾ معناه وقع في

نفسها ظن الحمل وارتابت فيه ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ أي صارت إلى حال الثقل ودنت ولادتها

﴿ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾ يعني آدم وحواء ﴿ لِنُؤْمِنُ بِأَنْتِنَا صَالِحًا ﴾ أي ولداً سويًا مثلنا

﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لآلائك ونعمائك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15

ص 71.70 ﴿

(271/300)

وقال الجصاص :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ قيل فيه : جعل من كل نفس زوجها ، كأنه قال : جعل من النفس زوجها ويريد به الجنس وأضمر ذلك ، وقيل : من آدم وحواء .

قوله تعالى : ﴿ لئن آتينا صالحا ﴾ قال الحسن : غلاما سويا .

وقال ابن عباس : بشرا سويا لأنهما يشفقان أن يكون بهيمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام

القرآن للجصاص ج 3 ص ﴿

(272/300)

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

﴿

فيها خمس مسائل :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي الْمَعْنَى بِهَا : وَفِي ذَلِكَ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ ﴿ حَوَاءُ ﴾  
 الْأُمُّ الْأُولَى ، حَمَلَتْ بَوْلَدِهَا ، فَلَمْ تَجِدْ لَهُ ثِقَلًا ، وَلَا قَطَعَ بِهَا عَنْ عَمَلٍ ، فَكَلَّمَا اسْتَمَرَّ بِهَا ثَقُلَ  
 عَلَيْهَا ، فَجَاءَهَا الشَّيْطَانُ وَقَالَ لَهَا : إِنْ كُنْتَ تَعْلَمِينَ أَنَّ هَذَا الَّذِي يَضْطَرِبُ فِي بَطْنِكَ مِنْ  
 أَيْنَ يَخْرُجُ مِنْ جِسْمِكَ ؛ إِنَّهُ لِيَخْرُجُ مِنْ أَنْفِكَ ، أَوْ مِنْ عَيْنِكَ ، أَوْ مِنْ فَمِكَ ، وَرَبِّمَا كَانَ بَهِيمَةً  
 ؛ فَإِنْ خَرَجَ سَلِيمًا يُشْبِهُكَ تُطِيعِينِي فِيهِ ؟ قَالَتْ لَهُ : نَعَمْ .  
 فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِأَدَمَ ، فَقَالَ لَهَا : هُوَ صَاحِبُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنَ الْجَنَّةِ .  
 فَلَمَّا وُلِدَتْ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ سَمَّاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ بِإِشَارَةِ إِبْلِيسَ بِذَلِكَ عَلَيْهَا ، وَكَانَ اسْمُهُ  
 فِي الْمَلَائِكَةِ الْحَارِثَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ جَعَلَاهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ .  
 ﴿ وَذَلِكَ مَذْكُورٌ وَنَحْوُهُ فِي ضَعِيفِ الْحَدِيثِ فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ .

(273/300)

وَفِي الْأَسْرَائِيلِيَّاتِ كَثِيرٌ لَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ ، وَلَا يُعْوَلُ عَلَيْهَا مِنْ لَهْ قَلْبٌ ؛ فَإِنَّ آدَمَ وَحَوَاءَ وَإِنْ كَانَ  
 غَرَّهُمَا بِاللَّهِ الْغُرُورُ فَلَا يُلْدَعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ ، وَمَا كَانَا بَعْدَ ذَلِكَ لِيَقْبَلَا لَهُ نَصْحًا وَلَا  
 يَسْمَعَا مِنْهُ قَوْلًا .

الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا جِنْسُ الْأَدَمِيِّينَ ؛ فَإِنَّ حَالَهُمْ فِي الْحَمْلِ وَخَفَّتْهُ وَثَقَلَهُ إِلَى صِفَةِ



وَاحِدَةً .

وَإِذَا خَفَّ عَلَيْهِمُ الْحَمْلُ اسْتَمَرُّوا بِهِ ؛ فَإِذَا ثَقُلَ عَلَيْهِمْ  
نَذَرُوا كُلَّ نَذْرٍ فِيهِ ، فَإِذَا وُلِدَ لَهُمْ ذَلِكَ الْوَلَدُ جَعَلُوا فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ شُرَكَاءَ فِي تَسْمِيَّتِهِ وَعَمَلِهِ ،  
حَتَّىٰ إِنْ مِنْهُمْ مَنْ يَنْسُبُهُ إِلَى الْأَصْنَامِ ، وَيَجْعَلُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَعَلَىٰ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَهَذَا  
الْقَوْلُ أَشْبَهُ بِالْحَقِّ ، وَأَقْرَبُ إِلَى الصِّدْقِ ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ وَعُمُومُهَا الَّذِي يَشْمَلُ جَمِيعَ  
مُتَنَاولَاتِهَا ، وَيَسْلَمُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ عَنِ النَّقْصِ الَّذِي لَا يَلِيْقُ بِجُهَالِ الْبَشَرِ ، فَكَيْفَ بَسَادَتِهِمْ  
وَأَنْبِيَاءِهِمْ .

المسألة الثانية : روى ابن القاسم عن مالك قال : أول الحمل بشر وسرور ، وآخره مرض  
من الأمراض .

قال الله عز وجل : ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيْفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا ﴾ .  
وقال عز وجل : ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ .

(274/300)

---

وهذا الذي قاله مالك إنه مرض من الأمراض يُعْطِيهِ ظَاهِرُ قَوْلِهِ : فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا  
وَلَا يَدْعُو الْمَرْءُ هَذَا الدُّعَاءَ إِلَّا إِذَا نَزَلَتْ بِهِ شِدَّةٌ .

وَهَذِهِ الْحَالُ مُشَاهِدَةٌ فِي الْحَوَامِلِ ، وَلَا جُلَّ عَظَمِ الْأَمْرِ وَشِدَّةِ الْخَطْبِ جُعِلَ مَوْتُهَا شَهَادَةً ،  
فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الشُّهَدَاءُ سَبْعَةٌ سَوَاءٌ : الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .  
وَذَكَرَ : الْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجَمْعِ شَهِيدٍ .



الْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ : إِذَا ثَبَتَ هَذَا مِنْ ظَاهِرِ الْآيَةِ فَحَالُ الْحَامِلِ حَالُ الْمَرِيضِ فِي أفعالِهَا ، وَلَا  
خِلَافَ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ أَنَّ فِعْلَ الْمَرِيضِ فِيمَا يَهَبُ أَوْ يُحَابِي فِي ثَلَاثِهِ .  
وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ : إِنَّمَا ذَلِكَ فِيمَا يَكُونُ حَالُ الطَّلُقِ ، فَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَلَا ؛  
وَاحْتِجُّوا بِأَنَّ الْحَمْلَ عَادَةٌ وَأَنَّ الْغَالِبَ فِيهِ السَّلَامَةُ .  
قُلْنَا : كَذَلِكَ أَكْثَرُ الْمَرَضِ الْغَالِبِ عَلَيْهِ السَّلَامَةُ ، وَقَدْ يَمُوتُ مَنْ لَمْ يَمْرُضْ ، وَلَكِنْ أَخَذًا  
بِظَاهِرِ الْحَالِ كَذَلِكَ فِي مَسْأَلَتِنَا .  
وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ أَنْكَارَ مَرَضِ الْحَامِلِ عِنَادُ ظَاهِرٍ ، فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَقَدْ حَمَلَ الْعُلَمَاءُ عَلَيْهِ  
الْمَحْبُوسِ فِي قَوْدٍ أَوْ قِصَاصٍ ، وَحَاضِرِ الزَّحْفِ .

(275/300)

---

وَأَنْكَرَهُ الْإِمَامَانِ الْمَذْكُورَانِ وَغَيْرُهُمَا ، فَإِذَا اسْتَوْعِبْتَ النَّظَرَ لَمْ تَرْتَبْ فِي أَنْ الْمَحْبُوسَ  
عَلَى الْقَتْلِ أَشَدُّ حَالًا مِنَ الْمَرِيضِ ، وَإِنْكَارُ ذَلِكَ غَفْلَةٌ فِي النَّظَرِ ؛ فَإِنَّ سَبَبَ الْمَوْتِ مَوْجُودٌ  
عِنْدَهُمَا ، كَمَا أَنَّ الْمَرَضَ سَبَبُ الْمَوْتِ ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ  
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ وَهِيَ : الْآيَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ فِي الْأَحْكَامِ  
مِنْ غَيْرِ السُّورَةِ ، وَذَكَرْتُ هَاهُنَا لِاقْتِضَاءِ الْقَوْلِ بِهَا ، وَإِنَّمَا رَأَوْا أَسْبَابَهُ ، وَكَذَلِكَ قَالَ  
رُوَيْشِدُ الطَّائِبِيُّ : يَا أَيُّهَا الرَّكَّابُ الْمُزْجِي مَطِيئَتُهُ سَائِلُ نَبِيِّ أَسَدٍ مَا هَذِهِ الصَّوْتُ وَقُلْ لَهُمْ  
بَادِرُوا بِالْعُذْرِ وَاتَّمَسُوا قَوْلًا يُبْرِئُكُمْ إِنِّي أَنَا الْمَوْتُ وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ ، وَهِيَ  
: الْآيَةُ الثَّلَاثَةُ وَالْعِشْرُونَ فِي الْأَحْكَامِ مِنْ غَيْرِ السُّورَةِ اقْتِضَاءُ الْقَوْلِ هَاهُنَا : ﴿ إِذْ  
جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ  
بِاللَّهِ الظَّنُّونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ

(276/300)

الْمُؤْمِنُونَ وَزَلُّوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ فَكَيْفَ يَقُولُ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ : إِنَّ الْحَالَ الشَّدِيدَةَ  
إِنَّمَا هِيَ الْمُبَارَزَةُ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ مُنَازَلَةِ الْعَدُوِّ ، وَتَدَانِي الْفَرِيقَيْنِ بِهَذِهِ الْحَالَةِ الْعُظْمَى  
مِنْ بُلُوغِ الْقُلُوبِ الْحَنَاجِرَ ، وَمِنْ سُوءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ ، وَمِنْ زَلْزَلَةِ الْقُلُوبِ وَاضْطِرَابِهَا ، هَلْ

هَذِهِ الْحَالُ تَرَى عَلَى الْمَرِيضِ أُمَّ لَا ؟ فَهَذَا كُلُّهُ لَا يَشُكُّ فِيهِ مُنْصِفٌ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : هَذَا لِمَنْ ثَبَتَ فِي اعْتِقَادِهِ ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَشَاهَدَ الرَّسُولَ  
وَآيَاتِهِ ، فَكَيْفَ بَنَّا ؟ وَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَنَا خَبْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ لَمْ يَعْرِفْهُ إِلَّا الْأَخْبَارُ ، وَلَا قَدْرَهُ حَقَّ  
قَدْرِهِ إِلَّا الْأَخْيَارُ ، وَهَذَا كُلُّهُ يَعْرِفُكُمْ قَدْرَ مَا لَكَ عَلَى سَائِرِ الْعُلَمَاءِ فِي النَّظَرِ ، وَيُبَصِّرُكُمْ  
اسْتِدَادَهُ عَلَى سِوَاءِ الْفِكْرِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَقَدْ اخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِي رَاكِبِ الْبَحْرِ ؛ هَلْ حُكْمُهُ حُكْمُ  
الصَّحِيحِ أَوْ الْحَامِلِ ؟ فَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : حُكْمُهُ حُكْمُ الصَّحِيحِ .  
وَقَالَ أَشْهَبُ : حُكْمُهُ حُكْمُ الْحَامِلِ إِذَا بَلَغَتْ سِتَّةَ أَشْهُرٍ .

(277/300)

---

وَإِنَّ الْقَاسِمَ لَمْ يَرْكَبِ الْبَحْرَ ، وَلَا رَأَى أَنَّهُمْ دُودٌ عَلَى عُودٍ ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُوقِنَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ  
الْفَاعِلُ وَحْدَهُ لَا فَاعِلَ مَعَهُ ، وَأَنَّ الْأَسْبَابَ ضَعِيفَةٌ لَا تَعْلُقُ لِمَوْقِنٍ بِهَا ، وَيَتَحَقَّقُ التَّوَكُّلُ  
وَالْتَفْوِيزُ فَلْيَرْكَبِ الْبَحْرَ ، وَلَوْ عَايَنَ ذَلِكَ سَبْعِينَ مِنَ الدَّهْرِ ، وَتَطَّلَعَ لَهُ الشَّمْسُ فِي الْمَاءِ  
وَتَغْرُبُ فِيهِ ، وَيَتْبَعُهَا الْقَمَرُ كَذَلِكَ ، وَلَا يَسْمَعُ لِلْأَرْضِ خَبْرًا ، وَلَا تَصْفُو سَاعَةً مِنْ كَدَرٍ ،  
وَيَعْطَبُ فِي آخِرِ الْحَالِ ، كَانَ رَأْيُهُ كَرَأْيِ أَشْهَبٍ ، وَاللَّهُ يُوقِنُ الْمَقَالَ وَيُسَدِّدُ بِعِزَّتِهِ

المذهب .

المسألة الخامسة: إذا ثبت أنها مريضة فقد تقدم القول في فطرها وفديتها في سورة البقرة ،  
فليُنظر هنالك . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربي ح 2 ص ﴾

(278/300)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

يعني : من نفس آدم ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعني : خلق من نفس آدم من ضلع من

أضلاعه اليسرى زوجته حواء ﴿ لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا ﴾ يعني : ليطنن إليها ويجامعها ﴿ فَلَمَّا

تَغَشَّاهَا ﴾ أي : سكن إليها وجامعها ﴿ حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا ﴾ يعني : خفيف الماء

﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ أي : استمرت بالحمل .

يقول : قامت بالحمل وقعدت ولا تدري أهي حبلى أم لا ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ يعني : ثقل الولد

في بطنها ﴿ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾ وذلك أن إبليس أتاها فقال : يا حواء ما هذا الذي في

بطنك ؟ قالت : ما أدري .

قال : أخاف إنها بهيمة ، وإني من الله بمنزلة ، فإن دعوت الله فولدت إنساناً صالحاً أتسميه

باسمي؟ قالت: نعم.

وما اسمك قال: عبد الحارث فكذب.

فدعت حواء وآدم فذلك قوله: دعوا الله ربهما ﴿لِنُؤْتِيَنَّا صَالِحًا﴾ يعني: أعطيتنا

ولداً سوياً صحيح الجوارح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وهذا قول سعيد بن جبير رواه

عن ابن عباس.

وروى معمر عن قتادة أنه قال: كان آدم لا يولد له ولد إلا مات فجاء الشيطان وقال: إن

سرك أن يعيش ولدك فسمه عبد الحارث ففعل.

فأشركا في الاسم.

ولم يشركا في العبادة.

وروي عن السدي أنه قال: اسم إبليس هو الحارث يوم لعن فأراد أن ينسب إليه، فأمرها

فسمته عبد الحارث، فعاش بعد ذلك أياماً ثم مات.

فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿بجز العلوم ح 1 ص﴾

(279/300)

---

وقال الثعلبي :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

يعني آدم (عليه السلام) ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ﴿ خَلَقَ مِنْهَا حَوَاءَ ﴾ ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

﴿ يَسْتَأْذِنُ إِلَيْهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ ﴾ ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ ﴿ وَاقْعَاهَا وَجَامِعَهَا ﴾

﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ ﴿ وَهُوَ مَاءُ الرَّجْلِ خَفِيفٌ عَلَيْهَا ﴾ ﴿ فَمَرَّتْ ﴾ ﴿ أَيِ اسْتَمَرَّتْ ﴾ ﴿ بِهِ ﴾

﴿ وَقَامَتْ وَقَعَدَتْ وَلَمْ تَكْتَرِثْ بِحَمْلِهَا ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ : فَاسْتَمَرَّتْ بِهِ .

وقال قتادة : ( فمَرَّتْ بِهِ ) أي استبان حملها . وقرأ يحيى بن يعمر ( فمَرَّتْ ) خفيفة الراء من

لمرية أي : شكَّتْ أَحْمَلْتُ أُمًّا لَا ؟ ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ ﴿ أَيِ كَبُرَ الْوَلَدُ فِي بَطْنِهَا وَتَحْرُكُ وَصَارَتْ

ذَاتَ ثَقَلٍ بِحَمْلِهَا كَمَا يُقَالُ : أَثْمَرُ إِذَا صَارَ ذَا ثَمَرٍ ﴾ ﴿ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا ﴾ ﴿ يَعْنِي آدَمَ وَحَوَاءَ ﴾

﴿ لَئِنْ آتَيْنَا ﴾ ﴿ يَارَبَّنَا ﴾ ﴿ صَالِحًا ﴾ .

قال الحسن : غلاماً ذكراً . وقال الآخرون : بشراً سويّاً مثلنا ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

وذلك أنهما أشفقا أن يكون بهما أو شيئاً سوى آدمي أو غير سوي .

قال الكلبي : إن إبليس أتى حواء في صورة رجل لما أثقلت في أول ما حملت فقال : ما هذا

الذي في بطنك قالت : ما أدري ، قال : إني أخاف أن يكون بهيمة ، فقالت ذلك لآدم ، فلم

يزال في نعم من ذلك ثم عاد إليها فقال : إني من الله [ منزل ] فإن دعوت الله فولدت انساناً [

أَسْمِيْنَه قِي [قالت : نعم ، قال : فَإِنِّي أَدْعُو الله فَأَتَاهَا وَقَدْ وُلِدَتْ فَقَالَ : سَمِيْه بِاسْمِي ،  
فَقَالَتْ : وَمَا اسْمُكَ ؟ قَالَ : الْحَارِثُ ، وَلَوْ سَمِيْ نَفْسَه لَعَرَفْتَه فَسَمِيْتَه عَبْدَ الْحَارِثِ .

(280/300)

---

وقال سعيد بن جبير : لما هبط آدم وحواء (عليهما السلام) الأرض ألقيت الشهوة في نفس  
آدم فأصابها فحملت فلما تحرك ولدها في بطنها جاءها إبليس فقال ما هذا [ما ترين] في  
الأرض إلا ناقة أو بقرة أو ضائنة أو [كأجرة] أو نحوها فما يدريك ما في بطنك لعله كلب أو  
خنزير أو حمار وما يدريك من أين يخرج أمن دبرك فيقتلك أو أذنك أو عينيك أو فيك أو  
يشق بطنك فيقتلك ، فخافت حواء من ذلك قال : فأطيعيني وسميه عبد الحرث . وكان  
اسمه في الملائكة الحرث ، تلدين شبيهكما مثلكما ، فذكرت ذلك لأدم فقال : لعله صاحبنا  
الذي قد علمت ، فعاودها إبليس فلم يزل بهما حتى غرهما فسمياه عبد الحرث .  
قال السدي : ولدت حواء غلاماً فأتاها إبليس فقال سموه بي وإلا قتله ، قال له آدم : قد  
أطعتك فأخرجتني من الجنة ، فأبى أن يطيعه فمات الغلام ، فحملت بآخر فلما ولدته قال  
لها مثل ذلك فأبى أن يطيعاه ، فمات الولد ، فحملت بآخر فأتاها وقال لها : إذ  
غلبتmani فسمياه عبد الحرث ، وكان اسم إبليس الحرث .



ولم يشعروا به فوالله لا أزال أقتلهم حتى تسمياه عبد الحرث . كما قتلت الأول والثاني  
فسمياه عبد الحرث فعاش .

وقال ابن عباس : كانت حواء تلد لآدم فتسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن ونحو  
ذلك فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس فقال : إن [ وعدتكما ] أن يعيش لكما ولد فسمياه  
عبد الحرث فولدت ابناً فسمياه عبد الحرث ففيهما أنزل الله عز وجل ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا  
صَالِحًا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(281/300)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ الآية ،

قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام بقوله : ﴿ وجعل منها

زوجها ﴾ حواء وقوله ﴿ منها ﴾ يريد ما تقدم ذكره من أن آدم نام فاستخرجت قصرى

أضلاعه وخلق منها حواء وقوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾ أي ليأنس ويطمئن ، وكان هذا

كله في الجنة ، ثم ابتدأ بحالة أخرى هي في الدنيا بعد هبوطها ، فقال : ﴿ فلما تعشاها ﴾

أي غشيها وهي كناية عن الجماع ، و" الحمل الخفيف " هو المني الذي تحمله المرأة في فرجها

، وقرأ جمهور الناس " حَمَلًا " بفتح الحاء ، وقرأ حماد بن سلمة عن ابن كثير " حِمَلًا " ،  
بكسر الحاء ، وقوله ﴿ فمرت به ﴾ أي استمرت به ، قال أيوب : سألت الحسن عن قوله :  
﴿ فمرت به ﴾ فقال : لو كنت امرأً عربياً لعرفت ما هي إنما المعنى فاستمرت به .  
قال القاضي أبو محمد : وقدره قوم على القلب كأن المراد فاستمر بها كما تقول أدخلت  
القلنسوة في رأسي ، وقرأ يحيى بن يعمر وابن عباس فيما ذكر النقاش " فمرت به " بتخفيف  
الراء ، ومعناه فشكت فيما أصابها هل هو حمل أو مرض ونحو هذا ، وقرأ ابن عباس "  
فاستمرت به " وقرأ ابن مسعود " فاستمرت بحملها " وقرأ عبد الله بن عمرو بن العاصي "  
فماتت به " معناه أي جاءت به وذهبت وتصرفت ، كما تقول ماتت الريح موراً ، و﴿  
أثقلت ﴾ دخلت في الثقل كما تقول : أصبح وأمسى أي صارت ذات ثقل كما تقول أتمر  
الرجل والبن إذا صار ذا تمر ولبن ، والضمير في ﴿ دعوا ﴾ على آدم وحواء .  
وروي في قصص هذه الآية أن حواء لما حملت أول حمل لم تدر ما هو ، وهذا يقوي قراءة من  
قرأ " فمرت به " بتخفيف الراء ، فجزعت لذلك فوجد إبليس إليها السبيل ، فقال لها ما  
يدريك ما في جوفك ولعله خنزير أو حية أو بهيمة في الجملة وما يدريك من أين يخرج أينشق  
له بطنك فتموتين أو على فمك أو أنفك ؟ ولكن إن أطعتني وسميته عبد الحارث .

---

قال القاضي أبو محمد: والحارث اسم إبليس، فسأخلصه لك وأجعله بشراً مثلك، وإن أنت لم تفعلني قتلته لك، قال فأخبرت حواء آدم فقال لها ذلك صاحبنا الذي أغوانا في الجنة، لانطيعه، فلما ولدت سميها عبد الله، فمات الغلام، ويروى أن الله سلط إبليس على قتله فحملت بآخر ففعل بها مثل ذلك فحملت بالثالث فلما ولدتها أطاعا إبليس فسميها عبد الحارث حرصاً على حياته، فهذا هو الشرك الذي جعل الله أي في التسمية فقط.

و﴿صالحاً﴾ قال الحسن معناه غلاماً، قال ابن عباس: وهو الأظهر بشراً سويماً سليماً، ونصبه على المفعول الثاني وفي المشكل لمكي أنه نعت لمصدر أي أتيا صالحاً، وقال قوم إن المعنى في هذه الآية التبيين عن حال الكافرين فعدد النعم التي نعم الكافرين وغيرهم من الناس، ثم قرر ذلك بفعل المشركين السيئ فقامت عليهم الحجة ووجب العقاب، وذلك أنه قال مخاطباً لجميع الناس ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾ يريد آدم وحواء أي واستمرت حالكم واحداً كذلك، فهذه نعمة تخص كل أحد بجزء منها، ثم جاء قوله: ﴿فلما تغشاها﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً أي هكذا يفعلون فإذا آتاهم الله الولد صالحاً سليماً كما أراده، صرفاه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين الذي قامت الحجة فيه باقترانه مع النعمة العامة، وقال الحسن بن أبي الحسن فيما حكى عنه الطبري: معنى هذه الآية: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة

﴿ إشارة إلى الروح الذي ينفخ في كل أحد .

قال القاضي أبو محمد : أي خلقكم من جنس واحد وجعل الإناث منه ، ثم جاء قوله : ﴿ فلما تغشاها ﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً على ما تقدم من الترتيب في القول الذي قبله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(283/300)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾

يعني بالنفس : آدم ، وبزوجها : حواء .

ومعنى : ﴿ ليسكن إليها ﴾ ليأنس بها ويأوي إليها .

﴿ فلما تغشاها ﴾ أي : جامعها .

قال الزجاج : وهذا أحسن كناية عن الجماع .

والحمل ، بفتح الحاء : ما كان في بطن ، أو أخرجته شجرة .

والحمل ، بكسر الحاء : ما يُحمل .

والمراد بالحمل الخفيف : الماء .

قوله تعالى: ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ أي: استمرت به، قعدت وقامت ولم يُثقلها .

وقرأ سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وابن عباس، والضحاك: "فاستمرت به".

وقرأ أبي بن كعب، والجوني: "استمارت به" بزيادة ألف.

وقرأ عبد الله ابن عمرو، والحدري: "فمارت به" بألف وتشديد الراء.

وقرأ أبو العالية، وأيوب، ويحيى بن يعمر: "فمرت به" خفيفة الراء، أي: شكّت وتمارت

أحملت، أم لا؟ ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي: صار حملها ثقيلاً.

وقال الأخفش: صارت ذا ثقل.

يقال: أثمرنا، أي: صرنا ذوي ثمر.

قوله تعالى: ﴿ دَعَا اللَّهَ رَبِّمَا ﴾ يعني آدم وحواء ﴿ لئن آتيتنا صالحاً ﴾ وفي المراد

بالصالح قولان.

أحدهما: أنه الإنسان المشابه لهما، وخافا أن يكون بهيمة، هذا قول الأكثرين.

والثاني: أنه الغلام، قاله الحسن، وقتادة.

شرح السبب في دعائهما

ذكر أهل التفسير أن إبليس جاء حواء، فقال: ما يدريك ما في بطنك، لعله كلب أو خنزير

أو حمار؛ وما يدريك من أين يخرج، أيشق بطنك أم يخرج من فيك، أو من منخريك؟

فأحزنها ذلك، فدعوا الله حينئذ، فجاء إبليس: فقال: كيف تجدنيك؟ قالت: ما

أستطيع القيام إذا قعدت ، قال : أفرايت إن دعوت الله ، فجعله إنساناً مثلك ، ومثل آدم ،  
أُسمينه باسمي ؟ قالت : نعم .

(284/300)

---

فلما ولدته سوياً ، جاءها إبليس فقال : لم لا تُسمينه بي كما وعدتني ؟ فقالت : وما  
اسمك ؟ قال : الحارث ، وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث ، فسمته : عبد الحارث ،  
وقيل : عبد شمس برضى آدم ، فذلك قوله : ﴿ فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء ﴾ .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

(285/300)

---

وقال القرطبي :  
﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها  
حملت حملاً خفيفاً فمرت به ﴾  
فيه سبع مسائل :

الأولى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء.

﴿لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا﴾ ليأنس بها ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة.

ثم ابتداءً بجملة أخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ كناية عن الوقاع.

﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا﴾ كل ما كان في بطن أو على رأس شجرة فهو حمل بالفتح.

وإذا كان على ظهر أو على رأس فهو حمل بالكسر.

وقد حكى يعقوب في حمل النخلة الكسر.

وقال أبو سعيد السيرافي: يقال في حمل المرأة حمل وحمل، يشبه مرة لاستبطانه بحمل المرأة، ومرة لبروزه وظهوره بحمل الدابة.

والحمل أيضاً مصدر حمل عليه يحمل حملاً إذا صال.

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ يعني المنى؛ أي استمرت بذلك الحمل الخفيف.

يقول: تقوم وتقع وتقلب، ولا تكترث بجملة إلى أن ثقل؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما.

وقيل: المعنى فاستمر بها الحمل، فهو من المقلوب؛ كما تقول: أدخلت القلنسوة في

رأسي.

وقرأ عبد الله ابن عمر "فَمَارَتْ بِهِ" بألف والتخفيف؛ من مَارِيْمُور إذا ذهب وجاء  
وتصرّف .

وقرأ ابن عباس ويحيى ابن يَعْمَر "فَمَرَّتْ بِهِ" خفيفة من المَرِيَّة، أي شكّت فيما أصابها؛  
هل هو حمل أو مرض، أو نحو ذلك .

الثانية قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَثَقَّتْ ﴾ صارت ذات ثقل؛ كما تقول: أثمر النخل .  
وقيل: دخلت في الثقل؛ كما تقول: أصبح وأمسى .

﴿ دَعَاَ اللّٰهَ رَبَّهُمَا ﴾ الضمير في "دَعَاَ" عائد على آدم وحواء .

وعلى هذا القول ما روي في قصص هذه الآية أن حواء لما حملت أول حمل لم تدر ما هو .

(286/300)

---

وهذا يقوي قراءة من قرأ "فَمَرَّتْ بِهِ" بالتخفيف .

فجزعت لذلك؛ فوجد إبليس السبيل إليها .

قال الكلبي: إن إبليس أتى حواء في صورة رجل لما أثقلت في أول ما حملت فقال: ما هذا

الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري! قال: إنني أخاف أن يكون بهيمة .

فقالت ذلك لآدم عليه السلام .



فلم يزل في هَمٍّ من ذلك .

ثم عاد إليها فقال : هو من الله بمنزلة ، فإن دعوتُ الله فولدت إنساناً أقتسمينه بي ؟ قالت نعم .

قال : فإني أدعو الله .

فأتاها وقد ولدت فقال : سَمِّيه باسمي .

فقالت : وما اسمك ؟ قال : الحارث ولو سَمَّي لها نفسه لعرفته فسَمته عبد الحارث .

ونحو هذا مذكور من ضعيف الحديث ، في الترمذي وغيره .

وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات ؛ فلا يعول عليها من له قلبٌ ، فإن آدم وحواء عليهما السلام وإن غرَّهما بالله الغرور فلا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين ، على أنه قد سَطَّرَ وكتب .  
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" خدعهما مرتين خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض " وعُضِدَ هذا بقراءة السلمي  
" أتشركون " بالتاء .

ومعنى ﴿ صَالِحاً ﴾ يريد ولداً سوياً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص



وقال الخازن :

قوله : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾

يعني آدم عليه السلام ﴿ وجعل منها زوجها ﴾ يعني وخلق منها زوجها حواء قد تقدم كيفية خلق حواء من ضلع آدم في أول سورة النساء ﴿ ليسكن إليها ﴾ يعني ليأنس بها ويأوي ﴿ فلما تغشاها ﴾ يعني واقعها وجامعها كمنى به عن الجماع أحسن كناية لأن الغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها إذا علاها وتجللها ﴿ حملت حملاً خفيفاً ﴾ يعني النطفة والمني لأن أول ما تحمل النطفة وهي خفيفة عليها ﴿ فرمت به ﴾ يعني أنها استمرت بذلك الحمل فقامت وقعدت وهو خفيف عليها ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي صارت إلى حال الثقل وكبر ذلك الحمل ودنت مدة ولادتها ﴿ دعوا الله ربهما ﴾ يعني أن آدم وحواء دعوا الله ربهما ﴿ لئن آتيتنا صالحاً ﴾ يعني لئن أعطيتنا بشراً سوياً مثلنا ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ يعني لك على إنعامك علينا .

قال المفسرون : لما هبط آدم وحواء إلى الأرض أقيت الشهوة في نفس آدم فأصاب حواء

فحملت من ساعتها فلما ثقل الحمل وكبر الولد أتاها إبليس فقال لها : ما الذي في بطنك ؟

قالت : ما أدري قال : إني أخاف أن يكون بهيمة أو كلباً أو خنزيراً أترين في الأرض إلا

بهيمة أو نحوها قالت : إني أخاف بعض ذلك قال وما يدريك من أين خرج أمن دبرك أم فن

فيك أو يشق بطنك فيقتلك فخافت حواء من ذلك وذكرته لآدم فلم يزل في غم من ذلك ثم عاد إليها إبليس فقال لها إني من الله بمنزلة فإن دعوت الله أن يجعله خلقاً سوياً مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحارث وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث فذكرت ذلك حواء لآدم عليه السلام فقال لعله صاحبنا الذي قد علمت فعاودها إبليس فلم يزل بهما حتى غرهما فلما ودلت سمياه عبد الحارث .

(288/300)

---

وقال ابن عباس : كانت حواء تلد لآدم فيسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس فقال : إن سر كما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث فولدت فسمياه عبد الحارث فولدت فسمياه عبد الحارث فعاش .

عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فسمته فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة وقال وقد رواه بعضهم ولم يرفعه وقوله وذلك من وحي الشيطان يعني من وسوسته وحديثه كما جاء أنه خدعهما مرتين مرة في الجنة ومرة في

الأرض .

قال ابن عباس : لما ولد له أول ولد آتاه إبليس فقال إني أنصح لك في شأن ولدك هذا تسميه عبد الحارث وكان اسمه في السماء الحارث فقال آدم : أعوذ بالله من طاعتك إني أطعتك في أكل الشجرة فأخرجني من الجنة فلن أطيعك فمات ولده ثم ولد له بعد ذلك ولد آخر فقال أطعني وإلامت كما مات أول الأول فعصاه فمات ولده ، فقال لا أزال أقتلهم حتى تسميه عبد الحارث فلم يزل به حتى سماه عبد الحارث . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

(289/300)

وقال أبو حيان :

﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ .  
مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما تقدم سؤال الكفار عن الساعة ووقتها وكان فيهم من لا يؤمن بالبعث ذكر ابتداء خلق الإنسان وإنشائه تنبيهاً على أن الإعادة ممكنة ، كما أن الإنشاء كان ممكناً وإذا كان إبرازه من العدم الصرف إلى الوجود واقعاً بالفعل وإعادته أحرى أن تكون واقعة بالفعل ، وقيل : وجه المناسبة أنه لما بين الذين يلحدون في أسمائه

ويشتقون منها أسماء لآلهتهم وأصنامهم وأمر بالنظر والاستدلال المؤدي إلى تفرده بالإلهية  
والربوبية بين هنا أن أصل الشرك من إبليس لآدم وزوجته حين تمنيا الولد الصالح وأجاب  
الله دعاءهما فأدخل إبليس عليهما الشرك بقوله سمياه عبد الحرث فإنه لا يموت ففعلا ذلك  
، وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخصه لما أمر بالنظر في الملكوت الدال على الوحدانية  
وقسم خلقه إلى مؤمن وكافر ونفى قدرة أحد من خلقه على نفع نفسه أو ضررها رجوع إلى  
تقرير التوحيد انتهى ، والجمهور على أن المراد بقوله ﴿ من نفس واحدة ﴾ آدم عليه  
السلام فالخطاب بخلقكم عام والمعنى أنكم تفرعتم من آدم عليه السلام وأن معنى وجعل  
منها زوجها هي حواء و ﴿ منها ﴾ إما من جسم آدم من ضلع من أضلاعه وإما أن يكون  
من جنسها كما قال تعالى ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ وقد مرّ هذان القولان في  
أول النساء مشروحين بأكثر من هذا ويكون الإخبار بعد هذه الجملة عن آدم وحواء ويأتي  
تفسيره إن شاء الله تعالى ، وعلى هذا القول فسّر الزمخشري الآية وقد رد هذا القول أبو  
عبد الله الرازي وأفسده من وجوه .

الأول ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ فدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة .

الثاني أنه قال بعده ﴿ أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾ وهذا ردّ على من جعل الأصنام شركاء ولم يجز لإبليس في هذه الآية ذكر ، الثالث لو كان المراد إبليس لقال أشركون من لا يخلق ثم ذكر الرازي ثلاثة وجوه آخر من جهة النظر يوقف عليها من كتابه .  
وقال الحسن وجماعة الخطاب لجميع الخلق والمعنى في هو ﴿ الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ من هيئة واحدة وشكل واحد ﴿ وجعل منها زوجها ﴾ أي من جنسها ثم ذكر حال الذكر والأنثى من الخلق ومعنى ﴿ جعل له شركاء ﴾ أي حرفاه عن الفطرة إلى الشرك كما جاء : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه " .

وقال القفال نحو هذا القول قال هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها وذكر حال الزوج والزوجة ﴿ وجعلها ﴾ أي الزوج والزوجة ، لله تعالى شركاء فيما آتاها لأنها تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطباع كما هو قول الطبائعين وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام انتهى ، وعلى هذا لا يكون لآدم وحواء ذكر في الآية ، وقيل الخطاب بخلقكم خاص وهو لمشركي العرب كما يقربون المولود لللات والعزى والأصنام تبركاً بهم في الابتداء وينقطعون بأملهم إلى الله تعالى في ابتداء خلق الولد إلى انفصاله ثم يشركون فحصل التعجب منهم ، وقيل : الخطاب خاص أيضاً وهو لقريش المعاصرين للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) و ﴿

نفس واحدة ﴿ هو قضي منها أي من جنسها زوجة عربية قرشية ليسكن إليها والصالح  
الولد السوي ﴾ جعلاله شركاء ﴿ حيث سميا أولادهما الأربعة عبد مناف وعبد العزى  
وعبد قصي وعبد الدار والضمير في ﴾ يشركون ﴿ لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما  
في الشرك انتهى .

(291/300)

---

﴿ ليسكن إليها ﴾ ليطمئن ويميل ولا ينفرد لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس وإذا كان  
منها على حقيقته فالسكون والمحبة أبلغ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه أو  
أكثر لكونه بعضاً منه وأنت في قوله ﴿ منها ﴾ ذهاباً إلى لفظ النفس ثم ذكر في قوله ﴿  
ليسكن ﴾ حملاً على معنى النفس ليبين أن المراد بها الذكر آدم أو غيره على اختلاف  
التأويلات وكان الذكر هو الذي يسكن إلى الأثى ويتغشاها فكان التذكير أحسن طباقاً  
للمعنى .

﴿ فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به ﴾ إن كان الخبر عن آدم فخلق حواء كان  
في الجنة وأما التغشي والحمل فكانا في الأرض والتغشي والغشيان والإتيان كناية عن الجماع  
ومعنى الحفة أنها لم تلق به من الكرب ما يعرض لبعض الحبالى ويحتمل أن يكون ﴿ حملاً ﴾

مصدراً وأن يكون ما في البطن والحمل بفتح الحاء ما كان في بطن أو على رأس الشجرة  
وبالكسر ما كان على ظهر أو على رأس غير شجرة، وحكى يعقوب في حمل النخل،  
وحكى أبو سعيد في حمل المرأة حمل وحمل، وقال ابن عطية: الحمل الخفيف هو المني الذي  
تحمله المرأة في فرجها، وقرأ حماد بن سلمة عن ابن كثير ﴿ حملاً ﴾ بكسر الحاء، وقرأ  
الجمهور ﴿ فمرت به ﴾، قال الحسن: أي استمرت به، وقيل: هذا على القلب أي فمر  
بها أي استمر بها، وقال الزمخشري: فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق  
، وقيل: ﴿ حملت حملاً خفيفاً ﴾ يعني النطفة ﴿ فمرت به ﴾ فقامت به وقعدت  
فاستمرت به انتهى، وقرأ ابن عباس فيما ذكر النقاش وأبو العالية ويحيى بن يعمر وأيوب ﴿  
فمرت به ﴾ خفيفة الرء من المرية أي فشكت فيما أصابها أهو حمل أو مرض، وقيل  
معناه استمرت به لكنهم كرهوا التضعيف فخففوه نحو وقرن فيمن فتح من القرار، وقرأ  
عبد الله بن عمرو بن العاصي والجدري: فمارت به بألف وتخفيف الرء أي جاءت  
وذهبت وتصرفت به كما تقول مارت الريح موراً ووزنه فعل، وقال الزمخشري: من المرية  
كقوله تعالى



﴿ أفتمارونه ﴾ ومعناه ومعنى المخففة فمرت وقع في نفسها ظن الحمل وارتابت به ووزنه فاعل ، وقرأ عبد الله فاستمرت مجملها ، وقرأ سعد بن أبي وقاص وابن عباس أيضاً والضحاك فاستمرت به ، وقرأ أبي بن كعب والجرمي فاستمرت به والظاهر رجوعه إلى المرية بني منها استفعل كما بنى منها فاعل في قولك ماريت .

﴿ فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴾ .

أي دخلت في الثقل كما تقول أصبح وأمسى أو صارت ذات ثقل كما تقول أتمر الرجل وابن إذا صار ذا تمر ولبن ، وقال الزمخشري : أي حان وقت ثقلها كقوله أقربت ، وقرىء أثقلت على البناء للمفعول ربهما أي مالك أمرهما الذي هو الحقيق أن يدعى ومتعلق الدعاء محذوف يدل عليه جملة جواب القسم أي دعوا الله ورغبا إليه في أن يؤتيهما صالحاً ثم أقسما على أنهما يكونان من الشاكرين إن آتاها صالحاً لأن إيتاء الصالح نعمة من الله على والديه كما جاء في الحديث : " إن عمل ابن آدم ينقطع إلا من ثلاث " فذكر الولد الصالح يدعو لوالده فينبغي الشكر عليها إذ هي من أجل النعم ومعنى صالحاً مطيعاً لله تعالى أي ولداً طائعاً أو ولداً ذكراً لأن الذكورة من الصلاح والجودة ، قال الحسن : سمياه غلاماً ، وقال ابن عباس : بشراً سوياً سليماً ، ولنكونن جواب قسم محذوف تقديره وأقسما لئن آتيتنا أو مقسمين لئن آتيتنا وانتصاب صالحاً على أنه مفعول ثانٍ لآتيتنا وفي المشكل لمكي أنه نعت لمصدر أي ابناً صالحاً . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

وقال ابن كثير:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) ﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم، عليه السلام، وأنه خلق منه زوجه حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: 13] وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا [وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً] ﴾ الآية [النساء: 1].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ أي: ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: 21] فلا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا

ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه .

﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ أي : وطئها ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا ﴾ وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألما ، إنما هي النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة .

وقوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ قال مجاهد : استمرت بحمله . وروى عن الحسن ، وإبراهيم النخعي ، والسدي ، نحوه .

وقال ميمون بن مهران : عن أبيه استخفته .

(294/300)

---

وقال أيوب : سألت الحسن عن قوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ قال : لو كنت رجلا عربيا لعرفت ما هي . إنما هي : فاستمرت به .

وقال قتادة : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ واستبان حملها .

وقال ابن جرير : [معناه] استمرت بالماء ، قامت به وقعدت .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : استمرت به ، فشكت : أحملت أم لا .

﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ أي : صارت ذات ثقل بحملها .

وقال السدي : كبر الولد في بطنها .

﴿ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا ﴾ أي: بشرا سويا، كما قال الضحاك، عن ابن

عباس: أشفقا أن يكون بهيمة.

وكذلك قال أبو البخري وأبو مالك: أشفقا ألا يكون إنسانا.

وقال الحسن البصري: لئن آتينا غلاما.

﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير ح 3 ص 524 .

﴿ 525

(295/300)

وقال أبو السعود :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾

استئناف سيق لبيان كمال عظم جنابة الكفرة في جرائعهم على الإشراف بتذكير مبادئ  
أحوالهم المنافية له، وإيقاع الموصول خبراً لتفخيم شأن المبتدأ، أي هو ذلك العظيم الشأن  
الذي خلقكم جميعاً وحده من غير أن يكون لغيره مدخل في ذلك بوجه من الوجوه ﴿ من  
نفس واحدة ﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام، وهذا نوع تفصيل لما أشير إليه في مطلع  
السورة الكريمة إشارة إجمالية من خلقهم وتصويرهم في ضمن خلق آدم وتصويره وبيان

لكيفيته ﴿ وَجَعَلَ ﴾ عطف على خلقكم داخل في حكم الصلة ، ولا ضير في تقدمه عليه وجوداً لما أن الواو لا تستدعي الترتيب في الوجود ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من جنسها كما في قوله تعالى :

(296/300)

---

﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أو من جسدها لما يُروى أنه تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه الصلاة والسلام ، والأول هو الأنسب إذ الجنسية هي المؤدية إلى الغاية الآتية لا الجزئية ، والجعل إما بمعنى التصيير فقوله تعالى : ﴿ زَوْجَهَا ﴾ مفعوله الأول والثاني هو الظرف المقدم ، وإما بمعنى الإنشاء والظرف متعلق بجعل قدم على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، أو بمحذوف هو حال من المفعول والأول هو الأولى وقوله تعالى : ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ علة غائية للجعل باعتبار تعلقه بمفعوله الثاني أي ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئناناً مصححاً للزواج كما يلوح به تذكير الضمير ويفصح عنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ أي جامعها ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا ﴾ في مبادئ الأمر فإنه عند كونه نطفة أو علقمة أو مضغة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه تعالى إياهم

متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ومن الضعف إلى القوة ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ أي  
فاستمرت به كما كانت قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت ، وعليه قراءة ابن  
عباس رضي الله تعالى عنه وقرىء ( فَمَرَّتْ ) بالتخفيف و ( فَمَارَتْ ) من المور وهو  
الجميُّ والذهابُ أو من المربة فظنت الحملَ وارتابت به ، وأما ما قيل من أن المعنى حملت  
حملاً خفَّ عليها ولم تلقَ منه ما يلقي بعضُ الحبالى من حملهن من الكرب والأذية ولم تستقله  
كما يستقلنه فمَرَّتْ به أي فمضت به إلى ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق فيرده قوله تعالى  
: ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ إذ معناه فلما صارت ذات ثقلٍ لكبر الولدِ في بطنها ، ولا ريب في أن  
الثقلَ بهذا المعنى ليس مقابلاً للخفة بالمعنى المذكور إنما يقابلها الكربُ الذي يعتري بعضهن  
من

(297/300)

---

أول الحمل إلى آخره دون بعض أصلاً ، وقرىء أَثْقَلَتْ على البناء للمفعول أي أثقلها حملها  
﴿ دَعَا اللَّهَ ﴾ أي آدم وحواءُ عليهما السلام لما دهمهما أمرٌ لم يعهداه ولم يعرفا مآله فاهتما  
به وتضرعا إليه عز وجل وقوله تعالى : ﴿ رَبُّهُمَا ﴾ أي مالك أمرهما الحقيقي بأن يخصَّ به  
الدعاءُ إشارةً إلى أنهما قد صدرا به دعاءهما كما في قولهما : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾

الآية، ومتعلقُ الدعاءِ محذوفٌ تعويلاً على شهادة الجملة القسمية به، أي دَعَوَاهُ تعالى أنه يُؤْتِيهِمَا صالحاً ووعداً بمقابلته الشكرَ على سبيل التوكيدِ القسَمِيِّ وقالوا أو قائلين:

﴿ لِنُؤْتِيَنَّكَ صَالِحًا ﴾ أي ولداً من جنسنا سويًا ﴿ لَنَكُونَنَّ ﴾ نحن ومن يتناسل من ذريتنا ﴿ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ الراسخين في الشكر على نعمائك التي من جملتها هذه النعمة، وترتيبُ هذا الجوابِ على الشرط المذكور لما أنهما قد علما أن ما علقا به دعاءهما أنموذجٌ لسائر أفرادِ الجنسِ ومعياريها ذاتاً وصفةً وجوده مستتبعٌ لوجودها وصلاحه مستلزمٌ لصلاحها فالدعاءُ في حقه متضمنٌ للدعاءِ في حق الكلِ مستتبعٌ له كأنهما قالا: لِنُؤْتِيَنَّكَ وَذَرِيَّتَنَا أَوْلَادًا صَالِحَةً، وقيل: إن ضميرَ آتينا أيضاً لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما فالوجهُ ظاهرٌ، وأنت خيرٌ بأن نظمَ الكل في سلكِ الدعاءِ أصالةً ياباه مقامِ المبالغةِ في الاعتناء بشأن ما هما بصدده، وأما جعلُ ضميرِ لَنَكُونَنَّ للكلِ فلا محذورَ فيه لأن توسيعَ دائرةِ الشكرِ غيرُ مُخِلٍ بالاعتناء المذكور بل مؤكده. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

(298/300)

وقال الأوسى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾

استئناف لبيان ما يقتضي التوحيد الذي هو المقصد الأعظم ، وإيقاع الموصول خبراً لتفخيم شأن المبتدأ أي هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم جميعاً وحده من غير أن يكون لغيره مدخل في ذلك أصلاً ﴿ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وهو آدم عليه السلام على ما نص عليه الجمهور ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا ﴾ أي من جنسها كما في قوله سبحانه : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [الشورى : 11] فمن ابتدائية والمشهور أنها تبعية أي من جسدها لما يروى أنه سبحانه خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام اليسرى ، والكيفية مجهولة لنا ولا يعجز الله تعالى شيء ، والفعل معطوف على صلة الموصول داخل في حكمها ولا ضير في تقدم مضمونه على مضمون الأول وجوداً لما أن الواو لا تستدعي الترتيب فيه ، وهو إما بمعنى صير فقوله سبحانه : ﴿ زَوْجَهَا ﴾ مفعوله الأول والثاني هو الظرف المقدم وأما بمعنى انشأ والظرف متعلق به قدم على المفعول الصريح لما مر مراراً أو بمحذوف وقع حالاً من المفعول ﴿ لَيْسَ كُنْ إِيَّهَا ﴾ علة غائية للجعل أي ليستأنس بها ويطمئن إليها ، والضمير المستكن للنفس ، وكان الظاهر التأنيث لأن النفس من المؤنثات السماعية ولذا أنت صفتها إلا أنه ذكر باعتبار أن المراد منها آدم ولو أنت على الظاهر لتوهم نسبة السكون إلى الأنثى والمقصود خلافه ، وذكر الزمخشري أن التذكير أحسن طباقاً للمعنى



وبينه في الكشف بأنه لما كان السكون مفسراً بالميل وهو متناول للميل الشهواني الذي هو مقدمة التغشي لا سيما وقد أكد بالفاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَاصًا تَغشَاهَا ﴾ والتغشي منسوب إلى الذكر لا محالة كان الطباق في نسبه أيضاً إليه وإن كان من الجانبين ، وفيه إيحاء إلى أن تكثير النوع علة المؤانسة كما أن الوحدة علة الوحشة ، وأيضاً لما جعل المخلوق أولاً الأصل كان المناسب أن يكون جعل الزوج لسكونه بعد الاستيحاش لا العكس فإنه غير ملائم لفظاً ومعنى ، لكن ذكر ابن الشحنة أن

(299/300)

---

النفس إذا أريد به الإنسان بعينه فمذكر وإن كان لفظه مؤنث ، وجاء ثلاثة أنفس على معنى ثلاثة أشخاص وإذا أريد بها الروح فهي مؤنثة لا غير وتصغيرها نفيسة فليفهم .  
والضمير المنصوب من تغشاهما للزوج وهو بمعنى الزوجة مؤنث ، والتغشي كناية عن الجماع أي فلما جامعها ﴿ فَلَمَّا تَغشَاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيئاً ﴾ أي محمولاً خفيفاً وهو الجنين عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة فإنه لا ثقل فيه بالنسبة إلى ما بعد ذلك من الأطوار ، فنصب حملاً على أنه مفعول به وهو بفتح الحاء ما كان في بطن أو على شجر وبالكسر خلافه .

وقد حكى في كل منهما الكسر والفتح .

وجوز أن يكون هنا مصدرًا منصوباً على أنه مفعول مطلق ، وأن يراد بالخفة عدم التأذي أي

حملت حملاً خف عليها ولم تلق منه ما تلقي بعض الحوامل من حملهن من الكرب والأذية ❀

فَمَرَّتْ بِهِ ❀ أي استمرت به كما قرأ به ابن عباس .

والضحك .

والمراد بقيت به كما كانت قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت وهو معنى لا غبار

فيه .

والقول بأنه من القلب أي فاستمر بها حملها من القلب عند النقاد ، وقرأ أبو العالية وغيره

❀ مرت ❀ بالتخفيف فقيل : إنه مخفف مرت كما يقال : ظلت في ظلت ، وقيل : هو من

المرية أي الشك أي شكت في أمر حملها .

(300/300)

---

وقرأ ابن عمر والجحدري ❀ فمات ❀ من ما يمور إذا جاء وذهب فهي بمعنى قراءة

الجمهور أو هي من المرية كقراءة أبي العالية ووزنه فاعلت وحذفت لامه للساكين ❀ به

فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ❀ أي صارت ذات ثقل بكبر الحمل في بطنها فالهمزة فيه للصيرورة كقولهم أتمر

وَأَبْنَى أَي صَارَ ذَاتَ تَمَرٍ وَلَبِنٍ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا لِلدُّخُولِ فِي زَمَانِ الْفِعْلِ أَي دَخَلْتَ فِي زَمَانِ الثَّقَلِ  
كَاصْبَحَ دَخَلَ فِي الصَّبَاحِ وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ ، وَالْمُتَبَادِرُ مِنَ الثَّقَلِ مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيُّ ، وَالتَّقَابِلُ بَيْنَهُ  
وَبَيْنَ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ لِلخَفَةِ ظَاهِرٌ ، وَقَدْ يَرَادُ بِهِ الْكَرْبُ لِيُقَابَلَ الخَفَةُ بِالْمَعْنَى الثَّانِي لَكِنِ الْمُتَبَادِرُ  
فِي الْمَوْضِعَيْنِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِ ، وَقُرِئَ ﴿ أَثْقَلْتَ ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْهَمْزَةُ لِلتَّعْدِيَةِ أَي  
أَثْقَلَهَا حَمْلَهَا ﴿ دَعَا اللَّهَ ﴾ أَي آدَمَ وَحَوَاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَمَّا خَافَا عَاقِبَةَ الْأَمْرِ فَاهْتَمَا بِهِ  
وَتَضَرَّعَا إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ رَبُّهُمَا ﴾ أَي مَالِكُ أَمْرِهِمَا الْحَقِيقِ بِأَنْ يَخْصُ بِهِ الدَّعَاءَ .  
وَفِي هَذَا الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُمَا قَدْ صَدَّرَا بِهِ دَعَاءَهُمَا وَهُوَ الْمَعْنُودُ مِنْهُمَا فِي الدَّعَاءِ ، وَمَتَعَلَقُ  
الدَّعَاءِ مَحْذُوفٌ لِإِيذَانِ الْجُمْلَةِ الْقَسْمِيَّةِ بِهِ ، أَي دَعَاوَهُ تَعَالَى أَنْ يُؤْتِيَهُمَا صَالِحًا وَعَدَاً بِمُقَابَلَتِهِ  
الشُّكْرَ عَلَى سَبِيلِ التَّوَكُّيدِ الْقَسْمِيِّ وَقَالَا أَوْ قَاتِلِينَ ﴿ لِنُؤْتِيَنَا صَالِحًا ﴾ أَي نَسَلًا مِنْ  
جِنْسِنَا سِوَا ، وَقِيلَ : وَلَدًا سَلِيمًا مِنْ فِسَادِ الْخَلْقَةِ كَنَقْصِ بَعْضِ الْأَعْضَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ  
وَعَلَيْهِ جَمَاعَةٌ .

وَعَنْ الْحَسَنِ غَلَامًا ذَكَرًا وَهُوَ خِلَافُ الظَّاهِرِ ﴿ لَنَكُونَنَّ ﴾ نَحْنُ أَوْ نَحْنُ وَنَسَلْنَا ﴿ مِنْ  
الشَّاكِرِينَ ﴾ الرَّاسِخِينَ فِي الشُّكْرِ لَكَ عَلَى إِيْتَانِكَ .  
وَقِيلَ : عَلَى نِعْمَاتِكَ الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا هَذِهِ النِّعْمَةُ .  
وَجُوزَ أَنْ يَكُونَ ضَمِيرُ آتَيْنَا لِهَمَا وَلِكُلِّ مَنْ يَتَنَاسَلُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا وَليْسَ بِذَلِكَ . انْتَهَى انْتَهَى .

اه ﴿ رُوحُ الْمَعَانِي ﴾ 9 ص ﴿

وقال ابن عاشور :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

جملة مستأنفة استئنفاً ابتدائياً ، عاد بها الكلام إلى تقرير دليل التوحيد وإبطال الشرك من

الذي سلف ذكره في قوله : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ [

الأعراف : 172 ] الآية ، وليست من القول المأمور به في قوله : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا

ولا ضرا ﴾ [ الأعراف : 188 ] لأن ذلك المقول قصد منه إبطال الملازمة بين وصف

الرسالة وعلم الرسول بالغيب ، وقد تم ذلك ، فالمناسب أن يكون الغرض الآخر كلاماً

موجهاً من الله تعالى إلى المشركين لإقامة الحجة عليهم بفساد عقولهم في إشراكهم وإشراك

آبائهم .

ومناسبة الانتقال جريان ذكر اسم الله في قوله : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ [ الأعراف : 188

[ وضمير الخطاب في ﴿ خلقكم ﴾ للمشركين من العرب ، لأنهم المقصود من هذه الحجج

والتذكير ، وإن كان حكم هذا الكلام يشمل جميع البشر ، وقد صدر ذلك بالتذكير بنعمة

خلق النوع المبتدأ بخلق أصله وهو آدم وزوجه حواء تمهيداً للمقصود .

وتعليق الفعل باسم الجمع ، في مثله ، في الاستعمال يقع على وجهين : أحدهما : أن يكون المراد الكل المجموعي ، أي جملة ما يصدق عليه الضمير ، أي خلق مجموع البشر من نفس واحدة فتكون النفس هي نفس آدم الذي تولد منه جميع البشر .

وثانيهما : أن يكون المراد الكل الجماعي أي خلق كل أحد منكم من نفس واحدة ، فتكون النفس هي الأب ، أي أبو كل واحد من المخاطبين على نحو قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ [ الحجرات : 13 ] وقوله : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [ القيامة : 39 ] .

ولفظ ﴿ نفس واحدة ﴾ وحدهً يحتمل المعنيين ، لأن في كلا الخلقين امتناناً ، وفي كليهما اعتباراً وتعاضاً .

(302/300)

---

وقد جعل كثير من المفسرين النفس الواحدة آدم وبعض المحققين منهم جعلوا الأب لكل أحد ، وهو المأثور عن الحسن ، وقتادة ، ومشى عليه الفخر ، والبيضاوي وابن كثير ، والأصم ، وابن المنير ، والجبائي .

ووصفت النفس بواحدة على أسلوب الإدماج بين العبرة والموعظة ، لأن كونها واحدة

أدعى للاعتبار إذ ينسل من الواحدة أبناء كثيرون حتى ربما صارت النفس الواحدة قبيلة أو أمة ، ففي هذا الوصف تذكير بهذه الحالة العجيبة الدالة على عظم القدرة وسعة العلم حيث بثه من نفس واحدة رجالاً كثيراً ونساء ، وقد تقدم القول في ذلك في طالعة سورة النساء .

والذي يظهر لي أن في الكلام استخداماً في ضميري ﴿ تغشاها ﴾ وما بعده إلى قوله : ﴿ فيما آتاها ﴾ وبهذا يجمع تفسير الآية بين كلا الرأيين .  
و( من ) في قوله : ﴿ من نفس واحدة ﴾ ابتدائية .

وعبر في جانب الأتى بفعل جعل ، لأن المقصود جعل الأتى زوجاً للذكر ، لا الإخبار عن كون الله خلقها ، لأن ذلك قد علم من قوله : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ .  
و( من ) في قوله : ﴿ وجعل منها ﴾ للتبويض ، والمراد : من نوعها ، وقوله : ﴿ منها ﴾ صفة لزوجها ﴿ قدمت على الموصوف للاهتمام بالامتنان بأن جعل الزوج وهو الأتى من نوع ذكرها وهذه الحكمة مطردة في كل زوجين من الحيوان .

وقوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾ تعليل لما أفادته ( من ) التبعية .  
والسكون مجاز في الاطمئنان والتأنس أي : جعل من نوع الرجل زوجته ليألفها ولا يخفق قربها ، ففي ذلك منة الإيناس بها ، وكثرة ممارستها لينساق إلى غشيانها ، فلو جعل الله التناسل حاصلاً بغير داعي الشهوة لكانت نفس الرجل غير حريصة على الاستكثار من نسله ، ولو

جعله حاصلًا بجالة أم لكانت نفس الرجل مقلة منه ، بحيث لا تنصرف إليه إلا للاضطرار  
بعد التأمل والتردد ، كما ينصرف إلى شرب الدواء ونحوه المعقبة منافع ، وفرع عنه بقاء  
التعقيب ما يحدث عن بعض سكون الزوج إلى زوجه وهو الغشيان .

(303/300)

---

وصيغت هذه الكتابة بالفعل الدال على التكلف لإفادة قوة التمكن من ذلك لأن التكلف  
يقتضي الرغبة .

وذكر الضمير المرفوع في فعلي ﴿ يَسْكُنُ ﴾ و (تغشى) : باعتبار كون ما صدق المعاد ،  
وهو النفس الواحدة ، ذكراً ، وأنت الضمير المنصوب في ﴿ تغشاها ﴾ ، والمرفوع في ﴿  
حَمَلْتُ ﴾ .

و(مرت) : باعتبار كون ما صدق المعاد وهو زوجها أنتى ، وهو عكس بديع في نقل  
ترتيب الضمائر .

ووصف الحمل بـ ﴿ خفيفاً ﴾ إدماج ثان ، وهو حكاية للواقع ، فإن الحمل في مبدئه لا  
تجد منه الحامل الماء ، وليس المراد هنا حملاً خاصاً ، ولكنه الخبر عن كل حمل في أوله ، لأن  
المراد بالزوجين جنسهما ، فهذه حكاية حالة تحصل منها عبرة أخرى ، وهي عبرة تطور

الحمل كيف يتبدىء خفيفاً كالعدم، ثم تزايد رويداً رويداً حتى يثقل، وفي "الموطأ" قال :  
مالك وكذلك (أي كالمريض غير المخوف والمريض المخوف) : الحامل في أول حملها بشر  
وسرور وليس بمرض ولا خوف، لأن الله تبارك وتعالى قال في كتابه ﴿ فبشرناها  
ياسحاق ﴾ [هود : 71] وقال : ﴿ حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله  
رهبما لن آتينا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴾ .

وحقيقة المرور : الاجتياز، ويستعار للتغافل وعدم الاكتراث للشيء كقوله تعالى : ﴿ فلما  
كشفنا عنه ضربه مر كأن لم يدعنا إلى ضممه ﴾ [يونس : 72] أي : نسي دعاءنا ،  
وأعرض عن شكرنا لأن المار بالشيء لا يقف عنده ولا يسأله، وقوله : ﴿ وإذا مروا  
بالغو مروا كراماً ﴾ [الفرقان : 72] .

وقال تعالى : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ [ يوسف : 105 ] .

فمعنى ﴿ فمرت به ﴾ لم تنفطن له، ولم تفكر في شأنه، وكل هذا حكاية للواقع، وهو  
إدماج.



والإثقال ثقل الحمل وكلفته ، يقال أثقلت الحامل فهي مُثقل وأثقل المريض فهو مُثقل ، والهمزة للصيرورة مثل أَوْرقَ الشجر ، فهو كما يقال أَقربت الحامل فهي مُقرب إذا أقرب أبان وضعها .

وقد سلك في وصف تكوين النسل مسلك الإطناب : لما فيه من التذكير بتلك الأطوار ، الدالة على دقيق حكمة الله وقدرته ، وبلطفه بالإنسان .

وظاهر قوله : ﴿ دَعَاَ اللّٰهَ رَبِّهٖمَا ﴾ أن كل أبوين يدعوان بذلك ، فإن حمل على ظاهره قلنا لا يخلو أبواب مشركان من أن يتمنيا أن يكون لهما من الحمل مولود صالح ، سواء نطقاً بذلك أم أضمره في نفوسهما ، فإن مدة الحمل طويلة ، لا تخلو أن يحدث هذا التمني في خلالها ، وإنما يكون التمني منهم على الله ، فإن المشركين يعترفون لله بالربوبية ، وبأنه هو خالق المخلوقات ومُكونها ، ولا حظ للألهة إلا في التصرفات في أحوال المخلوقات ، كما دلت عليه محاجات القرآن لهم نحو قوله تعالى :

﴿ قل هل من شركائكم من يُبدؤُ الخلق ثم يعيده ﴾ [يونس : 34] وقد تقدم القول في هذا عند قوله تعالى : ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون في الأنعام ( 1 ) .

وإن حمل دعوا ﴿ على غير ظاهره فتأويله أنه مخصوص ببعض الأزواج الذين يخطر ببيالهم الدعاء .

وإجراء صفة ﴿ ربهما ﴾ المؤذنة بالرفق والإيجاد : للإشارة إلى استحضار الأبوين هذا

الوصف عند دعائهما الله ، أي يذكر أنه باللفظ أو ما يفيد مفاده ، ولعل العرب كانوا إذا دعوا بصلاح الحمل قالوا : ربنا آتينا صالحاً .

وجملة : ﴿ لئن آتيتنا صالحاً ﴾ مبيّنة لجملة ﴿ دَعَوَا اللَّهَ ﴾ .

﴿ صالحاً ﴾ وصف جرى على موصوف محذوف ، وظاهر التذكير أن المحذوف تقديره : ( ذكراً ) وكان العرب يرغبون في ولادة الذكور وقال تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾ [ النحل : 57 ] أي الذكور .

(305/300)

---

فالدعاء بأن يؤتيا ذكراً ، وأن يكون صالحاً ، أي نافعاً : لأنهم لا يعرفون الصلاح الحق ، وينذران : لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ﴾

8 ص ﴿

(306/300)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ المقصود بها آدم ، وقول الحق : ﴿ وَجَعَلَ

مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ المقصود بها حواء ، ونلاحظ في الأداء في هذه الآية أن الضمير عائد إلى

مؤنث . ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

ثم جاء بالتذكير في قوله : ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

إذن فصل الذكورة عن الأنوثة جاء عند ﴿ لِيَسْكُنَ ﴾ . فكان الكلام في النفس معنيُّ به

جنس بني آدم وهو الذي نسميه " الإنسان " ومنه ذكورة ومنه أنوثة ، ولذلك فسبحانه

حينما يتكلم عن الذكورة كذكورة ، والأنوثة كأنوثة ، يأتي بضمير المذكر ، أو بضمير المؤنث

، وقوله : ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ .

لأنه يريد أن يوضح أن المرأة جعلت للرجل سكناً ، لا يقال : إنها له سكن إلا إذا كان هو

متحركاً ، كأن الحركة والكدرح في الحياة للرجل ، ثم يستريح مع المرأة ويسكن إليها بالحنان ،

بالعطف ، بالركة . أما إن لم تكن سكناً فهو يخرج من البيت لأن ذلك أفضل له . وقول الحق

تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ .

يذكرنا بما عرفناه من قبل من أن الله خلق آدم من الطين ومن الصلصال ثم نفخ فيه ربنا الروح

، أما حواء فقد ذكرها في هذه المسألة ، وأوضح : أنا جعلت منها زوجها ، و " منها " أي

أنها قطعة منه ، وقيل : إنها خلقت من ضلع أعوج ، ومن يرجع هذا الرأي يقول لك : لأن الله يريد أن يجعل السكن ارتباطاً عضوياً ، فالمرأة بعض من الرجل ، ونعرف أن الواحد منا يجب ابنه لأنه بعض منه . وعلى ذلك فهذا القول جاء لتقديم الألفة . وهناك من يقول : إن حواء خلقت مثل آدم فلماذا جاء ذكر آدم ولم يأت بذكر حواء ؟

(307/300)

---

ونقول : إن آدم أعطى الصورة في خلق الإنسان من طين ، لأن آدم هو الرسول وهو المسجود له . ونعلم أن المرأة دائماً مبنية على الستر . ومثال ذلك نجد الفلاح في مصر لا يقول : زوجتي ، بل يقول : " الجماعة " أو " الأولاد " أو يقول : " أهلي " ولا يذكر اسم الزوجة أبداً .

والحق يقول هنا : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا ﴾ ، فإن كانت مخلوقة من الضلع ف " مِنْ " تبعيضية ، وإن كانت مخلوقة مثل آدم تكون " مِنْ " بيانية ، أي من جنسها ، مثلها مثلما يقول ربنا : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ . . . ﴾ [ الجمعة : 2 ] .

أي الرسول من جنسنا البشري ليكون إلف المبلغ عن الله ، والمبلغ عن الله واحدا منا ونكون مستأنسين به ، ولذلك قلنا : إن اختيار الله للرسول صلى الله عليه وسلم من البشر

فيه رد على من أرادوا أن يكون الرسول من جنس آخر غير البشر ، فقال الحق على  
ألسنتهم : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾



[الإسراء : 94] .

ويأتي الرد عليهم : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ  
السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : 95] .

ثم لو كان الرسول من جنس الملائكة فكيف كانوا يرونه على حقيقته ؟ كان لا بد أن يخلقه  
الله على هيئة الإنسان .

ويتابع سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلٌ خَفِيًّا ﴾

و ﴿ تَغَشَّاهَا ﴾ تعبير مهذب عن عملية الجماع في الوظيفة الجنسية بين الزوج والزوجة ،  
والغشاء هو الغطاء ، وجعل الله الجماع من أجل التناسل ليبيت منهما رجالاً كثيراً ونساءً .

(308/300)

---

والمعنى هنا أنها حملت الجنين لفترة وهي لا تدري أنها حامل ، لأن نمو الجنين بطيء بطيء  
لا تشعر الأم به . ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَنْ آتِيَنَّا صَالِحًا لَّنُكُونَنَّ مِنْ

الشاكين ﴿ الأعراف : 189 ] .

ومرت به ، مقصود بها أنها تتحرك حركة حياتها قياماً وقيوداً إلى أن تثقل وتشعر بالحمل في شهوره الأخيرة .

وهنا عرف الزوج أن هناك حملاً ورفع الاثنان أيديهما بالدعاء لله عز وجل أن يكون الولد صالحاً بالتكوين البدني وصالحاً للقيام بقيم المنهج . ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [ الأعراف : 189 ] .

أي أن الذكورة قد انفصلت عن الأنوثة ، وصار الذكر يسكن عند الأنثى .

وهكذا كان الأمر الخاص بآدم ، ثم جاء الكلام للذرية ، وخصوصاً أن حواء كانت تحمل بذكر وأنثى ، وآدم وحواء وأولادهما هم أصل التواجد البشري وأصل التوالد .

والقرآن قد يتكلم في موضوعات تبدو متباعدة . لكنها تضم قيماً ذات نسق فريد ، فنجد الحق يتكلم في أمر ثم يتكلم في آخر ، مثل قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ . . . ﴾ [ يونس : 22 ] .

ولم يأت بسيرة البرهنا ، بل تكلم بالبر والبحر ثم انتقل إلى الحديث عن مجيء الموت ، وأيضاً انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا . . . ﴾ [

الأحقاف : 15 ] .

هنا يوصي الحق الإنسان بوالديه ، بالأب وبالأم ، ثم يتابع : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ  
كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا . . . ﴾ [الأحقاف : 15] .

ولم تأت سيرة الرجل بل كل الحثيات للأم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(309/300)

فائدة

قال الإمام تقي الدين السبكي :

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ قال الشيخ الإمام رحمه الله ما نصه : الفرق بين "   
جَعَلَ " و " خَلَقَ " أَنَّ " جَعَلَ " تَعَدَّى لِمَفْعُولَيْنِ إِذَا كَانَتْ بِمَعْنَى صَيَّرَ وَتَعَدَّى لِمَفْعُولٍ  
وَاحِدٍ إِذَا كَانَتْ بِمَعْنَى خَلَقَ .

قال الزمخشري في سورة الأنعام إِنَّ " جَعَلَ " فِيهَا مَعْنَى التَّضْمِينِ وَفِي نُسْخَةِ " التَّصْيِيرِ "   
تَقُولُ جَعَلَ كَذَا مِنْ كَذَا .

قال تعالى ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ قلت هذا معنى حسن ، وأزيد في تقريره أَنَّ " جَعَلَ   
" يَنْفَكُ عَنْهَا مَعْنَى التَّصْيِيرِ .

ولكن النسبة مختلفة ، فإذا قلت جعلت الطين خزفاً فمعناه صيرت الطين خزفاً فأردت

بَيَانَ حَالِ الْمُنْقُولِ عَنْهُ إِلَى الْمُنْقُولِ إِلَيْهِ ، وَإِذَا أَرَدْتَ إِفَادَةَ الْحَالِ الْمُنْقُولِ إِلَيْهِ تَقُولُ جَعَلْتُ  
الْخَرْفَ مِنَ الطِّينِ أَيَّ صَيَّرْتَهُ مِنْهُ .

فَالأَوَّلُ يَتَعَدَّى إِلَى الْمَفْعُولَيْنِ .

وَالثَّانِي إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ ، وَكِلَاهُمَا لَمْ يُفَارِقْ مَعْنَى التَّصْيِيرِ ، وَنَظِيرُ هَذَا مَا قُلْتَهُ إِنَّ  
اِخْتَصَرْتُ ، تَقُولُ اِخْتَصَرَ النَّوَوِيُّ الْمُحَرَّرَ فِي الْمُنْهَاجِ ، وَتَقُولُ اِخْتَصَرَ الْمُنْهَاجَ مِنَ الْمُحَرَّرِ

فَهَذِهِ فَائِدَةٌ حَسَنَةٌ قَصَرَ كَلَامُ النُّحَاةِ عَنْهَا .

وَلَمْ يَفْصَحْ بِهَا الزَّمْخَشَرِيُّ .

(310/300)

---

وَإِنْ كَانَ بَتَّةَ عَلَى أَصْلِ الْمَعْنَى ، وَيَجْتَمِعُ مَعْنَا ثَلَاثَةَ الْفَاظِ " الْجَعْلُ " وَقَدْ عُرِفَ مَعْنَاهُ وَ  
الْخُلُقُ " وَهُوَ أَعْمٌ لِأَنَّهُ يَصْدُقُ مَعَ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ ﴿ إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ وَبِدُونِهِ كَقَوْلِهِ  
﴿ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ﴾ وَ" الْإِبْدَاعُ " وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخُلُقِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ أَنَّ  
الْمَخْلُوقَ لَهُ حَظٌّ مِنَ الْمَسَاحَةِ لَمَّا فِي الْخُلُقِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى التَّقْدِيرِ ، وَالْإِبْدَاعُ يَتَعَلَّقُ بِمَا لَا



حَظَّ لَهُ فِي الْمَسَاحَةِ ، وَهِيَ الْمَعَانِي الْمَجْرَدَةُ وَهَذَا عِنْدَ مَنْ يُثَبِّتُ الْمَجْرَدَاتِ الْمُمَكِّنَاتِ  
وَهُمُ الْحُكَمَاءُ . انْتَهَى . انْتَهَى . اهـ ﴿ فتاوى السبكي ج 1 ص 52.53 ﴾

(311/300)

لطيفة

قال ابن القيم :

﴿ قوله تعالى ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ ﴾  
فجعل علة السكن أنها منه ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب أن لا  
يستحسن الأتقص من الصور ونحن نجد كثيرا ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد  
محيذا لقلبه عنه ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه فعلنا  
أنه شيء في ذات النفس وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب وتلك تفنى بفناء سببها  
اهـ ﴿ روضة المحبين ص 75 ﴾

(312/300)

## فصل

قال الإمام ابن قتيبة :

باب الكناية والتعريض

الكناية أنواع ، ولها مواضع

: فمنها أن تكنى عن اسم الرجل بالأبوة ، لتزيد في الدلالة عليه إذا أنت راسلته أو كتبت إليه ، إذ كانت الأسماء قد تتفق .

أو لتعظمه في المخاطبة بالكنية ، لأنها تدل على الحنكة وتخبّر عن الأكتحال .

وقد ذهب هؤلاء إلى أن الكنية كذب ما لم يكن الولد مسمى بالاسم الذي كني به عن الأب ، وتقع للرجل بعد الولادة .

وقالوا : إن كانت الكناية للتعظيم فما باله كنى أبا لهب وهو عدوه ، وسمى محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، وهو وليه ونبيه .

والجواب عن هذا : أن العرب كانت ربما جعلت اسم الرجل كنيته ، فكانت الكنية هي الاسم .

قال أبو محمد : خبّرني غير واحد عن الأصمعي : أن أبا عمرو بن العلاء ، وأبا سفيان بن العلاء أسماؤهما كناههما .

وربما كان للرجل الاسم والكنية ، فغلبت الكنية على الاسم ، فلم يعرف إلا بها ، كأبي

سفيان ، وأبي طالب ، وأبي ذرّ ، وأبي هريرة .

ولذلك كانوا يكتبون : علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان ، لأن الكنية بكما لها صارت اسما ، وحظّ كل حرف الرفع ما لم ينصبه أو يجره حرف من الأدوات أو الأفعال .  
فكانه حين كني قيل : أبو طالب ، ثم ترك ذلك كهيئته ، وجعل الاسمان واحدا .

وقد روي في الحديث أن اسم أبي لهب عبد العزّي ، فإن كان هذا صحيحا فكيف يذكره رسول الله بهذا الاسم ، وفيه معنى الشرك والكذب ، لأن الناس جميعا عبيد الله ؟ .

وقال المفسرون في قول الله عز وجل : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ  
وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ  
دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189)

(313/300)

---

[الأعراف : 189] - إن حواء لما أثقلت أتاها إبليس في صورة رجل فقال لها : ما هذا الذي في بطنك ؟ وذلك أول حملها ، فقالت : ما أدري ، فقال لها : أرأيت إن دعوت ربي فولدته إنسانا أتسمينه بي ؟

فقالت : نعم . وقالت هي وآدم : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين أي : لئن خلقته

بشرا مثلنا ولم يجعله بهيمة . فلما ولدته أتاها إبليس ليسألها الوفاء ، فقالت : ما اسمك ؟  
قال : الحارث ، فتسمى بغير اسمه ، ولو تسمى باسمه لعرفته ، فسماه عبد الحارث ، فعاش  
أياماً ثم مات ، فقال الله تعالى : فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا [الأعراف  
: 190] ، وإنما جعله الشرك بالتسمية لا بالنية والعقد ، وانتهى الكلام في قصة آدم

وحواء ، ثم ذكر من أشرك به بالعقد والنية من ذريتهما ، فقال :

فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [الأعراف : 190] ولو كان أراد آدم وحواء لقال : عما

يشركان .

فهذا يدلّك على العموم .

وإن كان اسم أبي لهب كنيته فإنما ذكره بما لا يعرف إلا به ، والاسم والكنية علمان يميّزان  
بين الأعيان والأشخاص ، ولا يقعان لعله في المسمى كما تقع الأوصاف ، فبأي شيء عرف  
الرجل ، جاز أن تذكره به غير أن تكذب في ذلك .

ولو كان من دعا أبا القاسم بأبي القاسم ولا قاسم له ، كان كاذباً - لكان من دعا المسمى  
بكلب وقرد وغراب وذباب - كاذباً ، لأنه ليس كما ذكر .

وقد طعنت الشعوبية على العرب بأمثال هذه الأسماء ، ونسبوهم إلى سوء الاختيار ،  
وجهلوا معانيهم فيها .

وكان القوم يتقاعلون ويتطيرون ، فمن تسمى منهم بالأسماء الحسنی أراد أن يكثر له الفأل

بالحسن ، ومن تسمى بقبيح الأسماء أراد صرف الشر عن نفسه .

وذلك أن العرب كانت إذا خرجت للمغار قالوا : إلى من تقصد ؟ فتطيروا من كلب وجعل

وقرد ونمر وأسد ، وقالوا : ميلوا بنا إلى بني سعد وإلى غنم وما أشبه ذلك .

(314/300)

---

ومن الكناية قول الله عز وجل : يا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) [الفرقان :  
28].

ذهب هؤلاء وفريق من المتسمين بالمسلمين إلى أنه رجل بعينه .

وقالوا : لم كنى عنه ؟ وإنما يكني هذه الكناية من يخاف المباداة ، ويحتاج إلى المداجاة .

وقال آخرون : بل كان هذا الرجل مسمى في هذا الموضع ، فغير وكني عنه .

وذهبوا إلى أنه عمر ، وتأولوا الآية فقالوا : وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ [الفرقان : 27] يعني

أبا بكر رضي الله عنه .

يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا [الفرقان : 27] يعني محمدا صلى الله عليه

وسلم .

يا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) يعني عمر رضي الله عنه .

لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي [الفرقان : 29] يعني عليا .

قال أبو محمد : ونقول في الرد على (أولئك) إذ كان غلطهم من وجهة قد يغاظ في مثلها من رق علمه . فأما هؤلاء ففي قولهم ما أنبا عن نفسه ، ودل على جهل متأوله كيف يكون علي رحمة الله عليه ، ذكرا ؟ .

وهل قال أحد : إن أبا بكر لم يسلم ، ولم يتخذ بإسلامه مع الرسول سبيلا ؟ .

وليس هذا التفسير بنكر من تفسيرهم وما يدعون من علم الباطن كادعائهم في الجبت والطاغوت أنهما رجالان .

وأن الخمر والميسر رجالان آخران .

وأن العنكبوت غير العنكبوت والنحل غير النحل . في أشباه كثيرة من سخفهم وجهالاتهم .

وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية : إن عقبة بن أبي معيط صنع طعاما ودعا أشراف

أهل مكة ، فكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فيهم ، فامتنع من أن يطعم أو يشهد

عقبة بشهادة الحق ، ففعل ذلك ، فأتاه أبي بن خلف ، وكان خليله ، فقال : صبأت ؟ فقال

: لا ولكن دخل علي رجل من قريش فاستحييت من أن يخرج من منزلي ولم يطعم .

(315/300)

---

فقال : ما كنت لأرضى حتى تبصق في وجهه وتفعل به وتفعل ، ففعل ذلك ، فأُنزل الله هذه الآية عامة ، وهذان الرجلان سبب نزولها .

كما أنه قد كانت الآية ، والآي ، تنزل في القصة تقع : وهي لجماعة الناس .  
والمفسرون على أن هذه الآية نزلت في هذين الرجلين ، وإنما يختلفون في ألفاظ القصة .  
فأراد الله سبحانه ب الظالم كل ظالم في العالم ، وأراد بفلان كل من أطيع بمعصية الله وأرضي بإسقاط الله .

ولو نزلت هذه الآية على تقديرهم فقال : ويوم يعضّ الظالم - قارون وهامان ، وعقبة بن أبي معيط ، وأبي بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والمغيرة ، وفلان وفلان ، بالأسماء - على أيديهم يقولون : يا ليتنا لم نتخذ فرعون ، ونمرود ، وعقبة بن أبي معيط ، وأبا جهل ، والأسود ، وفلانا ، وفلانا بالأسماء - لطل هذا وكثر وقل ، ولم يدخل فيه من تأخر بعد نزول القرآن من هذا الصنف ، وخرج عن مذاهب العرب ، بل عن مذاهب الناس جميعا في كلامهم .

فكان (فلان) كناية عن جماعة هذه الأسماء .

وقد يقول القائل : ما جاءك إلا فلان بن فلان ، يريد أشرف الناس المعروفين ، والشاعر

يقول "1" :

في لجة أمسك فلانا عن فل يريد : أمسك فلانا عن فلان ، ولم يرد رجلين بأعيانهما ، وإنما أراد أنهم في غمرة الشر وضحجته ، فالحجزة تقول لهذا : أمسك ، ولهذا : كف .  
والظالم دليل على جماعة الظالمين كقوله : يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا  
[النبا : 40] يريد جماعة الكافرين .

ومن هذا الباب (التعريض) .

والعرب تستعمله في كلامها كثيرا ، فتبلغ إرادتها بوجه هو اللطف وأحسن من الكشف والتصريح ، ويعيبون الرجل إذا كان يكشف في كل شيء ويقولون "2" :

---

(1) قبله : إذا عصبت بالعطن المغربل تدافع الشيب ولم تقتل

والرجز لأبي النجم في جمهرة اللغة ص 407 ، ولسان العرب (عصب) ، (لجج) ، (خلل)  
، (فلن) ، والطرائف الأدبية ص 66 ، والمنصف 2/ 25 ، والممتع في التصريف 2/  
640 ، وخزانة الأدب 2/ 389 ، والدرر 3/ 37 ، وسمط الآلي ص 257 ، وشرح  
أبيات سيبويه 1/ 439 ، وشرح التصريح 2/ 180 ، وشرح المفصل 5/ 119 ،  
وشرح شواهد المغني 1/ 450 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 228 ، والكتاب 2/  
248 ، 3/ 452 ، والمقاصد النحوية 4/ 228 ، وتهذيب اللغة 2/ 48 ، وتاج  
العروس (عصب) ، (خلف) ، ومقاييس اللغة 4/ 447 ، 5/ 202 ، ومجمل اللغة 4/  
61 ، وبلا نسبة في أوضح المسالك 4/ 43 ، وشرح الأشموني 2/ 460 ، وشرح ابن



عقيل ص 527 ، وشرح المفصل 48 / 1 ، والمقتضب 238 / 4 ، والمقرب 182 / 1 ،  
وهمع الهوامع 177 / 1 .

(2) الرجز بلانسبة في لسان العرب (ثلب) ، وتاج العروس (ثلب) .

(316/300)

---

لا يحسن التعريض إلا ثلثا وقد جعله الله في خطبة النساء في عدتهنّ جائزا فقال : ولا جناحَ  
عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم [البقرة : 235] ولم يجز  
التصريح .

والتعريض في الخطبة : أن يقول الرجل للمرأة : والله إنك لجميلة ، ولعل الله أن يرزقك بعلا  
صالحا ، وإن النساء لمن حاجتني ، هذا وأشباهه من الكلام .

وروى بعض أصحاب اللغة أن قوما من الأعراب خرجوا يمتارون فلما صدروا خالف  
رجل في بعض الليل إلى عكم "1" صاحبه فأخذ منه برا وجعله في عكمه ، فلما أراد  
الرحلة قاما يتعاكمان فرأى عكمه يشول وعكم صاحبه يثقل ، فأنشأ يقول "2" :

عكم تغشى بعض أعكام القوم لم أر عكما سارقا قبل اليوم

فخون صاحبه بوجه هو أطف من التصريح .

وروي في بعض الحديث: أن رجلا كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من مغزى  
كان فيه "3":

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك - من أخي ثقة - إزارى  
قلاتصنا هداك الله إنا شغلنا عنكم زمن الحصار

(317/300)

---

فما قلص وجدن معقلات قفا سلع بمختلف النجار  
يعقلهن جعد شيطمي وبس معقل الذود الظوار

---

- (1) العكم: المتاع ما دام فيه المتاع، والعكمان: عدلان يشدان على جانبي الهودج.
- (2) الرجز لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي.
- (3) الأبيات من الوافر، والبيت الأول لبقيلة الأكبر الأشجعي، وكنيته أبو المنهال، في لسان العرب (أزر)، والمؤتلف والمختلف ص 63، وعجزه في لسان العرب (أزر)، منسوباً إلى جعدة بن عبد الله السلمي، وبلا نسبة في شرح اختيارات المفضل ص 250، وشرح شواهد الإيضاح ص 162، ولسان العرب (قلص).
- والبيت الثاني لأبي المنهال الأشجعي في لسان العرب (أزر)، وتاج العروس (قلص)، وبلا

نسبة في لسان العرب (قلص) .

والبيت الثالث بلا نسبة في تهذيب اللغة 369/8 ، والبيت الرابع لبقيلة الأكبر (أبي المنهال) في لسان العرب (أزر) ، وفيه "الخيار" بدل: "الظَّوَار" ، وكذلك في مادة (شظم) ، (ظأر) ، (عقل) ، (شظم) ، وتاج العروس (عقل) ، وبلا نسبة في لسان العرب (قلص) ، وتهذيب اللغة 369/8 ، 393/14 ، وكتاب العين 168/8 ، وتاج العروس (شظم) ، وفيه أنه ورد في حديث عمر بن الخطاب .

(318/300)

---

قال أبو محمد :

وقد ذكرت الحديث والتفسير وطريقه في كتاب (غريب الحديث) .

وإنما كنى بالقلص - وهي : التوق الشَّوَاب - عن النساء وعرض برجل يقال له :

جعدة كان يخالف إلى المغيبات من النساء ، ففهم عمر ، رضي الله عنه ما أراد ، ووجد

جعدة ونفاه .

وقال عنتره "1" :

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت عليّ وليتها لم تحرم

يعرّض جارية ، يقول : أيّ صيد أنت لمن حلّ له أن يصيدك ، فأما أنا فإنّ حرمة الجوار قد حرّمتك عليّ .

وقد جاء في القرآن التعريض :

فمن ذلك ما خبر الله سبحانه من نبيّ الخضم إذ دخلوا على داودَ ففزعَ منهم قالوا لا تخفْ خصمانِ بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط [ص : 22] . ثم قال : إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب (23) [ص : 23] .

إنما هو مثل ضربه الله سبحانه له ، ونبهه على خطيئته به .

وورّى عن النساء بذكر النعاج ، كما كنى الشاعر عن جارية بشاة ، وكنى الآخر عن النساء بالقلص .

وروى المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قول الله سبحانه ، حكاية عن موسى صلى الله عليه وسلم : لا تؤاخذني بما نسيت [الكهف : 73] : لم ينس ولكنها من معارض الكلام .

أراد ابن عباس أنه لم يقل : إني نسيت فيكون كاذبا ، ولكنه قال : لا تؤاخذني بما نسيت ، فأوهمه النسيان ، ولم ينس ولم يكذب .

ولهذا قيل : إن في المعارض عن الكذب لمدوحة "2" .

(1) البيت من الكامل ، وهو لعنترة في ديوانه ص 213 ، والأزهية ص 79 ، 103 ،  
والأشباه والنظائر 4/300 ، وخزانة الأدب 6/130 ، 132 ، وشرح شواهد المغني  
1/481 ، وشرح المفصل 4/12 ، ولسان العرب (شوه) ، وبلا نسبة في خزانة الأدب  
1/329 .

(2) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث 5/35 بلفظ : "إن في المعارض  
لمندوحة عن [.....]"

(319/300)

---

ومنه قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم : إِبْنِي سَقِيمٌ [الصفات : 89] أي سأسقم ، لأن  
من كتب عليه الموت ، فلا بد من أن يسقم .  
ومنه قوله تعالى : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) [الزمر : 30] أي : ستموت ويموتون .  
فأوهمهم إبراهيم بمعارض الكلام أنه سقيم عليل ، ولم يكن عليلاً سقيماً ، ولا كاذباً .  
وكذلك ما روي في الحديث من قوله حين خاف على نفسه وامرأته : (إنها أختي) لأن بني  
آدم يرجعون إلى أبوين ، فهم إخوة ، ولأن المؤمنين إخوة ، قال الله عز وجل :  
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [الحجرات : 10] .

وكذلك قوله: قال بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم إن كانوا ينطقون (63) [الأنبياء]:

[63]. أراد: بل فعله الكبير، إن كانوا ينطقون فسئلوهم، فجعل النطق شرطاً للفعل، أي

إن كانوا ينطقون فقد فعله، وهو لا يعقل ولا ينطق.

وقد روي عن النبي، صلى الله عليه وسلم: (إن إبراهيم كذب ثلاث كذبات ما منها

واحدة إلا وهو ياحل بها عن الإسلام) "1".

فسمّاها كذبات، لأنها شاكت "2" الكذب وضارعه.

ولذلك قال بعض أهل السلف لابنه: (يا بني لا تكذب ولا تشبهن بالكذب).

فنهاه عن المعارض، لئلا يجري على اعتيادها، فيتجاوزها إلى الكذب، وأحب أن يكون

حاجزاً من الحلال بينه وبين الحرام.

ومن هذا الباب قول الله عز وجل: وَإِنَّا أَوْأَيُّكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ [سبأ]:

[24]. والمعنى: إنا لضالون أو مهتدون، وإنكم أيضا لضالون، أو

---

الكذب "أي سعة وفسحة، يقال: ندحت الشيء، إذا وسعته، وإنك لفي ندح

ومندوحة من كذا: أي سعة، يعني أن في التعريض بالقول من الاتساع ما يغني الرجل عن

تعمد الكذب. وانظر أيضا البخاري في الأدب باب 116 (باب المعارض المندوحة عن

الكذب).

رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث 4/303 ، بلفظ : في حديث الشفاعة : إن إبراهيم يقول : لست هناكم ، أنا الذي كذبت ثلاث كذبات ، قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : " والله ما كذب إلا وهو يمحله بها عن الإسلام "

أي يدافع ويجادل ، من المحال ، بالكسر ، وهو الكيد ، وقيل : المكر ، وقيل : القوة

والشدة . وميمه أصلية ، ورجل محل : أي ذوكيد .

(2) شاكت : يقال : شاكه الشيء مشاكهة وشكاها : شابهه وشاكله ووافقه وقاربه .

(320/300)

---

مهتدون ، وهو جل وعز يعلم أن رسوله المهدي وأن مخالفه الضال ، وهذا كما تقول للرجل يكذبك ويخالفك : إن أحدنا لكاذب . وأنت تعنيه ، فكذبته من وجهه هو أحسن من

التصريح ، كذلك قال الفراء .

وأما قوله سبحانه : فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ

[يونس : 94] ففيه تأويلان :

أحدهما : أن تكون المخاطبة لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والمراد غيره من

الشكّاء ، لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلهم ، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء

ويريدون غيره ، ولذلك يقول متمثلهم : "إياك أعني واسمعي يا جارة" "1" .  
ومثله قوله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا  
(1) [الأحزاب : 1] .

الخطاب للنبي ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والمراد بالوصية والعظة المؤمنون ، يدلك على ذلك  
أنه قال : وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) [الأحزاب : 2] .  
ولم يقل بما تعمل خيرا .

ومثل هذه الآية قوله : وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً  
يُعْبَدُونَ (45) [الزخرف : 45] ، أي سل من أرسلنا إليه من قبلك رسلا من رسلنا ،  
يعني أهل الكتاب ، فالخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمراد المشركون .  
ومثل هذا قول الكميّ في مدح رسول الله ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "2" :

إلى السّراج المنير أحمد لا يعدلني رغبة ولا رهب

عنه إلى غيره ولورفع النّاس إلى العيون وارقبوا

وقيل : أفرطت ، بل قصدت ولو عنّفتي القائلون أو ثلبوا

لجّ بتفضيلك اللسان ولو أكثر فيك اللجاج واللّجب

أنت المصنّف المحض المهذب في النسب إن نصّ قومك النسب

---

(1) انظر مجمع الأمثال 1/ 50 - 51 ، وجمهرة الأمثال ص 7 .



(2) الأبيات من المنسرح. وهي في الهاشميات ص 58 – 59، وأما لي المرتضى 3/  
166، وشرح شواهد الشافية ص 311، وتفسير الطبري 1/383 – 384،  
والعمدة 2/135 – 136، ومجمع البيان 1/182، والموازنة ص 40.

(321/300)

---

فالخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمراد أهل بيته، فورى عن ذكرهم به، وأراد  
بالعائين واللائمين بني أمية.

وليس يجوز أن يكون هذا للنبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه ليس أحد من المسلمين يسوءه  
مدح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يعتف قائلًا عليه، ومن ذا يساوى به، ويفضل  
عليه، حتى يكثر في مدحه الضجاج واللجب؟.

وإن الشعراء ليمدحون الرجل من أوساط الناس فيفردون ويفرطون فيغنون وما يرفع  
الناس إليهم العيون ولا يرتقبون، فكيف يلام هذا على الاقتصاد في مدح من الإفراط في  
مدحه غير تفریط، ولكنه أراد أهل بيته.

والتأويل الآخر: أن الناس كانوا في عصر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصنافا:  
منهم كافر به مكذب، لا يرى إلا أن ما جاء به الباطل.

وآخر: مؤمن به مصدق يعلم أن ما جاء به الحق .

وشاك في الأمر لا يدري كيف هو ، فهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى .

فخاطب الله سبحانه هذا الصنف من الناس فقال : فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فسل الأكابر من أهل الكتاب والعلماء الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ، مثل : عبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وتميم الداري وأشباههم ، ولم يرد المعاندين منهم فيشهدون على صدقه ، ويجبرونك بنبوته ، وما قدمه الله في الكتب من ذكره فقال : إنا أنزلنا إليك [الزمر : 2] ، وهو يريد غير النبي ، صلى الله عليه وسلم .

(322/300)

---

كما قال في موضع آخر : لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم [الأنبياء : 10] .

وحد وهو يريد الجمع ، كما قال : يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (6) [الانفطار : 6] .

ويا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه (6) [الانشقاق : 6] .

وقال : وإذا مس الإنسان ضرٌّ دعا ربه [الزمر : 8] .

ولم يرد في جميع هذا إنسانا بعينه ، إنما هو لجماعة الناس .

ومثله قول الشاعر "1" :

إذا كنت متخذا صاحباً فلا تصحبني فتي دارمياً

لم يرد بالخطاب رجلاً بعينه ، إنما أراد : من كان متخذاً صاحباً فلا يجعله من دارم .

وهذا ، وإن كان جائزاً حسناً ، فإن المذهب الأول أعجب إليّ ، لأن الكلام اتصل حتى

قال : أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [يونس : 99] .

وهذا لا يجوز أن يكون إلا لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تأويل

مشكل القرآن ص 160 . 169 ﴾

---

(1) البيت من المتقارب ، ولم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي .

(323/300)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله ﴿ حَمَلًا ﴾

المشهور أن الحمل بالفتح ما كان في بطن أو على رأس شجرة ، وبالكسر ما كان على ظهر أو

رأس غير شجرة .

وحكى أبو عبيدٍ في حمل المرأة : حَمَلٌ وَحِمْلٌ .

وحكى يعقوبُ في حمل النَّحْلَةِ : الكسر ، والحمل في الية يجوز أن يُرادَ به المصدرُ فينتصب انتصابه ، وأن يُرادَ به نفسُ الجنين ، وهو الظاهرُ ، فينتصب انتصابُ المفعولِ به ، كقولك : حَمَلْتُ زَيْدًا .

قوله : " فَمَرَّتْ " الجمهور على تشديد الراء ، أي : استمرت به ، أي : قامت وقعدت .

وقيل : هو على القلب أي : فَمَرَّ بها أي : استمرَّ ودام .

وقرأ ابنُ عباسٍ : وأبو العالية ويحيى بن يعمر ، وأيوب : فَمَرَّتْ خفيفه الرَّاءِ ، وفيها تخريجان :

أحدهما : أن أصلها التشديد ، ولكنهم كرهوا التضعيف في حرف مُكرر فتركوه ، وهذه

كقراءة : ﴿ وَقَرْنَ ﴾ [ الأحزاب : 33 ] بفتح القاف إذا جعلناه من القرار .

والثاني : أنه من المرية وهو الشكُّ ، أي : فشكت بسببه أهو حَمَلٌ أم مرض ؟

وقرأ عبدُ الله بن عمرو بن العاص ، والجحدريُّ : فَمَارَتْ بِالْفِ وتخفيف الرَّاءِ ، وفيها أيضاً

وجهان ، أحدهما : أنها من : " مَارَ ، يُمَارُ " إذا جاء وزهب ، ومَارَتِ الرِّيحُ ، أي : جاءت

وزهبَتْ وتصرَّفتُ في كلِّ وجهٍ ، ووزنه حينئذٍ " فَعَلَتْ " والأصلُ " مَوَّرَتْ " ثم قلبت الواو

ألفاً فهو ك : طَافَتْ ، تَطُوفُ .

والثاني: أنها من المرية أيضاً قاله الزمخشريُّ، وعلى هذا فوزنه "فاعلتُ".  
والأصلُ "ماريتُ" كـ "ضاربتُ" فتحركَ حرفُ العلةِ وانفتح ما قبله فقلبَ ألفاً، ثمَّ  
حُذفتُ لالتقاء الساكنين، فهو كـ: بارتُ، ورامتُ.  
وقرأ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ، وابنُ عباسٍ أيضاً والضحاكُ: فاستمرتُ به وهي واضحة.

(324/300)

---

وقرأ أبي فاستمرتُ وفيها الوجهان المتقدمان في "فمارتُ" أي: أنه يجوز أن يكون من "المرية"، والأصل: استمرتُ وأن يكون من "المور"، والأصل: استمورتُ.  
قوله: "فلما أثقلتُ" أي: صارت ذات ثقل ودنت ولادتها كقولهم البين الرجلُ، وأتمرأي:  
صار ذا لبنٍ وتمر.

وقيل: دخلت في الثقل؛ كقولهم: أصبح وأمسى، أي: دخل في الصباح والمساء، وقرئ  
أثقلتُ مبنياً للمفعول.

قوله: "دعوا الله" متعلقٌ بالدعاء محذوفٌ لدلالة الجملة القسمية عليه، أي: دعواهُ في أن  
يؤتيهما ولداً صالحاً.

قوله: "لئن آتيتنا" هذا القسم وجوابه فيه وجهان:

أظهرهما : أنه مفسرٌ لجملة الدعاءِ كأنه قيل :

فما كان دعاؤهما ؟

فقيل : كان دعاؤهما كيت وكيت ؛ ولذلك قلنا إنّ هذه الجملة دالةٌ على متعلق الدعاءِ .

والثاني : أنه معمولٌ لقولٍ مضمّرٍ ، تقديره : فقالا لئن آتيتنا ، ولنكوننَّ جوابُ القسم ،

وجوابُ الشرطِ محذوفٌ على ما تقرر .

وصالحاً فيه قولان أظهرهما : أنه مفعولٌ ثانٍ ، أي : ولداً صالحاً .

والثاني : قال مكّي إنه نعتٌ مصدرٌ محذوفٌ ، أي : إيتاءٌ صالحاً ، وهذا لا حاجةٌ إليه ،

لأنه لا بد من تقدير المؤتى لهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 417 .

418 ﴿ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ .

أخرج النَّسَمَةَ من نفسٍ واحدةٍ وأخلاقهم مختلفةٌ ، وهمهم متباينةٌ ، كما أن الشخص من

نطفةٍ واحدةٍ وأعضاؤه وأجزاءه مختلفةٌ . فمن قَدَرِ على تنويع النطفة المتشاكلَة أجزاؤها

فهو القادر على تنويع أخلاق الخلق الذين أخرجهم من نفسٍ واحدةٍ .

---

قوله جلّ ذكره: ﴿لَيْسُ كُنْهِهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ  
دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ .  
ردّ المثل إلى المثل ، وربط الشكل بالشكل ، ليعلم العالمون أن سكون الخلق مع الحق لا إلى  
الحق ، وكذلك أنسل الخلق من الخلق لا من الحق ، فالحقُّ تعالى قدوس ؛ منه كل حظ للخلق  
خلقاً ، منزّه عن رجوع شيءٍ إلى حقيقة حقاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ  
1 ص 594.595﴾

(326/300)

---

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ  
(190)﴾

"فصل"

قال البقاعي :

وأشار بالفاء إلى قرب الولادة من الدعاء فقال : ﴿ فلما آتاهما ﴾ أي أبويكم آدم وحواء  
﴿ صالحاً ﴾ أي جنس الولد الصالح في تمام الخلق بدناً وقوة وعقلاً ، فكثروا في الأرض

واتشروا في نواحيها ذكورا وإناثاً ﴿ جعلاً ﴾ أي النوعان من أولادهما الذكور والإناث ،  
لأن " صالحاً " صفة لولد وهو للجنس فيشمل الذكر والأنثى والقليل والكثير ، فكأنه قيل :  
فلما آتاها أولاداً صالحى الخلقه من الذكور والإناث جعل النوعان ﴿ له شركاء ﴾ أي  
بعضهم أصناماً وبعضهم ناراً وبعضهم شمساً وبعضهم غير ذلك ، هذا على قراءة الجماعة  
، وعلى قراءة نافع وأبي بكر عن عاصم بكسر الشين وإسكان الراء والتنوين التقدير :  
ذوي شرك ﴿ فيما آتاها ﴾ أي من القوى بالعبادة والرزق بالندور ونحوها .  
ولما لم يضر المشركون بالإشراك إلا أنفسهم ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فتعالى الله ﴾ أي بما  
له من صفات الكمال التي ليست لغيره تعالياً كثيراً ، والدليل على إرادة النوعين قوله :  
﴿ عما يشركون ﴾ بالجمع ، وكذا ما بعده من عيب عبادة الأصنام . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ نظم الدرر ح 3 ص 168.169 ﴾

(327/300)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ فلما آتاها ﴾ الله ﴿ صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها ﴾ والكلام في تفسيره قد



مر بالاستقصاء قرأ ابن كثير وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم، في رواية حفص عنه (شركاء) بصيغة الجمع وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر (عنه) بكسر الشين وتنوين الكاف ومعناه جعلاله نظراء ذوي شرك وهم الشركاء، أو يقال معناه أحد ثا لله إشراكاً في الولد ومن قرأ ﴿شركاء﴾ فحجته قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا﴾ [الرعد: 16] وأراد بالشركاء في هذه الآية إبليس لأن من أطاع إبليس فقد أطاع جميع الشياطين، هذا إذا حملنا هذه الآية على القصة المشهورة، أما إذا لم نقل به فلا حاجة إلى التأويل والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 71﴾

وقال الجصاص:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال الحسن وقتادة: الضمير في جعلاً عائداً إلى النفس وزوجه من ولد آدم لا إلى آدم وحواء.

وقال غيرهما: راجع إلى الولد الصالح، بمعنى أنه كان معافى في بدنه وذلك صلاح في خلقه لا في دينه ورد الضمير إلى اثنين لأن حواء كانت تلد في بطن واحد ذكراً وأنثى.

انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ﴾

وقال السمرقندي :

قوله : ﴿ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا ﴾ .

يعني : أعطاهما ﴿ صالحا ﴾ ﴿ خلقا آدمياً سوياً ﴾ ﴿ جعلاً له شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ﴾ قرأ  
نافع وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ جعلاً له شُرَكَاءَ ﴾ بكسر الشين وجزم الراء وقرأ  
الباقون ﴿ شُرَكَاءَ ﴾ بالضم ونصب الراء .

فمن قرأ بالكسر فهو على معنى التسمية ، وهو اسم يقوم مقام المصدر ومن قرأ بالضم  
فمعناه : ﴿ جعلاً له شُرَكَاءَ ﴾ يعني : الشريك في الاسم وإنما ذكر الشركاء وأراد به  
الشريك يعني : الشيطان فإن قيل : من قرأ بالكسر كان من حق الكلام أن يقول جعلاً لغيره  
شركاً ، لأنهما لا ينكران أن الأصل لله تعالى .  
وإنما جعلاً لغيره شركاً أي نصيباً .

قيل له : معناه ﴿ جعلاً له شُرَكَاءَ ﴾ يعني : ذا شرك .

فذكر الشرك والمراد به شركه كقوله تعالى : ﴿ أَرْسَلْنَا مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ

لحافظون ﴾ [ يوسف : 12 ] أي أهل القرية فضرب الله تعالى بهذا مثلاً للكفار يعني : كما  
أن آدم وحواء أعطاهما ورزقهما فاشركوا في عبادته .

ثم نزه نفسه عن الشرك فقال تعالى : ﴿ فتعالى الله عما يُشْرِكُونَ ﴾ أي هو أعلى وأجل من

أن يوصف بالشرك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 1 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾

أي ولداً بشراً سوياً حياً آدمياً ﴿ جَعَلَالَهُ شُرَكَاءَ ﴾ .

قرأ ابن عباس وسعيد بن جبير وأبان بن ثعلب وعاصم وعكرمة وأهل المدينة شركاء بكسر الشين والتنوين أي شركه .

قال أبو عبيدة : أي خطأ ونصيياً من غيره ، وقرأ الباقون شركاء مضمومة الشين ممدودة على جمع شريك أخبر عن الواحد بلفظ الجمع ، لقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ [ آل عمران : 173 ] مفرداً ، تم الكلام ها هنا ثم قال : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يعني أهل مكة .

واختلف العلماء في تأويل الشرك المضاف إلى آدم وحواء فقال المفسرون : كان شركاء في التسمية والصفة لا في العبادة والربوبية .

وقال أهل المعاني : أنهما لم يذهبا إلى أن الحرث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحرث لكنهما قصدوا إلى أن الحرث سبب نجاة الولد وسلامة أمه فسمياه ، كما [ يُسمى ] رب

المنزل ، وكما يسمي الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له لا على أن الضيف ربّه .

كما قال حاتم :

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً . . . وما قي إلا تلك من شيمة العبد

وقال قوم من أهل العلم : إن هذا راجع إلى المشركين من ذرية آدم وإن معناه جعل أولادهما له

شركاء فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كقوله تعالى ﴿ وَسُئِلَ الْقُرَيْةُ ﴾ [يوسف : 82

] وكما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء في تفريقهم بفعل آبائهم ، فقال لليهود الذين كانوا في عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اتخذتم العجل من بعده . وقال ﴿ وَإِذِ قَتَلْتُمْ نَفْسًا

فأدارأتم فيها ﴾ [البقرة : 72] . وقال سبحانه : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾ [البقرة :

91] ونحوها ، ويدل عليه ما روى معمر عن الحسن قال : عني بهذا من أشرك من ذرية

آدم ولم يكن عنى آدم .

وروى قتادة عنه قال : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا .

(330/300)

---

وقال ابن كيسان : هم الكفار جعلوا لله شركاء عبد العزى وعبد مناة .

وقال عكرمة : لم يخص بها آدم ولكن جعلها عامة لجميع بني آدم من بعد آدم .

قال الحسين بن الفضل : وهذا حجب إلى أهل النظر لما في القول الأول من إصاق العظام  
بني الله آدم (عليه السلام) ويدل عليه جمعه في الخطاب حيث قال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ  
مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ، ثم قال : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ انصرف من ذلك الخطاب إلى الخبر  
يعني فلما تغشى الرجل منكم امرأته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 ص ﴾

(331/300)

وقال الماوردي :

﴿ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَالَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ﴾

وذلك أن إبليس قال لحواء سَمِيه : عبد الحارث ، يعني نفسه لأنه اسمه في السماء كان " الحارث " فسمته عبد الله فمات ، ثم حملت ولداً ثانياً فقال لها ذلك فلم تقبل ، فمات ، ثم حملت ثالثاً فقال لها ولآدم ، أتظنان الله تارك عبده عند كما ؟ لا والله ليذهبن به كما ذهب بالآخرين فسمياه بذلك فعاش ، فهذا معنى قوله : ﴿ جَعَلَالَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ﴾ أي في الاسم ، فروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : خدعهما مرتين خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض .

وقال الحسن وقتادة : إن المكثى عنه بقوله : ﴿ جَعَلَالَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ﴾ ابن آدم

وزوجته ، وليس براجع إلى آدم وحواء . انتهى انتهى . اه ﴿ النكت والعيون ح 2 ص



(332/300)

وقال ابن عطية :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) ﴾

يقال إن الآية المتقدمة هي في آدم وحواء وإن الضمير في قوله ﴿ آتَاهُمَا ﴾ عائد عليهما ، قال إن الشرك الذي جعلاه هو في الطاعة ، أي أطاعا إبليس في التسمية بعبد الحارث كما كانا في غير ذلك مطيعين لله ، وأسند الطبري في ذلك حديثاً من طريق سمرة بن جندب ، ويحتمل أن يكون الشرك في أن جعلنا عبوديته بالاسم لغيره ، وقال الطبري والسدي في قوله تعالى : ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ إنه كلام منفصل ليس من الأول ، وإن آدم وحواء تم في قوله ﴿ فلما آتاهم ﴾ ، وإن هذا كلام يراد به مشركو العرب .

(333/300)

قال القاضي أبو محمد : وهذا تحكم لا يساعده اللفظ ، ويتجه أن يقال تعالى الله عن ذلك  
اليسير المتوهم من الشرك في عبودية الاسم ، ويبقى الكلام في جهة أبونا آدم وحواء عليهما  
السلام ، وجاء الضمير في ﴿ يشركون ﴾ ضمير جمع لأن إبليس مدبر معهما تسمية الولد  
عبد الحارث ، ومن قال إن الآية المتقدمة إنما الغرض منها تعدد النعمة في الأزواج وفي  
تسهيل النسل والولادة ثم ذكر سوء فعل المشركين بعقب ذلك ، قال في الآية الأخيرة إنها  
على ذلك الأسلوب وإن قوله ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ المراد بالضمير فيه المشركين ،  
والمعنى في هذه الآية فلما أتى الله هذين الإنسانين صالحاً أي سليماً ذهباً به إلى الكفر  
وجعل الله فيه شركاً وأخرجاه عن الفطرة ، ولفظة الشرك تقتضي نصيبين ، فالمعنى :  
وجعل الله فيه ذا شرك لأن إبليس أو أصنام المشركين هي المفعولة ، والأصل أن الكل لله  
تعالى وبهذا حل الزجاج اعتراض من قال ينبغي أن يكون الكلام " جعل لاغيره شركاً " وقرأ  
نافع وعاصم في رواية أبي بكر " شركاً " بكسر الشين وسكون الراء على المصدر ، وهي  
قراءة ابن عباس وأبي جعفر وشيبة وعكرمة ومجاهد وعاصم وأبان بن تغلب ، وقرأ ابن  
كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم " شركاء " على الجمع ، وهي بينة  
على هذا التأويل الأخير وقلقه على قول من يقول : إن الآية الأولى في آدم وحواء ، وفي  
مصحف أبي ابن كعب " فلما آتاها صالحاً أشركا فيه " ، وذكر الطبري في قصص حواء  
وآدم وإبليس في التسمية بعيد الحارث وفي صورة مخاطبتهم أشياء طويلة لا يقتضي

الاختصار ذكرها .

وقرأ نافع والحسن وأبو جعفر وأبو عمرو وعاصم " عما يشركون أشركون " بالياء من تحت  
فيهما ، وقرأ أبو عبد الرحمن " عما تشركون " بالتاء من فوق " أتشركون ما لا يخلق " الآية .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ج 2 ص ﴾

(334/300)

وقال ابن الجوزي :

قوله : ﴿ فلما آتاها صالحاً جعلاله شركاء ﴾

قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم :

"شركاء" بضم الشين والمد ، جمع شريك .

وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : "شركاً" مكسورة الشين على المصدر ، لا على الجمع .

قال أبو علي : من قرأ "شركاً" حذف المضاف ، كأنه أراد : جعلاله ذا شرك ، وذوي

شريك ؛ فيكون المعنى : جعلالغيره شركاً ، لأنه إذا كان التقدير : جعلاله ذوي شرك ،

فالمعنى : جعلالغيره شركاً ، وهذه القراءة في المعنى كقراءة من قرأ "شركاء" .

وقال غيره : معنى "شركاء" شريكاً ، فأوقع الجمع موقع الواحد كقوله : ﴿ الذين قال لهم



الناس إن الناس قد جمعوا لكم ﴿ [آل عمران: 173] والمراد بالشريك: إبليس،

لأنهما أطاعاه في الاسم، فكان الشرك في الطاعة، لا في العبادة؛ ولم.

يقصد أن الحارث ربهما، لكن قصداً أنه سبب نجاة ولدهما؛ وقد يُطلق العبد على من

ليس بمملوك.

قال الشاعر:

وإني لعبدُ الضيف ما دَامَ ثاوياً . . .

وما في الإلتك من شِيمَةِ العبدِ

وقال مجاهد: كان لا يعيش لآدم ولد، فقال الشيطان: إذا وُلد لكما ولد فسمياه عبد

الحارث، فأطاعاه في الاسم، فذلك قوله: ﴿ جعلاله شركاء فيما آتاها ﴾ هذا قول

الجمهور، وفيه قول ثان، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما أشرك آدم، إن أول

الآية لشكر، وآخرها مثل ضربه الله لمن يعبده في قوله: ﴿ جعلاله شركاء فيما آتاها

﴾.

وروى قتادة عن الحسن قال: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهو دؤهم

ونصروهم.

وروي عن الحسن، وقتادة قالاً: الضمير في قوله: ﴿ جعلاله شركاء ﴾ عائد إلى النفس

وزوجه من ولد آدم، لا إلى آدم وحواء.

وقيل: الضمير راجع إلى الولد الصالح، وهو السليم الخلق، فالمعنى: جعل له ذلك الولدُ  
شركاء.

وإنما قيل: ﴿جعلاً﴾ لأن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى.

(335/300)

---

قال ابن الأنباري: الذين جعلوا له شركاء اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين هم  
أولاد آدم وحواء.

فتأويل الآية: فلما آتاها صالحاً جعل أولادَهُما له شركاء، فحذف الأولاد وأقامهما  
مقامهم كما قال: ﴿وسأل القرية﴾ [يوسف: 82].

وذهب السدي إلى أن قوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ في مشركي العرب خاصة،  
وأنها مفصولة عن قصة آدم وحواء. انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير ح 3 ص﴾

(336/300)

---

وقال القرطبي :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾

واختلف العلماء في تأويل الشرك المضاف إلى آدم وحواء ، وهي :

الثالثة قال المفسرون : كان شريكاً في التسمية والصفة ، لا في العبادة والربوبية .

وقال أهل المعاني : إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدتهما عبد الحارث ،

لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد فسمياه به كما يسمي الرجل نفسه عبد

ضيفه على جهة الخضوع له ، لا على أن الضيف ربه ؛ كما قال حاتم :

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً . . .

وما في الإتيك من شيمة العبد

وقال قوم : إن هذا راجع إلى جنس الأدميين والتبيين عن حال المشركين من ذرية آدم عليه

السلام ، وهو الذي يُعوّل عليه .

فقوله : ﴿ جَعَلَهُ ﴾ يعني الذكر والأنثى الكافرين ، ويُعنى به الجنسان .

ودلّ على هذا ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ولم يقل يشركان .

وهذا قول حسن .

وقيل : المعنى "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هِيئَةٍ وَاحِدَةٍ وَشَكْلٍ وَاحِدٍ" وَجَعَلَ

مِنْهَا زَوْجَهَا "أي من جنسها" فَلَمَّا تَعَشَّاهَا "يعني الجنسين .

وعلى هذا القول لا يكون لآدم وحواء ذكر في الآية؛ فإذا آتاها الولد صالحاً سليماً سويّاً  
كما أراداه صرفاه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين.

قال صلى الله عليه وسلم: " ما من مولود إلا يولد على الفطرة في رواية على هذه الملة أبواه  
يهودانه وينصرانه ويمجسانه " قال عكرمة: لم يخلص بها آدم، ولكن جعلها عامة لجميع  
الخلق بعد آدم.

وقال الحسين بن الفضل: وهذا أعجب إلى أهل النظر؛ لما في القول الأول من المضاف من  
العظائم بنبي الله آدم.

وقرأ أهل المدينة وعاصم "شركاً" على التوحيد .  
وأبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع، على مثل فعلاء، جمع شريك .

(337/300)

---

وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى، وهي صحيحة على حذف المضاف، أي جعلاله  
ذا شرك؛ مثل "وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ" فيرجع المعنى إلى أنهم جعلوا له شركاء .  
الرابعة ودلت الآية على أن الحمل مرض من الأمراض .

روى ابن القاسم ويحيى عن مالك قال: أوّل الحمل يُسرُّ وسرور، وآخره مرض من

## الأمراض .

وهذا الذي قاله مالك : "إنه مرض من الأمراض" يعطيه ظاهر قوله : ﴿ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾ وهذه الحالة مشاهدة في الحَمَل ، ولأجل عظم الأمر وشدة الخطب جعل موتها شهادة ؛ كما ورد في الحديث : وإذا ثبت هذا من ظاهر الآية فحال الحامل حال المريض في أفعاله . ولا خلاف بين علماء الأمصار أن فعل المريض فيما يَهَب ويُحَابِي في ثُلثه . وقال أبو حنيفة والشافعي : إنما يكون ذلك في الحامل مجال الطَّلَق ، فأما قبل ذلك فلا . واحتجوا بأن الحمل عادةٌ والغالب فيه السلامة .

قلنا : كذلك أكثر الأمراض غالبه السلامة ، وقد يموت من لم يمرض .

الخامسة قال مالك : إذا مضت للحامل ستة أشهر من يوم حملت لم يجز لها قضاء في مالها إلا في الثلث .

ومن طلق زوجته وهي حامل طلاقاً بائناً فلما أتى عليها ستة أشهر فأراد ارتجاعها لم يكن له ذلك ؛ لأنها مريضة ونكاح المريضة لا يصح .

السادسة قال يحيى : وسمعت مالكا يقول في الرجل يحضر القتال : إنه إذا زحف في الصف للقتال لم يجز له أن يقضي في ماله شيئاً إلا في الثلث ، وإنه بمنزلة الحامل والمريض المخوف عليه ما كان بتلك الحال .

ويلتحق بهذا المحبوس للقتل في قصاص .

وخالف في هذا أبو حنيفة والشافعي وغيرهما .

قال ابن العربي : وإذا استوعبت النظر لم ترتب في أن المحبوس على القتل أشدّ حالاً من المريض ، وإنكار ذلك غفلة في النظر ؛ فإن سبب الموت موجود عندهما ، كما أن المرض سبب الموت ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ .

(338/300)

وقال رؤيشد الطائي :

يا أيها الراكب المزجي مطيته . . .

سائل بني أسدٍ ما هذه الصوّتُ

وقل لهم بادروا بالعدر والتمسوا . . .

قولاً يبرئكم إني أنا الموتُ

ومما يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ

الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب : 10] .

فكيف يقول الشافعي وأبو حنيفة : الحال الشديدة إنما هي المبارزة ؛ وقد أخبر الله عز

وجل من مقاومة العدو وتداني الفريقين بهذه الحالة العظمى من بلوغ القلوب الحناجر ، ومن سوء الظنون بالله ، ومن زلزلة القلوب واضطرابها ؛ هل هذه حالة ترى على المريض أم لا ؟ هذا ما لا يشك فيه منصف ، وهذا لمن ثبت في اعتقاده ، وجاهد في الله حق جهاده ، وشاهد الرسول وآياته ؛ فكيف بنا ؟

السابعة وقد اختلف علماؤنا في ركب البحر وقت الهول ؛ هل حكمه حكم الصحيح أو الحامل .

فقال ابن القاسم : حكمه حكم الصحيح .

وقال ابن وهب وأشهب : حكمه حكم الحامل إذا بلغت ستة أشهر .

قال القاضي أبو محمد : وقولهما أقيس ؛ لأنها حالة خوف على النفس كما يقال الحمل .

قال ابن العربي : وابن القاسم لم يركب البحر ، ولا رأى دوداً على عود .

ومن أراد أن يوقن بالله أنه الفاعل وحده لا فاعل معه ، وأن الأسباب ضعيفة لا تعلق لموقن

بها ، ويتحقق التوكل والتفويض فليركب البحر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7

ص ﴿

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلاه شركاء فيما آتاهما ﴾ قال ابن عباس : أشركاه في طاعته في غير عبادة ولم يشركا بالله ولكن أطاعاه .

وقال قتادة : أشركا في الاسم ولم يشركا في العبادة .

وقال عكرمة ما أشرك آدم ولا حواء وكان لا يعيش لهما ولد فأتاهما الشيطان فقال إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث فهو قوله تعالى جعلاه شركاء فيما آتاهما قرئ شركا بكسر الشين مع التنوين ومعناه شركة وقال أبو عبيدة معناه حظاً ونصيباً وقرئ شركاء بضم الشين مع المد جمع شريك يعني إبليس عبر عن الواحد بلفظ الجمع يعني جعلاه شريكاً إذ سميا ولدهما عبد الحارث .

قال العلماء : ولم يكن ذلك شركاً في العبادة ولا أن الحارث رب لهما لأن آدم كان نبياً معصوماً من الشرك ولكن قصد بتسميتهما الولد بعبد الحارث ان الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامته وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك كما قال

الشاعر :

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً . . .

أخبر عن نفسه أنه عبد الضيف ما أقام عنده مع بقاء الحرية عليه وإنما أراد بالعبودية خدمة الضيف والقيام بواجب حقوقه كما يقوم العبد بواجب حقوق سيده .



وقد يطلب اسم الرب بغير الألف واللام على غير الله كقول يوسف لعزير مصر ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أراد به التربية ولم يرد به أنه ربه ومعبوده فكذلك هنا وإنما أخبر عن آدم عليه السلام بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ جعلناه شركاء فيما آتاهما ﴾ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ولأن منصب النبوة أشرف المناصب وأعلاها فعاتبه الله على ذلك لأنه نظر إلى السبب ولم ينظر إلى المسبب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

(340/300)

---

قال العلماء : وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله فيما آتاهما ثم ابتدأ في الخير عن الكفار بقوله تعالى: ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ نزه نفسه سبحانه وتعالى عن إشراك المشركين من أهل مكة وغيرهم وهذا على العموم ، ولو أراد آدم وحواء لقال سبحانه وتعالى فتعالى الله عما يشركان على التثنية لا على الجمع وقال بعض أهل المعاني : ولو أراد به ما سبق في معنى الآية فمستقيم أيضاً من حيث إنه كان الأولى بهما أن لا يفعل ما أتيا به من الإشراك في التسمية فكان الأولى أن يسمياه عبد الله لا عبد الحارث وفي معنى الآية قول آخر وهو أنه راجع إلى جميع المشركين من ذرية آدم وهو قول الحسن وعكرمة ومعناه وجعل أولادهما له شركاء فحذف ذكر الأولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء بقوله: ﴿

ثم اتخذتم العجل ﴿﴾ واذ قتلتم نفساً ﴿﴾ فغير به اليهود الذين كانوا موجودين في زمن  
النبي (صلى الله عليه وسلم) وكان ذلك من فعل آبائهم وقال عكرمة: خاطب كل واحد  
من الخلق بقوله: ﴿﴾ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴿﴾ أي خلق كل واحد من أبيه  
وجعل منها زوجها أي وجعل من جنسها زوجها آدمية مثله وهذا قول حسن إلا أن القول  
وورد الحديث بذلك عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقيل هم اليهود والنصارى رزقهم  
الله أولاداً فهودوهم ونصروهم وقال ابن كيسان: هم الكفار سموا أولادهم بعبد العزى  
وعبد شمس وعبد الدار ونحو ذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿﴾ تفسير الخازن ج 2 ص ﴿﴾

(341/300)

وقال أبو حيان:

﴿﴾ فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء فيما آتاها ﴿﴾

من جعل الآية في آدم وحواء جعل الضمائر والإخبار لهما وذكروا في ذلك محاورات جرت

بين إبليس وآدم وحواء لم تثبت في قرآن ولا حديث صحيح فأطرح ذكرها، وقال

الزمخشري: والضمير في ﴿﴾ آتينا ﴿﴾ و ﴿﴾ لنكونن ﴿﴾ لهما ولكل من تناسل من ذريتهما

﴿﴾ فلما آتاها ﴿﴾ ما طلبا من الولد الصالح السوي ﴿﴾ جعل له شركاء ﴿﴾ أي جعل

أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وكذلك فيما آتاها أي  
أتى أولادهما وقد دلّ على ذلك بقوله تعالى ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ حيث جمع  
الضمير ، وآدم وحواء بريئان من الشرك ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله بتسمية أولادهم  
بعبد العزى وعبد مناف وعبد شمس وما أشبه ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد  
الرحيم انتهى ، وفي كلامه تفكيك للكلام عن سياقه وغيره ممن جعل الكلام لآدم وحواء  
جعل الشرك تسميتهما الولد الثالث عبد الحرث إذ كان قد مات لهما ولدان قبله كانا سميّا  
كل واحد منهما عبد الله فأشار عليهما إبليس في أن يسميا هذا الثالث عبد الحرث  
فسمياه به حرصاً على حياته فالشرك الذي جعل الله هو في التسمية فقط ويكون الضمير  
في ﴿ يشركون ﴾ عائداً على آدم وحواء وإبليس لأنه مدبّر معهما تسمية الولد عبد  
الحرث ، وقيل ﴿ جعلاً ﴾ أي جعل أحدهما يعني حواء وأما من جعل الخطاب للناس  
وليس المراد في الآية بالنفس وزوجها آدم وحواء أو جعل الخطاب لمشركي العرب أو لقريش  
على ما تقدم ذكره فيتسق الكلام اتساقاً حسناً من غير تكلف تأويل ولا تفكيك .

(342/300)

---

وقال السدّي والطبري: ثم أخبر آدم وحواء في قوله فيما آتاها وقوله ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ كلام منفصل يراد به مشركو العرب، قال ابن عطية: وهذا تحكّم لا يساعده اللفظ انتهى، والضمير في ﴿ له ﴾ عائد على الله ومن زعم أنه عائد على إبليس فقوله بعيد لأنه لم يجز له ذكر وكذا يبعد قول من جعله عائداً على الولد الصالح وفسر الشرك بالنصيب من الرزق في الدنيا وكانا قبله يأكلان ويشربان وحدهما ثم استأنف فقال: ﴿ فتعالى الله عن ما يشركون ﴾ يعني الكفار، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعكرمة ومجاهد وإبان بن ثعلب ونافع وأبو بكر عن عاصم شركاً على المصدر وهو على حذف مضاف أي ذا شرك ويمكن أن يكون أطلق الشرك على الشريك كقوله: زيد عدل، قال الزمخشري: أو أحداً لله إشراكاً في الولد انتهى، وقرأ الأخوان وابن كثير وأبو عمر وشركاء على الجمع ويبعد توجيه الآية أنها في آدم وحواء على هذه القراءة وتظهر باقي الأقوال عليها، وفي مصحف أبي ﴿ فلما آتاها صالحاً ﴾ أشركا فيه، وقرأ السلمي ﴿ عما تشركون ﴾ بالتاء التفاتاً من الغيبة للخطاب وكان الضمير بالواو وانتقالاً من التثنية للجمع وتقدم توجيه ضمير الجمع على من يعود. انتهى انتهى. ١٠ هـ ﴿ البحر المحيط ح 4

ص ﴿

وقال ابن كثير:

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَاهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ذكر المفسرون هاهنا آثارا وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ، ثم تتبع ذلك بيان الصحيح في ذلك ، إن شاء الله وبه الثقة .

قال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبراهيم ، حدثنا قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ولما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد - فقال : سميه عبد الحارث ؛ فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث ، فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره " .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن محمد بن بشار ، بُنْدَار ، عن عبد الصمد بن عبد الوارث ، به .

ورواه الترمذي في تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى ، عن عبد الصمد ، به وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، عن قتادة ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ، ولم يرفعه .

ورواه الحاكم في مستدركه ، من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره ، عن أبي زُرْعَةَ الرازي ، عن هلال بن فياض ،  
عن عمر بن إبراهيم ، به مرفوعًا .

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث شاذ بن فياض ، عن عمر بن  
إبراهيم ، به مرفوعًا (1)

قلت : "وشاذ" [هذا] هو : هلال ، وشاذ لقبه . والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة  
أوجه :

أحدها : أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري ، وقد وثقه ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم  
الرازي : لا يحتج به . ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر ، عن أبيه ، عن الحسن ،  
عن سمرة مرفوعًا فالله أعلم .

---

(1) المسند (11/5) وتفسير الطبري (309/13) ، وسنن الترمذي برقم  
(3077) ، والمستدرک (545/2) .

[\(344/300\)](#)

---

الثاني : أنه قد روي من قول سمرة نفسه ، ليس مرفوعًا ، كما قال ابن جرير : حدثنا ابن  
عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر ، عن أبيه . وحدثنا ابن عليّة عن سليمان التيمي ، عن أبي

العلاء بن الشخير، عن سمرة بن جندب، قال: سمي آدم ابنه "عبد الحارث".  
الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً، لما  
عدل عنه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: ﴿  
جَعَلَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم (1)  
حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عنى بها  
ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده - يعني: [قوله] ﴿جَعَلَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ (2)

---

(1) تفسير الطبري (314/13).

(2) تفسير الطبري (314/13).

(345/300)

---

وحدثنا بشر حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود  
والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهوّدوا ونصّروا (1)  
وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن، رحمه الله، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن  
التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، لما عدل عنه هو ولا غيره ، ولا سيما مع تقواه لله وورعه ، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب ، من آمن منهم ، مثل : كعب أو وهب بن مُنَبِّه وغيرهما ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله [تعالى] إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع ، والله أعلم .

فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار ، عن داود بن الحُصَيْن ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كانت حواء تلد لآدم ، عليه السلام ، أولادا فيعبدهم لله ويُسميه : "عبد الله" و"عبيد الله" ، ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس وآدم فقال : إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش قال : فولدت له رجلا فسماه "عبد الحارث" ، ففيه أنزل الله ، يقول الله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ إلى آخر الآية .

وقال العوفي ، عن ابن عباس قوله في آدم : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ ﴿ شَكَّتْ أَحْبَلَتْ أَمْ لَا ؟ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَثَقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنْكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ فأتاهما الشيطان ، فقال : هل تدریان ما يولد لكما ؟ أم هل تدریان ما يكون ؟ أبهيمه يكون أم لا ؟ وزين لهما الباطل ؛ إنه غوي مبین ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا ، فقال لهما الشيطان : إنكما إن لم تسمياه بي ، لم يخرج سويا ، ومات كما مات الأولان فسميا ولدهما "عبد الحارث" ، فذلك قول الله [تعالى] ﴿ فَلَمَّا ﴾



آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴿ الآية .

(1) تفسير الطبري (315/13) .

(346/300)

وقال عبد الله بن المبارك ، عن شريك ، عن خصيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ قال : قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ آدم ﴿ حَمَلَتْ [ حَمْلًا خَفِيًّا ] ﴾ فأتاهما إبليس - لعنه الله - فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعنني أو لأجعلن قرني له أيل فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ولأفعلن - يخوفهما - فسمياه "عبد الحارث" فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتا ، ثم حملت الثانية ، فأتاهما أيضا فقال : أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت ، لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتا ، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضا ، فذكر لهما ، فأدرکہما حبُّ الولد ، فسمياه "عبد الحارث" ، فذلك قوله : ﴿ جَعَلَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه ، كمجاهد ، وسعيد بن جبير ،

وعكرمة. ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم:

(347/300)

---

حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد - يعني ابن بشير - عن عقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان، فقال لها: أتطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سمي "عبد الحارث"، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل. ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة، فهيبهما فأطاعا.

وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم"، ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله. ومنها ما علمنا كذبه، بما دلَّ على خلافه من الكتاب

والسنة أيضاً . ومنها : ما هو مسكوت عنه ، فهو المأذون في روايته ، بقوله ، عليه السلام :  
"حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" وهو الذي لا يصدق ولا يكذب ، لقوله : "فلا  
تصدقوهم ولا تكذبوهم" . وهذا الأثر : [هل] هو من القسم الثاني أو الثالث ؟ فيه نظر .  
فأما من حدث به من صحابي أو تابعي ، فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى  
مذهب الحسن البصري ، رحمه الله ، في هذا [والله أعلم] وأنه ليس المراد من هذا السياق  
آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ؛ ولهذا قال الله : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا  
يُشْرِكُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير ح 3 ص 525 . 528 ﴾

(348/300)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا ﴾

لما آتاهما ما طلباه أصالةً واستتباعاً من الولد وولد الولد ما تناسلوا فقوله تعالى : ﴿ جَعَلَا

﴿ أَي جَعَلَ أَوْلَادَهُمَا ﴾ لَهُ ﴾ تعالى ﴿ شُرَكَاء ﴾ على حذف المضاف وإقامة

المضاف إليه مقامه ثقةً بوضوح الأمر وتعويلاً على ما يعقبه من البيان وكذا الحال في قوله

تعالى : ﴿ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ﴾ أي فيما آتى أولادهما من الأولاد حيث سمّوهم بعبد مناف

وعبد العزى ونحو ذلك وتخصيص إشرائهم هذا بالذكر في مقام التوبيخ مع أن إشرائهم بالعبادة أغلظ منه جنابة وأقدم وقوعاً لما أن مساق النظم الكريم لبيان إخلالهم بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح ، وأول كفرهم في حقه إنما هو تسميتهم إياه بما ذكر ، وقرىء شركاً أي شركة أو ذوي شركة أي شركاء .

(349/300)

إن قيل ما ذكر من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه إنما يصار إليه فيما يكون للفعل ملابسة ما بالمضاف إليه أيضاً بسرأيته إليه حقيقة أو حكماً وتتضمن نسبتة إليه صورة مزية يقتضيها المقام كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ الآية ، فإن الإنجاء منهم مع أن تعلقه حقيقة ليس إلا بأسلاف اليهود قد نسب إلى أخلافهم بحكم سرأيته إليهم توفية لمقام الامتنان حقه ، وكذا في قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾ الآية ، فإن القتل حقيقة مع كونه من جنابة آبائهم قد أسند إليهم بحكم رضاهم به أداءً لحق مقام التوبيخ والتبكي ، ولا ريب في أنهما عليهما الصلاة والسلام بريئان من سرأية الجعل المذكور إليهما بوجه من الوجوه ، فما وجه إسناده إليهما صورة ؟ قلنا : وجهه الإيدان بتركهما الأولى حيث أقدمنا على نظم أولادهما في سلك أنفسهما والتزما شكرهم في ضمن

شكرهما وأقسما على ذلك قبل تعرف أحوالهم ببيان أن إخالهم بالشكر الذي وعداه  
وعداً مؤكداً باليمين بمنزلة إخالهما بالذات في استيجاب الحنث والخلف مع ما فيه من  
الاشعار بتضاعف جنائهم ببيان أنهم يجعلهم المذكور أو قعوهما في ورطة الحنث والخلف  
وجعلوهما كأنهما باشرهما بالذات فجمعوا بين الجنابة على الله تعالى والجنابة عليهما  
السلام.

(350/300)

﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ تنزيه فيه معنى التعجب ، والفاء لترتيبه على ما فصل من  
أحكام قدرته تعالى وآثار نعمته الزاجرة عن الشرك الداعية إلى التوحيد ، وصيغة الجمع لما  
أشير إليه من تعين الفاعل وتنزيه آدم وحواء عن ذلك و ( ما ) في ( عما ) إما مصدرية أي  
عن إشراكهم أو موصولة أو موصوفة أي عما يشركونه به سبحانه ، والمراد بإشراكهم إما  
تسميتهم المذكورة أو مطلق إشراكهم المنتظم لها انتظاماً أولاً وقرىء تشركون بقاء الخطاب  
بطريق الالتفات ، وقيل : الخطاب لآل قصي من قريش ، والمراد بالنفس الواحدة نفس  
قصي فإنهم خلقوا منه وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله تعالى ولداً  
صالحاً فأعطاهما أربعة بنين فسماهم عبد مناف وعبد شمس وعبد قصي وعبد الدار

، وضمير يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما .

وأما ما قيل : من أنه لما حملت حواء أتاها إبليسُ في صورة رجل فقال لها : ما يدريك ما في  
بطنك لعله بهيمةٌ أو كلبٌ أو خنزيرٌ وما يدريك من أين يخرج فخافت من ذلك فذكرته لآدمَ  
فأهتُمها ذلك ثم عاد إليها وقال : إني من الله تعالى بمنزلةٍ فإن دعوتُهُ أن يجعله خلقاً مثلكَ  
ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحارث وكان اسمه حارثاً في الملائكة فقبلت فلما  
ولدتُه سمته عبد الحارثِ فمما لا تعويل عليه ، كيف لا وأنه عليه الصلاة والسلام كان علماً  
في علم الأسماءِ والمسمياتِ فعدمُ علمه بإبليسَ واسمه واتباعه إياه في مثل هذا الشأنِ  
الخطير أمرٌ قريبٌ من المحال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي  
السعود ح 3 ص ﴾

(351/300)

وقال الألويسي :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾

وهو ما سألاه أصالة من النسل أو ما طلباه أصالة واستتباعاً من الولد وولد الولد ما  
تناسلوا ﴿ جَعَلَا ﴾ أي النسل الصالح السوي ، وثنى الضمير باعتبار أن ذلك النسل

صنفان ذكر وأثنى وقد جاء أن حواء كانت تلد في كل بطن كذلك ﴿ لَهُ ﴾ أي لله سبحانه وتعالى ﴿ شُرَكَاء ﴾ من الأصنام والأوصان ﴿ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ﴾ من الأولاد حيث أضافوا ذلك إليهم ، والتعبير ﴿ بِمَا ﴾ لأن هذه الإضافة عند الولادة والأولاد إذ ذاك ملحقون بما لا يعقل .

وقيل : المراد بالموصول ما يعم سائر النعم فإن المشركين ينسبون ذلك إلى آلهتهم ، ووجه العدول عن الإضمار حيث لم يقل شركاء فيه على الوجهين ظاهر ، وإسناد الجعل للنسل على حد بنو تميم قتلوا فلاناً ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه فيه معنى التعجب ، والفاء لترتيبه على ما فصل من قدرته سبحانه عز وجل وآثار نعمته الزاجرة عن الشرك الداعية إلى التوحيد ، وضمير الجمع لأولئك النسل الذين جعلوا لله شركاء وفيه تغليب المذكر على المؤنث وإيدان بعضهم شركهم ، والمراد بذلك إما التسمية أو مطلق الإشراف ، و﴿ مَا ﴾ إما مصدرية أي عن إشرافهم أو موصولة أو موصوفة أي عما يشركون به تعالى ، وهذه الآية عندي من المشكلات ؛ وللعلماء فيها كلام طويل ونزاع عريض وما ذكرناه هو الذي يشير إليه كلام الجبائي وهو مما لا بأس به بعد إغضاء العين عن مخالفته للمرويات سوى ثنية الضمير تارة وجمعه أخرى مع كون المرجع مفرداً لفظاً ولم نجد ذلك في الفصح .

---

واختار غير واحد أن في جعلاً وآتاهما بعد مضافاً محذوفاً وضمير التثنية فيهما لآدم  
وحواء على طرز ما قيل أي جعل أولادهما فيما آتى أولادهما من الأولاد وإنما قدر وه في  
موضعين ولم يكتفوا بتقديره في الأول وإعادة الضمير من الثاني على المقدر أولاً لأن الحذف لم  
تقم عليه قرينة ظاهرة فهو كالمعدوم فلا يحسن عود الضمير عليه ، والمراد بالشرك فيما آتى  
الأولاد تسمية كل واحد من أولادهم بنحو عبد العزي وعبد شمس .

واعترض أولاً : بأن ما ذكر من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه إنما يصار إليه  
فيما يكون للفعل ملابسة ما بالمضاف إليه أيضاً بسرايته إليه حقيقة أو حكماً ويتضمن  
نسبته إليه صورة مزية يقتضيها المقام كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ  
﴿ [ الأعراف : 141 ] الآية فإن الانجاء منهم مع أن تعلقه حقيقة ليس إلا بأسلاف  
اليهود وقد نسب إلى أخلافهم بحكم سرايته إليهم توفية لمقام الامتنان حقه وكذا يقال في  
نظائره وهنا ليس كذلك إذ لا ريب في أن آدم وحواء عليهما السلام بريئان من سرية الجعل  
المذكور إليهما بوجه من الوجوه فلا وجه لإسناده إليهما صورة ، وثانياً : بأن إشارتهم  
بإضافة أولادهم بالعبودية إلى أصنامهم من لازم اتخاذ تلك الأصنام آلهة ومتفرع له لا أمر  
حدث عنهم لم يكن قبل فينبغي أن يكون التوبيخ على هذا دون ذلك ، وثالثاً : بأن إشارك



أولادهما لم يكن حين آتاهما الله تعالى صالحاً بل بعده بأزمنة متطاولة، ورابعاً: بأن إجراء جعلاً على غير ما أجري عليه الأول والتعقيب بالفاء يوجب اختلال النظم الكريم.

(353/300)

---

وأجيب عن الأول: بأن وجه ذلك الإسناد الإيدان بتركهما الأولى حيث أقدمنا على نظم أولادهما في سلك أنفسهما والتزما شكرهم في ضمن شكرهما وأقسما على ذلك قبل تعرف أحوالهم ببيان أن إخالهم بالشكر الذي وعداه وعداً مؤكداً باليمين بمنزلة إخالهما بالذات في استيجاب الحنث والخلق مع ما فيه من الإشعار بتضاعف جنائهم أنهم يجعلهم المذكور أوقعوهما في ورطة الحنث والخلف وجعلوهما كأنهما باشره بالذات فجمعوا بين الجناية مع الله تعالى والجناية عليهما السلام، وعن الثاني: بأن المقام يقتضي التوبيخ على هذا لأن لما ذكر ما أنعم سبحانه وتعالى به عليهم من الخلق من نفس واحدة وتناسلهم وبجهم على جهلهم وإضافتهم تلك النعم إلى غير معطيها وإسنادها إلى من لا قدرة له على شيء ولم يذكر أولاً من أمور الألوهية قصداً حتى يوجوا على اتخاذ الآلهة، وعن الثالث: بأن كلمة لما ليست للزمان المتضيق بل الممتد فلا يلزم أن يقع الشرط والجزاء في يوم واحد أو شهر أو سنة بل يختلف ذلك باختلاف الأمور كما يقال: لما ظهر الإسلام طهرت

البلاد من الكفر والإلحاد ، وعن الرابع : بما حرره "صاحب الكشف" في اختيار هذا القول وإيثاره على القول بأن الشرك راجع لآدم وحواء عليهما السلام وليس المتعارف بل ما نقل من تسمية الولد عبد الحرث وهو أن الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [الأعراف : 189] خطاب لأهل مكة وأنه بعد ما ختمت قصة اليهود بما ختمت تسليية وتشجيعاً للنبي صلى الله عليه وسلم وحملاً له على التثبت والصبر اقتداءً بإخوته من أولى العزم عليه وعليهم الصلاة والسلام لا سيما مصطفىاه وكليمه موسى عليه السلام فإن ما قاساه من بني إسرائيل كان شديد الشبه بما كان يقاسيه صلى الله عليه وسلم من قريش وذيلت بما يقتضي العطف على المعنى الذي سيق له الكلام أولاً أعني قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ [

(354/300)

---

الأعراف : 181] وقع التخلص إلى ذلك أهل مكة في حاق موقعه فقيل : ﴿ والذين كَذَّبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ [الأعراف : 182] وذكر سؤالهم عما لا يعينهم فلما أريد بيان أن ذلك مما لا يهمكم وإنما المهم إزالة ما أتم عليه منغمسون فيه من أضرار الشرك والآثام مهد له

﴿ هو الذي خلقكم ﴾ [الأعراف: 189] مضمناً معنى الامتنان والمالكية المقتضيين  
للتوحيد والعبودية ثم قيل: ﴿ فلما آتاها صالحاً جعل الله له شركاء ﴾ أي جعلتم يا  
أولادها ولقد كان لكم في أبويكم أسوة حسنة في قولهما: ﴿ لئن آتيتنا صالحاً لنكوننَّ من  
الشاكرين ﴾ [الأعراف: 189] وكان المعنى والله تعالى أعلم فلما آتاها صالحاً ووفيا  
بما وعدا به ربهما من القيام بموجب الشكر خالفتم أتم يا أولادها فاشركتم وكفرتم النعمة  
، وفي هذا الالتفات ثم إضافة فعلهم إلى الأبوين على عكس ما جعل من خلق الأب وتصويره  
في معرض الامتنان متعلقاً بهم إيماء إلى غاية كفرانهم وتماديهم في الغي ، وعليه ينطبق قوله  
سبحانه: ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ ثم قال: فظهر أن إجراء جعل الله على غير ما  
أجحري عليه الأول ، والتعقيب بالفاء لا يوجب اختلال النظم بل يوجب التأمه اه ،  
والانصاف أن الأسئلة قوية والآية على هذا الوجه من قبيل اللغز ، وعن الحسن .

(355/300)

---

وقتادة أن ضمير جعلاً وآتاها يعود على النفس وزوجها من ولد آدم لا إلى آدم وحواء  
عليهما السلام ، وهو قول الأصم قال: ويكون المعنى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ  
مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [الأعراف: 189] خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وخلق

لكل نفس زوجاً من جنسها فلما تغشى كل نفس زوجها حملت حملاً خفيفاً وهو ماء  
الفحل فلما أثقلت بمصير ذلك الماء لحماً ودماً وعظماً دعا الرجل والمرأة ربهما لئن آتيتنا  
صالحاً أي ذكراً سوياً لنكونن من الشاكرين وكانت عادتهم أن يئدوا البنات فلما آتاها أي  
فلما أعطى الله تعالى الأب والأم ما سألاه جعلاه شركاء فسميا عبد اللات وعبد العزى  
وغير ذلك ثم رجعت الكناية في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إلى  
الجميع ولا تعلق للآية بآدم وحواء عليهما السلام أصلاً، ولا يخفى أن المتبادر من صدرها  
آدم وحواء ولا يكاد يفهم غيرهما رأساً نعم اختار ابن المنير ما ماله هذا في الاتصاف  
وادعى أنه أقرب وأسلم مما تقدم وهو أن يكون المراد جنسي الذكر والأنثى ولا يقصد معين  
من ذلك ثم قال: وكان المعنى والله تعالى أعلم هو الذي خلقكم جنساً واحداً وجعل  
أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الذي هو  
الأنثى جرى من هذين الجنسيتين كيت وكيت، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان  
فيهم الموحدون لأن المشركين منهم فجاز أن يضاف الكلام إلى الجنس على طريقة قتل بنو  
تميم فلاناً وإنما قتلهم بعضهم، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ  
أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ [مريم: 66] و﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا اكْفَرَهُ ﴾ [عبس: 17] إلى غير ذلك  
وتعقب بأن فيه إجراء جميع الفاظ الآية على الأوجه البعيدة.

وعن أبي مسلم أن صدر الآية آدم وحواء كما هو الظاهر إلا أن حديثهما ما تضمنه قوله  
سبحانه وتعالى :

(356/300)

---

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف: 189]  
وانقطع الحديث ثم خص المشركين من أولاد آدم بالذكر ، ويجوز أن يذكر العموم ثم يخص  
البعض بالذكر ، وهو كما ترى .

وقيل : يجوز أن يكون ضمير جعلاً لآدم وحواء كما هو الظاهر والكلام خارج مخرج  
الاستفهام الإنكاري والكنائية في ﴿ فتعالى ﴾ الخ للمشركين ، وذلك أنهم كانوا يقولون : إن  
آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام ويشرك كما نشرك فرد عليهم بذلك ونظير هذا أن ينعم  
رجل على آخر بوجوه كثيرة من الإنعام ثم يقال لذلك المنعم : إن الذي أنعمت عليه يقصد  
إيذاءك وإيصال الشر إليك فيقول : فعلت في حقه كذا وكذا وأحسننت إليه بكذا وكذا ثم  
إنه يقابلني بالشر والإساءة ومراده أنه بريء من ذلك ومنفي عنه .

وقيل : يحتمل أن يكون الخطاب في ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ لقريش وهم آل قصي فإنهم خلقوا من  
نفس قصي وكان له زوج من جنسه عربية قريشية وطلباً من الله تعالى الولد فأعطاهما

أربعة بنين فسميهم عبد مناف وعبد شمس وعبد العزى وعبد الدار يعني بها دار الندوة  
ويكون الضمير في ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ لهما ولأعقابهما المقتدين بهما وأيد ذلك بقوله في قصة أم  
معبد :

فيا لقصي ما زوى الله عنكم . . .

به من فخار لا يباري وسودد

واستبعد ذلك في "الكشف" بأن المخاطبين لم يخلقوا من نفس قصي لا كلهم ولا كلهم وإنما  
هو مجمع قريش وبأن القول بأن زوجه قرشية خطأ لأنها إنما كانت بنت سيد مكة من  
خزاعة وقريش إذ ذاك متفرقون ليسوا في مكة ، وأيضاً من أين العلم إنهما وعداً عند الحمل  
أن يكونا شاكرين لله تبارك وتعالى ولا كفران أشد من الكفر الذي كانا فيه .  
وما مثل من فسر بذلك إلا كمن عمر قصراً فهدم مصراً ، وأما البيت فإنما خص فيه بنو  
قصي بالذكر لأنهم ألقى برسول الله صلى الله عليه وسلم أو لأنه لما كان سيدهم وأميرهم  
شمل ذكره الكل شمول فرعون لقومه ومعلوم أن الكل ليسوا من نسل فرعون اه .

(357/300)

---

وأجيب عن قوله : من أين العلم الخ بأنه من إعلام الله تعالى إن كان ذلك هو معنى النظم ،

ومنه يعلم أن كون زوجته غير قريبة في حيز المنعم .

نعم في كون قصي هو أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم كان مشركاً مخالفاً لما ذهب

إليه جمع من أن أجداده عليه الصلاة والسلام كلهم غير مشركين ، وقيل : إن ضميره للولد ،

والمعنى أنهما طلبا من الله تعالى أمثالا للولد الصالح الذي أتاهما ، وقيل : هو لإبليس ،

والمعنى جعلاً لإبليس ، والمعنى جعلاً لإبليس شركاء في اسمه حيث سميا ولدهما بعبد

الحرث ، وكلا القولين ردهما الأمدى في أبحار الأفكار ، وهما لعمرى أو هن من بيت

العنكبوت لكني ذكرتهما استيفاء للأقوال ، وذهب جماعة من السلف كابن عباس .

ومجاه .

وسعيد بن المسيب وغيرهم إلى أن ضمير ﴿ جَعَلَا ﴾ يعود آدم وحواء عليهما السلام ،

والمراد بالشرك بالنسبة إليهما غير المتبادر بل ما أشرنا إليه آنفاً إلى أن قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تخلص إلى قصة العرب وإشراكهم الأصنام فهو كما قال

السدي من الموصول لفظاً المفصول معنى ، ويوضح ذلك كما قيل تغيير الضمير إلى الجمع

بعد التقنية ولو كانت القصة واحدة لقليل يشركان ، وكذلك الضمائر بعد ، وأيد ذلك بما

أخرجه أحمد .

والترمذي وحسنه .

والحاكم وصححه عن سمرة بن جندب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم : " لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال لها : سميه  
عبد الحرث فإنه يعيش فسمته بذلك فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره وأراد  
بالحرث نفسه فإنه كان يسمى به بين الملائكة " ولا يعد هذا شركاً بالحقيقة على ما قال  
القطب لأن أسماء الأعلام لا تفيد مفهوماتها اللغوية لكن أطلق عليه الشك تغليظاً وإيداناً  
بأن ما عليه أولئك السائلون عما لا يعينهم أمر عظيم لا يكاد يحيط بفضاعته عبارة .

(358/300)

---

وفي لباب التأويل أن إضافة عبد إلى الحرث على معنى أنه كان سبباً لسلامته وقد يطلق  
اسم العبد على ما لا يراد به المملوك كقوله :  
وأني لعبد الضيف ما دام ثاوياً . . .  
ولعل نسبة الجعل إليهما مع أن الحديث ناطق بأن الجاعل حواء لا هي وآدم لكونه عليه  
السلام أقرها على ذلك ، وجاء في بعض الروايات التصريح بأنهما سمياه بذلك .  
وتعقب هذا القول بعض المدققين بأن الحديث لا يصلح تأييداً له لأنه لم يرد مفسراً للآية ولا  
إنكار لصدور ذلك منهما عليهما السلام فإنه ليس بشرك .



نعم كان الأولى بهما التنزه عن ذلك إنما المنكر حمل الآية على ذلك مع ما فيه من العدول عن الظاهر لا سيما على قراءة الأكثرين ﴿ شُرَكَاء ﴾ بلفظ الجمع؛ ومن حمل ﴿ فتعالى ﴾ الخ على أنه ابتداء كلام وهو راجع إلى المشركين من الكفار، والفاء فصيحة، وكونه منقولاً عن السلف معارض بأن غيره منقول أيضاً عن جمع منهم انتهى .

وقد يقال: أخرج ابن جرير عن الخبر أن الآية نزلت في تسمية آدم وحواء ولديهما بعبد الحرث، ومثل ذلك لا يكاد يقال من قبل الرأي، وهو ظاهر في كون الخبر تفسيراً للآية، وارتكاب خلاف الظاهر في تغييرها مما لا مخلص عنه كما لا يخفى على المنف.

(359/300)

---

ووجه جمع الشركاء زيادة في التخليط لأن من جوز الشرك جوز الشركاء فلما جعلاً شريكاً فكأنهما جعلاً شركاء، وحمل ﴿ فتعالى الله ﴾ الخ على الابتداء مما استدعيه السابق والسياق وبه صرح كثير من أساطين ازسلام والذاهبون إلى غير هذا الوجه نزر قليل بالنسبة إلى الذاهبين إليه وهم دونهم أيضاً في العلم والفضل وشتان ما بين دندنة النحل وألحان معبد، ومن هنا قال العلامة الطيبي: إن هذا القول أحسن الأقوال بل لا قول غيره ولا معمول إلا عليه لأنه مقتبس من مشكاة النبوة وحضرة الرسالة صلى الله عليه وسلم،

وأنت قد علمت مني أنه إذا صح الحديث فهو مذهبي وأراه قد صح ولذلك أحجم كميت  
قلمي عن الجري في ميدان التأويل كما جرى غيره والله تعالى الموفق للصواب .  
وقرأ نافع .

وأبو بكر ﴿ شركاً ﴾ بصيغة المصدر أي شركة أو ذوي شركة وهم الشركاء . انتهى  
اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾ انتهى .

(360/300)

وقال القاسمي :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ أي : كما طلبا : ﴿ جَعَلَالَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ أي :  
أخلاً بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح أسوأ إخلال ، إذا استبدلوه بالإشراك . وقوله  
تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه فيه معنى التعجب .

تنبيه :

هذه الآية سبقت توبيخاً للمشركين في جنائهم ، وتقضهم ميثاقهم ، في جريهم على خلاف  
ما يعاهدون الله عليه ، وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم عليهم من الخلق من نفس واحدة ،  
وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن ، ثم إنشأته إياهم بعد الغشيان ، متدرجين في

أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة ، ثم بين إعطاءهم المواثيق إن آتاهم ما يطلبون وولد لهم ما يشتهون ، ليكونن من الشاكرين ، ثم أخرج عن صدرهم وكفرانهم هذه النعم ، التي امتن سبحانه بها عليهم ، وتقضهم ميثاقهم في إفراجه الشكر ، حيث أشركوا معه غيره في ذلك .

ونظير هذه الآية ، في الإخبار عن تبديل المشركين نعمة الله كفراً ، قوله تعالى في سورة يونس :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ، وقد ذكر المفسرون ههنا أحاديث وآثاراً تفهم أن المراد بهذا

السياق آدم وحواء . ولا حاجة بنا إلى روايتها لأنها واهية الإسناد معلولة ، كما بينه

الحافظ ابن كثير في تفسيره .

(361/300)

---

وتقبلُ ثلثة من السلف لها وتلقيها ، لا يجدي في صحتها شيئاً ، إذا أصلها مأخوذ من

أقاصيص مسلمة أهل الكتاب ، كما برهن عليه ابن كثير .

وتهويل بعضهم بأنها مقتبسة من مشكاة النبوة، إذا أخرجها فلان وفلان، من تنميق الألفاظ لتمزيق المعاني، فإن المشكاة النبوية أجلُّ من أن يقتبس منها إلاكل ما عرفت جودته .

إذا علمت ذلك، تبين لك أن من استند إلى تلك الأحاديث والآثار، فذهب إلى أن المراد بالنفس الواحدة وقرينتها، آدم وحواء، ثم أورد على نفسه أنهما بريئان من الشرك، وأن ظاهر النظم يقتضيه، ثم أخذ يؤوله، إما بتقدير مضاف، أي: جعل أولادهما له شركاء، فيما آتى أولادهما، وإما بأن المراد جعل أحدهما وهو حواء من إطلاق المثنى وإرادة المفرد، وإما بغير ذلك، فإنه ذهب في غير مذهب .

وقد قرر ما ارتضيناها في معنى الآية غير واحد .

قال الحسن البصري، فيما روى عنه ابن جرير: إن الآية عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده .

وفي رواية عنه: كان هذا في بعض الملل، ولم يكن بآدم .

قال ابن كثير: والأسانيد إلى الحسن، في تفسير هذا صحيحة، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية .

قال: ولو كان الحديث المرفوع، في أنها في آدم وحواء، محفوظاً عنده من رواية رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، لما عدل عنه هو ولا غيره ، لا سيما مع ثقواه وورعه .  
فهذا يدل على أنه - إن صح - موقوف على الصحابي ، لا مرفوع . انتهى .

(362/300)

---

وقال القفال : إنه تعالى ذكر هذا القصة على تمثيل ضرب المثل ، وبيان هذا الحالة صورة  
حالة هؤلاء المشركين في جهلهم ، وقولهم بالشرك . وتقرير هذا الكلام ، كأنه تعالى يقول :  
هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة ، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه  
في الإنسانية ، فلما تغشى الزوج زوجته ، وظهر الحمل ، دعا الزوج والزوجة ربهما ، لئن  
أتيتنا ولداً صالحاً سوياً لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك ، فلما آتاها الله ولداً صالحاً  
سوياً ، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاها ، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى  
الطبائع ، كما هو قول الطبائعيين ، وتارة إلى الكواكب ، كما هو قول المنجمين ، وتارة إلى  
الأصنام والأوثان ، كما هو قول عبدة الأصنام .

وقال الناصري " الإبتصاف " - متعباً على الزمخشري - : الأسلم والأقرب - والله أعلم -  
أن يكون المراد جنسي الذكر والأنثى ، لا يقصد فيه إلى معين ، وكأن المعنى - والله أعلم -  
خلقكم جنساً واحداً ، وجعل أزواجكم منكم أيضاً ، لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى

الجنس الذي هو الذكر ، الجنس الآخر ، الذي هو الأثني ، جرى من هذين الجنسين كيت وكيت ، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس ، وإن كان فيهم الموحدون ، على حد بنو فلان قتلوا قتيلاً ، يعني من نسبة ما صدر من البعض إلى الكل .

فائدة :

قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة هذا الآية أنه تعالى لما قال : ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلت ﴾ جعل حال الإثقال يخالف ما قبله ، وأنه يختص فيه الدعاء لأجل أنه حال الخوف . وقد ذهب الهادي إلى أن الحامل إذا أتى عليها من الحمل ستة أشهر ، كانت تصرفاتها كتصرفات المريض ، تنفذ من الثلث . وهو قول مالك والليث ، واحتجوا بالآية ، لأنه تعالى فرق بين حال الخفة والإثقال .

وقال غيرهما : تصرفها من الجميع ، ما لم يأخذها الطلق . قلنا : إنه يجوز عليها بعد الستة ، وضع الحمل في كل وقت . انتهى .

ثم قال : ودلت الآية على أنه يجوز الدعاء لطلب أمور الدنيا ، وإن حصول الولد منة يجب الشكر عليها . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 7 ص 239 . 241 ﴾

(363/300)

---

وقال ابن عاشور :

ومعنى ﴿ فلما آتاها صالحاً ﴾ ﴿ لما آتى من آتاه منهم ولداً صالحاً وضمير جعلاً ﴾

لنفس الواحدة وزوجها ، أي جعل الأبوان المشركان .

و"الشرك" مصدر شركه في كذا ، أي جعل الله شركة ، والشركة تقتضي شريكاً أي جعلاً

لله شريكاً فيما آتاها الله ، والخبر مراد منه مع الإخبار التعجيب من سفه آرائهم ، إذ لا

يجعل رشيدُ الرأي شريكاً لأحد في ملكه وصنعه بدون حق ، فلذلك عُرف المشرك فيه

بالموصولية ف قيل ﴿ فيما آتاها ﴾ ﴿ دون الإضرار بأن يقال : جعل له شركاً فيه : لما تؤذن

به الصلة من فساد ذلك الجعل ، وظلم جاعله ، وعدم استحقاق المجمعول شريكاً لما جعل له

، وكفران نعمة ذلك الجاعل ، إذ شكر لمن لم يُعْطه ، وكفر من أعطاه ، وإخلاف الوعد

المؤكد .

وجعل الموصول ( ما ) دون ( من ) باعتبار أنه عطية ، أو لأن حالة الطفولة أشبه بغير

العاقل .

وهذا الشرك لا يخلو عنه أحد من الكفار في العرب ، وبخاصة أهل مكة ، فإن بعض

المشركين يجعل ابنه سادناً لبيوت الأصنام ، وبعضهم يحجر ابنه إلى صنم ليحفظه ويرعاه ،

وخاصة في وقت الصبا ، وكل قبيلة تنتسب إلى صنمها الذي تعبده ، وبعضهم يسمي ابنه

: عبد كذا ، مضافاً إلى اسم صنم كما سَمُوا عبدَ العزى ، وعبدَ شمس ، وعبدَ مناة ،

وعبدَ يا ليل ، وعبدَ ضخم ، وكذلك امرؤ القيس ، وزيد مناعة ، لأن الإضافة على معنى التملك والتعبيد ، وقد قال أبو سفيان ، يومَ أحد : "اعلُ هُبَل" وقالت امرأة الطفيل لزوجها الطفيل بن عمرو الدوسي حين أسلم وأمرها بأن تسلم "لا نخشى على الصبية من (ذي الشرى) شيئاً" ذو الشرى صنم .

وجملة : ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ أي : تنزه الله عن إشراكهم كله : ما ذكر منه آنفاً من إشراك الوالدين مع الله فيما آتاها ، وما لم يذكر من أصناف إشراكهم .

(364/300)

---

وموقع فاء التفريع في قوله : ﴿ فتعالى الله ﴾ موقع بديع ، لأن التنزيه عما أحدثوه من الشرك يترتب على ما قبله من انفراده بالخلق العجيب ، والمنن العظيمة ، فهو متعال عن إشراكهم لا يليق به ذلك ، وليس له شريك بحق ، وهو إنشاء تنزيه غير مقصود به مخاطب .

وضمير الجمع في قوله : ﴿ يُشركون ﴾ عائد إلى المشركين الموجودين لأن الجملة كالنتيجة لما سبقها من دليل خلق الله إياهم .

وقد روى الترمذي وأحمد : حديثاً عن سُمرة بن جندب ، في تسويل الشيطان لحواء أن تسمي ولدها عبد الحارث ، والحارث اسم إبليس ، قال الترمذي حديث حسن غريب ،



ووسمه ابن العربي في "أحكام القرآن" ، بالضعف ، وتبعه تلميذه القرطبي وبين ابن كثير ما في سنده من العلل ، على أن المفسرين ألقوه بالآية وجعلوه تفسيراً لها ، وليس فيه على ضعفه أنه فسّر به الآية ولكن الترمذي جعله في باب تفسير سورة الأعراف من "سننه" .  
وقال بعض المفسرين : الخطاب في ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ لقريش خاصة ،  
والنفس الواحدة هو قصي بن كلاب تزوج امرأة من خزاعة فلما آتاها الله أولاداً أربعة  
ذكوراً سُمي ثلاثة منهم عبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد الدار ، وسمى الرابع "عبداً"  
بدون إضافة وهو الذي يدعى بعبد قصي .

وقرأ نافع ، وعاصم في رواية أبي بكر عنه ، وأبو جعفر : شركاً بكسر الشين وسكون الراء  
أي اشتراكاً مع الله ، والمفعول الثاني لفعل جعلاً محذوف للعلم به ، أي جعلاً له الأصنام  
شركاً ، وقرأ بقية العشرة شركاء بضم الشين جمع شريك ، والقراءتان متحدتان معنى .  
وفي جملة : ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ محسن من البديع وهو مجيء الكلام متزناً على  
ميزان الشعر ، من غير أن يكون قصيدة ، فإن هذه الجملة تدخل في ميزان الرمل .

وفيهما الالتفات من الخطاب الذي سبق في قوله: ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾  
وليس عائد إلى ما قبله، لأن ما قبله كان بصيغة المثني خمس مرات من قوله: ﴿ دَعُوا اللَّهَ  
رَبَّهُمَا ﴾ إلى قوله ﴿ فيما آتاهما ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(366/300)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) ﴾  
ويروى أن هذه الآية قد نزلت في " قُصَيِّ " وهو وجد من أجداده صلى الله عليه وسلم،  
فقد طلب " قُصَيِّ " من الله أن يعطي له الذرية الصالحة، فلما أعطاه ربنا الذرية الصالحة  
سماها بأسماء العبيد، فلم يقل: عبد الله أو عبد الرحمن، بل قال: عبد مناف، عبد الدار  
عبد العزى . وجعل لله شركاء في التسمية، ولهذا جاء قول الحق: ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ  
فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ ؛ ليدلنا على أن الإنسان في أضعف أحواله، أي حينما يكون ضعيفاً عن  
استقبال الأحداث، يخطر بباله ربنا؛ لأنه يجب أن يسلم نفسه لمن يعطي له ما يريد، وبعد  
أن ينال مطلبه ينسى، ولذلك يقول الحق: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرَّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ  
قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ . . . ﴾ [يونس:

إذن فائدة الضر أنه يجعلنا نلجأ إلى ربنا ، ولذلك نجد الإنسان أحسن ما يكون ذكراً لله  
وتسبيحاً لله حينما يكون في الشدة وفي المرض ، ولذلك لو قدر المريض نعمة الله عليه في  
مرضه وشدته ، لا أقول : إنه قد يجب أن يستطيل مدة المرض والشدة . لا ، بل عليه فقط  
الأيضجر وأن يلجأ إلى ربه ويدعوه . وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك  
حينما قال : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم  
الراحمين . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي . إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى  
عدو مملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي .  
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل  
بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك " .

(367/300)

---

والإنسان ساعة يوجد في المرض عليه أن يعرف النعمة فيه ، فهو في كل حركة من حركاته  
يذكر الله ، وكما تحمد فيه طاقات الاندفاعات الشهوانية ، يمتلىء بإيجابيات علوية ،  
ولذلك نجد الحديث القدسي يقول فيه ربنا سبحانه وتعالى :

"يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب . كيف أطعمك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان، فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب . كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي"

إذن ماذا عن حال مريض يستشعر أن ربه عنده، ويكون في المرض مع المنعم، وفي الصحة مع النعمة . ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: 190] .

ومعنى هذا أن ربنا تبارك وتعالى ينزه نفسه عما يقول فيه المبطلون ويشركون معه ما يزعمون من آلهة . ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(368/300)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

قوله : "جَعَلَهُ" قيل : ثم مضاف ، أي : جعل له أولادهما شركاء ، كما تقدم في التأويل السابق ، وإلّا فحاشا آدم وحواء من ذلك ، وإن جعل الضمير ليس لآدم وحواء ، فلا حاجة إلى تقديره كما مرّ تقريره .

وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم شركاً بكسر الشين وسكون الراء وتنوين الكاف .  
والباقون بضمّ الشين ، وفتح الراء ، ومدّ الكاف مهموزةً ، من غير تنوين ، جمع "شريك" .  
فالشركُ مصدرٌ ، ولا بد من حذف مضاف ، أي : ذوي شركٍ ، يعني : إشراك ، فهو في الحقيقة اسمُ مصدر ، ويكون المعنى : أحدثاً له إشراكاً في الولد ، وقيل المراد بالشرك :  
النصيبُ وهو ما جعلاه من رزقهما له يأكله معهما ، وكانا يأكلان ويشربان وحدثهما ،  
فالضميرُ فيّ له يعود على الولدِ الصّالح .

وقيل : الضمير فيّ له لإبليس ولم يجز له ذكر ، وهذا الوجهان لا معنى لهما .

وقال مكّي وأبو البقاء وغيرهما : إنّ التقدير يجوز أن يكون : جعلاً لغيره شركاً .

قال شهابُ الدّين : هذا الذي قدره هؤلاء قد قال فيه أبو الحسن : كان ينبغي لمن قرأ شركاً أن يقول المعنى : جعلاً لغيره شركاً ؛ لأنّهما لا يُنكران أنّ الأصل لله فالشرك إنّما يجعله لغيره .

قوله: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ قيل: هذه جملة استئنافية، والضمير في: يُشْرِكُونَ يعودُ على الكُفَّارِ، وأراد به إشراك أهل مكة والكلام قد تمَّ قبله، وقيل: يعودُ على آدم وحواء وإبليس، والمرادُ بالإشراكِ تسميتهما الولد الثالث بـ "عبد الحارث" وكان أشارَ بذلك إبليس، فالإشراكُ في التسمية فقط، وقيل: راجع إلى جميع المشركين من ذرية آدم، وهو قولُ الحسن، وعكرمة، أي: جعل أولادهما له شركاء فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء في تعبيرهم بفعل الآباء فقال: ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَل ﴿ [البقرة: 51] ﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا ﴿ [البقرة: 72] ﴾ خَاطَبَ بِهِ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكان ذلك الفعل من آبائهم. وقيل: لم يكن آدم علم، ويُؤيدُ الوجه الأول قراءة السلمي: "عَمَّا تُشْرِكُونَ" بقاء الخطاب وكذلك "أُتَشْرِكُونَ" بالخطاب أيضاً، وهو التفتات. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 421.422 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (190)

شُرُّ النَّاسِ مِنْ يَبْتَهَلِ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ هِجُومِ الْبَلَاءِ بِمَجْلُوسِ الدُّعَاءِ ، وَشِدَّةِ التَّضَرُّعِ وَالْبُكَاءِ ،  
فَإِذَا أزيلتْ شِكَايَتُهُ ، وَدُفِعَتْ - بِمِنَّتِهِ - آفَاتُهُ ضَيِّعَ الْوَفَاءِ ، وَنَسِيَ الْبَلَاءَ ، وَقَابَلَ الرَّفْدَ  
بِنَقْضِ الْعَهْدِ وَأَبْدَلِ الْعَقْدِ بِرَفْضِ الْوَدِّ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ أَعَدَّ اللَّهُ فِي سَابِقِ الْحُكْمِ ، وَخَرَطَهُمْ  
فِي سَبِيلِ أَهْلِ الرَّدِّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 595 ﴾

(370/300)

﴿ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴾ ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ (191)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر علوه سبحانه ، شرع يذكر من أوصافه عبارة وإشارة ما يدل على ذلك ، ويقوم  
الأدلة على عدم صلاحية ما أشركوا به للشركة بعجزها ، بأنها من جملة خلقه ولا تصرف  
لها تستحق به وجهاً من التعظيم ، فقال منكراً على عبادها دالاً على أن المراد الشرك  
الحقيقي ، لاما ذكر من قصة إبليس في تسببه في التسمية بعبد الحارث ونحوه :

﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ أي المشركون وأولادهما في العبادة ﴿ مَا لَا يَخْلُقُ ﴾ أي من الأصنام

والطباع والكواكب وغيرها ﴿ شيئاً ﴾ أي يوجد من العدم كما يفعل الله الذي أشركوها به .

ولما كان يلزم أن يكون ما لا يخلق شيئاً مخلوقاً لأنه لا يتكون عاجزاً بغير قادر أوجده ، صرح به في قوله مجرياً للأوثان مجرى أولي العلم لتنزيلهم منزلتهم في الاعتقاد والعبادة : ﴿ وهم ﴾ ولما كان المصنوع لا يكون صانعاً ، اكتفى بالبناء للمفعول فقال : ﴿ يخلقون ﴾ أي متجدداً خلق أعراضهم وذواتهم وأمثالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 169 ﴾

(371/300)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) ﴾

اعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه ليس المراد بقوله : ﴿ فتعالى الله عما يُشْرِكُونَ ﴾ ما ذكره من قصة إبليس إذ لو كان المراد ذلك لكانت هذه الآية أجنبية عنها بالكلية ، وكان ذلك غاية الفساد في النظم والترتيب ، بل المراد ما ذكرناه في سائر الأجوبة من أن المقصود من الآية السابقة الرد على عبدة الأوثان .



وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

المقصود من هذه الآية إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للإلهية فقوله : ﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ معناه أعبدون ما لا يقدر على أن يخلق شيئاً ؟ وهم يخلقون .

أي وهم مخلوقون يعني الأصنام .

فإن قيل : كيف وحد ﴿ يَخْلُقُ ﴾ ثم جمع فقال : ﴿ وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ وأيضا فكيف ذكر الواو والنون في جمع غير الناس ؟

والجواب عن الأول : أن لفظ ﴿ مَا ﴾ تقع على الواحد والاثنين والجمع ، فهذه من صيغ الواحدان يحسب ظاهر لفظها .

ومحتملة للجمع فالله تعالى اعتبر الجهتين فوحد قوله : ﴿ يَخْلُقُ ﴾ رعاية لحكم ظاهر اللفظ وجمع قوله : ﴿ وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ رعاية لجانب المعنى .

والجواب عن الثاني : وهو أن الجمع بالواو والنون في غير من يعقل كيف يجوز ؟ فنقول : لما اعتقد عابدها أنها تعقل وتميز فورد هذا اللفظ بناء على ما يعتقدونه ويتصورونه ،

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [ الأنبياء : 33 ] وقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ

والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴿ يوسف : 4 ﴾ وقوله : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾  
[النمل : 18] .

(372/300)

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ أَيْشُرْ كُونَ مَا لَا يُخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن  
العبد غير موجد ولا خالق لأفعاله ، قالوا : لأنه تعالى طعن في إلهية الأجسام بسبب أنها لا  
تخلق شيئاً وهذا الطعن إنما يتم لو قلنا إن بتقدير أنها كانت خالقة لشيء لم يتوجه الطعن في  
إلهيتها ، وهذا يقتضي أن كل من كان خالقاً كان إلهاً ، فلو كان العبد خالقاً لأفعال نفسه  
كان إلهاً ولما كان ذلك باطلاً ، علمنا أن العبد غير خالق لأفعال نفسه . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 71.74 ﴾

(373/300)

وقال الثعلبي :

﴿ أَشْرِكُونَ ﴾ يعني كفار مكة ﴿ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ يعني الأصنام .

قال ابن زيد : ولد لآدم ولد فسمياه عبد الله فاتاهما إبليس فقال : ما سميتما ابنكما هذا ؟

قال : وكان ولد لهما قبل ذلك ولد سمياه عبد الله فمات فقالا : سميناها عبد الله ، فقال

إبليس : أتظنان أن الله تارك عبده عندكما لا [ والله ] ليذهبن كما ذهب الآخر ، ولكن

أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما فسمياه عبد شمس .

فذلك قوله ﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ . الشمس لا تخلق شيئاً حتى

يكون لها عبداً إنما هي مخلوقة قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خدعهما

مرتين خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض " .

والذي يؤيد القول الأول قراءة السلمي : أشركون بالتاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف

والبيان ح 4 ص ﴿

وقال ابن عطية :

" أشركون ما لا يخلق " الآية

وروى بعض من قال إن الآيات في آدم وحواء أن إبليس جاء إلى آدم وقد مات له ولد اسمه

عبد الله فقال : إن شئت أن يعيش لك الولد فسمه عبد شمس ، فولد له ولد فسماه كذلك

وإياه عنى بقوله ﴿ أشركون ما لا يخلق شيئاً ﴾ ، ﴿ وهم يخلقون ﴾ على هذا عائد

على آدم وحواء والابن المسمى عبد شمس ، ومن قال بالقول الآخر قال إن هذه في مشركي الكفار الذين يشركون الأصنام في العبادة وإياها أراد بقوله ﴿ ما لا يخلق ﴾ ، وعبر عنها بهم كأنها تعقل على اعتقاد الكفار فيها وبحسب أسمائها ، و﴿ يخلقون ﴾ معناه ينحتون ويصنعون ، ويحتمل على قراءة " يشركون " بالياء من تحت أني كون المعنى وهؤلاء المشركون يخلقون ، أي فكان قولهم أن يعتبروا بأنهم مخلوقون فيجعلون إلههم خالقهم لا من لا يخلق شيئاً . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(374/300)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ أشركون ما لا يخلق شيئاً ﴾

قال ابن زيد : هذه لآدم وحواء حيث سميا ولدهما عبد شمس ، والشمس لا تخلق شيئاً .

وقال غيره : هذا راجع إلى الكفار حيث أشركوا بالله الأصنام ، وهي لا تخلق شيئاً وقوله :

﴿ وهم يُخلَقون ﴾ أي : وهي مخلوقة .

قال ابن الأنباري : وإنما قال : ﴿ ما ﴾ ثم قال : ﴿ وهم يُخلَقون ﴾ لأن ﴿ ما ﴾ تقع

على الواحد والاثنين والجميع ؛ وإنما قال : ﴿ وهم ﴾ وهو يعني الأصنام ، لأن عابديها

أَدْعُوا أَنهَا تَعْقِلُ وَتَمَيِّزُ ، فَأَجْرِيَتْ مَجْرَى النَّاسِ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [ يوسف : 4 ] وَقَوْلِهِ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ [ النمل : 18 ] وَقَوْلِهِ : ﴿ وَكُلْ فِي فَلَكَ يُسَبِّحُونَ ﴾ [ يس : 40 ] ، قَالَ الشَّاعِرُ :

تَمَزَّتْهَا وَالِدَيْكَ يُدْعُو صَبَاحَهُ . . .

إِذَا مَا بَنُو نَعَشٍ دَنُوا فَتَصَوَّبُوا

وَأَنشَدَ ثَعْلَبُ لِعَبْدَةِ بْنِ الطَّبِيبِ :

إِذَا شَرَفَ الدَّيْكَ يُدْعُو بَعْضُ أُسْرَتِهِ . . .

لَدَى الصَّبَاحِ وَهُمْ قَوْمٌ مَعَازِلُ

لَمَّا جَعَلَهُ يَدْعُو ، جَعَلَ الدَّيْكَ قَوْمًا ، وَجَعَلَهُمْ مَعَازِلُ ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا سِلَاحَ مَعَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ

أُسْرَةً ؛ وَأُسْرَةُ الرَّجُلِ : رَهْطُهُ وَقَوْمُهُ . انْتَهَى . انْتَهَى . اهـ ﴿ زَادَ الْمَسِيرَ ح 3 ص ﴾

(375/300)

---

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ :

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَيْشُرْكَونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾

أَيُّ أَيْعْبُدُونَ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ شَيْءٍ .

﴿ وَهُمْ يُخَلِّقُونَ ﴾ أي الأصنام مخلوقة .

وقال : "يُخَلِّقُونَ" بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع ، فأجريت مجرى

الناس ؛ كقوله : ﴿ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ ﴾ [ الأنبياء : 33 ] .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ [ النمل : 18 ] . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَشْرِكُونَ ﴾

قرئ بالتاء على خطاب الكفار ، وقرئ بالياء على الغيبة ﴿ ما لا يخلق شيئاً ﴾ يعني

إبليس والأصنام ﴿ وهم يخلقون ﴾ أي وهم مخلوقون .

فإن قلت : كيف وحد يخلق ثم جمع فقال وهم يخلقون ؟

قلت : إن لفظة " ما " تقع على الواحد والإثنين والجمع فهي من صيغ الواحدان بحسب

ظاهر اللفظ ومحتملة بحسب المعنى فوحد قوله ما لا يخلق رعاية الحكم ظاهر اللفظ وجمع

قوله وهم يخلقون رعاية الجانب المعنى .

فإن قلت : كيف جمع بالواو والنون لمن لا يعقل وهو جمع من يعقل من الناس ؟

قلت : لما اعتقد عابدو الأصنام أنها تعقل وتميز ورد هذا الجمع بناء على ما يعتقدونه

ويتصورنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

وقال أبو حيان:

﴿ أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾ .

أي أشركون الأصنام وهي لا تقدر على خلق شيء كما يخلق الله وهم يُخلقون أي يخلقهم الله تعالى ويوجدهم كما يوجدكم أو يكون معناه وهم ينحتون ويصنعون فعبدتهم يخلقونهم وهم لا يقدرون على خلق شيء فهم أعجز من عبدتهم ﴿ وهم ﴾ عائد على معنى ما وقد عاد الضمير على لفظ ما في يخلق وعبر عن الأصنام بقوله ﴿ وهم ﴾ كأنها تعقل على اعتقاد الكفار فيها وبجسب أسمائهم .

وقيل أتى بضمير من يعقل لأن جملة من عبد الشياطين والملائكة وبعض بني آدم فغلب من يعقل كل مخلوق لله تعالى ويحتمل أن يكون ﴿ وهم ﴾ عائداً على ما عاد عليه ضمير الفاعل في ﴿ أشركون ﴾ أي وهؤلاء المشركون يخلقون أي كان يجب أن يعتبروا بأنهم مخلوقون فيجعلوا إلههم خالقهم لا من لا يخلق شيئاً .

وقرأ السلمي أشركون بالتاء من فوق فيظهر أن يكون ﴿ وهم ﴾ عائداً على ما على معناها ومن جعل ذلك في آدم وحواء قال: إن إبليس جاء إلى آدم وقد مات له ولد اسمه

عبد الله فقال إن شئت أن يعيش لك الولد فسمه عبد شمس فسماه كذلك فإياه عنى بقوله  
﴿ أتشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾ عائذ على آدم وحواء والابن المسمى عبد  
شمس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(377/300)

وقال أبو السعود :

﴿ أَشْرِكُونَ ﴾

استئنافٌ مسوقٌ لتوبيخ كافة المشركين واستقباح إشرائهم على الإطلاق وإبطاله بالكلية  
بيان شأن ما أشركوه به سبحانه ، وتفصيل أحواله القاضية بطلان ما اعتقدوه في حقه  
أي أشركون به تعالى ﴿ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً ﴾ أي لا يقدر على أن يخلق شيئاً من الأشياء  
أصلاً ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعبده لا محالة ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾  
عطفٌ على ( لا يخلق ) وإيراد الضميرين بجمع العقلاء مع رجوعهما إلى ( ما ) المعبر بها عن  
الأصنام إنما هو بحسب اعتقادهم فيها وإجرائهم لها مجرى العقلاء وتسميتهم لها آلهة ،  
وكذا حال سائر الضمائر الآتية ووصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفي الخالقية لإبانة كمال  
منافاة حالها لما اعتقدوه في حقها وإظهار غاية جهلهم ، فإن إشرائهم ما لا يقدر على خلق



شيء ما بخالقه وخالق جميع الأشياء مما لا يمكن أن يسوغه من له عقل في الجملة وعدم  
التعرض لخالقها للإيدان بتعيينه والاستغناء عن ذكره. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي

السعود ح 3 ص ﴿

وقال الألوسي :

﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ (191) ﴾

﴿ أَشْرِكُونَ ﴾ به تعالى ﴿ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ أي ما لا يقدر على أن يخلق شيئاً من  
الأشياء أصلاً ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعباده لا محالة وعننى ﴿ بِمَا ﴾ الأصنام ،  
وإرجاع الضمير إليها مفرداً لرعاية لفظها كما أن إرجاع ضمير الجمع إليهما من قوله سبحانه  
وتعالى : ﴿ وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ لرعاية معناها وإيراد ضمير العقلاء مع أن الأصنام مما لا يعقل  
إنما هو بحسب اعتقادهم فيها وإجرائهم لها مجرى العقلاء وتسميتهم لها آلهة .

والجملة عطف على ﴿ لَا يَخْلُقُ ﴾ ، والجمع بين الأمرين لإبانة كمال منافاة حال ما  
أشركوه لما اعتقدوه فيه وإظهار غاية جهلهم ، وعدم التعرض للخالق للإيدان بتعيينه

والاستغناء عن ذكره تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴿

(378/300)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَشْرَكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

هذه الآيات الثلاث كلام "معتز بين الكلامين المسوقين لتوبيخ المشركين وإقامة الحجة عليهم ، مخاطب بها النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون ، للتعجيب من عقول المشركين ، وفيه تعريض بالرد عليهم لأنه يبلغ مسامعهم .  
والاستفهام مستعمل في التعجيب والإنكار .

وصيغة المضارع في يَشْرِكُونَ دالة على تجدد هذا الإِشْرَاقِ منهم .

ونفي المضارع في قوله : ﴿ مَا لَا يَخْلُقُ ﴾ للدلالة على تجدد نفي الخالقية عنهم .

وأصل معنى التجدد ، الذي يدل عليه المسند الفعلي ، هو حدوث معنى المسند للمسند إليه ، وأنه ليس مجرد ثبوت وتقرر ، فيعلم منه : أنهم لا يَخْلُقُونَ في الاستقبال ، وأنهم ما خَلَقُوا شيئاً في الماضي ، لأنه لو كان الخلق صفة ثابتة لهم لكان متقررًا في الماضي والحال والاستقبال .

وضمير الغيبة في ﴿ وَهُمْ يَخْلُقُونَ ﴾ يجوز عندي : أن يكون عائداً إلى ما عاد إليه ضمير

﴿ يَشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف : 190] ، أي : والمشركون يَخْلُقُونَ ، ومعنى الحال زيادة

تفطير التعجيب من حالهم لإشراكهم بالله أصنافاً لا تخلق شيئاً في حال أن المشركين

يُخْلِقُونَ يوماً فيوماً ، أي يتجدد خلقهم ، والمشركون يشاهدون الأصنام جاثمة في بيوتها

ومواضعها لا تصنع شيئاً فصيغة المضارع دالة على الاستمرار بقريضة المقام .  
ودلالة المضارع على الاستمرار والتكرار دلالة ناشئة عن معنى التجدد الذي في أصل  
المسند الفعلي ، وهي دلالة من مستبعات التركيب بحسب القرائن المعينة لها ولا توصف  
بحقيقة ولا مجاز لذلك ، ومعنى تجدد مخلوقيتهم : هو أن الضمير صادق بأمة وجماعة ،  
فالمخلوقية لا تفارقهم لأنها تتجدد آناً فآناً بازدياد المواليد ، وتغير أحوال المواجيد ، كما  
قال تعالى ﴿ خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ [ الزمر : 6 ] فتكون جملة : ﴿ وهم يخلقون ﴾  
حالا من ضمير ﴿ أشركون ﴾ .

(379/300)

---

والمفسرون أعادوا ضمير ﴿ هم يخلقون ﴾ على مَا لَا يَخْلُقُ ، أي الأصنام ، ولم يبينوا  
معنى كون الأصنام مخلوقة وهي صُورٌ نحتها الناس ، وليست صُورها مخلوقة لله ، فيتعين أن  
المراد أن مادتها مخلوقة وهي الحجارة .

وجعلوا إجراء ضمائر العقلاء في قوله ﴿ وهم ﴾ وقوله ﴿ يخلقون ﴾ وما بعده على  
الأصنام وهي جمادات لأنهم نزلوا منزلة العقلاء ، بناء على اعتقاد المحجوجين فيهم ، ولا  
يظهر على لهذا التقدير وجه الاتيان بفعل يخلقون بصيغة المضارع لأن هذا الخلق غير

متجدد .

والضمير المجرور باللام في ﴿ لَّهُمْ نَصْرًا ﴾ عائد إلى المشركين ، لأن المجرور باللام بعد فعل الاستطاعة ونحوه هو الذي لأجله يقع الفعل مثل ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ [ العنكبوت : 17 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(380/300)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ (191) ﴾

أشركون في عبادة الله من لا يخلقون شيئاً ، وهم أنفسهم مخلوقون لله ، إن من أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم وتنازلوا عن العقل ، وكان الواجب أن يكونوا عقلاء فلا يتخذون من الأصنام آلهة . ﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾

ولذلك فإن هناك آية أخرى تفضح زعمهم يقول فيها الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ . . . ﴾ [ الحج : 73 ] .

ونعلم أن البشر في المعامل قد عرفوا العجز عن خلق خلية واحدة وهي التي لا ترى بالعين

المجردة ، ولذلك أوضح الحق أن المسألة ليست أمر خلق ، بل إن الذباب لو وقع على طعام

إنسان وأخذ على جناحه أو في خرطومه شيئاً ، لن يستطيع أحد أن يسترد المأخوذ منه ،  
فقد ضعف الطالب والمطلوب .

والخلق - كما نعلم - أول مرتبة من مراتب القدرة ، فإذا كانت الأصنام التي اتخذها هؤلاء  
شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم ، فكيف يعبدونها ؟ إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا  
تناسل . بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا صنماً صنعه العابدون بأنفسهم . ونلاحظ أن  
الحق جاء هنا بالقول : ﴿ أَشْرِكُونَ ﴾ بصيغة تعجب ، والتعجب ينشأ عن إنكار ما به  
الاستفهام ، أي تعجب منكر أعلى وفق الطباع العادية ، مثلما يقول لنا : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ  
بِاللَّهِ . . . ﴾ [ البقرة : 28 ] .

أي قولوا لنا ما الطريقة التي بها تكفرون بالله وتسترون وجوده ، مع هذه الآيات البينات  
الواضحات ؟ فكان ذلك أمر عجب يدعو أهل الحق للدهشة والاستغراب والإنكار  
الشديد ، وحينما يتكلم الحق بإنكار شيء لأنه أمر عجيب ، يوجه الكلام مرة إليهم ، ومرة  
أخرى يوجهه إلى غيرهم ، مثل قوله هنا : ﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾

(381/300)

---

والكلام للمؤمنين لأنه يريد أن يعطي لقطتين في الآية، اللقطة الأولى: أن ينكر ما فعله هؤلاء، وأن يزيد القوم الذين لم يفعلوا ثقة في نفوسهم، وفرحة بمواقفهم الإيمانية، حيث لم يكونوا مثل هؤلاء ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ .

وفي الآية الكريمة وقفة لفظية في الأسلوب العربي نفسه قد تثير عند البعض إشكالا، في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً﴾ . و"ما" تعني الذي لم يخلق شيئا، و"يخلق" هنا للمفرد، وسبحانه وتعالى جعل للمفرد هنا عمل الجمع فقال: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً﴾ .

وأقول: إن الذي يقف هذه الوقفة، ويلاحظ هذا الملحظ إنسان سطحي الثقافة بالعربية، لأنه لا يعلم أن "ما" و"من" و"ال" تطلق على المفرد والمفردة، وعلى المثنى والمثناة، وعلى جمع الذكور وجمع الإناث، فتقول: جاءني من أكرمه، وجاءتني من أكرمتها، وجاءني من أكرمتها، وجاءت من أكرمتها، وجاء من أكرمتهم وجاء من أكرمتهن .

وكذلك "ما" . إذن فقول الحق: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ في ظاهرها مفرد، ولكن اللفظ يطلق على المفرد والجماعة؛ لذلك جاء في الأمر الثاني وراعى الجماعة، إذن "يخلق" للمفرد، و"هم يخلقون" للجمع لأن قوله: "ما" صالح للجميع أي للمفرد وللمثنى وللجمع وللمذكر وللمؤنث .

ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ . . . ﴾ [محمد: 16] .

(382/300)

---

وسبحانه قال هنا: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ ، ولم يقل: " حتى إذا خرج من عندك " بل قال: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا ﴾ أي أنه جاء بالجماعة، فإذا رأيت ذلك في " ما " و " من " و " ال " فاعلم أن هذه الألفاظ يستوي فيها المفرد والمفردة والمثنى والمثناة وجمع الذكور وجمع الإناث . ﴿ أَيْشُرُّكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ .

وهنا في هذه الآية وقفة لغوية أخرى في قوله: " هم " وهي لا تطلق إلا على جماعة العقلاء، فكيف يطلق على الأصنام " هم " وليست من العقلاء؟ وأقول: إن الحق سبحانه وتعالى لما علم أنهم يعتقدون أنها تضر، وأنها تنفع، فقد تكلم معهم على وفق ما يعتقدون، لكي يرتقي معهم في رد الإنكار لكل ما يستحق الإنكار . فأول مرحلة عرفهم أن الأصنام لا تخلق، وثاني مرحلة عرفهم أنهم هم أنفسهم مخلوقون والأصنام لا تقدر على نصرهم، إذن فهم معطلون من كل ناحية؛ لأنهم لا يخلقون . وهذا أول عجز، ومن ناحية أخرى أنهم يُخلون وهذا عجز آخر، لكن بعد هذا العجز الأول والعجز الثاني فهل هم قادرون على

نصر غيرهم؟ ها هوذا سبحانه يترقى في الحوار معهم ترقية أخرى فيقول: ﴿ وَلَا  
يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(383/300)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل:

قوله: " وَهُمْ يُخْلَقُونَ "

يجوز أن يعود الضمير على ما من حيث المعنى وعبر عن ما وهو مفرد بضمير الجمع؛ لأنَّ  
لفظة ما تقع على الواحدِ والاثنين والجمع فهي من صيغ الواحد بحسب لفظها، ومحملة  
للجميع فالله تعالى اعتبر الجهتين؛ فوحَّد قوله يَخْلُقُ لظاهر اللفظ وجمع قوله: " وَهُمْ  
يُخْلَقُونَ " للمعنى، والمرادُ بها الأصنام وعبر عنهم بـ " هُم " وجمعهم بالواو والنون، لاعتقاد  
الكفار فيها ما يعتقدونه في العقلاء أو لأنهم مختلطون بمن عبَد من العقلاء كالسيح وعزير،  
أو يعودُ على الكُفَّار، أي: والكفار مخلوقون فلو تفكروا في ذلك لآمنوا . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 423 ﴾

(384/300)



---

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَمْ يَخْلُقْ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ (191) ﴾

كما لا يجوز أن يكون الربُّ مخلوقاً لا يجوز أن يكون غير الرب خالفاً ، فَمَنْ وَصَفَ الْحَقَّ

بخصائص وصف الخلق فقد أُحْدَدَ ، وَمَنْ نَعَتَ الْخَلْقَ بما هو من

خصائص حق الحق فقد جحدَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص

﴿ 595 ﴾

(385/300)

---

قوله تعالى ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (192) ﴾

"فصل"

قال البقاعي :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ ﴾ أي للمشركين الذين يعبدونها ﴿ نَصْرًا ﴾ وهو المعونة على العدو

، ولعله عبر بصيغة العاقل إشارة إلى أنهم لو كانوا يعقلون ، وكانوا بهذه الصفات الخسيئة ما

أهلوهـم لأن يكونوا أحبـابهم فضلاً عن أن يجعلوهـم أربابهم .

ولما كان من لا ينصر غيره قد ينصر نفسه ، نفى ذلك بقوله : ﴿ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ أي

في وقت من الأوقات عند يصيبهم بسوء ، بل عبدتهم يدافعون عنهم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر ح 3 ص 169 ﴾

(386/300)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾

يريد أن الأصنام لا تنصر من أطاعها ولا تنتصر ممن عصاها .

والنصر : المعونة على العدو والمعنى أن المعبود يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع ودفع

الضرر وهذه الأصنام ليست كذلك .

فكيف يليق بالعاقل عبادتها ؟

ثم قال : ﴿ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ أي ولا يدافعون عن أنفسهم مكروهاً فإن من أراد

كسرهم لم يقدروا على دفعه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 74 ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ الآية ،

هذه تخرج على تأويل من قال إن المراد آدم وحواء والشمس على ما تقدم ، ولكن بقلق  
وتعسف من التأول في المعنى ، وإنما تتسق هذه الآيات ويروق نظمها ويتناصر معناها على  
التأويل الآخر ، والمعنى ولا ينصرون أنفسهم من أمر الله وإرادته ، ومن لا يدفع عن نفسه  
فأحرى أن لا يدفع عن غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾  
وقال أبو حيان :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾

أي ولا تقدر الأصنام أن يعبدهم على نصر ولا لأنفسهم إن حدث بهم حادث بل عبدتهم  
الذين يدفعون عنها ويحمونها ومن لا يقدر على نصر نفسه كيف يقدر على نصر غيره .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(387/300)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ ﴾

أي لعبدتهم إذا حزّ بهم أمرهم وخطب ملّم ﴿ نصرًا ﴾ أي نصرًا ما يجلب منفعة أو دفع  
مضرة ﴿ ولا أنفسهم ينصرون ﴾ إذا اعتراهم حادثة من الحوادث أي لا يدفعونها عن  
أنفسهم ، وإيراد النصر للمشكلة ، وهذا بيان لعجزهم عن إيصال منفعة ما من المنافع  
الوجودية والعدمية إلى عبدهم وأنفسهم بعد بيان عجزهم عن إيصال منفعة الوجود إليهم  
وإلى أنفسهم ، خلا أنهم وُصفوا هناك بالمخلوقية لكونهم أهلاً لها وها هنا لم يوصفوا  
بالمنصورية لأنهم ليسوا أهلاً لها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾  
وقال الأوسى :

﴿ وَكَأَيُّسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (192) ﴿

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي الأصنام ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للمشركين الذين عبدوهم ﴿ نصرًا ﴾  
أي نصرًا ما إذا أجزهم أمرهم وخطب ملّم ﴿ ولا أنفسهم ينصرون ﴾ إذا اعتراهم  
حادثة من الحوادث أي لا يدفعونها عن أنفسهم ، وإيراد النصر للمشكلة وهو مجازي لازم  
معناه وهذا التأكيد العجز والاحتياج المنافين لاستحقاق الألوهية ، ووصفوا فيما تقدم  
بالمخلوقية لكونهم أهلاً لها ولم يوصفوا هنا بالمنصورية لأنهم ليسوا أهلاً لها . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ ﴾ أي : لعبدتهم إذا حز بهم أمر ﴿ نَصْرًا ﴾ أي : بجلب نفع ، أو دفع ضرر ﴿ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ إذا اعترتهم حادثة من الحوادث ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْأَلُوكُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ ، وكما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ، ويهينها غاية الإهانة .

وقد حكى ابن كثير أن معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما أسلما لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكانا شابين ، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين ، يكسرانها ويتلفانها ، ويتخذانها حطباً للأرامل ، ليعتبر قوما . وكان لعمر بن الجموح - وكان سيداً في قومه - صنم يعبده ويطيبه ، فكانا يجيئان في الليل ، فينكسانه على رأسه ، ويلطخاناه بالعذرة ، فيجيء عمرو بن الجموح ، فيرى ما صنع به ، فيغسله ويطيبه ، ويضع عنده سيفاً ، ويقول له : انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضاً . حتى أخذاه مرة ، فقرناه مع كلب ميت ، ودلياه في حبل في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ، ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل . وقال :

تالله لو كنت إلهاً مستدن لم تك والكلب جميعاً في قرن  
مستدن : ذليل مستعبد . والقرن : الحبل .

ثم أسلم فحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيداً ، رضي الله عنه وأرضاه .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على صحة الحجاج في الدين ، لأن قوله : ﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ

﴿ الآية - حجاج ، وتدل على أن المستحق للعبادة الذي يخلق وينعم ويقدر على النفع

والضر هو الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل - 7 ص 241-242 ﴾

(389/300)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ عطف على جملة : ﴿ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾

فتكون صلة ثانية .

والقول في الفعلين من ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ كالقول في ﴿ مَا لَا يَخْلُقُ

شَيْئًا ﴾ .

وتقديم المفعول في ﴿ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ للاهتمام بنفي هذا النصر عنهم ، لأنه أدل

على عجز تلك الآلهة لأن من يقصر في نصر غيره لا يقصر في نصر نفسه لو قدر .

والمعنى : أن الأصنام لا ينصرون من يعبدونهم إذا احتاجوا لنصرهم ولا ينصرون أنفسهم

إن رام أحد الاعتداء عليها .

والظاهر أن تخصيص النصر من بين الأعمال التي يتخيلون أن تقوم بها الأصنام مقصود منه تنبيه المشركين على انتفاء مقدرة الأصنام على نفعهم ، إذ كان النصر أشد مرغوب لهم ، لأن العرب كانوا أهل غارات وقاتل وتراث ، فالانتصار من أهم الأمور لديهم قال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم ﴾ [يس : 74 ، 75 ] وقال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلاسيفرون بعبادتهم ﴾ [ مريم : 81 ، 82 ] ، قال أبو سفيان يوم أحد "أعل هبل" وقال أيضا " ﴿ لنا العزى ولا عزى لكم وأن الله أعلم المسلمين بذلك تعريضا بالبشارة بأن المشركين سيغلبون قال ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم ونس المهاد ﴾ [ آل عمران : 12 ] وأنهم سيمحقون الأصنام ولا يستطيع أحد الذب عنها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ﴾

ح 8 ص

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَكَأَيُّسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (192)

إذن فلا أحد من الأصنام قادر على أن ينصر نفسه أو يضمن نصر غيره .

وهكذا نجد الترقى في الحوار على أربع مراحل ، أولا : لا يخلقون ، ثانيا : هم يخلقون ، ثالثا :

لا ينصرونكم ، ورابعا : ولا ينصرون أنفسهم . ثم تأتي المرحلة الخامسة في قوله الحق :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي

﴿ ص

(390/300)

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (192) ﴾

أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم

وصححه عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما ولدت حواء طاف بها

إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث

فعاث ، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره " .



وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن سمرة بن جندب في قوله ﴿ فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء ﴾ قال : سمياه عبد الحارث .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي بن كعب قال : لما حملت حواء وكان لا يعيش لها ولد آتاها الشيطان ، فقال : سمياه عبد الحارث يعيش لكما ، فسمياه عبد الحارث فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي بن كعب قال : لما حملت حواء آتاها الشيطان ، فقال : أتطيعيني ويسلم لك ولدك ؟ سميه عبد الحارث فلم تفعل ، فولدت فمات ، ثم حملت فقال لها مثل ذلك : فلم تفعل ، ثم حملت الثالث فجاءها فقال لها : إن تطيعيني سلم لك ، وإلا فإنه يكون بهيمة ، فطاعته .

(391/300)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : ولد لآدم ولد فسماه عبد الله ، فأتاها إبليس فقال : ما سميتما ابنكما هذا ؟ قال : عبد الله ، وكان ولد لهما قبل ذلك ولد فسمياه عبد الله . فقال إبليس : أتظنان أن الله تارك عبده عندكما ؟ ووالله ليذهبن به كما ذهب بالآخر ولكن أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما فسمياه عبد شمس فسمياه ، فذلك قوله تعالى

﴿ أشركون ما لا يخلق شيئاً ﴾ الشمس لا تخلق شيئاً إنما هي مخلوقة . قال : وقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم " خدعها مرتين " . قال زيد : خدعها في الجنة ،

وخدعها في الأرض .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : لما أهبط الله آدم

وحواء ألقى في نفسه الشهوة لامرأته ، فتحرك ذلك منه فأصابها ، فليس إلا أن أصابها

حملت ، فليس إلا أن حملت تحرك ولدها في بطنها ، فقالت : ما هذا ؟ فجاءها إبليس

فقال لها : إنك حملت قتلدين . قالت : ما ألد ؟ قال : ما هل ترين الإناقة أو بقرة أو ماعزة

أو ضانية هو بعض ذلك ، ويخرج من أنفك أو من عينك أو من اذنك . قالت : والله ما مني

من شيء إلا وهو يضيق عن ذلك ! قال : فاطيعيني وسميه عبد الحارث - وكان اسمه في

الملائكة الحارث - تلدي مثلك ، فذكرت ذلك لآدم فقال : هو صاحبنا الذي قد علمت .

فمات ثم حملت بآخر ، فجاءها فقال : أطيعيني أو قتله فإنني أنا قتلت الأول ، فذكرت

ذلك لآدم فقال مثل قوله الأول ، ثم حملت بالثالث فجاءها فقال لها مثل ما قال ، فذكرت

ذلك لآدم فكانه لم يكره ذلك ، فسمته عبد الحارث فذلك قوله ﴿ جعلناه شركاء فيما

آتاهما ﴾ .

---

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : حملت حواء ،  
فأتاها إبليس فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة ، لتطيعيني أو لأجعلن له  
قربى أيل فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ولأفعلن - فحوفهما - سمياه عبد الحارث ،  
فأبياً أن يطيعاه فخرج ميتاً ، ثم حملت فأتاهما أيضاً فقال مثل ذلك ، فأبياً أن يطيعاه فخرج  
ميتاً ، ثم حملت فأتاهما فذكر لهما فادر كهما حب الولد فسمياه عبد الحارث ، فذلك قوله  
﴿ جعلناه شركاء فيما آتاهما ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن السدي قال : إن أول اسم سمياه عبد الرحمن فمات ، ثم سمياه  
صالحاً فمات ، يعني آدم وحواء .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كانت حواء تلد لآدم أولاد . فتعبد لهم الله ، وتسميه  
عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت ، فأتاها إبليس وآدم فقال : إنكما لو  
تسميانه بغير الذي تسميانه لعاش ، فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله  
﴿ وهو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن في الآية قال : كان هذا في بعض أهل الملل وليس  
بآدم .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس أنه قرأها ﴿ حملت حملاً خفيفاً فمرت به ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن سمرة في قوله ﴿ حملت حملاً خفيفاً ﴾ .

قال : خفيفاً لم يستن ، فمرت به لما استبان حملها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فمرت به ﴾ قال : فشكت

أحملت أم لا .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أيوب قال : سئل الحسن عن قوله ﴿ حملت حملاً خفيفاً

فمرت به ﴾ قال : فشكت أحملت أم لا .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أيوب قال : سئل الحسن عن قوله ﴿ حملت حملاً خفيفاً

فمرت به ﴾ قال : لو كنت عربياً لعرفتها ، إنما هي استمرت بالحمل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ حملت حملاً خفيفاً ﴾ قال : هي

من النطفة ﴿ فمرت به ﴾ يقول : استمرت .

(393/300)

---

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ فمرت به ﴾ قال :

فاستمرت به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ فمرت به

﴿ قال : فاستمرت بحمله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ فمرت به

﴿ قال : فاستمرت بحمله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران في قوله ﴿ فمرت به ﴾ قال : استخفته .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي ﴿ فلما أثقلت ﴾ قال : كبر الولد في بطنها .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي صالح في قوله ﴿ لئن آتيتنا ﴾ قال :  
أشفقا أن يكون بهيمة ، فقالا : لئن آتيتنا بشراً سوياً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : أشفقا أن لا يكون إنساناً .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ لئن آتيتنا صالحاً ﴾  
قال : غلاماً سوياً .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله ﴿ فجعلناه شركاء ﴾ قال : كان شركاء في  
طاعة ، ولم يكن شركاء في عباده .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ فجعلناه شركاء ﴾ بكسر الشين .

وأخرج عبد بن حميد عن سفیان ﴿ جعلناه شركاء ﴾ قال : أشركاه في الاسم قال :  
وكنية إبليس أبو كدوس .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن السدي قال :

هذا من الموصل والمفصول قوله ﴿ جعلاله شركاء فيما آتاها ﴾ في شأن آدم وحواء ،  
يعني في الأسماء ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ يقول : عما يشرك المشركون ولم يعينيهما .  
وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ما أشرك آدم أن أولها شكر وآخرها  
مثل ضربه لمن بعده .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ هذه  
فصل بين آية آدم خاصة في آلهة العرب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حاتم عن أبي مالك في الآية قال : هذه مفصلة اطاعاه في الولد  
﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ هذه لقوم محمد .

(394/300)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ جعلاله  
شركاء ﴾ قال : كان شركاء في طاعته ولم يكن شركاء في عبادته ، وقال : كان الحسن يقول :  
هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ قال : يعني بها ذرية آدم  
ومن أشرك منهم بعده .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ قال: هو الإنكاف  
أنكف نفسه يقول: عظم نفسه، وانكفته الملائكة وما سبج له.

وأخرج ابن حميد وأبو الشيخ عن الحسن في الآية قال: هذا في الكفار، يدعون الله فإذا  
أتاهما صالحاً هوذا ونصراً، ثم قال ﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾ يقول:  
يطيعون ما لا يخلق شيئاً وهي الشياطين لا تخلق شيئاً وهي تخلق ﴿ ولا يستطيعون لهم  
نصراً ﴾ يقول: لمن يدعوهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(395/300)

---

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

قوله جل ذكره: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ .

من حَكَمَ بأنه ليس في مقدور الحق شيء (لوفعله اسم الجاهل طوعاً لإفعله) (1) فقد  
وصف بأنه لا يقدر على نصره فمضاه الذي يعيد الجماد ونعوذ بالله من الضلالة عن

الرشاد. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 596.595 ﴾

---

(1) ما بين القوسين جاء في النسخة المصورة هكذا وفيه غموض ربما نشأ عن خطأ في النسخ.

(396/300)

## فصل

قال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ السائلون : هم اليهود .

وقيل : قريش .

والساعة : القيامة .

وهي من الأسماء الغالبة ، وإطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها .

و ﴿ أَيَّانَ ﴾ ظرف زمان مبني على الفتح .

قال الراجز :

أيان تقضي حاجتي أيانا . . . أما ترى لنجحها أوانا

ومعناه معنى متى ، واشتقاقه من أيّ .

وقيل من أين .



وقرأ السلمي "إيان" بكسر الهمزة وهو في موضع رفع على الخبر.

﴿ مرساها ﴾ المبتدأ عند سيبويه .

﴿ مرساها ﴾ بضم الميم ، أي وقت إرسائها من أرساها الله ، أي أثبتها ، وفتح الميم

من رست ، أي ثبتت ، ومنه : ﴿ وَقُدُورِ رَاسِيَاتٍ ﴾ [ سبأ : 13 ] ، ومنه رسا

الجبيل .

والمعنى : متى يرسيها الله ، أي يثبتها ويوقعها .

وظاهر ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ أن السؤال عن نفس الساعة ، وظاهر ﴿ أَيَّانَ

مرساها ﴾ أن السؤال عن وقتها ، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة .

باعتبار وقوعها في الوقت المعين لذلك ، ثم أمره الله سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله : ﴿ قُلْ

إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ أي : علمها باعتبار وقوعها عند الله ، لا يعلمها غيره ولا يهتدي

إليها سواه ﴿ لِأَجَلِهَا لَوْقَتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ أي : لا يظهرها لوقتها ، ولا يكشف عنها إلا الله

سبحانه .

والتجلية : إظهار الشيء ، يقال جلى لي فلان الخبر : إذا أظهره وأوضحه ، وفي استئثار

الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة ، وتدبير بليغ كسائر الأشياء التي أخفاها الله

واستأثر بعلمها .

وهذه الجملة مقررة لمضمون التي قبلها .

قوله: ﴿ تَقَلَّتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قيل معنى ذلك: أنه لما خفي علمها على أهل

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كانت ثقيلة، لأن كل ما خفي علمه ثقيل على القلوب.

وقيل المعنى: لا تطيقها السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لعظمتها، لأن السماء تنشق، والنجوم تتناثر،

والبحار تنضب.

وقيل: عظم وصفها عليهم.

وقيل: ثقلت المسألة عنها.

(397/300)

---

وهذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها أيضاً.

﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ الإفجأة على غفلة.

والبغته مصدر في موضع الحال.

وهذه الجملة كالتى قبلها في التقرير.

قوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ .

قال ابن فارس: الحفيّ العالم بالشيء، والحفيّ المستقصى في السؤال، ومنه قول الأعشى:

فإن تسألني عني فيارب سائل . . . حفيّ عن الأعشى به حيث أصعدا

يقال أحفى في المسألة وفي الطلب فهو محف ، وحفى على الكثير مثل محصب وخصيب .  
والمعنى : يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها ، أو كأنك مستقص للسؤال عنها ومستكثر  
منه .

والجملة التشبيهية في محل نصب على الحال ، أي : يسألونك مشبهاً حالك حال من هو  
حفى عنها .

وقيل المعنى : يسألونك عنها كأنك حفى بهم ، أي حفى يبرهم وفرح بسؤالهم .

والأول : هو معنى النظم القرآني على مقتضى المسلك العربي .

قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ أمره الله سبحانه بأن يكرّر ما أجاب به عليهم سابقاً  
لتقرير الحكم وتأكيده .

وقيل : ليس بتكرير ، بل أحدهما معناه الاستئثار بوقوعها ، والآخر الاستئثار بكنهها

نفسها ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ باستئثار الله بهذا ، وعدم علم خلقه به ، لم يعلمه  
ملك مقرب ولا نبي مرسل .

(398/300)

---

قوله: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ هذه الجملة متضمنة لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة أيان تكون ومتى تقع ، لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له ، أو دفع ضرر عنه إلا ما شاء الله سبحانه من النفع له والدفع عنه ، فبالأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه ، وفي هذا من إظهار العبودية والإقرار بالعجز عن الأمور التي ليست من شأن العبيد ، والاعتراف بالضعف عن اتحال ما ليس له صلى الله عليه وسلم ما فيه أعظم زاجر ، وأبلغ واعظ لمن يدعي لنفسه ما ليس من شأنها ، وينتحل علم الغيب بالنجامة أو الرمل أو الطرق بالحصا أو الزجر .

ثم أكد هذا وقرره بقوله: ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ أي : لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته إلى نفسي ، وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسيني ، ولكنني عبد لا أدري ما عند ربي ، ولا ما قضاه في وقدره لي ، فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه ؟ وقيل المعنى : لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرفنيه لفعلته .

وقيل : لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب ، لقاتلت فلم أغلب .  
وقيل : لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه ، والأولى حمل الآية على العموم ، فتدرج هذه الأمور وغيرها تحتها .

وقد قيل : إن ﴿ وَمَا مَسَّنِي السُّوء ﴾ كلام مستأنف ، أي : ليس بي ما تزعمون من

الجنون والأولى : أنه متصل بما قبله .

والمعنى : لو علمت الغيب ما مسني السوء ، ولحذرت عنه كما قدمنا ذلك .

قوله : ﴿ إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : ما أنا إلا مبلغ عن الله لأحكامه أنذر بها

قوماً ، وأبشر بها آخرين ، ولست أعلم بغيب الله سبحانه .

واللام في ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ متعلق بكلا الصفتين : أي بشير لقوم .

(399/300)

---

ونذير لقوم ، وقيل : هو متعلق ببشير ، والمتعلق بنذير محذوف ، أي نذير لقوم يكفرون ،

وبشير لقوم يؤمنون .

قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نعم الله على

عباده وعدم مكافأتهم لها ، مما يجب من الشكر والاعتراف بالعبودية ، وأنه المنفرد

بالإلهية .

قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة .

آدم ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ معطوف على ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ أي : هو الذي

خلقكم من نفس آدم ، وجعل من هذه النفس زوجها ، وهي حواء ، خلقها من ضلع من

أضلاعه .

وقيل المعنى ﴿ جَعَلَ مِنْهَا ﴾ من جنسها ، كما في قوله : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [النحل : 72] والأول : أولى .

﴿ لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا ﴾ علة للجعل ، أي جعله منها لأجل ﴿ يسكن إليها ﴾ يأنس إليها .  
ويطمئن بها ، فإن الجنس بجنسه أسكن وإليه أنس .  
وكان هذا في الجنة ، كما وردت بذلك الأخبار .

ثم ابتداء سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما ، فقال : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ ، والتغشي كناية عن الوقاع ، أي فلما جامعها ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾  
علقت به بعد الجماع ، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقة ،  
وعند كونه علقة أخف منه عند كونه مضغة ، وعند كونه مضغة أخف مما بعده .

وقيل : إنه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه ، ولم تجد منه ثقلاً .

كما تجده الحوامل من النساء ، لقوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ أي : استمرت بذلك الحمل تقوم  
وتتعد ، وتمضي في حوائجها لا تجد به ثقلاً ، والوجه الأول ، لقوله : ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ فإن  
معناه : فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها .

وقرىء "فمرت به" بالتخفيف ، أي فجزعت لذلك ، وقرىء "فمارت به" من المور ، وهو  
الجميء والذهاب .

وقيل المعنى : فاستمرت به .

وقد رويت قراءة التخفيف عن ابن عباس ، ويحيى بن يعمر .

(400/300)

ورويت قراءة "فمات" عن عبد الله بن عمر .

وروي عن ابن عباس أنه قرأ "فاستمرت به" .

قوله : ﴿ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾ جواب لما ، أي : دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما ﴿

لِنُؤْتِيَنَّا صَالِحًا ﴾ أي : ولداً صالحاً ، واللام جواب قسم محذوف ، و ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ

الشَّاكِرِينَ ﴾ جواب القسم ساد مسدّ جواب الشرط ، أي من الشَّاكِرِينَ لك على هذه

النعمة .

وفي هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ما حدث في بطن حواء من أثر ذلك الجماع هو

من جنسهما ، وعلما بثبوت النسل المتأثر عن ذلك السبب ﴿ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا ﴾ ما طلباه

من الولد الصالح ، وأجاب دعاءهما ﴿ جَعَلَالَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ﴾ قال كثير من

المفسرين : إنه جاء إبليس إلى حواء وقال لها : إن ولدت ولداً فسميه باسمي فقالت : وما

اسمك ؟ قال : الحارث ولو سمي لها نفسه لعرفته ، فسمته عبد الحارث ، فكان هذا شركاً

في التسمية ، ولم يكن شركاً في العبادة .

وإنما قصداً أن الحارث كان سبب نجاة الولد ، كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه ، كما

قال حاتم الطائي :

وإنني لعبد الضيف مادام ثاوياً . . . وما قيّ إلا تلك من شيمة العبد

وقال جماعة من المفسرين : إن الجاعل شركاً فيما آتاها هم جنس بني آدم ، كما وقع من

المشركين منهم ، ولم يكن ذلك من آدم وحواء ، ويدلّ على هذا جمع الضمير في قوله : ﴿

فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وذهب جماعة من المفسرين إلى أن معنى ﴿

مَنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ من هيئة واحدة وشكل واحد ﴾ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي : من جنسها ﴾ فَلَمَّا

تَغَشَّاهَا ﴾ يعني جنس الذكر جنس الأنثى .

وعلى هذا لا يكون لآدم وحواء ذكر في الآية ، وتكون ضمائر التثنية راجعة إلى الجنسين .

وقد قدّمنا الإشارة إلى نحو هذا ، وذكرنا أنه خلاف الأولى لأمر منها ﴾ وَجَعَلَ مِنْهَا

زَوْجَهَا ﴾ بأن هذا إنما هو لحواء .

(401/300)

---



ومنها ﴿ دَعَا اللَّهَ رَبِّهَآ ﴾ فإن كل مولود يولد بين الجنسين ، لا يكون منهما عند مقارنة وضعه هذا الدعاء .

وقد قرأ أهل المدينة وعاصم "شركاً" على التوحيد .

وقرأ أبو عمرو ، وسائر أهل الكوفة بالجمع .

وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى .

وأجيب عنه بأنها صحيحة على حذف المضاف ، أي جعلاله ذا شرك ، أو ذوي شرك .

والاستفهام في ﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً ﴾ للتقريع والتوبيخ ، أي كيف يجعلون لله

شريكاً لا يخلق شيئاً ولا يقدر على نفع لهم ، ولا دفع عنهم .

قوله : ﴿ وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ عطف على ﴿ مَا لَا يَخْلُقُ ﴾ والضمير راجع إلى الشركاء

الذين لا يخلقون شيئاً ، أي وهؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين

مخلوقون .

وجمعهم جمع العقلاء لاعتقاد من جعلهم شركاء أنهم كذلك ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ ﴾ أي :

لمن جعلهم شركاء ﴿ نَصْرًا ﴾ إن طلبه منهم ﴿ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ إن حصل

عليهم شيء من جهة غيرهم ، ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز .

وقد أخرج ابن إسحاق ، وابن جرير ، وأبو الشيخ عن ابن عباس ، قال : قال حمل بن أبي

قيس ، وشمول بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً

كما تقول فإننا نعلم ما هي؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرَسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

(402/300)

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة ﴿أَيَّانَ مَرَسَاهَا﴾ أي: متى قيامها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ قال: قالت قريش يا محمد أسر إلينا الساعة لما بيننا وبينك من القرابة؟ قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرَسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "تهيج الساعة بالناس، والرجل يسقي على ماشيته، والرجل يصلح حوضه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه، والرجل يقيم سلعته في السوق، قضاء الله لا تأتيكم إلا بغتة" وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَيَّانَ مَرَسَاهَا﴾ قال: ﴿منتهاها﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ يقول: لا يأتي بها إلا الله .  
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في الآية قال: هو يجليها لوقتها لا يعلم ذلك إلا

الله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ ﴾ قال : ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿

ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : ثقل علمها على أهل السموات والأرض .

يقول كبرت عليهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج ، في قوله : ﴿ ثَقَلَتْ فِي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : إذا جاءت انشقت السماء ، وانتثرت النجوم ، وكوّرت

الشمس ، وسيرت الجبال ، وما يصيب الأرض .

وكان ما قال الله سبحانه فذلك ثقلها فيهما .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ قال : فجأة آمين .

(403/300)

---

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ،

والبيهقي في البعث ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ قال : استحفيت

عنها السؤال حتى علمتها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾

يقول : كأنك عالم بها ، أي لست تعلمها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي عنه ﴿ كَأَنَّكَ

حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ قال : لطيف بها .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عنه أيضاً ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ

عَنْهَا ﴾ يقول : كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم .

قال لما سأل الناس محمداً صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، سأله سؤال قوم كأنهم يرون

أن محمداً حفيٌّ بهم ، فأوحى الله إليه : ﴿ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ استأثر بعلمها فلم يطلع

ملكاً ولا رسولاً .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عمرو بن دينار قال : كان ابن عباس يقرأ "كأنك حفيٌّ بها" .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

قال : الهدى والضلالة ﴿ وَكَوُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ ﴾ متى أموت ﴿ لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ

﴾ قال : العمل الصالح .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَكَوُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ قال : لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئاً لأربح

فيه ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ قال: ولا يصيبني الفقر .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن زيد في قوله: ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ قال:

لا جئبت ما يكون من الشرِّ قبل أن يكون .

وأخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والرويانبي ،

والطبراني ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن سمرة عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال:

(404/300)

---

" لما ولدت حواء طاف بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال: سميه عبد الحارث فإنه

يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش ، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره " وأخرج عبد

بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن سمرة في قوله: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ

شُرْكَاءَ ﴾ قال: سمياه عبد الحارث .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ ، عن أبي بن كعب ، نحو حديث سمرة المرفوع موقوفاً

عليه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال: حملت حواء

فأتاها إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، تطيعني أو لأجعلن له  
قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن، ولأفعلن، يخوفهما، سمياه عبد الحارث،  
فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت فأتاهما أيضاً فقال مثل ذلك، فأبيا أن يطيعاه  
فخرج ميتاً، ثم حملت فأتاهما، فذكر لهما، فأدر كهما حبّ الولد، فسمياه عبد  
الحارث.

فذلك قوله: ﴿ جَعَلَالَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ﴾ .

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن، في الآية قال: كان هذا في بعض أهل الملل  
وليس بآدم.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه، عن سمرة، في قوله: ﴿ حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً ﴾ لم يستن  
﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ لما استبان حملها.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ قال:  
فشكت أحملت أم لا؟ وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن أيوب قال: سئل الحسن عن  
قوله: ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ قال: لو كنت عربياً لعرفتُها، إنما هي استمرت بالحمل.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿ حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً ﴾ قال  
: هي النطفة ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ يقول: استمرت به.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ قال:

فاستمرت به .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ميمون بن مهران ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ يقول : استخفته .

(405/300)

---

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبي صالح في قوله : ﴿ لِنُ  
ءَاتَيْنَا صَالِحًا ﴾ فقال : أشفق أن يكون بهيمة ، فقالا لئن آتينا بشراً سوياً .  
وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد نحوه .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن الحسن في الآية قال  
غلاماً سوياً .

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ جعلاله شركاء ﴾ قال : كان  
شريكاً في طاعة ، ولم يكن شريكاً في عبادة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ، قال : ما أشرك آدم إن أولها شكر ، وآخرها مثل  
ضربه لمن بعده .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن السدي ، في قوله : ﴿ فتعالى الله عما يُشركون ﴾  
هذا فصل من آية آدم خاصة في آلهة العرب .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك نحوه.

وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن الحسن، في الآية قال: هذا في الكفار يدعون الله، فإذا آتاها صالحاً هوداً أو نصراً، ثم قال: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ يقول: يطعون ما لا يخلق شيئاً، وهي الشياطين لا تخلق شيئاً وهي تخلق ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ يقول لمن يدعوهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿فتح القدير ح 2 ص﴾

(406/300)

---

قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ (193)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما تبين من هذا الاستفهام الإنكاري المعجب من حالهم في ضلالهم في أسلوب الغيبة أن من أشركوه ليس فيه نوع قابلية لما أهلوه، فإن المعبود يجب أن يكون قادراً، ومن كان عاجزاً نوع عاجز كان مربوباً، وكان للتنبية بالخطاب ما ليس له بالغيبة؛ أتبع ذلك في أسلوبه تعجبياً آخر منهم أشد من الأول، وذلك أن معبوداتهم التي أشركوا بها كما أنها لا تفعل



شيئاً من تلقاء أنفسها ، لا تفعله عند دعاء الداعي ولا تهدي إليه فقال تعالى ﴿ وإن تدعوهم ﴾ أي وإن تدعوا أيها المشركون أصنامكم دعاء مستمراً متجدداً ﴿ إلى الهدى ﴾ أي إلى الذي يدل الداعي إليه قطعاً ، على أن المتخلف عنه سييء المزاج ، محتاج إلى العلاج ، لكونه تخلف عما لا يتخلف عنه من له نوع صلاح لكونه أشرف الأشياء ، فالمتخلف عنه راض لنفسه بالدون ﴿ لا يتبعوكم ﴾ أي في ذلك الهدى الذي دعوتهم إليه ولم بالغم في الاستباع ، ولعله عبر بصيغة الافعال إشارة إلى أنها لا يتصور منها قصد التبع فضلاً عن إيجاده ، ثم بين أن ذلك ليس بأمر عارض ، بل هو مستمر دائم بقوله مستأنفاً تأكيداً للمعنى : ﴿ سواء عليكم ﴾ .

(407/300)

---

ولما كان السواء لا يكون إلا بين أمرين ، تشوف السامع إليهما فقال : ﴿ ادعوتهم ﴾ أي وجد منكم ذلك الدعاء الذي أشير إلى استمراره ، وعبر بالاسمية إشارة إلى أنهم لا يدعونهم في وقت الشدائد ، بل يدعون الله فقال : ﴿ أم أتم صامتون ﴾ أي عن ذلك على الدوام على عادتكم في الإعراض عن دعائهم في أوقات الملمات ، فالذين يدعون معتقديهم في وقت الضرورات أقبح حالاً في ذلك من المشركين ويجوز أن تكون الآية من الاحتباك ،

فيكون نظمها : أدعوتوهم مرة أو أتم داعوهم دائماً أم صمتم عن دعائهم في وقت ما أم أتم صامتون دائماً عن دعائهم ، حاكم في كل هذه الأجوبة سواء في عدم الإجابة ، لا اختلاف فيه بوجه ، دل بالفعل أولاً على حذف مثله ثانياً ، وبالاسم ثانياً على حذف مثله أولاً .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 169 . 170 ﴾

(408/300)

فصل

قال الفخر :

ثم قال : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ ﴾

واعلم أنه تعالى لما أثبت بالآية المتقدمة أنه لا قدرة لهذه الأصنام على أمر من الأمور ، بين بهذه الآية أنه لا علم لها بشيء من الأشياء ، والمعنى أن هذا المعبود الذي يعبده المشركون معلوم من حاله أنه كما لا ينفع ولا يضر ، فكذا لا يصح فيه إذا دعى إلى الخير الأتباع .  
ولا يفصل حال من يخاطبه ممن يسكت عنه ، ثم قوى هذا الكلام بقوله : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ وهذا مثل قوله :

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ [ البقرة : 6 ] وذكرنا ما فيه من المباحث في تلك

الآية إلا أن الفرق في تلك الآية عطف الفعل على الفعل ، وههنا عطف الاسم على الفعل ،  
لأن قوله : ﴿ ادْعُوهُمْ ﴾ جملة فعلية : وقوله : ﴿ أُمَّاتٌ صَامِتُونَ ﴾ جملة إسمية .  
واعلم أنه ثبت أن عطف الجملة الإسمية على الفعلية لا يجوز إلا لفائدة وحكمة ، وتلك  
الفائدة هي أن صيغة الفعل مشعرة بالتجدد والحدوث حالاً بعد حال ، وصيغة الاسم  
مشعرة بالدوام والثبات والاستمرار .

إذا عرفت هذا فنقول : إن هؤلاء المشركين كانوا إذا وقعوا في مهم وفي معضلة تضرعوا إلى  
تلك الأصنام ، وإذا لم تحدث تلك الواقعة بقوا ساكتين صامتين ، فقبل لهم لا فرق بين  
إحداثكم دعاءهم وبين أن تستمروا على صمتكم وسكوتكم ، فهذا هو الفائدة في هذه  
اللفظة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 74-75 ﴾

(409/300)

وقال السمرقندي :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾

قال الكلبي يعني : الآلهة .

وإن يدع المشركون آلهتهم إلى أمر ﴿ لَا يَتَّبِعُكُمْ ﴾ يعني : لا يتبعهم آلهتهم ﴿ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ

﴿ يا أهل مكة ﴾ ادْعُوهُمْ أُمَّاتُمْ صَامِتُونَ ﴿ لا تعقل شيئاً لأنه ليس فيها روح .

وقال مقاتل : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾ يعني : كفار مكة ﴿ لَا يَتَّبِعُكُمْ ﴾ لا

يتبعونكم يعني : النبي صلى الله عليه وسلم سواء عليكم ادْعُوهُمْ أُمَّاتُمْ صَامِتُونَ فلا  
يؤمنون قرأ نافع ﴿ لَا يَتَّبِعُكُمْ ﴾ بجزم التاء وقرأ الباقون بالنصب والتشديد ﴿ لَا يَتَّبِعُكُمْ ﴾  
﴿ وهما لغتان تبعه وأُتبعه معناهما واحد . انتهى انتهى . ١ هـ ﴾ بحر العلوم ح 1 ص ﴿

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾ الآية ،

من قال إن الآيات في آدم عليه السلام قال إن هذه مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم وأُمَّته  
مستأنفة في أمر الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، و ﴿ لَهُمْ ﴾ الهاء والميم من  
﴿ تدعوهم ﴾ ، ومن قال بالقول الآخر قال إن هذه مخاطبة للمؤمنين والكفار على قراءة  
من قرأ " يشركون " بالياء من تحت ، وللكفار فقط على من قرأ بالتاء من فوق على جهة  
التوقيف ، أي إن هذه حال الأصنام معكم إن دعوتوهم لم يجيبوكم إذ ليس لهم حواس ولا  
إدراكات ، وقرأ نافع وحده " لَا يَتَّبِعُكُمْ " بسكون التاء وفتح الباء وقرأ الباقون " لَا يَتَّبِعُكُمْ  
" بشد التاء المفتوحة وكسر الباء والمعنى واحد ، وفي قوله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ أُمَّاتُمْ ﴾  
﴿ عطف الاسم على الفعل ، إذ التقدير أم صمتهم ومثل هذا قول الشاعر : [ الطويل ]

سواء عليك الفقر أم بت ليلة . . . بأهل القباب من نميرت عامر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(410/300)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾

فيه قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الأصنام ، فالمعنى : وإن دعوتهم أيها المشركون أصنامكم إلى سبيل  
رشاد لا يتبعوكم ، لأنهم لا يعقلون .

والثاني : أنها ترجع إلى الكفار ، فالمعنى : وإن تدع يا محمد هؤلاء المشركين إلى الهدى ، لا  
يتبعوكم ، فدعواؤكم إياهم وصمتكم عنهم سواء ، لأنهم لا ينقادون إلى الحق .

وقرأ نافع : " لا يتبعوكم " بسكون التاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾

قال الأخفش : أي وإن تدعوا الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ قال أحمد بن يحيى: لأنه رأس آية.

يريد أنه قال: ﴿ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ ولم يقل أم صمتم.

وصامتون وصمتم عند سيبويه واحد .

وقيل: المراد من سبق في علم الله أنه لا يؤمن .

وقرىء "لا يتبعوكم" "مشدداً ومخففاً" لغتان بمعنى .

وقال بعض أهل اللغة: "اتبعة" مخففاً إذا مضى خلفه ولم يدركه .

و"اتبعة" مشدداً إذا مضى خلفه فأدركه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص



(411/300)

وقال الخازن:

ثم خاطب المؤمنين فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى ﴾ يعني وإن تدعوا

أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى ﴿ لا يتبعوكم ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى حكم عليهم

بالضلالة فلا يقبلون الهداية ﴿ سواء عليكم أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾ إلى الدين والهداية ﴿ أم أنتم

صامتون ﴾ أي ساكتون عن دعائهم فهم في كلال الحالين لا يؤمنون .

وقيل إن الله سبحانه وتعالى لما بين في الآية المقدمة عجز الأصنام بين في هذه الآية أنه لا علم لها بشيء البتة؛ والمعنى أن هذه الأصنام التي يعبدها المشركون معلوم من حالها أنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع لمن دعاها إلى خير وهدى ثم قوى هذا المعنى بقوله سبحانه وتعالى: ﴿سواء عليكم أذعوتوهم أم أنتم صامتون﴾ وذلك أن المشركين كانوا إذا وقعوا في شدة وبلاء تضرعوا لأصنامهم فإذا لم تكن لهم إلى الأصنام حاجة سكتوا وصمتوا فقليل لهم لافرق بين دعائكم للأصنام أو سكوتم عنها فإنها عاجزة في كل حال . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير الخازن ح 2 ص﴾

(412/300)

وقال أبو حيان :

﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أذعوتوهم أم أنتم صامتون ﴾  
الظاهر أن الخطاب للكفار انتقل من الغيبة إلى الخطاب على سبيل الالتفات والتوبيخ على عبادة غير الله ويدل على أن الخطاب للكفار قوله بعد ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ وضمير المفعول عائد على ما عادت عليه هذه الضمائر قبل وهو الأصنام والمعنى وإن تدعوا هذه الأصنام إلى ما هو هدى ورشاد أو إلى أن يهدوكم كما

تطلبون من الله الهدى والخير لا يتبعوكم على مرادكم ولا يجيبوكم أي ليست فيهم هذه  
القابلية لأنها جماد لا تعقل ثم أكد ذلك بقوله ﴿سواء عليكم﴾ أي دعاؤكم إياهم  
وصمتكم عنهم سيان فكيف يعبد من هذه حاله؟ وقيل: الخطاب للرسول والمؤمنين  
وضمير النصب للكفار أي وإن تدعوا الكفار إلى الهدى لا يقبلوا منكم فدعاؤكم  
وصمتكم سيان أي ليست فيهم قابلية قبول ولا هدى، وقرأ الجمهور لا يتبعوكم مشدداً  
هنا وفي

﴿الشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ من اتبع ومعناها لا يقتدوا بكم، وقرأ نافع فيهما لا يتبعوكم  
مخففاً من تبع ومعناه لا يتبعوا آثاركم وعطفت الجملة الإسمية على الفعلية لأنها في معنى  
الفعلية والتقدير أم صمتم، وقال ابن عطية: وفي قوله ﴿أدعوتهم أم أتم﴾ عطف  
الاسم على الفعل إذ التقدير أم صمتم ومثل هذا قول الشاعر:

سواء عليك النفر أم بت ليلة . . .

بأهل القباب من نمير بن عامر

انتهى .



وليس من عطف الاسم على الفعل إنما هو من عطف الجملة الإسمية على الجملة الفعلية  
وأما البيت فليس من عطف الاسم على الفعل بل من عطف الجملة الفعلية على الاسم  
المقدّر بالجملة الفعلية إذ أصل التركيب سواء عليك أنفرت أم بت ليلة فأوقع النفر موقع  
أنفرت وكانت الجملة الثانية إسمية لمراعاة رؤوس الآي ولأنّ الفعل يشعر بالحدوث واسم  
الفاعل يشعر بالثبوت والاستمرار فكانوا إذا دهمهم أمر معضل فزعوا إلى أصنامهم وإذا لم  
يحدث بقوا ساكنين فقيل لافرق بين أن تحدثوا لهم دعاء وبين أن تستمروا على صمتكم  
فتبقوا على ما أنتم عليه من عادة صمتكم وهي الحالة المستمرة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(414/300)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾

بيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم وأيسر ، وهو مجرد الدلالة على المطلوب

والإرشاد إلى طريق حصوله من غير أن يحصله الطالب ، والخطاب للمشركين بطريق

الالتفات المنبئ عن مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكييت أي إن تدعوهم أيها المشركون

إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به المطالب أو تنجون به عن المكاره ﴿ لَا تَتَّبِعُوا ﴾ إلى  
مرادكم وطلبتكم، وقرىء بالتخفيف وقوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ  
صَامِتُونَ ﴾ استئنافٌ مقررٌ لمضمون ما قبله ومبينٌ لكيفية عدم الاتباع، أي مستوٍ عليكم  
في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم البحت فإنه لا يتغير حالكم في الحالين كما لا يتغير  
حالهم بحكم الجمادية، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ جملةٌ اسميةٌ في معنى الفعلية  
معطوفةٌ على الفعلية لأنها في قوة أم صمت. عدل عنها للمبالغة في عدم إفادة الدعاء ببيان  
مساواته للسكوت الدائم المستمر، وما قيل من أن الخطاب للمسلمين والمعنى وإن تدعوا  
المشركين إلى الهدى أي الإسلام لا يتبعوكم الخ، مما لا يساعده سياق النظم الكريم وسياقه  
أصلاً على أنه لو كان كذلك لقل عليهم مكان عليكم كما في قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ  
أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ فإن استواء الدعاء وعدمه إنما هو بالنسبة إلى المشركين لا  
بالنسبة إلى الداعين فإنهم فائزون بفضل الدعوة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود

﴿ 3 ص ﴾

(415/300)

---

وقال الأوسى :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ ﴾

بيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على البغية والإرشاد إلى طريق حصولها من غير أن تحصل للطالب .

والخطاب للمشركين بطريق الالتفات بدلالة ما بعد ، وفيه إيذان بمزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيث ، أي وإن تدعوا الأصنام أيها المشركون إلى أن يرشدوكم إلى ما تاحصلون به المطالب أو تنجون به عن المكاره لا يتبعوكم إلى مرادكم ولا يجيبوكم ولا يقدرّون على ذلك .

وقرأ نافع ﴿ يَتَّبِعُكُمْ ﴾ بالتخفيف وقوله تعالى :

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ومبين

لكيفية عدم الاتباع ، أي مستو عليكم في عدم الإفادة دعاءوكم لهم وسكوتكم فإنه لا يتغير حالكم في الحالين كما لا يتغير حالهم بحكم الجمادية ، وكان الظاهر الإتيان بالفعل فيما بعد

﴿ أَمْ ﴾ لأن ما في حيز همزة التسوية مؤول بالمصدر ، لكنه عدل عن ذلك للإيذان بأن

إحداث العدو مقابل باستمرار الصمات ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى ، وقيل : إن الاسمية بمعنى الفعلية وإنما عدل عنها لأنها رأس فاصلة وفيه أنه لو قيل تصمتون تم المراد .

---

وقيل: أن ضمير ﴿ تَدْعُوا ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أوله عليه الصلاة والسلام وجمع للتعظيم، وضمير المفعولين للمشركين، والمراد بالهدي دين الحق أي إن تدعوا المشركين إلى الإسلام لا يتبعوكم أي لم يحصلوا ذلك منكم ولم يتصفوا به، وتعقب بأنه مما لا يسعده سباق النظم الكريم وسياقه أصلاً على أنه لو كان كذلك لقليل عليهم مكان عليكم كما في قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: 6] فإن استواء الدعاء وعدمه إنما هو بالنسبة للمشركين لا بالنسبة إلى الداعين فإنهم فائزون بفضل الدعوة، ولعل رواية ذلك عن الحسن غير ثابتة، والطبرسي حاطب ليل.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني ﴾ 9 ص ﴿

(417/300)

---

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾  
اقتتحت هذه السورة بدعوة القرآن إلى دين التوحيد، والأمر بالتباعد عما أنزل الله، والتهني عن اتباع أولياء من دونه، وتلاه التذكير بنشأة الإنسان الأولى في الخلق والتكوين، والعداوة

بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ اخْتِصِمَتْ بِهِدِهِ الْمَعَانِي وَهُوَ التَّذْكِيرُ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَى . وَالنَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ ، وَاتِّبَاعُ وَسْوَاسَةِ الشَّيْطَانِ ، وَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَاتِّبَاعُ الْقُرْآنِ ، قَالَ تَعَالَى :

(418/300)

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ أَيْ: خَلَقَكُمْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ أَوْ حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ ، صَوَّرَهَا بَشَرًا سَوِيًّا وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا سَكُونًا زَوْجِيًّا ، أَيْ: جَعَلَ لَهَا زَوْجًا مِنْ جِنْسِهَا فَكَانَا زَوْجَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى كَمَا قَالَ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى (49 : 13) كَمَا أَنَّهُ خَلَقَ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (51 : 49) وَإِنَّا نَشَاهِدُ أَنَّ كُلَّ خَلِيَّةٍ مِنَ الْخَلَايَا الَّتِي يُنْمَى بِهَا الْجِسْمُ الْحَيُّ تُنْطَوِي عَلَى نَوْتَيْنِ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، يَقْتَرِنَانِ فَيُوَلِّدُ بَيْنَهُمَا خَلِيَّةً أُخْرَى ، وَهَلُمَّ جَرًّا ، وَنَعْلَمُ أَيْضًا كَيْفَ يَتَكَوَّنُ فِي الْأَرْحَامِ كُلِّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَمَنَّى (53 : 45 ، 46) وَلَكِنَّا لَا نَدْرِي كَيْفَ ارْتَدَوَتِ النَّفْسُ الْأُولَى بَعْدَ وَحْدَتِهَا فَكَانَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى ، قَالَ تَعَالَى : مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ (18 : 51) وَفِي التَّوْرَةِ الَّتِي عِنْدَ أَهْلِ

الْكِتَابِ أَنْ حَوَاءَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ مِنْ أُضْلَاعِ آدَمَ، وَقَدْ أَمَرْنَا نَبِيَّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
- الْأَنْصَدَقَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا نَكْذِبُهُمْ، أَيُّ فِيمَا لَانَصَّ فِيهِ عِنْدَنَا لِاحْتِمَالِهِ، فَنَحْنُ نَعْمَلُ  
بِأَمْرِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي هَذَا الْخَبَرِ، وَإِنْ حَمَلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ  
حَدِيثَ اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ فَإِنْ  
ذَهَبَتْ تَقِيمَهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ رَوَاهُ الشَّيْخَانُ مِنْ  
حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا . فَإِنَّ الْمُبَادَرَ مِنْهُ الَّذِي اعْتَمَدَهُ الشُّرَاحُ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّ الْمُرَادَ  
بِخَلْقِهَا مِنْهُ أَنَّهَا ذَاتُ أَعْوَجٍ وَشَدُودٍ تُخَالِفُ بِهِ الرَّجُلَ، كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ مَا رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ  
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ "إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ أَعْوَجَ" فَهُوَ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: خُلِقَ الْإِنْسَانُ  
مِنْ عَجَلٍ (21 : 37) وَقَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ مِنَ الْفَتْحِ: قِيلَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ حَوَاءَ  
خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ الْأَيْسَرِ، وَقِيلَ مِنْ ضِلْعِهِ الْقَصِيرِ . أَخْرَجَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ وَزَادَ الْيُسْرَى  
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَجَعَلَ مَكَانَهُ لَحْمًا، وَمَعْنَى خُلِقَتْ أَيُّ أُخْرِجَتْ كَمَا تَخْرُجُ  
النَّخْلَةُ مِنَ النَّوَاةِ اهـ . فَتَأَمَّلْ جَعَلَ الْحَافِظُ الْمَسْأَلَةَ مِنْ بَابِ الْإِشَارَةِ، وَحِكَايَتِهَا لَهَا بِصِيغَةِ  
التَّضْعِيفِ، وَمَا ذَكَرَهُ مِنْ تَفْسِيرِهَا الْغَرِيبِ

(420/300)

---

بِتَشْبِيهِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ بِخَلْقِ النَّبَاتِ ، وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ لَمْ يَطَّلِعْ - عَلَى سِعَةِ حِفْظِهِ - عَلَى قَوْلِ  
لَمَنْ لَمْ يُعْتَدَّ بِأَقْوَالِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَمُحَقِّقِي الْخَلْفِ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَنَذَكَرُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
خَاطَبَ النَّاسَ فِي عَصْرِ

التَّنْزِيلِ بِمِثْلِ مَا حَكَاهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ نَشْأَةِ جِنْسِهِمْ فِي كَوْنِهِ تَعَالَى خَلَقَ لَهُمْ أَزْوَاجًا مِنْ  
أَنْفُسِهِمْ ، فَقَالَ فِي بَيَانِ آيَاتِهِ فِي سُورَةِ الرُّومِ : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا  
لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (30 : 21) فَهَذَا الْمَعْنَى عَامٌّ لَا خَاصٌّ بِالْإِنْسَانِ  
الْأَوَّلِ .

(421/300)

---

عَبَّرَ التَّنْزِيلُ عَنْ مِيلِ الزَّوْجِ الْجِنْسِيِّ إِلَى جِنْسِهِ هُنَا ، وَفِي سُورَةِ الرُّومِ بِالسُّكُونِ ، وَذَلِكَ أَنَّ  
الْمَرْءَ إِذَا بَلَغَ سِنَّ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ اضْطِرَابًا خَاصًّا ، لَا يَسْكُنُ إِلَّا إِذَا اقْتَرَنَ  
بِزَوْجٍ مِنْ جِنْسِهِ وَاتَّحَدَا ، ذَلِكَ الْاِقْتِرَانُ وَالِاتِّحَادُ الَّذِي لَا تَكْمُلُ حَيَاتُهُمَا الْجِنْسِيَّةُ الْمُنْتِجَةُ

إِلَّا بِهِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ بَعْدَهُ : فَلَمَّا تَغَشَّاهَا إِبْرَحِيمُ . الْغِشَاءُ غِطَاءُ الشَّيْءِ الَّذِي يَسْتُرُهُ مِنْ فَوْقِهِ ،  
وَالْغَاشِيَةُ الظِّلَّةُ تَظِلُّهُ مِنْ سَحَابَةٍ وَغَيْرِهَا وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (92 : 1) أَي يَحْجُبُ الْأَشْيَاءَ  
وَيَسْتُرُهَا بِظِلِّهَا ، وَتَغَشَّاهَا أَي تَغَشَّاهَا كَغَشَّيْهَا وَيَزِيدُ مَا تُعْطِيهِ صِبْغَةً التَّفَعُّلُ مِنْ جُهْدٍ ، وَهُوَ  
كِتَابَةٌ نَزِيهَةٌ عَنْ أَدَاءِ وَظِيْفَةِ الزَّوْجِيَّةِ ، تُشِيرُ إِلَى أَنَّ مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَأَدَبُ الشَّرِيْعَةِ فِيهَا  
السُّتْرُ ، وَلَفْظُ النَّفْسِ مُؤَنَّثٌ فَانْتَفَتْ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ ، وَلَفْظُ الزَّوْجِ يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى ،  
وَلِهَذَا ذَكَرْهُنَا فَاعِلُ التَّغَشْيِ وَأَنْتَ مَفْعُولُهُ . أَي فَلَمَّا تَغَشَّى الزَّوْجُ الَّذِي هُوَ الذَّكَرُ الزَّوْجَ  
الَّتِي هِيَ الْأُنْثَى حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيْفًا أَي عَلِقَتْ مِنْهُ وَهُوَ الْحَبْلُ ، وَالْحَمْلُ بِالْفَتْحِ يُطْلَقُ عَلَى  
الْمَصْدَرِ وَعَلَى الْمَحْمُولِ ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ خَاصٌّ بِمَا كَانَ فِي بَطْنِ أَوْ عَلَى شَجَرَةٍ ، وَأَنَّ مَا  
حَمِلَ عَلَى ظَهْرٍ وَنَحْوِهِ يُسَمَّى حَمْلًا بِكَسْرِ الْحَاءِ . وَالْحَمْلُ هَاهُنَا يَحْتَمِلُ الْمَعْنَيْنِ ، وَهُوَ  
يَكُونُ فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ

(422/300)

خَفِيْفًا

لَا تَكَادُ الْمَرْأَةُ تَشْعُرُ بِهِ . وَقَدْ تَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ بَارْتِنَاعِ حَيْضَتِهَا فَمَرَّتْ بِهِ أَي فَمَضَتْ بِهِ إِلَى  
وَقْتِ مِيلَادِهِ مِنْ غَيْرِ إِخْدَاجٍ وَلَا إِزْلَاقٍ كَمَا قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ ، أَوْ اسْتَمَرَّتْ فِي أَعْمَالِهَا



وَقَضَاءِ حَاجَتِهَا مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا اسْتِثْقَالٍ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ أَيُّ حَانَ وَقْتُ ثَقُلَ حَمْلُهَا وَقَرُبَ  
وَضَعُهَا دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لِنُؤْمَانِنَا صَالِحًا لِنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ أَيُّ: تَوَجَّهْنَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى  
رَبُّهُمَا يَدْعُوَانِهِ فِيمَا انْحَصَرَ هُمُومًا فِيهِ بَعْدَ تَمَامِ الْحَمْلِ عَلَى سَلَامَةٍ بِأَنْ يُعْطِيَهُمَا وَكَدًا  
صَالِحًا ، أَيُّ سَوِيًّا تَامَ الْخَلْقِ يَصْلِحُ لِلْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الْبَشَرِيَّةِ النَّافِعَةِ - وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْعُوَ  
الْعَبْدُ غَيْرَ

رَبِّهِ ، فِيمَا لَا يَمْلِكُ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ مِنَ الْعَبِيدِ أَسْبَابُهُ ، دَعَاؤُهُ مُخْلِصِينَ مُقْسِمِينَ لَهُ عَلَى مَا  
وَطَّنَا عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمَا مِنَ الشُّكْرِ لَهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ ، قَائِلِينَ لِنُؤْمَانِنَا وَكَدًا صَالِحًا  
لِنَكُونَنَّ مِنَ الْقَائِمِينَ لَكَ بِحَقِّ الشُّكْرِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا وَإِخْلَاصًا ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ  
الْوَصْفُ الْمَعْرَفُ .

(423/300)

---

فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا أَيُّ: فَلَمَّا أُعْطَاهُمَا وَكَدًا صَالِحًا لَا تَقْصُ  
فِي خَلْقِهِ ، وَلَا فَسَادَ فِي تَرْكِيبِهِ ، جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِي إِعْطَائِهِ أَوْ فِيمَا أُعْطَاهُ بِأَنْ كَانَ سَبَبًا  
لِوُقُوعِ الشَّرِكِ مِنْهُمَا ، أَوْ ظُهُورِ مَا هُوَ رَاسِخٌ فِي أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ ، وَسَنَبِينَ مَعْنَاهُ ، وَقَرَأَ نَافِعٌ  
وَأَبُو بَكْرٍ (جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ) أَيُّ شَرِكَةً أَوْ ذَوِي شَرِكٍ ، فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ .

فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَيُّ: تَعَالَى شَأْنُهُ عَنِ شِرْكِهِمْ؛ فَإِنَّهُ هُوَ مُعْطِي النَّسْلِ بِمَا خَلَقَهُ لِكُلِّ  
مِنَ الزَّوْجَيْنِ مِنْ أَعْضَاءٍ، وَقَدَّرَ لَهُمَا فِي الْعُلُوقِ وَالْوَضْعِ مِنْ أَسْبَابٍ، لَا فِعْلَ لغيرِهِ فِي ذَلِكَ  
الْبَتَّةَ، وَجَمَعَ الضَّمِيرَ هُنَا بَعْدَ تَثْنِيَةِ الْأَفْعَالِ قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ فِيهِ بِالزَّوْجَيْنِ الْجِنْسُ لَا  
فَرْدَيْنِ مُعَيَّنَيْنِ. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي (أَتَيْنَا) وَ(لَنَكُونَنَّ) لَهُمَا وَكُلٌّ مِنْ  
يَتَنَاسَلُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا. وَالآيَةُ عَلَى كُلِّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ بَيَانٌ لِحَالِ الْبَشَرِ فِيمَا طَرَأَ عَلَيْهِمْ مِنْ  
نَزَعَاتِ الشَّرِكِ الْخَفِيِّ وَالْجَلِيِّ فِي هَذَا الشَّأْنِ وَأَمْثَالِهِ، وَالْجِنْسُ يُصَدَّقُ بِبَعْضِ أَنْوَاعِهِ  
وَبَعْضِ أَفْرَادِهِ.

(424/300)

---

فَمِثَالُ الشَّرِكِ الْخَفِيِّ فِي إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالنَّسْلِ، مَا يُسْنَدُ وَنُهُ إِلَى الْأَسْبَابِ فِي سَلَامَةِ  
الْحَامِلِ مِنَ الْأَمْرَاضِ فِي أَثْنَاءِ الْحَمْلِ أَوْ فِي حَالَةِ الْوَضْعِ، وَفِي سَلَامَةِ الطِّفْلِ عِنْدَ الْوَضْعِ  
وَعَقْبِهِ، وَفِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ التَّشْوِيهِ أَوْ الْأَمْرَاضِ، كَقَوْلِهِمْ: لَوْلَا أَنْ فَعَلْنَا كَذَا لَكَانَ  
كَذَا، وَلَوْلَا فَلَانٌ أَوْ فُلَانَةٌ مِنْ طَبِيبٍ أَوْ مُرْشِدٍ أَوْ قَابِلَةٍ لَهَلَكَ الْوَلَدُ أَوْ لَأَجْهَضَتْ أُمُّهُ إِجْهَاضًا  
أَوْ جَاءَتْ بِسَقَطٍ لَمْ يَسْتَهْلِ، أَوْ لَمَاتَ عَقْبُ إِسْقَاطِهِ لَعَدَمِ اسْتِعْدَادِهِ لِلْحَيَاةِ، وَيُنْسَوْنَ فِي  
هَذِهِ الْأَحْوَالِ فَضْلَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِمَا مَنَّ بِهِ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالتَّوْفِيقِ وَتَسْخِيرِ الْأَسْبَابِ مِنْ

البشر وغيرهم، وإن كانوا ممن يذكرونها ولا ينكرونها إذا ذكروا بها - ذلك شأن كثير من  
الناس في كل نعمة تمسهم، أو نعمة يدفعها الله تعالى عنهم، وهذا الشرك ليس خروجاً من  
الملة، ولكنه نقص في شكر المنعم، ويحتمل أن يكون المراد بالشرك هنا ترجيح حب  
الأولاد على حب الله تعالى، وشغلهم للوالدين عن ذكره وشكره، وإيثارهم لهم على  
طاعته والتزام ما شرعه من أحكام الحلال والحرام، وهو كسابقه نقص في التوحيد لا  
نقص له، وغفلة عنه لا جحد به .

(425/300)

---

ومثال الشرك الجلي: إسناد هذه النعم إلى غيره تعالى ممن يدعونهم من دونه أو معه من  
الأولياء والقدسين، أو الأنبياء والمرسلين، أو ما يذكر بهم أو يمثلهم من القبور أو الأصنام  
والتماثيل، يقولون: لولا سيدي فلان ولولا مولانا علان لما كان كذا مما نحب، أو لكان كذا  
وكذا مما نكره، يعتقدون أن لهم فيما كان من نفع ومنع ضرر تأثيراً غيبياً يستقلون به، هو  
فوق تأثير الأسباب المذكورة عن القسم الأول كما تقدم شرحه مراراً، أقربها ما في تفسير  
الآية السابقة .

فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَيُّ: وَارْتَفَعَ مَجْدُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، نَزَّهَا عَنْ شَرِكِ هَوْلَاءِ الْأَغْبِيَاءِ  
أَوْ عَنْ شُرَكَائِهِمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي خَلْقِهِ، أَوْ تَأْثِيرٌ فِي صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ .

(426/300)

كُنْتُ قَرَأْتُ مِنْذُ سِنِينَ جُلَّ مَا قَالَ الْمَفْسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ كُتُبِهِمُ الَّتِي بَيْنَ  
أَيْدِينَا مِنْ مَأْثُورٍ وَغَيْرِهِ، وَمَا أوردُوهُ فِيهَا مِنَ الْأَشْكَالِ، وَمَا لَهُمْ مِنَ الْجَوَابِ عَنْهُ وَالتَّفْصِي  
مُنْهُ مِنْ أَقْوَالٍ، وَلَمَّا أَرَدْتُ كِتَابَةَ تَفْسِيرِهَا الْآنَ لَمْ أَجِدْ مِمَّا فِي ذَهْنِي مِنْهُ شَيْئًا مُرْضِيًا  
يَطْمَئِنُّ بِهِ قَلْبِي، فَوَجَّهْتُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَفَكَّرْتُ فِي مَعْنَاهَا الَّذِي يُعْطِيهِ الْأَسْلُوبُ الْعَرَبِيُّ  
، وَيَنْطَبِقُ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْبَشَرِ، وَفِي بَيَانِ كِتَابِهِ لِحَقَائِقِ أَحْوَالِهِمْ، فَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ قَبْلَ  
النَّوْمِ وَأَنَا فِي فِرَاشِي، ثُمَّ كَتَبْتُ مَا تَقَدَّمَ فِي آخِرِ النَّهَارِ، ثُمَّ بَحَثْتُ فِيمَا عِنْدِي مِنْ كُتُبِ  
التَّفْسِيرِ: لَأَكْتُبَ خُلَاصَةً مَا قِيلَ فِيهَا، وَأَنْظُرَ فِيمَا عَسَاهُ يُؤَيِّدُهُ، وَأُجِيبُ عَمَّا رُبَّمَا يَفْتَدُهُ،  
فَإِذَا أَنَا بِصَاحِبِ الْإِتِّصَافِ يَقُولُ بَعْدَ ذِكْرِ مَا نَقَلْنَاهُ أَنفَاءً مِنْ كَلِمَةِ الزَّمْخَشَرِيِّ فِي ضَمِيرِي  
الْجَمْعِ مَا نَصَّهُ: وَأَسْلَمُ مِنْ هَذَيْنِ التَّفْسِيرَيْنِ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ جِنْسِي الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى لَا يُقْصَدُ  
فِيهِ إِلَى مُعَيَّنٍ، وَكَانَ الْمَعْنَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ: خَلَقَكُمْ جِنْسًا وَاحِدًا وَجَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ مِنْكُمْ  
أَيْضًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهِنَّ، فَلَمَّا تَغَشَّى الْجِنْسُ الَّذِي هُوَ الذَّكَرُ الْجِنْسَ الْآخَرَ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ

المُوحِّدُونَ زِلَّانَ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ  
حَيًّا (19 : 66) قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا

(427/300)

أَكْفَرُهُ (80 : 17) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (103 : 2) اهـ .  
وَأَمَّا الْأَشْكَالُ الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ ، فَهُوَ مَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، وَفِي حَدِيثٍ  
مَرْفُوعٍ أَيْضًا مِنْ أَنَّ الْآيَةَ فِي آدَمَ وَحَوَاءَ ، فَقَدْ أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو يَعْلَى وَابْنُ جُرَيْرٍ  
وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ مَرْفُوعًا قَالَ : لَمَّا  
وَكَلَّتْ حَوَاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَكَدُّ فَقَالَ سَمِيهِ عَبْدَ الحَارِثِ فَإِنَّهُ يَعِيشُ ،  
فَسَمَّتهُ عَبْدَ الحَارِثِ فَعَاشَ ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَهُوَ عَلَى كَثْرَةِ مُخْرِجِهِ

(428/300)

غَرِيبٌ وَضَعِيفٌ كَمَا سَيَأْتِي ، وَقَدْ جَاءَتْ الأَثَارُ فِي هَذَا المَعْنَى مُفَصَّلَةً وَمُطَوَّلَةً وَفِيهَا  
زِيَادَاتٌ خُرَاقِيَّةٌ ، تَشْهَدُ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا مِنَ الدَّسَائِسِ الإِسْرَائِيلِيَّةِ ، وَهَذِهِ الأَثَارُ يُعَدُّهَا بَعْضُ

العلماء من قبيل الأحاديث المرفوعة؛ لأنها لا تقال بالرأي، والذي نعتدّه وجربنا عليه في التفسير أن كل ما هو منها مظنة للإسرائيليات المتلقاة عن مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه فهي لا يوثق بها، فإن كانت مع ذلك مشتبهة على ما ينكره الدين أو العلم الصحيح قطعنا بطلانها وكونها دسيسة إسرائيلية، ومنها ما نحن فيه؛ لأن فيه طعنا صريحاً في آدم وحواء عليهما السلام ورمياً لهما بالشرك، ولذلك رفضها بعض المفسرين، وتكلف آخرون في تأويلها بما تنكره اللغة. وقد اعتمد بعض المآخرين كصاحب فتح البيان، وصاحب روح المعاني الأخذ بحديث سمرة دون آثار الصحابة والتابعين، التي فيها ما ليس فيه من رمي آدم بالشرك الصريح، وظننا أنه حجة، ووصفاه تبعاً للترمذي والحاكم بالحسن والصحيح، وما هو بحسن ولا صحيح، على أنه لم يرد تفسيراً للآية كذلك الآثار.

(429/300)

---

وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب في الآية لقريش، وأن المراد فيها بالنفس الواحدة قصي جدّهم، وأن المراد بجعل زوجها منها أنها قرشيّة أو عربيّة لما روي أنها من خزاعة لا من قريش، وأن المراد بشركهما تسمية أبنائهما الأربعة عبد مناف وعبد شمس وعبد

العُزْمَى وَعَبْدُ الدَّارِ - يَعْنِي دَارَ النَّدْوَةِ - وَفِيهِ نَظَرٌ مِنْ وَجْهِ ذِكْرِهَا بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ لَا نَضِيعُ  
الْوَقْتَ بِذِكْرِهَا ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَصِحُّ أَنْ يُذَكَرَ وَيُبَيَّنَ بَطْلَانَهُ ، فَهِيَ الرِّوَايَاتُ الَّتِي انْخَدَعَ بِهَا وَلَا  
يَزَالُ يَنْخَدَعُ بِهَا الْكَثِيرُونَ ، وَعَمْدُنَا فِي تَمْحِصِهَا وَبَيَانِ عِلَلِهَا الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فَقَدْ قَالَ  
فِي تَفْسِيرِهِ مَا نَصَّهُ : ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ هَاهُنَا آثَارًا وَأَحَادِيثَ سَأُورِدُهَا وَأَبِينُ مَا فِيهَا ، ثُمَّ  
تَبِعُ ذَلِكَ

(430/300)

بَيَانِ الصَّحِيحِ فِي ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ الثِّقَةُ : قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ : حَدَّثَنَا عَبْدُ  
الصَّمَدِ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنِ الْحَسَنِ عَنِ سَمُرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : لَمَّا وَلَدَتْ حَوَاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَكَلَّمَهَا فَقَالَ سَمِيهِ  
عَبْدَ الْحَارِثِ فَعَاشَ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ " وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ  
مُحَمَّدِ بْنِ بَشَّارٍ عَنْ بُنْدَارٍ عَنْ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ عَبْدِ الْوَارِثِ بِهِ ، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ  
هَذِهِ الْآيَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنَّى عَنْ عَبْدِ الصَّمَدِ بِهِ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا  
نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ عَنْ عَبْدِ الصَّمَدِ وَلَمْ يَرْفَعْهُ ، وَرَوَاهُ  
الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الصَّمَدِ مَرْفُوعًا ثُمَّ قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ

الإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ، وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ  
الرَّازِيِّ عَنْ هِلَالِ بْنِ فَيَاضٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بِهِ مَرْفُوعًا ، وَكَذَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ  
مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ حَدِيثِ شَاذِ بْنِ فَيَاضٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ

(431/300)

بِهِ مَرْفُوعًا . (قُلْتُ) وَشَاذٌ هُوَ هِلَالٌ وَشَاذٌ لِقَبِّهِ ، وَالْغَرَضُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مَعْلُولٌ مِنْ ثَلَاثَةِ  
أَوْجُهٍ : (أَحَدُهَا) أَنَّ عُمَرَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ هَذَا هُوَ الْمِصْرِيُّ وَقَدْ وَتَّقَهُ بِنُ مَعِينٍ ، وَلَكِنْ قَالَ أَبُو  
حَاتِمٍ الرَّازِيُّ لَا يُحْتَجُّ بِهِ ، وَلَكِنْ رَوَاهُ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ الْمُعْتَمِرِ عَنْ أَبِيهِ عَنِ الْحَسَنِ  
عَنْ سَمُرَةَ مَرْفُوعًا فَاللَّهُ أَعْلَمُ . (الثَّانِي) أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ مِنْ قَوْلِ سَمُرَةَ نَفْسِهِ لَيْسَ مَرْفُوعًا كَمَا  
قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ عَنْ أَبِيهِ حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ  
سُلَيْمَانَ النَّيْمِيِّ عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى بْنِ الشَّخِيرِ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ : سَمِيَ آدَمُ ابْنُهُ عَبْدُ  
الْحَارِثِ . (الثَّلَاثُ) أَنَّ الْحَسَنَ نَفْسَهُ فَسَّرَ الْآيَةَ بغيرِ هَذَا ، فَلَوْ كَانَ هَذَا عِنْدَهُ عَنْ سَمُرَةَ  
مَرْفُوعًا لَمَا عَدَلَ عَنْهُ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيعٍ حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ يُونُسَ عَنْ عَمْرِو  
وَعَنِ الْحَسَنِ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا قَالَ : كَانَ هَذَا فِي بَعْضِ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَمْ يَكُنْ بِآدَمَ



، وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ : قَالَ الْحَسَنُ : عَنِّي  
بِهَا ذُرِّيَّةُ آدَمَ ، وَمَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ بَعْدُ . يَعْنِي جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ، وَحَدَّثَنَا

(432/300)

بَشْرٌ حَدَّثَنَا يَزِيدٌ حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ : هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى  
رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَوْلَادًا فَهَوِّدُوا وَنَصِّرُوا . وَهَذِهِ أَسَانِيدُ صَحِيحَةٌ عَنِ الْحَسَنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
- أَنَّهُ فَسَّرَ الْآيَةَ بِذَلِكَ ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ التَّفَاسِيرِ وَأَوْلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا  
الْحَدِيثُ عِنْدَهُ مَحْفُوظًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَا عَدَلَ عَنْهُ هُوَ وَلَا  
غَيْرُهُ ، لَا سِيَّمَا مَعَ تَقْوَاهُ لِلَّهِ وَوَرَعِهِ ، فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى الصَّحَابِيِّ ، وَيُحْتَمَلُ  
أَنَّهُ تَلَقَّاهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ مِثْلَ كَعْبِ أَوْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهِ وَغَيْرِهِمَا كَمَا  
سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، أَلَا إِنَّا بَرِّئْنَا مِنْ عَهْدَةِ الْمَرْفُوعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(433/300)

" فَأَمَّا الْآثَارُ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَتْ حَوَاءُ تَلِدُ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْلَادًا فَيُعَبِّدُهُمْ لِلَّهِ وَيُسَمِّيهِمْ عَبْدَ اللَّهِ وَعَبِيدَ اللَّهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ فَيُصِيبُهُمُ الْمَوْتُ ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ فَقَالَ : إِنَّكُمْ لَوْ سَمَّيْتُمَاهُ بِغَيْرِ الَّذِي تَسَمِّيَانِهِ بِهِ لَعَاشَ ، قَالَ : فَوَلَدْتُ لَهُ رَجُلًا فَسَمَّاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ ، فَفِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ يَقُولُ : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى قَوْلِهِ جَعَلَهُ لُهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ فِي آدَمَ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى قَوْلِهِ : فَمَرَّتْ بِهِ شَكَّتْ أَحْمَلَتْ أَمْ لَا ؟ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لِنِ اثْنَيْنَا صَالِحًا لِنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَأَتَاهُمَا الشَّيْطَانُ فَقَالَ : هَلْ تَدْرِيَانِ مَا يُوَلَدُ لَكُمَا ؟ ، أَمْ هَلْ تَدْرِيَانِ مَا يَكُونُ ؟ ، أَبْهِيمَةَ أَمْ لَا ؟ وَزَيْنَ لَهُمَا الْبَاطِلُ إِنَّهُ غَوِيٌّ مُبِينٌ ، وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ وَوَلَدَتْ وَوَلَدَيْنِ فَمَا تَا ، فَقَالَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ : إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُسَمِّيَاهُ بِي لَمْ يُخْرِجْ سَوِيًّا وَمَاتَ كَمَا مَاتَ الْأَوَّلُ فَسَمِّيَا وَوَلَدَهُمَا

عَبْدَ الْحَارِثِ

(434/300)

فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ : فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ لُهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا الْآيَةَ . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ شَرِيكَ عَنْ خُصَيْفٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : فَلَمَّا آتَاهُمَا

صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا قَالَ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ  
وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا (آدَمُ) حَمَلَتْ فَاتَاهُمَا إِبْلِيسُ لَعْنَهُ  
اللَّهُ فَقَالَ : إِنِّي صَاحِبِكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ لِتَطِيعَانِي أَوْ لِأَجْعَلَ لَكَ قَرْنِي أَيْلٍ  
فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ فَيَشْتُقُّهُ ، وَلَا فَعْلَنَ وَلَا فَعْلَنَ - يُخَوِّفُهُمَا - فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ ، فَأَيُّمَا أَنْ  
يُطِيعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا ، ثُمَّ حَمَلَتْ الثَّانِيَةَ فَاتَاهُمَا أَيْضًا فَقَالَ :  
أَنَا صَاحِبِكُمَا الَّذِي فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ ، تَفْعَلَنَّ أَوْ لَا فَعْلَنَ - يُخَوِّفُهُمَا - فَأَيُّمَا أَنْ يُطِيعَا فَخَرَجَ  
مَيِّتًا ، ثُمَّ حَمَلَتْ الثَّلَاثَةَ فَاتَاهُمَا أَيْضًا فَذَكَرَ لِهَمَّا فَادْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ  
، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

(435/300)

" وَقَدْ تَلَقَّى هَذَا الْأَثَرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ كَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ  
وَعِكْرَمَةَ ، وَمِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ  
الْخَلْفِ وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ جَمَاعَاتٌ لَا يُحْصُونَ كَثْرَةَ ، وَكَانَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَصْلَهُ  
مَأْخُودٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَوَاهُ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ كَمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ  
حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا أَبُو الْجَمَاهِرِ حَدَّثَنَا سَعِيدٌ يُعْنِي ابْنَ بَشِيرٍ عَنْ عُقْبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ

مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ : لَمَّا حَمَلَتْ حَوَاءُ أَتَاهَا الشَّيْطَانُ فَقَالَ لَهَا :  
أُطِيعِينِي وَيَسْلُمُ لَكَ وَكَذَلِكَ ؟ سَمِيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ ، فَلَمْ تَفْعَلْ فَوَلَدَتْ فَمَاتَ ، ثُمَّ حَمَلَتْ  
فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ ، ثُمَّ حَمَلَتْ الثَّلَاثَةَ فَجَاءَهَا فَقَالَ : إِنْ تُطِيعِينِي يَسْلُمُ وَإِلَّا فَإِنَّهُ  
يَكُونُ بِهِمَةً فَهَيَّيْهُمَا فَاطَاعَا .

(436/300)

" وَهَذِهِ الْأَثَارُ يُظْهِرُ عَلَيْهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ أَثَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَقَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنْ  
رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا  
تُكَذِّبُوهُمْ ثُمَّ أَخْبَارُهُمْ عَلَى ثَلَاثَةٍ ، فَمِنْهَا مَا عَلِمْنَا صِحَّتَهُ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ  
أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَمِنْهَا مَا عَلِمْنَا كَذِبَهُ بِمَا دَلَّ عَلَى خِلَافِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَيْضًا ، وَمِنْهُ  
مَا هُوَ مَسْكُوتٌ عَنْهُ ، فَهُوَ الْمَأْذُونُ فِي رِوَايَتِهِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : حَدِّثُوا عَنِ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ  
وَلَا حَرَجَ وَهُوَ الَّذِي لَا يُصَدَّقُ وَلَا يُكْذَبُ لِقَوْلِهِ : " فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ " وَهَذَا الْأَثَرُ  
هُوَ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي أَوِ الثَّلَاثِ ؟ فِيهِ نَظَرٌ ، فَأَمَّا مَنْ حَدَّثَ بِهِ مِنْ صَحَابِيٍّ أَوْ تَابِعِيٍّ فَإِنَّهُ يَرَاهُ  
مِنَ الْقِسْمِ الثَّلَاثِ ، وَأَمَّا نَحْنُ فَعَلَى مَذْهَبِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا ، وَأَنَّهُ لَيْسَ  
الْمُرَادُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ آدَمَ وَحَوَاءَ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ

اللَّهُ : فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ثُمَّ قَالَ : فَذَكَرَهُ آدَمَ وَحَوَّاءَ أَوْلَا كَالْتَوَطُّةِ لَمَّا بَعَدَهُمَا مِنْ  
الْوَالِدَيْنِ وَهُوَ كَالِاسْتِطْرَادِ مِنْ ذِكْرِ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ كَقَوْلِهِ : وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا  
بِمَصَابِيحَ (5 : 67) الْآيَةِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَصَابِيحَ وَهِيَ النُّجُومُ الَّتِي زَيَّنَتْ بِهَا السَّمَاءُ

(437/300)

لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي يُرْمَى بِهَا ،  
وَإِنَّمَا هَذَا اسْتِطْرَادٌ مِنْ شَخْصِ الْمَصَابِيحِ إِلَى جِنْسِهِ ، وَلِهَذَا نَظَّائِرُ فِي الْقُرْآنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .  
اه . سِيَاقُ ابْنِ كَثِيرٍ . وَقَدْ أَصَابَ كُنْهَ الْحَقِيقَةِ فِي قَوْلِهِ : إِنَّ هَذِهِ الْأَثَارَ مَا خُوذَتْ مِنْ  
الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَلَمَّا كَانَتْ طَعْنَا فِي عَقِيدَةِ أَبِي نَبِيٍّ آدَمَ وَحَوَّاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِمَا تُبْطَلُهُ عَقَائِدُ  
الْإِسْلَامِ ، وَجَبَ الْجَزْمُ بِبُطْلَانِهَا وَتَكْذِيبِهِمْ فِيهَا .

(438/300)

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى سَخَافَةَ عُقُولِهِمْ وَأَفَنَ آرَائِهِمْ بِهَذَا الشَّرِكِ فَقَالَ : أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ  
يُخْلِقُونَ الْأَسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّجْهِيلِ ، أَيُّشْرِكُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ الْخَالِقُ لَهُمْ

وَأَوْلَادِهِمْ وَلِكُلِّ شَيْءٍ ، مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ مَهْمَا يَكُنْ حَقِيرًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ  
الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ (22 : 73) وَلَيْسَ قُصَارَى  
أَمْرِهِمْ أَنْ الْخَلْقَ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ ، بَلْ هُوَ يَقَعُ عَلَيْهِمْ ، فَهُمْ يُخْلِقُونَ أَنَا بَعْدَ أَنْ ، وَلَا يَلِيقُ بِسَلِيمِ  
الْعَقْلِ أَنْ يُجْعَلَ الْمَخْلُوقَ الْعَاجِزَ شَرِيكًا لِلْخَالِقِ الْقَادِرِ ! وَالآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا حِكَايَةٌ لِشَرِكِ  
عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْتِمَازِ كَافَّةً ، وَمِنْهُمْ مُشْرِكُو مَكَّةَ وَأَمْثَالُهُمْ مِمَّنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي عَهْدِهِمْ  
وَمَنْ يَجِيءُ بَعْدَهُمْ ، فَقَوْلُهُ : مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا يُرَادُ بِهِ أَصْنَامُهُمْ ؛ لِأَنَّ " مَا " لِمَا لَا يَعْقِلُ ،  
وَلَفْظُهَا مُفْرَدٌ وَهُوَ مِنْ صَيَغِ الْعُمُومِ فَأَفْرَدَ الضَّمِيرَ فِي " يَخْلُقُ " مُرَاعَاةً لِلْفِطْرِ ثُمَّ جَمَعَ فِي " يُخْلِقُونَ "  
مُرَاعَاةً لِلْمَعْنَى ، وَجَعَلَهُ ضَمِيرَ الْعُقَلَاءِ مِنْ قَبِيلِ الْحِكَايَةِ لِاعْتِقَادِهِمْ ، وَالتَّعْبِيرُ  
بِفِعْلِ الْمُضَارِعِ " يُخْلِقُونَ " لِتَصْوِيرِ حَدُوثِ خَلْقِهِمْ ، وَكَوْنِ مِثْلِهِ مِمَّا يَتَجَدَّدُونَ فِيهِمْ وَفِي  
أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَهَذَا أَسْوَأُ فِضَائِحِهِمْ فِي الشَّرْكِ .

(439/300)

---

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ أَيُّ : وَهُمْ عَلَى كَوْنِهِمْ مَخْلُوقِينَ غَيْرِ خَالِقِينَ  
لِشَيْءٍ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ لِعَابِدِيهِمْ نَصْرًا عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَصْرًا عَلَى مَنْ  
يُعْتَدِي عَلَيْهَا يَاهَانَةً لَهَا ، أَوْ أَخَذَ شَيْءٍ مِنْ طَبِيعِهَا أَوْ حَلِيَّتِهَا ، كَمَا قَالَ : وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ

شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (22 : 73) أَيُ فَنَهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكُمْ  
فِي تَكْرِيمِهِمْ ، وَأَنْتُمْ لَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ ، بَلْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَدْفَعُونَ عَنْهُمْ وَتَنْصُرُوهُمْ بِالنِّصَالِ  
دُعْوَتِهِمْ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ قَرَأْنَا نَافِعُ (لَا يَتَّبِعُوكُمْ) بِالتَّخْفِيفِ وَالْبَاقُونَ  
بِالتَّشْدِيدِ ، أَيُ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى

مَا هُوَ الْهُدَى وَالرَّشَادُ فِي نَفْسِهِ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ، فَلَا هُمْ يَنْفَعُونَكُمْ ، وَلَا هُمْ يَنْتَفِعُونَ مِنْكُمْ ، أَوْ  
الْمَعْنَى : وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى إِفَادَتِكُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَكُمْ سِوَاءُ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ  
صَامِتُونَ أَيُ : مُسْتَوْعِدْكُمْ دُعَاؤَكُمْ إِيَّاهُمْ وَيَقَاؤَكُمْ عَلَى صَمْتِكُمْ ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَقُلْ : صَمْتُمْ ،  
أَوْ تَصْمُتُونَ لِأَنَّ إِشْرَاكَهُمْ بِهِمْ كَانَ قَدْ وَهَنَ بَحِيثٌ لَمْ يَكُونُوا يَدْعُونَهُمْ عِنْدَ الْاضْطِرَارِ  
وَكَوَارِثِ الْخُطُوبِ بَلْ يَدْعُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ بِتَقَالِيدِهِمُ الْوَثْنِيَّةِ فِيهِمْ  
وَالرَّجَاءِ بِشَفَاعَتِهِمْ

(440/300)

---

فِي أَوْقَاتِ الرَّخَاءِ ، الَّتِي لَا يَشْعُرُ فِيهَا الْإِنْسَانُ بِالْحَاجَةِ إِلَى الدُّعَاءِ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكَ  
دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (29 : 65) وَمِنْهُ الدُّعَاءُ  
بِالْوَلَدِ الصَّالِحِ عِنْدَ قُرْبٍ وَضَعِ الْحَامِلِ ، وَالشَّرِكِ بَعْدَ وُجُودِ الْوَلَدِ الصَّالِحِ ، فَالتَّعْبِيرُ

بِالْوَصْفِ (صَامِتُونَ) لِإِفَادَةِ كَوْنِ إِحْدَاثِ الدُّعَاءِ ، وَاسْتِصْحَابِ الْحَالِ الثَّابِتَةِ قَبْلَهُ  
وَاسْتِمْرَارِهَا سِوَاءً ، وَهِيَ تَصْدِيقٌ بِنَفْسِ شُعُورِهِمْ بِالْحَاجَةِ إِلَى دُعَائِهِمْ ، وَعَدَمِ خُطُورِهِمْ  
بِالْبَالِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، وَالشُّعُورِ بِحَاجَةِ الْمَخْلُوقِ إِلَى الرَّبِّ الْخَالِقِ ، وَلَوْ قَالَ : "أَمْ صَمْتٌ"  
أَوْ "أَمْ أَنْتُمْ تَصْمِتُونَ" لَمَا كَانَتْ الْمُقَابَلَةُ بَيْنَ وُجُودِ وَعَدَمِ ، وَإِيجَابِ وَسَلْبٍ لِأَنَّهُ يَصْدُقُ  
بِتَكْلِيفِ الصَّمْتِ ، وَكَفِّ النَّفْسِ عَنِ دُعَائِهِمْ وَلَوْ لِلتَّجْرِبَةِ مَعَ الشُّعُورِ بِالْحَاجَةِ إِلَى الدُّعَاءِ ،  
وَالأَوَّلُ أُبْلَغُ فِي الْمُرَادِ مِنْ كَوْنِ وُجُودِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ وَعَدَمِهَا سِوَاءً ، وَمِنْ كَوْنِ دُعَائِهَا  
مُسَاوِيًا لِتَرْكِ الدُّعَاءِ ، وَلَوْ مَعَ انْصِرَافِ الْقَلْبِ عَنْهَا ، وَلَوْ كَانَتْ وَسَائِلَ تَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ  
وَتَقْرَبُ إِلَيْهِ زُلْفَى كَمَا كَانَ يَقُولُ أُولُو الْوَيْبَةِ الْكَاسِيَةِ الْحَالِيَةِ ، أَوْ تَنْفَعُ وَتَضُرُّ بِنَفْسِهَا أَوْ بِمَا  
أَعْطَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْكُونِ بِاسْتِقْلَالِهَا ، كَمَا يَعْتَقِدُ أَصْحَابُ الْوَيْبَةِ الْعَارِيَةِ  
الْعَاطِلَةِ - لَكَانَ الْإِعْرَاضُ عَنْ دُعَائِهَا ضَارًّا بِهِمْ ،

(441/300)

أَوْ مُضِيْعًا بَعْضَ الْمَنَافِعِ عَلَيْهِمْ .  
وَقَدْ يُظَنُّ مِنْ أَشْرِكِ بَعْضِ الْأَوْلِيَاءِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْإِشْرَاقِ أَنَّ هَذَا التَّوْبِيخَ لَا  
يُوجَهُ إِلَيْهِمْ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْحُجَّةَ لَا تَقُومُ عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّ أَوْلَئِكَ كَانُوا يَدْعُونَ جَمَادًا أَوْ شَجَرًا لَا



يُعْقَلُ ، وَهُمْ يَدْعُونَ أَوْلِيَاءَ وَصُلَحَاءَ ، لِأَمْوَاتِهِمْ حُكْمَ الشُّهَدَاءِ فِي الْحَيَاةِ ، وَهُمْ يَقْصِدُونَ قُبُورَهُمْ وَيُعْظَمُونَهَا ؛ لِأَنَّ لَأَرْوَاحَهُمْ اتِّصَالَ بِهَا ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ هَذِهِ التَّفْرِقَةُ مِنْ جَهْلِهِمْ بِأَنَّ أَكْثَرَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ لَمْ تُنْصَبْ إِلَّا لِلتَّذْكِيرِ بِأَنَاسٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ ، كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي أَصْنَامِ قَوْمِ نُوحٍ الَّتِي انْتَقَلَتْ

(442/300)

إِلَى الْعَرَبِ ، وَقَدْ كَانَتْ اللَّاتُ صَخْرَةً لِرَجُلٍ يَلْتُ عَلَيْهَا السَّوِيقَ وَيُطْعِمُهُ لِلنَّاسِ ، فَالْأَصْنَامُ وَالْتَّمَاثِيلُ وَالْقُبُورُ الَّتِي تُعْظَمُ تَعْظِيمًا دِينِيًّا لَمْ يُأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ، كُلُّهَا سَوَاءٌ فِي كَوْنِهَا وَضَعَتْ لِلتَّذْكِيرِ بِأَنَاسٍ عُرِفُوا بِالصَّلَاحِ ، وَكَانُوا هُمُ الْمُقْصُودِينَ بِالِدُّعَاءِ ، لِمَا تَخَيَّلُوا فِيهِمْ مِنَ التَّأثيرِ فِي إِرَادَةِ اللَّهِ ، أَوِ التَّصَرُّفِ الْغَيْبِيِّ فِي مُلْكِ اللَّهِ ، وَهُوَ أَفْحَشُ الشَّرِكِ بِاللَّهِ ، عَلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي الْمَسْأَلَةِ بَيْنَ إِشْرَاكِ الصَّنَمِ وَالْوَتَنِ ، وَإِشْرَاكِ الْوَلِيِّ أَوِ النَّبِيِّ أَوِ الْمَلِكِ ، فَاقْرَأِ الْآيَاتِ فِي اتِّخَاذِ الْوَلَدِ لِلَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْمَسِيحِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ (21 : 26 - 29) . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار ﴾ ج 9 ص 431 . 439 ﴿

(443/300)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (193)



يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً ﴾ [الأعراف : 191]

زيادة في التعجب من حال المشركين بذكر تصميمهم على الشرك على ما فيه من سخافة العقول ووهن الدليل ، بعد ذكر ما هو كاف لتزييفه .

فضمير الخطاب المرفوع في ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ موجه إلى المسلمين مع الرسول صلى الله عليه وسلم وضمير جمع الغائب المنصوب عائد إلى المشركين كما عاد ضمير ﴿ أيشركون ﴾ [الأعراف : 191] فبعد أن عجب الله المسلمين من حال أهل الشرك أنبأهم بأنهم لا يقبلون الدعوة إلى الهدى .

ومعنى ذلك أنه بالنظر إلى الغالب منهم ، وإلا فقد آمن بعضهم بعد حين وتلاحقوا بالإيمان ، عدا من ماتوا على الشرك .

وهذا الوجه هو الأليق بقوله تعالى بعد ذلك ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ﴾ [الأعراف : 198] الآية ليكون المخبر عنهم في هذه الآية غير المخبر عنهم في الآية الآتية ، لظهر تفاوت الموقع بين ﴿ لَا يَتَّبِعُكُمْ ﴾ وبين ﴿ لَا يَسْمَعُوا ﴾ [الأعراف : 198] .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى ﴾ إلخ معطوفة على جملة الصلة في قوله :  
﴿ لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾ [الأعراف : 191] فيكون ضمير الخطاب في ﴿  
تدعوهم ﴾ خطاباً للمشركين الذين كان الحديث عنهم بضمائر الغيبة من قوله : ﴿ فتعالى  
الله عما يشركون ﴾ [الأعراف : 190] إلى هنا ، فمقتضى الظاهر أن يقال : وإن  
يدعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم ، فيكون العدول عن طريق الغيبة إلى طريق الخطاب التفاتاً  
من الغيبة إلى الخطاب توجهاً إليهم بالخطاب ، لأن الخطاب أوقع في الدمع بالحجة .  
﴿ الهدى ﴾ على هذا الوجه ما يُهدى إليه ، والمقصود من ذكره أنهم لا يستجيبون إذا  
دعوتهم إلى ما فيه خيرهم فيعلم أنهم لو دعوه إلى غير ذلك لكان عدم اتباعهم دعوتهم  
أولى .

(444/300)

---

وجملة : ﴿ سواء عليكم أدعوتهم أم أتم صامتون ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ وإن تدعوهم  
إلى الهدى لا يتبعوكم ﴾ فلذلك فصلت .  
﴿ سواء ﴾ اسم للشيء المساوي غيره أي ليس أولى منه في المعنى المسوق له الكلام  
والهمزة التي بعد ﴿ سواء ﴾ يقال لها همزة التسوية ، وأصلها همزة الاستفهام استعملت

في التسوية ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ في سورة البقرة ( 6 ) ، أي سواء دعوتكم إياهم وصمتم عن الدعوة .

و( على ) فيها للاستعلاء المجازي وهي بمعنى العندية أي : سواء عندهم .

وإنما جعل الأمران سواء على المخاطبين ولم يجعلها سواء على المدعوين فلم يقل سواء عليهم ، وإن كان ذلك أيضاً سواء عليهم ، لأن المقصود من الكلام هو تأييس المخاطبين من استجابة المدعوين إلى ما يدعونهم إليه لا الإخبار ، وإن كان المعنيان متلازمين كما أنهما في قوله ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ [ البقرة : 6 ] متلازمان فإن الإنذار وعدمه سواء : على المشركين ، وعلى المؤمنين ، ولكن الغرض هنالك بيان انعدام انتفاعهم بالهدى .

وهذا هو القانون للفرقة بين ما يصح أن يسند فيه فعل التسوية إلى جانبين وبين ما يتعين أن يسند فيه إلى جانب واحد إذا كانت التسوية لا تُهم إلا جانباً واحداً ، كما في قوله تعالى :

﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [ الطور : 16 ] فإنه يتعين أن تجعل

التسوية بالنسبة للمخاطبين ، ولا يحسن أن يقال سواء علينا وكقوله : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا

أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ [ إبراهيم : 21 ] فإنه يتعين أن تكون التسوية

بالنسبة إلى المتكلمين .

---

ووقع قوله: ﴿ أم أتم صامتون ﴾ مُعادل أدعوتوهم مع اختلاف الاسلوب بين الجملتين  
بالفعلية والاسمية، فلم يقل: أم صمتم، ففي "تفسير القرطبي"، عن ثعلب: أن ذلك لأنه  
رأس آية (أي مجرد الرعاية على الفاصلة) قال: وصامتون وصمتم عند سيبويه واحد، ( )  
أي الفعل والوصف المشتق منه سواء) يريد لا تفاوت بينهما في أصل المعنى، لأن ما بعد  
همزة التسوية لما كان في قوة المصدر لم يكن فيه أثر للفرق بين الفعل والاسم إذ التقدير: سواء  
عليكم دعوتكم إياهم وصمتكم عنهم، فيكون العدول إلى الجملة الاسمية ليس له مقتض  
من البلاغة بل هما عند البليغ سيان، ولكن العدول إلى الاسمية من مقتضى الفصاحة، لأن  
الفواصل والأسجاع من أفانين الفصاحة، وفيهما تظهر براعة الكلام إذ يكون فيه إيفاء بحق  
الفاصلة مع السلامة من التكلف، كما تظهر براعة الشاعر في توفيته بحق القافية إذا سلم  
مع ذلك من التكلف، قال المرزوقي في ديباجة "شرحه على الحماسة" "والقافية يجب أن  
تكون كالموعود به المنتظر تشوقها المعنى بحقه، واللفظ بقسطه، وإلا كانت قلقة في مقرأها  
مجتلبة لمستغن عنها".

والتحقيق أن الجملة الاسمية دلت على ثبوت الوصف المتضمنة، مع عدم تقييد بزمان ولا إفادة تجدد، بخلاف الفعلية، وهو صريح كلام الشيخ في "دلائل الاعجاز"، والسكاكي في "المفتاح"، لكن كلام الزمخشري في هذه الآية يناهض على أن جملة: ﴿أم أتم صامتون﴾ دالة على استمرار صمتهم، وكذلك كلام السكاكي في إبداء الفرق بين الجملتين في قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ [البقرة: 8] وفي قوله تعالى: ﴿قالوا آمنا﴾ [البقرة: 14] مع قوله عقبه: ﴿قالوا إنا معكم﴾ [البقرة: 14]، وظاهر كلام الشيرازي في "شرح المفتاح" أن الثبوت يستلزم الاستمرار، وقال الشارح التفتازاني، في "شرح المفتاح": الحق أن الجملة الاسمية التي تكون عدولاً عن الفعلية تفيد الدوام الذي هو كالثبوت، وفسر في "شرح تلخيص المفتاح" الثبوت بمقارنة الدوام، وأما السيد في "شرح المفتاح"، و"حاشيته على المطول"، فقد جعل الجملة الاسمية قد يقصد بها الدوام إثباتاً ونفيًا بحسب المقامات.

وعندي أن الجملة الاسمية لا تفيد أكثر من الثبوت المقابل للتجدد، وأما الاستمرار والدوام فهو معنى كنائي لها يحتاج في استفادته إلى القرينة المعينة وهي منفية هنا، فالمعنى: سواء عليكم أذعوتوهم دعوة متجددة أم لازمتم الصمت، وليس المعنى على الدوام، وقد احتاج صاحب "الكشاف" إلى بيانه بطريقة الدقة بإيراد السؤال والجواب على عادته،

وأيًا ما كان فالعدول عن الجملة الفعلية في معادل التسوية اقتضاه الحال البلاغي خلافاً

لثعلب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(447/300)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (193)



وعلى ذلك فهي خمس مراحل - إذن - ، أكررها لتستقر في الذهن ، أولها أنه من الجائز أنه لا يخلق ، ومن الجائز أن يكون مخلوقاً ، ومن الجائز أنه لا يقدر أن ينتصر لغيره لأنه ضعيف ، ولا ينتصر لنفسه لأنه أضعف ، ومع ذلك إن أردت أن تهديه إلى شيء من ذلك أو إلى شيء من العلم فلا يقبل منك .

وكانوا في الجاهلية حين يفزعهم أمر جسيم ينادونهم ويقولون : يا هبل ، يا لات ، يا عزي . وإن لم يصيبهم أمر سكتوا عن نداء الأصنام ؛ لذلك يقول لهم الله من خلال الوحي لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ [الأعراف : 193] .

أي إن دعوتكم لهم لا تفيد في أي أمر تماماً كصمتكم .

ونلاحظ أن الأسلوب هنا مختلف ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾ فلم يقل : " أدعوتوهم

أم صمتم " ؛ لأن الفعل يقتضي الحدوث ، ولنا أن نعرف أنهم كانوا لا يفرعون إلى ألهتهم إلا

عند الأحداث الجسام . أما بقية الوقت فقد كانوا لا يكلمونهم أبداً ؛ لذلك جاءت "

صامتون " لازمة ، لأنها اسم ، والاسم يقتضي الثبوت والاستمرار ، أما الفعل فيقتضي

الحدوث والتجدد .

والحق هنا يبلغ المشركين : سواء عليكم أدعوتوهم أم لم تدعوا ، فعدم الاستجابة متحقق

فيهم وواقع منهم ، وعدم النصر لأنفسهم ولغيرهم متحقق منهم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(448/300)

ومن فوائد الشيخ المراغي في الآيات السابقة :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا

حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ ﴾

تفسير المفردات



من نفس واحدة: أي من جنس واحد ، ليسكن إليها : أي ليأنس بها ويطمئن إليها ،  
وتغشاها : أتاها كغشيها ويراد بالتغشى أداء وظيفة الزوجية ، ومقتضى الفطرة  
وآداب الدين أن يكون ذلك في السر ، حملت : أي علقته منه ، والجمل (بِالْفَتْحِ) ما كان في  
بطن أو على شجرة (وبالكسر) ما كان على ظهر ونحوه ، فمرت به :  
أي استمرت به إلى وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق ، واستمرت في أعمالها وقضاء  
حاجتها من غير مشقة ولا استئقال ، وأثقلت : أي حان وقت ثقل حملها وقرب وضعها ،  
صالحا . أي نسلا سليما من فساد الحلقة كتنقص بعض الأعضاء ، فتعالى الله :  
أي ارتفع مجده وتعالى جده وتنزهه عن شرك هؤلاء الجهلاء .

(449/300)

المعنى الجملي

بعد أن افتتح عزت قدرته السورة بالدعوة إلى التوحيد واتباع ما أنزل على لسان رسوله  
وتلاه بالتذكير بنشأة الإنسان الأولى في الخلق والتكوين والعداوة بينه وبين الشيطان .  
اختتم السورة بهذه المعاني ، فذكر بالنشأة الأولى ، ونهى عن الشرك واتباع وسوسة  
الشيطان ، وأمر بالتوحيد واتباع ما جاء به القرآن .

## الإيضاح

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) أي هو الذي خلقكم من جنس واحد وجعل زوجه من جنسه فكانا زوجين ذكرا وأنثى كما قال فى آية أخرى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » .

وهكذا خلق من كل الأنواع ومن كل أجناس الأحياء زوجين اثنين كما قال عز من قائل « وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

والمشاهد أن كل خلية من الخلايا التي ينمو بها الجسم الحي تنطوى على نواتين ذكر وأنثى إذا اقترتا ولدتا خلية أخرى وهلم جرا .

وفى التوراة إن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم ، وعليه حمل بعض العلماء

الحديث « استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع

أعلاه ، فإن ذهب تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، قاستوصوا بالنساء خيرا » رواه

الشيخان عن أبي هريرة مرفوعا .

ولكن المحققين ذهبوا فى تفسيره إلى أن المراد أنها ذات اعوجاج وشذوذ تخالف به الرجل ،

ويؤيده ما رواه ابن حبان عن أبي هريرة « إن المرأة خلقت من ضلع أعوج » فهو على حد

قوله تعالى : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » .

وفى التعبير عن ميل الزوج الجنسي إلى زوجه هنا وفى الروم بالسكون ، إشارة إلى أن المرء

متى بلغ سن الحياة الزوجية يجد في نفسه اضطرابا لا يسكن إلا إذا اقترن بزوج من جنسه  
واتحد ذلك الاتحاد الذي لا تكمل حياتهما الجنسية المنتجة إلا به .

(450/300)

---

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ) أي فلما تغشى الذكر الأثى علقته منه وكان  
الحمل أول عهده خفيفا لا تكاد تشعر به ، وقد تستدل على وجوده بارتفاع الحيض  
فحسب ومن ثم استمرت في أعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استئقال .  
(فَلَمَّا أَثَقَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا : لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) أي فلما حان قرب  
وضعها وكبر الولد في بطنها ، توجهتا : أي آدم وحواء إلى الله ربهما بدعواته أن يعطيها  
ولدا صالحا أي تام الخلق يصلح للقيام بالأعمال النافعة التي يعملها البشر ، وأقسما على ما  
وطنا عليه أنفسهما من الشكر له إزاء هذه النعمة قولا وعملا واعتقادا .  
(فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا) أي فلما أعطاهما ما طلبا وجاء الولد  
بشرا سويا لا نقص فيه ولا فساد في تركيب جسمه جعلاه شركاء فيما أعطاه . أي  
أظهما ما كان راسخا في أنفسهما منه .

وقد نسب هذا الجعل إلى آدم وحواء والمراد أولادهما ، قال الحسن البصري هم اليهود

والنصارى رزقهم الله أولادا فهوّدوا ونصروا .

وقال الحافظ ابن كثير: أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه ليس المراد من السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك ذريته ، ولهذا قال « فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ثم قال فذكره آدم وحواء أولاداً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالأستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس اه .

(451/300)

---

وقال صاحب الانتصاف: إن المراد جنس الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين ، وكان المعنى والله أعلم: خلقكم جنسا واحدا وجعل أزواجكم منكم أيضا لتسكنوا إليهن ، فلما تعشى الجنس الذي هو الذكر ، الجنس الذي هو الأنثى جرى من هذين الجنسيتين كيت وكيت ، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون ، لأن المشركين منهم كقوله . « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » وقوله « قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ » وقوله إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ اه .

وقال صاحب الكشاف . إن المراد بالزوجين الجنس لا فردان معينان ، والغرض بيان حال البشر فيما طرأ عليهم من نزعات الشرك الخفي والجلبي في هذا الشأن وأمثاله والجنس

يصدق ببعض أفرادها هـ .

وبهذا تعلم أن ما روى عن بعض الصحابة والتابعين من أن الآية في آدم وحواء وما روى في حديث سمرة بن جندب مرفوعا قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش ، فسماه عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان »

ونحوه آثار كثيرة في هذا المعنى مفصلة ومطولة - فهو خرافة من دس الإسرائيليين نقلت عن مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه فلا يوثق بها ، لأن فيها طعنا صريحا في آدم وحواء عليهما السلام ورميا لهما بالشرك ، ومن ثم رفضها كثير من المفسرين ، وقال الحافظ ابن كثير وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » .

وأخبار أهل الكتاب ثلاثة أقسام :

- (1) فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله .
- (2) ومنها ما علمنا كذبه بما دل عليه الدليل على خلافه من الكتاب والسنة أيضا .
- (3) ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته

بقوله عليه السلام « حدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج »

وهو لا يصدّق ولا يكذب لقوله : « فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم » .

ثم بين سبحانه فساد رأيهم وسخافة عقولهم لهذا الشرك فقال :

(أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ) أي أيشركون به سبحانه وهو الخالق لهم

ولأولادهم ولكل مخلوق ما لا يخلق شيئاً وإن كان حقيراً كما قال : إن الذين تدعون من دون

الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له بل هم مخلوقون أيضاً ولا يليق بذي العقل السليم أن يجعل

المخلوق العاجز شريكاً للخالق القادر .

والآية وما بعدها حكاية لشرك عبّاد الأصنام عامة ، وينتظم فيهم مشركو مكة وأمثالهم

من نزل القرآن في عهدهم ، وتويخ لهم بتفصيل أحوال أولئك الشركاء التي تنافي ما

اعتقدوه .

(وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ) أي ولا يستطيعون لعبادتهم معونة إذا

حزبهم أمر مهمّ وخطب ملتمّ كما لا يستطيعون لأنفسهم نصراً على من يعتدى عليهم بإهانة

لهم أو أخذ شيء مما عندهم من طيب أو حلى كما قال تعالى : « وَإِنْ يَسْأَلُوكُمُ الذُّبَابُ

شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ » .

والخلاصة - إنهم يحتاجون إليكم في تكريمهم وفي النضال عنهم وأنتم لا تحتاجون إليهم .

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ) أَي وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَهْدَوْكُمْ إِلَى مَا تَحْصُلُونَ بِهِ رَغْبَاتِكُمْ أَوْ تَنْجُونَ بِهِ مِنَ الْمَكَارِهِ الَّتِي تَحْقِيقُ بِكُمْ ، لَا يَتَّبِعُكُمْ فَلَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ وَلَا يَنْفَعُكُمْ .

ثم أكد عدم نفعهم فقال :

(سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ) أَي مَسْتَوْلِدِيكُمْ دَعَاؤُكُمْ إِيَّاهُمْ وَيَقَاؤُكُمْ عَلَى صَمْتِكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَتَغَيَّرُ حَالُكُمْ فِي كِلْتَا الْحَالَيْنِ ، إِذْ هُمْ لَا يَفْهَمُونَ دَعَاءَكُمْ وَلَا يَسْمَعُونَ أَصْوَاتَكُمْ وَلَا يَعْقِلُونَ مَا يُقَالُ لَهُمْ .

(453/300)

---

والخلاصة - إنه لا ينبغي أن يعبد من كانت هذه صفته ، وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده ، الضار من يعصيه ، الناصر وليه ، الخاذل عدوه ، الهادي إلى الرشاد من أطاعه ، السامع دعاء من دعاه .

ولا شك أن هذه الحججة قائمة على من يقصدون قبور الأولياء والصلحاء ويعظمونها ويطلبون منها قضاء الحاجات ، لأن هذه الأوصاف التي سبقت في معرض التوبيخ والإنكار تنطبق على حالهم أشد الانطباق ، فهم لا ينفعون ولا يضررون (سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ

أَدْعُوهُمْ أُمَّ أُمَّ صَامِتُونَ) وقد روى البخاري عن ابن عباس في أصنام قوم نوح التي انتقلت إلى العرب ، أنها لم تنصب إلا للتذكير بأناس من الأولياء والصالحين وقد كانت اللات لرجل يلت عليها السويق ويطعم الناس .

والخلاصة - إن الأصنام والتماثيل والقبور التي تعظم تعظيما دينيا ، عمل لم يأذن به الله ، وكلها سواء في كونها وضعت للتذكير بأناس عرفوا بالصلاح وكانوا هم المقصودين بالدعاء تخيلا من عابديها بأن لها تأثيرا في إرادة الله أو التصرف الغيبي في ملك الله ، وذلك من أفحش الشرك وأقبحه ولا فرق بين إشراك الصنم والوثن وإشراك الولي أو النبي أو الملك .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغي ح 9 ص 138 . 142 ﴾

(454/300)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ الظاهر أن الخطاب للكفار ، وضمير النَّصْبِ للأصنام ، أي :

وإن تدعوا آلهتكم إلى طلب هدى وارشاد - كما تطلبونه من الله - لا يتعابوكم على

مُرَادِكُمْ ، ويجوز أن يكون الضمير للرسول والمؤمنين ، والمنصوب للكفار ، أي وإن تدعوا



أتم هؤلاء الكفار إلى الإيمان ، ولا يجوز أن يكون تدعوا مسندا إلى ضمير الرسول فقط ،  
والمنصوب للكفار أيضا ؛ لأنه كان ينبغي أن تحذف الواو ، لأجل الجازم ، ولا يجوز أن يقال :  
قدّر حذف الحركة وثبت حرف العلة ؛ كقوله : [ البسيط ]

2647 - هَجَوْتَ زَبَانَ ثُمَّ جِئْتُ مُعْتَذِرًا . . .

مِنْ هَجَوْتَ زَبَانَ لَمْ تَهْجُوا وَلَمْ تَدَعِ

ويكون مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرُ ﴾ [ يوسف : 90 ] ، ﴿ فَلَا تَنْسَى ﴾ [ الأعلی : 6 ] ﴿ لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [ طه : 77 ] لأنه ضرورة ، وأما الآيات  
فمؤولة وسيأتي ذلك .

قوله : " لا يتبعوكم " قرأ نافع بالتخفيف ، وكذا في الشعراء ﴿ يَتَّبِعُهُمْ ﴾ [ 244 ] .

والباقون بالتشديد ، فقيل : هما لغتان ، ولهذا جاء في قصة آدم : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ ﴾ [ البقرة :  
385 ] وفي موضع ﴿ أَفَمَنْ اتَّبَعَ ﴾ [ طه : 132 ] .

وقيل : تبع اقتفى أثره ، واتبعه بالتشديد : اقتدى به والأول أظهر .

ثم أكد الكلام فقال : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ والمعنى : سواء

عليكم أَدَعَوْتُمُوهُمْ إلى الدين أم أنتم صامتون عن دعائهم ، لا يؤمنون ، كقوله : ﴿ عَلَيْهِمْ  
أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [ البقرة : 6 ] وعطف قوله : ﴿ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾

وهي جملة اسمية على أخرى فعلية ؛ لأنها في معنى الفعلية ، والتقدير : أم صمتم ؟

وقال أبو البقاء: جملة اسمية في موضع الفعلية، والتقدير: أدعوتوهم أم صمتم؟  
وقال ابن عطية: عطف الاسم على الفعل؛ إذ التقدير: أم صمتم؛ ومثله قول الشاعر: ]

[الطويل]

2648 - سَوَاءٌ عَلَيْكَ النَّفْرُ أَمْ بَتَّ لَيْلَةٌ . . .

بأهل القباب من نمير بن عامر

قال أبو حيان: وليس هذا من عطف الفعل على الاسم، إنما هو من عطف الاسم على الفعلية، وأما البيت فليس فيه عطف فعل على اسم، بل هو من عطف الفعلية على اسم مُقدَّر بالفعلية، إذ الأصل: سواءٌ عليك أنفرت أم بتَّ، وإنما أتى في الآية بالجملة الثانية اسمية؛ لأن الفعل يُشعر بالحدوث ولأنها رأسُ فاصلة.  
والصَّمْتُ: السُّكُوتُ، يقال صَمَّتْ يَصْمُتُ بِالْفَتْحِ، في الماضي، والضم في المضارع.

(455/300)

---

ويقال: صَمِتَ، بالكسر، يَصْمُتُ بِالْفَتْحِ والمصدر الصَّمْتُ والصُّمَاتُ، وإصمّت،  
بكسر الهمزة والميم: اسمُ فلانة معروفة، وهو منقولٌ من فعل الأمر من هذه المادة، وقد ردَّ بعضهم هذا بأنه لو كان منقولاً من الأمر لكان ينبغي أن تكون همزته همزة وصل، ولكان

ينبغي أن تكون ميمه مضمومة، إن كان من "يَصُمْتُ" أو مفتوحة إن كان من "يَصُمْتُ"؛  
ولأنه ينبغي الأيؤث بالتاء، وقد قالوا: إِصْمَتَ.

والجواب أن فعل الأمر يجب قطع همزته إذا سُمِّيَ به نحو: اسْرُبْ؛ لأنه ليس لنا من الأسماء  
ما همزته للوصل إلا أسماء عشرة، ونوع الانطلاق من كل مصدر زاد على الخمسة وهو  
قليل، فالإلحاق بالكثير أولى، وأما كسر الميم فلأن التغيير يُؤنسُ بالتغيير وكذلك الجوابُ  
عن تانيته بالتاء. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 423.424 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193) ﴾



المعبود هو القادر على هداية داعيه، وعلم العبد بقدره معبوده يوجب تربيته عن حوله  
وقوته، وإفراد الحق - سبحانه - بالقدرة على قضاء حاجته، وإزالة ضرورته فتقاصر  
عن قصد الخلق خطاه، وتنقطع آماله عن غير مولاه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف  
الإشارات ج 1 ص 596 ﴾

(456/300)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوى فى تفسير القرآن الكريم  
ويسمى (جنته المشتاق فى تفسير كلام الملك الخلاق)  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورسُلي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأول بعد الثلاثمائة

حُقوقُ النَّسخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الأول بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 194 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 203 ﴾ من نفس السورة

(4/301)

---

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَيْسَ تَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ ﴾ (194)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان اتباع من يدعي أنه أعقل الناس وأبعدهم عن النقائص وأعرقهم في معالي الأخلاق وأرفعهم عن سفاسفها لمن هذا سبيله أخزى الخزي وأقبح العار ، وكانوا مع العلم بهذا الذي وصفت به - معبوداتهم يفعلون في الإشراف بهم وفي خوفهم ورجائهم ما هو عين الجهل ؛ كمر تبكيتهم باتباعهم في أسلوب آخر أوضح مما قبله في تبين النقائص والتنبيه على المعايير ملجىء إلى الاعتراف أو التصريح بالعناد أو الجنون فقال مؤكداً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ أي أيها المشركون دعاء عبادة ملازمين لذلك ، أو أنه أطلق الدعاء على العبادة

إشارة إلى أنه لا تصح عبادة من ليس فيه قابلية أن يدعى ، والحاصل أن الدعاء يلازم  
المعبود .

ولما كان دعاؤهم لهم إنما هو على سبيل الإشراف ، قال مشيراً إلى سفول رتبهم بإثبات  
الجار : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال والعظمة والجلال ﴿ عباد  
أمثالكم ﴾ أي في العجز عن كل شيء لا سيما عما وقع به التحدي من معارضة القرآن  
وغيرها ، وأنتم تزيدون عليها بالحياة والعقل ، والمعبود لا يصح أن يكون مثل العابد فكيف  
إذا كان دونه ؛ ولما كانوا لا يسلّمون أنهم أمثالهم ، سبب عن ذلك أمرهم بدعائهم لبيان  
دعوى المثلية بل الدونية فقال : ﴿ فادعوه ﴾ أي إلى شيء من الأشياء .  
ولما كان الإله الحق يجب عليه عند التحدي من غير تخلف ، أشار إلى ذلك بالربط بالفاء  
فقال : ﴿ فليستجيبوا لكم ﴾ أي يوجدوا لكم إجابة بينة في الإتيان بسورة تماثل شيئاً من  
القرآن وفي شيء من المنافع .

(5/301)

---

ولما كان المقام محتاجاً إلى مزيد توبيخ وإلهاب ، قدم منه ما رأيت ، ثم زاد في الإلهاب فقال :  
﴿ إن كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ صادقين ﴾ أي في دعوى أنهم آلهة ، فإن رتبة الإله

تقتضي ذلك ، وقرأ سعيد بن جبير ﴿ إن ﴾ خفيفة و ﴿ عباداً أمثالكم بنصب الدال واللام ، واتفق المفسرون على تخريجها على أن " إن " هي النافية أعملت عما " ما " الحجازية ، رفعت الاسم ونصبت الخبر ، وإعمالها هذا العمل فيه خلاف ، أجازه الكسائي وأكثر الكوفيين ، ومن البصريين ابن السراج والفارسي وابن جني ، ومنع منه الفراء وأكثر البصريين ، واختلف النقل عن سيبويه والمبرد ، والصحيح أن إعمالها لغة ثبت ذلك في النظم والنثر - ذكر ذلك كله أبو حيان وذكر أنه أشبع الكلام فيه في شرح التسهيل ، واعترض على هذا التخريج بأنه يلزم منه منافاتها للقراءة المشهورة ، وإنما يسلم له ذلك لو توارد النفي والإثبات على شيء واحد ، وليس الأمر هنا كذلك ، فالإثبات لماثلتها لهم في مطلق العجز ، والنفي لمساواتها لهم فيه لزيادتهم عنها بالبطش ونحوه ، أو يكون الأمر - كما قال الزمخشري - أن الإثبات على سبيل التنزل والنفي على الحقيقة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر ح 3 ص 170.171 ﴾

(6/301)

فصل

قال الفخر :

ثم أكد الله بيان أنها لا تصلح للإلهية ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ ﴾

وفيه سؤال : وهو أنه كيف يحسن وصفها بأنها عباد مع أنها جمادات ؟ وجوابه من وجوه : الأول : أن المشركين لما ادعوا أنها تضر وتنفع ، وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة ، فلا جرم وردت هذه الألفاظ على وفق معتقداتهم ، ولذلك قال : ﴿ فادعوهمْ فَلَيْسَتْ جِبُوتًا لَكُمْ ﴾ ولم يقل فادعوهم فليست جنين لكم وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ﴾ ولم يقل التي . والجواب الثاني : أن هذا اللغو أورد في معرض الاستهزاء بهم أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء ، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم ولا فضل لهم عليكم ، فلم جعلتم أنفسكم عبداً وجعلتموها آلهة وأرباباً ؟ ثم أبطل أن يكونوا عبداً أمثالكم .

فقال : ﴿ أَلَمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 195] ثم أكد هذا البيان بقوله : ﴿ فادعوهمْ فَلَيْسَتْ جِبُوتًا لَكُمْ ﴾ ومعنى هذا الدعاء طلب المنافع وكشف المضار من جهتهم واللام في قوله : ﴿ فَلَيْسَتْ جِبُوتًا ﴾ لام الأمر على معنى التعجيز والمعنى أنه لما ظهر لكل عاقل أنها لا تقدر على الإجابة ظهر أنها لا تصلح للمعبودية ، ونظيره قول إبراهيم عليه السلام لأبيه : ﴿ لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مریم : 42] وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي في ادعاء أنها آلهة ومستحقة للعبادة ، ولما ثبت بهذه الدلائل الثلاثة اليقينية أنها لا تصلح للمعبودية ، وجب على العاقل أن لا يلتفت إليها ، وأن لا



يشتغل إلا بعباده الإله القادر العالم الحي الحكيم الضار النافع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح

الغيب ح 15 ص 75 ﴾

وقال الجصاص :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلِكُمْ فَادْعُوهُمْ ﴾  
عنى بالدُّعَاءِ الأوَّلِ تَسْمِيَتَهُمُ الْأَصْنَامَ الْآلِهَةَ ، والدُّعَاءِ الثَّانِي طلب المنافع وكشف المضار  
من جهتهم ، وذلك مَبْنُوسٌ مِنْهُمْ .

وقوله : ﴿ عِبَادٌ أَمْثَلِكُمْ ﴾ قيل : إِنَّمَا سَمَّاهَا عِبَادًا لِأَنَّهَا مَمْلُوكَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، وقيل : لِأَنَّهُمْ  
تَوَهَّمُوا أَنَّهَا تَضُرُّ وَتَنْفَعُ ، فَخَبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ يَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنْ حُكْمِ الْعِبَادِ الْمَخْلُوقِينَ .  
وقال الحسنُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ هَذِهِ الْأَوْثَانَ مَخْلُوقَةٌ أَمْثَلِكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص ح 3 ص ﴾

(7/301)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلِكُمْ ﴾

قرأ جمهور الناس "إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم" بتشكيل "إن" ورفع "عباد"

"وهي مخاطبة للكفار في تحقير شأن أصنامهم عندهم أي إن هذه الأصنام مخلوقة محدثة ،  
إذ هي أجسام وأجرام فهي متعبدة أي مملكة ، وقال مقاتل ، إن المراد بهذه الآية طائفة من  
العرب من خزاعة كانت تعبد الملائكة فأعلمهم الله أنهم عباد أمثالهم لا آلهة ، وقرأ سعيد  
بن جبير " إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم " بتخفيف النون من " إن " على أن  
تكون بمعنى ما وينصب قوله " عباداً وأمثالكم " ، والمعنى بهذه القراءة تحقير شأن  
الأصنام ونفي مماثلتهم للبشر ، بل هم أقل وأحقراً إذ هي جمادات لا تفهم ولا تعقل ، وسيبويه  
يرى أن " إن " إذا كانت بمعنى " ما " فإنها تضعف عن رتبة " ما " فيبقى الخبر مرفوعاً  
وتكون هي داخلة على الابتداء والخبر لا ينصبه ، فكان الوجه عنده في هذه القراءة " إن  
الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم " وأبو العباس المبرد يميز أن تعمل عمل " ما " في  
نصب الخبر ، وزعم الكسائي أن " إن " بمعنى " ما " لا تجيء إلا وبعدها إلا كقوله تعالى :  
﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ [ الملك : 20 ] ثم بين تعالى الحجة بقوله ﴿ فادعوهم  
﴿ أي فاختبروا فإن لم يستجيبوا فهم كما وصفنا . انتهى انتهى . اهـ ﴾ المحرر الوجيز ح  
2 ص ﴿

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

يعني الأصنام ﴿ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ ﴾ في أنهم مسخرون مذلون لأمر الله .

وإنما قال "عباد" وقال : ﴿ فادعوهم ﴾ ، وإن كانت الأصنام جماداً ، لما بينا عند قوله :

﴿ وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فليستجيبوا لكم ﴾ أي : فليجيبوكم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أن لكم

عندهم نفعاً وثواباً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ ﴾ حاجهم في عبادة الأصنام

"تَدْعُونَ" تعبدون .

وقيل : تدعونها آلهة .

"مِنْ دُونِ اللَّهِ" أي من غير الله .

وسميت الأوثان عباداً لأنها مملوكة لله مسخرة .

الحسن : المعنى أن الأصنام مخلوقة أمثالكم .

ولما اعتقد المشركون أن الأصنام تضر وتنفع أجزاها مجرى الناس فقال : ﴿ فادعوهم ﴾

ولم يقل فادعوهن .

وقال: "عِبَادُ"، وقال: "إِنَّ الَّذِينَ" ولم يقل "إِنَّ" التي.

ومعنى "فادعوهم" أي فاطلبوا منهم النفع والضرر.

﴿ فَلَيْسَتْ جِبِيًّا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أن عبادة الأصنام تنفع.

وقال ابن عباس: معنى فادعوهم فاعبدوهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7

ص ﴿

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلَكُمْ ﴾

يعني أن الأصنام التي يعبدها هؤلاء المشركون إنما هي مملوكة لله أمثالهم وقيل إنها مسخرة

مذلة مثل ما أنتم مسخرون مذلولون قال مقاتل في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ عِبَادًا أَمْثَلَكُمْ

﴿ أنها الملائكة والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة والقول الأول أصح وفيه سؤال وهو

أنه وصفها بأنها عباد مع أنها جماد.

والجواب أن المشركين لما ادعوا أن الأصنام تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا كونها عاقلة فاهمة

فوردت هذه الألفاظ على وفق معتقدهم تبكيًا لهم وتوبيخًا ولذلك قال: ﴿ فادعوهم

فليست جيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾ في كونها آلهة وجواب آخر وهو أن هذا اللفظ إنما

ورد في معرض الاستهزاء بالمشركين والمعنى أن قصارى هذه الأصنام التي تعبدونها أحياء

عاقلة على معتقدكم فهم عباد الله أمثالكم ولا فضل لهم عليكم فلما عبدتموهم

وجعلتموهم آلهة وجعلتم أنفسكم لهم عبيداً ثم وصفهم بالعجز . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن ج 2 ص ﴾

(9/301)

وقال أبو حيان :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم

صادقين ﴾

هذه الجملة على سبيل التوكيد لما قبلها في انتفاء كون هذه الأصنام قادرة على شيء من نفع أو ضرر أي الذين تدعونهم وتسمونهم آلهة من دون الله الذي أوجدها وأوجدكم هم عباد وسمى الأصنام عبادة وإن كانت جمادات لأنهم كانوا يعتقدون فيها أنها تضر وتنفع فاقضى ذلك أن تكون عاقلة و ﴿ أمثالكم ﴾ .

قال الحسن في كونها مملوكة لله ، وقال التبريزي في كونها مخلوقة ، وقال مقاتل : المراد طائفة من العرب من خزاعة كانت تعبد الملائكة فأعلمهم تعالى أنهم عباد أمثالهم لا آلهة انتهى ، فعلى هذا جاء الإخبار إخباراً عن العقلاء .

وقال الزمخشري : ﴿ عباد أمثالكم ﴾ استهزاء بهم أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء

عقلاء ، فإن ثبت ذلك فمنهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم ثم أبطل أن يكونوا عباداً  
أمثالكم فقال : ألهم ﴿ أرجل يمشون بها ﴾ انتهى ؟ وليس كما زعم لأنه تعالى حكم على  
هؤلاء المدعوين من دون الله أنهم عباد أمثال الداعين فلا يقال في الخبر من الله فإن ثبت ذلك  
لأنه ثابت ولا يصح أن يقال ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالكم فقال ﴿ ألهم أرجل ﴾ لأن  
قوله ﴿ ألهم أرجل ﴾ ليس إبطالاً لقوله ﴿ عباد أمثالكم ﴾ لأن المثلية ثابتة أما في أنهم  
مخلوقون أو في أنهم مملوكون مقهورون وإنما ذلك تحقير لشأن الأصنام وأنهم دونكم في انتفاء  
الآلات التي أعدت للانتفاع بها مع ثبوت كونهم أمثالكم فيما ذكر ولا يدل إنكار هذه الآلات  
على انتفاء المثلية فيما ذكر وأيضاً فالأبطال لا يتصور بالنسبة إليه تعالى لأنه يدل على كذب  
أحد الخبرين وذلك مستحيل بالنسبة إلى الله تعالى ، وقد بينا ذلك في قوله

(10/301)

---

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ وقرأ ابن جبير إن خفيفة و ﴿ عباداً أمثالكم ﴾  
بنصب الدال واللام واتفق المفسرون على تخريج هذه القراءة على أن إن هي النافية  
أعملت عمل ما الحجازية فرفعت الاسم ونصبت الخبر فعباداً أمثالكم خبر منصوب قالوا  
: والمعنى بهذه القراءة تحقير شأن الأصنام ونفي مماثلتهم للبشر بل هم أقل وأحقر إذ هي

جمادات لا تفهم ولا تعقل وإعمال ﴿ إن ﴾ إعمال ما الحجازية فيه خلاف أجاز ذلك الكسائي وأكثر الكوفيين ومن البصريين ابن السراج والفارسي وابن جني ومنع من إعماله الفراء وأكثر البصريين واختلف النقل عن سيبويه والمبرد والصحيح أن إعمالها لغة ثبت ذلك في النثر والنظم وقد ذكرنا ذلك مشبعاً في شرح التسهيل وقال النحاس : هذه قراءة لا ينبغي أن يقرأ بها بثلاث جهات إحداها أنها مخالفة للسواد والثانية أن سيبويه يختار الرفع في خبر أن إذا كانت بمعنى ما فيقول : إن زيد منطلق لأن عمل ما ضعيف وإن بمعناها فهي أضعف منها والثالثة أن الكسائي رأى أنها في كلام العرب لا تكون بمعنى ما إلا أن يكون بعدها إيجاب انتهى وكلام النحاس هذا هو الذي لا ينبغي لأنها قراءة مروية عن تابعي جليل ولها وجه في العربية وأما الثلاث جهات التي ذكرها فلا يقدح شيء منها في هذه القراءة أما كونها مخالفة للسواد فهو خلاف يسير جداً لا يضر ولعله كتب المنصوب على لغة ربيعة في الوقف على المنون المنصوب بغير ألف فلا تكون فيه مخالفة للسواد وأما ما حكى عن سيبويه فقد اختلف الفهم في كلام سيبويه في ﴿ أن ﴾ وأما ما حكاه عن الكسائي فالنقل عن الكسائي أنه حكى إعمالها وليس بعدها إيجاب والذي يظهر لي أن هذا التخريج الذي خرجوه من أن إن للنفي ليس بصحيح لأن قراءة الجمهور تدل على إثبات كون الأصنام عبادة أمثال عابديها وهذا التخريج يدل على نفي ذلك فيؤدي إلى عدم مطابقة أحد الخبرين الآخر وهو لا يجوز بالنسبة إلى الله تعالى ، وقد خرجت هذه القراءة في شرح

التسهيل على وجه غير ما ذكره وهو أن إن هي المخففة من الثقيلة وأعمالها عمل المشددة وقد ثبت أن إن المخففة يجوز إعمالها عمل المشددة في غير المضمرة بالقراءة المتواترة وإن كلاما وينقل سيبويه عن العرب لكنه نصب في هذه القراءة خبرها نصب عمر بن أبي ربيعة المخزومي في قوله :

إذا اسود جنح الليل فلتأتِ وتكن . . .

خطاك خفافاً إن حراسنا أسدا

وقد ذهب جماعة من النحاة إلى جواز نصب أخبار إن وأخواتها واستدلوا على ذلك بشواهد ظاهرة الدلالة على صحة مذهبهم وتأولها المخالفون ، فهذه القراءة الشاذة تخرج على هذه اللغة أو تتأول على تأويل المخالفين لأهل هذا المذهب وهو أنهم تأولوا المنصوب على إضمار فعل كما قالوا في قوله :

يا ليت أيام الصِّبا رواجعا . . .

إن تقديره أقبلت رواجعا فكذلك تؤول هذه القراءة على إضمار فعل تقديره ﴿ أن الذين تدعون من دون الله ﴾ تدعون عبادة أمثالكم ، وتكون القراءة تان قد توافقتا على معنى



واحد وهو الإخبار أنهم عباد ، ولا يكون تفاوت بينهما وتحالف لا يجوز في حق الله تعالى  
وقرىء أيضاً إن محففة ونصب عبادة على أنه حال من الضمير المحذوف العائد من الصلة  
على الذين وأمثالكم بالرفع على الخبر أي ﴿ أن الذين تدعونهم من دون الله ﴾ في حال  
كونهم عبادة أمثالكم في الخلق أو في الملك فلا يمكن أن يكونوا آلهة ﴿ فادعوهم ﴾ أي  
فاختبروهم بدعائكم هل يقع منهم إجابة أو لا يقع والأمر بالاستجابة هو على سبيل  
التعجيز أي لا يمكن أن يجيبوا كما قال : ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ ومعنى ﴿ إن  
كنتم صادقين ﴾ في دعوى إلهيتهم واستحقاق عبادتهم كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه  
﴿ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ البحر  
المحيط ح 4 ص ﴾

(12/301)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

تقرير لما قبله من عدم اتباعهم لهم أي إن الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام  
وتسمونهم آلهة ﴿ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ ﴾ أي مماثلة لكم لكن لا من كل وجه بل من حيث أنها

مملوكة لله عز وجل مسخرة لأمره عاجزة عن النفع والضرر وتشبيهاً بهم في ذلك مع كون  
عجزها عنهما أظهر وأقوى من عجزهم إنما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم وادعائهم لقدرتها  
عليها إذ هو الذي يدعوهم إلى عبادتها والاستعانة بها وقوله تعالى: ﴿ فادعوهم  
فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ تحقيق لضمون ما قبله بتعجزهم وتبكيهم أي فادعوهم في جلب  
نفع أو كشف ضرر ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون  
عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 3 ص ﴾

(13/301)

وقال الأوسى :

﴿ إِن الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾  
﴿ إِن الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ تقرير لما قبله من عدم اتباعهم لهم ، والدعاء اما بمعنى العبادة  
تسمية لها بجزئها ، أو بمعنى التسمية كدعوتها زيدا ومفعولاه محذوفان أي إن الذين  
تعبدونهم ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أو تسمونهم آلهة من دونه سبحانه وتعالى : ﴿ عِبَادٌ  
أَمْثَلُكُمْ ﴾ أي مماثلة لكم من حيث أنها مملوكة لله تعالى مسخرة لأمره عاجزة عن النفع  
والضرر كما قال الأخفش ، وتشبيهاً بهم في ذلك مع كون عجزها عنهما أظهر وأقوى من

عجزهم إنما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم وزعمهم قدرتها عليهما إذ هو الذي يدعوهم إلى عبادتها والاستعانة بها ، وقيل : يحتمل أنهم لما نحتوا الأصنام بصور الأناسي قال سبحانه لهم : إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما لا يستحق بعضكم عبادة بعض فتكون المثلية في الحيوانية والعقل على الفرض والتقدير لكونهم بصورة الأحياء العقلاء ، وقرأ سعيد بن جبير ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ بتخفيف إن ونب عباداً أمثالكم ، وخرجها ابن جني على أن إن نافية عملت عمل ما الحجازية وهو مذهب الكسائي وبعض الكوفيين .

واعترض أولاً : بأنه لم يثبت مثل ذلك ، وثانياً : بأنه يقتضي نفي كونهم عباداً أمثالهم ، والقراءة المشهورة تثبته فتناقض القراءتان ، وأجيب عن الأول : بأن القائل به يقول : إنه ثابت في كلام العرب كقوله :

أن هو مستولياً على أحد . . .

إلا على أضعف المجانين

وعن الثاني : أنه لا تناقض لأن المشهورة تثبت المثلية من بعض الوجوه وهذه تنفيها من كل الوجوه أو من وجه آخر فإن الأصنام جمادات مثلاً والداعين ليسوا بها ، وقيل : إنها إن المخففة من المثقلة وإنها على لغة من نصب بها الجزئين كقوله :

إذا اسود جنح الليل فلتأت وتكن . . .

خطاك خفافاً أن حراسنا أسداً

(14/301)

---

في رأي ولا يخفى ، أن أعمال المخففة ونصب جزئيهما كلاهما قليل ضعيف ، ومن هنا قيل  
: إنها مهملة وخبر المبتدأ محذوف وهو الناصب لعباداً و ﴿ أمثالكم ﴾ على القراءتين  
نعت لعباد عليهما أيضاً ، وقرىء ﴿ إن ﴾ بالتشديد و ﴿ عباداً ﴾ بالنصب على أنه  
حال من العائد المحذوف و ﴿ أمثالكم ﴾ بالرفع على أنه خبر أن ، وقرىء به مرفوعاً في  
قراءة التخفيف ونصب ﴿ عباد ﴾ وخرج ذلك على الحالية والخبرية أيضاً ﴿ فادعوهم  
فَلَيْسَتْ جَبِيئُوا لَكُمْ ﴾ تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم أي دافعوهم في رفع ضر  
أو جلب نفع ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ﴾ 9 ص

(15/301)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾

هذه الجملة على الوجه الأول في كون المخاطب ، بقوله : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ﴾ [الأعراف : 193] الآية ، النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين أن تكون استئناً ابتدئاً انتقل به إلى مخاطبة المشركين ، ولذلك صدر بحرف التوكيد لأن المشركين ينكرون مساواة الأصنام إياهم في العبودية ، وفيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب .

والمراد بالذين تدعون من دون الله : الأصنام ، فتعريفها بالموصول لتنبية المخاطبين على خطأ رأيهم في دعائهم إياها من دون الله ، في حين هي ليست أهلاً لذلك ، فهذا الموصول كالموصول في قول عبدة بن الطبيب :

إن الذين تُرَوِّبُهُمْ إخوانكم . . .

يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

ويجيء على الوجه الثاني في الخطاب السابق : أن تكون هذه الجملة بياناً وتعليلاً للجملة ﴿

وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ﴾ [الأعراف : 193] أي لأنهم عباد أي مخلوقون .

و(العبد) أصله المملوك ، ضد الحر ، كما في قوله تعالى : ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد ﴾ [

البقرة : 178] وقد أطلق في اللسان على المخلوق : كما في قوله تعالى : ﴿ إن كل من في

السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ﴾ [مريم : 93] ولذلك يطلق العبد على الناس

، والمشهور أنه لا يطلق إلا على المخلوقات من الآدميين فيكون إطلاق العباد على الأصنام ،  
كإطلاق ضمير جمع العقلاء عليها بناء على الشائع في استعمال العرب يومئذ من الإطلاق ،  
وجعله صاحب "الكشاف" إطلاق تهكم واستهزاء بالمشركين ، يعني أن قصارى أمرهم  
أن يكونوا أحياء عقلاء فلو بلغوا تلك الحالة لما كانوا إلا مخلوقين مثلكم ، قال ولذلك أبطل أن  
يكونوا عباداً بقوله ﴿ أَلَمْ أَرْجُلْ ﴾ [الأعراف : 195] إلى آخره .

(16/301)

---

والأحسن عندي أن يكون إطلاق العباد عليهم مجازاً بعلاقة الإطلاق عن التقييد روعي  
في حسنة المشاكلة التقديرية لأنه لما ماثلهم بالمخاطبين في المخلوقية وكان المخاطبون عباد  
الله أطلق العباد على مماثلهم مشاكلة .

وفرع على المماثلة أمر التعجيز بقوله ﴿ فادعوه ﴾ فإنه مستعمل في التعجيز باعتبار ما  
تفرع عليه من قوله ﴿ فليستجيبوا لكم ﴾ المضمن إجابة الأصنام إياهم ، لأن نفس  
الدعاء ممكن ولكن استجابته لهم ليست ممكنة ، فإذا دعوه فلم يستجيبوا لهم تبين عجز  
الآلهة عن الاستجابة لهم ، وعجز المشركين عن تحصيلها مع حرصهم على تحصيلها  
لأنهاض حجتهم ، فإل ظهور عجز الأصنام عن الاستجابة لعبادها إلى إثبات عجز

المشركين عن نهوض حجتهم لتلازم العجزين ، قال تعالى : ﴿ أن تدعوهم لا يسمعوا  
دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ [ فاطر : 14 ] .  
والأظهر أن المراد بالدعوة المأمور بها الدعوة للنصر والنجدة كما قال وذلك المازني إذا  
استجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأي مكان .  
وبهذا يظهر أن أمر التعجيز كناية عن ثبوت عجز الأصنام عن إجابتهم ، وعجز المشركين  
عن إظهار دعاء للأصنام تعقبة الاستجابة .  
والأمر باللام في قوله : ﴿ فليستجيبوا ﴾ أمرٌ تعجيز للأصنام ، وهو أمر الغائب فإن طريق  
أمر الغائب هو الأمر .  
ومعنى توجيه أمر الغائب السامع أنه مأمور بأن يبلغ الأمر للغائب .  
وهذا أيضاً كناية عن عجز الأصنام عن الاستجابة لعجزها عن تلقي التبليغ من عبدتها .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(17/301)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾

﴿ تَدْعُونَ ﴾ لها معنيان ، المعنى الأول يعني أنكم قد تتخذونهم آلهة وتعبدونهم ،  
والمعنى الثاني هو أن يقال : " تدعونه " أي تطلب منه شيئاً . والمعنيان يجيئان في هذه الآية  
: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ ﴾ .

وعندما يسمع الإنسان كلمة " عباد " يفهم أنها من الجنس المتعقل الحي ، فكيف تكون  
الأصنام عباداً ؟ وأقول : نحن هنا نأخذها على شهرة اللفظ ، أما إذا أردنا تحقيق اللفظ  
وتعقيده ، فالبناء مأخوذ من التذلل والخضوع ، ألم يقل موسى لفرعون : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ  
تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [ الشعراء : 22 ] .

أي أذلتهم . وفي الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها تكون الأصنام عباداً أمثالهم في أنهم  
يذلون ؛ لأن السيل إذا نزل أو هبت الريح نجد هذه الأصنام قد وقعت وتكسرت رقابها ،  
فيهرع المشركون ليأتوا بمن يعيد ترميم هذه الآلهة ! ! إذن فأنتم أيها المشركون ؛ لأنكم  
مخلوقون بالله قد تملكون قدرة ، وقوة تستطيعون بها إن جاء لكم ضرر أن تدفعوا الضرر  
عنكم ، أما الأصنام فليست لها أدنى قدرة إن جاءها من يحطمها ، أو يكسرها ، أو يقبلها  
، فهي أضعف منكم . وبذلك تكون كلمة ﴿ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ لونا من الترقي .

وعلى فرض أنهم عباد أمثالكم ، فالعبد من الأحياء حينما يأتي شيء يستذله ، قد  
يستطيع أن يدفع عن نفسه بعض الشيء إلا إن كان الشيء قويا فوق طاقته . فالمراد  
والمقصود أنهم عباد أمثالكم أي مذلون ومسخرون ولا يستطيعون دفع شيء عن أنفسهم



. وأنت إذا ما نظرت إلى هذه المسألة وأخذت معنى عباد على معناها الإطلاقي ، فأنت تعلم أن العبد هو كل مسخر مذل من العباد .

(18/301)

---

لكن هناك مذل ومسخر فيما لا اختيار له فيه ، وآخر مذل ومسخر فيما له فيه اختيار أيضاً ، والفرق بين الاثنين أن الكافر فيما له اختيار ؛ إما أن يؤمن وإما أن لا يؤمن ويختار الكفر ، بل إن الإنسان المؤمن له الاختيار في أن يطيع أو يعصي . ولكن هناك أشياء أخرى تجري على الإنسان لا اختيار له فيها ، كأن يمرض ولا يقدر أن يقول : لالن أمرض ، أو قد يأتيه الموت فلا يقدر أن يقول : لن أموت . وقد يهلك ماله أو تحترق داره فلا يستطيع دفع القدر ، وكل هذه أمور قهرية يكون الإنسان فيها مذلاً مسخراً ، والكافر والمؤمن في هذه الأمور سواء .

والمؤمن يتميز بأنه يتبع منهج الله فيما له فيه اختيار ، وهذه فائدة الإيمان ، وبذلك يخرج المؤمن عن الاختيار المخلوق لله ، إلى مراد الله منه في الحكم ، ويستوي بكل شيء مسخر لله ، ولذلك نقول للذين يكفرون : كفرتم وتأبیتم بما خلق فيكم من الاختيار عن الإيمان بالله .

وقد جعلها الله لكم بقوله :

﴿ . . . فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: 29]

وما دام الواحد منكم أيها الكافرون يتأبى ويستكبر على حكم الله ، إذن فللواحد منكم أيها الكافرون رياضة على التمرد ، فلماذا لا تقول للمرض لن أستسلم لك . ولن يستطيع أحد الكافرين ذلك ، لأنه إنما يكفر بما له حق ممنوح من الله في منطقة الاختيار ، أما في غير ذلك فالكل عباد مذلون . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ [الأعراف: 194]

وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فادعوهم ﴾ أي اطلبوا منهم أن يلبوا لكم أي طلب ، وهم لن يستجيبوا لكم ؛ لأنهم لا يقدرون أبداً . وفي هذا القول لون من التحدي ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ لكنهم لن يستجيبوا ، فليست لهم قدرة لأن يخرجوا على أمر ربنا ويقولوا سنعطىكم ما تطلبون ، لأن طاقتهم وطبيعتهم لا تقدر أن تستجيب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(19/301)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " إِنْ الَّذِينَ "

العامَّةُ على تشديدِ إِنْ والموصولِ اسمها ، وعبادُ خبرها ، وقرأ سعيدُ بنُ جبيرٍ بتخفيفِ  
إِنْ ونصبِ عبادٍ وأمثالكم ، وخرَّجها ابنُ جنبي وغيره أنها إِنْ النَّافِيَةُ وهي عاملةٌ عملُ ما  
الحجازية وهو مذهب الكسائي وأكثر الكوفيين غير الفراء ، وقال به من البصريين : ابن  
السراج والفارسي وابن جنبي ، واختلف النقل عن سيبويه والمبرد ، والصحيحُ أَنْ إعمالها  
لغةٌ ثابتةٌ نظماً ونثراً ؛ وأنشدوا : [ المنسرح ]

2649 - إِنْ هُوَ مُسْتَوْلِيَاً عَلَى أَحَدٍ . . .

إِلَّا عَلَى أضعفِ المجانين

ولكن قد استشكلوا هذه القراءة من حيث إنها تنفي كونهم عباداً أمثالهم ، والقراءة  
الشهيرة تُثبتُ ذلك ولا يجوزُ التناقضُ في كلامِ الله تعالى .  
وقد أجابوا عن ذلك بأن هذه القراءة تُفهمُ تحقيرُ أمرِ المعبودِ من دونِ الله وعبادةِ عابده .  
وذلك أن العابدين أتمَّ حالاً وأقدرُ على الضرِّ والنفعِ من آهتهم فإنها جمادٌ لا تفعل شيئاً من  
ذلك ، فكيف يُعبدُ الكاملُ من هودونه ؟ فهي موافقةٌ للقراءة المتواترة بطريق الأولى .  
وقد ردَّ أبو جعفر هذه القراءة بثلاثة أوجه :

أحدها : أنَّهَا مخالفةٌ لسوادِ المصحفِ .

والثاني : أن سيبويه يختار الرفع في خبر إنَّ المخففة فيقول : " إنَّ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ " ؛ لأنَّ عمل ما ضعيف وإنَّ بمعناها ، فهي أضعف منها .

الثالث : أنَّ الكسائي لا يرى أنَّهَا تكون بمعنى ما إلاَّ أن يكون بعدها إيجاب ، وما ردَّ به النَّحَّاس ليس بشيءٍ ؛ لأنَّهَا مخالفةٌ يسيرة .

قال أبو حيان : يجوز أن يكون كتب المنصوب على لغة ربيعة في الوقف على المنون المنصوب بغير ألف ، فلا تكون مخالفةً للسَّواد .

وأما سيبويه فاختلف النَّاسُ في الفهم عنه في ذلك .

وأما الكسائيُّ فهذا القيد غير معروف له .

وخرَجَ أبو حيان القراءة على أنَّهَا إنَّ المخففة .

قال : وإنَّ المخففة تعمل في القراءة المتواترة كقراءة ﴿ وَإِنَّ كَلِمًا ﴾ [ هود : 111 ] ثُمَّ إِنَّهَا

قد ثبت لها نصبُ الجزأين ؛ وأنشد : [ الطويل ]

2650 - . . . . .

إِنَّ حُرَّاسَنَا أُسْدًا

قال : وهي لغة ثابتة ثم قال : فإن تأوَّلوا ما ورد من ذلك ؛ نحو : [ الرجز ]

2651 - يَا لَيْتَ أَيَّامَ الصَّبَا رَوَّاجِعًا . . .

أي: تُرى رواجعاً ، فكذلك هذه يكون تأويلها : إن الذين تدعون من دون الله خلقناهم  
عباداً أمثالكم .

قال شهابُ الدِّينِ : فيكون هذا التَّخرِيجُ مبنيّاً على مذهبيْن .  
أحدهما : إعمالُ المخففة .

(20/301)

---

وقد نصَّ جماعةٌ من النحويِّين على أنَّه أقلُّ من الإهمال ، وعبارة بعضهم أنَّه قليل ، ولا  
أرْتضيه قليلاً لوروده في المتواتر .

الثاني : أنَّ إنَّ وأخواتها تنصب الجزأين ، وهو مذهبُ مرجوح ، وقد تحصَّل في تخرِيج هذه  
القراءة ثلاثةُ أوجه : كونُ إنَّ نافيةً عاملةً ، والمخففة الناصبة للجزءين ، أو النصب بفعل  
مقدر هو خبر لها في المعنى .

وقرأ بعضهم إنَّ مخففةً ، عباداً نصباً أمثالكم رفعاً ، وتخرِيجها على أن تكون المخففة وقد  
أهملت والذين مبتدأ ، و"تَدْعُونَ" صلتها والعائدُ محذوف ، وعباداً حال من ذلك العائد  
المحذوف ، أمثالكم خبره ، والتقدير : إنَّ الذين تدعونهم حال كونهم عباداً أمثالكم في  
كونهم مخلوقين مملوكين ، فكيف يُعبَدون ؟

ويضعف أن يكون الموصول اسماً منصوب المحل؛ لأن إعمال المخففة كما تقدم قليل.  
وحكى أبو البقاء أيضاً قراءة رابعة وهي بتشديد إن ونصب عباد ورفع أمثالكم وتخريجها  
على ما تقدم قبلها. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل ج 9 ص 425. 426﴾  
من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ (194)﴾

إذا قرنت الضرورة بالضرورة تضاعف البلاء، وترادف العناء؛ فالمخلوق إذا استعان  
بمخلوق مثله ازداد بعد مراده عن النجح. وكيف تشكون لو هو ذو شكاية؟! هيهات!  
إن ذلك خطأ من الظن، وباطل من الحساب. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات ج  
1 ص 596﴾

(21/301)

---

قوله تعالى ﴿اللَّهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ  
أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (195)﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أثبت عجزهم وأنهم أمثالهم ، دل عليه وعلى أنهم دونهم بأسلوب إنكار وتعجيب  
مفصلاً لبعض ما نفاه عنهم - فقال مقدماً الأرجل لأن أول ما يخشى من الشيء انتقاله :  
﴿ ألهم أرجل ﴾ ولما كانت لهم جوارح مصنوعة ، بين المراد بقوله : ﴿ يمشون بها ﴾ .  
ولما كان المخشي بعد الانتقال مدّ اليد ، قال : ﴿ أم لهم أيد ﴾ أي موصوفة بأنهم  
﴿ يبطشون بها ﴾ أي نوعاً من البطش ؛ ولما كان المخوف بعد البطش باليد البصر خوفاً  
من الدلالة قال : ﴿ أم لهم أعين ﴾ أي منعوته بأنهم ﴿ يبصرون بها ﴾ أي ضرباً من  
الإبصار ؛ ولما كان الإنسان ربما خاف مما يقصد ضره فتغيب عنه فلا يصل إليه بعد ذلك إلا  
بالسمع قال خاتماً : ﴿ أم لهم آذان ﴾ أي مقول فيها أنهم ﴿ يسمعون بها ﴾ أي شيئاً من  
السمع .

ولما سواها بهم ونفى عنهم ما تقدم ، لزم نقصانها عنهم وأنه في الحقيقة مسلوب عنهم لأنهم  
ليس لهم من ذواتهم إلا العدم ، والقدرة فيما يقدرون عليه إنما هي بيد الصانع لهم أشركهم  
معها ، وقال دالاً على ذلك مستأنفاً : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء المشركين ﴿ ادعوا شركاءكم ﴾  
أي هذه التي تقدمت ومهما شتم غيرها ، واستعينوا بها في عداوتي .

ولما كان هذا تحدياً عظيماً يحق لفاعله التمدح به ، نبه عليه بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم

كيدون ﴿ أي جميعاً أتم وهم وأتم أكثر من حصى البطحاء ورممل الفضاء وأنا وحدي ،  
ولما كان المعنى : وعجلوا ، عطف بفاء السبب قوله : ﴿ فلا تنظرون ﴾ أي تمهلون لحظة  
فما فوقها لئلا تعتلوا في الإنظار بعلّة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 171 .

﴿ 172

(22/301)

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ

بِهَا ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من الدليل في بيان أنه يقبح من الإنسان العاقل أن يشتغل بعبادة هذه  
الأصنام .

وتقريره أنه تعالى ذكر في هذه الآية أعضاء أربعة ، وهي الأرجل والأيدي والأعين والآذان ،  
ولا شك أن هذه الأعضاء إذا حصل في كل واحدة منها ما يليق بها من القوى الحركة  
والمدركة تكون أفضل منها إذا كانت خالية عن هذه القوى ، فالرجل القادرة على المشي



واليد القادرة على البطش أفضل من اليد والرجل الخاليتين عن قوة الحركة والحياة، والعين الباصرة والأذن السامعة أفضل من العين والأذن الخاليتين عن القوة الباصرة والسامعة، وعن قوة الحياة، وإذا ثبت هذا ظهر أن الإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام، بل لانسبة لفضيلة الإنسان إلى فضل هذه الأصنام البتة، وإذا كان كذلك فكيف يليق بالأفضل الأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الذي لا يحس منه فائدة البتة، لا في جلب المنفعة ولا في دفع المضرة.

هذا هو الوجه في تقرير هذا الدليل الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية، وقد تعلق بعض أعمار المشبهة وجهاً لهم بهذه الآية في إثبات هذه الأعضاء لله تعالى. فقالوا: إنه تعالى جعل عدم هذه الأعضاء لهذه الأصنام دليلاً على عدم إلهيتها، فلو لم تكن هذه الأعضاء موجودة لله تعالى لكان عدمها دليلاً على عدم الإلهية وذلك باطل، فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء لله تعالى. والجواب عنه من وجهين:

(23/301)

---

الوجه الأول: أن المقصود من هذه الآية: بيان أن الإنسان أفضل وأكمل حالاً من الصنم، لأن الإنسان له رجل ماشية، ويد باطشة، وعين باصرة، وأذن سامعة، والصنم رجله غير ماشية، ويده غير باطشة، وعينه غير مبصرة، وأذنه غير سامعة، وإذا كان كذلك كان الإنسان أفضل وأكمل حالاً من الصنم، واشتغال الأفضل الأكمل بعبادة الأخس الأدون جهل، فهذا هو المقصود من ذكر هذا الكلام، لا ما ذهب إليه وهم هؤلاء الجهال.

الوجه الثاني: في الجواب أن المقصود من ذكر هذا الكلام: تقرير الحجّة التي ذكرها قبل هذه الآية وهي قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: 192] يعني كيف تحسن عبادة من لا يقدر على النفع والضرر، ثم قرر تعالى ذلك بأن هذه الأصنام لم يحصل لها أرجل ماشية، وأيد باطشة، وأعين باصرة، وأذان سامعة، ومتى كان الأمر كذلك لم تكن قادرة على الإنقاذ والإضرار، فامتنع كونها آلهة.

أما إله العالم تعالى وتقدس فهو وإن كان متعالياً عن هذه الجوارح والأعضاء إلا أنه موصوف بكمال القدرة على النفع والضرر وهو موصوف بكمال السمع والبصر فظهر الفرق بين البابين.

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ قال الحسن: إنهم كانوا يخوفون الرسول عليه السلام بأهتهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ ليظهر لكم أنه لا قدرة لها على إيصال المضار إلي بوجه من الوجوه، وأثبت نافع وأبو عمرو والياء في

﴿ كِيدُونِي ﴾ والباقون حذفوها ومثله في قوله: ﴿ فَلَا تَنْظُرُونَ ﴾ قال الواحدي ،  
والقول فيه أن الفواصل تشبه القوافي ، وقد حذفوا هذه اليبات إذا كانت في القوافي كقوله :  
يلمس الإحلاس في منزله . . بيديه كاليهودي الممل  
والذين أثبتوها فلأن الأصل هو الإثبات ، ومعنى قوله : ﴿ فَلَا تَنْظُرُونَ ﴾ أي لا تمهلوني  
واعجلوا في كيدي أتم وشركائكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 75 .

﴿ 76

(24/301)

وقال الجصاص :

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا ﴾  
تقريب لهم على عبادتهم من هذه صفة ؛ إذ لا شبهة على أحد في الناس أن من تبع من هذه  
صفة فهو أوم ممن عبد من له جارحة يمكن أن ينفع بها أو يضر وقيل : إنه قدرهم أنهم  
أفضل منها ؛ لأن لهم جوارح يتصرفون بها والأصنام لا تصرف لها ، فكيف يعبدون من هم  
أفضل منه والعجب من أنفتهم من اتباع النبي صلى الله عليه وسلم مع ما أئده الله به من  
الآيات المعجزة والدلائل الباهرة لأنه بشر مثلهم ، ولم يأنفوا من عبادة حجر لا قدرة له ولا

تَصَرَّفَ وَهُمْ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى النَّفْعِ وَالضَّرِّ وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص ج 3 ص ﴾

وقال السمرقندي :

﴿ اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ يعني : في حوائجكم ﴿ اللَّهُمَّ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾ يعني : يعطون بها ويمنعون عنكم الضر ﴿ اللَّهُمَّ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا ﴾ يعني : عبادتكم ﴿ اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أُمَّ ﴾ يعني : دعاءكم وقد احتجت المشبهة بهذه الآية أن من لا يكون له يد ولا رجل ولا بصر لا يصلح أن يكون إلها .

ولكن لا حجة لهم في ذلك لأن الله تعالى بين ضعف معبودهم وعجزهم ، وبين أنهم

اشتغلوا بشيء لا فائدة فيه ولا منفعة لهم في ذلك .

ثم قال : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد يعني : لكفار مكة ﴿ ادعوا شركاءكم ﴾ يعني : آلهتكم ﴿ ثم كيدون ﴾ يعني : اعملوا بي ما شئتم ﴿ فَلَا تَنْظُرُونَ ﴾ يعني : لا تمهلون ولا توجلون لأنهم خوفوه بألهتهم قرأ أبو عمرو ﴿ ثم ﴾ بالياء في حال الوصل وقرأ الباقر بغير الياء .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 1 ص ﴾

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ اَللّٰهُمَّ اَرْجُلُ يَمْشُوْنَ بِهَا ﴾

يعني الأصنام ، يعني أرجل يمشون بها في مصالحكم .

﴿ اُمَّ لّٰهُمَّ اَيْدٍ يَبْطِشُوْنَ بِهَا ﴾ يعني في الدفع عنكم .

﴿ اُمَّ لّٰهُمَّ اَعْيُنٍ يَبْصُرُوْنَ بِهَا ﴾ يعني مضاركم من منافعكم .

﴿ اُمَّ لّٰهُمَّ اَاْذَانَ يَسْمَعُوْنَ بِهَا ﴾ دعاءكم وتضرعكم .

فإن قيل فلم أنكر عبادة من لا رجل له ولا يد ولا عين ؟

قيل عنه جوابان :

أحدهما : أن من عبد جسماً لا ينفع كان ألوم ممن عبد جسماً ينفع .

والثاني : أنه عرفهم أنهم مفضلون عليها ، فكيف يعبدون من هم أفضل منه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(26/301)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ اَللّٰهُمَّ اَرْجُلُ ﴾ الآية ،

الغرض من هذه الآية، ألهم حواس الحي وأوصافه؟ فإذا قالوا لا، حكموا بأنها جمادات فجاءت هذه التفصيلات لذلك الجمل الذي أريد التقرير عليه فإذا وقع الإقرار بتفصيلات القضية لزم الإقرار بعمومها وكان بيانها أقوى ولم يتبق بها استرابة، قال الزهراوي: المعنى أتم أفضل منهم بهذه الجوارح النافعة فكيف تعبدونهم؟

قال القاضي أبو محمد: "وتقون" بهذا التأويل قراءة سعيد بن جبير، إذ تقتضي أن الأوثان ليست عباداً كالبشر، وقوله في الآية ﴿أم﴾ إضراب لكل واحدة عن الجملة المتقدمة لها، وليست "أم" المعادلة للألف في قوله أعندك زيد أم عمرو؟ لأن المعادلة إنما هي في السؤال عن شيئين أحدهما حاصل، فإذا وقع التقدير على شيئين كلاهما منفي ف"أم" إضراب عن الجملة الأولى.

قال القاضي أبو محمد: وهذا عندي فرق معنوي، وأما من جهة اللفظ والصناعة النحوية فهي هي، وقرأ نافع والحسن والأعرج "يبطشون" بكسر الطاء وقرأ نافع أيضاً وأبو جعفر وشيبة "يبطشون" بضمها، ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعجزهم بقوله ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ أي استنجدوهم إلى إضراري وكيدي ولا تؤخروني، المعنى فإن كانوا آلهة فسيظهر فعلهم، وسماهم شركاءهم من حيث لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء لله، وقرأ أبو عمرو ونافع "كيدوني" بإثبات الياء في الوصل، وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي "كيدون" بحذف الياء في الوصل والوقف، قال

أبو علي: إذا أشبه الكلام المنفصل أو كان منفصلاً أشبه القافية وهم يحذفون الياء في

القافية كثيراً قد التزموا ذلك، كما قال الأعشى: [المقارب]

فهل يمنعني ارتيادي البلا... د من حذر الموت أن يأتين

وقد حذفوا الياء التي هي لام الأمر كما قال الأعشى: [الرملة]

يلمس الأحلاس في منزله... بيديه كاليهودي المصل

وقوله ﴿ فلا تنظرون ﴾ أي لا تؤخرون، ومنه قوله تعالى: ﴿ فنظرة إلى ميسرة ﴾ [

البقرة: 280]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(27/301)

وقال ابن الجوزي:

﴿ ألهم أرجل يمشون بها ﴾ في المصالح ﴿ ألهم أيد يبطشون بها ﴾ في دفع ما يؤذي.

وقرأ أبو جعفر "يبطشون" بضم الطاء هاهنا وفي [القصص: 19] و[الدخان: 16].

﴿ ألهم أعين يبصرون بها ﴾ المنافع من المضار ﴿ ألهم آذان يسمعون بها ﴾

تضرعكم ودعاءكم؟ وفي هذا تنبيه على تفضيل العابدين على المعبودين، وتوبيخ لهم

حيث عبدوا من هم أفضل منه.

﴿ قل ادعوا شركاءكم ﴾ قال الحسن : كانوا يخوفونه بالهتهم ، فقال الله تعالى : ﴿ قل ادعوا شركاءكم ﴾ ، ﴿ ثم كيدوني ﴾ أتم وهم ﴿ فلا تنظرون ﴾ أي : لا تؤخروا ذلك .

وكان ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، يقرؤون : ﴿ ثم كيدون ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف .

وقرأ أبو عمرو ، ونافع : في رواية ابن حماد بالياء في الوصل .

وروى ورش ، وقالون ، والمسيبي : بغير ياء في الوصل ، ولا وقف .

فأما ﴿ تنظرون ﴾ فأثبت فيها الياء يعقوب في الوصل والوقف . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(28/301)

وقال القرطبي :

ثم ويخهم الله تعالى وسفه عقولهم فقال : ﴿ اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أُمَّ لَّهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أُمَّ

لَّهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أُمَّ لَّهُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الآية .

أي أتم أفضل منهم فكيف تعبدونهم .



والغرض بيان جهلهم؛ لأنَّ المعبود يتصف بالجوارح.

وقرأ سعيد بن جبير: "إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم" بتخفيف "إن"

وكسرهما لالتقاء الساكنين، ونصب "عباداً" بالتنوين، "أمثالكم" بالنصب.

والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم، أي هي حجارة وخشب؛ فأنتم

تعبدون ما أنتم أشرف منه.

قال النحاس: وهذه قراءة لا ينبغي أن يقرأ بها من ثلاث جهات: أحدها أنها مخالفة

للسّواد.

والثانية أن سيبويه يختار الرفع في خبر إن إذا كانت بمعنى ما، فيقول: إن زيد منطلق؛ لأن

عمل "ما" ضعيف، و"إن" بمعناها فهي أضعف منها.

والثالثة إن الكسائي زعم أن "إن" لا تكاد تأتي في كلام العرب بمعنى "ما"، إلا أن يكون

بعدها إيجاب؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ فِي الْإِفْيِ غُرُورٍ﴾.

"فَلَيْسَتْ جِيبُوا لَكُمْ" الأصل أن تكون اللام مكسورة، فحذفت الكسرة لثقلها.

ثم قيل: في الكلام حذف، المعنى: فادعوهم إلى أن يتبعوكم فليست جيبوا لكم إن كنتم

صادقين أنهم آلهة.

وقرأ أبو جعفر وشيبة ﴿أُمَّ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ بضم الطاء، وهي لغة.

واليد والرجل والأذن مؤنثات يُصَغَّرْنَ بالهاء.

وتزاد في الياء في التصغير، تردّ إلى أصلها فيقال: يُدَيِّة بالتشديد لاجتماع الياءين.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي الأصنام.

﴿ ثُمَّ كِيدُونِ ﴾ أتم وهي.

﴿ فَلَا تَنْظُرُونَ ﴾ أي فلا تؤخرون.

والأصل "كيدوني" حذفت الياء لأن الكسرة تدل عليها.

وكذا "فَلَا تَنْظُرُونَ".

والكيد المكر.

والكيد الحرب؛ يقال: غزا فلم يلق كيدا. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص



(29/301)

وقال الخازن:

﴿ أَلْهَمَ أَرْجُلَ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهْمَ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهْمَ أَعْيُنٍ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهْمَ آذَانَ

يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

يعني أن قدرة الإنسان المخلوق إنما تكون بهذه الجوارح الأربعة فإنها آلات يستعين بها

الإنسان في جميع أموره والأصنام ليس لها من هذه الأعضاء والجوارح شيء فهم مفضلون عليها بهذه الأعضاء لأن الرجل الماشية أفضل من الرجل العاجزة عن المشي وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الإدراك والأذن السامعة أفضل من الأذن العاجزة عن السمع فظهر بهذا البيان أن الإنسان أفضل من هذه الأصنام العاجزة بكثير بل لا فضل لها البتة لأنها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع وإذا كان لا فضل له البتة ولا يضر ولا ينفع فامتنع بهذه الحججة كون الأصنام آله ثم قال تعالى: ﴿ قل ادعوا شركاءكم ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا شركاءكم هذه الأصنام التي تعبدونها حتى يتبين عجزها ﴿ ثم كيدون ﴾ يعني أتم وشركاؤكم وهذا متصل بما قبله في استكمال الحججة عليهم لأنهم لما قرعوا بعبادة من لا يملك ضراً ولا نفعاً قيل لمحمد (صلى الله عليه وسلم) قل إن معبودي يملك الضر والنفع فلوا اجتهدتم في كيدي لم تصلوا إلى ضري لأن الله يدفع عني ، وقال الحسن كانوا يخوفونه بأهتهم فقال الله تعالى قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون ﴿ فلا تنظرون ﴾ أي لا تمهلون واعجلوا في كيدي أتم وشركاؤكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ج 2 ص ﴾

(30/301)

---

وقال أبو حيان :

﴿ أَلْهَمَ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهْمٌ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهْمٌ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهْمٌ آذَانٌ

يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ .

هذا استفهام إنكار وتعجيب وتبيين أنهم جماد لا حراك لهم وأنهم فاقدون لهذه الأعضاء  
ومنافعها التي خلقت لأجلها فأنتم أفضل من هذه الأصنام أذلكم هذا التصرف وهذا  
الاستفهام الذي معناه الإنكار قد توجه الإنكار فيه إلى انتفاء هذه الأعضاء وانتفاء  
منافعها فيتسلط النفي على المجموع كما فسرناه لأن تصويرهم هذه الأعضاء للأصنام  
ليست أعضاء حقيقة وقد توجه النفي إلى الوصف أي وإن كانت لهم هذه الأعضاء  
مصورة فقد انتفت هذه المنافع التي للأعضاء والمعنى أنكم أفضل من الأصنام بهذه  
الأعضاء النافعة و﴿ أم ﴾ هنا منقطعة فتقدر بيل والهمزة وهو إضراب على معنى  
الانتقال لا على معنى الأبطال وإنما هو تقدير على نفي كل واحدة من هذه الجمل وكان  
ترتيب هذه الجمل هكذا لأنه بديء بالأهم ثم اتبع بما هو دونه إلى آخرها .

(31/301)

---

وقرأ الحسن والأعرج ونافع بكسر الطاء ، وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بضمها وقال أبو عبد الله الرازي : تعلق بعض الأعمار بهذه الآية في إثبات هذه الأعضاء لله تعالى فقالوا : جعل عدمها للأصنام دليلاً على عدم إلهيتها فلم تكن موجودة له تعالى لكان عدمها دليلاً على عدم الإلهية وذلك باطل فوجب القول بإثباتها له تعالى والجواب من وجهين ، أحدهما : أن المقصود من الآية أن الإنسان أفضل وأكمل حالاً من الصم لأنه له رجل ماشية ويد باطشة وعين باصرة وأذن سامعة والصنم وإن صوّرت له هذه الأعضاء بخلاف الإنسان فالإنسان أكمل وأفضل فلا يشتغل بعبادة الأخرس الأدون والثاني أن المقصود تقرير الحجة التي ذكرها قبل وهي ﴿ لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾ يعني كيف يحسن عبادة من لا يقدر على النفع والضرر ثم قرر أن هذه الأصنام انتفت عنها هذه الأعضاء ومنافعها فليست قادرة على نفع ولا ضرر فامتنع كونها آلهة أما الله تعالى فهو وإن كان متعالياً عن هذه الأعضاء فهو موصوف بكمال القدرة على النفع والضرر وبكمال السمع والبصر انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

(32/301)

---

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾ ﴿ لما أنكر تعالى عليهم عبادة الأصنام  
وحقّر شأنها وأظهر كونها جماداً عارية عن شيء من القدرة أمر تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك  
أي لا مبالاة بكم ولا بشركائكم فاصنعوا ما تشاؤون وهو أمر تعجيز أي لا يمكن أن يقع  
منكم دعاء لأصنامكم ولا كيد لي وكانوا قد خوّفوه آلهتهم ، ومعنى ادعوا شركاءكم  
استعينوا بهم على إيصال الضر إلى ثم كيدون أي امكروا بي ولا تؤخرون عما تريدون بي  
من الضر وهذا كما قال قوم هود : ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد  
الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ ﴿ وسمي  
الأصنام شركاءهم من حيث إن لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء الله تعالى ،  
وقرأ أبو عمرو وهشام بخلاف عنه ﴿ كيدوني ﴾ ﴿ يا ثبات الياء وصلوا ووقفوا وقرأ باقي  
السبعة بجذف الياء اجترأ بالكسرة عنها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص



(33/301)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ أَلْهَمُّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ الخ

تبكيتُ إثرَ تبكيتٍ مُؤكِّدٌ لما يفيدُه الأمرُ التعجيزيُّ من عدم الاستجابةِ ببيانِ فقدانِ الآتِها  
بالكليةِ فإن الاستجابةَ من الهياكلِ الجُسْمانيةِ إنما تُتصوَّرُ إذا كان لها حياةٌ وقوى محرِّكة  
ومُدركةٌ وما ليس له شيءٌ من ذلك فهو بمعزلٍ من الأفاعيلِ بالمرَّةِ كأنه قيل: أَلهم هذه الآلاتُ  
التي بها تتحقَّقُ الاستجابةُ حتى يمكن استجابتهم لكم؟ وقد وجه الإنكارُ إلى كلِّ واحدةٍ  
من هذه الآلاتِ الأربعِ على حدةٍ تكررًا للتبكيِّتِ وتثنيةً للتقريعِ وإشعارًا بأن انتفاءَ كلِّ  
واحدةٍ منها مجيها لها كافٍ في الدلالةِ على استحالةِ الاستجابةِ، ووصفُ الأرجلِ بالمشي  
بها للإيدانِ بأن مدارَ الإنكارِ هو الوصفُ وإنما وُجِّهَ إلى الأرجلِ لا إلى الوصفِ بأن يقال:  
أيمشون بأرجلهم؟ لتحقيقِ أنها حيث لم يظهر منها ما يظهر من سائرِ الأرجلِ فهي ليست  
بأرجلٍ في الحقيقةِ وكذا الكلامُ فيما بعده من الجوارحِ الثلاثِ الباقيةِ، وكلمةُ أم في قوله تعالى  
: ﴿ أُمَّ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾ منقطعةٌ، وما فيها من الهمزةِ لما مر من التبكيِّتِ والإلزامِ  
وبل للإضرابِ المفيدِ للانتقالِ من فنٍّ من التبكيِّتِ بعد تمامه إلى فنٍّ آخر منه لما ذكر من  
المزايا، والبطشُ الآخذُ بقوةٍ، وقرىءَ يبطشون بضم الطاءِ وهي لغة فيه والمعنى: بل أَلهم  
أيديهم يأخذون بها ما يريدون أخذه؟ وتأخيرُ هذا عما قبله لما أن المشيَ حالهم في أنفسهم  
والبطشُ حالهم بالنسبةِ إلى الغيرِ، وأما تقديمه على قوله تعالى: ﴿ أُمَّ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا ﴾  
أُمَّ لَهُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ مع أن الكلَّ سواءٌ في أنها من أحوالهم بالنسبةِ إلى الغيرِ فلمراعاةِ

المقابلة بين الأيدي والأرجل ، ولأن انتقاء المشي والبطش أظهر والتبكيّت بذلك أقوى ،  
وأما تقديم الأعين فلما أنها أشهر من الأذان وأظهر عيناً وأثراً .

(34/301)

---

هذا وقد قرىء إن الذين تدعون من دون الله عبداً أمثالكم على إعمال إن النافية عمل ما  
الحجازية أي ما الذين تدعون من دونه تعالى عبداً أمثالكم بل أدنى منكم فيكون قوله تعالى  
: ﴿ اَللّٰهُمَّ ﴾ الخ ، تقريراً لنفي المماثلة بإثبات القصور والنقصان ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ  
﴿ بعد ما بيّن أن شركاءهم لا يقدرّون على شيء ما أصلاً أمر رسول الله صلى الله عليه  
وسلم بأن يناصبهم للمحاجة ويكرر عليهم التبكيّت وإقام الحجر ، أي ادعوا شركاءكم  
واستعينوا بهم عليّ ﴾ ثم كيدون ﴾ جميعاً أتم وشركاؤكم وبالغوا في ترتيب ما يقدرّون  
عليه من مبادئ الكيد والمكر ﴾ فَلَا تُنظِرُونَ ﴾ أي فلا تمهلوني ساعة بعد ترتيب  
مقدمات الكيد فإني لا أبالي بكم أصلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3

ص

(35/301)



وقال الأوسى :

قوله تعالى : ﴿ اَللّٰهُمَّ اَرْجُلٌ يَمْشُوْنَ بِهَا ﴾ الخ

تبكىت إثر تبكىت مؤكّد لما يفيدُه الأمر التعجيزي من عدم الاستجابة ببيان فقدان الآتها بالكلية ، وقيل : إنه على الاحتمال الأول في المماثلة كر على المثلية بالنقض لأنهم أدون منهم ، وعبادة الشخص من هو مثله لا تليق فكيف من هو دونه ، وعلى الاحتمال الثاني فيها عود على الفرض المبني عليه بالمثلية بالإبطال ، وعلى قراءة التخفيف وإرادة النفي تقرير لنفي المماثلة بإثبات القصور والنقصان ، ووجه الإنكار إلى كل واحد من تلك الآلات الأربع على حدة تكريراً للتبكىت وتثنية للتقريع وإشعاراً بأن اتقاء كل واحد منها بجياها كاف في الدلالة على استحالة الاستجابة وليس المراد أن من لم يكن له هذه لا يستحق الأوهية وإنما يستحقها من كانت له ليلزم أما نفي استحقاق الله تبارك وتعالى لها أو إثبات ذلك له كما ذهب إليه بعض المجسمة واستدل بالآية عليه بل مجرد إثبات العجز ، ومن ذلك يعلم نفي الاستحقاق ، ووصفه الأرجل بالمشي بها للإيدان بأن مدار الإنكار هو الوصف وإنما وجه إلى الأرجل لا إلى الوصف بأن يقال : أيمشون بأرجلهم لتحقيق أنها حيث لم يظهر منها ما يظهر من سائر الأرجل فهي ليست بأرجل في الحقيقة ، وكذا الكلام فيما بعد من الجوارح الثلاثة الباقية ، وكلمة ﴿ أُمَّ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ اَللّٰهُمَّ اَيْدٍ يَبِطِشُوْنَ بِهَا ﴾ منقطعة وما

فيها من الهمزة لما مر من التبيكيت ، وبل للإضراب المفيد للانتقال من فن منه بعد تمامه إلى آخر منه مما تقدم ، والبطش الأخذ بقوة .

(36/301)

---

وقرأ أبو جعفر ﴿ يَبْطِشُونَ ﴾ بضم الطاء وهو لغة فيه ، والمعنى بل ألهم أيد يأخذون بها ما يريدون أو يدفعون بها عنكم ، وتأخير هذا عمله قبله كما قال شيخ الإسلام لما أن المشي حالهم في أنفسهم والبطش حالهم بالنسبة إلى الغير ، وأما تقديم ذلك على قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ أُعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ مع أن الكل سواء في أنها من أحوالهم بالنسبة إلى الغير فلمراعاة المقابلة بين الأيدي والأرجل ولأن انتفاء المشي والبطش أظهر والتبيكيت به أقوى ، وأما تقديم الأعين على الأذان فالأذان أشهر منها وأظهر عيناً وأثراً ، وكون الإبصار بالعين والسماع بالأذان جار على الظاهر المتعارف .

واستدل بالآية من قال : إن الله تعالى أودع في بعض الأشياء قوة بها تؤثر إذا أذن الله تعالى لها خلافاً لمن قال : إن التأثير عندها لا بها .

وزعم أن ذلك القول قريب إلى الكفر وليس كما زعم بل هو الحق الحقيق بالقبول ﴿ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أمر له صلى الله عليه وسلم بأن يناصبهم الحاجة ويكرر عليهم

التبكيك بعد أن بين شركاءهم لا يقدرّون على شيء أصلاً، أي أدعوا شركاءكم  
واستعينوا بهم على ﴿ ثُمَّ كِيدُونَ ﴾ جميعاً أتم وشركاءكم وبالغوا في ترتيب ما تقدرون  
عليه من مبادي المكر والكيد ﴿ فَلَا تَنْظُرُونَ ﴾ فلا تمهلوني ساعة بعد ترتيب مقدمات  
الكيد فإني لا أبالي بكم أصلاً، وياء المتكلم في الفعلين مما لا يثبتها خطأً، وقرأ أبو عمرو  
بإثبات ياء كيدون وصللاً وحذفها وقفاً، وهشام بإثباتها في الحالين والباقون بحذفها  
فيهما .

وفي هود ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ [ هود : 55 ] بإثبات الياء مطلقاً عند الجميع، وأما  
ياء ﴿ فَلَا تَنْظُرُونَ ﴾ فقد قال الأجوهرى: إنهم حذفوها لا غير. انتهى انتهى . اهـ  
﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(37/301)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ  
يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ .

تأكيد لما تضمنته الجملة قبلها من أمر التعجيز وثبوت العجز ، لأنه إذا انتقت عن الأصنام

أسباب الاستجابة تحقق عجزها عن الإجابة ، وتأكد معنى أمر التعجيز المكنى به عن عجز الأصنام وعجز عبدتها ، والاستفهام إنكاري وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بانتقاء الملك الذي دلت عليه اللام كالتقديم في قول حسان:  
له همم لا منتهى لكبارها . . .

ووصف الأرجل بـ ﴿ يمشون ﴾ والأيدي بـ ﴿ يبطشون ﴾ والأعين بـ ﴿ يبصرون ﴾ والأذان بـ ﴿ يسمعون ﴾ إما لزيادة تسجيل العجز عليهم فيما يحتاج إليه الناصر ، وإما لأن بعض تلك الأصنام كانت مجعولة على صور الأدميين مثل هبل ، وذو الكفين ، وكعيب في صور الرجال ، ومثل سواع كان على صورة امرأة ، فإذا كان لأمثال أولئك صور أرجل وأيد وأعين وآذان ، فإنها عديمة العمل الذي تختص به الجوارح ، فلا يطمع طامع في نصرها ، وخص الأرجل والأيدي والأعين والأذان ، لأنها آلات العلم والسعي والدفع للنصر ، ولهذا لم يذكر الألسن لما علمت من أن الاستجابة مراد بها النجدة والنصرة ، ولم يكونوا يسألون عن سبب الاستنجاد ، ولكنهم يسرعون إلى الإلتحاق بالمستنجد .

والمشي انتقال الرجلين من موضع انتقالاً متوالياً .

والبطش الأخذ باليد بقوة ، والإضرار باليد بقوة ، وقد جاء مضارعه بالكسر والضم على الغالب .

وقراءة الجمهور بالكسر ، وقرأ أبو جعفر : بضم الطاء ، وهما لغتان .

و ﴿ أم ﴾ حرف بمعنى (أو) يختص بعطف الاستفهام ، وهي تكون مثل (أو) لأحد الشئين أو الأشياء ، وللتمييز بين الأشياء ، أو الإباحة أي الجمع بينها ، فإذا وقعت بعد همزة الاستفهام المطلوب بها التعيين كانت مثل (أو) التي للتخيير ، كقوله تعالى ﴿ قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ [يونس : 59] أي عينوا أحدهما ، وإن وقعت بعد استفهام غير حقيقي كانت بمعنى (أو) التي للإباحة ، وتسمى ، حينئذ منقطعة ولذلك يقولون إنها بمعنى (بل) الاتقالية وعلى كل حال فهي ملازمة لمعنى الاستفهام فكما وقعت في الكلام قدر بعدها استفهام ، فالتقدير هنا ، بل ألهم أيد يبطشون بها ، بل ألهم أعين يبصرون بها ، بل ألهم آذان يسمعون بها .

وترتيب هذه الجوارح الأربع على حسب ما في الآية ملحوظ فيه أهميتها بحسب الغرض ، الذي هو النصر والنجدة ، فإن الرجلين تسرعان إلى الصريخ قبل التأمل ، واليدين تعملان عمل النصر وهو الطعن والضرب ، وأما الأعين والآذان فإنهما وسيلتان لذلك كله فأخرا ، وإنما قدم ذكر الأعين هنا على خلاف معتاد القراءان في تقديم السمع على البصر كما سبق في أول سورة البقرة لأن الترتيب هنا كان بطريق الترتيب .

إذن من الله لرسوله بأن يتحداهم بأنهم إن استطاعوا استصرخوا أصنامهم لتتألب علي  
الكيد للرسول عليه السلام، والمعنى ادعوا شركاءكم لينصروكم علي فتستريحوا مني .  
والكيد الإضرار الواقع في صورة عدم الإضرار، كما تقدم عند قوله تعالى آنفاً ﴿ وأملي  
لهم إن كيدي متين ﴾ [الأعراف: 183] .

والأمر والنهي في قوله: ﴿ كيدون فلا تنظرون ﴾ للتعجيز .

وقوله: ﴿ فلا تنظرون ﴾ تفريع على الأمر بالكيد، أي فإذا تمكنتم من اضرارني فأعجلوا  
ولا تؤجلوني .

(39/301)

---

وفي هذا التحدي تعريض بأنه سيبلغهم وينتصر عليهم ويستأصل آلهتهم وقد تحداهم بأتم  
أحوال النصر وهي الاستنصار بأقدر الموجودات في اعتقادهم، وأن يكون الاضرار به  
خفياً، وأن لا يتلوم له ولا ينتظر، فإذا لم يتمكنوا من ذلك كان اتقاؤه أدل على عجزهم  
وعجز آلهتهم .

وحذفت ياء المتكلم من ﴿ كيدون ﴾ في حالي الوقف والوصل، في قراءة الجمهور غير  
أبي عمرو، وأما ﴿ تنظرون ﴾ فقرأه الجميع: بحذف الياء إلا يعقوب أثبتها وصلاً ووقفاً

، وحذف ياء المتكلم بعد نون الوقاية جِدُ فصحيح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير

﴿ 8 ص ﴾

(40/301)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾

وبعد أن قال الحق عن الأصنام : إنهم عباد أمثالكم ، أراد أن ينزلهم منزلة أدنى من البشر

فقال : ﴿ اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا . . . ﴾

وينبه الحق تبارك وتعالى كل مشرك ، وكأنه يقول له : أنت لك رجل تمشي بها ، ولك يد قد

تبطش بها ، ولك أذن تسمع ، ولك عين تبصر ، فهل للأصنام حواس مثل هذه ؟ . لا ،

ليست لهم ، إذن ، فالأصنام أقل منك ، فكيف تجعل الأقل إلهاً للأكبر ؟ إن هذا هو جوهر

الخبية .

وقوله : ﴿ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ ، و ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ و ﴿ يُبْصِرُونَ ﴾ جاءت لأن المشركين

صوروا التمثال وله رجلان وله اذنان وله عينان ويضعون في مكان كل عين خرزة لتكون مثل

حدقة العين ، وحين ينظر إنسان منهم إلى التمثال يخيل إليه أن التمثال ينظر إليه . ولذلك

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ . . . يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:

198].

وفي قوله تعالى: ﴿ اَللّٰهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا اَمَّ لَهِمْ اَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا اَمَّ لَهِمْ اَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا اَمَّ لَهِمْ اَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . . . ﴾ [الأعراف: 195].

حين يعرض الحق مثل هذه الأمور بأسلوب الاستفهام . فإنما يريد أن يحقق المسائل عن أقوى طريق ، لأن الاستفهام لا بد له من إجابة . والكلام من الله عند الكافر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب . وإجابة الكافر ستكون قطعاً بعدم استطاعة الأصنام المشي أو اللمس أو الرؤية أو السماع؛ لذلك أراد الحق ألا يكون الحكم من جهته . بل الحكم من جهة المشركين ، وفي هذا إقرار منهم . ولذلك يقول الحق مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ اَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الانشراح: 1] .

(41/301)

---

أما كان يستطيع سبحانه وتعالى أن يقول : شرحنا لك صدرك؟ كان يستطيع ذلك . ولكنه يأتي بالاستفهام الذي يكون جوابه : بلى لقد شرحت لي صدري . وينبه قوله تعالى : ﴿ اَللّٰهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا اَمَّ لَهِمْ اَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا اَمَّ لَهِمْ اَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا اَمَّ لَهِمْ اَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . . . ﴾ :



يَسْمَعُونَ بِهَا . . . ﴿١٠﴾

إلى مقارنة الأصنام بالبشر . فالبشر لهم أرجل وأيدي وأعين وآذان ، وكل من هذه الجوارح لها عمل تؤديه ، وهكذا يتأكد للمشركين أنهم أعلى مرتبة من أصنامهم . فكيف يجوز في عرف العقل أن يكون الأعلى مرتبة مربوباً للأدنى مرتبة ؟ إن ذلك لون من الحمق . ﴿١١﴾ . .

﴿١٢﴾ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْظُرُوا

ورسول الله جاء بهذا القول ليدحض إيمانهم بهذه الأصنام التي اتخذوها آلهة وليسفه أحوالهم فيها ، وبذلك أعلن العداوة ضدهم - العابدين ، والمعبودين - وصارت خصومة واقعة ، وسألهم أن يدعوا الشركاء ليكيدوا لرسول الله بالأذى أو التعب أو منع النصر الذي جاء للإسلام ، إن كانت عندكم أو عندهم قدرة على ضرر أو نفع ﴿١٣﴾ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْظُرُوا ﴿١٤﴾ .

ويتحداهم صلى الله عليه وسلم أن يكيدوا بهم وآلهتهم ، والكيد هو التدبير الخفي المحكم . وانظروا ما سوف يحدث ، ولن يصيب رسول الله بإذن ربه أدنى ضرر .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى قد أجرى على رسول الله أشياء ، ليثبت بها أشياء ، وقد قالوا : إن واحداً قد سحر النبي ، ولنفرض أن مثل ذلك السحر قد حصل ، فكيف ينسحر النبي ؟ ونقول : ومن الذي قال : إنه سحر ؟ .

إن ربنا أعلمه بالساحر وبنوع السحر ، وأين وضع الشيء الذي عليه السحر ، ليبين لهم أن

كيدهم حتى بواسطة شياطينهم مفضوح عند الله . ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ  
أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ . . . ﴾ [الأنفال: 30] .

(42/301)

وهم كانوا قد بيتوا المكر لرسول الله وأرادوا أن يضربوه ضربة واحدة ليتفرق دمه في القبائل  
، فأوضح ربنا : أنتم بيتم ، ولكن مكركم يبور أمام أعينكم . وليثبت لهم أنهم بالمواجهة لن  
يستطيعوا مصادمته في دعوته . ولا بالتبئيت البشري يستطيعون أن يصدوا دعوته ، ولا  
بتبئيت الجن - وهم أكثر قدرة على التصرف - يستطيعون مواجهة دعوته . وما داموا قد  
عرفوا أنهم لن يظهروا على الرسول ، ولن يفيد مكرهم أو سحرهم أو كيدهم مع شياطينهم  
، إذن فلا بد أن يأسوا ، ولذلك تحداهم وقال : ﴿ . . . قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ  
فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: 195] .

وأظنه يعني أخره ، والقول هنا : لا تؤخروا كيدكم مع شركائكم ، بل نفذوا الكيد بسرعة ،  
وقد أمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم  
إنما أوى إلى ركن شديد ؛ لذلك يقول رسول الله بأمر الحق : ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ  
الكتاب . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: ﴿اللَّهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهْمُ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهْمُ أَعْيُنٍ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهْمُ أَذَانٍ

يَسْمَعُونَ بِهَا﴾

قرأ العامة بكسر الطاء، من بطش يبطش، وقرأ أبو جعفر وشيبة، ونافع في رواية عنه:

يَبْطِشُونَ بضمها، وهما لغتان، وهما لغتان، والبَطْشُ، الأخذ بقوة.

قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾

قرأ أبو عمرو وكيدوني بإثبات الياء وصلماً، وحذفها وقفاً وهشام بإثباتها في الحالين،

والباقون بحذفها في الحالين، وعن هشام.

خلاف مشهور قال أبو حيان: وقرأ أبو عمرو وهشام بخلاف عنه فكيدوني بإثبات الياء

وصلماً ووقفاً.

قال شهاب الدين: أبو عمرو لا يشبها وقفاً البتة، فإن قاعدته في الياءات الزائدة ما ذكرته،

وفي قراءة فكيدوني ثلاثة ألفاظ، هذه وقد عُرف حكمها، وفي هود: "فكيدوني جميعاً"

"أثبتها القراء كلهم في الحالين .

وفي المرسلات: ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ [الآية: 39] حذفها الجميع في الحالين وهذا نظير ما تقدم في قوله ﴿ واحشوني ﴾ [البقرة: 150] فإنها في البقرة ثابتة لكل وصلاً ووقفاً ، ومحذوفة في أول المائة ، ومختلف في ثانيها .

### فصل

والمعنى : ادعوا شركاءكم يا معشر المشركين ثم كيدوني أتم وهم فلا تنظرون أي لا تمهلون واعجلوا في كيدي ليظهر لكم أن لا قدرة لها على إيصار المضار بوجه من الوجوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 427 . 428 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ .

بين بهذه الآيات أن الأصنام التي عبدوها دونهم فيما اعتقدوا فيه صفة المدح ، ثم لم يعبد بعضهم بعضاً ، فكيف استجازوا عبادة ما فاقهم في النقص ؟ .

قوله جل ذكره: ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ ﴾ .

صدق التوكل على الله يوجب ترك المبالاة بغير الله ، كيف لا . . . والمتفردُ بالقدرة - على

النفع والضرر ، والخير والشر - الله ؟ . انتهى انتهى . اه ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص

﴿ 597.596 ﴾

(44/301)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (196) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

وعلل عدم المبالاة بكيدهم بقوله دالاً على اتصاف معبوده بما نفاه عن شركائهم من الإحاطة بمنافع الدارين فيما يتعلق بالأديان والأبدان ، وقدم الدين إشارة إلى أنه الأهم فقال مؤكداً في مقابلة إنكارهم : ﴿ إِنَّ وَلِيِّ ﴾ أي ناصري ومتولي جميع أموري ﴿ الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال ﴿ الذي نزل ﴾ أي بحسب التدرج متكفلاً بفصل الوقائع ﴿ الكتاب ﴾ أي الجامع لعلوم الأولين والآخرين وأمر المعاش والمعاد وأحوال الدارين وكل ما فيه صلاح من أحوال القلوب وغيرها الذي عجزتم بأجمعكم ومن دعيتم شركته عن معارضة شيء منه .

ولما تكفل هذا التنزيل بجميع الصفات ، وهي الحياة التامة المستلزمة للإرادة والقدرة والعلم

والسمع والبصر والكلام، وكان عجزهم عن المعارضة للكتاب دليلاً شهودياً قولياً على كذبهم، أتبع ذلك دليلاً آخر شهودياً فعلياً فقال: ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ يتولى ﴾ أي يلي ولاية تامه ﴿ الصالحين ﴾ أي كلهم بنصرهم على كل مناو وكفائتهم لكل مهم وقد علمتم ما قدمه في هذه السورة من وقائعه بمن كذب أنبياءه واستهزأ برسله وأنه أنجى كل من والاه، وأهلك جميع من عاداه كمن عدوهم آلهة، وهو وما بعده وما قبله متلفت إلى قوله تعالى ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ [الأعراف: 3] بالشرح، وهو دال على أنه الذي فعل ما تقدم لأجل أوليائه بدليل أنه أعجزهم عن معارضة شيء من كتابه، وعن الوصول إلى جميع ما يريدون من أوليائه وأحبابه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 172 ﴾

(45/301)

فصل

قال الفخر:

﴿ إِنَّ وِلِيَّيَ اللّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) ﴾

اعلم أنه لما بين في الآيات المتقدمة أن هذه الأصنام لا قدرة لها على النفع والضر بين بهذه

الآية أن الواجب على كل عاقل عبادة الله تعالى ، لأنه هو الذي يتولى تحصيل منافع الدين  
ومنافع الدنيا أما تحصيل منافع الدين ، فبسبب إنزال الكتاب ، وأما تحصيل منافع الدنيا ،  
فهو المراد بقوله : ﴿ وَهُوَ يَتَوَكَّلُ الصَّالِحِينَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي رحمه الله : قرأ القراء وليي بثلاث يآت ، الأولى ياء فعيل وهي ساكنة ،  
والثانية لام الفعل وهي كسورة ، قد أدغمت الأولى فيها فصار ياء مشددة ، والثالثة ياء  
الإضافة ، وروي عن أبي عمرو : ولي الله يياء مشددة ، ووجه ذلك أنه حذف الياء التي  
هي لام فعيل ، كما حذف اللام من قولهم فماليت به فاله ، ثم أدغمت ياء فعيل في ياء  
الإضافة ، فقيل ولي الله وهذه الفتحة فتحة ياء الإضافة ، وأما الباقيون فأجازوا اجتماع  
ثلاث ياءات ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

أن وليي الله أي الذي يتولى حفظي ونصرتي هو الله الذي أنزل الكتاب المشتل على هذه  
العلوم العظيمة النافعة في الدين ويتولى الصالحين ينصرهم ، فلا تضرهم عداوة من عاداهم ،  
وفي ذلك يأمن المشركين من أن يضره كيدهم .

وسمعت أن عمر بن عبد العزيز ما كان يدخر لأولاده شيئاً ، فقيل له فيه فقال : ولدي إما  
أن يكون من الصالحين أو من المجرمين ، فإن كان من الصالحين فوليه الله ومن كان الله له ولياً

فلا حاجة له إلى مالي ، وإن كان من المجرمين فقد قال تعالى : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً  
لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [ القصص : 17 ] ومن رده الله لم أشغل بإصلاح مهماته . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 77 ﴾

(46/301)

وقال السمرقندي :

﴿ إِن وَليَ الله الذي نَزَلَ الكُتاب ﴾

يعني : حافظي وناصري الله الذي نزل الكتاب .

يعني : القرآن .

ويقال : إن الذي ينعني منكم الله الذي أنزل جبريل بالكتاب ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾

يعني : المؤمنين فيحفظهم ولا يكلمهم إلى غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ إِن وَليَ الله ﴾ الآية ،

أحالمهم على الاستنجاد بألهتهم في ضره وأراهم أن الله هو القادر على كل شيء لا تلك ،

عقب ذلك بالإسناد إلى الله والتوكل عليه بأنه وليه وناصره ، وقرأ جمهور الناس والقراءة " إن



ولبي الله " بياء مكسورة مشددة وأخرى مفتوحة ، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه " إن وليَّ  
الله " بياء واحدة مشددة ورفع الله ، وقال أبو علي لا تخلو هذه القراءة من أن تدغم الياء  
التي هي لام الفعل في ياء الإضافة أو تحذف الياء التي هي لام الفعل وتدغم ياء فعيل في ياء  
الإضافة ، ولا يجوز أن تدغم الياء التي هي لام الفعل في ياء الإضافة لأنه إذا فعل ذلك انفك  
الإدغام الأول ، فليس إلا أنه حذف لام الفعل وأدغم ياء فعيل في ياء الإضافة ، وقرأ ابن  
مسعود " الذي نزل الكتاب بالحق وهو يتولى الصالحين " ، وقرأ الجحدري فيما ذكر أبو  
عمرو الداني " أن ولي إله " على الإضافة وفسر ذلك بأن المراد جبريل صلى الله عليه  
وسلم ، ذكر القراءة غير منسوبة أبو حاتم وضعفها وإن كانت الفاظ هذه الآية ثلاثم هذا  
المعنى وتصلح له ، فإن ما قبلها وما بعدها يدافع ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز  
ح 2 ص ﴾

(47/301)

وقال القرطبي :

﴿ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ﴾  
أي الذي يتولى نصري وحفظي الله .

ووليُّ الشيءِ : الذي يحفظه ويمنع عنه الضرر .

والكتاب : القرآن .

﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ أي يحفظهم .

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

جهاراً غير سريقول : " ألا إن آل أبي يعني فلانا ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح

المؤمنين " وقال الأخفش : وقرىء " إن وليَّ الله الذي نزل الكتاب " يعني جبريل .

النحاس .

هي قراءة عاصم الجحدري .

والقراءة الأولى أُبين ؛ لقوله : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

القرطبي ح 7 ص ﴿

وقال الخازن :

﴿ إن وليي الله ﴾

يعني أن الذي يتولى حفظي وينصرنى عليكم هو الله ﴿ الذي نزل الكتاب ﴾ يعني القرآن ،

المعنى كما أيدنى بإنزال القرآن علي كذلك يتولى حفظي وينصرنى ﴿ وهو يتولى الصالحين

﴿ يعني يتولاهم بنصره وحفظه فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن

أرادهم بسوء أو كادهم بشر .

قال ابن عباس : يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيئاً ولا يعصونه وفي هذا مدح  
للصالحين لأن من تولاه الله يحفظه فلا يضره شيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح

﴿ 2 ص ﴾

(48/301)

وقال أبو حيان :

﴿ إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾

لما أحالهم على الاستنجاد بأهتهم في ضره وأراهم أن الله هو القادر على كل شيء عقب  
ذلك بالاستناد إلى الله تعالى والتوكل عليه والإعلام أنه تعالى هو ناصرهم وبين جهة  
نصره عليهم بأن أوحى إليه كتابه وأعزه برسالته ثم أنه تعالى ﴿ يتولى الصالحين ﴾ من  
عباده وينصرهم على أعدائه ولا يخذلهم ، وقرأ الجمهور ﴿ أن وليي الله ﴾ بياء مشددة  
وهي ياء فعيل أدغمت في لام الكلمة وبياء المتكلم بعدها مفتوحة ، وقرأ أبو عمرو في رواية  
عنه بياء واحدة مشددة مفتوحة ورفع الجلالة ، قال أبو علي لا يخلو من أن يدغم الياء التي  
هي لام الفعل في ياء الإضافة وهو لا يجوز لأنه ينفك الإدغام الأول أو تدغم ياء فعيل في ياء  
الإضافة ، ويحذف لام الفعل فليس إلا هذا انتهى ويمكن تخريج هذه القراءة على وجه آخر

وهو أن لا يكون ولي مضافاً إلى ياء متكلم بل هو اسم نكرة اسم ﴿ إِنَّ ﴾ والخبر ﴿ الله ﴾  
﴿ وحذف من ولي التنوين لالتقاء الساكنين كما حذف من قوله ﴿ قل هو الله أحد ﴾  
وقوله ﴿ ولا ذكر الله إلا قليلاً ﴾ والتقدير أن ولياً حقّ ولي الله الذي نزل الكتاب وجعل  
اسم ﴿ إِنَّ ﴾ نكرة والخبر معرفة في فصيح الكلام .

قال الشاعر :

وإن حراماً أن أسب مجاشعاً . . .

بآبائي الشّم الكرام الخضارم

وهذا توجيه لهذه القراءة سهل واختلف النقل عن الجحدري فنقل عنه صاحب كتاب  
اللوامح في شواذ القراءات إن ولي بياء مكسورة مشدّدة وحذفت ياء المتكلم لما سكنت  
التقى ساكنان فحذفت ، كما تقول : إن صاحبي الرجل الذي تعلم ، ونقل عنه أبو عمرو  
الداني أن ولي الله بياء واحدة منصوبة مضافة إلى الله وذكرها الأخفش وأبو حاتم غير  
منصوبة وضعفها أبو حاتم وخرج الأخفش وغيره هذه القراءة على أن يكون المراد جبريل ،  
قال الأخفش : فيصير ﴿ الذي نزل الكتاب ﴾ من صفة جبريل بدلالة

(49/301)

﴿ قل نزله روح القدس ﴾ ، وفي قراءة العامة من صفة الله تعالى انتهى ، يعني أن يكون خبر  
﴿ إن ﴾ هو قوله ﴿ الذي نزل الكتاب ﴾ ، قال الأخفش : فأما ﴿ هو يتولى الصالحين ﴾  
﴿ فلا يكون إلا من الإخبار عن الله تعالى وتفسير هذه القراءة بأن المراد بها جبريل وإن  
احتملها لفظ الآية لا يناسب ما قبل هذه الآية ولا ما بعدها ويحتمل وجهين من الإعراب ولا  
يكون المعنى جبريل أحدهما أن يكون ﴿ ولي الله ﴾ اسم ﴿ إن ﴾ والذي نزل الكتاب  
هو الخبر على تقدير حذف الضمير العائد على الموصول ، والموصول هو النبي ( صلى الله  
عليه وسلم ) ، والتقدير أن ولي الله الشخص الذي نزل الكتاب عليه فحذف عليه وإن لم  
يكن فيه شرط جواز الحذف المقيس لكنه قد جاء نظيره في كلام العرب .

قال الشاعر :

وإن لساني شهادة يشقى بها . . .

وهو على من صبه الله علقم

التقدير وهو على من صبه الله عليه علقم .

وقال الآخر :

فأصبح من أسماء قيس كقباض . . .

على الماء لا يدري بما هو قباض

التقدير بما هو قباض عليه ، وقال الآخر :

لعلّ الذي أصدتني أن يردني . . .

إلى الأرض إن لم يقدر الخير قادره

يريد أصدتني به .

وقال الآخر:

فأبلغن خالد بن نضله . . .

والمرء معنى بلوم من يثق

يريد يثق به .

وقال الآخر:

ومن حسد يجور عليّ قومي . . .

وأبي الدهر ذر لم يحسدوني

يريد لم يحسدوني فيه .

وقال الآخر:

فقلت لها لا والذي حج حاتم . . .

أخونك عهداً إنني غير خوآن

---

قالوا يريد حج حاتم إليه فهذه نظائر من كلام العرب يمكن حمل هذه القراءة الشاذة عليها ،  
والوجه الثاني أن يكون خبر إن محذوفاً لدلالة ما بعده عليه التقدير ﴿ إن ولي الله الذي نزل  
الكتاب ﴾ من هو صالح أو الصالح ، وحذف لدلالة و ﴿ هو يتولى الصالحين ﴾ عليه  
وحذف خبر إن وأخواتها لفهم المعنى جائز ومنه قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بالذکر لما  
جاءهم وإنه لكتاب عزيز ﴾ الآية وقوله : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله  
والمسجد الحرام ﴾ الآية وسيأتي تقدير حذف الخبر فيهما إن شاء الله . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ البحر المحیط ج 4 ص ﴾

(51/301)

---

وقال أبو السعود :

﴿ إن ولي الله الذي نزل الكتاب ﴾

تعليل لعدم المبالاة المنفهم من السَّوق انهما ما جلياً ، ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب للإشعار  
بدليل الولاية والإشارة إلى علة أخرى لعدم المبالاة كأنه قيل : لا أبالي بكم وشركاءكم لأن  
وليي هو الله الذي أنزل الكتاب الناطق بأنه وليي وناصري وبأن شركاءكم لا يستطيعون

نصر أنفسهم فضلاً عن نصركم ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ تذييل مقررٍ  
لمضمون ما قبله أي ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده وينصرهم ولا يخذلهم . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

وقال الأوسى :

﴿ إِنَّ وِليَّ اللهَ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ ﴾

تعليل لعدم المبالاة المنفهم من السوق انفهماً جلياً ، وأل في الكتاب للعهد والمراد منه القرآن ،  
ووصفه سبحانه بتنزيل الكتاب للإشعار بدليل الولاية ، وكأنه وضع نزل الكتاب موضع  
أرسلني رسولاً ولا شك أن الإرسال يقتضي الولاية والنصرة ، وقيل : إن في ذلك إشارة إلى  
علة أخرى لعدم المبالاة كأنه قيل : لا أبالي بكم وبشركاءكم لأن وليي هو الله تعالى الذي نزل  
الكتاب الناطق بأنه وليي وناصري وبأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلاً عن  
نصركم ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ،  
أي ومن عادته جل شأنه أن ينصر الصالحين من عباده ولا يخذلهم وقال الطيبي : إنما خص  
اسم الذات بتنزيل الكتاب وجعلت الآية تعليلاً للدلالة على تفخيم أمر المنزل وأنه الفارق  
بين الحق والباطل وأنه الجلي لظلمات الشرك والمفحم لألسن أرباب البيان والمعجز الباقي  
في كل أوان وهو النور المبين والحبل المتين وبه أصلح الله تعالى شؤون رسوله صلى الله عليه  
وسلم حيث كمل به خلقه وأقام به أوده وأفسد به الأباطيل المعطلة ، ومن ثم جيء بقوله



سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ﴾ الخ كالتذييل والتقريب لما سبق والتعريض بمن فقد الصلاح بالخذلان والمحق، والمعنى إن وليي الذي نزل الكتاب المشهور الذي تعرفون حقيقته ومثله يتولى الصالحين ويجذل غيرهم، ولا يخفى أن ما ذكر أولاً في أمر الوصفية أنسب بالمقام وأمر التذييل مما لا مرية فيه، وهذه الآية مما جرت مداومة عليها للحفظ من الأعداء وكانت ورد الوالد عليه الرحمة في الأسحار وقد أمره بذلك بعض الأكابر في المنام، والجمهور على تشديد الياء الأولى من ﴿ وَلِيُّ ﴾ وفتح الثانية ويقراً بحذفها في اللفظ لسكونها وسكون ما بعدها، وفتح الأولى ولا ياء بعدها وحذف الثانية من اللفظ تخفيفاً. انتهى انتهى. اهـ

﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(52/301)

وقال ابن عاشور:

﴿ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) ﴾

هذا من المأمور بقوله، وفصلت هذه الجملة عن جملة ﴿ ادعوا شركاءكم ﴾ [الأعراف

: 195] لوقوعها موقع العلة لمضمون التحدي في قوله ﴿ ادعوا شركاءكم ﴾ [الأعراف

: 195] الآية الذي هو تحقق عجزهم عن كيد، فهذا تعليل لعدم الاكتراث بتألبهم عليه

واستنصارهم بشركائهم ، ولثقتهم بأنه منتصر عليهم بما دل عليه الأمر والنهي التعجيزيان .  
والتأكيد لرد الإنكار .

والولي الناصر والكافي ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل أغير الله اتخذ ولياً ﴾ [ الأنعام  
: 14 ] .

وإجراء الصفة لاسم الله بالموصولية لما تدل عليه الصلة من علاقات الولاية ، فإن إنزال  
الكتاب عليه وهو أمي دليل اصطفاؤه وتوليه .

والتعريف في الكتاب للعهد ، أي الكتاب الذي عهدتموه وسمعتموه وعجزتم عن معارضته  
وهو القرآن ، أي المقدار الذي نزل منه إلى حد نزول هذه الآية .

وجملة : ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ معترضة والواو اعتراضية .

ومجيء المسند فعلاً مضارعاً لقصد الدلالة على استمرار هذا التولي وتجدده وأنه سنة

إلهية ، فكما تولى النبي يتولى المؤمنون أيضاً ، وهذه بشارة للمسلمين المستقيمين على صراط  
نبيهم صلى الله عليه وسلم بأن ينصرهم الله كما نصر نبيه وأولياءه .

والصالحون هم الذين صلحت أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير ج 8 ص ﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) ﴾

وما دام الولي هو الله ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يبالي بهم ، و " الولي " هو الذي يليك ، وأنت لا تجعل أحدا يليك إلا أقربهم إلى نفسك ، وإلى قلبك ، ولا يكون أقربهم إلى نفسك وإلى قلبك ، إلا إذا آنت منه نفعا فوق نفعك ، وقوة فوق قوتك ، وعلما فوق علمك ، وقول الرسول بأمره سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ . . . ﴾

أي أنه ناصري على أي كيد يحاول معسكر الشرك أن يصنعه أو يبيته لي . فالله هو ولي الرسول أي ناصره ، والقريب منه بصفات الكمال والجلال التي تخصه سبحانه وتعالى ، وعندما يكون لمؤمن خصلة ضعف فهو يذهب لمن عنده خصلة قوة ، ولذلك قلنا في قصة موسى عليه السلام حين التفت قومه ووجدوا قوم فرعون فقالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ أي أن جيش فرعون سيدركهم ، لأن البحر أمامهم والعدو وراءهم . وليس أمامهم فسحة أمامية للهرب ولا منفذ لهم إلا أن يصمدوا أمام جيش فرعون وهم بلا قوة ولم يكذبهم موسى عليه السلام في قولهم . بل قال لهم يطمئنهم : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [ الشعراء : 62 ] .

وهنا خرجت المسألة عن أسباب البشر وانتهت إلى الركن الشديد الذي يأوي إليه الرسل

. ولا يقول هذا القول إلا وهو واثق تمام الثقة من نصره الله ، وسبق أن رويت لكم حكاية المرأة الأوروبية التي أسلمت لأنها كانت تقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كبطل من أبطال العالم ، صنع أكبر انقلاب في تاريخ البشرية ، ولما مرت في تاريخه صلى الله عليه وسلم ، قرأت أن صحابته كانوا يجرسونه من خصومه وأعدائه ، إلى أن فوجئوا في يوم ما بأن قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذهبوا عني . فإن الله أنزل عليّ : ﴿ وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . . . ﴾ " [المائدة: 67] .

(54/301)

---

واستوقفت هذه الواقعة هذه المرأة فقالت : إن هذا الرجل إن أراد أن يكذب على الناس جميعاً ما كذب على نفسه ، ولا يمكن أن يسلم نفسه لأعدائه بدون حراسة إلا إذا كان واثقاً من أن الله أنزل عليه هذا ، وأنه قادر أن يعصمه ، وإلا دخل بنفسه في تجربة .  
والباحثة من هذه الواقعة قد أخذت لفظة العبرة . وفي مثل هذا يقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ . . . قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: 195] .

وكانه صلى الله عليه وسلم يستدعيهم إلى التحدي بالمعركة بالمكر والتبييت ، والأ

يتأخروا عن ذلك وهو واثق من أن الله عز وجل ينصره . ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ

وَهُوَ يَتَوَكَّلُ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف: 196]

وأنزل الحق تبارك وتعالى على رسوله الكتاب المبين ليبلغه للخلق ، ولا يمكن أن يسلمه إلى  
عدو ويمنعه من تمام البلاغ عن الله .

لقد أنزل الحق الكتاب على رسوله ليبلغه إلى الكافة ولا يمكن أن يتخلى عنه . ﴿ إِنَّ وَلِيِّ

اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَكَّلُ الصَّالِحِينَ ﴾

وقوله : ﴿ وَهُوَ يَتَوَكَّلُ الصَّالِحِينَ ﴾ أي أنه لا يجعل الولاية خصوصية للرسول صلى الله

عليه وسلم ، بل يقول لكل واحد من أتباعه : كن صالحاً في أي وقت ، أمام أي عدو ،

ستجد الله وهو يتولاك بالنصر ، وساعة يعمم الله الحكم : فهو ينشر الطمأنينة الإيمانية في

قلوب أتباعه صلى الله عليه وسلم . وكل من يحمل من أمر دعوته صلى الله عليه وسلم

شيئاً ما سوف يكون له هذا التأييد ، وسبحانه الذي جعل رسوله مُبلغاً عنه المنهج ، وهو

سبحانه يتولى الصالحين لعمارة الكون ؛ لأن الله قد جعل الإنسان خليفة ليصلح في الكون ،

وأول مراتب الإصلاح أن يبقى الصالح على صلاحه ، أو أن يزيده صلاحاً إن أمكن . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي صـ ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ ﴾

العامة على تشديد وَلِيِّ مضافاً لياء المتكلم المفتوحة ، وهي قراءة واضحة أضاف الوليَّ إلى نفسه .

وقرأ أبو عمرو في بعض طرقه " إِنَّ وَلِيَّ " بياء واحدة مشددة مفتوحة ، وفيها تحريجان : أحدهما : قال أبو علي : إن ياء " فعيل " مدغمة في ياء المتكلم ، وإن الياء التي هي لام الكلمة محذوفة ، ومنع من العكس .

والثاني : أن يكون وليَّ اسمها ، وهو اسمُ نكرة غير مضاف لياء المتكلم ، والأصل : إِنَّ وَلِيًّا اللَّهُ ف " ولياً " اسمها والله خبرها ، ثم حذف التنوين ؛ لالتقاء الساكنين ؛ كقوله : [

[المقارب

2652 - فَأَلْفَيْتَهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ . . .

ولا ذَاكَرَ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلاً

وكقراءة من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص : 1 - 2] ولم يبق إلا

الإخبارُ عن نكرة بمرعفة ، وهو وارد .

قال الشاعر: [الطويل]

2653 - وإن حراماً أن أسبَّ مجاشعاً . . .

بآبَائِي الشِّمِّ الْكِرَامِ الْخِضَارِمِ

وقرأ الجحدريُّ في رواية إنَّ وليَّ الله بكسر الياءِ مشددة، وأصلها أنَّه سكن ياء المتكلم،  
فالتقت مع لام التعريف فحذفت، لالتقاء الساكنين، وبقيت الكسرة تدلُّ عليها نحو: إنَّ  
غلام الرَّجُلِ.

وقرأ في رواية أخرى إنَّ وليَّ الله بياء مشددة مفتوحة، والجلالة بالجرِّ، نقلهما عنه أبو عمرو  
الدَّانِي أضاف الولي إلى الجلالة.

(56/301)

---

وذكر الأَخْفَشُ وأبو حاتم هذه القراءة عنه، ولم يذكر نصب الياء، وخرَّجها النَّاسُ على  
ثلاثة أوجه: الأول: قول الأَخْفَشِ - وهو أن يكون وليَّ الله اسمها والذي نزل الكتاب  
خبرها، والمراد بـ "الذين نزل الكتاب" جبريل، لقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: 193]: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ [النحل: 102] إِلَّا أَنَّ الْأَخْفَشَ قَالَ  
في قوله ﴿ وَهُوَ يَتَوَكَّلُ الصَّالِحِينَ ﴾ هو من صفة الله قطعاً لا من صفة جبريل، وفي تحتم

ذلك نظرٌ .

والثاني : أن يكون الموصوف بتنزيل الكتاب هو الله تعالى ، والمراد بالموصول النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ويكون ثمَّ عائِدٌ محذوفٌ لفهم المعنى والتقدير إنَّ وليَّ الله النبيُّ الذي نَزَّ اللهُ الكتاب عليه ، فحذف عليه وإن لم يكن مشتملاً على شروط الحذف ، لكنّه قد جاء

قليلاً ، كقوله : [ الطويل ]

2654 - وإنَّ لسانِي شُهْدَةٌ يَشْتَقِي بِهَا . . .

وهو على من صبَّ اللهُ عَظْمُ

أي : صبَّ اللهُ عليه ، وقال آخر : [ الطويل ]

2655 - فأصْبِحَ مِنْ أَسْمَاءٍ قَيْسٍ كَقَابِضٍ . . .

على الماءِ لا يدري بما هو قابِضٌ

أي بما هو قابض عليه .

وقال آخر : [ الطويل ]

1656 - لعلَّ الذي أضعَدْتَنِي أن يُردِّدَنِي . . .

إلى الأرضِ إنَّ لم يقدر الخَيْرُ قادِرُهُ

أي : أضعَدْتَنِي به .

وقال آخر : [ الوافر ]



2657 - وَمِنْ حَسَدٍ يَجُوزُ عَلَيَّ قَوْمِي . . .

وَأَيُّ الدَّهْرِ ذُو لَمْ يَحْسُدُونِي

أَيُّ يَحْسُدُونِي فِيهِ .

وقال آخر: [الطويل]

2658 - فَقُلْتُ لَهَا لَا وَالَّذِي حَجَّ حَاتِمٌ . . .

أَخُونِكَ عَهْدًا إِنِّي غَيْرُ خَوَّانٍ

أَيُّ: حج إليه، وقال آخر: [الرجز]

2659 - فَأُبْلِغَنَّ خَالِدَ بْنَ نَضْلَةَ . . .

والمراءُ معني بلوم من يثق

أَيُّ: يثق به .

(57/301)

---

وإذا ثبت أن الضمير يُحذف في مثل هذه الأماكن، وإن لم يكمل شرط الحذف فهذه القراءة

الشاذة في التخريج المذكور أسوةً بها .

والثالث: أن يكون الخبر محذوفاً تقديره: إن ولي الله الصالح، أو من هو صالح وحذف،

لدلالة قوله: ﴿ وَهُوَ تَوَكَّلَى الصَّالِحِينَ ﴾ وكفوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ﴾ [فصلت

: 41] أي: معذبون، وكفوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ ﴾ [الحج: 25]. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 428. 430 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَكَّلَى الصَّالِحِينَ (196) ﴾

من قام بحق الله تولى أموره على وجه الكفاية، فلا يخرجها إلى مثاله، ولا يدع شيئاً من أحواله إلا أجراه على ما يريد به بحسن أفضاله، فإن لم يفعل ما يريد به جعل العبد راضياً بما يفعل، وروح الرضا على الأسرار أتم من راحة العطاء على القلوب. انتهى انتهى. اهـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 597 ﴾

(58/301)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) ﴾



مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما صور بهذا جلاله ، وقرر عظمته وكماله ، باتصافه بجميع الصفات العلى التي منها القدرة التي تكفهم عنه ؛ كرر التنفير عن أندادهم في أسلوب آخر تأكيداً للمعنى السابق بزيادة بالغة في العجز وهو تصويب النظر من غير إبطار ، مع أن الأول للتقريع ، وهذا الفرق بين من يعبد بحق ومن يعبد بباطل ليرجعوا عن غيرهم وعنادهم ، فقال مبيناً أنهم ليسوا في شيء من صفاته مصرحاً بنفي النصر التي أثبتتها له عنهم مع المواجهة بالخطاب الذي هو أفضح في الجواب : ﴿ والذين تدعون ﴾ أي تديمون دعاءهم ﴿ من دونه ﴾ - فإنهم يدعونه سبحانه في بعض الأوقات - أو تدعونهم تاركين له ﴿ لا يستطيعون نصركم ﴾ أي بوجه من وجوه النصر بدليل عجزكم عني وأنا وحدي وأتم أهل الأرض ﴿ ولا أنفسهم ينصرون ﴾ بدليل أن الكلب يبول عليهم فلا يمنعونهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 172.173 ﴾

(59/301)

---

فصل

قال الفخر :

أما قوله: ﴿والذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾

ففيه قولان:

القول الأول: أن المراد منه وصف الأصنام بهذه الصفات.

فإن قالوا: فهذه الأشياء قد صارت مذكورة في الآيات المتقدمة فما الفائدة في تكريرها؟

فنقول: قال الواحدي: إنما أعيد هذا المعنى لأن الأول مذكور على جهة التقرير وهذا

مذكور على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة، وبين من لا تجوز، كأنه قيل: الإله المعبود

يجب أن يكون بحيث يتولى الصالحين، وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تكن صالحة

للإلهية.

والقول الثاني: أن هذه الأحوال المذكورة صفات لهؤلاء المشركين الذين يدعون غير الله،

يعني أن الكفار كانوا يخوفون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال تعالى: إنهم لا

يقدرون على شيء.

بل إنهم قد بلغوا في الجهل وال حماقة إلى أنك لو دعوتهم وأظهرت أعظم أنواع الحججة والبرهان

لم يسمعوا بعقولهم ذلك البتة.

فإن قيل: لم يتقدم ذكر المشركين، وإنما تقدم ذكر الأصنام فكيف يصح ما ذكر؟

قلنا: قد تقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ [الأعراف:

195]. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب ح 15 ص 77﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ أي تعبدونهم ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ تعالى أو تدعونهم للاستعانة بهم عليّ  
حسبما أمرتكم به ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ﴾ أي في أمر من الأمور أو في خصوص الأمر  
المذكور ﴿ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ إذا نابتهم نائبة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي

السعود ح 3 ص ﴿

وقال الأوسى :

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (197) ﴿  
﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي تعبدونهم أو تدعونهم من دونه سبحانه وتعالى  
للاستعانة بهم على حسبما أمرتكم به ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ﴾ في أمر من الأمور  
ويدخل في ذلك الأمر المذكور دخولاً أولياً ، وجوز الاقتصار عليه ﴿ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾  
﴿ إذا أصيبوا بمجاذة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴿

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ عطف على جملة : ﴿ إن وليي الله ﴾ ، وسلوك طريق الموصوليه في التعبير عن الأصنام للتنبيه على خطأ المخاطبين في دعائهم إياها من دون الله مع ظهور عدم استحقاقها للعبادة ، بعجزها عن نصر أتباعها وعن نصر أنفسها والقول في ﴿ لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ كالقول في نظيره السابق آنفاً .  
وأعيد لأنه هنا خطاب للمشركين وهناك حكاية عنهم للنبيء والمسلمين لإبانة المضادة بين شأن ولي المؤمنين وحال أولياء المشركين وليكون الدليل مستقلاً في الموضوعين مع ما يحصل في تكريره من تأكيد مضمونه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (197) ﴾  
لأن الذي لا يستطيع نصرك . يجوز أن يكون ضميناً بنصرتك ؛ لأن حبه لك حب رياء ، أو لأنه يرغب في أن يحتفظ بما ينصرك به لنفسه ، أما حين يكون غير قادر على نصرتك ؛ لأنه لا يملك أدوات النصر ، فهذا يبين عجز وقصور من اتخذته ولياً ، وهكذا كان حال المشركين . وفي يوم الفتح جاء المسلمون بالمعاول وكسرت الأصنام ، ولم يقاوم صنم واحد . بل تكسرت كلها جميعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ (198) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان دعاء الجماعة أقرب إلى السماع من دعاء الواحد ، نسق على ما قبله قوله :  
﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ أي يا من هم أضل منهم وأعجز ﴿ إِلَى الْهُدَى ﴾ أي إلى الذي هو  
أشرف الخلال ليهدوا في نصر أنفسهم أو غير ذلك ﴿ لَا يَسْمَعُوا ﴾ أي شيئاً من ذلك  
الدعاء ولا غيره ؛ ولما كان حالهم في البصر بالنسبة إلى كل أحد على حد سواء ، قال  
مفرداً للمخاطب : ﴿ وَتَرَاهُمْ ﴾ أي أيها الناظر إليهم ﴿ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي كأنهم  
ينظرون لما صنعوا لهم من الأعين ﴿ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي نوعاً من الإبصار ، وما أشبه  
مضمون هذه الآيات بما في سفر أنبياء بني إسرائيل في نبوة أشعيا : هكذا يقول الرب ملك  
إسرائيل ومخلصه : أنا الأول وأنا الآخر ، وليس إله غيري .

ومن مثلي يدعي ويظهر قوته ويخبر بما كان منذ بسطت الدنيا إلى الأبد ، والآيات القديمة  
تظهر للشعوب ، فلا يفزعون ولا يخافون ، ألم أسمعكم منذ أول الدهر وأظهرها لكم وأبين  
لكم الأمور وأتم شهادتي أن ليس إله غيري ، وليس عزيز منيع إلا وأنا أعز منه ، لأن جميع

الصناع الذين يعملون الأصنام إنما عملهم باطل وليس في أعمالهم منفعة ، وأن الصناع الذين يعملونها هم يشهدون عليها أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تعلم ، لذلك يخزي جميع صناع الأوثان المسبوكة لأن جميع ما صنعوا لا عقل له ، فيجمعون كلهم ويخزون ويفتضحون لأن النجار نحت مجديده وهياً صنماً بمنقاره وسدده بقوة ساعده وجاع وعطش في عمله .  
والنجار اختار خشبة وقدرها وأصق بعضها ببعض بالغراء وركبها وعملها كشبه الإنسان ، أقام من الخشب الذي قطع من الغيضة كشبه رجل الذي نبت من شرب المطر ليصير للناس للوقود فعملوه لهم إلهاً وعبدوه وسجدوا له ، الذي ينصفه خبزوا لهم خبزاً وشووا لهم لحماً على جمرة وأكلوا وشربوا واصطلوا وقالوا : قد حمينا لأننا قد أوقدنا ناراً واصطلينا ، والذي بقي منه اتخذوه إلهاً منحوتاً وسجدوا له وصلوا وقالوا : نجنا لأنك إلهنا .

(63/301)

---

ولم يخطر على بالهم فكر أن يقولوا : إنا قد أوقدنا نصفه بالنار ، وخبزنا خبزنا وشوينا على جمرة اللحم وأكلنا ، ولم يعلموا أن باقيه عمل منه صنم وسجدوا له ، لأن قلوبهم متمرغة في رماده ، وضلت عقولهم فلا يقدر أن ينجون أنفسهم ولا يقولون : إن آيادينا عملت الباطل



واتخذت الكذب ، ثم قال : أليس أنا الرب منذ أول ، وليس إله غيري ولا مخلص سواي ،  
ادنوا إلي يا جميع الذين في أقطار الأرض لتنجوا لأنني أنا الرب وليس إله غيري ، حلفت  
بيمينني وأخرجت كلمة صدق ولست أرجع عنها لأنه لي تنحني كل ركبة ، وبني يحلف كل  
إنسان ويقول : إنما البر بالرب ، وإليه تدنو الأعزاء ويخزي جميع المبغضين ، وبني يمتدح ويتبرر  
، بمن شبهتموني ؟ وإلى من نسبتموني ؟ بالضالين الذين أخرجوا الذهب من أكياسهم  
ووزنوا الفضة بالميزان وأكثروا الصناعات حتى عملوا لهم آلهة يسجدون لها ويحملونها على  
أكتافهم ويمشون بها ثم يصلون لها ويدعونها لا تجيبهم ولا تخلصهم من شدائدهم ثم  
يحملونها أيضاً ويردونها إلى مواضعها ، اذكروا هذه الأشياء واعقلوا أيها الأثمة واطمروها  
على قلوبكم وتذكروا الأيام التي كانت من الابتداء ، إني أنا الله الخالق وليس إله غيري ولا  
مثلي ، فأنا أظهر العتيدات وأخبر بالذي يكون قبل أن يكون ، وأثبت رأبي وأكمل إراداتي  
وهوأي ، وأدعو من في المشارق فيأتون أسرع من الطير ، وأتاني الرجل الذي قد عمل  
مسرتي من الأرض البعيدة ، لأنني أنا إذا تكلمت بشيء فعلته .

أنا خلقت وأنا أخلق ؛ وفي الزبور في المزمور الثالث عشر بعد المائة : إلهنا في الأرض ، كل ما  
يشاء يصنع ، أوثان الأمم ذهب وفضة عمل أيدي البشر ، لها أفواه ولا تتكلم ، لها أعين ولا  
تنظر ، لها آذان ولا تسمع ، وأناف ولا تشم ، وأيد ولا تلمس ، وأرجل ولا تمشي ، ولا

صوت بجناجرها ولا روح في أفواهاها ، فليكن صانعوها مثلها وجميع من يتوكل عليها -

انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 173.174 ﴾

(64/301)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ﴾

فإن حملنا هذه الصفات على الأصنام .

قلنا : المراد من كونها ناظرة كونها مقابلة بوجهها وجوه القوم من قولهم : جبالن متناظران أي متقابلان ، فإن حملناها على المشركين فالمعنى : أنهم وإن كانوا ينظرون إلى الناس إلا أنهم لشدة إعراضهم عن الحق لم ينتفعوا بذلك النظر والرؤية ، فصاروا كأنهم عمي ، وهذه الآية تدل على أن النظر غير الرؤية ، لأنه تعالى أثبت النظر ونفي الرؤية ، وذلك يدل على التغاير ، وأجيب عن هذا الاستدلال فقول : معناه تحسبهم أنهم ينظرون إليك مع أنهم في الحقيقة لا ينظرون ، أي تظن أنهم ينظرونك مع أنهم لا يبصرونك ، والرؤية بمعنى الحسبان واردة قال تعالى : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسَكَارَىٰ ﴾ [ الحج : 2 ] . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 77.78 ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإن تدعوهم ﴾ الآية ،

قالت فرقة : المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم وأمه ، والهاء والميم في قوله ﴿

تدعوهم ﴾ للكفار ووصفهم بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون إذ لم يتحصل لهم عن النظر

والاستماع فائدة ولا حلوا منه بطائل ، قاله السدي ومجاهد ، وقال الطبري : المراد بالضمير

المذكور الأصنام ، ووصفهم بالنظر كناية عن المحاذاة والمقابلة وما فيها من تخيل النظر كما

تقول دار فلان تنظر إلى دار فلان ، ومعنى الآية على هذا تبين جمودية الأصنام وصغر

شأنها ، وذهب بعض المعتزلة إلى الاحتجاج بهذه الآية على أن العباد ينظرون إلى ربهم ولا

يروونه ، ولا حجة لهم في الآية لأن النظر في الأصنام مجاز محض .

قال القاضي أبو محمد : وإنما تكرر القول في هذا وترددت الآيات فيه لأن أمر الأصنام

وتعظيمها كان متمكناً من نفوس العرب في ذلك الزمن ومستولياً على عقولها فأوعب القول

في ذلك لطفاً من الله تعالى بهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(65/301)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ﴾

في المراد بهؤلاء قولان .

أحدهما : أنهم الأصنام .

ثم في قوله : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ قولان .

أحدهما : يواجهونك ، تقول العرب : داري تنظر إلى دارك ، ﴿ وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ لأنه ليس فيهم أرواح .

والثاني : وتراهم كأنهم ينظرون إليك ، لأن لهم أعينا مصنوعة ، فأسقط كاف التشبيه ،

كقوله : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ [ الحج : 2 ] أي : كأنهم سكارى ، ﴿ وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ في الحقيقة .

وإنما أخبر عنهم بالهاء والميم ، لأنهم على هيئة بني آدم .

والقول الثاني : أنهم المشركون ، فالمعنى : وتراهم ينظرون إليك بأعينهم ولا يبصرون

بقلوبهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾ شرط ، والجواب ﴿ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

﴿ وَتَرَاهُمْ ﴾ مستأنف .

﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ في موضع الحال .

يعني الأصنام .

ومعنى النظر فتح العينين إلى المنظور إليه ؛ أي وتراهم كالناظرين إليك .

وخبّر عنهم بالواو وهي جماد لا تبصر ؛ لأن الخبر جرى على فعل من يعقل .

وقيل : كانت لهم أعين من جواهر مصنوعة فلذلك قال ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ .

وقيل : المراد بذلك المشركون ، أخبر عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(66/301)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا

يَبْصُرُونَ ﴾

قال الحسن المراد بهذا المشركون ومعناه وإن تدعو إليها المؤمنون المشركين إلى الهدى لا

يسمعوا دعاءكم لأن آذانهم قد صمّت عن سماع الحق وتراهم ينظرون إليك يا محمد وهم لا

يبصرون يعني ببصائر قلوبهم وذهب أكثر المفسرين إلى أن هذه الآية أيضاً واردة في صفات

الأصنام لأنها جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الخازن - 2 ص ﴿

(67/301)

وقال أبو حيان :

﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ .

تناسق الضمائر يقتضي أن الضمير المنصوب في ﴿ وإن تدعوهم ﴾ هو للأصنام ونفي

عنهم السماع لأنها جماد لا تحسّ وأثبت لهم النظر على سبيل المجاز بمعنى أنهم صوروهم

ذوي أعين فهم يشبهون من ينظر ومن قلب حدقته للنظر ثم نفى عنهم الإبصار كقوله ﴿ يا

أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾

ومعنى إليك أيها الداعي وأفرد لأنه اقتطع قوله : ﴿ وتراهم ينظرون إليك ﴾ من جملة

الشرط واستأنف الإخبار عنهم بحالهم السييء في انتفاء الإبصار كانتفاء السماع ، وقيل

المعنى في قوله ﴿ ينظرون إليك ﴾ أي يحاذونك من قولهم المنازل تناظر إذا كانت

متحاذية يقابل بعضها بعضاً وذهب بعض المعزلة إلى الاحتجاج بهذه الآية على أن العباد

ينظرون إلى ربهم ولا يرونه ولا حجة لهم في الآية لأن النظر في الأصنام مجاز محض وجعل

الضمير للأصنام اختاره الطبري قال : ومعنى الآية تبين جمودها وصغر شأنها ، قال : وإنما تكرر القول في هذا وترددت الآيات فيه لأن أمر الأصنام وتعظيمها كان متمكناً من نفوس العرب في ذلك الزمن ومستولياً على عقولها لطفاً من الله تعالى بهم ، وقال مجاهد والحسن والسدي : الضمير المنصوب ﴿ في تدعوهم ﴾ يعود على الكفار ووصفهم بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون إذ لم يتحصّل لهم عن الاستماع والنظر فائدة ولا حصلوا منه بطائل وهذا تأويل حسن ويكون إثبات النظر حقيقة لا مجازاً ، ويحسن هذا التأويل الآية بعد هذه إذ في آخرها ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ أي الذين من شأنهم أن تدعوهم لا يسمعون وينظرون إليك وهم لا يبصرون فتكون مرتبة على العلة الموجبة لذلك وهي الجهل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(68/301)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾

إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم على الإطلاق أو في خصوص الكيد المعهود ﴿ لا يسمعون ﴾ أي دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإمداد ، وهذا أبلغ من نفي الاتباع ،

وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع وبه يتم التعليل فلا تكرر أصلاً، والرؤية بصرية، وقوله تعالى: ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ حال من المفعول، والجملة الاسمية حال من فاعل ينظرون، أي وترى الأصنام رأي العين يشبهون الناظرين إليك ويخيل إليك بأنهم يبصرونك لما أنهم صنعوا لها أعيناً مركبةً بالجواهر المضيئة المتألئة وصوروها بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه، والحال أنهم غير قادرين على الإبصار، وتوحيد الضمير في تراهم مع رجوعه إلى المشركين لتوجيه الخطاب إلى كل واحد منهم لا إلى الكل من حيث هو كل كالخطابات السابقة تنبيهاً على أن رؤية الأصنام على الهيئة المذكورة لا تتسنى للكل معاً بل لكل من يواجهها، وقيل: ضمير الفاعل في تراهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول على حاله، وقيل: للمشركين على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُوا ﴾ أي وترى المشركين ينظرون إليك والحال أنهم لا يبصرونك كما أنت عليه. وعن الحسن أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ تَدْعُوا ﴾ للمؤمنين على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى: ﴿ يَنْصُرُونَ ﴾ أي وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الإسلام لا يلتفتوا إليكم، ثم خوطب عليه السلام بطريق التجريد بأنك تراهم ينظرون إليك والحال أنهم لا يبصرونك حق الإبصار تنبيهاً على أن ما فيه عليه السلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة من الجلاء بحيث لا يكاد يخفى على الناظرين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾



وقال الأوسى :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (198) ﴿  
﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ ﴾ أي إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم مطلقاً أو  
في خصوص الكيد المعهود ﴿ لَا يَسْمَعُوا ﴾ أي دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإمداد ،  
وهذا أبلغ من نفي الاتباع ، وحمل السماع على القبول كما في سماع الله لمن حمده كما زعمه  
بعضهم ليس بشيء ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾  
﴿ بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع ، وبهذا على ما قيل تم التعليل  
لعدم المبالاة فلا تكرر أصلاً ، وقال الواحدي : إن ما مر للفرق بين من تجوز عبادته وغيره ،  
وهذا جواب ورد لتخويفهم له صلى الله عليه وسلم بألتهم ، والرؤية بصرية ، وجملة  
ينظرون في موضع الحال من المفعول الراجع للأصنام ، والجملة الاسمية حال من فاعل  
ينظرون ، والخطاب لكل واحد من المشركين ، والمعنى وترى الأصنام رأي العين يشبهون  
الناظر إليك ويخيل لك أنهم يبصرون لما أنهم صنع لهم أعين مركبة بالجواهر المتلألئة  
وصورت بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه والحال أنهم غير قادرين على

الإبصار ، وتوجيه الخطاب إلى كل واحد من المشركين دون الكل من حيث هو كل  
كالخطابات السابقة للإيدان بأن رؤية الأصنام على الهيئة المذكورة لا يتسنى للكل معاً بل  
لكل من يوجهها .

وذهب غير واحد إلى أن الخطاب في ﴿ تَرَاهُمْ ﴾ لكل واقف عليه ، وقيل للنبي صلى الله  
عليه وسلم ، وضمير الغيبة على حاله أو للمشركين على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى :  
﴿ لَا يَسْمَعُوا ﴾ أي وترى المشركين ناظرين إليك والحال أنهم لا يبصرونك كما أنت عليه  
أولا يبصرون الحجة كما قال السدي ، ومجاهد .

(70/301)

---

ونقل عن الحسن أن الخطاب في ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ للمؤمنين على أن التعليل قد تم عند  
قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يُنصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 197] أي وإن تدعوا أيها المؤمنون  
المشركين إلى الإسلام لا يلتفتوا إليكم ولا يقبلوا منكم ، وعلى هذا يحسن تفسير السماع  
بالقبول ، وجعل ﴿ وَتَرَاهُمْ ﴾ خطاباً لسيد المخاطبين بطريق التجريد ، وفي الكلام تنبيه  
على أن ما فيه عليه الصلاة والسلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة من الجلاء بحيث لا  
يكاد يخفى على الناظرين .

وجوز بعضهم أن تكون الرؤية علمية وما كان في موضع المفعول الثاني والأول أولى . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(71/301)

وقال القاسمي :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ﴾ إذ ليس لهم سمع ، وإن صوّرت لهم الأذان ، كما

أنه لا بصر لهم ، وإن صوّرت لهم الأعين . كما قال : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ إذ

صورت لهم الأعين ﴿ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ لأنهم جماد عوملوا معاملة من يعقل ، فعبّر عنهم

بضميره ، لأنهم على صور مصورة كالإنسان ، وهذا من تمام التعليل ، لعدم مبالاته بهم ، فلا

تكرار .

وقال السدي : المراد بهذا المشركون ، وروي عن مجاهد نحوه ، أي : وإن كانوا ينظرون

إليك ، فإنهم لا ينتفعون بالنظر والرؤية .

قال ابن كثير : والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير ، وقاله قتادة ، أي : تفصيلاً من التفكيك

، لأن المحدث عنهم الأصنام .

تنبيه :

من غرائب استنباط المعزلة قولهم في هذه الآية - والعبارة للجشمي - ما مثاله : تدل الآية على أن النظر غير الرؤية ، وأنه لا يقتضي الرؤية ، لذلك أثبتهم ناظرين غير راين . قال : ومثله قولهم نظرت إلى الهلال فلم أراه . ويقسمون النظر إلى وجوه ، ولا تنقسم الرؤية .

قال : فبطل قول من يقول : إن قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يُؤْمِنُ بِرَبِّهَا نَاضِرَةٌ ﴾ يقتضي الرؤية . انتهى .

ولا يخفى أن الأصل في إطلاق النظر هو الرؤية والإبصار ، ولذلك تتعاقب في هذا المعنى ، وتترادف كثيراً ، وانفكاكه عن الرؤية في هذا الآية لقرينة كون المحدث عنهم جماداً ، ولا قرينة في الآية لتقاس على ما هنا ، دع ما صح الأخبار في وقوعها ، مما هو بيان لها - فافهم - . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل - ج 7 ص 243.244 ﴾

(72/301)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (198) عطف على جملة ﴿ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ﴾ [الأعراف :

197 [ الآية أي قُل للمشركين : وإن تدعوا الذين تدعون من دون الله إلى الهدى لا

يسمعوا .

والضمير المرفوع للمشركين ، والضمير المنصوب عائِد إلى الذين تدعون من دونه ، أي الأصنام .

والهدى على هذا الوجه ما فيه رشد ونفع للمدعو .

وذكر ﴿ إلى الهدى ﴾ لتحقيق عدم سماع الأصنام ، وعدم إدراكها ، لأن عدم سماع دعوة ما ينفع لا يكون إلا لعدم الإدراك .

ولهذا خولف بين قوله هنا ﴿ لا يسمعوا ﴾ وقوله في الآية السابقة ﴿ لا يتبعوكم ﴾ [

الأعراف : 193 ] لأن الأصنام لا يتأتى منها الاتباع ، إذ لا يتأتى منها المشي الحقيقي ولا المجازي أي الامتثال .

والخطاب في قوله ﴿ وتراهم ﴾ لمن يصلح أن يخاطب فهو من خطاب غير المعين .

ومعنى ينظرون إليك على التشبيه البليغ ، أي تراهم كأنهم ينظرون إليك ، لأن صور كثير من الأصنام كان على صور الأناسي وقد نحتوا لها أمثال الحدق الناظرة إلى الواقف أمامها

قال في "الكشاف" "لأنهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر

إليه" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (198) ﴿  
وبطبيعة الحال لو أن أحداً دعا هذه الأصنام إلى الهداية فلن تهتدي الأصنام لأنها من  
الجماد الذي لا تصلح معه دعوة أو فهم . رغم أن الصنم منها له عيون كالتي تراها حالياً في  
معابد الهندوس أو البوذيين ، حين يضعون للتماثيل في مكان حدقة العين خرزاً ملوناً يشبه  
العين ، وتوجه الحدقة بميلها وكأنه ينظر إليك وهو لا يرى شيئاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الشعراوي صـ ﴿

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (198) ﴿  
أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ وتراهم ينظرون إليك ﴾ قال :  
هؤلاء المشركون .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا  
يبصرون ﴾ ما تدعوهم إليه من الهدى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴿

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198) ﴾  
شاهدوه بأبصارهم لكنهم حُجِبُوا عن رؤيته ببصائر أسرارهم وقلوبهم فلم يُعْتَدَ برؤيتهم .  
ويقال رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم ، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات  
الغيب ، وذلك على مقادير الاحترام وحصول الإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف  
الإشارات ح 1 ص 597 ﴾

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة :

﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (184) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (198)

التفسير: إنه تعالى لما بالغ في تهديد الملحدين المعرضين عن آياته الغافلين عن التأمل في بيناته

عاد إلى الجواب عن شبهاتهم فقال ﴿ أَوْ لِمَ يَتَفَكَّرُوا ﴾ وإذا علم أن الرؤية بالصبر حالة

مخصوصة بالانكشاف والجلاء ولها مقدمة هي قلب الحدقة إلى جهة المرئي ، كذلك

رؤية البصيرة وهي المسماة بالعلم واليقين حال متعينة بالوضوح والإنارة ولها مقدمة هي

قلب حدقة القلب إلى الجوانب طلباً لذلك ، وهذه الحالة تسمى بنظر العقل وفكرته .

وفي اللفظ محذوف والتقدير: أَوْ لِمَ يَتَفَكَّرُوا فيعلموا ما بصاحبهم من جنة وهي حالة من

الجنون كالجلسة .

(76/301)

---

كان جهال أهل مكة ينسبونه إلى الجنون لوجهين: أحدهما أنه صلى الله عليه وسلم كان

يغشاه حالة عجيبة عند الوحي شبيهة بالغشي يتردد وجهه ويتغير لونه ، والثاني أن فعله

وهو الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والدعاء إلى الله تعالى كان مخالفاً لفعلهم .

وعن الحسن وقتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قام ليلاً على الصفا يدعوا فخذاً فخذاً



من قريش : يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله وعقابه . فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا مجنون واظب على الصياح إلى الصباح . فأمرهم الله تعالى بالتفكر والتدبر في أمره وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى عبادة الله وحده و يقيم عليهم الدلائل القاطعة بألفاظ فصيحة عجز الأولون والآخرون عن معارضتها ، وكان حسن الأخلاق طيب العشرة مرضي السيرة مواظباً على أعمال حسنة ، صار بسببها قدوة لعقلاء العالمين ، ومن المعلوم بالضرورة أن مثل هذا الإنسان لا يمكن وصفه بالجنون وإنما هو نذير مبين أرسله رب العالمين لترهيب الكافرين وترغيب المؤمنين . ولما كان النظر في أمر النبوة مفرعاً على دلائل التوحيد قال ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ﴾ أي في مدلولاتهما . والملكوت الملك العظيم ، وفي إنكار عدم النظر دلالة على وجوب الاستدلال فيما للعقل إليه سبيل وقد مر في هذا الكتاب كيفية دلالة السموات والأرض على وجود الصانع ولا سيما في سورة البقرة عند قوله ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ [ البقرة : 164 ] ثم قال ﴿ وما خلق الله من شيء ﴾ أي مما يقع عليه اسم الشيء من اجناس غير محصورة . والغرض التنبيه على أن الدلالة على التوحيد ليست مقصورة على السموات والأرض ، بل كل ذرة من ذرات هذا العالم . فيها برهان باهر ودليل ظاهر على الوحدة لأنها مختصة بجزء معين من الأحياء غير المتناهية ، ويقدر معين من الأقدار ، وبوضع معين

من الأوضاع وكذا الكلام في لونها وشكلها وطبعها وطعمها وسائر صفاتها ، وكل واحد

من هذه

(77/301)

---

الاختصاصات لا بد له من مخصص ولا بد من الانتهاء إلى واجب واحد في ذاته وفي جميع  
اعتباراته ﴿ وأن عسى ﴾ هي مخففة من الثقيلة والأصل " وأنه عسى " على أن الضمير  
للشأن وفي أن يكون ضمير الشأن أيضاً والمعنى : أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى  
﴿ أن يكون ﴾ الشأن ﴿ قد اقترب أجلهم ﴾ الموت أو القيامة . وإذا كان أحد هذين  
الاحتمالين قائماً وجب على العاقل المسارعة إلى هذا الفكر والنظر سعياً في تخلص  
النفس من هذا الخوف الشديد والخطر العظيم ، أما قوله ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾  
فمتعلق بقوله ﴿ عسى أن يكون ﴾ كأنه قيل : لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون  
الإيمان بالقرآن قبل الفوت ، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأي حديث أحق منه يريدون  
أن يؤمنوا .

(78/301)

---

ودلالة في إطلاق لفظ الحديث على القرآن على أنه ليس بتقديم لأن المراد بالحديث ما يرادف الكلام ، ولو سلم فإنه محمول على الألفاظ والكلمات ولا نزاع في حدوثها ، قوله ﴿ من يضل الله ﴾ قد سبق تفسير مثله ، ثم لما تكلم في النبوة والتوحيد والقضاء والقدر أتبعه الكلام في المعاد فقال ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ وأيضا لما ذكر اقتراب الأجل بين أن وقت الساعة مكتوم عن الأفهام ليصير ذلك حاملا للمكلفين على المسارعة إلى التوبة وأداء الفرائض . ومن السائل ؟ عن ابن عباس أنهم اليهود قالوا : يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا فإننا نعلم متى هي . وعن قتادة . إنهم قريش قالوا : يا محمد إن بيننا وبينك قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة . قال في الكشاف . الساعة من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا ، سميت القيامة ساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو على العكس لطولها كما يقال للحبشي أبو البيضاء ، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق و ﴿ أيان ﴾ استفهام عن الزمان ويختص بالأمور العظام نحو ﴿ أيان مرساها ﴾ [ النازعات : 42 ] ﴿ وأيان يوم الدين ﴾ [ الذاريات : 12 ] ولا يقال أيان نمت . وكسر همزته لغة بني سليم . وعن ابن جني أن اشتقاقه من أيّ " فعلان " منه وأيّ فعل من أويت إليه لأن البعض يأوي إلى الكل ، وأنكر أن يكون اشتقاقه من " أين " لأنه للزمان و " أين " للمكان ولقلة " فعال " في الأسماء وكثرة " فعلان " فيها . وقال الأندلسي : أصله " أي أو

أن " حذفت الهمزة مع الياء الأخيرة فبقي " أيوان " فأدغم بعد القلب . وقيل : أصله " أي  
آن " بمعنى " أي حين " فخفض بحذف الهمزة فاتصلت الألف فاتصلت الألف والنون  
بأي . ورد بأن " أنا " لا يستعمل إلا بلام التعريف . والمرسى بمعنى الإرساء والإثبات ،  
والرسو الثبات والاستقرار ولعله لا يطلق إلا على ما فيه ثقل ومنه رسا الجبل وأرست  
السفينة ولا أثقل من الساعة على الخلائق ﴿ قل إنما علمها ﴾ أي علم وقت

(79/301)

---

إرسائها وإثباتها وإقرارها ﴿ عند ربي ﴾ قد استأثر به لم يخبر به أحداً من ملك مقرب  
ولا نبي مرسل يكاد يخفيها من نفسه ليكون أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما  
أخفى وقت الموت لذلك ﴿ لا يجليها ﴾ لا يظهرها ﴿ لوقتها ﴾ أي للخبر عن وقتها قبل  
مجئها أحد ﴿ إلا هو ﴾ والحاصل أنه لا يقدر على إظهار وقتها المعين بالإخبار والإعلام  
إلا هو ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ قال الحسن : أي ثقل مجيئها على أهل السموات  
لانشقاق السماء وتكوير الشمس وانتثار النجوم ، وعلى أهل الأرض لأن في ذلك اليوم  
فناءهم وهلاكهم . أو ثقل هذا اليوم على الخلائق بما فيه من الشدائد والأهوال ، أو ثقل

تحصيل العلم بوقتها المعين عليهم أي أشكل واستبهم حتى صار ثقيلاً على الأفهام ❦ لا  
تأتاكم إلا بغتة ❦ إلا فجأة على حين غفلة منكم .

(80/301)

---

وهذه الجمل مؤكدات ومبينات لما تقدمها ولهذا فقد العاطف . عن النبي صلى الله عليه  
وسلم " إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته والرجل يقوم  
سلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه " وروى الحسن عن النبي صلى الله عليه  
وسلم أنه قال : " والذي نفس محمد بيده لتقوم الساعة وإن الرجل ليرفع القمة إلى فيه  
حتى تحول الساعة بينه وبين ذلك " ثم كرر ❦ يسألونك ❦ للتأكيد ولما نيظ به من زيادة  
قوله ❦ كأنك حفي عنها ❦ فكان السؤال الأول عن وقت قيام الساعة ، والسؤال الثاني  
عن كنه ثقل الساعة شدتها ومهابتها ولهذا خص باسم الله في قوله ❦ قل إنما علمها عند  
الله ❦ لأن أعظم أسماء الله مهابة هو الله ، وأما الرب فيدل على التربية والرحمة دون  
الهيبة والعزة ، وفي الحفي وجوه : فقل إنه البار اللطيف و " عن " بمعنى " الباء " أي كأنك  
بار بهم لطيف العشرة معهم وهذا قول الحسن وقتادة والسدي ، والضمير عائد إلى قريش  
التي ادعت القرابة وجعلوها وسيلة إلى أن يخبرهم بالساعة . والمعنى أنك لا تكون حفيماً

بهم ما داموا على كفرهم ولو أخبرت بوقتها وأمرت بالإخبار عنها لكنت مبلغه القريب  
والبعيد من غير تخصيص كسائر ما أوحى إليك . وعلى هذا القول جاز أن يكون ﴿ عنها  
﴿ متعلقاً ﴾ يسألونك ﴿ أي يسألونك عنها كأنك حفي أي عالم بها فحذف قوله " بها  
" لطول الكلام أو لأنه معلوم . وقيل : ﴿ عنها ﴾ يتعلق بحذوف . وحفي " فعيل " من  
حفي فلان بالمسألة أي استقصى ، والمعنى كأنك بليغ في السؤال عنها لأن من أكثر السؤال  
علم . وهذا التركيب يفيد المبالغة ومنه إحفاء الشارب ، وأحفي في المسألة إذا الحف .  
وقيل : المراد كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه وتؤثره يعني أنك تكره السؤال عنها لأنه من علم  
الغيب الذي استأثر الله به ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أنه مختص بذلك العلم أو لا  
يعلمون أن القيامة حق وإنما يقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا ، أو لا يعلمون السبب الذي

(81/301)

---

لأجله خفيت معرفة وقتها المعين عن الخلق . ثم أمر نبيه بإظهار ذلة العبودية حتى لا ينسب  
إليه نقص ولا يعاب من قبل عدم العلم بالغيب فقال ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا  
ما شاء الله ﴾ وفيه أن قدرته قاصرة وعلمه قليل ، وكل من كان عبداً كان كذلك ،

والقدرة الكاملة والعلم المحيط ليس إلا لله تعالى . واحتجت الأشاعرة بالآية في مسألة خلق الأعمال قالوا : الإيمان نفع والكفر ضرر فوجب أن لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى .

(82/301)

---

وأجابت المعتزلة بأن المراد لا أملك لنفسي من النفع والضرر إلا قدر ما شاء الله أن يقدرني عليه ويمكنني منه . وظاهر الآية وإن كان عاماً إلا أنها مخصوصة بصورة النزول . قال الكلبي : إن أهل مكة قالوا : يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري فتربح ، وبالأرض التي يريد أن تجذب فترتحل عنها إلى ما قد أخصب ، فأنزل الله هذه الآية ، فالمراد بالخير في قوله ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾ هو جلب منافع الدنيا وخيراتها من الخصب والأرباح والأكساب . وقيل : المراد ما يتصل بأمر الدين يعني لو كنت أعلم بالغيب لكنت أعلم أن الدعوة إلى الدين الحق تؤثر في هذا ولا تؤثر في لك فكنت أشغل بدعوة هذا دون ذلك . وقال بعضهم : " لما رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق جاء في الطريق ربح نفرت ناقته منها فأخبر صلى الله عليه وسلم بموت رفاعة وكان فيه غيظ للمنافقين وقال : " انظروا أين ناقتي " . فقال عبد الله بن أبي لقومه : ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته . فقال صلى الله

عليه وآله: "إن ناساً من المنافقين قالوا كيت وكيت وناقتي في هذا الشعب قد تعلق زمامها بشجرة" فوجدوها على ما قال فنزلت "أما قوله ﴿ وما مسني السوء ﴾ فمعناه لكان حالي على خلاف ما هي عليه من المغلوبة في بعض الحروب والخسران في بعض التجارات والأخطاء في بعض التدبير ﴿ إن أنا ﴾ إلا عبد مرسل للندارة والبشارة وما من شأنني أن أعلم الغيب. وقوله ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ إما أن يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالندير وهو للكافرين محذوفاً للعلم به كقوله ﴿ سراييل تقيكم الحر ﴾ [النحل: 81] أو يتعلق بالوصفين جميعاً إلا أن المؤمنين لما كانوا هم المنتفعين به خصوا بالذكر كقوله ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة: 2] واعلم أن أكثر ما جاء في القرآن من لفظي الضر والنفع معاً جاء بتقديم لفظ الضر على النفع وهو الأصل لأن العابد

(83/301)

---

يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ثم طمعاً في ثوابه ثانياً يؤيده قوله ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ [السجدة: 16] وحيثما تقدم النفع على الضر فذلك لسابقة لفظ تضمن معنى نفع كما في هذه السورة تقدم لفظ الهداية على الضلال في قوله ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل ﴾ [الكهف: 17] وتقدم الخير على السوء في قوله ﴿ لاستكثرت



من الخير وما مسني السوء ﴿ وفي الرعد تقدم ذكر الركوع في قوله ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ [آل عمران: 83] والطوع نفع. وفي الفرقان تقدم قوله ﴿ هذا عذاب فرات ﴾ [الفرقان: 53] وهو نفع وفي سبأ تقدم البسط في قوله ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [الرعد: 26] وقس على هذا.

(84/301)

---

ثم رجع إلى تقرير أمر التوحيد وإبطال الشرك فقال ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ والمرومي عن ابن عباس أنها نفس آدم وقد تقدم مثل ذلك في أول سورة النساء. قال مجاهد: كان لا يعيش لآدم وامرأته ولد فقال لهما الشيطان: إذا ولد لكما ولد فسمياه عبد الحرث وكان اسم إبليس في الملائكة الحرث وذلك قوله ﴿ فلما آتاهما صالحاً ﴾ ولداً سوياً ﴿ جعلاً ﴾ يعني آدم وحواء ﴿ له شركاء ﴾ والمراد تسميته بعبد الحرث وهذا تمام القصة وقد زيفها النقاد بوجه منها: أنه تعالى قال ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ بلفظ الجمع لا التثنية ومنها قوله ﴿ أشركون ما لا يخلق شيئاً ﴾ إلى آخر الآيات وفي ذلك تصريح بأن المراد الأصنام ولو كان المراد إبليس لكان "أشركون ما لا يخلق شيئاً وهو يخلق ؟". ومنها أن آدم عليه السلام كان عالماً بجميع الأسماء فكيف ضاقت عليه الأسماء، أم

كيف لم يعرف أن اسم إبليس كان حارثاً ، أم كيف لم يتنبه لغدر إبليس بعد أن جرى عليه  
منه ما جرى ؟ ومنها أنه أراد بذلك اسم علم أو اسم صفة والأول لا يستلزم محذوراً إلا أن  
أسماء الأعلام لا تفيد في المسميات فائدة فلا يلزم الإشراف ، والثاني يوجب الكفر الصريح  
ولا قائل بإمكان نسبه إلى آدم فعند ذلك ذكر العلماء في تأويله وجوهاً : أحدها أن هذا  
مثل فكأنه تعالى يقول هو الذي خلقكم أي كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من  
جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية يسكن أي تلك النفس ، فذكر بعد ما أنت حملاً  
على المعنى ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويطمئن إليها فكان التذكير أحسن  
طباقاً للمعنى ﴿ فلما تعشاها ﴾ أي جامعها لأنه إذا علاها صار كالغاشية لها ﴿  
حملت حملاً خفيفاً ﴾ قالوا : يريد النطفة . والحمل بالفتح ما كان في البطن أو على رأس  
الجرة ، وبكسر الحاء ما حمل على الظهر أو على الدابة ﴿ فمرت به ﴾ أي استمرت  
وقضت على ذلك الحمل من غير إذلاق . وقيل : فقامت وقعدت به من غير ما ثقل . وقيل  
:

(85/301)

---

المراد بالخفة أنها لم تلق ما تلقاه بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى ﴿ فلما أثقلت ﴾  
﴿ كان وقت ثقل حملها ولادتها ﴾ ﴿ دعوا ﴾ أي الزوج والزوجة ﴿ الله ربهما ﴾ ﴿ ومالك ﴾  
أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه فقلا ﴿ لئن آتيتنا صالحاً ﴾ ﴿ ولداً قد صلح ﴾  
بدنه أو ولد ذكر الآن الذكورة من الصلاح والجودة ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ ﴿ لنعمائك ﴾  
﴿ فلما آتاها صالحاً ﴾ ﴿ كما طلب ﴾ ﴿ جعلناه شركاء ﴾ ﴿ ومن قرأ ﴾ ﴿ شركاً ﴾ ﴿ فعلى ﴾  
حذف المضاف أي ذوي شرك وهم الشركاء أيضاً . أو المراد أحدث لله إشراكاً في الولد  
لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطباع ، وتارة إلى الكواكب ، وتارة إلى الأوثان والأصنام  
، وثانيها أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم  
آل قصي والمعنى : هو الذي خلقكم من نفس قصي وجعل من جنسها زوجة عربية  
قرشية ، فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح السوي سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف  
وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار .

(86/301)

---

والضمير في ﴿ يشركون ﴾ ﴿ لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك ، وثالثها سلمنا  
أن الآية وردت في قصة آدم إلا أنه لا يجوز أن يكون قوله ﴿ جعلاً ﴾ وارداً بمعنى الاستفهام

على سبيل الإنكار والتبعيد ؟ . ثم قال ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ أي تعالى الله عن  
شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون إن آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام ويرجع في طلب  
الخير ودفع الشر إليها ونظيره أن ينعم رجل على رجل بوجوه كثيرة من الإنعام ثم يقول لذلك  
المنعم إن ذلك المنعم عليه يقصد إيداءك وإيصال الشر إليك فيقول ذلك المنعم : فعلت في  
حق فلان كذا وأحسنت إليه بكذا وكذا ثم إنه يقابلني بالشر والإساءة إنه بريء من ذلك .  
فغرضه من قوله " إنه يقابلني بالشر " النفي والتبعيد . أو نقول : لم لا يجوز أن يكون قوله ﴿  
جعلاله ﴾ على حذف المضاف أي جعلاً لأولادهما له شريكاً ؟ وكذا فيما ﴿ آتاهما ﴾  
أي آتى أولادهما عبر عنهم بلفظ التثنية مرة لكونهم صنفين أو نوعين ذكراً وأنثى ولفظ  
الجمع أخرى وهو قوله ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ سلمنا أن الضمير في ﴿ جعلاً ﴾  
وفي آتاهما ﴿ لآدم وحواء إلا أنهما كانا عزماءً أن يجعلوا وقفاً على خدمة الله وطاعته ثم  
بدا لهما فكانا ينتفعان به في مصالح الدنيا ، فأريد بالشرك هذا القدر . وعلى هذا فإنما قال  
تعالى ﴿ عما يشركون ﴾ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين . أو نقول : إنما سمياه عبد  
الحرث اعتقاداً منهما إنه إنما سلم من الآفات ببركة دعائه ، وقد يسمى المنعم عليه عبد  
المنعم ومنه قول بعض العلماء أنا عبد من علمني حرفاً . فلما حصل الإشراف في لفظ العبد  
صارا معاتبين بذلك والله تعالى أعلم . ثم أقام الحجة على أن الأوثان لا تصلح للإلهية فقال  
﴿ أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾ اعتبر اللفظ أولاً فوحد والمعنى ثانياً ، وإنما

جمع بالواو والنون بناء على معتقدهم أنهم عقلاء . واحتجت الأشاعرة بها في مسألة خلق الأعمال فإنها تدل على أن غير الله لا

(87/301)

---

يخلق ثم بين أن المعبود يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع ودفع الضر وهذه الأصنام ليست كذلك فقال ﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ﴾ وهو المعونة على العدة ﴿ ولا أنفُسهم ينصرون ﴾ ولا يدفعون عن أنفسهم مكروها فإن من أراد كسرهم لم يقدروا على دفعه . والحاصل أن الأصنام لا تنصر من أطاعها ولا تقتص ممن عصاها بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم .

(88/301)

---

ثم ذكر أنها كما لا تنفع ولا تضر فكذلك لا علم لها بشيء من الأشياء وأنها لا يصح منها إذا دعيت إلى الخير والصلاح الاتباع ولا ينفصل حال من يخاطبهم ممن يسكت عنهم فقال ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ﴾ ويجوز أن يكون المراد وإن تطلبوا منهم كما تطلبون

من الله الخير لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبتكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله بدليل قوله بعد ﴿ فادعوهم فليستجيبوا لكم ﴾ ثم قوّى هذا الكلام بقوله ﴿ سواء عليكم أَدَعَوْتَهُمْ أَوَأْتَمَّ صَامِتُونَ ﴾ وإعرابه شبيه بما تقدم في أول سورة البقرة في قوله ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ [البقرة: 6] وإنما عطف الاسم على الفعلية لأن هؤلاء المشركين كانوا إذا وقعوا في مهم ومعضلة تضرعوا إلى تلك الأصنام ، وإذا لم تحدث تلك الواقعة بقوا ساكتين صامتين فليلهم : لا فرق بين إحداثكم دعاءهم وبين أن تستمروا على صمتكم . ثم أكد بيان أنها لا تصلح للإلهية بقوله ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ فسئل أنه كيف يحسن وصف الجمادات بأنها عباد ؟ وأجيب بعد تسليم اختصاص العباد بالعقلاء بأن ذلك ورد على معتقدهم أنها عقلاء . وفيه أيضاً نوع من الاستهزاء أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم ولا فضل لهم عليكم فلم قبلتموها آلهة لكم وأرباباً ؟ . ثم بين عدم التفاضل بقوله ﴿ فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾ في أنها آلهة ولام الأمر للتعجيز فإنه إذا ظهر لكل عاقل أنها لا تقدر على الإجابة ظهر أنها لا تصلح للعبودية وأنها والعباد سواء بل هم أحسن وأدون بدليل قوله ﴿ ألهم أرجل يمشون بها ﴾ الآية . وذلك أن كل ما هو من شأنه أن يكون له هذه الأعضاء والآلات فإذا كان فيها قوي محرّكة ومدركة كان هو أفضل ممن خلت أعضاؤه عن هذه القوى فكيف يليق بالأفضل الأكرم الأشرف خدمة المفضول

الخصيس الدنيا ؟ وإنما قلنا كل ما من شأنه أن يكون له هذه الأعضاء لأن من جل عن  
ثبوت هذه الأعضاء

(89/301)

---

والجوارح له فعدم هذه الأشياء بالنسبة إليه فضيلة وكمال ، فإن القادر القاهر من غير  
افتقار إلى آلة وعدة كان أشرف ممن يقتصر في أفعاله إلى الآلات فضلاً عن لا فعل لآله ، فلا  
يرد اعتراض بعض أعمار المشبهة أن الله تعالى لو لم تكن له هذه الأعضاء لكان عدمها دليلاً  
على عدم إلهيته .

ثم إنهم كانوا يخوفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهتهم كما قال قوم هود ﴿ أن نقول  
إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء ﴾ [ هود : 54 ] فقال عز من قائل لنبيه ﴿ قل ادعوا  
شركاءكم ثم كيّدون ﴾ أمر من الكيد المكر ﴿ فلا تنظرون ﴾ نهى عن الإنظار والإمهال  
والخطاب لهم ولشركائهم جميعاً .

(90/301)

---

وهذا قول واثق بعصمة الله أن لا يبالي بغبي الله كأننا من كان . ثم لما أمره صلى الله عليه وسلم بالتبري حثه على التولي فقال ﴿ إن وليي ﴾ أي ناصرى عليكم ﴿ الله ﴾ الآية . وفيه أن الواجب على كل عامل عبادة الذي يتولى تحصيل منافع الدارين . أما الدينية الأخرية فبسبب إنزال الكتاب المشتمل على العلوم الجملة ، وأما الدنيوية فهو المراد بقوله ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ أي من عباده أن ينصرهم فلا يضرهم عداوة من عاداهم في ذلك يأس المشركين أن يضره كيدهم . يحكى أن عمر بن عبد العزيز كان لا يدخر لأولاده شيئاً فقيل له في ذلك فقال : إما أن يكون ولدي من الصالحين فوليه الله ولا حاجة له إلى مالى ، وإما أن يكون من المجرمين وقد قال تعالى ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ ومن رده الله لم أشغل باصلاح مهماته . أقول : وفي التقريب بالآية الثانية نظر لأنها حكاية كلام موسى اللهم إلا أن يقال التقريب في التقرير . ثم أعاد وصف الأصنام بمثل الصفات المذكورة فقال ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ الآية . قال الواحدى : إنما أعيد هذا المعنى لأن الأول مذكور على جهة التقرير وهذا مذكور على جهة الفرق بين من يجوز له العبادة وبين من لا يجوز كأنه قيل : الإله المعبود يجب أن يكون بحيث يتولى الصالحين وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تكون صالحة للإلهية ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ﴾ لا يسمع سمع ولا يسمع إجابة ﴿ وتراهم ﴾ تحسبهم ﴿ ينظرون إليك ﴾ يشبهون الناظرين إليك لأنهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليك ﴿ وهم لا يبصرون ﴾ لا يدركون



المرئي . وقيل : الضمير في قوله ﴿ وإن تدعوهم ﴾ إلى آخر الآية يعود إلى المشركين المار ذكرهم في قوله ﴿ قل ادعوا ﴾ والمراد أنهم بلغوا في الجهل والحماسة إلى أنك لو دعوتهم وأظهرت أنواع الحججة والبرهان لم يسمعوا بعقولهم البتة ﴿ وتراهم ﴾ إلى الناس وإليك ينظرون ولكنهم لشدة إعراضهم عن قبول الحق لم ينتفعوا بذلك النظر فكانهم عمي يصدقه قوله في موضع آخر ﴿ فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ﴾ [ الحج : 46 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 355 .

﴿ 363

(91/301)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ﴾

هذا خطاب للمشركين ، أي وإن تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى والرشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم ويرشدوكم لا يتبعوكم ولا يجيبوكم إلى ذلك ، وهو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع ، ودفع الضرر ، والنصر على الأعداء .

قال الأخفش معناه وإن تدعوهم ، أي الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم .

وقيل : المراد من سبق في علم الله أنه لا يؤمن .

وقرىء ﴿ لا يتبعوكم ﴾ مشدداً ومخففاً وهما لغتان .

وقال بعض أهل اللغة أتبعه مخففاً : إذا مضى خلفه ولم يدركه ، وأتبعه مشدداً : إذا مضى خلفه فأدركه .

وجملة ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ مقررّة لمضمون ما قبلها ، أي

دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء ، لا فرق بينهما لأنهم لا ينفعون ولا يضرّون ولا

يسمعون ولا يجيبون ، وقال : ﴿ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ مكان أصمتم لما في الجملة الاسمية من المبالغة .

وقال محمد بن يحيى : إنما جاء بالجملة الاسمية لكونها رأس آية ، يعني لمطابقة ﴿ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ وما قبله .

قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء

الذين جعلتموهم آلهة هم عباد الله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم ، لأنكم أحياء

تنطقون وتمشون ، وتسمعون وتبصرون .

وهذه الأصنام ليست كذلك ، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لأمره .

وفي هذا تقرّيع لهم بالغ ، وتوبيخ لهم عظيم .

وجملة : ﴿ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ مقررّة لمضمون ما قبلها من أنهم إن دعوهم إلى

الهدى لا يتبعوهم ، وأنهم لا يستطيعون شيئاً ، أي ادعوا هؤلاء الشركاء ، فإن كانوا كما  
تزعمون ﴿ فَلَيْسَتْ جِبِيًّا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما تدعونه لهم من قدرتهم على النفع  
والضرر .

(92/301)

والاستفهام في قوله : ﴿ اللَّهُمَّ ارْجُلُ ﴾ ؟ وما بعده للتقريع والتوبيخ ، أي هؤلاء الذين  
جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم ، فضلاً عن أن يكونوا  
قادرين على ما تطلبونه منهم .

فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم : ﴿ ارْجُلُ ﴾  
يَمْشُونَ بِهَا فِي نَفْعِ أَنْفُسِهِمْ ، فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم ، وليس ﴿ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾  
﴿ كما يبطش غيرهم من الأحياء ، وليس ﴿ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا ﴾ كما تبصرون ،  
وليس ﴿ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ كما تسمعون ، فكيف تدعون من هم على هذه  
الصفة من سلب الأدوات ، وبهذه المنزلة من العجز ، و " أم " في هذه المواضع هي المنطقة  
التي بمعنى بل ، والهمزة كما ذكره أئمة النحو .

وقرأ سعيد بن جبير : " إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ " بتخفيف " إن " ونصب " عبادا " أي ما الذين

تدعون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلَكُمْ ﴾ على أعمال إن النافية عمل ما الحجازية .  
وقد ضعفت هذه القراءة بأنها خلاف ما رجحه سيبويه وغيره من اختيار الرفع في  
خبرها .

وبأن الكسائي قال : إنها لا تكاد تأتي في كلام العرب بمعنى "ما" إلا أن يكون بعدها إيجاب  
كما في قوله : ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ [الملك : 20] ، والبطش : الأخذ بقوة .  
وقرأ أبو جعفر "يَبْطِشُونَ" بضم الطاء ، وهي لغة .

ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام ، وتعاور وجوه النقص والعجز لها من كل باب ، أمره الله  
بأن يقول لهم : ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضرر .  
﴿ ثُمَّ كِيدُونَ ﴾ أنتم وهم جميعاً بما شئتم من وجوه الكيد ﴿ فَلَا تُنظِرُونَ ﴾ أي : فلا  
تمهلوني ، ولا تؤخروا إنزال الضرر بي من جهتها ، والكيد : المكر .  
وليس بعد هذا التحدي لهم والتعجيز لأصنامهم شيء .

(93/301)

---

ثم قال لهم : ﴿ إِنَّ وِلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ ﴾ أي : كيف أخاف هذه الأصنام التي  
هذه صفتها ، ولي وليّ الجأ إليه وأستنصر به ، وهو الله عز وجل ﴿ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ ﴾

وهذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بها .

ووليّ الشيء هو الذي يحفظه ، ويقوم بنصرته ، ويمنع منه الضرر ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ أي : يحفظهم وينصرهم ، ويحول ما بينهم وبين أعدائهم .

قال الأخفش : وقرئ " إِنَّ وَليَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ " يعني جبرائيل .

قال النحاس : هي قراءة عاصم الجحدري .

والقراءة الأولى أي لقوله : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ .

قوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ كرّر

سبحانه هذا المزيد التأكيد والتقرير ، ولما في تكرار التوبيخ والتقريع من الإهانة للمشركين ،

والتنقيص بهم ، وإظهار سخف عقولهم ، وركاكة أحلامهم ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾

جملة مبتدأة لبيان عجزهم ، أو حالية ، أي والحال أنك تراهم ينظرون إليك حال كونهم لا

يبصرون .

والمراد : الأصنام أنهم يشبهون الناظرين ، ولا أعين لهم يبصرون بها .

قيل : كانوا يجعلون للأصنام أعيناً من جواهر مصنوعة ، فكانوا بذلك في هيئة الناظرين ،

ولا يبصرون .

وقيل : المراد بذلك المشركون ، أخبر الله عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم ،

وإن أبصروا بها غير ما فيه نفعهم .

وقد أخرج أبو الشيخ ، عن سعيد بن جبير قال : يجاء بالشمس والقمر حتى يلتقيا بين يدي  
الله تعالى ، ويجاء بمن كان يعبدهما ، فيقال : ﴿ ادعوهمْ فَلَيْسَتْ جِبُيُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن السدي ، في قوله : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ  
إِلَيْكَ ﴾ قال : هؤلاء المشركون .

وأخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ما  
يدعوههم إليه من الهدى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(94/301)

---

وقال الشيخ سيد قطب في الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ  
قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (172) ﴿  
إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (198) ﴿  
هذا الدرس كله يدور حول قضية التوحيد والشرك . . بعدما دار قصص السورة كله حول

هذه القضية ، متخذاً صورة التذكير من الرسل جميعاً بحقيقة التوحيد ، والتحذير من عاقبة الشرك ؛ ثم تحقق النذر بعد التذكير والتحذير .

فالآن في هذا الدرس تعرض قضية التوحيد من زاوية جديدة ، وزاوية عميقة . . تعرض من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر ؛ وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم ، وذات تكوينهم ؛ وهم بعد في عالم الذر ! . . إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري . فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته ، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة . أما الرسائل فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى ، فيحتاجون إلى التذكير والتحذير . . إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينوتهم الأولى ، فلا حجة لهم في نقض الميثاق - حتى لو لم يبعث إليهم بالرسول يذكرونهم ويحذرونهم - ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلمهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف ؛ وألا يكلمهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاهم لهم فقد تضل ؛ وأن يبعث إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل !

ومن هذه الزاوية ، التي تعرض منها قضية التوحيد في هذا الدرس ، يتخذ السياق خطوطاً شتى حول هذه القضية الكبرى .

---

منها خط قصصي عن حالة ترد بعض الروايات بأنها وقعت في تاريخ بني إسرائيل . . ولكن الأرجح أنها نموذج غير مقيد بزمان ولا مكان ، إنما هو تصوير لحالة مكرورة في النفوس والتاريخ . كلما أوتي بعض الناس نصيباً من العلم كان خليقاً أن يقوده إلى الحق والهدى ، فإذا هو ينسلخ مما أوتي من العلم ، فلا ينتفع به شيئاً ، ويسير في طريق الضلالة كمن لم يؤتوا من العلم شيئاً . بل يصير أنكد وأضل وأشقى بهذا العلم الذي لم تحاطه بشاشة الإيمان ، الذي يحول هذا العلم إلى مشكاة هادية في ظلام الطريق !

ومنها خط قصصي آخر عن حالة تصويرية لخطوات انحراف الفطرة من التوحيد إلى الشرك . . ممثلة في زوجين من البشر ، يرجوان الخير في الجنين القادم لهما ؟ وتوجه فطرتهما إلى الله ربهما ، ويقطعان لله العهود لئن آتاهما خلفاً صالحاً ليكونن من الشاكرين . . ثم تزيغ قلوبهما بعد أن يستجيب الله لهما ، فإذا هما يجعلان لله شركاء فيما آتاهما !

ومنها خط تصويري تعطل أجهزة الاستقبال الفطرية في الكينونة البشرية ، حتى تنتهي إلى الضلال الذي يهبط بالبشر عن مرتبة الأنعام ، ويجعلهم وقوداً لجهنم عن جدارة واستحقاق . . فتكون لهم قلوب لا يفقهون بها ، وتكون لهم أعين لا يبصرون بها ، وتكون لهم آذان لا يسمعون بها . . ويكون وراء ذلك الضلال الذي لا رجعة منه ولا مآب !

ومنها خط إيجائي لاستجاشة هذه الأجهزة المعطلة ، وإيقاظها للتدبر والتفكر ، وتوجيهها



إلى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ، ولمسها بالأجل المغيب الذي  
يكمن وراء الموت ، ودعوتها إلى النظر في حال هذا الرسول الكريم الذي يدعو إلى الهدى ،  
فيرميه الضالون بالجنون !  
ومنها خط جدي حول آهتهم المدعاة ، وهي مجردة من خصائص الألوهية ، بل من  
خصائص الحياة !

(96/301)

---

وينتهي هذا كله بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تحديهم وتحدي آهتهم ،  
وإعلان مفاصلته ومفارقة لهم ولعبوداتهم وعبادتهم ، والالتجاء إلى الولي الذي لا ولي  
غيره : ﴿ الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ .

ولقد كانت نهاية الدرس السابقة في قصة بني إسرائيل هي مشهد الميثاق الذي أخذه الله  
عليهم في ظل الجبل المرفوع . فهذا الدرس الجديد يتابعه فيبدأ بقضية الميثاق الأكبر الذي  
أخذه الله على فطرة البشر . في مشهد لا يدانيه في الجلال والروعة مشهد الجبل المرفوع !  
﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم - ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألسنت

بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا! أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا: إنما  
أشرك آباؤنا من قبل. وكنا ذرية من بعدهم. أتتهلكنا بما فعل المبطلون؟ . . . وكذلك  
نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون ﴿ . . . ﴾

إنها قضية الفطرة والعقيدة يعرضها السياق القرآني في صورة مشهد - على طريقة القرآن  
الغالبة - وإنه لمشهد فريد . . . مشهد الذرية المكونة في عالم الغيب السحيق، المستكنة في  
ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود، تؤخذ في قبضة الخالق المربي، فيسألها: ﴿  
أست بر بكم؟ ﴾ . . . فتعترف له - سبحانه - بالربوبية؛ وتقر له - سبحانه - بالعبودية  
؛ وتشهد له - سبحانه - بالوحدانية؛ وهي منثورة كالذر؛ مجموعة في قبضة الخالق

العظيم!

إنه مشهد كوني رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيراً في تصوراتها الماثورة! وإنه لمشهد  
عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشري جهد طاقته! وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا  
تحصى، وهي تجمع وتقبض. وهي تخاطب خطاب العقلاء - بما ركب فيها من  
الخصائص المستكنة التي أودعها إياها الخالق المبدع - وهي تستجيب استجابة العقلاء،  
فتعترف وتقر وتشهد؛ ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب!

(97/301)

---

وإن الكيان البشري يرتعش من أعماقه وهو يتملأ هذا المشهد الرائع الباهر الفريد . وهو  
يتمثل الذر السابح . وفي كل خلية حياة . وفي كل خلية استعداد كامن . وفي كل خلية كائن  
إنسان مكتمل الصفات ينتظر الإذن له بالنماء والظهور في الصورة المكونة له في ضمير  
الوجود المجهول ، ويقطع على نفسه العهد والميثاق ، قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم !  
لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد ، لتلك الحقيقة الهائلة  
العميقة المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية وفي أعماق الوجود .

. عرض القرآن هذا المشهد قبل قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان ، حيث لم يكن إنسان  
يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام ! ثم يهتدي البشر بعد هذه القرون  
إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة . فإذا " العلم " يقرر أن الناسلات ، وهي خلايا  
الوراثة التي تحفظ سجل " الإنسان " وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في  
الأصلاب . . أن هذه الناسلات التي تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر ، وتكمن  
فيها خصائصهم كلها - لا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب ، أو ما يساوي ملء قمع من  
أقماع الخياطة ! . . كلمة لوقيلت للناس يومذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال ! وصدق  
الله العظيم : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ أخرج ابن  
جرير وغيره - بإسناده - عن ابن عباس قال : " مسح ربك ظهر آدم ، فخرجت كل نسمة

هو خالقها إلى يوم القيامة . . فأخذ موثقتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى ﴾ . . وروي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عباس . وقال ابن كثير : إن الموقف أكثر وأثبت . .

(98/301)

---

فأما كيف كان هذا المشهد ؟ وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ؟ وكيف خاطبهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ وكيف أجابوا : ﴿ بَلَى شَهِدْنَا ﴾ ؟ . . فالجواب عليه : أن كفيات فعل الله - سبحانه - غيب كذاته . ولا يملك الإدراك البشري أن يدرك كفيات أفعال الله ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله . إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية . وكل فعل ينسب لله سبحانه مثل الذي يحكيه قوله هذا كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ . . . ﴾ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِقُ ﴾ ﴿ وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُمْ رَاكِعِينَ ﴾ إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله سبحانه ، لا مناص من التسليم بوقوعه ، دون محاولة إدراك كفيته . . إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية كما قلنا . . والله ليس

كمثله شيء فلا سبيل إلى إدراك ذاته ولا إلى إدراك كيفيات أفعاله . إذ أنه . لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أي شيء ، ما دام أن ليس كمثل شيء . . . وكل محاولة لتصوير كيفيات أفعاله على مثال كيفيات أفعال خلقه ، هي محاولة مضللة ، لاختلاف ماهيته - سبحانه - عن ماهيات خلقه . وما يترتب على هذا من اختلاف كيفيات أفعاله عن كيفيات أفعال خلقه . . . وكذلك جهل وضل كل من حاولوا - من الفلاسفة والمتكلمين - وصف كيفيات أفعال الله ، وخالطوا خلطاً شديداً !

على أن هناك تفسيراً لهذا النص بأن هذا العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة . . . فقد أنشأهم مفسورين على الاعتراف له بالربوبية وحده . أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه ، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواها ، ويميل بها عن فطرتها .

(99/301)

---

قال ابن كثير في التفسير: قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد - كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار الجاشعي ومن رواية الحسن البصري عن الأسود ابن سريع - وقد فسر الحسن الآية بذلك . قالوا: ولهذا قال: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم ﴾ ولم يقل: من آدم . . . ﴿ من ظهورهم ﴾ . . . ولم يقل

من ظهره . . ﴿ ذرياتهم ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلفاء الأرض ﴾ وقال : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ وقال : ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ ثم قال : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم : ألسنت بربكم ؟ قالوا : بلى ! ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له . . حالاً . . وقالوا : والشهادة تارة تكون بالقول كقوله : ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ وتارة تكون حالاً كقوله تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك ، لأنهم قائلون ذلك . . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال . كقوله : ﴿ وأتاكم من كل ما سألتموه ﴾ قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك . فلو كان قد وقع هذا ، كما قال من قال ، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه . فإن قيل : إخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم - به كافٍ في وجوده ، فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره . وهذا جعل حجة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد . ولهذا قال : ﴿ أن تقولوا ﴾ . . أي لتأقولوا ﴿ يوم القيامة إنا كنا عن هذا ﴾ . أي التوحيد . . ﴿

غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا ﴿ . . . الآية ) .  
أما الأحاديث التي أشار إليها في أول هذه الفقرة فهي :

(100/301)

---

في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :  
" كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية . " على هذه الملة " - فأبواه يهودانه وينصرانه  
ويمجسانه ، كما تولد بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ " .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :  
يقول الله إنني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وحرمت  
عليهم ما أحللت لهم " .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير - رحمه الله - حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن  
وهب ، أخبرني السري بن يحيى ، أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع  
من بني سعد قال : غزوت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاشتد عليه ، ثم قال :  
" ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ " فقال رجل : يا رسول الله . أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال  
: " إن خياركم أبناء المشركين ! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة . فما تزال

عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها " . قال الحسن : لقد قال في كتابه : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ . . . الآية .  
ونحن لا نستبعد أن يكون قول الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم . . . الآيات ﴾ على وجهه لا على سبيل الحال . لأنه في تصورنا يقع كما أخبر عنه الله سبحانه . وليس هناك ما يمنع أن يقع حين يشاءه . . . ولكننا كذلك لا نستبعد هذا التأويل الذي اختاره ابن كثير ، وذكره الحسن البصري واستشهد له بالآية . .  
والله أعلم أي ذلك كان . .

وفي أي من الحالين يخلص لنا أن هناك عهداً من الله على فطرة البشر أن توحيده . وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة ؛ يخرج بها كل مولود إلى الوجود ؛ فلا يميل عنها إلا أن يفسد فطرته عامل خارجي عنها ! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى وللضلال . وهو استعداد كذلك كما من تخرجه إلى حيز الوجود ملابسات وظروف .

(101/301)

---

إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة " الإنسان " وحده ؛ ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله - وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله . موصولة



به غير منقطعة عنه ، محكومة بذات الناموس الذي يحكمه - بينما هي تتلقى كذلك  
أصداءه وإيقاعاته المعبرة عن تأثيره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة . .  
إن ناموس التوحيد الذي يحكم هذا الوجود ، واضح الأثر في شكل الكون ، وتنسيقه ،  
وتناسق أجزائه ، وانتظام حركته ، واطراد قوانينه ، وتصرفه المطرد وفق هذه القوانين . .  
وأخيراً - حسب العلم القليل الذي وصل إليه البشر - وحدة الجوهر الذي تتألف منه  
ذراته ، وهو الإشعاع الذي تنتهي إليه المواد جميعاً عند تحطيم ذراتها وإطلاق  
شحناتها . .

ويوماً بعد يوم يكشف البشر أطرافاً من ناموس الوحدة في طبيعة هذا الكون ، وطبيعة  
قوانينه التي تحكم تصرفاته - في غير آلية حتمية ولكن بقدر من الله مطرد متجدد وفق  
مشيئة الله الطليقة - ولكننا نحن لا نعتمد على هذا الذي يكشفه علم البشر الظني -  
الذي لا يمكن أن يكون يقينياً بحكم وسائله البشرية - في تقرير هذا الناموس . إنما نحن  
نستأنس به مجرد استئناس . واعتمادنا الأول في تقرير أية حقيقة كونية مطلقة ، على ما  
قرره لنا الخالق العليم بما خلق . والقرآن الكريم لا يدع مجالاً للشك في أن الناموس الذي  
يحكم هذا الكون هو ناموس الوحدة ، الذي أنشأته المشيئة الواحدة للخالق الواحد  
سبحانه .

كما أنه لا يدع مجالاً للشك في عبودية هذا الكون لربه ، واعترافه بوحدانيته ، وعبادته له

بالكيفية التي يعلمها الله ولا نعرف عنها إلا ما يخبرنا به ؛ وما نراه من آثارها في انتظامه ودأبه  
واطراداه .

(102/301)

---

هذا الناموس الذي يصرف الكون كله - بقدر الله المطرد المتجدد وفق مشيئة الله الطليقة  
- سار كذلك في كيان الإنسان - بوصفه من كائنات هذا الكون - مستقر في فطرته ، لا  
يحتاج إلى وعي عقلي للإحساس به ؛ فهو مدرك بالفطرة ، مستقر في صميمها ، تستشعره  
بذاتها ، وتتصرف وفقه ، ما لم يطرأ عليها الخلل والفساد ، فتتحرف عن إدراكها الذاتي له  
، وتدع للأهواء العارضة أن تسيروا ، بدلاً من أن تسيروا وفق قانونها الداخلي القويم .  
هذا الناموس - بذاته - هو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها . ميثاق مودع في كيانها ،  
مودع في كل خلية حية منذ نشأتها . وهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات . وفيه تشهد  
كل خلية بربوبية الله الواحد ، ذي المشيئة الواحدة ، المنشئة للناموس الواحد الذي يحكمها  
ويصرفها . فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهادتها - سواء أكان بلسان  
الحال هذا أم بلسان المقال كما في بعض الآثار - لا سبيل إلى أن يقول أحد : إنه غفل عن  
كتاب الله الهادي إلى التوحيد . وعن رسالات الله التي دعت إلى هذا التوحيد . أو يقول :

إنني خرجت إلى هذا الوجود ، فوجدت آبائي قد أشركوا فلم يكن أمامي سبيل لمعرفة التوحيد . إنما ضل آبائي فضلت فهم المسؤولون وحدهم ولست بالمسؤول ! ومن ثم جاء هذا التعقيب على تلك الشهادة :

﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم . أتتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ ﴾ .

ولكن الله - سبحانه - رحمة منه بعباده ، - لما يعلمه من أن في استعدادهم أن يضلوا إذا أضلوا ، وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الانحراف - كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بفعل شياطين الجن والإنس ؛ الذين يعتمدون على ما في التكوين البشري من نقط الضعف ! ..

(103/301)

---

رحمة من الله بعباده قدر الأيحا سبهم على عهد الفطرة هذا ؛ كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به ؛ حتى يرسل إليهم الرسل ، ويفصل لهم الآيات ، لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف ، واستنقاذ عقولهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات . ولو كان الله يعلم أن الفطر والعقول تكفي وحدها للهدى دون رسل ولا

رسالات؛ ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله عباده بها . ولكنه رحمهم بعلمه فجعل

الحجة عليهم هي الرسالة :

﴿ وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون ﴾ . .

يرجعون إلى فطرتهم وعهدا مع الله؛ وإلى ما أودعه الله كينوتهم من قوى البصيرة

والإدراك .

فالرجعة إلى هذه المكونات كهيئة بانتفاض حقيقة التوحيد في القلوب؛ وردها إلى بارئها

الوحيد ، الذي فطرها على عقيدة التوحيد . ثم رحمها فأرسل إليها بالآيات للتذكير

والتحذير .

وكمثل للانحراف عن سواء الفطرة ، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ، ونكوص عن آيات الله

بعد رؤيتها والعلم بها . . ذلك الذي آتاه الله آياته ، فكانت في متناول نظره وفكره؛ ولكنه

انساخ منها ، وتعرى عنها ولصق بالأرض ، واتبع الهوى؛ فلم يستمسك بالميثاق الأول ،

ولا بالآيات الهادية؛ فاستولى عليه الشيطان؛ وأمسى مطروداً من حمى الله ، لا يهدأ ولا

يطمئن ولا يسكن إلى قرار . .

ولكن البيان القرآني المعجز لا يصوغ المثل هذه الصياغة! إنما يصوره في مشهد حي متحرك

، عنيف الحركة ، شاخص السمات ، بارز الملامح ، واضح الانفعالات؛ يحمل كل

إيقاعات الحياة الواقعة ، إلى جانب إيقاعات العبارة الموحية .

﴿ وَاْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ، فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ، فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ .  
ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثلته كمثل الكلب . . إن تحمل  
عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم  
يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ! ﴾ . .

(104/301)

---

إنه مشهد من المشاهد العجيبة ، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات  
والتصورات . .

إنسان يؤتيه الله آياته ، ويخضع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة  
للهدى والاتصال والارتفاع . . ولكن ها هوذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً . ينسلخ كأنما  
الآيات أديم له متلبس بلحمه ؛ فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحمي من  
أديمه اللاصق بكيانه . . أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد  
بالكيان ؟ . . ها هوذا ينسلخ من آيات الله ؛ ويتجرد من الغطاء الواقعي ، والدرع الحامي ؛  
وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم ؛ فيصبح  
غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق ، ولا يحميه منه حام ؛ فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه . .

ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفرع بأسس نكد . . إذا نحن بهذا المخلوق ، لاصقاً بالأرض ،  
ملوثاً بالطين . ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب ، يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد . . كل  
هذه المشاهد المتحركة تتابع وتتوالى ؛ والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر . .  
فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها . . مشهد اللهاث الذي لا ينقطع . . سمع التعليق

المرهوب الموحى ، على المشهد كله :

❖ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم  
الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ❖ . .

ذلك مثلهم ! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود  
كله من حولهم . ثم إذا هم ينسلخون منها انسلخاً . ثم إذا هم أمسأخ شائهو الكيان ،  
هابطون عن مكان " الإنسان " إلى مكان الحيوان . . مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين .  
. وكان لهم من الإيمان جناح يرفون به إلى عليين ؛ وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم  
، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين !

❖ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ! ❖ . .

(105/301)

---

وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟ من يعريها من الغطاء الواقى والدرع الحامى، ويدعها عرضاً للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق، اللاهث لهات الكلب  
أبدأ!!!

وهل يبلغ قول قائل في وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب الفريد؛ إلا هذا القرآن العجيب الفريد!!

وبعد.. فهل هو نبأ يتلى؟ أم أنه مثل يضرب في صورة النبأ لأنه يقع كثيراً. فهو من هذا الجانب خبر يروى؟

تذكر بعض الروايات أنه نبأ رجل كان صالحاً في فلسطين - قبل دخول بني إسرائيل - وتروي بالتفصيل الطويل قصة انحرافه وانهيائه؛ على نحو لا يأمن الذي تمرس بالإسرائيليات الكثيرة المدسوسة في كتب التفسير، أن يكون واحدة منها؛ ولا يطمئن على الأقل لكل تفصيلاته التي ورد فيها؛ ثم إن في هذه الروايات من الاختلاف والاضطراب ما يدعو إلى زيادة الحذر.. فقد روي أن الرجل من بني إسرائيل (بلعام بن باعوراء)، وروي أنه كان من أهل فلسطين الجبابة. وروي أنه كان من العرب (أمية بن الصلت). وروي أنه كان من المعاصرين لبعثه الرسول - صلى الله عليه وسلم - (أبو عامر

الفاسق ) وروى أنه كان معاصراً لموسى عليه السلام . وروى أنه كان بعده على عهد يوشع بن نون الذي حارب الجبارين ببني إسرائيل بعد تيه الأربعين سنة على إثر رفض بني إسرائيل الدخول ، وقولهم لموسى - عليه السلام - ما حكاه القرآن الكريم : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ كذلك روي في تفسير الآيات التي أعطىها أنه كان ( اسم الله العظيم ) الذي يدعو به فيجاء ؛ كما روي أنه كتاب منزل وأنه كان نبياً . . ثم اختلفت تفصيلات النبأ بعد ذلك اختلافات شتى . .

(106/301)

---

لذلك رأينا - على منهجنا في ظلال القرآن - ألا ندخل في شيء من هذا كله . بما أنه ليس في النص القرآني منه شيء . ولم يرد من المرفوع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنه شيء . وأن نأخذ من النبأ ما وراءه . فهو يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها . . وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر ؛ ما أكثر الذين يعطون علم دين الله ، ثم لا يهتدون به ، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه .

واتباع الهوى به . . هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم - في وهمهم - عرض الحياة



الدنيا .

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها . ويعلم غيرها . ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة ، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل ! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً !

لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول : إن التشريع حق من حقوق الله - سبحانه - من ادعاه فقد ادعى الألوهية . ومن ادعى الألوهية فقد كفر . ومن أقر له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضاً ! . . . ومع ذلك . . . مع علمه بهذه الحقيقة ، التي يعلمها من الدين بالضرورة ، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدعون حق التشريع ، ويدعون الألوهية بادعاء هذا الحق . . . ممن حكم عليهم هو بالكفر ! ويسميه "المسلمين" ! ويسمي ما يزالونه إسلاماً لإسلام بعده ! . . . ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاماً ؛ ثم يكتب في حله كذلك عاماً آخر . . . ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس ، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه . . .

(107/301)

---

فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقاً لنبأ الذي آتيناها آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين؟ وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذي يحكيه الله سبحانه عن صاحب النبأ: ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ! ﴾ . . . ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته . ولكنه - سبحانه - لم يشأ ، لأن ذلك الذي علم الآيات أخذ إلى الأرض واتبع هواه ، ولم يتبع الآيات . . .

إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله ؛ فلم ينتفع بهذا العلم ؛ ولم يستقم على طريق الإيمان . وانسلخ من نعمة الله . ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان . ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان ! ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع ؟

إنه - في حسنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهدته في القرآن - ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها . ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبداً . والذي لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه ؛ فهو منطلق فيه أبداً !

والحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة . . . حتى إنه لتمر فترات كثيرة ، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثله . فيما عدا النادرة النادرة ممن عصم الله ، ممن لا ينسلخون من آيات الله ، ولا يخلدون إلى الأرض ؛ ولا يتبعون الهوى ؛

ولا يستذلهم الشيطان؛ ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان! . . فهو  
مثل لا ينقطع وروده ووجوده؛ وما هو بمحصور في قصة وقعت، في جيل من الزمان!  
وقد أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتلوه على قومه الذين كانت تنزل عليهم  
آيات الله، كي لا ينسأخوا منها وقد أوتوها .

(108/301)

---

ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يتلى، ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى  
هذه النهاية البائسة؛ وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً؛ وأن يظلموا أنفسهم  
ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو وعدو . فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة!  
ولقد رأينا من هؤلاء - والعياذ بالله - في زماننا هذا من كان كأنما يحرص على ظلم نفسه؛  
أو كمن يعرض بالنواجذ على مكان له في قعر جهنم يخشى أن ينازعه إياه أحد من المتسابقين  
معه في الحلبة! فهو ما يني يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا في جهنم! وما يني يلهث  
وراء هذا المطمع لهاثاً لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا!  
اللهم اعصمنا، وثبت أقدامنا، وأفرغ علينا صبراً، وتوفنا مسلمين . .  
ثم نقف أمام هذا النبأ والتعبير القرآني عنه وقفة أخرى . .

إنه مثل للعلم الذي لا يعصم صاحبه أن تثقل به شهواته ورغباته فيخلد إلى الأرض لا ينطلق  
من ثقلها وجاذبيتها ؛ وأن يتبع هواه فيتبعه الشيطان ويلزمه ويقوده من خطام هذا  
الهوى . .

ومن أجل أن العلم لا يعصم يجعل المنهج القرآني طريقه لتكوين النفوس المسلمة والحياة  
الإسلامية ، ليس العلم وحده لمجرد المعرفة ؛ ولكن يجعل العلم عقيدة حارة دافعة متحركة  
لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وفي عالم الحياة أيضاً . .  
إن المنهج القرآني لا يقدم العقيدة في صورة " نظرية " للدراسة . . فهذا مجرد علم لا ينشئ في  
عالم الضمير ولا في عالم الحياة شيئاً . . إنه علم بارد لا يعصم من الهوى ، ولا يرفع من ثقله  
الشهوات شيئاً . ولا يدفع الشيطان بل ربما ذلل له الطريق وعبدها !  
كذلك هو لا يقدم هذا الدين دراسات في " النظام الإسلامي " ولا في " الفقه الإسلامي " ولا  
في " الاقتصاد الإسلامي " ولا في " العلوم الكونية " ولا في " العلوم النفسية " ولا في أية صورة  
من صور الدراسة المعرفية .

(109/301)

---

إنما يقدم هذا الدين عقيدة دافعة دافعة محيية موقظة رافعة مستعلية؛ تدفع إلى الحركة لتحقيق مدلولها العملي فور استقرارها في القلب والعقل؛ وتحيي موات القلب فينبض ويتحرك ويتطلع؛ وتوقظ أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة فترجع إلى عهد الله الأول؛ وترفع الاهتمامات والغايات فلا تنقلها جاذبية الطين ولا تتخذ إلى الأرض أبداً.

ويقدمه منهجاً للنظر والتدبير؛ يتميز ويتفرد دون مناهج البشر في النظر، لأنه إنما جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم وأخطائها وانحرافها تحت لعب الأهواء، وثقله الأبدان، وإغواء الشيطان!

ويقدمه ميزاناً للحق تنضبط به عقول الناس ومداركهم، وتقاس به وتوزن اتجاهاتهم وحركاتهم وتصوراتهم، فما قبله منها هذا الميزان كان صحيحاً لتمضي فيه؛ وما رفضه هذا الميزان كان خاطئاً يجب الإقلاع عنه.

ويقدمه منهجاً للحركة يقود البشرية خطوة خطوة في الطريق الصاعد إلى القمة السامقة.

وفق خطاه هو ووفق تقديراته. . وفي أثناء الحركة الواقعية يصوغ للناس نظام حياتهم، وأصول شريعتهم، وقواعد اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم. ثم يصوغ للناس بعقولهم المنضبطة به تشريعاتهم القانونية الفقهية، وعلومهم الكونية والنفسية، وسائر ما تتطلبه حياتهم العملية الواقعية. . يصوغونها وفي نفوسهم حرارة العقيدة ودفعتها، وجدية الشريعة وواقعيتها؛ واحتياجات الحياة الواقعية وتوجيهاتها.

هذا هو المنهج القرآني في صياغة النفوس المسلمة والحياة الإسلامية . . أما الدراسة النظرية لمجرد الدراسة . فهذا هو العلم الذي لا يعصم من ثقله الأرض ودفعة الهوى وإغواء الشيطان ؛ ولا يقدم للحياة البشرية خيراً !

ويقف السياق وقفة قصيرة للتعقيب على ذلك المثل الشاخص في ذلك المشهد ، للذي آتاه الله آياته فانسلك منها ، بأن الهدى هدى الله . فمن هداه الله فهو المهتدي حقاً ؛ ومن أضله الله فهو الخاسر الذي لا يربح شيئاً :

(110/301)

---

﴿ من يهد الله فهو المهتدي ، ومن يضل فأولئك هم الخاسرون ﴾ . .

والله سبحانه يهدي من يجاهد ليهدي ، كما قال تعالى في السورة الأخرى : ﴿ والذين جاهدوا فإنا لنهدينهم سبلنا ﴾ وكما قال : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وكما قال : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاه ، وقد خاب من دساها ﴾ كذلك يضل الله من يبغي الضلال لنفسه ويعرض عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، ويغلق قلبه وسمعه وبصره دونها . وذلك كما جاء في الآية التالية في السياق : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ،

ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴿ . . وكما قال تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ وكما قال : ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا يهديهم طريقاً ، إلا طريق جهنم خالدين فيها . . . ﴾ ومن مراجعة مجموعة النصوص التي تذكر الهدى والضلال ، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية ، والذي أثاره اللاهوت المسيحي والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموماً . .

إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني ، هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال . . وذلك مع إيداع فطرته إدراك الحقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها . ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى . ومع إرسال الرسل بالبيئات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل . . ولكن يبقى بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به ، وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره .

(111/301)

---

كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى . وأن يجري قدر الله كذلك يا ضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل وما أعطاه من أجهزة الرؤية والسمع في إدراك الآيات المبتوثة في صفحات الكون ، وفي رسالات الرسل ، الموحية بالهدى .

وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها ، ويقع ما يقع بقدر الله لا بقوة سواه . وما كان الأمر ليكون هكذا إلا أن الله شاءه هكذا . وما كان شيء ليقع إلا أن يوقعه قدر الله . فليس في هذا الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور ، كما أنه ليس هناك قوة إلا قدر الله ينشئ الأحداث . . وفي إطار هذه الحقيقة الكبيرة يتحرك الإنسان بنفسه ، ويقع له ما يقع من الهدى والضلال أيضاً . .

وهذا هو التصور الإسلامي الذي تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة ، حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل ، وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر ، على سبيل الاحتجاج والجدل !

وفي هذا النص الذي يواجهنا هنا :

﴿ من يهد الله فهو المهتدي ، ومن يضل فأولئك هم الخاسرون ﴾ .

يقرر أن من يهديه الله - وفق سنته التي صورناها في الفقرة السابقة - فهو المهتدي حقاً ، الواصل يقيناً ، الذي يعرف الطريق ، ويسير على الصراط ، ويصل إلى الفلاح في الآخرة . .



وأن الذي يضلّه الله - وفق سنته تلك - فهو الخاسر الذي خسر كل شيء ولم يربح شيئاً . . مهما ملك ، ومهما أخذ ؛ فكل ذلك هباء أو هواء ! وإنه لكذلك إذا نظرنا إليه من زاوية أن هذا الضال قد خسر نفسه . وماذا يأخذ وماذا يكسب من خسر نفسه ؟ !  
ويؤيد ما ذهبنا إليه في فهم الآية السابقة وأخواتها نص الآية التالية :  
﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس . لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولم آذان لا يسمعون بها . . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل . . أولئك هم الغافلون ﴾ . .

إن هؤلاء الكثيرين من الجن والإنس مخلوقون لجهنم ! وهم مهياؤون لها ! فما بالهم كذلك ؟

(112/301)

---

هنالك اعتباران :

الاعتبار الأول : أنه مكشوف لعلم الله الأزلي أن هؤلاء الخلق صائرون إلى جهنم . . وهذا لا يحتاج إلى بروز العمل الذي يستحقون به جهنم إلى عالم الواقع الفعلي لهم . فعلم الله سبحانه شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل في عالم العباد الحادث .

والاعتبار الثاني: أن هذا العلم الأزلي - الذي لا يتعلق بزمان ولا حركة في عالم العباد الحادث - ليس هو الذي يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذي تستحق به جهنم. إنما هم كما تنص الآية:

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ .

فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا - ودلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود وفي الرسائل تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة - وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية . ولم يفتحوا آذانهم لسمعوا آيات الله المتلوة . . لقد عطلوا هذه الأجهزة التي وهبها ولم يستخدموها . . لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون :

﴿ أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ . .

والذين يغفلون عما حولهم من آيات الله في الكون وفي الحياة ؛ والذين يغفلون عما يربهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يد الله . . أولئك كالأنعام بل هم أضل . . فللأنعام

استعدادات فطرية تهديها . أما الجن والإنس فقد زودوا بالقلب الواعي والعين المبصرة

والأذن الملتقطة . فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا . إذا مروا بالحياة

غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ؛ ولا تلتقط أعينهم مشاهدتها ودلالاتها ؛ ولا

تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإجاءاتها . . فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى

استعداداتها الفطرية الهادية . . ثم هم يكونون من ذرء جهنم ! يجري بهم قدر الله إليها  
وفق مشيئته حين فطرهم باستعداداتهم تلك ، وجعل قانون جزائهم هذا . فكانوا - كما  
هم في علم الله القديم - حسب جهنم منذ كانوا !

(113/301)

---

وبعد استعراض مشهد الميثاق الكوني بالتوحيد ؛ واستعراض مثل المنحرف عن هذا  
الميثاق وعن آيات الله بعد إذ آتاه الله إياها . . يعقب بالتوجيه الأمر بإهمال المنحرفين -  
الذين كانوا يتمثلون في المشركين الذين كانوا يواجهون دعوة الإسلام بالشرك - الذين يلحدون  
في أسماء الله ويحرفونها ، فيسمون بها الشركاء المزعومين :

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه ، سيجزون ما كانوا  
يعملون ﴾ . .

والإلحاد هو الانحراف أو التحريف . . وقد حرف المشركون في الجزيرة أسماء الله الحسنى  
، فسموا بها آلهتهم المدعاة . . حرفوا اسم " الله " فسموا به " اللات " . واسم " العزيز "  
فسموا به " العزى " . . فالآية تقرر أن هذه الأسماء الحسنى لله وحده . وتأمراً أن يدعو  
المؤمنون وحده بها ، دون تحريف ولا ميل ؛ وأن يدعوا المحرفين المنحرفين ؛ فلا يحفلوهم ولا

يأبئوا لما هم فيه من الإلحاد . فأمرهم موكول إلى الله ؛ وهم ملاقون جزاءهم الذي ينتظرهم منه . . . وباله من وعيد ! . . .

وهذا الأمر يهمل شأن الذين يلحدون في أسماء الله ؛ لا يقتصر على تلك المناسبة التاريخية ، ولا على الإلحاد في أسماء الله بتحريفها اللفظي إلى الآلهة المدعاة . . . إنما هو ينسحب على كل ألوان الإلحاد في شتى صورته . . . ينسحب على الذين يلحدون - أي يحرفون أو ينحرفون - في تصورهم لحقيقة الألوهية على الإطلاق . كالذين يدعون له الولد . . . كالذين يدعون أن مشيئته - سبحانه - مقيدة بنواميس الطبيعة الكونية !  
وكالذين يدعون له كصفات أعمال تشبه كصفات أعمال البشر - وهو سبحانه ليس كمثلها شيء - وكذلك من يدعون أنه سبحانه إله في السماء ، وفي تصريف نظام الكون ، وفي حساب الناس في الآخرة .

(114/301)

---

ولكنه ليس إلهاً في الأرض ، ولا في حياة الناس ، فليس له - في زعمهم - أن يشرع لحياة الناس ؛ إنما الناس هم الذين يشرعون لأنفسهم بعقولهم وتجاربهم ومصالحهم - كما يرونها هم - فالناس - في هذا - هم آلهة أنفسهم . أو بعضهم آلهة بعض ! . . . وكله الإلحاد في الله

وصفاته وخصائص ألوهيته . . . والمسلمون مأمورون بالإعراض عن هذا كله وإهماله ،

والمحددون موعدون بجزاء الله لهم على ما كانوا يعملون !

ثم يمضي السياق يفصل صنوف الخلق . . . بعدما ذكر منهم من قبل أولئك الذين ذرأهم الله

لجهنم ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون

بها . . . ﴾ ومنهم هؤلاء الذين يلحدون في أسماء الله ويحرفونها . . . ثم إن منهم أمة

يستمسكون بالحق ، ويدعون الناس إليه ، ويحكمون به ولا ينحرفون عنه . . . وأمة - على

الضد - ينكرون الحق ، ويكذبون بآيات الله ! فأما الأولون فيقرر وجودهم في الأرض

وجوداً ثابتاً لا شك فيه ؛ وهم حراس على الحق حين ينحرف عنه المنحرفون ، وينبغ عنه

الزائغون ؛ وحين يكذب الناس بالحق وينبذونه يبقون هم عليه صامدين . وأما الآخرون

فيكشف عن مصير لهم مخيف ، وكيد لله إزاءهم متين :

﴿ ومن خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من

حيث لا يعلمون . وأملئ لهم إن كيدي متين ﴾ . . .

وما كانت البشرية تستحق التكريم لو لم تكن فيها دائماً - وفي أحلك الظروف - تلك

الجماعة - التي يسميها الله ﴿ أمة ﴾ بالمصطلح الإسلامي للأمة وهي : الجماعة التي

تدين بعقيدة واحدة وتتجمع على أصرتها ؛ وتدين لقيادة واحدة قائمة على تلك العقيدة -

فهذه الأمة الثابتة على الحق ؛ العاملة به في كل حين ، هي الحارسة لأمانة الله في الأرض ،

الشاهدة بعهدده على الناس ، التي تقوم بها حجة الله على الضالين المتكبرين لعهدده في كل

جيل .

ونقف لحظة أمام صفة هذه الأمة :

﴿ يهدون بالحق . وبه يعدلون ﴾ . .

(115/301)

إن صفة هذه الأمة – التي لا ينقطع وجودها من الأرض أياً كان عددها – أنهم ﴿ يهدون

بالحق ﴾ . . فهم دعاة إلى الحق ، لا يسكتون عن الدعوة به ، وإليه ، ولا يتوقعون على

أنفسهم ؛ ولا ينزؤون بالحق الذي يعرفونه . ولكنهم يهدون به غيرهم . فلهم قيادة فيمن

حوهم من الضالين عن هذا الحق المتكبرين لذلك العهد ؛ ولهم عمل إيجابي لا يقتصر على

معرفة الحق ؛ إنما يتجاوزه إلى الهداية به والدعوة إليه والقيادة باسمه .

﴿ وبه يعدلون ﴾ . . فيتجاوزون معرفة الحق والهداية به إلى تحقيق هذا الحق في حياة

الناس والحكم به بينهم ، تحقيقاً للعدل الذي لا يقوم إلا بالحكم بهذا الحق . . فما جاء هذا

الحق ليكون مجرد علم يعرف ويدرس .

ولا مجرد وعظ يُهدى به ويعرّف ! إنما جاء هذا الحق ليحكم أمر الناس كله . يحكم

تصوراتهم الاعتقادية فيصححها وقيمها على وفقه . ويحكم شعائرهم التعبدية فيجعلها  
ترجمة عنه في صلة العبد بربه . ويحكم حياتهم الواقعية فيقيم نظامها وأوضاعها وفق  
منهجه ومبادئه ويقضي فيها بشريعته وقوانينه المستمدة من هذه الشريعة . ويحكم  
عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم وسلوكهم فيقيمها كلها على التصورات الصحيحة المستمدة  
منه . ويحكم مناهج تفكيرهم وعلومهم وثقافتهم كلها ويضبطها بموازينه . . . وبهذا كله  
يوجد هذا الحق في حياة الناس ، ويقوم العدل الذي لا يقوم إلا بهذا الحق . . . وهذا ما تزاوله  
تلك الأمة بعد التعريف بالحق والهداية به . .

(116/301)

---

إن طبيعة هذا الدين واضحة لا تحتمل التلبس ! صلبة لا تقبل التميع ! والذين يلحدون في  
هذا الدين يجدون مشقة في تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلبة . . وهم من أجل  
ذلك يوجهون إليه جهوداً لا تكل ، وحملات لا تنقطع ، ويستخدمون في تحريفه عن وجهته  
وفي تميع طبيعته ، كل الوسائل وكل الأجهزة ، وكل التجارب . . هم يسحقون سحقا  
وحشياً كل طلائع البعث والحيوية الصلبة الصامدة في كل مكان على وجه الأرض عن  
طريق الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها في كل بقاع الأرض وهم يسلطون المحترفين من علماء

هذا الدين عليه ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويحلون ما حرم الله ، ويميعون ما شرعه ،  
ويباركون الفجور والفاحشة ويرفعون عليها رايات الدين وعناوينه ! وهم يزحلقون  
المخدوعين في الحضارات المادية ، المأخوذين بنظرياتها وأوضاعها ليحاولوا زحلقة  
الإسلام في التشبه بهذه النظريات وهذه الأوضاع ، ورفع شعاراتها ، أو الاقتباس من  
نظرياتها وشرائعها ومناهجها ! وهم يصورون الإسلام الذي يحكم الحياة حادثاً تاريخياً  
مضى ولا تمكن إعادته ، ويشيدون بعظمة هذا الماضي ليخدروا مشاعر المسلمين ، ثم  
ليقولوا لهم - في ظل هذا التخدير - : إن الإسلام اليوم يجب أن يعيش في نفوس أهله عقيدة  
وعبادة ، لا شريعة ونظاماً ، وحسبه وحسبهم ذلك المجد التاريخي القديم ! هذا والإفان  
على هذا الدين أن " يتطور " فيصبح محكوماً بواقع البشر ، يبصم لهم على كل ما يقدمونه له  
من تصورات وقوانين . وهم يضعون للأوضاع التي يقيمونها في العالم - الذي كان إسلامياً -  
نظريات تأخذ شكل العقيدة والدين ، لتحل محل ذلك الدين القديم ! وينزلون لها قرآناً يتلى  
ويدرس ، ليحل محل ذلك القرآن القديم ! وهم يحاولون تغيير طبيعة المجتمعات - كما  
يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين - كوسيلة أخيرة ، حتى لا يجد هذا الدين قلباً تصالح  
للهداية به ؛ فيحولون المجتمعات إلى فئات غارق في وحل الجنس والفاحشة والفجور ،  
مشغول بلقمة العيش لا



---

يجدها إلا بالكد والعسر والجهد ، كي لا يفيق ، بعد اللقمة والجنس ، ليستمع إلى هدى ، أو  
يفيء إلى دين !

إنها المعركة الضارية مع هذا الدين والأمة التي تهدي به وتحاول أن تعدل به .

. المعركة التي تستخدم فيها جميع الأسلحة بلا تخرج ، وجميع الوسائل بلا حساب ؛ والتي  
تجند لها القوى والكفايات وأجهزة الإعلام العالمية ؛ والتي تسخر لها الأجهزة والتشكيلات  
الدولية ؛ والتي تكفل من أجلها أوضاع ما كانت لتبقى يوماً واحداً لولا هذه الكفالة  
العالمية !

ولكن طبيعة هذا الدين الواضحة الصلبة ما تزال صامدة لهذه المعركة الضارية . والأمة  
المسلمة القائمة على هذا الحق - على قلة العدد وضعف العدة - وما تزال صامدة  
لعمليات السحق الوحشية . . والله غالب على أمره .

❖ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملي لهم إن كيدي متين  
.. ❖

وهذه هي القوة التي لا يحسبون حسابها وهم يشنون هذه المعركة الضارية ضد هذا الدين  
وضد الأمة المستمسكة به الملتقية عليه المتجمعة على آصرته . . هذه هي القوة التي  
يغفلها المكذوبون بآيات الله . . إنهم لا يتصورون أبداً أنه استدراج الله لهم من حيث لا

يعلمون . ولا يحسبون أنه إِملاء الله لهم إلى حين . . فهم لا يؤمنون بأن كيد الله متين ! . .  
إنهم يتولى بعضهم بعضاً ويرون قوة أوليائهم ظاهرة في الأرض فينسبون القوة الكبرى ! . .  
إنها سنة الله مع المكذبين . . يرخى لهم العنان ، ويملى لهم في العصيان والطغيان ،  
استدراجاً لهم في طريق الهلكة ، وإمعاناً في الكيد لهم والتدبير . ومن الذي يكيد ؟ إنه  
الجبار ذو القوة المتين ! ولكنهم غافلون ! والعاقبة للمتقين . الذين يهدون بالحق وبه  
يعدلون . .

(118/301)

---

ولقد كان القرآن يواجه بذلك التهديد الرعيب قوماً من المكذبين بآيات الله في مكة -  
والنص القرآني دائماً أبعد مدى من المناسبة الخاصة - وكان يتوعدهم على موقفهم من  
الجماعة المسلمة - التي سميها أمة وفق المصطلح الإسلامي - بالإملاء لهم والاستدراج  
والكيد المتين . . ثم كان يدعوهم - بعد هذا التهديد - إلى استخدام قلوبهم وعيونهم  
وآذانهم . فلا يكونوا من ذرء جهنم ولا يكونوا من الغافلين . . كان يدعوهم إلى التدبر في أمر  
رسولهم الذي يدعوهم إلى الحق ويهديهم به ؛ وإلى النظر في ملكوت السماوات والأرض  
وآيات الله المبثوثة في هذا الملكوت ؛ وكان يوقظهم إلى مرور الوقت وما يؤذن به من اقتراب

الأجل المجهول ، وهم غافلون :

﴿ أو لم تفكروا ؟ ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين . أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ؟ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ؟ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ ؟ .

إن القرآن يهزمهم من غفوتهم ، ويوقظهم من غفلتهم ، ويستنقذ - من تحت الركام - فطرتهم وعقولهم ومشاعرهم . . إنه يخاطب كينوتهم البشرية كلها ، بكل ما فيها من أجهزة الاستقبال والاستجابة . . إنه لا يوجه إليهم جدلاً ذهنياً بارداً ؛ إنما هو يستنقذ كينوتهم كلها وينفضها من أعماقها :

﴿ أو لم تفكروا ؟ ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين ﴾ . .

لقد كانوا يقولون عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حرب الدعاية التي يشنها ضده الملائ من قريش يخذعون بها الجماهير : إن محمداً به جنة .

وهو من ثم ينطق بهذا الكلام الغريب ، غير المعهود في أساليب البشر العاديين !

(119/301)

---

ولقد كان الملائم قريش يعلمون أنهم كاذبون! وقد تضافرت الروايات على أنهم كانوا يعرفون الحق في أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنهم ما كانوا يملكون أن يمينوا أنفسهم عن الاستماع لهذا القرآن والتأثر به أعمق التأثر . . . وقصة الأخنس بن شريق ، وأبي سفيان بن حرب ، وعمرو بن هشام - أبي جهل - في الاستماع لهذا القرآن خلصة ، ليالي ثلاثاً ، وما وجدوه في أنفسهم منه معروفة . . . وكذلك قصة عتبة بن ربيعة وسماعه سورة فصلت من النبي صلى الله عليه وسلم وهزته أمام إيقاعاتها المنزللة . . . ومثلها قصة تأمرهم قبيل موسم الحج فيما يقولون للناس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وما معه من القرآن ؛ وانتهاء الوليد بن المغيرة إلى أن يقولوا للوفود : إنه سحر يؤثر . . . كل هذه الروايات تثبت أنهم ما كانوا جاهلين لحقيقة هذا الأمر ؛ إنما هم كانوا يستكبرون عنه ؛ ويخشونه على سلطانهم الذي تهدده شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ التي تسلب البشر حق تعبيد البشر لغير الله . . . وتهدد كل طاغوت بشري على العموم !

من ثم كانوا يستغلون تفرد هذا القرآن العجيب وتميزه عن قول البشر المعهود ؛ كما يستغلون الصورة التي كانت معهودة فيهم وفيمن قبلهم ، عن الصلة بين التنبؤ والجنون ! والنطق بكلمات ورموز يؤولها المصاحبون لمن بهم جنة وفق ما يريدون ؛ ويزعمون أنها تأتيهم من عالم غير منظور ! . كانوا يستغلون هذه الرواسب في التمويه على الجماهير بأن الذي يقوله محمد ، إنما يقوله عن جنة به ؛ وأنه يأتي بالغريب العجيب من القول ، لأنه مجنون !

والقرآن يدعوهم إلى التفكير والتدبير في أمر صاحبهم الذي عرفوه من قبل وخبروه . فلم يعرفوا عنه من قبل خلافاً عن السواء ؛ وشهدوا له بالأمانة والصدق ، كما شهدوا له بالحكمة ؛ وحكموه في الحجر الأسود وارتضوا حكمه واتفقوا بهذا الحكم فتنة بينهم كادت تثور . واستأمنوه على ودائعهم وظلت عنده حتى خرج مهاجراً فردها لهم عنه ابن عمه علي كرم الله وجهه !

القرآن يدعوهم إلى التفكير والتدبير في أمر صاحبهم هذا المعروف لهم ماضيه كله ، المكشوف لهم أمره كله . . أفهذا به جنة ؟ . . أفهذا قول مجنون وفعل مجنون ؟ . . كلا :

﴿ ما بصاحبهم من جنة . . إن هو إلا نذير مبين ﴾ . .

لا اختلاط في عقله ولا في قوله . إنما هو منذر مفصح مبين . لا يلتبس قوله بقول المجانين . ولا تشبه حاله مجال المجانين .

ثم . .

﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ؟ ﴾ . .

وهي هزة أخرى أمام هذا الكون العجيب .

. والنظر بالقلب المفتوح والعين المبصرة في هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم ، يكفي وحده لانتفاض الفطرة من تحت الركام ، وتفتح الكينونة البشرية لإدراك الحق الكامن فيه ، والإبداع الذي يشهد به ، والإعجاز الذي يدل على البارئ الواحد القدير . . والنظر إلى ما خلق الله من شيء - وكم في ملكوت السماوات والأرض من شيء - يدهش القلب ويحير الفكر ، ويلجئ العقل إلى البحث عن مصدر هذا كله ، وعن الإرادة التي أوجدت هذا الخلق على هذا النظام المقصود المشهور .

لماذا كانت الخلائق على هذا النحو الذي كانت به ؛ ولم تكن على أي نحو آخر من الإمكانيات التي لا حصر لها في الكينونة ؟ لماذا سارت في هذا الطريق ولم تسر في أي طريق آخر من الطرق الممكنة الأخرى ؟ لماذا استقامت على طريقها هذا ومن الذي يمسكها على نشأتها ؟ ما سر هذه الوحدة السارية في طبيعتها إن لم يكن هذا هو الناموس الواحد ، الصادر عن الإرادة الواحدة ، التي يجري بها قدر مطرد مقصود ؟

(121/301)

---

إن الجسم الحي . لا بل الخلية الحية . لمعجزة لا ينتضي منها العجب . . وجودها .  
تركيبها . تصرفها . عمليات التحول الدائمة التي تتم فيها كل لحظة مع محافظتها على

وجودها ؛ وتضمنها كذلك لوسيلة التجدد في أنسال منها ؛ ومعرفتها لوظيفتها ولامتداد هذه الوظيفة في أنسالها ! . . فمن ذا الذي ينظر إلى هذه الخلية الواحدة ، ثم يطمئن عقله - بل فطرته وضميره - إلى أن هذا الكون بلا إله ، أو أن هناك آلهة مع الله ؟

إن امتداد الحياة عن طريق الزوجية والنسل ليقوم شاهداً يهتف لكل قلب وكل عقل بتدبير الخالق الواحد المدبر . . وإلا فمن ذا الذي يضمن للحياة وجود الذكر والأنثى دائماً في نسلها بالمقادير التي يتم بها هذا الزواج ؟ لماذا لا يأتي زمن على الحياة تنسل ذكوراً فقط أو إناثاً فقط . . ولو حدث هذا لقطع النسل عند هذا الجيل . . فمن ذا الذي يمسك بعجلة التوازن دائماً في الأجيال جميعاً ؟

إن التوازن ملحوظ في ملكوت السماوات والأرض جميعاً - لا في هذه الظاهرة الحيوية وحدها - إنه ملحوظ في بناء الذرة كما هو ملحوظ في بناء الجرة ! وملحوظ في التوازن بين الأحياء وبين الأشياء سواء . . ولو اختل هذا التوازن شعرة ما ظل هذا الكون قائماً لحظة ! فمن الذي يمسك بعجله التوازن الكبرى في السماوات والأرض جميعاً ؟

وعرب الجزيرة الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن أول مرة ما كانوا يدركون بعلمهم مدى هذا التوازن والتناسق في ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء . . ولكن الفطرة الإنسانية بذاتها تلتقي مع هذا الكون في أعماقها ؛ وتتجاوب معه بلغة غير منطوقة

إلا في هذه الأعماق . ويكفي أن ينظر الإنسان بالقلب المفتوح والعين المبصرة إلى هذا الكون حتى يتلقى إيقاعاته وإجاءاته تلقياً موحياً هادياً .

(122/301)

---

ولقد اهتدى الإنسان بفطرته - وهو يتلقى إيقاعات هذا الوجود في حسه - إلى أن له إلهاً . ولم تغب عن حسه قط هذه الحقيقة . إنما كان يخطئ في تحديد صفة الإله الحق ، حتى تهديه الرسائل إلى الرؤية الصحيحة . . فأما الملحدون الجدد - أصحاب " الاشتراكية العلمية " ! - فهم أمسأخ شائهو الفطرة . بل إنهم إنما ينكرون الفطرة ، ويعاندون ما يجدونه في أنفسهم من إلحاحها . . وعندما صعد أحدهم إلى الفضاء الجوي ، ورأى ذلك المشهد الباهر - مشهد الأرض كرة معلقة في الفضاء - هتفت فطرته : ما الذي يمسكها هكذا في الفضاء ؟ ولكنه حين هبط إلى الأرض ، وتذكر إرهاب الدولة ، قال : إنه لم يجد الله هناك ! وكم إلحاح فطرته وصرأخها في أعماقه ، أمام شيء من ملكوت السماوات والأرض ! إن الله الذي يخاطب الإنسان بهذا القرآن هو الذي خلق هذا الإنسان ، والذي يعلم فطرة هذا الإنسان !

وأخيراً يلمس قلوبهم بطائف الموت الذي قد يكون محبباً لهم - من قريب - في عالم المجهول



المغيب؛ وهم عنه غافلون:

﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ . .

فما يدر بهم أن أجلهم قريب؟ وما يبقئهم في غفلتهم سادرين؛ وهم عن غيب الله

محبوبون؟ وهم في قبضته لا يفلتون؟

إن هذه اللسمة بالأجل المغيب - الذي قد يكون قد اقترب - تهز القلب البشري هزة

عميقة! لعله أن يستيقظ ويتفتح ويرى . . والله منزل هذا القرآن وخالق هذا الإنسان يعلم

أن هذه اللسمة لا تبقي قلباً غافلاً . . ولكن بعض القلوب قد يعاند بعد ذلك ويكابر!

﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون؟ ﴾ !

وما بعد هذه الحديث من حديث تهز له القلوب أو تلين . .

(123/301)

---

إن هذه اللسمة التي تعددت في الآية الواحدة؛ لتكشف لنا عن منهج هذا القرآن في

خطاب الكينونة البشرية . . إنه لا يدع جانباً واحداً منها لا يخاطبه، ولا يدع وتراً منها

واحداً لا يوقع عليه؛ إنه لا يخاطب الذهن ولكنه لا يهمله؛ ففي الطريق - وهو يهز الكيان

البشري كله - يلسمه ويوقظه . إنه لا يسلك إليه طريق الجدل البارد، ولكنه يستحييه

لينظر ويتفكر وحرارة الحياة تسري فيه وتيارها الدافق . . وهكذا ينبغي أن يتجه منهج الدعوة إلى الله دائماً . . فالإنسان هو الإنسان لم يتبدل خلقاً آخر . والقرآن هو القرآن كلام الله الباقي ، وخطاب الله لهذا الإنسان لا يتغير . . مهما تعلم ومهما " تطور! " . .

وهنا يقف السياق وقفة قصيرة للتعقيب . . يقرر فيها سنة الله الجارية بالهدى والضلال ؛ وفق ما أرادته مشيئته من هداية من يطلب الهدى ويجاهد فيه ؛ وإضلال من يصرف قلبه عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان . وذلك بمناسبة ما عرضه السياق قبل ذلك من حال أولئك القوم الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن ؛ على طريقة القرآن الكريم في عرض القاعدة العامة بمناسبة المثل الفريد ؛ ومن بيان السنة الثابتة بمناسبة الحادث العابر :

﴿ من يضل الله فلا هادي له ، ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ .

إن الذين يضلون ، إنما يضلون لأنهم غافلون عن النظر والتدبر . ومن يغفل عن النظر في آيات الله وتدبرها يضل الله ؛ ومن يضل الله لا يهديه أحد من بعده :

﴿ من يضل الله فلا هادي له ﴾ . .

ومن يكتب الله عليه الضلال - وفق سنته تلك - يظل في طغيانه عن الحق وعماه عنه أبداً :

﴿ ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ . .

وما في تركهم في عماهم من ظلم ، فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم ، وهم الذين عطلوا قلوبهم وجوارحهم ، وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق وأسرار الوجود ، وشهادة الأشياء - التي يوجههم إليها في الآية السابقة - وحيثما امتد البصر في هذا الكون وجد عجيبة ، وحيثما فتحت العين وقعت على آية ، وحيثما التفت الإنسان إلى نفسه أو إلى ما يحيط به ، لمس الإعجاز في تكوينه وفيما حوله من شيء . فإذا عمه - أي عمي - عن هذا كله ، ترك في عماه ، وإذا طغى بعد هذا كله وتجاوز الحق ترك في طغيانه حتى يسلمه إلى البوار :

﴿ ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ ..

هؤلاء الغافلون عما حولهم ، العمي عما يحيط بهم . . يسألون الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الساعة البعيدة المغيبة في المجهول . كالذي لا يرى ما تحت قدميه ويريد أن يرى ما في الأفق البعيد !

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل : إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السماوات والأرض ، لا تأتكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفي عنها ! قل : إنما

علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل : لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ❁ . .

(125/301)

---

لقد كانت عقيدة الآخرة ، وما فيها من حساب وجزاء ، تفاجئ المشركين في الجزيرة مفاجأة كاملة . . ومع أن هذه العقيدة أصيلة في دين إبراهيم - عليه السلام - وهو جد هؤلاء المشركين ؛ وفي دين إسماعيل أبيهم الكريم ؛ إلا أنه كان قد طال عليهم الأمد ، وبعد ما بينهم وبين أصول الإسلام الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل . حتى لقد اندثرت عقيدة الآخرة تماما من تصوراتهم ، فكانت أغرب شيء عليهم وأبعده عن تصورهم . حتى لقد كانوا يعجبون ويعجبون من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأنه يحدّثهم عن الحياة بعد الموت ؛ وعن البعث والنشور والحساب والجزاء ؛ كما حكى عنهم القرآن الكريم في السورة الأخرى : ❁ وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم ، إذا مزقتم كل ممزق ، إنكم لفي خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا ؟ أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في

العذاب والضلال البعيد ❁

[سبأ: 7-8].

ولقد علم الله أن أمة من الأمم لا تملك أن تقود البشرية وتشهد عليها - كما هي وظيفة الأمة المسلمة - إلا أن تكون عقيدة الآخرة واضحة لها راسخة في ضميرها . . فتصور الحياة على أنها هذه الفترة المحدودة بحدود هذه الحياة الدنيا ، وحدود هذه الأرض الصغيرة ، لا يمكن أن ينشئ أمة هذه صفتها وهذه وظيفتها !  
إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور ، وسعة في النفس ، وامتداد في الحياة ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها ، لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة . . كذلك هي ضرورة لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة ؛ ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيسسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة ، عن المضي في التبشير بالخير ، وفعل الخير والقيادة إلى الخير ، على الرغم من النتائج القريبة ، والتضحيات الأليمة . . وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة . .

(126/301)

---

والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصوير في نفس "الإنسان" ، وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك "الحيوان" ! وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة

البشرية ، والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة !

لذلك كله كان التوكيد شديداً على عقيدة الآخرة في دين الله كله . . ثم بلغت صورة الآخرة

في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح . . . حتى بات عالم الآخرة في

حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلاً . . وبهذا

صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية ، تلك القيادة الراشدة التي وعها التاريخ الإنساني !

ونحن في هذا الموضوع من سياق سورة الأعراف أمام صورة من صور الاستغراب

والاستنكار الذي يواجهه المشركون عقيدة الآخرة ، تبدو في سؤالهم عن الساعة سؤال

الساحر المستنكر المستهتر :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ ﴾

إن الساعة غيب ، من الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه . .

ولكن المشركين يسألون الرسول عنها . . إما سؤال المختبر الممتحن ! وإما سؤال المتعجب

المستغرب ! وإما سؤال المستهين المستهتر ! ﴿ أيان مرساها ؟ ﴾ . . أي متى موعدها

الذي إليه تستقر وترسو ؟ !

والرسول - صلى الله عليه وسلم - بشر لا يدعي علم الغيب ، مأمور أن يكل الغيب إلى

صاحبه ، وأن يعلمهم أنها من خصائص الألوهية ، وأنه هو بشر لا يدعي شيئاً خارج

بشريته ولا يتعدى حدودها ، إنما يعلمه ربه ويوحى إليه ما يشاء :

﴿ قل : إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ .

فهو - سبحانه - مختص بعلمها ، وهو لا يكشف عنها إلا في حينها ، ولا يكشف غيره عنها .

ثم يلفتهم عن السؤال هكذا عن موعدها ، إلى الاهتمام بطبيعتها وحقيقتها ، وإلى الشعور بهولها وضخامتها .

. ألا وإن أمرها لعظيم ، ألا وإن عبئها لثقيل . ألا وإنها لتثقل في السماوات والأرضين . وهي - بعد ذلك - لا تأتي إلا بغتة والغافلون عنها غافلون :

(127/301)

﴿ ثقلت في السماوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ . .

فأولى أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها والاستعداد قبل أن تأتي بغتة ؛ فلا ينفع معها الحذر ، ولا تجدي عندها الحيلة ، ما لم يأخذوا حذرهم قبلها ، وما لم يستعدوا لها ، وفي الوقت متسع وفي العمر بقية . وما يدري أحد متى تجيء ، فأولى أن يبادر اللحظة ويسارع ، وألا يضيع بعد ساعة ، قد تفجؤه بعدها الساعة !

ثم يعجب من أمر هؤلاء الذين يسألون الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الساعة . . إنهم

لا يدركون طبيعة الرسالة وحقيقة الرسول؛ ولا يعرفون حقيقة الألوهية، وأدب الرسول في جانب ربه العظيم.

﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ! ﴾

أي كأنك دائم السؤال عنها ! مكلف أن تكشف عن موعدها ! ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يسأل ربه علم ما يعلم هو أنه مختص بعلمه :

﴿ قل : إنما علمها عند الله . . ﴾

قد اختص سبحانه به ؛ ولم يطلع عليه أحداً من خلقه .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . .

وليس الأمر الساعة وحده . إنما هو أمر الغيب كله فله وحده علم هذا الغيب . لا يطلع على شيء منه إلا من شاء ، بالقدر الذي يشاء ، في الوقت الذي يشاء . . لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً . . فقد يفعلون الأمر يريدون به جلب الخير لأنفسهم ، ولكن عاقبته تكون هي الضر لهم . وقد يفعلون الأمر يريدون به رفع الضر عنهم ولكن عاقبته المغيبة تجره عليهم ! وقد يفعلون الأمر يكرهونه فإذا عاقبته هي الخير ؛ يفعلون الأمر يحبونه فإذا عاقبته هي الضر : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ والشاعر الذي يقول :

الأميريني غايي قبل مذهبي ! . . . ومن أين والغايات بعد المذاهب



إنما يمثل موقف البشرية أمام الغيب المجهول . ومهما يعلم الإنسان ومهما يتعلم ، فإن موقفه أمام باب الغيب الموصد ، وأمام ستر الغيب المسدل ، سيظل يذكره ببشريته المحجوبة أمام عالم الغيب المحجوب .

(128/301)

---

والرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو من هو ؛ وقربه من ربه هو قربه ، مأمور أن يعلن للناس أنه أمام غيب الله بشر من البشر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، لأنه لا يطلع على الغيب ، ولا يعرف الغايات قبل المذاهب ، ولا يرى مآل أفعاله ؛ ومن ثم لا يملك أن يختار عاقبة فعله بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيراً أقدم ، وإن رآها سوءاً أحجم . إنما هو يعمل ، والعاقبة تجيء كما قدر الله في غيبه المكنون :

﴿ قل : لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً - إلا ما شاء الله - ولو كنت أعلم الغيب

لاستكثر من الخير وما مسني السوء ﴾ .

وبهذا الإعلان تتم لعقيدة التوحيد الإسلامي كل خصائص التجريد المطلق ، من الشرك في أية صورة من صورهِ . وتفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها البشري في شيء منها . ولو

كان هذا البشر محمداً رسول الله وحبيبه ومصطفاه - عليه صلوات الله وسلامه - فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية ، ويقف العلم البشري . وعند حدود البشرية يقف شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتحدد وظيفته :

﴿ إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . .

والرسول - صلى الله عليه وسلم - نذير وبشير للناس أجمعين . ولكن الذين ﴿ يؤمنون ﴾ هم الذين ينتفعون بما معه من النذارة والبشارة ؛ فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه ؛ وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذي جاء به . ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها ، كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين . .

(129/301)

---

إن الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي إلا للقلب المفتوح لها ، والعقل الذي يستشرفها ويتقبلها ، وإن هذا القرآن لا يفتح كنوزه ، ولا يكشف أسراره ، ولا يعطي ثماره ، إلا لقوم يؤمنون . ولقد ورد عن بعض صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن . . وهذا الإيمان هو الذي كان يجعلهم يتذوقون القرآن ذلك التذوق ، ويدركون معانيه وأهدافه ذلك الإدراك ، ويصنعون به تلك الخوارق التي صنعوها في أقصر وقت من

الزمان .

لقد كان ذلك الجيل المتفرد يجد من حلاوة القرآن ، ومن نوره ، ومن فرقانه ، ما لا يجده إلا الذين يؤمنون بإيمان ذلك الجيل . ولئن كان القرآن هو الذي أخذ بأرواحهم إلى الإيمان ، لقد كان الإيمان هو الذي فتح لهم في القرآن ما لا يفتحه إلا الإيمان !

لقد عاشوا بهذا القرآن ، وعاشوا له كذلك . . ومن ثم كانوا ذلك الجيل المتفرد الذي لم يتكرر - بهذه الكثرة وبهذا التوافي على ذلك المستوى - في التاريخ كله . . اللهم إلا في صورة أفراد على مدار التاريخ يسرون على أقدام ذلك الجيل السامق العجيب !

لقد خلصوا لهذا القرآن فترة طويلة من الزمان ، فلم تشب نبعه الرائق شائبة من قول البشر ، اللهم إلا قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهديه . . وقد كان من نبع القرآن ذاته كذلك . . ومن ثم كان ذلك الجيل المتفرد ما كان .

وما أجدر الذين يحاولون أداء ما أداه ذلك الجيل أن ينهجوا نهجه ، فيعيشوا بهذا القرآن ولهذا القرآن فترة طويلة من الزمان ، لا يخالط عقولهم وقلوبهم غيره من كلام البشر ليكونوا كما كان !

ثم جولة جديدة في قضية التوحيد . تأخذ في أولها صورة القصة ، لتصوير خطوات الانحراف من التوحيد إلى الشرك في النفس . وكأنما هي قصة انحراف هؤلاء المشركين عن دين أبيهم إبراهيم .

ثم تنتهي إلى مواجهتهم بالسخف الذي يزاولونه في عبادة آلهتهم التي كانوا يشركون بها ، وهي ظاهرة البطلان لأول نظرة ولأول تفكير . وتختتم بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تحديهم هم وهؤلاء الآلهة التي يعبدونها من دون الله ، وأن يعلن التجاءه إلى الله وحده ، وليه وناصره :

❖ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلما آتاها صالحاً جعلناه شركاء فيما آتاها . فتعالى الله عما يشركون !  
أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ؟

❖ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين .  
ألم أرحل يمشون بها ؟ ألم لهم أيد يبطشون بها ؟ ألم لهم أعين يبصرون بها ؟ ألم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب

وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون .  
وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴿ . . . ﴾  
إنها جولة مع الجاهلية في تصوراتها التي متى انحرفت عن العبودية لله الواحد لم تقف عند  
حد من السخف والضلال ؛ ولم ترجع إلى تدبر ولا تفكير ! وتصوير لخطوات الانحراف في  
مدارجه الأولى ؛ وكيف ينتهي إلى ذلك الضلال البعيد !  
﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها . فلما تغشاها  
حملت حملاً خفيفاً فمرت به . فلما أثقلت دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من  
الشاكرين ﴾ . . .

(131/301)

---

إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها . . . أن يتوجهوا إلى الله ربهم ، معترفين له بالربوبية  
الخالصة ، عند الخوف وعند الطمع . . . والمثل المضروب هنا للفطرة يبدأ من أصل الخليقة ،  
وتركيب الزوجية وطبيعتها :

﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ . . .  
فهي نفس واحدة في طبيعة تكوينها ، وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى . وإنما هذا

الاختلاف ليسكن الزوج إلى زوجه ويستريح إليها . . وهذه هي نظرة الإسلام لحقيقة  
الإنسان . ووظيفة الزوجية في تكوينه . وهي نظرة كاملة وصادقة جاء بها هذا الدين منذ  
أربعة عشر قرناً . يوم أن كانت الديانات المحرفة تعد المرأة أصل البلاء الإنساني ، وتعتبرها  
لعنة ونجساً وفحاً للغواية تحذر منه تحذيراً شديداً ، ويوم أن كانت الوثنيات - ولا تزال -  
تعدّها من سقط المتاع أو على الأكثر خادماً أدنى مرتبة من الرجل ولا حساب له في ذاته  
على الإطلاق .

والأصل في التقاء الزوجين هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار . ليظلل السكن  
والأمن جو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب ، وينتج فيه المحصول البشري الثمين .  
ويؤهل فيه الجيل الناشيء لحمل تراث التمدن البشري والإضافة إليه . ولم يجعل هذا  
الالتقاء مجرد اللذة العابرة والنزوة العارضة . كما أنه لم يجعله شقاً ونزاعاً ، وتعارضاً بين  
الاختصاصات والوظائف ، أو تكراراً للاختصاصات والوظائف ؛ كما تخبط الجاهليات  
في القديم والحديث سواء !

وبعد ذلك تبدأ القصة . . تبدأ من المرحلة الأولى . .  
﴿ فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به ﴾ . .

---

والتعبير القرآني يلف ويدق ويشف عند تصوير العلاقة الأولية بين الزوجين . . ﴿ فلما  
تغشاها ﴾ . . تنسيقاً لصورة المباشرة مع جو السكن ؛ وترقيقاً لحاشية الفعل حتى ليبدو  
امتزاج طائفين لا التقاء جسدين . إيجاء " للإنسان " بالصورة " الإنسانية " في المباشرة .  
وافتراقها عن الصورة الحيوانية الغليظة ! . . كذلك تصوير الحمل في أول أمره . . ﴿  
خفيفاً ﴾ . . تمر به الأم بلا ثقل كأنها لا تحسه .

ثم تأتي المرحلة الثانية :

﴿ فلما أثقلت دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴾ . .  
لقد تبين الحمل ، وتعلقت به قلوب الزوجين ، وجاء دور الطمع في أن يكون المولود سليماً  
صحيحاً صبوراً . إلى آخر ما يطمع الآباء والأمهات أن تكون عليه ذريتهم ، وهي أجنة في  
ظلام البطون وظلام الغيوب . . وعند الطمع تستيقظ الفطرة ، فتوجه إلى الله ، تعترف له  
بالربوبية وحده ، وتطمع في فضله وحده ، لإحساسها اللدني بمصدر القوة والنعمة  
والإفضال الوحيد في هذا الوجود . لذلك ﴿ دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من  
الشاكرين ﴾ . .

﴿ فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء فيما آتاها . فتعالى الله عما يشركون ! ﴾ . .

إن بعض الروايات في التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لأدم

وحواء . . إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين . فجاء إليهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمي ما في بطنها " عبد الحارث " . . والحارث اسم لإبليس . ليولد صحيحاً ويعيش ؛ ففعلت وأغرت آدم معها ! وظاهر ما في هذه الرواية من طابع إسرائيلي . . ذلك أن التصور الإسرائيلي المسيحي - كما حرفوا دياتهم - هو الذي يلقي عبء الغواية على حواء ، وهو مخالف تماماً للتصور الإسلامي الصحيح .

(133/301)

---

ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات لتفسير هذا النص القرآني . . فهو يصور مدارج الانحراف في النفس البشرية . . ولقد كان المشركون على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقبله ، يذرون بعض أبنائهم للآلهة ، أو لخدمة معابد الآلهة ! تقرباً وزلفى إلى الله ! ومع توجههم في أول الأمر لله ، فإنهم بعد دحرجة من قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا يذرون لهذه الآلهة أبناءهم لتعيش وتصح وتوقى المخاطر ! كما يجعل الناس اليوم نصيباً في أبدان أبنائهم للأولياء والقدسين . كأن يستبقوا شعر الغلام لا يخلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس . أو أن يستبقوه بلاختان حتى يخنن هناك . مع أن هؤلاء الناس اليوم يعترفون بالله الواحد .



ثم يتبعون هذا الاعتراف بهذه الاتجاهات المشركة . والناس هم الناس !

﴿ فتعالى الله عما يشركون ! ﴾ .

وتنزّه عن الشرك الذي يعتقدون ويزاولون !

على أننا نرى في زماننا هذا صنوفاً وألواناً من الشرك ؛ ممن يزعمون أنهم يوحدون الله

ويسلمون له ، ترسم لنا صورة من مدارج الشرك التي ترسمها هذه النصوص .

إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها " القوم " و" يسمونها " الوطن " ، و" يسمونها " الشعب

" . . إلى آخر ما يسمون . وهي لا تعدو أن تكون أصناماً غير مجسدة كالأصنام الساذجة

التي كان يقيمها الوثنيون . ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله - سبحانه - في خلقه ، وينذر

لها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة القديمة ! ويضحون لها كالذبائح التي كانت تقدم في

المعابد على نطاق واسع !

إن الناس يعترفون بالله رباً . ولكنهم ينبذون أوامره وشرائعه من ورائهم ظهرياً ، بينما

يجعلون أوامر هذه الآلهة ومطالبها " مقدسة " . تخالف في سبيلها أوامر الله وشرائعه ، بل

تنبذ نبذاً . فكيف تكون الآلهة ؟ وكيف يكون الشرك ؟ . وكيف يكون نصيب الشركاء

في الأبناء . . إن لم يكن هو هذا الذي تزاوله الجاهلية الحديثة ! !

---

ولقد كانت الجاهلية القديمة أكثر أدياً مع الله . . لقد كانت تتخذ من دونه آلهة تقدم لها هذه التقدّمات من الشرك في الأبناء والثمار والذبايح لتقرب الناس من الله زلفى ! فكان الله في حسها هو الأعلى . فأما الجاهلية الحديثة فهي تجعل الآلهة الأخرى أعلى من الله عندها . فتقدس ما تأمر به هذه الآلهة وتنبت ما يأمر به الله نبذاً !

إننا نخدم أنفسنا حين نقف بالوثنية عند الشكل الساذج للأصنام والآلهة القديمة ، والشعائر التي كان الناس يزاولونها في عبادتها واتخاذها شفعاء عند الله . . إن شكل الأصنام والوثنية فقط هو الذي تغير . كما أن الشعائر هي التي تعقدت ، واتخذت لها عنوانات جديدة . . أما طبيعة الشرك وحقيقته فهي القائمة من وراء الأشكال والشعائر المتغيرة . .

وهذا ما ينبغي ألا يخذعنا عن الحقيقة !

إن الله - سبحانه - يأمر بالعفة والحشمة والفضيلة . ولكن " الوطن " أو " الإنتاج " يأمر بأن تخرج المرأة وتبرح وتعري وتعمل مضيعة في الفنادق في صورة فتيات الجيشا في اليابان الوثنية ! فمن الإله الذي تتبع أو امره ؟ أهو الله سبحانه ؟ أم إنها الآلهة المدعاة ؟

إن الله - سبحانه - يأمر أن تكون رابطة التجمع هي العقيدة . . ولكن " القومية " أو " الوطن " يأمر باستبعاد العقيدة من قاعدة التجمع ؛ وأن يكون الجنس أو القوم هو

القاعدة! . . فمن هو الإله الذي تتبع أوامره؟ أهو الله - سبحانه - أم هي الآلهة

المدعاة؟!

إن الله - سبحانه - يأمر أن تكون شريعته هي الحاكمة. ولكن عبداً من العبيد - أو

مجموعة من "الشعب" - تقول: كلا! إن العبيد هم الذين يشرعون وشريعتهم هي

الحاكمة.

. فمن هو الإله الذي تتبع أوامره؟ أهو الله سبحانه أم هي الآلهة المدعاة؟!

(135/301)

إنها أمثلة لما يجري في الأرض كلها اليوم؛ ولما تعارف عليه البشرية الضالة . . أمثلة

تكشف عن حقيقة الوثنية السائدة، وحقيقة الأصنام المعبودة، المقامة اليوم بديلاً من تلك

الوثنية الصريحة، ومن تلك الأصنام المنظورة! ويجب ألا نتخذ عنا الأشكال المتغيرة للوثنية

والشرك عن حقيقتها الثابتة!!!

ولقد كان القرآن يحاور أصحاب تلك الوثنية الساذجة، وتلك الجاهلية الصريحة؛

ويحاطب عقولهم البشرية لإيقاظها من تلك الغفلة التي لا تليق بالعقل البشري - أياً كانت

طفولته - فيعقب على ذلك المثل الذي ضربه لهم، وصور فيه مدارج الشرك في النفس:

﴿ أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون

.. ﴿

إن الذي يخلق هو الذي يستحق أن يعبد ! وأهتهم المدعاة - كلها - لا تخلق شيئاً بل هي

تخلق ! فكيف يشركون بها ؟ كيف يجعلون لها شركاً مع الله في نفوسهم وفي أولادهم ؟

وإن الذي يملك أن ينصر عباده بقوته ويحميهم هو الذي ينبغي أن يعبد . فالقوة والقهر

والسلطان هي خصائص الألوهية وموجبات العبادة والعبودية . . . وأهتهم المدعاة - كلها

- لا قوة لها ولا سلطان ؛ فهم لا يستطيعون نصرهم ، ولا نصر أنفسهم ؛ فكيف يجعلون لها

شركاً مع الله في نفوسهم وفي أولادهم ؟

ومع أن برهان الخلق والقدرة هذا كان يوجه إلى أصحاب تلك الجاهلية الساذجة ، فهو ما

يزال هو هو الذي يحاج به أصحاب الجاهلية الحاضرة ! إنهم يقيمون لهم أصناماً أخرى

يعبدونها ويتبعون ما تأمر به ؛ ويجعلون لها شركاً في أنفسهم وأبنائهم وأموالهم . . . فمن منها

يخلق من السماوات والأرض شيئاً ؟ ومن منها يملك لهم أولئفسه نصراً ؟

(136/301)

---

إن العقل البشري - لو خلي بينه وبين هذا الواقع - لا يقره ، ولا يرضاه ! ولكنها الشهوات والأهواء والتضليل والخداع . . هي التي تجعل البشرية بعد أربعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن تترد إلى هذه الجاهلية - في صورتها الجديدة - فتشرك ما لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون !

إن هذه البشرية لفي حاجة اليوم - كما كانت في حاجة بالأمس - إلى أن تخاطب بهذا القرآن مرة أخرى . في حاجة إلى من يقودها من الجاهلية إلى الإسلام ؛ ومن يخرجها من الظلمات إلى النور ؛ ومن ينقذ عقولها وقلوبها من هذه الوثنية الجديدة ؛ بل من هذا السخف الجديد الذي تلج فيه ؛ كما أنقذها هذا الدين أول مرة !

إن صيغة التعبير القرآنية توحى بأنه كان يعني كذلك تفرعهم على اتخاذ آلهة من البشر :  
﴿ أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ؟ ﴾ .

فهذه الواو والنون تشير إلى أن من بين هذه الآلهة على الأقل بشراً من " العقلاء " الذين يعبر عنهم بضمير " العاقل " ! . . وما علمنا أن العرب في وثنتهم كانوا يشركون بآلهة من البشر - بمعنى أنهم يعتقدون بألوهيتهم أو يقدمون الشعائر التعبدية لهم - إنما هم كانوا يشركون بأمثال هؤلاء من ناحية أنهم يتلقون منهم الشرائع الاجتماعية والأحكام في النزاعات - أي

الحاكمية الأرضية - وأن القرآن يعبر عن هذا بالشرك ، ويسوي بينه وبين شركهم الآخر  
بالأوثان والأصنام سواء . وهذا هو الاعتبار الإسلامي لهذا اللون من الشرك . فهو شرك  
كشرك الاعتقاد والشعائر لا فرق بينه وبينه ، كما اعتبر الذين يتقبلون الشرائع والأحكام من  
الأخبار والرهبان مشركين . مع أنهم لم يكونوا يعتقدون بألوهيتهم ولم يكونوا يقدمون لهم  
الشعائر كذلك . . فكله شرك وخروج عن التوحيد الذي يقوم عليه دين الله ؛ والذي تعبر  
عنه شهادة أن لا إله إلا الله . مما يتفق تماماً مع ما قررناه من شرك الجاهلية الحديثة !

(137/301)

---

ولما كان الحديث عن قصة الانحراف في النفس - ذلك المتمثل في قصة الزوجين - هو  
حديث كل شرك ! والمقصود به هو تنبيه أولئك الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن أول مرة ،  
إلى سخر ما هم عليه من الشرك ، واتخاذ تلك الآلهة التي لا تخلق شيئاً بل هي تخلق ، ولا  
تنصر عبادها بل لا تملك لأنفسها نصراً ، سواء أكانت القصة ومن أسلوب الحكاية في الفقرة  
السابقة ، إلى مواجهة مشركي العرب وإلى أسلوب الخطاب انتقالاً مباشراً ، كأنه امتداد  
للحديث السابق عليه عن تلك الآلهة !

❖ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أَدَعَوْتَهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ . إن

الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم . فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين .  
ألم أرى أنهم يبصرون بها ؟ ألم لهم أيد يبطشون بها ؟ ألم لهم أعين يبصرون بها ؟ ألم لهم آذان  
يسمعون بها ؟ ❁ . .

لقد كانت وثنية مشركي العرب وثنية ساذجة - كما أسلفنا - سخيصة في ميزان العقل  
البشري في أية مرحلة من مراحلها ! ومن ثم كان القرآن ينبه فيهم هذا العقل ؛ وهو يواجههم  
بسخافة ما يزاولونه من الشرك بمثل هذه الآلهة .

إن أصنامهم هذه الساذجة بهيئتها الظاهرة : ليس لها أرجل تمشي بها ، وليس لها أيد  
تبطش بها . وليس لها أعين تبصر بها ، وليس لها آذان تسمع بها . . هذه الجوارح التي  
تتوافر لهم هم . فكيف يعبدون ما هو دونهم من هذه الأحجار الهامدة ؟  
فأما ما يرمزون إليه بهذه الأصنام من الملائكة حيناً ، ومن الآباء والأجداد حيناً . . فهم  
عباد أمثالهم من خلق الله مثلهم . لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لهم نصراً ولا  
أنفسهم ينصرون !

(138/301)

---

والازدواج في عقائد مشركي العرب بين الأصنام الظاهرة ، والرموز الباطنة هو - فيما نحسب - سبب مخاطبتهم هكذا عن هذه الآلهة : مرة بضمير العاقل ملحوظاً فيها ما وراء الأصنام من الرمز ، ومرة بالإشارة المباشرة إلى الأصنام ذاتها ، وأنها فاقدة للحياة والحركة ! وهي في مجموعها ظاهرة البطلان في منطق العقل البشري ذاته ، الذي يوقظه القرآن ، ويرفعه عن هذه الغفلة المزرية !

وفي نهاية هذه الحاجة يوجه الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم : أن يتحداهم ويتحدى آلهتهم العاجزة - كلها - وأن يعلن عن عقيدته الناصعة في تولى الله - وحده - له :  
﴿ قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون .

إن وليي الله الذي نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ . .

إنها كلمة صاحب الدعوة ، في وجه الجاهلية . . ولقد قالها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما أمره ربه ؛ وتحدى بها المشركين في زمانه وآلهتهم المدعاة :  
﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾ . .

لقد قذف في وجوههم ووجوه آلهتهم المدعاة بهذا التحدي . . وقال لهم : ألا يألوا جهداً في جمع كيدهم وكيد آلهتهم ؛ بلا إهمال ولا إنظار ! وقالها في لهجة الواثق المطمئن إلى السند



الذي يرتكن إليه ، ويحتمي به من كيدهم جميعاً :

﴿ إن وليي الله ، الذي نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين ﴾ . .

فأعلن بها عنم إليه يرتكن . إنه يرتكن إلى الله . . الذي نزل الكتاب . فدل بتنزيله على

إرادته - سبحانه - في أن يواجه رسوله الناس بالحق الذي فيه ؛ كما قدر أن يعلي هذا

الحق على باطل المبطلين . . وأن يحمي عباده الصالحين الذين يبلغونه ويحملونه ويثقون فيه .

وإنها لكلمة صاحب الدعوة إلى الله - بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم - في كل مكان

وفي كل زمان :

(139/301)

---

﴿ قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾ . . ﴿ إن وليي الله الذي نزل الكتاب

وهو يتولى الصالحين ﴾ .

إنه لا بد لصاحب الدعوة إلى الله أن يتجرد من أسناد الأرض ؛ وأن يستهين كذلك بأسناد

الأرض . .

إنها في ذاتها واهية واهنة ، مهما بدت قوية قادرة : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا

له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً

لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب ! ﴿ ﴾ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ! ﴿ ﴾ وصاحب الدعوة إلى الله يرتكن إلى الله . فما هذه الأولياء والأسناد الأخرى إذن ؟ وماذا تساوي في حسه ؛ حتى لو قدرت على أذاه ؟ ! إنما تقدر على أذاه بإذن ربه الذي يتولاه . لا عجزاً من ربه عن حمايته من أذاها - سبحانه وتعالى ! - ولا تخلياً منه سبحانه عن نصرته أوليائه .

. ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص والتدريب . واستدراجاً لعباده الطالحين للإعذار والإمهال والكيد المتين !

لقد كان أبو بكر - رضي الله عنه - يردد ، والمشركون يتناولونه بالأذى ؛ ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه ، حتى تركوه وما يعرف له فم من عين ! . . . كان يردد طوال هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلت الأرض بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! . . . " كان يعرف في قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه ! لقد كان واثقاً أن ربه لا يعجز عن التدمير على أعدائه ؛ كما كان واثقاً أن ربه لا يتخلى عن أوليائه !

(140/301)

---

ولقد كان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يقول ، وقد تناوله المشركون بالأذى -  
لأنه أسمعهم القرآن في ناديتهم إلى جوار الكعبة - حتى تركوه وهو يترنح لا يصلب قامته ! . .  
كان يقول بعد هذا الأذى المنكر الفاجر الذي ناله : " والله ما كانوا أهون عليّ منهم  
حينذاك ! " . . كان يعرف أنهم يحادون الله - سبحانه - وكان يستيقن أن الذي يحاد الله  
مغلوب هين على الله . فينبغي أن يكون مهيناً عند أولياء الله .

ولقد كان عبد الله بن مطعون - رضي الله عنه - يقول ، وقد خرج من جوار عتبة بن ربيعة  
المشرك ، لأنه لم يستسغ لنفسه أن يحتمي بجوار مشرك فيكف عنه الأذى ، وإخوان له في  
الله يؤذون في سبيل الله . وقد تجمع عليه المشركون - بعد خروجه من جوار عتبة - فأذوه  
حتى خسروا عينه . . كان يقول لعتبة وهو يراه في هذا الحال فيدعوه أن يعود إلى جواره :  
لأننا في جوار من هو أعز منك ! " . . وكان يرد على عتبة إذ قال له : " يا ابن أخي لقد كانت  
عينك في غنى عما أصابها ! " . . يقول : " لا والله وللأخرى أحق لما يصلحها في سبيل  
الله ! " . . كان يعلم أن جوار ربه أعز من جوار العبيد . وكان يستيقن أن ربه لا يتخلى عنه  
، ولو تركه يؤذى في سبيله هذا الأذى لترتفع نفسه إلى هذا الأفق العجيب : " لا والله .  
وللأخرى أحق لما يصلحها في سبيل الله . . "

هذه نماذج من ذلك الجليل السامق الذي تربى بالقرآن في حجر محمد - صلى الله عليه وسلم

في ظلال ذلك التوجيه الرباني الكريم :

﴿ قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب ، وهو

يتولى الصالحين ﴾ . . .

ثم ماذا كان بعد هذا الأذى الذي احتملوه من كيد المشركين . وهذا الاعتصام بالله الذي

نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ؟

كان ما يعرفه التاريخ ! كانت الغلبة والعزة والتمكين لأولياء الله ، وكانت الهزيمة والهوان

والدثور للطواغيت الذين قتلهم الصالحون .

(141/301)

---

وكانت التبعية ممن بقي منهم - ممن شرح الله صدره للإسلام - هؤلاء السابقين ، الذين

احتملوا الأذى بثقة في الله لا تتزعزع ، وبعزيمة في الله لا تلين !

إن صاحب الدعوة إلى الله - في كل زمان وفي كل مكان - لن يبلغ شيئاً إلا بمثل هذه الثقة ،

وإلا بمثل هذه العزيمة ، وإلا بمثل ذلك اليقين :

﴿ إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ . . .

لقد أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يتحدى المشركين . فتحداهم . وأمر أن يبين

لهم عجز آلهتهم وسخف الشرك بها فبين لهم :

❖ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ❖ . .

❖ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ❖ . .

وإذا كان هذا التقرير ينطبق على آلهة الوثنية الساذجة في جاهلية العرب القديمة . . فإنه

ينطبق كذلك على كل الآلهة المدعاة في الجاهلية الحديثة . .

إن هؤلاء المشركين الجدد يدعون من دون الله أولياء من أصحاب السلطان الظاهر في

الأرض ولكن هؤلاء الأولياء لا يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون . حين يجري قدر

الله بما يشاء في أمر العباد في الموعد المرسوم .

وإذا كانت آلهة العرب الساذجة لا تسمع ، وعيونها المصنوعة من الخرز أو الجواهر تنظر ولا

تبصر ! فإن بعض الآلهة الجديدة كذلك لا تسمع ولا تبصر . . الوطن . والقوم . والإنتاج .

والآلة . وحمية التاريخ ! إلى آخر تلك الآلهة المدعاة في الجاهلية الحديثة ! والذي يبصر

منها ويسمع - وهي الآلهة المدعاة من البشر ، التي تعطى خصائص الألوهية فتشرع بأمرها

وتحكم - هي كذلك لا تسمع ولا تبصر . . هي من الذين يقول الله فيهم : ❖ ولقد ذرأنا

لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم

آذان لا يسمعون بها . . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ❖ !

---

إن صاحب الدعوة إلى الله ، إنما يصادف حالة واحدة من الجاهليات المتعددة . . وإنما

ينبغي أن يقول ما أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول :

﴿ قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى

الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن

تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ . . فإنما هم

هم . . في كل أرض وفي كل حين !!! انتهى انتهى . اهـ ﴿ الضلال ح 3 ص 1390 .

﴿ 1417

(143/301)

---

فصل في التفسير الإشاري في الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابوري :

التأويل : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ﴾ لأرباب العقول النظر

والاستدلال لتحصيل الإيمان ، ولأرباب القلوب الولوج والكشف لحصول الإيقاف والعيان

﴿ وما خلق الله من شيء ﴾ يعني عالم الملك المخلوق من مادة بخلاف عالم الملكوت الذي

أبدع من غير شيء ❀ وإن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ❀ يعني أجل فنائهم عما  
سوى الحق ، فإن لم يؤمنوا بطريق النظر استدلالاً ❀ فبأي حديث بعده ❀ أي بعد النظر  
❀ يؤمنون ❀ ، ❀ يسألونك عن الساعة ❀ يريد الساعة التي يظهر الله تعالى فيها آثار  
صفة القهارية لإفناء عالم الصورة فلا يبقى منه داع ولا مجيب فيجيب هو بنفسه لمن الملك  
اليوم لله الواحد القهار ❀ لاستكثرت من الخير ❀ من الحياة الأبدية ورفع الحاجات  
البشرية .

❀ خلقكم من نفس واحدة ❀ هي الروح ❀ وخلق منها زوجها ❀ وهي القلب ❀  
يسكن إليها ❀ لأن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن فكان الروح يشم من القلب نسائم  
نفحات أطاف الحق ❀ حملت حملاً خفيفاً ❀ في البداية بظهر أدنى أثر من آثار الصفات  
البشرية في القلب الروحاني ❀ فلما أثقلت ❀ كثرت آثار الصفات خاف الروح والقلب  
على أنفسهما عن تبدل الصفات الروحانية الأخروية النورانية بالصفات النفسانية الدنيوية  
الظلمانية ❀ فدعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً ❀ قابلاً للعبودية ❀ لنكونن من الشاكرين  
فلما آتاهما صالحاً جعلا ❀ أي الروح والقلب ❀ له شركاء ❀ أي جعلوا وجه النفس إلى  
الدنيا ونعيمها فصارت عبد البطن وعبد الخميصة وعبد الدرهم والدينار . ❀ ولا  
يستطيعون لهم نصراً ❀ أي لا تستطيع الدنيا ومن فيها للروح والقلب والنفس تقوية وتربية

إلا بالله ﴿ ولا أنفسهم ينصرون ﴾ للبقاء والدوام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن

ح 3 ص 363 ﴿

(144/301)

قوله تعالى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان محصل أمرهم الإعراض عما أتاهم بالكذب والإقبال على ما لم يأتهم بالطلب والتعنت كالسؤال عن الساعة ، والأمر بالمنكر من الشرك وما يلزم منه من مساوي الأخلاق ، والنهي عن المعروف الذي هو التوحيد وما يتبعه من محاسن الشرع ، وذلك هو الجهل ، وختم ذلك بالإخبار بأنه سبحانه أصلح له الدين بالكتاب ، والدنيا بالحفظ من كل ما ينتاب ، وكان حالهم ربما كان مؤسأً من فلاحهم ، مفترأً عن دعائهم إلى صلاحهم ، كان الداعي لهم - صلى الله عليه وسلم - كأنه قال : فما أصنع في أمرهم ؟ فأجابه بالتحذير من مثل حالهم والأمر بصدقهم وفعالهم والإبلاغ في الرفق بهم فقال : ﴿ خذ العفو ﴾ أي ما أتاك من الله والناس بلا جهد ومشقة ، وهذا المادة تدور على السهولة ، وتارة تكون من



الكثرة وتارة من القلة، فعفا المال، أي كثر، فصار يسهل إخراجه ويسمح به لزيادته عن الحاجة، وعفا المنزل، أي درس، فسهل أمره حتى صار لا يلتفت إليه.

ولما أمره بذلك في نفسه، أمره به في غيره فقال: ﴿ وأمر بالعرف ﴾ أي بكل ما عرفه الشرع وأجازته، فإنه من العفو سهولة وشرفاً، وقد تضمن ذلك النهي عن المنكر فأغنى بذلك عن ذكره لأن السياق للمساهلة؛ ولما أمره بالفعل في نفسه وغيره، أتبعه الترك فقال: ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ أي فلان تكافئهم بحفتهم وسفهمهم ولا تمارهم فإن ذلك أسهل من غيره، وذلك بعد فضيحتهم بالدعاء، وذلك - لأن محط حالهم اتباع الهوى فيدعوهم إلى تكلف ضد هذه الخصال، وفيه إشارة إلى النهي عن أن يذهب نفسه عليهم حسرات مبالغة في الشفقة عليهم، وعن جعفر الصادق أنه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 174. 175 ﴾

(145/301)

---

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله:

القراءات: ﴿ طيف ﴾ بسكون الياء: ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب وعلي.

الباقون: ﴿ طائف ﴾ على وزن " فاعل " ﴿ يمدونهم ﴾ من الإمداد: أبو جعفر  
ونافع. الآخرون: بفتح الياء وضم الميم من المد ﴿ العفو وأمر ﴾ مدغماً: أبو عمرو.  
وقرىء بغير همز حيث كان: يزيد والشموني وحمزة في الوقف.  
الوقوف: ﴿ الجاهلين ﴾ ه ﴿ بالله ﴾ ط ﴿ عليهم ﴾ ه ﴿ مبصرون ﴾ ه ج لأن قوله  
﴿ وإخوانهم ﴾ مبتدأ إلا أن المعنى يقتضي الوصل لبيان اختلاف حالي الفريقين ﴿ لا  
يقصرون ﴾ ه ﴿ اجتبتها ﴾ ط ﴿ من ربي ﴾ ج لاختلاف الجملتين بلا عطف مع  
اتحاد المقول ﴿ يؤمنون ﴾ ه ﴿ ترحمون ﴾ من الغافلين ﴿ ه ﴾ يسجدون ﴿ ه ﴾ انتهى  
انتهى. اه ﴿ غرائب القرآن ﴾ 3 ص 364 ﴿

(146/301)

فصل

قال الفخر:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن الله هو الذي يتولاه، وأن الأصنام وعابديها لا يقدر  
على الإيذاء والإضرار، بين في هذه الآية ما هو المنهج القويم والصراط المستقيم في معاملة

الناس فقال: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ قال أهل اللغة: العفو الفضل وما أتى من غير كلفة.

إذا عرفت هذا فنقول: الحقوق التي تستوفى من الناس وتؤخذ منهم، إما أن يجوز إدخال المساهلة والمسامحة فيها، وإما أن لا يجوز.

أما القسم الأول: فهو المراد بقوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ ويدخل فيه ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية؛ ويدخل فيه أيضاً التخلق مع الناس بالخلق الطيب، وترك الغلظة والفظاظة كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: 159] [ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف، كما قال تعالى: ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل: 125].

(147/301)

---

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف، والعرف، والعارفة، والمعروف هو كل أمر عرف أنه لا بد من الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه، وذلك لأن في هذا القسم لو اقتصر على الأخذ بالعفو ولم يأمر بالعرف ولم يكشف عن حقيقة الحال، لكان ذلك سعيًا في تغيير الدين وإبطال الحق وأنه لا

يجوز ، ثم إنه إذا أمر بالعرف ورغب فيه ونهى عن المنكر ونفر عنه ، فرمما أقدم بعض  
الجاهلين على السفاهة والإيذاء فلهذا السبب قال تعالى في آخر الآية : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ  
الْجَاهِلِينَ ﴾ وقال في آية أخرى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : 72] وقال  
: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : 3] وقال في صفة أهل الجنة : ﴿ لَا  
يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴾ [الواقعة : 25] وإذا أحاط عقلك بهذا التقسيم ، علمت  
أن هذه الآية مشتملة على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان مع الغير .  
قال عكرمة : لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام : " يا جبريل ما هذا ؟ قال يا محمد إن  
ربك يقول هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك " قال أهل العلم :  
تفسير جبريل مطابق للفظ الآية لأنك لو وصلت من قطعك ، فقد عفوت عنه ، وإذا آتيت  
من حرمك فقد آتيت بالمعروف ، وإذا عفوت عمن ظلمك فقد أعرضت عن الجاهلين ،  
وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه  
الآية ، وللمفسرين في تفسير هذه الآية طريق آخر فقالوا : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ أي  
ما عفا لك من أموالهم ، أي ما أتوك به عفواً فخذهُ ، ولا تسأل عما وراء ذلك .

(148/301)

---

قالوا : كان هذا قبل فريضة الصدقة فلما نزلت آية وجوب الزكاة صارت هذه الآية منسوخة لإقوله : ﴿ وَأْمُرُ بِالْعُرْفِ ﴾ أي يظهار الدين الحق ، وتقرير دلائله ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي المشركين قالوا : وهذا منسوخ بآية السيف فعلى هذه الطريقة جميع الآية منسوخة لإقوله : ﴿ وَأْمُرُ بِالْعُرْفِ ﴾ .

واعلم أن تخصيص قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ بما ذكره تقييد للمطلق من غير دليل ، وأيضا فهذا الكلام إذا حملناه على أداء الزكاة لم يكن إيجاب الزكاة بالمقادير المخصوصة منافيا لذلك ، لأن أخذ الزكاة مأمور بأن لا يأخذ كرائم أموال الناس ولا يشدد الأمر على المزكى فلم يكن إيجاب الزكاة سببا لصيرورة هذه الآية منسوخة .

وأما قوله : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فالمقصود منه أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يصبر على سوء أخلاقهم ، وأن لا يقابل أقوالهم الركيكة ولا أفعالهم الخسيصة بأمثالها ، وليس فيه دلالة على امتناعه من القتال ، لأنه لا يمتنع أن يؤمر عليه السلام بالإعراض عن الجاهلين مع الأمر بقتال المشركين فإنه ليس من المتناقض أن يقال الشارع لا يقابل سفاهتهم بمثلها ؟ ولكن قاتلهم وإذا كان الجمع بين الأمرين ممكنا فحينئذ لا حاجة إلى التزام النسخ ، إلا أن الظاهرية من المفسرين مشغوفون بتكثير الناسخ والمنسوخ من غير ضرورة ولا

حاجة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 78 . 79 ﴾

وقال الجصاص :

قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾

روى هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله عز وجل : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ قال : والله ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ﴿ أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة الخلق الحسن ﴾ .

وروى عطاء عن ابن عمر أنه قال : ﴿ سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم : أي المؤمنين أفضل ؟ قال : أحسنهم خلقاً .

﴿ وحدَّثنا عبد الباقي بن قانع قال : حدَّثنا معاذ بن المثنى وسعيد بن محمد الأعرابي قالا : حدَّثنا محمد بن كثير قال : حدَّثنا سفيان الثوري عن عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعون منكم بسط الوجه وحسن الخلق ﴾ وروى عن الحسن ومجاهد قالا ﴿ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقبل العفو من أخلاق الناس .

وَالْعَفْوُ هُوَ التَّسْهِيلُ وَالنِّيسِيرُ ، فَالْمَعْنَى اسْتِعْمَالُ الْعَفْوِ وَقَبُولُ مَا سَهَّلَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ  
وَتَرْكُ الْأَسْتِقْصَاءِ عَلَيْهِمْ فِي الْمَعَامَلَاتِ وَقَبُولُ الْعُذْرِ وَنَحْوِهِ .

(150/301)

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ قَالَ : ﴿ هُوَ الْعَفْوُ مِنَ الْأَمْوَالِ قَبْلَ  
أَنْ يُنْزَلَ فَرَضُ الزَّكَاةِ ﴾ ، وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ الضَّحَّاكِ وَالسُّدِّيِّ وَقِيلَ : إِنَّ أَصْلَ الْعَفْوِ التَّرْكَ  
، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أُخِيهِ شَيْءٌ ﴾ يَعْنِي : تَرْكُ لَهُ ؛ وَالْعَفْوُ عَنِ الذَّنْبِ  
تَرْكُ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأْمُرْ

بِالْعُرْفِ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَعُرْوَةُ : ﴿ الْعُرْفُ الْمَعْرُوفُ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ بَكَّارٍ  
قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ الْخَلِيلِ عَنْ عُبَيْدَةَ الْهَجِيمِيِّ قَالَ : قَالَ أَبُو جَرِيٍّ جَابِرُ بْنُ سُلَيْمٍ  
﴿ : رَكِبْتُ قَعُودِي ثُمَّ أَنْطَلَقْتُ إِلَى مَكَّةَ فَطَلَبْتَهُ ، فَأَنْخَتُ قَعُودِي بِيَابِ الْمَسْجِدِ ، فَإِذَا  
هُوَ جَالِسٌ عَلَيْهِ بُرْدٌ مِنْ صُوفٍ فِيهِ طَرَائِقُ حُمْرٌ ، فَقُلْتُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ  
: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ قُلْتُ : إِنَّا مَعْشَرُ أَهْلِ الْبَادِيَةِ قَوْمٌ فِينَا الْجَفَاءُ فَعَلَّمَنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا  
قَالَ : أَدْنُ ثَلَاثًا .

فَدَنُوتُ ، فَقَالَ : أَعِدْ عَلَيَّ فَأَعَدْتُ ، قَالَ : اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ مُنْبَسِطٍ ، وَأَنْ تُفْرَغَ مِنْ فَضْلِ دَلُوكَ فِي إِيَّائِهِ الْمُسْتَسْقِي ، وَإِنْ أَمْرٌ وَسَبَّكَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْكَ فَلَا تُسَبِّهْ بِمَا تَعْلَمُ مِنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ أَجْرًا وَعَلَيْهِ وَزْرًا ، وَلَا تُسَبِّنْ شَيْئًا مِمَّا خَوَّلَكَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ قَالَ أَبُو جُرَيْجٍ : فَوَالَّذِي ذَهَبَ بِنَفْسِهِ مَا سَبَّبتُ بَعْدَهُ شَيْئًا لَا شَأْنَ وَلَا بَعِيرًا .

وَالْمَعْرُوفُ هُوَ مَا حَسَنَ فِي الْعَقْلِ فَعَلُهُ وَلَمْ يَكُنْ مُنْكَرًا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ .  
قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿ أَمْرٌ بِتَرْكِ مُقَابَلَةِ الْجُهَّالِ وَالسُّفَهَاءِ عَلَى سَفَهِهِمْ وَصِيَانَةِ النَّفْسِ عَنْهُمْ وَهَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِشِبْهِهِ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ ؛ لِأَنَّ الْفَرَضَ كَانَ حِينِئذٍ عَلَى الرَّسُولِ إِبْلَاغُهُمْ وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ : " فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا " وَأَمَّا بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ فَقَدْ تَقَرَّرَ أَمْرُ الْمُبْطِلِينَ وَالْمُفْسِدِينَ عَلَى وُجُوهِ مَعْلُومَةٍ مِنْ إِنْكَارِ فِعْلِهِمْ تَارَةً بِالسَّيْفِ وَتَارَةً بِالسَّوْطِ وَتَارَةً بِالْإِهَانَةِ وَالْحَبْسِ . انْتَهَى . انتهى . اهـ ﴿ أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِلْجِصَّاصِ ح 3 ص ﴾



وقال ابن العربي :

قوله تعالى ﴿ خذُ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

فيها عشرُ مسائل :

المسألة الأولى : في العفو : قد تقدم شرحه في سورة البقرة على الاستيفاء في الإطلاق والاشتقاق ، واختلف إيراد المفسرين في تفسير هذه الآية على أربعة أقوال : الأول : أنه الفضل من أموال الناس ، نسخته الزكاة ؛ قال ذلك ابن عباس .  
الثاني : أنه الزكاة ؛ قال مجاهد .

وسماها عفوًا ؛ لأنه فضل المال وجزء يسير منه .

الثالث : أنه أمر بالاحتمال وترك الغلظة ، ثم نسخ ذلك بآية القتال .

الرابع : خذ العفو من أخلاق الناس ؛ قاله ابن الزبير معًا ، وروي ذلك في الصحيح عنهما .

المسألة الثانية : روى سفيان بن عيينة عن الشعبي أنه قال : ﴿ إن جبريل نزل على النبي

صلى الله عليه وسلم بهذه الآية ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا يا جبريل ؟

قال جبريل : لا أدري حتى أسأل العالم ، فذهب فمكث ساعة ثم رجع ، فقال : إن الله

يأمرك أن تعفو عن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك ﴾ .

المسألة الثالثة : قوله : ﴿ وأمر بالعرف ﴾ : فيه أربعة أقوال : الأول : العرف : المعروف

؛ قَالَ عُرْوَةُ .

الثَّانِي : قَوْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

الثَّلَاثُ : مَا يَعْرِفُ أَنَّهُ مِنَ الدِّينِ .

(153/301)

الرَّابِعُ : مَا لَا يُنْكِرُهُ النَّاسُ مِنَ الْمَحَاسِنِ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا الشَّرَائِعُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : ﴿ أَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مُحْكَمٌ ، أَمْرٌ

بِالَّذِينَ .

الثَّانِي : أَنَّهُ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : رَوَى ﴿ جَابِرُ بْنُ سُلَيْمٍ قَالَ : رَكِبْتُ قَعُودِي ثُمَّ أَتَيْتُ إِلَى مَكَّةَ ،

فَطَلَبْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْخَتُ قَعُودِي بِيَابِ الْمَسْجِدِ ، فَدَلُّونِي عَلَى

رَسُولِ اللَّهِ ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَيْهِ بُرْدٌ مِنْ صُوفٍ فِيهِ طَرَائِقُ حُمْرٌ ، فَقُلْتُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا

رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ .

فَقُلْتُ : إِنَّا مَعْشَرَ أَهْلِ الْبَادِيَةِ قَوْمٌ فِينَا الْجَفَاءُ فَعَلَّمَنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا .

قَالَ : أَدْنُ مِنَّا .

فَدَنُوتُ ، فَقَالَ : أَعِدْ عَلَيَّ .

فَأَعَدْتُ .

فَقَالَ : اتَّقِ اللَّهَ ، وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَأَنْ تُلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ مُنْبَسِطٍ ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دُلُوكَ فِي إِيَاءِ أَخِيكَ ، وَإِنْ أَحَدٌ سَبَّكَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْكَ فَلَا تَسِبَّهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ أَجْرًا وَعَلَيْهِ وَزْرًا ، وَلَا تَسْبِنَنَّ شَيْئًا مِمَّا خَوَّلَكَ اللَّهُ .  
فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ لَا شَاةَ وَلَا بَعِيرًا .

(154/301)

---

﴿ الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَدِمَ عِيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حَذِيْفَةَ ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِي يُدْنِيهِمْ عُمَرُ ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كَهَوْلًا كَانُوا أَوْ شَبَانًا ، فَقَالَ عِيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ : يَا ابْنَ أَخِي ؛ لَكَ وَجْهُ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ قَالَ : سَأَسْأْذِنُ لَكَ .  
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَاسْتَأْذِنَ الْجَدُّ لِعِيْنَةَ ، فَأَذِنَ عُمَرُ ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ : هِيْهِ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ ، وَكَأَنَّكَ تَحْكُمُ فِينَا بِالْعَدْلِ .  
فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ :

العفوياً أمير المؤمنين، إن الله قال لنبِيِّهِ: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾  
﴿ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند  
كتاب الله .

المسألة السابعة: في تنقيح الأقوال: أمّا العفو فإنه عام في متناولاته، ويصح أن يراد به خذ  
ما خفّ وسهل ممّا تُعطى، فقد ﴿ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل من الصدقة  
التمرّة والقبضة والحبة والدرهم والسمل، ولا يلمز شيئاً من ذلك ولا يعيبه ﴾: ولقد كان  
يسقط من الحقوق ما يقبل الإسقاط حتى قالت عائشة في الصحيح: ﴿ ما انتقم رسول  
الله لنفسه قط ﴾ .

(155/301)

---

وأما الاحتمال: فقد ﴿ كان يصبر على الأذى، ويحتمل الجفاء، حتى قال صلى الله  
عليه وسلم: يرحم الله موسى، لقد أوزي بأكثر من هذا فصبر ﴾ .  
وأما مخالفة الناس: فهو كان أقدر الخلق عليها وأولاهم بها، فإنه كان يلقي كل أحد بما  
يليق به من شيخ وعجوز، وصغير وكبير، وبدوي وحضري، وعالم وجاهل، ولقد ﴿  
كانت المرأة توقفه في السكة من سكة المدينة، ولقد كان يقول لأخ لانس صغير: يا أبا

عُمَيْرٌ ، مَا فَعَلَ التَّغْيِيرُ ❁ .

وَلَقَدْ ❁ كَانَ يُكَلِّمُ النَّاسَ بِلُغَاتِهِمْ ، فَيَقُولُ لِمَنْ سَأَلَهُ أَمِنْ أُمَيْرٍ أُمُصِيَامٍ فِي أُمْسَفَرٍ ؟ فَيَقُولُ لَهُ

: لَيْسَ مِنْ أُمَيْرٍ أُمُصِيَامٍ فِي أُمْسَفَرٍ ❁

المَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : فِي تَنْقِيحِ الْأَقْوَالِ بِالْعُرْفِ : أَمَّا الْعُرْفُ : فَالْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا الْمَعْرُوفُ مِنْ  
الدِّينِ الْمَعْلُومُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ ، الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ شَرِيعَةٍ الَّتِي  
أُمَّهَاتُهَا وَأُصُولُهَا الثَّلَاثُ الَّتِي يُقَالُ إِنَّ جِبْرِيلَ نَزَلَ بِهَا : أَنْ تُصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، فَلَا شَيْءَ أَفْضَلَ  
مِنْ صِلَةِ الْقَاطِعِ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى كَرَمِ النَّفْسِ ، وَشَرَفِ الْحِلْمِ ، وَخُلُقِ الصَّبْرِ الَّذِي هُوَ مِفْتَاحُ  
خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَفِي الْأَثَرِ : ❁ لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي ، وَلَكِنْ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا

❁ .

وَقَالَ : ❁ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ الصَّدَقَةُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ ❁ .

(156/301)

---

وَالَّذِي يُبَيِّنُ ذَلِكَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي خَرَجَهُ الْأَئِمَّةُ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ : قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي  
طَالِبٍ : ❁ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً اسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ،

وَأَمْرُهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمْرُكُمْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَطِيعُونِي

؟ قَالُوا: بَلَى .

قَالَ: فَاجْمَعُوا حَطَبًا .

فَجَمَعُوا .

فَقَالَ: أَوْقِدُوا لِي نَارًا .

فَأَوْقَدُوهَا .

فَقَالَ: ادْخُلُوهَا .

فَهَمُّوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ

النَّارِ .

فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: لَوْ

دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ ❁، يُرِيدُ الَّذِي يَجُوزُ فِي الدِّينِ مَوْفِعُهُ

وَيُنْبِتُ فِيهِ حُكْمُهُ .

المَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ: الْأَعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ: وَأَمَّا الْأَعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ فَإِنَّهُ مَخْصُوصٌ

فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ أُمِرَ بِقِتَالِهِمْ، عَامٌّ فِي كُلِّ الَّذِي يَبْقَى بَعْدَهُمْ .

وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ❁ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ

دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ❁ .

وَقَالَتْ ﴿ أَسْمَاءُ : إِنَّ أُمَّي قَدِمْتُ عَلَيَّ رَاغِبَةً وَهِيَ مُشْرِكَةٌ أَفَأَصِلُهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، صِلِي  
أُمَّكَ ﴾ .

(157/301)

المَسْأَلَةُ العَاشِرَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : هَذِهِ آيَةٌ مِنْ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ ، قَدْ تَضَمَّنَتْ قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ  
المَأْمُورَاتِ وَالمَنْهِيَّاتِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ حَسَنَةٌ إِلَّا أَوْضَحَتْهَا ، وَلَا فَضِيلَةٌ إِلَّا شَرَحَتْهَا ، وَلَا  
عُزُومَةٌ إِلَّا افْتَحَتْهَا ، وَأَخَذَتْ الكَلِمَاتُ الثَّلَاثُ أَقْسَامَ الإِسْلَامِ الثَّلَاثَةَ .  
فَقَوْلُهُ : ﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾ تَوَلَّى بِالبَيَانِ جَانِبَ اللِّينِ ، وَنَفَى الحَرَجَ فِي الأَخْذِ وَالإِعْطَاءِ  
وَالتَّكْلِيفِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ ﴾ تَنَاوَلَ جَمِيعَ المَأْمُورَاتِ وَالمَنْهِيَّاتِ ؛ وَإِنِّهُمَا مَا عُرِفَ حُكْمُهُ ،  
وَاسْتَقَرَّ فِي الشَّرِيعَةِ مَوْضِعُهُ ، وَاتَّفَقَتْ القُلُوبُ عَلَى عِلْمِهِ .  
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ تَنَاوَلَ جَانِبَ الصَّفْحِ بِالصَّبْرِ الَّذِي بِهِ يَتَأْتَى لِلْعَبْدِ كُلِّ  
مُرَادٍ فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ ، وَلَوْ شَرَحْنَا ذَلِكَ عَلَى التَّفْصِيلِ لَكَانَ اسْتَفَارًا . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ أَحكام القرآن لابن العربي ج 2 ص ﴾

(158/301)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني : خذ ما أعطوك من الصدقة يعني : ما فضل من الأكل والعيال ، ثم نسخ بآية الزكاة وهذا كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : 219] يعني : الفضل وأمر بالمعروف يعني : ادعهم إلى التوحيد ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي من جهل عليك مثل أبي جهل وأصحابه ، وكان ذلك قبل أن يؤمر بالقتال .

ويقال : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ يعني : اعف عن ظلمك واعط من حرمك وصل من قطعك .

قال الفقيه أبو الليث : حدثنا عن الشعبي الخليل بن أحمد .

قال : حدثنا الديلمي .

قال : حدثنا أبو عبيد الله وحدثنا سفيان عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ سأل

عنها جبريل .



فقال جبريل : حتى أسأل العالم ، فذهب ثم أتاه ، فقال : يا محمد إن الله تعالى يأمرك أن  
تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عن من ظلمك .

وقال القتيبي في قول النبي : صلى الله عليه وسلم " أُوتِيَتْ جَوَامِعَ الْكَلِمِ " فَإِنْ شِئْتَ أَنْ  
تعرف ذلك فتدبر في هذه الآية كيف جمع له في هذا كل خلق عظيم ، لأن في أخذ العفو صلة  
القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين ، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله ، وصلة  
الأرحام ، وغض البصر ، وفي الإعراض عن الجاهلين الحلم ، وتنزيه النفس عن ممارسة السفية  
، وعن منازعة اللجوج ، وإنما سمي المعروف معروفاً لأن كل نفس تعرفه وكل قلب يطمئن  
إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بجز العلوم ح 1 ص ﴾

(159/301)

---

وقال الثعلبي :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾

قال مجاهد : يعني العفو من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تخميس .

قال ابن الزبير : ما أنزل الله تعالى هذه الآية إلا في أخلاق الناس .

وقال ابن عباس والسدي والضحاك والكلبي : يعني ما عفا لك من أموالهم وهو الفضل من

العيال والكل فما أتوك به عفواً فخذهُ ولا تسألهم ما ذراً ذلك .

وهذا قبل أن ينزل فريضة الصدقات . ولما نزلت آية الصدقات نسخت هذه الآية وأمر

بأخذها منهم طوعاً وكرهاً ﴿ وأمر بالعرف ﴾ أي بالمعروف . قرأ عيسى بن عمر :

العُرفُ ضمّتين مثل الحُلْمِ وهما لغتان والعرف المعروف والعارفة كل خُلصة حميدة فرضتها

العقول وتطمئن إليها النفوس . قال الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه . . . لا يذهب العرف بين الله والناس

قال عطاء : وأمر بالعرف يعني لا إله إلا الله ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ أبي جهل

وأصحابه نسختها آية السيف . ويقال " لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم لجبرئيل : " ما هذه ؟ قال : لا أدري حتى أسأل ، ثم رجعت فقال : يا محمد إن ربك

يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك " فنظم الشاعر فقال :

مكارم الأخلاق في ثلاث . . . من كملت فيه فذاك الفتى

إعطاء من يجرمه ووصل من . . . يقطعه والعفو عمن عليه اعتدى

قال جعفر الصادق : " أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق وليس في

القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية " .

قال النبي صلى الله عليه وسلم (رحمهما الله) . وقالت عائشة : مكارم الأخلاق عشرة :

صدق الحديث . وصدق البأس في طاعة الله . وإعطاء السائل . ومكافأة الصنيع .

وصلة الرحم . وأداء الأمانة . والتذم للصاحب . والتذم للجار وقرى الضيف  
ورأسهن الحياء .

أنشدنا أبو القاسم الحسن بن محمد المذكور أنشدنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار ،  
أنشدنا ابن أبي [ الدنيا ] أنشدني أبو جعفر القرشي :

(160/301)

---

كل الأمور تزول عنك وتنقضي . . . إلا الثناء فإنه لك باق  
لو أنني خيَّرتُ كل فضيلة . . . ما اخترت غير مكارم الأخلاق  
قال عبد الرحمن بن زيد : " لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم " كيف يارب  
[ والغضب ] " فنزل ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف  
والبيان ح 4 ص ﴾

(161/301)

---

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : العفو من أخلاق الناس وأعمالهم ، قاله ابن الزبير ، والحسن ، ومجاهد .

الثاني : خذ العفو من أموال المسلمين ، وهذا قبل فرض الزكاة ثم نسخ بها ، قاله الضحاك

والسدي وأحد قولي ابن عباس .

والثالث : خذ العفو من المشركين ، وهذا قبل فرض الجهاد ، قاله ابن زيد .

﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معناه بالمعروف ، قاله عروة وقتادة .

والثاني : ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لجبريل حين نزلت عليه هذه الآية

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ : " يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا " قال : لا أدري أسأل العالم ، قال " ثُمَّ

عَادَ جِبْرِيلُ فَقَالَ " يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصَلَ مِنْ قِطْعِكَ وَتَعْطِيَ مِنْ حَرْمِكَ ، وَتَعْفُو

عَمَّنْ ظَلَمَكَ " قاله ابن زيد .

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فإن قيل فكيف أمر بالإعراض مع وجوب الإنكار عليهم ؟

قيل : إنما أراد الإعراض عن السفهاء استهانة بهم . وهذا وإن كان خطاباً للنبي عليه

السلام فهو تأديب لجميع خلقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ خذ العفو ﴾ الآية ،

وصية من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم تعم جميع أمته وأخذ بجميع مكارم الأخلاق ، وقال الجمهور في قوله ﴿ خذ العفو ﴾ إن معناه اقبل نم الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عفواً دون تكلف ، فالعفو هنا الفضل والصفو الذي تهيأ دون تخرج ، قاله عبد الله بن الزبير في مصنف البخاري ، وقاله مجاهد وعروة ، ومنه قول حاتم الطائي : [ الطويل ]

خذي العفو مني تستديمي مودتي . . . ولا تنطقي في سورتني حين أغضب

وقال ابن عباس والضحاك والسدي : هذه الآية ، في الأموال ، وقيل هي فرض الزكاة أمر بها صلى الله عليه وسلم أن يأخذ ما سهل من أموال الناس ، وعفا أي فضل وزاد من قولهم عفا النبات والشعرا أي كثر ، ثم نزلت الزكاة وحدودها فنسخت هذه الآية ، وذكر مكّي عن مجاهد أن ﴿ خذ العفو ﴾ معناه خذ الزكاة المفروضة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا شاذ ، وقوله ﴿ وأمر بالعرف ﴾ معناه بكل ما عرفته

النفوس مما لا تردده الشريعة، ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: " ما هذا العرف الذي أمر به، قال: لا أدري حتى أسأل العالم، فرجع إلى ربه فسأله ثم جاءه فقال له: يا محمد هو أن تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك".

قال القاضي أبو محمد: فهذا نصب غايات والمراد فما دون هذا من فعل الخير، وقرأ عيسى الثقفي فيما ذكر أبو حاتم " بالعرف " بضم الراء والعرف والعرف بمعنى المعروف، وقوله ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ حكم مترتب محكم مستمر في الناس ما بقوا، هذا قول الجمهور من العلماء، وقال ابن زيد في قوله ﴿ خذ العفو - إلى - الجاهلين ﴾ إنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك مداراة لكفار قريش ثم نسخ ذلك بآية السيف.

(163/301)

---

قال القاضي أبو محمد: وحديث الحر بن قيس حين أدخل عمه عيينة بن حصن على عمر دليل على أنها محكمة مستمرة، لأن الحر احتج بها على عمر فقررها ووقف عندها. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المحرر الوجيز ج 2 ص ﴾

(164/301)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ خذ العفو ﴾

العفو: الميسور ، وقد سبق شرحه في سورة [البقرة: 219].

وفي الذي أُمر بأخذ العفو منه ثلاثة أقوال .

أحدها : أخلاق الناس ، قاله ابن الزبير ، والحسن ، ومجاهد فيكون المعنى : إقبال الميسور

من أخلاق الناس ، ولا تستقص عليهم فتظهر منهم البغضاء .

والثاني : أنه المال ، وفيه قولان .

أحدهما : أن المراد بعفو المال : الزكاة ، قاله مجاهد في رواية الضحاك .

والثاني : أنها صدقة كانت تؤخذ قبل فرض الزكاة ، ثم نسخت بالزكاة ، روي عن ابن

عباس .

والثالث : أن المراد به : مساهلة المشركين والعفو عنهم ، ثم نسخ بآية السيف ، قاله ابن

زيد .

قوله تعالى : ﴿ وأمر بالعرف ﴾ أي : بالمعروف .

وفي قوله : ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ قولان .

أحدهما : أنهم المشركون ، أمر بالإعراض عنهم ، ثم نسخ ذلك بآية السيف .

والثاني: أنه عام فيمن جهل، أمر بصيانة النفس عن مقابلتهم على سفههم، وإن وجب عليه الإنكار عليهم.

وهذه الآية عند الأكثرين كلها محكمة، وعند بعضهم أن وسطها محكم، وطرفيها منسوخان على ما بيننا. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(165/301)

وقال القرطبي:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات.

فقوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين،

وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

ودخل في قوله: ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغضّ

الأبصار، والإستعداد لدار القرار.

وفي قوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الحُضُّ عَلَى التَّلَقُّ بِالْعِلْمِ، والإعراض عن أهل



الظلم ، والتنزه عن منازعة السفهاء .

ومساواة الجهلة الأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة .

قلت : هذه الخصال تحتاج إلى بسط ، وقد جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر بن سليم .

" قال جابر بن سليم أبو جُرَيِّ : ركبت قعودي ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنخت قعودي بباب المسجد ، فدلوني على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو جالس عليه بُردٌ من صوف فيه طرائقُ حُمْرٌ ؛ فقلت : السلام عليك يا رسول الله .

فقال : "وعليك السلام" .

فقلت : إنا معشر أهل البادية ، قوم فينا الجفاء ؛ فعلمني كلماتٍ ينفعني الله بها .

قال : " ادن " ثلاثاً ، فدنوت فقال : " أعد علي " فأعدت عليه فقال : " اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً وأن تلقى أخاك بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وإن امرؤ سبك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجراً وعليه وزراً ولا تسب شيئاً مما حوَّلك الله تعالى " .

قال أبو جُرَيِّ : فوالذي نفسي بيده ، ما سببت بعده شاة ولا بعيراً " أخرجه أبو بكر البزار في مسنده بمعناه .

وروى أبو سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق" وقال ابن الزبير: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس.

وروى البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله: ﴿ خذِ العفو وأمر بالعرف ﴾ قال: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس.

وروى سفيان بن عيينة عن الشعبي أنه قال: "إن جبريل نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ما هذا يا جبريل؟" فقال: "لا أدري حتى أسأل العالم" في رواية "لا أدري حتى أسأل ربي" فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال: "إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك" فنظمه بعض الشعراء فقال:

مكارم الأخلاق في ثلاثة . . .

من كملت فيه فذلك الفتى

إعطاءً من تحرمه ووصل من . . .

تَقَطَّعَهُ وَالْعَفْوُ عَمَّنِ اعْتَدَى

وقال جعفر الصادق: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

وقال صلى الله عليه وسلم: "بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ" وقال الشاعر:

كُلُّ الْأُمُورِ تَزُولُ عَنْكَ وَتَنْقُضِي . . .

إِلَّا الثَّنَاءَ فَإِنَّهُ لَكَ بَاقِي

وَلَوْ أَنِّي خَيْرْتُ كُلَّ فَضِيلَةٍ . . .

ما اخترت غير مكارم الأخلاق

وقال سهل بن عبد الله: كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى بِطُورِ سَيْنَاءَ .

قيل له: بأي شيء أوصاك؟ قال: بتسعة أشياء، الخشية في السر والعلانية، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وأمرني أن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عن ظلمي، وأن يكون نطقي ذكراً، وصمّي فكراً، ونظري عبرة.

(167/301)

---

قلت : وقد روي عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أمرني ربي بتسع  
الإخلاص في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وأن أعفو  
عمن ظلمني وأصل من قطعني وأعطي من حرمني وأن يكون نطقي ذكراً وصمتي فكراً  
ونظري عبرة " وقيل : المراد بقوله : " خُذِ الْعَفْوَ " أي الزكاة ؛ لأنها يسير من كثير .  
وفيه بعد ؛ لأنه من عفا إذا دَرَسَ .

وقد يقال : خذ العفومنه ، أي لا تنقص عليه وسامحه .

وسبب النزول يردّه ، والله أعلم .

فإنه لما أمره بمحاجة المشركين دله على مكارم الأخلاق ، فإنها سبب جرّ المشركين إلى  
الإيمان .

أي اقبل من الناس ما عفا لك من أخلاقهم وتيسر ؛ تقول : أخذت حقي عَفَوًا صَفَوًا ، أي  
سهلاً .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ أي بالمعروف .

وقرأ عيسى بن عمر " العُرْفُ " بضمين ؛ مثل الحُلْمِ ؛ وهما لغتان .

والعُرْفُ والمعْرُوفُ والعَارِفَةُ : كل خصلة حسنة ترتضيها العقول ، وتطمئن إليها النفوس .

قال الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جَوَازِيَه . . .

لا يذهب العُرف بين الله والناس

وقال عطاء: ﴿ وأمرُ بالعرف ﴾ يعني بلا إله إلا الله .

الثالثة قوله تعالى: ﴿ وَأَعْرَضُ عَنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي إذا أقمت عليهم الحجّة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فاعرض عنهم؛ صيانة له عليهم ورفعاً لقدره عن مجاوبتهم .

وهذا وإن كان خطأً بالنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه .

وقال ابن زيد وعطاء: هي منسوخة بآية السيف .

وقال مجاهد وقتادة: هي مُحْكَمَةٌ؛ وهو الصحيح لما رواه البخاري عن عبد الله بن

عباس قال: قدم عُيَيْنَةُ بنِ حِصْنِ بنِ حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحرّ ابن قيس بن حِصْنِ، وكان من نفر الذين يُدِينُهُمْ عُمَرُ، وكان القراءُ أصحابَ مجالسِ عمر ومشاورته، كَهولاً كانوا أو شُبَّاناً .

فقال عُيَيْنَةُ لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه .

(168/301)

---

قال: سأستأذن لك عليه؛ فاستأذن لعُيَيْنَةَ .

فلما دخل قال: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل! قال:

فغضب عمر حتى همَّ بأن يقع به .

فقال الحرُّ؛ يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيه عليه السلام ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ

وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ وإن هذا من الجاهلين .

فوالله ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل .

قلت : فاستعمال عمر رضي الله عنه لهذه الآية واستدلال الحربها يدل على أنها مُحْكَمَةٌ

لا منسوخة .

وكذلك استعملها الحسن بن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنهما ؛ على ما يأتي بيانه .

وإذا كان الجفَاء على السلطان تعمُّداً واستخفافاً بحقه فله تعزيره .

وإذا كان غير ذلك فالإعراض والصفح والعتو؛ كما فعل الخليفة العدل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

(169/301)

---

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ خذ العفو ﴾

العفو هنا الفضل وما جاء بلا كلفة والمعنى : اقبل الميسور من أخلاق الناس ولا تستقصِ

عليهم فيستقصوا عليك فتولد منه العداوة والبغضاء .

وقال مجاهد : يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار منهم وترك البحث عن الأشياء والعفو التسهل في كل شيء (خ) عن عبد الله بن الزبير قال : ما نزلت خذ العفو وأمر بالعرف إلا في أخلاق الناس وفي رواية قال أمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يأخذ العفو من أقوال الناس وكذا في جامع الأصول وفي الجمع بين الصحيحين للحميدي قال أمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يأخذ العفو من أقوال الناس أو كما قال : وقال ابن عباس يعني خذ ما عفاك من أموالهم فما أتوك به من شيء فخذه وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه وقال السدي خذ العفو أي الفضل من المال نسختها آية الزكاة ، وقال الضحاك : خذ ما عفا من أموالهم وهذا قبل أن تفرض الصدقة المفروضة ﴿ وأمر بالعرف ﴾ يعني وأمر بكل ما أمرك الله به وهو ما عرفته بالوحي من الله وكل ما يعرفه الشارع وقال عطاء وأمر بقوله لا إله إلا الله ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يصفح عن الجاهلين وهذا قبل أن يؤمر بقتال الكفار فلما أمر بقتالهم صار الأمر بالإعراض عنهم منسوخاً بآية القتال : قال بعضهم : أول هذه الآية وآخرها منسوخ ، ووسطها محكم يريد ينسخ أولها أخذ الفضل من الأموال فنسخ بفرض الزكاة والأمر بالمعروف محكم والإعراض عن الجاهلين منسوخ بآية القتال روي أنه لما نزلت هذه الآية قال

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لجبريل: " ما هذا " ؟ قال لا أدري حتى أسأل .  
ثم رجع فقال إن ربك يأمرك أن تصل من قطعت وتعطي من حرملك وتعفو عمن ظلمك  
ذكره البغوي بغير سند .

(170/301)

---

وقال جعفر الصادق: أمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) بمكارم الأخلاق وليس في  
القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه .  
عن عائشة قالت " لم يكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاحشاً ولا متفحشاً ولا  
سخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح " أخرجه الترمذي وروى  
البغوي بسنده عن جابر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله بعثني لتمام  
مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

(171/301)

---



وقال أبو حيان :

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

هذا خطاب لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ويعمّ جميع أمته وهي أمر بجميع مكارم الأخلاق ، وقال عبد الله بن الزبير ومجاهد وعروة والجمهور : أي اقبل من الناس في أخلاقهم وأموالهم ومعاشرتهم بما أتى عفواً دون تكلف ولا تخرج والعفو ضد الجهد أي لا تطلب منهم ما يشق عليهم حتى لا ينفروا وقد أمر بذلك رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بقوله : " يسروا ولا تعسروا " وقال حاتم :

خذي العفو مني تستديمي مودّتي . . .

ولا تنطقي في سورتني حين أغضب

وقال الآخر :

إذا ما بلغة جاءتك عفوا . . .

فخذها فالغنى مرعى وشرب

إذا اتفق القليل وفيه سلم . . .

فلا ترد الكثير وفيه حرب

وقال الشعبي : سأل الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) جبريل عليه السلام عن قوله تعالى :

﴿ خذ العفو ﴾ ، فأخبره عن الله تعالى أنه يأمرك أن تعفو عن ظلمك وتعطي من حرمك

وتصل من قطعك ، وقال ابن عباس والضحاك والسدي : هي في الأموال قبل فرض الزكاة  
أمر أن يأخذ ما سهل من أموال الناس أي ما فضل وزاد ثم فرضت الزكاة فنسخت هذه ،  
وتؤخذ طوعاً وكرهاً ، وقال مكّي عن مجاهد إن العفو هو الزكاة المفروضة ، وقال ابن زيد  
: الآية جميعها في مداراة الكفار وعدم مؤاخذتهم ثم نسخ ذلك بالقتال انتهى ، والذي يظهر  
القول الأول من أنه أمر بمكارم الأخلاق وأن ذلك حكم مستمر في الناس ليس بمنسوخ ويدلّ  
عليه حديث الحر بن قيس حين أدخل عيينة بن حصن على عمر فكلم عمر كلاماً فيه  
غلظة فأراد عمر أن يهّم به فتلا الحر هذه الآية على عمر فقررها ووقف عندها .

(172/301)

---

والعرف المعروف والجميل من الأفعال والأقوال ، وقرأ عيسى بن عمر ﴿ بالعرف ﴾ بضم  
الراء والأمر بالإعراض عن الجاهلين حضّ على التخلق بالحلم والتنزه عن منازعة السفهاء  
وعلى الإغضاء عما يسوء كقول من قال : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، وقول  
الآخران كان ابن عمّك كالذي جذب رداءه حتى جزّ في عنقه وقال : أعطني من مال الله  
، وخرج البزار في مسنده من حديث جابر بن سليم ما وصاه به الرسول ( صلى الله عليه

وسلم) " اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً وأن تلقى أخاك بوجه منكسر وأن تفرغ من

فضل دلوك في إناء " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(173/301)

وقال أبو السعود :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾

بعد ما عُدَّ من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق تحمُّله أمر عليه الصلاة والسلام  
بمجامع مكارم الأخلاق التي من جملتها الإغضاء عنهم ، أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس  
وتسهل ولا تكلفهم ما يشقُّ عليهم ، من العفو الذي هو ضدُّ الجهد ، أو خذ العفو من المذنبين  
أو الفضل من صدقاتهم وذلك قبل وجوب الزكاة ﴿ وأمر بالعرف ﴾ بالجميل المستحسن  
من الأفعال فإنها قريبة من قبول الناس من غير نكير ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ من غير  
ممارسة ولا مكافأة ، قيل : ( لما نزلت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه  
السلام فقال : لا أدري حتى أسأل ثم رجعت فقال : يا محمد إن ربك أمرك أن تصل من قطعك  
وتعطي من حرمتك وتعفو عمن ظلمك ) وعن جعفر الصادق : أمر الله تعالى نبيه صلى الله  
عليه وسلم بمكارم الأخلاق ، وروي أنه لما نزلت الآية الكريمة قال عليه الصلاة والسلام :

كيف يا رب والغضب متحقق؟ " فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ

﴿ انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴿

وقال الألوسي:

﴿ خذ العفو ﴾ أي عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس وإلى هذا ذهب ابن عمر وابن الزبير وعائشة ومجاهد رضي الله تعالى عنهم وغيرهم وأخرجه ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن آدم مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والأخذ مجاز عن القبول والرضا أي ارض من الناس بما تيسر من أعمالهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا ومن ذلك قوله: خذي العفو مني تستديمي وجوز أن يراد بالعفو ظاهره أي خذ العفو عن المذنبين والمراد اعف عنهم وفيه إستعارة مكنية إذ شبه العفو بأمر محسوس يطلب فيؤخذ وإلى هذا ذهب جمع من السلف ويشهد له ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال: لما أنزل الله تعالى خذ العفو إلى آخره قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ما هذا يا جبريل قال: لا أدري حتى أسأل العالم فذهب ثم رجع فقال: إن الله تعالى أمرك أن تعفو عن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك

(174/301)

---

وأخرج ابن مردويه عن جابر نحو ذلك ولعل زبدة الحديث مفسرة لزبدة الآية وإلا فالتطبيق مشكل كما لا يخفى وتكلف القطب لتطبيق ألفاظه على ألفاظها وفيه خفاء وعن ابن عباس المراد بالعفو ما عفى من أموال الناس أي خذ أي شيء أتوك به وكان هذا قبل فرض الزكاة وقيل : العفو ما فضل عن النفقة من المال وبذلك فسره الجوهري وإليه ذهب السدي فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنه قال : نزلت هذه الآية فكان الرجل يمسك من ماله ما يكفيه ويتصدق بالفضل فنسخها الله تعالى بالزكاة وأمر بالمعروف أي بالمعروف المستحسن من الأفعال فإن ذلك أقرب إلى قبول الناس من غير تكبير وفي باب التأويل أن المراد وأمر بكل ما أمرك الله تعالى به وعرفته بالوحي وقال عطاء : المراد بالعرف كلمة لا إله إلا الله وهو تخصيص من غير داع وأعرض عن الجاهلين أي ولا تكافيء السفهاء بمثل سفههم ولا تمتزهم واحلم عليهم وأغض بما يسوءك منهم وعن السدي أن هذا أمر بالكف عن القتال ثم نسخ بآيته ولا ضرورة إلى دعوى النسخ في الآية كما لا يخفى على المتدبر وقد ذكر غير واحد أنه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية

وزيدتها كما قالوا تحري حسن المعاشرة مع الناس وتوخي بذل المجهود في الإحسان إليهم والمداراة منهم والإغضاء عن مساويهم وجعلوا نحو ذلك زبدة الخبر إلا أن القرآن مادته عامة ومادته خاصة وقد علم كل أناس مشربهم ولا يخفى حسن موقع هذا الأمر بعد ما

عد من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق حمله وإذ قيل: بأن الجاهلين موضوع موضع ضمير أولئك المشركين حيث أن الكلام فيهم تسجيلاً عليهم بعدم الإرعواء وإقناطاً كلياً منهم التأمّت أطراف الكلام غاية الإلتئام. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعاني ح 9 ص﴾

(175/301)

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾

هذه الآيات تامة لما قبلها من آيات التوحيد مقررّة ومؤكّدة لمضمونها؛ لأنّ توحيد العبادة ونفي الشرك فيها هو أسُّ الإسلام، ولا يتقرّر في الأذهان، ويثبت في الجنان، ويكمل بالوجدان، إلا بتكرار الآيات فيه نفيًا وإثباتًا لمضمون كلمة (لا إله إلا الله) إنّ الذين تدعون من دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ الدُّعَاءُ مُحُ الْعِبَادَةِ، وركنّها الأَعْظَمُ، فلا يصحُّ توحيد أحدٍ لله إلا بدُعائه وحده، وعدم دُعائه أحدٍ معه. كما قال: فلا تدعوا مع الله أحدًا (72):

18) وَالْمُفَسِّرُونَ يَقُولُونَ: إِنَّ الدُّعَاءَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَعْنَاهُ الْعِبَادَةُ، مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ الْكُلِّ بِاسْمِ الْجُزْءِ، فَصَارُوا يُفَسِّرُونَ "تَدْعُونَ" يَتَعَبَّدُونَ، فَضَلَّ بَعْضُ الْعَوَامِّ مِنَ الْقَارِئِينَ

وغيرهم في هذا التعبير، وظنوا أن المرء لا يكون عابداً لغير الله تعالى إلا إذا كان يصلي له  
الصلاة المعروفة ويصوم لأجله، وأنه

(176/301)

لا ينافي توحيد الله تعالى أن يدعى غيره معه، أو يدعى من دونه بقصد التوسل إليه  
والاستشفاع لديه، إذا كان لا يصلي ولا يصوم له، وقال بعضهم: إن الدعاء هنا بمعنى  
التسمية، فيكون الإنكار فيه خاصاً بتسميتهم لأصنامهم وغيرهم من معبوداتهم الهة،  
وكل من هذا وذاك ضرب من ضرب الاحتمالات اللفظية التي تتعلق بها من أشرك بالله  
جاهلاً بمعنى الشرك، ممن يدعون الموتى من الصالحين ولدفع الضر عنهم أو جلب الخير  
لهم، من غير طريق الأسباب التي هي من تناول كسبهم وسعيهم، ولكنهم لا يسمونهم  
الهة، وهذا هو الشرك الأكبر الذي نعي على المشركين من قبلهم، لا مجرد التسمية التي لا  
تكون بدونه صحيحة.

والحق الذي لا معدل عنه أن الدعاء هنا هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع، الموجه إلى  
من يعتد الداعي أن له سلطاناً يمكنه به أن يجيبه إلى ما طلبه بذاته، أو بحمله للرب  
الخالق على ذلك، بحيث يجيب دعاء الداعي لأجله.

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ هُمْ عِبَادُ اللَّهِ أَمْثَالِكُمْ فِي كَوْنِهِمْ مَخْلُوقِينَ لِلَّهِ  
تَعَالَى خَاضِعِينَ لِسُنْنِهِ فِي خَلْقِهِ، وَإِذَا كَانُوا أَمْثَالِكُمْ أَمْتَعِ عَقْلًا أَنْ تَطْلُبُوا مِنْهُمْ مَا لَا  
تَسْتَطِيعُونَ نَيْلَهُ بِأَنْفُسِكُمْ، وَلَا بِمُسَاعَدَةِ أَمْثَالِكُمْ لَكُمْ فِيمَا يَتَوَقَّفُ عَلَى التَّعَاوُنِ فِي اتِّخَاذِ  
الْأَسْبَابِ لَهُ، وَإِنَّمَا يُدْعَى لِمَا وَرَاءَ الْأَسْبَابِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ، الرَّبُّ الْخَالِقُ الْمُسَخِّرُ  
لِلْأَسْبَابِ، الَّذِي تَخْضَعُ لِإِرَادَتِهِ الْأَسْبَابُ وَهُوَ لَا يَخْضَعُ لَهَا، وَلَا لِإِرَادَةِ أَحَدٍ يَحْمِلُهُ عَلَى مَا  
لَا يَشَاءُ مِنْهَا .

وَهَذِهِ الْمُمَثِّلَةُ إِنَّمَا تَظْهَرُ فِيمَنْ يُدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوِ الْأَنْبِيَاءِ أَوِ الصُّلَحَاءِ  
، دُونَ مَا اتَّخَذَ لَهُمْ تَذَكِيرًا بِهِمْ مِنَ التَّمَاثِيلِ أَوِ الْقُبُورِ أَوِ الْأَصْنَامِ، وَقَدْ صَارَ بَعْضُ هَذِهِ  
الْمُذَكَّرَاتِ يُقْصَدُ لِدَاتِهِ، جَهْلًا بِمَا كَانَتْ اتَّخَذَتْ لِأَجْلِهِ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَدْخُلُ فِي  
الْمُمَثِّلَةِ بِطَرِيقَةٍ تَنْزِيلِهَا مِنْزَلَةً مَا وَضِعَتْ لِأَجْلِهِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ قُصَارَى أَمْرَهَا أَنْ تَكُونَ مِنَ  
الْأَحْيَاءِ الْعُقَلَاءِ أَمْثَالِكُمْ، فَكَيْفَ تَرْفَعُونَهَا عَنْ هَذِهِ الْمَثَلِيَّةِ، إِلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ؟ !  
فَادْعُوهُمْ فَلَيْسَتْ جَبِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَيُّ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّهُمْ يَقْدِرُونَ  
عَلَى مَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ بِقُوَّاتِكُمُ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ نَفْعٍ أَوْ ضَرٍّ



بذواتهم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم بانفسهم ، اوليحملوا الرب تبارك وتعالى على  
اعطائكم ما تطلبون منهم ان كنتم صادقين في قولكم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله (10 :  
18) وقولكم : ما نعبدهم الا ليقرّبونا الى الله زلفى (39 : 3) ثم بين لهم انهم احط رتبة  
منهم لا امثالا لهم ، فقال : اللهم ارجل يمشون بها ام لهم ايد يبطنون بها ام لهم اعين يبصرون  
بها ام لهم اذان يسمعون هذا تقريع موجه الى الوجدان ، في اثر احتجاج وجهه قبله الى  
الجنان ، والاستفهام فيه للانكار ، وهو خاص بالاصنام والوثان ، ومعناه انهم لفقدهم  
لجوارح الكسب ، التي يناط بها في عالم الاسباب النفع والضر ، قد هبطوا عن درجة  
مماثلتكم من كل وجه ، فليس لهم ارجل يسعون بها الى دفع ضر او جلب نفع ، وليس لهم  
ايد يبطنون بها فيما ترجون منهم من خير او تخافون من شر ، وليس لهم اعين يبصرون بها  
حالككم ، وليس لهم اذان يسمعون بها اقوالكم ، ويعرفون بها مطالبكم ، فانتم تفضلونهم في  
الصفات والقوى التي اودعها الله في الخلق ، فلماذا ترفعونهم عن مماثلتكم ، وهم بدليل  
المشاهدة والاختبار دونكم ، وها انتم اولاء تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من

وَتَعْلَمُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ، فَيَقُولُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ : مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا  
تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنِ اطَّعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (33 ، 34)  
أَفَتَأْتُونَ قَبُولَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ مِنْ مِثْلِكُمْ ، وَقَدْ فَضَّلَهُ اللَّهُ بِالْعِلْمِ وَالْهُدَى عَلَيْكُمْ ، وَهُوَ لَا  
يَسْتَذِلُّكُمْ بِادِّعَاءِ أَنَّهُ رَبُّكُمْ أَوْ إِلَهُكُمْ ، ثُمَّ تَرْفَعُونَ مَا دُونَهُ وَدُونَكُمْ إِلَى مَقَامِ الْوَهْيَةِ ، مَعَ  
انْحِطَاطِهِ وَتَسْفَلِهِ عَنْ هَذِهِ الْمِثْلِيَّةِ ؟ ! .

قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ أَيُّ قُلُوبٍ أَيْهَا الرِّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمُرْزُوقِينَ بِعُقُولِهِمْ ،  
الْمُحْتَقِرِينَ لِنِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ، نَادُوا شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ  
فِيكُمْ شُفَعَاءُ ، ثُمَّ تَعَاوَنُوا عَلَى كَيْدِي جَمِيعًا ، وَأَجْمَعُوا مَكْرَكُمْ الْخَفِيَّ لِإِقْبَاعِ الضَّرْبِيِّ  
سَرِيعًا ، فَلَا تُنظِرُونَ ، أَيُّ لَا تُؤَخِّرُونِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، بَعْدَ إِحْكَامِ الْمَكْرِ الْكِبَارِ .  
وَحِكْمَةٌ مُطَالِبَتُهُمْ بِهَذَا أَنَّ الْعَقَائِدَ وَالتَّقَالِيدَ الْمُورُوثَةَ تَغْلُغِلُ فِي أَعْمَالِ الْوُجْدَانِ ، حَتَّى  
يَتَضَاعَلُ دُونَهَا كُلُّ بَرْهَانٍ ، وَيُظَلُّ صَاحِبُهَا مَعَ ظُهُورِ الدَّلِيلِ عَلَى

بُطْلَانَهَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهَا تَضُرُّ وَتَنْفَعُ ، وَتُقَرَّبُ مِنَ اللَّهِ وَتَشْفَعُ ، فَطَالِبُهُمْ بِأَمْرِ عَمَلِي يَسْتَلُّ هَذَا الْوَهْمَ  
مِنْ أَعْمَالِ قُلُوبِهِمْ ، وَيَمْتَلِحُ الشُّعُورَ بِهِ مِنْ خَبَايَا صُدُورِهِمْ ، وَهُوَ أَنْ ينادُوا هَوْلَاءِ الشُّرَكَاءِ  
نِدَاءً اسْتِغَاثَةً وَاسْتِنجَادًا لِأَبْطَالِ دَعْوَى الدَّاعِي إِلَى الْكُفْرِ بِهَا ، وَإِثْبَاتِهِ الْعَجْزَ لَهَا ، وَبَذَلَ  
الْجُهْدَ فِيمَا يَنْسُبُونَ إِلَيْهَا مِنَ التَّأثيرِ الْبَاطِنِ ، وَالتَّديِيرِ الْكَاْمِنِ ، الَّذِي هُوَ عِنْدَهُمْ أَمْرٌ غَيْبِيٌّ  
، يَدْخُلُ فِي مَعْنَى الْكَيْدِ الْخَفِيِّ . فَإِنْ كَانَ لَهَا شَيْءٌ مِمَّا مِنَ السُّلْطَانِ الْغَيْبِيِّ فِي أَنْفُسِهَا أَوْ  
عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فَهَذَا وَقْتُ ظُهُورِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَظْهَرِ لِأَبْطَالِ عِبَادَتِهَا وَتَعْظِيمِهَا ، وَنَصْرِ عَابِدِيهَا  
وَمُعْظَمِي شَأْنِهَا ، فَمَتَى يَظْهَرُ وَيَنْتَفِعُونَ بِهِ ؟ وَهُمْ مُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ ، وَكُلُّ مَا يَرْجُونَ أَوْ  
يَخَافُونَ مِنْهَا فَهُوَ خَاصٌّ بِمَا يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ ؟ .

(181/301)

---

إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ هَذَا تَعْلِيلٌ لِحُزْمِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ - بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ عَجْزِ هَذِهِ الْمَعْبُودَاتِ ، وَتَخْفِيرِ أَمْرِهَا وَأَمْرِ عَابِدِيهَا ، عَلَى مَا كَانَ مِنْ  
ضَعْفِهِ بِمَكَّةَ عِنْدَ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ . يَقُولُ : إِنَّ نَاصِرِي وَمُتَوَلِّي أَمْرِي هُوَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ  
عَلَيَّ هَذَا الْكِتَابَ النَّاطِقَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ ، وَبِمَا يَجِبُ مِنْ عِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ فِي  
الْمُهَمَّاتِ وَالْمَلِمَّاتِ وَحُدَّةِ ، وَبِأَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِهِ بَاطِلَةٌ ، وَأَنَّ دُعَاءَ هَذِهِ الْأَوْثَانِ هُزُؤٌ بَاطِلٌ ،

وَسُخْفٌ لَا يَرْضَاهُ لِنَفْسِهِ إِلَّا جَاهِلٌ سَافِلٌ ، وَهُوَ يَتَوَكَّلُ نَصْرَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُمْ  
الَّذِينَ صَلَحَتْ أَنْفُسُهُمْ بِالْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ السَّالِمَةِ مِنَ الْخُرَافَاتِ وَالْأَوْهَامِ ، وَالْأَعْمَالِ الَّتِي  
تَصْلُحُ بِهَا الْإِفْرَادُ وَشُؤْنُ الْجَمَاعَاتِ ، فَيَنْصُرُهُمْ عَلَى الْخُرَافِيِّينَ الْفَاسِدِي الْعَقَائِدِ ،  
وَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَعْمَالِ فَمَا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّثُ فِي الْأَرْضِ  
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (13 : 17) .

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ أَيُّ : وَأَمَّا الَّذِينَ تَدْعُوهُمْ  
لِنَصْرِكُمْ وَلِغَيْرِ النَّصْرِ مِنْ مَنَافِعِكُمْ وَدَفْعِ الضَّرِّ عَنْكُمْ ، فَهُمْ عَاجِزُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ

(182/301)

---

أَنْ يَنْصُرُونَكُمْ ، وَلَا أَنْ يَنْصُرُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى مَنْ يُحَقِّرُ أَمْرَهُمْ ، أَوْ يَسْتَلْبِهُمُ شَيْئًا مِمَّا وُضِعَ مِنْ  
الطَّيِّبِ أَوْ الْحَلِيِّ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ كَسَرَ إِبْرَاهِيمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْأَصْنَامَ فَجَعَلَهُمْ  
جُذَاذَا فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَدْفَعُوهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا أَنْ

يَنْتَفِعُوا مِنْهُ لَهَا . وَرَوَى عَنْ مُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -  
وَكَانَا شَاطِئِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ أَسْلَمَا لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمَدِينَةَ " أَنَّهُمَا  
كَانَا يَعْدُونَ أَنَّ فِي اللَّيْلِ عَلَى أَصْنَامِ الْمُشْرِكِينَ يَكْسِرَانَهَا وَيَتَّخِذَانَهَا حَطَبًا لِلْأَرَامِلِ لِيُعْتَبَرَ

قَوْمُهُمَا بِذَلِكَ ، وَكَانَ لَعْمَرُ بْنُ الْجُمُوحِ - وَكَانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ - صَنِمٌ يُعْبَدُهُ فَكَانَا يَجِيئَانِ فِي  
الَّيْلِ فَيُنَكِّسَانِهِ عَلَى رَأْسِهِ ، وَيُلَطِّخَانِهِ بِالْعُذْرَةِ ، فَيَجِيءُ فَيَرَى مَا صُنِعَ بِهِ فَيَغْسِلُهُ وَيُطَيِّبُهُ  
وَيَضَعُ عِنْدَهُ سَيْفًا وَيَقُولُ لَهُ : انْتَصِرْ . حَتَّى أَخَذَاهُ مَرَّةً فَتَرَاهُ مَعَ كَلْبٍ مَيِّتٍ ، وَدَلِيَاهُ بِحَبْلِ  
فِي بُرٍّ . فَلَمَّا رَأَاهُ كَذَلِكَ عَلِمَ بَطْلَانُ عِبَادَتِهِ وَأَسْلَمَ ، فِيهِ يَقُولُ :  
تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَهَا مُسْتَدِنٌ . . . لَمْ تَكُ وَالْكَلْبُ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ  
وَبَعْدَ أَنْ نَفَى قُدْرَتَهُمْ عَلَى النَّصْرِ ، قَفَى عَلَيْهِ بِنَفْيِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْإِرْشَادِ إِلَيْهِ فَقَالَ : .

(183/301)

---

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا أَيُّ : وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَهْدُوكُمْ إِلَى مَا تَنْتَصِرُونَ بِهِ مِنْ  
أَسْبَابِ خَفِيَّةٍ أَوْ جَلِيَّةٍ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ مُطْلَقًا ، فَكَيْفَ يَسْتَجِيبُونَ لَكُمْ ؟ عَلَى أَنَّهُمْ لَوْ  
سَمِعُوا لَمَا اسْتَجَابُوا لِعِزِّهِمْ عَنِ الْفِعْلِ ، كَفَقَدِهِمْ لِلسَّمْعِ ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا  
يُبْصِرُونَ أَيُّ : وَهُمْ فَاقْدُونَ لِحَاسَةَ الْبَصَرِ كَفَقَدِهِمْ لِحَاسَةَ السَّمْعِ ، وَتَرَاهُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ  
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِمَا وَضِعَ لَهُمْ مِنَ الْأَعْيُنِ الصَّنَاعِيَّةِ ، وَالْحَدَقِ الزُّجَاجِيَّةِ أَوِ الْجَوْهَرِيَّةِ ،  
وَجَعَلَهَا مُوجَّهَةً إِلَى الدَّخْلِ عَلَيْهَا كَأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ؛ لِأَنَّ الْأَبْصَارَ لَا  
يَحْصُلُ بِالصَّنَاعَةِ ، بَلْ هُوَ مِنْ خَوَاصِّ الْحَيَاةِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا ، وَإِذَا كَانُوا لَا

يَسْمَعُونَ دُعَاءَ وَلَا نِدَاءَ مِنْ عَابِدِهِمْ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَا يُبْصِرُونَ حَالَهُ وَحَالَ خَصْمِهِ ، فَأَنَّى  
يُرْجَى مِنْهُمْ نَصْرُهُ وَشِدَّةُ أَرْزِهِ ؟ .

(184/301)

وَفِي آيَةِ وَجْهِ آخِرُ ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ ، وَهُوَ أَنَّ الْخِطَابَ فِيهَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالرَّسُولَ فِي  
مُقَدِّمَتِهِمْ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ فِي الْأَصْنَامِ قَدْ تَمَّ فِيمَا قَبْلَهَا وَعَادَ الْكَلَامُ فِي عَابِدِيهَا ، أَيُّ:  
وَإِنْ تَدْعُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ هَؤُلَاءِ الْأَغْيَاءَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ لَمْ يَعْقِلُوا هَذِهِ الْحُجَجَ  
وَالْبَرَاهِينَ ، إِلَى هُدَى اللَّهِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِسْلَامُ وَلَا يَسْمَعُوا دَعْوَتَكُمْ سَمَاعَ فَهْمٍ وَاعْتِبَارٍ ،  
وَتَرَاهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ مَا أُوتِيَتْ مِنْ سَمْتِ الْجَلَالِ وَالْوَقَارِ ،  
الَّذِي يُمَيِّزُ بِهِ صَاحِبُ الْبَصِيرَةِ بَيْنَ أَوْلِي الْجِدِّ وَالْعَزْمِ ، وَالصِّدْقِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، وَبَيْنَ  
أَهْلِ الْعَبَثِ وَالْهَزْلِ . وَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ ذَوِي الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ يَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ - فَيَعْرِفُ مِنْ شَمَائِلِهِ وَسِيمَاهُ فِي وَجْهِهِ أَنَّهُ حُرٌّ صَادِقٌ ، غَيْرُ مُخَادِعٍ وَلَا مُمَازِقٍ ،  
فَيَقُولُ : وَاللَّهِ مَا هَذَا الْوَجْهُ وَجْهُ كَاذِبٍ ، وَمَا زَالَ مِنَ الْمَعْهُودِ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ أَصْحَابَ  
الْبَصِيرَةِ وَالْفَضِيلَةِ مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ

(185/301)

بَعْضًا بِذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ الْعَهْدِ بِالتَّاقِي ، بِمَا يَتَوَسَّمُونَ مِنْ مَلَامِحِ الْوَجْهِ وَمَعَارِفِهِ ، ثُمَّ مِنْ مَوْضُوعِ  
الْحَدِيثِ وَتَأْثِيرِهِ فِي نَفْسِ الْمُتَكَلِّمِ وَالسَّامِعِ ، ثُمَّ يَكْمُلُ ذَلِكَ بِالْمَعَاشِرَةِ . كَمَا يَعْرِفُونَ حَالَ  
الْأَشْرَارِ وَالْمُنَافِقِينَ بِذَلِكَ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ  
(47 : 30) بِهَذِهِ الْبَصِيرَةِ التَّيْرَةِ عَرَفَتِ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ فَضْلِي عَقَائِلَ قُرَيْشٍ فَضَائِلَ  
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَبْلَ بَعْثِهِ ، فَاسْتَمَاتَتْهُ وَخَطَبَتْهُ لِنَفْسِهَا عَلَى غِنَاهَا وَفَقْرِهِ ، بَعْدَ أَنْ  
رَفَضَتْ أَنَا سَا مِنْ كِبْرَاءِ قُرَيْشٍ خَطَبُوهَا بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِهَا الْأَوَّلِ ، ثُمَّ كَانَتْ أَوَّلَ مَنْ جَزَمَ  
بِرِسَالَتِهِ عِنْدَمَا حَدَّثَهَا بِأَوَّلِ مَا رَأَتْ مِنْ بَدْءِ الْوَحْيِ وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُ ، وَقَدْ كَانَ أَبُو  
بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَوَّلَ رَجُلٍ دَعَاهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى  
الْإِسْلَامِ بِحُسْنِ فِرَاسَتِهِ فِيهِ ، فَلَمْ يَتَوَقَّفْ وَلَمْ يَتَمَكَّثْ وَلَمْ يَتَرَيَّثْ أَنْ أَجَابَ الدَّعْوَةَ مُنْشَرِحَ  
الصَّدْرِ قَرِيرِ الْعَيْنِ لِأَنَّهُ كَانَ أَجْدَرَ النَّاسِ بِمَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا وَحَقِيقَةِ مَنْ دَعَا إِلَيْهَا . وَأَمِثْلَةُ  
هَذَا كَثِيرَةٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ . وَكَانَ أَظْهَرُهَا فِي قَرْنِنَا هَذَا تَعَلُّقُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ عَبْدِ اللَّهِ بِالسَّيِّدِ  
جَمَالِ الدِّينِ الْأَفْغَانِيِّ مِنْ أَوَّلِ لَيْلَةٍ رَأَاهُ فِيهَا . وَلِزَامُهُ إِلَيَّ أَنْ فَارَقَ هَذِهِ الدِّيَارَ ، فَلَمْ يَعْرِفْهُ حَقَّ  
الْمَعْرِفَةِ غَيْرَهُ

---

عَلَى كَثْرَةِ الْمُكْبِرِينَ لَهُ وَالْمُعْجِبِينَ بِهِ ، وَقَدْ كَانَ الْكَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَزْهَرِ يَفْرُونَ مِنْهُ  
وَيَصُدُّونَ عَنْهُ ، فَأَيْنَ هُمْ وَأَيْنَ آثَارُهُمْ فِي الْعِلْمِ أَوِ الدِّينِ ؟ فَبِأَمْثَالِ هَذِهِ الْعِبَرِ الْوَاقِعَةِ تَفْهَمُ  
مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَخِيرِ فِي تَفْسِيرِهَا ،  
لَا بِمَجْرَدِ تَسْمِيَةِ هَذَا التَّعْبِيرِ اسْتِعَارَةً شَبَّهَ فِيهَا كَذَا بِكَذَا . ثُمَّ أَقْرَأُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلَهُ تَعَالَى :  
وَمِنْهُمْ مَنْ يُسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُنظَرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ  
تَهْدِي الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (10 : 42 ، 43) .

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ هَذِهِ الْآيَةُ بَيَانٌ لِأَصُولِ الْفَضَائِلِ الْأَدْبِيَّةِ  
وَأَسَاسِ التَّشْرِيعِ ، وَهِيَ الَّتِي تَلِي فِي

(187/301)

---

الْمُرْتَبَةِ أُصُولِ الْعَقِيدَةِ الْمُبْنِيَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ ، الَّذِي تَقَرَّرَ فِيهَا قَبْلَهَا مِنَ الْآيَاتِ ، بِأَبْلَغِ التَّوَكِيدِ  
، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ يَأْمُرُ فِيهِ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ ، هِيَ  
أُصُولُ كَلِمَةِ الْقَوَاعِدِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْآدَابِ النَّفْسِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ . الْأَصْلُ الْأَوَّلُ : الْعَفْوُ ،  
وَهُوَ يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى خَالِصِ الشَّيْءِ وَجَيِّدِهِ ، وَعَلَى الْفَضْلِ الزَّائِدِ فِيهِ أَوْ مِنْهُ ، وَعَلَى



السَّهْلَ الَّذِي لَا كُفَّةَ فِيهِ ، وَعَلَى مَا يَأْتِي بِدُونِ طَلَبٍ أَوْ بِدُونِ إِخْفَاءٍ وَمُبَالَغَةٍ فِي الطَّلَبِ ،  
وَهَذِهِ الْمَعَانِي مُتَقَارِبَةٌ وَهِيَ وَجُودِيَّةٌ ، وَمِنْ مَعَانِيهِ السَّلْبِيَّةُ إِزَالَةُ الشَّيْءِ كَعَفَتِ الرِّيحُ  
الدِّيَارَ وَالْأَثَارَ . أَوْ إِزَالَةُ أَثَرِهِ كَالْعَفْوِ عَنِ الذَّنْبِ ، وَهُوَ مَنَعٌ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْعِقَابِ ،  
فَمَعَانِي الْعَفْوِ الْوَجُودِيَّةُ وَالْعَدَمِيَّةُ أَوْ الْمَوْجِبَةُ

(188/301)

وَالسَّلْبِيَّةُ كُلُّهَا إِحْسَانٌ ، وَرَفِيقٌ ، وَقَدْ وَرَدَ عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِ الْعَفْوِ هُنَا أَقْوَالٌ  
كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَرِوَايَةُ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ خُذِ الْعَفْوَ خُذْ مَا عَفَا  
لَكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ - أَيُّ مَا فَضَلَ وَمَا أَتَوَكَّ بِه مِنْ شَيْءٍ . وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ بَرَاءَةُ بَفَرَايِضِ  
الصَّدَقَاتِ وَتَفْصِيلِهَا ، وَبِذَلِكَ قَالَ السُّدِّيُّ وَزَعَمَ أَنَّهَا نُسِخَتْ بِآيَةِ الزَّكَاةِ - وَفِي رِوَايَةِ  
الضَّحَّاكِ عَنْهُ : أَنْفَقَ الْفَضْلَ ، وَمِثْلَهَا عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ . وَفِي عِدَّةِ رِوَايَاتٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ  
عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَمِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ مَعْنَاهَا : خُذِ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ  
، وَمِثْلُهُ وَفِي رِوَايَةِ لِهَشَامٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ خَالَتِهِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَبِهِ قَالَ  
مُجَاهِدٌ ، وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ الْعَفْوَ هُنَا الصَّفْحُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ،  
وَكَانَ عَشْرَ سِنِينَ فَنُسِخَ بِآيَةِ السَّيْفِ ، وَهَذَا ضَعِيفٌ لِأَنَّ الْعَفْوَ بِهَذَا الْمَعْنَى لَا يُعْبَرُ عَنْهُ

بِالْأَخْذِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ هُوَ بِالْإِعْطَاءِ أَشْبَهُهُ ، وَلَا بِالتَّجْبُوتِ لِأَنَّهُ لَمْ يُطَلَبْ . وَأَحْسَنَ  
الزَّمَخْشَرِيُّ مَا شَاءَ فِي تَصْوِيرِهِ مَعْنَى الْعَفْوِ بِمَا تُعْطِيهِ اللُّغَةُ ، فَقَالَ : وَالْعَفْوُ ضِدُّ الْجُهْدِ ،  
أَيُّ خُذْ مَا عَفَاكَ مِنْ أَعْمَالِ النَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ ، وَمَا أَتَى مِنْهُمْ وَتَسَهَّلَ مِنْ غَيْرِ كَلْفَةٍ ، وَلَا  
تُدَاقِهِمْ وَلَا تَطْلُبْ مِنْهُمْ الْجُهْدَ

(189/301)

وَمَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَنْفِرُوا كَقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْرُوا وَلَا تَعْسَرُوا قَالَ :  
خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي . . . وَلَا تُنْطِقِي فِي سُورَتِي حِينَ أَغْضَبُ  
وَقِيلَ : خُذِ الْفَضْلَ وَمَا تَسَهَّلَ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ ، وَذَلِكَ قَبْلَ نَزُولِ آيَةِ الزَّكَاةِ . فَلَمَّا نَزَلَتْ أَمْرًا أَنْ  
يَأْخُذَهُمْ بِهَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا . اهـ . نَقُولُ : وَبَقِيَتْ الْآيَةُ مُحْكَمَةً فِي صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ .  
وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّ الْعَفْوَ يَشْمَلُ هَذَا وَذَلِكَ ، فَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّ مِنْ أُصُولِ آدَابِ هَذَا الدِّينِ  
وَقَوَاعِدِ شَرْعِهِ الْيُسْرَ وَتَجَنُّبَ الْحَرَجِ وَمَا يَشُقُّ عَلَى النَّاسِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي  
ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْوُضُوءِ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَقَدْ خَالَفَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ أَهْلُ  
الْفِئَةِ الْمُقْلُوبِ ، فَجَعَلُوا الْعُسْرَ وَالْحَرَجَ مِنْ أَهَمِّ قَوَاعِدِ الدِّينِ وَأُصُولِ الشَّرْعِ فَعَمَلًا لَا تَسْمِيَةً ،  
وَقَدْ صَحَّ فِي الْأَحَادِيثِ : أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا خَيْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ

أَسْرَهُمَا " وَتَرَى هَوْلًا لَا يُخَيِّرُ أَحَدُهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَعْسَرَهُمَا ، وَلَا سِيَّمَا الْعُسْرُ  
عَلَى الْأُمَّةِ بِأَسْرِهِمَا ، وَأَمَّا فِتَاوَى الْأَفْرَادِ فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُصَنِّفِينَ مِنْهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ فِيهَا  
قَوْلَانِ مُصَحَّحَانِ : نَحْنُ مَعَ الدَّرَاهِمِ قَلَّةٌ وَكَثْرَةٌ ! يَعْنِي : فِي الْفِتْوَى بِأَحَدِهِمَا .

(190/301)

---

الْأَصْلُ الثَّانِي : الْأَمْرُ بِالْعُرْفِ وَهُوَ مَا تَعَارَفَهُ النَّاسُ مِنَ الْخَيْرِ وَفَسَّرُوهُ بِالْمَعْرُوفِ . وَفِي  
اللِّسَانِ : الْمَعْرُوفُ ضِدُّ الْمُنْكَرِ ، وَالْعُرْفُ ضِدُّ النُّكْرِ قَالَ : وَالْعُرْفُ وَالْعَارِفَةُ وَالْمَعْرُوفُ  
وَاحِدٌ ضِدُّ النُّكْرِ ، وَهُوَ كُلُّ مَا تَعَرَّفَهُ النَّفْسُ مِنَ الْخَيْرِ وَتَبَسَّأَ بِهِ وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ (قَالَ) وَقَدْ  
تَكَرَّرَ

ذَكَرُ الْمَعْرُوفِ فِي الْحَدِيثِ ، وَهُوَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا عُرِفَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ ،  
وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ ، وَكُلِّ مَا نَدَبَ إِلَيْهِ وَنَهَى عَنْهُ مِنَ الْمُحْسِنَاتِ وَالْمُقْتَبَحَاتِ ، وَهُوَ مِنْ  
الصِّفَاتِ الْغَالِيَةِ ، أَيُّ أَمْرٍ مَعْرُوفٍ بَيْنَ النَّاسِ إِذْ رَأَوْهُ لَا يُنْكِرُونَهُ ، وَالْمَعْرُوفُ النِّصْفَةُ  
وَحُسْنُ الصُّحْبَةِ مَعَ الْأَهْلِ وَغَيْرِهِمْ ، وَالْمُنْكَرُ ضِدُّ ذَلِكَ جَمِيعُهُ .

(191/301)

---

وَالْقَوْلُ الْجَامِعُ: أَنَّ الْعَرَبَ تَطْلُقُ الْمَعْرُوفَ عَلَى ضِدِّ الْمُنْكَرِ وَعَلَى ضِدِّ الْمَجْهُولِ ،  
وَالْمُنْكَرُ هُوَ الْمُسْتَقْبَحُ عِنْدَ النَّاسِ الَّذِي يَنْفِرُونَ مِنْهُ لِقُبْحِهِ أَوْ ضَرَرِهِ ، وَيَذُمُّونَهُ وَيَذُمُّونَ  
أَهْلَهُ . وَالْأَمْرُ بِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي أَصُولِ الدِّينِ وَكَلِيَّاتِ التَّشْرِيعِ ،  
يُثْبِتُ لَنَا أَنَّ الْعُرْفَ أَوْ الْمَعْرُوفَ أَحَدُ هَذِهِ الْأَرْكَانِ لِلْأَدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالتَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ ،  
وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى اعْتِبَارِ عَادَاتِ الْأُمَّةِ الْحَسَنَةِ ، وَمَا تَوَاطَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ فِي  
مَصَالِحِهَا ، حَتَّى إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَيَّدَ طَاعَةَ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
بِالْمَعْرُوفِ فِي عَقْدِ مَبَايَعَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلنِّسَاءِ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ  
الْمُمْتَحِنَةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا  
يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ

(192/301)

---

فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (60 : 12) وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ  
عَقْدَ الْمَبَايَعَةِ أَعْظَمُ الْعُقُودِ فِي الْأُمَّمِ وَالدُّوَلِ ، فَتَقْيِيدُ طَاعَةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ - فِيهِ بِالْمَعْرُوفِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التِّزَامَ الْمَعْرُوفَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ هَذَا الدِّينِ وَشَرْعِهِ ،

وَمِنَ الْمَعْلُومِ فِي السُّنَّةِ أَنَّ مُبَايَعَتَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلرِّجَالِ كَانَتْ مُبَيَّنَةً عَلَى أَصْلِ  
مُبَايَعَتِهِ لِلنِّسَاءِ الْمَنْصُوصِ فِي هَذِهِ آيَةِ . وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّمَا الطَّاعَةُ  
فِي الْمَعْرُوفِ وَهُوَ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الصَّحِيحِ .

(193/301)

وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (الْأَعْرَافِ) وَصْفُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي بَشَارَةِ  
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَنَّهُ يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ (7 : 157) وَوَرَدَ فِي ذِكْرِ  
الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فِيمَا حَكَاهُ تَعَالَى مِنْ وَصِيَّةِ لُقْمَانَ فِي السُّورَةِ الْمُسَمَّاةِ  
بِاسْمِهِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كَالْأَعْرَافِ ، ثُمَّ تَكَرَّرَ ذِكْرُ الْمَعْرُوفِ فِي السُّورِ الْمَدِينِيَّةِ ، وَأَكْثَرُهَا فِي  
بَيَانِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَذَلِكَ فِي عَشْرَاتٍ مِنَ الْآيَاتِ ، بَعْضُهَا فِي صِفَةِ الْأُمَّةِ  
الْإِسْلَامِيَّةِ وَحُكُومَاتِهَا ، وَأَكْثَرُهَا فِي الْأَحْكَامِ الزَّوْجِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ . فَمِنَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ فِي  
تَعْلِيلِ الْإِذْنِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ مِنْ سُورَةِ الْحَجِّ ، فَذَكَرَ مِنْ صِفَاتِ الْمَأْذُونِ لَهُمْ بِهِ أَنَّهُمْ ظَلَمُوا  
وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ لِأَجْلِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ قَالَ : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي  
الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ  
(22 : 41) وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (3 : 104) وَقَوْلُهُ بَعْدَهَا :  
كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (3 :

(110)

(194/301)

---

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ : وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ (9 : 71) الْآيَةَ . ثُمَّ قَوْلُهُ فِي صِفَاتِهِمْ ، مِنْهَا : التَّابُونَ  
الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ  
الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (9 : 112) فَهَذِهِ الْآيَاتُ أُصُولٌ لِمَا  
مَنْدُوحَةٌ لِلأُمَّةِ عَنِ التِّزَامِ فِي آدَابِهَا وَتَشْرِيعِهَا .

وَمِنِ النَّوْعِ الثَّانِي وَهُوَ مَا وَرَدَ فِي الْأَحْكَامِ الْفُرْعِيَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْحُقُوقِ الزَّوْجِيَّةِ مِنْ سُورَةِ  
الْبَقَرَةِ : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ (2 : 228) وَهَذِهِ الْآيَةُ  
رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْحُقُوقِ الزَّوْجِيَّةِ يُفْضَلُ بِهَا الْإِسْلَامُ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ وَالْقَوَانِينِ

(195/301)

فِي الْعَدْلِ وَالْمَصْلَحَةِ ، وَلَمْ تَنْلِ النَّسَاءُ مِثْلَهُ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ . وَمِنْهَا قَوْلُهُ فِي أَحْكَامِ  
الطَّلَاقِ : فَاِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُهُ بِإِحْسَانٍ (229) وَقَوْلُهُ بَعْدَهُ : فَاِمْسِكُوهُنَّ  
بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ (231) - وَمِثْلَهَا فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ - وَقَوْلُهُ بَعْدَهَا فِي  
الْمُطَلَّقاتِ الرَّجَعِيَّاتِ ، فَلَا تَعْضَلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ  
(232) وَقَوْلُهُ بَعْدَهَا فِيهِنَّ إِذَا كُنَّ مَرْضِعَاتٍ : وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ  
بِالْمَعْرُوفِ (233) إِلَى قَوْلِهِ : فِيهِنَّ إِذَا أَرَادَ الزَّوْجَانِ الْفِصَالَ عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ :  
وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ (2)  
(233) وَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا فِي مُعْتَدَاتِ الْوَفَاةِ : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ  
فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ (234) وَقَوْلُهُ بَعْدَ آيَةِ أُخْرَى فِي الْمُطَلَّقاتِ : وَمَتَّعُوهُنَّ  
عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236)  
وَقَوْلُهُ بَعْدَ أَرْبَعِ آيَاتٍ أُخْرَى : وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241)  
وَقَوْلُهُ فِي مُعَاشَرَةِ الْأَزْوَاجِ مِنْ سُورَةِ النَّسَاءِ : وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ  
فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (4 : 19) وَهُنَالِكَ آيَاتٌ أُخْرَى فِي  
الْعَفْوِ عَنِ الْقِصَاصِ

وَفِي الْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَفِي أَكْلِ الْوَصِيِّ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ قِيدَتْ بِالْمَعْرُوفِ .  
فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الْمَعْرُوفَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مُعْتَبَرٌ فِي هَذِهِ الْأَحْكَامِ الْمُهْمَّةِ ، وَأَنَّ الْمَعْرُوفَ فِيهَا  
هُوَ الْمَعْهُودُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَعَامَلَاتِ وَالْعَادَاتِ ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ يَخْتَلِفُ  
بِاخْتِلَافِ الشُّعُوبِ وَالْبِلَادِ وَالْأَوْقَاتِ ، فَتَحْدِيدُهُ وَتَعْيِينُهُ بِاجْتِهَادِ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ  
بِدُونِ مُرَاعَاةِ عُرْفِ النَّاسِ " مُخَالَفٌ لِنَصِّ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى . وَكَشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ  
وغيرِهِ مِنْ فُقَهَاءِ الْحَدِيثِ وَالْحَنَابِلَةِ أَقْوَالٌ حَكِيمَةٌ فِي الْمَعْرُوفِ ، مِنْهَا أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ  
مِنَ الزَّوْجَيْنِ مِنْ أَعْمَالِ الْبَيْتِ وَالْأُسْرَةِ مَا جَرَى الْعُرْفُ بِهِ ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ مِنَ الْمَعْرُوفِ عَنْ  
بَعْضِ الْبُيُوتِ أَنَّهُنَّ لَا يُزَوَّجْنَ  
بَنَاتُهُنَّ لِمَنْ يَتَزَوَّجُ عَلَيْهِنَّ وَيُضَارُهُنَّ ، كَانَ هَذَا كَالشَّرْطِ فَلَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ عَلَى  
الْمَرْأَةِ مِنْهُنَّ .

فَإِنْ قُلْتَ : إِنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ قَالُوا : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْعُرْفِ وَالْمَعْرُوفِ فِي الْآيَاتِ هُوَ الْمَنْصُوصُ  
فِي الشَّرْعِ ، كَقَوْلِ صَاحِبِ لُبَابِ التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ : وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ وَأَمْرٌ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ  
وَعَرَفْتَهُ بِالْوَحْيِ . فَالْجَوَابُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ مُخَالَفٌ لِمَا



(197/301)

ذَكَرْنَا وَمَا لَمْ نَذْكَرْ مِنْ أَقْوَالِ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرَادَ مِنْ كُلِّ آيَةٍ ، وَلَا مِنْ مَجْمُوعِ  
الآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَمَا يَحْتَمِلُهُ مِنْهَا كَأَيَاتِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الْمَدْيِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ فِيهَا  
عَامًّا يَشْمَلُ الْمَعْرُوفَ فِي الشَّرْعِ وَفِي الْعَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ ، وَلَا يَظْهَرُ هَذَا فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ  
الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ لِأَنَّهَا الْأُولَى فِي الْمَوْضُوعِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ نَزَلَ قَبْلَهَا أَحْكَامٌ يُفَسَّرُ بِهَا  
الْعُرْفُ وَيُحَالُ عَلَيْهَا فِيهِ - فَمَا قَالَهُ صَاحِبُ لُبَابِ التَّأْوِيلِ هُوَ مَنْ قَشَرَهُ لَا مِنْ لُبَابِهِ ، وَأَوَّلُ مَا  
يُرَدُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْعُرْفِ الْمَعْرُوفِ بِالْوَحْيِ ، يُقَالُ فِيهِ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ الْأَمْرِ بِهِ  
مَعْرُوفًا ، وَبَعْدَ الْأَمْرِ بِهِ صَارَ مِنْ قَبِيلِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ .

(198/301)

نَعَمْ إِنْ مَا يَتَقَرَّرُ بِنَصِّ الشَّرْعِ يَصِيرُ مِنْ جُمْلَةِ الْمَعْرُوفِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْمَجْهُولِ ، كَمَا أَنَّهُ  
يَكُونُ بِالضَّرُورَةِ مِنَ الْمَعْرُوفِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْمُنْكَرِ . وَيَبْقَى تَحْكِيمُ الْعُرْفِ وَالْمَعْرُوفِ  
بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيَّةِ الْعَامِّ مُعْتَبَرًا فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ بِخُصُوصِهِ ، وَلِلْأَمَّةِ فِيهِ عُرْفٌ غَيْرُ مُعَارِضٍ

بِنَصِّ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ نِظَامُ الْأُمَّةِ عَلَى أَسَاسٍ ثَابِتٍ إِذَا كَانَ أَمْرُ الْعُرْفِ وَالْمَعْرُوفِ فِيهَا فَوْضِي  
وَعَبْرٌ مُقَيَّدٌ بِأُصُولٍ وَأَحْكَامٍ وَفَضَائِلٍ ثَابِتَةٍ ، فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ ثَابِتٍ ، وَهُوَ مَا لَا تَخْتَلِفُ فِيهِ  
الْمَصَالِحُ وَالْمَنَافِعُ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَأَحْوَالِ الْمَعِيشَةِ ، وَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ يَحْكُمُ فِيهِ  
الْعُرْفُ وَهُوَ مَا يُقَابَلُهُ ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ الشَّرْعُ الْحَكِيمُ بِهِمَا مَعًا ، وَلَا يَضُرُّ مَعَ هَذَا اخْتِلَافُ  
النَّاسِ فِي مَا يَعْرِفُونَ وَيُنْكِرُونَ ، فَلْيَكُنِ الْمَعْرُوفُ كَمَا قَالَ الْجِصَّاصُ مِنْ أُمَّةِ الْحَنْفِيَّةِ : مَا  
يُسْتَحْسَنُ فِي الْعَقْلِ فَعَلُهُ وَلَا تُنْكِرُهُ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ ، فَيَكْفِي الْمُسْلِمِينَ الْمُحَافِظَةَ عَلَى  
النُّصُوصِ الثَّابِتَةِ إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَنْكَرَ الْمُؤْمِنُ مَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ نَصًّا حَمًّا لَا اجْتِهَادَ  
فِيهِ ، وَلْيَكُنِ لِلْجَمَاعَةِ بَعْدَهُ رَأْيٌ فِي مَا يَعْرِفُونَ وَيُنْكِرُونَ ، وَيَسْتَحْسِنُونَ وَيَسْتَهْجِنُونَ ، يَكُونُ  
عَمْدُهُمْ فِيهِ جُمُهورُ الْعُقَلَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَأَهْلُ الْأَدَبِ وَالْفَضِيلَةِ فِي كُلِّ عَصْرِ .

(199/301)

---

الأصل الثالث : الأعراسُ عن الجاهلين ، وهم السفهاءُ ، بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم ،  
وَلَا عِلاجٌ أَوْقَى لَأَذاهُمْ مِنَ الأِعراسِ عَنْهُمْ ، وَشَرُّهُمْ فِي هَذَا العَصْرِ مُرتزقةٌ صُحُفِ  
الأخبارِ المُنتشرةِ ، فَإِنَّ سَفَهَاءَها هُمُ شَرُّ مَنْ سَفَهَاءِ الشعراءِ فِي العُصورِ السَّابِقَةِ ، وَقَدْ  
قَلَّ سَفَهُ الشعراءِ فِي عَصْرِنَا هَذَا فَلَا أَعْرِفُ لِشاعِرٍ مشهورٍ

مِنَ الْقَذَعِ وَالْبَدَاءِ فِي الْهَجْوِ شَيْئًا مِمَّا نَعْتَدُ فِي الصُّحُفِ الَّتِي يُعْبَرُونَ عَنْهَا بِالسَّاقِطَةِ ، وَكَمْ  
مِنْ صَحِيفَةٍ قَائِمَةٍ نَاهِضَةٍ بِالثَّرْوَةِ ، شَرُّ مِنْ سَاقِطَةٍ بِالْقِلَّةِ .  
وَإِنَّمَا يَجِبُ الْإِعْرَاضُ عَنِ السُّفْهَاءِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَطْلُبُونَ الْحَقَّ إِذَا فَقَدُوهُ ، وَلَا يَأْخُذُونَ فِيمَا  
يُخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ إِذَا وَجَدُوهُ ، وَلَا يَرْعُونَ عَهْدًا ، وَلَا يَحْفَظُونَ وُدًّا ، وَلَا يَشْكُرُونَ مِنَ  
النِّعْمَةِ إِلَّا مَا اتَّصَلَ مَدَدُهُ ، فَإِذَا انْقَطَعَ عَادَ الشُّكْرُ كُفْرًا ، وَاسْتَحَالَ الْمَدْحُ ذَمًّا .

(200/301)

---

أَكْثَرُ مَا كَتَبَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدَابِ ، وَأَقْلَهُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ  
أُصُولِ الْأَحْكَامِ ، وَرُوِيَ عَنْ جَدِّنَا الْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ : لَيْسَ  
فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَجْمَعُ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ مِنْهَا ، وَوَجْهُهُ بَأَنَّ الْأَخْلَاقَ ثَلَاثَةٌ بِحَسَبِ الْقُوَى  
الْإِنْسَانِيَّةِ ، عَقْلِيَّةٌ ، وَشَهْوِيَّةٌ ، وَغَضَبِيَّةٌ ، فَالْعَقْلِيَّةُ الْحِكْمَةُ ، وَمِنْهَا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ،  
وَالشَّهْوِيَّةُ الْعِفَّةُ وَمِنْهَا اخْتِذِ الْعَفْوَ ، وَالغَضَبِيَّةُ الشَّجَاعَةُ وَمِنْهَا الْإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ .  
وَرَوَى الطَّبْرِيُّ مُرْسَلًا وَأَبْنُ مَرْدُودِيهِ مُوَصُّلًا مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ وَغَيْرِهِ لَمَّا نَزَلَتْ خُذِ الْعَفْوَ  
وَأْمُرَ بِالْعُرْفِ سَأَلَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَبْرِيلُ عَنْهَا فَقَالَ : " لَا أَعْلَمُ حَتَّى  
أَسْأَلَ . ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ : إِنَّ رَبَّكَ يَا مُرْكُ أَنْ تَصِلَ مِنْ قِطْعِكَ ، وَتُعْطِيَ مِنْ حَرَمِكَ ، وَتَعْفُو

عَمَّنْ ظَلَمَكَ " اهـ . مِنْ فَتْحِ الْبَارِي ، وَمُرَادُ الْإِمَامِ أَعْلَى وَأَشْمَلُ مِنْ ذَلِكَ ، وَفَهْمُهُ أَعْبَدُ  
وَأَوْسَعُ مِنْ فَهْمِ مَنْ عَلَّلَهُ أَوْ فَسَّرَهُ كَمَا عَلِمْتَ مِنْ تَفْسِيرِهَا فِي الْجُمْلَةِ .  
وَذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ أَنَّ بَعْضَ الْحُكَمَاءِ أَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى فَسَبَّكَ فِي بَيِّنَةٍ فِيهِمَا جِنَاسٌ فَقَالَ :  
خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفٍ كَمَا . . . أَمَرْتُ وَأَعْرَضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ  
وَلَنْ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ . . . فَسُتَحْسَنُ مِنْ ذَوِي الْجَاهِلِينَ

(201/301)

---

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ : قَالَ عُلَمَاءُنَا : هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ ثَلَاثِ  
كَلِمَاتٍ ، قَدْ تَضَمَّنَتْ قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ فِي الْمَأْمُورَاتِ وَالْمَنْهِيَّاتِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهَا حَسَنَةٌ  
إِلَّا أَوْعَتْهَا ، وَلَا فَضِيلَةٌ إِلَّا شَرَحَتْهَا ، وَلَا أَكْرُومَةٌ إِلَّا افْتَحَتْهَا ، وَأَخَذَتْ الْكَلِمَاتُ الثَّلَاثُ  
أَقْسَامَ الْإِسْلَامِ الثَّلَاثَةَ : فَقَوْلُهُ : خُذِ الْعَفْوَ تَوَكَّلِي بِالْبَيَانِ جَانِبَ اللَّيْنِ ، وَنَفْيِ الْحَرَجِ فِي الْأَخْذِ  
وَالْإِعْطَاءِ وَالتَّكْلِيفِ ، وَقَوْلُهُ : وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ تَنَاوَلَ جَمِيعَ الْمَأْمُورَاتِ وَالْمَنْهِيَّاتِ ، وَأَنْهَمَا مَا  
عُرِفَ حُكْمُهُ ، وَاسْتَقَرَّ فِي الشَّرِيعَةِ مَوْضِعُهُ ، وَاتَّفَقَتْ الْقُلُوبُ عَلَى عِلْمِهِ ، وَقَوْلُهُ :  
وَأَعْرَضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ تَنَاوَلَ

جَانِبَ الصَّفْحِ بِالصَّبْرِ الَّذِي يَتَأْتِي لِلْعَبْدِ بِهِ كُلُّ مُرَادٍ فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ . وَلَوْ شَرَحْنَا ذَلِكَ

عَلَى التَّفْصِيلِ لَكَانَ أَسْفَارًا . اهـ . وَمِنْ مَبَاحِثِ الْبَلَاغَةِ فِي الْآيَةِ أَنَّ مَا جَمَعَتْهُ هَذِهِ  
الْكَلِمَاتُ الثَّلَاثُ مِنَ الْمَعَانِي الْعَالِيَةِ هُوَ مِنْ عَجَازِ إِجْزَارِ الْقُرْآنِ ، الَّذِي لَا مَطْمَعُ فِي مِثْلِهِ  
لِإِنْسٍ وَلَا جَانٍّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار ح 9 ص 440 . 449 ﴾

(202/301)

وقال ابن عاشور :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) ﴾

أشبت هذه السورة من أفانين قوارع المشركين وعظمتهم وإقامة الحجة عليهم وبعثهم على  
التأمل والنظر في دلائل وحدانية الله وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وهدى دينه  
وكتابه وفضح ضلال المشركين وفساد معتقدتهم والتشويه بشركائهم ، وقد تخلل ذلك كله  
التسجيل بمكابرتهم ، والتعجيب منهم كيف يركبون رؤوسهم ، وكيف يناون بجانبهم ،  
وكيف يصمون أسماعهم ، ويغمضون أبصارهم عما دعوا إلى سماعه وإلى النظر فيه ،  
ونظرت أحوالهم بأحوال الأمم الذين كذبوا من قبلهم ، وكفروا بنعمة الله فحل بهم ما حل من  
أصناف العذاب ، وأندر هؤلاء بأن يحل بهم ما حل بأولئك ، ثم أعلن باليأس من أروعائهم ،  
وباتظار ما سيحل بهم من العذاب بأيدي المؤمنين ، وتثبيت الرسول والمؤمنين وتبشيرهم

والثناء على ما هم عليه من الهدى ، فكان من ذلك كله عبرة للمتبصرين ، ومسلاة للنبيء  
وللمسلمين ، وتنويه بفضلهم وإذ قد كان من شأن ذلك أن يثير في أنفس المسلمين كراهية  
أهل الشرك وتحفزهم للانتقام منهم ومجافاتهم والإعراض عن دعائهم إلى الخير ، لا جرم  
شُرِع في استيناف غرض جديد ، يكون ختاماً لهذا الخوض البديع ، وهو غرض أمر الرسول  
والمؤمنين بقلة المبالاة بجفاء المشركين وصلابتهم ، وبأن يسعواهم من عفوهم والدأب على  
محاولة هديهم والتبليغ إليهم بقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ الآيات .  
والأخذ حقيقته تناول شيء للانتفاع به أو لإضراره ، كما يقال : أخذت العدو من تلايبه ،  
ولذلك يقال في الأسير أخيد ، ويقال للقوم إذا أسروا أخذوا واستعمل هنا مجازاً فاستعير  
للتلبس بالوصف والفعل من بين أفعال لو شاء لتلبس بها ، فيشبه ذلك التلبس واختياره  
على تلبس آخر بأخذ شيء من بين عدة أشياء ، فمعنى (خذ العفو) : عامل به واجعله  
وصفاً ولا تلبس بضده .

(203/301)

---

وأحسب استعارة الأخذ للعرف من مبتكرات القرآن ولذلك ارجع أن البيت المشهور

وهو:

خُذِي الْعَفْوَ مَنِي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي . . .

وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أُغْضَبُ

هو لأبي الأسود الدؤلي ، وأنه اتبع استعمال القرآن ، وأن نسبته إلى أسماء بن خازجة

الفزاري أو إلى حاتم الطائي غير صحيحة .

والعفو الصّحاح عن ذنب المذنب وعدم مؤاخذته بذنبه وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿

وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ [البقرة: 219] وقوله : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى

يأتي الله بأمره ﴾ في سورة البقرة (109) ، والمراد به هنا ما يعم العفو عن المشركين

وعدم مؤاخذتهم بجفائهم ومساءتهم الرسول والمؤمنين .

وقد عمت الآية صور العفو كلها : لأن التعريف في العفو تعريف الجنس فهو مفيد للاستغراق

إذا لم يصلح غيره من معنى الحقيقة والعهد ، فأمر الرسول بأن يعفو ويصفح وذلك بعدم

المؤاخذة بجفائهم وسوء خلقهم ، فلا يعاقبهم ولا يقابلهم بمثل صنيعهم كما قال تعالى : ﴿

فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم

واستغفر لهم ﴾

[آل عمران: 159] ، ولا يخرج عن هذا العموم من أنواع العفو أزمانه وأحواله إلا ما

أخرجته الأدلة الشرعية مثل العفو عن القاتل غيلة ، ومثل العفو عن انتهاك حرمة الله ،

والرسول أعلم بمقدار ما يخص من هذا العموم ، وقد بينه الكتاب والسنة وألحق به ما

يقاس على ذلك المبين ، وفي قوله : ﴿ وأمر بالعرف ﴾ ضابط عظيم لمقدار تخصيص الأمر بالعمو .

(204/301)

---

ثم العفو عن المشركين المقصود هنا سبق أفراد هذا العموم إلى الذهن من بقيتها ولم يفهم السلف من الآية غير العموم ففي " صحيح البخاري " عن ابن عباس قال " قدم عيينة بن حصن المدينة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس ، وكان الحر بن قيس من النفر الذين يُدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته ، فقال عيينة لابن أخيه لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال " هيه يا ابن الخطاب ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل " فغضب عمر حتى همَّ أن يُوقِع به فقال له الحر : " يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافاً عند كتاب الله " وفيه عن عبد الله بن الزبير قال " ما أنزل الله ذلك إلا في أخلاق الناس " ومن قال إن هذه الآية نسخها آيات القتال فقد وهم : لأن العفو باب آخر ، وأما القتال فله أسبابه ولعله أراد من النسخ ما يشمل معنى البيان أو التخصيص في اصطلاح أصول



الفقه .

﴿ العُرف ﴾ اسم مرادف للمعروف من الأعمال وهو الفعل الذي تعرفه النفوس أي لا تنكره إذا خليت وشأنها بدون غرض لها في ضده ، وقد دل على مرادفته للمعروف قول النابغة:

فلا التُّكرُ معروفٌ ولا العُرفُ ضايِعٌ . . .

فقابل النكر بالعرف ، وقد تقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ في سورة آل عمران ( 110 ) .

(205/301)

---

والأمر يشمل النهي عن الضد ، فإن النهي عن المنكر أمر بالمعروف ، والأمر بالمعروف نهى عن المنكر ، لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده ، فالاجتزاء بالأمر بالعرف عن النهي عن المنكر من الإيجاز ، وإنما اقتصر على الأمر بالعرف هنا : لأنه الأهم في دعوة المشركين لأنه يدعوهم إلى أصول المعروف واحداً بعد واحد ، كما ورد في حديث معاذ بن جبل حين أرسله إلى أهل اليمن فإنه أمره أن يدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ثم قال : " فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات " ولو كانت دعوة المشركين

مبتدأة بالنهي عن المنكر لنفروا واملل الداعي ، لأن المناكير غالبية عليهم ومحدقة بهم ،  
ويدخل في الأمر بالعرف الاتسام به والتخلق بخلقته : لأن شأن الأمر بشيء أن يكون متصفاً  
بمثله .

والإفقد تعرض للاستخفاف على أن الأمر يبدأ بنفسه فيأمرها كما قال أبو الأسود:  
يا أيها الرجل المعلم غيره . . .

هال لنفسك كان ذا التعليم

على أن خطاب القرآن الناس بأن يأمرُوا بشيء يعتبر أمراً للمخاطب بذلك الشيء وهي  
المسألة المترجمة في أصول الفقه بأن الأمر بالأمر بالشيء هو أمر بذلك الشيء .

والتعريف في ﴿ العرف ﴾ كالتعريف في ﴿ العفو ﴾ يفيد الاستغراق .

وحذف مفعول الأمر لافادة عموم المأمورين ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ﴾ [ يونس :

25 ] ، أمر الله رسوله بأن يأمر الناس كلهم بكل خير وصلاح فيدخل في هذا العموم

المشركون دخولاً أولياً لأنهم سبب الأمر بهذا العموم أي لا يصدنك إعراضهم عن إعادة

إرشادهم وهذا كقوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم وعظّم ﴾ [ النساء : 63 ] .

والإعراض : إدارة الوجه عن النظر للشيء .

---

مشتق من العارض وهو الخد ، فإن الذي يلتفت لا ينظر إلى الشيء وقد فسر ذلك في قوله تعالى : ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ [الإسراء : 83] وهو هنا ، مستعار لعدم المؤاخذة بما يسوء من أحد ، شبه عدم المؤاخذة على العمل بعدم الالتفات إليه في كونه لا يترتب عليه أثر العلم به لأن شأن العلم به أن تترتب عليه المؤاخذة .

و"الجهل" هنا ضد الحلم والرشد ، وهو أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام ، فالمراد بالجاهلين السفهاء كلهم لأن التعريف فيه للاستغراق ، وأعظم الجهل هو الإشراك ، إذ اتخذ الحجر لها سفاهة لا تعد لها سفاهة ، ثم يشمل كل سفيه رأي .  
وكذلك فهم منها الحر بن قيس في الخبر المتقدم آنفاً ، وأقره عمر بن الخطاب على ذلك الفهم .

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفواً عن اعتداء فتدخل في ﴿ خذ العفو ﴾ ، أو إغضاء عما لا يلائم فتدخل في ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ ، أو فعل خير واتساماً بفضيلة فتدخل في ﴿ وأمر بالعرف ﴾ كما تقدم من الأمر بالأمر بالشيء أمر بذلك الشيء ، وهذا معنى قول جعفر بن محمد : "في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها وهي صالحة لأن يبين بعضها بعضاً ، فإن الأمر يأخذ العفو يتقيد بوجوب الأمر بالعرف ، وذلك في كل ما لا

يقبل العفو والمسامحة من الحقوق ، وكذلك الأمر بالعرف يتقيد بأخذ العفو وذلك بأن يدعو

الناس إلى الخير بلين ورفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير - 8 ص ﴾

(207/301)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) ﴾

وهذه آية جمع فيها المولى سبحانه وتعالى مكارم الأخلاق .

وبعد أن أبلغ الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدعو المشركين لأن

يكيدوا له مع شياطينهم وأصنامهم ولن يستطيعوا . وبعد ذلك يوضح له : أنا أحب أن

تأخذ بالعفو ، وفي هذا تعليم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولن يتبعه ، وكلمة " العفو "

ترد على السنننا ، ونحن لا ندري أن لها معنى أصيلاً في اللغة . وقد يسأل سائل : من أي

أتيت بهذا الشيء ؟ فتقول له : جاءني عفواً ، أي بدون جهد ، وبدون مشقة ، وبدون

سعي إليه ولا احتيال لاقتنائه .

ويقال أيضاً : إن هذا الشيء جاء لفلان عفواً خاطر ، أي لم يفكر فيه ، بل جاء ميسراً .

هذا هو معنى العفو . والحق هنا يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو ، أي أن

يأخذ الأمر الميسر السهل ، الذي لا تكلف فيه ولا اجتهاد ؛ لأنك بذلك تُسهل على الناس أمورهم ولا تعقدها ، أما حين تتكلف الأشياء ، فذلك يرهق الناس ، ولذلك يأمر الحق رسوله أن يقول : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ ص : 86 ] .  
وقوله : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أي أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف الأمور حتى تصير الحياة سهلة ولا يوجد لدد بين الناس ؛ لأن الذي يوجد اللدد هو التكلف وقهر الناس ، ويجب أن تقوم المعاملة فيما بينهم بدون لدد أو تكلف . ولذلك يقال : إن المؤمن هو السمع إذا باع ، والسمع إذا اشترى ، والسمع إذا اقتضى ، والسمع إذا اقتضى منه : أي أنه في كل أموره سمح .

وللأمر بأخذ " العفو " معنى آخر وهو أن تعفو عن ظلمك ؛ لأن ذلك ييسر الأمور .

(208/301)

---

والعفو أيضاً له معنى ثالث ، هو الأمر الزائد ، مثل قوله الحق تبارك وتعالى من قبل أن تفرض الزكاة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْو . . . ﴾ [ البقرة : 219 ] .

ثم حدد الحق بعد ذلك الزكاة وأوجه إنفاقها ، ونلاحظ أن الأمر بالإنفاق من قبل أن تفرض الزكاة ، والإنفاق بعد أن نزل الأمر بالزكاة يلتقيان في السهولة ؛ لأن المؤمن لا ينفق مما يحتاجه

. بل من الزائد عن حاجته .

وقول الله سبحانه وتعالى في الآية " خذ العفو " فيه أمر " خذ " ومقابله " أعط " وقد تعطي إنساناً فلا يأخذ منك إن رأى أن ما تعطيه له ليس في مصلحته ، لكن إذا قال الحق تبارك وتعالى : " خذ " فهذا أمر يعود نفعه عليك ، فإن كان العفو عن ظلمك في ظاهر الأمر ينقصك شيئاً ، فاعلم أنك أخذت العفو لنفسك .

واعلم أن الحق سبحانه وتعالى يجب من عبده المؤمن أن يكون هيناً لينا مع إخوانه من المؤمنين .

فإن عز عليه أخوه المؤمن فليهن له ، فإن تعالى أو تعالم أخ مسلم عليك ، فلا تتعال عليه أو تعالم حتى لا تقوم معركة بينكما ، بل تواضع أنت ، ليزيدك الله رفعة وعزة .

(209/301)

---

وكان الله سبحانه وتعالى يؤكد لك : أنك حين تعطي العفو تأخذ الخير من خلاله . ودائماً أضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - أنت حين تدخل إلى منزلك وتجد ابناً لك قد أساء إلى أخيه فيتجه قلبك وحنانك إلى المظلوم . ونحن عيال ربنا ، فإن ظلم واحدٌ آخر ، فالظالم بظلمه يجعل الله في جانب المظلوم ، ولذلك يحتاج الظالم إلى أن نحسن إليه حيث كان

سببا في رعاية الله لنا فنفعل معه مثلما فعل سيدنا حسن البصري عندما قيل له : إن فلانا  
اغتابك بالأمس . ونادى سيدنا حسن البصري الخادم وقال له : جاءنا طبق من باكورة  
الرطب . اذهب به إلى فلان - وحدد للخادم اسم من اغتابه - وتعجب الخادم : كيف  
تبعث بالرطب إليه وهو قد اغتابك ؟ فقال : أفلا أحسن إلى من جعل الله بجاني ، قل له :  
يقول لك سيدي بلغه أنك قد اغتبه فأهديت إليه حسناتك ، وهو أهداك رطبه " . ❁

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ❁

وتتناول الآية الكريمة الأمر بالعرف :

والعرف هو السلوك الذي تعرف العقول صوابه ، وتطمئن إليه النفوس ، ويوافق شرع الله ،  
ونسماه العرف ؛ لأن الكل يتعارف عليه ، ولا أحد يستحي منه ، لذلك نسمع في شتى  
المجتمعات عن بعض ألوان السلوك : هذا ما جرى به العرف . وما يجري به العرف عند  
المجتمعات المؤمنة يعتبر مصدراً من مصادر الأحكام الشرعية .

وخير مثال على ذلك : أننا نجد الشاب لا يخجل من أن يطرق باب أسرة ليطلب يد ابنتها ،  
لأن هذا أمر متعارف عليه ولا حياء منه ، بينما نجد المجتمع المسلم يستحي أن يوجد بين  
أفراده إنسان يزني ، والغاية من الزنا الاستمتاع ، والغاية من طلب يد الفتاة هو الاستمتاع ،  
لكن هناك فارق كبير بين متعة يجرمها الله عز وجل ، ومتعة يحلها الله تعالى .

وفي نهاية الآية يقول الله تعالى : ❁ . . . وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ❁

وكيف يكون الإعراض عن الجاهلين؟ . يخطئ من يظن أن الجاهل هو الذي لا يعلم، لأن من لا يعلم هو الأمي، أما الجاهل فهو من يعلم قضية تخالف الواقع. ونلاحظ أن المشكلات لا تأتي من الأميين الذي لا يعلمون، فالأمي من هؤلاء يصدق أي قضية تحدته عنها وتكون مقبولة بالفطرة؛ لأنه لا يملك بديلاً لها، أما الجاهل فهو من يعلم قضية مخالفة للواقع ويحتاج إلى تغيير علمه بتلك القضية، والخطوة الثانية أن تقنعه بالقضية الصحيحة .

والحق هنا يوضح: أعرض عن الجاهل الذي يعتقد قضية مخالفة للواقع ويتعصب لها، وأنت حين تعرض عن الجاهل، يجب ألا تماريه، أي لا تجادله؛ لأن الجدل معه لن يؤدي إلى نتيجة مفيدة؛ لذلك أقول لكل من يواجه قضية الدين ولم يقرأ عن الدين كتاباً واحداً، وقرأ في كتب الانحراف عن الدين المئات، أقول له: كما قرأت فيما يناهض الدين مئات الكتب فمن الحكمة يجب عليك أن تكون عادلاً ومنصفاً فتقرأ في مجال الدين بعض الكتب الخاصة به مثلما قرأت في غيرها .

وإن أردت أن تبحث قضية الدين بحثاً منطقياً يصحح لك عقيدتك، فعليك أن تخرج كل الاقتناعات المسبقة من قلبك ووجدانك . وتدرس الأمرين بعيداً عن قلبك، ثم أدخل إلى



قلبك الأمر الذي ترتاح إليه ، لكن لا تحتفظ في قلبك بقضية وتناهض منطوقها بظاهر لسانك . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . . ﴾ [الأحزاب : 4] .

فأنت لك قلب واحد ، إما أن يمتلئ بالإيمان واليقين وإما بغير ذلك . والقلب حيز واحد فلا تشغله أنت بباطل ، حين تبحث قضية الحق ، بل أخرج الباطل من قلبك أولاً ، واجعل الباطل والحق خارجه ، واجتبع بعقلك ، والذي يسرُّ إليك أن تدخله إلى قلبك فأدخله .

(211/301)

---

وفي بيان معنى هذه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها روى لنا أبيّ قال : لما أنزل الله عز وجلّ على نبيه صلى الله عليه وسلم : " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هذا يا جبريل ؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك " .

وسبحانه - إذن - يريد أن يعلمنا قضية إيمانية إنسانية ؛ لأنك كمسلم تساعد المصاب في بدنه ، فما بالك بالمصاب في قيمه ، ألا يحتاج إلى معونتك ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الشعراوى ص ﴿

(212/301)

---

فائدة

قال التستري:

قال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ [199] أي الفضل في أموالهم التي هي وديعة الله عندهم،

لأن الله تعالى قد ابتاعها منهم، فليس له نفس ولا مال.

قيل له: فأين نفسه؟ قال: دخلت تحت مبايعة الله تعالى.

قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التوبة: 111].

انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير التستري ص 66 ﴾

(213/301)

---

"فصل"

قال السيوطي:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (199)

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبخاري وأبو داود والنسائي والنحاس في  
ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي  
في الدلائل عن عبد الله بن الزبير قال: ما نزلت هذه الآية إلا في أخلاق الناس ﴿ خذ العفو  
وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وفي لفظ: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن  
يأخذ العفو من أخلاق الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني في الأوسط وابن مردويه والحاكم وصححه عن  
ابن عمر في قوله تعالى ﴿ خذ العفو ﴾ قال: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق  
الناس .

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق عن إبراهيم بن أدهم قال: لما أنزل الله ﴿ خذ  
العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أمرت  
أن آخذ العفو من أخلاق الناس " .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي قال: "  
لما أنزل الله ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم " ما هذا يا جبريل ؟ قال: لا أدري حتى أسأل العالم . . . ! فذهب ثم رجع  
فقال: إن الله أمرك أن تعفو عن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك " .  
وأخرج ابن مردويه عن جابر قال: " لما نزلت هذه الآية ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف

وأعرض عن الجاهلين ﴿ قال النبي صلى الله عليه وسلم " يا جبريل ما تأويل هذه الآية؟ قال : حتى أسأل . فصعد ثم نزل فقال : يا محمد إن الله يأمرك أن تصفح عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا ادلكم على أشرف أخلاق الدنيا والآخرة؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله؟ قال : تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك " .

(214/301)

---

وأخرج ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة قال : لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمزة بن عبد المطلب قال " والله لأمثلن بسبعين منهم . فجاءه جبريل بهذه الآية ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ فقال : يا جبريل ما هذا؟ قال : لا أدري . . . ! ثم عاد فقال : إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتعطي من حرمك " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة في قول الله ﴿ خذ العفو ﴾ قال : ما عفى لك من مكارم الأخلاق .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله

﴿ خذ العفو ﴾ من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تجسس ﴿ وأمر بالعرف ﴾ قال :

بالمعروف .

وأخرج البخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن

عباس قال : قدم عيينة بن حصن بن بدر ، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس - وكان من

النفر الذين يدينهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو

شباباً - فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي

عليه ؟ قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر ،

فلما دخل قال : هي يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ،

فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به فقال له الحر : يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال لنبيه

صلى الله عليه وسلم ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وإن هذا من

الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب عن مالك بن أنس عن عبد الله بن نافع . أن سالم

بن عبد الله مر على غير لأهل الشام وفيها جرس ، فقال : إن هذا ينهى عنه فقالوا : نحن

أعلم بهذا منك إنما يكره الجبل الكبير ، وأما مثل هذا فلا بأس به ، فبكى سالم وقال ﴿

وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن  
الجاهلين ﴾ قال : خلق أمر الله به نبيه ودله عليه .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا  
أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين ؟ قال : قلت يا رسول الله نعم . قال : تعطي من  
حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك " .

وأخرج البيهقي عن عقبة بن عامر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا  
أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة ، تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو  
عمن ظلمك " .

وأخرج البيهقي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " صل من قطعك ،  
واعف عمن ظلمك " .

وأخرج البيهقي عن عائشة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " صل من  
قطعك ، واعف عمن ظلمك " .

وأخرج البيهقي عن عائشة . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ألا أدلكم على كرائم  
الأخلاق للدنيا والآخرة ؟ أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتجاوز عمن ظلمك

" .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أدلكم على مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : صل من قطعك ، واعط من حرمك ، واعف عن ظلمك " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبيهقي من طريقه عن معمر عن أبي إسحق الحمداني عن ابن أبي حسين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أدلكم على خير أخلاق أهل الدنيا والآخرة ؟ أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عن ظلمك ، قال البيهقي : هذا مرسل حسن " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لن ينال عبد صريح الإيمان حتى يصل من قطعه ، ويعفو عن ظلمه ، ويغفر لمن شتمه ، ويحسن إلى من أساء إليه " .

(216/301)

---

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن مكارم الأخلاق عند الله أن تعفو عن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : رضي الله بالعمو وأمر به .  
وأخرج أحمد والطبراني عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " أفضل  
الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتصنع لمن شتمك " .  
وأخرج السلفي في الطيوريات عن نافع أن ابن عمر . كان إذا سافر أخرج معه سفياً يرد  
عنه سفاهة السفهاء .

وأخرج ابن عدي والبيهقي في الشعب عن ابن شوذب قال : كنا عند مكحول ومعنا  
سليمان بن موسى ، فجاء رجل واستطال على سليمان وسليمان ساكت ، فجاء أخ  
لسليمان فرد عليه ، فقال مكحول : لقد ذل من لا سفية له .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ خذ العفو ﴾ قال :  
خذ ما عفي لك من أموالهم ما أتوك به من شيء فخذ ، وكان هذا قبل أن تنزل براءة  
بفرائض الصدقات وتفصيلها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ خذ العفو ﴾ قال : خذ الفضل  
أنفق الفضل ﴿ وأمر بالعرف ﴾ يقول بالمعروف .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني ﴿ خذ العفو ﴾  
قال : خذ الفضل من أموالهم ، أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ لك . قال :  
وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :



يعفو عن الجهل والسوات كما . . . يدرك غيث الربيع ذو الطرد  
وأخرج ابن جرير والنحاس في ناسخه عن السدي في قوله ﴿ خذ العفو ﴾ قال: الفضل  
من المال ، نسخته الزكاة .

(217/301)

---

وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال: نزلت هذه الآية ﴿ خذ العفو ﴾ فكان الرجل يمسك  
من ماله ما يكفيه ويتصدق بالفضل ، فنسخها الله بالزكاة ﴿ وأمر بالعرف ﴾ قال:  
بالمعروف ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ قال: نزلت هذه الآية قبل أن تفرض الصلاة والزكاة  
والقتال ، أمره الله بالكف ثم نسخها القتال ، وأنزل ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ [   
الحج : 39 ] الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(218/301)

---

من لطائف الإمام القشيري في الآية  
قال عليه الرحمة :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) ﴾

من خصائص سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْكِرَامِ أَنَّهُ أَمَرَ نَبِيَّهٖ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ - بِالْأَخْذِ بِهِ ، إِذِ الْخَبْرُ وَرَدَّ بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ أَخَذَ مِنَ اللَّهِ خُلُقًا حَسَنًا . وَكَلِمَا كَانَ الْجُرْمُ أَكْبَرَ كَانَ الْعَفْوُ عَنْهُ أَجْرًا وَأَكْمَلَ ، وَعَلَى قَدْرِ عِظَمِ رَتْبَةِ الْعَبْدِ فِي الْكِرَامِ يَتَوَقَّفُ الْعَفْوُ عَنِ الْأَصَاغِرِ وَالْخُدَمِ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجِرَاحَاتِ الَّتِي أَصَابَتْهُ فِي حَرْبٍ أَحَدٍ : " اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " .

قوله ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ : أَفْضَلُ الْعُرْفِ أَنْ يَكُونَ أَكْمَلَ الْعَطَاءِ لِأَكْثَرِ أَهْلِ الْجَفَاءِ ، وَبِذَلِكَ عَامِلَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ - النَّاسَ .

قوله : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ : الْإِعْرَاضُ عَنِ الْأَغْيَارِ بِالْإِقْبَالِ عَنِ مَنْ لَمْ يَنْزِلْ وَلَا يَزَالُ ، وَفِي ذَلِكَ النِّجَاةُ مِنَ الْحِجَابِ ، وَالتَّحَقُّقُ بِمَا يَتَقَاصَرُ عَنْ شَرْحِهِ الْخُطَابُ . انْتَهَى انْتَهَى . ا  
هـ ﴿ لَطَائِفُ الْإِشَارَاتِ ح 1 ص 597.598 ﴾

(219/301)

---

فصل في منزلة الخلق

قال ابن القيم :

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الخلق

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]

قال ابن عباس ومجاهد: لعلى دين عظيم لا دين أحب إلي ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام وقال الحسن رضي الله عنه: هو آداب القرآن وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر

الله وينهى عنه من نهى الله والمعنى: إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن وفي

الصحيحين: أن هشام بن حكيم: سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى

الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً وقد

جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199] قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس

في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: ما هذا قال: لا أدري حتى أسأل فسأل ثم رجع إليه

فقال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ولا ريب أن

للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال: أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم الثاني: أخذه منهم

ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موال ومعاد له معارض وعليه في كل واحد من هذه واجب فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم وينهاهم عن ضده وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم وطوعت له به أنفسهم سماحة واختياراً ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه فقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199] قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تحسيس مثل قبول الأعدار والعفو والمساهلة وترك الاستقصاء في البحث والتفتيش عن حقائق بواطنهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خذ ما عفاك من أموالهم وهو الفاضل عن العيال وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ [البقرة: 219] ثم قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ وهو كل معروف وأعرفه: التوحيد ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد ثم قال تعالى ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: 63] وعلى هذا فليست بمنسوخة بل يعرض عنه

مع إقامة حق الله عليه ولا ينتقم لنفسه وهكذا كان خلقه قال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا وقال: ما مسست ديباجا ولا حريرا ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت رائحة قط أطيب

(221/301)

---

من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي قط: أف ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته ولا لشيء لم أفعله: إلا فعلت كذا متفق عليهما وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن البر: هو حسن الخلق وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال: البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس فقابل البر بالإثم وأخبر: أن البر حسن الخلق والإثم: حواز الصدور وهذا يدل على أن حسن الخلق: هو الدين كله وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام ولهذا قابله بالإثم وفي حديث آخر: البر: ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في الصدر وقد فسر حسن الخلق بأنه البر فدل على أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب والإثم حواز الصدور وما حاك فيها واسترابت به وهذا غير حسن الخلق وسوءه في عرف كثير من الناس كما سيأتي

في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: خياركم: أحاسنكم أخلاقا وفي  
الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ما من شيء أثقل  
في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء قال  
الترمذي: حديث حسن صحيح وفيه أيضا وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: تقوى الله  
وحسن الخلق وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: الفم والفرج وفيه أيضا عن  
عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم وصححه إن من أكمل المؤمنين  
إيمانا: أحسنهم خلقا وخياركم: خياركم لنسائهم

(222/301)

---

وفي الصحيح عن عائشة عنه: إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم رواه أبو  
داود وعن ابن عمر رضي الله عنهما عنه: أنا زعيم بيت في ربض الجنة: لمن ترك المراء  
وإن كان محقا وبيت في وسط الجنة: لمن ترك الكذب وإن كان مازحا وبيت في أعلى الجنة  
لمن حسن خلقه رواه الطبراني وإسناده صحيح فجعل البيت العلوي جزاء لأعلى  
المقامات الثلاثة وهي حسن الخلق والأوسط لأوسطها وهو ترك الكذب والأدنى لأدناها

وهو ترك الممارسة وإن كان معه حق ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله وفي  
الترمذي عن جابر رضي الله عنه عنه: إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة:  
أحسنكم أخلاقا وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون  
والمفتقون قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما  
المفتقون قال: المتكبرون الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية والمتشدق: المتكلم بملء  
فيه تفاسحا وتعاضما وتظاولا وإظهارا لفضله على غيره وأصله: من الفهق وهو الامتلاء  
فصل الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق: زاد عليك في الدين  
وكذلك التصوف قال الكتاني: التصوف هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق: فقد زاد عليك  
في التصوف وقد قيل: إن حسن الخلق بذل الندى وكف الأذى واحتمال الأذى وقيل:  
حسن الخلق: بذل الجميل وكف القبيح وقيل: التخلي من الرذائل والتخلي بالفضائل

(223/301)

---

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر والعفة  
والشجاعة والعدل فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى والحلم والأناة  
والرفق وعدم الطيش والعجلة والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقباح من القول

والفعل وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة  
والنميمة والشجاعة: تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم وعلى البذل  
والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقتة وتحمله على كظم  
الغيظ والحلم فإنه بقوة نفسه وشجاعته يمسك عنائها ويكبحها بلجامها عن النزغ  
والبطش كما قال: ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب  
وهو حقيقة الشجاعة وهي ملكة يقدر بها العبد على قهر خصمه والعدل: يحمله على  
اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط فيحمله على خلق الجود  
والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين  
الجن والتهور وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس ومنشأ  
جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبنائها على أربعة  
أركان: الجهل والظلم والشهوة والغضب فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح والقبيح في  
صورة الحسن والكمال نقصا والنقص كمالا والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير  
موضعه فيغضب في موضع الرضى

(224/301)

---



ويرضى في موضع الغضب ويجهل في موضع الأناة ويبخل في موضع البذل ويبدل في موضع  
البخل ويحجم في موضع الإقدام ويقدم في موضع الإحجام ويلين في موضع الشدة ويشدد في  
موضع اللين ويتواضع في موضع العزة ويتكبر في موضع التواضع والشهوة: تحمله على الحرص  
والشح والبخل وعدم العفة والنهمة والجشع والذل والدناءات كلها والغضب: يحمله على  
الكبر والحقد والحسد والعدوان والسفه ويتكبر من بين كل خلقين من هذه الأخلاق:  
أخلاق مذمومة وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف وإفراطها في القوة  
فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل والخسة واللؤم والذل والحرص والشح  
وسفساف الأمور والأخلاق ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدة والفحش  
والطيش ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر: أولاد غية كثيرون فإن النفس قد تجمع قوة  
وضعفا فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر وأذلهم إذا قهر ظالم عنوف جبار فإذا قهر  
صار أذل من امرأة: جبان عن القوي جريء على الضعيف فالأخلاق الذميمة: يولد  
بعضها بعضا كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضا وكل خلق محمود مكنتف بخلقين  
ذميين وهو وسط بينهما وطرفاه خلقان ذميمان كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل  
والتبذير والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة والكبر والعلو فإن النفس متى انحرفت  
عن التوسط انحرفت إلى أحد الخلقين الذميين ولا بد فإذا انحرفت عن خلق التواضع  
انحرفت: إما إلى كبر وعلو وإما إلى ذل ومهانة وحقارة وإذا انحرفت عن خلق الحياء

انحرفت: إما إلى قحة

وجرأة وإما إلى عجز وخور ومهانة بحيث يطمع في نفسه عدوه ويفوته كثير من مصالحه

ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء وإنما هو المهانة والعجز وموت النفس وكذلك إذا

انحرفت عن خلق الصبر المحمود انحرفت: إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط وإما إلى

غلظة كبد وقسوة قلب وتحجر طبع كما قال بعضهم:

تبكي علينا ولا نبكي على أحد . . . فنحن أغلظ أكبادا من الإبل

(225/301)

---

وإذا انحرفت عن خلق الحلم انحرفت: إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة وإما إلى الذل

والمهانة والحقارة ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز وبين من حلمه حلم

اقتدار وعزة وشرف كما قيل:

كل حلم أتى بغير اقتدار . . . حجة لاجيء إليها اللأم

وإذا انحرفت عن خلق الأناة والرفق انحرفت: إما إلى عجلة وطيش وعنف وإما إلى تفريط

وإضاعة والرفق والأناة بينهما وإذا انحرفت عن خلق العزة التي وهبها الله للمؤمنين

انحرفت: إما إلى كبر وإما إلى ذل والعزة المحمودة بينهما وإذا انحرفت عن خلق الشجاعة

انحرفت: إما إلى تهور وإقدام غير محمود وإما إلى جبن وتأخر مذموم وإذا انحرفت عن خلق المنافسة في المراتب العالية والغبطة انحرفت: إما إلى حسد وإما إلى مهانة وعجز وذل ورضى بالدون وإذا انحرفت عن القناعة انحرفت: إما إلى حرص وكلب وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة وإذا انحرفت عن خلق الرحمة انحرفت: إما إلى قسوة وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس كمن لا يقدم على ذبح شاة ولا إقامة حد وتأديب ولد ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك وقد ذبح أرحم الخلق بيده في موضع واحد ثلاثاً وستين بدنة وقطع الأيدي من الرجال والنساء وضرب الأعناق وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم وكذلك طلاقه الوجه والبشر الحمود فإنه وسط بين التعيس والتقطيب وتصعير الخد وطبي البشر عن البشر وبين الاسترسال مع كل أحد بحيث يذهب الهيبة وينزل الوقار ويطمع في الجانب كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة والنفرة في قلوب الخلق وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب عزيز جانبه حبيب لقاؤه وفي صفة نبينا: من رآه بديهة هابه ومن خالطه عشرة أحبه والله أعلم

فصل نافع جداً عظيم النفع للسالك يوصله عن قريب ويسيره بأخلاقه التي

(226/301)

---

لا يمكنه إزالتها فإن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية: تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها ولم يظفروا أكثرهم بتبديلها لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز: كسر جيوش الرياضة وشتتها واستولى على مملكة الطبع وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها ويكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على إزالتها وتقدم قبل هذا مثلاً نضربه مطبقاً لما نريده وهو: نهر جار في صبيه ومنحدره ومنته إلى تغريق أرض وعمران ودور وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يحزب دورهم ويتلف أراضيهم وأموالهم فانقسموا ثلاث فرق

(227/301)

---

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سكره وحبسه وإيقافه فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر فإنه يوشك أن يجتمع ثم يحمل على السكر فيكون إفساده وتخريبه أعظم وفرقة رأت هذه الحالة وعلمت أنه لا يغنى عنها شيئاً فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل ينبوع فرامت قطعه من أصله فتعذر عليها ذلك غاية التعذر وأبت الطبيعة النهرية

عليهم ذلك أشد الإباء فهم دائماً في قطع ينبوع وكلما سدوه من موضع نبع من موضع  
فاشغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار فجاءت فرقة  
ثالثة خالفت رأي الفرقتين وعلّموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم فأخذوا في  
صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه ولا  
يتضررون به فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات وسقوها به فأنبت أنواع العشب والكلأ  
والثمار المختلفة الأصناف فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق في شأن هذا النهر فإذا  
تبين هذا المثل فالله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان بل وسائر الحيوان على  
طبيعة محمولة على قوتين: غضبية وشهوانية وهي الإرادية وهاتان القوتان هما الحاملتان  
لأخلاق النفس وصفاتها وهما مركزتان في جبلة كل حيوان فبقوة الشهوة والإرادة: يجذب  
المنافع إلى نفسه وبقوة الغضب: يدفع المضار عنها فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج  
إليه: تولد منها الحرص وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه: تولد منه القوة والغيرة  
فإذا عجز عن ذلك الضار: أورثه قوة الحقد وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه ورأى غيره  
مستبداً به أورثه الحسد فإن ظفر به: أورثه شدة شهوته وإرادته: خلق البخل والشح وإن  
اشتد حرصه وشهوته على الشيء ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية فاستعملها فيه:  
أورثه ذلك العدوان والبغي والظلم ومنه يتولد: الكبر

---

والفخر والخيلاء فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب وتزوج أحدهما  
بصاحبه فإذا تبين هذا: فالنهر مثال هاتين القوتين وهو منصب في جدول الطبيعة ومجراها  
إلى دور القلب وعمرانه وحواصله يخرّبها ويتلفها ولا بد فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته  
ومجراه فخرّب ديار الإيمان وقلع آثاره وهدم عمرانه وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة من  
حنظل وضريع وشوك وزقوم وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد وأما النفوس  
الزكية الفاضلة: فإنها رأت ما يؤل إليه أمر هذا النهر فافترقوا ثلاث فرق فأصحاب  
الرياضات والمجاهدات والخلوات والتمرينات: راموا قطعه من ينبوعه فأبت عليهم ذلك  
حكمة الله تعالى وما طبع عليه الجبلة البشرية ولم تنقد له الطبيعة فاشتد القتال ودام الحرب  
وحسمى الوطيس وصارت الحرب دولا وسجالا وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس  
على إزالة تلك الصفات وفرقة أعرضوا عنها وشغلوا نفوسهم بالأعمال ولم يجيبوا دواعي  
تلك الصفات مع تخليتهم إياها على مجراها لكن لم يكتفوا نهرها من إفساد عمرانهم بل  
اشتغلوا بتحسين العمران وإحكام بنائه وأساسه ورأوا أن ذلك النهر لا بد أن يصل إليه فإذا  
وصل وصل إلى بناء محكم فلم يهدمه بل أخذ عنه يمينا وشمالا فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم  
وإرادتهم في العمارة وإحكام البناء وأولئك صرفوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها  
خوفا من هدم البناء وسألت يوما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة وقطع

الآفات والاشتغال بتنقية الطريق وتنظيفها فقال لي جملة كلامه: النفس مثل الباطوس وهو جب القذر كلما نبشته ظهر وخرج ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبه وتجوزه فافعل

(229/301)

---

ولا تشتغل بنبشه فإنك لن تصل إلى قراره وكلما نبشت شيئاً ظهر غيره فقلت سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها: انقطع ولم يمكنه السفر قط ولكن تكن همتك المسير والإعراض عنها وعدم الالتفات إليها فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله ثم امض على سيرك فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدا وأثنى على قائله إذا تبين هذا فهذه الفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ما خلقت سدى ولا عبثا وأنها بمنزلة ماء يسقى به الورد والشوك والثمار والحطب وأنها صوان وأصداف لجواهر منطوية عليها وأن ما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر فراوا أن الكبر نهر يسقى به العلو والفخر والبطر والظلم والعدوان ويسقى به علو الهمة والأنفة والحمية والمراغمة لأعداء الله وقهرهم والعلو عليهم وهذه درة في صدفته فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس واستخرجوا هذه الدرة من صدفته وأبقوه على حاله في نفوسهم لكن استعملوه

حيث يكون استعماله أنفع وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أبا دجانة يتبختر بين الصفين فقال: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموضع فانظر كيف خلى مجرى هذه الصفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه وفي الحديث الآخر وأظنه في المسند: إن من الخيلاء ما يحبها الله ومنها ما يبغضها الله فالخيلاء التي يحبها الله: اختيال الرجل في الحرب وعند الصدقة فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية وكيف استحال القاطع موصلاً فصاحب الرياضات والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات والخلوات: هيئات هيئات إنما يوقعه ذلك في الآفات والشبهات والضلالات فإن

(230/301)

---

تزكية النفوس مسلم إلى الرسل وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها وجعلها على أيديهم دعوة وتعلima وبيانا وإرشادا لا خلقا ولا إلها ما فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: 2] وقال تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: 151]



وتزكية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة  
والخلوة التي لم يجيء بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه وأين يقع رأيه من معرفة  
الطبيب فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم  
وَمَحْضُ الْإِقْتِيَادِ وَالتَّسْلِيمِ لَهُمْ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ فَإِنْ قُلْتَ: هل يمكن أن يقع الخلق كسبياً أو  
هو أمر خارج عن الكسب قلت: يمكن أن يقع كسبياً بالتخلق والتكلف حتى يصير له  
سجية وملكة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس رضي الله عنه: إن  
فيك لخلقين يجبهما الله: الحلم والأناة فقال: أخلقين تخلقت بهما أم جبلني الله عليهما فقال:  
بل جبلك الله عليهما فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يجبهما الله ورسوله فدل  
على أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة وما هو مكتسب وكان النبي صلى الله عليه وسلم  
يقول في دعاء الاستفتاح: اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت  
واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت فذكر الكسب والقدر والله أعلم  
فصل قال صاحب المنازل: الخلق: ما يرجع إليه المتكلف من نعمته أي

(231/301)

---

خلق كل متكلف: فهو ما اشتملت عليه نعوته فتكلفه يردده إلى خلقه كما قيل: إن التخلق

يأتي دونه الخلق

وقال الآخر:

راد من القلب نسيانكم . . . وتأبى الطباع على الناقل

فمتكلف ما ليس من نعته ولا شيمته: يرجع إلى شيمته ونعته وسجيته فذاك الذي يرجع

إليه: هو الخلق قال: واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم: أن التصوف هو الخلق وجميع

الكلام فيه يدور على قطب واحد وهو بذل المعروف وكف الأذى قلت: من الناس من

يجعلها ثلاثة: كف الأذى واحتمال الأذى وإيجاد الراحة

ومنهم: من يجعلها اثنين كما قال الشيخ بذل المعروف وكف الأذى ومنهم من يردّها إلى

واحد وهو بذل المعروف والكل صحيح قال: وإنما يدرك إمكان ذلك في ثلاثة أشياء في

العلم والجود والصبر العلم يرشده إلى مواقع بذل المعروف والفرق بينه وبين المنكر وترتيبه

في وضعه مواضعه فلا يضع الغضب موضع الحلم ولا بالعكس ولا الإمساك موضع البذل

ولا بالعكس بل يعرف مواقع الخير والشر ومراتبها وموضع كل خلق: أين يضعه وأين يحسن

استعماله

والجود يبعثه على المسامحة بحق نفسه والاستقصاء منها بحق غيره فالجود هو قائد

جيوش الخير

والصبر يحفظ عليه استدامة ذلك ويحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى وعدم  
المقابلة وعلى كل خير كما تقدم وهو أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة  
قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:  
45] فهذه الثلاثة أشياء: بها يدرك التصوف والتصوف: زاوية من زوايا السلوك الحقيقي  
وتزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ومعية من تحبه فإن المرء  
مع من أحب كما قال سمنون: ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة فإن المرء مع من أحب  
والله أعلم

فصل قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: أن تعرف مقام الخلق

(232/301)

---

وأنهم بأقدارهم مربوطون وفي طاقتهم محبوسون وعلى الحكم موقوفون فتستفيد بهذه  
المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخلق منك حتى الكلب ومحبة الخلق إياك ونجاة الخلق بك فبهذه  
الدرجة: يكون تحسين الخلق مع الخلق في معاملتهم وكيفية مصاحبتهم

(233/301)

---

وبالثانية: تحسين الخلق مع الله في معاملته وبالثالثة: درجة الفناء على قاعدته وأصله يقول:  
إذا عرفت مقام الخلق ومقاديرهم وجريان الأحكام القدرية عليهم وأنهم مقيدون بالقدر لا  
خروج لهم عنه ألبتة ومحبوسون في قدرتهم وطاقاتهم لا يمكنهم تجاوزها إلى غيرها وأنهم  
موقوفون على الحكم الكوني القدرى لا يتعدونه استفتت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن  
الخلق منك وذلك: أنه إذا نظر إليهم بعين الحقيقة: لم يطالبهم بما لا يقدرون عليه وامتل فيهم  
أمر الله تعالى لنبيه بأخذ العفو منهم فأمنوا من تكليفه إياهم وإلزامه لهم ما ليس في قواهم  
وقدرهم وأيضا فإنهم يأمنون لائمته فإنه في هذه الحال عاذر لهم فيما يجري عليهم من  
الأحكام فيما لم يأمر الشرع بإقامته فيهم لأنهم إذا كانوا محبوسين في طاقاتهم فينبغي مطالبتهم  
بما يطالب به المحبوس وعذرهم بما يعذر به المحبوس وإذا بدا منهم في حقتك تقصير أو إساءة  
أو تفريط فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم بل اغفر لهم ذلك واعذرهم نظرا إلى جريان الأحكام  
عليهم وأنهم آله وههنا ينفعك الفناء بشهود الحقيقة عن شهود جنائتهم عليك كما قال بعض  
العارفين لرجل تعدى عليه وظلمه: إن كنت ظالما فالذي سلطك علي ليس بظالم وههنا  
للعبد أحد عشر مشهدا فيما يصيبه من أذى الخلق وجنائتهم عليه أحدها: المشهد الذي  
ذكره الشيخ رحمه الله وهو مشهد القدر وأن ما جرى عليه: بمشيئة الله وقضائه وقدره  
فيراها كالتأذي بالحر والبرد والمرض والألم وهبوب الرياح وانقطاع الأمطار فإن الكل أوجبه

مشيئة الله فما شاء الله كان ووجب وجوده وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده وإذا شهد

هذا: استراح وعلم أنه كائن لا محالة فما للجزع منه وجه وهو كالجزع من الحر والبرد

والمرض والموت

فصل المشهد الثاني: مشهد الصبر فيشهده ويشهد وجوبه وحسن عاقبته وجزاء

(234/301)

---

أهله وما يترتب عليه من الغبطة والسرور ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام فما انتقم أحد

لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة وعلم أنه إن لم يصبر اختياراً على هذا وهو محمود صبر

اضطراراً على أكبر منه وهو مذموم

فصل المشهد الثالث: مشهد العفو والصفح والحلم فإنه متى شهد ذلك

وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعشي في بصيرته فإنه ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً

كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلم بالتجربة والوجود وما انتقم أحد لنفسه إلا

ذل هذا وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس

وعزها ورفعها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام

فصل المشهد الرابع: مشهد الرضى وهو فوق مشهد العفو والصفح وهذا لا

يكون إلا للنفوس المطمئنة سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله فإذا كان ما أصيب  
به في الله وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله وهذا شأن كل محب صادق يرضى  
بما يناله في رضى محبوبه من المكاره ومتى تسخط به وتشكى منه كان ذلك دليلا على  
كذبه في محبته والواقع شاهد بذلك والمحب الصادق كما قيل:  
من أجلك جعلت خدي أرضا . . . للشامت والحسود حتى ترضى  
ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه فليزل عن درجة المحبة وليتأخر فليس من ذا الشأن  
فصل المشهد الخامس: مشهد الإحسان وهو أرفع مما قبله وهو أن يقابل  
إساءة المسيء إليه بالإحسان فيحسن إليه كلما أساء هو إليه ويهون هذا عليه علمه بأنه  
قد ربح عليه وأنه قد أهدى إليه حسناته ومحاسنها من صحيفته وأثبتها في صحيفة من  
أساء إليه فينبغي لك أن تشكره وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك  
وهنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبة الثواب وهذا المسكين قد وهبك حسناته فإن  
كنت من أهل الكرم فأثبه عليها لتثبت الهبة وتأمن رجوع الواهب فيها وفي هذا حكايات  
معروفة عن أرباب المكارم وأهل العزائم

(235/301)

---

ويهبونه عليك أيضا: علمك بأن الجزاء من جنس العمل فإن كان هذا عملا في إساءة  
المخلوق إليك عفوت عنه وأحسننت إليه مع حاجتك وضعفك وفقرتك وذلك فهكذا يفعل  
المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك فهذا لا بد  
منه وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأملها

فصل المشهد السادس: مشهد السلامة وبرد القلب وهذا مشهد شريف جدا لمن  
عرفه وذاق حلاوته وهو أن لا يشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك  
نأره وشفاء نفسه بل يفرغ قلبه من ذلك ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له وألذ  
وأطيب وأعون على مصالحه فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده وخير له  
منه فيكون بذلك مغبونا والرشيد لا يرضى بذلك ويرى أنه من تصرفات السفهاء فإن  
سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس وإعمال الفكر في إدراك الانتقام

فصل المشهد السابع: مشهد الأمن فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام:  
أمن ما هو شر من ذلك وإذا انتقم: واقعه الخوف ولا بد فإن ذلك يزرع العداوة والعاقلة لا  
يأمن عدوه ولو كان حقيرا فكم من حقير أردى عدوه الكبير فإذا غفر ولم ينتقم ولم يقابل:  
أمن من تولد العداوة أو زيادتها ولا بد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه  
ويكف من جزعه بعكس الانتقام والواقع شاهد بذلك أيضا

فصل المشهد الثامن: مشهد الجهاد وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من

جهاده في سبيل الله وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإقامة دين الله وإعلاء كلماته  
وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن فإن أراد أن  
يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها فلا حق له على من آذاه ولا شيء له قبله  
إن كان قد رضي بعقد هذا التبائع فإنه قد وجب أجره على الله وهذا ثابت بالنص وإجماع  
الصحابة رضي الله عنهم ولهذا منع النبي صلى الله عليه وسلم من سكنى مكة أعزها الله  
ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل  
الله ولما عزم الصديق رضي الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلّفوه من نفوس المسلمين  
وأموالهم قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم: تلك  
دماء وأموال ذهبت في الله وأجورها على الله ولا دية لشهيد فأصفق الصحابة على قول  
عمر ووافقوه عليه الصديق فمن قام لله حتى أُوذي في الله: حرم الله عليه الانتقام كما قال  
لقمان لابنه: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ  
الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: 17]

فصل المشهد التاسع: مشهد النعمة وذلك من وجوه



أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوما يترقب النصر ولم يجعله ظالما يترقب  
المقت والأخذ فلو خير العاقل بين الحالتين ولا بد من إحداهما لاختار أن يكون مظلوما  
ومنها: أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياہ فإنه ما أصاب المؤمن هم ولا غم ولا  
أذى إلا كفر الله به من خطاياہ فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب  
ومن رضي أن يلقي الله بأدوائه كلها وأسقامه ولم يداوہ في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء:  
فهو مغبون سفیه فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك فلا تنظر إلى  
مرارة الدواء وكرهته ومن كان على يديه وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركبك وبعثه  
إليك على يدي من نفعك بمضرته

(237/301)

---

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها فإنه ما من محنة إلا وفوقها ما هو  
أقوى منها وأمر فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه  
وتوحيده وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة وأنها في الحقيقة نعمة والمصيبة الحقيقية  
مصيبة الدين ومنها: توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة وفي بعض الآثار: أنه يتمنى  
أناس يوم القيامة لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء هذا

وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قبل الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض  
فالعاقل يعد هذا ذخرا ليوم الفقر والفاقة ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئا  
فصل المشهد العاشر: مشهد الأسوة وهو مشهد شريف لطيف جدا فإن العاقل  
اللييب يرضى أن يكون له أسوة برسول الله وأنبيائه وأوليائه وخاصته من خلقه فإنهم أشد  
الخلق امتحانا بالناس وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور ويكفي تدبر قصص  
الأنبياء عليهم السلام مع أمهم وشأن نبينا وأذى أعدائه له بما لم يؤذه من قبله وقد قال له ورقة  
بن نوفل: تكذب وتخرجن وتؤذين وقال له: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي وهذا  
مستمر في ورثته كما كان في مورثهم

أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله وخواص عباده: الأمثل فالأمثل ومن  
أحب معرفة ذلك فليقف على محن العلماء وأذى الجهال لهم وقد صنف في ذلك ابن  
عبد البر كتابا سماه محن العلماء

فصل المشهد الحادي عشر: مشهد التوحيد وهو أجل المشاهد وأرفعها فإذا  
امتأ قلبه بمحبة الله والإخلاص له ومعاملته وإيثار مرضاته والتقرب إليه وقرّة العين به  
والإنس به واطمأن إليه وسكن إليه واشتاق إلى لقائه واتخذه وليا دون من سواه بحيث  
فوض إليه أموره كلها ورضي به وبأقضيته وفنى محبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه  
عن كل ما سواه: فإنه لا يبقى

في قلبه متسع لشهود أذى الناس له ألبتة فضلا عن أن يشتغل قلبه وفكره وسره بتطلب الانتقام والمقابلة فهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه فهو قلب جائع غير شبهان فإذا رأى أي طعام رآه هفت إليه نوازعه وانبعثت إليه دواعيه وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها: فإنه لا يلتفت إلى ما دونها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

فصل وأما قوله: أن يستفيد بمعرفة أقدار الناس وجريان الأحكام عليهم : محبتهم له ونجاتهم به فلأنه إذا عاملهم بهذه المعاملة: من إقامة أعدارهم والعفو عنهم وترك مقابلتهم: استوت كراحتهم ومحبتهم له وكان ذلك سببا لنجاتهم الأخروية أيضا إذ يرشدهم ذلك إلى القبول منه وتلقي ما يأمرهم به وينهاهم عنه أحسن التلقي هذه طباع الناس

فصل قال: الدرجة الثانية: تحسين خلقك مع الحق وتحسينه منك: أن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب عذرا وأن كل ما يأتي من الحق يوجب شكرا وأن لا ترمى له من الوفاء بدا هذه الدرجة مبنية على قاعدتين إحداهما: أن تعلم أنك ناقص وكل ما يأتي من الناقص ناقص

فهو يوجب اعتذاره منه لا محالة فعلى العبد أن يعتذر إلى ربه من كل ما يأتي به من خير وشر  
أما الشر: فظاهر وأما الخير: فيعتذر من نقصانه ولا يراه صالحاً لربه فهو مع إحسانه معتذر  
في إحسانه ولذلك مدح الله أوليائه بالوجل منه مع إحسانهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا  
وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60] وقال النبي

: هو الرجل يصوم ويتصدق ويحاف أن لا يقبل منه فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى والحامل

له على هذا الاعتذار أمران

أحدهما: شهود تقصيره وتقصانه

(239/301)

---

والثاني: صدق محبته فإن المحب الصادق يتقرب إلى محبوبه بغاية إمكانه وهو معتذر إليه  
مستحي منه: أن يواجهه بما واجهه به وهو يرى أن قدره فوقه وأجل منه وهذا مشاهد في  
محبة المخلوقين القاعدة الثانية: استعظام كل ما يصدر منه سبحانه إليك والاعتراف بأنه  
يوجب الشكر عليك وأنت عاجزة عن شكره ولا يتبين هذا إلا في المحبة الصادقة فإن  
المحب يستكثر من محبوبه كل ما يناله فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه: كان سروره بذكره له  
وتأهيله لعطائه: أعظم عنده من سروره بذلك العطاء بل يغيب بسروره بذكره له عن

سروره بالعطية وإن كان الحب يسره ذكر محبوبه له وإن ناله بمساءة كما قال القائل:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة . . . لقد سرني أنني خطرت ببالكا

فكيف إذا ناله محبوبه بمسرة وإن دقت فإنه لا يراها إلا جليلة خطيرة فكيف هذا مع الرب

تعالى الذي لا يأتي أبدا إلا بالخير ويستحيل خلاف ذلك في حقه كما يستحيل عليه خلاف

كماله وقد أفصح أعرف الخلق بربه عن هذا بقوله: والشر ليس إليك أي لا يضاف إليك ولا

ينسب إليك ولا يصدر منك فإن أسماءه كلها حسنى وصفاته كلها كمال وأفعاله كلها فضل

وعدل وحكمة ورحمة ومصلحة فبأي وجه ينسب الشر إليه سبحانه وتعالى فكل ما يأتي

منه فله عليه الحمد والشكر وله فيه النعمة والفضل قوله: وأن لا يرى من الوفاء بدا يعني: أن

معاملتك للحق سبحانه بمقتضى الاعتذار من كل ما منك والشكر

على ما منه: عقد مع الله تعالى لازم لك أبدا لا ترى من الوفاء به بدا فليس ذلك بأمر عارض

وحال يحول بل عقد لازم عليك الوفاء به إلى يوم القيامة

فصل قال: الدرجة الثالثة: التخلق بتصفية الخلق ثم الصعود عن تفرقة

(240/301)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (200) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الشيطان بعداوته لبني آدم مجتهداً في التنفير من هذه المحاسن والترغيب في أضدادها ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد نزع منه حظ الشيطان بطرح تلك العلة السوداء من قبله إذ شق جبرائيل عليه السلام صدره وغسل قلبه وقال : هذا حظ الشيطان منك ؛ شرع لأمته ما يعصمهم منه عند نزغ مخاطباً له بذلك ليكون أدعى لهم إلى القبول وأجدر باشتداد الخوف المقتضي للفرار المثمر للنجاة ، لأنهم إذا علموا قصد الشيطان لمن نزع منه حظه وعصم من كل محنة علموا أنه لهم أشد قصداً وأعظم كيداً وصدماً ، فقال مؤكداً بأنواع التأكيد إشارة إلى شدة قصد الشيطان للفتنة وإفراطه في ذلك ، ليبالغ في الحذر منه وإن كان قصده بذلك في محل الإنكار لعلمه بالعصمة - لذلك عبر بأداة الشك إشارة إلى ضعف كيده للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، لأن الله تعالى أعانه على قرينه فأسلم : ﴿ وإما ﴾ أي إن ، وأكدت ب ﴿ ما ﴾ إثباتاً للمعنى ونقياً لضده ﴿ ينزغتك ﴾ أي ينخسك نخساً عظيماً ﴿ من الشيطان نزغ ﴾ أي نخس بوسوسته من شأنه أن يزعج فيسوق إلى خلاف ما تقدم من المحاسن في نحو غضب من جهل الجاهل وسفه السفه أو إفراط في بعض أوجه كما تساق الدابة بما تنخس به ، فيفسر ويجعل

النخس ناخساً إشارة إلى شدته ﴿ فاستعد ﴾ أي فأوجد أو اطلب العوذ وهو الاعتصام

﴿ بالله ﴾ أي الذي له جميع العز والعظمة والقدرة والقهر لا تقطاعك عن الإخوان

والأنصار إليه فلا ولي لك ولا ناصر إلا هو ، فإنه إذا أراد إعادتك ذكرك من عزيز نعمه

وشديد نقمه ما يريد عن الفساد رغباً ورهباً ، والآية ناظرة إلى قوله تعالى أولها ﴿ لأعدن

لهم صراطك المستقيم ﴾ [ الأعراف : 16 ] .

ولما أبطل تعالى أن يكون لشركائهم سمع أو علم ، صار إثبات ذلك له كافياً في اختصاصه به

من غير حاجة إلى الحصر المتضمن لنفيه عن غيره لتقدمه صريحاً بخلاف ما في فصلت ،

فقال معللاً : ﴿ إنه سميع ﴾ أي بالغ السمع فهو يسمع استعاذتك فيجيبك إن شاء

﴿ عليم ﴾ شامل العلم بما تريد ويريد منك عدوك ، فلا يعجزه شيء ، وختم بصفة العلم

في الموضوعين لأن الوسوسة من باب ما يعلم ، وختمها في سورة المؤمن بالبصير المشتق من

البصر والبصيرة ، لأن المستعاذ منه أمر الناس ومنه ما يبصر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم

الدرر ح 3 ص 175 ﴿

(241/301)

---

## فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (200)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو زيد : لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [ الأعراف : 199 ] قال  
النبي صلى الله عليه وسلم : كيف يا رب والغضب ؟ فنزل قوله : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ﴾ .  
المسألة الثانية :

اعلم أن نزغ الشيطان ، عبارة عن وساوسه ونخسه في القلب بما يسول للإنسان من  
المعاصي ، عن أبي زيد نزغت بين القوم إذا أفسدت ما بينهم ، وقيل النزغ الازعاج ، وأكثر  
ما يكون عند الغضب ، وأصله الازعاج بالحركة إلى الشر ، وتقرير الكلام أنه تعالى لما أمره  
بالعرف فعند ذلك ربما يهيج سفيه ويظهر السفاهة فعند ذلك أمره تعالى بالسكوت عن  
مقابله فقال : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ولما كان من المعلوم أن عند إقدام السفيه على  
السفاهة يهيج الغضب والغيظ ولا يبقى الإنسان على حالة السلامة وعند تلك الحالة يجد  
الشيطان مجالاً في حمل ذلك الإنسان على ما لا ينبغي ، لا جرم بين تعالى ما يجري مجرى  
العلاج لهذا الغرض فقال : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ والكلام في تفسير الاستعاذة قد سبق في



أول الكتاب على الاستقصاء .

المسألة الثالثة :

احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه الآية وقالوا : لولا أنه يجوز من الرسول الإقدام على المعصية أو الذنب ، وإلا لم يقل له ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾  
والجواب عنه من وجوه : الأول : أن حاصل هذا الكلام أنه تعالى قال له : إن حصل في قلبك من الشيطان نزغ ، كما أنه تعالى قال : ﴿ لَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [ الزمر : 65 ]  
ولم يدل ذلك على أنه أشرك .

وقال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [ الأنبياء : 22 ] ولم يدل ذلك على أنه حصل فيهما آلهة .

(242/301)

---

الثاني : هب أنا سلمنا أن الشيطان يوسوس للرسول عليه السلام ، إلا أن هذا لا يقدر في عصمته ، إنما القادر في عصمته لو قبل الرسول وسوسته ، والآية لا تدل على ذلك .  
عن الشعبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من إنسان إلا ومعه شيطان " قالوا : وأنت يا رسول الله قال : " وأنا ولكنه أسلم بعون الله ، فلقد أتاني فأخذت بجلقه ،

ولولا دعوة سليمان لأصبح في المسجد طريحاً ، " وهذا كالدلالة على أن الشيطان يوسوس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمَّنَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] الثالث : هب أنا سلمنا أن الشيطان يوسوس .

وأنه عليه الصلاة والسلام يقبل أثر وسوسته ، إلا أنا نخص هذه الحالة بترك الأفضل والأولى .

قال عليه الصلاة والسلام : " وإنه ليغان على قلبي وإني لا أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة "

المسألة الرابعة :

الاستعاذة بالله عند هذه الحالة أن يتذكر المرء عظيم نعم الله عليه وشديد عقابه فيدعوه كل واحد من هذين الأمرين إلى الإعراض عن مقتضى الطبع والإقبال على أمر الشرع .  
المسألة الخامسة :

هذا الخطاب وإن خص الله به الرسول إلا أنه تأديب عام لجميع المكلفين لأن الاستعاذة بالله على السبيل الذي ذكرناه لطف مانع من تأثير وساوس الشيطان ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ \* إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : 97 ، 98] إذا ثبت بالنص أن لهذه الاستعاذة

أثرًا في دفع نزع الشيطان ، وجبت المواظبة عليه في أكثر الأحوال .

المسألة السادسة :

(243/301)

---

قوله : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب

العلم بمعنى الاستعاذة ، فكأنه تعالى قال : اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإنني سميع

واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك فإنني عليم بما في ضميرك ، وفي الحقيقة القول

اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ

15 ص 79 ﴾

(244/301)

---

وقال الجصاص :

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قيل في نزع الشيطان إنه الإغواء بالوسوسة ، وأكثر ما يكون عند الغضب وقيل إن أصله

الْإِزْعَاجُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الشَّرِّ، وَيُقَالُ: هَذِهِ نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، لِلْخَصْلَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ.  
 فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى نَزْعَ الشَّيْطَانِ إِيَّانَا إِلَى الشَّرِّ عَلَّمَنَا كَيْفَ الْخُلَاصُ مِنْ كَيْدِهِ وَشَرِّهِ بِالْفَزَعِ  
 إِلَيْهِ وَالِاسْتِعَاذَةَ بِهِ مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ، وَبَيَّنَّ بِالآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا أَنَّهُ مَتَى لَجَأَ الْعَبْدُ إِلَى  
 اللَّهِ وَاسْتَعَاذَ مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ حَرَسَهُ مِنْهُ وَقَوَّى بِصِيرَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ  
 طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الطَّيْفُ هُوَ النَّزْعُ.  
 وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿الْوَسْوَسَةُ﴾ .

وَهُمَا مُتَقَارِبَانِ وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُ مَتَى اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ أَعَاذَهُ مِنْهُ وَأَزْدَادَ  
 بَصِيرَةً فِي رَدِّ وَسْوَاسِهِ وَالتَّبَاعِدِ مِمَّا دَعَاهُ إِلَيْهِ، وَرَأَاهُ فِي أَحْسَنِ مَنْزِلَةٍ وَأَقْبَحِ صُورَةٍ لَمَّا يَعْلَمُ  
 مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِهِ إِنْ وَاقَفَهُ وَهُوَ عِنْدَهُ دَوَاعِي شَهْوَتِهِ. انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن  
 للجصاص ح 3 ص﴾

(245/301)

وقال السمرقندي:

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾

قال مقاتل يعني: ولا يفتنكم فتنة في أمر أبي جهل ﴿نزع فاستعد بالله﴾ قال الكلبي: أي

: وإما يصيبك من الشيطان وسوسة فاستعد بالله وقال الزجاج: النزغ أدنى حركة .  
ومعناه: إن أتاك من الشيطان أدنى وسوسة فاستعد بالله ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يعني :  
سميع لدعائك بوسوسة الشيطان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 1 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾

يعني يصيبك ويفتنك ويغرنك ويعرض لك من الشيطان ﴿ نَزَغٌ ﴾ وأصله الولوع بالفساد  
والشر .

يقال نزغ عرقه إذا [ جُنَّ ] وهاج ، وفيه لغتان : نزغ ونغز ، يقال : إياك والنزاع والنغاز وهم  
المورشون .

وقال الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون من الإنسان ومن الشيطان أدنى وسوسة ، وقال  
سعيد ابن المسيب : شهدت عثمان وعلياً وكان بينهما نزغ من الشيطان فما أبقى واحد  
منهما لصاحبه شيئاً ثم لم يبرحا حتى استغفر كل واحد منهما لصاحبه ﴿ فاستعد بالله  
﴿ فاستجر بالله ﴾ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص

﴿

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن النزغ الانزعاج .

والثاني : الغضب .

والثالث : الفتنه ، قاله مقاتل .

﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ سميعٌ بجهل من جهل ، عليم بما يزيل عنك النزغ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(246/301)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾

وصية من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم تعم أمة رجلاً رجلاً ، والنزغ حركة فيها

فساد ، وقلما تستعمل إلا في فعل الشيطان لأن حركته مسرعة مفسدة ، ومنه قول النبي

صلى الله عليه وسلم : " لا يشر أحدكم على أخيه بالسلاح ، لا ينزغ الشيطان في الغضب

وتحسين المعاصي واكتساب الغوائل وغير ذلك " ، وفي مصنف الترمذي عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنه قال : " إن للملك لمة وإن للشيطان لمة " .

قال القاضي أبو محمد : وعن هاتين اللمتين هي الخواطر من الخير والشر ، فالأخذ بالواجب  
هذه الآية يصلح مع الاستعاذة ويصلح أيضاً ما يقول فيه الكفار من الأقاويل فيغضبه  
الشیطان لذلك ، وعليم كذلك وبهذه الآية تعلق ابن القاسم في قوله : إن الاستعاذة عند  
القراءة أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الحرر الوجيز

ح 2 ص ﴿

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾

قال ابن زيد : لما نزلت ﴿ خذ العفو ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم : يا رب كيف  
بالغضب ؟ فنزلت هذه الآية .

فأما قوله ﴿ وإما ﴾ فقد سبق بيانه في سورة ( البقرة ) في قوله : ﴿ فإما يأتينكم مني  
هدى ﴾ [ البقرة : 38 ] ، وقال أبو عبيدة : ومجاز الكلام : وإما تستخفّنك منه خفة  
وغضب وعجلة .

وقال السدي : النزغ : الوسوسة وحديث النفس .

قال الزجاج : النزغ : أدنى حركة تكون ، تقول : قد نزغته : إذا حرّكته .

وقد سبق معنى الاستعاذة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴿

وقال القرطبي :

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (200)

فيه مسألتان :

الأولى لما نزل قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ قال عليه السلام : " كيف يا رب والغضب " ؟

فنزلت : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ﴾ ونزع الشيطان : وساوسه .

وفيه لغتان : نزع ونغز ، يقال : إياك والتُّزاع والتُّغاز ، وهم المورِّشون .

الزجاج : التُّزَعُ أدنى حركة تكون ، ومن الشيطان أدنى وسوسة .

قال سعيد بن المسيب : شهدت عثمان وعلياً وكان بينهما نزغٌ من الشيطان فما أبقى

واحدٌ منهما لصاحبه شيئاً ، ثم لم يبرحاً حتى استغفر كل واحد منهما لصاحبه .

ومعنى ﴿ يَنْزَغَنَّكَ ﴾ : يصيبنك ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحل .

﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي اطلب النجاة من ذلك بالله .

فأمر تعالى أن يدفع الوسوسة بالالتجاء إليه والاستعاذة به ؛ والله المثل الأعلى .

فلا يستعاذ من الكلاب إلا برب الكلاب .

وقد حكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سؤل لك الخطايا ؟

قال : أجاهده .



قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده.

قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده.

قال: هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ما تصنع؟ قال:  
أكابده وأردّه جهدي.

قال: هذا يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفّ عنك.

الثانية النَّعْزُ وَالنَّزْغُ وَالْهَمْزُ وَالْوَسْوَسةُ سِوَا: قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ

هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ [المؤمنون: 97] وقال: ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس

:4].

وأصل النزغ الفساد؛ يقال: نزغ بيننا؛ أي أفسد.

ومنه قوله: ﴿ نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف: 100] أي أفسد.

وقيل: النزغ الإغواء والإغراء؛ والمعنى متقارب.

(248/301)

---

قلت: ونظير هذه الآية ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق عليه وسلم: "يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق

ربك فإذا بلغ فليستعذ بالله وليُنْتَه " وفيه عن عبد الله قال : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة قال : " تلك مَحْضُ الإِيمان " وفي حديث أبي هريرة : " ذلك صريح الإِيمان " والصريح الخالص .

وهذا ليس على ظاهره ؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هي الإِيمان ، لأن الإِيمان اليقين ، وإنما الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعالى أن يعاقبوا على ما وقع في أنفسهم .

فكأنه قال جَزَعُكم من هذا هو محض الإِيمان وخالصة ؛ لصحة إيمانكم ، وعلمكم بفسادها .

فسمي الوسوسة إيماناً لما كان دفعها والإعراض عنها والرد لها وعدم قبولها والجزع منها صادراً عن الإِيمان .

وأما أمره بالاستعاذة فلكون تلك الوسوس من آثار الشيطان .

وأما الأمر بالانتهاء فعن الركون إليها والإلتفات نحوها .

فمن كان صحيح الإِيمان واستعمل ما أمره به ربه ونبيه ونفعه وانتفع به .

وأما من خالجه الشبهة وغلب عليه الحس ولم يقدر على الانفكاك عنها فلا بُدَّ من

مشافهته بالدليل العقلي ؛

" كما قال صلى الله عليه وسلم للذي خالطته شبهةُ الإبل الجرب حين قال النبي صلى الله

عليه وسلم: "لا عَدْوَى" قال أعرابي: فما بال الإبل تكون في الرَّمْل كأنها الطباء فإذا دخل فيها البعير الأَجْرَبُ أجربها؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "فمن أَعْدَى الأَوَّل" فاستأصل الشبهة من أصلها.

فلما يئس الشيطان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالإغراء والإضلال أخذ يشوش عليهم أوقاتهم بتلك الألقبات.

والوساوسُ: التُّرَهَّاتُ؛ فنفرت عنها قلوبهم وعظم عليهم وقوعها عندهم فجاءوا كما في الصحيح "فقالوا: يا رسول الله.

إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به.

قال: "أو قد وجدتموه"؟ قالوا: نعم.

(249/301)

---

قال: "ذلك صريح الإيمان" "رَغْمًا للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله: ﴿إِنَّ

عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42].

فالخواطر التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها الشبهة فهي التي تُدْفَعُ بالإعراض عنها؛ وعلى

مثلها يطلق اسم الوسوسة.

والله أعلم.

وقد مضى في آخر "البقرة" هذا المعنى ، والحمد لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي

ح 7 ص ﴿

(250/301)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وإما ينزغناك من الشيطان نزغ ﴾

قال ابن زيد " لما نزل قوله سبحانه وتعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال

النبي ( صلى الله عليه وسلم ) " فكيف بالغضب يا رب " فأنزل الله : وإما ينزغناك من

الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه سميع عليم .

ونزغ الشيطان عبارة عن وساوسه ونخسه في القلب .

وقيل النزغ الانزعاج وأكثر ما يكون عند الغضب وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشر

والإفساد .

يقال : نزغت بين القوم إذا أفسدت بينهم .

وقال الزجاج : النزغ أدنى حركة تكون ومن الشيطان أدنى وسوسة والمعنى وإما يصيبناك

يا محمد ويعرض لك من الشيطان وسوسة أو نغسة ﴿ فاستعد بالله ﴾ يعني فاستجر بالله والجارأ إليه في دفعه عنك ﴿ إنه سميع ﴾ يعني لدعائك ﴿ عليم ﴾ بحالك وقيل إن الشيطان يجد مجالاً في حمل الإنسان على ما لا ينبغي في حالة الغضب والغيط فأمر الله بالالتجاء إليه والتعود به في تلك الحالة فهي تجري مجرى العلاج لذلك المرض .

(فصل واحتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه الآية)

فقالوا لو كان النبي معصوماً لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ في قلبه ويحتاج إلى الاستعاذة والجواب عنه من وجوه ، الأول : أن معنى الكلام إن حصل في قلبك نزغ من الشيطان فاستعد بالله وإنه لم يحصل له ذلك البتة فهو كقوله لئن أشركت وهو برئ من الشرك البتة .

(251/301)

---

والوجه الثاني : على تقدير أنه لو حصل وسوسة من الشيطان لكن الله عصم نبيه ( صلى الله عليه وسلم ) عن قبولها وثبوتها في قلبه ( م ) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة " قالوا وإياك يا رسول الله قال " وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا

بجير " قال الشيخ محيي الدين النووي يروى فأسلم بفتح الميم وضمها فمن رفع قال معناه  
فأسلم أنا من شره وفتنته ومن فتح قال معناه أن القرين أسلم من الإسلام يعني صار مؤمناً لا  
يأمرني إلا بجير .

قال الخطابي : الصحيح المختار الرفع ورجح القاضي عياض الفتح قال الشيخ وهو  
المختار لقوله فلا يأمرني إلا بجير .

قال القاضي عياض : واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ( صلى الله عليه وسلم ) من  
الشیطان في جسمه وخاطره ولسانه وفي هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين  
ووسوسته وإغوائه أعلمنا أنه معنا لنحتز عنه بحسب الإمكان والله أعلم .

الوجه الثالث : يحتمل أن يكون الخطاب للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) والمراد به غيره  
ومعناه وإما ينزغتك أيها الإنسان من الشيطان نزغ فاستعد بالله فهو كقوله فإذا قرأت القرآن  
فاستعد بالله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ج 2 ص ﴾

(252/301)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وإما ينزغتك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه سميع عليم ﴾ أي ينخسك بأن

يحملك بوسوسته على ما لا يليق فاطلب العيادة بالله منه وهي اللواذ والاستجارة، قيل :  
لما نزلت ﴿ خذ العفو ﴾ الآية قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : كيف والغضب  
فنزلت ومناسبتها لما قبلها ظاهرة وفاعل ينزغك هو نزغ على حد قولهم جد جده أو  
على إطلاق المصدر ، والمراد به نازغ وختم بهاتين الصفتين لأن الاستعاذة تكون بالنسيان  
ولا تجدي إلا باستحضار معناها فالمعنى سميع للأقوال عليم بما في الضمائر ، قال ابن عطية  
: الآية وصية من الله تعالى لنبيه ( صلى الله عليه وسلم ) نعم أمته رجالاً رجلاً ونزغ  
الشیطان عام في الغضب وتحسين المعاصي واكتساب الغوائل وغير ذلك وفي مصنف أبي  
عيسى الترمذي عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) أنه قال : " إن للملك لمة وإن للشیطان  
لمة " وبهذه الآية تعلق ابن القاسم في قوله : إن الاستعاذة عند القراءة أعوذ بالله السميع  
العليم من الشيطان الرجيم انتهى .

واستنباط ذلك من الآية ضعيف لأن قوله : ﴿ إنه سميع عليم ﴾ جرى مجرى التعليل  
لطلب الاستجارة بالله أي لا تستعد بغيره فإنه هو السميع لما تقول أو السميع لما تقوله الكفار  
فيك حين يرومون إغضابك العليم بقصدك في الاستعاذة أو العليم بما انطوت عليه  
ضمائرهم من الكيد لك فهو ينصرك عليهم ويجيرك منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر

المحيط ح 4 ص ﴿

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ ﴾

النزغُ والنسغُ والنخسُ : الغرزُ شُبّهت وسوسته للناس وإغراؤه لهم على المعاصي بغرز

السائق لما يسوقه ، وإسناده إلى النزغ من قبيل جدّ جدّه أي وإما يحملنك من جهته

وسوسة ما على خلاف ما أمرت به من اعتراء غضب أو نحوه ﴿ فاستعد بالله ﴾

فالتجىء إليه تعالى من شره ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ يسمع استعاذتك به قولاً ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يعلم

تضرّعك إليه قلباً في ضمن القول أو بدونه فيعصمك من شره . وقد جوز أن يراد بنزغ

الشیطان اعتراء الغضب على نهج الاستعارة كما في قول الصديق رضي الله عنه : إن لي

شيطاناً يعتريني . ففيه زيادة تنفير عنه وفرط تحذير عن العمل بموجبه ، وفي الأمر

بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره وتنبیه على أنه من الغوائل الصعبة التي لا يتخلص من

مضرّتها إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل ، وقيل : يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك

عليه ، أو سمیع بأقوال من آذاك علیم بأفعاله فيجازيه عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

أبي السعود ح 3 ص ﴿

وقال الأوسى :

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ ﴾



النزغ والنسغ والنخس بمعنى وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا أو ما يشبه ذلك في الجلد ،  
وعن ابن زيد أنه يقال : نزغت ما بن القوم إذا أفسدت ما بينهم ، وقال الزجاج : هو أدنى  
حركة تكون ، ومن الشيطان وسوسته ، والمعنى الأول هو المشهور ، وإطلاقه على  
وسوسة الشيطان مجاز حيث شبه وسوسته إغراء للناس على المعاصي وإزعاجاً بغرز  
السائق ما يسوقه ، وإسناد الفعل إلى المصدر مجازي كما في جد جده ، وقيل : النزغ بمعنى  
النازغ فالتجوز في الطرف ، والأول أبلغ وأولى ، أي إما يحملنك من جهة الشيطان وسوسة  
ما على خلاف ما أمرت به من اعتراء غضب أو نحوه ﴿ فاستعذ بالله ﴾ فاستجربه  
والتجىء إليه سبحانه وتعالى في دفعه عنك ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ سمع على أكمل وجه  
استعاذتك قولاً ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يعلم كذلك تضرعك إليه قلباً في ضمن القول أو بدونه  
في عصمك من شره ، أو سمع أي مجيب دعائك بالاستعاذة عليهم بما فيه صلاح أمرك  
فيحملك عليه ، أو سمع بأقوال من آذاك عليهم بأفعاله فيجازيه عليها ، والآية على ما نص  
عليه بعض المحققين من باب ﴿ لَنْ أَشْرُكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [ الزمر : 65 ] فلا حجة  
فيها لمن زعم عدم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من وسوسة الشيطان وارتكاب  
المعاصي .

---

وفي "صحيح مسلم" عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا: وإياك يا رسول الله قال: وإياي إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير " وقال آخرون: إن نزع الشيطان بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم مجاز عن اعتراء الغضب المقلق للنفس ، وفي الآية حينئذٍ زيادة تنفير عن الغضب وفرط تحذير عن العمل بموجبه ، ولذا كرر صلى الله عليه وسلم النهي عنه كما جاء في الحديث ، وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لذلك وتنبية على أنه من الغوائل التي لا يتخلص من مضرتها إلا بالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني - 9 ص ﴾

(255/301)

---

وقال ابن عاشور:

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (200)

وهذا الأمر مراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتداء وهو شامل لأُمَّته .

(إما) هذه هي (إن) الشرطية اتصلت بها ( ما ) الزائدة التي تزداد على بعض الأسماء غير

أدوات الشروط فتصيرها أدواتها ، نحو ( مهما ) فإن أصلها ماما ، ونحو ( إذما ) و ( أنما )  
( و ( أيانما ) و ( حيثما ) و ( كيفما ) فلا جرم أن ( ما ) إذا اقترنت بما يدل على الشرط  
أكتسبه قوة شرطية فلذلك كتبت ( إما ) هذه على صورة النطق بها ولم تكتب مفصولة  
النون عن ( ما ) .

والنزغ النخس والغرز ، كذا فسره في "الكشاف" وهو التحقيق ، وأما الراغب وابن عطية  
فقيداه بأنه دخول شيء في شيء لإفساده ، ( قلت : وقريبٌ منه الفسخ بالسين وهو الغرز  
يأبرة أو نحوها للوشم ) قال ابن عطية " وقلما يُستعمل في غير فعل الشيطان ❀ من بعد أن  
نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ❀ [ يوسف : 100 ] .

وإطلاق النزغ هنا على وسوسة الشيطان استعارة : شبه حدوث الوسوسة الشيطانية  
في النفس بنزغ الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي ، وشاعت هذه الاستعارة بعد  
نزول القرآن حتى صارت كالحقيقة .

والمعنى أن ألقى إليك الشيطان ما يخالف هذا الأمر بأن سؤل لك الأخذ بالمعاقبة أو سؤل  
لك ترك أمرهم بالمعروف غضباً عليهم أو يأساً من هداهم ، فاستعد بالله منه ليدفع عنك  
حرجه ويشرح صدرك لمحبة العمل بما أمرت به .

والاستعاذة مصدر طلب العوذ ، فالسين والتاء فيها للطلب ، والعوذ : الإلتجاء إلى شيء

يدفع مكروهاً عن المتجنيء ، يقال : عاذ بفلان ، وعاذ بالحرَم ، وأعاذه إذا منعه من الضر الذي عآذ من أجله .

(256/301)

---

فأمر الله بدفع وسوسة الشيطان بالعوذ بالله ، والعوذُ بالله هو الالتجاء إليه بالدعاء بالعصمة ، أو استحضار ما حدده الله له من حدود الشريعة ، وهذا أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الالتجاء إلى الله فيما عسر عليه ، فإن ذلك شكر على نعمة الرسالة والعصمة ، فإن العصمة من الذنوب حاصله له ، ولكنه يشكر الله بإظهار الحاجة إليه لإدامتها عليه ، وهذا مثل استغفار الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله في حديث "صحيح مسلم" "إنه يُبغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة" فالشيطان لا يبأس من إلقاء الوسوسة للأنبياء لأنها تنبعث عنه بطبعه ، وإنما يترصد لهم مواقع خفاء مقصده طمعاً في زلة تصدر عن أحدهم ، وإن كان قد علم أنه لا يستطيع إغواءهم ، ولكنه لا يفارقه رجاء حملهم على التصير في مراتبهم ، ولكنه إذا ما هم بالوسوسة شعروا بها فدفعوها ، ولذلك علم الله رسوله عليه الصلاة والسلام الاستعانة على دفعها بالله تعالى .

روى الدارقطني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به

قربنُه من الجن وقربنُه من الملائكة "

قالوا وأنت يا رسول الله ، قال " وأنا ولكن الله أعاني عليه فأسلم " روي قوله : " فأسلم " بفتح الميم بصيغة الماضي والهمزة أصلية ، صار الشيطان المقارن له مُسلماً ، وهي خصوصية للنبي صلى الله عليه وسلم وروي بضم الميم بصيغة المضارع ، والهمزة للمتكلم : أي فأنا أسلم من وسوسته وأحسب أن سبب الاختلاف في الرواية أن النبي صلى الله عليه وسلم نطق به موقوفاً عليه .

وهذا الأمر شامل للمؤمنين وحظ المؤمنين منه أقوى لأن نزع الشيطان إياهم أكثر ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم مؤيد بالعصمة فليس للشيطان عليه سبيل .

(257/301)

---

وجملة : ﴿ إنه سميع عليم ﴾ في موقع العلة للأمر بالاستعاذة من الشيطان بالله على ما هو شأن حرف (إن) إذا جاء في غير مقام دفع الشك أو الإنكار ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينكر ذلك ولا يتردد فيه ، والمراد : التعليل بل لازم هذا الخبر ، وهو عودته مما استعاذه منه ، أي : أمرناك بذلك لأن ذلك يعصمك من وسوسته لأن الله سميع عليم .  
و"السميع" : العالم بالمسموعات ، وهو مراد منه معناه الكنائي ، أي عليم بدعائك

مستجيب قابل للدعوة، كقول أبي ذؤيب:

دَعَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لِأَمْرِهِ . . .

سَمِعَ فَمَا أَذْرِي أَرْشُدُ طِلَابُهَا

أي ممثل، فوصفُ ﴿ سميع ﴾ كناية عن وعد بالإجابة.

وإتباعه بوصف ﴿ عليم ﴾ زيادة في الإخبار بعموم علمه تعالى بالأحوال كلها، لأن

وصف ﴿ سميع ﴾ دل على أنه يعلم استعاذة الرسول عليه الصلاة والسلام ثم أتبعه بما

يدل على عموم العلم، وللإشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بحل عنابه الله تعالى

فهو يعلم ما يريد به الشيطان عدوه، وهذا كناية عن دفاع الله عن رسوله كقوله: ﴿ فَإِنَّكَ

بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: 48] وأن أمره بالاستعاذة ووقوف عند الأدب والشكر وإظهار

الحاجة إلى الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 8 ص ﴾

(258/301)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (200)

و"نزغ" تساوي كلمة "نخس" أي أمسك بشيء ووضع طرفه في جسد من بجانبه أو من

أمامه . ويتضح من معنى "نخس" أن هناك مسافة بين الناخس والمنخوس ووسيلة أو أداة للنخس .

وعملية النخس لا يدرك بها الناخس أو المنخوس حرارة بعضهما البعض ، أما كلمة "مس" فقد يشعر الماس والممسوس كل واحد بجملة الحرارة الآخر منهما بسرعة ، لكن أحدهما لا يدرك نعومة الآخر ، أما اللمس ففيه إدراك لنعومة وحرارة اللامس والملموس . ومعارك الحرب كلها تدور في هذا النطاق ، فحين يكون العدو بعيداً يحتاج خصمه إلى أن يتعد عنه كيلا يصيبه بالنبال أو السهام ، ويحاول هو أن يصيب خصمه بالنبال أو السهام . وكما تفعل الجيوش الحديثة حين ترسل طائراتها لترمي القنابل على قوات الخصم . وتقاس قوة الدول بقدرتها على ضرب القوات المعادية دون قدرة تلك القوات على الرد ، لأنها تصيبه من بعد في عصر الصواريخ بعيدة المدى . ونجد الإشارة في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ . . . ﴾ [ الأنفال : 60 ] .

وأوضح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى القوة فيما رواه عنه عقبه ابن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : " إلا أن القوة الرمي " . لأن الرمي يُمكن قذيفتك من عدوك ، وأنت بعيد عنه فلا يقدر أن يصيبك بما يرميه . وقدماً كانت الجيوش تزحف ، فيلقى الخصوم عليها النبال والسهام ، وإذا ما اقتربت

الجيش أكثر من خصومها فكل فريق يواجه الرماح إلى ما يقرب من أجساد الفريق الآخر .  
وإذا حمى وطيس المعركة تتلاقى السيوف . إذن كلهما من النخس ، والمس ، واللمس .

(259/301)

---

وحينما خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ربه قائلاً: " يا رب كيف بالغضب؟ " أي  
كيف يكون علاج الغضب؟ نزل قول الحق: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ  
بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: 200] .

وقد يستفهم قائل فيقول: أينزع الشيطان الرسول؟ . وأقول: إن الحق تبارك وتعالى لم يقل:  
" وإذ نزعك الشيطان " ، ولكنه قال: " وإما ينزغك " أي إن حدث ذلك ، وهو قول يفيد  
الشك - ثم لماذا يحرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من لذة مجابهة الشيطان؟ . ونعم  
عن ابن مسعود أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة . قالوا: وإياك؟ قال  
: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير " .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ . . . ﴾



والاستعاذة تعني طلب العون والملجأ والحفظ وأنت لا تطلب العون ولا تلجأ ولا تستجير إلا بمن هو أقوى ممن يريد أن ينالك بشر .

ومعلوم أن الشيطان له من خفة الحركة ، وقدرة التغلغل ، ووسائل التسلل الكثير ؛ لذلك فينبغي ألا تستعيز بمثله أو بمن هو دونه ، ولكنك تستعيز بمخالق الإنس والجن وجميع المخلوقات ، وهو القادر على أن يعطل فاعلية الشيطان . وسبحانه سميع عليم ، والسمع له متعلق ، والعلم له متعلق ، فحين تستحضر معنى الاستعاذة وأنت مشحون بالإيمان وتلجأ إلى من خلقك . وخلق ذلك الشيطان ؛ عندئذ لا بد أن يهرب الشيطان من طريقك لأنه يعلم أنك تلجأ إلى الخالق القوي القادر وهو ليست له قوة على خالقه ، وسبحانه سميع لقولك : " أعوذ بالله " ، عليم بما في نفسك من معنى هذه الكلمة .

وإذا كان الحق تبارك وتعالى هنا قد تكلم عن حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وقال :

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ﴾

(260/301)

---

أي أن الشيطان بعيد ، وهو يحاول مجرد النزغ ، فماذا عن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاء هذا ؟ . هنا يقول الحق تبارك وتعالى : - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ

مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . . . . ❁ . انتهى انتهى . اه ❁ تفسير

الشعراوى ص ❁

(261/301)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه سميع عليم " وفى سورة حم

السجدة [فصلت] : " وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه هو السميع العليم "

فوردت الصفتان فى سورة الأعراف على طريقة التنكير ووردتا فى السورة الأخرى

معرفتين وزيد قبلهما الضمير الواقع فصلا فقليل : " إنه هو " وللسائل أن يسأل عن وجه

التعريف والتنكير ؟ وعن زيادة الضمير ؟

والجواب عن السؤالين : أن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف آلهتهم المنحوتة من

الحجارة والخشب التى ومجوا بعبادتها فى قوله فى موضع آخر : " أتعبدون ما تنحتون "

فوصفت هنا بأنها لا تخلق شيئا ولا يستطيعون لهم نصرا " وإن تدعوهم إلى الهدى لا

يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون " فنفى عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة

المشى وآلة البطش بقوله: "أهم أجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها" ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شىء يلحقها بشبه الأحياء فضلا عما فوق ذلك فورد الصفتان بقوله: "سميع عليم" موردا لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شىء من ذلك لغيره تعالى مما عبده من دونه مما قصد هنا ولا ذكر دعوى شىء من ذلك من مدع فيستدعى ذلك التوهم مفهوما ينفيه فجاء على ما يجب .

(262/301)

---

أما آية الأعراف فتقدم قبلها قوله تعالى: "ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعلمون" وقوله تعالى: "وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم" وقوله تعالى: "أرنا الذين أضلنا من الجن والإنس" فحصل من هذا أن مضليهم إنما كانوا من عالم الإنس والجن وكلا الصنفين موصوف بالسمع والبصر وممن ينسب إليه علم بخلاف المقدم ذكر فى الأعراف فلما تقدم فى سورة السجدة من يظن منه الغنى ويمكن منه أن يسمع ويبصر ويعلم ناسبه التعريف فى الصفة ليعطى بالمفهوم نفى ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضى التخصيص فقوى المفهوم المسمى عند كثير من الأصوليين بدليل الخطاب فصار الكلام فى قوم أن لو قيل: الله هو السميع العليم لا غيره وأحرز الفصل

بالضمير هذا المعنى مع إعطاء المفهوم إياه ولم يكن ورود ما فى سورة الأعراف من التنكير  
ليناسب الوارد متقدما فى سورة السجدة ولا التعريف الوارد فى الصفتين العليتين فى  
سورة السجدة ليناسب ما تقدم آية الأعراف فجاء كل على ما يناسب والله أعلم . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل ص 223.224 ﴾

(263/301)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (200)

أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : " لما نزلت ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن  
الجاهلین ﴾ [الأعراف : 199] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كيف يا رب

والغضب ، فنزل ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ . . . ﴾ الآية " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ قال : علم الله أن هذا العدو مبيت ومريد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه كان يقول : اللهم

إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفته ونفخه . قال : همزه الموتة ، ونفته الشعر : ونفخه

الكبرياء " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(264/301)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ ﴾ الآية .

قال : عبد الرحمن بن زيد : لما نزل قوله : " خُذِ الْعَفْوَ " الآية : قال النبي ﷺ . صلى الله عليه

وسلم . " كيف يا رب بالغضب ؟ "

فنزل قوله : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ ﴾ الآية والنزغُ : أدنى حركة تكون ، قاله

الزجاجُ ، ومن الشيطان أدنى وسوسة وقال عبد الرحمن بن زيد لما نزلت : قوله وأكثر ما

يُسند للشيطان ؛ لأنه أسرع في ذلك وقيل النزغُ الدخول في أمر لإفساده .

وقال الزمخشري : والنزغُ والنسغُ : الغرزُ والنخسُ ، وجعل النزغُ نازغاً كما قيل " جدَّ جدُّه

" يعني : قصد بذلك المبالغة .

وقيل : النزغُ : الإزعاج ، وأكثر ما يكون عند الغضب وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشرِّ ،

وتقريره: أن الأمر بالمعروف إذا أمر بما يهيج السفيه ويظهر السفاهة فعند ذلك أمره الله بالسكوت عن مقابله فقال: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ثم أمره الله تعالى بما يجري مجرى العلاج بهذا المرض إن حدث فقال: فاستعد بالله " وهذا الخطاب وإن كان للرَسُول إلا أنه عام لجميع المكلفين .

(265/301)

وقد تقدم الكلام في الاستعاذة؛ وقوله: ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة، فكأنه تعالى يقول: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك، فإني سميع، واستحضر معنى الاستعاذة بقلبك، وعقلك فإني عليم بما في ضميرك. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 432. 433 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (200)

إن سَنَحَ في باطنك من الوسوس أثار فاستعد بالله يدركك بحسن التوفيق، وإن هَجَسَ في صدرك من الحظوظ خاطر فاستعد بالله يدركك بإزالة كل نصيب، وإن لَحِقَتْكَ في بذل

الجهد فتركة فاستعدُّ بالله يدركك بإدامة الآئه ، وإن اغترتكَ في الترقى إلى محل الوصول وقفة  
فاستعدُّ بالله يدركك بإدامة التحقيق ، وإن تقاصر عنك شيء من خصائص القرب -  
صيانة عن شهود المحل - فاستعدُّ بالله يُثبتك له بدلاً من لك بك . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 598 ﴾

(266/301)

كلام نفيس للإمام ابن القيم في الاستعاذة

قال عليه الرحمة :

معنى "استعد بالله" امتنع به واعتصم به والجا إليه ، ومصدره العوذ ، والعياذ ، والمعاذ ؛  
وغالب استعماله في المستعاذ به ، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : "لَقَدْ عُدَّتْ  
بُعَاذٌ".

وأصل اللفظة: من اللجا إلى الشيء والاقتراب منه ، ومن كلام العرب "أطيب اللحم عوذة"  
أى الذى قد عاذ بالعظم واتصل به . وناقاة عائد: يعوذ بها ولدها ، وجمعها "عوذ" كحمر .  
ومنه فى حديث الحديبية: "مَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ".

والمطافيل: جمع مطفل ، وهى الناقة التى معها فصيلها .

قالت طائفة منهم صاحب جامع الأصول: استعار ذلك للنساء ، أى معهم النساء وأطفالهم ، ولا حاجة إلى ذلك ، بل اللفظ على حقيقته . أى قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التى معها أولادها ، فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن . وفى ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما فى الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوسوس والشهوات والإرادات الفاسدة ، فهو دواء لما أمره فيها الشيطان ، فأمر أن يطرد مادة الداء ويحلى منه القلب ليصادف الدواء محلاً خالياً ، فيتمكن منه ، ويؤثر فيه ، كما قيل:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أُعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَمَكَّنَّا

فيجىء هذا الدواء الشافى إلى قلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه . ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير فى القلب ، كما أن الماء مادة النبات ، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً ، فكلما أحس بنبات الخير فى القلب سعى فى إفساده وإحراقه ، فأمر أن يستعيز بالله عز وجل منه لتلايفسد عليه ما يحصل له بالقرآن . والفرق بين هذا الوجه والوجه الذى قبله ، أن الاستعاذة فى الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن ، وفى الوجه الثانى لأجل بقائها وحفظها وثباتها .



---

وكان من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى ، وهو لعمر الله ملحظ جيد ،  
إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة وهو قول جمهور  
الأمة من السلف والخلف ، وهو محصل للأمرين .

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته . كما في حديث أسيد ابن  
حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصاييح ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:  
"تلك الملائكة" .

والشيطان ضد الملك وعدوه . فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباحة عدوه عنه  
حتى يحضره خاصته وملائكته ، فهذه وليمة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين .  
ومنها: أن الشيطان يجلب على القارئ بجنيله ورجله ، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن ،  
وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه ، فيحرص بجهد على أن يحول بين  
قلبه وبين مقصود القرآن ، فلا يكمل انتفاع القارئ به ، فأمر عند الشروع أن يستعيز بالله  
عز وجل منه .

ومنها: أن القارئ مُناجٍ لله تعالى كلامه ، والله تعالى أشد أذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن  
من صاحب القينة إلى قينته . والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء . فأمر القارئ أن يطرده  
بالاستعاذة عند مناجاته تعالى واستماع الرب قراءته .

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته. كما قال الشاعر في عثمان:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرُهُ لَأَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعد منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه عند القراءة.

(268/301)

---

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ شَيْطَانَ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ، فَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي" الحديث. وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر. وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم

يقول:

"إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ : اتَّسَلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ  
وَدِينَ آبَائِكَ وَأَبَاءِ آبَائِكَ ؟ فَعَصَاهُ

فَأَسَلِمَ ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ ، فَقَالَ : أَتَهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ ؟ وَإِنَّمَا مَثَلُ  
الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي الطُّولِ فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ ، وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ  
وَالْمَالِ فَقَالَ : تَقَاتِلُ فَتُقْتَلُ ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقَسَّمُ الْمَالُ ؟ قَالَ : فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ ."

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير .

وقال منصور عن مجاهد رحمه الله: "ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل  
عدتهم" رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ، فهو بالرصد ، ولا سيما عند قراءة القرآن ، فأمر  
سبحانه العبد أن يجارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيد بالله تعالى منه أولاً ، ثم  
يأخذ في السير ، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ، ثم اندفع في  
سيره .

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتى به بعدها القرآن ، ولهذا لم تشرع  
الاستعاذة بين يدي كلام غيره ، بل الاستعاذة مقدمة وتنبية للسامع أن الذي يأتي بعدها هو  
التلاوة ، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى ، ثم [شرع] ذلك  
للقارئ ، وإن كان وحده ، لما ذكرنا من الحكم وغيرها .

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقد قال أحمد في رواية حنبل: "لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة، إلا استعاذ؛ لقوله عز

وجل:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: 98].

وقال في رواية ابن مشيش: "كلما قرأ يستعيز".

وقال عبد الله بن أحمد: "سمعت أبي كان إذا قرأ استعاذ، يقول: أعوذ بالله من الشيطان

الرجيم، إن الله هو السميع العليم".

وفي المسند والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال: "كان النبي صلى الله عليه

وسلم إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم:

مِنْ هَمَزِهِ

وَنَفْحِهِ وَنَفْثِهِ".

وقال ابن المنذر: "جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول قبل القراءة: أعوذ بالله

مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ".

واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول: "أعوذ بالله من الشيطان

الرجيم" وهو رواية عن أحمد، لظاهر الآية، وحديث ابن المنذر.

وعن أحمد من رواية عبد الله: "أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ".

لحديث أبي سعيد، وهو مذهب الحسن وابن سيرين، ويدل عليه ما رواه أبو داود في

قصة الإفك:

"أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ وَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ

مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ".

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ".

وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يسار، واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل؛ لأن

قوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [فصلت: 36].

ظاهره أنه يستعيز بقوله "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" وقوله في الآية الأخرى:

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36].

(270/301)

يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف "إن" لأنه سبحانه هكذا ذكره.

وقال إسحاق: الذي اختاره ما ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ".

وقد جاء في الحديث تفسير ذلك، قال: "وهمزه: المؤتة، ونفخه: الكبر، ونفثه: الشعر".  
وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾  
[المؤمنون: 97 - 98].

والهمزات: جمع همزة كمرات وتمرّة. وأصل الهمز الدفع، قال أبو عبيد عن الكسائي:  
همزته، ولمزته،

ولهزته، ونهزته - إذا دفعته، والتحقيق: أنه دفع بنخز، وغمز يشبه الطعن، فهو دفع

خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوسوس والإغواء إلى القلب، قال ابن عباس

والحسن: "همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم" وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم،

وهذا قول مجاهد، وفسرت بنفخهم وهو المؤتة التي تشبه الجنون.

وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث، وقد يقال - وهو الأظهر - إن همزات

الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصابتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت

نوعا خاصا، كظائر ذلك

ثم قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: 98].

قال ابن زيد: فى أموري. وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن، وقال عكرمة: عند النزح

والسياق، فأمره أن يستعيد من نوعي شر إصابتهم له بالهمز وقربهم ودنوهم منه.

فضمنت الاستعاذة أن لا يمسه ولا يقربوه، وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله: ﴿ادْفَعْ

بِالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾ [المؤمنون: 96].

فأمره أن يجترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتى هى أحسن، وأن يدفع شر

شياطين الجن بالاستعاذة منهم.

(271/301)

---

ونظير هذا قوله فى سورة الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

[الأعراف: 199].

فأمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه

فقال: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:

200].

ونظير ذلك قوله فى سورة فصلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ

أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿ [فصلت: 34].  
فهذا لدفع شر شياطين الإنس ثم قال: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغًا فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: 36] وقال ها هنا: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: 36] ، فأكد يان وبضمير الفصل وأتى باللام فى ﴿ السميع العليم ﴾ [فصلت: 36].  
وقال فى الأعراف: ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: 200].  
وسر ذلك - والله أعلم - أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكد أنه يريد إثبات مجرد الوصف الكافى فى الاستعاذة والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم ، فيسمع استعاذتك فيجيبك ويعلم ما تستعيز منه فيدفعه عنك ، فالسمع لكلام المستعيز والعلم بالفعل المستعاذ منه ، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة ، وهذا المعنى شامل للموضوعين ،

(272/301)

---

وامتاز المذكور فى سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص ؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا فى سمعه لقولهم وعلمهم به ، كما جاء فى الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: "اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي ، أو ثقفيان وقرشي ، كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول ؟



فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ، فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كله ،  
فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا  
جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ  
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: 22 - 23] .

فجاء التوكيد في قوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: 36] .

في سياق هذا الإنكار: أى هو وحده الذى له كمال قوة السمع وإحاطة العلم ، لا كما يظن  
به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوا وأنه لا يعلم كثيرا مما يعملون ، وحسن ذلك أيضا:  
أن المأمور به فى سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم ، وذلك أشق على النفوس  
من مجرد الإعراض عنهم ولهذا عقبه بقوله: ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو  
حِزْبٍ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: 35] .

فحسن التأكيد لحاجة المستعيز .

وأىضا فإن السياق ها هنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها وآيات ربوبيته وشواهد  
توحيده ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ﴾ [فصلت: 37] ويقول:  
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ [فصلت: 39] .

---

فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه "السميع العليم" كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرفة ، والذي فى الأعراف فى سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين ووعده المستعذ بأن له ربا يسمع ويعلم ، وألهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها ، فإنه سميع عليم ، وأهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم ، فكيف تُسوونها به فى العبادة ، فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التكبير ، كما لا يليق بذلك غير التعريف ، والله أعلم بأسرار كلامه .

ولما كان المستعاذ منه فى سورة "حم المؤمن" هو شر مجادلة الكفار فى آياته وما ترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ الْإِكْبَرُ مَا هُمْ بِيَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 56].

فإنه لما كان المستعاذ منه كلامه وأفعالهم المشاهدة عيانا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 56] ، وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا ، فإنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه . بل هو معلوم بالإيمان وإخبار الله ورسوله .

فصل

فالتقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوين بأسهل الطرق بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين

ودفع إساءتهم بالإحسان . وأخبر عن عظم حظ من لقاء ذلك فإنه ينال بذلك كف شر  
عدوه وانقلابه صديقا ، ومحبة الناس له ، وثناءهم عليه ، وقهر هواه ، وسلامة قلبه من  
الغل والحقد وطمأنينة الناس - حتى عدوه - إليه . هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن  
ثوابه ورضاه عنه ، وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً ، ولما كان ذلك لا ينال إلا بالصبر قال:  
﴿ وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا ﴾ [فصلت: 35] فإن التزق الطائش لا يصبر على  
المقابلة .

(274/301)

---

ولما كان الغضب مركب الشيطان ، فتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس  
المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان - أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه ، فتمدَّ  
الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية ، ويأتي مدد الصبر  
الذي يكون النصر معه ، وجاء مدد الإيمان والتوكل ، فأبطل سلطان الشيطان:  
﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: 99] .  
قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة .

والصواب: أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم: لا من جهة الحججة ، ولا من جهة

القدرة. والقدرة داخلية في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً؛ لأن صاحبها

يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على

عباده المخلصين المتوكلين، فقال في سورة الحجر:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزِينََنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ

قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ

الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: 39 - 42].

وقال في سورة النحل: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ \* إِنَّمَا

سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: 99 - 100].

فتضمن ذلك أمرين: أحدهما نفى سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص. والثاني

إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ إغاثة اللفهان ح 1

ص 92.98 ﴾

(275/301)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ

﴿ (201)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان لا يحصل للنبي - صلى الله عليه وسلم - إلا شيء خفيف جداً كما نبه عليه بالنزغ ،

وهو ليس بمحقق كما نبهت عليه أداة الشك ، وكان لا يستعيز بالله إلا المتقون فكان كأنه

قيل : افعل ذلك عند أول نزغه لتكون من المتقين ، علله بقوله : ﴿ إن الذين اتقوا ﴾ أي

حصل لهم هذا الوصف ، وحقق أذاهم بأداة التحقيق - بخلاف ما مضى عند أفراد

الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - . فقال : ﴿ إذا مسهم طائف ﴾ أي طواف على أنه

مصدر ، ويجوز أن يكون تخفيف طيف كميته وهو بمعنى قراءة طائف على أنه فاعل

كمية وماءت ، ويجوز أن يكون مصدراً أيضاً ، وهو إشارة إلى أن الشيطان دائر حولهم لا

يفارقهم ، فتارة يؤثر فيهم طوافه فيكون قد مسهم مساً هو أكبر من النزغ لكونه أطاف بهم

من جميع الجوانب ، وتارة لا يؤثر ﴿ من الشيطان ﴾ أي البعيد من الرحمة المحترق باللعنة

﴿ تذكروا ﴾ أي كلفوا أنفسهم ذكر الله بجميع ما ينفعهم في ذلك إقداماً وإحجاماً .

ولما كانوا يأسرع التذكر كأنهم لم يمسه شيء من أمره ، أشاره إلى ذلك بالجملة الاسمية

مؤكداً لسرعة البصر إذا فجائية : ﴿ فإذا هم ﴾ أي بنور ضمائرهم ﴿ مبصرون ﴾ أي

ثابت إبصارهم فلا يتابعون الشيطان ، فإن المتقي من يشتهي فينتهي ، ويبصر فيقتصر ، وفي

ذلك تنبيه على أن من تهادى مع الشيطان عمي لأنه ظالم ، والظالم هو من يكون كأنه في

الظلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 176 ﴾

(276/301)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (201)

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى بين في الآية الأولى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ينزغه الشيطان وبين أن علاج هذه الحالة الاستعاذة بالله ، ثم بين في هذه الآية أن حال المتقين يزيد على حال الرسول في هذا الباب ، لأن الرسول لا يحصل له من الشيطان إلا النزغ الذي هو كابتداء في الوسوسة ، وجوز في المتقين ما يزيد عليه وهو أن يمسه طائف من الشيطان ، وهذا المس يكون لا محالة أبلغ من النزغ .

المسألة الثانية :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿ طيف ﴾ بغير ألف ، والباقون ﴿ مَسَّهُمْ طَيْفٌ ﴾  
بالألف .

قال الواحدي رحمه الله : اختلفوا في الطيف فقيل إنه مصدر ، وقال أبو زيد يقال : طاف  
يطوف طوفاً وطوفاً إذا أقبل وأدبر .

وأطاف يطيف إطفاءً إذا جعل يستدير بالقوم ويأتيهم من نواحيهم ، وطاف الخيال يطيف  
طيفاً إذا ألم في المنام .

قال ابن الأنباري : وجائز أن يكون طيف أصله طيف .

إلا أنهم استقلوا التشديد ، فحذفوا إحدى الياءين وأبقوا ياء ساكنة ، فعلى القول الأول  
هو مصدر ، وعلى ما قاله ابن الأنباري هو من باب هين وهين وميت وميت ، ويشهد  
لصحته قول ابن الأنباري قراءة سعيد بن جبير ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ ﴾ بالتشديد .  
هذا هو الأصل في الطيف ، ثم سمي المجنون والغضب والوسوسة طيفاً ، لأنه لمة من لمة  
الشیطان تشبه لمة الخيال .

قال الأزهري : الطيف في كلام العرب المجنون ، ثم قيل للغضب طيف ، لأن الغضب يشبه  
المجنون .

وأما الطائف فيجوز أن يكون بمعنى الطيف ، مثل العافية والعاقبة ونحو ذلك مما جاء  
المصدر فيه على فاعل وفاعلة .

قال الفراء في هذه الآية: الطائف والطيف سواء، وهو ما كان كالتخيال الذي يلم بالإنسان،  
ومنهم من قال: الطيف كالخطرة والطائف كالحاطر.

(277/301)

المسألة الثالثة:

اعلم أن الغضب إنما يهيج بالإنسان إذا استقبح من المغضوب عليه عملاً من الأعمال، ثم  
اعتقد في نفسه كونه قادراً، واعتقد في المغضوب عليه كونه عاجزاً عن الدفع، فعند  
حصول هذه الاعتقادات الثلاثة إذا كان واقعاً في ظلمات عالم الأجسام فيغثروا بطواهر  
الأمر، فأما إذا انكشف له نور من عالم الغيب زالت هذه الاعتقادات الثلاثة من جهات  
كثيرة.

أما الاعتقاد الأول: وهو استقبح ذلك الفعل من المغضوب عليه، فإذا انكشف له أنه إنما  
أقدم على ذلك العمل، لأنه تعالى خلق فيه داعية جازمة راسخة، ومتى خلق الله فيه تلك  
الداعية امتنع منه أن لا يقدم على ذلك العمل، فإذا تجلى هذا المعنى زال الغضب، وأيضاً  
فقد يخطر ببال الإنسان أن الله تعالى علم منه هذه الحالة، ومتى كان كذلك فلا سبيل له إلى  
تركها، فعند ذلك يفر غضبه، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام:



"من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب" وأما الاعتقاد الثاني والثالث: وهو اعتقاده في نفسه كونه قادراً، وكون المغضوب عليه عاجزاً، فهذان الاعتقادان أيضاً فاسدان من وجوه: أحدها: أنه يعتقد أنه كم أساء في العمل، والله كان قادراً عليه، وهو كان أسيراً في قبضة قدرة الله تعالى، ثم إنه تجاوز عنه.

وثانيها: أن المغضوب عليه كما أنه عاجز في يد الغضبان، فكذلك الغضبان عاجز بالنسبة إلى قدرة الله.

وثالثها: أن يتذكر الغضبان ما أمره الله به من ترك إمضاء الغضب والرجوع إلى ترك الإيذاء والإيحاء.

ورابعها: أن يتذكر أنه إذا أمضى الغضب وانتقم كان شريكاً للسياق المؤذية والحياة القاتلة، وإن ترك الانتقام واختار العفو كان شريكاً للأكابر الأنبياء والأولياء.

(278/301)

---

وخامسها: أن يتذكر أنه ربما انقلب ذلك الضعيف قوياً قادراً عليه، فحينئذ ينتقم منه على أسوأ الوجوه، أما إذا عفا كان ذلك إحساناً منه إليه، وبالجملة فالمراد من قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ ما ذكرناه من الاعتقادات الثلاثة، والمراد من

قوله: ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ ما ذكرناه من الوجوه التي تفيد ضعف تلك الاعتقادات وقوله: ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ معناه أنه إذا حضرت هذه التذكريات في عقولهم، ففي الحال يزول مس طائف الشيطان، ويحصل الاستبصار والانكشاف والتجلي ويحصل الخلاص من وسوسة الشيطان.

المسألة الرابعة:

قوله: ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ معنى (إِذَا) ههنا للمفاجأة، كقولك خرجت فإذا زيد وإذا في قوله: ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ يستدعي جزاء، كقولك آتتك إذا احمر البسر. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ج 15 ص 81.80 ﴾

(279/301)

وقال السمرقندي:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾

يعني: اتقوا الشرك والفواحش ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾ يعني: ذنب ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ يعني: عرف المتقون أنها معصية ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ يعني: إذا هم على بصيرة منتهون عن المعصية.

وقال الزجاج: ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ ما أوضح الله لهم من الحجة ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ قرأ  
ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿ طيف ﴾ بغير ألف وقرأ الباقر بالألف ﴿ مَسَّهُمْ ﴾  
طِيفٌ .

وروي عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ ، والطيف الغضب وعن مجاهد  
في قوله ﴿ مَسَّهُمْ طِيفٌ ﴾ قال الغضب . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ بحر العلوم ج 1 ص ﴾

(280/301)

وقال الثعلبي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ يعني المؤمنين ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ أصابهم ﴿ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾  
قرأ النخعي وابن كثير وأبو عمرو والأعمش وابن يزيد والجحدري وطلحة : طيف ، وقرأ  
الباقر : طائف ، وهما لغتان كالميت والمائت ، ومعناها الشيء الذي [ بكم بك ] وفرق  
قوم بينهما .

فقال أبو عمرو : الطائف ما يطوف حول الشيء والطيف اللمة والوسوسة الخطرة . وقال  
بعض [ المكين ] : الطائف ما طاف به من وسوسة الشيطان والطيف اللحم والمس .  
ويجوز أن يكون الطيف مخففاً عن طيف مثل هين ولين . يدل عليه قراءة سعيد بن جبير :

طيف بالتثليل .

وقال ابن عباس : ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾ أي نزغ من الشيطان .

وقال الكلبي : ذنب . وقال مجاهد : هو الغضب .

﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ وتفكروا وعرفوا ، وقال أبو روق : ابتهلوا ، وفي قراءة عبد الله بن الزبير :

إذا مسهم طائف من الشيطان [ فأملوا ] .

قال سعيد بن جبير : هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله فيكظم الغيظ ، ليث عن

مجاهد : هو الرجل هم بالذنب فيذكر الله فيدعه . وقال السدي : معناه إذا زلوا تابوا .

وقال مقاتل : إن المتقي إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف أنها معصية فأبصرها ونزغ

من مخالفة الله ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ ينظرون مواضع خطيئتهم بالتفكير والتدبر [ يرون

[ فيقصرون ، فإن المتقي من يشتهي [ . . . . . ] ويبصر فيقصر . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(281/301)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾

قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة ﴿ طَائِفٌ ﴾ ، وقرأ الباقر ﴿ طَيْفٌ ﴾ واختلف

في هاتين القراءتين على قولين :

أحدهما : أن معناهما واحد وإن اختلف اللفظان ، فعلى هذا اختلف في تأويل ذلك على

أربعة تأويلات :

أحدها : أن الطيف اللمم كالخيال يلمم بالإنسان .

والثاني : أنه الوسوسة ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

والثالث : أنه الغضب ، وهو قول مجاهد .

والرابع ، أنه الفزع ، قاله سعيد بن جبير .

والقول الثاني : أن معنى الطيف والطائف مختلفان ، فالطيف اللمم ، والطائف كل شيء

طاف بالإنسان .

﴿ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : علموا فإذا هم منتهون .

والثاني : اعتبروا فإذا هم مهتدون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون - 2 ص ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (201) ﴿

﴿ اتقوا ﴾ هنا عامة في اتقاء الشرك واتقاء المعاصي بدليل أن اللفظة إنما جاءت في مدح

لهم ، فلا وجه لتصرها على اتقاء الشرك وحده ، وأيضاً فالمتقي العائد قد يمسّه طائف

من الشيطان إذ ليست العصمة إلا للأنبياء عليهم السلام وقرأ نافع وعاصم وابن عامر

وحمزة " طائف " ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي " طَيْف " ، وقرأ سعيد بن جبير "

طَيْف " ، واللفظة إما من طاف يطوف وإما من طاف يطيف بفتح

الياء ، وهي ثابتة عن العرب ، وأنشد أبو عبيدة في ذلك :

أنى المّبك الخيال بطيف . . . ومطافه لك ذكرة وشغوف

ف " طائف " اسم فاعل كقائل من قال يقول وكبائع من باع يبيع و " طَيْف " اسم فاعل أيضاً

كميت من مات يموت أو كبيع ولين من باع يبيع ولان يلين و " طَيْف " يكون مخففاً أيضاً من

طيف كميت من ميت ، وإذا قدرنا اللفظة من طاف يطيف فطيف مصدر ، وإلى هذا

مال أبو علي الفارسي وجعل الطائف كالحاطر والطيف كالحظرة ، قال الكسائي : الطيف

اللمم والطائف ما طاف حول الإنسان .

قال القاضي أبو محمد : وكيف هذا وقد قال الأعشى : [ الطويل ]  
وتصبح عن غب السرى وكأنما . . . ألم بها من طائف الجن أولق

(283/301)

---

ومعنى الآية : إذا مسهم غضب وزين الشيطان معه ما لا ينبغي ، وقوله ﴿ تذكروا ﴾  
إشارة إلى الاستعاذة المأمور بها قبل ، وإلى ما لله عز وجل من الأوامر والنواهي في النازلة  
التي يقع تعرض الشيطان فيها ، وقرأ ابن الزبير " من الشيطان تأملوا فإذا هم " ، وفي  
مصحف أبي بن كعب " إذا طاف من الشيطان طائف تأملوا " ، وقال النبي صلى الله عليه  
وسلم إن الغضب جند من جند الجن ، أما ترون حمرة العين وانتفاخ العروق ؟ فإذا كان  
ذلك فالأرض الأرض ، وقوله ﴿ مبصرون ﴾ من البصيرة أي فإذا هم قد تبينوا الحق  
ومالوا إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(284/301)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ ﴾

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي : " طيف " بغير ألف .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة : " طائف " بألف ممدوداً مهموزاً .

وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، والجحدري ، والضحاك : " طَيْفٌ " بتشديد الياء من غير ألف .

وهل الطائف والطيف بمعنى واحد ، أم يختلفان ، فيه قولان .

أحدهما : أنهما بمعنى واحد ، وهما ما كان كالخيال والشيء يُلم بك ، حكى عن الفراء .

وقال الأخفش : الطيف أكثر في كلام العرب من الطائف ، قال الشاعر :

أَلَا يَأْتِقُومُ لَطِيفِ الْخِيَالِ . . .

أَرَقَّ مِنْ نَارِ حِذِي دَلَالِ

والثاني : أن الطائف : ما يطوف حول الشيء ، والطيف : اللمة والوسوسة والخطر ،

حكى عن أبي عمرو وروى عن ابن عباس أنه قال : الطائف : اللمة من الشيطان ،

والطيف : الغضب .

وقال ابن الأنباري : الطائف : الفاعل من الطيف ؛ والطيف عند أهل اللغة : اللم من

الشيطان ؛ وزعم مجاهد أنه الغضب .



قوله تعالى: ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : تَذَكَّرُوا الله إذا هَمُّوا بالمعاصي فتركوها ، قاله مجاهد .

والثاني : تفكروا فيما أوضح الله لهم من الحججة ، قاله الزجاج .

والثالث : تذكروا غضب الله ، والمعنى : إذا جرأهم الشيطان على ما لا يحل ، تذكروا

غضب الله ، فأمسكوا ، فإذا هم مبصرون لمواضع الخطأ بالتفكير . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(285/301)

وقال القرطبي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (201)

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ يريد الشرك والمعاصي .

﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾ هذه قراءة أهل البصرة وأهل مكة وقراءة أهل

المدينة وأهل الكوفة " طَائِفٌ " .

وروي عن سعيد بن جبير " طَيْفٌ " بتشديد الياء .

قال النحاس: كلام العرب في مثل هذا "طَيْفٌ" بالتخفيف؛ على أنه مصدر من طاف  
يَطِيفُ.

قال الكسائي: هو مخفف من "طَيْفٍ" مثل مَيْتٌ وَمَيْتٌ.

قال النحاس: ومعنى "طَيْفٍ" في اللغة ما يُتَخِيلُ في القلب أو يرى في النوم؛ وكذا معنى  
طائف.

وقال أبو حاتم: سألت الأصمعي عن طَيْفٍ؛ فقال: ليس في المصادر فيعمل.

قال النحاس: ليس هو بمصدر، ولكن يكون بمعنى طائف.

والمعنى: إن الذين اتقوا المعاصي إذا لحقهم شيء تفكروا في قدرة الله عز وجل وفي إنعامه  
عليهم فتركوا المعصية؛ وقيل: الطَيْفُ والطَائِفُ معنيان مختلفان.  
فالأول التخيل.

والثاني الشيطان نفسه.

فالأول مصدر طاف الخيال يَطُوفُ طَيْفًا؛ ولم يقولوا من هذا طائف في اسم الفاعل.

قال السهيلي: لأنه تَخَيَّلَ لا حقيقة له.

فأما قوله: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القلم: 19] فلا يقال فيه: طَيْفٌ؛ لأنه

اسم فاعل حقيقة، ويقال: إنه جبريل.

قال الزجاج: طفت عليهم أطوف، وطاف الخيال يَطِيفُ.

وقال حسان :

فَدَعُ هَذَا وَلَكِنْ مَنْ لَطِيفٌ . . .

يُورِقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ

مجاهد : الطَّيْفُ الغضب .

ويسمى الجنون والغضب والوسوسة طَيْفًا ؛ لأنه لَمَّةٌ من الشيطان تُشَبِّه بَلَمَّةَ الخيال .

﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ أي منتهون .

وقيل : فإذا هم على بصيرة .

وقرأ سعيد بن جبير : "تَذَكَّرُوا" بتشديد الذال .

ولا وجه له في العربية ؛ ذكره النحاس .

(286/301)

---

الثانية قال عصام بن المصطلق : دخلت المدينة فرأيت الحسن بن عليّ عليهما السلام ،  
فأعجبني سَمْتُهُ وحُسْنُ رُؤَايِهِ ؛ فَأَثَارَ مِنِّي الحسد ما كان يُجِنُّه صدري لأبيه من البُغْضِ ؛  
فقلت : أنت ابن أبي طالب ! قال نعم .

فبالغت في شتمه وشتم أبيه ؛ فنظر إليّ نظرة عاطفٍ رَوَّوفٍ ، ثم قال : أعوذ بالله من

الشیطان الرجیم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿ فقرأ إلى قوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾

﴿ ثم قال لي : خَفِّضْ عَلَيْكَ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكَ ، إِنَّكَ لَوِاسْتَعْنَتْنَا أَعْنَاكَ ، وَلَوْ

اسْتَرْفَدْتَنَا أَرَفَدْنَاكَ ، وَلَوْ اسْتَرَشَدْتَنَا أَرَشَدْنَاكَ .

فَوَسَّسَ فِي النَّدَمِ عَلَيَّ مَا فَرَطَ مِنِّي فَقَالَ : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ

الرَّاحِمِينَ ﴾ ﴿ أَمِنْ أَهْلِ الشَّامِ أَنْتَ ؟ قُلْتُ نَعَمْ .

فقال :

شِنْشِنَةَ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ . . .

حَيَّاكَ اللَّهُ وَيَاكَ ، وَعَافَاكَ ، وَأَدَاكَ ؛ انبسط إلينا في حوائجك وما يعرض لك ، تجدنا عند

أفضل ظنك ، إن شاء الله .

قال عصام : فضأقت عليّ الأرض بما رحبت ، ووددت أنها سأخت بي ، ثم تسللت منه

لواذاً ، وما علي وجه الأرض أحبُّ إليّ منه ومن أبيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

القرطبي ح 7 ص ﴿

(287/301)

---

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف ﴾

وقرئ طيف ﴿ من الشيطان ﴾

وهما لغتان ومعناه الشيء يلم بالإنسان وقيل بينهما فرق فالطائف ما يطوف حول الإنسان والطيف الوسوسة .

وقيل الطائف ما طاف به من وسوسة الشيطان والطيف اللمم والمس .

قال الأزهرى : الطيف في كلام العرب المجنون وقيل للغضب طيف لأن الغضبان يشبه المجنون .

وقيل سمي المجنون والغضب والوسوسة طيفا لأنه لمة من الشيطان تشبه لمة الخبال فذكر في الآية الأولى النزغ وهو أخف من الطيف المذكور في هذه الآية لأن حالة الشيطان مع الأنبياء أضعف من حاله مع غيرهم ﴿ تذكروا ﴾ يعني عرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضب فيذكر الله فيكظم غيظه .

وقال مجاهد : هو الرجل يلم بالذنب فيذكر الله فيقوم ويدعه ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ يعني أنهم يبصرون مواضع الخطأ بالتذكر والتفكير .

وقال السدي : إذا زلوا تابوا وقال مقاتل : هو الرجل إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر

وعرف أنه معصية فأبصر ونزع عنن مخالفة الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2



(288/301)

وقال أبو حيان :

﴿ إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾

النزع من الشيطان أحفّ من مس الطائف من الشيطان لأن النزع أدنى حركة والمس الإصابة والطائف ما يطوف به ويدور عليه فهو أبلغ لا محالة فحال المتقين تزيد في ذلك على حال الرسول ، وانظر لحسن هذا البيان حيث جاء الكلام للرسول كان الشرط بلفظ إن المحتملة للوقوع ولعدمه ، وحيث كان الكلام للمتقين كان المجيء يا إذا الموضوعة للتحقيق أو للترجيح ، وعلى هذا فالنزع يمكن أن يقع ويمكن أن لا يقع والمس واقع لا محالة أو يرجح وقوعه وهو الصاق البشرة وهو هنا استعارة وفي تلك الجملة أمر هو ( صلى الله عليه وسلم ) بالاستعاذة ، وهنا جاءت الجملة خبرية في ضمنها الشرط وجاء الخبر تذكروا فدل على تمكن مس الطائف حتى حصل نسيان فتذكروا ما نسوه والمعنى تذكروا ما أمر به تعالى وما نهى عنه ، وبنفس التذكر حصل إبصارهم فاجأهم إبصار الحق والسداد فاتبعوه وطرخوا

عنهم مسّ الشيطان الطائف، و﴿ اتقوا ﴾ قيل : عامّة في كل ما يتقى، وقيل : الشرك

والمعاصي، وقيل : عقاب الله، وقرأ النحويان وابن كثير : طيف فاحتمل أن يكون

مصدراً من طاف يطيف طيفاً أنشد أبو عبيدة :

أني ألم بك الخيال يطيف . . .

ومطابه لك ذكره وشغوف

واحتمل أن يكون مخففاً من طيف كमित وميت أو كلين من لين لأن طاف المشددة يحتمل

أن يكون من طاف يطيف ويحتمل أن يكون من طاف يطوف، وقرأ باقي السبعة ﴿ طائف

﴿ اسم فاعل من طاف، وقرأ ابن جبير طيف بالتشديد وهو فيعل وإلى أن الطيف

مصدر مال الفارسي جعل الطيف كالخطرة والطائف كالحاطر، وقال الكسائي : الطيف

اللمم والطائف ما طاف حول الإنسان .

قال ابن عطية : وكيف هذا ؟ وقد قال الأعشى :

وتصبح عن غب السرى وكأنها . . .

ألم بها من طائف الجن أولق

انتهى .

---

ولا يتعجب من تفسير الكسائي الطائف بأنه ما طاف حول الإنسان بهذا البيت لأنه يصح فيه معنى ما قاله الكسائي لأنه إن كان تعجبه وإنكاره من حيث خصص الإنسان والذي قاله الأعشى تشبيهه لأنه قال كأنها وإن كان تعجبه من حيث فسّر بأنه ما طاف حول الإنسان ، فطائف الجن يصك أن يقال طاف حول الإنسان وشبهه هو الناقة في سرعتها ونشاطها وقطعها الفيا في عجلة مجالتها إذا ألمّ بها أولق من طائف الجن ، وقال أبو زيد : طاف أقبّل وأدبر يطوف طوفاً وطوفاً وأطاف استدار القوم وأتاهم من نواحيهم ، وطاف الخيال ألمّ يطيف طيفاً وزعم السهيلي أنه لم يقل اسم فاعل من طاف الخيال قال : لأنه تخيل لا حقيقة وأما فطاف عليها طائف من ربك فلا يقال فيه طيف لأنه اسم فاعل حقيقة انتهى ، وقال حسّان :

جنّة أرّقي طيفها . . .

تذهب صباحاً وترى في المنام



وقال ابن عباس : هما بمعنى النزع ، وقال السدّي : الطيف الجنون ، والطائف الغضب ،  
وقال أبو عمرو : هما بمعنى الوسوسة ، وقيل : هما بمعنى اللمم والخيال ، وقيل : الطيف  
النخيل ، والطائف الشيطان ، وقال مجاهد : الطيف الغضب ويسمى الجنون والغضب  
والوسوسة طيفاً لأنه لمة من الشيطان ، وقال عبد الله بن الزبير والسدّي : إذا زلوا تابوا ،  
وقال مجاهد : إذا همّوا بذنب ذكروا الله فتركوه ، وقال ابن جبير : إذا غضب كظم غيظه ،  
وقال مقاتل : إذا أصابه نزع تذكر وعرف أنها معصية نزع عنها مخافة الله تعالى ، وقال أبو  
روق : ابتهلوا ، وقال ابن بحر : عاذوا بذكر الله ، وقيل : تفكروا فأبصروا وهذه كلها أقوال  
مقاربة وسب عصام بن المصطلق الشامي الحسين بن علي رضي الله عنه سباً مبالغاً  
وأباه إذ كان مبغضاً لأبيه فقال الحسين بن علي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله  
الرحمن الرحيم ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف ﴾ إلى قوله ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ ، ثم قال :  
خفض عليك أستغفر الله لي ولك ودعاه في حكاية فيها طول ظهر فيها من مكارم أخلاقه  
وسعة صدره وحوالة الأشياء على القدر ما صير عصاماً أشد الناس حباً له ولأبيه وذلك  
باستعماله هذه الآية الكريمة وأخذ بها ، و ﴿ مبصرون ﴾ هنا من البصيرة لا من البصر ،  
وقرأ ابن الزبير من الشيطان تأملوا وفي مصحف أبي إذا طاف من الشيطان طائف تأملوا  
فإذا هم مبصرون وينبغي أن يحمل هذا ، وقراءة ابن الزبير على أن ذلك من باب التفسير لا

على أنه قرآن لمخالفته سواد ما أجمع المسلمون عليه من ألفاظ القرآن . انتهى انتهى . ١ هـ

﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(291/301)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾

استئنافٌ مقررٌ لما قبله ببيان أن ما أمر به عليه الصلاة والسلام من الاستعاذة بالله تعالى سنة مسلوكةٌ للمتقين والإخلاق بها ديدنُ الغاوين ، أي إن الذين اتصفوا بوقاية أنفسهم عما يضرُّها ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾ أدنى لمةٍ منه ، على أن تنوينه للتحقير وهو اسمٌ فاعلٍ يطوف ، كأنها تطوف بهم وتدور حولهم لتوقع بهم ، أو من طاف به الخيال يطيفُ طيفاً أي الموقريء طيفٌ على أنه مصدر ، أو تخفيفٌ من طيفٍ من الواوي أو اليائي كهين ولين ، والمرادُ الشيطانُ الجنسُ ولذلك جُمع ضميره فيما سيأتي ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ أي الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ بسبب ذلك التذکر ﴿ مُبْصِرُونَ ﴾ مواقع الخطأ ومكاید الشيطان فيحترزون عنها ولا يتبعونه . انتهى انتهى . ١ هـ

﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

وقال الأوسى :

﴿ إِنِّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾

استئناف مقرر لما قبله من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين والإخلال بها  
شنشنة الغاوين ، أي إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾  
﴿ أي لمة منه كما روي عن ابن عباس ، وتنوينه للتحقير ، والمراد وسوسة ما ، وهو اسم  
فاعل من طاف بالشيء إذا دار حوله ، وجعل الوسوسة طائفاً للإيدان بأنها وإن مست لا  
تؤثر فهم فكانها طافت حولهم ولم تصل إليهم .

وجوز أن يكون من طاف طيف الخيال إذا ألم في المنام فالمراد به الخاطر .

وذهب غير واحد إلى أن المراد بالطائف الغضب .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو .

والكسائي .

ويعقوب ( طيف ) على أنه مصدر أو تخفيف من طيف من الواوي أو اليائي كهين ولين .

والمراد بالشيطان الجنس لا إبليس فقط ولذا جمع ضميره فيما سيأتي ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ أي ما أمر الله تعالى به ونهى عنه ، أو الاستعاذة به تعالى والاتجاء إليه سبحانه وتعالى ، أو عداوة الشيطان وكده ﴿ فَأَذَاهُمْ ﴾ بسبب ذلك التذكر ﴿ هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ مواقع الخطأ ومناهج الرشد فيحترزون عما يخالف أمر الله تعالى وينجون عما لا يرضيه سبحانه وتعالى ، والظاهر أن المراد من الموصول من اتصف بعنوان الصلة مطلقاً ، وقال بعض المحققين : إن الخطاب في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ ﴾ [الأعراف : 200] الخ إما أن يكون مختصاً برسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو الظاهر فالمناسب أن يراد بالمتقين المرسلون من أولي العزم ، أو يكون عاماً على طريقة "بشر المشائين إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة" ، أو خاصاً يراد به العام نحو ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [الطلاق : 1] فالمتقون حينئذٍ الصالحون من عباد الله تعالى انتهى .

(293/301)

---

ولا يخفى أن الملازمة في الشرطية الأولى في حيز المنع والعموم هو المتبادر على كل حال ، وزعم بعضهم أن المراد بالمتقين المنسوب إليهم المس غير الأنبياء عليهم السلام ، وجعل الخطاب فيما سبق خاصاً بالسيد الأعظم صلى الله عليه وسلم وادعى أن النزغ أول

الوسوسة والمس لا يكون إلا بعد التمكن ، ثم قال : ولذا فصل الله سبحانه وتعالى بين النبي عليه الصلاة والسلام وغيره من سائر المتقين فعبر في حقه عليه الصلاة والسلام بالنزغ وفي حقهم بالمس ، وقد يقال : إن اهتمام الشيطان في الوسوسة للكامل أكمل من اهتمامه في الوسوسة لمن دونه فلذا عبر أولاً بالنزغ وثانياً بالمس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح

﴿ 9 ص ﴾

(294/301)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (201) ﴿

هذا تأكيد وتقرير للأمر بالاستعاذة من الشيطان ، فتنزل جملة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ إلى آخرها منزلة التعليل للأمر بالاستعاذة من الشيطان إذا أحسّ بنزغ الشيطان ، ولذلك افتتحت بـ ﴿ إِنَّ ﴾ التي هي مجرد الاهتمام لا لرد تردد أو إنكار ، كما افتتحت بها سابقها في قوله : ﴿ أَنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الأعراف : 200 ] فيكون الأمر بالاستعاذة حينئذ قد علل بعلتين أولاًهما أن الاستعاذة بالله منجاة للرسول عليه الصلاة والسلام من نزغ الشيطان ، والثانية : أن في الاستعاذة بالله من الشيطان تذكراً الواجب مجاهدة

الشیطان والتیقظ لکیده ، وأن ذلک التیقظ سنة المتقین ، فالرسول علیه الصلاة والسلام  
مأمور بمجاهدة الشیطان : لأنه متق ، ولأنه یتهج بمتابعه سیره سلفه من المتقین كما قال  
تعالی : ﴿ أولئك الذین هدی الله فبهذا هم أقتده ﴾ [ الأنعام : 90 ] .  
وقد جاءت العلة هنا أعم من المعلل : لأن التذکر أعم من الاستعاذة .  
ولعل الله ادخر خصوصية الاستعاذة لهذه الأمة ، فكثرت فی القرآن الأمر بالاستعاذة من  
الشیطان ، وكثرت ذلک فی أقوال النبی صلی الله علیه وسلم وجعل للذین قبلهم الأمر بالتذکر ،  
كما ادخر لنا یوم الجمعة .

و(التقوی) تقدم بیانها عند قوله تعالی : ﴿ هدی للمتقین ﴾ فی سورة البقرة (2) ،  
والمراد بهم : الرسل وصالحوئهم ، لأنه أرید جعلهم قدوة وأسوة حسنة .  
و(المس) حقیقته وضع الید علی الجسم ، واستعیر للإصابة أو لأذنی الإصابة .  
والطائف هو الذی یمشی حول المكان ینظر الإذن له ، فهو النازل بالمکان قبل دخوله  
المکان ، اطلق هنا علی الخاطر الذی یخطر فی النفس یبعث علی فعل شیء نهی الله عن  
فعله شبه ذلک الخاطر فی مبدأ جولانه فی النفس مجلول الطائف قبل أن یستقر .

(295/301)

---

وكانت عادة العرب أن القادم إلى أهل البيت ، العائد برب البيت ، المستأنس للقرى  
يستأنس ، فيطوف بالبيت ، ويستأذن ، كما ورد في قصة النابغة مع النعمان بن المنذر حين  
أنشد أبياته التي أولها:  
أصم أم يسمعُ رب القُبَّة . . .

وتقدمت في أول سورة الفاتحة ، ومن ذلك طواف القادمين إلى مكة بالكعبة تشبهاً  
بالوافدين على المملوك ، فلذلك قُدِّم الطواف على جميع المناسك وختمت بالطواف أيضاً ،  
فلعل كلمة طائف تستعمل في معنى الملم الخفي قال الأعشى:  
وتُصبح عن غب السُّرِّي وكأنَّها . . .

ألم بها من طائف الجن أوتقُّ

وقال تعالى : ﴿ فطاف عليها طائفٌ من ربك وهم نائمون ﴾ [ القلم : 19 ] .

وقراءة الجمهور : ﴿ طائف ﴾ ، بألف بعد الطاء وهمزة بعد الألف ، وقراءة ابن كثير وأبو  
عمرو والكسائي ويعقوب : ( طَيْف ) بدون ألف بعد الطاء وبياء تحتية ساكنة بعد الطاء  
، والطَيْف خيال يراك في النوم وهو شائع الذكر في الشعر .

وفي كلمة ( إذا ) من قوله : ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾ مع التعبير بفعل

﴿ مَسَّهم ﴾ الدال على إصابة غير مكينة ، إشارة إلى أن الفرع إلى الله من الشيطان ،

عند ابتداء إلام الخواطر الشيطانية بالنفس ، لأن تلك الخواطر إذا أمهلت لم تلبث أن تصير

عزماً ثم عملاً .

والتعريف في ﴿ الشيطان ﴾ يجوز أن يكون تعريف الجنس : أي من الشياطين ويجوز أن يكون تعريف العهد والمراد به إبليس باعتبار أن ما يوسوس به جنده وأتباعه ، هو صادر عن أمره وسلطانه .

والتذكر استحضار المعلوم السابق ، والمراد : تذكروا أوامر الله ووصاياہ ، كقوله : ﴿ ذكروا الله فاستغفروا الذنوبهم ﴾ [ آل عمران : 135 ] ويشمل التذكر تذكراً الاستعاذة لمن أمر بها من الأمم الماضية ، إن كانت مشروعة لهم ، ومن هذه الأمة ، فالإقتداء بالذين اتقوا يعم سائر أحوال التذكر للمأمورات .  
والفاء لتفريع الإبصار على التذكر .

(296/301)

---

وأكد معنى ( فاء ) التعقيب بـ ( إذا ) الفجائية الدالة على حصول مضمون جملتها دفعة بدون تريت ، أي تذكروا تذكراً ذمياً فلم تترت نفوسهم أن تبين لها الحق الوازع عن العمل بالخواطر الشيطانية فابتعدت عنها ، وتمسكت بالحق ، وعملت بما تذكرت ، فإذا هم ثابتون على هداهم وتقواهم .



وقد استعير الإبصار للاهتداء كما يستعار ضده العمى للضلال ، أي : فإذا هم مهتدون  
ناجون من تضليل الشيطان ، لأن الشيطان أراد إضلالهم فسلموا من ذلك ووصفهم باسم  
الفاعل دون الفعل للدلالة على أن الإبصار ثابت لهم من قبل ، وليس شيئاً متجدداً ،  
ولذلك أخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

(297/301)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (201) ﴿  
ومن رحمة الله تعالى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا مسَّهم " ولم يقل : "  
لمسَّهم " . لأنهم من الذين اتقوا ، أي وضعوا بينهم بين صفات جلال الله وقاية تجعلهم يقفون  
عند حدوده ولذلك يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ﴾ .  
والطائف هو الخيال الذي يطوف بالإنسان ليلاً ، وبما أن الشيطان لا يرى ، لذلك نصوره  
على أنه خيال ، فإذا ما طاف الشيطان بالمس للذين اتقوا وتذكروا خالق الشيطان  
وخالقهم ، وتذكروا منهج الله الذي يصادم شهواتهم ، وتذكروا أن عين الله تراهم ولا تغفل

عنهم ، وأن محارم الله واضحة وبينة ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : في الحديث الذي يرويه عنه النعمان بن بشير : " الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراعير عى حول الحمى يوشك أن يواقعها ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " .

وإذا ما تذكر المؤمنون العقوبة المترتبة على أي فعل شائن يزينه الشيطان لهم ، هنا تزول عنهم أي غشاوة ويبصرون الطريق القويم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(298/301)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائيُّ : طَيْفٌ ، والباقون طائفٌ بزنة فاعل .

فأما طَيْفٌ ففيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه مصدر من : طَافَ يَطِيفُ كـ " باع يبيعُ وأنشد أبو عبيدة : [ الكامل ]

2660 - أَنَّى الْمَبْكِ الْخِيَالُ يَطِيفُ . . .

ومطافه لك ذكرك وشغوف

والثاني: أنه مُخَفَّفٌ من فِعْلٍ والأصل: طَيَّفَ بتشديد الياءِ فحذف عين الكلمة، كقولهم

في: مَيَّتَ مَيَّتَ، وفي: لَيِّنَ لَيِّنَ، وفي: هَيَّنَ هَيَّنَ.

ثم "طَيَّفَ" الذي هو الأصل يَحْتَمِلُ أن يكون من: طافَ يَطِيفُ، أو من: طَافَ يَطُوفُ

والأصل: طُيُوفٌ فقلب وأدغم.

وهذا قول ابن الأنباري ويشهد لقول ابن الأنباري قراءة سعيد بن جبير طيف بتشديد

الياء.

والثالث: أن أصله طُوفٌ من طافَ يَطُوفُ، فقلبت الواو ياءً.

قال أبو البقاء قلبت الواو ياءً وإن كانت ساكنة كما قلبت في أيدٍ وهو بعيدٌ.

قال شهاب الدين: وقد قالوا أيضاً في: حَوْلَ حَيْلٍ، ولكن هذا من الشُّذُوذِ بحيث لا يقاس

عليه.

وقوله: وإن كانت ساكنة ليس هذا مقتضياً لمنع قلبها ياءً، بل كان ينبغي أن يقال: وإن كان

ما قبلها غير مكسور.

وأما طائفٌ فاسمٌ فاعلٌ يَحْتَمِلُ أن يكون من: طافَ يَطُوفُ، فيكون ك: قائمٌ وقائلٌ.

وأن يكون من: طافَ يَطِيفُ، فيكون ك: بائعٌ ومائلٌ وزعمٌ بعضهم أن: طَيِّفاً وطَائِفاً بمعنى

واحد ويُعزَى للفرَاءِ ، فيحتمل أن يرُدَّ طائِفاً : طَيْفٌ فيجعلهما مصدرين ، وقد جاء  
فاعل مصدرًا ، كقولهم : أقائمًا وقد قعد النَّاسُ ، وأن يرُدَّ طَيْفًا : طائف أي : فيجعله  
وصفًا على فَعْلٍ .

وقال الفارسي : الطَيْفُ كالخَطْرَةِ ، والطَّائِفُ كالخاطر ففرَّق بينهما ، وقال الكسائيُّ  
الطَّيْفُ : اللَّمَمُ ، والطَّائِفُ : ما طاف حول الإنسان .

قال ابن عطية : وكيف هذا ؛ وقد قال الأعشى : [ الطويل ]

2661 - وتُصْبِحُ مِنْ غِبِّ السُّرَى وَكَانَهَا . . .

ألم بها من طائف الجن أولق

ولا أدري ما تعجبه ؟ وكأنه أخذ قوله ما طاف حول الإنسان مقيداً بالإنسان وهذا قد  
جعله طائفاً بالناقة ، وهي سَقْطَةٌ ؛ لأنَّ الكسائيَّ إنما قاله اتفاقاً لا تقييداً .

(299/301)

---

وقال أبو زيد النصاربيُّ : طَافَ : أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ ، يَطُوفُ طَوْفًا ، وَطَوَافًا ، وَأَطَافُ يُطِيفُ  
إِطَافَةً : اسْتَدَارَ الْقَوْمُ مِنْ نَوَاحِيهِمْ ، وَطَافَ الْخَيَالُ : أَمَّ يَطِيفُ طَيْفًا .

فقد فرَّق بين ذي الواو ، وذي الياء ، فخصَّص كلَّ مادةٍ بمعنى ، وفرَّق أيضًا بين فَعَلَ وأَفْعَلَ

كما رأيت .

وزعم السُّهَيْلِيُّ : أَنَّهُ لَا يُسْتَعْمَلُ مِنْ طَافِ الْخِيَالِ اسْمُ فَاعِلٍ ، قَالَ : " لِأَنَّهُ تَخِيلٌ لِاحْتِقَاقِهِ لِه  
" قَالَ : فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [ القلم : 19 ] فَلَا يُقَالُ فِيهِ  
" طَيفٌ " ؛ لِأَنَّهُ اسْمُ فَاعِلٍ حَقِيقَةٌ ؛ وَقَالَ حَسَانٌ : [ السَّريِع ]

2662 - جَنِيَّةٌ أَرَقَنِي طَيْفَهَا . . .

يَذْهَبُ صُبْحًا وَيُرَى فِي الْمَنَامِ

وَقَالَ السَّدُّ : الطَّيْفُ الْجَنُونُ ، وَالطَّائِفُ : الْغَضَبُ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ،  
وَهُوَ النَّزْعُ .

فصل

قال المفسرون : الطَّيْفُ اللَّمَّةُ وَالْوَسْوَسَةُ .

وقيل : الطَّائِفُ مَا طَافَ بِهِ مِنْ سَوْسَةِ الشَّيْطَانِ ، وَالطَّيْفُ اللَّمُّ وَالْمَسُّ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ

جَبْرِ : هُوَ الرَّجُلُ يُغْضِبُ الْغَضْبَةَ فَيَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى ، فَيَكْظُمُ الْغَيْظَ .

وقال مجاهدٌ : هُوَ الرَّجُلُ يَهْمُ بِالذَّنْبِ ، فَيَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى فَيَدَعُهُ .

﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ هَذِهِ " إِذَا " الْفُجَائِيَّةُ كَقَوْلِكَ : خَرَجْتُ فَإِذَا زَيْدٌ ، وَالْمَعْنَى :

يَبْصِرُونَ مَوَاقِعَ خَطَايَاهُمْ بِالتَّذْكَرِ وَالتَّفَكُّرِ ، وَقَالَ السَّدِيُّ : إِذَا زَلُّوا تَأَبُّوا وَقَالَ مِقَاتِلٌ : إِنَّ

الْمُتَّقِيَ إِذَا مَسَّهُ نَزْعٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرَ وَعَرَفَ أَنَّهُ مَعْصِيَةٌ فَأَبْصَرَ فَنَزَعَ عَنِ مَخَالَفَةِ اللَّهِ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 433.435 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (201)

(300/301)

---

إنما يمس المتقين طيفُ الشيطان في ساعات غفلتهم عن ذكر الله ، ولو أنهم استداموا ذكر الله بقلوبهم لما مسَّهم طائفُ الشيطان ، فإن الشيطان لا يقربُ قلباً في حال شهوده الله ؛ لأنه ينخس عند ذلك . ولكن لكل صارمِ نبوة ، ولكل عالمِ هفوة ، ولكل عابدٍ شدة ، ولكل قاصدٍ فترة ، ولكل سائرِ وقفة ، ولكل عارفٍ حجة ، قال صلى الله عليه وسلم : " إنه يُغَان على قلبي . . . " (1) أخبر أنه يعتريه ما يعتري غيره ، وقال صلى الله عليه وسلم : " الحِدَّةُ تعترني خيار أمتي " ، فأخبر أن الأمة - وإن جَلَّتْ رُئُوبُهُمْ لا يتخلصون عن حِدَّةِ تعترتهم في بعض أحوالهم فتُخرجهم عن دوام الحِلْمِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف

الإشارات ح 1 ص 598.599 ﴾

---

(1) «إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة» أخرجه أحمد

ومسلم وأبو داود والنسائي ، وفي رواية لمسلم : «توبوا الى ربكم فوالله انى لأتوب الى ربي  
تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة» ويقول صاحب اللمع : الغين الذى كان يتوب منه الرسول  
مثله مثل المرأة إذا تنفس فيها الناظر فينقص من ضوءها ثم تعود إلى حالة ضوءها (اللمع ص  
(451)

(301/301)

قوله تعالى ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (202) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصف المتقون الذين هم العلماء ملوحاً إلى نصيح وليهم لهم ، وعرف من حالهم أنهم  
أعداء الشيطان ، وعرف أن أضدادهم أولياؤه ؛ أتبعه وصف الجاهلين وغش أوليائهم  
لهم والكل غير متقين ، فقال : ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أي وإخوان الجاهلين من شياطين الإنس  
والجن ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي يمدون الجاهلين ، من المد وهو الإمهال والإطالة على قراءة  
الجماعة ، وهو بمعنى قراءة أهل المدينة بالضم من الإمداد ، وقال الواحدى : إن هذا أكثر  
ما يأتي فيما يحمد كأمدناهم بفاكهة ، فهو من استعمال الشيء في ضده نحو ﴿فبشرهم

بعذاب ❁ ، وكأنه يشير إلى أن الشيطان أكثر ما يأتي الإنسان في صورة الناصح الشفيق ،  
والأوجه أن يكون الإخوان الجاهلين لأنهم في مقابلة ❁ الذين اتقوا ❁ ويكون الضمير  
للشيطان المراد به الجنس ، أي وإخوان الشياطين - وهم الجاهلون الذين لا يتقون - يدهم  
أولياؤهم من الشياطين ❁ في الغي ❁ وهو ضد الرشاد ، وأشار إلى مزيد اعتنائهم  
بالإغواء ومثابرتهم على الإضلال والإغراء بأداة التراخي فقال : ❁ ثم لا يتصرفون ❁ أي  
لا يتركون إغواءهم ولو لحظة لجهلهم وشرهم . انتهى انتهى . ١٠ هـ ❁ نظم الدرر ح 3 ص  
❁ 177.176

(302/301)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ❁ وإخوانهم يمدُّونهم في الغي ❁

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في أن الكناية في قوله : ❁ وإخوانهم ❁ إلى ماذا تعود على قولين .



القول الأول: وهو الأظهر أن المعنى: وإخوان الشياطين يمدون الشياطين في الغي، وذلك لأن شياطين الأنس إخوان لشياطين الجن، فشياطين الإنس يغوون الناس، فيكون ذلك إمداداً منهم لشياطين الجن على الإغواء والإضلال.

والقول الثاني: أن إخوان الشياطين هم الناس الذين ليسوا بمتقين، فإن الشياطين يكونون مدداً لهم فيه، والقولان مبنيان على أن لكل كافر أخاً من الشياطين.

المسألة الثانية:

تفسير الإمداد تقوية تلك الوسوسة والإقامة عليها وشغل النفس عن الوقوف على قبائحها ومعايبها.

المسألة الثالثة:

قرأ نافع ﴿يَمْدُوهُمْ﴾ بضم الياء وكسر الميم من الإمداد، والباقون ﴿يَمْدُوهُمْ﴾ بفتح الياء وضم الميم، وهما لغتان مد يمد وأمد يمد، وقيل مد معناه جذب، وأمد معناه من الإمداد.

قال الواحدي، عامة ما جاء في التنزيل مما يحمد ويستحب أمددت على أفعلت، كقوله:

﴿أَنَّمَا نَمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ﴾ [المؤمنون: 55] وقوله ﴿وَأَمْدَدْنَا هُمْ بِفَاكِهِة﴾ [

الطور: 22] وقوله: ﴿أَتَمِدُّونَ بِمَالٍ﴾ [النمل: 36] وما كان بخلافه فإنه يجيء

على مددت قال: ﴿وَيَمْدُهُمْ فِي طَعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15] فالوجه ههنا قراءة

العامة وهي فتح الياء ومن ضم الياء استعمل ما هو الخير لصدده كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الإنشاق: 24] وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال الليث: الإقصار  
الكف عن الشيء قال أبو زيد: أقصر فلان عن الشريك قصر إقصاراً إذا كف عنه وانتهى  
قال ابن عباس: ثم لا يقصرون عن الضلال والإضلال، أما الغاوي ففي الضلال وأما المغوي  
ففي الإضلال. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 82﴾

(303/301)

وقال الجصاص:

قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوْنَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال الحسن وقتادة والسديُّ  
: إخوانُ الشياطين في الضلال يمدُّهم الشيطانُ.  
وقال مجاهدٌ: إخوانُ المشركين من الشيطانِ.  
وسمَّاهم إخواناً لاجتماعهم على الضلالة، كالإخوة من النسب في التعاطف به وحنين  
بعضهم إلى بعض لأجله، كما سمى المؤمنين إخواناً بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ  
﴿لِتَعَاظِفَهُمْ وَتَوَاصِلَهُمْ بِالدِّينِ؛ فَخَبَرَ عَنْ حَالٍ مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ  
وَوَسَاوِسِهِ فِي بَصِيرَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ بِتُبْحِ مَا يَدْعُوهُ

إِلَيْهِ وَتَبَاعُدِهِ مِنْهُ وَمَنْ دَوَاعِي شَهَوَاتِهِ بِرُجُوعِهِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى ذِكْرِهِ .  
وَهَذِهِ الِاسْتِعَاذَةُ تَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بِقَوْلِهِ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ  
بِالْفِكْرِ فِي نَعْمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَفِي أَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَمَا يُؤَلِّبُ بِهِ إِلَيْهِ الْحَالُ مِنْ دَوَامِ النَّعِيمِ  
فِيهِونُ عِنْدَهُ دَوَاعِي هَوَاهُ وَحَوَادِثُ شَهَوَاتِهِ وَنَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ بِهَا .

(304/301)

---

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ فَقَالَ : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ  
فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ فَكَلَّمَا تَبَاعَدُوا عَنْ الذِّكْرِ مَضَوْا مَعَ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَغِيَّهِ  
غَيْرِ مُقْصِرِينَ عَنْهُ ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا  
﴿ وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ  
﴿ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ . انتهى انتهى . ١ هـ ﴾ أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِلْجِصَّاصِ ٣ ص ﴾

(305/301)

---

وقال السمرقندى :

ثم ذكر حال الكفار فقال عز وجل : ﴿ وَإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ﴾ يعني : إخوان الشياطين يمدونهم أي : يدعونهم إلى المعصية .

ويقال : يلجونهم في الشرك والضلالة .

﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ عنها كما أقصر المسلمون عنها حين أبصروها .

قرأ نافع ﴿ يَمُدُّوهُمْ ﴾ بضم الياء وكسر الميم من أمد يمد .

وقرأ الباقون ﴿ يَمُدُّوهُمْ ﴾ بالنصب من مد يمد .

قال بعضهم : هذا عطف على قوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ﴾

﴿ وَإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ﴾ .

وقال الزجاج : معناه التقديم .

والمعنى لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴿ وَإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ﴾ يعني

: الشياطين والغي : الجهل والوقوع في الهلكة . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ بحر العلوم ح 1 ص ﴾

وقال الثعلبي :

ثم ذكر الكفار فقال ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ﴾

يعني إخوان الشيطان وهم الكفار يمدهم الشياطين في الغي حتى يطلبوا لهم وينيدوهم في

الضلالة .

وقرأ أهل المدينة: يمدونهم بضم الياء وكسر الميم وهما لغتان بمعنى واحد . وقرأ

الجحدري بما دونهم على يفاعلونهم .

﴿ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴾ أي لا يشكون ولا ينزغون . وقال ابن زيد : لا يسأمون ولا يفترون .

قال ابن عباس : لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات ولا [ الجن ممسك ] عنهم .

وقرأ عيسى بن عمر : يَقْصِرُونَ بفتح الياء وضم الصاد وقصرَ وأقصرَ واحد . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(306/301)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ﴾ الآية ،

في هذه الضمائر احتمالات ، قال الزجاج : هذه الآية متصلة في المعنى بقوله : ﴿ ولا

يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾ [ الأعراف : 192 ] .

قال القاضي أبو محمد : في هذا نظر ، وقال الجمهور : إن الآية مقدره موضعها إلا أن الضمير

في قوله ﴿ وإخوانهم ﴾ عائد على الشياطين والضمير في قوله ﴿ يمدونهم ﴾ عائد على

الكفار وهم المراد بالإخوان ، و ﴿ الشيطان ﴾ في الآية قبل هذه للجنس فلذلك عاد

عليهم ها هنا ضمير جميع فالتقدير على هذا التأويل وإخوان للشياطين يمدونهم الشياطين في الغي ، وقال قتادة إن الضميرين في الهاء والميم للكفار .

قال القاضي أبو محمد : فتجيء الآية على هذه معادلة للتي قبلها أي إن المتقين حالهم كذا وكذا وهؤلاء الكفار يمدهم إخوانهم من الشياطين ثم لا يقصرون ، وقوله ﴿ في الغي ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله ﴿ يمدونهم ﴾ وعليه يترتب التأويل الذي ذكرنا أولاً عن الجمهور ، ويحتمل أن يتعلق بالإخوان فعلى هذا يحتمل أن يعود الضميران جميعاً على الكفار كما ذكرناه عن قتادة ويحتمل أن يعودا جميعاً على الشياطين ويكون المعنى وإخوان الشياطين في الغي بخلاف الأخوة في الله يمدون الشياطين أي بطاعتهم لهم وقبولهم منهم ، ولا يترتب هذا التأويل على أن يتعلق في الغي بالإمداد لأن الإنس لا يغوون الشياطين ، والمراد بهذه الآية وصف حالة الكفار مع الشياطين كما وصف حالة المتقين معهم قبل ، وقرأ جميع السبعة غير نافع " يمدونهم " من مددت ، وقرأ نافع وحده " يمدونهم " بضم الياء من أمددت ، فقال أبو عبيدة وغيره : مد الشيء إذا كانت الزيادة من جنسه وأمده شيء آخر .

(307/301)

---

قال القاضي أبو محمد: وهذا غير مطرد، وقال الجمهور هما بمعنى واحد إلا أن المستعمل في المحبوب أمد فمنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُمَدِّهِمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَمِنْ بَنِينَ ﴾ [المؤمنون: 55] وقوله ﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهِة ﴾ [الطور: 22] وقوله ﴿ أَمَدُونِي بِمَالٍ ﴾ [النمل: 36] والمستعمل في المكروه مد فمنه قوله تعالى: ﴿ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ [البقرة: 15] ومد الشيطان للكفرة في الغي هو التزيين لهم والإغواء المتتابع: فمن قرأ في هذه الآية "يُمدونهم" بضم الميم فهو على المنهاج المستعمل، ومن قرأ "يمدونهم" فهو مقيد بقوله في الغي كما يجوز أن تقيد البشارة فتقول بشرته بشر، وقرأ الجحدري "يمادونهم"، وقوله ﴿ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴾ عائد على الجمع أي هؤلاء لا يقصرون في الطاعة للشياطين والكفر بالله عز وجل، وقرأ جمهور الناس "يُقصرون" من أقصر، وقرأ ابن أبي عبيدة وعيسى بن عمر "يَقْصِرُونَ" من قصر. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المحرر الوجيز ج 2 ص ﴾

(308/301)

وقال ابن الجوزي:

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ (202)

قوله تعالى: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ ﴾ في هذه الهاء والميم قولان.

أحدهما : أنها عائدة على المشركين ؛ فتكون هذه الآية مقدّمة على التي قبلها ، والتقدير :  
وأعرض عن الجاهلين ، وإخوان الجاهلين ، وهم الشياطين .

﴿ يمدُّونهم في الغي ﴾ قرأ نافع : " يمدونهم " بضم الياء وكسر الميم .

والباقون : بفتح الياء وضم الميم .

قال أبو علي : عامة ما جاء في التنزيل فيما يُحمد ويُستحب : أمددت ، على أفعلت كقوله

: ﴿ أتمدونن بمال ﴾ [ النمل : 36 ] ﴿ أنما نمدهم به من مال ﴾ [ المؤمنون : 55 ] ﴿

وأمددناهم بفاكهة ﴾ [ الطور : 22 ] وما كان على خلافه يجيء على : مددت ، كقوله :

﴿ ويمدّهم في طغيانهم ﴾ [ البقرة : 15 ] ؛ فهذا يدل على أن الوجه فتح الياء ؛ إلا أن

وجه قراءة نافع بمنزلة ﴿ فبشّرهم بعذاب أليم ﴾ [ التوبة : 34 ] قال المفسرون : ﴿

يمدّونهم في الغي ﴾ أي : يزيّنونه لهم ، ويريدون منهم لزومه ، فيكون معنى الكلام : أن الذين

انقوا إذا جرّهم الشيطان إلى خطيئة ، تابوا منها ، وإخوان الجاهلين ، وهم الشياطين ،

يمدُّونهم في الغي ، هذا قول الأكثرين من العلماء .

وقال بعضهم : الهاء والميم ترجع إلى الشياطين ، وقد جرى ذكرهم لقوله : " من الشيطان "

فالمعنى : وإخوان الشياطين يمدُّونهم .

والثاني : أن الهاء والميم ترجع إلى المتقين ؛ فالمعنى : وإخوان المتقين من المشركين ، وقيل :



من الشياطين يمدونهم في الغي ، أي : يريدون من المسلمين أن يدخلوا معهم في الكفر ، ذكر  
هذا القول جماعة منهم ابن الأنباري .

(309/301)

---

فإن قيل : كيف قال : ﴿ وإخوانهم ﴾ وليسوا على دينهم ؟ فالجواب : أنا إن قلنا : إنهم  
المشركون ، فجائز أن يكونوا إخوانهم في النسب ، أو في كونهم من بني آدم ، أو لكونهم  
يظهرون النصح كالإخوان ؛ وإن قلنا : إنهم الشياطين ، فجائز أن يكونوا لكونهم مصاحبين  
لهم ، والقول الأول أصح .

قوله تعالى : ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ وقرأ الزهري ، وابن أبي عبيدة : " لا يقصرون " بالتحديد .  
قال الزجاج : يقال : أقصر يُقصر ، وقصر يقصر .

قال ابن عباس : لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات ، ولا الشياطين تقصر عنهم ؛  
فعلى هذا يكون قوله : " يقصرون " من فعل الفريقين ، وهذا على القول المشهور ؛ ويخرج  
على القول الثاني أن يكون هذا وصفاً للإخوان فقط . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسيرح

﴿ 3 ص

(310/301)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ قيل : المعنى وإخوان

الشياطين وهم الفجار من ضلال الإنس تمدّهم الشياطين في الغي .

وقيل للفجار إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم .

وقد سبق في هذه الآية ذكر الشيطان .

هذا أحسن ما قيل فيه ؛ وهو قول قتادة والحسن والضحاك .

ومعنى "لَا يُقْصِرُونَ" أي لا يتوبون ولا يرجعون .

وقال الزجاج : في الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى : والذين تدعون من دونه لا يستطيعون

لكم نصراً ولا أنفُسهم ينصرون ، وإخوانهم يمدّونهم في الغي ؛ لأن الكفار إخوان

الشياطين .

ومعنى الآية : إن المؤمن إذا مسه طئيف من الشيطان تنبّه عن قُرب ؛ فأما المشركون

فيمدّهم الشيطان .

و"لَا يُقْصِرُونَ" قيل : يرجع إلى الكفار على القولين جميعاً .

وقيل : يجوز أن يرجع إلى الشيطان .

قال قتادة : المعنى ثم لا يقصرون عنهم ولا يرحمونهم .

والإقصار: الانتهاء عن الشيء ، أي لا تقصر الشياطين في مدّهم الكفار بالغيّ .  
وقوله : ﴿ فِي الْغِيِّ ﴾ يجوز أن يكون متصلاً بقوله : "يُمَدُّ وَهُمْ" ويجوز أن يكون متصلاً  
بالإخوان .

والغيّ: الجهل .

وقرأ نافع "يُمَدُّ وَهُمْ" بضم الياء وكسر الميم .

والباقون بفتح الياء وضم الميم .

وهما لغتان مدّ وأمدّ .

ومدّ أكثر ، بغير الألف ؛ قاله مكّي .

النحاس : وجماعة من أهل العربية ينكرون قراءة أهل المدينة ؛ منهم أبو حاتم وأبو عبيد ،

قال أبو حاتم : لا أعرف لها وجهاً ، إلا أن يكون المعنى يزيد ونهم في الغيّ .

وحكى جماعة من أهل اللغة منهم أبو عبيد أنه يقال إذا كثّر شيء شيئاً بنفسه مدّه ، وإذا

كثّره بغيره قيل أمده ؛ نحو ﴿ يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [ آل

عمران : 125 ] .

وحكى عن محمد بن يزيد أنه احتج لقراءة أهل المدينة قال : يقال مددت له في كذا أي زينته

له واستدعيته أن يفعله .

---

وأمددته في كذا أي أعنته برأي أو غير ذلك .

قال مكّي : والاختيار الفتح ؛ لأنه يقال : مددت في الشر ، وأمددت في الخير ؛ قال الله تعالى

: ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: 15] .

فهذا يدل على قوة الفتح في هذا الحرف ؛ لأنه في الشر ، والغيّ هو الشر ، ولأن الجماعة عليه .

وقرأ عاصم الجحدري "يَمَادُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ" .

وقرأ عيسى بن عمر "يُقَصِّرُونَ" بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف .

والباقون "يُقَصِّرُونَ" بضده .

وهما لغتان .

قال امرؤ القيس :

سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص



وقال الخازن :

﴿ وإخوانهم ﴾ يعني وإخوان الشياطين من المشركين ﴿ يمدونهم ﴾ أي يمدهم الشياطين ﴿ في الغي ﴾ قال الكلبي لكل كافر أخ من الشياطين يمدونهم أي يطيلون لهم في الإغواء حتى يستمروا عليه وقيل يزيدونهم في الضلالة ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ يعني لا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لأن المؤمن إذا أصابه طيف من الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر مستمر في ضلّاته لا يتذكر ولا يرعوي .

وقال ابن عباس : لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات ولا الشياطين يمسون عنه فعلى هذا القول يحمل قوله لا يقصرون على فعل الإنس والشياطين جميعاً . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ تفسير الخازن - 2 ص ﴾

(313/301)

وقال أبو حيان :

﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ﴾ ثم لا يقصرون .

(314/301)

---

الضمير في ﴿ وإخوانهم ﴾ عائد على الجاهلين أو على ما دل عليه قوله ﴿ إن الذين اتقوا ﴾ وهم غير المتقين لأن الشيء قد يدل على مقابله فيضمّر ذلك المقابل لدلالة مقابله عليه وعنى بالإخوان على هذا التقدير الشياطين كأنه قيل : والشياطين الذين هم إخوان الجاهلين أو غير المتقين يمدّون الجاهلين أو غير المتقين في الغيِّ فالواو في ﴿ يمدّونهم ﴾ ضمير الإخوان فيكون الخبر جارياً على من هو له والضمير المجرور والمنصوب للكفار وهذا قول قتادة ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن يعودا جميعاً على الشياطين ويكون المعنى وإخوان الشياطين في الغيِّ بخلاف الأخوة في الله يمدون الشياطين أي بطاعتهم لهم وقبولهم منهم ولا يترتب هذا التأويل على أن يتعلق ﴿ في الغيِّ ﴾ بالإمداد لأنّ الإنسان لا يعودون الشياطين انتهى ، ويمكن أن يتعلق ﴿ في الغيِّ ﴾ على هذا التأويل بقوله ﴿ يمدّونهم ﴾ على أن تكون ﴿ في ﴾ للسببية أي ﴿ يمدّونهم ﴾ بسبب غوايتهم نحو "دخلت امرأة النار في هرة" أي بسبب هرة ، ويحتمل أن يكون ﴿ في الغيِّ ﴾ حالاً فيتعلق بمحذوف أي كائنين ومستقرين في الغيِّ فيبقى في الغيِّ في موضعه لا يكون منعلقاً بقوله ﴿ وإخوانهم ﴾ وقد جوز ذلك ابن عطية وعندني في ذلك نظر فلو قلت : مطعمك زيد لحماً تريد مطعمك لحماً زيد فتفصل بين المبتدأ ومعموله بالخبر لكان في جواز نظر لأنك فصلت بين العامل والمعمول بأجنبي لهما معاً وإن كان ليس أجنبياً لأحد هما الذي هو المبتدأ ويحتمل أن

يختلف الضمير فيكون في ﴿ وإخوانهم ﴾ عائد على الشياطين الدال عليهم الشيطان أو على الشيطان نفسه باعتبار أنه يراد به الجنس نحو قوله: ﴿ أولياؤهم الطاغوت ﴾ المعنى الطواغيت ويكون في ﴿ يمدونهم ﴾ عائد على الكفار والواو في ﴿ يمدونهم ﴾ عائدة على الشياطين وإخوان الشياطين ﴿ يمدونهم ﴾ الشياطين ويكون الخبر جرى على غير من هو له ، لأن الإمداد مسند إلى الشياطين لا لإخوانهم وهذا نظير قوله :

(315/301)

---

قوم إذا الخيل جالوا في كواثبها . . .

وهذا الاحتمال هو قول الجمهور وعليه فسّر الطبري ، وقال الزمخشري : هو أوجه لأن ﴿ إخوانهم ﴾ في مقابلة ﴿ الذين اتقوا ﴾ ، وقرأ نافع ﴿ يمدونهم ﴾ مضارع أمدّ ، وباقي السبعة ﴿ يمدونهم ﴾ من مدّ وتقدم الكلام على ذلك في قوله ﴿ ويمدّهم في طغيانهم يعمهون ﴾ ، وقرأ الجحدري يمدونهم من مادّ على وزن فاعل ، وقرأ الجمهور : ﴿ لا يقصرون ﴾ من أقصر أي كفّ .

قال الشاعر :

لعمرك ما قلبي إلى أهله بجر . . .

ولا مقصر يوماً فيأتي بني بقر

أي ولا هونازع عما هوفيه ، وقرأ ابن أبي عبله وعيسى بن عمر ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ من قصر أي ثم لا ينتقصون من إمدادهم وغوايتهم وقد أبعث الزجاج في دعواه أن قوله ﴿ وإخوانهم ﴾ الآية متصل بقوله ﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾ ولا حاجة إلى تكلف ذلك بل هو كلام متناسق أخذ بعضه بعنق بعض لما بين حال المتقين مع الشياطين بين حال غير المتقين معهم وأن أولئك ينفس ما يمسهم من الشيطان ما س أقلعوا على الفور وهؤلاء في إمداد من الغي وعدم نزوع عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(316/301)

وقال أبو السعود :

﴿ وإخوانهم ﴾ أي إخوان الشياطين وهم المنهمكون في الغي المعرضون عن وقاية أنفسهم عن المضار ﴿ يمدُّونهم في الغي ﴾ أي يكون الشياطين مدداً لهم فيه ويعضدونهم بالتزيين والحمل عليه ، وقرئ يمدونهم من الإمداد ويمادونهم كأنهم يعينونهم بالتسهيل والإغراء ، وهؤلاء بالاتباع والامتثال ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ أي لا يمسون عن



الإغواء حتى يردوهم بالكلية ويجوز أن يكون الضمير للإخوان أي لا يرعون عن الغي ولا يقصرون كالمقتين ، ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين ويرجع الضمير إلى الجاهلين فيكون الخبر جارياً على من هوله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾  
وقال الألوسي :

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (202) ﴾

﴿ وإخوانهم ﴾ أي إخوان الشياطين الذين لم يتقوا وذلك معنى الإخوة بينهم ، وهو مبتدأ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ﴾ خبره ، والضمير المرفوع للشياطين والمنصوب للمبتدأ ، أي تعاونهم الشياطين في الضلال وذلك بأن يزينوهم لهم ويحملوهم عليه ، والخبر على هذا جار على غير من هوله وفي أنه هل يجب إبراز الضمير أولاً لا يجب في مثل ذلك خلاف بين أهل القرين كالصفة المختلف فيها بينهم ، وقيل : إن الضمير الأول للإخوان والثاني للشياطين ، والمعنى وإخوان الشياطين يمدون الشياطين بالاتباع والامتثال ، وعلى هذا يكون الخبر جارياً على من هوله ، والجار والمجرور متعلق بما عنده ، وجوز أن يكون في موضع الحال من الفاعل أو من المفعول .

وقرأ نافع ﴿ يَمُدُّوهُمْ ﴾ بضم الياء وكسر الميم من الإمداد والجمهور على فتح الياء وضم الميم .

قال أبو علي في الحجة بعد نقل ذكر ذلك : وعامة ما جاء في التنزيل مما يحمد ويستحب

أمددت على أفعلت كقوله تعالى: ﴿أَمَّا نُمَدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ﴾ [المؤمنون: 55]  
﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهِة﴾ [الطور: 22] و﴿أَتَمِدُّونَ بِمَالٍ﴾ [النمل: 36] وما  
كان بخلافه على مددت قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15]  
وهكذا يتكلمون بما يدل على أن الوجه فتح الياء كما ذهب إليه الأكثر، ووجه قراءة نافع  
أنه مثل ﴿فَبَشَّرْنَاهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21] ﴿فَسَنِّيئِرُهُ لِلْعَسْرَى﴾ [ ]  
الليل: 10] وقرأ الجحدري (يما دونهم) ﴿من باب المفاعلة وهي هنا مجازية كأنهم كان  
الشاطين يعينونهم بالإغراء وتهوين المعاصي عليهم وهؤلاء يعينون الشياطين بالاتباع  
والامتثال

(317/301)

---

﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ أي لا يمسكون ولا يكفون عن إغوائهم حتى يردوهم بالكلية فهو من  
أقصر إذا أقلع وأمسك كما في قوله:  
سما لك شوق بعد ما كان أقصرا . . .  
وجوز أن يكون الضمير للإخوان .  
وروي ذلك عن ابن عباس .

والسدي وإليه ذهب الجبائي ، أي ثم لا يكف هؤلاء عن الغي ولا يتصرفون كالمؤمنين ،  
وجوز أيضاً أن يراد بالإخوان الشياطين وضمير الجمع المضاف إليه أولاً والمفعول ثانياً  
والفاعل ثالثاً يعود إلى الجاهلين في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [ الأعراف :  
199 ] أي وإخوان الجاهلين وهم الشياطين يمدون الجاهلين في الغي ثم لا  
يقصر الجاهلون عن ذلك ، والخبر على هذا أيضاً جار على ما هو له كما في بعض الأوجه  
السابقة والأول أولى رعاية للمقابلة .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ يُقْصِرُونَ ﴾ بفتح الياء وضم الصاد من قصر وهو مجاز عن  
الإسك أيضاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(318/301)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ (202)

عطف على جملة ﴿ الذين اتقوا إذا مسهم طائفٌ من الشيطان تذكروا ﴾ [ الأعراف :

201 ] عطف الضد على ضده ، فإن الضدية مناسبة يحسن بها عطف حال الضد

على ضده ، فلما ذكر شأن المؤمنين في دفعهم طائف الشياطين ، ذكر شأن اضدادهم من

أهل الشرك والضلال ، كما وقعت جملة : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ [ البقرة : 6 ] من جملة ﴿ هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ في سورة البقرة ( 2 ، 3 ) .

وجعلها الزجاج عطفاً على جملة ﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا لأنفسهم ينصرون ﴾ [ الأعراف : 192 ] أي ويمدونهم في الغي ، يريد أن شركاءهم لا ينفعونهم بل يضرّونهم بزيادة الغي .

والإخوان جمع أخ على وزن فعلان مثل جمع خرب وهو ذكر بزيادة الغي .  
والإخوان جمع أخ على وزن فعلان مثل جمع خرب وهو ذكر الحبارى على خربان .  
وحقيقة الأخ المشارك في بنوة الأم والأب أو في بنوة أحدهما يطلق الأخ مجازاً على الصديق الودود ومنه ما أخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وقول أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم لما خطب النبي منه عائشة " إنما أنا أخوك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أنت أخي وهي حلال لي " ويطلق الأخ على القرين كقولهم أخو الحرب ، وعلى التابع الملازم كقول عبد بنى الحساس :

أخوكم ومولى خيركم وحليفكم . . .

ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهنراً

أراد أنه عبدهم ، وعلى النسب والقرب كقولهم : أخو العرب وأخو بني فلان .

فضمير ﴿ وإخوانهم ﴾ عائد إلى غير مذكور في الكلام، إذ لا يصح أن يعود إلى المذكور قبله قريباً: لأن الذي ذكر قبله ﴿ الذين اتقوا ﴾ فلا يصح أن يكون الخبر، وهو ﴿ يدونهم في الغي ﴾ متعلقاً بضمير يعود إلى ﴿ المتقين ﴾، فتعين أن يتطلب السامع لضمير ﴿ وإخوانهم ﴾ معاداً غير ما هو مذكور في الكلام بقربه، فيحتمل أن يكون الضمير عائداً على معلوم من السياق وهم الجماعة المتحدث عنهم في هذه الآيات أعني المشركين المعنيين بقوله ﴿ فتعالى الله عما يشركون أيشركون ما لا يخلق شيئاً ﴾ إلى قوله ﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ﴾ [الأعراف: 190 192] فيرد السامع الضمير إلى ما دل عليه السياق بقريظة تقدم نظيره في أصل الكلام، ولهذا قال الزجاج: هذه الآية متصلة في المعنى بقوله: ﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾ [الأعراف: 192]، أي وإخوان المشركين، أي أقاربهم ومن هو من قبيلتهم وجماعة دينهم، كقوله تعالى: ﴿ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض ﴾ [آل عمران: 156] أي يمد المشركون بعضهم بعضاً في الغي ويتعاونون عليه فلا مخلص لهم من الغي.

ويجوز أن يعود الضمير إلى الشيطان المذكور آنفاً باعتبار إرادة الجنس أو الأتباع، كما

تقدم ، فالمعنى وإخوان الشياطين أي أتباعهم كقوله:

﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ [الإسراء : 27] أما الضميران المرفوعان في

قوله : ﴿ يُمدونهم ﴾ وقوله : ﴿ لا يُقصدون ﴾ فهما عائدان إلى ما عاد إليه ضمير ﴿

إخوانهم ﴾ أي الشياطين ، وإلى هذا مال الجمهور من المفسرين ، والمعنى : وإخوان

الشياطين يمدهم الشياطين في الغي ، فجملة يمدونهم خبر عن ﴿ إخوانهم ﴾ وقد جرى

الخبر على غير من هوله ولم يُبرز فيه ضميرٌ من هوله حيث كان اللبس ما مونا وهذا كقول

يزيد بن منقذ :

وهم إذا الخيل جالوا في كواثبها

فوارس الخيل لا ميل ولا قزم

(320/301)

---

فجملة "جالوا" خبر عن الخيل وضمير "جالوا" عائد على ما عاد عليه ضمير "وهم" لا

على الخيل .

وقوله فوارس خبر ضمير الجمع .

ويجوز أن يكون المراد من الإخوان الأولياء ويكون الضميران للمشركين أيضاً ، أي وإخوان

المشركين وأولياؤهم، فيكون "الإخوان" صادقاً بالشياطين كما فسر قتادة، لأنه إذا كان  
المشركون إخوان الشياطين، كما هو معلوم، كان الشياطين إخواناً للمشركين لأن نسبة  
الأخوة تقتضي جانبيين، وصادقاً بعظماء المشركين، فالخبر جار على من هوله، وقد  
كانت هذه المعاني مجتمعة في هذه الآيات بسبب هذا النظم البديع.

(321/301)

---

وقرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿يُمدونهم﴾ بضم الياء وكسر الميم من الامداد وهو تقوية  
الشيء بالمدد والنجدة كقوله: ﴿أمدكم بأنعام وينين﴾ [الشعراء: 133]، وقرأه  
البقية: ﴿يُمدونهم﴾ بفتح الياء وضم الميم من مد الحبل يمهده إذا طوله، فيقال: مد له  
إذا أرخى له كقولهم: (مد الله في عمرك) وقال أبو علي الفارسي في كتاب "الحجة" "عامّة  
ما جاء في التنزيل مما يستحب أمددتُ على أفعلت كقوله: ﴿أن ما نمدهم به من مالٍ  
وينين﴾ [المؤمنون: 55] ﴿وأمددناهم بفاكهة﴾ [الطور: 22] و﴿أتمدونن بمالٍ  
﴾ [النمل: 36]، وما كان بخلافه يجيء على مَدَدْتُ قال تعالى: ﴿ويُمدهم في  
طغيانهم يعمهون﴾ [البقرة: 15] فهذا يدل على أن الوجه فتح الياء كما ذهب إليه  
الأكثر من القراء والوجه في قراءة من قرأ يُمدونهم أي بضم الياء أنه مثل ﴿فبشرهم بعذاب

اليم ﴿ [آل عمران : 21] (أي هو استعارة تهكمية والقرينه قوله في الغي كما أن القرينة في الآية الأخرى قوله بعذاب ) وقد علمت أن وقوع أحد الفعلين أكثر في أحد المعنيين لا يقتضي قصر إطلاقه على ما غلب إطلاقه فيه عند البلغاء وقراءة الجمهور ﴿ يمدونهم ﴿ بفتح التحتية تقتضي أن يعدى فعل ﴿ يمدونهم ﴿ إلى المفعول باللام ، يقال مد له إلا أنه كثرت تعديته بنفسه على نزع الخافض كقوله تعالى : ﴿ ويمدّهم في طغيانهم ﴿ وقد تقدم في سورة البقرة ( 15 )

والغي الضلال وقد تقدم آنفاً .

و( في ) من قوله : ﴿ يمدونهم في الغي ﴿ على قراءة نافع وأبي جعفر استعارة تبعيه بتشبيه الغي بمكان المحاربة ، وأما على قراءة الجمهور فالمعنى : وإخوانهم يمدون لهم في الغي من مدّ للبعير في الطول .

(322/301)

---

أي يطيلون لهم الحبل في الغي ، تشبيهاً لحال أهل الغواية وازديادهم فيها مجال النعم المطال لها الطول في المرعى وهو الغي ، وهو تمثيل صالح للاعتبار تفريق التشبيه في أجزاء الهيئة المركبة ، وهو أعلى أحوال التمثيل ويقرب من هذا التمثيل قول طرفة:



لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى . . .

لكالطول المرخى وثنياه باليد

وعليه جرى قولهم : مد الله لفلان في عمره ، أو في أجله ، أو في حياته والإقصار الإمساك

عن الفعل مع قدره الممسك على أن يزيد .

و ﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي أي وأعظم من الإمداد لهم في الغي أنهم لا يألونهم جهداً في

الازدياد من الإغواء ، فلذلك تجد إخوانهم أكبر الغاوين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير

والتنوير ح 8 ص ﴿

(323/301)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (202) ﴾

ونحن حين تتبّع كلمة " يمدونهم " في القرآن ، نجدها مرة " يمدونهم " ومرة يمددكم كما جاء

في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ . . . ﴾ [نوح: 12] .

ونعلم أن الشياطين لن تترك المؤمنين في حالهم ، بل تظل في محاولة الغواية ، وتحاول الشياطين

غواية المؤمنين الطائعين أكثر من محاولتهم غواية العاصين ؛ لأن العاصي إنما يعاون الشيطان

باتباعه شهوات نفسه ، ولا يقصر العاصي أو الشيطان في ذلك ، بل يحاول العاصي أو الشيطان غواية المؤمنين و "أقصر" من مادة "قصر" ، أي أنه قادر أن يطول المسافة لكنه يقصرها . وهكذا إلحاح الشياطين لغواية المؤمنين .

فالشيطان - كما جاء في القرآن - يعترف بموقفه من ملاحقة المؤمنين بالوسوسة وتزيين

المعاصي . ﴿ . . . لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: 16] .

والشيطان يعلم أن من لا يتقي الله لا يحتاج إلى تزيين أو غواية ؛ لأنه يرغب ويميل للمعاصي والعياذ بالله ؛ لذلك لا يبذل الشيطان لغويته جهدا كبيرا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الشعراوى صـ ﴿

(324/301)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِي ﴾ .

في هذه الآية أوجه :

أحدها : أن الضمير في : " إخوانهم " يعودُ على الشياطين لدلالة لفظ الشيطان عليهم ، أو

على الشَّيْطَانِ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُرَادُ بِهِ الْوَاحِدُ، بَلِ الْجِنْسُ.

وَالضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ فِي يَمْدُونَهُمْ يَعُودُ عَلَى الْكُفَّارِ، وَالْمَرْفُوعُ يَعُودُ عَلَى الشَّيَاطِينِ أَوْ

الشَّيْطَانِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَالتَّقْدِيرُ: وَإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ يَمْدُهُمُ الشَّيْطَانُ، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ

فَالخَبْرُ جَارٍ عَلَى غَيْرِ مَنْ هُوَ فِي الْمَعْنَى، أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِمْدَادَ مَسْنَدًا إِلَى الشَّيَاطِينِ فِي الْمَعْنَى

وَهُوَ فِي اللَّفْظِ خَبْرٌ عَنِ إِخْوَانِهِمْ وَمِثْلَهُ: [البسيط]

2663 - قَوْمٌ إِذَا الْخَيْلُ جَالُوا فِي كَوَاتِبِهَا . . . . .

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْبَحْثُ فِي هَذَا مَعَ مَكِّي وَغَيْرِهِ مِنْ حَيْثُ جَرِيَانُ الْفِعْلِ عَلَى غَيْرِ مَنْ هُوَ، وَلَمْ يَبْرُزْ ضَمِيرٌ.

وَهَذَا التَّأْوِيلُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ: هُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ وَعَلَيْهِ عَامَّةُ الْمَفْسَّرِينَ.

قَالَ الزَّمخَشَرِيُّ: هُوَ أَوْجَهُ؛ لِأَنَّ إِخْوَانَهُمْ فِي مَقَابَلَةِ: "الَّذِينَ اتَّقَوْا".

الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ، وَبِالضَّمِيرِ الْمَضَافِ إِلَيْهِ: الْجَاهِلُونَ، أَوْ غَيْرَ الْمُتَّقِينَ

لِأَنَّ الشَّيْءَ يَدُلُّ عَلَى مَقَابَلِهِ، وَالْوَاوُ تَعُودُ عَلَى الْإِخْوَانِ، وَالضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ يَعُودُ عَلَى

الْجَاهِلِينَ، أَوْ غَيْرِ الْمُتَّقِينَ؛ وَالْمَعْنَى: وَالشَّيَاطِينُ الَّذِينَ هُمْ إِخْوَانُ الْجَاهِلِينَ أَوْ غَيْرِ الْمُتَّقِينَ

يَمْدُونُ الْجَاهِلِينَ أَوْ غَيْرِ الْمُتَّقِينَ فِي الْغَيْبِ، وَالخَبْرُ فِي هَذَا الْوَجْهِ جَارٍ عَلَى مَنْ هُوَ لَفْظًا

وَمَعْنَى، وَهَذَا تَفْسِيرُ قِتَادَةَ.

الثَّلَاثُ: أَنَّ يَعُودُ الضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ وَالْمَنْصُوبُ عَلَى الشَّيَاطِينِ، وَالْمَرْفُوعُ عَلَى الْإِخْوَانِ وَهُمْ

الكفَّارث .

قال ابن عطية: ويكون المعنى: وإخوان الشياطين في الغي بخلاف الإخوة في الله يمدون الشياطين أي: بطاعتهم لهم وقبولهم منهم، ولا يترتب هذا التأويل على أن يتعلق في الغي بالإمداد؛ لأنَّ الإنس لا يغوون الشياطين، يعني يكون في الغي حالاً من المبتدأ، أي: وإخوانهم حال كونهم مستقرين في الغي، وفي مجيء الحال من المبتدأ خلاف، والأحسن أن يتعلق بم تضمنه أخوانهم من معنى المؤاخاة والأخوة، وسيأتي فيه بحث لأبي حيان .  
قال أبو حيان: ويمكن أن يتعلق في الغي على هذا التأويل ب: يمدونهم على جهة السببية، أي: يمدونهم بسبب غوايتهم، نحو: دخلت امرأة النار في هرة، أي: بسبب هرة، ويحتمل أن يكون في الغي حالاً، فيتعلق بحذوف أي: كائنين في الغي، فيكون في الغي في موضعه، ولا يتعلق ب: إخوانهم وقد جوز ذلك ابن عطية .  
وعندي في ذلك نظر .

(325/301)

---

فلو قلت: مُطِعْمَكَ زَيْدٌ لِحْمًا، مُطِعْمَكَ لِحْمًا زَيْدٌ، فتفصل بين المبتدأ ومعموله بالخبر، لكان في جوازه نظر، لأنك فصلت بين العامل والمعمول بأجنبي لهما معاص، وإن كان ليس

أجنبياً لأحدهما وهو المبتدأ .

قال شهاب الدين : ولا يظهر منعُ هذا البتة لعدم أجنبيته وقرأ نافعٌ يمدُّ ونهْمٌ بضم الياء وكسر الميم من أمدَّ والباقون : بفتح الياء وضم الميم ، وقد تقدم الكلام على هذه المادة هل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق في أوائل الكتاب [ البقرة : 155 ] .

فقيل : أمدَّ ومدَّ لغتان .

وقيل : مدَّ معناه : جذب ، وأمدَّ معناه من : الإمداد .

قال الواحدي عامة ما جاء في التنزيل ممَّا يحمد ويتسحب أمددتُ على أفعلتُ ، كقوله ﴿ أَنَّمَا نُؤَدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَنَبِينٍ ﴾ [ المؤمنون : 55 ] وقوله ﴿ وَأَمْدَدْنَاَهُمْ بِفَاكِهَةٍ ﴾ [ الطور : 22 ] ﴿ أْتَمِدُّونَ بِمَالٍ ﴾ [ النمل : 36 ] وما كان بخلافه فإنه يجيء على : مددتُ ؛ قال تعالى : ﴿ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [ البقرة : 15 ] فالوجه ههنا قراءة العامة ، ومن ذمَّ الياء استعمل ما هو الخير لخصه كقوله ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [ آل عمران : 21 ] وقرأ الجحدريُّ : يُمَادُونَهُمْ من : مادَّة بزنة : فاعله ، وقرأ العامةُ

يُقَصِّرُونَ من : أقصرَ ، قال الشاعر : [ الطويل ]

2664 - لَعَمْرُكَ مَا قَلْبِي إِلَى أَهْلِهِ بِحُرٍّ . . .

وَلَا مُقَصِّرٍ يَوْمًا فَيَأْتِينِي بَقْرٌ

وقال امرؤ القيس : [ الطويل ]

2665 - سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَ . . .

وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوْفَعَرَعَرَا

أي: ولا نازعٌ مما هو فيه، وارتفع شوقك بعد ما كان قد نزع وأقلع، وقرأ عيسى ابن عمر، وابن أبي عبلة "ثم لا يقصرون" بفتح الياء من: قصر، أي: لا ينتقصون من قوله

(326/301)

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ [الأعراف: 192] وهو تكلف بعيد .

وقوله "في الغي" قد تقدم أنه يجوز أن يكون متعلقاً بالفعل، أو بـ "إخوانهم" أو بمحذوف على أنه حال إمّا من "إخوانهم" وإمّا من واو "يمدُّونهم" وإمّا من مفعوله .

فصل

قال الليث: الإقصارُ: الكفُّ عن الشيءِ ، وأقصرَ فلانٌ عن الشيءِ يُقصرُ إقصاراً إذا كفَّ عنه وانتهى .

قال ابن عباسٍ: ثم لا يقصرون عن الضلالِ والإضلالِ ، أمّا الغاوي ففي الضلالِ ، وأمّا المغوي ففي الإضلالِ .

قال الكلبيُّ لكل كافرٍ أخٌ من الشياطينِ يمدُّونهم أي: يطيلون لهم في الإغواء حتى يستمروا

عليه .

وقيل : يزيدونهم في الضلالة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 435 .

﴿ 437 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (202) ﴾

إخوانُ الشيطان أربابُ دوام الغيبة ؛ فهم في كمال الغفلة تدوم بهم الحجة ؛ فمنهم بالزلة مَنْ

لم يَلْمُ ، أو ألم ولكن لم يُصِرْ فهم خياره ، ومنهم مَنْ غَفَلَ واغترَّ ، وعلى دوام العيبة أَصَرَ -

فهم المحجوبون قطعاً ، والمُبعَدُونَ - عن محلِّ القرب - صدّاً وردّاً . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 599 ﴾

(327/301)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا

بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر ما شرعه من التعفف وعدم التنطع والتكلف ، وكان قد أخبر أن من عملهم تكلفهم السؤال عن الساعة ، والشياطين لا يفترون عن إغوائهم ، أخبره عن مطلق تكلفهم تعجباً منهم وإشهاداً لتماديمهم مع إغواء شياطينهم ، وأمره - صلى الله عليه وسلم - بما يجيبهم به فقال عاطفاً على ﴿ يمدونهم ﴾ : ﴿ وإذا لم تأتهم بآية ﴾ أي على حسب اقتراحهم ﴿ قالوا لولا ﴾ أي هلا ﴿ اجتبيتها ﴾ والجي : الجمع ، والإجباء تركه ، والاجتباء : الجد في الجمع ، ويلزم منه الاصطفاء والاختبار ، فمعنى اجتبيتها اجتلبتها ، أي تكلفت من عند نفسك الإتيان بها مختاره .

ولما كان المقام داعياً إلى السؤال في تعليم الجواب ، أسعف ذلك بقوله : ﴿ قل ﴾ أي إذا قالوا ذلك ﴿ إنما أتبع ﴾ أي أتعمد وأتكلف اتباع ﴿ ما يوحى إلي ﴾ أي يأتيني به الملك ﴿ من ربي ﴾ أي المحسن إلي بتعليمي ما ينفعني ، لا أني آتي بشيء من عند نفسي ولا أقترح على ربي .

ولما حصر حاله في اتباع الوحي كان كأنه قيل : ما هذا الذي يوحى إليك ؟ فقال - ويجوز أن يكون تعليلاً لاتباعه لأنه كاف في إثبات نبوته مغن عن الآيات المقترحة قاهر في وجوب اتباعه - : ﴿ هذا ﴾ مشيراً إلى ما يوحى إليه تنبيهاً على أنه يجب أن يكون مستحضراً في سائر الأذهان ، حاضرًا بين عيني كل إنسان ﴿ بصائر ﴾ أي أشياء هي - على حسب



ما طلبتم - مجتابة، بل هي خيار الخيار، يكون بها نور القلب فيصير للعيون أيضاً بصر  
يقربه مما يحث الكتاب على نظره من الآيات المرثيات إلى علوم لم تكن لها قبل ذلك، وهي  
حجج بينة قاهرة على تصديقي وقبول كل ما جئت به، وسماه بذلك لأنه سبب لبصر  
العقول بدلائل التوحيد والنبوة والمعاد وجميع الشريعة أصولاً وفروعاً، فهو تسمية للسبب  
باسم المسبب، وعليّ مدحها بقولة: ﴿من ربكم﴾ أي الذي لم يقطع إحسانه عنكم  
أصلاً، فهو جدير بأن يتلقى ما أتى منه بكل جميل .  
ولما كانت البصائر جمعاً، وكانت العادة جارية بأن مفردات الجمع تكون متفاوتة، أكدها  
بما يشير إلى أنها خارقة للعادة في أنها على حد سواء في أعلى طبقات الهداية فقال:  
﴿وهدي﴾ أي بيان؛ ولما كان البيان قد لا يكون على وجه الإكرام، قال: ﴿ورحمة﴾  
أي إكرام.

ولما كان من لا ينتفع بالشيء يصح أن ينفي عن الشيء النافع النفع بالنسبة إليه، قال:  
﴿لقوم يؤمنون﴾ أي يوجدون هذه الحقيقة ويستمرون على تجديدها في كل وقت، وأما  
غيرهم فقد يكون عليهم عذاباً. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر ح 3 ص 177.

## فصل

قال الفخر:

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾

اعلم أنه تعالى: لما بين في الآية الأولى أن شياطين الجن والإنس لا يقصرون في الإغواء والإضلال بين في هذه الآية نوعاً من أنواع الإغواء والإضلال وهو أنهم كانوا يطلبون آيات معينة ومعجزات مخصوصة على سبيل التعنت كقوله: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء: 90] ثم أعاد: أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يأتيهم ، فعند ذلك قالوا: ﴿ لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ قال الفراء: نقول العرب اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته إذا افتعلته من قبل نفسك ، والمعنى لولا تقولتها وافتعلتها وجئت بها من عند نفسك لأنهم كانوا يقولون: ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا إفْكٌ مُفْتَرَى ﴾ [سبأ: 43] أو يقال هلا اقترحها على إلهك ومعبودك إن كنت صادقاً في أن الله يقبل دعاءك ويجب التماسك وعند هذا أمر رسوله أن يذكر الجواب الشافي ، وهو قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ ومعناه ليس لي أن أقترح على ربي في أمر من الأمور ، وإنما أنتظر الوحي فكل شيء أكرمني به قلته ، وإلا فالواجب السكوت وترك الاقتراح ، ثم بين أن عدم الإتيان بتلك المعجزات التي اقترحها لا يقدح في الغرض ، لأن ظهور القرآن على وفق دعواه معجزة بالغة

باهرة، فإذا ظهرت هذه المعجزة الواحدة كانت كافية في تصحيح النبوة، فكان طلب  
الزيادة من باب التعنت، فذكر في وصف القرآن ألفاظاً ثلاثة: أولها: قوله: ﴿ هَذَا بَصَائِرُ  
مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أصل البصيرة الإبصار، ولما كان القرآن سبباً لبصائر العقول في دلائل التوحيد  
والنبوة والمعاد، أطلق عليه لفظ البصيرة، تسمية للسبب باسم المسبب.

(329/301)

---

وثانيها: قوله: ﴿ وَهُدًى ﴾ والفرق بين هذه المرتبة وما قبلها أن الناس في معارف  
التوحيد والنبوة والمعاد قسمان: أحدهما: الذين بلغوا في هذه المعارف إلى حيث صاروا  
كالمشاهدين لها وهم أصحاب عين اليقين.

والثاني: الذين ما بلغوا إلى ذلك الحد إلا أنهم وصلوا إلى درجات المستدلين: وهم  
أصحاب علم اليقين، فالقرآن في حق الأولين وهم السابقون بصائر، وفي حق القسم الثاني  
وهم المقتصدون هدى، وفي حق عامة المؤمنين رحمة، ولما كانت الفرق الثلاث من  
المؤمنين لا جرم قال: ﴿ لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب - 15 ص

﴿ 83.82

(330/301)

وقال السمرقندی :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ ﴾

وذلك حين أبطأ عليه جبريل حين سأله شيئاً ﴿ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ أي : هلا أتاهم من تلقاء نفسه ؟ وهذا كقوله : ﴿ وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا تُبَدِّلُهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : 15] ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ أي : قل إذا أمرت بأمر فعلت ولا أبتدع ما لم أؤمر ﴿ هذا بصائرٌ من ربكم ﴾ يعني : القرآن بيان من ربكم .

وقال بعض أهل اللغة : البصائر في اللغة : طرائق الأمور واحدها بصيرة : ويقال : طريقة الدين معناه : ظهور الشيء وبيانه ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي : القرآن هدى من الضلالة ويقال : كرامة ورحمة من العذاب ونعمة لمن آمن به ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : يصدقون .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 1 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ ﴾ يا محمد يعني المشركين ﴿ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ أي هلا أقلمتها وأنشأتها من قبل نفسك واختيارك ، قاله قتادة ، وقال مجاهد : لولا اقتضيتها وأخرجتها

من نفسك .

وقال ابن زيد : لولا يقبلها [ لجئت ] بها من عندك .

وقال ابن عباس : لولا تلقيتها من عندك ، أيضاً لولا حدثتها فأنشأتها . قال العوفي عن ابن

عباس : [ فنسيتها وقتلتها ] من ربك .

وقال الضحاك : لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء ، قال الفراء : تقول العرب : [

جئت ] الكلام وأخلقته وارتجلته وانتحلته إذا فعلته من قبل نفسك .

قال ابن زيد : إنما يقول العرب ذلك الكلام بتهدة الرجل ولم يكن قبل ذلك أعده لنفسه ❖

قُلْ ❖ يا محمد ❖ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ❖ ثم قال ❖ هذا ❖ يعني القرآن ❖

بصائر ❖ حجج وبيان وبرهان ❖ من ربكم ❖ واحدتها بصيرة . وقال الزجاج : طرق

من ربكم ، والبصائر طرق الدم .

قال الجعفي :

راحوا بصائرهم على أكتافهم . . . . . وبصيرتي يعدو بها عتد وأي

تعدّوا عداوي وأصلها ظهور الشيء وقيامه واستحكامه حتى يبصر الانسان فييهدي

إليها وينتفع بها ، ومنه قيل : [ مالي في الأمر ] من بصيرة و ❖ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

❖ . انتهى انتهى . اه ❖ الكشف والبيان ح 4 ص ❖

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه هلا أتيتنا بها من قبل نفسك ، وهذا قول مجاهد ، وقتادة .

والثاني : معناه هلا اخترتها لنفسك .

والثالث : معناه هلا تقبلتها من ربك ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت

والعيون ح 2 ص ﴿

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ ﴾

سببها فيما روي أن الوحي كان يتأخر عن النبي صلى الله عليه وسلم أحيانا ، فكان الكفار يقولون هلا اجتبيتها ، ومعنى اللفظة في كلام العرب تخيرتها واصطفيتها ، وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن زيد وغيرهم : المراد بهذه اللفظة هلا اخترتها واختلقتها من قبلك ومن عند نفسك ، والمعنى إذ كلامك كله كذلك على ما كانت قريش تزعمه ، وقال ابن عباس أيضا والضحاك : المراد هلا تلقيتها من الله وتخيرتها عليه ، إذ تزعم أنك نبي وأن منزلتك عنده منزلة الرسالة ، فأمره الله عز وجل أن يجيب بالتسليم لله تعالى وأن الأمر في

الوحي إليه ينزله متى شاء لا معقب لحكمه في ذلك فقال ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ﴾ ثم أشار بقوله هذا إلى القرآن ، ثم وصفه بأنه ﴿ بصائر ﴾ أي علامات هدى وأنوار تضيء القلوب ، وقالت فرقة : المعنى ذو بصائر ، ويصح الكلام دون أن يقدر حذف مضاف لأن المشار إليه بهذا إنما هو سور وآيات وحكم ، وجازت الإشارة إليه بهذا من حيث اسمه مذكر ، وجاز وصفه ب ﴿ بصائر ﴾ من حيث هو سور وآيات ، ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ أي لهؤلاء خاصة ، قال الطبري : وأما من لا يؤمن فهو عليه عمى عقوبة من الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(332/301)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وإذا لم تأتهم بآية ﴾

يعني به : المشركين .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : إذا لم تأتهم بآية سألوها تعنتاً ، قاله ابن السائب .

والثاني : إذا لم تأتهم بآية لإبطاء الوحي ، قاله مقاتل .

وفي قوله: ﴿لولا اجتبيتها﴾ قولان.

أحدهما: هالاً افعلتها من تلقاء نفسك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي،

وابن زيد، والفراء، والزجاج، وابن قتيبة في آخرين.

وحكي عن الفراء أنه قال: العرب تقول: اجتبيت الكلام، واختلقته، وارتجلته: إذا

اقتلته من قبل نفسك.

والثاني: هالاً طلبتها لنا قبل مسألتك، ذكره الماوردي.

والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي﴾ أي: ليس الأمر لي.

قوله تعالى: ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ يعني القرآن.

قال أبو عبيدة: البصائر: بمعنى الحجج والبرهان والبيان، واحداً منها: بصيرة.

وقال الزجاج: معنى البصائر: ظهور الشيء وبيانه. انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسيرح

﴿ 3 ص

(333/301)

---



وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ ﴾ أي تقرأوها عليهم .

﴿ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ لولا بمعنى هلا .

ولا يليها على هذا المعنى إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً ، وقد تقدم القول فيها في "البقرة" مستوفى .

ومعنى "اجتبيتها" اخترقتها من نفسك .

فأعلمهم أن الآيات من قبل الله عز وجل ، وأنه لا يقرأ عليهم إلا ما أنزله عليه .

يقال : اجتبيتُ الكلام أي ارتجلته واخترقته واخترعته إذا جئت به من عند نفسك .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَسَّبَعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ أي من عند الله لا من عند نفسي .

﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعني القرآن ، جمع بصيرة ، هي الدلالة والعبرة .

أي هذا الذي دللتكم به على أن الله عز وجل واحدٌ بصائرٌ ، أي يُستبصر بها .

وقال الزجاج : "بصائرٌ" أي طرقٌ .

والبصائرُ طرقُ الدين .

قال الجعفي :

راحوا بصائرهم على أكتافهم . . .

وبصيرتي يعدوا بها عتدواي

﴿ وَهُدًى ﴾ رشديان .

﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي ونعمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

(334/301)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةً ﴾

يعني وإذا لم تأت المشركين يا محمد بآية ومعجزة باهرة ﴿ قالوا ﴾ يعني قال المشركون ﴿ لولا اجتبيتها ﴾ يعني افتعلتها وأنشأتها من قبل نفسك واختيارك تقول العرب اجتبت الكلام إذا اختلقه وافتعله .

وقال الكلبي : كان أهل مكة يسألون النبي ( صلى الله عليه وسلم ) الآيات تعنتاً فإذا

تأخرت اتهموه وقالوا لولا اجتبيتها يعني هلا أحدثتها وأنشأتها من عندك ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات ﴿ إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ﴾ يعني القرآن الذين أنزل عليّ وليس لي أن أقترح الآيات والمعجزات ﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ يعني هذا القرآن حجج وبرهان وأصل البصائر من الإبصار وهو ظهور الشيء حتى يبصره الإنسان ولما كان القرآن سبباً لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه

اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب ﴿ وهدى ﴾ يعني وهو هدى ﴿ ورحة ﴾ يعني وهو رحمة من الله ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ وهنا لطيفة وهي الفرق بين هذه المراتب الثلاث وذلك أن الناس متفاوتون في درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم أصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين ومنهم المسلم والمستسلم وهم عامة المؤمنين وهم أصحاب حق اليقين فالقرآن في حق الأولين وهم السابقون بصائر وفي حق القسم الثاني وهم المستدلون هدى وفي حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن ج 2 ص ﴾

(335/301)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها ﴾ .

روى أن الوحي كان يتأخر عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) أحياناً فكان الكفار يقولون :

هلا اجتبيتها ومعنى اللفظة في كلام العرب تخيرتها واصطفيتها ، وقال ابن عباس ومجاهد

وقتادة وابن زيد وغيرهم : المراد هلا اخترعتها واختلقتها من قبلك ومن عند نفسك

والمعنى أن كلامك كله كذلك على ما كانت قریش تدعيه كما قالوا ﴿ هذا إلا إفك مفترى ﴾ ، قال الفراء تقول العرب اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته إذا افتعلته من قبل نفسك ، وقال الزمخشري : اجتبي الشيء بمعنى جباه لنفسه أي جمعه كقوله اجتمع أو جبي إليه فاجتباه أي أخذه كقولك : جليت العروس إليه فاجتلاها والمعنى هلا اجتمعتها افتعالاً من قبل نفسك ، وقال ابن عباس أيضاً والضحاك : هلا تلقيتها ، وقال الزمخشري هلاً أخذتها منزلة عليك مقترحة انتهى ، وهذا القول منهم من نتائج الإمداد في الغي كانوا يطلبون آيات معينة على سبيل التعنت كقلب الصفا ذهباً وإحياء الموتى وتفجير الأنهار وكم جاءتهم من آية فكذبوا بها واقتروا غيرها .

﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ﴾ ﴿ بين أنه ليس مجيء الآيات إليه إنما هو متبع ما أوحاه الله تعالى إليه ولست بمفتعلها ولا مقترحها .

﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ أي هذا الموحى إلي الذي أنا أتبعه لا أبتدعه وهو القرآن ﴿ بصائر ﴾ أي حجج وبيانات يبصر بها وتوضح الأشياء الخفيات وهي جمع بصيرة كقوله ﴿ على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ أي على أمر جلي منكشف وأخبر عن المفرد بالجمع لاشتماله على سور وآيات ، وقيل : هو على حذف مضاف أي ذو بصائر .

---

﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ أي دلالة إلى الرشد ﴿ ورحمة ﴾ في الدارين وفي الدين  
والدنيا وخصّ المؤمنين لأنهم الذين يستبصرون وهم الذين ينتفعون بالوحي يتبعون ما أمر به  
فيه ويجتنبون ما ينهون عنه فيه ويؤمنون بما تضمنه ، وقال أبو عبد الله الرازي : أصل  
البصيرة الإبصار لما كان القرآن سبباً لبصائر العقول في دلالة التوحيد والنبوة والمعاد أطلق  
عليه اسم البصيرة تسميةً للسبب باسم المسبب والناس في معارف التوحيد والنبوة  
والمعاد ثلاثة أقسام ، أحدها : الذين بالغوا في هذه المعارف إلى حيث صاروا كالمشاهدين  
لها وهم أصحاب عين اليقين فالقرآن في حقهم بصائر ، والثاني : الذين وصلوا إلى درجات  
المستدلين وهم أصحاب علم اليقين فهو في حقهم هدى ، والثالث : من اعتقد ذلك  
الاعتقاد الجزم وإن لم يبلغ مرتبة المستدلين وهم عامة المؤمنين فهو في حقهم رحمة ، ولما كانت  
هذه الفرق الثلاث من المؤمنين قال ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ انتهى ، وفيه تكميل وبعض  
تلخيص . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط - 4 ص ﴾

(337/301)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ ﴾

من القرآن عند تراخي الوحي أو آية مما اقترحوه ﴿ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ اجتبي الشيء

بمعنى جباه لنفسه ، أي هلا جمعتها من تلقاء نفسك تقولا ، يرون بذلك أن سائر الآيات

أيضا كذلك أو هلا تلقيتها من ربك استدعاء ﴿ قُلْ ﴾ ردا عليهم ﴿ إِنَّمَا اتَّبِعُ مَا يُوْحَى

إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ من غير أن يكون لي دخل ما في ذلك أصلا على معنى تخصيص حاله عليه

الصلاة والسلام باتباع ما يوحي إليه بتوجيه للقصر المستفاد من كلمة إنما إلى نفس الفعل

بالنسبة إلى مقابله الذي كلفه إياه عليه الصلاة والسلام لا على معنى تخصيص اتباعه عليه

الصلاة والسلام بما يوحي إليه بتوجيه القصر إلى المفعول بالقياس إلى مفعول آخر كما هو

الشائع في موارد الاستعمال وقد مر تحقيقه في قوله تعالى ﴿ إِنِ اتَّبَعِ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ ﴾ كأنه

قيل : ما أفعل إلا اتباع ما يوحي إلي منه تعالى وفي التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن

المالكية والتبليغ إلى الكمال اللائق مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه

عليه الصلاة والسلام والتنبيه على تأييده ما لا يخفى ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى القرآن الكريم

المدلول عليه بما يوحي إلي ﴿ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق

وتدرك الصواب ، وقيل : حجج بينة وبراهين تيرة . و ( من ) متعلقة بمحذوف هو صفة

لبصائر مفيدة لفخامتها أي بصائر كائنة منه تعالى ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى

ضميرهم لتأكيد وجوب الإيمان بها وقوله تعالى: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ عطف على بصائر، وتقديم الظرف عليهما وتعقيبهما بقوله تعالى: ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ للإيدان بأن كون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحقق بالنسبة إلى الكل وبه تقوم الحجة على الجميع، وأما كونه هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين به إذ هم المقتبسون من أنواره والمغتنمون بآثاره، والجملة من تمام القول المأمور به. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 3 ص ﴾

(338/301)

وقال الألوسي:

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ ﴾

من القرآن عند تراخي الوحي كما روي عن مجاهد .  
وقادة .

والزجاج، أو بآية مقترحة كما روي عن ابن عباس .  
والجبائي .

وأبي مسلم ﴿ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ أي هلا جمعتها ولفقتها من عند نفسك افتراء، أو هلا أخذتها من الله تعالى بطلب منه، وهو تهكم منهم لعنهم الله تعالى، ومما ذكرنا علم أن

لاجتبي معنيين جمع وأخذ ويختلف المراد حسب الاختلاف في تفسير الآية، وعن علي بن عيسى أن الاجتباء في الأصل الاستخراج ومنه جباية الخراج، وقيل: أصله الجمع من جبيت الماء في الحوض جمعه، ومنه قيل للحوض جابية لجمعه الماء، وإلى هذا ذهب الراغب، وف "الدر المصون" جبي الشيء جمعه مختاراً ولذا غلب اجتبيته بمعنى اخترته.

(339/301)

---

وقال الفراء يقال اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلتها إذا افعلته من قبل نفسك وكذا اخترعته عند أبي عبيدة، وقال ابن زيد: هذه الأحرف تقولها العرب للكلام يتديه الرجل لم يكن أعده قبل ذلك في نفسه، ومن جعل الأصل شيئاً لا ينكر الاستعمال في الآخر مجازاً كما لا يخفى ﴿ قُلْ ﴾ ﴿ رداً عليهم ﴾ ﴿ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ من غير أن يكون لي دخل ما في ذلك أصلاً على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتباع ما يوحى إليه بتوجيه القصر إلى نفس الفعل بالنسبة إلى مقابله الذي كلفه إياه عليه الصلاة والسلام لا على معنى تخصيص اتباعه صلى الله عليه وسلم بما يوحى إليه بتوجيه القصر بالقياس إلى مفعول آخر كما هو الشائع في موارد الاستعمال كأنه قل: ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلي منه



تعالى دون الاختلاف والاقتراح، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى القرآن الجليل المدلول عليه بما يوحى إليّ ﴿ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق وتدرك الصواب، أو حجج بينة وبراهين نيرة تغني عن غيرها فالكلام خارج مخرج التشبيه البليغ، وقد حققت ما فيه على الوجه الأتم في الطراز المذهب، أو فيه مجاز مرسل حيث أطلق المسبب على السبب، وجوز أن تكون البصائر مستعارة لإرشاد القرآن الخلق إلى إدراك الحقائق، وهذا مبتدأ وبصائر خبره، وجمع خبر المفرد لاشتماله على آيات وسور جعل كل منها بصيرة، و ﴿ مِنْ ﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لبصائر مفيدة لفخامتها أي بصائر كائنة منه تعالى، والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد وجوب الإيمان بها، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ عطف على بصائر، وتنوينهما للتفخيم، وتقديم الظرف عليهما وتعقبهما بقوله تعالى: ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ كما قال شيخ الإسلام للإيدان بأن كون القرآن

(340/301)

---

بصائر متحقق بالنسبة إلى الكل وبه تقوم الحججة على الجميع ، وأما كونه البعض من أن  
الثلاثة للمؤمنين ، فقد قال النيسابوري في التفسير : إن البصائر لأصحاب عين اليقين  
والهدى لأرباب علم اليقين والرحمة لغيرهم من الصالحين المقلدين على أتم وجه والجميع لقوم  
يؤمنون ، وذكر نحو ذلك الخازن وادعى أنه من اللطائف وهو خلاف الظاهر بل لا يكاد  
يسلم ، وهذه الجملة على ما يظهر من تمام القول المأمور به .  
واحتج بالآية من لم يجوز الاجتهاد للنبي صلى الله عليه وسلم وفيه نظر . انتهى انتهى . ١٠ هـ  
﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(341/301)

وقال القاسمي :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ ﴾ أي : مما اقترحوه : ﴿ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ أي : هلا تكلفتها  
وأنشأتها من عندك ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ أي : فلست بمفعل للآيات ،  
ولا أتقدم إليه تعالى في شيء منها .

ثم أرشدهم تعالى إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق  
الحجج والبيانات ، فقال سبحانه :

﴿ هَذَا ﴾ أي: القرآن: ﴿ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي: بمنزلة البصائر للقلوب، بها يبصر

الحق، ويدرك الصواب .

فالكلام على طريقة التشبيه البليغ أو سبب البصائر، فهو مجاز مرسل أو استعارة لإرشاده

، أو المعنى: حجج بينة، وبراهين تيرة . وإنما جمع خبر المفرد

لاشتماله على آيات وسور، جعل كل منها بصيرة . والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة

إلى ضميرهم - لتأكيد وجوب الإيمان بها ﴿ وَهُدًى ﴾ أي: من الضلالة: ﴿ وَرَحْمَةً

﴿ أَي: من العذاب: ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: به، فيتفكرون في حقائقه .

تنبيه:

قال الجشمي: تدل الآية أنه تعالى ينزل الآيات بحسب المصلحة، لا بحسب اقتراحهم، لأن

ذلك قد يكون فساداً . ويدل قوله: ﴿ هَذَا بَصَائِرُ ﴾ أن المعارف مكتسبة .

وتدل أن جميع ما يقوله الرسول ويفعله من الشرع من وحيه، لذلك قال: ﴿ أَتَّبِعُ مَا يُوحَى

إِلَيَّ ﴾ ، ومتى قيل: هل تدل الآية على أنه لا يجتهد ولا يقيس ؟

قلنا: لا، لأن القياس والاجتهاد إذا كان متعبداً به، فاتباعه اتباع الوحي، كالعامة يقبل

من المفتي، والعالم يجتهد، ويتبع الوحي، كذلك هذا .

والذي يدل عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يفعل شيئاً من تلقاء نفسه حتى يؤمر به -

انتهى كلامه - وفي إطلاقه تفصيل له موضع آخر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح

﴿ 249 ص 7

(342/301)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ .

معطوفة على جملة : ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] والمناسبة أن

مقاتلهم هذه من جهالتهم والآية يجوز أن يراد بها خارق العادة أي هم لا يقنعون بمعجزة

القرآن فيسألون آيات كما يشاءون مثل قولهم (فجر لنا من الأرض ينبوعاً) وهذا المعنى هو

الذي شرحناه عند قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها

﴿ في سورة الأنعام ( 109 ) .

وروي هذا المعنى عن مجاهد ، والسدي ، والكلبي ويجوز أن يراد بآية آية من القرآن

يقترحون فيها مدحاً لهم ولأصنامهم ، كما قال الله عنهم : ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءنا

أنت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ [يونس : 15] روي عن جابر بن زيد وقتادة : كان

المشركون إذا تأخر الوحي يقولون للنبيء هلا أتيت بقرآن من عندك يريدون التهكم .

و ﴿لولا﴾ حرف تحضيض مثل (هلا).

والاجتباء الاختيار، والمعنى: هلا اخترت آية وسألت ربك أن يعطيكها، أي هلا أتيتنا بما سألتك غير آية القرآن فيجيبك الله إلى ما اجتبت، ومقصدهم من ذلك نصب الدليل على أنه بخلاف ما يقول لهم إنه رسول الله، وهذا من الضلال الذي يعتري أهل العقول السخيفة في فهم الأشياء على خلاف حقائقها وبحسب من يتخيلون لها ويفرضون.

(343/301)

---

والجواب الذي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجيب به وهو قوله: ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ صالح للمعنيين، فالاتباع مستعمل في معنى الاقتصار والوقوف عند الحد، أي لا أطلب آية غير ما أوحى الله إلي، ويعضد هذا ما في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" ويكون المعنى: إنما انتظر ما يوحى إلي ولا أستعجل نزول القرآن إذا تأخر نزوله فيكون الاتباع متعلقاً بالزمان.

مستأنفة لابتداء كلام في التنويه بشأن القرآن منقطعاً عن المقول للانتقال من غرض إلى غرض

بمنزلة التذييل لمجموع أغراض السورة ، والخطاب للمسلمين .

ويجوز أن تكون من تمام القول المأمور بأن يجيبهم به ، فيكون الخطاب للمشركين ثم وقع

التخلص لذكر المؤمنين بقوله : ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

والإشارة بـ ﴿ بهذا بصائر ﴾ إلى القرآن ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما تقدم من السورة

أو من الحاجة الأخيرة منها ، وإفراد اسم الإشارة لتأويل المشار إليه بالمذكور .

والبصائر جمع بصيرة وهي ما به اتضح الحق وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قد جاءكم

بصائر من ربكم ﴾ في سورة الأنعام ( 104 ) ، وهذا تنويه بشأن القرآن وأنه خير من

الآيات التي يسألونها ، لأنه يجمع بين الدلالة على صدق الرسول بواسطة دلالة الإعجاز

وصدوره عن الأمي ، وبين الهداية والتعليم والإرشاد ، والبقاء على العصور .

وإنما جمع "البصائر" لأن القرآن أنواعاً من الهدى على حسب النواحي التي يهدي إليها ، من

تنوير العقل في إصلاح الاعتقاد ، وتسديد الفهم في الدين ، ووضع القوانين للمعاملات

والمعاشرة بين الناس ، والدلالة على طرق النجاح والنجاة في الدنيا ، والتحذير من مهاوي

الخسران .

(344/301)

وأفرد الهدى والرحمة؛ لأنهما جنسان عامان يشملان أنواع البصائر فالهدى يقارن بالبصائر والرحمة غاية للبصائر، والمراد بالرحمة ما يشمل رحمة الدنيا وهي استقامة أحوال الجماعة وانتظام المدنية ورحمة الآخرة وهي الفوز بالنعيم الدائم كقوله تعالى: ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل: 97].

وقوله: ﴿ من ربكم ﴾ ترغيب للمؤمنين وتخويف للكافرين.

﴿ لقوم يؤمنون ﴾ يتنازعه (بصائر) و (هدى) و (رحمة) لأنه إما ينتفع به المؤمنون، فالمعنى هذا بصائر لكم وللمؤمنين، و ﴿ هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ خاصة إذ لم يهتدوا، وهو تعريض بأن غير المؤمنين ليسوا أهلاً للانتفاع به وأنهم لهواً عن هديه بطلب خوارق العادات. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير - 8 ص ﴾

(345/301)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾

وقد جاء الحق تبارك وتعالى من قبل بكلمة "آيات"، والآيات - كما أوضحنا - إما آيات

كونية وإما آيات المعجزات الدالة على صدق الرسل ، وإما آيات الأحكام .

والله سبحانه وتعالى جاء هنا بكلمة : " آية " لا " آيات " ، والكون أمامهم ملئ بآياته ،

والمنهج المنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام واضح ، ولا ينقص إلا أن تأتي الآية

المعجزة - من وجهة نظرهم - وينبه الحق هؤلاء بقوله تبارك وتعالى في سورة الإسراء : ﴿

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا \* وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ

لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا \* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ

خِلَالَهَا تَفْجِيرًا \* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا

\* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا

تَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا \* [ الإسراء : 89 - 93 ] .

إذن فالآيات المعجزات التي طلبوها ، لا يأتي بها الرسول من عنده ، والآيات التي ينزل بها

المنهج أيضاً ليست من عنده ، بل هي تنزيل من لدن عزيز حكيم . وكانوا يتهمونهم صلى الله

عليه وسلم أنه يفترى القرآن . لذلك طلبوا منه صلى الله عليه وسلم المعجزة الحسية

متناسين ما جاءت به آيات القرآن الكريم من معجزة لم يستطيعوا هم أن يأتوا بآية واحدة من

مثل آياتها ؛ وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا

يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾



---

يأمره هنا ربه أن يقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾  
أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكلف أن يبلغهم بما يأتي به الوحي بحمله الروح  
الأمين جبريل عليه السلام من آيات القرآن الحاملة للمنهج الإلهي ، وهذا المنهج في حد ذاته  
معجزة متجددة العطاء ، لذلك يضيف: ﴿ . . . هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ  
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 203] .

ففي القرآن الكريم بصائرٌ وهدىٌ رحمةٌ ، والبصائر جمع بصيرة ، من الإبصار ، إذا امتلأ  
القلب بنور اليقين الإيماني فإن صاحبه يعيش في شفافية وإشراق ، ويسمى صاحب هذه  
الرؤية المعنوية صاحب بصيرة ، أما البصر فهو مهمة العين في الأمور الحسية ، لكن هناك  
أمور معنوية لا تكشفها إلا البصيرة ، والبصيرة تضيء القلب بالنور حتى يستكشف تلك  
الأمور المعنوية ، ولا يمتلك القلب البصيرة إلا حين يكون مشحوناً باليقين الإيماني .  
والقرآن الكريم بصائرٌ ؛ لأنه يعطي ويمنح من يؤمن به ويتأمله بصائرٌ ليجدد الأمور المعنوية  
وقد صارت مُبَصَّرَةً ، وكأنه قادر على رؤيتها ومشاهدتها وكأنها عين اليقين .

وهذا القرآن المجيد بصائرٌ وهدى ، أي يدل الإنسان ويهديه إلى المنهج الحق وإلى طريق الله  
المستقيم ، وهو رحمة أيضاً لمن لا يملك إشراقات القلب التي تهدي للإيمان ولا يملك قوة أخذ

الدليل الذي يوصله إلى الهداية ، إذن فهو رحمة لكل الناس ، وهدى لمن يسأل عن الدليل ،  
وبصائر لمن تيقن أصول الإيمان مشهدياً .

(347/301)

---

وكما قلنا من قبل : إنَّ الله قد أخبر المؤمنين بأمر غيبية ، ومن هذه الأمور الغيبية أن له  
جنةً وأن له ناراً ، وصدق المؤمنون بكل ما جاءهم من البلاغ عن ربهم ، وعلموا أن ذلك من  
الله ، وصار هذا العلم علم يقين كقدر مشترك فيما بينهم ، فإذا جاء يوم القيامة ورأوا  
الصراط مضروباً عن متن جهنم مطابقاً لما صدقوه وصار عين يقين ، وإذا ما دخل بعضهم  
النار - والعياذ بالله - تكفيراً لذنوب ارتكبوها ، فهذا حق يقين . وضربت المثل من قبل -  
ولله المثل الأعلى - كان الجغرافيون يحدثوننا ونحن طلاب عن خريطة الولايات المتحدة ،  
ويقولون : إن عاصمتها " واشنطن " ، والميناء الكبير فيها اسمه " نيويورك " ، وفي " نيويورك  
" توجد ناطحات السحاب وهي مبان ضخمة يزيد ارتفاع المبنى الواحد من هذه المباني  
على مائة طابق أي أكثر من مائتي متر ، وصدقنا نحن أستاذ الجغرافيا ، وعندما أتيت  
للبيع من فرصة السفر ورأوا واشنطن ونيويورك من الطائرة ، صارت الرؤية عين يقين بعد  
أن كانت علم يقين . وعند هبوط الطائرة في مطار واشنطن صارت الرؤية حق يقين .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى لنا الإيمان ببعض من الغيب في قوله تعالى: ﴿الْهَآكِمُ  
التَّكَآثِرُ \* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ \* كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ \* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ \* كَلَّا لَوْ  
تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ \* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ \* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: 1 - 7] .  
أورد سبحانه هناك "علم اليقين" و"عين اليقين" ، وأما "حق اليقين" فقد جاء في قوله:  
﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ \* فَرَوْحٌ وَّرِيحَانٌ وَّجَنَّتْ نَعِيمٌ \* وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ  
الْيَمِينِ \* فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ \* وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ \* فَنُزُلٌ مِّنْ  
حَمِيمٍ \* وَتَصْلِيَةٌ جَاحِمٍ \* إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [ الواقعة : 88 - 95 ] .

(348/301)

---

والمؤمنون المصدقون بأخبار الغيب على درجات مختلفة . . فهناك من صدق الله في الخبر  
عن الغيب كعين يقين ، وهناك من صدق قول الله حق اليقين ، ولذلك فإننا نجد الإمام عليا  
- كرم الله وجهه - يقول : " لو انكشف عني الحجاب ما ازددت يقينا " .

وفي الحوار الآتي الذي دار بين حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحابي الجليل

الحارث بن مالك ما يكشف لنا جوهر هذا اللون من الإيمان :

" فقد روى الحارث بن مالك الأنصاري : أنه مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: " انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظلمت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضارعون فيها. فقال يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً "

هذا الصحابي الجليل وصل إلى أن كل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم قد صار حق يقين، وامتلك البصيرة التي رأى بها كل ذلك .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 203] .

وهكذا نجد القرآن الكريم بصائر لأصحاب المنزلة والدرجات العالية، وهدى لأصحاب الاستدلال ورحمة للجميع. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(349/301)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (201)  
وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ (202) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَايَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ  
إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (203)

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ قال : هم  
المؤمنون .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن جرير وابن المنذر  
وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾ قال : الغضب .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الطيف : الغضب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك أنه قرأ ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾ بالالف  
﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ قال : هم بفاحشة فلم يعملها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾  
تذكروا ﴿ يقول : إذا زلوا تابوا .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق وهب بن جرير عن أبيه قال : كنت جالساً عن  
الحسن إذ جاءه رجل فقال : يا أبا سعيد ما تقول في العبد يذنب الذنب ثم يتوب ؟ قال : لم  
يزدد بتوبته من الله إلا دنواً . قال : ثم عاد في ذنبه ثم تاب ؟ قال : لم يزد بتوبته إلا شرفاً عند

الله . قال : ثم قال لي : ألم تسمع ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : وما قال ؟ قال " مثل المؤمن مثل السنبلة تميل أحياناً وتستقيم أحياناً - وفي ذلك تكبر - فإذا حصدها صاحبها حمد أمره كما حمد صاحب السنبلة بره ، ثم قرأ ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ . "

(350/301)

---

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب قال : إن الله لم يسم عبده المؤمن كافراً ، ثم قرأ ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا ﴾ فقال : لم يسمه كافراً ولكن سماه متقياً .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ إذا مسهم طائف ﴾ بالالف .

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش عن إبراهيم ويحيى بن وثاب قرأ أحدهما طائف ، والآخر طيف .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير أنه قرأ ﴿ إذا مسهم طائف ﴾ بالالف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : الطائف اللمة من

الشیطان ﴿ تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ يقول: إذا هم منتهون عن المعصية، آخذون بأمر الله، عاصون للشیطان وإخوانهم. قال: إخوان الشیاطین ﴿ یدونهم فی الغی ثم لا یقصرون ﴾ قال: لا الإنس عما یعملون السیئات ولا الشیاطین تمسک عنهم ﴿ وإذا لم تأتھم بآیة قالوا لولا اجتبیئھا ﴾ يقول: لولا أحدثھا لولا تلقیتھا فأنشأتھا .

وأخرج ابن أبی حاتم وأبو الشیخ وابن مردویه عن ابن عباس ﴿ وإخوانهم یدونهم فی الغی ﴾ قال: هم الجن یوحون إلى أولیائهم من الإنس ﴿ ثم لا یقصرون ﴾ يقول: لا یسامون ﴿ وإذا لم تأتھم بآیة قالوا لولا اجتبیئھا ﴾ يقول: هلاقتعلتها من تلقاء نفسك .

وأخرج عبد بن حمید وابن جریر وأبو الشیخ عن مجاهد ﴿ وإخوانهم من الشیاطین یدونهم فی الغی ﴾ قال: استجھالاً وفی قوله ﴿ لولا اجتبیئھا ﴾ قال: ابتدعتها .

(351/301)

---

وأخرج الحکیم الترمذی عن عمر بن الخطاب قال: "أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أعرف الحزن في وجهه، فأخذ بلحيتي فقال "إنا لله وإنا إليه راجعون، أتاني جبريل أنفاً فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. قلت: أجل، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فما ذاك يا جبريل؟! فقال: إن أمتك مفسنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، قلت: فتنة كفر أو فتنة

ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون. قلت: ومن أين ذاك وأنا تارك فيهم كتاب الله...!  
قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم  
فلا يعطونها فيقتلون، وتتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، قلت:  
يا جبريل فيم يسلم من سلم منهم؟ قال: بالكف والصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن  
منعوه تركوه".

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي ﴾ قال:  
هذا القرآن ﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ أي بينات فاعقلوه ﴿ وهدى ورحمة ﴾ لمن آمن  
به وعمل به ثم مات عليه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(352/301)

---

قال أبو حيان: وأطلق على القرآن بصائر إماماً مبالغة؛ وإماماً لأنه سبب البصائر، وإماماً على  
حذف مضاف أي: ذو بصائر ثم قال: وهدى والفرق بين هذه المرتبة وما قبلها إن الناس  
في معارف التوحيد، والنبوة والمعاد ثلاثة أقسام:

إحدها: الذين بلغوا في هذه المعارف بحيث صاروا كالمشاهدين لها، وهم أصحاب عين  
اليقين.



والثاني: الذين بلغوا إلى ذلك الحد إلا أنهم وصلوا إلى درجات المستدلين، وهم أصحاب علم اليقين فالقرآن في حق الأولين وهم السَّابِقُونَ بصائر، وفي حق القسم الثاني هُدَى، وفي حق عامة المؤمنين رحمة، ولما كانت الرفق الثلاث من المؤمنين قال: "قَوْمٌ يُؤْمِنُونَ". انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 437.438 ﴾ . باختصار.

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203) ﴾

من شاهد الحق من حيث الخلق سقط في مهواة المغاليط، فهو في متاهات الشكَّ يجوب منازل الريب، ولا يزداد إلا عمى على عمى. ومن طالع الخلق بعين تصريف القدرة إياهم تحقق بأنهم لا يظهرون إلا في معرض اختيار الحق لهم، فهو ينظر بنور البصيرة، ويستديم شهود التصريف بوصف السكينة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات ج 1 ص

﴿ 600

(353/301)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوى فى تفسير القرآن الكريم  
ويسمى (جنة المشتاق فى تفسير كلام الملك الخلاق)  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورُسُلَى - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى بعد الثلاثمائة  
حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثاني بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 204 ﴾ من سورة الأعراف

وحتى الآية ﴿ 206 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/302)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (204)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما عظم الله شأن القرآن ، فكان التقدير : فآمنوا به تفلحوا ، عطف عليه قوله : ﴿ وإذا

قرئ القرآن ﴾ أي وهو هذا الذي يوحى إليّ ، فتأدبوا وتواضعوا لأنه صفة ربكم

﴿ فاستمعوا له ﴾ أي ألقوا إليه أسماءكم مجتهدين في عدم شاغل يشغلكم عن السمع .

ولما كان بعض الفهماء يسمع وهو يتكلم ، أشار إلى أن هذا الكتاب أعلى قدراً من أن يناله

من يشتغل عنه بأدنى شغل فقال : ﴿ وأنصتوا ﴾ أي للتأمل والتدبر لتنجلي قلوبكم فتعلموا

حقيقته فتعلموا بما فيه ولا يكون في صدوركم حرج منه ؛ ولما كان ظاهر الآية وجوب

الإنصات لكل قارئ على كل أحد ، رغب فيه تعظيماً لشأنه فقال : ﴿ لعلكم ترحمون ﴾

أي لتكونوا على رجاء من أن يكرمكم ربكم ويفعل بكم كل ما يفعله الراحم مع المرحوم.  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 178 ﴾

(5/302)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (204)

اعلم أنه تعالى لما عظم شأن القرآن بقوله : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [ الأعراف : 203

[ أردفه بقوله : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وفي الآية

مسائل :

المسألة الأولى :

الإنصات السكوت والاستماع ، يقال : نصت ، وأنصت ، وانتصت ، بمعنى واحد .

المسألة الثانية :

لا شك أن قوله : ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ أمره ، وظاهر الأمر للوجوب ، فمقتضاه أن

يكون الاستماع والسكوت واجبا ، وللناس فيه أقوال .

القول الأول : وهو قول الحسن وقول أهل الظاهر أنا نجري هذه الآية على عمومها ففي أي موضع قرأ الإنسان القرآن وجب على كل أحد استماعه والسكوت ، فعلى هذا القول يجب الإنصات لعابري الطريق ، ومعلمي الصبيان .

والقول الثاني : أنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت هذه الآية ، وأمروا بالإنصات ، وقال قتادة : كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسألهم ، كم صليتم وكم بقي ؟ وكانوا يتكلمون في الصلاة بجوائجهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والقول الثالث : أن الآية نزلت في ترك الجهر بالقراءة وراء الإمام .

قال ابن عباس قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة المكتوبة وقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم ، فخلطوا عليه ، فنزلت هذه الآية وهو قول أبي حنيفة وأصحابه .

والقول الرابع : أنها نزلت في السكوت عند الخطبة ، وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وهذا القول منقول عن الشافعي رحمه الله ، وكثير من الناس قد استبعد هذا القول ، وقال اللفظ عام وكيف يجوز قصره على هذه الصورة الواحدة .

وأقول هذا القول في غاية البعد لأن لفظة إذا تفيد الارتباط ، ولا تفيد التكرار ، والدليل عليه أن الرجل إذا قال لامرأته إذا دخلت الدار فأنت طالق ، فدخلت الدار مرة واحدة طلقت طلقة واحدة ، فإذا دخلت الدار ثانياً لم تطلق بالاتفاق لأن كلمة ﴿ إِذَا ﴾ لا تفيد التكرار .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ لا يفيد إلا وجوب الإنصات مرة واحدة ، فلما أوجبنا الاستماع عند قراءة القرآن في الخطبة ، فقد وفينا بموجب اللفظ ولم يبق في اللفظ دلالة على ما وراء هذه الصورة ، سلمنا أن اللفظ يفيد العموم إلا أننا نقول بموجب الآية ، وذلك لأن عند الشافعي رحمه الله : يسكت الإمام ، وحينئذ يقرأ المأموم الفاتحة في حال سكتة الإمام كما قال أبو سلمة للإمام سكتان ، فاغتم القراءة في أيهما شئت ، وهذا السؤال أورده الواحدي في "البيسط" .  
ولقائل أن يقول : سكوت الإمام إما أن نقول : إنه من الواجبات أو ليس من الواجبات والأول باطل بالإجماع والثاني يقتضي أن يجوز له أن لا يسكت .

فبتقدير : أن لا يسكت يلزم أن تحصل قراءة المأموم مع قراءة الإمام ، وذلك يفضي إلى ترك الاستماع ، وإلى ترك السكوت عند قراءة الإمام ، وذلك على خلاف النص ، وأيضاً فهذا السكوت ليس له حد محدود ومقدار مخصوص والسكوت للمأمومين مختلفة بالثقل والخفة ، فربما لا يتمكن المأموم من إتمام قراءة الفاتحة في مقدار سكوت الإمام ، وحينئذ يلزم المحذور

المذكور ، وأيضاً فالإمام إنما يبقى ساكناً ليتمكن المأموم من إتمام القراءة ، وحينئذ ينقلب الإمام مأموماً ، والمأموم إماماً ، لأن الإمام في هذا السكوت يصير كالتابع للمأموم ، وذلك غير جائز ، فثبت أن هذا السؤال الذي أورده الواحدي غير جائز ، وذكر الواحدي سؤالاً ثانياً على التمسك بالآية .

فقال : إن الإنصات هو ترك الجهر والعرب تسمى تارك الجهر منصتاً ، وإن كان يقرأ في نفسه إذا لم يسمع أحداً .

(7/302)

---

ولقائل أن يقول : إنه تعالى أمره أولاً بالاستماع واشتغاله بالقراءة يمنعه من الاستماع ، لأن السماع غير ، والاستماع غير ، فالاستماع عبارة عن كونه بحيث يحيط بذلك الكلام المسموع على الوجه الكامل ، قال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ [ طه : 13 ] والمراد ما ذكرناه ، وإذا ثبت هذا وظهر أن الاشتغال بالقراءة مما يمنع من الاستماع علمنا أن الأمر بالاستماع يفيد النهي عن القراءة .

السؤال الثالث : وهو المعتمد أن نقول : الفقهاء أجمعوا على أنه يجوز تخصيص عموم القرآن بجزء الواحد فذهب أن عموم قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾

يوجب سكوت المأموم عند قراءة الإمام، إلا أن قوله عليه الصلاة والسلام: " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " وقوله: " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " أخص من ذلك العموم، وثبت أن تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد لازم فوجب المصير إلى تخصيص عموم هذه الآية بهذا الخبر، وهذا السؤال حسن .

(8/302)

---

والسؤال الرابع: أن نقول: مذهب مالك وهو القول القديم للشافعي أنه لا يجوز للمأموم أن يقرأ الفاتحة في الصلوات الجهرية، عملاً بمقتضى هذا النص، ويجب عليه القراءة في الصلوات السرية، لأن هذه الآية لا دلالة فيها على هذه الحالة، وهذا أيضاً سؤال حسن، وفي الآية قول خامس وهو أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ خطاب مع الكفار في ابتداء التبليغ وليس خطاباً مع المسلمين، وهذا قول حسن مناسب وتقديره أن الله تعالى حكى قبل هذه الآية أن أقواماً من الكفار يطلبون آيات مخصوصة ومعجزات مخصوصة، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يأتيهم بها قالوا لولا اجتبيتها، فأمر الله رسوله أن يقول جواباً عن كلامهم إنه ليس لي أن أقترح على ربي، وليس لي إلا أن أنتظر الوحي، ثم بين تعالى أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما ترك الإتيان بتلك المعجزات



التي اقترحوها في صحة النبوة، لأن القرآن معجزة تامة كافية في إثبات النبوة وعبر الله تعالى  
عن هذا المعنى بقوله :

(9/302)

---

﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 203] فلو قلنا إن  
قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ المراد منه قراءة المأموم خلف  
الإمام لم يحصل بين هذه الآية وبين ما قبلها تعلق بوجه من الوجوه، وانقطع النظم، وحصل  
فساد الترتيب، وذلك لا يليق بكلام الله تعالى، فوجب أن يكون المراد منه شيئاً آخر سوى  
هذا الوجه وتقريره أنه لما ادعى كون القرآن بصائر وهدى ورحمة، من حيث إنه معجزة  
دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام، وكونه كذلك لا يظهر إلا بشرط مخصوص،  
وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا قرأ القرآن على أولئك الكفار استمعوا له وأنصتوا  
حتى يقفوا على فصاحته، ويحيطوا بما فيه من العلوم الكثيرة، فحينئذ يظهر لهم كونه  
معجزاً دالاً على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، فيستعينوا بهذا القرآن على طلب  
سائر المعجزات، ويظهر لهم صدق قوله في صفة القرآن : إنه بصائر وهدى ورحمة فثبت  
أنا إذا حملنا الآية على هذا الوجه استقام النظم وحصل الترتيب الحسن المفيد، ولو حملنا

الآية على منع المأموم من القراءة خلف الإمام فسد النظم واحتل الترتيب ، فثبت أن حمله على ما ذكرناه أولى ، وإذا ثبت هذا ظهر أن قوله : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ خطاب مع الكفار عند قراءة الرسول عليهم القرآن في معرض الاحتجاج بكونه معجزاً على صدق نبوته ، وعند هذا يسقط استدلال الخصوم بهذه الآية من كل الوجوه ، ومما يقوى أن حمل الآية على ما ذكرناه أولى ، وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم قالوا : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴾ [ فصلت : 26 ] فلما حكى عنهم ذلك ناسب أن يأمرهم بالاستماع والسكوت ، حتى يمكنهم الوقوف على ما في القرآن من الوجوه الكثيرة البالغة إلى حد الإعجاز .

(10/302)

---

والوجه الثاني : أنه تعالى قال قبل هذه الآية : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فحكم تعالى بكون هذا القرآن رحمة للمؤمنين على سبيل القطع والجزم . ثم قال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ولو كان المخاطبون بقوله : ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ هم المؤمنون لما قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

لأنه جزم تعالى قبل هذه الآية بكون القرآن رحمة للمؤمنين قطعاً فكيف يقول بعده من غير

فصل لعل استماع القرآن يكون رحمة للمؤمنين ؟ أما إذا قلنا : إن المخاطبين بقوله :

﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ هم الكافرون ، صح حينئذ قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لأن

المعنى ؛ فاستمعوا له وأنصتوا فاعلمكم تطلعون على ما فيه من دلائل الإعجاز ، فتؤمنوا

بالرسول فتصيروا مرحومين ، فثبت أنا لو حملناه على ما قلناه حسن قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ﴾ ولو قلنا إن الخطاب خطاب مع المؤمنين لم يحسن ذكر لفظ "لعل" فيه .

فثبت أن حمل الآية على التأويل الذي ذكرناه أولى ، وحينئذ يسقط استدلال الخصم به من

كل الوجوه ، لأننا بينا بالدليل أن هذا الخطاب ما يتناول المؤمنين ، وإنما تناول الكفار في أول

زمان تبليغ الوحي والدعوة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب - 15 ص 83 .

﴿ 86

(11/302)

وقال الجصاص :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

قال أبو بكر : روي عن ابن عباس أنه قال : ﴿ إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ فِي

الصَّلَاةِ وَقَرَأَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ فَخَلَطُوا عَلَيْهِ ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ﴿ وَرَوَى ثَابِتُ بْنُ عَجْلَانَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قَالَ : الْمُؤْمِنُ فِي سَعَةِ مِنَ الْاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ إِلَّا فِي صَلَاةٍ مَفْرُوضَةٍ أَوْ يَوْمِ جُمُعَةٍ أَوْ فِطْرٍ أَوْ أَضْحَى .

وَرَوَى الْمُهَاجِرُ أَبُو مَخْلَدٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ : ﴿ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى قَرَأَ أَصْحَابُهُ أَجْمَعُونَ خَلْفَهُ ، حَتَّى نَزَلَتْ : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ فَسَكَتَ الْقَوْمُ وَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

﴿ وَرَوَى الشَّعْبِيُّ وَعَطَاءٌ قَالَا : فِي الصَّلَاةِ .

وَرَوَى إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي حُرَّةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ مِثْلَهُ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ قِرَاءَةَ قَتِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ يَقْرَأُ فَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ .

﴿ وَرَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ قَرَأَ فِي الصَّلَاةِ .

وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ : أَنَّهُ فِي الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ .

وَالْخُطْبَةُ لَا مَعْنَى لَهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ لِأَنَّ مَوْضِعَ الْقُرْآنِ فِي الْخُطْبَةِ كَعَبْرَةٍ فِي وَجُوبِ  
الاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ .

وَهَذَا أَيْضًا تَأْوِيلٌ بَعِيدٌ لَا يُبَالِغُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ ؛ لِأَنَّ الَّذِي فِي الْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ بِالاسْتِمَاعِ

وَالْإِنْصَاتِ لِقِرَاءَةِ غَيْرِهِ ، لِاسْتِحَالَةِ أَنْ يَكُونَ

مَأْمُورًا بِالاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ لِقِرَاءَةِ نَفْسِهِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ

خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ فِي مَعْنَى

تَأْوِيلِ الْآخِرِينَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ فَقَدْ حَصَلَ مِنْ اتِّفَاقِ الْجَمِيعِ أَنَّهُ قَدْ أُرِيدَ تَرْكُ

الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ وَالاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ لِقِرَاءَتِهِ .

وَلَوْ لَمْ يَثْبُتْ عَنِ السَّلَفِ اتِّفَاقُهُمْ عَلَى نَزْوِلِهَا فِي وَجُوبِ تَرْكِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ لَكَانَتْ

الْآيَةُ كَافِيَةً فِي ظُهُورِ مَعْنَاهَا وَعُمُومِ لَفْظِهَا وَوُضُوحِ دَلَالَتِهَا عَلَى وَجُوبِ الاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ

لِقِرَاءَةِ الْإِمَامِ وَذَلِكَ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ يَقْتَضِي

وَجُوبَ الاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ وَفِي غَيْرِهَا ، فَإِنَّ قَامَتْ دَلَالَةٌ

عَلَى جَوَازِ تَرْكِ الاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ فِي غَيْرِهَا لَمْ يُبْطَلْ حُكْمُ دَلَالَتِهِ فِي إِجْبَابِهِ ذَلِكَ فِيهَا .

---

وَكَمَا دَلَّتْ آيَةُ عَلِيٍّ النَّهْيِ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ فِيمَا يَجْهَرُ بِهِ فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى النَّهْيِ فِيمَا  
يُخْفِي؛ لِأَنَّهُ أَوْجَبَ السَّمْعَ وَالْإِنصَاتَ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ لَمْ يَشْرَطْ فِيهِ حَالَ الْجَهْرِ مِنْ  
الْإِخْفَاءِ، فَإِذَا جَهَرَ فَعَلَيْنَا السَّمْعَ وَالْإِنصَاتَ وَإِذَا أَخْفَى فَعَلَيْنَا الْإِنصَاتَ بِحُكْمِ اللَّفْظِ  
لَعَلَّمْنَا بِأَنَّهُ قَارِئٌ لِلْقُرْآنِ.

وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَأَبْنُ سِيرِينَ وَأَبْنُ أَبِي لَيْلَى  
وَالثَّوْرِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ: ﴿ لَا يَقْرَأُ فِيمَا جَهَرَ ﴾ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: ﴿ يَقْرَأُ فِيمَا جَهَرَ وَفِيمَا أَسْرَ ﴾ .

وَقَالَ مَالِكٌ: ﴿ يَقْرَأُ فِيمَا أَسْرَ وَلَا يَقْرَأُ فِيمَا جَهَرَ ﴾ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: ﴿ يَقْرَأُ فِيمَا جَهَرَ وَفِيمَا أَسْرَ ﴾ فِي رِوَايَةٍ

الْمَزْنِيِّ، وَفِي الْبُؤَيْطِيِّ: ﴿ أَنَّهُ يَقْرَأُ فِيمَا أَسْرَ بِأَمِّ الْقُرْآنِ وَسُورَةِ فِي الْأَوَّلِينَ وَأَمِّ الْقُرْآنِ فِي

الْآخِرِينَ وَفِيمَا جَهَرَ فِيهِ الْإِمَامُ لَا يَقْرَأُ مِنْ خَلْفِهِ إِلَّا بِأَمِّ الْقُرْآنِ ﴾، قَالَ الْبُؤَيْطِيُّ: وَكَذَلِكَ

يَقُولُ اللَّيْثُ وَالْأَوْزَاعِيُّ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قَدْ بَيَّنَّا دَلَالَةَ الْآيَةِ عَلَى وَجُوبِ الْإِنْصَاتِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْإِمَامِ فِي حَالِ الْجَهْرِ  
 وَالْإِخْفَاءِ، وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْإِنْصَاتُ الْإِمْسَاكُ عَنِ الْكَلَامِ وَالسُّكُوتُ لاسْتِمَاعِ الْقِرَاءَةِ، وَلَا  
 يَكُونُ الْقَارِئُ مُنْصِتًا وَلَا سَاكِتًا بِحَالٍ وَذَلِكَ لِأَنَّ السُّكُوتَ ضِدُّ الْكَلَامِ، وَهُوَ تَسْكِينُ الْآلَةِ  
 عَنِ التَّحْرِيكِ بِالْكَلامِ الَّذِي هُوَ حُرُوفٌ مُقَطَّعَةٌ مَنْظُومَةٌ ضَرْبًا مِنَ النِّظَامِ، فَهَمَّا يَتَضَادَّانِ  
 عَلَى الْمُتَكَلِّمِ بِاللِّسَانِ وَتَحْرِيكِ الشَّفَةِ، أَلَّا تَرَى أَنَّهُ لَا يُقَالُ سَاكِتٌ مُتَكَلِّمٌ كَمَا لَا يُقَالُ  
 سَاكِنٌ مُتَحَرِّكٌ؟ فَمَنْ سَكَتَ فَهُوَ غَيْرُ مُتَكَلِّمٍ وَمَنْ تَكَلَّمَ فَهُوَ غَيْرُ سَاكِتٍ.  
 فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَدْ يُسَمَّى مُخْفِي الْقِرَاءَةِ سَاكِتًا إِذَا لَمْ تَكُنْ قِرَاءَتُهُ مَسْمُوعَةً؛ كَمَا رَوَى  
 عُمَارَةُ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: ﴿كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَبَّرَ  
 سَكَتَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَرَأَيْتَ سَكَتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ  
 وَالْقِرَاءَةِ أَخْبَرْتَنِي مَا تَقُولُ؟ قَالَ: أَقُولُ اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ  
 الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴿ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، فَسَمَّاهُ سَاكِتًا وَهُوَ يُدْعُو خَفِيًّا، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ  
 السُّكُوتَ إِنَّمَا هُوَ إِخْفَاءُ الْقَوْلِ وَلَيْسَ يَتْرَكُهُ رَأْسًا.

قِيلَ لَهُ: إِنَّمَا سَمِينَاهُ سَاكِنًا مَجَازًا؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يَسْمَعُهُ يَظُنُّهُ سَاكِنًا، فَلَمَّا أَشْبَهَ السَّاكِنَ فِي هَذَا الْوَجْهِ سَمَاهُ بِاسْمِهِ لِقُرْبِ حَالِهِ مِنْ حَالِ السَّاكِنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿صُمُّ بَكُمْ عُمِي﴾ تَشْبِيهَا بِمَنْ هَذِهِ حَالُهُ، وَكَمَا قَالَ فِي الْأَصْنَامِ: ﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ﴾ تَشْبِيهَا لَهُمْ بِمَنْ يَنْظَرُ وَلَيْسَ هُوَ بِنَاظِرٍ فِي الْحَقِيقَةِ.

فَإِنْ قِيلَ: لَا يَقْرَأُ الْمَأْمُومُ فِي حَالِ قِرَاءَةِ الْإِمَامِ وَإِنَّمَا يَقْرَأُ فِي حَالِ سُكُوتِهِ، وَذَلِكَ لِمَا رَوَى الْحَسَنُ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ: ﴿كَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَكَّتَانِ فِي صَلَاتِهِ إِحْدَاهُمَا قَبْلَ الْقِرَاءَةِ وَالْأُخْرَى بَعْدَهَا﴾، فَيَنْبَغِي لِلْإِمَامِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَكَّةٌ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ لِيَقْرَأَ الَّذِينَ أُدْرِكُوا أَوَّلَ الصَّلَاةِ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ثُمَّ يَنْصِتُ لِقِرَاءَةِ الْإِمَامِ، فَإِذَا فَرَغَ سَكَتَ سَكَّةً أُخْرَى لِيَقْرَأَ مَنْ لَمْ يُدْرِكْ أَوَّلَ الصَّلَاةِ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ.

(16/302)

قِيلَ لَهُ: أَمَّا حَدِيثُ السَّكَّتَيْنِ فَهُوَ غَيْرُ ثَابِتٍ وَلَوْ ثَبِتَ لَمْ يُدْرِكْ عَلَى مَا ذَكَرْتُ؛ لِأَنَّ السَّكَّةَ الْأُولَى إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الْاسْتِقْتِحِ، وَالثَّانِيَةُ إِنْ ثَبِتَتْ فَلَا دَلَالَهَ فِيهَا عَلَى أَنَّهَا بِمِقْدَارِ مَا يَقْرَأُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَإِنَّمَا هِيَ فَصْلٌ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ وَبَيْنَ تَكْبِيرِ الرُّكُوعِ لِئَلَّا يَظُنَّ مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّ التَّكْبِيرَ مِنْ الْقِرَاءَةِ إِذَا كَانَ مَوْصُولًا بِهَا، وَلَوْ كَانَتِ السَّكَّتَانِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِمِقْدَارِ قِرَاءَةِ فَاتِحَةِ



الْكِتَابَ لَكَانَ ذَلِكَ مُسْتَقْبِضًا وَنَقْلُهُ شَائِعًا ظَاهِرًا ، فَلَمَّا لَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ اسْتِقْضَايَةِ  
مَعَ عُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ؛ إِذْ كَانَتْ مَفْعُولَةً لِأَدَاءِ فَرَضِ الْقِرَاءَةِ مِنَ الْمَأْمُومِ ثَبَتَ أَنَّهُمَا غَيْرُ  
ثَابِتَيْنِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ سَبِيلَ الْمَأْمُومِ أَنْ يَتَّبِعَ الْإِمَامَ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ تَابِعًا لِلْمَأْمُومِ ، فَعَلَى قَوْلِ  
هَذَا الْقَائِلِ يَسْكُتُ الْإِمَامُ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ حَتَّى يَقْرَأَ الْمَأْمُومُ ، وَهَذَا خِلَافُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ ﴾

(17/302)

ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى عَكْسِ مَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا  
قَرَأَ فَأَنْصِتُوا ﴾ فَأَمَرَ الْمَأْمُومَ بِالْإِنْصَاتِ لِلْإِمَامِ ، وَهُوَ يَأْمُرُ الْإِمَامَ بِالْإِنْصَاتِ لِلْمَأْمُومِ وَيَجْعَلُهُ  
تَابِعًا لَهُ ، وَذَلِكَ خِلْفٌ مِنَ الْقَوْلِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِمَامَ لَوْ قَامَ فِي الشَّيْئِ مِنَ الظُّهْرِ سَاهِيًا لَكَانَ  
عَلَى الْمَأْمُومِ اتِّبَاعُهُ ، وَلَوْ قَامَ الْمَأْمُومُ سَاهِيًا لَمْ يَكُنْ عَلَى الْإِمَامِ اتِّبَاعُهُ ، وَلَوْ سَهَا الْمَأْمُومُ لَمْ  
يَسْجُدْ هُوَ وَلَا إِمَامُهُ لِلْسَهْوِ ، وَلَوْ سَهَا الْإِمَامُ وَلَمْ يَسْهَ الْمَأْمُومُ لَكَانَ عَلَى الْمَأْمُومِ اتِّبَاعُهُ ؟  
فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ مَأْمُورًا بِالْقِيَامِ سَاكِنًا لِيَقْرَأَ الْمَأْمُومُ .

وَقَدْ رُوِيَ فِي النَّهْيِ عَنِ الْقِرَاءَةِ خِلْفَ الْإِمَامِ آثَارٌ مُسْتَقْبِضَةٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عَلَىٰ أُنْحَاءٍ مُّخْتَلِفَةٍ ، فَمِنْهَا حَدِيثُ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي غَلَابٍ يُونِسُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ حِطَّانِ بْنِ عَبْدِ  
اللَّهِ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إِذَا قَرَأَ الْإِمَامُ فَاَنْصِتُوا ،  
﴿ وَحَدِيثُ ابْنِ عَجْلَانَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَإِذَا قَرَأَ فَاَنْصِتُوا .  
﴿ فَهَذَا الْخَبْرَانِ يُوجِبَانِ الْإِنْصَاتَ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْإِمَامِ .

(18/302)

وَقَوْلُهُ ﴿ : إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَإِذَا قَرَأَ فَاَنْصِتُوا ﴾ إِخْبَارٌ مِنْهُ أَنَّ مِنَ الْإِتِّمَامِ بِالْإِمَامِ  
الْإِنْصَاتُ لِقِرَاءَتِهِ ، وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُنْصِتَ الْإِمَامُ لِقِرَاءَةِ الْمَأْمُومِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ  
مَأْمُورًا بِالْإِنْصَاتِ لَهُ لَكَانَ مَأْمُورًا بِالْإِتِّمَامِ بِهِ ، فَيَصِيرُ الْإِمَامُ مَأْمُومًا وَالْمَأْمُومُ إِمَامًا فِي حَالَةٍ  
وَاحِدَةٍ ، وَهَذَا فَاسِدٌ .

وَمِنْهَا حَدِيثُ جَابِرِ أَنَّ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَةُ الْإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ ﴾ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ  
عَنْ جَابِرٍ ، وَفِي بَعْضِ الْأَفَاطِ : ﴿ إِذَا كَانَ لَكَ إِمَامٌ فَقِرَاءَتُهُ لَكَ قِرَاءَةٌ ﴾ .  
وَمِنْهَا حَدِيثُ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ نَهَىٰ عَنِ الْقِرَاءَةِ

خَلْفَ الْإِمَامِ ﴿ رَوَاهُ الْحَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى عَنْ عِمْرَانَ بْنِ  
أَرْطَاةَ .

وَقَدْ ذَكَرْنَا أَسَانِيدَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ فِي شَرْحِ مُخْتَصِرِ الطَّحَاوِيِّ .  
وَمِنْهَا حَدِيثُ مَالِكٍ عَنْ أَبِي نُعَيْمٍ وَهَبِ بْنِ كَيْسَانَ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ : قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ  
وَفِي بَعْضِهَا : لَمْ يُصَلِّ إِلَّا وَرَاءَ الْإِمَامِ ، ﴿ فَأَخْبِرَنَّ أَنْ تَرَكَ قِرَاءَةَ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ خَلْفَ الْإِمَامِ  
لَا يُوجِبُ تَقْصَانًا فِي الصَّلَاةِ ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يَقْرَأَ لَكَانَ تَرْكُهَا يُوجِبُ تَقْصَا فِيهَا كَالْمُنْفَرِدِ .

(19/302)

---

وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ ابْنِ أَكِيمَةَ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْصَرَفَ مِنْ صَلَاةٍ جَهَرَ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ ، فَقَالَ : هَلْ قَرَأَ مَعِيَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْفًا  
؟ قَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : إِنِّي أَقُولُ مَا لِي أَنْزَعُ الْقُرْآنَ قَالَ : فَانْتَهَى النَّاسُ عَنْ الْقِرَاءَةِ  
فِيمَا جَهَرَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ قَرَأَ مَعِيَ أَحَدٌ مِنْكُمْ ؛ ﴿ دَلَّ  
ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْقَارِئَ خَلْفَهُ أَخْفَى قِرَاءَتَهُ وَلَمْ يَجْهَرْ بِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ جَهَرَ بِهَا لَمَا قَالَ : ﴿ هَلْ  
قَرَأَ مَعِيَ أَحَدٌ مِنْكُمْ ﴿ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنِّي أَقُولُ مَا لِي أَنْزَعُ الْقُرْآنَ ﴿ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى

أَسْتَوَاءٌ حُكْمُ الصَّلَاةِ الَّتِي يُجْهَرُ فِيهَا وَالَّتِي تُخَافُ لِإِخْبَارِهِ أَنْ قِرَاءَةَ الْمَأْمُومِ هِيَ  
الْمُوجِبَةُ لِمُنَازَعَةِ الْقُرْآنِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ فَاتَّهَى النَّاسُ عَنِ الْقِرَاءَةِ فِيمَا جَهَرَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ فَلَا حُجَّةَ فِيهِ لِمَنْ  
أَجَازَ الْقِرَاءَةَ خَلْفَ الْإِمَامِ فِيمَا يُسْرُ فِيهِ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ ذَلِكَ قَوْلُ الرَّائِي وَتَأْوِيلُ مِنْهُ ، وَلَيْسَ  
فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَّقَ بَيْنَ حَالِ الْجَهْرِ وَالْإِخْفَاءِ .  
وَمِنْهَا حَدِيثُ يُونُسَ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :  
﴿ كُنَّا نَقْرَأُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : خَاطَمْتُ عَلَيَّ الْقُرْآنَ .

(20/302)

---

﴿ وَهَذَا أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى التَّسْوِيَةِ بَيْنَ حَالِ الْجَهْرِ وَالْإِخْفَاءِ ؛ إِذْ لَمْ يَذْكُرْ فَرْقًا بَيْنَهُمَا .  
وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُرْمُزٍ عَنْ ابْنِ بَحِينَةَ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : هَلْ قَرَأْتُ مَعِيَ أَحَدًا نَفَا فِي الصَّلَاةِ ؟  
قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنِّي أَقُولُ مَا لِي أُنَازِعُ الْقُرْآنَ ﴾ ، قَالَ : فَاتَّهَى النَّاسُ عَنِ الْقِرَاءَةِ مَعَهُ  
مُنْذُ قَالَ ذَلِكَ ، فَأَخْبَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ تَرْكِهِمُ الْقِرَاءَةَ خَلْفَهُ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الْجَهْرِ  
وَالْإِخْفَاءِ ؛ فَهَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا تُوجِبُ النَّهْيَ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ فِيمَا يُجْهَرُ فِيهِ أَوْ

يُسْرُ .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ جُلَّةِ الصَّحَابَةِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ وَإِظْهَارِ  
النِّكَيرِ عَلَى فَاعِلِهِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ شَائِعًا لَمَا خَفِيَ أَمْرُهُ عَلَى الصَّحَابَةِ لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ،  
وَلَكَانَ مِنَ الشَّارِعِ تَوْقِيفٌ لِلْجَمَاعَةِ عَلَيْهِ وَلَعَرَفُوهُ كَمَا عَرَفُوا الْقِرَاءَةَ فِي الصَّلَاةِ ، إِذْ كَانَتْ  
الْحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ كَهَيِّ إِلَى الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ لِلْمُنْفَرِدِ وَالْإِمَامِ ، فَلَمَّا  
رُوِيَ عَنْ جُلَّةِ الصَّحَابَةِ إِنْكَارُ  
الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ ثَبَتَ أَنَّهَا غَيْرُ جَائِزَةٍ .

(21/302)

---

فَمِمَّنْ نَهَى عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي سَعْدٍ وَسَعْدُ بْنُ جَابِرٍ وَأَبْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو  
الدَّرْدَاءِ وَأَبُو سَعِيدٍ وَأَبْنُ عُمَرَ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَنْسُ .  
رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : مَنْ قَرَأَ خَلْفَ الْإِمَامِ فَقَدْ أَخْطَأَ الْفِطْرَةَ .  
وَرَوَى أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ : مَنْ قَرَأَ خَلْفَ الْإِمَامِ مُلِئَ  
فَوْهُ تَرَابًا .

وَرَوَى وَكَيْعٌ عَنْ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ مُوسَى بْنِ سَعْدٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ : مَنْ قَرَأَ خَلْفَ

الإمام فلا صلاة له .

وقال أبو حمزة: قلت لابن عباس: أقرأ خلف الإمام؟ قال: لا .

وقال أبو سعيد: يكفيك قراءة الإمام .

قال أنس: القراءة خلف الإمام التسبيح يعني والله أعلم: التسبيح في الركوع وذكر

الاستفتاح .

وقال منصور عن إبراهيم: ما سمعنا بأقراءة خلف الإمام حتى كان المختار الكذاب

فأنهموه فقرءوا خلفه .

وقال سعد: وددت أن الذي يقرأ خلف الإمام في فيه جمرة .

(22/302)

واحتج موجبوا القراءة خلف الإمام بحديث محمد بن إسحاق عن مكحول عن محمود بن

الربيع عن عبادة بن الصامت قال: ﴿ صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر

فتعامى عليه القراءة، فلما سلم قال: انقرءون خلفي؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: لا

تفعلوا إلا بفتح الكتاب فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها .

﴿ وهذا حديث مضطرب السند مختلف في رفعه، وذلك أنه رواه صدقة بن خالد عن

زَيْدُ بْنُ وَاقِدٍ عَنْ مَكْحُولٍ عَنْ نَافِعِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ رَبِيعَةَ عَنْ عُبَادَةَ ، وَنَافِعِ بْنِ مُحَمَّدٍ هَذَا  
مَجْهُولٌ لَا يُعْرَفُ .

وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ

أَبْنُ عَوْنٍ عَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الرَّبِيعِ مَوْقُوفًا عَلَى عُبَادَةَ لَمْ يَذْكُرْ فِيهِ النَّبِيَّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَدْ رَوَى أَيُّوبُ عَنْ أَبِي قَلَابَةَ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : ﴿ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ  
أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ : أَنْتَرُونَ وَالْإِمَامُ يُقْرَأُ ؟ فَسَكَتُوا ، فَسَأَلَهُمْ ثَلَاثًا فَقَالُوا : إِنَّا لَنَفْعَلُ ، فَقَالَ :  
لَا تَفْعَلُوا ، ﴿ فَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ اسْتِثْنَاءً فَاتِحَةَ الْكِتَابِ .

وَإِنَّمَا أَصْلُ حَدِيثِ عُبَادَةَ مَا رَوَاهُ يُونُسُ عَنْ ابْنِ شَهَابٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الرَّبِيعِ عَنْ  
عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ  
الْقُرْآنَ . ﴿

(23/302)

---

فَلَمَّا اضْطَرَبَ حَدِيثُ عُبَادَةَ هَذَا الْاضْطِرَابِ فِي السَّنَدِ وَالرَّفْعِ وَالْمُعَارِضَةِ لَمْ يَجْزُ  
الاعْتِرَاضُ بِهِ عَلَى ظَاهِرِ الْقُرْآنِ وَالْأَثَارِ الصَّحِيحِ النَّافِيَةِ لِلْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لَا صَلَاةَ إِلَّا بِأَمِّ الْقُرْآنِ ﴾ فَلَيْسَ فِيهِ إِجْبَابُ قِرَاءَتِهَا خَلْفَ الْإِمَامِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ صَلَاةٌ بِأَمِّ الْقُرْآنِ؛ إِذْ كَانَتْ قِرَاءَةُ الْإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةً، وَكَذَلِكَ حَدِيثُ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي السَّائِبِ مَوْلَى هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ غَيْرُ تَمَامٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنِّي أَكُونُ أَحْيَانًا خَلْفَ الْإِمَامِ؟ فَغَمَزَ ذِرَاعِي وَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا يَا فَارِسِي فِي نَفْسِكَ ﴾ .

فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا فِيهَا أَنَّهَا خِدَاجٌ وَالْخِدَاجُ إِنَّمَا هُوَ التَّقْصَانُ، وَتَدُلُّ عَلَى الْجَوَازِ لَوْ قُوعِ اسْمِ الصَّلَاةِ عَلَيْهَا، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ فِي الْمُنْفَرِدِ لِيَجْمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آيَةِ، وَالْأَخْبَارُ الَّتِي قَدَّمْنَا فِي نَفْيِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ .

وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يُعْزُذْ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَوْلُهُ لَا تَنْبُتُ بِهِ حُجَّةٌ .

(24/302)

---

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَخْبَارَنَا أَوْلَى اتِّفَاقِ الْجَمِيعِ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا فِي النَّهْيِ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ فِي حَالِ جَهْرِ الْإِمَامِ، وَخَبَرُهُمْ مُخْتَلَفٌ فِيهِ، فَكَانَ مَا اتَّفَقُوا عَلَى اسْتِعْمَالِهِ فِي حَالِ



أولى مما اختلف فيه .

فإن قيل : تستعمل الأخبار كلها ، فيكون أخبار النهي فيما عدا فاتحة الكتاب وأخبار الأمر بالقراءة في فاتحة الكتاب .

قيل له : هذا يبطل بما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم من قوله : ﴿ عَلِمْتُ أَنْ بَعْضَكُمْ خَالَجِيهَا ﴾ وقوله : ﴿ مَا لِي أَنْزَعُ الْقُرْآنَ ﴾ والقرآن لا يختص بفاتحة الكتاب دون غيرها ، فعلمنا أنه أراد الجميع .

وقال في حديث وهب بن كيسان عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ كُلُّ صَلَاةٍ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَهِيَ خِدَاجٌ إِلَّا وَرَاءَ الْإِمَامِ ﴾ فنص على تركها خلف الإمام ، وذلك يبطل تأويلك وقولك باستعمال الأخبار بل أنت رادها غير مستعمل لها .  
فإن قيل : ما استدلت به من قول الصحابة لا دليل فيه ؛ لأنهم قد خالفهم نظراً وهم ، فمن ذلك ما رواه عبد الواحد بن زياد قال : حدثنا سليمان الشيباني عن جواب عن يزيد بن شريك قال : قلت لعمر بن الخطاب أو سمعت رجلاً قال له اقرأ خلف الإمام ؟ قال : نعم ، قال : قلت : وإن قرأ ؟ قال : وإن قرأ .

وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ أَبِي الْفَيْضِ عَنْ أَبِي شَيْبَةَ ، قَالَ مُعَاذٌ : إِذَا كُنْتُ تَسْمَعُ قِرَاءَةَ الْإِمَامِ فَاقْرَأْ  
بِقُلِّهِ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَنَحْوَهَا ، وَإِذَا لَمْ تَسْمَعْ قِرَاءَتَهُ فِي نَفْسِكَ .

وَرَوَى أَشْعَثُ عَنْ الْحَكَمِ وَحَمَّادٍ : أَنَّ عَلِيًّا كَانَ يَأْمُرُ بِالْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ .

وَرَوَى لَيْثٌ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : لَا تَدْعُ أَنْ تَقْرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ جَهْرًا وَالْإِمَامُ أَوْلَمُ  
بِجَهْرٍ .

فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةَ قَدْ رُوِيَ عَنْهُمْ الْقِرَاءَةُ خَلْفَ الْإِمَامِ وَرُوِيَ عَنْهُمْ تَرْكُهَا فَكَيْفَ  
تُنْتَبِهُ بِهَ حُجَّةٌ ؟ قِيلَ لَهُ : أَمَّا حَدِيثُ عُمَرَ وَمُعَاذٍ فَمَجْهُولُ السَّنَدِ لَا تُنْتَبِهُ بِمِثْلِهِ حُجَّةٌ ،

وَحَدِيثُ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ هُوَ عَنْ الْحَكَمِ وَحَمَّادٍ وَمُخَالِفُنَا لَا يَقْبَلُ مِثْلَهُ لِإِرْسَالِهِ ، وَحَدِيثُ ابْنِ  
عَبَّاسٍ هَذَا رَوَاهُ لَيْثٌ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ أَبُو حَمْرَةَ النَّهْيِ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ أَحْتِجَاجُنَا مِنْ جِهَةِ قَوْلِ الصَّحَابَةِ فَحَسْبُ وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنْ مَا كَانَ هَذَا  
سَبِيلُهُ مِنَ الْفُرُوضِ الَّتِي عَمَّتْ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُخْلِيهِمْ مِنْ  
تَوْقِيفِ لَهُمْ عَلَى إِجَابِهِ ، فَلَمَّا وَجَدْنَا هُمْ قَائِلِينَ بِالنَّهْيِ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ تَوْقِيفٌ لِلْكَافَةِ  
عَلَيْهِ ، فَتَبَّتْ أَنَّهَا غَيْرُ وَاجِبَةٍ .

وَلَا يَصِيرُ قَوْلُ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ بِإِجَابِهِ قَادِحًا فِيمَا ذَكَرْنَا ، مِنْ قَبْلِ أَنْ أَكْثَرَ مَا فِيهِ لَمْ يَكُنْ مِنْ  
النَّبِيِّ تَوْقِيفٌ عَلَيْهِ لِلْكَافَةِ ، فَذَهَبَ مِنْهُمْ ذَاهِبُونَ إِلَى إِجَابِ قِرَاءَتِهَا بِتَأْوِيلٍ أَوْ قِيَاسٍ ، وَمِثْلُ  
ذَلِكَ طَرِيقَةُ تَوْقِيفِ الْكَافَةِ وَتَقْلِ الْأُمَّةِ .

وَيَدُلُّ عَلَى نَفْيِ وَجُوبِهَا انْتِفَاقُ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ مَدْرِكَ الْإِمَامِ فِي الرُّكُوعِ يُتَابِعُهُ مَعَ تَرْكِ الْقِرَاءَةِ ،  
فَلَوْ كَانَتْ فَرَضًا لَمَا جَازَ تَرْكُهَا بِحَالٍ ، كَالطَّهَارَةِ وَسَائِرِ أَعْمَالِ الصَّلَاةِ .  
فَإِنْ قِيلَ : إِنَّمَا جَازَ ذَلِكَ لِلضَّرُورَةِ وَهُوَ خَوْفُ فَوَاتِ الرُّكْعَةِ .

قِيلَ لَهُ خَوْفُ فَوَاتِ الرُّكْعَةِ لَيْسَ بِضَّرُورَةٍ مِنْ وَجْهِهِ : أَحَدُهَا : أَنْ فَعَلَ الصَّلَاةَ خَلْفَ الْإِمَامِ  
لَيْسَ بِفَرَضٍ ؛

لِأَنَّهُ لَوْ صَلَّاهَا مُنْفَرِدًا أَجْزَأَهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ فَضِيلَةٌ ، فَإِذَا خُوفُ فَوَاتِهَا لَيْسَ بِضَّرُورَةٍ فِي تَرْكِهَا .  
وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُحْدَثًا لَمْ يَكُنْ خَوْفُ فَوَاتِ الْجَمَاعَةِ مُبِيحًا لِتَرْكِ الطَّهَارَةِ ، وَكَذَلِكَ لَوْ  
أَدْرَكَهُ فِي السُّجُودِ لَمْ تَكُنْ لَهُ ضَّرُورَةٌ فِي جَوَازِ سُقُوطِ الرُّكُوعِ ، فَلَمَّا جَازَ تَرْكُ الْقِرَاءَةِ فِي  
هَذِهِ الْحَالِ دُونَ سَائِرِ الْفُرُوضِ دَلَّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِفَرَضٍ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِفَرْضٍ اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ خَلْفَ الْإِمَامِ فِي الصَّلَاةِ الَّتِي  
يَجْهَرُ فِيهَا لَا يَقْرَأُ السُّورَةَ مَعَ الْفَاتِحَةِ ، فَلَوْ كَانَتْ الْقِرَاءَةُ فَرْضًا لَكَانَ مِنْ سُنَنِهَا قِرَاءَةُ السُّورَةِ  
مَعَ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ سَائِرَ الصَّلَوَاتِ الَّتِي الْقِرَاءَةُ فِيهَا مَفْرُوضَةٌ فَإِنَّ مِنْ سُنَنِهَا قِرَاءَةَ  
السُّورَةِ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا اتَّفَاقُ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ الْمَأْمُومَ لَا يَجْهَرُ بِهَا فِي الصَّلَوَاتِ الَّتِي يُجْهَرُ فِيهَا  
بِالْقِرَاءَةِ ، وَلَوْ كَانَتْ فَرْضًا لَجْهَرَ بِهَا كَالْإِمَامِ ؛ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِفَرْضٍ ؛ إِذْ  
كَانَتْ صَلَاةً جَمَاعَةً مِنْ الصَّلَوَاتِ الَّتِي يُجْهَرُ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَخْتَلَفَ حُكْمُ  
الْإِمَامِ وَالْمَأْمُومِ فِي الْجَهْرِ وَالْإِخْفَاءِ لَوْ كَانَتْ فَرْضًا عَلَيْهِ كَمَا عَلَى الْإِمَامِ . انتهى انتهى . ١ هـ  
﴿ أحكام القرآن للجصاص ج 3 ص ﴾

(28/302)

وقال ابن العربي :

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نَزُولِهَا : رُوِيَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى

بأصحابه، فقرأ أناسٌ من خلفه، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾؛ فسكتَ  
الناسُ خلفه، وقرأ رسولُ الله.

﴿المسألة الثانية: روى الأئمة: مالك، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة﴾ أن  
رسولَ الله صلى الله عليه وسلم انصرف من صلاةٍ جهر فيها بالقراءة، فقال: هل قرأ أحدٌ  
منكم معي أنفاً؟ فقال رجلٌ، نعم، يا رسولَ الله.

فقال: إني أقول: مالي أنزع القرآن؟ قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسولِ الله صلى  
الله عليه وسلم فيما جهر فيه رسولُ الله من الصلوات بالقراءة، حين سمعوا ذلك من رسولِ  
الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وروى مسلم عن عمران بن حصين قال:﴾ صلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم  
بنا صلاة الظهر أو العصر، فقال: وأيكم قرأ خلفي بسبح اسم ربك الأعلى؟ فقال رجلٌ:  
أنا.

فقال رسولُ الله: قد علمت أن بعضكم خالجنها.

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: ﴿ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصُّبْحَ ، فَثَقَلَتْ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ : إِنِّي لَا أَرَاكُمْ تَقْرَءُونَ وَرَاءَ إِمَامِكُمْ .

قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِي وَاللَّهِ .

قَالَ : فَلَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا . ﴿

وَقَدْ رَوَى النَّاسُ فِي قِرَاءَةِ الْمَأْمُومِ خَلْفَ الْإِمَامِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً ، أَعْظَمُهُمْ فِي ذَلِكَ اهْتِبَالًا الدَّارِقُطْنِيُّ .

وَقَدْ جَمَعَ الْبُخَارِيُّ فِي ذَلِكَ جُزْءًا ، وَكَانَ رَأْيُهُ قِرَاءَةَ الْفَاتِحَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ ، وَهِيَ إِحْدَى رَوَايَاتِ مَالِكٍ ، وَهُوَ اخْتِيارُ الشَّافِعِيِّ .

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ

صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ، فَهِيَ خِدَاجٌ ، فَهِيَ خِدَاجٌ ، غَيْرُ تَمَامٍ .

فَقُلْتُ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؛ إِنِّي أَحْيَانًا أَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ ، فَعَمَزَ ذِرَاعِي ، وَقَالَ : اقْرَأْ بِهَا يَا فَارِسِيُّ

فِي نَفْسِكَ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ

بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، فَنِصْفَهَا لِي ، وَنِصْفَهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: اقْرَأُوا، يَقُولُ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَقُولُ اللَّهُ: حَمَدَنِي عَبْدِي.  
يَقُولُ الْعَبْدُ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

(30/302)

يَقُولُ اللَّهُ: أَتْنِي عَلَيَّ عَبْدِي.

يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

يَقُولُ اللَّهُ: مَجَدَّنِي عَبْدِي.

يَقُولُ الْعَبْدُ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، فَهَذِهِ آيَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

يَقُولُ الْعَبْدُ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ  
وَلَا الضَّالِّينَ.

فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ❁.

وَقَدْ اِخْتَلَفَتْ فِي ذَلِكَ الْأَثَارُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ اِخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا فَرُوِيَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ

❁ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ.

❁ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ فَقَرَأَ قَوْمٌ خَلْفَهُ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ لَا تَعْقِلُونَ

❁؟ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ❁.

وَقَدْ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:

نَزَلَتْ آيَةُ فِي الصَّلَاةِ.

وَقِيلَ: كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّلَاةِ، فَنَزَلَتْ آيَةُ فِي النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ.

وَرُوِيَ أَنَّ قَتِيَّ كَانَ يَقْرَأُ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَرَأَ فِيهِ النَّبِيُّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ فِيهِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ؛ وَهُوَ قَوْلٌ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ فِيهَا قَلِيلٌ،  
وَالْإِنْصَاتُ وَاجِبٌ فِي جَمِيعِهَا.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ قَرَأَ بِهَا، وَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَا صَلَاةَ إِلَّا بِهَا.

(31/302)

---

وَأَصَحُّ مِنْهُ قَوْلُ جَابِرٍ: لَا يُقْرَأُ بِهَا خَلْفَ الْإِمَامِ خَرَجَهُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطِئِ.  
وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ  
بِهِ، فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا ﴾؛ وَهَذَا نَصٌّ لَا مَطْعَنَ  
فِيهِ، يُعْضَدُ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَقَدْ غَمَزَهُ الدَّارِقُطِيُّ بِمَا لَا يَقْدَحُ فِيهِ.  
الْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ: الْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ قَدْ أَشْرْنَا إِلَى بَعْضِهَا، وَذَكَرْنَا نُبْذًا مِنْهَا،



والتَّرجيحُ أَوْلَى ما اتَّبَعَ فيها .

وَالَّذِي نُرَجِّحُهُ وَجُوبَ الْقِرَاءَةِ فِي الْأَسْرَارِ لِعُمُومِ الْأَخْبَارِ .

وَأَمَّا الْجَهْرُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْقِرَاءَةِ فِيهِ لِثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ حُكْمُ الْقُرْآنِ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ .

وَقَدْ عَضَّدَهُ السُّنَّةُ بِحَدِيثَيْنِ : أَحَدُهُمَا : حَدِيثُ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ : ﴿ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ

بَعْضَكُمْ خَالَجِنِيهَا ﴾ .

الثَّانِي : قَوْلُهُ : " وَإِذَا قَرَأْتَ فَأَنْصِتُوا " .

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ : فِي التَّرجيحِ : إِنَّ الْقِرَاءَةَ مَعَ جَهْرِ الْإِمَامِ لَا سَبِيلَ إِلَيْهَا فَمَتَى يَقْرَأُ ؟ فَإِنْ قِيلَ :

يَقْرَأُ فِي سَكَنَةِ الْإِمَامِ .

قُلْنَا : السُّكُوتُ لَا يَلْزِمُ الْإِمَامَ فَكَيْفَ يَرْكَبُ فَرَضُهُ

(32/302)

---

عَلَى مَا لَيْسَ بِفَرَضٍ ، لَا سِيَّما وَقَدْ وَجَدْنَا وَجْهًا لِلْقِرَاءَةِ مَعَ الْجَهْرِ ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْقَلْبِ  
بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّفْكِيرِ ، وَهَذَا نِظَامُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ ، وَحِفْظُ الْعِبَادَةِ ، وَمُرَاعَاةُ السُّنَّةِ ، وَعَمَلٌ  
بِالتَّرجيحِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ؛ وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً

وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٠﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربي ج 2 ص ﴾

(33/302)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾

وذلك أن المسلمين كانوا يتكلمون في الصلاة قبل نزول هذه الآية ، فنهوا عن ذلك ، وأمروا بالسكوت .

وروى عبد الوهاب عن مجاهد عن أبي العالية الرياحي قال : كان النبي عليه السلام إذا صلى فقرأ وقرأ أصحابه خلفه حتى نزل ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ فسكت القوم .

وقرأ النبي عليه السلام وروى قتادة عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قال في الصلاة .

وروى مغيرة عن إبراهيم مثله ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ هذا لكل قارئ ؟ قال : لا ، ولكن هذا في الصلاة

المفروضة.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه مثله .

وقال مجاهد : وجب الإنصات في موضعين في الصلاة والإمام يقرأ ، وفي الجمعة والإمام  
يخطب .

وعن مجاهد أنه قال : لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم .

وقال عطاء والحسن إن هذا في الصلاة والخطبة .

ويقال : ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ أي : اعملوا بما في كتاب الله تعالى ولا تجاوزوا عنه إلى  
غيره

ثم قال ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ لكي ترحموا فلا تعذبوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ

1 ص ﴿

(34/302)

وقال الثعلبي :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾

قال عبد الله بن مسعود : كنا نسلم بعضنا على بعض في الصلاة سلام على فلان وسلام

على فلان فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ يعني في الصلاة وقال أبو هريرة: كانوا يتكلمون في الصلاة فأتت هذه الآية وأمروا بالإنصات.

وقال الزهري: نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما قرأ شيئاً قرأه، فنزلت هذه الآية.

وروى داود بن أبي هند عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرأون مع الإمام فلما انصرف قال: أما أن لكم أن تفقهوا، أما أن لكم أن تعقلوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ كما أمركم الله.

وروى الحريري عن طلحة بن عبيد الله بن كزيب قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان والقارئ يقرأ فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوحيان الموعود، قال: فنظرا إلي ثم أقبل على حديثهما، قال: فأعدت الثانية فنظرا لي فقالا: إنما ذلك في الصلاة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾.

وروى زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة.

وقال الكلبي: وكانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حتى يسمعون ذكر الجنة والنار فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال قتادة: كانوا يتكلمون في الصلاة بجوائجهم في أول ما فرضت عليهم، وكان الرجل يأتي

وهم فى الصلاة فيسألهم كم صليتم ؟ كم بقي ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .  
وقال ابن عباس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ فى الصلاة المكتومة وقرأ أصحابه  
وراءه رافعين أصواتهم فخلطوا عليه فنزلت هذه الآية .

(35/302)

---

وقال سعيد بن المسيب : كان المشركون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى  
فيقول بعضهم لبعض بمكة : لا تستمعوا لهذا القرآن والغوا فيه فأنزل الله جواباً لهم ﴿ وَإِذَا  
قُرِئَ الْقُرْآنُ ﴾ .

قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، وعمرو بن دينار ، وزيد بن أسلم ، والقاسم بن  
يسار ، وشهر بن حوشب : هذا فى الخطبة أمر بالإنصات للإمام يوم الجمعة .  
قال عبد الله بن المبارك : والدليل على حكم هذه الآية فى [ الجمعة ] إنك لا ترى خطيباً  
على المنبر يوم الجمعة يخطب ، فأراد أن يقرأ فى الخطبة آية من القرآن إلا قرأ هذه الآية قبل [  
فواة] قراءة القرآن .

قال الحسن : هذا فى الصلاة المكتوبة وعند الذكر . وقال مجاهد وعطاء : وجب  
الإنصات فى اثنين عند الرجل يقرأ القرآن وهو يصلي وعند الإمام وهو يخطب .

وقال عمر بن عبد العزيز: الإنصات لقول كل واعظ والإنصات الإصغاء والمراعاة.

قال الشاعر:

قال الإمام عليكم أمر سيّدكم . . . فلم نخالف وأنصتنا كما قالاً

وقال سعيد بن جبير: هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به

الإمام.

قال الزجاج: ويجوز أن يكون معنى قوله ﴿ فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ اعملوا بما فيه لا

تجاوزوه، لأن معنى قول القائل: سمع الله: أجاب الله دعاءك. انتهى انتهى. اهـ

﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(36/302)

وقال الماوردي:

قوله عز وجل ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

أي لقراءته.

﴿ وَأَنْصِتُوا ﴾ أي لا تقابلوه بكلام ولا إعراض ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ .

واختلفوا في موضع هذا الإنصات على ثلاثة أقاويل:

أحدها : أنها نزلت في المأموم خلف الإمام ينصت ولا يقرأ ، قاله مجاهد .  
والثاني : أنها نزلت في خطبة الجمعة ينصت الحاضر لاستماعها ولا يتكلم ، قاله عائشة ،  
وعطاء .

والثالث : ما قاله ابن مسعود : كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ، سلام على فلان ،  
سلام على فلان ، فجاء القرآن من ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(37/302)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (204) ﴿  
ذكر الطبري وغيره أن سبب هذه الآية هو أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
كانوا بمكة يتكلمون في المكتوبة بجوائجهم ويصيحون عند آيات الرحمة والعذاب ويقول  
أحدهم إذا أتاهم صليتم ؟ وكم بقي ؟ فيخبرونه ونحو هذا ، فنزلت الآية أمراً لهم  
بالاستماع والإنصات في الصلاة ، وأما قول من قال إنها في الخطبة فضعيف ، لأن الآية مكية  
، والخطبة لم تكن إلا بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ، وكذلك ما ذكر

الزهرابي أنها نزلت بسبب فتى من الأنصار كان يقرأ في الصلاة والنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ، فأما الاستماع والإنصات عن الكلام في الصلاة فإجماع ، وأما الإمساك والإنصات عن القراءة فقالت فرقة : يمسك المأموم عن القراءة جملة قرأ الإمام جهرًا أو سرًا ، وقالت فرقة : يقرأ المأموم إذا أسر الإمام ويمسك إذا جهر ، وقالت فرقة : يمسك المأموم في جهر الإمام عن قراءة السورة ويقرأ فاتحة الكتاب .

قال القاضي أبو محمد : ومع هذا القول أحاديث صحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهذه الآية واجبة الحكم في الصلاة أن ينصت عن الحديث وما عدا القراءة واجبة الحكم أيضًا في الخطبة من السنة لا من هذه الآية ، ويجب من الآية الإنصات إذا قرأ الخطيب القرآن أثناء الخطبة وحكم هذه الآية في غير الصلاة على الندب أعني في نفس الإنصات والاستماع إذا سمع الإنسان قراءة كتاب الله عز وجل ، وأما ما تضمنه الألفاظ وتعطيه من توقير القرآن وتعظيمه فواجب في كل حالة ، والإنصات السكوت ، ﴿ لعلكم ﴾ على ترجي البشر .



قال القاضي أبو محمد : ولم نستوعب اختلاف العلماء في القراءة خلف الإمام ، إذ ألفاظ الآية لا تعرض لذلك ، لكن لما عن ذلك في ذكر السبب ذكرنا منه نبذة ، وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال في قوله عز وجل ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قال الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول جمع فيه ما أوجبه هذه الآية وغيرها من السنة في الإنصات ، قال الزجاج : ويجوز أن يكون ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(39/302)

---

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

اختلفوا في نزولها على خمسة أقوال .

أحدها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في الصلاة المكتوبة ، فقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن المشركين كانوا يأتون رسول الله إذا صلى ، فيقول : بعضهم لبعض : لا تسمعوا

لهذا القرآن والغوا فيه ، فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن المسيب .  
والثالث : أن فتى من الأنصار كان كلما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ، قرأ هو ،  
فنزلت هذه الآية ، قاله الزهري .  
والرابع : أنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم أول ما فرضت ، فيجيء الرجل فيقول لصاحبه :  
كم صليتم ؟ فيقول : كذا وكذا ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .  
والخامس : أنها نزلت تأمر بالإنصات للامام في الخطبة يوم الجمعة ، روي عن عائشة ،  
وسعيد بن جبير ، وعطاء ، ومجاهد ، وعمرو بن دينار ، في آخرين . انتهى انتهى . ١٠ هـ  
﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(40/302)

وقال القرطبي :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قيل : إن هذا نزل في

الصلاة ، روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر والزهري وعبيد الله بن عمير وعطاء بن

أبي رباح وسعيد بن المسيّب .

قال سعيد : كان المشركون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى ؛ فيقول بعضهم

لبعض بمكة : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ ﴾ [ فصلت : 26 ] .

فأنزل الله جل وعز جواباً لهم ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ .

وقيل : إنها نزلت في الخطبة ؛ قاله سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار وزيد

بن أسلم والقاسم بن مخيمرة ومسلم بن يسار وشهر بن حوشب وعبد الله بن المبارك .

وهذا ضعيف ؛ لأن القرآن فيها قليل ، والإنصات يجب في جميعها ؛ قاله ابن العربي .

النقاش : والآية مكية ، ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة .

وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضاً أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم

الجمعة ، وفيما يجهر به الإمام فهو عام .

وهو الصحيح لأنه يجمع جميع ما أوجبه هذه الآية وغيرها من السنّة في الإنصات .

قال النقاش : أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة .

النحاس : وفي اللغة يجب أن يكون في كل شيء ، إلا أن يدل دليل على اختصاص شيء .

وقال الزجاج : يجوز أن يكون " فاستمعوا له وأنصتوا " اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه .

والإنصات السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة .

أنصت ينصت إنصاتاً ؛ ونصت أيضاً ؛ قال الشاعر :

قال الإمام عليكم أمر سيّدكم . . .

فلم نخالف وأنصتنا كما قالوا

ويقال: أنصتوه وأنصتوا له: قال الشاعر:

إذا قالت حذام فأنصتوها . . .

فإن القول ما قالت حذام

(41/302)

---

وقال بعضهم في قوله "فاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا": كان هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم  
خاصاً ليعيه عنه أصحابه .

قلت: هذا فيه بعدٌ، والصحيح القول بالعموم؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾  
والتخصيص يحتاج إلى دليل .

وقال عبد الجبار بن أحمد في فوائد القرآن له: إن المشركين كانوا يكثرون اللغو والشغب  
تَعْنَتًا وَعِنَادًا؛ على ما حكاها الله عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا  
فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ .

فأمر الله المسلمين حالة أداء الوحي أن يكونوا على خلاف هذه الحالة وأن يستمعوا، ومدح

الجنَّ على ذلك فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: 29] الآية.

وقال محمد بن كعب القرظي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ في الصلاة أجابه من وراءه؛ إذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا مثل قوله، حتى يقضي فاتحة الكتاب والسورة.

فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث؛ فنزل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فأنصتوا.

وهذا يدل على أن المعنى بالإنصات ترك الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال قتادة في هذه الآية: كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسألهم كم صليتم، كم بقي؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾.

وعن مجاهد أيضاً: كانوا يتكلمون في الصلاة بمجاوبتهم؛ فنزل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وقد مضى في الفاتحة الاختلاف في قراءة المأموم خلف الإمام.

ويأتي في "الجمعة" حكم الخطبة، إن شاء الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبي

وقال الخازن:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾

لما ذكر الله سبحانه وتعالى عظم شأن القرآن بقوله هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون أتبعه بما يجب من تعظيم شأنه عند قراءته فقال سبحانه وتعالى: وإذا قرئ عليكم أيها المؤمنون القرآن فاستمعوا له يعني أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه وتدبروا مواظمه وأنصتوا يعني عند قراءته والإنصات السكوت للاستماع.

يقال: نصت وأنصت وانتصت بمعنى واحد.

واختلف العلماء في الحال التي أمر الله بالاستماع لقارئ القرآن والإنصات له إذا قرأ لأن قوله فاستمعوا له وأنصتوا أمر.

وظاهر الأمر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء في ذلك

أقوال:

القول الأول: وهو قول الحسن وأهل الظاهر أن تجري هذه الآيات على العموم ففي أي وقت وأي موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت.

والقول الثاني : إنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة روي عن أبي هريرة أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بجوائبهم فأمروا بالسكون والاستماع لقراءة القرآن .

وقال عبد الله : كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة سلام على فلان وسلام على فلان قال فجاء القرآن وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا .

القول الثالث : إنها نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام روي عن أبي هريرة قال نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) .

وعن ابن مسعود : أنه سمع ناساً يقرؤون مع الإمام فلما انصرف قال أما أن لكم أن تفقهوا وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله .

وقال الكلبي : كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار .

القول الرابع : أنها نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء قال مجاهد : الإنصات للإمام يوم الجمعة .

وقال عطاء وجب الصمت في اثنتين عند الرجل يقرأ القرآن وعند الإمام وهو يخطب .

وهذا القول قد اختاره جماعة وفيه بعد لأن الآية مكية والخطبة إنما وجبت بالمدينة وانفقوا على أنه يجب الإنصات حال الخطبة بدليل السنة وهو ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت " أخرجاه في الصحيحين واختلف العلماء في القراءة خلف الإمام فذهب جماعة إلى إيجابها سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسرّ .

يروى ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ وهو قول الأوزاعي وإليه ذهب الشافعي وذهب قوم إلى أن يقرأ فيما أسرّ الإمام فيه القراءة ولا يقرأ فيما جهر الإمام فيه ، يروى ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق وذهب قوم إلى أنه لا يقرأ سواء أسرّ الإمام أو جهر . يروى ذلك عن جابر وإليه ذهب أصحاب الرأي حجة من لا يرى القراءة خلف الإمام ظاهر هذه الآية وحجة من قال يقرأ في السرية دون الجهرية قال إن الآية تدل على الأمر بالاستماع لقراءة القرآن ودلت السنة على وجوب القراءة خلف الإمام فحملنا مدلول الآية على صلاة الجهرية وحملنا مدلول السنة على صلاة السرية جمعاً بين دلائل الكتاب والسنة وحجة من أوجب القراءة خلف الإمام في صلاة السرية والجهرية قال الآية وارة في غير الفاتحة لأن دلائل السنة قد دلت على وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام ولم يفرق بين السرية والجهرية .



قالوا وإذا قرأ الفاتحة خلف الإمام تتبع سكاناته ولا ينازعه في القراءة ولا يجهر بالقراءة خلفه ويدل عليه ما روى عن عبادة بن الصامت قال: "صلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال "أراكم تقرؤون وراء إمامكم قال " قلنا: يا رسول الله أي والله قال " لا تفعلوا إلا بأمر القرآن فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها " أخرجه الترمذي بطوله وأخرجاه في الصحيحين أقصر منه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج يقولها ثلاثاً غير تمام فقيل لأبي هريرة إنا نكون وراء الإمام قال اقرأ بها في نفسك " وذكر الحديث وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ يعني لكي يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمركم به من أوامره ونواهيه. انتهى انتهى. ١هـ ﴿ تفسير الخازن ح 2 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾

(46/302)

---

لما ذكر أن القرآن بصائر وهدى ورحمة أمر باستماعه إذا شرع في قراءته وبالإنصات وهو السكوت مع الإصغاء إليه لأن ما اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة حريٌّ بأن يصغي إليه حتى يحصل منه للمنصت هذه النتائج العظيمة وينتفع بها فيستبصر من العمى ويهتدي من الضلال ويرحم بها والظاهر استدعاء الاستماع والإنصات إذا أخذ في قراءة القرآن ومتى قرىء ، وقال ابن مسعود وأبو هريرة وجابر وعطاء وابن المسيب والزهري وعبيد الله بن عمر : إنها في المشركين كانوا إذا صلى الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) يقولون : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه فنزلت جواباً لهم ، وقال عطاء أيضاً وابن جبير ومجاهد وعمر بن دينار وزيد بن أسلم والقاسم بن مخيمرة ومسلم بن يسار وشهر بن حوشب وعبد الله بن المبارك : هي في الخطبة يوم الجمعة وضعف هذا القول بأن ما يقرأ في الخطبة من القرآن قليل وبأن الآية مكية والخطبة لم تكن إلا بعد الهجرة من مكة ، وقال ابن جبير إنها في الأنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر فيه الإمام من الصلاة

، وقال ابن مسعود أيضاً : كان يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ويكلمه في حاجته فأمرنا بالسكوت في الصلاة بهذه الآية ، وقال ابن عباس : قرأ في الصلاة المكتوبة وقرأ الصحابة رافعي أصواتهم فخلطوا عليه فالآية فيهم ، وقيل : هو أمر بالاستماع والإنصات إذ أدى الوحي ، وقال جماعة منهم الزجاج : ليس المراد الصلاة ولا غيرها وإنما المراد بقوله ﴿ فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ اعملوا بما فيه ولا تتجاوزوه ، كقولك : سمع الله دعاءك أي أجابك ، وقال الحسن : هي على عمومها ففي أي موضع قرىء القرآن وجب على كل حاضر استماعه والسكوت والخطاب في قوله ﴿ فاستمعوا ﴾ إن كان للكفار فترجى لهم الرحمة باستماعه والإصغاء إليه بأن كان سبباً لإيمانهم وإن كان للمؤمنين فرحمتهم هو ثوابهم على الاستماع والإنصات والعمل بمقتضاه ، وإن كان للجميع فرحمة كل منهم على ما يناسبه ولعل باقية على بابها من توقع الترجي ، وقيل : هي للتعليل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(47/302)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

إرشادٌ إلى طريق الفوز بما أشير إليه من المنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن ، أي وإذا قرىء القرآن الذي ذكرت شؤونُه العظيمة فاستمعوا له استماعَ تحقيقٍ وقبولٍ ﴿ وَأَنْصِتُوا ﴾ أي واسكوتوا في خلال القراءة وراعوها إلى انقضائها تعظيماً له وتكميلاً للاستماع ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي تفوزون بالرحمة التي هي أقصى ثمراته . وظاهر النظم الكريم يقتضي وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها وقيل : معناه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وجمهور الصحابة رضي الله تعالى عنهم على أنه في استماع المؤتمِّ ، وقد روي أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فأمرُوا باستماع قراءة الإمام والإنصات له . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في المكتوبة وقرأ أصحابه خلفه فنزلت وأما خارج الصلاة فعامة العلماء على استحبابهما والآية إما من تمام القول المأمور به أو استئناف من جهته تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

(48/302)

وقال الألويسي :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾

إرشاد إلى طريق الفوز بما أشير إليه من المنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن ، والاستماع معروف ؛ واللام يجوز أن تكون أجلية وأن تكون بمعنى إلى وأن تكون صلة ، أي فاستمعوه ، والإنصات السكوت يقال : نصت ينصت وأنصت وانتصت إذا سكت والاسم النصته بالضم ، ويقال كما قال الأزهري : أنصته وأنصت له إذا سكت له واستمع لحديثه ، وجاء أنصته إذا أسكته ، والعطف للاهتمام بأمر القرآن ، وعلل الأمر بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة التي هي أقصى ثمراته ، والآية دليل لأبي حنيفة رضي الله تعالى عنه في أن المأموم لا يقرأ في سرية ولا جهرية لأنها تقتضي وجوب الاستماع عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها ؛ وقد قام الدليل في غيرها على جواز الاستماع وتركه فبقي فيها على حاله في الإنصات للجهر وكذا في الإخفاء لعلنا بأنه قرأ ، ويؤيد ذلك أخبار جملة ، فقد أخرج عبد بن حميد .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في سننه عن مجاهد قال : قرأ رجل من الأنصار خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة فنزلت وإذا قرىء القرآن الخ .

وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه صلى بأصحابه فسمع أناساً يقرؤون خلفه فلما انصرف قال : أما إن لكم أن تفهموا أما إن لكم أن تعقلوا ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ كما أمركم الله تعالى .

وأخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن ثابت قال: لا قراءة خلف الإمام.  
وأخرج أيضاً عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا".

(49/302)

---

وأخرج أيضاً عن جابر "أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من كان له إمام فقراءته له قراءة" وهذا الحديث إذا صح وجب أن يخص عموم قوله تعالى: ﴿فأقرءوا ما تيسر﴾ [المزمل: 20] وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا صلاة إلا بقراءة" على طريقة الخصم مطلقاً فيخرج المقتدى وعلى طريقتنا أيضاً لأن ذلك العموم قد خص منه البعض وهو المدرك في الركوع إجماعاً فجاز التخصيص بعده بالمقتدى بالحديث المذكور، وكذا يحمل قوله عليه الصلاة والسلام للمسيء صلواته: "فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن" على غير حالة الاقتداء جمعاً بين الأدلة، بل قد يقال: إن القراءة ثابتة من المقتدى شرعاً فإن قراءة الإمام قراءة له فلو قرأ لكان له قراءة تان في صلاة واحدة وهو غير مشروع.  
بق الكلام في تصحيح الخبر، وقد روي من طرق عديدة مرفوعاً عن جابر رضي الله تعالى عنه عنه عليه الصلاة والسلام وقد ضعف.

واعترف المضعفون لرفعه كالدارقطني .

والبيهقي .

وابن عدي بأن الصحيح أنه مرسل لأن الحفاظ كالسفيانيين .

وأبي الأحوص .

وشعبة .

وإسرائيل .

وشريك .

وجرير .

وأبي الزبير .

وعبد بن حميد وخلق آخريين رووه عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن

النبي صلى الله عليه وسلم فأرسلوه ، وقد أرسله مرة أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ،

وحينئذ لنا أن نقول المرسل حجة عند أكثر أهل العلم فيكفينا فيما رجع إلى العمل على

رأينا وعلى طريق الإلزام أيضاً بإقامة الدليل على حجية المرسل أيضاً ، وعلى تقدر التنزل

عن حجيته فقد رفعه الإمام بسند صحيح .

وروى محمد بن الحسن في موطنه قال : أنبأنا أبو حنيفة حدثنا أبو الحسن موسى بن أبي

عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "

من صلى خلف إمام فإن قراءة الإمام له قراءة" وقولهم: إن الحفاظ الذن عدوهم لم يرفعوه غير صحيح .

فقد قال أحمد بن منيع في مسنده: أخبرنا إسحاق الأزرق حدثنا سفيان .

(50/302)

---

وشريك عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة " .

ثم قال وحدثنا جرير عن موسى عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره ولم يذكر جابراً ورواه عبد بن حميد قال: حدثنا أبو نعيم حدثنا الحسن بن صالح عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره، وإسناد حديث جابر الأول على شرط الشيخين والثاني على شرط مسلم، فهؤلاء سفيان .

وشريك .

وجرير .

وأبو الزبير رفعوه بالطرق الصحيحة فبطل عدوهم فيمن لم يرفعه، ولو تفرد الثقة وجب قبوله لأن الرفع زيادة وزيادة الثقة مقبولة فكيف ولم ينفرد، والثقة قد يسند الحديث تارة ويرسله



أخرى .

وأخرجه ابن عدي عن الإمام رضي الله تعالى عنه في ترجمته وذكر فيها قصة وبها أخرجه أبو عبد الله الحاكم قال : حدثنا أبو محمد بن بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي حدثنا عبد الصمد بن الفضل البلخي حدثنا مكّي بن إبراهيم عن أبي حنيفة عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد بن الهاد عن جابر بن عبد الله "إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى ورجل خلفه قرأ فجعل رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ينهاه عن القراءة في الصلاة فلما انصرف أقبل عليه الرجل قال : أتتهاني عن القراءة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعا حتى ذكرا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم :

"من صلى خلف إمام فإن قراءة الإمام له قراءة" .

وفي رواية لأبي حنيفة "إن ذلك كان في الظهر أو العصر" وهي أن رجلاً قرأ خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهر أو العصر فأوماً إليه رجل فنهاه فلما انصرف قال :

أتتهاني الحدث .

(51/302)

---

نعم إن جابراً روى منه محل الحكم فقط تارة والمجموع تارة ويتضمن رد القراءة خلف الإمام لأنه خرج تأييداً لنهي ذلك الصحابي عنها مطلقاً في السرية والجهرية خصوصاً في رواية أبي حنيفة أن القصة كانت في السرية لا إباحتها فعلها وتركها فيعارض ما روي في بعض روايات حديث " مالي أنزع في القرآن " أنه قال : إنه لا بد ففي الفاتحة ، وكذا ما رواه أبو داود .  
والترمذي عن عبادة بن الصامت قال : كنا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الفجر فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فثقلت عليه القراءة ، فلما فرغ قال : لعلكم تقرأون خلف إمامكم ، قلنا : نعم هذا ، قال : لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب فإنه لا صلاة لمن لا يقرأ بها ؛ ويقدم لتقدم المنع على الإطلاق عند التعارض ولقوة السند فإن حديث المنع أصح فبطل رد المتعصبين ، وتضعيف بعضهم لمثل الإمام الأعظم رضي الله تعالى عنه مع تضييقه في الرواية إلى الغاية حتى أنه شرط التذكر لجوازها بعد علم الراوي أن ذلك المروي خطه ، ولم يشترط الحفاظ هذا ولم يوافق أصحابه على أن الخبر قد عضد بروايات كثيرة عن جابر غير هذه وإن ضعفت وبمذاهب الصحابة أيضاً كابن عباس .

وابن عمر .

وزيد بن ثابت .

وابن مسعود .

وأخرج محمد عن داود بن قيس بن عجلان أن عمر رضي الله تعالى عنه قال : ليت في فم

الذي يقرأ خلف الإمام حجراً ، وروى مثل ذلك عن سعد بن أبي وقاص ، وروى عن علي كرم الله تعالى وجهه إلا أن فيه مقالاً أنه قال : من قرأ خلف الإمام فقد أخطأ الفطرة ، وقال الشعبي : أدركت سبعين بديراً كلهم يمنعون المقتد عن القراءة خلف الإمام ، وقد ادعى بعض أصحابنا إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم على ذلك ، ولعل مراده بذلك إجماع كثير من كبارهم ، وإلا ففيه نظر ، وكون مراده الإجماع السكوتي ليس بشيء أيضاً ، وذهب قوم إلى أن المأموم يقرأ إذا أسر الإمام القراءة ولا يقرأ إذا جهر وهو قول عروة بن الزبير .

والقاسم بن محمد .

والزهري .

(52/302)

---

ومالك .

وابن المبارك .

وأحمد .

وإسحاق ، وروى عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه وحجتهم فما قيل : إن الآية تدل على

الأمر بالاستماع لقراءة القرآن والسنة تدل على وجوب القراءة خلف الإمام فحملنا مدلول الآية على صلاة الجهر ومدلول السنة على صلاة السر جمعاً بين الدلائل ، وقال آخرون : إنما قرأ في السرية لأنه لا يقال له مستمع ، واعترض بأنه وإن سلمنا أنه لا يقال له ذلك لكن لا نسلم أنه لا يقال له منصت مع علمه بالقراءة وبأننا لا نسلم دلالة السنة على وجوب القراءة خلف الإمام ودون إثبات ذلك خرط القتاد ، على أن الجزم العمل بأقوى الدليلين ، وليس مقتضى أقواهما إلا المنع ، ومن هنا ضعف ما يروى عن محمد بن الحسن رحمه الله تعالى أنه يستحسن قراءة الفاتحة على سبيل الاحتياط مخالفاً لما ذهب إليه الإمام .

وأبو يوسف من كراهة القراءة لما في ذلك من الوعيد ، والحق أن قوله كقولهما ، فقد قال في كتاب " الآثار " بعدما أسند إلى علقمة بن قيس : إنه ما قرأ قط فيما يجهر به ولا فيما لا يجهر به ، وبه نأخذ فلان ترى القراءة خلف الإمام في شيء من الصلاة يجهر فيه أو لا يجهر فيه ، ولا ينبغي أن يقرأ خلفه في شيء منها ، وذكر في موطنه نحو ذلك ، وقال السرخسي تنفسد

صلاة القارئ خلف الإمام في قول عدة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومنهم فيما قيل سعد بن أبي وقاص ، وفي رواية المزني عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه يقرأ في الجهرية والسرية ، وفي رواية البويطي أنه يقرأ في السرية أم القرآن ويضم السورة في الأولين ويقرأ في الجهرية أم القرآن فقط ، والمشهور عند الشافعية أنه لا سورة للمأموم الذي يسمع الإمام في

جهرية بل يستمع فإن بعد بأن لم سمع أو سمع صوتاً لا يميز حروفه أو كانت سرية قرأ في الأصح ، وسبب النزول لم يكن القراءة في الصلاة بل أمر آخر .

(53/302)

---

فقد روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت ، وحاصلها النهي عن التكلم لا عن القراءة ، ومن الناس من فسر القرآن بالخطبة ، والأمر بالاستماع إما للوجوب أو الندب ، وعندنا الإنصات في الخطبة فرض على تفصيل في المسألة ، وأخرج غير واحد عن مجاهد رضي الله تعالى عنه أن الآية في الصلاة والخطبة يوم الجمعة ، وفي كلام أصحابنا ما يدل على وجوب الاستماع في الجهر بالقرآن مطلقاً .

(54/302)

---

قال في الخلاصة : رجل يكتب الفقه ومجنيه رجل يقرأ القرآن فلا يمكنه استماع القرآن فالإثم على القارئ ، وعلى هذا لو قرأ على السطح في الليل جهرًا والناس نيام يأثم ، وهذا صريح في إطلاق الوجوب ، وعلل ذلك بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، و﴿ إذا ﴾

هنا للكلمة وغالب الشرطيات القرآنية المؤداة بها كلية ، هذا والمراد من الاستماع في الآية المعنى المتبادر منه ، وقال الزجاج: المراد منه القبول والإجابة ، وهو بهذا المعنى مجاز كما نص عليه في الأساس ، ومنه سمع الله تعالى لمن حمده وسمع الأمير كلام فلان ، ورجح ذلك العلامة الطيبي قال : وهذا أوفق لتأليف النظم الكريم سابقاً ولاحقاً وأجمع للمعاني والأقوال فإنه تعالى لما ذكر تعريضاً أن المشركين إنما استهزأوا بالقرآن ونبذوه وراءهم ظهرياً لأنهم فقدوا البصائر وعدموا الهداية والرحمة وأن حالهم على خلاف المؤمنين أمر المؤمنين بما هو أزيد من مجرد الاستماع وهو قبوله والعمل بما فيه والتمسك به وأن لا يجاوزه مرتباً للحكم على تلك الأوصاف ، ولذلك قيل : إذا قرىء القرآن وضعا للمظهر موضع المضمحل لمزيد الدلالة على العلية ، يعني إذا ظهر أيها المؤمنون إنكم لستم مثل هؤلاء المعاندين فعليكم بهذا الكتاب الجامع لصفات الكمال الهادي إلى الصراط المستقيم الموصل إلى مقام الرحمة والزلفى فاستمعوه وبالغوا في الأخذ منه والعمل بما فيه ليحصل المطلوب ولعلكم ترحمون ، ويدخل في هذا وجوب الإنصات في الصلاة بطريق الأولى لأنها مقام المناجاة والاستماع من المتكلم ، وعلى هذا الإنصات عند تلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعلم منه أن الخطاب في الآية للمؤمنين بل هو نص في ذلك .

---

وقال بعضهم: إن الخطاب فيها للكفار ، وذلك أن كون القرآن بصائر وهدى ورحمة لا يظهر إلا بشرط مخصوص وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا قرأ عليهم القرآن عند نزوله استمعوا له وأنصتوا ليقفوا على معانيه ومزاياه فيعترفوا بإعجازه ويستغنوا بذلك عن طلب سائر المعجزات ، وأيد هذا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فِي آخِرِ الْآيَةِ ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ بناءً على أن ذلك للترجي وإنما يناسب حال الكفار لا حال المؤمنين الذين حصل لهم الرحمة جزماً في قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 203].

وأجيب بأن هذه الرحمة المرجوة غير تلك الرحمة ، ولئن سلم كونها إياها فالإطماع من الكريم واجب فلم يبق فرق ، وفي بناء الفعل للمفعول إشارة إلى أن مدار الأمر القراءة من أي قارئ كان .

وفي الآية من الدلالة على تعظيم شأن القرآن ما لا يخفى .

ومن هنا قال بعض الأصحاب : يستحب لمريد قراءته خارج الصلاة أن يلبس أحسن ثيابه ويتعمم ويستقبل القبلة تعظيماً له ، ومثله في ذلك العلم ، ولو قرأ مضطجعا فلا بأس إذ هو نوع من الذكر .

وقد مدح سبحانه ذاكريه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم وضم رجليه عند القراءة ولا يدها لأنه سوء أدب ولو قرأ ماشياً أو عند النسيج ونحوه من الأعمال فإن كان القلب حاضراً غير

مشتغل لم يكرهه ولا يقره ، ولا يقرأ وهو مكشوف العورة أو كان مجزته من هو كذلك .  
وإن كانت زوجته ، وكره بعضهم القراءة في الحمام والطريق .  
قال النووي : ومذهبنا لا تكره فيهما ، وتكره في الحش وبيت الرحي وهي تدور عند  
الشعبي وهو مقتضى مذهبنا ، والكلام في آداب القراءة وما ينبغي للقارئ طويل .  
وفي الإتيان قدر له قدر من ذلك فإن كان عندك فارجع إليه .  
والجملة على ما يدل عليه كلامهم يحتمل أن تكون من القول المأمور به ويحتمل أن تكون  
استئفاً من جهته تعالى ، قيل : وعلى الأول  
فقوله سبحانه وتعالى :

(56/302)

---

وَأذْكَرُّ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ  
الْغَافِلِينَ (205)

﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ عطف على ﴿ قل ﴾ وعلى الثاني فيه تجريد الخطاب إلى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عام لكل ذكر فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب  
من القبول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾



وقال القاسمي :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ أي : عن حديث النفس وغيره ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أرشد إلى طريق الفوز بما انطوى عليه من منفعه الجليلة .

أي : وإذا قرئ القرآن الذي ذكرت خصائصه ، فاستمعوا له ، أي : أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه ، وتدبروا مواعظه ، وأنصتوا لقراءته حتى تنقضي ، إعظاماً له واحتراماً ، لكي تفوزوا بالرحمة التي هي أعظم ثمراته ، لا كما يعتمده كفار قريش من قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ .

تنبيهات :

الأول : ظاهر الآية يقتضي وجوب الإستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها ، وعليه أهل الظاهر ، وهو قول الحسن البصري ، وأبي مسلم الأصفهاني روى مسلم عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : > إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا < . وكذا رواه أهل السنن من حديث

أبي هريرة .

وروى الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : < هل قرأ أحد منكم معي آنفاً > ؟ قال رجل : نعم يا رسول الله . قال : < إني أقول : ما لي أنزع القرآن > ؟ قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الترمذي : هذا حديث حسن . وصححه أبو الرازي .

(58/302)

---

نعم وردت السنة الصحيحة باستثناء الفاتحة وحدها للمأموم . وذلك فيما رواه عبادة قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ، فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف قال : < إني أراكم تقرؤون وراء إمامكم > ؟ قال : قلنا : يا رسول الله ! إني والله . قال : < لا تفعلوا إلا بأم القرآن ، فإنه لا صلاة لمن لا يقرأ بها > - رواه أبو داود والترمذي - .

وفي لفظ : < فلا تقرءوا بشيء من القرآن إذا جهرت به ، إلا بأم القرآن > . رواه أبو داود

والنسائي، والدارقطني وقال: رواه كلهم ثقات .

وأخرج ابن حبان عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: > أنقرءون في صلاتكم خلف الإمام، والإمام يقرأ؟ فلا تفعلوا، وليقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب في نفسه < .

وأما حديث أبي هريرة المتقدم، فلا يستدل به على عدم قراءة المأموم مطلقاً بل جهرًا، لأن المنازعة إنما تكون مع جهر المأموم، لا مع إسراره، ولو سلم دخول ذلك في المنازعة لكان الإستفهام الإنكاري فيه عامًا لجميع القرآن، أو مطلقاً في جميعه .

وحديث عبادة خاص أو مقيد، ولا تعارض بين عام وخاص، أو مطلق ومقيد، لا ابتداء الأول على الثاني .

وكذا يقال في عموم الآية، وفي هذا جمع بين دلالة الكتاب، وصحيح السنة، إذ جاءنا بها من جاء بالقرآن .

الثاني: روي عن كثير من السلف أن الآية نزلت في الصلاة . وعن بعضهم: فيها وفي

الخطبة يوم الجمعة، وعن بعضهم: فيهما وفي خطبة الأضحى والفطر . وقد

قدمنا في مقدمة الكتاب مصطلح السلف في قولهم: نزلت هذه الآية في كذا، وبيننا أنه قد

يراد بذلك، أن الآية تشمل ذلك الشيء لدخوله في عمومها، لأنه سبب لنزولها، وذلك في

بعض المقامات، وما هنا منه .

(59/302)

---

وتحقيق هذا يسقط ما للرازي هنا من أنه إذا قيل بنزولها في منع المأموم من الجهر بالقراءة،  
يذهب تناسب الآية مع ما قبلها من إفحام المشركين، بأن يستمعوا لقراءته، ليقفوا على  
إعجازه. وما للخازن، بأن الآية مكية، وخطبة الجمعة والعيدين شرعاً بالمدينة -  
فافهمه - .

الثالث: روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: >  
من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم  
القيامة < .

قال ابن كثير تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ محاسن التأويل ح

﴿ 251.249 ص 7

(60/302)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204) ﴾

يؤذن العطف بأن الخطاب بالأمر في قوله : ﴿ فاستمعوا وأنصتوا ﴾ وفي قوله : ﴿ لعلكم

﴿ تابع للخطاب في قوله ﴾ هذا بصائر من ربكم ﴾ [الأعراف : 203] إلخ ، فقوله :

﴿ وإذا قرئ القرآن ﴾ من جملة ما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقوله لهم وذلك

إعادة تذكير للمشركين تصريحاً أو تعريضاً بأن لا يعرضوا عن استماع القرآن وبأن يتأملوه

ليعلموا أنه آية عظيمة ، وأنه بصائر وهدى ورحمة ، لمن يؤمن به ولا يعاند ، وقد علم من

أحوال المشركين أنهم كانوا يتناهون عن الإنصات إلى القرآن ﴾ وقال الذين كفروا لا تسمعوا

لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت : 26] .

وذكر اسم القرآن إظهاراً في مقام الإضمار ، لأن القرآن تقدم ذكره بواسطة اسم الإشارة

فنكتة هذا الإظهار : التنويه بهذا الأمر ، وجعل جملة مستقلة بالدلالة غير متوقفة على

غيرها ، وهذا من وجوه الاهتمام بالكلام ومن دواعي الإظهار في مقام الإضمار استقرت

من كلام البلغاء .

والاستماع الإصغاء وصيغة الافتعال دالة على المبالغة في الفعل ، والإنصات الاستماع مع

ترك الكلام فهذا مؤكد ( لا تسمعوا ) .

مع زيادة معنى .

وذلك مقابل قولهم: ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ [فصلت: 26] ، ويجوز أن يكون الاستماع مستعملاً في معناه المجازي ، وهو الامتثال للعمل بما فيه كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ﴾ [الأعراف: 198] ويكون الإنصات جامعاً لمعنى الإصغاء وترك اللغو .

وهذا الخطاب شامل للكفار على وجه التبليغ ، وللمسلمين على وجه الارشاد لأنهم أرجى للانتفاع بهديه لأن قبله قوله: ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [الأعراف: 203] .

(61/302)

---

ولا شبهة في أن هذه الآية نزلت في جملة الآيات التي قبلها وعلى مناسبتها ، سواء أريد بضمير الخطاب بها المشركون والمسلمون معاً ، أم أريد المسلمون تصريحاً والمشركون تعريضاً ، أم أريد المشركون للاهتداء والمسلمون بالأحرى لزيادته .

فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال ، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم المقضي إلى الإيمان به ، ولما جاء به من إصلاح النفوس ، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء

النظر والعمل بما فيه ، فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين .

فهذه الآية مجملة في معنى الاستماع والإنصات وفي مقتضى الأمر من قوله : ﴿ فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ ، يُبين بعض إجمالها سياق الكلام والحمل على ما يفسر سببها من قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوفية ﴾ [ فصلت : 26 ] ، ويُحال بيان مجملها فيما زاد على ذلك على أدلة أخرى .

وقد اتفق علماء الأمة على أن ظاهر الآية بمجردة في صور كثيرة مؤول ، فلا يقول أحد منهم بأنه يجب على كل مسلم إذا سمع أحداً يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع ويُنصت ، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعة فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله ، ولكنهم اختلفوا في محل تأويلها : فمنهم من خصها بسبب رأوا أنه سبب نزولها ، فرووا عن أبي هريرة أنها نزلت في قراءة الإمام في الجهر ، وروى بعضهم أن رجلاً من الأنصار صلى وراء النبي صلى الله عليه وسلم صلاة جهرية فكان يقرأ في الصلاة والنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فنزلت هذه الآية في أمر الناس بالاستماع لقراءة الإمام .

وهؤلاء قصرُوا أمر الاستماع على قراءة خاصة دل عليها سبب النزول عندهم على نحو يقرب من تخصيص العام بخصوص سببه ، عند من يخصص به ، وهذا تأويل ضعيف ، لأن نزول الآية على هذا السبب لم يصح ، ولا هو مما يساعد عليه نظم الآية التي معها ، وما قالوه في ذلك إنما هو تفسير وتأويل وليس فيه شيء ما ثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنهم من أبقى أمر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم ، ولكنهم تأولوه على أمر الندب ، وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكية ، ولو قالوا المراد من قوله قرئ قراءة خاصة ، وهي أن يقرأه الرسول عليه الصلاة والسلام على الناس لعلم ما فيه والعمل به للكافر والمسلم ، لكان أحسن تأويلاً .

وفي "تفسير القرطبي" عن سعيد (بن المسيب) : كان المشركون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى فيقول بعضهم لبعض لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه فأنزل الله تعالى جواباً لهم ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ .

على أن ما تقدم من الاخبار في محمل سبب نزول هذه الآية لا يستقيم لأن الآية مكية وتلك الحوادث حدثت في المدينة .

أما استدلال أصحاب أبي حنيفة على ترك قراءة المأموم إذا كان الإمام مُسراً بالقراءة ، فالآية بمعزل عنه إذ لا يتحقق في ذلك الترك معنى الإنصات .

ويجب التنبيه إلى أن ليس في الآية صيغة من صيغ العموم لأن الذي فيها إعلان هما ( قرئ ) ( )



واستمعوا ) والفعل لا عموم له في الإثبات .

ومعنى الشرط المستفاد من ( إذا ) يقتضي إلا عموم الأحوال أو الأزمان دون القراءات  
وعموم الأزمان أو الأحوال لا يستلزم عموم الأشخاص بخلاف العكس كما هو بين . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ج 8 ص ﴾

(63/302)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204) ﴾

وما دام قد أوضح لك المولى سبحانه وتعالى من قبل أن هذا القرآن بصائر من ربنا وهدى  
ورحمة ، ألا يستحق أن تحثي به أيها المؤمن ؟ . . ألا تجذبك هذه الحبيثات الثلاث لأن  
تعطي له أذنك وألا تنصرف عنه ؟ .

إذن لا بد أن تنصت للقرآن الكريم لتلقى الفوائد الثلاث ؛ البصائر ، والهدى ، والرحمة ،  
وهو حقيق وجدير أن يُحرص على سماعه إن قرئ .

ولنلاحظ أن الله تعالى قال : ﴿ فاستمعوا له ﴾ ولم يقل " اسمعوا " ، لأن الاستماع فيه تعمد  
أن تسمع ، أما السمع فانت تسمع كل ما يقال حولك ، وقد تنبه إلى ما تسمع وقد لا تنبه ،

ومن الرحمة المحمدية يقول حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ناهياً عن التسمع لأسرار الغير تجسساً عليهم بالبحث عن عوراتهم فيما يرويه عنه سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا " .

وفي هذا تحذير من هذه الأمور الخمسة التي منها التلصص والتصنت إلى أسرار الناس .  
﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: 204] .  
والإنسان قد يصمت ويستمع ولكن بغير نية التعبد فيحرم من ثواب الاستماع ، فاستمع وأنصت بنية العبادة ، لأن الله هو الذي يتكلم ، وليس من المعقول والتأدب مع الله أن يتكلم ربك ثم تنصرف أنت عن كلامه ، وقد لفت أنظارنا سيدنا جعفر الصادق : ونبهنا إلى ما فيه الخير حيث يقول :

" عجبت لمن خاف ولم يفرغ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ، فإنني سمعت الله عقبها يقول : ﴿ فَانْقَلِبُوا بِنِعْمَةِ مَنْ اللَّهُ وَفَضْلٍ لَمْ يُمْسَسْهُمْ سِوَاءُ ﴾ .

(64/302)

---

وعجبت لمن اغتم ، ولم يفرع إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإني سمعت الله عقبها يقول : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وعجبت لمن مكر به ، ولم يفرع إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ . فإني سمعت الله عقبها يقول : - ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكُرُوا ﴾ .  
وعجبت لمن طلب الدنيا ولم يفرع إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ . فإني سمعت الله عقبها يقول : - ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ ﴾ .

ونحن حين نستمع لقراءة القرآن الكريم بنية التعبد فذلك هو حُسن الأدب الذي يجب أن نستقبل به العبر التي تعود بالفائدة علينا .

ووقف العلماء حول الإنصات سماعاً للقرآن ؛ أيكون الإنصات إذا قرئ القرآن مطلقاً في أي حال من الأحوال ، أو حين يُقرأ في الصلاة ، أو حين يُقرأ في خطبة الجمعة ؟

وقد اختلفوا في ذلك ، فبعضهم قال : إن المقصود هو الإنصات للقرآن حين يُقرأ في الصلاة ، والسبب في ذلك أن الأوائل من المسلمين كانوا حينما يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، يعيدون بعده كل جملة قرآنها فإذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ قالوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا قال : " الحمد لله رب العالمين " ، قالوا : " الحمد لله رب العالمين "

فإنهم الله عز وجل إلى أن يتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وهم يستمعون إليه  
دون ترديد للقراءة .

(65/302)

---

وقال آخرون من العلماء : الإنصات للقرآن الكريم يكون في الصلاة ، وفي خطبة الجمعة أو  
العيدين ، لأنها تشتمل على آيات من القرآن ، ولكن اشتغالها على الآيات أقل مما يقوله  
الخطيب ، ونبه البعض إلى أن الإنصات للخطبة ثبت بدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام :  
" إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت " .  
إذن الإنصات للخطبة جاء بدليل من السنة .

وهناك قول بأن الاستماع مطلوب للقرآن في أي وضع من الأوضاع حين يُقرأ ؛ ففي هذا  
احترامٌ ومهابةٌ لكلام الله عز وجل ، وينسب هذا القول إلى إمامنا وسيدنا ومولانا سيدي  
أبي عبد الله الحسين " ، فيقول :

إذا قرئ القرآن سواً إن كنت في صلاة أو كنت في خطبة ، أو كنت حراً فأنصت ؛ لأن  
الحق سبحانه وتعالى أراد أن يميز القرآن على مطلق الكلام ، فميزه بأشياء ، إذا قرئ  
نصت له ، وإذا مس المصحف لا بد أن يكون على " وضوء " حتى لا يجترئ الناس

وَيَسُّوا المصحف كأي كتاب من الكتب ، وهذا يربي المهابة فلا تمسك المصحف إلا وأنت متوضئ ، فإذا علمنا أولادنا ، نقول للواحد منهم : لا تقرب المصحف إلا وأنت متوضئ ؛ فتنشأ المهابة في نفس الولد .

وأيضاً في " الكتابة " شاء الحق تبارك وتعالى لبعض ألفاظه كتابة خاصة غير كتابة التعميد الإيملائي ؛ حتى يكون للقرآن قداسة خاصة ، فهو كتاب فريد وليس ككل كتاب وكلامه ليس ككل كلام . ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [ الأعراف : 204 ] .

(66/302)

---

وبعض العلماء قال : ليس المطلوب مجرد الاستماع بالأذان ، بل المقصود بالاستماع هنا هو أن نستجيب لمطالبه ، ألا تقولون لبعضكم حين يدعو بعضكم لبعض : " الله يسمع دعائك " ؟ إنك تقولها وأنت تعلم أن الله سامعك ، ولكنك تقصد بها أن يستجيب سبحانه وتعالى لهذا الدعاء ، إذن فالاستماع للقرآن يقتضي الاستجابة لمطلوبات القرآن . لماذا ؟ لننال الرحمة من الحق فهو الرحمن الرحيم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

ونعلم أن " لعل " و " عسى " حين تقال يقصد بها الرجاء ، و " ليت " تعني التمني وهو

مستحيل ولا يُتَوَقَّع ، ونحن نتمنى لنظهر أن هذا أمر محبوب لنا ، لكننا نعلم أنه مستحيل ،

مثلما قال الشاعر العجوز :

ألا ليت الشباب يعود يوماً . . . فأخبره بما فعل المشيب

إنه يعلم يقيناً أن الشباب لن يعود ولكن قوله يدل على أن الشباب فترة محبوبة . ومثل قول

الشاعر :

ليت الكواكب تدنولي فأنظمها . . . عقود مدح فما أرضى لكم كلم

ولن تدنو الكواكب .

إذن ساعة تسمع " عسى " أو " لعل " يتبادر إلى ذهنك أن هذا رجاء لأن يحدث ، وإذا

كان رجاء من الله ، فهو رجاء من كريم لا بد له من واقع .

ويقول الحق بعد ذلك :

والذكر مرور الشيء ، إن كان بالبال ، فهو ذكر في النفس ، وإن كان باللسان ولا يُسْمَعُ الغير

وَيُسْمَعُكَ أنت فهذا ذكر السر ، وإن كان جهراً فهو قسمان ؛ جهراً مقبول ، وجهراً غير مقبول

، والجهر غير المقبول هو أن يتحول الذكر إلى إزعاج والعياذ بالله ، ولذلك يقول الحق تبارك

وتعالى : ﴿ . . . وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء

: 110 ] .

---

ولعل إخواننا القراء يتنبهون إلى هذه الآية؛ تنبهاً يجعلهم يلتفتون إلى أداء أمر الله في هذا المجال فلا يجهرون ولا يرفعون أصواتهم به لدرجة الإزعاج، لأنني أقول لكل واحد منهم: إن ربك لم يطلب منك حتى الجهر، إنما طلب دون الجهر، وأقول ذلك خاصة لهؤلاء الذين يفسدون نعمة الله على خلقه؛ فيصيحون ليلاً ويمنعونهم من رحمة الله ليلاً التي قال عنها: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: 73].

فلا تفسدوا على الناس رحمة ربنا؛ لأن الدعوة إلى الله ليست صياحاً على المنابر، إلا إذا كنتم تصنعون لأنفسكم دعاية إعلامية على مساجد الله وعلى منابر الله. وهذا أمر مرفوض وغير مقبول شرعاً. ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ والحق تبارك وتعالى يقول مرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41].  
ومرة يقول: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾

وقوله: "اذكر الله" يستشعر سماعها التكليف؛ لأن الله هو المعبود، والمعبود هو المطاع في الأوامر والنواهي.

أما قوله: "اذكر ربك" فهو تذكير لك بما حباك به من أفضال؛ خلقك ورباك وأعطاك من

فيض نعمه ما لا يعد ولا يحصى . فاذا ذكر ربك ؛ لأنك إن لم تعشقه تكليفاً ، فأنت قد عشقته لأنه ممدك بالنعم ، وسبحانه يتفضل علينا ويوالينا جميعاً بالنعم .

(68/302)

---

وأضرب لك هذا المثل - والله المثل الأعلى وهو منزه عن التشبيه - وأنت لك أولاد ، وتعطي لهم مصروفاً ، وحين تعطي لهم المصروف كل شهر ، تجدهم لا يحرصون على أن يروك إلا كل شهر ، لكن إن كنت تعطي مصروفهم يومياً فأنت تلتفت لتجدهم حولك ، فإن كنت نائماً يدخل ابنك لغرفة نومك يسير بجانبك ويتحنح ليقول إنه يحتاج لشيء موجود بالغرفة ، فما بالك وأنت بكل وجودك عبد لإحسان ربك ؟ وما دمت عبد الإحسان فاذا ذكر من يحسن إليك ، اذكر ربك دائماً .

واذكره على حالين : الأول تضرعاً . أي بذلة ، لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذلة عبودية لمقام الربوبية ، واذكر ربك " خيفة " أي خائفاً متضرعاً ؛ لأنك كلما ذلت له يعزك ، ولذلك نجد العبودية مكروهة في البشر وهي استعباد ، والناس ينفرون ممن يستعبدهم ؛ لأن عبودية الإنسان لمساويه طغيان كبير وظلم عظيم فهي تعطي خير العبد للسيد ، ولكن عبوديتك لله تعطي خير الله لك . ولذلك نجد



الحق يمتن على رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ  
المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ  
﴿ [الإسراء: 1] .

وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة كبرى بمجاءث الإسراء ، وكان الحديث عنها  
بامتنان من الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .  
والشاعر المؤمن يقول :

حسب نفسي عزاً بأبي عبد . . . يحتفي بي بلامواعيد رب  
هو في قدسه الأعز ولكن . . . أنا ألقى متى وأين أحب

(69/302)

---

وأنت أيها العبد المؤمن تلقى الله متى أردت ، وإذا أسلمت زمامك للإيمان ؛ فالزمام في يدك  
. يكفي أن تنوي الصلاة وتقول : الله أكبر فتكون في حضرته سبحانه سواء كنت في البيت  
أو في الشارع أو في أي مكان . وفي منتهى العزلة لك . ﴿واذكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا  
وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ . . . ﴾ [الأعراف: 205] .

ولم يقل هنا رب العالمين : بل ربك أنت يا محمد ، وهذه قمة العطاءات التي جاءت للناس ،

فهذا العطاء الذي جاء بمحمد رسولا ، نعمة ومنة من الله على المؤمنين برسالته ، وبعد ذلك ينسب لكل مسلم العطاء الذي جاء لمحمد . وقوله تعالى لرسوله : ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ أي أنه سبحانه لم يجعل دليل عنايته بك مقصورا على ما يشاهد في الخارج والبعيد عنك فقط ؛ لأنك قد لا ترى شيئا في الكون أو لا تسمع شيئا في الكون ؛ لأن الكون منفصل عنك ، إنما انظر إلى نفسك أنت وستجد الآيات كلها تذكرك بخالقك ، ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : 21] .

فقبل أن يجعل ربنا الدليل في الكون الذي حولك ، جعل لك الدليل أيضا في نفسك ؛ لأن نفسك لا تفارقك وأنت أعلم بملكاتنا وبجوارحها ، وبنوازعها ، ولهذا كان التضرع إلى الله والخيفة منه لهما مجال هنا ؛ لأنك تستطيع أن ترى سر صنعه فيك ، وستجد الكثير من الآيات ، وهي آيات أكبر منك ، لذلك أنت تتضاءل أمام من وهب لك كل هذا ، وتخاف ألا تؤدي حقه لديك .

ونعود إلى قول الله تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ﴾ والذكر حدث ، والحدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان . والغدو والآصال زمانان يستوعبان النهار ؛ فالغدو هو أول النهار ، والآصال هو من العصر للمغرب ، مثلما نقول " شمس الأصيل " .

---

وهذه الآية الكونية تتكرر في القرآن الكريم كثيرا ، فالحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا \* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: 41 - 42] .

وكما يقول عز وجل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا \* لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: 8 - 9] .

و"الأصيل" هنا مشترك ، ومقابل الأصيل يطلق الحق عليه مرة بكرة ، وأخرى يطلق عليه : الغدو ، وسبحانه القائل : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلَ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ لِيُذَكَّرُوا فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغَدُوِّ وَالْأَصِيلِ ﴾ [النور: 35 - 36] .

(71/302)

---

إنك ساعة أن تقرأ " في بيوت " تعرف أن هنا حدثاً ؛ لأن قوله : " في بيوت " شبه جملة " في معنى الظرف ، وإذا استقرأت ما قبلها ، لم تجد لها مُتَعَلِّقاً . والحظ إذن أن ما قبلها هو ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ ﴿ فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ لِيَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَهُ ﴾ فأنت حين تذهب إلى المسجد لتلقى الله ، فذلك نور ، وتصلي له فذلك نور ، وتخرج من هذا النور بنور يهبط عليك في بيته ، وكل هذا نور على نور ، فمن أراد أن يتعرض لنفحات نور الله عز وجل ؛ فليكثر من الذهاب إلى بيوت الله ، وللمساجد مهابة النور لأنها مكان الصلاة ، ونعلم أن الصلاة هي الحلوة التي بين العبد وربه ، وكان رسول الله إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . وأنت إذا ما اتبعت حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وتصلين ركعتين لله فلن حزبك أمر وعزت عليك مسألة وكانت فوق أسبابك ثم ذهبت بها إلى الله فلن يخرجك الله إلا راضياً . ﴿ فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ لِيَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ . والغدو والآصال أو البكرة والأصيل كما عرفنا هي أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل . ولماذا أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل ؟

لأن هذه الأزمنة هي التي يطلب فيها الذكر . فقبل أن تخرج للعمل في أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة ، وفي نهاية النهار أنت تحتاج أن تركز إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم ، لذلك إياك أن تشغلك الحياة عن واهب الحياة ، ولك أن تذكر ربنا وأنت تعيش مع كل عمل تؤديه وتقوم به وأن تقابل كل نتيجة للعمل

بكلمة: (الحمد لله) وعندما ترى أي جميل من الوهاب سبحانه وتعالى يجب عليك أن تقول: "ما شاء الله" وعندما ترى أي شيء يعجبك تقول: (سبحان الله).

(72/302)

---

ولذلك حينما دعا الله خلقه المؤمنين به إلى الصلاة قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الجمعة: 9 ] .

وهذا التكليف في صلاة الجمعة المفروضة كصلاة للجماعة، والجماعة مطلوبة فيها، ومن الضروري أن تواجد فيها كجمع؛ لأن الجماعة مشروطة فيها فلا تصح بدون الجماعة .  
ونعرف أن الصلاة إنما هي ذكر لربنا، فماذا بعدها؟ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [ الجمعة: 10 ] .

أي إياك أن يشغلك اتشارك في الأرض وابتغواك من فضل الله، والأخذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله، بل عليك أن تذكره سبحانه وتعالى: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(73/302)

## "فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (204)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة في قوله

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قال : نزلت في رفع الأصوات ، وهم خلف

رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾

﴿ يعني في الصلاة المفروضة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : صلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ خلفه قوم ،

فنزلت ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم إذا قرأ في الصلاة أجابه من وراءه ، إذا قال : بسم الله الرحمن قالوا

مثل ما يقول حتى تنتضي فاتحة الكتاب والسورة ، فلبث ما شاء الله أن يلبث ثم نزلت ﴿

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا . . . الآية . فقرأ وأنصتوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن مجاهد قال : قرأ رجل من

الأنصار خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة، فأنزلت ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا... ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن مغفل أنه سئل أكل من سمع القرآن يُقرأُ وجب عليه الاستماع والإنصات؟ قال: لا. قال: إنما نزلت هذه الآية ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ في قراءة الإمام، إذا قرأ الإمام فاستمع له وأنصت.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود. أنه صلى بأصحابه فسمع ناساً يقرأون خلفه، فلما انصرف قال: أما أن لكم أن تفهموا، أما أن لكم أن تعقلوا ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ كما أمركم الله.

(74/302)

---

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني في الأوسط وابن مردويه عن أبي وائل عن ابن مسعود أنه قال في القراءة خلف الإمام: انصت للقرآن كما أمرت فإن في الصلاة شغلاً وسيكفيك ذلك الإمام.

وأخرج ابن أبي شيبة عن علي قال: من قرأ خلف الإمام فقد أخطأ الفطرة.

وأخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن ثابت قال: لا قراءة خلف الإمام .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنما جعل

الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فانصتوا " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من كان له إمام

فقراءته له قراءة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم قال : أول ما أحدثوا القراءة خلف الإمام ، وكانوا لا

يقرأون .

وأخرج ابن جرير عن الزهري قال : نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار ، كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم كلما قرأ شيئاً قرأه ، فنزلت ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له

وأنصتوا ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي العالية " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا

صلى بأصحابه فقرأ قرأ أصحابه خلفه ، فنزلت هذه الآية ﴿ وإذا قرىء القرآن

فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ فسكت القوم وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر قال : كانت بنو إسرائيل إذا قرأت أئمتهم جاوبوهم ، فكره

الله ذلك لهذه الأمة ، قال ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن إبراهيم قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ



ورجل يقرأ ، فنزلت ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ .  
وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن طلحة بن مصرف في قوله ﴿ وإذا قرىء القرآن  
فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ قال : ليس هؤلاء بالأئمة الذين أمرنا بالإنصات لهم .

(75/302)

---

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن  
مردويه والبيهقي في سننه من طريق أبي هريرة قال : كانوا يتكلمون في الصلاة ، فنزلت ﴿  
وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ .  
وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود " أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه  
وسلم وهو يصلي فلم يرد عليه - وكان الرجل قبل ذلك يتكلم في صلاته ويأمر بحاجته -  
فلما فرغ رد عليه ، وقال : إن الله يفعل ما يشاء وإنها نزلت ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا  
له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ، فجاء القرآن  
﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه عن عبد الله بن مغفل قال : كان الناس يتكلمون في

الصلاة، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَكُمْ تَرَحْمُونَ ﴾  
فنهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن الكلام في الصلاة.

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عطاء قال: بلغني أن المسلمين كانوا يتكلمون في الصلاة  
كما يتكلم اليهود والنصارى حتى نزلت ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَكُمْ  
تَرَحْمُونَ ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة أول ما  
أمروا بها، كان الرجل يجيء وهم في الصلاة فيقول لصاحبه: كم صليتم؟ فيقول: كذا  
وكذا، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ فأمروا  
بالاستماع والإنصات، علم أن الإنصات هو أحرى أن يستمع العبد ويعيه ويحفظه، علم أن  
لن يفقهوا حتى ينصتوا، والإنصات باللسان والاستماع بالأذنين.

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال: كانوا يتكلمون في الصلاة، فأنزل الله ﴿ وَإِذَا  
قُرِئَ الْقُرْآنُ . . . ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ قال: نزلت في صلاة الجمعة، وفي صلاة العيدين، وفيما جهر به من القراءة في الصلاة.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: المؤمن في سعة من الاستماع إليه إلا في صلاة الجمعة، وفي صلاة العيدين، وفيما جهر به من القراءة في الصلاة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قال: نزلت في رفع الأصوات خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة، وفي الخطبة لأنها صلاة، وقال: من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فلا صلاة له.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في هذه الآية ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قال: هذا في الصلاة، والخطبة يوم الجمعة.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال: وجب الإنصات في اثنتين، في الصلاة والإمام يقرأ، ويوم الجمعة والإمام يخطب.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: ما أوجب الإنصات يوم الجمعة؟ قال: قوله ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قال: ذاك زعموا في الصلاة وفي الجمعة؟ قلت: والإنصات يوم الجمعة كالإنصات في القراءة سواء. قال: نعم.

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن في قوله ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قال: عند الصلاة المكتوبة، وعند الذكر.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الكلبى قال: كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار، فأنزل الله ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ . . . . ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ . . . ﴾ الآية. قال: في الصلاة، وحين ينزل الوحي عن الله عز وجل.

(77/302)

---

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد . أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو آية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً قال: السكوت.

وأخرج أبو الشيخ عن عثمان بن زائدة . أنه كان إذا قرىء عليه القرآن غطى وجهه بثوبه ، ويتأول من ذلك قول الله ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ فيكره أن يشغل بصره وشيئاً من جوارحه بغير استماع.

وأخرج أحمد والبيهقي في شعب الإيمان بسند حسن عن أبي هريرة . أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال " من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(78/302)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ الآية .

قوله " له " متعلقٌ بـ : اسْتَمِعُوا على معنى لأجله ، والضمير للقرآن ، وقال أبو البقاء : يجوز أن يكون بمعنى لله ، أي لأجله فأعاد الضمير على الله وفيه بعدٌ ، وجوز أيضاً أن تكون اللام زائدة : أي فاستمعوه ، وقد تقدم أن هذا لا يجوز عند الجمهور إلا في موضعين إما تقديم المعمول ، أو كون العامل فرعاً ، وجوز أيضاً أن تكون بمعنى إلى ، ولا حاجة إليه .

قوله " وأنصتوا " الإنصاتُ : السُّكوتُ للاستماع .

قال الكميّ : [ الطويل ]

2666 - أبوك الذي أجدي علي بنصره . . .

فأنصت عني بعده كل قائل

قال الفراء: ويقال: نصت ونصت بمعنى واحد، وقد جاء أنصت متعدياً. انتهى انتهى.

اه ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 438.439 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204) ﴾

استمعوا بسمع الإيمان والتصديق، وأنصتوا (بصون) الخواطر عن معارضات الاعتراض، ومطالبات الاستكشاف. ومن باشر التحقيق سره لازم التصديق قلبه.

(79/302)

---

والإنصات - في الظاهر - من آداب أهل الباب، والإنصات - بالسرائر - من آداب أهل البساط، قال الله تعالى في نعت توأصي الجن بعضهم لبعض عند شهود الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ [الأحقاف: 29]؛ فإذا كان الحضور إلى الواسطة عليه السلام يوجب هذه الهيبة فلزوم الهيبة وحفظ الأدب عند حضور القلب بشهود الرب أولى وأحق، قال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: 108]. انتهى انتهى. اه ﴿ لطائف الإشارات ج 1 ص 600 ﴾

كلام نفيس للإمام النووي

قال عليه الرحمة :

الباب الرابع في آداب معلم القرآن ومتعلمه هذا الباب مع البابين بعده مقصود الكتاب وهو  
طويل منتشر جدا فإني أشير إلى مقاصده مختصرة في فصول ليسهل حفظه وضبطه إن

شاء الله تعالى

فصل أول ما ينبغي للمقريء والقارئ أن يقصدا بذلك رضا الله تعالى قال الله تعالى ﴿ وما  
أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة  
﴿ أي الملة المستقيمة وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال  
بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى وهذا الحديث من أصول الإسلام وروينا عن ابن عباس  
رضي الله عنهما قال إنما يعطى الرجل على قدر نيته وعن غيره إنما يعطى الناس على قدر  
نياتهم وروينا عن الأستاذ أبي القاسم القشيري رحمه الله تعالى قال الإخلاص أفراد الحق في  
الطاعة بالقصد وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق  
أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة أو مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب

إلى الله تعالى قال ويصح أن يقال الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين وعن

حذيفة المرعشي رحمه الله

(81/302)

---

تعالى الإخلاص استواء أفعال العبد في الظاهر والباطن وعن ذي النون رحمه الله تعالى قال  
ثلاث من علامات الإخلاص استواء المدح والذم من العامة ونسيان رؤية العمل في الأعمال  
واقضاء ثواب الأعمال في الآخرة وعن الفضيل بن عياض رضي الله عنه قال ترك العمل  
لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما وعن سهل  
التستري رحمه الله تعالى قال نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا أن تكون  
حركته وسكونه في سره وعلايته لله تعالى وحده لا يمازجه شيء لا نفس ولا هوى ولا دنيا  
وعن السري رضي الله عنه قال لا تعمل للناس شيئاً ولا تترك لهم شيئاً ولا تغط لهم شيئاً  
ولا تكشف لهم شيئاً وعن القشيري قال أفضل الصدق استواء الصدق والعلانية وعن  
الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى قال الصادق هو الذي لا يبالي ولو خرج عن كل قدر له في  
قلوب الخلائق من أجل صلاح قلبه ولا يجب إطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله  
ولا يكره إطلاع الناس على السيء من عمله فإن كراهته لذلك دليل على أنه يجب الزيادة



عندهم وليس هذا من أخلاق الصديقين وعن غيره إذا طلبت الله تعالى بالصدق أعطاك  
الله مرآة تبصر فيها كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة وأقاويل السلف في هذا كثيرة  
أشرنا إلى هذه الأحرف منها تنبيها على المطلوب وقد ذكرت جملا من ذلك مع شرحها في  
أول شرح المذهب وضمنت إليها من آداب العالم والمتعلم والفقير والمتقنه ما لا يستغني عنه  
طالب العلم والله أعلم فصل وينبغي أن لا يقصد به توصلا إلى غرض من أغراض

(82/302)

---

الدنيا من مال أو رياسة أو جاهة أو ارتفاع على أقرانه أو ثناء عند الناس أو صرف وجوه  
الناس إليه أو نحو ذلك ولا يشوب المقرئ إقراءه بطمع في رفق يحصل له من بعض من يقرأ  
عليه سواء كان الرفق مالا أو خدمة وإن قل ولو كان على صورة الهدية التي لولا قراءته عليه  
لما أهداها إليه قال تعالى ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث  
الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ وقال تعالى ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا  
له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ الآية وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم من تعلم علما يتبغي به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضا من  
الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة رواه أبو داود بإسناد صحيح ومثله أحاديث كثيرة

وعن أنس وحذيفة وكعب بن مالك رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من طلب العلم ليماري به السفهاء أو يكثر به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوا مقعده من النار رواه الترمذي من رواية كعب بن مالك وقال أدخله النار فصل وليحذر كل الحذر من قصده التكثر بكثرة المشتغلين عليه والمختلفين إليه وليحذر من كراهته قراءة أصحابه على غيره ممن ينتفع به وهذه مصيبة يتلى بها بعض المعلمين الجاهلين وهي دلالة بينة من صاحبها على سوء نيته وفساد طويته بل هي حجة فاطعة على عدم إرادته بتعليمه وجه الله تعالى الكريم فإنه لو أراد الله بتعليمه لما كره ذلك بل قال لنفسه أنا أردت الطاعة بتعليمه وقد حصلت وقد قصد بقراءته على غيري زيادة علم فلا عتب عليه وقد روينا في مسند

(83/302)

---

الإمام المجمع على حفظه وإمامته أبي محمد الدارمي رحمة الله عليه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال يا حملة القرآن أو قال يا حملة العلم اعملوا به فإنما العلم من عمل بما علم ووافق علمه عمله وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا يباهي بعضهم بعضا حتى أن الرجل ليغضب

على جلسه أن يجلس إلى غيره ويده أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى وقد صح عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم يعني علمه وكتبه أن لا ينسب إلي حرف منه فصل وينبغي للمعلم أن يتخلق بالحاسن التي ورد الشرع بها والخصال الحميدة والشيم المرضية التي أرشدها الله إليها من الزهادة في الدنيا والتقلل منها وعدم المبالاة بها وبأهلها والسخاء والجود ومكارم الأخلاق وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة والحلم والصبر والتنزه عن دنيا المكاسب وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع واجتناب الضحك والإكثار من المزاح وملازمة الوظائف الشرعية كالتنظيف وتقليم يازالة الأوساخ والشعور التي ورد الشرع بإزالتها كقص الشارب وتقليم الظفر وتسريح اللحية وإزالة الروائح الكريهة والملابس المكروهة وليحذر كل الحذر من الحسد والرياء والعجب واحتقار غيره وإن كان دونه وينبغي أن يستعمل الأحاديث الواردة في التسبيح والتهليل ونحوهما من الأذكار والدعوات

(84/302)

---

وأن يراقب الله تعالى في سره وعلايته ويحافظ على ذلك وأن يكون تعويله في جميع أموره على الله تعالى فصل وينبغي له أن يرفق بمن يقرأ عليه وأن يرحب به ويحسن إليه بحسب

حاله فقد روينا عن أبي هرون العبدى قال كنا نأتي أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه  
فيقول مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن  
الناس لكم تبع وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا  
بهم خيرا رواه الترمذى وابن ماجه وغيرهما وروينا نحوه في مسند الدارمى عن أبي  
الدرداء رضى الله عنه فصل وينبغى أن يبذل لهم النصيحة فإن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قال الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم رواه مسلم ومن  
النصيحة لله تعالى ولكتابه إكرام قارئه وطالبه وإرشاده إلى مصلحته والرفق به ومساعدته  
على طلبه بما أمكن وتأليف قلب الطالب وأن يكون سمحا بتعليمه في رفق متلظفا به  
ومحرضاه على التعلم وينبغى أن يذكره فضيلة ذلك ليكون سببا في نشاطه وزيادة في  
رغبته ويزهده في الدنيا ويصرفه عن الركون إليها والاعتزاز بها ويذكره فضيلة الاشتغال  
بالقرآن وسائر العلوم الشرعية وهو طريق الحاضرين العارفين وعباد الله الصالحين وأن ذلك  
رتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وينبغى أن يشفق على الطالب ويعتني بمصالحه كاعتنائه  
بمصالح ولده ومصالح نفسه ويجري المتعلم مجرى ولده في الشفقة عليه والصبر على جفائه  
وسوء أدبه ويعذره في قلة أدبه في بعض

---

الأحيان فإن الإنسان معرض للنقائص لا سيما إن كان صغير السن وينبغي أن يجب له ما  
يجب لنفسه من الخير وأن يكره له ما يكره لنفسه من النقص مطلقا فقد ثبت في الصحيحين  
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يجب  
لنفسه وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال أكرم الناس علي جليسي الذي يتخطى الناس  
حتى يجلس إلي لو استطعت أن لا يقع الذباب على وجهه لفعلت وفي رواية إن الذباب ليقع  
عليه فيؤذني وينبغي أن لا يتعاضم على المتعلمين بل يلين لهم ويتواضع معهم فقد جاء في  
التواضع لأحد الناس أشياء كثيرة معروفة فكيف بهؤلاء الذين هم بمنزلة أولاده مع ما هم  
عليه من الاشتغال بالقرآن مع ما لهم عليه من حق الصحبة وترددهم إليه وقد جاء عن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لينوا لمن تعلمون ولن تتعلمون منه وعن أبي أيوب  
السختياني رحمه الله قال ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعا لله عز وجل فصل  
وينبغي أن يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السنية والشيم المرضية ورياضة نفسه  
بالدقائق الخفية ويعوده الصيانة في جميع أموره الباطنة والجلية ويحرضه بأقواله وأفعاله  
المتكررات على الإخلاص والصدق وحسن النيات ومراقبة الله تعالى في جميع اللحظات  
ويعرفه أن لذلك تفتح عليه أنوار المعارف وينشرح صدره ويتفجر من قلبه ينابيع الحكم

واللطائف وبارك له في علمه وحاله ويوفق في أفعاله وأقواله فصل تعليم المتعلمين فرض كفاية  
فإن لم يكن من يصلح إلا

(86/302)

---

واحد تعين وإن كان هناك جماعة يحصل التعليم ببعضهم فإن امتنعوا كلهم أثموا وإن قام به  
بعضهم سقط الحرج عن الباقي وإن طلب من أحدهم وامتنع فأظهر الوجهين أنه لا يأتهم لكن  
يكره له ذلك إن لم يكن عذر فصل يستحب للمعلم أن يكون حريصا على تعليمهم مؤثرا ذلك  
على مصالح نفسه الدنيوية التي ليست بضرورية وأن يفرغ قلبه في حال جلوسه لإقراءهم من  
الأسباب الشاغلة كلها وهي كثيرة معروفة وأن يكون حريصا على تفهيمهم وأن يعطي كل  
إنسان منهم ما يليق به فلا يكثر على من لا يحتمل الإكثار ولا يقصر لمن يحتمل الزيادة  
ويأخذهم بإعادة محفوظاتهم ويثني على من ظهرت نجابته ما لم يخش عليه فتنة بإعجاب أو  
غيره ومن قصر عنفه تعنيفا لطيفا ما لم يخش عليه تنفيره ولا يحسد أحدا منه لبراعة تظهر  
منه ولا يستكثر فيه ما أنعم الله به عليه فإن الحسد للأجانب حرام شديد التحريم فكيف  
للمتعلم الذي هو بمنزلة الولد ويعود من فضيلته إلى معلمه في الآخرة الثواب الجزيل وفي الدنيا  
الثناء الجميل والله الموفق فصل ويقدم في تعليمهم إذا ازدحموا الأول فالأول فإن رضي الأول

بتقديم غيره قدمه وينبغي أن يظهر لهم البشر وطلاقة الوجه ويتفقد أحوالهم ويسأل عن  
غاب منهم فصل قال العلماء رضي الله عنهم ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح  
النية فقد قال سفيان وغيره طلبهم للعلم نية وقالوا طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله  
معناه كانت غايته أن صار لله تعالى

(87/302)

---

فصل ومن آدابه المتأكدة وما يعنى به أن يصون يديه في حال الإقراء عن العبت وعينيه عن  
تفريق نظرهما من غير حاجة ويقعد على طهارة مستقبل القبلة ويجلس بوقار وتكون ثيابه  
بيضا نظيفة وإذا وصل إلى موضع جلوسه صلى ركعتين قبل الجلوس سواء كان الموضع  
مسجداً أو غيره فإن كان مسجداً كان أكد فيه فإنه يكره الجلوس فيه قبل أن يصلي ركعتين  
ويجلس متربعا إن شاء أو غير متربع روى أبو بكر بن أبي داود السجستاني بإسناده عن  
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان يقرئ الناس في المسجد جاثيا على ركبته فصل  
ومن آدابه المتأكدة وما يعنى بحفظه أن لا يذل العلم فيذهب إلى مكان ينسب إلى من يتعلم  
منه ليتعلم منه فيه وإن كان المتعلم خليفة فمن دونه بل يصون العلم عن ذلك كما صانه عنه  
السلف رضي الله عنهم وحكاياتهم في هذا كثيرة مشهورة فصل وينبغي أن يكون مجلسه

واسعا ليتمكن جلساؤه فيه ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم خير المجالس  
أوسعها رواه أبو داود في سنته في أوائل كتاب الآداب بإسناد صحيح من رواية أبي سعيد  
الخدري رضي الله عنه فصل في آداب المتعلم جميع ما ذكرناه من آداب المعلم في نفسه آداب  
للمتعلم ومن آدابه أن يجتنب الأسباب الشاغلة عن التحصيل إلا سببا لا بد منه للحاجة  
وينبغي أن يطهر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول القرآن وحفظه واستثماره فقد صح عن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد  
كله وإذا فسدت فسدت

(88/302)

---

الجسد كله إلا وهي القلب وقد أحسن القائل بقوله يطيب القلب للعلم كما تطيب الأرض  
للزراعة وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويتأدب معه وإن كان أصغر منه سنا وأقل شهرة ونسبا  
وصالحا وغير ذلك ويتواضع للعلم فيتواضعه يدركه وقد قالوا نظما % العلم حرب للفتى  
المتعالي % كالسيل حرب للمكان العالي % وينبغي أن ينقاد لمعلمه ويشاوره في أموره ويقبل  
قوله كالمرضى العاقل يقبل قول الطبيب الناصح الحاذق وهذا أولى فصل ولا يتعلم إلا بمن  
تكلمت أهليته وظهرت ديانته وتحققت معرفته واشتهرت صيانه فقد قال محمد بن سيرين



ومالك بن أنس وغيرهما من السلف هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم وعليه أن ينظر معلمه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته ورجحانه على طبقته فإنه أقرب إلى انتفاعه به وكان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال اللهم استر عيب معلمي عني ولا تذهب بركة علمه مني وقال الربيع صاحب الشافعي رحمهما الله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلى هيبته له وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال من حق المعلم عليك أن تسلم على الناس عامة وتخصه دونهم بتحية وأن تجلس أمامه ولا تشيرن عنده بيدك ولا تغمزن بعينيك ولا تقولن قال فلان خلاف ما تقول ولا تغتابن عنده أحدا ولا تشاور جليسك في مجلسه ولا تأخذ بثوبه إذا قام ولا تلح عليه إذا كسل ولا تعرض أي تشبع من طول صحبته وينبغي أن

(89/302)

---

يتأدب بهذه الخصال التي أرشد إليها علي كرم الله وجهه وأن يرد غيبة شيخه إن قدر فإن تعذر عليه ردها فارق ذلك المجلس فصل ويدخل على الشيخ كامل الخصال متصفا بما ذكرناه في المعلم متطهرا مستعملا للسواك فارغ القلب من الأمور الشاغلة وأن لا يدخل بغير استئذان إذا كان الشيخ في مكان يحتاج فيه إلى استئذان وأن يسلم على الحاضرين إذا

دخل ويخصه دونهم بالتحية وأن يسلم عليه وعليهم إذا انصرف كما جاء في الحديث  
فليست الأولى أحق من الثانية ولا يتخطى رقاب الناس بل يجلس حيث ينتهي به المجلس إلا  
أن يأذن له الشيخ في التقدم أو يعلم من حالهم إثارة ذلك ولا يقيم أحدا في موضعه فإن آثره  
غيره لم يقبل اقتداء بابن عمر رضي الله عنهما إلا أن يكون في تقديمه مصلحة للحاضرين أو  
أمره الشيخ بذلك ولا يجلس في وسط الحلقة إلا لضرورة ولا يجلس بين صاحبين غير إذنهما  
وإن فسح له قعد وضم نفسه فصل وينبغي أيضا أن يتأدب مع رفقة وحاضري مجلس  
الشيخ فإن ذلك تأدب مع الشيخ وصيانة لمجلسه ويقعد بين يدي الشيخ قعدة المعلمين لا  
قعدة المعلمين ولا يرفع صوته رفعا بليغا من غير حاجة ولا يضحك ولا يكثر الكلام من غير  
حاجة ولا يعبث بيده ولا بغيرها ولا يلتفت يمينا ولا شمالا من غير حاجة بل يكون متوجها  
إلى الشيخ مصغيا إلى كلامه فصل ومما يتأكد الاعتناء به أن لا يقرأ على الشيخ في حال شغل

(90/302)

---

قلب الشيخ وملة واستيفازه وروع وغمه وفرحه وعطشه ونعاسه وقلقه ونحو ذلك مما  
يشق عليه أو يمينعه من كمال حضور القلب والنشاط وأن يغتم أوقات نشاطه ومن آدابه أن  
يتحمل جفوة الشيخ وسوء خلقه ولا يصدده ذلك عن ملازمته واعتقاده كماله ويتأول لأفعاله

وأقواله التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق أو  
عديمه وإن جفاه الشيخ ابتداءً هو بالاعتذار إلى الشيخ وأظهر أن الذنب له والعتب عليه  
فذلك أنفع له في الدنيا والآخرة وأنتى لقلب الشيخ وقد قالوا من لم يصبر على ذل التعليم بقي  
عمره في عماية الجهالة ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا ومنه الأثر المشهور عن  
ابن عباس رضي الله عنهما ذلت طالبا فعززت مطلوبها وقد أحسن من قال % من لم يذق  
طعم المذلة ساعة % قطع الزمان بأسره مذلولاً % فصل ومن آدابه المتأكدة أن يكون حريصاً  
على التعلم مواظباً عليه في جميع الأوقات التي يتمكن منه فيها ولا يقنع بالقليل مع تمكنه من  
الكثير ولا يحمل نفسه ما لا يطيق مخافة من الملل وضياح ما حصل وهذا يختلف باختلاف  
الناس والأحوال وإذا جاء إلى مجلس الشيخ فلم يجده انتظر ولازم بابه ولا يفوت وظيفته إلا  
أن يخاف كراهة الشيخ لذلك بأن يعلم من حاله الإقراء في وقت بعينه وأنه لا يقرئ في غيره  
وإذا وجد الشيخ نائماً أو مشغولاً بهم لم يستأذن عليه بل يصبر إلى استيقاظه أو فراغه أو  
ينصرف والصبر أولى كما كان ابن عباس رضي الله عنهما وغيره يفعلون وينبغي أن يأخذ  
نفسه بالاجتهاد في التحصيل في

(91/302)

---

وقت الفراغ والنشاط وقوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشاغلات قبل عوارض البطالة  
وارتفاع المنزلة فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تفقهوا قبل أن تسودوا  
معناه اجتهدوا في كمال أهليتكم وأتم أتباع قبل أن تصيروا سادة فإنكم إذا صرتم سادة  
متبوعين امتنعتم من التعلم لارتفاع منزلتكم وكثرة شغلكم وهذا معنى قول الإمام الشافعي  
رضي الله عنه تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه فصل وينبغي أن يبكر  
بقراءته على الشيخ أول النهار لحديث النبي صلى الله عليه وسلم اللهم بارك لأمتي في  
بكورها وينبغي أن يحافظ على قراءة محفوظة وينبغي أن لا يؤثر بنوته غيره فإن الإيثار  
مكروه في القرب بخلاف الإيثار بحفظ النفس فإنه محبوب فإن رأى الشيخ المصلحة في  
الإيثار في بعض الأوقات لمعنى شرعي فأشار عليه بذلك أمثل أمره ومما يجب عليه ويتأكد  
الوصية به ألا يحسد أحدا من رفقة أو غيرهم على فضيلة رزقه الله إياها وأن لا يعجب  
بنفسه بما خصه الله وقد قدمنا إيضاح هذا في آداب الشيخ وطريقه في نفي العجب أن  
يذكر نفسه أنه لم يحصل ما حصله بجوله وقوته وإنما هو فضل من الله ولا ينبغي أن يعجب  
بشيء لم يخترعه بل أودعه الله تعالى فيه وطريقه في نفي الحسد أن يعلم أن حكمة الله تعالى  
اقتضت جعل هذه الفضيلة في هذا فينبغي أن لا يعترض عليها ولا يكره حكمة أرادها الله  
تعالى ولم يكرهها

---

الباب الخامس في آداب حامل القرآن قد تقدم جمل منه في الباب الذي قبل هذا ومن آدابه أن يكون على أكمل الأحوال وأكرم الشمائل وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه إجلالا للقرآن وأن يكون مصونا عن دنيء الأكتساب شريف النفس مرتفعا على الجبارة والجفافة من أهل الدنيا متواضعا للصالحين وأهل الخير والمساكين وأن يكون متخشعا ذا سكينه ووقار فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضع لكم الطريق فاستبقوا الخيرات لا تكونوا عيالا على الناس وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليته إذا الناس نائمون وبنهاره إذا الناس مفطرون ومجزنه إذا الناس يفرحون وبكائه إذا الناس يمتألون وعن الحسن بن علي رضي الله عنه قال إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدها في النهار وعن الفضيل بن عياض قال ينبغي لحامل القرآن أن لا تكون له حاجة إلى أحد من الخلفاء فمن دونهم وعنه أيضا قال حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن

يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغوم مع من يلغوم تعظيماً لحق القرآن فصل ومن أهم ما يؤمر به أن يحذر كل الحذر من اتخاذ القرآن معيشة يكتسب بها فقد جاء عن عبد الرحمن بن شبيب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأوا القرآن ولا تأكلوا به ولا تجفوا عنه ولا تغلوا فيه وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم اقرأوا القرآن من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه رواه بمعناه من رواية سهل بن سعد معناه يتعجلون أجره إما بمال وإما سمعة ونحوها وعن فضيل بن عمرو رضي الله عنه قال دخل رجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجدا فلما سلم الإمام قام رجل فتلا آيات من القرآن ثم سأل فقال أحدهما إنا لله وإنا إليه راجعون سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيجيء قوم يسألون بالقرآن فمن سأل بالقرآن فلا تعطوه وهذا الإسناد منقطع فإن الفضل بن عمرو لم يسمع الصحابة وأما أخذ الأجرة على تعليم القرآن فقد اختلف العلماء فيه فحكى الإمام أبو سليمان الخطابي منع أخذ الأجرة عليه من جماعة من العلماء منهم الزهري وأبو حنيفة وعن جماعة أنه يجوز إن لم يشترطه وهو قول الحسن البصري والشعبي وابن سيرين وذهب عطاء ومالك والشافعي وآخرون إلى جوازها إن شارطه واستأجره إجارة صحيحة وقد جاء بالجواز الأحاديث الصحيحة واحتج من منعها بحديث عبادة بن الصامت أنه علم رجلا من أهل

الصفة القرآن فأهدى له قوسا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إن سرك أن تطوق بها  
طوقا من نار فاقبلها وهو حديث مشهور رواه أبو

(94/302)

---

داود وغيره وبآثار كثيرة عن السلف وأجاب المجوزون عن حديث عبادة بجوابين أحدهما  
أن في إسناده مقالا والثاني أنه كان تبرع بتعليمه فلم يستحق شيئا ثم أهدى إليه على سبيل  
العوض فلم يجز له الأخذ بخلاف من يعقد معه إجازة قبل التعليم والله أعلم فصل ينبغي أن  
يحافظ على تلاوته ويكثر منها وكان السلف رضي الله عنهم لهم عادات مختلفة في قدر ما  
يختمون فيه فروى ابن أبي داود عن بعض السلف رضي الله عنهم أنهم كانوا يختمون في كل  
شهرين ختمة واحدة وعن بعضهم في كل شهر ختمة وعن بعضهم في كل عشر ليال ختمة  
وعن بعضهم في كل ثمان ليال وعن الأكثرين في كل سبع ليال وعن بعضهم في كل ست وعن  
بعضهم في كل خمس وعن بعضهم في كل أربع وعن كثيرين في كل ثلاث وعن بعضهم في كل  
ليلتين وختم بعضهم في كل يوم وليلة ختمة ومنهم من كان يختم في كل يوم وليلة ختمتين ومنهم  
من كان يختم ثلاثا وختم بعضهم ثمان ختمات أربعا بالليل وأربعا بالنهار فمن الذين كانوا  
يختمون ختمة في الليل واليوم عثمان بن عفان رضي الله عنه وتميم الداري وسعيد بن جبير

ومجاهد والشافعي وآخرون ومن الذين كانوا يختمون ثلاث ختمات سليم بن عمر رضي  
الله عنه قاضي مصر في خلافة معاوية رضي الله عنه وروى أبو بكر بن أبي داود أنه كان  
يختم في الليلة أربع ختمات وروى أبو عمر الكندي في كتابه في قضاة مصر أنه كان يختم في  
الليلة أربع ختمات قال الشيخ الصالح أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه سمعت الشيخ  
أبا عثمان المغربي يقول كان ابن الكاتب رضي الله عنه يختم بالنهار أربع ختمات وبالليل  
أربع

(95/302)

---

ختمات وهذا أكثر ما بلغنا من اليوم والليلة وروى السيد الجليل أحمد الدورقي بإسناده  
عن منصور بن زاذان من عباد التابعين رضي الله عنه أنه كان يختم القرآن فيما بين الظهر  
والعصر ويختمه أيضا فيما بين المغرب والعشاء في رمضان ختمتين وسيأتي وكانوا يؤخرون  
العشاء في رمضان إلى أن يمضي ربع الليل وروى أبو داود بإسناده الصحيح أن مجاهد كان  
يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء وعن منصور قال كان علي الأزدي يختم فيما بين  
المغرب والعشاء كل ليلة من رمضان وعن إبراهيم بن سعد قال كان أبي يجتبي فما يجمل  
حبوته حتى يختم القرآن وأما الذي يختم في ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمن المتقدمين عثمان



بن عفان وتميم الداري وسعيد بن جبير رضي الله عنهم ختمة في كل ركعة في الكعبة وأما الذين ختموا في الأسبوع مرة فكثيرون نقل عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهم وعن جماعة من التابعين كعبد الرحمن بن يزيد وعلقمة وإبراهيم رحمهم الله والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه وكذا من كان مشغولا بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهزيمة وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة ويدل عليه الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن

(96/302)

---

العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم قال الترمذي حديث حسن صحيح والله أعلم وأما وقت الابتداء والختم لمن يختم في الأسبوع فقد روى أبو داود أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يفتح القرآن ليلة الجمعة ويختمه ليلة الخميس وقال

الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء الأفضل أن يختم ختمه بالليل وأخرى  
بالنهار ويجعل ختمه النهار يوم الاثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما ويجعل ختمه الليل ليلة  
الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما ليستقبل أول النهار وآخره وروى ابن أبي داود عن عمر  
بن مرة التابعي قال كانوا يحبون أن يختم القرآن من أول الليل أو من أول النهار وعن طلحة بن  
مصرف التابعي الجليل قال من ختم القرآن أية ساعة كانت من النهار صلت عليه الملائكة  
حتى يمسي وأية ساعة كانت من الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح وعن مجاهد مثله  
وروى الدارمي في مسنده بإسناده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال إذا وافق  
ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح وإذا وافق ختمه آخر الليل صلت  
عليه الملائكة حتى يمسي قال الدارمي هذا حسن من سعد وعن حبيب بن أبي ثابت  
التابعي أنه كان يختم قبل الركوع قال ابن أبي داود وكذا قال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى  
وفي هذا الفضل بقايا ستأتي إن شاء الله تعالى في الباب الآتي

(97/302)

---

فصل في المحافظة على القراءة بالليل ينبغي أن يكون اعتناؤه بقراءة الليل أكثر قال الله تعالى  
﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم

الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين  
﴿ وثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال نعم الرجل عبد الله لو  
كان يصلي من الليل وفي الحديث الآخر من الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال يا عبد الله  
لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل ثم تركه وروى الطبراني وغيره عن سهل بن سعد رضي الله  
عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شرف المؤمن قيام الليل والأحاديث والآثار في  
هذا كثيرة وقد جاء عن أبي الأحوص الحبشي قال إن كان الرجل ليطرق الفسطاط طروقاً  
أي يأتيه ليلا فيسمع لأهله دويًا كدوي النحل قال فما بال هؤلاء يأمنون ما كان أولئك  
يخافون وعن إبراهيم النخعي كان يقول اقرؤوا من الليل ولو حلب شاة وعن يزيد الرقاشي  
قال إذا أنا نمت ثم استيقظت ثم نمت فلانمت عيناي قلت وإنما رجحت صلاة الليل  
وقراءته لكونها أجمع للقلب وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف في الحاجات  
وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل فإن  
الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلا وحديث ينزل ربكم كل ليلة إلى سماء  
الدنيا حين يمضي شطر الليل فيقول هل من داع فاستجيب له الحديث وفي الحديث أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الليل ساعة يستجيب الله فيها الدعاء كل ليلة  
وروى صاحب بهجة الأسرار

---

بإسناده عن سليمان الأنمطي قال رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام يقول %  
لولا الذين لهم ورد يقومونا % وآخرون لهم سرد يصومونا % % لدككت أرضكم من تحتكم  
سحرا % لأنكم قوم سوء لا تطيعونا % واعلم أن فضيلة القيام بالليل والقراءة فيه تحصل  
بالقليل والكثير وكلما أكثر كان أفضل إلا أن يستوعب الليل كله فإنه يكره الدوام عليه وإلا أن  
يضر بنفسه ومما يدل على حصوله بالقليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله  
عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن  
قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقسطين رواه أبو داود وغيره  
وحكى الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال من صلى بالليل ركعتين فقد بات لله  
ساجدا وقائما فصل في الأمر بتعهد القرآن والتحذير من تعريضه للنسيان ثبت عن أبي  
موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعاهدوا هذا  
القرآن فولذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها رواه البخاري ومسلم وعن  
ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنما مثل صاحب القرآن  
كمثل الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت رواه مسلم والبخاري وعن  
أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضت علي أجور  
أمتي حتى

القذاة يخرجها الرجل من المسجد وعرضت علي ذنوب أمتي فلم أر ذنبا أعظم من سورة  
من القرآن أو آية أو تيها رجل ثم نسيها رواه أبو داود والترمذي وتكلم فيه وعن سعد بن  
عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله عز وجل يوم  
القيامة وهو أجذم رواه أبو داود والترمذي فصل فيمن نام عن ورده عن عمر بن الخطاب  
رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نام عن حزبه من الليل أو عن  
شيء منه فقراه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنه قرأه من الليل رواه مسلم وعن  
سليمان بن يسار قال قال أبو أسيد رضي الله عنه نمت البارحة عن وردي حتى أصبحت  
فلما أصبحت استرجعت وكان وردي سورة البقرة فرأيت في المنام كأن بقرة تنطحني رواه  
ابن أبي داود وروى ابن أبي الدنيا عن بعض حفاظ القرآن أنه نام ليلة عن حزبه فأري في  
منامه كأن قائلا يقول له % عجبت من جسم ومن صحة % ومن فتى نام إلى الفجر %  
والموت لا يؤمن خطفاته % في ظلم الليل إذا يسري %

الباب السادس في آداب القرآن

---

هذا الباب هو مقصود الكتاب وهو منتشر جدا وأنا أشير إلى أطراف من مقاصده كراهة الإطالة وخوفا على قارئه من الملالة فأول ذلك يجب على القارئ الإخلاص كما قدمناه ومراعاة الأدب مع القرآن فينبغي أن يستحضر في نفسه أنه يناجي الله تعالى ويقرأ على حال من يرى الله تعالى فإنه إن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه فصل وينبغي إذا أراد القراءة أن ينظف فاه بالسواك وغيره والاختيار في السواك أن يكون بعود من أراك ويجوز بسائر العيدان وبكل ما ينظف كالخرقة الخشنة والأشنان وغير ذلك وفي حصوله بالأصبع الخشنة ثلاثة أوجه لأصحاب الشافعي رحمهم الله تعالى أشهرها أنه لا يحصل والثاني يحصل إن لم يجد غيرها ولا يحصل إن وجد ويستاك عرضا مبتدئا بالجانب الأيمن من فمه وينوي به الإتيان بالسنة قال بعض العلماء يقول عند الاستياك اللهم بارك لي فيه يا أرحم الراحمين قال الماوردي من أصحاب الشافعي ويستحب أن يستاك في ظاهر الأسنان وباطنها وبمر السواك على أطراف أسنانه وكراسي أضراسه وسقف حلقه إمرارا رفيقا قالوا وينبغي أن يستاك بعود

متوسط لا شديد اليبوسة ولا شديد الرطوبة قال فإن اشتد يبسه لينه بالماء ولا بأس  
باستعمال سواك غيره ياذنه وأما إذا كان فمه نجسا بدم أو غيره فإنه يكره له قراءة القرآن  
قبل غسله وهل يجرم قال الروياني من أصحاب الشافعي عن والده يحتمل وجهين والأصح  
لا يجرم فصل يستحب أن يقرأ وهو على طهارة فإن قرأ محدثا جاز بإجماع المسلمين  
والأحاديث فيه كثيرة معروفة قال إمام الحرمين ولا يقال ارتكب مكروها بل هو تارك  
للأفضل فإن لم يجد الماء تيمم والمستحاضة في الزمن المحكوم بأنه طهر حكمها حكم  
المحدث وأما الجنب والحائض فإنه يجرم عليهما قراءة القرآن سواء كان آية أو أقل منها ويجوز  
لهما إجراء القرآن على قلبهما من غير تلفظ به ويجوز لهما النظر في المصحف وإمراره على  
القلب وأجمع المسلمون على جواز التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير والصلاة على  
النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الأذكار للجنب والحائض قال أصحابنا وكذا إن  
قالا لإنسان خذ الكتاب بقوة وقصدا به غير القرآن فهو جائز وكذا ما أشبهه ويجوز لهما أن  
يقولا عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون إذا لم يقصدا القرآن قال أصحابنا الخراسانيون  
ويجوز أن يقولوا عند ركوب الدابة سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وعند  
الدعاء ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار إذا لم يقصدا القرآن  
قال إمام الحرمين فإذا قال الجنب بسم الله والحمد لله فإن قصد القرآن عصى وإن قصد

الذكر أو لم يقصد شيئاً لم يأتهم ويجوز لهما قراءة ما نسخت تلاوته كالشيخ والشيخة إذا زنيا  
فارجموهما البتة

(102/302)

---

فصل إذا لم يجد الجنب أو الحائض ماء تيمم وبأحله القراءة والصلاة وغيرهما فإن أحدث  
حرمت عليه الصلاة ولم تحرم القراءة والجلوس في المسجد وغيرهما مما لا يحرم على المحدث  
كما لو اغتسل ثم أحدث وهذا مما يسأل عنه ويستغرب فيقال جنب يمنع من الصلاة ولا يمنع  
من قراءة القرآن والجلوس في المسجد من غير ضرورة كيف صورته فهذا صورته ثم الأقرب  
لا فرق مما ذكرناه بين تيمم الجنب في الحضر والسفر وذكر بعض أصحاب الشافعي أنه إذا  
تيمم في الحضر استباح الصلاة ولا يقرأ بعدها ولا يجلس في المسجد والصحيح جواز ذلك  
كما قدمناه ولو تيمم ثم صلى وقرأ ثم رأى ماء يلزمه استعماله فإنه يحرم عليه القراءة وجميع  
ما يحرم على الجنب حتى يغتسل ولو تيمم وصلى وقرأ ثم أراد التيمم لحدث أو لفريضة  
أخرى أو لغير ذلك فإنه لا يحرم عليه القراءة على المذهب الصحيح المختار وفيه وجه  
لبعض أصحاب الشافعي أنه لا يجوز والمعروف الأول أما إذا لم يجد الجنب ماء ولا تراباً فإنه  
لا يصلي لحزمة الوقت على حسب حاله ويحرم عليه القراءة خارج الصلاة ويحرم عليه أن



يقرأ في الصلاة ما زاد على فاتحة الكتاب وهل يحرم عليه قراءة الفاتحة فيه وجهان الصحيح المختار أنه لا يحرم بل يجب فإن الصلاة لا تصح إلا بها وكلما جازت الصلاة لضرورة مع الجنابة يجوز القراءة والثاني لا يجوز بل يأتي بالأذكار التي يأتي بها العاجز الذي لا يحفظ شيئاً من القرآن لأن هذا عاجز شرعاً فصار كالعاجز حساً والصواب الأول وهذه الفروع التي ذكرناها يحتاج إليها فهذا أشرت إليها بأوجز العبارات وإلا فلها أدلة وتتمات كثيرة معروفة في كتب الفقه والله أعلم

(103/302)

---

فصل ويستحب أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة في المسجد لكونه جامعاً للنظافة وشرف البقعة ومحصولاً لفضيلة أخرى وهي الاعتكاف فإنه ينبغي لكل جالس في المسجد الاعتكاف سواء أكثر في جلوسه أو أقل بل ينبغي أول دخوله المسجد أن ينوي الاعتكاف وهذا الأدب ينبغي أن يعتني به ويشاع ذكره ويعرفه الصغار والعوام فإنه مما يغفل عنه وأما القراءة في الحمام فقد اختلف السلف في كراهيتها فقال أصحابنا لا يكره ونقله الإمام المجمع على جلالته أبو بكر بن المنذر في الأشراف عن إبراهيم النخعي ومالك وهو قول عطاء وذهب إلى كراهته جماعات منهم

علي بن أبي طالب رضي الله عنه رواه عنه ابن أبي داود وحكى ابن المنذر عن جماعة من  
التابعين منهم أبو وائل شقيق بن سلمة والشعبي والحسن البصري ومكحول وقبيصة بن  
ذؤيب ورويناها أيضا عن إبراهيم النخعي وحكاها أصحابنا عن أبي حنيفة رضي الله عنهم  
أجمعين قال الشعبي تكره القراءة في ثلاثة مواضع في الحمامات والحشوش وبيوت الرحي  
وهي تدور وعن أبي ميسرة قال لا يذكر الله إلا في مكان طيب وأما القراءة في الطريق  
فالمختار أنها جائزة غير مكروهة إذا لم يلبث صاحبها فإن التهي عنها كرهت كما كره النبي  
صلى الله عليه وسلم القراءة للناعس مخافة من الخلط وروى أبو داود عن أبي الدرداء  
رضي الله عنه أنه كان يقرأ في الطريق وروى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه أذن فيها قال  
ابن أبي داود حدثني أبو الربيع قال أخبرنا ابن وهب قال

(104/302)

---

سألت مالكا عن الرجل يصلي من آخر الليل فيخرج إلى المسجد وقد بقي من السورة التي  
كان يقرأ فيها شيء قال ما أعلم القراءة تكون في الطريق وكره ذلك وهذا إسناد صحيح  
عن مالك رحمه الله فصل يستحب للقارئ في غير الصلاة أن يستقل القبلة فقد جاء في  
الحديث خير المجالس ما استقبل به القبلة ويجلس متخشعا بسكينة ووقار مطرقا رأسه

ويكون جلوسه وحده في تحسين أدبه وخضوعه كجلوسه بين يدي معلمه فهذا هو الأكمل  
ولو قرأ قائماً أو مضطجعا أو في فراشه أو على غير ذلك من الأحوال جاز وله أجر ولكن  
دون الأول قال الله عز وجل ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول  
الله صلى الله عليه وسلم يتكىء في حجري وأنا حائض وقرأ القرآن رواه البخاري ومسلم  
وفي رواية يقرأ القرآن ورأسه في حجري وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال إني  
أقرأ القرآن في صلاتي وأقرأ على فراشي وعن عائشة رضي الله عنها قالت إني لأقرأ  
حزبي وأنا مضطجعة على السرير فصل فإن أراد الشروع في القراءة استعاذ فقال أعوذ  
بالله من الشيطان الرجيم هكذا قال الجمهور من العلماء وقال بعض العلماء يتعوذ بعد  
القراءة لقوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ وتقدير الآية  
عند الجمهور إذا أردت القراءة فاستعد ثم صيغة التعوذ كما ذكرناه وكان جماعة من  
السلف يقولون أعوذ بالله السميع

(105/302)

---

العليم من الشيطان الرجيم ولا بأس بهذا ولكن الاختيار هو الأول ثم إن التعوذ مستحب وليس بواجب وهو مستحب لكل قارئ سواء كان في الصلاة أو في غيرها ويستحب في الصلاة في كل ركعة على الصحيح من الوجهين عند أصحابنا وعلى الوجه الثاني إنما يستحب في الركعة الأولى فإن تركه في الأولى أتى به في الثانية ويستحب التعوذ في التكبيرة الأولى في صلاة الجنازة على أصح الوجهين قال وينبغي أن يحافظ على قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة سوى براءة فإن أكثر العلماء قالوا إنها آية حيث تكتب في المصحف وقد كتبت في أوائل السور سوى براءة فإذا قرأها كان متيقنا قراءة الختمة أو السورة فإذا أخل بالبسملة كان تاركا لبعض القرآن عند الأكثرين فإذا كانت القراءة في وظيفة عليها جعل كالأسباع والأجراء التي عليها أوقاف وأرزاق كان الاعتناء بالبسملة أكثر لتيقن قراءة الختمة فإنه إذا تركها لم يستحق شيئا من الوقف عند من يقول بالبسملة آية من أول السورة وهذه دقيقة نفيسة يتأكد الاعتناء بها وإشاعتها فصل فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة والدلائل عليه أكثر من أن تحصر وأشهر وأظهر من أن تذكر فهو المقصود المطلوب وبه تشرح الصدور وتستير القلوب قال الله عز وجل ﴿

أفلا يتدبرون القرآن ﴿ وقال تعالى ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا ﴿ آياته

والأحاديث فيه كثيرة وأقاويل السلف فيه مشهورة وقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح وقد صعق جماعة من السلف عند القراءة ومات

جماعات حال القراءة وروينا عن بهز بن حكيم أن زرارة بن أوفى التابعي الجليل رضي الله عنه أمهم في صلاة الفجر فقراً حتى بلغ ﴿ فإذا تقر في الناقر فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ خرميتا قال بهز وكنت فيمن حمله وكان أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه وهو ربحانة الشام كما قال أبو القاسم الجنيد رحمه الله إذا قرئ عنده القرآن يصيح ويصعق قال ابن أبي داود وكان القاسم بن عثمان الجوني رحمه الله ينكر على ابن الحواري وكان الجوني فاضلاً من محدثي أهل دمشق تقدم في الفضل على ابن أبي الحواري قال وكذلك أنكره أبو الجوزاء وقيس بن جبير وغيرهم قلت والصواب عدم الإنكار إلا على من اعترف أنه يفعله تصنعاً والله أعلم وقال السيد الجليل ذو المواهب والمعارف إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه دواء القلب خمسة أشياء قراءة القرآن بالتدبر وخلاء البطن وقيام الليل والتضرع عند السحر ومجالسة الصالحين فصل في استحباب ترديد الآية للتدبر وقد قدمنا في الفصل قبله الحث على التدبر وبيان موقعه وتأثير السلف وروينا عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية يرددها حتى أصبح والآية ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية رواه النسائي وابن ماجه وعن تميم الداري رضي الله تعالى عنه أنه كرر هذه الآية

حتى أصبح ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا  
الصالحات ﴾ الآية وعن عبادة بن حمزة قال دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ  
﴿ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾

(107/302)

---

فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو فطال علي ذلك فذهبت إلى السوق فقضيت  
حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو ورويت هذه القصة عن عائشة رضي الله تعالى  
عنها وردد ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ رب زدني علما ﴾ وردد سعيد بن جبير ﴿  
وانقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ وردد أيضا ﴿ فسوف يعلمون إذا الأغلال في أعناقهم  
﴿ الآية وردد أيضا ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾ وكان الضحاك إذا تلا قوله تعالى ﴿ لهم  
من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ ردها إلى السحر فصل في البكاء عند قراءة  
القرآن قد تقدم في الفصلين المتقدمين بيان ما يحمل على البكاء في حال القراءة وهو صفة  
العارفين وشعار عباد الله الصالحين قال الله تعالى ﴿ ويجرون للأذقان ويكونون يزيدهم  
خشوعا ﴾ وقد وردت فيه أحاديث كثيرة وآثار السلف فمن ذلك عن النبي صلى الله  
عليه وسلم اقرؤوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته وفي رواية أنه كان في صلاة العشاء فتدل على تكريره منه وفي رواية أنه بكى حتى سمعوا بكاءه من وراء الصفوف وعن أبي رجاء قال رأيت ابن عباس وتحت عينيه مثل الشراك البالي من الدموع وعن أبي صالح قال قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فجعلوا يقرؤون القرآن ويبكون فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه هكذا

(108/302)

---

كنا وعن هشام قال ربما سمعت بكاء محمد بن سيرين في الليل وهو في الصلاة والآثار في هذا كثيرة لا يمكن حصرها وفيما أشرنا إليه ونبها عليه كفاية والله أعلم قال الإمام أبو حامد الغزالي البكاء مستحب مع القراءة وعندها وطريقه في تحصيله أن يحضر قلبه الحزن بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في ذلك فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر الخواص فليبك على فقد ذلك فإنه من أعظم المصائب فصل وينبغي أن يرتل قراءته وقد اتفق العلماء رضي الله عنهم على استحباب الترتيل قال الله تعالى ﴿ ورتل القرآن ﴾ ترتيلاً وثبت عن أم سلمة رضي الله عنها أنها نعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءة مفسرة حرفاً حرفاً رواه أبو داود والنسائي

والترمذي قال الترمذي حديث حسن صحيح وعن معاوية بن قررة رضي الله عنه عن  
عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة  
على ناقته يقرأ سورة الفتح يرجع في قراءته رواه البخاري ومسلم وعن ابن عباس رضي الله  
عنهما قال لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله وعن مجاهد أنه سئل عن  
رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر البقرة وحدها وزمنهما وركوعهما  
وسجودهما وجلوسهما واحد سواء فقال الذي قرأ البقرة وحدها أفضل وقد نهي عن  
الإفراط في الإسراع ويسمى الهذمة فثبت عن عبد الله بن مسعود أن رجلا قال له إني أقرأ  
المفصل في ركعة واحدة فقال عبد الله بن مسعود هكذا هكذا الشعر إن أقواما يقرؤون  
القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن

(109/302)

---

إذا وقع القلب فرسخ فيه نفع رواه البخاري ومسلم وهذا لفظ مسلم في إحدى رواياته قال  
العلماء والترتيل مستحب للتدبر ولغيره قالوا يستحب الترتيل للعجمي الذي لا يفهم معناه  
لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا في القلب فصل ويستحب إذا مر بآية رحمة  
أن يسأل الله تعالى من فضله وإذا مر بآية عذاب أن يستعيز بالله من الشر ومن العذاب أو



يقول اللهم اني أسألك العافية أو أسألك المعافاة من كل مكروه أو نحو ذلك وإذا مر بآية تنزيه  
لله تعالى نزهه فقال سبحانه وتعالى أو تبارك وتعالى أو جلّت عظمة ربنا فقد صح عن  
حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة  
فاتفتح البقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة فمضى فقلت يركع  
بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ ترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح  
سبح وإذا مر بسؤال سأل وإذا مر بتعوذ تعوذ رواه مسلم في صحيحه وكانت سورة النساء  
في ذلك الوقت مقدمة على آل عمران قال أصحابنا رحمهم الله تعالى ويستحب هذا  
السؤال والاستعاذة والتسبيح لكل قارئ سواء كان في الصلاة أو خارجاً منها قالوا  
ويستحب ذلك في صلاة الإمام والمنفرد والمأموم لأنه دعاء فاستووا فيه كالتأمين عقب  
الفاحة وهذا الذي ذكرناه من استحباب السؤال والاستعاذة هو مذهب الشافعي رضي  
الله عنه وجماهير العلماء رحمهم الله قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى ولا يستحب ذلك بل  
يكرهه في الصلاة والصواب قول الجماهير لما قدمناه

(110/302)

---

فصل ومما يعنى به ويتأكد الأمر به احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين  
القارئین مجتمعين فمن ذلك اجتناب الضحك واللغظ والحديث في خلال القراءة إلا كلاما  
يضر إليه ويمثل قول الله تعالى ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون  
﴿ وليقتد بما رواه ابن أبي داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا قرأ القرآن لا  
يتكلم حتى يفرغ منه ذكره في كتاب التفسير في قوله تعالى ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ ومن  
ذلك العبث باليد وغيرها فإنه يناجي ربه سبحانه وتعالى فلا يعبت بين يديه ومن ذلك  
النظر إلى ما يلهي ويبدد الذهن وأقبح من هذا كله النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه كالأمرد  
وغيره فإن النظر إلى الأمرد الحسن من غير حاجة حرام سواء كان بشهوة أو بغيرها سواء  
أمن الفتنة أو لم يأمنها هذا هو المذهب الصحيح المختار عند العلماء وقد نص على تحريمه  
الإمام الشافعي ومن لا يحصى من العلماء ودليله قوله تعالى ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من  
أبصارهم ﴾ ولأنه في معنى المرأة بل ربما كان بعضهم أو كثير منهم أحسن من كثير من  
النساء ويتمكن من أسباب الريبة فيه ويتسهل من طرق الشر في حقه ما لا يتسهل في حق  
المرأة فكان تحريمه أولى وأقوئل السلف في التنفير منهم أكثر من أن تحصى وقد سموهم  
الأتان لكونهم مستقذرين شرعا وأما النظر إليه في حال البيع والشراء والأخذ والإعطاء  
والتطب والتعليم ونحوها من مواضع الحاجة فجائز للضرورة لكن يقتصر الناظر على قدر

الحاجة ولا يديم النظر من غير ضرورة وكذا المعلم إنما يباح له النظر الذي يحتاج إليه ويحرم عليهم

(111/302)

---

كلهم في كل الأحوال النظرة بشهوة ولا يختص هذا بالأمر بل يحرم على كل مكلف النظر بشهوة إلى كل أحد رجلاً كان أو امرأة محرماً كانت المرأة أو غيرها إلا الزوجة أو المملوكة التي يملك الاستمتاع بها حتى قال أصحابنا يحرم النظر بشهوة إلى محارمه كأخته وأمه والله أعلم وعلى الحاضرين مجلس القراءة إذا رأوا شيئاً من هذه المنكرات المذكورة أو غيرها أن ينهوا عنه حسب الإمكان باليد لمن قدر وباللسان لمن عجز عن اليد وقدر على اللسان وإلا فليذكر بقلبه والله أعلم فصل لا تجوز قراءة القرآن بالعجمية سواء أحسن العربية أو لم يحسنها سواء كان في الصلاة أم في غيرها فإن قرأها في الصلاة لم تصح صلاته هذا مذهبنا ومذهب مالك وأحمد وداود وأبو بكر بن المنذر وقال أبو حنيفة يجوز ذلك وتصح به الصلاة وقال أبو يوسف ومحمد يجوز ذلك لمن لم يحسن العربية ولا يجوز لمن يحسنها فصل وتجوز قراءة القرآن بالقراءات السبع المجمع عليها ولا يجوز بغير السبع ولا بالروايات الشاذة المنقولة عن القراء السبعة وسيأتي في الباب السابع إن شاء الله تعالى اتفاق الفقهاء على

استتابة من أقرأ بالشواذ أو قرأ بها وقال أصحابنا وغيرهم لو قرأ بالشواذ في الصلاة بطلت  
صلاته إن كان عالماً وإن كان جاهلاً لم تبطل ولم تحسب له تلك القراءة وقد نقل الإمام أبو  
عمر بن عبد البر الحافظ إجماع المسلمين على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ وأنه لا يصلى خلف  
من يقرأ بها قال العلماء من قرأ الشاذ إن كان جاهلاً به أو بتحريمه عرف بذلك

(112/302)

---

فإن عاد إليه أو كان عالماً به عزر تعزيراً بليغاً إلى أن ينتهي عن ذلك ويجب على كل متمكن  
من الإنكار عليه ومنعه الإنكار والمنع فصل إذا ابتداء بقراءة أحد القراء فينبغي أن يستمر  
على القراءة بها ما دام الكلام مرتبطاً فإذا انقضى ارتباطه فله أن يقرأ بقراءة أحد من  
السبعة والأولى دوامه على الأولى في هذا المجلس فصل قال العلماء الاختيار أن يقرأ على  
ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ثم ما بعدها على الترتيب وسواء قرأ  
في الصلاة أو في غيرها حتى قال بعض أصحابنا إذا قرأ في الركعة الأولى سورة قل أعوذ برب  
الناس يقرأ في الثانية بعد الفاتحة من البقرة قال بعض أصحابنا ويستحب إذا قرأ سورة أن  
يقرأ بعدها التي تليها ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جعل هكذا للحكمة فينبغي أن  
يحافظ عليها إلا فيما ورد المشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة يقرأ في الأولى سورة

السجدة وفي الثانية هل أتى على الإنسان وصلاة العيد في الأولى قاف وفي الثانية اقتربت  
الساعة وركعتين سنة الفجر في الأولى قل يا أيها الكافرون وفي الثانية قل هو الله أحد  
وركعات الوتر في الأولى سبح اسم ربك الأعلى وفي الثانية قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة قل  
هو الله أحد والمعوذتين ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلي الأولى أو خالف الترتيب فقرأ  
سورة ثم قرأ سورة قبلها جاز فقد جاء بذلك آثار كثيرة وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله  
عنه في الركعة الأولى من الصبح بالكهف وفي الثانية بيوسف وقد كره جماعة مخالفة ترتيب  
المصحف وروى ابن أبي داود عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن

(113/302)

---

الإعلى تأليفه في المصحف وبإسناده الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه  
قيل له إن فلانا يقرأ القرآن منكوساً فقال ذلك منكوس القلب وأما قراءة السور من آخرها  
إلى أولها فممنوع منعا مؤكداً فإنه يذهب بعض ضروب الإعجاز وينزل حكمة ترتيب  
الآيات وقد روى ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي الإمام التابعي الجليل والإمام مالك بن  
أنس أنهما كرها ذلك وأن مالكا كان يعيبه ويقول هذا عظيم وأما تعليم الصبيان من آخر  
المصحف إلى أوله فحسن ليس هذا من هذا الباب فإن ذلك قراءة متفاضلة في أيام متعددة

مع ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم والله أعلم فصل قراءة القرآن من المصحف أفضل من  
القراءة عن ظهر القلب لأن النظر في المصحف عبادة مطلوبة فتجتمع القراءة والنظر هكذا  
قاله القاضي حسين من أصحابنا وأبو حامد الغزالي وجماعات من السلف ونقل الغزالي  
في الإحياء أن كثيرين من الصحابة رضي الله عنهم كانوا يقرؤون من المصحف ويكرهون  
أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف وروى ابن أبي داود القراءة في المصحف عن كثيرين من  
السلف ولم أر فيه خلافا ولو قيل إنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة في  
المصحف لمن استوى خشوعه وتدبره في حالتي القراءة في المصحف وعن ظهر القلب  
ويختار القراءة عن ظهر القلب لمن لم يكمل بذلك خشوعه ويزيد على خشوعه وتدبره لو قرأ  
من المصحف لكان هذا قولاً حسناً والظاهر أن كلام السلف وفعالهم محمول على هذا  
التفصيل

(114/302)

---

فصل في استحباب قراءة الجماعة مجتمعين وفضل القارئ من الجماعة والسامعين وبيان  
فضيلة من جمعهم عليها وحرصهم وندبهم إليها اعلم أن قراءة الجماعة مجتمعين مستحبة  
بالدلائل الظاهرة وأفعال السلف والخلف المتظاهرة فقد صح عن النبي صلى الله عليه

وسلم من رواية أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنه قال ما من قوم يذكرون  
الله إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن  
عنده قال الترمذي حديث حسن صحيح وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى  
الله عليه وسلم قال ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه  
بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكره الله فيمن عنده  
رواه مسلم وأبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم وعن معاوية رضي الله  
عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال ما يجلسكم قالوا  
جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده لما هدانا للإسلام ومن علينا به فقال أثنى جبريل عليه  
السلام فأخبرني أن الله تعالى يباهي بكم الملائكة رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي  
حديث حسن صحيح والأحاديث في هذا كثيرة وروى الدارمي بإسناده عن ابن عباس  
رضي الله عنهما قال من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نورا وروى ابن أبي داود أن أبا  
الدرداء رضي الله عنه كان يدرس القرآن معه نفر يقرؤون جميعا وروى ابن أبي داود فعل  
الدراسة مجتمعين عن جماعات من أفاضل السلف والخلف وقضاة المتقدمين وعن حسان  
بن عطية والأوزاعي أنهما

(115/302)

---

قالا أول من أحدث الدراسة في مسجد دمشق هشام بن إسماعيل في قدمته على عبد الملك وأما ما روى ابن أبي داود عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزم أنه أنكر هذه الدراسة وقال ما رأيت ولا سمعت وقد أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني ما رأيت أحدا فعلها وعن وهب قال قلت لمالك أرايت القوم يجتمعون فيقرؤون جميعا سورة واحدة حتى يختموها فأنكر ذلك وعابه وقال ليس هكذا تصنع الناس إنما كان يقرأ الرجل على الآخر يعرضه فهذا الإنكار منهما مخالف لما عليه السلف والخلف ولما يقتضيه الدليل فهو متروك والاعتماد على ما تقدم من استحبابها لكن القراءة في حال الاجتماع لها شروط قدمناها ينبغي أن يعتنى بها والله أعلم وأما فضيلة من يجمعهم على القراءة ففيها نصوص كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم الدال على الخير كفاعله وقوله صلى الله عليه وسلم لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم والأحاديث فيه كثيرة مشهورة وقد قال الله تعالى ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ ولا شك في عظم أجر الساعي في ذلك فصل في الإدارة بالقرآن وهو أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عشرا أو جزءا أو غير ذلك ثم يسكت ويقرأ الآخر من حيث انتهى الأول ثم يقرأ الآخر وهذا جائز حسن وقد سئل مالك رحمه الله تعالى عنه فقال لا بأس به فصل في رفع الصوت بالقراءة هذا فصل مهم ينبغي أن يعتنى به اعلم أنه جاء أحاديث كثيرة في



الصحيح وغيره دالة على استحباب رفع الصوت بالقراءة وجاءت آثار دالة على استحباب الإخفاء وخفض الصوت وسنذكر منها طرفا يسيرا إشارة إلى أصلها إن شاء الله تعالى قال الإمام أبو حامد الغزالي وغيره من العلماء وطريق الجمع بين الأحاديث والآثار المختلفة في هذا أن الإسرار أبعد من الرياء فهو أفضل في حق من يخاف ذلك فإن لم يخف الرياء فالجهر ورفع الصوت أفضل لأن العمل فيه أكثر ولأن فائدته تتعدى إلى غيره والمتعدي أفضل من اللازم ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف سماعه إليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط ويوقظ غيره من نائم وغافل وينشطه قالوا فمهما حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل فإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر قال الغزالي ولهذا قلنا القراءة في المصحف أفضل فهذا حكم المسألة وأما الآثار المنقولة فكثيرة وأنا أشير إلى أطراف من بعضها ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أذن الله لشيء ما أذن لني حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به رواه البخاري ومسلم ومعنى أذن استمع وهو إشارة إلى الرضا والقبول وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقد أوتيت مزمارا من

مزامير آل داود رواه البخاري ومسلم وفي رواية لمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له لقد رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة ورواه مسلم من رواية بريد بن الحصيب وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أشد أذنا إلى الرجل حسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته رواه ابن ماجه وعن أبي موسى

(117/302)

---

أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالليل حين يدخلون وأعرف ما زلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار رواه البخاري ومسلم وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم رواه أبو داود والنسائي وغيرهما وروى ابن أبي داود عن علي رضي الله عنه أنه سمع ضجة ناس في المسجد يقرؤون القرآن فقال طوبى لهؤلاء كانوا أحب الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفي إثبات الجهر أحاديث كثيرة وأما الآثار عن الصحابة والتابعين من أقوالهم وأفعالهم فأكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر وهذا كله فيمن لا يخاف رياء ولا إعجابا ولا نحوهما من القبائح ولا يؤذي جماعة يلبس عليهم صلواتهم ويخلطها عليهم وقد نقل عن جماعة السلف اختيار الإخفاء لخوفهم

مما ذكرناه فعن الأعمش قال دخلت على إبراهيم وهو يقرأ بالمصحف فاستأذن عليه رجل فغطاه وقال لا يرى هذا أني أقرأ كل ساعة وعن أبي العالية قال كنت جالسا مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم فقال رجل منهم قرأت الليلة كذا فقالوا هذا حظك منه ويستدل لهؤلاء بحديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة رواه أبو داود والترمذي والنسائي قال الترمذي حديث حسن قال ومعناه أن الذي يسر بقراءة القرآن أفضل من الذي يجهر بها لأن صدقة السر أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية قال وإنما معنى هذا الحديث عند أهل العلم لكي يأمن الرجل من العجب لأن

(118/302)

---

الذي يسر بالعمل لا يخاف عليه من العجب كما يخاف عليه من علانيته قلت وكل هذا موافق لما تقدم تقريره في أول الفصل من التفصيل وأنه إن خاف بسبب الجهر شيئا مما يكره لم يجهر وإن لم يخف استحباب الجهر فإن كانت القراءة من جماعة مجتمعين تأكد استحباب الجهر لما قدمناه ولما يحصل فيه من نفع غيرهم والله أعلم فصل في استحباب تحسين الصوت

بالقراءة أجمع العلماء رضي الله عنهم من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن  
بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن وأقوالهم  
وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها ودلائل هذا من  
حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مستفيضة عند الخاصة والعامة كحديث زينوا  
القرآن بأصواتكم وحديث لقد أوتي هذا مزمارا وحديث ما أذن الله وحديث لله أشد  
أذنا وقد تقدمت كلها في الفصل السابق وتقدم في فضل الترتيل حديث عبد الله بن مغفل في  
ترجيع النبي صلى الله عليه وسلم القراءة وكحديث سعد بن أبي وقاص وحديث أمامة  
رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من لم يتغن بالقرآن فليس منا رواه أبو  
داود بإسنادين جيدين وفي إسناد سعد اختلاف لا يضر قال جمهور العلماء معنى لم يتغن لم  
يحسن صوته وحديث البراء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
قرأ في العشاء بالتين والزيتون فما سمعت أحدا أحسن صوتا منه رواه البخاري ومسلم قال  
العلماء رحمهم الله فيستحب تحسين الصوت بالقراءة

(119/302)

---

وترتيبها ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط فإن أفرط حتى زاد حرفاً أو أخفاه فهو حرام  
وأما القراءة بالألحان فقد قال الشافعي رحمه الله في موضع أكرهها قال أصحابنا ليست  
على قولين بل فيه تفصيل إن أفرط في التمثيط فجاوز الحد فهو الذي كرهه وإن لم يجاوز فهو  
الذي لم يكرهه وقال أقضى القضاة الماوردي في كتابه الحاوي القراءة بالألحان الموضوعات إن  
أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه أو إخراج حركات منه أو قصر  
ممدود أو مد مقصور أو تمطيط يخفي به بعض اللفظ ويتلبس المعنى فهو حرام يفسق به  
القارئ ويأثم به المستمع لأنه عدل به عن نهجه القويم إلى الاعوجاج والله تعالى يقول ﴿  
قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ قال وإن لم يخرج اللفظ عن لفظه وقراءته على ترتيبه كان  
مباحاً لأنه زاد على الألحان في تحسينه هذا كلام أقضى القضاة وهذا القسم الأول من القراءة  
بالألحان المحرمة مصيبة ابتلي بها بعض الجهلة الطغام الغشمة الذين يقرؤون على الجنائز  
وبعض المحافل وهذه بدعة محرمة ظاهرة يأثم كل مستمع لها كما قاله أقضى القضاة  
الماوردي ويأثم كل قادر على إزالتها أو على النهي عنها إذا لم يفعل ذلك وقد بذلت فيها  
بعض قدرتي وأرجو من فضل الله الكريم أن يوفق لإزالتها من هو أهل لذلك وأن يجعله في  
عافية قال الشافعي في مختصر المزني ويحسن صوته بأي وجه كان قال وأحب ما يقرأ  
حدراً وتحزيناً قال أهل اللغة يقال حدرت بالقراءة إذا أدرجتها ولم تمططها ويقال فلان يقرأ

بالتحزين إذا رقق صوته وقد روى ابن أبي داود بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه  
قرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ يحزنها شبه الرثاء

(120/302)

---

وفي سنن أبي داود قيل لابن أبي مليكة أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت فقال يحسنه ما  
استطاع فصل في استحباب طلب القراءة الطيبة من حسن الصوت اعلم أن جماعات من  
السلف كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرؤوا وهم يستمعون  
وهذا متفق على استحبابه وهو عادة الأخيار والمتعبدين وعباد الله الصالحين وهو سنة  
ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه  
قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ علي القرآن فقلت يا رسول الله اقرأ عليك  
وعليك أنزل قال إني أحب أن أسمع من غيري فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت  
إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال  
حسبك الآن فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان رواه البخاري ومسلم وروى الدارمي وغيره  
بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول لأبي موسى الأشعري ذكرنا  
ربنا فيقرأ عنده القرآن والآثار في هذا كثيرة معروفة وقد مات جماعات من الصالحين

بسبب قراءة من سألوه القراءة والله أعلم وقد استحَب العلماء أن يستفتح مجلس حديث  
النبي صلى الله عليه وسلم ويختم بقراءة قارئ حسن الصوت ما تيسر من القرآن ثم إنه  
ينبغي للقارئ في هذه المواطن أن يقرأ ما يليق بالمجلس ويناسبه وأن تكون قراءته في آيات  
الرجاء والخوف والمواعظ والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة والتأهيب لها وقصر  
الأمَل ومكارم الأخلاق

(121/302)

---

فصل ينبغي للقارئ إذا ابتداء من وسط السورة أو وقف على غير آخرها أن يتدبَّر من أول  
الكلام المرتبط بعضه ببعض وأن يقف على الكلام المرتبط ولا يتقيد بالأعشار والأجزاء  
فإنها قد تكون في وسط الكلام المرتبط كالجزء الذي في قوله تعالى ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾  
وفي قوله تعالى ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ وقوله تعالى ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله ﴾  
﴿ وفي قوله تعالى ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾ وفي قوله تعالى  
﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ ودا لهم سيئات ﴾ وفي قوله قال ﴿ فما  
خطبكم أيها المرسلون ﴾ وكذلك الأحزاب كقوله تعالى ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾  
﴿ وقوله تعالى ﴿ قل أونبئكم بخير من ذلكم ﴾ فكل هذا وشبيهه ينبغي أن يتدبَّر به ولا

يوقف عليه فإنه متعلق بما قبله ولا يغترن بكثرة الغافلين له من القراء الذين لا يراعون هذه الآداب ولا يفكرون في هذه المعاني وامثل ما روى الحاكم أبو عبد الله بإسناده عن السيد الجليل الفضيل بن عياض رضي الله عنه قال لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها ولا تغترن بكثرة الهالكين ولا يضرك قلة السالكين ولهذا المعنى قالت العلماء قراءة سورة قصيرة بكاملها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة فإنه قد يخفى الارتباط على بعض الناس في بعض الأحوال وقد روى ابن أبي داود بإسناده عن عبد الله بن أبي الهذيل التابعي المعروف رضي الله عنه قال كانوا يكرهون أن يقرؤوا بعض الآية ويتركوا بعضها

(122/302)

---

فصل في أحوال تكراه فيها القراءة اعلم أن قراءة القرآن على الإطلاق إلا في أحوال مخصوصة جاء الشرع بالنهي عن القراءة فيها وأنا أذكر الآن ما حضرني منها مختصرة بجذف الأدلة فإنها مشهورة فتكره القراءة في حالة الركوع والسجود والتشهد وغيرها من أحوال الصلاة سوى القيام وتكره القراءة بما زاد على الفاتحة للمأموم في الصلاة الجهرية إذا سمع قراءة الإمام وتكره حالة القعود على الخلاء وفي حالة النعاس وكذا إذا استعجم عليه القرآن وكذا في حالة الخطبة لمن يسمعها ولا تكراه لمن لم يسمعها بل تستحب هذا هو المختار الصحيح



وجاء عن طاوس كراهيتها وعن إبراهيم عدم الكراهة فيجوز أن يجمع بين كلاميهما بما قلنا  
كما ذكره أصحابنا ولا تكره القراءة في الطواف هذا مذهبنا وبه قال أكثر العلماء وحكاه  
ابن المنذر عن عطاء ومجاهد وابن المبارك وأبي ثور وأصحاب الرأي وحكي عن الحسن  
البصري وعروة بن الزبير ومالك كراهتها في الطواف والصحيح الأول وقد تقدم بيان  
الاختلاف في القراءة في الحمام وفي الطريق وفيمن فمه نجس فصل من البدع المنكرة في  
القراءة ما يفعله جهلة المصلين بالناس في التراويح من قراءة سورة الأنعام في الركعة الأخيرة في  
الليلة السابعة معتقدين أنها مستحبة فيجمعون أموراً منكراً منها اعتقادها مستحبة ومنها  
إيهاً العوام ذلك ومنها تطويل الركعة الثانية على الأولى وإنما السنة تطويل الأولى ومنها  
التطويل على المأمومين ومنها هزيمة

(123/302)

---

القراءة ومن البدع المشابهة لهذا قراءة بعض جهلتهم في الصبح يوم الجمعة بسجدة غير  
سجدة ألم تنزّل قاصداً ذلك وإنما السنة قراءة ألم تنزّل في الركعة الأولى وهل أتى في الثانية  
فصل في مسائل غريبة تدعو الحاجة إليها منها أنه إذا كان يقرأ فعرض له ريح فينبغي أن  
يمسك عن القراءة حتى يتكامل خروجها ثم يعود إلى القراءة كذا رواه ابن أبي داود وغيره

عن عطاء وهو أدب حسن ومنها أنه إذا تئأب أمسك عن القراءة حتى ينتقضي التئأب  
ثم يقرأ قال مجاهد وهو حسن ويدل عليه ما ثبت عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه  
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تئأب أحدكم فليمسك بيده على فمه فإن  
الشيطان يدخل رواه مسلم ومنها أنه إذا قرأ قول الله عز وجل ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزْرُ ابْنِ  
اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ﴿ وَقَالُوا  
اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ ونحو ذلك من الآيات ينبغي أن يخفض بها صوته كذا كان إبراهيم  
النخعي رضي الله عنه يفعل ومنها ما رواه ابن أبي داود بإسناد ضعيف عن الشعبي أنه  
قيل له إذا قرأ الإنسان ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ يصلى على النبي صلى  
الله عليه وسلم قال نعم ومنها أنه يستحب له أن يقول ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن  
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من قرأ والتين والزيتون فقال أليس الله بأحكم الحاكمين  
فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين رواه أبو داود والترمذي بإسناد ضعيف عن رجل  
عن أعرابي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال الترمذي هذا الحديث إنما

(124/302)

---

يروى بهذا الإسناد عن الأعرابي عن أبي هريرة قال ولا يسمى وروى ابن أبي داود  
والترمذي ومن قرأ آخر لا أقسم بيوم القيامة أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى فليقل  
بلى ومن قرأ فبأي آلاء ربكما تكذبان أو فبأي حديث بعده يؤمنون فليقل آمنت بالله وعن  
ابن عباس رضي الله عنهما وابن الزبير وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهم أنهم كانوا  
إذا قرأ أحدهم سبح اسم ربك الأعلى قال سبحان ربي الأعلى وعن عمر بن الخطاب  
رضي الله عنه أنه كان يقول فيها سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات وعن عبد الله بن مسعود  
رضي الله عنه أنه صلى فقراً آخر سورة بني إسرائيل ثم قال الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا  
وقد نص بعض أصحابنا على أنه يستحب أن يقال في الصلاة ما قدمناه وفي حديث أبي  
هريرة في السور الثلاث وكذلك يستحب أن يقال باقي ما ذكرناه وما كان في معناه والله أعلم  
فصل في قراءة يراد بها الكلام ذكر ابن أبي داود في هذا اختلافاً وروى عن إبراهيم النخعي  
رضي الله عنه أنه كان يكره أن يقال القرآن بشيء يعرض من أمر الدنيا وعن عمر بن  
الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ في صلاة المغرب بمكة والتين والزيتون ورفع صوته وقال وهذا  
البلد الأمين وعن حكيم بضم الحاء بن سعد أن رجلاً من الحكمية أتى علياً رضي الله عنه  
وهو في صلاة الصبح فقال ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ فأجابه علي في الصلاة ﴿  
فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ قال أصحابنا إذا استأذن

---

إنسان على المصلي فقال المصلي ﴿ ادخلوها بسلام آمين ﴾ فإن أراد التلاوة وأراد الإعلام لم تبطل صلاته وإن أراد الإعلام ولم يحضره نية بطلت صلاته فصل وإذا ورد على القارئ من فيه فضيلة من علم أو شرف أو سن مع صيانة أوله حرمة بولاية أو ولادة أو غيرها فلا بأس بالقيام له على سبيل الاحترام والإكرام للرياء والإعظام بل ذلك مستحب وقد ثبت القيام للإكرام من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه رضي الله عنهم بحضرتهم وبأمرهم ومن فعل التابعين ومن بعدهم من العلماء الصالحين وقد جمعت جزءاً في القيام وذكرت فيه الأحاديث والآثار الواردة باستحبابه وبالنهى عنه وبينت ضعف الضعيف منها وصحة الصحيح والجواب عما يتوهم منه النهي وليس فيه نهى وأوضحت ذلك كله بحمد الله تعالى فمن تشكك في شيء من أحاديثه فليطالعها يجد ما يزول به شكه إن شاء الله تعالى فصل إذا كان يقرأ ماشياً فمر على قوم يستحب أن يقطع القراءة ويسلم عليهم ثم يرجع إلى القراءة ولو أعاد التعوذ كان حسناً ولو كان يقرأ جالساً فمر عليه غيره فقد قال الإمام أبو الحسن الواحدي الأولى ترك السلام على القارئ لاشتغاله بالتلاوة قال فإن سلم عليه إنسان كفاه الرد بالإشارة قال فإن أراد الرد باللفظ رده ثم استأنف الاستعاذة وعاود التلاوة وهذا الذي قاله ضعيف والظاهر وجوب الرد باللفظ فقد قال

أصحابنا إذا سلم الداخل يوم الجمعة في حال الخطبة وقلنا الإنصات سنة وجب له رد السلام على أصحاب الوجهين فإذا قالوا هذا في

(126/302)

---

حال الخطبة مع الاختلاف في وجوب الإنصات وتحريم الكلام ففي حال القراءة التي لا يحرم الكلام فيها بالإجماع أولى مع أن رد السلام واجب بالجملة والله أعلم وأما إذا عطس في حال القراءة فإنه يستحب أن يقول الحمد لله وكذا لو كان في الصلاة ولو عطس غيره وهو يقرأ في غير الصلاة وقال الحمد لله يستحب للقارئ أن يشتمه فيقول يرحمك الله ولو سمع المؤذن قطع القراءة وأجابه بما بعته في الفاظ الأذان والإقامة ثم يعود إلى قراءته وهذا متفق عليه عند أصحابنا وأما إذا طلبت منه حاجة في حال القراءة وأمكنه جواب السائل بالإشارة المفهمة وعلم أنه لا ينكسر قلبه ولا يحصل عليه شيء من الأذى للأنس الذي بينها بينهما ونحوه فالأولى أن يجيبه بالإشارة ولا يقطع القراءة فإن قطعها جاز والله أعلم فصل في أحكام نفيسة تتعلق بالقراءة في الصلاة أبلغ في اختصارها فإنها مشهورة في كتب الفقه منها أنه يجب القراءة في الصلاة المفروضة بإجماع العلماء ثم قال مالك والشافعي وأحمد وجماهير العلماء تعين قراءة الفاتحة في كل ركعة وقال أبو حنيفة وجماعة لا تعين الفاتحة

أبدا قال ولا تجب قراءة الفاتحة في الركعتين الأخيرتين والصواب الأول فقد تظاهرت عليها الأدلة من السنة ويكفي من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ولا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن وأجمعوا على استحباب قراءة السورة بعد الفاتحة في ركعتي الصبح والأولتين من باقي الصلوات واختلفوا في

(127/302)

---

استحبابها في الثالثة والرابعة وللشافعي فيها قولان الجديد أنها لا تستحب والتقديم أنها تستحب قال أصحابنا وإذا قلنا إنها تستحب فلا خلاف أنه يستحب أن يكون أقل من القراءة في الأولتين قالوا وتكون القراءة في الثالثة والرابعة سواء وهل تطول الأولى على الثانية فيها وجهان أحدهما عند جمهور أصحابنا أنها لا تطول والثاني وهو الصحيح عند المحققين أنها تطول وهو المختار للحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطول في الأولى ما لا يطول في الثانية وفأئده أن يدرك المتأخر الركعة الأولى والله أعلم قال الشافعي رحمه الله وإذا أدرك المسبوق مع الإمام الركعتين الأخيرتين من الظهر وغيرها ثم قام إلى الإتيان بما بقي عليه استحباب أن يقرأ السورة قال الجماهير من أصحابنا هذا على القولين وقال بعضهم هذا على قوله يقرأ السورة في الأخيرتين أما على الآخر فلا والصواب

الأول لئلا تخلو صلواته من سورة والله أعلم هذا حكم الإمام المنفرد أما المأموم فإن كانت صلواته سرية وجبت عليه الفاتحة واستحب له السورة وإن كانت جهرية فإن كان يسمع قراءة الإمام كره له قراءة السورة وفي وجوب الفاتحة قولان أصحابهما تجب والثاني لا تجب وإن كان لا يسمع القراءة فالصحيح وجوب الفاتحة واستحباب السورة وقيل تجب ولا تستحب السورة والله أعلم وتجب قراءة الفاتحة في الركعة الأولى من صلاة الجنازة وأما قراءة الفاتحة في صلاة النافلة فلا بد منها واختلف أصحابنا في تسميتها فيها فقال القفال تسمى واجبة وقال صاحبه القاضي حسين تسمى شرطاً وقال غيرهما تسمى ركناً وهو الأظهر والله أعلم والعاجز عن

(128/302)

---

الفاتحة في هذا كله يأتي بدلها فيقرأ بقدرها من غيرها من القرآن فإن لم يحسن أتى بقدرها من الأذكار كالتسبيح والتهليل ونحوهما فإن لم يحسن شيئاً وقف بقدر القراءة والله أعلم فصل لا بأس بالجمع بين سورتين في ركعة واحدة فقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهما فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين في ركعة وقد قدمنا عن

جماعة من السلف قراءة الحتمة في ركعة واحدة فصل أجمع المسلمون على استحباب الجهر  
بالقراءة في الصبح والجمعة والعيد والأولتين من المغرب والعشاء وفي صلاة التراويح والوتر  
عقبها وهذا مستحب للإمام والمنفرد بما ينفرد به منها وأما المأموم فلا يجهر بالإجماع ويسن  
الجهر في صلاة كسوف القمر ولا يجهر في كسوف الشمس ويجهر في الاستقاء ولا يجهر في  
الجنائز إذا صليت بالنهار وكذا في الليل على المذهب الصحيح المختار ولا يجهر في نوافل  
النهار غير ما ذكرناه من العيد والاستقاء واختلف أصحابنا في نوافل الليل فالأظهر أنه لا  
يجهر والثاني أنه يجهر والثالث وهو الأصح وبه قطع القاضي حسين والبعثي يقرأ بين الجهر  
والإسرار ولو فاتته صلاة بالليل فقضاها بالنهار أو بالنهار فقضاها بالليل فهل يعتبر في الجهر  
والإسرار وقت الفوات أم وقت القضاء فيه وجهان لأصحابنا أظهرهما الاعتبار بوقت  
القضاء ولو جهر في موضع الإسرار أو أسرى في موضع الجهر فصلاته صحيحة ولكنه  
ارتكب المكروه ولا يسجد للسهو

(129/302)

---

واعلم أن الإسرار في القراءة والتكبيرات وغيرهما من الأذكار هو أن يقوله بحيث يسمع  
نفسه ولا بد من نطقه بحيث يسمع نفسه إذا كان صحيح السمع ولا عارض له فإن لم يسمع



نفسه لم تصح قراءته ولا غيرها من الأذكار بلا خلاف فصل قال أصحابنا يستحب للإمام في الصلاة الجهرية أن يسكت أربع سككات في حال القيام إحداها أن يسكت بعد تكبيرة الإحرام ليقرأ دعاء التوجه وليحرم المأمومون والثانية عقيب الفاتحة سكتة لطيفة جدا بين آخر الفاتحة وبين آمين لتلايتوهم أن آمين من الفاتحة والثالثة بعد آمين سكتة طويلة بحيث يقرأ المأمومون الفاتحة والرابعة بعد الفراغ من السورة يفصل بها بين القراءة وتكبير الهوي إلى الركوع فصل يستحب لكل قارئ كان في الصلاة أو في غيرها إذا فرغ من الفاتحة أن يقول آمين والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة وقد قدمنا في الفصل قبله أنه يستحب أن يفصل بين آخر الفاتحة وآمين بسكتة لطيفة ومعناه اللهم استجب وقيل كذلك فليكن وقيل افعل وقيل معناه لا يقدر على هذا أحد سواك وقيل معناه لا تخيب رجاءنا وقيل معناه اللهم أمانا بخير وقيل هو طابع لله على عباده يدفع به عنهم الآفات وقيل هي درجة في الجنة يستحقها قائلها وقيل هو اسم من أسماء الله تعالى وأنكر المحققون والمجاهير هذا وقيل هو اسم عبراني غير معرب وقال أبو بكر الوراق هو قوة للدعاء واستنزال للرحمة وقيل غير ذلك وفي آمين لغات قال العلماء أفصحها آمين بالمد وتخفيف الميم والثانية

(130/302)

---

بالقصر وهاتان مشهورتان والثالثة آمين بالإمالة مع المد حكاها الواحدي عن حمزة  
والكسائي والرابعة بتشديد الميم مع المد حكاها عن الحسن والحسين ابن الفضيل قال  
ويحقق ذلك ما روي عن جعفر الصادق رضي الله عنه قال معناه قاصدين نحوك وأنت  
أكرم من أن تحيب قاصدا هذا كلام الواحدي وهذه الرابعة غريبة جدا فقد عدها أكثر  
أهل اللغة من لحن العوام وقال جماعة من أصحابنا من قالها في الصلاة بطلت صلاته قال  
أهل العربية حقها في العربية الوقف لأنها بمنزلة الأصوات فإذا وصلها فتح النون لالتقاء  
الساكنين كما فتحت في أين وكيف فلم تكسر لثقل الكسرة بعد الياء فهذا مختصر مما يتعلق  
بلفظ آمين وقد بسط القول فيها بالشواهد وزيادة الأقوال في كتاب (تهذيب الأسماء  
واللغات) قال العلماء ويستحب التأمين في الصلاة للإمام والمأموم والمنفرد ويجهر الإمام  
والمنفرد بلفظ آمين في صلاة الجهرية واختلفوا في جهر المأموم والصحيح أنه يجهر والثاني لا  
يجهر والثالث يجهر إن كان جمعا كثيرا وإلا فلا ويكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام لا قبله ولا  
بعده لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين فمن  
وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وأما قوله صلى الله عليه وسلم في  
الصحيح إذا أمن الإمام فأمنوا فمعناه إذا أراد التأمين قال أصحابنا وليس في الصلاة موضع  
يستحب أن يقترن قول المأموم بقول الإمام إلا في قوله آمين وأما في الأقوال الباقية فيتأخر قول  
المأموم

فصل في سجود التلاوة وهو مما يتأكد الاعتناء به فقد أجمع العلماء على الأمر بسجود التلاوة واختلفوا في أنه أمر استحباب أم إيجاب فقال الجماهير ليس بواجب بل مستحب وهذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس وعمران بن حصين ومالك والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحق وأبي ثور وداود وغيرهم وقال أبو حنيفة رحمه الله هو واجب واحتج بقوله تعالى ﴿فما لهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ واحتج الجمهور بما صح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النمل حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال يا أيها الناس إنما نمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه ولم يسجد عمر رواه البخاري وهذا الفعل والقول من عمر رضي الله عنه في هذا المجمع دليل ظاهر وأما الجواب عن الآية التي احتج بها أبو حنيفة رضي الله عنه فظاهر لأن المراد ذمهم على ترك السجود تكذيباً كما قال تعالى بعده ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ وثبت في الصحيحين عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم والنجم فلم يسجد وثبت في الصحيحين أنه صلى الله

عليه وسلم سجد في النجم فدل على أنه ليس بواجب فصل في بيان عدد السجدة  
ومحلها أما عددها المختار الذي قاله الشافعي رحمه الله والجماهير أنها أربع

(132/302)

---

عشرة سجدة في الأعراف والرعد والنخل وسبحان ومريم وفي الحج سجدة في  
الفرقان والنمل وألم وحم السجدة والنجم وإذا السماء انشقت وقرأ باسم ربك وأما  
سجدة ص فمستحبة فليست من عزائم السجود أي متأكد أنه ثبت في صحيح البخاري  
عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ص ليست من عزائم السجود وقد رأيت النبي صلى  
الله عليه وسلم سجد فيها هذا مذهب الشافعي ومن قال مثله وقال أبو حنيفة هي أربع  
عشرة أيضا لكن أسقط الثانية من الحج وأثبت سجدة ص وجعلها من العزائم وعن أحمد  
روايتان إحداهما كالشافعي والثانية خمس عشرة زاد ص وهو قول أبي العباس بن شريح  
وأبي إسحق المروزي من أصحاب الشافعي وعن مالك روايتان إحداهما كالشافعي  
وأشهرهما إحدى عشرة أسقط النجم وإذا السماء انشقت وقرأ وهو قول قديم للشافعي  
والصحيح ما قدمناه والأحاديث الصحيحة تدل عليه وأما محلها فسجدة الأعراف في  
آخرها والرعد عقيب قوله عز وجل ﴿ بالغدو والآصال ﴾ والنحل ﴿ ويفعلون ما

يؤمرون ﴿ وفي سبحان ﴾ ويزيدهم خشوعا ﴿ وفي مريم ﴾ خروا سجدا وبكيا ﴿  
والأولى من سجدتي الحج ﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾ والثانية ﴿ وافعلوا الخير لعلكم  
تفلحون ﴾ والفرقان ﴿ وزادهم نفورا ﴾ والنمل ﴿ رب العرش العظيم ﴾ وألم تنزيل  
﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ وحم ﴿ لا يسأمون ﴾ والنجم في آخرها ﴿ إذا السماء  
انشقت ﴾ لا يسجدون وقرأ في آخرها ولا خلاف يعتد به في شيء من مواضعها إلا التي  
في حم فإن العلماء اختلفوا فيها فذهب الشافعي وأصحابه إنها ما ذكرناه

(133/302)

---

إنها عقيب ﴿ يسأمون ﴾ وهذا مذهب سعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين وأبي وائل  
شقيق ابن سلمة وسفيان الثوري وأبي حنيفة وأحمد وإسحق بن راهويه وذهب آخرون  
إلى أنها عقيب قوله تعالى ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ حكاه ابن المنذر عن عمر بن  
الخطاب والحسن البصري وأصحاب عبد الله بن مسعود وإبراهيم النخعي وأبي صالح  
وطلعت بن مصرف وزبير بن الحرث ومالك بن أنس والليث بن سعد وهو وجه لبعض  
أصحاب الشافعي حكاه البغوي في التهذيب وأما قول أبي الحسن علي بن سعيد العبد من  
أصحابنا في كتابه الكفاية في اختلاف الفقهاء عندنا أن سجدة النمل هي عند قوله تعالى

﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ قال وهذا مذهب أكثر الفقهاء وقال مالك هي عند  
قوله تعالى ﴿ رب العرش العظيم ﴾ فهذا الذي نقله عن مذهبنا ومذهب أكثر الفقهاء  
غير معروف ولا مقبول بل غلط ظاهر وهذه كتب أصحابنا مصرحة بأنها عند قوله تعالى  
﴿ رب العرش العظيم ﴾ فصل حكم سجود التلاوة حكم صلاة النافلة في اشتراط  
الطهارة عن الحدث وعن النجاسة وفي استقباله القبلة وستر العورة فتحرم على من يبدنه أو  
ثوبه نجاسة غير معفو عنها وعلى الحدث إذا تيمم في موضع يجوز فيه التيمم وتحرم إلى  
غير القبلة إلا في السفر حيث تجوز النافلة إلى غير القبلة وهذا كله متفق عليه فصل إذا قرأ  
سجدة ص فمن قال إنها من عزائم السجود قال يسجد سواء قرأها في الصلاة أو خارجها  
كسائر السجودات وأما الشافعي وغيره ممن قال ليست من العزائم فقالوا إذا قرأها خارج  
الصلاة استحَب

(134/302)

---

له السجود لأن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها كما قدمناه وإن قرأها في الصلاة لم  
يسجد فإن سجد وهو جاهل أو ناس لم تبطل صلاته ولكن يسجد للسهو وإن كان عالماً  
فالصحيح أنه تبطل صلاته لأنه زاد في الصلاة ما ليس منها فبطلت كما لو سجد للشكر

فإنها تبطل صلاته بلا خلاف والثاني لا تبطل لأن له تعلقا بالصلاة ولو سجد إمامه في ص  
لكونه يعتقدها من العزائم والمأموم لا يعتقد فلا يتابعه بل يفارقه أو ينتظره قائما وإذا انتظره  
هل يسجد للسهو فيه وجهان أظهرهما أنه لا يسجد فصل فيمن يسن له السجود اعلم أنه  
يسن للقارئ المطهر بالماء أو التراب حيث يجوز سواء كان في الصلاة أو خارجا منها ويسن  
للمستمع ويسن أيضا للسامع غير المستمع ولكن قال الشافعي لا يؤكد في حقه كما يؤكد في  
حق المستمع هذا هو الصحيح وقال إمام الحرمين من أصحابنا لا يسجد السامع والمشهور  
الأول وسواء كان القارئ في الصلاة أو خارجا منها يسن للسامع والمستمع السجود وسواء  
سجد القارئ أم لا هذا هو الصحيح المشهور عند أصحاب الشافعي لا يسجد المستمع  
لقراءة من في الصلاة وقال الصيدلاني من أصحاب الشافعي لا يسن السجود إلا أن يسجد  
القارئ والصواب الأول ولا فرق بين أن يكون القارئ مسلما بالغيا متطهرا رجلا وبين أن  
يكون كافرا أو صبيا أو محدثا أو امرأة هذا هو الصحيح عندنا وبه قال أبو حنيفة وقال  
بعض أصحابنا لا يسجد

(135/302)

---

لقراءة الكافر والصبي والمحدث والسكران وقال جماعة من السلف لا يسجد لقراءة المرأة  
حكاها ابن المنذر عن قتادة ومالك وإسحق والصواب ما قدمناه فصل في اختصار السجود  
وهو أن يقرأ آية أو آيتين ثم يسجد حكى ابن المنذر عن الشعبي والحسن البصري ومحمد بن  
سيرين والنخعي وأحمد وإسحق أنهم كرهوا ذلك وعن أبي حنيفة ومحمد بن الحسن وأبي  
ثور أنه لا بأس به وهذا مقتضى مذهبنا فصل إذا كان مصليا منفردا سجد لقراءة نفسه فلو  
ترك سجود التلاوة وركع ثم أراد أن يسجد للتلاوة لم يجز فإن فعل مع العلم بطلت صلاته وإن  
كان قد هوى لسجود التلاوة ثم بدا له ورجع إلى القيام جازأما إذا أصغى المنفرد بالصلاة  
لقراءة قارئ في الصلاة أو غيرها فلا يجوز له أن يسجد ولو سجد مع العلم بطلت صلاته أما  
المصلي في جماعة فإن كان إماما فهو كالمنفرد وإذا سجد الإمام لتلاوة نفسه وجب على  
المأموم أن يسجد معه فإن لم يفعل بطلت صلاته فإن لم يسجد الإمام لم يجز للمأموم السجود  
فإن سجد بطلت صلاته ولكن يستحب أن يسجد إذا فرغ من الصلاة ولا يتأكد ولو سجد  
الإمام ولم يعلم المأموم حتى رفع الإمام رأسه من السجود فهو معذور في تحلفه ولا يجوز أن  
يسجد ولو علم والإمام بعد في السجود وجب السجود فلو هوى إلى السجود فرفع الإمام  
رأسه وهو في الهوي يرفع معه ولم يجز السجود وكذا الضعيف الذي هوى مع الإمام إذا رفع  
الإمام قبل بلوغ الضعيف إلى



---

السجود لسرعة الإمام وبطء المأموم يرجع معه ولا يسجد وأما إن كان المصلي مأموماً فلا يجوز أن يسجد لقراءة نفسه ولا لقراءة غير إمامه فإن سجد بطلت صلاته وتكره له قراءة غير إمامه فصل في وقت السجود للتلاوة قال العلماء ينبغي أن يقع عقيب آية السجدة التي قرأها أو سمعها فإن أخل ولم يطل الفصل سجد وإن طال فقد فات السجود فلا يقضي على المذهب الصحيح المشهور كما لا تقضى صلاة الكسوف وقال بعض أصحابنا فيه قول ضعيف أنه يقضي كما تقضى السنن الراجعة كسنة الصبح والظهر وغيرهما فأما إذا كان القارئ أو المستمع محدثاً عند تلاوة السجدة فإن تطهر عن قرب سجد وإن تأخرت طهارته حتى طال الفصل فالصحيح المختار الذي قطع به الأكثرون أنه لا يسجد وقيل يسجد وهو اختيار البغوي من أصحابنا كما يجب المؤذن بعد الفراغ من الصلاة والاعتبار في طول الفصل في هذا بالعرف على المختار والله أعلم فصل إذا قرأ السجدة كلها أو سجدة واحدة في مجلس واحد سجد لكل سجدة بخلافه فإن كرر الآية الواحدة في مجلس سجد لكل مرة بخلافه فإن كررها في المجلس الواحد نظر فإن لم يسجد للمرة الأولى كفاه سجدة واحدة عن الجميع وإن سجد للأولى ففيه ثلاثة أوجه أصحابنا يسجد لكل مرة سجدة لتجدد السبب بعد توفية حكم الأول والثاني يكفيه سجدة الأولى عن

الجميع وهو قول ابن سريج وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله قال صاحب العدة من  
أصحابنا وعليه

(137/302)

---

الفتوى واختاره الشيخ نصر المقدسي الزاهد من أصحابنا والثالث إن طال الفصل سجد  
والإفتكفيه الأولى أما إذا كرر السجدة الواحدة في الصلاة فإن كان في ركعة فهي كالمجلس  
الواحد فيكون فيه الأوجه الثلاثة وإن كان في ركعتين فكالمجلسين فيعيد السجود بلا  
خلاف فصل إذا قرأ السجدة وهو راكب على دابة في السفر سجد بالإيماء هذا مذهبنا  
ومذهب مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد وأحمد وزفر وداود وغيرهم وقال بعض  
أصحاب أبي حنيفة لا يسجد والصواب مذهب الجماهير وأما الراكب في الحضر فلا يجوز  
أن يسجد بالإيماء فصل إذا قرأ آية السجدة في الصلاة قبل الفاتحة سجد بخلاف ما إذا قرأ  
في الركوع أو السجود فإنه لا يجوز أن يسجد لأن القيام محل القراءة ولو قرأ السجدة فهوى  
ليسجد فشك هل قرأ الفاتحة فإنه يسجد للتلاوة ثم يعود إلى القيام فيقرأ الفاتحة لأن سجود  
التلاوة لا يؤخر فصل لو قرأ آية السجدة بالفارسية لا يسجد عندنا كما لو فسر آية سجدة  
وقال أبو حنيفة يسجد فصل إذا سجد المستمع مع القارئ لا يرتبط به ولا ينوي الاقتداء به

وله الرفع من السجود قبله فصل لا تكراه قراءة آية السجدة للإمام عندنا سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ويسجد إذا قرأها وقال مالك يكره ذلك مطلقا وقال أبو حنيفة يكره في السرية دون الجهرية

(138/302)

---

فصل لا يكره عندنا سجود التلاوة في الأوقات التي نهى عن الصلاة فيها وبه قال الشعبي والحسن البصري وسالم بن عبد الله والقاسم وعطاء وعكرمة وأبو حنيفة وأصحاب الرأي ومالك في إحدى الروايتين وكرهت ذلك طائفة من العلماء منهم عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب ومالك في الرواية الأخرى وإسحق بن راهويه وأبو ثور فصل لا يقوم الركوع مقام سجدة التلاوة في حال الاختيار وهذا مذهبنا ومذهب جماهير العلماء السلف والخلف وقال أبو حنيفة رحمه الله يقوم مقامه ودليل الجمهور القياس على سجود الصلاة وأما العاجز عن السجود فيومئ إليه كما يومئ لسجود الصلاة فصل في صفة السجود اعلم أن الساجد للتلاوة له حالان أحدهما أن يكون خارج الصلاة والثاني أن يكون فيها أما الأول فإذا أراد السجود نوى سجود التلاوة وكبر للإحرام ورفع يديه حذو منكبيه كما يفعل في تكبيرة الإحرام للصلاة ثم يكبر تكبيرة أخرى للهوي إلى السجود ولا يرفع فيها اليد وهذه

التكبير الثانية مستحبة ليست بشرط كتكبير سجدة الصلاة وأما التكبير الأولى تكبير الإحرام ففيها ثلاثة أوجه لأصحابنا أظهرها وهو قول الأكثرين منهم أنها ركن ولا يصح السجود إلا بها والثاني أنها مستحبة ولو تركت صح السجود وهذا قول الشيخ أبي محمد الجويني والثالث ليست مستحبة والله أعلم ثم إن كان الذي يريد السجود قائماً كبر للإحرام في حال قيامه ثم يكبر للسجود في

(139/302)

---

انخطأه إلى السجود وإن كان جالساً فقد قال جماعات من أصحابنا يستحب له أني قوم فيكبر للإحرام قائماً ثم يهوي للسجود كما إذا كان في الابتداء قائماً ودليل هذا القياس على الإحرام والسجود في الصلاة وممن نص على هذا وجزم به من أئمة أصحابنا الشيخ أبو محمد الجويني والقاضي حسين وصاحبه صاحب التمهيد والتهذيب والإمام المحقق أبو القاسم الرافعي وحكاه إمام الحرمين عن والده الشيخ أبي محمد ثم أنكروه وقال لم أر لهذا أصلاً ولا ذكراً وهذا الذي قاله إمام الحرمين ظاهر فلم يثبت فيه شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عمن يقتدي به من السلف ولا تعرض له الجمهور من أصحابنا والله أعلم ثم إذا سجد فينبغي أن يراعي آداب السجود في الهيئة والتسبيح أما الهيئة فينبغي أن يضع يديه

حذو ومنكبيه على الأرض ويضم أصابعه وينشرها إلى جهة القبلة ويخرجها من كفه  
ويباشر المصلي بها ويجافي مرفقيه عن جنبيه ويرفع بطنه عن فخذه إن كان رجلا فإن  
كانت امرأة أو خشي لم يجاف ويرفع الساجد أسافله على رأسه ويمكن جبهته وأنفه من  
المصلي ويطمئن في سجوده وأما التسبيح في السجود فقال أصحابنا يسبح بما يسبح به في  
سجود الصلاة فيقول ثلاث مرات سبحان ربي الأعلى ثم يقول اللهم لك سجدت وبك  
آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته  
تبارك الله أحسن الخالقين ويقول سبح قدوس رب الملائكة والروح فهذا كله مما يقوله  
المصلي في سجود الصلاة قالوا ويستحب أن يقول اللهم اكتب لي بها عندك أجرا واجعلها  
لي عندك ذخرا وضع عني وزرا واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود ص =

(140/302)

---

وهذا الدعاء خصيص بهذا السجود فينبغي أن يحافظ عليه وذكر الأستاذ إسماعيل  
الضريير في كتابه التفسير أن اختيار الشافعي رضي الله عنه في دعاء سجود التلاوة أن يقول  
(سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وهذا النقل عن الشافعي غريب جدا وهو  
حسن فإن ظاهر القرآن يقتضي مدح قائله في السجود فيستحب أن يجمع بين هذه الأذكار

كلها ويدعو بما يريد من أمور الآخرة والدنيا وإن اقتصر على بعضها حصل أصل التسبيح ولو لم يسبح بشيء أصلا حصل السجود كسجود الصلاة ثم إذا فرغ من التسبيح والدعاء رفع رأسه مكبرا وهل يفتقر إلى السلام فيه قولان منصوصان للشافعي مشهوران أصحابهما عند جماهير أصحابه أنه يفتقر لا فتقاره إلى الإحرام ويصير كصلاة الجنارة ويؤيد هذا ما رواه ابن أبي داود بإسناده الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قرأ السجدة سجد ثم سلم والثاني لا يفتقر كسجود التلاوة في الصلاة ولأنه لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فعلى الأول هل يفتقر إلى التشهد فيه وجهان أصحابهما لا يفتقر كما لا يفتقر إلى القيام وبعض أصحابنا يجمع بين المسألتين ويقول في التشهد والسلام ثلاثة أوجه أصحابها أنه لا بد من السلام دون التشهد والثاني لا يحتاج إلى واحد منهما والثالث لا بد منهما وممن قال من السلف يسلم محمد بن سيرين وأبو عبد الرحمن السلمى وأبو الأحوص وأبو قابلة وإسحاق بن راهويه وممن قال لا يسلم الحسن البصري وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي ويحيى بن وثاب وأحمد وهذا كله في الحال الأول وهو السجود خارج الصلاة والحال الثاني أن يسجد للتلاوة في الصلاة فلا يكبر

(141/302)

---

للإحرام ويستحب أن يكبر للسجود ولا يرفع يديه ويكبر للرفع من السجود هذا هو الصحيح المشهور الذي قاله الجمهور وقال أبو علي بن أبي هريرة من أصحابنا لا يكبر للسجود ولا للرفع والمعروف الأول وأما الآداب في هيئة السجود والتسبيح فعلى ما تقدم في السجود خارج الصلاة إلا أنه إذا كان الساجد إماماً فينبغي أن لا يطول التسبيح إلا أن يعلم من حال المأمومين أنهم يؤثرون التطويل ثم إذا رفع من السجود قام ولا يجلس للاستراحة بلا خلاف وهذه مسألة غريبة قل من نص عليها وممن نص عليها القاضي حسين والبغوي والرافعي هذا بخلاف سجود الصلاة فإن القول الصحيح المنصوص للشافعي المختار الذي جاءت به الأحاديث الصحيحة في البخاري وغيره استحباب جلسته للاستراحة عقيب السجدة الثانية من الركعة الأولى في كل الصلوات ومن الثالثة في الرباعيات ثم إذا رفع من سجدة التلاوة فلا بد من الانتصاب قائماً والمستحب إذا انتصب أن يقرأ شيئاً ثم يركع فإن انتصب ثم ركع من غير قراءة جاز فصل في الأوقات المختارة للقراءة اعلم أن أفضل القراءة ما كان في الصلاة ومذهب الشافعي وغيره أن تطويل القيام في الصلاة أفضل من تطويل السجود وغيره وأما القراءة في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل والنصف الأخير من الليل أفضل من النصف الأول والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة وأما القراءة في النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ولا كراهية في القراءة في

---

وقت من الأوقات لمعنى فيه وأما ما رواه ابن أبي داود عن معاذ بن رفاعه عن مشايخه أنهم  
كروهوا القراءة بعد العصر وقالوا هي دراسة اليهود فغير مقبول ولا أصل له ويختار من الأيام  
الجمعة والاثنين والخميس ويوم عرفة ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان والعشر الأول  
من ذي الحجة ومن الشهور رمضان فصل إذا أرتج على القارئ ولم يدر ما بعد الموضع الذي  
انتهى إليه فسأل عنه غيره فينبغي أن يتأدب بما جاء عن عبد الله بن مسعود وإبراهيم  
النخعي وبشير بن أبي مسعود رضي الله عنهم قالوا إذا سأل أحدكم أخاه عن آية فليقرأ ما  
قبلها ثم يسكت ولا يقول كيف كذا وكذا فإنه يلبس عليه فصل إذا أراد أن يستدل بآية فله  
أن يقول قال الله تعالى كذا وله أن يقول الله تعالى يقول كذا ولا كراهة في شيء من هذا هذا  
هو الصحيح المختار الذي عليه عمل السلف والخلف وروى ابن أبي داود عن مطرف بن  
عبد الله بن الشخير التابعي المشهور قال لا تقولوا إن الله تعالى يقول ولكن قولوا إن الله تعالى  
قال وهذا الذي أنكره مطرف رحمه الله خلاف ما جاء به القرآن والسنة وفعلته الصحابة  
ومن بعدهم رضي الله عنهم فقد قال الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾  
وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول  
الله سبحانه وتعالى ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ وفي صحيح البخاري في



باب تفسير ﴿ لن تناولوا البرحتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فقال أبو طلحة يا رسول الله إن الله

تعالى يقول

(143/302)

---

﴿ لن تناولوا البرحتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فهذا كلام أبي طلحة في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وفي الصحيح عن مسروق رحمه الله قال قلت لعائشة رضي الله عنها ألم يقل الله تعالى ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ فقالت ألم تسمع أن الله تعالى يقول ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ أو لم تسمع أن الله تعالى يقول ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ﴾ الآية ثم قالت في هذا الحديث والله تعالى يقول ﴿ يا أيها الرسول بلغ ﴾ ثم قالت والله تعالى يقول ﴿ قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ﴾ ونظائر هذا في كلام السلف والخلف أكثر من أن تحصر والله أعلم فصل في آداب الختم وما يتعلق به فيه مسائل الأولى في وقته قد تقدم أن الختم للقارئ وحده يستحب أن يكون في الصلاة وأنه قيل يستحب أن يكون في ركعتي سنة الفجر وركعتي سنة المغرب وفي ركعتي الفجر أفضل وأنه يستحب أن يختم ختمة في أول النهار في دور ويختم ختمة أخرى في آخر النهار في دور آخر وأما من يختم في غير الصلاة والجماعة الذين يختمون مجتمعين

فيستحب أن تكون ختمتهم أول النهار أو في أول الليل كما تقدم وأول النهار أفضل عند بعض العلماء المسألة الثانية يستحب صيام يوم الختم إلا أن يصادف يوماً نهى الشرع عن صيامه وقد روى ابن أبي داود بإسناده الصحيح أن

(144/302)

---

طلحة بن مطرف وحبیب بن أبی ثابت والمسیب بن رافع التابعین الكوفیین رضي الله عنهم أجمعين كانوا يصبحون في اليوم الذي يختمون فيه القرآن صياماً المسألة الثالثة يستحب حضور مجلس ختم القرآن استحباباً بما تأكدنا فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الحيفض بالخروج يوم العيد ليشهدن الخير ودعوة المسلمين وروى الدارمي وابن أبي داود بإسنادهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يجعل رجلاً يراقب رجلاً يقرأ القرآن فإذا أراد أن يختم أعلم ابن عباس فيشهد ذلك وروى ابن أبي داود بإسنادين صحيحين عن قتادة التابعي الجليل صاحب أنس رضي الله عنه قال كان أنس بن مالك رضي الله عنه إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا وروى بأسانيد الصحيحين عن الحكم بن عيينة التابعي الجليل قال أرسل إلي مجاهد وعتبة بن لباة فقالا إنا أرسلنا إليك لأننا أردنا أن نختم القرآن والدعاء يستجاب عند ختم القرآن وفي بعض الروايات الصحيحة وأنه كان

يقال أن الرحمة تنزل عند خاتمة القرآن وروى بإسناده الصحيح عن مجاهد قال كانوا يجتمعون عند ختم القرآن يقولون تنزل الرحمة المسألة الرابعة الدعاء مستحب عقيب الختم استحباباً مؤكداً لما ذكرناه في المسألة التي قبلها وروى الدارمي بإسناده عن حميد الأعرج قال من قرأ القرآن ثم دعا أمن على دعائه أربعة آلاف ملك وينبغي أن يلح في الدعاء وأن يدعو بالأمر المهمة وأن يكثر في ذلك في صلاح المسلمين وصلاح سلطانهم وسائر ولاية أمورهم وقد روى الحاكم أبو

(145/302)

---

عبد الله النيسابوري بإسناده أن عبد الله بن المبارك رضي الله عنه كان إذا ختم القرآن كان أكثر دعائه للمسلمين والمؤمنين والمؤمنات وقد قال نحو ذلك غيره فيختار الداعي الدعوات الجامعة كقوله اللهم أصلح قلوبنا وأزل عيوبنا وتولنا بالحسنى وزينا بالتقوى واجمع لنا خير الآخرة والأولى وارزقنا طاعتك ما أبقيتنا اللهم يسرنا لليسر وجنبنا العسر وأعدنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وأعدنا من عذاب النار وعذاب القبر وفتنة الحيا والممات وفتنة المسيح الدجال اللهم إنا نسألك الهدى والتقوى والعفاف والغنى اللهم إنا نستودعك أدياننا وأبداننا وخواصنا وأعمالنا وأنفسنا وأهلينا وأحبابنا وسائر المسلمين

وجميع ما أنعمت علينا وعليهم من أمور الآخرة والدنيا اللهم إنا نسألك العفو والعافية في  
الدين والدنيا والآخرة واجمع بيننا وبين أحبنا في دارك رامتك بفضلك ورحمتك اللهم  
أصلح ولاية المسلمين ووقفهم للعدل في رعاياهم والإحسان إليهم والشفقة عليهم والرفق بهم  
والاعتناء بمصالحهم وحببهم إلى الرعية وحبب الرعية إليهم ووقفهم لصراطك المستقيم  
والعمل بوظائف دينك القويم اللهم الطف بعبدك سلطاننا ووقفه لمصالح الدنيا والآخرة  
وحببه إلى رعيته وحبب الرعية إليه ويقول باقي الدعوات المذكورة في جملة الولاية ويزيد  
اللهم ارحم نفسه وبلاده ووطنه وأتباعه وأجناده وانصره على أعداء الدين وسائر المخالفين  
ووقفه لإزالة المنكرات وإظهار المحاسن وأنواع الخيرات وزد الإسلام بسببه ظهوراً وأعزه  
ورعيته إعزازاً باهراً اللهم أصلح أحوال المسلمين وأرخص أسعارهم وأمنهم في أوطانهم  
واقض ديونهم وعاف مرضاهم

(146/302)

---

وانصر جيوشهم وسلم غيابهم وفك أسراهم واشف صدورهم وأذهب غيظ قلوبهم  
وألف بينهم واجعل في قلوبهم الإيمان والحكمة وثبتهم على ملة رسولك صلى الله عليه  
وسلم وأوزعهم ن يوفوا بعهدك الذي عاهدتهم عليه وانصرهم على عدوك وعدوهم إليه

الحق واجعلنا منهم اللهم أجعلهم أمرين بالمعروف فاعلين به ناهين عن المنكر مجتنبين له  
محافظة على حدودك قائمين على طاعتك متناصفين متناصحين اللهم صنهم في أقوالهم  
وأفعالهم وبارك لهم في جميع أحوالهم ويفتح دعاءه ويحتمه بقوله الحمد لله رب العالمين حمدا  
يوافى نعمه ويكافئ مزيده اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما صليت  
على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم  
وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد المسألة الخامسة يستحب إذا فرغ من الختم أن  
يشرع في أخرى عقيب الختم فقد استحبه السلف واحتجوا فيه بحديث أنس رضي الله  
عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير الأعمال الحل والرحلة قيل وما هما قال  
افتتاح القرآن وختمه

الباب السابع في آداب الناس كلهم مع القرآن

ثبت في صحيح مسلم رضي الله عنه عن تميم الداري رضي الله عنه قال إن النبي صلى  
الله عليه وسلم قال الدين النصيحة قلنا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين  
وعامتهم قال العلماء رحمهم الله النصيحة لكتاب الله تعالى هي الإيمان بأنه كلام الله تعالى  
وتنزيله لا يشبهه شيء من كلام الخلق ولا يقدر على مثله الخلق بأسرهم ثم تعظيمه وتلاوته  
حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها وإقامة حروفه في التلاوة والذب عنه لتأويل المحرفين  
وتعرض الطاغين والتصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله والاعتناء

بمواظبه والتفكر في عجائبه والعمل بحكمه والتسليم بمتشابهه والبحث عن عمومه  
وخصوصه وناسخه ومنسوخه ونشر علومه والدعاء إليه وإلى ما ذكرناه من نصيحته

(147/302)

---

فصل أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيائه  
وأجمعوا على أن من جحد منه حرفاً مما أجمع عليه أو زاد حرفاً لم يقرأ به أحد وهو عالم  
بذلك فهو كافر قال الإمام الحافظ أبو الفضل القاضي عياض رحمه الله اعلم أن من  
استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه أو سبها أو جحد حرفاً منه أو كذب بشيء

(148/302)

---

مما صرح به فيه من حكم أو خبر أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبتته وهو عالم بذلك أو يشك في  
شيء من ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين وكذلك إذا جحد التوراة والإنجيل أو كتب الله  
المنزلة أو كفر بها أو سبها أو استخف بها فهو كافر قال وقد أجمع المسلمون على أن القرآن  
المتلوي الأقطار المكتوب في الصحف الذي بأيدي المسلمين مما جمعه الدفتان من أول الحمد

للّٰه رب العالمين إلى آخر قل أعوذ برب الناس كلام الله ووحيه المنزل على نبيه محمد صلى  
الله عليه وسلم وأن جميع ما فيه حق وأن من نقص منه حرفاً قاصداً لذلك أو بدله مجرف  
آخر مكانه أو زاد فيه حرفاً مما لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع فيه الإجماع وأجمع على  
أنه ليس بقرآن عامداً لكل هذا فهو كافر قال أبو عثمان بن الحذاء جميع أهل التوحيد  
متفقون على أن الجحد مجرف من القرآن كفر وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن  
شنبوذ المقرئ أحد أئمة المقرئين المتصدرين بها مع ابن مجاهد لقراءته وإقراءته بشواذ من  
الحروف مما ليس في المصحف وعقدوا عليه للرجوع عنه والتوبة سجلاً أشهدوا فيه على  
نفسه في مجلس الوزير أبي بن مقله سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة وأفتى محمد بن أبي زيد  
فيمين قال لصبي لعن الله معلمك وما علمك قال أردت سوء الأدب ولم أرد القرآن قال يؤدب  
القائل قال وأما من لعن المصحف فإنه يقتل هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله فصل  
ويحرم تفسيره بغير علم والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها والأحاديث في ذلك كثيرة  
والإجماع منعقد عليه وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن والإجماع منعقد عليه فمن كان  
أهلاً للتفسير جامعاً

للأدوات التي يعرف بها معناه وغلب على ظنه المراد فسرّه إن كان مما يدرك بالاجتهاد  
كالمعاني والأحكام الجلية والخفية والعموم والخصوص والإعراب وغير ذلك وإن كان مما لا  
يدرك بالاجتهاد كالأموال التي طريقها النقل وتفسير الألفاظ اللغوية فلا يجوز الكلام فيه إلا  
بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله وأما من كان ليس من أهله لكونه غير جامع  
لأدواته فحرام عليه التفسير لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله ثم المفسرون  
برأيهم من غير دليل صحيح أقسام منهم من يحتج بأنه على تصحيح مذهبه وتقوية خاطره  
مع أنه لا يغلب على ظنه أن ذلك هو المراد بالآية وإنما يقصد الظهور على خصمه ومنهم من  
يقصد الدعاء إلى خير ويحتج بآية من غير أن تظهر له دلالة لما قاله ومنهم من يفسر ألفاظه  
العربية من غير وقوف على معانيها عند أهلها وهي مما لا يؤخذ إلا بالسمع من أهل العربية  
وأهل التفسير كبيان معنى اللفظ وإعرابها وما فيها من الحذف والاختصار والإضمار  
والحقيقة والمجاز والعموم والخصوص والتقديم والتأخير والإجمال والبيان وغير ذلك مما هو  
خلاف الظاهر ولا يكفي مع ذلك معرفة العربية وحدها بل لا بد معها من معرفة ما قاله  
أهل التفسير فيها فقد يكونون مجتمعين على ترك الظاهر أو على إرادة الخصوص أو  
الإضمار وغير ذلك مما هو خلاف الظاهر وكما إذا كان اللفظ مشتركاً في معان فعمل في  
موضع أن المراد أحد المعاني ثم فسر كل ما جاء به فهذا كله تفسير بالرأي وهو حرام والله  
أعلم فصل يحرم المرء في القرآن والجدال فيه بغير حق فمن ذلك أن



يظهر فيه دلالة الآية على شيء يخالف مذهبه ويحتمل احتمالاً ضعيفاً موافقة مذهبه فيحملها على مذهبه وينظر على ذلك مع ظهورها في خلاف ما يقول وأما من لا يظهر له ذلك فهو معذور وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال المرء في القرآن كفر قال الخطابي المراد بالمرء الشك وقيل الجدل المشكك فيه وقيل وهو الجدل الذي يفعله أهل الأهواء في آيات القدر ونحوها

فصل وينبغي لمن أراد السؤال عن تقديم آية على آية في المصحف أو مناسبة هذه الآية في هذا الموضع ونحو ذلك أن يقول ما الحكمة في كذا

فصل يكره أن يقول نسيت آية كذا بل يقول أنسيتها أو أسقطتها فقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول أحدكم نسيت آية كذا وكذا بل هو شيء نسي وفي رواية في الصحيحين أيضاً بسماً لأحدكم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو نسي وثبت في الصحيحين أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقرأ فقال رحمه الله لقد ذكرني آية كنت أسقطتها وفي رواية في الصحيح كنت أنسيتها وأما ما رواه ابن أبي داود عن أبي

عبد الرحمن السلمي التابعي الجليل أنه قال لا تقل أسقطت آية كذا قل أغفلت فهو خلاف ما  
ثبت في الحديث الصحيح فالاعتماد على الحديث وهو جواز أسقطت وعدم الكراهة فيه  
فصل يجوز أن يقال سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة

(151/302)

---

النساء وسورة المائدة وسورة الأنعام وكذا الباقي لا كراهة في ذلك وكره بعض المتقدمين  
هذا وقال يقال السورة التي يذكر فيها البقرة والسورة التي يذكر فيها آل عمران والسورة التي  
يذكر فيها النساء وكذا البواقي والصواب الأول فقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قوله سورة البقرة وسورة الكهف وغيرهما مما لا يحصى وكذلك عن  
الصحابة رضي الله تعالى عنهم قال ابن مسعود هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة  
وعنه في الصحيحين قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النساء والأحاديث  
وأقوال السلف في هذا أكثر من أن تحصر وفي السورة لغتان الهمز وتركه والتك أفصح وهو  
الذي جاء به القرآن وممن ذكر اللغتين ابن قتيبة في غريب الحديث  
فصل ولا يكره أن يقال هذه قراءة أبي عمرو أو قراءة نافع أو حمزة أو الكسائي أو غيرهم  
هذا هو المختار الذي عليه السلف والخلف من غير إنكار وروى ابن أبي داود عن إبراهيم

النخعي أنه قال كانوا يكرهون أن يقال سنة فلان وقراءة فلان والصحيح ما قدمناه  
فصل لا يمنع الكافر من سماع القرآن لقول الله تعالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ  
فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ويمتنع من مس المصحف وهل يجوز تعليمه القرآن قال  
أصحابنا إن كان لا يرجي إسلامه لم يجز تعليمه وإن رجي إسلامه فوجهان أحدهما يجوز  
رجاء إسلامه والثاني لا يجوز كما لا يجوز بيع المصحف منه وإن رجي إسلامه وأما إذا  
رأيناه يتعلم فهل يمنع فيه وجهان

(152/302)

---

فصل اختلف العلماء في كتابة القرآن في إناء ثم يغسل ويستقى المريض فقال الحسن ومجاهد  
وأبو قلابة والأوزاعي لا بأس به وكرهه النخعي قال القاضي حسين والبعثي وغيرهما من  
أصحابنا ولو كتب القرآن على الحلوى وغيرها من الأطعمة فلا بأس بأكلها قال القاضي ولو  
كان خشبة كره إحراقها فصل مذهبنا أنه يكره نقش الحيطان والثياب بالقرآن وبأسماء الله  
تعالى قال عطاء لا بأس بكتب القرآن في قبلة المسجد وأما كتابة الحروز من القرآن فقال  
مالك لا بأس به إذا كان في قصبة أو جلد وخرز عليه وقال بعض أصحابنا إذا كتب في  
الخرز قرآنا مع غيره فليس مجرام ولكن الأولى تركه لكونه يحمل في حال الحدث وإذا كتب

يضان بما قاله الإمام مالك رحمه الله وبهذا أفتى الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله فصل  
في النفث مع القرآن للرقية روى ابن أبي داود عن أبي جحيفة الصحابي رضي الله عنه  
واسمه وهب بن عبد الله وقيل غير ذلك وعن الحسن البصري وإبراهيم النخعي أنهم كرهوا  
ذلك والمختار أن ذلك غير مكروه بل هو سنة مستحبة فقد ثبت عن عائشة رضي الله  
عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما  
فقرأ فيهما قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم مسح بهما ما  
استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث  
مرات رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وفي روايات في الصحيحين زيادة على هذا  
ففي بعضها

قالت عائشة رضي الله عنها فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به وفي بعضها كان النبي  
صلى الله عليه وسلم ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات قالت عائشة  
رضي الله عنها فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيده نفسه لبركتها وفي بعضها كان إذا  
اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث قال أهل اللغة النفث نفخ لطيف بلاريق . والله  
أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التبيان في آداب حملة القرآن ص 90 . 17 ﴾

(153/302)

## فصل فى منزلة السماع

قال ابن القيم:

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة (السماع).

وهو اسم مصدر كالنبات وقد أمر الله به فى كتابه وأثنى على أهله وأخبر أن البشرى لهم

فقال تعالى 5: 108 ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ وقال 64: 16 ﴿وَاسْمَعُوا

وَأَطِيعُوا﴾ وقال 4: 46 ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

وَأَقْوَمَ﴾ وقال 39: 17، 18 ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ

هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وقال 7: 204 ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ

وَأَنْصِتُوا﴾ وقال 5: 83 ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ .

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلا على علم الخير فيهم وعدم ذلك دليلا على عدم

الخير فيهم فقال: 8: 23 ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ

مُعْرِضُونَ﴾ .

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه فقال: 41: 22 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ .

فالسَّماعُ رسولُ الإيمانِ إلى القلبِ وداعِيه ومعلمه وكم في القرآن من قوله: ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ وقال: 22 : 46 ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يُسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الآية .

فالسَّماعُ أصلُ العقلِ وأساسُ الإيمانِ الذي انبنى عليه وهو رائده وجليسه ووزيره ولكن الشَّأنُ كلَّ الشَّأنِ في المسموعِ وفيه وقع خبطُ الناسِ واختلافهم وغلطُ منهم من غلط .

(154/302)

---

وحقيقة (السَّماع) تنبيه القلب على معاني المسموع وتحريكه عنها: طلبا وهربا وحباً وبغضا فهو حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه .  
وأصحاب السَّماع منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه فهذا حظه من مسموعه: ما وافق طبعه .

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفة وعقله فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته .

ومنهم: من يسمع بالله لا يسمع بغيره كما في الحديث الإلهي الصحيح: "فبي يسمع وبي يبصر" وهذا أعلى سماعا وأصح من كل أحد .

والكلام في (السمع) مدحا واذما يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع وحقيقته وسببه  
والباعث عليه وثمرته وغايته فهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر (السمع) ويتميز النافع منه  
والضار والحق والباطل والمدوح والمذموم.

فأما (المسموع) فعلى ثلاثة أضرب .

أحدها : مسموع يحبه الله ويرضاه وأمر به عباده وأثنى على أهله ورضي عنهم به .

الثاني : مسموع يبغضه ويكرهه ونهى عنه ومدح المعرضين عنه .

الثالث : مسموع مباح مأذون فيه لا يحبه ولا يبغضه ولا مدح صاحبه ولا ذمه فحكمه

حكم سائر المباحات : من المناظر والمشام والمطعومات والملبوسات المباحة فمن حرم

هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم وحرم ما أحل الله ومن جعله دينا وقربة يتقرب

به إلى الله فقد كذب على الله وشرع دينا لم يأذن به الله وضاهأ بذلك المشركين .

## فصل

فأما النوع الأول : فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه وأمر به وأثنى على أصحابه وذم

المعرضين عنه ولعنهم وجعلهم أضل من الأنعام سبيلا وهم القائلون في النار : 67 : 10

﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على

رسوله فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه وهو على ثلاثة أنواع سماع إدراك :

بجاسة الأذن وسماع فهم وعقل وسماع منهم إجابة وقبول والثلاثة في القرآن .

فأما سماع الإدراك: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم: 1: 72 ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ وقولهم: 30: 46 ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ الآية فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة وأما سماع الفهم: فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى: 30: 52 ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ وقوله: 22: 35 ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ .

فالتخصيص ههنا لإسماع الفهم والعقل وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة: لا تخصيص فيه ومنه قوله تعالى: 8: 23 ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفهمهم وإلا فهم قد سمعوا الإدراك ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي ولو أفهمهم لما انتقادوا ولا انتفعوا بما فهموا لأن في قلبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه .

وأما سماع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا: 24



51: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ فإن هذا سماع قبول وإجابة مثمر للطاعة .

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسوع وفهموه واستجابوا له .

ومن سمع القبول: 9: 47 ﴿ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ ﴾ أى قابلون منهم مستجيبون لهم هذا أصح القولين في الآية .

وأما قول من قال: عيون لهم وجواسيس فضعيف فإنه سبحانه أخبر عن حكمته في تشييطهم عن الخروج: بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد والسعي بين العسكر بالفتنة وفي العسكر من يقبل منهم ويستجيب لهم فكان في إقعادهم عنهم لطفًا بهم ورحمة حتى لا يقعوا في عنق القبول منهم .

(156/302)

---

أما اشتغال العسكر على جواسيس وعيون لهم: فلا تعلق له بحكمة التشييط والإقعاد ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسعوا بالفساد في العسكر ولئلا يبغيهم الفتنة وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم وإقعاد جواسيسهم وعيونهم .

وأيضاً فإن الجواسيس إنما تسمى (عيونا) هذا المعروف في الاستعمال لا تسمى سماعين .  
وأيضاً فإن هذا نظير قوله تعالى في إخوانهم اليهود: 5: 42 ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ  
لِلسُّحْتِ ﴾ أي قائلون له .

والمقصود: أن سماع خاصة الخاصة المقربين: هو سماع القرآن بالاعتبارات  
الثلاثة: إدراكا وفهما وتدبرا وإجابة وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم  
وأمر به أولياءه: فهو هذا السماع .

وهو سماع الآيات لا سماع الآيات وسماع القرآن لا سماع مزامير الشيطان وسماع كلام رب  
الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء وسماع المرشد لا سماع القصائد وسماع الأنبياء  
والمرسلين لا سماع المغنين والمطربين .

فهذا السماع حاد يحد والقلوب إلى جوار علام الغيوب وسائق يسوق الأرواح إلى ديار  
الأفراح ومحرك يثير ساكن العزيمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات ومناد ينادي للإيمان  
ودليل يسير بالركب في طريق الجنان وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح من قبل فالتق  
الإصباح "حي على الفلاح حي على الفلاح" .

فلم يعد من اختار هذا السماع إرشادا لحجة وتبصرة لعبارة وتذكرة لمعرفة وفكرة في آية  
ودلالة على رشد وردا على ضلالة وإرشادا من غي وبصيرة من عمى وأمرأ بمصلحة  
ونهبها عن مضرة ومفسدة وهداية إلى نور وإخراجا من ظلمة وزجرا عن هوى وحثا على

تقى وجلاء لبصيرة وحياة لقلب وغذاء ودواء وشفاء وعصمة ونجاة وكشف شبهة  
وإيضاح برهان وتحقيق حق وإبطال باطل .

(157/302)

---

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد وناشدهم بالذي أنزل القرآن  
هدى وشفاء ونورا وحياة: هل وجدوا ذلك أو شيئا منه في الدف والمزمار ونعمة الشادن  
ومطربات الألحان والغناء المشتمل على تهيبح الحب المطلق الذي يشترك فيه محب الرحمن  
ومحب الأوطان ومحب الإخوان ومحب العلم والعرفان ومحب الأموال والأثمان ومحب  
النسوان والمردان ومحب الصلبان فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشيء ساكنه ويزعج  
قاطنه فيثور وجده ويبدو وشوقه فيتحرك على حسب ما في قلبه من الحب والشوق  
والوجد بذلك المحبوب كأننا ما كان ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقا في السماع وحالا ووجدا  
وبكاء .

ويا لله العجب! أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان  
وتوقيعات لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم من يبغضه الله ورسوله ويعاقب عليه: من غزل  
وتشبيب بمن لا يحل له من ذكر أو أتى فإن غالب التغزل والتشبيب: إنما هو في الصور

الحرمة ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه في امرأته وأمه وأم ولده مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود فكيف يقع لمن له أدنى بصيرة وحياة قلب: أن يتقرب إلى الله ويزداد إيمانا وقربا منه وكرامة عليه بالتذاه بما هو بغيض إليه مقيت عنده يمقت قائله والراضي به وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؟! .

يا لله! إن هذا القلب محسوف به ممكور به منكوس لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معانيه ومطالعة أسرارهِ فبلاه بقرآن الشيطان كما في معجم الطبراني وغيره مرفوعا وموقوفا: "إن الشيطان قال: يا رب اجعل لي قرآنا قال: قرآنك الشعر قال: اجعل لي كتابا قال: كتابك الوشم قال: اجعل لي مؤذنا قال: مؤذنك المزمارة قال: اجعل لي بيتا قال: بيتك الحمام قال: اجعل لي مصائد قال: مصائدك النساء قال: اجعل لي طعاما قال: طعامك ما لم يذكر عليه اسمي" والله سبحانه وتعالى أعلم .

(158/302)

---

فصل: القسم الثاني من السماع .

ما يبغضه الله ويكرهه ويمدح المعرض عنه وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه كسماع

الباطل كله إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقصد أن يعلم به حسن ضده فإن الضد يظهر حسنه الضد كما قيل:

وإذا سمعت إلى حديثك زادني . . . حباله: سمعي حديث سواكا

وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه والمعرضين عنه بقوله: 28: 55 ﴿ وَإِذَا

سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ وقوله: 25: 72 ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ قال

محمد بن الحنفية: "هو الغناء وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه".

قال ابن مسعود: "الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل" وهذا كلام عارف

بأثر الغناء وثمرته فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر ولو عرف حقيقة النفاق

وغايته لأبصره في قلبه فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت

إحداهما الأخرى وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه وتبرمهم

به وصياحهم بالقارئ إذا طول عليهم وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه فلا تتحرك ولا تطرب

ولا تهيج منها بواعث الطلب فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله كيف تخشع منهم

الأصوات وتهدا الحركات وتسكن القلوب وتطمئن ويقع البكاء والوجد والحركة الظاهرة

والباطنة والسماحة بالأثمان والثياب وطيب السهر وتمني طول الليل فإن لم يكن هذا نفاقا

فهو أخية النفاق وأساسه.

تلي الكتاب فاطرقوا لا خيفة . . . لكنه إطراق ساه لاهي

وأتى الغناء فكالذباب تراقصوا . . . والله ما رقصوا من أجل الله  
دف ومزمار ونغمة شاهد . . . فمتى شهدت عبادة بملاهي  
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا . . . تقييده بأوامر ونواهي  
وعليهم خف الغنا لما رأوا . . . إطلاقه في اليهودون مناهي  
يا فرقة ما ضردين محمد . . . وجنى عليه ومله إلهي  
سمعوا له رعدا وبرقا إذ حوى . . . زجرا وتخويفا بفعل مناهي

(159/302)

---

ورأوه أعظم قاطع للنفس عن . . . شهواتها يا ويحها المتناهي  
وأتى السماع موافقا أغراضها . . . فلأجل ذلك غدا عظيم الجاه  
أين المساعد للهوى من قاطع . . . أسبابه عند الجهول الساهي  
إن لم يكن خمر الجسوم فإنه . . . خمر العقول مماثل ومضاهي  
فانظر إلى النشوان عند شرابه . . . وانظر إلى النشوان عند تلاهي  
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه . . . من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي  
فاحكم بأي الخمرتين أحق بال . . . تحريم والتأثيم عند الله

وكيف يكون السماع الذي يسمعه العبد بطبعه وهو أنفع له من الذي يسمعه بالله والله وعن الله فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائي الشعري كذلك فهذا غاية اللبس على القوم فإنه إنما يسمع بالله والله وعن الله ما يحبه الله ويرضاه ولهذا قلنا: إنه لا يتحرر الكلام في هذه المسألة إلا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته فقد جعل الله لكل شيء قدرًا ولن يجعل الله من شره ونصيبه وذوقه ووجده من سماع الآيات البينات كمن نصيبه وشره وذوقه ووجده من سماع الغناء والآيات .

(160/302)

---

ومن أعجب العجائب: استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق لقوم وأنه مباح: بكونه مستلذا طبعًا تلذذه النفوس وتستروح إليه وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب والجمل يقاسي تعب السير ومشقة الحمولة فيهبون عليه بالحداء وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه وزيادة في خلقه وبأن الله ذم الصوت الفظيع فقال: 31 : 19 ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة فقال فيه: 30 : 15 ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ وأن ذلك هو السماع الطيب فكيف يكون حرامًا وهو في الجنة وبأن الله تعالى ما أذن لشيء كآذنه أي كاستماعه لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن

وبأن أبا موسى الأشعري استمع النبي صلى الله عليه وسلم إلى صوته وأثنى عليه بحسن الصوت وقال: "لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود" فقال له أبو موسى: "لو علمت أنك استمعت لحبرته لك تحييرا" أي زينته لك وحسنه ويقوله صلى الله عليه وسلم: "زينوا القرآن بأصواتكم"

ويقوله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن" والصحيح: أنه من التغني بمعنى تحسين الصوت وبذلك فسرهُ الإمام أحمد رحمه الله فقال: "يحسنه بصوته ما استطاع".  
وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أقر عائشة على غناء القينتين يوم العيد وقال لأبي بكر: "دعهما فإن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا أهل الإسلام".

وبأنه صلى الله عليه وسلم أذن في العرس في الغناء وسماه لهوا وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحداء وأذن فيه وكان يسمع أنسا والصحابة وهم يرتجزون بين يديه في حفر الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدا . . . على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة وحدا به الحادي في منصرفه من خيبر فجعل يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا . . . ولا تصدقنا ولا صلينا



فأنزلن سكينه علينا . . . وثبت الأقدام إن لاقينا  
إن الذين قد بغوا علينا . . . إذا أرادوا فتنة أبينا

(161/302)

---

ونحن إن صيح بنا أتينا . . . وبالصياح عولوا علينا  
ونحن عن فضلك ما استغنيا . . . . .  
فدعا لقائله .

وسمع قصيدة كعب بن زهير وأجازه بيردة .  
واستنشد الأسود بن سريع قصائد حمد بها ربه .  
واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية .  
وأنشده الأعشى شيئاً من شعره فسمعه .  
وصدق لبيدا في قوله "الأكل شيء ما خلا الله باطل" .  
ودعا لحسان "أن يؤيده الله بروح القدس مادام ينافح عنه" وكان يعجبه شعره وقال له:  
"اهجهم وروح القدس معك" .  
وأنشده عائشة قول أبي كبير الهذلي:

ومبرأ من كل غير حيضة . . . وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه . . . برقت كبرق العارض المتهلل

وقالت: "أنت أحق بهذا البيت" فسر بقولها .

وبأن ابن عمر رضي الله عنهما رخص فيه وعبد الله بن جعفر وأهل المدينة وبأن كذا

وكذا وليا لله حضره وسمعوه فمن حرمه فقد قدح في هؤلاء السادة القدوة الأعلام .

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية فلذة سماع صوت الأدمي

أولى بالإباحة أو مساوية .

وبأن السماع يحد وروح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه فإن كان محبوبه حراما كان السماع

معينا له على الحرام وإن كان مباحا كان السماع في حقه مباحا وإن كانت محبته رحمانية

كان السماع في حقه قرينة وطاعة لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيئها .

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن والشم بالروائح الطيبة

والفم بالطعوم الطيبة فإن كان هذا حراما كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة .

فالجواب: أن هذه حيدة عن المقصود وروغان عن محل النزاع وتعلق بما

لا متعلق به فإن جهة كون الشيء مستلذا للحاسة ملائما لها لا يدل على إباحته ولا تحريمه

ولا كراهته ولا استحبابه فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة: تكون في الحرام

والواجب والمكروه والمستحب والمباح فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط  
الدليل ومواقع الاستدلال؟ .

(162/302)

---

وهل هذا الإيمنة من استدلال على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة وأن لذته لا ينكرها  
من له طبع سليم: وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟ وهل  
خلت غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات المعازف التي صح عن النبي صلى الله  
عليه وسلم تحريمها وأن في أمته من سيستحلها بأصح إسناد وأجمع أهل العلم على تحريم  
بعضها وقال جمهورهم: بتحريم جملتها إلا لذينة تلذذ السمع؟ وهل في التذاذ الجمل والطفل  
بالصوت الطيب دليل على حكمه: من إباحة أو تحريم؟ .

وأعجب من هذا: الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب وهو زيادة نعمة  
منه لصاحبه .

فيقال: والصورة الحسنة الجميلة ليست زيادة في النعمة والله خالقها ومعطي حسناتها  
أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها والالتذاذ على الإطلاق بها؟ .  
وهل هذا الإلهام المذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة؟

وهل في ذم الله لصوت الحمار ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنعيمات الموزونات  
والألحان اللذيذات من الصور المستحسنات بأنواع القصائد المنعمات بالدفوف  
والشبابات؟! .

وأعجب من هذا: الاستدلال بسماع أهل الجنة وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة  
الخمر بأن في الجنة خمرا وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير وعلى حل أواني  
الذهب والفضة والتحلي بهما للرجال: بكون ذلك ثابتا وجود النعيم به في الجنة .  
فإن قال: قد قام الدليل على تحريم هذا ولم يقم على تحريم السماع .

قيل: هذا استدلال آخر غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة فعلم أن استدلالكم بإباحته  
لأهل الجنة استدلال باطل لا يرضى به محصل .  
وأما قولكم "لم يقم دليل على تحريم السماع" .

فيقال لك: أي السماع تعني؟ وأي المسموعات تريد؟ فالسماعات والمسموعات:  
منها المحرم والمكروه والمباح والواجب والمستحب فعين نوعا يقع الكلام فيه نفيًا وإثباتًا .  
فإن قلت: سماع القصائد قيل لك: أي القصائد تعني؟ ما مدح به الله ورسوله ودينه وكتابه  
وهجى به أعداؤه؟ .

---

فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها وهي التي سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأثاب عليها وحرص حسانا عليها وهي التي غرت أصحاب السماع الشيطاني فقالوا: تلك قصائد وسماعنا قصائد فنعم إذن والسنة كلام والبدعة كلام والتسبيح كلام والغيبة كلام والدعاء كلام والقذف كلام ولكن هل سمع رسول الله وأصحابه سماعكم هذا الشيطاني المشتمل على أكثر من مفسدة مذكورة في غير هذا الموضوع وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها؟ .

ونظير هذا: ما غرهم من استحسانه الصوت الحسن بالقرآن وأذنه له وإذنه فيه ومحبة الله له .

فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد وذكر القد والنهد والخصر ووصف العيون وفعالها والشعر الأسود ومحاسن الشباب وتوريد الخدود وذكر الوصل والصد والتجني والهجران والعتاب والاستعطاف والاشتياق والقلق والفراق وما جرى هذا المجرى مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر بما لا نسبة بينهما وأي نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه إلى سكرة العشق التي لا يستفيق الدهر صاحبها إلا في عسكر الهالكين سلبيا حربيا وأسيرا قتيلا؟ .

وهل تقاس سكرة الشراب بسكرة الأرواح بالسمع وهل يظن بحكيم أن يحرم سكرًا  
لمفسدة فيه معلومة ويبيح سكرًا مفسدته أضعاف أضعاف مفسدة الشراب حاشا  
أحكم الحاكمين .

فإن نازعوا في سكر السمع وتأثيره في العقول والأرواح: خرجوا عن الذوق والحس  
وظهرت مكابرة القوم فكيف يحمي الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته ويبيح له  
ما فيه أعظم السقم والمنصف يعلم أنه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب وسقمها  
بسكر السمع وكلامنا مع واجد لا فاقد فهو المقصود بالخطاب .

وأعجب من هذا: استدلالكم على إباحة السمع المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية  
بغناء بنتين صغيرتين دون البلوغ عند امرأة صبية في يوم عيد وفرح بأبيات من أبيات العرب  
في وصف الشجاعة والحروب ومكارم الأخلاق والشيم فأن هذا من هذا ؟ .

(164/302)

---

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم فإن الصديق الأكبر رضي الله عنه سمي  
ذلك: مزمورا من مزامير الشيطان وأقره رسول الله على هذه التسمية ورخص فيه  
لجويريتين غير مكلفتين ولا مفسدة في إنشادهما ولا إستماعهما أفيدل هذا على إباحة ما

تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على ما لا يخفى؟ فيا سبحان الله! كيف ضلت العقول والأفهام؟ .

وأعجب من هذا كله: الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد! وهل حرم أحد مطلق الشعر وقوله واستماعه فكم في هذا التعلق ببيوت العنكبوت؟ .

وأعجب من هذا: الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا: 2: 275 ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان والأوتار والعيدان وأصوات أشباه النساء من المردان والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القمري والبلبل والهزار ونحوها؟ .

بل نقول: لو كانا سواء لكان اتخاذ هذا السماع قرينة وطاعة تستنزل به المعارف والأذواق والمواجيد وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور ومعاذ الله أن يكونا سواء .

والذي يفصل النزاع في حكم هذه المسألة: ثلاث قواعد من أهم قواعد الإيمان والسلوك فمن لم يبن عليها فبناؤه على شفا جرف هار .  
القاعدة الأولى:

أن الذوق والحال والوجد: هل هو حاكم أو محكوم عليه فيحكم عليه بجاكم آخر أو  
ويتحكم إليه؟ .

فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة حيث جعلوه حاكماً  
فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع وفيما هو صحيح وفاسد وجعلوه محكماً للحق والباطل  
فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص وحكموا فيها الأذواق

(165/302)

---

والأحوال والمواجيد فعظم الأمر وتفاقم الفساد والشر وطمست معالم الإيمان والسلوك  
المستقيم وانعكس السير وكان إلى الله فصيروه إلى النفوس فالناس المحجوبون عن أذواقهم  
يعبدون الله وهؤلاء يعبدون نفوسهم .

ومن العجب: أنهم دخلوا في أنواع الرياضات والمجاهدات والزهد ليتجردوا عن شهوات  
النفوس وحظوظها فانتقلوا من شهوات إلى شهوات أكبر منها ومن حظوظ إلى حظوظ  
أحط منها وكان حالهم شهوات نفوسهم في الشهوات التي انتقلوا عنها أكمل وحال أربابها  
خير من حال هؤلاء لأنهم لم يعارضوا بها العلم ولا قدموها على النصوص ولا جعلوها ديناً  
وقربة ولا ازدروا من أجلها العلم وأهله والشهوات التي انتقلوا إليها جعلوها أعلى ما



يشمرون إليها فهي قبلة قلوبهم فهم حولها عاكفون واقفون مع حظوظهم من الله فانون بها  
عن مراد الله منهم الناس يعبدون الله وهم يعبدون أنفسهم عابئون على أهل الحظوظ  
والشهوات ومزدرون لهم وهم أعظم الناس حظوظا وإنما زهدوا في حظ إلى حظ أعلى  
منه وإنما تركوا شهوة لشهوة أخط .

فليتدبر اللبيب هذا الموضع في نفسه وفي غيره فكل ما خالف مراد الله الديني من العبد فهو  
حظه وشهوته ما لا كان أو رياسة أو صورة أو حالا أو ذوقا أو وجدا .  
ثم من قدمه على مراد الله فهو أسوأ حالا ممن عرف أنه نقص ومحنة وأن مراد الله أولى  
بالتقديم منه فهو يتوب منه كل وقت إلى الله .

ثم إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد ما لا يعلمه إلا الله فإن الأذواق مختلفة في أنفسها  
كثيرة الألوان متباينة أعظم التباين فكل طائفة لهم أذواق وأحوال ومواجيد بحسب  
معتقداتهم وسلوكهم .

فالقائلون بوحدة الوجود لهم ذوق وحال ووجد في معتقدهم بحسبه والنصارى لهم ذوق  
في النصرانية بحسب رياضتهم وعقائدهم وكل من اعتقد شيئا أو سلك  
سلوكا حقا كان أو باطلا فإنه إذا ارتاض وتجرد: لزمه وتمكن من قلبه وبقي له فيه حال  
وذوق ووجد فنذوق من توزن الحقائق إذن ويعرف الحق من الباطل .

---

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد والكشوف والأحوال من هذه الأمة المحدث  
المكاشف عمر رضى الله عنه لا يلتفت إلى ذوقه ووجدته ومخاطباته في شيء من أمور  
الدين حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب فإذا أخبروه عن رسول الله بشيء لم  
يلتفت إلى ذوقه ولا إلى وجدته وخطابه بل يقول: لو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره ويقول: أيها  
الناس رجل أخطأ وامرأة أصابت فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضى الله عنه ليس  
كفعل من غش نفسه والدين والأمة.

القاعدة الثانية:

أنه إذا وقع النزاع في حكم فعل من الأفعال أو حال من الأحوال أو ذوق من الأذواق هل هو  
صحيح أو فاسد؟ وحق أو باطل؟ وجب الرجوع فيه إلى المحجة المقبولة عند الله وعند  
عباده المؤمنين وهي وحية الذي تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه وتعرض  
عليه وتوزن به فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول وما أبطله وورده فهو  
الباطل المردود ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله: فليس على شيء من  
الدين وإن وإن وإنما معه خدع وغرور 24: 39 ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً  
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ .

القاعدة الثالثة:

إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فليُنظر إلى مفسدته وثمرته وغايته فإن كان مشتملا على مفسدة راجحة ظاهرة فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي

(167/302)

---

ولا سيما إذا كان طريقا مفضيا إلى ما يغضب الله ورسوله موصلا إليه عن قرب وهو رقية له ورائد ويريد فهذا لا يشك في تحريمه أو لبصائر فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر لأنه يسوق النفس إلى السكر الذي يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سوقا للنفس إلى الحرام بكثير؟ فإن الغناء كما قال ابن مسعود رضي الله عنه هو: (رقية الزنا) وقد شاهد الناس: أنه ما عاناه صبي إلا وفسد ولا امرأة إلا وبغت ولا شاب إلا وإلا ولا شيخ إلا وإلا والعيان من ذلك يغني عن البرهان ولا سيما إذا جمع هيئة تحذو النفوس أعظم حد وإلى المعصية والفجور بأن يكون على الوجه الذي ينبغي لأهله من المكان والإمكان والعشراء والإخوان والآلات المعازف: من اليراع والدف والأوتار والعيدان وكان القوال شادنا شجي الصوت لطيف الشمائل من المردان أو النسوان وكان القول في العشق والوصال والصد والهجران.

ودارت كؤوس الهوى بينهم . . . فلست ترى فيهم صاحيا  
فكل على قدر مشروبه . . . وكل أجاب الهوى الداعيا  
فمالوا سكارى ولا سكر من . . . تناول أم الهوى خاليا  
وجار على القوم ساقبهم . . . ولم يؤثروا غيره ساقيا  
فمزق منهم قلوبا غدت . . . لباسا عليه يرى ضافيا  
فلم يستفيقوا إلى أن أتى . . . إليهم منادي اللقا داعيا  
أجيبوا فكل امرئ منكم . . . على حاله ربه لاقيا  
هنالك تعلم من حمأة . . . شربت مع القوم أم صافيا  
وبالله لا بد قبل اللقا . . . سنعلم ذا إن تك واعيا  
لا بد تصحوا فيما هنا . . . وإما هناك فكن راضيا

## فصل

وإذا لم يكن بد من المحاكمة إلى الذوق فهلم نحاكمك إلى ذوق لا ننكره نحن ولا أنت غير هذه  
الأذواق التي ذكرناها .

فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن وأسف على مفقود وحالة فرح ورضى بوجوده وله  
بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان .

وله بمقتضى الحالة الأولى: عبودية الرضاء وهي للسابقين والصبر وهي لأصحاب اليمين .

وله بمقتضى الحالة الثانية: عبودية الشكر والشاكرين فيها أيضا نوعان: سابقون وأصحاب يمين فاقتطعت النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين بصوتين أحمرين فاجرين هما للشيطان لا للرحمن: صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب وصوت اللهو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب فعوضه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين .

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بعينه في حديث أنس رضي الله عنه: "إنما نهيت عن صوتين أحمرين فاجرين: صوت ويل عند مصيبة وصوت مزمار عند نعمة".

ووافق ذلك راحة من النفس وشهوة ولذة وسرت فيها تلك الرقائق حتى تعبد بها من قل نصيبه من النور النبوي وقل مشربه من العين الحمديّة وانضاف ذلك إلى صدق وطلب وإرادة مضادة لشهوات أهل الغي وأهل البطالة ورأوا قساوة قلوب المنكرين لطريقتهم وكثافة حجبهم وغلظة طباعهم وثقل أرواحهم وصادف ذلك تحريكا لسواكهم وانقيادا للواعج الحب وإزعاجا للنفوس إلى أوطانها الأولى ومعاهدتها التي سببت منها والنفوس

الطالبة المترضة السائرة لا بد لها من محرك يحركها وحاد يحدوها وليس لها من حادي القرآن عوض عن حادي السماع.

فتركب من هذه الأمور: إثارة منهم للسماع ومحبة صادقة له تزول الجبال عن أماكنها ولا تفارق قلوبهم إذ هو مثير عزماتهم ومحرك سواكنهم ومزعج بواطنهم.

فدواء صاحب مثل هذا الحال: أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة مع الإمعان في تفهم معانيه وتدبر خطابه قليلا قليلا إلى أن فيخلع قلبه محبة سماع الآيات ويلبس محبة سماع الآيات ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجدته فيه فحينئذ يعلم هو من نفسه: أنه لم يكن على شيء ويتمثل حينئذ بقول القائل:

وكنت أرى أن قد تناهى بي الهوى . . . إلى غاية ما فوقها لي مطلب  
فلما تلاقينا وعانيت حسنها . . . تيقنت أنني إنما كنت أعب

(169/302)

---

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر: أمر معلوم بالضرورة من الدين لا يمتري فيه إلا أبعاد الناس من العلم والإيمان فإن الشكر إنما هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحق الفاجر الذي هو للشيطان وكذلك النوح ضد الصبر كما قال عمر بن

الخطاب رضي الله عنه في النائحة وقد ضربها حتى بدا شعرها وقال: "لا حرمة لها إنها تأمر بالجزع وقد نهى الله عنه وتنهى عن الصبر وقد أمر الله به وتفتن الحبي وتؤدي الميت وتبيع عبرتها وتبكي شجو غيرها".

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير والذي شاهدناه نحن وغيرنا وعرفناه بالتجارب: أنه ما ظهرت المعازف والآلات اللهوية قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلب الله عليهم العدو وبلوا بالقحط والجذب وولاية السوء والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر والله المستعان.

ولا تستطل كلامنا في هذه المنزلة فإن لها عند القوم شأنًا عظيمًا.

وأما قولهم: "من أنكر على أهله فقد أنكر على كذا وكذا ولي لله" فحجة عامة نعم إذا أنكر أولياء الله على أولياء الله كان ماذا فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عددًا وأعظم عند الله وعند المؤمنين منهم قدرًا وأقرب بالقرون المفضلة عهدًا وليس من شرط ولي الله العصمة وقد تقاتل أولياء الله في صفين بالسيوف ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال: سار أهل الجنة إلى أهل الجنة وكون ولي الله يرتكب المحظور والمكروه متأولاً أو عاصياً

---

لا يمنع ذلك من الإنكار عليه ولا يخرجُه عن أصل ولاية الله وهيئات هيئات أن يكون أحد من أولياء الله المتقدمين حضر هذا السماع المحدث المبتدع المشتمل على هذه الهيئة التي تفتن القلوب أعظم من فتنة المشروب وحاشا أولياء الله من ذلك وإنما السماع الذي اختلف فيه مشايخ القوم: اجتماعهم في مكان خال من الاغيار يذكر الله ويتلون شيئاً من القرآن ثم يقوم بينهم قوال ينشدهم شيئاً من الأشعار المزهدة في الدنيا المرغبة في لقاء الله ومحبه وخوفه ورجائه والدار الآخرة وينبهم على بعض أحوالهم من يقظة أو غفلة أو بعد أو انقطاع أو تأسف على فائت أو تدارك لفارط أو وفاء بعهد أو تصديق بوعد أو ذكر قلق وشوق أو خوف فرقة أو صد وما جرى هذا المجرى .

فهذا السماع الذي اختلف فيه القوم لا سماع المكاء والتصديّة والمعازف والخمريات وعشق الصور من المردان والنسوان وذكر محاسنها ووصالها وهجرانها فهذا لو سئل عنه من سئل من أولي العقول لقضى بتحريمه وعلم أن الشرع لا يأتي بإباحته وأنه ليس على الناس أضر منه ولا أفسد لعقولهم وقلوبهم وأديانهم وأموالهم وأولادهم وحرمتهم منه والله أعلم .

فصل

قال صاحب المنازل:



"السمع على ثلاث درجات: سماع العامة وهو ثلاثة أشياء: إجابة زجر الوعيد رغبة

وإجابة دعوة الوعد جهدا وبلوغ مشاهدة المنة استبصارا".

الوعيد: يكون على ترك المأمور وفعل المحذور وإجابة داعيه: هو العمل بالطاعة.

وقوله: (رغبة) يعني امتثالا لكون الله تعالى أمر ونهى وأوعد.

وحقيقة الرجاء: الخوف والرجاء فيفعل ما أمر به على نور الإيمان راجيا للثواب ويترك ما

نهى عنه على نور الإيمان خائفا من العقاب.

وفي الرغبة فائدة أخرى وهي أن فعله يكون فعل راغب مختار لا فعل كاره كأنما يساق إلى

الموت وهو ينظر.

وأما إجابة الوعد جهدا: فهو امتثال الأمر طلبا للوصول إلى الموعد به باذلا جهده في ذلك

مستقرغا فيه قواه.

(171/302)

---

وأما بلوغ مشاهدة المنة استبصارا: فهو تنبه السامع في سماعه إلى أن جميع ما وصله من

خير فمن منة الله عليه وبفضله عليه من غير استحقاق منه ولا بذل عوض استوجب به

ذلك كما قال تعالى: 49: 17 ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ

اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٠﴾ .

وكذلك يشهد أن ما زوي عنه من الدنيا أو ما لحقه منها من ضرر وأذى فهو منة أيضا من الله عليه من وجوه كثيرة ويستخرجها الفكر الصحيح كما قال بعض السلف: "يا ابن آدم لا تدري أي النعمتين عليك أفضل: نعمته فيما أعطاك أو نعمته فيما زوى عنك؟" وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه "لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت إن كان الغنى إن فيه للشكر وإن كان الفقر إن فيه للصبر" وقال بعض السلف: "نعمته فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها إنني رأته أعطاهما قوما فاغتروا".

إذا عم بالسراء أعقب شكرها . . . وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

وما منهما إلا له فيه نعمة . . . تضيق بها الأوهام والبر والبحر

فإن قلت: فهل يشهد منته فيما لحقه من المعصية والذنب؟ .

قلت: نعم إذا اقترن بها التوبة النصوح والحسنات الماحية كانت من أعظم المنن عليه كما

تقدم تقريره .

فصل

قال: "وسماع الخاصة: ثلاثة أشياء شهود المقصود في كل رمز والوقوف على الغاية في كل

حين والخلاص من التلذذ بالترق ."

والمقصود في كل رمز: هو فإن المسموع كله يعرف به وبصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه

ووعده ووعيده وأمره ونهييه وعدله وفضله وهذا الشهود ينال بالسمع بالله والله وفي الله  
ومن الله .

أما السماع به: فإن لا يسمع وفيه بقية من نفسه فإن كانت فيه بقية قطعها كمال تعلقه  
بالمسموع فيكون سماعه بقيوميته مجردا من التفاته إلى نفسه .

(172/302)

---

وأما السماع له: فإن مجرد النفس في السماع من كل إرادة تراحم مراد الله منه وتجمع قوى  
سمعه على تحصيل مراد الله من المسموع .

وأما السماع فيه: فشان آخر وهو تجريد ما لا يليق نسبه إلى الحق من وصف أو سمة أو  
نعت أو فعل مما هو لائق بكماله فيثبت له ما يليق بكماله من المسموع وينزهه عما لا يليق  
به .

وهذا الموضع لم يتخلص فيه إلا الراسخون في العلم والمعرفة بالله وأضل الله عنه أهل  
التحريف والتعطيل والتشبيه والتمثيل 2: 213 ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ  
مِنَ الْحَقِّ يَأْذِنُهُ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأما السماع منه: فإنما يتصور بواسطة فهو سماع مقيد وأما المطلق: فلا مطمع فيه في عالم

الفناء إلا لمن اختصه الله برسالاته وبكلامه ولكن السماع لكلامه كالسماع منه فإنه كلامه الذي تكلم به حقاً فمن سمعه فليقدر نفسه كأنه يسمعه من الله .

هذا هو السماع من الله لا سماع أرباب الخيال ودعوى المحال القائل

أحدهم: ناداني في سري وخاطبني وقال لي يا ليت شعري من المنادي لك ومن المخاطب يا مخدوع يا مغرور؟ فما يدريك: أنداء شيطاني أم رحماني؟ وما البرهان على أن المخاطب لك هو الرحمن؟ .

نعم نحن لا ننكر النداء والخطاب والحديث وإنما الشأن في المنادي المخاطب المحدث فههنا تسكب العبرات .

وبالجملة فمن قرىء عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به فإذا حصل له مع ذلك السماع به وله وفيه ازدحمت معاني المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه وازدلفت إليه بأيهما يبدأ فما شئت من علم وحكم وتعرف وبصيرة وهداية وغيره .

(173/302)

---

وأما الوقوف على الغاية في كل حين: فهو التطلب والسفر إلى الغاية المقصودة بالمسموع الذي

جعل وسيلة إليها وهو الحق سبحانه فإنه غاية كل طلب 53: 42 ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ

الْمُنْتَهَى ﴿﴾ وليس وراء الله مرمى ولا دونه مستقر ولا تقر العين بغيره ألبتة وكل مطلوب

سواه فضل زائل وخيال مفارق مائل وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور .

وأما الخلاص من التلذذ بالترق: فالترق في معاني المسموع وتنقل القلب في منازلها يوجب

له لذة كما هو المألوف في الانتقال فليخلص من لذة تفرقه التي هي حظه إلى الجمعية على

المسموع به وله ومنه .

ولم يقل الشيخ (من التفرق) فإن المسموع إنما يدرك معناه ويفهم بالترق لتنوعه ولكن

ليخلص من لذته لا منه لئلا يكون مع حظه وهذا من لطف أحوال السامعين المخلصين .

فصل

قال: "وسماع خاصة الخاصة: سماع ينفي العلل عن الكشف ويصل الأبد إلى الأزل ويرد

النهايات إلى الأول" .

فالكشف: هو مكافحة القلب لحقيقة المسموع وعمله أمران .

أحدهما: الشبه التي تنتفي بهذه المكافحة فلا تبقى معها شبهة فهذا هو عين اليقين .

والثاني: نفي الوسائط بين السامع والمسموع فيغيب بمسموعه عنها ويفنى عن شهودها

ويفنى عن شهود فنائه عنها بحيث يشهده هو المسموع لا الواسطة وهو الهادي فمنه الإسماع

ومنه الهداية ومنه الابتداء وإليه الانتهاء .

وأما وصله الأبد إلى الأزل: فهذا إن أخذ على ظاهره: فهو محال لأن الأبد والأزل متقابلان

تقابل التناقض فإيصال أحدهما إلى الآخر عين المحال وإنما مراده: أن ما يكون في الأبد موجودا مشهودا فقد كان في الأزل معلوما مقدرًا فعاد حكم الأبد إلى الأزل علما وحقيقة وصار الأزلي أبديا كما كان الأبدي أزليا في العلم والحكم.

(174/302)

---

وإيضاح ذلك: أن الأبد ظهر فيه ما كان كما منا في الأزل خافيا فانتهى الأمر كله إلى علمه وحكمه وحكمته وذلك أزلي وهذا رد النهايات إلى الأول فتصير الخاتمة هي عين السابقة والله تعالى هو الأول والآخر وكل ما كان ويكون آخرًا فمردود إلى سابق علمه وحكمه فرجع الأبد إلى الأزل والنهايات إلى الأول والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مدارج السالكين - ج 1 ص 481. 504 ﴾

(175/302)

---

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (205)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم الأمر بالذكر عند نزغ الشيطان ، ومر إلى أن أمر بالاستماع لأعظم الذكر ، وكان التالي ربما بالغ في الجهر ليكثر سامعه ، وربما أسر لئلا يوجب على غيره الإصغاء ، علمهم أدب القراءة ، وأطلق ذلك في كل حال لأنه ربما فهم فاهم الاقتصار على ذكر في حالة النزغ ، ورقى الخطاب منهم إلى إمامهم ليكون أدهى لقبولهم مع الإشارة إلى أنه لا يكاد يقوم بهذا الأمر حق قيامه غيره. صلى الله عليه وسلم. فقال : ﴿ واذكر ﴾ أي بكل ذكر من القرآن وغيره - ﴿ ربك ﴾ أي الذي بلغ الغاية في الإحسان إليك ﴿ في نفسك ﴾ أي ذكراً يكون راسخاً فيك مطروفاً لك لفهمك لمعانيه وتخلقك بما فيه ، وليكن سراً لأن ذلك أقرب إلى الإخلاص وأعون على التفكير ، وكونه سراً دال على أشرف الأحوال ، وهو المراقبة مع تحقق القرب ، فإذا كان كذلك أثمر قوله : ﴿ تضرعاً ﴾ أي حال كونك ذا تضرع بالظاهر ﴿ وخيفة ﴾ أي تدعو المخافة إلى تذلل قبلك لتجمع بين تضرع السر والعلن ، وبهذا يكمل ذل العبودية لعز الربوبية .

(176/302)

ولما أمر بالسر ، قال مقابلاً له : ﴿ ودون الجهر ﴾ أي لأنه أدخل في الإخلاص ، ومن المعلوم أنه فوق السر ، وإلا لم تفد الجملة شيئاً ، ولما كان الجهر قد يكون في الأفعال ، أكده بقوله : ﴿ من القول ﴾ أي فإن ذلك يشعر بالتذلل والخضوع من غير صياح كما يناجي الملوك ويستجلب منهم الرغائب ، وكما قال - صلى الله عليه وسلم - للصحابة وقد جهروا بالدعاء فوق المقدار " إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً " فإن المقصود حصول الذكر اللساني ليعين الذكر القلبي ، والمقصود حاصل بإسماع النفس فإنه يتأثر الخيال فيتقوى الذكر القلبي ، ولا تزال الأنوار تتزايد فينعكس تراجع بعضها إلى بعض حتى يزداد الترقى من ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار مدبر النور والظلام .

ولما أمر بالذكر مكيفاً بكيفيته اللاتفة به ، أمره - صلى الله عليه وسلم - بالمداومة عليه ذاكراً أحسن الأوقات له وأحقها به ، لكونها لما فيها من الشغل - أدل على إثارة لمزيد المحبة والتعظيم فقال : ﴿ بالغدو ﴾ أي أوقات البكر ، ولعله أفرد على جعله مصدر غداً ، لأنه ما ثم إلا صلاة الصبح ، وجمع ما بعده للعصرين والمغرب فقال : ﴿ والآصال ﴾ أي أوقات العشاء ، وقيل : الغدو وجمع غدوة ، فيراد حينئذ مع الصبح الضحى ، وآخر كل نهار متصل بأول ليلة اليوم الثاني فسمي آخر اليوم أصيلاً لأنه متصل بما هو أصل اليوم الثاني ، وخص هذين الوقتين وإن كان المراد الدوام بتسمية كل من اليوم والليل باسم جزئه ، ليذكر بالغدو والانتشار من الموت ، وبالأصيل السكون بالموت والرجوع إلى حال العدم فيستحضر



بذلك جلال الله عز وجل فيكون ذلك حاوياً على تعظيمه حق تعظيمه .  
ولما كان ربما أوهم هذا الخصوص بهذين الوقتين وإن ظاهراً في الدوام ، قال مصرحاً :  
﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ أي في وقت غيرهما ، بل كن ذاكره في كل وقت على كل حال .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 178 . 179 ﴾

(177/302)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ  
مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (205)

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ [الأعراف : 204]  
[ اعلم أن قارئاً يقرأ القرآن بصوت عال حتى يمكنهم استماع القرآن ، ومعلوم أن ذلك  
القارئ ليس إلا الرسول عليه السلام ، فكانت هذه الآية جارية مجرى أمر الله محمداً صلى

الله عليه وسلم بأن يقرأ القرآن على القوم بصوت عال رفيع ، وإنما أمره بذلك ليحصل المقصود من تبليغ الوحي والرسالة ، ثم إنه تعالى أردف ذلك الأمر ، بأن أمره في هذه الآية بأن يذكر ربه في نفسه ، والفائدة فيه : أن انتفاع الإنسان بالذكر إنما يكمل إذا وقع الذكر بهذه الصفة ، لأنه بهذا الشرط أقرب إلى الإخلاص والتضرع .

المسألة الثانية :

أنه تعالى أمر رسوله بالذكر مقيداً بقيود .

القيود الأول : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ والمراد بذكر الله في نفسه كونه عارفاً بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه مستحضراً لصفات الكمال والعز والعلو والجلال والعظمة ، وذلك لأن الذكر باللسان إذا كان عارياً عن الذكر بالقلب كان عديم الفائدة .

الأتري أن الفقهاء أجمعوا على أن الرجل إذا قال : بعت واشترت مع أنه لا يعرف معاني هذه الألفاظ ولا يفهم منها شيئاً ، فإنه لا ينعقد البيع والشراء ، فكذا ههنا ويتفرع على ما ذكرنا أحكام :

الحكم الأول

سمعت أن بعض الأكابر من أصحاب القلوب كان إذا أراد أن يأمر واحداً من المريدين بالخلوة والذكر ، أمره بالخلوة والتصفية أربعين يوماً ، ثم عند استكمال هذه المدة وحصول التصفية التامة ، يقرأ عليه الأسماء التسعة والتسعين ، ويقول لذلك المريد اعتبر حال قلبك عند سماع هذه الأسماء ، فكل اسم وجدت قلبك عند سماعه قوي تأثيره وعظم شوقه ، فاعرف أن الله إنما يفتح أبواب المكاشفات عليك بواسطة المواظبة على ذكر ذلك الاسم بعينه ، وهذا طريق حسن لطيف في هذا الباب .

### الحكم الثاني

قال المتكلمون : هذه الآية تدل على إثبات كلام النفس لأنه تعالى لما أمر رسوله بأن يذكر ربه في نفسه وجب الاعتراف بحصول الذكر النفساني ولا معنى لكلام النفس إلا ذلك .  
فإن قالوا : لم لا يجوز أن يكون المراد من الذكر النفساني العلم والمعرفة ؟  
قلنا : هذا باطل لأن الإنسان لا قدرة له على تحصيل العلم بالشيء ابتداءً لأنه إما أن يطلبه حال حصوله أو حال عدم حصوله .

والأول باطل لأنه يقتضي تحصيل الحاصل وهو محال .  
والثاني باطل لأن ما لا يكون متصوراً ، كان الذهن غافلاً عنه والغافل عن الشيء يمتنع كونه طالباً له فثبت أنه لا قدرة للإنسان على تحصيل التصورات ، فامتنع ورود الأمر به ، والآية دالة على ورود الأمر بالذكر النفساني ، فوجب أن يكون الذكر النفساني معنى مغايراً

للمعرفة والعلم والتصور ، وذلك هو المطلوب .

### الحكم الثالث

(179/302)

---

أنه تعالى قال : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ ولم يقل : واذكر إلهك ولا سائر الأسماء ، وإنما سماه في هذا المقام باسم كونه ربا ، وأضاف نفسه إليه ، وكل ذلك يدل على نهاية الرحمة والتقريب والفضل والإحسان ، والمقصود منه ، أن يصير العبد فرحاً مبتهجا عند سماع هذا الاسم ، لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والفضل ، وعند سماع هذا الاسم يتذكر العبد أقسام نعم الله عليه ، وبالحقيقة لا يصل عقله إلى أقل أقسامها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] فعند انكشاف هذا المقام في القلب يقوى الرجاء ، فإذا سمع بعد ذلك قوله : ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ عظم الخوف ، وحينئذ تحصل في القلب موجبات الرجاء وموجبات الخوف ، وعنده يكمل الإيمان على ما قال عليه السلام : " لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا " إلا أن هنا دقيقة ، وهي أن سماع لفظ الرب يوجب الرجاء وسماع لفظ التضرع والخيفة يوجب الخوف ، فلما وقع الابتداء بما يوجب الرجاء ، علمنا أن جانب الرجاء أقوى .

القيد الثاني : من القيود المعبرة في الذكر حصول التضرع ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

﴿ تَضَرُّعًا ﴾ وهذا القيد معتبر ، ويدل عليه القرآن ، والمعقول .

(180/302)

---

أما القرآن فقوله في سورة الأنعام ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظَلَمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [ الأنعام : 63 ] وأما المعقول : فلأن كمال حال الإنسان إنما يحصل بانكشاف

أمرين : أحدهما : عزة الربوبية ، وهذا المقصود ، إنما يتم بقوله : ﴿ واذكُرْ رَبَّكَ فِي

نَفْسِكَ ﴾ الثاني : بمشاهدة ذلة العبودية وذلك إنما يكمل بقوله : ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ فالانتقال

من الذكر إلى التضرع يشبه النزول من المعراج ، والانتقال من التضرع إلى الذكر يشبه الصعود

، وبهما يتم معراج الأرواح القدسية وههنا بحث وهو أن معرفة الله من لوازمها التضرع ،

والخوف ، والذكر القلبي يمنع انفكاكه عن التضرع والخوف ، فما الفائدة في اعتبار هذا

التضرع والخوف ؟ وأجيب عنه بأن المعرفة لا يلزمها التضرع والخوف على الإطلاق ، لأنه

ربما استحکم في عقل الإنسان أنه تعالى لا يعاقب أحداً لأن ذلك العقاب إيذاء للغير ، ولا

فائدة للحق فيه .

وإذا كان كذلك لا يعذب فإذا اعتقد هذا ، لم يكمل التضرع والخوف .

فلهذا السبب نص الله تعالى على أنه لا بد منه وأجيب عنه بأن الخوف على قسمين : الأول :  
خوف العقاب ، وهو مقام المبتدين .

والثاني : خوف الجلال وهو مقام المحققين ، وهذا الخوف ممتنع الزوال وكل من كان أعرف

بجلال الله كان هذا الخوف في قلبه أكمل ، وأجيب عن هذا الجواب بأن لأصحاب

المكاشفات مقامين : مكاشفة الجمال ، ومكاشفة الجلال ، فإذا كشفوا بالجمال عاشوا ،

وإذا كشفوا بالجلال طاشوا ، ولا بد في مقام الذكر من رعاية الجانبين .

القيد الثالث : قوله : ﴿ وَخَيْفَةً ﴾ وفي قراءة أخرى ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ وقال الزجاج : أصلها

"خوفة" فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، أقول هذا الخوف يقع على وجوه : أحدها :

خوف التصير في الأعمال .

وثانيها : خوف الخاتمة .

والمحققون خوفهم من السابقة ، لأنه إنما يظهر في الخاتمة ما سبق الحكم به في الفاتحة ، ولذلك

كان عليه السلام يقول :

(181/302)

---

"جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة" وثالثها: خوف أني كيف أقابل نعمة الله التي لا حصر لها ولا حد بطاعاتي الناقصة وأذكارى القاصرة؟ وكان الشيخ أبو بكر الواسطي يقول: الشكر شرك، فسألوني عن هذه الكلمة فقلت: لعل المراد والله أعلم أن من حاول مقابلة وجوه إحسان الله بشكره فقد أشرك.

لأن على هذا التقدير يصير كأن العبد يقول: منك النعمة ومنى الشكر، ولا شك أن هذا شرك، فأما إذا أتى بالشكر مع خوف التصير ومع الاعتراف بالذل والخضوع، فهناك يشم فيه رائحة العبودية.

وأما القراءة الثانية: وهو قوله: ﴿ وَخُفِيَةً ﴾ فالإخفاء في حق المبتدين يراد لصون الطاعات عن شوائب الرياء والسمعة، وفي حق المنتهين المقربين منشؤه الغيرة، وذلك لأن المحبة إذا استكملت أوجبت الغيرة، فإذا كمل هذا التوغل وحصل الفناء، وقع الذكر في حين الإخفاء بناء على قوله عليه السلام: "من عرف الله كل لسانه"

القيد الرابع: قوله: ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ والمراد منه أن يقع ذلك الذكر بحيث يكون متوسطاً بين الجهر والخافتة كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 110] وقال عن زكريا عليه السلام: ﴿ إِذِ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: 3] قال ابن عباس: وتفسير قوله: ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ المعنى

أن يذكر ربه على وجه يسمع نفسه، فإن المراد حصول الذكر اللساني، والذكر اللساني إذا

كان بحيث يسمع نفسه ، فإنه يتأثر الخيال من ذلك الذكر ، وتأثر الخيال يوجب قوة في الذكر  
القلبي الروحاني ، ولا يزال يتقوى كل واحد من هذه الأركان الثلاثة ، وتنعكس أنوار هذه  
الأذكار من بعضها إلى بعض ، وتصير هذه الانعكاسات سبباً لمزيد القوة والجلاء  
والانكشاف والترقي من حضيض ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار مدبر النور والظلام .  
والقيد الخامس : قوله : ﴿ بالغدو والأصال ﴾ وههنا مسائل :

(182/302)

---

المسألة الأولى :

في لفظ "الغدو" قولان :

القول الأول : أنه مصدر يقال غدوت أغدو غدواً غدواً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ غُدُوْهَا  
شَهْرٌ ﴾ [سبأ : 12] أي غدوها للسير ، ثم سمي وقت الغدو غدواً ، كما يقال : دنا  
الصباح أي وقته ، ودنا المساء أي وقته .

القول الثاني : أن يكون الغدو جمع غدوة ، قال الليث : الغدو جمع مثل الغدوات وواحد  
الغدوات غدوة ، وأما ﴿ الأصال ﴾ فقال الفراء : واحدها أصل وواحد الأصل  
الأصيل .



قال يقال جنّاهم مؤصلين أي عند الآصال ، ويقال الأصيل مأخوذ من الأصل واليوم بليته ، إنما يبدأ بالشروع من أول الليل وآخر نهار كل يوم متصل بأول ليل اليوم الثاني ، فسمى آخر النهار أصيلاً ، لكونه ملاصقاً لما هو الأصل لليوم الثاني .

المسألة الثانية :

خص الغدو والآصال بهذا الذكر ، والحكمة فيه أن عند الغدوة انقلب الإنسان من النوم الذي هو كالموت إلى اليقظة التي هي كالحياة ، والعالم انقلب من الظلمة التي هي طبيعة عدمية إلى النور الذي هو طبيعة وجودية .

وأما عند الآصال فالأمر بالصد لأن الإنسان ينقلب فيه من الحياة إلى الموت ، والعالم ينقلب فيه من النور الخالص إلى الظلمة الخالصة ، وفي هذين الوقتين يحصل هذان النوعان من التغيير العجيب القوي القاهر ولا يقدر على مثل هذا التغيير إلا الإله الموصوف بالحكمة الباهرة والقدرة الغير المتناهية ، فلهذه الحكمة العجيبة خص الله تعالى هذين الوقتين بالأمر بالذكر .

ومن الناس من قال : ذكر هذين الوقتين والمراد مداومة الذكر والمواظبة عليه بقدر الإمكان .

عن ابن عباس أنه قال في قوله : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل

عمران : 191] لو حصل لابن آدم حالة رابعة سوى هذه الأحوال لأمر الله بالذکر عندها والمراد منه أنه تعالى أمر بالذکر على الدوام .

(183/302)

---

والقيد السادس : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ والمعنى أن قوله : ﴿ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ دل على أنه يجب أن يكون الذکر حاصلًا في كل الأوقات وقوله : ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ يدل على أن الذکر القلبي يجب أن يكون دائماً ، وأن لا يغفل الإنسان لحظة واحدة عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية والقوة الإنسانية ، وتحقيق القول ، أن بين الروح وبين البدن علاقة عجيبة ، لأن كل أثر حصل في جوهر الروح نزل منه أثر إلى البدن ، وكل حالة حصلت في البدن صعدت منها نتائج إلى الروح ، ألا ترى أن الإنسان إذا تخيل الشيء الحامض ضرر سنه ، وإذا تخيل حالة مكروهة وغضب سخن بدنه ، فهذه آثار تنزل من الروح إلى البدن ، وأيضاً إذا واظب الإنسان على عمل من الأعمال وكرر مرات وكرات حصلت ملكة قوية راسخة في جوهر النفس فهذه آثار صعدت من البدن إلى النفس .

إذا عرفت هذا فنقول : إذا حضر الذکر اللساني بحيث يسمع نفسه ، حصل أثر من ذلك

الذكر اللساني في الخيال ، ثم يصعد من ذلك الأثر الخيالي مزيد أنوار وجلالها إلى جوهر الروح ، ثم تنعكس من تلك الإشراقات الروحانية آثار زائدة إلى اللسان ومنه إلى الخيال ، ثم مرة أخرى إلى العقل ، ولا يزال تنعكس هذه الأنوار من هذه المرايا بعضها إلى بعض ، ويتقوى بعضها بعض ويستكمل بعضها ببعض ، ولما كان لا نهاية لتزايد أنوار المراتب ، لا جرم لا نهاية لسفر العارفين في هذه المقامات العالية القدسية وذلك بحر لا ساحل له ، ومطلوب لا نهاية له .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ وإن كان ظاهره خطاباً مع النبي عليه السلام ، إلا أنه عام في حق كل المكلفين ولكل أحد درجة مخصوصة ومرتبة معينة بحسب استعداد جوهر نفسه الناطقة كما قال في صفة الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [ الصافات : 164 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 86 . 89 ﴾

(184/302)

وقال الجصاص :

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ .

قال أبو بكر : الذِّكْرُ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : الْفِكْرُ فِي عِظَمَةِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ وَدَلَالِ قُدْرَتِهِ

وآياته ، وهذا أفضل الأذكار ؛ إذ به يستحق الثواب على سائر الأذكار سواه ، وبه يتوصل إليه .

والذكر الآخر : القول ، وقد يكون ذلك الذكر دعاء وقد يكون ثناء على الله تعالى ويكون قراءة للقرآن ويكون دعاء للناس إلى الله ؛ وجائز أن يكون المراد الذكرين جميعاً من الفكر والقول فيكون قوله تعالى : ﴿ واذكركم في نفسك ﴾ هو الفكر في دلائل الله وآياته . وقوله تعالى : ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ فيه نص على الذكر باللسان ، وهذا الذكر يجوز أن يريد به قراءة القرآن وجائز أن يريد الدعاء ، فيكون الأفضل في الدعاء الإخفاء ، على نحو قوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ وإن أراد به قراءة القرآن كان في معنى قوله : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وأتبع بين ذلك سبيلاً ﴾ وقيل : إنما كان إخفاء الدعاء أفضل لأنه أبعد من الرياء وأقرب من الإخلاص وأجدر بالاستجابة ؛ إذ كانت هذه صفته .

وقيل : إن ذلك خطاب للمستمع للقرآن لأنه معطوف على قوله : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ .

وَقِيلَ : إِنَّهُ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْمَعْنَى عَامٌّ لِسَائِرِ الْمُكَلِّفِينَ كَقَوْلِهِ عَزَّ  
وَعَلَّا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ .  
وَقَالَ قَتَادَةُ : الْأَصَالُ الْعَشِيَّاتُ . انْتَهَى انْتَهَى . ١ هـ ﴿ أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِلْجِصَّاصِ ج 3 ص



(186/302)

وقال ابن العربي :

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَذْكُرُ بِكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ  
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ .  
قَوْلُهُ : ﴿ فِي نَفْسِكَ ﴾ يَعْنِي صَلَاةَ الْجَهْرِ .  
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ يَعْنِي صَلَاةَ السِّرِّ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ فِيهِ نَفْسَهُ وَمَنْ يَلِيهِ قَلِيلًا  
بِحَرَكَةِ اللِّسَانِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الشَّافِعِيَِّّةِ : إِنَّمَا خَرَجَتْ الْآيَةُ عَلَى سَبَبٍ ؛ وَهُوَ أَنَّ قَوْمًا كَانُوا  
يَكْثُرُونَ اللَّغَطَ فِي قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَيَمْنَعُونَ مِنْ اسْتِمَاعِ الْأَحْدَاثِ لَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :  
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، فَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ

بِالْإِنْصَاتِ حَالَةَ أَدَاءِ الْوَحْيِ ، لِيَكُونَ عَلَى خِلَافِ حَالِ الْكُفَّارِ .  
قُلْنَا : عَنْهُ جَوَابَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ هَذَا لَمْ يَصِحَّ سَنَدُهُ ؛ فَلَا يَنْفَعُ مُعْتَمَدُهُ .  
الثَّانِي : أَنَّ سَبَبَ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ إِذَا كَانَ خَاصًّا لَا يَمْنَعُ مِنَ التَّعَلُّقِ بِظَاهِرِهِ إِذَا كَانَ عَامًّا  
مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ ، وَبِالْجُمْلَةِ فَلَيْسَ لِلْبُخَارِيِّ وَلَا لِلشَّافِعِيِّ كَلَامٌ يَنْفَعُ بَعْدَ مَا رَجَّحْنَا بِهِ  
وَاحْتَجَجْنَا بِمَنْصُوصِهِ ، وَقَدْ مَهَّدْنَا الْقَوْلَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ تَمْهِيدًا يُسَكِّنُ كُلَّ جَائِشٍ  
نَافِرٍ . انْتَهَى انْتَهَى . ١٠ هـ ﴿ أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لابن العربي ح 2 ص ﴾

(187/302)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ وَاذكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا ﴾

يقول : اقرأ يا محمد إذا كنت إماماً بنفسك تضرعاً يعني : مستكيناً ﴿ وَخِيفَةً ﴾ يعني :

وخوفاً من عذابه وهذا قول مقاتل .

وقال الكلبي : ﴿ وَاذكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ يعني : سراً ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغَدْوِ

وَالْإِصْالِ ﴾ يعني : العلانية حتى يسمع من خلفك .

وقال الضحاك : معناه اجهر بالقراءة في الغداة والمغرب والعشاء ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ

﴿ يعني : لا تغفل عن القراءة في الظهر والعصر ، فإنك تخفي القراءة فيهما وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا خَامِلًا " قيل : وما الذكر الخامل ؟ قال : " الذِّكْرُ الْخَفِيُّ " ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ يعني : غدوة وعشية .

وروى يحيى بن أيوب عن خالد بن سعيد بن أبي هلال عن من سمع عقبة بن عامر قال :

المسر بالقراءة كالمسر بالصدقة ، والمعلن بالقراءة كالمعلن بالصدقة .

ثم قال : ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ عن القراءة في الصلاة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بجزر العلوم

ح 1 ص ﴿

وقال الثعلبي :

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾

قال ابن عباس : يعني بالذكر القراءة في الصلاة ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ ﴿ جَهْرًا ﴾ ﴿ وَخِيفَةً ﴾ ﴿

وَدُونَ الْجَهْرِ ﴾ دون رفع القول في خفض وسكوت يسمع من خلفك .

وقال أهل المعاني : واذكر ربك تعظ بالقرآن وآمن بآياته واذكر ربك بالطاعة في ما يأمرك (

تَضَرُّعًا ) تواضعاً وتخشعاً ( وخيفة ) خوفاً من عقابه ، فإذا قرأت دعوت بالله أي دون

الجهر : خفاء لا جهار .

وقال مجاهد وابن جريج : أمر أن يذكره في الصدور . ويؤمر بالتضرع في الدعاء

والاستكانة .

ويكره رفع الصوت [ والبداء ] بالدعاء وأما قوله ﴿ بالغدو والآصال ﴾ فإنه يعني بالبكر والعشيات ، واحد الآصال أصيل ، مثل أيمان ويمين ، وقال أهل اللغة : هو ما بين العصر إلى المغرب ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 ص ﴾

(188/302)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾

وفي هذا الذكر ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه ذكر القراءة في الصلاة خلف الإمام سرا في نفسه قاله قتادة .

والثاني : أنه ذكر بالقلب باستدامة الفكر حتى لا ينسى نعم الله الموجبة لطاعته .

والثالث : ذكره باللسان إما رغبة إليه في دعائه أو تعظيماً له بالآية . وفي المخاطب بهذا

الذكر قولان :

أحدهما : أنه المستمع للقرآن إما في الصلاة أو الخطبة ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ومعناه عام في جميع المكلفين .



ثم قال: ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ أما التضرع فهو التواضع والخشوع، وأما الخيفة فمعناه مخافة منه.

﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ يعني أسر القول إما بالقلب أو باللسان على ما تقدم من التأويلين.

ثم قال تعالى: ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ فيه وجهان: أحدهما: بالبكر والعشيات.

والثاني: أن الغدو وآخر الفجر صلاة الصبح، والآصال آخر العشي صلاة العصر، قاله مجاهد، ونحوه عن قتادة.

﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: عن الذكر.

والثاني: عن طاعته في كل أوامره ونواهيه، قاله الجمهور. انتهى انتهى. اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ الآية ،

مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم تعم جميع أمته وهو أمر من الله عز وجل بذكره  
وتسبيحه وتقديسه والثناء عليه بمحامده ، والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس ولا  
يراعى إلا بركة اللسان ، ويدل على ذلك من هذه الآية قوله : ﴿ ودون الجهر من القول ﴾  
فهذه مرتبة السر والمخافة باللفظ ، و ﴿ تضرعاً ﴾ معناه تذلاً وخضوعاً ، ﴿ خيفة ﴾  
﴿ أصلها خوفة بدلت الواو ياء لأجل الكسرة التي تقدمتها ، وقوله ﴿ بالغدو والآصال ﴾  
﴿ معناه دأباً وفي كل يوم وفي أطراف النهار ، وقالت فرقة هذه الآية كانت في صلاة

المسلمين قبل فرض الصلوات الخمس ، وقال قتادة : " الغدو " صلاة الصبح و ﴿ الآصال

﴿ صلاة العصر و ﴿ الآصال ﴾ جمع أصل والأصل جميع أصيل وهو العشي وقيل ﴿

الآصال ﴾ جمع أصيل دون توسط كإيمان جمع يمين و " آصال " أيضاً جمع أصايل فهو جمع

جمع الجمع ، وقرأ أبو مجلز " والإيصال " مصدر كالإصباح والإمساء ، ومعناه إذا دخلت في

الأصيل وفي الطبري قال أبو وائل لغلامه هل أصلنا بعد ؟ ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ تنبيه

، ولما قال الله عز وجل ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ جعل بعد ذلك مثلاً من اجتهاد

الملائكة ليعث على الجد في طاعة الله عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾

في هذا الذكر أربعة أقوال .

أحدها : أنه القراءة في الصلاة ، قاله ابن عباس ؛ فعلى هذا ، أمر أن يقرأ في نفسه في صلاة الإسرار .

والثاني : أنه القراءة خلف الإمام سرا في نفسه ، قاله قتادة .

والثالث : أنه ذكر الله باللسان .

والرابع : أنه ذكر الله باستدامة الفكر ، لا يغفل عن الله تعالى ، ذكر القولين الماوردي .

وفي المخاطب بهذا الذكر قولان .

أحدهما : أنه المستمع للقرآن ، إما في الصلاة ، وإما من الخطيب ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنه خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعناه عام في جميع المكلفين .

قوله تعالى : ﴿ تضرعاً وخيفة ﴾ التضرع : الخشوع في تواضع ، والخيفة : الحذر من

عقابه .

قوله تعالى: ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ الجهر: الإعلان بالشيء ، ورجل جهير الصوت :  
إذا كان صوته عالياً .

وفي هذا نص على أنه الذكر باللسان ويحتمل وجهين .  
أحدهما : قراءة القرآن .

والثاني : الدعاء .

وكلاهما مندوب إلى إخفائه ، إلا أن صلاة الجهر قد بين أدبها في قوله : ﴿ ولا تجهر  
بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ [ الاسراء : 110 ] فأما الغدو فهو جمع غدوة ؛ والآصال :

جمع أصل ، والأصل : جمع أصيل ؛ فالآصال : جمع الجمع ، والآصال : العشيات .

وقال أبو عبيدة : هي ما بين العصر إلى المغرب ؛ وأنشد :

لعمري لأنت البيت أكرم أهله . . .

وأقعد في أفيائه بالأصائل

وروي عن ابن عباس أنه قال : يعني بالغدو : صلاة الفجر ، والآصال : صلاة العصر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

(191/302)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾

نظيره ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : 55] وقد تقدّم .

قال أبو جعفر النحاس : ولم يختلف في معنى ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ أنه في الدعاء .

قلت : قد روي عن ابن عباس أنه يعني بالذكر القراءة في الصلاة .

وقيل : المعنى اقرأ القرآن بتأمل وتدبّر .

"تَضَرُّعًا" مصدر ، وقد يكون في موضع الحال .

"وَخِيفَةً" معطوف عليه .

وجمع خيفة خَوْفٌ ؛ لأنه بمعنى الخَوْفِ ؛ ذكره النحاس .

وأصل خيفة خَوْفَةٌ ، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

خاف الرجل يخاف خوفًا وخيفة ومخافة ، فهو خائف ، وقوم خَوْفٍ على الأصل ،

وخَيْفٍ على اللفظ .

وحكى الفراء أنه يُقال أيضًا في جمع خيفة خيف .

قال الجوهري : والخيفة الخوف ، والجمع خيف ، وأصله الواو .

﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ ﴾ أي دون الرفع في القول .

أي أسمع نفسك ؛ كما قال : ﴿ وَابْتَعِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : 110] أي بين الجهر

والمخافة .

ودلّ هذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع؛ على ما تقدم في غير موضع .

﴿ بالغدو والآصال ﴾ قال قتادة وابن زيد : الآصال العشيّات .

والغدو جمع غدوة .

وقرأ أبو مجلز " بالغدو والآصال " وهو مصدر أصلنا ، أي دخلنا في العشيّ .

والآصال جمع أصل ؛ مثل طنب وأطناب ؛ فهو جمع الجمع ، والواحد أصيل ، جمع على

أصل ؛ عن الزجاج .

الأخفش : الآصال جمع أصيل ؛ مثل يمين وأيمان .

الفراء : أصل جمع أصيل ، وقد يكون أصل واحداً ، كما قال الشاعر :

ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل . . .

الجوهريّ : الأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب ، وجمعه أصل وأصال وأصائل ؛ كأنه

جمع أصيلة ؛ قال الشاعر :

لعمري لأنت البيت أكرم أهله . . .

وأقعد في أفيائه بالأصائل

---

ويجمع أيضاً على أُصْلان؛ مثل بَعِيرٍ وُبُعْران؛ ثم صَغَرُوا الجَمْعَ فقالوا أُصَيْلَان، ثم أبدلوا من  
النون لَماً فقالوا أُصَيْلَال؛ ومنه قول النابغة:

وقفتُ فيها أُصَيْلَالاً أسألها . . .

عَيَّتْ جواباً وما بالربيع من أحدٍ

وحكى اللحياني: لقيته أُصَيْلَالاً.

﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أي عن الذكر. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص



(193/302)

---

وقال الخازن:

قوله: ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾

الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) ويدخل فيه غيره من أمة لأنه عام لسائر المكلفين.

قال ابن عباس: يعني بالذكر القرآن في الصلاة يريد اقرأ سرا في نفسك والفائدة فيه أن انتفاع

الإنسان بالذكر إنما يكمل إذا وقع الذكر بهذه الصفة لأن ذكر النفس أقرب إلى الإخلاص

والبعد عن الرياء وقيل المراد بالذكر في النفس أن يستحضر في قلبه عظمة المذكور جل جلاله وإذا كان الذكر باللسان عارياً عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لأن فائدة الذكر حضور القلب واستشعاره عظمة المذكور ﴿ تضرعاً ﴾ يقال ضرع الرجل يضرع ضراعه إذا خضع وذل واستكان لغيره ﴿ وخيفة ودون الجهر من القول ﴾ يعني وخوفاً والمعنى تضرع إليّ وخاف عذابي .

وقال مجاهد وابن جريج : أمر أن يذكره في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت في الدعاء وهاهنا لطيفة وهي أن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ فيه إشعار بقرب العبد من الله وهو مقام الرجاء لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والإحسان فإذا تذكر العبد إنعام الله عليه وإحسانه إليه فعند ذلك يقوى مقام الرجاء ثم أتبعه بقوله تضرعاً وخيفة وهذا مقام الخوف فإذا حصل في قلب العبد داعية الخوف والرجاء قوي إيمانه والمستحب أن يكون الخوف أغلب على العبد في حال صحته وقوته فإذا قارب بالموت ودنا آخر أجله فيستحب أن يغلب رجاءه على خوفه .

عن أنس بن مالك " أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) دخل على شاب وهو في الموت فقال " كيف تجردك " ؟ قال أرجو الله يا رسول الله وإني أخاف ذنوبي فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو منه وآمنه مما يخاف " أخرجه الترمذي .



وقوله سبحانه وتعالى: ﴿بالغدو﴾ جمع غدوة ﴿والأصال﴾ جمع أصيل وهي ما بين صلاة العصر إلى المغرب والمعنى اذكر ربك بالبكر والعشيات وإنما خص هذين الوقتين بالذكر لأن الإنسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو أخو الموت فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله وأما وقت الأصال وهو آخر النهار فإن الإنسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب له أن يستقبله بالذكر لأنها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النوم فيكون موته على ذكر الله وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ يعني عما يقربك إلى الله وقيل إن أعمال العبد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى المغرب فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه بالذكر وقيل: لما كانت الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة استحب للعبد أن يذكر الله في هذين الوقتين ليكون في جميع أوقاته مشغولاً بما يقربه إلى الله من صلاة أو ذكر. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الخازن ح 2 ص﴾

---

وقال أبو حيان :

﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن

من الغافلين ﴾ .

لما أمرهم تعالى بالاستماع والإنصات إذا شرع في قراءة القرآن ارتقى من أمرهم إلى أمر الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) أن يذكر ربه في نفسه أي بحيث يراقبه ويذكره في الحالة التي لا يشعر بها أحد وهي الحالة الشريفة العليا ، ثم أمره أن يذكره دون الجهر من القول أي يذكره بالقول الخفي الذي لا يشعر بالتذلل والخشوع من غير صياح ولا تصويت شديد كما تناجي الملوك وتستجلب منهم الرغائب ، وكما قال للصحابة وقد جهروا بالدعاء

(196/302)

---

"إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ربّوا على أنفسكم " وكان كلام الصحابة رضي الله عنهم

للسل ( صلى الله عليه وسلم ) سراراً وكما قال تعالى : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء

الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ وقال تعالى : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا

تجهروا له بالقول ﴾ لأن في الجهر عدم مبالاة بالمخاطب وظهور استعلاء وعدم تذلل

والذكر شامل لكل من التهليل والتسبيح وغير ذلك وانتصب ﴿ تضرعاً وخيفة ﴾ على  
أنهما مفعولان من أجلهما لأنهما يتسبب عنهما الذكر وهو التضرع في اتصال الثواب  
والخوف من العقاب ويحتمل أن ينتصبا على أنهما مصدران في موضع الحال أي متضرعاً  
وخائفاً أو ذا تضرع وخيفة، وقرىء وخفية والظاهر أن قوله ﴿ واذكر ﴾ خطاب  
لرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، وقيل : خطاب لكل ذاك ، وقال ابن عطية : خطاب له  
ويعم جميع أمته ، والظاهر تعلق الذكر بالرب تعالى لأن استحضار الذات المقدسة  
استحضار لجميع أوصافها ، وقيل : هو على حذف مضاف أي واذكر نعم ربك في نفسك  
باستدامة الفكر حتى لا تنسى نعمه الموجبة لدوام الشكر ، وفي لفظة ربك من التشريف  
بالخطاب والإشعار بالإحسان الصادر من المالك للملوك ما لا خفاء فيه ولم يأت التركيب  
واذكر الله ولا غيره من الأسماء وناسب أيضاً لفظ الرب قوله ﴿ تضرعاً وخيفة ﴾ لأن  
فيه التصريح بمقام العبودية والظاهر أن قوله ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ حالة مغايرة لقوله  
﴿ في نفسك ﴾ لعطفها عليها والعطف يقتضي التغاير .

(197/302)

---

وقال ابن عطية: والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس ولا يراعى إلا بجرمة اللسان قال

: ويدل عليه من هذه الآية قوله تعالى ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ فهذه مرتبة السرّ

والمخافة باللفظ انتهى ، ولا دلالة في ذلك لما زعم بل الظاهر المغايرة بين الحالتين وأنهما

ذكران نفساني ولساني ، ولذلك قال الزمخشري ومتكلماً كلاماً دون الجهر لأن الإخفاء

أدخل في الإخلاص وأقرب إلى جنس التفكير انتهى ، ولما ذكر حالتي الذكر وسببهما وهما

التضرّع والخفية ذكر أوقات الذكر فقيل : أراد خصوصية الوقتين لأنهم كانوا يصلون في وقتين

قبل فرض الخمس ، وقال قتادة : الغدوّ صلاة الصبح ﴿ والآصال ﴾ : صلاة العصر ،

وقيل : خصهما بالذكر لفضلهما ، وقيل : المعنى جميع الأوقات وعبر بالطرفين المشعرين

بالليل والنهار والغدوّ ، قيل : جمع غدوة فعلى هذا تظهر المقابلة لاسم جنس بجمع ويكون

المراد بالغدوات والعشايا وإن كان مصدر الغداء فالمراد بأوقات الغدوّ حتى يقابل زمان

مجموع بزمان مجموع .

وقرأ أبو مجلز لاحق بن حميد السدوسي البصري والإيصال جعله مصدراً لقولهم أصلت

أي دخلت في وقت الأصيل فيكون قد قابل مصدراً بمصدر ويكون كأعصر أي دخل في

العصر وهو العشي وأعتم أي دخل في العتمة ، ولما أمره بالذكر أكد ذلك بالنهي عن أن

يكون من الغافلين أي استلزم الذكر ولا تغفل طرفة عين ومعلوم أنه عليه السلام تستحيل

عليه الغفلة لعصمته فهو نهى له ( صلى الله عليه وسلم ) والمراد أمته . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾

على الأول عطفُ على قل وعلى الثاني فيه تجريد للخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عام في الأذكار كافة فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب من الإجابة ﴿ تضرعاً وخيفة ﴾ أي متضرعاً وخائفاً ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ أي ومتكلماً كلاماً دون الجهر فإنه أقرب إلى حسن التفكير ﴿ بالغدو والاصال ﴾ متعلقٌ باذكر أي اذكره في وقت الغدوات والعشيات وقرىء والإيصال وهو مصدر أصل أي دخل في الأصل موافقاً للغدو ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ عن ذكر الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

(198/302)

وقال الألوسى :

﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾

عطف على ﴿ قل ﴾ وعلى الثاني فيه تجريد الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم وهو عام لكل ذكر فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب من القبول  
، وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى: ﴿ مِنْ مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبِرْتَ  
أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ وقال الإمام: المراد بالذكر في نفسه أن يكون عارفاً  
بمعان الأذكار التي يقولها بلسانه مستحضراً لصفات الكمال والعز والعظمة والجلال ،  
وذلك لأن الذكر باللسان عارياً عن الذكر بالقلب كأنه عديم الفائدة ، بل ذكر جمع أن الذكر  
اللساني الساذج لا ثواب فيه أصلاً ، ومن أتى بالكلمة الطيبة غير ملاحظ معناها أو  
جاهلاً به لا عد مؤمناً عند الله تعالى ، وقيل: الخطاب لمستمع القرآن والذكر القرآن ،  
والمراد أمر المأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام عن قراءته وفيه بعد ولو التزم قول الإمام ،  
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً ﴾ في موضع الحال بتأويل اسم الفاعل أي  
متضرعاً وخائفاً ، أو بتقدير مضاف أي ذا تضرع وخيفة ، وكونه مفعولاً لأجله غير  
مناسب .

وجوز بعضهم كون ذلك مصدراً لفعل من غير المذكور وليس بشيء ، وأصل خيفة خوفة ،  
ودون في قوله تعالى: ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ صفة لمعمول حال محذوفة أي ومتكلماً  
كلاماً دون الجهر لأن دون لا تتصرف على المشهور ؛ والعطف على تضرعاً ، وقيل: لا  
حاجة إلى ما ذكر والعطف على حاله ، والمراد اذكروه متضرعاً ومقتصداً .  
وقيل: إن العطف على قوله تعالى: ﴿ فِي نَفْسِكَ ﴾ لكن على معنى اذكروه ذكراً في

نفسك وذكرًا بلسانك دون الجهر ، والمراد بالجهر رفع الصوت المفرط وبما دونه نوع آخر من الجهر .

(199/302)

---

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هو أن يسمع نفسه وقال الإمام : المراد أن يقع الذكر متوسطاً بين الجهر والمخافة كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا ﴾ [الإسراء : 110] ويشعر كلام ابن زيد أن المراد بالجهر مقابل الذكر في النفس ، والآية عنده خطاب للمأموم المأمور بالإنصات أي اذكر ربك أيها المنصت في نفسك ولا تجهر بالذكر ﴿ بالغدو ﴾ جمع غدوة كما في "القاموس" ، وفي "الصحاح" الغدو نقيض الرواح وقد غدا يغدو غدواً .

وقوله تعالى : ﴿ بالغدو ﴾ أي بالغدوات جمع غدوة وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، فعبر بالفعل عن الوقت كما يقال : أتيتك طلوع الشمس أي وقت طلوعها ، وهو نص في أن الغدو مصدر لا جمع ، وعليه فقد يقدر معه مضاف مجموع أي أوقات الغدو ليطابق قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والاصال ﴾ وهو كما قال الأزهري جمع أصل ، وأصل جمع أصيل أعني ما بين العصر إلى غروب الشمس فهو جمع الجمع وليس للقلة وليس جمعاً

لأصيل لأن فعلاً لا يجمع على أفعال، وقل: إنه جمع له لأنه قد يجمع عليه كيمين وأيمان،  
وقيل: إنه جمع لأصل مفرداً كعنق ويجمع على أصلان أيضاً، والجار متعلق باذكر، وخص  
هذان الوقتان بالذكر قيل لأن الغدوة عندها ينقلب الحيوان من النوم الذي هو كالموت إلى  
اليقظة التي هي كالحياة، والعالم يتحول من الظلمة التي هي طبعة عدمية إلى النور الذي هو  
طبيعة وجودية، وفي الأصل الأمر بالعكس، أو لأنهما وقتاً فراغ فيكون الذكر فيهما الصق  
بالقلب، وقيل: لأنهما وقتان يتعاقب فيهما الملائكة على ابن آدم، وقيل: ليس المراد  
التخصيص بل دوام الذكر واتصاله أي اذكر كل وقت.

وقرأ أبو مجاز لاحق بن حميد السدوسي ﴿ والإيصال ﴾، وهو مصدر أصل إذا دخل  
في الأصيل وهو مطابق لغد وبناء على القول بإفراده ومصدريته فتذكر ﴿ ولا تكن من  
الغافلين ﴾ عن ذكر الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(200/302)

وقال القاسمي:

﴿ وأذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ﴾  
خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد عام، أو المعنى: واذكر ربك أيها الإنسان،



والأول أظهر ، لأن ما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن من خصائصه ، فإنه مشروع لأُمَّته .

وقد أوضح هذا آية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ والأمر بالذكر .

قال الزمخشري : هو عام في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك .

وقال بعض الزيدية : هذا الأمر يحتمل الوجوب ، إن فسر الذكر بالصلاة ، وإن أريد الدعاء أو الذكر باللسان ، فهو محمول على الإستحباب . قال : وبكل فسرت الآية .

ثم إنه تعالى ذكر آداباً لذكره :

الأول : أن يكون في نفسه ، لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص ، وأقرب إلى الإجابة ، وأبعد من الرياء .

الثاني : أن يكون على سبيل التضرع ، وهو التذلل والخضوع والإعتراف بالتقصير ، ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية .

الثالث : أن يكون على وجه الخيفة ، أي : الخوف والخشية من سلطان الربوبية ، وعظمة الألوهية ، من المؤاخذة على التقصير في العمل ، لتخشع النفس ، ويخضع القلب .

الرابع : أن يكون دون الجهر ، لأنه أقرب إلى حسن التفكير . قال ابن كثير : فلهذا يستحب

أن لا يكون الذكر نداءً ولا جهرًا بليغاً .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالداء في بعض الأسفار ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : > يا أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته < .

(201/302)

---

قال الإمام : المراد أن يقع الذكر متوسطاً بين الجهر والمخافة كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

الخامس : أن يكون باللسان لا بالقلب وحده ، وهو مستفاد من قوله : ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ ﴾ لأن معناه : ومتكلماً كلاماً دون الجهر ، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة معطوفاً على ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ ، أو هو معطوف على : ﴿ فِي نَفْسِكَ ﴾ أي : اذكره ذكراً في نفسك ، وذكراً بلسانك دون الجهر .

السادس : أن يكون بالغدو والآصال ، أي : في البكرة والعشي . فتدل الآية على مزية هذين الوقتين ، لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد ، وما بينهما الغالب فيه الإنتطاع

إلى أمر المعاش .

وقد روي أن عمل العبد يصعد أول النهار وآخره ، فطلب الذكر فيهما ، ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر .

ثم نهى تعالى عن الغفلة عن ذكره بقوله : ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أي : من الذين يغفلون عن ذكر الله ، ويلهون عنه ، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى ، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه ، بقدر الطاقة البشرية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 7 ص

﴿ 252.251

(202/302)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَادْكُرُّرَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾

إقبال بالخطاب على النبي صلى الله عليه وسلم فيما يختص به ، بعد أن أمر بما أمر بتبليغه من الآيات المقدمة ، والمناسبة في هذا الانتقال أن أمر الناس باستماع القرآن يستلزم أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بقراءة القرآن عليهم قراءة جهرية يسمعونها ، فلما فرغ الكلام من حظ الناس نحو قراءة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أقبل على الكلام في حظ الرسول

صلى الله عليه وسلم من القرآن وغيره ، وهو التذكر الخاص به ، فأمر بأن يذكر الله ما استطاع وكيفما تسنى له ، وفي أوقات النهار المختلفة ، فجملة ﴿ واذكر ربك ﴾ معطوفة على الجمل السابقة من قوله : ﴿ إن وليي الله ﴾ [الأعراف : 196] إلى هنا .

والنفس اسم للقوة التي بها الحياة ، فهي مرادفة الروح ، وتطلق على الذات المركبة من الجسد والروح ، ولكون مقر النفس في باطن الإنسان أطلقت على أمور باطن الإنسان من الإدراك والعقل كما في قوله تعالى حكاية عن عيسى ﴿ تعلم ما في نفسي ﴾ [المائدة : 116] وقد مضى في سورة المائدة ، ومن ذلك يتطرق إلى إطلاقها على خويصة المرء ، ومنه قوله في الحديث القدسي في " صحيح البخاري " " وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيراً منهم " فقابل قوله : في نفسه بقوله : في ملأٍ . والمعنى : اذكر ربك وأنت في خلوتك كما تذكره في مجامع الناس .

والذكر حقيقة في ذكر اللسان ، وهو المراد هنا ، ويعضده قوله : ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ وذلك يشمل قراءة القرآن وغير القرآن من الكلام الذي فيه تمجيد الله وشكره ونحو ذلك ، مثل كلمة التوحيد والحوقة والتسبيح والتكبير والدعاء ونحو ذلك .

و"التضرع" التذلل ولما كان التذلل يستلزم الخطاب بالصوت المرتفع في عادة العرب كني بالتضرع عن رفع الصوت مراداً به معناه الأصلي والكنائي ، ولذلك قبول بالخفية في قوله ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ في أوائل هذه السورة ( 55 ) وقد تقدم .  
وقبول التضرع هنا بالخيفة وهي اسم مصدر الخوف ، فهو من المصادر التي جاءت على صيغة الهيئة وليس المراد بها الهيئة ، مثل الشدة ، ولما كانت الخيفة انفعالا نفسياً يجده الإنسان في خاصة نفسه كانت مستلزمة للتخافت بالكلام خشية أن يشعُر بالمرء من يخافه .

فلذلك كني بها هنا عن الإسرار بالقول مع الخوف من الله ، فمقابلتها بالتضرع طباق في معنيي اللفظين الصريحين ومعنييهما الكنائين ، فكأنه قيل تضرعاً وإعلاناً وخيفة وإسراراً .

وقوله : ودون الجهر من القول ﴿ هو مقابل لكل من التضرع والخيفة وهو الذكر المتوسط بين الجهر والإسرار ، والمقصود من ذلك استيعاب أحوال الذكر باللسان ، لأن بعضها قد تكون النفس أنشط إليه منها إلى البعض الآخر .

و(الغدو) اسم لزمان الصباح وهو النصف الأول من النهار .

و(الأصال) جمع أصيل وهو العشي وهو النصف الثاني من النهار إلى الغروب .

والمقصود استيعاب أجزاء النهار بحسب المتعارف ، فأما الليل فهو زمن النوم ، والأوقات

التي تحصل فيها اليقظة خصت بأمر خاص مثل قوله تعالى: ﴿ قم الليل إ قليلاً ﴾ [ المزمّل : 2 ] على أنها تدخل في عموم قوله: ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ .  
فدل قوله: ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ على التحذير من الغفلة عن ذكر الله ولاحد للغفلة ،  
فإنها تحدد مجال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أعلم بنفسه .  
فإن له أوقاتاً يتلقى فيها الوحي وأوقات شؤون جبليّة كالطعام .  
وهذا الأمر خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وكل ما خص به الرسول عليه الصلاة  
والسلام من الوجوب يستحسن للأمة اقتداؤهم به فيه إلا ما نهوا عنه مثل الوصال في  
الصوم .

(204/302)

---

وقد تقدم أن نحو ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ أشد في الانتفاء وفي النهي من نحو: ولا تغفل ،  
لأنه يفرض جماعة يحق عليهم وصف الغافلين فيحذر من أن يكون في زميرتهم وذلك أئبن  
للحالة المنهي عنها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكنُ

## مِنَ الْغَافِلِينَ (205) ﴿﴾

أَي لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ عَنْ مَطْلُوبَاتِ اللَّهِ بِالْحُدُودِ الَّتِي بَيْنَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّ الْغَفْلَةَ مَعْنَاهَا انشغال البال بغير خالقك، وأنت إن جعلت خالقك في بالك دائما فإنك لا تغفل عن مطلوباته في الغدو والآصال وفي كل وقت، سواء كنت في الصلوات الخمس، أو كنت تضرب الأرض في أي معنى من المعاني، وتأس أيها المؤمن بالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان الملائكة والذين لم يرتكبوا أية معصية وليس لهم موجبات المعصية، ولا يأكلون ولا يتناسلون، وليس لهم شهوة بطن ولا شهوة فرج، وكل المعاصي جميعها تأتي من هذه الناحية، مع ذلك يجب عليك أن تتأسى بهم؛ لأنهم هم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لا يستكبرون عن عبادته، ويسبحونه؛ وله يسجدون، لذلك يقول الحق بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ . . .﴾ . انتهى انتهى .

اه ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(205/302)

فائدة

قال التستري:

وقوله: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [205] ما حقيقة الذكر؟ قال:  
تحقيق العلم بأن الله تعالى مشاهدك، وتراه بقلبك قريباً منك، وتستحي منه ثم تؤثره على  
نفسك في أحوالك كلها، ثم قال: ليس من ادعى الذكر فهو ذاكراً.  
فقيل له ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: « الدنيا ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى » قوله  
: « ذكر الله » ها هنا الزهد عن الحرام، وهو أن يستقبله حرام، فيذكر الله تعالى، ويعلم أنه  
مطلع عليه، فيجتنب ذلك الحرام.

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [205] قال سهل: حقاً أقول لكم ولا باطل، يقيناً  
ولا شك: ما من أحد ذهب منه نفس واحد في غير ذكر الله إلا وهو غافل عن الله عزَّ  
وجلَّ.

وقال: غفلة الخاص السكون إلى الشيء، وغفلة العام الاقتحار بالشيء، يعني السكون،  
والله سبحانه وتعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير التستري ص 70 ﴾

(206/302)

" فصل "

قال السيوطي:



﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ  
مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (205) ﴿

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية  
قال: أمره الله أن يذكره ونهاه عن الغفلة، أما بالغدو: فصلاة الصبح، والآصال:  
بالعشي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صخر قال: الآصال: ما بين الظهر والعصر.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ

وَأَنْصِتُوا ﴾ [الأعراف: 204] قال: هذا إذا أقام الإمام الصلاة فاستمعوا له وأنصتوا

﴿ واذكرك ربك ﴾ أيها المنصت ﴿ في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول ﴾

قال: لا تجهر بذلك ﴿ بالغدو والآصال ﴾ بالبكر والعشي ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير في قوله ﴿ واذكرك ربك في نفسك ﴾ قال:

يقول الله " إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني عبدي وحده ذكرته

وحدي ، وإذا ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء أحسن منهم وأكرم " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ بالغدو ﴾ قال: آخر الفجر صلاة الصبح ﴿

والآصال ﴾ آخر العشي صلاة العصر ، وكل ذلك لها وقت أول الفجر وآخره ، وذلك

مثل قوله في سورة آل عمران ﴿ بالعشي والإبكار ﴾ [آل عمران: 41] ميل الشمس إلى

أن تغيب ، والإبكار أول الفجر .

وأخرج عبد بن حميد عن معرف بن واصل قال : سمعت أبا وائل يقول لغلامه عند مغيب الشمس : آصلنا .

وأخرج البزار والطبراني عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ قال : ذاك الله في الغافلين كالمقاتل عن الفارين .  
وأخرج ابن أبي حاتم عن بكير بن الأخنس قال : ما أتى يوم الجمعة على أحد وهو لا يعلم أنه يوم الجمعة إلا كتب من الغافلين .

(207/302)

---

وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الغفلة في ثلاث . عن ذكر الله ، ومن حين يصلي الصبح إلى طلوع الشمس ، وأن يغفل الرجل عن نفسه في الدين حتى يركبه " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(208/302)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله "تضرُّعا وخيفة"

في نصبهما وجهان:

أظهرهما: أنَّهما مفعولان من أجلهما، لأنَّه يتسببُ عنهما الذِّكر.

والثاني: أن ينتصبا على المصدر الواقع موقع الحال، أي: مُتضرعين خائفين، أو ذوي

تضرع وخيفة.

وقرئ "وخيفة" بتقديم الفاء، وقيل: هما مصدران للفعل من معناه لا من لفظه ذكره أبو

البقاء.

وهو بعيد.

قوله: "ودُونَ الجهر"

قال أبو البقاء: معطوف على تضرُّع، والتقدير، ومقتصدين.

وهذا ضعيف؛ لأنَّ دُونَ ظرفٌ لا يتصرَّف على المشهور، قال فالذي ينبغي أن يجعل صفة

لشيء محذوف ذلك المحذوف هو الحال، كما قدره الزمخشري فقال: ودُونَ الجهرٍ ومتكلماً

كلاماً دُونَ الجهر، لأنَّ الغخفاء أدخل في الإخلاص، وأربُّ إلى حسن التفكير.

## فصل

معنى تَضَرُّعًا وَخِيفَةً أَي: تَضَرَّعَ إِلَيَّ وَتَخَافُ مِنِّي، هذا في صلاة السِّرِّ وقوله وَدُونَ الْجَهْرِ  
أَرَادَ فِي صَلَاةِ الْجَهْرِ لَا تَجْهَرُ جَهْرًا شَدِيدًا، بل في خَفْضِ وَسُكُونِ تَسْمَعُ مِنْ وَقَالَ مُجَاهِدٌ  
وَإِبْنُ جَرِيرٍ: أَمْرًا أَنْ يَذْكُرَهُ فِي الصَّدُورِ بِالتَّضَرُّعِ فِي الدُّعَاءِ وَالِاسْتِكَانَةِ دُونَ رَعْفِ  
الصَّوْتِ وَالصِّيَاحِ فِي الدُّعَاءِ.

قوله بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ مُتَعَلِّقٌ بِ: اذْكُرْ أَي: اذْكُرْهُ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ وَهُمَا عِبَارَةٌ عَنِ اللَّيْلِ  
وَالنَّهَارِ.

ومعناها: الْبَكَرَاتِ وَالْعَشِيَّاتِ.

وقال أَبُو الْبَقَاءِ: بِالْغُدُوِّ مُتَعَلِّقٌ بِ: ادْعُوْهُ وَهُوَ سَبَقُ لِسَانٍ، أَوْ قَلَمٍ، إِذْ لَيْسَ نَظْمُ الْقُرْآنِ كَذَا  
، وَالْغُدُوُّ: إِمَّا جَمْعُ غَدْوَةٍ، ك: قَمْحٍ وَقَمْحَةٍ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَدْ قَابَلَ الْجَمْعُ بِالْجَمْعِ  
وَالْمَعْنَوِيِّ.

(209/302)

---

وقيل هو مصدرٌ، قال تعالى: ﴿ غَدُوْهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ: 12] فيقدَّرُ زَمَانٌ مُضَافٌ  
إِلَيْهِ حَتَّى يَتَقَابَلَ زَمَانٌ مَجْمُوعٌ بِمِثْلِهِ تَقْدِيرُهُ: بِأَوْقَاتِ الْغَدْوِ، وَالْأَصَالُ جَمْعٌ: أَصْلٌ، وَأَصْلٌ

جمع: أصيل، فهو جمع الجمع ولا جائز أن يكون جمعاً ل: أصيل، لأنَّ فعياً، لا يجمع على أفعال وقيل: هو جمع ل: أصيل، وفعيل يجمع على أفعال نحو: يمين وإيمان، وقيل: أصل جمع ل: أصل، وأصل مفرد، ثبت ذلك من لغتهم، وهو العشيُّ وفعل يجمع على "أفعال" قالوا: عنق وأعناق، وعلى هذا فلا حاجة إلى دعوى أنه جمع الجمع، ويجمع على "أصلاًن" ك: رغيِف ورُغفان، ويصغَر على لفظه؛ كقوله: [البسيط]

2667 - وَقَفْتُ فِيهَا أَصِيلَانًا أَسْلَهَا . . .

عَيَّتْ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدٍ  
واستدلَّ الكوفيُّون بقولهم: أصيلان على جواز تصغير جمع الكثرة بهذا البيت، وتأولهُ البصريُّون على أنه مفرد، وتبدل نونه لآماً .  
ويروى أصيلاًكي .

وقرأ أبو مجلز واسمه: لاحق بن حُميد السدوسيُّ البصري: والإيصال مصدر: أصل أي: دَخَلَ فِي الْأَصِيلِ، وَالْأَصِيلُ: مَا بَيْنَ الْعَصْرِ وَالْمَغْرَبِ. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن

عادل ح 9 ص 441.440 ﴿

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ

مِنَ الْغَافِلِينَ (205) ﴿﴾

التضرعُ إذا كوشف العبدُ بوصف الجمال في أوان البسط ، والخيفة إذا كوشف بنعت  
الجلال في أحوال الهيبة ، وهذا للأكابر .

(210/302)

---

فَأَمَّا مَنْ دُونِهِمْ فَتَنُّوعُ أَحْوَالِهِمْ مِنْ حَيْثُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ . وَمِنْ فَوْقِ  
الْجَمِيعِ فَأَصْحَابُ الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ ، وَالصَّحْوِ وَالْحَوِّ وَوَرَاءَهُمْ أَرْبَابُ الْحَقَائِقِ مُتَّبِعُونَ فِي  
أَوْطَانِ التَّمَكِينِ ، فَلَا تَلَوَّنَ لَهُمْ وَلَا تَجُنُّسَ لِقِيَامِهِمْ بِالْحَقِّ ، وَامْتِحَانِهِمْ عَنْ شَوَاهِدِهِمْ . انْتَهَى  
انْتَهَى . اهـ ﴿﴾ لطائف الإشارات ح 1 ص 600.601 ﴿﴾

(211/302)

---

قوله تعالى ﴿﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ  
(206) ﴿﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم علل الأمر بالمراقبة الدالة على أعظم الخضوع بأنها وظيفة المقرين فقال : ﴿ إن الذين ﴾  
وزاد ترغيباً في ذلك بقوله : ﴿ عند ربك ﴾ أي المحسن إليك بتقريبك من جنابه وجعلك  
أكرم أحبابه ، وهم الملائكة الكرام أولو العصمة ، والقرب دنو مكانة لا مكان ﴿ لا  
يستكبرون ﴾ أي لا يوجدون ولا يطلبون الكبر ﴿ عن عبادته ﴾ أي الخضوع له والتلبس  
بانحاء التذلل مع مزيد قربهم وغاية طهارتهم وحبهم ﴿ ويسبحونه ﴾ أي ينزهونه عن كل  
مالا يليق مع خلوصهم عن دواعي الشهوات والحطوظ .

ولما كان هذا يرجع إلى المعارف ، وقدمه دلالة على أنه الأصل في العبادة أعمال القلوب ،  
أردفه بقوله : ﴿ وله ﴾ أي وحده ﴿ يسجدون ﴾ أي يخضعون بإثباتهم له كل كمال ،  
وبالمباشرة لمحاسن الأعمال ، وقد تضمنت الآية الإخبار عن الملائكة الأبرار بثلاثة أخبار  
: عدم الاستكبار الذي هو أجل أنواع العبادة إذ هو الحامل على الطاعة كما أن ضده  
حامل على المعصية ، والتسييح الذي هو التنزيه عن كل مالا يليق ، وتخصيصه بالسجود ،  
ولما كانت العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار ، وكانت على قسمين : قلبية وجسمانية ،  
أشار إلى القلبية بالتنزيه ، وإلى الجسمانية بالسجود ، وهو الحال الذي يكون العبد به عند  
ربه كالملائكة قرباً وزلفى " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " نبه عليه أبو حيان  
على أن العبادتين مرجعهما القلب ، وإحداهما مدلول عليها بالقول والأخرى بالفعل ، وقد

رجع آخر السورة في الأمر باتباع القرآن إلى أولها أحسن رجوع ، ولو وصف المقرين بعدم الاستكبار والمواظبة على وظائف الخضوع إلى وصف إبليس بعصيان أمر الله في السجود لآدم عليه السلام على طريق الاستكبار أي التفات ، بل شرع في رد المقطع على المطلع حين أتم قصص الأنبياء ، فقوله ﴿ ولقد ذرأنا ﴾ [الأعراف : 179] هو قوله ﴿ والذي خبت لا يخرج إلا نكدا ﴾ [الأعراف : 58] يتضح لك ذلك إذا راجعت ما قدمته في المراد منها ﴿ والله الأسماء الحسنی فادعوه بها ﴾ [الأعراف : 180] هو - ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ و ﴿ ممن خلقنا أمة يهدون بالحق ﴾ [الأعراف : 180] - هو ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة ﴾ [الأعراف : 42] ﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴾ [الأعراف : 36] وإن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ [الأعراف : 185] هو ﴿ إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ﴾ [الأعراف : 34] و ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ [النازعات : 42] هو ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ [الأعراف : 29] و ﴿ لكم في الأرض

(212/302)

---



مستقر ومتاع إلى حين ﴿ [الأعراف: 24] و ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴿ [ الأعراف: 189] ﴿ لقد خلقناكم ثم صورناكم ﴿ [الأعراف: 11] ﴿ إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي ﴿ [الأعراف: 203] - إلى آخرها بعد التنفير من الأنداد - هو كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه - إلى قوله: ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴿ [الأعراف: 3] فسبحان من هذا كلامه ، وتعالى حجابهُ وعز مرامه ، وعلى من أنزل عليه صلواته وسلامه ، وتحيته وإكرامه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 179.180 ﴿

(213/302)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لما رغب الله رسوله في الذكر وفي المواظبة عليه ذكر عقبيه ما يقوي دواعيه في ذلك فقال :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ والمعنى : أن الملائكة مع نهاية شرفهم وغاية طهارتهم وعصمتهم وبراءتهم عن بواعث الشهوة والغضب ، وحوادث الحقد والحسد ، لما كانوا مواظبين على العبودية والسجود والخضوع والخشوع ، فالإنسان مع كونه مبتلى بظلمات عالم الجسمانيات ومستعداً للذات البشرية والبواعث الإنسانية أولى بالمواظبة على الطاعة ، ولهذا السبب قال عيسى عليه السلام : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [ مريم : 31 ] وقال لمحمد عليه السلام : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [ الحجر : 99 ] .

المسألة الثانية :

المشبهة تمسكوا بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ وقالوا لفظ ﴿ عِنْدَ ﴾ مشعر بالمكان والجهة .

وجوابه أنا ذكرنا البراهين الكثيرة العقلية والنقلية في هذه السورة عند تفسير قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [ الأعراف : 54 يونس : 3 ] على أنه يمتنع كونه تعالى حاصلًا في المكان والجهة .

وإذا ثبت هذا فنقول : وجب المصير إلى التأويل في هذه الآية وبيانه من وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى قال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [ الحديد : 4 ] ولا شك أن هذه المعية

بالفضل والرحمة لا بالجهة فكذا ههنا ، وأيضاً جاء في الأخبار الربانية أنه تعالى قال : "أنا

عند المنكسرة قلوبهم لأجلي " ولا خلاف أن هذه العنصرية ليست لأجل المكان والجهة ،  
فكذا ههنا .

والوجه الثاني : إن المراد القرب بالشرف .

(214/302)

---

يقال : للوزير قرابة عظيمة من الأمير ، وليس المراد منه القرب بالجهة ، لأن البواب والفراش  
يكون أقرب إلى الملك في الجهة والحيز والمكان من الوزير ، فعلمنا أن القرب المعتبر هو القرب  
بالشرف لا القرب بالجهة .

والوجه الثالث : أن هذا تشريف للملائكة بإضافتهم إلى الله من حيث إنه أسكنهم في  
المكان الذي كرمه وشرفه وجعله منزل الأنوار ومصعد الأرواح والطاعات والكرامات .  
والوجه الرابع : إنما قال تعالى في صفة الملائكة : ﴿ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ لأنهم رسل الله إلى  
الخلق كما يقال : إن عند الخليفة جيشاً عظيماً ، وإن كانوا متفرقين في البلد ، فكذا ههنا  
والله أعلم .

المسألة الثانية :

تمسك أبو بكر الأصم رحمه الله بهذه الآية في إثبات أن الملائكة أفضل من البشر ، لأنه تعالى

لما أمر رسوله بالعبادة والذكر قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾  
والمعنى فأنت أولى وأحق بالعبادة، وهذا الكلام إنما يصح لو كانت الملائكة أفضل منه.

المسألة الرابعة:

ذكر من طاعاتهم أولاً كونهم يسبحون، وقد عرفت أن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى  
من كل سوء، وذلك يرجع إلى المعارف والعلوم، ثم لما ذكر التسبيح أردفه بذكر السجود،  
وذلك يرجع إلى أعمال الجوارح، وهذا الترتيب يدل على أن الأصل في الطاعة والعبودية  
أعمال القلوب، ويتفرع عليها أعمال الجوارح.

وأيضاً قوله: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ يفيد الحصر ومعناه: أنهم لا يسجدون لغير الله.

فإن قيل: فكيف الجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [

الحجر: 30 ص: 73] والمراد أنهم سجدوا لآدم؟

والجواب: قال الشيخ الغزالي: الذين سجدوا لآدم ملائكة الأرض.

فأما عظماء ملائكة السموات فلا.

وقيل أيضاً: إن قوله: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ يفيد أنهم ما سجدوا لغير الله، فهذا يفيد

العموم.

وقوله: فسجدوا لآدم خاص، والخاص مقدم على العام.

---

واعلم أن الآيات الدالة على كون الملائكة مستغرقين في العبودية كثيرة ، كقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ [ الصافات : 165 ، 166 ] وقوله : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [ الزمر : 75 ] والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 ص 91.89 ﴾

(216/302)

---

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ .

فيها أربع عشرة مسألة :

المسألة الأولى : هذه الآية مرتبطة بما قبلها ومنتظمة مع ما سبقها ؛ وهي إخبار من الله تعالى عن الملائكة بأنهم في عبادتهم التي أمرُوا بها دائمون ، وعليها قائمون ، وبها عاملون ؛ فلا تكن من الغافلين فيما أمرت به وكلفته . وهذا خطابه ، والمراد بذلك جميع الأمة .

المسألة الثانية: هذه أول سجود القرآن، وفيه خمس عشرة سجدة: الأولى: هذه،  
خاتمة الأعراف.

- الثانية: في الرعد: ﴿ وَظَلَّاهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ .
- الثالثة: في النحل: ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .
- الرابعة: في نبي إسرائيل: ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ .
- الخامسة: في مريم: ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ .
- السادسة: في أول الحج: ﴿ يَفْعَلْ مَا يَشَاءُ ﴾ .
- السابعة: في آخر الحج: ﴿ تَفْلِحُونَ ﴾ .
- الثامنة: في الفرقان: ﴿ نُفُورًا ﴾ .
- التاسعة: في النمل: ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ .
- العاشرة: في تنزيل: ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .
- الحادية عشرة: في ص: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ .
- الثانية عشرة: في حم: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .
- الثالثة عشرة: آخر النجم: ﴿ وَاعْبُدُوا ﴾ .
- الرابعة عشرة: في الانشقاق قوله: ﴿ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ .

الخامسة عشرة: خاتمة القلم.

المسألة الثالثة: روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ وَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ بُيُوكِي، فَيَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ﴾.

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر ﴿أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَيَقْرَأُ سُورَةَ فِيهَا سَجْدَةٌ، فَيَسْجُدُ.

وَيَسْجُدُ مَعَهُ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدًا مَكَانًا لِحَبْهَتِهِ لَيْسَ يَسْجُدُ فِيهِ﴾.

وروى أبو داود عن ابن عمر أن ﴿رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ عَامَ الْحَجِّ سَجْدَةَ، فَسَجَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، مِنْهُمْ الرَّكِبُ وَالسَّاجِدُ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى إِنَّ الرَّكِبَ يَسْجُدُ عَلَى ثَوْبِهِ﴾.

المسألة الرابعة: اختلف الناس في سجود التلاوة؛ فقال مالك والشافعي: ليس

بواجب.

وقال أبو حنيفة: هو واجب، وهي مسألة مشككة عول فيها أبو حنيفة على أن مطلق الأمر بالسجود على الوجوب.

وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَمْرُ ابْنِ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ﴾ وَالْأَمْرُ عَلَى  
الْوَجُوبِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُحَافِظُ عَلَيْهَا إِذَا قَرَأَهَا .

(218/302)

وَعَوْلَ عُلَمَائِنَا عَلَى حَدِيثِ عُمَرَ الثَّابِتِ أَنَّ عُمَرَ قَرَأَ سَجْدَةً وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَنَزَلَ  
فَسَجَدَ فَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ .

ثُمَّ قَرَأَ بِهَا فِي الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى ، فَتَهَيَّأَ النَّاسُ لِلْسُّجُودِ ، فَقَالَ : عَلَى رِسَالِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ  
يَكْتُبْهَا عَلَيْنَا ، إِلَّا أَنْ نَشَاءَ .

وَذَلِكَ بِحَضْرَةِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، فَلَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ،  
فَتَبَّتِ الْإِجْمَاعُ بِهِ فِي ذَلِكَ ؛ وَلِهَذَا حَمَلْنَا جَمِيعَ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَعَلَهُ عَلَى  
النَّدْبِ وَالتَّرغِيبِ .

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَمْرُ ابْنِ آدَمَ بِالسُّجُودِ ، فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ﴾ .  
إِخْبَارٌ عَنِ السُّجُودِ الْوَاجِبِ ؛ وَمُوَاطَبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَدُلُّ عَلَى  
الِاسْتِحْبَابِ .

وَقَدْ اسْتَوْعَبْنَا الْقَوْلَ فِيهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .



المسألة الخامسة: لا بد فيها من الطهارة؛ لأنها صلاة، فوجب فيها الطهارة، كسجود الصلاة.

وكذلك التكبير مثله؛ فقد روي في الأثر عن ابن عمر \* أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد كبر، وكذلك إذا رفع كبر \* واختلف علماءنا هل فيها تحليل بالسلام أم لا؟ والصحيح أن فيها تحليلاً بالسلام [لأنه عبادة لها تكبير، فكان فيها سلام، كصلاة

(219/302)

---

الجنابة، بل أولى؛ لأن هذا فعل وصلاة الجنابة قول المسألة السادسة: اختلف قول مالك في صلاتها في الأوقات المنهي عنها؛ فأحدى الروايتين أنها تصلى فيها؛ وبه قال الشافعي.

الثانية: لا تصلى؛ وبه قال أبو حنيفة.

متعلق القول الأول عموم الأمر بالسجود، ومتعلق القول الثاني عموم النهي عن الصلوات. والقول الثاني أقوى؛ لأن الأمر بالسجود عام في الأوقات، والنهي خاص في الأوقات، والخاص يقتضي على العام.

وقد روي عن مالك في المدونة أنه يصلحها ما لم تصفر الشمس؛ وهذا لا وجه له عندي،

وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

المسألة السابعة : سجدة الحج الثانية : قال الشافعيُّ وأبن وهب عنه وغيرهما : هي عزيمة .

وقال في المدونة وغيرها : إنها ليست سجود عزيمة ؛ لأنه خبر عن ركوع الصلاة وسجودها ؛ ودليلنا أن عمر سجد فيها وهو يفهم الأمر أقعد ، وبين قوم كانوا أفهم وأسد ؛ فبهم فاقتد .

المسألة الثامنة : قال الشافعيُّ : يسجد في النمل عند قوله : ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ عند تمام الآية التي فيها الأمر .

وقال مالك وأبو حنيفة : يسجد عند قوله : ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ .  
الذي فيه تمام الكلام ، وهو أقوى .

المسألة التاسعة : سجدة " ص " : عند الشافعيِّ سجدة شكر ، وليست بعزيمة .

(220/302)

---

وقد روى أبو داود والترمذيُّ وخرجه البخاريُّ عن ﴿ ابن عباس قال : سجدة ص ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سجدها .

﴿ وَقَالَ مَالِكُ : هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَهِيَ عَزِيمَةٌ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ  
 اللَّهُ لَهُ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدُهُ ﴾ ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي سَعِيدِ  
 الْخُدْرِيِّ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ : ص ، فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ  
 نَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ آخِرِ قَرَأَهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ تَشَرَّنَ النَّاسُ  
 لِلْسُّجُودِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةٌ نَبِيٍّ وَلَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَشَرَّتُمْ  
 لِلْسُّجُودِ وَنَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدُوا ﴾ الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : السُّجُودُ فِيهَا عِنْدَ تَمَامِ قَوْلِهِ : ﴿  
 وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ لِأَنَّهُ تَمَامُ الْكَلَامِ ، وَمَوْضِعُ الْخُضُوعِ وَالْإِنَابَةِ .  
 وَقَالَ الشَّافِعِيُّ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَحُسْنُ مَابٍ ﴾ لِأَنَّهُ خَبَرٌ عَنِ التَّوْبَةِ وَحُسْنِ الْمَابَةِ .  
 وَالْأَوَّلُ أَصَوْبٌ ؛ رَجَاءُ الْإِهْتِدَاءِ فِي الْقِدَاءِ وَالْمَغْفِرَةِ عِنْدَ الْأَمْتَالِ ، كَمَا غَفِرَ لِمَنْ سَبَقَ  
 مِنْ الْأَنْبِيَاءِ .  
 الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : السُّجُودُ فِي فَصَلَتٍ : عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ لِأَنَّهُ  
 انْتِهَاءُ الْأَمْرِ .

وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ: ﴿ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ لِأَنَّهُ خَبِرَ عَنْ امْتِثَالِ مَنْ أَمَرَ عِنْدَ ذِكْرٍ مِنْ اسْتِكْبَارٍ ، فَيَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ .

وَالأَوَّلُ الأَوَّلَى ؛ لِأَنَّهُ يُمْتَلِ الأَمْرَ وَيَخْرُجُ عَمَّنْ اسْتَكْبَرَ .

المسألة الثانية عشرة: أما سجدة "النجم" : فقد روى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قرأ والنجم فلم يسجد فيها ﴾ .

والصحيح ما روى العلماء الأئمة عن عبد الله ﴿ أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ والنجم ، فسجد فيها وسجد من كان معه ، فأخذ رجل من القوم كفا من حصي أو تراب ، فرفعه إلى وجهه ، وقال : يكفيني هذا .

وقال عبد الله : فلقد رأيت بعد قتل كافرا ﴾ .

وروى ابن عباس ﴿ أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون ، والجن والإنس ﴾ ، فكيف يتأخر أحد عنها .

المسألة الثالثة عشرة: روى الأئمة عن ﴿ أبي هريرة أنه قرأ لهم : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها وفي : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ .

فإن قيل : فقد روى أبو داود ﴿ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة ﴾ .

(222/302)

---

قُلْنَا : هَذَا خَبْرٌ لَمْ يَصِحَّ إِسْنَادُهُ ، وَلَوْ صَحَّ فَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ قَرَأَهُ وَلَمْ يَسْجُدْ فِيهِ ، فَلَعَلَّهُ لَمْ يَقْرَأْ  
بِهِ فِي صَلَاةِ جَمَاعَةٍ .

المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ : فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
كَانَ يَقْرَأُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ : ﴿ الْمُنزِيلُ ﴾ السَّجْدَةَ ، وَهَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ  
حِينَ مِنَ الدَّهْرِ ﴾ . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لابن العربي ح 2 ص ﴾

(223/302)

---

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾

يعني : الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ وذلك أن كفار مكة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ [ الفرقان : 60 ]

واستكبروا عن السجود فنزل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يعني : الملائكة لا يستكبرون عن

عبادته يعني: لا يتعظمون ولا يستكفون عن طاعته ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ يقول: ويذكرونه  
﴿ وَكَهٗ يَسْجُدُونَ ﴾ يعني: يصلون.

وقال أهل اللغة: الأصال جمع الأصل والأصل جمع الأصيل والأصال جمع الجمع يعني:

العشيات والله أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم ح 1 ص ﴾

وقال الثعلبي:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾

يعني الملائكة والمراد هو عند قربهم من الفضل والرحمة لا من حيث المكان والمعاقبة.

وقال الحسين بن الفضل: قد يعبد الله غير الملائكة في المعنى من عند ربك جاءهم التوفيق

والعصمة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ لا يتكبرون ولا يتعظمون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾

وينزهونه ويذكرونه ويقولون سبحان الله ﴿ وَكَهٗ يَسْجُدُونَ ﴾ يصلون.

مغيرة عن إبراهيم: إن شاء ركع وإن شاء سجد. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الكشف والبيان

ح 4 ص ﴿

(224/302)

---

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ الذين ﴾ يريد الملائكة ، وقوله ﴿ عند ﴾ إنما يريد في المنزلة والتشريف والقرب في المكانة لا في المكان ، فهم بذلك عنده ، ثم وصف تعالى حالهم من تواضعهم وإدمانهم للعبادة والتسبيح والسجود ، وفي الحديث : " أظت السماء وحق لها أن تظ ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راعع أو ساجد " وهذا موضع سجدة ، قال النخعي في كتاب النقاش : إن شئت ركعت وإن شئت سجدت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز

ح 2 ص ﴿

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ إن الذين عند ربك ﴾

يعني : الملائكة ﴿ لا يستكبرون ﴾ أي : لا يتكبرون ويتعظمون ﴿ عن عبادته ﴾ وفي هذه العبادة قولان .

أحدهما : الطاعة .

والثاني : الصلاة والخضوع فيها .

وفي قوله : ﴿ ويسبحونه ﴾ قولان .

أحدهما : ينزهونه عن السوء .

والثاني : يقولون سبحان الله .

قوله تعالى: ﴿وله يسجدون﴾ أي: يصلون.

وقيل: سبب نزول هذه الآية أن كفار مكة قالوا: أنسجد لما تأمرنا؟ فنزلت هذه الآية،

تخبر أن الملائكة، وهم أكبر شأناً منكم، لا يتكبرون عن عبادة الله.

وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا قرأ ابن آدم السجدة

فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله، أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة،

وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار". انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير حـ 3 ص﴾

(225/302)

وقال القرطبي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (206)

فيه ثمان مسائل:

الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة بإجماع.

وقال "عند ربك" والله تعالى بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله

عز وجل فهو عنده؛ عن الزجاج.

وقال غيره: لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله.



وقيل : لأنهم رُسلُ الله ؛ كما يقال : عند الخليفة جيش كثير .

وقيل : هذا على جهة التشريف لهم ، وأنهم بالمكان المكرم ؛ فهو عبارة عن قربهم في

الكرامة لا في المسافة .

﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ أي ويعظمونه وينزهونه عن كل سوء .

﴿ وَكَهْ يَسْجُدُونَ ﴾ قيل : يصلون .

وقيل : يذللون ، خلاف أهل المعاصي .

الثانية والجمهور من العلماء في أن هذا موضع سجود للقارىء .

وقد اختلفوا في عدد سجود القرآن ؛ فأقصى ما قيل : خمس عشرة .

أولها خاتمة الأعراف ، وآخرها خاتمة العلق .

وهو قول ابن حبيب وابن وهب في رواية وإسحاق .

ومن العلماء من زاد سجدة الحجر قوله تعالى : ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [ الحجر : 98

[ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

فعلى هذا تكون ست عشرة .

وقيل : أربع عشرة ؛ قاله ابن وهب في الرواية الأخرى عنه .

فأسقط ثمانية الحج .

وهو قول أصحاب الرأي ، والصحيح سقوطها ؛ لأن الحديث لم يصح بثبوتها .

ورواه ابن ماجه وأبو داود في سننهما عن عبد الله بن مُنين من بني عبد كلال عن عمرو بن العاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن ؛ منها ثلاث في المفصل ، وفي الحج سجدتان .

وعبد الله بن مُنين لا يحتج به ؛ قاله أبو محمد عبد الحق .

وذكر أبو داود أيضاً من حديث " عقبة بن عامر قال قلت : يا رسول الله ، أفي سورة الحج سجدتان ؟ .

قال : " نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما " " في إسناده عبد الله بن لهيعة ، وهو ضعيف جداً .

(226/302)

---

وأثبتهما الشافعي وأسقط سجدة ص .

وقيل : إحدى عشرة سجدة ، وأسقط آخره الحج وثلاث المفصل . وهو مشهور مذهب مالك .

وروي عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما .

وفي سنن ابن ماجه عن أبي الدرداء قال : سجدت مع النبي صلى الله عليه وسلم إحدى

عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيء ، الأعراف والرعد والنحل وبنو إسرائيل ومريم

والحج سجدة والفرقان وسليمان سورة النمل والسجدة ووص وسجدة الحواميم .

وقيل : عشر ، وأسقط آخره الحج ووص وثلاث المفصل ؛ ذكر عن ابن عباس .

وقيل : إنها أربع ، سجدة آلام تنزيل وحم تنزيل والنجم والعلق .

وسبب الخلاف اختلاف النقل في الأحاديث والعمل ، واختلافهم في الأمر الجرد بالسجود

في القرآن ، هل المراد به سجود التلاوة أو سجود الفرض في الصلاة ؟

الثالثة واختلفوا في وجوب سجود التلاوة ؛ فقال مالك والشافعيّ : ليس بواجب .

وقال أبو حنيفة : هو واجب .

وتعلق بأن مطلق الأمر بالسجود على الوجوب ، ويقول عليه السلام : " إذا قرأ ابن آدم

سجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويّله " وفي رواية أبي كريب " يا ويلي " ، ويقول

عليه السلام إخباراً عن إبليس لعنه الله : " أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت

بالسجود فأبيت فلي النار " أخرجه مسلم .

ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يحافظ عليه .

وعوّل علماؤنا على حديث عمر الثابت خرّجه البخاري أنه قرأ آية سجدة على المنبر

فنزل فسجد وسجد الناس معه ، ثم قرأها في الجمعة الأخرى فتهياً للناس للسجود ، فقال

:" أيها الناس على رسلكم ! إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء " وذلك بمحض الصحابة

رضي الله عنهم أجمعين من الأنصار والمهاجرين .  
فلم ينكر عليه أحد فثبت الإجماع به في ذلك .  
وأما قوله : " أمر ابن آدم بالسجود " فأخبار عن السجود الواجب .  
ومواظبة النبي صلى الله عليه وسلم تدل على الاستحباب ! والله أعلم .

(227/302)

---

الرابعة ولا خلاف في أن سجود القرآن يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصلاة من طهارة حدّث  
ونجس ونية واستقبال قبله ووقت .

إلا ما ذكر البخاري عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير طهارة .  
وذكره ابن المنذر عن الشعبي .

وعلى قول الجمهور هل يحتاج إلى تحريم ورفع يدين عنده وتكبير وتسليم ؟ اختلفوا في ذلك  
؛ فذهب الشافعي وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبر ويرفع للتكبير لها .

وقد روى في الأثر عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد كبر ، وكذلك  
إذا رفع كبر .

ومشهور مذهب مالك أنه يكبر لها في الخفض والرفع في الصلاة .

واختلف عنه في التكبير لها في غير الصلاة؛ وبالتكبير لذلك قال عامة الفقهاء ، ولا سلام لها عند الجمهور .

وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه يسلم منها .

وعلى هذا المذهب يتحقق أن التكبير في أولها للإحرام .

وعلى قول من لا يسلم يكون للسجود فحسب .

والأول أولى ؛ لقوله عليه السلام : " مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم

" وهذه عبادة لها تكبير ، فكان لها تحليل كصلاة الجنازة بل أولى ، لأنها فعل وصلاة الجنازة

قول .

وهذا اختيار ابن العربي .

الخامسة وأما وقته فقيل : يسجد في سائر الأوقات مطلقاً ؛ لأنها صلاة لسبب .

وهو قول الشافعي وجماعة .

وقيل : ما لم يُسفر الصبح ، أو ما لم تصفر الشمس بعد العصر .

وقيل : لا يسجد بعد الصبح ولا بعد العصر .

وقيل : يسجد بعد الصبح ولا يسجد بعد العصر .

وهذه الثلاثة الأقوال في مذهبنا .

وسبب الخلاف معارضة ما يقتضيه سبب قراءة السجدة من السجود المرتب عليها لعموم

النهي عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح .

واختلافهم في المعنى الذي لأجله نُهي عن الصلاة في هذين الوقتين ، والله أعلم .

السادسة " فإذا سجد يقول في سجوده : "اللَّهُمَّ احطط عني بها وزراً ، واكتب لي بها أجراً

، واجعلها لي عندك ذخراً " رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره ابن

ماجه .

(228/302)

---

السابعة فإن قرأها في صلاة ، فإن كان في نافلة سجد إن كان منفرداً أو في جماعة وأمن

التخليط فيها .

وإن كان في جماعة لا يأمن ذلك فيها فالمنصوص جوازه .

وقيل : لا يسجد .

وأما في الفريضة فالمشهور عن مالك التَّهْيُ عنه فيها ، سواء كانت صلاة سرّاً أو جهر ،

جماعة أو فرادى .

وهو معللٌ بكونها زيادة في أعداد سجود الفريضة .

وقيل : معللٌ بخوف التخليط على الجماعة ؛ وهذا أشبه .

وعلى هذا لا يمنع منه الفرادى ولا الجماعة التي يأمن فيها التخليط .  
الثامنة روى البخاري عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة ، فقرأ "إذا السماء  
أنشقت" فسجد ؛ فقلت : ما هذه ؟ قال : سجدت بها خلف أبي القاسم صلى الله عليه  
وسلم ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه .

انفرد بإخراجه .

وفيه : "وقيل لعمران بن حصين : الرجل يسمع السجدة ولم يجلس لها ؟ قال : رأيت لو قعد  
لها كأنه لا يوجبه عليه .  
وقال سلمان : ما لهذا غدونا .

وقال عثمان : إنما السجدة على من استمعها .

وقال الزهري : لا يسجد إلا أن يكون طاهراً ، فإذا سجدت وأنت في حَضْرٍ فاستقبل  
القبلة ، فإن كنت راكباً فلا عليك حيث كان وجهك .

وكان السائب لا يسجد لسجود القاص " والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي

ح 7 ص ﴿

(229/302)

---

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إن الذين عند ربك ﴾

يعني الملائكة المقربين لما أمر الله رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) والمؤمنين بالذكر في حالة التضرع والخوف أخبر أن الملائكة الذين عنده مع علو مرتبتهم وشرفهم وعصمتهم ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ وطاعته لأنهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه : ﴿ ويسبحونه ﴾ يعني وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان ربنا ﴿ وله يسجدون ﴾ لا لغيره .

فإن قلت : التسبيح والسجود داخلان في قوله تعالى لا يستكبرون عن عبادته لأنها من جملة العبادة فكيف أفردهما بالذكر ؟

قلت : أخبر الله عن حال الملائكة أنهم خاضعون لعظمته لا يستكبرون عن عبادته ثم أخبر عن صفة عبادتهم أنهم يسبحونه وله يسجدون ولما كانت الأعمال تنقسم إلى قسمين أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأعمال القلوب هي تنزيه الله عن كل سوء وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله : ويسبحونه .

وعبر عن أعمال الجوارح بقوله : وله يسجدون وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيستحب للقارئ والمستمع أن يسجد عند قوله : وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين في عباداتهم ( ق ) عن عبد الله بن عمر " أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) كان يقرأ القرآن



فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته  
في غير وقت صلاة" (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "  
إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويلتا أمر ابن آدم بالسجود  
فسجد فله الجنة وأرمت بالسجود فأبیت فلي النار" (م) عن ثوبان مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)  
قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول "عليك  
بكثرة السجود لله فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها  
خطيئة" والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن ج 2 ص



(230/302)

---

وقال أبو حيان:

﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾

(231/302)

---

هم الملائكة عليهم السلام ومعنى العندية الزلّفى والقرب منه تعالى بالمكانة لا بالمكان وذلك لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته ولما أمر تعالى بالذکر ورغب في المواعيط عليه ذكر من شأنهم ذلك فأخبر عنهم بأخبار ثلاثة، الأول نفي: الاستكبار عن عبادته وذلك هو إظهار العبودية ونفي الاستكبار هو الموجب للطاعات كما أن الاستكبار هو الموجب للعصيان لأنّ المستكبر يرى لنفسه شفوقاً ومزية فيمنعه ذلك من الطاعة، الثاني: إثبات التسبيح منهم له تعالى وهو التنزيه والتطهير عن جميع ما لا يليق بذاته المقدسة، والثالث: السجود له قيل: وتقديم الجرور يؤذن بالاختصاص أي لا يسجدون إلا له والذي يظهر أنه إنما قدم الجرور ليقع الفعل فاصلة فاخره لذلك ليناسب ما قبله من رؤوس الآي ولما كانت العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار وكانت على قسمين عبادة قلبية وعبادة جسمانية ذكرهما، فالقلبية تنزيه الله تعالى عن كل سوء والجسمانية السجود وهو الحال التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى وفي الحديث "أطت السماء وحق لها أن تظ ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راکع أو ساجد" ﴿ وله يسجدون ﴾ ﴿ هو مكان سجدة وقيل: سجود التلاوة أربع سجودات ﴾ ﴿ ألم تنزيل ﴾ ﴿ وحم تنزيل ﴾ والنجم والعلق وذكر عن ابن عباس أنها عشر أسقط آخر الحج وص وثلاثاً في المفصل وروي عن مالك إحدى عشرة أسقط آخر الحج وثلاث المفصل، وعن ابن وهب أربع عشرة أسقط ثانية الحج وهو قول أبي حنيفة والشافعي لكن أبو حنيفة أسقط ثانية الحج وأثبت ص وعكس

الشافعي وعن ابن وهب أيضاً وابن حبيب خمس عشرة آخرها خاتمة العلق وعن بعض العلماء ست عشرة وزاد سجدة الحجر والجمهور على أنه ليس بواجب وقال أبو حنيفة هو واجب ولا خلاف في أن شرطه شرط الصلاة من طهارة خبث وحدث وثية واستقبال ووقت إلا ما روى البخاري عن ابن عمرو وابن المنكر عن الشعبي أنه يسجد على غير طهارة وذهب الشافعي وأحمد وإسحاق

(232/302)

---

إلى أنه يكبر ويرفع اليدين وقال مالك يكبر لها في الحفض ، والرفع في الصلاة وأما في غير الصلاة فاختلف عنه ويسلم عند الجمهور ، وقال جماعة من السلف وإسحاق : لا يسلم ووقتها سائر الأوقات مطلقاً لأنها صلاة بسبب وهو قول الشافعي وجماعة ، وقيل : ما لم يسفر ولم تصفر الشمس ، وقيل : لا يسجد بعد الصبح ولا بعد العصر وقيل بعد الصبح لا بعد العصر ، وثلاثة الأقوال هذه في مذهب مالك ، وفي سنن ابن ماجه عن ابن عباس أنه عليه السلام : كان يقول في سجود التلاوة " اللهم احطط عني بها وزراً واكتب لي بها أجراً واجعلها لي عندك ذخراً " ، ومشهور مذهب مالك أنه لا يسجد في الفريضة سرّاً كانت أو جهرّاً ومذهب أبي حنيفة أنه واجب على السامع قصد الاستماع أولاً . انتهى انتهى . ١٠ هـ

﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾

وهم الملائكة عليهم السلام ومعنى كونهم عنده سبحانه وتعالى قربهم من رحمته وفضله  
لتوفرهم على طاعته تعالى ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ بل يؤدونها حسبما أمروا به  
﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ أي ينزهونه عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ أي  
يُخَصِّصُونَهُ بغاية العبودية والتذلل لا يشركون به شيئاً وهو تعريضُ بسائر المكلفين ولذلك شرع  
السجود عند قراءته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 3 ص ﴾

(233/302)

وقال الأوسى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ وهم ملائكة الملائكة الأعلى ، فالمراد من العندية القرب من الله  
تعالى بالزلفى والرضا لا المكانية لتنزه الله تعالى عن ذلك ، وقيل : المراد عند عرش ربك  
﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ بل يؤدونها حسبما أمروا به ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ أي

ينزعونه عما لا يليق بحضرة كبريائه على أبلغ وجه ﴿ وَكَهٗ يَسْجُدُونَ ﴾ أي ويخصونه بغاية العبودية والتذلل لا يشركون به غيره جل شأنه ، وهو تعريض بمن عداهم من المكلفين كما يدل عليه تقديم ﴿ لَهُ ﴾ وجازات يؤخذ من مجموع الكلام كما آثره العلامة الطيبي لأنه تعليل للسابق على معنى اتوا بالعبادة على وجه الاخلاص كما أمرتم فإن لم تأتوا بها كذلك فإننا مغنون عنكم وعن عبادتكم ان لنا عباداً مكرمين من شأنهم كذا وكذا فالتقديم على هذا للفاصلة ، ولما في الآية من التعريض شرع السجود عند هذه الآية ارغاماً لمن أبى ممن عرض به .

قيل : وقد جاء الأمر بالسجدة لآية أمر فيها بالسجود امتثالاً للأمر ، أو حكي فيها استنكاف الكفرة عنه مخالفة لهم ، أو حكي فيها سجود نحو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تأسياً بهم ، وهذا من القسم الثاني باعتبار التعريض أو من القسم الأخير باعتبار التصريح ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده لذلك كما روي ابن أبي شيبة عن ابن عمر " اللهم لك سجد سوادى وبك آمن فؤادى اللهم ارزقني علماً ينفعني وعملاً يرفعني " وأخرج أحمد .

وأبو داود .

والترمذي وصححه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجود القرآن بالليل مراراً " سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته

فتبارك الله أحسن الخالقين " وجاء عنها أيضاً " ما من مسلم سجد لله تعالى سجدة إلا  
رفعه الله تعالى بها درجة أو حط عنه بها خطيئة أو جمعهما له كليهما " وأخرج مسلم .

(234/302)

---

وابن ماجه .

والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا قرأ ابن ردم  
السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة  
وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار " واستدل بالآية على أن إخفاء الذكر أفضل ، ويوافق  
ذلك ما أخرجه أحمد من قوله صلى الله عليه وسلم : " خير الذكر الخفي " وهي ناعية  
على جهلة زماننا من المتصوفة ما يفعلونه مما يستقبح شرعاً وعقلاً و عرفاً فإننا لله وإنا إليه  
راجعون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(235/302)

---

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

﴿ وَإِنَّمَا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(236/302)

بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ أَفْضَلَ مَا يُعَامِلُ الْبَشَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنَ الْوَصَايَا الثَّلَاثِ ، الَّتِي لَا يُمَكِّنُ شَرْحُ التَّعَامُلِ بِهَا تَفْصِيلًا إِلَّا بِسَفَرٍ كَبِيرٍ ، وَلَوْ عَمِلَ النَّاسُ بِهَذِهِ الْوَصَايَا لَصَلَحَتْ أَحْوَالُهُمْ ، وَلَمْ يَجِدِ الْفَسَادُ إِلَيْهِمْ سَبِيلًا ، ثُمَّ قَفَى عَلَيْهَا بِهَذِهِ الثَّلَاثِ الْآيَاتِ فِي الْوَصِيَّةِ بِاتِّقَاءِ إِفْسَادِ الشَّيْطَانِ ، أَيِ جِنْسِهِ لِجِنْسِ الْبَشَرِ ، وَالْمُرَادُ هُنَا شَيَاطِينُ الْجِنِّ الْمُسْتَرْتَةِ ، فَالْتَّنَاسُبُ الْقَرِيبُ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ مَا قَبْلَهُنَّ الْمُقَابَلَةُ بَيْنَ مُعَامَلَةِ الْبَشَرِ وَمُعَامَلَةِ الْجِنِّ ، وَمَنْ فُرِعَ التَّنَاسُبُ بَيْنَ الْجَاهِلِينَ ، أَيِ السُّفَهَاءِ الَّذِينَ أَمَرَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ اتِّقَاءً لَشَرِّهِمْ ، وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ الَّتِي أَمَرَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ مِنْهُمْ اتِّقَاءً لَشَرِّهِمْ ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى ، اتِّقَاءُ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَشَيَاطِينِ الْجِنِّ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الشَّرِيرُ الْمُفْسِدُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَمَنْ فَسَّرَ آيَاتِ : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ (7 : 189) إِنْخَبَمَا مَرَّ مِنْ أَنْ شَرِكَ الْأَبْوِينَ فِيمَا آتَاهُمَا اللَّهُ مِنَ الْوَلَدِ

الصَّالِحِ كَانَ يَأْغْوَاهُ الشَّيْطَانُ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْآيَاتِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْآيَةَ  
بَيَّنَتْ لَنَا أَنَّ وَسْوَسةَ الشَّيْطَانِ لِأَبْوِينَا كَانَتْ سَبَبَ مَا وَقَعَ لَهُمَا مِنَ الشَّرِكِ فِيمَا آتَاهُمَا مِنْ

(237/302)

الْوَلَدِ - وَالْأَوْلَى إِرْجَاعُ التَّنَاسُبِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَى مَا بَيَّنَّ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ مِنْ خَلْقِ آدَمَ  
وَحَوَاءَ وَوَسْوَسةَ الشَّيْطَانِ لَهُمَا - وَمَا بَيَّنَّ فِي خَوَاتِيمِهَا مِنَ الْإِرْشَادِ إِلَى إِتْقَانِ نَزْعِ  
الشَّيْطَانِ وَمَسِّهِ ، وَهُوَ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِي بَدْءِ سِيَاقِ هَذِهِ الْخَاتِمَةِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ قَالَ الرَّاعِبُ : النَّزْعُ دُخُولٌ فِي أَمْرٍ لِإِفْسَادِهِ .

وَاسْتَشْهَدَ لَهُ بِقَوْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي (12) :

(100) وَفِي الْأَسَاسِ : نَزْعُهُ مِثْلُ نَسْفِهِ إِذَا طَعَنَهُ وَنَخَسَهُ . وَمِنْ " الْمَجَازِ " نَزْعُهُ

الشَّيْطَانُ : كَأَنَّهُ يَنْخَسُهُ لِيُحِثَّهُ عَلَى الْمَعَاصِي . وَنَزْعُ بَيْنَ النَّاسِ : أَفْسَدَ بَيْنَهُمْ بِالْحَثِّ عَلَى

الشَّرِّهِ . فَالنَّزْعُ كَالنَّسْعِ وَالنَّخْسِ وَالنَّحْزِ وَالنَّغْزِ وَالنَّكْزِ وَالْوَكْزِ وَالْهَمْزُ الْفَاطِمَةُ مُتَقَارِبَةٌ

الْمَعْنَى ، وَأَصْلُهُ إِصَابَةُ الْجَسَدِ بِرَأْسِ شَيْءٍ مُحَدَّدٍ كَالْأَبْرَةِ وَالْمِهْمَازِ وَالرُّمْحِ أَوْ مَا يُشْبِهُهُ

الْمُحَدَّدِ كَالْإِصْبَعِ ، وَالْمُرَادُ مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ إِثَارَتُهُ دَاعِيَةَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ فِي غَضَبٍ أَوْ



شَهْوَةٌ حَيَوَانِيَّةٌ أَوْ مَعْنَوِيَّةٌ ، بَحِيثٌ تَفْحِمُ صَاحِبَهَا إِلَى الْعَمَلِ بِتَأْثِيرِهَا ، كَمَا تُنْحَسُ الدَّابَّةُ  
بِالْمِهْمَازِ لِتُسْرِعَ .

(238/302)

---

وَعَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الشَّرِّ فَقَطُ ، وَإِنَّمَا قَالَ "يَنْزَعْنَكَ نَزْعٌ" وَالْمُرَادُ نَازِعٌ لِأَنَّ إِسْنَادَ الْفِعْلِ  
إِلَى الْمَصْدَرِ أَبْلَغُ ، وَالشَّيْطَانُ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِيهِ وَفِي الْجَنِّ مِرَارًا ، أَوْسَعُهَا مَا وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ  
قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِمَّا يُنْسِينِكَ الشَّيْطَانُ (6 : 68) الْآيَةَ ، وَتَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ  
الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ (6 : 71) الْآيَةَ . وَكِلْتَاهُمَا مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَتَفْسِيرُ قِصَّةِ آدَمَ مِنْ  
هَذِهِ السُّورَةِ الَّذِي يُنَاسِبُ مِنْهَا مَا هُنَا ، وَهُوَ إِغْوَاءُ النَّاسِ بِالْوَسْوَسَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ  
الشَّيْطَانِ : قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي (7 : 16) إِيخُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْنِنَكُمْ  
الشَّيْطَانُ (7 : 27) إِيخُ .

(239/302)

وَمُلَخَّصٌ مَا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ أَنَّهُ ثَبَتَ فِي وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى رُسُلِهِ أَنَّ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ خَلْقًا  
خَفِيًّا اسْمُهُ الشَّيْطَانُ لَا تُدْرِكُهُ حَوَاسِنَا ، لَهُ أَثَرٌ فِي أَنْفُسِنَا ، فَهُوَ يَتَّصِلُ بِهَا ، وَيُقَوِّي دَاعِيَةَ  
الشَّرِّ فِيهَا بِمَا سَمَّاهُ الْوَحْيِيَّ وَسَوَاسًا وَنَزْعًا وَمَسًّا ، وَنَحْنُ نَجِدُ أَثَرَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِنَا ، وَإِنْ لَمْ  
نُدْرِكْ مَصْدَرَهُ ، وَقَدْ شَبَّهْنَا تَأْثِيرَ هَذِهِ الشَّيَاطِينِ الْخَفِيَّةِ فِي الْأَرْوَاحِ بِتَأْثِيرِ النَّسَمِ الْخَفِيَّةِ  
الْمَادِيَّةِ الْمُسَمَّاةِ بِالْبُكْرِيَا أَوْ بِالْمِيكْرُوبَاتِ فِي الْأَجْسَادِ ، فَقَدْ مَرَّتِ الْقُرُونُ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا  
إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَالنَّاسُ يَجْهَلُونَ هَذِهِ النَّسَمَ الْخَفِيَّةَ ، وَيَجْهَلُونَ فِعْلَهَا لِعَجْزِ الْأَبْصَارِ عَنْ  
إِدْرَاكِهَا بِنَفْسِهَا ، وَعَنْ رُؤْيَةِ فِعْلِهَا لِدِقَّتِهَا وَتَنَاهِيهَا فِي اللَّطْفِ وَالصَّغْرِ ، إِلَى أَنْ اخْتَرَعَتْ  
فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَرَايَا أَوْ النَّظَارَاتِ الْمُكَبَّرَةَ الَّتِي تَرَى الْجِسْمَ أضعَافَ  
أضعَافِ جَرْمِهِ ، فِيهَا رُؤْيَتْ وَعِلِمٌ مَا يَحْدُثُ بِسَبَبِهَا فِي الْمَوَادِّ السَّائِلَةِ وَالرَّخْوَةِ ، وَكُلِّ  
ذَاتِ رُطُوبَةٍ مِنَ التَّحَوُّلِ وَالتَّغْيِيرِ ، كَالِاخْتِمَارِ وَالْفَسَادِ وَغَيْرِهَا وَمِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُعْدِيَةِ فِي  
الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَ كَمَا فَصَّلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ .

(240/302)

---

وَحِكْمَةُ إِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّانَا عَلَى السَّنَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِهَذَا الْعَالَمِ الْغَيْبِيِّ الْمُعَادِيِّ لَنَا  
، الضَّارِّ بَارِئِ وَأَوْحِنَا كَضَرِّ نَسَمِ الْأَمْرَاضِ بِأَجْسَادِنَا ، أَنْ نُرَاقِبَ أَفْكَارَنَا وَخَوَاطِرَنَا وَلَا نَعْقِلَ

عَنْهَا ، كَمَا نَرَأِيهِ مَا يَحْدُثُ فِي أَجْسَادِنَا مِنْ تَغْيِيرِ فِي الْمَزَاجِ ، وَخُرُوجِ الصَّحَّةِ مِنَ  
الاعْتِدَالِ ، فَنَبَادِرُ إِلَى عِلَاجِهِ - فَمَتَى فَطْنَا بِمَيْلٍ مِنْ أَنْفُسِنَا إِلَى الشَّرِّ أَوْ الْبَاطِلِ عَالَجْنَاهُ  
بِمَا وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا مِنَ الْعِلَاجِ فِي هَذِهِ آيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ  
عَلِيمٌ أَيُّ : فَالْجَأُ إِلَى اللَّهِ وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ لِيُعِيدَكَ مِنْ شَرِّ هَذَا النَّزْعِ ، فَلَا يَحْمِلَنَّكَ عَلَى مَا  
يُزْعِجُكَ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ ، الْجَأُ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبِكَ ، وَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِلسَانِكَ ، فَقُلْ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ  
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إِنَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ لَمَا تَقُولُ ، عَلِيمٌ بِمَا تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ ، فَهُوَ يَصْرِفُ عَنْكَ تَأْثِيرَ  
نَزْعِهِ بِتَزْيِينِ الشَّرِّ . وَمِنَ الْمُجَرَّبِ أَنْ التَّجَاءَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَذَكَرَهُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ،  
يَصْرِفُ عَنِ الْقَلْبِ وَسُوسَةَ الشَّيْطَانِ ،  
فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَلَى رَبِّهِمْ يُتَوَكَّلُونَ (16 : 98 ، 99) الْإِنْخ .

(241/302)

---

وَالْخِطَابُ فِي هَذِهِ آيَةِ وَأَمْثَالِهَا مِنْ آيَاتِ التَّشْرِيعِ وَالتَّأْدِيبِ مُوجَّهٌ إِلَى كُلِّ مَا مُكَلَّفٌ بِبُلْغِهِ  
وَأَوْلَهُمُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ هُنَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْخِلَافُ فِي ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ : وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ

يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ  
(6 : 68) الآيَةَ . فقد اختلف مفسرُوها في ترجيح توجيه الخطاب فيها . وذكرنا  
هناك آية الأعراف هذه ، وأن ظاهر السياق فيها أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم  
، وإن كان يأتي فيه الوجوه الأخرى في مثلها ، ولكن نزغ الشيطان أقوى من إنسانه ومن  
مسسه المبین في الآية التالية ، فالمختار عندي الآن عصمته صلى الله عليه وسلم منه ،  
وذكرت في الكلام هناك حديث عائشة وابن مسعود في صحيح مسلم ما منكم أحد إلا  
وقد وكل به قرينه من الجن . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي إلا أن الله أعانني  
عليه فأسلم وهو سياق طويل يُراجع هناك .

(242/302)

---

وقد ورد في سورة حم السجدة (فصلت) مثل هذه الآية بعد آية في معنى قوله : وأعرض  
عن الجاهلين في آخر الآية التي قبلها ، ولكن بتعريف السميع العليم (41 : 36) وقال  
صاحب الدرّة في الفرق بينهما ما نصّه : قوله تعالى : وإما ينزغتك من الشيطان نزغ  
فاستعد بالله إنه سميع عليم (7 : 200) وقال في سورة حم السجدة (فصلت) وإما  
ينزغتك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه هو السميع العليم (41 : 36) للسائل أن يسأل

فَيَقُولُ: لِأَيِّ مَعْنَى جَاءَ فِي آيَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ " سَمِعَ عَلِيمٌ " عَلَى لَفْظِ النَّكْرَةِ، وَفِي سُورَةِ حَمِ السَّجْدَةِ مُعْرَفَتَيْنِ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ مُؤَكَّدَتَيْنِ بِـ " هُوَ " ؟ (وَالْجَوَابُ) أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْأَوَّلَ وَقَعَ فِي فَاصِلَةٍ مَا قَبْلَهَا مِنَ الْفَوَاصِلِ أفعالٍ جَمَاعَةٍ أَوْ أَسْمَاءٍ مَاخُودَةٍ مِنَ الْأَفْعَالِ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (7 : 19) وَبَعْدَهُ يُخْلِقُونَ ، وَيُنصِرُونَ ، وَيُبْصِرُونَ ، وَالْجَاهِلِينَ ، فَأُخْرِجَتْ هَذِهِ الْفَاصِلَةُ بِأَقْرَبِ الْفَاطِ الْأَسْمَاءِ الْمُؤَدِّيَةِ مَعْنَى الْفِعْلِ أَعْنِي النَّكْرَةَ ، وَكَأَنَّ الْمَعْنَى : اسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ يَسْمَعُ اسْتِعَاذَتَكَ وَيَعْلَمُ اسْتِجَارَتَكَ ، وَالتِّي فِي سُورَةِ حَمِ السَّجْدَةِ قَبْلَهَا فَوَاصِلٌ يُسَلِّكُ بِهَا طَرِيقَ الْأَسْمَاءِ ، وَهِيَ مَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا

(243/302)

يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ (41 : 34 ، 35) فَقَوْلُهُ: وَلِيٌّ حَمِيمٌ لَيْسَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي يُرَادُ بِهَا الْأَفْعَالُ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ لَيْسَ فِي الْحِظِّ مَعْنَى فِعْلٍ ، فَأُخْرِجَ " سَمِعَ عَلِيمٌ " بَعْدَ الْفَوَاصِلِ الَّتِي هِيَ عَلَى سُنَنِ الْأَسْمَاءِ عَلَى لَفْظٍ يَبْعُدُ عَنِ اللَّفْظِ الَّذِي يُؤَدِّي مَعْنَى الْفِعْلِ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّهُ هُوَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَسْمُوعٌ وَلَا مَعْلُومٌ ، فَلَيْسَ الْقَصْدُ الْإِخْبَارَ عَنِ الْفِعْلِ كَمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِيِّ أَنَّهُ يَسْمَعُ الدُّعَاءَ

وَيَعْلَمُ الْإِخْلَاصَ ، فَهَذَا فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْمَكَائِنِ اهـ . فَتَأَمَّلْهُ فَإِنَّهُ دَقِيقٌ جِدًّا .  
ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى وَجْهَ سَلَامَةٍ مَنْ يُسْتَعِيدُ مِنْ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ ، لِإِزَالَةِ جَهْلِ مَنْ لَمْ يَعْلَمْهُ أَوْ مَنْ  
لَمْ يَفْقَهُهُ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ  
الطَّوْفُ وَالطَّوَّافُ وَالطَّيْفُ بِالشَّيْءِ الاسْتِدَارَةُ بِهِ أَوْ حَوْلَهُ ، فَهُوَ وَأَوْيُّ يُقَالُ : طَافَ  
يَطُوفُ وَيَطِيفُ بِالشَّيْءِ ، كـ " قَالَ وَبَاعَ " وَطَافَ الْخَيْالُ بِطَيْفٍ طَيْفًا : جَاءَ فِي النَّوْمِ ،  
وَطَيْفُ الْخَيْالِ مَا يَرَى فِي النَّوْمِ مِنْ مِثَالِ الشَّخْصِ ، وَأَصْلُهُ طَيْفٌ بِالتَّشْدِيدِ فَهُوَ كَمَيْتٌ ،

(244/302)

---

وَقَدْ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عُمَرَ وَالْكَسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ هُنَا " إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ " وَالْبَاقُونَ " إِذَا  
مَسَّهُمْ طَائِفٌ " وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ ، وَرَسْمُهُ فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ (طَفٌ) كَرَسْمِ (مَلِكٍ) فِي  
سُورَةِ الْفَاتِحَةِ ، فَتَوَدَّى قِرَاءَةً وَزْنَ فَاعِلٍ مِنَ الْكَلِمَتَيْنِ بِمَدِّ الْحَرْفِ الْأَوَّلِ ، وَالْمَسُّ فِي أَصْلِ  
اللُّغَةِ كَالْمَسِّ وَمِمَّا يَفْتَرِقَانِ فِيهِ أَنَّ الْمَسَّ يُقَالُ فِي كُلِّ مَا يَنَالُ الْإِنْسَانَ مِنْ شَرٍّ وَأَذَى بِخِلَافِ  
الْمَسِّ ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي النَّزِيلِ مَسُّ الضَّرِّ وَالضَّرَّاءِ وَالْبَأْسَاءِ وَالسُّوءِ وَالشَّرِّ وَالْعَذَابِ وَالْكَبِيرِ  
وَالْقُرْحِ وَاللُّغُوبِ وَالشَّيْطَانِ وَطَائِفِ الشَّيْطَانِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ مَسُّ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ إِلَّا فِي قَوْلِهِ  
فِي سُورَةِ الْمَعَارِجِ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا

المُصَلِّينَ (70: 19 - 22) فَقَدْ ذَكَرَ الْخَيْرَ هُنَا فِي مُقَابَلَةِ الشَّرِّ، وَلَكِنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ مَنْعِ الْخَيْرِ لَا فِعْلِهِ، وَاسْتَعْمَلَ الْمَسُّ وَالْمَسِيسُ بِمَعْنَى الْوِقَاعِ، وَهُوَ مَجَازٌ مَشْهُورٌ كَاسْتِعْمَالِهِ فِي الْجُنُونِ مَجَازًا .

(245/302)

وَمَعْنَى الْآيَةِ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَهُمْ خِيَارُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وَصِفُوا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ إِذَا مَسَّهُمْ أَيْ الْمَأْوِ اتَّصَلَ بِهِمْ طَيْفٌ أَوْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْمِلَهُمْ بِوَسْوَئِهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، أَوْ يَنْزِعَ بَيْنَهُمْ لِإِيْقَاعِ الْبَغْضَاءِ وَالتَّفْرِقَةِ (تَذَكَّرُوا) أَنَّ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِمُ الشَّيْطَانِ وَإِغْوَاثِهِ، وَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ مِنَ الْاسْتِعَاذَةِ بِهِ، وَاللَّتَّجَاءِ إِلَيْهِ فِي الْحِفْظِ مِنْهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَذَكَّرُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَنَهَى عَنْهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: تَذَكَّرُوا عِقَابَ اللَّهِ لِمَنْ أَطَاعَ الشَّيْطَانَ وَعَصَى الرَّحْمَنَ، وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ لِمَنْ عَصَى الشَّيْطَانَ وَأَطَاعَ الرَّحْمَنَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَذَكَّرُوا وَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ - وَمَالَ الْأَقْوَالِ كُلِّهَا وَاحِدٌ، وَهُوَ يَعْمَلُهَا - كَمَا تَقْيِدُهُ قَاعِدَةٌ حَذَفَ الْمَفْعُولَ - فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ أَيُّ: فَإِذَا هُمْ أَوْلُو بَصِيرَةٍ وَعَلِمَ يَرُبًّا بِأَنْفُسِهِمْ أَنْ تَطِيعَ الشَّيْطَانَ، فَهُوَ إِنَّمَا تَأْخُذُ وَسْوَئَةُ الْغَافِلِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا يَحَاسِبُونَهَا عَلَى خَوَاطِرِهَا، الْغَافِلِينَ عَنْ رَبِّهِمْ لَا يَرِاقِبُونَهُ فِي أَهْوَائِهَا وَأَعْمَالِهَا، وَلَا شَيْءٌ أَقْوَى عَلَى طَرْدِ الشَّيْطَانِ مِنْ

ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْقَلْبِ ، وَمُرَاقَبَتِهِ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ ، فَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِهِ يُقْوِي  
فِي النَّفْسِ حُبَّ الْحَقِّ وَدَوَاعِيَ الْخَيْرِ ، وَيُضْعِفُ فِيهَا الْمَيْلَ إِلَى الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ ، حَتَّى لَا  
يَكُونَ لِلشَّيْطَانِ

(246/302)

مُدْخَلَ إِلَيْهَا ، فَهُوَ إِنَّمَا يَزِينُ لَهَا بِالْبَاطِلِ وَالشَّرِّ بِقَدْرِ اسْتِعْدَادِهَا لِأَيِّ نَوْعٍ مِنْهُمَا . فَإِنْ وَجَدَ  
بِالْغَفْلَةِ مُدْخَلَ إِلَى قَلْبِ الْمُؤْمِنِ الْمُتَّقِي ، لَا يَلْبِثُ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ  
عَنْ نَفْسِهِ ، وَمَتَى شَعَرَ ذَكَرَ فَأَبْصَرَ فَخَسَّ الشَّيْطَانُ وَأَبْتَعَدَ عَنْهُ ، وَإِنْ أَصَابَ مِنْهُ غِرَّةٌ قَبْلَ  
تَذَكُّرِهِ تَابَ مِنْ قَرِيبٍ .

(247/302)

فَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ فِي عَدَمِ تَمَكُّنِ الشَّيْطَانِ مِنْ إِغْوَائِهِ ، وَإِنْ تَمَكَّنَ مِنْ مَسِّهِ ، كَمَثَلِ الْمَرْءِ  
الصَّحِيحِ الْمِرَاجِ الْقَوِيِّ الْجِسْمِ النَّظِيفِ الثَّوْبِ وَالْبَدَنِ وَالْمَكَانِ ، لَا تَجِدُ الْأَمْرَاضَ الْمُفْسِدَةَ  
لِلصِّحَّةِ ؛ اسْتِعْدَادًا لِإِفْسَادِ مِرَاجِهِ وَإِصَابَتِهِ بِالْأَمْرَاضِ ، فَهِيَ تَظَلُّ بَعِيدَةً عَنْهُ ، فَإِنْ مَسَّهُ



شَيْءٌ مِنْهَا بِدُخُولِهِ فِي مَعِدَّتِهِ أَوْ دَمِهِ فَتَكَتْ بِهَا نَسْمُ الصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ فَحَالَتْ دُونَ فَتِكِهَا  
بِهِ - وَهُوَ مَا يُسَمَّى فِي عُرْفِ الطَّبِّ الْمَنَاعَةَ - وَكَذَلِكَ يَكُونُ قَوِيَّ الرُّوحِ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى  
غَيْرَ مُسْتَعِدٍّ لِتَأْثِيرِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ ، فَهُوَ يَطُوفُ بِهَا يُرَاقِبُ غَفْلَتَهَا وَعُرُوضَ بَعْضِ  
الْأَهْوَاءِ النَّفْسِيَّةِ لَهَا مِنْ شَهْوَةٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ دَاعِيَةِ حَسَدٍ أَوْ انتِقَامٍ ، فَمَتَى عَرَضَتْ اقْتِرَاصَهَا  
، فَلَابَسَ النَّفْسَ وَقَوَاهَا فِيهَا ، كَمَا تَلَابَسُ الْحَشْرَاتُ الْقَدْرَةَ أَوْ جِنَّةَ الْأَمْرَاضِ الْخَفِيَّةِ مَا  
يَعْرِضُ مِنَ الْقَدْرِ لِلنَّظِيفِ وَالضَّعْفِ الْقَوِيِّ ، فَإِذَا أَهْمَلَهَا بِالْغَفْلَةِ عَنْهَا فَعَلَتْ فِعْلَهَا ، وَإِذَا  
تَدَارَكَهَا نَجَا مِنْ ضَرَرِهَا ، وَيَحْسُنُ أَنْ يُعْبَرَ عَنْ هَذَا بِالْحَصَانَةِ ، فَيُقَالُ : مَنَاعَةٌ جَسَدِيَّةٌ  
وَحَصَانَةٌ نَفْسِيَّةٌ أَوْ رُوحِيَّةٌ .

(248/302)

---

ذَكَرْنَا فِي الْكَلَامِ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَشْعُرُ بِقَدْرِ عِلْمِهِ بِتَنَازُعِ  
دَوَاعِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي نَفْسِهِ ، وَأَنَّ لِدَاعِيَةِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ مَلَكًا يُقَوِّمُهَا ،  
وَلِدَاعِيَةِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ شَيْطَانًا يُقَوِّمُهَا ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَّ هَذَا بِقَوْلِهِ : إِنَّ  
لِلشَّيْطَانَ لَمَّةً بَابِنِ آدَمَ وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً : فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَيُعَادُ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبِ الْحَقِّ ، وَأَمَّا  
لَمَّةُ الْمَلِكِ فَيُعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقِ الْحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ

عَلَى ذَلِكَ . وَمَنْ وَجَدَ الْآخِرَى فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ ثُمَّ قَرَأْ : الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ الْفَقْرَ  
وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ (2 : 268) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَأَبْنُ حِبَّانَ عَنْ ابْنِ  
مَسْعُودٍ ، وَعَلَّمَ عَلَيْهِ السَّيُّوطِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ بِالصَّحَّةِ ، وَلَكِنَّ التِّرْمِذِيَّ قَالَ : حَسَنٌ  
غَرِيبٌ لَا نَعْلَمُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْأَحْوَصِ . وَذَكَرْنَا هُنَاكَ بَعْضَ كَلَامِ الْإِمَامِ  
الْغَزَالِيِّ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، وَلَهُ فِيهِ تَفْصِيلٌ حَسَنٌ طَوِيلٌ فِي كِتَابِ شَرْحِ عَجَائِبِ الْقَلْبِ وَغَيْرِهِ  
مِنَ الْإِحْيَاءِ ، وَلِلْمُحَقِّقِ ابْنِ الْقَيْمِ كِتَابٌ خَاصٌّ فِي ذَلِكَ اسْمُهُ : (إِغَاثَةُ الْلُهْفَانِ فِي مَصَائِدِ  
الشَّيْطَانِ) فَمَنْ قَرَأَ أَمْثَالَ هَذِهِ الْكُتُبِ ، كَانَ مِنْ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ عَلَى حَذَرٍ .

(249/302)

---

وَمَا زَالَ الصَّالِحُونَ الْمُتَّقُونَ يَرِاقِبُونَ خَوَاطِرَهُمْ ، وَيُجَاهِدُونَ الْوَسْوَاسَ الَّذِي يُلْمُ بِهَا ، وَلَهُمْ  
حِكَايَاتٌ فِي ذَلِكَ غَرِيبَةٌ . حَدَّثَنِي الشَّيْخُ عَبْدُ الْغَنِيِّ الرَّافِعِيُّ الْفَقِيهُ الصُّوفِيُّ ، أَنَّهُ دَخَلَ  
فِي أَيَّامِ سُلُوكِهِ وَهُوَ فِي مِيعَةِ شَبَابِهِ بُسْتَانَ فِي طَرَابُلُسَ يَعْمَلُ فِيهِ نِسَاءٌ مِنْ نَصَارَى لُبْنَانَ ،  
فَإِذَا بَشَابَةٌ جَمِيلَةٌ مِنْهُنَّ فِي مَكَانٍ خُلُوٍّ ، فَتَزْعُ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا حَتَّى هَمَّ بِمُبَاشَرَتِهَا  
فَتَذَكَّرَ

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (17 : 32) فَتَرَدَّدَ وَأَنْكَمَشَ ثُمَّ

سَاوَرَتْهُ نُورَةُ الْعُلْمَةِ تَهُونَ لَهُ الْأَمْرَ ، وَلَجَّ بِهِ الْوَسْوَاسُ : هَلُمَّ هَلُمَّ ، فَتَوَيَّ سُلْطَانُ الْآيَةِ فِي قَلْبِهِ  
حَتَّى صَارَ قَلْبُهُ يَتَلَوُّ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ بِأُذُنَيْهِ وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (17)  
: (32) قَالَ : فَجَعَلْتُ أَقُولُ بِيَدِي فَوْقَ صَدْرِي هَكَذَا - يَعْنِي يَمْسَحُهُ كَمَنْ يَنْحِي عَنْهُ  
شَيْئًا - أَحَاوَلْتُ أَسْكِتُ قَلْبِي فَلَمْ أُسْتَطِعْ إِسْكَاتَهُ ، فَتَوَلَّيْتُ عَنِ الْمَرْأَةِ ، وَحَفِظَنِي اللَّهُ  
بِذِكْرِ الْآيَةِ مِنَ الْفَاحِشَةِ وَلَهُ الْحَمْدُ .

(250/302)

---

وَأَقُولُ تَحَدُّثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يُبْلَغْ مِنِّي غَرَّةً يَدْعُونِي فِيهَا إِلَى الْفَاحِشَةِ قَطُّ  
، فَمَا ذَكَرْتُهُ فِي مَقْصُورَتِي فِي سِيَاقِ حَادِثَةِ امْتِحَانِ امْتِحَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ، قَدْ اسْتَمَرَّ  
بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ سِنِّ الشَّبَابِ إِلَى سِنِّ الشَّيْخُوخَةِ ، وَأَسْأَلُهُ بِفَضْلِهِ حُسْنَ الْخَاتِمَةِ .  
وَذَلِكَ قَوْلِي فِي قِتَاةِ بَارِعَةِ الْجَمَالِ طَلَبْتُ مِنِّي أَنْ أَضَعَ يَدِي عَلَى صَدْرِهَا أَرْقِيهِ :  
وَرُبَّ مَلْدَاءٍ خَمِيصَةِ الْحَشَا . . . بَهْنَانَةً تَرْتُو بِالْحَاطِظِ اللَّائِي  
رُقْرَاقَةً شَفَّ زُجَاجٍ وَجْهَهَا . . . عَنْ ذُوبٍ يَأْقُوتُ وَرَاءَهُ جَرَى  
خَاشِعَةُ اللَّحَاطِ وَالطَّرْفِ أَتَتْ . . . تَلْتَمِسُ الدُّعَاءَ مِنِّي وَالرُّقَى  
أَوَاهِيَا مَوْلَايَ صَدْرِي ضَاقَ عَنِّي . . . قَلْبِي وَمَا يَفِيضُ عَنْهُ مِنْ جَوَى

فَضَعُ عَلَيْهِ يَدَكَ الَّتِي بِمَا . . . بَارَكَ فِيهَا اللَّهُ تُبْرِئُ الضَّنَى  
أَنْتَ فَتَى خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ . . . مَا زَالَ يَنْهَى نَفْسَهُ عَنِ الْهُوَى  
لَمْ يُقْتَرَفْ فَاحِشَةً قَطُّ وَلَمْ . . . يُعْزَمْ وَلَا هَمَّ بِهَا وَلَا نَوَى  
بَغْرَةً مِنْهَا وَحُسْنِ نِيَّةٍ . . . فِي مَعْرَلٍ تَشْبِيهِ أَقْصَى مَا اشْتَهَى  
مِمَّا يَمْنِيهِ بِهِ شَيْطَانُهُ . . . مِنْ حَيْثُ لَا يَطْمَعُ مِنْهُ فِي خَنَا  
لَكِنَّهُ اسْتَعَصَمَ رَأْيًا لَهَا . . . مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَمَا نَهَى

(251/302)

---

وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي (12 : 53) مِمَّا دُونَ كِبَائِرِ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَهُوَ اللَّمَمُ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ  
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (12 : 53) وَلَا أَعُدُّ مِنَ اللَّمَمِ حُضُورَ  
الْمَرَاقِصِ النَّسَائِيَّةِ وَمَلَاهِيهَا ، فَأَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ نَفْسِي لَمْ تُطَالِبْنِي بِحُضُورِهَا يَوْمًا مَا ،  
وَلَمْ يَجِدْ شَيْطَانُ الْجِنِّ مِنْ نَفْسِي مِثْلًا إِلَيْهَا فَيُزَيِّنْهَا لِي بِوَسْوَستِهِ ، وَلَكِنْ دَعَانِي إِلَيْهَا بَعْضُ  
شَيَاطِينِ الْإِنْسِ لِأَجْلِ اخْتِبَارِهَا وَالنَّهْيِ عَنْهَا عَلَى مَعْرِفَةٍ ، فَأَيُّتُ وَقَلْتُ لِلدَّاعِي :  
حَسْبُكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ ، عَلَى أَنْبِي رَأَيْتُ نُمُودَجًا مِنْ أَهْوَانِهَا عَرْضًا لَا قَصْدًا إِلَيْهَا ، وَذَلِكَ  
فِي بَعْضِ مَلَاهِي تَمَثِيلِ الْقِصَصِ التَّارِيخِيَّةِ أَوِ الْوَصْفِيَّةِ فِي لَيْلَةِ خَيْرِيَّةِ ، وَلَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ

بِاسْتِحْدَاثِ ذَلِكَ فِيهَا ، وَأَحْمَدُ اللَّهِ تَعَالَى أَنِّي مَقْتَهَا عَلَى غِرَابَةِ الصَّنْعَةِ وَالزَّيْنَةِ فِيهَا ،  
وَخَرَجْتُ مِنَ الْمَكَانِ وَأَلَيْتُ الْأَعُودَ إِلَيْهِ ،  
فَقَدْ صَارَتْ هَذِهِ الْأَمَاكِنُ بُورَ فِسَادٍ ، وَكَانَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَدَبِ وَالْعِبْرَةِ ، وَتَمْرِينِ الْعَوَامِّ  
عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي تَقْرُبُ مِنَ الْفَصِيحَةِ فِي الْجُمْلَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَرَى النَّاسُ فِيهَا  
مِنْ مُنْكَرَاتِ الزِّيِّ أَكْثَرَ مِمَّا يَرَى فِي الْأَسْوَاقِ وَالشُّوَارِعِ ، فَأَصْبَحَتْ كَالْحَمْرِ ، إِثْمَهَا أَكْبَرُ مِنْ  
نَفْعِهَا .

(252/302)

قَدْ يَقُولُ مَنْ يَظُنُّونَ أَنَّ يَوْسُفَ الصُّدِّيقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَمَّ بِالْفَاحِشَةِ : إِنَّكَ قَدْ فَضَلْتَ نَفْسَكَ  
عَلَيْهِ بِزَعْمِكَ أَنَّكَ لَمْ تَهَمْ وَهُوَ قَدْ هَمَّ ، وَأَقُولُ : إِنَّهُ اخْتَلَفَتِ الْحَالُ وَالِدَاعِيَةُ ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ لَمْ يَهَمْ بِالْفَاحِشَةِ ، وَإِنَّمَا هَمَّتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ ، وَهَمَّ هُوَ بِالِاتِّقَامِ ، وَهُوَ بَطْشُهَا بِهِ بِالْقَتْلِ  
أَوْ الضَّرْبِ ، وَدَفَاعُهُ عَنْ نَفْسِهِ بِالْفِعْلِ ، وَهَذَا هُوَ الْمُعْتَادُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ بِمُقْتَضَى  
الطَّبْعِ الْبَشَرِيِّ ، وَشَوَاهِدُهُ نَفْعٌ دَائِمًا ، وَالْعِبَارَةُ تَدُلُّ عَلَيْهِ دُونَ الْأَوَّلِ ، فَإِنَّهُ لَا يُقَالُ هَمَّ  
بِالشَّخْصِ فِي مَقَامِ الْخِلَافِ وَالْمُغَاضِبَةِ إِلَّا إِذَا أُريدَ الْهَمُّ بِالضَّرْبِ أَوْ مَا هُوَ مِثْلُهُ أَوْ فَوْقَهُ مِنْ  
الْإِيذَاءِ ، وَلَا يُقَالُ إِنَّ الْمَرْأَةَ هَمَّتْ بِالرَّجُلِ بِالْمَعْنَى الْآخَرَ لِأَنَّ الْهَمَّ يَتَعَلَّقُ بِالْعَمَلِ دُونَ

الشَّخْصِ ، وَهِيَ فِي الْمُبَاشَرَةِ مُوَاتِبَةٌ لِأَعْمَلِ لَهَا ، وَمَا اسْتَبَقَا الْبَابَ إِلَّا وَهُوَ فَارٌّ مِنْ ثَوْرَةٍ  
غَضِبَهَا ، وَهِيَ مُوَاتِبَةٌ لَهُ تُرِيدُ الْبَطْشَ بِهِ لِأَهَاتِهِ إِيَّاهَا بِمُخَالَفَتِهَا وَهُوَ غَلَامُهَا ، بَعْدَ أَنْ أَذَلَّتْ  
نَفْسَهَا بِبَذْلِهَا لَهُ . وَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ (12) :  
24) إِلَّا عِصْمَتُهُ مِنَ الْبَطْشِ بِهَا دِفَاعًا عَنِ نَفْسِهِ وَهُوَ السُّوءُ ، وَعِصْمَتُهُ مِمَّا دَعَتْهُ إِلَيْهِ  
وَهُوَ الْفَحْشَاءُ ، وَلَوْلَا الرِّوَايَاتُ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ فِي الْقِصَّةِ لَمَا خَطَرَ بِبَالِ الْمُفَسِّرِينَ الرَّاسِخِينَ

فِي

(253/302)

ذَوْقِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ غَيْرِ

هَذَا الْمَعْنَى ، وَكَمْ لَفِئَتُهُمْ تِلْكَ الرِّوَايَاتُ عَمَّا هُوَ أَوْضَحُ مِنْهَا ، فَتَأَوَّلُوا وَتَكَلَّفُوا لِتَصْحِيحِ  
حَمْلِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا ؟ وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ .

(254/302)

الشَّيْطَانُ يُزِينُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مَا هُوَ مُسْتَعِدُّ لَهُ وَقَرِيبٌ مِنْ أُخْلَاقِهِ وَآرَائِهِ الَّتِي تَرَبَّى عَلَيْهَا ، وَمُنَاسِبٌ لِحَالِهِ وَشُعُورِهِ الَّذِي يَكُونُ غَالِبًا عَلَيْهِ ، فَإِذَا أَرَادَ الصَّلَاةَ فِي اللَّيْلِ ، وَهُوَ فِي حَالِ نِعَاسٍ أَوْ قُتُورٍ زَيْنَ لَهُ النَّوْمَ وَتَرَكَ الصَّلَاةَ إِلَى وَقْتِ الْبِقْظَةِ وَالنَّشَاطِ لِأَجْلِ إِقَامَتِهَا كَمَا يَرْضَى اللَّهُ تَعَالَى ! ! فَإِذَا خَالَفَهُ وَشَرَعَ فِي الصَّلَاةِ زَيْنَ لَهُ بِسُوسَتِهِ الْعَجَلَةَ وَالْاِخْتِصَارَ ، وَقِرَاءَةَ السُّورِ الْقِصَارِ ، أَوْ قِرَاءَةَ السُّورَةِ مِنْ مُتَوَسِّطِ الْمَفْصَلِ فِي رَكْعَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ ، وَإِذَا وَجَدَ مِنْهُ جِدًّا وَنَشَاطًا فِيهَا فَقَدْ يُزِينُ لَهُ الْمُبَالَغَةَ فِي التَّطْوِيلِ وَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَلَلُ ، وَ" أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ " كَمَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحِهِمَا مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ . وَإِذَا كَانَتْ تَرْبِيَتُهُ الدِّينِيَّةُ مُنْفَرَّةً مِنَ الْكِبَائِرِ ، أَعْرَاهُ بِمُقَدِّمَاتِهَا وَوَسَائِلِهَا مِنْ الصَّغَائِرِ ، وَرَبَّمَا أَقْتَاهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا (4 : 31) وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا أَنْ يَحْتَقِرَ الْإِنْسَانُ الصَّغَائِرَ وَيَعَمِّدَهَا وَيُواظِبَ عَلَيْهَا كَالْمُسْتَحِلِّ لَهَا ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا قَلَّمَا يَسْلَمُ مِنَ التَّدْرُجِ مِنْهَا إِلَى الْكِبَائِرِ ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ بِهِ اللَّمَمُ ، وَهُوَ مِمَّا يَلُمُّ بِهِ الْمَرْءُ إِذَا مَا عَرَضَ لَهُ ، وَلَا يَتَعَمَّقُ فِيهِ وَلَا يُصِرُّ عَلَيْهِ

، بَلْ يَلُومُ نَفْسَهُ عَلَيْهِ وَيَتُوبُ مِنْهُ ، (وَقَدْ بَيَّنَّتْ هَذَا الْمَعْنَى  
فِي الْكَلَامِ عَلَى التَّوْبَةِ مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّسَاءِ - ج 4) فَإِذَا تَابَ تَنَقَّلَ نَفْسُهُ بِهِ مِنْ دَرَكَةِ  
(النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ) إِلَى دَرَجَةِ (النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) وَلَا يَزَالُ يُجَاهِدُهَا فِي مِثْلِهِ إِلَى أَنْ  
يُرْتَقِيَ إِلَى دَرَجَةِ (النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ) فَإِذَا هُوَ أَطَاعَ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ فَإِنَّهَا تَهْبِطُ بِهِ إِلَى  
دَرَكَةِ الْفُحْشِ وَالْفُجُورِ ، وَرُبَّمَا تَهْوِي بِهِ إِلَى اسْتِحْلَالِ الْمَعَاصِي ، وَهُوَ مِنَ الْكُفْرِ ، كَمَنْ  
يُدُّ مِنَ النَّظَرِ بِشَهْوَةٍ إِلَى بَعْضِ الْحِسَانِ فَيَنْتَقِلُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْمُغَازَلَةِ ، وَمِنَ الْمُغَازَلَةِ إِلَى  
الْمُهَازَلَةِ ، وَمِنَ الْمُهَازَلَةِ إِلَى الْمَلَاعِبَةِ وَالْمُبَاعَلَةِ ، وَمِنْهَا إِلَى الْمُفَاعَلَةِ . قَالَ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ :  
فَلَمَّا رَأَيْتَنِي رَأَتْ ثُمَّ أَقْبَلْتُ . . . تَهَازَلَنِي وَالْهَزْلُ دَاعِيَةُ الْعُهْرِ  
وَقَالَ شَاعِرٌ مِصْرِيٌّ فِي التَّنْقِيلِ مِنْ كُلِّ حَالَةٍ إِلَى مَا بَعْدَهَا :  
نَظْرَةٌ فَأَيْتَسَامَةٌ فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءٌ

(256/302)

---

وَقَدْ اسْتَفْتَانِي شَابٌ مِصْرِيٌّ افْتِنَ بِفَتَاةٍ شَغَفْتُهُ حُبًّا ، فَكَانَ يَخْلُوبُهَا - لِمَا فِي مِصْرِيٍّ  
هَذَا الْعَهْدِ مِنْ إِبَاحَةِ ذَلِكَ عِنْدَ الْكَثِيرِينَ - فَيَدَّاعِبَانِ حَتَّى يَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ الْفُضِيحَةَ  
الْكُبْرَى ، ثُمَّ يَتَفَارِقَانِ فَيَنْدُمُ وَيَتُوبُ ، وَيَعْزُمُ الْإِعْوَدَ ، حَتَّى إِذَا مَا زَارَتْهُ نَقَضَ الْعَزْمَ ، ثُمَّ



يُفَارِقُهَا فَيُبْرِمُهُ وَيُؤَكِّدُهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ تَغْلِبُهُ عَلَى أَمْرِهِ فَيُنَكِّثُ مَا أُبْرِمَ ، وَيَحْنُثُ بِمَا أُقْسِمَ ،  
حَتَّى قَالَ آخِرًا : لَنْ عُذْتُ لَأَكُونَ بَرِيًّا مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَلَكِنَّهُ عَادَ مَغْلُوبًا عَلَى أَمْرِهِ ، لَا  
يَمْلِكُ تَجَاهَ سِحْرِ فَاتِنَتِهِ شَيْئًا مِنْ قُوَّةِ إِرَادَتِهِ ، فَعَظُمَ هَذَا الْحِنْثُ الْعَظِيمُ عَلَيْهِ ، وَجَاءَنِي  
مُسْتَقْبًا فِيمَا وَقَعَ فِيهِ ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ ، فَوَعَظْتُهُ وَأَرَشَدْتُهُ بِمَا أَلْهَمَنِي اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَمْ يَعْذُ  
إِلَيَّ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَلَا أَذْرِي كَيْفَ انْتَهَتْ قِنْتُهُ ، وَقَدْ حَدَثَ هَذَا مِنْذُ بَعْضِ عَشْرَةِ سَنَةٍ  
هَبَطَتْ بِهَا الْبِلَادُ الْمِصْرِيَّةُ إِلَى الدَّرَكَاتِ السُّفْلَى مِنَ الْإِبَاحَةِ .

(257/302)

الرَّاجِحُ أَنَّ هَذَا الشَّابَّ مِنْ أَحَدِ الْبُيُوتِ الَّتِي لَا تَزَالُ فِيهَا بَقِيَّةٌ مِنَ التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَأَخْلَاقِ  
الْعِفَّةِ وَالْحَيَاءِ الْمُرُوثَةِ ، وَهَذِهِ التَّرْبِيَةُ وَهَذِهِ الْأَخْلَاقُ الَّتِي كَانَ بِهَا الشَّعْبُ ذَا وُجُودٍ مُمْتَازٍ  
مُسْتَقِلٍّ فِي نَفْسِهِ ، فَطَفِقَ دُعَاةَ الْأَلْحَادِ وَالزُّنْدَقَةِ وَإِبَاحَةَ الشَّهَوَاتِ يَهْدُمُونَهَا بِاسْمِ التَّجْدِيدِ  
الْمَدَنِيِّ ، وَالتَّقْلِيدِ الْأَوْرَبِيِّ ، وَمِنْهُ وَجُوبُ السُّفُورِ الَّذِي يَعْنُونَ بِهِ إِبَاحَةَ اخْتِلَاطِ النِّسَاءِ  
بِالرِّجَالِ ، وَمُعَاشَرَةِ الْفِتْيَانِ لِلْفِتْيَانِ بِحُجَّةِ التَّمْهِيدِ لِلزَّوْجِ عَنْ تَعَارُفٍ وَحُبٍّ وَاخْتِبَارٍ . .  
. وَقَدْ نَفَاقَمَتِ اسْتِبَاحَةَ التَّهْكِ وَالْفُجُورِ فِي هَذِهِ السَّنِينَ إِلَى حَدِّ يُنذِرُ بِهَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ،  
فَالنِّسَاءُ يُرْقِصْنَ مَعَ الرِّجَالِ كَأَسِيَّاتِ عَارِيَّاتٍ ، وَيَسْبِخْنَ مَعَهُنَّ فِي شَوَاطِئِ الْبِحَارِ ، وَقَلَمَّا

تُعَاشِرُ الْفَتَاةَ الْعَذْرَاءُ شَابًا ، وَلَوْ بَقِصِدِ الزَّوْجِ عَنْ تَعْرِفٍ وَحُبِّ وَاخْتِبَارٍ ، إِلَّا وَيُنْتَهِي هَذَا  
الِاخْتِبَارُ بِفَضِيحَةِ الْاِفْتِرَاقِ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ الزَّوْجُ مَضْمُونًا ، وَإِذَا وَقَعَ لَا يَكُونُ الْوِفَاقُ غَالِبًا ،  
وَلَا حُبُّ شَهْوَةِ الصَّبَا دَائِمًا ، بَلْ يَصِيرُ الْاِخْتِبَارُ لِكُلِّ مِنْهُمَا عَادَةً مِنَ الْعَادَاتِ ، وَالتَّنْقُلُ مِنْ  
حَبِيبٍ إِلَى آخَرَ مِنْ أَفْنِ اللَّذَاتِ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الذَّوْاقِينَ وَالذَّوْاقَاتِ .

(258/302)

---

وَقَدْ اسْتَفْتَانِي رَجُلٌ فِي امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ مُتَزَوِّجَةٍ تَخْتَلِفُ إِلَى بَيْتِ رَجُلٍ غَيْرِ مُسْلِمٍ وَلَا وَطَنِيَّ  
، تَزُورُهُ بَعْدَ الْعَصْرِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْأُسْبُوعِ ، فَتَمَكُّثُ مَعَهُ إِلَى قُرْبِ الْمَغْرِبِ  
، هَلْ يَجُوزُ لَهُ أَوْ يَجِبُ عَلَيْهِ إِذَانُ بَعْهَآ بِذَلِكَ ؟ ، وَذَكَرَ أَنَّ سَبَبَ اقْتِنَانِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ  
الْخَبِيثَةِ بِهَذَا الرَّجُلِ الْخَبِيثِ أَنَّهَا عَرَفَتْهُ عَامِلًا فِي صَيْدِيَّةٍ  
قَصَدَتْهَا مَرَّةً لِشِرَاءِ دَوَاءٍ مِنْهَا ، فَتَصَبَّأَهَا حَتَّى صَارَتْ تَخْتَلِفُ إِلَى الصَّيْدِيَّةِ لِأَذْنَى حَاجَةٍ  
ثُمَّ لَغَيْرِ حَاجَةٍ الْخ .

(259/302)

---

فَسَدَّتِ الْعَقَائِدُ وَالْأَخْلَاقُ وَتُرِكَتِ الْعِبَادَاتُ ، وَأُيِّحَتِ الْأَعْرَاضُ وَاسْتَبِيحَتِ الْمُحَرَّمَاتُ  
وَعَبَدَ الشَّيْطَانُ فِي مَعْصِيَةِ الرَّحْمَنِ ، وَتَوَجَّدُ جَمْعِيَّاتٌ مِنَ الرِّجَالِ وَمِنَ النِّسَاءِ يُزِينُونَ  
لِلنَّاسِ كُلِّ هَذِهِ الْفَضَائِحِ وَالْقَبَائِحِ بِاسْمِ التَّجْدِيدِ وَالتَّمَدُّنِ ، وَلَهُمْ جَرَأَةٌ تُنْشِرُ دَعَايَةَ الْإِلْحَادِ  
وَالزُّنْدَقَةِ ، وَالْإِبَاحَةِ الْمُطْلَقَةِ ، إِلَّا مِنْ بَعْضِ فُيُودِ قَانُونِ الْعُقُوبَاتِ فِي الظَّاهِرِ دُونَ الْبَاطِنِ .  
وَإِذَا أَنْذَرَهُمْ مُنْذِرٌ ، وَحَذَرَهُمْ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ مُحَذِّرٌ ، قَالُوا : وَمَا الشَّيْطَانُ ؟ وَمَا  
الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ الشَّيْطَانِ ؟ فَإِنْ قُلْتَ لَهُمْ : إِنَّ أَطِبَّاءَ الْأَرْوَاحِ وَأَسَاتِذَةَ أَمْرَاضِ الْاجْتِمَاعِ  
، قَدْ حَذَرُونَا بِأَمْرِ اللَّهِ خَالِقِ مَا يَرَى وَمَا لَا يَرَى مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينِهِ لِلْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ  
، كَمَا يُحَذَرُنَا أَطِبَّاءُ الْأَجْسَادِ مِنْ " مَيَكْرُوبَاتِ " الْأَمْرَاضِ ، فَهَلْ مِنْ مُقْتَضَى الْعَقْلِ أَنْ نُرَدَّ  
كَلَامَ هَؤُلَاءِ الْأَطِبَّاءِ بِحُجَّةٍ أَنَّنَا لَمْ نَرِ تِلْكَ الْمَيَكْرُوبَاتِ الْمَرَضِيَّةَ ، وَاللَّا نَقْبَلُ كَلَامَهُمْ ، وَلَا  
نَسْتَعْمِلُ آدْوِيَّتَهُمْ إِلَّا بَعْدَ رُؤْيَا مَا رَأَوْا ، وَاخْتِبَارِ مَا اخْتَبَرُوا ؟ أَلَمْ يَقُمْ الدَّلِيلُ عَلَى صِدْقِ  
الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي التَّلْيِغِ عَنْ وَحْيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ بَلَى وَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّجْرِبَةِ  
وَالْإِخْتِبَارِ أَنَّ مَنْ اتَّبَعَهُمْ صَحَّتْ عَقَائِدُهُمْ وَاسْتَقَامَتِ أَخْلَاقُهُمْ ، وَصَلَحَتْ أَعْمَالُهُمْ ،  
وَحَفِظَتْ صِحَّتُهُمْ وَأَعْرَاضُهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ ، فَتَجْرِبَةُ مُعَالَجَتِهِمْ لَأَمْرَاضِ الْإِنْفُسِ وَالْأَرْوَاحِ ، أُثْبِتُ مِنْ تَجْرِبَةِ مُعَالَجَةِ الْأَطِبَّاءِ  
لَأَمْرَاضِ الْأَجْسَادِ ، وَقَدْ ثَبَتَ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْإِخْتِبَارِ أَيْضًا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمَادِيَيْنِ الْمُنْكَرِينَ  
لَوْجُودِ الشَّيَاطِينِ هُمْ أَشَدُّ فُسَادًا وَإِفْسَادًا ، وَمِنْهُمْ : سَكِيرُونَ مُقَامِرُونَ ، زُنَاةٌ لُوطِيُونَ ،  
كَذَّابُونَ مُنَافِقُونَ ، مُرْتَشُونَ سَرَّاقُونَ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ  
يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ  
وَلَتَصْنَعِيَ إِلَيْهِ أَفْدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (6 : 112  
، (113) .

وَفِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذَا السِّيَاقِ : وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ  
الْغِيَّ : الْفُسَادَ . وَالْمَدُّ وَالْإِمْدَادُ الزِّيَادَةُ فِي الشَّيْءِ مِنْ جِنْسِهِ ، وَقَدْ قَرَأْنَا نَافِعٌ يَمُدُّونَهُمْ بِضَمِّ  
الْيَاءِ وَكَسْرِ الْمِيمِ مِنَ الْإِمْدَادِ ، وَالْجُمُهورُ بفتح الياءِ وَضَمِّ

(261/302)

---

الْمِيمِ مِنَ الْمَدِّ ، وَقُرِئَ فِي الشَّوَاذِ يَمَادُونَهُمْ بِصِيغَةِ الْمَشَارَكَةِ ، وَالْمَدُّ يُسْتَعْمَلُ فِي الْقُرْآنِ  
فِي الْخُلُقِ وَالتَّكْوِينِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ (3 : 13) أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ  
مَدَّ الظِّلَّ (25 : 45) وَالْبَحْرَ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ (31 : 27) وَفِي مَدِّ النَّاسِ

فِيمَا يُدْمُ وَيُضْرُ كَقَوْلِهِ: قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا (19 : 75)

وَمَدُّهُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (19 : 79) وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (2 : 15) وَأَمَّا

الْإِمْدَادُ فِيمَا يُحْمَدُ وَيَنْفَعُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: أَمْدُكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبِنِينَ (26 : 133) وَأَمْدُ دُنَاكُمْ

بِأَمْوَالٍ وَبِنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (17 : 6) كَلَّا نَمِدُّ هَهُوَاءَ وَهَهُوَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ (17 : 20)

وَمِنْهُ إِمْدَادُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْمَلَائِكَةِ يُثَبِّتُونَ قُلُوبَهُمْ فِي غَزْوَةٍ

بَدْرٍ، وَحَمِلَتْ قِرَاءَةُ نَافِعٍ هُنَا عَلَى التَّهَكُّمِ . وَالْإِقْصَارُ: التَّقْصِيرُ، وَأَقْصَرَ عَنِ الْأَمْرِ تَرَكَهُ

وَكَفَّ عَنْهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ .

(262/302)

وَالْمَعْنَى مَعَ سَابِقِهِ: أَنْ شَأْنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ . لِحَمَلِهِمْ

عَلَى مُحَاكَاةِ الْجَاهِلِينَ وَالْخَوْضِ مَعَهُمْ، وَعَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْفُسَادِ، تَذَكَّرُوا

فَأَبْصَرُوا فَحَذَرُوا وَسَلَّمُوا، وَإِنْ زَلُّوا تَابُوا وَأَنَابُوا، وَأَنَّ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَهُمْ الْجَاهِلُونَ

غَيْرُ الْمُتَّقِينَ يَمَكِّنُ الشَّيَاطِينُ مِنْ أَهْوَائِهِمْ، فَيَمْدُوهُمْ فِي غِيْبِهِمْ وَفَسَادِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ

اللَّهَ تَعَالَى إِذَا شَعَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ بِالنُّزُوعِ إِلَى الشَّرِّ وَالْبَاطِلِ وَالْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَلَا

يَسْتَعِيدُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ وَمَسِّهِ فَيُبْصِرُوا وَيَتَّقُوا - إِمَّا لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ،

وَأَمَّا لَأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بَأَنَّ لِلْإِنْسَانَ شَيْطَانًا مِّنَ الْجِنِّ يُوَسْوِسُ إِلَيْهِ وَيُغْوِيهِ بِالشَّرِّ - ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ  
وَلَا يَكْفُونَ عَنْ إِغْوَائِهِمْ وَأَفْسَادِهِمْ؛ فَلِذَلِكَ يُصِرُّونَ عَلَى الشُّرُورِ وَالْفَسَادِ لِفَقْدِ الْوَاظِعِ  
النَّفْسِيِّ وَالْوَاعِظِ الْقَلْبِيِّ، وَفِي هَذَا التَّفْسِيرِ عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى الشَّيْطَانِ بِالْجَمْعِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ  
بِهِ الْجِنْسَ لَا الشَّخْصَ كَمَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ اسْتِعْمَالُ عَرَبِيٍّ مَعْرُوفٍ، وَمِنْهُ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ (2: 257) وَقِيلَ: إِنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى الْجَاهِلِينَ، أَيْ وَإِخْوَانُ  
أُولَئِكَ الْجَاهِلِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي غِييِهِمْ وَفَسَادِهِمْ، فَيَكُونُونَ أَعْوَانًا  
لِشَيَاطِينِ الْجِنِّ فِي ذَلِكَ كَمَا

(263/302)

بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَاطٌ مِّنْ رَبِّكُمْ  
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا الْجَبْتَاءُ: افْتِعَالٌ وَاخْتِصَاصٌ مِنَ الْجَبَايَةِ . يُقَالُ .

جَبَى الْعَامِلُ الْمَالَ يَجْبِيهِ وَجَبَاهُ يَجْبُوهُ، إِذَا جَمَعَهُ السُّلْطَانُ الْقِيمَ عَلَى بَيْتِ مَالِ الْأُمَّةِ .

وَاجْتَبَاهُ إِذَا جَمَعَهُ وَأَصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ أَوْ احْتَاذَهُ لَهَا، وَفِي الْكَشَافِ: اجْتَبَى الشَّيْءَ بِمَعْنَى

جَبَاهُ لِنَفْسِهِ أَيِ جَمَعَهُ كَقَوْلِكَ اجْتَمَعَهُ - أَوْ جَبِي إِلَيْهِ فَاجْتَبَاهُ أَيِ أَخَذَهُ ، كَقَوْلِكَ جَلَيْتُ  
إِلَيْهِ الْعُرُوسَ فَاجْتَلَّاهَا هـ . وَالآيَةُ هُنَا آيَةُ الْقُرْآنِ كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَوِ الْمُعْجِزَةُ  
الْمُقْتَرَحَةُ مِنْ قِبَلِ الْمُشْرِكِينَ كَمَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ .  
وَالْمَعْنَى : وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ بآيَةٍ قُرْآنِيَّةً ، بَأَنَّ تَرَخَى نَزُولُ الْوَحْيِ زَمَانًا مَا ، قَالُوا :

(264/302)

لَوْلَا افْتَعَلْتَ نَظْمَهَا وَتَأَلَّفَهَا وَاخْتَرَعْتَهَا مِنْ تُلْقَاءِ نَفْسِكَ ؟ أَوْ إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ مِمَّا اقْتَرَحُوا  
عَلَيْكَ قَالُوا : هَلَّا جَبَاهَا اللَّهُ لَكَ بَأَنَّ مَكَّنَكَ مِنْهَا فَاجْتَبَيْتَهَا وَأَبْرَزْتَهَا لَنَا ؟ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا  
يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي فَمَا أَنَا بِمُبْتَدِعٍ ، وَلَا مُجْتَبٍ لَشَيْءٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ يَعْلَمِي وَيَلَاغِي ، بَلْ  
أَنَا عَاجِزٌ عَنْ مِثْلِهِ كَعَجْزِكُمْ وَعَجْزِ سَائِرِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَفِي مَعْنَاهُ : وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا  
بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ  
تُلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ (10 : 15) - أَوْ مَا أَنَا بِقَادِرٍ عَلَى إِيجَادِ الْآيَةِ الْكُوتِبَةِ  
، وَلَا بِمُفْتَاتٍ عَلَى اللَّهِ فِي طَلِبِهَا ، وَإِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ لِمَا يُوحَى إِلَيَّ فَضِلًّا مِنْ رَبِّي عَلَيَّ أَنْ  
جَعَلَنِي الْمُبَلِّغَ عَنْهُ - وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ أَيُّ : هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي  
أَوْحَاهُ إِلَيَّ بِصَائِرٍ وَحُجَجٍ نَاهِضَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ يَعُودُ مِنْ تَأَمَّلِهَا وَعَقَلِهَا بِصِيرِ الْعَقْلِ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ

مِنَ الْحَقِّ إِذْ هِيَ آدُلٌ عَلَيْهِ مِمَّا تَطْلُبُونَ مِنَ آيَاتِ الْكُتُبِ؛ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مُبَاشَرَةً . وَقَدْ  
سَبَقَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ  
وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (6 : 104) فَيُرَاجَعُ لزيادة

(265/302)

---

الْبَيَانِ وَهُدَى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أَيُّ: وَهُوَ هُدَى كَامِلٌ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ  
مُسْتَقِيمٍ ، وَرَحْمَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ : كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ أَيْضًا  
: وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا  
أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا  
الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدَى وَرَحْمَةٌ (6 : 155) -  
(157) آيَةٌ ، قِيلَ : إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى : لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ مُتَعَلِّقٌ بِالثَّلَاثَةِ . وَقِيلَ : بِالْهُدَى وَالرَّحْمَةِ ؛  
لِأَنَّ الْبَصِيرَةَ قَدْ تَمَلَّهَا الْعَاقِلُ فَيُؤْمِنُ .

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا  
وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا  
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ



وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ هَذِهِ دَلَالَةٌ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَوْصَلَةِ لِتَيْلِ  
الرَّحْمَةِ بِالْقُرْآنِ ، وَالْحَصَانَةَ مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ ، وَهِيَ الْاسْتِمَاعُ لَهُ إِذَا قُرِئَ ، وَالْإِنْصَاتُ مُدَّةَ  
الْقِرَاءَةِ ، وَالْاسْتِمَاعُ أْبْلَغُ مِنَ السَّمْعِ ، وَلِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِقَصْدٍ وَبِتَّيَّةٍ وَتَوْجِيهِ الْحَاسَةِ إِلَى الْكَلَامِ  
لِإِدْرَاكِهِ ، وَالسَّمْعُ مَا يَحْصُلُ وَلَوْ بِغَيْرِ قَصْدٍ ، وَالْإِنْصَاتُ: السُّكُوتُ لِأَجْلِ الْاسْتِمَاعِ حَتَّى لَا  
يَكُونَ شَاغِلًا عَنِ الْإِحَاطَةِ بِكُلِّ مَا يُقْرَأُ . فَمَنْ اسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ كَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَفْهَمَ وَيَتَدَبَّرَ ،  
وَهُوَ الَّذِي يُرْجَى أَنْ يُرْحَمَ . وَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ الْاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ لِلْقُرْآنِ إِذَا قُرِئَ ،  
قِيلَ مُطْلَقًا سِوَاءَ كَانَتْ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ أَوْ خَارِجَهَا ، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ،  
وَعَلَيْهِ أَهْلُ الظَّاهِرِ ، وَخَصَّهُ الْجُمْهُورُ بِقِرَاءَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عَهْدِهِ ،  
وَبِقِرَاءَةِ الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ وَهُوَ  
غَلَطٌ ؛ فَإِنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ وَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ شَرَعَتْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْأَمْرَ لِلتَّوْبِ  
لِالْوَجُوبِ ، وَلَكِنْ رُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّلَاةِ فَحُرِّمَ بُنْزُولُهَا الْكَلَامَ فِيهَا .

وَحَكَى ابْنُ الْمُنْذِرِ الْإِجْمَاعَ عَلَى عَدَمِ وُجُوبِ الْاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ  
وَالْخُطْبَةِ . وَذَلِكَ أَنَّ إِجْمَاعَهُمَا عَلَى كُلِّ مَنْ يَسْمَعُ أَحَدًا يَقْرَأُ ، فِيهِ حَرْجٌ عَظِيمٌ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي  
أَنْ يَتْرُكَ لَهُ الْمُشْتَغِلُ بِالْعِلْمِ عِلْمَهُ ، وَالْمُشْتَغِلُ بِالْحُكْمِ حُكْمَهُ ، وَالْمُبْتَاعَانِ مُسَاوَمَتَهُمَا  
وَتَعَاقُدَهُمَا

وَكُلُّ ذِي شُغْلٍ شَغْلُهُ . فَأَمَّا قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ بَعْضُهَا تَلْبِيغًا لِلتَّنْزِيلِ  
وَبَعْضُهَا وَعَظًا وَإِرْشَادًا ، فَلَا يَسَعُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَسْمَعُهُ يَقْرَأُ أَنْ يُعْرَضَ عَنِ الْاسْتِمَاعِ  
أَوْ يَتَكَلَّمَ بِمَا يَشْغَلُهُ أَوْ يَشْغَلُ غَيْرَهُ عَنْهُ . وَهَذَا شَأْنُ الْمُصَلِّيِّ مَعَ إِمَامِهِ وَخَطْبِيهِ ؛ إِذْ هُوَ  
مَوْضِعُ الصَّلَاةِ وَالْوَاجِبُ فِيهَا ؛ وَلِهَذَا اسْتَدَلُّوا بِالآيَةِ عَلَى امْتِنَاعِ الْقِرَاءَةِ خَلْفَ الْإِمَامِ فِي  
الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ ، وَاسْتَنْى بَعْضُهُمُ الْفَاتِحَةَ لَمَّا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مِنْ أَنَّ الصَّلَاةَ  
لَا تُجْزَى بِدُونِهَا جَمْعًا بَيْنَ النَّصُوصِ . وَوَرَدَ فِي السُّنَّةِ سَكُوتُ الْإِمَامِ بِقَدْرِ مَا يَقْرَأُ الْمَأْمُومُ  
الْفَاتِحَةَ . عَلَى أَنَّهُ إِذَا قَرَأَ الْفَاتِحَةَ مَعَ الْإِمَامِ أَوْ بَعْدَهُ آيَةً آيَةً لَا يَعْذُغُ غَيْرُ مُسْتَمِعٍ لِلْقُرْآنِ ، وَلَا  
غَيْرِ مَنْصُتٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا تَحْقِيقَ الْحَقِّ فِي قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ لِلْمَأْمُومِ كَغَيْرِهِ فِي مُتَمَمَاتِ تَفْسِيرِهَا  
مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ .

وَمِنْ فُرُوعِ طَلَبِ السَّمْعِ وَالْإِنْصَاتِ أَنَّ الْقَارِيَّ لَا يُطَلَبُ مِنْهُ تَرْكُ قِرَاءَتِهِ لِلسَّمْعِ لِقَارِيٍّ  
آخَرَ ، بَلْ يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ مَا يَرَاهُ خَيْرًا لَهَا مِنَ الْأَمْرَيْنِ ، فَقَدْ يَخْشَعُ بَعْضُ النَّاسِ بِقِرَاءَةِ نَفْسِهِ ،  
وَيَخْشَعُ آخَرٌ بِالسَّمْعِ مِنْ غَيْرِهِ ، أَوْ مِنْ بَعْضِ الْقُرَّاءِ دُونَ بَعْضٍ ، وَإِذَا تَعَدَّدَ الْقُرَّاءُ فِي  
مَكَانٍ اسْتَمَعَ كُلُّ حَاضِرٍ لِمَنْ كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ أَوْ لِمَنْ يَرَى قِرَاءَتَهُ أَشَدَّ تَأْثِيرًا فِي نَفْسِهِ . وَمَا  
يُفَعِّلُهُ جَمَاهِيرُ النَّاسِ فِي الْمَحَافِلِ الَّتِي يُقْرَأُ فِيهَا الْقُرْآنُ بِمَصْرٍ كَالْمَاتَمِ وَغَيْرِهَا مِنْ تَرْكِ  
السَّمْعِ وَالِاشْتِغَالِ بِالْأَحَادِيثِ الْمُخْتَلَفَةِ مَكْرُوهٍ كَرَاهَةٍ شَدِيدَةٍ ، وَتَكُونُ عَلَى أَشَدِّهَا  
لِمَنْ كَانُوا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ التَّالِي ، وَأَمَّا تَعَمُّدُ الْإِعْرَاضِ عَنِ السَّمْعِ لِلْقُرْآنِ فَلَا يَكَادُ يُفَعِّلُهُ  
مُؤْمِنٌ بِهِ ، وَكَذَلِكَ

(269/302)

---

رَفَعُ الصَّوْتِ بِالْكَلَامِ عَلَى صَوْتِ الْقَارِيِّ عَمْدًا ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَدَّبَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ  
رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ  
وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (49 : 2)  
فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ عَلَى صَوْتِ التَّالِي لِكَلَامِهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْلَى بِأَنْ يُنْهَى عَنْهُ ، وَالْأَدَبُ مَعَهُ فَوْقَ  
الْأَدَبِ مَعَ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالضَّرُورَةِ . وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ

فَصَحَاءُ الْعَرَبِ يُعْبِرُونَ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِمْ: سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ كَذَا . وَلَا يَجُوزُ  
لِقَارِيٍّ أَنْ يَقْرَأَ عَلَى قَوْمٍ لَا يَسْتَمِعُونَ لَهُ ، فَإِنْ كَانَ فِي الْمَجْلِسِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَمِعُونَ  
وَيُنصِتُونَ ، فَشَذَّ بَعْضُهُمْ بِمُنَاجَاةِ صَاحِبِهِ بِالْجَنْبِ مِنْ غَيْرِ تَهْوِيشٍ  
عَلَى الْقَارِيِّ ، وَلَا عَلَى الْمُسْتَمِعِينَ ، كَانَ الْخُطْبُ فِي هَذَا هَيْئًا لَا يَقْتَضِي تَرْكَ الْقِرَاءَةِ وَلَا  
يُنَافِي الْاسْتِمَاعَ .

(270/302)

وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ بِالْقُرْآنِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى اسْتِمَاعِهِ عِنْدَ قِرَاءَتِهِ كَمَا يَحْرِصُ عَلَى  
تِلَاوَتِهِ ، وَأَنْ يَتَأَدَّبَ فِي مَجْلِسِ التَّلَاوَةِ ، وَمَلَكَ هَذَا الْأَدَبَ لِلْقَارِيِّ ، أَلَّا يَكُونَ مِنْهُ ، وَلَا مِنْ  
غَيْرِهِ ، وَلَا مِنْ حَالِ الْمَكَانِ ، مَا يُعَدُّ فِي اعْتِقَادِهِ أَوْ فِي عُرْفِ النَّاسِ مُنَافِيًا لِلأَدَبِ ، وَقَدْ  
ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ فِي الْمَسْأَلَةِ آدَابًا وَأَحْكَامًا قَدْ يَخْتَلِفُ بَعْضُهَا بِاخْتِلَافِ الْأَعْتِقَادِ وَالْعُرْفِ ،  
وَصَرَّحُوا بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ حَالٍ مِنْ قِيَامٍ وَقُعُودٍ وَاضْطِجَاعٍ وَمَشْيٍ وَرُكُوبٍ فَلَا تُكْرَهُ فِي  
الطَّرِيقِ نَصًّا ، وَلَا مَعَ حَدَثٍ أَصْغَرَ وَبِجَاسَةٍ بَدَنٍ وَثَوْبٍ ، وَلَكِنْ يُمَسَّكُ عَنِ الْقِرَاءَةِ فِي حَالِ  
الْحَدَثِ ، وَيُسْتَحَبُّ الْوُضُوءُ لَهَا اسْتِحْبَابًا ، وَلَا سِيَّمَا لِلْقَارِيِّ فِي الْمُصْحَفِ ، وَتُكْرَهُ مَعَ  
الْجِنَازَةِ جَهْرًا ؛ لِأَنَّهُ بَدْعَةٌ ، وَفِي الْمَوَاضِعِ الْقَدْرَةَ بِأَنْ يُجْلِسَ فِيهَا لِلْقِرَاءَةِ ، وَأَمَّا مَنْ مَرَّ

بِمَكَانٍ مِنْهَا وَهُوَ يُقْرَأُ فَلَا يُطْلَبُ مِنْهُ تَرْكُ الْقِرَاءَةِ ، وَكَذَلِكَ مَنْ عَرَضَ لَهُ الْجُلُوسُ فِي بَعْضِ الْمَلَاهِي غَيْرِ الْمُبَاحَةِ لَا يُكْرَهُ لَهُ التَّلَاوُؤُ سِرًّا ، وَصَرَّحُوا بِأَنَّهُ لَا يُكْرَهُ لَهُ أَنْ يَتْلُو فِي بَيْتِهِ إِذَا كَانَتْ زَوْجُهُ غَيْرَ مَسْتُورَةٍ عَوْرَةَ الصَّلَاةِ .

(271/302)

وَتُسْتَحَبُّ الْقِرَاءَةُ بِالترْتِيلِ وَالتَّغْنِي بِالتَّغْمِ الْمُفِيدِ لِلتَّأثيرِ وَالخُشُوعِ مِنْ غَيْرِ تَكْلِفٍ صِنَاعِيٍّ . وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا " مَا أَدْنَى اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَدْنَى لِنَبِيِّ ، حَسَنَ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ - زَادَ غَيْرُهُ فِي رِوَايَةٍ - يَجْهَرُ بِهِ " رَوَاهُ الشَّيْخَانُ . وَأَدْنَى هُنَا بِمَعْنَى اسْتَمَعَ أَوْ سَمِعَ . وَمَصْدَرُهُ بَفَتْحَيْنِ ، وَرَوَى أَحْمَدُ وَأَبْنُ مَاجَهَ وَأَبْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَالحَاكِمُ وَالبَيْهَقِيُّ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ مَرْفُوعًا لِلَّهِ أَشَدُّ أَدْنَى لِلرَّجُلِ الحَسَنَ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ القَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ وَالقَيْنَةُ الأُمَّةُ المُعَنَّيَةُ ، وَرَوَى البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا : لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ وَيُسْتَحَبُّ البُكَاءُ مَعَ الْقِرَاءَةِ وَالخُشُوعِ ، وَإِلَّا فَالتَّبَاكِي وَالتَّخَشُّعُ ، وَأَنْ يُسْتَعِيدَ بِاللَّهِ قَبْلَهَا ، وَيَدْعُو اللَّهَ فِي أَثْنَائِهَا بِحَسَبِ مَعَانِي الآيَاتِ ، كَسُؤَالِ الرَّحْمَةِ ، عِنْدَ ذِكْرِهَا وَالاِسْتِعَاذَةِ مِنَ العَذَابِ عِنْدَ ذِكْرِهِ . وَكَانَ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَجْمَعُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ عِنْدَ خْتَمِ الْقُرْآنِ فَاسْتَحَبُّوا الاِقْتِدَاءَ بِهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ قُوَّةَ الدِّينِ وَكَمَالَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينَ لَا يَحْصُلَانِ إِلَّا بِكَثْرَةِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ  
وَاسْتِمَاعِهِ ، مَعَ التَّدْبِيرِ بِنِيَّةِ الْإِهْتِدَاءِ بِهِ وَالْعَمَلِ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ . فَالْإِيمَانُ الْإِذْعَانِيُّ الصَّحِيحُ  
يَزْدَادُ وَيَقْوَى وَيَنْمَى وَتَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ آثَارُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَتَرُكِ الْمَعَاصِي وَالْفَسَادِ  
بِقَدْرِ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ ، وَيَنْقُصُ وَيَضْعُفُ عَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ مِنْ تَرَكِّ تَدْبِيرِهِ ، وَمَا آمَنَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ  
إِلَّا بِسَمَاعِهِ وَفَهْمِهِ ، وَلَا فَتَحُوا الْأَقْطَارَ ، وَمَصَّرُوا الْأَمْصَارَ ، وَاتَّسَعَ عُمُرَانِهِمْ ، وَعَظُمَ  
سُلْطَانُهُمْ ، إِلَّا بِتَأْثِيرِ هِدَايَتِهِ ، وَمَا كَانَ الْجَاهِدُونَ الْمُعَانِدُونَ مِنْ زُعَمَاءِ مَكَّةَ يُجَاهِدُونَ  
النَّبِيَّ وَيَصُدُّونَهُ عَنْ تَبْلِيغِ دَعْوَةِ رَبِّهِ إِلَّا بِمَنْعِهِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ (26 : 41) وَمَا ضَعُفَ الْإِسْلَامُ مُنْذُ  
الْقُرُونِ الْوَسْطَى حَتَّى زَالَ أَكْثَرُ مُلْكِهِ إِلَّا بِهَجْرِ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ ، وَجَعَلِهِ كَالرُّقَى وَالتَّعَاوِذِ الَّتِي  
تُتَّخَذُ لِلتَّبَرُّكِ أَوْ لَشِفَاءِ أَمْرَاضِ الْأَبْدَانِ ، وَجَلُّ فَائِدَةِ الصَّلَاةِ - وَهِيَ عِمَادُ الدِّينِ - بِتِلَاوَةِ  
الْقُرْآنِ مَعَ التَّدْبِيرِ وَالتَّخَشُّعِ ، فَإِذَا زَالَ مِنْهَا هَذَا صَارَتْ عَادَةً قَلِيلَةَ الْفَائِدَةِ . وَالآيَاتُ الدَّالَّةُ  
عَلَى ذَلِكَ فِيهِ كَثِيرَةٌ تَقْدَمُ بَعْضُهَا مَعَ تَفْسِيرِهَا ، فَمِنَ التَّطْوِيلِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ إِبْرَادُ شَيْءٍ مِنْهَا  
هُنَا .

وَإِنِّي أَخْتَمُ هَذَا الْبَحْثَ بِأَوَّلِ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الطَّوِيلِ فِي الْهَجْرَةِ مِنْ رِوَايَةِ  
صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، لِلاِسْتِشْهَادِ بِهِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِ سَمَاعِ الْقُرْآنِ عِنْدَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ  
قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ قَالَ ابْنُ شَهَابٍ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ  
أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: "لَمْ أَعْقِلْ أَبُوِي قَطُّ إِلَّا  
وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفِي  
النَّهَارِ بَكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتَلَى الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مَهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ حَتَّى  
بَلَغَ بَرَكَ الْعِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدُّعْنَةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تَرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:  
أَخْرَجَنِي قَوْمِي فَأَرِيدُ أَنْ أُسِيحَ فِي الْأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدُّعْنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا  
بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يَخْرُجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكُلَّ وَتَقْرِي الضَّيْفَ  
وَتَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ، ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلَدِكَ .

فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدُّغْنَةِ ، فَطَافَ ابْنُ الدُّغْنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ  
أَبَا بَكْرًا لَا يُخْرِجُ مِثْلَهُ وَلَا يُخْرِجُ ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيَحْمِلُ  
الْكُلَّ ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ؟ ، فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدُّغْنَةِ ،  
وَقَالُوا لِابْنِ الدُّغْنَةِ : مَرَّ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَلْيَصِلْ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ وَلَا يُؤْذِينَا  
بِذَلِكَ ، وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِهِ ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا ، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدُّغْنَةِ لِأَبِي  
بَكْرٍ ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ ذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ

(275/302)

وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ ، وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ ، ثُمَّ بَدَأَ لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ  
وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَيَتَقَدَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَهُمْ يَعْجِبُونَ مِنْهُ  
وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَاءً لَا يَمْلِكُ عَيْنِيهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافُ  
قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدُّغْنَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : إِنَّا كُنَّا أَجْرْنَا أَبَا بَكْرٍ  
بِجِوَارِكَ عَلَى أَنْ يُعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ فَأَعْلَنَ  
بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا فَانْهَهُ ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يُقْتَصَرَ  
عَلَى أَنْ يُعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلْ ، وَإِنْ أَبِي إِلَّا أَنْ يُعْلَنَ ذَلِكَ فَسَلِّهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ ، فَإِنَّا قَدْ



كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرُكَ ، وَلَسْنَا مُقَرِّبِينَ لِأَبِي بَكْرٍ الْاسْتِعْلَانَ : قَالَتْ عَائِشَةُ : فَاتَى ابْنَ الدُّغْنَةَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَقَالَ : قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ ، فِيمَا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى ذِمَّتِي فَإِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَإِنِّي أَرَدْتُ إِلَيْكَ جَوَارِكَ ، وَأَرْضِي بِجَوَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " اهـ الْمُرَادُ مِنْهُ .

(276/302)

بَعْدَ الْأَمْرِ بِالِاسْتِمَاعِ وَالِإِصْغَاءِ لِتَلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، فِي سِيَاقِ حَصَانَةِ الْأَنْفُسِ مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ ، أَمَرْنَا تَعَالَى بِالذِّكْرِ الْعَامِّ الشَّامِلِ لِلْقُرْآنِ تَلَاوَةً وَتَدْبِيرًا وَغَيْرِهِ ، فَإِنَّ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ذِكْرِهِ تَعَالَى حِصْنٌ لِلنَّفْسِ وَتَرْكِيَةٌ لَهَا فَقَالَ :

(277/302)

وَأَذَكُرُّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : إِنَّ الْأَمْرَ بِالذِّكْرِ هُنَا مُوجَّهٌ إِلَى مُسْتَمِعِ الْقُرْآنِ أَمْرًا بِأَنْ يُتَدَبَّرَ فِي نَفْسِهِ مَا يَسْمَعُ . وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالذِّكْرِ هُنَا الدُّعَاءُ - وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ عَامٌّ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَأَنَّ الْخِطَابَ فِيهِ لِلنَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ . وَالتَّضَرُّعُ إِظْهَارُ الضَّرَاعَةِ ، وَهِيَ الذَّلِيلَةُ وَالضَّعْفُ  
وَالْخُضُوعُ بِكَثْرَةِ وَشِدَّةِ عِنَايَةٍ . وَالْخِيفَةُ حَالَةُ الْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ - أَيُّ وَادُّكَ رَبِّكَ الَّذِي  
خَلَقَكَ وَرَبَّكَ بِنِعْمِهِ فِي نَفْسِكَ بَأَنَّ تَسْتَحْضِرَ مَعْنَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَيَاتِهِ وَالْآلَاءِ وَفَضْلِهِ  
عَلَيْكَ وَحَاجَتِكَ إِلَيْهِ مُتَضَرِّعًا لَهُ خَائِفًا مِنْهُ ، رَاجِيًا نِعْمَهُ - وَادُّكَ بِلسَانِكَ مَعَ ذِكْرِهِ فِي  
نَفْسِكَ ذِكْرًا دُونَ الْجَهْرِ بَرَفْعِ الصَّوْتِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَفَوْقَ التَّخَافِ وَالسَّرِّ ، بَلْ ذِكْرًا قَصْدًا  
وَسَطًا - كَمَا قَالَ فِي آخِرِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُ بِهَا وَأَتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ  
سَبِيلًا (17 : 110) وَلَا تَحْصُلُ فَائِدَةُ الذِّكْرِ بِاللسَانِ إِلَّا مَعَ ذِكْرِ الْقَلْبِ ، وَهُوَ مَلَا حِظَةٌ  
مَعَانِي الْقَوْلِ ، وَكَأَيِّ مَنْ ذِي وَرْدٍ يَذْكُرُ اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا يَعْذُّ بِالسَّبْحَةِ مِنْهُ الْمِئِينَ أَوِ الْآلُوفِ ثُمَّ لَا  
يَفِيدهُ كُلَّ ذَلِكَ مَعْرِفَةً بِاللَّهِ وَلَا مُرَاقَبَةً لَهُ ، بَلْ هُوَ عَادَةٌ تَقَارِنُهَا عَادَاتُ أُخْرَى مُنْكَرَةٌ شَرْعًا .  
وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

(278/302)

---

ذِكْرُ لِسَانِي مُحْضٌ لَا حِظَّ فِيهِ لِلْقَلْبِ . ذِكْرُ النَّفْسِ وَحْدَهُ يَنْفَعُ دَائِمًا ، وَذِكْرُ اللِّسَانِ وَحْدَهُ  
قَلَّمَا يَنْفَعُ ، وَقَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ ذَنْبًا . وَالْأَكْمَلُ الْجَمْعُ بَيْنَ ذِكْرِ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ .  
وَبَعْدَ أَنْ يُبَيِّنَ تَعَالَى صِفَةَ الذِّكْرِ وَالذَّاكِرِ بَيْنَ وَقْتِهِ فَقَالَ : بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ الْغُدُوُّ مُصْدَرُ غَدَا

يُغْدُو - كَعَلًا يَعْلُو عُلُوًّا - أَي ذَهَبَ غَدُوَّةً وَهُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ ،  
ثُمَّ تُوَسَّعُ فِيهِ حَتَّى اسْتُعْمِلَ بِمَعْنَى الذَّهَابِ مُطْلَقًا - وَيُقَابِلُهُ الرَّوَّاحُ وَهُوَ الرَّجُوعُ - وَمِنْهُ  
غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ (34 : 12) وَالْأَصَالُ جَمْعُ أَصِيلٍ وَهُوَ الْعَشِيُّ مِنْ وَقْتِ  
الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا  
اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (33 : 41 ، 42) وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الدَّهْرِ أَوْ  
الْإِنْسَانَ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (76 : 25) وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : وَسَبِّحْ  
بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (3 : 41) وَخُصَّ هَذَانِ الْوَقْتَانِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا طَرَفَا النَّهَارِ ، وَمَنْ افْتَحَ  
نَهَارَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ ، وَاخْتَمَّهُ بِهِ كَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَرِاقِبَهُ تَعَالَى

(279/302)

وَلَا يَنْسَاهُ فِيمَا بَيْنَهُمَا ، وَأَهَمُّ الذِّكْرِ فِيهِمَا صَلَاتَا الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ اللَّتَانِ تَحْضُرُهُمَا مَلَائِكَةُ  
الَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ ، وَيَشْهَدَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا وَجَدَا عَلَيْهِ الْعَبْدَ كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ

وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ عَنْ ذِكْرِهِ تَعَالَى فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ ، وَإِنَّمَا يُتَسَامَحُ بِقِلَّةِ الذِّكْرِ فِيمَا بَيْنَ  
الْبُكْرَةِ وَالْأَصِيلِ لِأَنَّهُ وَقْتُ الْعَمَلِ لِلْمَعَاشِ ، فَمَنْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ تَعَالَى مَرَضَ قَلْبُهُ ، وَضَعُفَ

إِيْمَانُهُ ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُ نَفْسَهُ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ  
إِذَا مَرَضْنَا تَدَاوِينًا بِذِكْرِكُمْ . . . وَتَرَكْتُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَفَنْتُكِّسُ

(280/302)

ثُمَّ عَزَزَ عَزْوً وَجَلَّ هَذَا الْأَمْرُ وَهَذَا النَّهْيُ بِمَا يَعْدُ خَيْرٌ أَسْوَةٌ لِلنَّاسِ ، وَهُوَ التَّشْبَهُ  
وَالْمُشَارَكَةُ لِمَلَائِكَةِ الرَّحْمَنِ ، فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ أَيُّ : إِنَّ  
مَلَائِكَةَ اللَّهِ الْمُقْرَبِينَ ، الَّذِينَ هُمْ عِنْدَهُ كَحَمَلَةٍ عَرْشِهِ وَالْحَافِينَ بِهِ وَمَنْ شَاءَ ، تَقَدَّسَ وَتَعَالَى  
بِهَذِهِ الْعِنَايَةِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا سِوَاهُ ، وَهُمْ أَعْلَى مَقَامًا مِنَ الْمُوَكَّلِينَ بِالْمَخْلُوقَاتِ وَتَدْيِيرِ  
نِظَامِهَا كَالسَّحَابِ وَالْمَطَرِ وَالرِّيحِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ - إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُقْرَبِينَ الْعَالِينَ عِنْدَهُ لَا  
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ كَمَا يَسْتَكْبِرُ عَنْهَا هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، الَّذِينَ عَدَّ بَعْضُهُمُ السُّجُودَ لِلَّهِ  
تَعَالَى حِطَّةً وَضِعَةً لَا تُحْتَمَلُ وَيُسَبِّحُونَهُ أَيُّ يَنْزَهُونَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ  
وَجَلَالِهِ وَجَمَالِهِ مِنْ اتِّخَاذِ النَّدِّ وَالشَّرِيكِ وَالظَّهِيرِ وَالْمُسَاعِدِ عَلَى الْخَلْقِ وَالتَّدْيِيرِ ، كَمَا  
يَفْعَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ شُفَعَاءَ أَنْدَادًا لِلَّهِ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَيَعْبُدُونَهُمْ مَعَ اللَّهِ وَلَهُ  
يَسْجُدُونَ أَيُّ : وَلَهُ وَحْدَهُ يُصَلُّونَ وَيَسْجُدُونَ ، فَلَا يُشْرِكُونَ مَعَهُ أَحَدًا ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ

لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ بِخَوَاصِّ مَلَائِكَتِهِ ، وَأَقْرَبِ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ

(281/302)

وَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا السُّجُودَ عِنْدَ تِلَاوَةِ هَذِهِ آيَةِ أَوْ سَمَاعِهَا إِرْغَامًا لِلْمُشْرِكِينَ وَاقْتِدَاءً  
بِالْمَلَائِكَةِ الْعَالَمِينَ ، وَمِثْلَهَا آيَاتٌ أُخْرَى بِمَعْنَاهَا فِي الْجُمْلَةِ ، وَهَذِهِ هِيَ الْأُولَى فِي تَرْتِيبِ  
الْمُصْحَفِ . وَنَسَأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُجْعَلَنَا مِنْ خَيْرِ الذَّاكِرِينَ لَهُ ، الشَّاكِرِينَ لِنِعْمِهِ الْمُسَبِّحِينَ  
بِحَمْدِهِ ، السَّاجِدِينَ لَهُ دُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ ، وَأَنْ يُؤَقِّنَنَا لِاتِّمَامِ تَفْسِيرِ كِتَابِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ .

خُلَاصَةُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ

وَهِيَ تَدْخُلُ فِي سِتَّةِ أَبْوَابٍ

(أُولَاهَا) تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى إِيْمَانًا وَعِبَادَةً وَتَشْرِيْعًا ، وَصِفَاتُهُ وَشُؤْنُ رُبُوبِيَّتِهِ .

(ثَانِيهَا) الْوَحْيُ وَالْكِتَابُ وَالرِّسَالَةُ وَالرُّسُلُ . (ثَالِثُهَا) الْآخِرَةُ وَالْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ . (رَابِعُهَا)

أَصُولُ التَّشْرِيْعِ وَبَعْضُ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ الْعَامَّةِ . (خَامِسُهَا) آيَاتُ اللَّهِ وَسُنَنُهُ فِي الْخَلْقِ

وَالْتَّكْوِينِ . (سَادِسُهَا) سُنَنُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْجَمْعِ وَالْعُمْرَانِ الْبَشَرِيِّ وَشُؤْنِ الْأُمَّمِ ،

المُعْبَرُ عَنْهُ فِي عُرْفِ عَصْرِنَا يَعْلَمُ الْجَمَاعَ .

البَابُ الْأَوَّلُ

تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى إِيْمَانًا وَعِبَادَةً وَتَشْرِيْعًا وَصِفَاتُهُ وَشُؤْنُ رُبُوبِيَّتِهِ

(وَفِيهِ 12 أَصْلًا)

(282/302)

---

(1) دُعَاءُ اللَّهِ وَحْدَهُ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ وَتَخْصِيصُهُ بِالْعِبَادَةِ ، وَكَوْنُ الْإِخْلَالِ بِذَلِكَ شِرْكًَا وَكُفْرًا بِاللَّهِ تَعَالَى . قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ 29 : وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أَيُّ: بِاللَّا تَشْوِيْهُ أَذْنَى شَائِبَةٍ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى غَيْرِهِ فِي الدُّعَاءِ وَلَا فِي غَيْرِهِ مِنْ دِينِكُمْ ، كَالتَّوَجُّهِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، أَوْ مَا يُذَكَّرُ بِهِمْ كَقُبُورِهِمْ ، فَذَلِكَ شِرْكٌ يُنَافِي خُلُوصَهُ لَهُ ، قَلَّ أَوْ كَثُرَ ، سُمِّيَ شِرْكًَا أَوْ سُمِّيَ تَوَسُّلًا وَتَبَرُّكًا (رَاجِعْ 333 وَمَا بَعْدَهَا ج 8 ط الْهَيْئَةِ) وَقَالَ تَعَالَى فِي بَيَانِ حَالِ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ مَوْتِهِمْ مِنَ الْآيَةِ 37 : حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (367 وَمَا بَعْدَهَا ج 8 ط الْهَيْئَةِ) مِنْهُ ، وَأَمَرْنَا تَعَالَى فِي الْآيَةِ 55 بِأَنْ نَدْعُوهُ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً - وَنَهَانَا عَنِ الْاِعْتِدَاءِ

فِي الدُّعَاءِ ، وَفِي آيَةِ 56 بِأَنْ نَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَفِي الْأَوَّلِ صِفَةُ دُعَاءِ الْإِخْلَاصِ  
اللسانيّة ، وَفِي الثَّانِيَةِ صِفَتُهُ الْقَلْبِيَّةُ (رَاجِعْ 405 و 410 وَمَا بَعْدَهُمَا ج 8 ط الْهَيْئَةِ) .

(283/302)

وَمِنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَتَرْكِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ مَا حَكَاهُ عَنْ تَنْبِيغِ الرُّسُلِ لِأَقْوَامِهِمْ ، . . . .  
. . عَلَى أَنَّهُ أَصْلُ دِينِهِ عَلَى السَّنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ . قَالَ تَعَالَى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ  
فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (59)

وَمِثْلُهُ عَنْ رَسُولِهِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْآيَةِ 65 مَعَ حِكَايَةِ قَوْلِ قَوْمِهِ لَهُ : قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ  
اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذِرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا (70) وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ عَنْ رَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
فِي الْآيَةِ 73 وَمَا حَكَاهُ عَنْ رَسُولِهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْآيَةِ 85 .

وَمِنْ بَيَانِ بَطْلَانِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَنَزَعَاتِ الْوَثْنِيَّةِ فِي اتِّخَاذِ الْأَلِهَةِ اتِّخَاذًا مَا وَرَدَ فِي  
الآيَاتِ 138 - 140 مِنْ طَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مُوسَى أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ إِلَهًا كَالْقَوْمِ الَّذِينَ  
رَأَوْهُمْ يَعْبُدُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، وَرَدَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَيْهِمْ ، فَبُرِّجَعُ  
تَفْسِيرُهَا فِي ص 91 - 102 ج 9 ط الْهَيْئَةِ . وَفِيهِ بَيَانُ خَطَا الرَّازِيِّ فِي فَهْمِ مَعْنَى إِلَهٍ  
لِجَرِيهِ عَلَى اصْطِلَاحِ الْمُتَكَلِّمِينَ .

(2) إنكار الشرك وإقامة الحجة على أهله، وإثبات التوحيد وكونه مقتضى الفطرة في الآيات 172 و173 في أخذ الرب الميثاق من ذرية نبي آدم، وإشهادهم على أنفسهم أنه ربهم، ويراجع تفسيرهما في هذا الجزء .

(284/302)

(3) بيان أن شارع الدين هو الله رب العالمين، فيجب اتباع ما أنزله ولا يجوز اتباع أولياء من دونه في العقائد ولا العبادات، ولا التحليل والتحرير الديني، وهو نص قوله تعالى في الآية الثالثة: اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء لا أولياء يتولون التشريع لكم بما ذكر كالذين اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله (9 : 31) يحلون لهم ويحرمون عليهم فيتبعونهم كما فسره الحديث المرفوع، ولا أولياء يتولون أموركم فيما عدا ما سخره الله لكم من الأسباب، وهذا عين توحيد الربوبية . واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم لا يدخل في عموم التهي هنا، فإنه تعالى أمر باتباعه في الآية 158 من هذه السورة وفي غيرها، وجعل طاعته فيما أرسله به وحياً وبيانا للوحي عين طاعته كما في



سُورَةُ النَّسَاءِ ، فَلَا يَكُونُ وَلِيًّا مِنْ دُونِهِ بَلْ مِنْ عِنْدِهِ كَمَا بَيَّنَّاهُ  
فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (رُجُوعُ ص 272 - 275 ج 8 ط الْهَيْئَةِ) .

(285/302)

(4) حَظَرَ الْقَوْلَ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ بِتَشْرِيعِ أَوْ غَيْرِهِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الرَّدِّ عَلَى  
الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْآيَةِ أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا مَفَاسِدَ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ  
الشَّرِكِيَّةِ ص 354 - 357 ج 8 ط الْهَيْئَةِ . وَمِنْهُ يُعْلَمُ خَطَأَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْحُسْنَ وَالْقُبْحَ  
فِي الْأَشْيَاءِ مُطْلَقًا ، وَالَّذِينَ حَكَّمُوا الْعَقْلَ فِي التَّشْرِيعِ الدِّينِيِّ .

(5) كَوْنُ جَمِيعِ مَا يَشْرَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى حَسَنًا فِي نَفْسِهِ ، وَتَنْزِيهِهُ عَنِ الْأَمْرِ بِالْقَبِيحِ ، وَهُوَ نَصُّ  
قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ 28 وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ  
لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ 33 قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ إِنْ  
فَإِنَّ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ قُبْحُهُ وَعَظْمُ ، وَالْإِثْمُ مَا يَضُرُّ ، وَالْبَغْيُ تَجَاوُزُ حُدُودِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ

(286/302)

وَالشَّرْكَ بِاللَّهِ بغيرِ سُلْطَانٍ ، أَيُّ بُرْهَانٍ جَهْلٌ ، وَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ جَهْلٌ وَتَعَدَّ عَلَى حُقُوقِ الرَّبِّ تَعَالَى ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَبِيحٌ فِي نَظَرِ الْعَقْلِ ، وَبَعْضُهُ قَبِيحٌ فِي الْحِسِّ أَيْضًا ، فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فَهُوَ حَسَنٌ فِي نَفْسِهِ ، وَإِنْ خَفِيَ حُسْنُ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضِ ضُعْفَاءِ النَّاطِرِينَ ، وَكُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ فَهُوَ قَبِيحٌ فِي نَفْسِهِ ، وَإِنْ جَهِلَ قُبْحَهُ بَعْضُ الْغَاوِينَ ، وَلَكِنَّ الْعَقْلَ عَلَى إِدْرَاكِهِ لِذَلِكَ لَا يَسْتَقِلُّ بِمَعْرِفَةِ كُلِّ حَسَنٍ وَكُلِّ قَبِيحٍ بِالْإِحَاطَةِ وَالتَّحْدِيدِ ، بَلْ تُصَدِّهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَحَاسِنِ وَالْقَبَائِحِ التَّقَالِيدُ وَالْعَادَاتُ وَضَعْفُ النَّظَرِ وَالبَحْثِ .

(6) اسْتَوَاءُ الرَّبِّ عَلَى عَرْشِهِ وَعُلُوُّهُ عَلَى خَلْقِهِ ، وَهُوَ فِي الْآيَةِ 54 وَفِي تَفْسِيرِهَا

تَحْقِيقُ الْحَقِّ فِي مَذْهَبِ السَّلَفِ ، وَهُوَ فِي 401 ج 8 ط الْهَيْئَةِ .

(7 و 8) تَكْلِيمُ الرَّبِّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَسْأَلَةُ رُؤْيَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبَيَانُ ذَلِكَ فِي

تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي قَالَ لَنْ

تَرَانِي (143) إِلَخَ وَتَفْسِيرُهَا ص 107 - 168 ج 9 ط الْهَيْئَةِ . وَفِيهِ مِنَ التَّحْقِيقِ

وَالْحُكْمِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ مَا لَا نَجِدُ لَهُ نَظِيرًا فِي كِتَابِ ، لَا فِي أَصْلِ الْمَسْأَلَتَيْنِ ، وَلَا فِي

مُتَعَلِّقَاتِهِمَا ، كَتَجَلِّي الرَّبِّ سُبْحَانَهُ ، وَالْحُجُبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَتَجَلِّيهِ

فِي الصُّورِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَمَسَائِلِ الأَرْوَاحِ وَالْكَشْفِ والرُّؤْيَا وَالْعَمَلِ التَّوَمِيّ وَالْتَّوَمِيمِ  
المِغْنَاتِيْسِيّ ، وَأَنْوَاعِ مُدْرَكَاتِ النَّفْسِ ، وَمَادَّةِ الكَوْنِ الأَوَّلِيّ والنُّورِ وَالْكَهْرِبَاءِ ، وَمَا يُقَالُ  
مِنْ أَنَّهَا أَصْلُ هَذِهِ الكَائِنَاتِ ، وَالْخِلَافِ فِي إِمْكَانِ مَعْرِفَةِ كُنْهِ الخَالِقِ وَأَوَّلِ المَخْلُوقَاتِ ،  
وَمِنْهَا مَسَائِلُ الكَلَامِ وَمَرَاتِبُهُ ، وَمَنْ ذَكَرَ الحَرْفِ والصَّوْتِ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى . وَتَحْقِيقِ  
رُجْحَانِ مَذْهَبِ السَّلَفِ عَلَى جَمِيعِ مَذَاهِبِ المُتَكَلِّمِينَ ، وَفَلَسَفَتِهِمْ فِي الكَلَامِ والرُّؤْيَا  
وَسَائِرِ صِفَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَشُؤْنِهِ .

(9) هِدَايَةُ اللهِ وَإِضْلَالُهُ فِي آيَةِ 178 مِنْ يُهْدِي اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِيّ إلخ . وَآيَةُ 186 مِنْ يُضِلُّ  
اللهُ فَلَآ هَادِيَّ لَهُ (186) إلخ . وَفِي تَفْسِيرِهَا تَحْقِيقُ أَنَّ هَذَا الإِضْلَالَ لَا يَقْتَضِي الإِجْبَارَ  
، وَإِنَّمَا هُوَ مُقْتَضِي سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي خَلْقِ الإِنْسَانِ ، وَارْتِبَاطِ المُسَبِّبَاتِ مِنْ أَعْمَالِهِ  
بِالْأَسْبَابِ ، فَلَيْسَ حُجَّةً لِلْمُعْتَزَلَةِ وَمَنْ شَاعِبَهُمْ ، وَلَا لِلْأَشْعَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ (رَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي  
مَحَلِّهِ مِنْ هَذَا الجُزْءِ) وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَكْبُرُونَ فِي الأَرْضِ  
بِغَيْرِ الحَقِّ (146) وَكَذَلِكَ الطَّبَعُ عَلَى القُلُوبِ فِي آيَتِي 100 وَ101 كُلُّ ذَلِكَ بَيَانٌ  
لِسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي طَبَاعِ البَشَرِ وَأَعْمَالِهِمْ .

(10) الْكَلَامُ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَغْفِرَتِهِ ، وَمِنْهُ قُرْبُ رَحْمَتِهِ مِنَ الْمُحْسِنِينَ فِي آيَةِ 56  
وَكُونُهُ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ فِي الْآيَةِ 151 وَرَحْمَتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ لِلتَّائِبِينَ فِي الْآيَةِ 153 وَكَوْنُهُ خَيْرَ  
الْغَافِرِينَ 155 وَسَعَةُ رَحْمَتِهِ كُلِّ شَيْءٍ وَمَنْ يَكْتُبْهَا أَيْ يُوجِبْهَا لَهُمْ 156 .

(11) أَسْمَاءُ اللَّهِ الْحُسْنَى وَدُعَاؤُهُ بِهَا وَالْإِلْحَادُ فِيهَا ، وَهُوَ نَصُّ الْآيَةِ 180 وَفِي

تَفْسِيرِهَا

تَحْقِيقُ مَا وَرَدَ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ فِي الْقُرْآنِ ، وَحَدِيثُ إِنْ لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتَسْعِينَ اسْمًا الْخ  
(رَاجِعُ تَفْسِيرِهَا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ) .

(12) الْأَمْرُ بِذِكْرِ اللَّهِ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً سِرًّا وَجَهْرًا وَكَوْنُهُ غِذَاءَ الْإِيمَانِ ، وَبِعِبَادَتِهِ وَتَسْبِيحِهِ  
وَالسُّجُودِ لَهُ وَحُدُّهُ ، وَهُوَ فِي الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ خَتَمَ اللَّهُ بِهِمَا السُّورَةَ 205 وَ206 .

الْبَابُ الثَّانِي

الْوَحْيُ وَالْكِتَابُ وَالرِّسَالَةُ وَفِيهِ 3 فُصُولٌ فِيهَا 24 أَصْلًا أَوْ مَسْأَلَةً  
(مَا جَاءَ فِيهَا بِشَأْنِ الْقُرْآنِ)

(1) إِنْزَالُ الْقُرْآنِ عَلَى خَاتَمِ الرُّسُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلإِنذَارِ بِهِ وَذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ  
، وَهُوَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنَ السُّورَةِ ، وَفِيهَا نَهْيُ الرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِهِ حَرْجٌ مِنْهُ .

---

(2) أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِاتِّبَاعِ الْمَنْزَلِ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَاللَّيْتَعُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ وَهُوَ  
الآيَةُ الثَّانِيَةُ ، وَبَيَانُ أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ فَلَا يَرْجَى أَنْ يُؤْمِنُوا بِكِتَابٍ غَيْرِهِ ، كَمَا قَالَ فِي آخِرِ  
الآيَةِ 185 : فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ .

(3) وَصَفُهُ تَعَالَى لِلْقُرْآنِ بِأَنَّهُ فَصَّلَهُ عَلَى عِلْمٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، وَهُوَ نَصُّ الْآيَةِ

. 52

(4) بَيَانُهُ تَعَالَى لِمَا سَيَكُونُ عِنْدَ آيَاتِنَا الْقُرْآنِ ، أَيُّ ظُهُورِ صِدْقِهِ بِوُقُوعِ مَا أَخْبَرَ بِوُقُوعِهِ مِنْ  
أَمْرِ الْغَيْبِ ، وَهُوَ أَنَّ الَّذِينَ نَسُوهُ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا يُؤْمِنُونَ يَوْمَئِذٍ ، وَيَشْهَدُونَ لِجَمِيعِ  
الرُّسُلِ بِأَنَّهُمْ جَاءُوا بِالْحَقِّ ، وَيَتَمَنَّوْنَ الشُّفْعَاءَ أَوْ الرَّدَّ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا غَيْرَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ  
وَهُوَ فِي الْآيَةِ 53 .

(5) وَلَايَةُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِإِنزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ 196 (6) الْأَمْرُ بِالِاسْتِمَاعِ لِقِرَاءَةِ

الْقُرْآنِ ، وَالْإِنْصَاتِ لَهُ رَجَاءَ الرَّحْمَةِ بِسَمَاعِهِ وَالْإِهْتِدَاءِ بِهِ .

(290/302)

---

مَا جَاءَ فِيهَا خَاصًّا بِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (7) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ الثَّانِيَةِ : فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرْجٌ مِنْهُ أَيُّ : الْكِتَابِ ، هُوَ نَهْيٌ عَنِ ضَيْقِ الصَّدْرِ بِعَظَمَةِ الْقُرْآنِ ، وَجَلَالِ الْأَمْرِ الَّذِي أَنْزَلَ لِأَجْلِهِ ، وَشِدَّةِ وَقْعِ سُلْطَانِهِ فِي الْقَلْبِ ، أَوْ عَنِ ضَيْقِهِ بِمَشَقَّةِ الْإِنْذَارِ بِهِ ، وَالتَّصَدِّي لِهَدَايَةِ جَمِيعِ الْبَشَرِ ، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الشَّرْكُ وَالضَّلَالُ ، أَوْ بِمَا يَتَوَقَّعُ مِنْ شِدَّةِ مُعَارَضَةِ الْكُفَّارِ وَعُدْوَانِهِمْ - وَقِيلَ : هُوَ دُعَاءٌ ، وَقِيلَ : هُوَ حُكْمٌ مِنْهُ تَعَالَى بِمَضْمُونِهِ

(رَاجِعْ ص 269 وَمَا بَعْدَهَا ج 8

طالهيئة)

(8) أَمْرُهُ تَعَالَى لَهُ بِأَنْ يُعْزَّزَ بَأَنَّهُ هُوَ وَوَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ ، وَبِأَنَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ فَلَا خَوْفَ عَلَى اتِّبَاعِهِ مِنْ اضْطِهَادِ الْكُفَّارِ لَهُمْ ، وَهُوَ فِي آيَةِ 196 وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي مَسْأَلَةٍ أُخْرَى .

(9) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ 18 : أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةِ آيَةِ . وَهِيَ تَفْنِيدٌ لِرَمِي بَعْضِ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِيَّاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجُنُونِ ، يَعْنِي أَنَّ التَّفَكُّرَ الصَّحِيحَ فِي حَالِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَهَدْيِهِ وَسِيرَتِهِ ، وَفِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهُدَى يَنْفِي أَنْ يَكُونَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذْنَى مَسٍّ مِنَ الْجُنُونِ كَمَا زَعَمُوا ، فَمَا عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَتَفَكَّرُوا (رَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي مَحَلِّهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ)

(291/302)

---

(10) بَيَانُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُعْطَ عِلْمَ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاها ، وَمَتَى تَقُومُ ، بَلْ هُوَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الْخَاصِّ بِاللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ نَصُّ الْآيَةِ 187 .

(11) بَيَانُ أَنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ - أَيُّ وَلَا لِغَيْرِهِ بِالْأَوْلَى - نَفْعًا وَلَا ضَرًّا - إِلَّا مَا مَكَّنَّهُ اللَّهُ مِنْهُ بِتَسْخِيرِ الْأَسْبَابِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ - وَبَيَانُ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ مُؤَيَّدًا بِالِدَّلِيلِ الْحِسِّيِّ وَالْعَقْلِيِّ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188) رَاجِعُ تَفْسِيرَهَا فِي مَحَلِّهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ .

(292/302)

---

(12) بَيَانُ عُمُومِ بَعْثِهِ ، وَشُمُولِ رِسَالَتِهِ لِجَمِيعِ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ ، وَالشَّهَادَةُ لَهُ فِي كِتَابِهِمْ يَدُلُّ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ حَذْفُ مَفْعُولٍ لِنَذْرِهِ بِهِ فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ ، وَكَذَلِكَ الْخِطَابُ الْعَامُّ بَعْدَهُ فِي الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ النَّاسِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ . وَالنَّصُّ فِي إِرْسَالِهِ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيمَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ رَحْمَتَهُ : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ

وَالْإِنْجِيلِ (157) إِنْخ . وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا نُصُوصَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا فِيهَا  
(ص 199 - 255 ج 9 ط . الْهَيْئَةُ) .

وَأَمَّا النَّصُّ الصَّرِيحُ فِي عُمُومِ الرِّسَالَةِ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ  
جَمِيعًا (158) الْآيَةُ ، وَكَذَا كُلُّ خِطَابٍ خُوِطِبَ بِهِ بَنُو آدَمَ فِي الْآيَاتِ  
26 و 27 و 31 وَمَا بَعْدَهَا مِنْ آيَاتِ التَّشْرِيعِ الْعَامِّ ، وَلَكِنَّ هَذَا كَلَهُ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ أُمَّةٍ خَاتَمِ  
النَّبِيِّينَ ، وَأُمَمِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ، وَأَصْرَحَ مِنْهُ فِي الْأَشْتِرَاكِ الْعَامِّ مَا تَرَى فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ فِي  
الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ .

مَا وَرَدَ فِي الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ وَالرُّسُلِ

(293/302)

(13) بَعَثَ الرُّسُلَ إِلَى جَمِيعِ بَنِي آدَمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ  
يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي (35) إِنْخ . وَيَدُلُّ عَلَى إِرْسَالِهِمْ إِلَى الْأُمَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَكَمْ  
مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا (4) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ . فَالْمُرَادُ بِالْقُرَى الْكَثِيرَةِ أُمَّةُ الرُّسُلِ بِدَلِيلِ  
مَا بَعْدَهُ .

(14) سُؤْلُهُ الرُّسُلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ التَّلْبِيغِ وَسُؤَالِ الْأُمَّةِ عَنِ الْإِجَابَةِ وَهُوَ نَصُّ الْآيَةِ



## السَّادِسَةُ .

(15) جَزَاءُ نَبِيِّ آدَمَ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَطَاعَتِهِمْ ، وَعَلَى تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ

عَنِ اتِّبَاعِهِمْ وَهُوَ فِي الْآيَتَيْنِ 35 و 36 .

(16) وَظِيْفَةُ الرُّسُلِ تَبْلِيغُ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ : بِشَارَةٍ وَإِنذَارًا ، قَوْلًا وَعَمَلًا ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي

الآيَاتِ : 2 و 62 و 93 و 188 .

(17) أَوَّلُ مَا دَعَا إِلَيْهِ الرُّسُلُ تَوْحِيدُ الْأُلُوْهِيَّةِ بِالْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَنَفْيُ عِبَادَةِ إِلَهٍ

غَيْرِهِ ، كَمَا هُوَ صَرِيحٌ فِي الْآيَاتِ 59 و 65 و 70 و 73 و 85 .

(18) مَجِيءُ الرُّسُلِ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهِيَ تَشْمَلُ الْآيَاتِ الْكُوْنِيَّةِ وَالْحُجَجَ الْعَقْلِيَّةَ

كَمَا تَرَى فِي الْآيَاتِ 13 و 85 و 103 و 105 و 107 و 108 .

(294/302)

(19) الْآيَاتُ الْكُوْنِيَّةُ الَّتِي أَيْدَى اللَّهُ تَعَالَى بِهَا رُسُلَهُ هِيَ حُجَّةٌ لَهُمْ عَلَى الْأُمَّمِ ، وَهِيَ غَيْرُ

مُقْتَضِيَّةٍ لِلإِيْمَانِ اقْتِضَاءً عَقْلِيًّا ، وَلَا مُلْجِئَةً إِلَيْهِ طَبْعًا ، وَلَوْ كَانَتْ مُقْتَضِيَّةً لَهُ قَطْعًا أَوْ مُلْجِئَةً

إِلَيْهِ طَبْعًا لَمَا تَخَلَّفَ عَنْهَا ، وَلَكَانَ خِلَافَ مُقْتَضَى التَّكْلِيفِ الْمُنْبِيِّ عَلَى الْإِخْتِيَارِ ،

وَالْمُلْجَأُ لَا يَسْتَحِقُّ جَزَاءً . وَنَحْنُ نَرَى فِي قِصَّةِ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ

وغيرها أن السحرة قد آمنوا يقيناً على علم، وأن الجماهير من قومه ظلوا على كفرهم،  
ولكن الله تعالى أخبرنا في سورة النمل أنه لما جاءهم آية

(295/302)

الكبرى قالوا إنها لسحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً (27: 14)  
أي: عاندوا موسى عليه السلام عناداً يظهار الكفر بها في الظاهر مع استيقانها في  
الباطن، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء في الأرض، وهذا وصف  
فرعون ومثله أي كبار رجال دولته، إذ من المعلوم أن سائر الشعب كان مستذلاً وهو  
مقلد للرؤساء لجهله، وقد صدقهم في قولهم: إن موسى ساحر، وإن السحرة كانوا  
مواطنين معه، ولذلك أظهروا الإيمان به لأجل إخراج فرعون ورجال دولته من مصر،  
والتمع بكبرياء الملك بدلاً منهم كما تدل عليه آيات أخرى، ولو فهم جمهور الشعب من  
الآيات ما فهموا لآمن كما آمنوا؛ لأنه لم يكن لديه من عمو العلو والكبرياء ما يصرفه عن  
الإيمان، ولا شك أن السحرة كانوا أكرم منزلة في الدولة من سائر الشعب، ولكن كرامتهم  
لم تكن بالغة درجة العظمة والعلو المانعة لصاحبها من تركها لأجل الحق، وقد امتاز خاتم

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَأْنُ جَعَلَ اللَّهُ آيَةَ نُبُوَّتِهِ الْكُبْرَى عِلْمِيَّةً لَا صُعُوبَةَ فِي فَهْمِ دَلَالَتِهَا  
عَلَى عَامِّيٍّ وَلَا خَاصِّيٍّ ، عَلَى أَنَّهُ أُيِّدُهُ فِي زَمَنِهِ بَعْدَ آيَاتِ كُوتَيْبَةَ .

(296/302)

(20) نَصِيحَةُ الرُّسُلِ لِلأُمَّمِ وَأَمْرُهُمْ بِالْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ وَنَهْيُهُمْ عَنِ الضَّدِّهِمَا كَمَا فِي الآيَاتِ  
62 و 63 و 68 و 74 و 79 و 80 و 85 و 86 و 93 .

(21) شُبُهَةُ الأُمَّمِ عَلَى الرُّسُلِ الَّتِي أَثَارَتْ تَعْجِبُهُمْ وَأَسْتِنكَارَهُمْ هِيَ كَوْنُ مُدَّعِي الرِّسَالَةِ  
رَجُلًا مِثْلَهُمْ كَمَا فِي الآيَةِ 63 و 69 .

(22) اتِّهَامُ الْكُفَّارِ رُسُلَ اللَّهِ بِالسِّحْرِ كَمَا فَعَلَ فِرْعَوْنُ وَالْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ بِاتِّهَامِ مُوسَى فِي الآيَةِ  
109 وَمَا يَلِيهَا مِنَ الآيَاتِ فِي قِصَّةِ سِحْرَةِ الْمِصْرِيِّينَ مَعَ مُوسَى . وَهِيَ شُبُهَةُ جَمِيعِ أَقْوَامِ  
الرُّسُلِ عَلَى آيَاتِهِمْ مِنْ حَيْثُ إِنَّ كَلِمَةً مِنْهَا أَمْرٌ غَرِيبٌ لَا يَعْرِفُونَ سَبَبَهُ ، وَمِنْ خَطِّ الْمُتَكَلِّمِينَ  
التَّفْرِقَةُ بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَالسِّحْرِ بِاخْتِلَافِ حَالِ الْأَشْخَاصِ ، وَقَدْ عَقَدْنَا فِي تَفْسِيرِ الآيَاتِ  
فَصْلًا فِي حَقِيقَةِ السِّحْرِ وَأَنْوَاعِهِ لَا يَجِدُ الْقَارِئُ مِثْلَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ تَفَاسِيرِنَا وَكُتُبِنَا  
الْكَلَامِيَّةِ وَهُوَ فِي ص 41 - 52 ج 9 ط الهَيْئَةِ .

(23) عِقَابُ الأُمَّمِ عَلَى تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَهُوَ فِي الآيَاتِ 64 و 72 و 78 و 84 و 91

و92، و133، و136، و137 .

(24) قِصَصُ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ . وَهِيَ مِنْ آيَةِ 59 إِلَى 93 ،

(297/302)

---

وَقِصَّةِ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَسِحْرَتِهِ مِنْ آيَةِ 103 إِلَى 137 ، وَقِصَّةِ مَعَ قَوْمِهِ  
وَحَدُّهُمْ مِنْ 138 - 171 وَفِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْفَوَائِدِ مَا ذُكِرَ بَعْضُهُ فِي أَبْوَابِ مِنْ هَذِهِ  
الْخُلَاصَةِ ، وَيَقِي مَا سَبَّبَ أَنْزَالَهَا وَأَنْزَالَ غَيْرَهَا مِنَ الْمَقَاصِدِ الْمُصْرَحِ بِهَا فِي غَيْرِ هَذِهِ  
السُّورَةِ ، كَكُونِهَا مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ الْمَاضِيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ وَحْيًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تِلْكَ  
مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا (11 : 49)  
وَكُونِهَا تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا يَلَاقِي مِنْ إِعْرَاضِ الْمُشْرِكِينَ وَأَذَاهُمْ ، وَنَشِيئًا  
لِقَلْبِهِ فِي التُّهُؤُوسِ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا  
نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ (11 : 120) - وَكُونِهَا مَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي تِمَّةِ  
هَذِهِ الْآيَةِ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَكُونِهَا عِبْرَةٌ عَامَّةٌ لِلْعُقَلَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ  
الْمُسْتَعْدِينَ لِلْإِعْتِبَارِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : لَقَدْ كَانَ فِي قِصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (12 :  
111) وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا سَنُفَصِّلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ هُودٍ . فَقَدْ طَالَ

تفسير هذه السورة جداً .

الباب الثالث عالم الآخرة والبعث والجزاء .

(وفيه 12 أصلاً) .

(298/302)

(الأصل الأول) البعث والإعادة في الآخرة، وهو قوله تعالى في الآية 25: وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ

وفي 29: كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ وفيه دليل على إمكان البعث؛ لأنه كالبدء أو أهون على

المبدئ بداهة، فكيف وهو القادر على كل شيء بدءاً وإعادة على سواء - وفي الآية

57 تشبيه إخراج الموتى بإخراج النباتات من الأرض الميتة بعد إنزال المطر عليها . وهذا

التشبيه يتضمن البرهان الواضح على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى بعد فناء

أجسادهم، وقد أطلعنا في تفسيرها الكلام في المسألة

من الجهة العلمية المتعلقة بالعلوم العقلية والكوتبية (قراجم في 418 - 427 ج 8 ط

الهيئة) .

(الأصل الثاني) وزن الأعمال يوم القيامة، وترتيب الجزاء على ثقل الموازين وخفتها وهو

في الآيتين الثامنة والتاسعة .

(الأصل الثالث) سُؤَالُ الرُّسُلِ فِي الْآخِرَةِ عَنِ التَّلْبِيغِ وَآثَرِهِ ، وَسُؤَالُ الْأُمَمِ عَنِ إِجَابَةِ الرُّسُلِ وَهُوَ فِي الْآيَةِ السَّادِسَةِ .

(الأصل الرابع) كَوْنُ الْجَزَاءِ بِالْعَمَلِ ، وَجَزَاءُ الْمُكَذِّبِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَالظَّالِمِينَ ، وَدُخُولُ الْأُمَمِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فِي النَّارِ ، وَلَعْنُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، وَشَكْوَى بَعْضِهِمْ مِنْ إِضْلَالِ بَعْضٍ ، وَالِدُعَاءُ عَلَيْهِمْ بِمُضَاعَفَةِ الْعَذَابِ ، وَتَحَاوُرُهُمْ فِي ذَلِكَ ، رَاجِعَ الْآيَاتِ 36 - 41 و 147 و 179 .

(299/302)

(الأصل الخامس) جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ الْمُصْلِحِينَ فِي الْآيَةِ 35 ، وَجَزَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَإِيرَاثُهُمُ الْجَنَّةَ وَحَالُهُمْ وَمَقَالُهُمْ فِيهَا ، وَذَلِكَ فِي الْآيَتَيْنِ 42 و 43 ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الزَّيْنَةِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ مِنَ الْآيَةِ 32 : قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

(الأصل السادس) إِقَامَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْحُجَّةَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ (44) إلخ . وَفِي تَفْسِيرِهَا بَيَانٌ لِمَا فِي صِنَاعَاتِ هَذَا الْعَصْرِ مِنْ

إِزَالَةَ الْأَسْتِغْرَابِ مِنْ تَحَاوُرِ النَّاسِ مَعَ بُعْدِ الْمَسَافَاتِ بَيْنَهُمْ رَاجِعٌ 377 وَمَا  
بَعْدَهَا ج 8 ط الْهَيْئَةِ .

(الْأَصْلُ السَّابِعُ) الْحِجَابُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَهُوَ الْأَعْرَافُ وَأَهْلُهُ وَتَسْلِيمُهُمْ  
عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ وَخَطَأُ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ فِي النَّارِ بِمَا يُذَكِّرُهُمْ بِضَلَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا  
وَغُرُورِهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ الْخ . وَهُوَ فِي الْآيَاتِ 46 - 49 .

(300/302)

(الْأَصْلُ الثَّامِنُ) نِدَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ : أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا  
رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَجَوَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَهُمْ فِي الْآيَةِ (50) (الْأَصْلُ التَّاسِعُ) اعْتِرَافُ أَهْلِ النَّارِ فِي  
الْآخِرَةِ بِصِدْقِ الرُّسُلِ ، وَتَمَنِّيهِمْ الشُّفْعَاءَ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ ، أَوْ الرَّدَّ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا غَيْرَ الَّذِي  
كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَحُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ  
مِنَ الْقَوْلِ بَأَنَّ مَنْ كَانُوا

يَدْعُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا سَيَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ . وَهُوَ فِي الْآيَةِ (53) (الْأَصْلُ الْعَاشِرُ) الدُّعَاءُ  
بِخَيْرِ الْآخِرَةِ مَعَ الدُّنْيَا ، وَهُوَ مَا وَرَدَ فِي دُعَاءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى حِكَايَةً  
عَنْهُ : وَكَتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ (156) فَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ

تَشْرِيعًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَعَايَةَ دِينِ اللَّهِ عَلَى السَّنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ كَمَا تَرَى بَيَانَهُ فِي  
السُّنَّةِ 4 مِنْ الْبَابِ السَّادِسِ .

(الأصل الحادي عشر) صفة أهل جهنم: ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم  
قلوب لا يفقهون بها (179) إلخ . وفي تفسيرنا لها من العلم والحكمة ما لا تجد مثله في  
تفسير ، ولا في كتاب آخر - فراجعهُ بموضعه في هذا الجزء .

(301/302)

(الأصل الثاني عشر) مسألة قيام الساعة ، وكونها تأتي بغتة وهي في الآية 187 وفي  
تفسيرها مباحث مسائل مبتكرة في أشراطها .

الباب الرابع

أصول التشريع وفيه 9 أصول

(الأصل الأول) بيان أن شارع الدين هو الله تعالى كما في الآية الثانية من السورة ، وتقدم في  
الباب الأول من هذه الخلاصة ، وهناك قد ذكر من حيث إنه حق الرب سبحانه وتعالى ،  
ويذكر هنا من حيث إنه الأصل الأول من أصول الأحكام الشرعية . والمراد بشرع الدين  
والتشريع الديني: ما يجب اتباعه وجوبا دينيا على أنه قرينة يثاب فاعله ، ويعاقب تاركه



فِي الْآخِرَةِ . وَأَمَّا التَّشْرِيعُ الدُّنْيَوِيُّ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي مَصَالِحِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةَ فَقَدْ أَدْنَى  
اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لِلرَّسُولِ ، وَأَوْلِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ بِالتَّفْصِيلِ الْوَاسِعِ  
فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (4)  
: (59)

وَأَشْرَطَ فِي هَذَا الْإِذْنِ أَنْ يُرَدَّ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، بِالرُّجُوعِ إِلَى  
الْكِتَابِ ، وَإِلَى الرَّسُولِ فِي عَهْدِهِ ، وَإِلَى سُنَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، كَمَا هُوَ صَرِيحٌ فِي بَقِيَّةِ الْآيَةِ مَعَ  
بَيَانِ عِلَّتِهِ (رَاجِعُ تَفْسِيرِهَا فِي ص 146 - 180 ج 5  
ط الْهَيْئَةِ) .

(302/302)

---

(الْأَصْلُ الثَّانِي) تَحْرِيمُ التَّقْلِيدِ فِي الدِّينِ ، وَالْأَخْذُ فِيهِ بِأَرَاءِ الْبَشَرِ ، وَهُوَ نَصُّ النَّهْيِ فِي الْآيَةِ  
الثَّلَاثَةِ مَعْطُوفًا عَلَى الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ إِلَى النَّاسِ مِنْ رَبِّهِمْ وَهُوَ : وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ  
(7 : 3) وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ الْمُفَسِّرُونَ . وَمِنَ النَّصُوصِ فِي بَطْلَانِهِ الْإِنْكَارُ عَلَى احْتِجَاجِ  
الْمُشْرِكِينَ بِهِ فِي الْآيَةِ 28 : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا الْآيَةُ  
(رَاجِعُ تَفْسِيرِهَا فِي ص 332 وَمَا بَعْدَهَا ج 8 ط الْهَيْئَةِ) وَفِي الْآيَةِ 173 .

(الأصل الثالث) تَعْظِيمُ شَأْنِ النَّظْرِ الْعَقْلِيِّ وَالتَّفَكُّرِ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانَ بِهِ ،  
وَمَعْرِفَةِ آيَاتِ اللَّهِ وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ وَفَضْلِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ 33 :  
وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا السُّلْطَانُ : الْبُرْهَانُ ، فَتَقْيِيدُ تَحْرِيمِ الشِّرْكِ بِاتِّفَاقِهِ  
تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي آخِرِ الْآيَةِ 169 : أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَسَيَذُكُرُ فِي الْأَصْلِ الرَّابِعِ .  
وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ ضَرْبِ الْمَثَلِ لِلْمُكْذِبِينَ بِآيَاتِهِ مِنْ آيَةِ 176 : فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ  
يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ 184 : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ وَفِي الْآيَةِ 185 :  
أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا خ . - وَالْآيَةُ الْجَامِعَةُ  
فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا  
وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ  
الْغَافِلُونَ (179) وَهِيَ شَامِلَةٌ لِلنَّظْرِ الْعَقْلِيِّ الْمَحْضِ ، وَلِكُلِّ مَا كَانَ مَصْدَرَهُ الرَّؤْيِيَّةَ  
وَالسَّمَاعَ ، وَهُمَا أَعَمُّ وَأَكْثَرُ مَصَادِرِ الْعِلْمِ .

(الأصل الرابع) تعظيم شأن العلم الشامل للعلم التلقيني وهو ما أنزل الله من الكتاب والحكمة ، وما بينه به رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنة ، والعلم المستفاد من الحس والعقل ، والمراد من العلم هنا متعلق المصدر وهو المعلومات ، ففارق ما قبله . ومن الآيات في ذلك قوله في آخر الآية 28 : أتقولون على الله ما لا تعلمون وقوله في آخر الآية 32 : كذلك فصل الآيات لقوم يعلمون وهي من النوع الثاني ولأن موضوع الآية مسألة الأمر بالآكل من الطيبات وبالزينة والإنكار على من حرمهما ، وهي من مسائل علم الاجتماع والمصالح البشرية كما فصلناه في تفسيرها ، راجع ص 338 وما بعدها ج 8 ط الهيئة وقوله تعالى في آخر آية 33 التي بين فيها أنواع المحرمات العامة : وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون السلطان البرهان - وقوله تعالى في آخر آية 131 : ولكن أكثرهم لا يعلمون وهو في زعم آل فرعون وخرافاتهم أن ما ينالهم من الحسنات

(305/302)

والخيرات فهو حق لهم ، وأن ما ينالهم من السيئات فهو بشؤم موسى وقومه وتطيرهم بهم . والعلم المنفي عنهم هنا هو العلم بسنن الله في طباع البشر والأسباب والمسببات في

العالم - وقوله تعالى في حكاية توبيخ موسى عليه الصلاة والسلام لقومه على مطابقتهم إياه بأن يجعل لهم إلهًا كالله الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم من آخر الآية 138 إنكم قوم تجهلون وما علل به الحكم بجهلهم في الآيتين بعدها ، فهذه جامعة لبيان فضل العلم النقلي والعلم العقلي ، ودم الجهل بهما معا ، فإن موسى عليه السلام علل تجهيلهم أولا بعلّة عقليّة ، وثانيا بعلّة دينيّة عقليّة . فراجع تفسيرهنّ في (ص 91 - 101 ج 9 ط الهيئة) وقوله تعالى في الآية 169 : ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه وهو من العلم النقلي ، ولكنه أيد بالعقلي في ختم الآية بقوله أفلا تعقلون .

(306/302)

---

فهذه الشواهد على هذا الأصل ، وما قبله المؤيدة بأضعافها في السور الأخرى ، ثبتت تعظيم القرآن لسان التفكير والنظر والاستدلال لتحصيل العلم بالله وشرائعه المنزلة ، وسننه وآياته في خلقه ونعمه على عباده - وتعظيم شأن جميع العلوم النافعة من نقلية وعقلية وهي حجة على نقص أهل الجهل بها .

(307/302)

(الأصلان الخامس والسادس) أمر الناس بأخذ زينتهم عند كل مسجد، وبالأكل والشرب من الطيبات المستلذات، والإنكار على من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات ومن الرزق، وبيان أنها حق للذين آمنوا في الحياة الدنيا أولاً، وبالذات بقيد عدم الاعتداء والإسراف فيها، وإن شاركهم غيرهم فيها بعموم فضل الله لا باستحقاقهم، وأنها تكون خالصة لهم في الآخرة، وذلك نص الآيتين 31 و32 وهذان الأصلان هما الركنان اللذان يقوم عليهما بناء الحضارة بعلمها وفنونها وصناعاتها، وإظهارها لما في هذا الكون من سنن الله تعالى وآياته، وأسرار صنعه الدالة على توحيده وقدرته وحكمته وإحسانه على عباده - وهما المبتلان لأساس الديانة البرهمية من جعل مقصد الدين تعذيب النفس، وحرمانها من الزينة واللذة، وقد هم في ذلك النصارى، وأبتدعوا الرهبانية لأجله، ولم يقفوا عند حد تقليد هم في الدنيا حتى زعموا أن دار النعيم في الآخرة خالية من اللذات الجسدية، وليس فيها إلا النعيم الروحاني، خلافاً لبعض تصريحات الإنجيل من شرب الخمر في الملكوت، وكون الصائمين والجياع والعطاش من أجل البر يشبعون هنالك .

---

وَلَمَّا كَانَ الْغُلُوفُ فِي الدِّينِ كَغَيْرِهِ مِنْ أُمُورِ الْبَشَرِ يَقْوَى الْأَسْتِعْدَادُ لَهُ فِي بَعْضِ النَّاسِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ  
، بَدَأَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ الْمُبَالِغِينَ فِي الْعِبَادَةِ بِتَرْكِ أَكْلِ اللَّحْمِ ، وَهَمَّ بَعْضُهُمْ بِالْاِخْتِصَاءِ ،  
فَنَهَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ ، وَعَنِ الْمُبَالِغَةِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَنَزَلَ فِي شَأْنِهِمْ :  
لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا (5 : 87) الْآيَاتُ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَهِيَ  
بِمَعْنَى مَا هُنَا .

وَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ كُلَّهُ بَعْضُ مُسْلِمِي الْمُتَصَوِّفَةِ مِنَ الْغُلُوفِ فِي تَرْكِ الزَّيْنَةِ وَالطَّيِّبَاتِ ، وَصَارَ  
الْجَاهِلُونَ بِكُنْهِ الْإِسْلَامِ يُعَدُّونَ الْغُلُوفَ فِي ذَلِكَ هُوَ الْكَمَالُ فِي الدِّينِ ، وَأَهْلُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ  
الْمُقَرَّبِينَ ، وَإِنْ كَانُوا جَاهِلِينَ خُرَافِيِّينَ . وَيُرَاجَعُ مَا فِي تَفْسِيرِنَا لِلآيَتَيْنِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْحِكْمِ  
وَالْفَوَائِدِ ، وَمِنْهَا مَا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ فِي بَالِ أَحَدٍ مِنْ مُفَسِّرِينَا الْمُتَقَدِّمِينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى  
(ص 338 - 350 ج 8 ط الهيئة) .

(309/302)

---

(الأصل السَّابِعُ) هِدَايَةُ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ بِهِ ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ خِيَارَ قَوْمِ  
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آيَةِ 159 ، وَخِيَارَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْآيَةِ

181 ، فهذا من أصول دين الله العامة في جميع شرائعه . والحق هو الأمر الثابت  
المتحقق في الشرع إن كان شرعياً ، وفي الواقع ونفس الأمر إن كان أمراً وجودياً ، والعدل  
ما تحري به الحق من غير ميل إلى طرف من الطرفين أو الأطراف المتنازعة فيه أو  
المتعلقة به . ويدخل في هذا الأصل الدعوة إلى الحق والخير والأمر بالمعروف والنهي  
عن المنكر ، والتضحية العامة والخاصة والإصلاح بين الناس .

(310/302)

---

ومنه الأمر بالعدل المطلق في الأحكام والأعمال بقوله : قل أمر ربي بالقسط (29) وهذا  
هو الأصل العام لجميع الأحكام بين الناس . كما قال تعالى في سورة النساء المدية إذ  
صار للأمم حكم ودولة : وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل (4 : 58) وفي  
سورة النساء والمائدة آيات أخرى في وجوب عموم العدل والمساواة فيه بين المؤمنين  
والكافر والبر والفاجر والغني والفقير والقريب والبعيد ، وقد تقدمت مع تفسيرها . فمن  
تحرى العدل بغير محاباة وعرف مكانه فحكم به ، كان حاكماً بحكم الله تعالى من غير  
حاجة إلى

نص خاص في الشريعة به ، فإن وجد النص كانت الثقة بالعدل تتم بل لا حاجة مع النص

إِلَى الْجِتْهَادِ ، كَمَا أَنَّ الْجِتْهَادَ الْمُخَالَفَ لِلنَّصِّ الْخَاصِّ أَوْ لِلْعَدْلِ الْعَامِّ بَاطِلٌ .  
(الأصل الثامن) حَصْرُ أَنْوَاعِ الْمُحَرَّمَاتِ الدِّينِيَّةِ الْعَامَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي  
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ  
سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33) يُرَاجَعُ بَيَانُ وَجْهِ الْحَصْرِ فِي تَفْسِيرِهَا  
(ص 351 - 357 ج 8 ط الهيئة) .

(311/302)

الأصل التاسع) بَيَانُ أَصُولِ الْفَضَائِلِ الْأَدْبِيَّةِ وَالتَّشْرِيْعِيَّةِ الْجَامِعَةِ بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ مُعْجِزَةٍ فِي  
قَوْلِهِ تَعَالَى : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُهَا فِي  
مَوْضِعِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ .

الباب الخامس

فِي آيَاتِ اللَّهِ وَسُنَنِهِ فِي الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ

(وفيه 14 أصلاً)

(1) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَاسْتَوَّاهُ عَلَى عَرْشِهِ ، وَنَظَّمَ اللَّيْلَ  
وَالنَّهَارَ ، وَتَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ بِأَمْرِهِ ، وَكَوَّنَ الْخَلْقَ وَالْأُمَّرَ لَهُ وَحْدَهُ ، وَذَلِكَ فِي



الآية 54 وهي تتضمن الترغيب في علمي الفلك والجغرافية الطبيعية دون علم التنجيم الخرافي، وقد بلغ أهل الغرب من العلم بذلك ما لو ذكر أبسطه وأبعده عن الغرابة في غير هذا العصر لقال فيه أذكي العقلاء إنه من هذيان المجانين، أو تخيل الحشاشين، ولا يوجد علم أدل على عظمة الخالق وقدرته وسعة علمه، ودقة حكمته من علم الفلك، وقد كان قومنا العرب في عهد حضارتهم الإسلامية أعلم البشر به، فصاروا أجهلهم به.

(312/302)

(2) خلق الله الرياح والمطر وأحيأوه الأرض به، وإخراج الثمرات والخشب وضده، وذلك في الآيتين 57 و58 وذلك يتضمن الترغيب في العلم بسنن الله تعالى في هذه المخلوقات، كما قلناه فيما قبله؛ لأن في العلم بذلك كله من معرفة آيات الله، وكمال صفاته ما يعطي مآمله اليقين في الإيمان إذا قصده، ويغدق عليه نعمة التي من عليه بها، ويعدده لشكرها فتجمع له بذلك سعادة الدارين، وقد اتسعت علوم بعض البشر بذلك فاستحوذوا على أكثر خيرات الأرض في بلادهم، وبلاد الجاهلين بها، الذين أضاع الجهل عليهم دنياهم ودينهم بالتبع لها.

(3) خلق الله الناس من نفس واحدة، وخلق زوجها منها ليسكن إليها، وإعداد

الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرِ وَالْأُنثَى لِلتَّنَاسُلِ كَمَا فِي الْآيَةِ 189 وَفِي قِصَّةِ جَنَّةِ آدَمَ وَمَعْصِيَتِهِ وَتَوْبَتِهِ مِنْ  
الآيَاتِ 19 - 25 بَعْضُ صِفَاتِ النَّشْأَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَاسْتِعْدَادِهَا وَحَالَهَا فِي سُكْنَى الْأَرْضِ

(313/302)

(4) تَفْضِيلُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ عَلَى مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، كَمَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَقَدْ  
خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ  
السَّاجِدِينَ (11) وَيَبَيِّنُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِالتَّفْصِيلِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لِأَنَّهَا أَوْسَعُ  
تَفْصِيلًا لِمَا تَقْتَضِيهِ قِصَّةُ آدَمَ الْمُطَوَّلَةِ فِيهَا ، وَالتَّصْرِيحُ فِيهَا بِجَعْلِ آدَمَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ،  
وَفِي بَابِ التَّأْوِيلِ هُنَاكَ سَبْحٌ طَوِيلٌ لِلْإِمَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ فِيمَا  
نَعْلَمُ . فَيُرَاجَعُ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ .

(5) خَلَقَ نَبِيَّ آدَمَ مُسْتَعِدِّينَ لِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِشْهَادُ الرَّبِّ إِيَّاهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُ رَبُّهُمْ ،  
وَشَهَادَتُهُمْ بِذَلِكَ بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ ، وَمَا مُنَحُوهُ مِنَ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ ، وَحُجَّتُهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ  
بِذَلِكَ كَمَا فِي الْآيَتَيْنِ 172 و 173 فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُهُمَا فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ .

وَكَذَآ خَلَقَهُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِلشَّرِكِ ، وَمَا يَتَّبَعُهُ مِنَ الخُرَافَاتِ كَمَا فِي الآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنْهُمَا وَالآيَةِ

. 190

(314/302)

(6) ضَرْبُ المَثَلِ لِاخْتِلَافِ اسْتِعْدَادِ البَشَرِ لِكُلِّ مِنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْبِرِّ وَالْإِثْمِ ، وَعَلَامَةٌ كُلِّ مِنْهُمَا فِيهِمْ ، وَكُونُهُمْ يُعْرَفُونَ بِثَمَارِهِمْ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يُخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا (58) ، وَفِيهِ إِرْشَادٌ إِلَى طَلَبِ مَعْرِفَةِ الشَّيْءِ بِأَثَرِهِ ، وَمَعْرِفَةِ الأَثَرِ بِمُصْدَرِهِ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فِي الأَشْيَاءِ خَبِيثًا وَطَيِّبًا ، وَجَيِّدًا وَرَدِيًّا ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثٌ : النَّاسُ مُعَادِنٌ كَمُعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِخْ وَهُوَ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا .

(7) الكَلَامُ فِي إبْلِيسَ وَهُوَ الشَّيْطَانُ وَعَدَاوَتُهُ لِآدَمَ ، وَامْتِنَاعُهُ مِنَ السُّجُودِ لَهُ ، وَوَسْوَاسَتِهِ لَهُ وَلِزَوْجِهِ بِالْإِغْرَاءِ بِالمَعْصِيَةِ بِالأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ وَعَاقِبَةُ ذَلِكَ . وَهُوَ فِي الآيَاتِ 20 - 25 وَكُونُهُ مِنَ المُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ .

(8) عَدَاوَةُ إبْلِيسَ وَالشَّيَاطِينِ مِنْ نَسْلِهِ لِنبِيِّ آدَمَ ، وَتَزْيِينُهُمْ لَهُمُ الشَّرَّ وَالبَاطِلَ ، وَإِغْرَاؤُهُمْ بِالفَسَادِ وَالمَعَاصِي وَحِكْمَةُ ذَلِكَ ، وَهِيَ فِي الآيَاتِ 16 و17 و20 - 22 و27 وَتَحْذِيرُهُمْ مِنْهُ فِي الآيَةِ 27 مَعَ بَيَانِ أَنَّهُ يَرَاهُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُمْ .

(9) نَزَعَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ ، وَمُقَاوَمَتُهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَكَوْنُ الْمُتَّقِينَ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْهُ تَذَكُّرًا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ لَا تَطُولُ غَفْلَتُهُمْ فَيَغْرَهُمْ وَسَوَاسُهُ ، وَذَلِكَ فِي الْآيَةِ 200 - 202 .

(315/302)

(10) بَيَانُ أَنَّ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ، مِنْ بَنِي آدَمَ وَهُوَ فِي فَاصِلَةِ الْآيَةِ 27 وَبَيَانُ أَنَّ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ يُمْكِنُ الشَّيَاطِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بَعْدَ تَقْوَاهُمْ ، فَهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ وَلَا يُقْصِرُونَ فِيهِ ، وَذَلِكَ نَصُّ الْآيَةِ 202 .

قَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فِي تَفْسِيرِنَا هَذَا عَلَى مَبَاحِثِ الشَّيَاطِينَ وَالْجِنِّ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعَ قَدْ أَحَلَّنَا عَلَيْهَا فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ الْأَعْرَافِ ، وَزِدْنَا عَلَى ذَلِكَ عَقْدَ فَضْلِ اسْتِطْرَادِيٍّ فِي حِكْمَةِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى الْخَلْقَ ، وَاسْتِعْدَادِ الشَّيْطَانِ وَالْبَشَرِ لِلشَّرِّ . فَيُرَاجَعُ (فِي ص 302 - 306 ج 8 ط الْهَيْئَةِ) .

(11) مِنَّةُ اللَّهِ عَلَى الْبَشَرِ بِتُمْكِينِهِمْ فِي الْأَرْضِ ، وَتَسْهِيلِ أَسْبَابِ الْمَعَايِشِ لَهُمْ كَمَا فِي الْآيَةِ 10 ، وَمِنْ الشُّكْرِ الْوَاجِبِ لَهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ طَلَبِ سَعَةِ الْعِلْمِ بِاسْتِعْمَارِ الْأَرْضِ وَوَسَائِلِ الْمَعَايِشِ .

(12) مِنَّةُ اللَّهِ عَلَى الْبَشَرِ بِاللَّبَاسِ وَالزَّيْنَةِ كَمَا فِي الْآيَةِ 26 وَرَاجِعٌ فِي ذَلِكَ الْأَصْلَيْنِ 5  
و6 مِنَ الْبَابِ الرَّابِعِ مِنْ هَذِهِ الْخُلَاصَةِ .

(13) صِفَاتُ شِرَارِ الْبَشَرِ الْمُسْتَحِقِّينَ لْجَهَنَّمَ ، وَهُمْ الَّذِينَ أَهْمَلُوا اسْتِعْمَالَ عُقُولِهِمْ  
وَحَوَاسِهِمْ فِيمَا خُلِقَتْ لِأَجَلِهِ مِنْ اقْتِبَاسِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ - وَذَلِكَ نَصُّ الْآيَةِ 179 وَذِكْرَتْ  
فِي أَصْلِ الْجِزَاءِ فِي الْآخِرَةِ (وَهُوَ 11 مِنَ الْبَابِ الثَّلَاثِ) وَفِي تَعْظِيمِ شَأْنِ النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ  
لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ (وَهُوَ الْأَصْلُ 3 مِنَ الْبَابِ 4) .

(316/302)

(14) آيَاتُهُ تَعَالَى وَنِعْمُهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَتُرَاجِعُ فِي قِصَّةِ مُوسَى مَعَهُمْ .

الْبَابُ السَّادِسُ

فِي سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْاجْتِمَاعِ وَالْعُمَرَانِ الْبَشَرِيِّ

(وَفِيهِ 7 أُصُولٌ)

(1) إِهْلَاكُ اللَّهِ الْأُمَّمَ بِظُلْمِهَا لِنَفْسِهَا وَلِغَيْرِهَا ، كَمَا فِي الْآيَتَيْنِ 4 وَ5 وَمِصْدَاقُهُ فِي خَلْقِ

آدَمَ الَّذِي هُوَ عُنْوَانُ الْبَشَرِيَّةِ ، وَجَعَلَهُ تَعَالَى الْمَعْصِيَةَ بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ ظُلْمًا لِنَفْسِ فِي

الْآيَةِ 19 وَاعْتِرَافِ آدَمَ وَحَوَاءَ فِي دُعَاءِ تَوْبَتِهِمَا بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِمَا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا

(23) وَبَانَ شَأْنُ الْمُعْصِيَةِ مِنَ الْفُرَادِ أَنْ تُغْفَرَ بِالتَّوْبَةِ فَيُغْفَى عَنْ عِقَابِهَا ، وَهُوَ خُسْرَانُ  
النَّفْسِ كَمَا فِي قَوْلِهِمَا : وَإِنْ لَمْ تُغْفَرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَأَمَّا خَسَارَةُ الْأُمَّمِ  
فَهِيَ إِضَاعَةُ اسْتِقْلَالِهَا ، وَسُلْطَانُ أُمَّةٍ أُخْرَى عَلَيْهَا تَسْتَدْلِيهَا ، وَجُمْلَةُ ذَلِكَ أَنَّ الْعُقُوبَةَ أَثَرُ  
طَبِيعِيٍّ لَزِمَ لِلْعَمَلِ ، وَأَنَّ ذُنُوبَ الْأُمَّمِ لَا بُدَّ مِنَ الْعِقَابِ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، وَأَمَّا ظَلَمُ  
الْفُرَادِ وَعِقَابُهُمْ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ فَيُرَاجَعُ فِي الْأَصْلِ 4 مِنَ الْبَابِ الثَّلَاثِ .

(317/302)

(2) بَيَانُ أَنَّ لِلْأُمَّمِ آجَالًا لَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ عَنْ أَسْبَابِهَا الَّتِي اقْتَضَتْهَا السُّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ الْعَامَّةُ ،  
وَهُوَ نَصُّ الْآيَةِ 34 ، وَكُونُهَا إِذَا كَانَتْ جَاهِلَةً بِهَذِهِ السُّنَنِ تُؤْخَذُ بَغْتَةً ، وَعَلَى غَفْلَةٍ لَيْلًا أَوْ  
نَهَارًا كَمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْآيَاتِ 94 - 100 وَهَذِهِ الْآيَاتُ وَرَدَتْ فِي عِقَابِ الْأُمَّمِ الَّتِي عَانَدَتْ  
الرُّسُلَ ، وَكَانَ عِقَابُهَا وَضْعِيًّا لَا اجْتِمَاعِيًّا - وَقَدْ سَبَقَ لَنَا فِي هَذَا التَّفْسِيرِ أَنَّ الْعِقَابَ  
الْإِلَهِيَّ لِلْفُرَادِ وَاللْأُمَّمِ نَوْعَانِ : (أَحَدُهُمَا) الْعِقَابُ بِمَا تَوَعَّدَ تَعَالَى بِهِ عَلَى مُخَالَفَةِ رُسُلِهِ  
وَمُعَانَدَتِهِمْ ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ عِقَابِ الْحُكَّامِ لِرِعَايَاهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ شَرَائِعِ أُمَّتِهِمْ وَقَوَانِينِهَا  
وَنُظْمِهَا . (وِثَانِيَهُمَا) الْعِقَابُ الَّذِي هُوَ أَثَرُ طَبِيعِيٍّ لِلْجَرَائِمِ ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ مَا يُعَاقَبُ بِهِ  
الْمَرِيضُ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِ طَبِيبِهِ فِي مُعَالَجَتِهِ لَهُ مِنَ الْحَمِيَّةِ وَالْاِقْتِصَارِ عَلَى كَذَا مِنَ الْغِذَاءِ ،

والتزام كذا من الدّواء . (راجع ص 257 وما بعدها ج 7 ط الهيئة) .  
(3) ابتلاءُ الله الأمم بالباْسَاءِ والضَّرَاءِ تارةً، وبضدّها من الرِّخَاءِ والنَّعْمَاءِ تارةً أُخرى .  
فإمّا أن تُعتبر فيكون تربيةً لها ، وإمّا أن تُعبى وتغفل فيكون مهلكةً لها كما في الآيات 94  
وما بعدها ممّا تقدّم الكلامُ عليه في السُّنَّةِ الثَّانِيَةِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ .

(318/302)

(4) بيانُ أن الإيمانَ بما دعا اللهُ إليه ، والتَّقْوَى في العَمَلِ بِشَرْعِهِ فِعْلاً وَتَرْكاً ، سَبَبٌ  
اجْتِمَاعِيٌّ طَبِيعِيٌّ لِسَعَةِ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَخَيْرَاتِهَا عَلَى الْأُمَّةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :  
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (96) وَهُوَ مُوَافِقٌ  
لآيَاتٍ أُخْرَى فِي سُورٍ أُخْرَى (مِنْهَا) الْآيَةُ 52 مِنْ سُورَةِ هُودٍ (11) ، وَالآيَاتُ 123 -  
127 مِنْ سِيَاقِ بَيَانِ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي النِّشْأَةِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ سُورَةِ طه ، وَمِثْلُهُ فِي الْآيَاتِ 10  
- 12 مِنْ سُورَةِ نُوحٍ ، وَالآيَتَيْنِ 16 و 17 مِنْ سُورَةِ الْجِنِّ بَعْدَهَا وَغَيْرِهَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ  
ذَلِكَ فِي التَّفْسِيرِ وَالْمَنَارِ .

وَمِنْهُ تَحْقِيقُ مَعْنَى التَّقْوَى وَاخْتِلَافُهَا بِاخْتِلَافِ مَوَاضِعِهَا مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا فِي مَقَالَةٍ ،  
عُنْوَانُهَا (عَاقِبَةُ الْحَرْبِ الْمَدِينِيَّةِ) نُشِرَتْ فِي (ج 7 م 21 مِنَ الْمَنَارِ) .

(5) اسْتَدْرَاجُهُ تَعَالَى لِلْمُكَذِّبِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَإِمْلَاؤُهُ لَهُمْ كَمَا فِي الْآيَتَيْنِ 182 : 183

وَهُوَ فِي مَعْنَى مَا سَبَقَهُ مِنْ سُنَّةٍ أَخَذَ اللَّهُ لِلْأُمَّمِ بِذُنُوبِهَا ، وَمِنْ سُنَّةٍ ابْتَلَاهَا بِالْحَسَنَاتِ  
وَالسِّيَّاتِ ، فَإِنَّ مَنْ لَا يُعْتَبَرُ بِذَلِكَ ، وَلَا يَتَرَبَّى يُصِرُّ عَلَى ذَنْبِهِ ، وَلَا يَرْجِعُ عَنْهُ ، وَذُنُوبُ الْأُمَّمِ  
لَا بُدَّ مِنَ الْعِقَابِ عَلَيْهَا - رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَتَيْنِ فِي مَوْضِعِهِمَا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ . فِيهِ بَيَانُ  
هَذِهِ السُّنَّةِ مُوضِحًا .

(319/302)

(6) سُنَّةُ اللَّهِ فِي إِرْثِ الْأَرْضِ وَاسْتِخْلَافِ الْأُمَّمِ فِيهَا ، وَالسِّيَادَةِ عَلَى الْأُمَّمِ  
وَالشُّعُوبِ . فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا فِي قِصَّةِ مُوسَى مَعَ قَوْمِهِ أَنَّ وِطَاءَةَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ اشْتَدَّتْ

عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَصَرَحَ بِوُجُوبِ الاسْتِمْرَارِ عَلَى تَقْتِيلِ أَبْنَائِهِمْ ، وَاسْتِحْيَاءِ نِسَائِهِمْ ؛

لَأَجْلِ أَنْ تُنْقَرِضَ الْأُمَّةُ بَعْدَ اسْتِذْلَالِ مَنْ يُبْقَى مِنَ النِّسَاءِ إِلَى أَنْ يُنْقَرِضَ الرَّجَالُ ، وَمَا

ازْدَادُوا إِلَّا ذُلًّا وَخُنُوعًا - وَهُمْ مِائَاتُ الْأَلُوفِ - كَمَا هُوَ شَأْنُ الشُّعُوبِ الْجَاهِلَةِ

الْمُسْتَضْعَفَةِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ مُوسَى أَنْ يَمْلِكَ ذَلِكَ الْيَأْسَ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ

بِمَا حَكَاهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) أَي بَيْنَ لَهُمْ أَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَتْ رَهْنًا تَصْرَفُ الْمُلُوكَ



وَالدُّوْلُ بِقُدْرَتِهِمُ الذَّائِبَةَ قَدُّومٌ لَهُمْ ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلَّهِ ، وَلَهُ سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى سُنَّتُهُ فِي سَلْبِهَا مِنْ قَوْمٍ ، وَجَعَلَهَا إِرْثًا لِقَوْمٍ آخَرِينَ بِمَحْضِ مَشِيئَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَمَدَارُ هَذِهِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْعَاقِبَةَ فِي التَّنَازُعِ بَيْنَ الْأُمَّمِ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا أَوْ تَسْتَعْمِرُهَا لِلْمُتَّقِينَ ، أَيِّ الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَسْبَابَ

(320/302)

الضَّعْفِ وَالْخِذْلَانِ وَالْهَلَاكِ ، كَالْيَأْسِ مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَالتَّخَاذُلِ وَالتَّنَازُعِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَالظُّلْمِ وَالْفُسُوقِ ، وَيَتَلَبَّسُونَ بِضِدِّهَا ، وَسَائِرُ مَا تَقْوَى بِهِ الْأُمَّمُ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ ، وَأَعْلَاهَا الْاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَكَارِهِ مَهْمَا عَظُمَتْ ، وَهَذَانِ الْأُمْرَانِ هُمَا أَعْظَمُ مَا تَقَاضَلُ بِهِ الْأُمَّمُ مِنَ الْقُوَى الْمَعْنَوِيَّةِ بِاتِّفَاقِ الْمَلَاحِدَةِ وَالْمَلِيَّيْنَ مِنْ عُلَمَاءِ الْجَمَاعِ وَقَوَادِ الْحُرُوبِ .

وَقَدْ تَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، وَفِي مَعْنَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ :  
وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (21 : 105)  
وَإِنَّمَا الصَّالِحُونَ هُمُ الَّذِينَ يَصْلِحُونَ لِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَسَائِرِ شَرَائِعِ اللَّهِ وَسُنَنِهِ فِي الْعُمُرَانِ ، وَهِيَ بِمَعْنَى مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الْجَمَاعِ " بَقَاءَ الْأَصْلِحِ أَوْ الْأُمْتَلِ فِي كُلِّ تَنَازُعٍ "

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَثَلُ الْمَشْهُورُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً إِلَى قَوْلِهِ : فَأَمَّا الزَّبَدُ  
فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (13 : 17) .

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنْ تَرَى بَعْضَ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِسِيَادَةِ  
الْأَجَانِبِ عَلَيْهَا يَا سَةِ مِنْ اسْتِقْلَالِهَا وَعِزَّتِهَا ، بَلْ مِنْ حَيَاتِهَا الْمِلِّيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ بِمَا تَرَى مِنْ خَفَةِ  
مَوَازِينِهَا

(321/302)

وَرُجْحَانِ مَوَازِينِ السَّائِدِينَ عَلَيْهَا فِي الْقُوَى الْمَادِيَّةِ وَالْآلِيَّةِ ، وَاسْتِذْلَالِ هَوْلَاءِ السَّائِدِينَ  
عَلَيْهَا لَهَا ، جَهْلًا مِنْهَا بِسُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي بَيْنَهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَغَفْلَةً عَنْ كَوْنِ رُجْحَانِ  
قُوَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَهْرِهِ لَهُمْ كَمَا نَا فَوْقَ رُجْحَانِ قُوَى سَائِدِيهَا عَلَيْهَا  
وَقَهْرِهِمْ إِيَّاهَا ، وَفِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الْعِبَرِ التَّارِيخِيَّةِ بِسُقُوطِ بَعْضِ الدُّوَلِ الْقَوِيَّةِ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ  
الْعِبْرَةِ بِأَحْدَاثِ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ .

ثُمَّ بَيَّنَّا لَنَا تَعَالَى فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ لِتِلْكَ الْآيَةِ (129) أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ شَكَاهُ لِقَوْمِهِ  
إِيذَاءَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ لَهُمْ قَبْلَ مَجِيئِهِ وَبَعْدَهُ عَلَى سَوَاءٍ ، فَذَكَرَ لَهُمْ مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّجَاءِ  
بِإِهْلَاكِ رَبِّهِمْ لِعَدُوِّهِمْ ، وَاسْتِخْلَافِهِمْ فِي الْأَرْضِ الْمُوعُودِينَ بِهَا ، وَلِيخْتَبِرَهُمْ فَيَنْظُرَ كَيْفَ

يَعْمَلُونَ ، وَيَكُونُ ثَبَاتٌ مُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ عَلَى حَسَبِ عَمَلِهِمُ الَّذِي تَصْلُحُ بِهِ الْأَرْضُ وَأَهْلِهَا  
أَوْ تَفْسُدُ . وَهُوَ مَا فَصَّلَهُ تَعَالَى لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى مِنْهَا فِي إِفْسَادِهِمْ قَوْلَهُ تَعَالَى  
: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ (17 : 4) إِلَى تَمَمِّهِ الْآيَةِ  
الثَّامِنَةِ .

(322/302)

---

ثُمَّ بَيَّنَّ لَنَا تَعَالَى فِي الْآيَةِ 137 مِنْ هَذَا السِّيَاقِ أَنَّهُ أَوْرَثَهُمُ الْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُهُ  
الْحُسْنَى عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا ، أَيَّ لَا بِمُجَرَّدِ آيَاتِ اللَّهِ لِمُوسَى ، وَمَا أُيِّدُهُ بِهِ ، فَعَلِمَ مِنْهُ بِالْفِعْلِ  
أَنَّ الْأُمَّةَ الْمُسْتَضْعَفَةَ مَهْمَا يَكُنْ عَدُوُّهَا الظَّالِمُ لَهَا قَوِيًّا فَلَيْسَ لَهَا أَنْ تَيْئَسَ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَهُوَ  
تَحْقِيقُ لِرَجَاءِ مُوسَى هُنَا ، وَلَوْ عَدِ اللَّهُ إِيَّاهُ بِذَلِكَ صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ مِنْ سُورَةِ الْقَصَصِ :  
وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ  
فِي الْأَرْضِ (28 : 5 ، 6) الْآيَةَ .

(323/302)

---

تَرَى شُعُوبَ الْمُسْلِمِينَ يَجْهَلُونَ هَذِهِ السُّنَنَ الْإِلَهِيَّةَ ، وَمَا ضَاعَ مُلْكُهُمْ وَعَزُّهُمْ إِلَّا بِجَهْلِهَا  
الَّذِي كَانَ سَبَبًا لِعَدَمِ الْاهْتِدَاءِ بِهَا فِي الْعَمَلِ ، وَمَا كَانَ سَبَبُ هَذَا الْجَهْلِ إِلَّا الْأِعْرَاضَ عَنِ  
الْقُرْآنِ ، وَدَعْوَى الْأَسْتِغْنَاءِ عَنِ هِدَايَتِهِ بِمَا كَتَبَهُ لَهُمُ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ كُتُبِ الْعُقَاةِ الْمُبْنِيَّةِ  
عَلَى الْقَوَاعِدِ الْكَلَامِيَّةِ الْمُتَبَدِّعَةِ ، وَمَا كَتَبَهُ الْفُقَهَاءُ مِنْ أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ  
الْمَدَنِيَّةِ وَالْعُقُوبَاتِ وَالْحَرْبِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَهَذِهِ السُّورَةُ الْجَلِيلَةُ الْكَبِيرَةُ الْقَدْرُ وَالْفَوَائِدُ  
(الْأَعْرَافُ) خَالِيَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ كُلِّهَا ، وَمِنْ نَظَرِيَّاتِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعُقَاةِ وَتَقْرِيرِهِمْ لَهَا  
، وَكَذَلِكَ غَيْرُهَا مِنَ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ . فَهَلْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَ كُلَّهَا لِلتَّعْبُدِ بِتَجْوِيدِ  
الْفَاظِهَا بِدُونِ فَهْمٍ ، أَوْ لَاتَّخَاذِهَا رُقَى وَتَمَائِمَ ، وَكَسْبًا لِقِرَاءِ الْمَائِمِ ؟ .  
وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَنَّ الْجَهْلَ بَلَغَ بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ ظَهَرَ فِيهِمْ فَرِيقٌ خَصِمٌ لِهَذَا الْفَرِيقِ  
الْمُقَدِّدِ الْمُحَافِظِ عَلَى كُتُبِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى دُونَ هَدْيِ السَّلَفِ ، خَصِمٌ يَقُولُ : إِنَّ دِينَ  
الْإِسْلَامِ هُوَ السَّبَبُ فِي جَهْلِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفِهِمْ ، وَلَا حَيَاةَ لَنَا إِلَّا بِاقْتِبَاسِ عِلْمِ الْجَمَاعِ  
وَسُنَنِ الْعُمَرَانِ مِنَ الْأُمَّمِ غَيْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي سَادَتْنَا بِهَذِهِ الْعُلُومِ ، وَمَا يُؤَيِّدُهَا مِنَ الْفُنُونِ  
وَالصَّنَاعَاتِ ، وَهَوَالَاءِ

أَجْهَلُ بِالْإِسْلَامِ مِنْ أَوْلِكَ ، فَكِتَابُ الْإِسْلَامِ هُوَ الْمُرْشِدُ الْأَوَّلُ لِسُنَنِ الْجَمَاعِ وَالْعُمُرَانِ ،  
وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ قَصَرُوا فِي طَوْرِ حَيَاتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ عَنْ تَفْصِيلِ ذَلِكَ بِالتَّدْوِينِ لِعَدَمِ شُعُورِهِمْ  
بِالْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ حَقُّهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنْ يَكُونُوا أَوْسَعَ النَّاسِ بِهِ عِلْمًا ؛ لِأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ  
مُؤَيِّدٌ لِلْحَاجَةِ بِلِ الضَّرُورَةِ الَّتِي تَدْعُو إِلَيْهِ .

(7) إِنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْأُمَّمِ الَّتِي تَرِثُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا الْأَصْلَاءِ هِيَ سُنَّةُ تَعَالَى فِي  
أَهْلِهَا ، فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ قَدْ غَلَبُوا عَلَيْهَا ؛ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَجَهْلِهِمْ وَعَمَى قُلُوبِهِمْ ،  
فَكَذَلِكَ يَكُونُ شَأْنُ الْوَارِثِينَ لَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ إِذَا صَارُوا مِثْلَهُمْ فِي

(325/302)

---

ذَلِكَ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : أَوْلَمَ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ  
بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَي قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (100) وَكُنَّا نَرَى الَّذِينَ وَرِثُوا مَمَالِكَ الْمُسْلِمِينَ  
مُتَعَطِّينَ بِمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ بَعْضِ الْوَجُوهِ ، فَهُمْ عَلَي كَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ بِالظُّلْمِ وَإِفْسَادِ الْعَقَائِدِ  
وَالْأَخْلَاقِ وَسَلْبِ الْأَمْوَالِ يَتَحَرَّوْنَ أَنْ يَكُونَ ظُلْمُهُمْ دُونَ ظُلْمِ حُكَّامِ أَهْلِ الْبِلَادِ الَّذِينَ  
أَضَاعُوهَا ، وَعَقُولُهُمْ تَبْحَثُ دَائِمًا فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي يُخْشَى أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِسَلْبِهَا مِنْهُمْ ؛  
لِأَجْلِ اتِّقَاتِهَا ، وَأَذَانُهُمْ مُرَهَفَةٌ مُصَيِّخَةٌ لِاسْتِمَاعِ كُلِّ خَبَرٍ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِهَا وَأَمْرِ أَهْلِهَا وَشُؤْنِ

الطامعين فيها حذرًا منهم أن يسلبوهم إياها .

وقد قلنا في تفسير هذه الآية: قد كان ينبغي للمسلمين، وهذا كتابهم من عند الله عز وجل، أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الأمم التي هلك بها من كان قبلهم، وزال ملكهم، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم إلى آخر ما تراه في 28 وما بعدها ج 9 ط الهيئة .

(326/302)

---

هذا ما فتح الله به علينا من أصول وأمّهات هداية السورة الجليلة بمراجعتها المرة بعد المرة، مروراً على الآيات بالنظر، ولو أعدنا قراءتها مع قراءة تفسيرها بالتدبر لظهر لنا أكثر من ذلك، وإنما أردنا التلخيص، ونسأله تعالى أن يجعلها هي وسائر كتابه المجيد حجة لنا لا علينا، ويوفق أمتنا للرجوع إلى الهدى به بالتوبة إليه كما تاب أبوهم وأمههم عليهما السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار ح 9 ص 450.483 ﴾

(327/302)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (206) ﴿

تنزل منزلة العلة للأمر بالذكر ، ولذلك صُدرت بـ ﴿ إن ﴾ التي هي مجرد الاهتمام بالخبر ، لا لرد تردد أو إنكار ، لأن المخاطب منزّه عن أن يتردد في خبر الله تعالى ، فحرف التوكيد في مثل هذا المقام يغني غناء فاء التفرّيع ، ويفيد التعليل كما تقدم غير مرة ، والمعنى : الحث على تكرّر ذكر الله في مختلف الأحوال ، لأن المسلمين مأمورون بالاقداء بأهل الكمال من الملائكة الأعلى ، وفيها تعريض بالمشركين المستكبرين عن عبادة الله بأنهم منحطون عن تلك الدرجات .

والمراد بـ ﴿ الذين عند ربك ﴾ الملائكة ، ووجه جعل حال الملائكة علة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر : أن مرتبة الرسالة تُلحق صاحبها من البشر برتبة الملائكة ، فهذا التعليل بمنزلة أن يقال : اذكر ربك لأن الذكر هو شان قبيلك ، كقول ابن دارة سالم بن مسافع :

فإن تقوا شراً فمثلكم اتقى . . .

وإن تفعلوا خيراً فمثلكم فعل

فليس في هذا التعليل ما يقتضي أن يكون الملائكة أفضل من الرسل ، كما يتوهمه المعتزلة لأن التشبه بالملائكة من حيث كان الملائكة أسبق في هذا المعنى ؛ لكونه حاصلًا منهم بالجبلّة

فهم مثل فيه ، ولا شبهة في أن الفريق الذين لم يكونوا مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة ، إذا تخلقوا بمثل خلق الملائكة ، كان سُمومهم إلى تلك المرتبة أعجب ، واستحقاقهم الشكر والفضل له أجدر .

ووجه العدول عن لفظ الملائكة إلى الموصولية : ما تؤذن به الصلة من رفعة منزلتهم ، فيتذرع بذلك إلى إيجاد المنافسة في التخلق بأحوالهم .  
و ﴿ عند ﴾ مستعمل مجازاً في رفعة المقدار ، والحظوة الألهية .

(328/302)

---

وقوله : ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ ليس المقصود به التنويه بشأن الملائكة لأن التنويه بهم يكون بأفضل من ذلك ، وإنما أريد به التعريض بالمشركين وأنهم على النقيض من أحوال الملائكة المقربين ، فخلق بهم أن يكونوا بعداء عن منازل الرفعة ، والمقصود هو قوله : ﴿ ويسبحونه ﴾ أي ينزهونه بالقول والاعتقاد عن صفات النقص ، وهذه الصلة هي المقصودة من التعليل للأمر بالذكر .

واختيار صيغة المضارع لدالاتها على التجديد والاستمرار ، أو كما هو المقصود وتقديم المعمول من قوله : ﴿ وله يسجدون ﴾ للدلالة على الاختصاص أي ولا يسجدون لغيره ،



وهذا أيضاً تعريض بالمشركين الذين يسجدون لغيره ، والمضارع يفيد الاستمرار أيضاً .  
وهنا موضع سجود من سجود القرآن ، وهو أولها في ترتيب الصحف ، وهو من المتفق  
على السجود فيه بين علماء الأمة ، ومقتضى السجدة هنا أن الآية جاءت للحض على  
التخلق بأخلاق الملائكة في الذكر ، فلما أخبرت عن حالة من أحوالهم في تعظيم الله وهو  
السجود لله ، أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبادر بالتشبه بهم تحقيقاً للمقصد الذي  
سبق هذا الخبر لأجله .

وأيضاً جرى قبل ذلك ذكر اقتراح المشركين أن يأتيهم النبي صلى الله عليه وسلم بآية كما  
يقترحون فقال الله له : ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ﴾ [الأعراف : 203] وبأن  
يأمرهم بالاستماع للقرآن وذكر أن الملائكة يسجدون لله ، شرع الله عند هذه الآية سجوداً  
؛ ليظهر إيمان المؤمنين بالقرآن وجحود الكافرين به حين سجد المؤمنون ، ويمسك المشركون  
الذين يحضرون مجالس نزول القرآن ، وقد دل استقراء مواقع سجود القرآن أنها لا تعدو أن  
تكون إغاطة للمشركين أو اقتداء بالأنبياء أو المرسلين كما قال ابن عباس في سجدة ، ﴿  
فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب ﴾ [ص : 24] أن الله تعالى قال : ﴿ فبهذا هم اقتده  
﴾ [الأنعام : 90] فداود ممن أمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقتدي به . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 8 ص ﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (206)

وإذا كنا عند ربنا وفي حضرة ما منحه لما من خلق وما أمدنا به من إيجاد من عدم سواء ،  
فلماذا خص هؤلاء بالعندية ؟ .

إياك أن تفهم من العندية أنها عندية المكان ؛ لأن المكان مُحَيِّزٌ ، وربنا عز وجل لا يتحيز في  
مكان ، والعندية هنا عندية الفضل ، وعندية الرحمة ، وعندية الملك ، وعندية العناية . أو  
إن كل خلق لله جعل لهم أسباباً ومسببات ، ولكن خلقاً من خلقه يسبحونه بذاته ، وليس  
لهم عمل آخر ، ويعرفون بالملائكة العالين ، لا الملائكة المدبرات أمراً أو الحفظة . ولذلك  
قلنا سابقاً : إن الحق سبحانه وتعالى حينما أمر الملائكة بالسجود لأدم ، وامتنع إبليس ،  
قال له : ﴿ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ ص : 75 ] .

﴿ العالين ﴾ هم الذين لم يشملهم أمر السجود ، فهم ملائكة موجودون ولا عمل لهم إلا  
تسبيح الذات العلية ولا يدرون عن الخلق أو الدنيا شيئاً . وهم غير الملائكة المسخرين  
لخدمتنا ؛ فالذين عند ربنا هم الملائكة المهيمون الذين لا يعرفون شيئاً إلا الذات الإلهية  
وتسبيح الذات وعملهم يحدده الله هنا : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ  
يَسْجُدُونَ ﴾

واختلف العلماء في كيفية سجود الملائكة ، أهو الخضوع ؟ أهو الصلاة ؟ أهو السجود الذي نعرفه نحن ؟ والسجود عندنا هو منتهى ما يمكن من الخضوع لله عز وجل وقت الصلاة . لأنه نزول بأشرف شيء في الإنسان وهو الوجه الذي يضعه المؤمن على الأرض خضوعاً لله عز وجل . ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أننا إذا مررنا على آية سجدة من آيات كتاب الله فيها مثل ذلك فعلينا أن نستجيب لها استجابة حقيقية ونسجد لها سجدة تسمى التلاوة ، ويكون ذلك عند تلاوتها أو سماعها من القارئ ، وحصرها العلماء فيما تجدونه في المصحف عند كل سجدة وجعلوا عندها علامة ووضعوا تحت الكلمة التي نسجد عندها خطأ . وحين قام العلماء ببيان المواضع التي تطلب فيها هذه السجدة وجدوها قد ابتدأت بسجدة آخر سورة "الأعراف" التي تناولها مجواطرننا الآن ، وانتهت بسجدة "العلق" : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [ العلق : 1 ] .

وبينهما سجدة ، وبعض العلماء عدّ في سورة الحج سجدة تين وبعضهم أهمل السجدة الثانية في هذه السورة . فمن حسبها خمس عشرة سجدة ، عدّ سجدة الحج الثانية

المختلف عليها مع سجدة الحج الأولى - المتفق عليها - وبعض العلماء قال: إنها أربع

عشرة سجدة؛ لأنه لم يحسب سجدة الحج الثانية .

وهب أنك أردت أن تسجد لله شكراً في أي وقت ، وعند أي آية فاسجد لله سجدة  
الشكر ، وهي سجدة واحدة كسجدة التلاوة وتستحب عند تجدد نعمة أو انتشاع غمّه  
، أو زوال نقمة ولا تكون إلا خارج الصلاة .

والسجود بطبيعة الحال تبدأه بالتكبير ، ورفع اليدين كأنك تبدأ الصلاة ، والمفترض أن تقول  
: " سبحان ربي الأعلى " ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا ما نقوله في  
السجود للتلاوة ، وروي عن ابن عباس قال :

(331/302)

---

"كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأثاه رجل فقال: إني رأيت البارحة - فيما يرى  
النائم كأنني أصلي إلى أصل شجرة ، فقرأت السجدة فسجدت الشجرة لسجودي  
فسمعتها تقول: اللهم احطط عني بها وزراً ، واكتب لي بها أجراً ، واجعلها لي عندك  
ذخراً . قال ابن عباس: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ السجدة فسجد ، فسمعت  
يقول في سجوده مثل الذي أخبره الرجل عن قول الشجرة " .

وبذلك تختم سورة الأعراف ، والتسمية للسورة في ذاتها متناسبة ؛ لأن " الأعراف " هو المكان العالي البارز الذي يجلس عليه القوم ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم لينظروا إلى أهل الجنة وينظروا إلى أهل النار ، وهكذا تكون الأعراف مكاناً يزيد في الارتفاع ، وهي مأخوذة من " عرف الفرس " ، وعرف الفرس أعلى شيء فيه ، والأنفال أيضاً هي الزيادة ؛ ولذلك فإن التسمية متناسبة سواء بالنسبة لسورة الأعراف أو الأنفال ، وأيضاً يوجد التناسب في المعنويات ، وهذا التناسب نلاحظه عندما نقرأ قول الحق تبارك وتعالى في أواخر سورة الأعراف : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 201] .

ثم يأتي قوله سبحانه وتعالى في أول سورة الأنفال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ . . . ﴾ [الأنفال : 1] .

لأن من مهام الشيطان أن يفرق بين المؤمنين بوسوسته لهم ، فإذا ما تذكروا الله وما أعده لأهل الإيمان ؛ فهم يبصرون الحقيقة الأولى التي ترتفع على كل شيء وهي الإيمان بالله ، وهذا الإيمان إنما يتطلب تصفية القلوب من كل ما يكدرها حتى تكون خالصة تقية . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

## "فصل"

قال السيوطي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (206) ﴿

أخرج ابن أبي شيبة من طريق أبي العريان المجاشعي عن ابن عباس . أنه ذكر سجود القرآن

فقال : الأعراف والرعد والنحل وبنو إسرائيل ومريم والحج سجدة واحدة ، والنمل

والفرقان والم تنزيل وحم تنزيل وص ، وليس في المفصل سجود .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء قال : عد علي بن العباس عشر سجديات في القرآن .

الأعراف ، والرعد ، والنحل ، وبنو إسرائيل ، ومريم ، والحج الأولى منها ، والفرقان ،

والنمل ، وتنزيل السجدة ، وحم السجدة .

وأخرج ابن ماجة والبيهقي في سننه عن أبي الدرداء قال " سجدت مع النبي صلى الله

عليه وسلم إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيء . الأعراف ، والرعد ،

والنحل ، وبنو إسرائيل ، ومريم ، والحج سجدة ، والفرقان ، وسليمان سورة النمل ،

والسجدة ، وص وسجدة الحواميم " .

وأخرج أبو داود وابن ماجة والدارقطني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عمرو

بن العاص " أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن ، منها ثلاث

من المفصل وفي سورة الحج سجدتين " .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والبيهقي عن ابن عمرو قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ علينا القرآن ، فيقرأ السورة فيها السجدة فيسجد ونسجد معه حتى لا يجد أحداً مكاناً لوضع جبهته " .

وأخرج مسلم وابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ فلي النار " .

وأخرج البيهقي عن ابن سيرين قال : سألت عائشة عن سجود القرآن ؟ فقالت : حق لله يؤديه أو تطوع تطوعه ، وما من مسلم سجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة ، أو جمعها له ككتيها .

(333/302)

---

وأخرج البيهقي عن مسلم بن يسار قال : إذا قرأ الرجل السجدة فلا يسجد حتى يأتي على الآية كلها ، فإذا أتى عليه رفع يديه وكبر وسجد .

وأخرج أبو داود والبيهقي عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ

علينا القرآن ، فإذا مر بالسجدة كبر ، وسجد وسجدنا معه .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي

والدارقطني والبيهقي عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في

سجود القرآن بالليل يقول في السجدة مراراً " سَجَدَ وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره

بحوله وقوته ، فتبارك الله أحسن الخالقين " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن قيس بن السكن قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

" سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره "

قال : وبلغني أن داود عليه السلام كان يقول : سجد وجهي متغبراً في التراب الخالقي وحق

له ، ثم قال : سبحان الله ما أشبه كلام الأنبياء بعضهم ببعض .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول في سجوده : اللهم لك

سجد سوادي وبك آمن فؤادي ، اللهم ارزقني علماً ينفعني وعلماً يرفعني .

وأخرج ابن أبي شيبة عن قتادة أنه كان يقول إذا قرأ السجدة : سبحان ربنا إن كان وعد

ربنا لمفعولاً ، سبحان الله ومجده ثلاثاً .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال : لا يسجد الرجل إلا وهو طاهر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال : كانوا يكرهون إذا أتوا على السجدة أن يجاوزوها

حتى يسجدوا .



وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يدع قراءة آخر سورة الأعراف في كل جمعة على المنبر ". انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 3 ص ﴾

(334/302)

---

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (206) ﴿

أثبت لهم عندية الكرامة ، وحفظ عليهم أحكام العبودية لتلايفك حال جمعهم عن نعت فرقتهم ، وهذه سنة الله تعالى مع خواص عباده ؛ يلقاهم بخصائص عين الجمع ويحفظ عليهم حقائق عين الفرق لتلايف بآداب العبودية في أوان وجود الحقيقة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 601 ﴾

(335/302)

---

ومن فوائد العلامة الزمخشري في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ﴾

مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ نَفْسُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَهِيَ حَوَاءُ ، خَلَقَهَا مِنْ جَسَدِ آدَمَ مِنْ ضَلْعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ . أَوْ مِنْ جِنْسِهَا كَقَوْلِهِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا . لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا لِيَطْمَئِنَّ إِلَيْهَا وَيَمِيلُ وَلَا يَنْفِرُ ، لِأَنَّ الْجِنْسَ إِلَى الْجِنْسِ أَمِيلٌ وَبِهِ أُنْسٌ ، وَإِذَا كَانَتْ بَعْضًا مِنْهُ كَانَ السُّكُونُ وَالْحُبَّةُ أَبْلَغَ ، كَمَا يَسْكُنُ الْإِنْسَانُ إِلَى وَلَدِهِ وَيُحِبُّهُ مَحَبَّةَ نَفْسِهِ لِكَوْنِهِ بَضْعَةً مِنْهُ . وَقَالَ لِيَسْكُنَ فَذَكَرَ بَعْدَ مَا أَنْتَ فِي قَوْلِهِ : وَاحِدَةً . مِنْهَا زَوْجَهَا ، ذَهَابًا إِلَى مَعْنَى النَّفْسِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا آدَمَ . وَلِأَنَّ الذَّكَرَ هُوَ الَّذِي يَسْكُنُ إِلَى الْأُنْثَى وَيَتَغَشَّاهَا ، فَكَانَ التَّذْكَيرُ أَحْسَنَ طَبَاقًا لِلْمَعْنَى . وَالتَّغْسَى : كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ ، وَكَذَلِكَ الْغَشْيَانُ وَالْإِتْيَانُ حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا خَفَّ عَلَيْهَا ، وَلَمْ تَلْقُ مِنْهُ مَا يَلْقَى بَعْضُ الْحَبَالِيِّ مِنَ حَمَلِهَا مِنَ الْكَرْبِ وَالْأَذَى ، وَلَمْ تَسْتَقْلِهِ كَمَا يَسْتَقْلِنَهُ ، وَقَدْ تَسْمَعُ بَعْضُهُنَّ تَقُولُ فِي وَلَدِهَا : مَا كَانَ أَخْفَهُ عَلَيَّ كَبِدِي حِينَ حَمَلْتَهُ فَمَرَّتْ بِهِ فَمَضَتْ بِهِ إِلَى وَقْتِ مِيلَادِهِ مِنْ غَيْرِ إِخْدَاجٍ وَلَا إِزْلَاقٍ « 1 » وَقِيلَ حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا يَعْنِي النُّطْفَةَ فَمَرَّتْ بِهِ فَقَامَتْ بِهِ وَقَعْدَتْ . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

فاستمرت به ، وقرأ يحيى بن يعمر : فمرت به ، بالتخفيف . وقرأ غيره : فماتت به ، من  
المرية ، كقوله أفتمارونه وأفتمرونه . ومعناه : فوقع في نفسها ظن الحمل ، فارتابت به فلماً  
أثقلت حان وقت ثقل حملها كقولك : أقربت «2» . وقرئ : أثقلت ، على البناء المفعول :  
أى أثقلها الحمل دعواً لله ربهما دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذي هو الحقيقي بأن  
يدعى ويلتجأ إليه فقالا لئن آتيتنا لئن وهبت لنا صالحاً ولداً سويّاً قد صلح بدنه وبريء  
«3» . وقيل . ولداً ذكراً ، لأن الذكورة من الصلاح والجودة . والضمير في آتيتنا ولنكوننَّ .  
لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما «4»

---

(1) . قوله «من غير إحداج ولا إزلاق» إحداج : أى نقصان . ولا إزلاق : أى إسقاط .

(ع)

(2) . قوله «كقولك أقربت» أى قرب ولادها . (ع)

(3) . قوله «وبريء» لعله : وبريء من الآفات . (ع)

(4) . قال محمود : «الضمير في آتيتنا ولنكوننَّ لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما . . .

الح» قال أحمد وأسلم من هذين التفسيرين وأقرب - والله أعلم - أن يكون المراد جنسى  
الذكر والأنثى ، لا يقصد فيه إلى معين ، وكان المعنى - والله أعلم - خلقكم جنسا واحدا  
، وجعل أزواجكم منكم أيضا لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس  
الآخر الذي هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت . وإنما نسب هذه المقالة إلى

الجنس وإن كان فيهم الموحدون ، لأن المشركين منهم إذا ما متُّ لسوف أُخرج حياً وقُتلَ  
الإنسان ما أكفره ، إن الإنسان لفي خسر كما أنه كذلك على التفسير الأول أضاف الشرك  
إلى أولاد آدم وحواء وهو واقع من بعضهم وعلى التفسير الثاني أضافه إلى قصى وعقبه ،  
والمراد البعض ، فهذا السؤال وارد على التأويلات الثلاثة ، وجوابه واحد ويسلم هذا  
الثالث من حذف المضاف المضطر إليه في التأويل الأول . ومما ينصرف إلى التأويل الثاني من  
استبعاد تخصيص قصى بهذا الأمر المشترك في الجنس ، وهو جعل زوجته منه وكون المراد  
بذلك أن يسكن إليها لأن ذلك عام في الجنس ، والله أعلم .

(336/302)

---

فلما آتاها ما طلباه من الولد الصالح السوي جعلاه شركاء أي جعل أولادهما له شركاء ،  
على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وكذلك فيما آتاها أي آتى أولادهما ،  
وقد دل على ذلك بقوله فتعالى الله عما يشركون حيث جمع الضمير . وآدم وحواء بريئان  
من الشرك . ومعنى إشراكهم فيما آتاها الله : تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناة  
«1» وعبد شمس وما أشبه ذلك ، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم . ووجه  
آخر وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وهم آل قصي ألا ترى إلى قوله في قصة أم معبد «2» :

فَيَا لَقُصَى مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمْ بِهِ مِنْ فَخَارٍ لَأُبَارَى وَسُودِدِ «3»

ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصي ، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها ، فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلاه شركاء فيما آتاها ، حيث سميا أولادهما

---

(1) . قوله «وعبد مناة» في النسفي : وعبد مناف (ع)

(2) . هذا طرف من حديث أم معبد في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم . وقد أخرجه

الحاكم مطولا . من حديثها وحديث أخيها حبيس بن خالد . ومن حديث زوجها أبي

معبد ، وطريق أم معبد رويناها في الغيلانيات . وفي الطبراني وفي الدلائل لأبي نعيم

والبيهقي .

(3) جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلاخيمتي أم معبد

هما نزلا بالبرثم ترحلافيا فوز من أمسى رفيق محمد

فيالقصي ما زوى الله عنكم به من فخار لا يبارى وسؤدد

ليهن بنى سعد مقام فتاتهم ومقعدهما للمؤمنين بمرصد

لرجل من الجن ، سمعوا صوته بمكة ولم يروا شخصه ، حين خرج رسول الله صلى الله عليه

وسلم من مكة مع أبي بكر مهاجراً وجهل أهلها خبرهما بعد خروجهما من الغار . ويروى

«جزاية» بالتاء كهداية. ويروى «قالا» بدل «حلا» والمعنى متقارب، إلا أن الثاني خاص بالاستراحة في منتصف النهار. و«خيمتي» نصب على التوسع بحذف حرف الجر و«أم معبد» امرأة من بنى سعد نزلا عندها بالبر والخير. ذكر بعضهم أن اسمها عاتكة بنت خالد الخزاعية و«ياقصى» أصله «يا آل قصى» فخفف وقد اختلف فيها، فقيل: أصلها يا آل قصى أيضاً. وقيل: هي حرف جر، فقيل زائد. وقيل أصلها متعلق بيا عند سيبويه، وبالفعل الذي نابت عنه عند ابن جنى «وما» استفهامية، والمعنى: يا آل قصى، أتدرون ما قبضه الله ومنعه بخروج رسول الله من بينكم من فخار لا يضاهاه ومن شرف عظيم؟

وفي هذا الاستفهام معنى التعجب والاستعظام، حتى كأن المستفهم عنه لا يعرف كنهه. ويجوز أن اللام للتعجب، و«ما» موصول بدل من «قصى». ويجوز أن اللام للاستغاثة، كأنه استغاث بهم لعلهم يتداركون ما فاتهم. وساد في قومه: شرف، ومصدره السؤدد، بالهمز وضم الدال، وبالواو فتفتح داله كما هنا. والأصل: السود - بالضم - كالحسن، فزيدت الدال للإلحاق ويرفع وجندب. «وليهن» مجزوم بلام الأمر، والمقصود الدعاء. و«مقام» فاعل، و«بنى» مفعول. يقال: هنا الطعام ونحوه، بالهمز: إذا نفعه وحمدت عاقبته عنده، وهو من بابي نفع وضرب، ويبدل همزه بما يناسب ما قبله، وقد يحذف

البدل كما هنا ، كأنه أصلى ، لكن الحذف عامي . والمرصد والمرصاد : الطريق يرصد فيه الرصد . وقوله «للمؤمنين» فيه حث على الهجرة .

(337/302)

الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار ، وجعل الضمير في يُشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك ، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه . وقرئ : شركاء أى ذوى شرك وهم الشركاء ، أو أحداً الله شركاً في الولد .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 191 إلى 193]

أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193)

أجريت الأصنام مجرى أولى العلم في قوله وَهُمْ يُخْلِقُونَ بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة . والمعنى : أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله ، وهم يخلقون ؟ لأن الله عز وجل خالقهم . أو لا يقدر على اختلاق شيء ، لأنه جماد ، وهم يخلقون ، لأن عبدتهم يخلقونهم ، فهم أعجز من عبدتهم وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ لِعِبَادَتِهِمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ

يَنْصُرُونَ فَيَدْفَعُونَ عَنْهَا مَا يَعْتَرِيهَا مِنَ الْحَوَادِثِ ، بَلْ عِبَدْتَهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ  
وَيَحَامُونَ عَلَيْهِمْ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ وَإِنْ تَدْعُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ إِلَى الْهُدَى أَى إِلَى مَا هُوَ هُدَى  
وَرِشَادٌ ، وَإِلَى أَنْ يَهْدَوْكُمْ . وَالْمَعْنَى : وَإِنْ تَطَلَبُوا مِنْهُمْ كَمَا تَطَلَبُونَ مِنَ اللَّهِ الْخَيْرَ وَالْهُدَى ، لَا  
يَتَّبِعُوكُمْ إِلَى مَرَادِكُمْ وَطَلَبَتِكُمْ ، وَلَا يَجِيبُوكُمْ كَمَا يَجِيبُكُمُ اللَّهُ . وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فَادْعُوهُمْ  
فَلَيْسَتْ جِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ سِوَاءُ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُمُوهُمْ أَمْ صَمْتُمْ عَنْ دَعَائِهِمْ ، فِي أَنَّهُ لَا  
فَلَاحَ مَعَهُمْ . فَإِنْ قُلْتُمْ : هَلَا قِيلَ : أَمْ صَمْتُمْ ؟ وَلَمْ تَضَعِ الْجُمْلَةَ الْأَسْمِيَّةَ مَوْضِعَ الْفِعْلِيَّةِ ؟  
قُلْتُمْ : لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا حَزَبَهُمْ أَمْرٌ دَعَا اللَّهَ دُونَ أَصْنَامِهِمْ ، كَقَوْلِهِ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ  
فَكَانَتْ حَالُهُمُ الْمُسْتَمِرَّةُ أَنْ يَكُونُوا صَامِتِينَ عَنْ دَعْوَتِهِمْ ، فَقِيلَ : إِنْ دَعَوْتُمُوهُمْ لَمْ تَفْتَرِقْ  
الْحَالَ بَيْنَ إِحْدَاثِكُمْ دَعَاءَهُمْ ، وَبَيْنَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عَادَةِ صَمْتِكُمْ عَنْ دَعَائِهِمْ .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 194 إلى 195]

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَيْسَتْ جِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ  
(194) اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ  
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْظُرُونَ (195)

(338/302)



إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى تَعْبُدُونَهُمْ وَتَسْمُونَهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ وَقَوْلُهُ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ اسْتِهْزَاءٌ بِهِمْ ، أَى قِصَارَى أَمْرِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَحْيَاءَ عَقْلَاءَ فَإِنْ ثَبِتَ ذَلِكَ فَهَمَّ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ لَا تَفَاضِلَ بَيْنَكُمْ . ثُمَّ أَبْطَلَ أَنْ يَكُونُوا عِبَادًا أَمْثَالَهُمْ فَقَالَ اللَّهُ أَرَجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا وَقِيلَ : عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ مَمْلُوكُونَ أَمْثَالِكُمْ . وَقَرَأَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَالِكُمْ بِتَخْفِيفٍ إِنْ وَنَصَبَ عِبَادًا أَمْثَالِكُمْ ، وَالْمَعْنَى : مَا الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَالِكُمْ ، عَلَى إِعْمَالِ «إِنْ» النَّافِيَةِ عَمَلِ «مَا» الْحِجَازِيَّةِ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِهِمْ فِي عِدَاوَتِي ثُمَّ كِيدُونَ جَمِيعًا أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَلَا تُنظَرُونَ فَإِنِّي لَا أَبَالِي بِكُمْ ، وَلَا يَقُولُ هَذَا إِلَّا وَاثِقٌ بِعِصْمَةِ اللَّهِ ، وَكَانُوا قَدْ خَوَّفُوهُ آلِهَتَهُمْ فَأَمَرَ أَنْ يَخَاطِبَهُمْ بِذَلِكَ ، كَمَا قَالَ قَوْمُ هُودٍ لَهُ : إِنَّ نَقُولُ إِلَّا اعْتِرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ لَهُمْ : أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظَرُونَ .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 196 إلى 197]

إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَكَّلُ الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197)

إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ أَى نَاصِرِي عَلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي أَوْحَى إِلَى كِتَابِهِ وَأَعَزَّنِي بِرِسَالَتِهِ وَهُوَ يَتَوَكَّلُ الصَّالِحِينَ وَمِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَنْصُرَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَلَا يَخْذِلُهُمْ .

[سورة الأعراف (7) : آية 198]

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198)

يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ يَشْبَهُونَ النَّاطِرِينَ إِلَيْكَ ، لَأَنَّهُمْ صَوَّرُوا أَصْنَامَهُمْ بِصُورَةٍ مِنْ قَلْبِ حَدِيقَتِهِ إِلَى

الشَّيْءِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَهُمْ لَا يَدْرِكُونَ الْمَرْئِيَ

[سورة الأعراف (7) : آية 199]

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199)

الْعَفْوَ ضِدُّ الْجَهْدِ : أَي خُذْ مَا عَفَاكَ مِنْ أَعْمَالِ النَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَمَا أَتَى مِنْهُمْ ، وَتَسَهَّلْ مِنْ

غَيْرِ كَلْفَةٍ ، وَلَا تَدَاقِمَهُمْ ، وَلَا تَطْلُبْ مِنْهُمْ الْجَهْدَ وَمَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ حَتَّى لَا يَنْفِرُوا ، كَقَوْلِهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يسروا ولا تعسروا» «1» قال :

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطَقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضِبُ «2»

---

(1) . متفق عليه من حديث أنس أتم منه . [ . . . . . ]

(2) . مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 362 فراجع إن شئت اه مصححه .

(339/302)

---

وقيل : خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم ، وذلك قبل نزول آية الزكاة ، فلما نزلت أمر أن

يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً . والعرف : المعروف والجميل من الأفعال وأعرض عن

الجاهلِينَ وَلَا تَكْفَى السَّفَهَاءَ بِمَثَلِ سَفَهُهُمْ ، وَلَا تَمَارَهُمْ ، وَاحْلَمْ عَنْهُمْ ، وَأَغْضِ عَلَى مَا  
يَسُوؤُكَ مِنْهُمْ . وَقِيلَ :

لما نزلت الآية سأل جبريل فقال : لا أدري حتى أسأل «1» ، ثم رجع فقال : يا محمد ، إن  
ربك أمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . وعن جعفر  
الصادق :

أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم  
الأخلاق منها .

[سورة الأعراف (7) : آية 200]

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200)  
وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ وَإِمَّا يَنْخَسِنُكَ مِنْهُ نَخْسٌ ، بَأَنْ يَحْمِلَكَ بوسوسته على  
خلاف ما أمرت به فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلَا تَطْعَهُ . النزع والنسخ : الغرز والنخس ، كأنه ينخس  
الناس حين يغريهم على المعاصي . وجعل النزع نازغا ، كما قيل جدّ جدّه . وروى أنها لما  
نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كيف يا رب والغضب «2»» فنزل وإِمَّا  
يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِنِزْغِ الشَّيْطَانِ اعْتِرَاءُ الْغَضَبِ ، كَقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنَّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِي «3»

[سورة الأعراف (7) : الآيات 201 إلى 202]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ  
يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (202)

(1). أخرجه الطبري من طريق سفیان بن عیینة عن أبي المرادي قال لما أنزل الله فذكره  
وهذا منقطع . وأخرجه ابن مردويه موصولاً من حديث جابر ومن حديث قيس بن سعد  
، وزاد في أوله «لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمزة قال : والله لأمثان بسبعين  
منهم . فجاء جبريل بهذه الآية ، فذكر الحديث» وفي مسند أحمد عن عقبة بن عامر «أن  
النبي صلى الله عليه وسلم قال له : يا عقبة ، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا : أن تصل  
من قطعك وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وغفل الطبري فقال في حديث الأصل  
: رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر .

(2). أخرجه الطبري من رواية ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم «لما نزلت»  
فذكره مفصلاً .

(3). أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده . وابن سعد في الطبقات قالاً : حدثنا وهب  
بن جرير حدثنا جرير بن حازم سمعت الحسن يقول «خطب أبو بكر رضي الله عنه يوماً ،  
فقال : أما والله ، ما أنا بخيركم ولقد كنت لمقامي هذا كارها . ولوددت أن فيكم من  
يكفيني أفرط ، وأن أعمل فيكم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ؟ ؟ ؟ أقوم لها  
، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتصم بالوحي . وكان معه ملك . وإن لي

شيطانا يعتريني . فإذا غضبت فاجتنبوني الحديث» رواه عبد الرزاق عن معمر عن رجل  
عن الحسن نحوه . ورويناه في جزء الأنصاري من طريق أبي هلال عن الحسن قال «لما  
استخلف أبو بكر بدأ بكلام والله ما تكلم به أحد غيره» فذكر نحوه .

(340/302)

---

طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ لِمَا مِنْهُ مَصْدَرٌ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : طَافَ بِهِ الْخَيْالُ يَطِيفُ طَيْفًا . قَالَ :

أَنْى أَلَمْ بِكَ الْخَيْالُ بِطَيْفٍ ۝ 1۱

أَوْ هُوَ تَخْفِيفٌ طَيْفٍ فِعْلٌ ، مِنْ طَافَ يَطِيفُ كَلَيْنٌ . أَوْ مِنْ طَافَ يَطُوفُ كَهَيْنٌ . وَقَرِئٌ :

طَائِفٌ ، وَهُوَ يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ أَيْضًا . وَهَذَا تَأْكِيدٌ وَتَقْرِيرٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ وَجُوبِ اسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ

عِنْدَ نَزْعِ الشَّيْطَانِ ، وَأَنَّ الْمُتَّقِينَ هَذِهِ عَادَتُهُمْ : إِذَا أَصَابَهُمْ أَدْنَى نَزْعٍ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالْمَامِ

بِوَسْوَسَتِهِ تَذَكَّرُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ ، فَأَبْصَرُوا السَّدَادَ وَدَفَعُوا مَا وَسَّوَسَ بِهِ إِلَيْهِمْ وَلَمْ

يَتَّبِعُوهُ أَنْفُسَهُمْ . وَأَمَّا إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِمُتَّقِينَ ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ يَمْدُونَهُمْ فِي الْغَى ،

أَيُّ يَكُونُونَ مَدَدًا لَهُمْ فِيهِ وَيَعْضِدُونَهُمْ . وَقَرِئٌ : يُمْدِدُونَهُمْ مِنَ الْإِمْدَادِ . وَيَمَادُونَهُمْ ، بِمَعْنَى

يَعَاوَنُونَهُمْ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ثُمَّ لَا يَمْسُكُونَ عَنْ إِغْوَائِهِمْ حَتَّى يَصْرُوا وَلَا يَرْجِعُوا . وَقَوْلُهُ

وَإِخْوَانُهُمْ يَمْدُونَهُمْ كَقَوْلِهِ :

قَوْمٌ إِذَا الْخَيْلُ جَالُوا فِي كَوَائِبِهَا «2»

في أنّ الخبر جار على ما هوله . ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين ، ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين ، فيكون الخبر جاريا على ما هوله ، والأول أوجه ، لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا . فإن قلت : لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد ؟ قلت : المراد به الجنس ، كقوله أولياؤهم الطاغوت .

---

(1) أنى ألم به الخيال يطيف ومطافه بك ذكرة وشغوف

لكعب بن زهير . وأنى : استفهام تعجبي بمعنى كيف ، أو من أين . وألم : أى نزل للزيارة . والخيال : ما يراه النائم . وطاف به الخيال يطيف طيفا ومطافا : أقبل عليه . وطاف حوله يطوف طوفا وطوفانا : حام عليه ودار حوله ، ويكنى به عن اللمس . وقوله «يطيف» جملة حالية مؤكدة أو مؤسسة . ومطافه : أى طيفه هو سبب التذكر ووصول الحب لشغاف القلب ، فأقام المسبب مقام السبب ، وعبر عن نفسه أولا بضمير الغيبة ، وثانيا بالخطاب . على طريق الالتفات فرارا من شبهة التكرار . وروى بك بالخطاب .

(2) قوم إذا الخيل جالوا في كوائبها فوارس الخيل لا ميل ولا قدم

«الخيال» الأفراس . و«الكائبة» الفرس القربوس ، وللبعير الغارب ، والرجل الكاهل .  
والحمار السيسيا .

و«الميل» جمع أميل ، وهو الذي لا يثبت على ظهر فرسه . والقدم : جمع أقدم ، وهو اللئيم

الضعيف . أو جمع قدم بالسكون بمعناه . وضمير «جالوا» للقوم ، فجرى الخبر على غير ما هوله . أى إذا الخيل جالوا هم في سروجها وما يبرز الضمير هكذا ، لأن محل وجوبه في الصفة لا الفعل ، أو لأمن اللبس ، لأن الواو ضمير العقلاء . فإن قيل : إن «إذا» لا تضاف إلا الجملة الفعلية ، فالخيل فاعل فعل محذوف . أجيب بمنع أنها لا تضاف إلا للفعلية ، وبأن ذلك في الشرطية لا الظرفية كما هنا . وقيل : يحتمل على بعد أن الخيل بمعنى الفرسان ، وضمير كواثبها للأفراس المدلول عليها بذكر الخيل : أى قوم إذا الفرسان جالوا في كواثب الأفراس ، فوارس الخيل ، ثابتون عليها لا مائلون عن ظهورها ، ولا عاجزون كأن أيديهم مغولة .

(341/302)

[سورة الأعراف (7) : آية 203]

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَاطٌ مِنْ رَبِّكُمْ  
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203)

اجتبى الشيء ، بمعنى جباه لنفسه : أى جمعه ، كقولك : اجتمع ، أو جبهى إليه فاجتبه : أى أخذه ، كقولك : جلوت إليه العروس فاجتلاها ، ومعنى لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا هلا اجتمعتها ،

افتعالاً من عند نفسك ، لأنهم كانوا يقولون : ما هذا إلا إفكٌ مُفترىٌ أو هلاً أخذتها منزلةً عليك مقترحة ؟ قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ولست بمفتعل للآيات ، أو لست بمقترح لها هذا بصائرُ هذا القرآن بصائرٌ من ربكم أى حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى ، أو هو بمنزلة بصائر القلوب .

[سورة الأعراف (7) : آية 204]

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)  
وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة . وقيل : كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت ، ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن . وقيل معناه : وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له . وقيل : معنى فاستمعوا له : فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه .

[سورة الأعراف (7) : آية 205]

وَإِذْ كُذِّبَتْ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُؤُنَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205)  
وَإِذْ كُذِّبَتْ فِي نَفْسِكَ هو عامٌ في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك تضرُّعاً وخِيفَةً متضرُّعاً وخائفاً ودُؤُنَ الْجَهْرِ ومتكلماً كلاماً دون الجهر ، لأن الإخفاء



أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكير بالغدو والآصال لفضل هذين الوقتين . أو أراد  
الدوام . ومعنى بالغدو : بأوقات الغدو ، وهي الغدوات . وقرئ :

والإيصال ، من أصل إذا دخل في الأصيل ، كأقصر وأعتم «1» وهو مطابق للغدو ولا تكن  
من الغافلين من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه .

[سورة الأعراف (7) : آية 206]

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)

(1) . قوله «كأقصر وأعتم» أقصر : أى دخل في القصر أى العشى ، وأعتم : دخل في

العمّة ، أى وقت العشاء . أفاده الصحاح . (ع)

(342/302)

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ هُمُ الْمَلَائِكَةُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ . ومعنى عند دنو الزلفة ، والقرب من  
رحمة الله تعالى وفضله ، لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته وله يسجدون ويحتصونه  
بالعبادة لا يشركون به غيره ، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من «قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه  
وبين إبليس ستراً ، وكان آدم شفيحاً له يوم القيامة» «1» . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف

(1) . ذكرت أسانيدَه في تفسير آل عمران وسيأتي في آخر الكتاب .

(343/302)

ومن فوائد ابن جزى في الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ سَأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾

السائلون اليهود أو قريش ، وسميت القيامة ساعة لسرعة حسابها كقوله : وما أمر الساعة

إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ معنى أيان : متى ، ومرساها : وقوعها

وحدوثها ، وهي من الإرساء بمعنى الثبوت ﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي استأثر الله

بعلم وقوعها ولم يطلع عليه أحد ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ معنى يجليها يظهرها ، فهو من

الجلاء ضدّ الخفاء ، واللام في لوقتها ظرفية : أي عند وقتها ، والمعنى لا يظهر الساعة عند

مجيء وقتها إلا الله ﴿ ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ في معناه ثلاثة أقوال : الأول :

ثقلت على أهل السموات والأرض لهيبتها عندهم وخوفهم منها ، والثاني : ثقلت على

أهل السموات والأرض أنفسها لتفطر السماء فيها وتبديل الأرض ، والثالث : معنى ثقلت

: أي ثقل علمها أي خفي ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ الحفي بالشيء هو المهم به  
المعني به ، والمعنى : يسألونك عنها كأنك حفي بعلمها وقيل : المعنى يسألونك عنها كأنك  
حفيهم لقربتك منهم ، فعنها على هذين القولين يتعلق بيسألونك ، وقيل المعنى يسألونك  
كأنك حفي بالسؤال عنها ﴿ وَلَوْ كُنْتَ تُعَلِّمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ براءة من علم  
الغيب ، واستدلال على عدم علمه ﴿ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ ﴾ عطف على لاستكثرت  
من الخير أي لو علمت الغيب لاستكثرت من الخير ، واحترست من السوء ولكن لا أعلمه  
فيصيني ما قدر لي من الخير والشر ، وقيل : إن قوله وما مسني السوء : استئناف إخبار ،  
والسوء على هذا هو الجنون واتصاله بما قبله أحسن ﴿ لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يجوز أن يتعلق  
ببشير ونذير معا أي أبشر المؤمنين وأنذرهم ، وخص بهم البشارة والندارة ، لأنهم هم الذين  
ينتفعون بها ، ويجوز أن يتعلق بالبشارة وحدها ، ويكون المتعلق بنذير محذوف أي نذير  
للكافرين ، والأول أحسن .

(344/302)

---

﴿ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعني آدم ﴿ زَوْجَهَا ﴾ يعني حواء ﴿ لَيْسَ كُنَّ إِلَيْهَا ﴾ يميل إليها  
ويستأنس بها ﴿ تَغْشَاهَا ﴾ كناية عن الجماع ﴿ حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا ﴾ أي خف

عليها ولم تلق منه ما يلقي بعض الحوامل من حملهن من الأذى والكرب ، وقيل : الحمل  
الخفيف المنى في فرجها ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ قيل : معناه استمرت به إلى حين ميلاده ، وقيل :  
الحمل معناه قامت وقعدت ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ أي ثقل حملها وصارت به ثقيلة ﴿ لِنُ  
أَتَيْتَنَا صَالِحًا ﴾ أي ولداً صالحاً سالماً في بدنه ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ أي لما آتاهما ولداً  
صالحاً كما طلبا : جعل أولادهما له شركاء فالكلام على حذف المضاف وإقامة المضاف  
إليه مقامه ، وكذلك فيما آتاهما : أي فيما آتى أولادهما وذريتهما ، وقيل : إن حواء لما  
حملت جاءها إبليس وقال لها : إن أطعيني وسميت ما في بطنك عبد الحارث ،  
فسأخلصه لك ، وكان اسم إبليس الحارث ، وإن عصيتني في ذلك قتلته ، فأخبرت بذلك  
آدم ، فقال لها إنه عدو لنا الذي أخرجنا من الجنة ، فلما ولدت مات الولد ثم حملت مرة  
أخرى فقال لها إبليس مثل ذلك ، فعصته فمات الولد ثم حملت مرة ثالثة فسمياه عبد  
الحارث طمعاً في حياته ، فقوله : جعلاله شركاء في آتاهما : أي في التسمية لا غير ، لافي  
عبادة غير الله ، والقول الأول أصح لثلاثة أوجه : أحدها أنه يقتضي براءة آدم وزوجه من  
قليل الشرك وكثيره ، وذلك هو حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والثاني : أنه يدل على  
أن الذين أشركوا هم أولاد آدم وذريته لقوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ بضمير  
الجمع ، والثالث : أن ما ذكروا من قصة آدم وتسمية الولد عبد الحارث يفتقر إلى نقل بسند  
صحيح ، وهو غير موجود في تلك القصة ، وقيل : من نفس واحدة قصي بن كلاب :

وزوجته وجعل لهما شركاء أي: سموا أولادهما عبد العزى وعبد الدار وعبد مناف،

وهذا القول بعيد لوجهين أحدهما أن الخطاب على هذا

(345/302)

---

خاص بذرية قصي من قريش والظاهر أن الخطاب عام لبني آدم، والآخر أن قوله: وجعل منها زوجها، فإن هذا يصح في حواء لأنها خلقت من ضلع آدم، ولا يصح في زوجة قصي ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ هذه الآية رد على المشركين من بني آدم، والمراد بقوله: ما لا يخلق شيئاً الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله، والمعنى: أنها مخلوقة غير خالقة، والله تعالى خالق غير مخلوق فهو الإله وحده.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصراً وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعني أن الأصنام لا ينصرون من عبدتهم، ولا ينصرون أنفسهم فهم في غاية العجز والذلة، فكيف يكونون آلهة.

(346/302)

---

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ يعني: أن الأصنام لا تجيب إذا دعيت إلى أن تهدي أو إلى أن تهدي، لأنها جمادات ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ تأكيد وبيان لما قبلها، فإن قيل: لم قال: أم أنتم صامتون فوضع الجملة الاسمية موضع الجملة الفعلية وهلا قال أو صمتم؟ فالجواب إن صمتم عن دعاء الأصنام كانت حالة مستمرة، فعبّر هنا بجملة إسمية لتقتضي الاستمرار على ذلك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ رد على المشركين بأن آلهتهم عباد؛ فكيف يعبد العبد مع ربه ﴿ فادعوهمْ فَلَيْسَ تَسْتَجِيبُوا ﴾ أمر على جهة التعجيز ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: 21] وما بعده: معناه أن الأصنام جمادات عادمة للحس والجوارح والحياة والقدرة، ومن كان كذلك: لا يكون إلهاً، فإن من وصف الإله الإدراك والحياة والقدرة؛ وإنما جاء هذا البرهان بلفظ الاستفهام، لأن المشركين مقرون أن أصنامهم لا تمشي ولا تبطش، ولا تبصر، ولا تسمع، فلزمتهم الحجة، والهمزة في قوله "ألم" للاستفهام مع التوبيخ، وأم في المواضع الثلاثة تضمنت معنى الهمزة، ومعنى بل وليست عاطفة ﴿ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ المعنى: استجدوا أصنامكم لمضرتي والكيد عليّ، ولا تؤخروني، فإنكم وأصنامكم لا تقدرُون على مضرتي، ومقصد الآية الرد عليهم ببيان عجز أصنامهم وعدم قدرتها على المضرة، وفيها إشارة إلى التوكل على الله والاعتصام به وحده، وأن غيره لا يقدر على شيء ثم أفصح بذلك في قوله

: ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ ﴾ الآية: أي هو حافظي وناصري منكم فلا تضروني ، ولو حرصتم  
أتم وأهتكم على مضرتي ، ثم وصف الله بأنه الذي نزل الكتاب ، وبأنه الله تولى حفظه ،  
ومن تولى حفظه فهو من الصالحين ، والصالح لا بد أن

(347/302)

يكون صادقاً في قوله ولا سيما فيما يقوله عن الله .  
﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ ﴾ الآية: ردّ على المشركين ، وقد تقدّم  
معناه ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ﴾ . يحتمل أن يريد الأصنام فيكون تحقيراً لهم  
، ورداً على من عبدها ، فإنها جمادات لا تسمع شيئاً ، فيكون المعنى كالذي تقدّم ، أو  
يريد أن الكفار ، ووصفهم بأنهم لا يسمعون يعني سماعاً ينفعون به ، لإفراط نفورهم ، أو لأن  
الله طبع على قلوبهم ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . إن كان هذا من وصف  
الأصنام ، فقوله : ينظرون مجاز ، وقوله : لا يبصرون حقيقة ، لأن لهم صورة الأعين وهم لا  
يرون بها شيئاً ، وإن كان من وصف الكفار فينظرون حقيقة ولا يبصرون مجازاً على وجه  
المبالغة كما وصفهم بأنهم لا يسمعون .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ فيه قولان : أحدهما : أن المعنى خذ من الناس في أخلاقهم وأقوالهم

ومعاشرتهم ما تيسر لا ما يشق عليهم ، لئلا ينفروا فالعفو على هذا بمعنى السهل والصفح عنهم ، وهو ضد الجهل والتكليف كقول الشاعر :

(348/302)

---

خذي العفو مني تستديمي مودتي . . . والآخر أن المعنى من الصدقات ما سهل على الناس في أموالهم أو ما فضل لهم ، وذلك قبل فرض الزكاة ، فالعفو على هذا بمعنى السهل أو بمعنى الكثرة ﴿ وأمرٌ بالعرف ﴾ أي المعروف وهو فعل الخير ، وقيل العفو الجاري بين الناس من العوائد ، واحتج المالكية بذلك على الحكم بالعوائد ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ أي لا تكافئ السفهاء بمثل قولهم أو فعلهم واحلم عنهم ، ولما نزلت هذه الآية سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عنها ، فقال : لا أدري حتى أسأل ؛ ثم رجع فقال يا محمد إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك وعن جعفر الصادق : أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فيها بمكارم الأخلاق ، وهي على هذا ثابتة الحكم وهو الصحيح ، وقيل كانت مداراة للكفار ، ثم نسخت بالقتال .

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ نزغ الشيطان وسوسته بالتشكيك في الحق والأمر بالمعاصي أو تحريك لغضب ، فأمر الله بالاستعاذة منه عند ذلك ، كما ورد في الحديث "



أن رجلاً اشتد غضبه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لأعلم كلمة لو قالها  
لذهب عنه ما به: نعوذ بالله من الشيطان الرجيم" ﴿ طائفٌ مِنَ الشيطان ﴾ معناه لمه  
منه، كما جاء: "إن للشيطان لمة وللملك لمة"، ومن قرأ طائف بالألف، فهو اسم فاعل  
ومن قرأ طيف بياء ساكنة، فهو مصدر أو تخفيف من طيف المشدّد، كميت وميت ﴿  
تذكروا﴾ حذف مفعوله ليعم كل ما يذكر من خوف عقاب الله، أو رجاء ثوابه أو  
مراقبته والحياء منه، أو عداوة الشيطان والاستعاذة منه والنظر والاعتبار وغير ذلك ﴿  
فإذا هم مبصرون﴾ هو من بصيرة القلب .

(349/302)

---

﴿ وإخوانهم يمدّونهم في الغي ﴾ الضمير في إخوانهم للشياطين، وأريد بقوله: طائف  
من الشيطان: الجنس، ولذلك أعيد عليه ضمير الجماعة وإخوانهم هم الكفار، ومعنى  
يمدّونهم: يكونون مدداً لهم: يعضدونهم، وضمير المفعول في يمدّونهم للكفار، وضمير  
الفاعل للشيطان، ويحتمل أن يريد بالإخوان: الشياطين، ويكون الضمير في إخوانهم  
للكفار، والمعنى على الوجهين: أن الكفار يمدّهم الشيطان وقرئ يمدّونهم بضم الياء  
وفتحها، والمعنى واحد، وفي الغي: يتعلق بيمدّونهم، وقيل: يتعلق بإخوانهم كما تقول

إخوة في الله، أوفي الشيطان ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ أي لا يقصر الشياطين عن إمداد  
إخوانهم الكفار، أو لا يقصر الكفار عن غيهم، وفي الآية من إدراك البيان لزوم ما لا يلزم  
بالتزام الصاد قبل الرءاء في مبصرون ولا يقصرون ﴿ وَإِذْ لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾  
الضمير في لم تأتتهم للكفار، ولولا هنا عوض، وفي معنى اجتبيتها قولان: أحدهما:  
اخترعتها من قبل نفسك، فالآية على هذا من القرآن، وكان النبي صلى الله عليه وسلم  
يتأخر عنه بالوحي أحياناً، فيقول الكفار: هلا جئت بقرآن من قولك، والآخر معناه:  
طلبتها من الله، وتخيرتها عليه، فالآية على هذا معجزة، أي يقولون: اطلب المعجزة من  
الله ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ﴾ [الجن: 20] معناه: لا اخترع القرآن على القول الأول، ولا  
أطلب آية من الله على القول الثاني ﴿ هَذَا بَصَائِرُ ﴾ أي علامات هدى والإشارة إلى  
القرآن .

(350/302)

---

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الإنصات  
المأمور به هو لقراءة الإمام في الصلاة، والثاني: أنه الإنصات للخطبة، والثالث: أنه  
الإنصات لقراءة القرآن على الإطلاق وهو الراجح لوجهين: أحدهما: أن اللفظ عام ولا

دليل على تخصيصه ، والثاني أن الآية مكية ، والخطبة إنما شرعت بالمدينة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ : قال بعضهم : الرحمة أقرب شيء إلي مستمع القرآن لهذه الآية ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ يحتمل أن يريد الذكر بالقلب دون اللسان ، أو الذكر باللسان سراً ، فعلى الأول يكون قوله : ودون الجهر من القول ؛ عطف متغاير أي حالة أخرى ، وعلى الثاني يكون بياناً وتفسيراً للأول ﴿ بالغدو والآصال ﴾ أي في الصباح والعشي والآصال جمع أصل والآصل جمع أصيل ؛ قيل : المراد صلاة الصبح والعصر ، وقيل : فرض الخمس والأظهر الإطلاق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ هم الملائكة عليهم السلام ، وفي ذكرهم تحريض للمؤمنين وتعريض للكفار ﴿ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ قدم المجرور لمعنى الحصر أي لا يسجدون إلا لله ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل ح 2 ص 60.56 ﴾

(351/302)

---

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (206) ﴾

التفسير: لما ذكر فساد طريقة عبدة الأصنام وبين النهج القويم والصراط المستقيم أرشد إلى مكارم الأخلاق والعفو الفضل وكل ما أتى من غير كلفة. واعلم أن الحقوق التي تستوفى من الناس إما أن يجوز إدخال المساهلة فيها وهو المراد بقوله ﴿خذ العفو﴾ ويدخل في التخلص مع الناس بالخلق الحسن وترك الغلظة والفظاظة، ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف كما قال في حق نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ [آل عمران: 159] وإما أن لا يجوز دخول المسامحة فيها وذلك قوله ﴿وأمر بالعرف﴾ وهو المعروف. والعارفة كل أمر عرف أنه لا بد من الإتيان به ويكون وجوده خيراً من عدمه، فلو اقتصر في هذا القسم على الأخذ بالعفو ولم يبدل في ذلك وسعه كان راضياً بتغيير الدين وإبطال الحق. ثم أمر بالمعروف ورغب فيه ونهى عن المنكر ونفر عنه فرمياً أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء فلماذا قال ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ قال عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا جبرائيل ما هذا؟ فقال: لا أدري حتى أسأل ثم رجعت فقال: يا محمد إن ربك أمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك" قال أهل العلم: تفسير جبرائيل مطابق للفظ الآية فإنك إذا وصلت من قطعك فقد عفوت عنه، وإذا أعطيت من حرمك فقد أمرت بالمعروف، وإذا عفوت عمن ظلمك فقد أعرضت عن الجاهل. يروى عن جعفر الصادق رضي الله عنه: ليس في القرآن العزيز آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية

ولبعض المفسرين في تفسير الآية طريق آخر قالوا ﴿ خذ العفو ﴾ أي ما أتوك به عفواً  
فخذه ولا تسأل ما وراء ذلك فنسخت بآية الزكاة ﴿ وأمر بالعرف ﴾ أي بإظهار الدين  
الحق وهذا غير منسوخ ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ أي المشركين وهذا منسوخ بآية  
القتال . والحق أن تخصيص أخذ العفو بالمال تقييماً للمطلق من غير دليل ، ولو سلم فإنما  
الزكاة بالمقادير المخصصة لا

(352/302)

---

ينافي ذلك لأن أخذ الزكاة مأمور بأن لا يأخذ كرائم أموال الناس وأن لا يشدد الأمر على  
المزكي .

(353/302)

---

وأيضاً لا يمتنع أن يؤمر النبي بأن لا يقابل سفاهة المشركين بمثلها ولكن يقاتلهم ، وإذا كان  
الجمع بين الأمرين ممكناً فلا حاجة إلى التزام النسخ . قال أبو زيد : لما نزل قوله ﴿ وأعرض  
عن الجاهلين ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يارب والغضب ؟ فنزل ﴿

وإما ينزغك من الشيطان نزغ ﴿ أي غرز ونخس جعل النزغ نازغاً كما قيل : جدّ جدّه .  
عن أبي زيد : نزغت ما بين القوم أي أفسدت ما بينهم وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشر ،  
وأكثر ما يكون ذلك عند الغضب . ونزغ الشيطان وسوسته في القلب بما يسوّل للإنسان من  
المعاصي وعلاجه ودفعه إنما يكون بالاستعاذة وهي الاستخلاص عن حول الإنسان وقوته  
إلى حول الرحمن وقوته والإعراض عن مقتضى الطبع والإقبال على أوامر الشرع عن معاذ  
بن جبل قال : استبّ رجلان عند النبي حتى عرف الغضب في وجه أحدهما فقال النبي  
صلى الله عليه وسلم : " إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب غضبه أعود بالله من الشيطان  
الرجيم " قال بعض الطاعنين في عصمة الأنبياء : لو لم يجز على النبي الإقبال على وسوسة  
الشيطان لم يأمر بالاستعاذة . والجواب أن كلمة " إن " لا تنفيد وقوع الشرط ، ولو سلم فمن  
أين علم أنه صلى الله عليه وسلم قبل تلك الوسوسة منه ؟ ولو سلم فمحمول على ترك  
الأولى . ثم ختم الآية بقوله ﴿ إنه سميع عليم ﴾ ليعرف أن القول اللساني بدون المعارف  
الحقيقية عديم الفائدة وكأنه تعالى قال : اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإني سميع . وأحضر  
معنى الاستعاذة في ضميرك فإني عليم . ثم بين أن حال المتقين قد تزيد على حال النبي في  
باب وسوسة إبليس فإن النبي لا يكون له إلا النزغ الذي هو كابتداء الوسوسة ، وأما المتقون  
فقد يمسهم الشيطان وذلك قوله ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف ﴾ قال الفراء :

الطائف كالحاطر وجوز بعضهم أن يكون مصدراً كالعاقبة ولكنه بلا تاء . والأصح أنه اسم فاعل من طاف يطوف أو من طاف به الخيال يطيف طيفاً . ومن قرأ طيف فهو إما مصدر

(354/302)

---

أي لمسة من الشيطان ، وإما مخفف طيف " فيعل " من طاف يطيف كلين ، أو من طاف يطوف كهين . قال في الكشف : وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزع الشيطان وأن المتقين هذه عاداتهم إذا أصابهم نزع من الشيطان وإمام بوسوسته . ومفعول ﴿ تذكروا ﴾ محذوف أي تذكروا ما أمر الله به ونهى عنه فأبصروا السداد . واعلم أن الغضب إنما يهيج بالإنسان إذا استقبح من المغضوب عليه عملاً من الأعمال ثم اعتقد في نفسه كونه قادراً وفي المغضوب عليه كونه عاجزاً هذا إذا كان واقفاً على ظلمات عالم الأجسام فيغتر بطواهر الأمور ، أما إذا انكشف له نور من عالم العقل عرف أن المغضوب عليه إنما أقدم على ذلك العمل لأن الله تعالى خلق فيه داعية جازمة وقد علم منه تلك الحالة في الأزل ، ومتى كان كذلك فلا سبيل إلى تركها فحينئذ يفتري غضبه كما قال صلى الله عليه وسلم :

(355/302)

---

"من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب" وأيضاً إنه كم أساء في العمل وقد تجاوز عنه وإن الله أقدر عليه وإنه إذا أمضى الغضب كان شريكاً للسهاب المؤذية، وإذا اختار العفو كان مضاهياً للأنبياء والأولياء مستأهلاً للثواب الجزيل، وإنه ربما انقلب الضعيف قوياً. وبالجملة فالمراد من قوله تعالى ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ ما ذكرنا من الاعتقادات، والمراد من قوله ﴿تَذَكَّرُوا﴾ الأمور تفيد ضعف تلك الاعتقادات، أما قوله ﴿وَإِخْوَانِهِمْ﴾ فالضمير فيه يرجع إلى الشيطان، وجمع لأن المراد به الجنس كقوله ﴿أَوْلِيَاءُ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: 257] والضمير المرفوع في ﴿يَمْدُونُ﴾ يرجع إلى الإخوان لأن شياطين الإنس يعضدون شياطين الجن على الإغواء والإضلال، أو إلى الشياطين فيكون الخبر جارياً على غير من هوله. والمعنى وإخوان الشياطين ليسوا بمتقين فإن الشياطين يمدونهم أي يكونون مدداً لهم في الغي. وجوز أن يراد بالإخوان الشياطين والضمير المجرور يعود إلى الجاهلين فيكون الخبر جارياً على ما هوله. قال في الكشاف: والأول أوجه لأن ﴿إِخْوَانِهِمْ﴾ في مقابلة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ قال الواحدي: عامة ما جاء في التنزيل مما يحمد ويستحب أمددت على "أفعلت" كقوله ﴿إِنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ﴾ [المؤمنون: 55] ﴿وَأَمْدَدْنَا هُمْ بِفَاكِهِةٍ﴾ [الطور: 22] ﴿أَتَمْدُونَنِي بِمَالٍ﴾ [النمل: 36] وما كان بخلافه فإنه يجيء على مددت قال ﴿



ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴿ [ البقرة : 15 ] فالوجه ههنا قراءة العامة ووجه الضم  
الاستهزاء والتهمك نحو ﴿ فبشرهم بعذاب اليم ﴾ [ آل عمران : 21 ] أما قوله ﴿ ثم لا  
يقصرون ﴾ فالإقصار الكف عن الشيء . قال ابن عباس : أي لا يمسك الغاوي عن  
الضلال والمغوي عن الإضلال ، ومعنى " ثم " تبعيد عدم الإقصار عن المدد فإنه يجب على  
العاقل إذا أقبل علي غي أن يمسك عنه سريعاً أن يتمادى فيه وينهمك ولهذا قيل : الرجوع  
إلى الحق أولى من التماذي في الباطل . ثم

(356/302)

---

ذكر نوعاً واحداً من إغوائهم فقال ﴿ وإذا لم تأتئهم ﴾ بآية وذلك أنهم كانوا يطلبون آيات  
معينة ومعجزات مخصوصة على سبيل التعنت كقولهم ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من  
الأرض ينبوعاً ﴾ [ الإسراء : 90 ] ثم إنه صلى الله عليه وسلم ما كان يأتيهم بها فعند  
ذلك ﴿ قالوا لولا اجتبيتها ﴾ يا قل اجتبي الشيء بمعنى جباه لنفسه أي جمعه ، وجبى  
إليه فاجتباه أي أخذه ، والمعنى هلاقتعلتها وجئت بها من عند نفسك لأنهم كانوا يقولون  
إن هذا إلا إفك مفترى وكانوا ينسبونه إلى السحر .

(357/302)

---

والمراد هلا أخذتها واقترحتها على إلهك ومعبودك إن كنت صادقاً في أن الله يجيب دعاءك ويسعف باقتراحك؟ وعند هذا أمر رسوله أن يذكر في الجواب ﴿ إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ﴾ ولست بمفتعل للآيات أو لست بمقترح لها . ثم بين أن عدم الإتيان بتلك المعجزات التي اقترحوها الأيّدح في الغرض لأن ظهور القرآن على وفق دعواه معجزة بالغة قاهرة كافية في تصحيح النبوة فكان طلب الزيادة من التعنت فقال ﴿ هذا ﴾ يعني القرآن ﴿ بصائر ﴾ إطلاق لاسم المسبب على السبب ، وذلك أن فيه حججاً بينة تفيد القلوب بصيرة وكشفاً ﴿ هدى ﴾ للمستدلين الواصلين بالنظر والاستدلال إلى درجة العرفان . فالبصائر لأصحاب عين اليقين ، والهدى لأرباب علم اليقين ، والرحمة لغيرهم من الصالحين المقلدين ، والجميع ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ ولما عظم شأن القرآن بتلك الأوصاف علم المكلفين أدباً حسناً في بابه فقال ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ والإنصات السكوت للاستماع . قال العلماء : ظاهر الأمر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجباً وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة وهو قول الحسن وأهل الظاهر . وعن أبي هريرة كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت . وقال قتادة . كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسألهم كم صليتم وكم بقي وكانوا يتكلمون في الصلاة لحوائجهم فنزلت . ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن . وقيل : نزلت في ترك

الجهر بالقراءة وراء الإمام لما روي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في الصلاة المكتوبة وقرأ أصحابه رافعين أصواتهم فخلطوا عليه صلى الله عليه وسلم فنزلت . وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار وجماعة : نزلت في الإنصات عند الخطبة يوم الجمعة ، وزيف بأن اللفظ عام فكيف يجوز قصره على قراءة القرآن في الخطبة أو على الخطبة نفسها بناء على أنها قد تسمى قرآناً لا شتمالها عليه .  
وأجيب بأن كلمة " إذا " لا

(358/302)

---

تفيد العموم بدليل أنه إذا قال لزوجته إذا دخلت الدار فأنت طالق فإنها لا تطلق مرة ثانية بدخول الدار مرة أخرى ، وبدليل أن الشافعي أوجب على المأموم أن يقرأ الفاتحة ، ورد بأن المأموم إنما يقرأ الفاتحة في حال سكتة الإمام كما قال أبو سلمة : للإمام سكتان فاغتم القراءة في أيهما شئت يعني سكتة بين التكبير إلى أن يقرأ ، وأخرى بين القراءة إلى أن يركع . واعترض بأن سكوت الإمام واجب أم لا . والأول باطل بالإجماع ، وعلى الثاني يجوز أن لا يسكت وحينئذ يلزم أن تحصل قراءة المأموم مع قراءة الإمام فيفضي إلى ترك الاستماع .

وأيضاً فهذا السكوت ليس له حد محدود والمؤمنون مختلفون ببطء القراءة وسرعتها ،  
فربما لا يتمكن المأموم من إتمام قراءة الفاتحة في مقدار سكوت الإمام فيلزم المحذور المذكور .

(359/302)

---

وأيضاً الإمام في هذا السكوت يصير كالتابع للمأموم وذلك غير جائز . قال الواحدي :  
الإنصات هو ترك الجهر عند العرب وإن كان يقرأ في نفسه إذا لم يسمع أحداً . وأورد عليه أن  
غاية توجيهه هو أن الإنصات مع قراءة الإمام ممكن لكن إمكان حصول الاستماع مع قراءته  
ممنوع ، فإن الاستماع عبارة عن كونه بحيث يحيط بذلك الكلام المسموع على الوجه الكامل  
، ولعل الإنصاف أن الاستماع على تقدير الإنصات المفسر ممكن أي يحصل مع قراءة الإمام .  
هذا وقد سلم كثير من الفقهاء عموم اللفظ إلا أنهم جوزوا تخصيص عموم القرآن بخبر  
الواحد وذلك ههنا قوله صلى الله عليه وآله : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " وذهب الإمام  
مالك وهو القول القديم للشافعي : إنه لا يجوز للمأموم قراءة الفاتحة في الصلاة الجهرية عملاً  
بمقتضى هذا النص ويجب عليه القراءة في الصلاة السرية لأن الآية دلالة لها على هذه  
الحالة . وفي الآية تفسير آخر وهو أن الخطاب في الآية مع الكفار وذلك أن كون القرآن بصائر  
وهدى ورحمة لا يظهر إلا بشرط مخصوص وهو أن النبي إذا قرأ عليهم القرآن عند نزوله

استمعوا له وأنصتوا ليقفوا على مبانيه ومعانيه في فيعترفوا بإعجازه ويستغنوا بذلك على طلب سائر المعجزات ، ومما يؤكد هذا التفسير قوله في آخر الآية ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ والترجي إنما يناسب حال الكفار لا حال المؤمنين الذين حصل لهم الرحمة جزماً في قوله ﴿ ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ويمكن أن يجاب بأن الأطماع من الكريم واجب فلم يبق إلا الفرق .  
وقيل : المراد باستماع القرآن العمل بما فيه .

(360/302)

---

ثم أمر نبيه وأمه تبعيته صلى الله عليه وسلم بالذكر العام - قرأنا كان أو غيره - على سبيل الدوام ، وذلك أن استماع القرآن كان الذكر الخفي فقال ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ وفي الآية قيود : الأول : تخصيصه اسم الرب دون الإله وغيره تنبيهاً على أن سبب الذكر هو التربية والإنعام وليدل على الطمع والرجاء . والثاني : ذكر الرب في النفس ليكون أدخل في الإخلاص وأبعد عن الرياء . قيل : ذكره في النفس هو أن يكون عارفاً بمعاني الأسماء التي يذكرها بلسانه . قال بعض المتكلمين : الذكر النفساني هو الكلام النفسي الذي يشبه الأشاعرة . الثالث والرابع : ﴿ تضرعاً وخيفة ﴾ أي متضرعاً وخائفاً ، فالتضرع لإظهار ذلة العبودية . والخوف إما خوف العقاب فهو مقام المذنبين ، وإما خوف

الجلال وهو مقام العارفين فإذا كوشفوا بالجمال عاشوا وإذا كوشفوا بالجلال طاشوا ، وأما خوف الخاتمة بل خوف السابقة فإنها علة الخاتمة . الخامس : قوله ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ والمراد أن يقع ذلك الذكر متوسطاً بين الجهر والإخفاء ، قال ابن عباس : هو أن يذكر ربه على وجه يسمع نفسه وإنما أخرج هذا عن الذكر القلبي لأن الخيال يتأثر من الذكر القلبي فيوجب قوة في النفس ولا يزال يتزايد في ذلك إلى أن يجري الذكر على لسانه بل يسري في جميع أعضائه وجوارحه وأركانها سرانياً معتدلاً خالياً عن التكلف بريئاً من التعسف .

(361/302)

---

السادس : قوله ﴿ بالغدو والآصال ﴾ والغدو مصدر غدا يغدو والمراد وقت الغدو كما يقال دنا الصباح أي وقته . وقيل : إنه يقال : اشتقاه من الأصل واليوم بليته . إنما يتدبر في الشرع من أول الليل فسمي آخر النهار أصيلاً لكونه ملاصقاً لما هو الأصل لليوم الثاني . وخص هذان الوقتان بالذكر لأن الغدو عندما ينقلب الحيوان من النوم الذي هو كالموت إلى اليقظة التي هي كالحياة ، والعالم يتحول من الظلمة التي هي طبيعة عدمية إلى النور الذي هو طبيعة وجودية ، وفي الآصال الأمر بالضد وهذان النوعان من التغير العجيب دليلان قاهران باهران على وجود صانع قدير وحكيم خبير فوجب أن يكون المكلف فيهما

مشتغلاً بالذكر والحضور ، ويمكن أن يكون المراد مداومة الذكر والمواظبة عليه بقدر  
الإمكان . السابع : قوله ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ وفيه إشارة إلى أن الذكر القلبي يجب  
أن يداوم عليه ولا يزال الإنسان يستحضر جلال الله وكبرياءه بحسب الطاقة البشرية ليتنور  
جوهر النفس ويستعد لقبول الإشراقات القدسية فيضاهي سكان حظائر الجبروت  
مدحهم الله بقوله ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ ومعنى عند دنو الشرف والقرب من عنايته  
وأطافه ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ فيداومون على ذلك ﴿ ويسبحونه ﴾ يبرؤونه  
وينزهونه عن كل سوء وهذا يرجع إلى المعارف والعلوم ﴿ وله يسجدون ﴾ بحضرتة بغاية  
الخشوع والاستكانة ، وهذا يعود إلى أعمال الجوارح . وفي هذا الترتيب دليل على أن  
الأصل في الطاعة والعبودية أعمال القلوب ويتفرع عليه أعمال الجوارح . والمقصود من الآية  
أن الملائكة مع غاية طهارتهم ونهاية عصمتهم وبراءتهم عن بواعث الشهوة والحسد  
والغضب ودواعي الحقد والحسد يواظبون على العبودية والطاعة ، فالإنسان مع كونه  
مبتلى بظلمات عالم الطبيعة وكدورات الزلات البشرية أولى بأن يداوم على ذكر معبوده ،  
وينجذب ما أمكن إلى العالم العقلي ومقره الأصلي ويصفي مرآة قلبه عن أصداء الهواجس  
وينتقش بالجلالاء القدسية

والمعارف الحقية والله وليّ التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 364 .

وقال الخطيب الشرييني في الآيات السابقة :

﴿ يسألونك ﴾ يا محمد سؤال استهزاء ﴿ عن الساعة ﴾ أي : عن وقتها ، واختلفوا في ذلك السائل ، فقال ابن عباس : إن قوماً من اليهود قالوا : يا محمد أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبياً كما تقول ، فإننا نعلم متى هي ، فنزلت هذه الآية ، وقال الحسن وقتادة : إن قريشاً قالوا : يا محمد بيننا وبينك قرابة فاذا ذكر لنا متى الساعة ؟ والساعة من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا ، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة ، أو لأن حساب الخلق يقضي فيها في ساعة واحدة فسميت بالساعة لهذا السبب ، أو لأنها على طولها عند الله تعالى كساعة واحدة ، وقوله تعالى : ﴿ أيان ﴾ سؤال استفهام عن الوقت الذي تقوم فيه الساعة ومعناه متى ﴿ مرساها ﴾ قال ابن عباس منتهاها والمرسى هنا مصدر بمعنى الإرساء كقوله تعالى : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ (هود ، )  
أي : إجراؤها وإرساؤها ، والإرساء الإثبات يقال : رسا يرسو إذا ثبت قال الله تعالى :  
﴿ والجبال أرساها ﴾ (النازعات ، )



﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ إنما علمها ﴾ أي : متى تكون ﴿ عند ربي ﴾ أي : لا يعلم الوقت الذي تقوم فيه الساعة إلا الله تعالى استأثر الله تعالى بعلمها ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : متى الساعة ، فقال عليه الصلاة والسلام : " ما المسؤول عنها بأعلم من السائل " قال المحققون : والسبب في إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون ، كانوا على حذر منها ، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية ، ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى فقال : ﴿ لا يجليها ﴾ أي : يظهرها ﴿ لوقتها ﴾ أي : في وقتها المعين ، فاللام بمعنى في وهو أولى من قول البيضاوي إنها للتأقيت ﴿ إلا هو ﴾ أي : لا يقدر على إظهار وقتها المعين بالإعلام والإخبار إلا هو ﴿ ثقلت ﴾ أي : عظمت ﴿ في السموات والأرض ﴾ أي : ثقل أمرها وخفي علمها على أهل السموات والأرض ، وكل شيء خفي فهو ثقيل شديد ، وقال الحسن : إذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والأرض ، وإنما ثقلت عليهم ؛ لأن فيها فناءهم وموتهم ، وذلك ثقيل على القلوب وقوله تعالى : ﴿ لا تأتكم إلا بغتة ﴾ تأكيد أيضاً لما تقدم وتقرير لكونها بحيث لا تجيء إلا فجأة على حين غفلة من الخلق .

---

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحة فلا يطعمه، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع الأكلة إلى فيه فلا يطعمها، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يستيقي فيه" اللقحة بفتح اللام وكسرهما الناقاة القريبة العهد بالنجاج وقوله: يليط حوضه، ويروى: يلوط حوضه أي: يطينه ويصلحه، يقال: لاط حوطه يليطه ويلوطه إذا طينه، والأكلة بضم الهمزة اللقمة. وفي رواية "أن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يستيقي ماشيته والرجل يقوم بسلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه"، رواه بمعناه الشيخان. ﴿يسألونك﴾ أي: يسألك قومك عن الساعة ﴿كأنك حفي عنها﴾ أي: عالم بها من قولهم: أحفيت في المسألة إذا بالغت في السؤال عنها حتى علمتها، وقيل: الحفي البار اللطيف ومنه قوله سبحانه وتعالى:

﴿إنه كان بي حفياً﴾ (مريم، )

أي: باراً لطيفاً مجيب دعائي إذا دعوته أي: يسألونك كأنك بار بهم لطيف العشرة معهم، وهذا قول الحسن ويؤيده ما روي في تفسيره: أن قريشاً قالت لمحمد صلى الله عليه وسلم إن بيننا وبينك قرابة فاذا ذكر لنا متى الساعة.

والمعنى يسألونك عنها كأنك حفي فتحفي بهم أي: فتخصهم لأجل قرابتك بتعليم وقتها،

وتروي علمها عن غيرهم ولو أخبرت بوقتها لمصلحة علمها الله تعالى في إخبارك به لكنت مبلغة القريب والغريب من غير تخصيص كسائر ما أوحى إليك .

وقيل : كأنك حفيّ بالسؤال عنها تحبه وتؤثره أي : إنك تكره السؤال عنها ؛ لأنه من علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ولم يؤته أحداً من خلقه كقوله تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إنما علمها عند الله ﴾ أي : استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلم متى الساعة إلا هو .

(365/302)

---

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ وقوله تعالى ثانياً : ﴿ يسألونك كأنك حفيّ عنها ﴾ فيه تكراراً . أجيب : بأنه لا تكرار ؛ لأن السؤال الأول عن وقت قيام الساعة ، والثاني عن كنه ثقل الساعة وشدتها ومهابتها ، فلا يلزم التكرار . وقيل : ذكر الثاني للتأكيد ولما جاء به من زيادة قوله : ﴿ كأنك حفيّ عنها ﴾ وعلى هذا تكرار العلماء الحذاق في كتبهم لا يجلون المكرر من فائدة ، ومنهم محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رحمهما الله تعالى .

فإن قيل : لم أجاب عن الأول بقوله : ﴿ إنما علمها عند ربي ﴾ وعن الثاني بقوله : ﴿ إنما علمها عند الله ﴾ ؟

أجيب : بأن السؤال الأول لما كان واقعاً عن وقت قيام الساعة ، والثاني كان واقعاً عن مقدار شدتها ومهابتها عبر عن الجواب فيه بقوله : علم ذلك عند الله ؛ لأنه أعظم أسمائه مهابة وعظمة ثم إنه تعالى ختم هذه الآية بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي : لا يعلمون السبب الذي من أجله أخفيت معرفة علم وقت قيامها المغيب عن الخلق ، وقيل : لا يعلمون أنّ علمها عند الله وإنه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه .  
وروي أنّ أهل مكة قالوا : يا محمد ألا تخبرنا بالسعر الرخيصة قبل أن يغلو فنشتريه ونربح فيه عند الغلاء ، وبالأرض التي تريد أن تجذب فنرحل عنها إلى ما قد أخصبت ، فأنزل الله تعالى :

لهم ﴿ لا أملك لنفسي نفعا ﴾ اجتلاب نفع بأن أربح فيما اشتريه ﴿ ولا ضراً ﴾ أي : ولا أقدر أذفع عن نفسي ضراً نزل بها بأن أرتحل إلى الأرض الخصبية أو من الأرض الجدبة ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له .

(366/302)

---

وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة بني المصطلق عصفت ريح في الطريق ففرت الدواب منها فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بموت رفاعة بالمدينة ، وكان فيها

غیظ للمنافقین وقال صلی الله علیه وسلم "انظروا این ناقتی" فقال عبد الله بن أبی المنافق مع قومه: ألا تعجبون من هذا الرجل یخبر عن موت الرجل بالمدينة ولم یعرف این ناقته؟ فقال صلی الله علیه وسلم إن ناساً من المنافقین قالوا: کیت وکیت، وناقتی فی هذا الشعب قد تعلق زمامها بشجرة فوجدوها علی ما قال صلی الله علیه وسلم فأنزل الله تعالی هذه الآیة ﴿ ولو کنت ﴾ أي: من ذاتی ﴿ أعلم الغیب ﴾ أي: جنسه ﴿ لاستکثرت ﴾ أي: أوجدت لنفسی کثیراً ﴿ من الخیر وما مسنی السوء ﴾ أي: ولو کنت أعلمه لخالفت حالی ما هی علیه من استکثار المنافع، ویدخل فیها ما یتصل بالخشب واجتناب المضار حتی لا یمسني سوء ﴿ إن ﴾ أي: ما ﴿ أنا الإنذیر ﴾ بالنار للکافرین ﴿ وبشیر ﴾ بالجنة ﴿ لقوم یؤمنون ﴾ أي: یصدقون، وقیل: لقوم یؤمنون متعلق بنذیر وبشیر؛ لأنهم المنتفعون بهما ﴿ هو الذی خلقکم ﴾ أي: ولم تكونوا شیئاً ﴿ من نفس واحدة ﴾ أي: خلقها ابتداءً من تراب، وهی آدم علیه السلام ﴿ وجعل منها ﴾ أي: من جسدها من ضلع من أضلاعها، وقیل: من جنسها لقوله تعالی: ﴿ جعل لکم من أنفسکم أزواجاً ﴾ (الشوری، )

(367/302)

﴿ زوجها ﴾ أي: حواء، قالوا: والحكمة في كونها خلقت منه أن الجنس إلى الجنس أميل  
والجنسية علة الضم ﴿ ليسكن إليها ﴾ أي: ليأنس بها ويطمئن إليها إطمئنان الشيء إلى  
جزئه أو جنسه، وإنما ذكر الضمير في يسكن بعد أن أنث في قوله تعالى: ﴿ من نفس  
واحدة ﴾ ذهاباً إلى معنى النفس ليناسب تذكير الضمير في قوله تعالى: ﴿ فلما  
تغشاها ﴾ أي: جامعها، ولئلا يوهم لو أنثه نسبة السكون إلى الأثى، والأمر بخلافه إزالة  
لاستيحاشه، فكانت نسبة المؤانسة إليه أولى ﴿ حملت حملاً خفيفاً ﴾ أي: خف عليها  
ولم تلق منه ما يلقي الحوامل غالباً من الأذى، أو محمولاً خفيفاً وهو النطفة ﴿ فمرت به ﴾  
أي: فعالجت به أعمالها وقامت وقعدت ولم يعقها عن شيء من ذلك لحفته ﴿ فلما  
أثقلت ﴾ أي: صارت ذا ثقل بكبر الولد في بطنها ﴿ دعوا الله ﴾ أي: آدم وحواء عليهما  
السلام ﴿ ربهما ﴾ مقسمين ﴿ لئن آتيتنا صالحاً ﴾ أي: ولداً سويلاً لا عيب فيه  
﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ أي: نحن وأولادنا على نعمتك علينا، وذلك أنهما جوّزا أن  
يكون غير سوي لقدرة الله تعالى على كل ما يريد لأنه الفاعل المختار.

فائدة: اتفق القراء على إدغام تاء التأنيث الساكنة في الدال.

﴿ فلما آتاها صالحاً ﴾ أي: جنس الولد الصالح في تمام الخلق بدناً وقوة وعقلاً، فكثروا  
في الأرض وانتشروا في نواحيها ذكوراً وإناثاً ﴿ جعلاً ﴾ أي: النوعان من أولادهما الذكور  
والإناث؛ لأن صالحاً صفة للولد وهو الجنس، فيشمل الذكر والأثى والقليل والكثير،

فكانه قيل : فلما آتاها أولاداً صالحى الخلقه من الذكور والإناث جعل النوعان ﴿ له  
شركاء ﴾ أي : بعضهم أصناماً وبعضهم ناراً وبعضهم شمساً وبعضهم غير ذلك ، وقيل :  
جعل أولادهما له شركاء ﴿ فيما آتاها ﴾ أي : فيما آتى أولادهما فسموه عبد العزى  
وعبد مناف على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، ويدل عليه قوله تعالى :  
﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ .  
﴿ أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾ أي : الأصنام .

(368/302)

---

فإن قيل : كيف وحده ﴿ يخلق ﴾ ، ثم جمع فقال : ﴿ وهم يخلقون ﴾ ؟  
أجيب : بأن لفظ ما يقع على الواحد والاثنين والجمع ، فوحد بحسب ظاهر اللفظ ، وجمع  
باعتبار المعنى .

فإن قيل : كيف جمع الواو والنون لمن لا يعقل وهو جمع من يعقل من الناس ؟  
أجيب : بأنه لما اعتقد عابدهم الأصنام أنها تعقل وتميز ورد هذا الجمع على ما يعتقدونه ،  
وقيل : لما حملت حواء آتاها إبليس في صورة رجل فقال لها : ما يدريك ما في بطنك ؟  
ولعله بهيمة أو كلب وما يدريك من أين يخرج ؟ فخافت من ذلك وذكرت لآدم فهما منه ،

وهو بضمّ الهاء وتشديد الميم من الهم وهو هنا الحزن ، ثم عاد إليها وقال : إني من الله  
بمنزلة فإن دعوت الله على أن يجعله خلقاً مثلك ، ويسهل عليك خروجه فسميه عبد  
الحرث ، وكان اسم إبليس حارثاً في الملائكة ، ففعلت ولما ولدته سمته عبد الحرث .  
فإن قيل : قد قال البيضاوي : وأمثال ذلك لا تليق بالأنبياء ، ويحتمل أن يكون الخطاب في  
خلقكم لآل قصي من قريش ، فإنهم خلقوا من نفس قصي وكان له زوج من جنسها عربية  
قرشية فطلبها من الله تعالى الولد فأعطاهما أربعة بنين فسميهم عبد شمس وعبد مناف  
وعبد قصي وعبد الدار ، ويكون الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما المقترنين بهما اه  
أجيب : بأنه نظر في ذلك إلى الظاهر والإفقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " لما  
ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال : سميه عبد الحرث فإنه يعيش ،  
فسمته فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره " رواه الحاكم وقال : صحيح ،  
والترمذي وقال حسن غريب .

(369/302)

---

وروي عن ابن عباس أنه قال : كانت حواء تلد لآدم فتسميه : عبد الله وعبيد الله وعبد  
الرحمن فيصيبهم الموت ، فأتاها إبليس فقال : إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد



الحرث ، فسمياه فعاش ، وجاء في حديث "خدعهما إبليس مرتين : مرة في الجنة ومرة في الأرض" ، وهو قول كثير كمجاهد وسعيد بن المسيب وهذا كما قال البغوي : ليس إشراكاً في العبادة ، ولا أن الحرث ربهما فإن آدم كان نبياً معصوماً من الشرك ولكن قصد إلى أن الحرث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه ، وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به إنه مملوك كما يطلق اسم الرب على من لا يراد به أنه معبود هذا كالرجل إذا نزل به ضيف يسمى نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع لا على وجه أن الضيف يملكه قال الشاعر :

\* وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً \* \* ولا شيمة لي بعدها تشبه العبداء \*

وتقول للغير : أنا عبدك ، قال الرازي : ورأيت بعض الأفاضل كتب على عنوان عبد ودود

فلان ، وقال يوسف عليه السلام لعزير مصر : ﴿ إنه ربي ﴾ (يوسف ، )

ولم يرد به معبوده كذلك هذا فقوله تعالى : ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ ابتداء كلام ،

وأريد به إشراك أهل مكة ، وقرأ نافع وشعبة : "شركاً" بكسر الشين وسكون الراء وألف

منونة بعد الكاف في الوصل وفي الوقف بغير تنوين أي : شركة ، والباقون بضم الشين وفتح

الراء وبعد الكاف ألف بعدها همزة مفتوحة .

فإن قيل : المطاع إبليس فكيف يعير بالجمع ؟

أجيب : بأن من أطاع إبليس فقد أطاع جميع الشياطين ، هذا إن حملت هذه الآية على

القصة المشهورة ، أما إذا لم نقل به فلا حاجة إلى التأويل .

﴿ ولا يستطيعون ﴾ أي: الأصنام ﴿ لهم ﴾ أي: لعابديهم ﴿ نصراً ﴾ أي: لا تقدر على النصر لمن أطاعها أو عبدها ، ولا تضر من عصاها ، والمعبود الذي تجب عبادته يكون قادراً على إيصال النفع والضرر ، وهذه الأصنام ليست كذلك ، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها ؟ ﴿ ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أي: وهي لا تقدر أن تدفع عن نفسها مكروهاً ، فإن من أراد كسرها قدر عليه ، وهي لا تقدر على دفعه عنها . والاستفهام للتوبيخ .

ثم خاطب المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ وإن تدعوهم ﴾ أي: المشركين ﴿ إلى الهدى ﴾ أي: إلى الإسلام ﴿ لا يتبعوكم ﴾ أي: لأن الله تعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلوا الهداية ، وقرأ نافع بسكون التاء وفتح الباء الموحدة ، والباقون بفتح التاء مشددة وكسر الباء الموحدة ﴿ سواء عليكم أدعوتوهم ﴾ إلى الهدى ﴿ أم أتم صامتون ﴾ أي: ساكنون عن دعائهم ، فهم في كلا الحالتين لا يؤمنون .

وقيل : الضمير في تدعوهم للأصنام أي: إن هذه الأصنام التي يعبدها المشركون معلوم من حالها أنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع من دعاها إلى خير وهدى ، وذلك أن المشركين كانوا إذا وقعوا في شدة وبلاء تضرعوا إلى أصنامهم ، وإذا لم يكن لهم إلى الأصنام حاجة سكتوا

فقيل لهم : لا فرق بين دعائكم إلى الأصنام وسكوتكم عنها ، فإنها عاجزة في كل حال .  
﴿ إن الذين تدعون ﴾ أي : تعبدون ﴿ من دون الله عباد ﴾ أي : مملوكة ﴿ أمثالكم ﴾  
فهي لا تملك ضرراً ولا نفعاً .

فإن قيل : كيف وصفها بأنها عباد مع أنها جماد ؟

(371/302)

---

أجيب : بأن المشركين لما ادّعوا أن الأصنام تضرّ وتنفع وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة  
فاهمة ، فوردت هذه الألفاظ على وفق معتقدهم تبيكياً لهم وتوبيخاً ولذلك قال :  
﴿ فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾ في كونها آلهة ، ولم يقل : فادعوهنّ  
فليستجن ، وقال : ﴿ إن الذين ﴾ ، ولم يقل : التي ، وبأنّ هذا اللفظ إنما ورد في معرض  
الاستهزاء بالمشركين ؛ لأنهم لما نحتوها بصورة الإناسي قال لهم : إن قصارى أمرهم أن  
يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم ، فلا يستحقون عبادتكم كما إنه لا يستحق بعضكم عبادة  
بعض ، فلم جعلتم أنفسكم عبيداً ، وجعلتموها آلهة وأرباباً .  
ثم أبطل أن يكونوا عبادة أمثالكم بقوله تعالى :

﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم ﴾ أي : بل الله ﴿ لهم أيدي يبطشون بها أم ﴾ أي : بل الله ﴿ لهم

أعين يبصرون بها أم ﴿ أي : بل الله ﴾ لهم آذان يسمعون بها ﴿ وهذا الاستفهام إنكاري  
أي : ليس لهم شيء من ذلك مما هو لكم ، فكيف تعبدونهم وأنتم أتم حالاً منهم ؟ إذ لا يليق  
بالإنسان العاقل أن يشتغل بعبادة الأخص الأدون الأرزل ، ونظير هذا قول إبراهيم الخليل  
عليه السلام لأبيه : ﴿ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ (مريم ، )  
وقد تعلق بعض الجهال بهذه الآية في إثبات هذه الأعضاء لله تعالى ، فقال : إن الله تعالى  
جعل عدم هذه الأعضاء لهذه الأصنام دليلاً على عدم إلهيتها ، فلو لم تكن هذه الأعضاء  
موجودة لله لكان عدمها دليلاً على عدم الإلهية ، وذلك باطل فوجب القول بإثبات هذه  
الأعضاء لله تعالى .

(372/302)

---

أجيب : بأن المقصود من هذه الآية بيان أن الإنسان أفضل وأحسن حالاً من الصنم ؛ لأن  
الإنسان له رجل ماشية ويد باطشة وعين باصرة وأذن سامعة ، والصنم رجله غير ماشية  
ويده غير باطشة وعينه غير مبصرة وأذنه غير سامعة ، فكان الإنسان أفضل وأكمل حالاً  
من الصنم ، فاشتغال الأفضل الأكمل بمجال الأخص الأدون جهل ، فهذا هو المقصود من ذكر  
هذا الكلام لا ما ذهب إليه وهم هؤلاء الجهال ﴿ قل ادعوا ﴾ أي : قل يا محمد لهؤلاء

المشركين : ادعوا ﴿ شركاءكم ﴾ أي : إلى هلاكهم ﴿ ثم كيدون ﴾ قال الحسن : كانوا يخوفونه صلى الله عليه وسلم بألتهم فقال الله تعالى له : قل لهم ادعوا شركاءكم ثم كيدون أي : ليظهر لكم أنها لا قدرة لها على إيصال المضار إلي بوجه .  
وقرأ أبو عمرو بإثبات الياء وصللاً ووقفاً ، وهشام له فيها وجهان : الإثبات والحذف ، وصللاً ووقفاً ، والباقون يحذفونها وصللاً ووقفاً . ثم تهكم عليهم صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فلا تنظرون ﴾ أي : فأعجلوا في كيدي أتم وشركاؤكم ، فإنكم لا تقدرون على ذلك ، وعلل عدم قدرتهم على ذلك بقوله :

(373/302)

---

﴿ إن وليي الله ﴾ الذي يتولى حفظي ونصري هو الله ﴿ الذي نزل الكتاب ﴾ المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة في الدين وهو القرآن ﴿ وهو ﴾ أي : الله سبحانه ﴿ يتولى الصالحين ﴾ أي : بنصره وحفظه ، فلا يضرهم عداوة من عاداهم ، قال ابن عباس : يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيئاً ولا يعصونه ، فمن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه وفي هذا مدح للصالحين ، وأن من تولاه الله تعالى بحفظه لا يضره شيء ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه ما كان يدخر لأولاده شيئاً ، فقيل له فيه ، فقال : ولدي

إما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين ، فإن كان من الصالحين فوليه هو الله تعالى ، ومن كان الله تعالى له ولياً فلا حاجة له إلى مالي ، وإن كان من المجرمين فقد قال الله تعالى : ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ ومن رده الله تعالى لم أكن مشتغلاً بمهماتهم ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أي : الله ﴿ لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أي : فكيف أبالي بهم ؟

فإن قيل : هذه الأشياء قد صارت مذكورة في الآيات المتقدمة فما الفائدة في تكريرها ؟  
أجيب : بأن الأول مذكور على جهة التقرير ، وهذا مذكور على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وبين من لا تجوز كأنه قيل : الإله المعبود يجب أن يكون بحيث يتولى الصالحين ، وهذه الأصنام ليست كذلك ، فلا تكون صالحة للإلهية ﴿ وإن تدعوهم ﴾ أي : الأصنام ﴿ إلى الهدى لا يسمعون ﴾ دعاءكم ﴿ وتراهم ﴾ يا محمد ﴿ ينظرون إليك ﴾ أي : يقابلونك كالناظر ﴿ وهم لا يبصرون ﴾ لأنهم صوّروا بصورة من ينظر إلى من يواجهه ، وقال الحسن : المراد بهذا المشركون ، ومعناه إن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى لا يسمعون دعاءكم ؛ لأن آذانهم قد صمت عن سماع الحق وتراهم ينظرون إليك يا محمد وهم لا يبصرون أي : ببصائر قلوبهم .

---

ولما بينّ تعالى أن الله هو الذي يتولاه، وإنّ الأصنام وعابديها لا يقدرّون على الإيذاء والإضرار بين ما هو المنهج القويم والصراط المستقيم في معاملة الناس بقوله تعالى: ﴿ خذ العفو ﴾ أي: اقبل الميسور من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسّس وذلك مثل قبول الاعتذار، ويدخل في ذلك ترك التشديد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية، ويدخل فيه أيضاً التخلّق مع الناس بالخلق الطيب وترك الغلظة والفظاظة، قال تعالى: ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ (آل عمران، )

وقال صلى الله عليه وسلم "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا" وقال الشاعر:  
\*خذي العفومني تستدمني مودّتي\* \*ولا تنطقي في سورتني حين أغضب\*  
وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية: قال عليه الصلاة والسلام: يا جبريل ما هذا؟ قال: لا أدري حتى أسأل، ثم رجع فقال: "إنّ الله تعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك" ﴿ وأمر بالعرف ﴾ أي: بالمعروف قال عطاء: بلا إله إلا الله ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ أي: فلا تقابلهم بالسفه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ (الفرقان، )

وذلك سلام المتاركة، وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "لم يكن رسول الله

صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح"، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله بعثني بمكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال".

قال أبو يزيد لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم "كيف يا رب والغضب" فنزل ﴿ وَإِمَا ﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية في ما الزائدة ﴿ يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغًا ﴾ أي: وسوسة وقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَعِذْ ﴾ أي: فاستنجد ﴿ بَا ﴾ جواب الشرط وجواب الأمر محذوف أي: يدفعه عنك.

(375/302)

---

تنبيه: احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه الآية، وقالوا: لولا أنه يجوز من النبي الإقدام على المعصية والذنب لم يحتج إلى الاستعاذة، وأجيب عن ذلك بأجوبة: الأول إن معنى هذا الكلام إن حصل في قلبك نزغ فاستعد بالله كما أنه تعالى قال: ﴿ لَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (الزمر، )

ولم يدل ذلك على أنه أشرك الثاني على تقدير أنه لو حصل وسوسة من الشيطان لكن الله تعالى قد عصم قلب نبيه صلى الله عليه وسلم من قبولها وثباتها في قلبه وإنما القادح لو قبل



صلى الله عليه وسلم وسوسة والآية لا تدل على ذلك .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ما من إنسان إلا ومعه شيطان " وفي رواية : " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة " قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : " وإياي إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير " وفي رواية : " لكنه أسلم بعون الله فلقد أتاني فأخذت مجلقه ولولا دعوة سليمان لأصبح في المسجد طريحا " قال النووي : يروى بفتح الميم وضمها فمن ضمها معناه فأسلم أنا من شره وقتته ومن فتحها قال معناه : إن القرين أسلم أي : صار مسلما فلا يأمرني إلا بخير الثالث : أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره أي : وإما ينزغناك أيها الإنسان من الشيطان نزغ فاستعد بالله كقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعد با ﴾ (النحل ، )  
﴿ إنه سميع ﴾ للقول ﴿ عليم ﴾ بالفعل ، وفي الآية دليل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة فكأنه تعالى قال : اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإني سميع واستحضر معنى الاستعاذة بعقلك وقلبك فإني عليم بما في ضميرك وفي الحقيقة القول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم ﴾ أي : أصابهم ﴿ طيف ﴾ أي : شيء ألم بهم ﴿ من الشيطان تذكروا ﴾ عقاب الله وثوابه ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ الحق من غيره ، فيرجعون .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بياء ساكنة بعد الطاء والباقون بألف بعد الطاء بعدها همزة مكسورة ﴿ وإخوانهم ﴾ أي : وإخوان الشياطين من الكفار ﴿ يمدونهم ﴾ أي : يمدّهم الشياطين ﴿ في الغي ﴾ أي : يزيدونهم في الضلالة بالتزيين والحمل عليها ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ أي : لا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها ، وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين ؛ لأنّ المؤمن إذا أصابه طيف من الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر ، والكافر مستمرّ في ضلاله لا يتذكر ولا يرعوي ﴿ وإذا لم تأتهم ﴾ أي : أهل مكة ﴿ بآية ﴾ أي : مما اقترحوها كقولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ (الإسراء ، (

﴿ قالوا لولا اجتبيتها ﴾ أي : هلا نقولتها من عند نفسك كسائر ما تقرؤه ، فإنهم كانوا يقولون : إنّ هذا الإفك مفترى ، تقول العرب : اجتبيت الكلام اختلقته وافتعلته وأنشأته من عندك ، وهلا طلبتها من ربك منزلة عليك مقترحة ؟ قال الله تعالى : ﴿ قل ﴾ : يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات ﴿ إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ﴾ أي : ليس لي أن أقترح على ربي في أمر من الأمور إنما أنتظر الوحي ، فكل شيء أكرمني به قلته ، وإلا فالواجب السكوت وترك الاقتراح .

ثم بين أن عدم الإتيان بتلك المعجزات التي اقترحوها لا يقدح في الغرض ؛ لأنّ ظهور القرآن

على وفق دعواه معجزة بالغة باهرة ، فإذا ظهرت هذه المعجزة الواحدة كانت كافية في  
تصحيح النبوة ، فكان طلب الزيادة من باب التعنت ، فذكر في وصف القرآن ألفاظاً ثلاثة  
أولها قوله : ﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ أي : هذا القرآن فيه حجة وبرهان ، وأصل  
البصائر الأبصار وهو ظهور الشيء حتى يبصره الإنسان ، ولما كان القرآن سبباً لبصائر  
العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه لفظ البصيرة فهو من باب تسمية السبب  
باسم المسبب .

وثانيها : ﴿ وهدى ﴾ أي : وهو هدى .

وثالثها : ﴿ ورحمة ﴾ أي : وهو رحمة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ .

فإن قيل : ما الفرق بين هذه المراتب الثلاث ؟

(377/302)

---

أجيب : بأنهم متفاوتون في درجات العلوم ، فمنهم من بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار  
كالمشاهد ، وهم أصحاب عين اليقين ، ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر ، وهم  
أصحاب علم اليقين ، ومنهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين ، وهم أصحاب حق  
اليقين ، فالقرآن في حق القسم الأول ، وهم السابقون بصائر ، وفي حق القسم الثاني وهم

المستدلون هدى ، وفي حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة .

﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ أي : عن الكلام ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي : لكي يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمرتم به من أوامره ، واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فذهب قوم إلى أنها نزلت في الصلاة كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات .

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بجوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع إلى قراءة القرآن ، وقال قوم : نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام .

وروي زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، وقال الكلبي : كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار ، وعن ابن مسعود أنه سمع ناساً يقرؤون مع الإمام فلما انصرفوا قال : أما أن لكم أن تفقهوا وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله ، وهو قول الحسن والزهري : إن الآية نزلت في القرآن في الصلاة .

(378/302)

---

وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد إن الآية نزلت في الخطبة أمروا بالإصغاء للخطبة الإمام يوم الجمعة ، وقال عمر بن عبد العزيز : الإصغاء لكل واعظ ، وقيل : معناه وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وأنصتوا ، وقيل : معنى فاستمعوا له فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه ، قال البغوي : والأول أولاها وهو أنها في القراءة في الصلاة لأن الآية مكية والجمعة وجبت بالمدينة ، قال البيضاوي : وظاهر اللفظ يقتضي وجوبها حيث يقرأ القرآن مطلقاً وعمامة العلماء على استحبابها خارج الصلاة واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف ، اهـ . أي : مردود بخبر الصحيحين : " لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفتح الكتاب " وقوله تعالى :

﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ عام في الأذكار من القراءة والدعاء وغيرهما ، والمراد بالذكر في النفس أن يستحضر في قلبه عظمة الله تعالى جل جلاله ؛ لأن الذكر باللسان إذا كان عارياً عن ذكر القلب كان عديم الفائدة ؛ لأن فائدة الذكر حضور القلب وإشعاره عظمة المذكور تعالى ، قال الرازي : سمعت بعض الأكابر من أصحاب القلوب كان إذا أراد أن يأمر واحداً من المريدين بالخلوة والذكر أمره أربعين يوماً بالخلوة والتصفية ، ثم عند استكمال هذه المدّة وحصول التصفية الكاملة يقرأ عليه الأسماء التسعة والتسعين ، ويقول للمريد : اعتبر حال قلبك عند سماع هذه الأسماء ، فكل اسم وجدت قلبك عند سماعه قوي تأثره وعظم تشوّقه ، فاعلم أن الله تعالى إنما يفتح أبواب المكاشفات عليك بواسطة المواظبة

على ذكر ذلك الاسم بعينه ، وهذا طريق حسن لطيف في هذا الباب ، اه .  
وقيل : ذلك أمر للمأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام من قراءة الفاتحة كما هو مذهب  
الشافعي رحمه الله تعالى ﴿ تضرعاً ﴾ أي : تذلاً ﴿ وخيفة ﴾ أي : خوفاً منه .

(379/302)

---

فائدة : إنما قال تعالى : ﴿ واذكرك ربك ﴾ ولم يقل : واذكر إلهك ولا غيره من الأسماء وإنما  
سماه في هذا المقام باسم كونه رباً ، وأضاف نفسه إليه ، وكل ذلك يدل على نهاية الرحمة  
والتقريب والفضل والإحسان ، والمقصود منه أن يصير العبد فرحاً مسروراً مبتهجاً عند  
سماع هذا الاسم ، لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والفضل ، وعند سماع هذا الاسم يتذكر  
العبد أقسام إنعام الله تعالى عليه ، وبالحقيقة لا يصل عقله إلى أقل أقسامه كما قال تعالى :  
﴿ وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها ﴾ (إبراهيم ، )

فعند انكشاف هذا المقام في القلب يقوى الرجاء ، فإذا سمع بعد ذلك قوله : ﴿ تضرعاً ﴾  
وخيفة ﴿ عظم الخوف وحينئذٍ يحصل في القلب موجبات الرجاء وموجبات الخوف ،  
وعنده يكمل الإيمان كما قال عليه الصلاة والسلام : " لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه  
لاعتدلا " وهذا جرى عليه بعضهم في حالة الصحة ، فيكون الخوف والرجاء مستويان .

والذي جرى عليه الغزالي وهو التحقيق أنه إن قوي رجاءه يقوى جانب الخوف والعكس بالعكس ، وأما حال المرض فيكون جانب الرجاء أرجح ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت فقال : "كيف تجدك" ؟ قال : أرجو الله يا رسول الله وإني أخاف ذنوبي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يجتمعان في قلب مؤمن في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف" ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ أي : ومتكلماً كلاماً فوق السر ودون الجهر أي : قصداً بينهما ، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص ﴿ بالغدو ﴾ جمع غدوة ، وقيل : إنه مصدر ﴿ والآصال ﴾ جمع أصيل ، وهو ما بين صلاة العصر إلى الغروب ، وإنما خص هذين الوقتين بالذكر ؛ لأن الإنسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو آخر الموت إلى اليقظة التي هي كالحياسة فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم ، وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله تعالى ، وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فإن الإنسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب الذكر ؛ لأنها حالة تشبه الموت ، ولعله لا يقوم من تلك النوم ، فيكون موته على ذكر الله تعالى ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ عن

ذكر الله .

وقيل : إنما خصا بالذكر ؛ لأن الصلاة بعد صلاة الصبح ، وبعد صلاة العصر مكروهة ، واستحب للعبد أن يذكر الله تعالى فيهما ليكون في جميع أوقاته مشغولاً بما يقربه إلى الله تعالى من صلاة وذكر ، وقيل : إن أعمال العباد تصعد أول النهار وآخره ، فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ، ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى الغروب ، فاستحب له الذكر فيهما ليكون ابتداء عمله بالذكر وختامه بالذكر .

(381/302)

---

﴿ إن الذين عند ربك ﴾ أي : الملائكة المقربين بالفضل والكرامة ﴿ لا يستكبرون ﴾ أي لا يتكبرون ﴿ عن عبادته ﴾ لأنهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه ﴿ ويسبحونه ﴾ أي : وينزهونه عن جميع النقائص ، ويقولون : سبحان الله ربنا ﴿ وله يسجدون ﴾ أي : ويخضعون له بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره ، وفي هذا إشارة إلى أن الأعمال تنقسم إلى قسمين : أعمال القلوب وأعمال الجوارح ، فأعمال القلوب هي تنزيه الله تعالى عن كل ما سواه ، وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله : ﴿ ويسبحونه ﴾ وعبر عن أعمال الجوارح بقوله : ﴿ وله يسجدون ﴾ ليوافق الملائكة المقربين في عبادتهم ، وعن معدان قال : سألت



ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : حدثني حديثاً ينفعني الله به قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة " ، وفي رواية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " عليك بكثرة السجود لله فإنك لا تسجد سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة " ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته في غير وقت صلاة " ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويلتي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار " والحديث الذي ذكره البيضاوي تبعاً للزمخشري وهو : " من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً وكان آدم شافعياً له يوم القيامة " حديث موضوع . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير ح 2 ص 294 . 306 ﴾

(1) قال الزيلعي : رواه الثعلبي أخبرنا محمد بن القاسم الفارسي ثنا أبو محمد عبد الله ابن أحمد الشيباني ثنا أبو عمرو الحرثي ثنا أبو أحمد محمد بن عبد الوهاب ثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ثنا سلام بن سليم المدائني ثنا هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي أمامة عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم . . . فذكره

وَرَوَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْمَوْضُوعَاتِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيِّ بِسَنَدِهِ فِي  
آخِرِ الْكِتَابِ

وَرَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي آلِ عِمْرَانَ  
وَذَكَرَهُ أَبُو شُجَاعٍ الدِّيلَمِيُّ فِي كِتَابِ الْفَرْدَوْسِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى عَادَتِهِ فِي ذِكْرِ  
الرَّأْيِ وَحَذَفَ اسْمَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
وَرَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ الْوَسِيطِ مِنْ حَدِيثِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ ثَنَا سَلَامُ بْنُ  
سَلِيمٍ بِهِ .

(382/302)

---

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ لما عدّد الله ما عدده من أحوال المشركين وتسفيه رأيهم وضلال  
سعيهم ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأخذ العفو من أخلاقهم .  
يقال أخذت حقي عفواً ، أي سهلاً .

وهذا نوع من التيسير الذي كان يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت في  
الصحيح أنه كان يقول : " يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا " والمراد بالعفو هنا ضد

الجهد .

وقيل المراد : خذ العفو من صدقاتهم ، ولا تشدد عليهم فيها وتأخذ ما يشق عليهم .

وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة ﴿ وأمر بالعرف ﴾ أي : بالمعروف .

وقرأ عيسى بن عمر "بالعرف" بضمين ، وهما لغتان .

والعرف والمعروف والعارفة : كل خصلة حسنة ترضيها العقول ، وتطمئن إليها النفوس ،

ومنه قول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه . . . لا يذهب العرف بين الله والناس

﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ أي : إذا أقمت الحجة في أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا ،

فأعرض عنهم ولا تمارهم ، ولا تسافهم مكافأة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة .

قيل : وهذه الآية هي من جملة ما نسخ بآية السيف ، قاله عبد الرحمن بن زيد وعطاء .

وقيل هي محكمة ، قاله مجاهد وقتادة .

قوله : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ النزغ : الوسوسة ، وكذا النغز والنخس .

قال الزجاج : النزغ أدنى حركة تكون ، ومن الشيطان أدنى وسوسة ، وأصل النزغ :

الفساد ، يقال نزغ بيننا : أي أفسد ، وقيل النزغ : الإغواء .

والمعنى متقارب : أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم إذا أدرك من وسوسة

الشيطان أن يستعيز بالله وقيل إنه لما نزل قوله : ﴿ خذ العفو ﴾ قال النبي صلى الله عليه

وسلم: "كيف ياربّ بالغضب؟" فنزلت، وجملة ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ علة لأمره بالاستعاذة، أي استعذ به والتجىء إليه، فإنه يسمع ذلك منك ويعلم به.

(383/302)

---

وجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ مقرّرة لمضمون ما قبلها، أي: إن شأن الذين يتقون الله، وحالهم هو التذكر لما أمر الله به من الاستعاذة به، والاتجاء إليه، عند أن يمسه طائف من الشيطان وإن كان يسيراً.

قرأ أهل البصرة "طيف" وكذا أهل مكة.

وقرأ أهل المدينة والكوفة ﴿طَائِفٌ﴾.

وقرأ سعيد بن جبير "طيف" بالتشديد.

قال النحاس: كلام العرب في مثل هذا "طيف" بالتخفيف على أنه مصدر من طاف يطيف.

قال الكسائي: هو مخفف مثل ميت وميت.

قال النحاس ومعناه في اللغة ما يتخيل في القلب أو يرى في النوم، وكذا معنى طائف.

قال أبو حاتم: سألت الأصمعي عن طيف فقال: ليس في المصادر فيعمل.

قال النحاس: ليس هو مصدراً ولكن يكون بمعنى طائف .

وقيل: الطيف والطائف معنيان مختلفان ، فالأول: التخييل .

والثاني: الشيطان نفسه .

فالأول: من طاف الخيال يطوف طيفاً ، ولم يقولوا من هذا طائف .

قال السهيلي: لأنه تخيل لا حقيقة له ، فأما قوله ﴿ فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [

القلم: 19] فلا يقال فيه طيف ، لأنه اسم فاعل حقيقة .

قال الزجاج: طفت عليهم أطوف ، فطاف الخيال يطيف .

قال حسان:

فدع هذا ولكن من لطيف . . . يورقني إذا ذهب العشاء

وسميت الوسوسة طيفاً ، لأنها لمة من الشيطان تشبه لمة الخيال .

﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ بسبب التذكر ، أي منتبهون .

وقيل على بصيرة .

وقرأ سعيد بن جبير " تذكروا " بتشديد الذال .

قال النحاس: ولا وجه له في العربية .

قوله: ﴿ وَإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّهُمْ فِي الْغَى ﴾ قيل المعنى: وإخوان الشياطين ، وهم الفجار

من ضلال الإنس ، على أن الضمير في إخوانهم يعود إلى الشيطان المذكور سابقاً ، والمراد به

الجنس .

فجاز إرجاع ضمير الجمع إليه .

﴿ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ ﴾ أي : تمدّهم الشياطين في الغيِّ ، وتكون مدداً لهم .

(384/302)

وسميت الفجار من الإنس إخوان الشياطين ، لأنهم يقبلون منهم ويقتدون بهم .

وقيل : إن المراد بالإخوان الشياطين ، وبالضمير الفجار من الإنس ، فيكون الخبر جارياً

على من هوله .

وقال الزجاج : في الكلام تقديم وتأخير .

والمعنى : ﴿ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾ ﴿

وإخوانهم يمدُّوهم في الغيِّ ﴾ لأن الكفار إخوان الشياطين ، ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ ﴿

الإقصار : الانتهاء عن الشيء ، أي لا تقصر الشياطين في مدّ الكفار في الغيِّ .

قيل : إن ﴿ في الغيِّ ﴾ متصلاً بقوله ﴿ يَمُدُّوهُمْ ﴾ وقيل : بالإخوان .

والغي : الجهل .

قرأ نافع " يَمُدُّوهُمْ " بضم حرف المضارعة وكسر الميم .

وقرأ الباقر بفتح حرف المضارعة وضم الميم ، وهما لغتان .

يقال مدّ وأمد .

قال مكّي : ومدّ أكثر .

وقال أبو عبيد وجماعة من أهل اللغة : فإنه يقال إذا كثّر شيء شيئاً بنفسه مدّه .

وإذا كثّره بغيره ، قيل : أمده نحو ﴿ يُمدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخُمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ [آل

عمران : 125] وقيل : يقال : مددت في الشرّ وأمددت في الخير .

وقرأ عاصم الجحدري "يُمدُّونَهُمْ فِي الْغَى" .

وقرأ عيسى بن عمر "ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ" بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف .

قوله : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه ، أي

جمعه ، أي : هلا اجتمعتها افتعالاً لها من عند نفسك .

وقيل : المعنى اختلقها ، يقال : اجتبيت الكلام : اتحلته واخترقته واخترعته إذا جئت

به من عند نفسك .

كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تراخى الوحي هذه المقالة ، فأمره الله بأن

يجيب عليهم بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أي : لست ممن يأتي بالآيات من قبل نفسه

كما تزعمون بل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ، فما أوحاه إليّ وأنزله عليّ أبلغته إليكم .

---

وبصائر جمع بصيرة، أي هذا القرآن المنزل عليّ هو ﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يتبصر بها من قبلها .

وقيل : البصائر الحجج والبراهين .

وقال الزجاج : البصائر الطرق ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على بصائر أي هذا القرآن هو بصائر وهدى يهدي به المؤمنون ورحمة لهم .

قوله : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ أمرهم الله سبحانه بالاستماع

للقرآن والإنصات له عند قراءته ؛ لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح .

قيل : هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام ، ولا يخفك أن اللفظ أوسع من هذا

والعام لا يقصر على سببه ، فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل حالة ، وعلى أيّ صفة مما يجب على السامع .

وقيل : هذا خاص بقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن دون غيره ، ولا وجه لذلك .

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي : تنالون الرحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله سبحانه ، ثم أمره

الله سبحانه أن يذكره في نفسه .

فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص ، وأدعى للقبول .



قيل : المراد بالذكر هنا ما هو أعم من القرآن وغيره من الأذكار التي يذكر الله بها .  
وقال النحاس : لم يختلف في معنى ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ أنه الدعاء .  
وقيل هو خاص بالقرآن ، أي اقرأ القرآن بتأمل وتدبر ، و ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ منتصبان  
على الحال ، أي متضرعًا وخائفًا ، والخيفة : الخوف ، وأصلها خوفاً قلبت الواو ياء  
لانكسار ما قبلها .

وحكى الفراء أنه يقال في جمع خيفة خيف .

قال الجوهري : والخيفة الخوف والجمع خيف ، وأصله الواو : أي خوف .  
﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أي : دون الجمهور به من القول ، وهو معطوف على ما قبله ،  
أي متضرعًا وخائفًا ، ومتكلمًا بكلام هو دون الجهر من القول .  
و ﴿ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ متعلق ب ﴿ اذْكُرْ ﴾ أي أوقات الغدوات وأوقات الأصائل .

(386/302)

---

والغدو : جمع غدوة ، والأصال : جمع أصيل ، قاله الزجاج والأخفش ، مثل يمين وأيمان .  
وقيل الأصال جمع أصل ، والأصل جمع أصيل ، فهو على هذا جمع الجمع ، قاله الفراء .  
قال الجوهري الأصيل الوقت من بعد العصر إلى المغرب ، وجمعه أصل وأصال وأصائل ،

كانه جمع أصيلة .

قال الشاعر :

لعمري لأنت البيت أكرم أهله . . . وأقعد في أفنائه بالأصائل

ويجمع أيضاً على أصلان مثل بعير وبعران .

وقرأ أبو مجلز "والإيصال" وهو مصدر .

وخص هذين الوقتين لشرفهما .

والمراد : دوام الذكر لله .

﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أي : عن ذكر الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْهُ

عِبَادَتِهِ ﴾ المراد بهم : الملائكة .

قال القرطبي : بالإجماع .

قال الزجاج : وقال ﴿ عند ربك ﴾ والله عز وجل بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته ،

وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده .

وقال غيره : لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله .

وقيل : إنهم رسل الله ، كما يقال عند الخليفة جيش كثير .

وقيل : هذا على جهة التشريف والتكريم لهم ، ومعنى : ﴿ يسبحونه ﴾ يعظمونه

وينزهونه عن كل شين ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ أي : يخصونه بعبادة السجود التي

هي أشرف عبادة.

وقيل المراد بالسجود: الخضوع والذلة.

وفي ذكر الملائكة الأعلى تعريض لبني آدم.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، وأبو داود، والنسائي،  
والنحاس في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ،  
وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن عبد الله بن الزبير، في قوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ الآية  
، قال: ما نزلت هذه الآية إلا في اختلاف الناس.

وفي لفظه: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس.

(387/302)

---

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن  
مردويه، عن ابن عمر في قوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ قال: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم  
أن يأخذ العفو من أخلاق الناس.

وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي  
، قال: لما أنزل الله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: " ما هذا يا جبريل ؟ قال : لأدري حتى أسأل العالم ، فذهب ثم رجع فقال : إن الله أمرك أن تعفو عن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك " وأخرج ابن مردويه ، عن جابر ، نحوه .

وأخرج ابن مردويه ، عن قيس بن سعد بن عبادة ، قال : لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمزة بن عبد المطلب قال : " والله لأمثلن بسبعين منهم " ، فجاه جبريل بهذه الآية .

وأخرج ابن مردويه ، عن عائشة ، في قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ ما عفا لك من مكارم الأخلاق .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ قال : خذ ما عفا من أموالهم ما أتوك به من شيء فخذ .

وهذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقة وتفصيلها .

وأخرج ابن جرير ، والنحاس ، في ناسخه ، عن السدي في الآية قال : الفضل من المال نسخته الزكاة .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن زيد ، قال : لما نزلت ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ الآية .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كيف بالغضب يارب ؟ فنزل ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ " وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

اتقوا ❖ قال هم المؤمنون .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : " إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ " قال : الغضب .  
وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : الطيف : الغضب .

(388/302)

---

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السدي ، في قوله : ❖ تَذَكَّرُوا ❖ قال : إذا زلوا  
تابوا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في الآية  
قال الطائف : اللمة من الشيطان ❖ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ❖ يقول : فإذا هم منتهون  
عن المعصية ، آخذون بأمر الله ، عاصون للشيطان ❖ وإخوانهم ❖ قال : إخوان  
الشياطين : ❖ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ❖ قال : لا الإنس يمسون عما يعملون  
من السيئات ، ولا الشياطين تمسك عنهم ❖ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَأْيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ❖ يقول  
: لولا أحدثتها ، لولا تلقيتها فأنشأتها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عنه ❖ وإخوانهم يمدونهم في الغي ❖

قال : هم الجنّ يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ يقول : لا يسأمون ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ يقول : هلا اقتعلتها من تلقاء نفسك .  
وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن أبي هريرة ، في قوله : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ ﴾ الآية قال : نزلت في رفع الأصوات ، وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة .  
وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي ، عن ابن عباس ، في الآية قال : يعني في الصلاة المفروضة .  
وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي ، عنه قال : صلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقراً خلفه قوم فخلطوا ، فنزلت : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ ﴾ الآية ، فهذه في المكتوبة .  
قال : وإن كنا لم نستمع لمن يقرأ بالأخفى من الجهر .  
وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن محمد بن كعب القرظي نحوه .  
وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه ، عن مجاهد نحوه .  
وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي عن عبد الله بن مغفل نحوه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي ، عن ابن مسعود ، نحوه أيضاً .

وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف ، وصرحوا بأن هذه الآية نزلت في قراءة الصلاة من الإمام .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن الحسن ، في الآية قال : عند الصلاة المكتوبة ، وعند الذكر .  
وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في الآية قال : في الصلاة وحين ينزل الوحي .

وأخرج البيهقي عنه في الآية أنه قال : هذا في الصلاة .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ واذكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ الآية قال : أمره الله أن يذكره ، ونهاه عن الغفلة ، أما بالغدو وفصلاة الصبح ، والأصايل بالعشي .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي صخر .

قال : الأصايل ما بين الظهر والعصر .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن زيد ، في الآية قال : لا تجهر بذاك ﴿ بالغدو والأصايل ﴾ بالبكر والعشي .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ﴿ بالغدو ﴾ قال : آخر الفجر صلاة

الصبح .

والأصال آخر العشي صلاة العصر .

والأحاديث والآثار عن الصحابة في سجود التلاوة ، وعدد المواضع التي يسجد فيها ،

وكيفية السجود ، وما يقال فيه مستوفاة في كتب الحديث والفقہ ، فلا نطوّل يايراد ذلك

هاهنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(390/302)

وقال الشيخ سيد قطب في الآيات السابقة :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206) ﴾

تجىء هذه التوجيهات الربانية في نهاية السورة ، من الله سبحانه إلى أوليائه . . رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا معه . . وهم بعد في مكة ؛ وفي مواجهة تلك الجاهلية

من حولهم في الجزيرة العربية وفي الأرض كافة . . هذه التوجيهات الربانية في مواجهة تلك

الجاهلية الفاحشة ، وفي مواجهة هذه البشرية الضالة ، تدعو صاحب الدعوة - صلى الله



عليه وسلم - إلى السماحة واليسر ، والأمر بالواضح من الخير الذي تعرفه فطرة البشر في  
بساطتها ، بغير تعقيد ولا تشديد . والإعراض عن الجاهلية فلا يؤاخذهم ، ولا يجادلهم ،  
ولا يحفلهم . . فإذا تجاوزوا الحد وأثاروا غضبه بالعناد والصد ، ونفخ الشيطان في هذا  
الغضب ، فليستعذ بالله ليهدأ ويطمئن ويصبر : ﴿ خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض  
عن الجاهلين ، وإما ينزغنك من الشيطان فاستعذ بالله إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا  
مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ . . .  
ثم يعرفه بطبيعة أولئك الجاهلين ؛ والسوسة التي وراءهم والتي تمدهم في الغي والضلال .  
ويذكر طرفاً من سلوكهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطلبهم الخوارق ؛ ليوجهه  
إلى ما يقول لهم ، ليعرفهم بطبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ، وليصحح لهم تصوراتهم عنها  
وعنه وعن علاقته بربه الكريم : ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم  
بآية قالوا : لولا اجتبيتها ! قل : إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي . هذا بصائر من ربكم وهدى  
ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ . . .

(391/302)

---

ومناسبة هذه الإشارة إلى ما أوحاه إليه ربه من القرآن، يجيء توجيه المؤمنين إلى أدب الاستماع لهذا القرآن؛ وأدب ذكر الله؛ مع التنبيه إلى مداومة هذا الذكر، وعدم الغفلة عنه. فإن الملائكة الذين لا يخطئون يذكرون ويسبحون ويسجدون، فما أولى البشر الخطأين أن لا يغفلوا عن الذكر والتسبيح والسجود: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ . إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْبِحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ . . .

﴿ خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين، وإما ينزغنيك من الشيطان نزع فاستعد بالله، إنه سميع عليم. إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ . . .

خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس في المعاشرة والصحبة، ولا تطلب إليهم الكمال، ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق. واعف عن أخطائهم وضعفهم وتقصمهم. كل أولئك في المعاملات الشخصية لا في العقيدة الدينية ولا في الواجبات الشرعية. فليس في عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التواضع والتسامح. ولكن في الأخذ والعطاء والصحبة والجوار. وبذلك تمضي الحياة سهلة لينة. فالإغضاء عن الضعف البشري، والعطف عليه، والسماحة معه، واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء.

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - راع وهاد ومعلم ومرب . فهو أولى الناس بالسماحة  
واليسر والإغضاء . . . وكذلك كان صلى الله عليه وسلم . . لم يغضب لنفسه قط . فإذا  
كان في دين الله لم يقم لغضبه شيء ! . . وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله  
صلى الله عليه وسلم . فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضي سعة صدر ،  
وسماحة طبع ، ويسراً وتيسيراً في غيرتهاون ولا تقريط في دين الله . .

(392/302)

---

﴿ وأمر بالعرف ﴾ . . وهو الخير المعروف الواضح الذي لا يحتاج إلى مناقشة وجدال ؛  
والذي تلتقي عليه الفطر السليمة والنفوس المستقيمة . . والنفس حين تعتاد هذا المعروف  
يسلس قيادها بعد ذلك ، وتتطوع لألوان من الخير دون تكليف وما يصد النفس عن الخير  
شيء مثلما يصدّها التعقيد والمشقة والشدة في أول معرفتها بالتكاليف ! ورياضة النفوس  
تقتضي أخذها في أول الطريق بالميسور المعروف من هذه التكاليف حتى يسلس قيادتها  
وتعتاد هي بذاتها النهوض بما فوق ذلك في يسر وطواعية ولين . .

﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ . . من الجهالة ضد الرشد ، والجهالة ضد العلم . . وهما  
قريب من قريب . . والإعراض يكون بالترك والإهمال ؛ والتهوين من شأن ما يجهلون به من

التصرفات والأقوال؛ والمرور بها من الكرام؛ وعدم الدخول معهم في جدال لا ينتهي إلى شيء إلا الشد والجذب، وإضاعة الوقت والجهد . . . وقد ينتهي السكوت عنهم، والإعراض عن جهالتهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها، بدلاً من الفحش في الرد واللجاج في العناد . فإن لم يؤد إلى هذه النتيجة فيهم، فإنه يعزلهم عن الآخرين الذين في قلوبهم خير . إذ يرون صاحب الدعوة محتملاً معرضاً عن اللغو، ويرون هؤلاء الجاهلين يحمقون ويجهلون فيسقطون من عيونهم ويعزلون!

وما أجدر صاحب الدعوة أن يتبع هذا التوجيه الرباني العليم بدخائل النفوس! ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشر . وقد يثور غضبه على جهالة الجاهل وسفاهة السفهاء وحمق الحمقى . . . وإذا قدر عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد يعجز عنها من وراءه من أصحاب الدعوة . . . وعند الغضب ينزع الشيطان في النفس، وهي نائرة هائجة مفقودة الزمام! . . . لذا يأمره ربه أن يستعذ بالله؛ لينفث غضبه، ويأخذ على الشيطان طريقه:

﴿ وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ . . .

وهذا التعقيب : ﴿ إنه سميع عليم ﴾ . . . يقرر أن الله سبحانه سميع لجهل الجاهلين  
وسفاهتهم ؛ عليهم بما تحمله نفسك من أذاهم . . . وفي هذا ترضية وتسرية للنفس . . .  
فحسبها أن الجليل العظيم يسمع ويعلم ! وماذا تبتغي نفس بعدما يسمع الله ويعلم ما تلقى  
من السفاهة والجهل وهي تدعو إليه الجاهلين ؟ !  
ثم يتخذ السياق القرآني طريقاً آخر للإيحاء إلى نفس صاحب الدعوة بالرضى والقبول ،  
وذكر الله عند الغضب لأخذ الطريق على الشيطان ونزغ اللئيم :  
﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

وتكشف هذه الآية القصيرة عن إيحاءات عجيبة ، وحقائق عميقة ، يتضمنها التعبير  
القرآني المعجز الجميل . . . إن اختتام الآية بقوله : ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ ليضيف معاني  
كثيرة إلى صدر الآية . ليس لها الفاظ تقابلها هناك . . . إنه يفيد أن مس الشيطان يعمي  
ويطمس ويغلق البصيرة . ولكن تقوى الله ومراقبته وخشية غضبه وعقابه . . . تلك  
الوشيجة التي تصل القلوب بالله وتوقظها من الغفلة عن هداه . . . تذكر المتقين . فإذا تذكروا  
تفتحت بصائرهم ؛ وتكشفت الغشاوة عن عيونهم : ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ . . . إن  
مس الشيطان عمى ، وإن تذكر الله إبصار . . . إن مس الشيطان ظلمة ، وإن الاتجاه إلى الله  
نور . . . إن مس الشيطان تجلوه التقوى ، فما للشيطان على المتقين من سلطان . . .

ذلك شأن المتقين: ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ . . .  
جاء بيان هذا الشأن معترضاً بين أمر الله سبحانه بالإعراض عن الجاهلين؛ وبيان ماذا  
ومن ذا وراء هؤلاء الجاهلين، يدفعهم إلى الجهل والحمق والسفه الذي يزاولون . . . فلما  
انتهى التعقيب عاد السياق يحدث عن الجاهلين:

﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا: لولا اجتبيتها . قل:  
إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي، هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ . . .

(394/302)

---

وإخوانهم الذين يمدونهم في الغي هم شياطين الجن . . . وقد يكونون هم شياطين الإنس  
أيضاً . . . إنهم يزيدون لهم في الضلال، لا يكلون ولا يسأمون ولا يسكتون! وهم من ثم  
يحمقون ويجهلون! ويظنون فيما هم فيه سادرين .

ولقد كان المشركون لا يكفون عن طلب الخوارق من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
والسياق هنا يحكي بعض أقوالهم الدالة على جهلهم بحقيقة الرسالة وطبيعة الرسول:  
﴿ وإذا لم تأتهم بآية قالوا: لولا اجتبيتها! ﴾ . . .

أي . . . لولا ألححت على ربك حتى ينزلها! . . . أو هلا فعلتها أنت من نفسك؟ أأنت

نبياً؟!

إنهم لم يكونوا يدركون طبيعة الرسول ووظيفته؛ كذلك لم يكونوا يعرفون أدبه مع ربه؛ وأنه يتلقى منه ما يعطيه؛ ولا يقدم بين يدي ربه ولا يقترح عليه؛ ولا يأتي كذلك الشيء من عند نفسه . . . والله يأمره أن يبين لهم:

﴿ قل: إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ﴾ . . .

فلا أقترح، ولا أبتدع، ولا أملك إلا ما يوحىه إلي ربي . ولا آتي إلا ما يأمرني به . . .

لقد كانت الصورة الزائفة للمتنبئين في الجاهليات تترامى لهم، ولم يكن لهم فقه ولا معرفة بحقيقة الرسالة وطبيعة الرسول:

كذلك يؤمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يبين لهم ما في هذا القرآن الذي جاءهم به، وحقيقته التي يغفلون عنها، ويطلبون الخوارق المادية، وأمامهم هذا الهدى الذي يغفلون عنه:

﴿ هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

إنه هذا القرآن . . . بصائر تهدي، ورحمة تفيض . . . لمن يؤمن به، ويغتنم هذا الخير العميم .  
إنه هذا القرآن الذي كان الجاهلون من العرب - في جاهليتهم - يعرضون عنه، ويطلبون خارقة من الخوارق المادية مثل التي جرت على أيدي الرسل من قبل، في طفولة البشرية،

وفي الرسائل المحلية غير العالمية ، والتي لا تصلح إلا لزمانها ومكانها ، ولا تواجه إلا الذين يشاهدونها ، فكيف بمن بعدهم من الأجيال ، وكيف بمن وراءهم من الأقسام الذين لم يروا هذه الخارقة !

(395/302)

---

إنه هذا القرآن الذي لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه . . من أي جانب من الجوانب شاء الناس المعجزة في أي زمان وفي أي مكان . . لا يستثنى من ذلك من كان من الناس ومن يكون إلى آخر الزمان !

فهذا جانبه التعبيري . . ولعله كان بالقياس إلى العرب في جاهليتهم أظهر جوانبه - بالنسبة لما كانوا يحفلون به من الأداء البياني ، ويتفاخرون به في أسواقهم ! - ها هو ذا كان وما يزال إلى اليوم معجزاً لا يتناول إليه أحد من البشر . تحداهم الله به وما يزال هذا التحدي قائماً . والذين يزاولون فن التعبير من البشر ، ويدركون مدى الطاقة البشرية فيه ، هم أعرف الناس بأن هذا الأداء القرآني معجز معجز . . سواء كانوا يؤمنون بهذا الدين عقيدة أو لا يؤمنون . . فالتحدي في هذا الجانب قائم على أسس موضوعية يستوي أمامها المؤمنون والجاحدون . . وكما كان كبراء قريش يجدون من هذا القرآن - في جاهليتهم -



ما لا قبل لهم بدفعه عن أنفسهم - وهم جاحدون كارهون - كذلك يجد اليوم وغداً كل

جاهلي جاحد كاره ما وجد الجاهليون الأولون!

ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب الفريد . . يبقى ذلك السلطان الذي له على

الفطرة - متى خلي بينها وبينه لحظة! - وحتى الذين رانت على قلوبهم الحجب ، وثقل

فوقها الركام ، تنتفض قلوبهم أحياناً ؛ وتتململ قلوبهم أحياناً تحت وطأة هذا السلطان ؛

وهم يستمعون إلى هذا القرآن!

(396/302)

---

إن الذين يقولون كثيرون . . وقد يقولون كلاماً يحتوي مبادئ ومذاهب وأفكاراً

واتجاهات . . ولكن هذا القرآن يتفرد في إيقاعاته على فطرة البشر وقلوبهم فيما يقول! إنه

قاهر غلاب بذلك السلطان الغلاب! . . ولقد كان كبراء قريش يقولون لأتباعهم الذين

يستخفونهم - ويقولون لأنفسهم في الحقيقة - : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم

تغلبون ﴾ . . لما كانوا يجدونه هم في نفوسهم من مس هذا القرآن وإيقاعه الذي لا يقاوم!

وما يزال كبراء اليوم يحاولون أن يصرخوا القلوب عن هذا القرآن بما ينزلونه لهم من مكاتيب!

غير أن هذا القرآن يظل - مع ذلك كله - غلاباً . . وما إن تعرض الآية منه أو الآيات في ثنايا

قول البشر ، حتى تتميز وتنفرد بإيقاعها ، وتستولي على الحس الداخلي للسامعين ،

وتنحي ما عداها من قول البشر الحير الذي تعب فيه القائلون !

ثم يبقى وراء ذلك مادة هذا القرآن وموضوعه .

. وما تتسع صفحات عابرة - في ظلال القرآن - للحديث عن مادة هذا القرآن

وموضوعه . . فالقول لا ينتهي والمجال لا يحد !

وماذا الذي يمكن أن يقال في صفحات ؟ !

منهج هذا القرآن العجيب ، في مخاطبة الكينونة البشرية بمقتائق الوجود . . وهو منهج

يواجه هذه الكينونة بمحملتها ، لا يدع جانباً واحداً منها لا يخاطبه في السياق الواحد ، ولا

يدع نافذة واحدة من نوافذها لا يدخل منها إليها ؛ ولا يدع خاطراً فيها لا يجاوبه ، ولا يدع

هاتفاً فيها لا يلبيه !

منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يتناول قضايا هذا الوجود ، فيكشف منها ما تتلقاه فطرة

الإنسان وقلبه وعقله بالتسليم المطلق ، والتجاوب الحي ، والرؤية الواضحة . وما يطابق

كذلك حاجات هذه الفطرة ، ويوقظ فيها طاقاتها المكنونة ، ويوجهها الوجهة الصحيحة .

(397/302)

---

منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يأخذ بيد الفطرة الإنسانية خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ؛ ويصعد بها - في هينة ورفق ، وفي حيوية كذلك وحرارة ، وفي وضوح وعلى بصيرة - درجات السلم في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة . . في المعرفة والرؤية ، وفي الانفعال والاستجابة ، وفي التكيف والاستقامة ، وفي اليقين والثقة ، وفي الراحة والطمأنينة . . إلى حقائق هذا الوجود الصغيرة والكبيرة . .

منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يلمس الفطرة الإنسانية ، من حيث لا يحتسب أحد من البشر أن يكون هذا موضع لمسة ! أو أن يكون هذا وتر استجابة ! فإذا الفطرة تنقض وتصوت وتستجيب . ذلك أن منزل هذا القرآن هو خالق هذا الإنسان الذي يعلم من خلق ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد !

ذلك المنهج ؟ . . أم المادة ذاتها التي يعرضها القرآن في هذا المنهج . . وهنا ذلك الانفساح الذي لا يبلغ منه القول شيئاً . . ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ، لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ إن الذي يكتب هذه الكلمات ، قضى - والله الحمد والمنة - في الصحبة الواعية الدارسة لهذا الكتاب خمسة وعشرين عاماً . يجول في جنبات الحقائق الموضوعية لهذا الكتاب ؛ في شتى حقول المعرفة الإنسانية - ما طرقه معارف البشر وما لم تطرقه - ويقرأ في الوقت ذاته ما يحاوله البشر من بعض

هذه الجوانب . . ويرى . . يرى ذلك الفيض الغامر المنفسح الواسع في هذا القرآن؛ وإلى جانبه تلك البحيرات المنعزلة، وتلك النقر الصغيرة . . وتلك المستنقعات الآسنة أيضاً! في النظرة الكلية في هذا الوجود، وطبيعته، وحقيقته، وجوانبه، وأصله، ونشأته، وما وراءه من أسرار؛ وما في كيانه من خبايا ومكونات وما يضمه من أحياء وأشياء . . الموضوعات التي تطرق جوانب منها " فلسفة " البشر! .

(398/302)

---

في النظرة الكلية إلى " الإنسان " ونفسه، وأصله، ونشأته، ومكونات طاقاته، ومجالات نشاطه؛ وطبيعة تركيبه وانفعالاته، واستجاباته، وأحواله وأسراره . . الموضوعات التي تطرق جوانب منها علوم الحياة والنفس والتربية والاجتماع! والعقائد والأديان . . في النظرة إلى نظام الحياة الإنسانية؛ وجوانب النشاط الواقعي فيها؛ ومجالات الارتباط والاحتكاك، والحاجات المتجددة وتنظيم هذه الحاجات . . الموضوعات التي تطرق جوانب منها النظريات والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . وفي كل حقل من هذه الحقول يجد الدارس الواعي لهذا القرآن وفرة من النصوص

والتوجيهات يحار في كثرتها ووفرتها! فوق ما في هذه الوفرة من أصالة وصدق وعمق  
وإحاطة ونفاة!

إنني لم أجد نفسي مرة واحدة - في مواجهة هذه الموضوعات الأساسية - في حاجة إلى  
نص واحد من خارج هذا القرآن - فيما عدا قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو  
من آثار هذا القرآن - بل إن أي قول آخر ليبدو هزيلاً - حتى لو كان صحيحاً - إلى جانب  
ما يجده الباحث في هذا الكتاب العجيب . .

إنها الممارسة الفعلية التي تنطق بهذه التقريرات؛ والصحبة الطويلة في ظل حاجات الرؤية  
والبحث والنظر في هذه الموضوعات . . وما بي أن أثني على هذا الكتاب . . ومن أنا ومن  
هؤلاء البشر جميعاً ليضيفوا إلى كتاب الله شيئاً بما يملكون من هذا الثناء!

لقد كان هذا الكتاب هو مصدر المعرفة والتربية والتوجيه والتكوين الوحيد لجيل من البشر  
فريد . . جيل لم يتكرر بعد في تاريخ البشرية - لا من قبل ولا من بعد - جيل الصحابة  
الكرام الذين أحدثوا في تاريخ البشرية ذلك الحدث الهائل العميق الممتد، الذي لم يدرس  
حق دراسته إلى الآن . .

(399/302)

---

لقد كان هذا المصدر هو الذي أنشأ - بمشيئة الله وقدره - هذه المعجزة المجسمة في عالم البشر . وهي المعجزة التي لا تطاولها جميع المعجزات والخوارق التي صحبت الرسالات جميعاً . . . وهي معجزة واقعة مشهودة . . أن كان ذلك الجيل الفريد ظاهرة تاريخية فريدة . . .

ولقد كان المجتمع الذي تألف من ذلك الجيل أول مرة ، والذي ظل امتداده أكثر من ألف عام ، تحكمه الشريعة التي جاء بها هذا الكتاب ، ويقوم على قاعدة من قيمه وموازينه ، وتوجيهاته وإيحاءاته . . كان هذا المجتمع معجزة أخرى في تاريخ البشرية . حين تقارن إليه صور المجتمعات البشرية الأخرى ، التي تفوقه في الإمكانيات المادية - بحكم نمو التجربة البشرية في عالم المادة - ولكنها لا تطاوله في " الحضارة الإنسانية " !  
إن الناس اليوم - في الجاهلية الحديثة ! - يطلبون حاجات نفوسهم ومجتمعاتهم وحياتهم خارج هذا القرآن ! كما كان الناس في الجاهلية العربية يطلبون خوارق غير هذا القرآن ! . . فأما هؤلاء فقد كانت تحول جاهليتهم الساذجة ، وجهالتهم العميقة - كما تحول أهواؤهم ومصالحهم الذاتية كذلك - دون رؤية الخارقة الكونية الهائلة في هذا الكتاب العجيب ! .

---

. فأما أهل الجاهلية الحاضرة ، فيحول بينهم وبين هذا القرآن غرور " العلم البشري " الذي فتحه الله عليهم في عالم المادة . و غرور التنظيمات والتشكيلات المعقدة بتعقيد الحياة البشرية اليوم ؛ ونموها ونضجها من ناحية التنظيم والتشكيل . وهو أمر طبيعي مع امتداد الحياة وتراكم التجارب ، وتجدد الحاجات ، وتعقدتها كذلك ! كما يحول بينهم وبين هذا القرآن كيد أربعة عشر قرناً من الحقد اليهودي والصليبي ؛ الذي لم يكف لحظة واحدة عن حرب هذا الدين وكتابه القويم ؛ وعن محاولة إلهاء أهله عنه ؛ وإبعادهم عن توجيهه المباشر . بعدما علم اليهود والصليبيون من تجاربهم الطويلة : أن لا طاقة لهم بأهل هذا الدين ، ما ظلوا عاكفين على هذا الكتاب ، عكوف الجليل الأول ، لا عكوف التغني بآياته وحياتهم مكلها بعيدة عن توجيهاته ! . . هو كيد مطرد مصرُّ لئيم خبيث . . ثمرته النهائية هذه الأوضاع التي يعيش فيها الناس الذين يسمون اليوم بالمسلمين - وما هم بالمسلمين ما لم يحكموا في حياتهم شريعة هذا الدين ! - وهذه المحاولات الأخرى في كل مكان للتعفية على آثار هذا الدين ؛ ولتدارس قرآن غير قرآنه ؛ يرجع إليه في تنظيم الحياة كلها ، ويرد إليه كل اختلاف ، وكل نزاع في التشريع والتقنين لهذه الحياة ؛ كما كان المسلمون يرجعون إلى كتاب الله في هذه الشؤون !!!

إنه هذا القرآن الذي يجمله أهله اليوم . لأنهم لا يعرفونه إلا تراويل وترانيم وتعاويد وتهاويم !

بعدما صرفتهم عنه قرون من الكيد اللئيم ، من الجهل المزري ، ومن التعاليم المغرورة ، ومن

الفساد الشامل للفكر والقلب والواقع النكد الخبيث !

إنه هذا القرآن الذي كان الجاهليون القدامى يصرفون عنه الجماهير بطلب الخوارق

المادية . والذي يصرف عنه الجاهليون المحدثون الجماهير بالقرآن الجديد الذي يفترونه ،

وبشتى وسائل الإعلام والتوجيه ! إنه هذا القرآن الذي يقول عنه العليم الخبير :

﴿ هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ . .

(401/302)

---

بصائر تكشف وتنير . وهدى يرشد ويهدي . ورحمة تغمر وتفيض . . ﴿ لقوم يؤمنون ﴾

فهم الذين يجدون هذا كله في هذا القرآن الكريم . .

ولأن هذا هو القرآن يجيء مباشرة في السياق هذا التوجيه للمؤمنين :

﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ . .

فتختم به السورة التي بدأت بالإشارة إلى هذا القرآن : ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في

صدرك حرج منه ، لتذربه وذكرى للمؤمنين ﴾ وتختلف الروايات الماثورة في موضع هذا

الأمر بالاستماع والإنصات إذا قرئ القرآن . . بعضهم يرى أن موضع هذا الأمر هو الصلاة



المكتوبة . حين يجهر الإمام بالقرآن ؛ فيجب أن يستمع المأموم وينصت ، ولا يقرأ هو مع قراءة الإمام الجهرية . ولا ينازع الإمام القرآن ! وذلك كالذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، وقال الترمذي عنه : هذا حديث حسن ، وصححه أبو حاتم الرازي ، من حديث الزهري عن أبي أكتمة الليثي عن أبي هريرة

" أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : " هل قرأ أحد منكم معي آنفاً به " قال رجل : نعم يا رسول الله . قال : إني أقول : ما لي أنازع القرآن " فاتمى الناس عن القراءة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وكالذي رواه ابن جرير في التفسير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا المحاربي ، عن داود بن أبي هند ، عن بشير بن جابر قال : صلى ابن مسعود ، فسمع ناساً يقرأون مع الإمام . فلما انصرف قال : أما أن لكم أن تفهموا ؛ أما أن لكم أن تعقلوا : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ كما أمركم الله !

(402/302)

---

وبعضهم يرى أن هذا كان توجيهاً للمسلمين أن لا يكونوا كالمشركين الذين كانوا يأتون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا صلى ، فيقول بعضهم لبعض بمكة : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ فأنزل الله عز وجل جواباً لهم : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ . . قال القرطبي هذا وقال نزل في الصلاة . روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر والزهري وعبيد الله بن عمير وعطاء بن أبي رباح وسعيد بن المسيب . .

وروى ابن جرير سبباً للنزول قال : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن عاصم عن المسيب ابن رافع . قال ابن مسعود : كان يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ، فجاء القرآن . ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ . . وقال القرطبي في التفسير : قال محمد بن كعب القرظي : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قرأ القرآن في الصلاة أجابه من وراءه . إذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم . قالوا مثل قوله ، حتى يقضي فاتحة الكتاب والسورة ، فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث فنزل : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ . وهذا يدل على أن المعنى بالإنصات ترك الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال القرطبي كذلك : وقال قتادة في هذه الآية : كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسألهم : كم صليتم ؟ كم بقي ؟ فأنزل الله : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ . . وعن

مجاهد أيضاً: كانوا يتكلمون في الصلاة بحاجتهم، فنزل قوله تعالى: ﴿ . . لعلكم ترحمون



(403/302)

---

والذين يرون أنها خاصة بقراءة القرآن في الصلاة يستشهدون بما رواه ابن جرير: حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا الجريري، عن طلحة بن عبيد الله بن كزيب قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان والقاص يقص (يعني والقارئ يقرأ) فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود، (يعني قوله تعالى: ﴿ لعلكم ترحمون ﴾) قال: فنظرا إلي ثم أقبلتا على حديثهما؛ قال فأعدت، فنظرا إلي وأقبلتا على حديثهما! قال فأعدت الثالثة، قال: فنظرا إلي فقالا: إنما ذلك في الصلاة: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ .

قال ابن كثير وهو يروي هذا الخبر: وكذا قال سفيان الثوري عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير عن مجاهد في قوله: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ قال: في الصلاة، وكذا رواه غير واحد عن مجاهد . وقال عبد الرزاق، عن الثوري عن ليث عن مجاهد، قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم . .

وبعضهم يرى أنها في الصلاة وفي الخطبة كذلك في الجمع والعيدين ، قاله سعيد بن جبير  
ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار ، ويزيد بن أسلم ، والقاسم بن مخيمرة ، ومسلم بن يسار ،  
وشهر بن حوشب وعبد الله ابن المبارك ، ولكن القرطبي قال : " وهذا ضعيف ، لأن  
القرآن فيها قليل ، والإنصات يجب في جميعها . قاله ابن العربي والنقاش : والآية مكية ولم  
يكن بمكة خطبة ولا جمعة " .

وقال القرطبي في التفسير : قال النقاش : أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع في الصلاة  
المكتوبة وغير المكتوبة . النحاس : وفي اللغة يجب أن يكون في كل شيء ، إلا أن يدل دليل  
على اختصاص شيء .

(404/302)

---

ونحن لا نرى في أسباب النزول التي وردت ما يخص الآية بالصلاة المكتوبة وغير المكتوبة ،  
ذلك أن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب . والأقرب أن يكون ذلك عاماً لا يخصه  
شيء ، فالاستماع إلى هذا القرآن والإنصات له - حيثما قرئ - هو الأليق بجلال هذا  
القول ، و بجلال قائله سبحانه ! وإذا قال الله أفلا يستمع الناس وينصتون ؟ ! ثم رجاء  
الرحمة لهم : ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ . . ما الذي يخصه بالصلاة ؟ وحيثما قرئ القرآن ،

واستمعت له النفس وأنصت ، كان ذلك أرجى لأن تعي وتأثر وتستجيب ؛ فكان ذلك أرجى أن ترحم في الدنيا والآخرة جميعاً . .

إن الناس يخسرون الخسارة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن . . وإن الآية الواحدة لتصنع أحياناً في النفس - حين تستمع لها وتنصت - أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والتكيف والرؤية والإدراك ، والطمانينة والراحة ، والنقلة البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة . . مما لا يدركه إلا من ذاقه وعرفه !

وإن العكوف على هذا القرآن - في وعي وتدبر لا مجرد التلاوة والترنم ! - لينشئ في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى ؛ ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة ؛ ومن الحرارة والحيوية والانطلاق ! ومن الإيجابية والعزم والتصميم ؛ ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب !

وإن رؤية حقائق الوجود - من خلال التصوير القرآني - وحقائق الحياة ، ورؤية الحياة البشرية وطبيعتها وحاجاتها من خلال التقريرات القرآنية ، هي رؤية باهرة واضحة دقيقة عميقة .

تهدي إلى معالجتها وإلى مزاولتها بروح أخرى ، غير ما توجه إليه سائر التصويرات والتقريرات البشرية . .

وهذا كله أرجى إلى الرحمة . . وهو يكون في الصلاة وفي غير الصلاة . وليس هناك ما

يخصص هذا التوجيه القرآني العام بالصلاة كما روى القرطبي عن النحاس .  
ثم تنتهي السورة بالتوجيه إلى ذكر الله عامة . . في الصلاة وفي غير الصلاة .

(405/302)

---

❖ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن  
من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون  
.. ❖

قال ابن كثير في التفسير : " يأمر الله تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً . كما أمر بعبادته في  
هذين الوقتين في قوله : ❖ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ❖ وقد كان  
هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء . وهذه الآية مكية - وقال ها هنا :  
بالغدو ، وهو أول النهار ، والآصال جمع أصيل - كما أن الأيمان جمع يمين - وأما قوله : ❖  
تضرعاً وخيفة ❖ أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول ، لا جهرًا ، ولهذا قال :  
❖ ودون الجهر من القول ❖ . وهكذا يستحب أن يكون الذكر ، لا يكون نداءً وجهرًا  
بليغاً . ولهذا لما سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : أقرب ربنا فنناجيه ؛ أم  
بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل : ❖ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة

الداع إذا دعان ﴿ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : " رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار ، فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - : يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته " .

ولم يقبل قول ابن جرير وقبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن المراد بها أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة . . وقال : " فهذا الذي قاله لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والأصال لئلا يكونوا من الغافلين . ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فقال : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ . . الآية . وإنما ذكرهم بهذا ليقضى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم " . .

(406/302)

---

ونحن نرى فيما أورده ابن كثير من المناسبة والأحاديث النبوية مدى ما كان هذا القرآن وكانت التربية النبوية تنقل إليه نفوس العرب من المعرفة بحقيقة ربهم ، وحقيقة الوجود من حولهم . وندرك من سؤلهم ومن الإجابة عليهم مدى النقلة التي نقلها لهم هذا الدين ، بهذا

الكتاب الكريم، بالتوجيه النبوي القويم . . إنها ثقلة بعيدة، تتجلى فيها نعمة الله ورحمته لو  
كان الناس يعلمون .

! .

وبعد ، فإن ذكر الله - كما توجه إليه هذه النصوص - ليس مجرد الذكر بالشفة واللسان .  
ولكنه الذكر بالقلب والجنان . فذكر الله إن لم يرتعش له الوجدان ، وإن لم يخفق له القلب ،  
وإن لم تعش به النفس . . إن لم يكن مصحوباً بالتضرع والتذلل والخشية والخوف . . لن  
يكون ذكراً . . بل قد يكون سوء أدب في حق الله سبحانه . إنما هو التوجه إلى الله بالتذلل  
والضراعة ، وبالخشية والتقوى . . إنما هو استحضار جلال الله وعظمته ، واستحضار  
المخافة لغضبه وعقابه ، واستحضار الرجاء فيه والاتجاء إليه . . حتى يصفوا الجوهر  
الروحي في الإنسان ، ويتصل بمصدره اللدني الشفيف المنير . .

فإذا تحرك اللسان مع القلب ؛ وإذا نبست الشفاه مع الروح ؛ فليكن ذلك في صورة لا تتحدش

الخشوع ولا تناقض الضراعة . ليكن ذلك في صوت خفيض ، لا مكاء وتصدية ، ولا

صراخاً وضجة ، ولا غناء وتطرية !

❖ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول ❖ . .

❖ بالغدو والآصال ❖ . .



---

في مطالع النهار وفي أواخره . فيظل القلب موصولاً بالله طرقي النهار . وذكر الله لا يقتصر على هذه الآونة ، فذكر الله ينبغي أن يكون في القلب في كل آن ؛ ومراقبة الله يجب أن تكون في القلب في كل لحظة . ولكن هذين الآنين إنما تطالع فيهما النفس التغير الواضح في صفحة الكون . . . من ليل إلى نهار . . . ومن نهار إلى ليل . ويتصل فيهما القلب بالوجود من حوله ؛ وهو يرى يد الله تقلب الليل والنهار ؛ وتغير الظواهر والأحوال . . . وإن الله - سبحانه -

ليعلم أن القلب البشري يكون في هذين الآنين أقرب ما يكون إلى التأثر والاستجابة . . . ولقد كثر في القرآن التوجيه إلى ذكر الله سبحانه وتسيبحة في الآونة التي كأنما يشارك الكون كله فيها في التأثير على القلب البشري وترقيقه وإرهاقه وتشويقه للاتصال بالله . . . ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ ﴿ ومن آثار الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ . . . ﴿

واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ ولا داعي للقول بأن هذا الأمر بالذكر في هذه الآونة قد كان قبل فرض الصلاة المكتوبة في أوقاتها المعلومة . مما يوحي بأن فرض الصلاة المكتوبة قد أغنى عن هذا الأمر في هذه الآونة . فهذا الذكر أشمل من الصلاة ، وأوقاته ليست مقصورة على مواقيت الصلاة المكتوبة . كما أنه قد يكون في صور غير صورة الصلاة - المكتوبة وغير المكتوبة - في صورة الذكر بالقلب ،

أوبالقلب واللسان دون بقية حركات الصلاة . . بل إنه لأشمل من ذلك كذلك . إنه التذكر  
الدائم والاستحضار الدائم لجلال الله - سبحانه - ومراقبته في السر والعلن ، وفي الصغيرة  
والكبيرة ، وفي الحركة والسكنة ، وفي العمل والنية . . وإنما ذكر البكرة والأصيل والليل .  
لما في هذه الأونة من مؤثرات خاصة يعلم الله ما تصنع في القلب البشري ، الذي يعلم  
خالقه فطرته وطبيعة تكوينه !  
❖ ولا تكن من الغافلين ❖ . .

(408/302)

---

الغافلين عن ذكر الله . . لا بالشفة واللسان ، ولكن بالقلب والجنان . . الذكر الذي يخفق  
به القلب ؛ فلا يسلك صاحبه طريقاً يخجل أن يطلع عليه الله فيه ؛ ويتحرك حركة يخجل أن  
يراه الله عليها ، ولا يأتي صغيرة أو كبيرة إلا وحساب الله فيها . . فذلك هو الذكر الذي يرد  
به الأمر هنا ؛ وإلا فما هو ذكر الله ، إذا كان لا يؤدي إلى الطاعة والعمل والسلوك والاتباع .  
اذكر ربك ولا تغفل عن ذكره ؛ ولا يغفل قلبك عن مراقبته ؛ فالإنسان أحوج أن يظل على  
اتصال بربه ، ليتقوى على نزغات الشيطان : ❖ وإما ينزغناك من الشيطان نزغ فاستعد  
بالله ، إنه سميع عليم ❖ . ولقد كانت السورة من قبل معرضاً للمعركة بين الإنسان

والشيطان في أوائلها ، وظل سياقها يعرض موكب الإيمان وشياطين الجن والإنس تعترض طريقه ، كما ذكر الشيطان في نبا الذي آتاه الله آياته فانسلك منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . وكما ذكر في أواخرها نزغ الشيطان والاستعاذة منه بالله السميع العليم . . وهو سياق متصل ، ينتهي بالتوجيه إلى ذكر الله تضرعاً وخيفة ، والنهي عن الغفلة . . ويأتي هذا الأمر وهذا النهي في صدد توجيه الله سبحانه لرسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين . . فإذا هوتكملة لمعالم الطريق ، وتزويد لصاحب الدعوة بالزاد الذي يقوى به على مشاق الطريق . .

ثم يضرب الله مثلاً بالذين عنده من الملائكة المقربين : الذين لا ينزع في أنفسهم شيطان ، فليس له في تركيب طبيعتهم مكان ! ولا تستبد بهم نزوة ، ولا تغلبهم شهوة . ومع هذا فهم دائبون على تسبيح الله وذكره ، لا يستكبرون عن عبادته ولا يقصرون . وللإنسان أحوج منهم إلى الذكر والعبادة والتسبيح . وطريقه شاق ! وطبيعته قابلة لنزع الشيطان ! وقابلة للغفلة المردية ! وجهده محدود . لولا هذا الزاد في الطريق الكوود :

❖ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه . وله يسجدون ❖ . .

إن العبادة والذكر عنصر أساسي في منهج هذا الدين . . إنه ليس منهج معرفة نظرية .  
وجدل لاهوتي ، إنه منهج حركة واقعية لتغيير الواقع البشري . وللواقع البشري جذوره  
وركائزه في نفوس الناس وفي أوضاعهم سواء . وتغيير هذا الواقع الجاهلي إلى الواقع الرباني  
الذي يريده الله للناس وفق منهجه مسألة شاقة عسيرة ؛ تحتاج إلى جهد طويل ، وإلى صبر  
عميق . وطاقة صاحب الدعوة محدودة . ولا قبل له بمواجهة هذه المشقة دون زاد  
يستمده من ربه . إنه ليس العلم وحده ، وليست المعرفة وحدها . إنما هي العبادة لله  
والاستمداد منه . . هي الزاد ، وهي السند ، وهي العون ؛ في الطريق الشاق الطويل !  
ومن ثم هذا التوجيه الأخير في السورة التي بدأت بقول الله سبحانه لرسول الكريم ، ﴿  
كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ، لتذربه ، وذكرى للمؤمنين ﴾ والتي تضمن  
سياقها عرض موكب الإيمان ، بقيادة الرهط الكريم من رسل الله الكرام ؛ وما يعترض  
طريقه من كيد الشيطان الرجيم ؛ ومن مكر شياطين الجن والإنس ؛ ومن معارضة  
المتجبرين في الأرض ، وحرب الطواغيت المتسلطين على رقاب العباد .  
إنه زاد الطريق . وعدة الموكب الكريم في هذا الطريق . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال ح  
3 ص 1418.1428 ﴾

(410/302)

---

## فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وأمر بالعرف ﴾ وهو طلب الحق لأنه معروف العارفين ﴿ وأعرض عن  
الجاهلين ﴾ الذين يطلبون غير الله ﴿ من الشيطان نزع ﴾ فى طلب غير الله ﴿ فاستعد  
بالله ﴾ من طلب غير الله ﴿ إن الذين اتقوا ﴾ هم أرباب القلوب لأن التقوى من شأن  
القلب كما قال صلى الله عليه وسلم : " التقوى ههنا " وأشار إلى صدره . ﴿ طائف من  
الشيطان ﴾ نزع من العمل الشيطاني يراه القلب بنور التقوى ويعرفه فيذكره أنه يفسده  
ويكدر صفاءه فيجتنبه ﴿ وإخوانهم ﴾ يعنى إخوان القلوب وهم النفوس الأمارة ﴿  
وإذا لم تأتهم ﴾ أي لم تأت القلوب ﴿ بآية ﴾ من الله لتعجز النفوس عن تكذيبها ﴿ قالوا  
﴿ أي النفوس للقلب لولا اختلقها من خاصية قلبيتك لتزكية النفوس ﴾ قل إنما أتبع ﴿  
إلهام فلا أقدر على تزكية النفوس إلا بقوة الإلهام الرباني .

(411/302)

---

﴿ فاستمعوا ﴾ ﴿ بأذانكم الظاهرة ﴾ ﴿ وأنصتوا ﴾ ﴿ بألسنتكم الباطنة ﴾ ﴿ لعلكم ترحمون ﴾  
﴿ بالاستماع بالسمع الحقيقي وذلك قوله : " كنت له سمعاً وبصراً فبي يسمع وببي يبصر " ﴾  
﴿ فمن سمع القرآن من بارئه فقد سمع من قارئه وهذا سر الرحمن علم القرآن فهو المستعد ﴾  
﴿ لخطاب ﴾ ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ ﴿ بأن تبدل أخلاقها الله ﴾ ﴿ تضرعاً ﴾ ﴿ في البداية وهو ﴾  
﴿ من باب التكلف ﴾ ﴿ وخيفة ﴾ ﴿ في الوسط ﴾ ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ ﴿ في النهاية وهو مقام ﴾  
﴿ الفناء فإن إفشاء سر الربوبية كفر في غدو الأزل وأصال الأبد ، فإن الذاكرو والذكر ﴾  
﴿ والمذكور هو الله ولهذا قال في الأزل ﴾ ﴿ فاذا ذكروني أذكركم ﴾ ﴿ [ البقرة : 152 ] ومن هنا ﴾  
﴿ قال يوسف بن الحسين الرازي : ما قال أحد الله إلا الله ﴾ ﴿ ولا تكونن من الغافلين ﴾ ﴿  
﴿ والذين لا يعلمون أن الذاكرو والذكر والمذكور هو الله ﴾ ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ ﴿ وهم الذين ﴾  
﴿ بقوا ببقاء الله ﴾ ﴿ يستكبرون عن عبادته ﴾ ﴿ لأنهم أفنوا أخلاقهم في أخلاقه ﴾ ﴿ يسبحونه ﴾  
﴿ ينزهونه عن الحلول والاتصال والاتحاد ﴾ ﴿ وله يسجدون ﴾ ﴿ في الوجود والعدم من ﴾  
﴿ الأزل إلى الأبد منه المبدأ وإليه المنتهى . انتهى انتهى . اهـ ﴾ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص ﴾

وقال الأوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ﴿ وَهِيَ الرُّوحُ ﴾  
﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَهِيَ الْقَلْبُ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ﴿ أَي لِيَمِيلَ إِلَيْهَا وَيَطْمَئِنُّ فَكَانَتِ الرُّوحُ تَشْمُ  
مِنَ الْقَلْبِ نَسَائِمَ نَفْحَانِ الْأَطَافِ ﴾ ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ ﴿ أَي جَعَامِعَهَا وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى النِّكَاحِ  
الرُّوحَانِيِّ وَالصُّوفِيَّةِ يَقُولُونَ : إِنَّهُ سَائِرٌ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ  
تَفَاوُتٍ ﴾ ﴿ حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا ﴾ ﴿ فِي الْبَدَايَةِ بظُهُورِ أَدْنَى أَثَرٍ مِنْ آثَارِ الصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ فِي  
الْقَلْبِ الرَّوحَانِيِّ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ ﴿ كَبُرَتْ وَكَثُرَتْ آثَارُ الصِّفَاتِ ﴾ ﴿ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا ﴾  
لأنهما خافا من تبدل الصفات الروحانية النورانية بالصفات النفسانية الظلمانية ﴿ لِنُ  
ءَاتِيَنَّ صَالِحًا ﴾ ﴿ لِلْعِبَادَةِ

(413/302)

---

﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : 189] ﴿ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ ﴿ بِحَسْبِ  
الْفِطْرَةِ مِنَ الْقَوَى ﴾ ﴿ جَعَلَالَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ﴾ [الأعراف : 190] ﴿ أَي جَعَلَ  
أَوْلَادَهُمَا لِلَّهِ تَعَالَى شُرَكَاءَ فِيمَا آتَى أَوْلَادَهُمَا فَمِنْهُمْ عَبْدُ الْبَطْنِ وَمِنْهُمْ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ وَمِنْهُمْ  
مِنَ عَبْدِ الرَّدْهِمِ وَالِدِينَارِ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ﴿ كَانُوا مَا كَانُوا ﴾ ﴿ عِبَادٌ

أَمْثَالِكُمْ ﴿ في العجز وعدم التأثير ﴿ فادعوهم ﴿ إلى أي أمر كان ﴿ فَلَيْسَتْ جِيُوءَا لَكُمْ  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ [الأعراف: 194] في نسبة التأثير إليهم ﴿ اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا  
﴿ استفهام على سبيل الإنكار أي ليس لهم أرجل يمشون بها بل بالله عز وجل إذ هو الذي  
يمشيهم وكذا يقال فيها بعد ﴿ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ ﴿ [الأعراف: 195] إن  
استطعتم ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ ﴿ حافظي ومتولي أمري ﴿ الذي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى  
الصالحين ﴿ [الأعراف: 196] أي من قام به في حال الاستقامة ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ  
إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿ [الأعراف: 198] الحق ولا حقيقتك لأنهم عمي القلوب في  
الحقيقة، والضمير للكفار ﴿ قُلِ الْعَفْوَ ﴿ أي السهل الذي يتيسر لهم ولا تكلفهم ما يشق  
عليهم ﴿ وَأُمْرٌ بِالْعَرَفِ ﴿ أي بالوجه الجميل، ﴿ وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿ [الأعراف:  
199] فلا تكافئهم بجهلهم.

(414/302)

---

عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه  
الآية قيل وذلك لقوة دلالتها على التوحيد فإن من شاهد مالك النواصي وتصرفه في عباده  
وكونهم فيما يأتون ويطرون به سبحانه وتعالى لا بأنفسهم لا يشاقهم ولا يداقهم في تكاليفهم



ولا يغضب في الأمر والنهي ولا يتشدد ويحلم عنهم ، ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [الأعراف: 200] بالشهود والحضور فإنك ترى حينئذ أن لا فعل لغيره سبحانه ، وهذا إشارة إلى ما يعتري الإنسان أحياناً من الغضب وإيماء إلى علاجه بالاستعاذة قال بعضهم : إن الغضب إنما يهيج بالإنسان إذا استقبح من المغضوب عليه عملاً من الأعمال ثم اعتقد في نفسه كونه قادراً وفي المغضوب عليه كونه عاجزاً ، وإذا انكشف له نور من عالم العقل عرف أن المغضوب عليه إنما أقدم على ذلك العمل لأن الله تعالى خلق فيه داعية وقد سبقت عليه الكلمة الأزلية فلا سبيل له إلى تركه وحينئذ يتغير غضبه .

وقد ورد من عرف سر الله تعالى في القدر هانت عليه المصائب ، الاستعاذة بالله تعالى في المعنى طلب الالتجاء إليه باستكشاف ذلك النور ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الشرك ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طِغْيٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾ لمة منه بنسبة الفعل إلى غيره سبحانه وتعالى : ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ مقام التوحيد ومشاهدة الأفعال من الله تعالى :

(415/302)

---

أطرت من إجلاله لا خيفة بل هيبة

وصيانة لجمالة . . .

وذكروا أن حال المتدي والسالك منوطة برأي الشيخ فإنه الطبيب لأمراض القلوب فهو

أعرف بالعلاج، فقد يرى له رفع الصوت بالذكر علاجاً حيث توقف قطع الخواطر

وحديث النفس عليه، وفي عوارف المعارف للسهر وردي قدس سره لا يزال العبد يردد

هذه الكلمة وسهلت على اللسان تشربها القلب ويصير الذكر حينئذ ذكر الذات، وهذا

الذكر هو المشاهدة والمكاشفة والمعانية، وذلك هو المقصد الأقصى من الخلوة، وقد

يحصل ما ذكر بتلاوة القرآن أيضاً إذا أكثر التلاوة واجتهد في مواطأة القلب مع اللسان حتى

تجري التلاوة على اللسان وتقوم مقام حديث النفس فيدخل على العبد سهولة في التلاوة

والصلاة اه .

ونقل عنه أيضاً ما حاصله أن بنية العبد تحكي مدينة جامعة، وأعضاؤه وجوارحه بمثابة

سكان المدينة، والعبد في إقباله على الذكر كمؤذن صعد منارة على باب المدينة يقصد

اسماع أهل المدينة الأذان، فالذكر المحقق يقصد إيقاظ قلبه وانباء أجزائه وأبعاضه بذكر

لسانه فهو يقول ببعضه ويسمع ب كله إلى أن تنتقل الكلمة من اللسان إلى القلب فيتنور بها

ويظفر بجدوى الأحوال ثم ينعكس نور القلب على القلب فيتزين بحاسن الأعمال اه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ وهم الفانون الباقون به سبحانه وتعالى أرباب الاستقامة ﴿ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴿ لَعَدَمِ احْتِجَابِهِم بِالْإِنَانِيَّةِ ﴾ ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ ﴿ بِنَفْسِهَا ﴾ ﴿ وَلَهُ  
يَسْجُدُونَ ﴾ ﴿ [الأعراف : 206] بالفناء التام وطمس البقية والله تعالى هو الباقي ليس  
في الوجود سواه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 8 ص ﴾

(416/302)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة الأعراف (7) : آية 158]

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ  
تَهْتَدُونَ (158)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (يا) حرف نداء (أي) منادى مفرد علم مبني على الضم في  
محل نصب و(ها) حرف تنبيه (الناس) بدل من أي تبعه في الرفع لفظا - أو عطف بيان -  
(إن) حرف مشبّه بالفعل و(الياء) ضمير في محل نصب اسم إن (رسول) خبر إن مرفوع  
(الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (إلى) حرف جر و(كم) ضمير في محل جر متعلق بـ

(رسول) (جميعاً) حال منصوبة من ضمير إليكم (الذي) اسم موصول مبني في محل رفع  
خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو " 1 " ، (اللام) حرف جرّو (الهاء) ضمير في محل جرّ متعلق  
بمحذوف خبر مقدّم (ملك) مبتدأ مؤخر مرفوع ، (السموات) مضاف إليه مجرور و(الواو)  
عاطفة (الأرض) معطوف على السموات مجرور (لا) نافية للجنس (إله) اسم لامبني على  
الفتح في محل نصب (إلا) أداة استثناء

---

(1) أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف على المدح، ويجوز على ضعف أن يكون  
نعنا للفظ الجلالة .

(417/302)

---

(هو) ضمير منفصل في محل رفع بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف تقديره موجود أو  
معبود بحق " 1 " . (يحيي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء ،  
والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الواو) عاطفة (تميت) مثل يحيي (الفاء) رابطة لجواب  
شرط مقدّر (آمنوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . والواو فاعل (بالله) جارّ ومجرور  
متعلق ب(آمنوا) ، (الواو) عاطفة (رسول) معطوف على لفظ الجلالة مجرور و(الهاء)  
ضمير مضاف إليه (النبي) بدل من رسول مجرور (الأمي) نعت للنبي مجرور (الذي) اسم

موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت ثانٍ للنبيّ " 2 " ، (يؤمن) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (بالله)  
جارٌّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمن) ، (الواو) عاطفة (كلمات) معطوف على لفظ الجلالة مجرور  
و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (أتبعوا) مثل آمنوا و(الهاء) ضمير مفعول به (لعلّ)  
حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (تهدون) مضارع  
مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة: " قل . . . لا محلّ لها استنائيّة .

وجملة النداء وجوابها في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: " إني رسول . . . لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة: " (هو) الذي . . . لا محلّ لها استنائيّة .

وجملة: " له ملك السموات " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: " لا إله إلا هو " لا محلّ لها بدل من جملة الصلة .

---

(1) يجوز أن يكون بدلا من محلّ (لا إله) إذ محلّه الرفع لأنه مبتدأ في الأصل .

(2) يجوز أن يقطع للمدح فيكون في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف وجوبا تقديره هو أو في

محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره أمدح .

وجملة: "يحبي . . . " لا محل لها بدل من جملة لا إله إلا هو .

وجملة: "يميت " لا محل لها معطوفة على جملة يحبي .

وجملة: "آمنوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدر أي إن أردتم الهداية والفوز بالجنة  
فآمنوا . . . " 1 " .

وجملة: " يؤمن بالله . . . " لا محل لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة: " اتبعوه " معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة: " لعلكم تهتدون " لا محل لها استئنافية تعليلية .

وجملة: " تهتدون " في محل رفع خبر لعل .

[سورة الأعراف (7) : آية 159]

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159)

الإعراب:

(الواو) استئنافية (من قوم) جارّ ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم (موسى) مضاف إليه

مجرور وعلامة الجرّ الفتحة المقدّر على الألف فهو ممنوع من الصرف (أمة) مبتدأ مؤخر

مرفوع (يهدون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (بالحق) جارّ ومجرور متعلق بمحذوف

حال من فاعل يهدون أي حال كونكم متلبسين بالحق (الواو) عاطفة (الباء) حرف جرّ

(الهاء) ضمير في محل جر متعلق بـ (يعدلون) وهو مثل يهدون .

جملة: " من قوم موسى أمة " لا محل لها استنافية .

وجملة: " يهدون . . . " في محل رفع نعت لأمة .

---

(1) يجوز أن يكون الفاء عاطفا لربط المسبب بالسبب ، وأن تكون الجملة معطوفة على

جملة جواب النداء : إني رسول الله إليكم . . .

(419/302)

---

وجملة: " يعدلون " في محل رفع معطوفة على جملة يهدون .

الصرف :

(يهدون) ، فيه إعلال بالحذف أصله يهديون ، استثقلت الضمة على الياء فسكنت

وحرّكت الدال بالضم - إعلال بالتسكين - ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين فأصبح

يهدون ، وزنه يفعون .

[سورة الأعراف (7) : آية 160]

وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ  
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبِهِمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمْ

الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا  
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (قطعنا) فعل ماضٍ مبني على السكون . . . و(نا) ضمير فاعل و(هم) ضمير مفعول به (اثنتي) حال منصوبة من ضمير الغائب في (قطعناهم) ، وعلامة النصب الياء " 1 " ، (عشرة) جزء عددي لا محل له " 2 " ، (أسباطا) بدل (من اثنتي) عشرة منصوب مثله (أما) بدل من (أسباطا) منصوب مثله - أو نعت له - (الواو) عاطفة (أوحينا) مثل قطعنا (إلى موسى) جار ومجرور متعلق بـ (أوحينا) ، وعلامة الجرّ الفتحة المقدّرة على الألف (إذ) ظرف للزمن الماضي مبني في محل نصب متعلق بـ (أوحينا) ، (استسقى) فعل ماضٍ مبني على الفتح المقدّر على الألف و(الهاء) ضمير مفعول به (قوم)

---

(1) إذا ضمّن (قطعنا) معنى صيرنا فـ (اثنتي) يكون مفعولا ثانيا . [ . . . . . ]

(2) أنت لفظ (عشرة) لأن التمييز المحذوف مؤنث تقديره فرقة أو أمة .

(420/302)

---



فاعل مرفوع و(الهاء) مضاف إليه (أن) حرف تفسير " 1 " ، (اضرب) فعل أمر ، والفاعل أنت (بعصاك) جار ومجرور متعلق بـ (اضرب) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف . . . و(الكاف) مضاف إليه (الحجر) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (انجس) فعل

ماض و(التاء) تاء التانيث (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلق بـ

(انجست) ، (اثنان) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الألف ، وحذفت النون لمشابهة التركيب

للإضافة (عشرة) جزء عدديّ لا محلّ له (عيننا) تمييز منصوب (قد) حرف تحقيق (علم)

فعل ماض (كلّ) فاعل مرفوع (أناس) مضاف إليه مجرور (مشرب) مفعول به منصوب

و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ظللنا) مثل قطعنا (على) حرف جرّ و(هم)

ضمير في محلّ جرّ متعلق بـ (ظللنا) ، (الغمام) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (أنزلنا

. . . المنّ) مثل ظللنا عليهم الغمام (الواو) عاطفة (السلوى) معطوف على المنّ منصوب

وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (كلوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . .

والواو فاعل (من طبيّات) جارّ ومجرور متعلق بـ (كلوا) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ

جرّ مضاف إليه (رزقنا) مثل قطعنا و(كم) ضمير مفعول به (الواو) استئنافية " 2 " ، (ما)

حرف ناف (ظلموا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل و(نا) ضمير مفعول به

(الواو) عاطفة (لكن) حرف للاستدراك (كانوا) ماض ناقص - ناسخ - والواو اسمه

(أنفس) مفعول به مقدّم و(هم) ضمير مضاف

(1) أو حرف مصدرى ، والمصدر المؤول معمول أوحينا بوساطة حرف الجرّ . . .

وجملة اضرب صلة الموصول الحرقيّ .

(2) وهي عاطفة عند بعضهم عطفت الجملة بعدها على جملة مقدّرة أي : ظلموا

بكفرهم بتلك النعم وما ظلمونا بذلك .

(421/302)

---

إليه (يظلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة : " قطعناهم . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة : " أوحينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافية .

وجملة : " استسقاءه قومه " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " اضرب . . . " لا محلّ لها تفسيرية .

وجملة : " انبجست . . . اثنا عشرة " لا محلّ لها معطوفة على جملة محذوفة مستأنفة أي

فضرب فانبجست .

وجملة : " قد علم كلّ . . . " في محلّ رفع نعت لـ (اثنا عشرة) عينا " 1 " .

وجملة : " ظللنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قطعناهم .

وجملة: " أنزلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ظللنا . . .

وجملة: " كلوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدر أي:

قلنا لهم كلوا .

وجملة: " رزقناكم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف أي: ما رزقناكم إياه

أورزقناكموه .

وجملة: " ما ظلمونا " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة: " كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما ظلمونا .

وجملة: " يظلمون " في محلّ نصب خبر كانوا .

---

(1) والرباط محذوف تقديره منها . . . أو هي لا محلّ لها استئنافية بغير تقدير الرباط .

(422/302)

---

الفوائد

1 - قام العلماء وقعدوا حول اعراب " أسباطا " ، ما بين البدلية والتمييز والصفة .

والرأي الذي تتراح له النفس ويخرجنا من الإشكالات والاعتراضات أن نجعل أسباطا

صفة لموصوف محذوف تقديره " اثني عشرة فرقة أسباطا " .

2- اعراب العدد المركب من أحد عشر إلى تسعة عشر يعرب " جزءان مركبان مبنيان

على الفتح الا اثني عشر فتعرب اعراب المثني .

وفي تأنيث هذه المركبات وتذكيرها ، تقسم بالنسبة إلى الجزء الأول قسمين :

1- إحدى واثنتا أو ثنتا توافقان المعدود .

2- من ثلاث عشرة إلى تسع عشرة تخالف المعدود ملاحظة : العشرة مع التركيب توافق

المعدود تذكيرا وتأنيثا ، وفي حالة الإفراد تخالف المعدود .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 161 إلى 163]

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا

نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي

قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلُمُونَ (162) وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي

كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا

يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (إذ) اسم ظرفي للزمن الماضي في محل نصب مفعول به لفعل محذوف

تقديره اذكر (قيل) فعل ماض مبني

للمجهول (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلق بـ (قيل) ، (اسكنوا) فعل أمر

مبنيّ على حذف النون . . . والواو فاعل (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (القرية) بدل من اسم الإشارة منصوب (الواو) عاطفة (كلوا) مثل اسكنوا (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كلوا) ، (حيث) ظرف مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب متعلّق بـ (كلوا) ، (شتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . . و(تم) ضمير فاعل (الواو) عاطفة (قولوا) ومثل اسكنوا (حطة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره مسألنا أو أمرنا (الواو) عاطفة (ادخلوا) مثل اسكنوا (الباب) مفعول به منصوب (سجّدا) حال منصوبة من فاعل ادخلوا (نغفر) مضارع مجزوم جواب الطلب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (لكم) مثل لهم متعلّق بـ (نغفر) ، (خطيئات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة و(كم) ضمير مضاف إليه (السين) حرف استقبال (نزید) مضارع مرفوع . . . والفاعل نحن للتعظيم (المحسنين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

(423/302)

---

جملة: " (اذكر) المقدرة . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة: " قيل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: " اسكنوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة: " كلوا " في محلّ رفع معطوفة على جملة اسكنوا .

وجملة: " شتم " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) لأنها جملة مقول القول للفعل المبني للمعلوم . . والمعربون يجعلون نائب الفاعل مقدّرا

أي قيل القول ، والجملة تفسيرية أو هي استئناف بيانيّ وبالتالي الجمل المعطوفة عليها .

(424/302)

---

وجملة: " قولوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة اسكنوا .

وجملة: " (أمرنا) حط " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: " ادخلوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة اسكنوا .

وجملة: " نغفر . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدر غير مقترنة بالفاء أي: إن تدخلوا

نغفر . . .

وجملة: " سنزيد . . . " لا محلّ لها استئنافية - أو اعتراضية - " 1 " .

(الفاء) عاطفة (بدّل) فعل ماض (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (ظلموا) فعل

ماض مبنيّ على الضمّ والواو فاعل (منهم) مثل منها متعلّق بحذوف حال من فاعل ظلموا

(قولا) مفعول به منصوب " 2 " (غير) نعت لـ (قولا) منصوب (الذي) موصول في محل جرّ مضاف إليه (قيل لهم) مثل الأولى ، ونائب الفاعل هو العائد (الفاء) عاطفة (أرسلنا) فعل ماض مبني على السكون . . . و(نا) ضمير فاعل (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محل جرّ متعلق بـ (أرسلنا) (رجزا) مفعول به منصوب (من السماء) جارّ ومجرور متعلق بنعت لـ (رجزا) ، (الباء) حرف جرّ سببيّ (ما) حرف مصدرية (كانوا) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبني على الضمّ . . . والواو ضمير اسم كان (يظلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤول (ما كانوا . . .) في محل جرّ بالباء متعلق بـ (أرسلنا) .

- 
- (1) انظر الآيتين (57 ، 58) من سورة البقرة إعرابا و صرفا .
- (2) والمفعول الثاني لفعل بدّل محذوف والتقدير : فبدّل الذين ظلموا منهم بالذي قيل لهم قولا غير . . .

(425/302)

---

وجملة : " بدّل الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أمرؤا فبدّلوا .  
وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " قيل . . . " لا محل لها معطوفة على جملة بدل الذين . . .

وجملة: " كانوا يظلمون " لا محل لها صلة الموصول الحرفي (ما) " 1 " .

وجملة: " يظلمون " في محل نصب خبر كانوا " 2 " .

(الواو) عاطفة (اسأل) فعل أمر ، والفاعل أنت و(هم) ضمير مفعول به (عن القرية) جارّ

ومجرور متعلّق بـ (اسأل) (التي) اسم موصول مبنيّ في محل جرّ نعت للقرية (كانت) فعل

ماض ناقص ناسخ . . و(التاء) للتأنيث ، واسمه ضمير مستتر تقديره هي وهو العائد

(حاضرة) خبر كانت منصوب (البحر) مضاف إليه مجرور (إذ) ظرف للزمن الماضي في

محلّ نصب متعلّق بحاضرة المشتق (يعدون) مثل يظلمون (في السبت) جارّ ومجرور متعلّق

بـ (يعدون) ، (إذ) مثل الأول متعلّق بـ (يعدون) ، (تأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع

الضمة المقدّرة على الياء و(هم) ضمير مفعول به (حيثان) فاعل مرفوع ، و(هم) ضمير

مضاف إليه (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تأتيهم) ، (سبت) مضاف إليه مجرور

و(هم) مثل الأخير (شرّعا) حال منصوبة من حيثان (الواو) عاطفة (يوم) مثل الأول متعلّق

بـ (لا تأتيهم) ، (لا) حرف نفي (يسبتون) مثل يظلمون (لا) مثل الأول (تأتيهم) مثل الأولى ،

والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (الكاف)

---

(1) يجوز أن يكون (ما) اسم موصول والعائد محذوف . . والجملة صلة ما .

(2) انظر الآية (59) من البقرة .



حرف جرّ و(ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (نبلوهم) " 1 " ، وهو مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على الواو . . و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن للتعظيم (بما كانوا يفسقون) مثل بما كانوا يظلمون " 2 " .

وجملة: " اسألهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة " اذكر " المقدّرة .

وجملة: " كانت حاضرة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة: " يعدون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: " تأتيهم حيثانهم " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: " لا يسبتون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: " لا تأتيهم " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تأتيهم .

وجملة: " نبلوهم " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة: " كانوا يفسقون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة: " يفسقون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف:

(يعدون) ، مضارع عدا يعدو بمعنى اعتدى وظلم ، وفيه إعلال بالحذف أصله يعدوون  
بضم الواو الأولى ، ثم سكنت لثقل الضمة إعلال بالتسكين - ثم حذفت لالتقاء الساكنين ،  
وزنه يفعون .

(حيتان) ، جمع الحوت ، اسم جامد ذات وزنه فعل بضم فسكون ،

---

(1) (يحتمل أن يكون متعلقاً بمحذوف حال . . أي لا تأتيهم شرعاً كذلك .

(2) في الآية السابقة (162) .

(427/302)

---

وفي (حيتان) إعلال قلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها وأصله حوتان بكسر  
فسكون ، وزنه فعلا ن بكسر الفاء .

(شرعاً) ، جمع شارع من شرع عليه إذا دنا وأشرف ، اسم فاعل وزنه فاعل ، وشرع وزنه  
فعل بضم الفاء وفتح العين المشددة زنة شرّد .

البلاغة

1 - حيث للمكان مثل " حين " للزمان .

أكثر ما تأتي " حيث " في محل نصب ظرف مكان .

وقد تأتي في محل جرّ بالإضافة مثل "لدى حيث اُقت الخ".

وفي محل جرّ بـ "من" و "مِنْ حَيْثُ خَرَجْتُ فَوَلَّ وَجْهَكَ".

وقد تقع مفعولا به نحو "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتُهُ".

وندر إضافتها إلى مفرد نحو "حيث لي العمائم" ملاحظة: إذا اتصلت حيث بـ "ما"

الكافة ضمّنت معنى الشرط وجزمت فعلي الشرط "جوابه وجزؤه" وتبقى في محل

نصب على الظرفية المكانية.

2- إذ: تأتي ظرفية وفجائية وتعليلية أ- الظرفية: تكون ظرفا للزمن الماضي، ومفعولا

به وبدلا من المفعول به، وفي محل جرّ بالإضافة اسم زمان إليها مثل "يومئذ وحينئذ" وبعد

إذ هدينا ب- الفجائية هي التي تكون بعد "بيناً أو بينما" نحو

استقدر الله خيرا وارضينّ به فبينما العسر إذ دارت مياسير

ج- التعليلية: وهي بمعنى "لأنّ" نحو قوله تعالى: "قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ

شَهِيداً". والجمهور لا يثبتون التعليلية ولا يقولون الا بظرفيتها.

فاختر لنفسك وتحقق.

[سورة الأعراف (7): الآيات 164 إلى 166]

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى

رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا

الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ  
كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ) ظرف معطوف على إذ يعدون . . . " 1 " ،

(قال) فعل ماضٍ (والتاء) للتأنيث (أمة) فاعل مرفوع (من) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لأمة (اللام) حرف جرّ (ما) اسم استفهام مبني في محلّ جرّ متعلّق بـ (تعظون) وهو مضارع مرفوع . .

والواو فاعل (قوما) مفعول به منصوب (الله) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (مهلك) خبر مرفوع و (هم) ضمير مضاف إليه (أو) حرف عطف (معذبهم) مثل مهلكهم فهو معطوف عليه (عذابا) مفعول مطلق منصوب عامله معذب (شديدا) نعت لـ (عذابا) منصوب مثله (قالوا) فعل ماضٍ مبني على الضمّ . . والواو فاعل (معذرة) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب " 2 " ، (إلى ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (معذرة) و (كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجّي - ناسخ - و (هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (يتقون) مثل تعظون .

---

(1) في الآية (163) السابقة .

(2) أو مفعول لأجله أي وعظناهم للمعذرة، وقيل هو مفعول به لفعل محذوف أي:  
قالوا نطلب معذرة.

(428/302)

---

وجملة: " قالت أمة . . . " في محلّ جرّ إضافة (إذ) إليها .

وجملة: " تعظون " في محلّ نصب مفعول القول .

وجملة: " الله مهلكهم " في محلّ نصب نعت لـ " قوما " .

وجملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة: " (نعتذر) معذرة " في محلّ نصب مفعول القول .

وجملة: " لعلّهم يتّقون " في محلّ نصب معطوفة على جملة مفعول القول .

وجملة: " يتّقون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

(429/302)

---

(الفاء) عاطفة (لما) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق  
بالجواب أنجينا ، (نسوا) فعل ماضٍ مثل قالوا (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به  
(ذكروا) ماضٍ مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . . . والواو نائب الفاعل (الباء) حرف جرّ  
و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ذكروا) ، (أنجينا) فعل ماضٍ مبنيّ على السكون . .  
و(نا) ضمير فاعل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (ينهون) مضارع  
مرفوع . . والواو فاعل (عن السوء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينهون) ، (الواو) عاطفة  
(أخذنا) مثل أنجينا (الذين) مثل الأول (ظلموا) مثل قالوا (بعذاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ  
(أخذنا) والباء للتعدية (بئس) نعت لعذاب مجرور (بما كانوا يفسقون) مرّ إعرابها " 1 "

وجملة: " نسوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) في الآية السابقة (163) من هذه السورة. [ . . . . . ]

(430/302)

---

وجملة: " ذكروا به " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .  
وجملة: " أنجينا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: "ينهون" لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "أخذنا" . . . "لا محل لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة: "ظلموا" . . . "لا محل لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة: "كانوا يفسقون" . . . "لا محل لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة: "يفسقون" في محل نصب خبر كانوا .

والمصدر المؤول (ما كانوا) . . . في محل جرّ بالباء متعلّق بـ (أخذنا) " 1 " .

(الفاء) عاطفة (لما عتوا) مثل لما نسوا . . . والبناء على الضمّ مقدر على الألف المحذوفة

لالتقاء الساكنين (عن) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (عتوا)

بتضمينه معنى تكبروا (نهوا) مثل ذكروا (عنه) حرف جرّ وضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ

(نهوا) ، (قلنا) مثل أنجينا (اللام) حرف جرّ و(هم) في محلّ جرّ متعلّق بـ (قلنا) ، (كونوا)

فعل أمر ناقص مبنيّ على حذف النون . . . والواو ضمير في محلّ رفع اسم كن (قردة) خبر

كونوا منصوب (خاسئين) خبر ثان منصوب وعلامة النصب الياء " 2 " .

---

(1) أو بـ (بئس) الصفة المشبهة ، أي شديد بسبب فسقهم .

(2) يجوز أن يكون نعتا لقردة . . . أو حالا من اسم كان . . . وانظر الآية (65) من سورة

وجملة: "عتوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: " نهوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: " قلنا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: " كونوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(مهلك) ، اسم فاعل من أهلك الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين .

(معذب) ، اسم فاعل من عذب الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين .

(معذرة) ، اسم مصدر من فعل اعتذر الخماسيّ ، وزنه مفعلة بفتح الميم وكسر العين ، أو

هو مصدر ميميّ لفعل عذر جاء على غير قياس ، لأنّ القياس فتح الراء ، والتاء المربوطة

للمبالغة مثل محبة ومودة .

(بيّس) ، صفة مشبّهة من بؤس يبؤس باب كرم وزنه فعيّل ، وقال أبو البقاء العكبري : يصحّ

أن يكون مصدرا مثل النذير ، وتقديره في الآية :



بعذاب ذي بأس أي ذي شدة .

(نهوا) ، فيه إعلال بالحذف أصله نهيووا بضم الياء مع النون ، استثقلت الحركة على الياء فسكنت ونقلت حركتها إلى الهاء . . ثم حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة فأصبح نهوا وزنه فعوا بضم الفاء والعين .

(432/302)

(قردة) ، جمع قرد ، اسم جامد للحيوان المعروفة وزنه فعل بكسر فسكون ، ووزن قرده فعلة بكسر الفاء وفتح العين .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى " فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ " أي تركوا ما ذكرهم به صلحاً وهم ، فالنسيان مجاز عن الترك ، واستظهر أنه استعارة حيث شبه الترك بالنسيان بجمع عدم المبالاة ، وجوز أن يكون مجازاً مرسلًا لعلاقة السببية .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 167 إلى 169]

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ  
وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ

وَبَلَّوْنَاَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا  
الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى وَيَقُولُونَ سِيْغَرٌ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ  
يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى  
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ) اسم ظرفي مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (تأذن) فعل ماض  
(رب) فاعل مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (اللام) لام القسم " 1 " ، (يبعثن)  
مضارع مبني على الفتح في محل رفع . . و(النون) نون التوكيد ، والفاعل ضمير مستتر  
تقديره هو (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محل جرّ متعلق بـ (يبعثن) ، (إلى يوم) جارّ  
ومجرور متعلق بـ (يبعثن) " 2 " ، (القيامة) مضاف إليه مجرور (من) اسم موصول " 3 "

---

(1) لأن الفعل (تأذن) جرى مجرى القسم .

(2) يجوز أن يتعلّق بـ (تأذن) .

(3) أو نكرة موصوفة . . . والجملة بعده في محل نصب نعت له .

(433/302)

---

مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يسوم) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو - وهو العائد - و(هم) ضمير مفعول به أوّل (سوء) مفعول به ثان منصوب (العذاب) مضاف إليه مجرور (إن) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (ربّ) اسم إنّ منصوب و(الكاف) مثل الأخير (اللام) هي المرحلة تفيد التوكيد (سريع) خبر إنّ مرفوع (العذاب) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (إنّ) مثل الأوّل و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (لغفور) قبل لسريع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: " تأذن ربك . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " يبعث . . . " لا محلّ لها جواب قسم . . . وجملة القسم وجوابه سدّ مسدّ مفعول تأذن " 1 " .

وجملة: " يسومهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: " إنّ ربك لسريع . . . " لا محلّ لها تعليلية أو في حكمه .

وجملة: " إنه لغفور " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ ربك لسريع .

(الواو) عاطفة (قطّنا) فعل ماض مبنيّ على الكون . . و(نا) فاعل و(هم) ضمير مفعول

به (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قطّنا) ، (ألما) حال منصوبة من ضمير المفعول في

(قطّناهم) " 2 " ، (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحذوف خبر مقدّم

(الصالحون) مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة الرفع الواو (الواو) عاطفة (منهم) مثل الأوّل

(1) لأن الفعل (تأذّن) بمعنى أعلم من الأذان وهو الاعلام ، فهو ملاق أفعال القلوب  
بالمعنى .

(2) إِأَضَمَّن (قَطَعْنَا) معنى صَيَّرْنَا ف (أَمَّا) مفعول ثان له .

(434/302)

---

(دون) ظرف منصوب نعت لموصوف محذوف هو المبتدأ المؤخر أي ومنهم ناس أو قوم  
دون ذلك " 1 " ، (ذلك) اسم إشارة مبني في محل جر مضاف إليه . و(اللام) للبعد  
و(الكاف) للخطاب (الواو) عاطفة (بلونا) مثل قَطَعْنَا و(هم) ضمير مفعول به  
(بالحسنات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بلونا) ، (الواو) عاطفة (السيئات) معطوف على  
الحسنات مجرور (لعلهم يرجعون) مثل لعلهم يتقون " 2 " .  
وجملة : " قَطَعْنَا هُمْ . . . " لا محل لها معطوفة على استئناف مقدر في مجرى قصة بني  
إسرائيل .

وجملة : " منهم الصالحون " في محل نصب نعت لـ (أَمَّا) .

وجملة : " منهم دون ذلك " في محل نصب معطوفة على جملة منهم الصالحون .

وجملة : " بلونا هم " لا محل لها معطوفة على جملة قَطَعْنَا هُمْ .

وجملة: "لعلهم يرجعون" لا محل لها تعليلية.

وجملة: "يرجعون" في محل رفع خبر لعل.

(الفاء) عاطفة (خلف) فعل ماض (من بعد) جارّ ومجرور متعلق بـ (خلف) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (خلف) فاعل مرفوع (ورثوا) فعل ماض وفاعله (الكتاب) مفعول به منصوب (ياخذون) مضارع مرفوع . .

والواو فاعل (عرض) مفعول به منصوب (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة

---

(1) قال الزمخشري: "معناه ومنهم ناس منحطون عن الصلاح، ونحوه" ما منّا إلا له مقام معلوم"، يعني ما منّا أحد إلا له مقام معلوم يعني في كونه حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه . . . "اه.

(2) في الآية (164) من هذه السورة.

(435/302)

---

مبني في محل جرّ مضاف إليه (الأدنى) بدل من اسم الإشارة أو عطف بيان مجرور وعلامة الجر الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة "1"، (يقولون) مثل يأخذون (السين) حرف استقبال (يغفر) مضارع مبني للمجهول مرفوع، ونائب الفاعل محذوف يفهم من

سياق الكلام والتقدير ما فعلناه (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (يغفر) ،  
 (الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (يأت) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم  
 حذف حرف العلة و(هم) ضمير مفعول به (عرض) فاعل مرفوع (مثل) نعت لعرض مرفوع  
 و(الهاء) ضمير مضاف إليه (ياخذوا) مضارع مجزوم جواب الشرط وعلامة الجزم حذف  
 النون . . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (الهمزة) للاستفهام التقريري (لم) حرف  
 نفي وقلب وجزم (يؤخذ) مضارع مبني للمجهول مجزوم (عليهم) مثل الأول متعلّق بـ  
 (يؤخذ) (ميثاق) نائب الفاعل مرفوع (الكتاب) مضاف إليه مجرور (أن) حرف مصدري  
 ونصب (لا) حرف نفي (يقولوا) مضارع منصوب وعلامة نصب حذف النون . . . والواو  
 فاعل (على الله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يقولوا) ، (إلا) أداة حصر (الحقّ) مفعول به  
 منصوب .

والمصدر المؤوّل (أيقولوا) في محل رفع بدل من ميثاق أو عطف بيان " 2 " .

---

(1) أو حاليّة ، والجملة بعدها في محل نصب حال .

(2) ويجوز أن يكون مجرورا بلام التعليل - على رأي الزمخشري - قال : " ومعناه لئلا يقولوا

على الله إلا الحقّ . . . " وقد فسّر ميثاق الكتاب بقوله : في التوراة من ارتكب ذنبا عظيما

فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة ، هذا ويجوز أن يكون (أن) حرف تفسير يفسّر ميثاق الكتاب لأنه

بمعنى القول و(لا) حرف نهي . والفعل مجزوم بحرف النهي . . . والجملة لا محل لها تفسيرية ،

ولذلك رسمت في المصحف (أن لا) منفصلة ويجوز في (الحق) أن يكون منصوبا على  
المصدر أي القول الحق .

(436/302)

---

(الواو) عاطفة (درسوا) مثل ورثوا (ما) اسم موصول مبني في محل نصب مفعول به (في)  
حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محل جرّ متعلّق بحذوف صلة ما (الواو) استئنافية (الدار)  
مبتدأ مرفوع (الأخرة) نعت للدار مرفوع مثله (خير) خبر مرفوع (اللام) حرف جرّ (الذين)  
اسم موصول مبني في محل جرّ متعلّق بـ (خير) ، (يتقون) مثل يأخذون (الهمزة) للاستفهام  
(الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (لا) نافية (تعقلون) مثل يأخذون .  
وجملة: " خلف . . . خلف " لا محلّ لها معطوفة على جملة قطعناهم .  
وجملة: " ورثوا . . . " في محلّ رفع نعت لخلف .  
وجملة: " يأخذون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل ورثوا " 1 " .  
وجملة: " يقولون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يأخذون .  
وجملة: " سيغفر لنا " في محلّ نصب مقول القول .  
وجملة: " يأتهم عرض . . . " لا محلّ لها استئنافية " 2 " .

وجملة: " يأخذوه " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة: " لم يؤخذ . . . ميثاق " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يقولوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي .

وجملة: " درسوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤخذ " 3 " ، أي: ألم يؤخذ عليهم

الميثاق في الكتاب ودرسوا ما جاء فيه ، فلم كذبوا على الله ؟

---

(1) أو لا محلّ لها مقطوعة على الاستئناف .

(2) الزمخشريّ يجعل الواو قبل الجملة حالّية والجملة مقتصرة على الحال .

(3) جعل العكبريّ هذه الجملة معطوفة على جملة ورثوا ، وجملة يؤخذ اعتراضية .

[ . . . . . ]

(437/302)

---

وجملة: " الدار الآخرة خير " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة: " يتقون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " تعقلون " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي:

أغفلم فلا تعقلون .



الصرف :

(خلف) ، اسم جمع بمعنى القرن بعد القرن ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وأكثر ما يستعمل في الشر إذا جاءت اللام ساكنة ، وفي الخير إذا جاءت اللام مفتوحة .

الفوائد

1 - "دون" تقيض "فوق" وهو ظرف مكان منصوب يقال "هذا دونك" في التحقير والتقريب ، فهو من جهة يكون ظرفاً فينصب ومن جهة ثانية يكون اسماً فيدخل حرف الجرّ عليه ، وتكون "دون" بمعنى أمام ومعنى وراء ومعنى فوق فهي من الأضداد . فمن معنى وراء قولهم "أمير على ما دون الفرات" أي وراءه ، وتكون بمعنى "غير" نحو قوله تعالى : "إِهْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ" أي غير الله . وقوله "وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ" .  
وتتصل بها كاف الخطاب فتصبح اسم فعل أمر مثل دونك الكتاب أي خذه ، وفاعله أنت ، والكاف للخطاب والكتاب مفعول به . وللبحث ثمة عند ما نتعرض لأسماء الأفعال .

[سورة الأعراف (7) : آية 170]

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (الذين) موصول في محل رفع مبتدأ (يمسكون) مثل يأخذون " 1 " ،  
(بالكتاب) جارٌّ ومجرور متعلق بـ (يمسكون) ، (الواو) عاطفة (أقاموا) مثل ورثوا " 2 " ،

(الصلاة) مفعول به منصوب (إنّا) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - واسمه (لا) نافية (نضيع)  
مضارع مرفوع والفاعل نحن للتعظيم (أجر) مفعول به منصوب (المصلحين) مضاف إليه  
مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة: "الذين يمسكون . . ." لا محلّ لها استنافية .

وجملة: " يمسكون . . ." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " أقاموا . . ." لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة: " إنّا لا نضيع . . ." في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) ، وقد وضع الظاهر موضع

الضمير أي عوضاً من (لا نضيع أجرهم) . . . قتم الربط بلفظ المصلحين .

وجملة: " لا نضيع . . ." في محلّ رفع خبر إنّ .

(438/302)

[سورة الأعراف (7) : آية 171]

وَإِذْ تَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ  
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ) اسم ظرفي مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (تقنا) فعل ماض مبني على السكون . . . و(نا) فاعل للتعظيم (الجبل) مفعول به منصوب (فوق) ظرف مكان منصوب متعلق بـ (تقنا) بتضمينه معنى رفعنا و(هم) ضمير مضاف إليه (كأن) حرف مشبّه بالفعل

(1 ، 2) في الآية السابقة (169) .

(439/302)

للتشبيه - ناسخ - و(الهاء) ضمير في محل نصب اسم كأن (ظلة) خبر مرفوع (الواو) عاطفة - أو حالية - (ظنوا) مثل ورثوا " 1 " ، (أن) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الهاء) ضمير اسم أن (واقع) خبر مرفوع (الباء) حرف جرّ و(هم) ضمير في محل جرّ متعلق بـ (واقع) .

والمصدر المؤول (أنه واقع بهم) في محل نصب سدّ مسدّ مفعوليّ ظنّ .

(خذوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . والواو فاعل (ما) اسم موصول مبني في محل نصب مفعول به (أتينا) مثل تقنا و(كم) ضمير مفعول به (بقوة) جارّ ومجرور حال من ضمير الخطاب أي مجدين أو مجتهدين (الواو) عاطفة (اذكروا) مثل خذوا (ما) مثل الأول

(في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف صلة ما (لعلّ) للترجّي حرف

مشبّه بالفعل و(كم) ضمير اسم لعلّ (تتقون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

وجملة: "تقنا . . ." في محلّ جرّ بإضافة (إذ) إليها .

وجملة: "كأنّه ظلّة" في محلّ نصب حال من الجبل .

وجملة: "ظنّوا . . ." في محلّ جرّ معطوفة على جملة تقنا " 2 " .

وجملة: "خذوا" في محلّ نصب مقول القول لقول محذوف أي وقلنا خذوا وجملة القول

معطوفة على جملة تقنا .

وجملة: "آتيناكم . . ." لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) في الآية (169) من هذه السورة .

(2) يجوز أن تكون الجملة حالا من الجبل بتقدير (قد) . كما يجوز أن تكون استئنافية لا

محلّ لها .

(440/302)

---

وجملة: "اذكروا" في محلّ نصب معطوفة على جملة خذوا .

وجملة: "لعلكم تتقون" لا محل لها تعليلية.

وجملة: "تتقون" في محل رفع خبر لعل.

الصرف:

(ظلة)، اسم جامد ذات، وزنه فعله بضم فسكون، والجمع ظلل وظلال، وهو كل ما أظلك.

(واقع)، اسم فاعل من وقع الثلاثي وزنه فاعل.

البلاغة

1- التشبيه المرسل: في قوله تعالى "وَإِذْ تَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ" أي غمامة أو

سقيفة، وفسرت بذلك مع أنها كل ما علا وأظل لأجل حرف التشبيه، وفائدة هذا

التشبيه هنا إخراج ما لم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة.

2- الكناية: في قوله تعالى "خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ" أي اعملوا به ولا تتركوه

كالمنسي وهو كناية عن ذلك أو مجاز.

[سورة الأعراف (7): آية 172]

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا

بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (172)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ) مثل إِذْ تَأْذَنُ رَبُّكَ " 1 " ، (من بني) جارٌّ ومجرور متعلق بـ  
(أخذ) وعلامة الجرّ الياء (آدم) مضاف إليه

---

(1) في الآية (167) من هذه السورة .

(441/302)

---

مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (من ظهور) جارٌّ ومجرور متعلق بـ (أخذ) لأنه بدل من المجرور  
الأول بإعادة الجارِّ و(هم) ضمير في محلِّ جرِّ مضاف إليه (ذريّة) مفعول به منصوب و(هم)  
مثل الأخير (الواو) عاطفة (أشهد) فعل ماضٍ و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير  
مستتر تقديره هو (على أنفس) جارٌّ ومجرور متعلق بـ (أشهد) ، و(هم) مضاف إليه  
(الهمزة) للاستفهام (لست) فعل ماضٍ جامد ناقص - ناسخ - و(التاء) ضمير اسم ليس  
(الباء) حرف جرّ زائد (ربّ) مجرور لفظاً منصوب محلاً خبر ليس و(كم) ضمير مضاف  
إليه ، (قالوا) فعل ماضٍ مبنيّ على الضمّ . . .

والواو فاعل (بلى) حرف لإيجاب النفي (شهدنا) فعل ماضٍ مبنيّ على السكون . . .  
و(نا) فاعل (أن) حرف مصدرى ونصب (وتقولوا) مضارع منصوب وعلامة النصب  
حذف النون . . . والواو فاعل (يوم) ظرف زمان منصوب متعلق بـ (تقولوا) ، (القيامة)

مضاف إليه مجرور (إنّا) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(نا) ضمير اسم إنّ في محل نصب  
كثّا) فعل ماض ناقص واسمه (عن) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ  
في محلّ جرّ متعلّق بـ (غافلين) وهو خبر كثّا منصوب وعلامة النصب الياء .  
والمصدر المؤوّل (أن تقولوا) في محلّ نصب مفعول لأجله على حذف مضاف أي خشية أن  
تقولوا .

جملة: "أخذ ربك . . ." في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: "أشهدهم" في محلّ جرّ معطوفة على جملة أخذ ربك . . .

وجملة: "ألست بربّكم" في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي: قال: ألست بربّكم "

" 1 .

---

(1) يجوز أن تكون استنافية لا محلّ لها على تقدير أشهدهم معنى سألهم .

(442/302)

---

وجملة: "قالوا . . ." لا محلّ لها استنافية بيانيّة .

وجملة: "بلى (أنت ربّنا) المقدرّة . . ." في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: "شهدنا . . ." لا محلّ لها استنافية . . . إمّا في حيّز القول السابق أي قول

الذرية ، وإما يعود إلى قول الملائكة .

وجملة : " تقولوا " لا محل لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة : " إنا كنا . . . " في محل نصب مقول القول .

وجملة : " كنا . . . غافلين " في محل رفع خبر إنا .

[سورة الأعراف (7) : آية 173]

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَتَيْتَهُمْ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173)

الإعراب :

(أو) حرف عطف (تقولوا) مثل السابق " 1 " فهو معطوف عليه (إنما) كافة ومكفوفة

(أشرك) فعل ماض (آباء) فاعل مرفوع (نا) ضمير مضاف إليه (من) حرف جرّ (قبل)

اسم مبني على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أشرك) (الواو) عاطفة (كنا) مثل السابق " 2 "

، (ذرية) خبر منصوب (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (ذرية) و(هم) ضمير مضاف

إليه (الهمزة) للاستفهام (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، وهي متأخرة من تقديم

(تهلك) مضارع مرفوع و(نا) ضمير مفعول به ، والفاعل أنت (الباء) حرف جرّ للسبب

(ما) حرف مصدري (فعل المبتلون) فعل ماض وفاعله وعلامة رفعه الواو .

جملة : " تقولوا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة تقولوا " 3 " .

(1 ، 2 ، 3) في الآية السابقة (172) .



وجملة: " أشرك آباؤنا " في محل نصب مقول القول .

وجملة: " كُنا ذرية . . . " في محل نصب معطوفة على جملة أشرك آباؤنا .

وجملة: " تهلكتنا . . . " جواب شرط مقدر أي فإن أخطأنا من بعدهم فهل تهلكتنا . . .

وجملة الشرط وجوابه معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة: " فعل المبطلون " لا محل لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

والمصدر المؤول (ما فعل المبطلون) في محل جرّ بالباء متعلق بـ (تهلكتنا) .

الصرف :

(المبطلون) ، جمع المبطل ، اسم فاعل من أبطل الرباعي ، وزنه مفعل بضم الميم وكسر

العين .

[سورة الأعراف (7) : آية 174]

وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (الكاف) حرف جرّ " 1 " ، (ذا) اسم إشارة مبني في محل جرّ متعلق

بمحذوف مفعول مطلق عامله نفصل " 2 " ، (نفصل) مضارع مرفوع والفاعل ضمير  
مستتر تقديره نحن للتعظيم (الآيات) مفعول به منصوب وعلامة نصب الكسرة (الواو)  
عاطفة (لعلهم يرجعون) مثل لعلكم تتقون " 3 " .  
جملة: " نفصل . . . " لا محل لها استنافية .

---

(1) أو اسم بمعنى مثل في محل نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفة أي تفصيلا  
مثل ذلك .

(2) أي نفصل الآيات تفصيلا كذلك التفصيل السابق .

(3) في الآية (171) من هذه السورة .

(444/302)

---

وجملة: " لعلهم يرجعون " لا محل لها معطوفة على جملة استنافية تعليلية مقدرة أي لعلهم  
يتدبروها ولعلهم يرجعون .

وجملة: " يرجعون " في محل رفع خبر لعل .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 175 إلى 176]

وَأْتَلُ عَلَيْهِمُ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ  
يُلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يُلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

(176)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (اتل) فعل أمر مبني على حذف حرف العلة ، والفاعل ضمير مستتر  
تقديره أنت (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اتل) ، (نبأ) مفعول به  
منصوب (الذي) اسم موصول مبني في محلّ جرّ مضاف إليه (أتينا) فعل ماض مبني على  
السكون . . . و(نا) ضمير فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به أول (آيات) مفعول به ثان  
منصوب وعلامة النصب الكسرة و(نا) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (انسلخ) فعل  
ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق  
بـ (انسلخ) ، (فأتبع) مثل فانسوخ و(الهاء) ضمير مفعول به (الشیطان) فاعل مرفوع  
(الفاء) عاطفة (كان) فأفعل ماض ناقص - ناسخ - واسمه ضمير مستتر تقديره هو (من)  
الغاوين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كان ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " اتل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة : " أتينا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " انسلخ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة: " أتبعه الشيطان) لا محل لها معطوفة على جملة انسلخ .  
وجملة: " كان من الغاوين " لا محل لها معطوفة على جملة أتبعه الشيطان .

(445/302)

---

(الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (شئنا) مثل آتينا (اللام) واقعة في جواب لو  
(رفعناه) مثل آتيناها (بها) مثل منها متعلق بـ (رفعنا) ، (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف مشبه  
بالفعل للاستدراك - ناسخ - و(هاء) ضمير في محل نصب اسم لكنّ (أخذ) مثل انسلخ  
(إلى الأرض) جارّ ومجرور متعلق بـ (أخذ) ، (الواو) عاطفة (أتبع) مثل نسلخ (هوى)  
مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف و(هاء) ضمير مضاف إليه  
(الفاء) عاطفة (مثل) مبتدأ مرفوع و(هاء) مثل الأخير (الكاف) حرف جرّ " 1 " ،  
(مثل) مجرور بالكاف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ (الكلب) مضاف إليه مجرور (إن)  
حرف شرط جازم (تحمل) مضارع مجزوم فعل الشرط ، والفاعل أنت (عليه) مثل عليهم  
متعلق بـ (تحمل) ، (يلهث) مثل تحمل جواب الشرط (أو) حرف عطف (تتركه يلهث) مثل  
تحمل . . . يلهث ، و(هاء) مفعول به (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . .  
و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب ، والاشارة إلى المثل (مثل) خبر مرفوع (القوم) مضاف

إليه مجرور (الذين) موصول في

(1) يجوز أن يكون زائداً ، و(مثل) مجرور لفظاً مرفوع محلاً خبر المبتدأ مثله .

(446/302)

محل جرّ نعت للقوم (كذبوا) فعل ماض مبني على الضمّ . . . والواو فاعل (بآيات) جارّ  
ومجرور متعلّق به (كذبوا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر  
(اقصص) ، فعل أمر ، والفاعل أنت (القصص) مفعول به منصوب (لعلهم يتفكرون) مثل  
لعلكم تتقون " 1 " .

وجملة: " لو شئنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كان من الغاوين .

وجملة: " رفعناه . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: " لكنّه أخذ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة شئنا .

وجملة: " أخذ . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

وجملة: " اتبع . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أخذ .

وجملة: " مثله كمثل . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أخذ " 2 " .

وجملة: " إن تحمل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 3 " .

---

(1) في الآية (171) من هذه السورة .

(2) على رأي الزمخشري قال : " . . . كان حقّ الكلام أن يقال ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه

أخذ إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته ، فوقع قوله : فمثل كمثل الكلب موضع

فحططناه أبلغ حطّ . . . " اه .

(3) وهي عند الزمخشري وأبي البقاء العكبري حال من الكلب ، ورفض ذلك أبو حيان

قال : " . . . أمّا الشرطيّة فلا تكاد تقع بتمامها موضع الحال فلا يقال جاءني زيد إن يسأل

يعط على الحال ، بل لو أريد ذلك لجعلت الشرطيّة خبراً عن ضمير ما أريد الحال عنه نحو

جاء زيد هو إن يسأل يعط ، فيكون الواقع موقع الحال هو الاسميّة لا الشرطيّة نعم قد أوقعوا

الجملة المصدرية مجرف الشرط موقع الحال ولكن بعد ما أخرجوها عن حقيقة الشرط

. . . كأن يتحول إلى معنى التسوية نحو أتيتك وإن لم تأتي فلو تركت الواو لا تلبس بالشرط

حقيقة . . . " اه .

(447/302)

---

وجملة : " يلهث " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " تتركه " لا محلّ لها معطوفة على جملة تحمل .

وجملة: " يلهث (الثانية) " لا محل لها معطوفة على يلهث (الأولى) " 1 " .

وجملة: " ذلك مثل . . . " لا محل لها استئنافية .

وجملة: " كذبوا " لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " اقصص . . . " لا محل لها جواب شرط مقدر أي إذا أردت وعظ القوم

فاقصص . .

وجملة: " لعلهم يتفكرون " في محل نصب حال من فاعل اقصص . .

أي مترجياً تفكرهم . . أو لا محل لها في حكم التعليل .

وجملة: " يتفكرون " في محل رفع خبر لعل .

الصرف :

(الغاوين) ، جمع الغاوي ، اسم فاعل من غوى الثلاثي وزنه فاعل ، وفي الغاوي إعلال

بالحذف أصله الغاوين ، بياعين ، جاءت الياء ساكنة قبل الياء علامة الجرّ ، حذفت

الأولى لالتقاء الساكنين - وكذا شأن المنقوص في الجمع - وزنه الفاعين .

(القصص) ، مصدر بمعنى اسم المفعول ، وزنه فعل بفتحتين .

البلاغة

التشبيه التمثيلي : في الآية الكريمة فقد شبه حال من أعطى شيئاً فلم يقبله بالكلب - في

الحسنة والضعفة - الذي إن حملت عليه نبیح وولى ذاهبا ، وإن تركته

(1) أو هي جواب شرط ثان غير مقترنة بالفاء . [ . . . . . ]

(448/302)

شدّ عليك ونبح ، فهو يعطي الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات ، وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث ، إلا إذا هيج منه وحرك ، وإلا لم يلهث أما الكلب فهو ذليل دائم الذلة لاهث في الحالتين .

[سورة الأعراف (7) : آية 177]

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَانفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177)

الإعراب :

(سَاءَ) فعل ماض لإنشاء الذم ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره هو وقد جاء مميّزا بكلمة (مثلا) وهو تمييز منصوب (القوم) خبر لمبتدأ محذوف وجوبا تقديره هو ، وذلك على حذف مضاف أي مثل القوم " 1 " ، (الذين) موصول مبني في محل رفع نعت للقوم (كذبوا بآياتنا) مرّ إعرابها " 2 " ، (الواو) عاطفة (أنفس) مفعول به مقدّم منصوب عامله يظلمون و(هم) ضمير مضاف إليه (كانوا) فعل ماض ناقص واسمه (يظلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .



وجملة: "ساء مثلاً . . . لا محل لها استنافية .

وجملة: "كذبوا . . . لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "كانوا يظلمون" لا محل لها معطوفة على جملة صلة الموصول "3" .

---

(1) يجوز أن يكون (القوم) مبتدأ مؤخر - على حذف مضاف أيضاً - خبره الجملة قبله .

(2) في الآية (176) السابقة .

(3) يجوز أن تكون استنافية لا محل لها .

(449/302)

---

وجملة: " يظلمون " في محل نصب خبر كانوا .

الفوائد

كل فعل ثلاثي صالح للتعجب منه يجوز استعماله على وزن " فَعُلَ " بضم العين مثل قوله

تعالى: " ساءَ مثلاً ظرف وشرف وفهم وضرب ، لإفادة المدح أو الذم ، فيجري حينئذ

مجرى " نعم وبئس " في حكم الفاعل والمخصوص في المدح أو الذم . كقولك : فهم الرجل

علي ، وخبث الرجل عمرو . ومنه : ساءتْ مُرْتَقَاً ، وساءَ مثلاً " الآية " . وفيه تفصيل

لمن يبغى الفائدة .

[سورة الأعراف (7) : آية 178]

مَنْ يُهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178)

الإعراب :

(من) اسم شرط جازم مبني في محل نصب مفعول به مقدّم (يهد) مضارع مجزوم فعل الشرط

(اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هو) ضمير منفصل في محلّ

رفع مبتدأ (المهتدي) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على الياء (الواو) عاطفة

(من يضل) مثل من يهد ، والفاعل هو (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أولئك) اسم إشارة

مبني في محلّ رفع مبتدأ . . . و(الكاف) حرف خطاب (هم) ضمير فصل " 1 " ،

(الخاسرون) خبر أولئك مرفوع وعلامة الرفع الواو .

وجملة : " يهد الله . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة : " هو المهتدي " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ ثان خبره الخاسرون ، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ أولئك .

(450/302)

---

وجملة: " يضلل . . . " لا محل لها معطوفة على الاستئنافية .

وجملة: " أولئك . . . الخاسرون " في محل جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الصرف :

(المهتدي) ، اسم فاعل من (اهتدى) الخماسي ، وزنه مفتعل بضم الميم وكسر العين " 1 "

[سورة الأعراف (7) : آية 179]

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا  
وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (اللام) لام القسم لقسم مقدر (قد) حرف تحقيق (ذرائنا) فعل ماض مبني

على السكون و(نا) ضمير فاعل (لجهنم) جار ومجرور متعلق بـ (ذرائنا) ، وعلامة الجر

الفتحة (كثيرا) مفعول به منصوب (من الجن) جار ومجرور متعلق بنعت لـ (كثيرا) ، (الواو)

عاطفة (الإنس) معطوف على الجن مجرور (اللام) حرف جر و(هم) ضمير في محل جر

متعلق بمحذوف خبر مقدم (قلوب) مبتدأ مؤخر مرفوع (لا) نافية (يفقهون) مضارع مرفوع

. . . والواو فاعل (الباء) حرف جر و(ها) ضمير في محل جر متعلق بـ (يفقهون) ، (الواو)

عاطفة (لهم أعين لا يبصرون بها) مثل لهم قلوب . . . (الواو) عاطفة (لهم آذان لا

يسمعون بها) مثل لهم قلوب . . (أولئك) مثل السابق " 2 " ، (كالأنعام) جارّ ومجرور  
متعلّق

---

(1) وانظر الآية (16) من سورة البقرة .

(2) في الآية السابقة (178) .

(451/302)

---

بمحذوف خبر أولئك (بل) حرف إضراب وابتداء (هم) ضمير منفصل مبتدأ في محلّ رفع  
(أضلّ) خبر مرفوع (أولئك هم الغافلون) مرّ إعراب نظيرها " 1 " .  
جملة: " ذرأنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .  
وجملة: " لهم قلوب . . . " في محلّ نصب حال من (كثيرا) " 2 " .  
وجملة: " لا يفقهون بها " في محلّ رفع نعت لقلوب .  
وجملة: " لهم أعين " في محلّ نصب معطوفة على جملة لهم قلوب .  
وجملة: " لا يبصرون بها " في محلّ رفع نعت لأعين .  
وجملة: " لهم آذان " في محلّ نصب معطوفة على جملة لهم قلوب .  
وجملة: " لا يسمعون بها " في محلّ رفع نعت لآذان .

وجملة: " أولئك كالأنعام " لا محل لها استنافية .

وجملة: " هم أضل " لا محل لها استنافية .

وجملة: " أولئك . . . الغافلون " لا محل لها استنافية .

البلاغة

التشبيه التمثيلي: في الآية الكريمة ، حيث شبه اليهود في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مع علمهم أنه النبي الموعود ، بمثابة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم ، كأنهم خلقوا للنار . ثم شبههم بالأنعام بل بما هودون الأنعام ارتكاسا وسفها وتدنيا في مهابط الرذيلة .

---

(1) في الآية السابقة (178) .

(2) الذي سوِّغ جعلها حالا من النكرة كون النكرة موصوفة . . . ويجوز في الجملة أن تكون في محل نصب نعت ثانٍ لـ (كثيرا) .

(452/302)

---

الفوائد

1 - " لا " تأتي في العربية على أنواع عدة وهي :

"لا" الحجازية، كقول النابغة:

وحلّت سواد القلب لا أنا باغيا سواها ولا عن حبها متراخيا

"لا" حرف جواب، وهي لنفي الجواب، نحو هل جاء فلان؟ فتقول: لا "لا" الزائدة،

وتفيد التوكيد، نحو "لَلَّا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ" "لا" العاطفة، لإخراج الثاني مما دخل فيه

الأول، نحو هذا بلد خصب لا جذب.

"لا النافية للجنس" وفيها بحث مطول.

"لا النافية" وتنفي المضارع والماضي والحال.

"لا الناهية" وهي للطلب، سواء أكان نهيا أو دعاء، فالأول: يا بني لا تشرك بالله،

والثاني: ربنا لا تؤاخذنا . . . وهي من جوازم الفعل المضارع.

[سورة الأعراف (7): آية 180]

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ (180)

الإعراب:

(الواو) استئنافية (لله) جارٌّ ومجرور متعلقٌ بمحذوف خبر مقدم (الأسماء) مبتدأ مؤخر

مرفوع (الحسنى) نعت للأسماء مرفوع، وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (الفاء)

عاطفة لربط المسبب بالسبب (ادعوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل

و(الهاء) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (ادعوه) ،  
(الواو) عاطفة (ذروا) مثل ادعوا (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به  
(يلحدون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (في أسماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يلحدون)  
(الهاء) مضاف إليه (السين) ،

حرف استقبال (يجزون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . . والواو نائب الفاعل (ما) اسم  
موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به على حذف مضاف أي جزء ما كانوا . . . (كانوا)  
فعل ماض ناقص ، واسمه (يعملون) مثل يلحدون .  
وجملة: " لله الأسماء . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة: " ادعوه بها " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافية " 1 " .  
وجملة: " ذروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ادعوه .  
وجملة: " يلحدون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .  
وجملة: " سيجزون . . . " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " كانوا يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف أي يعملونه .  
وجملة: " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة الأعراف (7) : آية 181]

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181)

## الإعراب :

(الواو) استئنافية (من) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف  
خبر مقدّم " 2 " (خلقنا) فعل ماض وفاعله (أمّة) مبتدأ مؤخر مرفوع (يهدون) مضارع  
مرفوع والواو فاعل (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل يهدون (الواو)  
عاطفة (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يعدلون) ويعرب مثل  
يهدون .

(1) يجوز أن تكون جواب شرط مقدّر أي : إذا دعوتوه فادعوه بها .

(2) أو نكرة موصوفة في محلّ جرّ .

(453/302)

جملة : " خلقنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) " 1 " .

وجملة : " من خلقنا أمّة " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة : " يهدون " في محلّ رفع نعت لأمة .

وجملة : " يعدلون " في محلّ رفع معطوفة على جملة يهدون .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 182 إلى 183]



وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ

(183)

الإعراب:

(الواو) استئنافية (الذين) موصول في محل رفع مبتدأ (كذبوا) فعل ماضٍ وفاعله (آيات) جارٌّ ومجرور متعلق بـ (كذبوا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (السين) حرف استقبال (نستدرج) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم و(هم) ضمير مفعول به (من) حرف جرّ (حيث) اسم ظرفي مبني على الضمّ في محل جرّ متعلق بـ (نستدرج) ، (لا) نافية (يعلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة: "الذين كذبوا . . ." لا محل لها استئنافية .

وجملة: "كذبوا . . ." لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "سنستدرجهم . . ." في محل رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة: "لا يعلمون" في محل جرّ مضاف إليه .

(الواو) عاطفة (أملِي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدّر على الياء ، والفاعل أنا

(اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محل جرّ

---

(1) أو في محل جرّ نعت لـ (من) .

متعلق بـ (أملي) ، (إنّ) حرف مشبهة بالفعل - ناسخ - (كيدي) اسم إن منصوب وعلامة  
النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) في محل جرّ مضاف إليه (متين) خبر إنّ  
مرفوع.

وجملة: " أملي . . ." في محل رفع معطوفة على جملة سنستدرجهم .  
وجملة: " إن كيدي متين " لا محل لها تعليلية .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 184 إلى 185]

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ الْبَاقِي الْمُبِينُ (184) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِئْسَ  
حَدِيثَ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم وقلب (يتفكروا)

مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . .

والواو فاعل (ما) حرف نفي " 1 " ، (بصاحب) جارّ ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم

و(هم) ضمير مضاف إليه (من) حرف جرّ زائد (جنّة) مجرور لفظاً مرفوع محلاً مبتدأ  
مؤخر (إن) حرف نفي (هو) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (إلا) أداة حصر (نذير) خبر  
مرفوع (مبين) نعت لنذير مرفوع.

جملة: " يتفكروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مستأنفة مقدّرة.

وجملة: " ما بصاحبهم من جنّة " في محل نصب مفعول به لفعل

---

(1) أجاز بعضهم أن تكون استفهاميّة مبتدأ ، والجارّ (بصاحبهم) متعلّق بالخبر ، و(من  
جنّة) حال .

(455/302)

---

التفكّر المعلق بالنفي . . . وقيل هي مقيدة بالجارّ يقال : تفكّر بالشيء .  
وجملة: " إن هو إلا نذير " لا محلّ لها استئناف بياني .  
(أو لم ينظروا) مثل أو لم يتفكروا (في ملكوت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينظروا) ، (السموات)  
مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (الأرض) معطوفة على السموات مجرور (الواو) عاطفة  
(ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ معطوف على ملكوت (خلق) فعل ماضٍ (الله) لفظ  
الجلالة مرفوع (من شيء) جارّ ومجرور تمييز (ما) " 1 " ، (الواو) عاطفة (أن) مخففة من

الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف (عسى) فعل ماض تام (أن) حرف مصدري  
ونصب (يكون) مضارع ناقص - ناسخ - منصوب ، واسمه ضمير الشأن محذوف " 2 " ،  
(قد) حرف تحقيق (اقترب) فعل ماض (أجل) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه .  
والمصدر المؤول (أن عسى . . . ) من المخففة واسمها وخبرها في محل جر معطوف على  
ملكوت أي في أنه عسى كونه اقترب . . .

والمصدر المؤول (أن يكون . . . ) في محل رفع فاعل عسى .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر (الباء) حرف جر (أي) اسم استفهام مجرور بالباء  
متعلق بـ (يؤمنون) ، (حديث) مضاف إليه مجرور (بعد) ظرف زمان منصوب متعلق بـ  
(يؤمنون) على حذف مضاف أي بعد خبره أو نزوله (الهاء) ضمير مضاف إليه يعود إلى  
القرآن أو الرسول (يؤمنون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .  
وجملة : " لم ينظروا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة لم يتفكروا .

---

(1) أو حال من العائد المحذوف .

(2) أو هو أجلهم ، وفاعل اقترب ضمير يعود على أجلهم من باب التنازع . [ . . . . ]

(456/302)

---

وجملة: "خلق الله" لا محل لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "عسى أن يكون . . ." في محل رفع خبر (أن) المخففة "1".

وجملة: "يكون . . ." لا محل لها صلة الموصول الحرفي (أن).

وجملة: "اقترب أجلهم" في محل نصب خبر يكون.

وجملة: "يؤمنون" في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم يؤمنون . . . والجملة الاسمية

لا محل لها جواب شرط مقدر أي: إذا لم يؤمنوا بما يدخلهم الجنة. أو بهذا الحديث - فبأي

حديث يؤمنون.

الصرف:

(جنة)، مصدر من جنّ - بالبناء للمجهول - أو هو الاسم منه، وزنه فعلة بكسر الفاء

وسكون العين.

الفوائد

- اهتم النحاة بتفصيل معاني "الباء" التي هي حرف جر وذكروا لها من المعاني ثلاثة

عشر معني. وقد مضى تفصيلها فيما مر معنا من هذا الكتاب، فعاود تذكرها، ففي

الإعادة إفادة . . . !

[سورة الأعراف (7): آية 186]

مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (من) اسم شرط جازم مبني في محل نصب مفعول به مقدّم (يضلل)

مضارع مجزوم فعل الشرط ، وحرك

(1) وردت الجملة خبرا وهي إنشاء غير طلبيّ ، ويرى أبو حيان أن هذه مثل قوله تعالى :  
وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا [النور - 9] في قراءة (أن) مخففة بعدها فعل . . . فجملة  
غضب دعاء وهي إنشاء غير طلبيّ ، وقد جاز مجيئها خبرا مجي ء (أن) مخففة .

(457/302)

بالكسر لالتقاء الساكنين (الله) فاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية  
للجنس (هادي) اسم لا مبني على الفتح في محل نصب (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير  
في محل جرّ متعلق بمحذوف خبر لا (الواو) حرف استئناف (يذر) مضارع مرفوع و(هم)  
ضمير مفعول به ، والفاعل هو أي الله (في طغيان) جارّ ومجرور متعلق بفعل يعمهون و(هم)  
ضمير مضاف إليه (يعمهون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .  
جملة : " يضل الله . . . لا محل لها استئنافية .

وجملة: "لا هادي له" في محل جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة: "يذرهم" . . . "لا محل لها استنافية .

وجملة: "يعمهمون" في محل نصب حال من مفعول (يذرهم) "1" .

[سورة الأعراف (7): آية 187]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ  
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187)

الإعراب:

(يسألون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل و(الكاف) ضمير مفعول به (عن الساعة) جار  
ومجرور متعلق بفعل يسألونك (أيان) اسم استفهام مبني في محل نصب على الظرفية الزمانية  
متعلق بمحذوف خبر مقدم (مرسى) مبتدأ مؤخر مرفوع و(ها) ضمير مضاف إليه (قل)

فعل

(1) أو مفعول به ثان إذا جعل (نذرهم) من أفعال التحويل أي نصيرهم عمهين في

طغيانهم .

---

أمر ، والفاعل أنت (إنما) كافة ومكفوفة (علم) مبتدأ مرفوع و(ها) مثل الأخير (عند)  
ظرف منصوب متعلق بمحذوف خبر المبتدأ (ربّ) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ  
الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (لا) حرف نفي (يجلي)  
مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على الياء و(ها) ضمير مفعول به (لوقت) جارّ  
ومجرور متعلّق بـ (يجليها) و(ها) ضمير مضاف إليه (إلا) أداة حصر (هو) ضمير منفصل  
مبنيّ في محلّ رفع فاعل (ثقلت) فعل ماضٍ . . . و(التاء) للتأنيث ، والفاعل هي (في  
السموات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ثقلت) ، (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على  
السموات مجرور (لا تأتي) مثل لا يجلي ، والفاعل هي و(كم) ضمير مفعول به (إلا) مثل  
الأولى (بغثة) مصدر في موضع الحال منصوب " 1 " (يسألونك) مثل الأولى (كأنّ) حرف  
مشبّه بالفعل - ناسخ - و(الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم كأنّ (حفيّ) خبر مرفوع  
(عن) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (حفيّ) فهو مشتقّ (قل إنما علمها عند  
الله) مثل الأولى (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف مشبّه بالفعل للاستدراك - ناسخ - (أكثر)  
اسم لكنّ منصوب (الناس) مضاف إليه مجرور (لا) حرف نفي (يعلمون) مضارع مرفوع  
. . . والواو فاعل .

جملة : " يسألونك . . . لا محلّ لها استنافية .



وجملة: "أيان مرساها" في محل جرّ بدل من الساعة "2".

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأن معنى تأتيتكم هو تبغثكم.

(2) قال أبو حيان: "... والبديل على ثبوت تكرار العامل... ولما علق الفعل بالاستفهام

- وهو يتعدى بـ (عن) - صارت الجملة في موضع نصب على إسقاط حرف الجرّ، فهو

بدل في الجملة على موضع (عن الساعة) لأن موضع الجرور النصب "اه... وأبو البقاء

يجعلها في موضع جرّ... وهذا ينسجم مع الصنعة النحويّة وعلى ذلك أعربت أعلاه.

(459/302)

وجملة: "قل... لا محلّ لها استئناف بياني.

وجملة: "علمها عند ربّي" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "لا يجليها... إلّا هو" في محلّ نصب بدل من جملة علمها عند ربّي.

وجملة: "ثقلت... لا محلّ لها استنافية.

وجملة: "لا تأتيتكم إلّا بغتة" لا محلّ لها استنافية مقرّرة لمضمون ما قبلها.

وجملة: "يسألونك... لا محلّ لها استنافية.

وجملة: "كأنك حفيّ عنها" في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في (يسألونك).

وجملة: " قل . . . " لا محل لها استئناف مؤكّد للجملة السابقة .

وجملة: " علمها عند الله " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: " لكنّ أكثر . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 1 " .

وجملة: " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر لكنّ .

الصرف :

(مرساها) ، مصدر ميميّ من فعل أرسى الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين .

(وقتها) ، ظرف للزمن وزنه فعل بفتح فسكون .

(حفيّ) ، صفة مشبهة من فعل حفيّ يحفيّ باب فرح ، وزنه فعيّل أدغمت الياء الزائدة مع

لام الكلمة وفعيّل هنا بمعنى فاعل ، وقد يكون

---

(1) يجوز أن تكون استئنافية لا محلّ لها .

(460/302)

---

بمعنى مفعول أي محفيّ زنة مرميّ .

البلاغة

1 - التكرير: في قوله تعالى " يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا " وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا

توجد إلا في الكتاب العزيز وهو أجل من أن يشارك فيها ، وذلك أن المعهود في أمثال هذا التكرير أن الكلام إذا بني على مقصد ، واعترض في أثناءه عارض ، فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول وقد بعد عهده ، طرّي بذكر المقصد الأول لتصل نهايته ببدايته ، وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال ، وسيأتي . وهذا منها ، فإنه لما ابتداء الكلام بقوله : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا " ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله " قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي " إلى قوله " بَغْتَةً " أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم ، وهو المضمن في قوله " كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَلَيْهَا " وهو شديد التعلق بالسؤال ، وقد بعد عهده فطرّي ذكره نظرية عامة ، ولا نراه أبدا يطري إلا بنوع من الإجمال ، كالتذكرة للأول ، مستغنيا عن تفصيله بما تقدم ، فمن ثم قيل (يسألونك) ولم يذكر المسؤول عنه وهو الساعة ، اكفاء بما تقدم . فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال : " قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ " . ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد بسطه .

2- التشبيه : في قوله تعالى " يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَلَيْهَا " أي يسألونك ، مشبها حالك عندهم ، مجال من هو خفي عنها ، أي مبالغ في العلم بها .

الفوائد

- أيان : تكون اسم استفهام ، وتكون اسم شرط . وسواء كانت هذه أم هذه فقد اختلف بالحققون في أصلها ، فقيل إنها مشتقة من " أي على وزن " فعلان " ، وقال آخرون إن

أصلها مركبة من "أي وآن" و "أي" لها معنى الشرط، و "آن" فيها معنى "الحين" ،  
وبعد التركيب أصبحت اسما واحدا يحمل معنى الشرط

(461/302)

---

و مختص بالزمان المستقبل . و بناؤه على الفتح . وكثيرا ما تلحقها " ما " الزائدة فتفيدها  
معنى التوكيد كقول الشاعر :

إذا النعجة الأدماء باتت بقفرة فأيان ما تعدل به الريح تنزل

[سورة الأعراف (7) : آية 188]

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرْتُ مِنَ الْخَيْرِ  
وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)

الإعراب :

(قل) مثل السابق (لا) حرف نفى (أملك) مضارع مرفوع ، والفاعل أنا (لنفس) جار

ومجرور متعلق بفعل أملك - أو مجال من (نفعاً) ، وعلامة الجر الكسرة المقدرة على ما قبل

الياء ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (نفعاً) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لا) زائدة

لتأكيد النفي (ضراً) معطوف على (نفعاً) منصوب (إلا) حرف استثناء (ما) اسم موصول

" 1 " في محلّ نصب على الاستثناء المتصل أو المنقطع (شاء) فعل ماض (الله) لفظ الجلالة  
فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (كنت) فعل ماض ناقص - ناسخ  
- مبنيّ على السكون . . و (التاء) ضمير اسم كان (أعلم) مثل أملك (الغيب) مفعول به  
منصوب (اللام) واقعة في جواب لو (استكثرت) فعل ماض وفاعله (من الخير) جارّ  
ومجرور متعلّق به (استكثرت) ، (الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (مسنّي) فعل ماض . .  
و (نون) الوقاية و (ياء) المتكلم مفعول به (السوء) فاعل مرفوع (إنّ) حرف نفي (أنا) ضمير  
منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (إلا) أداة حصر (نذير) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (بشير)  
معطوف على نذير مرفوع

---

(1) أو نكرة موصوفة ، في محلّ نصب ، والجملة بعدها نعت لها .

(462/302)

---

(لقوم) جارّ ومجرور متعلّق ببشير (يؤمنون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة: " قل . . . لا محلّ لها استنافية .

وجملة: " لا أملك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: " شاء الله " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: "كنت أعلم . . . " في محل نصب معطوفة على جملة لا أملك .

وجملة: "أعلم . . . " في محل نصب خبر كنت .

وجملة: "استكثرت . . . " لا محل لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: "ما مسني السوء" لا محل لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة: "إن أنا إلا نذير" لا محل لها استئناف في حيز القول .

وجملة: "يؤمنون" في محل جر نعت لقوم .

[سورة الأعراف (7): الآيات 189 إلى 190]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ  
حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ  
(189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

(190)

الإعراب:

(هو) ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول مبني في محل رفع خبر

(خلق) فعل ماضٍ و(كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو، ضمير مستتر (من نفس) جارٌّ

ومجرور متعلق بـ

(خلقكم)، (واحدة) نعت لنفس مجرور (الواو) عاطفة (جعل) مثل خلق (من) حرف

جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (جعل) بتضمينه معنى خلق (زوج) مفعول به منصوب و(ها) ضمير مضاف إليه (اللام) للتعليل (يسكن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل هو (إليها) مثل منها متعلّق بـ (يسكن) بتضمينه معنى يأوي .  
والمصدر المؤوّل (أن يسكن) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعل) .

(463/302)

---

(الفاء) عاطفة (لما) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب حملت (تغشّى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل هو و(ها) ضمير مفعول به (حملت) فعل ماض . . و(التاء) تاء التانيث ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (حملا) مفعول مطلق منصوب " 1 " ، (خفيفا) نعت منصوب (الفاء) عاطفة (مرّت) مثل حملت (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (مرّت) ، (الفاء) عاطفة (لما) مثل الأول (أثقلت) مثل حملت (دعوا) فعل ماض . . . و(الألف) ضمير في محلّ رفع فاعل (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (ربّ) بدل من لفظ الجلالة أو نعت له منصوب و(هما) ضمير متصل في محلّ جرّ مضاف إليه (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (آتيت) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . .

و(التاء) ضمير فاعل و(نا) ضمير مفعول به أوّل (صالحا) مفعول به ثان منصوب " 2 " ،

(اللام) لام القسم (نكونن) مضارع مبني على الفتح في

---

(1) أو مفعول به بمعنى الجنين المحمول .

(2) وهونعت عن منعوت محذوف أي ولدا صالحا أو بشرا سويا .

(464/302)

---

محلّ رفع . . . والنون نون التوكيد ، واسمه ضمير مستتر تقديره نحن (من الشاكرين) جارّ  
ومجرور متعلّق بمحذوف خبر نكوننّ .

جملة: " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة: " خلقكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة: " يسكن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة: " تغشّاها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: " حملت . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .



وجملة: " مرّت به " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة: " أثقلت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: " دعوا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط (الثاني) .

(465/302)

وجملة: " إن آتينا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ أو تفسير للدعاء . . .

وجملة القسم المحذوفة في محلّ نصب حال من فاعل دعوا ، أي دعوا الله مقسمين لأن .

وجملة: " نكوننّ من الشاكرين " لا محلّ لها جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف دلّ

عليه جواب القسم .

(الفاء) عاطفة (لما آتاهما) مثل لما تغشّاه (صالحا) مثل الأول (جعلاً) فعل ماض . . .

و(الألف) ضمير متصل مبنيّ في محلّ رفع فاعل (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ

جرّ متعلّق بمحذوف مفعول ثانٍ لفعل جعلاً . . . (شركاء) مفعول به منصوب ، ومنع من

التنوين لأنه

ملحق بالموثّ المنتهيّ بألف التانيث الممدودة على وزن فعلاء (في) حرف جرّ (ما) اسم

موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بشركاء (آتاهما) مثل الأول . (الفاء) استئنافية (تعالى)

فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (عن) حرف جرّ (ما) مثل الأول، والجارّ متعلّق بـ (تعالى)، (يشركون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

وجملة: " آتاهما . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: " جعلها . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: " آتاهما (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: " تعالى الله . . . " لا محلّ لها استئنافية دعائية .

وجملة: " يشركون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

الصرف :

(حملا) ، مصدر يحمل باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وللفعل مصدر آخر هو

حملان بضمّ الحاء ، و(حملا) قد يكون اسما لما تحمله الأنثى في بطنها .

(خفيفا) ، صفة مشبّهة من فعل خفّ يخفّ باب ضرب ، وزنه فاعيل .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " فلَمَّا تَغَشَّاهَا " فالكلام كناية عن الجماع ، أي فلما جامعها .

والتغشي منسوب إلى الذكر ، وفيه إيحاء إلى أن تكثير النوع علة المؤانسة ، كما أن الوحدة

علة الوحشة .

الفوائد

(466/302)

- لما : حرف شرط موضوع للدلالة على وجود شيء لوجود غيره . وقد مر معنا بحثها مفصلاً ، فراجع في مظانه .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 191 إلى 193]

أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ  
يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ  
صَامِتُونَ (193)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التويخيّ (يشركون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (ما) اسم موصول

" 1 " مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (لا) نافية (يخلق) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير

مستتر تقديره هو وهو العائد (شيئاً) مفعول به منصوب (الواو) حالّية (هم) ضمير منفصل

مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يخلقون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . والواو نائب الفاعل .

جملة: "يشركون . . . لا محل لها استنافية .

وجملة: "لا يخلق . . . لا محل لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: "هم يخلقون" في محل نصب حال من فاعل يخلق "2" .

وجملة: "يخلقون" في محل رفع خبر المبتدأ (هم) .

(الواو) عاطفة (لا) نافية (يستطيعون) مثل يشركون (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحذوف حال من (نصرا) وهو مفعول به منصوب (ولا) مثل الأول (أنفس) مفعول به مقدّم منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (ينصرون) مثل يشركون .

---

(1) أو نكرة موصوفة ، والجملة بعده نعت له .

(2) ويعود على (ما) الدالة على الأصنام وعبر عنها بضمير ما يعقل لما يلزم العقل لها

بزعمهم بأنها آلهة ، وكذلك الأمر في الآية التالية .

(467/302)

---

وجملة: "لا يستطيعون . . . في محل رفع معطوفة على جملة يخلقون .

وجملة: "ينصرون" في محل رفع معطوفة على جملة يخلقون أو جملة لا يستطيعون .

(الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (تدعوا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم

حذف النون . . . والواو فاعل و(هم) ضمير مفعول به (إلى الهدى) جارّ ومجرور متعلق به  
(تدعوهم) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (لا) نافية (يتبعوا) مضارع مجزوم  
جواب الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . . . والواو فاعل و(كم) ضمير مفعول به  
(سواء) خبر مقدّم مرفوع (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بسواء  
(الهمزة) حرف مصدريّ للتسوية (دعوتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . . . و(تم)  
ضمير فاعل و(الواو) زائد حرف إشباع حركة الميم قبله و(هم) ضمير مفعول به .  
والمصدر المؤوّل (أدعوتوهم) في محلّ رفع مبتدأ .

(أم) حرف عطف معادل للهمزة (أنتم) ضمير منفصل مبتدأ (صامتون) خبر مرفوع  
وعلامة الرفع الواو .

وجملة: " تدعوهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يخلقون .

وجملة: " لا يتبعوكم " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة: " سواء عليكم . . . " لا محلّ لها استنائية مقرّرة لمضمون ما قبلها .

وجملة: " دعوتوهم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي .

وجملة: " أنتم صامتون " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفي " 1 " .

الصرف :

(صامتون) ، جمع صامت ، اسم فاعل من صمت الثلاثي ، وزنه فاعل .

1 - قوله تعالى: أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ؟ الهمة للاستنكار، وكان هذا

المعنى مسار الجدل بين الفلاسفة الملاحدة واللاهوتيين. وقد استدل الآخرون على وجوده تعالى بقولهم: لم يستطع العلم والعلماء حتى اليوم أن يعرفوا حقيقة ذبابه فضلا عن أن يخلقوها...!

[سورة الأعراف (7): آية 194]

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ  
(194)

الإعراب:

(468/302)

---

(إنّ) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - (الذين) اسم موصول مبنيّ في محل نصب اسم إنّ  
(تدعون) مضارع مرفوع - والواو فاعل (من دون) جار ومجرور متعلّق بحال من العائد  
المحذوف أي تدعونهم متميّزين عن الله (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (عباد) خبر  
إنّ مرفوع (أمثال) نعت لعباد مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة لربط

المسبب بالسبب " 2 " ، (ادعوا) فعل أمر مبني على حذف النون . .

(1) هذه الجملة الاسمية في قوة الجملة الفعلية بتقدير أم صمتم ، وتقدير العطف :

سواء عليكم دعاؤكم أم صمتكم .

(2) أو هي رابطة لجواب شرط مقدر من مضمون الشرط الآتي أي إن كنتم صادقين في ما

تدعون . . . فادعوهم

(469/302)

والواو فاعل و(هم) ضمير مفعول به (الفاء) عاطفة (اللام) لام الأمر (يستجيبوا) مضارع

مجزوم . . . والواو فاعل (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ(يستجيبوا)

، (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض مبني على السكون في محلّ جزم فعل الشرط

. . . و(تم) ضمير اسم كان (صادقين) خبر كان منصوب وعلامة نصب الياء .

جملة: " إن الذين تدعون . . . لا محلّ لها استئنافية .

وجملة: " تدعون . . . لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " ادعوهم . . . لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافية للربط بين المسبب

والسبب .

وجملة: " يستجيبوا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة ادعوهم .

وجملة: " إن كنتم صادقين " لا محل لها استئنافية . . . وجواب الشرط محذوف دل عليه

ما قبله أي: إن كنتم صادقين في الوهيتها فادعوها .

[سورة الأعراف (7): آية 195]

أَلْهَمُّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا  
قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَاتَنْظُرُونَ (195)

الإعراب:

(470/302)

---

(الهمزة) للاستفهام الانكاريّ (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف

خبر مقدّم (أرجل) مبتدأ مرفوع (يمشون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . .

والواو ضمير متصل في محلّ رفع فاعل (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ

(يمشون) ، (أم) هي المنقطعة ، وتفيد الإضراب (لهم أيد

يبطشون بها) مثل لهم أرجل يمشون بها ، وعلامة الرفع في أيد الضمّة المقدّرة على الياء



الحذوفة للتونين فهو اسم منقوص (أم لهم . . .

يسمعون بها) مثل أم لهم أيد . . . و(أم) في المواضع الثلاثة بمعنى بل والهمزة للإضراب  
الانتقاليّ .

وجملة: " لهم أرجل . . . " لا محلّ لها استنافية .

وجملة: " يمشون بها " في محلّ رفع نعت لأجل .

وجملة: " لهم أيد . . . " لا محلّ لها استنافية .

وجملة: " يبطشون بها " في محلّ رفع نعت لأيد .

وجملة: " لهم أعين . . . " لا محلّ لها استنافية .

وجملة: " يبصرون بها " في محلّ رفع نعت لأعين .

وجملة: " لهم آذان . . . " لا محلّ لها استنافية .

وجملة: " يسمعون بها " في محلّ رفع نعت لآذان .

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (ادعوا) مثل المتقدّم " 1 " ، (شركاء)

مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (ثم) حرف عطف (كيدوا) مثل ادعوا " 2 "

، و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (الفاء) حرف عطف (لا) ناهية جازمة

(تنظروا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل و(النون) للوقاية

و(الياء) الحذوفة ضمير مفعول به .

وجملة: " قل . . . " لا محل لها استنائية .

وجملة: " ادعوا . . . " في محل نصب مقول القول .

---

(1 ، 2) في الآية السابقة (194) .

(471/302)

---

وجملة: " كيدون " في محل نصب معطوفة على جملة ادعوا .

وجملة: " لا تنظرون " في محل نصب معطوفة على جملة كيدون .

الصرف :

"

يمشون " ، فيه إعلال بالحذف أصله يمشيون - بضم الياء الثانية - استقلت الضمة على

الياء فنقلت إلى الشين وسكنت الياء ، فالتقى ساكنان : الياء والواو ، فحذفت الياء

فأصبح يمشون ، وزنه يفعون .

(أيد) ، جمع يد ، أصله أيدي ، حذفت الياء لمناسبة التنوين لأنه اسم منقوص وزنه أفع . .

والتنوين هنا هو تنوين عوض لا تنوين تمكين .

البلاغة

1 - في قوله تعالى (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا) إلى قوله: " فَلَا تَنْظُرُونَ) فن بدعي معروف باسم " نفي الشيء بإيجابه " ، وهو أن يثبت المتكلم شيئاً في ظاهر كلامه ، بشرط أن يكون المثبت مستعاراً ، ثم ينفي ما هو من سببه مجازاً ، والمنفي حقيقة في باطن الكلام ، هو الذي أثبتته لا الذي نفاه ، وفي الآيات المتقدمة يقتضي نفي الإلهية جملة عمن يبصر ويسمع من الآلهة المتخذة من دون الله تعالى ، فكيف من لا يسمع ولا يبصر منها .

الفوائد

1 - عطف النسق : هو تابع يتوسط بينه وبين متبوعه أحد حروف العطف .

وأقسامه ثلاثة :

أ- العطف على اللفظ ب- العطف على المحل ج- العطف على التوهم 2 - حروف

العطف " أحد عشر وهي : الواو والفاء ثم حتى أم أول لكن بل لا لا يكون ليس " . والأصل

أن يعطف على الأول إلا في حروف الترتيب . . .

3 - حروف العطف نوعان :

أ- ما يقتضي التشريك في اللفظ والمعنى مطلقاً وهو أربعة " الواو ، الفاء ، ثم ، حتى " .

ب- ما يقتضي التشريك في اللفظ دون المعنى .

إما لكونه يثبت حكماً لما بعده ، انتفى عما قبله ، وهو بل ولكن . وإما لكونه بالعكس ،

وهو " لا وليس " . وقد فصلنا هذا الحديث في موطن آخر ، فليعد إليه من يشدوه .

[سورة الأعراف (7) : آية 196]

إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196)

الإعراب :

(472/302)

(إِنَّ) حرف مشبّه بالفعل (ولِّي) اسم إنَّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (اللّه) لفظ الجلالة خبر إنَّ مرفوع (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت للفظ الجلالة (نزل) فعل ماض ، والفاعل هو (الكتاب) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبتدأ (يتولّى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل هو (الصالحين) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الياء .

جملة: " إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ . . . " لا محلّ لها استئنافية تعليلية .

وجملة: " نَزَلَ الْكِتَابَ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: " هُوَ يَتَوَلَّى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة: " يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ " في محلّ رفع خبر المبتدأ هو .

[سورة الأعراف (7) : آية 197]

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ (تدعون من دونه) مرّ إعراب

نظيرها " 1 " (لا) حرف نافية (يستطيعون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (نصر)

مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا أنفسهم ينصرون) مثل لا

يستطيعون نصركم ، والمفعول مقدّم .

جملة : " الذين تدعون . . . " لا محل لها معطوفة على جملة إن وليي الله " 2 " .

وجملة : " تدعون . . . " لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يستطيعون " في محل رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " ينصرون " في محل رفع معطوفة على جملة يستطيعون .

[سورة الأعراف (7) : آية 198]

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198)

الإعراب :

(473/302)

---

(الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (تدعو) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون  
... والواو فاعل و(هم) ضمير مفعول به (إلى الهدى) جارٌّ ومجرور متعلّق بـ (تدعوهم) ،  
وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف ، (لا) نافية (يسمعوا) مضارع مجزوم جواب  
الشرط وعلامة الجزم حذف النون ... والواو فاعل (الواو) عاطفة (ترى) مضارع مرفوع  
وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على الألف ، والفاعل ضمير مستتر

---

(1) في الآية (194) من هذه السورة. [.....]

(2) في الآية السابقة (196) .

(474/302)

---

تقديره أنت و(هم) مثل السابق (ينظرون) مثل يستطيعون " 1 " ، (إلى) حرف جرّ  
و(الكاف) ضمير مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينظرون) ، (الواو) حالّية (هم) ضمير منفصل  
مبتدأ (لا يبصرون) مثل لا يستطيعون " 2 " .

جملة: " تدعوهم . . . " لا محل لها معطوفة على جملة الذين تدعون " 3 " .

وجملة: " لا يسمعون . . . " لا محل لها جواب شرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة: " تراهم " لا محل لها معطوفة على جملة تدعوهم .

وجملة: " ينظرون . . . " في محل نصب حال من ضمير المفعول في (تراهم) .

وجملة: " هم لا يبصرون " في محل نصب حال من ضمير الفاعل في (ينظرون) .

وجملة: " لا يبصرون " في محل رفع خبر المبتدأ هم .

[سورة الأعراف (7): الآيات 199 إلى 200]

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ  
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200)

الإعراب:

(خذ) فعل أمر، والفاعل أنت (العفو) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (أؤمر) مثل خذ

(بالعرف) جارٌّ ومجرور متعلق بـ (أؤمر)، (الواو) عاطفة (أعرض عن الجاهلين) مثل أؤمر

بالعرف، والجارٌّ والمجرور متعلق بـ (أعرض) وعلامة الجرّ الياء .

(1، 2، 3) في الآية السابقة (197) .

(475/302)

جملة: " خذ . . . " لا محل لها استئنافية .

وجملة: " اوامر . . . " لا محل لها معطوفة على الاستئنافية .

وجملة: " أعرض . . . " لا محل لها معطوفة على الاستئنافية .

(الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (ما) حرف زائد (ينزغن) مضارع مبني على

الفتح في محل جزم فعل الشرط . . . و(النون) للتوكيد و(الكاف) ضمير مفعول به (من

الشیطان) جارٌّ ومجرور متعلق بـ (ينزغنك) " 1 " ، (نزغ) فاعل مرفوع (الفاء) رابطة

لجواب الشرط (استعذ بالله) مثل اوامر بالعرف ، والجار متعلق بـ (استعذ) ، (إن) حرف

مشبه بالفعل - ناسخ - و(هاء) ضمير في محل نصب اسم إن (سميع) خبر إن مرفوع

(علیم) خبر ثان مرفوع .

وجملة: " ينزغنك . . . " لا محل لها معطوفة على جملة خذ .

وجملة: " استعذ . . . " في محل جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة: " إنه سميع . . . " لا محل لها تعليلية .

الصرف :

(العرف) ، اسم بمعنى المعروف من الأشياء ، وزنه فعل بضم فسكون .

(نزغ) ، مصدر سماعي لفعل نزغ ينزغ باب فتح وباب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .



(استعد) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون ، حذفت عين الكلمة في الأمر وزنه استقل .

(1) أو بمحذوف حال من نزغ .

(476/302)

البلاغة

1 - الاستعارة المكنية: في قوله تعالى " خُذِ الْعَفْوَ " والمراد اعف عنهم ، حيث شبه العفو بأمر محسوس يطلب فيؤخذ .

2 - فن الانسجام: في قوله تعالى " خُذِ الْعَفْوَ " إلى آخر الآية ، حيث أعجب العرب كثيرا بهذه الآية لما فيها من سهولة سبك ، وعدوية لفظ ، وسلامة تأليف ، مع ما تضمنته من إشارات بعيدة ، ورموز لا تنأهى ، وأطلقوا على هذا النوع من الأساليب اسم فن يقال له " الانسجام " ، وهو أن يكون الكلام متحدرا كتحدر الماء المنسجم ، حتى يكون للجملة من المنثور واللبيت من المنظوم وقع في النفوس ، وتأثير في القلوب .

الفوائد

"إعجاز القرآن" 1 - أعجب عشاق البيان بقوله تعالى " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ  
عَنِ الْجَاهِلِينَ " لما فيها من إعجاز وإيجاز ولما فيها من عدوية جرس ، ووضوح بيان .  
ولأنها ترمز ولا تشرح ، وتجمل ولا تفصل ، وللبلاء في هذا الضرب من البلاغة مذاهب ،  
وقد أطلقوا عليه اسم " فن الانسجام " . ولندع هذا الفن ، ولننتزع فائدتنا من موضوع  
هذه الآية ، فقد كانت ولا تزال شغل أرباب الاجتهاد الشاغل إذ في قوله :  
" خُذِ الْعَفْوَ " مبدأ من مبادئ التشريع في الإسلام ، وهو التيسير وعدم التعسير . وثمة  
إشارات كثيرة في هذا الصدد ، يتناولها ذوو الرأي والاجتهاد بالتحقيق والتمحيص .  
وفي قوله تعالى : " وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ " إشارة صريحة إلى اعتبار العرف في الأحكام الشرعية ،  
واحترام العادة في التعامل ، ما لم يعارضهما نص صريح من القرآن أو الحديث .  
وفي اعتبار العرف في الشرع ، والأخذ برفع الحرج عن المسلمين ، خلاف وتفصيل طويل بين  
أئمة الاجتهاد ، فمن شاء فعليه بكتب الفقه والأصول ، ففيهما ريّ وشفاء لذي الغلة  
الصادي .

وأما ما في الآية من الانسجام فيدفعنا إلى استعراض هذه الآيات لصفي الدين لما فيها من

بالغ الانسجام :

قلت : كحلت الجفون بالوسن قلت : ارتقا با لطيفك الحسن

قلت : تسليت بعد فرقنا قلت : عن مسكني وعن سكاني

قلت : تشاغت عن محبتنا قلت بفرط البكاء والحزن

قلت : تخليت ، قلت : عن جلدي قالت : تغيرت قلت في بدني

إلى أن قال :

انحلتي بالبعد عنك فلو ترصدتني العيون لم ترني

وقيل ان بعض الأدباء اجتاز بدار الشريف الرضي ، وقد جار عليها الزمان ، وأذهب

بجهتها ، وأخلق ديباجتها ، ولكن بقايا رسومها تشهد لها بالنضارة ، فوقف متعجبا من

صروف الزمان متمثلا بهذه الأبيات :

ولقد وقفت على ربوعهم وطلوها بيد البلى نهب

فبكيت حتى ضح من لغب نصوي وعجّ بعذلي الركب

(478/302)

---

و تَلَفَّتْ عَيْنِي فَمَذَّ حَفِيَّتْ عَنِّي الطَّلُولُ تَلَفَّتْ الْقَلْبُ

فمرَّ به امرؤ فقال: أتعرف لمن هذه الأبيات؟ قال: لا: قال: والله إنها لصاحب هذه الدار، فوقفنا معتبرين، وعلى الدار وصاحبها مترجمين . . . فمن كان ذا عجب فليعجب لهذه المصادفة.

[سورة الأعراف (7): الآيات 201 إلى 203]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (202) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَايَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203)

الإعراب:

(إنّ) مثل السابق " 1 " (الذين) موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (اتّقوا) فعل ماضٍ مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . . والواو فاعل (إذا) ظرف للمستقبل متضمّن معنى الشرطيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب تذكّروا أو بمضمونه أيّ تبصّروا بعد التذكّر (مسّ) فعل ماضٍ و(هم) ضمير مفعول به (طائف) فاعل مرفوع (من) الشيطان) جارٌّ ومجرور متعلّق بنعت لطائف (تذكّروا) مثل (اتّقوا) (الفاء) عاطفة (إذا) فجائيّة (هم) ضمير منفصل مبتدأ في محلّ رفع (مبصرون) خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة الرفع الواو.

- جملة: "إنّ الذين . . . لا محلّ لها استنافية .
- وجملة: "أتقوا" لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .
- وجملة: "مسّهم طائف . . ." في محلّ جرّ مضاف إليه .
- وجملة: "تذكروا" لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .
- وجملة: "الشرط وفعله وجوابه" في محلّ رفع خبر إنّ .
- وجملة: "هم مبصرون" لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

(479/302)

---

(الواو) عاطفة (إخوان) مبتدأ مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه "2" ، (يمدّون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل "3" ، (هم) ضمير مفعول به "4" ،

---

(1) في الآية السابقة (200) .

(2) هذا الضمير يعود على الشياطين الذين ذكر جنسهم في الآية السابقة بلفظ المفرد .

(3) ضمير الفاعل يعود على الشياطين أيضا .

(4) هذا الضمير يعود على الكفار . . . والتقدير : وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين ،

وهذا الإسناد في الخبر جارّ على غير من هوله في المعنى ، فالإمداد مسند إلى

(في الغيِّ) جارٌّ ومجرور متعلّق بـ (يبدّون) " 1 " ، (ثمّ) حرف عطف (لا) نافية (يقصرون)  
مضارع مثل يبدّون .

وجملة: " إخوانهم يبدّونهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ الذين اتّقوا . . .

وجملة: " يبدّونهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ .

وجملة: " لا يقصرون " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبدّونهم .

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للمستقبل متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ (قالوا) ، (لم) حرف  
لنفي والجزم والقلب (تأت) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلة و(هم) ضمير  
مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (بآية) جارٌّ ومجرور متعلّق بـ (تأت) ، (قالوا)  
مثل اتّقوا (لولا) حرف تضيض بمعنى هلاّ (اجتبيت) فعل ماض مبنيّ على السكون . .  
و(التاء) فاعل و(ها) ضمير مفعول به (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (إنما) كافة ومكفوفة  
(أتبع) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ  
نصب مفعول به (يوحى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على  
الألف ، ونائب الفاعل

الشياطين وهو في اللفظ خبر عن الإخوان . . هذا قول الجمهور وعليه تفسير الطبري . .

وقال الزمخشريّ هو أوجه لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتّقوا . .

وهناك من المفسرين من يجعل لفظ الإخوان هم الشياطين ويجعل الضمير المضاف إليه الجاهلون أو غير المتقين . . . فالخبر على الوجه جارّ على من هوله في المعنى وهو قول قتادة .

(1) يصح هذا التعليق في التوجيه الثاني - قول قتادة ، إذا كان (في) للسببية أي بسبب غوايتهم . . . ويجوز أن يتعلّق الجارّ بحال من الفاعل أو المفعول أي كائنين أو مستقرين في الغي .

(480/302)

---

هو ، وهو العائد ، (إلى) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ(يوحى) ، (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بحال من النائب الفاعل ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (بصائر) خبر مرفوع (من ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ(بصائر) و(كم) مضاف إليه (الواو) عاطفة في الموضعين (هدى ، رحمة) لفظان معطوفان على بصائر مرفوعان ، وعلامة الرفع في هدى الضمة المقدّرة على الألف (لقوم) جارّ ومجرور متعلّق برحمة (يؤمنون) مثل يمدّون .

وجملة: "لم تأت بهم . . ." في محل جر مضاف إليه .

وجملة: " قالوا . . ." لا محل لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: " اجتبيتها " في محل نصب مقول القول .

وجملة: " قل . . ." لا محل لها استئناف بياني .

وجملة: " أتبع . . ." في محل نصب مقول القول .

وجملة: " يوحى إلي . . ." لا محل لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: " هذا بصائر . . ." لا محل لها استئناف في حيز القول .

وجملة: " يؤمنون " في محل جر نعت لقوم .

الصرف :

(طائف) ، اسم فاعل من طاف الثلاثي ، وزنه فاعل ، وقد قلب حرف العلة - وهو الواو

عين الكلمة - إلى همزة لجبيته بعد ألف فاعل الساكنة .

(مبصرون) ، جمع مبصر ، اسم فاعل من أبصر الرباعي وزنه مفعل بضم الميم وكسر العين .

(481/302)

---



## الفوائد

1 - لولا حرف امتناع للوجود ، وقد عولج شأنها سابقا فعاود مراجعتها ففي الإعادة

إفادة .

[سورة الأعراف (7) : آية 204]

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (إذا) مثل السابق " 1 " متعلق بمضمون الجواب (قرئ) فعل ماض مبني للمجهول (القرآن) نائب الفاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (استمعوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (أنصتوا) مثل استمعوا (لعل) حرف ترج و نصب - ناسخ - و (كم) ضمير في محل نصب اسم لعل (ترحمون) مضارع مبني للمجهول مرفوع . . . والواو نائب الفاعل .

جملة : " قرئ القرآن " في محل جر مضاف إليه . . . والشرط وفعله وجوابه استئناف .

وجملة : " استمعوا . . . " لا محل لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أنصتوا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة الجواب .

وجملة : " لعلكم ترحمون " لا محل لها تعليلية .

وجملة : " ترحمون " في محل رفع خبر لعل .

[سورة الأعراف (7) : آية 205]

وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (اذكر) فعل أمر ، والفاعل أنت (ربّ)

(1) في الآية (201 و203) من هذه السورة .

(482/302)

مفعول به منصوب و(الكاف) ضمير مضاف إليه (في نفس) جارّ ومجرور متعلق بمحذوف حال من ضمير الخطاب في ربك و(الكاف) مثل الأول (تضرّعا) مفعول لأجله منصوب " 1 ، (الواو) عاطفة (خيفة) معطوفة على (تضرّعا) منصوب (الواو) عاطفة (دون) ظرف منصوب متعلق بمجال معطوفة على الحال الأولى - في نفسك " 2 - (الجرّ) مضاف إليه مجرور (من القول) جارّ ومجرور متعلق بمجال من الجهر - أي دون الجهر كأننا من القول - (بالغدوّ) جارّ ومجرور متعلق بـ (اذكر) ، (الواو) عاطفة (الأصّال) معطوفة بالواو على الغدوّ ومجرور (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تكن) مضارع ناقص - ناسخ -

مجزوم، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من الغافلين) جارّ ومجرور متعلق بمحذوف خبر  
تكن، وعلامة الجرّ الياء .

جملة: " اذكر . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف السابق .

وجملة: " لا تكن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اذكر .

الصرف :

(خيفة) ، مصدر سماعيّ لفعل خاف يخاف ، وزنه فعلة بكسر فسكون ، وفيه أعلال  
بالقلب أصله خوفاً - بكسر الخاء وسكون الواو - لأن الألف أصلها واو وقد ظهرت في  
المصدر (الخوف) ، فلما كسر ما قبلها قلبت ياء .

(الغدوّ) ، جمع غدوة بضمّ الغين وسكون الدال - من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس -  
وزنه فعلة ووزن الغدوّ فعول بضمّ الفاء ودغمت فيه الواو الزائدة مع لام الكلمة .

---

(1) أو مصدر في موضع الحال بتأويل مشتقّ أي متضرّعا .

(2) أجاز العكبريّ عطفه على (تضرّعا) مضمّنا إياه معنى مقتصدين . . . وعلى كلّ حال

فإنّ الظرف فيه معنى الحال .

(483/302)

---

(الأصـال) ، جمـع أصـيل وهـو من العـصر إلى المـغرب ، وزنه فـعـيل ، ووزن أصـال أفـعال ،  
والمدّة في أصـال أصـلها همزتان الأولى متحرّكة بالفتحة والثانية ساكنة أصـال .

[سورة الأعراف (7) : آية 206]

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)

الإعراب :

(إنّ الذين) مرّ إعرابها " 1 " ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة الموصول  
(ربّ) مضاف إليه مجرور و(الكاف) ضمير مضاف إليه في محلّ جرّ (لا) حرف نفي  
(يستكبرون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل (عن عبادة) جارّ  
ومجرور متعلّق بـ (يستكبرون) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (يسبّحون)  
مثل يستكبرون و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (اللام) حرف جرّ و(الهاء)  
ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يسجدون) وهو مثل يستكبرون .

جملة : " إنّ الذين . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة : " لا يستكبرون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يسبّحونه " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يستكبرون .

وجملة : " يسجدون " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يستكبرون . انتهى انتهى . اهـ

(1) في الآية (201) من هذه السورة .

(484/302)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة الأعراف (7) : الآيات 158 إلى 160]

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) وَقَطَعْنَا هَمُّنَّ اثْنَيْ عَشَرَ أَسْبَاطًا أَمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبِهِمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)

اللغة :

(أَسْبَاطًا) : جمع سبط ، وهو ولد الولد ، فهو كالحفيد . هذا هو المفهوم اللغوي ،

وتخصيص السبط بولد البنت والحفيد بولد الابن

أمر عرفي . وفي القاموس وغيره : ولد الولد ، ويغلب على ولد البنت ، مقابل الحفيد الذي هو ولد الابن . والسبط من اليهود بمنزلة القبيلة من العرب .

(انبحست) : في المصباح : يجس الماء بجسا من باب قتل بمعنى فجرته فانفجر . وقال غيره : الانبحاس هو الانفتاح بسعة وكثرة ، قال العجاج :

وانخلبت عيناه من فرط الأسى وكيف غربي دالج تبجّسا

والوكيف : مصدر نصب بانخلبت ، لأن معناه وكفت ، والغرب الدلو العظيمة ، والدالج من يأخذ الدلو من البئر فيفرغها في الحوض ، يقول : انصبّت دموع عينيه من شدة الحزن  
كانصباب دلوي رجل مفرغ لهما في الحوض ، تفجّرا بسعة ، وفيه تشبيه العينين بالغريين .

)

(485/302)

---

المنّ : هو الترنجيبين ، وهو شيء حلو كان ينزل عليهم مثل الثلج ، من الفجر إلى طلوع الشمس ، فيأخذ كل إنسان صاعا .

(السّلوى) : هو الطير السّمانى بتخفيف الميم المقصورة والقصر بوزن حبارى ، وهو نوع من الطيور القواطع ، للواحد والجمع ، وقيل : الواحدة سماناة ، وهو المعروف عندنا بالفري

، ويسمى أيضا السلوى ، ويجمع على سمانيات .

الاعراب :

)

(486/302)

قُلْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (كلام مستأنف مسوق لتوجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وجملة النداء في محل نصب مقول القول ، وقد تقدم إعرابها ، وإن واسمها ، ورسول الله خبرها ، وإليكم جار ومجرور متعلقان برسول ، وجميعا حال من ضمير إليكم (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) اسم الموصول نعت لله ، ويجوز أن تقطعه فترفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وملك السموات والأرض مبتدأ مؤخر ، والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) هذه الجملة لا محل لها لأنها بدل من الصلة قبلها ، وقد تقدم إعراب كلمة الشهادة مفصلة مع اختلاف الآراء (يُحْيِي وَيُمِيتُ) الجملة بدل أيضا فلا محل لها (فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ) الفاء الفصيحة ، وآمنوا فعل أمر ، وباللَّه جار ومجرور متعلقان بآمنوا ، ورسوله عطف على الله ، والنبي صفة ، وكذلك الأمي ، وكذلك

وجملة يؤمن بالله لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وكلماته عطف على الله ، والمراد بها ما أنزل عليه (وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) عطف على الله ، والمراد بها ما أنزل عليه (وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) عطف على آمنوا ، ولعل واسمها ، وجملة تهتدون خبرها ، وجملة الرجاء حالية (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الواو استئنافية ، ومن قوم موسى جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وأمة مبتدأ مؤخر ، وجملة يهدون بالحق صفة لحكاية الحال الماضية ، وبالحق جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي : ملتبسين بالحق ، وبه جار ومجرور متعلقان بיעدلون (وَقَطَعْنَا لَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمَّمًا) الواو عاطفة ، وقطعناهم فعل وفاعل ومفعول به ،

(487/302)

---

واثنى عشرة حال من مفعول قطعناهم ، أي : فرقناهم معدودين بهذا العدد ، وجوز الزمخشري وأبو البقاء أن يكون قطعناهم بمعنى صيرناهم ، فيكون اثنى عشرة مفعولا به ثانيا ، وأسباطا بدل من اثنى عشرة ، أي فرقة . قال أبو إسحق الزجاج : ولا يجوز أن يكون تمييزا ، لأنه لو كان تمييزا لكان مفردا . وسيأتي مزيد من القول فيه في باب الفوائد . وأما بدل من "أسباطا" ، فهو بدل من البدل وهو الأسباط (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ



اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ) عطف على قطعناهم ، وإلى موسى جار ومجرور متعلقان بأوحينا ، وإذا ظرف لما مضى من الزمن متعلق بأوحينا أيضا ، وجملة استسقاها قومه في محل جر بالإضافة ، واستسقاها قومه فعل ومفعول به وفاعل (أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ) يجوز أن تكون " أن " هي المفسرة للإيجاء ، لأن فيه معنى القول دون حروفه ، وأن تكون المصدرية ، وقد تقدم نظيرها ، وبعصاك جار ومجرور متعلقان باضرب ، والحجر مفعول به (فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) الفاء الفصيحة ، أي : فضرب فانبجست ، ومنه جار ومجرور متعلقان بانبجست ، واثنتا عشرة فاعل انبجست ، وعينا تمييز (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ) الجملة مستأنفة لا محل لها ، وقد حرف تحقيق ، وعلم كل أناس فعل وفاعل ، وأناس مضاف إليه ، وهو اسم جمع ، واحده إنسان ، وقيل : هو جمع تكسير له ، ومشربهم مفعول به (وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى) وظللنا فعل وفاعل ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بظللنا ، والغمام مفعول به ، وأنزلنا عطف على ظللنا ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بأنزلنا والمن مفعول به ، والسلوى عطف على المن (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) جملة كلوا في محل نصب مقول قول محذوف ، أي : وقلنا ، وكلوا فعل أمر ، والواو فاعل ، ومن طيبات جار ومجرور متعلقان بكلوا ،

---

وما اسم موصول في محل جر بالإضافة لطيبات ، وجملة رزقناكم لا محل لها لأنها صلة الموصول (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) الواو استئنافية ، وما نافية ، وظلمونا فعل وفاعل ومفعول به ، والواو حالية ، ولكن مهملة مخففة ، وكان واسمها ، وأنفسهم مفعول مقدم ليظلمون ، وجملة يظلمون في محل نصب خبر كانوا .

الفوائد :

بين الزمخشري وأبي حيان :

قال الزمخشري : فإن قلت مميز ما عدا العشرة مفرد فما وجه مجيئه مجموعا ؟ وهلا قيل : اثني عشر سبطا ؟ قلت : لو قيل ذلك لم يكن تحقيقا ، لأن المراد : وقطعناهم اثني عشرة قبيلة ، وكل قبيلة أسباط لا سبط ، فوضع "أسباطا" موضع "قبيلة" ، ونظيره : "بين رماحي مالك ونهشل" .

ورد أبو حيان هذا التنظير بقوله : ليس نظيره ، لأن هذا من تثنية الجمع ، وهو لا يجوز إلا في الضرورة . وكأنه يشير إلى أنه لو لم يلاحظ في الجمع كونه أريد به نوع من الرماح لم يصح تثنيته ، كذلك هنا ، لخط الأسباط - وإن كان جمعا - معنى القبيلة ، فميز به كما يميز بالمفرد :

رأي الحوفي :

وقال الحوفي : "يجوز أن يكون على الحذف ، والتقدير :

اثنى عشرة فرقة، ويكون "أسباطا" نعتاً لفرقة، ثم حذف الموصوف  
وأقيمت الصفة مقامه". ونظير وصف التمييز المفرد بالجمع مراعاة للمعنى قول عنتره.  
فيها اثنان وأربعون حلوبة سودا كخافية الغراب الأسحم  
ولم يقل سوداء.

رأى التوضيح والتصريح:

وفي التوضيح والتصريح: "وأما قوله تعالى: "وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما" ف"  
أسباطا" ليس تمييزاً لأنه جمع، وإنما هو بدل من "اثنى عشرة" بدل كل من كل، والتمييز  
محذوف، أي:

اثنى عشرة فرقة، ولو كان "أسباطا" تمييزاً عن اثنى عشرة لذكر العددان ولقيل: اثنى  
عشر، بتذكيرهما وتجريد هما من علامة التأنيث، لأن السبط - واحد الأسباط -  
مذكر.

(489/302)

---

رأى ابن مالك:

وزعم ابن مالك في شرح الكافية أنه لا حذف، وأن "أسباطا" تمييز، وإن ذكرهما رجع

حكم التأنيث في "أسباطا" لكونه وصف ب "أما" ، جمع أمة ، كما رجحه أي التأنيث في "شخوص" ذكر "كاعبان ومعصر" في قول عمر بن أبي ربيعة :  
فكان مجني دون من كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر  
وكان القياس "ثلاثة شخوص" ، لأن الشخص مذكر ، ولكنه  
لما فسره بكاعبان ومعصر - وهما مؤنثان - رجح تأنيثه ، وما ذكره الناظم في الآية مخالف  
لما قاله في شرح التسهيل : إن "أسباطا" بدل لا تمييز .  
هذا القول بالبدلية من اثني عشرة مشكل على قولهم : إن المبدل منه في نية الطرح غالبا ،  
ولو قيل : وقطعناها أسباطا ، لفاتت فائدة كمية العدد ، وحمله على غير الغالب ، ولا  
يجوز تحريج القرآن عليه .

والقول بأنه تمييز مشكل على قولهم : إن تمييز العدد المركب مفرد ، و "أسباطا" جمع ،  
وقال الحوفي "يجوز أن يكون" أسباطا " نعت لفرقة ، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة  
مقامه ، و "أما" نعت ل "أسباطا" وأنت العدد وهو واقع على الأسباط وهو مذكر ، لأنه  
بمعنى فرقة وأمة ، كقوله : ثلاثة أنفس ، يعني رجالا " اه . فارتكب الوصف بالجامد ،  
والكثير خلافه . وذهب الفراء إلى جواز جمع التمييز ، وظاهر الآية يشهد له .

2- حكم العدد المركب :

"أحد عشر" إلى "تسعة عشر" مبني، إلا اثني عشر، وحكم آخر شرطيه حكم نون التثنية، ولذلك لا يضاف إضافة أخواته، فلا يقال: هذه اثنا عشر، كما قيل: هذه أحد عشر. أما "اثنا عشر" فإن الاسم الأول معرب، لأن الاسم الثاني حل منه محل النون، فجرى التغيير على الألف مع الاسم الذي بني معه، كما جرى التغيير عليها مع النون، وتقول في تأنث هذه المركبات: إحدى عشرة واثنا عشرة أو ثنتا عشرة وثلاث عشرة، وثمانية عشرة، تثبت علامة التأنث في أحد الشطرين لتنزلها منزلة شيء واحد، وتعرب اثنتين كما أعربت الاثنتين.

وشين العشرة يسكنها أهل الحجاز ويكسرهما بنو تميم. والعرب على فتح الياء، "ثمانية عشرة" ومنهم من يسكنها.

[سورة الأعراف (7): الآيات 161 إلى 162]

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا  
نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي  
قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلُمُونَ (162)

الإعراب:

(وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ: اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ) الواو عاطفة، والظرف متعلق باذكر محذوف، وجملة

قيل في محل جر بإضافة الظرف إليها ، ولهم جار ومجرور متعلقان بقبيل ، وجملة اسكنوا في محل نصب مقول القول ، وهذه اسم إشارة في محل نصب مفعول به على السعة ، والقرية بدل . وقد مرت هذه الآية بلفظها مع تغيير قليل في البقرة . ولا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ، ولا تناقض بين قوله :

(491/302)

---

" اسكنوا هذه القرية وكلوا منها " وبين قوله : " فكلوا " لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها فقد جمعوا في الوجود بين سكنائها والأكل منها . وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما . وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته (وَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً) تقدم إعرابها في البقرة ، فجدد به عهدا ، وحطة قلنا إنها خبر لمبتدأ محذوف ، أي : مسألتنا حطة ، أي : أن تحطّ عنا خطايانا (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ) تقدم إعرابها في سورة البقرة أيضا فلا داعي للإعادة .

(سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) الفاء عاطفة ، وبدل الذين فعل وفاعل ، وجملة ظلموا صلة الموصول لا

محل لها ، ومنهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وفي الكلام حذف ، والمحذوف هو  
المفعول الثاني لبدل ، وتقديره : بالذي قيل لهم ، وقولا مفعول به ، وغير صفة والذي اسم  
موصول في محل جر بالإضافة . وجملة قيل لهم صلة لا محل لها ، أي قالوا : حبة بدل حطة ،  
ولا داعي لهم إلى ذلك إلا قصد السخرية من موسى وإغاضته (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ  
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ) فَأَرْسَلْنَا عَظْفَ عَلِي فبدل ، وعليهم جار ومجرور متعلقان  
بمحذوف صفة ، وبما جار ومجرور متعلقان بأرسلنا ، الباء سببية ، وما اسم موصول أو  
مصدرية ، وكانوا كان واسمها ، وجملة يظلمون خبرها .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 163 إلى 166]

(492/302)

---

وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ  
سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قَالَتْ  
أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ  
يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا  
بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً

اللغة:

(حاضرة البحر) مجاورة له ، وقريبة منه ، وراكبة لشاطئه .

واختلف في هذه القرية فقيل : هي أيلة ، وقيل : مدين ، وقيل : طبريا .

والعرب تسمي المدينة قرية . وعن أبي عمرو بن العلاء : ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج . يعني رجلين من أهل المدن .

وفي ضمن هذا السؤال فائدة جلييلة ، وهي تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله ، وأن اطلاعه لا يكون إلا بإخبار من الله سبحانه ، فيكون دليلا على صدقه .

(يعدون) : يعتدون أو يتجاوزون .

(سبهم) السبت : مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال

بالتعب . والسبت في اللغة : القطع . فكأنهم باختيارهم يوم السبت عيدا قد اختاروا ما

فيه قطيعتهم . يقال : سبتوا سبتا من باب ضرب ، وأسبتوا بالالف لغة فيه .

(شرعاً) : جمع شارع ، من شرع عليه إذا دنا وأشرف ، أي :

تأتيهم ظاهرة على وجه الماء ، طافية فوقه ، قريبة من الساحل .

(بيس) : شديد ، فعيل من بؤس يبؤس إذا اشتد .



(عَتُوا) تكبروا .

(خاسين) : صاغرين .

(493/302)

الاعراب :

)

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ (الواو عاطفة ، واسألهم فعل أمر وفاعل مستر ومفعول به ، وعن القرية جار ومجرور متعلقان باسألهم ، والتي اسم موصول نعت للقرية ، وجملة كانت لا محل لها لأنها صلة الموصول ، واسم كانت مستر ، أي : هي ، وحاضرة البحر خبر كانت (إِذْ يُعَدُّونَ فِي السَّبْتِ) إذ ظرف متعلق بالمضاف المحذوف والذي تقديره : عن حال القرية ويعدون فعل مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة (إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَوَّاهُمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ) الظرف بدل من الظرف السابق أو متعلق بيعدون أي إذ عدوا في السبت إذ أتتهم وجملة تأتيمهم في محل جر بالإضافة ، وحياتهم فاعل تأتيمهم ، وشرعا حال من حياتهم ، ويوم عطف على إذ ، وجملة لا يستون في محل جر بالإضافة (كَذَلِكَ نَبَلُّوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) الكاف ومجروره

في موضع نصب على أنه مفعول مطلق ، أي : مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم ، ويجوز أن يكون حالا ، أي : لا يأتي مثل ذلك الإتيان ، والأول أرجح . والباء سببية ، وما مصدرية ، أي : نبلوهم بسبب فسقهم ، وجملة يفسقون

(494/302)

---

خبر كانوا (وَأَذُ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ) عطف على إذ يعدون ، وحكمه حكمه في الإعراب ، أي بدل من المحذوف ، وهو حال القرية وخبرها أو أهلها ، وجملة قالت في محل جر بالإضافة ، وأمة فاعل ، ومنهم : جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لأمة (لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا لِلَّهِ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) اللام حرف جر ، وما الاستفهامية حذف ألفها لدخول حرف الجر عليها ، وقد تقدم بحثها ، والعلة في هذا الحذف الفرق بين الاستفهام والخبر ، والجار والمجرور متعلقان بتعظون ، وقوما مفعول به لتعظون ، والله مبتدأ ، ومهلكهم خبر ، والجملة الاسمية صفة "قوما" ، وأو حرف عطف ، ومعذبهم عطف على مهلكهم ، وعذابا مفعول مطلق ، وشديدا صفة (قَالُوا : مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) جملة القول مستأنفة ، مسوقة لبيان جوابهم . ومعذرة : قرأ حفص وحده بالنصب . وفيه ثلاثة أوجه قوية : الأول أنها مفعول لأجله ، أي : وعظناهم لأجل المعذرة . والثاني أنها منتصبة نصب

المصدر بفعل مقدر من لفظها ، أي : نعتذر معذرة . والثالث أنها منتصبة انتصاب المفعول به ، لأن المعذرة تتضمن كلاما ، والمفرد المتضمن لكلام إذا وقع بعد القول نصب نصب المفعول به ، كقمت خطبة . وقرأ العامة برفع معذرة . قال سيبويه في اختياره الرفع : لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذارا مستأنفا ، ولكنهم قيل لهم : لم تعظون ؟ فقالوا موعظتنا معذرة . والمعذرة بمعنى الاعتذار ، وهو التنصّل من الذنب . والى ربكم جار ومجرور متعلقان بمعذرة ، ولعل واسمها ، وجملة يتقون خبرها ، وجملة الرجاء حالية (فلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) الفاء استئنافية ، ولما رابطة أو حينية ، وجملة نسوا لا محل لها أو في محل جر بالإضافة ، ونسوا فعل وفاعل ، وما مفعول به ، وجملة ذكروا بالبناء للمجهول لا محل لها لأنها صلة ، والواو نائب فاعل ، وبه جار

(495/302)

---

ومجرور متعلقان بذكروا (أُنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) جملة أنجينا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، والذين مفعول به ، وجملة ينهون صلة الموصول ، وعن السوء جار ومجرور متعلقان بينهون (وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا) عطف على ما تقدم (بِعَذَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) بعذاب جار ومجرور متعلقان بأخذنا ، وبئس صفة لعذاب ، بما الباء

حرف جر للسبب ، أي : بسبب فسقهم (فلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ : كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) الفاء عاطفة ، ولما رابطة أو حينية ، وعما جار ومجرور متعلقان بعتوا ، وجملة قلنا لا محل لها ، وجملة كونوا في محل نصب مقول القول ، وقردة خبر كونوا ، وخاسئين صفة .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 167 إلى 170]

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ  
وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ  
وَبَلَّوْنَاَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا  
الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ  
يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى  
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ  
أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170)

اللغة :

)

(496/302)

---

تَأْذَنَ) : عزم ، تفعل من الإيدان ، أي الإعلام ، لأن العازم على الأمر يحدث نفسه به ويؤذنها به . قالوا : وأجري مجرى القسم كعلم الله وشهد الله ، ولذلك أجيب بما يجاب به القسم .  
قال الواحدي :

وأكثر أهل اللغة على أن التأذن بمعنى الإيدان وهو الإعلام . وقيل :  
إن معناه حتم وواجب . وفي القاموس : تأذن أقسم .

(عَرَضَ) بفتح العين ما لا ثبات له ، ومنه استعار المتكلمون العرض لمقابل الجوهر . وقال أبو  
عبيدة : العرض بالفتح جميع متاع الدنيا غير التقدين ، وبالسكون المال والقيم ، ومنه :  
الدنيا عرض حاضر ، وظل زائل " . وفسره الزمخشري بالحطام وقال : " أي حطام هذا  
الشيء الأدنى ، يريد الدنيا وما يتمتع به منها . وفي قوله : هذا الأدنى تخسيس وتحقير .  
والأدنى إما من الدنو بمعنى القرب ، لأنه عاجل قريب ، وإما من دنو الحال وسقوطها  
وقلتها . والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على  
العامة " . وقد اجتمع المعنيان في بيت لأبي الطيب :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان  
فأدنى الأولى بمعنى أقل وأحقر ، وأدنى الثانية بمعنى أقرب .

الاعراب :

)

(497/302)

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ) الظرف منصوب على المفعولية بفعل مقدر معطوف على وإسألهم ،  
والتقدير : واذكر وقت أن تأذن ربك ، وجملة تأذن في محل جر بإضافة الظرف إليها ، وربك  
فاعل (لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) اللام جواب القسم المفهوم من  
فعل تأذن ، ويبعثن فعل مضارع مبني على الفتح ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بيبعثن أو  
بتأذن ، ومن اسم موصول مفعول يبعثن ، وجملة يسومهم لا محل لها لأنها صلة الموصول ،  
وسوء العذاب مفعول به ثان ليسومهم (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) جملة إن  
واسمها وخبرها تعليلية لا محل لها ، وجملة وإنه لغفور رحيم عطف عليها ، واللام المزحلقة  
(وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا) الواو عاطفة ، وقطعناهم فعل وفاعل ومفعول به ، وفي  
الأرض جار ومج

والصالحون مبتدأ مؤخر ، ومنهم جار ومجرور متعلق

(498/302)

قوله تعالى: " وما منا إلا له مقام معلوم " ، أي: وما منا أحد إلا له مقام ، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه ، كقولهم: منا ظعن ومنا أقام (وَبَلَوْنَاَهُمُ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وبلوناهم عطف على قطعناهم ، وبالחסنات جار ومجرور متعلقان ببلوناهم ، والسيئات عطف على الحسنات ، ولعل واسمها ، وجملة يرجعون خبرها (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ) الفاء عاطفة ، وخلف فعل ماض ، ومن بعدهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وخلف فاعل ، والخلف - بسكون اللام وفتحها - من يخلف غيره ، وجملة ورثوا الكتاب صفة لخلف (يَأْخُذُونَ عَرَضًا هَذَا الْأَدْنَى) الجملة صفة ثانية ، وعرض مفعول يأخذون ، هذا مضاف إليه ، والأدنى بدل من اسم الإشارة (وَيَقُولُونَ: سَيُغْفَرُ لَنَا) يجوز في الواو أن تكون عاطفة على ما قبلها أو حالية ، وجملة سيغفر لنا في محل نصب مقول القول (وَلَنْ يَأْتِيَهُمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ) الواو حالية ، أي: والحال انهم إن يأتهم ، ويجوز أن تكون للاستئناف ، وإن شرطية ، ويأتهم فعل الشرط ، والهاء مفعول به ، وعرض فاعل ، ومثله صفة ، ويأخذوه جواب الشرط وعلامة جزمه حذف النون (الْمُ يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ) الهمزة للاستفهام التقريري ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، ويؤخذ فعل مضارع مجزوم بلم ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بيؤخذ ، وميثاق الكتاب نائب فاعل (أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) أن مصدرية ، وهي مع ما في حيزها مصدر

محل الرفع على البدلية من ميثاق ، لأن قول الحق هو ميثاق الكتاب ، أو النصب على أنه  
مفعول من أجله ، ومعناه لئلا يقولوا ، ويجوز أن تكون " أن " مفسرة لميثاق الكتاب ، لأنه في  
معنى القول دون حروفه ، و " لا " عندئذ ناهية ، ويقولوا فعل مضارع

(499/302)

---

مجزوم بها ، أما على أنها مصدرية ف " لا " نافية ، والفعل  
منصوب بأن المصدرية ، وعلى الله جار ومجرور متعلقان يقولوا ، وإلا أداة حصر ، والحق  
يجوز أن يكون مفعولا به أو مفعولا مطلقا ، أي : القول الحق (وَدَرَسُوا مَا فِيهِ) الواو عاطفة ،  
ودرسوا فعل ماض معطوف على " ألم يؤخذ عليهم " ، كأنه قيل : أخذ عليهم ميثاق  
الكتاب ، ودرسوا ما فيه . وما مفعول درسوا ، وفيه جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا  
محل له لأنه صلة الموصول (وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) الواو استئنافية أو  
حالية ، والدار مبتدأ ، والآخرة صفة ، وخير خبر الدار ، وللذين جار ومجرور متعلقان  
بجبر ، وجملة يتقون لا محل لها لأنها صلة الموصول ، والهمزة للاستفهام الإنكاري ، والفاء  
عاطفة على محذوف ، وقد تقدمت له نظائر ، ولا نافية ، وتعلون عطف على هذا  
المحذوف (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة



مسوقة لبيان مزية الصلاة وإناقتها في الفضل (إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) الجملة خبر الذين أو تجعلها اعتراضية فيكون الخبر محذوفاً تقديره مأجورون. وإن واسمها ، ولا نافية ، وجملة لا نضيع أجر المصلحين خبر إن ، ونعيد إعرابها لرسوخها في الذهن ، فالذين مبتدأ وجملة يسكون بالكتاب صلة الذين لا محل لها ، وجملة وأقاموا الصلاة معطوفة على الصلة ، وجملة إننا لا نضيع أجر المصلحين خبر المبتدأ ، والرابط بينهما إعادة المبتدأ بمعناه ، فإن المصلحين هم الذين يسكون بالكتاب ، بالعطف على الذين يتقون ولئن سلم فالرابط العموم ، لأن المصلحين أعم من المذكورين ، أو ضمير محذوف ، أي منهم .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 171 إلى 173]

(500/302)

---

وَإِذْ تَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ  
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى  
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172)  
أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173)

اللغة :

(تتقنا) : تتق قلع ورفع ، ومنه تتق السقاء إذا نفضه ليقتلع الزبدة منه . هذا وقد اختلف عبارات أهل اللغة في التق ، فقال أبو عبيدة : هو قلع الشيء من موضعه والرمي ، ومنه تتق ما في الجراب :

إذا نفضه فرمى ما فيه ، وامرأة ناتق ومنتاق : إذا كانت كثيرة الولادة .

وفي الحديث : " عليكم بزواج الأبقار ، فإنهن أتق أرحاما ، وأطيب أفواها ، وأرضى باليسير " . وقيل : التق : الجذب بشدة ، ومنه تتقت السقاء إذا جذبته بشدة لتقتلع الزبد من فمه . وقال الفراء : هو الرفع . وقال ابن قتيبة : هو الزعزعة . على أن هذه الاختلافات ترجع إلى معنى واحد . والذي يلفت النظر هو أن النون والتاء متى استعملتا معا وعينا للكلمة ، فإن المعنى يحوم حول النزع والقلع والإخراج ، وسنعرض كما دتنا ، تركيب هذين الحرفين ، فمن ذلك تأم معنى رمى ،

وتأثدي الجارية بمعنى برز ونهد ، وتأ الشيء : خرج من موضعه من غير أن ينفصل ، وتجت الناقة : وضعت ولدها ، ومن المجاز :

الريح تنتج السحاب ، قال الراعي :

أرّبت بها شهري ربيع عليهم جنائب ينتجن الغمام المتاليا

وفي المثل: "إن العجز والتوائي تزاوجا فأنتجا الفقر". وهذه المقدمة لا تنتج نتيجة صادقة إذا لم تكن لها عاقبة محمودة، وتتح العرق من مناخه، ورشح من مراشحه، وتخت الشوكة من رجلي بالمنتاخ: أي بالمنقاش، وتتح البازي اللحم بمنسره، وتتح فلان من أصحابه نزع منهم، وتخته المنية من بين قومه، ونتر الثوب: جذبه في شدة، ونتر الوتر مدّه حتى كاد ينكسر القوس، وفي الحديث: "إذا بال أحدكم فلينتر ذكره ثلاث نترات"، وتتش الشوكة بالمنقاش، وتتشها بالمنقاش، وما تش منه شيئاً ما أخذ، وهو ينتش من كل علم، وتنف شعره وانتفه، وفلان منتوف: مولع بنتف لحيته. ومن المجاز: أعطاه تنفة من الطعام وغيره: شيئاً منه، فقول العامة: تنفة، صحيح ولكن بضم الميم، وكان أبو عبيدة يقول في الأصمعي: ذاك رجل تنفه. وتن الشيء: ارتفع تنه، وفي الحديث: "إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليذكر مناتها"، وهذا من دقائق العربية، فتدبره.

ظلة<sup>وَسَّ</sup> (ظلة): بضم الظاء كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب،

الاعراب:

وَإِذِ تَتَقْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ (وَأِذْ ظَرْفُ زَمَانٍ)

متعلق باذكر المحذوفة والمعطوفة على ما تقدم ، وجملة تتقنا في محل جر بالإضافة ، ونا  
فاعل ، والجبل مفعول به ، وفوقهم ظرف مكان متعلق بمحذوف على أنه حال من الجبل ،  
وهي حال مقدرة ، لأنه حال النطق لم يكن فوقهم بالفعل بل صار فوقهم بالنطق ، أو متعلق  
بنتقنا ، وجملة كأنه ظلة حال من الجبل أيضا ، فيكون الحال متعددا ، وكان واسمها وخبرها  
(وَوَظَنُوا أَنَّهُ وَقِيعٌ بِهِمْ) يجوز أن تكون الجملة في محل جر عطفا على جملة تتقنا المجرورة  
بالإضافة ، ويجوز أن تكون الواو حالية ، وقد مقدرة ، وقد تقدم مثل هذا التعبير والبحث  
فيه ، وصاحب الحال الجبل ، أي : كأنه ظلة في حال كونه مطنونا وقوعه بهم ، ولك أن تجعل  
الواو استئنافية ، فتكون الجملة مستأنفة لا محل لها ، وأن وما في حيزها سدت مسدّ  
مفعولي ظنّ ، وأن واسمها وخبرها ، وبهم جار ومجرور متعلقان بواقع (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ  
بِقُوَّةٍ) جملة خذوا في محل نصب مقول قول محذوف ، أي : وقلنا لهم : خذوا ، وما اسم  
موصول مفعول به ، وجملة آتيناكم لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وبقوة جار ومجرور  
متعلقان بمحذوف حال ، أي : عازمين على احتمال مشاقه وكثرة تكاليفه (وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ  
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) عطف على ما تقدم ، ولعلكم لعل واسمها ، وجملة تتقون خبرها ، وجملة  
الرجاء حالية (وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) عطف على ما تقدم ، وقد  
سبق ذكره ، وربك فاعل أخذ ، ومن بني آدم جار ومجرور متعلقان بأخذ ، ومن ظهورهم

جار ومجور في محل جر بدل اشتمال من بني آدم ، أو بدل بعض من كل بإعادة الجار ،  
ومعنى إخراج ذرياتهم من ظهورهم إخراجهم من أصلابهم نسلا وإشهادهم على  
أنفسهم . وسيأتي بحث ذلك في باب البلاغة .

(503/302)

---

وذريتهم مفعول به (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ) عطف على أخذ ، وعلى أنفسهم جار  
ومجور متعلقان بأشهدهم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَىٰ) الجملة  
مقول قول محذوف ، أي : قائلًا ، وجملة القول حالية ، والهمزة للاستفهام التقريري ، والتاء  
اسم ليس ، والباء حرف جر زائد وربكم مجرور لفظا خبر ليس محلا ، وجملة قالوا  
مستأنفة ، ويلي حرف جواب ، وتختص بالنفي ، وتفيد إبطاله سواء أكان مجردا أم مقرونا  
بالاستفهام التقريري ، كما هنا . ولذلك قيل : قالوا : نعم كفروا ، من جهة أن " نعم "  
تصدق للمخبر بنفي أو إيجاب ، فكأنهم أقروا بأنه ليس ربهم (شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ :  
إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) شهدنا فعل وفاعل ، وأن وما في حيزها في محل نصب مفعول من  
أجله ، أي : فعلنا ذلك كراهة أن تقولوا ، ويوم القيامة ظرف متعلق بتقولوا ، وجملة إن وما في  
حيزها في محل نصب مقول القول ، وجملة كنا خبر إنا ، وغافلين خبر كنا ، وعن هذا جار

ومجرور متعلقان بغافلين (أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ) أَوْ تَقُولُوا عَطْفَ عَلَى أَنْ تَقُولُوا ، أي: وكراهة أَنْ تَقُولُوا ، وإنما كافة ومكشوفة ، وجملة إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَقُولٍ ، ومن قبل جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ) الواو عاطفة ، وكان واسمها ، وذرية خبرها ، ومن بعدهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لذرية (أَقْتَهَلَكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري ، والفاء عاطفة ، وتهلكنا فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، والباء حرف جر ، وتفيد السببية ، وما مصدرية ، وفعل المبطلون فعل وفاعل ، والمصدر المؤول في محل جر بالباء .

البلاغة:

1- في قوله " وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة " تشبيهه مرسل وفائدته هنا إخراج ما لم تجرية العادة إلى ما جرت به العادة .

(504/302)

---

2- في قوله: " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم " إلى آخر الآية ، أجمع علماء البيان المتأخرون على أنه لا إخراج ولا قول ولا شهادة ، وإنما هذا كله محمول على المجاز التمثيلي ، فقد شبه سبحانه حال النوع الإنساني بعد وجوده بالفعل بصفات التكليف من

حيث نصب الأدلة الدالة على ربوبيته سبحانه ، المقتضية لأن ينطق ويقر بمقتضاها بأخذ الميثاق عليه بالفعل بالإقرار بما ذكر . أما المتقدمون فيقولون : إنه تعالى أخرج بعضهم من صلب بعض ، وجعل لهم العقل والمنطق ، وألهمهم ذلك . ولكل وجهة نظرهم .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 174 إلى 177]

وَكَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177)

اللغة :

(أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ) الإخلاق إلى الشيء الميل إليه من الاطمئنان به .

وفي المصباح : خلد بالمكان خلودا من باب قعد : أقام ، وأخلد بالألف مثله ، وخذل إلى

كذا وأخلد إليه : ركن .

)

يُلَهْثُ) : يدلع لسانه ، يقال : لهث يلهث بفتح العين في الماضي والمضارع لهثا ولهثا ، وهو خروج لسانه في حال راحته وإعيائه ، وهي طبيعة لازمة للكلب ، وأما غيره من الحيوان فلا يلهث إلا إذا أعيأ أو عطش . وفي الصحاح لهث الكلب إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش ، وقوله تعالى : " إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " لأنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هاربا ، وإن تتركه شدّ عليك ونبح ، فيتعب نفسه في الحالين ، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان .

الاعراب :

(وَكَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الواو عاطفة ، والكاف ومدخولها صفة لمصدر محذوف ، وقد تقدمت له نظائر كثيرة ، والآيات مفعول به ، ولعلمهم الواو عاطفة على محذوف تقديره : ليتدبروها ، ولعل واسمها ، وجملة يرجعون خبرها ، وجملة الرجاء حالية (وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا) الواو عاطفة على متعلق " إذ " بقوله : " وإذ أخذ " ، وأتل فعل أمر ، وفاعله مستتر تقديره أنت ، وعليهم جار ومجرور متعلقان ب " أتل " ، ونبا مفعول به ، والذي مضاف إليه ، وجملة آتيناه صلة الموصول ، وآياتنا مفعول به ثان ،

(506/302)



فانسَلخ عطف على آتيناها ، ومنها جار ومجرور متعلقان بانسَلخ (فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ  
مِنَ الْغَاوِينَ) أتبع فعل ماض رباعي يتعدى لواحد فيكون بمعنى أدركه ، ويتعدى لاثنين ،  
فتكون الهاء المفعول به الأول ، والمفعول به الثاني محذوف تقديره : فأتبعه الشيطان  
خطواته ، أي جعله تابعا لها ، والشيطان فاعل ، فكان عطف على أتبعه ، واسمها مستتر  
، ومن الغاوين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) والواو حالية  
، ولو شرطية غير جازمة ، وشيئا فعل وفاعل ، واللام جواب لو ، وجملة رفعناه لا محل لها ،  
وبها جار ومجرور متعلقان برفعناه (وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ) الواو عاطفة ، ولكن واسمها  
، وجملة أخلد خبر لكن ، وإلى الأرض جار ومجرور متعلقان بأخلد (وَأَتَّبَعَ هَوَاهُ) عطف  
على أخلد ، وهواه مفعول به (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)  
الفاء الفصيحة ، ومثله مبتدأ ، وكمثل الكلب خبره ، وإن شرطية ، وتحمل فعل الشرط ،  
وعليه جار ومجرور متعلقان بتحمل ، ويلهث جواب الشرط ، وأو حرف عطف ، وتتركه  
عطف على فعل الشرط وجوابه المتقدمين ، وسيأتي مزيد من القول في محل الجملة  
الشرطية ، لطول الكلام ، في باب الفوائد (ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا) ذلك مبتدأ ،  
ومثل القوم خبره ، والجملة حالية ، والذين نعت للقوم ، وجملة كذبوا لا محل لها لأنها صلة ،  
وبآياتنا جار ومجرور متعلقان بكذبوا (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) الفاء الفصيحة ،

أي: إذا تحققت أن المثل المذكور مثل هؤلاء المكذبين فاقصصه عليهم، واقصص فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره أنت، والقصص بمعنى المقصود مفعول به، وجملة الرجاء في محل نصب حال من الضمير المخاطب المخاطب في "اقصص"، والمعنى راجيا تفكيرهم  
(سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا

(507/302)

بِآيَاتِنَا) سَاءَ

فعل ماض جامد لإنشاء الذم، ومثلاثي، والقوم مبتدأ، خبره جملة ساء، ولا بد من تقدير محذوف ليكون التمييز والفاعل والمخصوص بالذم كلها متحدة معنى، والتقدير: ساء مثل القوم أو ساء أصحاب مثل القوم، والذين نعت للقوم، وجملة كذبوا بآياتنا صلة. وسيأتي مزيد من القول في هذه الآية في باب البلاغة (وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ) الواو عاطفة، وأنفسهم مفعول به مقدم ليظلمون، وكان واسمها، وجملة يظلمون خبرها، ويجوز أن يكون ما بعد الواو العاطفة داخلا في الصلة معطوفا على كذبوا، بمعنى الذين جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعا عنها، بمعنى ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم.

البلاغة:

في هذه الآيات فنون من البلاغة نجملها فيما يلي : وقد سماه الجاحظ :

## 1- المذهب الكلامي :

هذه التسمية كما ذكر ابن المعتز في كتابه وزعم الجاحظ أنه لا يوجد منه شيء في القرآن .  
والكتاب الكريم مشحون به . وتعريف هذا الباب هو أنه احتجاج المتكلم على ما يريد  
إثباته بحجة تقطع المعاند ، ونقل سلاح المكابر المتعنت ، على طريقة علماء الكلام . ومنه  
منطقيّ تستنج فيه النتائج من المقدمات الصادقة . والآية المقصودة بهذا الفن هي قوله  
تعالى : " ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه " وترتيب المقدمتين في  
هذه الكلمات والنتيجة أنا نقول : ما شاء

الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولو شاء الله رفع بلعام بن باعوراء المقصود بهذه الآية ، فقد  
بعثه الله إلى ملك مدين ليدعوه إلى الإيمان ، فأعطاه وأقطعاه ، فاتبع دينه وترك دين موسى ،  
ففيه نزلت هذه الآية وما بعدها .

(508/302)

---

هذا ولا يكون المقصود ، بالمدح أو الذم إلا من جنس المرتفع بنعم وئس ، فإن وجد كلام  
ظاهره مخالف لهذا الحكم فليعلم أن هناك محذوفاً يذكره يرجع الكلام إلى هذا الأصل

المقرر ، فمن قوله سبحانه :

" ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا " والقوم ليسوا من جنس المثل ، فالتقدير : ساء مثلا مثل القوم ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وعلى هذا يقاس .

2- التشبيه التمثيلي :

في قوله : " واتل عليهم نبأ الذي آتيناه " إلى آخر الآية ، فقد شبه حال من أعطي شيئا فلم يقبله بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولى ذاهبا ، وإن تركته شدّ عليك ونبح ، فإن الكلب يعطي الجهد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات ، وشبه رفضه وقذفه لها ورده لها بعد الحرص عليها ، وفرط الرغبة فيها ، بالكلب ، إذا رجع ينبح بعد اطرادك له وواجب أن يكون رفض الأشياء الخطيرة النفيسة في خدن طلبها والحرص عليها ، والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلا عليك ومدبرا عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش .

الفوائد :

الجملة الشرطية في محل نصب على الحال ، أي : لاهثا في الحالتين ،

(509/302)

---

قاله الزمخشري وأبو البقاء . قال بعضهم : " وأما الشرطية فلا تقع بتمامها موقع الحال ، فلا يقال : جاء زيد إن يسأل يعط ، على الحال بل لو أريد ذلك لجعلت الشرطية خبرا عن ضمير ما أريد الحال عنه ، نحو : جاء زيد هو وإن يسأل يعط ، فيكون الواقع موقع الحال ، ولكن بعد ما أخرجوها عن حقيقة الشرط . وتلك الجملة لم تخل من أن يعطف عليها ما يناقضها أو لم يعطف ، والأول ترك الواو مستمرا فيه ، نحو : أتيتك إن أتيتني وإن لم تأتني ، إذ لا يخفى أن النقيضين من الشرط في مثل هذا الموضع لا يبقيان على معنى الشرط ، بل يتحولان إلى معنى التسوية ، كالأستفهامين المتناقضين في قوله : " أأنذرتهم أم لم تنذرهم " ، وأما الثاني فلا بد فيه من الواو ، نحو : أتيتك وإن لم تأتني ، ولو ترك الواو لالتبس بالشرط حقيقة ، فقوله : " إن تحمل عليه يهث أو تتركه يلهث " من قبيل الأول ، لأن الحمل عليه والترك نقيضان . وهذا من أدق المباحث فتأمله لأنه جدير بالتأمل .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 178 إلى 179]

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ  
كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ  
بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)

اللغة :

(ذرائعنا) : خلقنا .

الاعراب :

)

(510/302)

مَنْ يُهْدِي اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي) من اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدم ليهد ، والله فاعله ، والفاء رابطة لجواب الشرط ، وهو مبتدأ ، والمهتدي خبره ، وقد راعى هنا لفظ " من " فأفرد المهتدي (وَمَنْ يُضِلُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) عطف على الجملة السابقة ، وراعى هنا معنى " من " فجمع الخاسرين (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ) الواو عاطفة ليتساق كلام الله تعالى في وصفهم ووصف ما لهم . واللام جواب للقسم المحذوف ، وذرائع فعل وفاعل ، ولجهنم جار ومجرور متعلقان بذرائع ، وكثيرا مفعول به ، ومن الجن والإنس صفة ل " كثيرا " (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا) لهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وقلوب مبتدأ مؤخر ، والجملة حال من " كثيرا " ، وإن كان نكرة لتخصيصه بالوصف ، وجملة لا يفقهون صفة لقلوب .

ومثل ذلك يقال في الجملتين التاليتين (أُولَئِكَ كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

أولئك مبتدأ ، وكالأنعام جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، ويل حرف إضراب  
وعطف ، وهم مبتدأ ، وأضل خبر ، وأولئك مبتدأ ، وهم ضمير فصل لا محل له ،  
والغافلون خبر أولئك ، أو "هم" مبتدأ ، والغافلون خبر "هم" ، وجملة هم الغافلون خبر  
أولئك .

البلاغة :

في الآية التشبيه التمثيلي ، فقد شبه اليهود في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم مع علمهم أنه النبي  
الموعود بمن عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الأذان ، وجعلهم لإغراقهم في الكفر  
وإصرارهم على الضلال بمثابة من خلقوا للنار لا ينفكون عنها أبدا ، ثم شبههم بالأنعام بل  
بما هودون الأنعام ارتكاسا وسفها وتدنيا في مهابط الرذيلة والآثام .

]

(511/302)

---

سورة الأعراف (7) : الآيات 180 إلى 186 ]

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ (180)

اللغة:

(الحُسْنَى): مؤنث الأحسن، كالكبرى والصغرى، وقيل:

الحسنى: مصدر وصف به كالرجعى، وأفردته كما أفرد وصف ما لا يعقل في قوله: "ولي

فيها ما رب أخرى"، ولو طوبق به لكان التركيب الحسن كقوله: "من أيام آخر".

(يُلْحِدُونَ): مضارع ألحد بمعنى مال وانحرف.

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ): سنستدنيهم قليلا إلى ما يهلكهم، والاستدراج النقل درجة بعد درجة

، من الدرج وهو الطي، ومنه درج الثوب:

إذا طواه.

(وَأُمْلِي): الإملاء: الإمهال والتطويل.

(جِنَّة): بكسر الجيم وتشديد النون: أي جنون.

الاعراب:

)

(512/302)

---



وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) الواو استئنافية، ولله جار ومجرور متعلقان بمحذوف  
خبر مقدم، والأسماء مبتدأ مؤخر، والحسنى صفة، فادعوه الفاء الفصيحة، وادعوه  
فعل وفاعل ومفعول به، وبها جار ومجرور متعلقان بادعوه (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي  
أَسْمَائِهِ) الواو عاطفة، وذرُوا فعل أمر وفاعل، والذين اسم موصول مفعول به، وجملة  
يلحدون صلة الموصول، وفي أسمائه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، والمعنى  
واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيه (سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) سيجزون  
فعل مضارع مبني للمجهول، والواو نائب فاعل، وما مفعول به ثان، وجملة كانوا يعملون  
صلة الموصول، وجملة يعملون خبر كانوا (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الواو  
عاطفة، وممن جار ومجرور

متعلقان بمحذوف خبر مقدم، وجملة خلقنا صلة الموصول، وأمة مبتدأ مؤخر، وجملة  
يهدون بالحق صفة لأمة، وبه جار ومجرور متعلقان بיעدلون (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا  
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) الواو عاطفة أو استئنافية، والذين مبتدأ وجملة كذبوا  
صلة الموصول، وآياتنا جار ومجرور متعلقان بكذبوا، وجملة سنستدرجهم من حيث لا  
يعلمون خبر، ولك أن تنصب الذين بفعل محذوف على الاشتغال، والتقدير: سنستدرج  
الذين كذبوا أي سننقلهم درجة بعد درجة من علو إلى سفلى، أي تقربهم إلى الهلاك  
بإمها لهم.

ومن حيث جار ومجرور متعلقان بنسدر جهم ، وجملة لا يعلمون في محل جر بالإضافة  
(وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَبِينٌ) يجوز أن تكون الواو عاطفة ، وأملي معطوف على نسدر جهم  
، على نحو من الالتفات ، والذي نراه أنها مستأنفة على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، أي : وأنا  
أملي لهم ، ولهم جار ومجرور متعلقان بأملي ، وإن كيدي متين الجملة بمثابة التعليل لقوته  
تعالى (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ) الهمزة للاستفهام الإنكاري ، والواو عاطفة ،  
ولم حرف نفي وقلب وجزم ، وتفكروا فعل مضارع مجزوم بلم ، وما نافية ، وبصاحبهم  
جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ومن حرف جر زائد ، وجنة مجرور لفظاً  
مرفوع محلاً على أنه مبتدأ مؤخر ، والجملة في محل نصب معمولة ليتفكروا ، فهو عامل فيها ،  
لوجود المعلق له وهو " ما " النافية ، ويجوز أن تكون " ما " استفهامية في محل رفع مبتدأ ،  
والخبر بصاحبهم ، ومن جنة جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) إن  
نافية ، وهو مبتدأ ، والأداة حصر ، ونذير خبر ، ومبين صفة (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) تقدم إعراب نظيرها ، وفي ملكوت السموات  
والأرض جار ومجرور متعلقان بينظر ،

وما عطف على ملكوت ، وجملة خلق صلة الموصول ، ومن شيء جار ومجرور متعلقان  
بمحذوف حال (وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ) الواو عاطفة ، والجملة في محل جر  
عطفًا على " ما " قبلها ، أي : في أن ، وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن  
المحذوف ، وخبرها جملة عسى ، واسم عسى مستتر ، وأن وما في حيزها خبرها ،  
واسم يكون ضمير الشأن أيضا ، وجملة قد اقترَبَ أجلهم خبرها (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ  
يُؤْمِنُونَ) الفاء استئنافية ، وبأي جار ومجرور متعلقان بيؤمنون ، والجملة مستأنفة مسوقة  
للتعجب ، أي : إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فكيف يؤمنون بغيره ! والضمير عائد على القرآن  
أو الرسول (مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ) من اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدم  
ليضلل ، والله فاعل ، والفاء رابطة ، ولا نافية للجنس ، وهادي اسمها ، وله جار ومجرور  
متعلقان بمحذوف خبرها (وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) الواو استئنافية ، وجملة يذرههم  
مستأنفة ، والهاء مفعول به ، في طغيانهم جار ومجرور متعلقان بيعمهون ، وجملة يعمهون  
حال من الهاء ، وقرئ : " ويذرههم " بالجزم عطفًا على محل قوله :  
" فلا هادي له " المجزوم .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 187 إلى 188]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ  
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ  
كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَهْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ  
(188)

(515/302)

اللغة:

(السَّاعَةُ): القيامة، وسميت بذلك لوقوعها بغتة، أو لسرعة حسابها، أو على العكس  
لطولها، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق. وهي من الأسماء  
الغالبة كالنجم للثريا.

(مُرْسَاهَا) مصدر ميمي من أرسى، والإرساء الاستقرار والإثبات، والثلاثي منه رسا،  
ورسا الشيء ثبت، ورسست السفينة: وقفت عن الجري.

(يُجَلِّيهَا): يظهرها.

(حَفِيٌّ) : مبالغ في السؤال ، والمراد كأنك عالم بها ، لأن من بالغ في المسألة عن الشيء والتفكير عنه استحکم علمه فيه ورصن ، وهذا التركيب معناه المبالغة ومنه إحقاء الشارب .

الاعراب :

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان نمط من ضلالاتهم . ويسألونك فعل وفاعل ومفعول به ، وعن الساعة جار ومجرور متعلقان بيسألونك ، وأيان اسم استفهام في محل نصب على الظرفية الزمانية ، وسيأتي في باب الفوائد اشتقاقه ، وهو متعلق

بمحذوف خبر مقدم ، ومرساها مبتدأ مؤخر ، والجملة بدل من الساعة .

(516/302)

---

وقيل : أيان متعلق بمحذوف ، أي يسألونك ، ومرساها فاعل لهذا الفعل المحذوف (قل) : إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لِأَيِّجَلِّيَّهَا لَوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ إِنَّمَا كَافَةٌ وَمَكْفُوفَةٌ ، وعلمها مبتدأ ، والظرف متعلق بمحذوف خبر ، وجملة لا يجليها حال ، ولوقتها جار ومجرور متعلقان بيجليها ، وجملة إنما وما في حيزها في محل نصب مقول القول وإلا أداة حصر ، وهو فاعل يجليها ، أو

تأكيد للفاعل المستتر (ثَقَلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الجملة مستأنفة ، وفي السموات جار  
ومجرور متعلقان بثقلت ، سواء أكان " في " بمعنى " على " أو على بابها من الظرفية ،  
والمعنى حصل ثقلها ، وهو شدتها أو المبالغة في إخفائها في هذين الطرفين أو عليهما (لا  
تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً) الجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ، ولا تأتيكم فعل وفاعل مستتر  
ومفعول به ، وإلا أداة حصر ، وبغته حال أو مفعول مطلق (يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا) :  
الجملة مستأنفة ، وسيأتي سر هذا التكرير في باب البلاغة . ويسألونك فعل وفاعل  
ومفعول به ، وجملة كأنك حالية ، وكان واسمها ، وحفي خبرها ، وعنها جار ومجرور  
متعلقان بحفي (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) تقدم إعرابها قريبا (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)  
تقدم إعرابها (قُلْ : لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) الجملة مستأنفة مسوقة  
لحسم أطماعهم بعد إعلان نفض يده منهم . وجملة لا أملك في محل نصب مقول القول ، ولا  
نافية وأملك فعل مضارع وفاعل مستتر ، ونفعا مفعول به ، ولنفسي جار ومجرور متعلقان  
بأملك ، أو بحذوف حال من " نفعا " ، لأنه كان في الأصل صفة له لو تأخر عنه ، وإلا أداة  
استثناء ، وما مستثنى من " نفعا وضرا " أو بدل منهما ، وقيل :  
الاستثناء منقطع ، فهو متعين النصب على الاستثناء

(517/302)

)

وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ (الواو استئنافية، ولو شرطية، وكان واسمها، وجملة أعلم خبرها، والغيب مفعول به، ولا استكثرت اللام واقعة في جواب لو، واستكثرت فعل وفاعل، ومن الخير جار ومجرور متعلقان باستكثرت، والجملة لا محل لها (وما مسني السوء) الواو عاطفة، وجملة ما مسني السوء عطف على استكثرت، وما نافية (إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إن نافية، وأنا مبتدأ، وإلا أداة حصر، ونذير خبر، وبشير عطف على نذير، ولقوم جار ومجرور متعلقان بنذير وبشير، وجملة يؤمنون صفة لقوم.

البلاغة:

في قوله تعالى: "يسألونك كأنك حفي عنها" نوع من التكرير لم يدونه علماء البلاغة في معرض حديثهم عن التكرير، وهو أن الكلام إذا بني على مقصد ما، واعترض في أثناءه عارض، فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول، وقد بعد عهده، طرّي بذكر المقصد الأول، لتصل نهايته ببدايته، وقد تقدمت إليه الإشارة، وهذا منها. فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله: "يسألونك عن الساعة أيا نمرساها" ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله: "قل إنما علمها عند ربي" إلى قوله "بغته" أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو

المضمن في قوله: "كأنك حفي عنها" وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بعد عهده، فطري ذكره نظرية عامة، ولا نراه أبدا يطري إلا بنوع من الإجمال، كالتذكرة للأول مستغني عن تفصيله بما تقدم، فمن ثم قيل: "يسألونك" ولم يذكر المسؤل عنه- وهو الساعة- اكتفاء بما تقدم. فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال: "قل إنما علمها عند الله".

الفوائد:

)

(518/302)

---

أيان) بمعنى متى، إن كانت اسم استفهام أو اسم شرط، وقيل اشتقاقه من "أي" وهي "فعالان" منه، لأن معناه: أي وقت وأي فعل، من أويت إليه، لأن البعض أو إلى الكل متساند إليه.

قاله ابن جني، وأبى أن يكون من "أين" لأنه زمان و"أين" مكان.

وقال غيره: أصل أيان "أي أن" فهي مركبة من "أي" المتضمنة معنى الشرط و"أن" بمعنى حين، فصارتا بعد التركيب اسما واحدا، للشرط في الزمان المستقبل، مبني على



الفتح ، وكثيرا ما تلحقها " ما " الزائدة للتوكيد ، كقوله :

إذا النعجة الأدماء بانت بقفرة فأيان ما تعدل به الريح تنزل

[سورة الأعراف (7) : الآيات 189 إلى 192]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ  
حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ  
(189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ  
(190) أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا  
أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (192)

الاعراب :

)

(519/302)

---

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) كلام مستأنف لخطاب أهل مكة . وهو مبتدأ ، والذي  
خبره ، وجملة خلقكم صلة ، ومن نفس جار ومجرور متعلقان بخلقكم ، وواحدة صفة  
(وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) جعل بمعنى خلق معطوف على خلقكم ، وفاعله

ضمير مستتر، ومنها جار ومجرور متعلقان بجعل، وزوجها مفعول به، واللام للتعليل  
ويسكن فعل مضارع منصوب وفاعله هو، وإليها جار ومجرور متعلقان بيسكن والمراد  
بالنفس آدم، وتأنيث الضمير باعتبار لفظ النفس (فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا  
فَمَرَّتْ بِهِ) الفاء عاطفة، ولما رابطة أو حينية، وجملة حملت لا محل لها، وحملان كانت  
مصدران فهي مفعول مطلق، وإن كانت بمعنى الجنين فهي مفعول به، وخفيفا نعت أتى به  
للإشعار بعدم التأذي به كما يصيب الحوامل عادة من آلام الحمل، أو إشارة إلى ابتدائه وكونه  
نظفة لا تنقل البطن. والفاء عاطفة، ومرت عطف على حملت، وبه جار ومجرور  
متعلقان بمرت، أي:

ترددت في إنجاز مهامها وإظهارها من غير مشقة ولا إعنات (فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا)  
الفاء عاطفة، ولما رابطة أو حينية، ودعوا الله فعل ماض وفاعل ومفعول به وربهما بدل  
(لَنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) اللام موطئة للقسم، وجملة القسم مستأنفة لتدل  
على الجملة القسمية، وإن شرطية، وآتينا فعل وفاعل وهو فعل الشرط، ونا مفعول به،  
وصالحا صفة لمفعول محذوف نابت عنه، أي: ولدا صالحا، واللام واقعة في جواب القسم  
لتقدمه، ونكونن فعل مضارع ناقص، مبني على الفتح، واسمها ضمير مستتر تقديره نحن،  
ومن الشاكرين جار

ومحذوف متعلقان بمحذوف خبرها ، وجملة لئن آتيتنا تفسيرية لجملة دعوا الله ، كأنه قيل :  
فما كان دعاؤهما ؟ ما قالاه ، ولك أن تجعلها مقولا لقول محذوف تقديره : فقالا : لئن آتيتنا  
، وجملة لنكونن جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف على ما تقرر (فلما آتاها  
صالحا جعل الله شركاء فيما آتاها) شركاء مفعول جعل ، وله جار ومجرور متعلقان  
بمحذوف حال ، لأنه كان في الأصل صفة لشركاء وتقدم ، وفيما جار ومجرور متعلقان  
بمحذوف صفة لشركاء ، وجملة آتاها صلة ، والمعنى : آتى أولادهما ، وقد دل على ذلك  
قوله : (فتعالى الله عما يشركون) حيث جمع الضمير ، وآدم وحواء بريئان من الشرك .  
والفاء حرف عطف ، وجملة تعالى الله عطف على خلقكم ، وما بينهما اعتراض . ويجوز  
أن تكون الفاء استئنافية ، والجملة مستأنفة ، وسيأتي في باب الفوائد سر هذا الخطاب ،  
وما قاله العلماء فيه . والله فاعله ، وعما جار ومجرور متعلقان بتعالى ، وجملة يشركون لا  
محل لها لأنها صلة الموصول (أي يشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون) الهمزة للاستفهام  
الإنكاري ، ويشركون فعل مضارع ، والواو فاعل ، وما مفعول به ، وجملة لا يخلق صلة  
الموصول ، والواو حالية ، وهم مبتدأ ، وجملة يخلقون بالبناء للمجهول خبر "هم" ، والواو  
نائب فاعل ، والجملة مستأنفة مسوقة لتوبيخهم على ما اقترفوه . وهذا الضمير يعود على  
الأصنام المعبر عنها بـ "ما" ، وعبر عنها بـ "ما" لاعتقاد الكفار فيها ما يعتقدونه في

العقلاء ، ويجوز أن يعود على الكفار ، أي : وهم ومخلوقون لله ، فلو تفكروا في ذلك لآمنوا  
(وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ) الجملة معطوفة على سابقتها ، وأنفسهم  
مفعول به مقدم لينصرون .

الفوائد :

(521/302)

---

المراد في الخطاب الوارد في هذه الآيات شغل العلماء والمفسرين وخاصوا فيه كثيرا ، ولا  
يتسع المجال لنقل ما قالوه في هذا الصدد .  
وأسلم ما نراه وأقربه إلى الصواب والمعقول أن يكون المراد جنسي الذكر والأنثى ، لا يقصد  
فيه إلى معين ، ويكون المعنى حينئذ : خلقكم جنسا واحدا ، وجعل أزواجكم منكم  
أيضا لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الذي هو الأنثى جرى من  
الجنسين كذا وكذا . وقيل : الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه  
وسلم - وهم آل قصي - ألا ترى إلى قوله في قصة أم معبد :  
فيا لقصي ما زوى الله عنكم به من فخار لا يبارى وسؤدد  
وقبل هذا البيت :

جزى الله ربّ الناس خير جزائه رفيقن حلّا خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبرّ ثمّ ترحّلا فيا فوز من أمسى رفيق محمد

وبعده :

ليهن بني سعد مقام قتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

والقائل مجهول .

روى التاريخ أنه حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا يصحبه أبو بكر

، وجعل أهلها خبرهما بعد خروجها من الغار ، هتف الها تفون بهذا القول . وأم معبد

امرأة من بني سعد ، نزلا عندها . و " يا لقصي " أصله : يا آل قصي ، أو تكون لام الاستغاثة

، والجار والمجرور متعلقان بما في " يا " من معنى الفعل .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 193 إلى 195]

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193) إِنَّ

الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

(194) اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ

يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (195)

الإعراب :

)

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ) الواو استئنافية، والجملة مستأنفة مسوقة لخطاب عبدة الأصنام، أي: وإن تدعوا أهلكم إلى طلب هدى ورشاد كما تطلبونه من الله لا يتابعوكم على مرادكم. وإن

شرطية. وتدعوهم فعل الشرط، والواو فاعل. والهاء مفعول به يعود على الأصنام، وإلى الهدى جار ومجرور متعلقان بتدعوهم، ولا نافية، ويتبعوكم جواب الشرط المجزوم (سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ) سواء خبر مقدم، وعليكم جار ومجرور متعلقان بسواء، والهمزة للاستفهام، وهي همزة التسوية التي تؤول ما بعدها بمصدر، وقد مر ذكرها في البقرة، وهي وما في حيزها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ مؤخر، ولك أن تعرب "سواء" خبرا لمبتدأ محذوف، والمصدر المؤول فاعل لسواء الذي أجري مجرى المصادر، وأم عاطفة وتسمى متصلة، وقد سبق ذكرها، وأنتم مبتدأ، وصامتون خبر، والجملة معطوفة على الجملة السابقة (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ) الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدمها، وإن واسمها، وجملة تدعون صلة، ومن دون الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال. وعباد خبر إن، وأمثالكم صفة لعباد، ووصف

الأصنام بأنها عباد أمثالهم مع أنها جمادات ، ولفظ العباد إنما يطلق على الأحياء العقلاء ،  
وعبر عنها بضرورة في قوله : " فادعوهم " ، وقوله :

" فليستجيبوا لكم " ، إنما ساع ذلك كله لأنهم لما اعتقدوا الوهيتها لزمهم كونها حية عاقلة  
وإن كانت في الواقع خلاف ذلك ، ولكن وردت الألفاظ على مقتضى اعتقادهم . وسيأتي  
مزيد من التحقيق في هذا في باب الفوائد ( فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين )  
الفاء الفصيحة ، أي : إذا صح ذلك - وهو لم يصح إلا في اعتقادهم وعرفهم - فادعوهم .  
وادعوهم فعل أمر وفاعل ومفعول به ، وقوله :

"

(523/302)

---

فليستجيبوا " الفاء عاطفة ، واللام لام الأمر ، ويستجيبوا فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ،  
ولكم جار ومجرور متعلقان بيستجيبوا ، وإن شرطية ، وكنتم صادقين فعل الشرط ،  
والجواب محذوف دلت

عليه الفاء الفصيحة ، أي : فادعوهم ، وصادقين خبر كنتم ( اللهم أرجل يمشون بها ) كلام  
مستأنف بمثابة التوبيخ لهم على عقولهم القاصرة .

والهمزة للاستفهام الإنكاري مع النفي ، ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ،  
وأرجل مبتدأ مؤخر وجملة يمشون بها صفة (أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا) أم عاطفة بمعنى بل ،  
والجملة معطوفة على سابقتها ، وكذلك قوله : (أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ  
يَسْمَعُونَ بِهَا) أي :

ليس لهم شيء من ذلك البتة مما هولكم ، فكيف تعبونهم ؟ وأنتم أتم منهم وأكمل حالا (قل  
: ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَمَا تُنظِرُونَ) جملة ادعوا شركاءكم مقول القول ، وثم حرف  
عطف وتراخ ، وكيدون عطف على ادعوا ، والفاء عاطفة ولا ناهية ، تنظرون فعل  
مضارع مجزوم بلا الناهية ، وعلامة جزمه حذف النون ، والنون للوقاية ، وياء المتكلم  
محذوفة ، وقد تقدم القول في جواز حذفها في البقرة .

البلاغة :

في قوله : " أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ " بها إلى قوله : " فَمَا تُنظِرُونَ " فنّ بدعي معروف باسم نفي  
الشيء بإيجابه ، وهو أن يثبت المتكلم شيئاً في ظاهر كلامه بشرط أن يكون الميثب  
مستعاراً ، ثم ينفي ما هو من سببه مجازاً ، والمنفي حقيقة في باطن الكلام ، وهو الذي  
أثبتته لا الذي نفاه ، وفي الآيات المتقدمة يقتضي نفي الإلهية جملة عمن يبصر ويسمع من  
الآلهة المتخذة من دون الله تعالى ، فكيف من لا يسمع ولا يبصر منها . وقد تقدمت له  
أمثلة ، وسيأتي المزيد منه .



الفوائد :

لمير أشهر المفسرين إشكالا في إطلاق لفظ "عباد" على

(524/302)

---

الأصنام ، فابن جرير - الذي هو أشدهم عناية بتقرير كل ما كان يعدّ شكلا والجواب عنه - لم يورده في الآية ، وفسر العباد بالأملاك ، وأما من بعده من المفسرين فقد أوردوا ذلك وأجابوا عنه بجوابين نقلهما الرازي .

عبارة الرازي :

أحدها : أن المشركين لما ادّعوا أنها تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة ، فلا جرم وردت هذه الآية على وفق معتقداتهم ، ولذلك قال : " فادعوهم فليستجيبوا لكم " ، وقال :

إن الذين ولم يقل " التي " .

والجواب الثاني أن هذا الغور في معرض الاستهزاء بهم ، أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء ، فإذا ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم ، ولا فضل لهم عليكم ، فلم جعلتم أنفسكم عبيدا ؟ وجعلتموهم آلهة وأربابا .

[سورة الأعراف (7) : الآيات 196 إلى 200]

إِنَّ وَّلِيَّيَ اللّٰهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا  
يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا  
وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198) خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ  
الْبَاهِلِينَ (199) وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200)

اللغة :

(وَلِيَّيَ) : ناصري ومتولي أموري .

(الْعَفْوُ) : اليسر وضدّ الجهد . أي : خذ ما عفاك من أخلاق الناس وأفعالهم ، وما أتى

منهم ، وتسهّل من غير تكلف ولا إعنات ، ولا تخرجهم وتشق عليهم ، وقال النبي صلى الله

عليه وسلم في هذا المعنى : " يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا " . وقال :

خذني العفو مني تستدمني مودّتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

(العرف) : بضم العين : المعروف وكل جميل من الأفعال ، قال الحطيئة :

(525/302)

---

من يفعل الخير لا يعدم جوازياً لا يذهب العرف بين الله والناس (النزغ) : النخس والغرز ،  
شبه وسوسة الشيطان بغرز السائق لما يسوقه .

الاعراب :

(إِنَّ وَكَيْيَ اللّٰهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ) إن واسمها وخبرها ، والذي  
صفة لله ، وجملة نزل الكتاب صلة الموصول (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) الواو حالية أو عاطفة  
، وهو مبتدأ ، وجملة يتولى الصالحين خبر (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا  
أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ) عطف على ما تقدم ، وقد مر إعرابه آنفاً ، وأنفسهم مفعول به مقدم  
لينصرون (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا) عطف أيضاً ، وإن الشرطية وفعلها  
وجوابها (وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) الواو استئنافية ، وتراهم فعل مضارع ،  
وفاعله مستتر تقديره أنت ، والهاء مفعول به ، وجملة ينظرون إليك حالية ، والواو للحال ،  
وهم مبتدأ ، وجملة لا يبصرون خبر ، وجملة وهم لا يبصرون حال أيضاً (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ  
بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) خذ فعل أمر ، وفاعله مستتر تقديره أنت ، والعفو مفعول  
به ، وفعل الأمر الآخران عطف عليه (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ  
سَمِيعٌ عَلِيمٌ) الواو عاطفة وإن شرطية ، أدغمت نونها بما الزائدة ، وينزغتك فعل مضارع  
مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، وهو في محل جزم فعل الشرط . ومن  
الشيطان جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، لأنه في الأصل كان صفة لـ "نزغ" ، ونزغ

فاعل ، فاستعد : الفاء رابطة لجواب الشرط ، لأن الجواب بعدها طليبي ، واستعد فعل أمر ، وفاعله مستتر تقديره أنت ، وبالله جار ومجرور متعلقان باستعد ، وإن واسمها ، وخبرها ، وجملة إن وما في حيزها للتعليل والاستئناف .  
البلاغة :

(526/302)

---

أعجب العرب كثيرا بقوله تعالى : " خذ العفو " إلى آخر الآية ، لما فيها من سهولة النفوس ، وتأثير في القلوب ، ما ليس لغيره .

نماذج شعرية من الانسجام :

ومن النماذج الشعرية لهذا الفن التي خلت من البديع ، إلا أن يأتي ضمن السهولة ، من غير قصد ، كقول بعضهم ، وينسب إلى ديك الجن الشاعر الحمصي :

يا بديع الدل والغنج لك سلطان على المهج

إن بيتا أنت ساكبه غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا يوم تأتي الناس بالحجج

ولبهاء الدين زهير :

لحاظك أمضى من المرهف وريتك أشهى من القرقف

ومن سيف لحظك لا أتقي ومن خمر ريتك لا أكتفي

أقاسي المنون لنيل المنى ويا ليت هذا بهذا يفني

زها ورد خديك لكنه بغير النواظر لم يقطف

وقد زعموا أنه مضعف وما علموا أنه مضعفي

ومما يستحق أن يغنى به قول صفي الدين ، وقد بلغ غاية الانسجام :

قلت : كحلت الجفون بالوسن قلت : ارتقا با لطيفك الحسن

قلت : تسلّيت بعد فرقنا قلت : عن مسكني وعن سكني

قلت : تشاغلت عن محبتنا قلت : بفرط البكاء والحزن

قلت : تخلّيت ، قلت عن جلدي قلت : تغيّرت ، قلت : في بدني

قلت : أذعت الأسرار ، قلت لها : صير سري هواك كالعلن

قلت : فماذا تروم ؟ قلت لها : ساعة سعد بالوصال تسعفني

قلت : وعين الرقيب ترقبنا قلت : فإني للعين لم أبن

أنحلتني بالبعاد عنك فلو ترصدتني العيون لم ترني

ونختم هذه المختارة بالحكاية الآتية : قيل : إن بعض الأدباء اجتاز

بدار الشريف الرضي ، وقد أخنى عليها الزمان ، وأذهب بهجتها ، وأخلق ديباقتها ،

وبقايا رسومها تشهد لها بالنضارة. فوقف عليها متعجبا من صروف الزمان وتمثل بهذه  
الآيات:

ولقد وقفت على ربوعهم وطلوها بيد البلى نهب  
فبكيت حتى ضجّ من لعب نصوي وعجّ بعذلي الركب  
وتلفت عيني فمد خفيت عني الطلّول تلفت القلب

(527/302)

---

فمر شخص فقال له: أتعرف هذه الآيات؟ فقال: لا قال: والله إنها لصاحب هذه الدار  
، فتعجبا من غريب هذا الاتفاق، والشيء بالشيء يذكر.

[سورة الأعراف (7): الآيات 201 إلى 206]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ  
يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (202) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَايَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا  
يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203) وَإِذَا قُرِئَ  
الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا  
وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205)

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)

اللغة:

(طَائِفٌ): يحتمل أن يكون اسم فاعل من طاف به الخيال يطيف طيفا، أو مصدر منه، وقد قرأ أهل البصرة "طيف"، وكذا أهل مكة، وقرأ أهل المدينة والكوفة: "طائف".  
(اجْتَبَيْتَهَا) اجتبى الشيء: بمعنى جباه لنفسه، أي: جمعه.

(الغدو) بضمين جمع غدوة، بضم الغين وسكون الدال، وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

(الأصال) جمع أصيل وهو من العصر إلى الغروب.

الاعراب:

)

(528/302)

---

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ إِنِ اسْمَهَا، وجملة اتقوا صلة، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن، متضمن معنى الشرط، وجملة مسهم في محل جر بالإضافة لوقوعها بعد الظرف، والهاء مفعول به لمس، وطائف فاعله، ومن الشيطان جار ومجرور متعلقان

بمحذوف صفة لطائف ، وإذا وشرطها وجوابها الآتي خبر إن (تذكروا فإذا هم  
مُبصرون) جملة تذكروا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، والفاء عاطفة ، وإذا  
فجائية ، وقد تقدم الكلام عنها ،  
وهم مبتدأ ومبصرون خبر (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) اضطربت أقوال  
المعربين والمفسرين في هذه الآية ، وتفاديا للضياح في متاهات الأقوال المتشعبة نجزمي بأشهر  
الأقوال وأقربها إلى العقل والمنطق ، فنقول : وإخوانهم : الواو استنافية ، وإخوانهم مبتدأ  
، والضمير فيه يعود على الشيطان ، لأنه لا يراد به الواحد بل الجنس ، والضمير المنصوب  
في يمدونهم يعود على الكفار ، والمرفوع يعود على الشيطان ، والتقدير وإخوان الشياطين  
تمدهم الشياطين ، وعلى هذا فالخبر جار على غير من هوله في المعنى ، ألا ترى أن الإمداد  
مسند إلى الشياطين ، وهو في اللفظ خبر عن إخوانهم ؟ قال الزمخشري :

(529/302)

---

وهذا الوجه أوجه ، لأن " إخوانهم " في مقابلة " الذين اتقوا " ، وفي الغي جار ومجرور  
متعلقان بيمدونهم ، و ثم حرف عطف وتراخ ، ولا يقصرون عطف على يمدونهم ، ولا  
نافية . وهناك أوجه ترجع من حيث النتيجة إليه ، فنكتفي به (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا : لَوْلَا



اجْتَبَيْتَهَا) الواو حرف عطف ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ، وجملة لم تأت بهم  
في محل جر بالإضافة ، وبآية جار ومجرور متعلقان بتأتهم ، وجملة قالوا لا محل لها من  
الإعراب ، ولولا حرف تضيض ، فالكلام طلبى ، أي : اجتبها واخترعها من عند نفسك  
، كما هي عادتك (قُلْ إِنَّمَا اتَّبِعُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي) إنما كافة ومكفوفة ، وأتبع فعل  
مضارع ، وفاعله ضمير مستتر تقديره أنا ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ،  
وجملة يوحى بالبناء للمجهول لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وإلي جار ومجرور متعلقان  
بيوحى ، ومن ربي جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (هذا بصائرٌ من ربكم وهُدًى  
وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) هذه الجملة تنمة لقول القول ، داخلة في حيزه ، وهذا اسم إشارة في  
محل رفع مبتدأ ، وبصائر خبره ، ومن

(530/302)

---

ربكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لبصائر ، وهدى عطف على بصائر ، وكذلك  
رحمة ولقوم جار ومجرور متعلقان برحمة ، وجملة يؤمنون صفة لقوم (وإذا قرئ القرآن  
فاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة ، ويحتمل أن  
تكون عاطفة ، والكلام من جملة المقول المأمور به ، وإذا شرط مستقبل ، وجملة قرئ القرآن

في محل جر بالإضافة، والقرآن نائب فاعل، والفاء رابطة، وجملة استمعوا له لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم، وله جار ومجرور متعلقان باستمعوا، واختلف في الاستماع والمراد به، وأظهر الأقوال أنه الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة أو غير صلاة، وقيل: معنى "فاستمعوا":

فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه. ولعل واسمها، وجملة ترحمون خبرها، وجملة الرجاء حالية (وَأَذْكُرُ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً) الواو عاطفة، واذكر فعل أمر، وربك مفعول به، وفي نفسك جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، وهو عام في الأذكار، وتضرعا وخيفة في نصبهما وجهان: أحدهما أنهما مفعولان لأجلهما، والثاني أنهما مصدران وقعا موقع الحال، أي: متضرعين خائفين (وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) الواو عاطفة، ودون ظرف متعلق بمحذوف معطوف على في نفسك، أي: في السرّ وفي الجهر، ومن القول جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، وبالغدو والآصال جار ومجرور متعلقان باذكر، والواو عاطفة، ولا ناهية، وتكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلا الناهية، ومن الغافلين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ) كلام مستأنف مسوق لذكر المؤمنين الذين استأهلوا القرب من الله. وإن واسمها، وعند ربك ظرف متعلق بمحذوف لا محل له

الاعراب ، لأنه صلة الموصول ، وجملة لا يستكبرون خبر إن ، والمراد بالعندية القرب من الله والزلزلى إليه ، وعن عبادته جار ومجرور متعلقان بيستكبرون ، ويسبحونه عطف على ما تقدم ، وله الواو عاطفة والجار والمجرور متعلقان بيسجدون ، ويسجدون عطف على يسبحونه ، ويجوز ان تكون الواو حالية أو استئنافية ، وجملة يسبحونه خبر لمبتدأ محذوف ، أي : وهم يسبحونه .

الفوائد :

وهذا فصل ممتع للإمام الغزالي ننقل بعضه لمناسبته ونفاسته .  
قال : " ولأجل شرف ذكر الله عظمت رتبة الشهادة ، لأن المطلوب الخاتمة ، ونعني بالخاتمة وداع الدنيا والقدوم على الله تعالى ، والقلب مستغرق بالله عز وجل ، فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا في صف القتال ، فانه قطع الطمع عن مهجته وأهله ، وماله وولده ، بل من الدنيا كلها ، فإنه يريد لها حياتة . وقد هون على قلبه حياتة في حب الله عز وجل ، وطلب مرضاته ، فلا تجرد أعظم من ذلك ، ولذلك عظم أمر الشهادة .  
ولما استشهد عبد الله بن عمرو الأنصاري يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

لجابر : ألا أبشرك يا جابر ؟ قال : بلى بشرك الله بالخير ، قال : إن الله أحيا أباك فأقعه بين يديه ، وليس بينه وبينه حجاب ولا رسول . فقال تعالى : تمنّ عليّ يا عبدي ، ما شئت أعطيكه .

فقال : يا ربّ ! إن تردّني إلى الدنيا حتّى أقتل فيك وفي نبيك مرّة أخرى . فقال الله عزّ وجلّ : سبق القضاء منّي بأنهم إليها لا يرجعون .  
ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة .  
وصيّة عمر لبعض قواده :

(532/302)

---

وتعجبني دعوة عمر بن الخطاب إلى ذكر الله وخشيته ، رجاء غوثه ورحمته ، في وصية لبعض قواده : "أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وأن تكون أنت ومن معك أشدّ احتراساً من المعاصي فيكم من عدوكم ، فإنّ ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عدونا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدّتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإن لا ننصر عليهم بطاعتنا لم تغلبهم بقوتنا ،

واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله ، يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، واسألوا  
الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إعراب  
القرآن وبيانه ح 3 ص 472.524 ﴾

(533/302)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب : الحاوي في تفسير القرآن الكريم  
ويسمى ( جنة المشتاق في تفسير كلام الملك الخلاق )  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بورسلي - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
( عفا الله عنه وغفر له )

الجزء الثالث بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/303)

---

الجزء الثالث بعد الثلاثمائة  
فصول مهمة تتعلق بالسورة

(4/303)

---

(سورة الأنفال)

(5/303)

---

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة  
(سورة الأنفال)

"فصل"

قال السيوطي :

سورة الأنفال

8 - سورة الأنفال مدنية وآياتها خمس وسبعون أخرج النحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن

مردويه من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنفال بالمدينة

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت بالمدينة سورة الأنفال

وأخرج ابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : نزلت الأنفال بالمدينة

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن

جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الأنفال ؟ قال : نزلت في بدر

وفي لفظ : تلك سورة بدر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص 3 ﴾

وقال القرطبي :

سورة الأنفال : مدنية بدرية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس : هي

مدنية إلا سبع آيات ، من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إلى آخر السبع

آيات . انتهى انتهى . اه ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص 360 ﴾

وقال ابن كثير:

سورة الأنفال

وهي مدنية (آياتها سبعون وست آيات كلماتها ألف كلمة ، وستمائة كلمة ، وإحدى وثلاثون كلمة ، حروفها خمسة آلاف ومائتان ، وأربعة وتسعون حرفا ، والله أعلم . انتهى انتهى . اه ﴿ تفسير ابن كثير ح 4 ص 5 ﴾

(7/303)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادي:

(بصيرة في . . يسألونك عن الأنفال)

اعلم أن هذه السورة مدنية بالإجماع وعدد آياتها سبع وسبعون عند الشاميين ، وخمس

عند الكوفيين ، وست عند الحجازيين ، والبصريين .

وعدد كلماتها ألف ومائة وخمس وتسعون كلمة .

وحروفها خمسة آلاف ومائتان وثمانون .



الآيات المختلف فيها ثلاث ﴿يَغْلِبُونَ﴾ ، ﴿بَنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ﴿أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ .

فواصل آياته (ن د م ق ط ر ب) يجمعها نَدِمَ قَطُرُبُ ، أو نطق مدير .

على الدال منها آية واحدة ﴿عَبِيدٍ﴾ .

وعلى القاف آية واحدة ﴿حَرِيقٍ﴾ وعلى الباء أربع آيات آخرها ﴿عِقَابٍ﴾ .

ولهذه السورة اسمان : سورة الأنفال ؛ لكونها مفتحة بها ، ومكررة فيها ، وسورة بدر ،

لأن معظمها في ذكر حرب بدر ، وما جرى فيها .

(8/303)

---

مقصود السورة مجملًا : قطع الأطماع الفاسدة من الغنيمة التي هي حق الله ورسوله ، ومدح الخائفين الخاشعين وقت سماع القرآن ، وبعث المؤمنين حقًا ، والإشارة إلى ابتداء حرب بدر ، وإمداد الله تعالى صحابة نبيه بالملائكة المقربين ، والنهي عن الفرار من صف الكفار ، وأمر المؤمنين بإجابة الله ورسوله ، والتحذير عن الفتنة ، والنهي عن خيانة الله ورسوله ، وذكر مكر كفار مكة في حق النبي صلى الله عليه وسلم ، وتجاسر قوم منهم باستعجال العذاب ، وذكر إضاعة نفقاتهم في الضلال والباطل ، وبيان قسم الغنائم ،

وتلاقى عساكر الإسلام وعساكر المشركين ، ووصية الله المؤمنين بالثبات فى صف القتال ، وغضروا إبليس طائفة من الكفار ، وذم المنافقين فى خذلانهم لأهل الإيمان ، ونكال ناقضى العهد ليعتربهم آخرون ، وتهيئة عذر المقاتلة والحاربة ، والميل إلى الصلح عند استدعائهم الصلح ، والمن على المؤمنين بتأليف قلوبهم ، وبيان عدد عسكر الإسلام ، وعسكر الشرك ، وحكم أسرى بدر ، ونصرة المعاهدين لأهل الاسلام ، وتخصيص الأقارب ، وذوى الأرحام بالميراث فى قوله ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ إلى آخر السورة .

الناسخ والمنسوخ:

(9/303)

---

الآيات المنسوخة فى السورة ست ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ م ﴿ مَا غَنِمْتُمْ ﴾ ن ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ م ﴿ وَمَا لَهُمْ الْأَعْدَاءُ بِهِمْ اللَّهُ ﴾ ن ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ م ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ن ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ ﴾ م ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ن ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ ﴾ م ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾

ن ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِم مِّنْ شَيْءٍ ﴾ م ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ  
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ ن . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز ح 1 ص 222.224 ﴾

(10/303)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الأنفال

169 - مسألة :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

وفي الرعد : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (28)

جوابه :

أن المراد " بالذكر " ، ذكر عظمة الله وجلاله ، وشدة انتقامه

ممن عصى أمره لأن الآية نزلت عند اختلاف الصحابة فى غنائم

بدر ، فناسب ذكر التخويف .

وآية الرعد : نزلت فىمن هداه الله وأتاب إليه ، والمراد بذلك الذكر : ذكر رحمته وعفوه

ولطفه لمن أطاعه وأتاب إليه .

وجمع بينهما في آية الزمر ، فقال تعالى : (تَقشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) أي عند ذكر عظمته وجلاله وعقابه ،

ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر رحمته وعفوه وكرمه .

170 - مسألة :

أجوابه : قوله تعالى : (وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) .

تقدم في البقرة .

171 - مسألة :

قوله تعالى : (فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (35)) . وفي

الأعراف : (بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (39)) ؟ .

جوابه :

أن الآية هنا في قريش وكفرهم بصلاتهم عند البيت مكاء

وتصدية . وآية الأعراف : في قوم ضلوا وأضلوا غيرهم بما

كسبوا من إضلال غيرهم مع كفرهم ، فناسب زيادة

العذاب وتضعيفه لزيادة الكسب في الضلالة .

172 - مسألة :

قوله تعالى: (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

فنفي أولا ما أثبتته آخرا ؟ .

جوابه :

أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رمى أولا والصحابة قتلوا ، والله تعالى هو الذي أوصل ما رماه إلى وجوه الكفار ، والقتل من الصحابة إلى مقاتليهم فصنع الإسناد إلى الله وإليهم .

3 لا 1 - مسألة :

قوله تعالى: (لِيُحِقَّ الْحَقَّ) ما وجهه ومعناه ، مع أن ظاهره كما يقال نحصيل الحاصل ؟ .

جوابه :

ليقع الحق عنده من نصر المسلمين وغلبهم ، أو ليحق عندكم

(11/303)

---

الحق عنده من النصر والغنيمة .

174 - مسألة :

قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) ثم قال: (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ) فأثبت

عذابهم ثانيا بعد نفيه أولا ، فما معناه ؟ .

جوابه :

المتنفي عذاب الدنيا الذي كانوا يستعجلونه ، والمثبت عذاب الآخرة . أو المنع تعذيبهم بشرط كونك فيهم ، والمثبت عدم ذلك . أو المنع عذاب الكل ليعلمه أن بعضهم سيسلمون ،

والمثبت عذاب بعضهم كيوم بدر .

175 - مسألة :

قول الشيطان يوم بدر : (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ) .  
كيف لم يقل ذلك حين أبى من السجود ؟ .

جوابه :

أنه قد علم ما أعد له من عذاب القيامة ، فلما رأى الملائكة يوم بدر ونزولها إلى الأرض توهم أنه الوقت المعلوم وأنه قد حان أجل عذابه .

176 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .  
وقال في براءة : (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ) .  
قدم المال هنا وأخره في براءة .

جوابه :

أن آية الأنفال تقدمها ذكر الغنائم واختيارهم أخذ الفداء من الأسرى بيدر فناسب تقديم إنفاق المال في سبيل الله تعالى . وآية براءة : تقدمها ذكر افتخارهم بعمارة المسجد الحرام على المجاهدين فناسب تقديم الجهاد في سبيل الله على ذكر الأموال ، وأنه أهم . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ كشف المعاني ص 189 . 193 ﴾

(12/303)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادي :

المتشابهات : قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴾ وقوله : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ ﴾ وقوله : ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ قد سبق .

قوله : ﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ثم قال بعد آية ﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أجاب عن هذا بعض أهل النظر وقال : ذكر في الآية الأولى عقوبته إياهم عند الموت ؛ كما فعله آل فرعون ومن قبلهم من الكفار ، وذكر في الثانية ما يفعله بهم بعد موتهم .

قال الخطيب : الجواب عندي : أَنَّ الْأَوَّلَ إِخْبَارٌ عَنْ عَذَابٍ لَمْ يُمْكِنَ لِلَّهِ أَحَدًا مِنْ فَعْلِهِ ،

وهو ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند نزع  
أرواحهم ، والثاني إخبار عن عذاب مكنَّ النَّاس من فعل مثله ، وهو الإهلاك والإغراق .  
قال تاج القراء : وله وجهان [آخران] محتملان .  
أحدهما : كدأب آل فرعون فيما فعلوا ، والثاني : كدأب فرعون فيما فعل بهم .  
فهم فاعلون في الأوَّل ، ومفعولون في الثاني .  
والوجه الآخر : أن المراد بالأوَّل كفرهم بالله ، وبالثاني تكذيبهم بالأنبياء ؛ لأنَّ تقدير الآية :  
كذبوا الرِّسل بردهم آيات الله .  
وله وجه آخر .

وهو أن يجعل الضمير في ﴿ كَفَرُوا ﴾ لكفار قريش على تقدير : كفروا بآيات ربهم كدأب  
آل فرعون والذين من قبلهم ، وكذلك الثاني : كذبوا بآيات ربهم كدأب آل فرعون .

(13/303)

---

قوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هنا بتقديم  
أموالهم وأنفسهم وفي براءة بتقديم ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لأنَّ في هذه السورة تقدّم ذكرُ المال  
والفداء والغنيمة في قوله : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ و ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ



لَسْتُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴿٢٢٤﴾ أَي مِنَ الْفِدَاءِ ، ﴿٢٢٥﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴿٢٢٦﴾ فَقَدِمَ ذِكْرُ الْمَالِ ، وَفِي  
بِرَاءَةٍ تَقْدِمُ ذِكْرَ الْجِهَادِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿٢٢٧﴾ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴿٢٢٨﴾ وَقَوْلُهُ :  
﴿٢٢٩﴾ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٣٠﴾ فَقَدِمَ ذِكْرَ الْجِهَادِ ، وَذَكَرَ هَذِهِ الْآيَاتُ  
فِي هَذِهِ السُّورَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

فَأُورِدَ فِي الْأُولَى ﴿٢٢٤﴾ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٢٥﴾ وَحُذِفَ مِنَ الثَّانِيَةِ ﴿٢٢٦﴾ بِأَمْوَالِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ ﴿٢٢٧﴾ اِكْتِفَاءً بِمَا فِي الْأُولَى ، وَحُذِفَ مِنَ الثَّلَاثَةِ ﴿٢٢٨﴾ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴿٢٢٩﴾ وَزَادَ ﴿٢٣٠﴾ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٣١﴾ اِكْتِفَاءً بِمَا فِي الْآيَتَيْنِ . اِنْتَهَى اِنْتَهَى . ا هـ ﴿٢٣٢﴾ بِصَائِرِ ذَوِي التَّمْيِيزِ ح 1 ص  
﴿٢٢٤. 226﴾

(14/303)

وقال العلامة الكرمانى رحمه الله :

سورة الأنفال

162 - قوله وما جعله الله إلا بشرى 10 وقوله ومن يشاقق الله 13 وقوله ويكون الدين

كله لله 39 وقد سبق

163 - قوله كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله 52 ثم قال بعد آية كذاب

آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم 54 قال الخطيب قد أجاب فيها بعض أهل النظر بأن قال ذكر في الآية الأولى عقوبته إياهم عند الموت كما فعله آل فرعون ومن قبلهم من الكفار وذكر في الثانية ما يفعل بهم بعد الموت كما فعله آل فرعون ومن قبلهم فلم يكن تكرارا

قال الخطيب والجواب عندي أن الأول إخبار عن عذاب لم يمكن الله أحدا من فعله وهو ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند نزاع أرواحهم والثاني إخبار عن عذاب مكن الناس من فعل مثله وهو الإهلاك والإغراق

قلت وله وجهان آخران محتملان أحدهما كدأب آل فرعون فيما فعلوا والثاني كدأب آل فرعون فيما فعل بهم فهم فاعلون على الأول ومفعولون في الثاني والوجه الآخر أن المراد بالأول كفرهم بالله والثاني تكذيبهم بالأنبياء لأن تقدير الآية كذبوا الرسل بردهم آيات الله

وله وجه آخر وهو أن يجعل الضمير في كفروا الكفار قريش على تقدير كفروا بآيات الله كدأب آل فرعون وكذلك الثاني كذبوا بآيات ربهم كدأب آل فرعون

164 - قوله الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله 72 في هذه  
السورة بتقديم أموالهم وأنفسهم وفي براءة بتقديم في سبيل الله 20 لأن في هذه السورة تقدم  
ذكر المال والفداء والغنيمة في قوله تريدون عرض الدنيا 67 لولا كتاب من الله سبق لمسكم  
فيما أخذتم 68 أي من الفداء فكلوا مما غنمتم 69 فقدم ذكر المال وفي براءة تقدم ذكر  
الجهاد وهو قوله ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم 16 وقوله كمن آمن بالله واليوم الآخر  
وجاهد في سبيل الله 19 فقدم ذكر الجهاد في هذه الآية في هذه السورة ثلاث مرات فأورد  
في الأولى بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وحذف من الثانية بأموالهم وأنفسهم اكتفاء بما في  
الأولى وحذف من الثالثة بأموالهم وأنفسهم وزاد حذف في سبيل الله اكتفاء بما في الآيتين  
قبلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أسرار التكرار في القرآن ص 94-95 ﴾

(16/303)

---

من مجازات القرآن في السورة الكريمة

قال ابن المشنى :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

«سورة الأنفال»

(8)

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» (1) ومجازها الغنائم التي نفلها الله النبي صلى الله عليه وأصحابه

، واحدا نقل ، متحرك بالفتحة ، قال لبيد :

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفْلِ «1»

«وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ» (2) أي خافت وفزعت ، وقال معن بن أوس :

لعمرك ما أدري وإنى لأوجل على أننا تعدو المنية أول «2»

«كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ» (5) مجازها مجاز القسم ، كقولك : والذي

أخرجك ربك لأن «ما» فى موضع «الذي» وفى آية

---

(1) ديوانه 11 / 2 - وجمهرة الأشعار 7 والطبري 108 / 9 والقرطبي 361 / 7

واللسان (نفل) وشواهد الكشاف 229 .

(2) : معن بن أوس : شاعر إسلامي ، راجع الأغاني 156 / 10 والمعجم للمرزباني

399 والسمط 733 والإصابة رقم 8451 . - والبيت فى الحماسة 132 / 3

والجمهرة 18 / 3 والاقتضاب 463 والخزانة 505 / 3 .

(17/303)

---

أخرى «وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا» (5/91) أي والذي بناها ، وقال :

دعيني إنما خطأي وصوبى على وإن ما أهلكت مال «1»

أي وإن الذي أهلكت مال . وفي آية أخرى «إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ» (69/20) : إنَّ

الذي فعلوه كيد ساحر فلذلك رفعوه .

«غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ» (7) مجاز الشوكة : الحدّ ، يقال : ما أشدّ شوكة بنى فلان أي

حدّهم . «2»

«بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ» (9) مجازة : مجاز فاعلين ، من أردفوا أي جاءوا بعد قوم

قبلهم وبعضهم يقول : ردفتى أي جاء بعدي وهما لغتان ، ومن قرأها بفتح الدال وضعها فى

موضع مفعولين من أردفهم الله من بعد من قبلهم وقدامهم . «3»

---

(1) من كلمة لأوس بن خلفاء فى نوادر أبي زيد 46 والشعراء 404 ، والعيني 4/

249 وهو فى الصحاح واللسان والتاج (صوب) والقرطبي 10/252 .

(2) «غير . . . حدّهم» : روى ابن حجر (7/269) هذا الكلام عن أبي عبيدة فى

فتح الباري 8/230 . وقال القرطبي : قال أبو عبيدة : أي غير ذات الحدّ .

(3) «ردفتى . . . واحد» الذى ورد فى الفروق : روى أبو على الفارسي هذا الكلام

عن أبي عبيدة فى الحجة 1/193 (شهيدي على) وفى القرطبي 7/371 وروى ابن

حجر هذا الكلام عنه أيضا فى فتح الباري 8/230 .

«التُّعَاسُ أَمْنَةٌ مِنْهُ» (11) وهى مصدر بمنزلة أمنت أمانة وأمانا [وأمانا] ، كلهن سواء .

«رَجَزَ الشَّيْطَانَ» (11) أي لطح الشيطان ، وما يدعوا إليه من الكفر .

«وَيُثَبَّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ» (11) مجازه : يفرغ عليهم الصبر وينزله عليهم فيثبتون لعدوهم .

«1»

«فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ» (12) مجازه : على الأعناق ، يقال : ضربته فوق الرأس

وضربته على الرأس .

«وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» (12) وهى أطراف الأصابع واحدها بنانة ، قال [عباس بن

مرداس] :

ألا ليتنى قطعت منى بنانة ولا قيته فى البيت يقظان حاذرا «2»

(1) «مجازه . . . لعدوهم» : نقل الطبري (9/124) هذا الكلام وقال : وقد زعم

بعض أهل العلم بالغريب من أهل البصرة أن مجاز قوله «ويثبت به الأقدام» يفرغ عليهم

الصبر وينزله عليهم فيثبتون لعدوهم ، وذلك خلاف لقول جميع أهل التأويل من الصحابة

والتابعين وحسب قول خطأ أن يكون خلافا لقول من ذكرنا وقد بينا أقوالهم فيه وأن معناه

وثبتت أقدام المؤمنين بتليد المطر الرمل حتى لا تسوخ فيه أقدامهم وحوافر دوابهم .

[.....]

(2) : فى الطبري 125 / 9 واللسان والتاج (بنن) والسجاوندى 189 / 1 ب

(كويريلى) . - أبو ضب : لعله خويلد وقد كان هويم بن مرداس أخو عباس ابن مرداس

مجاورا فى خزاة فى جوار رجل منهم يقال له : عامر فقتله رجل من خزاة يقال له خويلد

إلخ . راجع الخبر المروي عن أبى عبيدة فى الأغانى 66 / 13 .

(19/303)

---

[يعنى أبأ ضبّ رجلا من هذيل قتل هريم بن مرداس وهو نائم وكان جاورهم بالربيع] .

أَقْوَا اللّٰهَ

(13) مجازة : خانوا الله وجانبوا أمره ودينه وطاعته .

مَنْ يُشَاقِقِ اللّٰهَ وَرَسُوْلَهُ فَإِنَّ اللّٰهَ شَدِيْدُ الْعِقَابِ

(13) والعرب إذا جازت ب «من يفعل كذا» فإنهم يجعلون خبر الجزاء ل «من» وبعضهم

يترك الخبر الذي يجاز به ل «من» ويخبر عما بعده فيجعل الجزاء له كقول شداد بن معاوية

العيسى وهو أبو عنتره :

فمن يك سائلا عنى فإنى وجروة لا ترود ولا تعار «1»

لا أدعها تجيء وتذهب تعار . ترك الخبر عن نفسه وجعل الخبر لفرسه ، والعرب أيضا إذا

خبروا عن اثنين أظهروا الخبر عن أحدهما وكفوا عن خبر الآخر ولم يقولوا :

ومن يجارب الصلت وزيدا فان الصلت وزيدا شجاعان كما فعل ذلك قائل :

---

(1) : اختلفوا فى عزوه كما اختلفت الأصول أيضا . وهو من كلمة فى ديوان عنتره من

السته 39 ونسبها أبو عبيدة فى النقائض لأبيه شداد بن معاوية العبسي 97 وكذا فعل

صاحب الأغاني (32/16) والبيت فى الكتاب 127/1 واللسان والتاج (جرو)

معزولشداد .

(20/303)

---

فمن يك سائلا عنى فإنى وجروة لا ترود ولا تعار (276)

ولم يقل لا ترود ولا تعار فيدخل نفسه معها فى الخبر ، وكذلك قول الأعشى :

وإن إمرأ أهدى إليك ودونه من الأرض موماة ويهماء خيفق

لمحقوقة أن تستجيبى لصوته وأن تعلمى أن المعان موفق

قال أبو عبيدة : كان المحلق اهدى إليه طلبا لمديحه وكانت العرب تحب المدح فقال لناقته



يخاطبها :

وإن أمراء أهدى إليك ودونه «1»

ترك الخبر عن امرئ وأخبر عن الناقة فخاطبها . وفي آية أخرى :

«وَمَنْ يُؤَكِّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (49/8) .

«وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» (17) مجازه : ما ظفرت ولا أصبت ولكن الله

أيدك وأظفرك وأصاب بك ونصرك ويقال : رمى الله لك ، أي نصرك الله وصنع لك .

---

(1) : ديوانه 149 - والإنصاف 32 والخزانة 1/551 ، 2/411 . - فالمراد

بالمرء ممدوحه والخطاب لناقته وكان ممدوحه أهداها له فالكلام على هذه الرواية من أوله

إلى هنا خطاب لناقته (الخزانة) .

(21/303)

---

«إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ» (19) مجازه : إن تستصروا فقد جاءكم النصر .

«فَتُكْمُ شَيْئًا» (19) مجازها : جماعتكم ، قال العجاج :

كما يجوز الفئة الكمي

(169)

«وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ» (20) مجازة: ولا تدبروا عنه ولا تعرضوا عنه قد عوا أمره.

«اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ» (24) مجازة: أجبوا الله «1» ويقال استجبت له واستجبته، وقال كعب بن سعد الغنوي:

وداع دعا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب (83)

«إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» (24) مجازة: للذي يهديكم ويصلحكم وينجيكم من الكفر والعذاب.

«فَأَمْطَرُ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ» (32) مجازة أن كل شيء من العذاب فهو أمطرت بالألف وإن كان من الرحمة فهو مطرت. «2»

---

(1) «أجبوا»: رواه القرطبي (389/7) تفسيره هذا عن أبي عبيدة.

(2) «العذاب . . . فهو مطرت». رواه ابن حجر عن أبي عبيدة في فتح الباري (8/

231) وقال: وفيه نظر.

مُكَاءً وَتَصْدِيَةً» (35) «1» المكاء الصغير قال [رجل يعنى امرأته]:

ومكابها فكأنما يكو بأعصم عاقل

(278) «وَتَصْدِيَةً» أي تصفيق بالألف ، قال : تصدية بالكف أي تصفيق ، التصفيق

والتصفيح والتصدية شىء واحد .

«فَذُوقُوا» (35) مجازه : فجربوا وليس من ذوق الفم . «2»

«فَيَرَكُمُهُ جَمِيعاً» (37) مجازه : فيجمعه بعضه فوق بعض أجمع .

«بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا» (42) «3» مكسورة ، وبعضهم يضمها ، ومجازه من : عدى الوادي أي

ملطاط شفيره والملطاط والعدى حافتا الوادي من جانبيه ، بمنزلة رجا البر من أسفل ،

ويقال : ألزم هذا الملطاط .

---

(1) «مكاء وتصدية» : قال أبو على قال أبو عبيدة وغيره المكاء الصغير والتصدية

التصفيق (الحجة 1/202 شهيد على) . وروى ابن حجر تفسير أبي عبيدة لهتين

الكلمتين فى فتح الباري 8/230 .

(2) «فجربوا . . . الفم» : كذا فى البخاري ، وقال ابن حجر فى فتح الباري 8/231

هو قول أبى عبيدة .

(3) «العدوة» : اختلف القراء فى قراءة قوله «إذ أنتم بالعدوة» فقرأ عامة قراء المدنيين

والكوفيين بضم العين وقرأ بعض المكيين والبصريين بالعدوة بكسر العين وهما لغتان مشهورتان بمعنى واحد فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب (الطبري 8/10).

(23/303)

---

«إذ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ» (44) مجازه: في نومك ويدل على ذلك قوله في آية أخرى:  
«إذ يُغَشِّيكَمُ النَّعَاسَ» (8/11) وللنمाम موضع آخر في عينك التي تنام بها  
ويدل على ذلك قوله «وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ» (44).  
«وَتَذْهَبُ رِيحُكُمْ» (46) مجازه: وتنقطع دولتكم.  
«نَكْصَ عَلَى عَقَبِيهِ» (49) مجازه: رجع من حيث جاء.  
«وَلَوْ تَرَى إِذِ تُوْفِّي الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأُدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ  
الْحَرِيقِ» (51) مجازه مجاز المختصر المضمرة فيه وهو بمعنى ويقولون ذوقوا عذاب الحريق  
، والعرب تفعل ذلك ، قال النابغة :

كأنك من جمال بنى أقيش يققع خلف رجله بشن (54)

معناه: كأنك جمل والعرب تقدم المفعول قبل الفاعل .

«كَأَبِ آلِ فِرْعَوْنَ» (53) مجازه: كهادة آل فرعون وحالهم وسنتهم [والدأب والديدن

والدين واحد ، قال المثقب العبدى :

تقول إذا درأت لها وضيئى أهذا دينه أبدا ودينى «1»

---

(1) : البيتان فى ديوانه رقم 5 - وفى شرح المفضليات 586 والاقتضاب 426 والأول

فقط فى الجمهرة 2/305 ، 3/442 واللسان (درأ) وشعراء الجاهلية 405 -

409 . - الوضين للرحل بمنزلة الحزام ، ودرأت مددت وشددت رحلها .

(24/303)

---

أكل الدهر حلّ وارتحال أما يبقى على ولا يتينى

وقوله : درأت أي بسطت ويقال يا فلانه ادري لفلان الوسادة] ، وقال خدّاش بن زهير

العامرى فى يوم الفجار ، كانت النصرّة فيه لكنانة وقريش على قيس :

وما زال ذاك الدأب حتى تخاذلت هوازن ورفضت سليم وعامر «1»

«إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا» (56) مجاز الدواب أنه يقع على الناس وعلى

البهائم ، وفى آية أخرى :

«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» (6/11) .

«فَإِذَا تَنَفَّسْتُمْ فِي الْحَرْبِ» (58) مجازه مجاز فإن تنفّسهم .

«فَشَرَّدُ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ» (58) مجازه فأخف واطرد بهؤلاء الذين تتقنهم الذين بعدهم ،  
وفرق بينهم .

---

(1) خداش : هو خداش بن زهير بن ربيعة بن عمرو بن عامر بن صعصعة له ترجمة في  
معجم المرزباني 106 والأغاني 78/19 والإصابة 950/2 والخزانة 232/3 ،  
قيل : إنه شاعر جاهلي وقيل : بل هو مخضرم إذ أنه أسلم بعد غزوة حنين . - يوم الفجار :  
هو الواقعة العظمى نسبت إلى البراض بن قيس فليل : فجار البراض وإنما سميت حرب  
الفجار لأنهم فجروا واستحلوا فيها حرمة الأشهر الحرم .  
انظر الروض 120/1 والأغاني 76/19 والتاج (فجر) . - والبيت . في الأغاني  
80/91 .

(25/303)

---

«وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» (59) مجاز «وَأَمَّا» وإن ، ومعناها  
وَأَمَّا توقنن منهم خيانة أي غدرا ، وخلافا وغشًا ، ونحو ذلك .  
«فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ» (59) مجازه : فألق إليهم وأظهر لهم أنهم حرب وعدو وأنت ناصب لهم  
حتى يعلموا ذلك فتصيروا على سواء وقد أعلمتهم ما علمت منهم ، يقال : نابذتك على

سواء .

«وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا» (60) مجازه : فاتوا .

«إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ» (60) لا يفوتون . «1»

«تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ» (61) أي تخيفون وترعبون أركهبتة ورهبتة سواء ، والرهب

والرهب واحد . قال طفيل بن عوف الغنوي .

ويل أم حىّ دفعتم فى نحرهم بنى كلاب غداة الرعب والرهب «2»

---

(1) «فاتوا . . . لا يفوتون» : روى أبو على الفارسي هذا الكلام عن أبى عبيدة فى

الحجة 1/ 206 ب (شهيدي على) .

(2) : فى الطبري 10/ 20 .

(26/303)

---

«وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ» (62) أي رجعوا إلى المسالمة ، وطلبوا الصلح وهو السلم مكسورة

ومفتوحة ومتحركة بالحروف بالفتحة واحد ، قال رجل من أهل اليمن جاهلى :

أنا ثل إننى سلم لأهلك فاقبلى سلمى «1»

ففىها ثلاث لغات ، وكذلك السلام أيضا ، وقد فرغنا «2» منه فى موضع قبل هذا ويقال

للدلو سلم مفتوحة ساكنة اللام ، ويقال : أخذته سلماً أي أسرته ولم أقتله ولكن استسلم لي ، متحرك الحروف بالفتحة وكذلك السلم الذي تسلم فيه وهو السلف الذي تسلف فيه ، وهو متحرك الحروف والسلم شجر واحدته سلمة متحركة بالفتحة .  
«حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ» (68) مجازه : حتى يغلب ويغالب ويبالغ .  
«عَرَضَ الدُّنْيَا» (68) طمعها ومتاعها والعرض في موضع آخر من أعراض البلايا .  
«وَهَاجَرُوا» (73) مجازه : هاجروا قومهم وبلادهم وأخرجوا منها .

---

(1) : في اللسان والتاج (سلم) .

(2) «وقد فرغنا . . . إلخ» : في ص 71 - 72 . [ . . . . . ]

(27/303)

---

«مِنْ وَلَايَتِهِمْ» (73) إذا فتحتها فهي مصدر المولى وإذا كسرتها فهي مصدر الوالي الذي يلي الأمر والمولى والمولى واحد .

«وَأُولُوا الْأَرْحَامِ» (76) ذووا ، ألا ترى أن واحدها ذو . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجاز

القرآن ح 1 ص 251.240 ﴿



## فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبوزهرة:

### سورة الأنفال

#### تمهيد

هذه السورة مدنية ، وقالوا : إن سبع آيات منها مكية ، وعباراتها السامية تنبى عن أنها مكية ، وهى تبدئ من قوله تعالى : ( وإذ يكره الذين كفروا ليشتكوا أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ) ، فإن هذه الآيات السبع مكية ، تدل عليها عباراتها وزمانها ، ولكن لأنها متصلة بالهجرة أضيفت إلى سورة مدنية .  
والأنفال سميت بأولها ، وهو ( يسألونك عن الأنفال ) ، فسميت بهذا الاسم ، وإن هذه السورة تشتمل على أعمال من أجل ما قام فى الإسلام ، ففيها كان يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، وبهذا اللقاء كان الفرق بين عزة الحق وذلة الباطل ، وفيها تشريع الأنفال والغنائم ، وفيها حكم الأسرى ، ومتى يكون الأسر ، وفيها إعداد العدة ، وفيها الوفاء بالعهد ، ومتى ينقض .

وقد ابتدئت السورة بذكر الأنفال ، وما يؤخذ من الحرب ، وبين الله تعالى أنها فى الأصل لله تعالى ورسوله ، ليقوى بها الجيش ، ويتخذ منها العدة والاهبة ، وكان ذلك إيذاناً بما يجيء بعد ذلك من يوم الفرقان .

ابتدئت السورة بالإشارة إلى ما كان من تساؤل حول الأنفال ، ثم تكلمت بعد ذلك عن الاستعداد للالتقاء يوم الفرقان ، وكانت أول العدة طاعة الله ورسوله ، وامتلاء القلوب بهيبة الله ، وبيان أن المؤمنين المجاهدين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، ويتوكلون على ربهم إذا أعدوا العدة ، وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وإن ذكر الماضى وإرادة تغييره يكون

بالعمل والجهاد ، وإنه يجب الصبر على فراق الأحبة ، ومنع المجادلة فى الحق ، قال تعالى : ( كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون - يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون )

(29/303)

---

ثم يملا الله تعالى قلوب المؤمنين إيماناً وهو من عدة النصر ، ( وَإِذِ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ

دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8) .

ويبين من بعد ذلك الالتجاء إلى الله واستغاثة فاستجاب بإمداد الملائكة الروحي الذي جعله الله تعالى بشرى لهم ولتطمئن قلوبهم .

ورزقهم الله الأمان فناموا ، والنوم امنين قوة ، وأنزل الله تعالى من السماء ماء ليطهرهم به ، ويذهب عنهم رجس الشيطان ، ويوحى رب العالمين إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا فيثبتوهم ، وألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، وصار المؤمنون على استعداد للقتال يضربون فوق الأعناق ، ويضربون منهم كل بنان لأنهم عاندوا الله ورسوله وساقوه فليذوقوا ذلك الباس ومن بعد النار .

ثم يكون التحريض على القتال والثبات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16) .

إنه بعد انتهاء المعركة التي كانت فيصل الحق بين قوة الإيمان والكفر ، بين الله أن ذلك كان بفضل الله للمؤمنين ، وأنه هو الذي رد كيد الكافرين ، ووهن تديريهم ، وأنه سبحانه هو الذي جاء بالفتح وأمر من عنده ، وأنه مع إرادة الله تعالى للنصر ، لن تغنى عنهم فتهم من الله سبحانه ، وإن ذلك من طاعة المؤمنين لله وسماعهم لأوامره ، وأنهم لا يقولون سمعنا وعصينا .

وقد بين الله بعد ذلك أن شر الدواب الذين آتاهم الله عقولا ، فأصموا آذانهم عن الحق وتردوا فى الباطل ترديا ، وليعلموا أن الله هو المسيطر على القلوب به يهتدون ، ويتركهم إن ساروا فى طريق الغواية فيضلون ، وبين أن الفق إن جاءت تعم ولا تخص ، وأن أشد الفتن أن يخونوا الله ورسوله ويخونوا أماناتهم ، وأن التقوى حصن القلوب ، وهى فرقان ما بين الحق والباطل ، وبها يفرق بينهما . ويذكر الله تعالى بعد ذلك ما كان فى آخر إقامتهم بمكة إذ يدبرون لمحمد حبسه أو قتله ، أو يخرجوه ، ويمكرون ، والله سبحانه يدبر له أمر هجرته ، (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) .

ويذكر بعض ما كان المشركون ينالون بالباطل من القرآن ، وما تلج به عداوتهم فيقولون مستهينين بالحق الذى يدعوهم الله تعالى إليه : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْهُ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) ) ، وذلك أبلغ التحدى والاستهانة بالحق فبدل أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه ، يقولون متحدنين (فأمطر علينا حجارة من السماء ، ولكن الله تعالى ما كان ليعذبهم والنبي - صلى الله عليه وسلم - فيهم قائم بدعوته .

ثم يفرق الله تعالى بين المؤمنين الذين ينفقون في سبيل الله والكافرين الذين ينفقون ليصدوا عن سبيله ، وأن ما لهم جهنم ، ويفتح الله تعالى لهم باب الرجاء والمغفرة إن انتهوا ، وإن نهاية القتال هو انتهاء الفتنة في الدين (وقا تلوههم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير .

(31/303)

---

في هذه السورة من أولها إلى هذه الآية ، بيان القتال ، وأن النصره فيه بالتأييد من الله العزيز الحكيم والإيمان الصادق المستجلب لهذا التأييد ، فهو قوة المسلمين ، وضعف المشركين من كفرهم ، وأنهم ينفقون ليصدوا عن سبيل الله تعالى .

بعد ذلك يتكلم الله تعالى في توزيع الغنائم ، فيقول : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أمنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41) ) .

ويبين الله مواقع القتال يوم بدر الذي انتهى بالنصر المؤزر ، وإذ يربى الله تعالى قوة روح المؤمنين بروية الأعداء في المنام قليلا ، (ولو أراكم كثيرا فشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم . . . . وإنه في رؤية العيان تستقلونهم لتقدموا ، ويستقلونكم لأنكم فعلا قلة ،

وذلك (ليقضي الله أمرا كان مفعولا . . .) .

ويدعو الله تعالى إلى الثبات مكررا له ؟ لأن الثبات فى الصدمة الأولى هو قوة الصبر كما

قال النبى (صلى الله عليه وسلم) : " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " .

ويدعو مع الثبات إلى ذكر الله تعالى ؟ لأنه عدة الأتقياء ، وينهى عن التنازع حتى لا تذهب

القوة ، ولا يكن خروجكم بطرا بالمعيشة ورجاء الترف أورثاء الناس فإن هذه هى

مفاسد الجهاد ، ولا يصح أن يزين الشيطان لكم ويركبكم ويقول لكم : (لا غالب لكم اليوم

من الناس . . . - (وإذ التقى الجمعان قال إنى بريء منكم .

(32/303)

---

وعندئذ يجد المنافقون سبيلا إلى جموعكم ، ويقولون : (غرهؤلاء دينهم . . . ، فاطرحوا

الشيطان وغروره ، وتوكلوا على الله ، وإن الملائكة يضربون وجوه الكافرين وأدبارهم عند

موتهم ، وقد ضرب الله تعالى الأمثال بآل فرعون إذ أخذهم الله بذنوبهم ، وإذ كذبوا ، وإن

الله تعالى : (لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم . . .

ومن بعد ذلك يعود إلى الجهاد ، والوقوف أمام الأشرار وحربهم ، والاستعانة بالعهد لمن

يقدم عهدا ، إن وفوا (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . . . وإنه يجب أن

يكون المؤمنون على حذر واستعداد ( وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ  
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ (60) ) وأنه مع وجوب الاستعداد والإعداد ،  
(وَأِنْ جَنَّحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

ولا تنس التحريض على القتال ، فيجتمع العهد مع الوفاء ، والاستعداد للسلام وللحرب معا ،  
ولا بد مع ذلك من تأليف قلوب المؤمنين ، فإنه أقوى أسباب النصر ، وإن القوة المعنوية مع  
ائتلاف القلوب تضاهي الألف (وإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن  
منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا . . .

وإن أدخل فيكم ضعف بوجود المنافقين فيكم ، وضعاف الإيمان فإنه (فإن يكن منكم مئة  
صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين يا ذن الله والله مع الصابرين (66) .

(33/303)

---

وقد بين الله بعد ذلك وقت الأسر ، وهو بعد الإثخان في الأرض ، وعتب الله على نبيه  
والمؤمنين أن كان لهم أسرى وأخذوا فدية ، فقال : ( مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى  
يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) ) لَوْلَا كِتَابٌ

مَنْ اللَّهُ سَبَقَ لِمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا  
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَْعَلَمَ اللَّهُ  
فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) .

هذا إذا أرادوا ، وإن يريدوا خيانة الرسول فقد خانوا الله من قبل .

وبعد ذلك بين الله تعالى ولاء المؤمنين فقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا  
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا وَلَمْ يَْهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ  
فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) .

وقد بين سبحانه أن الكافرين بعضهم أولياء بعض ، فلا تربطنا بهم ولاية ، وإلا تكن فتنة في  
الأرض وفساد كبير .

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ  
مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75) .

(34/303)

---



هذه إشارات إلى ما اشتملت عليها سورة الأنفال ، ولولا أنها سميت بذلك لقلنا إنها سورة  
من سور الجهاد ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زهرة التفاسير ص

﴿ 3059.3055

(35/303)

وقال ابن عاشور :

سورة الأنفال

عرفت بهذا الاسم من عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : روى الواحدي  
في " أسباب النزول " عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر قتل أخي عمير وقتلت  
سعيد بن العاصي فأخذت سيفه فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " اذهب  
القيض " بفتحين الموضع الذي تجمع فيه الغنائم " فرجعت في ما لا يعلمه إلا الله قتل أخي  
وأخذ سلمي فما جاوزت قريبا حتى نزلت سورة الأنفال .

وأخرج البخاري ، عن سعيد بن جبير ، قال : قلت لابن عباس سورة الأنفال قال نزلت في  
بدر " فباسم الأنفال عرفت بين المسلمين وبه كتبت تسميتها في المصحف حين كتبت  
أسماء السور في زمن الحجاج ، ولم يثبت في تسميتها حديث ، وتسميتها سورة الأنفال من

أنها افتتحت بآية فيها اسم الأنفال ، ومن أجل أنها ذكر فيها حكم الأنفال كما سيأتي .  
وتسمى أيضا سورة بدر ففي " الإتيان " أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : قلت  
لابن عباس : " سورة الأنفال " قال " تلك سورة بدر " .  
وقد اتفق رجال الأثر كلهم على أنها نزلت في غزوة بدر : قال ابن إسحاق أنزلت في أمر بدر  
سورة الأنفال بأسرها ، وكانت غزوة بدر في رمضان من العام الثاني للهجرة بعد عام  
ونصف من يوم الهجرة ، وذلك بعد تحويل القبلة بشهرين ، وكان ابتداء نزولها قبل  
الانصراف من بدر فإن الآية الأولى منها نزلت والمسلمون في بدر قبل قسمة مغانمها ، كما دل  
عليه حديث سعد بن أبي وقاص والظاهر أنها استمر نزولها إلى ما بعد الانصراف من  
بدر .

وفي كلام أهل أسباب النزول ما يقتضي أن آية ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن  
فيكم ضعفا﴾ إلى ﴿مع الصابرين﴾ [الأنفال : 66] نزلت بعد نزول السورة بمدة طويلة  
، كما روي عن ابن عباس ، وسيأتي تحقيقه هنالك .

(36/303)

---

وقال جماعة من المفسرين إن آيات ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ - إلى - ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾

[الأنفال: 64, 65] نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل ابتداء القتال، فتكون تلك الآية

نزلت قبل نزول أول السورة.

نزلت هذه السورة بعد سورة البقرة، ثم قيل هي الثانية نزولاً بالمدينة، وقيل نزلت البقرة ثم

آل عمران ثم الأنفال، والأصح أنها ثانياً السور بالمدينة نزولاً بعد سورة البقرة.

وقد بينت في المقدمات أن نزول سورة بعد أخرى لا يفهم منه أن التالية تنزل بعد انقضاء

نزول التي قبلها، بل قد يبدأ نزول سورة قبل انتهاء السورة التي ابتدئ نزولها قبل، ولعل

سورة الأنفال قد انتهت قبل انتهاء نزول سورة البقرة، لأن الأحكام التي تضمنتها سورة

الأنفال من جنس واحد وهي أحكام المغانم والقتال، وتفنتت إحكام سورة البقرة أفانين

كثيرة: من أحكام المعاملات الاجتماعية، ومن الجائز أن تكون البقرة نزلت بعد نزولها

بقليل سورة آل عمران، وبعد نزول آل عمران بقليل نزلت الأنفال، فكان ابتداء نزول الأنفال

قبل انتهاء نزول البقرة وآل عمران.

وفي "تفسير ابن عطية" عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ من هذه

السورة [33] قالت فرقة نزلت هذه الآية كلها بمكة قال ابن أبي نزير قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ بمكة إثر قولهم: ﴿أَوَأَنْتَ بَعْدَ الْيَمِّ﴾ [الأنفال: 32] ونزل قوله: ﴿وَمَا

كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33] عند خروج رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى المدينة وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون ونزل قوله: ﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَعْدِبُ إِلَّا اللَّهُ ﴾  
[الأنفال: 34] بعد بدر .

وقد عدت السورة التاسعة والثمانين في عداد نزول سور القرآن في رواية جابر بن زيد عن  
ابن عباس ، وإنها نزلت بعد سورة آل عمران وقبل سورة الأحزاب .  
وعدد آياتها ، في عد أهل المدينة .

(37/303)

---

وأهل مكة وأهل البصرة: ست وسبعون ، وفي عد أهل الشام سبع وسبعون ، وفي عد  
أهل الكوفة خمس وسبعون .

ونزولها بسبب اختلاف أهل بدر في غنائم يوم بدر وأنفاله ، وقيل بسبب ما سأله بعض  
الغزاة النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم من الأنفال ، كما سيأتي عند تفسير أول آية  
منها .

أغراض هذه السورة

ابتدأت ببيان أحكام الأنفال وهي الغنائم وقسمتها ومصارفها .  
والأمر بتقوى الله في ذلك وغيره .

والأمر بطاعة الله ورسوله ، في أمر الغنائم وغيرها .  
وأمر المسلمين بإصلاح ذات بينهم ، وان ذلك من مقومات معنى الإيمان الكامل .  
وذكر الخروج إلى غزوة بدر وبخوفهم من قوة عددهم وما لقوا فيها من نصر .  
وتأييد من الله ولطفه بهم .  
وامتنان الله عليهم بان جعلهم أقوياء .  
ووعدهم بالنصر والهوابة أن اتقوا بالثبات للعدو ، والصبر .  
والأمر بالاستعداد لحرب الأعداء .  
والأمر باجتماع الكلمة والنهي عن التنازع .  
والأمر بان يكون قصد النصر للدين نصب أعينهم .  
ووصف السبب الذي أخرج المسلمين إلى بدر .  
وذكر مواقع الجيشين ، وصفات ما جرى من القتال .  
وتذكير النبي صلى الله عليه وسلم بنعمة الله عليه إذ أنجاه من مكر المشركين به بمكة  
وخلصه من عنادهم ، وان مقامه بمكة كان أمانا لأهلها فلما فارقهم فقد حق عليهم عذاب  
الدنيا بما اقترفوا من الصد عن المسجد الحرام .  
ودعوة المشركين للانتهاة عن مناواة الإسلام وإيذانهم بالقتال .  
والتحذير من المنافقين .

وضرب المثل بالأمم الماضية التي عاندت رسل الله ولم يشكروا نعمة الله .  
وأحكام العهد بين المسلمين والكفار وما يترتب على نقضهم العهد ، ومتى يحسن السلم .  
وأحكام الأسرى .  
وأحكام المسلمين الذين تخلفوا في مكة بعد الهجرة .  
وولايتهم وما يترتب على تلك الولاية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص 5 .  
﴿ 8

(38/303)

وقال الشيخ سيد قطب :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التعريف بسورة الأنفال

نعود الآن إلى القرآن المدني - بعد سورتي الأنعام والأعراف المكيّتين - وقد سبقت منه في هذه الظلال - التي نسير فيها وفق ترتيب المصحف لا وفق ترتيب النزول - سور: البقرة , وآل عمران , والنساء , والمائدة . . ذلك أن الترتيب الزمني للنزول لا يمكن القطع فيه الآن بشيء - اللهم إلا من ناحية أن هذا قرآن مكّي وهذا قرآن مدني على وجه الإجمال , على

ما في هذا من خلافات قليلة - فأما الترتيب الزمني المقطوع به من ناحية زمن نزول كل آية أو كل مجموعة من الآيات أو كل سورة, فيكاد يكون متعذراً ; ولا يكاد يجد الإنسان فيه اليوم شيئاً مستيقناً - إلا في آيات معدودات تتوافر بشأنها الروايات أو تقطع بشأنها بعض الروايات . . وعلى كل ما في محاولة تتبع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمني للنزول من قيمة, ومن مساعدة على تصور منهج الحركة الإسلامية ومراحلها وخطواتها, فإن قلة اليقين في هذا الترتيب تجعل الأمر شاقاً ; كما أنها تجعل النتائج التي يتوصل إليها تقريبية ظنية, وليست نهائية يقينية . . وقد تترتب على هذه النتائج الظنية التقريبية نتائج أخرى خطيرة . . لذلك آثرت في هذه الظلال أن أعرض القرآن بترتيب سوره في المصحف العثماني ; مع محاولة الإلمام بالملابسات التاريخية لكل سورة - على وجه الإجمال والترجيح - والاستئناس بهذا في إيضاح الجواهر والملابسات المحيطة بالنص - على وجه الإجمال والترجيح أيضاً - على النحو الذي سبق في التعريف بالسور الماضية في هذه الطبعة الجديدة من الظلال . . وعلى هذا النحو نمضي - بعون الله - في هذه السورة . .

(39/303)

---

نزلت سورة الأنفال التي نعرض لها هنا بعد سورة البقرة . . . نزلت في غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة بعد تسعة عشر شهراً من الهجرة على الأرجح . . .  
ولكن القول بأن هذه السورة نزلت بعد سورة البقرة لا يمثل حقيقة نهائية . فسورة البقرة لم تنزل دفعة واحدة ; بل أن منها ما نزل في أوائل العهد بالمدينة , ومنها ما نزل في أواخر هذا العهد . وبين هذه الأوائل وهذه الأواخر نحو تسع سنوات ! ومن المؤكد أن سورة الأنفال نزلت بين هذين الموعدين ; وأن سورة البقرة قبلها وبعدها ظلت مفتوحة ; تنزل الآيات ذوات العدد منها بين هذين الموعدين ; وتضم إليها وفق الأمر النبوي التوقيفي . ولكن المعول عليه في قولهم : إن هذه السورة نزلت بعد هذه السورة , هو نزول أوائل السور . كما ذكرنا ذلك في التعريف بسورة البقرة .

وفي بعض الروايات أن الآيات من 30 إلى غاية 36 من سورة الأنفال مكية . . . وهي هذه الآيات:

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرُجُوكَ . وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . وَإِذْ تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا : قَدْ سَمِعْنَا . لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . وَإِذْ قَالُوا : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ , وَأَوَّاثِنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ , وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَمَا لَهُمُ الْأَعْيُنُ عَلَى اللَّهِ إِعْيُنًا وَهُمْ يَصِدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ , وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ,



إن أولياؤه إلا المتقون , ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء  
وتصدية , فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن  
سبيل الله , فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون , والذين كفروا إلى جهنم يحشرون  
..

(40/303)

---

ولعل الذي دعا أصحاب هذه الروايات إلى القول بمكية هذه الآيات أنها تتحدث عن أمور  
كانت في مكة قبل الهجرة . . . ولكن هذا ليس بسبب . . . فإن هناك كثيراً من الآيات  
المدنية تتحدث عن أمور كانت في مكة قبل الهجرة . وفي هذه السورة نفسها آية: 26 قبل  
هذه الآيات تتحدث عن مثل هذا الشأن:  
(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض , تخافون أن يتخطفكم الناس , فأواكم وأيدكم  
بنصره , وورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) . . .  
كما أن الآية: 36 وهي الأخيرة من تلك الآيات تتحدث عن أمر كان بعد بدر , خاص  
بإنفاق المشركين أموالهم للتجهيز لغزوة أحد:  
(إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . فسينفقونها ثم تكون عليهم

حسرة , ثم يغلبون , والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) . .

والروايات التي تذكر أن هذه الآيات مكية ذكرت في سبب النزول مناسبة هي محل اعتراض

. فقد جاء فيها : أن أبا طالب قال لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ما يأتربه قومك ؟

قال : يريدون أن يسحروني ويقتلوني ويخرجوني ! فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : ربي .

قال : نعم الرب ربك . فاستوص به خيراً ! فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : أنا

استوصي به ! بل هو يستوصي بي خيراً ! فنزلت : ( وإذ يكره الذين كفروا أن ليشبكوا أو

يقتلوك أو يخرجوك) . . الآية . .

وقد ذكر ابن كثير هذه الرواية واعترض عليها بقوله : " وذكر أبي طالب في هذا غريب جداً

، بل منكر . لأن هذه الآية مدنية . ثم إن هذه القصة ، واجتماع قريش على هذا الأثمارة ،

والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل ، إنما كانت ليلة الهجرة سواء . وذلك بعد موت

أبي طالب بنحو من ثلاث سنين . لما تمكنوا منه واجترأوا عليه بسبب موت عمه أبي

طالب ، الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه " . .

(41/303)

---

وقد ذكر ابن إسحاق . عن عبد الله ابن أبي نجيح . عن مجاهد . عن ابن عباس - وعنه كذلك من طريق آخر - حديثاً طويلاً عن تبييت قريش ومكرهم هذا , وجاء في نهايته قوله: " . . وأذن الله له عند ذلك بالخروج , وأنزل عليه - بعد قدومه المدينة - "الأنفال" يذكره نعمه عليه , وبلاءه عنده: (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك , ويمكرون ويمكر الله . والله خير الماكرين) " . .

وهذه الرواية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - هي التي تتفق مع السياق القرآني قبل هذه الآيات وبعدها . من تذكير الله سبحانه لنبيه ( صلى الله عليه وسلم ) وللمؤمنين بما أسلف إليهم من فضله ; في معرض تحريضهم على الجهاد في سبيل الله والاستجابة لما يدعوهم إليه منه والثبات يوم الزحف . . إلى آخر ما تعالجه السورة من هذا الأمر كما سنين . . والقول بأن هذه الآيات مدنية كلسورة كلها هو الأولى . .

وبعد , فإنه من أجل مثل هذه الملابسات في الروايات الواردة عن أسباب النزول , آثرنا المنهج الذي جرينا عليه في عرض القرآن الكريم كما هو ترتيب السور في مصحف عثمان - رضي الله عنه - لا وفق ترتيب النزول الذي لا سبيل اليوم فيه إلى يقين . . مع محاولة الاستئناس بأسباب النزول وملابساته قدر ما استطاع .

والله المستعان . .

هذه السورة نزلت في غزوة بدر الكبرى . . وغزوة بدر - بملابساتها وبما ترتب عليها في

تاريخ الحركة الإسلامية وفي التاريخ البشري جملة - تقوم معلماً ضخماً في طريق تلك الحركة  
وفي طريق هذا التاريخ .

(42/303)

---

وقد سمي الله - سبحانه - يومها (يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) . . كما أنه جعلها مفرق  
الطريق بين الناس في الآخرة كذلك لا في هذه الأرض وحدها ; ولا في التاريخ البشري على  
هذه الأرض في الحياة الدنيا وحدها . فقال سبحانه: (هذان خصمان اختصموا في  
ربهم: فالذين كفروا قطع لهم ثياب من نار, ويصب من فوق رؤوسهم الحميم, يصهر به ما  
في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها - من غم -  
أعيدوا فيها , وذوقوا عذاب الحريق . . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات  
جنات تجري من تحتها الأنهار يحملون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير .  
وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد . . ) . [الحج: 19 - 24]  
وقد ورد أن هذه الآيات نزلت في الفريقين اللذين التقيا يوم بدر . . يوم الفرقان . . لا في  
الدنيا وحدها , ولا في التاريخ البشري على الأرض وحدها ; ولكن كذلك في الآخرة وفي  
الأبد الطويل . . وتكفي هذه الشهادة من الجليل - سبحانه - لتصوير ذلك اليوم وتقديره .

. وسنعرف شيئاً من قيمة هذا اليوم , حين نستعرض الوقعة وملابساتها وتأتجها . .  
ومع كل عظمة هذه الغزوة , فإن قيمتها لا تتضح أبعادها الحقيقية إلا حين نعرف طبيعتها  
وحين نراها حلقة من حلقات "الجهاد في الإسلام" , وحين ندرك بواعث هذا الجهاد  
وأهدافه . كذلك نحن لا ندرك طبيعة "الجهاد في الإسلام" وبواعثه وأهدافه , قبل أن  
نعرف طبيعة هذا الدين ذاته . .

(43/303)

---

لقد لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد في الإسلام في "زاد المعاد" , في الفصل الذي عقده  
باسم: "فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز  
وجل: أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق . وذلك أول نبوته  
. فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه: (يا أيها المدثر . قم  
فأنذر) فنباؤه بقوله: (اقرأ) وأرسله ب(يا أيها المدثر) . ثم أمره أن يندُر عشيرته الأقربين . ثم  
أنذر قومه . ثم أنذر من حولهم من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام  
بضع عشرة سنة بعد نبوته يندُر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ; ويؤمر بالكف والصبر  
والصفح . ثم أذن له في الهجرة , وأذن له في القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله , ويكف عمن

اعتزله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . . ثم كان الكفار معه  
بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة . وأهل حرب . وأهل ذمة . فأمر بأن يتم  
لأهل العهد والصلح عهدهم , وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ; فإن خاف منهم  
خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده  
. . ولما نزلت سورة براءة نزلت بيان حكم هذه الأقسام كلها: فأمر أن يقاتل عدوه من أهل  
الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين  
والغلاة عليهم . فجاهد الكفار بالسيوف والسنان , والمنافقين بالحجة واللسان . وأمره فيها  
بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم . . وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة  
أقسام: قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده , ولم يستقيموا له , فحاربهم وظهر عليهم  
. وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه , فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم  
. وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ; أو كان لهم عهد مطلق , فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر  
; فإذا انسخت قاتلهم

(44/303)

---

. . فقتل الناقض لعهدہ ; وأجل من لا عهد له , وأوله عهد مطلق , أربعة أشهر . وأمره أن يتم للموفا بعهدہ عهدہ إلى مدته ; فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم .  
وضرب على أهل الذمة الجزية . . فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له , وأهل عهد , وأهل ذمة . . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن . وخائف محارب . . وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ; ويكل سرائرهم إلى الله ; وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ; وأمر أن يعرض عنهم , ويغلظ عليهم , وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم , ونهي أن يصلي عليهم , وأن يقوم على قبورهم , وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم . . فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين " . .

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين , جديرة بالوقوف أمامها طويلاً . ولكننا في هذه الظلال لانملك إلا أن نشير إليها إشارات مجملة:

السمة الأولى: هي الواقعية الجديدة في منهج هذا الدين . . فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً .  
. وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي . . إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ;  
تقوم عليها أنظمة واقعية عملية ; تسندها سلطات ذات قوة مادية . . ومن ثم تواجه  
الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه . . تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح  
المعتقدات والتصورات وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها ;  
تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ; وتخضعهم  
بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل . . إنها حركة لا تكفي بالبيان في وجه  
السلطان المادي . كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد . . وهذه كذلك سواء  
في منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما  
سيجيء . .

(46/303)

---

والسمة الثانية في منهج هذا الدين . . هي الواقعية الحركية . فهو حركة ذات مراحل . كل  
مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة  
التي تليها . . فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة . كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل



متجمدة . . . والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد , ولا يراعون هذه السمة فيه , ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج , وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها . . . الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً ; ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللاً , ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية . ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً ; يمثل القواعد النهائية في هذا الدين . ويقولون - وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع اليأس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان - : إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع ! يحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلاً بتخليه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً , وتعبيد الناس لله وحده , وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد ! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته . ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة . . . بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة , وأوقعها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها . . .

(47/303)

---

والسمة الثالثة: هي أن هذه الحركة الدائبة, والوسائل المتجددة, لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة, ولا عن أهدافه المرسومة. فهو منذ اليوم الأول - سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين, أو يخاطب قريشاً, أو يخاطب العرب أجمعين, أو يخاطب العالمين, وإنما يخاطبهم بقاعدة واحدة; ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد. . هو إخلاص العبودية لله, والخروج من العبودية للعباد. . لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين. ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد, في خطة مرسومة; ذات مراحل محددة; لكل مرحلة وسائلها المتجددة. على نحو ما أسلفنا في الفقرة السابقة.

والسمة الرابعة: هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى - على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد الذي نقلناه عن "زاد المعاد". . وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه; أو أن تسلمه بجملتها فلا تنقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي, أو قوة مادية. وأن تخلي بينه وبين كل فرد, يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته. ولكن لا يقاومه ولا يحاربه! فإن فعل ذلك أحد كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه!

---

والمهزومون روحياً وعقلياً ممن يكتبون عن "الجهاد في الإسلام" ليدفعوا عن الإسلام هذا "الاتهام" ! . . . يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة , وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه ; والتي تعبد الناس للناس ; وتمنعهم من العبودية لله . . . وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما . ومن أجل هذا التخليط - وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة ! - يحاولون أن يمحضروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم: "الحرب الدفاعية" . . . والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم , ولا بواعثها , ولا تكييفها كذلك . . . إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة "الإسلام" ذاته , ودوره في هذه الأرض , وأهدافه العليا التي قررها الله ; وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة , وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات . . .

(49/303)

---

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من العبودية للعباد - ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد - وذلك بإعلان ألوهية الله وحده - سبحانه -

وربوبيته للعالمين . . إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على  
حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ; والتمرد الكامل على كل  
وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور . . أو بتعبير آخر  
مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور . . ذلك أن الحكم الذي مرد الأمر فيه إلى  
البشر , ومصدر السلطات فيه هم البشر , هو تأليه للبشر , يجعل بعضهم لبعض أرباباً من  
دون الله . . إن هذا الإعلان معناه اتزاع سلطان الله المغتصب وردّه إلى الله ; وطرده  
المغتصبين له ; الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب ;  
ويقوم الناس منهم مقام العبيد . . إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض .  
. أو بالتعبير القرآني الكريم:

(وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) . .

(إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه . . ذلك الدين القيم . .) . .

(قل: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ,

ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون) . .

ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم – هم رجال الدين

كما كان الأمر في سلطان الكنيسة , ولا رجال ينطقون باسم الآلهة , كما كان الحال في ما

يعرف باسم "الثيوقراطية" أو الحكم الإلهي المقدس !!! - ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة ; وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة .

(50/303)

---

وقيام مملكة الله في الأرض , وإزالة مملكة البشر . وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبه من العباد ورده إلى الله وحده . وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية . . كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان . لأن المتسلطين على رقاب العباد , المغتصبين لسلطان الله في الأرض , لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان . وإلما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض ! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال !

إن هذا الإعلان العام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله , بإعلان الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين , لم يكن إعلاناً نظرياً فلسفياً سلبياً . . إنما كان إعلاناً حركياً واقعياً إيجابياً . . إعلاناً يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ; ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلاشريك . . ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل "الحركة" إلى جانب شكل "البيان" . . ذلك ليواجه

"الواقع" البشري بكل جوانبه بوسائل مكافحة لكل جوانبه .  
والواقع الإنساني , أمس واليوم وغداً , يواجه هذا الدين - بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير  
"الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله - بعقبات اعتقادية تصورية .  
وعقبات مادية واقعية . . عقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية ,  
إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة . . وتختلط هذه بتلك وتتفاعل  
معها بصورة معقدة شديدة التعقيد . .

(51/303)

---

وإذا كان "البيان" يواجه العقائد والتصورات , فإن "الحركة" تواجه العقبات المادية  
الأخرى - وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية ,  
والعنصرية والطبقية , والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة . . وهما معاً -  
البيان والحركة - يواجهان "الواقع البشري" بجملته , بوسائل مكافحة لكل مكوناته . .  
وهما معاً لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض . . "الإنسان" كله في  
"الأرض" كلها . . وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة أخرى !  
إن هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي ! وليس رسالة خاصة بالعرب ! . . إن

موضوعه هو "الإنسان" . . نوع "الإنسان" . . ومجاله هو "الأرض" . . كل الأرض . إن الله - سبحانه - ليس رباً للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم . . إن الله هو (رب العالمين) . . وهذا الدين يريد أن يرد (العالمين) إلى ربهم ؛ وأن ينتزعهم من العبودية لغيره . والعبودية الكبرى - في نظر الإسلام - هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر . . وهذه هي "العبادة" التي يقرر أنها لا تكون إلا لله . وأن من توجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين . ولقد نص رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أن "الاتباع" في الشريعة والحكم هو "العبادة" التي صار بها اليهود والنصارى "مشركين" مخالفين لما أمروا به من "عبادة" الله وحده . .

(52/303)

---

أخرج الترمذي - بإسناده - عن عدى بن حاتم - رضي الله عنه - أنه لما بلغته دعوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فرأى الشام . وكان قد تنصر في الجاهلية . فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أخته وأعطاهما . فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فحدث الناس بقدومه . فدخل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفي

عنقه [أي عدي] صليب من فضة وهو [أي النبي (صلى الله عليه وسلم)] [يقراً هذه الآية: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) . . قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم . فقال: " بلى ! إنهم حرموا عليهم الحلال , وأحلوا لهم الحرام . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم " . .

وتفسير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نقول الله سبحانه , نص قاطع على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين , وأنها هي اتخاذ بعض الناس أرباباً لبعض . . الأمر الذي جاء هذا الدين ليغيه , ويعلن تحرير "الإنسان" , في "الأرض" من العبودية لغير الله . .

ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في "الأرض" لإزالة "الواقع" المخالف لذلك الإعلان العام . . بالبيان وبالحركة مجتمعين . . وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله - أي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه - والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى "البيان" واعتناق "العقيدة" بحرية لا يتعرض لها السلطان . ثم لكي يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي - بعد إزالة القوة المسيطرة - سواء كانت سياسية مجتة , أو متلبسة بالعنصرية أو الطبقة داخل العنصر الواحد !



---

إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته . . ولكن الإسلام ليس مجرد "عقيدة" . . إن الإسلام كما قلنا إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد . فهو يهدف ابتداءً إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان . . ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحراراً - بالفعل - في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم - بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم - ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم ؛ أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيداً للعباد ! وأن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ! . . إن النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده ؛ وذلك بتلقي الشرائع منه وحده . ثم ليعتق كل فرد - في ظل هذا النظام العام - ما يعتقه من عقيدة ! وبهذا يكون "الدين" كله لله . أي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله . . إن مدلول "الدين" أشمل من مدلول "العقيدة" . . إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة . ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة . . وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهج العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام . .

والذي يدرك طبيعة هذا الدين - على النحو المتقدم - يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف - إلى جانب الجهاد بالبيان - ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية - بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح "الحرب الدفاعية" - كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام - إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير "الإنسان" في "الأرض" . . .  
بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري ; وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها ووسائلها المتجددة .

وإذا لم يكن بد من أن نسمي حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية , فلا بد أن نغير مفهوم كلمة "دفاع" .

ونعتبره "دفاعاً عن الإنسان" ذاته , ضد جميع العوامل التي تقيد حريته وتعوق تحرره . . .  
هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات ; كما تتمثل في الأنظمة السياسية , القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية , التي كانت سائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام ; والتي ما تزال أشكال منها سائدة في الجاهلية الحاضرة في هذا الزمان !

وبهذا التوسع في مفهوم كلمة "الدفاع" نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامي في "الأرض" بالجهاد ; ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها , وهي أنه إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد , وتقدير ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ; وتحطيم مملكة الهوى البشري في الأرض , وإقامة مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان . .

(55/303)

---

أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية ; ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانت مجرد صد العدوان من القوى المجاورة على "الوطن الإسلامي" ! \_ وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب - فهي محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين , ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الأرض . كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر ; وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي !

ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض ? وكيف كانوا يدفعون هذا المد , وأمام الدعوة تلك العقبات المادية - من أنظمة الدولة السياسية ;

وأظمة المجتمع العنصرية والطبقية , والاقتصادية الناشئة من الاعترارات العنصرية

والطبقية , والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك ؟ !

إنها سداجة أن تصور الإنسان دعوة تعلن تحرير "الإنسان" . . نوع الإنسان . . في

"الأرض" . . كل الأرض . . ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهد باللسان والبيان ! .

. إنها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد , تخاطبهم بحرية , وهم مطلقو

السراح من جميع تلك المؤثرات . . فهنا (لا إكراه في الدين) . . أما حين توجد تلك العقبات

والمؤثرات المادية , فلا بد من إزالتها أولاً بالقوة , للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله ;

وهو طليق من هذه الأغلال !

(56/303)

---

إن الجهاد ضرورة للدعوة . إذا كانت أهدافها هي إعلان تحرير الإنسان إعلاناً جاداً

يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه ; ولا يكفي بالبيان الفلسفي النظري

السلبى ! سواء كان الوطن الإسلامي - وبالتعبير الإسلامي الصحيح: دار الإسلام - آمناً

أم مهدداً من جيرانه . فالإسلام حين يسعى إلى السلم , لا يقصد تلك السلم الرخيصة ;

وهي مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التي يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية . إنما هو يريد

السلم التي يكون الدين فيها كله لله . أي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله ; والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الإسلام - بأمر من الله - لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها . . . ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمام ابن القيم: " فاستقر أمر الكفار معه - بعد نزول براءة - على ثلاثة أقسام: محاربين له , وأهل عهد , وأهل ذمة . . . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام . . . فصاروا معه قسمين: محاربين , وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . . . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به . ومسلم له آمن [ وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة ] وخائف محارب " . . . وهذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه . لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر , وأمام هجوم المستشرقين الماكر !

(57/303)

---

ولقد كف الله المسلمين عن القتال في مكة ; وفي أول العهد بالهجرة إلى المدينة . . . وقيل للمسلمين: (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) . . . ثم أذن لهم فيه , فقيل لهم: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا , وإن الله على نصرهم لقدير , والذين أخرجوا من ديارهم بغير

حق - إلا أن يقولوا: ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع  
وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً , ولينصرن الله من ينصره , إن الله لقوي عزيز  
. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر  
, والله عاقبة الأمور) . . ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل  
لهم: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) . . ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل  
لهم: (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) . . وقيل لهم: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله  
ولا باليوم الآخر , ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله , ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا  
الكتاب , حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . . فكان القتال - كما يقول الإمام ابن  
القيم - " محرماً , ثم مآذوناً به , ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال , ثم مأموراً به لجميع المشركين  
... "

إن جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد ; وجدية الأحاديث النبوية التي تحض عليه ;  
وجدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام , وعلى مدى طويل من تاريخه . . إن هذه  
الجدية الواضحة تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط  
الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي !  
ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله ( صلى الله عليه وسلم )

ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي ; ثم يظنه شأنًا عارضاً مقيداً بملاسات تذهب وتجيء ;  
ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود ؟ !

(58/303)

---

لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم  
الأصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، لدفع الفساد عن  
الأرض : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من  
ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع  
وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) . . وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة  
العارضة . الشأن الدائم أن لا يتعاش الحق والباطل في هذه الأرض . وأنه متى قام الإسلام  
بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعالمين ، وتحرير الإنسان من العبودية للعباد ، رماه المغتصبون  
لسلطان الله في الأرض ولم يسالموه قط ; وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من  
سلطانهم ويدفع عن "الإنسان" في "الأرض" ذلك السلطان الغاصب . . حال دائمة لا  
يكف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله لله .  
إن الكف عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة . كذلك كان الأمر أول

العهد بالهجرة . والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة . . هذا هدف أولي لا بد منه . . ولكنه ليس الهدف الأخير . . إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ; ويؤمن قاعدة الانطلاق . . الانطلاق لتحرير "الإنسان" , ولإزالة العقبات التي تمنع "الإنسان" ذاته من الانطلاق !

وكف أيدي المسلمين في مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم . لأنه كان مكفولاً للدعوة في مكة حرية البلاغ . . كان صاحبها ( صلى الله عليه وسلم ) يملك بحماية سيوف بني هاشم , أن يصدع بالدعوة ; ويخاطب بها الأذان والعقول والقلوب ; ويواجه بها الأفراد . . لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من إبلاغ الدعوة , أو تمنع الأفراد من سماعه ! فلا ضرورة - في هذه المرحلة - لاستخدام القوة . وذلك إلى أسباب أخرى لعلها

(59/303)

---

كانت قائمة في هذه المرحلة . وقد لخصناها عند تفسير قوله تعالى : ( ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . . ) من سورة النساء . ولا نرى بأساً في إثبات بعض هذا التلخيص هنا مرة أخرى :

"ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد , في بيئة معينة , لقوم معينين ,



وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات , تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم على شخصه أو على من يلوذون به . ليخلص من شخصه , ويتجرد من ذاته , ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته . وتربيته كذلك على ضبط أعصابه , فلا يندفع لأول مؤثر - كما هي طبيعته - ولا يهتاج لأول مهيج , ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته . وتربيته على أن يتبع مجتمعا منظما له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته , ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره به - مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعاداته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي , لإنشاء " المجتمع المسلم " الخاضع لقيادة موجهة , المترقي المتحضر , غير الهمجي أو القبلي !

" وربما كان ذلك أيضاً , لأن الدعوة السلمية كانت أشد أثراً وأنفذ , في مثل بيئة قريش , ذات العنجهية والشرف ; والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه المرحلة - إلى زيادة العناد , وإلى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التي أثارت حرب داحس والغبراء , وحرب البسوس , أعواماً طويلة , تقانت فيها قبائل برمتها . وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام . فلا تهدأ بعد ذلك أبداً .

ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات وذحول تنسى معها وجهته الأساسية , وهو في مبدئه , فلا تذكر أبداً !

"وربما كان ذلك أيضاً , اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة , هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم . إنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد , يعذبونه ويفتنونه "ويؤذونهم ! " ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت . . ثم يقال: هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش في الموسم , في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة: إن محمداً يفرق بين الوالد وولده , فوق تفرقة لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد , والمولى بقتل الولي . . في كل بيت وفي كل محلة ?

"وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم , ويعذبونهم ويؤذونهم , هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص , بل من قاداته . . ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ? !

"وربما كان ذلك أيضاً , لأن النخوة العربية , في بيئة قبلية , من عاداتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى , ولا يتراجع ! وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم . . وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - في هذه البيئة - فابن الدغنة لم يرض أن

يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة , ورأى في ذلك عاراً على العرب !  
وعرض عليه جواره وحمايته . . وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في  
شعب أبي طالب , بعدما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة . . بينما في بيئة أخرى من  
بيئات "الحضارة" القديمة التي مردت على الذل , قد يكون السكوت على الأذى مدعاة  
للهزاء والسخرية والاحتقار من البيئة , وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي !

(61/303)

---

"وربما كان ذلك , أيضاً , لقلّة عدد المسلمين حينذاك , وانحصارهم في مكة , حيث لم تبلغ  
الدعوة إلى بقية الجزيرة , أو بلغت أخبارها متناثرة , حيث كانت القبائل تقف على الحياد  
من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها , حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف . ففي مثل  
هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة , إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو قتلوا  
هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى الشرك , وتمحى الجماعة المسلمة , ولم يقم في  
الأرض للإسلام نظام , ولا وجد له كيان واقعي . . وهو دين جاء ليكون منهاج حياة ,  
وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة . . الخ . . ."

فأما في المدينة - في أول العهد بالهجرة - فقد كانت المعاهدة التي عقدها رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها , ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك . .

أولاً: لأن هناك مجالاً للتبليغ والبيان , لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه , فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة ; وقيادة رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) في تصريف شؤونها السياسية . فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحاً ولا يثير حرباً , ولا ينشئ علاقة خارجية إلا بإذن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وكان واضحاً أن السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة . فالجال أمام الدعوة مفتوح , والتخلية بين الناس وحرية الاعتقاد قائمة .

ثانياً: أن الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) كان يريد التفرغ - في هذه المرحلة - لقريش ; التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى ; الواقعة في حالة انتظار لما ينتهي إليه الأمر بين قريش وبعض بنيها ! لذلك بادر رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يارسال "السرايا" وكان أول لواء عقده لحمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة .

(62/303)

---

ثم توالى هذه السرايا , على رأس تسعة أشهر . ثم على رأس ثلاثة عشر شهراً . ثم على رأس ستة عشر شهراً . ثم كانت سرية عبدالله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً . وهي أول غزاة وقع فيها قتل وقتال . وكان ذلك في الشهر الحرام . والتي نزلت فيها آيات البقرة: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ! قل: قتال فيه كبير, وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام , وإخراج أهله منه أكبر عند الله , والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . . . ) .

ثم كانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هذه السنة . . وهي التي نزلت فيها هذه السورة التي نحن بصدددها .

ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع , لا تدع مجالاً للقول بأن "الدفاع" بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الإسلامية . كما يقول المهزومون أمام الواقع الحاضر , وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر !

إن الذين يلجأون إلى تلمس أسباب دفاعية بحجة لحركة المد الإسلامي , وإنما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية , في وقت لم تعد للمسلمين شوكة بل لم يعد للمسلمين إسلام ! – إلا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق إعلان الإسلام العام بتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان إلا سلطان الله , ليكون الدين كله لله – فيبحثون عن مبررات أدبية للجهاد في الإسلام !

والمد الإسلامي ليس في حاجة إلى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التي حملتها النصوص  
القرآنية:

(63/303)

---

(فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو  
يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من  
الرجال والنساء والولدان الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها , واجعل  
لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ؟ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله , والذين  
كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت , فقاتلوا أولياء الشيطان , إن كيد الشيطان كان  
ضعيفاً) . . . [ النساء: 74 – 76 ] .

(قل للذين كفروا: إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف , وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين .  
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله , فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن  
تولوا فاعلموا أن الله مولاكم , نعم المولى ونعم النصير) . . . [ الأنفال: 38 – 40 ] . . .  
(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر , ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله , ولا يدينون  
دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود

عزير ابن الله , وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل , قاتلهم الله أنى يؤفكون ! اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم , وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً , لا إله إلا هو , سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم , ويأبى الله إلا أن يتم نوره ; ولو كره الكافرون) . . [ التوبة : 29 - 32 ] .

(64/303)

---

إنها مبررات تقرير ألوهية الله في الأرض ; وتحقيق منهجه في حياة الناس . ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين ; وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس , والناس عبيد الله وحده يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه ! وهذا يكفي . . مع تقرير مبدأ : (لا إكراه في الدين) . . أي لا إكراه على اعتناق العقيدة , بعد الخروج من سلطان العبيد ; والإقرار بمبدأ أن السلطان كله لله . أو أن الدين كله لله . بهذا الاعتبار .

إنها مبررات التحرير العام للإنسان في الأرض . بإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك . . وهذه وحدها تكفي . . ولقد كانت هذه المبررات

ماثلة في نفوس الغزاة من المسلمين فلم يسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول: خرجنا  
ندافع عن وطننا المهدد ! أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين ! أو  
خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة !

لقد كانوا يقولون كما قال ربيعي بن عامر , وحذيفة بن محصن , والمغيرة بن شعبة , جميعاً  
لرستم قائد جيش الفرس في القادسية , وهو يسألهم واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية  
وقبل المعركة: ما الذي جاء بكم ؟ فيكون الجواب: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة  
العباد إلى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا إلى سعتها . ومن جور الأديان إلى عدل  
الإسلام . . فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه , فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه , وتركناه  
وأرضه . ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر " .

(65/303)

---

إن هناك مبرراً ذاتياً في طبيعة هذا الدين ذاته ; وفي إعلانه العام , وفي منهجه الواقعي لمقابلة  
الواقع البشري بوسائل مكافئة لكل جوانبه , وفي مراحل محددة , بوسائل متجددة . . وهذا  
المبرر الذاتي قائم ابتداء - ولولم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإسلامية وعلى  
المسلمين فيها - إنه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته , وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات



البشرية . . لا من مجرد ملابس دفاعية محدودة , وموقوتة !  
وإنه ليكفي أن يخرج المسلم مجاهداً بنفسه وماله . . (في سبيل الله) . في سبيل هذه القيم  
التي لا يناله هو من ورائها مغنم ذاتي ; ولا يخرجها لها مغنم ذاتي . .  
إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع  
الشیطان . . مع هواه وشهواته . . مع مطامعه ورغباته . . مع مصالحه ومصالح  
عشيرته وقومه . . مع كل شارة غير شارة الإسلام . . ومع كل دافع إلا العبودية لله ,  
وتحقيق سلطانه في الأرض وطرده سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله . .  
والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية "الوطن الإسلامي" يغضون من  
شأن "المنهج" ويعتبرونه أقل من "الموطن" ! وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه  
الاعتبارات . . إنها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الإسلامي , فالعقيدة والمنهج الذي  
تمثل فيه والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبارات الوحيدة في الحس الإسلامي  
. أما الأرض - بذاتها - فلا اعتبار لها ولا وزن ! وكل قيمة للأرض في التصور الإسلامي  
إنما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها . وبهذا تكون محض العقيدة وحقل  
المنهج و"دار الإسلام" ونقطة الانطلاق لتحرير "الإنسان" . .

---

وحقيقة أن حماية "دار الإسلام" حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج .  
ولكنها هي ليست الهدف النهائي . وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد  
الإسلامي . إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها . ثم لانتهازها قاعدة انطلاق إلى  
الأرض كلها , وإلى النوع الإنساني بجملة . فالنوع الإنساني هو موضوع هذا الدين ,  
والأرض هي مجاله الكبير !

وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمنهج الإلهي تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة ,  
ونظام المجتمع , وأوضاع البيئة . . وهذه كلها هي التي ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة .  
كي يخلوله وجه الأفراد من الناس , يخاطب ضمائرهم وأفكارهم , بعد أن يحررها من  
الأغلال المادية ; ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار . .

يجب ألا نتخذ عنا أو تفرزنا حملات المستشرقين على مبدأ "الجهاد" , وألا يثقل على عاتقنا  
ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالمية , فنروح نبحت للجهاد الإسلامي عن مبررات  
أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين , وفي ملابس دفاعية وقتية , كان الجهاد سينطلق في  
طريقه سواء وجدت هذه الملابس أم لم توجد !

ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي الأنغفل عن الاعتبارات الذاتية في طبيعة هذا الدين  
وإعلانه العام ومنهجه الواقعي . . وألا نخلط بينها وبين المقصيات الدفاعية الوقتية . .

حقاً إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له . لأن مجرد وجوده , في صورة إعلان عام  
لربوبية الله للعالمين , وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله , وتمثل هذا الوجود في تجمع  
تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية , وميلاد مجتمع مستقل متميز لا  
يعترف لأحد من البشر بالحاكمية , لأن الحاكمية فيه لله وحده . . إن مجرد وجود هذا  
الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله , القائمة على قاعدة  
العبودية للعباد , أن تحاول سحقه , دفاعاً عن وجودها ذاته . ولا بد أن يتحرك المجتمع  
الجديد للدفاع عن نفسه . .

هذه ملابسة لا بد منها . تولد مع ميلاد الإسلام ذاته . وهذه معركة مفروضة على  
الإسلام فرضاً , ولا خيار له في خوضها . وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن  
التعايش بينهما طويلاً . .

هذا كله حق . . ووفق هذه النظرة يكون لا بد للإسلام أن يدافع عن وجوده . ولا بد أن  
يخوض معركة دفاعية مفروضة عليه فرضاً . .

ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة . . إن من طبيعة الوجود

الإسلامي ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداءً ; لإنقاذ "الإنسان" في "الأرض" من العبودية لغير الله . ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ; ولا أن ينزوي داخل حدود عنصرية ; تاركاً "الإنسان" . . نوع الإنسان . . في "الأرض" . . كل الأرض . . للشر والفساد والعبودية لغير الله .

إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألاتهاجم الإسلام , إذا تركها الإسلام تزاوّل عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية ; ورضي أن يدعها وشأنها ولم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريري العام ! . . ولكن الإسلام لا يهادنها , إلا أن تعلن استسلامها لسلطانها في صورة أداء الجزية , ضماناً لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها .

(68/303)

---

هذه طبيعة هذا الدين , وهذه وظيفته بحكم أنه إعلان عام لربوبية الله للعالمين وتحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله في الناس أجمعين !  
وفرق بين تصور الإسلام على هذه الطبيعة , وتصوره قابعا داخل حدود إقليمية أو عنصرية , لا يحركه إلا خوف الاعتداء ! إنه في هذه الصورة الأخيرة يفقد مبرراته الذاتية في

## الإطلاق !

إن مبررات الانطلاق الإسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية , وليس منهج إنسان , ولا مذهب شيعة من الناس , ولا نظام جنس من الأجناس ! . . ونحن لا نبحت عن مبررات خارجية إلا حين نفتري حسنا هذه الحقيقة الهائلة . . حين ننسى أن القضية هي قضية ألوهية الله وعبودية العباد . . إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامي ! والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق , بين تصور أن الإسلام كان مضطراً لخوض معركة لا اختيار له فيها , بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التي لا بد أن تهاجمه . وتصور أنه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداء , ويدخل في هذه المعركة . . المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة . فهو في كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتماً . ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة , تغير المشاعر والمفاهيم الإسلامية تغييراً كبيراً . . خطيراً . .

إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام منهجاً إلهياً , جاء ليقرر الوهية الله في الأرض ,  
وعبودية البشر جميعاً لإله واحد , ويصب هذا التقرير في قالب واقعي , هو المجتمع  
الإنساني الذي يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد , بالعبودية لرب العباد , فلا تحكمهم إلا  
شريعة الله , التي يتمثل فيها سلطان الله , أو بتعبير آخر تتمثل فيها الوهيته . . فمن حقه  
إذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه , ليخاطب وجدان الأفراد وعقولهم دون حواجز ولا  
موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسي , أو أوضاع الناس الاجتماعية . . إن هناك  
مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام على هذا النحو , واعتباره نظاماً محلياً في وطن بعينه .  
فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الإقليمية !

هذا تصور . . . وذاك تصور . . . ولو أن الإسلام في كلتا الحالتين سيجاهد . . . ولكن  
التصور الكلي لبواعث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه , يختلف اختلافاً بعيداً , يدخل في  
صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه . إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداءً  
. فالإسلام ليس نخلة قوم , ولا نظام وطن , ولكنه منهج إله , ونظام عالم . . ومن حقه أن  
يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تغل من حرية "الإنسان" في الاختيار .  
وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته . إنما يهاجم الأنظمة  
والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة , المفسدة للفطرة , المقيدة لحرية الاختيار

من حق الإسلام أن يخرج "الناس" من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . . ليحقق إعلانه العام بربوبية الله للعالمين , وتحرير الناس أجمعين . . وعبادة الله وحده لا تتحقق - في التصور الإسلامي وفي الواقع العملي - إلا في ظل النظام الإسلامي . فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم . حاكمهم ومحكومهم . أسودهم وأبيضهم . قاصيهم ودانيهم . فقيرهم وغنيهم تشريعاً واحداً يخضع له الجميع على السواء . . أما في سائر الأنظمة , فيعبد الناس العباد , لأنهم يتقنون التشريع لحياتهم من العباد . وهو من خصائص الألوهية . فأيا بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه فقد ادعى الألوهية اختصاصاً وعملاً , سواء ادعاها قولاً أم لم يعلن هذا الادعاء ! وأيا بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية سواء سماها باسمها أم لم يسمها ! والإسلام ليس مجرد عقيدة . حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان . إنما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس . والتجمعات الأخرى لا تمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو . ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرر العام . وهذا - كما قلنا من قبل - معنى أن يكون الدين كله لله .

فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته , كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي  
تقوم على عبودية العباد للعباد !

(71/303)

---

إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر , وتحت الهجوم  
الاستشراقي الماكر , يتخرجون من تقرير تلك الحقيقة . لأن المستشرقين صوروا الإسلام  
حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة . والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيداً أن هذه  
ليست هي الحقيقة . ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقة . . ومن ثم  
يقوم المنافحون - المهزومون - عن سمعة الإسلام , بنفي هذا الاتهام ! فيلجأون إلى تلمس  
المبررات الدفاعية ! ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته , وحقه في "تحرير الإنسان"  
ابتداء .

وقد غشى على أفكار الباحثين العصريين - المهزومين - ذلك التصور الغربي لطبيعة  
"الدين" . . وأنه مجرد "عقيدة" في الضمير ; لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة . . ومن  
ثم يكون الجهاد للدين , جهاداً لفرض العقيدة على الضمير !  
ولكن الأمر ليس كذلك في الإسلام . فالإسلام منبج الله للحياة البشرية . وهو منبج يقوم



على أفراد الله وحده بالألوهية - متمثلة في الحاكمة - وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية! فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام. أما العقيدة فأمرها موكل إلى حرية الاقتناع, وفي ظل النظام العام, بعد رفع جميع المؤثرات. . . ومن ثم يختلف الأمر من أساسه, وتصبح له صورة جديدة كاملة.

وحيثما وجد التجمع الإسلامي, الذي يمثل فيه المنهج الإلهي, فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام. مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان. . . فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد, فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ. مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة. وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة, في المراحل التاريخية المتجددة. ولا نخط بين دلالتها المرحلية, والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل.

(72/303)

---

وبعد, فإن هناك بقية في بيان طبيعة "الجهاد في الإسلام" و"طبيعة هذا الدين" يمدنا بها المبحث الجمل القيم الذي أمدنا به المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان, بعنوان "الجهاد في سبيل الله". . . وسنحتاج أن نقبس منه فقرات

طويلة ; لا غنى عنها لقارئ يريد رؤية واضحة دقيقة لهذا الموضوع الخطير العميق في بناء  
الحركة الإسلامية:

"لقد جرت عادة الإفرنج أن يعبروا عن كلمة "الجهاد" بالحرب المقدسة" [ ] إذا أرادوا  
ترجمتها بلغاتهم . وقد فسروها تفسيراً منكراً . وتفننوا فيها , وألبسوها ثوباً فضفاضاً  
من المعاني المموهة الملفقة . وقد بلغ الأمر في ذلك أن أصبحت كلمة الجهاد عندهم عبارة  
عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء . وقد كان من لباقتهم , وسحر بيانهم  
, وتشويهم لوجوه الحقائق الناصعة , أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة . .  
الجهاد . . تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة , مصلحة سيوفها , متقدة  
صدورها بنار التعصب والغضب , متطيراً من عيونها شرار الفتك والنهب , عالية  
أصواتها بهتاف: "الله أكبر" , زاحفة إلى الأمام , ما إن رأت كافراً حتى أمسكت بجناقه ,  
وجعلته بين أمرين: إما أن يقول كلمة: "لا إله إلا الله" فينجو بنفسه , وإما أن يضرب عنقه ,  
فتشخب أوداجه دماً !

"ولقد رسم الدهان هذه "الصورة" بلباقة فائقة , وتفننوا فيها بريشة المتقن المبدع ; وكان  
من دهائهم ولباقتهم في هذا الفن أن صبغوها بصبغ من النجيع الأحمر , وكتبوا تحتها:  
"هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الأمة من شره إلى سفك الدماء , وجشع إلى الفتك  
بالأبرياء" !

"والعجب كل العجب , أن الذين عملوا على هذه الصورة ; وقاموا بما كان لهم من حظ موفور في إبرازها وعرضها على الأنظار , وهم هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم إرضاء لشهواتهم الدنيئة وإطفاء لأوار مطاعمهم الأشعبية , وتلك هي حربهم الملعونة غير المقدسة [ ] التي أثاروها على الأمم المستضعفة في مشارق الأرض ومغاربها , وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم وأراض لمستعمراتهم التي يريدون أن يستعمروها , ويستبدوا بمنابع ثروتها دون أصحابها الشرعيين , ويفتشون عن المناجم والمعادن , وعمّا تغله أرض الله الواسعة من الحاصلات التي يمكن أن تكون غذاء لبطن مصانعهم ومعاملهم . يبحثون عن كل ذلك وقلوبهم كلها جشع وشره إلى المال والجاه . وبين أيديهم الدبابات المدججة , وفوق رؤوسهم الطائرات المحلقة في جو السماء , ووراء ظهورهم مئات الألوف من العساكر المدربة يقطعون على البلاد سبل رزقها , وعلى أهلها الوادعين طريقهم إلى الحياة الكريمة , يريدون بذلك أن يهيئوا وقوداً لنيران مطاعمهم الفاحشة التي لا تزيدها الأيام إلا التهاباً واضطراباً . فلم تكن حروبهم في "سبيل الله" , وإنما كانت في سبيل شهواتهم الدنيئة , وأهوائهم الذميمة . .

(74/303)

---

"هذه هي حال الذين يصموننا بالغزو والقتال, الذي سبق لنا من أعمال الفتوح والحروب  
قد مضت عليه أحقاب طويلة . أما أعمالهم المخزية هذه فلا يزالون يقتفونها ليل نهار  
بمراى ومسمع من العالم "المتحضر المتمدن" ! . وأي بلاد الله, يا ترى, قد سلمت من  
عدوانهم, وما تخضبت أراضيتها بدماء أبنائها الزكية? وأية هذه القارات العظيمة من  
آسيا وأفريقية وأمريكا ما ذاقت وبال حروبهم الملعونة? . . لكن هؤلاء الدهاقر سموا  
صورتنا بلباقة منكرة, وأبدأوا وأعادوا في عرضها بشكل هائل بشع, وقد سحب ذيل  
النسيان على صورتهم الدميمة, حتى لا يكاد يذكرها أحد بجانب الصورة المنكرة التي  
صوروا بها تاريخنا وماثر أسلافنا . فما أعظم دهاءهم! وما أبرعهم في التزوير والتمويه!

(75/303)

---

"أما سذاجتنا وبله رجالنا, فحدث عن البحر ولا حرج! وأي بله أعظم من اغترارنا  
بالصورة المنكرة التي صوروا بها ماثرنا حتى كدنا نؤمن بصحتها ومطابقتها للحقيقة? وما

دار مجلدنا أن ننظر إلى الأيدي الأثيمة التي عملت عملها في رسم هذه الصورة المزورة, وأن  
نبحث عن الأقلام الخفية التي تفنتت في تمويهها وزخرفتها . وقد بلغ من اغترارنا بتزويرهم,  
وانخداعنا بتلك الصورة المموهة أن اعترانا الخجل والندامة, وعدنا نعتذر إلى القوم, ونبدل  
كلام الله, ونحرف الكلم عن مواضعه, ونقول لهم: "ما لنا وللقتال, أيها السادة, وإنما نحن  
دعاة مبشرون, ندعو إلى دين الله, دين الأمن والسلام والدعة بالحكمة والموعظة الحسنة,  
نبليح كلام الله تبليغ الرهبان والدرأويش والصوفية, ونجادل من يعارضنا والتي هي أحسن,  
بالخطب والرسائل والمقالات حتى يؤمن من يؤمن بدعوتنا عن بينة! هذه هي دعوتنا لا  
تزيد ولا تنقص! أما السيف والقتال به فمعاذ الله أن نمت إليه بصلة. اللهم إلا أن يقال: إننا  
ربما دافعنا عن أنفسنا حينما اعتدى علينا أحد! ذلك أيضاً قد مضت عليه سنون  
وأعوام طويلة. أما اليوم فقد أظهرنا براءتنا من ذلك أيضاً! ومن أجل ذلك نسخنا الجهاد  
"رسمياً".! ذلك الجهاد المقوت الذي يعمل فيه السيف عمله! حتى لا يقلق بالكم ولا  
يقض عليكم المضجع! فما الجهاد اليوم إلا مواصلة الجهود باللسان والقلم; وليس لنا إلا أن  
نلعب بمهفات الألسنة وأسنة الأقلام! أما المدافع والدبابات والرشاشات وغيرها من  
آلات الحرب واستخدامها, فأنتم أحق بها وأهلها!" .

---

"هذه مكايدهم السياسية التي كشفنا لك القناع عن بعضها فيما تقدم . لكنا إذا أنعمنا النظر في المسألة من الوجهة العلمية , ودققنا النظر في الأسباب التي أشكل لأجلها استجلاء حقيقة "الجهاد في سبيل الله" , واستكناه سرها على المسلمين أنفسهم فضلاً عن غير المسلمين , لاح لنا أن مرجع هذا الخطأ إلى أمرين مهمين لم يسبروا غورهما , ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة:

"فالأول: أنهم ظنوا الإسلام نحلة [ ] بالمعنى الذي تطلق عليه كلمة "النحلة" [ ] عامة . .  
والثاني: أنهم حسبوا المسلمين أمة [ ] بالمعنى الذي تستعمل فيه هذه الكلمة في عامة الأحوال .

"فالحقيقة أن خطأ القوم في فهم هذين الأمرين المهمين , وعدم استجلائهم لوجه الحق في هاتين المسألتين الأساسيتين هو الذي شوه وجه الحقيقة الناصعة في هذا الشأن , وعاقبهم عن إدراك مغزى الجهاد الإسلامي . بل الحق - والحق أحق أن يتبع - أن هذا الخطأ الأساسي في فهم هاتين المسألتين قد أرخى سدوله على حقيقة الدين الإسلامي بأسره , وقلب الأمر ظهراً لبطن , وجعل موقف المسلمين من العالم ومسائله المتجددة ومشاكله المتشعبة حرجاً ضيقاً , لا يرضاه الإسلام وتعاليمه الخالدة:

"فالنحلة [] على حسب الاصطلاح الشائع عندهم, لا يراد بها إلا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر . ولا جرم أن "النحلة" بهذا المعنى لا تعدو أن تكون مسألة شخصية . فأنت حر فيما تختاره من العقيدة ; ولك الخيار في أن تعبد بأي طريق شئت من رضيت به رباً لنفسك . وإن أبت نفسك إلا التحمس لهذه النحلة والانتصار لعقيدتها فلك أن تخترق الأرض, وتجوّب بلاد الله الشاسعة, داعياً إلى عقيدتها, مدافعاً عن كيانها بالحجج والبراهين, مجادلاً من يخالفونك فيها بمرهفات الألسنة وأسننة الأقلام . أما السيف وآلات الحرب والقتال, فمالك وما لها في هذا الشأن؟ أتريد أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك؟! وإن كان الإسلام نحلة [] كتحل العالم, على حسب الاصطلاح الشائع عندهم كما يزعمون, فالظاهر أنه لا شأن فيها للسيف وأدوات الحرب, كما قالوا . ولو كان موقف الإسلام في نفس الأمر كما زعموا ووصفوا لما كان فيه مساع للجهاد, ولم يكن من الإسلام في ورد ولا صدر; لكن الأمر على خلاف ذلك, كما سوف تعرفه فيما يأتي من البيان . وكذلك كلمة "الأمة" [] فما هي إلا عبارة عن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها [] اجتمعت وتآلفت وامتازت من بين طوائف أخرى لا شراكها في بعض الأمور

الجمهورية . فالطائفة التي تكون "أمة" , بهذا المعنى , لا يبعثها على استخدام السيف إلا أمران: إما أن يعتدي عليها أحد , ويريد أن يسلبها حقوقها المعروفة ; وإما أن تحمل هي بنفسها على طائفة أخرى لتنتزع من يدها حقوقها المعروفة . ففي الصورة الأولى منهما , لها سعة في الأمر , وهي لا تخلو من وازع خلقي يلجئها إلى استخدام السيف والبطش بمن اعتدى عليها . وإن كان بعض المتشدقين بالأمن والسلام لا يبيح ذلك أيضاً ! - أما الصورة الثانية - أي الاعتداء على حقوق غيرها والإغارة على الشعوب والأمم من غير ما سبب - فلا يبيحها غير الجبابرة المسيطرين [ ] حتى إن سياسة الدول الكبرى

(78/303)

---

كبريطانيا وأمريكا أيضاً لا يقدرّون أن يجترئوا على القول بجوازها !  
"فإن كان الإسلام "نحلة" كالنحل الأخرى , والمسلمون "أمة" كغيرهم من أمم العالم , فلا جرم أن "الجهاد" الإسلامي يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التي جعلته رأس العبادات ودرّة تاجها . . لكن الحقيقة أن الإسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة , وأن المسلمين ليسوا بأمة كأمم العالم . . بل الأمر أن الإسلام فكرة انقلابية [ ] ومنهاج انقلابي يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره ويأتي بنيانه من القواعد , ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته



ومنهاجه العملي . . . ومن هناك تعرف أن لفظ "المسلم" وصف للحزب الانقلابي العالمي  
[ ] الذي يكونه الإسلام, وينظم صفوفه, ليكون أداة في إحداث ذلك البرنامج الانقلابي  
الذي يرمي إليه الإسلام, ويطمح إليه ببصره . والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابي [ ] عن  
تلك الحركة الدائبة المستمرة التي يقام بها للوصول إلى هذه الغاية, وإدراك هذا المبتغى .

(79/303)

---

"والإسلام يتجنب الكلمات الشائعة في دعوته وبيان منهجه العملي - شأن غيره من  
الدعوات الفكرية والمناهج الانقلابية - بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات [ ] خاصة, ولئلا  
يقع الالتباس بين دعوته وما إليها من الأفكار والتصورات, وبين الأفكار والتصورات  
الشائعة الرائجة . " فالجهاد " أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الإسلام لأداء مهمته  
وتبيين تفاصيل دعوته . فانت ترى أن الإسلام قد تجنب لفظة [ الحرب ] وغيرها من  
الكلمات التي تؤدي معنى القتال [ ] في اللغة العربية, واستبدل بها كلمة [ ] في اللغة  
الإنجليزية . غير أن لفظة [ الجهاد ] أبلغ منها تأثيراً, وأكثر منها إحاطة بالمعنى المقصود .  
فما الذي أفضى بالإسلام إلى أن يختار هذه الكلمة الجديدة, صارفاً بوجهه عن الكلمات  
القديمة الرائجة ? الذي أراه وأجزم به أنه ليس لذلك إلا سبب واحد: وهو أن لفظة

"الحرب" [ ] كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يشب لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لما رب شخصية وأغراض ذاتية والغايات التي ترمي إليها أمثال هذه الحروب لا تعد وأن تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية ، لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ . وبما أن القتال المشروع في الإسلام ليس من قبيل هذه الحروب ، لم يكن له بد من ترك هذه اللفظة [ الحرب ] البتة . فإن الإسلام لا ينظر إلى مصلح أمة دون أمة ؛ ولا يقصد إلى النهوض بشعب دون شعب ؛ وكذلك لا يهتم في قليل ولا كثير أن تملك الأرض وتستولي عليها هذه المملكة أو تلك ؛ وإنما تهتمه سعادة البشر وفلاحهم . وله فكرة خاصة ومنهاج عملي مختار لسعادة المجتمع البشري والصعود به إلى معارج الفلاح . فكل حكومة مؤسسة على فكرة غير هذه الفكرة ، ومنهاج غير هذا المنهاج ، يقاومها الإسلام ، ويريد أن يقضي عليها قضاء مبرماً ؛ ولا يعنيه في شيء بهذا الصدد أمر البلاد التي قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية ، أو الأمة التي ينتمي إليها القائمون

(80/303)

---

بأمرها . فإن غايته استعلاء فكرته ، وتعميم منهاجه ، وإقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على أساس هذه الفكرة وهذا المنهاج ، بصرف النظر عن يحمل لواء الحق

والعدل بيده ومن تنكس راية عدوانه وفساده ! والإسلام يتطلب "الأرض" , ولا يقع  
بقطعة أو جزء منها ; وإنما يتطلب ويستدعي المعمورة الأرضية كلها . ولا يتطلبها لتستولي  
عليها وتستبد بمنابع ثروتها أمة بعينها بعد ما تنتزع من أمة أو أمم شتى , بل يتطلبها الإسلام  
ويستدعيها ليتمتع الجنس البشري بأجمعه بفكرة السعادة البشرية ومنهاجها العملي اللذين  
أكرمهم الله بهما , وفضله بهما على سائر الأديان والشرائع . وتحقيقاً لهذه الغاية السامية  
يريد الإسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن استخدامها لإحداث انقلاب  
علمي شامل ; ويبذل الجهد المستطاع للوصول إلى هذه الغاية العظمى ; ويسمي هذا  
الكفاح المستمر , واستنفاد القوى البالغ واستخدام شتى الوسائل المستطاعة "بالجهاد" .  
فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد . وإذا عرفت هذا فلا تعجب  
إذا قلت: إن تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم , وإحداث انقلاب عقلي  
وفكري بواسطة مرهفات الأقلام نوع من أنواع الجهاد , كما أن القضاء على نظم الحياة  
العتيقة الجائرة بمجد السيوف , وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنصفة أيضاً من  
أصناف الجهاد . وكذلك بذل الأموال , وتحمل المشاق , ومكابدة الشدائد أيضاً فصول  
وأبواب مهمة من كتاب "الجهاد" العظيم .

---

"لكن الجهاد الإسلامي ليس بجهاد لا غاية له ; وإنما هو الجهاد في سبيل الله ; وقد لزمه هذا الشرط لا ينفك عنه أبداً . وذلك أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الإسلام لتبيين فكرته وإيضاح تعاليمه , كما أشرت إليه آنفاً . وقد انخدع كثير من الناس بمدلوله اللغوي الظاهر , وحسبوا أن إخضاع الناس لعقيدة الإسلام وإكراههم على قبولها هو "الجهاد في سبيل الله" وذلك أن ضيق صدورهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم يعوقهم أن يسموا بأنفسهم فوق ذلك ويخلقوا في سماء أوسع من سمائهم . لكن الحق أن "سبيل الله" في المصطلح الإسلامي أرحب وأوسع بكثير مما يتصورون , وأسمى غاية وأبعد مراماً مما يظنون ويزعمون . .

"فالذي يتطلبه الإسلام أنه إذا قام رجل , أو جماعة من المسلمين , تبذل جهودها , وتستنفد مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة , وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الإسلامية , فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض , مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية , لا تقصد من وراء جهودها , وما تبذل في سبيل غايتها من النفوس والنفائس إلا تأسيس نظام عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس , ولا تتبغى بها بدلاً في هذه الحياة الفانية , ولا يكون من هم الإنسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لإعلاء كلمة الله أن ينال جاهاً وشرفاً أو سمعة وحسن أحواله , ولا يخطر بباله أثناء هذه الجهود البالغة والمسااعي

الغالية أن يسمو بنفسه وعشيرته , ويستبد بزمام الأمر , ويتبوأ منصب الطواغيت الفجرة ,  
بعد ما يعزل غيره من الجبابرة المستكبرين عن مناصبهم . وها هو ذا القرآن الكريم ينادي  
بملء صوته:

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) . . . [

النساء:76]

. . . " وقد تضمنت الآية الكريمة: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من

قبلكم لعلكم تتقون) . . . [البقرة:21]

(82/303)

---

"لباب هذه الدعوة , دعوة الإسلام الانقلابية , وجوهرها . فإنه لا يخاطب سكان هذه  
الكرة باسم العمال , أو الفلاحين , أو الملاكين , أو الممولين من أصحاب المعامل والمصانع ,  
ولا يسميهم بأسماء أحزابهم وطبقاتهم . وإنما يخاطب الإسلام بني آدم كافة . ولا يناديهم  
كذلك إلا بصفة كونهم أفراد الجنس البشري , فهو يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا  
به شيئاً , ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره . وكذلك يدعوهم ألا يعتوا عن أمر ربهم , ولا  
يستكفوا عن عبادته , ولا يتكبروا في أرض الله بغير الحق , فإن الحكم والأمر لله وحده ,

وبيده مقاليد السماوات والأرض ; فلا يجوز لأحد من خلقه , كائناً من كان , أن يعلو في الأرض ويتكبر , ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويدعنوا لأمره وينقادوا لجبروته . ودعوته لهم جميعاً أن يخلصوا دينهم لله وحده فيكونوا سواء في هذه العبودية الشاملة , كما ورد في التنزيل : تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله , ولا نشرك به شيئاً , ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . . . [ آل عمران : 64 ] .

"فهذه دعوة إلى انقلاب عالمي شامل , لا غموض فيها ولا إيهام . فإنه قد نادى بملء صوته :

[ إن الحكم إلا لله , وأمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم ) . . [ يوسف : 40 ]

"فليس لأحد من بني آدم أن ينصب نفسه ملكاً على الناس ومسيطرّاً عليهم , يأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد . ولا جرم أن استقلال فرد من أفراد البشر بالأمر والنهي من غير أن يكون له سلطان من الملك الأعلى , هو تكبر في الأرض على الله بغير الحق , وعتو عن أمره , وطموح إلى مقام الألوهية . والذين يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت لهم ملوكاً وأمراء إنما يشركون بالله , وذلك مبعث الفساد في الأرض , ومنه تنفجر ينابيع الشر والطغيان .

(83/303)

---

"إن دعوة الإسلام إلى التوحيد , وعبادة الله الواحد , لم تكن قضية كلامية . أو عقيدة  
لاهوتية فحسب . شأن غيره من النحل والملل ; بل الأمر أنها كانت دعوة إلى انقلاب  
اجتماعي [ ] أرادت في أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الألوهية ;  
واستعبدوا الناس بجيلهم ومكايدهم المختلفة . فمنهم من تبوأ مناصب السدنة والكهان ;  
ومنهم من استأثر بالملك والإمرة , وتحكم في رقاب الناس ; ومنهم من استبد بمنابع الثروة  
وخيرات الأرض ; وجعل الناس عالة عليهم تكفون ولا يجدون ما يتبلغون به . . فأرادت  
دعوة الإسلام أن تقطع دابرهم جميعاً وتتأصل شأفتهم استئصالاً . . وهؤلاء تارة  
تسنموا قمة الألوهية جهراً وعلانية ; وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن  
يذعنوا لأمرهم ; وينقادوا لجبروتهم ; مستدين إلى حقوقهم التي ورثوها عن آبائهم ; أو  
استأثرت بها الطبقة التي ينتمون إليها ; فقالوا : ( ما علمت لكم من إله غيري ) . . و ( وأنا  
ربكم الأعلى ) . . و ( أنا أحيي وأميت ) . . و ( من أشد مناقرة ؟ ) . . إلى غيرها من  
كلمات الاستكبار ودعاوى الألوهية التي تفوهوا بها وتجاسروا عليها بغياً وعدواناً .  
وطورا استغلوا جهل الدهماء وسفهمهم , فاتخذوا من الأصنام والتماثيل والهياكل آلهة ,  
يدعون الناس ويريدونهم على أداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيل والهياكل متوارين  
بأنفسهم من ورائها , يلعبون بعقول الناس , ويستعبدونهم لأغراضهم وشهواتهم وهم لا  
يشعرون ! فيتبين من ذلك أن دعوة الإسلام إلى التوحيد , وإخلاص العبادة لله الواحد

الأحد , وتنديده بالكفر والشرك بالله , واجتناب الأوثان والطواغيت . . كل ذلك يتنافى  
ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين في أمورها , والذين يجدون فيها سنداً لهم  
, وعوناً على قضاء حاجاتهم وأغراضهم . . ومن ثم ترى أنه كلما قام نبي من الأنبياء  
يجاهر الناس بالدعوة , وخاطبهم قائلاً: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . .

(84/303)

---

قامت في وجهه الحكومات المتمكنة في عصره , وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات  
البلاد ويستثمرونها ظلماً وعدواناً . . خرجت ثقاومه , وتضع في سبيل الدعوة العقبات  
. وذلك أن هذه الدعوة لم تكن مجرد بيان لعقيدة كلامية , أو شرح لمسألة من مسائل  
الإلهيات وإنما كانت نداء لانقلاب اجتماعي عالمي , ما كانت بوادره تخفى على  
المستأثرين بمناصب العز والجاه , المستبدين بمنابع الثراء , ومن يشمون رائحة الاضطراب  
السياسي قبل حدوثه بأعوام !

"إن الإسلام ليس بمجرد مجموعة من العقيدة الكلامية , وجملة من المناسك والشعائر , كما  
يفهم من معنى الدين في هذه الأيام . بل الحق أنه نظام شامل , يريد أن يقضي على سائر  
النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم , ويقطع دابرها , ويستبدل بها نظاماً صالحاً ,



ومنها جاً معتدلاً , يرى أنه خير للإنسانية من النظم الأخرى , وأن فيه نجاة للجنس البشري  
من أدواء الشر والطغيان , وسعادة له وفلاحاً في العاجلة والآجلة معاً .

"ودعوته في هذه السبيل , سبيل الإصلاح والتجديد والهدم والبناء , عامة للجنس  
البشري كافة , لا تختص بأمة دون أمة , أو طائفة دون طائفة . فهو يدعوني آدم جميعاً إلى  
كلمته ; حتى إنه يهيب بالطبقات الجائرة نفسها ممن اعتدوا حدود الله في أرضه .  
وأسأثروا بخيرات الأرض دون سائر الناس . . يهيب بالملوك والأمراء أنفسهم ويناديهم  
قائلاً: لا تطغوا في الأرض , وادخلوا في كنف حدود الله التي حدها لكم , وكفوا أيديكم  
عما نهاكم الله عنه وحذركم إياه . فإن أسلمتم لأمر الله , وودتم لنظام الحق والعدل الذي  
أقامه للناس خيراً وبركة , فلکم الأمن والدعة والسلامة فإن الحق لا يعادي أحداً ; وإنما  
يعادي الحق الجور , والفساد والفحشاء , وأن يتعدى الرجل حدوده الفطرية , ويتغى ما  
وراء ذلك , مما لا حظ له فيه حسب سنن الكون , وفطرة الله التي فطر الناس عليها .

(85/303)

---

"فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلها بقبول حسن , يصير عضواً في "الجماعة الإسلامية" أو  
"الحزب الإسلامي" لا فرق في ذلك بين الأحمر منهم والأسود , أو بين الغني منهم والفقير .

كلهم سواسية كأسنان المشط . لا فضل لأمة على أمة . أو لطبقة على أخرى . وبذلك  
يتكون ذلك الحزب العالمي أو الأممي , الذي سمي "حزب الله" بلسان الوحي .  
"وما إن يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهاد في سبيل الغاية التي أنشئ لأجلها . فمن  
طبيعته , وما يستدعيه وجوده , أن لا يألوجهداً في القضاء على نظم الحكم التي أسس  
بنيانها على غير قواعد الإسلام , واستئصال شأفتها , وأن يستنفد مجهوده في أن يستبدل  
بها نظاماً للعمران والاجتماع معتدلاً , مؤسساً على قواعد ذلك القانون الوسط العدل  
الذي يسميه القرآن الكريم: كلمة الله . فإن لم يبذل هذا الحزب الجهد المستطاع , ولم يسع  
سعيه وراء تغيير نظم الحكم وإقامة نظام الحق . . نظام الحكم المؤسس على قواعد  
الإسلام . . ولم يجاهد حق جهاده في هذه السبيل , فانتته غايته . وقصر عن تحقيق البغية  
التي أنشئ لأجلها . فإنه ما أنشئ إلا لإدراك هذه الغاية , وتحقيق هذه البغية . . بغية  
إقامة نظام الحق والعدل . . ولا غاية له ولا عمل إلا الجهاد في هذه السبيل . وهذه الغاية  
الوحيدة التي بينها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله:  
(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . . ]  
آل عمران: 110 [

(86/303)

---

"ولا يظن أحد أن هذا الحزب . . (حزب الله) بلسان الوحي . . مجرد جماعة من الوعاظ  
المبشرين , يعظون الناس في المساجد , ويدعونهم إلى مذاهبهم ومسالكتهم بالخطب  
والمقالات ليس إلا ! ليس الأمر كذلك ! وإنما هو حزب أنشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل  
بيده , ويكون شهيداً على الناس ; ومن مهمته التي أقيمت على كاهله من أول يوم أن يقضي  
على منابع الشر والعدوان , ويقطع دابر الجور والفساد في الأرض والاستغلال الممقوت ;  
وأن يكبح جماح الآلهة الكاذبة . الذين تكبروا في أرض الله بغير الحق ; وجعلوا أنفسهم  
أرباباً من دون الله ; ويستأصل شأفة الوهيتهم . ويقوم نظاماً للحكم والعمران صالحاً يتفياً  
ظلاله القاصي والداني والغني والفقير . . وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى في غير واحدة  
من آي الذكر الحكيم:

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) . . [ الأنفال: 38 ] .

(إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) . . [ الأنفال: 73 ] .

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) . . [

التوبة: 33 ]

"فتبين من كل ذلك أن هذا الحزب لا بد له من امتلاك ناصية الأمر ; ولا مندوحة له من

القبض على زمام الحكم ; لأن نظام العمران الفاسد لا يقوم إلا على أساس حكومة مؤسسة

على قواعد العدوان والفساد في الأرض ; وكذلك ليس من الممكن أن يقوم نظام للحكم صالح , ويؤتي أكله , إلا بعد ما ينتزع زمام الأمر من أيدي الطغاة المفسدين . ويأخذه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ; ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

(87/303)

---

"وأضف إلى ذلك أن هذا الحزب ; بصرف النظر عما يرمي إليه من إصلاح العالم ; وبث الخير والفضيلة في أنحاء الأرض كافة , لا يقدر أن يبقى ثابتاً على خطته , متمسكاً بمنهاجه , عاملاً وفق مقتضياته ما دام نظام الحكم قائماً على أساس آخر , سائراً على منهاج غير منهاجه . وذلك أن حزباً مؤمناً بمبدأ ونظام للحياة والحكم خاص , لا يمكن أن يعيش متمسكاً بمبدئه عاملاً حسب مقتضاه في ظل نظام للحكم مؤسس على مبادئ وغايات غير المبادئ والغايات التي يؤمن بها , ويريد السير على منهاجها . فإن رجلاً يؤمن بمبادئ الشيوعية , إن أراد أن يعيش في بريطانيا أو ألمانيا , متمسكاً بمبدئه , سائراً في حياته على البرنامج الذي تقرره الشيوعية , فلن يتمكن من ذلك أبداً , لأن النظم التي تقررها الرأسمالية أو الناتسية تكون مهيمنة عليه , قاهرة بما أوتيت من سلطان , فلا يمكنه أن يتخلص من برائتها أصلاً . . . وكذلك إن أراد المسلم أن يقضي حياته مستظلاً بنظام للحكم مناقض

لمبادئ الإسلام الخالدة وبوده أن يبقى مستمسكاً بمبادئ الإسلام, سائراً وفق مقتضاه في أعماله اليومية, فلن يتسنى له ذلك, ولا يمكنه أن ينجح في بغيته هذه أبداً. لأن القوانين التي يراها باطلة, والضرائب التي يعتقدونها غراماً ونهباً لأموال الناس, والقضايا التي يحسبها جائزة عن الحق واقتنائاً على العدل, والنظم التي يعرف أنها مبعث الفساد في الأرض, ومناهج التعليم التي يجزم بوخامة عاقبتها وسوء نتائجها, ويرى فيها هلاكاً للأمة. . يجد كل هذه مهيمنة عليه, ومسيطرة على بيئته وأهله وأولاده, بحيث لا يمكنه أن يتخلص من قيودها وينجو بنفسه وأهله من أثرها ونفوذها. فالذي يؤمن بعقيدة ونظام – فرداً كان أو جماعة – مضطرب بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى سعيه في القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته, ويبذل الجهد المستطاع في إقامة نظام للحكم مستند إلى الفكرة التي يؤمن بها; ويعتقد أن

(88/303)

---

فيها سعادة للبشر. لأنه لا يتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير على منهاجه إلا بهذا الطريق. وإذا رأيت رجلاً لا يسعى وراء غايته, أو يغفل عن هذا الواجب, فاعلم أنه كاذب في دعواه. ولما يدخل الإيمان في قلبه. وبهذا المعنى ورد في التنزيل:

(عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين؟ لا يستأذنك  
الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . والله عليم بالمتقين . . إنما  
يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) . . .  
[ التوبة: 43 - 45 ] .

"وأبي شهادة أصدق ; وأي حجة أنصع ; من شهادة القرآن وحجته ; ففي هذه الآيات من  
سورة براءة قد نص القرآن الكريم على أن الذي لا يلي نداء الجهاد ; ولا يجاهد بماله ونفسه  
في سبيل إعلاء كلمة الله , وإقامة الدين الذي ارتضاه لنفسه , وتوطيد نظام الحكم المبني  
على قواعده , فهو في عداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر , وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم  
يترددون . . .

(89/303)

---

"لعلك تبينت مما أسلفنا أننا أن غاية [ ] الجهاد في الإسلام , هي هدم بنيان النظم المناقضة  
لمبادئه , وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام في مكانها واستبدالها بها . وهذه  
المهمة . . مهمة إحداث انقلاب إسلامي عام . غير منحصر في قطر دون قطر . بل مما  
يريده الإسلام , ويضعه نصب عينيه أن يحدث هذا الانقلاب الشامل في جميع أنحاء

المعمورة . . هذه غايته العليا , ومقصده الأسمى الذي يطمح إليه ببصره . إلا أنه لا مندوحة للمسلمين , وأعضاء "الحزب الإسلامي" عن الشروع في مهمتهم بإحداث الانقلاب المنشود , والسعي وراء تغيير نظم الحكم في بلادهم التي يسكنونها . أما غايتهم العليا وهدفهم الأسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل [ ] المحيط بجميع أنحاء الأرض . وذلك أن فكرة انقلابية لا تؤمن بالقومية , بل تدعو الناس جميعاً إلى سعادة البشر وفلاح الناس أجمعين , لا يمكنها أصلاً أن تضيق دائرة عملها في نطاق محدود من أمة أو قطر . بل الحق أنها مضطرة بسجيتهما وجبلتها أن تجعل الانقلاب العالمي غايتها التي تضعها نصب عينها , ولا تغفل عنها طرفة عين . فإن الحق يأبى الحدود الجغرافية , ولا يرضى أن ينحصر في حدود ضيقة اخترعها علماء الجغرافية واصطلحوا عليها . فالحق يتحدى العقول البشرية النزيهة . ويقول لها مطالباً بحقه: ما بالكم تقولون: إن القضية الفلانية "حق" في هذا الجانب من ذلك الجبل أو النهر مثلاً; ثم تعود القضية نفسها "باطلاً" - بزعمكم - إذا جاوزنا ذلك الجبل أو النهر بأذرع? ! الحق حق في كل حال وفي كل مكان! وأي تأثير للجبال والأنهار في تغيير حقيقته المعنوية? ! الحق ظلّه وارف , وخيره عام شامل , ولا يختص ببيئة دون بيئة , ولا قطر دون قطر . فأينما وجد "الإنسان" مقهوراً فالحق من واجبه أن يدركه ويأخذ بحقه وينتصر له . ومهما أصيبت "الإنسانية" في أبنائها المستضعفين , فعلى العدل ومبادئها الحاملين للوائه أن يلبوا نداءها , ويأخذوا بناصرهم

---

حتى ينتصروا لهم من أعدائهم الجائرين , ويستردوا لهم حقوقهم المغصوبة التي استبد بها الطغاة بغياً وعدواناً . وبهذا المعنى نطق لسان الوحي , حيث ورد في التنزيل:

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان , الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) . . . [النساء:75]

"وزد على ذلك أن الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية - على ما أثرت فيها الفوارق القومية والوطنية . وأحدثت فيها من نزعات الشتات والاختلاف - قد تشتمل على تلاؤم شامل , وتجانس عام بين أجزائها , ربما يتعذر معه أن تسيّر مملكة في قطر بعينه بحسب مبادئها وخططها المرسومة المستبينة , ما دامت الأقطار المجاورة لها لا توافقها على مبادئها وخططها , ولا ترضى بالسير وفق منهاجها وبرنامجها . من أجل ذلك وجب على الحزب المسلم , حفظاً لكيانه , وابتغاء للإصلاح المنشود , ألا يقنع بإقامة نظام الحكم الإسلامي في قطر واحد بعينه . بل من واجبه الذي لا مناص له منه مجال من الأحوال , ألا يدخر جهداً في توسيع نطاق هذا النظام ووسط نفوذه في مختلف أرجاء الأرض . ذلك بأن يسعى الحزب الإسلامي , في جانب , وراء نشر الفكرة الإسلامية , وتعميم نظرياتها



الكاملة ونشرها في أقصى الأرض وأدناها ; ويدعو سكان المعمورة - على اختلاف بلادهم وأجناسهم وطبقاتهم أن يتلقوا هذه الدعوة بالقبول , ويدينوا بهذا المنهاج الذي يضمن لهم السعادتين , سعادتني الدنيا والآخرة . . . وبجانب آخر , يشمر عن ساق الجد , ويقاوم النظم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل والقوة , إذا استطاع ذلك وأعد له عدته , ويقيم مكانها نظام العدل والنصفة , المؤسس على قواعد الإسلام ومبادئه الخالدة التي لا تبلى , ولن تبلى جدتها على مرور الأيام والليالي .

(91/303)

---

"هذه هي الخطة التي سلكها . وهذا هو المنهاج الذي اتجهه النبي (صلى الله عليه وسلم ( ومن جاء بعده , وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين , فإنهم بدأوا ببلاد العرب . ثم أشرفت شمس الإسلام من آفاقها . وأخضعوها أولاً لحكم الإسلام , وأدخلوها في كنف المملكة الإسلامية الجديدة . ثم دعا النبي (صلى الله عليه وسلم) الملوك والأمراء والرؤساء في مختلف بقاع الأرض إلى دين الحق والإذعان لأمر الله . فالذين آمنوا بهذه الدعوة انضموا إلى هذه المملكة الإسلامية وأصبحوا من أهلها , والذين لم يلبوا دعوتها ولم يتقبلوها بقبول حسن شرع في قتالهم وجهادهم . . . ولما استخلف أبو بكر رضي الله عنه

وبعد وفاته (صلى الله عليه وسلم) والتحاقه بالرفيق الأعلى, حمل على الملكتين  
المجاورتين للمملكة الإسلامية . . مملكتي الروم والفرس . اللتين بلغ من عتوهما وتماديهما في  
الغبي والاستكبار في الأرض ما طبقت شهرته الآفاق . وبلغت هذه الحملات التي بدأ بها  
الصديق - رضي الله عنه - غايتها في عصر الفاروق الذي يرجع إليه الفضل العظيم في  
توطيد دعائم المملكة الإسلامية الأولى, حتى شمل ظلها الوارف تلك الأقطار جميعاً . .  
[ انتهت المقطعات ] .

على ضوء هذا البيان لطبيعة هذا الدين وحقيقته, ولطبيعة الجهاد فيه وقيمه, ولمنهج  
هذا الدين وخطته الحركية في الجهاد ومراحله . . نستطيع أن نمضي في تقييم غزوة بدر  
الكبرى, التي قال الله سبحانه عن يومها إنه "يوم الفرقان" . . وأن نمضي كذلك في التعرف  
إلى سورة الأنفال, التي نزلت في هذه الغزوة, على وجه الإجمال .

(92/303)

---

لم تكن غزوة بدر الكبرى هي أولى حركات الجهاد الإسلامي - كما بينا من قبل - فقد  
سبقها عدة سرايا, لم يقع قتال إلا في واحدة منها, هي سرية عبد الله بن جحش في رجب  
على رأس سبعة عشر شهراً من هجرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة . .

وكانت كلها تمثيلاً مع القاعدة التي يقوم عليها الجهاد في الإسلام . والتي أسلفت الحديث عنها من قبل . . نعم إنها كلها كانت موجهة إلى قريش التي أخرجت رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وللمسلمين الكرام ; ولم تحفظ حرمة البيت الحرام المحرمة في الجاهلية وفي الإسلام ! ولكن هذا ليس الأصل في انطلاقة الجهاد الإسلامي . إنما الأصل هو إعلان الإسلام العام بتحرير الإنسان من العبودية لغير الله ; وتقرير ألوهية الله في الأرض ; وتخطيم الطواغيت التي تعبد الناس , وإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده . . . . . وقريش كانت هي الطاغوت المباشر الذي يحول بين الناس في الجزيرة وبين التوجه إلى عبادة الله وحده ; والدخول في سلطانه وحده . فلم يكن بد أن يناجز الإسلام هذا الطاغوت , تمثيلاً مع خطئه العامة ; وانتصافاً في الوقت ذاته من الظلم والطغيان اللذين وقعا بالفعل على المسلمين الكرام ; ووقاية كذلك لدار الإسلام في المدينة من الغزو والعدوان . . . وإن كان ينبغي دائماً ونحن نقرر هذه الأسباب المحلية القريبة أن نتذكر - ولا ننسى - طبيعة هذا الدين نفسه وخطئه التي تحتمها طبيعته هذه . وهي ألا يترك في الأرض طاغوتاً يغتصب سلطان الله ; ويعبد الناس لغير ألوهيته وشرعه مجال من الأحوال !

(93/303)

---

أما أحداث هذه الغزوة الكبرى فنجملها هنا قبل استعراض سورة الأنفال التي نزلت فيها ،  
ذلك لنتنسم الجو الذي نزلت فيه السورة ؛ وندرك مرامي النصوص فيها ؛ وواقعيتها في  
مواجهة الأحداث من ناحية ؛ وتوجيهها للأحداث من الناحية الأخرى . . ذلك أن  
النصوص القرآنية لا تدرك حق إدراكها بالتعامل مع مدلولاتها البيانية واللغوية فحسب ! !  
إنما تدرك أولاً وقبل كل شيء بالحياة في جوها التاريخي الحركي ؛ وفي واقعيتها الإيجابية ،  
وتعاملها مع الواقع الحي . وهي - وإن كانت أبعد مدى وأبقى أثراً من الواقع التاريخي الذي  
جاءت تواجهه - لا تكشف عن هذا المدى البعيد إلا في ضوء ذلك الواقع التاريخي . .  
ثم يبقى لها إichaؤها الدائم ، وفعاليتها المستمرة ، ولكن بالنسبة للذين يتحركون بهذا الدين  
وحدهم ؛ ويزاولون منه شبه ما كان يزاوله الذين تنزلت هذه النصوص عليهم أول مرة ؛  
ويواجهون من الظروف والأحوال شبه ما كان هؤلاء يواجهون ! ولن تتكشف أسرار هذا  
القرآن قط للقاعدين ، الذين يعالجون نصوصه في ضوء مدلولاتها اللغوية والبيانية فحسب .  
. وهم قاعدون ! . .

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) سمع بأبي سفيان بن حرب  
مقبلاً من الشام في غير لقريش عظيمة ، فيها أموال لقريش ، وتجارة من تجارتهم . وفيها  
ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون . .

قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن مسلم الزهري ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله

بن أبي بكر, ويزيد بن رومان, وعن عروة بن الزبير . وغيرهم من علمائنا , عن ابن عباس رضي الله عنهما . . كل قد حدثني بعض الحديث , فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر , قالوا :

(94/303)

---

لما سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم , وقال : " هذه غير قريش فيها أموالهم , فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها " فانتدب الناس , فخف بعضهم وثقل بعضهم , وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يلقي حرباً [ وفي زاد المعاد وإمتاع الأسماع أنه (صلى الله عليه وسلم) أمر من كان ظهره - أي ما يركبه - حاضراً بالنهوض , ولم يحتفل لها احتفالاً كبيراً ] . . وقال ابن القيم : " وجملة من حضر بدرًا من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً : من المهاجرين ستة وثمانون . ومن الأوس واحد وستون . ومن الخزرج مائة وسبعون . وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج , وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة وأصبر عند اللقاء , لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة , وجاء النفير بغتة , وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضراً . فاستأذنه رجال ظهورهم كانت في علو المدينة أن يستأني بهم حتى

يذهبوا إلى ظهورهم , فأبى . ولم يكن عزمهم على اللقاء , ولا أعدوا له عدة , ولا تأهبوا له أهبة . ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد " .  
وكان أبو سفيان - حين دنا من الحجاز - يتحسس الأخبار , ويسأل من لقي من الركبان , تخوفاً على أمر الناس [أي على أموالهم التي معه في القافلة] حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك . فحذر عند ذلك . فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري , فبعثه إلى مكة , وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم , ويخبرهم أن محمداً قد عرض لنا في أصحابه . فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة .

(95/303)

---

قال المقرئ في "إمتاع الأسماع": فلم يبع أهل مكة إلا وضمضم يقول: يا معشر قريش , يا آل لؤي ابن غالب , اللطيمة [وهي العير التي تحمل الطيب والمسك والثياب وليس فيما تحمله طعام يؤكل] قد عرض لها محمد في أصحابه . الغوث الغوث . والله ما أرى أن تدركوها ! وقد جدّ عأذني بعيره , وشق قميصه وحول رحله . فلم تملك قريش من أمرها شيئاً حتى نفروا على الصعب والذلول , وتجهزوا في ثلاثة أيام . وقيل في يومين . وأعان قويمهم ضعيفهم . وقام سهيل بن عمرو , وزمعة بن الأسود , وطعيمة بن عدي , وحنظلة بن أبي سفيان ,

وعمر بن أبي سفيان , يحضون الناس على الخروج . فقال سهيل : يا آل غالب , أأتركون  
أنتم محمداً والصبابة [أي المرتدين , يقصد المسلمين !] من أهل يثرب يأخذون عيرتكم  
وأموالكم ؟ من أراد مالا فهذا مال , ومن أراد قوة فهذه قوة . فمدحه أمية بن أبي الصلت  
بأبيات ! ومشى نوفل بن معاوية الديلي إلى أهل القوة من قريش فكلهم في بذل النفقة  
والحملان [أي ما يحمل عليه من الدواب , يقال فيما يكون هبة خاصة] لمن خرج . فقال  
عبد الله بن أبي ربيعة : هذه خمسمائة دينار فضعها حيث رأيت . وأخذ من حويطب بن  
عبد العزى مائتي دينار وثلاث مائة دينار قوى بها في السلاح والظهر , وحمل طعيمة بن  
عدي على عشرين بعيراً , وقواهم وخلفهم في أهلهم بمعونة . وكان لا يتخلف أحداً من  
قريش إلا بعث مكانه بعيثاً . ومشوا إلى أبي لهب فأبى أن يخرج أو يبعث أحداً , ويقال : إنه  
بعث مكانه العاصي , ابن هشام بن المغيرة - وكان له عليه دين - فقال : اخرج , وديني لك  
 . فخرج عنه ! . . . وأخذ عداس [وهو الغلام النصراني الذي أرسله عتبة وشيبة ابنا  
ربيعة بقطف من العنب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم خرج إلى الطائف فرده  
أهله رداً قبيحاً , وأتبعوه السفهاء والصبية يرمونه بالحجارة حتى أدما قدميه الشريفين ,  
فلجأ منهم إلى بستان عتبة وشيبة . وقد وقع في نفس عداس ما وقع من أمر رسول

---

الله (صلى الله عليه وسلم) , فأكب على يديه وقدميه يقبلهما ! [يخذل شيبعة وعتبة ابني  
ربيعة عن الخروج , والعاص بن منبه بن الحجاج . وأبي أمية بن خلف أن يخرج , فأتاه عقبه  
بن أبي معيط وأبو جهل فعنفاه . فقال ابتاعوا لي أفضل بعير في الوادي ! فابتاعوا له جملاً  
بثلاث مائة درهم من نعم بني قشير , فغنمه المسلمون ! . . وما كان أحد منهم أكره  
للخروج من الحارث بن عامر . ورأى ضمضم بن عمرو أن وادي مكة يسيل دماً من أسفله  
وأعلاه . ورأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤياها [ وفيها نذير لقريش بالقتل والدم في كل  
بيت ] . . . فكره أهل الرأي المسير , ومشى بعضهم إلى بعض , فكان من أبطنهم عن  
ذلك الحارث بن عامر , وأميه بن خلف , وعتبة وشيبة ابنا ربيعة , وحكيم بن حزام , وأبو  
البختري [ ابن هشام ] وعلي بن أمية بن خلف , والعاص بن منبه ; حتى بكرتهم أبو جهل ,  
وأعانه عقبه بن أبي معيط , والنضر بن الحارث بن كعدة , فاجمعوا المسير . . وخرجت  
قريش بالقيان والدفاف يغنين في كل منهل , وينحرون الجزر , وهم تسعمائة وخمسون مقاتلاً  
. . وقادوا مائة فرس , عليها مائة دارع سوى دروع المشاة . وكانت إبلهم سبعمائة بعير .  
وهم كما ذكر الله تعالى عنهم بقوله : ( ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء  
الناس , ويصدون عن سبيل الله , والله بما يعملون محيط ) . . [ الأنفال : 47 ] .



وأقبلوا في تحمل عظيم وحنق زائد على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ,  
لما يريدون من أخذ غيرهم , وقد أصابوا من قبل عمرو بن الحضرمي والعيبر التي كانت معه  
[ في سرية عبد الله بن جحش ] . . وأقبل أبو سفيان بالعيرو معها سبعون رجلاً [ في رواية  
ابن إسحاق ثلاثون رجلاً ] منهم مخزومة بن نوفل , وعمرو ابن العاص , فكانت غيرهم ألف  
بعير تحمل المال . وقد خافوا خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة , واستبطأوا ضمضم بن  
عمرو والنفير [ الذين نفروا بن قريش ليمنعوا غيرهم ] . . فأصبح أبو سفيان ببدر وقد  
تقدم العيرو وهو خائف من الرصد . فضرب وجه غيره , فساحل بها [ أي اتجه إلى ساحل  
البحر بعيداً عن طريق المدينة ] وترك بدراً يساراً , وانطلق سريعاً . . وأقبلت قريش من  
مكة ينزلون كل منهل . يطعمون الطعام من أتاهم وينحرون الجزر . . وأتاهم قيس بن امرئ  
القيس من أبي سفيان يأمرهم بالرجوع , ويخبرهم أن قد نجت غيرهم . فلا تجزروا  
أنفسكم أهل يثرب [ يعني لا تعرضوا أنفسكم لأن يذبحكم أهل يثرب ] فلا حاجة لكم فيما  
وراء ذلك . إنما خرجتم لتمنعوا العير وأموالكم , وقد نجاها الله ! فعالج قريشاً فأبّت  
الرجوع [ من الجحفة ] . وقال أبو جهل : لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً , فنقيم ثلاثاً , ونحمر

الجزر , ونطعم الطعام , ونشرب الخمر , وتعزف القيان علينا ; فلن تزال العرب تهابنا أبداً .  
 . وعاد قيس إلى أبي سفيان , فأخبره بمضى قريش . فقال : واقوماه ! هذا عمل عمرو بن  
 هشام [ يعني أبا جهل ] كره أن يرجع لأنه ترأس على الناس فبغى , والبغى منقصة وشؤم .  
 إن أصاب محمد النفير ذلنا . .

(98/303)

---

قال ابن إسحاق : وقال الأحنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي , وكان حليفاً لبني  
 زهرة , وهم بالجحفة يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم , وخلص لكم صاحبكم مخزومة  
 بن نوفل . وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا بي جنبها , وارجعوا , فإنه لا حاجة لكم بأن  
 تخرجوا في غير ضيعة . لا ما يقول هذا [ يعني أبا جهل ] فرجعوا , فلم يشهدا زهري  
 واحد . . ولم يكن بقي من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس , إلا بني عدي ابن كعب , ولم  
 يخرج منهم رجل واحد [ في إمتاع الأسماع أن طعمة بن عدي حمل على عشرين بغيراً ,  
 وقواهم وخلفهم في أهلهم بمعونة ] . . وكان بين طالب بن أبي طالب - وكان في القوم -  
 وبين بعض قريش محاورة . فقالوا : والله لقد عرفنا يا بني هاشم , وإن خرجتم معنا , وإن  
 هواكم لمع محمد . فرجع طالب إلى مكة مع من رجع !

قال ابن إسحاق: وخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه .

وكانت إبل أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يومئذ سبعين بعيراً فاعتقبوها [ أي كانوا يركبونها بالتعاقب ] فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعلي بن أبي طالب , ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً . وكان حمزة بن عبد المطلب , وزيد بن حارثة , وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعتقبون بعيراً . وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً . . .

قال المقرئ في إمتاع الأسماع:

(99/303)

---

ومضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى إذا كان دون بدر أتاه الخبر بمسير قريش . فاستشار الناس , فقام أبو بكر - رضي الله عنه - فقال فأحسن . ثم قام عمر فقال فأحسن . ثم قال: يا رسول الله , إنها والله قريش وعزها , والله ما ذلت منذ عزت , والله ما آمنت منذ كفرت , والله لا تسلم عزها أبداً , ولتقاتلنك , فأتهدب لذلك أهبتة , وأعد لذلك عدته . ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله , امض لأمر الله , فنحن معك ,

والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا , إنا معكما مقاتلون . والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا [ و برك الغماد موضع بأقصى اليمن ] فقال له رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) خيراً ودعا له بخير . . ثم قال: " أشيروا علي أيها الناس " . وإنما يريد الأنصار . . وكان يظنهم لا ينصرونه إلا في الدار , لأنهم شرطوا له أن يمنعه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم [ وذلك في بيعة العقبة الثانية التي هاجر على أساسها رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) إلى المدينة ] فقام سعد بن معاذ - رضي الله عنه - فقال: أنا أجيب عن الأنصار , كأنك يا رسول الله تريدنا ! قال: " أجل " . قال: إنك عسى أن تكون قد خرجت عن أمر قد أوحى إليك في غيره [ يعني كما يبدو أنك ربما تكون قد خرجت لأمر ثم أوحى إليك في غيره إذ كان قد خرج للعير ثم عرض النفير ] , فإننا قد آمنا بك , وصدقناك , وشهدنا أن ما جئت به حق , فأعطيناك موثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة . فامض يا نبي الله لما أردت . فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل . وصل من شئت , واقطع من شئت , وخذ من أموالنا ما شئت ; وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت . والذي نفسي بيده ما سلك هذا الطريق قط , وما لي بها من علم ; وما نكره أن نلقى عدونا غداً , وإنا لصبر عند الحرب

و صدق عند اللقاء , لعل الله يريك منا بعض ما تقر به عينك . . وفي رواية أن سعد بن معاذ قال : إنا خلفنا من قومنا قوماً ما نحن بأشد حباً لك منهم , ولا أطوع لك منهم ; ولكن إنما ظنوا أنها العير . نبي لك عريشاً فتكون فيه , ونعد عندك رواحلك , ثم نلقى عدونا , فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه , وإن تكن الأخرى جلست على رواحلك فلحقت من وراءنا . . فقال له النبي ( صلى الله عليه وسلم ) خيراً . وقال : " أو يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد " . فلما فرغ سعد من المشورة قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " سيروا على بركة الله , فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين . والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم " . . فعلم القوم أنهم إنما يلاقون القتال وأن العير تفلت ; ورجوا النصر لقول النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ومن يومئذ عقد رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) الألوية . وهي ثلاثة , لواء يحملها مصعب بن عمير . ورايتان سوداوان . إحداهما مع علي , والأخرى مع رجل من الأنصار [ هو سعد بن معاذ ] وأظهر السلاح . . وكان خرج من المدينة على غير لواء معقود .

. . . ونزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أدنى بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشر  
مضت من رمضان، فبعث علياً والزبير وسعد بن أبي وقاص وسببس بن عمرو رضي الله  
عنهم يتحسسون على الماء . وأشار لهم إلى ظريب [تصغير ظرب وهو الجبل الصغير  
المنبسط في حجارة دقاق] وقال: أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القليب الذي يلي الظرب  
. فوجدوا على تلك القليب روايا قريش فيها سقاؤهم [الروايا من الإبل حوامل الماء  
وسقاء جمع سقاء] فأقلت عامتهم - وفيهم عجير - فجاء قريشاً، فقال: يا آل غالب،  
هذا ابن أبي كبشة [يعني النبي (صلى الله عليه وسلم)] وأصحابه قد أخذوا سقاءكم .  
فماج العسكر وكرهوا ذلك، والسماء تمطر عليهم . وأخذ تلك الليلة أبويسار غلام عبيدة  
بن سعيد بن العاص، وأسلم غلام منبه بن الحجاج، وأبورافع غلام أمية بن خلف، فأتى  
بهم النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يصلي . فقالوا: نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم من  
الماء . فكره القوم خبرهم فضربوهم . فقالوا: نحن لأبي سفيان، ونحن في العير! فأمسكوا  
عنهم! فسلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال: "إن صدقوكم ضربتموهم، وإن  
كذبوكم تركتموهم!" ثم أقبل عليهم يسألهم، فأخبروه أن قريشاً خلف هذا الكتيب،  
وأنهم ينحرون يوماً عشراً ويوماً تسعاً، وأعلموه بمن خرج من مكة . فقال (صلى الله عليه

وسلم): القوم ما بين الألف والتسعمائة . وقال: " هذه مكة قد أقت إليكم أفلاذ أكبادها "

(102/303)

---

واستشار أصحابه في المنزل , فقال الحباب بن المنذر بن الجموح . . انطلق بنا إلى أدنى بئر إلى القوم . فإني عالم بها وقلبيها . بها قلب [أي بئر قديمة لا يعلم من حفرها] قد عرفت عذوبة مائه , وماء كثير لا ينزح . ثم نبني عليها حوضاً , وتقذف فيه الآنية فنشرب وتقاتل ; ونعور ما سواها من القلب . فقال: يا حباب أشرت بالرأي [وفي رواية ابن هشام عن ابن إسحاق أن الحباب بن المنذر قال: يا رسول الله , هذا المنزل أمنزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ? أم هو الرأي والحرب والمكيدة ? قال: " بل هو الرأي والحرب والمكيدة " قال: يا رسول الله , هذا ليس بمنزل . . ثم أشار بما أشار [ونهب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فنزل على القلب ببدر . وبات تلك الليلة يصلي إلى جذم شجرة] أي ما بقي من جذعها بعد قطع أعلاه] . وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان . وفعل ما أشار به الحباب . . وبعث الله السماء , فأصاب المسلمين ما لبد الأرض ولم يمنع من السير . وأصاب قريشاً من ذلك ما لم يقدروا أن يرتحلوا منه . وإنما بينهم قوز من رمل .

وكان مجيء المطر نعمة وقوة للمؤمنين , وبلاء وثقمة على المشركين . وأصاب المسلمين تلك الليلة نعاس ألقى عليهم . فناموا , حتى إن أحدهم تكون ذقنه بين ثديه وما يشعر حتى يقع على جنبه . واحتلم رفاعه ابن رافع بن مالك حتى اغتسل آخر الليل . . . وبعث ( صلى الله عليه وسلم ) عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - فأطافا بالقوم , ثم رجعا فأخبرا أن القوم مذعورون , وأن السماء تسح عليهم .

(103/303)

---

وبني لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) لما نزل على القليب - عريش من جريد . وقام سعد بن معاذ على بابه متوشح السيف . ومشى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) على موضع الوقعة , وعرض على أصحابه مصارع رؤوس الكفر من قريش مصرعاً مصرعاً , يقول: هذا مصرع فلان , وهذا مصرع فلان . . . فما عدا واحد منهم مضجعه الذي حدّ له الرسول . وعدل ( صلى الله عليه وسلم ) الصفوف . ورجع إلى العريش فدخل ( صلى الله عليه وسلم ) وأبو بكر رضي الله عنه .

قال ابن إسحاق: وقد ارتحلت قريش حتى أصبحت فأقبلت . فلما رآها رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) - تصوّب من العنققل [ وهو الكئيب الذي جاءوا منه ] إلى الوادي



وقال: "اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك , وتكذب رسولك , اللهم فنصرك الذي وعدتني , اللهم أحنيهم الغداة " . وقد قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وقد رأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له أحمر , فقال: " إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر , إن يطيعوه يرشدوا " .

"وقد كان خُفّاف بن أيماء بن رخصة الغفاري - أو أبوه أيماء بن رخصة الغفاري - بعث إلى قريش - حين مروا به - ابناً له بمجزائر [أي ذبائح] أهداها لهم . وقال: إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا . قال: فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم . قد قضيت الذي عليك . فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم , ولئن كنا إنما نقاتل الله , كما يزعم محمد , فما لأحد بالله من طاقة .

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فيهم حكيم ابن حزام . فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " دعوهم " . فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل . إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل . ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه . فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجاني من يوم بدر !

(104/303)

---

قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم, عن أشياخ من الأنصار قالوا: لما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي, فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد [ (صلى الله عليه وسلم) ] قال: فاستجال بفرسه حول العسكر! ثم رجع إليهم, فقال: ثلاث مائة رجل, يزيدون قليلاً أو ينقصون. ولكن أمهلوني حتى أنظر اللقوم كميناً أو مدد. قال: فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً, فرجع إليهم, فقال: ما وجدت شيئاً, ولكني قد رأيت يا معشر قريش, والبلايا تحمل المنايا. نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم, والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم, فإذا أصابوا منكم أعداءهم, فما خير العيش بعد ذلك? فروا رأيكم!

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس, فأتى عتبة بن ربيعة, فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها, هل لك إلى ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر?

قال: وما ذلك يا حكيم? قال: ترجع بالناس, وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي.

قال: قد فعلت, أنت عليّ بذلك, وإنما هو حلفي فعليّ عقله [أي دية أخيه الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش كما سبق] وما أصيب من ماله. فأت ابن الحنظلية فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره. يعني أبا جهل بن هشام. ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال: يا معشر قريش, إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه, وقل ابن عمه أو ابن خاله أو

رجلاً من عشيرته . فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب , فإن أصابوه فذاك الذي أردتم , وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون .

(105/303)

---

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل , فوجدته قد نثل درعاً له من جرابها فهو يهيمها . فقلت له: يا أبا الحكم , إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا , للذي قال , فقال: انتفخ والله سحره [يعني انتفخت رثته من الخوف !] حين رأى محمداً وأصحابه . كلا ! والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد , وما بعتبة ما قال , ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور , وفيهم ابنه [يعني أبا حذيفة رضي الله عنه وكان مسلماً مع المسلمين] فقد تخوفكم عليه !

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي , فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس . وقد رأيت نارك بعينك , فقم فانشد خفرتك [أي عهدك] ومقتل أخيك ! فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف , ثم صرخ: واعمره ! فحميت الحرب , وحقب أمر الناس [أي اشتد] واستوسقوا على ما هم عليه من الشر . فأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة . فلما بلغ عتبة قول أبي جهل: انتفخ والله سحره . قال: سيعلم مصفر استه [يريد أن

يشبهه في الجبن كالرجل الذي يتأنت ! [ من انتفخ سحره ? أنا أم هو !  
قال ابن إسحاق: وقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي , وكان رجلاً شرساً سيئ  
الخلق , فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه . فلما خرج  
خرج إليه حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه [  
أي أطارها ] بنصف ساقه . وهو دون الحوض . فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو  
أصحابه ; ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد - زعم - أن يبريمينه , واتبعه حمزة ,  
فضربه حتى قتله في الحوض !

(106/303)

---

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة , وبين أخيه شيبه بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة , حتى إذا فصل  
من الصف دعا إلى المبارزة , فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة , وهم عوف ومعوذ ابنا  
الحارث وأمهما عفراء , ورجل آخر يقال: هو عبد الله بن رواحة . فقالوا من أنتم ?  
فقالوا: رهط من الأنصار , قالوا: ما لنا بكم من حاجة [ وقال ابن إسحاق: إن عتبة قال  
للفتية من الأنصار حين اتسبوا إليه: أكفاء كرام , وإنما نريد قومنا ] ثم نادى مناديهم: يا محمد  
أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) . " قم يا عبيدة

ابن الحارث , قم يا حمزة , قم يا علي " . فلما قاموا ودنوا منهم قالوا: من أتم؟ قال  
عبدة: عبدة؟ وقال حمزة: حمزة! وقال علي: علي! قالوا . نعم أكفء كرام! فبارز  
عبدة , وكان أسن القوم , عتبة ابن ربيعة , وبارز حمزة شيبه بن ربيعة , وبارز علي الوليد  
بن عتبة . فأما حمزة فلم يمهل شيبه أن قتله , وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله . واختلف  
عبدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه [أي جرحه جرحاً لا يملك معه الحركة  
] وكر حمزة وعلي بأسيا فهما على عتبة فذففا عليه [أي أجهزا عليه] واحتملا صاحبهما  
فحازاه إلى أصحابه .

قال ابن إسحاق: ثم تزاحف الناس , ودنا بعضهم من بعض . وقد أمر رسول الله (صلى  
الله عليه وسلم) أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم . قال: "إن اكتنفتكم القوم فانضحوهم  
عنكم بالنبل" . . ثم عدل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الصفوف ورجع إلى  
العريش , فدخله ومعه فيه أبو بكر ليس معه فيه غيره . ورسول الله (صلى الله عليه  
وسلم) يناشد ربه ما وعده من النصر , ويقول فيما يقول: "اللهم إن نهلك هذه العصاة  
اليوم لا تعبد" وأبو بكر يقول: يا نبي الله بعض مناشدتك ربك , فإن الله منجز لك ما وعدك

(107/303)

---

وفي إمتاع الأسماع للمقريزي: أن عبد الله بن رواحة قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يا رسول الله إني أشير عليك - ورسول الله أعظم وأعلم من أن يشار عليه - إن الله أجل وأعظم من أن ينشد وعده! فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يا ابن رواحة، ألا أنشد الله وعده؟ إن الله لا يخلف الميعاد".

قال ابن إسحاق: وقد خفق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خفقة وهو في العريش، ثم انتبه، فقال: "أبشريا أبا بكر، أتاك نصر الله. هذا جبريل آخذاً بعنان فرس يقوده، وعلى ثناياه النقع" [يعني الغبار].

وقد رمى مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل، فكان أول قتيل من المسلمين رحمه الله. ثم رمى حارثة بن سراقة أحد بني عدي بن النجار - وهو يشرب من الحوض - بسهم، فأصاب نحره، فقتل رحمه الله.

ثم خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الناس فحرضهم وقال: "والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل، صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة". فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة، وفي يده ثمرات يأكلهن: بخ بخ [كلمة تقال للإعجاب] أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف الثمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله تعالى.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، وأن عوف بن الحارث - وهو ابن عفراء - قال: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: "غمسه يده في العدو وحاسراً" فنزع درعاً كانت عليه، ففقدتها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله .

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير العذري، و حليف بني زهرة، أنه حدثه، أنه لما التقى الناس، وودنا بعضهم من بعض، قال أبو جهل بن هشام: اللهم، أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف، فأحنه الغداة! فكان هو المستفتح .

(108/303)

---

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً، ثم قال: "شاهت الوجوه!" ثم نفحهم بها . وأمر أصحابه فقال: "شدوا" فكانت الهزيمة . فقتل الله تعالى من قتل من صنديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم . .

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) في العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متوشحاً

السيف ، في نفر من الأنصار يجرسون رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يخافون عليه كرهة العدو ؛ ورأى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فيما ذكر لي - في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ؛ فقال له رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ! " قال : أجل والله يا رسول الله ؛ كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك .  
فكان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال !

(109/303)

---

قال ابن إسحاق : وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد ؛ عن بعض أهله ؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) قال لأصحابه يومئذ : " إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكراً " قال : فقال أبو حذيفة [ ابن عتبة بن ربيعة ] : أنقل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ ! والله لئن لقيته لأحمنه السيف ! قال : فبلغت رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فقال لعمر بن الخطاب : " يا أبا حفص " قال عمر : والله إنه لأول



يوم كنا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأبي حفص - "أضرب وجه عم رسول  
الله (صلى الله عليه وسلم) بالسيف؟" فقال عمر: يا رسول الله دعني فلا أضرب عنقه  
بالسيف! فوالله لقد نافق! فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت  
يومئذ؛ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة - فقتل يوم اليمامة [في حروب  
الردة] شهيداً .

قال ابن هشام: وإنما نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن قتل أبي البختری لأنه كان  
أكف القوم عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه  
شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني  
المطلب . . . [وقد قتل لأنه رفض أن يستأسر] . . .

(110/303)

---

قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: كان أمية بن  
خلف لي صديقاً بمكة . وكان اسمي عبد عمرو، فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن  
ونحن بمكة . فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماك  
أبوك؟ فأقول: نعم! فيقول: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً ادعوك به،

أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول, وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف! قال فكان إذا دعاني  
يا عبد عمرو لم أجبه . قال: فقلت له: يا أبا علي, اجعل ما شئت . قال: فأنت عبد الإله .  
قال: قلت: نعم . قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله, فأجيبه, فأتحدث معه .  
حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي ابن أمية آخذ بيده ; ومعي أذراع لي  
قد استلبتها فأنا أحملها . فلما رأيته قال لي: يا عبد عمرو, فلم أجبه . فقال: يا عبد الإله,  
فقلت: نعم, قال: هل لك فيّ؟ فأنا خير لك من هذه الأذراع التي معك! قال: قلت: نعم!  
ها الله إذن . قال: فطرح الأذراع من يدي, وأخذت بيده ويد ابنه [يعني أسيرين] وهو  
يقول: ما رأيت كاليوم قط! أما لكم حاجة في اللبن؟ [يعني أن من أسرنى اقتديت منه يا بل  
كثيرة اللبن!] ثم خرجت أمشي بهما .

(111/303)

---

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الواحد بن أبي عون, عن سعيد بن إبراهيم, عن أبيه, عن  
عبد الرحمن ابن عوف - رضي الله عنه - قال: قال لي أمية بن خلف, وأنا بينه وبين ابنه,  
آخذ بأيديهما: يا عبد الإله, من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قال .  
قلت: حمزة بن عبد المطلب . قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل . قال عبد الرحمن: فوالله

إني لأقودهما إذ رآه بلال معي , وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام ,  
فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت , فيضجعه على ظهره , ثم يأمر بالصخرة العظيمة  
فتوضع على صدره , ثم يقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد , فيقول بلال: أحد . أحد .  
قال: فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ! قال: قلت: أي بلال ,  
أبأسيري ? قال: لا نجوت إن نجا ! قال: قلت: أسمع يا ابن السوداء ? قال: لا نجوت إن نجا  
! قال: ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله , رأس الكفر أمية بن خلف , لا نجوت إن نجا !  
قالوا: فأحاطوا بنا , حتى جعلونا في مثل المسكة [أي السوار من عاج] وأنا أذب عنه  
قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوق , وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثها  
قط . قال: فقلت: انج بنفسك ولا نجاء بك . فوالله ما أغني عنك شيئاً . قال: فهبروهما  
بأسيا فهم حتى فرغوا منهما . . فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً , ذهب أذراعي  
. وفجعني بأسيري !

(112/303)

---

قال ابن إسحاق: فلما فرغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من عدوه أمر بأبي جهل بن  
هشام أن يلتمس في القتلى , وكان أول من لقي أبا جهل - كما حدثني ثور بن زيد , عن

عكرمة , عن ابن عباس , وعبد الله بن أبي بكر أيضاً ; قد حدثني ذلك - قالوا: قال معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة: سمعت القوم وأبوجهل في مثل الحرجة [أي الشجر الملتف] وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه , قال: فلما سمعتها جعلته من شأني , فصمدت نحوه , فلما أمكنني حملت عليه , فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه , فوالله ما شبهتها - حين طاحت - إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها , قال: وضررتني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي . فتعلقت بجلدة من جنبي , وأجهضني القتال عنه , فلقد قاتلت عامة يومي , وإني لأسحبها خلفي , فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها .

ثم مر بأبي جهل , وهو عقير , معوذ ابن عفراء , فضربه حتى أثبتة فتركه وبه رمق , وقاتل معوذ حتى قتل , فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل - حين أمر رسول الله ( صلى الله عليه ) عليه وسلم ) أن يلتمس في القتلى - وقد قال لهم رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فيما بلغني: " انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته , فإنني ازدحمت يوماً أنا وهو على مأدبة لعبد الله بن جدعان , ونحن غلامان , وكنت أشف منه بيسير , فدفعته , فوقع على ركبتيه , فجحش في إحداهما جحشاً لم يزل أثره به " قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . فوجدتها آخر رمق , فعرفته فوضعت رجلي على عنقه , قال وقد كان خبث بي مرة بمكة فاذا نبي ولكرني [أي قبض عليّ ولزمني] ثم قلت له: هل أخزأك الله يا عدو الله

قال: وماذا أخزاني؟ أأعمد من رجل قتلتموه [يريد أكبر من رجل قتلتموه؟] أخبرني  
من الدائرة اليوم؟ قال: قلت لله ورسوله .

(113/303)

---

قال ابن إسحاق: وزعم رجال من بني مخزوم أن ابن مسعود كان يقول: قال لي: لقد ارتقيت  
مرتقى صعباً يا رويحي الغنم . قال: ثم احتزرت رأسه ; ثم جئت به رسول الله ( صلى الله  
عليه وسلم ) فقلت: يا رسول الله , هذا رأس عدو الله أبي جهل . قال: فقال رسول الله ( صلى  
الله عليه وسلم ) : " الله الذي لا إله غيره " ثم ألقى رأسه بين يدي رسول الله ( صلى  
الله عليه وسلم ) فحمد الله .

قال ابن هشام: وحدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي , أن عمر بن الخطاب  
رضي الله عنه قال لسعيد بن العاص - ومربه - إني أراك كأن في نفسك شيئاً . أراك تظن  
أني قتلت أباك ! إني لو قتلت لم أعتذر إليك من قتله ; ولكني قتلت خالي العاص بن هشام  
ابن المغيرة . فأما أبوك فإني مررت به , وهو يبحث بحث الثور بروقه [أي بقرنه] فحدث  
عنه . وقصد له بن عمه علي فقتله !

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان , عن عروة بن الزبير , عن عائشة رضي الله عنها

. قالت: لما أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالقتلى أن يطرحوا في القليب طرحوا فيه, إلا ما كان من أمية بن خلف . فإنه انتفخ في درعه فملاها , فذهبوا ليحركوه . فتزابل لحمه , فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة , فلما أقاهم في القليب , وقف عليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: " يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً , فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً " قالت: فقال له أصحابه: يا رسول الله , أتكلم قوماً موتي؟ فقال لهم: " لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق " قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلت لهم وإنما قال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " لقد علموا " .

(114/303)

---

قال ابن إسحاق: ولما أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بهم أن يلقوا في القليب , أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب , فنظر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - فيما بلغني - في وجه أبي حذيفة بن عتبة , فإذا هو كئيب قد تغير . فقال: " يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أهلك شيء " أو كما قال (صلى الله عليه وسلم) فقال: لا والله يا رسول الله , ما شككت في أبي ولا في مصرعه , ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً

وفضلاً, فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام, فلما رأيت ما أصابه, وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجوه, أحزنتني ذلك. فدعا له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بخير, وقال له خيراً . . .

ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمر بما في العسكر مما جمع الناس فجمع, فاختلف المسلمون فيه. فقال من جمعه: هولنا. وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه, ونحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم. وقال الذين كانوا يجرسون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مخافة أن يخالف إليه العدو: والله ما أتم بأحق به منا, لقد رأينا المتاع حين لم يكن دونه ما يمنعه, ولكننا خفنا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كرة العدو, فقمنا دونه, فما أتم بأحق به منا. قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى, عن مكحول, عن أبي أمامة الباهلي, قال سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال. فقال فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل, وساءت فيه أخلاقنا, فنزعه الله من أيدينا, فجعله إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقسمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين المسلمين عن بواء, يقول: على السواء.

(115/303)

---

قال ابن إسحاق: وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين أقبل بالأسارى، فرقهم في أصحابه، وقال: "استوصوا بالأسارى خيراً".

فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم، وأخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، في الأسارى.

قال: فقال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شد يدك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك. قال: وكنت في رهط من الأنصار - حين أقبلوا بي من بدر - فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر،

لوصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها. قال: فاستحيي فأردها على أحدهم، فيردها علي ما يمسه.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر، وبعد النصر بن الحارث، فلما قال أخوه مصعب ابن عمير لأبي اليسر - وهو الذي أسره - ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك. فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم، وفدته بها.

قال ابن إسحاق: ثم بعثت قريش في فداء الأسرى.

في هذه الغزوة التي أجملنا عرضها بقدر المستطاع، ونزلت سورة الأنفال. . . نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة، وتعرض وراءها فعل القدرة المدبرة، وتكشف عن قدر الله وتديره



في وقائع الغزوة, وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشري كله ; وتحدث عن هذا كله بلغة القرآن الفريدة وبأسلوب القرآن المعجز . . وسيأتي تفصيل هذه المعاني في ثنايا استعراض النصوص القرآنية . . فأما الآن فنكتفي باستعراض الخطوط الأساسية في  
السورة:

إن هنالك حادثاً بعينه في الغزوة يلقي ضوءاً على خط سيرها . ذلك هو ما رواه ابن إسحاق - عن عبادة ابن الصامت - رضي الله عنه, قال:

(116/303)

---

"فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل, وساءت فيه أخلاقنا, فنزعه الله من أيدينا, فجعله إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقسمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - عن بواء [يقول: على السواء] .

هذا الحادث يلقي ضوءاً على افتتاح السورة وعلى خط سيرها كذلك:  
لقد اختلفوا على الغنائم القليلة في الوقعة التي جعلها الله فرقاناً في مجرى التاريخ البشري إلى يوم القيامة!

ولقد أراد الله - سبحانه - أن يعلمهم, وأن يعلم البشر كلهم من بعدهم أموراً عظماً . .

أراد أن يعلمهم ابتداءً أن أمر هذه الواقعة أكبر كثيراً من أمر الغنائم التي يختلفون عليها .

فسمى يومها : (يوم الفرقان , يوم التقى الجمعان) . .

وأراد أن يعلمهم أن هذا الأمر العظيم إنما تم بتدبير الله وقدره , في كل خطوة وفي كل حركة , ليقضي من ورائه أمراً أرادته , فلم يكن لهم في هذا النصر وما وراءه من عظام الأمور ولا تدبير , وسواء غنائه الصغيرة وآثاره الكبيرة , فكلاهما من فعل الله وتدييره . إنما أبلاهم فيه بلاء حسناً من فضله !

وأراد أن يريهم مدى الفرق بين ما أرادوه هم لأنفسهم من الظفر بالغير ; وما أرادته الله لهم , وللبشرية كلها من ورائهم من إفلات العير , ولقاء النفير . ليروا على مد البصر مدى ما بين إرادتهم بأنفسهم وإرادة الله بهم ولهم من فرق كبير !

(117/303)

---

لقد بدأت السورة بتسجيل سؤالهم عن الأنفال وبيان حكم الله فيها وردها إلى الله والرسول ودعوتهم إلى تقوى الله , وإصلاح ذات بينهم - بعدما ساءت أخلاقهم في النفل كما يقول عبادة بن الصامت - ودعوتهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول , وتذكيرهم بإيمانهم

وهذا مقتضاه . ورسم للمؤمنين صورة موحية تجف لها القلوب: (يسألونك عن الأنفال .  
قل: الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله , وأصلحوا ذات بينكم , وأطيعوا الله ورسوله , وإن  
كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم , وإذا تليت عليهم آياته زادتهم  
إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون  
حقاً , لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) . .  
ثم جعل يذكرهم بأمرهم وتدييرهم لأنفسهم وتديير الله لهم , ومدى ما يروونه من واقع  
الأرض ومدى قدرة الله من ورائه ومن ورائهم: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق , وإن  
فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين , كأنما يساقون إلى الموت وهم  
ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم , وتودون أن غير ذات الشوكة تكون  
لكم , ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو  
كره المجرمون . .

(118/303)

---

ثم ذكرهم بما أمدهم به من العون , وما يسره لهم من النصر , وما قدره لهم بفضل من  
الأجر: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما

جعل الله إلا بشرى , ولتطمئن به قلوبكم , وما النصر إلا من عند الله , وإن الله عزيز حكيم .  
إذ يغشيكم النعاس أمنة منه , وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به , ويذهب عنكم  
رجز الشيطان , ويليط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني  
معكم , فثبتوا الذين آمنوا , سألني في قلوب الذين كفروا الرعب , فاضربوا فوق الأعناق ,  
واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله , ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله  
شديد العقاب . ذلكم فذوقوه , وأن للكافرين عذاب النار) .

وهكذا يمضي سياق السورة في هذا المجال ; يسجل أن المعركة بجملتها من صنع الله  
وتدبيره بقيادته وتوجيهه . بعونه ومدده . بفعله وقدره . له وفي سبيله . . ومن ثم تجريد  
المقاتلين ابتداء من الأنفال وتقرير أنها لله وللرسول , حتى إذا ردها الله عليهم كان ذلك مناً  
منه وفضلاً . وكذلك يجردهم من كل مطمع فيها ومن كل مغنم , ليكون جهادهم في سبيله  
خالصاً له وحده . . فتزد أمثال هذه النصوص:

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم , وما رميت - إذ رميت - ولكن الله رمى , وليبلي المؤمنين  
منه بلاء حسناً , إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) .  
(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس , فأوأكم وأيدكم  
بنصره , وورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) . .

---

(واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله على كل شيء قدير . إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى , والركب أسفل منكم , ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد , ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة , وإن الله لسميع عليم . إذ يريكم الله في منامك قليلاً , ولو أراكم كثيراً لفشتم وتنازعتم في الأمر , ولكن الله سلم , إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذا التقيتم في أعينكم قليلاً , ويقللكم في أعينهم , ليقضي الله أمراً كان مفعولاً , وإلى الله ترجع الأمور) . .

ولأن المعركة - كل معركة يخوضها المؤمنون - من صنع الله وتدييره . بقيادته وتوجيهه . بعونه ومدده . بفعله وقدره . له وفي سبيله . تتكرر الدعوة في السورة إلى الثبات فيها , والمضي معها , والاستعداد لها , والاطمئنان إلى تولى الله فيها , والحذر من المعوقات عنها من فتنة الأموال والأولاد , والاستمسك بأدابها , وعدم الخروج لها بطراً ورثاء الناس . ويؤمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتحريض المؤمنين عليها . . وترد أمثال هذه النصوص في بيان هذه المعاني:

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره -

إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة - فقد باء بغضب من الله , وماواه جهنم وبئس

المصير) . .

يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم , واعلموا أن الله يحول بين

المرء وقلبه , وأنه إليه تحشرون) . .

يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما

أموالكم وأولادكم فتنة , وأن الله عنده أجر عظيم) .

(120/303)

---

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله

ورسوله , ولا تنازعوا فتشلوها وتذهب ربحكم , واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا

تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس , ويصدون عن سبيل الله , والله بما

يعملون محيط) . .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين

من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم , وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم , وأنتم لا

تظلمون) . .

يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال , إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين , وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . . . .

وفي ذات الوقت الذي تتكرر الأوامر بالتثبيت في المعركة يتجه السياق إلى توضيح معالم العقيدة وتعميقها ورد كل أمر وكل حكم وكل توجيه إليها . فلا تبقى الأوامر معلقة في الفراغ , وإنما تركز على ذلك الأصل الواضح الثابت العميق :

أفي مسألة الأنفال يردون إلى تقوى الله , والوجل عند ذكره , وتعلق الإيمان بطاعة الله وطاعة رسوله : يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله , إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم , وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . . . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً , لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

ب وفي خطة المعركة يردون إلى قدر الله وتدييره , وتصريفه لمراحلها جميعاً : (إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى , والركب أسفل منكم , ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد , ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . . ) .

(121/303)

---

ج وفي أحداثها وتائجها يردون إلى قيادة الله لها , ومدده وعونه فيها : ( فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم , وما رميت إذ رميت , ولكن الله رمى , وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً . . . ) . . .

د وفي الأمر بالثبات فيها يردون إلى ما يريد الله لهم بها من حياة , وإلى قدرته على الحيلولة بينهم وبين قلوبهم , وإلى تكفله بنصر من يتوكل عليه : ( يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم , واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه , وأنه إليه تحشرون ) . ( يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ) . . .

ه وفي تحديد الهدف من وراء المعركة يقرر : ( وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ) . . . ( ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ) . . . ( وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم , وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين , ليحق الحق ويبطل الباطل , ولوكره المجرمون ) . . .

و وفي تنظيم العلاقات في المجتمع المسلم وبينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى تبرز العقيدة قاعدة للتجمع والتميز , وتجعل القيم العقيدية هي التي تقدم في الصف أو تؤخر : إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض , والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ,



وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر - إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق , والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ; إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله , إن الله بكل شيء عليم . .

(122/303)

---

ويبرز في سياق السورة بصفة خاصة - إلى جانب خط العقيدة - خط آخر هو خط الجهاد , وبيان قيمته الإيمانية والحركية . وتجريده كذلك من كل شائبة شخصية ; وإعطاؤه مبرراته الذاتية العليا التي ينطلق بها المجاهدون في ثقة وطمأنينة واستعلاء إلى آخر الزمان . . والسورة بجملتها تتضمن هذا الإيجاء . فنكتفي ببعض النصوص في هذا التعريف و

وندع تفصيلها إلى موضعه عند مواجهة النصوص:

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله , وماواه جهنم وبئس المصير) .  
(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون

عهدهم في كل مرة , وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم  
يذكرون) .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم , وآخرين  
من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم , وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم , وأتمم لا  
تظلمون) . .

(يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال , إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين , وإن  
يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . .  
(ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض , تريدون عرض الدنيا والله يريد  
الآخرة . والله عزيز حكيم) . .

(والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون  
حقاً , لهم مغفرة ورزق كريم) . .

وأخيراً فإن السورة تنظم ارتباطات الجماعة المسلمة على أساس العقيدة كما أسلفنا ;  
وبيان الأحكام التي تتعامل بها مع غيرها من الجماعات الأخرى في الحرب والسلام - إلى  
هذه الفترة التي نزلت فيها السورة - وأحكام الغنائم والمعاهدات وتضع خطوطاً أصيلة في  
تنظيم تلك الروابط وهذه الأحكام في مثل هذه النصوص الواضحة المحددة:

---

(يسألونك عن الأنفال . . قل الأنفال لله والرسول) . .

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار , ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله , وماواه جهنم وبئس المصير) . .  
(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله , ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون) . .

(يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم , واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه , وأنه إليه تحشرون) .

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) . .  
(قل للذين كفروا: إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف , وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين .  
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله , فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) . .  
(واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . .

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا , واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتشعلوا وتذهب ربحكم , واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا

كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله , والله بما يعملون  
محيط) . .

(124/303)

---

(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون  
عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فإما تتقنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم  
يذكرون . وإما تحافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء , إن الله لا يحب الخائنين . ولا  
يحسبن الذين كفروا سبقوا , إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط  
الخيال ترهبون به عدو الله وعدوكم , وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم , وما تنفقوا  
من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل  
على الله , إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك  
بنصره وبالمؤمنين . . . ) . . .

(يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين . يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ,  
إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين , وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين  
كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً , فإن يكن منكم

مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) . .  
(ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض , تريدون عرض الدنيا والله يريد  
الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم .  
فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم . يا أيها النبي قل لمن في أيديكم  
من الأسرى: إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم , ويغفر لكم والله غفور  
رحيم . وإن يريدوا حياتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم) .

(125/303)

---

إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله , والذين آووا ونصروا  
أولئك بعضهم أولياء بعض , والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى  
يهاجروا , وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر - إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق -  
والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض , إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض  
وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا , أولئك  
هم المؤمنون حقاً , لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا  
معكم فأولئك منكم , وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله , إن الله بكل شيء

عليه . .

هذا مجمل لخطوط السورة الرئيسية . . فإذا كانت السورة بحملتها إنما نزلت في غزوة بدر ،  
وفي التعقيب عليها ، فإننا ندرك من هذا طرفاً من منهج القرآن في تربية الجماعة المسلمة ،  
وإعدادها لقيادة البشرية ؛ وجانباً من نظرة هذا الدين إلى حقيقة ما يجري في الأرض وفي  
حياة البشر ؛ مما يقوم منه تصور صحيح لهذه الحقيقة : لقد كانت هذه الغزوة هي أول وقعة  
كبيرة لقي فيها المسلمون أعداءهم من المشركين ، فهزموهم تلك الهزيمة الكبيرة . . ولكن  
المسلمين لم يكونوا قد خرجوا لهذه الغاية . . لقد كانوا إنما خرجوا ليأخذوا الطريق على  
قافلة قريش الذين أخرجوا المهاجرين من ديارهم وأموالهم ! فأراد الله للعصبة المسلمة غير  
ما أرادت لنفسها من الغنيمة . . أراد لها أن تنفلت منها القافلة وأن تلقى عدوها من عتاة  
قريش الذين جمدوا الدعوة في مكة ؛ ومكروا مكروهم لقتل رسول الله ( صلى الله عليه  
وسلم ) ؛ بعدما بلغوا بأصحابه الذين تابعوه على الهدى غاية التعذيب والتنكيل والأذى .

(126/303)

---

لقد أراد الله سبحانه أن تكون هذه الواقعة فرقاناً بين الحق والباطل ; وفرقاناً في خط سير التاريخ الإسلامي . ومن ثم فرقاناً في خط سير التاريخ الإنساني . . وأراد أن يظهر فيها الآماد البعيدة بين تدير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير لهم . وتدير رب البشر لهم ولو كرهوه في أول الأمر . كما أراد أن تتعلم العصابة المؤمنة عوامل النصر وعوامل الهزيمة ; وتلقاها مباشرة من يد ربها ووليها , وهي في ميدان المعركة وأمام مشاهدتها . وتضمنت السورة التوجيهات الموحية إلى هذه المعاني الكبيرة ; وإلى هذه الحقائق الضخمة الخطيرة . كما تضمنت الكثير من دستور السلم والحرب , والغنائم والأسرى , والمعاهدات والمواثيق , وعوامل النصر وعوامل الهزيمة . كلها مصوغة في أسلوب التوجيه المرابي , والذي ينشئ التصور الاعتقادي , ويجعله هو المحرك الأول والأكبر في النشاط الإنساني . . وهذه هي سمة المنهج القرآني في عرض الأحداث وتوجيهها .

ثم إنها تضمنت مشاهد من الموقعة , ومشاهد من حركات النفوس قبل المعركة وفي ثناياها وبعدها . . مشاهد حية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة وصورها وسماتها ; كأن قارئ القرآن يراها فيتجاوب معها تجاوباً عميقاً .

واستطرد السياق أحياناً إلى صور من حياة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) وحياة أصحابه في مكة , وهم قلة مستضعفون في الأرض , يخافون أن يتخطفهم الناس . ذلك ليذكروا فضل الله عليهم في ساعة النصر , ويعلموا أنهم إنما سينصرون بنصر الله , وبهذا

الدين الذي آثروه على المال والحياة . وإلى صور من حياة المشركين قبل هجرة رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وبعدها . وإلى أمثلة من مصائر الكافرين من قبل كدأب آل فرعون والذين من قبلهم , لتقرير سنة الله التي لا تتخلف في الانتصار لأوليائه والتدمير على أعدائه .

(127/303)

---

هذه موضوعات السورة وملاحمها - وهي وحدة واحدة - وإن كنا سنجزئ في هذا الجزء بشرط منها . ثم تجيء بقيتها في الجزء العاشر بإذن الله تعالى . .  
فنكتفي بهذا القدر في التعريف الجمل بها ; وننتقل إلى مواجهة النصوص القرآنية في سياقها . . انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال ح 3 ص 1429. 1469﴾

(128/303)

---

وقال الشيخ الصابوني :

سورة الأنفال



## الأنفال مدنية وآياتها خمس وسبعون

### بين يدي السورة

سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عنيت بجانب التشريع ، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله ، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات ، وتضمنت كثيرا من التشريعات الحربية ، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين إتباعها في قتالهم لأعداء الله ، وتناولت جانب السلم والحرب ، وأحكام الأسرى والغنائم .

" نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب (غزوة بدر) التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد ، وبداية النصر لجند الرحمن ، حتى سماها بعض الصحابة "سورة بدر" لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب ، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال ، وبينت ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من (البطولة والشهامة) والوقوف في وجه الباطل ، بكل شجاعة وجرأة ، وحزم وصمود . ومن المعلوم من تاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في " رمضان " من السنة الثانية للهجرة ، وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل ، ورد البغي والطغيان ، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين قعد بهم الضعف في مكة ، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها ، وقد إستجاب الله ضراعتهم فهبأ لهم ظروف تلك الغزوة ، وبها عرف

أنصار الباطل انه مهما طال أمده ، وقويت شوكته ، وامتد سلطانه ، فلا بد له من يوم يخر فيه صريعا أمام جلال الحق وقوة الإيمان ، وهكذا كانت غزوة بدر نصرا للمؤمنين ، وهزيمة للمشركين . " وفي ثنايا سرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان [يا أيها الذين آمنوا] كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله ، وكذكير لهم بأن هذه التكاليف التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به ، وأن النصر الذي حازوا عليه ، كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال .

(129/303)

---

أما النداء الأول : فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار] وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب .

وأما النداء الثاني : فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة ، لأمر الله وأمر رسوله [يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون] كما صورت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة ، التي لا تسمع ولا تعي ، ولا تستجيب لدعوة الحق .

وأما النداء الثالث : فقد بين فيه تعالى أن ما يدعوهم إليه الرسول ، فيه حياتهم وعزتهم

وسعادتهم في الدنيا والآخرة [يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . . ] فالدين حياة ، والكفر موت .

وأما النداء الرابع : فقد نبههم فيه إلى أن إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله ، وخيانة للأمة أيضا [يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . ]

وأما النداء الخامس : فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى ، وذكرهم بأنها أساس الخير كله ، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني ، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن ، وبه يفرق بين الرشد والغي ، والهدى والضلال [يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم ] .

(130/303)

---

وأما النداء السادس : وهو النداء الأخير فقد وضع الله لهم فيه طريق العزة ، وأسس النصر ، وذلك بالثبات أمام الأعداء ، والصبر عند اللقاء ، وإستحضار عظمة الله التي لا تحد ، وقوته التي لا تقهر ، والإعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات ، ألا وهو ذكر الله كثيرا [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ] .

وختمت السورة الكريمة ببيان الولاية الكاملة بين المؤمنين ، وأنه مهما تناعت ديارهم ،  
واختلفت أجناسهم ، فهم أمة واحدة ، وعليهم نصر الذين يستنصرونهم في الدين ، كما أن  
ملة الكفر أيضا واحدة ، وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال ، وأنه لا  
ولاية بين المؤمنين والكافرين [ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في  
الأرض وفساد كبير ] . " هذه خلاصة ما أشارت اليه السورة الكريمة من أهداف ، وما  
أرشدت اليه من دروس وعبر ، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفهم والبصر . انتهى انتهى .  
اه ﴿ صفوة التفاسير ح 1 ص 491.492 ﴾

(131/303)

---

فصل في معاني السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الأنفال

الأنفال : واحد ها نقل ( بالتحريك ) من النفل ( بالسكون ) وهو الزيادة على الواجب ، ومنه  
صلاة النفل ، والمراد به هنا الغنيمة - وقيل الغنيمة كل ما حصل مستغنا بتعب أو بغير  
تعب وقبل الظفر أو بعده ، والنفل يحصل للإنسان قبل القسمة من الغنيمة ، والبين : يطلق

على الاتصال والافتراق وعلى كل ما بين طرفين كما قال :

"لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ" وذات البين : الصلة التي تربط بين شيئين ، والوجل : الفزع والخوف ،

والدرجات : منازل الرفعة ومراقى الكرامة .

الشوكة : الحدة والقوة ، وأصلها واحدة الشوك ، شبهوا بها أسنة الرماح ، والطائفتان :

طائفة العير الآتية من الشام ، وطائفة النفير التي جاءت من مكة للنجدة ، وغير ذات

الشوكة : هي العير ، ودابر القوم : آخرهم الذي يأتي في دبرهم ويكون من ورائهم ، ويحق

الحق : أي يعز الإسلام لأنه الحق ، ويبطل الباطل : أي يزيل الباطل وهو الشرك ويحقه .

الاستغاثة : طلب الغوث ، وهو التخليص من الشدة والنقمة ، وممدكم : ناصركم ومغيثكم

، ومردفين : من أردفه إذا أركبه وراهه ، وتطمئن تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذي

عرض لكم في جملةكم ، وعزيز : أي غالب على أمره ، حكيم لا يضع شيئاً في غير

موضعه ، ويغشيكم : يجعله مغطياً لكم ومحيطاً بكم ، والنعاس : فتور في الحواس

وأعصاب الرأس يعقبه النوم فهو يضعف الإدراك ولا يزيله كله فإذا أزاله كان نوماً ، والرجز

والرجس والركس : الشيء المستقذر حساً أو معنى ، ويراد به هنا وسوسة الشيطان ،

والربط على القلوب تثبيتها وتوطئتها على الصبر ، والرعب : الخوف الذي يملأ القلب فوق

الأعناق : أي الرءوس ، والبنان : أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، شاقوا : أي

عادوا وخالفوا ، وسميت العداوة مشاققة لأن كلام المتعادين يكون فى شق غير الذى يكون فيه الآخر .

(132/303)

---

الزحف : من زحف إذا مشى على بطنه كالحية ، أودبّ على مقعده كالصبي أو على ركبته ، أو مشى بثقل فى الحركة واتصال وتقارب فى الخطو كزحف صغار الجراد والعسكر المتوجه إلى العدو ، لأنه لكثرتة وتكاثفه يرى كأنه يزحف ، إذ الكل يرى كجسم واحد متصل فتحس حركته بطيئة وإن كانت فى الواقع سريعة ، والأدبار : واحد ها دبر وهو الخلف ، ومقابلته القبل ومن ثم يكنى بهما عن السوءتين ، وتولية الدبر والأدبار : يراد بهما الهزيمة لأن المنهزم يجعل خصمه متوجهاً إلى دبره ومؤخره ، والمنحرف للقتال وغيره : هو المنحرف عن جانب إلى آخر ، من الحرف وهو الطرف والفتة : الطائفة من الناس ، والمأوى : الملجأ الذى يأوى إليه الإنسان ، والموهن : المضعف ، من أوهنه إذا أضعفه ، والكيد : التدبير الذى يقصد به غير ظاهره فتسوء عاقبة من يقصد به ، والاستفتاح طلب الفتح ، والفصل فى الأمر كالنصر فى الحرب .  
الخيانة : لغة تدل على الإخلاف والخيبة بنقص ما كان يرجى ويؤمل من الخائن ، فقد قالوا

خانه سيفه إذا نبا عن الضريبة ، وخاتته رجلاه إذا لم يقدر على المشي ، ومنه قوله : " عَلِمَ  
اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ " أي تنقصونها بعض ما أحل لها من اللذات ، ثم استعمل  
في ضد الأمانة والوفاء لأن الرجل إذا خان الرجل فقد أدخل عليه النقصان . والأمانة :  
كل حق مادى أو معنوى يجب عليك أدائه إلى أهله قال تعالى : " فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا  
فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا " والفتنة : الاختبار والامتحان  
بما يشق على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره ، فهي تكون فى الاعتقاد والأقوال  
والأفعال والأشياء ، فيمتحن الله المؤمنين والكافرين والصادقين والمنافقين ، ويجازيهم بما  
يترتب على فتنهم من اتباع الحق والباطل وعمل الخير أو الشر .

(133/303)

---

التقوى : ترك الذنوب والآثام ، وفعل ما يستطاع من الطاعات والواجبات الدينية ، وبعبارة  
أخرى : هى انقضاء ما يضر الإنسان فى نفسه وفى جنسه ، وما يحول بينه وبين المقاصد  
الشريفة والغايات الحسنة ، والفرقان : أصله الفرق والفصل بين الشئيين أو الأشياء ، ويراد  
به هنا نور البصيرة الذى به يفرق بين الحق والباطل والضار والنافع ، وبعبارة ثانية : هو العلم  
الصحيح والحكم الرجيح ، وقد أطلق هذا اللفظ على التوراة والإنجيل والقرآن وغلب

على الأخير قال تعالى " تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا " من قبل أن كلامه تعالى يفرق في العلم والاعتقاد بين الإيمان والكفر ، والحق والباطل ، والعدل والجور ، والخير والشر .

ليبتوك : أي ليشدوك بالوثاق ويرهقوك بالقيد والحبس حتى لا تقدر على الحركة ، والمكر : هو التدبير الخفي لإيصال المكروه إلى الممكوره به من حيث لا يحتسب ، والغالب أن يكون فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل ، وإذا نسب إلى الله كان من المشاكلة في الكلام بتسمية خيبة المسعى في مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه ، والأساطير :

واحدة أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأحدوثة وأحاديث وهي الأقاويص التي سطرّت في الكتب بدون تمحيص ولا تثبيت من صحتها . وفي القاموس : الأساطير الأحاديث لانظام لها واحدة إسطار وأساطر وأسطور وبالهاء في الكل ، وأصل السطر الصف من الشيء كالكتاب والشجر

الغنم والمغنم والغنيمة : ما يناله الإنسان ويظفر به بلا مقابل مادي ، وقولهم الغرم بالغنم : أي يقابل به ، والفيء : كل ما صار إلى المسلمين من أموال أهل الشرك بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وتصير الدار دار إسلام ، وهو لكافة المسلمين . وليس فيه الخمس ، والنفل : ما يحصل للإنسان من الغنيمة قبل قسمتها .



---

الذين خرجوا : هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير ، والبطر : إظهار الفخر والاستعلاء  
بنعمة القوة أو الغنى أو الرياسة ، ويعرف ذلك فى الحركات المتكلفة والكلام الشاذ ، والرئاء  
: أن يعمل المرء ما يجب أن يراه الناس منه ليثنوا عليه ويعجبوا به ، وتراءت الفئتان : قربت  
كل منهما من الأخرى ، وصارت بحيث تراها وتعرف حالها ونكص : رجع القهقرى وتولى  
إلى الوراء ، والمنافق من يظهر الإسلام ويسر الكفر ، والذين فى قلوبهم مرض : هم ضعاف  
الإيمان تملأ قلوبهم الشكوك والشبهات ، فزلزل اعتقادهم حيناً وتسكن حيناً آخر .  
أدبارهم ، أي ظهورهم وأقفيتهم ، وعذاب الحريق : عذاب النار بعد البعث ، والدأب :  
العادة المستمرة .

الدابة : لفظ غلب استعماله فى ذوات الأربع ، وأصله كل مادب على وجه الأرض ، وهو  
المراد هنا ، عند الله : أي فى حكمه وعلمه ، والذين عاهدت منهم : هم طوائف من يهود  
المدينة . وثقفه : أدركه وظفر به ، فشرد بهم : أي نكل بهم تنكياً لا يشرد غيرهم من ناقضى  
العهد ، من خلفهم : هم كفار مكة وأعوانهم من مشركى القبائل الموالية لهم ، والنبد :  
الطرح ، على سواء : أي على طريق واضح لا خداع فيه ولا خيانة ولا ظلم ، سبقوا : أي  
أفلتوا من الظفر بهم ، لا يعجزون : أي لا يجدون الله عاجزاً عن إدراكهم ، بل سيجزيهم  
على كفرهم .

الإعداد : تهيئة الشيء للمستقبل ، والرباط والمربط : الحبل الذي تربط به الدابة ، ورباط الخيل : حبسها واقتناؤها ، والإرهاب والترهيب : الإيقاع في الرهبة وهي الخوف المقترن بالاضطراب ، وجنح للشيء وإليه : مال ، يقال جنحت الشمس للغروب أي مالت إلى جانب الغرب الذي تغيب في أفقه ، والسلم (بفتح السين وكسرهما) والسلام : الصلح و ضد الحرب ، والإسلام دين السلم والسلام كما قال : " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً " وحسبك الله : أي كافيك وناصرك عليهم .

(135/303)

---

حسبك : أي كافيك ما يهّمك ، والتحريض : الحث على الشيء ، لا يفقهون : أي لا يدركون حكمة الحرب وما يقصد بها من سعادة في الدنيا والآخرة ، والضعف (بالفتح والضم) يشمل المادي والمعنوي ، وقيل هو بالضم لما يكون في البدن ، وبالفتح لما يكون في الرأي والعقل والنفس .

الأسرى : واحد هم أسير ، وهو من الأسر وهو الشد بالإسار أي القدّ من الجلد ، وكان من يؤخذ من العسكر في الحرب يشد لتلايهرب ، ثم صار يطلق على أخيد الحرب وإن لم يشدّ ، والإبتحان في كل شيء : قوته وشدته ، يقال قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ،

وكذلك أثخنه الجراح، والثخانة الغلظ، فكل شيء غليظ فهو ثخين، والعرض: ما  
يعرض ولا يدوم سمي به حطام الدنيا لأنه حدث قليل اللبث، ومسكم: أي أصابكم،  
وفيما أخذتم: أي لأجل ما أخذتم من الفداء. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير المراغي ح 9  
ص 161 : ح 10 ص 33 ﴾ . باختصار .

(136/303)

---

وقال الإمام أبو جعفر النحاس:

تفسير سورة الأنفال

مدنية وآياتها 75 آية

بسم الله الرحمن الرحيم سورة الأنفال وهي مدنية 1 - قوله جل وعز يسألونك عن الأنفال  
قل الأنفال لله والرسول (آية 1) قال ابن عباس نزلت في يوم بدر وروى إسرائيل عن سماك بن  
حرب عن مصعب بن سعد عن أبيه قال أصبت سيفاً يوم بدر فاستحسنته فقلت يا  
رسول الله هبه لي فنزلت يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول قال أبو جعفر  
المعروف من قراءة سعد بن أبي وقاص  
يسألونك الأنفال بغير عن هكذا رواه شعبة عن سماك عن مصعب عن أبيه قال ابن عباس

قال النبي صلى الله عليه وسلم في يوم بدر من قتل قتيلًا فله كذا ومن أسر أسيرًا فله كذا فلما فتح لهم جاءوا يطلبون ذلك فقام سعد والأشياخ فقالوا يا رسول الله إنما قمنا هذا المقام ردء لكم لا جبنًا فنزلت يسألونك عن الأنفال فسلموا الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نزلت بعد واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة فبين الله جل وعز في هذا أن الأنفال صارت من الخمس لا من الجملة قال مجاهد وعكرمة هي منسوخة نسخها واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة إلى آخر الآية قال مجاهد والأنفال الغنائم قال أبو جعفر والأنفال في اللغة ما يتطوع به الإمام مما لا يجب عليه نحو قوله من جاء بأسير فله كذا ومنه النافلة من الصلوات ثم قيل للغنيمة نفل لأنه يروى أن الغنائم لم تحل لأحد إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فكانهم أعطوها نافلة 2 - وقوله جل وعز فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم (آية 1) الذات الحقيقة والبين الوصل ومنه لقد تقطع بينكم 3 - وقوله جل وعز إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم (آية 2) قال ابن أبي نجیح أي فرقت وأنشد أهل اللغة لعمر ك ما أدري وإني لأوجل على أينا تغدو المنية أول

(137/303)

---

وروى سفیان عن السدي في قوله جل وعز الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم قال إذا أراد أن  
يظلم مظلمة قيل له اتق الله كف ووجل قلبه

4 - ثم قال جل وعز وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً (آية 2) أي صدقوا بها فزادوا  
إيماناً قال الحسن الذين يقيمون الصلاة الخمس بوضوئها وركوعها وسجودها وخشوعها  
وقال مقاتل بن حيان إقامتها أن تحافظ على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتام ركوعها  
وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وهذا  
إقامتها

5 - وقوله جل وعز كما أخرجك ربك من بيتك بالحق (آية 5) فيه أقوال (أ) قال الكسائي  
المعنى يجادلونك في الحق مجادلهم كما أخرجك ربك من بيتك بالحق (ب) قال أبو عبيدة ما  
بمعنى الذي أي والذي أخرجك هذا معنى كلامه (ج) وقول ثالث وهو أن المعنى قل الأنفال  
لله والرسول كما أخرجك ربك من بيتك بالحق أي كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وهم  
كارهون قل الأنفال لله والرسول وإن كرهوا

وقيل كما أخرجك ربك من بيتك متعلق بقوله تعالى لهم درجات عند ربهم أي هذا الوعد  
لهم حق في الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك بالحق فانجز وعدك بالظفر

6 - ثم قال جل وعز يجادلونك في الحق بعد ما تبين (آية 6) فكما كان هذا حقاً فكذلك  
كل ما وعدكم به حق يجادلونك في الحق بعد ما تبين وتبينه أنه لما خبرهم بخبر بعد خبر من

الغيوب حقا وجب أن لا يشكوا في خبره وأحسنها قول مجاهد أن المعنى كما أخرجك  
ربك من بيتك أي من المدينة إلى بدر على كره كذلك يجادلونك في الحق لأن كلا الأمرين قد  
كان مع قرب احدهما من الآخر فذلك أولى مما بعد عنه

(138/303)

- 
- 7 - وقوله جل وعز وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين انها لكم (آية 7) قال قتادة الطائفتان  
أبو سفيان معه العير وابو جهل معه نفير قريش وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه  
وسلم يحبون أن يظفروا بالعير واران الله عز وجل غير ذلك والشوكة السلاح 8 - ثم قال  
جل وعز ويريد الله أم يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين (آية 7) أي كان في ظهورهم  
على المشركين وإمدادهم بالملائكة ما أحق به الحق وقطع دابر الكافرين
- 9 - وقوله جل وعز فاستجاب لكم أني ممدكم بالف من الملائكة مردفين (آية 9)  
قال ابن عباس أي متابعين وقال أبو جعفر قال أهل اللغة يقال ردفته وأردفته إذا تبعته قال  
مجاهد مردفين أي ممدين 10 - وقوله جل وعز وما جعله الله إلا بشري (آية 10) يعني  
الإمداد ويجوز أن يكون يعني الإرداف 11 - وقوله جل وعز إذ يغشيكم النعاس أمنة منه  
(آية 11)

قال ابن أبي نجيح كان المطر قبل النعاس ويقال أمن يأمن أمنا وأمانا وأمنة وأمنة وروي عن ابن محيصن أنه قرأ أمنة بإسكان الميم وقال عبد الله بن مسعود النعاس في الصلاة من الشيطان وفي الحرب أمنة 12 - ثم قال جل وعز وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به (آية 11) قال الضحاك سبق المشركون المسلمين إلى الماء بيد فبقي المسلمون عطاشا محدثين مجننين لا يصلون إلى الماء فوسوس إليهم الشيطان فقال إنكم تزعمون أنكم على الحق وأن فيكم النبي وعدوكم معه الماء وأنتم لا تصلون إليه فأنزل الله جل وعز المطر فشرّبوا منه حتى رووا واغتسلوا وسقوا دوابهم قال ابن أبي نجيح رووا من الماء وسكن الغبار

(139/303)

---

وقال غيره كان ذلك من الآيات العظام لأنهم كانوا على سبخة لا تثبت فيها الأقدام فلما جاء المطر تثبت أقدامهم 13 - ثم قال جل وعز ويذهب عنكم رجز الشيطان (آية 11) قال ابن أبي نجيح أي وساوسه قال الضحاك وأما قوله ويثبت به الأقدام فإنه كانت به رميلة لا يقدر احد أن يقف عليها فلما جاء المطر تثبت الأقدام عليها 14 - وقوله عمرو جل وعز إذ يوحى ربك إلى الملائكة قبل أني معكم فثبتوا الذين آمنوا (آية 12)

يجوز أن يكون المعنى ثبتوهم بشئ تلقونه في قلوبهم ويجوز أن يكون المعنى ثبتوهم بالنصر  
والقتال عنهم 15 - وقوله جل وعز فاضربوا فوق الأعناق (آية 12) قيل إن فوقها هنا  
زائدة وإنما ابيحوا يجيى ان يضربوهم على كل حال ويدل عليه واضربوا منهم كل بنان لأن  
البنان أطراف الأصابع الواحدة بنانة مشتق من قولهم أين بالمكان إذا أقام به 16 - ثم قال  
جل وعز ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله (آية 13) أي خالفوا كأنهم صاروا في شق آخر  
17 - وقوله جل وعز يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار (آية  
15) أي إذا واقفتموهم يقال زحفت له إذا ثبت وقيل الزحف التداني والتقارب أي  
متزاحف الرحمن بعضهم إلى بعض 18 - ثم قال جل وعز ومن يولهم يومئذ دبره إلا  
متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله (آية 16) قال الحسن كان هذا يوم  
بدر خاصة وليس الفرار من الزحف من الكبراء وروى شعبة عن داود بن أبي هند عن  
أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال نزلت في يوم بدر حدثنا أبو جعفر قال نا ابن سماعه  
قال نا أبو نعيم قال نا موسى بن محمد عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد  
ومن يولهم يومئذ

(140/303)

---



دبره إلى قوله ونُس المصير قال ذلك يوم بدر وقال عطاء هي منسوخة إلى قوله فإن يكن  
منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين أهل بدر لم يكن لهم إمام ينحازون إليه إذ كان النبي صلى الله  
عليه وسلم معهم فلم يكن لهم أن يرغبوا بانفسهم عن نفسه وفي حديث ابن عمر حصنا  
حيصة في جيش فحفنا فقلنا يا رسول الله نحن الفرارون فقال أنا فتكم  
وكذا قال عمر يوم القادسية أنا فئة كل مسلم وقيل ذا عام لأن ذلك حكم من إلا أن يقع دليل  
فإن خاف رجل على نفسه وتيقن انه لا طاقة له بالمشركين فله الرجوع لئلا يلقي بيده إلى  
التهلكة 19 - ثم قال جل وعز فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم (آية 17) وقال ابن أبي نجيح  
لما قال هذا قتلت وهذا قتلت 20 - ثم قال سجل وعز وما رميت إذ رميت ولكن الله  
رمى (آية 17) قال ابن أبي نجيح هذا لما حصبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو  
جعفر وحقيقة هذا في اللغة إنهم خوطبوا على ما يعرفون لن لأن عددهم كان قليلا وأبلغوا  
من المشركين ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حصبهم بكفه فلم يبق أحد من  
المشركين إلا وقع في

عينه أي فلو كان إلى ما في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى ذلك الجيش  
العظيم ولكن الله فعل بهم ذلك والتقدير والله أعلم وما رميت بالرعب في قلوبهم إذ رميت  
بالحصباء في وجوههم وقلت شأهت الوجوه ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم وقيل المعنى  
وما رميت الرمي الذي كانت به الإمامة ولكن الله رمى 21 - ثم قال جل وعز وليبلي

المؤمنين منه بلاء حسنا (آية 17)

والبلاء ها هنا النعمة

(141/303)

22 - وقوله جل وعز إن تستفتحو وكان فقد جاءكم الفتح (آية 19) قال مجاهد أي إن

تستنصروا وقال الضحاك قال أبو جهل اللهم انصر أحب الفئتين إليك فقال الله عز وجل إن

تستفتحوا فقد جاءكم الفتح والمعنى عند أهل اللغة إن تستدعوا روى الفتح وهو النصر

23 - وقوله جل وعز ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون (آية 21) لأنهم

استمعوا استماع عداوة وبينه قوله إن شر الدواب

عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون أي هم بمنزلة الصم في أنهم لا يسمعون سماع من يقبل

الحق وبمنزلة البكم لأنهم لا يتكلمون بخير ولا يعقلونه 24 - ثم قال جل وعز ولو علم الله

فيهم خيرا لأسمعهم (آية 23) أي لأسمعهم جواب كل ما يسألون عنه 25 - ثم قال جل

وعز ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون (آية 23) أي لو أخبرهم بكل ما يسألون عنه

لأعرضوا وكفروا معاندة

وحسدا 26 - وقوله جل وعز يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول (آية 24) أبو

عبدة يذهب إلى أن معنى استجيبوا أجيئوا وأنشد

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب 27 - ثم قال جل وعز إذا دعاكم لما يحييكم (آية 24) أي لما تصيرون به إلى الحياة الدائمة في الآخرة 28 - ثم قال جل وعز واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه (آية 24) قال سعيد بن جبير يحول بين المؤمن وبين الكفر وبين الكافر وبين الأيمان وقال الضحاك يحول بين المؤمن والمعصية وبين الكافر والطاعة قال أبو جعفر وأول هذا القول بعض أهل اللغة أن

معناه يحول بينهما وبين ذنبك بالموت وقيل هو تمثيل أي هو قريب كما قال جل وعز ونحن أقرب إليه من حبل الوريد وقيل كانوا ربما خافوا من عدوهم فأعلمهم الله جل وعز أنه يحول بين المرء وقلبه فيبدل ولم لهم من الخوف أمنا ويبدل عدوهم من

(142/303)

---

الأمن خوفا 29 - وقوله جل وَّز بين وانقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (آية 25) قيل إنها تعم الظالم وغيره وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس وانقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة قال أمر الله المؤمنين ان لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعلمهم الله بالعذاب وقال الضحاك هي في أصحاب محمد صلى الله عليه

وسلم خاصة وروي عن الزبير انه قال يوم الجمل لما لقي ما توهمت أن هذه الآية نزلت فينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلا اليوم واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وقول آخر وهو قول أبي العباس محمد بن يزيد انه نهى بعد أمر نهى الفتنة والمعنى في النهي للظالمين أي لا تقربن الظلم وحكى سيبويه لا أرينك ها هنا أي لا تكن ها هنا فإنه من كان ها هنا رايته وأبو إسحاق يذهب إلى أن معناه الخبر وجاز دخول التون في الخبر لأن فيه قوة الجزاء قال أبو جعفر ورأيت علي بن سليمان يذهب إلى أنه

دعاء 30 - وقوله جل وعز واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض

تخافون أن يتخطفكم الناس (آية 26) قال وهب بن منبه يعني بالناس فارس وقال عكرمة كهفار قريش قال السدي فاوكم إلى المدينة 31 - وقوله جل وعز يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا (آية 29) قال مجاهد وعطاء والضحاك أي مخرجا قال مجاهد في قوله يوم الفرقان قال يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل قال أبو جعفر والفرقان في اللغة بمعنى الفرق يقال فرقت بين الشيئين فرقا وفرقانا

32 - وقوله جل وعز واذ يكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك (آية 30) يقال أثبته إذا حبسته قال مجاهد أراد الكفار أن يفعلوا هذا النبي صلى الله عليه وسلم قبل خروجه من مكة وقال غيره اجتموا فقالوا نحبسه في بيت ونطعمه ونسقيه فيه أو نقله

جميعا جميعا قتل رجل واحد أو نخرجه فتكون بليته على غيرنا فعصمه الله عز وجل منهم  
وفي رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس ليثبوك هي

(143/303)

---

ليوثبوك 33 - وقوله جل وعزواذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا  
حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم (آية 32) قال مجاهد الذي قال هذا النضر بن  
الحارث بن كلدة ويروى ان هذا قيل بمكة ويدل على هذا قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم  
وأنت فيهم قيل في هذه الآية أقوال روي عن ابن عباس ان النضر بن الحارث قال هذا يريد  
أهلكنا ومحمدا ومن معه عامة فأنزل الله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم إلى وهم  
يستغفرون أي ومنهم قوم يستغفرون يعني المسلمين وما لهم ألا يعذبهم الله خاصة فعذبهم  
بالسيف بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم عنهم وفي ذلك نزلت سأل سائل بعذاب  
واقع

وروى الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير ان المستفتح يوم بدر أبو جهل وانه قال اللهم  
اخز أقطعنا للرحم فهذا استفناحه أهل وقال عطية في قوله جل وعز وما كان الله ليعذبهم  
وأنت فيهم يعني المشركين حتى يخرجهم عنهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يعني

المؤمنين قال ثم رجع إلى الكفار

فقال وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام قال أبو جعفر وهذا قول

حسن ومعناه وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله وأنت بين أظهرهم

وكذلك سنته في الأمم 34 - ثم قال جل وعز وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (آية

33) وعاد الضمير على من آمن منهم 35 - ثم قال جل وعز وما لهم ألا يعذبهم الله (آية

34) أي إذا خرجت من بين أظهرهم ويجوز أن يكون معناه وما لهم ألا يعذبهم الله في

القيامة وقيل معناه وما كان الله معذبهم لو استغفروه على غير إيجاب لهم كما تقول لا

أغضب عليك أبدا وأنت تطيعني أي لو أطعني لم أغضب عليك على غير إيجاب منك

لطاغته وقال مجاهد معناه وما كان الله عذبهم وهم مسلمون قال أبو جعفر ومعنى هذا وما

كان الله معذبهم ومنهم من يؤول أمره إلى الإسلام وروي عنه وفي أصلاهم من يستغفر

36 - ثم قال جل وعز وما كان صلاتهم عند البيت إلكاء وتصدية (آية 35)

(144/303)

---

روى عطية عن ابن عمر أنه قال المكاء الصفير والتصدية التصفيق قال ابن شهاب يستهزؤن

بالمؤمنين وروى ابن أبي جريح وابن أبي نجيح أنه قال المكاء إدخالهم أصابعهم في أفواههم

والتصدية الصغرى يريدون ان يشغلوا بذلك محمدا صلى الله عليه وسلم عن الصلاة قال أبو جعفر والمعروف في اللغة ما روي عن ابن عمر حكى أبو عبيدة وغيره انه يقال مكايكو ومكاء إذا صفر وصدى يصدي تصدية إذا صفق

قال أبو جعفر ويعد قول ابن زيد التصدية صداهم عن دين الله لأن الفعل من هذا صددت إلا ان قلب إحدى داليه ياء مثل تظنيت من ظننت وكذا ما روي عن سعيد بن جبير التصدية صداهم عن بيت الله 37 - وقوله جل وعز إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله (آية 36) قال مجاهد يعني أبا سفيان وما أنفق على أصحابه يوم أحد 38 - وقوله جل وعز ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا (آية 37) يقال ركمت الشيء إذا جعلت بعضه فوق بعض

39 - وقوله جل وعز فيجعله في جهنم (آية 37) أي الخبيث ليعذبوا به ويعني بالخبيث الكفار كذا قال ابن عباس ميز أهل السعادة من أهل الشقاء أي بأن اسكن هؤلاء الجنة وهؤلاء النار أي فيجعل الكفار بعضهم فوق بعض فيجعلهم ركاما أي يجمع بعضهم إلى بعض حتى يكثر أولئك رده إلى الكافرين ورد فيجعله إلى الخبيث على لفظه ليعذبوا به كما قال تعالى (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) وقوله جل وعز وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين (آية 38) قال مجاهد يوم بدر للأمم قبل ذلك فقد فرق الله جل وعز بين الحق والباطل 40 - وقوله جل وعز وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة (آية 39)

---

المعنى حتى لا تكون فتنة كفر ودل على هذا الحذف قوله تعالى ويكون الدين كله لله 41 -  
ثم قال جل وعز وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير (آية 40) أي وإن  
عادوا إلى الكفر وعداوتكم فاعلموا أن الله مولاكم أي وليكم وناصركم فلا تضركم  
عداوتهم 42 - وقوله جل وعز واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة  
وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل (آية 41) اختلف في معنى هذه  
الآية فقال قوم يقسم الخمس على خمسة أجزاء فأربعة منها لمدة شهر الحرب وواحد منها  
مقسوم على خمسة فما كان منه للرسول  
صير فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيرة حديث فيه ويروى أنه كان يصيره  
تقوية للمسلمين وأربعة لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وهذا مذهب  
الشافعي رحمه الله وقال بعضهم يقسم هذا السهم على قلته أجزاء للفقراء والمساكين وابن  
السبيل لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا نورث ما تركنا صدقة وهذا مذهب  
أبي حنيفة وقال بعضهم إذا رأى الإمام أن يعطي هؤلاء المذكورين أعطاهم وإن رأى أن  
غيرهم أحق منهم أعطاهم قال ولو كان ذكرهم بالسهمية عند يوجب أن لا يخرج عن



جملتهم لما جاز إذا ذكر جماعة أن يعطى بعضهم دون بعض وقد قال الله عز وجل إنما الصدقات للفقراء والمساكين إلى آخر الآية ولو جعلت في بعضهم دون بعض لجاز ولكنهم ذكروا لأنهم من أهم من يعطى وقال جل وعز قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والأقربين وله أن يعطي غير من سمي وهذا مذهب مالك

(146/303)

---

وأما معنى فإن لله فهو افتتاح كلام قال قيس بن مسلم الجدبي لأنه سألت الحسن بن محمد واعلموا أن ما غنمتم من شئىء فإن لله خمسة فقال هو افتتاح كلام ليس لله نصيب لله الدنيا والآخرة حدثنا أبو جعفر قال نا محمد بن الحسن بن سماعة قال نا أبو نعيم قال نا أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية واعلموا أن ما غنمتم من شئىء فإن لله خمسة قال يجاء بالغنيمة فتوضع فيقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم فيعزل سهمها منها ويقسم الأربعة بين الناس ثم يضرب

بيده في جميع السهم الذي عزله فما قبض عليه من شئىء جعله للكعبة فهو الذي سمي لله ويقول لا تجعلوا لله نصيبا فإن لله الدنيا والآخرة قال ثم يقسم السهم الذي عزله على خمسة أسهم سهم للنبي صلى الله عليه وسلم وسهم لذى القربى وسهم لليتامى وسهم للمساكين

وسهم لابن السبيل وقيل معنى فأن لله خمسة فأن لسبيل الله مثل واسأل القرية 43 -  
وقوله جل وعز إن كنتم آمنتم بالله (آية 41) أي إن كنتم آمنتم بالله فاقبلوا ما أمركم به وقيل  
المعنى فاعلموا أن الله مولاكم وناصركم إن كنتم آمنتم به  
44 - وقوله جل وعز وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان (آية 41) قال  
مجاهد هو يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل 45 - وقوله جل وعز إذ أنتم بالعدوة  
الدنيا وهم بالعدوة القصوى (آية 42) قال قتادة العدو شفير الوادي وكذلك هو في اللغة  
ومعنى الدنيا التي تلي المدينة ومعنى القصوى التي تلي مكة ثم قال تعالى والركب أسفل  
منكم قال قتادة يعني العير التي كانت مع أبي سفيان 46 - وقوله جل وعز ليهلك من هلك  
عن بينة ويحيى من حي عن بينة (آية 42) قال أبو جعفر قال ابن أبي إسحاق جعل  
المعتدي بمنزلة

(147/303)

---

الحى وجعل الضال بمنزلة الهالك قال أي ليكفر من كفر بعد الحجة أخبرنا بما رأى من الآية  
والعبرة ويؤمن من آمن على مثل ذلك وقال غيره ليهلك ليموت من مات عن حجة لله جل  
وعز وعليه قد قطعت عذره وليعيش من عاش منهم على مثل ذلك وإن الله لسميع لقولكم

حين تركتموهم عليهم بما تضمنه نفوسكم 47 - وقوله جل وعز إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر (آية 53) قال ابن أبي نجيح عن مجاهد رآهم النبي صلى الله عليه وسلم في النوم قليلا

فقص الرؤيا على أصحابه فثبتهم الله بذلك وروى عن الحسن أنه قال المعنى إذ يريكهم الله بعينك التي تنام بها

قال أبو جعفر والمعنى على هذا في موضوع منامك والقول الأول أحسن لجهتين إحداهما ما روي من أن النبي صلى الله عليه وسلم رآهم في النوم والأخرى في قوله وإذ يريكهم إذ التقيتم في أعينكم فالرؤيا الأولى في النوم والثانية عند الالتقاء ويجوز ما قال الحسن على بعد على أن يكون قوله إذ يريكهم خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والمعنى ويقللكم في أعينهم أي لتلايستعدوا لكم لما أراد الله جل وعز من ظفر المسلمين بهم 48 - وقوله جل وعز ولا تنازعوا فتفشلوا (آية 46) قال أبو إسحاق يقال يفشل فشلا إذا هاب أن يتقدم جبنا

49 - ثم قال جل وعز وتذهب ريحكم (آية 46) قال مجاهد أي نصركم وقال معمر عن قتادة أي ريح الحرب والمعروف في اللغة أنه يقال ذهبت ريحهم أي دولتهم 50 - وقوله جل وعز ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورثاء

الناس (آية 47) يعني أبا جهل وأصحابه يوم بدر 51 - وقوله جل وعز وزين لهم الشيطان

أعمالهم (الآية 47) قال المعنى واذكر إذ زين لهم الشيطان أعمالهم قال الضحاك جاءهم يوم بدر برايته وجنوده فألقى في قلوبهم أنهم لن ينهزموا يا وهم يقاتلون على دين آبائهم

(148/303)

---

52 - وقوله جل وعز فلما تراءت الفئتان (آية 48) أي التقتا حتى رأت كل واحدة منهما صاحبها 53 - ثم قال جل وعز نكص على عقبيه (آية 48) أي رجع القهقري ويقال نكص على عقبيه إذا رجع من حيث جاء وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون قال الضحاك رأى الملائكة إني أخاف الله والله شديد العقاب قيل إنما خاف أن يكون الوقت الذي أجل إليه قد حضر وقيل بل كذب 54 - وقوله جل وعز كدأب آل فرعون والذين من قبلهم (آية 52) قال مجاهد أي كفعل والدأب عند أهل اللغة العادة وحقيقة عندهم أنه من قولك فلان يدأب أي يداوم على الشيء

ويلزمه وهذا معنى العادة 55 - وقوله جل وعز الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون (آية 56) قال مجاهد يعني بني قريظة 56 - وقوله جل وعز فإنما نتقنهم في الحرب (آية 57) أي تصادفهم وتظفر بهم فشردهم من خلفهم قال سعيد بن جبیر أي أنذرهم من خلفهم وقال أبو عبيد هي لغة قريش شردهم سمع بهم وقال

الضحك أي نكل بهم والتشريد في اللغة التبديد والتفريق

57 - وقوله جل وعز وإما تخافن من قوم خيانة (آية 58) أي غشا وتقضا للعهد فانبذ إليهم على سواء أي ألق إليهم تقض عهدهم لتكون أنت وهم على سواء في العلم يقال نبذت إليه على سواء أي أعلمته أنني قد عرفت منه ما أخفاه وروى عمر بن عنبه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من كان بينه وبين قوم عهد إلى مدة فلا يشد عقدة ولا يجلها حتى ينتضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء 58 - وقوله جل وعز ولا يحسن الذين كفروا سبقوا (آية 59) قال أبو عبيدة أي فاتوا ثم قال جل وعز إنهم لا يعجزون روي عن ابن محيصة أنه قرأ لا يعجزون بالتشديد وكسر النون

(149/303)

---

قال أبو جعفر هذا خطأ من جهتين إحداهما أن معنى عجزه ضعفه وضعف أمره والأخرى أنه كان يجب أن يكون بنونين ومعنى أعجزه سبقه وفاته حتى لم يقدر عليه 59 - وقوله جل وعز وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم (آية 60) قال عكرمة القوة ذكور الخيل ورباط الخيل إنائها وقال غيره القوة السلاح وروى عقبه بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأعدوا لهم ما

استطعتم من قوة الأإن القوة الرمي 60 - ثم قال عز وجل وآخرين من دونهم لا تعلمونهم

(آية 60) أي وترهبون آخرين أي تخيفونهم لو

قال مجاهد هم بنو قريظة وقال ابن زيد هم المنافقون وقيل هم الجن وقال السدي أهل فارس

61 - وقوله جل وعز وإن جنحوا للسلم فاجنح لها (آية 61) جنحوا مالوا وقال أبو

عمر والسلم الصلح والسلم الإسلام وأبو عبيدة يذهب إلى أن السلم والسلم والسلم

الصلح 62 - وقوله جل وعز وإن يريدوا أن يخدعوك (آية 62)

أي يظهار الصلح فإن حسبك الله أي كافيك وهو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين أي قواك

وألف بين قلوبهم وهذه من الآيات العظام لأن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عنه حتى

يستقيدها وكانوا أشد خلق الله حمية فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كان أحدهم

يقاتل أخاه على الإسلام حدثنا أبو جعفر قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن محمد

بالأنبار قال نا نصر بن علي قال حدثني أبي قال حدثنا شعبة قال أخبرنا بشير ابن ثابت من

آل النعمان بن بشير في قوله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين حتى بلغ إنه عزيز حكيم قال

نزلت في الأنصار 63 - وقوله جل وعز يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين (آية

64) أي الله يكفيك ويكفي من اتبعك وقيل المعنى ومن اتبعك ينصرك 64 - وقوله جل

وعز يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال (آية 65) التحريض الحث الشديد وهو مأخوذ

من الحرض وهو المقاربة

للهلك أي حشهم حتى يعلم من يخالف أنه قد قارب الهلاك 65 - قال جل عز إن يكن  
منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين (آية 65)

ثم قال ابن عباس فرض على الرجل أن يقاتل عشرة ثم سهل عليهم فقال الآن خفف الله  
عنكم إلى قوله والله مع الصابرين وكتب عليهم أن لا يفر مائة من مائتين قال ابن شبرمة وأنا  
أرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذا وروى الأعمش عن مرو بن مرة عن أبي عبيدة  
عن عبد الله قال لما كان يوم بدر جئ بالأسرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما  
ترون في هؤلاء الأسرى فقال أبو بكر يا رسول الله قومك وأصلك استبقهم فلعن الله يتوب  
عليهم فقال عمر

يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك قدمهم فاضرب أعناقهم وذكر الحديث وقال فيه  
فأنزل الله 66 - ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض (آية 67) قال مجاهد  
الإثخان القتل وقيل حتى يثخن في الأرض حتى يبالغ في قتل أعدائه وقيل حتى يتمكن في  
الأرض والإثخان في اللغة القوة والشدة 67 - وقوله جل وعز لولا كتاب من الله سبق  
لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (آية 68) فيه أقوال

قال مجاهد سبق من الله أن أحل لهم الغنائم

وقال أبو جعفر ويقوي هذا أنه روى أبو صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أحلت الغنائم لقوم سود الرؤوس قبلنا كانت تنزل نار من السماء فتأكلها فلما كان يوم بدر وقع الناس فيما وقعوا فيه فأنزل الله جل وعز لولا كتاب من الله سبق إلى قوله إن الله غفور رحيم وقيل سبق من الله جل وعز أنه يغفر لأهل بدر ما تقدم من ذنبهم وما تأخر قال ذلك الحسن رواه عنه أشعث وروى عنه سفیان بن حسين أنه قال سبق من الله جل وعز أن لا يعذب قوما إلا بعد تقدمهم ولم يكن تقدم إليهم فيها وروى سالم عن سعيد بن جبیر لولا كتاب من الله سبق قال لأهل بدر من السعادة لمسكم فيما أخذتم من الله عذاب عظيم وقيل سبق من الله أنه يغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر

(151/303)

---

68 - وقوله جل وعز يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا

يؤتكم خيرا مما أخذ منكم (آية 70) قيل في الآخرة وقيل يعوضكم في الدنيا وروى عن

العباس أنه قال أسرت يوم بدر ومعني عشرون

أوقية فأخذت مني فعوضني الله عشرين عبدا ووعدني المغفرة 69 - وقوله جل وعز وإن



يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل (آية 71) خيانتك أي نقض العهد 70 - وقوله جل

وعزّين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله (آية 72)

قيل إنه يقال هاجر الرجل إذا خرج من أرض إلى أرض وقيل إنما قيل هجر وهاجر فلان لأن

الرجل كان إذا أسلم هجره قومه وهجرهم فإذا خاف الفتنة على نفسه رحل عنهم فسمي

مسيره هجرة وقيل هاجر لأنه كان على هجرته لقومه وهجرتهم له فهو مهاجر هجر دار

قومه ووطنه وارتحل إلى دار الإسلام وهما هجرتان فالمهاجرون يكون الأولون الذين

هاجروا إلى أرض الحبشة والآخرين الذين هاجروا إلى المدينة إلى وقت الفتح وانقطعت

الهجرة لأن الدار كلها دار الإسلام فلا هجرة وهذا قول أهل الحديث ومن يوثق بعلمه 71

- وقوله جل وعزّين الذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء (آية 72)

أي من نصرتهم ووراثتهم

قال قتادة كان الرجل يؤاخي الرجل فيقول ترثني وأرثك ثم نسخ ذلك بقوله تعالى وأولوا

الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله 72 - ثم قال عز وجل والذين كفروا بعضهم

أولياء بعض إلا تفعلوه (آية 73) ومعنى إن لا تفعلوه إن لا تفعلوا النصر والموالاتة وروى ابن

أبي طلحة عن ابن عباس إلا تفعلوه قال يقول إلا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم به وقال ابن

زيد أي إلا تركوهم يتوارثون على ما كانوا قال مجاهد هذا منسوخ نسخه وأولوا الأرحام

بعضهم

(152/303)

---

أولى ببعض وروي عن عبد اله بن الزبير أنه قال هذا في العصبات كان الرجل يعاقد الرجل على أن يتوارثا فنسخ ذلك وقيل نسخته الفرائض وأكثر الرواة على أن الناسخ له وأولوا الأرحام بعضهم الآية وروي سفيان عن السدي عن أبي مالك قال قال رجل نورث أرحامنا المشركين فنزلت والذين كفروا بعضهم أولياء بعض وروي يونس عن الحسن قال كان الأعرابي لا يرث مهاجرا حتى نزلت وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله فقد تبين أن معنى الآية أن أهل الأرحام يتوارثون بأرحامهم دون الذين حالقوهم ونسخ ذلك ما كان قبله من التوارث بالمخالفة انتهت سورة الأنفال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس ج 3 ص 125 . 176 ﴾

(153/303)

---

وقال الفراء :

ومن سورة الأنفال

وقوله: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ (1)** نزلت في أنفال أهل بدر . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى قلة الناس وكرهيتهم للقتال قال : من قتل قتيلا فله كذا ، ومن أسر أسيرا فله كذا .

فلما فرغ من أهل بدر قام سعد بن معاذ «1» فقال : يا رسول الله إن نفلت هؤلاء ما سميت لهم بقي كثير من المسلمين بغير شيء ، فأنزل الله تبارك وتعالى :  
**قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** : يصنع فيها ما يشاء ، فسكتوا وفي أنفسهم من ذلك كراهية .  
وهو قوله : **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ (5)** على كره منهم ، فامض لأمر الله في الغنائم كما مضيت على مخرجك وهم كارهون .

ويقال فيها : يسألونك عن الأنفال كما جادلوك يوم بدر فقالوا : أخرجتنا للغنيمة ولم تعلمنا قتالا فنستعد «2» له . فذلك قوله : **يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ (6)** وقوله : **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ** أمر المسلمين أن يتأسوا «3» في الغنائم بعد ما أمضيت لهم ،  
أمر ليس بواجب «4» .

---

(1) هو سيد الأوس . شهد بدرا وأحدا ، واستشهد زمن الخندق فقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم :

«اهتز العرش لموت سعد بن معاذ» .

(2) كذا في 1 . وفي ج : «فيستعد» .

(3) أي يؤاسى بعضهم بعضاً أي ينيله مما ناله ولا يرضنّ عليه .

(4) كذا فى ا، ج. وفى ش: «بجواب» .

(154/303)

---

وقوله : وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، ثم قال «1» أَنَّهَا لَكُمْ فَنَصَبَ (إِحْدَى «2» الطَّائِفَتَيْنِ) ب «يعد» ثم كرّها على أن يعدكم أن إحدى الطائفتين لكم كما «3» قال : فَهَلْ يَنْظُرُونَ «4» إِلَّا السَّاعَةَ ثُمَّ قَالَ : أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَانْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ كَمَا نَصَبْتَ السَّاعَةَ وَقَوْلُهُ : وَكُلُّوا «5» رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ رَفَعَهُمْ ب «لولا» ، ثم قال : أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَانْ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ ب «لولا» .

وقوله : بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَيَقْرَأُ (مردفين) «6» فَأَمَّا (مردفين) فممتابعين ، و(مردفين) فعل بهم .

وقوله : وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ (10) هَذِهِ الْهَاءُ لِلإِرْدَافِ : مَا جَعَلَ اللَّهُ الإِرْدَافَ إِلا بُشْرَى .

وقوله : إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ (11) بات المسلمون ليلة بدر على غير ماء ،

فأصبحوا مجنبيين ، فوسوس إليهم الشيطان فقال : تزعمون أنكم على دين الله وأنتم على

غير الماء وعدوكم على الماء تصلون مجنبيين ، فأرسل الله عليهم السماء «7» وشربوا

واغتسلوا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان يعنى وسوسته ، وكانوا فى رمل تعيب فيه  
الأقدام فشده المطر حتى اشد عليه الرجال ، فذلك قوله : **وُثِّبَتْ بِهِ الْأَقْدَامُ** .

---

(1 ، 2) سقط ما بين القوسين فى ا .

(3) سقط فى ا .

(4) آية 18 سورة محمد .

(5) آية 25 سورة الفتح .

(6) أي بفتح الدال : وهى قراءة نافع وأبى جعفر ويعقوب ، والكسر قراءة الباقيين .

(7) كذا فى ا . وفى ش ، ج : «الماء» . معاني القرآن ، ج 1 ، ص : 404

(155/303)

---

وقوله : **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا (12)** كان الملك يأتى  
الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : سمعت «1» هؤلاء القوم - يعنى  
أبا سفيان وأصحابه - يقولون : والله لئن حملوا علينا لننكشفن ، فيحدث المسلمون  
بعضهم بعضا بذلك فتقوى أنفسهم . فذلك وحيه إلى الملائكة .

وقوله : **فَاصْرُبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ عِلْمَهُمْ مَوَاضِعَ الضَّرْبِ فَقَالَ : اصْرَبُوا الرءوس والأيدى**

«2» والأرجل .

فذلك قوله : وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

وقوله : ذَلِكَ فذوقوه (14) خاطب المشركين .

ثم قال : وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ فنصب (أنّ) من جهتين .

أما إحداهما : وذلك بأن للكافرين عذاب النار ، فألقيت الباء فنصبت . والنصب الآخر

أن تضمير فعلا مثل قول الشاعر :

تسمع للأحشاء منه لغطا ولليدين جساءة ويددا «3»

أضمر (وترى لليدين) كذلك قال ذلكم فذوقوه واعلموا أنّ للكافرين عذاب النار . وإن

شئت جعلت (أن) فى موضع رفع تريد : ذلكم فذوقوه وذلكم (أنّ)

---

(1) سقط فى ش . [ . . . . . ]

(2) هذا من ضرب البنان . والبنان جمع بنانة وهى أطراف أصابع اليدين والرجلين .

(3) اللغط : الأصوات المبهمة . والجساءة الصلابة والغلط والخشونة . والبدد : تباعد ما

بين اليدين .

(156/303)

---

للكافرين عذاب النار) ومثله فى كتاب الله تبارك وتعالى : ختم «1» الله على قلوبهم  
وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة قراها عاصم فيما حدثنى المفضل ، وزعم أن  
عاصما أخذها عليه مرتين بالنصب . وكذلك قوله : وحور عين «2» .

وقوله : ذلكم وأن الله مؤهّن كيد الكافرين (18) ومؤهّن . فإن شئت أضفت ، وإن  
شئت نوتت ونصبت «3» ، ومثله : إن «4» الله بالغ أمره ، وبالغ أمره وكاشفات «5»  
ضره ، وكاشفات ضره .

وقوله : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (17) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يوم بدر بكف من تراب فحناه فى وجوه القوم ، وقال : شامت الوجوه ، أي قبحت ، فكان  
ذلك أيضا سبب هزمهم «6» .

وقوله : إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح (19) قال «7» أبو جهل يومئذ : اللهم انصر  
أفضل الدينين وأحقه بالنصر ، فقال الله تبارك وتعالى إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعنى  
النصر .

---

(1) آية 7 سورة البقرة .

(2) الآية 22 من سورة الواقعة . ويريد المؤلف قراءة أبي وعبد الله بن مسعود (وحورا

عيننا) على معنى : ويعطون هذا كله وحورا عيننا كما فى البحر 206 / 8

(3) الإضافة والتنوين فى الوصفين من فعل وأفعل وقرى بكل هذه الأوجه ما عدا النصب

مع الوصف من أوهن .

(4) آية 3 سورة الطلاق . وقراءة حفص بالإضافة والباقي بالتونين ونصب أمره .

(5) آية 38 سورة الزمر . قرأ بالتونين أبو عمرو ويعقوب وقرأ الباقيون بغير تونين .

(6) كذا في ش ، ج . وفي ا : «هزيمتهم» .

(7) سقط ما بين القوسين في ا .

(157/303)

---

وقوله «1» : وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ : كسر ألفها أحب إلى من فتحها لأن في قراءة عبد الله : (وإن الله مع المؤمنين) فحسن هذا كسرهما بالابتداء . ومن فتحها أراد وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ يُرِيد : لكثرتها ولأن الله مع المؤمنين ، فيكون موضعها نصبا لأن الحذف يصلح فيها .

وقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24) يقول :

استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم إلى إحياء أمركم .

وقوله : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ الْمَعْصِيَةِ ، وبين الكافر

وبين الطاعة (أنه) مردود على (واعلموا) ولو استأنفت فكسرت لكان صوابا .



وقوله: وَأَنْقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ (25) أمرهم ثم نهاهم ، وفيه طرف من الجزاء وإن كان نهيا . ومثله قوله يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ «2» أمرهم ثم نهاهم ، وفيه تأويل الجزاء .

وقوله: وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ (26) نزلت في المهاجرين خاصة .  
وقوله: فَأَوَّاكُمْ يَعْنِي إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ أَيُّ قَوَّامِكُمْ .

---

(1) الفتح قراءة نافع وابن عامر وحفص ، والكسر قراءة الباقيين .

(2) آية 18 سورة النمل .

(158/303)

---

وقوله: لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ (27) إن شئت جعلتها «1» جزما على

النهي ، وإن شئت جعلتها صرفا ونصبتها قال «2» :

لأنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وفى إحدى القراءتين (ولا تخونوا أماناتكم) فقد يكون أيضا ها هنا جزما ونصبا .

وقوله: إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا (29) يقول: فتحا ونصرا . وكذلك قوله يَوْمَ الْفُرْقَانِ

يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ يَوْمَ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ .

وقوله: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ (30) اجتمع نفر من قريش فقالوا: ما ترون في محمد (صلى الله عليه وسلم) ويدخل إبليس عليهم في صورة رجل من أهل نجد، فقال عمرو بن هشام «3»: أرى أن تجسوه في بيت وتطيئوه عليه وتفتحوا له كوة وتضيئوا عليه حتى يموت. فأبى ذلك إبليس وقال: بئس الرأي رأيك، وقال أبو البختري بن هشام: أرى أن يحمل على بعير ثم يطرد به حتى يهلك «4» أو يكفيكموه بعض العرب، فقال إبليس: بئس الرأي! أخرجون عنكم رجلا قد أفسد عامتكم فيقع إلى غيركم! فعله يغزوكم بهم. قال الفاسق أبو جهل: أرى أن نمشى إليه برجل من كل فخذ من قريش فنضربه بأسياقنا، فقال إبليس: الرأي ما رأى هذا «5» الفتي، وأتى جبريل عليه السلام إلى

---

(1) أي تخونوا في قوله: (وتخونوا أماناتكم) يحتمل أن يكون معطوفا على المجزوم بلا الناهية، ويحتمل أن يكون منصوبا بأن مضمرة بعد واو المعية، وهو ما يعرف عند الكوفيين بالنصب على الصرف.

(2) المشهور أن القائل هو أبو الأسود الدؤلي من قصيدة طويلة. وانظر الخزانة 3/618

(3) هو أبو جهل. [.....]

(4) كذا في أ. وفي ش، ج: «يهم».

(5) سقط في أ.

النبي صلى الله عليه وسلم بالخبر ، فخرج من مكة هو وأبو بكر . فقوله (ليثتوك) :

ليحبسوك في البيت . (أو يخرجوك) على البعير «1» (أو يقتلوك) .

وقوله : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ (32) في (الحق) النصب والرفع

«2» إن جعلت (هو) اسما رفعت الحق بهو . وإن جعلتها عمادا بمنزلة الصلة نصبت

الحق . وكذلك فافعل في أخوات كان ، وأظن وأخواتها كما قال الله تبارك وتعالى وَيَرَى

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ «3» تنصب الحق لأن (رأيت) من

أخوات ظننت . وكل موضع صلحت فيهما رفع «1» فتقول «2» : رأيت زيدا هو قائم

ورأيت عمرا هو جالس . وقال الشاعر :

أجدك لن تزال نجى هم تبیت الليل أنت له ضجیع

ويجوز النصب في (ليت) بالعماد ، والرفع لمن «3» قال : ليتك قائما . أنشدني الكسائي

:

ليت الشباب هو الرجيع على الفتى والشيب كان هو البديء الأول «4»

ونصب في (ليت) على العماد ورفع في كان على الاسم . والمعرفة والنكرة في هذا

سواء .

وقوله: **إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ (16)** هو استثناء والمتحيز غير من . وإن شئت جعلته من صفة «5» من ، وهو على مذهب قولك: **إِلَّا أَنْ يُولِيَهُمْ يَرِيدُ الْكُرَّةَ**، كما تقول في الكلام: **عَبَدَ اللَّهُ يَأْتِيكَ إِلَّا مَا شِئَا**، ويأتيك إلا أن تمنعه الرحلة . ولا يكون (إلا) هاهنا على معنى قوله إلى «6» **طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِيَّاهُ** لأن (غير) في مذهب (لا) ليست في مذهب (إلا) .

---

(1) في ج: «فارتفع» .

(2) في ا: «فأقول» .

(3) هذا راجع للنصب .

(4) الرجوع: المرجوع فيه: أراد به المتأخر ، والبديء: الأول .

(5) يريد بصفتها ما بعدها من فعل الشرط ، وهو (يولهم) ، يريد الضمير في الفعل .

(6) آية 53 سورة الأحزاب .

(160/303)

---

﴿ فَلَـمْ تَقْتُلُوهُمُ وَلَكِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَا كِنَّ اللّٰهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ  
بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَا كِنَّ اللّٰهَ رَمَىٰ . . . ﴾

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر بكف من تراب فحشاه في وجوه القوم ، وقال:  
"شاهت الوجوه" ، أى قبحت ، فكان ذلك أيضا سبب هزمهم .

﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّٰهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّٰهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ . . . ﴾

و(مُوَهِّنٌ) . فَإِنْ شَتَّ أَضْفَتْ ، وَإِنْ شَتَّ نَوْتَتْ وَنَصَبَتْ ، وَمِثْلُهُ: (إِنَّ اللّٰهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ،  
وَبَالِغُ أَمْرِهِ) وَ(كَاشَفَاتُ ضُرِّهِ ، وَكَاشَفَاتُ ضُرِّهِ) .

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ  
عَنكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾  
وقوله: ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ . . . ﴾

قال أبو جهل يومئذ: اللهم انصر أفضل الدينين وأحقه بالنصر ، فقال الله تبارك وتعالى ﴿ إِنْ  
تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ يعنى النصر .

وقوله: ﴿ وَأَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال: كسر ألفها أحب إلى من فتحها ؛ لأن فى قراءة

عبد الله: (وإن الله مع المؤمنين) فحسن هذا كسرها بالابتداء . ومن فتحها أراد ﴿ وَلَنْ

تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴿ يريد: لكثرتها ولأن الله مع المؤمنين ، فيكون موضعها

نصبا لأن الخفض يصلح فيها .

﴿ وَانْتَفُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

وقوله: ﴿ وَانْتَفُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ . . . ﴾

(161/303)

أمرهم ثم نهاهم ، وفيه طرف من الجزاء وإن كان نهيا . ومثله قوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا

مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ أمرهم ثم نهاهم ، وفيه تأويل الجزاء .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَّاكُمْ

وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ . . . ﴾

نزلت في المهاجرين خاصة .

وقوله: ﴿ فَأَوَّاكُمْ ﴾ يعنى إلى المدينة ، ﴿ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ ﴾ أى قواكم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ . . . ﴾

إن شئت جعلتها جزماً على النهي ، وإن شئت جعلتها صرفاً ونصبها ؛ قال :

لأنه عن خُلُقٍ وتأتى مثله \* عار عليك إذا فعلت عظيم

وفى إحدى القراءتين (ولا تخونوا أماناتكم) فقد يكون أيضاً هنا جزماً ونصباً .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا . . . ﴾

يقول: فتحا ونصراً . وكذلك قوله ﴿ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ يوم الفتح والنصر .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ

خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ . . . ﴾

(162/303)

---

اجتمع نفر من قريش فقالوا: ما ترون في محمد (صلى الله عليه وسلم) ويدخل إبليس عليهم في صورة رجل من أهل نجد ، فقال عمرو بن هشام: أرى أن تجسوه في بيت وتطينوه عليه وتفتحوا له كوة وتضيّقوا عليه حتى يموت . فأبى ذلك إبليس وقال: بس

الرأى رأيك ، وقال أبو البخترى بن هشام: أرى أن يحمل على بعير ثم يطرد به حتى يهلك أو يكفيكموه بعض العرب ، فقال إبليس: بئس الرأى! أخرجون عنكم رجلا قد أفسد عامتكم فيقع إلى غيركم! فعله يغزوكم بهم. قال الفاسق أبو جهل: أرى أن نمشى إليه برجل من كل فخذ من قريش فنضربه بأسيا فنا ، فقال إبليس: الرأى ما رأى هذا الفسى ، وأتى جبريل عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وسلم بالخبر ، فخرج من مكة هو وأبو بكر . فقوله (ليثتوك): ليحبسوك فى البيت . (أو يخرجوك) على البعير (أو يقتلوك) .

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ . . . ﴾

(163/303)

---

فى (الحق) النصب والرفع؛ إن جعلت (هو) اسما رفعت الحق بهو. وإن جعلتها عمادا بمنزلة الصلة نصبت الحق. وكذلك فافعل فى أخوات كان، وأظن وأخواتها؛ كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ تنصب الحق لأن (رأيت) من أخوات ظننت. وكل موضع صلحت فيه يفعل أو فعل مكان الفعل



المنصوب ففيه العماد ونصب الفعل . وفيه رفعه بهو على أن تجعلها اسما ، ولا بدّ من الألف واللام إذا وجدت إليهما السبيل . فإذا قلت: وجدت عبد الله هو خيرا منك وشرا منك أو أفضل منك ، ففيما أشبه هذا الفعل النصب والرفع . النصب على أن ينوى الألف واللام وإن لم يكن إدخالهما . والرفع على أن تجعل (هو) اسما ؛ فتقول: ظننت أخاك هو أصغر منك وهو أصغر منك . وإذا جئت إلى الأسماء الموضوعات مثل عمرو ، ومحمد ، أو المضافة مثل أبيك ، وأخيك رفعها ، فقلت: أظنّ زيدا هو أخوك ، وأظنّ أخاك هو زيد ، فرفعت ؛ إذا لم تأت بعلامة المردود ، وأتيت بهو التي هي علامة الاسم ، وعلامة المردود أن يرجع كل فعل لم تكن فيه ألف ولام بألف ولام ويرجع على الاسم فيكون (هو) عمادا للاسم (الألف واللام) عماد للفعل . فلما لم يُقدّر على الألف واللام ولم يصلح أن تنويا في زيد لأنه فلان ، ولا في الأخ لأنه مضاف ، آثروا الرفع ؛ وصلاح في (أفضل منك) لأنك تلقي (من) فتقول: رأيتك أنت الأفضل ، ولا يصلح ذلك في (زيد) ولا في (الأخ) أن تنوى فيهما ألفا ولاما . وكان الكسائي يميز ذلك فيقول: رأيت أخاك هو زيدا ، ورأيت زيدا هو أخاك . وهو جائز كما جاز في (أفضل) للنية نية الألف واللام . وكذلك جاز في زيد ، وأخيك . وإذا أمكنتك الألف واللام ثم لم تأت بهما فارفع ؛ فتقول: رأيت زيدا هو قائم ورأيت عمرا هو جالس . وقال الشاعر:

إِجْدَاكَ لَنْ تَزَالَ نَجِيَّ هَمَّ \* تَبَيْتَ اللَّيْلَ أَنْتَ لَهُ ضَجِيعٌ

ويجوز النصب في (ليت) بالعماد ، والرفع لمن قال: لبيتك قائما . أنشدني الكسائي :

(164/303)

ليت الشباب هو الرجيع على الفتى \* والشيب كان هو البدئ الأول

ونصب في (ليت) على العماد ورفع في كان على الاسم . والمعرفة والنكرة في هذا

سواء .

(165/303)

وقوله : وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ (41) دخلت (أن) في أوله وآخره  
لأنه جزاء بمنزلة قوله كُتِبَ «1» عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وبمنزلة قوله أَلَمْ «2» يَعْلَمُوا أَنَّهُ  
مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ وَيَجُوزُ فِي (أَنَّ) الآخرة أن تكسر ألفها لأن سقوطها  
يجوز ألا ترى أنك لو قلت :

(أعلموا أن ما غنمتم من شيء فله خمس) تصلح ، فإذا صلح سقوطها صلح كسرهما .

وقوله: **وَلَذِي الْقُرْبَىٰ**: قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم **وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ**: يتامى

الناس ومساكينهم، ليس فيها يتامى بنى هاشم ولا مساكينهم.

وقوله: **إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا (42)** والعدوة: شاطئ الوادي الدنيا مما يلي المدينة،

**وَالْقُصُوىٰ** مما يلي مكة.

وقوله **وَالرُّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ** يعنى أبا سفيان والعيبر، كانوا على شاطئ البحر.

وقوله **اسْفَلَ مِنْكُمْ** نصبت يريد: مكانا أسفل منكم. ولو وصفهم بالتسفل وأراد: والركب

أشد تسفلا لجاز ورفع.

وقوله **وَيَحْيَىٰ مِنْ حَيٍّ عَنِ بَيْنَةٍ** كتابتها على الإدغام بياء واحدة، وهي أكثر قراءة القراء.

وقد قرأ بعضهم «3» (حیی عن بينة) بإظهارها. وإنما أدغموا الياء مع الياء وكان ينبغى

لهم ألا يفعلوا لأن الياء الآخرة لزمها النصب فى فعل، فأدغموا لما التقى حرفان متحركان

من جنس واحد. ويجوز الإدغام فى الاثنین للحركة اللازمة للياء الآخرة، فتقول للرجلين:

قد حيا، وحييا. وينبغى للجمع ألا يدغم لأن ياءه

---

(1) آية 4 سورة الحج. [.....]

(2) آية 63 سورة التوبة.

(3) هم نافع والبزى عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر ويعقوب وخلف.

يُصِيبُهَا الرِّفْعُ وَمَا قَبْلَهَا مَكْسُورٌ ، فَيَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَسْكُنَ فَتَسْقُطَ بِوَاوِ الْجَمْعِ . وَرَبَّمَا أَظْهَرَتْ  
العرب الإدغام في الجمع إرادة تأليف الأفعال وأن تكون كلها مشددة .  
فقالوا في حيت حيوا ، وفي عيت عيوا أنشدني بعضهم :  
يحدن بنا عن كلّ حيّ كأننا أخاريس عيوا بالسلام وبالتنسب «1»  
يريد النسب . وقال الآخر :

من الذين إذا قلنا : حديثكم عيوا ، وإن نحن حدثناهم شغبوا «2»  
وقد اجتمعت العرب على إدغام التحيّة والتحيّات بحركة الياء الأخيرة فيها كما استحَبُّوا  
إدغام عيّ وحيّ بالحركة اللازمة فيها . وقد يستقيم أن تدغم الياء والياء في يحيا ويعيا  
وهو أقل من الإدغام في حيّ لأن يحيا يسكن ياؤها إذا كانت في موضع رفع ، فالحركة فيها  
ليست لازمة . وجواز ذلك أنك «3» إذا نصبته كقول الله تبارك وتعالى أليس ذلك بقادرٍ  
على أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى «4» استقام إدغامها ها هنا ثم نُؤلف الكلام ، فيكون في رفعه  
وجزمه بالإدغام فتقول (هو يحيى ويميت) أنشدني بعضهم :  
وكانها بين النساء سبيكة تمشى بسدة بيتها فتعيّ «5»

وكذلك يحيّان ويحيّون .

(1) كأنه يصف إبلا سافروا عليها وتجنبوا الأحياء في طريقهم . وأخاريس كأنه جمع أخرس ، جمعه على أفاعل وأشبع الكسرة فتولدت الياء ، وقد ذهب به مذهب الاسم فجمعه هذا الجمع ، ولولا هذا لقال : خرس .

(2) «قلنا : حديثكم» أي هاتوا حديثكم أو حدّثوا حديثكم . يرميهم بالعي والشغب .

(3) سقط في ش ، ج . وثبت في أ .

(4) آية 40 سورة القيامة .

(5) سدة البيت : فناؤه . يصف امرأة أنها منعمة يثقل عليها المشي ، فلو مشت بفناء

بيتها لحقها الإعباء والكلال .

(167/303)

وقوله : **وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ** (48) هذا إبليس تمثل في صورة رجل من بني كنانة يقال له سراقه بن جعشم . قال الفراء : **وقوله وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ** «1» من قومي بني كنانة ألا يعرضوا لكم ، وأن يكونوا معكم على محمد (صلى الله عليه وسلم) فلما عاين الملائكة عرفهم ف «نكص على عقبيه» ، فقال له

الحرث «2» بن هشام: يا سراقَةَ أفراراً من غير قتال! فقال (إني أرى ما لا ترون).  
وقوله: يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبارَهُمْ وَذُوقُوا (50) يريد: ويقولون، مضمرة كما قال: وَلَوْ  
تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا «3» يريد يقولون: (ربنا). وفي قراءة  
عبد الله وَإِذْ يُرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ «4» يقولان ربنا.  
وقوله: وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51) (أَنَّ) في موضع نصب إذا جعلت (ذلك) نصبا  
وأردت: فعلنا ذلك بما قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَبِأَنَّ اللَّهَ. وإن شئت جعلت (ذلك) في موضع  
رفع، فتجعل (أَنَّ) في موضع رفع كما تقول: هذا ذاك.  
وقوله: كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ (52) يريد: كذب هؤلاء كما كذب آل فرعون، فنزل بهم كما  
نزل بآل فرعون.

---

(1) كذا في أ. وفي ش، ج: «بين».

(2) هو أخو أبي جهل. أسلم يوم الفتح. واستشهد يوم اليرموك، وقيل: في طاعون

عمواس.

(3) آية 12 سورة السجدة.

(4) آية 127 سورة البقرة

وقوله: **فَأَمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفَهُمْ (57)** يريد: إن أسرتهم يا محمد فنكل بهم من خلفهم من تخاف نفضه للعهد فشرد بهم.

**لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ** فلا ينقضون العهد . وربما قرئت (من خلفهم) بكسر (من) «1»، وليس لها معنى أستحبه مع التفسير .

وقوله: **وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً (58)** يقول: نقض عهد فأنبذ إليهم بالنقض على سواء يقول: افعل كما يفعلون سواء . ويقال في قوله: **عَلَى سَوَاءٍ**: جهرا غير سر . وقوله:

**تَخَافَنَّ فِي مَوْضِعٍ جَزْمٍ** . ولا تكاد العرب تدخل النون الشديدة ولا الخفيفة في الجزاء حتى يصلوها ب (ما) ، فإذا وصلوها آثروا التنوين . وذلك أنهم وجدوا ل (إما) «2» وهي

جزاء شبيها ب (إما) من التحيير ، فأحدثوا النون ليعلم بها تفرقة بينهما ثم جعلوا أكثر جوابها بالفاء كذلك جاء التنزيل قال: **فَأَمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ** ، **فَأَمَّا نُرَيْتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ «3»** ثم قال: **فَالْيَنَابِئُ يُرْجَعُونَ** فاختيرت الفاء لأنهم إذا نونوا في (إما) جعلوها

صدرا للكلام ولا يكادون يؤخرونها . ليس من كلامهم: اضربه إما يقوم إنما كلامهم أن يقدموها ، فلما لزم التقديم صارت كالخارج من الشرط ، فاستحبوا الفاء فيها وآثروها ، كما استحبوها في قولهم: **أَمَّا أَخْوَكُ فَقَاعِد** ، حين ضارعتها .

وقوله: **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59)** بالتاء لا اختلاف فيها . وقد

قرأها حمزة «4» بالياء . ونرى أنه اعتبرها بقراءة عبد الله .

وهي فى قراءة عبد الله ولا يحسن الذين كفروا أنهم سبقوا إنهم لا يعجزون

---

(1) نسب فى البحر 3/509 هذه القراءة إلى أبى حيوة وإلى الأعمش بخلاف عنه .

(2) فى 1 : «إما» .

(3) آية 77 سورة غافر . [ . . . . . ]

(4) وكذلك ابن عامر وحفص . معاني القرآن ، ج 1 ، ص : 414

(169/303)

---

فإذا لم تكن فيها (أنهم) لم يستقم للظن ألا يقع على شىء . ولو أراد : ولا يحسب الذين كفروا

أنهم لا يعجزون لاستقام «1» ، ويجعل لا (صلة) كقوله : وَحَرَامٌ «2» عَلَى قَرِيْبَةٍ

أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ يريد : أنهم يرجعون . ولو كان مع (سبقوا) (أن) استقام ذلك ،

فتقول : ولا يحسب الذين كفروا أن سبقوا .

فإن قال قائل : أليس من كلام العرب عسيت أذهب ، وأريد أقوم معك ، و(أن) فيهما

مضمرة ، فكيف لا يجوز أن تقول : أظن أقوم ، وأظن قمت ؟ قلت :

لو فعل ذلك فى ظننت إذا كان الفعل للمذكور أجزته وإن كان اسما مثل قولهم : عسى



«3» الغوير أبؤسا ، والخلقة لأن «4» ، فإذا قلت ذلك قلته فى أظن فقلت : أظن أقوم ، وأظن قمت لأن الفعل لك ، ولا يجوز أظن يقوم زيد ، ولا عسيت يقوم زيد ولا أردت يقوم زيد وجاز والفعل له لأنك إذا حوّلت يفعل إلى فاعل اتصلت به وهى منصوبة بصاحبها ، فيقول : أريد قائما والقيام لك . ولا تقول أريد قائما زيد ، ومن قال هذا القول قال مثله فى ظننت . وقد أنشدنى بعضهم لذى الرمة :

أظنّ ابن طرثوث عتبية ذاهبا بعاذتى تكذابه وجعائله «5»

---

(1) فيكون «أنهم لا يعجزون» سدّ مسدّ مفعولى «يحسين» . وجملة «سبقوا» حال .

(2) آية 95 سورة الأنبياء .

(3) الغوير تصغير غار ، والأبؤس جمع بأس وهو العذاب ، أو بؤس وهو الشدّة . وهو مثل .

وأصله أن قوما حذروا عدوا لهم فاستكنوا منه فى غار ، فقال بعضهم مشفقا : عسى

الغوير أبؤسا ، أي لعل البلاء يجىء من قبل الغار ، فكان كذلك فقد احتال العدو حتى

دخل عليهم من صدع كان بالغار ، فأسروهم .

وقيل : إن الغار انهار عليهم . وقد قيل فى المثل غير هذا .

(4) كأنه يريد أن الأصل أن يقرن الخبر بأن ، فكانت الخلقة فى الخبر والطبيعة فيه لأن .

(5) العادية : البرّ القديمة . والجعائل جمع جعالة : وهى هنا الرشوة . كان ذوالرمة

اختصم هو وابن طرثوث في بئر وأراد أن يقضى له بها . ورواية الديوان 473 : «لعل ابن طرثوث» .

(170/303)

فهذا مذهب لقراءة حمزة يجعل (سبقوا) في موضع نصب : لا يحسن الذين كفروا سابقين . وما أحبها لشذوذها «1» .

وقوله : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ (60) يريد إناث الخيل . حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنا ابن «2» أبي يحيى رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : القوة : الرمي .

وقوله تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ . ولو جعلتها «3» نصبا من قوله : وَأَعِدُّوا لَهُمْ وَلَا آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ كان صوابا كقوله : وَالظَّالِمِينَ «4» أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : (ترهبون به عدو الله وعدوكم) كما قرأ بعضهم «5» في الصف (كونوا أنصارا لله) .

وقوله : وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا (61) إن شئت جعلت (لها) كناية عن السلم لأنها مؤنثة . وإن شئت جعلته للفعلة كما قال إن «6» رَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ولم يذكر قبله

الإفعلال، فالهاء للفعلة .

(1) إن كان يريد الشذوذ من جهة النقل فهذا غير صحيح فإنها قراءة سبعية متواترة . وإن

أراد الشذوذ من جهة العربية فلها أكثر من وجه قياسى . وقد خرجت على أن المراد :

ولا يحسن من خلفهم أو فريق المؤمنين . وهذا غير ما ذكر المؤلف .

(2) هو محمد بن أبى يحيى الأسلمى المدني . مات سنة 146

(3) ظاهر الأمر عطف «وآخرين» على «عدو الله» . وأبدى المؤلف وجهها آخر : أن

يكون هذا موصولا فى المعنى بقوله : «أعدوا لهم» فيكون العامل فيه فعلا مقدرا من معنى

الكلام السابق .

والتقدير : راقبوا آخرين بما تعدونه لهم من سلاح .

(4) آية 31 سورة الإنسان .

(5) هم من عدا ابن عامر وعاصما وحمزة والكسائي وخلفا ويعقوب . وهذا فى الآية

14 من سورة الصف .

(6) آية 153 سورة الأعراف . والفعل السابق قوله : «ثم تابوا من بعدها» .

(171/303)

وقوله : وَأَلْفٌ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ (63) : بين قلوب الأنصار من الأوس والخزرج كانت بينهم حرب ، فلما دخل المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أصلح الله به وبالإسلام ذات بينهم .  
وقوله : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ (64) جاء التفسير : يكفيك الله ويكفي من اتبعك فموضع الكاف فى (حسبك) خفض . و(من) فى موضع نصب على التفسير كما قال الشاعر :

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهّد «1»

وليس بكثير من كلامهم أن يقولوا : حسبك وأخاك ، حتى يقولوا : حسبك وحسب أخيك ، ولكننا أجزناه لأن فى (حسبك) معنى واقع من الفعل ، رددناه «2» على تأويل الكاف لا على لفظها كقوله إنا «3» مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ فَرَدَّ الْأَهْلَ عَلَى تَأْوِيلِ الْكَافِ .  
وإن شئت جعلت (من) فى موضع رفع ، وهو أحب الوجهين إلى لأن التلاوة تدل على معنى «4» الرفع ألا ترى أنه قال :

إن يكن منكم عشرون صبرون يغلبوا مائتين (65) فكان النبي صلى الله عليه وسلم يغزى أصحابه على أن العشرة للمائة ، والواحد للعشرة ، فكانوا كذلك ، ثم شق عليهم أن يقرن «5» الواحد للعشرة فنزل :

---

(1) نسبه فى ذيل الأمالى 140 إلى جرير . وقال فى السمط 899 : «نسبه القالي

وعليه العهدة» .

(2) أي رددنا المنصوب على تأويل الكاف وتقدير أنها منصوبة إذ هي في معنى المفعول ،

فكأنه قيل : يكفيك . ولم يرد على لفظ الكاف فإن لفظها خفض بالإضافة . [ . . . . ]

(3) آية 33 سورة العنكبوت .

(4) وهو أن المؤمنين بإعانة الله يكفون الرسول عليه الصلاة والسلام غوائل الأعداء ،

والآية الآتية تدل على هذا إذ فيها أنه تعالى ضمن للقليل من المؤمنين النصره على من يزيد

عليهم أضعافا في العدد من المشركين .

(5) يقال . أقرن الشيء : أطاقه وقدر عليه .

(172/303)

---

الآن خففَ اللهُ عنكم وعلمَ أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن

يكن منكم ألف يغلبوا ألفين (66) فبين الله قوتهم أولاً وآخراً . وقد قال هذا القول

الكسائي ورفع (من) .

وقوله : ما كان لنبي أن يكون له أسرى (67) معناه : ما كان ينبغي له يوم بدر أن يقبل فداء

الأسرى حتى يُخن في الأرض : حتى يغلب على كثير من في الأرض . ثم نزل :

قوله: لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ (68) فِي فِدَاءِ الْأَسْرَى وَالْغَنَائِمِ . وَقَدْ «1» قَرِئَتْ  
(أَسَارَى) ، وَكُلَّ صَوَابٍ . وَقَوْلُهُ أَنْ يَكُونَ بِالتَّذْكِيرِ «2» وَالتَّائِيثِ كَقَوْلِهِ يَشْهَدُ «3»  
عَلَيْهِمُ السِّنُّهُمْ وَ(تَشْهَدُ) .

وقوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ (72) ثُمَّ قَالَ: أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ  
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي الْمَوَارِيثِ ، كَانُوا يَتَوَارَثُونَ دُونَ قَرَابَاتِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَهَاجِرُوا .  
وَذَلِكَ قَوْلُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وِلَايَتِهِمْ يَرِيدُ : مِنْ مَوَارِيثِهِمْ .  
وَكَسْرُ «4» الْوَاوِ فِي الْوِلَايَةِ أَعْجَبَ إِلَى مَنْ فَتَحَهَا لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَفْتَحُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ

---

(1) وَكَلَّمَا الْقِرَاءَتَيْنِ سَبْعِيَّةً .

(2) قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ بِالتَّائِيثِ ، وَالباقون بالتذكير .

(3) آيَةُ 24 سُورَةِ النُّورِ . وَقِرَاءَةُ حَمْزَةٍ وَالكسائي وخلف بالياء ، وَقِرَاءَةُ الباقين بالتاء .

(4) وَهُوَ قِرَاءَةُ حَمْزَةٍ وَالْأَعْمَشُ .

(173/303)

---

فِي مَعْنَى النُّصْرَةِ ، وَكَانَ الْكَسَائِيُّ يَفْتَحُهَا وَيَذْهَبُ بِهَا إِلَى النُّصْرَةِ ، وَلَا أَرَاهُ «1» عِلْمَ  
التفسير . وَيَخْتَارُونَ فِي وِلَايَتِهِ وَوِلَايَةِ الْكَسْرِ ، وَقَدْ سَمِعْنَا هُمَا بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ فِي مَعْنَاهُمَا

جميعا ، وقال الشاعر :

دعيهم فهم ألب على ولاية وحفرهم أن يعلموا ذاك دائب «2»

ثم نزلت بعد :

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ  
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ (75) فتوارثوا ، ونسخت هذه الآخرة الآية التي قبلها . وذلك أن قوله : إِلَّا  
تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73) : إلتوارثوا «3» على القرابات تكن  
فتنة . وذكر أنه في النصر : إلتناصروا «4» تكن فتنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معاني

القرآن / للفراء حص 419.402 ﴿

(1) لأن الولاية هنا في الميراث لا في النصر ، وإلتعارض مع قوله : «وإن استنصروكم  
في الدين فعليكم النصر» .

(2) ألب : أي مجتمعون ، وقوله : على ولاية : أي مجتمعون بالنصرة ، يريد أنهم تألبوا  
وتناصروا عليه . وقوله . «حفرهم» كذا في أ . وفي ش ، ج : «خفرهم» .

(3) كذا في أ . وفي ش ، ج : «يتوارثوا» .

(4) كذا في أ . وفي ش ، ج : «يتناصروا» .

وقال الأخفش :

سورة (الأنفال)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾  
الواحد من "الأنفال": النفل .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾

وقال ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ فهذه الكاف يجوز ان تكون على قوله

﴿ أَوْلَآئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [4] ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ . وقال

بعض أهل العلم ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات

بينكم ﴾ [1] فأضاف ﴿ ذات ﴾ الى "البين" وجعله ﴿ ذات ﴾ لأن بعض الأشياء

يوضع عليه اسم مؤنث وبعضه يذكر نحو "الدار" و"الحائط" أنت "الدار" وذكر

"الحائط" .

﴿ وَإِذْ يُعِدُّكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّاغُوتَيْنِ أَنَّهُ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ

اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾

وقال ﴿ وَإِذْ يُعِدُّكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّاغُوتَيْنِ أَنَّهُ لَكُمْ ﴾ فقوله ﴿ أَنَّهُ ﴾ بدل من قوله



﴿ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ وقال ﴿ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ ﴾ فأنث لأنه يعني "الطائفة".  
﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾  
وقال ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ معناها: "إِضْرِبُوا الْأَعْنَاقِ" كما تقول: "رَأَيْتُ نَفْسَ  
زَيْدٍ تَرِيدُ زَيْدًا".  
﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ واحد "البنان": "البنانة".

(175/303)

﴿ ذَالِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾  
وقال ﴿ ذَالِكُمْ فَذُوقُوهُ [124] وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ كأنه جعل "ذلكم" خبراً لمبتدأ أو مبتدأ  
أضمر خبره حتى كأنه قال: "ذَالِكُمُ الْأَمْرُ" أو "الْأَمْرُ ذَلِكَ م". ثم قال ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ  
عَذَابَ النَّارِ ﴾ أي: الأمر ذلكم وهذا ، فلذلك انفتحت "أَنَّ". ومثل ذلك قوله ﴿ وَأَنَّ  
اللَّهُ مُؤَهِّنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ [18] وأما قول الشاعر: [من البسيط وهو الشاهد العشرون  
بعد المئين]:

ذَاكَ وَإِنِّي عَلَى جَارِي لَذُو حَدَبٍ \* أَحْنُو عَلَيْهِ كَمَا يُحْنِي عَلَى الْجَارِ

فإنما كسر "إِنَّ" لدخول اللام. قال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد الحادي والعشرون

بعد المتين]:

وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ \* إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ  
وَإِنَّ لِسَانَ الْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ \* حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلٌ

فكسر الثانية لأن اللام بعدها . ومن العرب من يفتحها لأنه لا يدري \* أن بعدها لا ما وقد

سمع مثل ذلك من العرب في قوله ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ [9] وَحُصِّلَ مَا فِي

الصُّدُورِ [10] إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ [11] ﴾ ففتح وهو غير ذاك للام وهذا غلط

قبيح .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ  
بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وقال ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ تقول العرب: "والله ما ضربت غيره"

وإنما ضربت أخاه كما تقول "ضربه الأمير" والامير لم يل ضربه . ومثل هذا في كلام العرب

كثير .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(176/303)

وقال ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ [124 ب] الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ فليس قوله - و  
الله أعلم - ﴿ تُصِيبَنَّ ﴾ بجواب ولكنه نهي بعد أمر ، ولو كان جوابا ما دخلت النون .  
﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وقال ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ فنصب ﴿ الحق ﴾ لأن ﴿ هو ﴾ - و  
الله أعلم - جعلت ها هنا صلة في الكلام زائدة توكيدا كزيادة ﴿ ما ﴾ . ولا تزداد الا في كل  
فعل لا يستغنى عن خبر ، وليست ﴿ هو ﴾ بصفة لـ ﴿ هذا ﴾ لأنك لو قلت : " رأيتُ هذا  
هو " لم يكن كلاما ولا تكون هذه المضمرة من صفة الظاهرة ولكنها تكون من صفة المضمرة  
في نحو قوله ﴿ ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ و ﴿ تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ﴾  
لأنك تقول " وجدته هو " و " اتاني هو " فتكون صفة ، وقد تكون في هذا المعنى أيضا غير  
صفة ولكنها تكون زائدة كما كان في الأول . وقد تجرى في جميع هذا مجرى الاسم فيرفع ما  
بعده ان كان ما قبله ظاهرا او مضمرا في لغة لبي تميم في قوله ﴿ إن كان هذا هو الحق ﴾  
[و] ﴿ ولكن كانوا هم الظالمون ﴾ و ﴿ تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ﴾ كما  
تقول " كانوا آباؤهم الظالمون " وانما جعلوا هذا المضمرة نحو قولهم " هو " و " هما " و " أنت "  
زائدا في هذا المكان ولم يجعل في مواضع الصفة لأنه فصل أراد أن يبين به انه ليس بصفة

[125] ما بعده لما قبله ولم يحتاج الى هذا في الموضع الذي لا يكون له خبر .

﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَيْعَازُ بِاللَّهِ وَهُمْ يُصَدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(177/303)

وقال ﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَيْعَازُ بِاللَّهِ ﴾ ف ﴿ أَنْ ﴾ ها هنا زائدة - والله أعلم - وقد عملت

وقد جاء في الشعر ، قال: [من البسيط وهو الشاهد السابع والاربعون بعد المئة]:

لَوْلَمْ تَكُنْ غَطْفَانُ لَا ذُنُوبَ لَهَا \* إِلَى لَامَتْ ذُوًّا أَحْسَابَهَا عُمَرَا

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾ نصب على خبر "كان" .

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ

فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

وقال ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ جعله من "ميز" منقلة وخففها بعضهم فقال

﴿ لِيَمِيزَ ﴾ من "ماز" "يَمِيزُ" وبها نقراً .

﴿ إِذِ انْتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَقْتُمْ

فِي الْمِعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٠﴾

وقوله ﴿٤٠﴾ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴿٤٠﴾ وأمر الله كله مفعول ولكن أراد أن يقص الاحتجاج عليهم وقطع العذر قبل اهلاكهم .

وقال ﴿٤٠﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴿٤٠﴾ وقال بعضهم ﴿٤٠﴾ بِالْعُدْوَةِ ﴿٤٠﴾ وبها نقرأ وهما لغتان . وقال بعض العرب الفصحاء: ["الْعُدْيَةُ"] فقلب الواو ياء كما تقلب الياء واوا في نحو "شَرُوى" و"بَلوى" لأن ذلك يفعل بها فيما هو نحو من ذا نحو "عَصِي" و"أَرْض مَسْنِيَّة" وفي قولهم "قِنِيَّة" لأنها من "قَنَوْتُ" .

(178/303)

وقال ﴿٤١﴾ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴿٤١﴾ فجعل "الأسفل" ظرفا ولو شئت قلت ﴿٤١﴾ أَسْفَلَ

منكم ﴿٤١﴾ [125 ب] اذا جعلته ﴿٤١﴾ الركب ﴿٤١﴾ ولم تجعله ظرفا .

وقال ﴿٤٢﴾ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ ﴿٤٢﴾ فالزم الادغام اذ صار في موضع يلزمه الفتح فصار مثل

باب التضعيف . فاذا كان في موضع لا يلزمه الفتح لم يدغم نحو ﴿٤٢﴾ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ

الْمَوْتَى ﴿٤٢﴾ الا ان تشاء ان تخفي وتكون في زنة متحرك لأنها لا تلزمه لأنك تقول ﴿٤٢﴾ تُحْيِي ﴿٤٢﴾

فتسكن في الرفع وتحذف في الجزم ، فكل هذا يمينعه الادغام . وقال بعضهم ﴿ مِنْ حَيِّي عَنْ

بَيِّنَةٍ ﴾ ولم يدغم اذا كان لا يدغمه في سائر ذلك . وهذا أقبح الوجهين لأن "حَيِّي" مثل

"خَشِي" لما صارت مثل غير التضعيف أجرى الياء الاخرة مثل ياء "خَشِي" . وتقول

للجميع "قد حيوا" كما تقول "قد خشوا" ولا تدغم لأن ياء "خشوا" تعتلها هنا . وقال

الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد الثاني والعشرون بعد المئتين]:

وَحَيِّ حَسْبِنَاهُمْ فَوَارِسَ كَهَمْسٍ \* حَيُّوَا بَعْدَمَا مَاتُوا مِنَ الدَّهْرِ أَعْصُرَا

وقد ثقل بعضهم وتركها على ما كانت عليه وذلك قبيح . قال الشاعر: [من مجزوء الكامل

وهو الشاهد الثالث والعشرون بعد المئتين]:

عُيُّوَا بِأَمْرِهِمْ كَمَا \* عَيَّتْ بِيئِضَتِهَا الْحَمَامَةُ

جَعَلَتْ لَهُ عُوْدَيْنِ مِنْ \* نَشْمٍ وَآخِرَ مِنْ ثَمَامَةٍ

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ تُوْفَى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

الْحَرِيقِ ﴾

وقال ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ تُوْفَى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

الْحَرِيقِ ﴾ [126] فأضمر الخبر والله اعلم . وقال الشاعر: [من الخفيف وهو الشاهد

الحادي والثلاثون بعد المئة]:

إِنْ يَكُنْ طِبَّكَ الدَّلَالُ فَلَوْ فِي \* سَالَفِ الدَّهْرِ وَالسَّنِينِ الْخَوَالِي

يريد بقوله "فلو في سالف الدهر" [أن] يقول: "فلو كان في سالف الدهر لكان كذا وكذا"  
فحذف هذا الكلام كله .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾  
وقال ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ فأنث "السلم" وهو "الصلح" وهي لغة لأهل  
الحجاز ولغة العرب الكسر .

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴾  
وقال ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ لأن "حسبك" اسم .  
﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا  
وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ  
حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ التَّصَرُّؤُا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ  
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وقال ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو في الولاة . وأما في السلطان فـ"الولاية" ولا  
أعلم كسر الواو في الأخرى الالغة .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ

أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

وقال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ فجعل الخبر

بالفاء كما تقول: "الذي يأتيني فله درهمان" فتلحق الفاء لما صارت في معنى المجازاة.

انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش ح 1 ص 345.352 ﴾

(180/303)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الأنفال

مدنية كلها «1»

1 - الأنفال : الغنائم . واحدها نفل . قال لبيد :

إن تقوى ربنا خير نفل ويأذن الله ريشي وعجل

7 - ذات الشوكة ذات السلاح . ومنه قيل : فلان شاك السلاح .

9 - مُرْدِفِين رادفين يقال : ردفته وأردفته : إذا جئت بعده .

(الأمنة) : الأمن .



11 - رَجَزَ الشَّيْطَانُ : كِيدُهُ . وَالرَّجْزُ وَالرَّجْسُ يَتَصَرَّفَانِ عَلَى مَعَانٍ قَدْ ذَكَرْتَهَا فِي كِتَابِ «الْمَشَاكِلِ» .

12 - فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ أَيِ الْأَعْنَاقِ .

و(البنان) : أطراف الأصابع .

13 - اقْوَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

: نَابِذُوهُ وَيَابِنُوهُ .

16 - أَوْ مُتَحَيِّزًا يُقَالُ : تَحَوَّزْتُ وَتَحَيَّزْتُ . بِالْيَاءِ وَالْوَاوِ . وَهَمَا مِنْ انْحَزْتُ .

---

(1) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ قَالَ : قَلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سُورَةَ

الْأَنْفَالِ ؟ قَالَ : نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ .

(181/303)

---

و(الفئة) : الجماعة .

فَقَدْ بَاءَ بَعْضُ أَيِ رَجَعَ بَعْضُ .

19 - إِنْ تَسْتَفْتِحُوا أَيِ تَسَأَلُوا الْفَتْحَ ، وَهُوَ النَّصْرُ .

فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَذَلِكَ أَنْ أَبَا جَهْلٍ قَالَ : اللَّهُمَّ انصُرْ أَحَبَّ الدِّينِينَ

إليك . فنصر الله رسوله «1» .

22 - إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ يَعْنِي شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ عَمَّا بَعَثَ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم من الدين البُكْمُ يعني الذين لا يتكلمون بخير ولا يفعلونه . والبكم : الخرس .

24 - يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَبَيْنَ الْكَافِرِ وَالطَّاعَةِ . ويكون : يحول

بين الرجل وهواه .

25 - وَأَنْقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً يَقُولُ : لَا تُصِيبَنَّ الظَّالِمِينَ خَاصَّةً ،

ولكنها تعم فتصيب الظالم وغيره .

29 - يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا أَي مَخْرَجًا .

30 - وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ «2» أَي يَجْسُوكَ . ومنه

---

(1) روى الحاكم عن عبد بن ثعلبة بن صغير قال : كان المستفتح أبا جهل بأنه قال حين

التقى القوم : اللهم أينما كان أقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة وكان ذلك استنتاجا

فأنزل الله : إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ إِلَى قَوْلِهِ : وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي

حاتم عن عطية قال : قال أبو جهل : اللهم انصر أعز الفئتين وأكرم الفرقتين فنزلت .

(2) أَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ نَفْرًا مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنْ أَشْرَافِ كُلِّ قَبِيلَةٍ اجْتَمَعُوا

ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا : من أنت ، قال

: شيخ من أهل نجد سمعت بما اجتمعتم له فأمرت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي

ونصح ، قالوا : أجل فادخل ، فدخل معهم فقال : انظروا في شأن هذا الرجل فقال قائل :  
إحبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير  
والنابغة فإني هو كأحدهم ، فقال عدو الله الشيخ النجدي :

[.....]

(182/303)

---

يقال : فلان مثبت وجعا : إذا لم يقدر على الحركة وكانوا أرادوا أن يحبسوه في بيت ويسدوا  
عليه بابه ، ويجعلوا له خرقا يدخل عليه منه طعامه وشرابه . أو يقتلوه بأجمعهم قتلة رجل  
واحد . أو ينفوه .

و(المكاء) : الصّفير . يقال : مكأ يمكو . ومنه قيل للطائر : مكأ لأنه يمكو . أي يصفر .

و(التّصدية) «1» : التصفيق . يقال : صدي إذا صفق بيده ، قال الراجز :

ضنت بجدّ وثنت بجدّ وإني من غرو والهوى أصدّي الغرو : العجب . يقال : لا غرو ممن  
كذا وكذا : أي لا عجب منه .

---

لا والله ما هذا لكم برأيي والله ليخرجن رائد من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يشبوا  
عليه حتى يأخذه من أيديكم ثم يمنعوه منكم فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم

فانظروا غير هذا الرأي ، فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم واستريحوا منه فإنه إذا خرج  
لن يضركم ما صنع ، فقال الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله  
وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما يستمع من حديثه ، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب  
ليجتمعن عليه ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم ، قالوا : صدق  
والله ، فانظروا رأيا غير هذا ، فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتوه  
بعد ما أرى غيره ، قالوا : وما هذا قال : تأخذوا من كل قبيلة وسيطا شابا جلدا ، ثم  
يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلموه تفرق دمه في  
القبائل كلها فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم وأنهم إذا رأوا  
ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه ، فقال الشيخ النجدي هذا والله هو الرأي ،  
القول ما قاله الفتي ، فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له ، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه  
وسلم فأمره بأن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك بالخروج ، وأنزل عليه بعد  
قدومه المدينة يذكره نعمته عليه .

(1) أخرج الواحدي عن ابن عمر قال : كانوا يطوفون بالبيت يصفقون ويصفرون فنزلت  
هذه الآية وأخرج ابن جرير عن سعيد قال : كانت قريش يعارضون النبي صلى الله عليه  
وسلم في الطواف يستهزؤون به ويصفرون ويصفقون فنزلت الآية .

- 37 - فَيْرِكُمْهُ جَمِيعاً أَي يجعله ركاباً بعضه فوق بعض .
- 42 - بِالْعُدْوَةِ : شفير الوادي . يقال : عدوة الوادي وعدوته .
- 43 - إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ أَي في نومك ، ويكون : في عينك ، لأن العين موضع النوم .
- 46 - وَتَذُوبَ رِيحِكُمْ أَي دولتكم . يقال : هبت له ريح النصر .  
إذا كانت له الدولة . ويقال : الريح له اليوم . يراد له الدولة .
- 48 - نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ أَي رجع القهقري .
- 57 - فِيمَا تَثَقَّفَتْهُمُ أَي تظفر بهم .  
فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أَي افعل بهم فعلاً من العقوبة والتنكيل يتفرق بهم من وراءهم من أعدائك . ويقال : شرَّدَ بهم ، سمع بهم ، بلغة قريش . قال الشاعر :
- أطوف في الأباطح كل يوم مخافة أن يشرد بي حكيم  
ويقال : شرَّدَ بهم ، أي نكل بهم . أي اجعلهم عظة لمن وراءهم وعبرة .
- 58 - فَاَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ «1» : ألق إليهم تقضك العهد ، لتكون أنت وهم في العلم  
بالنقض سواء .

59 - وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا أَيُّ فَاتُوا . ثم ابتداء فقال :

إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ .

60 - وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَيُّ مِنْ سِلَاحٍ .

---

(1) روى أبو الشيخ عن ابن شهاب قال : دخل جبريل على رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقال : قد وضعت السلاح وما زلت في طلب القوم فاخرج فإن الله أذن لك في قريظة

وأنزل فيهم : وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً . . . الآية .

(184/303)

---

61 - وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ أَيُّ مَالُوا لِلصَّالِحِ .

68 - لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ أَيُّ قِضَاءٍ سَبَقَ بِأَنَّهُ سَيَحِلُّ لَكُمْ الْمَغَانِمُ .

73 - وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ - إِلَّا تَعْلَوْهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ

«1» يريد هذه الموالاة أن يكون المؤمنون أولياء المؤمنين . والمهاجرون أولياء الأنصار .

وبعضهم من بعض - والكافرون أولياء الكافرين . أي وإن لم يكن هذا كذا ، كانت فتنة في

الأرض وفساد كبير .

75 - وَأُولُوا الْأَرْحَامِ الْوَاحِدِ مِنْهُ «ذُو» مِنْ غَيْرِ لَفْظِهِ وَهُوَ «ذُو» وَاحِدٌ . انتهى انتهى .

(1) أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي عن أبي مالك قال: قال رجل: نورت أرحامنا المشركين فنزلت: وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .

(185/303)

وقال الغزنوي:

ومن سورة الأنفال

عن عبادة بن الصامت «1» رضي الله عنه: «لما كان يوم بدر اختلفنا في النفل من محارب ومن حارس لرسول الله، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، وأنزل قل الأنفال لله وجعلها إلى الرسول، فقسمه بيننا عن بواء، أي: سواء» .

1 ذات بَيْنِكُمْ: حال بينكم، ومعناه: حقيقة وصلكم «2»، أي:

تواصلوا على أمر الإسلام.

5 كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ: أي: جعل النفل لك وإن كرهوه ولم يعلموا أنه أصلح لهم كما

أخرجك عن وطنك وبعضهم كارهون، / فيكون العامل في [37/أ] «كاف» كما معنى

الفعل المدلول عليه بقوله: قُلِ الْآنْفَالُ «3» .

---

(1) أخرجه باختلاف في لفظه - الإمام أحمد في مسنده: (324، 323 /5)،  
والطبري في تفسيره: (371 - 369 /13)، والحاكم في المستدرک: 326 /2،  
كتاب التفسير، وقال:

«هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي .  
وأخرجه - أيضا - الواحدي في أسباب النزول: 266، والبيهقي في السنن الكبرى:  
292 /6، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب «مصرف الغنيمة في ابتداء الإسلام» .  
وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5 /4، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ،  
وابن مردويه .

(2) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 400 /2 .  
وانظر معاني القرآن للنحاس: 129 /3، وزاد المسير: 320 . /3  
(3) معاني القرآن للفراء: 403 /1، وقال الزجاج في معاني القرآن: 400 /2:  
«فموضع الكاف في كما نصب، المعني: الأنفال ثابتة لك مثل إخراج ربك إياك من بيتك  
بالحق» .

واختار الزمخشري أيضا هذا القول في الكشف: 143 /2، وابن عطية في المحرر - -  
الوجيز: 219 /6 .

وانظر تفسير القرطبي: (368، 367 /7)، والبحر المحيط: 461 /4، والدر



(186/303)

أو العامل معنى «الحق» أي: نزع الأثقال من أيديهم بالحق كما أخرجك ربك من بيتك بالمدينة إلى بدر بالحق «1» .

6 كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ : لعدوله عليه السلام بهم عن العير إلى النفير .

7 وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ : لما أقبلت عير قريش من الشام مع أبي سفيان

سار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت نفير قريش وهم «ذات الشوكة» إليها

لحفظها ، فشاور النبي - عليه السلام - أصحابه فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله قد

آمنا بك وصدقناك فامض لما أردت فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر

«2» لنخوضه معك . فقال عليه السلام : «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى

الطائفتين ، والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم» «3» .

لِيُحِقَّ الْحَقَّ : ليظهره لكم .

وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ : يظفركم بذات الشوكة فإنه أقطع لدابرهم .

(1) ذكره الماوردي في تفسيره: 82/2.

(2) قال الأستاذ محمود محمد شاكر في هامش تحقيقه لتفسير الطبري: 401/13:

«استعرض البحر، أو الخطر: أقبل عليه لا يبالي خطره. وهذا تفسير للكلمة استخرجته لا تجده في المعاجم».

(3) أخرج نحوه الطبري في تفسيره: (401 – 399/13) عن عروة بن الزبير، وابن عباس.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 26/4 وزاد نسبه إلى ابن إسحاق، وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وانظر تفسير البغوي: (230، 231)، وزاد المسير: (323، 324)،  
وتفسير ابن كثير: 557/3.

(187/303)

---

9 مُرْدِفِينَ: تابعين «1»، ردف وأردف، ومنصوبا «2» أردف بعضهم بعضا، فكانوا زمرا زمرا.

10 وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى: أي: الإمداد بالملائكة ليبشروا بالنصر.

والملائكة لم يقاتلوا «3» لأن ملكا واحدا يدمر على جميع المشركين .  
وقيل «4» : بل قاتلت حتى قال أبو جهل لابن مسعود : من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى  
الشخص ؟ قال : من قبل الملائكة فقال : فهم غلبونا لا أتم .  
12 فَوْقَ الْأَعْنَاقِ : أي : الرؤوس ، أو على الأعناق .  
كُلُّ بَنَانٍ : كل مفصل ، أين بالمكان : أقام به «5» ، فكل مفصل أقيم عليه عضو .

---

(1) معاني القرآن للفراء : 404 / 1 ، وتفسير الطبري : 412 / 13 ، ومعاني القرآن

للزجاج :

402 / 2 . [ . . . . . ]

(2) وهي قراءة نافع كما في السبعة لابن مجاهد : 304 ، والتبصرة لمكي : 211 .  
قال مكّي في الكشف : 489 / 1 : « و حجة من فتح أنه بناه على ما لم يسمّ فاعله ، لأن  
الناس الذين قاتلوا يوم بدر أردفوا بألف من الملائكة : أي : أنزلوا إليهم لمعوتهم على الكفار .  
ف مُرْدِفِينَ بفتح الدال نعت ل «ألف» ، وقيل : هو حال من الضمير المنصوب في مُمَدُّكُمْ ،  
أي : ممدكم في حال إردافكم لألف من الملائكة .  
وحجة من كسر الدال أنه بناه على ما سمي فاعله ، فجعله صفة ل «ألف» أي : بألف من  
الملائكة مردفين لكم ، يأتون لنصركم بعدكم . . . » .

وانظر البحر المحيط : (4 / 465 ، 466) ، والدر المصون : 567 / 5 .

(3) ذكر ابن عطية هذا القول في المحرر الوجيز: 229/6 فقال: «وقيل: لم تقا تل يوم

بدر وإنما وقفت وحضرت. وهذا ضعيف».

(4) قال ابن عطية في المحرر الوجيز: 229/6: «روى في الأشهر أن الملائكة قاتلت يوم

بدر، واختلف في غيره...».

وقال القرطبي في تفسيره: 192/4: «وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم

بدر وقاتلت...».

(5) ينظر معاني القرآن للزجاج: 405/2، وتفسير القرطبي: 379/7، والصحاح

: 2080/5، واللسان: 59/13 (بنن).

(188/303)

14 ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ

:أي: الأمر ذلكم فذوقوه، أي: كونوا للعذاب كالذائق للطعام لأن معظمه بعده «1».

وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ تَقْدِيرَهُ: وبأن، أو واعلموا أن «2».

15 زَحْفًا: قريبا، زحف القوم إلى القوم: دلفوا «3».

16 مُتَحَيِّزًا: طالب حيز، أي: ناحية يقوى به.

17 وَمَا رَمَيْتَ : أخذ عليه السلام قبضة تراب فحناه في وجوههم وقال «4» : «شاهت الوجوه» ، فكانت الهزيمة .

(1) قال المؤلف رحمه الله في وضع البرهان : 380 / 1 : «وقال : فذوقوه لأن الذائق

أشد إحساسا بالطعم من المستمر على الأكل ، فكان حالهم أبدا حال الذائق في إحساسهم العذاب» .

(2) هذا قول الفراء في معاني القرآن : 405 / 1 على أن موضع «أن» نصب ، ونص قوله :

«فنصب «أن» من جهتين . أما إحداهما : وذلك بأن للكافرين عذاب النار ، فألقيت الباء فنصبت . والنصب الآخر أن تضرر فعلا . . . .» .

وذكر النحاس هذا القول في إعراب القرآن : 181 / 2 عن الفراء ، وكذا مكى في مشكل إعراب القرآن : 313 / 1 .

(3) قال الزمخشري في الكشاف : 148 / 2 : «والزحف : الجيش الدهم الذي يرى

لكثرته كأنه يزحف ، أي : يدب دبيبا . . . والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأتم قليل فلا تفروا فضلا عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم» .

ونقل ابن الجوزي في زاد المسير : 331 / 3 عن الليث قال : «الزحف : جماعة يزحفون إلى عدوهم» .

وقال ابن الجوزي: «والتزاحف: التداني والتقارب».

(4) أخرجه الطبري في تفسيره: (13/444، 445) عن محمد بن قيس، ومحمد بن

كعب القرظي، والسدي.

وقال الواحدي في أسباب النزول: 268: «وأكثر أهل التفسير على أن الآية نزلت في

رمي النبي عليه السلام القبضة من حصباء الوادي يوم بدر حين قال للمشركين: شأهت

الوجوه، ورماهم بتلك القبضة، فلم تبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء».

ينظر هذا المعنى في رواية الإمام مسلم في صحيحه: 3/1402، حديث رقم

(1777)، كتاب الجهاد والسير، باب «في غزوة حنين».

وذكر البغوي في تفسيره: 2/237 أنه قول أهل التفسير والمغازي أيضا.

وانظر المحرر الوجيز: 6/249، وزاد المسير: 3/332، والدر المنثور: 4/40.

(189/303)

---

وإنما جاز نفي الفعل حقيقة وإثباته مجازا لقوة السبب المؤدي/ على [37/ب] المسبب.

وَلِيُبَلِّغَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً: ينعم نعمة «1».

18 ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ: أي: الحق ذلكم.

19 إِنْ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ: قال المشركون يوم بدر: اللهم من كان أقطعنا للرحم وأظلمنا فأمطر عليهم «2».

22 إِنْ شَرَّ الدَّوَابَّ: شر ما دب على الأرض.

23 لَأَسْمَعَهُمْ: أي: كلام الذين طلبوا إحياءه من قصي بن كلاب وغيره «3».

وإن اعتبرت عموم اللفظ كان المعنى: لأسمعهم آياته سماع تفهيم وتعليم «4».

24 اسْتَجِيبُوا... لِمَا يُحْيِيكُمْ: لما يورثكم الحياة الدائمة في نعيم الآخرة «5».

---

(1) قال الطبري في تفسيره: 448/13: «وذلك البلاء الحسن»، رمى الله هؤلاء

المشركين، ويعنى ب «البلاء الحسن» النعمة الحسنة الجميلة، وهي ما وصفت وما في معناه».

وانظر معاني القرآن للنحاس: 141/3، وزاد المسير: 334/3، وتفسير الفخر

الرازي:

.145/15

(2) وورد أيضا - أن القائل هو أبو جهل.

ينظر مسند أحمد: 431/5، وتفسير الطبري: (450/13 - 454)، وأسباب

النزول للواحدى: (268 - 269)، وتفسير ابن كثير: 572/3، والدر المنثور:

.42/4

(3) ذكره الماوردي في تفسيره: 93 / 2 عن بعض المتأخرين .

وانظر هذا القول في تفسير البغوي: 240 / 2 ، وتفسير القرطبي: 388 / 7 .

(4) رجح الطبري هذا القول في تفسيره: 463 / 13 ، وأخرج نحوه عن ابن جريج ،

وابن زيد .

وانظر تفسير الماوردي: 93 / 2 ، وتفسير البغوي: 240 / 2 ، وزاد المسير: 3 /

.338

(5) ذكره النحاس في معانيه: 144 / 3 ، ونقله الماوردي في تفسيره: 93 / 2 عن علي

بن عيسى .

(190/303)

---

وقيل «1»: هو إحياء أمرهم بجهاد عدوهم .

وقيل «2»: هو بالعلم الذي يهدون به .

يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ : أي : بالوفاة ونحوها من الآفات ، فلا يمكنه الإيفاء بما فات «3» ،

أو هو حوله - تعالى - بين القلب وما يعزم عليه أو يتمناه .

وفي الحديث «4»: «إنه ما يحول به بين المؤمن والمعاصي» .

---



(1) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره: 465 / 13 عن ابن إسحاق .

وذكره الماوردي في تفسيره: 93 / 2 عن ابن إسحاق أيضا .

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره: 289 (سورة الأنفال) عن عروة بن الزبير رضي الله  
عنهما في قوله: إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ أَي الحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بها  
بعد الضعف ، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم .

وحسن المحقق إسناده» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 44 / 4 ، وزاد نسبه إلى ابن إسحاق عن عروة .

[ . . . . . ]

(2) معاني القرآن للزجاج: 409 / 2 .

(3) في «ج»: تلافي ما فاتته .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره: 469 / 13 ، وابن أبي حاتم في تفسيره: 292 (سورة

الأنفال) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وكذا الحاكم في المستدرک: 328 / 2 ، كتاب التفسير ، «تفسير سورة الأنفال» .

وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 44 / 4 ، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ،

وأبي الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

قال الطبري رحمه الله في تفسيره: (471/13 ، 472) معقبا على هذه الأقوال بقوله: «وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال: إن ذلك خبر من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئا من إيمان أو كفر، أو أن يعي به شيئا، أو أن يفهم، إلا بإذنه ومشيتته وذلك أن الحول بين الشيء والشيء، إنما هو الحجز بينهما، وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه وإدراكه سبيل. وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قول من قال: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان، وقول من قال: يحول بينه وبين عقله، وقول من قال: يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه، لأن الله إذا حال بين عبد وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبين ما منع إدراكه به على ما بينت. غير أنه ينبغي أن يقال: إن الله عم بقوله: وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، الخبر عن أنه يحول بين العبد وقلبه، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئا دون شيء، والكلام محتمل كل هذه المعاني، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له».

(191/303)

---

25 لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً: أي: خاصة بهم، ولو كان المعنى عموم الفتنة لكان: «لا تصيب» «1».

26 تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ: أي: المؤمنون في أول الإسلام، أوقريش «2»، وكانوا قليلا [أيام] «3» جرهم «4» وخزاعة.

27 لا تَخُونُوا اللَّهَ: لا تخونوا مال الله «5».

---

(1) قال ابن عطية في المحرر الوجيز: 262/6: «هذه الآية تحتمل تأويلات: أسبقها إلى

النفس أن يريد الله أن يحذر جميع المؤمنين من فتنة إن أصابت لم تخص الظلمة فقط، بل تصيب الكل من ظالم وبريء... فيجيء قوله: لا تُصِيبَنَّ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ صِفَةً لِلْفِتْنَةِ، فكان الواجب - إذا قدرنا ذلك - أن يكون اللفظ «لا تصيب»، وتلطف لدخول النون الثقيلة في الخبر عن الفتنة».

(2) ورد هذان القولان عند تفسير قوله تعالى: إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ فِي الْآيَةِ نَفْسَهَا وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ بَعْدَ ذَلِكَ: وَكَانُوا قَلِيلًا أَيَّامَ جَرِّهِمْ.

أما القول الأول فقد ذكره الطبري في تفسيره: 476/13، والماوردي في تفسيره:

95/2، والبغوي في تفسيره: 242/2. وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير: 343/3

إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

وأما القول الثاني فقد أخرج نحوه الطبري في تفسيره: 478/13 عن قتادة.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 47/4، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وأبي الشيخ عن قتادة أيضا .

(3) في الأصل: «أياما» والمثبت في النص عن «ك» و«ج» .

(4) جرهم: بضم الجيم وسكون الراء وضم الهاء: بطن من القحطانية، رحلوا إلى مكة وأقاموا بها، وتزوج منهم إسماعيل عليه السلام .

ينظر المعارف لابن قتيبة: 27، واللسان: 97/13 (جرهم) .

(5) فسره أصحاب هذا القول ب«الغنائم» .

ذكره الفخر الرازي في تفسيره: 156/15، وقال: «ويحتمل أن يريد بالأمانة كل ما تعبد به، وعلى هذا التقدير: فيدخل فيه الغنيمة وغيرها . . .» .

(192/303)

---

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ: أنها أمانة، أو تعلمون ما في الخيانة .

29 يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا: هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل «1» . وقيل «2»

: مخرجا في الدنيا والآخرة .

30 لِيُثْبِتُوكَ: أي: في الوثاق «3»، أو الحبس «4» .

وقيل: أي: يشخوك، رماه فأثبته، وأصبح المريض مثبتاً: لا حراك به.  
أُوْخِرَجُوكَ قال أبو البختري «5»: نشده على بعير شرود حتى يهلك. وقال أبو جهل:  
تجتمع عليه القبائل فلا يقاومهم بنو هاشم فيرضون بالدية «6» فحينئذ هاجر.

---

(1) نص هذا القول في تفسير الماوردي: (2/96، 97) عن ابن زيد، وابن إسحاق.

وأخرج نحوه الطبري في تفسيره: 490/13 عن ابن إسحاق.

(2) أخرجه الطبري في تفسيره: (13/488، 489) عن مجاهد، والضحاك،

وعكرمة.

قال الطبري رحمه الله: «والفرقان في كلام العرب مصدر من قولهم: «فرقت بين الشيء  
والشيء أفرق بينهما فرقا وفرقانا».

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 178، ومعاني النحاس: 147/3.

(3) أخرجه الطبري هذا القول في تفسيره: (13/491، 492) عن ابن عباس،

ومجاهد، وقتادة، والسدي.

وذكره الماوردي في تفسيره: 97/2 وزاد نسبه إلى الحسن.

(4) معاني القرآن للفراء: 1/409، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 179.

وأخرجه الطبري في تفسيره: 492/13 عن عطاء، وابن زيد.

وانظر هذا القول في معاني القرآن للنحاس: 3/148، وتهذيب اللغة للأزهري:

(5) اسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى . هو الذي ضرب أبا جهل فشجّه عند ما منع أبو جهل أن يحمل الطعام إلى خديجة بنت خويلد وهي في الشعب أثناء المقاطعة ، وكان أحد الذين شقوا الصحيفة ، وقتله المجذر بن ذيام يوم بدر .  
ينظر السيرة لابن هشام : 375 / 1 ، وتاريخ الطبري (2/ 336 ، 451) .  
(6) وصوّب إيليس هذا الرأي ، وكان حاضرا معهم وذلك بعد أن ادعى أنه شيخ من نجد .

ينظر خبر دار الندوة في السيرة لابن هشام : (1/ 480 - 482) ، والطبقات لابن سعد :

- (1/ 227 ، 228) ، وتاريخ الطبري (2/ 370 - 372) ، وتفسير الطبري :  
(13/ 494 - 501) ، وتفسير ابن كثير : (3/ 585 ، 586) . [ . . . . . ]

(193/303)

---

32 وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ: قَالَ النَّضْرُ «1» بِنِ كَلْدَةَ .

33 وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ: لِأَنَّهُ أَرْسَلَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ .

وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ: لما خرج عليه السلام من مكة بقيت فيها بقية من المؤمنين يستغفرون  
«2».

و«المكاء» «3»، صوت المكاء يشبه الصفير، والتصديّة: التصفيق «4» أو هو من  
صدّ يصدّ: إذا ضجّ «5»، كقوله «6»: إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ.  
38 فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ: في العقاب بالاستئصال وبالأسر [38/أ].

---

(1) هو النضر بن الحارث بن كلدة من بني عبد الدار بن قصي، من أشرف قريش.  
خرج مع المشركين في غزوة بدر وأسرهم المسلمون، فقتله علي بن أبي طالب.  
المغازي للواقدي: 37/1، والسيرة لابن هشام: 295/1، وتاريخ الطبري: 2/  
437.

وأخرج الطبري في تفسيره: (506، 505/13) عن سعيد بن جبير، ومجاهد،  
وعطاء، والسدي: أن القائل هو النضر بن الحارث بن كلدة.  
وكذا ذكره البغوي في تفسيره: 245/2، وابن الجوزي في زاد المسير: 348/3 عن  
ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: إن القائل أبو جهل، ثبت ذلك في صحيح البخاري: 199/5، كتاب التفسير،  
باب قوله تعالى: وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ . . . .  
وصحيح مسلم: 2154/4، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب في قوله تعالى:

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: (509 /13 - 511) عن أبي مالك ، وابن أبيزي ، والضحاك .

(3) من قوله تعالى : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً . . . [آية : 35] .

(4) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 246 /1 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 179 ، وتفسير الطبري : (521 /13 - 523) .

(5) ذكره النحاس في إعراب القرآن : 187 /2 .

ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز : 292 /6 عن النحاس .

(6) سورة الزخرف : آية : 57 .

(194/303)

---

والقتل وغيره «1» .

39 وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً أَي : كفر «2» لأنهم يدعون الناس إلى مثل حالهم فيفتنونهم .

وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ : الطاعة بالعبادة .



37 فَيْرُكْمُهُ جَمِيعاً : يجعل بعضه فوق بعض كالسحاب الركام «3» .

41 غَنِمْتُمْ : ما أخذ من المشركين بقتال غنيمة وبغيره فيء .

فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ : لبيت الله «4» . وقيل «5» : سهم الله وسهم الرسول واحد ، وذكر الله  
تشريف السهم .

قال محمد بن الحنفية : هذا مفتاح كلام ، لله الدنيا والآخرة «6» .

---

(1) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2 / 102 .

وينظر تفسير الطبري : 13 / 536 ، وتفسير البغوي : 2 / 248 .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (13 / 537 – 539) عن ابن عباس

والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد .

وفي معنى هذه الآية قال الزجاج في معانيه : 2 / 413 : «أي حتى لا يفتن الناس فتنة كفر ،

ويدل على معنى فتنة كفر قوله عز وجل : وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» .

(3) قال الزجاج في معاني القرآن : 2 / 413 : «والركم أن يجعل بعض الشيء على بعض

، ويقال : ركمت الشيء أركمه ركما . والركام الاسم» .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (13 / 550 ، 551) ، وابن أبي حاتم في

تفسيره :

395 (سورة الأنفال) عن أبي العالية .

قال محقق تفسير ابن أبي حاتم: «فيه أبو جعفر صدوق سيء الحفظ، والربيع صدوق له أوهام، ولم يتابعا فهو مرسل ضعيف».

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 66/4، وزاد نسبه إلى أن أبي شيبه، وابن المنذر، عن أبي العالية أيضا.

(5) أخرجه الطبري في تفسيره: (550، 549/13) عن ابن عباس، وعطاء. ونقله الماوردي في تفسيره: 103/2 عن الحسن، وعطاء، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والشافعي.

(6) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: 238/5، كتاب الجهاد، باب «ذكر الخمس وسهم ذوي القربى» عن الحسن بن محمد بن محمد بن الحنفية، وأخرجه أبو عبيد في كتاب الأموال: 22، وابن أبي شيبه في المصنف: 431/12، كتاب الجهاد، باب «في الغنيمة كيف تقسم»، والطبري في تفسيره: 548/13، وابن أبي حاتم في تفسيره: 393 (سورة الأنفال) وصحح المحقق إسناده، وأخرجه الحاكم في المستدرک: 128/2 كتاب قسم الفيء.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 65/4 وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ عن الحسن بن محمد بن الحنفية.

قال الطبري رحمه الله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: قوله: فَأَنَّ لِلَّهِ

خُمْسُهُ افْتِتاحُ كِلامٍ ، وَذِلكَ لِإِجماعِ الحِجَّةِ عَلى أَنَّ الخِمسَ غَيرَ جِائِزٍ قِسمِهِ عَلى سِتَّةِ  
أَسْهَمٍ . وَلو كانَ لِلَّهِ فِيهِ سَهْمٌ ، كَما قالَ أبو العَاليَةِ ، لَوَجِبَ أنْ يَكُونَ خِمسَ الغَنيمةِ مَقسوماً  
عَلى سِتَّةِ أَسْهَمٍ . وَإِنما اِختَلَفَ أَهلُ العِلمِ فِي قِسمِهِ عَلى خِمْسَةٍ فِما دُونَها ، فَأَما عَلى أَكْثَرَ  
مِنَ ذِلكَ ، فِما لا نَعْلَمُ قائِلاً لَهُ قالَهُ غَيرُ الَّذي ذَكَرناهُ مِنَ الخِبرِ عَنِ أَبِي العَاليَةِ ، وَفِي إِجماعٍ مِنَ  
ذَكَرْتِ ، الدِّلالَةُ الوَاضِحَةُ عَلى صِحَّةِ ما اِخْتَرنا .

(195/303)

---

والعدوة «1»: بضم العين «2» وفتحها «3» وكسرهما «4»: شفير الوادي، فتميم لا  
تعرف العدوة [بضم العين] «5» وتقول: خذ أعداء الوادي «6» .  
42 وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ: أبو سفيان وأصحابه .

---

(1) من قوله تعالى: إِذِ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى . . . [آية: 42] .  
(2) فهي مثلثة، وقراءة الضم لعاصم، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي .  
ينظر السبعة لابن مجاهد: 306، وحجة القراءات: 311، والتبصرة لمكي: 212 .  
[ . . . . ]

(3) تنسب قراءة الفتح إلى الحسن البصري، وقتادة، وعمرو بن عبيد، وزيد بن علي .

المحتسب : 280 / 1 ، والبحر المحيط : 499 / 4 .

قال ابن جنبي : «الذي في هذا أنها لغة ثالثة ، كقولهم في اللبن : رغوة ورغوة ورغوة . ولها نظائر مما جاءت فيها فعلة وفعلة وفعلة ، منه قولهم : له صفوة مالي وصفوته وصفوته . . . .» .

(4) وهي قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو .

السبعة لابن مجاهد : 306 ، والتبصرة لمكي : 212 .

(5) ما بين معقوفين عن «ك» .

(6) في اللسان : 40 / 15 (عدا) : «يقال الزم عداء الطريق ، وهو أن تأخذه لا تظلمه ،

ويقال خذ عداء الجبل ، أي : خذ في سنده تدور فيه حتى تعلوه ، وإن استقام فيه أيضا

فقد أخذ عداه . . . والعدى والعدا : الناحية والجمع «أعداء» ، والعدى والعدوة

والعدوة والعدوة - كله - شاطئ الوادي» .

وينظر تاج العروس : 236 / 10 ، (عدا) .

(196/303)

---

وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ : أي : من غير عون الله لاختلفتم ، وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ .

43 فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا : هي رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم بالبشارة والغلبة «1» .

والرؤيا تكون من الله ، ومن الشيطان ، ومن غلبة الأخلاط ، ومن الأفكار .

وقيل «2» : فِي مَنَامِكَ : في عينيك لأنها موضع النوم كالمقام موضع القيام .

44 وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ : لتلايستعدوا لكم ، وجاز أن يري الله الشيء على خلاف ما هو

به لأن الرؤيا تحيل من غير قطع .

47 وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ : نفي «3» قرش خرجوا

---

(1) وتكون الرؤيا على هذا القول منامية ، وهو قول مجاهد كما أخرجه عبد الرزاق في

تفسيره : 206 ، والطبري في تفسيره : 570 / 13 ، وابن أبي حاتم في تفسيره : 421

(سورة الأنفال) ، وقال المحقق : مرسل حسن لغيره . وذكره ابن الجوزي في زاد المسير :

363 / 3 ، وقال : «رواه أبو صالح عن ابن عباس» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 74 / 4 ، وزاد نسبه إلى ابن المنذر عن مجاهد .

ورجحه الزجاج في معاني القرآن : 419 / 2 فقال : «وهذا المذهب أسوغ في العربية ،

لأنه قد جاء : وإذ يريكمهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم فدل بهذا أن

هذا رؤية الالتقاء ، وأن تلك رؤية النوم» .

ورجح النحاس أيضا هذا القول في معاني القرآن : 161 / 3 ، والماوردي في تفسيره :

106/2 ، وقال : «وهو الظاهر ، وعليه الجمهور» .

(2) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن : 247/1 ، وابن قتبية في تفسير غريب القرآن :

179 ، والطبري في تفسيره : 570/13 ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره : 422

(سورة الأنفال) عن الحسن ، ونقله الزجاج في معاني القرآن : 419/2 ، والنحاس في

معانيه : 161/3 ، والماوردي في تفسيره : 106/2 ، وابن الجوزي في زاد المسير :

363/3 - كلهم - عن الحسن رحمه الله تعالى .

وأورده ابن كثير في تفسيره : 13/4 وعزا إخراجهم إلى ابن أبي حاتم عن الحسن ، ثم قال :

«وهذا القول غريب ، وقد صرح بالمنام ها هنا ، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل

عليه» .

(3) في «ج» : يعني قريشا .

(197/303)

---

حامين للغير ، فلما نجا أبو سفیان أرسل إليهم : أن ارجعوا فقد أمننا ونزلنا بالجحيفة

«1» . فقال أبو جهل : لا حتى نرد بدرا ، وننحر جزرا ، ونشرب خمرا ، وتعزف لنا القيان

«2» .

وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ

:إحاطة علم واقتدار .

48 وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ : ظهر في صورة سراقه «3» بن مالك بن جعشم الكناني في جماعة من جنده ، وقال : هذه كنانة قد أتكم تنجدكم «4» ، فلما رأى الملائكة نكصَ على عَقْبَيْهِ رجع القهقري ذليلا .

وقال الحسن «5» : وسوس لهم ذلك ولم يظهر .

وقال : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ لِأَنَّهُ ظَنُّ أَنْ الْوَقْتُ [المنظر] «6» إِلَيْهِ حَضَرَ .

56 الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتَقِضُونَ : أي : من شأنهم نقض العهد .

57 فَشَرَّدَ بِهِمْ / مَنْ خَلَفَهُمْ : نكل بهم تنكيلا ، تشرد غيرهم وتفرقهم به . [38/ب] .

---

(1) كذا ورد في «ك» مصغرا . والحجفة - بالضم ثم السكون - موضع بالحجاز بينها

وبين البحر ستة أميال ، وبينها وبين مكة ستة وسبعون ميلا ، وهي ميقات أهل الشام

ومصر والمغرب .

معجم ما استعجم : 367/1 ، ومعجم البلدان : 111/2 ، والروض المعطار :

.156

(2) القيان : جمع قينة ، وهي الأمة أو الجارية .

النهاية : 135/4 .

وانظر خبر أبي جهل وأبي سفيان في السيرة لابن هشام: (618/1، 619)، وتفسير

الطبري: 578/13، وتفسير ابن كثير: 16/4، والدر المنثور: 77/4.

(3) صحابي جليل، أسلم يوم الفتح.

ترجمته في الاستيعاب: 851/2، وأسد الغابة: 331/2، والإصابة: 41/3.

(4) ينظر تفسير الطبري: (7/14-9)، والتعريف والإعلام للسهيلي: (65، 66)

، وتفسير القرطبي: 26/8، وتفسير ابن كثير: 16/4.

(5) نص هذا القول في الكشف: 162/2 عن الحسن رضي الله عنه.

وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز: (333/6، 334) عن المهدي وغيره، ثم قال:

«ويضعف هذا القول أن قوله: وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ لَيْسَ مِمَّا يَلْقَى بِالْوَسْوَسةِ. وقال الجمهور في

ذلك بما روى وتظاهر أن إبليس جاء كفار قريش . . .».

(6) في الأصل: المنتظر، والمثبت في النص عن «ج».

(198/303)

---

58 فَاَنْبَدُ إِلَيْهِمْ: فآلق إليهم حديث الحرب على استواء في العلم منك ومنهم.

60 وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ: بنو قريظة «1»، وقيل «2» بنو قينقاع.



63 وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ: الأوس والخزرج وكانوا يتفانون حرباً «3» .

65 حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ: التحريض أن يحث المرء حثاً ، يحرض ، أي : يهلك إن تركه «4» ،

ويقال : حارض على الأمر وواظب وواكب وواصب .

67 مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى: في أسارى بدر حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 36/14 ، وابن أبي حاتم في تفسيره: (487)

، (488) (سورة الأنفال) عن مجاهد .

وذكره السهيلي في التعريف والإعلام: 68 ، ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز:

361/6 ، وابن الجوزي في زاد المسير: 375/3 عن مجاهد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 97/4 ، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة ، والفريابي ،

وابن المنذر ، وأبي الشيخ - كلهم - عن مجاهد . [ . . . . . ]

(2) في الأصل: «وما قيل» ، والمثبت في النص عن «ج» .

(3) معاني القرآن للفراء: 417/1 ، وتفسير الطبري: 45/14 .

قال ابن عطية في المحرر الوجيز: 366/6: «وهذه إشارة إلى العداوة التي كانت بين

الأوس والخزرج في حروب بعاث ، فألف الله تعالى قلوبهم على الإسلام ، وردهم متحابين

في الله ، وعددت هذه النعمة تأنيساً لمحمد صلى الله عليه وسلم . . . . .» .

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب في الأنصار في شأن غنائم حنين

: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي،

وعالة فأغناكم الله بي - كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ . . . .» .

صحيح البخاري: 104/5، كتاب المغازي، باب «غزوة الطائف» .

وصحيح مسلم: 738/2، كتاب الزكاة، باب «إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام

وتصبر من قوى إيمانه» .

(4) عن معاني القرآن للزجاج: 423/2 .

وانظر معاني النحاس: 168/3، وتهذيب اللغة: (4/203، 204)، واللسان:

(7/133، 134) (حرض) .

(199/303)

فيهم الفداء «1» .

حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ : يكثر من القتل «2» .

ومتاع الدنيا : عرض «3» لقلّة بقاءه ووشك فناءه .

68 لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ : أنه لا يعذب إلا بعد مظاهره البيان «4»، أو أنه يجل لكم

الغنائم «5» .

70 فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا : بصيرة «6» .

يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ : من الفداء . في العباس حين فدا نفسه وابني أخيه عقيلًا  
«7» ونوفلا «8» .

قال العباس «9» : فاتاني الله خيرا منه ، مالا كثيرا ، منها عشرون عبدا

---

(1) ينظر سبب نزول هذه الآية في صحيح مسلم : 1385/3 ، كتاب الجهاد ، باب  
«الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم» حديث رقم (1763) ، وتفسير  
الطبري : 63/14 ، وأسباب النزول للواحدي : (273 - 276) ، وتفسير ابن كثير  
: 32. /14 :

(2) تفسير الطبري : 59. /14 :

قال الزجاج في معانيه : 425/2 : «معناه حتى يبالغ في قتل أعدائه ، ويجوز أن يكون  
حتى يتمكن في الأرض . والأثخان في كل شيء قوة الشيء وشدته . يقال : قد أثخنه» .  
وانظر معاني النحاس : 170/3 ، والكشاف : 168/2 ، واللسان : 77/13  
(ثخن) .

(3) من قوله تعالى : تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [آية : 67] .

(4) لم أقف على هذا القول ، وأورد السيوطي في الدر المنثور : 110/4 أثرًا عزا  
إخراجه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد في قوله تعالى : لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ

قال: «في أنه لا يعذب أحدا حتى يبين له ويتقدم إليه».

وانظر نحو هذا القول في الكشاف: 169/2، والمحزر الوجيز: 382/6، وتفسير

الفخر الرازي: 209/15.

(5) أخرجه الطبري في تفسيره: (66 – 64/14) عن أبي هريرة، وابن عباس،

والحسن.

وانظر معاني النحاس: 170/3، وتفسير الماوردي: 113/2، وزاد المسير: 3/

381.

(6) في كتاب وضح البرهان للمؤلف: 389/1: «بصيرة وإجابة».

(7) هو عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه.

(8) هو نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.

(9) أخرجه الطبري في تفسيره: 73/14، والحاكم في المستدرک: 324/3، كتاب

معرفة – الصحابة، «ذكر إسلام العباس رضي الله عنه» عن عائشة رضي الله عنها.

وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

وانظر أسباب النزول للواحدي: (276، 277)، والدر المنثور: (4/111 –

112).

أدناهم يضرب بعشرين ألف دينار .

72 مِنْ وَلَايَتِهِمْ : الاجتماع على التناصر «1» .

وقال الأزهري «2» : الولاية بالفتح في النسب والنصرة ، وبالكسر في الإمارة .

74 وَرَزَقَ كَرِيمٌ : طعام أهل الجنة لا يستحيل نجوا «3» [بل] «4» كالمسك رشحا

«5» . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معاني القرآن / للغزوي - 1 ص 355-370 ﴾

(1) معاني القرآن للفراء : 419/1 ، وتفسير الطبري : 81/14 ، ومعاني النحاس :

.174/2

(2) تهذيب اللغة : 449/14 عن الزجاج .

وقراءة الكسر لحمزة وقرأ باقي السبعة بالفتح .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 309 ، والتبصرة لمكي : 213 والتيسير للداني : 117 .

[.....]

(3) النجو : ما يخرج من البطن من فضلات الإنسان .

النهاية لابن الأثير : 26/5 ، واللسان : 306/15 (نجا) .

(4) عن «ك» ، وكتاب وضع البرهان للمؤلف ليستقيم المعنى .

(5) في تفسير الطبري: 88/14: «يقول: لهم في الجنة مطعم ومشرب هنيئ كريم، لا

تغير في أجوافهم فيصير نجوا، ولكنه يصير رشحا كرشح المسك».

وفي صحيح مسلم: (4/2180، 2181)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب

«في صفات الجنة وأهلها» عن جابر قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن

أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتقلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون»، قالوا:

فما بال طعام؟ قال:

«جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس».

(201/303)

---

وقال ملاحويش:

تفسير سورة الأنفال

عدد 2 و98 و8

نزلت بالمدينة بعد سورة البقرة عدا الآيات من 30 إلى 36 فإنها نزلت بمكة.

وهي خمس وسبعون آية، وألف وخمس وسبعون كلمة، وخمسة آلاف وثمانون حرفا.

لا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به هذه السورة في القرآن العظيم، ويوجد

سورتان مختومة بما ختمت به النساء والنور ، ومثلها في عدد الآي سورة الزمر فقط .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ تَعَالَى يَا سَيِّدَ الرَّسْلِ إِنَّ قَوْمَكَ  
"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ" هِيَ غَنَائِمُ الْحَرْبِ "قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ" لَا يَحْكُمُ بِتَقْسِيمِهَا أَوْ  
تَخْصِيمِهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمَا "فَاتَّقُوا اللَّهَ" أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَا تَخْتَلَفُوا فِيهَا أَوْ تَخَاصَمُوا مِنْ أَجْلِهَا  
، بَلْ اتْرُكُوهَا لِمَنْ وَهَبَهَا لَكُمْ وَفَوَضَا الْأَمْرَ فِيهَا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ "وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ"  
وَاتْرُكُوا الشَّقَاقَ وَكُونُوا مَتَّاعِينَ مَجْتَمِعِينَ عَلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ بَيْنَكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ  
وَلَا تَسْتَبِدُوا بِشَيْءٍ أَبَدًا حَتَّى يَقْضَى لَكُمْ فِيهِ "وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ 1"  
بِهِمَا إِيْمَانًا صَحِيحًا كَامِلًا فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالنِّيَّةِ .

مطلب في الأنفال وكون الإيمان يزيد وينقص وقصة بدر ورؤيا عاتكة وتعهد الشيطان :  
واعلم أن سبب نزول هذه الآية ما روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال :

(202/303)

---

قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه ، فأعجبني ، فجئت به  
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت إن الله قد شفى صدري من المشركين ، فهب لي  
هذا السيف ، فقال ليس هذا لي ولا لك ، اطرحه في القبض (أي مجمع الغنائم المسماة

بالأنفال جمع نفل) فطرحته وفي ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلمي ، فما  
جاوزت إلا قليلا حتى جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أنزلت سورة الأنفال ،  
فقال يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي وانه قد صار لي فاذهب فخذه - أخرج أبو  
داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح - وأخرجه مسلم في حديث طويل قال :  
فأخذته وذهب ما كان يحوك في صدري ، وعلمت أن حضرة الرسول لم يمنعه مني لأمر آخر  
، وإنما أراد قضاء الله في ذلك وغيره .

ومن الطاعة أن لا يقول الرجل لولي أمره في شيء فعله لم فعلته ، ولا في شيء لم يفعله لم لا تفعله  
أبدا .

ويلعلم بأنه أعم بما يفعل وبما لا يفعل ، وما تؤول إليه العاقبة وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود  
والنسائي والبيهقي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما كان يوم بدر قال النبي  
صلى الله عليه وسلم من قتل قتيلافله كذا وكذا ، فأما الشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما  
الشبان فسار عوا إلى القتل والغنائم ، فقالت الشيخة للشبان أشركونا معكم فإننا كنا رداء  
ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
فنزلت .

واخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في السنن وغيرهم عن أبي أمامة قال :



سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل ،  
فساءت فيه أخلاقنا ، فاتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله .

(203/303)

---

وهذا أولى بأن يكون سببا للنزول ، لأنه لو لم يكن اختلاف وتخاصم في النفل لما وقع السؤال  
عنه ، ولما قال تعالى ( فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ) إذ لا حاجة إلى التحذير والأمر  
بالصلاح بعد الجواب .

وقد جاءت روايات متعددة بشأن السيف المذكور على خلاف ما جاء في حديث سعد  
، ولذلك قالوا إنه أي الحديث الذي رواه سعد المار ذكره مضطرب ، لأن البخاري أخرج في  
ناسخه عن سعيد بن جبيرة أن سعدا ورجلا من الأنصار خرجا يتقلان ، فوجدا سيفا  
ملقى ، فخرا عليه جميعا ، فقال سعد هولي ، وقال الأنصاري هولي ، لا أسلمه حتى آتي  
رسول الله ، فأتياه فقصا عليه القصة ، فقال عليه الصلاة والسلام ليس لك يا سعد ، ولا  
للأنصاري ، ولكنه لي ، فنزلت .

وأخرج عبد ابن حميد وأبو الشيخ وابن مردويه وغيرهم عن سعد أنه قال أصاب رسول  
الله غنيمة فإذا فيها سيف فأخذته فأتيت رسول الله فقلت نقلني هذا السيف ، فأنا من

علمت ، فقال ردّه من حيث أخذته ، فرجعت به حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي ، فرجعت إليه فقلت أعطنيه ، فشد لي صوته وقال ردّه من حيث أخذته ، فأنزل الله هذه الآية .

فالاختلاف في هذه الروايات ينفي الاعتماد على ذلك ، وسياق الآية يوافق رواية ابن عباس والعمدة عليها لا على ما رواه سعد والحادثة وقعت بعد الرجوع من بدر ويؤكدها جمع الغنائم وجعلها في القبض ثم تقسيمها بمعرفة الرسول على المسلمين ، ويدل عليها حديث عبادة بن الصامت المار ذكره .

(204/303)

---

والنفل هو ما ينقله الغازي أي يعطاه زائدا على سهمه من المغنم ، كان يقول الإمام تحريضا على البلاء في الحرب من قتل قتيلا فله سلبه ، أو يقول لسرية ما أصبتم فهو لكم أو نصفه أو ربه ، وهذا لا يخمس ، إذ يلزم الإمام الوفاء بوعده وهو مما يزيد في عزم المجاهد وحزمه وتقدمه لكل سرية ، لأنه إذا علم أن ما يصيبه يكون له يزداد رغبة في لقاء الأعداء وهمة ونشاطا في خوض الحرب زيادة على رغبته في إعلاء كلمة الله وطاعة رسوله والشهادة في الآخرة .

واعلم أن استباحة الغنائم من خصائص هذه الأمة ، لأنها كانت حراما على من قبلها فتكون شريعة هذه الأمة ناسخة لشرائع من قبلها من الأنبياء ومخصصة لآية الخمس الآتية ، وهي محكمة غير منسوخة بها كما قال عبد الرحمن ابن زيد قول لابن عباس ، وعلى هذا فإن معناها أن الغنائم لله ورسوله يضعها حيث يشاء ، وقد بين الله تعالى مصارف الغنائم في آية الخمس بدليل ما صح من حديث بن عمر : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فغنمنا إبلا فأصاب كل واحد منا اثني عشر بعيرا وفضلنا بعيرا . - أخرجاه في الصحيحين - وعليه فإن للإمام أن ينقل ما شاء بما يشاء ولمن شاء قبل الخميس ، وإن حادثة بدر هذه أول حادثة وقعت بين حضرة الرسول نفسه وأصحابه وبين مشركي العرب من أهل مكة ، وهي أول حرب شهدها حضرة الرسول .

(205/303)

---

قال تعالى "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ" خافت وضعفت هيبة لجلال ربهم واستعظما لعزة سلطانه "وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا" وبقينا وطمأنينة تفيد هذه الآية أن الإيمان يزيد وينقص وهو ما اعتمده قبلا وذكرت أن الخلاف فيه بين الأشاعرة والماتريدية لفظي ، لأن الإيمان من حيث هو إيمان لا يزيد ولا ينقص ، ومن حيث الأعمال

فلا شك أنه يقبل الزيادة ويتعرض للنقصان ، لأن ذا الأعمال الصالحة أكمل إيماننا من غيره ، فإذا كان الإيمان تصديقا بالقلب وإقرارا باللسان واعتقادا بالجنان فمن هذه الحيشة لا يزيد ولا ينقص ، وإذا كان مع ذلك عملا بالأركان وفعلا بالجوارح فإنه يزيد وينقص حتما ، وإذا قبل الزيادة فإنه يقبل النقص ، فلا وجه لقول من يقول إنه يقبل الزيادة فقط .

ولهذا أجاز الشافعي للرجل أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، وأوجب أبو حنيفة أن يقول : أنا مؤمن حقا وأن من وصل الاستثناء في هذه الجملة فهو مشرك في إيمانه ، وقد منا في الآية 5 من سورة البقرة المارة ما يتعلق في هذا البحث بصورة واضحة ، وله صلة في الآية 125 من سورة التوبة الآتية فراجعها .

ثم زاد في وصف أولئك المؤمنين فقال " وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ " (2) في أمورهم فلا يخشون ولا يرهبون غيره ، ولا يعتمدون إلا عليه .

هذا ، ولما كان الخوف والرجاء والخضوع والخشية عند ذكر الله تعالى وزيادة الإيمان واليقين عند تلاوة القرآن والتوكل على الله والتفويض إليه عند العزم على الأعمال والأفعال ، وهذه كلها من أعمال القلوب ، وهي من كنوز البر التي عدها الإمام الشافعي رحمه الله في قوله :

يا من تعزز بالدنيا وزينتها والدهر يأتي على المبنيِّ والباني

ومن يكن عزه الدنيا وزينتها فعزه عن قليل زائل فاني  
واعلم بأن كنوز الأرض من ذهب فاجعل كنوزك من بر وإحسان

(206/303)

---

ثم أتبعها بما هو من أعمال الجوارح فقال جل قوله "الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ" بأوقاتها مكملين  
شروطها وأركانها "وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)" في وجوه البر والقربات "أُولَئِكَ" الجامعون  
لهذه الصفات الخمس الحسنية والمعنوية "هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا" وصدقا الكاملوا لإيمان قولاً  
فعلاً "لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ" في جنته العالية على حسب كمال إيمانهم وصلاح أعمالهم  
"وَمَغْفِرَةٌ" لذنوبهم بأن يبقيا مستورة في الدنيا فيما بينه وبينهم ولا يفضحهم عليها بالآخرة  
كرما منه ، ولا يؤاخذهم بها "وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)" لهم في مقعد صدق لا يكدره كد الكسب  
وهم المعيشة ، ولا يشوبه خوف الحساب ، ولا يعتريه توهم الفقر ، ولا يتطرق إليه مظنة  
النفاق ، الملازمات لرزق الدنيا .

وان ما ذكر هو للمؤمنين بالآخرة حق لا مرية فيه "كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ" من المدينة  
إلى بدر إخراجاً "بِالْحَقِّ" الوحي إليك من لدنه .

(207/303)

---

وهذه الآية هي المشيرة إلى غزوة بدر التي وعد الله بها رسوله النصر ، وهي مرتبطة بالآية الأولى من هذه السورة ، وما بينهما من الآيات معترضات فهي من باب المقدم والمؤخر "وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ" بك وبربك وكتابك من أصحابك "لَكَارِهُِونَ (5)" خروجهم معك لقتال أعدائك الكافرين بسبب قلة عددهم وعددهم ، ولم يعلموا أن الذي أخرجك من بيتك ما أخرجك إلا ليجعل النصر حليفك والظفر قرينك "يُجَادِلُونَكَ" كراهية القتال ، لأنهم لم يتمرنوا عليه ، ويتصورون بأنفسهم أنك لم تدر على القتال أيضا ، لأنهم لم يعهدوك قاتلت قبل ، وإن جداهم لك "فِي الْحَقِّ" الذي أمرناك به "بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ" لهم أنك لا تعمل شيئا من نفسك لا يليق بهم بعد ما رأوا من صدقك وعدم استدراك شيء من عندك ، وتراهم وهم سائرون معك "كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6)" الموت بأعينهم ، شبه حالهم في فرط فزعهم بحال من يقدم للقتل وهو ينظر إلى دواعيه ويعلم أنه ميت ، ولا أبلغ من هذا

(208/303)

---

التشبيه أبداً "و" اذكريا سيد الرسل لقومك نتيجة ما هم كارهون الذهاب إليه مقدما ،  
ليطمئنا ويسكن فرعهم ، وقل لهم "إذ يدعكم الله" في غزوتكم هذه التي أتم كارهون  
الذهاب إليها "إحدى الطائفتين" طائفة أبي سفيان مع العير أو طائفة أبي جهل مع النفير  
"أنها لكم" وان الله يعلمه أيهما تختارون "وتودون" أيها المؤمنون المتقاعون عن الذهاب مع  
رسولكم "أن غير ذات الشوكة" أي طائفة أبي سفيان والعير "تكون لكم" إذ لا سلاح فيها  
ولا قتال ، لأنكم تجحون إلى سفاسف الأمور طلبا للفائدة العاجلة "ويريد الله" لكم طائفة  
أبي جهل والنفير لتقاتلوهم وتكسروا شوكتهم ، لأن الله يختار لكم معالي الأمور من النصر  
وعلو الكلمة ليعلي شأنكم "أن يحق الحق بكلماته" التي سبقت بوعده النصر إلى رسوله  
والظفر بأعدائه "ويقطع دابر الكافرين" (7) ويهلكهم فلا يبقى لهم شأن ، ويريد أيضا  
"ليحق الحق ويبطل الباطل" فيمحقه ويدحضه فيمحو الكفر ويظهر الإسلام ويثبتته "ولو  
كره المجرمون" (8) "ذلك وهو كائن لا محالة رغم أنوفهم .

(209/303)

---

قال ابن عباس وغيره في سبب نزول هذه الآيات : إن أبا سفيان أقبل من الشام في أربعين  
راكبا من قريش ومعهم تجارة كبيرة ، وقد أخبر الله بهم نبيه صلى الله عليه وسلم ، فانتدب

لهم أصحابه ، فحف بعضهم وثقل بعضهم لظنهم أنه لم يلق حربا بعد ، ولم يعلموا أن الله تعالى علمه كل شيء ، كما ظهر لهم بعد ، فسمع أبو سفيان بمقدم الرسول وأصحابه ، فأرسل قممما بن غراز الغفاري ليستفز أهل مكة ويخبرهم الخبر ، فرأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا قصتها على أخيها العباس وهي أنها رأت راكبا وقف بالأبطح وصرخ بأعلى صوته ألا فانفروا يا غدر إلى مصارعكم في ثلاث ، وان الناس اجتمعت اليه ودخلوا المسجد ثم صرخ ذلك الصارخ من أعلى الكعبة وعلى رأس أبي قبيس بما صرخ به أولا ، وأرسل صخرة أرفضت أسفل الجبل لم يبق بيت إلا دخله فلقة منها ، فقال أكتمها انها لفضيلة ، وذكرها للوليد بن عتبة ، واستكتمه إياها فذكرها الوليد لأبيه وفشت في قريش ، وكل سرّ جاوز الاثنين شاع ، أي خرج من الشفتين ، إذ في كتمانها بقاؤه في القلب ، وقيل جاوز الرجلين وليس بشيء لأنه إذا جاوز صاحبه فشا فكيف بغيره ، راجع الآية 7 من سورة الروم ج 2 ، قالوا ثم بينما العباس يطوف بالبيت استدعاه أبو جهل بن

(210/303)

---



هشام فقال له يا بني عبد المطلب ما رضيتم أن تنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم ،  
سنترى هذه الثلاث التي ذكرت عاتكة في رؤياها ، فإن كانت حقا فيكون ، وإلا  
سنكتب كتابا بأنكم أكذب أهل بيت في العرب ، ولما لم يرد عليه العباس جاءه نساء بن  
المطلب وقلن له أقررت لهذا الخبيث أن يقع في رجالكم حتى تناول النساء ، ولم يكن عندك  
غيره ، فذهب في اليوم الثالث وأقسم ليتعرضه ، ودخل المسجد وأراد أن يمر عليه ، فإذا  
هو يسمع صوت قمقم يصيح يا معشر قريش اللطيمة تعرض محمد لأموالكم ، ولا أرى أنكم  
تدركونها الغوث الغوث ، وقد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه ، وهذه من شأن  
المستغيث المستهلك علامة عندهم على صدق أخباره ، قال فشغل عني وتجهز أشرف  
قريش إلا أبا هلب أرسل عنه العاص بن هشام بن المغيرة ، وقد اجتمعت للسير ، ثم ذكرت  
بعضها ما بينها وبين بني بكر بن عبد مناف بن كنانة من الحروب ، وخافت أن تخلفهم على  
أموالهم ونسائهم ، فتصور لهم الشيطان بصورة سراقه بن مالك بن خشعم من أشرف بني  
بكر ، وقال لهم إني جار لكم من كنانة كما سيقصه الله بعد في الآية 47 من هذه السورة ،  
وخرجوا مسرعين ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه لليال مضت من  
رمضان ، وأتاه الخبر بمسير قريش ، فأرسل العيون ثم نزل عليه جبريل في هذه الآية وما  
بعدها ، فاستشار أصحابه إلى أيهما يمضي العير أم للنفير ، فقال أبو بكر وعمر والمقداد ،  
امض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، ولا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى ، فوالذي

بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغمار (مدينة بالحبشة) لجادلنا معك من دونه حتى نبلغه .

(211/303)

---

فدعاهم بخير ، ثم قال أشيروا علي أيها الناس ، فقال سعد بن معاذ كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال أجل (وذلك أنه لم ير على الأنصار وجوب نصرته خارج بلادهم ولم يعاهدهم أو يعاهدونه على ذلك ، فأحب أن يجتبرهم ، لأن مبايعته لهم كانت مختصرة على ما يقع عليه في ديارهم) ، قال امض لما أمرت به يا رسول الله فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا أحد ، وإنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك ، فسرّ بذلك وساروا على بركة الله .

روى مسلم عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب حدثه عن أهل بدر ، قال : إن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس ، يقول هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدها رسول الله لهم .

قال فجعلوا في برّ بعضهم على بعض ، فانطلق رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم حتى انتهى

إليهم ، فقال : يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا ؟  
فإني قد وجدت ما وعدني الله حقا ، فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح  
فيها ؟ فقال ما أستم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئا راجع  
الآية 22 من سورة فاطر في ج 1 والآية 46 من سورة المؤمن في ج 2 تجد ما يتعلق في هذا  
البحث .

قال تعالى "إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فِي قِتَالِ بَدْرٍ .

وقد خاطبه الله تعالى بلفظ الجمع تعظيما لحضرته .

روى مسلم عن ابن عباس ، قال حدثني عمر بن الخطاب قال :

(212/303)

---

لما كان يوم بدر نظر رسول الله إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر  
رجلا ، فاستقبل نبي الله القبلة ثم مديده فجعل يهتف بربه يقول اللهم أنجز لي ما وعدتني ،  
اللهم آتني ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض ، فما  
زال يهتف بربه ما دأ يديه حتى سقط رداؤه عن منكبه ، فأتاه أبو بكر فأخذ بردائه وألقاه  
على منكبه ، ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاهك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما

وعدك إن شاء ، فأنزل عليه " فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) " غيرهم وراءهم مثلهم أو أكثر ، لأن الردف أغلبه واحد ، وقد يكون اثنين عند البشر ، أما الملائكة فلا تحديد لردفهم .

واعلموا أيها المؤمنون أن هذا الإمداد ما كان " وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ بالنصر والظفر " وَلَتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ " هيئه وأرسله إليكم " وَمَا النَّصْرُ " في الحقيقة لكم " إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ " لا من الملائكة ولا من غيرهم وإنه لو لم يرسلهم لنصركم بأمر من عنده تحقيقا لوعده ، وما كان إمدادكم بهم للنصر ، وإنما هو للاطمئنان والبشارة فقط " إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ مُنِيعٌ الْجَانِبِ قَوِيٌّ غَالِبٌ لَا يَفْهَرُ شَيْءٌ " حَكِيمٌ (10) " في تديره ونصره لأوليائه على أعدائه .

روى البخاري عن ابن عباس أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم بدر (بعد ما ناشد ربه) هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب .

قال ابن عباس كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ، ويوم حنين عمائم خضر ، ولم تقا تل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون فيما سواه عددا ومددا .

(213/303)

---

واذكريا محمد لقومك أيضا "إذ يُغَشِّيَكُمُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ" من الله لكم من عدوكم طمأنينة لقلوبكم ورأفة لأنفسكم وإزالة لرعبكم إذ كنتم في سهر من خوف عدوكم ، وهذه نعمة عظيمة ، لأن وقوعه في الحرب أمر خارق للعادة ، لأن زمن الحرب وقت رهبة وخشية لا تصور فيه حدوث النوم "وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ" ويطفيء غبار الأرض ويلبدها ، وذلك أن المشركين سبقوهم إلى بدر ونزلوا عليه ، ونزل المسلمون على كتيب رمل ولا ماء عندهم ، وأصبحوا لا يجدون ما يشربون ولا ما يتوضؤون ويغتسلون به ، فلما أرسل لهم المطر طابت نفوسهم واستدلوا بهذه النعمة الثانية على أن الله تعالى ناصرهم على عدوهم "وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ" ثقله الحاصل على أثر ابتهاهم من النوم ووسوسته التي ألقاها في قلوب بعضكم من أنه لو كنتم أولياءه لما غلبكم المشركون على الماء .

وقال بعض المفسرين انهم كانوا مجتئين بدليل التشديد في قوله (لِيُطَهِّرَكُم) إذ يطلق غالبا على المبالغة في الطهارة ويراد بها الجنب ، ولكن التفسير الأول أولى لأنه يشمل الجنب وغيره "وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ" برباط الصبر حتى لا يدخلها الجزع ، والربط هو الشد فكل من صبر على أمر فقد ربط نفسه "وَيُثَبِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ (11)" لتلا تسوخ في الرمل فضلا عن تلبده وتقويته ومنع الغبار من الأرض ، وأذكر أيضا "إذ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ" بالنصر والمعونة والهيبة والهداية والروعة والدهشة في قلوب الأعداء "فَتَبَتُوا" أيها الملائكة

وقرؤا قلوب "الذین آمنؤا" بتكثیر سؤادهم وقتال أعدائهم ، ولا ترعؤوا فإني "سألقي في قلوب الذین كفروا الرعب" منكم والخوف

(214/303)

---

في قلوبهم ، ولما لم تعرف الملائكة كيفية القتل علمهم الله تعالى بقوله "فأضربوا فوق الأعناق" أي رءوس المشركين "وأضربوا منهم كل بنان (12)" الأطراف والمفاصل ، وأصل البنان رءوس الأصابع ولكنها تطلق على ما ذكر من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وخصت بالذكر لأن الفارس يمسك بها سلاحه ويقا تل بها ، ومن قال إن الضمير في (فأضربوا) يعود للمؤمنين فلا يكاد يصح لما فيه من البعد ومخالفة سياق التنزيل ومغايرته للخطاب في سياق الآية وسياقها ، ومما يؤيد هذا ما قاله ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يومئذ (يوم بدر) يشد (يعدو من عدا إذا أسرع) في إثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم ، إذا نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقيا ، فنظر إليه فإذا قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السيف ، فأحصى ذلك أجمع ، وجاء فحدث بذلك رسول الله ، قال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة ، فنصرهم الله نصرا مؤزرا ، وقتلوا سبعين ، وأسروا سبعين مثلهم من المشركين ، وهذا القتل والأسير يعد كثيرا جدا بالنسبة

لذلك الزمن وعدده وعدده ، وانتهت المعركة بهذا وأعز الله جنده ، وصدق وعده ونصر عبده .

وما روي عن أبي داود المازني وكان شهد بدرًا قال : إني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي ، فعرفت أن قد قتله غيري .

وما روي عن سهل بن الأحنف قال :

لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف .

وروي مقسم عن ابن عباس قال : كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو وأخو ابن سلمة ، وكان رجلا مجموعا ، وكان العباس جسيما ، فقال صلى الله عليه وسلم لقد أعانك عليه ملك كريم . لك "

الذي وقع لكم من النصر والظفر أيها المؤمنون أنهم "

أي المشركين أقوا "

خالفوا وجادلوا وخاصمو الله ورسوله "

(215/303)

---

وجانبوهما وصاروا في شق عنهما من يُشاقق الله

القادر من إيقاع القهر والانتقام رسوله

المؤيد من لدنه بالنصر والإحكام إن الله شديد العقاب (13)

لهذا المخالف في الدنيا والآخرة وهو صعب الأخذ (إن أخذة اليم شديد) راجع الآية

103 من سورة هود في ج 2 .

هذا ، وليعلم أن ما أصابهم من القتل والأمر والنهب والسبي ليس بشيء بالنسبة لما خبيء

إليهم من العذاب "ذلكم" الذي أصابكم من الغلب والاندحار "فذوقوه" معجلا لكم أيها

المشركون "وأن للكافرين" منكم الذين يموتون على كفرهم عذاب أشد وأقسى وأعظم

وهو "عذاب النار" (14) في الآخرة التي لا تقواها القوى البشرية .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم من حادثة بدر قيل

له إذ وفقك الله على النفير فعليك بالبعير إذ تركت وليس دونها أحد ، قال قتادة فناده

العباس من وثاقه لا يصلح لك ، لأن الله وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك ما وعدك ،

قال صدقت - أخرج الترمذي - .

وكانت هذه الحادثة يوم الجمعة في 17 رمضان السنة الثانية من الهجرة .

قال تعالى "يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً" قادمين عليكم ، والزحف انبعاث

مع جر الرجل كانبعاث الصبي قبل أن يمشي (وتقول العامة يحبو) وسمي به الجيش الدهم



المتوجه إلى العدو لتكافئه ، فيرى لكثرتة كأنه يزحف زحفا إذ يكون كالجسم الواحد في  
تراصه ، فيظن رائيه أنه بطيء الحركة مع أنه مسرع ، انظر إلى فلكة المهوابة ودواليب  
الحركات وصدور الرحي وكل متناه في السرعة تراه كأنه واقفا ، قال تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ  
تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) الآية 88 من سورة النمل في ج 1 ، وقيل في المعنى  
:

وأرعن مثل الطود تحسب أنه وقوف لجاج والركاب تهملج

(216/303)

---

أي إذا رأيتم أيها المؤمنون أعداءكم مقبلين عليكم على هذه الصورة فاستقبلوهم بصدوركم  
"فَلَا تُلْوَهُمُ الْأَدْبَارَ (15)" فتنهزمون أمامهم وتعطونهم ظهوركم فإنهم يستخفونكم  
ويلحقونكم فيدركونكم ويستأصلونكم ، ثم هدّد الله تعالى الهارب من عدوه على هذه  
الصفة بقوله "وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ" ظهره فرارا منهم يوم الزحف واشتداد المعركة "إِلَّا  
مُتَحَرِّقًا لِقَالٍ" بأن يري عدوه الانهزام بقصد الكرة عليه أو يستدرجه فيطوقه من ورائه أو  
ينوي ضربا آخر من ضروب الحرب ومكايده وخذعه ، لأن الحرب خدعة يجوز فيه ما لا  
يجوز في غيره ، لأنه بعد أن استحل فيه سفك الدماء فلائن يحل فيه غيره من باب أولى .

ثم ذكر جل شأنه عذرا آخر في جواز الانسحاب إلى الوراء في اشتداد أزمة الحرب فقال  
"أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ" بقصد الانضمام إلى جماعة يريدون الهجوم على العدو من جهة أخرى  
، أو يريدون قتاله من مكان آخر ، أو يريد أن يجابه العدو مع تلك الجماعة ، أو بضرب آخر  
من فنون الحرب التي يراها ، فهاتان الحالتان وما يتفرع عنهما جائز فيهما وفيما يراه من  
الطرق الأخرى التقهر والهروب صنعة بل هما مطلوبتان لما فيهما من النفع ومثاب عليهما  
فاعلهما ، أما إذا كان انهزامه مجرد الخوف والرهبة "فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ" والعياذ بالله  
، فإنه يرجع بالذم في الدنيا والعقاب في الآخرة بدل المدح والسعادة في الدنيا والشهادة  
والرضاء في الآخرة ، لأن فعله هذا يكسر معنويات الجيش ويقوي جنان العدو فيسبب  
الذل والهوان والخزي والعار في الدنيا "وَمَا أَوْاهُ جَهَنَّمُ" في الآخرة "وَبِسُّ الْمَصِيرِ (16)"  
مصير أهلها ولما نصر الله عباده في واقعة بدر وكان ثابتا في علمه أنهم سيلاقون حروبا  
أخرى ، وانها قد تكون سجلا بينهم (أي لهم وعليهم) فقد حثهم في هذه الآية على الثبات  
وحذرهم من الهزيمة ، وهذه الآية محكمة وحكمها عام في كل منهزم إلى يوم القيامة لأنها  
مصدرة بخطاب المؤمنين ومطلقة باقية على إطلاقها لم تخصص ولم تقيد ، وقد جاء في

الحديث الصحيح أن الفرار من الزحف من السبع الموبقات التي أمر الرسول باجتنابها ، وما قيل إنها منسوخة بآية (الآن خففَ اللهُ عَنْكُمْ) قيل لا صحة له ، لأن هذه الآية مقيدة ومخصصة للتي قبلها كما سيأتي ، ثم ان المؤمنين بعد أن عادوا من بدر واستقروا في المدينة صاروا يتفاخرون بينهم مثل عادة الكفرة ، هذا يقول قتل فلانا ، وهذا يقول أسرت فلانا ، وهذا يقول رميت فلانا ، فأنزل الله ردًا لهم كلهم "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ" لا أتم ، لأنه هو الفاعل الحقيقي ، وهو

(218/303)

---

الذي أمدكم بملائكته وأمركم بقتالهم وتعهد لكم بالنصر ، ولو ترككم وشأنكم لما قاتلتم ولا قتلتم وكان جبريل عليه السلام قال لحضرة الرسول أثناء اللقاء خذ قبضة من تراب وارم بها الكفرة ففعل وقال شامت الوجوه (يعني قبحت) فلم يبق مشرك إلا ودخل في عينيه ومنخره من ذلك التراب وسبب انهزام المشركين فأنزل الله "وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ" المشركين بقبضة التراب "وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى" إذ أمر الريح بإيصاله لكل منهم ، وهو الذي أمر جبريل أن يقول لك ذلك فهو المسبب الحقيقي لإصابة رميتك وجوه الكفار كافة حتى دخل أعينهم ومناخرهم ، لأنك لا تقدر على ذلك ، وإنما كنت سببا ظاهرا ، وإذا كان الله تعالى

يقول لحبيبه بأنه لم يرم وإنما الرامي هو جل جلاله ، فالأن لا يفتخر أصحابه بما وقع منهم في هذه الحرب من قتل وأسر ونهب ورمي وسلب من باب أولى ، لأن الله هو الذي أقدرهم على ذلك فنصرهم وخيب أعداءهم "وَلِيُثَبِّتِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ" فينعمه عليهم "بِإِذْنِ اللَّهِ حَسَنًا" جميلاً وقد فسر عامة المفسرين هذا البلاء بالنعمة ، ويجوز تفسيره بالاختبار ، أي أنه اختبرهم بهذه الحادثة اختباراً حسناً فكانوا عنده كما هم في علمه "إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ" لما تقولون أيها المؤمنون "عَلِيمٌ" (17) "بما تضررونه لا يخفى عليه حالكم" ذلكم البلاء الذي اختبركم الله به هو منه وحده "وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ" مضعف وما حق "كَيْدِ الْكَافِرِينَ" (18) "ومبطل مكرهم وحيلهم .

قالوا لما خرج المشركون لقتال بدر تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم إن كان محمد على الحق فانصره ، وإن كنا على الحق فانصرنا ، وقال أبو جهل لما صار اللقاء اللهم أنصر أهدي الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين ، اللهم من كان أفجر واقطع لرحمه فأحنه (ألوه واكسره) اليوم .

(219/303)

---

فأنزل الله "إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ" ، وهذا خطاب لهم على سبيل التهكم بهم ، وقد مر أن ذكرنا أن الفتح بمعنى القضاء والحكم ، أي أن تستحكموا الله على ما قلتم فقد جاءكم حكمه ، فعليكم أن تتيقنوا أن محمداً أحق منكم وأوصل الرحم وأهدى الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين هو وأصحابه ، ولذلك فقد أجبت دعاءه وخيبتكم ونصرته عليكم ، فآمنوا به وأطيعوه "وَإِنْ نَشَأْهُ" من الآن عن الكفر بالله وتكذيب رسوله ومقاتلته "فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ" في دينكم ودنياكم وعاقبة أمركم "وَإِنْ تَعُودُوا" لقتال رسولكم وتصروا على تكذيبه بعد أن شاهدتم كيفية نصرته عليكم وتوفيقه وتأيبه من عنده ، ولم ترجعوا عن الكفر وتؤمنوا به "نَعُدُّ" لأمره ثانياً بقتالكم ونصره عليكم أيضاً ، وهكذا حتى تؤمنوا أو تقتلوا "وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُهُمْ" وجماعتكم مهما كانت من الله "شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ" فإن الله تعالى عنده أكثر وأكثر مما ترون ومما لا ترون "وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)" لا يتخلى عنهم لأنهم أولياؤه ، والله نعم الولي عليهم ونعم النصير .

قال تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ" فيما يأمركم به من الجهاد وغيره ، وابدلوا أموالكم وأنفسكم في سبيله "وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ" وتعرضوا عما يأمركم به وتفعلوا ما ينهاكم عنه "وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20)" أي لا تنصرفوا عنه بوجه من الوجوه وحال من الأحوال ما دتم سامعين هذه الآيات الناطقة بوجوب الطاعة والنهي عن المخالفة ، والواو في (وَأَنْتُمْ) للحال ،

"وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا "بِالْسُنْتِهِمْ" سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21)" سماع قول إجابة ، لأن

هذا الصنف من المنافقين المار ذكرهم في الآية 8 فما بعدها من البقرة فإنهم يقولون آمنا

بالسنتهم وهم غير مؤمنين في قلوبهم .

(220/303)

---

ثم ندّد جل شأنه عمّن هذه صفته فقال "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ (22)" ما يراد بهم ولا يفهمون ما يطلب منهم ، لأن من أشر من يدب على الأرض البهائم لعدم معرفتها بما يضرها وينفعها ومن هو لها ومن هو عليها ومن أشرها الذين لا يسمعون الحق ولا ينطقون به ولا يفقهون المعنى ولا يعون المغزى مما يخاطبون به "وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ" أي هؤلاء المنعوتين بتلك الصفات الذميمة "خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ" سماع قبول سماع المصدقين المحبين المنتفعين بحواسهم ، لكنه تعالى لم يعلم الخير فيهم من قبل ، ولهذا قال "وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ" بواسطة رسوله بعد أن علم أن لا خير فيهم وأنهم لم ينتفعوا بما يسمعون لأنهم خلقوا أشرارا ولا يتوخى منهم إلا الشر ، ولذلك لو فرض إسماعهم "لَتَوَلَّوْا" عنه ولم يلتفتوا إليه "وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)" كأنهم لم يسمعوا شيئا ، نزلت هاتان الآيتان في نفر من عبد الدار بن قصي كانوا يقولون نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد ، وكانوا يقولون يا محمد

أحيي لنا قصيا فإنه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك ، فأخبر الله تعالى أنهم لا يؤمنون ، ولو أحيينا لهم قصيا وأمرهم بالإيمان بمحمد .  
مطلب وجوب الاستجابة لدعوة الله ورسوله وآيات الصفات وعموم البلاء عند سكوت أهل الحل والعقد :

(221/303)

---

قال تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ " حياة أبدية وهي الجهاد في سبيل الله والإيمان به والتصديق برسله وكتبه لأن في هذه الحياة العزة في الدنيا والنعيم في الآخرة ، وفي ترك الجهاد الذل والموت المعنوي الذي هو شر من الموت الحقيقي " وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ " فلا يستطيع أحد أن يؤمن أو يجرؤ على الجهاد أو ينفق ماله في سبيل الله ، إلا بإذنه ، أي قاتلوا وآمنوا فإنه تعالى يبدل خوفكم أمنا ، وجبنكم جرأة وكفركم إيمانا ومجلكم جودا ، لأن أحوال القلوب اعتقادات ودواعي ، ولا بد من أن تتقدمها الإرادة ، ولا بد للإرادة من فاعل مختار ، والفاعل المختار المتصرف في القلوب المقلب لها كيف يشاء هو الله وحده .

روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء .  
ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على  
طاعتك .

وهذا من أحاديث الصفات فيجب على المؤمن أن يعتقد فيه كما جاء مع تنزيه الله تعالى  
عما هو من سمات آدميين ، لأن الله جلت قدرته ليس له جوارح كجوارحنا ، وليس  
كمثله شيء أبدا ، راجع الآية 210 من سورة البقرة المارة ، ونظير صدر هذه الآية الآية  
10 فما بعدها ، من سورة الصف الآتية .

فاعلموا أيها الناس هذا "و" اعلموا "أَنَّ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)" غدا لاغيره فمصير الكل  
إليه وهناك يجازى العاصي ويكافى الطائع .

(222/303)

---

قال تعالى "وَأَتَقُوا فِتْنَةً عَذَابًا عَظِيمًا وَذُنُوبًا كَبِيرًا وَعَمَلًا فَظِيحًا وَدَاهِيَةً كَبِيرًا" لا تُصِيبَنَّ  
الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً" فلا تقتصر على الظالمين بل تعداهم إلى غيرهم ، لأن البلاء يعم  
والخير يخص ، وذلك إذا أصر المنكر على إنكاره والمداهن على مداهنه والمنافق على  
نفاقه ، ولم يأمر العالمون والأبرار بالمعروف وينهوا عن المنكر وسكتوا على تفريق الكلمة ،



ولم يقيموا البدع والمحدثات المخالفة للشرع ، وكسلوا عن الجهاد ،  
فيكونون راضين بذلك كله ، والراضي بالشيء كفاعله ، ولهذا يعمهم الله بعذابه .  
أخرج أبو داود وذكر ابن الأثير في جامع الأصول عن عدي بن عميرة الكندي أن النبي صلى  
الله عليه وسلم قال : إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب  
عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها .  
وأخرج ابن جرير بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من  
رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه ولم يغيروا إلا أصابهم  
الله بعقاب قبل أن يموتوا .

لأن سكوتهم مع القدرة رضى منهم أو تهاون بجدود الله ، ولذلك هددهم الله بقوله  
"وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25)" إذا عاقب فانتقوا عقابه أيها الناس ولا تسكوا  
على انتهاك حرمة ما قدرتم وتعاونوا على البر والتقوى بالفعل وعدم الرضى ولا تعاونوا  
على الإثم والعدوان بالسكوت والرضى على المخالفات مهما استطعتم .  
روي عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رأى  
منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان .  
راجع الآية 165 من الأعراف في ج 1 والآية 87 من سورة المائدة الآتية .

قال تعالى "وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ" مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ " من قبل كفار مكة وغيرهم قبل أن تهاجروا إلى المدينة ومن قبل أنتم وغيركم مستضعفون من قبل فارس والروم وكنتم سواء في الكفر ، وسبب ضعفكم كنتم "تخافون أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ" فيقتلونكم ويسبونكم "فَأَوَّاكُمْ" الله أولاً إلى حرمه ثم إلى المدينة وأعزكم بالإسلام "وَأَيَّدَكُمُ بِنَصْرِهِ" على عدوكم "وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ" من غنائم الحرب لما فيها من اللذة القلبية وعلو الكلمة والكرامة "لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (26) " نعم الله فيزيديكم " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَلَا "تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ" التي أوتمنتم عليها من قبل الغير قليلة كانت أو كثيرة ، وسواء كانت فيما بينكم أنفسكم أو بين الناس وبين الله ورسوله لعموم اللفظ .

وسبب نزول هذه الآية على أقوال منها ما أخرجه أبو الشيخ عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان لما خرج من مكة وقد أخبر جبريل بمخرجه رسول الله فقال إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا ، فكتب رجل من المنافقين إليه بذلك فنزلت .

وقال السدي : كانوا يسمعون الشيء من الرسول فيفشونه فنهوا عن ذلك بهذه الآية .

مطلب فيما عدّ خيانة على سفير رسول الله .

والآيات المكية النازلة بالهجرة وعلى أي صورة نسخ القرآن العظيم :

وذكر الزهري والكلبي أنه لما هاجر رسول الله يهود بني قريظة في غزوته السابقة الكائنة في السنة الخامسة من الهجرة التي أشار الله إليها في الآية 27 من سورة الأحزاب الآتية سأله الصلح على ما صالح عليه بني النضير في غزوته الخامسة الواقعة في السنة الرابعة التي أشار إليها الله في الآية الثانية من سورة الحشر الآتية بأن يهاجروا إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، قالوا وطلبوا منه أن يرسل إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر ليسترشدوا برأيه إذ كان وماله وعياله وولده عندهم ، فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم كسفير من قبله لعقد الصلح الذي طلبوه ، فأتاهم فقالوا له أنزل على حكم سعد بن معاذ كما طلب رسولكم ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أي لا تفعلوا فإنه الذبح ، وكان عليه أن يقول لهم امثلوا أمره أو أرجوه أن يختار لكم غيره ، لأن يجبرهم بما سيقع عليهم وهم أعداء الله ورسوله والمؤمنين .

ولا يحتاج هنا بقول الرسول المستشار مؤتمن ، لأن الخدعة مطلوبة بالحروب كما مر آنفا في الآية 16 ، وبإشارته هذه يعتبر أنه قد خان الله ورسوله ورسالاته التي أرسل بها ، ولما عرف أبو لبابة ذلك وقال والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى علمت أنني خنت

رسالتي وخت الله ورسوله ، لذلك لم أرجع منهم إلى رسول الله بل انطلقت إلى المسجد رأساً وشددت نفسي على سارية وحلفت أن لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب علي الله ، فلما بلغ ذلك حضرة الرسول قال أما لوجاء لا استغفرت له ، أما أن فعل ما فعل فإنني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه ، فبقي سبعة أيام ، وأغشي عليه من الجوع والعطش ، ثم تاب الله عليه فأخبر فقال إلا أن يأتي رسول الله فيحطني بيده ، فجاء إليه وحلته ، فقال يا رسول الله إن تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أذنت فيها وأن أنخلع من مالي كله ، فقال

(225/303)

---

لا ، يجزيك أن تصدق بثلثه ، فنزلت هذه الآية وهي الأوفق بسبب النزول بالنسبة لسياقها ، ولهذا ختمها الله بقوله " وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) " أن عدم النصح لله ورسوله فيما تؤتمنون عليه خيانة عظيمة ، وأنزل الله فيه أيضاً " وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ " تسبب إيقاعكم فيها ، لأن أبا لبابة ما حملة على تلك الخيانة إلا وجود أمواله وأولاده عند يهود قريظة " وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28) " فبالأحرى أن تحرصوا على ما عند الله وتزهدوا فيما عندكم ، ومن هنا يعلم أن هذه

الآيات من 26 - 28 نزلت بعد سورتها لما علمت من تاريخ الحادثة ، وفيها تنبيه على أن سعادة الآخرة ثواب الله تعالى وأن في أداء الأمانة الأجر الجزيل عند الله وحسن الظن به عند الناس ، وسنأتي على ما يتعلق بها في الآية 58 من سورة النساء بصورة مفصلة إن شاء الله تعالى ، كما سنذكر قصة بني قريظة في سورة الأحزاب الآتية أيضا .  
وتشير هذه الآية إلى أن الكلام عند سامعه أمانة أيضا ، فليحذر الأمين عليه عقاب الله المترتب على إفشائه ، ولهذا قالوا لافرق بين من يفشي سرا أو تئن عليه ومن يخلص مالا استودعه ، راجع الآية الأخيرة من سورة الأحزاب الآتية .

قال تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ وَتَحْفَظُوا فِي جَمْعِ أُمُورِكُمْ "يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا" فصلا بينكم وبين أعدائكم و يقيكم منهم ويخولكم نصرا عليهم وظفرا بهم وتوفيقا ونجاة في الدنيا "وَيُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ" بِالْآخِرَةِ "وَيَغْفِرْ لَكُمْ" ذُنُوبَكُمْ وَيَسْتَرِ عَيْبَكُمْ فِيهَا فَلَإِيْضَاحِكُمْ بِكُشْفِ مَا وَقَعَ مِنْكُمْ "وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)" على عباده .

(226/303)

---

واعلم أن الآيات المكيات التي نزلت قبل سورتها هذه أواخر صفر السنة الثالثة عشرة من البعثة وعلى أثرها هاجر حضرة الرسول من مكة إلى المدينة كما أشرنا إليها في قصة

الهِجْرَةَ بَعْدَ سُورَةِ الْمَطْفِينِ آخِرَ الْجُزْءِ الثَّانِي هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا" مِنْ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَالشَّيْخُ النَّجْدِيُّ مَعَ أَنَّكَ بَعَثْتَ رَحْمَةً لَهُمْ ، وَقَدْ أَجْمَعْتَ كَلِمَتَهُمْ عَلَى التَّخْلِصِ مِنْكَ "لِيُثْبِتُوكَ" يُوَثِّقُوكَ وَيَجْبِسُوكَ "أَوْ يَقْتُلُوكَ" وَهُوَ مَا قَرَّ عَلَيْهِ رَأْيُهُمْ "أَوْ يُخْرِجُوكَ" مِنْ بَلَدِكَ يَنْفُوكَ وَيَبْعِدُونَكَ عَنْهُ "وَيَمْكُرُونَ" يَحِيكُونَ لَكَ الْمَكْرَ وَيَدْبُرُونَ الْمَكَائِدَ بِشَأْنِكَ "وَيَمْكُرُ اللَّهُ" بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْعِقَابِ لِيَنْزِلَهُ عَلَيْهِمْ وَيُرِيكَ الطَّرِيقَ الْمَوْجِبَ لِلخَّلَاصِ مِنْهُمْ بِمَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالْمَصْلَحَةُ لَكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِكَ "وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30)" أَقْوَى وَأَعْظَمُ تَدْيِيرًا .

منهم .

وَأَنْفَذَ وَأَبْلَغَ تَدْيِيرًا وَتَأْثِيرًا فِيهِمْ ، وَسَمِيَ جِزَاءَ اللَّهِ مَكْرًا لِلْمُقَابَلَةِ وَالْمَشَاكَلَةِ ، وَقَدْ مَنَّا قِسْمًا مِنْ قِصَّةِ الْهِجْرَةِ فِي الْآيَةِ 40 مِنْ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ ، وَكَانَ فِيهَا الْخَيْرُ وَالْكَرَامَةُ لَهُ وَالْأَمْتَةُ إِذْ كَانَ مَا وَعَدَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النِّصْرِ وَاتِّشَارِ الدَّعْوَةِ مُتَوَقِّفًا عَلَيْهَا ، وَإِلَّا مَا هَاجَرَ ، لِأَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ أَقَارِبِهِ وَبُوسَعِهِمْ حِمَايَتُهُ مِمَّنْ عَادَاهُ وَنَاوَاهُ مِنْهُمْ ، فَضِلَّا عَنْ أَنَّهُ بِحِمَايَةِ اللَّهِ الْقَادِرِ عَلَى هَلَاكِ مَنْ يَرُومُهُ بِلِحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَوْ كَانُوا أَهْلَ الْأَرْضِ كُلِّهَا ، لِهَذَا فَلَا يُقَالُ إِنَّهُ هَاجَرَ خَوْفًا مِنَ الْقَتْلِ أَوْ غَيْرِهِ ، تَدْبِرُ هَذَا وَاقْتَمَعَ بِهِ قَوْلُ مَنْ قَالَ بِخِلَافِهِ وَرَاجَعَ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي قِصَّةِ الْهِجْرَةِ مِنْ سُورَتِي الْعَنْكَبُوتِ وَالْمَطْفِينِ فِي ج 2 .

(227/303)

قال تعالى "وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا" كُفَّار مَكَّةَ عَنَادًا وَمَكَابِرَةً "قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا" الذي يتلوه محمد "إِنَّ هَذَا" ما هو "إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31)" خرافاتهم

وأكاذيبهم، كان النضر ابن الحارث بن علقمة من بني عبد الدار في بلاد فارس وكان أتى بنسخة من حديث رستم وإسفنديار وأحاديث العجم، وكان يخالط أهل الكتاب ويسمع منهم ويطلع على عاداتهم وعبادتهم، فقال ما هذا الذي يقوله محمد ويزعم أنه من عند الله إلا من ذلك ولو أردت لقلت مثله، فقال له الرسول ويلك هذا كلام الله فكيف تقول مثله، وهو كقول ابن سرح الذي أشرنا إليه في الآية 93 من سورة الأنعام في ج 2، فنعى الله عليه كذبه في هذه الآية، وأنزل في أبي جهل وأضرابه قوله عزّ قوله "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا" الذي يتلوه محمد "هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ إِنَّا بِعَذَابِ اللَّهِ لَمِيمٌ (32)" ولم يقولوا لجهلهم اللهم اهدنا إليه.

وقد نزل في هذا الخبيث بضع عشرة آية منها (سَأَلَ سَائِلٌ) فحاق به العذاب، وقتله يوم بدر حضرة الرسول بيده هو ورفيقه طعيمة بن عدي وعقبة بن معيط، وشر الناس من يقتله خير الناس، ثم أشار جل شأنه لحضرة الرسول بأن هؤلاء مرصدون بالعذاب إذا هاجرت عنهم بقوله

"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ" يا سيد الرسل، أي أن عذاب الاستئصال لا يحل بهم

وأنت بين أظهرهم ، لأنك بعثت رحمة لهم وللعالمين أجمع ، وإن إيقاع عذاب الاستئصال على أمة حال وجود رسولهم خارج عن عادة الله التي سنّها في خلقه .

(228/303)

---

ويجوز أن يكون المعنى لو كنت فيهم لم يعذبوا بالقتل والأسر في الدنيا لأنّ منهم من سبقت له العناية بالإيمان كأبي سفيان وصفوان بن أمية وعكرمة ابن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن خزام وغيرهم ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم إن الله أنزل عليّ أمانين لأمتي (وما كان الله ليُعذّبهم) الآية ، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة - أخرجه الترمذي عن ابن عباس عن أبي موسى الأشعري - .

"وما كان الله مُعذِّبهم وهم يستغفرون" (33) "فلو استغفروا لم يعذبهم أيضا ، وقد نزلت هذه الآية لأن كفار قريش قالوا عند نزولها إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفره ، ولا يعذب أمة ونبيا معها ، فأصروا على ما هم عليه جهلا منهم ، ولم يعدوا ذلك نعمة عليهم فيرجعوا إلى الله ، بل لازمهم الغرور فرد الله عليهم بقوله "وما لهم ألا يعذبهم الله" أي شيء يمنعهم من تعذيبهم بعد خروجك منهم وكيف لا يعذبهم "وهم يصدون" الناس وأنفسهم" عن المسجد الحرام "من هم أولى به منهم كالرسول وأصحابه" وما كانوا أولياءه" أي المسجد



كما يزعمون .

وهذه الآية من دلائل النبوة إذ آل أمر البيت بعد نزول هذه الآية بثماني سنين إلى الرسول وأصحابه وجاءت ردا لهم إذ يقولون إنا أولى به منهم "إِنَّ أَوْلِيَاءُ هَؤُلَاءِ الْمُتَّقُونَ" الكفر والمعاصي لا المقيمون عليها "وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34)" ذلك جهلا منهم ، وبعضهم يعلم ويقول ذلك عنادا .

(229/303)

---

روى البخاري ومسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو جهل (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ) الآية فنزلت (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمُ) الآية ، قال ولما خرج من بيته حين بعثوا عليه شبانهم ليقتلوه خرج خفية وترك عليا بمكانه وذهب إلى بيت أبي بكر ثم إلى الغار نزلت (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ) الآية .

قال تعالى "وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً" صفيرا "وَتَصَدِيقَةً" تصفيقا ومن كانت هذه صلواتهم فليسوا بأهل لأن يكونوا أولياء له ، ولهذا يقال لهم في الآخرة "فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ" (35) "في الدنيا وتكذبون الرسل والكتب .

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا" الناس "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" بين الله في الآية السابقة كيفية عبادتهم الدينية بأنها عبارة عن سخرية واستهزاء ، وذكر في هذه الآية عبادتهم المالية بأنها في مناوأة الله ورسوله ، ولهذا قال جل قوله "فَسَيُنْفِقُونَهَا" بهذا القصد عبثا وسدى في الدنيا "ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً" وندامة يوم القيامة "ثُمَّ يَغْلِبُونَ" فلا يظفرون بما يؤملون وتكون عليهم خسارة في الدارين ، وأن صدّهم الموقت سيزول ويتولى البيت أهله ، "وَالَّذِينَ كَفَرُوا" وماتوا على كفرهم "إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ" (36) "لا إلى غيرها ، وإنما كان ذلك جزاءهم في الآخرة لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ" فينجي الطيب "وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ" يجمعه ويضم بعضه إلى بعض "جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ" فريق الخبيثاء "هُمُ الْخَاسِرُونَ" (37) "أنفسهم وأموالهم المغبونون في الدنيا والآخرة .

(230/303)

---

وهذا آخر الآيات السبع التي نزلت في مكة قبل الهجرة ، فلم ينزل بعدها شيء فيها ، وهي ثماني آيات ، وقد أمر رسول الله بوضعها هنا من هذه السورة بإشارة من الأمين جبريل عليه السلام ، وهو طبق ما هو مدون في لوح الله المحفوظ .

وبقية آي السورة هذه كلها مدنية ، وتقديم نزول بعض الآيات على بعض كما هو الواقع بأكثر  
سور القرآن العظيم المدني منها ، والمكي كان بسبب الحوادث والوقائع والسؤال ، وترتيب  
الآيات والسور على ما هو ثابت في المصاحف هو الموافق لما في علم الله المطابق لما أنزله إلى  
بيت العزة ، وان عمل عثمان رضي الله عنه مقصور على نسخه في المصاحف وأمر  
الكتابة الأمناء بإثباته ونقله من الصحف التي كانت عند عائشة رضي الله عنها المرتبة يعلم  
وامر حضرة الرسول ، وتحرير بعض حروف الكلمات على لغة قريش عند الاختلاف  
بالنطق بها من إمالة وإشباع ومد وقصر وقطع ووصل وهمز وتسهيل وفك وإدغام وتفخيم  
وترقيق وفصل وإيصال وتشديد وتخفيف وما أشبه ذلك مما لا يخالف رسم الكلمة بزيادة  
حرف أو نقصه ، كما أوضحناه في المقدمة وتطرقتنا له عند كل مناسبة كهذه .  
قال الكلبي والضحاك ومقاتل : نزلت هاتان الآيتان الأخيرتان في المطعمين يوم بدر وهم أبو  
جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ونبية ومنبه ابنا الحجاج وأبو البحتري والنضر وحكيم بن  
خزام وأبي بن خلف وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر والعباس بن عبد المطلب ، وكان  
كل منهم يذبح عشر جزر .

قال ابن اسحق إنهما نزلتا في أصحاب العير ، وذلك أنهم لما رجعوا من بدر طاف الذين  
فقدوا آباءهم على قريش وكلفوهم بالإنفاق عليهم كي يدركوا ثأرهم ، ومعظمه العير كان  
لأبي سفيان ، وسببه وقعت حادثة بدر .

وقال سعيد بن جبير ومجاهد نزلتا في أبي سفيان نفسه ، لأنه جهز الفين من الحبشة غير الذين استجاشهم لحرب أحد وأنفق عليهم أربعين أوقية من ذهب كل أوقية اثنان وأربعون درهما .

(231/303)

---

واعلم أن هذه الحوادث الثلاث وإن كانت كل واحدة منها صالحة لأن تكون سببا للنزول ولكن ثبوت كون الآيات نازلة بمكة قبل حادثة بدر بسنتين وحادثة أحد بثلاث سنين ينفي ذلك ، وكون الآيتين مسوقتين على كيفية نفقاتهم بعد بيان كيفية صلاتهم ومشعرتين بالتوبيخ على نوع الاتفاق والإنكار عليه بعد القول بسبب النزول وسياق الآية الأولى لبيان غرض الإنفاق والثانية لبيان عاقبته يؤذن بأن المراد هو العموم ، وانطباق الحوادث على ما جرىات الآيات لا يعني أنها سبب لنزولها ، وعناية ما فيها التشنيع على أعمال الكفار والتباعد عن مثلها والتحذير عن الوقوع فيما يستوجب الذم في الدنيا والعذاب في الآخرة .

قال تعالى " قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا " يا سيد الرسل " إِنْ يَنْتَهُوا " عن الشرك ودواعيه ويكفوا عن عداوة الرسول وأصحابه ويؤمنوا بالله إيمانا حقيقيا لا لعرض ولا لغرض عن طيب نفس وحسن نية يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ " من جميع أفعالهم مهما كانت " وَإِنْ يَعودُوا " إلى حالتهم

الأولى التي كانوا عليها قبل حادثة بدر ولم يتعظوا بها ويعتبروا بما حل بهم فيها ، فلا مناص لهم من عذاب يصيبهم مثل ما أصاب قومهم في بدر ، وهي عادة جرى فيها أمر الله بأمثالهم "فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (39)" الذين لم ينتهوا إلى ما يحل بهم بعد أن شاهدوا وسمعوا ما وقع بمن قبلهم ، أي أنه لا بد وأن يجري عليهم من الهلاك والدمار مثل ما جرى على من قبلهم نصرة لنبيه وإعلاء لكلمته ، كما كان للأنبياء قبله ، وقد أخذ من هذه الآية الكريمة الحكم الشرعي بأن الكافر إذا أسلم لا يلزمه شيء من قضاء العبادات الدينية والمالية ، ويكون كيوم ولدته أمه ، لأن الإسلام يجب ما قبله ، كما أن الكفر يجبط ثواب الأعمال الصالحة قبله .

(232/303)

---

قال تعالى "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ أَيْ لَا يَبْقَى شِرْكٌ يُفْتَنُ بِهِ قَطُّ" وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ "بأن يضمحل كل ما يتدين به ويمحى من وجه الأرض عدا دين الإسلام .  
راجع نظير هذه الآية الآية 149 من سورة البقرة المارة "فَإِنْ أَنتَهَوْا" عن الشرك ودواعيه وأسلموا لله وحده "فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ صَرَاهُ أَوْ جَهْرًا خَالصًا أَوْ مَشْوَاهًا .  
وقرئ الفعل بالياء والتاء على الغيبة والخطاب "بصيرٌ" بدقائق الأمور لا يخفى عليه شيء

من عمل خلقه "وَإِنْ تَوَلَّوْا" عنك يا سيد الرسل وأعرضوا عن الإيمان وعادوا لقتالكم مرة ثانية بعد هذه التي استؤصل فيها كبارهم وصناديدهم وبقوا مصرين على الكفر "فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ" حافظكم منهم وناصركم عليهم وكافيكم شرهم وهو "نِعْمَ الْمَوْلَىٰ" لمن يتولاه ويكل أمره إليه "وَيَعْمَ النَّصِيرُ" (40) "لمن ينصره، الأفلأمن من كان الله مولاه وناصره.

مطلب كيفية تقسيم الغنائم وصلاحيية الأمر فيها، ولزوم ذكر الله عند اللقاء، والتمسك بأصول الدين ليتحقق لهم النصر من الله:

(233/303)

---

قال تعالى "وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ" توصل ما مع أن إذا كانت كافة عن العمل، وتفصل كما هنا إذا كانت عاملة، وجملة غنمتم صلة، والعائد محذوف، والتقدير أن الذي غنمتموه "مِنْ شَيْءٍ" مطلق شيء بدليل التنوين "فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ" أي يصرف إلى هؤلاء على هذا الترتيب، ومعنى الغنم الفوز والظفر، والغنيمة ما أصابه المسلمون من أموال الكفار عنوة في القتال، ويكون فيها الخمس لمن ذكر الله في هذه الآية، والأربعة أخماس لمن شهد الواقعة، أما ما صولح عليه من غير

قتال فيكون جميعه لن سمي الله تعالى فيتسلمه أمير المؤمنين ويقسمه بين أربابه ، أما ما يأخذه الإمام من الأعشار والخراج والجزية والمكس ومال من لا وارث له مسلما كان أو كافرا وبدل المهادنة وتعويض الحرب فيحفظه لديه ليصرفه في مصالح المسلمين وتقويتهم معنى ومادة ، من عدد الحرب وإصلاح الطرق وعمارة القناطر والجسور ودور العجزة واليتامى والمجانين ودور العلم والذكر وجميع المنافع العامة ، وكيفية القسمة هي أن يقسم الخمس الذي هو لله خمسة أقسام : خمس لإمام المسلمين وخمس لأقارب الإمام غنيهم وفقيرهم سواء للذكر مثل حظ الأنثيين كما كان في زمن الرسول والخلفاء من بعده وهو حق باق ثابت إلى الأبد لثبوته في هذه الآية ولما روي عن جبير بن مطعم قال جئت أنا وعثمان بن عفان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركنا ونحن وهم بمنزلة واحدة ، فقال صلى الله عليه وسلم إنما بنو هاشم وبنو المطلب واحد .

(234/303)

---

وفي رواية أعطيت بني المطلب من خمس الخمس وتركنا ، وفي رواية لم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني عبد شمس ولا لبني نوفل شيئا - أخرجه البخاري - والدليل على أن

غنيهم وفقيرهم سواء ، إعطاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العباس وهو غني .

وخمس لليتامى والفقراء .

وخمس للمساكين والفقراء من غيرهم .

وخمس لأبناء السبيل بفريضة الله تعالى .

والأربعة أخماس يقسمها الإمام بين المجاهدين ثلاثة للفارس ، واحد له واثنان لفرسه ،

وواحد للرجل .

والدليل على هذا ما رواه ابن عمر أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قسم النفل للفرس

سهمين ، وللرجل واحدا .

وفي رواية يأسقاط لفظ النفل ، - أخرج البخاري ومسلم - ويعطى للعبيد والنساء

الذين حضروا الحروب وأعانوا المسلمين بالأكل والماء وحمل السلاح متيسر كما يعطى من

حضر القسمة المبينة في الآية 8 من سورة النساء الآتية .

أما الأرض والعقار فللإمام أن يجعلها وقفاً للمسلمين يتداولونها جيلاً بعد جيل ينتفعون

بربها ويحتفظون بربقتها ، وهو أولى من قسمتها بينهم لأنه إذا قسمها الإمام بينهم لم يبق

الذين من بعدهم شيء يقيمون به معاشهم لا سيما وإن بيت المال يجب أن يكون دائماً

مترعاً بالأموال لحفظ بيضة الإسلام ، فاعملوا بهذا أيها المؤمنون "إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ"

ورضيتم بحكمه "وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا" المنزل عليه هذه الآيات في هذه "يَوْمَ الْفُرْقَانِ" يوم



نزوله وهو المسمى بأنه الفارق بين الحق والباطل وقال بعض المفسرين إن الفرقان هو يوم بدر  
، لأن الله فرق فيه وفصل بين الحق

(235/303)

---

والباطل ، وكان يوم إنزال القرآن في 17 رمضان يوم الجمعة سنة 41 من الولادة الشريفة ،  
ويوم بدر يوم الجمعة أيضا في 17 رمضان السنة الثانية من الهجرة ، كما أشرنا إليه في  
المقدمة ، ولهذا فإن التفسير الأول أولى ، لأن الله تعالى القائل (ما فرطنا في الكتاب من  
شيء) لا يهمل يوم إنزال القرآن وهو أعظم من غيره ، لهذا فقد قصده في هذه الآية والله  
أعلم .

وقرن مع يوم بدر لعظمتها أيضا ، لأنه أول ظهور عظيم لشأن الإسلام ولمسلمين ، ولذلك قال  
"يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ" جمع المسلمين وجمع الكافرين ، وعليه يكون المعنى أن اليوم الذي أنزل  
فيه القرآن مثل اليوم الذي التقى فيه الجمعان برئاسة محمد صلى الله عليه وسلم ورتاسة  
عتبة بن ربيعة خذله الله ، لأن كلا منهما يوم الجمعة ويوم رمضان ، ولم يقع اختلاف في هذين  
اليومين من كونهما يومي الجمعة وكونهما في رمضان ، وإنما اختلفوا هل كان إنزال القرآن في  
17 أو 27 من رمضان فقط ، ولولا تعيين اليوم لا حتمل أن يقال نزل

جملة واحدة إلى بيت العزة في 27 رمضان ونجوما على المصطفى في 17 منه والله أعلم  
"وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 41" ومن قدرته نصر المؤمنين في ذلك اليوم مع قلة عددهم  
وعددهم على الكافرين مع كثرتهم عددا وعددا ، وهذه الآية نزلت في الغنائم الحاصلة من  
غزوة بني قينقاع الواقعة بعد حادثة بدر بشهر وثلاثة أيام في النصف من شوال على رأس  
عشرين شهرا من الهجرة ، وقال بعض المفسرين نزلت في حادثة بدر وليس بشيء ، وهي  
مخصصة للآية التي نزلت في غنائم بدر ومقيدة لها ، لانه نسخة كما المعنا إليه أول هذه  
السورة .

(236/303)

---

ثم شرع بعدد نعمه التي أنعمها على المؤمنين في هذه الحادثة بقوله واذكروا أيها المؤمنون "إِذْ  
أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا" سفير الوادي الأدنى من المدينة "وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى" البعدى منها مما  
يلي مكة "وَالرُّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ" من الحبل الذي به أبو سفيان وجماعته من قريش الذي  
خرجتم لأجله بعيد عنكم مما يلي البحر بثلاثة أميال "وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ" أنتم وإياهم على هذا  
الاجتماع في هذا الحبل "لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ" ولما أمكنكم أن تجتمعوا به فيه ، ولكنه كان  
صدفة من الصدفة الغريبة وأمر من الأمور العجيبة "وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا"

في أزله ومقدرا في مقدرته بأن يكون هذا المكان وهذا الزمان وإنما كان كذلك أيها المؤمنون  
"لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ رَأَاهَا وَعِبْرَةٌ عَابَتْهَا وَعَفَّةٌ شَاهَدَهَا وَحُجَّةٌ قَامَتْ عَلَيْهِ" وَيَحْيَى  
مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ" كذلك "وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ" لأقوالكم سرها وجهها "عَلِيمٌ (42)"  
بنياتكم وبما يقع لكم من النصر وعليهم من القهر .

(237/303)

---

واذكري يا سيد الرسل لقومك "إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا" لتقوى قلوب أصحابك  
فيجرءوا عليهم "وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَيْثُرًا لَفَشَلْتُمُ" بسبب ضعف هممة قومك ، ولجبنوا عن  
عدوهم وحدثتهم أنفسهم بالتراجع وتشتت آراؤهم "وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ" فيما بينكم  
فصار منكم من يجبذ الإقدام ويرغب فيه ، ومنكم من يجب الإحجام ويرغب عن اللقاء  
، فتصادم الآراء ويحصل الشقاق وتفكك عرى التوثق بينكم "وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ" وعصم  
قلوبكم من ذلك بسبب ذلك التقليل وأنعم عليكم بعد وقوع الخلاف المؤدي للهزيمة "إِنَّهُ  
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ 44" يعلم ما يحصل فيها من الجرأة والجبن والصبر والجزع ، ومن يميل  
إلى الإقدام ومن يجنح إلى الإحجام "وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ" أيها المؤمنون "إِذِ التَّقِيمُ" معهم يقظة  
عند التحام وتراص الصفين "فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا" تأكيداً لرؤياك يا صفوة الخلق ليطمئنوا

ويتحققوا أن ما تقوله لهم حق واقع لا محالة سواء عن رؤيا منامية أو مشاهدة عينية ،  
وهذه من أكبر النعم المقوية للقلوب الموجبة للإقدام عن رغبة ، إذ أراهم الجمع الكثير  
شرذمة قليلة .

قال ابن مسعود قلت لرجل جني تراهم منه ، فأسرنا منهم رجلا ، وسألناه ، فقال نحن ألف  
"وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ" قبل اللقاء ليجروا على مهاجمتكم ، ولا يتقاعسوا عنها حتى إذا  
قدموا عليكم رأوكم كثيرا فيبهتوا ويرعبوا وتنكسر شوكتهم وتختل معنوياتهم ، فيغلبوا ،  
وإنما فعل الله تعالى هذا معكم ومعهم "لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا" مقضيا بهلاكهم .  
ومن مغزى هذه الآية عدا ما ذكر تعليم العباد بابا من أبواب الحرب ، وذلك بأن يجعل القائد  
غير المدافع قوته العظيمة من وراء ، ثم يتقدم لعدوه بقوة يسيرة ليغريه على الإقدام والهجوم  
طمعا بالغلب ، فيجابه هذه القوة اليسيرة بكل ما لديه

(238/303)

---

من قوة بقصد سرعة القضاء على خصمه ، حتى إذا التحم الفريقان داهمهم بقوته الأخرى  
كلها فيستأصلهم عن آخرهم ، لأنهم يربعون من الكثرة التي طرأت عليهم غير حاسين لها  
حسابها ، وإنما قلنا غير المدافع لأن القائد المدافع يجب عليه أن يستعين بكل ما لديه من قوة

دفعه واحده كي يستطيع صد المهاجم ، وإلا إذا قدم ثلة ثلة فإن العدو يفنيهم أولاً بأول ،  
ويستهين بقوتهم القليلة ويطمع بالاستيلاء عليهم ، فيكون الغلب له ، والقتل والسبي والأسر  
بالمدافعين "وَاللّٰهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ" (45) فيحكم فيها بما يريد وفق ما هو في أذله .  
قال تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً كَافِرَةً لَا عَهْدَ لَهَا مَعَكُمْ وَلَا ذِمَّةَ "فَأَثْبُوا" لها  
ووطنوا أنفسكم على الصبر على الحرب والصدق عند اللقاء ، ولا تتصوروا الفرار أو  
تخيلوه أبدا ، لأنه متى وقع في قلوبكم جبنتم وكبر عدوكم في أعينكم وألقى الرعب في  
قلوبكم ، فتهزمون ، فيستضعفكم عدوكم ويعلو عليكم فتسلبون وتقتلون ، فقووا قلوبكم  
واثبتوا على الصبر واستعينوا بالله ربكم ، لا تتكلموا على كثرة أو قلة :  
من استعان بغير الله في طلب فإن ناصره عجز وخذلان  
"وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا" أثناء هجومكم عليهم بأن تقولوا الله أكبر الله أكبر منهم وأعظم من كل  
شيء وكل شيء دونه حقير ضعيف ، فكبروه كثيرا "لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ" (46) فتقوزون  
بالنصر على عدوكم والظفر فيهم .

(239/303)

---

واعلم أن هذه الآية ليست بنسخة للآية 16 المارة كما قاله بعض المفسرين ، لأنها لا تقدر بالثبات بالحرب ، لأن التحرف والتحيز منه ، وإنما كان المراد بالذكر هنا هو التكبير والله أعلم لما فيه من خذلان العدو ، فينبغي الإكثار منه عند المهاجمة والدعاء بالنصر وتخطر وعد الله بالظفر في القلب لأنه أدعى للثبات ، ولأن ذكر الله في أشد الأحوال موجب للإجابة إذ لا يكون فيها إلا عن نية صادقة واعتماد تام " وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ " لأنها من واجبات النصر أيضا .

وتباعدوا عن معصية الله ورسوله لأنكم في حالة أشد احتياجا إلى رحمته من غيرها ، وهذا العنصران طاعة الله وذكره من أقوى الأسباب الداعية للنصر والثبات وخذلان العدو .

فليتكم أيها المسلمون ترجعون إلى ما يأمركم به ربكم فتعملون به وتنتهون عما ينهاكم عنه فتجنبونه وتعترفون بذنوبكم فتستغفرونه ، فإنه تعالى يعينكم ويقويكم وينصركم .  
قال :

فإن اعتراف المرء بمحواقتراه كما ان انكار الذنوب ذنوب لأن المسلم المؤمن يلجأ إلى ربه فيأخذ بيده فلا يصر أحدكم على الذنب ولا يستغفره مهما كان ، ويطلب النصرة من ربه عند الشدة ، فالأحرى أن لا يرده الله ولهذا لما ترك المسلمون ما أمروا به وصاروا يستصحبون في الحروب الخمر والفتيات ويقولون عند الهجوم وطن

وطن بدل أن يكبروا الله غلبوا وخسروا ، لأن الوطن جزء من الإيمان وهم في حالة عارون فيها عنه ، غافلون عن ربهم ، فأني يستجاب لهم ؟ فالمسلمون لا ينصرهم الله إلا إذا تمسكوا بدينهم وعملوا ما أمروا به ، وإذا خالفوا تركهم .  
قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر وهو مؤمن فدعوى الإيمان وحب الوطن دعوى كاذبة ، لذلك يكذبهم الله ولا يوفقهم ويسلط عليهم عدوهم ، لأن الله تعالى قال كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

(240/303)

---

الآية 47 من سورة الروم في ج 2 وقوله الحق ووعدته الصدق ، ولكن هات المؤمنين وانظر إلى نصر الله المبين ، لأن المؤمنين لا يقيمون على المعاصي ولا يجارون الله بما ينعم عليهم ، فادعائهم الإيمان عبارة عن اسم ، ولا يكون المؤمن مؤمنا إلا إذا قام بأركان الإسلام الخمسة عن يقين واعتقاد وعمل .

فإذا فقد واحدا من هذه الثلاثة لا يكون مؤمنا ، وكيف إذا تركوا الجميع ؟ فالله سبحانه يتركهم ، لأنهم هم محتاجون إليه وهو الغني عنهم .

قال تعالى "وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا" وتخسروا لأن الفشل جبن مع ضعف "وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ"

قوتكم وجرأتكم ودولتكم "وَأَصْبِرُوا" على الشدائد في الحرب والمحنة فيه ولا تنهزموا "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ" بعونه ونصره .

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو وانتظر حتى مالت الشمس قام فيهم فقال : أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا (راجع الآية 153 من سورة البقرة المارة) واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم .

قال تعالى "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا" أشرا وطغيانا والبطر من تشغله نعمته عن الشكر "وَرِئَاءَ النَّاسِ" ليقال أنهم غزوا وقتلوا للشهرة والسمعة والصيت والحال أنهم يمتنعون "وَيَصُدُّونَ" الناس "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ" (48) "لا يعزب عن علمه شيء لإحاطته بجميع خلقه .

(241/303)

---

نزلت هذه الآية في كفار مكة الذين خرجوا لاستخلاص عير أبي سفيان ، فلما رأوه قد نجح بها قال لهم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجحها الله فارجعوا ، فقال



أبو جهل والله ما نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم فيها ثلاثة أيام ننحر الجزور ونشرب الخمر  
وتعزف علينا القينات ، فتسمع بنا العرب فيها بوننا .

فلما نزلوا سقاهم الله كأس الحمام بدل الخمر ، وناحت عليهم النوائح بدل القينات ،  
وسمعت بهم العرب فاستذلتهم .

قال تعالى مخبراً عن حالهم عند خروجهم لما خافوا من بني بكر كما مر في الآية 8 "وَإِذْ زَيْنَ  
لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ" أي اذكروا أيها المؤمنون هذه النعمة أيضاً لأنها من جملة ما حدث  
بقريش أعدائكم الألداء عند إرادتهم الخروج إلى قتالكم لتظفروا بهم "وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ  
الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ" فأمنوا على عيالهم وأموالهم وخرجوا .

ثم تصور لهم إبليس مرة ثانية مع جند من جنوده وشجعهم على اللقاء في صورة سراقه  
المذكور في الآية الثانية المارة ، وقال لهم ما قاله سابقاً ، فلما رأى جبريل والملائكة عليهم  
السلام وكانت يده بيد الحارث بن هشام فنفض يده وولى هو وجنده ، فقال له الحارث  
أفراراً من قتال يا سراقه وتزعم أنك جار لنا ؟ فأجابه بما قصه الله عز وجل بقوله "فَلَمَّا  
تَرَأَتِ الْقِسْمَانَ فِئَةً جَبْرِيلَ وَفِئَةً إِبْلِيسَ" نكصَّ إبليس وجنده "عَلَى عَقْبَيْهِ" ورجع  
القهقري "وَقَالَ" إلى الحارث وقومه حينما تركهم وولى "إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى" من  
الملائكة "مَا لَا تَرَوْنَ" أتم ما لا طاقة لي الوقوف معها .

مطلب الأشياء الموجودة الغير مرئية وتصور الشيطان والمحبة الخالصة الصادقة :

واعلم أن رؤية الشياطين للملائكة والأنس ثابتة لا نزاع فيها ، قال تعالى (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) الآية 27 من سورة الأعراف في ج 1 ،

(242/303)

وتوجد أشياء كثيرة موجودة حسا غير مرئية كمنسخ الظل الشمسي وأعمدة المهوية وشبهها عند سرعة دورانها ، وكذلك الهواء موجود غير مرئي والقوى الكهربائية موجودة غير مرئية .

ثم قال الخبيث "إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ" لأنه ظن عليه اللعنة أن القيامة قامت لعلمه أن جبريل ينزل فيها هو والملائكة ، ولذلك أردف قوله بما ذكر الله "وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (49)" وقد كذب أول الآية وصدق آخرها ، ولهذا لما رجعت قريش إلى مكة قالوا هزم الناس سرافة ، فجاءهم وقال لهم والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم ، فقالوا له أما أتيتنا وقت لنا ونحن بمكة أنا جار لكم ثم هربت ؟ فقال والله ما جئتكم بالأولى ولا في الثانية .  
ولما أسلم من بقي منهم عرفوا أنه إبليس .

أخرج مالك في الموطأ عن طلحة بن عبد الله ابن كرزان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما رئي الشيطان يوما هو أصغر ولا أعظ منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى من نزول

الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر ، فإنه قد رأى جبريل يزع الملائكة .

أي يسوي صفوفهم ويصلحها فيأمر هذا أن يتقدم وهذا أن يتأخر .

وسبق أن ذكرنا أنه كما تتصور الملائكة بصور البشر فكذلك الشياطين ، وان النفس

الباطنة لم تتغير ولا يلزم من تغيير الصورة تغيير الحقيقة .

وليعلم أن ذكر الله تعالى في مواطن الشدة لا سيما في حالة الجهاد من أقوى الأدلة على محبته

تعالى الصادقة التي لا يشوبها شيء ، لأن فيه السكينة ، قال تعالى (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ) الآية 31 من سورة الرعد الآتية ، ومتى اطمأن القلب زال عنه دواعي الخوف

فضلا عن أنه دليل المحبة لأن من أحب شيئا أكثر ذكره في كل حال ألا ترى قول عنتره :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها بوقت كبارق ثغرك المتبسم

(243/303)

---

وهو أبلغ ما قيل في هذا المعنى بالنسبة لمقام القول ، وفي مقام المحبة تراكضت أرواح

العاشقين وتفانت في ميدان أشباح السالكين ، حتى قال قائلهم :

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهوا حكمت بردتي وقد عدوا الموت في  
الحب من الجهاد الأكبر ، لأن الحياة الحقيقية التي فيها الوصال تعقبه ، قال ابن الفارض أيضا :  
ومن لم يمت في حبه لم يعيش به ودون اجتناء النحل ما جنت النحل  
وقد حسنوا التذلل في هذا الباب وعدوه من أسباب الوصال مع أنهم لم يعرفوا التذلل إلا لله  
فقالوا :

ويحسن إظهار التجلد للعدا ويقبح إلا العجز عند الحبائب  
وقالوا إن من صفات المحبين الخضوع وإنكار النفس حتى بالغ بعضهم فقال :  
مساكين أهل العشق حتى قبورهم عليها تراب الذل دون الخلائق  
وفي رواية بين المقابر ، واختلفوا في وصفه ومحلّه من الجسد ، وقيل في ذلك :  
يقولون إن الحب كالنار في الحشى ألا كذبوا فالنار تذكو وتحمد  
وما هو إلا جذوة مس عودها ندى فهي لا تذكو ولا تتوقد  
وقالوا في ذم من لم يحب :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا  
وقدمنا في الآية 67 من سورة الزخرف ج 2 ما يتعلق بالحببة فراجعها .

واذكري يا سيد الرسل لقومك "إِذ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ" من أهل المدينة "وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ" شك وريبة إذ لم يقو الإسلام في قلوبهم ولم تشرب بشاشة الإيمان فيها لما رأوا قتلتم عند ذهابكم لقتال المشركين في بدر قال بعضهم لبعض "غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ" صدق إيمانهم بالله وحملهم على ما لا طاقة لهم به من لقاء عدوهم لأن عددهم وعددهم أكثر وأقوى ، فقد هفوا ولم يعلموا أن توكلكم على ربكم لا على قوتكم وكثرتكم "وَمَنْ يُتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَيَتَّقْ بِهِ" فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يغلب من يتوكل عليه "حَكِيمٌ (49)" لا يسوي بين أحبابه وأعدائه فإنه ينصر أولياءه على قتلهم ، ويجذل أعداءه مع كثرتهم مهما كان عددهم وعددهم ، لأنهم طلبوا النصر منه وحسنوا ظنهم فيه وأيقنوا بالإجابة منه والله عند حسن ظن عبده به .

قال تعالى معجبا رسوله صلى الله عليه وسلم مما يقع على الكافرين عند الموت من البلاء والشدة "وَلَوْ تَرَىٰ" يا أكمل الرسل "إِذِ تَوْفَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ" لرأيت أمرا فظيلا هالك مرآه ، لأنهم إذ ذاك "يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ" عند الاقدام "وَأَدْبَارَهُمْ" حال الانهزام والأفطع من هذين الأمرين أنهم يقولون لهم بعد الموت موتوا "وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50)" في جهنم فهي مثواكم في الآخرة

"ذِكِّ" الذي حل بكم أيها الكفار في الدنيا من القتل وفي الآخرة من العذاب هو "بما قَدَّمْتُمْ  
أَيْدِيَكُمْ" من الشرك والمعاصي وظلمكم أنفسكم بذلك .

(245/303)

---

ووصفت اليد لأنها آلة العمل المؤثرة ، وإلا فالكفر محله القلب وعلامته اللسان "وَأَنَّ اللَّهَ  
لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51)" إذ لا يعذب أحدا بلا ذنب ، على أنه لو فعل فلا يعد ظلما  
لاستحالة نسبة الظلم إليه ، لأنه المالك المطلق وللمالك التصرف بملكه كيف يشاء ، ألا ترى  
أنك إذا هدمت دارك أو أخرجت ما هو ملكك لا يعترضك فيه أحد ؟ وإن عادة هؤلاء  
الكفار في كفرهم "كَدَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ  
إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52)" بحيث لا تطيقه الجبال الحديدية .  
وفي هذه الآية تهديد ووعد لهؤلاء الكفار والمنافقين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ،  
وإعلام بأنه تعالى سيعذبهم في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالنار ، كما عذب أولئك في الدنيا  
ويعذبه في الآخرة .  
والدأب إدامة العمل .

وسميت العبادة دأبا لمداومة الإنسان عليها "ذِكِّ" العذاب والانتقام "بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا

نِعْمَةٌ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" كي يكونوا هم السبب في ذلك ويندموا من حيث لا ينفعهم الندم ، لأن ما يحدثه للخلق من بعض ما هو مدون في أزله قبل خلقهم ، إذا لا يقع شيء إلا وهو مسجل في اللوح المحفوظ ثابت في علم الله "وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ" لما يقع من عبده سرا أو جهرا "عَلِيمٌ" (53) به قبل وقوعه .

وليعلم كل إنسان أن يذكر مع كل نعمة زوالها كي يحافظ عليها بالشكر ، ويذكر مع كل بلية كشفها ليحافظ على الرجاء من الله فإن ذلك أبقى للنعمة ، وأسلم من البطر ، وأقرب من الفرج ، لأن الدنيا دار تجارة ، فالويل لمن تزود منها الخسارة ، ويكفيك أنها مزرعة الآخرة ، وقيل في المعنى في هذا :

إذا أنت لم تبذر وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط في زمن البذر

(246/303)

---

وتشير هذه الآية إلى أن الله تعالى أرسل محمدا نعمة عظيمة لأهل مكة خاصة مكلمة لنعمهم الأولى من جوارهم لحماهم ، وأمنهم مما يخافون ، ومما يخافه غيرهم ، وتحويلهم رحلة الشتاء والصيف ، فلم يقدروها ولم يشكروها ، بل قابلوها بالكفر والجحود ، فنقله الله عنهم إلى الأنصار لأنه رحمة للعالمين أجمع ، راجع الآية 29 من سورة إبراهيم في ج 2 ،

والآية 43 من سورة الرعد الآتية .

وديدنهم هذا "كَدَّأَبِ آلِ فِرْعَوْنَ" لما كفروا بموسى عليه السلام "وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا  
بآيَاتِ رَبِّهِمْ" وكفروا بأنبيائهم أيضا "فَأَهْلَكْنَاهُمْ بَدُونِهِمْ" بعضهم بالخسف وبعضهم  
بالصيحة ومنهم بالحجارة ومنهم بالمسح والغرق ، وحرّم فرعون نعمة موسى إذ نقلت لبني  
إسرائيل الذين اتبعوه "وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ" وأنجينا موسى وقومه "وَكُلٌّ مِنَ الْمَعْدِينِ  
وَالْمُهْلَكِينَ" كانوا ظالمين (54) "أنفسهم وغيرهم ، فأخذناهم بظلمهم .

وقد كررت ألفاظ هذه الآية تأكيدا لأنها جرت مجرى التفصيل للآية الأولى التي ذكر فيها  
أخذهم وكفرهم بآياته ، وفي الثانية إعراضهم وتكذيبهم بآياته .

قال تعالى "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55) " لا يتوقع إيمانهم  
لتوغلهم بالكفر ، وهؤلاء "الَّذِينَ عَاهَدْتْ مِنْهُمْ" يا سيد الرسل "ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ  
مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56) " (56) نقض العهد مع أنهم أهل كتاب ودين يجب عليهم الوفاء به  
وعدم النكث بمقتضى كتابهم ودينهم ، وهم على العكس شأنهم شأن الذين لا دين لهم بل  
أضل .

(247/303)



قد نزلت هذه الآية في بني قريظة المار ذكرهم في الآية 26 إذ عاهدهم الرسول أولاً على أن لا يجاربه ولا يعاونون عليه ، فنقضوا عهدهم وأعانوا مشركي العرب عليه بسلاحهم ، وقالوا نسينا وأخطأنا ، ثم عاهدهم ثانياً فنكثوا أيضاً ومالوا عليه الكفار يوم الخندق ، وذهب رئيسهم كعب بن الأشرف إلى مكة وحالف قريش وأهلها على حرب الرسول . وقال سعيد بن جبير : نزلت في ستة رهط من اليهود منهم ابن تابوت كانوا عاهدوا ثم نقضوا .

قال تعالى "فَأِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ" يا محمد فتجدنهم وتصادفهم "فِي الْحَرْبِ" فتظفر بهم "فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ" أي نكل بهم غيرهم بأن تقتلهم قتلا ذريعا  
فظيعة ، تفرق به جمعهم وتكسر به شوكتهم ليعتربهم كل من تحدته نفسه بنقض العهد .  
وأصل التشريد التفريق مع الاضطراب "لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ" (57) "يتعظون فلا يجروا بعدهم  
أحد على نكته .

وهذه الآية من قبيل الإخبار بالغيب ، إذ وقعت كما ذكر الله تعالى ، لأن حضرة الرسول  
حكّم فيهم سعدا فحكّم فيهم بحكم الله ، كما سيأتي في الآية الثانية من سورة الحشر  
المشيرة إلى هذه الحادثة ، وقد ألمعنا إليها في الآية 27 المارة .

وفي هذه الآية وما بعدها فنون من فنون الحرب ودواعيه وما يتعلق به يعلمها الله إلى رسوله  
قبل وقوعها ليطبّقها عند الحاجة .

ولفظ الدواب يطلق على كل ما دبّ على وجه الأرض من إنسان وحيوان ، وقد جعل الله الكافرين من صنف الدواب في هذه الآية لأنهم شرّ منهم ، لأن الدواب الحقيقية لا تضر غالبا وهم يضرّون الناس ويكفرون نعم الله .

(248/303)

---

قال تعالى "وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ مُعَاهِدِينَ فَتَتَّقِ مِنْهُمْ "خِيَانَةً" غَدْرًا أَوْ نَقْضًا لِلْعَهْدِ مِثْلَ بَنِي قَرْيَظَةَ "فَأَنْبِذْ" اطْرَحْ وَارْمِ عَهْدَهُمْ "إِلَيْهِمْ" وَأَعْلَمِهِمْ بِفَسْخِ الْمَعَاهِدَةِ لِيَكُونُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلئَلَّا يَقُولُوا لَمْ تَجْرِبْنَا بِنَقْضِ الْعَهْدِ قَبْلَ وَيَتَهَمُوكَ بِالنِّكَثِ وَالْغَدْرِ ، حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ وَإِيَاهُمْ فِي عِلْمِ نَقْضِ الْعَهْدِ "عَلَى سِوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ" (58) " فِي كُلِّ شَيْءٍ .

الحكم الشرعي : إذا ظهرت آثار نقض العهد ممن هادتهم الإمام بأمر ظاهر مستفيض فلا حاجة لنبد العهد وإعلامهم بالحرب ، وإن ظهرت الخيانة به بأمارات من غير أمر مستفيض فيجب على الإمام إعلامهم بفسخ المعاهدة كما ذكر الله وقاية من سمات الغدر ولعلمهم يرجعون إلى عهدهم أو يستسلمون ويسلمون .

روى مسلم عن جابر عن رجل من حمير قال :

كان بين معاوية والروم معاهدة ، وكان يسير نحو بلادهم ليتقرب منهم ، حتى إذا نقض العهد

غزاهم ، فجاءه رجل على فرس أوبرزون وهو يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدرا ، فإذا هو عمرو بن عينية ، فأرسل إليه معاوية فسأله ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلها حتى ينتضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء .

فرجع معاوية . - أخرج أبو داود - وأخرج النسائي بمعناه .  
وقد أسهبنا البحث في هذا عند الآية 34 من سورة الإسراء  
ج 1 والآية 91 فما بعدها من سورة النحل في ج 2 فراجعها .

(249/303)

---

قال تعالى "وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا" أفلتوا وأنا لا نظفر بهم مرة ثانية ، بلى لا بدّ من ذلك "إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ" (59) لأن الطالب لهم غالب قوي قادر على الانتقام منهم في الدنيا قتلا وأسرا وجلاء ، وفي الآخرة عذاب شديد "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ" مالا ورجالا وسلاحا وخدعا وغيرها من كل ما فيه معنى القوة "وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ" أيضا قوة ، لأن ما يدركه الراكب لا يدركه الراجل ، فإنكم في هذه الأشياء "تُرْهِبُونَ بِهِ" ترعبون وتخدعون "عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ" فعليكم أيها المؤمنون بالاستعداد لأعدائكم من كل ما

يغيظهم ويرهبهم ، لأنكم بذلك ترعبونهم "وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ" تخوفونهم أيضا كاليهود  
والمنافقين الموجودين في زمنك ومن بعدهم في زمن غيرك إلى آخر الدوران من أناس "لَا  
تَعْلَمُونَهُمْ" أتم ولكن "اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" وسيظهرهم لكم بعد "وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ" مما يقوي جانب المؤمنين ويرهب أعداءهم ، وفي إعلاء كلمة الله ونصرة دينه وطاعة  
رسوله "يُوفِّ إِلَيْكُمْ" ثوابه كاملا مضاعفا في الآخرة ويخلف عليكم أوفر منه في الدنيا  
"وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ" (60) "شيئا من ثوابه وأنكم لا تعلمون كيف يكافئ الله عباده المنفقين  
أموالهم ابتغاء مرضاته ، لأنهم يعطيهم ما لا يتصورونه ولا تعقله أفهامهم مما لا عين رأت ولا  
أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .  
وفي هذه الآية تعليم من الله لعباده فيما تكون به عظمتهم وتقوى به شكيمتهم وتعظم به  
شوكتهم .

(250/303)

---

والعدة تطلق على الجند وعلى جميع الأسلحة والآلات والأطعمة التي هي من لوازم  
المحاربين في الحروب بالنسبة لما عند العدو وأقوى وأفخم ، وكذلك الحصون والمعازل  
وتعليم الجنود كيفية استعمال الأسلحة والرمي بها بحيث لا يقع سهم منها إلا في قلب العدو ،

وتعليمهم أيضا ماهية الحركات واستعمالها وركوبها برا وبحرا وهواء ، والآلات الحديثة ،  
والألغام والوقاية منها ، والقاذفات وما يقذف بها ، ومنها في الطائرات وغيرها وتعليم السير  
بها وتسييرها ، وحثهم على المحافظة عليها ومناظرتها وتعليمهم الخدع والحيل والمكر ،  
وجميع أبواب الحرب وتمارينهم عليها ، وحثهم  
على الطاعة للأوامر والاستعداد لتنفيذها عند الحاجة إليها .

ويجب أن يكونوا يقظين نبهين ، وأن يكون نصحهم بمواعظ حسنة تحبذ لهم بذل أنفسهم في  
سبيل الله إعلاء لكلمة الله وصيانة للبلاد والعباد ووقاية للأعراض والعجزى .  
واعلموا أيها الناس أن ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن عقبة بن ثامر من أن القوة  
الرمي لا ينفي كون غير الرمي من القوة ، بل قوة أيضا ، وهو على حد قوله صلى الله عليه  
وسلم :

الحج عرفة والندم توبة والدين النصيحة .

لأن غايته الدلالة على أنه من أفضل القوة ، والقوة الرمي لأن معظم الحرب يكون به وهو  
كذلك .

روى البخاري عن أبي أسيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين  
ضعفنا لقريش إذا كتبواكم (أي غشواكم) - وفي رواية : أكثروكم - فارموهم واستبقوا  
نبلكم .

وفي رواية :

إذا كتبوا عليكم بالنبل .

وروى عقبه عن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليدخلن بالسهم

الواحد ثلاثة نفر الجنه : صانعه يحتسب في عمله الخير ، والرامي به ، والمحدد له .

وفي رواية : ومنبله ، فارموا ، وان ترموا أحب إلي من أن تركبوا .

(251/303)

---

كل لهُو باطل ليس من اللهُو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه

بقوسه ، أي بنبله ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة

تركها أو كفرها - أخرجهُ أبو داود والترمذي مختصراً - .

فهذا الحديث والذي بعده وغيرهما تحث على تعليم المسلمين ما يلاقون به أعداءهم عند

الحرب من جميع أصناف الآتة ومعداته ، وانه مما يثاب عليه عند الله تعالى ويستوجب محبة

رسوله صلى الله عليه وسلم .

روى البخاري ومسلم عن سلمة بن الأكوع قال : مرّ النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من

أسلم ينتضلون بالقوس ، فقال صلى الله عليه وسلم ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً

، وأنا مع بني فلان ، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال صلى الله عليه وسلم ما لكم لا

ترمون ؟ فقالوا كيف نرمي وأنت معهم ؟ فقال ارموا وأنا معكم كلكم .

صلى الله عليه وسلم ما أرضاه لربه وأرضاه لصحبه وإرضاء لأهله وأرضاه لأمة .

وروى البخاري ومسلم عن عروة بن الجعد الباز حديثا بمعناه .

ومثله عن ابن عمر وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الخيل معقود في نواصيها

الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة .

وروى البخاري عن ابي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من احتبس فرسا

في سبيل الله إيمانا

بالله وتصديقا بوعده فإن شبعه وريته وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة (يعني حسنات) .

وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأشهمه .

(252/303)

---

وإنما أمر الله تعالى وحث رسوله على التأهب والاستعداد للحرب لأن الكفار إذا علموا أن المسلمين مستكملون جميع مهمات الحرب ومعداته ومتهيئون له وباذلون أموالهم وأنفسهم

في سبيله ، فإنهم يتباعدون عن دار الإسلام وثغورهم ، لا سيما إذا كانت الثغور معبأة بأعظم قوة وأقوى عدة ، وهذا هو الرباط الذي حرض الرسول أمته عليه ووعدهم عليه ثواب الله العظيم .

وسنين في الآية 176 من سورة آل عمران الآتية ما يتعلق في بحث الرباط وفضله بصورة مستفيضة واضحة .

قال صلى الله عليه وسلم : رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وان من مات مرابطاً أجرى عليه عمله ورزقه ، وأمن من الفتان .

وليعلم أن الاستعداد للحرب يسبب دخول الناس في الإسلام عفواً أو بذل الجزية للمسلمين دون إراقة الدماء تولى آمنوا على أنفسهم وأموالهم .

مطلب في جواز طلب الصلح من العدو .

وفي النسخ وجواز أخذ الفدية .

وعتاب الله الرسول على فداء الأسرى .

قال تعالى " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ " أي أعداؤك يا سيد الرسل بأن طلبوا الصلح " فَاجْنَحْ لَهَا " لا تعرض عنها " وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ " ولا تحف من أن يبطنوا لك غيره ، فالله يكفيكم " إِنَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) " بما يؤول إليه أمر الصلح من خير على الأمة ويكسب ميل الخلق

ومودتهم وفيه قيل :



لا تشد كل الشد فينفر عنك ، ولا تن كل اللين فيطمع فيك .

وقيل : لا تكن حلوا فتؤكل ولا مرا فتعاف .

وفي هذه الآية إشارة إلى صلح الحديبية ، إذ عاد على المسلمين بالنفع العام والخير الجزيل ،  
ولذلك وافق رسول الله عليه مع ما فيه من الحيف تأسيا بوصية الله تعالى في هذه الآية .

(253/303)

---

ثم خاطبه بما يوجب التيقظ بقوله "وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ" بطلب الصلح وميلهم إليه  
لتكف عنهم حال شدتهم ثم يكروا عليكم الكرة بعد استكمال قوتهم فلا يمنعك ذلك من  
قبول الصلح يا سيد الرسل ، ولا تخش كيدا "فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ" هو كافيك عنهم وعن  
مكرهم و"هُوَ الَّذِي آتَاكَ" فأعزك وقواك "بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62)" باطنا وظاهرا  
وبالمهاجرين والأنصار "وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ" بعد ما كانوا عليه من الخلاف والعداء والبغضاء  
تأليفا بليغا بحيث "لَوْ أَنْفَقْتَ" لا بتغائه كما كان وحصل "مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفَ بَيْنَ  
قُلُوبِهِمْ" مثل هذا التأليف الجامع "وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ" برحمته وجمع كلمتهم بقدرته وأماط  
تباغضهم وتماقنهم بفضله "إِنَّهُ عَزِيزٌ" غالب على ما يريد قوي على أعدائه "حَكِيمٌ 63"  
بصنعه .

وذلك أن بعثة الرسول فيهم قلبت الأنفة التي بينهم، وعظمة بعضهم، على بعض، وعصبية بعضهم مع بعض، وحسد هم، وأضغانهم في بعضهم لظما ولينا ورقة وسهولة وصفاء ومودة، كيف لا وهم صباح مساء يتمتعون بأنواره البهية، يأخذون من أطواره المرضية، فهدبوا وتلطفوا وتطهروا قلوبهم فتآخروا فيما بينهم وطابت قلوبهم.

(254/303)

---

قالوا وكان إذا لطم رجل منهم آخر قاتلت عنه قبيلته حتى يدركوا آثارهم، وبعد ما جاءهم الرسول اتفقوا على طاعة الله، وتركوا ما كان بينهم، وصاروا من أنصار الله ورسوله، وصاروا عظماء أفاء أقاموا الدين والدنيا، ولكن مع الأسف الآن ترى عظماء الرجال كالنيازك يضيئون العالم برهة ثم يحترقون، فلا حول ولا قوة إلا بالله، قال تعالى "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (64) عن كل أحد فصالح إذا صالحوا وقاتل إذا قاتلوا ولا نخش كيدا ولا غيره لأن الله ناصرنا ومؤيدك عليهم وقاهرهم وخاذلهم "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ" من أعدائهم "وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ" 65

ما أعد الله للمجاهد إذا قتل في سبيله مسلما، وفي هذه الآية الكريمة حث على الصبر

عند لقاء العدو والثبات بأن يقابل المؤمن عشرة من الكافرين ويقاتلهم لأنهم لا يفهمون من نتيجة الحرب إلا الغلب ، ولا يقاتلون إلا حمية وأنفة ، وليقال إنهم قاتلوا ، ولا يعتمدون إلا على أنفسهم ، والمؤمنون يقاتلون لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه ويتغون لقاء الله وإنجاز وعده وهو الثواب والسعادة

في الدنيا والشهادة والجنة في الآخرة ، لهذا يجدر بهم أن يصبروا على لقاء الجماعة ، لأنهم يعتمدون على معونة الله الذي لا يغلبه غالب ولا يلحقه طالب .  
وهذه الآية من الأخبار التي لا يدخلها النسخ ، ومن قال بنسخها قال إن الأخبار فيها من قبيل الأمر .

(255/303)

---

وعدها منسوخة بقوله تعالى "الآن خففَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا" بأن لا يقدر الواحد على العشرة ، ولا يستطيع الصبر على الثبات أمامهم ولا يمكنه الفرار لعدم جوازه ولشدة العقاب المترتب عليه ، فخففه الله بقوله "فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ" على القتال "يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ"

من الذين كفروا "وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)" وهذا

التخفيف من لطف الله بالمؤمنين ، بأن جعل عليهم لزاما مقابلة الواحد للآخرين من أعدائهم والصبر على مقابلتهما وعدم جواز الهرب من أمامهما ، ولكن الأخرى لهذا القائل بالنسخ أن يعدل إلى القول بأن الآية الثانية جاءت مخففة مخصصة للأولى ومقيدة لحكمها لانساختها ، وعليه فلا حاجة لأن تقول إن الخبر هنا بمعنى الأمر من حيث لا دليل عليه ، وقد أسهنا البحث في هذه الآية في المقدمة في بحث النسخ والمنسوخ فراجعها تعلم مغزى تسمية الله تعالى تخفيفا وأن لا يسوغ لنا أن نسميه نسخا ، روى البخاري عن ابن عباس قال : لما أنزلت (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ) الآية كتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ولا عشرون من مئتين ، ثم نزلت (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) فكتب أن لا يفر مئة من مئتين ، وفي رواية شق ذلك على المسلمين .

ومن هنا قال من قال بالنسخ ، مع أنه لا نسخ والآيتان محكمتان لقوي الإيمان قوي الجنان بأن يثبت ليس للعشرة فقط بل لأكثر وأكثر ، وللضعيف فيهم أن لا يفر من الاثنين ، وكم من ضعيف قلبه ضعيف إيمانه يفر من الصغير ، وكم من قوي قلب قوي إيمانه يقابل الكتيبة وحده .

(256/303)

---

وهذا مما لا ينكر قبل والآن وبعد كما هو ثابت بالتواتر حتى في زماننا هذا ، مع وجود  
البنادق والرشاشات وغيرها ، فكيف فيما كان الأمر مقتصرًا فيه على السيف والرمح  
والنبل ، وكيف بشاكي السلاح والأعزل قال تعالى " ما كان لَنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى  
يُشْحَنَ فِي الْأَرْضِ

أي يكثر القتل والأسر ويبلغ فيهما حتى تذلل له العصاة دون قتال وتطأ رؤسها إليه  
الكماة دون جدال ، وتكسر شوكة المناوئين له ، وتستسلم الجرمون لهيبته ، ثم يقبل الفداء  
، ولهذا عاتب الله تعالى رسوله وأصحابه على قبولهم الفداء لأول أمرهم وبدانية نصرهم  
في هذه الآية .

ثم طفق يؤنب فعلهم بقوله " تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا " الفاني الزائل البالي " وَاللَّهُ يُرِيدُ لَكُمْ شَرَفَ  
"الْآخِرَةِ" الدائم الباقي ويريد رفع شأنكم بإعزاز الإسلام والإغلاظ على الكفرة " وَاللَّهُ  
عَزِيزٌ " بالغ العزة والعظمة لو شاء لغلبهم دونكم بتسليط جند من جنوده عليهم " حَكِيمٌ  
(68) " بالغ الحكمة في تسلطكم على نفيرهم الكثير مع قتلكم عددا وعددا الأمر يريده ،  
والإسلاطكم على العير الذي كله دنيا ، وأغناكم به عن الفداء وغيره وصر فكم عن النفير  
الذي فيه الدنيا والآخرة .

فاعلموا أيها المؤمنون "لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ" بأنه لا يعذب أحدا باجتهاده في الحق  
"لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (68) لا يقاوم ولا يطاق ، لأن أخذ الفداء قبل أن

تعظم الهيبة في قلوب الأعداء وقبل أن تفشو القسوة عند سائر الناس لا يليق الإقدام عليه .  
ومن هنا قالوا : المجتهد إذا أصاب له أجران ، وإن أخطأ له أجر واحد .  
ولهذا لم يؤخذ الله رسوله وأصحابه الذين أشاروا عليه بأخذ الفدية لخلوص نيتهم  
ولرعايتهم الأصلح باجتهادهم ، إذ رأوا بالفدية صد حاجة المجاهدين واستبقاء المفديين  
أملًا بإسلامهم .

(257/303)

---

قال محمد بن إسحاق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرًا إلا أحب الفدية إلا عمر بن  
الخطاب ، فإنه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الأسرى وسعد بن معاذ  
فإنه قال يا رسول الله كان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال ، فقال صلى الله  
عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه إلا عمر وسعد بن معاذ .  
وأخرج مسلم في إفراده من حديث عمر بن الخطاب قال ابن عباس لما أسروا الأسارى ،  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ما ترون في هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر يا  
رسول الله هم بنو العشيرة أي إن تأخذ منهم فدية يكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن  
يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترى يا ابن الخطاب ؟

قال قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكني من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده ، فهوي رسول الله ما قاله أبو بكر ولم يهو ما قلت ، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يبكيان ، فقلت يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكا كما ، فقال صلى الله عليه وسلم أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله ، فأنزل الله هذه الآية إلى (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ) فأحل الله الغنيمة لهم .

(258/303)

---

ذكره الحميدي في مسنده عن عمر بن الخطاب بزيادة فيه ، وأخرجه الترمذي بزيادة أيضا وهي قوله صلى الله عليه وسلم إن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم ، قال (فَمَنْ تَبَعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي) الآية 26 من سورة إبراهيم في ج 2 ومثل عيسى قال (إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ) الآية 118 من سورة المائدة الآية ، ومثلك يا عمر كمثل نوح (قَالَ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ

الكافرين دياراً) الآية 26 من سورة نوح في ج 2 ، ومثلك يا عبد الله بن رواح كمثل موسى  
(قال ربنا اطمس على أموالهم) الآية 88 من سورة يونس ج 2 وذلك لأنه قال حينما  
استشاره الرسول صلى الله عليه وسلم في أسرى بدر قال يا رسول الله انظر واديا كثير  
الخطب فادخلهم فيه ثم اضرم عليهم نارا .

ولا دليل في هذا الآية على عدم عصمة الأنبياء كما قاله بعض العلماء ، لأن الأنبياء  
معصومون من الخطأ ، وما فعله حضرة الرسول من أخذ الفداء مطلق اجتهاد في حد  
الإثخان لأنه قتل يوم بدر سبعون وأسر سبعون من عظماء المشركين ، وكان هذا بالنسبة  
لنظر الأصحاب الذين أشاروا على حضرة الرسول بأخذ الفداء وبالنسبة لذلك الزم  
والعدو المنازل جدير بأن يسمى اثخانا ، لأن الإثخان ليس إهلاك من في الأرض في يقينهم ،  
فكان قبولهم الفداء اجتهادا منهم بأن ذلك كاف لإيقاع الرهبة الأعداء ، والاجتهاد لا يؤخذ  
باجتهاده لأنه قد يخطيء ويصيب ، وأجمعت الأمة :

أن الاجتهاد لا ينقض بمثله ، فلم ير رسول الله ترجيح اجتهاد عمر وأصحابه على رأى أبي  
بكر وأصحابه ، لأنه لم يقدم على ما فعله من أخذ الفداء استبدادا بل عن روى  
وتدبر .



---

ولهذا لم يؤاخذهم الله تعالى الذي أخبرهم بأن ما فعلوه بالمشركين لا يعد إثماً كما يستفاد من الآية ، فلم يبق لأحد إلا أن يقول أنه بالنسبة لذلك الزمن ولعدد هم يسمى إثمنا ابدا ، وقول الله هو الفعل الحق على أن الأمر بالقتل كان مختصا بالأصحاب لإجماع المسلمين على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بمباشرة الجهاد أي القتل إلى أن نزلت آية النساء ، وهي قوله تعالى (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ) الآية 84 الآية ، ولكنه ساوى نفسه مع أصحابه ، ولم يفضلها عليهم ليقوى يقينهم وتزداد شكيمتهم قوة ، فإذا كان ما وقع فيه شبهة ذنب فهو من الأصحاب لا منه صلى الله عليه وسلم ، مع أن أخذ الفداء لم يكن حراما ، والآية لا تدل على التحريم ، إذ لو كان حراما لمنعهم الله من أخذه ولردوه لأربابه .

(260/303)

---

وأما بكاء النبي صلى الله عليه وسلم فكان إشفاقا من نزول العذاب على أصحابه لاشتغالهم بالأسر وترك القتل ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : عرض علي عذابهم ، إلخ الحديث المتقدم ، ولو كان مرادا لقال عرض علي العذاب ، ولكن سياق خطاب الآية منصرفا إليه وحده ، ولهذا لما تبين لهم أن اجتهادهم ليس بمحله وأن ما فعلوه لا يعد إثمنا

عند الله ندموا على ما وقع منهم وخافوا من تأنيب الله إياهم ، فصاروا يبكون ، وإنما لم يرد الله أخذ الفداء لأن العرب إذا رأوا جواز الفداء عند محمد وأصحابه سهل عليهم الإقدام على حربه ثانيا وثالثا إذ لا قيمة للمال عندهم في مثل هذه المواطن ، وحتى الآن أمر العرب على هذا (ومنه ان من أهالي دير الزور السيد جمعة الفارس جاء إليه جماعة من عشيرته فطلبوا منه نصف مجيدي ، فقال لما ذا ؟ قالوا قتلنا رجلا ونريد أن تؤديه ، فأصاب كل رجل نصف مجيدي ، فأعطاهم وقال لهم إذا كان من تقتلونه يصيب الرجل منا نصف مجيدي من ديتة وتخلصون من دمه فاقتلوا كل يوم رجلا وتعالوا خذوا مني ما يصيني عن دمه . ) والله يريد قمع دابرهم وأضعاف الخوف في قلوبهم ، لأنهم إذا علموا أن الفداء لا يقبل وليس هناك إلا الذبح خافوا وأحجموا عن القتل والقتال ، وذلوا فينقادوا للإسلام قسرا ، وهذا هو المراد من قتالهم ، والإهانة عليهم الفداء وحرص بعضهم بعضا على القتل كما وقع من هذا الدير بعد ألف وثلاثمائة وست وخمسين سنة أو أكثر على حادثة بدر هذه ، والله أعلم بما يصلح لعباده .

(261/303)

---

قال تعالى مجيزاً لهم أخذ الفداء المذكور ولو كان سابقاً لأوانه لأن القصد من عدم أخذه ما ذكر أعلاه "فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا" لأنكم حرزتموه بكسب أيديكم وبذل أموالكم ونفوسكم "وَأَنْتُوا لِلَّهِ" من أن تقدموا مرة ثانية على عمل شيء قبل أن يعهد لكم فيه من قبل الله "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ" لكم ما تقدم فيما استبدتكم به من أخذ الفداء "رَحِيمٌ (69)" بكم إذا عفا عنكم ولم يؤخذكم به ، لأنه كان مبلغ علمكم ونتيجة اجتهادكم وجامعة شؤونكم . قال تعالى "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى" الذين قبلتم منهم الفداء "إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا" من الإيمان به والتصديق لرسوله وكتابه "يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ" من الفداء الذي فديتم به أنفسكم "وَيَغْفِرْ لَكُمْ" ما سلف منكم إلى لحظة إيمانكم "وَاللَّهُ غَفُورٌ" لمن تاب مهما كان عليه من الكفر "رَحِيمٌ (70)" بجميع عبادته يريد لهم الخير والرشد ويمهلهم ليرجعوا إليه ، فمتى رجعوا إليه عن يقين وإخلاص قبلهم على ما كان منهم ، وعفا عنهم .

هذا ويوجد في القرآن اثنتا عشرة آية مصدرية (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) هذه والتي قبلها عدد 65 ، 64 والآية 71 من سورة التوبة الآتية ، وفي الأحزاب 5 وواحدة في كل من سورة الممتحنة ، والطلاق ، والتحريم الآيات .

وقد نزلت هذه الآية في أسرى بدر الذين منهم العباس بن عبد المطلب ، إذ أخرج معه عشرين أوقية من الذهب ليطعم بها قومه كسائر رؤساء قريش كما أشرنا إليه في الآية 37

المارة، وقد صادفت نوبة إطعامه يوم الهزيمة فأسر ولم يطعم منها شيئاً، فأخذوها منه مع جملة ما أخذوه

(262/303)

---

من غيره، وكان كلم حضرة الرسول بأن يحسبها من الفداء فلم يفعل، لأنها صارت غنيمة كبقية الأموال والمعدات التي آلت إليهم بسبب غلبهم عليهم، وكذلك الأمتعة والألبسة وغيرها، وقال له إن شيئاً تستعين به علينا لا نتركه لك، وكلفه فداء ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال يا محمد تريد تركني أتكف قريشا؟ فقال صلى الله عليه وسلم أين الذهب الذي دفنته أم الفضل وقلت لها حين خروجك من مكة لا أدري ما يصيبني، فإن حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله وعبيد الله بني الفضل وقثم.

قال ما يدريك يا ابن أخي؟ قال أخبرني ربي،

قال أشهد أنك لصادق وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك عبده ورسوله، والله لم يطلع على هذا أحد إلا الله وأنا وأم الفضل، وأمر ابني أخيه المذكورين، فأسلما، ويرحم الله

الأبوصيري إذ يقول:

وإذا سخر الله سعيداً لآناس فإنهم سعداء

قال تعالى "وَأَنْ يُرِيدُوا خِيَاتَكَ" هؤلاء الأسرى يا سيد الرسل بعد ما مننت عليهم وأعتقتهم من القتل ولم يوف بعضهم بما تعهد به من الفداء "فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ" أن يخونوك فإنهم كفروا نعمته وكذبوا رسوله "فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ" أن يخونوك ولم يوفوا بما وعدوك به من بقية الفداء ، إذ ليس هذا بشيء عندهم بالنسبة لموقفهم من الله "وَاللَّهُ عَلِيمٌ" بما في صدورهم "حَكِيمٌ" (71) فيما يفعل بهم .

(263/303)

---

هذا آخر ما نزل في حادثة بدر في هذه السورة ، قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" ابتغاء مرضاته "وَالَّذِينَ آمَنُوا" الرسول وأصحابه المهاجرين وأسكنوهم في منازلهم وساووهم بأنفسهم "وَنَصَرُوا" الرسول وأصحابه في حادثة بدر وغيرها على أعداء الله وهم الأنصار من الأوس والخزرج "أُولَئِكَ" المتصفون بهذه الصفات الحميدة والأخلاق المجيدة "بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" في المعونة والنصرة والمودة والولاية ، حتى أنهم يرث بعضهم بعضا دون أقاربهم الكفار .  
ومن هنا أخذ منع الإرث عند اختلاف الدين والدار .

قال تعالى "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ" لأنهم مقيمون في مكة

وأتم في المدينة ، فلا تعاون ولا تناصر ولا توارث بينكم وبينهم ، ويستمر الأمر كذلك  
"حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا" فيكون ذلك كله بينكم وبينهم "وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ" أولئك الذين في مكة  
"فِي الدِّينِ" واستغاثوا بكم من أجله "فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ" واجب وتلزمكم معاوتهم ليتخلصوا  
من براثن الكفر فتقاتلوا الكافرين معهم لتلك الغاية .

وهذا فرض عليكم في كل حال "إِلَّا" إذا طلبوا معاوتكم "عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ"  
وعهد بعد المقاتلة فليس لكم نصرتهم وإعاتهم ، لأن الوفاء بالعهد واجب ولا بترك  
الواجب لأجل واجب مثله "وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (72) "لا يخفى عليه شيء من  
أعمالكم وأقوالكم .

وفي هذه الآية تحذير عن تعدي حد الشرع ، ونهي عن تجاوز حدود الله ، وأمر بمحافظه  
العهود ، ولزوم مراقبة أوامر الله ، لأن البصير هو المطلع على خفايا الأمور ووقائعها المحيط  
علمه بكل شيء .

(264/303)

---

قال تعالى "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" فلا توالوهم ولا تتولوهم وتباعدوا عنهم أيها  
المؤمنون ، لأن نصرتم إليهم يكون تقوية لهم وعزة لشأنهم ، وقد أمرتم بإضعافهم

وإذ لا لهم .

وهذه الآية تفيد ثبوت ولاية الكافرين بعضهم لبعض ، وتوارثهم بينهم ، وفيما نهي عن معوتهم ونصرتهم ، لأنها خبر بمعنى الإنشاء ، يؤيد هذا قوله تعالى "إِلَّا تَفْعَلُوهُ" الذي أمرتم به من تعاون المؤمنين ومقاطعة الكافرين وخذلانهم "تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ" (73) بينكم ، لأن المسلمين إذا لم يكونوا يدا واحدة على عدوهم في كل أمورهم الحسية والمعنوية ظهرت أعداؤهم عليهم ، وتفرقت كلمتهم ، ووهنت قوتهم ، وقد ينشأ من هذا انفاق كلمة المشركين ، وقوة شكيتهم ، وتحديهم للمسلمين ، لأن الفتنة هي قوة الكافر والفساد ضعف المسلمين ، ولهذا البحث صلة في الآيات 20 / 21 و 64 / 70 و 72 / 74 من سورة التوبة الآتية .

قال تعالى "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا" لأنهم بذلوا أموالهم وأنفسهم في طاعة الله ورسوله وهؤلاء "لَهُمْ مَغْفِرَةٌ" عظيمة لذنوبهم مهما كانت كثيرة وكبيرة "وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" (74) "في جنات النعيم ، ولا يعد هذا تكرارا لأن الآية الأولى ذكر فيها حكم ولايتهم بعضهم لبعض كما ذكر بعدها ولاية الكفرة بعضهم لبعض ، وفي هذه ذكر ما من الله به عليهم من فضله وخيره ، على أن إعادة الشيء مرة بعد أخرى تدل على مزيد الاهتمام به والتعظيم لشأنه وعلو شرفه وإمكان مكانته وتمكن العناية به .

قال تعالى "وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ" الهجرة الأولى ولحقوا بكم بعد الذين سبقوهم إليها  
"وَهَاجَرُوا" بعدهم "وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ" بأموالهم وأنفسهم "فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ" وأنتم منهم إلا  
أنهم لم يبلغوا درجة المهاجرين الأولين ، لأنهم عند الله أعظم مرتبة وقدرًا وأكثر تفاوتًا  
وأجرًا ، ولو لم يكن ذلك لما صح الإلحاق بهم "وَأُولُوا الْأَرْحَامِ"  
القرابات البعيدة "بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ" وحكمه من الميراث وغيره إذا كانوا  
على دين واحد ودار واحدة ، وإلا لا توارث بينهم كما مر آنفاً "إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"  
(75) "لا يعزب عن علمه شيء" ، وقد تمسك أبو حنيفة رضي الله عنه في هذه الآية في

أحكام توريث ذوي الأرحام ، وقال الشافعي

رضي الله عنه إن هذه الآية مقيدة لآية النساء المفصلة للإرث .

وسنأتي على ما يتعلق في الآيتين 117 وما بعدهما منها على هذا إن شاء الله .

وإن معنى كتاب الله هو حكمه الذي بينه فيها ، ولقائل أن يقول كيف تصح الإشارة إلى آية

هي متأخرة عنها ؟

فيقال انتصاراً للإمام الشافعي الموجه إليه هذا الاعتراض وهو من عرفت ، إنما صححت



الإشارة إليه لا بالنسبة لترتيب نزول القرآن ، بل بالنظر لترتيب القرآن الموجود في المصاحف  
الموافق لما هو في علم الله ولوحه ، ومناسبة هذه السورة لما قبلها بحسب النزول ظاهر ، لأن  
الذين يشملهم قوله تعالى (أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ) إلخ ، منهم الذين  
سألوا حضرة الرسول عن تقسيم الأنفال وحلتها وحرمتها ، كما أن مناسبتها لما بعدها  
صريح ، لأن الذي وفق هؤلاء المؤمنين للتعاون والتناصر والتأخي بينهم هو الله الذي لا إله  
إلا هو الحي القيوم المصدر به السورة التي بعدها ، وهكذا إذا دقت وجدت بين كل سورة  
وما بعدها وما قبلها مناسبة .

(266/303)

---

هذا والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على  
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني ح

5 ص 315.270 ﴿

(267/303)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوى فى تفسير القرآن الكريم  
ويسمى (جنة المشتاق فى تفسير كلام الملك الخلاق)  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورُسُلَى - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع بعد الثلاثمائة  
حُقوقُ النَّسخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/304)

---

الجزء الرابع بعد الثلاثمائة  
فصل فى الوقف والابتداء

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الأنفال

مدنية وقيل لإقوله " وإذ يكره الذين كفروا " الآيات السبع فمكي

يسألونك عن الأنفال صالح أو مفهوم وتقدم ذكره مع نظائره فى سورة البقرة لله والرسول كاف

وكذا ذات بينكم إن كنتم مؤمنين تام وكذا يتوكلون إن جعل ما بعده مبتدأ فأن جعل بدلا من

الذين إذا ذكر الله كان الوقف على ذلك جائزا ولا يضر الفصل بين البدل والمبدل منه لأن

ذلك آخر آية وعلى الوجه لا يوقف على ينفقون للفصل بين المبتدأ والخبر حقا حسن وقال

أبو عمرو كاف رزق كريم كاف إن علق كما بقوله قل الأنفال لله والافتام لا يضر فى الأول

الفصل بين المتعلق والمتعلق به لان ذلك رأس آية ولأن الكلام قد طال بالحق كاف وكذا

الكارهون وإنما يصلح الوقف عليهما إذا لم يتعلق كما يبجد لونك ينظرون كاف تكون لكم

داير الكافرين ليس بوقف لتعلق ما بعده به المجرمون تام إن علق إذ بأذكر مقداراً وكاف إن

علق بقوله ليحق الحق ويبطل الباطل ربكم حسن مردفين كاف وكذا قلوبكم ومن الله

وحكيم أمنة منه جائز به الاقدام صالح فثبتوا الذين آمنوا كاف الرعب صالح وكذا كل بنان  
ورسوله حسن وقال أبو عمرو كاف العقاب كاف وكذا فذقوه ثم يتدأ وأن للكافرين بتقدير  
واعملوا إن للكافرين عذاب النار تام الأدبار حسن من الله كاف وكذا وماواه جهنم المصير  
حسن قتلهم صالح رمي ليس بوقف تعلق ما بعده به إذ معناه ليبصرهم ويحترهم بلاء  
حسننا كاف عليهم حسن الكافرين تام خير لكم كاف ولو كثرت حسن وقال أبو عمرو كاف  
هذا إن قرئ وان الله بكسر الهمزة فأن قرئ بفتحها فليس الوقف على ذلك بحسن ولا  
كاف تعلق ما بعده بما قبله إذا لتقدير ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ذلكم وان الله مع  
المؤمنين مع المؤمنين تام ورسوله مفهوم تسمعون كاف لا يسمعون تام لا يعقلون كاف وكذا  
لأسمعهم معرضون تام لما يحييكم حسن وكذا تحرشون خاصة كاف العقاب حسن  
تشكرون تام تعملون حسن أجر عظيم تام ويغفر لكم كاف العظيم حسن أو يخرجوك كاف  
وكذا ويمكرون ولا يجمع بينهما ويمكر الله حسن وكذا خير الماكرين وأساطير الأولين  
وبعذاب

(5/304)

---

أليم وقال أبو عمرو في الأخيرين كاف وفي خير الماكرين تام وأنت فيهم كاف على قول من جعل الضمير في معذبهم للمؤمنين والضمير في ليعذبهم للكافرين ليفرق بينهما وليس بوقف على قول من جعله فيعما للكافرين وهم يستغفرون تام أولياءه حسن وقال أبو عمرو كاف لا يعملون تام وتصدية كاف تكفرون تام عن سبيل الله كاف وكذا يغلبون وفي جهنم الخاسرون تام ما قد سلف صالح سنت الأولين كاف كله لله صالح بصير كاف مولاكم حسن وقال أبو عمرو كاف ونعم النصير تام التقي الجمعان كاف قدير صالح وقال أبو عمرو كاف والركب أسفل منكم كاف وكذا من حي عن بينة وعليه قليلا صالح سلم كاف الصدور صالح كن مفعولا كاف ترجع الأمور تام تفلحون حسن ورسوله كاف ربحكم صالح وكذا واصبروا الصابرين حسن عن سبيل الله كاف وكذا محيط جار لكم صالح كذا ما لا ترون أخاف الله وكذا شديد العقاب دينهم حسن وقال أبو عمرو تام حكيم تام ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا زعم بعضهم انه وقف وبعضهم إن الوقف على الملائكة يتبدأ بضر بون أي هم ي ضربون والوقف على الموضعين عند القائل به وقف بيان وأراد الأول أن يبين به أن الملائكة هي الضاربة لوجوه الكفار وأدبارهم وأن الله هو الذي يتوفاهم وأراد الثاني أن يبين به أن الملائكة هي التي تتوفاهم بقريته توفاه رسلنا لتلايشل بأن الملائكة ضاربة لا متوفية والاختيار أن لا يوقف على الموضعين بل على أدبارهم وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيحا الحريق كاف للعبيد صالح والأحسن وصلة بدأب آل فرعون والذين من قبلهم

فيوقف عليه بذنوبهم كاف وكذا العقاب ما بأنفسهم صالح وكذا آل فرعون  
ظالمين تام وكذا لا يؤمنون إن جعل الذين بعده مبتدأ وإن جعل بدلا من الذين قبله وهو  
الأحسن لم يكن الوقف تاما بل كاف لا يتقون كاف وكذا يذكرون وعلى سواء الخائنين تام  
سبقوا حسن لمن قرأ انهم بكسر الهمزة وليس بوقف لمن قرأه بفتحها لا يعجزون صالح ومن  
رباط الخيل كاف لا

(6/304)

---

تعلمونهم صالح الله يعلمهم تام يوف إليكم مفهوم لا تظلمون حسن على الله كاف العليم  
حسن وكذا حسبك الله وألف بين قلوبهم تام ألف حسبك الله كاف إن جعل ومن اتبعك  
في محل رفع بالابتداء بتقدير ومن اتبعك من المؤمنين كذلك أو في محل نصب بتقدير يكفئك  
الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين وليس بوقف إن جعل ذلك محل رفع  
عظفا على اسم الله أو في محل جر عظفا على الكاف من المؤمنين تام على القتال حسن  
وكذا لا يفقهون ضعفا كاف وكذا يا ذن الله مع الصابرين تام في الأرض صالح عرض الدنيا  
مفهوم الآخرة صالح عزيز حكيم حسن وكذا عذاب عظيم طيبا جائزا وانقوا الله كاف  
رحيم تام ويغفر لكم كاف رحيم حسن فأمكن منهم كاف حكيم تام أولياء بعض حسن

حتى يهاجروا كاف وفساد كبير تام حقا حسن وقال أبو عمرو كاف كريم تام فأولئك منكم  
حسن وقال أبو عمرو كاف في كتاب الله كاف آخر السورة تام . على اسم الله أو في محل جر  
عظفا على الكاف من المؤمنين تام على القتال حسن وكذا لا يفقهون ضعفا كاف وكذا  
يأذن الله مع الصابرين تام في الأرض صالح عرض الدنيا مفهوم الآخرة صالح عزيز حكيم  
حسن وكذا عذاب عظيم طيبا جائز واتقوا الله كاف رحيم تام ويغفر لكم كاف رحيم  
حسن فأمكن منهم كاف حكيم تام أولياء بعض حسن حتى يهاجروا كاف وفساد كبير تام  
حقا حسن وقال أبو عمرو كاف كريم تام فأولئك منكم حسن وقال أبو عمرو كاف في كتاب  
الله كاف آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد ص 318.329 ﴾

(7/304)

---

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الأنفال

مدنية إلا سبع آيات أولها وإذ يكر بك الآيات السبع فمكي وهي سبعون وخمس آيات في  
الكوفي وست في المدني والمكي والبصري وسبع وسبعون في الشامي اختلافهم في ثلاث  
آيات ثم يغلبون عدها البصري والشامي ليقضي الله أمراً كان مفعولاً الأول لم يعدها الكوفي

بنصره وبالمؤمنين لم يعدها البصري وكلمها ألف ومائتان واحد وثلاثون كلمة وحروفها  
خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع  
ثمانية مواضع أولئك هم المؤمنون رجز الشيطان فوق الأعناق عن المسجد الحرام إلا المتقون  
يوم الفرقان يوم التقى الجمعان أمراً كان مفعولاً الثاني بعده وإلى الله ترجع الأمور 0

عن الأنفال (جائز) وقيل ليس بوقف لأن ما بعده جواب لما قبله 0

والرسول (كاف) لأن عنده انقضى الجواب وقيل حسن لعطف الجملتين المختلفتين بالفاء 0  
ذات بينكم (كاف)

مؤمنون (تام)

وجلت قلوبهم (حسن)

وعلى ربهم يتوكلون (تام) إن رفع الذين على الابتداء والخبر أولئك هم المؤمنون حقاً أو رفع  
خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين وكاف إن نصب بتقدير أعني وليس بوقف إن جعل بدلاً  
مما قبله أو نعتاً أو عطف بيان 0

ينفقون (حسن) إن لم يجعل أولئك خبر الذين للفصل بين المبتدأ والخبر 0

حقاً (كاف) وقيل تام 0



---

كريم (كاف) إن عقلت الكاف في كما بفعل محذوف وذكر أبو حيان في تأويل كما سبعة عشر قولاً حاصلها أن الكاف نعت لمصدر محذوف أي الأنفال ثابتة لله ثبوتاً كما أخرجك ربك أو وأصلحوا ذات بينكم إصلاحاً كما أخرجك ربك أو وأطيعوا الله ورسوله طاعة محققة كما أخرجك ربك أو وعلى ربهم يتوكلون توكللاً حقيقياً كما أخرجك ربك أو هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك أو استقر لهم درجات استقراراً ثابتاً كاستقرار إخراجك فعلى هذه التقديرات الست لا يوقف على ما قبل الكاف لتعلقها بما قبلها وإن عقلت بما بعدها بتقدير يجادلونك مجادلة كما أخرجك ربك فهي متعلقة بما بعدها أو لكارهون كراهية ثابتة كما أخرجك ربك أو أن الكاف بمعنى إذ وما زائدة نحو وأحسن كما أحسن الله إليك فمعناه وأحسن إذا أحسن الله إليك لأن كما على هذا متعلقة بمضمر فيسوغ الوقف على ما قبل كما والتقدير اذكر إذ أخرجك ربك أو إن الكاف بمعنى على والتقدير امض على الذي أخرجك وإن كرهو ذلك كما في كراهتهم له أخرجك ربك أو أن الكاف في محل رفع والتقدير كما أخرجك ربك فاتق الله أو أنها في محل رفع أيضاً والتقدير لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم هذا وعد حق كما أخرجك أو هي في محل رفع أيضاً والتقدير وأصلحوا ذات بينكم ذلكم خير لكم كما أخرجك ربك أو هي في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف أي هذا الحال من تنفيلك الغزاة على ما رأيت في كراهتهم لها كحال

إخراجك للحرب أو هي صفة لخبر مبتدأ وحذوف هو وخبره والتقدير قسمتك الغنائم  
حق كما كان إخراجك حقاً أو أنّ التشبيه وقع بين إخراجين إخراج ربك إياك من مكة  
وأنت كاره لخروجك وكان عاقبة ذلك الإخراج النصر والظفر كإخراجهم إياك من المدينة  
وبعض المؤمنين كاره يكون عقب ذلك الخروج النصر والظفر كما كان عاقبة ذلك الخروج  
الأول السابع عشر إنها قسم مثل والسماء وما بناها بجعل الكاف بمعنى الواو قاله أبو  
عبيدة ومعناه والذي أخرجك كما قال وما خلق الذكر والأنثى

(9/304)

---

أي والذي خلق الذكر والأنثى وبهذه التقادير يتضح المعنى ويكون الوقف تابع للمعنى فإن  
كانت الكاف متعلقة بفعل محذوف أو متعلقة بيجادلونك بعدها أو جعلت الكاف بمعنى  
إذ أو بمعنى على أو بمعنى القسم حسن الوقف على كريم وجاز الابتداء بالكاف وليس  
بوقف إن جعلتها متصلة بيسألونك أو بغير ما ذكر واستيفاء الكلام على هذا الوقف جدير  
بأن يخص بتأليف وفيما ذكر غاية في بيان ذلك والله الحمد 0

لكارهون (كاف) على استئناف ما بعده 0

بعد ما تبين (جائز)

ينظرون (تام)

أنها لكم (صالح)

تكون لكم (حسن)

الكافرين ليس بوقف تعلق ما بعده بما قبله 0

المجرمون (كاف) وقيل تام إن علق إذ باذكر مقدرة وكاف إن علق بقوله ليحق الحق ويبطل  
الباطل إي يحق الحق وقت استغاثتكم وهو قول ابن جرير وهو غلط لأن ليحق مستقبل لأنه  
منصوب يا ضمارة إن وإذ ظرف لما مضى فكيف يعمل المستقبل في الماضي قاله السمين 0  
ريكم (حسن)

مردفين (كاف) ومثله به قلوبكم للابتداء بالنفي 0

إلا من عند الله (حسن)

حكيم (تام) إن نصب إذ باذكر مقدرة وليس بوقف إن جعل إذ بدلاً ثانياً من إذ يعدكم ومن  
حيث كونه رأس آية يجوز قرأ نافع يغشاكم النعاس بضم التحتية وسكون المعجمة ونصب  
النعاس وقرأ أبو عمرو يغشاكم النعاس برفع النعاس وقرأ الباقون يغشاكم النعاس بتشديد  
الشين المعجمة ونصب النعاس 0

أمنة منه (جائز)

به الأقدام (كاف) إن علق إذ بمحذوف 0

فثبتوا الذين آمنوا (تام)

الربع (حسن)

فوق الأعناق ليس بوقف للعطف 0

كل بنان (حسن) ومثله ورسوله الأول 0

العقاب (تام)

فذوقوه (جائز) بتقدير واعملوا أن للكافرين أو بتقدير مبتدأ تكون أن خبره أي وحتم أن

وليس بوقف إن جعلت وأن بمعنى مع أن أو بمعنى وذلك أن 0

عذاب النار (تام)

الأدبار (كاف) للابتداء بالشرط

من الله (حسن)

وماواه جهنم (أحسن منه)

المصير (تام)

قتلهم (حسن)

ولكن الله رمى ليس بوقف لتعلق ما بعده بما قبله إذ معناه ليبصرهم ويختبرهم وإن جعلت

اللام في وليبلى متعلقة بمحذوف بعد الواو تقديره وفعلنا ذلك أي قتلهم ورميهم ليبلى

المؤمنين كان وفقاً حسناً 0

بلاء حسناً (كاف) ومثله عليهم

الكافرين (تام)

الفتح (حسن) للفصل بين الجملتين المتضادتين مع العطف 0

خيراً لكم (كاف) على استئناف ما بعده 0

نعد (جائز)

ولو كثرت (كاف) على قراءة وإن بكسر الهمزة وبها قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة

والكسائي وأبو بكر عن عاصم وليس بوقف إن قريء بفتحها لتعلق ما بعدها بما قبلها وإن

قد عمل فيها ما قبل الواو وفتحها قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وحنص عن عاصم وابن

عامر وذلك على تقدير مبتدأ تكون أن في موضع رفع أي ذلكم وأن أو في موضع نصب أي

واعلموا أن الله مع المؤمنين 0

والوقف على المؤمنين (تام) للابتداء بيا النداء 0

ورسوله (تام)

تسمعون (كاف) وقيل جائز لعطف ولا تكونوا على قوله ولا تولوا 0

لا يسمعون (تام)

لا يعقلون (كاف) ومثله لأسمعهم

معرضون (تام) للابتداء بيا النداء 0

لما يجيبكم (كاف)

وقلبه (حسن) بتقدير واعلموا أنه وليس بوقف إن جعل وإنه معطوفاً على ما قبله 0

تحشرون (كاف)

خاصة (حسن)

العقاب (كاف)

تشكرون (تام)

تعلمون (كاف)

عظيم (تام)

ويغفر لكم (كاف)

العظيم (تام)

أو يخرجوك (حسن) ومثله ويمكرون

ويمكر الله (أحسن منه)

الماكرين (كاف) وقيل (تام)

مثل هذا (حسن) ولا بشاعة في الابتداء بما بعده لأنه حكاية عن قائل ذلك 0

الأولين (كاف) ومثله أليم 0

وأنت فيهم (حسن) على أن الضمير في معذبهم للمؤمنين والضمير في ليعذبهم للكفار ليفرق

بينهما وليس بوقف على قول من جعله فيهما للكفار 0

وهم يستغفرون (تام) لأن الله لا يهلك قرية وفيها نبيها وما كان الله معذبهم لو استغفروه من

شركهم وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم لا يستغفرون من كفرهم بل هم مصرون على الكفر

والذنوب 0

أولياءه (كاف)

(11/304)

---

إلا المتقون ليس بوقف لحرف الاستدراك بعده 0

لا يعلمون (تام)

وتصدية (حسن) قرأ العامة صلاتهم بالرفع مكاءً بالنصب وقرأ عاصم وما كان صلاتهم

بالنصب ورفع مكاءً وخطأ الفارسي هذه القراءة وقال لا يجوز أن يخبر عن النكرة بالمعرفة

إلا في ضرورة كقول حسان:

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُونُ مَزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ

وخرجها أبو الفتح على أن المكاء والتصدية اسما جنس واسم الجنس تعريفه وتنكيره  
متقاربان وهذا يقرب من المعرف بأل الجنسية حيث وصفه بالجملة كما توصف به النكرة  
كقوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وقوله :

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثم قلت لا يعنيني

وقرأ مكى بالقصر والتنوين وجمع الشاعر بين القصر والمد في قوله :

بكت عيني يحق لها بكاهها وما يغني البكاء ولا العويل

ونظير هذه القراءة ما قريء به قوله أولم لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل برفع آية وهي  
ضعيفة وذلك أنه جعل اسم يكن نكرة وخبرها معرفة وهذا قلب ما عليه الباب ومن ذلك  
قول القطامي :

قفي قبل التفرق يا ضباعا ولايك موقف منك الوداعا

وذلك أن قوله أن يعلمه في موضع نصب خبر يكن ونصب آية من وجهين إما أن تكون خبرا

ليكن وإن يعلمه اسمها فكأنه قال أولم يكن علم علماء بني إسرائيل آية لهم 0

تكفرون (تام)

عن سبيل الله (حسن)

يغلبون (كاف) ورأس آية في البصري والشامي لأن والذين مبتدأ 0



يخشرون ليس بوقف لتعلق لام ليميز بقوله يخشرون ومن حيث كونه رأس آية يجوز 0

من الطيب ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله 0

في جهنم (كاف)

الخاسرون (تام)

ما قد سلف (حسن) للابتداء بالشرط 0

الأولين (كاف) كل ما في كتاب الله من ذكر سنة الله فهو بالهاء إلا في خمسة مواضع فهو بالتاء

المجرورة هنا سنت الأولين وإلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلاً ولن تجد لسنت

الله تحويلاً ثلاثهن في فاطر وسنت الله التي قد خلت في غافر 0

كله لله (كاف) للابتداء بعد بالشرط 0

(12/304)

بصير (كاف) ومثله مولاكم 0

النصير (تام) ولا وقف من قوله واعلموا إلى الجمعان فلا يوقف على ابن السبيل لتعلق

حرف الشرط بما قبله أي واعلموا هذه الأقسام إن كنتم مؤمنين وإن جعل إن كنتم شرطاً

جوابه مقدر لا متقدم أي إن كنتم آمنتم فاعلموا أن حكم الخمس ما تقدم أو فأقبلوا ما

أمرتم به كان الوقف على ابن السبيل كافياً 0

الجمعان (كاف) وكذا قدير ومثله أسفل منكم 0

لاختلفتم في الميعاد وصله أحسن لحرف الاستدراك وقيل يجوز بتقدير ولكن جمعكم هنا

والأول أولى 0

كان مفعولاً ليس بوقف لتعلق لام ليهلك بما قبلها 0

عن بينة الثاني (حسن)

عليم (كاف) على استئناف ما بعده ولا يوقف عليه إن جعل ما بعده متعلقاً بما قبلها أي

وإن الله لسميع عليم إذ يريكم الله في منامك قليلاً 0

وقليلاً (حسن)

في الأمر لا يوقف عليه تعلق ما بعده بما قبله استدراكاً وعطفاً 0

سلم (كاف) وكذا الصدور

وقليلاً (تام) إن جعل المعنى واذكر إذ يريكم وهم وإن جعل معطوفاً على ما قبله كان كافياً

0

مفعولاً (حسن)

الأمر (تام) للابتداء بعد بيا النداء 0

تفلحون (كاف) ومثله ورسوله

ريحكم (حسن)

واصبروا (أحسن منه)

الصابرين (كاف) ومثله عن سبيل الله وكذا محيط 0

جار لكم (حسن) ومثله بريء منكم وما لا ترون وأخاف الله كلها حسان 0

العقاب (كاف) إن جعلت التقدير اذكر إذ يقول 0

دينهم (تام) لأنه آخر كلام المنافقين 0

حكيم (تام)

(13/304)

---

كفروا (بيان) بين بهذا الوقف المعنى المراد على قراءة يتوفى بالتحية أن الفاعل هو ضمير يتوفى عائد على الله وإن الذين كفروا في محل نصب مفعول يتوفى والملائكة مبتدأ والخبر يضرbon وإن الملائكة هي الضاربة لوجه الكفار وأدبارهم وكذا إن جعل الذين كفروا فاعل يتوفى بالتحية والمفعول محذوف تقديره يستوفون أعمالهم والملائكة مبتدأ وما بعده الخبر فعلى هذين التقديرين الوقف على كفروا وليس بوقف لمن قرأ تتوفى بالفوقية أو التحية والملائكة فاعل ويضرbon في موضع نصب حال من الملائكة وحينئذ الوقف على

الملائكة ويبتديء يضربون وجوههم فيبين به أنّ الملائكة هي التي توفاهم ولم يصل الملائكة  
بما بعده لئلا يشكّل بأنّ الملائكة ضاربة لا متوفية والأولى أن لا يوقف على كفروا ولا على  
كفروا ولا على الملائكة بل على قوله وأدبارهم أي حال الإدبار والإقبال وجواب لو  
مخدوف تقديره لرأيت أمراً عجيباً وشياً هائلاً فظيعاً 0

الحريق (كاف)

للعبيد (جائز) والأولى وصله بكذاب آل فرعون وتقدم ما يعني عن إعادته في آل عمران  
فعليك به إن شئت والدأب العادة أي كدأب الكفار في ما لهم إلى النار مثل ما آل فرعون لما  
أيقنوا أنّ موسى نبي فكذبوه كذلك هؤلاء جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم فكذبوه  
فأنزل الله بهم عقوبة كما أنزل بال فرعون 0

والذين من قبلهم (جائز) ثم يبتديء كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم 0

بذنوبهم (كاف) ومثله العقاب

عليم (جائز) وفيه ما تقدم من أنّ الكاف في محل نصب أو في محل رفع والذين من قبلهم كأمة

شعيب وصالح وهود ونوح 0

آل فرعون (حسن) على استئناف ما بعده 0

ظالمين (تام)

لا يؤمنون (تام) إن جعل الذين بعده مبتدأ والخبر فيما بعده وكذا إن جعل خبر مبتدأ

محذوف تقديره هم الذين أوفى موضع نصب بتقدير أعني الذين وليس بوقف إن جعل بدلاً  
من الذين قبله وهو الأحسن ومن حيث كونه رأس آية يجوز 0  
لا يتقون (كاف) ومثله يذكرون وكذا على سواء 0

(14/304)

الخائنين (تام)

سبقوا (حسن) لمن قرأ إنهم بكسر الهمزة مستأنفاً وهذا تمام الكلام أي لا تحسب من أفلت  
من الكفار يوم بدر فأتونا بل لا بد من أخذهم في الدنيا وليس بوقف لمن قرأ بفتحها بتقدير  
لأنهم لا يعجزون فهي متعلقة بالجملة التي قبلها 0

لا يعجزون (كاف) ومثله من رباط الخيل

وعدوكم (حسن) وتام عند الأخفش ويجعل قوله وآخرين منصوباً بإضمار فعل غير  
معطوف على ما قبله لأنَّ النصب بالفعل أولى وليس بوقف إن جعل وآخرين معطوفاً على  
وأعدوا لهم من قوة أي وتوتوا آخرين أو معطوفاً على وعدوكم أي وترهبون آخرين  
والتفسير يدل على هذين التقديرين 0

لا تعلمونهم (حسن) لأنهم يقولون لا إله إلا الله ويغزون معكم وقيل وآخرين من دونهم لا

تعلمونهم هم الجن نفر من سهيل الخيل وإنهم لا يقربون داراً فيها فرس والتقدير على هذا  
وترهبون آخرين لا تعلمونهم وهم الجن وكان محمد بن جرير يختار هذا القول لابني قريظة  
وفارس هم يعلمونهم لأنهم كفار وهم حرب لهم قاله النكراوي 0

الله يعلمهم (تام)

يوف إليكم (جائز)

لا تظلمون (كاف) ومثله على الله وكذا العليم وحسبك الله 0

بين قلوبهم الأول (كاف) ومثله ألف بينهم 0

حكيم (تام)

وحسبك الله (كاف) على استئناف ما بعده ومن اتبعك في محل رفع بالابتداء أي ومن  
اتبعك حسبهم الله وليس بوقف إن جعل ذلك في محل رفع عطفاً على اسم الله أو في محل

جر عطفاً على الكاف 0

من المؤمنين تام

على القتال (حسن) ومثله مائتين للابتداء بالشرط ولا يفقهون كذلك 0

ضعفاً (كاف) وقيل تام

مائتين (حسن) للابتداء بالشرط ومثله ياذن الله 0

مع الصابرين (تام)

في الأرض (كاف) على استئناف ما بعده لأنَّ المعنى حتى يقتل من بها من المشركين أو

يغلب عليها أو هو على تقدير أداة الاستفهام أي أتريدون 0

عرض الدنيا (حسن) لأنَّ ما بعده مستأنف مبتدأ 0

والله يريد الآخرة (أحسن) منه 0

حكيم (كاف) ومثله عظيم

طيباً (حسن)

وانفقوا الله (أحسن)

رحيم (تام)

(15/304)

---

من الأسرى ليس بوقف لأنَّ ما بعده مقول قل قرأ أبو عمرو ومن الأسارى بزنة فعلى بضم  
الفاء وكسر اللام والباقون بزنة فعلى بفتح الفاء وإسكان العين وفتح اللام وقرأ أبو جعفر من  
العشرة أيديكمو من الأسارى بألف بعد السين بغير إمالة وقرأ ابن عامر وعاصم بعدم  
الصلة وبالقصير من غير إمالة وأما بغير الصلة وضم الهمزة وفتح السين وبغير إمالة فلم يقرأ  
بها أحد لا من العشرة ولا من السبعة

ويغفر لكم (كاف) ومثله رحيم وقيل تام 0

فأمكن منهم (كاف)

حكيم (تام) ولا وقف من قوله إنَّ الذين آمنوا إلى أولياء بعض فلا يوقف على في سبيل الله

0

أولياء بعض (حسن) وقيل كاف وقيل تام 0

حتى يهاجروا (حسن) للابتداء بالشرط 0

ميثاق (كاف)

بصير (تام)

أولياء بعض (حسن) وقيل كاف للابتداء بالشرط أي إن لم تفعلوه تكن فتنة في الأرض

وفساد كبير 0

وكبير (كاف) ولا وقف من قوله والذين آمنوا إلى حقاً فلا يوقف على في سبيل الله ولا على

ونصروا لأنَّ خبر والذين أولئك فلا يفصل بين المبتدأ وخبر بالوقف 0

حقاً (كاف)

كريم (تام)

فأولئك منكم (كاف) ومثله في كتاب الله 0



آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اه ﴿ منار الهدى في بيان الوقف والابتداء ص 318 .

﴿ 329

(16/304)

" فصل في ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الأنفال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من ذلك قرأ ابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وعلي بن الحسين وأبو جعفر محمد بن علي وزيد بن علي وجعفر بن محمد وطلحة 1 بن مصرف : "يسألونك الأنفال" 2 .

قال أبو الفتح : هذه القراءة بالنصب مؤدية عن السبب للقراءة الأخرى التي هي : ﴿ عَنْ الْأَنْفَالِ ﴾ ، وذلك أنهم إنما سألوه عنها تعرضاً لطلبها ، واستعلاماً لحالها : هل يسوغ طلبها ؟

وهذه القراءة بالنصب إصراف بالتماس الأنفال ، وبيان عن الغرض في السؤال عنها ، فإن قلت : فهل يحسن أن تحملها على حذف حرف الجر حتى كأنه قال 3 : يسألونك عن الأنفال

، فلما حذف عن نصب المفعول ، كقوله :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به4

قيل : هذا شاذ ، إنما يحمله الشعر ، فأما "66" والقرآن فيُختار له أفصح اللغات ، وإن

كان قد جاء : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ 5 ﴿ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ

مَرْصَدٍ ﴾ 6 فإن الأظهر ما قدمناه .

ومن ذلك قراءة ابن محيصة : " وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ " 7 يصل ضمة الهاء بالحاء

ويستقط الهمزة .

---

1 هو طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب أبو محمد ، ويقال : أبو عبد الله الكوفي ، تابعي

كبير . أخذ القراءة عرضاً عن إبراهيم بن يزيد النخعي والأعمش ويحيى بن وثاب . روى

القراءة عرضاً عنه محمود بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعيسى بن عمر الهمداني ، وعلي

بن حمزة الكسائي وغيرهم ، توفي سنة 112 هـ . طبقات القراء لابن الجزري : 1 /

. 343

2 سورة الأنفال : 1 .

3 فيك : كأنه يسألونك .

4 لعمر بن معد يكرب ، وعجزه :

فقد تركك ذا مال وذا نسب

النشب: المال الثابت كالضبياع ونحوها ، وكأنه أراد بالمال هاهنا الإبل خاصة . الكتاب :

.17/1

5 سورة الأعراف : 155 .

6 سورة التوبة : 5 .

7 سورة الأنفال : 7 .

(17/304)

---

قال أبو الفتح : هذا حذف على غير قياس ، ومثله قراءة ابن كثير : "إنها لحدى الكبر" 1 ،

وقد ذكرنا نحوه ، وهو ضعيف القياس ، والشعر أولى به من القرآن .

ومن ذلك قراءة مسلمة 2 بن محارب : "وإذ يعدكم الله" 3 بإسكان الدال .

قال أبو الفتح : أسكن ذلك لتوالي الحركات وثقل الضمة ، وقد ذكرنا قبله مثله .

ومن ذلك قراءة رجل من أهل مكة ، زعم الخليل أنه سمعه يقرأ : "مردفين" 4 ، واختلفت

الرواية عن الخليل في هذا الحرف ، فقال بعضهم : "مردفين" ، وقال آخر : "مردفين" .

قال أبو الفتح : أصله "مردفين" مفتعين من الردف 5 ، فآثر إدغام التاء في الدال ، فأسكنها

وأدغمها في الدال ، فلما التقى ساكنان - وهما الراء والدال - حرك الراء لالتقاء الساكنين

، فتارة ضمها إبتاعاً لضممة الميم ، وأخرى كسرهما إبتاعاً لكسرة الدال .  
ومثله ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ ﴾ 6 ، ومن كسر الراء فلالتقاء الساكنين ، وعليه جاء :  
﴿ وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ ﴾ ، ويجوز فيهما أن تنقل حركة الحرف الساكن على الساكن قبله  
فيقول : " مُرَدِّفِينَ " ، " وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ " مُفَعَّلِينَ من الاعتذار ، على قولهم : عذّرني الحاجة  
: أي قصّر ، وأعذر : تقدم .  
ومن ذلك قراءة ابن محيصر : " أُمَّنَّةٌ نَعَّاسًا " 7 بسكون الميم .

---

1 سورة المدثر : 35 .

2 هو مسلمة بن عبد الله بن محارب ، أبو عبد الله الفهري البصري النحوي ، له اختيار في  
القراءة . قال ابن الجزري : لا أعلم على مَنْ قرأ ، وقرأ عليه شهاب بن شرنفة . وكان مع ابن  
أبي إسحاق ، وأبي عمرو بن العلاء . وكان من العلماء بالعربية . طبقات القراء لابن  
الجزري : 298 / 2 .

3 سورة الأنفال : 7 ، 9 ، 11 .

4 سورة الأنفال : 9 .

5 مصدر ردفة كسمع ونصر ؛ أي تبعه ، والرِّدْف بالكسر : الراكب خلف الراكب  
كالمرتدف .

6 سورة التوبة : 90 .

7 الآية: 154 في سورة آل عمران ، وأما آية الأنفال : 11 فهي : ﴿ إِذِ يُغَشِّكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ ، وابن محيَّصن يقرأ بسكون الميم في الآيتين . البحر : 3/85 ، 4/468 .

(18/304)

---

قال أبو الفتح : لا يجوز أن يكون "أمنة" مخففاً من "أمنة" كقراءة الجماعة ، من قبل أن المفتوح في نحو هذا الأيسكن كما يسكن المضموم في المكسور لخفة الفتحة . وأما قوله :  
وما كل مبتاع ولو سلف صفقه

براجع ما قد فاته برداد 1

قال أبو الفتح : فشاذ على أننا قد ذكرنا وجه الصنعة في كتابنا الموسوم بالمنصف 2 .  
ومن ذلك قراءة الناس : ﴿ مَاءٌ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ 3 ، وقرأ الشعبي 4 : " مَا لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ " على معنى : الذي به .

قال أبو الفتح : " ما " ها هنا موصولة ، وصلتها حرف الجر بما جره ، وكأنه قال : ما للظهور ، كقولك : كسوته الثوب الذي لدفع البرد ، ودفعت إليه المال الذي للجهاد ، واشترت الغلام الذي للقتال .

ألا ترى أن تقديره : وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ الَّذِي لَأَنْ يَطَهِّرَكُمْ بِهِ ؛ أي : الماء الذي

لظهارتكُم أو تطهيركم به . وهذه اللام في قراءة الجماعة : ﴿ مَا يُطَهِّرُكُمْ بِهِ ﴾ هي لام  
المفعول له ، كقوله : زرتك لتكرمني ، وهي متعلقة بزرتك ، ولا ضمير فيها تعلقها بالظاهر .  
فهي كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ، لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ 5 ، فهي كما ترى متعلقة  
بنفس "فتحنا" تعلق حرف الجر بالفعل قبله .

وأما اللام في قراءة من قرأ : " ما يُطَهِّرُكُمْ بِهِ " أي : الذي للطهارة به ، فمتعلقة بمحذوف ،  
كقولك : دفعت إليه المال الذي له ؛ أي : استقرأ أو ثبت 6 له ، وفيها ضمير تعلقها  
بالمحذوف .

وأما لام المفعول له فلا تكون إلا متعلقة بالظاهر نحو : زرتك ليكرمني وأعطيته ليشكرني ، أو  
بظاهر يقوم مقام الفعل كقولك : المال لزيد لينتفع به ، فاللام في لزيد متعلقة بمحذوف على ما  
مضى ، والتي في قولك : لينتفع به هي لام المفعول له "6ظ" ، وهي متعلقة بنفس قولك :

---

1 انظر الصفحة 249 من هذا الجزء .

2 المنصف : 21/1 .

3 سورة الأنفال : 11 .

4 هو عامر بن شراحيل بن عبد ، أبو عمرو الشعبي ، الإمام الكبير المشهور ، عرض على  
أبي عبد الرحمن السلمي وعلقمة بن قيس ، وروى القراءة عنه عرضاً محمد بن أبي ليلى .  
ومناقبه وعلمه وحفظه أشهر من أن تُذكر . مات سنة 105 ، وله سبع وسبعون سنة .

طبقات القراءة لابن الجزري : 1/350 .

5 سورة الفتح : 1 ، 2 .

6 ك : وثبت .

(19/304)

لزید ، تعلقها بالظرف النائب عن المحذوف في نحو قولك : أزيد عندك لتنتفع بحضوره ؟  
وزيد بين يديك لِيُؤْنَسِكَ .

فاللام هنا متعلقة بنفس الطرفين اللذين هما عندك وبين يديك .

وعلى كل حال ، فمعنى القراءة بقوله : ﴿ مَاءٌ يُطَهِّرُكُمْ بِهِ ﴾ ، والقراءة بقوله : " مَا  
لِيُطَهِّرُكُمْ بِهِ " يرجعان إلى شيء واحد ، إلا أن أشد هما إفصاحاً بأن الماء أنزل للتطهر به هي  
قراءة مَنْ قرأ : ﴿ مَاءٌ يُطَهِّرُكُمْ بِهِ ﴾ ؛ لأن فيه تصريحاً بأن الماء أنزل للطهارة ، وتلك  
القراءة الشاذة إنما يُعْلَمُ أنه أنزل للطهارة به ، فالقراءة الأخرى وبغيرها مما فيه إصرار بذلك .  
وعلى كل حال ، فلام المفعول له لا تتعلق بمحذوف أبداً ، إنما تعلقها بالظاهر ، فعلاً كان أو  
غيره مما يُقَامُ مقامه .

ومن ذلك قراءة أبي العالية 1 : " رَجَسَ الشَّيْطَانُ " 2 بالسین .

قال أبو الفتح: كل شيء يُستقذَر عندهم فهو رجس، كالخنزير ونحوه.  
وفيما قرئ على أبي العباس أحمد بن يحيى 3 قال: الرجس في القرآن: العذاب كالرجز،  
ورجس الشيطان: وسوسته وهمزه ونحو ذلك من أمره، والرجز: عبادة الأوثان، ويقال:  
هو إثم الشرك كله.

وقرئ: "وَالرَّجْزَ وَالرُّجْزَ" 4 جميعاً "فَاهْجُرْ"، قال: وقال بعضهم: أراد به الصنم. قال:  
وكل عذاب أنزل على قوم فهو رجز، ووسواس الشيطان رجز، وقد ترى إلى تراحم السين  
والزاي في هذا الموضع، فقراءة الجماعة: ﴿رَجَزَ الشَّيْطَانِ﴾ معناه كمعنى رجس  
الشيطان.

---

1 هورفيق بن مهران، أبو العالية الرياحي، من كبار التابعين. أسلم بعد النبي - صلى الله  
عليه وسلم - بسنتين، وأخذ القرآن عرضاً عن أبي بن كعب وزيد بن ثابت وابن عباس.  
وصح أنه عرض على عمر. وقرأ عليه شعيب بن الحبّاب والحسن بن الربيع بن أنس  
والأعمش وأبو عمرو على الصحيح. مات سنة 90، وقيل: سنة 96. طبقات القراء  
لابن الجزري: 284/1.

2 سورة الأنفال: 11.

3 هو أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني، الإمام اللغوي أبو العباس ثعلب، النحوي  
البغدادي، ثقة كبير. له كتاب في القراءات وكتاب الفصيح، روى القراءات عن سلمة بن



عاصم ويحيى بن زياد الفراء . وروى القراءة عنه أحمد بن موسى بن مجاهد ومحمد بن القاسم الأنباري ومحمد بن فرج الغساني . ولد سنة 200 ، وتوفي يوم السبت عاشر جمادى الأولى سنة 291 . طبقات الفراء لابن الجزري : 1 / 148 .  
4 الضم في آية الأفعال قراءة ابن محصين . البحر المحيط : 4 / 469 .

(20/304)

---

وقد نبهنا في كتابنا المعروف بالخصائص 1 من هذه الطريق في تزامن الحروف المتقاربة ما في بعضه كل مَقْنَعٍ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ .

ومن ذلك قراءة الحسن والزهري : " بين المرِّ وقلبه " 2 .

قال أبو الفتح : وجه الصنعة في هذا أنه خفف الهمزة في " المرء " وألقى حركتها على الراء

قبلها ، فصارت " بين المرِّ وقلبه " ، ثم نوى الوقف فأسكن وثقل الراء على لغة من قال في

الوقف : هذا خالدٌ وهو يجعل ، ثم أطلق ووصل على نية الوقف ، فأقر التثقل بحاله على

إرادة الوقف ، وعليه قوله ، أنشدناه أبو علي :

بِأَزْلِ وَجَنَاءٍ أَوْ عَيْهَلٍ 3

يريد : العيهل ، فنوى الوقف فتثقل ، ثم أطلق وهو يريد الوقف ، ومثله ما قرأنا على أبي بكر

محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحيى :

وَمُقَلَّتَانِ جَوْنَتَا الْمَكْحَلِّ 4

يريد : الْمَكْحَل . وأول هذه القصيدة :

ليث شبابي عاد للأولِ وغيضَ عيشٍ قد خلا أرغلاً 5

وفيها أشياء من هذا الطراز كثيرة ، فكذاك " المر " على هذا .

وقراءة الجماعة من بعد أقوى وأحسن ؛ لأن هذا من أغراض الشعر لا القرآن .

---

1 الخصائص : 82/2 - 88 .

2 سورة الأنفال : 24 ، 25 .

3 لمنظور ابن حبة ، وحببة أمه ، وأبوه مرثد ، ومن ثم ينسب إلى منظور بن مرثد .

وقبله :

إن تبخلي يا جمل أو تعتلي أو تصبحي في الطاعن المولي

نسل وجد الهائم المغتل

المغتل : من الغلة ؛ وهي حرارة العطش ، والمراد هنا : حرارة الشوق ، والبازل من الإبل :

الداخل في السنة التاسعة للذكر والأنثى ، والوجناء : الناقة الشديدة ، والعيهل : الناقة

الطويلة . انظر : الكتاب : 282/2 ، والخصائص : 359/2 ، وشرح شواهد الشافية

: 246 .

4 الجون : الأسود .

5 عيش أرغل : واسع .

(21/304)

ومن ذلك قراءة العامة : ﴿ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ 1 ، وقراءة علي وزيد بن ثابت وأبي جعفر محمد بن علي 2 والربيع بن أنس وأبي العالية وابن جمار 3 : "لُصِيبَنَّ" .  
قال أبو الفتح : معناها تين القراءتين ضدان كما ترى ؛ لأن إحداهما : ﴿ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ، والأخرى : "لُصِيبَنَّ" هؤلاء بأعيانهم خاصة . وإذا تباعدت معناها تين هذا التباعد وأمكن أن يُجمع بينهما كان ذلك جميلاً وحسناً ، ولا يجوز أن يراد زيادة "لا" من قبل أنه كان "67" و"يصير معناه : وانقوا فتنة تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، فليس هذا عندنا من مواضع دخول النون ، ألا تراك لا نقول : ضربت رجلاً يدخلن المسجد ؟ هذا خطأ لا يقال ؛ ولكن أقرب ما يصرف إليه الأمر في تلافي معنى القراءتين أن يكون يراد : لا تصيبن ، ثم يحذف الألف من "لا" تخفيفاً واكتفاء بالفتحة منها ، فقد فعلت العرب هذا في أخت "لا" وهي أمّا .

من ذلك ما حكاه محمد بن الحسن من قول بعضهم : أم والله ليكونن كذا ، فحذف ألف أمّا

تخفيفاً ، وأنشد أبو الحسن وابن الأعرابي وغيرهما :

فلست بمدرك ما فات مني بلهف ولا بليت ولا لو اني 4

يريد : بلهفا ، فحذف الألف ، وذهب أبو عثمان في قوله الله سبحانه : ﴿ يَا أَبَتَ ۙ 5 -

فيمن فتح التاء - أنه أراد : يا أبأ ، فحذف الألف تخفيفاً ، وأنشدوا :

قد وردت من أمكنه من هاهنا ومن هُنه

إن لم أروها فمه 6

يريد : إن لم أروها فما أصنع ؟ أو فما مغناي ؟ أو فما مقداري ؟ فحذف الألف ، وألحق

الهاء لبيان الحركة ، وروينا عن قطرب 7 .

---

## 1 سورة الأنفال : 25 .

2 هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو جعفر الباقر . عرض على أبيه

زين العابدين ، وورى عنه وعن جابر وابن عمر وابن عباس وغيرهم ، وروى عنه ابنه

جعفر الصادق والزهري وعمرو بن دينار وجماعة ، ولد سنة 56 ، مات سنة 118 ،

وقيل غير ذلك . طبقات ابن الجزري : 202/2 .

3 هو سليمان بن مسلم بن جمار ، وقيل : سليمان بن سالم بن جمار ، أبو الربيع الزهري

مولاهم المدني ، مقرئ جليل ضابط ، عرض على أبي جعفر وشيبة ثم على نافع ، وأقرأ

بحرف أبي جعفر ونافع ، عرض عليه إسماعيل بن جعفر وقتيبة بن مهران . قال ابن الجزري

: مات بعد السبعين ومائة فيما أحسب . طبقات ابن الجزري : 315/1 .

4 الخصائص : 135/3 ، والخزانة : 36/1 .

5 سورة يوسف : 4 .

6 ضمير وردت للإبل ، ويروى : "إن لم تروها" بقاء الخطاب . وانظر : سر الصناعة : 1/

182 ، والمنصف : 156/2 ، وشرح شواهد الشافية : 479 .

7 معطوف على : وأنشد أبو الحسن .

(22/304)

---

فعلى هذا يجوز أن يكون أراد بقوله : "لُصِّبَنَّ" : لا تُصِيبَنَّ ، فحذف ألف "لا" تخفيفاً من حيث ذكرنا .

فإن قلت : فهل يجوز أن يحملة على أنه أراد : لتصيبين الذين ظلموا منكم خاصة ، ثم أشبع الفتحة ، فأنشأ عنها ألفاً كالأبيات التي أنشدتها قبل هذا الموضع ، نحو قوله :

ينباع من ذفرى غضوب جَسْرَة 1

وهو يريد : ينبع .

قيل : يمنع من هذا المعنى ، وهو قوله تعالى يليه : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

فهذا الإغلاظ والإرهاب أشبه بقراءة مَنْ قرأ: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾

من أن يكون معناه: إنما تصيب الذين ظلموا خاصة.

فتأمل ذلك؛ فإنه يضح لك بمشيئة الله.

ومن ذلك ما روي عن عاصم أنه قرأ: "وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ نِصْبًا إِلَّا مَكَاءً  
وَتَصْدِيَةً" 2 رفعا، رواه عبيد الله 3 عن سفيان 4 عن الأعمش 5 أن عاصمًا قرأ كذلك.

---

1 لعنتره من معلقته، وعجزه:

زيافة مثل الفنيق المكدم

الذفري: ما خلف الأذن، والجسرة: الناقة الموثقة الخلق، وزيافة: متبختره، والفنيق:  
الفحل من الإبل، مكدم: تكدمه الفحول، ورؤي "المقرم"، وضمير ينباع للعرق. المعلقات  
السبع: 114، والخصائص: 121/3.

2 سورة الأنفال: 35.

3 هو عبيد الله بن موسى بن باذام أبو محمد بن أبي المختار العبسي مولا هم الكوفي،  
حافظ ثقة. وُلد بعد العشرين ومائة. أخذ القراءة عرضاً عن عيسى بن عمر وشيبان بن  
عبد الرحمن الهمداني وعلي بن صالح بن حسن. وروى القراءة عنه عرضاً إبراهيم بن  
سليمان وأيوب بن علي ومحمد بن عبد الرحمن وغيرهم. وتوفي سنة 213. طبقات ابن

الجزري: 1/493.

4 هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي أحد الأعلام . ولد سنة 97 ، وروى القراءة عرضاً عن حمزة ، وروى عن عاصم والأعمش حروفاً ، وروى الحروف عنه عبيد الله بن موسى . توفي بالبصرة سنة 161 . طبقات ابن الجزري : 1 / 308 .

5 هو سليمان بن مهران الأعمش أبو محمد الأسدي الكاهلي مولاهم الكوفي الإمام الجليل . ولد سنة 60 أخذ القراءة عرضاً عن إبراهيم النخعي و زر بن حبيش وعاصم وغيرهم ، وروى عنه عرضاً وسماعاً حمزة الزيات وابن أبي ليلى وجريير بن عبد الحميد وغيرهم . توفي سنة 148 . طبقات ابن الجزري : 1 / 316 .

(23/304)

---

قال الأعمش : وإن لحن عاصم تلحن أنت ؟ ! وقد روي هذا الحرف أيضاً عن أبان بن تغلب أنه قرأ كذلك .

قال أبو الفتح : لسنا ندفع أن جعل اسم كان نكرة وخبرها معرفة قبيح ، وإنما جاءت منه أبيات شاذة ، وهو في ضرورة الشعر أعذر ، والوجه اختيار الأفتح الأعرب ، ولكن من وراء ذلك ما أذكره .

اعلم أن نكرة الجنس تفيد مفاد معرفته، ألا ترى أنك تقول: خرجت فإذا أسد بالباب، فتجد معناه معنى قولك: خرجت فإذا الأسد بالباب، لافرق بينهما؟ وذلك أنك في الموضوعين لا تريد أسداً واحداً معيناً، وإنما تريد: خرجت فإذا بالباب واحد من هذا الجنس، وإذا كان كذلك جاز هنا الرفع في ﴿مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ جوازاً قريباً، حتى كأنه قال: وما كان صلاتهم عند البيت إلا المكاء والتصدية؛ أي: إلا هذا الجنس من الفعل، وإذا كان كذلك لم يجز هذا مجرى قولك: كان قائم أخاك، وكان جالس أباك؛ لأنه ليس في جالس وقائم من معنى الجنسية التي تلاقى معناها "67ظ" نكرتها ومعرفتها على ما ذكرنا وقد منا .

وأيضاً فإنه يجوز مع النفي من جعل اسم كان وأخواتها نكرة ما لا يجوز مع الإيجاب، ألا تراك تقول: ما كان إنسان خيراً منك، ولا تجيز: كان إنسان خيراً منك؟ فكذلك هذه القراءة أيضاً، لَمَّا دخلها النفي قوي وحسن جعل اسم كان نكرة، هذا إلى ما ذكرناه من مشابهة نكرة اسم الجنس لمعرفته؛ ولهذا ذهب بعضهم في قول حسان:

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُونُ مَزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ 2

إنه إنما جاز ذلك من حيث كان عسل وماء هما جنسين، فكأنه قال: يكون مزاجها العسل والماء، فبهذا تسهل هذه القراءة، ولا يكون من القبح واللحن الذي ذهب إليه الأعمش على ما ظن .



1 هو أبان بن تغلب الربيعي ، أبو سعيد ، ويقال : أبو أميمة الكوفي النحوي . قرأ على عاصم وأبي عمرو الشيباني وطلحة بن مصرف والأعمش . أخذ القراءة عنه عرضاً محمد بن صالح بن زيد الكوفي . توفي سنة 141 ، وقيل : سنة 153 . طبقات ابن الجزري : 4/1 .

2 السبيئة : الخمر ، ويروى مكانها "سلافة" وهي الخمر أيضاً ، ويقال : هو اسم لما سال منها قبل أن تعصر ، وذلك أخلصها ، وبيت رأس : اسم موضع ، وقيل رأس : رئيس الخمارين ، وقيل رأس : اسم خمار معروف . الكتاب : 23/1 .

(24/304)

---

ومن ذلك قراءة الناس ﴿ بِالْعُدُوَّةِ ﴾ 1 و"الْعُدُوَّة" بالضم والكسر . وقرأ : "بالْعُدُوَّة" قتادة 2 والحسن 3 وعمرو ، واختلف عنهم .  
قال أبو الفتح : الذي في هذا أنها لغة ثالثة ، كقولهم : في اللبن رِغْوَةٌ ورِغْوَةٌ ورِغْوَةٌ . ولها نظائر مما جاءت فيها فُعْلَةٌ وفُعْلَةٌ وفُعْلَةٌ ، منه قولهم : له صِفْوَةٌ مالي وصفوته وصفوته ، روى ذلك أبو عبيدة . ومثله أوطأته عَشْوَةٌ 4 وعَشْوَةٌ وعَشْوَةٌ ، روى ذلك أبو عبيدة وابن الأعرابي .

وروى الكسائي: كلمته بحضرة فلان وحضرته، وحكى ابن الأعرابي: غشوة وغشوة  
وغشوة، وغلظة وغلظة وغلظة. وقالوا: شاة لجة 5 ولجة ولجة، ورثوة 6 ورثوة  
ورثوة، فكذا تكون أيضاً العدو والعدوة والعدوة. وروى ابن الأعرابي أيضاً: المديّة  
والمديّة والمديّة، بالفتح.

ومن ذلك ما يروى عن الأعمش أنه قرأ: "فَشَرِّذِ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ" 7 بالذال معجمة.  
قال أبو الفتح: لم يمرر بنا في اللغة تركيب ش ر ذ، وأوجه ما يُصَرَّفُ إليه ذلك أن تكون الذال  
بدلاً من الدال، كما قالوا: لحم خردال وخراذل 8، والمعنى الجامع لهما أنهما مجهوران  
ومتقاربان.

ومن ذلك قراءة الأشهب العقيلي: "فاجنح لها" 9 بضم النون.

---

1 سورة الأنفال: 42، وكسر العين قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وضمها قراءة باقي

السبعة. البحر المحيط: 4/499.

2 هو قتادة بن دعامة، أبو الخطاب السدوسي البصري المفسر، أحد الأئمة في حروف

القرآن. روى القراءة عن أبي العالية وأنس بن مالك، وسمع من أنس بن مالك وأبي الطفيل

وسعيد بن المسيب وغيرهم. وروى عنه الحروف أبان بن يزيد العطار، وروى عنه أبو

أيوب وشعبة وأبو عوانة وغيرهم. وكان يضرب بحفظة المثل. توفي سنة 117. طبقات

ابن الجزري: 2/25.

3 هو الحسن بن أبي الحسن يسار السيد الإمام أبو سعيد البصري ، إمام زمانه علماً وعملاً . قرأ على حطان بن عبد الله الرقاشي عن أبي موسى الأشعري ، وعلى أبي العالية عن أبي يزيد وعمر . وروى عنه أبو عمرو بن العلاء وسلام بن سليمان الطويل ، ويونس بن عبيد وعاصم الجحدري . ولد سنة 21 ، وتوفي سنة 110 . طبقات ابن الجزري : 1/235 .

4 العشوة مثلثة : ركوب الأمر على غير بيان ، وأوطأه عشوة : حمله على أمر غير رشيد .

5 اللجة مثلثة الأول : الشاة قل لبنها ، والغزيرة ضد .

6 الربوة مثلثة : ما ارتفع من الأرض .

7 سورة الأنفال : 57 .

8 مقطع مفرق .

9 سورة الأنفال : 61 .

(25/304)

---

قال أبو الفتح : حكى سيبويه جنح يجنح ، وهي في طريق ركد يركد ، وقعد يقعد ، وسفل يسفل في قربها ومعناها . ويؤكد ذلك أيضاً ضربٌ من القياس ؛ وهو أن جنح غير متعد ،

وغير المتعدي الضم أقيس فيه من الكسر ، فقعد يقعد أقيس من جلس يجلس ؛ وذلك أن يفعل بابه لما ماضيه فعل نحو : شرف يشرف ، ثم ألحق به قعد . وباب يفعل بابه لما يتعدى نحو : ضرب يضرب ، فضرب يضرب إذن أقيس من قتل يقتل ، كما أن قعد يقعد أقيس من جلس يجلس . وقد تفصيت هذه الطريق في كتابي المنصف 1 .

ومن ذلك قراءة ابن جمار : " والله يُريد الآخرة " 2 يحملها على عَرْض الآخرة . قال أبو الفتح : وجه جواز ذلك على عزته وقلة نظيره أنه لما قال : " تريدون عَرْض الدنيا " ، فجري ذكر العَرْض فصار كأنه أعاده ثانياً فقال : عَرْض الآخرة " 68 و " ولا يُنكرُ نحو ذلك .

الأتري إلى بيت الكتاب :

أَكُلُّ امرئٍ تحسبين امرأً ونارٌ توقدُ بالليل ناراً 3

وأن تقديره : وكل نار ؟ فتاب ذكره "كلا" في أول الكلام عن إعادتها في الآخر ، حتى كأنه قال : وكل نار ؛ هرباً من العطف على عاملين ، وهما : كل وتحسين . وعليه بيته أيضاً :

إِنَّ الكَرِيمَ وَأَبِيكَ يَعْتَمِلُ إِنْ لَمْ يَجِدْ يَوْمًا عَلِيٌّ مِنْ يَتَكَلُّ 4

أراد : من يتكل عليه ، فحذف "عليه" من آخر الكلام استغناء عنها بزيادتها في قوله :

علي من يتكل ، وإنما يريد : إن لم يجد من يكتل عليه .

وعليه أيضاً قول الآخر :

أَتَدْفَعُ عَنْ نَفْسِ أَتَاهِ حِمَامُهَا فَهَلَا الَّتِي عَنْ بَيْنِ جَنْبَيْكَ تَدْفَعُ 5

---

1 المنصف: 185/1 وما بعدها .

2 سورة الأنفال: 68 .

3 البيت لأبي داود . الكتاب: 33/1 .

4 لبعض الأعراب . ويعتمل: يحترف لإقامة العيش . الكتاب: 443/1 ، والخصائص:

305/2 .

5 في ذيل الأمازي 106 ، 107 : أنه لرجل من محارب يعزي ابن عم له على ولده ، وفي

سمط اللآلي 49 ، وشواهد المغني 149 : أنه لزيد بن رزين بن الملوحة المحاربي أخي بني

بكر ، وهو شاعر فارس . ويروى: "أتجزع" مكان "أتدفع" ، ويروى الشطر الثاني:

فهل أنت عما بين جنبيك تدفع ؟

(26/304)

---

أراد: فهلا عن التي بين جنبيك تدفع ، فزاد "عن" في قوله: عن بين جنبيك ، وجعلها عوضاً من "عن" التي حذفها ، وهو يريد ما في قوله: فهلا التي ، ومعناها: فهلا عن التي . وله نظائر ، فعلى هذا جازت هذه القراءة: أعني قوله: "تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ

الآخِرَةَ" ، في معنى : عرض الآخرة وعلى تقديره . ولعمري إنه إذا نصب فقال على قراءة الجماعة : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ ، فإنما يريد : عرض الآخرة ، إلا أنه يحذف المضاف ويقيم المضاف إليه مقامه ، وإذا جرَّ فقال : يريد الآخرة ، صار كأن العَرَضَ في اللفظ موجود لم يحذف ، فاحتمل ضعف الإعراب تجريداً للمعنى وإزالة للشك أن يظن ظان أنه يريد الآخرة إرادة مرسلة هكذا . هذا إلى ما قدمناه من حذف لفظ لجبيته فيما قبل أو بعد .

آخر الأنفال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحتسب ح 1 ص 271 . 281 ﴾

(27/304)

---

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الأنفال

قيل هي أول المدني واختلف في وما كان الله ليعذبهم وآبها سبعون وخمس كوفي وست حجازي وبصري وسبع شامي اختلافها ثلاث ثم يغلبون بصري وشامي كان مفعولا الأولى غير كوفي وبالمؤمنين غير بصري شبه الفاصلة ثمانية أولئك هم المؤمنون رجز الشيطان فوق الأعناق المسجد الحرام إلا المتقون يوم الفرقان التقى الجمعان وثاني كان مفعولا

القرآت عن ابن محيصن بخلف عنه علنقال يادغام النون في اللام كما مر في البقرة وضم هاء  
عليهم حمزة ويعقوب وأمال زادتهم هشام وابن ذكوان بخلف عنهما وحمزة والباقون بالفتح  
وعن ابن محيصن يعدكم الله إحدى بوصل الهمزة وكذا فجاءته أحديهما وما جاء منه  
وأمال الكافرين أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي ورويس وأدغم ذال إذ  
تستغيثون أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

واختلف في (مردفين) الآية 9 فنافع وأبو جعفر ويعقوب بفتح الدال اسم مفعول أي مردفين  
بغيرهم والباقون بالكسر اسم فاعل أي مردفين مثلهم وما روي عن قنبل من طريق ابن  
مجاهد أنه يقرأ كنافع فليس بصحيح عن ابن مجاهد كما في النشر

واختلف في (يغشيكم النعاس) الآية 11 فابن كثير وأبو عمرو وفتح الياء وسكون الغين  
وفتح الشين وألف بعدها لفظا (النعاس) بالرفع على الفاعلية من غشى يغشى وافقهما  
ابن محيصن واليزيدي وقرأ نافع وأبو جعفر بضم الياء وسكون الغين وبياء بعدها من أغشى  
النعاس بالنصب مفعول به وفاعله ضمير الباربي تعالى وافقهما الحسن والباقون بضم الياء  
وفتح الغين وكسر الشين مشددة وبياء بعدها ونصب النعاس من غشى بالتشديد وعن ابن  
محيصن تسكين ميم أمنة

وقرأ (وينزل) الآية 11 بسكون النون وتخفيف الزاي ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب  
وقرأ (الرعب) الآية 12 بضم العين ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب

وعن الحسن دبره بسكون الباء كقولهم عنق في عنق وكسر يعقوب بكماله كغيره الهاء من  
ومن يولهم فاستثناها من المجزوم

وقرأ (ولكن الله قتلهم ولكن الله رمى) الآية 17 بتخفيف النون ورفع الجلالة الشريفة  
فيهما ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وأمال (رمى) شعبة من جميع طرق المغاربة  
وحمزة والكسائي وخلف وقلها الأزرق بخلفه والباقون بالفتح وهو رواية جمهور العراقيين  
عن شعبة

واختلف في (موهن كيد) الآية 18 فابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف  
بسكون الواو وتخفيف الهاء والتنوين على أنه اسم فاعل من أوهن كأكرم معدى بالهمزة  
والتنوين على الأصل في اسم الفاعل وكيد بالنصب على المفعولية به وافقهم الأعمش وقرأ  
حفص بالتخفيف من غير تنوين وكيد بالخفض على الإضافة وافقه الحسن والباقون بفتح  
الواو وتشديد الهاء وبالتنوين ونصب كيد مفعول به أيضا وأدغم دال فقد جاء كم أبو عمرو  
وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأمال جاء حمزة وخلف وابن ذكوان وهشام بخلفه  
ورقق الأزرق بخلفه راء خير



واختلف في ( ) وأن الله مع ( الآية 19 فنافع وابن عامر وحفص بفتح همزة أن على تقدير  
لام العلة والباقون بالكسر على الاستئناف وشدد تاء ولا تولوا وصلا البزي بخلفه وانفقوا  
على فتح دعاكم وأمال فاواكم حمزة والكسائي وخلف وقله الأزرق بخلفه وكذا تتلى  
وأدغم راء ويغفر لكم السوسي والدوري بخلفه وأدغم دال قد سمعنا أبو عمرو وهشام  
وحمزة والكسائي وخلف وعن المطوعي هو الحق بالرفع على أن هو مبتدأ والحق خبره  
والجملة خبر كان

وقرأ ( من السماء أو ) الآية 32 بإبدال الهمزة الثانية ياء خالصة مفتوحة نافع وابن كثير  
وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس

وضم هاء فيهم يعقوب وأشم صاد تصدئة حمزة والكسائي وخلف ورويس بخلف عنه

(29/304)

---

وقرأ ( ليميز الله ) الآية 37 بضم الياء الأولى وفتح الميم وكسر الثانية مشددة حمزة  
والكسائي ويعقوب وخلف والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء الثانية وأدغم  
دال قد سلف أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأدغم تاء مضت سنت أبو  
عمرو وحمزة والكسائي وخلف ووقف على سنت بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي

ويعقوب وعن المطوعي ويكون بالرفع على الاستئناف

واختلف في (بما يعملون بصير) الآية 39 فرويس بالخطاب وافقه الحسن والباقون بالغيب

وسبق إمالة ألف القربى وألفي اليتامى

واختلف في (بالعدوة) الآية 42 معا فان كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر العين فيهما

وافقهم الحسن واليزيدي وابن محيصن والباقون بالضم فيهما وهما لغتان لأهل الحجاز

وإنكار أبي عمر والضم محمول على أنه لم يبلغه ومر إمالة الدنيا القصوى وكذا يجبي

واختلف في (من حي) الآية 42 فنافع والبزي وقنبل من طريق ابن شنبوذ وأبو بكر وأبو

جعفر ويعقوب وخلف عن نفسه بكسر الياء الأولى مع فك الإدغام وفتح الثانية وافقهم ابن

محيصن بخلفه والباقون بياء مشددة مفتوحة وبه قرأ قنبل من طريق ابن مجاهد وهما لغتان

مشهورتان في كل ما آخره ياءان من الماضي أولهما مكسورة نحو عي وحي

وأمال (أراكهم) الآية 43 أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان من طريق

الصوري والأزرق بالفتح والصغرى ولم يقرأ الأزرق بوجهين من الرائي إلا هذه فقط وبالأول

قطع له صاحب العنوان والثاني صاحب التيسير وأطلق الشاطبي الوجهين في الحرز وهما

صحيحان كما في النشر

---

وقرأ (ترجع الأمور) الآية 44 بالبناء للفاعل ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف  
وشدد البزي بخلفه تاء ولا تنازعا مع إشباع الألف قبلها وأبدل همزة وفئتان ورتاء  
الناس ياء في الثلاثة أبو جعفر وعن الحسن فتفشلوا بكسر الشين فقل إنه غير معروف وقيل  
بل هو لغة ثابتة وعن المطوعي (وتذهب ريجكم) الآية 46 بالجزم عطفا على فعل النهي  
قبله وأدغم ذال وإذ زين أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأبدل أبو جعفر همزة  
بريء ياء وأدغم الياء في الياء بخلف عنه في الرويتين وفتح ياء في الإضافة من (إني أرى) و  
(إني أخاف) الآية 48 نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر  
واختلف في (إذ يتوفى) الآية 50 فابن عامر بالتاء على التأنيث وهشام على أصله في  
إدغام الذال في التاء والباقون بالتذكير لكون الفاعل مجازي التأنيث وللفضل وعن المطوعي  
فشرذ بالذال المعجمة قيل هذه المادة مهملة في لغة العرب وقيل ثابتة ومن قال إنها كذلك في  
مصحف ابن مسعود رضي الله تعالى عنه تعقبه في الدر بأن النقط والشكل أمر حادث  
أحدثه يحيى بن يعمر

واختلف في ﴿ ولا تحسبن الذين كفروا ﴾ الآية 59 هنا والنور الآية 56 فابن  
عامر وحمزة بالغيب فيهما واختلف عن إدريس عن خلف فروى الشطي عنه كذلك  
فيهما ورواهما عنه المطوعي وابن مقسم والقطيعي بالخطاب وبه قرأ الباقر ووافق أبا

عمرو والأعمش واليزيدي فيهما ووافق حمزة الحسن ووافق أبا جعفر ابن محيصة والذين  
مفعول أول على قراءة الخطاب وسبقوا ثان والمخاطب النبي والفاعل على قراءة الغيب  
ضمير يعود على الرسول أو يفسره السياق أي قتل المؤمنين وإن جعل الذين فاعلا للمفعول  
الأول محذوف أي أنفسهم والثاني سبقوا وفتح سين (يحسن) ابن عامر وعاصم وحمزة  
وأبو جعفر

(31/304)

---

واختلف في (إنهم لا يعجزون) الآية 59 فابن عامر بفتح الهمزة على إسقاط لام العلة  
والباقون بكسرها على الاستئناف وعن ابن محيصة يعجزون بكسر النون وشددها  
بجلف عنه فأدغم نون الرفع في نون الوقاية وحذف ياء المتكلم مجتزئاً عنها بالكسرة وأثبتها  
بجلف عنه في الحالين وعن الحسن رباط بضم الراء والباء من غير ألف نحو كتاب وكتب  
واختلف في (ترهبون) الآية 60 فرويس بتشديد الهاء من رهب المضاعف والباقون  
بتخفيفها من أرب و عن الحسن يرهبون بالغيب والتخفيف وضمير الفاعل يرجع إلى  
مرجع لهم فإنهم إذا خافوا خوفوا من ورائهم

وقراً (للسلم) الآية 61 بكسر السين شعبة وهمز النبي نافع ورقق الأزرق راء عشرون

كما نص عليه الداني والشاطبي وابن بلمة وغيرهم وفخمه عنه مكى في جماعة  
واختلف في ( ) وإن يكن منكم مائة يغلبوا ( الآية 65 و ) فإن يكن منكم مائة صابرة ( )  
الآية 66 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف بالياء من تحت فيهما للفصل بالظرف ولأن  
التأنيث مجازي وافقهم الأعمش وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتذكير في الأول لما ذكر والتأنيث  
في الثاني لأن وصفه بالمؤنث وهو صابرة قواه وافقهما اليزيدي والحسن والباقون بالتأنيث  
فيهما لأجل اللفظ وخرج بإسناده إلى المائة إن يكن منكم عشرون وإن يكن منكم ألف  
المتفق على تذكيرهما

واختلف في ( أن فيكم ضعفا ) الآية 66 فعاصم وحمزة وخلف بفتح الضاد وافقهم  
الأعمش بخلفه والباقون بضمها وكلاهما مصدر وقيل الفتح في العقل والرأي والضم في  
البدن وقرأ أبو جعفر بفتح العين والمد والهمزة مفتوحة بلا تنوين جمعا على فعلاء كظريف  
وظرفاء ولا يصح كما في النشر ما روي عن الهاشمي من ضم الهمزة وافقه المطوعي  
والباقون بإسكان العين والتنوين بلا مط ولا همز

واختلف في ما كان لنبى أن يكون الآية 67 فأبو عمرو ويعقوب بالتأنيث مراعاة لمعنى  
الجماعة وافقهم اليزيدي والحسن والباقون بالتذكير اعتبارا للفظ

---

واختلف في (له أسرى) الآية 67 و(من الأسرى) الآية 70 فأبو عمرو بفتح الهمزة  
وسكون السين في الأول وضم الهمزة وفتح السين وبالألف بعدها في الثاني مع الإمالة فيهما  
وافقه اليزيدي وقرأ حمزة والكسائي وخلف بغير ألف مع الإمالة فيهما وافقهم الأعمش  
وقرأ أبو جعفر بضم الهمزة فيهما وفتح السين على وزن فعالي بلا إمالة والباقون بفتح الهمزة  
وسكون السين بلا ألف على وزن فعلى وهو قياس فعيل بمعنى مفعول لكن قللهما الأزرق  
وقرأ أخذتم بإظهار الذال ابن كثير وحفص ورويس بخلفه وعن الحسن والمطوعي أخذ  
منكم بفتح الهمزة والحاء مبنيًا للفاعل وهو الله تعالى ومراد غام يغفر لكم  
واختلف في من ولايتهم) الآية 72 هنا والكهف الآية 44 فحمزة بكسر الواو فيهما وافقه  
الأعمش وقرأ الكسائي وكذا خلف كذلك في الكهف والباقون بفتح الواو لغتان أو الفتح  
من النصرة والنسب والكسر من الإمارة ووقع للنويري أنه جعل خلفا هنا كحمزة وقد علم  
أنه إنما يوافق في حرف الكهف وأسقط في الأصل هنا خلفا من حرف الكهف فلعله من  
الكتاب فليعلم

المرسوم نقل نافع عن المدني وتخونوا أمانتكم هنا لأمانتهم بقدر أفلح بغير ألف بعد النون وكلام  
الرأية كالمقنع عام في الألفين لكن قال السخاوي المراد هنا ألف الجمع قال الجعبري فلعله  
ظفر بتخصيص رواية نافع أو شافهه به الناظم واتفقوا على حذف الألف بعد العين في

لاختلفتم في الميعد هنا خاصة وإثباتها فيما عداه نحو لا يخلف الميعاد  
المقطوع والموصول اختلف في قطع إنما غنمتم هنا وانفق على قطع موضعي الحج ولقمان  
وعلى وصل ما عدا ذلك نحو إلا إنما أنا نذير  
هاء التأنيث رسموا بالتاء ﴿ سنت الأولين ﴾ الآية 38 كثلاثة فاطر الآية 43 وآخر  
غافر الآية 85 فقط  
يأت الإضافة (إني أرى) الآية 48 (إني أخاف) الآية 48 وليس فيها زائدة للجماعة  
ومر زيادة في (لا يعجزون) لابن محيصن بخلف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إتحاف فضلاء  
البشر في القراءات الأربعة عشر ص 300.296 ﴾

(33/304)

---

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

(سورة الأنفال)

"يسألونك" وقف عليه حمزة بالنقل فقط .

"الأنفال معا ، مؤمنين ، المؤمنون معا ، ذكر الله ، عليهم ، إيماننا وعلى ، الصلاة ، ومغفرة

ورزق ، المؤمنين ، غير ، دابر "كله جلي وسبق مثله مراراً .

"مردفين" قرأ المدنيان ويعقوب بفتح الدال ، والباقون بكسرها . وما روي عن قنبل من الفتح لم يصح فلا يقرأ به .

"يغشيكم النعاس" قرأ نافع وأبو جعفر بضم الياء وسكون الغين وكسر الشين مخففة وبعدها ياء ساكنة مدية ونصب النعاس . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين مخففة وألف بعدها والنعاس بالرفع ، وقرأ الباقر بضم الياء وفتح الغين وكسر الشين مشددة وياء ساكنة مدية بعدها والنعاس بالنصب .  
"وينزل" قرأ بالتخفيف المكِّي والبصريان ، وبالتشديد غيرهم .  
"ليطهركم" فيه الترقيق لورش .

"الرعب" قرأ ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بضم العين ، والباقرن ياسكانها .  
"ومن يولهم" لا خلاف بين العشرة في كسرها فروع كثيره .  
"فئة" أبدل أبو جعفر الهمزة ياء خالصة مطلقا ، وكذلك حمزة إذا وقف .  
"وماواه" أبدله مطلقا السوسي وأبو جعفر ، وعند الوقف حمزة ، ولا إبدال فيه لورش لأنه من المستثنيات .

"ويؤس مثل" وماواه ولكن ورشا يبدل همزه .

"ولكن الله قتلهم ، ولكن الله رمى" قرأ الشامي والأخوان وخلف بتخفيف نون ولكن معا وكسرها وصلا ورفع لفظ الجلالة بعدهما ، والباقرن بتشديد النون وفتحها ونصب لفظ



الجلالة بعدهما .

"المؤمنين ، منه ، فهو ، خير " جلي .

"موهن كيد " قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وفتح الواو وتشديد الهاء وتنوين

النون ونصب دال كيد . وقرأ الشامي وشعبة والأخوان ويعقوب وخلف بسكون الواو

وتخفيف الهاء وتنوين النون ونصب دال كيد ، وقرأ حفص بسكون الواو وتخفيف الهاء

وحذف التنوين وخفض دال كيد .

"فئتكم " تقدم قريبا .

"وأن الله " قرأ المدنيان والشامي وخفض بفتح همزة وأن ، والباقون بكسرها .

(34/304)

---

"ولا تولوا " قرأ البزي بتشديد التاء وصلامع المد المشبع للساكنين ، والباقون بالتخفيف

"لا يسمعون " آخر الربع .

الممال

فزادتهم لحمزة وابن ذكوان بخلف عنه . جاء كم لابن ذكوان وحمزة وخلف . إحدى إن

وقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلفه . بشرى بالإمالة للأصحاب

والبصري والتقليل لورش . الكافرين معا وللكافرين للبصري والدوري ورويس بالإمالة  
ولورش بالتقليل ، النار للسابقين إمالة وتقليل ما عدا رويسا ؛ وماواه للأصحاب بالإمالة  
ولورش بالتقليل بخلفه ، ولا تقليل فيه للبصري لأنه مفعول ، رمى بالإمالة للأصحاب وشعبة  
وبالتقليل لورش بخلفه .

المدغم

"الصغير" إذ تستغيثون فقد جاءكم للبصري وهشام والأخوين وخلف . .

"الكبير": الأنفال لله "الشوكة تكون" .

"فيهم" . خيرا ، لأسمعهم ، إليه ، ظلموا . في الأرض ، سيئاتكم ، خير ، عليهم ، أساطير

فيهم ، ستغفرونه ، الخاسرون ، لا يخفى ما فيه لجميع القراء .

"المرء" ذهب بعض العلماء إلى ترقيق الراء ولكن الذي عليه الجمهور ولا يصح الأخذ إلا

به إنما هو التفخيم ، وهشام وحمزة في الوقف عليه نقل حركة الهمزة إلى الراء فتصير الراء

مكسورة فتسكن للوقف إسكانا محضاً أو ترام .

"من السماء أو" أبدل الهمزة الثانية ياء محضة المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققتها

غيرهم . وأجمعوا على تحقيق الأولى .

"أولياءه" فيه لحمزة وقفا تسهيل الهمزة مع المد والقصر .

"إن أولياؤه" فيه لخلف عن حمزة وقفا النقل والتحقيق بالسكت وعدمه ، وعلى كل من

هذه الثلاثة تسهيل الهمزة المتوسطة بين بين مع المد والقصر فتصير الأوجه ستة ، وللخلاف أربعة فقط: النقل والتحقيق بلاسكت مع وجهي الهمزة الثانية .  
وإذا راعيت هاء الضمير وما فيها من سكون وإشمام وروم عند من يجيزهما فيها زادت الأوجه ، وأجاز الإمام المتولي إبدال الهمزة واوا خالصة مع المد والقصر .  
"وتصديه" قرأ بإشمام الصاد صوت الزاي الأخوان وخلف ورويس ، والباقون بالصاد الخالصة .

(35/304)

---

"ليميز" قرأ الأخوان ويعقوب وخلف بضم الياء الأولى وفتح الميم وكسر الياء الثانية مشددة ، والباقون بفتح الياء الأولى وكسر الميم وسكون الياء الثانية .  
"الخاسرون" فيه ترقيق الراء لورش .  
"سنت" مما رسم بالتاء ووقف عليه بالهاء المكّي والبصريان والكسائي ، والباقون بالتاء .

"بما يعملون بصير" قرأ رويس بتاء الخطاب ، والباقون بياء الغيبة .  
"وإن تولوا" لا خلاف في تخفيفه .

"النصير" آخر الربع .

الممال

"خاصة ، وتصدية " للكسائي إن وقف ولكن مع الخلاف في الأول والفتح فيه أرجح  
فأواكم وتلى ومولاكم والمولى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلفه . ومولى مفعل فلا  
تقليل فيه للبصري . ولا إمالة في دعاكم لكونه واويا .

المدغم

"الصغير" ويغفر لكم ويغفر لهم للبصري بخلف عن الدوري . قد سمعنا وقد سلف  
للبصري وهشام والأخوين وخلف ، مضت سنت ، للبصري والأخوين وخلف .  
"الكبير" ورزقكم ، العذاب بما .

"واعلموا أنما غنمتم من شيء " الآية اجتمع فيها لورش اللين شيء وذات الياء القربى  
واليتامى والبدل آمنتهم فله فيها ستة أوجه: الأول: توسط شيء مع فتح ذات الياء مع قصر  
البدل .

الثاني: توسط اللين وفتح ذات الياء وإشباع البدل ، الثالث: توسط اللين وتقليل ذات الياء  
وتوسط البدل . الرابع: مثله ولكن مع مد البدل . الخامس: مد اللين وفتح ذات الياء ومد  
البدل .

السادس: مد اللين وتقليل ذات الياء ومد البدل ، وهكذا الحكم في كل ما شابهه .

"بالعدوة" معاقرأ المكّي والبصريان بكسر العين فيهما ، والباقون بالضم كذلك .  
"حيّ" قرأ المدنيان والبزي وشعبة ويعقوب وخلف العاشر بياءين الأولى مكسورة والثانية  
مفتوحة مخففتين ، والباقون بياء واحدة مشددة مفتوحة .  
"كثيرا" معا فة الفئان ، عقيبة ، بظلام ، كدأب معا ، مغيرا ، يغيروا ، من خلفهم ، قوم  
خيانة ، إليهم ، جلي .  
"ترجع الأمور" قرأ الشامي والأخوان ويعقوب وخلف بفتح التاء وكسر الجيم ، والباقون  
بضم التاء وفتح الجيم .

(36/304)

---

"ولا تنازعوا" شدد البزي التاء وصلامع إشباع المد للساكين ، وخففها الباقون .  
"ورثاء" أبدل أبو جعفر الهمزة الأولى ياء خالصة في الحالين ، وكذلك حمزة وقفها ، وله في  
الثانية مع هشام ثلاثة الإبدال .  
"ترأت" وقف حمزة بتسهيل الهمزة مع المد والقصر .  
"بريء" لحمزة وهشام وقفها إبدال الهمزة ياء ، وإدغام الياء قبلها فيها مع السكون والروم  
والإشمام وليس لهما غير ذلك لزيادة الياء .

"إني أرى، إني أخاف" فتح الياء فيهما المديان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .  
"مرض غر" أخفى التنوين في الغين مع الغنة أبو جعفر وأظهره غيره .  
"إذ يتوفى" قرأ الشامي بالتاء الفوقية مكان الياء ، والباقون بالياء .  
"ولا يحسن" قرأ ابن عامر وحفص وحمزة وأبو جعفر بياء الغيب مع فتح السين ، وشعبة  
بتاء الخطاب مع فتح السين ، والباقون بتاء الخطاب مع كسر السين .  
"إنهم لا يعجزون" قرأ الشامي بفتح الهمزة والباقون بكسرها .  
"ترهبون" قرأ رويس بفتح الراء وتشديد الهاء ، والباقون بسكون الراء وتخفيف الهاء .  
"لا تظلمون" فيه تغليظ اللام لورش ، وهو آخر الربع .

الممال

القريبى والدنيا والقصوى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري ولورش بخلف عنه ، أراكم  
وأرى وترى بالإمالة للأصحاب والبصري وبالتقليل لورش بلاخلاف في أرى وترى  
وبخلاف عنه في أراكم فله فيه الفتح والتقليل ، وليس له وجهان في ذوات الراء إلا في هذا .  
اليتامى والتقى ويتوفى عند الوقف عليهما ويجبى للأصحاب بالإمالة ولورش بالتقليل  
بخلف عنه . ديارهم بالإمالة للبصري والدوري ، وبالتقليل لورش ، الناس معا لدوري  
البصري .

المدغم

"الصغير" وإذ زين للبصري وهشام وخلاد والكسائي، إذ توفي لهشام وحده.

"الكبير" منامك قليلا، زين لهم، وقال لا، اليوم من، الفتان نكص.

"للسلم" قرأ بكسر السين شعبة، وفتحها الباكون.

"النبي" المؤمنين، عشرون، صابرون، صابرة، لا يخفى ما فيه.

(37/304)

---

"مائتين، مائة" أبدل أبو جعفر الهمزياء وصلا ووقفا، وحمزة ووقفا فقط.

"وإن يكن منكم مائة" قرأ المدنيان والمكي والشامي بباء التانيث في يكن، والباكون بياء التذكير.

"الآن" نقل ورش وابن وردان حركة الهمزة إلى اللام قبلها مع حذف الهمزة ولورش ثلاثة

البدل، وسبق أن قلنا إذا ابتدأت لورش بهمزة الوصل فلك في البدل الأوجه الثلاثة، وإذا

ابتدأت باللام المفتوحة فلك في البدل القصر فقط، وفيها لخلف عن حمزة السكت فقط

وصلا، وأما في الوقف فله السكت والنقل، ولخلاد فيها وصلا السكت وتركه وله في

الوقف السكت والنقل مثل خلف وليس له تحقيق في الوقف كما تقدم.

"ضعفا" قرأ عاصم وحمزة وخلف بفتح الضاد، والباكون بضمها. وقرأ أبو جعفر بضم

الضاد وفتح العين والفاء وبعدها ألف وبعده الألف همزة مفتوحة غير منونة والمد عنده متصل .

"فإن يكن منكم مائة" قرأ الكوفيون بياء التذكير في يكن والباقون بياء التانيث .

"لنبي" الآخرة، خيراً معاً، يهاجروا، يؤتكم سبق حكمه مراراً .

"أن يكون له" قرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بياء التانيث في يكون، والباقون بياء التذكير .

"له أسرى" قرأ أبو جعفر بضم الهمزة وفتح السين وألف بعدها والباقون بفتح الهمزة وإسكان السين من غير ألف .

"من الأسرى" قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بضم الهمزة وفتح السين وألف بعدها، والباقون بفتح الهمزة وإسكان السين من غير ألف .

"ولا يهتم" قرأ حمزة بكسر الواو، والباقون بفتحها .

"عليه" آخر السورة وآخر الربع .

الممال

الدنيا بالإمالة للأصحاب وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه، أسرى والأسرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش .

"الآخرة" للكسائي وقفا بلاخلاف، أولي بالإمالة للأصحاب وبالتقليل لورش بخلفه .



المدغم

"الصغير" أخذتم أظهره المكّي وحفص ورويس وأدغمه غيرهم، ويغفر لكم للبصري  
بجلف عن الدوري.

(38/304)

---

"الكبير" إنه هو، الله هو، ولا إدغام في الأرحام بعضهم لسكون ما قبل الميم، والله تعالى  
أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص 130.

﴿ 135

(39/304)

---

فصل في حجة القراءات في السورة الكريمة

قال ابن خالويه:

ومن سورة الأنفال

قوله تعالى مردفين يقرأ بكسر الدال وفتحها فالحجة لمن كسر الدال أنه جعل الفعل للملائكة

فأتى باسم الفاعل من أردف والحجة لمن فتح الدال أنه جعل الفعل لله عز وجل فأتى باسم  
المفعول به من أردف والعرب تقول أردفت الرجل أركبته على قطة دابتي خلفي وردفته إذا  
ركبت خلفه قوله تعالى إذ يغشاكم النعاس يقرأ بفتح الياء والألف والرفع وبضم الياء الأولى  
سورة الأنفال وبياء في موضع الألف مخففا ومشددا والنصب فالحجة لمن قرأه بالألف  
والرفع أنه جعل الفعل للنعاس فرفعه وأخذه من غشي يغشى والكاف والميم في موضع  
نصب والحجة لمن ضم الياء الأولى ونصب النعاس وخفف أنه جعل الفعل لله عز وجل  
وعداه إلى المفعولين وأخذه من أغشى يغشي ومن شدد أخذه من غشى يغشي ومعنى  
المسلمين أصبحوا يوم بدر جنبا على غير ماء وعدوهم على الماء فوسوس لهم الشيطان  
فأرسل الله عليهم مطرا فطهرهم به قوله تعالى موهن كيد الكافرين يقرأ بتشديد الهاء وفتح  
الواو ويأسكان الواو وتخفيف الهاء والحجة لمن شدد أنه أخذه من وهن فهو موهن والحجة  
لمن خفف أنه أخذه من أوهن فهو موهن وهما لغتان والتشديد أبلغ وأمدح قوله تعالى موهن  
يقرأ بالتنوين ونصب كيد وبترك التنوين وخفض كيد فالحجة لمن نون أنه أراد الحال أو  
الاستقبال والحجة لمن اضاف أنه أراد ما ثبت ومضى من الزمان قوله تعالى وأن الله مع  
المؤمنين يقرأ بكسر الهمزة وفتحها فالحجة لمن كسر أنه أبدأ الكلام ودليله انه في قراءة عبد  
الله والله مع المؤمنين والحجة لمن فتح أنه رد بالواو على قوله وأن الله موهن أو أضمر اللام  
بعد الواو قوله تعالى إذ أنتم بالعدوة وهم بالعدوة يقرآن بكسر العين وضمها فالحجة لمن ضم

أو كسر أنهما لغتان معناهما جانب الوادي والدنيا القريبة والقصوى البعيدة وهما من ذوات

الواو

(40/304)

---

فإن قيل فلم جاءتا بلفظين مختلفين فقل في ذلك وجهان أحدهما أن الدنيا بنيت على فعلها فلما جاوزت ثلاثة أحرف بنيت على الياء وهو القياس والقصوى اسم مختلف ليس بمبني على فعله والآخر أن الاسم إذا ورد على وزن فعلى بفتح الفاء صحت فيه الواو كقولهم الفتوى والتقوى وإن كان صفة انقلبت واوه ياء نحو الصديا والحبلى فأما القصوى فجاءت على الأصل قوله تعالى ويجيا من حي يقرأ يباءين الأولى مكسورة والثانية مفتوحة وبياء واحدة شديدة مفتوحة فالحجة لمن قرأه يباءين أنه أتى به على الأصل وما أوجبه بناء الفعل والحجة لمن أدغم أنه استقل اجتماع ياءين متحركتين فأسكن الأولى وأدغمها في الثانية قوله تعالى وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية يقرأ برفع صلاتهم ونصب قوله مكاء وتصدية ونصب صلاتهم ورفع قوله مكاء وتصدية فالوجه في العربية إذا اجتمع في اسم كان وخبرها معرفة ونكرة أن ترفع المعرفة وتنصب النكرة لأن المعرفة أولى بالاسم والنكرة أولى بالفعل والوجه الآخر يجوز في العربية اتساعا على بعد أو لضرورة شاعر قال

حسان كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها غسل وماء قوله تعالى ليميز الله يقرأ بفتح  
الياء والتخفيف وضمها والتشديد والمعنى بين ذلك قريب وقد ذكرت عله ذلك ومعناه  
الفرقة والتخليص

(41/304)

---

قوله تعالى ولا تحسبن يقرأ بالياء والتاء وبكسر السين وفتحها وقد ذكرت عله في آل عمران  
قوله تعالى أنهم لا يعجزون يقرأ بفتح الهمزة وكسرها فالحجة لمن فتحها أنه جعل يحسبن فعلا  
للذين كفروا وأضر مع سبقوا أن الخفيفة ليكون اسما منصوبا مفعولا لتحسبن وأنهم لا  
يعجزون المفعول الثاني فكأنه قال ولا تحسبن الذين كفروا سبقهم إعجازهم والحجة لمن  
كسر أنه جعل قوله ولا تحسبن خطا بالنبي عليه السلام وجعل الذين كفروا مفعول تحسبن  
الأول وسبقوا الثاني واستأنف إن فكسرها مبتدئا قوله تعالى وإن جنحوا للسلم يقرأ بفتح  
السين وكسرها وقد ذكرت عله في البقرة قوله تعالى إذ يتوفى يقرأ بالياء والتاء وقد ذكرت  
عله فيما مضى قوله تعالى وإن يكن منكم مائة وإن يكن منكم مائة صابرة يقرأ بالياء  
والتاء فالحجة لمن قرأهما بالتاء أنه جاء به على لفظ مائة ومن قرأه بالياء أتى به على لفظ  
المعدود لأنه مذكر والحجة لمن قرأهما بالياء والتاء أنه أتى بالمعنيين معا وجمع بين اللغتين قوله

تعالى وعلم أن فيكم ضعفاً يقرأ بضم الضاد وفتحها وهما لغتان  
وقد ذكرت الحجة في أمثال ذلك بما يعني عن الإعادة قوله تعالى أن يكون له أسرى يقرأ بالياء  
والتاء فالحجة لمن قرأه بالياء أنه رده إلى المعنى والحجة لمن قرأه بالتاء أنه رده على اللفظ  
قوله تعالى من الأسارى يقرأ بضم الهمزة وإثبات الألف وفتحها وطرح الألف فالحجة لمن  
أثبتها أنه أراد جمع الجمع والحجة لمن طرحها أنه أراد جمع أسير وقال أبو عمرو والأسرى من  
كانوا في أيديهم أو في الحبس والأسارى من جاء مستأسرا قوله تعالى من ولايتهم يقرأ بفتح  
الواو وكسرهما هنا وفي الكهف فالحجة لمن فتح أنه أراد ولاية الدين والحجة لمن كسر أنه  
أراد ولاية الإمرة وقيل هما لغتان والفتح أقرب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الحجة فى القراءات  
السبعة ص 169 . 173 ﴾

(42/304)

وقال ابن زنجلة :

8 - سورة الأنفال

إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين 9

قرأ نافع مردفين بفتح الدال مفعول بهم أي الله أردفهم أي بعثهم على آثار من تقدمهم قال أبو

عبيد تأويله أن الله تبارك وتعالى أردف المسلمين بهم وكان مجاهد يفسرها ممددين وهو

تحقيق هذا المعنى

وقرأ الباقر مردفين بكسر الدال أي جاؤوا بعدهم على آثارهم أي ردفوا أصاب رسول

الله صلى الله عليه وآله وأردف بمعنى ردف قال الشاعر . . . إذا الجوزاء أردفت الثريا

. . . ظننت بال فاطمة الظنونا . . .

قال أبو عبيد أراد بقوله أردفت ردفت أي جاءت بعدها ألا ترى أن الجوزاء تطلع بعد طلوع

الثريا وعلى أثرها وقال ابن عباس مردفين أي متابعين وقال آخرون منهم أبو عمرو مردفين

أي أردف بعضهم بعضاً فالإرداف أن يحمل الرجل

صاحبه خلفه تقول ردفت الرجل أي ركبت خلفه وأردفته إذا أركبته خلفي وقال آخرون

منهم أبو بكر بن مجاهد مردفين أي متقدمين لمن وراءهم كأن من يأتي بعدهم ردف لهم أي

أتوا في ظهورهم فعلى هذا الوجه لا يكون أردف بمعنى ردف لأنهم أردفوا خلفهم إذ

يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به 11

قرأ أبو عمرو وابن كثير إذ يغشاكم بالآلف النعاس رفع فعل الفعل النعاس لأنك تقول غشيني

النعاس يغشاني وحجتهما في أن الفاعل هو النعاس قوله أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم إلا

ترى أن النعاس هو الذي يغشى فهو الفاعل والقصة واحدة فلذلك اختار هذا الوجه

وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة إذ يغشيكم بضم الياء وتشد الشين النعاس نصب أي الله

يغشيوكم النعاس وحثهم أن الفعل أتى عقيب ذلك مسنداً إلى الله وهو قوله وينزل عليكم  
من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان فكان الأولى بما قبله أن يكون  
خبراً عن الله أنه هو الفاعل له لينتظم الكلام على سياق واحد وحجة التشديد قوله  
فغشاها ما غشى

(43/304)

---

وقرأ أهل المدينة إذ يغشيوكم بضم الياء وسكون الغين النعاس نصب أي يغشيوكم الله  
النعاس وحثهم قوله فأغشيناهم فهم لا يبصرون  
ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى 17  
قرأ حمزة والكسائي وابن عامر ولكن خفيفة الله رفع وكذلك الذي بعده  
وقرأ الباقون ولكن بالتشديد الله نصب وقد ذكرت المحجة في سورة البقرة  
ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين 18  
قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وموهن بالتشديد كيد نصب من وهن يوهن مثل قتل يقتل  
وحدثهم في ذلك أن التشديد إنما وقع لتكرر الفعل وذلك ما ذكره الله من تثبيت أقدام  
المؤمنين بالغيث وربطه على قلوبهم وتقليله إياهم في أعينهم عند القتال فذلك منه شيء

بعد شيء وحال بعد حال في وقت بعد وقت فكان الأولى بالفعل أن يشدد لتردد هذه

الأفعال فكأنه أوقع الوهن بكيد الكافرين مرة بعد مرة فوجب أن يقال موهن لهذه العلة

وقرأ أهل الكوفة وأهل الشام موهن بإسكان الواو من

أوهن يوهن فهو موهن مثل أيقن يوقن فهو موقن وهما لغتان مثل كرم وأكرم وكلهم ينصبون كيد

وينونون موهن إلا حفصا عن عاصم فإنه أضافه فقراً موهن كيد ومثله بالغ أمره فمن نون

أراد الحال والاستقبال كقولك الأمير خارج الآن أو غدا ومن لم ينون جاز أن يريد الماضي

والاستقبال

ولن تغني عنكم فتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين 19

قرأ نافع وابن عامر وفحص ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين بفتح الألف أي ولأن الله مع

المؤمنين فلما حذف اللام جعلت أن في محل نصب كأنه قال ولن تغني عنكم فتكم

لكثرتها لأن الله مع المؤمنين وحثهم في ذلك أنها مردودة على قوله قبلها وأن للكافرين 14

وأن الله موهن 18 وأن الله مع المؤمنين فيكون الكلام واحدا يتبع بعضه بعضا

إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة

42

قرأ ابن كثير وأبو عمرو إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة

القصوى بكسر العين فيهما مثل إسوة وقدوة



وقرأ الباقر بالرفع فيهما قال الكسائي وأبو عبيد هما لغتان مثل حذوة وحذوة  
قرأ نافع والبيزي عن ابن كثير وأبو بكر ويحيى من حيي بياءين وقرأ الباقر حي بالإدغام  
قال الخليل يجوز الإدغام والإظهار إذا كانت الحركة في الثاني لازمة فأما من أدغم فلا اجتماع  
الحرفين من جنس واحد كما تقول عيي بالأمريعياء ثم تقول عي بالأمروأما من أظهر فلأن  
الحرف الثاني ينتقل من لفظ الياء تقول حيي ويحيى والحيا والممات فهذا جاز الإظهار  
ولو ترى إذ توفى الذين كفروا الملائكة 50

قرأ ابن عامر ولو ترى إذ توفى الذين كفروا بالياء وحجته قوله إن الذين كفروا توفاهم  
الملائكة وقوله تحمله الملائكة

وقرأ الباقر إذ توفى بالياء الأمر بينهما قريب وذلك أنك إذا قرأت بالياء أردت جماعة  
الملائكة وإذا قرأت بالياء أردت جمع الملائكة كما تقول قالت الرجال وقال الرجال قال الله  
تعالى فناده الملائكة ونادته الملائكة

ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون 59

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص ولا يحسن الذين كفروا بالياء قال الزجاج وجهها ضعيف

عند أهل العربية إلا أنها جائزة على أن يكون المعنى ولا يحسن الذين كفروا أن سبقوا لأنها  
في حروف ابن مسعود أنهم سبقوا ف أن مخففة من أن وأن تنوب عن الاسم والخبر قال  
وفيها وجه آخر يكون ولا يحسن قبيل المؤمنين الذين كفروا سبقوا  
وقرأ الباقيون ولا تحسن الذين بالتاء ف الذين المفعول الأول و سبقوا المفعول الثاني المعنى لا  
تحسن يا محمد من أفلت من هذه الحرب قد سبق إلى الحياة  
قرأ ابن عامر أنهم لا يعجزون بفتح الألف المعنى ولا تحسن الذين كفروا سبقوا لأنهم لا  
يعجزون الله قال الزجاج وقد يجوز أن يكون لا لغوا فيكون المعنى ولا تحسن الذين كفروا  
أنهم يعجزون وتكون أن بدلا من سبقوا  
وقرأ الباقيون إنهم بالكسر على الابتداء  
وإن جنحوا للسلم فاجنح لها 60

(45/304)

---

قرأ أبو بكر عن عاصم وإن جنحوا للسلم بالكسر وقرأ الباقيون بالفتح وهما لغتان وهو

الصلح

وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا الآن خفف الله عنكم وعلم

أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين 65 و66

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وإن تكن منكم مئة فإن فتكن منكم مئة صابرة بالتاء فيهما  
وقرأ أبو عمرو والثانية بالتاء وقرأ الباقرن بالياء فيهما فمن أنت فلتأنيث المئة ومن ذكر فلأن  
المئة وقعت على عدد مذكر وأخرى وهي أنه لما حجز بين الاسم والفعل مجاز ذكر الفعل  
لأن الحاجز صار كالعوض منه وحجة أبي عمر ذكرها اليزيدي فقال لقوله صابرة ذهب  
اليزيدي إلى أنه لما نعتها بالتأنيث وجب أن يكون فعلها بلفظ التأنيث لأن المذكر لا ينعت به  
المؤنث

قرأ عاصم وحمزة وعلم أن فيكم ضعفا بفتح الضاد وفي الروم مثله وقرأ الباقرن بالرفع وهما  
لغتان مثل المكث والمكث والفقير والفقير والقرح والقرح 2

ما كان لنبي أن يكون له أسرى يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى 67 و70  
قرأ أبو عمرو وما كان لنبي أن تكون له أسرى بالتاء أراد جماعة أسرى فجرى مجرى قوله  
كذبت قوم نوح المرسلين

ونظائر ذلك وقرأ الباقرن أن يكون بالياء أراد جمع أسرى

قال أهل البصرة لما فصل بين الاسم والفعل بفواصل ذكر الفعل لأن الفاصل صار كالعوض  
قرأ أبو عمرو يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسارى بالالف قال أبو عمرو وإذا كان عند  
القتال فأسر القوم عدوهم فهم الأسرى فإذا ذهبت زحمة القتال فصاروا في أيديهم فهم

الأسارى وقال أيضا ما كان في الأيدي وفي السجن فإنها أسارى وما لم يكن في الأيدي ولا في

السجن فقل ما شئت أسرى وأسارى

وقرأ الباكون من الأسرى بغير ألف وحجتهم أن العرب جمعت على فعلى من كانت به

دمامة أو مرض يمنعه من النهوض فقالوا في صريع صرعى وجريح جرحى ولما كان الأسر

أفة تدخل على الإنسان فتمنعه من النهوض أجري مجرى ذوي العاهات فقالوا أسير

وأسرى

(46/304)

ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا 72

قرأ حمزة ما لكم من ولايتهم بكسر الواو وهي مصدر وليت الشيء ولاية ووال حسن

الولاية قال الفراء ما لكم من ولايتهم يريد من ميراثهم وكسر الواو في الولاية أعجب إلي من

فتحها لأنها إنما يفتح أكثر ذلك إذا كانت في معنى نصره قال فكان الكسائي يفتحها

ويذهب بها إلى النصره ولا اراه علم التفسير ويختارون في وليته ولاية الكسر

وقرأ الباكون من ولايتهم بفتح الواو أي من نصرهم والعرب تقول نحن لكم على بني فلان ولاية

أي أنصار . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ حجة القراءات ص 314.307 ﴾

أسئلة وأجوبة في السورة الكريمة

قال الخطيب الإسكافي :

سورة الأنفال

قد مر في سورة البقرة ، وآل عمران من الآيات التي تشبه الآيات من هذه السورة ، وهذه الآية التي نذكرها فيها ، قد سبقت نظيرتها في سورة الأعراف ، فذكرناها في هذا المكان ، كراهة إخلاء هذه السورة من تخصيصها / بما خصصنا به أمثالها .

91 الآية الأولى منها :

قوله تعالى : ( فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ) الأنفال : 35 .

وقال في سورة الأعراف قبلها ، 39 ( فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ) .

للسائل أن يسأل فيقول : إن الخبر في الموضعين عن الكفار ، فما بال أحدهما احتص بقوله :

( بما كنتم تكفرون ) والآخر احتص بقوله ( بما كنتم تكسبون ) ؟ .

والجواب أن يقال : إن التي في سورة الأعراف خبر عن قوم ذكروا قبل هذه الآية في قوله تعالى

: ( فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى

إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله) . الأعراف : 37 .  
والمعنى في قوله : (ينالهم نصيبهم من الكتاب) أي حظهم من العذاب المكتوب عليهم بقدر  
ما كسبوه من سيئات الأعمال (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) أي يستوفونهم من دون  
غيرهم ليسوقوهم إلى النار . وهذا عن الحسن ، وبين ذلك بعده قوله (قال ادخلوا في أمم قد  
خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى  
إذا أداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتتهم عذابا ضعفا من  
النار قال

لكل ضعف ولكن لا تعلمون) . الأعراف : 38 .

(48/304)

---

فأخبر أن أخراهم تسأل الله أن يضعف العذاب على أولاهم لأنهم ضلوا وأضلوا  
فيستحقون العذاب على قدر اكتسابهم ، فلذلك طبلوا أن يكون عذابهم ضعف عذاب  
هؤلاء لإثمهم ، بما كسبوا من ضلالهم في أنفسهم وإثمهم بما اكتسبوا من إضلال غيرهم ،  
(وقال أولاهم فما كان لكم علينا من فضل) الأعراف : 39 أي : كنتم مثلنا في الضلال ، لم  
يكن علينا فضل في تركه أو التقلل منه (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) أي يقول الله تعالى

ذلك ذوقوا العذاب بقدر ما كنتم تكسبون فهذا موضع يقتضي ذكر الاكتساب ، وما يجب على قدره من العقاب .

وأما الآية في الأنفال فهي في ذكر الكفار الذين قال الله تعالى فيهم (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) الأنفال : 35 أي : صغيرا وتصفيفا لم تكن صلاتهم تسبيحا ، وتمجيذا ، وخضوعا لله تعالى كما يفعل المؤمنون فقال لهم في الآخرة ، ذوقوا العذاب بكفركم ولم يتقدم هذه الآية ما يوجب قدرا من العذاب دون قدر حتى يقال : ذوقوا من العذاب بقدر كسبهم له ، كما كان في الآية الأولى ، وإنما ذكر كفرهم من حيث قال : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)\* وما لهم ألا يعذبهم وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه) الأنفال : 34-35 وذلك كله في كفار قريش ، فلذلك جاء فيه بعد (فذوقوا) (بما كنتم تكفرون) دون (بما كنتم تكسبون) .

92 الآية الثانية منها :

قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين أووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) الأنفال : 72 .

وقال في سورة براءة 20 : (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) .

لم قدم ذكر الأموال والأنفس في الآية الأولى على قوله (في سبيل الله) ، وأخر في الأخرى ؟

والجواب أن يقال: إن الآية الأولى في سورة الأنفال عقيب ما أنكره الله تعالى على من قال لهم:  
: (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم) الأنفال: 67، وهم أصحاب  
النبي لما أسروا المشركين، ولم يقتلوهم طمعا في الفداء، فقال تعالى: (لولا كتاب من الله  
سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) الأنفال: 68 أي: فيما أخذتم من هؤلاء الأسرى  
من الفداء، ثم قال تعالى لما غفر لهم ما كان منهم من ترك القتل إلى الأسرى: (فكلوا مما  
غنمتم حلالا طيبا) الأنفال: 69. أي:

استمتعوا بما نلتهم من أموال المشركين، وبما أخذتم من فدائهم، فعقب ذلك/ بهذه الآية التي  
مدح فيها من أنفق أمواله في سبيل الله، لا من يجاهد طلبا للنفع العاجل فقال: (إن الذين  
آمَنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) فقدم (بأموالهم وأنفسهم) على  
قوله (في سبيل الله) ليعلموا أن ذلك يجب أن يكون أهم لهم، وأولى بتقديمه عندهم صرفا  
لهم عما حرصوا عليه من فائدة الفداء.

ولم تكن كذلك الآية التي في سورة براءة، لأنها بعدما يوجب تقديم قوله (في سبيل الله) على  
ذمر المال، لأنه قال تعالى (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) التوبة:



16 . ثم قال في إبطال ما أتى به المشركون من عمارة المسجد الحرام ، وسقاية الحاج من المقام على الكفر . : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله) التوبة : 19 . فكان المندوب إليه في هذه الآية بعد الإيمان بالله الجهاد في سبيل الله ، فقال بعده مادحا لمن تلقى بالطاعة أمره . (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله) ثم ذكر (بأموالهم وأنفسهم) لما قدم ذكر ما اقتضى الموضع تقديمه ، وأن يجعل أهم إليهم من غيره ، فخالف هذا المكان قوله في سورة الأنفال ، فقدم فيه ما أخر هناك لذلك فأعلمه . وبالله التوفيق .

انقضت سورة الأنفال عن آيتين ومسألتين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ درة التنزيل ص 136 .

﴿ 138

(50/304)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الأنفال 8

مدنية ونظيرتها في المدنيين الحج وفي الكوفي الزمرو وفي الشامي الفرقان ولا نظير لها في المكّي

والبصري

وكلمها ألف ومئتان وإحدى وثلاثون كلمة

وحروفها خمسة آلاف ومئتان وأربعة وتسعون حرفا

وهي سبعون وخمس آيات في الكوفي وست في المدنين والمكي والبصري وسبع في الشامي

اختلافها ثلاث آيات ( ﴿ ثم يغلبون ﴾ ) عدها البصري والشامي ولم يعدها الباقون ( ﴿

ليقضي الله أمرا كان مفعولا ﴾ ) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون ( ﴿ بنصره وبالمؤمنين

﴿ لم يعدها البصري وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع ثمانية مواضع

( ﴿ أولئك هم المؤمنون ﴾ رجز الشيطان ) ( ﴿ فوق الأعناق ﴾ عن المسجد الحرام )

( ﴿ إلا المتقون ﴾ يوم الفرقان ) ( ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ أمرا كان مفعولا ) الثاني بعده

( ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ )

ورؤوس الآي

مؤمنين

1 يتوكلون

2 ينفقون

3 كريم

4 لكارهون

5 ينظرون

6 الكافرين

7 المجرمون

8 مردفين

9 حكيم

10 الأقدام

11 بنان

12 العقاب

13 النار

14 الأدبار

15 المصير

16 عليم

17 الكافرين

18 المؤمنين

19 تسمعون

20 لا يسمعون

21 لا يعقلون

22 معرضون

23 تحشرون

24 العقاب

25 تشكرون

26 تعلمون

27 عظيم

28 العظيم

29 الماكرين

30 الأولين

31 اليم

32 يستغفرون

33 لا يعلمون

34 تكفرون

35 يحشرون

36 الخاسرون

37 الأولين

38 بصير

39 النصير

40 قدير

41 مفعولا

\* عليهم

42 الصدور

43 الأمور

44 تفلحون

45 الصابرين

46 محيط

47 العقاب

48 حكيم

49 الحريق

50 للعبيد

51 العقاب

52 عليم

53 ظالمين

54 لا يؤمنون

55 لا يتقون

56 يذكرون

57 الخائنين

58 لا يعجزون

59 لا تظلمون

60 العليم

61 وبالمؤمنين

62 حكيم

63 المؤمنين

64 لا يفقهون

65 الصابرين

66 حكيم

67 عظيم

68 رحيم

69 رحيم

70 حكيم

71 بصير

72 كبير

73 كريم

74 عليم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 158 . 159 ﴾

(51/304)

---

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال

(عن الأنفال) الجمهور على إظهار النون ، ويقرأ بإدغامها فى اللام ، وقد ذكر فى قوله " عن

الأهله " و (ذات بينكم) قد ذكر في آل عمران عند قوله " بذات الصدور " (وجلت)  
مستقبله توجل بفتح التاء وسكون الواو وهى اللغة الجيدة ، ومنهم من يقلب الواو ألفا  
تخفيفا ، ومنهم من يقلبها ياء بعد كسر التاء ، وهو على لغة من كسر حرف المضارعة ،  
وانقلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ،  
ومنهم من يفتح التاء مع سكون الياء فتركب من اللغتين لغة ثالثة ، فتفتح الأول على اللغة  
الفاشية ، وتقلب الواو ياء على الأخرى (وعلى ربهم يتوكلون) يجوز أن تكون الجملة حالا  
من ضمير المفعول في زادتهم ، ويجوز أن يكون مستأنفا .  
قوله تعالى (حقا) قد ذكر مثله في النساء و (عند ربهم) ظرف ، والعامل فيه الاستقرار ،  
ويجوز أن يكون العامل فيه درجات لأن المراد به الأجور .  
قوله تعالى (كما أخرجك) في موضع الكاف أوجه: أحدها أنها صفة لمصدر محذوف ،  
ثم في ذلك المصدر أوجه تقديره: ثابتة لله ثبوتا كما أخرجك .  
والثانى: وأصلحوا ذات بينكم إصلاحا كما أخرجك ، وفي هذا رجوع من خطاب الجمع  
إلى خطاب الواحد .

والثالث تقديره: وأطيعوا الله طاعة كما أخرجك ، والمعنى: طاعة محققة .

والرابع تقديره: يتوكلون توكلًا كما أخرجك .

والخامس هو صفة لحق تقديره: أولئك هم المؤمنون حقا مثل ما أخرجك .



والسادس تقديره: يجادلونك جدالاً كما أخرجك .

والسابع تقديره: وهم كارهون كراهية كما أخرجك: أي ككراهيتهم أو كراهيتك

لإخراجك ، وقد ذهب قوم إلى أن الكاف بمعنى الواو التي للقسم وهو بعيد ، و (ما)

مصدرية ، و (بالحق) حال ، وقد ذكر نظائره (وإن فريقاً) الواو هنا واو الحال .

(52/304)

---

قوله تعالى (وإذ يعدكم) إذ في موضع نصب: أي واذكروا ، والجمهور على ضم الدال ،

ومنهم من يسكنها تخفيفاً لتوالي الحركات ، و (إحدى) مفعول ثان ، و (أنها لكم) في موضع

نصب بدلاً من إحدى بدل الاشتمال ، والتقدير: وإذ يعدكم الله ملكة إحدى الطائفتين .

قوله تعالى (إذ تستغيثون) يجوز أن يكون بدلاً من إذ الأولى ، وأن يكون التقدير: اذكروا ،

ويجوز أن يكون ظرفاً لتودون (بألف) الجمهور على أفراد

لفظة الألف ، ويقرأ بألف على أفعل مثل أفلس ، وهو معنى قوله " بخمسة آلاف " (مردفين)

يقرأ بضم الميم وكسر الدال وإسكان الراء ، وفعله أردف ، والمفعول محذوف: أي مردفين

أمثالهم ، ويقرأ بفتح الدال على ما لم يسم فاعله: أي أردفوا بأمثالهم ، ويجوز أن يكون

المردفون من جاء بعد الأوائل: أي جعلوا ردفاً للأوائل ، ويقرأ بضم الميم وكسر الدال

وتشديدها ، وعلى هذا في الراء ثلاثة أوجه: الفتح وأصلها مرتدفين ، فنقلت حركة التاء إلى الراء وأبدلت ذالا ليصح إدغامها في الدال ، وكان تغيير التاء أولى لأنها مهموسة والدال مجهورة .

وتغيير الضعيف إلى القوي أولى .

والثاني كسر الراء على إتباعها لكسرة الدال ، أو على الأصل في التقاء الساكنين .

والثالث الضم إتباعا لضممة الميم ، ويقراً بكسر الميم والراء على إتباع الميم الراء ، وقيل من قرأ بفتح الراء وتشديد الدال فهو من ردف بتضعيف العين للتكثير ، أو أن التشديد بدل من الهمزة كأفرجته وفرجته .

قوله تعالى (وما جعله الله) الهاء هنا مثل الهاء التي في آل عمران .

(53/304)

---

قوله تعالى (إذ يغشاكم) "إذ" مثل "إذ تستغيثون" ويجوز أن يكون ظرفا لما دل عليه "عزیز حكيم" ويقراً "يغشاكم" بالتخفيف والألف ، و(النعاس) فاعله ، ويقراً بضم الياء وكسر الشين وياء بعدها ، والنعاس بالنصب: أي يغشاكم الله النعاس ، ويقراً كذلك إلا أنه بتشديد الشين و(أمنة) مذكور في آل عمران (ماء ليظهركم) الجمهور على المد والجار صفة

له ، ويقراً شاذاً بالقصر وهي بمعنى الذى (رجز الشيطان) الجمهور على الزاى ، ويراد به هنا الوسواس ، وجاز أن يسمى رجزا لأنه سبب للرجز وهو العذاب ، وقرئ بالسين ، وأصل الرجس الشئ القذر ، فجعل ما يفضى إلى العذاب رجسا استقذارا له .

قوله تعالى (فوق الأعناق) هو ظرف لأضربوا ، وفوق العنق الرأس ، وقيل هو مفعول به ،

وقيل فوق زائدة (منهم) حال من (كل بنان) أي كل بنان

كائنا منهم ، ويضعف أن يكون حالا من بنان إذ فيه تقديم حال المضاف إليه على المضاف

(ذلك) أي الأمر ، وقيل ذلك مبتدأ ، و (بأنهم) الخبر: أي ذلك مستحق بشقاقهم (ومن

يشاقق الله) إنما لم يدغم لأن القاف الثانية ساكنة في الأصل وحركتها هنا لالتقاء الساكنين

فهي غير معتد بها .

قوله تعالى (ذلكم فذوقوه) أي الأمر ذلكم ، أو ذلكم واقع أو مستحق ، ويجوز أن يكون في

موضع نصب: أي ذوقوا ذلكم ، وجعل الفعل الذى بعده مفسرا له ، والأحسن أن يكون

التقدير: باشروا ذلكم فذوقوه ، لتكون الفاء عاطفة (وأن للكافرين) أي والأمر أن

للكافرين .

قوله تعالى (زحفا) مصدر في موضع الحال ، وقيل هو مصدر للحال المحذوفة: أي تزحفون

زحفا ، و (الأدبار) مفعول ثان لتلوهم .

قوله تعالى (متحرفا أو متحيزا) حالان من ضمير الفاعل في يولهم .

قوله تعالى (ذلكم) أي الامر ذلكم (و) الأمر (أن الله موهن) بتشديد الهاء وتخفيفها ،  
وبالإضافة والتنوين وهو ظاهر .

قوله تعالى (وأن الله مع المؤمنين) يقرأ بالكسر على الاستئناف ، وبالفتح على تقدير: والأمر  
أن الله مع المؤمنين .

(54/304)

---

قوله تعالى (إن شر الدواب عند الله الصم) إنما جمع الصم وهو خبر شر ، لأن شرا هنا يراد  
به الكثرة ، فجمع الخبر على المعنى ، ولو قال الأصم لكان الإفراد على اللفظ والمعنى على  
الجمع .

قوله تعالى (لا تصيين) فيها ثلاثة أوجه: أحدها أنه مستأنف ، وهو جواب قسم محذوف:  
أي والله لا تصيين الذين ظلموا خاصة بل تعم .

والثاني أنه نهى ، والكلام محمول على المعنى كما تقول: لا أرينك ها هنا: أي لا تكن ها هنا  
، فإن

من يكون ها هنا أراه ، وكذلك المعنى هنا ، إذ المعنى لا تدخلوا في الفتنة فإن من يدخل فيها  
تنزل به عقوبة عامة .

والثالث أنه جواب الأمر ، وأكد بالنون مبالغة ، وهو ضعيف لأن جواب الشرط متردد فلا يليق به التوكيد ، وقرئ في الشاذ "تصيين" بغير ألف .

قال ابن جنى : الأشبه أن تكون الألف محذوفة كما حذفت في أم والله .

وقيل في قراءة الجماعة : إن الجملة صفة لفنة ، ودخلت النون على المنفى في غير القسم على الشذوذ .

قوله تعالى (تخافون) يجوز أن يكون في موضع رفع صفة كالذي قبله : أي خائفون ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في مستضعفون .

قوله تعالى (وتخونوا أماناتكم) يجوز أن يكون مجزوما عطفا على الفعل الأول وأن يكون نصبا على الجواب بالواو .

قوله تعالى (وإذ يكر) هو معطوف على "واذكروا إذ أنتم" .

قوله تعالى (هو الحق) القراءة المشهورة بالنصب ، وهو هنا فصل ، ويقرأ بالرفع على أن : هو مبتدأ ، والحق خبره ، والجملة خبر كان ، و (من عندك) حال من معنى الحق : أي

الثابت من عندك (من السماء) يجوز أن يتعلق بأمطر ، وأن يكون صفة لحجارة .

قوله تعالى (أن لا يعذبهم) أي في أن لا يعذبهم ، فهو في موضع نصب أو جر على الاختلاف ، وقيل هو حال ، وهو بعيد لأن "أن" تخلص الفعل للاستقبال .

قوله تعالى (وما كان صلاتهم) الجمهور على رفع الصلاة ونصب المكاء ، وهو ظاهر .

وقرأ الأعمش بالعكس وهي ضعيفة ، ووجهها أن المكاء والصلاة مصدران ، والمصدر جنس ، ومعرفة الجنس قريبة من نكرته ، ونكرته قريبة من معرفته .

الأتري أنه لافرق بين خرجت فإذا الأسد أو فإذا أسد ، ويقوى ذلك

أن الكلام قد دخله النفي والإثبات ، وقد يحسن في ذلك ما لا يحسن في الإثبات المحض إلا

تري أنه لا يحسن كان رجل خيرا منك ، ويحسن ما كان رجلا إخيلا منك ؟ وهمزة

المكاء مبدلة من واو لقولهم مكاء يكو .

والأصل في التصدية تصددة ، لأنه من الصد ، فأبدلت الدال الأخيرة ياء لثقل التضعيف ،

وقيل هي أصل وهو من الصدى الذى هو الصوت .

قوله تعالى (ليميز) يقرأ بالتشديد والتخفيف ، وقد ذكر في آل عمران ، و(بعضه) بدل من

الخبيث بدل البعض : أي بعض الخبيث على بعض .

ويجعل هنا متعدية إلى مفعول بنفسها ، وإلى الثاني بحرف الجر ، وقيل الجار والمجرور حال

تقديره : ويجعل بعض الخبيث عاليا على بعض .

قوله تعالى (نعم المولى) المخصوص بالمدح محذوف : أي نعم المولى الله سبحانه .

قوله تعالى (أن ما غنمتم) " ما " بمعنى الذى: والعائد محذوف ، و (من شئ) حال من

العائد المحذوف تقديره: ما غنمتموه قليلا وكثيرا (فإن لله) يقرأ

بفتح الهمزة.

وفى الفاء وجهان: أحدهما أنها دخلت فى خبر الذى لما فى الذى من معنى المجازاة، و " أن

" وما عملت فيه فى موضع رفع خبر مبتدأ محذوف تقديره: فالحكم أن لله خمسه .

والثانى أن الفاء زائدة و " أن " بدل من الأولى ، وقيل " ما " مصدرية والمصدر بمعنى

المفعول: أي واعلموا أن غنيمتكم: أي مغنومكم ، ويقرأ بكسر الهمزة فى " أن " الثانية على

أن تكون " أن " وما عملت فيه مبتدأ وخبر فى موضع خبر الأولى والخمس بضم الميم

وسكونها لغتان قد قرئ بهما (يوم الفرقان) ظرف لأنزلنا أو لآمنتكم (يوم التقى) بدل من يوم

الأول ، ويجوز أن يكون ظرفا للفرقان لأنه مصدر بمعنى التفريق .

(56/304)

---

قوله تعالى (إذ أنتم) إذ بدل من يوم أيضا ، ويجوز أن يكون التقدير: اذكروا إذ أنتم ، ويجوز أن

يكون ظرفا لتقدير ، والعدوة بالضم والكسر لغتان قد قرئ بهما (القصوى) بالواو ، وهى

خارجة على الأصل ، وأصلها من الواو .

وقياس الاستعمال أن تكون القصيا لأنه صفة كالدينا والعليا ، وفعلى إذا كانت صفة قلبت  
واوها ياء فرقا بين الإسم والصفة (والركب) جمع راكب في المعنى ، وليس بجمع في اللفظ ،  
ولذلك تقول في التصغير ركب كما تقول فريخ ، و(أسفل منكم) ظرف: أي والركب في  
مكان أسفل منكم: أي أشد تسفلا ، والجمله حال من الظرف الذي قبله ، ويجوز أن تكون  
في موضع جر عطفا على أتم: أي وإذا الركب أسفل منكم (ليقتضى الله) أي فعل ذلك  
ليقتضى (ليهلك) يجوز أن يكون بدلا من ليقضى بإعادة الحرف ، وأن يكون متعلقا بيقضى  
أو بمفعولا (من هلك) الماضي هنا بمعنى المستقبل ، ويجوز أن يكون المعنى: ليهلك بعذاب  
الآخرة من هلك في الدنيا منهم بالقتل (من حى) يقرأ بتشديد الياء وهو الأصل لأن الحرفين  
متماثلان متحركان ، فهو مثل شد ومد ، ومنه قول عبيد: عيوا بأمرهم كما \* عيت  
بيضتها الحمامه ويقرأ بالإظهار وفيه وجهان: أحدهما أن الماضي حمل على المستقبل  
وهو يجيا ، فكما لم يدغم في المستقبل لم يدغم في الماضي ، وليس كذلك شد ومد فإنه  
يدغم فيهما جميعا .

والوجه الثاني أن حركة الحرفين مختلفة ، فالأولى مكسورة والثانية مفتوحة ، واختلاف  
الحركتين كاختلاف الحرفين ، ولذلك أجازوا في الاختيار لاحت عينه وضرب البلد إذا  
كثر ضربه ، ويقوى ذلك أن الحركة الثانية عارضة ، فكان الياء الثانية ساكنة ، ولو سكنت  
لم يلزم الادغام ، وكذلك إذا كانت في تقدير الساكن ، واليان



أصل وليست الثانية بدلا من واو ، فأما الحيوان فالواو فيه بدل من الياء ، وأما الحواء  
فليس من لفظ الحية ، بل من حوى يحوى إذا جمع ، و (عن بينة) في الموضوعين يتعلق بالفعل  
الأول .

قوله تعالى (إذ يريكم) أي اذكروا ، ويجوز أن يكون ظرفا لعليم .

(57/304)

---

قوله تعالى (فتفشلوا) في موضع نصب على جواب النهي ، وكذلك (وتذهب ربحكم)  
ويجوز أن يكون فتفشلوا جزما عطفا على النهي ، ولذلك قرئ "ويذهب ربحكم" .  
قوله تعالى (بطرا ورتاء الناس) مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال (ويصدون)  
معطوف على معنى المصدر .

قوله تعالى (لا غالب لكم اليوم) غالب هنا مبنية ، ولكم في موضع رفع خبر لا ، واليوم  
معمول الخبر ، و (من الناس) حال من الضمير في لكم ، ولا يجوز أن يكون اليوم منصوبا بغالب  
، ولا من الناس حالا من الضمير في غالب ، لأن اسم "لا" إذا عمل فيما بعده لا يجوز بناؤه  
، والألف في (جار) بدل من واو لقولك جاورته ، و (على عقبية) حال .

قوله تعالى (إذ يقول المنافقون) أي اذكروا ويجوز أن يكون ظرفا لزين أو لفعل من الأفعال

المذكورة في الآية مما يصح به المعنى .

قوله تعالى (يتوفى) يقرأ بالياء ، وفي الفاعل وجهان: أحدهما (الملائكة) ولم يؤنث للفصل بينهما ولأن تأنث الملائكة غير حقيقي ، فعلى هذا يكون (يضربون وجوههم) حالا من الملائكة أو حالا من الذين كفروا ، لأن فيها ضميرا يعود عليهما .

والثاني أن يكون الفاعل مضمرا: أي إذ يتوفى الله والملائكة على هذا مبتدأ ، ويضربون الخبر ، والجملة حال ولم يحتاج إلى الواو لأجل الضمير: أي يتوفاهم والملائكة يضربون وجوههم ، ويقرأ بالتاء والفاعل الملائكة .

قوله تعالى (كدأب) قد ذكر في آل عمران ما يصح منه إعراب هذا الموضع .

قوله تعالى (وإن الله سميع عليم) يقرأ بفتح الهمزة تقديره: ذلك بأن الله لم يك مغيرا وبأن الله سميع ، ويقرأ بكسرها على الاستئناف .

قوله تعالى (الذين عاهدت) يجوز أن يكون بدلا من الذين الأولى ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف: أي هم الذين .

ويجوز أن يكون نصبا على إضمار أعنى ، و (منهم) حال من العائد المحذوف .

---

قوله تعالى (فإما تثقفنهم) إذ أكدت أن الشرطية بما أكد فعل الشرط بالنون ليتناسب المعنى (فشردهم) الجمهور على الدال وهو الأصل ، وقرأ الأعمش بالذال وهو بدل من الدال ، كما قالوا: خراذيل وخراذيل ، وقيل هو مقلوب من شذر بمعنى فرق ، ومنه قولهم: تفرقوا شذر مذر ، ويجوز أن تكون من شذر في مقاله إذا أكثر فيه .  
وكل ذلك تعسف بعيد .

قوله تعالى (فانبذ إليهم) أي عهدهم فحذف المفعول ، و(على سواء) حال .  
قوله تعالى (ولا تحسبن الذين) يقرأ بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمفعول الثاني (سبقوا) ويقرأ بالياء ، وفي الفاعل وجهان: أحدهما هو مضمرة: أي يحسبن من خلفهم ، أو لا يحسبن أحد ، فالإعراب على هذا كإعراب القراءة الأولى .  
والثاني أن الفاعل الذين كفروا ، والمفعول الثاني سبقوا ، والأول محذوف: أي أنفسهم ، وقيل التقدير: أن سبقوا ، وأن هنا مصدرية مخففة من الثقيلة حكى عن الفراء وهو بعيد لأن أن المصدرية موصولة ، وحذف الموصول ضعيف في القياس شاذ في الاستعمال (إنهم لا يعجزون) أي لا يحسبوا ذلك لهذا .

والثاني أنه (1) متعلق بتحسب إما مفعول أو بدل من سبقوا ، وعلى كلا الوجهين تكون لزايدة وهو ضعيف لوجهين: أحدهما زيادة لا والثاني أن مفعول حسبت إذا كان جملة

وكان مفعولا ثانيا كانت فيه إن مكسورة لأنه موضع مبتدأ وخبر.

قوله تعالى (من قوة) هو في موضع الحال من " ما " أو من العائد المحذوف في استطعتم (ترهبون به) في موضع الحال من الفاعل في اعدلوا ، أو من المفعول لأن في الجملة ضميرين يعودان إليهما .

قوله تعالى (للسلم) يجوز أن تكون اللام بمعنى إلى ، لأن جنح بمعنى مال ، ويجوز أن تكون معدية للفعل بنفسها وأن تكون بمعنى من أجل ، والسلم بكسر السين وفتحها لغتان ، وقد قرئ بهما وهي مؤنثة ، ولذلك قال (فاجنح لها) .

---

(1) (قوله والثاني أنه الخ) الظاهر أنه مقابل لقوله لا يحسبوا ذلك الخ يعني أنه وجه ثان اه .

(\*)

(59/304)

---

قوله تعالى (حسبك الله) مبتدأ وخبر ، وقال قوم: حسبك مبتدأ ، والله فاعله: أي يكفيك الله (ومن اتبعك) في من ثلاثة أوجه: أحدها جر عطفًا على الكاف في حسبك ، وهذا لا يجوز عند البصريين لأن العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار لا يجوز .  
والثاني موضعه نصب بفعل محذوف دل عليه الكلام تقديره: ويكفي من اتبعك .

والثالث موضعه رفع على ثلاثة أوجه (1) : أحدها هو معطوف على اسم الله ، فيكون خبراً آخر كقولك : القائمان زيد وعمرو ، ولم يثن حسبك لأنه مصدر .  
وقال قوم : هذا ضعيف لأن الواو للجمع ، ولا يحسن ها هنا كما لم يحسن في قولهم : ما شاء الله وشئت ، وثم هنا أولى .

والثاني أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره : وحسبك من اتبعك .  
قوله تعالى (إن يكن) يجوز أن تكون التامة فيكون الفاعل (عشرون) ، و(منكم) حال منها أو متعلقة بيكون ، ويجوز أن تكون الناقصة فيكون عشرون اسمها ومنكم الخبر .  
قوله تعالى (أسرى) فيه قراءات قد ذكرت في البقرة (والله يريد الآخرة) الجمهور على نصب الآخرة على الظاهر ، وقرئ شاذاً بالجر تقديره : والله يريد عرض الآخرة ، فحذف المضاف وبقي عمله ، كما قال بعضهم : أكل امرئ تحسبين أمراً \* ونار توقد بالليل ناراً أي وكل نار .

قوله تعالى (لولا كتاب) كتاب مبتدأ ، و(سبق) صفة له .  
و(من الله) يجوز أن يكون صفة أيضاً ، وأن يكون متعلقاً بسبق والخبر محذوف : أي تدارككم .

قوله تعالى (حلالاً طيباً) قد ذكر في البقرة .

قوله تعالى (حياتك) مصدر خان يخون ، وأصل الياء الواو فقلبت لانكسار ما قبلها

ووقوع الألف بعدها .

قوله تعالى (من ولايتهم) يقرأ بفتح الواو وكسرهما وهما لغتان ، وقيل هي بالكسر الإمارة ،  
وبالفتح من موالاة النصره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إملأ ما من به الرحمن ح 2 ص 3 .

﴿ 11

(1) (قوله على ثلاثة أوجه) لم يذكر منها غير وجهين ، وانظر لم أسقط الثالث مع أنه معيب

. اهـ .

(\*)

قوله تعالى (إلا تفعلوه) الهاء تعود على النصر ، وقيل على الولاء والتأمر .

قوله تعالى (في كتاب الله) في موضع نصب بأولى : أي يثبت ذلك في كتاب الله .

(60/304)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الأنفال

[سورة الأنفال (8) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)

"يَسْأَلُونَكَ" مضارع والواو فاعله والكاف مفعوله . "عَنِ الْأَنْفَالِ" متعلقان بالفعل قبلهما .  
والجملة مستأنفة . "قُلِ" فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت أي النبي صلوات الله  
عليه والجملة مستأنفة .

"الْأَنْفَالِ" مبتدأ . "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام ومتعلقان بمحذوف خبر "وَالرَّسُولِ"  
عطف والجملة مقول القول . "فَاتَّقُوا" الفاء الفصيحة وفعل أمر مبني على حذف النون  
وفاعله والله لفظ الجلالة مفعوله . والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم .  
"وَأَصْلِحُوا" عطف . "ذَاتَ" مفعوله . "بَيْنِكُمْ" مضاف إليه والجملة معطوفة .  
"وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ" الجملة معطوفة "إِنْ" شرطية جازمة . "كُنْتُمْ" فعل ماض ناقص في  
محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه . .

[سورة الأنفال (8) : آية 2]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى  
رَبِّهِمْ تَوَكَّلُونَ (2)

(61/304)

إِنَّمَا" كافة ومكفوفة. "المُؤْمِنُونَ" مبتدأ مرفوع. "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع خبر  
والجملة مستأنفة. "إِذَا" ظرف يتضمن معنى الشرط. "ذَكَرَ اللَّهُ" فعل ماض مبني للمجهول  
ولفظ الجلالة نائب فاعله والجملة في محل جر بالإضافة. "وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ" فعل ماض  
وفاعل والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. "تَلَيْتُ" فعل ماض مبني للمجهول تعلق  
به الجار والمجرور "عَلَيْهِمْ" "آيَاتُهُ" نائب فاعل والجملة معطوفة. "زَادَتْهُمْ" فعل ماض  
ومفعوله "إِيمَانًا" تمييز. "وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" مضارع تعلق به الجار والمجرور قبله والواو  
فاعله والجملة معطوفة.

[سورة الأنفال (8) : آية 3]

الَّذِينَ يَتِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)

"الَّذِينَ" اسم موصول بدل والجملة الفعلية "يَتِيمُونَ الصَّلَاةَ" صلة الموصول. "وَمِمَّا" اسم  
موصول في محل جر بمن. والجار والمجرور متعلقان "ينفقون" والجملة معطوفة وجملة  
"رَزَقْنَاهُمْ" صلة الموصول لا محل لها.

[سورة الأنفال (8) : آية 4]

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

"أُولَئِكَ" اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف للخطاب. "هُمُ"



ضمير فصل لا محل له . "المؤمنون" خبر أو هم ضمير رفع مبتدأ والمؤمنون خبره ، والجملة الاسمية خبر أولئك . "حقاً" صفة لمفعول مطلق محذوف أي المؤمنون إيماناً حقاً .  
"لهم" متعلقان بمحذوف خبر . "درجات" مبتدأ . "عند" ظرف مكان متعلق بمحذوف صفة درجات ، "ربهم" مضاف إليه ، والجملة مستأنفة . . "ومغفرة ورزق" عطف "كريم" صفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 5]

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5)

(62/304)

---

"كما" الكاف حرف جر . ما مصدرية . "أخرجك" فعل ماض والكاف مفعوله "ربك" فاعله . "من بيتك" متعلقان بالفعل "بالحق" متعلقان بمحذوف حال . والمصدر المؤول من ما المصدرية والفعل بعدها في محل جر بالكاف ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف .

"وإن فريقاً" إن واسمها والواو حالية . "من المؤمنين" متعلقان بمحذوف صفة لفريقاً .  
"لكارهون" خبر إن واللام المزحلقة والجملة في محل نصب حال .

[سورة الأنفال (8) : آية 6]

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6)

"يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ" مضارع تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله والكاف مفعوله والجملة مستأنفة .

"بَعْدَ" ظرف زمان متعلق بالفعل . "مَا تَبَيَّنَ" ما مصدرية مؤولة مع الفعل بمصدر في محل جر بالإضافة . "كَأَنَّمَا" كافة ومكفوفة . "يُسَاقُونَ" مضارع مبني للمجهول متعلق به الجار والمجرور "إِلَى الْمَوْتِ" . والواو نائب فاعل ، والجملة في محل نصب حال . "وَهُمْ" ضمير منفصل مبتدأ ، والواو حالية ، وجملة ينظرون في محل رفع خبر ، والجملة الاسمية "وَهُمْ يَنْظُرُونَ" حالية .

[سورة الأنفال (8) : آية 7]

وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7)

"وَإِذْ" ظرف زمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل المقدر اذكروا ، الواو استئنافية والجملة مستأنفة . "يَعِدُّكُمْ اللَّهُ" فعل مضارع والكاف مفعوله الأول واللّه لفظ الجلالة فاعله . "إِحْدَى" مفعوله الثاني . "الطَّائِفَتَيْنِ" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء لأنه مشى . "أَنَّهَا" أن واسمها .

"لَكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر، وأن واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب بدل من إحدى. "وَتَوَدُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله، والجملة في محل نصب حال بعد واو الحال. "أَنَّ غَيْرَ" أن واسمها، "ذاتٍ" مضاف إليه. "الشُّوكَّةُ" مضاف إليه. "تَكُونُ" مضارع ناقص واسمها ضمير مستتر. "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر والجملة في محل رفع خبر أن، وأن واسمها وخبرها في محل نصب مفعول به. "وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ" فعل مضارع ولفظ الجلالة وفاعله والمصدر المؤول مفعوله "بِكَلِمَاتِهِ" متعلقان بمحذوف حال والجملة معطوفة على جملة يعدكم. وكذلك جملة "وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ" معطوفة.

[سورة الأنفال (8): آية 8]

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)

"لِيُحِقَّ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره: فعل الله هذا. . . "الْحَقُّ" مفعول به. "وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ" عطف. "وَلَوْ" لو وصلية والواو حالية. وجملة "كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ" حالية.

[سورة الأنفال (8) : آية 9]

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9)  
"إِذْ" بدل من وَإِذْ يَعِدُكُمْ أو متعلق باذكر المحذوفة .

"تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ" فعل مضارع وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة .

"فَاسْتَجَابَ لَكُمْ" فعل ماضٍ تعلق به الجار والمجرور "لَكُمْ" وفاعله مستتر ، والجملة

معطوفة . "أَنِّي" أن واسمها "مُمِدُّكُمْ" خبرها . والمصدر المؤول في محل جر مجرف الجر ،

والجار والمجرور متعلقان باستجاب . "بِالْفِ" متعلقان باسم الفاعل ممدكم . "مِنَ الْمَلَائِكَةِ"

متعلقان بمحذوف صفة لألف . "مُرْدِفِينَ" صفة لألف .

(64/304)

[سورة الأنفال (8) : آية 10]

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

(10)

"وَمَا" نافية والواو استئنافية . "جَعَلَهُ اللَّهُ" فعل ماضٍ ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله . "إِلَّا"

أداة حصر .

"بُشْرَى" مفعول لأجله أو مفعول به ثانٍ والجملة استئنافية. "وَلَتَطْمَئِنَّ" مضارع منصوب بأن المضمر بعد لام التعليل. والمصدر المؤول في محل جر باللام، والجار والمجرور معطوفان على ما قبلهما "به" متعلقان بالفعل. "قلوبكم" فاعل. "وما" ما نافية والواو استئنافية. "النَّصْرُ" مبتدأ. "إلا" أداة حصر، "مِنْ عِنْدِ" متعلقان بمحذوف خبر والجملة الاسمية مستأنفة. "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه. "إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ" إن ولفظ الجلالة اسمها وعزير خبرها، "حَكِيمٌ" خبر ثانٍ والجملة تعليلية لا محل لها.

[سورة الأنفال (8): آية 11]

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11)

(65/304)

"إِذْ" بدل ثانٍ من قوله (وإذ يعدكم . . .). "يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ" مضارع مرفوع وعلامة رفعه

الضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله هو الكاف مفعوله الأول والنعاس مفعوله الثاني.

"أَمَنَةً" مفعول لأجله. "مِنْهُ" متعلقان بمحذوف صفة لأمنة. والجملة في محل جر

بالإضافة. "وَيُنزِلُ" مضارع فاعله مستتر "عَلَيْكُمُ" متعلقان بالفعل وكذلك "مِنَ السَّمَاءِ"

متعلقان بالفعل أيضا والجملة معطوفة . "ماء" مفعول به "لِيُطَهِّرَكُمْ" المصدر المؤول من أن  
والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بينزل . "به" متعلقان بيظهركم "ويذهب  
عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ . . . وَيَرْبِطُ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ" الجمل معطوفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 12]

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12)

(66/304)

---

"إِذْ" ظرف متعلق بيثبت أو بدل ثالث . "يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ" فعل مضارع تعلق به  
الجار والمجرور وربك فاعله ، والجملة في محل جر بالإضافة . "أَنِّي مَعَكُمْ" أن واسمها ،  
معكم : ظرف مكان متعلق بمحذوف خبرها والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها في  
محل جر بالباء ، أو في محل نصب مفعول به للفعل يوحى . "فَثَبَّتُوا" فعل أمر مبني على حذف  
النون والواو فاعل ، والفاء هي الفصيحة . "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به والجملة لا محل  
لها جواب شرط غير جازم ، وجملة "آمَنُوا" صلة الموصول . "سَأَلْتَنِي" السين للإستقبال  
وفعل مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة ، "فِي قُلُوبِ" متعلقان بالفعل واسم الموصول

"الَّذِينَ" في محل جر بالإضافة. "كَفَرُوا" الجملة صلة "الرُّعْب" مفعول به. "فَاضْرِبُوا" مثل  
فثبتوا . . "فَوْقَ" ظرف مكان متعلق بالفعل. "الأَعْنَاقِ" مضاف إليه "وَاضْرِبُوا" عطف.  
"مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف حال من بنان الذي تأخر عنهما. والجملة معطوفة. "كُلُّ"  
مفعول به "بنان" مضاف إليه.

[سورة الأنفال (8): آية 13]

ذِكْرًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي أَقْرَبَهُمْ نَارًا وَبَدَّلَهُمْ أَصْنَافَهُمْ فِي أَرْبَابِهِمْ لِيُحَدِّثُوا إِلَىٰ آلِهِمْ لِيَرْجِعُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَذِلَّةً عَلَيْهِمْ  
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13)  
لِكَ

اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. واللام للبعد والكاف للخطاب. أَنَّهُمْ"  
أن واسمها والميم علامة جمع الذكور والجملة الفعلية قوا الله"  
في محل رفع خبر رَسُولُهُ"

معطوف، والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة  
الاسمية مستأنفة. مَنْ"

اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ. شَاقِقِ"

مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وحرك بالكسر منعاً لالتقاء الساكنين، والجملة الاسمية من  
يشاقق استئنافية. لله"

لفظ الجلالة مفعول به رَسُولُهُ"

عطف . إِنَّ اللَّهَ شَدِيدٌ  
إِنْ وَاسْمَهَا وَخَبَرَهَا . لِعِقَابٍ

(67/304)

مضاف إليه ، والجملة في محل جزم جواب الشرط ، وفعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر  
المبتدأ من .

[سورة الأنفال (8) : آية 14]

ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14)

"ذَلِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ وخبره محذوف . أي ذلكم العقاب ويجوز أن يكون  
خبراً لمبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة . "فَذُوقُوهُ" فعل أمر مبني على حذف النون ،  
وفاعله ومفعوله والفاء استئنافية الجملة مستأنفة "وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ" أن واسمها والجار  
والجور متعلقان بمحذوف خبرها .

"النَّارِ" مضاف إليه ، والجملة معطوفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 15]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ (15)



"يا أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب وها للتنبية. "الَّذِينَ" اسم  
موصول مبني على الفتح في محل نصب بدل. "آمَنُوا" فعل ماض وفاعل والجملة صلة  
الموصول. "إذا" ظرفية شرطية غير جازمة  
"لَقِيتُمْ" فعل ماض وفاعل والميم للجمع واسم الموصول مفعول به وجملة (كفروا صلة.  
"زَحْفًا" حال.

"فَلَا" لانهية جازمة والفاء رابطة لجواب الشرط. "تَوَلَّوهُمْ" مضارع مجزوم وعلامة  
جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعله والهاء مفعوله الأول. "الأدْبَارَ"  
مفعوله الثاني. والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم.

[سورة الأنفال (8): آية 16]

وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ  
جَهَنَّمُ وَنَسِ الْمَصِيرُ (16)

(68/304)

---

"وَمَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ والواو استئنافية. "يُؤَلِّمُ" يول مضارع مجزوم وعلامة جزمه  
حذف حرف العلة من آخره وفاعله مستتر، والهاء مفعوله الأول، "يَوْمَئِذٍ" ظرف

زمان أضيف لظرف زمان "دبره" مفعوله الثاني. "إلا" أداة حصر أو استثناء. "متحرّفاً"  
 حال منصوبة أو مستثنى. "لِقِتَالٍ" متعلقان بمتحرّفاً. والجملة الاسمية: ومن . . . .  
 مستأنفة لا محل لها. "أَوْ مُتَحَيِّزًا" عطف. "إِلَى فِتَةٍ" متعلقان بمتحيزاً. "فَقَدْ" الفاء رابطة  
 لجواب الشرط، وقد حرف تحقيق. "باء" فعل ماضٍ "بَغَضَ" متعلقان بالفعل. "مِنْ  
 اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بغضب، والجملة في محل جزم جواب الشرط.  
 "وَمَا وَاهُ" ماوى: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الألف للتعذر، والهاء  
 ضمير متصل في محل جر بالإضافة، والواو عاطفة. "جَهَنَّمَ" خبر. والجملة الاسمية  
 معطوفة. "وَبُسُّ" فعل ماضٍ جامد لإنشاء الذم. "الْمَصِيرُ" فاعل، والمخصص بالذم  
 محذوف أي مصيرهم. وجملة بئس المصير: في محل رفع خبر لهذا المبتدأ المحذوف.  
 والجملة الاسمية: مصيرهم بئس المصير مستأنفة.

[سورة الأنفال (8): آية 17]

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً  
 حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17)

"فَلَمْ" الفاء استئنافية. "لم" حرف نفي وجزم وقلب. "تَقْتُلُوهُمْ" مضارع مجزوم وعلامة  
 جزمه حذف النون وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة. "وَلَكِنَّ اللَّهَ" لكن ولفظ الجلالة  
 اسمها والجملة الفعلية "قَتَلَهُمْ" خبرها، والجملة الاسمية ولكن الله . . معطوفة.

"وَمَا" الواو عاطفة وما نافية "رَمِيَتْ" فعل ماض وفاعله والجملة معطوفة. "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان متعلق بالفعل قبله وجملة "رَمِيَتْ" بعده في محل جر بالإضافة، وكذلك جملة "لَكِنَّ اللَّهَ" معطوفة.

"رَمَى" الجملة خبر لكن. "وَلِيْلِي" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه الفتحة، وفاعله مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام، والجار والجرور متعلقان بفعل محذوف أي فعل الله هذا. . "الْمُؤْمِنِينَ" مفعول به منصوب وعلامة نصبه الياء جمع مذكر سالم. "مِنْهُ" متعلقان بمحذوف حال من بلاء. "بِأَنَّ" مفعول مطلق، و"حَسَنًا" صفة. "إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" إن واسمها وخبرها والجملة مستأنفة.  
[سورة الأنفال (8): آية 18]

ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18)

"ذَلِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ وخبره محذوف أي ذلكم حق، والجملة مستأنفة.  
"وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ" أن لفظ الجلالة اسمها وموهن خبرها. "كَيْدِ" مضاف إليه. "الْكَافِرِينَ" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة جمع مذكر سالم. وأن واسمها

وخبرها في تأويل مصدر معطوف على ما قبله أي ذلكم حق وتوهين كيد الكافرين حق

..

[سورة الأنفال (8) : آية 19]

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ  
فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)

(70/304)

---

"إِنْ" حرف شرط جازم. "تَسْتَفْتِحُوا" مضارع مجزوم والواو فاعله والجملة ابتدائية.  
"فَقَدْ" الفاء رابطة للجواب قد حرف تحقيق. "جَاءَكُمْ الْفَتْحُ" فعل ماض ومفعوله وفاعله  
والجملة في محل جزم جواب الشرط، ومثل ذلك "وَإِنْ تَنْتَهُوا". "فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ" الجملة في  
محل جواب الشرط "وَإِنْ تَعُودُوا" اعرابها كسابقتها "نَعُدْ" مضارع مجزوم جواب الشرط.  
"وَلَنْ" الواو عاطفة ولن ناصبة "تَغْنِي" مضارع منصوب تعلق به الجار والمجرور "عَنْكُمْ"  
"فِتْنَتُكُمْ" فاعل "شَيْئاً" نائب مفعول مطلق أو مفعول به. "وَلَوْ" الواو حالية.  
لو شرطية غير جازمة. "كَثُرَتْ" فعل ماض وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله،  
والجملة في محل نصب حال. "وَأَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها والظرف "مَعَ" متعلق

بمحذوف خبرها . "المؤمنين" مضاف إليه . وأن واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل  
جر باللام أي ولأن الله مع المؤمنين .

[سورة الأنفال (8) : آية 20]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتُّمَّ تَسْمَعُونَ (20)

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" ينظر في إعرابها الآية 15 ، "أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ" ينظر الآية الأولى .

"وَلَا" الواو عاطفة ولا ناهية جازمة . "تَوَلَّوْا" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون

لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعل . "عَنَّهُ" متعلقان بتولوا والجملة معطوفة ، "وَاتُّمَّ"

ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ والواو حالية . وجملة "تَسْمَعُونَ" في محل رفع خبر .

والجملة الاسمية واتم تسمعون في محل نصب حال .

[سورة الأنفال (8) : آية 21]

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21)

(71/304)

"وَلَا" ناهية جازمة والواو عاطفة . "تَكُونُوا" مضارع ناقص مجزوم وعلامة جزمه حذف

النون ، والواو ضمير متصل في محل رفع اسمها . "كَالَّذِينَ" الكاف حرف جر واسم الموصول

في محل جر مجرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر أو الكاف اسم بمعنى مثل هو الخبر واسم الموصول في محل جر بالإضافة . والجملة الفعلية "قالوا" صلة الموصول لا محل لها . "سَمِعْنَا" فعل ماض وفاعل والجملة مقول القول . "وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ" كقوله تعالى وأتم تسمعون في الآية السابقة .

[سورة الأنفال (8) : آية 22]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22)

"إِنَّ شَرَّ" إن واسمها . "الدَّوَابِّ" مضاف إليه . "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق باسم التفضيل شر . "اللَّهُ" مضاف إليه . "الصُّمُّ" خبر أول . "الْبُكْمُ" خبر ثان . "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع صفة وجملة "لَا يَعْقِلُونَ" صلة الموصول . والجملة الاسمية إن شر . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأنفال (8) : آية 23]

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)

"وَلَوْ" حرف شرط غير جازم ، والواو استئنافية . "عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ولفظ الجلالة فاعله . "خَيْرًا" مفعول به "لَأَسْمَعَهُمْ" فعل ماض ومفعوله وفاعله مستتر واللام واقعة في جواب الشرط ، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم ، وجملة "وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ" معطوفة . "لَتَوَلَّوْا" فعل ماض وفاعله واللام رابطة لجواب الشرط كذلك .

والجملة الاسمية "وَهُمْ مُعْرِضُونَ" في محل نصب حال .

[سورة الأنفال (8) : آية 24]

(72/304)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ  
المرءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" ينظر الآية 15 . "اسْتَجِيبُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو  
فاعل . "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل "وَلِلرَّسُولِ" عطف .  
"إِذَا" ظرف متعلق باستجيبوا ، وجملة استجيبوا ابتدائية لا محل لها . "دَعَاكُمْ" فعل ماض  
مبني على الفتحة المقدرة على الألف ، فاعله هو والكاف مفعوله . والجملة في محل جر  
بالإضافة .

"لِمَا" اللام حرف جر . ما اسم موصول في محل جر باللام . والجار والمجرور متعلقان  
بدعَاكُمْ . ويمكن أن تعرب ما مصدرية . "يُحْيِيكُمْ" مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة  
المقدرة على الياء للثقل وفاعلها هو والكاف مفعوله والميم لجمع الذكور . والجملة صلة  
الموصول . "وَاعْلَمُوا" مثل استجيبوا وهي معطوفة عليها . "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة

اسمها وجملة "يُحُولُ" خبرها "بَيْنَ" ظرف متعلق بيحول. "المرء" مضاف إليه، "وَقَلْبِهِ" عطف. والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها سد مسد مفعولي علم. "وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" والمصدر المؤول الثاني معطوف. و"إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل "تُحْشَرُونَ". وجملة تحشرون خبر.

[سورة الأنفال (8): آية 25]

وَأَنْتُمْ فِتْنَةٌ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25)

(73/304)

"وَأَنْتُمْ" فعل أمر وفاعله، والجملة معطوفة على استجيبيوا. "فِتْنَةٌ" مفعول به. "الَّذِينَ ظَلَمُوا" فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة فاعله مستتر ولا نافية لا عمل لها. "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب مفعول به والجملة في محل نصب صفة. "ظَلَمُوا" فعل ماض وفاعل. "مِنْكُمْ" متعلقان بالفعل. "خَاصَّةً" حال منصوبة، والجملة صلة الموصول. "وَاعْلَمُوا" عطف على انتقوا. "أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها سد مسد مفعولي اعلموا. "الْعِقَابُ" مضاف إليه.

[سورة الأنفال (8): آية 26]



وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَاكُمُ وَيَأْذِكُمْ  
بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26)

"وَأَذْكُرُوا" الجملة معطوفة. "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان متعلق بالفعل. "أَنْتُمْ" ضمير  
منفصل مبتدأ.

"قَلِيلٌ" خبر أول. "مُسْتَضْعَفُونَ" خبر ثان مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم.  
"فِي الْأَرْضِ" متعلقان ب: مستضعفون. "تَخَافُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو  
فاعل، والجملة خبر ثالث. "أَنْ يَخَطَفَكُمْ" مضارع منصوب والكاف مفعول به،  
والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به. "النَّاسُ" فاعل. "فَأَوَاكُمُ" أوى فعل  
ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف والكاف مفعول به. والفاعل ضمير مستتر  
تقديره هو والجملة معطوفة. "وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والفاعل هو  
والكاف مفعوله والجملة معطوفة. "وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ" الجملة معطوفة. "لَعَلَّكُمْ" لعل  
والكاف اسمها وجملة "تَشْكُرُونَ" خبرها. وجملة لعلكم تعليلية لا محل لها.

[سورة الأنفال (8): آية 27]

(74/304)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27)

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" تقدمت في الآية 15. "لَا تَخُونُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعل و"اللَّهُ" لفظ الجلالة مفعوله.  
"وَالرَّسُولَ" عطف.

"تَخُونُوا" عطف على تَخُونُوا الأولى أو الواو للمعية وتَخُونُوا منصوب بأن مضمرة بعد واو المعية وعلامة نصبه حذف النون. "أَمَانَاتِكُمْ" مفعول به منصوب وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة.

والكاف في محل جر بالإضافة. وجملة "وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" الاسمية في محل نصب حال . .

[سورة الأنفال (8) : آية 28]

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28)  
"وَأَعْلَمُوا"

الجملة معطوفة "أَنَّمَا"

كافة ومكحوفة. "أَمْوَالُكُمْ"

مبتدأ، "وَأَوْلَادُكُمْ"

عطف، "فِتْنَةٌ"

خبر، والجملة الاسمية سدت مسد مفعولي اعلموا. "وَأَنَّ اللَّهَ"

أن ولفظ الجلالة اسمها . "عِنْدَهُ"

ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم . "أَجْرٌ"

مبتدأ مؤخر ، والجمله الاسمية في محل رفع خبر أن . "عَظِيمٌ"

صفة . وجمله اعلموا معطوفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 29]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو  
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" سبق إعرابها ، "إِن" شرطية جازمة "تتقوا" مضارع مجزوم وعلامة  
جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل . "اللَّهُ"  
لفظ الجلالة مفعول به .

"يَجْعَلُ" مضارع مجزوم جواب الشرط والفاعل ضمير مستتر تقديره هو . "لَكُمْ" متعلقان  
ب"يَجْعَلُ" . "فُرْقَانًا"

(75/304)

---

مفعول به. "وَيُكْفَرُ" مضارع مجزوم معطوف على جواب الشرط، ويجوز فيه النصب على إضمار أن.

والرفع على الاستئناف. "عَنْكُمْ" متعلقان بالفعل. "سَيِّئَاتِكُمْ" مفعول به منصوب وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم، والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة، والجملة معطوفة. وكذلك جملة "وَيَغْفِرْ لَكُمْ". "وَاللَّهُ" والواو حالية لفظ الجلالة مبتدأ. "ذُو" خبر مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه من الأسماء الخمسة. "الْفَضْلُ" مضاف إليه. "العَظِيمُ" صفة، والجملة في محل نصب حال.

[سورة الأنفال (8): آية 30]

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ  
الْمَاكِرِينَ (30)

"وَإِذْ" ظرف متعلق بفعل اذكر المحذوف والجملة معطوفة. "يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ" مضارع تعلق به الجار والمجرور، واسم الموصول بعده فاعل والجملة في محل جر بالإضافة. وجملة "كَفَرُوا" صلة الموصول.

"لِيُثْبِتُوكَ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل يَمْكُرُ. "أَوْ يَقْتُلُوكَ" عطف. "أَوْ يُخْرِجُوكَ" الجملة معطوفة. "وَيَمْكُرُونَ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة، "وَيَمْكُرُ اللَّهُ" الجملة

معطوفة. "وَاللَّهُ خَيْرٌ" لفظ الجلالة مبتدأ وخير خبره. "الْمَاكِرِينَ" مضاف إليه مجرور  
وعلامه جره الياء لأنه جمع مذكر سالم. والجملة في محل نصب حال.

[سورة الأنفال (8): آية 31]

وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ  
(31)

(76/304)

---

"وَإِذَا" ظرف لما يستقبل من الزمان، متضمن معنى الشرط. "تُلَىٰ" مضارع مبني  
للمجهول، مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الألف للتعذر. "عَلَيْهِمْ" متعلقان  
بالفعل، آياتنا "نائب فاعل. ونا ضمير متصل في محل جر بالإضافة. والجملة في محل جر  
بالإضافة.

"قَالُوا" فعل ماض وفاعل والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. "قَدْ" حرف  
تحقيق. "سَمِعْنَا" فعل ماض وفاعله والجملة في محل نصب مفعول به. "لَوْ" حرف شرط  
غير جازم. "نَشَاءُ" مضارع فاعله نحن والجملة ابتدائية لا محل لها. "لَقُلْنَا" اللام واقعة في  
جواب الشرط. "قُلْنَا" فعل ماض وفاعل والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم.

"مِثْلُ" مفعول به منصوب. "هذا" اسم إشارة في محل جر بالإضافة. "إِنَّ" نافية. "هذا"  
اسم إشارة مبتدأ. "إِلَّا" أداة حصر. "أَسَاطِيرُ" خبر "الأُولَئِكَ" مضاف إليه والجملة  
مستأنفة.

[سورة الأنفال (8): آية 32]

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32)

"وَإِذْ" عطف على الآيات السابقة. "قَالُوا" فعل ماض وفاعل والجملة في محل جر  
بالإضافة. "اللَّهُمَّ" منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب، والميم المشددة بدل  
ياء النداء المحذوفة. "إِنَّ" حرف شرط جازم. "كَانَ" ماض ناقص وهو في محل جزم فعل  
الشرط. "هذا" اسم إشارة في محل رفع اسمها.

(77/304)

---

"هُوَ" ضمير فصل لا محل له من الإعراب. "الْحَقُّ" خبر. "مِنْ عِنْدِكَ" متعلقان بمحذوف  
حال من الحق، والجملة مفعول به. "فَأَمْطِرْ" الفاء رابطة للجواب وفعل دعاء تعلق به الجار  
والجرور: "عَلَيْنَا"، فاعله أنت "حِجَارَةً" مفعول به. "مِنَ السَّمَاءِ" متعلقان بمحذوف

صفة لحجارة والجملة في محل جزم جواب الشرط. "أو" حرف عطف. "أنتنا" فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة الياء ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. "بعذاب" متعلقان بالفعل. "اليم" صفة والجملة معطوفة.

[سورة الأنفال (8): آية 33]

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)  
"وما" الواو استئنافية. "ما" نافية. "كان الله" كان ولفظ الجلالة اسمها. "ليُعذِّبَهُمْ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام الجحود، والهاء مفعوله والميم لجمع الذكور. والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر، والجملة استئنافية. "وأنت" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، والواو حالية. "فيهم" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال. "وما كان الله مُعذِّبَهُمْ" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة. "وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" الجملة الاسمية في محل نصب حال وجملة "يَسْتَغْفِرُونَ" خبر.

[سورة الأنفال (8): آية 34]

وَمَا لَهُمْ آلِيَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصِدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34)

"وَمَا" الواو استئنافية. "ما" اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. "لَهُمْ" جار ومجرور متعلقان  
بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. "إِنَّ" حرف ناصب. "لا" نافية.  
"يَعَذِّبُهُمْ" مضارع منصوب والهاء مفعوله، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر مجرف  
الجر، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر. "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل. "وَهُمْ" ضمير  
منفصل مبتدأ، والواو حالية. "يَصُدُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعله. "عَنِ  
الْمَسْجِدِ" متعلقان بالفعل. "الْحَرَامِ" صفة. والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ.  
"وَمَا" الواو حالية، وما نافية. "كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ" كان واسمها وخبرها، والجملة في محل نصب  
حال.

"إِنَّ" نافية. "أَوْلِيَاءُهُ" مبتدأ مرفوع بالضممة، والهاء في محل جر بالإضافة. "أَلَّا" أداة  
حصر. "الْمُتَّقُونَ" خبر مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم، والجملة الاسمية  
مستأنفة. "وَلَكِنَّ" حرف مشبه بالفعل. "أَكْثَرُهُمْ" اسمها. "لَا يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع  
بثبوت النون والواو فاعله، ولا نافية، والجملة في محل رفع خبر لكن والجملة الاسمية ولكن  
أكثرهم . . حالية.

[سورة الأنفال (8) : آية 35]

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (35)



"وَمَا" الواو حرف استئناف . ما نافية . "كَانَ صَلَاتُهُمْ" كان واسمها . "عِنْدَ" ظرف  
مكان متعلق بمحذوف بحذف حال من صلاتهم . "الْبَيْتِ" مضاف إليه . "إِلَّا" أداة حصر .  
"مُكَاءً" خبر "وَتَصَدِيَةٌ" عطف .

"فَذُوقُوا" الفاء هي الفصيحة . "ذُوقُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل  
"العَذَابِ" مفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم .

(79/304)

"بِمَا" الباء حرف جر وما مصدرية . "كُنْتُمْ" كان والتاء اسمها والميم لجمع الذكور  
والمصدر المؤول من الفعل الناقص والفعل بعده وما المصدرية في محل جر بالباء . أي :  
بسبب كفركم . والجار والمجرور متعلقان بالفعل ذوقوا ، والجملة "تَكْفُرُونَ" خبر .

[سورة الأنفال (8) : آية 36]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ  
يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها وجملة "كَفَرُوا" صلة الموصول وجملة إن الذين ابتدائية لا محل لها .  
"يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ" فعل مضارع وفاعله ومفعوله ، والجملة في محل رفع خبر إن . "لِيَصُدُّوا"

مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل ، والمصدر المؤول في محل جر باللام ، والجار  
والجور متعلقان بالفعل ينفقون . "عَنْ سَبِيلٍ" متعلقان بيصدوا . "اللَّهُ" لفظ الجلالة  
مضاف إليه . "فَسَيُنْفِقُونَهَا" الفاء حرف استئناف . "يُنْفِقُونَ" مضارع وفاعله والهاء  
مفعوله والجملة مستأنفة . "ثُمَّ تَكُونُ" مضارع ناقص واسمها ضمير مستتر يعود على  
الأموال . "حَسْرَةً" خبرها . والجار والجور "عَلَيْهِمْ" متعلقان بمحذوف حال من حسرة  
لأنه تأخر عنه ، والجملة معطوفة وكذلك جملة "ثُمَّ يَغْلِبُونَ" معطوفة . "وَالَّذِينَ كَفَرُوا"  
عطف على الذين في أول الآية . "إِلَىٰ جَهَنَّمَ" متعلقان بالفعل يحشرون . وجهنم مجرور  
بالفتحة نيابة عن الكسرة للعلمية والعجمة ، وجملة "يُحْشَرُونَ" خبر .

[سورة الأنفال (8) : آية 37]

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي  
جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37)

(80/304)

---

"لِيَمِيزَ" مضارع منصوب بأن المضمرة ، والمصدر المؤول في محل جر باللام ، والجار والجور  
متعلقان بالفعل يغلبون . "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل . "الْخَبِيثَ" مفعول به . "مِنَ الطَّيِّبِ"

متعلقان بمجال من الخبيث . "وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ عَطْفَ . "بَعْضُهُ" بدل منصوب . "عَلَى  
بَعْضٍ" متعلقان بمحذوف حال من بعضه . "فَيْرُكْمُهُ" عطف على يجعل . "جَمِيعاً" حال .  
"فَيَجْعَلُهُ" عطف . "فِي جَهَنَّمَ" اسم مجرور بالفتحة ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل .  
"أُولَئِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ . "هُمُ" ضمير فصل . "الْخَاسِرُونَ" خبر والجملة  
مستأنفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 38]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38)  
"قُلْ" الجملة مستأنفة "لِلَّذِينَ" متعلقان بالفعل "كَفَرُوا" الجملة صلة "إِنْ" حرف جازم .  
"يَنْتَهُوا" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون ، والواو فاعل . "يُغْفَرُ" مضارع مبني  
للمجهول مجزوم لأنه جواب الشرط "لَهُمْ" متعلقان بالفعل . "مَا" اسم موصول في محل رفع  
نائب فاعل ، والجملة الفعلية قد سلف صلة الموصول . "وَإِنْ يَعُودُوا" مثل "إِنْ يَنْتَهُوا" .  
والجملة معطوفة . "فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ" الفاء رابطة للجواب وفعل ماض وفاعل . "الْأَوَّلِينَ"  
مضاف إليه مجرور والجملة في محل جزم جواب الشرط .

[سورة الأنفال (8) : آية 39]

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39)

(81/304)

"وَقَاتِلُوهُمْ" الواو عاطفة وفعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعل ، والهاء مفعول به ، والميم لجمع الذكور . "حَتَّى" حرف غاية وجر ، "لَا" نافية "تَكُونُ" مضارع تام بمعنى تقع ، منصوب بأن المضمرة بعد حتى ، والمصدر المؤول في محل جر مجتى ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قاتلوهم . "فِتْنَةٌ" فاعل وجملة قاتلوهم معطوفة على جملة قل . . .  
"وَيَكُونُ" مضارع ناقص . "الدين" اسمها . "كُلُّهُ" توكيد مرفوع . "لِلَّهِ" متعلقان بمحذوف خبر الفعل الناقص ، والجملة معطوفة .

"فَإِنْ" الفاء استئنافية . "إِنْ" حرف شرط . "انتهوا" فعل ماض وفاعله وهو في محل جزم فعل الشرط ، والجملة ابتدائية .

"فَإِنْ" الفاء رابطة للجواب وإن حرف مشبه بالفعل . "اللَّهُ" لفظ الجلالة اسمها . "بِمَا" ما مصدرية أو موصولة في محل جر مجرف الجر . "يَعْمَلُونَ" مضارع والواو فاعله ، والمصدر المؤول باعتبار ما مصدرية في محل جر مجرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بالخبر ،  
"بصير" خبر .

[سورة الأنفال (8) : آية 40]

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)

"وَإِنْ" الواو عاطفة وإن شرطية . "تَوَلَّوْا" فعل ماض في محل جزم والواو فاعل ، والجملة

الابتدائية لا محل لها . "فَاعْلَمُوا" الفاء رابطة للجواب وفعل أمر وفاعله والجملة في محل جزم جواب الشرط . "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها "مَوْلَاكُمْ" خبرها مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الألف للتعذر ، والكاف في محل جر بالإضافة . "نِعْمَ" فعل ماض لإنشاء المدح . "المَوْلَى" فاعل والمخصوص بالمدح محذوف تقديره هو ، وجملة المدح في محل رفع خبر للمبتدأ المحذوف ، وجملة وهو نعم المولى المقدرة مستأنفة "وَنِعْمَ النَّصِيرُ" إعرابها سابقتها .

[سورة الأنفال (8) : آية 41]

(82/304)

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ  
وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ  
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41)

"وَأَعْلَمُوا" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعله ، والجملة معطوفة .

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل . "ما" اسم موصول في محل نصب اسمها . "غَنِمْتُمْ" فعل ماض ،

والتاء فاعل والجملة صلة الموصول والعائد محذوف أي ما غنتموه . "مِنْ شَيْءٍ" متعلقان

بمحذوف حال من هذا العائد . "فَأَنَّ" الفاء رابطة لما في الموصول من شبه الشرط . "إِنَّ"  
حرف مشبه بالفعل . "اللَّهُ" متعلقان بمحذوف خبرها وأن واسمها وخبرها في محل رفع  
خبر المبتدأ المحذوف وتقديره فحكمه أن الله خمسه .

"خُمْسُهُ" اسم إن . وهذه الجملة الاسمية في محل رفع خبر أنما غِنِمْتُمْ . . وأن وما بعدها  
سد مسد مفعولي اعلموا . "وَلِلرَّسُولِ" عطف . "وَلِذِي" اسم مجرور وعلامة جره الياء  
لأنه من الأسماء الخمسة .

"القُرْبَى" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة المقدرة على الألف للتعذر . "وَأَلْيَامِي  
وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ" أسماء معطوفة . "إِنَّ" حرف شرط جازم . "كُنْتُمْ" فعل ماض  
ناقص والتاء اسمها والجملة ابتدائية لا محل لها . "أَمَنْتُمْ" فعل ماض والتاء فاعله والجملة في  
محل نصب خبر الفعل الناقص .

(83/304)

---

"بِاللَّهِ" متعلقان بآمَنْتُمْ ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله . "وَمَا" عطف على  
اللَّهِ . "أَنْزَلْنَا" فعل ماض وفاعل والجملة صلة الموصول لا محل لها . "عَلَى عِبْدِنَا" متعلقان  
بالفعل . "يَوْمٌ" ظرف زمان متعلق بالفعل أيضا . "الْفُرْقَانِ" مضاف إليه . "يَوْمٌ" بدل . وجملة

"التقى الجمعان" الفعلية في محل جر بالإضافة. "والله" مبتدأ. "على كل" متعلقان بالخبر  
والجملة مستأنفة. "شيء" مضاف إليه.  
"قدير" خبر.

[سورة الأنفال (8): آية 42]

إِذِ انْتُم بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصُوى وَالرُّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي  
المِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ  
وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42)

(84/304)

---

إِذِ" ظرف لما مضى من الزمان ، بدل من الظرف يوم قبله . "انتم" ضمير منفصل مبتدأ .  
"بالعدوة" متعلقان بمحذوف خبره . "الدنيا" صفة مجرورة وعلامة جرها الكسرة المقدره  
على الألف للتعذر ، والجملة في محل جر بالإضافة . "وهم بالعدوة القصوى" اعرابها  
كسابتها . "والركب" مبتدأ والواو حالية . "أسفل" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبره .  
"منكم" متعلقان بمحذوف الخبر والجملة في محل نصب حال . "ولو" حرف شرط والواو  
للاستئناف . "تواعدتُمْ" فعل ماض والتاء فاعل ، والجملة مستأنفة . "لاختلفتم" فعل

ماض وفاعل . "فِي الْمِعَادِ" متعلقان بالفعل ، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم .  
 "وَلَكِنْ" حرف استدراك . الواو عاطفة . "لِيُقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا" فعل مضارع وفاعل ومفعول  
 به . والمصدر المؤول من الفعل وأن المضمرة بعد لام التعليل في محل جر مجرف الجر ، والجار  
 والجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره قدر الله . . "كَانَ مَفْعُولًا" كان وخبرها واسمها  
 ضمير مستتر والجملة في محل نصب صفة . "لِيَهْلِكَ" المصدر المؤول بدل من مصدر ليقضي  
 أو متعلق بمفعولا . "مَنْ" اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل وجملة هلك  
 صلة الموصول . "عَنْ بَيْنَةٍ" متعلقان بالفعل . "وَيَحْيَى مَنْ حَيٍّ" إعرابه كسابقه . "وَإِنَّ اللَّهَ  
 لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ" إن واسمها وخبرها واللام المزحلقة والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأنفال (8) : آية 43]

إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ  
 إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43)

(85/304)

"إِذْ" بدل ثان من يوم في قوله يوم الفرقان . أو ظرف متعلق بقوله سميع أو عليم . . "يُرِيكُمُ"  
 فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء للثقل ، والكاف ضمير متصل



مبني على الفتح في محل نصب مفعول به أول . والهاء مفعول به ثان والميم لجمع الذكور .  
 "اللَّهُ" فاعل . "فِي مَنَامِكَ" متعلقان بالفعل ، والجملة في محل جر بالإضافة . "قَلِيلًا" مفعول  
 به ثالث . "وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا" الجملة معطوفة . "لَفَشَلْتُمْ" فعل ماض والتاء فاعله والميم لجمع  
 الذكور ، واللام واقعة في جواب الشرط فالجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم . وجملة  
 "وَلَتَنَازَعْتُمْ" معطوفة . "فِي الْأَمْرِ" متعلقان بالفعل "وَلَكِنَّ اللَّهَ" لكن واسمها وجملة "سَلَّمَ"  
 في محل رفع خبرها والجملة الاسمية معطوفة . "إِنَّهُ عَلِيمٌ" إن واسمها وخبرها . "بِذَاتِ"  
 متعلقان بعليم . "الضُّدُورُ" مضاف إليه والجملة مستأنفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 44]

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْتِمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا  
 وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)

"وَإِذْ" عطف . "يُرِيكُمُوهُمْ" يريكم فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على  
 الياء للثقل .

(86/304)

والكاف ضمير متصل في محل نصب مفعول به والميم للجمع وقد أشبعت ضمتها إلى الواو  
والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به ثان . "إِذْ" ظرف متعلق بالفعل . "التَّقِيْتُمْ" فعل  
ماض مبني على السكون ، والتاء فاعل والميم لجمع الذكور . "فِي أَعْيُنِكُمْ" متعلقان  
بقليلا . "قَلِيلاً" حال لأن يري بصرية وليست قلبية ، والجملة في محل جر بالإضافة .  
"وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ" عطف . "لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا" فعل مضارع وفاعل ومفعول به والمصدر  
المؤول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بيقللكم . "كَانَ مَفْعُولًا" كان وخبرها  
واسمها محذوف والجملة صفة . "وَالِىَ اللَّهُ" متعلقان بترجع . "تُرْجَعُ" مضارع مبني  
للمجهول "الأُمُورُ" نائب فاعل والجملة مستأنفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 45]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45)  
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" سبق اعرابها "إِذَا" ظرف لما يستقبل من الزمان ، خافض لشرطه ،  
منصوب بجوابه . "لَقِيتُمْ" فعل ماض ، والتاء فاعل والميم لجمع الذكور . "فِئَةً" مفعول به  
والجملة في محل جر بالإضافة . "فَاثْبُتُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل ،  
الفاء رابطة لجواب الشرط ، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم . "وَاذْكُرُوا اللَّهَ"  
الجملة معطوفة . "كَثِيرًا" نائب مفعول مطلق . "لَعَلَّكُمْ" لعل والكاف اسمها وجملة  
"تُفْلِحُونَ" في محل رفع خبرها وجملة لعلكم . . تعليلية لا محل لها من الإعراب .

[سورة الأنفال (8) : آية 46]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

(46)

(87/304)

"وَأَطِيعُوا اللَّهَ" فعل أمر وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به "وَرَسُولُهُ" معطوف والجملة

معطوفة. "وَلَا تَنَازَعُوا" فعل مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل ولا

ناهية، والجملة معطوفة.

"فَتَفْشَلُوا" مضارع مجزوم والفاء عاطفة أو الفاء فاء السببية وتفشلوا مضارع منصوب بأن

المضمرة بعد فاء السببية وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل، والمصدر المؤول من أن

والفعل معطوف على مصدر مقدر قبله والتقدير لا يكن تنازع ففشل. . "وَتَذْهَبَ"

مضارع منصوب معطوف. "رِيحُكُمْ" فاعل.

"وَاصْبِرُوا" الجملة معطوفة على أطيعوا. "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها والظرف "مَعَ" متعلق

بمحذوف خبرها.

"الصَّابِرِينَ" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة.

[سورة الأنفال (8) : آية 47]

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا  
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47)

"وَلَا تَكُونُوا" مضارع ناقص مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون ، والواو اسمها .  
"كَالَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان  
بمحذوف خبر ، والجملة معطوفة . "خَرَجُوا" فعل ماض وفاعل . "مِنْ دِيَارِهِمْ" متعلقان  
بالفعل والجملة صلة الموصول . "بَطْرًا" حال . "وَرِئَاءَ" اسم معطوف . "النَّاسِ" مضاف  
إليه . "وَيَصُدُّونَ" مضارع والواو فاعله ، "عَنْ سَبِيلِ" متعلقان ببيصدون "اللَّهُ" لفظ الجلالة  
مضاف إليه ، "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ . "بِما" ما اسم موصول في محل جر بالباء ، والجار  
والمجرور متعلقان بالخبر "مُحِيطٌ" والجملة مستأنفة . وجملة "يَعْمَلُونَ" صلة الموصول .

[سورة الأنفال (8) : آية 48]

(88/304)

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ  
الْفِئْتَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ

## شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)

"وَإِذْ ظُرِفَ مُتَعَلِّقٌ بِالْفِعْلِ الْمَحذُوفِ اذْكَرَ . "زَيْنَ لَهُمْ" فِعْلٌ مَاضٍ تَعَلَّقَ بِهِ الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ .  
"الشَّيْطَانُ" فَاعِلٌ "أَعْمَالُهُمْ" مَفْعُولٌ بِهِ ، وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ مُتَعَلِّقَانِ بِزَيْنِ وَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ جَرِّ  
بِالإِضَافَةِ . "وَقَالَ" الْجُمْلَةُ مَعطُوفَةٌ . "لَا غَالِبَ" لَانَا فِيهِ لِلْجِنْسِ . "غَالِبٌ" اسْمُهَا مَبْنِي  
عَلَى الْفَتْحِ . "لَكُمْ" مُتَعَلِّقَانِ بِمَحذُوفِ خَبَرِ لَا .

"الْيَوْمَ" مُتَعَلِّقَانِ بِمَحذُوفِ خَبَرِ . "مِنَ النَّاسِ" مُتَعَلِّقَانِ بِمَحذُوفِ حَالٍ . "وَإِنِّي جَارٌ" إِنْ  
وَالْيَاءِ اسْمُهَا وَ"جَارٌ" خَبَرُهَا وَ"لَكُمْ" مُتَعَلِّقَانِ بِجَارٍ ، وَالْجُمْلَةُ مَعطُوفَةٌ . "فَلَمَّا" ظَرْفِيَّةٌ  
حِينِيَّةٌ وَالْفَاءُ اسْتِنَافِيَّةٌ . "تَرَأَتِ" فِعْلٌ مَاضٍ مَبْنِي عَلَى الْفَتْحِ الْمَقْدَرَةُ عَلَى الألفِ  
الْمَحذُوفَةِ لِالتَّقَائِمِ سَاكِنَةٌ مَعَ تَاءِ التَّأْنِيثِ . "الْفِئْتَانِ" فَاعِلٌ مَرْفُوعٌ وَعِلَامَةٌ رَفَعَهُ الألفُ لِأَنَّهُ  
مِثْنِيٌّ وَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ جَرِّ بِالإِضَافَةِ . "نَكَّصَ" فِعْلٌ مَاضٍ وَالْفَاعِلُ ضَمِيرٌ مُسْتَرْتَفِدٌ تَقْدِيرُهُ  
هُوَ . "عَلَى عَقْبِيهِ" اسْمٌ مَجْرُورٌ وَعِلَامَةٌ جَرَّهُ الْيَاءُ لِأَنَّهُ مِثْنِيٌّ ، وَحُذِفَتِ النُّونُ لِلإِضَافَةِ ،  
وَالهَاءُ ضَمِيرٌ مُتَّصِلٌ فِي مَحَلِّ جَرِّ بِالإِضَافَةِ . الْجُمْلَةُ لِأَنَّهَا جَوَابٌ لَهَا جَوَابٌ شَرْطٌ غَيْرُ جَائِزٍ .  
"وَقَالَ" الْجُمْلَةُ مَعطُوفَةٌ "إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ" مِثْلُ إِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، وَالْجُمْلَةُ مَقُولُ الْقَوْلِ . "إِنِّي  
أَرَى" إِنْ وَالْبَاءُ اسْمُهَا وَالْجُمْلَةُ الْفِعْلِيَّةُ خَبَرُهَا وَالْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ مَقُولُ الْقَوْلِ . "مَا لَا تَرَوْنَ"  
فِعْلٌ مُضَارِعٌ وَالْوَاوُ فَاعِلٌ . وَمَا اسْمٌ مُوصُولٌ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٌ بِهِ وَالْجُمْلَةُ صِلَةٌ

الموصول. "إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ" جملة أخاف خبر إن. "وَاللَّهُ شَدِيدٌ" لفظ الجلالة مبتدأ  
وشديد خبر. و"العقاب" الجملة مستأنفة في مجال القول.

(89/304)

[سورة الأنفال (8) : آية 49]

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ  
حَكِيمٌ (49)

"إِذْ" متعلق باذكر المحذوف. "يَقُولُ" مضارع. "الْمُنَافِقُونَ" فاعل مرفوع وعلامة رفعه الواو  
لأنه جمع مذكر سالم، والجملة في محل جر بالإضافة. "وَالَّذِينَ" اسم الموصول معطوف على  
المنافقون. "فِي قُلُوبِهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مَرَضٌ" مبتدأ مؤخر، والجملة  
الاسمية صلة الموصول لا محل لها. "غَرَّ" فعل ماض. "هَؤُلَاءِ" اسم إشارة مبني على  
الكسر في محل نصب مفعول به مقدم. "دِينُهُمْ" فاعل مؤخر، والجملة في محل نصب مفعول  
به. "وَمَنْ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ. "يَتَوَكَّلْ" مضارع مجزوم.  
"عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة مع الجواب خبر المبتدأ. "فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" إن  
واسمها وخبرها، والجملة في محل جزم جواب الشرط بعد الفاء الرابطة.

[سورة الأنفال (8) : آية 50]

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ  
(50)

"وَلَوْ" حرف شرط غير جازم، والواو للاستئناف. "تَرَى" مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الألف للتعذر، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. "إِذْ" ظرف بمعنى حين متعلق بالفعل. "تَتَوَفَّى" مثل

(90/304)

---

تَرَى، "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب مفعول به. "كَفَرُوا" فعل ماضٍ وفاعل والجملة صلة الموصول. "الْمَلَائِكَةُ" فاعل. "يَضْرِبُونَ" مضارع والواو فاعل. "وَجُوهَهُمْ" مفعول به. "وَأَدْبَارَهُمْ" اسم معطوف. والجملة في محل نصب حال. "وَذُوقُوا" فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله "عَذَابَ" مفعوله. "الْحَرِيقِ" مضاف إليه. وجملة وذوقوا مفعول به لفعل محذوف تقديره ويقولون لهم ذوقوا . .

وجملة مقول القول المقدرة معطوفة. وجواب لو محذوف تقديره لو ترى . . لرأيت أمرا

عظيما .

[سورة الأنفال (8) : آية 51]

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (51)

"ذَلِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ . واللام للبعد والكاف للخطاب . "بما" اسم موصول في محل جر بالباء . والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر . "قَدَّمْتُمْ" فعل ماض والتاء للتأنيث . "أَيْدِيكُمْ" فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة ، والميم لجمع الذكور والجملة صلة الموصول . "وَأَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها . "لَيْسَ" فعل ماض ناقص . "بِظَلَامٍ" الباء حرف جر زائد . "ظلام" اسم مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر ليس . "لِلْعَبِيدِ" متعلقان بظلام . واسم ليس ضمير مستتر والجملة في محل رفع خبر أن ، وجملة أن . . معطوفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 52]

كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52)

(91/304)

---



"كَدَّابٌ" جارٍ ومجرور متعلقان بمحذوف خبر أي دَابٌّ كفار مكة وعاداتهم كدَابُّ آلِ فرعون. "آلٌ" مضاف إليه. "فِرْعَوْنٌ" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة. "وَالَّذِينَ" اسم موصول معطوف على آل. "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة أي الذين مضوا من قبلهم. "كَفَرُوا" فعل ماضٍ والواو فاعل. "بِآيَاتٍ" متعلقان بالفعل. "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه، والجملة في محل نصب حال. "فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ" فعل ماضٍ والهاء مفعوله والله لفظ الجلالة فاعله. "بِذُنُوبِهِمْ" متعلقان بالفعل، والجملة معطوفة. "إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ" إن واسمها وخبرها. "العقاب" مضاف إليه، والجملة مستأنفة.

[سورة الأنفال (8): آية 53]

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ  
(53)

"ذَلِكَ" اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. واللام للبعد والكاف للخطاب. "بِأَنَّ" أن حرف مشبه بالفعل والباء حرف جر. "اللَّهُ" لفظ الجلالة اسمها. "لَمْ" حرف نفي وجزم وقلب. "يَكُ" مضارع ناقص مجزوم وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف واسمها ضمير مستتر تقديره هو. "مُغَيِّرًا" خبرها. والجملة في محل رفع خبر أن. "نِعْمَةً" مفعول به لمغيرا والمصدر

المؤول من أن واسمها وخبرها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر  
المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. "أُنْعَمَهَا" فعل ماض ومفعوله. وفاعله هو "عَلَى قَوْمٍ"  
متعلقان بأنعمها. "حَتَّى" حرف غاية وجر. "يُغَيِّرُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد  
حتى، وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل واسم الموصول "ما" مفعول به.

(92/304)

"بِأَنْفُسِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول. والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر  
بمجرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بمغيرا. "وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" أن واسمها وخبرها  
والمصدر المؤول من أن وما بعدها معطوف على المصدر المؤول من أن وما بعدها في أول  
الآية.

[سورة الأنفال (8): آية 54]

كَذَّبَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ  
وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)

الآية تقدم إعرابها. "وَكُلُّ" مبتدأ مرفوع أي وكلهم. "كَانُوا" كان واسمها. "ظَالِمِينَ" خبرها  
منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم، والجملة في محل رفع خبر المبتدأ كل.

والجملة الاسمية و"كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ" مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأنفال (8) : آية 55]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55)

"إِنَّ شَرَّ" إن واسمها . "الدَّوَابِّ" مضاف إليه . "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق باسم التفضيل  
شر . "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه . "الَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع  
خبر . "كَفَرُوا" فعل ماض مبني على الضم والواو فاعل ، والجملة صلة الموصول . "فَهُمْ"  
ضمير رفع منفصل مبتدأ ، والفاء حرف عطف . "لَا يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون ،  
والواو فاعل ، والجملة في محل رفع خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها .

[سورة الأنفال (8) : آية 56]

الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتَقِضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56)

(93/304)

---

"الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع بدل من الذين في الآية السابقة . "عَاهَدْتَ مِنْهُمْ" فعل  
ماض تعلق به الجار والمجرور ، والتاء فاعل والجملة صلة الموصول . "ثُمَّ" حرف عطف  
"يَنْتَقِضُونَ" فعل مضارع وفاعل و"عَهْدَهُمْ" مفعول به . "فِي كُلِّ" متعلقان بـ"يَنْتَقِضُونَ" مَرَّةً

مضاف إليه والجملة معطوفة. "وَهُمْ" مبتدأ والواو حالية، وجملة "لَا يَتَّقُونَ" خبر،  
والجملة الاسمية في محل نصب حال.

[سورة الأنفال (8): آية 57]

فَمَا تَثَقَّنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (57)

"فَمَا" الفاء رابطة لشبه الموصول بالشرط. "إِذَا" إن حرف شرط جازم. "مَا" زائدة.  
"تَثَقَّنَهُمْ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم فعل  
الشرط والهاء مفعوله وفاعله ضمير مستتر. "فِي الْحَرْبِ" متعلقان بالفعل، وجملة فعل  
الشرط ابتدائية لا محل لها. "فَشَرَّدَ"

فعل أمر والفاء رابطة لجواب الشرط. "بِهِمْ" متعلقان بشرد. "مَنْ" اسم موصول مفعول  
به. "خَلَفَهُمْ" ظرف مكان متعلق بمحذوف الصلة، والجملة في محل جزم جواب الشرط.  
"لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ" لعل والهاء اسمها، والجملة الفعلية خبرها، وجملة لعلمهم الاسمية تعليلية.

[سورة الأنفال (8): آية 58]

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58)

"وَإِمَّا تَخَافَنَّ" . . "إِعْرَابُهَا الْآيَةُ السَّابِقَةُ، وَهِيَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى سَوَاءٍ" جار ومجرور  
متعلقان بمحذوف حال، ومفعول انبذ محذوف تقديره انبذ عهدهم. "إِنَّ اللَّهَ" الجملة  
تعليلية وجملة لا يجب خبر إن.

"الخائنين" مفعول به .

[سورة الأنفال (8) : آية 59]

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِلَهُمْ لِأَيُّعْزُونَ (59)

(94/304)

"ولا" الواو استئنافية . "لا" ناهية جازمة . "يَحْسَبَنَّ" مضارع مبني على الفتح في محل جزم لاتصاله بنون التوكيد . "الَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل ، والجملة مستأنفة ، وجملة "كَفَرُوا" صلة الموصول . "سَبَقُوا" فعل ماض وفاعل والجملة في محل نصب مفعول به ثان ليحسبن ، والمفعول الأول محذوف أي ولا يحسبن أنفسهم سبقوا . "إِلَهُمْ" إن والهاء اسمها وجملة "لَأَيُّعْزُونَ" خبرها ، والجملة الاسمية إنهم مستأنفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 60]

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ

(60)

"وَأَعِدُّوا" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعل . "لَهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة

مستأنفة. "مَا" اسم موصول في محل نصب مفعول به. "اسْتَطَعْتُمْ" فعل ماض والتاء فاعل  
والجملة صلة الموصول.

(95/304)

"مِنْ قُوَّةٍ" متعلقان بمحذوف حال. "وَمِنْ رِبَاطٍ" معطوف. "الْخَيْلِ" مضاف إليه.  
"تُرْهَبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله. "بِهِ" جار ومجرور متعلقان بالفعل.  
"عَدُوٌّ" مفعول به. "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه. "وَعَدُوُّكُمْ" عطف. "وَأَخْرَيْنَ" اسم  
معطوف منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم. "مِنْ دُونِهِمْ" جار  
ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لآخرين. والجملة الفعلية في محل نصب حال. "لَا  
تَعْلَمُونَهُمْ" فعل مضارع والواو فاعله، والهاء مفعوله، ولا نافية والجملة في محل نصب صفة  
لآخرين. "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ وجملة "يَعْلَمُهُمْ" خبر والجملة الاسمية الله يعلمهم  
مستأنفة. "وَمَا" ما اسم شرط جازم، مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدم  
والواو استنافية.

"تُنْفِقُوا" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله وهو فعل الشرط. "مِنْ  
شَيْءٍ" متعلقان بمحذوف حال. "فِي سَبِيلِ" متعلقان بتنفقوا. "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف

إليه ، والجملة

مستأنفة . "يُوفَّ" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة جواب الشرط .  
"إِلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل . والجملة لا محل لها جواب شرط جازم لم يقترن بالفاء . وجملة  
"وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ" حالية .

[سورة الأنفال (8) : آية 61]

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61)

(96/304)

---

"وَإِنْ" حرف شرط جازم والواو للاستئناف . "جَنَحُوا" فعل ماضٍ وفاعله . "لِلْسَّلْمِ"  
متعلقان بالفعل والجملة ابتدائية لا محل لها . "فَاجْنَحْ" الفاء رابطة وفعل أمر تعلق به الجار  
والجرور "لَهَا" وفاعله أنت والجملة في محل جزم جواب الشرط . "وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" الجملة  
معطوفة . "إِنَّهُ" إن والهاء اسمها . "هُوَ" ضمير فصل لا محل له "السَّمِيعُ" خبرها الأول .  
"الْعَلِيمُ" خبرها الثاني . ويجوز أن يكون هو ضمير رفع مبتدأ . "السَّمِيعُ" خبره والجملة  
الاسمية خبر إن ، والجملة الاسمية إنه هو السميع تعليلية لا محل لها .

[سورة الأنفال (8) : آية 62]

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَىٰكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62)

"وَإِنْ يُرِيدُوا" عطف على وإن جنحوا . "أَنْ يَخْدَعُوكَ" أن ناصبة ومضارع منصوب

وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل والكاف مفعول به والمصدر المؤول في محل نصب

مفعول به . "فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ" الفاء رابطة وإن واسمها وخبرها والجملة في محل جزم جواب

الشرط . "هُوَ" ضمير منفصل مبتدأ "الَّذِي" اسم الموصول خبره والجملة الاسمية

مستأنفة .

"آتَىٰكَ" فعل ماض ومفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره هو . "بِنَصْرِهِ" متعلقان بالفعل .

"وَبِالْمُؤْمِنِينَ" معطوف والجملة صلة الموصول .

[سورة الأنفال (8) : آية 63]

وَأَلْفٌ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفٌ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفٌ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)

"وَأَلْفٌ" فعل ماض تعلق به الظرف "بَيْنَ" . "قُلُوبِهِمْ" مضاف إليه والهاء في محل جر

بالإضافة ، والجملة معطوفة . "لَوْ" حرف شرط غير جازم . "أَنفَقْتَ" فعل ماض وفاعل

واسم الموصول "ما" بعده مفعول به .

(97/304)



"فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول . "جَمِيعاً" حال . "مَا لَفَّتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ" ما نافية والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم . "وَلَكِنَّ" حرف مشبه بالفعل . "اللَّهُ" لفظ الجلالة اسمها وجملة "أَلْفَ بَيْنَهُمْ" في محل رفع خبر . "إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" إن واسمها وخبرها ، والجملة مستأنفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 64]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64)

"يَا أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب على النداء والهاء حرف تنبيه لا محل له . "النَّبِيُّ" بدل مرفوع . "حَسْبُكَ" مبتدأ والكاف في محل جر بالإضافة . "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر والجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها . "وَمَنِ" الواو عاطفة ومن خبر لمبتدأ محذوف تقديره وحسب من اتبعك . . والجملة الاسمية معطوفة . وهذا أولى من عطفه على الله من حيث المعنى . "اتَّبَعَكَ" فعل ماض والكاف مفعوله والفاعل ضمير مستتر تقديره هو . "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بمحذوف حال والجملة الفعلية صلة الموصول .

[سورة الأنفال (8) : آية 65]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65)

"يا أَيُّهَا النَّبِيُّ" سبق اعرابها "حَرَضَ" فعل أمر . "المُؤْمِنِينَ" مفعوله منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم . والفاعل أنت . "عَلَى الْقِتَالِ" متعلقان بالفعل والجملة ابتدائية .  
"إِنْ يَكُنْ" إن شرطية وفعل مضارع ناقص مجزوم لأنه فعل الشرط وعلامة جزمه السكون .  
"مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف خبريكن .

(98/304)

---

"عِشْرُونَ" اسمها مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم . "صَابِرُونَ" صفة مرفوعة والجملة ابتدائية . ويمكن أن نعرب يكن فعل مضارع تام وعشرون فاعل . .  
و"مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف حال من صابرون كان صفة له فلما تقدم عليه صار حالا .  
"يَغْلِبُوا" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون لأنه جواب الشرط والواو فاعل ،  
والجملة لا محل لها جواب شرط جازم لم يقترن بالفاء أو إذا الفجائية . "مَاتَتَيْنِ" مفعوله منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه مشى . "وَإِنْ يَكُنْ" . . "إِعْرَابُهَا كَسَابِقَتِهَا" بَأَنَّهُمْ " أن  
والهاء اسمها وقوم خبرها . والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها في محل جر بالباء ،  
والجار والمجرور متعلقان بيغلبوا . "لَا يَفْقَهُونَ" مضارع وفاعله ، ولا نافية والجملة في محل  
رفع صفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 66]

الآن خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ  
يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)

"الآن" ظرف زمان مبني على الفتح ، متعلق بالفعل خفف بعده. "خَفَّ" فعل ماضٍ تعلق  
به الجار والمجرور عنكم و"اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله والجملة مستأنفة. "عَنْكُمْ" متعلقان  
بـيخفف "وَعَلِمَ" فعل ماضٍ. "أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا" أن واسمها والجار والمجرور خبرها. وقد  
سدت الجملة مسد مفعولي علم والجملة معطوفة. "فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ . . ." إعرابها كآلية  
السابقة والجملة مستأنفة. "بِإِذْنِ" متعلقان بـيغلبوا. "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه.  
"اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" الجملة حالية أو مستأنفة.

[سورة الأنفال (8) : آية 67]

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ  
الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67)

(99/304)

---

"ما كان" كان فعل ماض تام بمعنى استقام، وما نافية. "لنبي" متعلقان بفعل كان. ويمكن أن نعرب كان فعل ماض ناقص واسمها محذوف ما كان الفداء لنبي. . . والجملة مستأنفة. "أن" حرف مصدري ونصب. "يكون" مضارع ناقص منصوب وعلامة نصبه الفتحة. "له" متعلقان بمحذوف خبر. "أسرى" اسمها. والمصدر المؤول من أن والفعل يكون في محل رفع فاعل. "كان" وما استقام لنبي كون أسرى له. . . "حتى" حرف غاية وجر والمصدر المؤول في محل جر مجتى، والجار والمجرور متعلقان بالفعل التام كان. "يثخن" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى. "في الأرض" متعلقان بفعل يثخن. "تريدون" مضارع والواو فاعل، "عرض" مفعول. "الدنيا" مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة المقدرة على الألف للتعذر. والجملة مستأنفة. "والله" لفظ الجلالة مبتدأ. "يريد الأخرة" فعل مضارع ومفعول والجملة خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة. "والله عزيز حكيم" لفظ الجلالة مبتدأ وعزيز حكيم خبراه والجملة معطوفة أو مستأنفة.

[سورة الأنفال (8): آية 68]

لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68)

"لولا" حرف امتناع لوجود. "كتاب" مبتدأ. "من الله" متعلقان بالفعل سبق. "سبق" فعل ماض، والجملة في محل رفع صفة كتاب، والخبر محذوف تقديره موجود، والجملة استئنافية لا محل لها، "لمسكم" فعل ماض والكاف مفعول به، واللام واقعة في جواب

الشرط ، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم .

"فِيمَا" ما اسم موصول مبني على السكون في محل جر مجرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل مسكم . "أَخَذْتُمْ" فعل ماض والتاء فاعل والميم لجمع الذكور والجملة صلة الموصول .

"عَذَابٌ" فاعل . "عَظِيمٌ" صفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 69]

(100/304)

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69)

"فَكُلُوا" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعله والفاء هي الفصيحة . "مِمَّا" ما

اسم موصول في محل جر ومتعلقان بالفعل . "غَنِمْتُمْ" فعل ماض وفاعله والجملة صلة

الموصول . "حَلَالًا" نائب مفعول مطلق أي أكلا حلالا . أو حال . "طَيِّبًا" صفة . "وَاتَّقُوا

اللَّهَ" فعل ماض وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به والجملة معطوفة على فكلوا . . "إِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ" إن واسمها وخبرها والجملة تعليلية .

[سورة الأنفال (8) : آية 70]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا  
أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70)

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ" سبق إعرابها "لِمَنْ" متعلقان بالفعل. "فِي أَيْدِيكُمْ" اسم مجرور وعلامة  
جره الكسرة المقدرة على الياء للثقل، والكاف في محل جر بالإضافة والميم لجمع الذكور،  
والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول. "مِنَ الْأَسْرَىٰ" متعلقان بمحذوف  
حال. والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها. "إِنَّ" حرف شرط جازم. "يَعْلَمُ" مضارع  
مجزوم فعل الشرط، و"اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله. "فِي قُلُوبِكُمْ" متعلقان بالفعل. "خَيْرًا"  
مفعول به. "يُؤْتِكُمْ" مضارع مجزوم جواب الشرط. وفاعله هو والكاف مفعوله الأول.  
"خَيْرًا" مفعوله الثاني. "مِمَّا" متعلقان بخيرا. "أَخَذَ" فعل ماض مبني للمجهول. ونائب  
الفاعل هو. "مِنْكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة صلة الموصول. "وَيَغْفِرُ" عطف على يُؤْتِكُمْ  
مجزوم مثله.

(101/304)

---

"لَكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة. "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" لفظ الجلالة مبتدأ وغفور  
رحيم خبران والجملة الاسمية استئنافية. وإن يعلم وما بعدها مقول القول، وجملة يُؤْتِكُمْ لا

محل لها جواب الشرط جازم لم تقترن بالفاء أو إذا .

[سورة الأنفال (8) : آية 71]

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَاتَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71)

"وَإِنْ" إن شرطية "يُرِيدُوا" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال

الخمسة ، والواو فاعل . "خِيَاتَتَكَ" مفعول به والكاف في محل جر بالإضافة ، والجملة

معطوفة . "فَقَدْ" الفاء رابطة لجواب الشرط ، "قَدْ" حرف تحقيق . "خَانُوا اللَّهَ" فعل

وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به والجملة في محل جزم جواب الشرط . "مِنْ" حرف جر .

"قَبْلُ" ظرف زمان مبني على الضم لانتقاعه عن الإضافة في محل جر بمن ، والجار والمجرور

متعلقان بالفعل . "فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ" الفاء عاطفة وفعل ماض تعلق به الجار والمجرور منهم

والجملة معطوفة . "وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" لفظ الجلالة مبتدأ وما بعده خبراه . والجملة

معطوفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 72]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا

أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى

يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب اسم إن. "آمَنُوا" فعل ماض مبني على الضم والواو فاعل والجملة صلة الموصول. "وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا" عطف. "بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ" متعلقة بجاهدوا. "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه. "وَالَّذِينَ آوُوا وَنَصَرُوا" . . "جملة الذين آووا معطوفة، وجملة آمنوا صلة وجملة ونصروا معطوفة. "أُولَئِكَ" اسم إشارة مبني على الكسرة في محل رفع مبتدأ أول. "بَعْضُهُمْ" مبتدأ ثان. "أُولِيَاءُ" خبر بعضهم. "بَعْضٌ" مضاف إليه، والجملة الاسمية بعضهم أولياء خبر أولئك وجملة أولئك بعضهم . . خبر إن. "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا" الجمل معطوفة. "مَا لَكُمْ" ما نافية لا عمل لها. "لَكُمْ" متعلقان بحذوف خبر المبتدأ المؤخر شيء. "مِنْ وَلَايَتِهِمْ" متعلقان بحذوف الخبر أيضا. "مِنْ شَيْءٍ" من حرف جر زائد. شيء اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ والجملة الاسمية في محل رفع خبر اسم الموصول. "حَتَّى يُهَاجِرُوا" المصدر المؤول من أن المضمرة بعد حتى، والفعل المضارع في محل جر مجرور الجرح حتى، والجار والمجرور متعلقان بما النافية المتضمنة معنى الفعل أي اتقت ولايتهم عليهم . . "وَإِنَّ" الواو عاطفة وإن شرطية. "اسْتَنْصَرُواكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله. "فِي الدِّينِ"



متعلقان بالفعل ، والجملة معطوفة .

"فَعَلَيْكُمْ" متعلقان بحذوف خبر مقدم والفاء رابطة . "النَّصْرُ" مبتدأ والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط . "إِلَّا" أداة استثناء . "عَلَى قَوْمٍ" متعلقان بالمستثنى المحذوف أي إلا النصر على قوم . .

"بَيْنَكُمْ" ظرف مكان متعلق بحذوف خبر مقدم

[سورة الأنفال (8)]

(103/304)

---

الموصول ، وجملة "الَّذِينَ" معطوفة على جملة (الذين آووا ونصروا) في الآية السابقة . "إِلَّا" مؤلفة من إن حرف شرط جازم . و"لا" النافية . "تَفَعَّلُوهُ" مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون ، والواو فاعله والهاء مفعوله وجملة فعل الشرط لا محل لها ابتدائية "تَكُنُّ" مضارع تام مجزوم لأنه جواب الشرط . "فِنَّةٌ" فاعل . "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بتكن . "وَفَسَادٌ" اسم معطوف . "كَبِيرٌ" صفة . وجملة جواب الشرط لا محل لها لم تقترن بالفاء أو إذا الفجائية .

[سورة الأنفال (8) : آية 74]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ  
حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74)

"وَالَّذِينَ آمَنُوا . . إعرابها كإعراب الآية 72 . "أُولَئِكَ" اسم إشارة مبتدأ . "هُمُ" ضمير  
فصل .

"الْمُؤْمِنُونَ" خبر اسم الإشارة على أن هم ضمير فصل . .

والجملة الاسمية "أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ" في محل رفع خبر اسم الموصول . "الَّذِينَ" في أول  
الآية .

"حَقًّا" نائب مفعول مطلق . "لَهُمْ" الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مَغْفِرَةٌ"  
مبتدأ . "وَرِزْقٌ" عطف . "كَرِيمٌ" صفة ، والجملة الاسمية مستأنفة .

[سورة الأنفال (8) : آية 75]

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى  
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75)

والذين آمنوا . . إعراب سابقتها . "مَعَكُمْ" ظرف مكان متعلق بالفعل . "فَأُولَئِكَ" اسم  
إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ . والفاء رابطة لما في اسم الموصول من شبه  
الشرط . "مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية خبر اسم الموصول .  
"وَأُولُوا" مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه ملحق بجمع المذكر

(104/304)

---

السالم. "الأَرْحَامِ" مضاف إليه. "بَعْضُهُمْ" مبتدأ. "أُولَى" خبره مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الألف للتعذر. "بِئَعْضٍ" متعلقان بالخبر أولى. والجملة الاسمية بعضهم أولى ببعض في محل رفع خبر أولو، والجملة مستأنفة. "فِي كِتَابٍ" متعلقان بمحذوف خبر هذا منزل في كتاب الله. "إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" إن واسمها وخبرها. "بِكُلِّ" متعلقان بالخبر "عَلِيمٌ" و"شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة مستأنفة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس ح 1 ص 417.424﴾

(105/304)

---

فصل في تخریج الأحادیث الواردة فی السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعي رحمه الله:

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

ذَكَرَ فِيهَا سَبْعَةٌ وَعِشْرِينَ حَدِيثًا

رُوي أَنه وَقَعَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ اخْتِلَافٌ فِي غَنَائِمِ بَدْرٍ وَفِي قِسْمَتِهَا فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ تَقْسِمُ وَلَمَّا حُكِمَ فِي قِسْمَتِهَا الْمُهَاجِرِينَ أَمْ الْأَنْصَارَ أَمْ لَهُمْ جَمِيعًا فَقِيلَ لَهُ قُلْ لَهُمْ هِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قُلْتُ رَوَاهُ أَبُو حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ الصَّامِتِ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَهِدْنَا مَعَهُ بَدْرًا فَالتَقَى النَّاسَ فَهَزَمَ اللَّهُ الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَ طَائِفَةٌ فِي آثَارِهِمْ وَأَكْبَتُ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ يَجْمَعُونَ وَأُحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُصِيبُ الْعَدُوَّ مِنْهُمْ غَرَّةٌ حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَفَاءَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْغَنَائِمَ نَحْنُ حَوِينَاهَا وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلْبِ الْعَدُوِّ لَسْتُمْ بِأَحَقَّ مِنَّا نَحْنُ نَفِينَا عَنْهَا الْعَدُوَّ وَقَالَ الَّذِينَ أُحْدَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا نَحْنُ أُحْدَقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْتَغَلْنَا بِهِ فَنَزَلَتْ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ الْآيَةُ فَقَسَمَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ

انتهى

ورواه أحمد وإسحاق بن راهويه في مسندهما قال الحاكم على شرط مسلم

وقيل شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينقله فتسارع

(106/304)

شُبَّانَهُمْ حَتَّى قَتَلُوا سَبْعِينَ وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ فَلَمَّا يَسَّرَ اللَّهُ الْفَتْحَ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَتَنَازَعُوا  
فَقَالَ الشُّبَّانُ نَحْنُ الْمُقَاتِلُونَ وَقَالَ الشُّيُوخُ وَالْوُجُوهُ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَ الرَّايَاتِ كُنَّا رُدَّاءَ لَكُمْ  
وَفِي تَنَحَّازُونَ إِلَيْهَا إِنْ انْهَزِمْتُمْ فَنَزَلَتِ الْأَنْفَالُ

قلت رواه أبو داود في الجهاد والنسائي في التفسير من حديث داود بن أبي هند عن  
عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى مكان كذا وكذا  
فله من النفل كذا ومن فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا فتسارع إليه الشبان وثبت  
الشيوخ تحت الرايات فلا فتح الله لهم جاء الشبان يطلبون ما جعل لهم فقال الأشياخ لا  
تذهبوا به دوننا وإنما كنا رداء لكم فأنزل الله تعالى واتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم انتهى  
ورواه ابن حبان في صحيحه في النوع الرابع والستين من القسم الثالث والحاكم في  
مستدرکه وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه فقد احتج البخاري بعكرمة ومسلم بداود بن

(107/304)

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ قَتَلَ أَخِي عُمَيْرٌ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَتَلْتُ بِهِ سَعِيدَ بْنِ الْعَاصِ وَأَخَذْتُ  
سَيْفَهُ فَأَعْجَبَنِي فَجِئْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ شَفَى  
صَدْرِي مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَهَبْ لِي هَذَا السَّيْفَ فَقَالَ لَيْسَ هَذَا لِي وَلَا لَكَ اطْرَحْهُ فِي الْقُبُضِ  
قَالَ فَطَرَحْتَهُ وَبِي مَا لَا يُعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مِنْ قَتْلِ أَخِي وَأَخَذَ سَلْبِي فَمَا جَاوَزْتَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى  
جَاءَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ فَقَالَ (يَا سَعْدُ إِنَّكَ  
سَأَلْتَنِي السَّيْفَ وَلَيْسَ لِي وَإِنَّهُ قَدْ صَارَ لِي  
فَاذْهَبْ فَخُذْهُ

قُلْتُ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي مَسْنَدَيْهِمَا وَأَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ فِي  
كِتَابِ الْأَمْوَالِ قَالُوا حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ ثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي  
عَوْنِ الثَّقَفِيِّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ قَتَلَ أَخِي عُمَيْرٌ وَقَتَلْتُ سَعِيدَ بْنَ  
الْعَاصِ وَأَخَذْتُ سَيْفَهُ فَاتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ اذْهَبْ فَاطْرَحْهُ فِي

الْقَبْضُ قَالَ فَرَجَعْتُ وَبِي مَا لَا يُعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مِنْ قَتْلِ أَخِي وَأَخَذَ سَلْبِي قَالَ فَمَا جَاوَزْتَ إِلَّا  
يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذْهَبُ فَخُذْ

سَيْفَكَ

أَتَهَى

وَمِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ رَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ وَمِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ رَوَاهُ إِبْرَاهِيمُ  
الْحَرَبِيُّ فِي كِتَابِهِ غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَقَالَ الْقَبْضُ مَا يَجْمَعُ مِنَ الْغَنَائِمِ أَتَهَى

(108/304)

---

وَرَوَاهُ الْحَازِمِيُّ فِي كِتَابِهِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوحِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي عُبَيْدٍ ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ بِهِ سَنَدًا  
وَمَتَنَا ثُمَّ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ هَكَذَا قَالَ فِيهِ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَغَيْرُهُ يَقُولُ الْعَاصِ بْنُ سَعِيدٍ  
وَالْمَحْفُوظُ عِنْدَنَا الْعَاصِ بْنِ سَعِيدٍ وَكَانَ سَيْفُهُ يُسَمَّى ذَا الْكَيْفَةِ أَتَهَى كَلَامَهُ  
وَرَوَاهُ ابْنُ مَرُودِيٍّ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ بِهِ سَنَدًا وَمَتَنَا  
490 - الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ

عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ نَزَلَتْ الْأَنْفَالُ فَبَيْنَا مَعَشَرَ أَصْحَابِ بَدْرٍ حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفْلِ  
وَصَاقَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا فَنَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا فَجَعَلَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَسَمَهُ

بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى السَّوَاءِ

قُلْتُ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ فِي كِتَابِ قِسْمِ الْفَيْءِ وَالْإِمَامِ أَحْمَدَ  
وَإِسْحَاقَ بْنَ رَاهُوَيْهٍ فِي مَسْنَدَيْهِمَا وَأَبْنَ هِشَامَ فِي سِيرَتِهِ وَالطَّبْرِيَّ فِي تَفْسِيرِهِ وَأَبْنَ مَرْدَوَيْهٍ  
فِي تَفْسِيرِهِ كُلَّهُمْ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ ابْنِ أَبِي رَيْعَةَ عَنِ  
سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى الْأَشْدَقِ عَنِ مَكْحُولِ الدَّمَشْقِيِّ عَنِ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ عَنِ عِبَادَةَ بْنِ  
الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ فِي الْأَنْفَالِ فِينَا نَزَلَتْ مَعْشَرَ أَصْحَابِ بَدْرٍ حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفْلِ وَسَاءَتْ  
فِيهِ أَخْلَاقُنَا فَاتَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَسَمَهُ رَسُولُ  
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَنِ بَرَاءٍ يَقُولُ عَنِ سَوَاءِ قَالَ الْحَاكِمُ صَحِيحٌ عَلَى

شَرَطِ مُسْلِمٍ

491 - الْحَدِيثُ الرَّابِعُ

(109/304)

---

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ الْإِيمَانُ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أَعْلَاهَا شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ  
وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ  
قُلْتُ هَكَذَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ مَوْقُوفًا وَهُوَ مَرْفُوعٌ رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا الْبُخَارِيَّ فَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ



وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ وَأَبُو دَاوُدَ وَأَبْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ  
أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُونَ  
شُعْبَةً أَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ  
انتهى

وَكذلك رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَأَبْنُ حَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ وَأَبْنُ شَيْبَةَ فِي مُصَنَّفِهِ  
وَعَجَبِي مِنْ عَبْدِ الْحَقِّ كَيْفَ عَزَاهُ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ أَحْكَامِهِ لِلتِّرْمِذِيِّ فَقَطْ وَهُوَ ذَكَرَهُ  
فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الصَّحِيحَيْنِ لِمُسْلِمٍ  
وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْإِيمَانِ وَلَفْظُهُ (الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسِتُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ  
492 - الْحَدِيثُ الْخَامِسُ

(110/304)

---

رُوي أَنَّ عَيْرَ قُرَيْشٍ أَقْبَلَتْ مِنَ الشَّامِ فِيهَا تِجَارَةٌ عَظِيمَةٌ وَمَعَهَا أَرْبَعُونَ رَاكِبًا مِنْهُمْ أَبُو سَفْيَانَ  
وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَعَمْرُو بْنُ هَاشِمٍ فَأَخْبَرَ جِبْرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَ  
الْمُسْلِمِينَ فَأَعْجَبَهُمْ تَلْقَى الْعَيْرَ لِكثْرَةِ الْخَيْرِ وَقَلَّةِ الْقَوْمِ فَلَمَّا خَرَجُوا بَلَغَ أَهْلَ مَكَّةَ خَبَرَ  
خُرُوجَهُمْ فَنَادَى أَبُو جَهْلٍ فَوْقَ الْكَعْبَةِ يَا أَهْلَ مَكَّةَ النَّجَاءُ النَّجَاءُ عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذُلُولٍ

عِيرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ إِنْ أَصَابَهَا مُحَمَّدٌ لَنْ تَفْلِحُوا أَبَدًا بَعْدَهَا وَقَدْ رَأَتْ أُخْتُ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ  
الْمُطَّلِبِ رُؤْيَا فَقَالَتْ لِأَخِيهَا إِبْنِي رَأَيْتُ عَجَبًا كَأَنَّ مَلَكًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخَذَ صَخْرَةً مِنْ  
الْجَبَلِ ثُمَّ حَلَقَ بِهَا فَلَمْ يَبْقَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ مَكَّةَ إِلَّا أَصَابَهُ حَجْرٌ مِنْ تِلْكَ الصَّخْرَةِ فَحَدَّثَ بِهَا  
الْعَبَّاسُ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ مَا يَرْضَى رِجَالَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا حَتَّى تَنبَأَ نِسَاءُهُمْ فَخَرَجَ أَبُو جَهْلٍ بِجَمْعِ  
أَهْلِ مَكَّةَ وَهُمْ النَّفِيرُ فَقِيلَ لَهُ إِنْ الْعَيْرَ أَخَذْتَ طَرِيقَ السَّاحِلِ فَارْجِعِ بِالنَّاسِ إِلَى مَكَّةَ فَقَالَ لَا  
وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا حَتَّى نُنْحَرَ الْجَزُورَ وَنَشْرَبَ الْخُمُورَ وَنُقِيمَ الْقَيْنَاتِ وَالْمَعَارِيفِ بِيَدِ  
وَتَسْمَعُ جَمِيعَ الْعَرَبِ بِمَخْرَجِنَا وَأَنْ مُحَمَّدًا لَمْ يَصِبِ الْعَيْرَ وَأَنَا قَدْ أَعْضَضْنَاهُ فَمَضَى بِهِمْ  
إِلَى بَدْرٍ وَبَدْرُ مَاءٍ كَانَتْ الْعَرَبُ تَجْتَمِعُ فِيهِ لِسَوْقِهِمْ يَوْمًا فِي السَّنَةِ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَقَالَ يَا  
مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَّكُمْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ إِمَّا الْعَيْرَ وَإِمَّا قُرَيْشًا فَاسْتَشَارَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ وَقَالَ مَا تَقُولُونَ إِنْ الْقَوْمُ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ عَلَيَّ كُلِّ صَعْبٍ وَذُلُولٍ فَالْعَيْرَ  
أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ النَّفِيرَ قَالُوا بَلِ الْعَيْرَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ وَتَغْيِيرِ

(111/304)

---

وَجَهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِمْ فَقَالَ إِنْ الْعَيْرَ قَدِ مَضَتْ سَاحِلَ الْبَحْرِ  
وَهَذَا أَبُو جَهْلٍ قَدْ أَقْبَلَ

فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْكَ بِالْعِيرِ وَدَعِ الْعَدُوَّ وَقَامَ عِنْدَ غَضَبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
أَبُوبَكْرٌ وَعُمَرُ فَقَالَا فَأَحْسِنَا ثُمَّ قَامَ سَعْدُ بْنُ عِبَادَةَ فَقَالَ انظُرْ أَمْرَكَ فَوَاللَّهِ لَوْ سَرْتِ إِلَى عَدْنِ  
مَا تَخَلَّفَ عَنْكَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ثُمَّ قَالَ الْمُقَدَّادُ بْنُ عَمْرٍو يَا رَسُولَ اللَّهِ امْضِ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ  
فَإِنَّا مَعَكَ حَيْثُمَا أَحْبَبْتَ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى إِذْ هَبَّ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتَلَا  
إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ وَلَكِنْ إِذْ هَبَّ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتَلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ مَا دَامَتْ مِنْ عَيْنٍ  
تَطْرَفُ

(112/304)

---

فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ (أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ) وَهُوَ يُرِيدُ  
الْأَنْصَارَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ حِينَ بَايَعُوهُ عَلَى الْعُقْبَةِ إِنَّا بُرَاءٌ مِنْ ذِمَامِكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَيَّ دِيَارِنَا فَإِذَا  
وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَانْتَ فِي ذِمَامِنَا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ آبَاءَنَا وَنَسَاءَنَا فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَخَوُّفَ الْأَنْصَارِ لَا تَرَى عَلَيْهِمْ نَصْرَتَهُ إِلَّا عَلَى عَدُوِّهِمْ بِالْمَدِينَةِ فَقَامَ  
سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ فَقَالَ لَكَانَكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَجَلَ قَالَ قَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ  
وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَنَا وَمَوَاقِفَنَا عَلَى السَّمْعِ  
وَالطَّاعَةِ فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرُ

فَخُضَّتْ لِحُضْنَاهُ مَعَكَ لَا يَتَخَلَّفُ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكَرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عِدُونًا إِنَّا لَصَبِرٌ  
عِنْدَ الْحَرْبِ صَدَقَ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقْرِبُهُ عَيْنُكَ فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ  
فَفَرِحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَطَهُ قَوْلَ سَعْدٍ ثُمَّ قَالَ (سِيرُوا عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ  
وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ وَاللَّهُ لَكَانِي الْآنَ أَنْظِرْ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ)  
قَلْتُ هَذَا كُلُّهُ فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ فِي غَزْوَةِ بَدْرِ الْكُبْرَى مِنْ قَوْلِ ابْنِ إِسْحَاقَ  
وَأَخْرَجَ الطَّبْرِيُّ بَعْضَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَعْضَهُ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَبَعْضَهُ  
عَنِ السَّدِيِّ بِتَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ وَزِيَادَةٍ وَتَقْصُصٍ  
وَذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ ثُمَّ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِمَا بِتَمَامِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَابْنَ إِسْحَاقَ

(113/304)

---

وَرَوَاهُ الْوَأَقِدِيُّ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ عَمْرِ بْنِ قَتَادَةَ عَنْ  
مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ . . . فَذَكَرَ بَعْضَهُ

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ أَبِي بَانَ بْنِ صَالِحٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ . . . فَذَكَرَ

بَعْضَهُ مُرْسَلًا

493 - الْحَدِيثُ السَّادِسُ

رُوي أَنه قيل لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين فرغ من بدر عَلَيْكَ بِالْعِيرِ لَيْسَ دُونَهَا  
شَيْءٌ فَنَادَاهُ الْعَبَّاسُ وَهُوَ فِي وَثَاقِهِ لَا يَصِلِحُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَقَالَ لَأَنَّ  
اللَّهَ وَعَدَكَ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ وَقَدْ أَعْطَاكَ مَا وَعَدَكَ  
قُلْتُ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِهِ حَدَّثَنَا عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ أَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ إِسْرَائِيلَ عَنِ عِكْرِمَةَ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَدْرِ قِيلَ لَهُ عَلَيْكَ بِالْعِيرِ لَيْسَ  
دُونَهَا شَيْءٌ قَالَ فَنَادَاهُ الْعَبَّاسُ وَهُوَ فِي وَثَاقِهِ لَا يَصِلِحُ قَالَ لَمْ يَقَالَ لَأَنَّ اللَّهَ وَعَدَكَ إِحْدَى  
الطَّائِفَتَيْنِ وَقَدْ أَعْطَاكَ مَا وَعَدَكَ قَالَ صَدَقْتَ أَنْتَهُ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ  
وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ  
وَعَنْ الْحَاكِمِ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ رَاهَوَيْهَ وَالْبَزَّازُ وَعَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ  
وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَأَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ فِي مَسَانِيدِهِمْ  
494 - الْحَدِيثُ السَّابِعُ

(114/304)

---

عَنْ عَمْرِو بْنِ رَضِيٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ  
وَإِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٌ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَمَدَّ يَدَيْهِ يَدْعُو (اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ

إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَا تَعْبُدُ فِي الْأَرْضِ فَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ فَأَخَذَهُ أَبُو بَكْرٍ  
فَالْقَاهُ عَلَى مَنْكِبِهِ وَالتَّزَمَهُ مِنْ وِرَائِهِ وَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ  
مَا وَعَدَكَ

قُلْتُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ  
الْخَطَّابِ قَالَ نَظَرَ نَبِيُّ اللَّهِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ هُمْ أَلْفٌ وَإِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَبَضْعَةُ عَشْرٍ  
رَجُلًا فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ وَجَعَلَ يَهْتَفُ بِيَدَيْهِ مَا دَامَ يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ  
رِدَاؤُهُ مِنْ مَنْكِبِهِ فَاتَّاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاؤَهُ فَالْقَاهُ عَلَى مَنْكِبِهِ ثُمَّ التَّزَمَهُ مِنْ وِرَائِهِ وَقَالَ يَا نَبِيَّ  
اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ  
فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ فَأَمَدَّهُمُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ مُخْتَصِرٍ  
495 - الْحَدِيثُ الثَّامِنُ

رُوي أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَمَا هُوَ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذْ سَمِعَ صَوْتَ ضَرْبَةٍ  
فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ وَقَدْ خَرَّ مُسْتَلْقِيًا وَشَقَّ وَجْهَهُ فَحَدَّثَ الْأَنْصَارِيُّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ (صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ)

(115/304)

قلت هذه قطعة من الحديث الذي قبله قال ابن عباس بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط ففوقه فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السيف فجاء الأنصاري فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال

( صدقت ذلك من مدد السماء

496 - قوله

عن أبي داود الأنصاري ثم المازني قال إني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي

قلت رواه ابن هشام في سيرته وإسحاق بن راهويه في مسنده والطبري وابن مردويه في تفسيريهما وأبو نعيم في دلائل النبوة كلهم من حديث ابن إسحاق حدثني أبي إسحاق بن يسار عن رجال من بني مازن بن النجار عن أبي داود المازني وكان شهد بدرًا قال إني لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر . . . إلى آخره

497 - قوله

عن ابن عباس قال النعاس في القتال أمانة من الله وفي الصلاة وسوسة من الشيطان قلت لم أجده عن ابن عباس وإنما هو عن ابن مسعود رواه عبد الرزاق في مصنفه في الصلاة وفي تفسيره أخبرنا سفيان الثوري عن عاصم عن أبي رزين قال قال ابن مسعود

النَّعَاسُ فِي الْقِتَالِ أَمْنَةٌ مِنَ اللَّهِ وَفِي الصَّلَاةِ وَسُوسَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ أَنْتَهَى  
وَمَنْ طَرِيقَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ فِي تَرْجَمَةِ ابْنِ  
مَسْعُودٍ

وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي مُصَنَّفِهِ فِي أَوَّلِ الْجِهَادِ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زُرَّ  
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ . . فَذَكَرَهُ

(116/304)

وَحَاكَاهُ الثَّعْلَبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ غَيْرِ سَنَدٍ وَكَانَ الْمُصَنِّفُ حَاصِلَ لَهُ وَهُمْ  
وَجَدَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ فَظَنَّهُ ابْنَ عَبَّاسٍ

498 - الْحَدِيثُ التَّاسِعُ

رُوي أَنَّ إِبْرَاهِيمَ تَمَثَّلَ لِلْمُسْلِمِينَ وَكَانَ الْمَشْرُكُونَ سَبَقُوهُمْ إِلَى الْمَاءِ وَنَزَلَ الْمُؤْمِنُونَ فِي كَثِيبٍ  
أَعْفَرَ تَسْوِخَ فِيهِ الْأَقْدَامَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ فَنَامُوا فَاحْتَلَمَ أَكْثَرُهُمْ فَقَالَ لَهُمْ أَنْتُمْ يَا أَصْحَابَ  
مُحَمَّدَ تَزْعُمُونَ أَنْكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَإِنَّكُمْ تَصَلُونَ عَلَى غَيْرِ وُضوءٍ وَعَلَى الْجَنَابَةِ وَقَدْ  
عَطِشْتُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ عَلَى حَقِّ مَا غَلَبَكُمْ هَوْلَاءِ عَلَى الْمَاءِ وَمَا يَنْتَظِرُونَ بِكُمْ إِلَّا أَنْ يَجْهَدَ بِكُمْ  
الْعَطَشُ فَإِذَا قَطَعَ الْعَطَشُ أَعْنَقَكُمْ مَشَوْا إِلَيْكُمْ فَقَتَلُوا مِنْ أَحْبَبُوا وَسَاقُوا بِقِيَّتِكُمْ إِلَى مَكَّةَ



فَحَزَنُوا حَزْنَا شَدِيدًا وَأَشْفَقُوا وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْمَطَرَ فَمُطِرُوا لَيْلًا حَتَّى جَرَى الْوَادِي وَاتَّخَذَ  
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ الْحِيَاضَ عَلَى غَدْوَةِ الْوَادِي وَسَقَوْا الرِّكَابَ  
وَاعْتَسَلُوا وَتَوَضَّؤُوا وَتَلَبَّدَ الرَّمْلَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ حَتَّى ثَبَتَ الْأَقْدَامَ عَلَيْهِ

(117/304)

قُلْتُ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ مِنْ طَرِيقِ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدِ الدَّارِمِيِّ ثنا عبد الله بن صالح  
حدَّثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى وإذ يعدكم  
الله إحدى الطائفتين قال أقبلت غير أهل مكة تريد الشام فبلغ أهل المدينة ذلك فخرجوا  
ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدون العير . . . إلى أن قال فنزل النبي صلى  
الله عليه وسلم والمسلمون وبينهم وبين الماء رملة دعصة وكان فأصاب المسلمون ضعف  
وألقى الشيطان في قلوبهم الفتوى يسوسهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد  
غلبكم المشركون على الماء وأنتم كذا فأمطر الله تعالى مطرا شديدا فشرب المسلمون  
وتطهروا فأذهب الله عنهم رجز الشيطان وأصاب الرمل المطر حتى مشى عليه الناس  
والدواب ثم ساروا إليهم مختصر

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَالطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَكَذَلِكَ أَبُو مُرْدُؤَيْهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ

بن صالح به . . . وذكره الثعلبي بلفظ المصنف سواء من غير شك

499 - الحديث العاشر

قوله عن ابن عمر قال خرجت سرية وأنا فيهم ففرُّوا فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا  
فدخلوا البيوت فقلت يا رسول الله نحن الفرَّارون فقال (بل أنتم العكارون وأنا فتكم  
وأنهزم رجل من القادسية فاتى المدينة إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين هلكت  
فررت من الزحف فقال عمر أنا فتك

(118/304)

قلت الأول رواه أبو داود والترمذي في الجهاد من حديث يزيد بن أبي زياد عن عبد  
الرحمن بن أبي ليلى عن ابن عمر أنه كان في سرية من سرايا النبي صلى الله عليه وسلم  
قال فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص فلما برزنا قلنا وكيف نصنع وقد فررنا من  
الزحف وؤونا بالغضب فقلنا ندخل المدينة لنسبب فيها ونذهب فلا يرانا أحد قال فدخَلنا  
فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كانت لنا توبة أقمنا وإن  
كان غير ذلك ذهبنا قال فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر فلما  
خرج قمنا إليه فقلنا نحن الفرَّارون فأقبل إلينا وقال (لا بل أنتم العكارون قال فدئونا فقبلنا

يَدُهُ فَقَالَ (أَنَا فِتْنَةُ الْمُسْلِمِينَ أَنْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيُّ حَدِيثٌ حَسَنٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ يَزِيدِ بْنِ أَبِي زِيَادٍ أَنْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهٍ وَالْبَزَّازُ وَأَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي مَسَانِيدِهِمْ وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِهِ الْمُرْتَدِّ فِي الْأَدَبِ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْمَعْرِفَةِ

وَلَمْ يَنْصِفِ الْمُنْذِرِيُّ إِذْ عَزَا هَذَا الْحَدِيثَ فِي مُخْتَصَرِهِ لِأَبْنِ مَاجَةَ فَإِنَّ ابْنَ مَاجَةَ لَمْ يَذْكُرْ مِنْهُ إِلَّا قَوْلَهُ قَبْلَنَا يَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْأَدَبِ مَعَ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَطْرَافِ بَيْنُوهُ وَقَالُوا إِنَّهُ اخْتَصَرَهُ

(119/304)

---

وَأَمَّا الثَّانِي فَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي مُصَنَّفِهِ فِي أَبْوَابِ الْجِهَادِ فِي بَابِ ذِكْرِ الْيَمَامَةِ حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ زَائِدَةَ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ فَرَجَلُ مِنَ الْقَادِسِيَّةِ فَآتَى عَمْرًا فَقَالَ لَهُ إِنِّي هَلَكْتُ قَالَ وَمَا ذَاكَ قَالَ فَرَرْتُ مِنَ الرَّحْفِ فَقَالَ عَمْرٌ أَنَا فَتَكَ أَنْتَهَى قَالَ الْمُنْذِرِيُّ فِي حَوَاشِيهِ يَرَوِي حَاصٌ بِالْحَاءِ وَالصَّادُ الْمُهْمَلَتَيْنِ وَيَرَوِي جَاضٌ بِالْجِيمِ وَالصَّادُ الْمُعْجَمَةَ فَالْأَوَّلُ مِنَ الْحَيْصِ وَهُوَ الْمَهْرَبُ وَالثَّانِي قَيْلٌ مَعْنَاهُ فَرٌ وَقَيْلٌ عَدْلٌ عَنْهُ قَالَ

أَبْنُ الْقَوَاطِيَةِ إِنِ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ أَنْتَهَى

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ الْكَارِ الَّذِي يَفِرُّ إِلَى إِمَامِهِ لِيُنْصِرَهُ لَا يُرِيدُ الْفِرَارَ مِنَ الرَّحْفِ أَنْتَهَى

500 - الْحَدِيثُ الْحَادِي عَشَرَ

رُوي أَنَّهُ لَمَّا طَلَعَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( هَذِهِ قُرَيْشٌ  
جَاءَتْ بِخِيَلِهَا وَفَخْرُهَا يَكْذُبُونَ رَسُولَهُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مَا وَعَدْتَنِي فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ فَقَالَ خُذْ قَبْضَةً مِنْ تَرَابِ فَارِمِهِمْ بِهَا فَقَالَ لَمَّا التَّقَى الْجَمْعَانِ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ )  
أَعْطَنِي قَبْضَةً مِنْ حَصْبَاءِ الْوَادِي فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ وَقَالَ ( شَاهَتِ الْوُجُوهُ فَلَمْ يَبْقَ  
مُشْرِكٌ إِلَّا شَغَلَ بَعَيْنِيهِ فَأَنْهَزُوا وَرَدَفَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْسِرُونَهِمْ

(120/304)

قُلْتُ رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ عَبْدِ الْوَارِثِ ثَنَا أَبِي ثَنَا أَبَانُ  
الْعَطَّارِ ثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ لَمَّا وَرَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَدْرًا  
فَوَجَدَ الْمُشْرِكُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَيْهِ فَلَمَّا طَلَعُوا عَلَيْهِ زَعَمُوا أَنَّ  
النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ( هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ جَاءَتْ بِخِيَلِهَا وَفَخْرُهَا تُحَادِثُكَ  
وَتَكْذِبُ رَسُولَكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مَا وَعَدْتَنِي فَلَمَّا أَقْبَلُوا اسْتَقْبَلَهُمْ فَحَثَّ فِي وُجُوهِهِمْ

فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى اَنْتَهَى

وَفِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ فِي غَزْوَةِ بَدْرِ الْكُبْرَى قَالَ ابْنُ اِسْحَاقَ وَارْتَحَلَتْ قُرَيْشٌ حِينَ  
اَصْبَحَتْ فَلَمَّا اَقْبَلَتْ وَرَأَتْ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَصُوبَ مِنَ الْعَقَنْتَلِ وَهُوَ  
الْكَيْبُ الَّذِي جَاءُوا مِنْهُ اِلَى الْوَادِي قَالَ اللهُ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ اَقْبَلَتْ بِخِيْلَانِهَا وَفَخَرَهَا  
تَحَادُكَ وَتَكْذِبَ رَسُوْلِكَ اللهُ فَنَصْرَكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي . . . اِلَى اَنْ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ بِنَحْوِ  
وَرَقَةٍ قَالَ ابْنُ اِسْحَاقَ ثُمَّ اِنْ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اَخَذَ حَفْنَةً مِنْ حَصْبَاءِ  
فَاسْتَقْبَلَ بِهَا قُرَيْشًا ثُمَّ قَالَ ( شَاهَتِ الْوُجُوْهَ ثُمَّ نَفَخَهُمْ بِهَا وَامْرَأُصْحَابَهُ فَقَالَ ( شَدُوا )  
فَكَانَتْ الْهَزِيْمَةُ فَقَتَلَ اللهُ مِنْ قَتْلِ مَنْ صَنَادِيْدِ قُرَيْشٍ وَاَسْرَ مِنْ اَسْرٍ مِنْ اَشْرَافِهِمْ فَلَمَّا وُضِعَ  
الْقَوْمَ اَيْدِيَهُمْ يَقْتُلُوْنَ وَيَأْسِرُوْنَ . . . الْحَدِيْثُ بِطَوْلِهِ

(121/304)

---

وَرَوَاهُ الْوَاْقِدِيُّ فِي الْمَغَازِي حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ  
لَمَّا رَأَى رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا . . . فَذَكَرَهُ اِلَى قَوْلِهِ ( فَنَصْرَكَ الَّذِي  
وَعَدْتَنِي ) لَمْ يَذْكُرِ الرَّمِيَةَ لَكِنَّهُ رَوَى فِيْمَا بَعْدَ حَدَّثَنِي عَابِدُ بْنُ يَحْيَى عَنِ اَبِي الْحُوَيْرِثِ عَنِ  
عِمَارَةَ بْنِ اَكِيْمَةَ اللَّيْثِيِّ عَنِ حَكِيْمِ بْنِ حَزَامٍ قَالَ لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرِ فَذَكَرَ الْقِصَّةَ وَفِي آخِرِهَا

قَالَ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِفَا مِنْ الْحَصَا فَرَمَاهُمْ بِهَا وَقَالَ شَاهَتِ  
الْوُجُوهُ ) فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْتًا وَجْهَهُ وَعَيْنَاهُ فَانْهَزَمَ أَعْدَاءُ اللَّهِ وَالْمُسْلِمُونَ يَقْتُلُونَ  
وَيَأْسِرُونَ

قَالَ الطَّبِيبِيُّ لَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ مِنْ أُمَّةِ الْحَدِيثِ هَذِهِ الرَّمِيَةِ الَّتِي كَانَتْ يَوْمَ بَدْرٍ ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ  
مُسْلِمٍ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى نَزَلْنَا  
وَأَجَهْنَا الْعَدُوَّ . . . . إِلَى أَنْ قَالَ فَلَمَّا غَشَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ عَنْ  
بَعْلَتِهِ ثُمَّ قَبِضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَقَالَ شَاهَتِ الْوُجُوهُ ) وَهَذَا خَطَأٌ  
مِنْهُ إِذْ لَا امْتِنَاعَ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمَيْنِ وَقَدْ قَدِمْنَا رِوَايَةَ  
عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَابْنَ إِسْحَاقَ أَنَّهَا كَانَتْ يَوْمَ بَدْرٍ

(122/304)

---

وَرَوَى الطَّبِيبِيُّ فِي مُعْجَمِهِ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ بَهْرَامٍ الْأَيْدِجِيُّ ثنا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْأَسْفَاطِيُّ  
ثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَحْيَى السَّحْرِيُّ حَدَّثَنِي أَبِي ثنا مُوسَى بْنُ يَعْقُوبَ الزَّمْعِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
يَزِيدَ مَوْلَى الْأَسْوَدِ بْنِ سُفْيَانَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ  
قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذَ كِفَا مِنْ الْحَصَبَاءِ فَاسْتَقْبَلْنَا

به فرمنا بها وقال شأهت الوجوه) فأنهزمننا فأنزل الله ومأ رميت إذ رميت ولكن الله رمى  
أنتهى

وروى الطبري وابن مردويه عن أبي صالح به في تفسيره حدثنني المشي ثنا أبو صالح ثنا  
معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال رفع رسول الله صلى الله عليه  
وسلم يده يوم بدر فقال (يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا) فأمره  
جبريل عليه السلام فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد  
إلا أصاب عينيه ومنخرته وفيه تراب فولوا مدبرين انتهى

وروى أيضا حدثنني محمد بن الحسين ثنا أحمد بن المفضل ثنا أسباط عن السدي أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي يوم بدر أعطني حصي من الأرض) فناوله  
حصي عليه تراب فرمى به في وجوه القوم فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك  
التراب شيء ثم ردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم وأنزل الله فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم  
ومأ رميت إذ رميت ولكن الله رمى انتهى

(123/304)

---

فقد ثبت عن غير واحد من الأئمة أن هذه الآية نزلت في يوم بدر وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك يوم حنين أيضا والله أعلم

### 501 - الحديث الثاني عشر

روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على باب أبي بن كعب فناده وهو في الصلاة فعجل في صلاته ثم جاء فقال ( ما منعك عن إجائتي ) قال كنت أصلي قال ( ألم تخبر فيما أوحى إلي استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم قال لا جرم لا تدعوني إلا أجبتك قلت رواه الترمذي والنسائي وليس فيه لا جرم لا تدعوني إلا أجبتك لكن رواه ابن مردويه في تفسيره بسند الترمذي ومثله وزاد في آخره قال أبي لا جرم يا رسول الله لا تدعوني إلا أجبتك وإن كنت أصلي انتهى بحروفه ولم يحسن الطيبي إذ عزاه للبخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى لأنه ليس بحديث الكتاب

### 502 - الحديث الثالث عشر

روى أن الزبير كان يسير النبي صلى الله عليه وسلم يوماً إذ أقبل علي رضي الله عنه فضحك إليه الزبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( كيف حبك لعلي ) فقال يا رسول الله بأبي أنت وأمي إني أحبه كحبي لو كدي أو أشد حبا قال ( فكيف أنت



إذا سرت إليه ثقاته [   
 قلت غريب بهذا اللفظ

(124/304)

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ مَعْنَاهُ وَعَقَدَ لَهُ بَابًا فَقَالَ بَابُ إِخْبَارِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قِتَالِ  
الزُّبَيْرِ ثُمَّ رَوَى مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ أَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ لَمَّا وَلَّى الزُّبَيْرُ يَوْمَ الْجَمَلِ بَلَغَ عَلِيًّا  
فَقَالَ لَوْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَلَى حَقِّ مَا وَلَّى وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَهُمَا فِي  
سَقِيْفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ فَقَالَ (أَتُحِبُّهُ يَا زَيْبِرُ قَالَ وَمَا يَمْنَعُنِي قَالَ فَكَيْفَ بَكَ إِذَا قَاتَلْتَهُ ثُمَّ قَالَ  
هَذَا مُرْسَلٌ

وَقَدْ رَوَى مَوْصُولًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ ثُمَّ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَجْلَحِ ثَنَا أَبِي عَنْ يَزِيدِ  
الْفَقِيرِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ الْمُفْضَلَ بْنَ فُضَالَةَ يَحْدُثُ أَبِي عَنْ أَبِي حَرْبِ بْنِ أَبِي الْأَسْوَدِ  
الدِّيَلِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا دَنَا عَلِيٌّ وَأَصْحَابُهُ مِنْ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَدَنَتِ الصُّفُوفُ بَعْضُهَا مِنْ  
بَعْضٍ خَرَجَ عَلِيٌّ وَهُوَ عَلَى بَغْلَةٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَادَى ادْعُوا لِي الزُّبَيْرِ بْنِ  
الْعُوَامِ فَأَقْبَلَ حَتَّى اخْتَلَفَتْ أَعْنَاقُ دَوَابِّهِمَا فَقَالَ  
عَلِيٌّ يَا زَيْبِرُ نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ أَمَا تَذَكُرُ يَوْمَ مَرَبِنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ بِمَكَانٍ

كَذَا وَكَذَا فَقَالَ يَا زَيْدُ تَحِبُّ عَلِيًّا فَقُلْتَ يَا أَحِبُّ ابْنَ خَالَتِي وَابْنَ عَمِّي وَعَلَى دِينِي قَالَ ( )  
أَمَا وَاللَّهِ لَتَقَاتِلَنَّهُ وَأَنْتَ ظَالِمٌ ) قَالَ بَلَى وَاللَّهِ وَلَكِنِّي نَسِيْتُهُ أَنْتَهَى

(125/304)

وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي مُسْنَدِهِ ثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ ثَنَا شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ  
قَيْسٍ حَدَّثَنِي مِنْ رَأْيِ الزُّبَيْرِ يُقَصِّصُ الْخَيْلَ فَنَوَّهَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ يَا أَبَا  
عَبْدِ اللَّهِ قَالَ فَأَقْبَلَ حَتَّى التَّقَّتْ أَعْنَاقُ دَوَابِّهِمَا فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ أَنْشِدْكَ اللَّهُ أَتَذْكَرُ يَوْمًا أَنَا نَا  
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَنَا جِيكَ فَقَالَ ( أَنَا جِيهِ وَاللَّهِ لِيَقَاتِلَنَّكَ وَهُوَ لَكَ ظَالِمٌ ) قَالَ  
فَضْرَبَ الزُّبَيْرُ وَجْهَ دَابَّتِهِ فَانصَرَفَ أَنْتَهَى

503 - الْحَدِيثُ الرَّابِعُ عَشَرَ

رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاصِرَ بَنِي قُرَيْظَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ لَيْلَةً فَسَأَلُوا الصُّلْحَ  
كَمَا صَالِحَ إِخْوَانِهِمْ بَنِي النَّضِيرِ عَلَى أَنْ يَسِيرُوا إِلَى أَذْرُعَاتٍ وَأَرْيَحَا مِنْ أَرْضِ الشَّامِ فَأَبَى  
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْزِلُوا إِلَّا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ فَأَبَوْا وَقَالُوا أَرْسَلْ  
إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ مَرْوَانَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ وَكَانَ مَنَاصِحًا لَهُمْ لِأَنَّ عِيَالَهُ وَمَالَهُ فِي أَيْدِيهِمْ فَبَعَثَهُ  
إِلَيْهِمْ فَقَالُوا لَهُ مَا تَرَى هَلْ نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ فَأَشَارَ إِلَى حَلْقَةٍ أَنَّهُ الذَّبْحُ قَالَ أَبُو لُبَابَةَ فَمَا

زَالَتْ قَدَمَايَ حَتَّى عَلِمْتُ أَنِّي قَدْ خُنْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَنَزَلَتْ فَشَدَّ نَفْسَهُ عَلَيَّ سَارِيَةَ مِنْ  
سَوَارِي الْمَسْجِدِ وَقَالَ وَاللَّهِ لَا أَذُوقُ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ فَمَكَثَ  
سَبْعَةَ أَيَّامٍ حَتَّى

(126/304)

خَرَّ مَغْشِيًا عَلَيْهِ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقِيلَ لَهُ قَدْ تَيْبَ عَلَيْكَ فَحَلَّ نَفْسَكَ فَقَالَ لَا وَاللَّهِ لَا أَحْلَاهَا  
حَتَّى يَكُونَ رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي يُحْلِينِي فَجَاءَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَحَلَّهُ بِيَدِهِ فَقَالَ إِنْ مِنْ تَمَامِ تَوْبَتِي  
أَنْ أَهْجَرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا الذَّنْبَ وَأَنْ أَنْخَلَعَ مِنْ مَالِي فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (يُجْزِيكَ  
أَنْ تَصَدَّقَ مِنْ مَالِكَ بِالثَّلْثِ)

قُلْتُ رَوَاهُ أَبُو هِشَامٍ فِي السِّيَرَةِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ كِلَاهُمَا فِي غَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ مِنْ  
طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ حَدَّثَنِي وَالِدِي إِسْحَاقُ بْنُ يَسَّارَ عَنْ مَعْبُدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكِ السَّلْمِيِّ  
أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاصِرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً يَعْنِي بَنِي قُرَيْظَةَ . . .  
إِلَى أَنْ أَجْهَدَهُمُ الْحِصَارَ . . . فَذَكَرَهُ بِطُولِهِ إِلَى أَنْ قَالَ ثُمَّ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُبْعَثَ إِلَيْنَا أَبُو لُبَابَةَ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ نَسْتَشِيرُهُ فَأَرْسَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِ فَلَمَّا  
رَأَوْهُ قَامُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ فَرَفَّقَ لَهُمْ وَقَالُوا يَا أَبَا لُبَابَةَ أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَيَّ حَكْمَ مُحَمَّدٍ فَقَالَ نَعَمْ

وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ أَنَّهُ الذَّبْحُ قَالَ أَبُو لُبَابَةَ فَمَا زَالَتْ قَدَمَايَ تَرْجَعَانِ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي  
خُنْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ عَلَيَّ وَجْهَهُ وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
حَتَّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عَمْدِهِ وَقَالَ لَا أَبْرَحُ مَكَانِي هَذَا حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ  
مِمَّا صَنَعْتُ وَعَاهِدَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَيْطَابُ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَدًا

(127/304)

ثُمَّ أَسْنَدَ إِلَى ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَسِيطٍ أَنَّ تَوْبَةَ أَبِي لُبَابَةَ نَزَلَتْ  
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ فَقَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ السَّحَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ فَقُلْتُ مَا يَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ (تَيْبَ  
عَلَى أَبِي لُبَابَةَ فَقُلْتُ أَلَا أُبَشِّرُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ) قَالَ بَلَى إِنْ شِئْتَ فَقُمْتُ عَلَيَّ بَابَ حُجْرَتِي  
وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ عَلَيْنَا الْحِجَابَ وَقُلْتُ يَا أَبَا لُبَابَةَ أُبَشِّرُكَ فَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَتَابَ  
النَّاسُ إِلَيْهِ لِيُطْلِقُوهُ فَقَالَ لَا وَاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي  
يُطْلِقُنِي بِيَدِهِ فَلَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ خَارِجًا إِلَى صَلَاةِ  
الصُّبْحِ أَطْلَقَهُ أَنْتَهَى

(128/304)

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي بَابِ غَزْوَةِ تَبُوكَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ سَعِيدِ بْنِ الْمَسِيبِ قَالَ كَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ  
حَلَفُوا لِأَبِي لُبَابَةَ فَاطْلَعُوا إِلَيْهِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
فَقَالُوا يَا أَبَا لُبَابَةَ أَتَأْمُرُنَا أَنْ نَنْزِلَ فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ أَنَّهُ الذَّبْحُ فَأَخْبَرَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَبِثَ حِينًا وَهُوَ عَاتِبٌ عَلَيْهِ ثُمَّ غَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبُوكًا  
وَهِيَ غَزْوَةُ الْعُسْرَةِ فَتَخَلَّفَ عَنْهُ أَبُو لُبَابَةَ فِيمَنْ تَخَلَّفَ فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ مِنْهَا جَاءَهُ أَبُو لُبَابَةَ يَسْلَمُ عَلَيْهِ فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفَزَعَ  
أَبُو لُبَابَةَ فَارْتَبَطَ بِسَارِيَةِ التَّوْبَةِ الَّتِي عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
سَبْعًا بَيْنَ يَوْمٍ وَكَلِيلَةٍ فِي حَرِّ شَدِيدٍ لَا يَأْكُلُ فِيهِنَّ وَلَا يَشْرَبُ وَقَالَ لَا يَزَالُ هَذَا مَكَانِي حَتَّى  
أَفَارِقَ الدُّنْيَا أَوْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى مَا سَمِعَ لَهُ صَوْتٌ مِنَ الْجَهْدِ وَرَسُولُ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِكَرَّةٍ وَعَشِيَّةً ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُطْلِقَهُ فَأَبَى أَنْ يُطْلِقَهُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ فَأَطْلَقَهُ بِيَدِهِ فَقَالَ أَبُو لُبَابَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَهْجَرْتُ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا الذَّنْبَ  
وَأَنْتَقَلَ إِلَيْكَ فَأَسَاكِنِكَ وَإِنِّي أَخْلَعُ مِنْ مَالِي صَدَقَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ (يُجْزَى عَنْكَ الثَّلَاثُ  
) فَهَجَرَ أَبُو لُبَابَةَ دَارَ قَوْمِهِ وَسَاكِنَ رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَصَدَّقَ بِثَلَاثَ مَالِهِ ثُمَّ تَابَ فَلَمْ يَرْمُهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا خَيْرَ حَتَّى فَارَقَ  
الدُّنْيَا أَنْتَهَى

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي فِي بَابٍ مِنْ تَخَلُّفٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ثَنَا  
مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ كَانَ أَبُو لُبَابَةَ مِمَّنْ تَخَلَّفَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي  
غَزْوَةِ تَبُوكَ فَرَبَطَ نَفْسَهُ بِسَارِيَةٍ ثُمَّ قَالَ وَاللَّهِ لَا أَحِلُّ نَفْسِي مِنْهَا وَلَا أَذُوقُ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا  
حَتَّى أَمُوتَ أَوْ يُتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ فَمَكَثَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ لَا يَذُوقُ فِيهَا طَعَامًا وَلَا شَرَابًا حَتَّى كَانَ  
يُخْرِجُ مَغْشِيًا عَلَيْهِ قَالَ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقِيلَ لَهُ قَدْ تَيْبَ عَلَيْكَ يَا أَبَا لُبَابَةَ فَقَالَ وَاللَّهِ لَا أَحِلُّ  
نَفْسِي حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي يُحِلُّنِي بِيَدِهِ فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَلَّهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَهْجُرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي  
أَصَبْتُ فِيهَا الذَّنْبَ وَأَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي كُلِّهِ

صَدَقَةَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ فَقَالَ (يُخْرِجُكَ الثَّلَاثُ يَا أَبَا لُبَابَةَ) أَنْتَهَى

وَعَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ رَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ

وَذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ مِنْ قَوْلِ الزُّهْرِيِّ وَالْكَلْبِيُّ بِلَفْظِ الْكِتَابِ سِوَاءَ وَسَنَدِهِ إِلَيْهِمَا فِي أَوَّلِ كِتَابِهِ

انتهى

ورواه الواقدي في كتاب المغازي حدثني معمر عن الزهري عن ابن كعب بن مالك قال  
كان أبو لبابة . . . بلفظ عبد الرزاق  
504 - الحديث الخامس عشر

(130/304)

---

رؤي أن الأنصار لما أسلموا وبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم فرقت قريش أن يتفاقم أمره  
فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال أنا  
شيخ من نجد ما أنا من تهامة دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولكن  
تعدموا مني رأيا ونصحا فقال أبو البختري إن تحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا  
عليه بابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها وترى صوا به ريب المنون فقال إبليس بس  
الرأي يأتيكم من يقا تلکم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأيي أن تحمله  
على جمل وتخجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحم فقال إبليس بس الرأي  
يفسد قوما غيركم ويقا تلکم بهم فقال أبو جهل رأيي أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه  
سيفا صارما فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوي بنو هاشم على

حَرَبَ قُرَيْشٌ كُلَّهُمْ فَإِذَا طَلَبُوا الْعَقْلَ عَقَلْنَاهُ وَاسْتَرْحَنَّا فَقَالَ الشَّيْخُ صَدَقَ هَذَا الْفَتَى هُوَ  
أَجُودُكُمْ رَأْيَا فَتَقَرَّقُوا عَلَى رَأْيِ أَبِي جَهْلٍ مُجْتَمِعِينَ عَلَى قَتْلِهِ فَأَخْبَرَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْرَهُ الْأَيْبِتِ فِي مَضْجَعِهِ  
وَأَذَنَ اللَّهُ لَهُ فِي الْهَجْرَةِ فَأَمَرَ عَلِيًّا فَنَامَ فِي مَضْجَعِهِ وَقَالَ لَهُ ( أَتَشْحَ بِي رَدْتِي فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ  
إِلَيْكَ أَمْرٌ تَكْرَهُهُ ) وَبَاتُوا مُتَرَصِّدِينَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَى مَضْجَعِهِ فَأَبْصَرُوا عَلِيًّا فَبُهِتُوا  
وَاقْتَصَوْا أَثْرَهُ فَأَبْطَلَ اللَّهُ مَكْرَهُمْ وَخَيَّبَ اللَّهُ سَعْيَهُمْ

(131/304)

قلت رواه أبو نعيم في دلائل النبوة في الفصل السادس عشر وابن هشام في سيرته والطبري  
في تفسيره كلهم من طريق ابن إسحاق حدثني عبد الله ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن  
عباس قال لما اجتمعت قريش في دار الندوة وتشاوروا في أمر رسول الله صلى الله عليه  
وسلم اعترضهم إبليس في هيئة شيخ فوقف على باب الدار فقالوا له من أنت قال شيخ  
من أهل نجد سمعت بالذي اجتمعتم له فأردت أن أحضركم وعسى أن لا تعدموا مني رأيا  
ونصحا فقالوا له ادخل فدخل معهم وقد اجتمع أشرف قريش عتبة وشيبة أبناء ربيعة  
وأبو سفيان وأبو جهل وطعيمة بن عدي وجبير بن مطعم والحارث بن عامر والنضر بن



الْحَارِثُ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ وَزَمَعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ وَحَكِيمَ بْنَ حَزَامٍ وَأُمِّيَّةَ بْنَ خَلْفٍ فِي آخِرِينَ لَا  
يُحْصُونَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا قَدْ رَأَيْتُمْ وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نَأْمَنُ مِنْ  
الْوُثُوبِ عَلَيْنَا فَاجْتَمَعُوا فِيهِ رَأْيَكُمْ فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ احْبِسُوهُ فِي الْحَدِيدِ وَأَغْلِقُوا عَلَيْهِ الْبَابَ  
ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ الْمَوْتَ فَقَالَ إِبْلِيسُ بَسَّ الرَّأْيِ فَلَا يُوشِكُ أَنْ يَثْبُغَ عَلَيْكُمْ أَصْحَابَهُ فَيَنْزِعُوهُ  
مِنْ أَيْدِيكُمْ ثُمَّ يَكَاثِرُونَكُمْ بِهِ حَتَّى يَغْلِبُونَكُمْ ثُمَّ قَالَ آخَرٌ نَخْرُجُهُ مِنْ بِلَادِنَا فَإِذَا غَابَ أَصْلَحْنَا  
أَمْرَنَا فَقَالَ إِبْلِيسُ وَلَا هَذَا أَيْضًا رَأْيِي فَلَا يُوشِكُ أَنْ يَغْلِبَ عَلَيَّ قَوْمٌ غَيْرُكُمْ ثُمَّ يَسِيرُ بِهِمُ إِلَيْكُمْ  
فَيَطَاكُمُ بِهِمْ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ إِنَّ لِي فِيهِ رَأْيًا مَا أَرَاكُمْ وَقَعْتُمْ عَلَيْهِ قَالُوا وَمَا هُوَ قَالَ أَرَى أَنْ نَأْخُذَ  
مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ قَتَى جَلْدًا فَنُعْطِيهِ سَيْفًا ثُمَّ يَعْمِدُونَ

(132/304)

إِلَيْهِ فَيَضْرِبُونَهُ بِهَا ضَرْبَةً رَجُلٌ وَاحِدٌ فَيَتَفَرَّقُ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ وَلَا تَقْدِرُ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى  
حَرْبِ قَوْمِهِمْ جَمِيعًا فَرَضُوا مِنَ الْعَقْلِ فَعَقَلْنَاهُ لَهُمْ فَقَالَ إِبْلِيسُ هَذَا هُوَ الرَّأْيُ لَا غَيْرَهُ وَتَفَرَّقُوا  
مُجْتَمِعِينَ عَلَى ذَلِكَ فَاتَى جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْرَهُ الْأَيْبِيتِ عَلَى فَرَاشِهِ  
تِلْكَ اللَّيْلَةَ واجتمعوا وقت العتمة يرصدونه متى ينام فيثبون عليه وأمر النبي صلى الله عليه  
وسلم علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ويتشح ببرد الأخصر فلما وجدوه عليا بهتوا

وَأَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ عِنْدَ ذَلِكَ فِي الْهَجْرَةِ مُخْتَصِرًا  
وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي فِي بَابِ مَنْ هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ حَدَّثَنَا  
مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ لَمَّا كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ . . . فَذَكَرَ نَحْوَهُ  
وَرَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ فِي ذِكْرِ الْهَجْرَةِ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْوَاقِدِيِّ حَدَّثَنِي مَعْمَرٌ  
عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ وَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَبِيبَةَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحَصِينِ عَنْ عِكْرِمَةَ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ

505 - الْحَدِيثُ السَّادِسُ عَشَرَ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ)

(133/304)

---

قُلْتُ رَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهٍ وَابْنُ هِشَامٍ فِي سِيرَتِهِ فِي غَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ  
النُّبُوَّةِ فِي بَابِ إِسْلَامِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ  
رَاشِدِ مَوْلَى حَبِيبِ بْنِ أَبِي أَوْسٍ الثَّقَفِيِّ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي أَوْسٍ الثَّقَفِيِّ حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ  
الْعَاصِ مِنْ فِيهِ إِلَيَّ فِي قَالٍ لَمَّا جِئْتُ أُرِيدُ الْإِسْلَامَ لَقِيتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَقُلْتُ لَهُ إِنِّي أُرِيدُ  
الْإِسْلَامَ فَقَالَ وَأَنَا وَاللَّهِ أُرِيدُ أَنْ أُسْلِمَ قَالَ فَجِئْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَتَقَدَّمَ خَالِدٌ فَأَسْلَمَ وَبَاعَ

وَتَقَدَّمْتُ أَنَا فَقُلْتُ أَبَايُكَ وَذَكَرْتُ مَا تَقَدَّمُ مِنْ ذَنْبِي وَلَا أَذْكَرُ مَا اسْتَأْخَرَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بَايَعِ يَا عَمْرُو فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ وَالْهَجْرَةَ تَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهَا ) قَالَ  
فَبَايَعْتُ

وَكَلَهُ طَرِيقَ آخَرَ عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ رَوَاهُ مِنْ طَرِيقِ الْوَأْقِدِيِّ أَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ  
قَيْسِ بْنِ وَسْقِيٍّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ . . . فَذَكَرَهُ

وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ يَزِيدِ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ أَخْبَرَنِي سُؤَيْدُ بْنُ قَيْسٍ عَنْ قَيْسِ  
بْنِ وَسْقِيٍّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَالطَّبْرَانِيِّ فِي مُعْجَمِهِ عَنْ يَزِيدِ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ عَبْدِ  
الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَايَهُ  
فَأَخَذَتْ يَدِي فَقُلْتُ أَبَايُكَ عَلَيَّ أَنْ يَغْفِرَ لِي كُلَّ ذَنْبٍ كَانَ فَقَالَ (إِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا كَانَ  
قَبْلَهُ وَإِنَّ الْهَجْرَةَ تَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهَا ) أَنْتَهَى

(134/304)

---

وَرَوَاهُ أَبُو سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ فِي تَرْجُمَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الْوَأْقِدِيُّ  
حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ الْمُغِيرَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي يَحْدُثُ قَالَ  
خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ بِي الْخَيْرَ وَوَجَدْتُ فِي قَلْبِي حُبَّ الْإِسْلَامِ أَجْمَعْتُ الْخُرُوجَ إِلَى

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنظَرَتْ مِنْ أَصْحَابِ فَلَقِيَتْ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ  
فَذَكَرَتْ لَهُ الَّذِي أُرِيدَ فَاسْرَعَ الْإِجَابَةَ وَخَرَجْنَا جَمِيعًا فَلَمَّا كُنَّا بِالْهَدَةِ إِذَا عَمْرُ بْنُ الْعَاصِ  
فَرَحَّبَ بَنَا وَسَأَلْنَا فَأَخْبَرَنَاهُ الْخَبَرَ فَإِذَا هُوَ يُرِيدُ مَا نُرِيدُ فَاصْطَحَبْنَا سَبْعًا حَتَّى قَدِمْنَا  
الْمَدِينَةَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ ثَمَانَ فَلَمَّا أَطْلَعْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
سَلِمَتْ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهِ طَلِقٍ فَاسْأَلْتُمْ وَشَهِدْتُمْ شَهَادَةَ الْحَقِّ وَقُلْتُمْ يَا رَسُولَ  
اللَّهِ اسْتَغْفِرْ لِي كُلَّ مَا أَوْضَعْتُ فِيهِ مِنْ صَدَقَةٍ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ (إِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا كَانَ  
قَبْلَهُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ كُلِّ مَا أَوْضَعْتُ فِيهِ مِنْ صَدَقَةٍ عَنْ سَبِيلِكَ) قَالَ ثُمَّ تَقَدَّمَ عَمْرُ بْنُ  
الْعَاصِ وَعُثْمَانُ ابْنُ طَلْحَةَ فَاسْلَمَا وَبِأَيْغَاءٍ مُخْتَصِرٍ  
وَرَوَاهُ الْوَاقِدِيُّ فِي الْمَغَازِيِّ بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَالْمَتْنِ وَرَوَاهُ أَيْضًا بِسَنَدِ ابْنِ إِسْحَاقَ حَدَّثَنِي  
عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ  
وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ الْوَاقِدِيِّ بِسَنَدِهِ الْبَيْهَقِيِّ

(135/304)

---

وَرَوَاهُ أَيْضًا فِي تَرْجَمَةِ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الْوَاقِدِيُّ حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ  
يَعْقُوبَ بْنِ عَتَبَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ عَنْ عَمِّهِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (إِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهُ) مُخْتَصِرٌ مِنْ قِصَّةِ إِسْلَامِ عُرْوَةَ  
وَرَوَاهُ أَيْضًا فِي تَرْجَمَةِ هَبَّارِ بْنِ الْأَسْوَدِ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِوهُ الْوَاقِدِيُّ حَدَّثَنِي هِشَامُ  
بْنُ عِمَارَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مَطْعَمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا مَعَ  
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَسْجِدِهِ إِذْ طَلَعَ هَبَّارُ بْنُ الْأَسْوَدِ فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا  
هَبَّارُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَأَرَادَ بَعْضُ الْقَوْمِ أَنْ يَقُومَ إِلَيْهِ فَمَنْعَهُ فَجَاءَ حَتَّى وَقَفَ وَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا  
رَسُولَ اللَّهِ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَجَعَلَ يُعْتَذِرُ إِلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا كَانَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (قَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ وَالْإِسْلَامَ  
يَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهُ)

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِوهُ حَدَّثَنِي وَاقِدُ بْنُ أَبِي يَاسِرٍ عَنْ يَزِيدِ بْنِ رُوْمَانَ قَالَ قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَامِ  
لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُطَاطِئُ رَأْسَهُ مِنْ هَبَّارِ بْنِ الْأَسْوَدِ وَهُوَ  
يُعْتَذِرُ إِلَيْهِ حَيَاءً مِنْهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (قَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ وَالْإِسْلَامَ  
يَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهُ) مُخْتَصِرٌ

وَرَوَاهُ الْوَاقِدِيُّ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ بِالسَّنَدِ الْمَذْكُورِينَ

وكثير من الفقهاء يعزُّون هذا الحديث لمسلم وهو غلط فإن لفظ مُسلم (الإسلام يهدم ما قبله  
(رواه في كتاب الإيمان في باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج من حديث  
عبد الرحمن بن شماس المهرري قال حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت يبكي  
طويلاً . . . إلى أن قال فقال يعني النبي صلى الله عليه وسلم (أما علمت أن الإسلام يهدم  
ما قبله وأن الهجرة تهدم

ما قبلها وأن الحج يهدم ما قبله) مختصر

وكان الشيخ محيي الدين رحمه الله لم يقف إلا على لفظ مسلم ولم يقع له رواية يجب فلذلك  
غلط في كتابه تهذيب الأسماء الفقهاء الذين يذكرونه بلفظ يجب وذكر لفظ مسلم ثم قال  
وقد روي تحت بالحاء المهملة والتاء المثناة وعزاه لكتاب الأنساب للزبير بن بكار ويراجع  
كلامه

506 - الحديث السابع عشر

عن عثمان وجبير بن مطعم أنهما قالا يا رسول الله هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ينكر فضلهم  
لمكانك الذي جعلك الله منهم أرأيت إخواننا بني عبد المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنما  
نحن وهم بمنزلة واحدة فقال عليه السلام (إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام إنما هم  
بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد) وشبك بين أصابعه

قلت رواه أبو داود في كتاب الخراج والنسائي في كتاب قسم الفيء وابن ماجه في الجهاد  
كلهم من حديث سعيد بن المسيب عن جبير بن مطعم قال لما قسم رسول الله صلى الله  
عليه وسلم سهم ذوي القربى من خيبر بين بني هاشم وبني المطلب جئت أنا وعثمان فقلنا  
يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ينكر فضلهم لمكانك منهم إخواننا من بني المطلب أعطيتهم  
وتركنا وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة قال (إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام  
وإنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد) ثم شبك بين أصابعه انتهى

وفي الصحيحين بعضه

ولم يحسن الطيبي إذ عزا هذا الحديث للبخاري فإن قوله (لم يفارقوني) إلى آخره ليس في  
البخاري

507 - الحديث الثامن عشر

عن أبي العالبة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه  
فيأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة وهو سهم الله ثم يقسم ما بقي على خمسة

قلت رواه أبو داود في المراسيل من حديث الربيع بن أنس عن أبي العالبة قال كان النبي  
صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالغنيمة قسمها على خمسة أقسام ثم يقبض بيده قبضة من  
الخمسة أجمع ثم يقول (هذا للكعبة) ثم يقول (لا تجعلوا لله نصيبا فإن لله الآخرة والدنيا)

ثُمَّ يَأْخُذُ سَهْمًا لِنَفْسِهِ وَسَهْمًا لِذَوِي الْقُرْبَى وَسَهْمًا لِلْيَتَامَى وَسَهْمًا لِلْمَسَاكِينِ وَسَهْمًا لِلْأَبْنِ  
السَّبِيلِ أَنْتَهَى

(138/304)

وَرَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ حَدَّثَنَا أَبُو كَرِيبٍ ثَنَا وَكَيْعٌ ثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ  
عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ الرِّيَّاحِيِّ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤْتِي بِالْغَنِيمَةِ فَيَقْسِمُهَا  
عَلَى خُمْسَةٍ فَتَكُونُ أَرْبَعَةٌ أَخْمَاسٍ لِمَنْ شَهِدَهَا ثُمَّ يَأْخُذُ الْخُمْسَ فَيَضْرِبُ بِيَدِهِ فِيهِ فَيَأْخُذُ  
الَّذِي قَبِضَ كَفَّهُ فَيَجْعَلُهُ لِلْكَعْبَةِ وَهُوَ سَهْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَقْسِمُ مَا بَقِيَ عَلَى خُمْسَةِ أَسْهُمٍ فَيَكُونُ  
سَهْمٌ لِلرَّسُولِ وَسَهْمٌ لِذَوِي الْقُرْبَى وَسَهْمٌ لِلْيَتَامَى وَسَهْمٌ لِلْمَسَاكِينِ وَسَهْمٌ لِلْأَبْنِ السَّبِيلِ أَنْتَهَى  
وَرَوَاهُ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ فِي كِتَابِ الْأَمْوَالِ ثَنَا حُجَّاجٌ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ بِهِ  
508 - قَوْلُهُ

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَقَدْ قَلُّوا فِي أَعْيُنِنَا حَتَّى قَلَّتْ لِرَجُلٍ إِلَى جَنْبِي أَتْرَاهُمْ  
سَبْعِينَ قَالَ أَرَاهُمْ مِائَةً فَأَسْرَنَّا رَجُلًا مِنْهُمْ فَسَأَلْنَاهُ فَقَالَ كُنَّا الْفَا  
قَلْتِ رَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ فِي مُسْنَدِهِ أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ وَيَحْيَى بْنُ  
آدَمَ قَالَا ثَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبْعِيِّ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ



... فذكره

وَمَنْ طَرِيقَ ابْنِ رَاهَوِيَّهِ رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ

509 - الْحَدِيثُ التَّاسِعُ عَشَرَ

فِي الْحَدِيثِ (نَصْرَتِ بَالِصَبَا وَأَهْلَكَتِ عَادَ بَالِدَبُورِ)

قَلْتُ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي مَوَاضِعَ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّلَاةِ مِنْ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ عَنْ

ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (نَصْرَتِ بَالِصَبَا وَأَهْلَكَتِ عَادَ بَالِدَبُورِ)

510 - الْحَدِيثُ الْعِشْرُونَ

(مَا رَأَيْتُ إِبْلِيسَ يَوْمًا أَصْغَرَ وَلَا أَدْحَرَ وَلَا أَغْيِظَ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ لَمَّا يَرَى مِنْ نَزُولِ الرَّحْمَةِ إِلَّا يَوْمَ

بَدْرِ)

(139/304)

قَلْتُ رَوَاهُ مَالِكٌ فِي مَوْطِئِهِ فِي آخِرِ كِتَابِ الْحَجِّ مَالِكٌ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي عُبَيْلَةَ عَنْ طَلْحَةَ

بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِينٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (مَا رَأَيْتُ الشَّيْطَانَ يَوْمًا هُوَ فِيهِ

أَصْغَرَ وَلَا أَدْحَرَ وَلَا أَحْقَرَ وَلَا أَغْيِظَ مِنْهُ يَوْمَ عَرَفَةَ لَمَّا يَرَى مِنْ نَزُولِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوَزِ اللَّهُ عَنْ

الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ) قِيلَ وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ (أَمَا أَنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزِعُ

الملائكة ) انتهى

ومن طريق مالك رواه عبد الرزاق في مصنفه في الحج ثم البيهقي في شعب الإيمان في  
الباب الخامس والعشرين وكذلك الطبري ثم الثعلبي ثم البغوي في تفاسيرهم وهو مرسل  
صحيح وإبراهيم بن أبي عبلة معدود في ثقات التابعين سمع أنس بن مالك وغيره وطلحة

بن عبيد الله بن كرز أيضا تابعي ثقة وكريز

بفتح الكاف في خزاعة ونضمها في قریش قال البخاري طلحة بن عبيد الله بن كرز  
الخزاعي سمع أم الدرداء انتهى

ووهم الشيخ محي الدين النووي في المناسك التي له فقال روينا عن طلحة عن عبيد الله  
أحد العشرة فليس هذا طلحة الصحابي

قال ابن عبد البر في التقيي وروى هذا الحديث أبو النضر إسماعيل بن إبراهيم العجلي  
عن مالك عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبيد الله بن كرز عن أبيه ولم يقل فيه عن

أبيه غيره وليس بشيء والصواب ما في الموطأ انتهى كلامه

قال في الصحاح الوازع الذي يتقدم الصف فيصلحه انتهى

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ الدَّحْرُ الْبَعْدُ  
قَالَ تَعَالَى مَدْحُورًا أَيُّ مُبْعَدًا

### 511 - الْحَدِيثُ الْحَادِي وَالْعَشْرُونَ

عَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ (أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ  
الرَّمِّيَ) قَالَهَا ثَلَاثًا

قُلْتُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ فِي آخِرِ الْجِهَادِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَلِيٍّ ثَمَامَةَ بْنِ شَفِيٍّ سَمِعَ  
عَقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ وَأَعَدُّوا  
لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَ  
انْتَهَى

### 512 - الْحَدِيثُ الثَّانِي وَالْعَشْرُونَ

فِي الْحَدِيثِ (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَقْرُبُ صَاحِبَ فَرَسٍ وَلَا دَارًا فِيهَا فَرَسٌ عَتِيقٌ)  
وَرُوِيَ أَنَّ صَهْبِيلَ الْخَيْلِ تَطَرَدَ الْجِنَّ  
قُلْتُ غَرِيبٌ

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ وَأَبْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ وَأَبْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ كُلُّهُمْ عَنْ  
مُحَمَّدِ بْنِ شُعَيْبِ بْنِ شَابُورٍ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ سِنَانَ عَنْ يَزِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَرِيبِ  
الْمَلِيكِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَرِيبِ بْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ وَأَخْرَجَ مِنْ

دُونَهُمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ قَالَ ( هُمُ الْجِنُّ وَلَكِنْ يَحْتَلِ الشَّيْطَانُ إِنْسَانًا فِي دَارِهِ فَرَسَ عَتِيقٌ ) اُنْتَهَى  
وَرَوَاهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي الْكَامِلِ وَأَعْلَاهُ بِسَعِيدِ بْنِ سِنَانَ وَقَالَ ضَعْفَةُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَعِينٍ

(141/304)

---

وَرَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدَ بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ ابْنِ  
مُهْدِيٍّ عَنْ يَزِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَرِيبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
قَالَ ( نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ  
رَبِّهِمْ فِي أَصْحَابِ الْخَيْلِ ) وَقَالَ ( إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَحْتَلُ أَحَدًا فِي دَارِهِ فَرَسَ عَتِيقٌ ) اُنْتَهَى  
وَرَوَى الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّخَعِيُّ فِي كِتَابِ السَّبْقِ بِالْخَيْلِ وَهُوَ كِتَابُ  
لَطِيفِ نَسَخَتِهِ مَوْقُوفَةٌ بِالْمَدْرَسَةِ الْفَاضِلِيَّةِ مِنَ الْقَاهِرَةِ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَفَّانَ  
حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَطِيَّةَ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ زَيْدٍ عَنِ الْوَضِيِّ بْنِ عَطَاءٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى  
رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ آيَةِ الْآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ  
قَالَ ( نَعَمْ الْجِنُّ لَا يَدْخُلُ دَارًا فِيهَا فَرَسَ عَتِيقٌ )  
وَرَوَى ابْنُ مَرْدُؤَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ حَدِيثِ جُوَيْرٍ عَنِ الضَّحَّاكِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى  
وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ قَالَ هُوَ الشَّيْطَانُ

لَا يَقْرَبُ نَاصِيَةَ فَرَسٍ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (الْخَيْلُ مَعْتُودٌ فِي نَوَاصِيهَا  
الْخَيْرُ فَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا) انْتَهَى

وَهَذَا سَنَدٌ وَاهٍ جَوْبِرٌ ضَعِيفٌ وَالضَّحَّاكُ لَمْ يَلِقْ ابْنَ عَبَّاسٍ

513 - الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ وَالْعَشْرُونَ

(142/304)

---

رُوي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى بِسَبْعِينَ أُسِيرًا مِنْهُمْ الْعَبَّاسَ عَمَهُ وَعَقِيلَ بْنَ  
أَبِي طَالِبٍ فَاسْتَشَارَ أَبَا بَكْرٍ فِيهِمْ فَقَالَ قَوْمُكَ وَأَهْلُكَ فَاسْتَبَقْتَهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَخَذَ  
مِنْهُمْ فِدْيَةَ تَقْوِي بِهَا أَصْحَابُكَ وَقَالَ عُمَرُ كَذُبُوكَ وَأُخْرَجُوكَ فَقَدِمْتَهُمْ وَأَضْرِبُ أَعْنَاقَهُمْ فَإِنْ  
هَوَّلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَغْنَاكَ عَنِ الْفِدَاءِ مَكَانَ عَلِيٍّ مِنْ عَقِيلٍ وَمَكَانَ حَمْرَةَ مِنْ  
الْعَبَّاسِ وَمَكَانِي مِنْ فَلَانٍ لِنَسِيبٍ لَهُ فَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ اللَّهَ  
لَيَلِينُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلِينٌ مِنَ اللَّيْنِ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَشَدُّ مِنْ  
الْحِجَارَةِ وَإِنْ مِثْلُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمِثْلِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ  
غَفُورٌ رَحِيمٌ وَمِثْلُكَ يَا عُمَرُ مِثْلُ نُوحٍ قَالَ لَا تَذَرُ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ثُمَّ قَالَ  
لِأَصْحَابِهِ أَنْتُمْ الْيَوْمَ عَالَةٌ فَلَا يَفْلِتَنَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبِ عُنُقٍ)

وَرَوَى أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ (إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ وَاسْتَشْهَدَ مِنْكُمْ بَعْدَ تَيْهِمْ)  
فَقَالُوا بَلْ بِأَخْذِ الْفِدَاءِ إِذَا اسْتَشْهَدُوا بِأَحَدٍ وَكَانَ فِدَاءُ الْأَسَارِيِّ عَشْرِينَ أُوقِيَّةً وَفِدَاءُ  
الْعَبَّاسِ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً وَالْأُوقِيَّةُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا وَسِتَّةَ دِينَارٍ  
وَرَوَى أَنَّهُمْ لَمَّا أَخَذُوا الْفِدَاءَ نَزَلَتْ فِيمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءَ

(143/304)

فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ يُبْكِيَانِ فَقَالَ يَا رَسُولَ  
اللَّهِ أَخْبِرْنِي فَإِنْ وَجَدْتَ بَكَاءَ بَكَيْتَ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بَكَاءَ تَبَاكَيْتَ فَقَالَ (أُبْكِي عَلَى  
أَصْحَابِكَ فِي أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ وَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ) لَشَجَرَةٍ  
قَرِيبَةٍ مِنْهُ

قُلْتُ هَذِهِ بَقِيَّةُ حَدِيثِ عُمَرَ الْمَذْكُورِ فِي الْحَدِيثِ السَّابِعِ وَهُوَ حَدِيثٌ هَذَا آخِرُهُ وَفِيهِ نَقْصٌ  
يَسِيرٌ رَوَاهُ مُسْلِمٌ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسْرُوا سَبْعِينَ فَلَمَّا أُسْرُوا الْأَسَارِيُّ  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ (مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارِيِّ) فَقَالَ  
أَبُو بَكْرٍ يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِ وَالْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونَ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ  
فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ وَقَالَ عُمَرُ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ وَلَكِنْ

أَرَى أَنْ تَمَكَّنَا فَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتَمَكَّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ وَتَمَكَّنِي مِنْ فَلَانٍ  
نَسِيبَ لَعْمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَصِنَادِيدهَا فَهَيَّوِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهُوَ مَا قَالَ عُمَرُ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدِينَ يُبْكِيَانِ قُلْتُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تُبْكِيَانِ أَنْتَ وَصَاحِبُكَ فَإِنَّ  
وَجَدْتُ بَكَاءَ بَكَيْتَ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بَكَاءَ تَبَاكَيْتَ لِبُكَائِكُمَا فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( )  
أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخَذَهُمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ  
هَذِهِ الشَّجَرَةِ ( لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ مُخْتَصِرٌ

(144/304)

---

وَرَوَى أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبْرِيُّ وَأَبْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِيهِمَا وَالوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ  
النُّزُولِ عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْةٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ لَمَّا  
كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارِيِّ ) فَقَالَ أَبُو  
بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْمُكَ وَأَهْلُكَ اسْتَبَقْتَهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَذَّبُوكَ  
وَأَخْرَجُوكَ فَقَدِمْتَهُمْ فَأَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ فِي وَادٍ  
كَثِيرِ الْحَطَبِ فَأَضْرَمَ

الوادي عليهم نارا قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا ثم قال  
(إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون  
أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر  
لهم فإنك أنت العزيز الحكيم وإن مثلك يا عبد الله مثل موسى عليه السلام قال ربنا اطمس  
على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم وإن مثلك يا عمر مثل  
نوح عليه السلام قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا أتم عائلة فلا يتقبلن أحد  
منهم إلا يفتاء أو ضربة عنق) قال ابن مسعود فقلت يا رسول الله إلا سهيل ابن بيضاء فإنه  
يذكر الإسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع  
علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إلا  
سهيل ابن بيضاء) فأنزل الله عز وجل ما كان لنبينا أن يكون له أسرى الآية انتهى  
قيل ورواه الحاكم في مستدرکه

قوله

وروي أنه قال (إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فادئموهم)



هَذَا رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ مَعَ اخْتِلَافٍ يَسِيرٍ فَقَالَ حَدَّثَنَا أَبُو كَرِيبٍ حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ عَنْ أَشْعَثِ بْنِ سَوَارٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ عُبَيْدَةَ قَالَ أَسْرَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَبْعِينَ وَقَتَلُوا سَبْعِينَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اخْتَارُوا أَنْ تَأْخُذُوا مِنْهُمْ الْفِدَاءَ فَتَقْوُوا بِهِ عَلَى عَدْوِكُمْ وَيَقْتُلَ مِنْكُمْ سَبْعُونَ أَوْ تَقْتُلُوهُمْ) فَقَالُوا بَلْ نَأْخُذُ الْفِدْيَةَ مِنْهُمْ وَيَقْتُلُ مِنَّا سَبْعُونَ قَالَ فَآخِذُوا مِنْهُمْ الْفِدْيَةَ وَقْتُلْ مِنْهُمْ سَبْعُونَ ثُمَّ أَسْنَدَ إِلَيَّ أَبَا عُبَيْدَةَ أَيْضًا قَالَ كَانَ فِدَاءُ أُسَارَى بَدْرَ مِائَةِ أَوْقِيَّةٍ

وَالْأَوْقِيَّةُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا وَمِنَ الدَّنَائِرِ سِتَّةٌ أَنْتَهَى

وَرَوَى ابْنُ مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِيِّ بْنُ قَانِعٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْبَشْرَاءِ ابْنُ مَرْوَانَ الصَّيْرَفِيِّ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَرُورَةَ حَدَّثَنَا أَزْهَرُ عَنْ ابْنِ عَوْنٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ عُبَيْدَةَ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ (إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِالْفِدَاءِ وَاسْتَشْهَدْتُمْ مِنْكُمْ بَعْدَتِهِمْ) فَآخِذُوا الْفِدْيَةَ فَقَتَلْ مِنْهُمْ سَبْعُونَ قَالَ وَكَانَ آخِرَ السَّبْعِينَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ أَنْتَهَى

وَرَوَى أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَالِحٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَالِحِ ثَنِي مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ قَلَّ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى الْآيَةَ قَالَ كَانَ الْعَبَّاسُ يَوْمَ بَدْرٍ أَسِيرًا فَاقْتَدَى نَفْسَهُ بِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةَ ذَهَبًا فَقَالَ الْعَبَّاسُ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَعْطَانَا اللَّهُ خَصْلَتَيْنِ مَا أَحَبُّ أَنْ لِي الدُّنْيَا . . . أَسْرَتُ يَوْمَ بَدْرٍ فَاقْتَدَيْتُ نَفْسِي بِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةَ ذَهَبًا فَآتَانِي اللَّهُ أَرْبَعِينَ عَبْدًا وَأَنَا أَرْجُو الْمَغْفِرَةَ الَّتِي وَعَدَنَا اللَّهُ أَتَمَّهُ

وَرَوَى الْوَأَقِدِي فِي الْمَغَازِي حَدِيثِي خَالِدِ بْنِ الْهَيْثَمِ مَوْلَى لِبْنِي هَاشِمٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ عَلِيِّ قَالَ أَتَى جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ فَخَيَّرُوهُ فِي الْأَسْرَى أَنْ يَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ أَوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ وَيَسْتَشْهَدَ مِنْكُمْ فِي قَابِلِ عَدْتِهِمْ فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ فَقَالُوا بَلْ نَأْخُذُ الْفِدْيَةَ وَيَسْتَشْهَدُ مِنَّا فقبل مِنْهُمْ الْفِدَاءَ وَقَتْلَ مِنْهُمْ قَابِلِ عَدْتِهِمْ بِأَحَدٍ مُخْتَصِرٍ

#### 514 - الْحَدِيثُ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (لَوْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَذَابٌ لَمَا نَجَا مِنْهُ غَيْرُ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ وَسَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ) لِقَوْلِهِ كَانَ الْإِثْحَانُ فِي الْقَتْلِ أَحَبَّ إِلَيَّ

قلت رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو حَمِيدٍ حَدَّثَنَا سَلَمَةُ قَالَ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ مِمَّنْ حَضَرَ بَدْرًا إِلَّا أَحَبَّ الْغَنَائِمَ إِلَّا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَإِنَّهُ جَعَلَ لَا يَلْقَى أُسِيرًا إِلَّا  
ضَرَبَ عُنُقَهُ وَقَالَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْإِثْحَانُ فِي الْقَتْلِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ اسْتِيقَاءِ  
الرِّجَالِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَوْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَذَابٌ لَمَا نَجَا مِنْهُ غَيْرُ  
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَسَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ) أَنْتَهَى

وَذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ ثُمَّ الْبَغَوِيُّ هَكَذَا بِلَفْظِ الطَّبْرِيِّ مِنْ غَيْرِ سَنَدٍ

وَرَوَاهُ أَبُو مَرْدُؤَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ بِسَنَدٍ مُتَّصِلٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ لَمْ يَذْكُرْ فِيهِ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ وَقَدْ ذَكَرْتَهُ فِي أَحَادِيثِ الْأُصُولِ الشَّافِعِيَّةِ وَكَفَّظَهُ (لَوْ نَزَلَ  
الْعَذَابُ مَا أَفَلَّتْ إِلَّا ابْنُ الْخَطَّابِ) مُخْتَصِرٌ

وَرَوَاهُ الْوَأَقِدِيُّ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ الْهَيْثَمِ مَوْلَى لَبْنِي هَاشِمٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ  
أَبِي كَثِيرٍ . . . فَذَكَرَهُ بِطُولِهِ وَفِي آخِرِهِ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَوْ نَزَلَ مِنَ  
السَّمَاءِ عَذَابٌ مَا نَجَا مِنْهُ إِلَّا عُمَرُ كَانَ يَقُولُ اقْتُلْ وَلَا تَأْخُذْ الْفِدَاءَ وَكَانَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ يَقُولُ  
اقْتُلْ وَلَا تَأْخُذْ الْفِدَاءَ) مُخْتَصِرٌ

515 - الْحَدِيثُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ عَنِ الْعَبَّاسِ أَنَّهُ قَالَ كُنْتُ مُسْلِمًا لِكِنْتِهِمْ

اسْتَكْرَهُونِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنْ يَكُنْ مَا تَذَكَّرُ حَقًّا فَاللَّهُ يَجْزِيكَ

فَأَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا (

وَكَانَ أَحَدُ الَّذِينَ ضَمِنُوا إِطْعَامَ أَهْلِ بَدْرٍ وَخَرَجَ بِالذَّهَبِ لِذَلِكَ

قُلْتَ هُوَ بَعْدَهُ

16 - 516

الْحَدِيثُ السَّادِسُ وَالْعَشْرُونَ

(149/304)

---

رُوي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْعَبَّاسِ (أَفِدْ ابْنِي أَخِيكَ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ  
وَنُوفَلَ بْنَ الْحَارِثِ) فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ تَرَكْنِي أَتَكْفِفُ قُرَيْشًا مَا بَقِيَتْ فَقَالَ لَهُ (فَأَيْنَ الذَّهَبُ  
الَّذِي دَفَعْتَهُ إِلَى أُمِّ الْفَضْلِ وَقَتَ خُرُوجِكَ مِنْ مَكَّةَ وَقُلْتَ لَهَا مَا أُدْرِي مَا يُصِيبُنِي فِي  
تَوَجُّهِي هَذَا فَإِنْ حَدَثَ بِي حَدَثٌ فَهُوَ لَكَ وَلِعَبْدِ اللَّهِ وَعَبِيدِ اللَّهِ وَالْفَضْلِ فَقَالَ الْعَبَّاسُ وَمَا  
يُدْرِيكَ قَالَ (أَخْبَرَنِي رَبِّي) قَالَ الْعَبَّاسُ فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ عَبْدُهُ  
وَرَسُولُهُ وَاللَّهُ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ وَلَقَدْ دَفَعْتَهُ إِلَيْهَا فِي سَوَادِ اللَّيْلِ وَلَقَدْ كُنْتُ مُرْتَابًا فِي  
أَمْرِكَ فَأَمَّا إِذْ أَخْبَرْتَنِي بِذَلِكَ فَلَا رَيْبَ قَالَ الْعَبَّاسُ فَأَبْدَلَنِي اللَّهُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ لِي الْآنَ

عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع  
أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي

(150/304)

قلت رواه الحاكم في مستدرکه في الفضائل في فضائل العباس من طريق ابن إسحاق  
حدثنی يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت لما بعث أهل مكة  
في فداء أسراهم وبعث زینب في فداء أبي العاص قال العباس يا رسول الله إني كنت  
مسلماً فقال النبي صلى الله عليه وسلم (الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله  
يجزيك بذلك فإما ظاهر أمرك فقد كان علينا فإفد نفسك وأبني أخيك نوفل بن الحارث بن  
عبد المطلب وعقيل بن أبي المطلب وحليفك عتبة بن عمر أخا بني الحارث بن فهد) قال  
ما ذاك عندي يا رسول الله قال (فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل وقلت لها إن أصبت  
في سفري هذا فهذا المال لبني الفضل وعبد الله وقثم) فقال والله إني لأعلم أنك رسول الله  
والله إن هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل فاحسب  
لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي فقال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم (افعل) ففدا نفسه وأبني أخويه وحليفه وأنزل الله تعالى يا أيها النبي قل لمن في

أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى الْآيَةَ قَالَ فَأَعْطَانِي اللَّهُ مَكَانَ الْعَشْرِينَ أُوقِيَّةً فِي الْإِسْلَامِ عَشْرِينَ عَبْدًا  
كُلَّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يَضْرِبُ بِهِ مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفَرَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْتَهَى  
ثُمَّ قَالَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يَخْرُجْ لَهُ  
وَعَنْ الْحَاكِمِ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ

(151/304)

---

وَرَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مَقْسَمٍ عَنْ  
ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ الَّذِي أَسْرَ الْعَبَّاسَ يَوْمَ بَدْرٍ أَبُو الْيُسْرِ كَعْبُ بْنُ عَمْرِو فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( اِفْدِ نَفْسَكَ وَأَبْنِي أَخِيكَ عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَنَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ  
فَإِنَّكَ ذُو مَالٍ ) قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا وَلَكِنَّ الْقَوْمَ اسْتَكْرَهُونِي فَقَالَ ( اللَّهُ أَعْلَمُ  
بِإِسْلَامِكَ فَإِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا فَاللَّهُ يُجْزِيكَ وَأَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا ) قَالَ فَإِنِّي  
لَيْسَ لِي مَالٌ قَالَ ( فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي وَضَعْتَهُ بِمَكَّةَ حِينَ خَرَجْتَ مِنْ عِنْدِ أُمِّ الْفَضْلِ بْنِ  
الْحَارِثِ وَلَيْسَ بَيْنَكُمَا أَحَدٌ وَقَلْتِ لَهَا إِنْ أَصَبْتَ فِي سَفَرِي هَذَا فَلِلْفَضْلِ كَذَا وَلِعَبْدِ اللَّهِ  
كَذَا ) قَالَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عَلِمَ بِهَذَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرَهَا وَإِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ  
فَفَدَا نَفْسَهُ وَأَبْنِي أَخِيهِ

ثُمَّ قَالَ وَحَدَّثَ عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ حَمِيدٍ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ أَشْعَثَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ الْمُغِيرَةَ عَنْ  
سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أُسِرَ سَبْعُونَ فَجَعَلَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةَ ذَهَبًا وَجَعَلَ عَلَى عَمَةِ الْعَبَّاسِ مِائَةَ أُوقِيَّةَ وَعَلَى عَقِيلِ  
ثَمَانِينَ فَقَالَ الْعَبَّاسُ لِلْقَرَابَةِ صَنَعْتَ هَذَا وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ الْعَبَّاسُ لَقَدْ تَرَكْتَنِي فَقِيرٌ قُرَيْشٍ مَا  
بَقِيَتْ قَالَ (كَيْفَ تَكُونُ فَقِيرٌ قُرَيْشٍ وَقَدْ اسْتَوْدَعْتَ أُمَّ الْفَضْلِ بِنَادِقَ الذَّهَبِ) فَقَالَ أَشْهَدُ  
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ مَا أَخْبَرُكَ بِهَذَا إِلَّا اللَّهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي  
أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِلَى قَوْلِهِ غُفُورٌ رَحِيمٌ أَنْتَهَى

(152/304)

---

وَبِهَذَا السَّنَدِ الْأَخِيرِ وَالْمَتْنِ رَوَاهُ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ فَقَالَ حَدَّثَنَا  
مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَيُّوبَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَمِيدٍ بِهِ  
517 - الْحَدِيثُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ رُوِيَ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
مَالَ الْبَحْرَيْنِ ثَمَانُونَ أَلْفًا فَتَوَضَّأَ لَصَلَاةِ الظُّهْرِ وَمَا صَلَّى حَتَّى فَرَقَهُ وَأَمَرَ الْعَبَّاسَ أَنْ يَأْخُذَ مَا  
قَدَرَ عَلَى حَمَلِهِ وَكَانَ يَقُولُ هَذَا خَيْرٌ مِمَّا أَخَذَ مِنِّي وَأَرْجُو الْمَغْفِرَةَ  
قُلْتُ رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ حَدَّثَنَا بَشْرُ بْنُ مَعَاذٍ ثَنَا يَزِيدُ ثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ

قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى قَل لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى . . . الْآيَةَ قَالَ ذَكَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ عَلَيْهِ مَالُ الْبَحْرَيْنِ ثَمَانُونَ أَلْفًا . . . إِلَى آخِرِهِ  
وَذَكَرَهُ الثُّعْلَبِيُّ عَنِ قَتَادَةَ هَكَذَا مِنْ غَيْرِ سَنَدٍ

(153/304)

---

وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ قَرِيبًا مِنْهُ رَوَاهُ فِي الْفَضَائِلِ فِي فَضَائِلِ الْعَبَّاسِ مِنْ حَدِيثِ  
سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةَ عَنْ حَمِيدِ بْنِ هِلَالٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ  
بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْبَحْرَيْنِ بِثَمَانِينَ أَلْفًا فَأَمْرًا بِهَا فَنَشَرَتْ إِلَى  
الْحَصِيرِ وَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَثَلَ عَلَى الْمَالِ قَائِمًا  
وَجَعَلَ يُعْطِي النَّاسَ وَمَا كَانَ يَوْمِيذٍ عَدَدٌ وَلَا وَزَنٌ مَا كَانَ إِلَّا قَبْضًا فَجَاءَ الْعَبَّاسُ فَقَالَ يَا  
رَسُولَ اللَّهِ أَعْطِنِي فَقَالَ ( خُذْ ) فَحَشَى فِي خَمِيصَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ ذَهَبَ يُنْصَرَفُ فَلَمْ  
يَسْتَطِعْ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ارْفَعْ عَلَيَّ فَتَبَسَّمَ وَهُوَ يَقُولُ أَمَا أَخَذَ مَا وَعَدَ اللَّهُ فَقَدْ أَنْجَزَ وَلَا  
أَدْرِي الْأُخْرَى قَل لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا  
أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ هَذَا خَيْرٌ مِمَّا أَخَذَ مِنِّي وَلَا أَدْرِي مَا يَصْنَعُ فِي الْمَغْفِرَةِ أَنْتَهَى  
وَقَالَ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ



518 - الْحَدِيثُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ( مِنْ قَرَأَ

سُورَةَ الْأَنْفَالِ وَبَرَاءَةً فَانَا شَفِيعٌ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشَاهِدٌ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ التَّفَاقِ وَأَعْطِيَ عَشْرَ  
حَسَنَاتٍ بَعْدَ كُلِّ مُنَافِقٍ وَمُنَافِقَةٍ وَكَانَ الْعَرْشُ وَحَمَلْتَهُ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا

(

قلت رواه الواحدي والثعلبي من حديث سالم بن سليم المدائني ثنا هارون ابن كثير عن  
زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي أمية عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ( من قرأ سورة الأنفال . . . ) إلى آخره

ورواه ابن مردويه في تفسيره بسنده المذكورين في سورة آل عمران . انتهى انتهى . ١٠ هـ

❖ تخریج الأحادیث والآثار ح 2 ص 43.7 ❖

(154/304)

---

فصل فی ذکر آیات الأحكام فی السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

سورة الأنفال

قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ) ، الآية : 1 .

اعلم أن النفل هو الزيادة في اللغة ، على القدر المستحق ، ومنه النوافل «1» .

والنفل يكون من الإمام للسرايا التي تتقدم الجيش الأعظم ، مثل أن يقول للسرية : لكم الربع

بعد الخمس .

أويقول : من أصاب سهماً فهوله ، على وجه الحث على القتال والتضحية على العدو .

أويقول : من قتل قتيلاً فله سلبه .

فأما بعد إحراز الغنيمة ، فلا يجوز له أن ينفل شيئاً من نصيب الجيش ، ويجوز له أن ينفل من

الخمس .

وقد اختلف في سبب نزول الآية فقد روي عن سعد أنه قال :

---

(1) يقول صاحب محاسن التأويل : الأنفال هي المغانم ، جمع نفل - محرقة - وهو الغنيمة .

كذلك انظر تفسير ابن تيمية وتفسير المهايبي لهذه الآية .

(155/304)

---

أصبت يوم بدر سيفاً ، فأثيت به النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : نفلنيه :

فقال : ضعه من حيث أخذت ، فنزل قوله : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ) ، قال فدعاني رسول

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: اذْهَبْ خذْ سَيْفَكَ .

وروي عن ابن عباس أنه قال: (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، الْأَنْفَالُ هِيَ الْغَنَائِمُ الَّتِي كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا شَيْءٌ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ) «1» .

وروي أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم تحل الغنائم لقوم سود الرؤوس قبلكم، كانت تنزل نار من السماء فتأكلها، فلما كان يوم بدر أسرع الناس في الغنائم، فأنزل الله تعالى:

(لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) «2» .

وروا عن عبادة بن الصامت وابن عباس وغيرهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل يوم بدر أنفالا كثيرة مختلفة وقال: من أخذ شيئا فهو له .  
واختلفت الصحابة فقال بعضهم:

نحن حمينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا رداء لكم «3» .

وقال قوم: نحن قاتلنا وأخذنا، فلما اختلفنا وساءت أخلاقنا انتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقسمه غير الخمس، وكان في ذلك تقوى وطاعة رسول الله، وصلاح ذات البين لقوله تعالى:

(1) سورة الأنفال آية 41

(2) سورة الأنفال آية 68 – 69 .

(3) في الأصل : رداه .

(156/304)

---

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) ، فقال  
صلى الله عليه وسلم : ليرد قوي المسلمين على ضعيفهم .

وبين الله تعالى ، أن ذلك مما يظهر به إيمانهم ، وأنه لا يجدون في أنفسهم حرجا بما قضى به  
رسول الله تعالى ، فهو معنى قوله : إن كنتم مؤمنين .

قال الرازي : وهذا غلط ، وإنما قال النبي عليه الصلاة والسلام يوم حنين : «من قتل قتيلا  
فله سلبه» «1» .

وقوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) .

نزل بعد حيازة غنائم بدر ، وما كانت الغنائم قبل ذلك تحل .

وهذا ليس بصحيح ، لإمكان أن الله تعالى أحلها يوم بدر للمسلمين ، ولكن لما اختلفوا انتزع  
منهم وجعل ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما قاله في ذلك ، أنه عليه الصلاة والسلام كيف يقول : من أخذ شيئاً فهو له ويخلف وعده .

وهذا ليس بشيء ، فإنه ما أخلف وعده ، لإمكان أنه كان كذلك ، ولكن ورد بعده الناسخ ، لما اختلفوا ، وإنما جعل لهم ذلك بشرط الأيحتلفوا ، خلا خبر فيما قاله .  
فإذا ثبت ذلك ، فاعلم أن قوله : يسألونك عن الأنفال ، ظاهر في أنهم سألوه عن مال معلوم ، وأن الجواب في ذلك ، أن ذلك لله والرسول ،

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وأبو داود ، والترمذي عن أبي قنادة ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود أيضا عن أنس ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه عن سمرة رضي الله عنهم .

(157/304)

---

ومعلوم أن كل شيء فهو لله تعالى ملكا حقا ، فلم يختلف العلماء أن المراد به استضياع كلام .

فتحصل من الجواب أن الأنفال للرسول .

وظاهر هذا القول يقتضي أمرين :

إما أن يكون ملكا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو وضعه حيث يريد ، وإن لم يملكه حقيقة .

فعلى هذا الوجه اختلف العلماء ، فقال بعضهم :

إن للرسول عليه الصلاة والسلام أن ينفل ذلك على المجاهدين على ما يراه صلاحا .

وقال بعضهم : بل ذلك ملك الرسول أو كملك له ، حتى يصرفه إلى من شاء .

وظاهر قوله : ( فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ) ، كالدلالة على أنه متى أراد وضع ذلك

فيهم ، تنازعوا واختلفوا ، فأنزل الله تعالى ذلك ، بعثا لهم على الرضا بما يفعله من القسمة

بينهم ، وذلك دليل على أنه ليس بملك له ولا لهم وإلا كانوا في ذلك كغيرهم ، وكان لا يكون

لقوله تعالى : ( فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ) معنى ، فإن أراد المرید بالملك أن له أن

يتصرف فيه على ما يراه ويختاره فنعم ، وإن أراد به الاستبداد والاتقاع به ، فما ذكرناه

كالمانع منه ، وقيل لذلك نفل ، لأن الغنائم لما لم تكن مباحة من قبل ، كانت كأنها عطية زائدة

من الله تعالى ، فسميت أنفالا لذلك « 1 » .

قوله تعالى : ( وَمَنْ يُؤَلِّمْهُم يَوْمِئِذٍ دُبُرُهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ) ، الآية : 16 .

---

(1) أنظر القاسمي .

---

روى أبو نضرة «1» عن أبي سعيد ، أن ذلك إنما كان يوم بدر ، وقال أبو نضرة : لأنهم لو انحازوا يومئذ ، لانحازوا إلى المشركين ، ولم يكن يومئذ مسلم غيرهم . وهذا الذي قاله أبو نضرة فيه نظر ، لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبي عليه الصلاة والسلام بالخروج ، ولم يكونوا يرون أنه يكون قتال ، وإنما ظنوا أنها العير ، فخرجوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن خف معه . فقول أبي نضرة إنه لم يكن هناك مسلم ، وإنهم لو انحازوا انحازوا إلى المشركين ، غلط لما بيناه .

وقد قيل : إنه لم يجز لهم الانحياز يومئذ ، لأنهم كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن الانحياز جائزا لهم ، قال الله تعالى :  
( مَا كَانَ لِلأهلِ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعرابِ أَنْ يَتَّخِذُوا عَنْ رَسولِ اللّهِ وَايُرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ  
عَنْ نَفْسِهِ ) «2» .

فلم يكن لهم أن يسلموا نبينهم ، وإن تكفل الله بنصرته وعصمته من الناس ، كما قال تعالى :  
( وَاللّهُ يُعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ) «3» .

فكان ذلك فرضا عليهم ، قل أعداؤه أو كثروا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فئة المسلمين يومئذ ، ومن كان ينحاز عن القتال ، فإنما كان ينحاز إلى فئة ، وما كان للمسلمين

فئة غير رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(1) هو المنذر بن مالك أبو نضرة العبدي .

(2) سورة التوبة آية 120 .

(3) سورة المائدة آية 67 . [ . . . . ]

(159/304)

قال ابن عمر : كنت في جيش ، فحاض الناس خيضة ، ورجعنا إلى المدينة فقلنا : نحن

الفرارون ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أنا فتتكم «1» .

فلم يكن للمسلمين إذ ذاك أن ينحازوا ، قل عدد العدو أكثر ، وقال تعالى في آية أخرى :

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ) «2» ، ثم نسخ بقوله : (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ)

«3» ، وليس عند أصحاب الشافعي في ذلك تفصيل ، فيجوز فرار الواحد من ثلاثة .

وقال محمد : إذا بلغ الجيش اثني عشر ألفا ، فليس لهم أن يفروا من عدوهم وإن كثروا

عددهم ، ولم يذكر عن أصحاب أبي حنيفة خلافا فيه ، واحتج بحديث الزهري عن عبد

الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

خير الأصحاب أربعة ، وخير السرايا أربعمئة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولن يؤتى اثنا



عشر ألفا من قلة ، وفي بعضها ما يغلب قوم يبلغون اثني عشر ألفا إذا اجتمعت كلمتهم .

وهذا ليس بيان حكم شرعي وإنما هو بيان حكم العرف .

وذكر الطحاوي أن مالكا سئل فقيل له : أسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله

تعالى وحكم غيرها ؟ فقال مالك : إن كان معك اثنا عشر ألفا مثلك فلا يسعك التخلف ،

وإلا فأنت في سعة من التخلف .

قوله تعالى : (وَأَنْتُمْ قِتْنَةٌ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) ، الآية : 25 :

---

(1) الحديث أخرجه أبو داود في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما

(2) سورة الأنفال آية 65 .

(3) سورة الأنفال آية 66 .

(160/304)

---

عنى بذلك هرجا يعم المصلح والمفسد .

قوله تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ) الآية : 39 ، معناه شرك .

وقيل حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ، ويدل على ذلك أن قتل الكفار لدفع الضرر لا جزاء

على الكفر ، وقد شرحناه من قبل .

قوله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ) ، الآية: 41 .

وقال في آية أخرى: (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) «1» .

قال ابن عباس ومجاهد: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) ،

وذلك أنه عليه الصلاة والسلام، جعل ينقل ما أحرزوه بالقتال لمن شاء، ولم يكن لأحد فيه

حق، إلا من جعله الرسول له، وذلك كان في يوم بدر، وقد روينا حديث سعد في قصة

السيف الذي استوهبه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وقال:

إنك سألتني هذا السيف، وليس هو لي ولا لك، ثم نزل: (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) ، فدعاه

فقال:

إنك سألتني هذا السيف، وما كان لي ولا لك، وإن الله تعالى جعله لي وجعلته لك «2» .

وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال:

لما كان يوم بدر، تعجل ناس من المسلمين، فأصابوا من الغنائم، فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم:

لم تبج الغنائم لقوم سود الرؤوس من قبلكم، كان النبي إذا غنم هو

---

(1) سورة الأنفال آية 69

(2) أنظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري .

وأصحابه جمعوا غنائمهم ، فتنزل نار من السماء فتأكلها ، فأنزل الله تعالى :  
(لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا  
طَيِّبًا) «1» .

وقوله : ( فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ) ، يقتضي بظاهره أن تكون الغنيمة للغنائم فقط ،  
وأن يكونوا مشتركين فيها على سواء ، إلا أن قوله تعالى : ( وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ) ،  
يبين وجوب إخراج الخمس منه وصرفه إلى الوجوه المذكورة ، ثم بعده يخلص للقائمين بعد  
الصفي والسلب والعطايا المتقدمة ، ولولا الأخبار الماثورة لكان الفارس كالراجل ، والعبد  
كالحر ، والصبي كالبالغ .

واعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله : ( غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ) : مال الكفار ، إذا ظهر  
به المسلمون على وجه الغلبة ، ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص ، ولكن عرف الشرع قيد  
اللفظ بهذا النوع : وسمى الشرع الواصل إلينا من الكفار من الأقوال باسمين :

أحدهما : الفيء ، وهو الذي يصل إلينا من الكفار من غير حرب ، كالجزية والخراج الحق .  
ثم إن الله تعالى كما أضاف الغنيمة إلى الغانمين ، أضاف الفيء إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، فقال :

(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) «2» .

فاقتضى ظاهر الآية ، أن يجعل بعد إخراج الخمس أربعة أخماس ،

---

(1) سورة الأنفال آية 68 – 69 .

(2) سورة الحشر آية 7 .

(162/304)

---

والفيء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما يختص الغانمون بأربعة أخماس الغنيمة ، فإنه

تعالى قال : (أَنَا غَنِمْتُ مِنْ شَيْءٍ) .

وقال : (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) .

فاقتضى ظاهره أن يكون كله له ، خص منه البعض ، بقي الثاني على مقتضى الإضافة ،

وهذا حسن بين .

ومن جملة الفيء ، مال المرتد إذا قتل على الردة .

ومال الكافر غنيمة ، إن كان وصوله إلينا بقهره وقتله ، فإن مات من غير قتال ، فوجدنا

ماله فهو فيء .

وإذا ثبت القول في أربعة أخماس الفيء والغنيمة فنقول :

أما الخمس ، فإن الذي لا خلاف فيه ، أن لليتامى والمساكين وابن السبيل حقا باقيا في خمس الغنيمة .

واختلف الناس بعد الثلاثة في قوله : (فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ) «1» .

فأما قوله : (فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ) ، فأكثر العلماء على أنه استفتاح كلام ، وأن لله تعالى الدنيا والآخرة .

وروى الطحاوي عن أبي العالية ، أن سهم الله تعالى مصروف في نفقات الكعبة ، والذي ذكره بعيد ، فإننا إن أقررنا سهما لله تعالى ، أدى ذلك إلى أن يكون الخمس مقسوما على ستة ، فعلى هذا يجب أن نقول : فإن لله سدسه ، ولأنه ليس بأن يجب صرفه إلى بيت الله تعالى بأولى من صرفه إلى أولياء الله .

نعم قد قال تعالى : (فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ) ، يعني كل ذلك الخمس يصرفه

---

(1) سورة الحشر آية 7 .

فيما شاء ، وأراد لأن له البعض دون البعض ، ولا يجوز أن يعتقد من الإطلاق ، كون مال الفيء مشتركاً بين الله وبين غيره .

وأما سهم الرسول ، فقد كان له الخمس من خمس الغنيمة ، فيصرفه في كفاية أولاده ونسائه ، ويدخر من ذلك قوت سنة ، وما يفضل يصرفه إلى الكراع والسلاح وغير ذلك من المصالح .

وقال الشعبي : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب من الغنائم لنفسه شيئاً قط ، إلا الصفي من المغنم ، وهو ما كان يتناوله من عبد أو أمة أو فرس .

حكى الطحاوي ذلك عن الشعبي ، وذكر عنه أن سهمه من الغنيمة ، كان كسهم رجل من المسلمين وراء ما خص به من الصفي .

والظاهر يدل على أن الخمس مشترك بين رسول الله وبينهم ، ولا يمكن أن يقال إن الصفي من جملة ذلك ، فإن الصفي كان يتناوله من جملة الغنيمة قبل القسمة ، فهو حق ، سوى هذا الخمس المذكور .

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حضر الوقعة ، ما لسائر من حضرها من أربعة أخماس الغنيمة .

واختلفوا في سهمه ، فقال الطحاوي :

إن طائفة قالت : هو للخليفة بعده .

وقالت أخرى: يصرف في الحمل والعدة في سبيل الله .

وطائفة قالت: بل زال بموته .

ولا يدل الظاهر على أكثر من استحقاقه في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدل على مصرف من هذه المصارف بعده .

وقد دل الدليل ، على أن ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم المستقر في حالة حياته ، لا يورث عنه ، فلأن لا يورث عنه ما يتجدد من الغنيمة ، ولا يوجد سبب ملكه أولى .

(164/304)

---

ولا دليل على قيام الإمام مقامه بعده ، لأنه اختص به لمنصب النبوة ، كما اختص بالصفي من المغنم ، وأقرب شيء يتخيل فيه صرفه في الكراع والسلاح ، بدلالة أنه عليه السلام كان يصرف الفاضل من الخمس في هذا الوجه .

والجواب: أنه كان يصرفه اختياراً لا استحقاقاً ، ولو ثبت أنه كان يصرفه إلى هذا الوجه استحقاقاً ، لقرب أن يقال: إن الأولى بهذا السهم هذا الوجه ، فعلى هذا الأقرب ، أنه يصرف خمس الخمس إلى الباقيين ، قياساً على الصدقة الواجب صرفها إلى الأصناف ، إذا تعذر صنف وجب صرفه إلى الباقيين .

فعلى هذا قال الشافعي : يقسم الخمس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على

أربعة ، وهذا مذهب الشافعي ، فإنه قال :

إن لبني هاشم وبني عبد المطلب سهما من الخمس .

وقال أبو حنيفة : يقسم الخمس على ثلاثة أسهم : على اليتامى والمساكين وابن السبيل .

وخالفه أبو يوسف .

وقال قائلون : هو لفقرائهم عوضا عما حرموا من الصدقة .

وقال آخرون : هو للفقراء والأغنياء منهم .

ثم إن الذين أثبتوا لهم الاستحقاق اختلفوا :

فمنهم من قال : يقسم قسمة الغنيمة على التساوي .

ومنهم من قال : يقسم كقسمة الموارث ، فإنه مال مستحق بالقرابة .

والظاهر تعلق الاستحقاق بالقرابة ، إلا أن القرآن ورد بذكر ذي القربى ، وقد صار بعض

السلف لأجله ، إلى أنه لجميع قريش ، وثبت أنه عليه الصلاة والسلام لم يعط من ذلك من

انتمى إليه باقرابه مطلقا ، والمراد



به الخصوص ، وليس يتأتى تعليقه بالقرابة المطلقة ، لأن سعيد بن المسيب ، روى عن جبير بن مطعم ، أنه وعثمان جاءا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمانه فيما قسمه من

خمس الخمس بين بني هاشم وبني المطلب ، فقالا :

يا رسول الله ، قسمت لإخواننا بني المطلب وقرابتنا وقرابتهم واحدة ، فقال :

«إنما أرى هاشما والمطلب شيئاً واحداً» «1» .

وروى أنه قال : «إن بني المطلب لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام» «2» .

فلم يعط لبني أمية ولا لبني نوفل شيئاً ، وقرابتهم كقرابة بني المطلب ، وهذا يدل على التخصيص .

فعلى هذا ، رأى أبو حنيفة استحقاقهم بالنصرة في حياة رسول الله .

وقال آخرون : لا بل لا استحقاق لهم إلا بالفقر ، إلا أن ذكر ذوي القربى مع أن الفقر مستقل

، كذكر اليتامى ، ولا يصرف إلى اليتامى إلا إذا كانوا فقراء ، ولا فرق . . . ولا معنى لقول

من يقول : إن اليتيم عبارة عن الحاجة ، فإن اليتيم عبارة عن الحاجة إلى الكافل لا إلى المال ،

وليس في اسم اليتيم ما يدل على عدم المال ، ولعلمهم يقولون :

إنما ذكر ذوي القربى مع أن الفقر شرط ، حتى لا يتوهم متوهم ، أنهم كما فارقوا الفقراء من

المسلمين في أن لا تصرف الصدقات إليهم مع الفقر ، فكذلك الخمس ، فقطع الشرع هذا

الاحتمال ، وهذا محتمل ، ويصرف إلى اليتامى مع أن الفقر شرط ، والمقصود من ذكره أن

الخمس يقسم على أربعة أسهم عند الشافعي ، وعلى ثلاثة عند أبي حنيفة ، ولا بد من  
الصرف إلى هذه الأجناس .

---

(1) أخرجه الامام مسلم في صحيحه بلفظ مشابه .

(2) قال به جمهور العلماء

(166/304)

---

والمقصود من ذكرها مع اشتراط الفقر فيها ، تعديد جهات الحاجات واستيعابها ، فأما  
الأربعة أخماس ، فظاهر القرآن يقتضي أنها لمن غنمه .  
وقوله (أَنَّمَا غَنِمْتُمْ) : يشتمل الرقاب والعقار ، إلا أن الرقاب الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف  
، وفي الديار اختلف العلماء فيها .  
وليس في كتاب الله تعالى تفضيل للفارس على الراجل ، بل فيه أنهما على سواء .  
وفي المأخوذ على جهة التلصص ، اتفق العلماء على أنه لا تخميس ، وظاهر القرآن يقتضي  
تخميس كل مغنوم ، وذلك يستوي فيه هذا وما سواه .  
وظاهر اللفظ أيضا يقتضي التسوية فيه بين الصبي والبالغ ، إلا أن الدليل قام على أن الصبي  
يرضخ له .

واعلم أن ظاهر قوله: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ) ، ربما لا يظهر عند الناس في تعارف اللغة ، أن من استولى على مثله فقد غنمه ، وأنه يصرف خمسه إلى كذا وكذا ، في أن الحرية تسلب عن المسترق ، وإنما ظهر ذلك بعرف الشرع ، وعرف الشرع دل على أن الغنيمة اسم للمأخوذ من الكفار بطريق القهر ، ولا يدل على أخذ أنفسهم من حيث عرف اللغة ، وفي الشرع ، الإمام على التخيير بين الحلال التي بينها الفقهاء .

قوله تعالى: (إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) ، الآية 45 :

الأمر بالثبات تقدم بيانه عند النهي عن القرار من الزحف ، إلا على تفصيل ذكرناه ، وقوله : (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) : يحتمل الذكر بالقلب ، وذلك بأحد وجهين :

(167/304)

---

إما بتذكر ما عند الله تعالى من ثواب المجاهدين ، وتهوين أمر الدنيا في جنب ما عند الله تعالى .

والثاني : ذكر دلائله ونعمه وما يستحقه الله تعالى على عباده من بذل المهج في مرضاته ، وأنهم وإن بلغوا الغاية في طاعته ، فلا يبلغ كنه جلاله ، وكل ذلك مما يعين على الصبر والثبات ، ويستمد بها النصر من الله تعالى ، والجرأة على العدو والاستهانة بهم .

قوله تعالى: (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا) ، الآية 46 :

نهى عن الاختلاف المؤدي إلى الفشل وجرأة العدو .

وقوله تعالى: (فَإِمَّا تَنْفِقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ) «1» .

أبان أن المقصود من التنكيل بالأسر ، زجر من سواهم ، ولأجله شرعت العقوبات ، ولأجله أمر الصديق بالتنكيل بأهل الردة ، وإحراق بعضهم بالنيران ، ورمي بعضهم من رؤوس الجبال ، وطرحهم في الآبار .

قوله تعالى: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ) ، الآية 58 :

أباح الله لرسوله إذا توقع من أعدائه غائلة من مكر ، أن ينبذ إليهم على سواء ، حتى لا يقول المبطل: إنك نقضت العهد بنصب الحرب ، ولم ينبذ إلى أهل مكة عهدهم ، بل غزاهم نبذا ، لأنهم كانوا نقضوا العهد ، لمعاونة هذيل على خزاعة حلفاء النبي ، ولذلك جاء أبو سفيان إلى المدينة يسأل تجديد العهد بينه وبين قريش ، فلم يجبه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ذلك ، فلأجل ذلك لم يحتج إلى النبذ إليهم ، إذ كانوا أظهروا نقض العهد بنصب الحرب لحلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام .

---

(1) سورة الأنفال آية 57 .

---

قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)، الآية: 60 :  
هو الأمر بالاستعداد للعدو، وبإعداد الكراع والسلاح قبل وقت القتال إرهاباً للعدو،  
والتقدم في ارتباط الخيل استعداداً لقتال المشركين، ومنه أخذ إعداد الأموال والخزائن  
لحاجة المسلمين إليها يوم القتال.

قوله تعالى: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا)، الآية: 61 :  
منسوخ بقوله تعالى: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) «1»، و(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ  
الْآخِرِ) «2» وهو الظاهر.

فإن سورة براءة، آخر ما نزلت، فكان العهد بين رسول الله والمشركين قبل ذلك، وقد قال  
تعالى:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ) «3».

فنهى عن المسالمة عند القوة على قهر العدو وقتلهم، ولذلك قال بعض أصحابنا: إذا قدر  
بعض أهل الثغور على قتال العدو لم يجز مسالمتهم، قالوا: وإن قدروا بعد ذلك على قتالهم  
، نبذوا إليهم على سواء إن توقعوا منهم غائلة، وإن لم يمكنهم دفع العدو عن أنفسهم إلا بمال  
يبدلونه لهم، جاز لهم ذلك، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قد كان صالح عيينة بن حصن  
وغيره يوم الأحزاب على نصف ثمار المدينة، حتى إنه لما شاور الأنصار، قالوا: هذا مما

أمرك الله به أم الرأي والمكيدة «4» ؟ فقال : لا بل

---

(1) سورة التوبة آية 5 .

(2) سورة التوبة آية 29 .

(3) سورة محمد آية 35 . [ . . . . . ]

(4) أخرجه ابن سعد في طبقاته ، وابن هشام في سيرته ، والترمذي في الشمائل .

(169/304)

---

هورأي ، لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد ، فأردت أن أدفعه عنكم إلى يوم ،

فقال السعدان : سعد بن عبادة وسعد بن معاذ رضي الله عنهما :

والله يا رسول الله إنهم لم يطمعوا فيها منا إلا بشراء أو قراء ، ونحن كفار ، فكيف وقد

أعزنا الله تعالى بالإسلام ، ولا نعطيهم إلا بالسيف ، وشقا الصحيفة .

قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ) ، الآية . . . وقوله تعالى : ( وَعَلِمَ أَنَّ

فِيكُمْ ضَعْفًا ) «1» .

وعلم الله تعالى سابق أزي ، فمعناه أن الله تعالى بين أن الواحد في ابتداء الإسلام يفي

بعشرة لأمر :

منها : النصره منه تعالى .

ومنها : الصبر والقوة .

ومنها : قوة النية والبصيرة .

ثم بعد زمان نسخ ذلك لنقصان القوة في الدين ، وضعف النية في محاربة المشركين .

فهذا معنى قوله : (وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا) .

فقوله تعالى الآن ، دخل في ضعف الناس لا في علم الله تعالى .

قوله تعالى : (مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ) ، الآية : 67 .

وذلك يدل على أن العدول عن القتل إلى الأسر حرام على كل نبي ، حتى يكثر القتل منه ،

فتحصل هيئته في القلوب ، وتمتلئ النفوس منه

---

(1) سورة الأنفال آية 65 – 66

(170/304)

---

رعبا ، فإذا أثنخ في الأرض بالإكثار من القتل ، يجوز أن يكون له أسرى ، فدل من هذا

الوجه ، أن الجهاد من تكليف سائر الأنبياء ، فلذلك عمهم تعالى به .

وقال قائلون : كأن الله تعالى أمرهم بإكثار القتل بقوله : (فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا

مِنْهُمْ كُلِّ بَنَانٍ» 1»، لكي يعظم الرعب في قلوبهم ، فيكفهم ذلك عن المحاربة ، ويميل بهم إلى الإسلام والمسالمة . . .

فأبى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، إلا أسر بعضهم رغبة في الفداء ، فصار ذلك معصية منهم ومخالفة .

فإن قيل : أفكان النبي عليه الصلاة والسلام موافقا لهم ؟

قيل : بل كان صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإثخان ، وبلغهم ذلك من الله تعالى ، ولذلك كانوا عصاة بترك الأمر .

فإن قيل : فلم أضاف الأمر إلى النبي عليه الصلاة والسلام ؟ فقال :

ما كان لنبي أن يكون له أسرى ؟

قيل : من الممكن أنهم أسروا الكفار ليسلموهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

فإن قيل : لم توقف بعد الأسر في قتلهم ، واستشار أصحابه ، فأشار عمر بقتلهم ، وأشار

أبو بكر باستبقائهم ؟ فالجواب : أن ذلك لتجويز تغيير التعبد بعد الأسر ، وإن كان الواجب

من قبل القتل .

قوله تعالى : (لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ) ، الآية 68 :

حملة قوم على إسراع المسلمين في الغنائم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ،



وقد قيل: لولا تقدم دلالة القرآن على أن الصغائر مغفورة عند اجتناب الكبائر لمسهم العذاب، فعلى هذا ثبت كونهم عصاة، وإن كانت الصغائر مغفورة، فيصح أن يعاتبوا على ما فعلوه.

وقد قيل: معناه لولا أن الوعيد يتقدم العقاب، لمسكم فيما أخذتم، ولكن سبق الكتاب بأن لا مؤاخذة إلا بعد النهي.

وقد قال قائلون: يجوز أن يكون توقفه بعد الأسر في قتلهم، صغيرة ورد فيها العقاب. ويقال: كيف يكون هذا صغيرة مع تقدم قوله: (فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ)، وأتم إن جعلتم ذلك صغيرة، لم تجعلوا قوله: (فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ) واردا بعد حرب بدر بل قبله، فإذا ثبت ذلك، فلا بد أن تكون مخالفة الأمر في ذلك كبيرة.

قيل: احتمال أنهم توهموا أن القتل لما كثر جاز العدول إلى الأسر. قوله تعالى: (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا)، الآية 69:

ليس فيه بيان أكله بعد القسمة أو قبلها، أو بعد الغلبة والإحراز بدار الإسلام. قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، الآية/

يدل قوله: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) «1»: على وجوب الهجرة، إلا أنها كانت واجبة في وقت، وقد زال ذلك الوجوب بالفتح لقوله صلى الله عليه وسلم:

---

(1) سورة الأنفال آية 72.

(172/304)

---

لا هجرة بعد الفتح «1».

وإنما كانت واجبة للخوف من الكفار، والخوف من الاقتتان، ولتقوية الرسول عليه الصلاة والسلام، وكل ذلك زال بالفتح.

ويحتمل أن يكون المراد بالولاية الوراثة، لأنهم كانوا من قبل يتوارثون بالإسلام والهجرة، ونسخ ذلك بقوله تعالى:

(وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ).

ويحتمل أن تكون الموالاة في الدين.

وقوله تعالى: (مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)، يدل على أن من ترك الهجرة، فقد خرج عن

أن يكون ولياً لسائر المؤمنين ، إلا أنه لو خرج عن الدين لما قال الله تعالى : (وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ) «2» .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) «3» ، يدل على أنه أراد به الولاية في الدين ، لأنه تعالى قال : (إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ) «4» .

قوله تعالى : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) ، الآية / 75 .  
يحتمل التورث بالرحم على قول ابن مسعود .

---

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، والبخاري في صحيحه .

(2) سورة الأنفال آية 72 .

(3) سورة الأنفال آية 73 .

(4) سورة الأنفال آية 73

(173/304)

---

ويحتمل أن يكون أولى ما بين الله تعالى في كتابه من أي الموارث ، ويجعل هذه الآية كأنها جملة وتلك مفصلة ، ولا يدل على أن بعضهم أولى ببعض في الميراث من حيث الظاهر ، إلا

أن يعلم الميراث بدليل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن / للكنيا هراسي حـ 3 صـ

﴿ 168.149

(174/304)

وقال العلامة القنوجي :

سورة الأنفال

[وجملة آياتها خمس أو ست أو سبع وسبعون آية]

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية ولم يستثنوا منها شيئاً ، وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء . وقد روي مثل هذا عن ابن عباس أخرجه النحاس في «ناسخه» ، وأبو الشيخ وابن مردويه عنه .

وفي لفظ تلك سورة بدر ، أي نزلت في بدر .

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأها في صلاة المغرب ، كما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن أبي أيوب «1» .

[الآية الأولى]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ

وَرَسُولُهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ : جمع نفل محركا ، وهو الغنيمة .

وأصل النفل : الزيادة وسميت الغنيمة نفلا لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرما

على غيرهم ، أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهدين من أجر الجهاد .

ويطلق النفل على معان أخر منها : اليمين ، والابتغاء ، ونبت معروف .

والنافلة : التطوع لكونها زائدة على الواجب .

والنافلة : ولد الولد لأنها زيادة على الولد .

---

(1) حديث صحيح : رواه الطبراني في «الكبير» (2702) وأورده الهيثمي في

«المجمع» (118/2) وقال : رجاله رجال الصحيح .

وكذلك رواه الطبراني أيضا في «الكبير» (2824) ، عن زيد بن ثابت مرفوعا .

وقال الهيثمي (118/2) : رجاله رجال الصحيح . [ . . . . . ]

(175/304)

---

وكان سبب نزول الآية اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في يوم بدر ، بأن قال الشبان :  
هي لنا لأننا باشرنا القتال ، وقال الشيوخ : كنا رداء لكم تحت الرايات ، فنزع الله ما غنموه

من أيديهم ، وجعله الله والرسول ، فقال : قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ أَيَّ حَكْمِهَا مَخْتَصٌّ بِهِمَا ،  
يقتسمها بينكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر الله سبحانه ، فقسّمها رسول  
الله صلى الله عليه وآله وسلم بينهم على السواء .

رواه الحاكم في «المستدرک» «1» ، وليس لكم حكم في ذلك .

وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه  
وآله وسلم خاصة ، ليس لأحد فيها شيء حتى نزول قوله تعالى : وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ  
شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ [الأنفال : 41] الآية ، فهي على هذا منسوخة وبه قال مجاهد  
وعكرمة والسدي .

وقال ابن زيد : محكمة مجملة ، قد بين الله مصارفها في آية الخمس ولا نسخ ! «2» .

---

(1) حديث صحيح : رواه الحاكم في «المستدرک» (2/ 131 ، 132 ، 221 ،  
222 ، 326 ، 327) .

وصححه ، ووافقه الذهبي .

وكذلك رواه أبو داود (2737) ، (2738) (2739) ، والنسائي في «تفسيره»  
(217) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (8/ 469) .

قلت : ورجال إسناده كلهم ثقات .

قلت : وهناك سبب آخر في نزول قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . . روى الترمذي

(110/4) بسنده عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : لما كان يوم بدر جئت بسيف  
فقلت : يا رسول الله إن الله قد شفى صدرك من المشركين أو نحو هذا ، هب لي السيف ؟  
فقال : هذا ليس لي ولا لك ، فقلت : عسى أن يعطى هذا من لا يبلي بلائي فجاءني  
الرسول فقال : إنك سألتني وليس لي ، وإنه قد صار لي وهولك ، قال : فنزلت : يَسْأَلُونَكَ  
عَنِ الْأَنْفَالِ الْآيَةِ . وقال : حديث حسن صحيح . وقد رواه سماك عن مصعب بن سعد  
أيضا .

والحديث رواه مسلم مطولا ومختصرا (53/12 ، 54 نووي) وأبو داود (30/3) ،  
31) ، والطيالسي (1/239) ، وابن أبي حاتم (3/222) ، والحاكم (2/132)  
، وصححه وأقره الذهبي ، والبيهقي (6/229) ، وابن جرير (9/173) ، وأبو نعيم  
(8/312) .

(2) قال ابن العربي المعافري : «والصحيح أن هذه الآية ناسخة لما سبق من حكم الله في  
تحريم الغنائم على الخلق ، فأحلها الله على هذه الأمة لما رأى من ضعفها وعجزها ، وفي  
الصحيح [البخاري تيمم ، صلاة 56 ، خمس 8/ مسلم مساجد 3 ، 5 ، أبو داود جهاد  
121 ، الدارمي صلاة 171 ، أحمد (1/301) ، (3/304) ، (5/326) عن  
جابر بن عبد الله وغيره : أحلت لي الغنائم ، وثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي  
صلى الله عليه وآله وسلم من طرق عديدة ، واللفظ للبخاري (غرض الخمس 8 ، نكاح

58 ، مسلم جهاد 32) . . وهذا صحيح لا طعن فيه ، ويين لا غبار عليه وانظر كلامه

في

(176/304)

---

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) : أمرهم بالتقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله بالتسليم لأمرهما ، وترك الاختلاف الذي وقع بينهما .

[الآيتان : الثانية والثالثة]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأُدْبَارَ (15) وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحْفًا : الزحف : الدنو قليلا قليلا ، وأصله الاندفاع على الألية ، ثم سمي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفا .

والتزاحف : التداني والتقارب . تقول زحف إلى العدو زحفا ، وازدحف القوم : أي مشى بعضهم إلى بعض .



واتصاب زحفا ، إما على أنه مصدر لفعل محذوف ، أي : يزحفون زحفا ، أو على أنه حال من المؤمنين ، أي : حال كونكم زاحفين إلى الكفار ، أو حال من الذين كفروا ، أي حال كون الكفار زاحفين إليكم ، أو حال من الفريقين ، أي : متزاحفين .  
فَلَا تُكَلِّمُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا قَالُوا بِمَا كَفَرُوا وَتَكَلَّمُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ بِمَا كَفَرُوا وَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ لَا يَدْرُونَ لِقَاءَ اللَّهِ يَحْسَبُونَ كَلِمَةَ كُفْرٍ كَلِمَةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (15) : نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم ، وقد دب بعضهم إلى بعض للقتال . وظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن ، وعلى كل حال إلا حالة : التحرف والتحيز .

وقد روي عن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي [نضرة] «1» .  
وعكرمة ونافع والحسن وقتادة و[يزيد] «2» بن أبي حبيب والضحاك : أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر ، وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا

---

(الناسخ والمنسوخ 2/225 ، 226) .

- (1) وقع في المخطوط (نصر) وهو خطأ ، والتصويب من فتح القدير (2/293) .  
وأبو نضرة هو المنذر بن قطعة العبدي ثقة من رجال البخاري ومسلم .
- (2) وقع في «المطبوعة» زيد وهو خطأ ، والتصويب من جامع الطبري (1581) ،  
وهو أبو جابر المصري أخرج له الستة في كتبهم وهو من الثقات .

---

ولو انحازوا لآنحازوا إلى المشركين ، إذ لم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ولا لهم فئة إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض . وبه قال أبو حنيفة .

قالوا : ويؤيده قوله : **وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدُ ذُبْرَهُ** فإنه إشارة إلى يوم بدر .

وقيل : إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف «1» .

وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة ، وأن الفرار من الزحف

محرم ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر .

فأجيب عن قول الأولين : إن الإشارة في يومئذ إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف ، كما

يفيده السياق ، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف ، بل هذه الآية مقيدة بها ، ويكون

الفرار من الزحف محرماً بشرط بينه الله في آية الضعف .

ولا وجه لما ذكره من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها ، فقد كان

بالمدينة إذ ذاك خلق كثير ، لم يأمرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج لأنه عليه

الصلاة والسلام ومن خرج معه لم يكونوا يرون - في الابتداء - أنه سيكون قتال .

ويؤيد هذا ما ورد من الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة

الكبائر كما في حديث : «اجتنبوا السبع الموبقات» «2» وفيه التولي يوم الزحف ، ونحوه

من الأحاديث .

وهذا البحث تطول ذبوله وتشعب طرقه وهو مبين في مواطنه .

قال ابن عطية : والأدبار : جمع دبر والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة في

---

(1) قال القاضي ابن العربي : «قال بعضهم : والنسخ في هذا لا يجوز لأنه وعيد ، والوعيد

لا ينسخ لأنه خبر .

واختلف الناس في المراد بهذه الآية على قولين أحدهما : أنها في يوم بدر خاصة ، وهو

اختيار الحسن ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل : هي عامة في الأزمنة

مخصوصة في العدد ، لقوله تعالى : فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ

أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَالصَّحِيحُ عَمُومَهَا لَوْجِهَيْنِ :

أحدهما : أنه ظاهر القرآن ، لقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا

تُكَلِّمُهُمُ الْآدِبَارَ (15) وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبُرَهُ يَعْنِي يَوْمَ الزَّحْفِ .

وثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه عدّ الكبائر فقال : والفرار من الزحف وهذا

نص لا غبار عليه .

وانظر : الناسخ والمنسوخ (2/228 ، 229) ، والأحكام (2/832) .

(2) حديث صحيح : رواه البخاري (5/393) ، (12/181) ، ومسلم (2/82)

، (83) .

الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفار والذم له .

إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ : التحرف : الزوال عن جهة الاستواء والمراد به هنا التحرف من جانب إلى جانب في المعركة ، طلبا لمكايد الحرب ، وخذعا للعدو ، كمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو فيكر عليه ويتمكن منه ، ونحو ذلك من مكاييد الحرب فإن «الحرب خدعة» «1» كما في الحديث .

أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ : أي إلى جماعة من المسلمين ، غير الجماعة المقابلة للعدو ، وانتصاب متحرفا أو متحيزا على الاستثناء من المولين ، أي : ومن يولهم دبره إلا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا ، ويجوز انتصابهما على الحال ، ويكون حرف الاستثناء لغوا لا عمل له .  
فَقَدْ بَاءَ : جزاء الشرط .

والمعنى : من ينهزم ويفر من الزحف فقد رجع بغضبٍ كائن ، مِنْ اللَّهِ :  
إِلَّا الْمُتَحَرِّفَ وَالْمُتَحَيِّزَ .

[الآية الرابعة]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ

(38).

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا : أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول

للكفار هذا المعنى سواء قاله بهذه العبارة أو غيرها .

قال ابن عطية : ولو كان كما قال الكسائي إنه في مصحف عبد الله بن مسعود : قل للذين

كفروا إن تنتهوا - يعني بالفوقية - لما تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها .

قال في «الكشاف» «2» : أي قل لأجلهم هذا القول ، وهو : إن ينتهوا . ولو كان بمعنى

خاطبهم به ل قيل : إن تنتهوا يغفر لكم وهي قراءة ابن مسعود ونحوه .

وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه [الأحقاف : 11] خاطبوا به

---

(1) حديث صحيح : رواه البخاري (6/158) ، ومسلم (12/44 ، 45) عن

أبي هريرة وجابر مرفوعاً .

(2) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري (2/219) .

(179/304)

---

غيرهم لأجلهم ليسمعوه .

أي : إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقتاله ،

بالدخول في الإسلام يُغفرُ لَهُمْ ما قد سلفَ لَهُم من العداوة . انتهى .

وقيل : معناه : إن ينتهوا عن الكفر .

قال ابن عطية : والحامل على ذلك ، جواب الشرط فيغفر لهم ما قد سلف ومغفرة ما قد

سلف لا تكون إلا لمنته عن الكفر وفي هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله .

[الآية الخامسة] وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا

يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) .

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ : أي كفر وشرك .

وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ : تحريض للمؤمنين على قتال الكفار . وقد تقدم تفسير ذلك في البقرة

مستوفى .

[الآية السادسة]

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ

وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41) .

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ : قال القرطبي « 1 » : اتفقوا على أن المراد بالغنيمة ، في هذه الآية ،

مال الكفار إذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر .

قال : ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص ، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع .

وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية بعد قوله: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ** ،

(1) انظره في «تفسيره» (8/1 - 3) .

(180/304)

وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين ، وأن قوله: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ** نزلت حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر - على ما تقدمت الإشارة إليه»

وقيل: إنها - أعني **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ** - محكمة غير منسوخة ، وأن الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وليست مقسومة بين الغانمين وكذلك لمن بعده من الأئمة .  
حكاه [المازري] [2] عن كثير من المالكية .

قالوا: وللإمام أن يخرجها عنهم ، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين . وكان أبو [عبيد] [3] يقول: افتتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة عنوة ، ومن على أهلها فردها عليهم ، ولم يقسمها ، ولم يجعلها فيئا .

وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم [4] ، على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين ، ومن حكى ذلك: ابن المنذر وابن عبد البر والداودي والمازري والقاضي عياض وابن

العربي ، والأحاديث الواردة في قسمة الغنيمة من الغانمين وكيفيتها كثيرة جدا .  
قال القرطبي «5» : ولم يقل أحد - فيما أعلم - إن قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ الْآيَةِ  
ناسخ لقوله تعالى : وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ الْآيَةَ بل قال الجمهور : إن  
قوله : أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ، ناسخ ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب  
الله .

وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها .  
وأما قصة حنين ، فقد عوض الأنصار لما قالوا : يعطي المغانم قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر  
من دمائهم نفسه ؟ ! فقال لهم : «أما ترضون أن يرجع الناس بالدينا وترجعون برسول الله  
صلّى الله عليه وآله وسلم إلى بيوتكم ؟» كما في مسلم وغيره «6» . وليس لغيره أن يقول .  
هذا القول بل ذلك خاص به .

---

(1) وذلك عن تفسيره للآية (1) من هذه السورة الكريمة .

(2) وقع في المطبوعة (الماوردي) وهو خطأ ، والتصويب من «تفسير القرطبي» (8/8)  
(2) .

(3) في المطبوعة (أبو عبدة) وهو خطأ ، وصوبناه من تفسير القرطبي (2/8) .

(4) انظر : مراتب الإجماع للعلامة ابن حزم (ص 133) ط . دار الآفاق بيروت .



(5) انظره في «تفسيره» (423/8).

(6) حديث صحيح: رواه البخاري (53/8)، ومسلم (7/151، 152) عن

أنس مرفوعا .

(181/304)

---

وقوله أنما غنمتم يشمل كل شيء يصدق عليه اسم الغنيمة، إذ كان أصلها إصابة الغنم من العدو .

ومن شيء بيان لما الموصولة، وقد خصص الإجماع، ومن عموم الآية، الأسارى فإن الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف . وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام .

قيل: وكذلك الأرض المغنومة . وردّ بأنه لا إجماع على الأرض .

فأنّ: أي فحق أو واجب أن:

لله خمسُه وللرسول: قد اختلف العلماء في كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة:

الأول: قالت طائفة: يقسم الخمس على ستة، فيجعل السدس: للكعبة وهو الذي لله

والثاني: لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والثالث: لذوي القربى، والرابع: لليتامى

، والخامس: للمساكين، والسادس: لابن السبيل .

القول الثاني : قال أبو العالية والربيع : إنها تقسم أي الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهم واحد ، ويقسم أربعة على الغانمين ، ثم يضرب يده في السهم الذي عزله ، فما قبضه من شيء جعله للكعبة ويقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة ، للرسول ومن بعده في الآية .

القول الثالث : عن زين العابدين علي بن الحسين أنه قال : إن الخمس لنا فقيل له : إن الله يقول : واليتامى والمساكين وابن السبيل ؟ فقال : يتامانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا .

القول الرابع : قول الشافعي : إن الخمس يقسم على خمسة وإن سهم الله وسهم رسوله واحد ، يصرف في مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخماس على الأصناف الأربعة المذكورة في الآية .

القول الخامس : قول أبي حنيفة : إنه يقسم الخمس على ثلاثة : اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل . وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بموته ، كما ارتفع حكم سهمه . قال : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر ، وبناء المساجد ، وأرزاق القضاة

(182/304)

---

والجند . وروي نحو هذا عن الشافعي .

القول السادس : قول مالك : أنه موكل إلى نظر الإمام واجتهاده ، فيأخذ منه بغير تقدير ،

ويعطي منه الغزاة باجتهاده، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين .

قال القرطبي «1»: «وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا ، وعليه يدل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم» «2» فإنه لم يقسمه أخماسا ولا أثلاثا ، وإنما ذكر ما في الآية من ذكره على وجه التنبية عليهم ، لأنهم من أهم من يدفع إليه .

قال الزجاج محتجا لهذا القول : قال الله تعالى : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ [البقرة: 215] وجائز ، بالإجماع ، أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك «3» .

وكذا القربى واليتامى والمسكين وابن السبيل : قيل : إعادة اللام في ذي القربى دون من بعدهم يدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، والمعنى أن سهمها من خمس الخمس لأقاربه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . وقد اختلف العلماء فيهم على أقوال : الأول : أنهم قريش كلها ، روي ذلك عن بعض السلف واستدل بما روي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلا : «يا بني فلان ! يا بني فلان !» «4» .

[الثاني] : وقال الشافعي وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد : هم بنو هاشم وبنو المطلب ، لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : «إنما بنو هاشم وبنو المطلب

شيء

---

(1) انظره في تفسيره (11/8) .

(2) حديث حسن : في إسناده عمرو بن شعيب ، وهو ووالده صدوقان وحديثهما

حسن .

رواه أبو داود (2694) ، وأحمد في «المسند» (2/184 ، 218 ، 219) ،

والنسائي (6/262 ، 264) ، (7/131 ، 132) والبيهقي في «الكبرى» (6/

336 ، 337) .

ورواه عمرو بن عبسة ، وعبادة بن الصامت وغيرهما مرفوعا .

(3) انظر : الإجماع لابن حزم (ص 133 ، 136) ، كفاية الأخيار (ص 507 ،

508) ، غاية المطلب (ص 470) ، وشرح البرنسي والغروي على أبي زيد (2/8) .

(4) حديث صحيح : رواه مسلم (3/82 ، 83) ، (3/79 ، 82) ، من حديث

عبد الله بن عباس ، وعائشة وأبي هريرة وقبيصة بن المخارق وزهير بن عمرو جميعهم

مرفوعا .

(183/304)

---

واحد وشبك بين أصابعه» وهو في «الصحيح» «1» .

[الثالث] : وقيل : هم بنو هاشم خاصة ، وبه قال مالك والثوري والأوزاعي وغيرهم

وهو مروى عن علي بن الحسين ومجاهد .

وكذا اختلف أهل العلم هل ثبت وبقي سهمهم اليوم ، أم سقط بوفاته صلى الله عليه وآله

وسلم ، وصار الكل مصروفا إلى الثلاثة الباقية ؟ فذهب الجمهور - ومنهم مالك

والشافعي - إلى الثبوت واستواء الفقراء والأغنياء للذكر مثل حظ الأنثيين [النساء :

11] .

وقال أبو حنيفة وأهل الرأي بسقوط ذلك ، والتفصيل يطلب من مواطنه «2» .

[الآية السابعة]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

(46) .

وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا : فيه النهي عن التنازع ، وهو الاختلاف في الرأي ، فإن ذلك يتسبب

عنه الفشل وهو الجبن في الحرب .

وأما المنازعة بالحجة لإظهار الحق فجائزة كما قال : وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل :

125] ، بل هي مأمور بها بشروط مقررة ، والفاء جواب النهي ، والفعل منصوب

بإضمار أن . ويجوز أن يكون الفعل معطوفا على تنازعوا مجزوما . بجازمه .

وَتَذْهَبُ رِيحُكُمْ قَرِيءٌ بِنَصْبِ الْفَعْلِ وَجَزْمِهِ عَطْفًا عَلَى تَفْشَلُوا عَلَى الْوَجْهِينِ .

والريح : القوة والنصر كما يقال : الريح لفلان ، إذا كان غالباً في الأمر . وقيل :

الريح الدولة ، شبهت في نفوذ أمرها بالريح في هبوبها . ومنه قول الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها فعقبى كل خافقة سكون

وقيل : المراد بالريح ریح الصبا لأن بها كان ينصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(1) حديث صحيح : رواه البخاري (6/244 ، 533) ، (7/484) ، وأبو داود

(2980) ، عن جبير بن مطعم مرفوعاً .

(2) انظر : الروضة الندية للمصنف (341 ، 343) .

(184/304)

---

[الآية الثامنة]

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58) .

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ : من المعاهدين وهم قريظة وبنو النضير .

خِيَانَةٌ أَي غَشَا وَتَقْضَى لِلْعَهْدِ .

فَانْبِذْ : أَي فَاطْرَحِ .

إِلَيْهِمْ: العهد الذي بينك وبينهم .

عَلَى سِوَاءٍ: أي على طريق مستوية ، والمعنى أنه يخبرهم إخباراً ظاهراً مكشوفاً بالنقض ، ولا تنجزهم الحرب بغتة .

وقيل : معنى عَلَى سِوَاءٍ عَلَى وجه يستوي في العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم ، أو تستوي أنت لئلا يتهموك بالعدو وهم فيه .

قال الكسائي : السواء : العدل وقد يكون بمعنى الوسط . ومنه قوله تعالى : فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ (55) [الصفات : 55] وقيل : معناه على جهر ، لا على سر .

والظاهر أن هذه الآية عامة في كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه .

قال ابن عطية : والذي يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بني قريظة انقضى عند قوله فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ ، [الأنفال : 57] ثم ابتداء تبارك وتعالى في هذه الآية يأمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة .

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58) : تعليل لما قبلها ، يحتمل أن يكون تحذيراً لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء ، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين يخاف منهم الخيانة .

[الآية التاسعة]

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ

دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ  
(60).

(185/304)

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ: أمر الله سبحانه بإعداد القوة: كل ما يتقوى به في الحرب،  
ومن ذلك السلاح والقتلي.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» «1» وغيره من حديث عقبة بن عامر قال: «سمعت  
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو على المنبر، يقول: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ  
قُوَّةٍ إِلَّا أَنْ الْقُوَّةَ: الرمي! قالها ثلاث مرات».

وقيل: هي الحصون والمعقل. والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله صلى الله عليه  
وآله وسلم متعين.

وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ: قال أبو حاتم: الرباط من الخيل الخمس فما فوقها، وهي الخيل التي  
تربط بإزاء العدو، ومنه قول الشاعر:

أمر الإله بربطها لعدوه في الحرب إن الله خير موفق

قال في «الكشاف» «2»: والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن يسمى



بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة ، ويجوز أن يكون جمع رباط كفصيل وفصال .

انتهى .

وقد فسّر القوة بكل ما يتقوى به في الحرب ، جعل عطف الخيل عليها من عطف الخاص

على العام .

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ : في محل نصب على الحال .

والترهيب : التخويف ، والضمير في (به) عائد إلى (ما) في مَا اسْتَطَعْتُمْ أَوْ إِلَى الْمَصْدَرِ

المفهوم من وَأَعِدُّوا ، وهو الإعداد ، والمراد بعدو الله وعدوهم : هم المشركون من أهل

مكة وغيرهم من مشركي العرب .

---

(1) حديث صحيح : رواه مسلم (64/13) ، وأبو داود (2514) ، وأحمد في

«المسند» (4/156) ، وابن ماجة (2813) عن عقبة بن عامر مرفوعا .

(2) انظره في «تفسير الزمخشري» (2/232) .

(186/304)

---

[الآية العاشرة] وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) .

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا : الجنوح : الميل .

والسلم : الصلح .

وقد اختلف أهل العلم : هل هذه الآية منسوخة أم محكمة « 1 » ؟ فقيل : هي منسوخة بقوله تعالى : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ [التوبة : 5] قاله ابن عباس .

وقيل : ليست بمنسوخة لأن المراد بها قبول الجزية ، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم ، فتكون خاصة بأهل الكتاب . قاله مجاهد .

وقيل : إن المشركين إن دعوا إلى الصلح جاز أن يجابوا إليه ، وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى : فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ [محمد : 35] ، وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون في عزة وقوة لا إذا لم يكونوا كذلك فهو جائز كما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم من مهادنة قريش ، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك ، وكلام أهل العلم في هذه المسألة معروف مقرر في مواضعه .

[الآية الحادية عشرة]

الآن خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66) .

الآن خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ أَوْجِبْ عَلَى الْوَاحِدِ أَنْ يَثْبُتَ لِاثْنَيْنِ مِنَ الْكُفَّارِ .

قيل : في التنصيص على غلب المائة للمائتين ، والألف للألفين ، إنه بشارة للمسلمين بأن

عساكر الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألف .

(1) انظر: الناسخ والمنسوخ لابن العربي (2/232) .

(187/304)

وقد اختلف أهل العلم: هل هذا التخفيف نسخ أم لا؟ ولا يتعلق بذكر ذلك كثير فائدة  
«1» .

أخرج البخاري والنحاس في «ناسخه» وابن مردويه والبيهقي في «سننه» «2» عن ابن عباس قال: «نزلت إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين [الأنفال: 65] شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة فجاء التخفيف بقوله: الآن خفف الله عنكم الآية. قال: فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم» .

[الآية الثانية عشرة] ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم (67) .  
ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض: هذا حكم آخر من أحكام الجهاد .  
ومعنى ما كان لنبي: ما صح له وما استقام .

والأسرى جمع أسير. ويقال في جمع أسير أيضا: أسارى بضم الهمزة ويفتحها، وهو مأخوذ من الأسر، وهو القد «3»، لأنهم كانوا يشدون به الأسير. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأسرى هم غير الموثقين عند ما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون ربطا.

والإثخان كثرة القتل والمبالغة فيه، يقال: أثخن فلان في هذا الأمر، أي بالغ فيه.

---

(1) انظر: الناسخ والمنسوخ لابن العربي (2/229، 231).

وانظر في سبب نزول هذه الآية (البخاري 9/302)، والمطالب العالية (3/336)، وعزاه لابن راهويه، ورواه أيضا ابن الجارود في «المنتقى» (ص 350) وابن إسحاق (82/ق) وسيرة ابن هشام (1/676)، وأبوداود (2/349)، وابن جرير (10/40).

(2) حديث صحيح: رواه البخاري (8/312)، والطبري في «تفسيره» (9/76).

(3) القدّ: هو الشقّ الممتد الطويل. [صحاح: قد]. [.....]

(188/304)

---

فالمعنى ما كان لنبي أن يكون له أسرى ، حتى يبلغ في قتل الكافرين ، ويستكثر من ذلك .

وقيل : معنى الإثخان التمكن .

وقيل : هو القوة . أخبر الله سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفداهم

، ثم لما كثر المسلمون رخص الله في ذلك فقال : فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً [محمد : 4]

«1» .

[الآية الثالثة عشرة]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا  
أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى  
يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ  
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) .

وَالَّذِينَ آمَنُوا : من المقيمين بمكة المكرمة .

وَلَمْ يُهَاجِرُوا : منها مبتدأ خبره .

مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ : أي من نصرتهم وإعانتهم أو من ميراثهم ، ولو كانوا من قراباتكم .

مِنْ شَيْءٍ لِعَدَمِ وَقُوعِ الْهَجْرَةِ مِنْهُمْ .

مِنْ شَيْءٍ لِعَدَمِ وَقُوعِ الْهَجْرَةِ مِنْهُمْ .

حَتَّى يُهَاجِرُوا : فيكون لهم ما كان للطائفة الأولى ، الجامعين بين الإيمان والهجرة .

وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ : أَي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَا يَهَاجِرُوا إِذَا طَلَبُوا مِنْكُمْ النِّصْرَةَ لَهُمْ  
عَلَى الْمُشْرِكِينَ .

فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ : أَي فَوَاجِبُ عَلَيْكُمْ ، إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصَرُوكُمْ ، عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ :

(1) انظر : الناسخ والمنسوخ (2/234 ، 235) ابن العربي ، ومعاني الزجاج (2/

470) ، وزاد المسير (3/371) وابن كثير (2/325) ، واللباب (114) ،

والطبري (10/30) ، والنكت (2/112) .

(189/304)

فَلَا تَنْصَرُوهُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَوْلِيَاءِ الْقَوْمِ حَتَّى تَنْقُضِي مَدَّتَهُ ، وَهِيَ  
عَشْرُ سِنِينَ .

[الآية الرابعة عشرة]

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى  
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75) .

وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ : مَنْ غَيْرِهِمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ رَحِمٌ فِي الْمِيرَاثِ ،

والمراد بهم القرابات ، فيتناول كل قرابة .

وقيل: المراد بهم هنا العصبات، كقول العرب: صلتك رحم فإنهم لا يريدون قرابة الأم، ولا يخفى عليك أنه ليس في هذا ما يمنع من إطلاقه على غير العصبات.

وقد استدل بهذه الآية من أثبت الميراث لذوي الأرحام، وهم من ليس بعصبته ولا ذي سهم على حسب اصطلاح أهل علم المواريث، والخلاف في ذلك معروف مقرر في مواطنه

«1».

وقد قيل إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة والنصرة عند من فسّر ما تقدم، من قوله:

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [الأنفال: 72]. وما بعده، بالتوارث.

وأما من فسّرهما بالنصرة والمعونة، فيجعل هذه الآية إخباراً منه سبحانه وتعالى بأن

القرابات بعضهم أولى ببعض.

ففي كتاب الله: أي في حكمه أو في اللوح المحفوظ، أو في القرآن، ويدخل في هذه الأولوية في الميراث دخولا أوليا، لوجود سببه أعني القرابة «2». انتهى انتهى. اهـ ﴿نيل المرام ص 319.304﴾

---

(1) انظر في ذلك: الرّوض المربع (259). وغاية المطلب (306)، الروضة الندية (325)، والحلى (252/9).

(2) قال القاضي ابن العربي: «لا خلاف ولا إشكال في أن الميراث كان في صدر الإسلام بالولاية ثم صار في آخره بالقرابة، إلا أن هذه الآية محتملة أن يكون المراد بنفي الولاية نفي

النصرة، ويحتمل أن يكون المراد بها نفي الميراث فتكون منسوخة والأول أظهر . . انظر :  
الناسخ والمنسوخ (2/238 ، 239) .

(190/304)

وقال السائس :

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الأنفال

قال الله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ  
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)

هذه السورة كلها مدنية، وقيل : هي مدنية إلا قوله تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ،

وقيل : إلا قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وبعضهم استثنى خمس آيات بعد آية وَإِذْ  
يَمْكُرُ .

ومناسبتها لسورة الأعراف : أنها في بيان حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه ،

وسورة الأعراف مبينة لأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم .

وسبب نزول هذه الآية ما



أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن الصّامت رضي الله عنه أنّ المسلمين اختلفوا في غنائم بدر ، وفي قسمتها ، فسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ، ولمن الحكم فيها ، أهي للمهاجرين أم للأَنْصار أم لهم جميعا ؟ فنزلت «1» .

والسؤال إمّا لاستدعاء معنى في نفس المسؤل ، وهذا يتعدى بنفسه تارة ، وعن أخرى ، كما في هذه الآية . وإما لاقتضاء مال ، فيتعدى لاثنين بنفسه ، نحو سألت زيدا مالا ، وقد يتعدى بمن ، وفاعل السؤال يعود على معلوم ، وهو من حضر بدرا .

والأنفال جمع نفل كسبب وأسباب ، وهو في أصل اللغة من النفل بفتح فسكون - أي الزيادة - ولذا سمي التطوع وولد الولد نافلة ، ثم صار حقيقة في العطية لكونها تبرعا غير لازم . وتسمى الغنيمة نفلا لأنها منحة من الله من غير وجوب ، أو لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم التي لم تحل لهم ، أو لأنها زيادة على ما شرع الجهاد له ، وهو إعلاء كلمة الله :

كذلك يسمّى بالنفل ما يشترطه الإمام للغازي زيادة على سهمه . وبعضهم فرق بين الغنيمة والنفل بالعموم والخصوص : فالغنيمة ما حصل

---

(1) انظر تفسير ابن جرير الطبري المسمى جامع البيان (9/116) .

مستغنا بيعث كان أو بغير بعث ، قبل الظفر أو بعده . والنفل ما كان قبل الظفر أو ما كان بغير قتال ، وهو الفبيء ، أو ما يفضل عن القسم .

إذا تبين هذا فاعلم أن الراجح هنا كون السؤال سؤال استفتاء لا استعطاء ، وأن المراد بالأنفال الغنائم لا المشروط للغازي زيادة على سهمه ، ويؤيد ذلك الراجح أمور :

1 - أن هذا أول تشريع للغنيمة .

2 - ما تقدم من سبب النزول .

3 - قوله تعالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ السُّؤَالُ طَلِبًا لَلْمَشْرُوطِ لَمَا كَانَ هُنَاكَ مَحْذُورٌ يَجِبُ اتَّقَاؤُهُ .

ومن ذهب إلى المرجوح وهو أن السؤال سؤال استعطاء ، وأن النفل ما يشترط للغازي فقد التزم زيادة (عن) أو جعلها بمعنى (من) وهو تكلف لا ضرورة إليه .

ويبعده أيضا الجواب بقوله تعالى : قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهِ اخْتِصَاصُ أَمْرِهَا وَحُكْمُهَا بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ، فَيُقَسَّمُهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا يَأْمُرُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ رَأْيُ أَحَدٍ ، وَلَوْ كَانَ السُّؤَالُ سَوْأَلِ اسْتِعْطَاءٍ ، وَ(عَنْ) زَائِدَةَ لَمَا كَانَ هَذَا جَوَابًا لَهُ ، فَإِنَّ اخْتِصَاصَ حُكْمِ مَا شَرَطَ لَهُمُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يَنَافِي إِعْطَاءَهُ إِيَّاهُمْ ، بَلْ يَحْقُقُهُ ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ بِمَوْجِبِ شَرَطِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الصَّادِرِ عَنْهُ بِإِذْنِ اللَّهِ ، لَا بِحُكْمِ سَبْقِ أَيْدِيهِمْ إِلَيْهِ مِمَّا يَجِلُّ بِالْاِخْتِصَاصِ الْمَذْكُورِ .

والمعنى : يسألونك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ولمن الحكم فيها قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ  
وَالرَّسُولِ أَيْ قُلْ لَهُمُ : الْأَنْفَالُ لِلَّهِ يَحْكُمُ فِيهَا بِحُكْمِهِ ، ولِلرَّسُولِ يَقْسِمُهَا بِحَسَبِ حُكْمِ اللَّهِ  
تعالى .

وهذه الآية محكمة بين فيها إجمالاً أن الأمر مفوض لرسول الله ، وآية وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمُ الْخ  
فصّلت هذا الإجمال ببيان مصارف الغنيمة ، فلا تكون ناسخة لها فاتقوا الله أي وإذا كان  
أمر الغنائم لله ورسوله فاتقوه سبحانه ، واجتنبوا ما أنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف  
الموجب لشق العصا وسخطة تعالى ، أو فاتقوه في كل ما تأتون وتذرون ، فيدخل ما هم  
فيه دخولا أوليا وأصلحوا ذات بينكم أي أصلحوا نفس ما بينكم ، وهي الحال والصلة التي  
بينكم تربط بعضكم ببعض ، وهي رابطة الإسلام ، وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون  
والمواساة وترك الأثرة والتفوق ، وبالإيثار أيضا ، فذات بمعنى حقيقة الشيء ونفسه مفعول  
به ، وقيل : إن (ذات) بمعنى صاحبة ، صفة لمفعول محذوف ، أي أحوال ذات بينكم ، ولما  
كانت

(192/304)

---

الأحوال ملابسة للبين أضيفت إليه ، كما تقول : اسقني ذا إنائك أي ما فيه ، جعل كأنه صاحبه .

والبين في أصل اللغة يطلق على الاتصال والافتراق ، وكل ما بين طرفين كما قال تعالى : لَقَدْ نَقَطَعُ بَيْنَكُمْ [الأنعام : 94] برفع بين بمعنى الوصل ، وينصبه على الظرفية بمعنى وقع التقطع بينكم . ومن استعمال البين بمعنى الافتراق والوصل قول الشاعر :

فو الله لولا البين لم يكن الهوى ولولا الهوى ما حزن للبين آلف  
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي الْغَنَائِمِ ، وفي كل أمر ونهي ، وقضاء وحكم ، وذكر الاسم الجليل في الأمرين لتربية المهابة وتعليل الحكم . وذكر الرسول مع الله تعالى أولا وآخرا لتعظيم شأنه ، وإظهار شرفه ، والإيدان بأن طاعته عليه الصلاة والسلام طاعة الله تعالى : وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى ، والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح ، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ متعلق بالأوامر الثلاثة ، والجواب محذوف لدلالة ما تقدم عليه ، أي فامثلوا الأوامر الثلاثة فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي ذلك كله ، أو الجواب نفس ما تقدم على الخلاف .

وأيا ما كان ، فالمراد بيان ترتب ما ذكر عليه ، لا التشكيك في إيمانهم ، وهو يكفي في التعليق بالشرط .

والمراد بالإيمان التصديق ، ولا خفاء في اقتضائه ما ذكر على معنى أن من شأنه ذلك ، لأنه

لازم له حقيقة .

وقد يراد بالإيمان الإيمان الكامل ، والأعمال شرط فيه ، أو شرط ، فالمعنى إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان يدور على تلك الخصال الثلاثة : الاتقاء والإصلاح وإطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ما يستنبط من الآية

يستفاد منها أمور :

- 1 - حرص الصحابة على السؤال عما يهمهم من أمر دينهم .
- 2 - إن الأحكام مرجعها إلى الله تعالى ورسوله ، لا إلى غيرهما .
- 3 - اهتمام الشارع بإصلاح ذات البين ، فهو واجب شرعا لتوقف قوة الأمة عليه وعزتها ومنعتها ، ولحفظ وحدتها به .
- 4 - إن امتثال ما أمر به الشارع من ثمرات الإيمان . والله أعلم .

(193/304)

---

قال الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُولَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ

## وَبَسَّ الْمَصِيرُ (16)

(الزحف) قال الأزهري: أصل الزحف للصبي، وهو أن يزحف على استه قبل أن يقوم. وشبه بزحف الصبي مشي الطائفتين اللتين تذهب كل واحدة منهما إلى صاحبتهما للقتال، فتمشي كل فئة مشيا إلى الفئة الأخرى قبل التداني للضراب.

وقال الزمخشري «1»: الزحف الجيش الدهم الذي يرى لكثرتة كأنه يزحف، أي يدب دبيبا، من زحف الصبي إذا دب على استه قليلا، سمي بالمصدر، والجمع زحوف.

فَلَا تُؤْكُوهُمُ الْأَدْبَارَ أَي لَا تَجْعَلُوا ظُهُورَكُمْ مِمَّا يَلِيهِمْ.

إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالِ الْمُتَحَرِّفِ لِلْقِتَالِ هُوَ الَّذِي يَفِرُّ مَوْهَمًا قَرْنَهُ أَنَّهُ مَنَهْزَمٌ، فَإِذَا تَبَعَهُ عَطْفٌ عَلَيْهِ فَقَتْلُهُ، وَهُوَ بَابٌ مِنْ خَدَعِ الْحَرْبِ وَمَكَايِدِهَا، وَهُوَ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ يُؤَلِّمُهُمُ وَالِاسْتِثْنَاءُ مَفْرَعٌ، أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ أَي وَمَنْ يُؤَلِّمُهُمُ إِلَّا رَجُلًا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالِ.

أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةِ التَّحْيِيزِ التَّحْيِيزِ. وَالْفِتْنَةُ: الْجَمَاعَةُ.

نهى الله عن الفرار، وتوعد عليه أشد الوعيد، وهو أن يرجع بغضب من الله، وأن مقره في جهنم، ولم يبح الفرار إلا لاثنتين:

أحدهما: المتحرّف للقتال، وهو الذي يفرّ، ثم يكرّ مكيدة منه وخدعة.

والثاني: الرجل الذي يرى أنه كالمفرد، ويرى جماعة من المسلمين تحميه إذا انحاز إليها.

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: خرجت سرية وأنا فيهم، ففروا، فلما رجعوا

إلى المدينة استحيوا ، فدخلوا البيوت ، فقلت : يا رسول الله نحن الفرّارون ؟ فقال : «بل  
أتم العكارون وأنا فتكم» «2» والعكارون الكرارون العطّافون .  
وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين !  
هلكت فررت من الزحف ، فقال عمر رضي الله عنه : أنا فتك .  
وهذه الآية حرّمت الفرار من القتال ، وأما كم عدد العدو الذي يحرم الفرار منه فقد بينته  
آية الآن خففَ اللهُ عَنْكُمْ [الأنفال : 66] .

---

(1) في تفسيره الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار  
الكتب العلمية (2/199) .

(2) رواه الترمذي في الجامع الصحيح حديث رقم (1770) .

(194/304)

---

قال الله تعالى : **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ  
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أمنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ  
التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41)**

هذه الآية بيّنت أن غنائم الحرب تخمس ، فيجعل خمس لله وللرسول ولذي القربى واليتامى

والمساكين وابن السبيل ، وأربعة الأقسام الباقية بينت السنة أنها تقسم على الجيش ،  
للاجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم ، أو سهمان على خلاف في الروايات .  
وقد اختلف العلماء فيما هي الغنيمة والفيء . فقال بعضهم : الغنيمة ما أخذ عنوة من  
الكافرين في الحرب ، والفيء ما أخذ عن صلح ، وقال بعضهم : الغنيمة ما أخذ من مال  
منقول ، والفيء الأرضون . وقال آخرون : الغنيمة والفيء بمعنى واحد ، وزعموا أن هذه  
الآية ناسخة لآية الحشر ، فإن آية الحشر [7] جعلت الفيء كله لله وللرسول ولذي القربى  
واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وهذه الآية جعلت لهم الخمس فقط ، فتكون هذه  
نسخة لتلك ، والظاهر أن الغنيمة والفيء مختلفان ولا نسخ .

وقد ذكرت الآية أن الخمس لستة :

أولها : الله عز وجل ، وقد اختلف المفسرون فيه على قولين :

1 - أن قوله : **لِلَّهِ خُمُسُهُ** مفتاح كلام لم يقصد به أن الخمس يقسم على ستة منها الله ، فله  
الدنيا والآخرة ، بل يقسم الخمس على خمسة للرسول ولذي القربى إلخ . ويكون الغرض من  
ذكر الله تعليمنا التبرك بذكره ، وافتتاح الأمور باسمه .

أو يكون معناه أن الخمس مصروف في وجوه القرب إلى الله .

ثم بين تلك الوجوه فقال : للرسول ولذي القربى ، فأجمل أولاً ، ثم فصل .

فإن قيل : لو أراد ذلك لقال : فإن لله خمسة للرسول دون (واو) .



قيل : إن العرب قد تذكر الواو والمراد إغاؤها ، كما قال تعالى : فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ  
(103) [الصفات : 103] والمراد فلما أسلما تله للجبين ، لأنه جواب لما .

وكما قال الشاعر :

لي شيء يوافق بعض شيء وأحيانا ، وباطله كثير  
والمعنى يوافق بعض شيء أحيانا .

2- إن المراد لبيت الله ، فسهم الله يصرف في الكعبة نقل عن أبي العالية والظاهر القول  
الأول لإجماع الحجة عليه .

ثانيها : رسول الله ، وقد ذكر بعضهم أنه افتتاح كلام كما قالوه في الله ، والغنيمة تقسم على  
أربعة . وقال الأكثرون : إن الغنيمة تقسم على خمسة أولها سهم الرسول صلى الله عليه  
وسلم يضعه حيث رأى .

(195/304)

---

ثالثها : ذوو القربى والمراد بها قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد اختلف في  
ذوي القربى : فقيل : هم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني هاشم ، وقيل : هم  
قريش كلها ، وقيل : هم بنو هاشم وبنو المطلب وهو الراجح ،

فقد أخرج ابن جرير «1» عن جبير بن مطعم قال: لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوي القربى من خبير على بني هاشم وبني المطلب مشيت أنا وعثمان بن عفان رضي الله عنه فقلنا: يا رسول الله! هؤلاء إخوتك بنو هاشم، لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله به منهم، رأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركنا، وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» ثم شبك رسول الله يديه إحداهما بالأخرى.

وقيل: إن سهم ذوي القربى طعمة لرسول الله - هذا كله إذا كان رسول الله حيا - فأما بعد وفاته، فقد اختلف العلماء في سهمه وسهم ذوي قرباه، فقيل: يصرفان في معونة الإسلام وأهله وفي الخيل والسلاح.

وقيل: هما للإمام من بعده روي عن قتادة أنه سئل عن سهم ذوي القربى، فقال: كان طعمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حيا فلما توفي جعل لولي الأمر من بعده. وقال العراقيون: سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مردود في الخمس، والخمس مقسوم على ثلاثة أسهم على اليتامى والمساكين وابن السبيل، ويقال لهم: سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سقط بموته فما الذي أسقط سهم ذوي القربى ولا يلزم من سقوط حق أحد المستحقين سقوط الآخرين.

وقال بعضهم: سهم النبي لقربة النبي صلى الله عليه وسلم، وقال قائلون: سهم القرابة

لقراءة الخليفة ، ثم اجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله ، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . وكانَّهما كانا يريدان أنَّ سهم ذوي القربى كان طعمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، وهو لا يورث «2» فجعلاهذين السهمين في سبيل الله .

رابعها : اليتامى ، وهم أطفال المسلمين الذين هلك آباؤهم .

خامسها : المساكين ، وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين .

سادسها : ابن السبيل ، وهو المجتاز سفرا قد انقطع به .

وقد خالفت المالكية هذه الأقوال المقدمة جميعها ، ورأوا أنَّ خمس الغنيمة

---

(1) في تفسيره جامع البيان المشهور بتفسير الطبري (5/10) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (3/1380) ، 32 - كتاب الجهاد ، 16 - باب قول

النبي صلى الله عليه وسلم : «لا نورث» حديث رقم (1752) ، والبخاري في الصحيح

(4/8) ، 85 - كتاب الفرائض ، 2 - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : «لا نورث»

حديث رقم (6725) .

يجعل في بيت المال ، ينفق منه على من ذكر ، وعلى غيرهم ، بحسب ما يراه الإمام ، وكانهم

رأوا أن ذكر هذه الأصناف على سبيل المثال ، وهو من باب الخاص أريد به العام .

وأصحاب الأقوال والمتقدمة رأوا أنه من باب الخاص أريد به الخاص .

روى ابن القاسم وأشهب وعبد الملك «1» عن مالك أن الفيء والخمس يجعلان في بيت

المال ، ويعطى الإمام قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما .

وروى ابن القاسم عن مالك أن الفيء والخمس واحد . والذي جعل المالكية يذهبون هذا

المذهب أخبار ثبتت في المغازي والسير :

1- روي في «الصحيح» «2» أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية قبل نجد

فأصابوا في سهمانهم اثني عشر بعيرا ، ونقلوا بعيرا بعيرا .

-2

ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال في أسارى بدر : لو كان المطعم بن عدي حيا وكلمني

في هؤلاء الننى لتركهم له «3» .

-3

ثبت أنه صلى الله عليه وسلم رد سبي هوازن وفيه الخمس «4» .

-4

روي في «الصحيح» «5» عن عبد الله بن مسعود قال : آثر النبي صلى الله عليه وسلم يوم

حنين أناسا في الغنيمة ، فأعطى الأقرع بن حابس مئة من الإبل ، وأعطى عيينة مئة من الإبل ، وأعطى أناسا من أشرف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة ، فقال رجل والله إن هذه القسمة ما عدل فيها أو ما أريد بها وجه الله . فقلت : والله لأخبرن النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : «يرحم الله أخي موسى لقد أودني بأكثر من هذا فصبر» .

- 5

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم» «6» .

فمن هذه الأحاديث تعلم أنه قد أعطي من الخمس للمؤلفة قلوبهم وليسوا ممن

---

(1) فقيه مالكي ، ومؤرخ ، أندلسي ، صاحب كتاب الواضحة ، انظر الأعلام للزركلي (157/4) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (3/68) ، 32 - كتاب الجهاد ، 12 - باب الأنفال حديث رقم (1749) ، والبخاري في الصحيح (4/66) ، 57 - كتاب الخمس ، 15 - باب ومن الدليل على أن الخمس حديث رقم (3134) .

(3) رواه البخاري في الصحيح (4/67) ، 57 - كتاب الخمس ، 16 - باب ما من النبي صلى الله عليه وسلم على أسارى حديث رقم (3139) .

(4) رواه البخاري في الصحيح (4/67) ، 57 - كتاب الخمس ، 15 - باب من

الدليل على أن الخمس حديث رقم (3131)، (3134).

(5) رواه مسلم في الصحيح (738/2)، 12 - كتاب الزكاة، 46 - باب إعطاء

المؤلفة حديث رقم (1062/139).

(6) رواه مسلم في الصحيح (1376/3)، 32 - كتاب الجهاد، 14 - باب التنفيل

حديث رقم (1756/47). [.....]

(197/304)

---

ذكر الله في التقسيم، وأنه قد رده على المجاهدين بأعيانهم، وأنه قد أعطى بعضه و كله :  
وهذا يدل على أن ذكر هذه الأصناف في الآية بيان لبعض المصارف، لا بيان استحقاق  
وملك إذ لو كان استحقاقا وملكا لما جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض  
الأحيان في غيرهم إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان  
والله على كل شيء قدير.

يقول الله : أيقنوا أنما غنمتم من شيء فقسمه كما بينت لكم ، فاقطعوا أطماعكم عما ليس  
لكم من الخمس إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم  
فرقنا بين الحق والباطل ببدر ، فأدلنا للمؤمنين من الكافرين ، وذلك يوم التقى الجمعان ، جمع

المؤمنين وجمع المشركين ، والله على ذلك وغيره قدير لا يمتنع عليه شيء أرادته .

قال الله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ  
أَوْوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ  
شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ  
مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ  
فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ  
أَوْوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ  
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ  
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75)

كان المؤمنون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أصناف :

الأول : المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى قبل غزوة بدر ، وربما تمتد أو يمتد  
حكمها إلى صلح الحديبية سنة ست .

الثاني : الأنصار .

الثالث : المؤمنون الذين لم يهاجروا .

الرابع : المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

وقد بين في هذه الآيات حكم كل منها ومكاتها فقال : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا

بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هَذَا هُوَ الصَّنْفُ الْأَوَّلُ وَهُوَ الْأَفْضَلُ الْأَكْمَلُ . وَقَدْ وَصَفَهُمْ  
بِالْإِيمَانِ - وَالْمَرَادُ بِهِ التَّصَدِيقُ - بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَوَصَفَهُمْ  
بِالْمُهَاجِرَةِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ فِرَارًا بِدِينِهِمْ مِنْ قِتْنَةِ الْمُشْرِكِينَ إِرْضَاءً لِلَّهِ تَعَالَى وَنَصْرًا  
لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَوَصَفَهُمْ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . فَالْجِهَادُ  
بِذَلِكَ الْجُهْدُ بِقَدْرِ الْوَسْعِ وَالطَّاقَةِ وَمُصَارَعَةُ الْمُشَاقِّ .

فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهُ بِالْأَمْوَالِ فَهُوَ قِسْمَانِ : إِيْجَابِيٌّ : وَهُوَ إِتْفَاقُهَا فِي التَّعَاوُنِ

(198/304)

---

وَالْمُهَاجِرَةِ ، ثُمَّ فِي الدِّفَاعِ عَنِ دِينِ اللَّهِ كَصَرْفِهَا لِلْكَرَاعِ وَالسَّلَاحِ ، وَعَلَى الْحَاوِيحِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ  
، وَسَلْبِيٌّ : وَهُوَ سُخَاءُ النَّفْسِ بِتَرْكِ مَا تَرْكُوهُ فِي وَطَنِهِمْ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْهُ وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهُ  
بِالنَّفْسِ فَهُوَ قِسْمَانِ أَيْضًا :

قِتَالُ الْأَعْدَاءِ وَعَدَمُ الْمُبَالَاةِ بِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعَدَدِهِمْ ، وَمَا كَانَ قَبْلَ إِجْبَابِ الْقِتَالِ مِنْ مَغَالِبَةِ  
الشَّدَائِدِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْإِضْطِهَادِ ، وَالْمُهَاجِرَةِ مِنَ الْبِلَادِ .

وَقَوْلُهُ : فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَيْلٌ : هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِجَاهِدِهَا وَقَيْدٌ لِنَوْعِي الْجِهَادِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ  
التَّنَازُعِ فِي الْعَمَلِ بَيْنَ هَاجِرٍ وَجَاهِدٍ . وَلَعَلَّ تَقْدِيمَ الْأَمْوَالِ عَلَى الْأَنْفُسِ لِمَا أَنَّ الْجَاهِدَةَ



بالأموال أكثر وقوعاً وأتمّ دفعا للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال .  
وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا هَذَا هُوَ الصَّنْفُ الثَّانِي فِي الْفَضْلِ كَالذِّكْرِ . وَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمُ الَّذِينَ آوَوْا  
الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَنَصَرُوهُمْ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ  
تَحْصُلْ فَائِذَةُ الْهَجْرَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ مَبْدَأُ الْقُوَّةِ وَالسِّيَادَةِ ، فَالْإِيوَاءُ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى التَّأْمِينِ مِنَ  
الْمَخَافَةِ ، إِذِ الْمَأْوَى هُوَ الْمَلْجَأُ وَالْمَأْمَنُ ، وَمِنْهُ إِذِ أَوْى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكُهْفِ [الكهف : 10]  
أَوْى إِلَيْهِ أَخَاهُ [يوسف : 69] وَقَدْ كَانَتْ يَثْرِبُ مَأْوَى وَمَلْجَأً لِلْمُهَاجِرِينَ ، شَارِكُهُمْ أَهْلُهَا  
فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَآثَرُوهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَكَانُوا أَنْصَارَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،  
يَقَاتِلُونَ مِنْ قَاتِلِهِ ، وَيَعَادُونَ مِنْ عَادَاهُ ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ حُكْمَهُمْ وَحُكْمَ الْمُهَاجِرِينَ وَاحِدًا  
فِي قَوْلِهِ : أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ أَيِ يَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ مِنْ أَمْرِ الْآخِرِينَ أَفْرَادًا أَوْ جَمَاعَاتٍ مَا  
يَتَوَلَّوْنَهُ مِنْ أَمْرِ أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ الْحَاجَةِ مِنْ تَعَاوُنٍ وَتَنَاصُرٍ فِي الْقِتَالِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْغَنَائِمِ ،  
وغير ذلك ، لِأَنَّ حَقُوقَهُمْ وَمَصَالِحَهُمْ مَشْتَرِكَةٌ ، حَتَّى إِنْ الْمُسْلِمِينَ يَرِثُونَ مِنْ لَأْ وَارِثَ لَهُ مِنَ  
الْأَقْرَابِ .

وقال بعض المفسرين : إن الولاية هنا خاصة بولاية الإرث ، لأن المسلمين كانوا يتوارثون في  
أول الأمر بالإسلام ، والهجرة دون القرابة ، بمعنى أن المسلم المقيم في البادية أو في مكة أو  
غيرها من بلاد الشرك لم يكن يرث المسلم الذي في المدينة وما في حكمها إلا إذا هاجر إليها  
، فيرث ممن بينه وبينه مؤاخاة من الأنصار ، وذلك أن المهاجري كان يرثه أخوه الأنصاري إذا

لم يكن له بالمدينة ولي مهاجري ، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجري ، واستمر ذلك إلى أن فتحت مكة ، وزال وجوب الهجرة ، وغلب حكم الإسلام ، فنسخ التوارث بالإسلام المصاحب للهجرة ، وهذا التخصيص باطل ، والمتعين أن يكون لفظ الأولياء عاما يشمل كل معنى يحتمله كما تقدم .

والمقام الذي نزلت فيه هذه الآية - بل السورة كلها - يأبى أن يكون المراد به حكما مدنيا من أحكام الأموال فقط ، فهي في الحرب ، وعلاقة المؤمنين بعضهم ببعض ،

(199/304)

---

وعلاقتهم بالكفار . وكل ما يصح في مسألة التوارث أنها داخلة في عموم هذه الولاية . وقال الأصم : الآية محكمة ، والمراد : الولاية بالنصرة والمظاهرة ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا هذا هو الصنف الثالث من أصناف المؤمنين ، وهم المقيمون في أرض الشرك تحت سلطان المشركين وحكمهم - وهي دار الحرب والشرك - بخلاف من يأسره الكفار من أهل دار الإسلام ، فله حكم أهل هذه الدار . وكان حكم غير المهاجرين أنه لا يثبت لهم شيء من ولاية المؤمنين الذين في دار الإسلام ، إذ لا سبيل إلى نصر أولئك لهم ، ولا إلى تنفيذ هؤلاء لأحكام الإسلام فيهم . والولاية حق

مشارك على سبيل التبادل ، ولكن الله خص من عموم الولاية المنفية الشامل لما ذكرنا من الأحكام شيئاً واحداً فقال : **وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ** فأثبت لهم حق نصرهم على الكفار إذا قاتلوهم أو اضطهدوهم لأجل دينهم .

وإن كانوا هم لا ينصرون أهل دار الإسلام لعجزهم ، ثم استثنى من هذا الحكم حالة واحدة . فقال : **إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ** يعني إنما يجب عليكم أن تنصروهم إذا استنصروكم في الدين على الكفار الحريين ، دون المعاهدين ، فهؤلاء يجب الوفاء بعهدهم ، لأن الإسلام لا يبيح الغدر والخيانة بنقض العهود .

وهذا الحكم من أركان سياسة الإسلام الخارجية العادلة والله بما تعملون بصيرٌ فلا تخالفوا أمره ، ولا تتجاوزوا ما حدّه لكم ، كيلا يحل عليكم عقابه .

**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** أي في النصرة والتعاون على قتال المسلمين ، فهم في جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين ، وإن كانوا مللا كثيرة يعادي بعضهم بعضا . وقيل : إن الولاية هنا ولاية الإرث كما قيل بذلك في ولاية المؤمنين فيما قبلها ، وجعلوه الأصل في عدم التوارث بين المسلمين والكفار . وفي إرث ملل الكفر بعضهم لبعض .

وقول بعض المفسرين : إن هذه الجملة تدل بمفهومها على نفي المؤازرة والمناصرة بين جميع الكفار وبين المسلمين ، وإيجاب المباحة والمصارمة وإن كانوا أقارب غير مسلمين ، لأن صلة الرحم عامة في الإسلام للمسلم والكافر كتحريم الخيانة . والأصح عند الشافعية أن

الكافر يرث الكافر ، وهو قول الحنفية والأكثر ، ومقابله عند مالك وأحمد . وعنهما التفرقة بين الذمي والحربي ، وكذا عند الشافعية .

وعن أبي حنيفة «1» لا يتوارث حربي من ذمي ، فإن كانا حربيين شرط أن يكونا من دار واحدة .

---

(1) انظر الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني ط 1 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1990 (2/610) .

(200/304)

---

وعند الشافعية لا فرق . وعندهم وجه كالحنفية ، إِلَّا تَعْلَوْهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ أَي إِن لَمْ تَفْعَلُوا مَا ذَكَرَ ، وَهُوَ مَا شَرَعَ لَكُمْ مِنْ وِلَايَةِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ، وَتَنَاصَرَكُمْ وَتَعَاوَنَكُمْ تَجَاهُ وِلَايَةِ الْكُفَّارِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ تَحْصُلُ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ فِيهَا : هِيَ ضَعْفُ الْإِيمَانِ ، وَظُهُورُ الْكُفْرِ بِتَخَاذُلِكُمْ وَفِشْلِكُمْ الْمَفْضِيِّ إِلَى ظَفْرِ الْكُفَّارِ بِكُمْ ، وَاضْطِهَادِكُمْ فِي دِينِكُمْ ، لَصَدِّكُمْ عَنْهُ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَهُوَ سَفْكَ الدَّمَاءِ عَلَى مَا رَوَى عَنْ الْحَسَنِ ، فَالْمُرَادُ فَسَادٌ كَبِيرٌ فِيهَا . وَقِيلَ : مَفْسَدَةٌ كَبِيرَةٌ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ

حقاً هذا ليس مكرراً مع ما تقدم، لأن مساق الأول لإيجاب التواصل بينهما، ومساق الثاني الثناء عليهم، والشهادة لهم بأنهم هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله، دون من أقام بدار الشرك مع حاجة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى هجرته، وأعاد وصفهم الأول لأنهم به كانوا أهلاً لهذه الشهادة، وما يليها من الجزاء المذكور في قوله: لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لَا يَقْدِرُ قَدْرُهَا وَرِزْقٌ كَرِيمٌ لَا تَبْعَةَ لَهُ وَلَا مَنَةَ فِيهِ.

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ هَذَا هُوَ الصَّنْفُ الرَّابِعُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ، وَهُمْ مِنْ تَأْخِرِ إِيْمَانِهِمْ وَهَجَرَتِهِمْ عَنِ الْهَجْرَةِ الْأُولَى، أَوْ عَنِ نَزْوْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ. فَيَكُونُ الْفِعْلُ الْمَاضِي آمَنُوا وَمَا بَعْدَهُ بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ، وَقِيلَ:

عَنْ يَوْمِ بَدْرٍ، وَقِيلَ: عَنْ صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَكَانَ سَنَةً سِتًّا. وَجَعَلَهُمْ تَبَعًا لَهُمْ وَعَدَّهُمْ مِنْهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ السَّابِقِينَ عَلَى الْآخِثِينَ.

وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أُولُوا الْأَرْحَامِ أَصْحَابُ الْقُرَابَةِ، وَهُوَ جَمْعُ رَحِمٍ كَكَتْفٍ وَقَلٍ. وَأَصْلُهُ رَحِمُ الْمَرْأَةِ الَّذِي هُوَ مَوْضِعُ تَكْوِينِ الْوَلَدِ مِنْ بَطْنِهَا، وَيُسَمَّى بِهِ الْأَقْرَابُ، لِأَنَّهُمْ فِي الْغَالِبِ مِنْ رَحِمٍ وَاحِدٍ. وَفِي إِصْطِلَاحِ عُلَمَاءِ الْفَرَائِضِ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْتَوْنَ بِفَرْضٍ وَلَا تَعْصِيبٍ.

وَالْمَعْنَى الْمَتَبَادِرُ مِنْ نَصِ الْآيَةِ أَنَّهَا فِي وِلَايَةِ الرَّحِمِ وَالْقُرَابَةِ بَعْدَ بَيَانِ وِلَايَةِ الْإِيْمَانِ وَالْهَجْرَةِ. فَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ أَجْدَرُ وَأَحَقُّ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

والأنصار الأجانب بالتناصر والتعاون . وكذا التوارث في دار الهجرة في عهد وجوب الهجرة . ثم في كل عهد هم أولى بذلك في كتاب الله أي في حكمه الذي كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذي القرباة في هذه الآية وغيرها .

وجملة القول إن أولوية أولي الأرحام بعضهم ببعض هو تفضيل لولايتهم على ما هو أعم منها من ولاية الإيمان وولاية الهجرة في عهدا . فالقريب أولى بقربه ذي رحمه المؤمن المهاجر والأنصاري من المؤمن الأجنبي . وأما قريبه الكافر فإن كان

(201/304)

---

محاربا للمؤمنين فالكفر مع القتال يقطعان له حقوق الرحم . ثم ختم الله هذه السورة بقوله :  
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فَهُوَ تَذِيلٌ لِّجَمِيعِ أَحْكَامِ السُّورَةِ وَحُكْمِهَا ، مَبِينٌ أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ لَا وَجْهَ  
لِنَسْخِهَا وَلَا نَقْضِهَا .

فالمعنى : أنه شرع لكم هذه الأحكام في الولاية العامة والخاصة والعهود وصلة الأرحام عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدينية والدنيوية .  
ما يستفاد من الآيات

- 1 - ثبوت ولاية النصره بين المؤمنين في دار الإسلام.
- 2 - عدم ثبوت ولاية النصره بين المؤمنين الذين في دار الإسلام والمؤمنين في دار الحرب أو خارج دار الإسلام إلا على من يقاتلهم لأجل دينهم ، فيجب نصرهم عليه إذا لم يكن بيننا وبينه ميثاق صلح وسلام بحيث يكون نصرهم عليه نقضا لميثاقه.
- 3 - ولاية الكفار بعضهم لبعض .
- 4 - أننا إذا لم نمتثل ما شرعه الله من تحقيق ولاية النصره بيننا بأن والينا الكفار أدى ذلك إلى ضعفنا ، وظهورهم علينا .
- 5 - أن ما شرعه الله سبحانه من أحكام القتال والغنائم وقواعد التشريع وسنن التكوين والاجتماع ، وأصول الحكم المتعلقة بالأنفس ومكارم الأخلاق والآداب ناشئ عن علم واسع شامل محيط بالمصالح الدينية والدنيوية والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس ص 429 . 440 ﴾

(202/304)

---

فصل في التفسير الموضوعي للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالي :

## سورة الأنفال

كانت هزيمة أحد مفاجأة لأصحابها ، وكان نصر بدر مفاجأة لأصحابه . والمفاجآت كلها ، سارها وضارها أصدق الامتحانات لكشف معادن النفوس ومعرفة المخبوء فيها . . !

وقد جاءت سورة الأنفال فى أعقاب انتصار المسلمين فى بدر لتبين عمل القدر وجهد البشر . فأبانت أن النصر الذى أعز الله به المسلمين كان مكافأة سماوية على صبر السنين الماضية . وأن الرجال الذين خاضوا المعركة كانوا أدوات لتحقيق الآية الكريمة " كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز " . ولذلك بدأت السورة فقطعت تعلق المسلمين بالغنائم ، وجعلت توزيعها لله ورسوله . فلامعنى للدعوى ولا للنزاع فى خير ساقه الله إلى طائفة من عباده " ليحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين " ! ! وكان الاهتمام الأول لإظهار أن الرجولة مواقف ، وأن للإيمان أمارات تبعث على سير معينة " إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون \* الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون \* أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . . . " . تأمل فى آيات الإيمان هنا . . . إنها ذكر ووجل وقراءة وتوكل ونفقة . . لكننا فى آخر السورة نجد أن للإيمان الحق أمارات أخرى . قال تعالى " والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا " إنه هجرة وجهاد وإيواء ونصرة ، هذا هو الإيمان الحق . وفى سورة أخرى يقول تعالى " إنما



المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله  
أولئك هم الصادقون " .

(203/304)

---

هنا تنويه باليقين الذي لا يتزلزل والإنفاق الذي لا ينقطع ، إنه الجهاد بالنفس والنفيس . .  
وفي سورة أخرى " إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم  
يذهبوا حتى يستأذنوه . . " . ظاهر من هذه التعريفات الكثيرة أن الرجولة مواقف شتى لا  
موقف واحد ، وأن للإيمان مطالب مفروضة تتباين بتباين الأحوال والأوقات . . وأنه لا  
يجوز أن يتخلف مطلب في حينه ومناسبته . . وأن المسلمين إذا قيل لهم دعوا أمر الغنائم  
الآن فسوف يحكم الله فيها وجب أن يستجيبوا فمصالحتهم في الاستسلام لأمر الله . وقد  
أمرهم رسول الله بالتصدي للمشركين في المعركة التي فرضت عليهم بغتة فماذا  
حدث ؟ . كان فريق منهم يحسب القتال خطة سيئة ، ويرى أن المسلمين لم يستعدوا له .  
ومن الممكن الانتظار واستنفار بقايا المسلمين في المدينة ليواجهوا جميعا المعركة التي لم  
تكن في الحسبان . لكن النبي الكريم علم أن مكانة الإسلام ستتهز إذا لم يقبل التحدي ،  
وشعر بأن الله لن يخذله في هذا الموقف المحرج وعرض الموقف على جماعة المقاتلين

فقررُوا منازلة العدو! "كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون  
\* يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ". كان النبي عليه  
الصلاة والسلام مؤملا في أن الله لن يرد المسلمين خائبين وقد أشعر بهذا الأمل حين قال "  
وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم - العير أو النفير - وتودون أن غير ذات الشوكة  
تكون لكم " يحبون الغنيمة الباردة! ولكن الله يريد أمرا آخر كشف عنه القتال وجعل  
الأحداث تتدافع إليه " ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ". وطباع الناس إذا  
دهمتهم محنة فوق طاقتهم أن يفتعوا إلى الخالق الأعلى مستغيثين . وذلك ما وقع عندما  
رأى المسلمون إعداد العدو وتفوقه عددا وسلاحا . " إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم  
أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين " .

(204/304)

---

وملك واحد يكفى لحصد المشركين ، ولكن الله أراد طمأنة عباده بذكر العدد ، " وما  
جعله الله إلا بشرى وتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم " .  
وقد اجتهد النبي عليه الصلاة والسلام في الدعاء " اللهم نصرك الذى وعدتني ! اللهم إن  
تهلك هذه العصاة من المؤمنين فلن تعبد فى الأرض " . وكان يناشد الله بجرارة واستغراق

رافعا ذراعيه إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه وكان أبو بكر خلفه يقول: يا رسول الله بعض مناشدتك لربك ، إن الله منجز ما وعدك . . ولم ينته الرسول من دعائه حتى أعلمه الله بمصارع القوم . . ويتساءل العلماء هنا عن قلق أبي بكر في الغار - أثناء الهجرة - حتى كان الرسول هو الذي يثبته ، وعن موقفه الواثق في معركة بدر يطمئن الرسول ويهدئه ؟؟ والجواب أن عبودية الرسول أوضح وأرسخ من عبودية الأمة كلها . كان في الهجرة فارغ اليد من أسباب النصر فاطمأن إلى أن الله معه يرعاه ويحفظه . أما في بدر فمعه جيش ، وإن كان ضعيفا فقد يعتمد عليه ! فرأى النبي الكريم أن يبرأ من حوله وطوله ، وأن يلجأ إلى الدعاء طالبا من الله النجدة ، منتظرا منه وحده النصر . . وهنا تدخلت أسباب السماء ، فنزل ! مطر ثبت الرمال تحت أقدامهم ، ونامت العيون القلقة ، واختفت الوسواس . وربط الله على القلوب ودب الرعب في نفوس الكثرة المشركة ، فقاتلت أسوأ قتال . واختفت صفوفها تحت مطارق هزيمة لم تخطر ببال !! " ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب " . لكن النصر الإلهي لا يستحقه من يفرط في الأسباب المعتادة ، وأول هذه الأسباب شجاعة تغرى بالإقدام ما تهاب الردى ، وتؤثر ما عند الله فهي تركز الدنيا رغبة في الآخرة . ونحن بلاريب بشر تربطنا بالحياة أو اصر متينة ، ويعجبني تصوير فرسان العرب لهذه المواقف وهم مقبلون على

الموت ! ! يقول عمرو بن معدى كرب: ولقد أحملها كارهة حين للنفس من الموت هدير ! !

ويقول: فجاشت إلى النفس أول مرة

(205/304)

فردت

على مكروهاها فاستقرت ! !

ويقول آخر: أقول لها إذا جشأت وجاشت ! مكانك تحمدى أو تستريحي ! ! وذاك هو

السرفى هذه الآية " يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار " .

قاوم حب العيش ، واطلب الموت توهب لك الحياة ! أومت شهيدا كهذا الذى قيل فيه:

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر ! إن القلة الشجاعة

فى بدر كشفت أن الكثرة المشركة سراب ، وبددت شملها فى الصحراء ، فهى بين قتيل

وأسير ! كيف حدث هذا ؟ يقول الله سبحانه مبينا صنيعه " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم

وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم " .

إن الخطة التى رسمها القدر استدرجت جبايرة مكة إلى مصارعهم ، ما أغنى عنهم عدد

ولا عدة ، أما القلة التى استعانت بالله واستنزلت نصره فقد فازت فوزا عظيما . فى

سورة الأنفال ستة نداءات صارمة تحتاج إلى تأمل! إن الأسلوب لم يتجه إلى تهنة المنتصرين بما أتيح لهم من نصر، بل اصطبغ بالشدة والتأديب وقمع الغرور! من هذه النداءات الستة نداءان يطلب الثبات ورفض الفرار وتوعد عليه بعضائم الأمور. والصحابة ما فر منهم أحد أو فكر في فرار. ويبدو لي أن الطابع الشديد للوحي، في أعقاب النصر الواقع، يرجع إلى إبراز دور القدر فيما ناله المسلمون من ظفر، وإلى استنكار التطلع إلى الغنائم والتنازع عليها، وإلى الاحتياط ألا يقع مثل ما وقع في أحد بعد ذلك! وقد وصف الله المشركين بما هم أهله، ومع كل وصف ورد نجد نصحا للمسلمين ألا يشبهوا القوم وأن يكون مستواهم أعلى! لقد وصف الله الكفار بأنهم دواب لا تعي ولا تعقل، وأنها تعيش في نطاق غرائزها لا تعدوه. وأن الطمس الذي شملهم جعلهم لا يسمعون شيئا مما يقال لهم.

(206/304)

---

ولو سمعوا وعرفوا ما يطالبون به فإن الكبر المسيطر عليهم يمنعهم من الاستجابة. وقد نادى الله المسلمين قبل هذا الوصف الذميمة ألا يشبهوا الكافرين! "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأتمتعوا سمعون\* ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون" لا شك أن هذا تأديب شديد للمنتصرين. . . وبعد وصف المشركين بالحيوانية

فى قوله "إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . . . " . اتجه الخطاب إلى المسلمين ليرتفعوا عن هذا الدرك الذى هوى إليه عدوهم . " يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . . . " . ومضى هذا التأديب فى سياق حافل بالندرة ملئ بالوعيد المقلق ! مثل قوله تعالى "واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه . . . " وقوله "وانتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب " . هذا هو التعليق على النصر بعد خمس عشرة سنة من الآلام ! ! علام يدل ذلك ؟ على أن سائق النصر لعباده يرفض أى شبهة من غرور أو خيلاء ، إن الله هو الذى أذل الكفر وأهله ، هو يؤدب المسلمين المنتصرين بأدبه حتى لا تسكرهم خمرة النصر ، فيسيروا بين الناس مستكبرين . ولذلك يقول لهم " واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يخطفكم الناس فأوآكم وأيدكم بنصره وورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون " إنه - جل شأنه - ذكرهم بما كانوا فيه من هوان وذل حتى يحوكل ذرة من جاه أو تطلع إلى مال . ثم وجه إليهم هذا التحذير القوى " يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون \* واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم " . فى جميع المعارك القديمة والحديثة يعود المنتصرون مزهوين ، تنشر فوق رؤوسهم الورود ، وتغتفر لهم الخطايا ، وتكال لهم المدائح .

---

أما المنتصرون في أول معركة كبيرة بين التوحيد والشرك ، بين العقل والحماقة ، بين الحرية الدينية والاستبداد الأعمى فإن كتاب الإسلام يوجه لهم النصائح ، ويعلمهم الاعتدال . . ونحن نسوق هذا الدرس للمستشرقين الذين عميت قلوبهم فحسبوا " بدرًا " أول المظاهر لعنفوان الإسلام وعدوانه . . . . ! وعاد السياق إلى ما قبل بدر أو إلى ما قبل الهجرة ليشرح كيد المشركين للإسلام ونبيه . لقد كان رسول الله بأمر ربه يقول لهؤلاء الكفار: " قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون \* قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم " . فماذا كان موقفهم ؟ الاضطهاد العام والتهديد للرسول نفسه بالسجن أو القتل أو النفي " وإذ يكره بك الذين كفروا ليشتكوا أو يفتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين " . والمفروض أن الناس إذا تحيروا وتشابهت أمامهم الطرق أن يقولوا: " اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه . وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه " ولكن هؤلاء الجبابرة يقولون " اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم " . إن الكفر فنون شتى ، وهناك كفر دون كفر ! ولعل أقبح أنواع الكفر وأجدرها بالنكال إنكار الألوهية بالله ! يليها الشرك بالله والزعيم بأن الله أولادا . وهناك رؤساء للكفر يعبدون أنفسهم في ظل التعطيل والتعديد . وولاؤهم للكفر باق ما بقيت لهم شهواتهم وأهواؤهم التي يقدمونها على كل شيء . وهناك دهماء تعتقد صحة ما تفعل

وتخلص لله "أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً . . . " . وقد كان في مشركي العرب من يظن مخلصاً أن الأصنام تنفع وتضر ، وأنها مفاتيح لله الأكبر ! والمعروف أن الأنبياء دعاء إلى التوحيد الخالص ، وهم محتاجون إلى زمن يعالجون فيه هذه الأخطا الشاردة ، ولذلك يقول الله لنبيه " وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم - تجتهد في تبصرتهم - وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون "

(208/304)

---

هل يعنى موقفهم هذا أنهم لا يستحقون العذاب ؟ كلا ، إنهم ظلمة للناس ولأنفسهم " وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياءه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون " . إن عبادتهم المغشوشة لا تجديهم ، وعبثهم حول الكعبة لا يسقى عبادة ، إنه صفيرو صدى يتجاوب بالشرك ، والطائفون الحقيقيون حول الكعبة هم الذين يذكرون الله وحده ، ويحيونه بالباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . . . والمشركون لا يفعلون شيئاً من هذا . . . إنهم بذلوا جهودهم في حرب التوحيد ، وأنفقوا أموالاً طائلة في التآلب عليه والإحاطة به وهيئات أن يفلحوا . " إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم



يغلبون " . وها هم أولاء قد غلبوا وحقت بهم هزيمة ما حقة فماذا هم صانعون ؟ . هنا يعرض الرسول عليهم التوبة ، والانتها عن الكفر والفتنة ، وعندئذ يعيشون موفورين " قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين " . إن المصرين على الظلم لن يجنوا إلا الندم ، وقد هلكت من قبل عاد وثمود وخير لقريش أن تتوب ، وإلا استؤنف القتال حتى تنقطع الفتن ، وتستقر حرية الدين " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . . " . \* \* \* \* \* التوى السياق بالمطلعين إلى الغنائم ، وتجاوز تنازعهم فيها ، ووجه إليهم نداءات متتابعة أن يستقيموا على منطق الإيمان والفداء الذي التزموا له منذ خرجوا للقتال . وبعدئذ نزلت الآية بتخميس الأنفال فجعلت خمسا في وجوه الخير وتركت الأربعة أخماس الباقية للمقاتلين " واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسته وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . " الخ وظاهر من سيرة الرسول وصحابته أن هذا التخميس ليس حكما دائما لازما .

(209/304)

---

فقد خضعت الغنائم لتقسيمات أخرى مناسبة ، آخرها ما وقع في أرض السواد ومصر وغيرهما على نحو ما فعل عمر ! وقضية الغنائم تحتاج إلى تعليق مهم ، فإن السلف الأول

كانوا يجاهدون متطوعين لا ينالون أجرا . وكان الذي يخرج من بيته يشتري سلاحه من ماله الخاص ، ويدع لأهل بيته نفقاتهم من جهده وحده . ويتعهد عدته للقتال دون انتظار عون من حكومة قائمة ! ! فهل جعل الغنائم للمقاتلين - والحالة هذه - يعتبر عملا مستغرابا ؟ إنه مسلك معقول . لكن إذا تغيرت الأوضاع وأنشئ جيش منظم ، ودفعت رواتب للجنود ووضع في أيديهم السلاح ، وضمنت مداواة الجرحى وكفالة الشهداء فلا لوم على الدولة إذا تصرفت في الغنائم بأسلوب آخر . ! ونلاحظ أن آية الغنائم جاءت معترضة بين أمرين . الأول وصف عدوان الكافرين الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ويبدلون قصاراهم لفتنة المستضعفين ، وفرض ضلالتهم بالسلاح ! والثاني وصف الهدية التي ساقها القدر إلى المسلمين حينما يسر لهم نصرا غالبا لم تكن لهم يد في ترتيب مقدماته " إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم " . وظاهر أن الله تبارك اسمه قمع كبرياء الجاهلية بضربة لم تخطر ببال أفقدت المشركين رشدهم ، وبعثرتهم خزايا فوق رمال الصحراء ! وشدت أصلاب المسلمين ونضرت وجوههم وعوضتهم في ساعة ما عانوه خلال خمس عشرة سنة ! لقد كان يوم بدر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، جمع التوحيد وجمع الشرك ، فأذل

الله معاطس طالما استكبرت بالباطل وأنعش مؤمنين طالما صابروا الليالي المعنتة! ثم جاء بعد هذا العرض للوقائع النداء السادس في سورة الأنفال، وهو النداء الأخير.

(210/304)

---

وقد تضمنت نصائح لبلوغ النصر، واستدامته! قالوا. إن بلوغ القمة يحتاج إلى جهد كبير ولكن التربع فوقها وطول المكث فيها يحتاج إلى جهد أكبر. ولعل ذلك ما تقصده الآية الكريمة وهي تخصي ضمانات النصر وحوافظه على مر الأيام. قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا (1) إذا لقيتم فئة فاثبتوا (2) واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (3) \* وأطيعوا الله ورسوله (4) ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم (5) واصبروا إن الله مع الصابرين (6) \* ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله . . . . " . والثبات حين البأس يتطلب نفسا مفعمة باليقين والتضحية ويعجبني قول الشاعر: وقد كان فوت الموت سهلا فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر . . . !! وقد كان عبد الله بن رواحة نموذجا نبيلًا وهو يكبح نوازع الحياة في دمه ويرغم النفس على شرف الفداء وملاقة الردى قائلا: يا نفس إلا تقلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلى فعلهما هديت . . ! يقصد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب

وقد استشهدا قبله ، وكانا أميري الجيش في مواجهة الرومان . فلحق بهما ثابتا كريما  
واجتمع الثلاثة في ديار النعيم في الجوار الكريم ! ! وذكر الله الشعور بقرب لقاءه وأن  
المصير إليه والكفاح من أجله . وإذا كان المرء قلقا على فراق أحبة يغادرهم فإن الله من  
بعده هو متوليهم وكافلهم . . وطاعة الله ورسوله لا بد منها لإحراز النصر ودوامه . وإذا  
كان أعداء الإسلام يعصون ربا لا يعرفونه ولا يوقرونه فحري بالمسلمين أن يلزموا الطاعة  
ويحذروا المخالفة وأن يتقوا النار التي أعدت للكافرين . وقد كان عمر بن الخطاب يوصي  
جنده وهم يقا تلون الفرس بالبعد عن المعاصي ويقول لهم إنه لا يخاف عليهم كيد عدوهم  
قدر ما يخاف عليهم تسلل المعاصي إليهم .

(211/304)

---

فإنهم إذا استووا والكفار في المعصية وكلهم الله إلى أنفسهم وهم أقل عددا وأضعف عدة  
فتحقيق الهزيمة بهم . . ! ! وأنا أستشعر الأسى عندما أرى أخلاقنا أضعف من عدونا ،  
ومسالكتنا أردأ فأنى نتصر ؟ ثم تجيء وحدة الكلمة والابتعاد عن أسباب النزاع ! !  
والمسلمون اليوم خمس العالم ، وأرضهم مستنقع لجراثيم الفرقة كلها ، فهم سبعون حزبا  
بأسهم بينهم شديد ، على حين ترى اليهود - وهم عشر معشارهم - قد وحدوا صفهم ،

وقاتلونا جبهة متساندة متعاضة فنالوا منا وما نلنا منهم شيئاً . وحاصروا المسجد الأقصى ونحن مشغولون بأنفسنا وقضايانا ، فذهبت ريحنا وقل حدنا . . ! أما الصبر فهو على الطاعة ، وعن المعصية ومع تتابع الأرزاء ! ولن تطيق الصبر شعوب تبحث عن الشهوات وتألف الأهواء ! ! وأخيراً فإن القتال الإسلامي شرطه الأول أن يكون في سبيل الله ، أما القتال الذي أفته شتى الحكومات فهو قتال عصبية ، وبجث عن الحطام وإعلاء لكلمة الطاغوت ، واستغلال للمستضعفين في الأرض ، فلا عجب أن تكون مصارع هؤلاء ، في معاركهم على نحو ما وصف الله . " ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق \* ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد " . وسير الطغاة متشابهة ومصايرهم واحدة " كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب " . إن العصور تختلف ولكن سنة الله واحدة في الأولين والآخرين .

(212/304)

---

قال رجل جاهلي يرثي أولاده الذين قتلوا في معركة بدر: الأقد ساد بعدهم أناس ولولا يوم بدر لم يسودوا ! ! نعم ، كان يوم بدر له ما بعده ، فقد ارتفعت كفة المسلمين وانخفضت

كفة المشركين وزال عنهم ما كانوا فيه من كبرياء وخفض عيش! إن أيام النعمة لم تزدهم إلا عتوا وصلفا فلنزل هذه النعمة وليفقدوا سنادهم على الظلم "وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون" وهكذا يصنع الله بكل من جحدوا الفضل وكفروا العطاء من الأولين أو الآخرين. "ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". إن الشكر قيد النعم وحافظها فإذا انفك القيد طارت النعم في كل فج. ويتأكد هذا المعنى فيما وجه إلى أسرى بدر من توجيه حاسم: "يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم \* وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم". ويشبه اليهود المشركين في العقوق وكفران النعمة والعيش على ما يحلو لهم ونسيان قلب الليالي. فهم لا يوفون إلا إذا كان الوفاء منفعة لهم فإن لم يكن مجدياً عليهم نكثوا. ولذلك نزل فيهم قوله تعالى "إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون" \* الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون" وهؤلاء لا يصحون من غمرتهم إلا تحت سياط الهزيمة الموجهة ولذلك قيل للرسول: اضرب من يلقاك ضربة تخيف من وراءه...!

(213/304)

---

"فأما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون \* وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين " . وما دام الظلم لا يردع إلا بالسيف فليحمل المسلمون السيف ! وما دام الإنصاف لا يتحقق إلا بالقتل فليخض المسلمون المعارك ! حتى يرتفع لواء العدالة . . ! إننا حراس على السلام وفي ظله نبلي رسالتنا وافرین فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . لكن ما العمل إذا كمت أفواهنا ، بل إذا أوجع المسلم خسفا حتى يترك دينه ؟ ما بد إذن من قتال ! والمثير أن فوارق العدد لا وزن لها في هذا القتال ، فالقلة تصدى للكثرة . والواحد يثبت أمام العشرة . والسبب أن الله ظهير للمؤمن إذا قاتل ، فهو عندما يضرب تضرب معه قوى الأرض والسماء ، إنه عطاء لقدرة الله المنتقم من أعدائه بعدما توقعوا وتبحخوا . وهذا معنى الآيات " يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون " . وأنا مع المحققين في أن هذا هو الحكم الأصلي الثابت الدائم . وأن الثبات أمام اثنين هو عند الضعف الطارئ أو الظرف العارض المخفف . فإذا زال رجع الحكم إلى أصله وهو تصدى الواحد لعشرة ! ! وذلك معنى قوله تعالى " الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين " . وفي الحروب العادية يستطيع

بعض الجنود المتحصنين فى معاقلهم أن يقاوموا جيشا جرارا . وفى حرب العبور الأخيرة استطاعت ثلة من الجنود المشاة أن تمزق فرقة من المدرعات اليهودية . وعلمت أن جنديا مصريا أوهم العدو أن معه قبلة يدوية ورفع ذراعه مستعدا للهجوم فرفع الجنود اليهود أيديهم مسلمين وقادهم أمامه أسرى ! ! إن الروح المعنوية للمقاتل الفدائى تجعل الواحد جمعا . .

(214/304)

---

"كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" . . وختمت سورة الأنفال بآيات شرحت الرباط الذى يشد العالم الإسلامى . على تنائى أطرافه . ويجعله جسدا واحدا إذا اشتكى بعضه اشتكى كله . هذا الرباط هو الأخوة المشتركة فى نصررة رسالة واحدة ! إن الدين رحم بين أهله لا يجوز قطعها والمسلمون أمة واحدة يسعى بدمتهم أديانهم وهم يد على من سواهم . وعدد المسلمين اليوم يماثل عدد أهل الصين نحو مليار ومائتى مليون إنسان . فهل الأخوة الإسلامية تربط بين المسلمين كما تربط القومية الصينية بين الصينيين ؟ الذين تمثلهم دولة واحدة لها صوت فى مجلس الأمن إذا اعترض قرارا وقفه ؟ وواجه الدنيا بموقف حاسم ؟ . يقول الله تعالى فى خواتيم هذه السورة "إن الذين



آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . . . " . لقد تحلفوا عن قضية مصيرية فلاحق لهم في نصره . . أما الكافرون فهم على اختلاف مللهم أمة واحدة ينبغي أن يروا منا وجها واحدا وفكرا واحدا " والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير " . والغريب أن الأمة التي يجب أن تدور أمورها على محور واحد تقطعت في الأرض أما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك . وهي تضم الآن نحو سبعين جنسية لكل جنسية رايتها المميزة ! ! فهل تتساند في نصره قضاياها أم تتخاذل ؟ إن المسلمين في هيئة الأمم أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، بل قد رأينا مسلمين يصارحون بأن نداء الإيمان لا يعينهم ، ولا يستجيبون له ولا يحفون لطاعته ! ! وفشت بدعة التعصب للقوميات ، وآخر الجروح الدامية في كياننا المشخن بدعة التعصب للقومية العربية أو البعث العربي بعد تجريد العروبة من الإسلام ! !

(215/304)

---

وماذا تساوى العروبة إذا فرغت من الإسلام ؟ . وذلك كله يقع في أيام نحسات استيقظ فيها بنو إسرائيل وجعلوا التعصب لنحلهم أساس الحياة ، ووالتهم الصليبية العالمية

واعتبرت أطماعهم فى بيت المقدس والأرض المقدسة مسلكا لا غبار عليه ولا مكان  
لاعتراضه . إنه لا حل لمشكلاتنا إلا بإعادة الإيمان إلى مكاتته فى أوضاعنا المحلية  
والعالمية على سواء . . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى ص 127 .

﴿ 140

(216/304)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب : الحاوى فى تفسير القرآن الكريم  
ويسمى ( جنة المشتاق فى تفسير كلام الملك الخلاق )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورسُلى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/305)

---

الجزء الخامس بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الأنفال

وحتى الآية ﴿ 4 ﴾ من نفس السورة

(4/305)

---

(في رياض آيات السورة الكريمة)

(5/305)

---

## "فصل"

قال السيوطي :

### سورة الأنفال

اعلم أن وضع هذه السورة وبراءة هنا ليس بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم  
والصحابه ، كما هو الراجح في سائر السور ، بل اجتهاد من عثمان رضي الله عنه وقد كان  
يظهر في بادئ الرأي : أن المناسب إيلاء الأعراف بيونس وهود ، لاشتراك كل في اشتغالها  
على قصص الأنبياء ، وأنها مكية النزول ، خصوصاً أن الحديث ورد في فضل السبع  
الطوال ، وعدوا السابعة يونس ، وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقي في الدلائل ففي  
فصلها من الأعراف بسورتين هما الأنفال ، بالنسبة إلى الأعراف وبراءة وقد استشكل ابن  
عباس حبر الأمة قديماً ذلك فأخرج أحمد وأبوداود والترمذي والنسائي وابن حبان  
والحاكم عن ابن عباس قال قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من  
المثاني وإلى براءة وهي من المثني ، فقرتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن  
الرحيم ، ووضعتموها في السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب ،  
فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما  
نزل ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها

، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما  
ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها في السبع الطوال

(6/305)

---

فانظر إلى ابن عباس رضي الله عنه ، كيف استشكل علي عثمان رضي الله عنه أمرين :  
وضع الأنفال وبراءة في أثناء السبع الطوال ، مفصلاً بهما بين السادسة والسابعة ، ووضع  
الأنفال وهي قصيرة مع السور الطويلة وانظر كيف أجاب عثمان رضي الله عنه أولاً بأنه لم  
يكن عنده في ذلك توقيف ، فإنه استند إلى اجتهاد ، وأنه قرن بين الأنفال وبراءة لكونها  
شبيهة بقصتها في اشتغال كل منهما على القتال ، وبند العهود ، وهذه وجه بين المناسبة  
جلى ، فرضى الله عن الصحابة ، ما أدق أفهامهم ! ما أدق أفهامهم ! وأجزل آراءهم !  
وأعظم أحلامهم ! وأقول : يتم بيان مقصد عثمان رضي الله عنه في ذلك بأمر فتح الله  
بها : الأول : أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها ، لكونها مشتملة على البسمة ، فقدمها  
لتكون لفظة منها ، وتكون براءة مجلوها منها كتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من  
السلف : إن الأنفال وبراءة سورة واحدة ، لا سورتان الثاني : أنه وضع براءة هنا لمناسبة  
الطول ، فإنه ليس في القرآن بعد الأعراف أنسب ليونس طولاً منها ، وذلك كاف في

المناسبة الثالث: أنه خلل بالسورتين الأنفال وبراءة أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها في العصر الأول، للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف، وإلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض قبل أن يبين محلهما، فوضعا كالموضع المستعار بين السبع الطوال، بخلاف ما لو وضعتا بعد السبع الطوال، فإنه كان يوهم أن ذلك محلهما بتوقيف، وترتيب السبع الطوال يرشد إلى دفع هذه الوهم فانظر إلى هذه الدقيقة التي فتح الله بها، ولا يغوص عليها إلا غواص الرابع: أنه لو أخرهما وقدم يونس، وأتى بعد براءة بهود، كما في مصحف أبي بن كعب، لمراعاة مناسبة السبع الطوال، وإيلاء بعضها بعضاً، لفات مع ما أشرنا إليه أمر آخر أكد في المناسبة فإن الأولى بسورة يونس أن تولى بالسور الخمس التي بعدها، لما اشتركت فيه من الاشتمال على القصص، ومن الافتتاح بالذكر، وبذكر الكتاب، ومن كونها

(7/305)

---

مكيات، ومن تناسب ما عدا الحجر في المقدار وبالتسمية باسم نبي، والرعد إسم ملك، وهو مناسب لأسماء الأنبياء فهذه سنة وجوه في مناسبة الاتصال بين يونس وما بعدها، وهي أكثر من ذلك الوجه السابق في تقديم يونس بعد الأعراف ولبعض هذه الأمور قدمت سورة الحجر على النحل، مع كونها أقصر منها ولو آخرت براءة عن هذه السور الست

المناسبة جداً بطولها لجاءت بعد عشر سور أقصر منها بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر ، فإنها ليست كبراءة في الطول ويشهد لمراعاة الفواتح في مناسبة الوضع ما ذكرنا من تقديم الحجر على النحل لمناسبة ذوات (الر) قبلها ، وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء وإن كانت أقصر منها لمناسبة البقرة ، مع الافتتاح ب (الم) ، وتوالى الطواسين والحواميم ، وتوالى العنكبوت والروم والقمر والسجدة ، لافتتاح كل ب (الم) ، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التي هي أطول منها هذا ما فتح الله به وأما ابن مسعود فقدم في مصحفه البقرة على النساء ، وآل عمران ، والأعراف ، والأنعام ، والمائدة ، ويونس ، فراعى الطوال ، وقدم الأطوال فالأطول ثم ثنى بالمئين ، فقدم براءة ، ثم النحل ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الكهف وهكذا الأطول فالأطول ، وذكر الأنفال بعد النور ووجه مناسبتها لها: أن كلامهما مدنية ، ومشملة على أحكام ، وأن في النور (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) وفي الأنفال (واذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض تخافون) ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة ، فإن الأولى مشتملة على الوعد بما حصل ، وذكر به في الثانية فتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أسرار ترتيب القرآن ص 103. 106 ﴾

قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

"سورة الأنفال"

وتسمى الجهاد (بسم الله) أي الذي له جميع الحول والقوة والطول (الرحمن) الذي أحاط دائرة العقل بشموس الأدلة من كل منقول (الرحيم) الذي منّ على من شاء من الأتباع؛ ومقصد هذه السورة تبرؤ العباد من الحول والقوة، وحثهم على التسليم لأمر الله المشر لاجتماع الكلمة المشر لنصر الدين وإذلال المفسدين المنتج لكل خير، والجامع لذلك كله أنه لما ثبت بالسور الماضية وجوب اتباع أمر الإله والاجتماع عليه لما ثبت من تفرده واقتداره، كان مقصود هذه إيجاب اتباع الداعي إليه بغاية الإذغان والتسليم والرضى والتبرؤ من كل حول وقوة إلى من انعم بذلك ولو شاء سلبه وأدل ما فيها على هذا قصة الأنفال التي اختلفوا في امرها وتنازعوا قسمها فمنعهم الله منها وكف عنهم حظوظ الأنفس والزمهم الإخبات والتواضع، وأعطاه نبيه (صلى الله عليه وسلم) لأنه الذي هزمهم بما



(9/305)

---

رمى من الخصبات التي خرق الله فيها العادة بأن بثها في أعين جميعهم وبما أرسل من جنوده ،  
فكان الأمر له وحده ، يمنحه من يشاء ، ثم لما صار له النبي (صلى الله عليه وسلم) ، رده  
فيهم منة منه عليهم وإحساناً إليهم ، واسمها الجهاد كذلك لأن الكفار دائماً أضعاف  
المسلمين ، وما جاهد قوم من أهل الإسلام قط إلا أكثر منهم ، وتجب مصابرة الضعف ، فلو  
كان النظر إلى غير قوته سبحانه ما أطبق ذلك ، ولهذا المقاصد سنت قراءتها في الجهاد  
لتنشيط المؤمنين للجلاد ، وإن كثرت من الأعداء الجموع والأعداد ، وتوالت إليهم زمر  
الأمم من سائر العباد ، كما ذكره الحافظ أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي  
المغربي في فتوح البلاد من كتابه الاكتفاء في سيرة المصطفى وأصحابه الثلاثة الخلفاء ، وكذا  
شيخنا الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن حبيش في كتابه الذي جمعه في الفتوح ،  
قالا وقعه اليرموك من فتوح الشام عن حديث سيف بن عمر وهذا لفظ ابن سالم : قال :  
وكان القارئ يوم ذاك المقداد ، قالوا : ومن السنة

(10/305)

---

التي سن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد بدر أن نقرأ سورة الجهاد عند اللقاء ،  
وهي سورة الأنفال ، ولم ينزل الناس بعد على ذلك ؛ قالوا في وقعه القادسية من فتوح فارس  
واللفظ لابن سالم أيضاً قالوا : ولما صلى سعد - يعني ابن أبي وقاص - رضي الله عنه  
الظهر أمر غلاماً كان عمر رضي الله عنه ألزمه إياه وكان من القراءة يقرأ سورة الجهاد ، وكان  
المسلمون كلهم إذ ذاك يتعلمونها فقرأها على الكتيبة التي تليه ، وقرئت في كل كتيبة ،  
فهشت قلوب الناس وعرفوا السكينة مع قراءتها ، قال مصعب بن سعيد : وكانت قراءتها  
سنة يقرأها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند الزخرف ويستقرئها ، فعمل الناس  
بذلك - انتهى .

(11/305)

---

ومناسبتها للأعراف انه لما ذكر تعالى - كما تقدم - قصص الأنبياء عليهم السلام مع أمهم في  
تلك ، ناسب أن يذكر قصة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مع قومه ، وتقدم أنه لما  
أطرب سبحانه في قصة موسى عليه السلام كان ذلك ربما أوهم تفضيله على الجميع ، فأتى  
بقصة المخاطب بهذا القرآن في سورتين كاملتين ، الأنفال في أول أمره وأثانه ، وبراءة في ختام  
أمره وانتهائه ، وفرق بين القصتين ، وذلك أن قوم مقوسى عليه السلام كانوا في سوء العذاب

، وكانوا يعلمون عن اسلافهم أن الله سيدكرهم وينجيهم من أيدي القبط ، فلما أتاهم  
موسى عليه السلام وبين لهم الآيات التي أمره الله بها لم يشكوا في انه الموعود به من رحمة الله  
لهم ، وإتيانه نفع لهم عاجل مع ما فيه من النفع الآجل ، فأطبقوا على أتباعه ، وكانوا أكثر من  
ستمائة الف مقاتل ، ومع ذلك فقد كانوا يخالفون عليه في كل قليل ، ولا يجدون قلوباً  
يواجهون بها القبط في الإباء عن امتثال أوامرهم ، وأما محمد ( صلى الله عليه وسلم )  
فأتى قومه ولا حس عندهم من نبوة ولا علم لهم بها ، ولم يكونوا تحت ذل أحد ، بل كانوا  
ملوك العرب ، فعندهم أنه جاء يسلبهم عزهم ويصيرهم له تبعاً فخالفوا اشد المخالفة ولم  
يدعوا كيداً حتى باشروه في رده عما جاء به ، ومع ذلك فنصره الله عليهم ولم يزل يؤيده  
حتى دخل الناس هم وغيرهم في دين الله افواجاً ، واظهر دينه على الدين كله كما وعده  
سبحانه ، ثم أيد أمره من بعده ولم يزل اتباعه ظاهرين ولا يزالون إلى يوم الدين ، فبين القصتين  
فرقان لأولى الإبصار والإيقان ، وأما مناسبة أولها لآخر تلك فقد تبين أن آخر الأعراف  
آخر قصة موسى عليه السلام المختمة بقصة بلعام وأن ما بعد ذلك إنما هو تتمات لما تقدم  
لا بد منها وتتمات للتتمات حتى كان آخر ذلك مدح من أهلهم لعنديته سبحانه بالإذعان  
وتمام الخضوع ، فلما أضيفوا إلى تلك الحضرة العالوية ، اقتضى ذلك سؤالاً عن حال الذين  
عند المخاطب ( صلى

---

الله عليه وسلم) فأجيب بقوله تعالى: (يسألونك) أي الذين عند ربك هم الذين هزموا الكفار في الحقيقة كما علمتم ذلك - وسيأتي بيانه، فهم المستحقون للأنفال وليس لهم إليها التفات وإنما همهم العبادة، والذين عندك إنما جعلتهم آلة ظاهرة ومع ذلك فهم يسألون ﴿عن الأنفال﴾ التي توليتهم إياها بأيدي جنودي سؤال منازعة ينبغي الاستعاذة بالله منها - كما نبه عليه آخر الأعراف - لأن ذلك يفضي إلى افتراق الكلمة والضعف عن مقاومة الأعداد، وهو جمع نفل - بالتحريك، وهو ما يعطاه الغازي زيادة على سهمه، والمراد بها هنا الغنيمة، وهي المال المأخوذ من أهل الحرب قهراً، سميت هنا بذلك لأن أصلها في اللغة الزيادة، وقد فضل المسلمون بها على سائر الأمم.

ولما كان السؤال عن حكمها، كان كأنه قيل: فماذا يفعل؟ فقال دالاً على أنهم سألوا عن مصرفها وحكمها - ليطابق الجواب السؤال: ﴿قل﴾ أي لهم في جواب سؤالهم

﴿الأنفال لله﴾ أي الذي ليس النصر إلا من عنده لما له من صفات الكمال ﴿والرسول﴾ أي الذي كان جازماً بأمر الله مسلماً لقضائه ماضياً فيما أرسله به غير متخوف من مخالطة الردى بمواقعة العدى؛ قال أبو حيان: ولا خلاف أن الآية نزلت في يوم بدر وغنائمه، وقال ابن زيد: لا نسخ، إنما أخبر أن الغنائم لله من حيث إنها ملكه ورزقه،

ولرسول عليه السلام من حيث هو مبين لحكم الله والصادع فيها بأمره ليقع التسليم من  
الناس ، وحكم القسمة نازل خلال ذلك - انتهى .

(13/305)

---

ولما أخبر سبحانه أنه لا شيء لهم فيها إلا عن أمر الله ورسوله ، وكان ذلك موحياً لتوقفهم  
إلى بروز أمره سبحانه على لسانه رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وكانت التقوى موجبة  
للقوف خوفاً حتى يأتي الدليل الذي يجسر على المشي وراءه ، سبب عن ذلك قوله :  
﴿ فاتقوا الله ﴾ أي خافوا خوفاً عظيماً في جميع أحوالكم من الذي لا عظمة لغيره ولا أمر  
لسواه ، فلا تطلبوا شيئاً غير أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا تتخاصموا ، فإن  
الله تعالى الذي رحمكم بإرسال رسول لنجاتكم وإنزال كتاب لعصمتكم غير مهمل ما  
يصلحكم ، فهو يعطيكم ما سبق في علمه الحكم بأنه لكم ، ويمنعكم ما ليس لكم  
﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أي الحال التي هي صاحبة افتراقكم واجتماعكم ، فإن  
أغلب أمرها البين الذي هو القطيعة ، وقد أشرفت على الفساد بطلب كل فريق الأثرة على  
صاحبه فأقبلوا على رعايتها بالتسليم لأمر الله ورسوله الأمرين بالإعراض عن الدنيا  
ليقسمها بينكم على سواء ، القوي والضعيف سواء ، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون

بضعفائكم ، لتجتمع كلمتكم فيشتد أمركم ويقوى أزركم فتقدروا على إقامة الدين وجمع  
المفسدين ﴿ وأطيعوا الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ ورسوله ﴾ أي الذي عظّمته من  
عظّمته في كل ما يأمرانكم به من تنفيل لمن يراه وإنفاذ شرط ووفاء عهد لمن عاهده .  
ولما أمر ونهى هيج وأهلب فقال مبيناً كون الإيمان مستلزماً للطاعة : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾  
أي صادقين في دعوى الإيمان ، فليس كل من يدعي شيئاً يكون صادقاً في دعواه حتى  
يحصل البيان بالامتحان ، ولذلك وصل به قوله مؤكداً غاية التأكيد لأن التخلص من  
الأعراض الدنيوية عسر : ﴿ إنما المؤمنون ﴾ . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص  
﴿ 184.181 ﴾

(14/305)

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ مردفين ﴾ فتح الدال : أبو جعفر ونافع وسهل ويعقوب وابن مجاهد وأبو  
عون عن قنبل . الباقر : بالكسر .

الوقوف : ﴿ عن الأنفال ﴾ ط ﴿ والرسول ﴾ ج لعطف المختلفين مع الفاء ﴿ ذات

بينكم ﴿ ص ﴾ مؤمنين ﴿ ه ﴾ يتوكلون ﴿ ه ج لاحتقال جعل ﴾ الذين ﴿ مبتداً  
والوصل أولى فيكون الوقف على ﴾ ينفقون ﴿ ويكون الشاء بحقيقة الإيمان منصرفاً إلى  
قوله ﴿ هم المؤمنون ﴾ ﴿ حقاً ﴾ ط ﴿ كريم ﴾ ه ج لما يجيء في التفسير ﴿ بالحق  
﴿ ص ل طول الكلام ﴾ لكارهون ﴿ ه ﴾ لا ينظرون ﴿ ه ﴾ الكافرين ﴿ ه ﴾  
المجرمون ﴿ ه ج لاحتقال كون " إذ " متعلقاً بمحذوف وهو " اذكر " أو بقوله ﴿ ويحق ﴿  
﴿ مردفين ﴿ ه ﴾ قلوبكم ﴿ ج لابتداء النفي مع احتمال الحال ﴾ عند الله ﴿ ط ﴿  
حكيم ﴿ ه . انتهى انتهى . ١ ه ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 371 ﴾

(15/305)

## فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ يقتضي البحث عن خمسة أشياء ، السائل  
والمسؤول وحقيقة النفل ، وكون ذلك السؤال عن أي الأحكام كان ، وإن المفسرين بأي  
شيء فسروا الأنفال .

أما البحث الأول : فهو أن السائلين من كانوا ؟ فنقول إن قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾

إخبار عن لم يسبق ذكرهم وحسن ذلك ههنا ، لأن حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلوماً معيناً فانصرف هذا اللفظ إليهم ، ولا شك أنهم كانوا أقواماً لهم تعلق بالغنائم والأنفال وهم أقوام من الصحابة .

وأما البحث الثاني : وهو أن المسؤل من كان ؟ فلا شك أنه هو النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما البحث الثالث : وهو أن الأنفال ما هي فنقول : قال الزهري : النفل والنافلة ما كان زيادة على الأصل ، وسميت الغنائم أنفالاً ، لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل لهم الغنائم ، وصلاة التطوع نافلة لأنها زيادة على الفرض الذي هو الأصل .  
وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [ الأنبياء : 72 ] أي زيادة على ما سأل .

وأما البحث الرابع : وهو أن السؤال عن أي أحكام الأنفال كان ؟ فنقول : فيه وجهان : الأول : لفظ السؤال ، وإن كان مبهماً إلا أن تعيين الجواب يدل على أن السؤال كان واقعاً عن ذلك المعين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَيْضِ ﴾ [ البقرة : 222 ] في الدنيا والآخره ﴿ [ البقرة : 220 ] فعلم منه أنه سؤال عن حكم من أحكام الحيض واليتامى ، وذلك الحكم غير معين ، إلا أن الجواب كان معيناً لأنه تعالى قال في الحيض :



﴿ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزَلُوا النَّسَاءَ فِي الْحَيْضِ ﴾ [البقرة: 222] فدل هذا الجواب على أن ذلك السؤال كان سؤالاً عن مخالطة النساء في الحيض .

(16/305)

---

وقال في اليتامى : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة: 220] فدل هذا الجواب المعين على أن ذلك السؤال المعين كان واقعاً عن التصرف في ما لهم ومخالطتهم في المواكلة .

وأيضاً قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ [الإسراء: 85] وليس فيه ما يدل على أن ذلك السؤال عن أي الأحكام إلا أنه تعالى قال في الجواب : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ فدل هذا الجواب على أن ذلك السؤال كان عن كون الروح محدثاً أو قديماً ، فكذا ههنا لما قال في جواب السؤال عن الأنفال : ﴿ قُلِ الْإِنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ دل هذا على أنهم سألوه عن الأنفال كيف مصرفها ومن المستحق لها .

والقول الثاني : أن قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِنْفَالِ ﴾ أي من الأنفال ، والمراد من هذا السؤال : الاستعطاء على ما روي في الخبر ، أنهم كانوا يقولون يا رسول الله أعطني كذا أعطني كذا ، ولا يبعد إقامة عن مقام من هذا قول عكرمة .

وقرأ عبد الله ﴿يَسْأَلُونَكَ الْأَنْفَالَ﴾ .

والبحت الخامس : وهو شرح أقوال المفسرين في المراد بالأنفال .

فنقول : إن الأنفال التي سألوها عنها يقتضي أن يكون قد وقع بينهم التنازع والتنافس فيها ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن قوله : ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يدل على أن المقصود من ذكر منع القوم عن المخاصمة والمنازعة .

وثانيها : قوله : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ يدل على أنهم إنما سألوها عن ذلك بعد أن وقعت الخصومة بينهم .

وثالثها : أن قوله : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يدل على ذلك .

إذا عرفت هذا فنقول : يحتمل أن يكون المراد من هذه الأنفال الغنائم ، وهي الأموال المأخوذة من الكفار قهراً ؛ ويحتمل أن يكون المراد غيرها .

(17/305)

---

أما الأول : ففيه وجوه : أحدها : أنه صلى الله عليه وسلم قسم ما غنموه يوم بدر على من حضر وعلى أقوام لم يحضروا أيضاً ، وهم ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الأنصار ، فأما المهاجرون فأحدهم عثمان فإنه عليه السلام تركه على ابنته لأنها كانت مريضة ، وطلحة

وسعيد بن زيد .

فإنه عليه السلام كان قد بعثهما للتجسس عن خبر العير وخرجا في طريق الشام ، وأما الخمسة من الأنصار ، فأحدهم أبو لبابة مروان بن عبد المنذر ، خلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة ، وعاصم خلفه على العالية ، والحارث بن حاطب : رده من الروحاء إلى عمرو بن عوف لشيء بلغه عنه ، والحارث بن الصمة أصابته علة بالروحاء ، وخوات بن جبير ، فهؤلاء لم يحضروا ، وضرب النبي صلى الله عليه وسلم لهم في تلك الغنائم بسهم ، فوَقَّه من غيرهم فيه منازعة .

فنزلت هذه الآية بسببها ، وثانيها : روى أن يوم بدر الشبان قتلوا وأسروا والأشياخ وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصاف ، فقال الشبان : الغنائم لنا لأننا قتلنا وهزمتنا ، وقال الأشياخ : كنا ردأ لكم ولو انهزمتهم لانحزتم إلينا ، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا ، فوَقَّعت المخاصمة بهذا السبب .

فنزلت الآية .

وثالثها : قال الزجاج : الأنفال الغنائم .

وإنما سألوا عنها لأنها كانت حراماً على من كان قبلهم ، وهذا الوجه ضعيف لأن على هذا التقدير يكون المقصود من هذا السؤال طلب حكم الله تعالى فقط ، وقد بينا بالدليل أن هذا السؤال كان مسبوqاً بالمنازعة والمخاصمة .

وأما الاحتمال الثاني : وهو أن يكون المراد من الأنفال شيئاً سوى الغنائم ، فعلى هذا التقدير في تفسير الأنفال أيضاً وجوه : أحدها : قال ابن عباس في بعض الروايات : المراد من الأنفال ما شذ عن المشركين إلى المسلمين من غير قتال ، من دابة أو عبد أو متاع ، فهو إلى النبي صلى الله عليه وسلم يضعه حيث يشاء ، وثانيها : الأنفال الخمس الذي يجعله الله لأهل الخمس ، وهو قول مجاهد ، قال : فالقوم إنما سألوا عن الخمس .

فنزلت الآية ، وثالثها : أن الأنفال هي السلب وهو الذي يدفع إلى الغازي زائداً على سهمه من الغنم ، ترغيباً له في القتال ، كما إذا قال الإمام : " من قتل قتيلاً فله سلبه " أو قال لسرية ما أصبتم فهو لكم ، أو يقول فلکم نصفه أو ثلثه أو ربعه ، ولا يخمس النفل ، وعن سعد بن أبي وقاص أنه قال : قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعد بن العاصي وأخذت سيفه فأعجبني فجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت إن الله تعالى قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف .

فقال : " ليس هذا لي ولا لك أطرحه في الموضع الذي وضعت فيه الغنائم " فطرحته وبني ما يعلمه الله من قتل أخي وأخذ سلمي ، فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني رسول الله صلى

الله عليه وسلم وقد أنزلت سورة الأنفال فقال: يا سعد "إنك سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي فخذ" قال القاضي: وكل هذه الوجوه تحتمله الآية، وليس فيها دليل على ترجيح بعضها على بعض.

وإن صح في الأخبار ما يدل على التعيين قضى به، وإلا فالكل محتمل، وكما أن كل واحد منها جائز، فكذلك إرادة الجميع جائزة فإنه لا تناقض بينها، والأقرب أن يكون المراد بذلك ماله عليه السلام أن ينفل غيره من جملة الغنيمة قبل حصولها وبعد حصولها، لأنه يسوغ له تحريضا على الجهاد وتقوية للنفوس كبحر ما كان ينفل واحداً في ابتداء المحاربة.

ليبالغ في الحرب.

أو عند الرجعة.

(19/305)

---

أو يعطيه سلب القتال، أو يرضخ لبعض الحاضرين، وينفله من الخمس الذي كان عليه السلام يحتص به.

وعلى هذا التقدير فيكون قوله: ﴿قُلِ الْانْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ المراد الأمر الزائد على ما كان مستحقاً للمجاهدين.

أما قوله تعالى: ﴿ قُلِ الْإِنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ففيه مجتان :

البحث الأول: المراد منه أن حكمها مختص بالله والرسول يأمره الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد .

البحث الثاني: قال مجاهد وعكرمة والسدي: إنها منسوخة بقوله فإن لله خمسة

وللرسول ، وذلك لأن قوله: ﴿ قُلِ الْإِنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يقتضي أن تكون الغنائم كلها

للرسول ، فنسخها الله بآيات الخمس وهو قول ابن عباس في بعض الروايات ، وأجيب عنه

من وجوه: الأول: أن قوله: ﴿ قُلِ الْإِنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ معناه أن الحكم فيها لله

وللرسول .

وهذا المعنى باق فلا يمكن أن يصير منسوخاً ، ثم إنه تعالى حكم بأن يكون أربعة أخماسها ملكاً للغانمين .

الثاني: أن آية الخمس .

تدل على كون الغنيمة ملكاً للغانمين ، والإنفال ههنا مفسرة لا بالغنائم ، بل بالسلب .

وإنما ينقله الرسول عليه السلام لبعض الناس لمصلحة من المصالح .

ثم قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ وفيه مجتان :

البحث الأول: معناه فاتقوا عقاب الله ولا تقدموا على معصية الله ، واتركوا المنازعة

والمخاصمة بسبب هذه الأحوال .

وارضوا بما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

البحث الثاني : في قوله : ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي وأصلحوا ذات بينكم من الأقوال ، ولما كانت الأقوال واقعة في البين ، قيل لها ذات البين ، كما أن الأسرار لما كانت مضمرة في الصدور قيل لها ذات الصدور .

(20/305)

---

ثم قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ والمعنى أنه تعالى نهاهم عن مخالفة حكم الرسول بقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ثم أكد ذلك بأن أمرهم بطاعة الرسول بقوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ثم بالغ في هذا التأكيد فقال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ والمراد أن الإيمان الذي دعاكم الرسول إليه ورغبتم فيه لا يتم حصوله إلا بالتزام هذه الطاعة ، فاحذروا الخروج عنها ، واحتج من قال : ترك الطاعة يوجب زوال الإيمان بهذه الآية ، وتقديره أن المعلق بكلمة إن على الشيء عدم عند عدم ذلك الشيء ، وههنا الإيمان معلق على الطاعة بكلمة ﴿ إِنْ ﴾ فيلزم عدم الإيمان عند عدم الطاعة وتتمام هذه المسألة مذکور في قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [النساء : 31] والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 92.95 ﴾

## فصل

قال الجصاص :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة وعطاء : الأنفال الغنائم .

وروي عن ابن عباس رواية أخرى عن عطاء أن الأنفال ما يصل إلى المسلمين عن المشركين

بغير قتال من دابة أو عبد أو متاع ، فذلك للنبي صلى الله عليه وسلم يضمه حيث يشاء .

وروي عن مجاهد : أن الأنفال الخمس الذي جعله الله لأهل الخمس .

وقال الحسن : كانت الأنفال من السرايا التي تقدم أمام الجيش الأعظم .

والنفل في اللغة الزيادة على المستحق ، ومنه النافلة وهي التطوع ؛ وهو عندنا إنما يكون

قبل إحرار الغنيمه فاما بعده فلا يجوز إلا من الخمس ، وذلك بأن يقول للسرية : لكم الربع

بعد الخمس أو الربع حيز من الجميع قبل الخمس ، أو يقول : من أصاب شيئاً فهو له ، على

وجه التحريض على القتال والتضرية على العدو ؛ أو يقول : من قتل قتيلاً فله سلبه وأما بعد

إحرار الغنيمه فغير جائز أن ينفل من نصيب الجيش ، ويجوز له أن ينفل من الخمس .



وَقَدْ اُخْتَلَفَ فِي سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ ، فَرُوِيَ عَنْ ﴿ سَعْدٍ قَالَ : اَصْبَتْ يَوْمَ بَدْرٍ سَيْفًا ،  
فَأَثَيْتَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : نَفَلْنِيهِ فَقَالَ : ضَعُهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَ فَانزَلَتْ  
: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ .

(22/305)

قَالَ : فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : اذْهَبْ وَخُذْ سَيْفَكَ .  
﴿ وَرَوَى مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ  
الْأَنْفَالِ ﴾ قَالَ : ﴿ الْأَنْفَالُ الْغَنَائِمُ الَّتِي كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً  
لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا شَيْءٌ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ  
خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الْآيَةَ ﴾ ؛ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ سُلَيْمَانُ عَنْ مُجَاهِدٍ .  
وَرَوَى عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُمَا أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفَلَ يَوْمَ  
بَدْرٍ أَنْفَالًا مُخْتَلَفَةً وَقَالَ : مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ ﴾ فَاخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ نَحْوَمَا  
قُلْنَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : نَحْنُ حَمِينَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُنَّا رُدَّاءَ لَكُمْ ، قَالَ :  
فَلَمَّا اخْتَلَفْنَا وَسَاءَتْ أَخْلَاقُنَا اتَّزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا فَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِهِ فَقَسَمَهُ عَنِ الْخُمْسِ  
، وَكَانَ فِي ذَلِكَ تَقْوَى وَطَاعَةٌ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ لِقَوْلِهِ

تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لِيرُدَّ قَوِيُّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ضَعِيفِهِمْ﴾ .

(23/305)

---

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَمْ تَحِلَّ الْغَنِيمَةُ لِقَوْمِ سُودِ الرُّعُوسِ قَبْلَكُمْ، كَانَتْ تَنْزِلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُهَا فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أُسْرِعَ النَّاسُ فِي الْغَنَائِمِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانُوا مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾﴾ ﴿قَدْ ذَكَرْتَنِي فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ قَبْلَ الْقِتَالِ: ﴿مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ وَمَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا،﴾ وَيُقَالُ إِنَّ هَذَا غَلَطٌ، وَإِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ: ﴿مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ﴾﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿لَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِقَوْمِ سُودِ الرُّعُوسِ غَيْرِكُمْ﴾ وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ نَزَلَتْ بَعْدَ حِيَازَةِ غَنَائِمِ بَدْرٍ، فَعَلِمْنَا أَنَّ رِوَايَةَ مَنْ رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفَلَهُمْ مَا أَصَابُوا قَبْلَ الْقِتَالِ غَلَطٌ؛ إِذْ كَانَتْ إِبَاحَتُهَا إِنَّمَا كَانَتْ بَعْدَ الْقِتَالِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى غَلَطِهِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ مِنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ وَمَنْ قَتَلَ قِتِيلًا فَلَهُ كَذَا ثُمَّ قَسَمَهَا  
 بَيْنَهُمْ بِالسَّوَاءِ ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَ الْوَعْدِ وَلَا  
 اسْتِرْجَاعُ مَا جَعَلَهُ لِإِنْسَانٍ وَأَخَذَهُ مِنْهُ وَأَعْطَاهُ غَيْرَهُ؛ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ مِنَ النَّبِيِّ  
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلٌ فِي الْغَنَائِمِ قَبْلَ الْقِتَالِ، فَلَمَّا فَرَعُوا مِنَ الْقِتَالِ تَنَازَعُوا فِي الْغَنَائِمِ  
 فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ فَجَعَلَ أَمْرَهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
 فِي أَنْ يُجْعَلَهَا لِمَنْ شَاءَ، فَيَقْسِمَهَا بَيْنَهُمْ بِالسَّوَاءِ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَاعْلَمُوا  
 أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ عَلَى مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ، فَجَعَلَ  
 الْخُمُسَ لِأَهْلِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْكِتَابِ، وَالْأَرْبَعَةَ الْأَخْمَاسَ لِلْغَنَائِمِينَ، وَبَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ  
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهْمِ الْفَارِسِ وَالرَّاجِلِ، وَبَقِيَ حُكْمُ النَّفْلِ قَبْلَ إِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ بَأَنَّ يَقُولُ: ﴿ مَنْ  
 قَتَلَ قِتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ ﴾ وَمِنَ الْخُمُسِ وَمَا شَدَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ  
 غَيْرِ قِتَالٍ فَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ نَفْلًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجْعَلُهُ لِمَنْ يَشَاءُ؛ وَإِنَّمَا وَقَعَ النَّسْخُ  
 فِي النَّفْلِ بَعْدَ إِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ مِنْ غَيْرِ الْخُمُسِ.

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ قِسْمَةَ غَنَائِمِ بَدْرٍ إِنَّمَا كَانَتْ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي جَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِسْمَتَهَا لَا عَلَى قِسْمَتِهَا الْآنَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسَمَهَا بَيْنَهُمْ بِالسَّوَاءِ وَلَمْ يُخْرِجْ مِنْهَا الْخُمْسَ ، وَلَوْ كَانَتْ مَقْسُومَةً قِسْمَةَ الْغَنَائِمِ الَّتِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهَا الْحُكْمُ لَعَزُلَ الْخُمْسُ لِأَهْلِهِ وَلَفَضِلَ الْفَارِسِ عَلَى الرَّاجِلِ ؛ وَقَدْ كَانَ فِي الْجَيْشِ فَرَسَانِ أَحَدُهُمَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْآخَرُ لِلْمَقْدَادِ قَسَمَا الْجَمِيعِ بَيْنَهُمْ بِالسَّوِيَّةِ عَلِمْنَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ قَدْ اقْتَضَى تَفْوِيزَ أَمْرِهَا إِلَيْهِ لِيُعْطِيَهَا مَنْ يَرَى ، ثُمَّ نَسَخَ النَّفْلَ بَعْدَ إِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ وَبَقِيَ حُكْمُهُ قَبْلَ إِحْرَازِهَا عَلَى جِهَةِ تَحْرِيزِ الْجَيْشِ وَالتَّضْرِيَةِ عَلَى الْعَدُوِّ وَمَا لَمْ يُوجِفْ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَمَا لَا يَحْتَمِلُ الْقِسْمَ وَمِنْ الْخُمْسِ عَلَى مَا شَاءَ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَلَطَ الرَّوَايَةِ فِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ : ﴿ مَنْ أَصَابَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ ﴾ وَأَنَّهُ نَفَلَ الْقَاتِلَ وَغَيْرَهُ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا هَنَادُ بْنُ السَّرِيِّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ

سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : ﴿ جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ بِسَيْفٍ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ شَفَى صَدْرِي الْيَوْمَ مِنَ الْعَدُوِّ فَهَبْ لِي هَذَا السَّيْفَ فَقَالَ : إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ ، فَذَهَبْتُ وَأَنَا أَقُولُ يُعْطَاهُ الْيَوْمَ مَنْ لَمْ يُبَلِّ بِلَائِي ؛ فَبَيْنَا أَنَا ؛ إِذْ جَاءَنِي الرَّسُولُ فَقَالَ : أَجِبْ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ نَزَلَ فِي شَيْءٍ بَكَّامِي ، فَجِئْتُ فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّكَ سَأَلْتَنِي هَذَا السَّيْفَ وَلَيْسَ هُوَ لِي وَلَا لَكَ وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُ لِي فَهُوَ لَكَ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .

فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَا لِسَعْدٍ قَبْلَ نَزُولِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَمَّا جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ أَثَرُهُ بِهِ ؛ ﴿ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى فِسَادِ رِوَايَةٍ مَنْ رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفَلَهُمْ قَبْلَ الْقِتَالِ وَقَالَ مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴾ أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِلْجِصَّاصِ ح 3 ص ﴿

(27/305)

وقال ابن العربي :

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

فِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نَزُولِهَا : رُوِيَ أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ : نَزَلَتْ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ : النَّفْلِ ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ ، وَالثَّلْثُ .

وَرَوَى مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : ﴿ إِذَا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ جِئْتُ بِسَيْفٍ ؛ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّ اللَّهَ قَدْ شَفَى صَدْرِي مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، أَوْ نَحْوِ هَذَا ، هَبْ لِي هَذَا السَّيْفَ . فَقَالَ : هَذَا لَيْسَ لَكَ وَلَا لِي فَقُلْتُ : عَسَى أَنْ يُعْطَى هَذَا مَنْ لَا يُبْلِي بِلَائِي ، فَجَاءَنِي الرَّسُولُ فَقَالَ : إِنَّكَ سَأَلْتَنِي وَلَيْسَ لِي ، وَلَقَدْ صَارَ لِي وَهُوَ لَكَ ﴾ فَنَزَلَتْ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هُوَ صَحِيحٌ .

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَنَّ ﴿ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ وَرَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ خَرَجَا يَتَنَفَّلَانِ نَفْلًا ، فَوَجَدَا سَيْفًا مُلْتَمَى يُقَالُ كَانَ لِأَبِي سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَمِيعًا ، فَقَالَ سَعْدٌ : هُوَ لِي .

وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : هُوَ لِي ، فَتَنَازَعَا فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : يَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، رَأَيْنَاهُ جَمِيعًا وَخَرَرْنَا عَلَيْهِ جَمِيعًا .

فَقَالَ: لَا أَسْلَمُهُ إِلَيْكَ حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا عَرَضَا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ قَالَ: لَيْسَ لَكَ يَا سَعْدُ وَلَا لِلأَنْصَارِيِّ، وَلَكِنَّهُ لِي، فَزَكَتُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ فَاتَّقِ اللَّهَ يَا سَعْدُ وَالأَنْصَارِيُّ، وَأَصْلِحَا ذَاتَ بَيْنِكُمَا، وَأَطِيعَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. .

يَقُولُ أُسْلِمَ السَّيْفَ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَسِخَتْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ .

المَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ: التَّفَلُّ فِي اللُّغَةِ هُوَ الزِّيَادَةُ، وَمِنْهَا نَفْلُ الصَّلَاةِ، وَهُوَ الزِّيَادَةُ عَلَى فَرَضِهَا، وَوَكْدُ الْوَلَدِ نَافِلَةٌ؛ لِأَنَّهُ زِيَادَةٌ عَلَى الْوَلَدِ، وَالْغَنِيمَةُ نَافِلَةٌ؛ لِأَنَّهَا زِيَادَةٌ فِيمَا أُحِلَّ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مِمَّا كَانَ مُحْرَمًا عَلَى غَيْرِهَا، ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ﴾ .

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ [أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] قَالَ: ﴿فَضَلَّتْ عَلَى الأنبياءِ بَسِيتٌ: أُعْطِيتْ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأُرْسِلَتْ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَحُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ﴾ .

(29/305)

وَرَوَى البُخَارِيُّ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿غَزَا نَبِيٌّ مِنْ الأنبياءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَنْبِيَّ﴾ :

بِهَا وَلَمَّا بَيْنَ بِهَا ، وَلَا أَحَدٌ بَنَى يُبُوتًا وَلَمْ يُرْفَعْ سُقُوفُهَا ، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ  
وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلَادَهَا ، فَغَزَا فِدَانًا مِنَ الْقَرْيَةِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ : إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا  
مَأْمُورٌ ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا ، فَحَبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ بِجَمْعِ الْغَنَائِمِ ، فَجَاءَتِ النَّارُ لَتًا كُلَّهَا  
، فَلَمْ تَطْعَمْهَا .

فَقَالَ : إِنْ فِيكُمْ غُلُولًا قَلِيلًا فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ ، فَلَزَقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ ، فَقَالَ :  
فِيكُمْ الْغُلُولُ فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتِكَ ، فَلَزَقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ ، فَقَالَ : فِيكُمْ الْغُلُولُ ،  
فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقْرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ ، فَوَضَعُوهَا فَجَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا ، ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا  
الْغَنَائِمَ ، وَرَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا ❁

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَأَبْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ : كَانَتْ بَدْرٌ فِي سَبْعِ عَشْرَةَ لَيْلَةً  
خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ .

وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ أَنَّهَا كَانَتْ بَعْدَ عَامٍ وَنِصْفٍ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ بِشَهْرَيْنِ .

(30/305)

---

وَقَدْ سَأَلَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةٍ ابْنَ وَهْبٍ عَنْ عِدَّةِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ ؛ فَقَالَ : كَانُوا ثَلَاثًا مِائَةً وَثَلَاثَةَ  
عَشَرَ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ .



وَرَوَى أَيْضًا ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : ﴿ سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عِدَّةِ  
الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ : كَمْ يَطْعَمُونَ كُلِّ يَوْمٍ ؟ فَقِيلَ لَهُ : يَوْمًا عَشْرًا وَيَوْمًا تِسْعَ جَزَائِرَ .  
فَقَالَ : الْقَوْمُ مَا بَيْنَ الْأَلْفِ إِلَى التِّسْعِمِائَةِ ﴾ وَرَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : ﴿ لَمَّا كَانَ  
يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَشِيرُوا عَلَيَّ .  
فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ ، ثُمَّ قَعَدَ .

ثُمَّ قَالَ : أَشِيرُوا عَلَيَّ فَقَامَ عُمَرُ فَتَكَلَّمَ ، ثُمَّ قَعَدَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :  
أَشِيرُوا عَلَيَّ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ : كَأَنَّكَ إِنَّا نَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ  
بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ  
وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَّبِعُونَ .

لَوْ أَتَيْتَ الْيَمْنَ لَسَلَلْنَا سِيوفَنَا وَاتَّبَعْنَاكَ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خُذُوا مَصَافِكُمْ ﴿ .

المسألة الخامسة : قال علماؤنا رحمهم الله ، هاهنا ثلاثة أسماء : الأنفال ، الغنائم ،  
الفيء .

فالنفل : الزيادة كما بينا ، وتدخُلُ فيه الغنيمة فإنها زيادة الحلال لهذه الأمة .

وَالْغَنِيمَةُ: مَا أُخِذَ مِنْ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ بِقِتَالٍ .

وَالْفَيْءُ: مَا أُخِذَ بِغَيْرِ قِتَالٍ ؛ لِأَنَّهُ رَجَعَ إِلَى مَوْضِعِهِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ

، وَهُوَ انْتِفَاعُ الْمُؤْمِنِ بِهِ .

المسألة السادسة: فِي مَحَلِّ الْأَنْفَالِ: اِخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: مَحَلُّهَا  
الْخُمْسُ .

الثَّانِي: مَحَلُّهَا مَا عَادَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَوْ أُخِذَ بِغَيْرِ حَرْبٍ .

الثَّلَاثُ: رَأْسُ الْغَنِيمَةِ حَسَبَمَا يَرَاهُ الْإِمَامُ .

قَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ قَالَ: لَا أَمْرُكَ وَلَا  
أَنْهَاطُكَ .

فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا إِلَّا مُحَلَّلًا وَمُحَرَّمًا .

قَالَ الْقَاسِمُ: فَسَلِّطَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ عَنِ النَّفْلِ؛ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَرَسُ مِنْ

النَّفْلِ، وَالسَّلَاحُ مِنَ النَّفْلِ .

وَأَعَادَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى أَغْضَبَهُ .

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَتَدْرُونَ مَا مِثْلُ هَذَا؟ مِثْلُ صَنِيعِ الَّذِي ضَرَبَهُ عُمَرُ بِالدَّرَّةِ حَتَّى سَأَلَتْ

الدِّمَاءُ عَلَى عَقْبِيهِ أَوْ عَلَى رِجْلِيهِ، سَ فَقَالَ الرَّجُلُ: أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَنْتَقَمَ اللَّهُ مِنْكَ لِابْنِ

عُمَرَ .

وَقَالَ السُّدِّيُّ وَعَطَاءٌ : هِيَ مَا شَدَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

وَعَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ سَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخُمْسِ بَعْدَ الْأَرْبَعَةِ الْأَخْمَاسِ ؛

فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ : لِمَنْ يُدْفَعُ هَذَا الْخُمْسُ ؟ لَمْ يَخْرُجْ مِنَّا .

(32/305)

فَنَزَلَتْ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مِنَ الْخُمْسِ ، ﴿ كَمَا رُوِيَ فِي

صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ الْأِمَامَ يُعْطَى مِنْهُ مَا شَاءَ مِنْ سَلْبٍ أَوْ غَيْرِهِ ؛ خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ ، وَمَنْ قَالَ

بِقَوْلِهِ مِنْ فَتَاهِ الْأَمْصَارِ .

فَأَمَّا هَذَا السُّؤَالُ هَاهُنَا فَإِنَّمَا هُوَ عَنِ أَصْلِ الْغَنِيمَةِ الَّتِي نَفَلَ عَلَيَّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَنَا مِنَ الْحَلَالِ

عَلَى الْأُمَّمِ .

الْمَعْنَى : يَسْأَلُكَ أَصْحَابُكَ يَا مُحَمَّدٌ عَنْ هَذِهِ الْغَنِيمَةِ الَّتِي نَفَلْتُهَا .

قُلْ لَهُمْ : هِيَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْتَلِفُوا ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، لِئَلَّا يُرْفَعَ تَحْلِيلُهَا

عَنْكُمْ

بِاخْتِلَافِكُمْ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ﴿﴾ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا .

فَتَسَارَعَ إِلَى ذَلِكَ الشُّبَّانُ ، وَبَتَّ الشُّيُوخُ تَحْتَ الرَّايَاتِ ، فَلَمَّا فَتِحَ عَلَيْهِمْ جَاءُوا وَيَطْلُبُونَ شَرَطَهُمْ ، فَقَالَ الشُّيُوخُ: لَا تَسْتَأْثِرُوا بِهِ عَلَيْنَا ، كُنَّا رَدَاءَ لَكُمْ ، لَوْ أَنهَزْتُمْ لَانْحَزْتُمْ إِلَيْنَا ، فَأَبَى الشُّبَّانُ وَقَالُوا : جَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ لَنَا ، فَتَنَازَعُوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴿﴾ .

وَرُوِيَ ﴿﴾ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِيهَا عَلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ ؛ فَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ لَنَا ، حَرَسْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ لَنَا ، اتَّبَعْنَا أَعْدَاءَ رَسُولِ اللَّهِ .

(33/305)

وَقَالَتْ أُخْرَى : نَحْنُ أَوْلَى بِهَا ، أَخَذْنَاهَا ، فَنَزَلَتْ : ﴿﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴿﴾ وَرُوِيَ ﴿﴾ أَبُو أَمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ : سَأَلْتُ عَبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ عَنِ الْأَنْفَالِ ، فَقَالَ : فِينَا أَصْحَابَ بَدْرٍ نَزَلَتْ ، حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفْلِ ، وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا ، فَنَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا ، فَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِهِ ، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَوَاءٍ ؛ أَيَّ عَلَى

السَّوَاءُ .

﴿ الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَالَ عَلَمًاؤُنَا : ﴿ فَسَلَّمُوا لِرَسُولِ اللَّهِ الْأَمْرَ فِيهَا ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿  
وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ﴿ .

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا لِي مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْخُمْسُ ، وَالْخُمْسُ  
مَرْدُودٌ فِيكُمْ ﴿ .

فَلَمْ يُمْكِنْ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَكُونَ التَّقْلُ مِنْ حَقِّ أَحَدٍ ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ مِنْ حَقِّ رَسُولِ اللَّهِ .  
وَهُوَ الْخُمْسُ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ : خَرَجْنَا فِي سَرِيَّةٍ قَبْلَ نَجْدٍ ، فَأَصَبْنَا إِبِلًا ،  
فَقَسَمْنَاهَا ،

فَبَلَغَتْ سُهْمَانًا أَحَدَ عَشَرَ بَعِيرًا ، وَنَقَلْنَا بَعِيرًا بَعِيرًا .

فَأَمَّا : الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : وَهِيَ سَلْبُ الْقَتِيلِ : فَإِنَّهُ مِنَ الْخُمْسِ عِنْدَنَا ، وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ إِذَا  
رَأَى ذَلِكَ الْإِمَامُ لَغْنَاءً فِي الْمُعْطَى : أَوْ مُنْفَعَةً تُجَلَّبُ ، أَوْ ائْتَلَفَ يُرْغَبُ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : هُوَ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ ؛ وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ حَقُّ الْمَالِكِينَ .

(34/305)

فَأَمَّا الْأَخْبَارُ فِي ذَلِكَ فَمُتَعَارِضَةٌ، رُويَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بِسَلْبِ أَبِي جَهْلٍ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ ﴾ .

وَقَالَ يَوْمَ حُنَيْنٍ : ﴿ مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيْنَةٌ فَلَهُ سَلْبُهُ ، فَأَعْطَى السَّلْبَ لِأَبِي قَتَادَةَ بِمَا

أَقَامَ مِنَ الشَّهَادَةِ ، وَقَضَى بِالسَّلْبِ أَجْمَعَ لِسَلْمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ يَوْمَ ذِي قَرْدٍ ﴾ .

قُلْنَا : هَذِهِ الْأَخْبَارُ لَيْسَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ إِعْطَاءِ السَّلْبِ لِلْقَاتِلِ .

وَهَلْ إِعْطَاءُ ذَلِكَ لَهُ مِنْ رَأْسِ مَالِ الْغَنِيمَةِ أَوْ مِنْ حَقِّ النَّبِيِّ وَهُوَ الْخُمْسُ ؟ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤْخَذُ

مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ .

وَقَدْ قَسَمَ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ قِسْمَةً حَقَّ عَلَى الْأَخْمَاسِ ، فَجَعَلَ خُمْسَهَا لِرَسُولِهِ ، وَأَرْبَعَةَ

أَخْمَاسِهَا لِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ قَاتَلُوا وَقَتَلُوا ، فَهُمْ فِيهَا شَرُّ سَوَاءً ، لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي

السَّبَبِ الَّذِي اسْتَحَقُّوهُ بِه ؛ وَالِاشْتِرَاكِ فِي السَّبَبِ يُوجِبُ الْإِشْتِرَاكَ فِي الْمُسَبَّبِ ،

وَيَمْنَعُ مِنَ التَّفَاضُلِ فِي الْمُسَبَّبِ مَعَ الْإِسْتِوَاءِ فِي السَّبَبِ ؛ هَذِهِ حِكْمَةُ الشَّرْعِ وَحُكْمُهُ ،

وَقَضَاءُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، وَعِلْمُهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ .

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ مَا رَوَى مُسْلِمٌ ﴿﴾ أَنَّ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَتَلَ رَجُلٌ  
مِنْ حَمِيرٍ رَجُلًا مِنَ الْعَدُوِّ، فَأَرَادَ سَلْبَهُ، فَمَنَعَهُ خَالِدٌ، وَكَانَ وَالِيًا عَلَيْهِمْ؛ فَأَخْبَرَ عَوْفٌ  
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِحَالِدٍ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ سَلْبَهُ؟ قَالَ: اسْتَكْرَهْتُهُ

يَا

رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: أَدْفَعُهُ إِلَيْهِ.

فَلَقِيَ عَوْفٌ خَالِدًا فَجَرَّهُ بِرِدَائِهِ، وَقَالَ: هَلْ أَنْجَزْتَ مَا ذَكَرْتَ لَكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَغْضِبَ، فَقَالَ: لَا تُعْطِهِ يَا  
خَالِدٌ.

هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي أَمْرِي ﴿﴾ .

وَلَوْ كَانَ السَّلْبُ حَقًّا لَهُ مِنْ رَأْسِ الْغَنِيمَةِ لَمَا رَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهَا  
عُقُوبَةٌ فِي الْأَمْوَالِ، وَذَلِكَ أَمْرٌ لَا يَجُوزُ بِحَالٍ .

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ ابْنَ الْمُسَيَّبِ قَالَ: مَا كَانَ النَّاسُ يُنْفِلُونَ إِلَّا مِنَ الْخُمْسِ .  
وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَا نَفَلَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ .

وَلَمْ يُصَحَّ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ: قَالَ عُلَمَاؤُنَا: النَّفْلُ عَلَى قِسْمَيْنِ: جَائِزٌ وَمَكْرُوهٌ، فَالْجَائِزُ بَعْدَ الْقِتَالِ،

كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ: ﴿مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيْنَةٌ فَلَهُ سَلْبُهُ

﴾.

وَالْمَكْرُوهُ أَنْ يُقَالَ قَبْلَ الْقَتْلِ: "مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ كَذَا".  
وَإِنَّمَا كَرِهَ هَذَا؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ الْقِتَالُ فِيهِ لِلْغَنِيمَةِ.

(36/305)

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَيُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانَهُ، مَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، وَيَحِقُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُقَاتِلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَإِنْ نَوَى فِي ذَلِكَ الْغَنِيمَةَ؛ وَإِنَّمَا الْمَكْرُوهُ فِي الْحَدِيثِ أَنْ يَكُونَ مَقْصِدُهُ الْمَغْنَمَ خَاصَّةً.

السُّأَلَةُ الْعَاشِرَةُ: قَالَ عُلَمَاؤُنَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ قَوْلُهُ: ﴿ لِلَّهِ ﴾ اسْتِفْتَا حُكْمًا، وَأَبْدَأُ بِالْحَقِّ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ مَرْمَى، الْكُلُّ لِلَّهِ، وَقَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ( وَالرَّسُولِ ) قِيلَ: أَرَادَ بِهِ مَلِكًا.

وقيل: أَرَادَ بِهِ وِلَايَةَ قَسَمٍ وَبَيَانَ حُكْمٍ.

وَالأَوَّلُ أَصَحُّ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ مَا لِي مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْخُمْسُ،



وَالْخُمْسُ مُرْدُودٌ فِيكُمْ ﴿٥٠﴾ وَلَيْسَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يُمْلِكَهُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ تَشْرِيفًا وَتَقْدِيمًا بِالْحَقِيقَةِ ،  
وَيُرْدُهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَفْضُلًا عَلَى الْخَلِيقَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿٥٠﴾ أَحْكَام  
القرآن لابن العربي ح 2 ص ﴿٥٠﴾

(37/305)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ ،

يعني الغنائم واحدها غنيمة نفل ، وكذلك قال لبيد :

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفْلٍ .

.. وَيَأْذِنُ اللَّهُ لِرِثِيهِ وَالْعَجَلُ

قال ابن عباس ﴿ عَنْ ﴾ صلة في الكلام وإنما هو : يسألونك الأنفال أي الغنائم ، ويقال :

فيه تقديم ومعناه يسألون عنك الأنفال ، ويقال : يسألونك لمن الأنفال ؟ يقال : إنما سألوا

عنها لأنها كانت محرمة من قبل ، فسألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل ﴿

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ يعني الغنائم .

قال الفقيه حدثنا أبو الفضل بن أبي حفص قال : حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال : حدثنا

إبراهيم بن أبي داود قال : حدثنا سعيد بن أبي مريم ، عن عبد الرحمن بن أبي زياد ، عن عبد الرحمن بن الحارث ، عن سليمان بن موسى ، عن مكحول ، عن أبي أمامة ، عن عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فلقى العدو ، فلما هزمهم الله تعالى ، أتبعهم طائفة من المسلمين يقتلونهم ، وأحدت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستولت طائفة بالعسكر والنهب ؛ فقال الذين طلبوهم ؛ نحن طلبنا العدو ، وبننا فاهم الله تعالى وهزمهم ، فلنا النفل ؛ وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا ينال العدو منه غرة ، فهولنا ؛ وقال الذين استولوا على العسكر والنهب : والله ما أتم بأحق منا ، بل هولنا نحن حويناها واستوليناها .

(38/305)

---

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ، فقسمها النبي صلى الله عليه وسلم بينهم عن فواق أي عن سواء وروى أسباط ، عن السدي قال : كانت الأنفال لله ورسوله ، فنسخ بقوله : ﴿ واعلموا أنّما غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ

كُتِبَ عَلَيْكُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ [الأنفال: 41].

وعن عكرمة ومجاهد مثل ذلك .

قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ، يعني اخشوا الله ، وأطيعوه في أمر

الغنيمة ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي ما بينكم من الاختلاف في الغنيمة .

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، يعني في أمر الصلح والغنيمة .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، يعني إن كنتم صادقين .

ويقال : معناه اتركوا المراء في أمر الغنيمة بأن كنتم مصدقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بجر

العلوم ح 2 ص ﴿

(39/305)

وقال الثعلبي :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية

قال ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : " مَنْ أَتَى مَكَانَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ

مِنَ الْفِضْلِ كَذَا ، وَمَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا ، وَمَنْ أَسْرَ أُسِيرًا فَلَهُ كَذَا " ، فلما التقوا سارع إليه

الشبان والفتيان وأقام الشيوخ ووجوه الناس عند الرايات ، فلما فتح الله على المسلمين جاءوا يطلبون ما جعل النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم الأشياخ : كُنَّا رَدَاءَ لَكُمْ وَلَوْ أَنهزمتم فلا تستأثروا علينا ، ولا تذهبوا [ بالغنائم دوننا ] .

وقام أبو اليسر بن عمرو الأنصاري أخو بني سلمة فقال : يا رسول الله إنك وعدت من قتل قتيلًا فله كذا ومن أسير أسيرًا فله كذا وإنا قد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين ، فقام سعد بن معاذ فقال : والله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو لكن كرهنا أن يعرِّي مصافك فيعطف عليه خيل من خيل المشركين فيصيبوك ، فأعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عاد أبو اليسر بمثل مقاله وقام سعد بمثل كلامه وقال : يا رسول الله إن الناس كثير وإن الغنيمة دون ذلك وإن تعط هؤلاء التي ذكرت لا يبق لأصحابك كثير شيء فنزلت ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية . فقسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم بالسوية " .

وروى مكحول عن أبي أمامة الباهلي قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا معاشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في الفعل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسّمه بين المسلمين عن سواء على السواء وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله صلاح ذات البين .

---

" وقال سعد بن أبي وقاص : نزلت في هذه الآية ذلك أنه لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير وقتلت سعيد بن العاص بن أمية وأخذت سيفه وكان يُسمى ذا الكثيفة فأعجبني فجئت به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إن الله قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف فقال ليس هذا لي ولالك اذهب فاطرحه في القبض فطرحته ورجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله عز وجل من قتل أخي وأخذ بيدي قلت : عسى أن يعطيني من لم يبل بلائي فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أنزل الله عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ فخفت أن يكون قد نزل في شيء ، فلما انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي فاذهب فخذهُ فهو لك " .

وقال أبو [ أمية ] مالك بن ربيعة : " أصبت سيف ابن زيد يوم بدر وكان السيف يُدعى المرزبان فلما نزلت هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل فأقبلت به وألقيته في النفل وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنع شيئاً يسأله فراه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه إياه " .

وقال ابن جريج : نزلت في المهاجرين والأنصار ممن شهد بدرًا فاختلفوا فكانوا أثلاثاً فنزلت

هذه الآية وملكها الله رسوله يقسمها كما أراه الله .

عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس [ قال : ] كانت المغانم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لأحد فيها شيء وما أصاب سرايا المسلمين من شيء أتوه به فمن حبس منه إبرة أو ملكاً فهو غلول فسألوا رسول الله أن يعطيهم منها فأنزل الله عزّ وجلّ يسألونك يا محمد عن الأنفال أي حكم الأنفال وعلمها وقسمها . وقيل : معناه يسألونك من الأنفال ﴿ عن ﴾ بمعنى ( من ) .

(41/305)

---

وقيل : " من " صلة أي يسألونك الأنفال . وهكذا قرأ ابن مسعود بحذف ﴿ عن ﴾ وهو قول الضحاك وعكرمة .

والأنفال الغنائم واحدها نفل . قال لبيد :

إن تقوى ربنا خير نفل . . . . . ويأذن الله ريشي والعجل

وأصله الزيادة يقال : نفلت وأنفلت أي : زدتك .

واختلفوا في معناها :

فقال أكثر المفسرين : معنى الآية يسألونك عن غنائم بدر لمن هي .

وقال علي بن صالح بن حيبي : هي أنفال السرايا .

وقال عطاء : فأنشد من المشركين إلى المسلمين بغير قبيل من عبد أو أمة أو سلاح فهو للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يشاء .

وقال ابن عباس : هي ما يسقط من المتاع بعد ما يقسم من الغنائم فهي نفل لله ولرسوله .

وقال مجاهد : هي الخمس وذلك أن المهاجرين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمس بعد الأربعة الأخماس وقالوا : لم يرفع منا هذا الخمس ، لم يخرج منا فقال الله تعالى : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يقسمانها كما شاء أو ينفلان فيها ما شاء أو يرضخان منها ما شاء .

واختلفوا في هذه الآية أهي محكمة أم منسوخة :

فقال مجاهد وعكرمة والسدي : هي منسوخة نسخها قوله ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الآية [ الأنفال : 41 ] .

وكانت الغنائم يومئذ للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة فنسخها الله بالخمس .

وقال عبد الرحمن بن أيد : هي ثابتة وليست منسوخة وإنما معنى ذلك قل الأنفال لله وهي لا شك لله مع الدنيا بما فيها والآخرة وللرسول يضعها في مواضعها التي أمره الله بوضعها فيها ثم أنزل حكم الغنائم بعد أربعين آية فإن لله خُمسه ولكم أربعة أخماس .

---

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " هذا الخمس مردود على فقرائكم " ، وكذلك يقول في تنفيل الأيام بعض القوم واقتفائه إياه ليلاً ، وعلى هذه يفرق بين الأنفال والغنائم بقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ وذلك حين اختلفوا في الغنيمة أمرهم بالطاعة والجماعة ونهاهم عن المفارقة والمخالفة .

قال قتادة وابن جريح : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم ينفل الرجل من المؤمنين سلب الرجل من الكفار إذا قتله وكان ينفل على قدر عنائه وبلائه حتى إذا كان يوم بدر ملأ الناس أيديهم غنائم ، فقال أهل الضعف : ذهب أهل القوة بالغنائم فنزلت ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ليرد أهل القوة على أهل الضعف فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد بعضهم على بعض فأمرهم الله بالطاعة فيها فقال ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ واختلفوا في تأنيث ذات البين فقال أهل البصرة أضاف ذات البين وجعله ذات لأن بعض الأشياء يوضع عليه اسم المؤنث وبعضها يذكر نحو الدار والمخاض أنت الدار وذكر المخاض .

وقال أهل الكوفة : إنما أراد بقوله ﴿ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ الحال التي للبين فكذلك ذات العشاء يريد الساعة التي فيها العشاء .



قالوا : ولم يضعوا مذكراً مؤنثاً ولا مؤنثاً لمذكر إلا لمعنى به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف  
والبيان ح 4 ص ﴾

(43/305)

وقال الماوردي :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

وهذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله أصحابه يوم بدر عن الأنفال .

وفي هذه الأنفال التي سأله عنها خمسة أقاويل :

أحدها : أنها الغنائم ، وهذا قول ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ،

الثاني : أنها السرايا التي تتقدم الجيش ، وهذا قول الحسن .

الثالث : الأنفال ما ندد من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من دابة أو عبد ، وهذا أحد

قولي ابن عباس .

الرابع : أن الأنفال الخمس من الفبيء والغنائم التي جعلها الله تعالى لأهل الخمس ، وهذا قول

مجاهد .

الخامس : أنها زيادات يزيدها الإمام بعض الجيش لما قد يراه من الصلاح .

والأنفال جمع نفل ، وفي النفل قولان :

أحدهما : أنه العطية ، ومنه قيل للرجل الكثير العطاء : نوفل ، قال الشاعر :  
يأتي الظلامه منه النوفل الزُفرُ . . . فالنوفل : الكثير العطاء . والزفر : الحمال للأنفال ، ومنه  
سمي الرجل زفر .

والقول الثاني : أن النفل الزيادة من الخير ومنه صلاة النافلة . قال لبيد بن ربيعة :

إن تقوى ربنا خير نفل . . . ويأذن الله ريشي وعجل

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية على أربعة أقاويل :

أحدها : ما رواه ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَنْ  
كذَا وَكَذَا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا " فسارع إليه الشبان وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما فتح الله  
تعالى عليهم جاءوا يطلبون ما جعل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الشيوخ : لا  
تسأثروا علينا فإننا كنا رداء لكم ، فأنزل الله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية .

(44/305)

---

الثاني : ما روى محمد بن عبيد بن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير  
وقتل سعيد بن العاص بن أمية وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيبة فجئت به النبي

صلى الله عليه وسلم فقلت : هبه لي يا رسول الله ، فقال : " اطرَّحُهُ فِي الْقَبْضِ " فطرَّحته

ورجعت وبني من الغم ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سبلي ، قال : فما

تجاوزت إلا قريبا حتى نزلت عليه سورة الأنفال فقال : " اذْهَبْ فُحْذُ سَيْفِكَ " .

الثالث : أنها نزلت في المهاجرين والأنصار ممن شهد بدرا فأختلفوا وكانوا أثلاثا فنزلت ﴿

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية . فملكه الله رسوله فقسمه كما أراه الله ، قاله عكرمة

والضحاك وابن جريج .

والرابع : أنهم لم يعلموا حكمها وشكوا في إحلالها لهم مع تحريمها على من كان قبلهم فسألوا

عنها ليعلموا حكمها من تحليل أو تحريم فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ثم اختلف أهل العلم في نسخ هذه الآية على قولين :

أحدهما : أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ

وَلِلرَّسُولِ ﴾ [ الأنفال : 41 ] . الآية ، قاله عكرمة ، ومجاهد ، والسدي .

والقول الثاني : أنها ثابتة للحكم ومعنى ذلك ؛ قل الأنفال لله ، وهي لاشك لله مع الدنيا بما

فيها والآخرة ، والرسول يضعها في مواضعها التي أمره الله بوضعها فيها ، قاله ابن زيد .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن يرد أهل القوة على أهل الضعف .

الثاني : أن يسلموا لله وللرسول ليحكما في الغنيمة بما شاء الله . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(45/305)

وقال ابن عطية :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

النفل والنفل والنافلة في كلام العرب الزيادة على الواجب ، وسميت الغنيمة نفلا لأنها زيادة

على القيام بالجهاد وحماية الدين والدعاء إلى الله عز وجل ، ومه قول لبيد : [ الرمل ]

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرٌ نَفْلًا . . . أَي خَيْرُ غَنِيمَةٍ ، وَقَوْلُ عَنْتَرَةَ :

إِنَّا إِذَا احْمَرَّ الوَعْيُ نَرَوِي القَنَا . . . وَنَعْفُ عِنْدَ مِقَاسِمِ الْأَنْفَالِ

والسؤال في كلام العرب يجيء لاقضاء معنى في نفس المسؤل ، وقد يجيء لاقضاء مال أو

نحوه ، والأكثر في هذه الآية أن السؤال إنما هو عن حكم " الأنفال " فهو من الضرب الأول ،

وقالت فرقة إنما سأله الأنفال نفسها أن يعطيهم إياها ، واحتجوا في ذلك بقراءة سعد بن

أبي وقاص وعبد الله بن مسعود وعلي بن الحسين وأبي جعفر محمد بن علي وزيد بن علي

وجعفر بن محمد وطلحة بن مصرف وعكرمة والضحاك وعطاء " يسألونك الأنفال " ،

وقالوا في قراءة من قرأ عن أنها بمعنى " من " ، فهذا الضرب الثاني من السؤال واختلف

الناس في المراد ب ﴿ الأنفال ﴾ في هذه الآية ، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد

والضحاك وقتادة وعطاء وابن زيد هي الغنائم مجملة ، قالوا وذلك أن سبب الآية ما جرى

يوم بدر وهو أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا يوم بدر ثلاث فرق : فرقة

أقامت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش الذي صنع له وحمته وأنسته ، وفرقة

أحاطت بعسكر العدو وأسلاهم لما انكشفوا ، وفرقة اتبعوا العدو وقتلوا وأسروا .

(46/305)

---

وقال ابن عباس في كتاب الطبري : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرض الناس

قبل ذلك فقال : من قتل قتيلاً أو أسر أسيراً فله كذا وله كذا ، فسارع الشبان وبقي الشيوخ

عند الرايات ، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس رأّت كل فرقة الفضل لنفسها ، وقالت نحن

أولى بالمغنم ، وساءت أخلاقهم في ذلك ، فنزلت الآية بأن الغنائم لله وللرسول فكفوا ،

فقسمه حينئذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على السواء ، وأسند الطبري وغيره عن

أبي أمامة الباهلي ، قال : سألت عبادة بن الصامت عن " الأنفال " فقال فينا أهل بدر

نزلت حين اختلفنا وساءت أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم وقسمه عليه السلام عن بواء .

قال القاضي أبو محمد : يريد عن سواء ، فكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وصالح ذات البين ، مما جرى أيضاً يوم بدر فقيل إنه سبب ما أسنده الطبري عن سعد بن أبي وقاص ، قال : لما كان يوم بدر قتل أخي عمير وقتل سعيد بن العاصي وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكثيفة فجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : هذا السيف قد شفى الله به من المشركين فأعطني ، فقال : ليس هذا لي ولا لك ، فاطرحه في القبض فطرحته فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سبلي ، قال فما جاوزت إلا قريباً حتى نزلت عليه سورة الأنفال ، فقال : اذهب فخذ سيفك فإنك سألتني السيف وليس لي ، وإنه قد صار لي فهو لك .

(47/305)

---

قال القاضي أبو محمد : وفي بعض طرق هذا الحديث ، قال سعد : فقلت لما قال لي ضعه في القبض أنني أخاف أن تعطيه من لم يبل بلائي ، قال : فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلفي ، قال فقلت أخاف أن يكون نزلت في شيء ، فقال : إن السيف قد صار لي فأعطني ونزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ وأسند الطبري أيضاً عن أبي أسيد مالك بن

ربيعة قال: أصبت سيف ابن عائد يوم بدر، وكان يسمى المزربان، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردوا ما في أيديهم من النفل أقبلت به، فألقته في النفل، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنع شيئاً يسأله، فراه الأرقم المخزومي فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه إياه.

قال القاضي أبو محمد: فيجيء من مجموع هذه الآثار أن نفوس أهل بدر تنافرت ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة، لا سيما من أبلى، فأنزل الله عز وجل الآية، فرضي المسلمون وسلموا، فأصلح الله ذات بينهم ورد عليه غنائمهم، وقال بعض أهل هذا التأويل عكرمة ومجاهد: كان هذا الحكم من الله لرفع الشغب، ثم نسخ بقوله ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ [ الأنفال: 41 ] وقال ابن زيد: لم يقع في الآية نسخ، وإنما أخبر أن الغنائم لله من حيث هي ملكه ورزقه وللرسول من حيث هو مبيّن بها أحكام الله والصادع بها ليقع التسليم فيها من الناس، وحكم القسمة نازل خلال ذلك، ولا شك في أن الغنائم وغيرها والدنيا بأسرها هي لله وللرسول.

قال القاضي أبو محمد: وقال ابن عباس أيضاً ﴿ الأنفال ﴾ في الآية ما يعطيه الإمام لمن رآه من سيف أو فرس أو نحوه، وهذا أيضاً يحسن مع الآية ومع ما ذكرناه من آثار يوم بدر. وقال علي بن صالح بن جني والحسن فيما حكى المهدوي: ﴿ الأنفال ﴾ في الآية ما تجيء به السرايا خاصة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا القول بعيد عن الآية غير ملتئم مع الأسباب المذكورة، بل يجيء خارجاً عن يوم بدر، وقال مجاهد: ﴿ الأنفال ﴾ في الآية الخمس، قال المهاجرون: لم يخرج منا هذا الخمس، فقال الله تعالى هو لله وللرسول، وهذا أيضاً قول قليل التناسب مع الآية، وقال ابن عباس وعطاء أيضاً: ﴿ الأنفال ﴾ في الآية ما شد من أموال المشركين إلى المسلمين كلفرس والغاير والعبد الأبق هو للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما شاء، وقال ابن عباس أيضاً: ﴿ الأنفال ﴾ في الآية ما أصيب من أموال المشركين بعد قسمة الغنيمة هو لله ورسوله.

قال القاضي أبو محمد: وهذان القولان لا تخرج بهما الآية عن الأسباب التي رويت في يوم بدر ولا تختص الآية بيوم بدر على هذا، وكان هاتين المقاتلين إنما هي فيما ناله الجيش دون قتال وبعد تمام الحرب وارتفاع الخوف، وأولى هذه الأقوال وأوضحها القول الأول الذي تظاهرت الروايات بأسبابه وناسبه الوقت الذي نزلت الآية فيه، وحكى النقاش عن الشعبي أنه قال: ﴿ الأنفال ﴾ الأسارى.

قال القاضي أبو محمد: وهذا إنما هو على جهة المثال فيعني كل ما يغنم، ويحسن في تفسير



هذه الآية أن نذكر شيئاً من اختلاف العلماء في تنفيل الإمام لمن رآه من أهل النجدة والغناء وما يجوز من ذلك وما يمتنع وما لهم في السلب من الاختلاف ، فقالت فرقة لانفل بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الجمهور : النفل باق إلى يوم القيامة ، ينفل إمام الجيش ما رآه لمن رآه لكن بحسب الاجتهاد والمصلحة للمسلمين ليحض الناس على النجدة وينشطهم إلى مكافحة العدو والاجتهاد في الحرب ، ثم اختلفوا فقال ابن القاسم عن مالك في المدونة : إنما ينفل الإمام من الخمس لا من جملة الغنيمة ، وينفل في أول المغنم وفي آخره بحسب اجتهاده ، وقالت فرقة : إنما ينفل الإمام قبل القتال ، وأما إذا جمعت الغنائم فلانفل .

(49/305)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا إنما يكون على هذا القول بأن يقول من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، أو يقول لسرية إن وصلتكم إلى موضع كذا فلكم كذا ، وقال الشافعي وابن حنبل : لانفل إلا بعد الغنيمة قبل التخميس ، وقال إبراهيم النخعي : ينفل الإمام متى شاء قبل التخميس ، وقال أنس بن مالك ورجاء بن حيوة ومكحول والقاسم وجماعة منهم الأوزاعي وأحمد وإسحاق وعدي بن عدي : لانفل إلا بعد إخراج الخمس ثم ينفل الإمام من أربعة الأخماس ثم يقسم الباقي بين الناس : وقال ابن المسيب : إنما ينفل الإمام من خمس الخمس ، وقال

مالك رحمه الله لا يجوز أن يقول الأمير من هدم كذا من الحصن فله كذا ومن بلغ إلى كذا فله كذا ، ولا أحب لأحد أن يسفك دماً على مثل هذا ، قال سحنون : فإن نزل ذلك لزمه فإنه مبايعة .

(50/305)

---

وقال مالك رحمه الله : لا يجوز أن يقول الإمام لسرية : ما أخذتم فلکم ثلثه ، قال سحنون : يريد ابتداء ، فإن نزل مضى ولهم انصباؤهم في الباقي ، وقال سحنون : إذا قال الإمام لسرية : ما أخذتم فلا خمس عليكم فيه ، فهذا لا يجوز فإن نزل رددته لأن هذا حكم شاذ لا يجوز ولا يمضى ، ويستحب على مذهب مالك إن نفل الإمام أن ينفل ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف ، وقد منع بعض العلماء أن ينفل الإمام ذهباً أو فضةً أو لؤلؤاً أو نحو هذا ، وقال بعضهم : النفل جائز من كل شيء ، وأما السلب فقال مالك رحمه الله : الأسلاب من المغنم تقسم على جميع الجيش إلا أن يشترط الإمام وقاله غيره : وقال الليث والأوزاعي والشافعي وأحمد وأبو ثور وأبو عبيد وابن المنذر : السلب حق للقاتل بحكم النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الشافعي وأحمد وأبو عبيد وابن المنذر : السلب حق للقاتل بحكم النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الشافعي وأحمد وأبو عبيد وابن المنذر : قاله الإمام أولم

يقله وقال مالك : إذ قال الإمام من قتل قتيلاً فله سلبه فذلك لازم ، ولكنه على قدر اجتهاد الإمام وبسبب الأحوال والضيقات واستصراخ الأنجاد ، وقال الشافعي وابن حنبل : تخرج الأسلاب من الغنيمة ثم تحمس بعد ذلك وتعطى الأسلاب للقتلة ، وقال إسحاق بن راهويه : إن كان السلب يسيراً فهو للقاتل وإن كان كثيراً خمس ، وفعله عمر بن الخطاب مع البراء بن مالك حين بارز المرزبان فقتله فكانت قيمة منطقته وسواريه ثلاثين ألفاً ، فحمس ذلك ، وروى في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم هو حديث عوف بن مالك في مصنف أبي داود ، وقال مكحول : السلب مغنم وفيه الخمس ، وروى نحوه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال القاضي أبو محمد : يريد يخمس على القاتل وحده وقال جمهور الفقهاء لا يعطى القاتل السلب إلا أن يقيم البينة على قتله قال أكثرهم : ويجزىء شاهد واحد بحكم حديث أبي قتادة ، وقال الأوزاعي يعطاه بمجرد دعواه .

(51/305)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وقال الشافعي : لا يعطى القاتل إلا إذا كان قتيله مقبلاً مشيحاً مبارزاً ، وأما من قتل منهزماً فلا ، وقال أبو ثور وابن المنذر صاحب

الأشراف : للقاتل السلب منهزماً كان القتل أو غير منهزم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا أصح لحديث سلمة بن الأكوع في اتباعه ربيعة الكفار في غزوة حنين وأخذه بخنطام بغيره وقتله إياه وهو هارب فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سلبه ، وقال ابن حنبل : لا يكون السلب للقاتل إلا في المبارزة فقط ، واختلفوا في السلب ، فأما السلاح وكل ما يحتاج للقتال فلا أحفظ فيه خلافاً أنه من السلب ، وفرسه إن قاتل عليه وصرع عنه ، وقال أحمد بن حنبل في الفرس : ليس من السلب ، وكذلك إن كان في هميانه أو منطقته دنانير أو جوهر أو نحو هذا مما يعده فلا أحفظ خلافاً أنه ليس من السلب واختلف فيما يتزين به للحرب ويهول فيها كالتاج والسوارين والأقراط والمناطق المثقلة بالذهب والأحجار فقال الأوزاعي ذلك كله من السلب ، وقالت : فرقة : ليس من السلب ، وهذا مروى عن سحنون رحمه الله إلا المنطقة فإنها عنده من السلب ، قال ابن حبيب في الواضحة : والسوارين من السلب ، ويرجح الشافعي هل هذه كلها من السلب أولاً؟

قال القاضي أبو محمد : وإذا قال الإمام : من قتل قتيلاً فله سلبه فقتل ذمي قتيلاً فالمشهور أن لا شيء له وعلى قول أشهب يرضخ أهل الذمة من الغنيمة يلزم أن يعطى السلب ، وإن قتل الإمام بيده بعد هذه المقالة قتيلاً فله سلبه .

---

قال القاضي أبو محمد : وأما الصفي فكان خالصاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله عز وجل : ﴿ فاتقوا الله ﴾ معناها في الكلام ، اجعل بينك وبين المحذور وقاية ، وقوله ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ تصريح بأنه شجر بينهم اختلاف ومالت النفوس إلى التشاح ، و ﴿ ذات ﴾ في هذا الموضع يراد بها نفس الشيء وحقيقته ، والذي يفهم من ﴿ بينكم ﴾ هو معنى يعم جميع الوصل والاتحامات والمودات وذات ذلك هي المأمور بإصلاحها أي نفسه وعينه ، فحضر الله عز وجل على إصلاح تلك الأجزاء فإذا صلحت تلك حصل إصلاح ما يعمها وهو البين الذي لهم ، وقد تستعمل لفظة الذات على أنها لزيمة ما تضاف إليه وإن لم تكن عينه ونفسه ، وذلك في قوله : ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ [ الأنفال : 43 ] و ﴿ ذات الشوكة ﴾ [ الأنفال : 7 ] فإنها ها هنا مؤنثة قولهم : الذئب مغبوط بذئ بطنه ، وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه إنما هو ذو بطن بنت خارجة ، ويحتمل ذات البين أن تكون هذه ، وقد تقال الذات أيضاً بمعنى آخر وإن كان يقرب من هذا ، وهو قولهم فعلت كذا ذات يوم ، ومنه قول الشاعر : [ البسيط ]

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة . . . ذات العشاء ولا تسري أفاعيها

وذكر الطبري عن بعضهم أنه قال : ﴿ ذات بينكم ﴾ الحال التي لبينكم كما ذات العشاء

الساعة التي فيها العشاء .

قال القاضي أبو محمد : ورجحه الطبري وهو قول بين الانتقاض ، وقال الزجاج البين ها هنا  
الوصل ، ومثله قوله عز وجل : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [ الأنعام : 94 ] .

(53/305)

---

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا كله نظر ، وقوله ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ لفظ عام  
وسببه الأمر بالوقوف عندما ينفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغنائم ، وقوله : ﴿  
إن كنتم مؤمنين ﴾ أي كاملين الإيمان كما تقول لرجل إن كنت رجلاً فافعل كذا أي إن كنت  
كامل الرجولة وجواب الشرط في قوله المتقدم ﴿ وأطيعوا ﴾ هذا عند سيبويه ،  
ومذهب أبي العباس أن الجواب محذوف متأخري دل عليه المتقدم تقديره إن كنتم مؤمنين  
أطيعوا ، ومذهبه في هذا أن لا يتقدم الجواب الشرط . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز  
ح 2 ص ﴾

(54/305)

---

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾

في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : " من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا ، " فأما المشيخة ، فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقال المشيخة للشبان : أشركونا معكم ، فانا كنا لكم رداءً ، فأبوا ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت سورة ( الأنفال ) رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : أن سعد بن أبي وقاص أصاب سيفاً يوم بدر ، فقال : يا رسول الله ، هبه لي ، فنزلت هذه الآية ، رواه مصعب بن سعد عن أبيه .

وفي رواية أخرى " عن سعد قال : قتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه ، فأثيت به رسول الله ، فقال : " اذهب فاطرحه في القُبْض " ، فرجعت ، وبني ما لا يعلمه إلا الله ، فما جاوزت الإقربيا حتى نزلت سورة ( الأنفال ) ، فقال : " اذهب فخذ سيفك " .

وقال السدي : اختصم سعد وناس آخرون في ذلك السيف ، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية .

والثالث : أن الأنفال كانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس لأحد منها

شيء ، فسألوه أن يعطيهم منها شيئاً ، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وفي المراد بالأنفال ستة أقوال .

أحدها : أنها الغنائم ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والضحاك ، وأبو عبيدة ، والزجاج ، وابن قتيبة في آخرين .

وواحد الأنفال : نفل ، قال لبيد :

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرٌ نَفْلًا . . .

وَبَاذَنَ اللَّهُ رَيْثِي وَعَجَلُ

والثاني : أنها ما نفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم القاتل من سلب قتيله .

والثالث : أنها ما شذ من المشركين إلى المسلمين من عبء أو دابة بغير قتال ، قاله عطاء . وهذا والذي قبله مرويان عن ابن عباس أيضاً .

(55/305)

---

والرابع : أنه الخمس الذي أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم ، قاله مجاهد .

والخامس : أنه أنفال السرايا ، قاله علي بن صالح بن حي .



وحكي عن الحسن قال: هي السرايا التي تتقدم أمام الجيوش.

والسادس: أنها زيادات يُؤثرُ بها الإمامُ بعضَ الجيشِ لما يراه من المصلحة، ذكره الماوردي.  
وفي "عن" قولان.

أحدهما: أنها زائدة، والمعنى: يسألونك الأنفال، وكذلك قرأ سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو العالية: "يسألونك الأنفال" بحذف ﴿ عن ﴾.  
والثاني: أنها أصل، والمعنى: يسألونك عن الأنفال لمن هي؟ أو عن حكم الأنفال؛ وقد ذكرنا في سبب نزولها ما يتعلق بالقولين.

وذكر أنهم إنما سألوا عن حكمها لأنها كانت حراماً على الأمم قبلهم.

## فصل

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية، فقال بعضهم: إنها ناسخة من وجه، منسوخة من وجه، وذلك أن الغنائم كانت حراماً في شرائع الأنبياء المتقدمين، فنسخ الله ذلك بهذه الآية، وجعل الأمر في الغنائم إلى ما يراه الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ﴾ [الأنفال: 41].

وقال آخرون: المراد بالأنفال: شيطان.

أحدهما: ما يجعله الرسول صلى الله عليه وسلم لطائفة من شجعان العسكر ومتقدميه، يستخرج به نصحهم ويحرّضهم على القتال.

والثاني: ما يفضل من الغنائم بعد قسمتها كما روي عن ابن عمر قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية، فغنمنا إبلاً، فأصاب كل واحد منا اثنا عشر بعيراً، ونقلنا بعيراً بعيراً؛ فعلى هذا هي محكمة، لأن هذا الحكم باقٍ إلى وقتنا هذا.

## فصل

ويجوز النَّفْلُ قبل إحراز الغنيمة، وهو أن يقول الإمام: من أصاب شيئاً فهو له، وبه قال الجمهور.

فأما بعد إحرازها ففيه عن أحمد روايتان.

وهل يستحق القاتل سلب المقتول إذا لم يشرطه له الإمام؟ فيه قولان.

(56/305)

---

أحدهما: يستحقه، وبه قال الأوزاعي، والليث، والشافعي.

والثاني: لا يستحقه، ويكون غنيمة للجيش، وبه قال أبو حنيفة، ومالك؛ وعن أحمد روايتان كالقولين.

قوله تعالى: ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يحكمان فيها ما أَرَادَا ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك مخالفته ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ قال الزجاج: معنى "ذات بينكم" حقيقة وصلكم.

والبين : الوصل ؛ كقوله : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [ الأنعام : 94 ] .

ثم في المراد بالكلام قولان .

أحدهما : أن يردَّ القويُّ على الضعيف ، قاله عطاء .

والثاني : ترك المنازعة تسليمًا لله ورسوله .

قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : اقبلوا ما أمرتم به في الغنائم وغيرها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(57/305)

وقال القرطبي :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى روى عبادة بن الصّامت قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فلقوا

العدوّ ؛ فلما هزمهم الله اتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم ، وأحدقت طائفة برسول الله

صلى الله عليه وسلم ، واستولت طائفة على العسكر والنهب ؛ فلما نفى الله العدو ورجع

الذين طلبوهم قالوا : لنا النفل ، نحن الذين طلبنا العدو وبنّا نفاهم الله وهزمهم .

وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أتم أحقّ به منا ، بل هولنا ، نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم للأينال العدو ومنه غرة .

وقال الذين استلوا على العسكر والنهب: ما أتم بأحقّ منا ، هولنا ، نحن حويناها واستولينا عليه ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .  
فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فواق بينهم .

قال أبو عمر: قال أهل العلم بلسان العرب: استلوا أظافوا وأحاطوا؛ يقال: الموت مُستلوا على العباد .

وقوله: "فقسمه عن فواق" يعني عن سرعة .

قالوا: والفواق ما بين حلبتي الناقة .

يقال: انتظره فواق ناقة، أي هذا المقدار .

ويقولونها بالضم والفتح: فواق وفواق .

وكان هذا قبل أن ينزل: ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيءٍ فإنّ لله خمسُهُ ﴾ [ الأنفال :

41 ] الآية .

وكان المعنى عند العلماء: أي إلى الله وإلى الرسول الحكم فيها والعمل بها بما يقرب من الله تعالى .

وذكر محمد بن إسحاق قال : حدّثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى الأشدق عن مكحول عن أبي أمامة الباهليّ قال : سألت عبادة بن الصّامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدرٍ نزلت حين اختلفنا في التّفلّ ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بَواء .

يقول : على السّواء .

فكان ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البين .

وروي في الصحيح " عن سعد بن أبي وقاص قال : اغتتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة ، فإذا فيها سيف ، فأخذته فأتيت به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : نفلني هذا السيف ، فأنا من قد علمت حاله .

قال : " ردّه من حيث أخذته " فانطلقت حتى أردت أن أقبض لأمّتي نفسي فرجعت إليه فقلت : أعطنيه .

قال : فشدّ لي صوته " ردّه من حيث أخذته " فانطلقت حتى أردت أن أقبض في القبض

لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت : أعطنيه ، قال : فشدّ لي صوته " رده من حيث أخذته "

فأنزل الله ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ " لفظ مسلم .

والروايات كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية ، والله الموفق للهداية .

الثانية الأنفال واحدها نفل بتحريك الفاء ؛ قال :

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرٌ نَفْلٍ . . .

ويأذن الله ريثي والعجلُ

أي خير غنيمة .

والتَّفْلُ : اليمين ؛ ومنه الحديث " قُتِبَتْكُمْ يَهُودٌ بِنَفْلِ خَمْسِينَ مِنْهُمْ " والتَّفْلُ الانتقاء ؛ ومنه

الحديث " فانتفل من ولدها " والتَّفْلُ : نبت معروف .

والتَّفْلُ : الزيادة على الواجب ، وهو التطوع .

وولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد .

والغنيمة نافلة ؛ لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرها .

قال صلى الله عليه وسلم : " فَضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ فِيهَا وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ "

والأنفال : الغنائم أنفسها .

قال عنتره :

إِنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْوَعْيَى نُرْوِي الْقَنَا . . .

وَنِعَفَ عِنْدَ مَقَاسِمِ الْأَنْفَالِ

أَيُّ الْغَنَائِمِ .

الثالثة واختلف العلماء في محل الأنفال على أربعة أقوال : الأول محلها فيما شذ عن

الكافرين إلى المسلمين أو أخذ بغير حرب .

الثاني محلها الخمس .

الثالث خمس الخمس .

الرابع رأس الغنيمة ؛ حسب ما يراه الإمام .

ومذهب مالك رحمه الله أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس ، على ما يرى من الاجتهاد ،

وليس في الأربعة الأقسام نفل ، وإنما لم ير النفل من رأس الغنيمة لأن أهلها معيّنون وهم

الموجفون ، والخمس مردود قسمه إلى اجتهاد الإمام .

وأهله غير معيّنين .

قال صلى الله عليه وسلم : " ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم "

فلم يكن بعد هذا أن يكون النفل من حق أحد ، وإنما يكون من حق رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهو الخمس .

هذا هو المعروف من مذهبه وقد روي عنه أن ذلك من خمس الخمس .

وهو قول ابن المسيب والشافعي وأبي حنيفة .

وسبب الخلاف حديثُ ابن عمر ، رواه مالك قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية قبل نجد فغنموا إبلا كثيرة ، وكانت سهمانهم اثني عشر بعيراً أو أحد عشر بعيراً ؛ ونقلوا بعيراً بعيراً .

هكذا رواه مالك على الشك في رواية يحيى عنه ، وتابعه على ذلك جماعة رواة الموطأ إلا الوليد بن مسلم فإنه رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر ، فقال فيه : فكانت سهمانهم اثني عشر بعيراً ، ونقلوا بعيراً بعيراً . ولم يشك .

وذكر الوليد بن مسلم والحكم بن نافع عن شعيب بن أبي حمزة عن نافع عن ابن عمر قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيش قبل نجد في رواية الوليد : أربعة آلاف وانبعثت سرية من الجيش في رواية الوليد : فكنت ممن خرج فيها فكان سهمان الجيش اثني عشر بعيراً ، اثني عشر بعيراً ؛ ونقل أهل السرية بعيراً بعيراً ؛ فكان سهمانهم ثلاثة عشر بعيراً ؛ ذكره أبو داود .

فاحتج بهذا من يقول إن النفل إنما يكون من جملة الخمس .



وبيانه أن هذه السرية لو نزلت على أن أهلها كانوا عشرة مثلاً أصابوا في غنيمتهم مائة وخمسين ، أخرج منها خمسها ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون ، قُسمت على عشرة وجب لكل واحد اثنا عشر بغيراً ، اثنا عشر بغيراً ، ثم أعطى القوم من الخمس بغيراً بغيراً ؛ لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبعرة .

فإذا عرفت ما للعشرة عرفت ما للمائة والألف وأزيد .

واحتج من قال : إن ذلك كان من خمس الخمس بأن قال : جائز أن يكون هناك ثياب تباع ومتاع غير الإبل ، فأعطى من لم يبلغه البعير قيمة البعير من تلك العُرُوض .

ومما يعضد هذا ما روى مسلم في بعض طرق هذا الحديث : فأصبنا إبلًا وغنماً ؛ الحديث .

وذكر محمد ابن إسحاق في هذا الحديث أن الأمير نقلهم قبل القسم ، وهذا يوجب أن يكون النفل من رأس الغنيمة ، وهو خلاف قول مالك .

وقول من روى خلفه أولى لأنهم حفاظ ؛ قاله أبو عمر رحمه الله .

وقال مكحول والأوزاعي : لا ينفل بأكثر من الثلث ؛ وهو قول الجمهور من العلماء .

قال الأوزاعيّ: فإن زادهم فليف لهم ويجعل ذلك من الخمس .

وقال الشافعيّ: ليس في النفل حدّ لا يتجاوزه الإمام .

الرابعة ودلّ حديث ابن عمر على ما ذكره الوليد والحكم عن شعيب عن نافع أن السريّة إذا

خرجت من العسكر فغنمت أن العسكر شركاؤهم .

وهذه مسألة وحكم لم يذكره في الحديث غير شعيب عن نافع ، ولم يختلف العلماء فيه ،

والحمد لله .

الخامسة واختلف العلماء في الإمام يقول قبل القتال : من هدم كذا من الحصن فله كذا ، ومن

بلغ إلى موضع كذا فله كذا ، ومن جاء برأس فله كذا ، ومن جاء بأسير فله كذا ؛ يُضربهم .

فروبي عن مالك أنه كرهه .

وقال : هو قتال على الدنيا .

وكان لا يجيزه .

قال الثوريّ: ذلك جائز ولا بأس به .

قلت : وقد جاء هذا المعنى مرفوعاً من حديث ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلاً فله كذا ومن أسيراً فله كذا " الحديث بطوله .  
وفي رواية عكرمة عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من فعل كذا وكذا وأتى مكان كذا وكذا فله كذا " فتسارع الشُّبان وثبت الشيوخ مع الرايات ؛ فلما فُتح لهم جاء الشبان يطلبون ما جعل لهم فقال لهم الأشياخ : لا تذهبون به دوننا ، فقد كنا ردءاً لكم ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ذكره إسماعيل ابن إسحاق أيضاً .

وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال لجريير بن عبد الله البجلي لما قدم عليه في قومه وهو يريد الشام : هل لك أن تأتي الكوفة ولك الثلث بعد الخمس من كل أرض وسببي ؟ .

وقال بهذا جماعة فقهاء الشام : الأوزاعي ومكحول وابن حيوة وغيرهم .

ورأوا الخمس من جملة الغنيمة ، والنفل بعد الخمس ثم الغنيمة بين أهل العسكر ؛ وبه قال إسحاق وأحمد وأبو عبيد .

قال أبو عبيد : والناس اليوم على أن لا نفل من جهة الغنيمة حتى تخمس .

وقال مالك : لا يجوز أن يقول الإمام لسريّة ؛ ما أخذتم فلکم ثلثه .

قال سُحنون : يريد ابتداء .

فإن نزل مضى ، ولهم أنصباؤهم في الباقي .

وقال سُحنون : إذا قال الإمام لسريّة ما أخذتم فلا خمس عليكم فيه ؛ فهذا لا يجوز ، فإن

نزل رددته ، لأن هذا حكم شاذ لا يجوز ولا يمضي .

السادسة واستحب مالك رحمه الله الأئنفالإمام إلا ما يظهر كالعمامة والفرس  
والسيف .

ومنع بعض العلماء أن ينفل الإمام ذهباً أو فضة أو لؤلؤاً ونحوه .

وقال بعضهم : النفل جائز من كل شيء .

وهو الصحيح لقول عمر ومقتضى الآية ، والله أعلم .

السابعة قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أمر بالتقوى والإصلاح ، أي

كونوا مجتمعين على أمر الله في الدعاء : اللَّهُمَّ أَصْلِحْ ذَاتَ الْبَيْنِ ، أي الحال التي يقع بها

الاجتماع .

(62/305)

---

فدل هذا على التصريح بأنه شجر بينهم اختلاف .

أو مالت النفوس إلى التشاح ؛ كما هو منصوص في الحديث .

وتقدم معنى التقوى ، أي اتقوا الله في أقوالكم ، وأفعالكم ، وأصلحوا ذات بينكم .

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في الغنائم ونحوها .

﴿ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي إِن سَبِيلَ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَمِثَلَ مَا ذَكَرْنَا .

وقيل : "إِنْ" بمعنى "إِذْ" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(63/305)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾

(ق) عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن سورة الأنفال .

قال : نزلت في بدر واختلف أهل التفسير في سبب نزولها فقال ابن عباس لما كان يوم بدر

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ومن أتى

مكان كذا وكذا فله كذا وكذا ومن قتل قتيلاً فله كذا " فتسارع الشباب وبقيت الشيوخ

تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاؤوا يطلبون ما جعل لهم النبي (صلى الله عليه وسلم)

، فقال لهم الأشياخ : لا تذهبوا به دوننا ولا تستأثروا به علينا فإننا كنا رداء لكم ولو

انكشفتم إلينا فتنازعوا .

فأنزل الله : يسألونك عن الأنفال .

الآية قال أهل التفسير : قام أبو اليسر بن عمرو الأتثاري أخو بني سلمة فقال : يا رسول الله

إنك وعدت ان من قتل قتيلاً فله كذا وكذا وإنا قد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين وقام سعد بن معاذ فقال : والله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو ولكن كرهنا أن تعرى مصافك فتعطف عليك خيل من المشركين فيصبونك .

فأعرض عنهما رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فقال سعد : يا رسول الله إن الناس كثير والغنيمة دون ذلك فإن تعط هؤلاء الذين ذكرت لا يبقى لأصحابك كبير شيء فنزلت هذه الآية : يسألونك عن الأنفال وقال محمد بن إسحاق : " أمر رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بما في العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه هولنا وكان رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) نفل كل امرئ ما أصاب وقال الذين كانوا يقاتلون العدو لولا نحن ما أصبتموه وقال الذين يحرسون رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) لقد كنا نقدر أن نقاتل العدو ولكننا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم غرة العدو فقمنا دونه فما أنتم بأحق منا فنزلت هذه الآية " .

(64/305)

---

روى مكحول عن أبي أمامة الباهلي قال : " سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من

أيدينا وجعله إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقسمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيننا عن بواء "يقول على سواء وكان فيه تقوى الله وطاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإصلاح ذات البين وعن سعد بن أبي وقاص قال: "لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يا رسول الله إن الله قد شفى صدري من المشركين أو نحو هذا هب لي هذا السيف فقال:

"هذا ليس لي ولا لك" فقلت: عسى أن يعطيني هذا من لا يبلي بلأني فجاءني الرسول فقال "إنك سألتني وليس لي وأنه قد صار لي وهولك" فنزلت يسألونك عن الأنفال، الآية أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح وأخرجه مسلم في جملة حديث طويل يتضمن فضائل سعد ولفظ مسلم فيه.

قال: "أصاب رسول الله عليه وسلم غنيمة عظيمة وإذا فيها سيف فأخذته فأتيت به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت نفلني هذا السيف فأنا قد علمت حاله فقال "رده من حيث أخذته" فانطلقت به حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت أعطينيه قال فشد على صوته "رده من حيث أخذته" فأنزل الله ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ وقال ابن عباس: كانت المغانم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) خاصة ليس لأحد فيها شيء وما أصاب سرايا المسلمين من شيء أتوه به فمن حبس منه إبرة أو سلكاً فهو غلول وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ استفتاء

يعني يسألك أصحابك يا محمد عن حكم الأنفال وعلمها وهو سؤال استفتاء لا سؤال طلب .

وقال الضحاك وعكرمة : هو سؤال طلب وقوله عن الأنفال أي من الأنفال وعن بمعنى من .

(65/305)

---

وقيل : عن صلة أي يسألونك الأنفال والأنفال هي الغنائم في قول ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأصله الزيادة سميت الغنائم أنفالاً لأنها زيادة من الله لهذه الأمة على الخصوص وأكثر المفسرين على أنها نزلت في غنائم بدر .

وقال عطاء : هي ما شذ عن المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو امرأة أو متاع فهو للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) يصنع فيه ما يشاء ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ أي : قل لهم يا محمد إن الإنفال حكمها لله ورسوله يقسمانها كيف شاؤوا واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال مجاهد وعكرمة والسدي هذه الآية منسوخة فنسخها الله سبحانه وتعالى بالخمسة في قوله ﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ﴾ الآية .

وقيل كانت الغنائم لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يقسمها كيف شاء ولمن شاء ثم



نسخها الله بالخمس .

وقال بعضهم : هذه الآية ناسخة من وجه منسوخة من وجه وذلك أن الغنائم كانت حراماً على الأمم الذين من قبلنا في شرائع أنبيائهم فأباحها الله لهذه الأمة بهذه الآية وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت بآياته الخمس وقال عبد الرحمن بن زيد إنها محكمة وهي إحدى الروايات عن ابن عباس ومعنى الآية على هذا القول قل الأنفال لله والرسول يضعها حيث أمره الله وقد بين الله مصارفها في قوله :

﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ﴾ الآية .

(66/305)

---

وصح من حديث ابن عمر ، قال : بعثنا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) في سرية فغنمنا إبلاً فأصاب كل واحد منا اثني عشر بعيراً ونقلنا بعيراً بعيراً أخرجاه في الصحيحين فعلى هذا تكون الآية محكمة وللإمام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس ﴿ فاتقوا الله ﴾ يعني اتقوا الله بطاعته واتقوا مخالفته واتركوا المنازعة والمخاصمة في الغنائم ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أي أصلحوا الحال فيما بينكم بترك المنازعة والمخالفة وتسليم أمر الغنائم إلى الله ورسوله ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ فيما يأمرانكم به

وينهيانكم عنه ﴿ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يعني إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 ص ﴾

(67/305)

وقال ابن كثير:

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية (1) آياتها سبعون وست آيات (2) كلماتها ألف كلمة ، وستمائة كلمة ،  
وإحدى (3) وثلاثون كلمة ، حروفها خمسة آلاف ومائتان ، وأربعة وتسعون (4) حرفا ،  
والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (1)

قال البخاري: قال ابن عباس الأنفال: الغنائم: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا  
سعيد بن سليمان، أخبرنا هُشَيْمٌ، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن  
عباس: سورة الأنفال؟ قال نزلت في بدر.

أما ما علّقه عن ابن عباس ، فكذلك رواه علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس أنه قال :  
"الأنفال" : الغنائم ، كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة ، ليس لأحد منها  
شيء . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، والضحاك ، وقتادة ، وعطاء الخراساني  
، ومقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد أنها الغنائم  
وقال الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس أنه قال : الأنفال : الغنائم ، قال فيها لبيدُ : إِنَّ  
تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفْلٍ وَيَا ذَنْ لِيهِ وَعَجَلُ (1)

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني مالك بن أنس ، عن ابن شهاب  
، عن القاسم بن محمد قال : سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن "الأنفال" ، فقال ابن عباس  
، رضي الله عنهما : الفرس من النفل ، والسلب من النفل . ثم عاد لمسأله ، فقال ابن  
عباس ذلك أيضا . ثم قال الرجل : الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي ؟ قال القاسم : فلم  
يزل يسأله حتى كاد يُخرجه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ، مثل صبيغ الذي  
ضربه عمر بن الخطاب (2)

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن القاسم بن محمد قال : قال ابن عباس :

كان

---

(7) البيت في تفسير الطبري (366/13) ولسان العرب مادة (نفل) .

(8) تفسير الطبري (364/13) .

عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، إذا سئل عن شيء قال : لا أمرك ولا أنهاك . ثم قال ابن عباس : والله ما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلا زاجرا أمرا محلا محرما . قال القاسم : فسأط على ابن عباس رجل يسأله عن الأنفال ، فقال ابن عباس : كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه . فأعاد عليه الرجل ، فقال له مثل ذلك ، ثم أعاد عليه حتى أغضبه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب ، حتى سالت الدماء على عقبيه - أو على : رجليه فقال الرجل : أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك (1)

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس : أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه ، بعد قسم أصل المغنم ، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل ، والله أعلم .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخمس بعد الأربعة الأخماس ، فنزلت : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ (2)

وقال ابن مسعود ومسروق : لا نفل يوم الزحف ، إنما النفل قبل التقاء الصفوف . رواه ابن

أبي حاتم عنهما .

وقال ابن المبارك وغير واحد ، عن عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء بن أبي رباح :  
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ قال : يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال  
، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع ، فهو نفل للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يشاء .  
وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال .  
وقال ابن جرير : وقال آخرون : هي أنفال السرايا ، حدثني الحارث ، حدثنا عبد العزيز ،  
حدثنا علي بن صالح بن حبي قال : بلغني في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ قال :  
السرايا .

ويعني هذا : ما ينقله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية

---

(1) تفسير عبد الرزاق (231/1) وصبيغ هو "ابن عسل" ويقال "ابن سهل" التميمي .

انظر قصته في : الإصابة (2/198) .

(2) رواه الطبري في تفسيره (365/13) .

(69/305)

---

الجيش ، وقد صرح بذلك الشعبي ، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسم ، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية ، وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا أبو إسحاق الشيباني ، عن محمد بن عبد الله الثقفى ، عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر ، وقتل أخي عُمَيْر ، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه ، وكان يسمى " ذا الكتيبة " ، فأتيت به نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " اذهب فاطرحه في القبض " . قال : فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي . قال : فما جاوزت إلا سيرا حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذهب فخذ سيفك " (1)

---

(1) المسند (180/1) .

(70/305)

---

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا أبو بكر ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد بن مالك قال : قال : يا رسول الله ، قد شفاني الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف . فقال : " إن هذا السيف لالك ولا لي ، ضعه " قال : فوضعت ، ثم رجعت ، قلت : عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلي

بلائي! قال: رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله في شيئاً؟ قال: "كنت

سألني السيف، وليس هولي وإنه قد وهب لي، فهو لك" قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴿

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن أبي [بكر] بن عياش، به (1) وقال

الترمذي: حسن صحيح.

وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: أخبرنا شعبة، أخبرنا سماك بن حرب، قال: سمعت

مصعب بن سعد، يحدث عن سعد قال: نزلت في أربع آيات: أصبت سيفاً يوم بدر،

فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: نَفَلْنِيهِ. فقال: "ضعه من حيث أخذته" مرتين،

ثم عاودته فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ضعه من حيث أخذته"، فنزلت هذه الآية

: "يسألونك عن الأنفال: (2)

وتمام الحديث في نزول: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴿ [العنكبوت: 8] وقوله

تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴿ [المائدة: 90] وآية الوصية. وقد رواه مسلم في

صحيحه، من حديث شعبة، به (3)

---

(1) المسند (178/1) وسنن أبي داود برقم (2740) وسنن الترمذي برقم

(3079) والنسائي في السنن الكبرى برقم (11196).

(2) مسند الطيالسي برقم (208) .

(3) صحيح مسلم برقم (1748) .

(71/305)

---

وقال محمد بن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر ، عن بعض بني ساعدة قال : سمعت  
أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول : أصبت سيف ابن عائد يوم بدر ، وكان السيف يدعى  
بالمرزبان ، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل ،  
أقبلت به فألقيته في النفل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنع شيئاً يسأله ، فراه  
الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، فسأله رسول الله [صلى الله عليه وسلم] فأعطاه إياه  
(1)

ورواه ابن جرير من وجه آخر .

[سبب آخر في نزول الآية] :

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الرحمن ، عن  
سليمان بن موسى ، عن مكحول ، عن أبي أمامة قال : سألت عبادة عن الأنفال ، فقال :  
فيها - أصحاب بدر -



---

(1) رواه الطبري في تفسيره (374/13) من طريق ابن إسحاق به .

(72/305)

---

نزلت ، حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فاتزعه الله من أيدينا ، وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء - يقول : عن سواء (1)

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا معاوية بن عمرو ، أخبرنا أبو إسحاق ، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ، عن سليمان بن موسى ، عن أبي سلام ، عن أبي أمامة ، عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فشهدت معه بدرا ، فالتقى الناس ، فهزم الله [تعالى] العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه . وأحدت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق به منا ، نحن منعنا عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : لستم بأحق منا ، نحن أحدقنا برسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة ، فاشتغلنا به ، فنزلت : ﴿  
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ فقسمها  
رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين - وكان رسول الله إذا غار في أرض العدو ونقل  
الربيع ، فإذا أقبل وكل الناس راجعا ، نقل الثلث ، وكان يكره الأنفال ويقول : "ليرد قوي  
المؤمنين على ضعيفهم" .

ورواه الترمذي وابن ماجه ، من حديث سفيان الثوري ، عن عبد الرحمن بن الحارث به  
نحوه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن . ورواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم في  
مستدرکه من حديث عبد الرحمن بن الحارث (2) وقال الحاكم : صحيح الإسناد على  
شرط مسلم ولم يخرجاه .

---

(1) المسند (322/5) .

(8) المسند (324/5) وسنن الترمذي برقم (1561) وسنن ابن ماجه برقم  
(2852) وصحيح ابن حبان برقم (1693) "موارد" . والمستدرک (136/2) .

(73/305)

---

وروى أبو داود والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه - واللفظ له - وابن حبان، والحاكم من طرق، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فتسارع (1) في ذلك شبان الرجال، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغائم، جاءوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإننا كنا رداءً لكم، لو انكشفتم لفتم إلينا. فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴿ (2)

وقال الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله

---

(1) في جميع النسخ: "فتنازع"، والمثبت من الطبري

(2) سنن أبي داود برقم (2737) وسنن النسائي الكبرى برقم (11197) وتفسير

الطبري (368/13) والمستدرك (326/2)

صلى الله عليه وسلم: "من قتل قتيلا فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا".  
فجاء أبو اليسر بأسيرين، فقال: يا رسول الله، وعدتنا، فقام سعد بن عبادَةَ فقال: يا  
رسول الله، إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في  
الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخاف أن يأتوك من  
ورائك، فتشاجروا، ونزل القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾  
قال: ونزل القرآن: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ [وَلِلرَّسُولِ]﴾ إلى  
آخر الآية [الأنفال: 41] (1)

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتاب "الأموال الشرعية وبيان  
جهاتها ومصارفها": أما الأنفال: فهي المغنم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب  
، فكانت الأنفال الأولى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ  
الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أَرَادَهُ اللهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْمُسَهَا  
على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى (2)  
قلت: هكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، سواء. وبه قال مجاهد،  
وعكرمة والسُّدِّي.

وقال ابن زيد: ليست منسوخة، بل هي محكمة.

قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جمع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص

لأهله على ما نزل به الكتاب ، وجرت به السنة . ومعنى الأنفال في كلام العرب : كل إحسان فعله فاعل تفضلا من غير أن يجب ذلك عليه ، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خصه الله به تطولا منه عليهم بعد أن كانت المغانم محرمة على الأمم قبلهم ، فنفلها الله هذه الأمة فهذا أصل النفل .

---

(1) رواه عبد الرزاق في المصنف برقم (9483) عن الثوري به .

(24) الأموال (ص 426) .

(75/305)

---

قلت : شاهد هذا في الصحيحين عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي" فذكر الحديث ، إلى أن قال : "وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي" ، وذكر تمام الحديث

ثم قال أبو عبيد : ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم ، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكايية في

العدو . وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع ، لكل واحدة منهن موضع غير موضع

الأخرى :

فإحداهن : في النفل لآخمس فله ، وذلك السلب .

والآانية : في النفل الذي يكون من الغنللة بعد إخراج الآخمس ، وهو أن يؤجه الإمام السرايا

في أرض الحرب ، فتأتي بالغنائم فلكون للسرية مما جاءت به الربع أو الآلث بعد الآخمس .

والآالآة : في النفل من الآخمس نفسه ، وهو أن آآاز الغنللة كلها ، ثم آآمس ، فإذا صار

الآخمس في يدي الإمام نفل منه على قدر ما يرى .

والرابعة : في النفل في جملة الغنللة قبل أن يؤخمس منها شيء ، وهو أن يعطى الأءلاء ورعاة

الماشية والسواق لها ، وفي كل ذلك آآلاف .

قال الربع : قال الشافعي : الأنفال : الأيخرج من رأس الغنللة قبل الآخمس شيء غير

السلب .

قال أبو عبيل : والوجه الآاني من النفل هو شيء زيءوه غير الذي كان لهم ، وذلك من

آمس النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإن له آمس الآخمس من كل غنللة ، فلبغلي للإمام أن

بآآهء ، فإذا آآر العءو واشآءت شوآآهم ، وقل من يآزائه من المسلمين ، نفل منه آآباعا

لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل .

والوجه الثالث من النفل: إذا بعث الإمام سرية أو جيشاً ، فقال لهم قبل اللقاء : من غنم شيئاً فله بعد الخمس ، فذلك لهم على ما شرط الإمام ؛ لأنهم على ذلك غزوا ، وبه رضوا . انتهى كلامه (1)

وفيما تقدم من كلامه وهو قوله : "إن غنائم بدر لم تخمس" ، نظر . ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه اللذين حصل لهما من الخمس يوم بدر ، وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بيانا شافيا (2) والله الحمد [والمنة]

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي : اتقوا الله في أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تحاصموا ولا تشاجروا ؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ، ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : في قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ اللهُ ، فإنه قسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف .

---

(1) الأموال (ص 431) .

(2) السيرة لابن كثير (2/466) .

وقال ابن عباس : هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا [الله] ويصلحوا ذات بينهم .  
وكذا قال مجاهد .

وقال السدي : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي : لا تستبوا . ونذكرها هنا  
حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المشي الموصلي ، رحمه الله ، في مسنده ،  
فإنه قال : حدثنا مجاهد

(78/305)

---

بن موسى ، حدثنا عبد الله بن بكر حدثنا عباد بن شيبه الحبطي عن سعيد بن أنس ، عن  
أنس ، رضي الله عنه ، قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، إذ رأيناه  
ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ فقال :  
"رجلان جثيا من أمتي بين يدي رب العزة ، تبارك وتعالى ، فقال أحدهما : يا رب ، خذ لي  
مظلمتي من أخي . قال الله تعالى : أعط أخاك مظلمتك . قال : يا رب ، لم يبق من حسناتي  
شيء . قال : رب ، فليحمل عني من أوزاري " قال : وفاضت عينا رسول الله صلى الله  
عليه وسلم بالبكاء ، ثم قال : "إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من  
أوزارهم ، فقال الله تعالى للطالب : ارفع بصرك فانظر في الجنان ، فرفع رأسه فقال : يا رب



، أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا ؟ لأي صديق هذا ؟ لأي شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يا رب ، ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه . قال : ماذا يا رب ؟ قال : تعفو عن أخيك . قال : يا رب ، فإني قد عفوت عنه . قال الله تعالى : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة" . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة"

(1) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير ح 4 ص 11.5 ﴾

---

(1) ورواه الحاكم في المستدرک (576/4) من طريق عبد الله بن بكر السهمي به ، وقال : "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" وتعقبه الذهبي فقال : "عباد بن شيبه الحبطي ، عن سعيد ، والأول ضعيف ، وشيخه لا يعرف" .

(79/305)

---

وقال أبو حيان :

﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ هذه السورة مدنية كلها .

قال ابن عباس : الإسبع آيات أولها ﴿ وإذ يكررك الذين كفروا ﴾ إلى آخر الآيات .

وقال مقاتل غير آية واحدة وهي ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية نزلت في قصة وقعت بمكة ويمكن أن تنزل الآية بالمدينة في ذلك ولا خلاف أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه وقد طول المفسرون الزمخشري وابن عطية وغيرهما في تعيين ما كان سبب نزول هذه الآيات وملخصها : أن نفوس أهل بدر تنافرت ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة والاختصاص ، ونحن لا نسمي من أبلي ذلك اليوم فنزلت ورضي المسلمون وسلموا وأصلح الله ذات بينهم واختلف المفسرون في المراد بالأنفال .

فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وعطاء وابن زيد : يعني الغنائم مجملة قال عكرمة ومجاهد : كان هذا الحكم من الله لدفع الشغب ثم نسخ بقوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ الآية .

وقال أبو زيد لا نسخ إنما أخبر أن الغنائم لله من حيث هي ملكه ورزقه وللرسول من حيث هو مبين لحكم الله والمضارع فيها ليوقع التسليم فيها من الناس وحكم القسمة قاتل خلال ذلك ، وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ الأنفال ﴾ في الآية ما يعطيه الإمام لمن أراد من سيف أو فرس أو نحوه ، وقال علي بن صالح وابن جني والحسن : ﴿ الأنفال ﴾ في الآية الخمس ، وقال ابن عباس وعطاء أيضاً : ﴿ الأنفال ﴾ في الآية ما شذ من أموال المشركين إلى المسلمين كالفرس الغائر والعبد الأبق وهو للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) يصنع فيه ما يشاء ، وقال ابن عباس أيضاً : الأنفال في الآية ما أصيب من أموال المشركين بعد قسمة الغنيمة .

وهذه الأقوال الأربعة مخالفة لما تظافت عليه أسباب النزول المروية والجيد هو القول الأول وهو الذي تظاهرت الروايات به ، وقال الشعبي : ﴿ الأنفال ﴾ الأسرى وهذا إنما هو منه على جهة المثال وقد طول ابن عطية وغيره في أحكام ما ينقله الإمام وحكم السلب وموضوع ذلك كتب الفقه وضمير الفاعل في ﴿ يسألونك ﴾ ليس عائداً على مذكور قبله إنما يفسره وقعة بدر ، فهو عائداً على من حضرها من الصحابة وكان السائل معلوم معين ذلك اليوم فعاد الضمير عليه والخطاب للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) والسؤال قد يكون لاقتضاء معنى في نفس المسؤول فيتعدى إذ ذاك بعن كما قال :

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم . . .

وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ وكذا هنا ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ حكما ولمن تكون ولذلك جاء الجواب ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ وقد يكون السؤال لاقتضاء مال ونحوه فيتعدى إذ ذاك لمفعولين تقول سألت زياداً مالاً وقد جعل بعض المفسرين السؤال هنا بهذا المعنى وادعى زيادة ﴿ عن ﴾ ، وأن التقدير يسألونك الأنفال ، وهذا لا ضرورة تدعو إلى ذلك ، وينبغي أن تحمل قراءة من قرأ بإسقاط

عن علي إرادتها لأن حذف الحرف ، وهو مراد معنى ، أسهل من زيادته لغير معنى غير التوكيد وهي قراءة سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وعلي بن الحسين وولديه زيد ومحمد الباقر وولده جعفر الصادق وعكرمة وعطاء والضحاك وطلحة بن مصرف .  
وقيل ﴿ عن ﴾ بمعنى من أي يسألونك من الأنفال ولا ضرورة تدعو إلى تضمين الحرف معنى الحرف ، وقرأ ابن محيصة عن نفال نقل حركة الهمزة إلى لام التعريف وحذف الهمزة واعتدّ بالحركة المعارضة فأدغم نحو ، وقد تبين لكم .

(81/305)

---

ومعنى ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ ليس فيها لأحد من المهاجرين ولا من الأنصار ولا فوض إلى أحد بل ذلك مفوض لله على ما يريد وللرسول حيث هو مبلغ عن الله الأحكام وأمرهم بالتقوى ليزول عنهم التخاصم ويصيروا متحابين في الله وأمر بإصلاح ذات البين وهذا يدل على أنه كانت بينهم مبانة ومباعدة ربما خيف أن تفضي بهم إلى فساد ما بينهم من المودة والمعافة ، وتقدم الكلام على ﴿ ذات ﴾ في قوله ﴿ بذات الصدور ﴾ ، والبين هنا الفراق والتباعد و ﴿ ذات ﴾ هنا نعت لمفعول محذوف أي ﴿ وأصلحوا ﴾ أحوالاً ﴿ ذات ﴾ افتراقكم لما كانت الأحوال ملابسة للبين أضيفت صفتها إليه كما تقول اسقني

ذا إنائك أي ماء صاحب إنائك لما لابس الماء الإناء وصف بذا وأضيف إلى الإناء والمعنى  
اسقني ما في الإناء من الماء .

قال ابن عطية: و ﴿ ذات ﴾ في هذا الموضع يراد بها نفس الشيء وحقيقته والذي يفهم  
من بينكم هو معنى يعم جميع الوصل والاتحامات والمودات وذات ذلك هو المأمور  
بإصلاحها أي نفسه وعينه فحضر الله على إصلاح تلك الأجزاء وإذا حصلت تلك حصل  
إصلاح ما يعمها وهو البين الذي لهم ، وقد تستعمل لفظة الذات على أنها لزيمة ما يضاف  
إليه وإن لم يكن نفسه وعينه وذلك في قوله ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ و ﴿ ذات الشوكة ﴾  
﴿ ويحتمل ذات البين أن تكون هذه وقد يقال الذات أيضاً بمعنى آخر وإن كان يقرب من  
هذا وهو قولهم فعلت كذا ذات يوم ومنه قول الشاعر :

لا ينبج الكلب فيها غير واحدة . . .

ذات العشاء ولا تسري أفاعيها

(82/305)

---

وذكر الطبري عن بعضهم أنه قال ﴿ ذات بينكم ﴾ الحال التي بينكم كما ذات العشاء  
الساعة التي فيها العشاء ووجهه الطبري ، وهو قول بين الانتقاض انتهى وتلخص أن البين

يطلق على الفراق ويطلق على الوصل وهو قول الزجاج هنا قال ومثله ﴿ لقد تقطع بينكم

﴿ ويكون ظرفاً بمعنى وسط ، ويحتمل ﴿ ذات ﴾ أن تضاف لكل واحد من هذه

المعاني وإنما اخترنا في أنه بمعنى الفراق لأن استعماله فيه أشهر من استعماله في الوصل ولأن

إضافة ذات إليه أكثر من إضافة ذات إلى بين الظرفية لأنها ليست كثيرة التصرف بل

تصرفها كتصرف أمام وخلف وهو تصرف متوسط ليس بكثير ، وأمر تعالى أولاً بالتقوى

لأنها أصل للطاعات ثم بإصلاح ذات البين لأن ذلك أهم نتائج التقوى في ذلك الوقت الذي

تشاجروا فيه ، ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله فيما أمركم به من التقوى والإصلاح وغير

ذلك ومعنى ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي كنتم كاملين الإيمان ، وتسند هنا الزمخشري

واضطرب فقال : وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله تعالى والرسول ( صلى

الله عليه وسلم ) من لوازم الإيمان وموجباته ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر

عليها ومعنى ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ إن كنتم كاملين الإيمان .

قال ابن عطية : كما يقول الرجل إن كنت رجلاً فافعل كذا أي إن كنت كامل الرجولية ، قال

: وجواب الشرط في قوله المتقدم ﴿ وأطيعوا ﴾ هذا مذهب سيبويه ومذهب أبي

العباس أن الجواب محذوف متخريدل عليه المتقدم تقديره إن كنتم مؤمنين ﴿ أطيعوا ﴾

ومذهبه في هذا أن لا يتقدم الجواب على الشرط انتهى .

والذي مخالف لكلام النحاة فإنهم يقولون إن مذهب سيبويه أن الجواب محذوف وأن

مذهب أبي العباس وأبي زيد الأنصاري والكوفيين جواز تقديم جواب الشرط عليه وهذا  
النقل هو الصحيح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(83/305)

وقال أبو السعود :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْاِنْفَالِ ﴾

النفل الغنيمة سُمِّيتَ بِهَا لِأَنَّهَا عَطِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ تَعَالَى زَائِدَةٌ عَلَى مَا هُوَ أَصْلُ الْأَجْرِ فِي الْجِهَادِ مِنَ  
الثَّوَابِ الْآخِرِيِّ ، وَيَطْلُقُ عَلَى مَا يُعْطَى بِطَرِيقِ التَّنْفِيلِ زِيَادَةً عَلَى السَّهْمِ مِنَ الْمَغْنَمِ وَقُرَىءَ  
عَلَنفَالٍ بِجَذْفِ الْهَمْزَةِ وَالْقَاءِ حَرَكَتِهَا عَلَى اللَّامِ وَإِدْغَامِ نُونِ عَنِ فِي اللَّامِ . رَوَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ  
اِخْتَلَفُوا فِي غَنَائِمِ بَدْرٍ وَفِي قِسْمَتِهَا فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ تُقَسَّمُ وَلَمَنْ  
الْحُكْمُ فِيهَا أَلَمْ يَجْرِيَنَّ أَمْ لِلْأَنْصَارِ أَمْ لَهُمْ جَمِيعًا ؟ وَقِيلَ : إِنَّ الشُّبَّانَ قَدْ أَبْلَوْا يَوْمَئِذٍ بَلَاءً  
حَسَنًا فَفَقْتَلُوا سَبْعِينَ وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ فَقَالُوا : نَحْنُ الْمُقَاتِلُونَ وَلَنَا الْغَنَائِمُ ، وَقَالَ الشُّيُوخُ  
وَالْوُجُوهُ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَ الرِّيَاطِ : كَمَا رَدَّ إِلَيْكُمْ وَفْتَةٌ تَنْحَازُونَ إِلَيْهَا حَتَّى قَالَ سَعْدُ بْنُ  
مَعَاذٍ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَاللَّهِ مَا مَنَعَنَا أَنْ نَطْلُبَ مَا طَلَبَ هَؤُلَاءِ زَهَادَةً فِي

الأجر ولا جبنٌ من العدو ولكن كرهنا أن نعرِّي مصافك فيعطف عليك خيل من المشركين  
فنزلت .

(84/305)

وقيل : كان النبي صلى الله عليه وسلم قد شرط لمن كان له بلاءٌ أن يُنقله ، ولذلك فعل  
الشبانُ ما فعلوا من القتل والأسر فسأله عليه الصلاة والسلام ما شرطه لهم فقال الشيخُ :  
المغنمُ قليلٌ والناسُ كثيرٌ وإن تُعطِ هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك فنزلت . والأولُ  
هو الظاهرُ لما أن السؤالَ استعلامٌ لحكم الأتقال بقضية كلمة ( عن ) لا استعطاءً لنفسها كما  
نطقَ به الوجهُ الأخير وادعاءُ زيادةٍ عن تعسف ظاهر ، والاستدلالُ عليه بقراءة ابن  
مسعودٍ ، وسعد بن أبي وقاص ، وعلي بن الحسين وزيد ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق  
، وعكرمة ، وعطاء ، يسألونك الأتقال ، غيرُ منتهضٍ فإن مبناها كما قالوا على الحذف  
والإيصال كما يعرب عنه الجوابُ بقوله عز وجل : ﴿ قُلِ الْإِنْقَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ أي  
حكمها محتصٌ به تعالى يقسمها الرسولُ عليه الصلاة والسلام كيفما أمر به من غير أن يدخل  
فيه رأيٌ أحدٍ ولو كان السؤالُ استعطاءً لما كان هذا جواباً له فإن اختصاصَ حكم ما  
شُرط لهم من الأتقال بالله والرسول لا ينافي إعطاءها إياهم بل يحقِّقه لأنهم إنما يسألونها



بموجب شرطِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام الصادرِ عنه بإذنِ الله تعالى لا بحكم سبقِ  
أيديهم إليها ونحو ذلك مما يُخِلُّ بالاختصاص المذكورِ ، وحملُ الجوابِ على معنى أن الأَنْفَالَ  
بالمعنى المذكورِ مختصةٌ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم لا حق فيها للمُنْفَلِّ كائناً من كان مما  
لا سبيلَ إليه قطعاً ضرورةً ثبوتِ الاستحقاقِ بالتنفيلِ ، وادعاءُ أن ثبوتهً بدليلٍ متأخرٍ التزمُ  
لتكرارِ النسخِ من غيرِ علمٍ بالناسخِ الأخيرِ ، ولا مساعٍ للمصيرِ إلى ما ذهب إليه مجاهدٌ  
وعكرمةٌ والسديُّ من أن الأَنْفَالَ كانت لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم خاصةً ليس  
لأحدٍ فيها شيءٌ بهذه الآية فنسخت بقوله تعالى :

(85/305)

---

﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ﴿ لما أن المراد بالأَنْفَالَ فيما قالوا هو المعنى الأولُ حتماً كما  
نطق قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما ﴾ ﴿ تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ﴿ الآية ، على أن الحق أنه لا نسخَ  
حينئذٍ أيضاً حسبما قاله عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بنِ أسلم بل يبين في صدرِ السورة الكريمة  
إجمالاً أن أمرها مفوضٌ إلى الله تعالى ورسوله ثم يبين مصاريفها وكيفيةَ قسمتها على  
التفصيل ، وادعاءُ اقتصارِ هذا الحكمِ أعني الاختصاصِ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم  
على الأَنْفَالَ المشروطةِ يوم بدرٍ يجعل اللام للعهد مع بقاء استحقاقِ المنفَلِّ في سائرِ الأَنْفَالَ

المشروطة بأباه مقام بيان الأحكام كما ينبي عنه إظهار الأنفال في موقع الإضمار على أن  
الجواب عن سؤال الموعود بيان كونه له عليه الصلاة والسلام خاصة مما لا يليق بشأنه الكريم  
أصلاً، وقد روي عن سعد بن أبي وقاص بن أبي وقاص أنه قال: قُتل أخي عمير يوم بدر  
فقتلتُ به (سعيد بن العاص) وأخذتُ سيفه فأعجبني فجئتُ به رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فقلت: إن الله تعالى قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف،  
فقال عليه الصلاة والسلام: "ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القُبض" فطرحته وبني ما لا  
يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال فقال  
لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي وقد صار لي  
فاذهب فخذهُ" وهذا كما ترى يقتضي عدم وقوع التنفيل يومئذ، وإلا لكان سؤال السيف  
من سعد بموجب شرطه ووعدهِ عليه السلام لا بطريق الهبة المبتدأة، وحُمل ذلك من  
سعدٍ على مراعاة الأدب مع كون سؤاله بموجب الشرط يردده عليه الصلاة والسلام قبل  
النزول، وتعليقه بقوله: "ليس هذا لي" لاستحالة أن يعدَّ عليه الصلاة والسلام بما لا يقدر  
على إنجازهِ، وإعطاؤه صلى الله عليه وسلم بعد

النزول وترتيبه على قوله: "وقد صار لي" ضرورة أن مناط صيرورته له عليه الصلاة  
السلام قوله تعالى: ﴿الانفال لله والرسول﴾ والفرض أنه المانع من إعطاء المسؤول ومما  
هونص في الباب قوله عز وجل: ﴿فاتقوا الله﴾ أي إذا كان أمر الغنائم لله تعالى ورسوله  
فاتقوه تعالى واجتنبوا ما كنتم من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لسخط الله تعالى أو  
فاتقوه في كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه دخولاً أولاً ولو كان السؤال طلباً للمشروط  
لما كان فيه محذور يجب اتقاؤه، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم ﴿  
وأصلحوا ذات بينكم﴾ جعل ما بينهم من الحال لملاستها التامة لبيئهم صاحبة له كما  
جعلت الأمور المضمرة في الصدور ذات الصدور أي أصلحوا ما بينكم من الأحوال  
بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى وتفضل به عليكم.

(87/305)

---

وعن عبادة بن الصامت نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه  
أخلاقنا فنزعه الله تعالى من أيدينا فجعله لرسوله فقسمه بين المسلمين على السواء وكان  
في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين وعن عطاء كان الإصلاح بينهم أن  
دعاهم وقال اقسما: غنائمكم بالعدل فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا فقال: ليرد بعضكم على

بعض ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بتسليم أمره ونهيه ، وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة والجواب محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أو هو الجواب على الخلاف المشهور ، وأياً ما كان فالمقصود تحقيق المعلق بناءً على تحقيق المعلق به ، وفيه تنشيط للمخاطبين وحث لهم على المسارعة إلى الامتثال ، والمراد بالإيمان كماله أي إن كنتم كاملين الإيمان فإن كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث : طاعة الأوامر وابتغاء المعاصي وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ﴾

(88/305)

وقال الأوسى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾

جمع نفل بالفتح وهو الزيادة ولذا قيل للتطوع نافلة وكذا لولد الولد ، ثم صار حقيقة في العطية

ومنه قول لبيد :

ان تقوى ربنا خير نفل . . .

وباذن الله ريشي وعجل

لأنها لكونها تبرعاً غير لازم كأنها زيادة ويسمى به الغنيمة أيضاً وما يشترطه الإمام للغازي زيادة على سهمه لرأي يراه سواء كان لشخص معين أو لغير معين كمن قتل قتيلا فله سلبه ، وجعلوا من ذلك ما يزيد الإمام لمن صدر منه أثر محمود في الحرب كبراز وحسن إقدام وغيرهما ، وإطلاقه على الغنيمة باعتبار أنها منحة من الله تعالى من غير وجوب ، وقال الإمام عليه الرحمة .

لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم التي لم تحل لهم ، ووجه التسمية لا يلزم اطراده ، وفي الخبر أن المغانم كانت محرمة على الأمم فتقلها الله تعالى هذه الأمة ، وقيل : لأنها زيادة على ما شرع الجهاد له وهو إعلاء كلمة الله تعالى وحماية حوزة الإسلام فإن اعتبر كون ذلك مظفورا به سمي غنيمة ، ومن الناس من فرق بين الغنيمة والنفل بالعموم والخصوص ، فقيل : الغنيمة ما حصل مستغناً سواء كان يبعث أولاً باستحقاق أو لا قبل الظفر أو بعده ، والنفل ما قبل الظفر أو ما كان بغير قتال وهو الفبيء ؛ وقيل : ما يفضل عن القسمة ثم إن السؤال كما قال الطيبي ونقل عن الفارسي إما لاستدعاء معرفة أو يؤدي إليها وإما لاستدعاء جدا أو ما يؤدي إليه ، وجواب الأول باللسان وينوب عنه اليد بالكتابة أو الإشارة ويتعدى بنفسه وعن والباء ، وجواب الثاني باليد وينوب عنها اللسان موعدا

ورداً ويتعدى بنفسه أو بمن وقد يتعدى لمفعولين كأعطى واختار، وقد يكون الثاني جملة استفهامية نحو ﴿سَلُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [البقرة: 211] والمراد بالأنفال هنا الغنائم كما روي عن ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة والضحاك .

وابن زيد .

(89/305)

---

وطائفة من الصحابة وغيرهم، وبالسؤال السؤال لاستدعاء المعرفة كما اختاره جمع من المفسرين لتعديه بعن والأصل عدم ارتكاب التأويل، ويؤيد ذلك ما أخرجه أحمد .  
وابن حبان .

والحاكم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه وهو سبب النزول أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ولمن الحكم فيها أهول للمهاجرين أم للأَنْصَار أم لهم جميعاً؟ فنزلت هذه الآية .  
وقال بعضهم: إن السؤال استعطاء .

والمراد بالنفل ما شرط للغازي زائداً على سهمه ، وسبب النزول غير ما ذكر .

فقد أخرج عبد الرزاق في المصنف .

وعبد بن حميد .

وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : من قتل قتيلاً فله كذا ومن جاء بأسير فله كذا فجاء أبو اليسر بن

عمر والأنصاري بأسيرين فقال : يا رسول الله إنك قد وعدتنا .

فقام سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إنك إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وإنه

لم يمنعنا من هذه زهادة في الأجر ولا جبن عن العدو وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك أن

يأتوك من ورائك فتشاجروا فنزل القرآن ، وادعوا زيادة ﴿ عَنْ ﴾ واستدلوا لذلك بقراءة

ابن مسعود ، وسعد بن أبي وقاص .

وعلي بن الحسين .

وزيد .

ومحمد الباقر .

وجعفر الصادق .

---

وطلحة بن مصرف ﴿ يَسْأَلُونَكَ الْإِنْفَالَ ﴾ وتعقب بأن هذه القراءة من باب الحذف  
والإيصال وليست دعوى زيادة ﴿ عَنْ ﴾ في القراءة المتواترة لسقوطها في القراءة الأخرى  
أولى من دعوى تقديرها في تلك القراءة لثبوتها في القراءة المتواترة بل قد ادعى بعض أنه  
ينبغي حمل قراءة اسقاط ﴿ عَنْ ﴾ على إرادتها لأن حذف الحرف وهو مراد معنى  
أسهل من زيادته للتأكيد ، على أنه يبعد القول بالزيادة هنا الجواب بقوله تعالى : ﴿ قُلِ  
الْإِنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ فإنه المراد به اختصاص أمرها وحكمها بالله تعالى ورسوله صلى  
الله عليه وسلم فيقسمها النبي عليه الصلاة والسلام كما يأمره الله تعالى من غير أن يدخل  
فيه رأي أحد ، فإن مبنى ذلك القول القول بأن السؤال استعطاء ولو كان كذلك لما كان هذا  
جواباً له فإن اختصاص حكم ما شرط لهم بالله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم لا  
ينافي إعطائه إياهم بل يحققه لأنهم إنما يسألونه بموجب شرط الرسول عليه الصلاة والسلام  
الصادر عنه باذن الله تعالى لا بحكم سبق أيديهم إليه أو نحو ذلك مما يجمل بالاختصاص  
المذكور .

وحمل الجواب على معنى أن الإنفال بذلك المعنى مختصة برسول الله صلى الله عليه وسلم  
لاحق فيها للمنفل كائناً من كان لا سبيل إليه قطعاً ضرورة ثبوت الاستحقاق بالتنزيل ،  
وإدعاء أن ثبوته بدليل متأمر التزم لتكرر النسخ من غير علم بالناسخ الأخير ، ولا مساع



للمصير إلى ما ذهب إليه مجاهد .

وعكرمة .

(91/305)

---

والسدى من أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لأحد فيها شيء بهذه الآية فنسخت بقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 41] لما أن المراد بالأنفال فيما قالوا هو المعنى الأول حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنفال: 41] الآية، على أن الحق أنه لا نسخ حينئذ حسبما قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، بل بين هنا إجمالاً أن الأمر مفوض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وشرح فيما بعد مصارفها وكيفية قسمتها، وإدعاء اقتصار الاختصاص بالرسول صلى الله عليه وسلم على الأنفال المشروطة يوم بدر بجعل اللام للعهد مع بقاء استحقاق المنفل في سائر الأنفال المشروطة بأباه مقام بيان الأحكام كما ينبىء عنه إظهار الأنفال في مقام الإضمار، على أن الجواب عن سؤال الموعود ببيان كونه له عليه الصلاة والسلام خاصة مما يليق بشأنه الكريم أصلاً.

(92/305)

---

وقد روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فاعجبني فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إن الله قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف فقال عليه الصلاة والسلام: ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض فطرحته وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي وقد صار لي فاذهب فحذه، وهذا كما ترى يقتضي عدم وقوع التنفيل يومئذ وإلا لكان سؤال السيف من سعد بموجب شرطه عليه الصلاة والسلام ووعده لا بطريق الهبة المبتدأة وحمل ذلك من سعد على مراعاة الأدب مع كون سؤاله بموجب الشرط يردده رده صلى الله عليه وسلم قبل النزول وتعليقه بقوله: ليس هذا لي لاستحالة أن يعد صلى الله عليه وسلم بما لا يقدر على إنجازه واعطائه عليه الصلاة والسلام بعد النزول وترتيبه على قوله وقد صار لي ضرورة إن مناط صيرورته له صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿الأنفال لله والرسول﴾ والفرص إنه المانع من اعطاء المسؤول، ومما هو نص في الباب قوله تعالى: ﴿فاتقوا الله﴾ فإنه لو كان السؤال طلباً للمشروط لما كان فيه محذور يجب اتقاؤه قاله شيخ الإسلام عليه الرحمة، وحاصله إنكار وقوع التنفيل حينئذ، وعدم صحة حمل السؤال على الاستعطاء والأنفال على المعنى الثاني من معنيها

، وأنا أقول : قد جاء خبر التنفيل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من الطريق الذي ذكرناه ومن طريق آخر أيضاً ، فقد أخرج ابن أبي شيبة .

وأبو داود .

والنسائي .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن حبان .

وأبو الشيخ .

والبيهقي في الدلائل .

(93/305)

---

والحاكم وصححه عنه رضي الله تعالى عنه قال : " لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه

وسلم : من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ومن أسيراً فله كذا وكذا فاما المشيخة فثبتوا

تحت الرايات وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم فقالت المشيخة للشبان : أشركونا

معكم فانا كنا لكم رداءً ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فاختصموا إلى النبي صلى الله

عليه وسلم فنزلت : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِنْفَالِ ﴾ الآية فقسم الغنائم بينهم بالسوية" ويشير إلى وقوعه أيضاً ما أخرجه أحمد .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وأبو الشيخ .

وابن مردويه .

والحاكم .

والبيهقي في السنن عن أبي إمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل فساءت فيه أخلاقنا فاتزعه الله تعالى من أيدينا وجعله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فقسمه عليه الصلاة والسلام بين المسلمين عن بواء ، ولعل في الباب غير هذه الروايات فكان على الشيخ حيث أنكر وقوع التنفيل أن يطعن فيها بضعف ونحوه لئتم له الغرض .

وما ذكره من حديث سعد بن أبي وقاص فقد أخرجه أحمد .

وابن أبي شيبه عنه وهو مع انه وقع فيه سعيد بن العاصي والمحفوظ كما قال : أبو عبيد

العاصي بن سعيد مضطرب المتن ، فقد أخرج عبد بن حميد .

والنحاس .

وأبو الشيخ .

وابن مردويه عن سعد انه قال : "أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة فإذا فيها سيف فأخذته فأثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : نقلني هذا السيف فأنا من علمت فقال : رده من حيث أخذته فرجعت به حتى إذا أردت أن أقيه في القبض لامني نفسي فرجعت إليه عليه الصلاة والسلام فقلت : أعطنيه فشد لي صوته وقال رده من حيث أخذته فانزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِنْفَالِ ﴾ . "

فإن هذه الرواية ظاهرة في أن السيف لم يكن سلبا كما هو ظاهر الرواية الأولى بل أن سعدا رضي الله تعالى عنه وجدته في الغنيمة وطلبه نفاعا على سهمه الشائع فيها .

(94/305)

---

وأخرج النحاس في ناسخه عن سعيد بن جبير أن سعدا ورجلا من الأنصار خرجا يتفلاان فوجدا سيفا ملقى فخرا عليه جميعا فقال سعد : هو لي وقال الأنصاري : هو لي لا أسلمه حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتياه فقضا عليه القصة فقال عليه الصلاة والسلام : ليس لك يا سعد ولا للأنصاري ولكنه لي فنزلت ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِنْفَالِ ﴾ الآية ، ومخالفة هذه الرواية للروايتين السابقتين المختلفتين كما علمت في غاية الظهور فلا

يكاد يعول على إحداهما إلا يثبت أنها الأصح ، ولم نقف على أنهم نصوا على تصحيح

الرواية التي ذكرها الشيخ فضلاً عن النص على الأصحية .

نعم أخرج أحمد .

وأبو داود .

والترمذي .

وصححه والنسائي وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

والحاكم وصححه .

والبيهقي في السنن عن سعد المذكور رضي الله تعالى عنه قال : " قلت يا رسول قد شفاني

الله تعالى اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف قال : إن هذا السيف لالك ولا لي ضعه

فوضعه ثم رجعت فقلت : عسى يعطي هذا السيف اليوم من لا يبلي بلائي إذا رجل

يدعوني من ورائي فقلت : قد أنزل في شيء قال عليه الصلاة والسلام : كنت سألتني هذا

السيف وليس هو لي وإني قد وهب لي فهو لك وأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ

الانفال ﴾ "

الح، فهذه الرواية وإن نص فيها على التصحيح إلا أنه ليست طاهرة في أن السيف كان سلباً له من عمير كما هونص الرواية الأولى، وإن قلنا: إن هذه الرواية وإن لم تكن موافقة للأولى حذو القذة بالقذة لكنها ليست مخالفة لها، وزيادة الثقة مقبولة سواء كانت في الأول أم في الآخر أم في الوسط، فلا بد من القول بالنسخ كما هو إحدى الروايات عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما أنها ظاهرة في كون الأنفال صارت ملكاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لأحد فيها حق أصلاً إلا أن يجود عليه عليه الصلاة والسلام كما يجوز من سائر أمواله، والمولى المذكور ذهب إلى القول بعدم النسخ ولم يعلم أن هذا الخبر الذي استند إليه في إنكار وقوع التنفيل يعكس عليه، وإدعاء أن معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "فيه" وقد صار لي "أنه صار حكمه لي لكن عبر بذلك مشاكلة لما في الآية يردده ما في الرواية الأخرى المنصوص على حصتها من الترمذي.

والحاكم "وإني قد وهب لي"، وحمل ذلك أيضاً على مثل ما حمل عليه الأول مما لا يكاد يقدم عليه عارف بكلام العرب لا سيما كلام أفصح من نطق بالضاد صلى الله عليه وسلم، وما ذكره قدس سره من أن قوله تعالى: ﴿ قُلِ الْإِنْفَالُ ﴾ الح لا يكون جواباً لسؤال

الاستعطاء فإن اختصاص حكم ما شرط لهم بالرسول عليه الصلاة والسلام لا ينافي الإعطاء بل يحققه ، وقد يجاب عنه بالتزام الحمل الذي ادعى أن لا سبيل إليه قطعاً ويقال بالنسخ ، وهو من نسخ السنة قبل تقررها بالكتاب ، وأن المنسوخ إنما هو ذلك التنفيل ، والتنفيل الذي يقول به العلماء اليوم هو أن يقول الإمام من قتل قتيلاً فله سلبه أو يقول للسرية جعلت لكم الربع بعد الخمس أي بعد ما يرفع الخمس الفقراء ، وقد يكون بغير ذلك كالدرهم والدنانير .

(96/305)

---

وذكر في "السير الكبير" أنه لو قال : ما أصبتم فهو لكم ولم يقل بعد الخمس لم يجز لأن فيه إبطال الخمس الثابت بالنص ، وبعين ذلك يبطل ما لو قال : من أصاب شيئاً فهو له لاتحاد اللازم فيهما بل هو أولى بالبطلان ، وبه أيضاً ينتفي ما قالوا : لو نقل بجميع المأخوذ جاز إذا رأى مصلحة ، وفيه زيادة إيجاش الباقي وإيقاع الفتنة .

وذكر السادة الشافعية أن الأصح أن النقل يكون من خمس الخمس المرصد للمصالح أن نقل مما سيغنم في هذا القتال لأنه المأثور عندهم كما جاء عن ابن المسيب .

ويحتمل أن التنفيل المنسوخ الواقع يوم بدر عن القائل به لم يكن كهذا الذي ذكرناه عن أئمتنا



وكذا عن الشافعية الثابت عندهم بالأدلة المذكورة في كتب الفريقين ، والأخبار التي وقفنا عليها في ذلك التنزيل غير ظاهرة في اتحادهم مع هذا التنزيل .

وحيثُذ فما نسخ لم يثبت وإنما ثبت غيره ، وربما يقال : على فرض تسليم أن ما ثبت هو ما نسخ أن دليل ثبوته هو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ [ الأنفال : 65 ] فإن في ذلك من التحريض ما لا يخفى ، ودعوى أن حمل ال في الأنفال على العهد يباه المقام في حيز المنع ، ومما يستأنس به للعهد أنه يقال لسورة الأنفال سورة بدر فلا بدع أن يراد من الأنفال أنفال بدر ، وإنباء الإظهار في مقام الإضمار على ما ادعاه في غاية الخفاء ، وكون الجواب عن سؤال الموعود ببيان اختصاصه به عليه الصلاة والسلام مما لا يليق بشأنه الكريم أصلاً مما لا يكاد يسلم ، كيف والحكم إلهي والنبى صلى الله عليه وسلم مأمور بالإبلاغ ، وقد يقال : حاصل الجواب يا قوم إن ما وعدتكم به يا ذن الله تعالى قد ملكنيه سبحانه وتعالى دونكم وهو أعلم بالحكم فيما فعل أولاً وآخراً فاتقوا الله من سوء الظن أو عدم الرضا بذلك .

(97/305)

---

ومن هنا يعلم حسن الأمر بالتقوى بعد ذلك الجواب وبطلان ما ادعاه المولى المدقق من أن هذا الأمر نص في الباب ، وقد يقال أيضاً : لا مانع من أن يحمل السؤال على الاستعلام ، والاختصاص على اختصاص الحكم مع كون المراد بالأنفال المعنى الثاني ، والمعنى يسألونك عن حال ما وعدتهم إياه هل يستحقونه وإن حرم غيرهم ممن كان رداً وملجأً حيث إنك وعدتهم وأطلقت لهم الأمر قل إن ذلك الموعود قد نسخ استحقاقكم له بالوعد المأذون فيه من قبل وفوض أمره إلى ولم يجبر عليّ بإعطائه لكم دون غيركم بل رخصت أن أساوي أصحابكم الذين كانوا رداً لكم معكم لتلايرجع أحد من أهل بدر فخفى حينئذ ويستوحشوا من ذلك وتفسد ذات البين ، فاتقوا الله تعالى من الاستقلال بما أخذتموه أو إخفاء شيء منه بناء على أنكم كنتم موعدين به ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ بالرد والمواساة فيما حل بأيديكم ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في كل ما يأمر به وينهى عنه في ذلك مصالح لا تعلمونها وإنما يعلمها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وتقرير السؤال والجواب على هذا الأسلوب وإن لم يكن ظاهراً إلا أنه ليس بالبعيد جداً ، ثم ما ذكره قدس سره من أن حديث النسخ الواقع في كلام مجاهد ، وعكرمة .

(98/305)

---

والسدي إنما هو للأنفال بالمعنى الأول لدلالة الناسخ على ذلك مسلم ، لكن جاء في آخر  
رواية النحاس عن ابن جبير السابقة في قصة سعد وصاحبه الأنصاري رضي الله تعالى  
عنهما ما يوهم كون النسخ للآية مع حمل الأنفال على غير ذلك المعنى وليس كذلك ، هذا ثم  
إني أعود فأقول : إن هذا التكلف الذي تكلفناه إنما هو لصيانة الروايات الناطقة بكون  
سبب النزول ما استند إليه القائل بأن الأنفال بالمعنى الثاني عن الإلغاء قبل الوقوف على  
ضعفها ، ومجرد ما ذكره المولى قدس سره لا يدل على ذلك ، ألا تراهم كيف يعدلون عن  
ظواهر الآيات إذا صح حديث يقتضي ذلك ، وإلا فأننا لا أنكر أن كون حمل الأنفال على  
المعنى الأول والذهاب إلى أن الآية غير منسوخة والسؤال للاستعلام أقل مؤنة من غيره  
فتأمل ذلك والله سبحانه وتعالى يتولى هداك ، والمراد بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ﴾ الخ  
على هذا أنه إذا كان أمر الغنائم لله ورسوله صلى الله عليه وسلم فاتقوه سبحانه وتعالى  
واجتنبوا ما أتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لشق العصا وسخطه تعالى ،  
أو فاتقوه في كل ما تأتون وتذرون فيدخل ما هم فيه دخولاً أولاً ، وأصلحوا ما بينكم من  
الأحوال بترك الغلول ونحوه ، وعن السدي بعدم التساب .  
وعن عطاء كان الإصلاح بينهم " أن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :  
اقسموا غنائمكم بالعدل : فقالوا : قد أكلنا وأنفقنا .  
فقال عليه الصلاة والسلام : ليرد بعضكم على بعض " و ﴿ ذاتُ ﴾ كما قيل بمعنى

صاحبة صفة لمفعول محذوف .

﴿ بَيْنَ ﴾ أما بمعنى الفراق أو الوصل أو ظفراً أي أحوالاً ذات افتراقكم أو ذات وصلكم  
أو ذات الكمال المتصل بكم .

(99/305)

---

وقال الزجاج وغيره : إن ﴿ ذَاتُ ﴾ هنا بمنزلة حقيقة الشيء ونفسه كما بنه ابن عطية  
وعليه استعمال المتكلمين ، ولما كانت الأحوال ملابسة للبين أضيفت إليه كما تقول :  
اسقني ذا إنائك أي ما فيه جعل كونه صاحبه ، وذكر الاسم الجليل في الأمرين لتربية المهابة  
وتعليل الحكم .

وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم مع الله تعالى أولاً وآخراً لتعظيم شأنه وإظهار شرفه  
والإيدان بأن طاعته عليه الصلاة والسلام طاعة الله تعالى ، وقال غير واحد : إن الجمع بين  
الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أولاً لأن اختصاص الله تعالى بالأمر والرسول صلى  
الله عليه وسلم بالامتثال ، وتوسيط الأمر بإطلاق ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر  
بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر  
بالطاعة .

وقرأ ابن محيصة ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام نون عن  
فيها ولا اعتداد بالحركة العارضة ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة، والجواب  
محذوف ثقة بدلالة المذكورة عليه أو هو الجواب على الخلاف المشهور، وأياً ما كان فالمراد  
بيان ترتب ما ذكر عليه لا التشكيك في إيمانهم، وهو يكفي في التعليق بالشرط، والمراد  
بالإيمان التصديق، ولا خفاء في اقتضائه ما ذكر على معنى أنه من شأنه ذلك لأنه لازم له  
حقيقة.

وقد يراد بالإيمان الإيمان الكامل والأعمال شرط فيه أو شرط؛ فالمعنى إن كنتم كاملين  
الإيمان فإن كمال الإيمان يدور على تلك الخصال الثلاثة الاتقاء والإصلاح وإطاعة الله تعالى  
ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويؤيد إرادة الكمال. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني ح  
﴿ 9 ص

(100/305)

وقال الشوكاني:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾

الأنفال: جمع نفل محرراً، وهو الغنيمة، ومنه قول عنتره:

إنا إذا احمرّ الوغى نروي القنا . . . ونعف عند تقاسم الأنفال

أي الغنائم .

وأصل النفل .

الزيادة .

وسميت الغنيمة به لأنها زيادة فيما أحلّ الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرهم .

أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد .

ويطلق النفل على معانٍ آخر منها اليمين ، والابتغاء ، ونبت معروف .

والنافلة : التطوع لكونها زائدة على الواجب .

والنافلة : ولد الولد ، لأنه زيادة على الولد .

وكان سبب نزول الآية اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في يوم بدر كما سيأتي بيانه ،

فنزح الله ما غنموه من أيديهم ، وجعله لله والرسول ، فقال : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

أي حكمها مختص بهما ، يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه ، وليس لكم حكم

في ذلك .

وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه

وسلم خاصة ، ليس لأحد فيها شيء حتى نزل قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من

شئٍ فإنّ لله خمسُهُ ﴾ [ الأنفال : 41 ] .

وتم أمرهم بالتقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما ، وترك  
الاختلاف الذي وقع بينهم ، ثم قال : ﴿ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة  
إن كنتم مؤمنين بالله .

وفيه من التهيج والإلهاب ما لا يخفى ، مع كونهم في تلك الحال على الإيمان ، فكأنه قال : إن  
كنتم مستمرين على الإيمان بالله ، لأن هذه الأمور الثلاثة التي هي تقوى الله ، وإصلاح ذات  
البين ، وطاعة الله والرسول ، لا يكمل الإيمان بدونها ، بل لا يثبت أصلاً لمن لم يمتثلها ، فإن  
من ليس بمتق ، وليس بمطيع لله ورسوله ليس بمؤمن .

(101/305)

---

وقد أخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه ،  
والبيهقي في سننه ، عن أبي أمامة ، قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا  
أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فاتزعه الله من أيدينا  
وجعله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بواء .  
يقول : عن سواء .

وأخرج سعيد ابن منصور ، وأحمد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والحاكم

وصححه ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن عبادة بن الصامت قال :  
خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدرًا ، فالتقى الناس فهزم الله  
العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه  
ويجمعونه ، وأحدت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة ،  
حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها  
وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق بها  
مننا ، نحن نفينا عنه العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه  
وسلم : لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخفنا أن  
يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فنزلت : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ  
وَالرَّسُولِ ﴾ قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين ، وكان رسول الله صلى  
الله عليه وسلم إذا غار في أرض العدو ونقل الربع ، وإذا أقبل راجعاً وكل الناس نقل الثلث .  
وكان يكره الأنفال ويقول : ليرد قومي المسلمين على ضعيفهم .

(102/305)

---



وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن أبي أيوب الأنصاري قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية ، فنصرها الله وفتح عليها ، فكان من آتاه بشيء نقله من الخمس ، فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلونه ويأسرون ، وتركوا الغنائم خلفهم ، فلم ينالوا من الغنائم شيئاً ، فقالوا : يا رسول الله ما بال رجال منا يستقدمون ويأسرون ، وتخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم بالغنيمة ؟ فسكت رسول الله ونزل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " ردوا ما أخذتم واقتسموا بالعدل والسوية فإن الله يأمركم بذلك " ، فقالوا : قد أنفقنا وأكلنا ، فقال : " احتسبوا ذلك " .

وأخرج أحمد ، وأبو داود ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن سعد بن أبي وقاص ، قال قلت : يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف ، فقال : " إن هذا السيف لالك ولا لي ، ضعه " ، فوضعه ، ثم رجعت قلت عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائي ، إذا رجل يدعوني من ورائي ، قلت : قد أنزل الله في شيئاً ؟ قال : " كنت سألتني هذا السيد وليس هو لي ، وإنه قد وهب لي فهو لك " وأنزل الله هذه الآية : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ وفي لفظ لأحمد أن سعداً قال : لما قتل أخي يوم بدر ، وقتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيبة ،

فأُتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر نحو ما تقدّم ، وقد روي هذا الحديث عن سعد من وجوه آخر .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جدّه : أن الناس سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم بدر ، فنزلت ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ .

(103/305)

---

وأخرج ابن مردويه عنه قال : لم ينفل النبي صلى الله عليه وسلم بعد إذ نزلت عليه ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ إلا من الخمس ، فإنه نفل يوم خيبر من الخمس .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن حبان ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلاً فله كذا وكذا " ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا ، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداءً ، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا ، فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية ، فقسم النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم بينهم بالسوية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ قال : الأنفال المغانم .

كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة ليس لأحد منها شيء ما أصاب من سرايا المسلمين من شيء أتوه به .

فمن حبس منه إبرة أو سلكاً فهو غلول ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم منها شيئاً فأنزل الله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِرَسُولِي لَيْسَ لَكُمْ فِيهَا شَيْءٌ ﴾ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴿ إلى قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ثم أنزل الله ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيء ﴾ [ الأنفال : 41 ] الآية ، ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذي القربى واليتامى ، والمساكين ، والمهاجرين في سبيل الله ، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء ، للفرس سهمان ، ولصاحبه سهم ، وللراجل سهم .

(104/305)

---

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ قال : هي الغنائم ، ثم نسخها ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيء ﴾ الآية .

وأخرج مالك وابن أبي شيبة، وأبو عبيد، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس وأبو الشيخ، وابن مردويه عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال: الفرس من النفل، والسلب من النفل، فأعاد المسألة فقال ابن عباس: هذا مثل ضبيع الذي ضربه عمر؛ وفي لفظ: فقال ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بضبيع العراقي، وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه، قال: الأنفال المغانم، أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها، فيرد القوي على الضعيف.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس، وأبو الشيخ، عن عطاء، في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: هو ما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال، من عبد أو دابة أو متاع، فذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، يصنع به ما شاء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن محمد بن عمرو قال: أرسلنا إلى سعيد بن المسيب نسأله عن الأنفال فقال: تسألوني عن الأنفال، وإنه لا نفل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأخرج عبد الرزاق عن سعيد أيضاً قال: ما كانوا ينفلون إلا من الخمس. وروي عبد الرزاق عنه أنه قال: لا نفل في غنائم المسلمين إلا في خمس الخمس. وأخرج عبد الرزاق عن أنس أن أميراً من الأمراء أراد أن ينقله قبل أن يخمسه، فأبى أنس

أن يقبله حتى يخمسه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن الشعبي ، في قوله : ﴿

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ قال : ما أصابت السرايا .

(105/305)

---

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، والنحاس في ناسخه ، عن مجاهد ، وعكرمة ، قال :

كانت الأنفال لله والرسول ، حتى نسخها آية الخمس ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾

الآية [ الأنفال : 41 ] .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والبخاري ، في الأدب المفرد ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب

الإيمان ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ قال : هذا تخريج من الله

على المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا في الأنفال .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مكحول ، قال : كان صلاح ذات بينهم أن ردت الغنائم ،

فقسمت بين من ثبت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين من قاتل وغنم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عطاء ، في قوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ قال : طاعة

الرسول اتباع الكتاب والسنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

وقال القاسمي :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

روى البخاري عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت في بدر .

وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهدت معه بدرًا ، فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب .

قال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق به منا ، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : لستم بأحق بها منا ، نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم وخفنا أن يصيب العدو منه غرة ، واشتغلنا به ، فنزلت :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية ، فقسّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على قواقي من المسلمين .

وهذا الحديث رواه الترمذي أيضاً وحسنه ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، وصححه الحاكم .

ولفظ ابن إسحاق عن عبادة قال : فينا ، أصحاب بدر ، نزلت ، حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقسّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين على السواء .

(107/305)

---

وروى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < من صنع كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا > . فتسارع في ذلك شبان القوم ، وبقي الشيوخ تحت الرايات .

فلما كانت المغائم ، جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فإننا كنا رداء لكم ، لو انكشفتم لثبتم إلينا ، فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية ، وهذا مما يفيد أن الشاجر كان متنوعاً ، وأن الآية نزلت لفصله .

والأنفال: هي المغانم، جمع نفل محرّكة، وهو الغنيمة، أي: كل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب .

قال ابن تيمية: سميت بذلك، لأنها زيادة في أموال المسلمين . أي: لأن النفل يطلق على الزيادة، كما في " التاج "، ومنه النافلة لصلاة التطوع لزيادتها على الفريضة .  
وقوله تعالى: ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ قال المهايبي: أي: ليست هي في مقابلة الجهاد، وإنما مقابلة الأجر الأخرى، وهذه زائدة عليه، خرجت عن ملك المشركين فصارت ملكاً خالصاً لله ولرسوله . والرسول خليفة يعطيها، على ما أراه الله، من يشاء، لوما أطلق له صلى الله عليه وسلم الحكم فيها فقسما بينهم بالسوية، ووهب من استوهبه .  
فروى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير وقتل سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: اذهب فاطرحه في القبض، قال: فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله، من قتل أخي، وأخذ سلمي .

قال: فما جاوزت إيسيراً حتى نزلت سورة الأنفال .

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: < اذهب فخذ سلبك > .



---

وروى الإمام أحمد والترمذي - وصححه - عن سعد بن مالك قال : قلت : يا رسول الله  
قد شفاني الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف ، فقال : > إن هذا السيف لالك  
ولا لي ضعه < .

قال ، فوضعتة ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطي هذا السيف اليوم من لا يبلي بلاتي .  
قال : إذا رجل يدعوني من ورائي .

قال : قلت : قد أنزل الله في شيئاً . قال : كنت سألتني السيف ، ليس هو لي ، إنه قد وهب  
لي ، فهولك . قال : وأنزل الله هذه الآية : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية .  
تنبيهات :

الأول : ذهب بعضهم إلى أن أنفال بدر قسمت من غير تخميس ، ثم نزلت بعد ذلك آية  
الخمس ، فنسخت الأولى .

قال ابن كثير : فيه نظر . ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفه الذين حصلوا له  
، من الخمس ، يوم بدر . فالصواب أنها جملة محكمة ، بين مصارفها في آية الخمس .

الثاني : روي عن عطاء أنه فسر الأنفال بما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال من  
دابة أو أمة أو متاع .

قال : فهو نفل للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يشاء .

قال ابن كثير: وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال .  
قلت: صدق النقل عليه، لا شك فيه، وأما كونه المراد من الآية بخصوصه، فلا يساعده  
سبب نزولها المار ذكره، لا سيما قوله: ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ المشير إلى التنازع  
المتقدم .

ثم قال ابن كثير: واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم، أي: ما يدفع إلى الغازي زائداً  
على سهمه من المغنم، والكلام الذي قلته قبل، يجري هنا أيضاً .  
ونقل الرازي عن القاضي: أن كل هذا الوجوه تحتمله الآية . قال: وليس فيها دليل على  
ترجيح بعضها على بعض، وإن صح في الأخبار ما يدل على التعيين، قضى به، وإلا فالكل  
محتمل .

وكما أن كل واحد منها جائز، فكذلك إرادة الجميع جائزة فإنه لا تناقض بينها . أي:  
لصدق النقل عليها .

(109/305)

---

الثالث: وقع عند الزمخشري أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر، لمن الحكم فيها  
ألمهاجرين أم للأنصار، أم لهم جميعاً؟ فأجيبوا بأن الحاكم فيها الرسول، وليس لأحد فيها

حكم .

تأثر الزمخشري أبو السعود في سوقه لما ذكر ، وزاد عليه اعتماده له ، بتطويل ممل ، ولا أدري من أين سرت لهم هذا الرواية .

فإن رواية الآثار لم يخرجوها في صحاحهم ولا سننهم ، بل ولا أصحاب السير ، كابن إسحاق وابن هشام ، وهل يمكن للمسلمين أن يختلفوا للحكم على الغنائم ، ويتنازعوا ولايتها ، والرسول بين أظهرهم ؟ ومتى عهد ذلك من سيرتهم ؟ سبحانك

هذا بهتان عظيم ! ولكن هو الرأي قاتله الله ! ونبذ كتب السنة ، والتقليد البحث ، الذي لا يهتم صاحبه بحقائق الأشياء ، ولا يريد معرفتها ولا فحصها بالعقل يضع قدمه على القدم ، حيث يكون مطوعاً لآراء غيره ، منقاداً لها مصداقاً ما ينطق به فمه ، غثاً كان أو سميناً . اللهم نور بصيرتنا بفضلك .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي : في الإختلاف والتخاصم ، وكونوا متحدين متآخين في الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي : أحوال بينكم ، يعني ما بينكم من الأحوال ، حق تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : في قسمه بينكم ، على ما أراه الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: كاملي الإيمان. انتهى انتهى. اهـ ﴿محاسن

التأويل ح 8 ص 258-262﴾

(110/305)

وقال ابن عاشور:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾

افتتاح السورة بـ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ مؤذن بأن المسلمين لم يعلموا ماذا يكون في شأن

المسمى عندهم ﴿الأنفال﴾ وكان ذلك يوم بدر، وأنهم حاوروا رسول الله عليه الصلاة

والسلام في ذلك، فمنهم من يتكلم بصريح السؤال، ومنهم من يخاصم أو يجادل غيره بما

يؤذن حاله بأنه يتطلب فهماً في هذا الشأن، وقد تكررت الحوادث يوماً: ففي "صحيح

مسلم"، و"جامع الترمذي" عن سعد بن أبي وقاص قال: "لما كان يوم بدر أصبت سيفاً

لسعيد بن العاصي فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت نفلني، فقال: ضعه (في

القبض)، ثم قلت: نفلني فقال ضعه حيث أخذته، ثم قلت: نفلني فقال: ضعه من

حيث أخذته، فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ "وفي" أسباب النزول "للواحدي،

و"سيرة ابن إسحاق" عن عبادة بن الصامت، أنه سئل عن الأنفال فقال: فينا معشر

أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل يوم بدر فاتزعه الله من أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا فرده على رسوله فقسمه بيننا على بواء يقول على السواء ، وروى أبو داود ، عن ابن عباس ، قال : " لما كان يوم بدر ذهب الشبان للقتال وجلس الشيخ تحت الرايات فلما كانت الغنيمة جاء الشبان يطلبون نفلهم فقال الشيخ : لا تستأثرون علينا فانا كما تحت الرايات ولو أنهزمت لكنا رداء لكم ، واختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ .

والسؤال حقيقته الطلب ، فإذا عدّي بـ ( عن ) فهو طلب معرفة الجرور بـ ( عن ) وإذا عدّي بنفسه فهو طلب إعطاء الشيء ، فالمعنى ، هنا : يسألونك معرفة الأنفال ، أي معرفة حقها فهو من تعليق الفعل باسم ذات ، والمراد حالها بحسب القرينة مثل ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [ المائدة : 3 ] وإنما سألوا عن حكمها صراحة وضمناً في ضمن سؤا لهم الأثرة ببعضها .

(111/305)

---

ومجيء الفعل بصيغة المضارع دال على تكرر السؤال ، إما بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين ، وإما بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد .

ولذلك كان قوله ﴿ يسألونك ﴾ موزناً بتنازع بين الجيش في استحقاق الأنفال ، وقد كانت لهم عوائد متبعة في الجاهلية في الغنائم والأنفال أرادوا العمل بها وتخالفوا في شأنها فسألوا ، وضمير جمع الغائب إلى معروف عند النبي وبين السامعين حين نزول الآية .

و(الأنفال) جمع نفل بالتحريك والنفل مشتق من النافلة وهي الزيادة في العطاء ، وقد أطلق العرب في القديم الأنفال على الغنائم في الحرب كأنهم اعتبروها زيادة على المقصود من الحرب لأن المقصود الأهم من الحرب هو إبادة الأعداء ، ولذلك ربما كان صناديدهم يابون أخذ الغنائم كما قال عنتره :

يجبرك من شهد الواقعة أنني

أغشى الوغى وأعف عند المغنم . . .

وأقوالهم في هذا كثيرة ، فإطلاق الأنفال في كلامهم على الغنائم مشهور قال عنتره :

إنا إذا احمر الوغى نرؤي القنا . . .

ونعف عند مقاسم الأنفال

وقد قال في القصيدة الأخرى :

وأعف عند المغنم . . .

فعلمنا أنه يريد من الأنفال المغانم وقال أوس بن حجر الأسدي وهو جاهلي :

نكصم على أعقابكم ثم جئتمو

تُرجون أنفال الخميس العرمرم . . .

ويقولون نقلني كذا يريدون أغنمني ، حتى صار النفل يطلق على ما يعطاه المقاتل من المغنم  
زيادة على قسطه من المغنم لمزية له في البلاء والغناء أو على ما يعثر عليه من غير قتيله ،  
وهذا صنف من المغنم .

(112/305)

---

فالمغنم ، إذن ، تنقسم إلى : ما قصد المقاتل أخذه من مال العدو ومثل نعمهم ، ومثل ما على  
القتلى من لباس وسلاح بالنسبة إلى القاتل ، وفيما ما لم يقصده المقاتلون مما عثروا عليه مثل  
لباس قتيل لم يُعرف قاتله ، فاحتملت الأنفال في هذه الآية أن تكون بمعنى المغنم مطلقاً ، وأن  
تكون بمعنى ما يُزاد للمقاتل على حقه من المغنم ، فحديث سعد بن أبي وقاص كان سؤالاً  
عن تنفيل بمعنى زيادة ، وحديث ابن عباس حكى وقوع اختلاف في قسمة المغنم بين من  
قاتل ومن لم يقاتل ، على أن طلب من لم يقاتلوا المشاركة في المغنم يرجع إلى طلب تنفيل ،  
فيبقى النفل في معنى الزيادة .

ولأجل التوسع في ألفاظ أموال الغنائم تردد السلف في المعنى من الأنفال في هذه الآية ،  
وسئل ابن عباس عن الأنفال فلم يزد على أن قال "الفرس من النفل والدرع من النفل" كما في

"الموطأ" ، وروى عنه أنه قال : "والسلب من النفل" كما في "كتاب أبي عبيد" وغيره .  
وقد أطلقوا النفل أيضاً على ما صار في أيدي المسلمين من أموال المشركين بدون انتزاع ولا  
اقتكاك كما يوجد الشيء لا يُعرف من غنمه ، وكما يوجد القليل عليه ثيابه لا يعرف قاتله ،  
فيدخل بهذا الإطلاق تحت جنس الفيء كما سماه الله تعالى في سورة [الحشر : 6 ، 7 ]  
بقوله : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركابٍ ولكن الله  
يسلط رسوله على من يشاء ﴾ إلى قوله ﴿ بين الأغنياء منكم وذلك مثل أموال بني النضير  
التي سلموها قبل القتال وفروا .  
وبهذا تحصل في أسماء الأموال المأخوذة من العدو في القتال ثلاثة أسماء : المغنم ، والفيء  
، وهما نوعان ، والنفل .

(113/305)

---

وهو صورة من صور القسمة وكانت متداخلة ، فلما استقر أمر الغزو في المسلمين خص كل  
اسم بصنف خاص قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ [   
الأنفال : 41 ] الآية ، ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص أي تخصيص اسم الغنيمة بمال  
الكفار إذا أخذه المسلمون على وجه الغلبة والقهر ، ولكن عُرفَ الشرع قيد اللفظ بهذا



النوع فسمى الواصل من الكفار إلينا من الأموال باسمين (أي لمعنيين مختلفين) غنيمة وفيئاً  
يعني وأما النفل فهو اسم لنوع من مقسوم الغنيمة لا لنوع من المغنم .  
والذي استقر عليه مذهب مالك أن النفل ما يعطيه الإمام من الخمس لمن يرى إعطاءه إياه ،  
ممن لم يغنم ذلك بقتال .

فالأنفال في هذه الآية قال الجمهور : المراد بها ما كان زائداً على المغنم .  
فيكون النظر فيه لأمر الجيش يصرفه لمصلحة المسلمين ، أو يعطيه لبعض أهل الجيش  
لإظهار منزلة البطل ، أو لخصلة عظيمة يأتي بها ، أو لتحريض على النكاية في العدو .  
فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين : " من قتل قتيلاً فله سلبه " وقد جعلها  
القرآن لله وللرسول ، أي لما يأمر به الله رسوله أو لما يراه الرسول صلى الله عليه وسلم قال  
مالك في "الموطأ" " ولم يبلغنا أن رسول الله قال : من قتل قتيلاً فله سلبه إلا يوم حنين ، ولا  
بلغنا عن الخلفاء من بعده " (يعني مع تكرار ما يقتضيه فأراد ذلك أن تلك قضية خاصة بيوم  
حنين) .

فالآية محكمة غير منسوخة بقوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه  
والرسول ﴾ [ الأنفال : 41 ] فيكون لكل آية منهما حكمها إذ لا تداخل بينهما ، قال  
القرطبي : وهو ما حكاه المازري عن كثير من أصحابنا .

وعن ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة وعطاء : أن المراد بالأنفال في هذه الآية الغنائم مطلقاً .

(114/305)

---

وجعلوا حكمها هنا أنها جعلت لله وللرسول أي أن يقسمها الرسول صلى الله عليه وسلم بحسب ما يراه ، بلا تحديد ولا اطراد ، وأن ذلك كان في أول قسمة وقعت بيد ركما في حديث ابن عباس ، ثم نسخ ذلك بآية ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ﴾ [ الأنفال : 41 ] الآية إذ كان قد عين أربعة الأقسام للجيش ، فجعل لله وللرسول الخمس ، وجعل أربعة الأقسام حقاً للمجاهدين .

يعني وبقي حكم الفيء المذكور في سورة الحشر غير منسوخ ولا ناسخ ، فلذلك قال مالك والجمهور : لا نفل إلا من الخمس على الاجتهاد من الإمام وقال مالك : "إعطاء السلب من التنفيل" ، وقال مجاهد : الأنفال هي خمس المغانم وهو المجمعول لله والرسول ولذي القربى . واللام في قوله ﴿ لله ﴾ على القول الأول في معنى الأنفال : لام الملك ، لأن النفل لا يحسب من الغنائم ، وليس هو من حق الغزاة فهو بمنزلة مال لا يعرف مستحقه ، فيقال هو ملك لله ولرسوله ، فيعطيه الرسول لمن شاء بأمر الله أو باجتهاده ، وهذا ظاهر حديث سعد بن

أبي وقاص في "الترمذي" إذ قال له رسول الله عليه الصلاة والسلام سألتني هذا السيف  
معنى السيف الذي تقدم ذكره في حديث مسلم ولم يكن لي وقد صار لي فهو لك".  
وأما على القول الثاني، الجامع لجميع المغانم، فاللام للاختصاص، أي: الأنفال تخص بالله  
والرسول، أي حكمها وصرافها، فهي بمنزلة (إلى).  
تقول: هذا لك أي: إلى حكمك مردود، وأن أصحاب ذلك القول رأوا أن المغانم لم تكن  
في أول الأمر خمسة بل كانت تقسم باجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم ثم خُصت بآية  
﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول﴾ [الأنفال: 41] الآية.

(115/305)

---

وعطف "والرسول" على اسم الله لأن المقصود: الأنفال للرسول صلى الله عليه وسلم  
يقسمها فذكر اسم الله قبل ذلك للدلالة على أنها ليس حقاً للغزاة وإنما هي لمن يعينه الله  
بوحيه فذكر اسم الله لفائدتين: أولاهما: أن الرسول إنما يتصرف في الأنفال بإذن الله توقيفاً  
أو تفويضاً.

والثانية: لتشمل الآية تصرف أمراء الجيوش في غيبة الرسول أو بعد وفاته صلى الله عليه  
وسلم لأن ما كان حقاً لله كان التصرف فيه لخلفائه.

واختلف الفقهاء في حكم الأنفال اختلافاً ناشئاً عن اختلاف اجتهادهم في المراد من الآية ، وهو اختلاف يعذرون عليه لسعة الاطلاق في أسماء الأموال الحاصلة للغزاة ، فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وسعيد بن المسيب : النفل إعطاء بعض الجيش أو جميعه زيادة على قسمة أخماسهم الأربعة من المغنم ، فإنما يكون ذلك من خمس المغنم المجمعول للرسول صلى الله عليه وسلم ولخلفائه وأمرائه جمعاً بين هذه الآية وبين قوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ﴾ [ الأنفال : 41 ] الآية فلانفل إلا من الخمس المجمعول لاجتهاد أمير الجيش وعلة ذلك تجنب إعطاء حق أحد لغيره ولأنه يفضي إلى إيقاد الإحن في نفوس الجيش ، وقد يبعث الجيش على عصيان الأمير ، ولكن إذا رأى الإمام مصلحة في تنفيل بعض الجيش ساغله ذلك من الخمس الذي هو موكول إليه ، كما سيأتي في آية المغانم ، لذلك قال مالك : لا يكون التنفيل قبل قسمة المغنم وجعل ما صدر من النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين من قوله : " من قتل قتيلاً فله سلبه " خصوصيه للنبي صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر ، لأن طاعة الناس للرسول أشد من طاعتهم لمن سواه لأنهم يؤمنون بأنه معصوم عن الجور وبأنه لا يتصرف إلا بإذن الله ، قال مالك في "الموطأ" : ولم يبلغنا أن رسول الله فعل ذلك غير يوم حنين ولا أن أبا بكر وعمر فعلاه في فتوحهما .

(116/305)

---

وإنما اختلفت الفقهاء : في أن النفل هل يبلغ جميع الخمس أو يخرج من خمس الخمس ، فقال مالك من الخمس كله ولو استغرقه ، وقال سعيد بن المسيب ، وأبو حنيفة والشافعي :  
النفل من خمس الخمس .

والخلاف مبني على اختلافهم في أن خمس المغنم هو مقسم على من سَمَّاه القرآن أم مختلط ، وسيجيء ذلك في آية المغنم .

والحجة لمالك حديث ابن عمر في "الموطأ" أنهم غزومع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فغنموا إبلا كثيرة فكانت سهمانهم اثني عشر بعيرا ونفلوا بعيرا بعيرا فأعطى النفل جميع أهل الجيش وذلك أكثر من خمس الخمس ، وقال جماعة يجوز التنفيل من جميع المغنم وهؤلاء يخصصون عموم آية

﴿ واعلموا أنما غنمتم ﴾ [ الأنفال : 41 ] بآية ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ أي فالمغنم الخمسة ما كان دون النفل ، والقول الأول أسد وأجرى على الأصول وأوفق بالسنة ، والمسألة تبسط في الفقه وليس من غرض المفسر إلا الإمام بمعاقدها من الآية .

وتفريع ﴿ فاتقوا الله ﴾ على جملة ﴿ الأنفال لله والرسول ﴾ لأن في تلك الجملة رفعا للنزاع بينهم في استحقاق الأنفال ، أو في طلب التنفيل ، فلما حكم بأنها ملك لله ورسوله أو بأن أمر قسمتها موكل لله ، فقد وقع ذلك على كراهة كثير منهم ممن كانوا يحسبون أنهم

أحق بتلك الأنفال ممن أعطيتها ، تبعاً لعوائدهم السالفة في الجاهلية فذكرهم الله بأن قد

وجب الرضى بما يقسمه الرسول منها ، وهذا كله من المقول .

وقدم الأمر بالتقوى ، لأنها جامع الطاعات .

وعُطف الأمر بإصلاح ذات البين ، لأنهم اختصموا واشتجروا في شأنها كما قال عبادة بن

الصامت : " اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا " فأمرهم الله بالتصافح ، وختم بالأمر

بالطاعة ، والمراد بها هنا الرضى بما قسم الله ورسوله أي الطاعة التامة كما قال تعالى ﴿

ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ﴾ [ النساء : 65 ] .

(117/305)

---

والإصلاح : جعل الشيء صالحاً ، وهو مؤذن بأنه كان غير صالح ، فالأمر بالإصلاح دل

على فساد ذات بينهم ، وهو فساد التنازع والتظالم .

﴿ ذات ﴾ يجوز أن تكون مؤنث ( ذو ) الذي هو بمعنى صاحب فتكون ألفها مبدلة من

الواو .

ووقع في كلامهم مضافاً إلى الجهات وإلى الأزمان وإلى غيرهما ، يجرونه مجرى الصفة

لموصوف يدل عليه السياق كقوله تعالى : ﴿ وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ في

سورة [الكهف: 18] ، على تأويل جهة ، وتقول : لقيته ذات ليلة ، ولقيته ذات صباح ،

على تأويل المقدر ساعة أو وقت ، وجرت مجرى المثل في ملازمتها هذا الاستعمال ،

ويجوز أن تكون ( ذات ) أصلية الألف كما يقال : أنا أعرف ذات فلان ، فالمعنى حقيقة

الشيء وماهيته ، كذا فسرهما الزجاج والزمخشري ، فهو كقول ابن رواحة :

وذلك في ذاتِ الإله وإن يشأ

يبارك على أوصال شلوممزع . . .

فتكون كلمة مقحمة لتحقيق الحقيقة ، جعلت مقدمة ، وحقها التأخير لأنها للتأكيد مثل

المعنى في قولهم : جاءني بذاته ، ومنه يقولون : ذات اليمين وذات الشمال ، قال تعالى ﴿ إنه

عليم بذات الصدور ﴾ .

فالمعنى : أصلحوا بينكم ، ولذا ف ( ذات ) مفعول به على أن ( بين ) في الأصل ظرف

فخرج عن الظرفية ، وجعل اسماً منتصفاً ، كما قرئ ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [ الأنعام :

94 ] برفع بينكم في قراءة جماعة .

فأضيفت إليه ( ذات ) فصار المعنى : أصلحوا حقيقة بينكم أي اجعلوا الأمر الذي

يجمعكم صالحاً غير فاسد ، ويجوز مع هذا أن ينزل فعل ﴿ أصلحوا ﴾ منزلة الفعل اللازم

فلا يقدر له مفعول قصداً للأمر بإيجاد الصلاح لا بإصلاح شيء فاسد ، وتنصب ذات

على الظرفية لإضافتها إلى ظرف المكان والتقدير : وأوجدوا الصلاح بينكم ، كما قرأنا

﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [ الأنعام : 94 ] بنصب بينكم أي لقد وقع التقطيع بينكم .  
وأعلم أنني لم أقف على استعمال ( ذات بين ) في كلام العرب فأحسب أنها من مبتكرات  
القرآن .

(118/305)

---

وجواب شرط ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ دلت عليه الجمل المقدمة من قوله : ﴿ فاتقوا الله ﴾ إلى آخرها ، لأن الشرط لما وقع عقب تلك الجمل كان راجعاً إلى جميعها على ما هو المقرر في الاستعمال ، فمعنى الشرط بعد تلك الجمل الإنشائية : إنا أمرناكم بما ذكر إن كنتم مؤمنين ، لأننا لا نأمر بذلك غير المؤمنين ، وهذا إلهاب لنفوسهم على الامتثال ، لظهور أن ليس المراد : فإن لم تكونوا مؤمنين فلا تتقوا الله ورسوله ، ولا تصلحوا ذات بينكم ، ولا تطيعوا الله ورسوله ، فإن هذا معنى لا يخطر ببال أهل اللسان ولا يسمح بمثله الاستعمال . وليس الإتيان في الشرط بـ ﴿ بأن ﴾ تعريضاً بضعف إيمانهم ولا بأنه مما يشك فيه من لا يعلم ما تخفي صدورهم ، بناء على أن شأن ( إن ) عدم الجرم بوقوع الشرط بخلاف ( إذا ) على ما تقرر في المعاني ، ولكن اجتلاب ( إن ) في هذا الشرط للتحريض على إظهار الخصال التي يتطلبها الإيمان وهي : التقوى الجامعة لخصال الدين ، وإصلاح ذات بينهم ،



والرضى بما فعله الرسول ، فالمقصود التحريض على أن يكون إيمانهم في أحسن صورته ومظاهره ، ولذلك عُقب هذا الشرط بجملة القصر في قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [ الأنفال : 2 ] كما سيأتي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ﴾

ح 9 ص ﴿

(119/305)

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ الآية .

اختلف العلماء في المراد بالأنفال هنا على خمسة أقوال :

الأول : أن المراد بها خصوص ما شذ عن الكافرين إلى المؤمنين ، وأخذ بغير حرب كالفرس

والبعير يذهب من الكافرين إلى المسلمين ، وعلى هذا التفسير فالمراد بالأنفال هو المسمى

عند الفقهاء فيئا ، وهو الآتي بيانه في قوله تعالى : ﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا

أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [ الحشر : 6 ] وممن قال بهذا القول عطاء ابن أبي

رباح .

الثاني : أن المراد بها الخمس وهو قول مالك .

الثالث: أن المراد بها خمس الخمس .

الرابع: أنها الغنيمة كلها وهو قول الجمهور وممن قال به ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء ، والضحاك وقادة وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد قاله ابن كثير .

(120/305)

---

الخامس: أن المراد بها أنفال السرايا خاصة وممن قال به الشعبي ، ونقله ابن جرير عن علي بن صالح بن حي ، والمراد بهذا القول: ما ينقله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش ، واختار ابن جرير أن المراد بها الزيادة على القسم . قال ابن كثير: ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية . وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو معاوية حدثنا أبو إسحاق الشيباني عن محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر ، وقتل أخي عمير قتلت سعيد بن العاص . وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيبة ، فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: « اذهب فاطرحه في القبض » قال: فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي . قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اذهب فخذ سلبك

« ، وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أسود بن عامر أخبرنا أبو بكر عن عاصم بن أبي النجود عن مصعب بن سعد عن سعد بن مالك قال : قلت يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف . فقال : « إن هذا السيف لالك ولا لي ضعه » ، قال : فوضعتُه ، ثم رجعت فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلى بلائي ، قال : فإذا رجل يدعوني من ورائي قال : قلت قد أنزل الله في شيء ، قال : كنت سألتني السيف ، وليس هو لي وإنه قد وهب لي فهو لك . قال : وأنزل الله هذه الآية : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن أبي بكر بن عياش ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، وهكذا رواه أبو داود الطيالسي : أخبرنا شعبة أخبرنا سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : نزلت في أربع آيات من القرآن أصبت سيفاً يوم بدر فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : نقلني فقال :

(121/305)

---

« ضعه من حيث أخذته مرتين » ، ثم عاودته فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ضعه من حيث أخذته » فنزلت هذه الآية ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية ، وتام الحديث في

نزول ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: 8] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا  
الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ [المائدة: 90] الآية . وآية الوصية وقد رواه مسلم في صحيحه من  
حديث شعبة به . وقال محمد بن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن بعض بني  
ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول : أصبت سيف ابن عائد يوم بدر ،  
وكان السيف يدعى بالمرزبان ، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يردوا  
ما في أيديهم من النفل أقبلت به فألقيته في النفل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا  
يمنع شيئاً يسأله ، فراه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي فسأله رسول الله صلى الله عليه  
وسلم فأعطاه إياه ، ورواه ابن جرير من وجه آخره . كلام ابن كثير .

قال مقيده : - عفا الله عنه - جمهور العلماء على أن الآية نزلت في غنائم بدر لما اختلف  
الصحابة فيها ، فقال بعضهم : نحن هم الذين حزننا الغنائم ، وخويناها فليس لغيرنا فيها  
نصيب : وقالت المشيخة : إنا كنا لكم رداءً ، ولو هزمت للجأتم إلينا فاخصموا إلى النبي  
صلى الله عليه وسلم ، وقد روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن عبادة بن الصامت  
: أنها نزلت في ذلك . وقال الترمذي : هذا حديث صحيح ، ورواه ابن حبان في صحيحه  
والحاكم في المستدرک وقال ، صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه . وروي نحو  
ذلك أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم ، وابن جرير ، وابن مردويه من طرق عن داود

بن أبي هند ، عن عكرمة عن ابن عباس . وعلى هذا القول الذي هو قول الجمهور ، فالآية  
مشكلة مع قوله تعالى : ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [ الأنفال : 41 ] الآية .

(122/305)

---

وأظهر الأقوال التي يزول بها الإشكال في الآية : هو ما ذكره أبو عبيد ونسبه القرطبي في  
تفسيره لجمهور العلماء أن قوله تعالى : ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ ﴾ الآية . ناسخ لقوله : ﴿  
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية . إلا أن قول أبي عبيد : إن غنائم بدر لم تخمس ، لأن آية  
الخمسة لم تنزل إلا بعد قسم غنائم بدر غير صحيح ، ويدل على بطلانه ما ثبت في صحيح  
مسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه « كان لي شارف من نصيبي من المغنم  
يوم بدر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني شارفاً من الخمسة يومئذ »  
الحديث . فهذا نص صحيح في تخميس غنائم بدر ، لأن قول علي في هذا الحديث  
الصحيح يومئذ صريح في أنه يعني يوم بدر كما ترى .

فالحاصل أن آية ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ ﴾ [ الأنفال : 41 ] الآية . بينت أنه ليس المراد  
قصر الغنائم على الرسول المذكور في أول السورة ، وأنها تعطى أربعة أخماس منها للغانمين ،  
وقد ذكرنا آنفاً أن أبا عبيد قال : إنها ناسخة لها ، ونسبه القرطبي للجمهور ، وسيأتي لهذا

المبحث زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى في الكلام على قوله: ﴿واعلموا أنّما غنمتم﴾

الآية. انتهى انتهى. ١٠هـ ﴿أضواء البيان ج 2 ص﴾

(123/305)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى مفتحة سورة الأنفال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ

وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

السؤال يقتضي سائلاً: وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقتضي مسؤلاً

هو الرسول عليه الصلاة والسلام، ويقتضي مسؤلاً عنه وهو موضوع السؤال المطروح.

والمسؤول عنه قد يوجد بذاته، مثلما نسأل صديقنا: ماذا أكلت اليوم؟ هذا السؤال فيه

تحديد لمنطقة الجواب، والجواب عنه أيضاً يحدد المنطقة.

وموضوع السؤال في قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَيْضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ

فِي الْحَيْضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: 222].

يدل عليه الجواب، فهم لم يسألوا عن أسباب الحيض، أو لماذا ينقطع عن الحامل أو من بلغت

الكبر، لكن كان موضوع السؤال الذي هو واضح من إجابة الحق تبارك وتعالى: أيجوز أن يباشر الرجل المرأة أثناء الحيض أو لا؟

وسؤال آخر سألوهُ للرسول صلى الله عليه وسلم عن اليتامى، ويحدد الجواب موضوع السؤال: يقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمَفْسَدَ مِنَ الْمَصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: 220].

لأنهم كانوا يتخوفون من مخالطة اليتامى في الأموال ومن مؤاكلتهم، وغير ذلك من ألوان التعامل، ورعاً وبعداً عن الشبهات وجاءت الإجابة لتحديد موضوع السؤال: ومرة يأتي السؤال وفيه تحديد مناط الإجابة لأنها عامة مثل قوله الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحُجْ ﴾ [البقرة: 189].

(124/305)

---

هم سألو محمدًا صلى الله عليه وسلم: لماذا يبدأ الهلال صغيراً ولماذا يكبر، ثم لماذا يختفي في الحاق؟. وهذا سؤال في الفلك. ولم يجبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا في الحدود التي يستفيدون منها وهي القيمة النفعية العملية، وجاءت الإجابة: ﴿ قُلْ هِيَ

مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ❁ .

لأننا ورغم وجودنا في هذا القرن العشرين إلا أن البعض من الناس ما زال يكذب الحقيقة العلمية التي ثبتت بما لا يدع مجالاً لأي شك . ونقول للعامة : إن الهلال يشبه قلامة الظفر ثم يكبر ليستدير ثم يختفي قليلاً . وفي هذا يقول الشاعر :

وغاية ضوء قمير كنت آمله . . . مثل القلامة قد قدت عن الظفر

ولو قال لهم : إن الهلال يظهر حين تتوسط الأرض بين الشمس والقمر ثم يبدأ في الاكتمال تباعاً ، لما استطاعت عقولهم أن تستوعب هذه المسألة ، فجاء لهم بالحكمة المباشرة النفعية التي تدركها عقولهم تماماً ، ثم ارتقت العقول بالعلم ووصلنا إلى دراسة حركة الأفلاك التي توضح كل التفاصيل الفلكية .

وهناك سؤال يجيء في أمر محدد ، مثل قول الحق : ❁ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ❁

[البقرة: 217] .

وهكذا عرفنا أن موضوع السؤال هو عن حكم القتال في الشهر الحرام ، لا طلب تحديد الأشهر الحرم بالذات .



ويقول الحق تبارك وتعالى هنا : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ والأنفال جمع نفل (بفتح الحرف الأول والثاني) ، مثل كلمة سبب وأسباب ، والمراد بالنفل هنا الغنيمة ؛ لأنها من فضل الله تعالى وهي من خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد اختصت بها هذه الأمة دون الأمم السابقة ، والنفل بالسكون الزيادة ، ومنه صلاة النافلة ؛ لأنها زيادة عن الفريضة الواجبة ، وفي هذا المعنى يقول ربنا عز وجل في آية ثانية : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ .

ونافلة تعني أمراً زائداً غير مفروض ، ولذلك نقول : إن النفل هو العبادة الزائدة ، وشرطها أن تكون من جنس ما فرض عليك ؛ لأن الإنسان لا يعبد ربه حسب هواه الشخصي ، بل يعبد ربه بأي لون من ألوان العبادة التي شرعها الله ، وإذا أراد زيادة فيها فلتكن من جنس ما فرض الله ، حتى لا يتبدع العبد عبادات ليست مشروعة . ولذلك قال الحق تبارك وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : 79] .

النفل إذن هو أمر تعبدية زائد عن الأصل .

وحيثما ابتلى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل ، جاءه الابتلاء لا بوحى صريح ، ولكن برؤيا منامية وهو ابتلاء شاق ، فلم يكن الابتلاء - مثلاً - أن يذبح

إنسان آخر سيدنا إسماعيل ، ثم يصبر سيدنا إبراهيم على فقدته ، لا بل هو الذي يقوم بذبح ولده إسماعيل . وهكذا كان الابتلاء كبيراً ، خصوصاً أنه لم يأت إلا في آخر العمر . وكانت هذه المسألة من الملابس القاسية على النفس . ولذلك أوضح ربنا عز وجل أن سيدنا إبراهيم كان أمة ، أي اجتمعت فيه صفات الإيمان اللازمة لأمة كاملة . ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: 124] .

(126/305)

---

ولترحموت النبوة في سلوك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاء لينفذ أمر الرؤيا بذبح الابن لأن رؤيا الأنبياء وحي ؛ لذلك لم يشأ أن يأخذ ولده أخذاً دون أن يطلع على الحقيقة ؛ لأنه لو فعل ذلك سيعرض ولده لحظة لها جس عقوق لأبيه ، وقد يقول الابن : أي رجل هذا الذي يذبح ابنه ؟ . وأراد سيدنا إبراهيم أن يشاركه ابنه كذلك في الثواب ، وأن يكون الابن خاضعاً لأمر الحق تبارك وتعالى كأبيه فقال له : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات : 102] .

وهكذا أوضح سيدنا إبراهيم عليه السلام الابتلاء الذي جاءه كرؤيا في المنام فماذا يقول الابن إجابة على سؤال أبيه ؟ ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ مِنَ

الصابرين ﴿ [ الصافات : 102 ] .

أي أن إسماعيل عليه السلام زمامه لأمر الحق تبارك وتعالى ، ويواصل المولى سبحانه وتعالى وصف ابتلاء سيدنا إبراهيم بذبح الابن فيقول تبارك وتعالى :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ \* وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ \* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

المحسنين ﴿ [ الصافات : 103 – 105 ] .

فبعد أن رضي كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل وسلما أمرهما الله تعالى وامثالا للأمر بالقضاء ، رفع الله برحمته هذا القضاء ؛ لذلك يصف الحق تبارك وتعالى هذا

البلاء وتكرمه بالفداء فيقول : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ \* وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [

الصافات : 106 – 107 ] .

(127/305)

---

وتعلمنا هذه الواقعة أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله ، إياك أن تجزع ، إياك أن تسخط ، إياك أن تغضب ، إياك أن تتمرد ؛ لأنك بذلك تطيل أمد القضاء عليك ، ولكن سلم لقضاء الله فيرفع هذا القضاء ؛ لأن القضاء لا يُرفع حتى يُرضى به . وهكذا لم يكن جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط ،

بل وزيادة على ذلك يسوق له المولى البشرى بمزيد من العطاء فيقول: ﴿ وَبَشِّرْنَاهُ يَاسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصفافات : 112] .

أي أنه لم يرزقه بولد ثانٍ فقط ، بل بولدٍ يكون نبياً وصالحاً . وتأتي زيادة أخرى في العطاء الرباني لسيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ [الأنبياء : 72] .

هكذا يتجلى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فلا يعطيه الولد الذي يحفظ ذكره فقط ، بل يعطيه الولد الذي يحفظ أمانة الدعوة أيضاً ، وكل ذلك نافلة من الله ، أي عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبي الأنبياء .

إذن النفل هو الأمر الزائد عن الأصل . ومثال ذلك ما خص الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة " .

إذن تشريع الله للغنائم في الإسلام أمر زائد عن الأصل ؛ لأن الغنائم لم تحل لأحد من الأنبياء قبل رسولنا صلى الله عليه وسلم .

وهناك نفل ، وهناك غنيمة ، وهناك فيء ، وهناك قبض .

وسنوجز معنى كل منها :

(128/305)

---

الغنيمة : هي ما يأخذه المسلمون من الأعداء المهزومين ، وتقسم فيما بينهم بنسب معينة ، فللرجل المقاتل سهم واحد ، وللفارس سهمان ، وهذا على سبيل المثال فقط وتقسيمها حسب تشريع الله عز وجل ، وسبق بيان النفل والنفل بفتح الوسط وسكونه ، والفبيء هو كل مال صار للمسلمين من غير حرب ولا قهر - " والقبض " بتحريك الوسط بمعنى المقبوض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

لكن إذا جاء ولي الأمر وبين للمقاتلين مشجعاً لهم على حركة الحرب مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

" من قتل كافراً فله سلبه " .

فلذلك أمر زائد في حصته في الغنيمة .

وقد يبعث القائد سريةً ويشجعها على خوض الصعاب فيقول لأفراد تلك السرية : لكم

نصف ما غنمتم ، أو الربع أو الخمس ، فهذا يعني أن من حقهم أن يأخذوا النسبة التي

حددها لهم القائد كأمر زائد ، ثم تقسم الغنائم من بعد ذلك ، وساعة يأخذ المقاتلون الأسلاب والمتاع ، والعتاد والأموال من الأسرى ، فهذه تسمى غنائم ، أما حين تُجمع الغنائم عند ولي الأمر فيصير اسمها القَبْض وقد سبق بيانه .

وفي يوم بدر حدثت واقعة يرويها الصحابي الجليل سعد بن مالك رضي الله عنه قائلاً :  
" قلت يا رسول الله : قد شفاني الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف ، قال عليه الصلاة والسلام : " إن هذا السيف لالك ، ولا لي ، فضعه " ، قال : فوضعت ، ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطي هذا السيف من لا يبلي بلائي ، قال : فإذا رسول الله يدعوني من ورائي . قال الصحابي : قد أنزل الله في شيئاً ؟ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سألتني السيف ، وليس هولي ، وأنه قد وهب لي ، فهولك " ، قال : وأنزل الله هذه الآية : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [ الأنفال : 1 ]

(129/305)

---

أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليحكم في أمر السيف إلا بعد أن ينزل حكم الله عز وجل . ونعلم جميعاً أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غزوة بدر ولم يكن يقصد القتال ، بل كان الخروج للغير التي تحمل بضائع قريش القادمة من الشام ، وليس معها إلا بعد

أربعون رجلاً يحرسونها ، ولذلك خرج المسلمون وكان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً  
وليس معهم عدة أو عتاد ، بل لم يكن لديهم إلا فرسان اثنان لأنهم لم يخرجوا لقتال ، بل  
خرجوا للغير بغية أن يعوضوا أنفسهم شيئاً مما سلبوه في مكة ، فقال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : إن أبا سفيان سلك طريق الساحل . أي سار في طريق بعيد عن المسلمين ولم  
يأت من جهة الرسول والذين معه ، واستنفرت قريش كل رجالها ليحموا العير ، وصار  
الأمر بين أن يرجع المؤمنون دون حرب ، وإما أن يواجهوا النفير ، وهو التعداد الكثير ،  
وكانوا ألفاً ومعهم العُدَّة والعتاد ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشجع الفتيان  
على الحرب فقال لهم : " من قتل كافراً فله سلبه " ، أي أنه خصَّهم بأمر زائد عن سهمهم في  
الغنيمة . فلما علم الكبار من الصحابة والشيوخ ، قالوا : يا رسول الله هم قاتلوا وقتلوا ،  
لكن نحن كنا عند الرايات ، فيفئون إلينا إن وقعت عليهم هزيمة فلا بد أن تشارك ، وحدث  
لغط وخلاف ، فحسم الله سبحانه وتعالى هذا اللغط بأن أنزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ  
عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَانقُضُوا اللَّهَ ﴾ .  
فبين سبحانه أن الحكم في قسمة الغنائم بين الجميع لله وللرسول وإياكم أن تخرجوا عن أمر  
الله فيها ، واجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية . فلا تنازعوا ولا ت互相لافوا ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ  
بَيْنِكُمْ ﴾ .

إن كان قد حصل بين الطرفين ، الشبان والشيخ الكبار قليل من الخلاف فأصلحوا ذات بينكم . وساعة تسمع ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ قد تسأل : ما هو البين ؟ الجواب " البين " هو ما بين شيئين ، فحين يجلس صف من الناس بجانب بعضهم البعض ، فما بين كل منهم هو ما يسمى " البين " ، وقد يكون الذي فصلنا عن بعض " بين مودة " أو بين جفوة ، إذن فالبين له صورة وله هيئة ، فإن كانت الصورة التي بينكم وبين بعضكم فيها شيء من الجفوة فأصلحوا السبب الذي من أجله وجدَّ " البين " حتى لا يكون بينكم جفوة ونزاع .  
ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [ الأنفال : 1 ] .

وقلنا إن أمر الطاعة معناه الامتثال ، والطاعة ليست للأمر فقط بل للنهي أيضا ، لأن الأمر طلب فعل ، والنهي طلب عدم فعل ، وكلاهما طلب . وحينما يقول الحق : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

تفهم هذا القول على ضوء ما عرفناه من قبل وهو أن مسألة الطاعة أخذت في القرآن صورا ثلاثا ، الصورة الأولى : يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وفيها يكرر المطاع وهو الله والرسول ، ولكنه يفرّد الأمر بالطاعة .

ومرة ثانية يقول المولى عز وجل : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [ المائدة : 92 ] .  
أي أنه سبحانه يكرر المطاع ، ويكرر الأمر بالطاعة .



ومرة ثالثة يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ . لأن منهج الله فيه أمور ذكرها الله عز وجل ، وذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواردت السنة مع النص القرآني ، فنحن نطيع الله والرسول في الأمر الصادر من الله . وهناك بعض من التكليف جاءت إجمالية ، والإجمال لا بد له من تفصيل ، مثل الصلاة وفيها قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : 103] .

(131/305)

---

إذن فالله عز وجل أمر بالصلاة إجمالاً وقدّم الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الإجمال تفسيراً وتطبيقاً فهي خمس صلوات ، ركعتان للصبح ، وأربع ركعات للظهر ، وأربع ركعات للعصر ، وثلاث ركعات للمغرب ، وأربع ركعات للعشاء ، وحدد الرسول عليه الصلاة والسلام الصلوات التي نجهر فيها بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن ، وحدد الصلوات التي لا نجهر فيها بالتلاوة .

إذن فحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ ، أي أطيعوه في مجمل الحكم ، وحين يقول: ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أي أطيعوه في تفصيل الحكم ، وإذا ما قال: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ فهذا يعني أن الحق قد أمر وأن الرسول قد بلغ ، والمراد واحد ، وإذا لم يكن لله

أمر ، وقال الرسول شيئاً فالحق يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ، وسبحانه قد أعطى رسوله تفويضاً بقوله :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر : 7] .

أي أن كل أمر من الرسول إنما يأتي من واقع التفويض الذي أكرمه الله به ، وهنا يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : 1] .

أي إن كنتم مؤمنين حقا فاتقوا الله الذي آمنتم به واتبعوا الأمر الصادر من الله ورسوله لكم ، لأن مدلول الإيمان هو اقتناع القلب بقضية لا تطفو للمناقشة من جديد ، وكذلك اقتناع بأن هذا الكون له إله واحد ، وله منهج يبلغه الرسول المؤيد من الله عز وجل بالمعجزة ، وهذا الإيمان وهذا المنهج يفرض عليكم تقوى الله بإصلاح ذات البين ، ويفرض عليكم طاعة الله والرسول في كل أمر ، ومن هذه الأمور التي تتطلب الطاعة هو ما أتم بصدده الآن ، لأنه أمر في بؤرة الشعور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(132/305)

---

## "فصل"

قال السيوطي :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن جرير وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : " لما كان يوم بدر قتل أخي عمير ، وقتلت سعيد بن العاصي وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيعة ، فأثبت به النبي فقال " اذهب فاطرحه في القبض . فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي ، فماجاوزت إلا سيرا حتى نزلت سورة الأنفال . فقال لي رسول الله : اذهب فخذ سيفك " .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في سننه " عن سعد قال : قلت : يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهل لي هذا السيف ؟ قال : إن هذا السيف لالك ولا لي ضعه . فوضعت ثم رجعت قلت : عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائي ، إذا رجل يدعوني من ورائي قلت : قد أنزل الله في شيء ؟ قال : كنت سألتني هذا السيف وليس هو لي وإني قد وهب لي فهو لك " ، وأنزل الله هذه الآية ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت في أربع آيات . بر  
الوالدين ، والنفل ، والثلث ، وتحريم الخمر .

(133/305)

---

وأخرج الطيالسي والبخاري في الأدب المفرد ومسلم والنحاس في ناسخه وابن مردويه  
والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص قال: " نزلت في أربع آيات من كتاب الله ،  
كانت أُمي حلفت أن لا تأكل ولا تشرب حتى أفارق محمداً صلى الله عليه وسلم : فأنزل  
الله ﴿ وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في  
الدنيا معروفاً ﴾ [ لقمان : 15 ] ، والثانية أني كنت أخذت سيفاً أعجبني فقلت : يا  
رسول الله هب لي هذا ، فنزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ ، والثالثة إني مرضت فأتاني  
رسول الله فقلت : يا رسول الله إني أريد أن أقسم مالي أفأوصي بالنصف ؟ قال : لا .  
فقلت : الثلث . . . ؟ فسكت فكان الثلث بعده جائزاً ، والرابعة إني شربت الخمر مع  
قوم من الأنصار فضرب رجل منهم أنفي بلحبي جمل ، فأتيت النبي ، فأنزل الله تحريم الخمر "  
.

وأخرج عبد بن حميد والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعد قال : " أصاب رسول

الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة فإذا فيها سيف ، فأخذته فأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : نقلني هذا السيف فأنا من علمت . فقال " رده من حيث أخذته فرجعت به حتى إذا أردت أن ألقيه في القبض لأمتي نفسي ، فرجعت إليه فقلت : اعطنيهِ . فشدَّ لي صوته وقال : رده من حيث أخذته . فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ . " .

وأخرج ابن مردويه عن سعد قال : نقلني النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر سيفاً ، ونزل في النفل .

وأخرج الطيالسي وأبو نعيم في المعرفة من طريق مصعب بن سعد عن سعد قال : أصبت سيفاً يوم بدر ، فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله نقلنيهِ ، فقال " ضعه من حيث أخذته ، فنزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ وهي قراءة عبد الله هكذا الأنفال " .

(134/305)

---

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي في سننه عن أبي أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال ؟ فقال : فينا أصحاب بدر

نزلت حين اختلفنا في النفل فساءت فيه أخلاقنا ، فاتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن براءة ، يقول : عن سواء .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدرًا ، فالتقى الناس فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم منهزمون يقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نقينها عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به ، فنزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غار في أرض العدو ونفل الربع ، وإذا أقبل راجعاً وكل الناس نفل الثلث ، وكان يكره الأنفال ويقول : ليرد قومي المسلمين على ضعيفهم " .

وأخرج إسحق بن راهويه في مسنده وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فنصرها الله وفتح عليها ، فكان من أتاه بشيء نفعه من الخمس ، فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلون ويأسرون ويقتلون وتركوا الغنائم خلفهم فلم ينالوا من الغنائم شيئاً . فقالوا : يا رسول الله ما بال رجال منا يستقدمون ويأسرون ، وتخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم من الغنيمة ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ الآية . فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ردوا ما أخذتم واقتسموه بالعدل والسوية فإن الله يأمركم بذلك . قالوا : قد احتسبنا وأكلنا ؟ قال : احتسبوا ذلك . "

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده " أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم بدر فنزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ " .  
وأخرج ابن مردويه عن أبيه عن جده قال : لم ينفل النبي صلى الله عليه وسلم بعد إذ أنزلت عليه ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ إلا من الخمس ، فإنه نفل يوم خيبر من الخمس .  
وأخرج ابن مردويه عن حبيب بن مسلمة الفهري قال : كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم ينفل الثلث بعد الخمس .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه وسلم " من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا . فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداً ولو كان منكم شيء للجاتم إلينا ، فاختصموا إلى النبي ، فنزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ فقسم الغنائم بينهم بالسوية " .

(136/305)

---

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وعبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس قال : " لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قتل قتيلاً فله كذا ، ومن جاء بأسير فله كذا . فجاء أبو اليسر بن عمرو الأنصاري بأسيرين ، فقال : يا رسول الله إنك قد وعدتنا . فقام سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إنك إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ولا جبن عن العدو ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة



عليك أن يأتوك من ورائك ، فتشاجروا فنزل القرآن ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ وكان أصحاب عبد الله يقرؤونها ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فيما تشاجرتم به ﴾ فسلموا الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل القرآن ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ﴾ [ الأنفال : 41 ] إلى آخر الآية " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية ، فمكث ضعفاء الناس في العسكر ، فأصاب أهل السرية غنائم ، فقسمها رسول الله بينهم كلهم ، فقال أهل السرية : يقاسمنا هؤلاء الضعفاء وكانوا في العسكر لم يشخصوا معنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وهل تنصرون إلا بضعفائكم ؟ " فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم لما انصرف من بدر وقدم المدينة ، أنزل الله عليه سورة الأنفال ، فعاتبه في إحلال غنيمة بدر ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمها بين أصحابه لما كان بهم من الحاجة إليها واختلافهم في النفل ، يقول الله ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ فردها الله على رسوله فقسمها بينهم على السواء ، فكان في ذلك تقوى الله وطاعته ، وطاعة رسوله وصلاح ذات البين " .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد " إنهم سألوا النبي عن الخمس بعد الأربعة الأخماس ؟ فنزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ قال : كان هذا يوم بدر .  
وأخرج النحاس في ناسخه عن سعيد بن جبير . " ان سعداً ورجلاً من الأنصار خرجاً يتنفلان ، فوجدا سيفاً ملقى فخراً عليه جميعاً ، فقال سعد : هو لي . وقال الأنصاري : هو لي . قال : لا أسلمه حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتياه فقصا عليه القصة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس لك يا سعد ولا للأنصاري ولكنه لي ، فنزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ﴾ يقول : سلما السيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نسخت هذه الآية فقال ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [ الأنفال : 41 ] " .

وأخرج مالك وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والنحاس في ناسخه عن ابن عمر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية قبل نجد ، فغنموا إبلاً كثيراً فصارت سهمانهم

اثني عشر بعيراً ونقلوا بعيراً بعيراً " .

وأخرج ابن عساكر من طريق مكحول عن الحجاج بن سهيل النصرى وقيل إن له صحبة قال : لما كان يوم بدر قاتلت طائفة من المسلمين وثبتت طائفة عند رسول الله ، فجاءت الطائفة التي قاتلت بالاسلاب وأشياء أصابوها ، فقسمت الغنيمة بينهم ولم يقسم للطائفة التي لم تقاتل . فقالت الطائفة التي لم تقاتل : اقسموا لنا . فأبت وكان بينهم في ذلك كلام ، فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ فكان صلاح ذات بينهم إن ردوا الذي كانوا أعطوا ما كانوا أخذوا .

(138/305)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ قال " الأنفال : المغنم ، كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة ليس لأحد منها شيء ، ما أصاب سرايا المسلمين من شيء أتوه به ، فمن حبس منه إبرة أو سلكاً فهو غلول .

فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم منها شيئاً . فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال ﴾ لي جعلتها لرسولي ليس لكم منه شيء ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات

بينكم ﴿ إلى قوله ﴾ إن كنتم مؤمنين ﴿ ثم أنزل الله ﴾ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴿  
[الأنفال: 41] الآية. ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله، ولذي القربى، واليتامى،  
والمساكين، والمهاجرين في سبيل الله، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء. للفرس  
سهمان، ولصاحبه سهم، وللراجل سهم".

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ قال: هي  
الغنائم، ثم نسخها ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ [الأنفال: 41] الآية.  
وأخرج مالك وابن أبي شيبة وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير والنحاس وابن المنذر  
وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن  
عباس عن الأنفال؟ فقال: الفرس من النفل، والسلب من النفل، فأعاد المسئلة فقال ابن  
عباس: ذلك أيضاً، ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي؟ فلم يزل يسأله  
حتى كاد يخرجه، فقال ابن عباس: هذا مثل صبيغ الذي ضربه عمر. وفي لفظ: فقال:  
ما أحوجك إلى من يضربك كما فعل عمر بصبيغ العراقي، وكان عمر ضربه حتى سالت  
الدماء على عقبه.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال: الأنفال: المغنم، أمروا أن يصلحوا  
ذات بينهم فيها، فيرد القوي على الضعيف.

---

وأخرج عبد بن حميد والنحاس وابن المنذر وابن جرير وأبو الشيخ عن عطاء في قوله ﴿ يسئلونك عن الأنفال ﴾ هو ما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال ، من عبد أو دابة أو متاع فذلك للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع به ما شاء .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن محمد بن عمرو قال : أرسلنا إلى سعيد بن المسيب نسأله عن الأنفال ؟ فقال : تسألوني عن الأنفال وإنه لا نقل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن ابن المسيب " أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ينفل إلا من الخمس " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن المسيب قال : ما كانوا ينفلون إلا الخمس .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن المسيب قال : لا نقل في غنائم المسلمين إلا في خمس الخمس .  
وأخرج عبد الرزاق عن أنس . أن أميراً من الأمراء أراد أن ينفله قبل أن يخمسه ، فأبى أنس أن يقبله حتى يخمسه .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : هي في قراءة ابن مسعود " يسئلونك عن الأنفال " .

وأخرج ابن مردويه من طريق شقيق عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ يسئلونك عن الأنفال ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ قال: الفيء ، ما أصيب من أموال المشركين مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فهو للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .  
وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ قال: ما أصابت السرايا .

وأخرج ابن أبي شيبة والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ عن مجاهد وعكرمة قالا: كانت الأنفال لله والرسول حتى نسخها آية الخمس ﴿ واعلموا أننا غنمتم من شيء ﴾ [ الأنفال : 41 ] الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الأعمش قال: كان أصحاب عبد الله يقرؤونها " يسألونك الأنفال " .

(140/305)

---

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ قال: هذا تحريم من الله على المؤمنين أن يتقوا الله ، وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا في الأنفال .  
وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ قال: لا

تستبوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مكحول قال : كان صلاح ذات بينهم إن ردت الغنائم ، فقسمت بين من ثبت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين من قاتل وغنم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ قال : طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة .

وأخرج أبو يعلى وأبو الشيخ والحاكم وصححه وتعبه الذهبي عن أنس قال " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رجلان جثيا من أمتي بين يدي رب العزة فقال أحدهما : يا رب خذ لي مظمتي من أخي . قال الله : أعط أخاك مظلمته . قال : يا رب لم يبق من حسناتي شيء . قال : يا رب يحمل عني من أوزاري . وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ، ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يتحمل عنهم من أوزارهم . فقال الله للطالب : ارفع بصرك فانظر في الجنان ، فرفع رأسه فقال : يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأبي نبي هذا لأبي صديق هذا لأبي شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن ، قال : يا رب من يملك ثمنه ؟ قال : أنت . قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال : يا رب قد عفوت عنه . قال : خذ بيد أخيك

فأدخله الجنة ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ،  
فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة " .

(141/305)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن أم هانئ ؓ أخت علي بن أبي طالب قالت : قال النبي صلى الله  
عليه وسلم " أخبرك أن الله تبارك وتعالى وتقدس يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في  
صعيد واحد ، فمن يدري أي الطرفين ؟ فقالت : الله ورسوله أعلم . . . ! ثم ينادي مناد  
من تحت العرش يا أهل التوحيد . فيشرئبون ، ثم ينادي : يا أهل التوحيد . ثم ينادي الثالثة  
إن الله قد عفا عنكم ، فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلمات الدنيا ، ثم ينادي :  
يا أهل التوحيد يعفو بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم القيامة  
نادى مناد : يا أهل التوحيد إن الله قد عفا عنكم ، فليعف بعضكم عن بعض وعلي  
الثواب " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(142/305)



"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية.

فاعل: يسأل يعود على معلوم، وهم من حضر بدراً، وسأل تارة تكون لاقتضاء معنى في

نفس المسؤل فتعدى بـ "عَنْ" كهذه الآية؛ وكقول الشاعر: [الطويل]

2668 - سَلِي - إِنْ جَهَلْتِ - النَّاسَ عَنَّا وَعُنْهُمْ . . .

فليس سواءً عالمٌ وجهولٌ

وقد تكون لاقتضاء مال ونحوه؛ فتعدى لاثنين، نحو: سألتُ زيدا مالاً، وقد ادَّعى

بعضهم: أَنْ السَّالُ هُنَا بِهَذَا الْمَعْنَى .

وزعم أن "عَنْ" زائدة، والتقدير: يسألونك الأنفال، وأيد قوله بقراءة سعد بن أبي وقاص

، وابن مسعود، وعلي بن الحسين، وزيد ولده، ومحمد الباقر ولده أيضاً، وولده جعفر

الصَّادِقُ، وعكرمة وعطاء "يسألونك الأنفال" دون "عَنْ" .

والصحيح أن هذه القراءة على إرادة حرف الجرِّ، وقال بعضهم: "عَنْ" بمعنى "مِنْ" .

وهذا الاضرورة تدعو إليه .

وقرأ ابن محيصن "عَلَّنْفَالِ" والأصل، أنه نقل حركة الهمزة إلى لام التعريف، ثم اعتدَّ

بالحركة العارضة ، فأدغم التَّوْنَ فِي اللَّامِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ [العنكبوت : 28]

وقد تقدم ذلك في قوله ﴿ عَنِ الْأَهْلَةِ ﴾ [البقرة : 189] .

والأنفالُ : جمع : نفل ، وهي الزيادةُ على الشيءِ الواجب ، وسُمِّيت الغنيمة نفلًا ، لزيادتها على الحوزة .

قال لبيدٌ : [ الرمل ]

2669 - إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفْلٌ . . .

وَيَاذَنْ لِلَّهِ رِيشِي وَعَجَلُ

وقال آخر : [ الكامل ]

2670 - إنا إذا أحمرَّ الوغى نروي القنأ . . .

وَنِعْفٌ عِنْدَ تَقَاسُمِ الْأَنْفَالِ

وقيل : سُمِّيت الأنفال ؛ لأنَّ المسلمين فضَّلوا بها على سائر الأمم .

(143/305)

---

وقال الزمخشريُّ : والنَّفْلُ ما يَنْفَلُهُ الغازي ، أي : يعطاه ، زيادةً على سهمه من المغنم ، وقال الأزهرِيُّ " النَّفْلُ ، والنَّافِلَةُ ما كان زيادةً على الأصل ، وسُمِّيت الغنائم أنفالاً ؛ لأنَّ المسلمين

فَضَّلُوا بِهَا عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ ، وَصَلَاةُ التَّطَوُّعِ نَافِلَةٌ ؛ لِأَنَّهَا زِيَادَةٌ عَلَى الْفَرْضِ " وَقَالَ تَعَالَى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء : 72] أَي : زِيَادَةٌ عَلَى مَا سَأَلَ .

قال القرطبي : النَّفْلُ - بِتَحْرِيكِ الْفَاءِ - وَالنَّفْلُ : الْيَمِينُ ، وَمِنْهُ النَّفْلُ فِي الْحَدِيثِ " فَتَبَرَّئْكُمْ

يَهُودَ بِنَفْلِ خَمْسِينَ مِنْهُمْ " وَالنَّفْلُ : الْإِتْقَاءُ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فَاتَّقِلْ مَنْ وَلَدَهُ .

وَالنَّفْلُ : نَبْتٌ مَعْرُوفٌ .

قوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾

وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَاتِ فِي آلِ عِمْرَانَ ، وَهِيَ هُنَا صِفَةٌ لِمَفْعُولٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ : وَأَصْلِحُوا

أَحْوَالَ ذَاتِ افْتِرَاقِكُمْ وَذَاتِ وَصْلِكُمْ أَوْ ذَاتِ الْمَكَانِ الْمُتَّصِلِ بِكُمْ ، فَإِنَّ " بَيْنَ " قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ

يُرَادُ بِهِ هُنَا : الْفِرَاقُ أَوْ الْوَصْلُ ، أَوْ الظَّرْفُ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ : إِنَّ ذَاتَ هُنَا بِمَنْزِلَةِ

حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَنَفْسِهِ ، وَقَدْ أَوْضَحَ ذَلِكَ ابْنُ عَطِيَّةٍ .

وقال أبو حيان : " وَالْبَيْنُ الْفِرَاقُ ، وَذَاتُ نَعْتٍ لِمَفْعُولٍ مَحْذُوفٍ ، أَي : وَأَصْلِحُوا أَحْوَالَ ذَاتِ

افْتِرَاقِكُمْ ، لَمَّا كَانَتْ الْأَحْوَالُ مَلَابِسَةً لِلْبَيْنِ أُضِيفَتْ صِفَتُهَا إِلَيْهِ ، كَمَا نَقُولُ : اسْقِنِي ذَا

إِنَائِكَ ، أَي : مَاءً صَاحِبَ إِنَائِكَ ، لَمَّا لَابَسَ الْمَاءُ الْإِنَاءَ وَصَفَّ بِ " ذَا " وَأُضِيفَ إِلَى الْإِنَاءِ ،

وَالْمَعْنَى : اسْقِنِي مَا فِي الْإِنَاءِ مِنَ الْمَاءِ " .

قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال ابن عطية : جواب الشرط المتقدم في قوله وأطيعوا هذا مذهب سيبويه ، ومذهب

المبردك أن الجواب محذوف متأخر ، ومذهبه في هذا الأيتقدم الجواب على الشرط وهذا الذي ذكره نقل الناسُ خلفه ، نقلوا جواز تقديم جواب الشرط عليه عن الكوفيين ، وأبي زيد ، وأبي العباس ، والله أعلم .

ويجوز أن يكون للمبرد قولان ، وكذا لسيبويه ؛ لأن قوله : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يقتضي أن تكون الغنائم كلها للرسول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 447.443 ﴾ . باختصار .

(144/305)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروز آبادي :

(بصيرة في نقل)

النَّفْلُ : الْغَنِيمَةُ لِأَنَّهَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَطَائِهِ ، قَالَ لَبِيدٌ :

\*إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرٌ نَفْلٍ\*

وَالنَّفْلُ : مَا يُنْفَلُهُ الْغَازِي ، أَيْ يُعْطَاهُ زَائِدًا عَلَى سَهْمِهِ مِنَ الْمَغْنَمِ وَقِيلَ : اِخْتَلَفَتِ الْعِبَارَةُ عَنِ النَّفْلِ لِاخْتِلَافِ الْأَعْتَابِ ، فَإِنَّهُ إِذَا أُعْتَبِرَ بِكُونِهِ مَظْفُورًا بِهِ يُقَالُ لَهُ غَنِيمَةٌ ، وَإِذَا أُعْتَبِرَ بِكُونِهِ

مِنَحَةً مِنَ اللَّهِ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ وَجُوبٍ يُقَالُ لَهُ نَفْلٌ .

وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا مِنْ حَيْثُ الْعُمُومُ وَالْخُصُوصُ ، فَقَالَ : الْغَنِيمَةُ مَا حَصَلَ مُسْتَغْنَمًا  
بَتَعَبٍ كَانَ أَوْ غَيْرِ تَعَبٍ ، وَبِاسْتِحْقَاقٍ كَانَ أَوْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ ، وَقَبْلَ الظَّفَرِ كَانَ أَوْ بَعْدَهُ ؛  
وَالنَّفْلُ : مَا يَحْصُلُ لِلإِنْسَانِ قَبْلَ الْقِسْمَةِ مِنْ جُمْلَةِ الْغَنِيمَةِ ، وَقِيلَ : هُوَ مَا يَحْصُلُ لِلْمُسْلِمِينَ  
بِغَيْرِ قِتَالٍ ، وَهُوَ الْفَيْءُ .

وقيل : هو ما يفضل من المتاع ونحوه بعد قسم الغنيمة ، وعلى ذلك حمل بعضهم قوله تعالى  
: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ أَي عَنْ حَكْمِ الْأَنْفَالِ .

وقيل / عَنْ بِمَعْنَى مَنْ ، أَي مِنَ الْأَنْفَالِ ، وَقِيلَ : عَنْ صَلَاةٍ ، أَي يَسْأَلُونَكَ الْأَنْفَالَ وَبِهِ قَرَأَ ابْنُ  
مَسْعُودٍ ، وَعَلَى هَذَا [يَكُونُ] سَوْأَلُ طَلَبٍ ، وَعَلَى الْأَوَّلِ سَوْأَلُ اسْتِخْبَارٍ ، وَهُوَ قَوْلُ  
الضَّحَّاكِ وَعِكْرَمَةَ .

قيل : سُمِّيَتْ الْغَنَائِمُ أَنْفَالًا لِأَنَّهَا زِيَادَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْخُصُوصِ .  
وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ فِي غَنَائِمٍ "بَدْرٌ" .

وقال عطاءٌ: هي ما شذَّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من: عبْد أو أمة أو متاع فهو للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم يصنعُ به ما شاء، وأصل ذلك من النفل وهو الزيادةُ على الواجب، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ ، وعلى هذا قوله أيضاً: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ ، وهو وكْدُ الوكْد [وفى الحديث]: "قال الله تعالى لا يزالُ العبدُ يَتَقَرَّبُ إلى النَّوَافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ ، فإذا أُحِبَّته كنت سَمَعَهُ وبَصَرَهُ" الحديث .  
وجمعُ الأنفالِ نفلٌ بضمِّ النون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 108 .

﴿ 109

(146/305)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

بسم الله إخبار عن قدرته على الإبداع والاختراع ، الرحمن الرحيم إخبار عن تصرفه بالإقناع وحسن الدفاع ، فبقدرته أوجد ما أوجد من مراده ، وبنصرته وحد من وحد .

قوله جلّ ذكره: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .

الأفقال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين ، وكان سؤا لهم عن حكمها ، فقال الله تعالى : قُلْ لَهُمْ إِذَا لَدِيَ اللَّهِ مَلَكًا ، وَلِرَسُولِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْحُكْمُ فِيهَا بِمَا يَقْضَى بِهِ أَمْرًا وَشَرَعًا .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ .

أي أجيبوا الأمر الله ، ولا تطيعوا دواعي مناكم والحكم بمقتضى أحوالكم ، وابتغوا إثارة رضاء الحق على مراد النفس ، وأصلحوا ذات بينكم ، وذلك بالانسلاخ عن شح النفس ، وإيثار حق الغير على مالكم من النصيب والحظ ، وتنقية القلوب عن خفايا الحسد والحقد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

أي في الإجابة إلى ما يأتيكم من الإرشاد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

أي سبيل المؤمن ألا يخالف هذه الجملة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص

﴿ 602.601 ﴾

(147/305)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (2)

"فصل"

قال البقاعي :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي الراسخون في وصف الإيمان ﴿ الَّذِينَ ﴾ أي يقيمون الدليل على دعوى الإيمان بتصديق أفعالهم لأقوالهم فيكونون ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ أي الجامع لصفات الكمال من الجلال والجمال مجرد ذكر في نحو قوله ﴿ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ ﴾ ﴿ وَجِلَتْ ﴾ أي خافت خوفاً عظيماً يتخلل صميم عظامهم ويجول في سائر معانيهم وأجسامهم ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي بمجرد ذكره استعظماً له ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ ﴾ أي قرئت على سبيل الموالاة والاتصال من أي تال كان ﴿ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ ﴾ أي كما يأتي في إقامة الأدلة على ذلك الحكم الذي ورد ذكره فيه ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أي بإيمانهم بها وبما حصل لهم من نور القلب وطمأنينة اليقين بسببها ، فإنها هي الدالة على الله بما تبين من عظيم أفعاله ونعوت جلاله وجماله ، وتظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه ، وكمال قدرة الله تعالى إنما يعرف بواسطة آثار حكمته في مخلوقاته ، وذلك مجرد لا ساحل له ، ولما كانت المراتب لا نهاية لها ، كانت مراتب التجلي والمعرفة لا نهاية لها ، فالزيادة في أشخاص التصديق ﴿ وَعَلَى ﴾ أي والحال أنهم على ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ أي الدائم الإحسان إليهم وحده ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي يجددون إسناد أمورهم إليه مهما وسوس



لهم الشيطان بالفقر أو غيره ليكفيهم من حيث لا يحتسبون ، فإن خزائنه واسعة ، ويده  
سحاء الليل والنهار ، كما أنهم لما توكلوا عليه في القتال نصرهم وقد كانوا في غاية الخوف من  
الخذلان ، وكان حالهم جديراً بذلك لقلقتهم وخوفهم وقتلهم وضعفهم . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ نظم الدرر ح 3 ص 184 ﴾

(148/305)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ واقتضى ذلك كون

الإيمان مستلزماً للطاعة ، شرح ذلك في هذه الآية مزيد شرح وتفصيل ، وبين أن الإيمان لا

يحصل إلا عند حصول هذه الطاعات فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول أمور خمسة : الأول : قوله

: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال الواحدي يقال : وجل يوجل وجلاً ، فهو وجل

، وأوجل إذا خاف .

قال الشاعر :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل . . على أننا تعدو المنية أول

والمراد أن المؤمن إنما يكون مؤمناً إذا كان خائفاً من الله ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ تَقشَعِرُّ مِنْهُ

جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [ الزمر : 23 ] وقوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ

مُشْفِقُونَ ﴾ [ المؤمنون : 57 ] وقوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [ المؤمنون :

2 ] وقال أصحاب الحقائق : الخوف على قسمين : خوف العقاب ، وخوف العظمة

والجلال .

أما خوف العقاب فهو للعصاة .

وأما خوف الجلال والعظمة فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين ، سواء كان ملكاً مقرباً

أو نبياً مرسلأ ، وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات وما سواه من الموجودات

فمحتاجون إليه ، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغني يهابه ويخافه ، وليست تلك الهيبة من

العقاب ، بل مجرد علمه بكونه غنياً عنه ، وكونه محتاجاً إليه يوجب تلك المهابة ، وذلك

الخوف .

إذا عرفت هذا فنقول : إن كان المراد من الوجل القسم الأول ، فذلك لا يحصل من مجرد

ذكر الله ، وإنما يحصل من ذكر عقاب الله .

وهذا هو اللائق بهذا الموضوع ، لأن المقصود من هذه الآية إلزام أصحاب بدر طاعة الله وطاعة الرسول في قسمة الأنفال ، وأما إن كان المراد من الوجل القسم الثاني ، فذلك لازم من مجرد ذكر الله ، ولا حاجة في الآية إلى الإضمار .

فإن قيل : إنه تعالى قال ههنا ﴿ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ وقال في آية أخرى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد : 28] فكيف الجمع بينهما ؟ وأيضا قال في آية أخرى : ﴿ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : 23] قلنا : الاطمئنان إنما يكون عن ثلج اليقين ، وشرح الصدر بمعرفة التوحيد ، والوجل إنما يكون من خوف العقوبة ، ولا منافاة بين هاتين الحالتين ، بل نقول : هذان الوصفان اجتماعا في آية واحدة ، وهي قوله تعالى : ﴿ تَقْشَعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : 23] والمعنى : تقشعر الجلود من خوف عذاب الله ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ وهو قكلاه : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ . [التوبة : 124]

ثم فيه مسائل :

المسألة الأولى :

زيادة الإيمان الذي هو التصديق على وجهين :

الوجه الأول : وهو الذي عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدي رحمه الله : أن كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان أزيد إيماناً ، لأن عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : " لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح " يريد أن معرفته بالله أقوى .

ولقائل أن يقول : المراد من هذه الزيادة : إما قوة الدليل أو كثرة الدلائل .

(150/305)

---

أما قوة الدليل فباطل ، وذلك لأن كل دليل فهو مركب لا محالة من مقدمات ، وتلك المقدمات إما أن يكون مجزوماً بها جزماً مانعاً من النقيض أو لا يكون فإن كان الجزم المانع من النقيض حاصلًا في كل المقدمات ، امتنع كون بعض الدلائل أقوى من بعض على هذا التفسير ، لأن الجزم المانع من النقيض لا يقبل التفاوت ، وأما إن كان الجزم المانع من النقيض غير حاصل إما في الكل أو في البعض فذلك لا يكون دليلاً ، بل أمارة ، والنتيجة الحاصلة منها لا تكون علماً بل ظناً ، فثبت بما ذكرنا أن حصول التفاوت في الدلائل بسبب القوة محال ، وأما حصول التفاوت بسبب كثرة الدلائل فالأمر كذلك ، لأن الجزم الحاصل بسبب الدليل

الواحد ، إن كان مانعاً من النقيض فيمتنع أن يصير أقوى عند اجتماع الدلائل الكثيرة ، وإن كان غير مانع من النقيض لم يكن دليلاً ، بل كان أمانة ولم تكن النتيجة معلومة بل مظنونة ، فثبت أن هذا التأويل ضعيف .

واعلم أنه يمكن أن يقال : المراد من هذه الزيادة الدوام وعدم الدوام ، وذلك لأن بعض المستدلين لا يكون مستحضراً للدليل والمدلول إلا لحظة واحدة ، ومنهم من يكون مداوماً لتلك الحالة وبين هذين الطرفين أوساط مختلفة ، ومراتب متفاوتة ، وهو المراد من الزيادة . والوجه الثاني : من زيادة التصديق أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ، ولما كانت التكاليف متوالية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم متعاقبة ، فعند حدوث كل تكليف كانوا يزيدون تصديقاً وإقراراً ، ومن المعلوم أن من صدق إنساناً في شئين كان تصديقه له أكثر من تصديق من صدقه في شيء واحد .

(151/305)

---

وقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ معناه : أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد فكان ذلك زيادة في الإيمان والتصديق ، وفي الآية وجه ثالث : وهو أن كمال قدرة الله وحكمته ، إنما تعرف بواسطة آثار حكمة الله في مخلوقاته ، وهذا مجرد لا ساحل له ،

وكلما وقف عقل الإنسان على آثار حكمة الله في تخليق شيء آخر ، انتقل منه إلى طلب حكمة في تخليق شيء آخر ، فقد انتقل من مرتبة إلى مرتبة أخرى أعلى منها وأشرف وأكمل ، ولما كانت هذه المراتب لا نهاية لها ، لا جرم لا نهاية لمراتب التجلي والكشف والمعرفة .

المسألة الثانية :

اختلفوا في أن الإيمان هل يقبل الزيادة والنقصان أم لا ؟ أما الذين قالوا : الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل ، فقد احتجوا بهذه الآية من وجهين : الأول : أن قوله : ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ يدل على أن الإيمان يقبل الزيادة ، ولو كان الإيمان عبارة عن المعرفة والإقرار لما قبل الزيادة .

والثاني : أنه تعالى لما ذكر هذه الأمور الخمسة .

قال : في الموصوفين بها ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وذلك يدل على أن كل تلك الخصال داخل في مسمى الإيمان .

وروي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان " واحتجوا بهذه الآية على أن الإيمان عبارة عن مجموع الأركان الثلاثة .

قالوا : لأن الآية صريحة في أن الإيمان يقبل الزيادة ، والمعرفة والإقرار لا يقبلان التفاوت ،

فوجب أن يكون الإيمان عبارة عن مجموع الإقرار والاعتقاد والعمل ، حتى أن بسبب دخول التفاوت في العمل يظهر التفاوت في الإيمان ، وهذا الاستدلال ضعيف ، لما بينا أن التفاوت بالدوام وعدم الدوام حاصل في الاعتقاد والإقرار ، وهذا القدر يكفي في حصول التفاوت في الإيمان ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

(152/305)

---

قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ ظاهره مشعر بأن تلك الآيات هي المؤثرة في حصول الزيادة في الإيمان ، وليس الأمر كذلك ، لأن نفس تلك الآيات لا توجب الزيادة ، بل إن كان ولا بد فالموجب هو سماع تلك الآيات أو معرفة تلك الآيات توجب زيادة في المعرفة والتصديق والله أعلم .

الصفة الثالثة : للمؤمنين قوله تعالى : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ واعلم أن صفة المؤمنين أن يكونوا واثقين بالصدق في وعده وووعيده ، وأن يقولوا صدق الله ورسوله ، وأن لا يكون قولهم كقول المنافقين ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب : 12] ثم نقول : هذا الكلام يفيد الحصر ، ومعناه : أنهم لا يتوكلون إلا على ربهم ، وهذه الحالة مرتبة عالية

ودرجة شريفة، وهي: أن الإنسان بحيث يصير لا يفتي له اعتماد في أمر من الأمور إلا على الله.

واعلم أن هذه الصفات الثلاثة مرتبة على أحسن جهات الترتيب، فإن المرتبة الأولى هي: الوجل من عقاب الله.

والمرتبة الثانية: هي الانقياد لمقامات التكليف لله.

والمرتبة الثالثة: هي الانقطاع بالكلية عما سوى الله، والاعتماد بالكلية على فضل الله، بل الغنى بالكلية عما سوى الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص

﴿ 97.95

(153/305)

---

وقال السمرقندي:

ثم نعت المؤمنين المصدقين، فقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾؛

ويقال: إنما المصدقون الذين إذا أمروا بأمر في الغنيمة وغيرها من قبل الله عز وجل،

خافت قلوبهم؛ ويقال: إنما المصدقون الذين إذا ذكر الله، أي ذكر عندهم أمر الله؛ ويقال



: إذا أمروا بأمر من الله تعالى ، وجلت قلوبهم ، يعني قبلت قلوبهم .  
فسمى قبول القلوب وجلاً ، لأن بالوجل يثبت القبول ، لأنهم وجلوا عقوبة الله تعالى فقبلوه .  
ثم قال ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ﴾ ، يعني قرئت عليهم آياته بالأمر والنهي في أمر الصلح أو  
غيره .

﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ، أي تصديقاً و يقيناً .

وقال الضحاك : يعني زادتهم يقيناً بحكم الناسخ ، مع تصديقهم بحكم المنسوخ .  
وقال الزجاج : تأويل الإيمان التصديق ، فكل ما يتلى عليهم من عند الله صدقوا به فزادهم  
تصديقاً فذلك زيادة إيمانهم .

وروي عن ابن عباس أنه قال : زادتهم تصديقاً بالفرائض مع تصديقهم بالله .  
﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، يعني يفوضون أمرهم إلى الله تعالى ، ويتقون به ولا يثقون بما في  
أيديهم من الغنائم ، ويعلمون أن الله هو رازقهم . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص



وقال الثعلبي :

قوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية

يقول الله تعالى ليس المؤمنون من الذي يخالف الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فرقت به قلوبهم وهكذا هو في مصحف عبد الله .

وقال السدي : هو الرجل يريد أن يهتم بمعصية فينزع عنه ﴿ وَإِذَا تَلَّيْتُ ﴾ قرئت ﴿ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ وقال ابن عباس : تصديقاً ، وقال الضحاك : يقيناً . وقال الربيع بن أنس : خشية . وقال عمير بن حبيب وكانت له صحبة : إن للإيمان زيادة ونقصان ، قيل : فما زيادته ؟

قال : إذا ذكرنا الله وجدناه فذلك زيادته وإذا سهونا وقصرنا وغفلنا فذلك نقصان . وقال عدي بن عدي : كُتِبَ إلى عمر بن عبد العزيز أن للإيمان سنناً وفرائض وشرائع فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، [ قال عمر بن عبد العزيز : فإن أعش فسأبينها لكم ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص ] .

﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي يفوضون إليه أمورهم ويتقون به فلا يرجون غيره ولا يخافون سواه والتوكل الفعل من الوكول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 ص ﴾

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

فيه قولان

أحدهما : خافت .

الثاني : رقتُ .

﴿ وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ ﴾ يعني آيات القرآن بما تضمنته من أمر ونهي . ﴿ زَادَتْهُمْ

إِيمَانًا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تصديقا .

الثاني : خشية .

﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فيما يخافونه من الشدة في الدنيا .

الثاني : فيما يرجونه من ثواب أعمالهم في الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ

2 ص ﴿ . بتصرف يسير .

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

﴿ إنما ﴾ لفظ لا تفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع ، ويصلح مع ذلك للحصر ، فإذا دخل في قصة وساعد معناها على الانحصار صح ذلك وترتب كقوله ﴿ إنما إلهكم إله واحد ﴾ [ الأنبياء : 108 ، فصلت : 6 ] وغير ذلك من الأمثلة ، وإذا كانت القصة لا تتأتى للانحصار بقيت " إنما " للمبالغة والتأكيد فقط ، كقوله عليه السلام " إنما الربا في النسيئة " ، وكقوله " إنما الشجاع عنتره " وأما من قال " إنما " ، هي لبيان الموصوف فهي عبارة فاترة إذ بيان الموصوف يكون في مجرد الإخبار دون " إنما " ، وقوله ها هنا ﴿ إنما المؤمنون ﴾ ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط أي الكاملون ، ﴿ وجلت ﴾ معناه فزعت ورقت وخافت وبهذه المعاني فسرت العلماء ، وقرأ ابن مسعود " فرقت " ، وقرأ أبي بن كعب " فزعت " ، يقال وجل يؤجل ويأجل وييجل وهي شاذة وييجل بكسر الياء الأولى ووجه هذه أنهم لما أبدلوا الواو ياء لم يكن لذلك وجه قياس ، فكسروا الياء الأولى ليجيء بدل الواو ياء لعله ، حكى هذه اللغات الأربع سيبويه رحمه الله ، و ﴿ تليت ﴾ معناه سردت وقرئت ، والآيات هنا القرآن المتلو ، وزيادة الإيمان على وجوه كلها خارج عن نفس التصديق ، منها أن المؤمن إذا كان لم يسمع حكماً من أحكام الله في القرآن فنزل على

النبي صلى الله عليه وسلم فسمعته فآمن به ، زاد إيماناً إلى سائر ما قد آمن به ، إذ لكل حكم تصديق خاص ، وهذا يترتب فيمن بلغه ما لم يكن عنده من الشرع إلى يوم القيامة ، وتترتب زيادة الإيمان بزيادة الدلائل ، ولهذا قال مالك الإيمان يزيد ولا ينقص وتترتب بزيادة الأعمال البرة على قول من يرى لفظة الإيمان واقعة على التصديق والطاعات .

(157/305)

---

وهؤلاء يقولون يزيد وينقص ، وقوله ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت وعمل بحسبها في أن يمثل الإنسان ما أمر به ويبلغ في ذلك أقصى جهده دون عجز ، وينتظر بعد ما تكفل له به من نصر أو رزق أو غيره ، وهذه أوصاف جميلة وصف الله بها فضلاء المؤمنين فجعلها غاية للأمة يستبق إليها الأفاضل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(158/305)

---

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾

قال الزجاج : إِذَا ذُكِرَتْ عَظْمَتُهُ وَقَدْرَتُهُ وَمَا خَوَّفَ بِهِ مِنْ عَصَاهُ ، فَزَعَتِ قُلُوبَهُمْ ، قَالَ

الشاعر :

لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لِأَوْجَلُ . . .

عَلَى أَنَا تَعْدُ وَالْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

يقال : وَجَلَّ يُوَجِّلُ وَيَاجَلُ وَيُجَلُّ وَيُجَلُّ وَيُجَلُّ ، هَذِهِ أَرْبَعُ لُغَاتٍ حَكَاهَا سَيِّبُوه .

وَأَجُودُهَا : يُوجَلُّ .

وقال السدي : هو الرجل يهمل بالمعصية فيذكر الله فينزع عنها .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أي : آيات القرآن .

وفي قوله : ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : تصديقا ، قاله ابن عباس .

والمعنى : أنهم كلما جاءهم شيء عن الله آمنوا به فزيدوا إيمانا بزيادة الآيات .

والثاني : يقينا ، قاله الضحاك .

والثالث : خشية الله ، قاله الربيع بن أنس .

وقد ذكرنا معنى التوكل في [آل عمران : 122] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3

ص ﴿

(159/305)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قال العلماء : هذه الآية تحريض على إزام طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من قسمة تلك الغنيمة .

والوجل : الخوف .

وفي مستقبله أربع لغات : وَجَلَّ يُوْجِلُّ وَيُجَلِّ وَيُجَلِّ وَيُجَلِّ ، حكاة سيبويه .

والمصدر وَجَلَّ وَجَلًّا وَمَوْجَلًّا ؛ بالفتح .

وهذا مَوْجَلِّه ( بالكسر ) للموضع والاسم .

فمن قال : يَا جَلِّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ جَعَلَ الْوَاوُفَا لَفَتْحَةً مَا قَبْلَهَا .

ولغة القرآن الواو ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ [الحجر: 53].

ومن قال: "بيجل" بكسر الياء فهي على لغة بني أسد، فإنهم يقولون: أنا إيجل، ونحن نيجل، وأنت تيجل؛ كلها بالكسر.

ومن قال: "يُيُجَل" بناه على هذه اللغة، ولكنه فتح الياء كما فتحوها في يعلم، ولم تكسر الياء في يعلم لاستثقالهم الكسر على الياء.

وكسرت في "بيجل" لتقوي إحدى الياءين بالأخرى.  
والأمر منه "إيجل" صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها.  
وتقول: إني منه لأؤجل.

ولا يقال في المؤنث: وجلاء: ولكن وجلة.

وروى سفيان عن السدي في قوله جل وعز: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال:  
إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له: اتق الله، كفّ ووجل قلبه.

الثانية وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره.

وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم، وكانهم بين يديه.

ونظير هذه الآية ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: 35].

وقال: ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾.



فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب .  
والوجَل : الفرع من عذاب الله ؛ فلا تناقض .

(160/305)

---

وقد جمع الله بين المعنيين في قوله : ﴿ اللهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : 23] .  
أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله .

فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ؛ لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير .  
فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجدٌ وخشوع : لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله ، والخوف منه ، والتعظيم لجلاله ؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله .

ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : 83] .

فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم .

ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم ؛ فمن كان مُسْتَنَّاً فليستَنّ ، ومن

تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسّهم حالاً ؛ والجنون فنون .

روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى أخفوه في

المسألة ، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : " سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما

دمتُ في مقامي هذا " فلما سمع ذلك القومُ أرموا ورهبوا أن يكون بين (يَدَيّ) أمرٍ قد

حضر .

قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالاً فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه يبكي .

وذكر الحديث .

وروى الترمذي وصححه عن العرْباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه

وسلم موعظةً بليغةً ذرّفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب .

الحديث .

(161/305)

---

ولم يقل : زَعَقْنَا وَلَا رَقَصْنَا وَلَا زَفَقْنَا وَلَا قَمْنَا .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أي تصديقا .

فإن إيمان هذه الساعة زيادةً على إيمان أمس ؛ فمن صدق ثانياً وثالثاً فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدم .

وقيل : هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة ؛ وقد مضى هذا المعنى في "آل عمران" .

﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ تقدم معنى التوكل في "آل عمران" أيضاً . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(162/305)

وقال الثعالبي :

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . . ﴾ الآية ،

﴿ إِنَّمَا ﴾ لفظ لا تفارقه المبالغة والتأكيد ؛ حيث وقع ، ويصلح مع ذلك للحصر ،

بحسب القرينة ، فقوله هنا : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط ، أي

الكاملون .

قال الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدِ الْأَنْصَارِيِّ السَّاحِلِيِّ الْمَالِقِيِّ فِي كِتَابِهِ الَّذِي  
أَلْفَهُ فِي «السُّلُوكِ»: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَطْلُوبٌ بِطَهَارَةِ نَفْسِهِ، وَتَزَكِّيَّتِهَا، وَطُرُقُ التَّزَكِّيَةِ وَإِنْ  
كَثُرَتْ، فَطَرِيقُ الذِّكْرِ أَسْرَعُ نَفْعًا، وَأَقْرَبُ مَرَامًا، وَعَلَيْهِ دَرَجٌ أَكْثَرُ مَشَائِخِ التَّرْبِيَةِ، ثُمَّ قَالَ:  
وَالذِّكْرُ ضِدُّ النِّسْيَانِ، وَالْمَطْلُوبُ مِنْهُ عِمَارَةُ الْبَاطِنِ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَمَعَ كُلِّ حَالٍ؛  
لِأَنَّ الذِّكْرَ يَدُلُّ عَلَى الْمَذْكُورِ لَا مَحَالَةَ، فَذَكَرَهُ دِينُنَا يُوجِبُ الْمَحَبَّةَ لَهُ، وَالْمَعْرِفَةَ بِهِ، وَالذِّكْرُ  
وَإِنْ اخْتَلَفَ الْفَازِلُ وَمَعَانِيهِ، فَلِكُلِّ مَعْنَى [ مِنْ ] مَعَانِيهِ اخْتِصَاصٌ بِنَوْعٍ مِنَ التَّحْلِيَةِ  
وَالتَّحْلِيَةِ، وَالتَّزَكِّيَةِ، ثُمَّ قَالَ: وَالذِّكْرُ عَلَى قَسْمَيْنِ: ذِكْرُ الْعَامَّةِ، وَذِكْرُ الْخَاصَّةِ. أَمَّا ذِكْرُ  
الْعَامَّةِ، وَهُوَ ذِكْرُ الْأَجُورِ، فَهُوَ أَنْ يَذَكَرَ الْعَبْدُ مَوْلَاهُ بِمَا شَاءَ مِنْ ذِكْرِهِ لَا يَقْصِدُ غَيْرَ الْأَجُورِ  
وَالثَّوَابِ، وَأَمَّا ذِكْرُ الْخَاصَّةِ، فَهُوَ ذِكْرُ الْحُضُورِ، وَهُوَ أَنْ يَذَكَرَ الْعَبْدُ مَوْلَاهُ بِأَذْكَارِ مَعْلُومَةٍ،  
عَلَى صِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ؛ لِيُنَالَ بِذَلِكَ الْمَعْرِفَةَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ بِطَهَارَةِ نَفْسِهِ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ،  
وَتَحْلِيَّتِهَا بِكُلِّ خُلُقٍ كَرِيمٍ. انْتَهَى.

﴿ وَجِلَّتْ ﴾ : مَعْنَاهُ: فَزَعَتْ، وَرَقَّتْ، وَخَافَتْ، وَبِهَذِهِ الْمَعَانِي فَسَّرْتَهَا الْعُلَمَاءُ.

﴿ تَلَيْتُ ﴾ مَعْنَاهُ: سُرِدْتُ، وَقَرَأْتُ، وَالآيَاتُ هُنَا: الْقُرْآنُ الْمَتْلُوءُ.

ومن كلام صاحب «الكلم الفارقية»: إن تَقَطَّتْ بِقِطَّةِ قَلْبِيَّةٍ، وَاتَّبَهَتْ اِتِّبَاهَةَ حَقِيقَةٍ لَمْ تَرَفِي وَقْتِكَ سَعَةً لَغَيْرِ ذِكْرِ رَبِّكَ، وَاسْتَشْعَارِ عَظْمَتِهِ، وَمَهَابَتِهِ، وَالِإِقْبَالَ عَلَى طَاعَتِهِ، مَا فِي وَقْتِ الْعَاقِلِ فَضْلَةٌ فِي غَيْرِ مَا خُلِقَ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ خَالِقِهِ، وَالِاهْتِمَامِ بِمَصَالِحِ آخِرَتِهِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِمَعَادِهِ، أَعْرَفَ الْعَبِيدِ بِجَلَالِ مَوْلَاهُ أَخْلَاهُمْ عَمَّا سِوَاهُ، وَأَكْثَرَهُمْ لَهْجًا بِذِكْرِهِ، وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهِ، وَأَحْسَنَهُمْ تَأْمَلًا لِآثَارِ صِنْعَتِهِ، وَبِدَائِعِ حِكْمَتِهِ، وَأَشَدَّهُمْ شَوْقًا إِلَى لِقَائِهِ، وَمَشَاهِدَتِهِ أَنْتَهَى.

وزيادة الإيمان على وجوه كلها خَارِجٌ، عَنْ نَفْسِ التَّصَدِيقِ: مِنْهَا أَنْ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ لَمْ يَسْمَعْ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ، فَنَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَمِعَهُ، فَآمَنَ بِهِ، زَادَ إِيمَانًا إِلَى سَائِرِ مَا قَدْ آمَنَ بِهِ؛ إِذْ لِكُلِّ حُكْمٍ تَصَدِيقٌ خَاصٌّ، وَهَذَا يَتَرْتَبُ فِيمَنْ بَلَغَهُ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ الشَّرْعِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَتَرْتَبُ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ بِزِيَادَةِ الدَّلَائِلِ، وَلِهَذَا قَالَ مَالِكٌ: الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَيَتَرْتَبُ بِزِيَادَةِ الْأَعْمَالِ الْبَرَّةِ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَرَى أَنَّ لَفْظَةَ الْإِيمَانِ وَاقِعَةٌ عَلَى التَّصَدِيقِ وَالطَّاعَاتِ، وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: يَزِيدُ وَيَنْقُصُ.

وقوله سبحانه: ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت، وعمل بحسبها في أن يُمَثِّلَ الْإِنْسَانَ مَا أَمْرُهُ، وَيَبْلُغُ فِي ذَلِكَ أَقْصَى جَهْدِهِ دُونَ عَجْزٍ، وَيَنْتَظِرُ بَعْدَ مَا وَعَدَ بِهِ مِنْ نَصْرِ، أَوْ رِزْقٍ، أَوْ غَيْرِهِ، وَهَذِهِ أَوْصَافٌ جَمِيلَةٌ وَصَفَ اللَّهُ بِهَا فَضْلَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، فَجَعَلَهَا غَايَةَ لِلْأُمَّةِ يَسْتَبِقُ إِلَيْهَا الْأَفْضَلُ، ثُمَّ اتَّبَعَ ذَلِكَ وَعَدَّهُمْ

وَوَسَّمَهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَمَدَحَهُمْ بِهَا حَصًّا عَلَى ذَلِكَ. انْتَهَى انْتَهَى. اهـ ﴿الجواهر

الحسان ح 2 ص ﴿

(164/305)

وقال الخازن:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ﴿ لما أمر الله سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله في الآية المقدمة ثم قال بعد ذلك إن كنتم مؤمنين لأن الإيمان يستلزم الطاعة، بين في هذه الآية صفات المؤمنين وأحوالهم فقال سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ولفظة إنما تفيد الحصر والمعنى ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم أي خضعت وخافت وركت قلوبهم وقيل إذا خوفوا بالله انقادوا خوفاً من عقابه .

وقال أهل الحقائق: الخوف على قسمين: خوف عقاب وهو خوف العصاة، وخوف الهيبة والعظمة وهو خوف الخواص، لأنهم يعلمون عظمة الله فيخافونه أشد خوف، وأما العصاة فيخافون عقابه فالمؤمن إذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته في ذكر الله. فإن قلت: إنه سبحانه وتعالى قال في هذه الآية وجلت قلوبهم بمعنى خافت وقال في آية

أخرى تظمن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما ؟ قلت لا منافاة بين هاتين الحالتين لأن  
الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان إنما يكون من تلج اليقين وشرح الصدر بنور المعرفة  
والتوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد جمعا في آية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى :  
تتشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .  
والمعنى : تشعر جلودهم من خوف عقاب الله ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله  
ورجاء ثوابه وهذا حاصل في قلب المؤمنين ثم قال تعالى : ﴿ وإذا تلّيت عليهم آياته  
زادتهم إيماناً ﴾ يعني وإذا قرأت عليهم آيات القرآن زادتهم تصديقاً قاله ابن عباس .

(165/305)

---

والمعنى : أنه كلما جاءهم شيء من عند الله آمنوا به فيزدادون بذلك إيماناً وتصديقاً لأن  
زيادة الإيمان بزيادة التصديق وذلك على وجهين الوجه الأول وهو الذي عليه عامة أهل  
العلم على ما حكاه الواحدي أن كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد لأن  
عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله أقوى فيزداد  
إيمانه .

الوجه الثاني : هو أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف

متوالية في زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكلما تجدد تكليف صدقوا به  
فيزدادون بذلك الإقرار تصديقاً وإيماناً ومن المعلوم أن من صدق إنساناً في شئين كان أكبر  
مما يصدق في شيء واحد فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَلَّيْت عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ معناه  
أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة في إيمانهم  
واختلف أناس في أن الإيمان هل يقبل الزيادة والنقص أم لا؟ فالذين قالوا إن الإيمان عبارة  
عن التصديق القلبي قالوا لا يقبل الزيادة لإجماع أهل اللغة على أن الإيمان هو التصديق  
والاعتقاد بالقلب وذلك لا يقبل الزيادة ومن قال إن الإيمان عبارة عن مجموع أمور ثلاثة وهي  
التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح والأركان فقد استدل على ذلك بهذه  
الآية من وجهين أحدهما أن قوله زادتهم إيماناً صريح في أن الإيمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة  
عن التصديق بالقلب فقط لما قبل الزيادة وإذا قيل لزيادة فقد قبل النقص .  
الوجه الثاني: أنه ذكر في هذه الآية أوصافاً متعددة من أحوال المؤمنين ثم قال سبحانه  
وتعالى بعد ذلك: أولئك هم المؤمنون حقاً .  
وذلك يدل على أن تلك الأوصاف داخلة في مسمى الإيمان .



وروي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " الإيمان بضع وسبعون  
شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من  
الإيمان " أخرجاه في الصحيحين ففي هذا الحديث دليل على أن الإيمان فيه أعلى وأدنى  
وإذا كان كذلك كان قابلاً للزيادة والنقص .

قال عمير بن حبيب ، وكانت له صحبة : إن للإيمان زيادة وتقصاناً .  
قيل له : فما زيادته ؟ قال : إذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته وإذا سهونا وغفلنا فذلك  
تقصانه .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي : أن للإيمان فرائض وشرائط وشرائع وحدوداً وسنناً  
فمن استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان .  
وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ معناه يفوضون جميع أمورهم إليه ولا  
يرجون غيره ولا يخافون سواه .

واعلم ان المؤمن إذا كان واثقاً بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهي  
درجة عالية ومرتبة شريفة لأن الإنسان يصير بحيث لا يبقى له اعتماد في شيء من أموره إلا  
على الله واعلم أن هذه المراتب الثلاث أعني الوجع عند ذكر الله وزيادة الإيمان عند تلاوة  
القرآن والتوكل على الله من أعمال القلوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص



وقال أبو حيان :

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ﴿ قرىء ﴾ ﴿ وجلت ﴾ بفتح الجيم وهي لغة وقرأ ابن مسعود فرقت ، وقرأ أبي فرغت وينبغي أن تحمل هاتان القراءتان على التفسير ولما كان معنى ، ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ ، قال : إنما المؤمنون أي الكاملو الإيمان ، ثم أخبر عنهم بموصول وصل بثلاث مقامات عظيمة مقام الخوف ، ومقام زيادة الإيمان ، ومقام التوكل ، ويحتمل قوله إذا ذكر الله أن يذكر اسمه ويلفظ به تفرع قلوبهم لذكره استعظماً له وتهيئاً وإجلالاً ويكون هذا الذكر مخالفاً للذكر في قوله ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ لأن ذكر الله هناك رآفته ورحمته وثوابه ويحتمل أن يكون ﴿ ذكر الله ﴾ على حذف مضاف أي ذكرت عظمة الله وقدرته وما خوف به من عصاه قاله الزجاج ، وقال السدي : هو الرجل يهّم بالمعصية فيذكر الله فيفرغ عنها وفي الحديث في السبع الذين يُظلمهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله ، " ورجل دعت امرأته ذات جمال ومنصب فقال إني أخاف الله " ، ومعنى ﴿ زادتهم إيماناً ﴾ أي يقيناً وتشبيهاً لأن تظاهر الأدلة وتظاferها أقوى على الطمأنينة المدلول عليه وأرسخ

لقدمه .

وقيل المعنى أنه إذا كان لم يسمع حكماً من أحكام القرآن منزل للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) فآمن به زاد إيماناً إلى سائر ما قد آمن به إذ لكل حكم تصديق خاص ، ولهذا قال مجاهد عبر بزيادة الإيمان عن زيادة العلم وأحكامه .

(168/305)

---

وقيل زيادة الإيمان كناية عن زيادة العمل ، وعن عمر بن عبد العزيز أن للإيمان سنة وفرائض وشرائع فمن استكملها استكمل الإيمان ، وقيل هذا في الظالم يوعظ فيقال له اتق الله فيقلع فيزيده ذلك إيماناً والظاهر أن قوله ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ داخل في صلة ﴿ الذين ﴾ كما قلنا قبل ، وقيل هو مستأنف وترتيب هذه المقامات أحسن ترتيب فبدأ بمقام الخوف إما خوف الإجلال والهيبة وإما خوف العقاب ، ثم ثانياً بالإيمان بالتكاليف الواردة ، ثم ثالثاً بالتفويض إلى الله والانتطاع إليه ورفض ما سواه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4

ص ﴿

(169/305)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾

جملة مستأنفة مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة المستتعبة لما ذكر من الخصال الثلاث ، وفيه مزيد ترغيب لهم في الامتثال بالأوامر المذكورة أي إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿ الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي فزعت لمجرد ذكره من غير أن يذكر هناك ما يوجب الفزع من صفاته وأفعاله واستعظاما لشأنه الجليل وتهيباً منه وقيل : هو الرجل يُهَمُّ بمعصية فيقال له : اتق الله فينزع عنها خوفاً من عقابه ، وقرىء وجلت بفتح الجيم وهي لغة وقرىء فرقت أي خافت ﴿ وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أي آية كانت ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أي يقينا وطمأنينة نفسٍ فإن تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين ، وقيل : إن نفس الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان وإنما زيادته باعتبار زيادة المؤمن به فإنه كلما نزلت صدق بها المؤمن فزاد إيمانه عدداً ، وأما نفس الإيمان فهو بحاله وقيل : باعتبار أن الأعمال تجعل من الإيمان فيزيد بزيادتها ، والأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق النير بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الأمة ، وعليه مبنى ما قال علي رضي الله عنه : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، وكذا بين ما قام عليه دليل واحد وما قامت عليه

أدلة كثيرة ﴿ وعلى ربهم ﴾ مالِكهم ومدبرِ أمورهم خاصة ﴿ يتوكلون ﴾ يفوضون  
أمورهم لا إلى أحد سواه والجملة معطوفة على الصلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي

السعود ح 4 ص ﴿

(170/305)

وقال الأوسى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الخ إذا المراد به قطعاً الكاملون في الإيمان وإلا لم يصح الحصر ، وهو  
حينئذ جار على ما هو الأصل المشهور في النكرة إذا أعيدت معرفة ، وعلى الوجه الأول لا  
يكون هذا عين النكرة السابقة ، ويلتزم القول بأن القاعدة أغلبية كما قد صرحوا به في غير  
ما موضع ، أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ  
قُلُوبُهُمْ ﴾ أي فزعت استعظماً لشأنه الجليل وتهيباً منه جل وعلا والاطمئنان المذكور في  
قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : 28] لا ينافي الوجمل  
والخوف لأنه عبارة عن تلج الفؤاد وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهو يجمع الخوف ،  
وإلى هذا ذهب ابن الخازن ، ووفق بعضهم بين الآيتين بأن الذكر في إحداهما ذكر رحمة وفي

الأخرى ذكر عقوبة فلا منافاة بينهما .

وأخرج البيهقي وجماعة عن السدي أنه قال في الآية : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهيم بمعصية فيقال له : اتق الله تعالى فيجل قلبه ، وحمل الوجل فيها على الخوف منه تعالى كلما ذكر أبلغ في المدح من حملة على الخوف وقت الهمة بمعصية أو إرادة ظلم .  
وهذا الوجل في قلب المؤمن كضربة السعفة كما جاء عن عائشة رضي الله تعالى عنها .  
وأخرج ابن جرير وغيره عن أم الدرداء أن الدعاء عند ذلك مستجاب ، وعلامته حصول التشعيرة .

(171/305)

---

وقرىء ﴿ وَجِلْتُ ﴾ بفتح الجيم ومضارعه يجل ، وأما وجل بالكسر فمضارعه يوجل وجاء يوجل ويوجل وهي لغات أربع حكاهما سيبويه ، وقرأ عبد الله ﴿ فَرَّقْتَ ﴾ أي خافت ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أي القرآن كما روى عن ابن عباس ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أي تصديقاً كما هو المتبادر فإن نظاهر الأدلة وتعاقد الحجج مما لا ريب في كونه موجباً لذلك ، وهذا أحد أدلة من ذهب إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص ، وهو مذهب الجمهور الغفير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين وبه أقوال لكثرة الظواهر الدالة على ذلك من الكتاب

والسنة من غير معارض لها عقلاً ، بل قد احتج عليه بعضهم بالعقل أيضاً ؛ وذلك أنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة بل المنهمكين في الفسق والمعاصي مساوياً لإيمان الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام ، واللازم باطل فكذا الملزوم ، وقال محيي الدين النووي في معرض بيان ذلك : إن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى يكون في بعض الأحيان أعظم يقيناً وإخلاصاً منه في بعضها ، فكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظواهر البراهين وكثرتها ، وأجابوا عما اعترض به عليه من أنه متى قبل ذلك كان شكاً وهو خروج عن حقيقته بأن مراتب اليقين متفاوتة إلى علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين مع أنه لا شك معها ، وذهب الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه وكثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، واختاره أمام الحرمين محتجين بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان وذلك لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان ، فالمصدق إذا أتى بالطاعات أو ارتكب المعاصي فتصديقه بحاله لم يتغير أصلاً ، وإنما يتفاوت إذا كان اسماً للطاعات المتفاوتة قلة وكثرة على ما ذهب إليه القلانسي وجماعة من السلف ، وبما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندي في تفسيره عن محمد بن الفضل .

(172/305)

---

وأبي القاسم الساباذي عن فارس بن مردويه عن محمد بن الفضل بن العابد عن يحيى بن عيسى عن أبي مطيع عن حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : جاء وفد ثقيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله الايمان يزيد وينقص ؟ فقال : " الايمان مكمل في القلب زيادته ونقصانه كفر " .

وأجابوا عما تمسك به الأولون من الآيات والأحاديث بأن الزيادة بحسب الدوام والثبات وكثرة الزمان والساعات .

وإيضاحه ما قاله إمام الحرمين : أن النبي صلى الله عليه وسلم يفضل من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله تعالى إياه من مخامرة الشكوك والتصديق عرض لا يبقى بشخصه زمانين بل بتجدد أمثاله فتقع للنبي صلى الله عليه وسلم دون غيره متوالية فيثبت له صلى الله عليه وسلم أعداد من الايمان لا يثبت لغيره إلا بعضها فيكون إيمانه أكثر .

واعترض هذا بأن حصول المثل بعد انعدام الشيء لا يكون زيادة فيه ودفع بأن المراد زيادة إعداد حصلت وعدم البقاء لا ينافي ذلك ، وأجابوا أيضاً بأن المراد الزيادة بحسب زيادة ما يؤمن به ، والصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا آمنوا في الجملة وكانت الشرعية غير تامة والأحكام تنزل شيئاً فشيئاً فكانوا يؤمنون بكل ما يتجدد منها ولا شك في تفاوت إيمان الناس بملاحظة التفاصيل كثرة وقلة ولا يختص ذلك بعصر النبوة لإمكان الإطلاع عليها في غيره من العصور وبأن المراد زيادة ثمرته وإشراق نوره في القلب فإن نوره يزيد بالطاعات



وينقص بالمعاصي ، ولا يخفى أن الحجة الأولى يعلم جوابها مما ذكرناه أولاً ، وأما الحجة الثانية التي ذكرها أبو الليث فمما لا يعول عليها عند الحفاظ أصلاً لأن رجال السند إلى أبي مطيع كلهم مجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة ، وأما أبو مطيع وهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي فقد ضعفه أحمد بن حنبل .

ويحيى بن معين .

وعمر بن علي الفلاس .

والبخاري .

وأبوداود .

والنسائي .

(173/305)

---

وحاتم الرازي .

وأبو حاتم محمد بن حبان البستي .

والعقيلي .

وابن عدي .

والدارقطني وغيرهم .

وأما أبوالمهمز وقد تصحف على الكتاب ؛ واسمه يزيد بن سفيان فقد ضعفه أيضاً غير واحد وتركه شعبة بن الحجاج ، وقال النسائي : متروك ، وقد اتهمه شعبة بالوضع حيث قال : لو أعطوه فلسين لحدّتهم سبعين حديثاً ، ومن مارس الأحاديث النبوية لا يشك في أن ذلك اللفظ ليس منها في شيء ، وما ذكره إمام الحرمين على ما فيه مبني على تجديد الأعراض وعدم بقائها زمانين ، والمسألة خلافية ، ودون إثبات ذلك خرط القناد .

وما أجابوا به أولاً : من أن زيادة الايمان بحسب زيادة المؤمن به مع كونه خلاف الظاهر ولا داعي إليه عند المنصف لا يكاد يتأتى في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ [آل عمران : 173] وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : 4] إذ ليس هناك زيادة مشروع يحصل الايمان به ليقال : إن زيادة الايمان بحسب زيادة المؤمن به ، وحال الجواب الثاني : لا يخفى عليك .

وذهب جماعة منهم الإمام الرازي وإمام الحرمين في قول إلى أن الخلاف في زيادة الايمان وتقصانه وعدمهما لفظي وهو فرع تفسير الايمان ، فمن فسره بالتصديق قال : إنه لا يزيد ولا ينقص ، ومن فسره بالأعمال مع التصديق قال : إنه يزيد وينقص ، وعلى هذا قول البخاري : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الايمان

قول وعمل ويزيد وينقص ، وهو المعنى بما روى عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : " قلنا يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار " .

(174/305)

---

واعترض على هذا بأن عدم قبول الإيمان الزيادة والنقص على تقدير كون الطاعات داخلة في مسماه أولى وأحق من عدم قبوله ذلك إذا كان مسماه التصديق وحده ، أما أولاً : فلأنه لا مرتبة فوق كل الأعمال لتكون زيادة ولا إيمان دونه ليكون نقصاً ، وأما ثانياً : فلأن أحداً لا يستكمل الإيمان حينئذ والزيادة على ما لم يكمل بعد محال .

وأجيب بأن هذا إنما يتوجه على المعتزلة والخوارج القائلين بانتفاء الإيمان بانتفاء شيء من الأعمال ونحن إنما نقول : إنها شرط كمال فيه واللازم عند الانتفاء انتفاء الكمال وهو غير قادح في أصل الإيمان والحق أن الخلاف حقيقي وأن التصديق يقبل التفاوت بحسب مراتب فما المانع من تفاوته قوة وضعفاً كما في التصديق بطلوع الشمس والتصديق بحدوث العالم وقلة وكثرة كما في التصديق الإجمالي والتصديق التفصيلي المتعلق بالكثير وما على إذا خالفت في بعض المسائل مذهب الإمام الأعظم أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه للأدلة التي لا

تكاد تحصى فالحق أحق بالاتباع والتقليد في مثل هذه المسائل من سنن العوام .

نعم أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس أنه فسر الإيمان في هذه الآية بالخشية وعبر عنها بذلك بناء على أنها من آثاره وهو خلاف الظاهر أيضاً ، وكان المعنى عليه أن المؤمنين الكاملين هم الذين إذا ذكر الله من غير أن يذكر هناك ما يوجب الفزع من صفاته وأفعاله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياتهم المتضمنة ذلك زادتهم وجلاً على وجل ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي يفوضون أمورهم كلها إلى مالكم ومدبرهم خاصة لا إلى أحد سواه كما يدل عليه تقديم المتعلق على عامله والجملة معطوفة على الصلة .

وجوز أبو البقاء كونها حالاً من ضمير المفعول وكونها استئنافية . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(175/305)

وقال القاسمي :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : الكاملون المخلصون فيه ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ أي : حقه أو

وعيده ﴿ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: فزعت لذكره، واقشعرت إشفاقاً ألا تكون قامت بحقه ، وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه ، ويطشه بالعصاة وعقابه .

قال الجشمي: ومتى قيل: لمجاز وصفهم ها هنا بالوجل والطمأنينة في قوله

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ﴾ ، فجوابنا فيه وجوه:

منها: أنه تطمئن قلوبهم عند ذكر نعمه ، وتوجل لخوف عقابه بارتكاب معاصيه .

ومنها: أن قلوبهم تطمئن لمعرفة توحيده ، ووعدده ، ووعيده ، فعند ذلك توجل

لأوامره ونواهيه ، خوف التصير في الواجبات ، والإقدام على المعاصي ، المستقبل يتغير حاله . انتهى .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ ﴾ أي: حججه وهي القرآن ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أي: يقيناً

وطمأنينة نفس ، إلى ما عندهم ؛ فإن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه ، وأثبت لقدمه .

وقد استدلل البخاري وغيره من الأئمة الآية وأشباهاها ، على زيادة الإيمان وتفاضله في

القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة ، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد ، كالشافعي

وأحمد بن حنبل وأبي عبيد .

﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي: لا يرجون سواه ، ولا يخشون غيره ، ولا يفوضون أمورهم

إلى غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 8 ص 262 . 263 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

موقع هذه الجملة وما عطف عليها موقع التعليل لوجوب تقوى الله وإصلاح ذات بينهم وطاعتهم الله ورسوله ، لأن ما تضمنته هذه الجمل التي بعد ﴿ إِنَّمَا ﴾ من شأنه أن يحمل المتصفين به على الامتثال لما تضمنته جمل الأمر الثلاث السابقة ، وقد اقتضى ظاهر القصر المستفاد من ﴿ إِنَّمَا ﴾ أن من لم يجل قلبه إذا ذكر الله ، ولم تزد تلاوة آيات الله إيماناً مع إيمانه ، ولم يتوكل على الله ، ولم يقيم الصلاة ، ولم ينفق ، لم يكن موصوفاً بصفة الإيمان ، فهذا ظاهر مؤول بما دلت عليه أدلة كثيرة من الكتاب والسنة من أن الإيمان لا ينتقضه الإخلال ببعض الواجبات كما سيأتي عند قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [ الأنفال : 4 ] فتعين أن القصر ادعائي بتنزيل الإيمان الذي عدم الواجبات العظيمة منزلة العدم ، وهو قصر مجازي لابتنائه على التشبيه ، فهو استعارة مكثية : شبه الجانب المنفي في صيغة القصر بمن ليس بمؤمن ، وطوي ذكر المشبه به ورُمز إليه بذكر لازمه وهو حصر الإيمان فيمن اتصف بالصفات التي لم يتصف بها المشبه به ، ويؤول هذا إلى معنى : إنما المؤمنون الكاملو الإيمان ، فالتعريف في ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ تعريف الجنس المفيد قصر ادعائياً على أصحاب هذه الصفات مبالغة ، وحرف (أل) فيه هو ما يسمى بالدالة على معنى

الكمال .

وقد تكون جملة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ مستأنفة استينافاً بيانياً لجواب سؤال سائلٍ يثيره الشرطُ وجزاؤه المقدَّرُ في قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأنفال : 1 ] بأن يتساءلوا عن هذا الاشتراط بعد ما تحقق أنهم مؤمنون من قبل ، وهل يمتري في أنهم مؤمنون ، فيجابوا بأن المؤمنين هم الذين صفتهم كيت وكيت ، فيعلموا أن الإيمان المَجْعول شرطاً هو الإيمان الكامل فتنبعث نفوسهم إلى الاتسام به والتباعد عن موانع زيادته .

(177/305)

---

وإذ قد كان الاحتمالان غير متنافيين صح تحمیل الآية إياهما توفيراً لمعاني الكلام المعجز فإن علة الشيء مما يُسأل عنه ، وإن بيان العلة مما يصح كونه استينافاً بيانياً .  
وعلى كلا الاحتمالين وقعت الجملة مفصولة عن التي قبلها لاستغنائها عن الربط وإن اختلف موجب الاستغناء باختلاف الاحتمالين ، والاعتبارات البلاغية يصح تعدد أسبابها في الموقع الواحد لأنها اعتبارات معنوية وليست كصفات لفظية فتحققه حقُّ تحققه .

والمعنى ليس المؤمنون الكامل إيمانهم إلا أصحاب هذه الصلة التي يعرف المتصف بها

تحققها فيه أو عدمه من عرض نفسه على حقيقتها ، فإنه لما كان الكلام وارداً مورد الأمر بالتخلق بما يقتضيه الإيمان أحيلاً في معرفة أمارات هذا التخلق على صفات يأنسونها من أنفسهم إذا علموها .

والذكر حقيقته التلفظ باللسان ، وإذا علق بما يدل على ذات فالمقصود من الذات أسماءؤها ، فالمراد من قوله : ﴿ إذا ذكر الله ﴾ إذا نطق ناطق باسم من أسماء الله أو بشأن من شؤونه ، مثل أمره ونهيه ، لأن ذلك لا بد معه من جريان اسمه أو ضميره أو موصوله أو إشارته أو نحو ذلك من دلائل ذاته .

والوجل خوف مع فزع فيكون لاستعظام الموجول منه .

وقد جاء فعل وجل في الفصيح بكسر العين في الماضي على طريقة الأفعال الدالة على الانفعال الباطني مثل فرح ، وصدي ، وهوي ، وروي .

وأسند الوجل إلى القلوب لأن القلب يكثر إطلاقه في كلام العرب على إحساس الإنسان وقرارة إدراكه ، وليس المراد به هذا العضو الصنوبري الذي يرسل الدم إلى الشرايين .

(178/305)

---



وقد أجملت الآية ذكر الله إجمالاً بديعاً ليناسب معنى الوجل ، فذكرُ الله يكون : بذكر اسمه ، و بذكر عقابه ، وعظمته ، و بذكر ثوابه ورحمته ، وكل ذلك يحصل معه الوجل في قلوب كُمل المؤمنين ، لأنه يحصل معه استحضار جلال الله وشدة بأسه وسعة ثوابه ، فينبعث عن ذلك الاستحضار توقع حلول بأسه ، وتوقع انقطاع بعض ثوابه أو رحمته ، وهو وجل يبعث المؤمن إلى الاستكثار من الخير وتوقي ما لا يرضي الله تعالى وملاحظة الوقوف عند حدود الله في أمره ونهيه ، ولذلك روي عن عمر بن الخطاب أنه قال : "أفضل من ذكر الله باللسان ذكرُ الله عند أمره ونهيه" .

وإذ قد كان المقصود من هذا الكلام حث المؤمنين على الرضى بما قسم النبي صلى الله عليه وسلم من غنائم بدر ، وأن يتركوا التشاجر بينهم في ذلك ، ناسب الاقتصار على وجل قلوب المؤمنين عند ذكر الله ، والوجلُ حالين يحصلان للمؤمن عند ذكر الله والحال الآخر هو الأمل والطمع في الثواب فطوى ذكره هنا اعتماداً على استلزام الوجل إياه ، لأن من الوجل أن يجل ، من فوات الثواب أو نقصانه .

التلاوة : القراءة واستظهار ما يحفظه التالي من كلام له أو غيره يحكيه لسامعه ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تلاوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ في [البقرة : 102

.]

وآيات الله القرآن ، سميت آيات ، لأن وحيها إلى النبي الأمي وعجز قومه ، خاصتهم

وعامتهم عن الإتيان بمثلها فيه دلالة على صدق من جاء بها فلذلك سميت آيات .  
ويسمى القرآن كله آية أيضاً باعتبار دلالة جملته على صدق محمد ، وقد تقدم ذلك في  
المقدمة الثامنة من مقدمات هذا التفسير .

وإسناد فعل زيادة الإيمان إلى آيات الله لأنها سبب تلك الزيادة للإيمان باعتبار حال من  
أحوالها ، وهو تلاوتها لأعتبار مجرد وجودها في صدر غير المتلوة عليه .  
وهذا الإسناد من المجاز العقلي إذ جعلت الآيات بمنزلة فاعل الزيادة في الإيمان .

(179/305)

---

فإنه لما لم يعرف الفاعل الحقيقي لزيادة الإيمان ، إذ تلك الزيادة كيفية نفسية عارضة ، لليقين  
، لا يعرف فاعل انقداحها في العقل ، وغاية ما يعرف أن يقال : ازداد إيمان فلان ، أو ازداد  
فلان إيماناً ، بطريق ما يدل على المطاوعة ، ولا التفات في الاستعمال إلى أن الله هو خالق  
الأحوال ، كلها إذ ليس ذلك معنى الفاعل الحقيقي في العرف ، ولو لوحظ ذلك لم ينقسم  
الكلام إلى حقيقة ومجاز عقليين وإنما الفاعل الحقيقي هو من يأتي بالفعل ويصنعه كال كاتب  
للكتابة والضارب بالسيف للقتل .

والإيمانُ : تصديق النفس بثبوت نسبة شيء لشيء ، أو بانتفاء نسبة شيء عن شيء ،

تصديقاً جازماً لا يحتمل نقيض تلك النسبة ، وقد اشتهر اسم الإيمان شرعاً في اليقين  
بالنسبة المقتضية وجود الله ووجود صفاته التي دلت عليها الأدلة العقلية أو الشرعية ،  
والمقتضية مجيء رسول الله محبراً عن الله الذي أرسله وثبت صفات الرسول عليه الصلاة  
والسلام التي لا يتم معنى رسالته عن الله بدونها : مثل الصدق فيما يبلغ عن الله ، والعصمة  
عن اقتراف معصية الله تعالى .

ومعنى زيادة الإيمان : قوة اليقين في نفس الموقن على حسب شدة الاستغناء عن  
استحضار الأدلة في نفسه ، وعن إعادة النظر فيها ، ودفع الشك العارض للنفس ، فإنه  
كلما كانت الأدلة أكثر وأقوى وأجلى مقدمات كان اليقين أقوى ، فتلك القوة هي المعبر عنها  
بالزيادة ، وتفاوتها تدرج في الزيادة ، ويجوز أن تسمى قلة التدرج في الأدلة نقصاً لكنه نقص  
عن الزيادة ، وذلك مع مراعاة وجود أصل حقيقة الإيمان ، لأنها لو نقصت عن اليقين  
لبطلت ماهية الإيمان ، وقد أشار البخاري إلى هذا بقوله : باب زيادة الإيمان ونقصانه فإذا  
ترك شيئاً من الكمال فهو ناقص فلو أن نقص الأدلة بلغ بصاحبه إلى انخراص اليقين لم يكن العلم  
الحاصل له إيماناً ، حتى يوصف بالنقص ، فهذا هو المراد من وصف الإيمان بالزيادة ، في  
القرآن وكلام الرسول ، وهو بين .

---

ولم يرد عن الشريعة ذكر نقص الإيمان ، وذلك هو الذي يريده جمهور علماء الأمة إذا قالوا  
الإيمان يزيد كما قال مالك بن أنس الإيمانُ يزيد ولا ينقص ، وهو عبارة كاملة ، وقد يطلق  
الإيمان على الأعمال التي تجب على المؤمن وهو إطلاق باعتبار كون تلك الأعمال من شرائع  
الإيمان ، كما أطلق على الصلاة اسم الإيمان في قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم  
﴿ [البقرة: 143] ولكن الاسم المضبوط لهذا المعنى هو اسم (الإسلام) كما يفصح  
عنه حديث سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان ، فالإيمان قد يطلق على  
الإسلام وهو بهذا الاعتبار يوصف بالنقص والزيادة باعتبار الإكثار من الأعمال والإقلال ،  
ولكنه ليس المراد في هذه الآية ولا في نظائرها من آيات الكتاب وأقوال النبي صلى الله عليه  
وسلم وقد يريده بعض علماء الأمة فيقول : الإيمان يزيد وينقص ، ولعل الذي الجأهم إلى  
وصفه بالنقص هو ما اقتضاه الوصف بالزيادة .

وهذا مذهبُ أشار إليه البخاري في قوله " باب من قال إن الإيمان هو العمل " وقال الشيخ  
ابن أبي زيد " وأن الإيمان قولٌ باللسان وإخلاصٌ بالقلب وعملٌ بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال  
وينقص بنقص الأعمال فيكون فيها النقص وبها الزيادة " ، وهو جار على طريقة السلف من  
إقرار ظواهر القرآن والسنة ، في الأمور الاعتقادية ولكن وصف الإيمان بالنقص لاداعي

إليه لعدم وجود مقتضيه لعدم وصفه بالنقص في القرآن والسنة ولهذا قال مالك الإيمان يزيد ولا ينقص .

(181/305)

---

وكيفية تأثير تلاوة الآيات في زيادة الإيمان : أن دقائق الإعجاز التي تحتوي عليها آيات القرآن تزيد كل آية تنزل منها أو تتكرر على الأسماع سامعها يقيناً بأنها من عند الله ، فتزيده استدلالاً أعلى ما في نفسه ، وذلك يقوي الإيمان حتى يصل إلى مرتبة تقرب من الضرورة على نحو ما يحصل في تواتر الخبر من اليقين بصدق المخبرين ، ويحصل مع تلك الزيادة زيادة في الإقبال عليها بشرائش القلوب ثم في العمل بما تضمنه من أمر أو نهى ، حتى يحصل كمال التقوى ، فلا جرم كان لكل آية تتلى على المؤمنين زيادة في عوارض الإيمان من قوة اليقين وتكثير الأعمال فهذا وصف راسخ للآيات ويجوز أن تفسر زيادة الإيمان عند تلاوة الآيات بأنها زيادة إدراك للمعاني المؤمن بها ، كما فسرت زيادة الإيمان بالنسبة إلى الأعمال ، التي تجب على المؤمن إذ تلك الإدراكات تعلقات بعضها حسي وبعضها عقلي .

وحظ المقام المتعلق بأحكام الأنفال من هذه الزيادة هو أن سماع آيات حكم الأنفال يزيد إيمان المؤمنين قوة ، بنبذ الشقاق والتشاجر الطارىء بينهم في أنفس الأموال عندهم ، وهو

المال المكتسب من سيوفهم ، فإنه أحب أموالهم إليهم .

وفي الحديث " وجعل رزقي تحت ظل رحمي " وبذلك تتضح المناسبة بين ذكر حكم الأنفال ، وتعقيبه بالأمر بالتقوى وإصلاح ذات البين والطاعة ، ثم تعليل ذلك بأن شأن المؤمنين ازدياد إيمانهم عند تلاوة آيات الله .

صلة الثالثة ﴿ المؤمنون ﴾ أحوال منه ، وجعلت فعلاً مضارعاً للدلالة على تكرار ذلك منهم ، ووصفهم بالتوكل على الله وهو الاعتماد على الله في الأحوال والمساعي ليقدّر للمتوكل تيسيراً مرة ويعوضه عن الكسب المنهي عنه بأحسن منه من الحلال المأذون فيه .  
وتقدم تفسير التوكل عند قوله : ﴿ فإذا عزمتم ، فتوكل على الله ﴾ في سورة [آل عمران : 159] .

(182/305)

---

ومناسبة هذا الوصف للغرض : أنهم أمروا بالتخلي عن الأنفال ، والرضى بقسمة الرسول صلى الله عليه وسلم فيها ، فمن كان قد حرم من نفل قتيله يتوكل على الله في تعويضه بأحسن منه .

وتقديم الجورور في قوله : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ إما للرعاية على الفاصلة فهو من

مقتضيات الفصاحة مع ما فيه من الاهتمام باسم الله ، وإما للتعريض بالمشركين ، لأنهم يتوكلون على إعانة الأصنام ، قال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ﴾ [ مريم : 81 ] فيكون الكلام مدحاً للمؤمنين ، وتعريضاً بدم الشركين ، ثم فيه تحذير من أن تبقى في نفوس المؤمنين آثار من التعلق بما نهوا عن التعلق به ، لتوهمهم أنهم إذا فوتوه فقد أضاعوا خيراً من الدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(183/305)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية . .

هذه الآية تدل على أن وجل القلوب عند سماع ذكر الله من علامات المؤمنين .

وقد جاء في آية أخرى ما يدل على خلاف ذلك وهي قوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ

بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

فالمنافاة بين الطمأنينة ووجل القلوب ظاهرة

والجواب عن هذا أن الطمأنينة تكون بانسراح الصدر بمعرفة التوحيد والوجل يكون عند

خوف الزينغ والذهاب عن الهدى كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ تَقشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۞ .

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ۞ الآية .

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۞ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب ص 135 ﴾

(184/305)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ۞ ﴾

وفي هاتين الآيتين الكريميتين خمسُ صفاتٍ لها ترتيب عقائدي وحركي وجوارحي ، وبذلك

يتحدد تشخيص كلمة "المؤمنين" ، هذه الصفات هي الأولى : أنه إذا ذكر الله وجلت

قلوبهم ، وثانية الصفات أنه : إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً ، ثالثة الصفات : أنهم

على ربهم يتوكلون ، ورابعة الصفات : أنهم يقيمون الصلاة ، وخامسة الصفات : أنهم

ينفقون مما رزقهم الله .

والصفة الأولى للمؤمنين هي : ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ۞ ﴾ [ الأنفال : 2 ] .



والوجل هو الخوف في فرع ينشأ منه قشعريرة، واضطراب في القلب، وحينما أراد

الشعراء أن يعطوا صورة بهذا الإحساس، نجد شاعراً منهم يقول:

كأن القلب ليلة قيل يغدي . . . بليلي العامرية أو يراح

قطاط غرها شرك تجا . . . ذبه وقد علق الجناح

فالشاعر يصور حالة قلبه حين سمع نبأ سفر حبيبته، كأنه صار مثل حمامة تحاول أن  
تخلص نفسها من شبكة أو مصيدة وقعت فيها، إنها تجاذب المصيدة حتى تخرج، وهي  
ترجف في مثل هذا الموقف، هكذا حال القلب لحظة فراق المحبوبة عند الشاعر .

وإذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل، ألا يتنافى ذلك مع قول الحق  
سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ  
﴾ [الرعد: 28] .

في الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين؛ لأن ذكر الله تعالى يأتي بأحوال متعددة، فإن كان  
الإنسان مسرفاً على نفسه، فهو يرجف حين يذكر الله الذي خالف منهجه . وإن كان  
الإنسان يراعي حق الله في كل عمل قدر الاستطاعة، فلا بد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله  
؛ لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

---

إذن فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مهابة وسطوة صفات الجلال . والاطمئنان إنما يجيء  
من إشراقات وحنان صفات الجمال . ولذلك تجمعها آية واحدة هي قول الحق تبارك  
وتعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ  
رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [ الزمر : 23 ] .

فالجلود تقشعر خوفاً ووجلاً ومهابة من الله عز وجل ، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً في حنان  
المئنان سبحانه وتعالى ، لأن ربنا قال : ﴿ تَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [ الحجر :  
49 ] .

إذن فلا يقولن أحد إن هناك تعارضاً بين الوجل والاطمئنان ، فكلها من ذكر الله بالأحوال  
المتعددة للإنسان ، فإذا ما وجل الإنسان فهو يتجه إلى فعل الخير فيطمئن مصداقاً لقول  
الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [ هود :  
114 ] .

وهل يزيد الإيمان أو ينقص ؟

اختلف العلماء في هذا الأمر . ونحن عندما ننظر إلى قول الحق نجده يؤكد زيادة الإيمان ،  
وحيثما نسأل ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ . . . إلخ نجد الجواب في توضيح الرسول

صلى الله عليه وسلم ورده على السائل في الحديث الآتي والذي يرويه الصحابي الجليل  
سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال :

(186/305)

---

"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله : ما  
الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر ، قال يا  
رسول الله : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة  
المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال يا رسول الله : ما الإحسان ؟ قال :  
أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك . قال : يا رسول الله : متى الساعة ؟ قال ما  
المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها ، إذا ولدت الأمة ربها  
فذلك من أشراطها ، وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا  
تطاول رعاء البهائم في البنيان فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله . ثم تلا صلى  
الله عليه وسلم : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري  
نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ، ثم أدبر الرجل  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ردوا عليّ الرجل فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم " .  
وجبريل عليه السلام حين جاء يسأل ليعلم بعضاً من صحابة رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قال له الرسول عليه السلام عن الإيمان : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم  
الآخر " ، وفي رواية أخرى ذكر القضاء والقدر خيره وشره .

(187/305)

---

وهذه كلها أمور غيبية ، ولا يقال في الأمر المحسّ إيمان ، فلا يقول واحد : أنا مؤمن أنى أتحرك  
على الأرض ؛ لأن هذا أمر حسيّ . والإيمان لا يكون إلا بالأمور الغيبية وأولها أن تؤمن بالله  
واحد لا تدركه الأبصار وهو غيب ، وملائكته وهي غيب ، وصدقنا وجودها لأنه أبلغنا  
بذلك الوجود . وكذلك أن تؤمن بالكتب المنزلة على الرسل . وبالرسل ، وصحيح أن  
الكتاب أمر حسيّ والرسول كذلك له وجود حسيّ ، لكن لم نشاهد الوحي وهو ينزل  
الكتاب على الرسول . إذن فهو أمر غيبي ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر أمر غيبي أيضاً ،  
والإيمان بالقضاء والقدر وهو ما غابت عنا حكمته ، وكلها إذن أمور غيبية .

هذا الإيمان في القمة ، لكن هناك إيمان آخر يجيء لأننا نعلم أن التشريعات لم تأت مرة واحدة  
، بل كانت تأتي على مراحل ، فتشريع ينزل أولاً بأن تؤمن أنه من الله . إذن فالذي يزيد

وينقص من الإيمان هو الإيمان بالتكليفات ، وأنها صادرة من الله عز وجل ، وكلما كانت تنزل آية بتشريع جديد كانت تزيد المؤمنين إيماناً ، فعندما نزل الأمر بالصلاة آمنوا بإقامتها واستجابوا ونفذوا ، ثم جاء الصوم فامتثلوا للأمر به ، ثم يجيء الأمر بالزكاة فتكون الطاعة والتنفيذ ، وطبعاً هناك فرق بين أن تؤمن بالشيء ، وأن تفعل الشيء .

فالإيمان شيء ، وفعله شيء ؛ لأن الإسلام هو الانقياد الظاهري للمنهج ، وتطبيق كل ما يجيء به الإسلام هو إيمان مستمر متزايد ؛ لأننا آمننا بأن ما يجيء من المنهج هو من الله . إذن فالذي يزيد هو توابع الإيمان من التكليفات والامتثال لهذه التكليفات ، مثال ذلك : كلنا نعرف قول الحق : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [ آل عمران : 97 ] .

لكن هناك أناس يتمسكون بحرفية قوله الحق : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [ ] آل عمران : 97 ] .

(188/305)

---

والذين يتمسكون بحرفية القول الحق لم يتساءلوا : كفر بماذا ؟ هل كفر لأنه لم يمح ؟ لا ، إن كفره في هذه المسألة لا يكون إلا بأن ينكر أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالمطلوب منا

إيمانياً أن تقر بالحج كركن من أركان الإسلام في حدود الاستطاعة ، فإن فعله الإنسان كان قد نفذ الحكم ، أما إن لم يفعله فقد يكون ذلك في حدود عدم الاستطاعة .

ويذيل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة التي نحن بصددتها بقوله : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

وَمُتَعَلِّقَ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ دَائِماً يَكُونُ مَتَأَخِراً ، بينما هنا يتقدم الجار والمجرور ؛ لذلك ففي الأسلوب حصر وقصر ، مثلما نقول : " لزيد المال " أي أن المال ليس لغيره ، وقول الحق : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي لا يتوكلون على غيره ، بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى ، والتوكل : أن تؤمن بأن لك وكياً يقوم لك بمهام أمورك ، بدليل أن الشيء الذي لا تقوى عليه تقول بصدده : " وكت فلاناً ينجزه لي على خير وجه " وحتى تختار الذي توكله ويكون مناسباً لأداء تلك المهمة فأنت تعلن باطمئنان : أنك قد وكت فلاناً .

(189/305)

---

إذن معنى ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي أنهم يكون أمورهم على من ائتمنوه على مصالحهم ، وهو الحق سبحانه وتعالى القادر العظيم الذي خلق الكون ، وخلق فيه أسباباً تؤدي إلى مسببات الأسباب مقدمة ، والمسببات هي النتيجة . وبعد ذلك ترك أموراً ليس

فيها أسباب ، إلا أن نلاحظ دائماً المسبب وهو الله تعالى ، فكل أمر يعز عليك في أسبابه ؛  
إياك أن تياأس من أنه لا يحدث ، بل قل : تلك هي قضية الأسباب ، أما أنا فلي رب خلق  
الأسباب . وهو القادر فوق كل الأسباب ، وفي حياتنا اليومية نلاحظ أن الناس يخلطون بين  
عمل الجوارح ، وعمل القلوب ، ويظن إنسان ما أنه متوكل ولا يأخذ بالأسباب ويركن إلى  
الكسل ويقول : أنا متوكل على الله ، وهذا نقول له : لا ، إن هذا منك توأكل وليس توكلأ ؛  
لأن التوكل ليس عمل جوارح ، التوكل عمل قلوب .

والمؤمن الذي يستقبل منهج الله بالفهم يجد الأسباب التي يجب أن يأخذها ، وسبحانه  
وتعالى هو المسبب الأعلى ، والإيمان يؤكد أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، فعلى الجوارح  
أن تحرث الأرض ، وأن تختار البذرة الطيبة ، وتنثرها في الأرض ، ثم ترويتها ، وتعهدها ،  
وهذه العمليات اسمها الأسباب ، ثم لا تركز إلى الأسباب فقط ، بل عليك أن تقول : إن  
فوق كل الأسباب هناك المسبب .

فمن الجائز أن يخضر الزرع وينمو ، ثم تأتي له آفة من مطر أو حر وتضيعة .

(190/305)

---

ومن ينقل التوكل إلى الجوارح . تقول له : أنت توأكلت ، أي نقلت عمل القلب إلى الجوارح .  
ومن يقول ذلك إنما يكذب على نفسه وعلى الناس . لأنه تكاسل عن الأخذ بالأسباب  
وإدعى أنه متوكل على الله . ولو كان الواحد من هؤلاء صادقاً في توكله على الله لأخذ  
بالأسباب . وعادة فإنني دائماً أقول لمن يدعي التوكل مع الكسل : لماذا لا تترك الطعام يأتي  
إلى فمك ، لماذا تمد إليه يديك ؟ . إن من يكسل إنما يكذب في التوكل ، فلا أحد مثلاً يترك  
قطعة اللحم تنفخ من طبق الطعام إلى فمه ، لكنه يأخذها بيده . ويمضغها بأسنانه ، ويلعها  
بعد المضغ ، ولو كان صادقاً في أن التوكل هو ألا تعمل جوارحه لما فعل شيئاً من ذلك ، لكنه  
يكذب ويتوكل فيما يتعبه ويشغل جوارحه فيما يريحه ، ولا يستعملها في الأمور التي تتعبه .  
وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

هذا القول يعني أنهم يؤمنون بأن الأسباب من خلق الله . وحين يأخذ المؤمن بالأسباب فهو  
يؤمن أنه لا جىء إلى الله ومعتمد عليه ، لكن إن عزت عليه الأسباب فهو يعلم أن له رباً ،  
ولذلك قال : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ ﴾ ، والرب هو الخالق من عدم ، والممد من عدم ، وما دام قد  
خلقك وأمدك من عدم قبل أن يكلفك ، فهل من المعقول أن يظلمك ؟ طبعاً لا . لكن عليك  
أن تفطن أنه لك جوارح ، فاستعمل الجوارح فيما خلقت من أجله .

وتأتي الآية التالية لتوضح عمل الجوارح ، وهي تحمل الصفتين الرابعة والخامسة من صفات



المؤمنين : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [ الأنفال : 3 ] . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(191/305)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (2)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال :  
فرقت قلوبهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير وأبو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أبي الدرداء قال: إنما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر أما تجد قشعيرة؟ قلت: بلى. قال: فادع عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك.

وأخرج الحكيم الترمذي عن عائشة قالت: ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضمة السعفة، فإذا وجد أحدكم فليدع عند ذلك.

وأخرج الحكيم الترمذي عن ثابت البناني قال: قال فلان: إني لأعلم متى يستجاب لي. قالوا: ومن أين يعلم ذلك؟ قال: إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي، وفاضت عيني، فذاك حين يستجاب لي.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان عن السدي في قوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهمل بمعصية، فيقال له: اتق الله. فيجل قلبه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ قال: تصديقاً. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ قال: زادتهم خشية.

---

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ زادتهم إيماناً ﴾ قال: الإيمان يزيد وينقص، وهو قول وعمل.

وأخرج أبو الشيخ عن سفیان بن عیینة قال: نطق القرآن بزيادة الإيمان ونقصانه قوله ﴿ زادتهم إيماناً ﴾ فهذه زيادة الأيمان، وإذا غفلنا ونسينا وضعنا فذلك نقصانه.

وأخرج الحكيم الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح إيمان أبي بكر.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ يقول: لا يرجون غيره.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن جبیر قال: التوكل على الله جماع الإيمان.

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: التوكل جماع الإيمان.

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن سعيد بن جبیر قال: التوكل على الله نصف

الإيمان. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية .  
لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالطَّاعَةِ قَالَ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ يُقَالُ: " وَجَلَ الْمَاضِي بِالْكَسْرِ " يُوجَلُ " بِالْفَتْحِ ، وَفِيهِ لُغَةٌ أُخْرَى ، قُرِيَءٌ بِهَا فِي الشَّاذِّ وَجَلَتْ بِفَتْحِ الْجِيمِ فِي الْمَاضِي وَكَسَرَهَا فِي الْمَضَارِعِ ، فَتَحْذِفُ الْوَاوُ ، ك: وَعَدَّ يَعْدُ ، وَيُقَالُ فِي الْمَشْهُورَةِ: وَجَلَ يُوجَلُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ " يَا جَلُّ " بِقَلْبِ الْوَاوِ أَلْفًا ، وَهُوَ شَاذٌ ؛ لِأَنَّهُ قَلْبُ حَرْفِ الْعَلَّةِ بِأَحَدِ السَّبَبِينَ وَهُوَ انْفِتَاحُ مَا قَبْلَ حَرْفِ الْعَلَّةِ دُونَ تَحْرِكِهِ وَهُوَ نَظِيرُ " طَائِيٍّ " فِي النَّسْبِ إِلَى " طَيْيِّءٍ " .

ومِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: " يَبْجَلُ " بِكَسْرِ حَرْفِ الْمَضَارِعَةِ ، فَتَقْلِبُ الْوَاوِيَاءَ ، لِسُكُونِهَا وَإِنْ كَسَرَا مَا قَبْلَهَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ أَنَّ مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَكْسِرُ حَرْفَ الْمَضَارِعَةِ بِشُرُوطِهَا : أَنَّ لَا يَكُونُ حَرْفُ الْمَضَارِعَةِ يَاءً إِلَّا فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ ، فَقَالَ " يَبْجَلُ " فَأَخَذَ قَلْبَ الْوَاوِ مَنْ

كَسَرَ حَرْفَ الْمَضَارِعَةِ ، وَأَخَذَ فَتْحَ الْيَاءِ مِنْ لُغَةِ الْجُمْهُورِ .

وَالْوَجَلُ: الْفَزَعُ .

وَقِيلَ: اسْتَشْعَارُ الْخَوْفِ يُقَالُ مِنْهُ: وَجَلَ يُوجَلُ ، وَيَا جَلُّ ، وَيَبْجَلُ ، وَيَبْجَلُ ، وَجَلَّأَ فَهُوَ

وَجَلٍ.

﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

يفوضون إليه أمورهم ، ويثقون به ، ولا يرجون غيره ، فالتقديم يفيد الاختصاص ، أي :  
عليه لا على غيره ، وهذه الجملة يحتمل أن يكون لها محل من الإعراب ، وهو النَّصْبُ على  
الحال من مفعول : زادَهُمْ ، ويحتمل أن تكون مستأنفة ، ويحتمل أن تكون معطوفة على  
الصَّلَةِ قبلها ، فتدخل في حيز الصلوات المتقدمة .

وعلى الوجهين فلا محل لها من الإعراب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص  
448 . 449 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية  
قال عليه الرحمة :

(194/305)

---

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى  
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2)

الوجل شدة الخوف ، ومعناها هنا أن يُخرجهم الوجَلُّ عن أوطان الغفلة ، ويزعجهم عن

مساكن الغيبة . فإذا انفصلوا عن أودية التفرقة وفاؤوا إلى مَشَاهِدِ الذِكر نالوا السكون إلى الله - عز وجل ؛ فيزيدُهم ما يُتلى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق ، وتحقيقاً على تحقيق . فإذا طالعوا جلال قدره ، وأيقنوا قصورهم عن إدراكه ، توكلوا عليه في إمدادهم بالرعاية في نهايتهم ، كما استخلصهم بالعناية في بدايتهم .

ويقال سُنَّةُ الحَقِّ - سبحانه مع أهل العرفان أن يُرَدِّدَهُم بين كَشْفِ جلالٍ ولُطْفِ جمالٍ ، فإذا كاشفهم بجلاله وجَلَّتْ قلوبهم ، وإذا لطفهم بجماله سَكَنَتْ قلوبهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد : 28] . ويقال وجلت قلوبهم بخوف فراقه ، ثم تَطْمِئِنُّ وتسكن أسرارهم بروح وصاله . وذكر الفراق يُفنيهم وذكر الوصال يُصحيهم ويُحييهم .

ويقال الطالبون في نوح رهبتهم ، والواصلون في روح قربتهم ، والموحِّدون في محو غيبتهم ؛ استولت عليهم الحقائق فلا لهم تطلع لوقتٍ مستأنف فيستقزهم خوف أو يجرفهم طمع ، ولا لهم إحساس فتملكهم لذة ؛ إذ لما اصْطَلَمُوا ببواده ما ملكهم فهُمْ عنهم مَحُوٌّ ، والغالبُ عليهم سواهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 602.603 ﴾

(195/305)

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (3)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وصفهم بالإيمان الحامل على الطاعة والتوكل الجامع لهم الدافع للمانع منها ، منتقلاً من عمل الباطن إلى عمل الظاهر مبيناً أن هممتهم إنما هي العبادة والمكارم : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أي يفترون عن تجديد ذلك ؛ ولما كانت صلة بين الخلق والخالق ، أتبعها الوصلة بين الخلاق فقال : ﴿ ومما رزقناهم ﴾ أي على عظمتنا وهولنا دونهم ﴿ ينفقون ﴾ ولو كانوا مقلين اعتماداً على ما عندنا فالإنفاق وإهانة الدنيا همتهم ، لا الحرص عليها ، فحينئذ يكونون كالذين عند ربك في التحلي بالعبادة والتخلي من الدنيا إعراضاً وزهادة ، وهو تذكير بوصف المتقين المذكور أول الكتاب بقوله : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب وقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 184 . 185 ﴾

(196/305)

فصل

قال الفخر :

والصفة الرابعة والخامسة: قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾  
واعلم أن المراتب الثلاثة المتقدمة أحوال معتبرة في القلوب والبواطن، ثم انتقل منها إلى  
رعاية أحوال الظاهر ورأس الطاعات المعتبرة في الظاهر، ورئسها بذل النفس في الصلاة،  
وبذل المال في مرضاة الله، ويدخل فيه الزكوات والصدقات والصلاة، والإنفاق في الجهاد،  
والإنفاق على المساجد والقناطر، قالت المعزلة: إنه تعالى مدح من ينفق ما رزقه الله،  
وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز الإنفاق من الحرام، وذلك يدل على أن الحرام لا يكون رزقاً،  
وقد سبق ذكر هذا الكلام مراراً. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب ح 15 ص 97.

﴿98﴾

وقال السمرقندي:

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾،

يعني يتمونها في مواقيتها بركوعها وسجودها؛ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، يعني  
يتصدقون مما أعطيناهم من الأموال، وينفقونها في طاعة الله.

(197/305)

---



وقال ابن عطية :

ثم أتبع ذلك وعدهم ووسمهم بإقامة الصلاة ومدحهم بها حضاً على ذلك ، وقوله ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ قال جماعة من المفسرين : هي الزكاة .

قال القاضي أبو محمد : وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام بإقامة الصلاة وإلا فهو لفظ عام في الزكاة ونوافل الخير وصلاة المستحقين ، ولفظ ابن عباس في هذا المعنى محتمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال الخازن :

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفات الثلاث أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح فقال سبحانه وتعالى : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ ﴿ الذين ينفقون ﴾ يعني يقيمون الصلاة المفروضة بمجودها وأركانها في أوقاتها وينفقون أموالهم فيما أمرهم الله به من الإنفاق فيه ويدخل فيه النفقة في الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الإنفاق في أنواع البر والقربات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ ﴿ الذين ينفقون ﴾ ﴿ الأحسن أن يكون ﴾ ﴿ الذين ﴾ ﴿ صفة للذين السابقة حتى تدخل في حيز الجزئية فيكون ذلك إخباراً عن المؤمنين بثلاث الصفات القلبية وعنهم بالصفة البدنية والصفة المالية وجمع أفعال القلوب لأنها أشرف وجمع في أفعال

الجوارح بين الصلاة والصدقة لأنهما عموداً وأجاز الحوفي والبريزي أن يكون ﴿ الذين  
﴿ بدلاً من ﴿ الذين ﴾ وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين والظاهر أن قوله  
﴿ مما رزقناهم ينفقون ﴾ عام في الزكاة ونوافل الصدقات وصلات الرحم وغير ذلك من  
المبار المالية ، وقد خص ذلك جماعة من المفسرين بالزكاة لاقترانها بالصلاة . انتهى انتهى .  
اه ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(198/305)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾  
مرفوعٌ على أنه نعتٌ للموصول الأول أو بدلٌ منه أو بيانٌ له أو منصوبٌ على القطع المنبئ  
عن المدح ذكر أولاً من أعمالهم الحسنة أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ثم  
عقب بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة . انتهى انتهى . اه ﴿ تفسير أبي السعود ح  
4 ص ﴾

وقال الأوسى :

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (3)

مرفوع على أنه نعت للموصول الأول أو بدل منه أو بيان له أو منصوب على القطع المنبىء  
عن المدح، وقد مدحهم سبحانه وتعالى أولاً بـمكارم الأعمال القلبية من الخشية  
والإخلاص والتوكيل وهذا مدح لهم بحاسن الأعمال القلبية من الصلاة والصدقة . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(199/305)

وقال ابن عاشور :

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (3)

وصفهم بأنهم الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله جاء بإعادة الموصول ، كما أعيد  
في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ في سورة البقرة (4) ، وذلك للدلالة على  
الانتقال ، في وصفهم ، إلى غرض آخر غير الغرض الذي اجتلب الموصول الأول لأجله ،  
وهو هنا غرض محافظتهم على ركبي الإيمان : وهما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فلا علاقة  
للصلة المذكورة هنا بأحكام الأنفال والرضى بقسمها ، ولكنه مجرد المدح ، وعبر في جانب  
الصلاة بالإقامة للدلالة على المحافظة عليها وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ  
الصَّلَاةَ ﴾ في سورة البقرة (3) .

وجيء بالفعلين المضارعين في ﴿ يقيمون ﴾ و ﴿ ينفقون ﴾ للدلالة على تكرار ذلك وتجده.

واعلم أن مقتضى الاستعمال في الخبر بالصلوات المتعاطفة، التي موصولها خبرٌ عن مبتدأ أن تُعتبر خبراً بعدة أشياء فهي بمنزلة أخبار متكررة، ومقتضى الاستعمال في الاخبار المتعددة أن كل واحد منها يعتبر خبراً مستقلاً عن المبتدأ فلذلك تكون كل صلة من هذه الصلات بمنزلة خبر عن المؤمنين وهي محصور فيها المؤمنون أي حالهم فيكون المعنى، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، إنما المؤمنون الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً.

وهكذا فمتى اختلت صفة من هذه الصفات اختل وصف الإيمان عن صاحبها، فلذلك تعين أن يكون المراد من القصر المبالغة الأيـله إلى معنى قصر الإيمان الكامل على صاحب كل صلة من هذه الصلات، وعلى صاحب الخبرين، لظهور أن أصل الإيمان لا يسلب من أحد ذكر الله عنده فلا يجلب قلبه، فإن أدلة قطعية من أصول الدين تنافي هذا الاحتمال فتعين تأويل ﴿ المؤمنون ﴾ [ الأنفال : 2 ] على إرادة أصحاب الإيمان الكامل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

والقيام والقعود والقراءة والتسبيح والتكبير في الصلاة عمل جوارح، وكذلك الزكاة هي عمل ناتج من عمل سبق، فحتى تخرج الزكاة لا بد أن تبذل الجهد وتأخذ بالأسباب لتنتج ما يعولك أنت ودائرتك القريبة من زوجة وأبناء ثم أقارب، ومن بعد ذلك يفيض من المال ما تستقطع منه الزكاة، وهذه بطبيعة الحال غير زكاة الزروع التي تُخْرَجُ في يوم الحصاد . ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [ الأنعام : 141 ] .

ودائماً ما نجد الصلاة والزكاة وهما مقترتان ببعضهما، ولا تجد آية فيها ذكر للصلاة إلا وفيها ذكر للزكاة أيضاً؛ لأن الصلاة تعني ترك أمورك الحياتية التي تسعى فيها لدنيا الأسباب، وتذهب إلى الحق سبحانه وتعالى وتقف بين يديه، أي أنك قد اقتطعت جزءاً من الزمن الذي كنت تقضيه في حركة حياتك لتقف فيه أمام ربك خالق الأسباب .

والزكاة تعني أنك تقطع جزءاً من مالك، ولذلك قلنا: إن الصلاة فيها زكاة وزيادة، فأنت تخرج مقدار اثنين ونصف في المائة مما يتبقى معك من مال يبلغ نصاباً ويكون زائداً عن الحاجة الأصلية، لكنك بالصلاة تضحي ببعض الوقت الذي تقضيه في العمل الذي يأتي لك بأصل المال، إذن ففي الصلاة زكاة وأكثر . وأنت في الزكاة تنازل عن بعض المال،

لكنك في الصلاة تنازل عن الوقت الذي هو محل العمل ، وهو الذي تنتج فيه الرزق ،  
والرزق وعاء الزكاة .

ويذيل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية قائلًا :

(201/305)

---

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ونعلم أن الرزق كما ذكر العلماء هو كل شيء ينتفع به  
الإنسان ، وحتى اللص الذي يسرق وينتفع بسرقة يعد هذا بالنسبة له رزقاً لكنه رزق غير  
طيب وله عقاب في الدنيا إن تم ضبطه ، ولن يفلت من عقاب الله الحاكم العادل في الدنيا  
والآخرة ، وهو بطبيعة الحال غير الرزق الحلال الذي يأتي من عمل مشروع ، والمؤمن الحق  
هو من ينفق من هذا الرزق الحلال ؛ سواء لمطالبات حياته أو رعاية المجتمع الإيماني . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(202/305)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: "الَّذِينَ يُقِيمُونَ" فيجوز في هذا الموصول أن يكون مرفوعاً على النَّعْتِ للموصول أو على البدل، أو على البيان له، وأن يكون منصوباً على القطع المُشعر بالمدح. انتهى انتهى.

اهـ تفسير ابن عادل ج 9 ص 449 ❖

(203/305)

قوله تعالى ❖ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)** ❖

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما حققوا إيمانهم بأفعال القلوب والجوارح والأموال، فاستوفوا بذلك جميع شعب الدين،

عظم سبحانه شأنهم بقوله: ❖ **أُولَئِكَ** ❖ أي العالوا لهم ❖ **هم** ❖ أي خاصة

❖ **المؤمنون** ❖ وأكد مضمون الجملة بقوله: ❖ **حَقًّا** ❖ .

ولما كانت صفاتهم الخمس المذكورة المشتملة على الأخلاق والأعمال لها تأثيرات في

تصفية القلوب وتنويرها بالمعارف الإلهية، وكلما كان المؤثر أقوى كانت التأثيرات أعلى،

فلما كانت هي درجات كان جزاؤها كذلك ، فلماذا قال سبحانه تعالى في جواب من كأنه قال : فما جزاؤهم على ذلك ؟ ﴿ لهم درجات ﴾ ولما كثرتا بجمع السلامة بما دل عليه سياق الامتنان ، عظمتا بقوله : ﴿ عند ربهم ﴾ أي بتسليمهم لأمره .  
ولما كان قدر الله عظيماً ، وكان الإنسان عن بلوغ ما يجب عليه من ذلك ضعيفاً حقيراً ، وكان بأدنى شيء من أعماله يستفزه الإعجاب ، أشار سبحانه إلى أنه لا يسعه إلا العفو ولو بذل فوق الجهد فقال : ﴿ ومغفرة ﴾ أي لذنوبهم إن رجعوا عن المنازعة في الأثقال وغيرها ، ﴿ ورزق كريم ﴾ أي لا ضيق فيه ولا كدر بوجه ما من منازعة ولا غيرها ، فهو يغنيهم عن هذه الأثقال ، ويملاً أيديهم من الأموال من عنائم فارس والروم وغير ذلك ، هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فما لا يحيط به الوصف ؛ قال أبو حيان : لما تقدمت ثلاث صفات قلبية وهي الوجل وزيادة الإيمان والتوكل - وبدنية ومالية ، ترتب عليها ثلاثة أشياء ، فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات والبدنية بالغفران ، وقوبلت المالية بالرزق الكريم ، وهذا النوع من المقابلة من بديع علم البديع - انتهى .

(204/305)

---



ولما كان الإيمان عند الشافعي رحمه الله الاعتقاد والإقرار والعمل جوز أن يقال : مؤمن إن شاء الله ، لأن استيفاء الأعمال مشكوك فيه وإن كان الاعتقاد والإقرار يقيناً ، وعند أبي حنيفة رحمه الله الإيمان الاعتقاد والإقرار فقط ، فلم يجوز الاستثناء ، فالخلاف لفظي ، هذا إذا كان الاستثناء للشك ، وإن كان لغيره كان لكسر النفس عن التمدح ، وللشهادة بالجنة التي هي للمؤمن ، وللحكم على حالة الموت ، على أن هذه الكلمة لا تنافي الجزم ، فهي بمجرد التبرك كقوله تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ [ الفتح : 27 ] ذكر ذلك الإمام فخر الدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 185 .

﴿ 186

(205/305)

فصل

قال الفخر :

واعلم أن الله تعالى لما ذكر هذه الصفات الخمس : أثبت للموصوفين بها أموراً ثلاثة : الأول

: قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله: ﴿ حَقًّا ﴾ بماذا يتصل .

فيه قولان : أحدهما : بقوله : ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي هم المؤمنون بالحقيقة .

والثاني : أنه تم الكلام عند قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ثم ابتداء وقال : ﴿ حَقًّا لَهُمْ ﴾

درجات ﴿ .

المسألة الثانية :

ذكروا في انتصاب ﴿ حَقًّا ﴾ وجوهاً : الأول : قال الفراء : التقدير : أخبركم بذلك حقاً ،

أي أخباراً حقاً ، ونظيره قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ [ النساء : 151 ]

والثاني : قال سيبويه : إنه مصدر مؤكد لفعل محذوف يدل عليه الكلام ، والتقدير : وإن

الذي فعلوه كان حقاً صدقاً .

الثالث : قال الزجاج .

التقدير : أولئك هم المؤمنون أحق ذلك حقاً .

المسألة الثالثة :

اتفقوا على أنه يجوز للمؤمن أن يقول أنا مؤمن ، واختلفوا في أنه هل يجوز للرجل أن يقول أنا

مؤمن حقاً أم لا ؟ فقال أصحاب الشافعي : الأولى أن يقول الرجل : أنا مؤمن إن شاء الله ،

ولا يقول أنا مؤمن حقاً .

وقال أصحاب أبي حنيفة رحمه الله : الأولى أن يقول أنا مؤمن حقاً ، ولا يجوز أن يقول : أنا

مؤمن إن شاء الله ، أما الذين قالوا إنه يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، فلهم فيه مقامان :

المقام الأول : أن يكون ذلك لأجل حصول الشك في حصول الإيمان .

المقام الثاني : أن لا يكون الأمر كذلك .

أما المقام الأول ، فتقريره : أن الإيمان عند الشافعي رضي الله عنه عبارة عن مجموع

الاعتقاد والإقرار والعمل .

(206/305)

---

ولا شك أن كون الإنسان آتياً بالأعمال الصالحة أمر مشكوك فيه ، والشك في أحد أجزاء  
الماهية يوجب الشك في حصول تلك الماهية ، فالإنسان وإن كان جازماً بحصول الاعتقاد  
والإقرار ، إلا أنه لما كان شاكاً في حصول العمل كان هذا القدر يوجب كونه شاكاً في حصول  
الإيمان ، وأما عند أبي حنيفة رحمه الله ، فلما كان الإيمان اسماً للاعتقاد والقول ، وكان  
العمل خارجاً عن مسمى الإيمان ، لم يلزم من الشك في حصول الأعمال الشك في الإيمان .  
فثبت أن من قال إن الإيمان عبارة عن مجموع الأمور الثلاثة يلزمه وقوع الشك في الإيمان ،  
ومن قال العمل خارج عن مسمى الإيمان يلزمه نفي الشك عن الإيمان ، وعند هذا ظهر أن  
الخلافاً ليس إلا في اللفظ فقط .

وأما المقام الثاني : وهو أن نقول : إن قوله : أنا مؤمن إن شاء الله ليس لأجل الشك ، فيه وجوه : الأول : أن كون الرجل مؤمناً أشرف صفاته وأعرف نعوته وأحواله ، فإذا قال أنا مؤمن ، فكأنه مدح نفسه بأعظم المدائح .

فوجب أن يقول : إن شاء الله ليصير هذا سبباً لحصول الانكسار في القلب وزوال العجب .

روي أن أبا حنيفة رحمه الله ، قال لقتادة : لم تستني في إيمانك .

قال اتباعاً لإبراهيم عليه السلام في قوله :

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [ الشعراء : 82 ] فقال أبو حنيفة رحمه

الله : هلا اقتديت به في قوله : ﴿ أَوْلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَى ﴾ [ البقرة : 260 ] وأقول : كان

لقتادة أن يجيب ، ويقول : إنه بعد أن قال : ﴿ بَلَى ﴾ قال : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾

فطلب مزيد الطمأنينة ، وهذا يدل على أنه لا بد من قول إن شاء الله .

الثاني : أنه تعالى ذكر في هذه الآية أن الرجل لا يكون مؤمناً إلا إذا كان موصوفاً بالصفات

الخمسة ، وهي الخوف من الله ، والإخلاص في دين الله ، والتوكل على الله ، والإتيان

بالصلاة والزكاة لوجه الله تعالى .

---

وذكر في أول الآية ما يدل على الحصر ، وهو قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ﴾ هم كذا وكذا .

وذكر في آخر الآية قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وهذا أيضا يفيد الحصر ، فلما دلت هذه الآية على هذا المعنى ، ثم إن الإنسان لا يمكنه القطع على نفسه بحصول هذه الصفات الخمس ، لا جرم كان الأولى أن يقول : إن شاء الله .

روى أن الحسن سأله رجل وقال : أمؤمن أنت ؟ فقال : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فأنا مؤمن ، وإن كنت تسألني عن قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا ؟ الثالث : أن القرآن العظيم دل على أن كل من كان مؤمناً ، كان من أهل الجنة فالقطع بكونه مؤمناً يوجب القطع بكونه من أهل الجنة ، وذلك لا سبيل إليه ، فكذا هذا .

ونقل عن الثوري أنه قال : من زعم أنه مؤمن بالله حقاً ، ثم لم يشهد بأنه من أهل الجنة ، فقد آمن بنصف الآية .

والمقصود أنه كما لا سبيل إلى القطع بأنه من أهل الجنة ، فكذلك لا سبيل إلى القطع بأنه مؤمن .

الرابع : أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب وعن المعرفة ، وعلى هذا فالرجل إنما يكون

مؤمناً في الحقيقة عند ما يكون هذا التصديق وهذه المعرفة حاصلة في القلب حاضرة في  
الخاطر ، فأما عند زوال هذا المعنى ، فهو إنما يكون مؤمناً بحسب حكم الله ، أما في نفس  
الأمر فلا .

إذا عرفت هذا لم يبعد أن يكون المراد بقوله إن شاء الله عائداً إلى استدامة مسمى الإيمان  
واستحضر معناه أبداً دائماً من غير حصول ذهول وغفلة عنه ، وهذا المعنى محتمل .  
الخامس : أن أصحاب الموافاة يقولون : شرط كونه مؤمناً في الحال حصول الموافاة على  
الإيمان ، وهذا الشرط لا يحصل إلا عند الموت ، ويكون مجهولاً ، والموقوف على المجهول  
مجهول .

فلهذا السبب حسن أن يقال : أنا مؤمن إن شاء الله .

(208/305)

---

السادس : أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله عند الموت ، والمراد صرف هذا الاستثناء إلى  
الخاتمة والعاقبة ، فإن الرجل وإن كان مؤمناً في الحال ، إلا أن بتقدير أن لا يبقى ذلك الإيمان  
في العاقبة ؛ كان وجوده كعدمه ، ولم تحصل فائدة أصلاً ، فكان المقصود من ذكر هذا  
الاستثناء هذا المعنى .

السابع: أن ذكر هذه الكلمة لا ينافي حصول الجزم والقطع ، ألا ترى أنه تعالى قال :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [

الفتح : 27 ] وهو تعالى منزه عن الشك والريب .

فثبت أنه تعالى إنما ذكر ذلك تعليماً منه لعباده ، هذا المعنى ، فكذا ههنا الأولى ذكر هذه

الكلمة الدالة على تفويض الأمور إلى الله ، حتى يحصل بركة هذه الكلمة دوام الإيمان .

الثامن : أن جماعة من السلف ذكروا هذه الكلمة ، ورأينا لهم ما يقويه في كتاب الله وهو قوله

تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وهم المؤمنون في علم الله وفي حكمه ، وذلك يدل

على وجود جمع يكونون مؤمنين ، وعلى وجود جمع لا يكونون كذلك .

فالمؤمن يقول : إن شاء الله حتى يجعله الله بركة هذه الكلمة من القسم الأول لا من القسم

الثاني .

أما القائلون : أنه لا يجوز ذكر هذه الكلمة فقد احتجوا على صحة قولهم بوجوه : الأول : أن

المتحرك يجوز أن يقول : أنا متحرك ولا يجوز أن يقول أنا متحرك إن شاء الله ، وكذا القول في

القائم والقاعد ، فكذا ههنا وجب أن يكون المؤمن مؤمناً ، ولا يجوز أن يقول : أنا مؤمن إن

شاء الله ، وكما أن خروج الجسم عن كونه متحركاً في المستقبل لا يمنع من الحكم عليه بكونه

متحركاً حال قيام الحركة به فكذلك احتمال زوال الإيمان في المستقبل ، لا يقدح في كونه

مؤمناً في الحال .

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فقد حكم تعالى عليهم بكونهم مؤمنين حقاً فكان قوله إن شاء الله يوجب الشك فيما قطع الله عليه بالحصول وذلك لا يجوز.

والجواب عن الأول: أن الفرق بين وصف الإنسان بكونه مؤمناً، وبين وصفه بكونه متحركاً، حاصل من الوجوه الكثيرة التي ذكرناها، وعند حصول الفرق يتعذر الجمع، وعن الثاني أنه تعالى حكم على الموصوفين بالصفات المذكورة بكونهم مؤمنين حقاً، وذلك الشرط مشكوك فيه، والشك في الشرط يوجب الشك في المشروط.

فهذا يقوي عين مذهبنا .

والله أعلم .

الحكم الثاني

من الأحكام التي أثبتها الله تعالى للموصوفين بالصفات الخمسة قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ والمعنى: لهم مراتب بعضها أعلى من بعض .

واعلم أن الصفات المذكورة قسمان: الثلاثة الأول: هي الصفات القلبية والأحوال



الروحانية، وهي الخوف والإخلاص والتوكل .

والاثنان الأخيرتان هما الأعمال الظاهرة والأخلاق .

ولاشك أن لهذه الأعمال والأخلاق تأثيرات في تصفية القلب ، وفي تنويره بالمعارف

الإلهية .

ولاشك أن المؤثر كلما كان أقوى كانت الآثار أقوى وبالضد ، فلما كانت هذه الأخلاق

والأعمال لها درجات ومراتب .

كانت المعارف أيضاً لها درجات ومراتب ، وذلك هو المراد من قوله : ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ

رَبِّهِمْ﴾ والثواب الحاصل في الجنة أيضاً مقدر بمقدار هذه الأحوال .

فثبت أن مراتب السعادات / الروحانية قبل الموت وبعد الموت ، ومراتب السعادات

الحاصلة في الجنة كثيرة ومختلفة ، فهذا المعنى قال : ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ .

فإن قيل : ليس أن المفضل إذا علم حصول الدرجات العالية للفاضل وحرمانه عنها ، فإنه

يتألم قلبه ، ويتنصص عيشه .

وذلك محل يكون الثواب رزقاً كريماً ؟

والجواب : أن استغراق كل واحد في سعادته الخاصة به تمنعه من حصول الحقد والحسد ،

وبالجمل فآحوال الآخرة لا تناسب آحوال الدنيا إلا بالاسم .

## الحكم الثالث والرابع

أن قوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ رَزَقُ كَرِيمٌ ﴾ المراد من المغفرة أن يتجاوز الله عن سيئاتهم ومن

الرزق الكريم نعيم الجنة .

قال المتكلمون: أما كونه رزقاً كريماً فهو إشارة إلى كون تلك المنافع خالصة دائمة مقرونة

بالأكرام والتعظيم ، ومجموع ذلك هو حد الثواب .

وقال العارفون: المراد من المغفرة إزالة الظلمات الحاصلة بسبب الاشتغال بغير الله ، ومن

الرزق الكريم الأنوار الحاصلة بسبب الاستغراق في معرفة الله ومحبه .

قال الواحدي: قال أهل اللغة: الكريم اسم جامع لكل ما يحمد ويستحسن ، والكريم

المحمود فيما يحتاج إليه ، والله تعالى موصوف بأنه كريم والقرآن موصوف بأنه كريم .

قال تعالى: ﴿ إِنِّي أَنزَلْتُ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ ﴾ [النمل: 29] وقال: ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

[الشعراء: 7 لقمان: 10] وقال: ﴿ وَتَدْخُلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: 31]

وقال: ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: 23] فالرزق الكريم هو الشريف الفاضل

الحسن .

وقال هشام بن عروة: يعني ما أعد الله لهم في الجنة من لذيذ المأكول والمشروب وهناء

العيش ، وأقول يجب ههنا أن نبين أن اللذات الروحانية أكمل من اللذات الجسمانية ، وقد

ذكرنا هذا المعنى في هذا الكتاب في مواضع كثيرة وعند هذا يظهر أن الرزق الكريم هو

الذات الروحانية وهي معرفة الله ومحبه والاستغراق في عبوديته .

فإن قال قائل : ظاهر الآية يدل على أن الموصوف بالأمور الخمسة محكوم عليه بالنجاة من

العقاب والفوز بالثواب ، وذلك يقتضي أن لا تكليف على العبد فيما سوى هذه الخمسة

وذلك باطل بإجماع المسلمين ، لأنه لا بد من الصوم والحج وأداء سائر الواجبات .

(211/305)

---

قلنا : إنه تعالى بدأ بقوله : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿ جميع التكليف داخل تحت هذين الكلامين ، إلا أنه

تعالى خص من الصفات الباطنة التوكل بالذكر على التعيين ، ومن الأعمال الظاهرة الصلاة

والزكاة على التعيين ، تنبيهاً على أن أشرف الأحوال الباطنة ، التوكل وأشرف الأعمال

الظاهرة ، الصلاة والزكاة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 98 .

﴿ 101

(212/305)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ ،

يعني أهل هذه الصفة ، هم المؤمنون الموحدون صدقاً وهم المصدقون .

﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ، يعني فضائل عند ربهم في الآخرة ؛ ويقال : لهم منازل في

الرفعة على قدر أعمالهم ؛ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ مغفرة لذنوبهم وثواب حسن في الجنة

؛ ويقال : الفتح والغنيمة .

قال ابن عباس : المؤمن مؤمن حقاً والكافر كافر حقاً في قوله : ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

أي حقوا حقاً يعني يقيناً صدقاً . وقال ابن عباس : يقول برأوا من الكفر . وقال مقاتل :

حقاً لا شك في إيمانهم كشك المنافقين .

وقال قتادة : استحقوا الإيمان بحق فأحقه الله لهم . وقال ابن عباس : من لم يكن منافقاً فهو

مؤمن حقاً .

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد الله الرازي ، قال : أخبرنا علي بن محمد بن عمير قال :

إسحاق بن إبراهيم قال : حدثنا هشام بن عبيد الله قال : حدثنا عبيد [ الله هشام ] بن حاتم عن عمرو بن [ در ] عن إبراهيم قال :

(213/305)

إذا قيل لأحدكم مؤمن أنت حقاً ، فليقل : إني مؤمن حقاً فإن كان صادقاً فإن الله لا يعذب على الصدق ولكن يثيب عليه .

فإن كان كاذباً فما فيه من الكفر أشد عليه من قوله له : إني مؤمن حقاً . وقال ابن أبي نجيح : سأل رجل الحسن فقال : مؤمن أنت ؟

فقال : الإيمان إيمانان فإن كنت تسأل عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورأسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا بها مؤمن ، وإن كنت تسألني عن قوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فوالله ما أدري أمنهم أنا أم لا .

وقال علقمة : كنا في سفر فلقينا قوماً فقلنا : من القوم ؟ فقالوا : نحن المؤمنون حقاً ، فلم ندر ما نجيبهم حتى لقينا عبد الله بن مسعود فأخبرناه بما قالوا فقال : فما رددتم عليهم ؟ قلنا : لم نرد عليهم شيئاً .

قال : أفلا قلتم أمن أهل الجنة أتم ؟ إن المؤمنين من أهل الجنة .

وقال سفيان الثوري : من زعم أنه مؤمن حقاً آمن عند الله ثم [ وجد ] أنه في الجنة بعد إيمانه

بنصف الآية دون النصف ، ووقف بعضهم على قوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون ﴾ .

وقال : تم الكلام ها هنا .

(214/305)

---

ثم قال : حقاً له درجات فجعل قوله حقاً تأكيداً لقوله ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ وقال

مجاهد : أعمال رفيعة . وقال عطاء : يعني درجات الجنة يرقونها بأعمالهم .

هشام بن عروة : يعني ما أعد لهم في الجنة من لذيذ المأكّل والمشارب وهني العيش . وقال

ابن محيريز : لهم درجات سبعون درجة كل درجة لحافر الفرس الجواد المغير سبعين عاماً

﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ ﴿ لذنوبهم ﴾ ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي حسن [ وعظيم وهو ] الجنة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾

يريد كل المؤمنين ، و ﴿ حقاً ﴾ مصدر مؤكد كذا نص عليه سيبويه ، وهو المصدر غير

المتنقل، والعامل فيه أحق ذلك حقاً، وقوله ﴿ درجات ﴾ ظاهره، وهو قول الجمهور،  
أن المراد مراتب الجنة ومنازلها ودرجاتها على قدر أعمالهم، وحكى الطبري عن مجاهد  
أنها درجات أعمال الدنيا، وقوله ﴿ ورزق كريم ﴾ يريد به مآكل الجنة ومشاربها، و﴿  
كريم ﴾ صفة تقتضي رفع المذام كقولك ثوب كريم وحسب كريم. انتهى انتهى. ١هـ  
﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(215/305)

---

وقال ابن الجوزي:  
قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾  
قال الزجاج: ﴿ حَقًّا ﴾ منصوب بمعنى دلت عليه الجملة، والجملة: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ  
المؤمنون ﴾ فالمعنى: أحق ذلك حقاً.  
وقال مقاتل: المعنى: أولئك هم المؤمنون لا شك في إيمانهم كشك المنافقين.  
قوله تعالى: ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ قال عطاء: درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم،  
والرزق الكريم: ما أُعدَّ لهم فيها. انتهى انتهى. ١هـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾  
وقال القرطبي:

﴿ أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

أي الذي استوى في الإيمان ظاهرهم وباطنهم .

ودلّ هذا على أن لكل حق حقيقة ؛ " وقد قال عليه السلام لحرثة : " إن لكل حق حقيقة

فما حقيقة إيمانك " ؟ الحديث .

وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ؛ أمؤمن أنت ؟ فقال له : الإيمان إيمانان ، فإن كنت

تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به

مؤمن .

وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ

قُلُوبُهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ فوالله ما أدري أنا منهم أم لا .

وقال أبو بكر الواسطيّ : من قال أنا مؤمن بالله حقاً ؛ قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف

واطلاع وإحاطة ؛ فمن فقد به بطل دعواه فيها .

يريد بذلك ما قاله أهل السنة : إن المؤمن الحقيقي من كان محكوماً له بالجنة ، فمن لم يعلم

ذلك من سرّ حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقاً غير صحيح . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾



وقال الخازن :

﴿ أولئك ﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿ هم المؤمنون حقاً ﴾ يعني يقيناً لا شك في إيمانهم  
قال ابن عباس برؤا من الكفر .

وقال قتادة : استحقوا الإيمان وأحقه الله لهم وفيه دليل على انه لا يجوز أن يصف أحد  
نفسه بكونه مؤمناً حقاً لأن الله سبحانه وتعالى إنما وصف بذلك أقواماً مخصوصين على  
أوصاف مخصوصة وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه وهذا يتعلق بمسألة  
أصولية وهي أن العلماء اتفقوا على أنه يجوز للرجل أن يقول أنا مؤمن واختلفوا في أنه هل  
يجوز له أن يقول أنا مؤمن حقاً أم لا ؟ فقال أصحاب الإمام أبي حنيفة : الأولى أن يقول أنا  
مؤمن حقاً ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله واستدلوا على صحة هذا القول بوجهين :  
الأول : أن المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك إن شاء الله وكذا القول في القائم والقاعد ،  
فكذلك هذه المسألة يجب فيها أن يكون المؤمن مؤمناً حقاً ، ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن إن  
شاء الله .

الوجه الثاني : أنه سبحانه وتعالى قال ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ فقد حكم الله لهم  
بكونهم مؤمنين حقاً وفي قوله أنا مؤمن إن شاء الله تشكيك فيما قطع الله لهم به وذلك لا  
يجوز وقال أصحاب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه الأولى أن يقول الرجل أنا مؤمن إن

شاء الله واحتجوا لصحة هذا القول بوجوه: الأول أن الإيمان عندهم عبارة عن الاعتقاد والإقرار والعمل وكون الإنسان آتياً بالأعمال الصالحة المقبولة أمر مشكوك فيه والشك في أحد أجزاء الماهية يوجب الشك في الماهية فيجب أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله وإن كان اعتقاده وإقراره صحيحاً وعند أصحاب أبي حنيفة أن الإيمان عبارة عن الاعتقاد فيخرج العمل من مسمى الإيمان فلم يلزم حصول الشك .

(217/305)

---

الوجه الثاني: أن قولنا أنا مؤمن إن شاء الله ليس هو على سبيل الشك ولكن إذا قال الرجل أنا مؤمن فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب فإذا قال: إن شاء الله زال عنه ذلك العجب وحصل له الانكسار .

روي أن أبا حنيفة قال لقتادة: لم استثيت في إيمانك؟ فقال قتادة: اتبعا لإبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ فقال أبو حنيفة هلا اقتديت به في قوله أو لم تؤمن؟ قال: بلى فانقطع قتادة قال بعضهم كان لقتادة أن يقول إن إبراهيم قال بعد قوله بلى ولكن ليطمئن قلبي فطلب .

مزيد الطمانينة .

الوجه الثالث : أن الله سبحانه وتعالى ذكر في أول الآية إنما المؤمنون ولفظة إنما تفيد الحصر  
يعني إنما المؤمنون الذين هم كذا وكذا وذكر بعد ذلك أوصافاً خمسة وهي الخوف من الله  
والإخلاص لله والتوكل على الله والإتيان بالصلاة كما أمر الله سبحانه وتعالى وإيتاء الزكاة  
كذلك ثم بعد ذلك قال : أولئك هم المؤمنون حقاً يعني أن من أتى بجميع هذه الأوصاف كان  
مؤمناً حقاً ولا يمكن لأحد أن يقطع بمحصل هذه الصفات له فكان الأولى له أن يقول أنا مؤمن  
إن شاء الله .

وقال ابن أبي نجيح : سألت رجل الحسن فقال أمؤمن أنت ؟ فقال الحسن : إن كنت سألتني  
عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا  
بها مؤمن وإن كنت سألتني عن قوله إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا  
أدري أنا منهم أم لا .

وقال علقمة : كنا في سفر فلقينا قوم فقلنا من القوم ؟ فقالوا نحن المؤمنون حقاً فلم ندر ما  
نجيهم حتى لقينا عبد الله بن مسعود فأخبرناه بما قالوا قال فما رددتم عليهم قلنا لم نرد  
عليهم شيئاً قال هلاقتهم لهم أمن أهل الجنة أتم إن المؤمنين هم أهل الجنة ؟ وقال سفيان  
الثوري : من زعم أنه مؤمن حقاً عند الله ثم لم يشهد أنه في الجنة فقد آمن بنصف الآية دون  
النصف الآخر .

الوجه الرابع: إن قولنا أنا مؤمن إن شاء الله للتبرك لا للشك فهو كقوله ( صلى الله عليه

وسلم ): " وإنا إن شاء الله بكم لاحقون " مع العلم القطعي أنه لاحق بأهل القبور .

الوجه الخامس: إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقاً إلا إذا ختم له بالإيمان ومات عليه وهذا لا

يحصل إلا عند الموت ، فهذا السبب حسن أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله .

فالمراد صرف هذا الاستثناء إلى الخاتمة .

وأجاب أصحاب هذا القول ، وهم أصحاب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنهم ، عن

استدلال أصحاب أبي حنيفة م بقولهم : إن المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك إن شاء الله

بأن الفرق بين وصف الإنسان بكونه مؤمناً وبين وصفه بكونه متحركاً أن الإيمان يتوقف

حاله على الخاتمة والحركة فعل يقيني فحصل الفرق بينهما والجواب عن الوجه الثاني وهو

قولهم إنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ فقد حكم لهم بكونهم

مؤمنين حقاً أنه تعالى حكم للموصفين بتلك الصفات المذكورة في الآية بكونهم مؤمنين حقاً

إذا أتوا بتلك الأوصاف الخمسة ولا يقدر أحد أن يأتي بتلك الأوصاف على الحقيقة ونحن

نقول أيضاً إن من أتى بتلك الأوصاف على الحقيقة كان مؤمناً حقاً ولكن لا يقدر على ذلك

أحد والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

وقوله تعالى : ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ يعني لهم مراتب بعضها أعلى من بعض لأن

المؤمنين تتفاوت أحوالهم في الأخذ تلك الأوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت مراتبهم في الجنة لأن درجات الجنة على قدر الأعمال .

(219/305)

---

قال عطاء : درجات الجنة يرتقون فيها بأعمالهم ، وقال الربيع بن أنس : درجات الجنة سبعون درجة ما بين الدرجتين حضر الفرس المضمّر سبعين سنة وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام " أخرجه الترمذي وله عن أبي سعيد أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) قال " إن في الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لو سعتهم " ❀ ومغفرة ❀ يعني ولهم مغفرة لذنوبهم ❀ ورزق كريم ❀ يعني ما أعدّ لهم في الجنة وصفه بكونه كريماً منافعه حاصلة لهم دائماً عليهم مقرونة بالإكرام والتعظيم . انتهى انتهى . اهـ ❀ تفسير الخازن ح 3 ص ❀

(220/305)

---

وقال أبو حيان :

﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ قال ابن عطية ﴿ حقا ﴾ مصدر مؤكد كذا نص عليه  
سيبويه وهو المصدر غير المنتقل والعامل فيه أحق ذلك حقا انتهى ، ومعنى ذلك أنه تأكيد  
لما تضمنته الجملة من الإسناد الخبري وأنه لا مجاز في ذلك الإسناد .  
وقال الزمخشري ﴿ حقا ﴾ صفة للمصدر المحذوف أي ﴿ أولئك هم المؤمنون ﴾ إيمانا  
حقا وهو مصدر مؤكد للجملة التي هي أولئك هم المؤمنون كقوله هو عبد الله حقا أي حق  
ذلك حقا .

وعن الحسن أنه سأله رجل أمؤمن أنت قال : الإيمان إيمانان فإن كانت تسألني عن الإيمان  
بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا مؤمن ،  
وإن كنت تسألني عن قوله ﴿ إنما المؤمنون ﴾ فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا وأبعد من زعم  
أن الكلام ثم عند قوله ﴿ أولئك هم المؤمنون ﴾ وأن ﴿ حقا ﴾ متعلق بما بعده أي ﴿  
حقا لهم درجات ﴾ وهذا لأن انتصاب حقا على هذا التقدير يكون عن تمام جملة  
الابتداء بمكان التأخير عنها لأنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة فلا يجوز تقديمه وقد أجازوه  
بعضهم وهو ضعيف .

﴿ لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ لما تقدمت ثلاث صفات قلبية وبدنية  
ومالية ترتب عليها ثلاثة أشياء فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات ، والبدنية بالغفران ،

وفي الحديث أن رجلاً أتى من امرأة أجنبية ما يأتيه الرجل من أهله غير الوطاء ، فسأله الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) لما أخبر بذلك أصليت معنا فقال نعم فقال له : وقولت المالية بالرزق بالكريم وهذا النوع من المقابلة من بديع علم البيان .

(221/305)

---

وقال ابن عطية والجمهور : إن المراد مراتب الجنة ومنازلها ودرجاتها على قدر أعمالهم ، وحكى الطبري عن مجاهد أنها درجات أعمال الدنيا وقوله ﴿ ورزق كريم ﴾ يريد به ما أكل الجنة ومشاربها و ﴿ كريم ﴾ صفة تقتضي رفع المقام كقوله ثوب كريم وحسب كريم ، وقال الزمخشري درجات شرف وكرامة وعلو منزلة ومغفرة وتجاوز لسيئاتهم ورزق كريم ونعيم الجنة منافع حسنة دائمة على سبيل التعظيم وهذا معنى الثواب انتهى .

وقال عطاء درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم ، وقال الربيع بن أنس سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس المضممر سبعين سنة وقيل مراتب ومنازل في الجنة بعضها على بعض ، وفي الحديث " أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما يتراءى الكوكب الدرّي " وثلاثة الأقوال هذه تدل على أنه أريد الدرجات حقيقة وعن مجاهد درجات أعمال رفيعة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى من ذكرت صفاتهم الحميدة من حيث أنهم متصفون بها ، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك عن عداهم أكمل تميز منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة ، وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلور تبتهم وبعده منزلتهم في الشرف ﴿ هم المؤمنون حقاً ﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه ما فصل من أفاضل الأعمال القلبية والقلبية ، وحقاً صفة لمصدر محذوف ، أي أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً ، أو مصدر مؤكد للجملة أي حق ذلك حقاً كقولك : هو عبد الله حقاً ﴿ لهم درجات ﴾ من الكرامة والزلفى وقيل : درجات عالية في الجنة ، وهو إما جملة مبتدأة مبنية على سؤال نشأ من تعداد مناقبهم كأنه قيل : ما لهم بمقابلة هذه الخصال ؟ فقيل : لهم كيت وكيت أو خبر ثانٍ لأولئك ، وقوله تعالى : ﴿ عند ربهم ﴾ إما متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي كائنة عنده تعالى أو بما تعلق به الخبر أعني لهم من الاستقرار ، وفي إضافة الظرف إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد تشريف ولطف لهم وإيدان بأن ما وعد لهم متيقن الثبوت والحصول مأمون الفوات ﴿



وَمَغْفِرَةٌ ﴿۱﴾ لِمَا فَرَطَ مِنْهُمْ ﴿۲﴾ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿۳﴾ لَا يَنْقُضِي أَمْدُهُ وَلَا يَنْتَهِي عَدْدُهُ وَهُوَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ﴾

(223/305)

وقال الأوسى :

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

﴿ أولئك ﴾ أي المتصفون بما ذكر من الفات الحميدة من حيث إنهم كذلك ﴿ هم ﴾

المؤمنون حقاً ﴿ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه ما فضل من أفاضل الأعمال .

وأخرج الطبراني عن الحرث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال له : " كيف أصبحت يا حارث قال : أصبحت مؤمناً حقاً فقال صلى الله عليه

وسلم : انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن

الدنيا فاسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر

إلى أهل النار يتصارخون فيها قال عليه الصلاة والسلام : يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً "

ونصب ﴿ حقاً ﴾ على أنه صفة مصدر محذوف فالعامل فيه المؤمنون أي إيماناً حقاً أو

هو مؤكداً لمضمون الجملة فالعامل فيه حق مقدر ، وقيل : إنه يجوز أن يكون مؤكداً لمضمون

الجملة التي بعده فهو ابتداء كلام ، وهو مع أنه خلاف الظاهر إنما يتجه على القول بجواز تقديم المصدر المؤكد لمضمون الجملة عليها والظاهر منعه كالتأكيد ، واستدل بعضهم بالآية على أنه لا يجوز أن يصف أحد نفسه بكونه مؤمناً حقاً لأنه سبحانه وتعالى : إنما وصف بذلك أقواماً على أوصاف مخصوصة وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه بل يلزمه أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله تعالى .

(224/305)

---

وقرر بعضهم وجه الاستدلال بما يشير إليه ما روى عن الثوري أنه قال : من زعم أنه مؤمن بالله تعالى حقاً ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية ولم يؤمن بالنصف الآخر ، وهذا ظاهر في أن مذهبه الاستثناء ، وهو كما قال الإمام مذهب ابن مسعود وتبعه جمع عظيم من الصحابة والتابعين ، وبه قال الشافعي ونسب إلى مالك وأحمد ، ومنعه الإمام الأعظم رضي الله تعالى عنه ؛ وروى عنه أنه قال لقتادة : لم تستني في إيمانك ؟ قال : اتبعت لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [ الشعراء : 82 ] فقال له : هلا اقتديت به في قوله بلى حين قيل له ﴿ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ ﴾ [ البقرة : 260 ] ؟ فانقطع قتادة ؛ قال الرازي كان لقتادة أن يجيب أبا حنيفة عليهما الرحمة

ويقول: قول إبراهيم عليه السلام ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ بعد قوله بلى طلب لمزيد  
الطمأنينة وذلك يدل على جواز الاستثناء .

(225/305)

---

وفي "الكشف" أن الحق أن من جوز الاستثناء إنما جوز إذا سئل عن الايمان مطلقاً أما إذا  
قيل: هل أنت مؤمن بالقدر مثلاً فقال: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى لا يجوز لأن التبرك لا  
معنى له بل للإبهام فيما ليس له فائدة، وأما في الأول فلما كان الإطلاق يدل على الكمال  
وهو الايمان المنتفع به في الآخرة علق بالمشيئة نفاؤلاً وتيمناً، وذلك لأن الكلمة خرجت  
عن موضوعها الأصلي إلى المعنى الذي ذكر في عرف الاستعمال تراهم يستعملونها في كل  
ما لهم اهتمام بمحصله شائعاً بين العرب والعجم فلا وجه لقول من قال: إن معنى التبرك أنا  
أشك في إيماني تبركاً وذلك لأن المشيئة عنده غير مشكوكة عنده بل هو تعليق بما لا بد منه  
نظراً إلى أنه السبب الأصلي وأنه تفويض من العبد إلى الله تعالى ومن فوض كفي لا نظراً إلى  
أن المشيئة غيب غير معلوم فيكون شكاً في الايمان، وقد جاء "من شك في إيمانه فقد كفر"  
وما أحسن ما نقل عن الحسن أن رجلاً سأله أمؤمن أنت؟ فقال: الايمان إمامان فإن كنت  
تسألني عن الايمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث

والحساب فأنا مؤمن وإن كنت تسألني عن قوله تعالى

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال: 2] الخ فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا؟ وهذا ونحوه ما يجعل

الخلافاً لفظياً ، وقد صرح بذلك جمع من المحققين عليهم الرحمة .

(226/305)

﴿ لَهُمْ درجات عند ربهم ﴾ أي كرامة وعلو مكانة على أن يراد بالدرجات العلو المعنوي

وقد يراد بها العلو الحسي ، وفي الخبر عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه

وسلم قال : " في الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم " وعن الربيع

بن أنس " سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس المضمّر سبعين سنة " ووجه الجمع

على الوجهين ظاهر ، والتنوين للتفخيم والظرف ، إما متعلق بمحذوف وقع صفة لها مؤكدة

لما أفاده التنوين أو بما تعلق به الخبر أعني لهم من الاستقرار .

وجوز أبو البقاء أن يكون العامل فيه ﴿ درجات ﴾ لأن المراد بها الأجور ، وفي إضافته

إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد تشريف لهم ولطف بهم وإيدان بأن ما وعدهم متيقن

الثبوت مأمون الفوات ، والجملة جوز أن تكون خبراً ثانياً لأولئك وأن تكون مبتدأة مبنية

على سؤال نشأ من تعدد مناقبهم كأنه قيل : ما لهم بمقابلة هذه الخصال ؟ فقيل : لهم

درجات ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة لما فرط منهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو ما أعطاهم من

نعيم الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد القرظي قال : إذا سمعت الله تعالى يقول رزق كريم فهو

الجنة .

والكرم كما نقل الواحدي اسم جامع لكل ما يحمد ويستحسن في بابه فاعل وصف الرزق به

هنا حقيقة .

(227/305)

---

وقال بعض المحققين : معنى كون الرزق كريماً أن رازقه كريم ، ومن هنا وصفوه بالكثرة وعدم

الانقطاع إذ من عادة الكريم أن يجزل العطاء ولا يقع فكيف بأكرم الأكرمين تبارك وتعالى ،

وجعله نفسه كريماً على الإسناد المجازي للمبالغة ، ولم يذكر والتوسيط المغفرة ، والظاهر

كما قيل تقديمها هنا نكتة ، وربما يقال في وجه ذكر هذه الأشياء الثلاثة على هذا الوجه أن

الدرجات في مقابلة الأوصاف الثلاثة أعني الوجل والإخلاص والتوكل ، ويستأنس له

بالجمع والمغفرة في مقابلة إقامة الصلاة ويستأنس له بما ورد في غير ما خبر أن الصلوات

مكفرات لما بينها من الخطايا وأنها تنقى الشخص من الذنوب كما ينقى الماء من الدنس ،

والرزق الكريم بمقابلة الانفاق ، والمناسبة في ذلك ظاهرة ، وإلى هذا يشير كلام أبي حيان  
أويقال : قدم سبحانه الدرجات لأنها بمحض الفضل ، وذكر بعدها المغفرة لأنها أهم  
عندهم من الرزق مع اشتراكهما في كونهما في مقابلة شيء ، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبي  
حاتم .

وأبو الشيخ عن ابن زيد أنه قال في الآية : المغفرة بترك الذنوب والرزق الكريم بالأعمال  
الصالحة قدبر والله تعالى أعلم بأسرار كلامه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص  
﴿

(228/305)

وقال القاسمي :

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

أي : لا شك في إيمانهم .

و: ﴿ حَقًّا ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أي : إيماناً حقاً أو مصدر مؤكد للجمله ، أي :

حق ذلك حقاً ، كقولك ، هو عبد الله حقاً .

قال عمرة بن مرة في هذا الآية : إنما أنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيد حقاً ،

وفي القوم سادة ، وفلان تاجر حقا ، وفي القوم تجار ، وفلان شاعر حقا ، وفي القوم شعراء . انتهى .

وكأنه أراد الرد على من زعم أن حقا من صلة قوله : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ بعد ، تأكيدا له ، وأن الكلام تم عند قوله

﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، فإن هذا الزعم يصاب عند أسلوب التنزيل الحكيم .

وقد تطرف بعض المفسرين هنا لمسألة شهيرة وهي : هل يجوز أن يقال : أنا مؤمن حقا .

قال الطوسي في " نقد المحصل " : المعتزلة ومن تبعهم يقولون : اليقين لا يحتمل الشك والزوال

، فقول القائل : أنا مؤمن إن شاء الله لا يصح إلا عند الشك ، أو خوف الزوال . وما يوهم

أحدهما ، لا يجوز أن يقال للتبرك . انتهى .

والغزالي في الإحياء ، بسط هذه المسألة ، وأجاب عن سوغ ذلك بأجوبة :

منها : التخوف من الخاتمة ، لأن الإيمان موقوف على سلامة الخاتمة .

ومنها : الإحتراس من تزكية النفس .

ومنها : غير ذلك ، انظره بطوله .

وقال ابن حزم في " الفصل " : القول عندنا في هذه المسألة ؛ أن هذه صفة يعلمها المرء من

نفسه ، فإن كان يدري أنه مصدق بالله عز وجل ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبكل

ما أتى به ، وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك ، كما أمر تعالى في قوله  
: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

(229/305)

---

ولا نعمة أوكد ولا أفضل ، ولا أولى بالشكر ، من نعمة الإسلام ، فواجب عليه أن يقول : أنا  
مؤمن مسلم قطعاً عند الله تعالى في وقتي هذا .  
ولا فرق بين قوله أنا مؤمن مسلم ، وبين قوله أنا أسود أو أنا أبيض ، وهكذا سائر صفاته التي  
لا يشك فيها ، وليس هذا من باب الإمتداح والعجب في شيء ، لأنه فرض عليه أن يحقن  
دمه بشهادة التوحيد .

وقول ابن مسعود : أنا مؤمن إن شاء الله عندنا صحيح ، لأن الإسلام والإيمان إسمان  
منقولان عن موضوعهما في اللغة ، إلى جميع البر والطاعات .  
فإنما منع ابن مسعود الجزم على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات ، وهذا صحيح .  
ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلاشك ، وما منع أن يقول المرء إني مؤمن بمعنى مصدق  
.  
وأما قول المانعين : من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة فالجواب : إنا نقول إن متنا على



ما نحن عليه الآن ، فلا بد لنا من الجنة بلا شك .

وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنن والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وبكل ما جاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه في الجنة إلا أننا لا ندري ما يفعل بنا في الدنيا ، ولا نؤمن مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان ؛ ولا ندري ماذا نكسب غداً ، ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى كلام ابن حزم رحمه الله .  
ولقد أجاد فيما أفاد .

وقوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي : منازل ومقامات عاليات في الجنة ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أي : تجاوز لسيئاتهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو ما أعد لهم من نعمي الجنة .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على أشياء :

منها : أن الإيمان إسم شرعي لثلاث خصال : القول ، والإعتقاد ، والعمل ، خلاف ما تقوله المرجئة ، لأن الوجل وزيادة التصديق من فعل القلب ، والتدبير والتفكير كذلك ، والصلاة والإنفاق من أعمال الجوارح ، والتوكل يشتمل على فعل القلب والجوارح .  
ثم بين في آخره أن من جمع هذه الخصال فهو المؤمن حقاً .

(230/305)

---

ومنها : أن الواجب عند تلاوة القرآن التدبر والتفكير فيما أمر ونهى ، ووعد وأوعد ، لينجر للرغبة والرغبة ، وذلك حث على الطاعة ، وزجر عن المعاصي .

ومنها : وجوب التوكل عليه ، والتوكل على ضريين : منها في الدنيا ، ومنها في الدين .  
أما في الدنيا فلا بد من خصال :

منها : أن يطلب مصالح دنياه من الوجه الذي أتيح له ، ولا يطلب محرماً  
ومنها : إذا حرم الرزق الحلال لا يعدل إلى محرم .

ومنها : ألا يظهر الجزع عند الضيق ، بل يسلك فيه طريق الصبر ، واعتقاد أن ما هو فيه  
مصلحة له .

ومنها : أن ما يرزق من النعم بعدها من جهته تعالى ، إما بنفسه أو بواسطة .  
ومنها : ألا يحسبه عن حقوقه خشية الفقر .

ومنها : ألا يسرف في النفقة ولا يفتقر .

فعند اجتماع هذه الخصال يصير متوكلاً .

فأما الذي يزعمه بعضهم ؛ أن التوكل إهمال النفس ، وترك العمل ، فليس بشيء .

وقد أمر الله تعالى بالإنفاق ، وبالعمل ، وثبت عن الصحابة

- وهم سادات الإسلام - التجارة والزراعة والأعمال ، وكذلك التابعين ، وبهذا أجرى الله

العادة .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي أن يعقل ناقته ويتوكل .

فأما التوكل في الدين فخصال :

منها : أن يقوم بالواجبات ، ويجتنب المحارم ، لأنه بذلك يصل إلى الجنة والرحمة .

ومنها : أن يسأله التوفيق والعصمة .

ومنها : أن يرى جميع نعمه منه ، إذا حصل بهدأته وتمكينه ولطفه .

ومنها : أن لا يثق بطاعته جملة ، بل يطيع ويجتنب المعاصي ، ويرجو رحمة ربه ، ويخاف

عذابه ، فعند ذلك يكون متوكلاً .

ثم قال الجشمي : وتدل الآية على أن تارك الصلاة والزكاة لا يكون مؤمناً ، خلاف قول

المرجئة . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 8 ص 263-266 ﴾

(231/305)

---

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

(وَهِيَ السُّورَةُ الثَّامِنَةُ فِي الْعَدَدِ ، وَوُضِعَتْ مَوْضِعَ السَّابِعَةِ مِنَ السَّبْعِ الطَّوَالِ مَعَ أَنَّهَا مِنْ  
الْمَثَانِي ، وَهِيَ دُونَ الْمِئِينَ الَّتِي تَلِي الطَّوَالِ ، لِمَا سَيَأْتِي . وَعَدَدُ آيَاتِهَا 75 آيَةً)

(232/305)

سُورَةُ الْأَنْفَالِ مَدِينَةٌ كَلَّمَا كَمَا رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ وَعِكْرَمَةَ وَجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ ، وَعَطَاءٍ وَعَبْدِ اللَّهِ  
بِزَيْرِ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ ، وَفِي لَفْظٍ : تِلْكَ سُورَةُ بَدْرٍ  
، وَقِيلَ : إِنَّهَا مَدِينَةٌ إِلَّا آيَةٌ 64 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ رَوَى  
الْبَزَّازُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَعَلَى هَذَا  
وُضِعَتْ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ ، وَقُرِئَتْ مَعَ آيَاتِهَا الَّتِي نَزَلَتْ فِي التَّحْرِيزِ عَلَى الْقِتَالِ فِي غَزْوَةِ  
بَدْرٍ لِمُنَاسِبَتِهَا لِلْمَقَامِ . وَرُوِيَ عَنِ الْمُقَاتِلِ اسْتِثْنَاءَ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
(30) الْآيَةَ لِأَنَّ مَوْضُوعَهَا ائْتِمَارُ قُرَيْشٍ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبَيْلَ الْهَجْرَةِ ، بَلْ فِي  
اللَّيْلَةِ الَّتِي خَرَجَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
بِقَصْدِ الْهَجْرَةِ ، وَبَاتَا فِي الْغَارِ ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْمَعْنَى ، وَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ  
الْآيَةَ نَفْسَهَا نَزَلَتْ فِي الْمَدِينَةِ . وَزَادَ بَعْضُهُمْ عَنْهُ اسْتِثْنَاءَ خَمْسِ آيَاتٍ أُخْرَى بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ  
أَيُّ إِلَى الْآيَةِ 35 لِلْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَنْفًا ، وَهُوَ أَنَّ مَوْضُوعَهَا حَالُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ ،

وَهَذَا لَا يُقْتَضَى نُزُولُهَا فِي مَكَّةَ، بَلْ ذَكَرَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ . وَكُلُّ مَا نَزَلَ بَعْدَ  
خُرُوجِ النَّبِيِّ صَلَّى

(233/305)

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهَاجِرًا فَهُوَ مَدَنِيٌّ .  
وَوَجْهُ مُنَاسَبَتِهَا لِسُورَةِ الْأَعْرَافِ : أَنَّهَا فِي بَيَانِ حَالِ خَاتِمِ الْمُرْسَلِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
مَعَ قَوْمِهِ ، وَسُورَةُ الْأَعْرَافِ مُبَيِّنَةٌ لِأَحْوَالِ أَشْهُرِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ ، هَذَا هُوَ الْعُمْدَةُ .  
وَهُنَاكَ تَنَاسُبٌ خَاصٌّ يُبَيِّنُ عِدَّةَ آيَاتٍ مِنَ السُّورَتَيْنِ يُقَوِّي هَذَا التَّنَاسُبَ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ  
يَكُونَ شَيْءٌ مِنْهُ سَبَبًا لِلْمُقَارَنَةِ بَيْنَهُمَا ؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِتْفَاقِ فِي بَعْضِ  
الْمَعَانِي مُكَرَّرٌ فِي أَكْثَرِ السُّورِ الْكَبِيرَةِ ، وَأَنْقَلُ هُنَا عَنْ رُوحِ الْمَعَانِي مَا نَقَلَهُ عَنِ السِّيُوطِيِّ  
فِي وَضْعِ هَذِهِ السُّورَةِ هُنَا وَمَا تَعَقَّبَهُ بِهِ وَهُوَ : " وَالظَّاهِرُ أَنَّ وَضْعَهَا هُنَا تَوْقِيفِيٌّ ، وَكَذَا  
وَضْعُ بَرَاءَةِ بَعْدَهَا ، وَهُمَا مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ كَسَائِرِ السُّورِ ، وَإِلَى ذَلِكَ ذَهَبَ غَيْرُ وَاحِدٍ  
كَمَا مَرَّ فِي الْمُقَدِّمَاتِ ، وَذَكَرَ الْجَلَالُ السِّيُوطِيُّ أَنَّ ذِكْرَ هَذِهِ السُّورَةِ هُنَا لَيْسَ بِتَوْقِيفٍ مِنْ  
الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، كَمَا هُوَ الْمُرْجَّحُ فِي سَائِرِ السُّورِ  
، بَلْ بِاجْتِهَادٍ مِنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، وَقَدْ كَانَ يَظْهَرُ فِي بَادِيِ الرَّأْيِ أَنَّ الْمُنَاسِبَ

إِبِلَاءُ الْأَعْرَافِ يُؤْنَسُ وَهُوَ دَلِيلٌ لِشَرَاكِ كُلِّ فِي اسْتِمَالِهَا عَلَى قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ ، وَأَنَّهَا مَكِّيَّةٌ النَّزُولِ خُصُوصًا أَنَّ الْحَدِيثَ

(234/305)

وَرَدَّ فِي فَضْلِ السَّبْعِ الطَّوَالِ ، وَعَدُّوا السَّابِعَةَ يُؤْنَسُ وَكَانَتْ تُسَمَّى بِذَلِكَ كَمَا أَخْرَجَهُ  
الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ ، فِي فَضْلِهَا مِنَ الْأَعْرَافِ بِسُورَتَيْنِ فَضْلٌ لِلنَّظِيرِ مِنْ سَائِرِ نَظَائِرِهِ ، هَذَا  
مَعَ قِصْرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَعْرَافِ وَبِرَاءَةٍ ، وَقَدْ اسْتَشْكَلَ ذَلِكَ قَدِيمًا حَبْرُ الْأُمَّةِ  
رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، فَقَالَ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ : مَا حَمَلَكُمْ عَلَى أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى  
الْأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي ، وَإِلَى بَرَاءَةٍ وَهِيَ مِنَ الْمِئِينَ ، فَقرَّتمْ بَيْنَهُمَا وَلَمْ تَكْتُبُوا الْبِسْمَلَةَ  
بَيْنَهُمَا وَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطَّوَالِ ؟ ثُمَّ ذَكَرَ جَوَابَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، وَقَدْ  
أَسْلَفْنَا الْخَبَرَ بِطُولِهِ سُؤلاً وَجَوَاباً ثُمَّ قَالَ : وَأَقُولُ : يَنْبَغُ مَقْصِدُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ  
فِي ذَلِكَ بِأَمْرِ فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا : (الْأَوَّلُ) أَنَّهُ جَعَلَ الْأَنْفَالَ قَبْلَ بَرَاءَةٍ مَعَ قِصْرِهَا ؛ لِكَوْنِهَا  
مُشْتَمِلَةً عَلَى الْبِسْمَلَةِ ، فَقَدَّمَهَا لِتَكُونَ كَقِطْعَةٍ مِنْهَا وَمُفْتَحِهَا ، وَتَكُونَ بَرَاءَةً - لِخُلُوقِهَا مِنْ  
الْبِسْمَلَةِ - كَتَمْتَهَا وَبَقِيَّتَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِنَّهَا سُورَةٌ وَاحِدَةٌ .

(الثاني) وَضَعُ بَرَاءَةٌ هُنَا لِمُنَاسَبَةِ الطُّوْلِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ السِّتِّ السَّابِقَةِ سُورَةٌ أَطْوَلُ مِنْهَا ،  
وَذَلِكَ كَافٍ فِي الْمُنَاسَبَةِ .

(235/305)

(الثالثة) أَنَّهُ خَلَلَ بِالسُّورَتَيْنِ اثْنَاءَ السَّبْعِ الطُّوَالَ الْمَعْلُومِ تَرْتِيبُهَا فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ لِلإِشَارَةِ إِلَى  
أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ صَادِرٌ لَا عَنْ تَوْقِيفٍ ، وَإِلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبِضَ قَبْلَ أَنْ  
يُبَيِّنَ كِلَيْهِمَا ، فَوَضِعَا هُنَا كَالْوَضْعِ الْمُسْتَعَارِ بِخِلَافِ مَا لَوْ وُضِعَا بَعْدَ السَّبْعِ الطُّوَالَ فَإِنَّهُ  
كَانَ يُوهِمُ أَنَّ ذَلِكَ مَحَلُّهُمَا بِتَوْقِيفٍ ، وَلَا يُتَوَهَّمُ هَذَا عَلَى هَذَا الْوَضْعِ ، لِلْعِلْمِ بِتَرْتِيبِ  
السَّبْعِ ، فَانظُرْ إِلَى هَذِهِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ، وَلَا يَغُوصُ عَلَيْهَا إِلَّا غَوَاصٌ .

(236/305)

(الرابع) أَنَّهُ لَوْ أَخَّرَهُمَا وَقَدَّمَ يُونُسَ ، وَأَتَى بَعْدَ " بَرَاءَةٌ " بِهَوْدٍ كَمَا فِي مُصْحَفِ أَبِي زَلْمَرَعَةَ  
مُنَاسَبَةِ السَّبْعِ ، وَإِيلَاءِ بَعْضِهَا بَعْضًا لَفَاتَ مَعَ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ أَمْرٌ آخِرٌ أَكْدُ فِي الْمُنَاسَبَةِ ، فَإِنَّ  
الْأُولَى بِسُورَةِ يُونُسَ أَنْ يُؤْتَى بِالسُّورِ الْخَمْسِ الَّتِي بَعْدَهَا لَمَّا اشْتَرَكَتْ فِيهِ مِنَ الْمُنَاسَبَاتِ

مِنَ الْقِصَصِ ، وَالْاِفْتِاحِ بِـ "الر" ، وَبِذِكْرِ الْكِتَابِ ، وَمِنْ كَوْنِهَا مَكِّيَّاتٍ ، وَمِنْ تَنَاسُبِ مَا  
عَدَا الْحِجْرَ فِي الْمِقْدَارِ ، وَمِنْ التَّسْمِيَةِ بِاسْمِ نَبِيِّ ، وَالرَّعْدِ اسْمُ مَلِكٍ ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ  
لِاسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . فَهَذِهِ عِدَّةٌ مُنَاسِبَاتٍ لِلاتِّصَالِ بَيْنَ يُونُسَ وَمَا بَعْدَهَا  
، وَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ الْوَاحِدِ فِي تَقْدِيمِ يُونُسَ بَعْدَ الْأَعْرَافِ . وَبَعْضُ هَذِهِ الْأُمُورِ  
قُدِّمَتْ سُورَةُ الْحِجْرِ عَلَى النَّحْلِ مَعَ كَوْنِهَا أَقْصَرَ مِنْهَا ، وَلَوْ أُخِّرَتْ بَرَاءَةٌ عَنْ هَذِهِ السُّورِ  
الَّتِي لَبَعْدَتْ الْمُنَاسِبَةَ جِدًّا لِطُولِهَا بَعْدَ عِدَّةِ سُورٍ أَقْصَرَ مِنْهَا بِخِلَافِ وَضْعِ سُورَةِ النَّحْلِ  
بَعْدَ الْحِجْرِ ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ كِبْرَاءَةً فِي الطُّولِ .

(237/305)

---

" وَيَشْهَدُ لِمُرَاعَاةِ الْفَوَاحِشِ فِي مُنَاسِبَةِ الْوَضْعِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَقْدِيمِ الْحِجْرِ عَلَى النَّحْلِ  
لِمُنَاسِبَةِ (الر) قَبْلِهَا ، وَمَا تَقَدَّمَ مِنْ تَقْدِيمِ آلِ عِمْرَانَ عَلَى النِّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَتْ أَقْصَرَ مِنْهَا  
لِمُنَاسِبَتِهَا الْبَقْرَةَ فِي الْاِفْتِاحِ بِـ "الم" وَتَوَالِي الطَّوَّاسِينَ وَالْحَوَامِيمِ ، وَتَوَالِي الْعَنْكَبُوتِ وَالرُّومِ  
وَلِقْمَانَ وَالسَّجْدَةَ  
لِاِفْتِاحِ كُلِّ : "الم" وَلِهَذَا قُدِّمَتْ السَّجْدَةُ عَلَى الْأَحْزَابِ الَّتِي هِيَ أَطْوَلُ مِنْهَا . هَذَا مَا فَتَحَ  
اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ .



"ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدَّمَ فِي مُصْحَفِهِ الْبَقْرَةَ وَالنِّسَاءَ وَأَالَ عِمْرَانَ  
وَالْأَعْرَافَ وَالنَّاعِمَ وَالْمَائِدَةَ وَيُونُسَ ، رَاعَى السَّبْعَ الطَّوَالَ فَقَدَّمَ الْأَطُولَ مِنْهَا فَالْأَطُولَ ، ثُمَّ  
تَنَى بِالْمَيْنِ ، فَقَدَّمَ بَرَاءَةَ ثُمَّ النَّحْلَ ثُمَّ هُودًا ثُمَّ يُوسُفَ ثُمَّ الْكَهْفَ وَهَكَذَا الْأَطُولَ فَالْأَطُولُ ،  
وَجَعَلَ الْأَنْفَالَ بَعْدَ النَّورِ ، وَوَجَّهَ الْمُنَاسِبَةَ أَنَّ كَلِمَةَ مَدْيَنَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَحْكَامٍ ، وَأَنَّ فِي  
النُّورِ : وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ (24) :  
(55) آيَةَ ، وَفِي الْأَنْفَالِ : وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ (8 : 26) الْخ .  
وَلَا يَخْفَى مَا بَيْنَ الْآيَتَيْنِ مِنَ الْمُنَاسِبَةِ ، فَالْأُولَى مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْوَعْدِ بِمَا حَصَلَ ، وَذَكَرَ بِهِ فِي  
الثَّانِيَةِ فَتَأَمَّلْ . انْتَهَى كَلَامُ السِّيُوطِيِّ .

(238/305)

(الالوسيُّ) " وَأَقُولُ : قَدْ مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الْحَقِيرِ ، بِمَا لَمْ يُمْنَّ بِهِ عَلَى هَذَا  
الْمَوْلَى الْجَلِيلِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ حَيْثُ أَوْقَفَنِي سُبْحَانَهُ عَلَى وَجْهِ مُنَاسِبَةٍ  
هَذِهِ السُّورَةِ لَمَّا قَبْلَهَا ، وَهُوَ لَمْ يُبَيِّنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ مَا ذَكَرَهُ مِنْ عَدَمِ التَّوْقِيفِ فِي هَذَا الْوَضْعِ فِي  
غَايَةِ الْبُعْدِ كَمَا يُفْهَمُ مِمَّا قَدَّمْنَاهُ فِي الْمُقَدِّمَاتِ ، وَسُؤَالَ الْحَبْرِ وَجَوَابَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ  
تَعَالَى عَنْهُمَا لَيْسَا نَصًّا فِي ذَلِكَ ، وَمَا ذَكَرَهُ - عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ - فِي أَوَّلِ الْأُمُورِ الَّتِي فَتَحَ اللَّهُ

تَعَالَى بِهَا عَلَيْهِ غَيْرُ مُلَائِمٍ بظَاهِرِهِ ظَاهِرَ سُؤَالِ الْحَبْرِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، حَيْثُ أَفَادَ أَنَّ  
إِسْقَاطَ الْبِسْمَلَةِ مِنْ بَرَاءَةِ اجْتِهَادِيٍّ أَيْضًا ، وَاسْتِفَادُ مِمَّا ذَكَرَهُ خِلَافُهُ ، وَمَا ادَّعَاهُ مِنْ أَنَّ  
يُونُسَ سَابِعَةَ السَّبْعِ الطَّوَالِ لَيْسَ أَمْرًا مُجْمَعًا عَلَيْهِ ، بَلْ هُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَأَبْنِ جُبَيْرٍ وَرَوَايَةٌ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا ، وَفِي رَوَايَةٍ عِنْدَ الْحَاكِمِ أَنَّهَا الْكُهْفُ ، وَذَهَبَ  
جَمَاعَةٌ - كَمَا قَالَ فِي إِنْتِقَانِهِ - إِلَى أَنَّ السَّبْعَ الطَّوَالِ أَوْلَاهَا الْبَقْرَةُ وَآخِرُهَا بَرَاءَةٌ وَاقْتَصَرَ ابْنُ  
الْأَثِيرِ فِي النَّهْيَةِ عَلَى هَذَا .

(239/305)

وَعَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ السَّابِعَةَ الْأَنْفَالَ وَبَرَاءَةَ بِنَاءً عَلَى الْقَوْلِ بَأَنَّهَا سُورَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ  
الْفَيْرُوزُ أَبَادِيٌّ فِي قَامُوسِهِ ، وَمَا ذَكَرَهُ مِنَ الْأَمْرِ الثَّانِي يَعْني عَنْهُ مَا عَلَّلَ بِهِ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ  
تَعَالَى عَنْهُ ، فَقَدْ أَخْرَجَ النَّحَّاسُ فِي نَاسِخِهِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : كَانَتْ الْأَنْفَالَ وَبَرَاءَةٌ يُدْعَى عِيَانٌ فِي  
زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَرِينَتَيْنِ ؛ فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُمَا فِي السَّبْعِ الطَّوَالِ ، وَمَا  
ذَكَرَهُ مِنْ مُرَاعَاةِ الْفَوَاتِحِ فِي الْمُنَاسِبَةِ غَيْرِ مُطَرِّدٍ ، فَإِنَّ الْجِنَّ وَالْكَافِرُونَ وَالْإِخْلَاصَ  
مُفْتَحَاتٌ بِ " قُلْ " مَعَ الْفَصْلِ بَعْدَ سُورَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ ، وَالْفَصْلُ بِسُورَتَيْنِ بَيْنَ الثَّانِيَةِ

وَالثَّلَاثَةِ ، وَبَعْدَ هَذَا كَلِمَةٌ لَا يَخْلُو مَا ذَكَرَهُ عَنْ نَظَرٍ كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى الْمُتَأَمِّلِ قِتَامًا . انْتَهَى مَا  
ذَكَرَهُ الْأَلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

(240/305)

---

وَأَقُولُ: إِنَّ جَوَابَ عُثْمَانَ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هُوَ كَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَصْحَابُ  
السُّنَنِ الثَّلَاثَةِ ، وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ  
السُّورُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دُعَا مِنْ كَانَ يَكْتُبُ يَقُولُ : ضَعُوا هَؤُلَاءِ  
الآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا . وَكَانَتِ الْأَنْفَالُ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ ،  
وَكَانَتْ بَرَاءَةً مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ نَزُولًا ، وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً بِقِصَّتِهَا . فَظَنَنْتُ أَنَّ مِنْهَا ،  
فَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّ مِنْهَا . فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَنْتُ  
بَيْنَهُمَا ، وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَوَضَعْتُهُمَا فِي السَّبْعِ الطُّوَالِ " اه

(241/305)

---

وَلَأَجْلَ هَذِهِ الرَّوَايَةِ ذَهَبَ الْبَيْهَقِيُّ إِلَى أَنَّ تَرْتِيبَ جَمِيعِ السُّورِ تَوْقِيفِيٌّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا الْأَنْفَالَ وَبِرَاءَةَ، وَوَأَفَقَهُ السِّيَوطِيُّ . وَيُرَدُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يُعْقَلُ أَنْ يُرْتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمِيعَ السُّورِ إِلَّا الْأَنْفَالَ وَبِرَاءَةَ، وَقَدْ صَحَّ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتْلُو الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي رَمَضَانَ عَلَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ كُلِّ عَامٍ فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الَّذِي تُوْفِّيَ فِيهِ عَارِضَهُ بِالْقُرْآنِ مَرَّتَيْنِ، فَأَيْنَ كَانَ يَضَعُ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ فِي قِرَاءَتِهِ؟ التَّحْقِيقُ أَنَّ وَضْعَهُمَا فِي مَوْضِعِهِمَا تَوْقِيفِيٌّ وَإِنْ فَاتَ عُثْمَانُ أَوْ نَسِيَهُ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَعَارِضَهُ الْجُمْهُورُ أَوْ نَاقَشُوهُ فِيهِ عِنْدَ كِتَابَةِ الْقُرْآنِ كَمَا رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بَعْدَ سِنِينَ مِنْ جَمْعِهِ وَنَشَرَهُ فِي الْأَقْطَارِ .

وَهَذَا الْحَدِيثُ قَالَ التِّرْمِذِيُّ حَسَنٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَوْفِ بْنِ أَبِي جَمِيلَةَ عَنْ يَزِيدِ الْفَارِسِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَيَزِيدُ الْفَارِسِيُّ هَذَا غَيْرُ مَشْهُورٍ اخْتَلَفُوا فِيهِ هَلْ هُوَ يَزِيدُ بْنُ هُرْمُزٍ أَوْ غَيْرُهُ؟ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ غَيْرُهُ، رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَكَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ وَكَانَ كَاتِبَهُ، وَعَنْ الْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ فِي أَمْرِ الْمَصَاحِفِ، وَسُئِلَ عَنْهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فَلَمْ يَعْرِفْهُ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: لَا بَأْسَ بِهِ، أَنْتَهَى مُلَخَّصًا مِنْ تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ .

(242/305)

فَمِثْلُ هَذَا الرَّجُلِ لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ رِوَايَتُهُ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا مِمَّا يُؤْخَذُ بِهِ فِي تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ  
الْمُتَوَاتِرِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ .

(243/305)

رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَأَبْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
قَالَ : مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا ، وَمَنْ أَسْرَأَ سِيرًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا ، فَأَمَّا الْمَشِيخَةُ (أَيِ  
الْمَشَائِخِ) فَتَبَتُوا تَحْتَ الرِّيَاطِ ، وَأَمَّا الشُّبَّانُ فَسَارَعُوا إِلَى الْقَتْلِ وَالْغَنَائِمِ ، فَقَالَتْ  
الْمَشِيخَةُ لِلشُّبَّانِ : " إِنَّا كُنَّا لَكُمْ رِدْعًا وَلَوْ كَانَ مِنْكُمْ شَيْءٌ لَلَجَأْتُمْ إِلَيْنَا ، فَاخْتَصَمُوا إِلَى  
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَذَلِكَ فِي  
غَزْوَةِ بَدْرٍ وَرَوَى أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّهُ قَتَلَ  
سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَاسْتَوْهَبَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنَعَهُ إِيَّاهُ ، وَأَنَّ الْآيَةَ  
نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ وَكُلَّ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ : أَنَّهُمْ  
سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخُمْسِ بَعْدَ الْأَرْبَعَةِ الْأَخْمَاسِ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ،

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي غَنَائِمِ غَزْوَةِ بَدْرٍ تَنَازَعَ فِيهَا حَائِزُوهَا مِنَ الشُّبَّانِ وَسَائِرِ  
الْمُقَاتِلَةِ ، وَقِيلَ : الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ .

قَالَ تَعَالَى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ الْأَنْفَالِ جُمِعَ نَقْلٌ بِالتَّحْرِيكِ وَهُوَ فِي

(244/305)

---

أَصْلُ اللَّغَةِ مِنَ النَّفْلِ - بَفَتْحٍ وَسُكُونٍ - أَيِ الزِّيَادَةِ عَنِ الْوَاجِبِ وَمِنْهُ الصَّلَاةُ النَّفْلُ - قَالَ  
الرَّاعِبُ : النَّفْلُ : هُوَ الْغَنِيمَةُ بَعْضُهَا ، لَكِنْ اخْتَلَفَتِ الْعِبَارَةُ عَنْهُ لِاخْتِلَافِ الْعِتْبَارِ فَإِنَّهُ إِذَا  
اعْتُبِرَ بِكُونِهِ مَظْفُورًا بِهِ ، يُقَالُ : غَنِيمَةٌ ، وَإِذَا اعْتُبِرَ بِكُونِهِ مَنحَةً مِنَ اللَّهِ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ  
وَجُوبٌ يُقَالُ لَهُ :

نَفْلٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا مِنْ حَيْثُ الْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ ، فَقَالَ : الْغَنِيمَةُ كُلُّ مَا حَصَلَ  
مُسْتَعْنَمَا بَتَعَبٍ كَانَ أَوْ بغيرِ تَعَبٍ ، وَبِاسْتِحْقَاقٍ أَوْ بغيرِ اسْتِحْقَاقٍ ، وَقَبْلَ الظَّفَرِ كَانَ أَوْ  
بَعْدَهُ ، وَالنَّفْلُ مَا يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ قَبْلَ الْقِسْمَةِ مِنْ جُمْلَةِ الْغَنِيمَةِ ، وَقِيلَ : هُوَ مَا يَحْصُلُ  
لِلْمُسْلِمِينَ بغيرِ قِتَالٍ وَهُوَ الْفَيْءُ ، وَقِيلَ : مَا يَحْصُلُ مِنَ الْمَتَاعِ قَبْلَ أَنْ تُقَسَّمَ الْغَنَائِمُ ، وَعَلَى  
هَذَا حَمَلُوا قَوْلَهُ : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ الْآيَةَ .

(245/305)

وَالْمَعْنَى: يَسْأَلُونَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ عَنِ الْأَنْفَالِ لِمَنْ هِيَ؟ أَلِلشُّبَّانِ أَمْ لِلْمَشَيْخَةِ؟ أَمْ لِلْمُهَاجِرِينَ  
أَمْ لِلْأَنْصَارِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ أَيُّ: قُلْ لَهُمْ: الْأَنْفَالُ لِلَّهِ يَحْكُمُ فِيهَا بِحُكْمِهِ، وَلِلرَّسُولِ  
يُقَسِّمُهَا بِحَسَبِ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ قَسَمَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالسَّوَاءِ، وَهَذَا لَا  
يُنَافِي التَّفْصِيلَ الَّذِي سَيَأْتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ  
(41) إِنْخُ، فَيَكُونُ التَّفْصِيلُ نَاسِخًا لِلْجَمَالِ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ،  
فَالصَّوَابُ قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ: إِنَّ الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ مَصَارِفَهَا فِي آيَةِ الْخُمْسِ، وَلِلْإِمَامِ  
أَنْ يُنْفَلَ مَنْ شَاءَ مِنَ الْجَيْشِ مَا شَاءَ قَبْلَ التَّخْمِيسِ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الْمَشَاجِرَةِ وَالْخِلَافِ  
وَالْتَنَازُعِ، وَسَيَأْتِي فِي الصُّورَةِ مَضَارُّ ذَلِكَ وَلَا سِيَّمَا فِي حَالِ الْحَرْبِ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ  
بَيْنِكُمْ أَيُّ: أَصْلِحُوا نَفْسَ مَا بَيْنَكُمْ، وَهِيَ الْحَالُ وَالصَّلَةُ الَّتِي بَيْنَكُمْ تَرْتَبُ بِبَعْضِكُمْ بَعْضٌ  
وَهِيَ رَابِطَةُ الْإِسْلَامِ، وَأَصْلَاحُهَا يَكُونُ بِالْوِفَاقِ وَالتَّعَاوُنِ وَالْمُوَاسَاةِ وَتَرْكِ الْأَثَرَةِ وَالتَّفْرِيقِ،  
وَالْإِيثَارِ أَيْضًا، وَالْبَيْنُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ يُطْلَقُ عَلَى الْإِتِّصَالِ وَالْإِفْتِرَاقِ، وَكُلُّ مَا بَيْنَ طَرَفَيْنِ كَمَا  
قَالَ: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ (6: 94) وَيُعْبَرُ عَنْ هَذِهِ الرَّابِطَةِ بِذَاتِ الْبَيْنِ، وَأَمْرُنَا فِي الْكِتَابِ  
وَالسُّنَّةِ بِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ،

---

فَهُوَ وَاجِبٌ شَرْعًا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ قُوَّةُ الْأُمَّةِ وَعِزَّتُهَا وَمَنْعَتُهَا وَتُحْفَظُ بِهِ وَحْدَتُهَا وَأَطِيعُوا اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ فِي الْغَنَائِمِ وَفِي كُلِّ أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَقَضَاءٍ وَحُكْمٍ ، فَاللَّهُ تَعَالَى يُطَاعُ لِدَاتِهِ ؛ لِأَنَّهُ رَبُّ  
الْعَالَمِينَ ، وَمَالِكُ أَمْرِهِمْ ، وَالرَّسُولُ يُطَاعُ فِي أَمْرِ الدِّينِ ؛ لِأَنَّهُ مُبَلَّغٌ لَهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمُبِينٌ  
لَوْحِيهِ فِيهِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْحُكْمِ ، وَهَذِهِ الطَّاعَةُ لَهُ تَعَبُدِيَّةٌ لَا رَأْيَ لِأَحَدٍ فِيهَا ، وَتَتَوَقَّفُ  
عَلَيْهَا

(247/305)

---

النَّجَاةُ فِي الْآخِرَةِ وَالْفَوْزُ بِثَوَابِهَا ، وَيُطَاعُ فِي اجْتِهَادِهِ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا الْمُتَعَلِّقِ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ  
، وَلَا سِيَّمَا الْحَرْبِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ الْإِمَامُ الْقَائِدُ الْعَامُّ ، فَمُخَالَفَتُهُ إِخْلَالٌ بِالنِّظَامِ الْعَامِّ ،  
وَأَفْضَاءٌ إِلَى الْفَوْضَى الَّتِي لَا تَقُومُ مَعَهَا لِلْأُمَّةِ قَائِمَةٌ ، فَهَذِهِ الطَّاعَةُ وَاجِبَةٌ شَرْعًا كَالأُولَى إِلَّا  
أَنَّهَا مَعْقُولَةٌ الْمَعْنَى ، فَقَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ ، وَإِدَارَتِهِ بِمُشَاوَرَةِ الْأُمَّةِ كَمَا  
تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، وَأَشْرَكَ مَعَهُ فِي هَذِهِ الطَّاعَةِ أُولَى الْأَمْرِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ  
النِّسَاءِ ، وَسَيَأْتِي كَيْفَ رَاجَعَهُ بَعْضُهُمْ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْمَفْصَلَةِ أَحْكَامُهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ  
، وَرَجَعَ عَنِ رَأْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الرَّأْيِ الَّذِي ظَهَرَ صَوَابُهُ ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ الْأَخِيرَ لَا



بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ كَمَا شَاوَرَهُمْ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ أَوِ الْبَقَاءِ فِيهَا ، فَلَمَّا  
انْتَهتِ الْمَشَاوِرَةُ ، وَعَزَمَ عَلَى تَنْفِيذِ رَأْيِ الْجُمْهُورِ رَاجِعُوهُ فَلَمْ يُقْبَلْ

(248/305)

مُرَاجَعَةً ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا مَعَ حِكْمَتِهِ فِي تَفْسِيرِ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى  
اللَّهِ (3 : 159) وَتَرَى فِي تِلْكَ السُّورَةِ كَيْفَ كَانَتْ مُخَالَفَةُ الرُّمَّةِ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
سَبَبًا فِي ظُهُورِ الْعُدُوِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَرَاجِعْ تَفْسِيرًا أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبَتْكُمْ  
مِثْلُهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ (3 : 165) فِي 184 وَمَا بَعْدَهَا ج 4 ط  
الْهَيْئَةُ .

وَلِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّ الطَّاعَةُ فِي تَنْفِيذِ الْمَشْرُوعِ ، وَإِدَارَةِ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ، وَقِيَادَةِ  
الْجُنْدِ مَا كَانَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ ، مُقَيَّدًا بِعَدَمِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبِمُشَاوِرَةِ  
أَوْلِي الْأَمْرِ ، كَمَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ فِي تَفْسِيرِ : أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ  
(4 : 59) الْآيَةُ .

(249/305)

---

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ أَي: فَامْتَثِلُوا الْأَوْامِرَ الثَّلَاثَةَ فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي ذَلِكَ كُلَّهُ زَلَّ النَّ  
اللَّهُ تَعَالَى أَوْجِبَهُ، وَالْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ غَيْرُ الْمُرْتَابِ بَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ يَكُونُ لَهُ سَائِقٌ مِنْ نَفْسِهِ إِلَى  
طَاعَتِهِ، إِلَّا أَنْ يُعْرَضَ لَهُ مَا يَغْلِبُهُ عَلَيْهَا أحيانًا مِنْ ثَوْرَةٍ شَهْوَةٍ أَوْ ثَوْرَةٍ غَضَبٍ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ  
يَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ، وَيَتُوبَ إِلَيْهِ مِمَّا عَرَضَ لَهُ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ  
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ (4: 17) الْإِنْخُ، ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا  
يَدُلُّ عَلَى هَذَا وَيُثَبِّتُهُ فَقَالَ:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ هَذِهِ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لِبَيَانِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ  
الَّذِينَ بَيْنَ فِي شَرْطِيَةِ الْآيَةِ قَبْلَهَا شَأْنُهُمْ مِنَ التَّقْوَى وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ فِي الْأُمَّةِ وَطَاعَةِ اللَّهِ  
وَرَسُولِهِ عَلَى قَاعِدَةٍ أَنَّ التَّكْرَرَ إِذَا أُعِيدَ ذِكْرُهَا مَعْرِفَةٌ تَكُونُ عَيْنَ الْأُولَى،

(250/305)

---

أَوْ بَيَانِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِيِّ الْإِيمَانَ مُطْلَقًا؛ لِيُعْلَمَ مِنْهُ أَنَّ تِلْكَ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ هِيَ بَعْضُ  
شَأْنِهِمْ، وَقَدْ بَيَّنَّ صِفَاتِهِمْ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ الَّتِي يُخَاطَبُ بِهَا مَنْ يُعْلَمُ ذَلِكَ أَوْ يُنَزَّلُ مِنْزِلَةَ الْعَالَمِ  
بِهِ الَّذِي لَا يُنْكِرُهُ، وَهِيَ "إِنَّمَا" كَمَا حَقَّقَهُ إِمَامُ الْفَنِّ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ، وَصَفَهُمْ بِخَمْسِ

صِفَاتٍ : (الصِّفَةُ الْأُولَى) قَوْلُهُ : الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ قَالَ الرَّاعِبُ : الْوَجَلُ اسْتَشْعَارُ الْخَوْفِ ، يَعْنِي مَا يَجْعَلُ الْقَلْبَ يَشْعُرُ بِهِ بِالْفِعْلِ ، وَعَبَّرَ غَيْرُهُ عَنْهُ بِالْفَرْعِ وَالْخَوْفِ (وَبَابُهُ فَرِحَ وَتَعَبَ) وَذَلِكَ أَنَّ الْخَوْفَ تَوَقَّعُ أَمْرٌ مُؤَلِّمٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ قَدْ يَصْحَبُهُ شُعُورُ الْأَلَمِ وَالْفَرْعِ ، وَقَدْ يُفَارِقُهُ لَضَعْفُهُ أَوْ لِعِتْقَادِ بَعْدِ أَجَلِهِ ، فَالْوَجَلُ وَالْفَرْعُ أَخَصُّ مِنْهُ ، وَفِي سُورَةِ الْحَجْرِ مِنْ حِوَارِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ ضَيْفِهِ الْمُنْكَرِينَ .

(251/305)

---

قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلُ (15 : 52 ، 53) الْخُ ، وَفِي سُورَةِ " الْمُؤْمِنُونَ " فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُشْفِقِينَ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ : وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (23 : 60) فَالْوَجَلُ هُنَا مُقْتَرَنٌ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَهُوَ الْبَدَلُ وَالْعَطَاءُ ، وَفِي سُورَةِ الْحَجِّ : وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (22 : 34 ، 35) وَهِيَ بِمَعْنَى آيَةِ الْأَنْفَالِ ،

وَلَيْسَ لِلْوَجَلِ ذِكْرٌ فِي

(252/305)

---

غَيْرِ هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَيَتَّفِقُ مَعْنَى الْوَجَلِ فِيهَا بِأَنَّهُ الْفَزَعُ وَشُعُورُ الْخَوْفِ يُلْمُ بِالْقَلْبِ ، وَقَدْ  
يَكُونُ هَذَا الْخَوْفُ مِنَ الْعَاقِبَةِ الْمَجْهُولَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالْمَهَابَةِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ  
شَهْرَبْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ : الْوَجَلُ فِي الْقَلْبِ كَأَحْتِرَاقِ السَّعْفَةِ ، يَا شَهْرَبْنِ حَوْشَبِ  
، أَمَا تَجِدُ لَهُ قَشْعِرِبَةً ؟ قُلْتُ : بَلَى ، قَالَتْ : فَادْعُ اللَّهَ فَإِنَّ الدُّعَاءَ يُسْتَجَابُ عِنْدَ ذَلِكَ ،  
وَعَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ ، قَالَ : قَالَ فُلَانٌ : إِنِّي لَأَعْلَمُ مَتَى يُسْتَجَابُ لِي : قَالُوا : وَمِنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ  
؟ قَالَ : إِذَا اقْشَعَرَ جِلْدِي ، وَوَجَلَ قَلْبِي ، وَفَاضَتْ عَيْنَايَ ، فَذَلِكَ حِينَ يُسْتَجَابُ لِي ،  
وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ : " مَا الْوَجَلُ فِي الْقَلْبِ إِلَّا كَضْرَمَةِ السَّعْفَةِ ، فَإِذَا  
وَجَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَدْعُ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَالسَّعْفَةُ بِالتَّحْرِيكِ وَاحِدُ السَّعْفِ وَهُوَ جَرِيدُ النَّخْلِ إِذَا  
احْتَرَقَ يُسْمَعُ لَهُ نَشِيشٌ ، شَبَّهَتْ بِهِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَأُمُّ الدَّرْدَاءِ شُعُورَ الرَّجُلِ يُلْمُ بِالْقَلْبِ مِنْ  
ذِكْرِ اللَّهِ فَيَخْفِقُ لَهُ .

وَالْمُرَادُ بِذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرَ الْقَلْبِ لِعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَجَلَالِهِ ، أَوْ لَوْعِيدِهِ وَوَعْدِهِ ،

وَمُحَاسِنَتِهِ لِخَلْقِهِ وَإِدَانَتِهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ سِوَاءِ صَحْبِهِ ذِكْرُ اللِّسَانِ أَمْ لَا ،  
 وَأَعْظَمُ ذِكْرُ اللِّسَانِ مَعَ الْقَلْبِ تَرْتِيلُ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ ، وَقَدْ يَقُولُ الْمُؤْمِنُ فِي صَلَاةِ التَّهَجُّدِ فِي  
 الْخُلُوةِ " اللَّهُ أَكْبَرُ " مُسْتَحْضِرًا لِمَعْنَى كِبَرِيَّاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيَنْفِضُ وَيُقَشِّعِرُ جِلْدَهُ ، فَمَنْ  
 خَصَّ الذِّكْرَ هُنَا بِالْوَعِيدِ غَفَلَ عَنِ كُلِّ هَذَا ، وَظَنَّ أَنَّ الْوَجَلَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ خَوْفِ الْعَذَابِ ،  
 وَكَأَنَّهُ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الْخَشْيَةِ وَالْوَجَلَ مِنْ مَهَابَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَعِزَّةِ سُلْطَانِهِ وَغَيْرِ  
 ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَلَمْ يَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ  
 (35 : 28) وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ يَخْشَعُ قَلْبَهُ وَيُفِيضُ دَمْعُهُ مِنْ ذِكْرِ أَسْمَاءِ اللَّهِ فِي  
 آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ : لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ  
 وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ  
 هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (59 : 21 ، 22) الْإِخْ ، وَلَا يَجِدُ مِثْلَ هَذَا الْوَجَلِ عِنْدَ وَصْفِ جَهَنَّمَ  
 ، وَذِكْرِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ . وَإِنَّمَا يَأْخُذُ مِثْلَ هَذَا مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ مَنْ فَهَمَهُ بظواهرِ بَعْضِ  
 الْأَفْظَادِ بِدُونِ شُعُورِ بِمَا لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ فِي الْقُلُوبِ ، فَيُقَابِلُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا  
 وَيَبِينُ قَوْلَهُ

(254/305)

تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّعْدِ : الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ  
(13 : 28) فَيُظَنُّ أَنَّ بَيْنَهُمَا تَعَارُضًا فَيُحَاوَلُ التَّقْصِي مِنْهُ بِحَمْلِ هَذَا عَلَى ذِكْرِ الْوَعْدِ ،  
وَالْآخِرِ عَلَى ذِكْرِ الْوَعِيدِ ، وَلَا تَعَارُضَ فِي الْحَقِيقَةِ وَلَا تَنَافِي ، فَبِئْسَ كُلُّ مَنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ  
وَصِفَاتِ الْكَمَالِ وَذَكَرَ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَفَاقِ اطْمَئِنَّا لِلْقُلُوبِ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ  
تَعَالَى ، وَالثَّقَّةُ بِمَا عِنْدَهُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَأْتِي بِسَطِّهِ فِي مَحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى : وَلَا ذِكْرُ  
يُضْرَمُ سَعْفَةُ الْوَجَلِ فِي الْقَلْبِ كِتَاوَةَ كَلَامِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ : اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا  
مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَشْعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ  
ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (39 : 23) .

(الصفة الثانية) قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِذَا تَلَيْتُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا أَي إِذَا تَلَيْتُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ  
الْمُنَزَّلَةَ عَلَى خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، أَي يَقِينًا فِي الْأَذْعَانِ ، وَقُوَّةً  
فِي الْاطْمَئِنَانِ ، وَسَعَةً فِي الْعِرْفَانِ ، وَنَشَاطًا فِي الْأَعْمَالِ ، وَيُطْلَقُ الْإِيمَانُ فِي عُرْفِ الشَّرْعِ  
عَلَى مَجْمُوعِ الْعِلْمِ وَالْإِعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ بِمُوجِبِهِ وَعَلَى كُلِّ مِنْهُمَا ، وَالْقِرَائِنُ

(255/305)

تَعَيَّنُ الْمُرَادُ ، وَفِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ صَحِيحَيْهِمَا شَوَاهِدٌ  
صَرِيحَةٌ فِي ذَلِكَ ، وَمِنْ أَهَمِّهَا أَحَادِيثُ أَقْلِ الْإِيمَانِ الْمُنَجِّيِّ فِي الْآخِرَةِ وَحَدِيثُ الْإِيمَانِ  
بِضَعَةِ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أَعْلَاهَا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ  
وَلِهَذَا حَمَلَ بَعْضُ النَّاسِ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ عَلَى زِيَادَةِ الْعَمَلِ اللَّازِمِ لَهُ ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى زِيَادَةِ مَا  
يَتَعَلَّقُ بِهِ الْإِيمَانُ الَّذِي فَسَّرُوهُ بِالتَّصَدِّيقِ الْقَطْعِيِّ ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْإِيمَانَ الْقَلْبِيَّ نَفْسُهُ يَزِيدُ  
وَيَنْقُصُ أَيْضًا ، فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُؤْمِنًا يَا حَيَاءِ اللَّهُ لِلْمَوْتَى لَمَّا دَعَاهُ أَنْ  
يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِيهَا قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَى وَلَكِنْ لَيْطَمَنَّ قَلْبِي (2 : 260) فَمَقَامُ الطَّمَأْنِينَةِ  
فِي الْإِيمَانِ يَزِيدُ عَلَى مَا دُونَهُ مِنَ الْإِيمَانِ الْمَطْلُوقِ قُوَّةً وَكَمَالًا ، وَيُرْوَى عَلَيَّ الْمُرْتَضَى كَرَّمَ اللَّهُ  
وَجْهَهُ : لَوْ كُشِفَ الْحِجَابُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا ، وَهَذَا أَقْوَى مِنَ الْإِيمَانِ بِالْبُرْهَانِ ، وَهُوَ أَقْوَى  
مِنِ الْإِيمَانِ التَّقْلِيدِ الَّذِي قَالَ بِهِ الْأَكْثَرُونَ إِذَا وَافَقَ الْحَقَّ ، وَكَانَ يَقِينًا ، وَالْعِلْمُ التَّفْصِيلِيُّ فِي  
الْإِيمَانِ أَقْوَى وَأَكْمَلُ مِنَ الْعِلْمِ الْإِجْمَالِيِّ ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَكْمُلُ إِلَّا  
بِمَعْرِفَةِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ الَّتِي تُنَافِيهِ أَوْ تُنَافِي كَمَالَهُ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ أَخْفَى مِنْ

دَيْبِ

النَّمْلُ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ شَيْئًا وَأَنَا أَعْلَمُ ،  
 وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ " رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فِي نَوَادِرِ الْأَصُولِ ، وَأَبُو عَلِيٍّ  
 وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَضَعَفَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْبَيْهَقِيُّ وَحَسَنَهُ  
 وَغَيْرُهُمَا ، وَكَمْ مِنْ مُدَّعٍ لِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَنَاطِقٍ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ وَهُوَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ بِدُعَائِهِ مَعَ  
 اللَّهِ أَوْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَ" الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُرْفُودِ  
 وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ مَرْفُوعًا .  
 وَمِثْلَ آخَرَ : مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ تَعَالَى عِلْمًا مُحِيطًا بِالْمَعْلُومَاتِ ، وَحِكْمَةً قَامَ بِهَا نِظَامُ الْأَرْضِ  
 وَالسَّمَاوَاتِ ، وَرَحْمَةً وَسَعَتْ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَكَانَ عِلْمُهُ بِهِنَّ إِجْمَالِيًّا لَوْ سَأَلْتَهُ أَنْ  
 يُبَيِّنَ لَكَ شَوَاهِدَهُ فِي الْخَلْقِ لَعَجَزَ عَنْهَا - لَا يُوزَنُ إِيمَانُهُ بِإِيمَانِ ذِي الْعِلْمِ التَّفْصِيلِيِّ بِسُنَنِ اللَّهِ  
 فِي الْكَائِنَاتِ وَعَجَائِبِ صُنْعِهِ فِيهَا عَلَى النَّحْوِ الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ الْعَلَمَةُ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيْمِ  
 فِي كِتَابِهِ تَفْصِيلُ النَّشَائِئِ ، وَالْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ فِي كِتَابِ التَّفَكُّرِ مِنَ الْإِحْيَاءِ ، وَقَدْ اتَّسَعَتْ  
 مَعَارِفُ الْبَشَرِ بِهَذِهِ السُّنَنِ وَالْأَسْرَارِ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَعَرَفُوا مِنْهَا مَا لَمْ يَكُنْ  
 يَخْطُرُ عَشْرَ مَعْشَارِهِ لِأَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ



الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ، وَمِنْ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ الْوَاحِدِيِّ عَنِ عَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنَّ مَنْ كَانَتْ  
الدَّلَائِلُ عِنْدَهُ أَكْثَرَ وَأَقْوَى كَانَ إِيمَانُهُ أَزِيدَ ، وَقَالَ الْكَرْحِيُّ : إِنَّ نَفْسَ  
التَّصَدِيقِ يَقْبَلُ الْقُوَّةَ ، وَهِيَ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا بِالزِّيَادَةِ لِلْفَرْقِ الْمُمَيِّزِ بَيْنَ يَقِينِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَرْبَابِ  
الْمُكَاشَفَاتِ وَيَقِينِ أَحَادِ الْأُمَّةِ ، وَضَرَبَ الْغَزَالِيُّ مَثَلًا لِتَفَاوُتِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْعِلْمِ  
بِمَنْ يَرَى شَيْخَ إِنْسَانٍ فِي السُّدْفَةِ ، ثُمَّ يَرَاهُ بَعْدَ وَضُوحِ الْإِسْفَارِ عَلَى بَعْدٍ فَلَا يُمَيِّزُ صِفَاتِهِ ثُمَّ  
يَرَاهُ فِي نُورِ الشَّمْسِ بِجَانِبِهِ ، فَهَلْ يَكُونُ عِلْمُهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ وَاحِدًا ؟ .

(258/305)

---

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : إِنَّ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ ثَابِتَةٌ بِنَصِّ هَذَا الْآيَةِ وَأَيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ  
عِمْرَانَ فِي وَصْفِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِذْ دَعَاهُمْ إِلَى الْقِتَالِ بَعْدَ مَا أَصَابَهُمُ الْقُرْحُ  
فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ : الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا  
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (3 : 173) وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ :  
وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا  
زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (33 : 22) وَعَطْفُ التَّسْلِيمِ عَلَى الْإِيمَانِ هُنَا يُؤَيِّدُ كَوْنَ الْمُرَادِ بِهِ  
إِيمَانَ الْقَلْبِ لَا الْعَمَلِ ، وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْفَتْحِ : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ

فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ (48 : 4) فَهُوَ فِي إِيمَانِ الْقَلْبِ كَمَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ  
 ، وَأَمَّا آيَاتُ أَوَاخِرِ التَّوْبَةِ (9 : 124 ، 125) وَآيَةُ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ (74 : 31) فَمِمَّا  
 يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ فِيهَا زِيَادَةً مُتَعَلِّقَةً بِمَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلَى أَنَّ الْبُخَارِيَّ اسْتَدَلَّ  
 بِآيَةِ التَّوْبَةِ وَأَمْثَالِهَا عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ فِي الْقُلُوبِ ، وَعَلَيْهِ جُمْهُورُ السَّلَفِ ، بَلْ حَكَى  
 الْأَجْمَاعُ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَأَبُو عُبَيْدٍ كَمَا ذَكَرَهُ الْحَافِظُ أَبُو كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ ، فَمِنْ  
 الْعَجَبِ بَعْدَ هَذَا أَنْ نُنْقَلَ هَفْوَةٌ لِبَعْضِ

(259/305)

---

الْعُلَمَاءِ أَنْكَرَ فِيهَا زِيَادَةَ الْإِيمَانِ بِالْمَعْنَى الْمَصْدَرِيَّ لِشَبْهَةِ نَظَرِيَّةٍ ، وَيُجْعَلُ مَذْهَبًا يُقَلَّدُ  
 صَاحِبُهُ فِيهِ تَقْلِيدًا ، وَتَوَلَّى آيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ لِأَجْلِهِ تَأْوِيلًا .  
 (الصِّفَةُ الثَّلَاثَةُ) قَوْلُهُ تَعَالَى : وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أَيُّ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَحْدَهُ ، لَا يَتَوَكَّلُونَ  
 عَلَى غَيْرِهِ ، وَلَا يُفَوِّضُونَ أُمُورَهُمْ إِلَى سِوَاهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا أَفَادَهُ تَرْكِيبُ الْجُمْلَةِ ، وَعَنْ ابْنِ  
 عَبَّاسٍ قَالَ : لَا يَرْجُونَ غَيْرَهُ ، وَالتَّوَكَّلُ أَعْلَى مَقَامَاتِ التَّوْحِيدِ ، فَإِنْ مِنْ كَانَ مُوقِنًا بِأَنَّ رَبَّهُ  
 هُوَ الْمُدَبِّرُ لِأُمُورِهِ وَأُمُورِ الْعَالَمِ كُلِّهَا لَا يُمَكِّنُ

(260/305)

---

أَنْ يَكِلَ شَيْئًا مِنْهَا إِلَىٰ غَيْرِهِ ، وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ مِنَ الشَّرْعِ وَالطَّبَعِ وَالْعَقْلِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ  
لِلْإِنْسَانَ كَسْبًا اخْتِيَارِيًّا كَلَّفَهُ اللَّهُ الْعَمَلَ بِهِ ، وَأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّهُ يُجَازِي عَلَىٰ عَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ  
وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ - وَجَبَ عَلَىٰ الْإِنْسَانَ أَنْ يَسْعَىٰ فِي تَدْيِيرِ أُمُورِ نَفْسِهِ بِحَسَبِ مَا عَلَّمَهُ مِنْ  
سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَارْتِبَاتِهَا بِالْمُسَبَّبَاتِ ، مُعْتَدًّا أَنَّ الْأَسْبَابَ - مَا يَعْقِلُ  
مِنْهَا كَالْإِنْسَانَ وَمَا لَا يَعْقِلُ - لَمْ تَكُنْ أَسْبَابًا إِلَّا بِتَسْخِيرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، وَأَنْ مَا يَنَالُهُ بِاسْتِعْمَالِهَا  
فَهُوَ مِنْ فَضْلِ رَبِّهِ الَّذِي سَخَّرَهَا وَجَعَلَهَا أَسْبَابًا وَعَلَّمَهُ ذَلِكَ ، وَأَمَّا مَا لَا يَعْرِفُ لَهُ سَبَبٌ  
يُطَلَبُ بِهِ ، فَالْمُؤْمِنُ يَتَوَكَّلُ فِيهِ عَلَىٰ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَإِلَيْهِ يَتَوَجَّهُ ، وَإِيَّاهُ يَدْعُو فِيمَا يَطْلُبُهُ مِنْهُ ،  
وَأَمَّا تَرْكُ الْأَسْبَابِ وَتَنَكُّبُ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الْخَلْقِ وَتَسْمِيَةِ ذَلِكَ تَوَكُّلًا

(261/305)

---

فَهُوَ جَهْلٌ بِاللَّهِ وَجَهْلٌ بِدِينِهِ وَجَهْلٌ بِسُنَنِهِ الَّتِي أَخْبَرْنَا بِأَنَّهَا لَا تَبْدَلُ وَلَا تَحْوَلُ ، وَمِثْلُهُ فِيهِ  
كَمِثْلٍ مِنْ أَمْرِهِ مِلْكُهُ أَوْ مَالِكُهُ بِأَنْ يُعْوَلَ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَسَائِرِ حَاجَةِ عَلَيْهِ ، وَلَا يَطْلُبُ  
مِنْ غَيْرِهِ شَيْئًا ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَلِكُ أَوْ الْمَالِكُ قَدْ أَعَدَّ لَهُ وَلَا مِثْلَهُ كُلَّ يَوْمٍ مَائِدَةً لَطْعَامِهِمْ  
وَشَرَابِهِمْ ، فَتَنْطَعُ هُوَ وَامْتَنَعَ عَنِ الْاِخْتِلَافِ إِلَى الْمَائِدَةِ مَعَ أَمْثَالِهِ زَاعِمًا أَنَّ هَذَا عِصْيَانٌ لِأَمْرِ

الْمَلِكِ فِي التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، وَانْتَظَرَ أَنْ يُرْسَلَ إِلَيْهِ طَعَامًا خَاصًّا - أَيُّ إِنَّهُ يَطْلُبُ مِنْ رَبِّهِ أَنْ  
يُبْطَلَ سُنُّهُ فِي خَلْقِهِ لِأَجْلِهِ - فَمَا أَكْبَرُ جَهْلَهُ وَغُرُورَهُ بِهِ ؟ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَحْقِيقُ مَعْنَى التَّوَكُّلِ مَعَ بَسْطِ الْقَوْلِ فِيهِ ، وَكَوْنِهِ يَسْتَلْزِمُ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ فِي  
تَفْسِيرِ : وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون (3 : 160) مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ فَيُرْاجَعُ فِي  
[ص 169 - 175 ج 4 ط الهيئة] وَسَيَأْتِي التَّذْكَيرُ بَعْضُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَوَكُّلِ النَّبِيِّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ (الأنفال) .

(262/305)

---

(الصفة الرابعة) قَوْلُهُ تَعَالَى : الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ  
الْبَقَرَةِ ، وَفِي تَفْسِيرِ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ (2 : 45) مِنْهَا ، وَفِي تَفْسِيرَاتٍ أُخْرَى فِي  
مَعْنَاهَا ، وَمُلْخَصُهَا : أَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ عِبَارَةٌ عَنْ أَدَائِهَا مُتَقَوِّمَةً كَامِلَةً فِي صُورَتِهَا وَأَرْكَانِهَا  
الظَّاهِرَةِ ، مِنْ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَقِرَاءَةٍ وَذِكْرٍ ، وَفِي مَعْنَاهَا وَرُوحَهَا الْبَاطِنَةَ مِنْ خُشُوعٍ  
وَحُضُورٍ فِي مُنَاجَاةِ الرَّحْمَنِ ، وَتَدَبُّرٍ وَتَعَاظٍ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَتَقَدَّمَ أَنَّ  
هَذِهِ الْإِقَامَةُ هِيَ الَّتِي يَسْتَفِيدُ صَاحِبُهَا مَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى ثَمَرَةً لِلصَّلَاةِ مِنَ الْإِتِّهَاءِ مِنَ  
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُرْاجَعُ فِي مَوَاضِعِهِ .

(الصِّفَةُ الْخَامِسَةُ) قَوْلُهُ تَعَالَى: وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أَيُّ: وَيُنْفِقُونَ بَعْضَ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي  
وَجْهِهِ الْبَرِّ مِنْ زَكَاةٍ مَفْرُوضَةٍ لِإِقَامَةِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ  
وَالْمُنْدُوبَةِ لِلْمُقَرَّبِينَ وَالْمُعَوِّزِينَ وَمَصَالِحِ الْأُمَّةِ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي  
مَوَاضِعٍ أُخْرَى، مَعَ التَّنْبِيهِ إِلَى كَثْرَةِ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مِنْ جَعْلِ الزَّكَاةِ أَوْ النَّفَقَةِ  
مُقَارِنَةً لِلصَّلَاةِ؛ لِأَنَّهَا الْعِبَادَتَانِ اللَّتَانِ عَلَيْهِمَا مَدَارُ الْإِصْلَاحِ الرُّوحِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ فِي الْمِلَّةِ  
، وَالتَّعْبِيرُ بِالِانْفَاقِ أَعَمُّ مِنَ التَّعْبِيرِ بِالزَّكَاةِ كَمَا عَلِمْتَ .

(263/305)

---

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا أَيُّ: أُولَئِكَ الْمَوْصُوفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ كُلِّهَا هُمْ دُونَ سِوَاهُمْ مِمَّنْ  
لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ إِيمَانًا حَقًّا، أَوْ حَقَّ الْإِيمَانِ الَّذِي لَا نَقْصَ فِيهِ، أَوْ حَقَّ ذَلِكَ حَقًّا أَوْ  
حَقَّقَهُ حَقًّا، ذَلِكَ بَأَنَّ الْإِيمَانَ حَقَّ الْإِيمَانِ هُوَ مَا أَغْقَبَ التَّصَدِيقَ الْإِذْعَانِيَّ فِيهِ أَثَرُهُ مِنْ  
أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ، وَبَذَلَ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ جَمَعَتِ الصِّفَاتُ الَّتِي  
وُصِفُوا بِهَا كُلَّ ذَلِكَ بِحَيْثُ تَتَّبَعُهَا سَائِرُ شُعَبِ الْإِيمَانِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: فَلَا شَاعِرَ حَقًّا أَوْ  
فَارِسَ حَقًّا لِمَنْ نَبَغَ فِي الشِّعْرِ وَلِمَنْ كَمَلَتْ فِيهِ صِفَاتُ الْفُرُوسِيَّةِ، وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ  
ضَعِيفٍ يُؤَثِّرُ لِلْعِبْرَةِ

عَنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: "كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟" قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا قَالَ: انْظُرْ مَاذَا تَقُولُ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟ فَقَالَ: عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَاسْهَرْتُ لَيْلِي وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَانَنِي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَانَنِي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَانَنِي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغُونَ فِيهَا، فَقَالَ: يَا حَارِثَةُ عَرَفْتَ فَالزَّمْ - ثَلَاثًا " وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ: "أَمُومِنٌ أَنْتَ؟" قَالَ: الْإِيمَانُ إِيمَانَانِ فَإِنْ كُنْتُ تَسْأَلُنِي عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، فَأَنَا مُؤْمِنٌ، وَإِنْ كُنْتُ تَسْأَلُنِي عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ فَوَاللَّهِ لَا أُدْرِي أَنَا مِنْهُمْ أَمْ لَا " .

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى جَزَاءَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْكَمَلَةَ فَقَالَ: لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمُ الدَّرَجَاتُ مَنَازِلُ الرَّفْعَةِ وَمَرَاقِي الْكِرَامَةِ، وَكَوْنَهَا عِنْدَ الرَّبِّ تَعَالَى

وذكره مضافاً إلى ضميرهم تشبيهاً إلى عظم قدر هذه الدرجات وتكريمها لها، فإن الله تعالى فضل بعض الناس ورفعهم على بعض درجة أو درجات في الدنيا وفي الآخرة وعند الرب عز وجل، وهذا الأخير وإن كان يكون في الآخرة فإن وصفه بكونه عند الرب، وبإضافة اسم الرب إلى أصحاب الدرجات يدل على مزيد رفعة واختصاص.

(266/305)

---

وإذا أردت أن تفقه معنى الدرجات في التفاضل بين الناس فتأمل قوله تعالى بعد بيان تساوي الرجال والنساء في الحقوق: وللرجال عليهن درجة (2: 228) وهي درجة الولاية العامة والخاصة، وقوله تعالى في فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً درجات منه ومغفرةً ورحمةً وكان الله غفوراً رحيماً (4: 95 و96) وهنا جمع بين الدرجة والدرجات فقيل: الدرجة تفضيلهم في الدنيا، وقيل: منزلتهم عند الله تعالى، والدرجات منازلهم في الجنة، وفي معناه قوله تعالى في تفضيل الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله على

سِقَايَةَ الْحَاجِّ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ: الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (9: 20) الْإِخْلَاقُ الْآتِينَ بَعْدَهَا ، وَقَالَ  
تَعَالَى فِي بَيَانِ التَّفَاوُتِ وَالْبُعْدِ بَيْنَ مُتَّبِعِي رِضْوَانِهِ وَمُتَّبِعِي سُخْطِهِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:  
هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (3: 163) وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْعِنْدِيَّةَ هُنَا

(267/305)

---

عِنْدِيَّةِ الْحُكْمِ أَوْ الْجَزَاءِ ، لَا الْمَكَانَةَ ؛ لِأَنَّهَا مُحَاوَلَةٌ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ ، وَقَالَ تَعَالَى فِي الرَّسْلِ  
تِلْكَ الرَّسُلُ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مِنْ كَلِمَةِ اللَّهِ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ (2: 253)  
الآيَةَ ، قَالُوا : هَذِهِ لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَ تَعَالَى فِي إِبْرَاهِيمَ عَقِبَ ذِكْرِ  
مُحَاجَّتِهِ لِقَوْمِهِ :

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ (6: 83) وَقَالَ فِي  
سِيَاقِ قِصَّةِ يُوسُفَ مَعَ إِخْوَتِهِ عَقِبَ ذِكْرِ أَخْذِهِ لِأَخِيهِ الشَّقِيقِ مِنْهُمْ بَوَاجِهِ شَرْعِيٍّ : كَذَلِكَ  
كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ  
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (12: 76) .

وَقَالَ فِي دَرَجَاتِ الدُّنْيَا وَحَدَّهَا وَهِيَ آخِرُ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : وَهُوَ



الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ (6 : 165) وَقَالَ فِي دَرَجَاتِ الدَّارِ الْآخِرَةِ بَعْدَ بَيَانِ التَّفَاضُلِ فِي الرِّزْقِ بَيْنَ الْكُفَّارِ مُرِيدِي الدُّنْيَا وَحُدَّهَا وَالْمُؤْمِنِينَ مُرِيدِي الْآخِرَةِ: انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (17 : 21) .

(268/305)

---

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْبَشَرَ مُتَفَاوِتِينَ فِي الْأَسْتِعْدَادِ وَالْعُقُولِ وَالْأَعْمَالِ، وَاقْتَضَى ذَلِكَ بِنِظَامِ سُنَّهِ فِي خَلْقِهِ تَفْضِيلَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ دَرَجَاتٍ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَفِي الْمَكَانَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَهَذِهِ الْآخِرَةُ عَلِيَا الدَّرَجَاتِ وَأَفْضَلُهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ مَعْنَاهُ: وَلَهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ لِدُنُوبِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي سَبَقَتْ وَصُولَهُمْ إِلَى دَرَجَةِ الْكَمَالِ إِنْ كَانَتْ كَبِيرَةً، وَمَا كَانَ مِنْ قَبِيلِ اللَّمَمِ، وَلِدُنُوبِهِمُ الْإِضَافِيَّةِ الَّتِي يُحَاسِبُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ بَعْدَ بُلُوغِ الْكَمَالِ كَالْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ حِينًا، وَتَرْكِ الْأَفْضَلِ إِلَى مَا دُونَهُ حِينًا آخَرَ، وَفَوَتْ بَعْضَ أَعْمَالِ الْبِرِّ الْمُمْكِنَةِ أَحْيَانًا، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْبُرُ عَنْهُ ب (حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُتَّقِينَ)، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالْكَرِيمُ يُصَفُّ بِهِ الْعَرَبُ كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٍ فِي بَابِهِ لَا قُبْحَ فِيهِ، وَلَا شَكْوَى مِنْهُ .

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ  
بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَإِذِ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ  
وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ  
الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

(269/305)

تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ قِصَّةِ الْبَقْرَةِ مِنْ سُورَتِهَا أَنَّ سُنَّةَ الْقُرْآنِ فِي ذِكْرِ الْقِصَصِ وَالْوَقَائِعِ مُخَالَفَةٌ  
لِلْمَعْهُودِ فِي أُسَالِيبِ الْكَلَامِ مِنْ سَرْدِهَا مُرْتَبَةً كَمَا وَقَعَتْ، وَأَنَّ  
سَبَبَ هَذِهِ الْمُخَالَفَةِ أَنَّهُ لَا يَقْصُ قِصَّةً، وَلَا يَسْرُدُ أَخْبَارَ وَاقِعَةٍ لِأَجْلِ أَنْ تَكُونَ تَارِيحًا  
مَحْفُوظًا، وَإِنَّمَا يَذْكُرُ مَا يَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ لِأَجْلِ الْعِبْرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَبَيَانِ الْآيَاتِ وَالْحِكْمِ  
الْإِلَهِيَّةِ، وَالْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ. بَدَأَتْ قِصَّةُ الْبَقْرَةِ بِأَمْرِ مُوسَى لِقَوْمِهِ بِذَبْحِ بَقْرَةٍ، وَذَكَرَ فِي  
آخِرِهَا سَبَبَ ذَلِكَ خِلَافًا لِلتَّرْتِيبِ الْمَأْلُوفِ مِنْ تَقْدِيمِ السَّبَبِ عَلَى مُسَبِّبِهِ كَتَقْدِيمِ الْعِلَّةِ  
عَلَى مَعْلُولِهَا، وَالْمُقَدِّمَاتِ عَلَى تَبِيجَتِهَا. وَلَكِنَّ أُسْلُوبَ الْقُرْآنِ الْبَدِيعَ أَبْلَغُ فِي بَابِهِ كَمَا  
بُسِطَ هُنَاكَ.

(270/305)

وَهَاهُنَا بُدِئَتْ قِصَّةُ غَزْوَةِ بَدْرِ الْكُبْرَى الَّتِي كَانَتْ أَوَّلَ مَظْهَرٍ لَوْعَدِ اللَّهِ تَعَالَى بِنَصْرِ رَسُولِهِ  
وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَالْإِدَالَةِ لَهُمْ مِنْ أَكْبَرِ مُجْرِمِي الْمُشْرِكِينَ ، بِذِكْرِ حُكْمِ الْغَنَائِمِ الَّتِي غَنِمَهَا  
الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ - وَيَالِهَا مِنْ بَرَاعَةِ مَطْلَعٍ - مَقْرُونًا بِيَانِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ الَّذِينَ  
وَعَدَهُمُ النَّصْرَ كَمَا وَعَدَ النَّبِيِّينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ حُكْمَ اللَّهِ وَقِسْمَةَ رَسُولِهِ فِي الْغَنَائِمِ -  
وَيَالِهَا مِنْ مُقَدِّمَاتِ لِفَوْزٍ فِي الْحَرْبِ وَغَيْرِهَا - ثُمَّ قَفَى عَلَى ذَلِكَ بِذِكْرِ أَوَّلِ الْقِصَّةِ ، وَهُوَ  
خُرُوجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْتِهِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَرَاهَةَ فَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَخُرُوجِهِ ،  
خِلَافًا لِمَا يَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ مِنَ الْإِذْعَانِ لَطَاعَتِهِ ، وَالرِّضَاءِ بِمَا يَفْعَلُهُ بِأَمْرِ رَبِّهِ ، وَمَا يَحْكُمُ أَوْ  
يَأْمُرُ بِهِ ، كَمَا عَلِمَ مِنَ الشَّرْطِ فِي آيَةِ الْأُولَى إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَعَلَّ بَيَانَ هَذَا الشَّرْطِ ، وَمَا  
وَلِيَهُ مِنْ بَيَانِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ حَقَّ الْإِيمَانِ هُوَ أَهَمُّ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى كَثْرَةِ أَحْكَامِهَا  
وَحِكْمِهَا وَفَوَائِدِهَا الرُّوحِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ . انتهى انتهى . ١

هـ ﴿ تفسير المنار ﴾ 9 ص 484 . 497 ﴿

(271/305)

وقال ابن عاشور :

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (4)

جملة مؤكدة لمضمون جملة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ ﴾ [ الأنفال : 2 ] إلى آخرها ولذلك فصلت .

وعُرف المسند إليه بالإشارة لوقوعه عقب صفات تدل الإشارة على أنهم أحرىء بالحكم المسند إلى اسم الإشارة من أجل تلك الصفات ، فكان المخبر عنهم قد تميزوا للسامع بتلك الصفات فصاروا بحيث يشار إليهم .

وفي هذه الجملة قصر آخر يشبه القصر الذي قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأنفال : 2 ] حيث قصر الإيمان مرة أخرى على أصحاب تلك الصفات ولكنه قرن هنا بما فيه بيان المقصور وهو أنهم المؤمنون الأحقاء بوصف الإيمان .

والحق أصله مصدر حق بمعنى ثبت واستعمل استعمال الأسماء للشيء الثابت الذي لا شك فيه قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [ النساء : 122 ] .  
ويطلق كثيراً ، على الكامل في نوعه ، الذي لاسترة في تحقق ماهية نوعه فيه ، كما يقول أحد لابنه البار به : أنت ابني حقاً ، وليس يريد أن غيره من أبنائه ليسوا لرشدة ولكنه يريد أنت بنوتك واضحة آثارها ، ويطلق الحق على الصواب والحكمة فاسم الحق يجمع معنى كمال النوع .

ولكل صيغة قصر : منطوق ومفهوم ، فمنطوقها هنا أن الذين جَمَعُوا ما دلت عليه تلك الصلوات هم مؤمنون حقاً ، ومفهومها أن من اتقى عنه أحد مدلولات تلك الصلوات لم يكن مؤمناً كاملاً ، وليس المقصود أن من ثبت له إحداها كان مؤمناً كاملاً ، إذا لم يتصف ببقية خصال المؤمنين الكاملين ، فمعنى أولئك هم المؤمنون حقاً : أن من كان على خلاف ذلك ليس بمؤمن حقاً أي كاملاً .

(272/305)

---

وهذا تأويل للكلام دعا إليه الجمع بين عديد الأدلة الواردة في الكتاب والسنة القولية والفعلية من ثبوت وصف الإيمان لكل من أيقن بأن الله منفرد بالإلهية وأن محمداً رسول الله إلى الناس كافة ، فتلك الأدلة بلغت مبلغ التواتر المعنوي المحصل للعلم الضروري بأن الإخلال بالواجبات الدينية لا يسلب صفة الإيمان والإسلام عن صاحبه ، فليس حمل القصر على الادعائي هنا مجرد صنع باليد ، أو ذهاب مع الهوى على أن شأن الاتصاف ببعض صفات الفضائل أن يتناسق مع نظائرها فمن كان بحيث إذا ذكر الله وجل قلبه لا بد أن يكون بحيث إذا تليت عليه آيات الله زادته إيماناً ، فهذا تحقيق معنى القصرين .

ومما يزيد هذا المعنى وضوحاً ما روى الطبراني ، عن الحارث بن مالك الأنصاري ، أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال للحارث بن مالك الأنصاري يا حارث كيف أصبحت قال أصبحت مؤمناً حقاً قال أعلم ما تقول أو انظر ما تقول إن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك قال عزفت نفسي عن الدنيا فأسهت ليلي، وأظمأت نهارى، وكأني أنظر إلى عرش ربي، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وكأني أسمع عوراء أهل النار، فقال له يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً وهو حديث ضعيف وإن كثرت طرقه .  
فقول الحارث "أصبحت مؤمناً حقاً" ظاهر في أنه أراد منه مؤمناً كاملاً وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم "إن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك" ظاهر في أنه سأله عن ما كان به إيمانه كاملاً ولم يسأله عن أصل ماهية الإيمان لأنه لم يكن يشك في أنه من عداد المؤمنين .

(273/305)

---

ومن هذا المعنى ما ذكره القرطبي وغيره أن رجلاً سأل الحسن البصري فقال له يا أبا سعيد أمومن أنت فقال : "الإيمان إيمانان فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا به مؤمن ، وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ أُولَئِكَ هُم

المؤمنون حقاً ﴿ [الأنفال: 42] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا؟ .

واتصب ﴿ حقاً ﴾ على أنه مفعول مطلق صفة لمصدر محذوف دل عليه ﴿ المؤمنون

﴿ أي إيماناً حقاً ، أو على أنه موكدٌ لمضمون جملة ﴾ أولئك هم المؤمنون ﴿ أي ثبوت

الإيمان لهم حق لا شبهة فيه ، وهو تحقيق لمعنى القصر بما هو عليه من معنى المبالغة ،

وليس تأكيداً لرفع المجاز عن القصر حتى يصير بالتأكيد قصراً حقيقياً ، بل التأكيد بمعنى

المبالغة اعتماداً على القرائن ، والأحسن أن يكون منصوباً على الحال من ضمير ﴿ هم ﴾

فيكون المصدر مؤولاً باسم الفاعل كما هو الشأن في وقوع المصدر حالاً مثل ﴿ أو تأتئهم

الساعة بغتة ﴾ [يوسف: 107] ، أي محققين إيمانهم بجلال أعمالهم ، وقد تقدم مثل

هذا المصدر في قوله: ﴿ خالدن فيها أبداً وعد الله حقاً ﴾ في سورة [النساء: 122

. [

(وجملة: ﴿ لهم درجات ﴾ خبر ثان عن اسم الإشارة .

واللام للاستحقاق ، أي درجات مستحقة لهم ، وذلك استعارة للشرف والكرامة عند الله

، لأن الدرجات حقيقتها ما يتخذ من بناء أو أعواد لإمكان تخطي الصاعد إلى مكان

مرتفع مُنقطع عن الأرض ، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ وللرجال عليهن درجةٌ ﴾ في

سورة [البقرة: 228] ، وفي غير موضع ، وتستعار الدرجة لعناية العظيم ببعض من

يصطفئهم فتشبه العناية بالدرجة تشبيه معقول بمحسوس ، لأن الدنو من العلو عرفاً يكون

بالصعود إليه في الدرجات ، فشبّه ذلك الدنوب بدرجات وقوله : ﴿ عند ربهم ﴾ قرينة  
المجاز .

(274/305)

ويجوز أن تستعار الدرجة هنا لمكان جلوس المرتفع كدرجة المنبر كما في قوله تعالى : ﴿  
ولرجال عليهن درجة ﴾ [ البقرة : 228 ] والقرينة هي .

وقد دل قوله : ﴿ عند ربهم ﴾ على الكرامة والشرف عند الله تعالى في الدنيا بتوجيه  
عنايته في الدنيا ، وفي الآخرة بالنعيم العظيم .

وتنوين ﴿ درجات ﴾ للتعظيم لأنها مراتب متفاوتة .

والرزق اسم لما يُرزق أي يعطى للانتفاع به ، ووصفه بكريم بمعنى النفيس فهو وصف  
حقيقي للرزق ، وفعله كرم بضم العين ، والكرم في كل شيء الصفات الحمودية في صنفه أو

نوعه كما في قوله تعالى : ﴿ إني ألقى إلي كتاب كريم ﴾ في سورة [ النمل : 29 ] ، ومنه

إطلاق الكرم على السخاء والجود ، والوصفُ منه كريم ، وتصح إرادته هنا على أن

وصف الرزق به مجاز عقلي ، أي كريم رازقه ، فإن الكريم يرزق بوفرة وبغير حساب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾



وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (4)

و" أولئك " تشير إلى من أنعم الله عليهم بالصفات الخمس السابق ذكرها ، وهؤلاء هم من

وجلت قلوبهم من ذكر الله ، وزادتهم الآيات في إيمانهم ، وعلى ربهم يتوكلون ويطيعون

الصلاة ويؤتون الزكاة ، هؤلاء هم المؤمنون حقاً ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ .

ولنعلم أن الحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا تذهب به الأغيار ، ويخضع له كل الناس

لأنه يتعلق بمصالح حياتهم . وإن جاء الباطل ليزحزح الحق ، نجد الحق ثابتاً لا يتزحزح لأنه

قوي . ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا

فاحتمل السيل زبداً رابياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ

يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿ [الرعد : 17] .

وحين ينزل المطر من السماء ، يأخذ من مائة كل وادٍ من الوديان على قدر اتساعه وعمقه ،

ويعتلى ، ترى الرغاوي وهي الزبد تطفو فوق السيل ، وهي عبارة عن هؤلاء سببه وجود

الشوائب من قش وغيره ، وهذا مثل نراه في حياتنا ، ونجد الأرض والناس وكل المخلوقات تنفع بالمياه ، لكنها لا تنفع بالزبد أو الرغاوي . ثم ينتقل الحق في ذات الآية من ضرب المثل بالماء ، إلى ضرب المثل بالنار فيقول : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبْدٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الرعد : 17] .

(276/305)

---

وأنت حين ترى قطعة الحديد وهي تتحول إلى السيولة بالانصهار في النار ، تجد شرراً يتطاير منها ، ويطفو فوق سطح الحديد المصهور ، وهو ما يسمى بـ " خبث الحديد " وتم إزالة هذا الخبث ليبقى الحديد صافياً لتصنع منه السيوف أو الخناجر وغيرها ، وهذه الحالة تحدث في الذهب حين يصهره الصانع ليزيل عنه أية شوائب ويعيد تشكيله ليكون حلياً .

وزبد الماء وزبد الحديد وزبد الذهب يتجمع على الجوانب ويبقى الماء صافياً ، وكذلك الحديد والذهب ، ولهذا يقول الحق : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ [الرعد : 17] .

أي أن الحق يبقى صافياً ثابتاً ، أما الباطل فيعلو ليتجمع على الجوانب ليذهب بغير فائدة .

ويوضح الحق علو كلمته سبحانه وتعالى في آية أخرى فيقول: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
السفلى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا ﴾ [التوبة: 40] .

ونلاحظ أن الحق تبارك وتعالى جاء بالجعل لكلمة الكافرين ، أما كلمته سبحانه وتعالى فلها  
العلو الثابت .

والحق هنا يبين أن المؤمنين الذين يتصفون بهذه الصفات الخمس هم مؤمنون حق الإيمان  
فيقول عز وجل : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ .

ومعنى هذا أن هناك مؤمنين ليسوا على درجة عالية من الإيمان ، أي أن هناك منازل  
و درجات للإيمان متفاوتة ، ولكل قدر من الصفات منزلة وعطاء مناسب .

ونحن نرى البشر حينما يخصهم واحد بوجه يفيضون عليه من خيراتهم ، فنجد غير العالم  
يأخذ ممن يودهم من العلماء بعض العلم ، والضعيف الذي يعطي وده تقوي ، يعينه القوي  
ببعض من قوته ، والفقير الذي يعطي وده لغني ، يعطيه الغني بعضاً من المال ، والأرعن يأخذ  
ممن يودهم من العقلاء قدراً من التعقل للأمور .

(277/305)

---

إذن أهل المودة والقرب والتقوى يفاض عليهم من المولى وهم ممن اختصهم الله بالعطاءات ، فالذي وجدت فيه هذه الصفات ، ومؤمن حقاً تكون له درجات عند ربه تناسب حظه من الحق وحظه من الصفاء ، ولنعرف أن السير في درب الحق يعطي الكثير . والمثال الذي تقدمه على ذلك أننا نجد من يصلي الأوقات الخمسة في مواعيدها ، وهذا هو المطلوب العام ، إذا ما صلى ضعف ذلك بالليل ، أو واظب على الصلاة في الجماعة ويلزم نفسه بمنهج الله ، سوف يأخذ حظاً من الصفاء لم يكن موجوداً عنده من قبل ذلك ، وسيجد في قلبه إشراقات وتجليات ، وتسير أمور حياته بسهولة ويسر .

وقد يكون الإنسان من هؤلاء - على سبيل المثال - خارجاً من البيت وسأله زوجته : ماذا تطبخ اليوم؟ ويجيبها : لنقض هذا اليوم بما تبقى عندنا من الأمس . وعندما يعود قد يفاجأ بأن شقيقه قد قدم من الريف ، وأحضر له هدية من البط ، والقشدة والفظائر . فتسأله زوجته : أكنت تعلم بمجيء أخيك؟ فيقول : لم أكن أعلم ، وهذا مجرد مثال ، لكن عطاءات الصفاء تكون أكثر من ذلك مادياً ومعنوياً ، ومن يستمر في العبادة ويزيد عليها ويؤدي كل ذلك بحقه ، سيزيد عطاء الله له ؛ لأن الله لا يميل عطاء أهل الصفاء أبداً . ومن يجرب مثل هذه العبادة ويزيدها سيجد عطاء الله وهو يزيد .

ودائماً أضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى وهو منزه سبحانه وتعالى عن التشبيه لنفترض

أن إنساناً أراد أن يسافر من القاهرة إلى الإسكندرية ، وسأل إنساناً آخر ، فقال له : إن ذهبت من الطريق الفلاني ستجد استراحة طيبة ، عكس الطريق الفلاني .

(278/305)

---

ويتبع المسافر نصائح من أرشده ، فيجده صادقاً ، فيرتاح من بعد ذلك لرأيه ، وكذلك أهل الصفاء ، هم أهل العطاء ، وعلى قدر صفائهم يكون هذا العطاء . والذي يشجع الناس الذين يبالغون في التعبد هو هذا الإشراق ، وهناك من يصف الواحد منهم بأنه مجذوب وإن من يطلق على المتعبد الزاهد هذا الوصف يرى المنزلة العالية وهي تشد هذا المتعبد إليها ، وهو من جهة أخرى ينظر هذا الزاهد إلى من يتعشرون في طلب الدنيا ، ويصفهم بينه وبين نفسه بأنهم من " الغلابة " ويدعو لهم .

وأقول لمن يرى واحداً من هؤلاء : لا شأن لك بأي إنسان من هؤلاء وإياك أن تتعرض لهم واتركهم في حالهم ، ما دام الواحد منهم لا يسألك شيئاً . ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ .  
والدرجات عند البشر هي ارتقاءات يسعى إليها ، فما بالناس بالدرجات التي عند الرب ؟ وما دام الله سبحانه وتعالى قد وعدهم بالدرجات العالية عنده فقد ضمنوا المغفرة ؛ لأن الواحد منهم سيظهر بالمغفرة ، وجاء الحق بعطاء الدرجات قبل المغفرة لأنه سبحانه خلق

الخلق ويعرف أنهم أهل أغيار ، ويعلم أن هناك من أسرفوا على أنفسهم ، ويحاولون فعل الخيرات لأنهم يؤمنون بأن الحسنات يذهبن السيئات ، وسبحانه علمنا أن معالم الدين تأخذ حظها من المسرفين على أنفسهم ، لأن من لم يسرف على نفسه تجده يطيع الله طاعة هادئة رتيبة فليس وراءه ما يلهب ظهره .

(279/305)

---

أما من عملوا السيئات فإن هذه السيئات تقض مضاجعهم . والمسرف على نفسه لحظة الإسراف يظن أنه أخذ من الله شيئاً واحداً من خلف منهجه ، فيوضح له ربنا : إياك أن تظن أن هناك من يخدع الله . فأنت ستعمل كثيراً وبشوق لخدمة منهج الله ، ونجد المسرف على نفسه لحظة الإفاقة والتوبة ، وهو يندفع إلى فعل الخيرات . مصداقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى ليؤيد الدين بالرجل الفاجر " . لأن فجر الفاجر يتجسد أمامه ويريه سوء المصير ، فيندفع إلى فعل الخيرات ليمحو السيئات ، أما من لم يخطيء فنجده هادئ القلب ، مطمئن النفس ، لا يلهب ظهره شيء .

﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [ الأنفال : 4 ] .

وهل هذا الرزق ناشئ من كريم ؟ الجواب لا ؛ لأن الكرم تعدى من الكريم الأصيل ، إلى أن

صار الرزق نفسه كريماً ، وكان هذا الرزق يتعشق صاحبه ؛ لأن ربنا ساعة يعطي إنساناً  
نعمةً ، ثم يستعملها العبد في الطاعة ، تحس النعمة أنها مسرورة بالذهاب إلى هذا الإنسان  
لأنه استعملها في طاعة وفيما يرضى الله عز وجل .

ولك أن تعرف أن الرزق أعلم بمكانك منك بمكانه . فلا أحد يعرف عنوان الرزق الذي  
قدره الله له ، لكن الرزق يعرف عنوان صاحبه ، ويبحث عنه في كل مكان إلى أن يجده .  
هكذا نفهم أن الكرم يتعدى إلى الرزق نفسه فيصبح الرزق كريماً .

وجاء كل هذا الحديث بمناسبة الخلاف على الغنائم والأنفال ، وفصل ربنا بالحكم وبين  
وأوضح أن الأنفال لله والرسول ولم يعد لأحد كلام بعد كلام الله ، وهذه الحادثة في الأنفال  
حدثت في الخروج إلى الحرب ، فحين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج للحرب ،  
كان هناك فريق منهم كاره لهذا الخروج ثم رضي به . لكن حالهم اختلف في الغنائم فطالب  
بعضهم بأكثر مما يستحق ؛ لذلك يقول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ  
بَيْتِكَ بِالْحَقِّ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) ﴾

الوجل الخوف والفرع، والمراد أن حصول الخوف من الله.

والفرع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملين الإيمان المخلصين لله، فالحصر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان.

قال جماعة من المفسرين: هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما أمر به من قسمة الغنائم، ولا يخفك أن هذا وإن صح إدراجه تحت معنى الآية، من جهة أن وجل القلوب عند الذكر وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول، ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بمجال دون حال، ولا بوقت دون وقت، ولا بواقعة دون واقعة.

والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة أو التعبير عن بديع صنعته، وكمال قدرته في آياته التكوينية بذكر خلقها البديع وعجائبها التي يخشع عند ذكرها المؤمنون.

قيل والمراد بزيادة الإيمان: هو زيادة انشراح الصدر وطمأنينة القلب وانتلاج الخاطر عند



تلاوة الآيات .

وقيل المراد بزيادة الإيمان : زيادة العمل ؛ لأن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص ، والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه .

﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لا على غيره .

والتوكل على الله : تفويض الأمر إليه في جميع الأمور .

(281/305)

---

والموصول في قوله : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ في محل رفع على أنه وصف للموصول الذي قبله ، أو بدل منه ، أو بيان له ، أو في محل نصب على المدح .  
وخص إقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وأساسه .

و"من" في ﴿ مِمَّا ﴾ للتبعيض .

والإشارة بقوله : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إلى المتصفين بالأوصاف المتقدمة ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي إن هؤلاء هم الكاملون بالإيمان البالغون فيه إلى أعلى درجاته ، وأقصى غاياته .

﴿ حَقًّا ﴾ مصدر مؤكد لمضمون جملة ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي حق ذلك حقاً أو صفة

مصدر محذوف ، أي هم المؤمنون إيماناً حقاً .

ثم ذكر ما أعد لمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ أي منازل خير وكرامة ، وشرف في الجنة كائنة عند ربهم ، وفي كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم ، وتعظيم وتفخيم .

وجملة ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ خبر ثان ل ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أو مستأنفة جواباً لسؤال مقدر ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ معطوف على درجات أي مغفرة لذنوبهم .

﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يكرمهم الله به من واسع فضله ، وفائض جوده .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال : فرقت قلوبهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه ، أيضاً في الآية قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدّون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدّوا فرائضه .

وأخرج الحكيم الترمذي ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، من طريق شهر بن حوشب ، عن أم الدرداء قالت : إنما الوجل في القلب كاحترق السعفة يا شهر بن حوشب ، أما تجد قشعيرة ؟ قلت بلى ، قالت : فادع عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك .

وأخرج الحكيم الترمذي عن ثابت البناني قال : قال فلان : إني لأعلم متى يستجاب لي  
قالوا : ومن أين لك ؟ قال : إذا اقشعرّ جلدي ، ووجل قلبي ، وفاضت عينايا ، فذلك حين  
يستجاب لي .

وأخرج أيضاً عن عائشة قالت : ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضربة السعفة ، فإذا وجل  
أحدكم فليدع عند ذلك .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو  
الشيخ ، عن السدي في الآية قال : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهتّم بمعصية ، فيقال له اتق الله  
فيوجل قلبه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾  
قال : تصديقاً .

وأخرج هؤلاء عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ قال : خشية .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾  
يقول : لا يرجون غيره .

وأخرج عنه في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ قال: برئوا من الكفر.

وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿حَقًّا﴾ قال: خالصاً.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ يعني فضائل ورحمة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ قال: أعمال رفيعة.

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ قال: أهل الجنة بعضهم فوق بعض.

فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه.

ولا يرى الذي هو أسفل أنه فضل عليه أحد.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ قال: بترك الذنوب.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قال: الأعمال الصالحة.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي، قال إذا سمعتم الله يقول: ﴿وَرِزْقٌ

كَرِيمٌ﴾ فهي الجنة. انتهى انتهى. ١هـ ﴿فتح القدير ح 2 ص﴾

## "فصل"

قال السيوطي :

﴿ الَّذِينَ يَتِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن حسان بن عطية قال : إن الإيمان في كتاب الله صار إلى العمل فقال ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ثم صيرهم إلى العمل فقال ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ قال : برئوا من الكفر .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ قال : خالصاً .  
وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ قال : استحقوا الإيمان بحق فاحقه الله لهم .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق يحيى بن الضريس عن أبي سنان قال : سئل عمرو بن مرة عن قوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ قال : إنما نزل القرآن بلسان العرب كقولك : فلان

سيد حقاً وفي القوم سادة ، وفلان شاعر حقاً وفي القوم شعراء .  
وأخرج أبو الشيخ عن أبي روق في قوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ قال : كان قوم  
يسرون الكفر ويظهرون الإيمان ، وقوم يسرون الإيمان ويظهرونه ، فأراد الله أن يميز بين هؤلاء  
وهؤلاء فقال ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ حتى انتهى إلى قوله ﴿  
أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ الذين يسرون الإيمان ويظهرونه لا هؤلاء الذين يسرون الكفر  
ويظهرون الإيمان .  
وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن مرة في قوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ قال : فضل  
بعضهم على بعض وكل مؤمنون .

(284/305)

---

وأخرج الطبراني " عن الحارث بن مالك الأنصاري . انه مر برسول الله فقال له " كيف  
أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال : انظر ما تقول فإن لكل شيء  
حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فاسهرت ليلي ، واظمأت  
نهارى ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة تزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون  
فيها . قال : يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ لهم درجات ﴾ يعني فضائل ورحمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ لهم

درجات عند ربهم ﴾ قال : أعمال رفيعة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ لهم درجات ﴾ قال : أهل

الجنة بعضهم فوق بعض ، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه ، ولا يرى

الذي هو أسفل أنه فضل عليه أحد .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله ومغفرة قال : بترك الذنوب ﴾ وورق

كريم ﴾ قال الأعمال الصالحة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : إذا سمعت الله يقول ﴿ وورق كريم

﴾ فهي الجنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ج 4 ص ﴾

(285/305)

---

فصل

قال حجة الإسلام الغزالي :

مسألة فإن قلت ما وجه قول السلف أنا مؤمن إن شاء الله والاستثناء شك والشك في

الإيمان كفر وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه

فقال سفيان الثوري رحمه الله من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ومن قال أنا مؤمن  
حقا فهو بدعة فكيف يكون كاذبا وهو يعلم أنه مؤمن في نفسه ومن كان مؤمنا في نفسه كان  
مؤمنا عند الله كما أن من كان طويلا وسخيا في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله وكذا  
من كان مسرورا أو حزينا أو سميعا أو بصيرا ولو قيل للإنسان هل أنت حيوان لم يحسن أن  
يقول أنا حيوان إن شاء الله

ولما قال سفيان ذلك قيل له فماذا تقول قال قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأي فرق بين أن يقول  
آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول أنا مؤمن وقيل للحسن أمؤمن أنت فقال إن شاء الله  
فقيل له لم تستثني يا أبا سعيد في الإيمان فقال أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت  
يا حسن فتحق علي الكلمة

وكان يقول ما يؤمنني أن يكون الله سبحانه قد اطلع علي في بعض ما يكره فمقتني وقال  
اذهب لا قبلت لك عملا فأنا أعمل في غير معمل

وقال إبراهيم بن أدهم إذا قيل لك أمؤمن أنت فقل لا إله إلا الله وقال مرة قل أنا لا أشك في  
الإيمان وسؤالك إياي بدعة

وقيل لعقمة أمؤمن أنت قال أرجو إن شاء الله

وقال الثوري نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسوله وما ندري ما نحن عند الله تعالى فما



معنى هذه الاستثناءات فالجواب أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه وجهان  
مستندان إلى الشك لا في أصل الإيمان ولكن في خاتمته أو كماله ووجهان لا يستندان إلى  
الشك

الوجه الأول الذي لا يستند إلى معارضة الشك الاحتراز من الجزم خيفة ما فيه من تزكية  
النفس قال الله تعالى فلا تزكوا أنفسكم ﴿﴾ وقال ﴿﴾ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم وقال  
تعالى انظر كيف يفترون على الله الكذب وقيل لحكيم ما الصدق القبيح فقال ثناء المرء  
على نفسه

(286/305)

---

والإيمان من أعلى صفات المجد والجزم تزكية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها ثقل من عرف  
التزكية كما يقال للإنسان أنت طيب أو فقيه أو مفسر فيقول نعم إن شاء الله لا في معرض  
التشكيك ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه فالصيغة صيغة التردد والتضعيف لنفس  
الخبر ومعناه التضعيف اللازم من لوازم الخبر وهو التزكية  
وبهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء  
الوجه الثاني التأدب بذكر الله تعالى في كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه

فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك  
غدا إلا أن يشاء الله ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه بل قال تعالى لتدخلن المسجد  
الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءؤسكم ومقصرين وكان الله سبحانه عالما بأنهم يدخلون  
لا محالة وأنه شاءه ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما  
كان يخبر عنه معلوما كان أو مشكوكا حتى قال صلى الله عليه وسلم لما دخل المقابر  
السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون (1) والحق بهم غير  
مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربط الأمور به  
وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار يعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتمني فإذا  
قيل لك إن فلانا يموت سريعا فتقول إن شاء الله فيفهم منه رغبتك لا تشككك وإذا قيل لك  
فلان سيزول مرضه ويصح فتقول إن شاء الله بمعنى الرغبة فقد صارت الكلمة معدولة  
عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة وكذلك العدول إلى معنى التأدب لذكر الله تعالى  
كيف كان الأمر

الوجه الثالث مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقا إن شاء الله إذ قال الله تعالى لقوم  
مخصوصين بأعيانهم أولئك هم المؤمنون حقا فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في  
كمال الإيمان لا في أصله وكل إنسان شاك في كمال إيمانه وذلك ليس بكفر

---

1- حديث لما دخل المقابر قال السلام عليكم دار قوم مؤمنين الحديث أخرجه مسلم من

حديث أبي هريرة

(287/305)

---

والشك في كمال الإيمان حق من وجهين أحدهما من حيث إن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفي لا تتحقق البراءة منه

والثاني أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدري وجودها على الكمال أما العمل فقد قال الله تعالى إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴿ فيكون ﴾

الشك في هذا الصدق وكذلك قال الله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين فشرط عشرين وصفا كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد

(288/305)

---

ثم قال تعالى أولئك الذين صدقوا وقد قال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وقال تعالى لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل الآية وقد قال تعالى هم درجات عند الله وقال صلى الله عليه وسلم الإيمان عريان ولباسه التقوى الحديث وقال صلى الله عليه وسلم الإيمان بضع وسبعون باباً أدناها إماطة الأذى عن الطريق فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفي فقولته صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان وإذا خاصم فجر + حديث أربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو + وفي بعض الروايات وإذا عاهد غدر وفي حديث أبي سعيد الخدري القلوب أربعة قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يدها الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يدها القيح والصدید فأبي المادتين غلب عليه حكم له بها + حديث القلوب أربعة قلب أجرد الحديث أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه + وفي لفظ آخر غلبت عليه ذهبته به وقال عليه السلام أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها + حديث أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر + وفي حديث الشرك أخفى في أمي من ديب النمل على الصفا + حديث الشرك أخفى في أمي من ديب النمل على الصفا

أخرجه أبو يعلى وابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر ولأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى وسيأتي في ذم الجاه والرياء + وقال حذيفة رضي الله عنه كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا إلى أن يموت وإني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات + حديث حذيفة كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(289/305)

---

عليه وسلم يصير بها منافقا الحديث أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة وحديث حذيفة المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث أخرجه البخاري إلا أنه قال شر بدل أكثر + وقال بعض العلماء أقرب الناس من النفاق من يرى أنه برىء من النفاق

وقال حذيفة المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله وهو خفي وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه برىء منه

فقد قيل للحسن البصري يقولون أن لا نفاق اليوم فقال يا أخي لو هلك المنافقون

## لاستوحشتم في الطريق

وقال هو أو غيره لو نبتت للمنافقين أذنان ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا وسمع ابن عمر رضي الله عنه رجلا يتعرض للحجاج فقال أرأيت لو كان حاضرا يسمع أكنت تتكلم فيه فقال لا فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم + حديث سمع ابن عمر رجلا يتعرض للحجاج فقال أرأيت لو كان حاضرا أكنت تتكلم فيه قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه أحمد والطبراني بنحوه وليس فيه ذكر الحجاج + وقال صلى الله عليه وسلم من كان ذا لسانين في الدنيا جعله الله ذا لسانين في الآخرة وقال أيضا صلى الله عليه وسلم شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه وقيل للحسن إن قوما يقولون إنا لا نخاف النفاق فقال والله لأن أكون أعلم أني بريء من النفاق أحب إلي من تلاع الأرض ذهبا وقال الحسن إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه إني أخاف أن أكون منافقا فقال لو كنت منافقا ما خفت النفاق إن المنافق قد أمن النفاق وقال ابن أبي مليكة أدركت

---

ثلاثين ومائة وفي رواية خمسين ومائة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخافون  
النفاق

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في جماعة من أصحابه فذكروا  
رجلا وأكثروا الثناء عليه فبيناهم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر  
الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا يا رسول الله هذا هو الرجل الذي  
وصفناه فقال صلى الله عليه وسلم أرى على وجهه سفعة من الشيطان فجاء الرجل  
حتى سلم وجلس مع القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم نشدتك الله هل حدثت نفسك  
حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك فقال اللهم نعم (1) فقال صلى الله عليه  
وسلم في دعائه اللهم إني أستغفرك لما علمت ولما لم أعلم فقيل له أتخاف يا رسول الله فقال  
وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وقد قال سبحانه ﴿  
وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ + حديث اللهم إني أستغفرك لما علمت وما لم  
أعلم الحديث أخرجه مسلم من حديث عائشة اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن  
شر ما لم أعلم ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل في حديث مرسل وشر ما أعلم وشر ما لا  
أعلم + قيل في التفسير عملوا أعمالا ظنوا أنها حسنة فكانت في كفة السيئات  
وقال سري السقطي لو أن إنسانا دخل بستانا فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور

فخاطبه كل طير منها بلغة فقال السلام عليك يا ولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيرا  
في يديها فهذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي وأنه  
لا يؤمن منه حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر  
في المنافقين وقال أبو سليمان الداراني سمعت من بعض الأمراء شيئا فأردت أن أنكره  
فخفت أن يأمر بقتلي ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند  
خروج روعي فكففت

وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه لأصله

---

1 - حديث كان جالسا في جماعة من أصحابه فذكروا رجلا فأكثروا الثناء عليه فبينما  
هم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء الحديث أخرجه أحمد  
والبزار والدارقطني من حديث أنس

(291/305)

---

فالنفاق نفاقان أحدهما يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخلدين في النار  
والثاني يفضي بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين  
وذلك مشكوك فيه ولذلك حسن الاستثناء فيه



وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية والأمن من مكر الله والعجب وأمور أخر لا  
يخلو عنها إلا الصديقون

الوجه الرابع وهو أيضا مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتمة فإنه لا يدري أي سلم له  
الإيمان عند الموت أم لا فإن ختم له بالكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة  
الأخر ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال أنا صائم قطعاً فلو أفطر في  
أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه إذ كانت الصحة موقوفة على التمام إلى غروب الشمس من  
آخر النهار

وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان ووصفه بالصحة قبل  
آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه والعاقبة مخوفة ولهذا كان بكاء أكثر  
الخائفين لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشية الأزلية التي لا تظهر إلا بظهور المقضي به  
ولا مطلع عليه لأحد من البشر فخوف الخاتمة كخوف السابقة وربما يظهر في الحال ما  
سبقت الكلمة بنقيضه فمن الذي يدري أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى وقيل في  
معنى قوله تعالى ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ أي بالسابقة يعني أظهرتها

وقال بعض السلف إنما يوزن من الأعمال خواتيمها

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يحلف بالله ما من أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه  
وقيل من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك

وقيل هي عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء

وقال بعض العارفين لو عرضت على الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد

(292/305)

---

عند باب الحجره لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجره لأنني لا أدري ما يعرض  
لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار وقال بعضهم لو عرفت واحدا بالتوحيد خمسين  
سنة ثم حال بيني وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد  
وفي الحديث من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل (1) وقيل في قوله تعالى  
وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا صدقا لمن مات على الإيمان وعدلا لمن مات على الشرك  
وقد قال تعالى ﴿ والله عاقبة الأمور ﴾ فمهما كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء  
واجبا لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرئ الذمة  
وما فسد قبل الغروب لا يبرئ الذمة فيخرج عن كونه صوما فكذلك الإيمان بل لا يبعد أن  
يسأل عن الصوم الماضي الذي لا يشك فيه بعد الفراغ منه فيقال أصمت بالأمس فيقول نعم  
إن شاء الله تعالى إذ الصوم الحقيقي هو المقبول والمقبول غائب عنه لا يطلع عليه إلا الله  
تعالى فمن هذا حسن الاستثناء في جميع أعمال البر ويكون ذلك شكا في القبول إذ يمنع من

القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفيفة لا يطلع عليها إلا رب الأرباب جل

جلاله فيحسن الشك فيه

فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإحياء ح 1

ص 125.121 ﴿

1- حديث من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل أخرجه الطبراني في الأوسط بالشرط الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبي سليم تقدم والشرط الأول روي من قول يحيى بن أبي كثير رواه الطبراني في الأصغر بلفظ من قال أنا في الجنة فهو في النار وسنده ضعيف

(293/305)

فائدة

قال الإمام تقي الدين السبكي :

فِي أَثْنَاءِ كَلَامٍ وَقَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى مَسْأَلَةٍ " أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ " جَرَّ إِلَيْهِ الْكَلَامُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَسِّرَ لَنَا الْعِلْمَ وَأَعَانَا عَلَيْهِ ، وَنَصَرَنَا

بِطَرِيقِ الْهُدَى وَأَرْشَدَنَا إِلَيْهِ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي حَصَلَ لَنَا كُلُّ خَيْرٍ مِنْ فَيْضِ يَدَيْهِ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا

وَبَعْدُ فَقَدْ عَلِمْتُ مَا ذَكَرْتَهُ وَفَقَكَ اللَّهُ مِنْ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْحَنْبَلِيَّةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ تَكَلَّمُوا فِي

مَسْأَلَةٍ "أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" وَقَالُوا إِنَّ الشَّافِعِيَّةَ يُكْفَرُونَ بِذَلِكَ .

وَسَيَاتِي ذَلِكَ فَإِنَّ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْفُقَهَاءِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا مِنْ

الْخِلَافِ مَا يُفْضِي إِلَى تَكْفِيرٍ وَلَا تَبْدِيعٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ خِلَافٌ فِي الْفُرُوعِ فَإِنَّهُمْ جَمِيعُهُمْ مِنْ أَهْلِ

السُّنَّةِ .

وَالْخِلَافُ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ إِنَّمَا يَجْرِي فِي مَسْأَلَةٍ فَرَعِيَّةٍ أَوْ مَسْأَلَةٍ أُصُولِيَّةٍ يَرْجِعُ الْخِلَافُ فِيهَا

إِلَى أَمْرٍ لَفْظِيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ كُفْرٌ وَلَا بَدْعَةٌ .

نُعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

(294/305)

فَلَمَّا بَلَغَنِي مَقَالَتُهُ تَأَلَّمْتُ لِذَلِكَ وَأَسْتَهْجَنْتُ قَوْلَ قَائِلِهِ وَعَذَرْتَهُ بِعُضْرِ الْعُذْرِ لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ فِي

كُتُبِهِمْ أَنَّهُ لَا يُصَلَّى خَلْفَ شَاكٍ فِي إِيمَانِهِ وَأَرَادُوا بِذَلِكَ هَذَا الْكَلَامَ وَاللَّهُ يُغْفِرُ لِقَائِلِهِ إِنَّمَا

صَدَرَ مِنْ مُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ إِذَا حَقَّقَ الْبَحْثَ مَعَهُمْ رَجَعَ إِلَى أَمْرٍ لَفْظِيٍّ ، وَمَا أَرَادُوهُ بِهِ مِنْ هَذِهِ

المسألة يرجع إلى ما اعتقدوه ممن يقول هذه المقالة .

وهو بريء مما أرادوه به .

وأئمتهم المتقدمون لم يبلغنا عنهم ذلك .

وأبو حنيفة رضي الله عنه وإن كان قد نقل عنه إنكار قول المؤمن " إن شاء

الله " لم ينقل عنه مثل ما قاله هؤلاء المتأخرون من أصحابه .

وكيف يقول ذلك وعبد الله بن مسعود الذي هو أصل مذهبه وشيخ شيخ شيخه قد

اشتهر عنه ذلك .

ولقد كان أول ما علمت هذه المسألة وأنا صبي ، ربما كان عمري عشر سنين ، رأيتها في

كتاب المعالم للإمام فخر الدين بن الخطيب منسوبة إلى ابن مسعود رضي الله عنه وقوله "

أنا مؤمن إن شاء الله " ثم أطلعت على أن ذلك قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين ومن

بعدهم والشافعية والمالكية والحنابلة ومن المتكلمين الأشعرية والكلابية .

(295/305)

وهو قول سفيان الثوري وكان صاحبه محمد بن يوسف الفريابي مقيما في عسقلان فشهر

ذلك في الشام عنه وأخذه عنه عثمان بن مرزوق ، فزاد أصحابه المشهورون اليوم

بالمَرَازِقَةِ فِي الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ الاسْتِثْنَاءِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ بَدْعَةٌ وَضَلَالٌ ، أَغْنِي مَا زَادُوهُ

وَأَمَّا الأَصْلُ وَهُوَ "أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللهُ" فَهُوَ صَحِيحٌ وَالنَّاسُ فِيهِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَذَاهِبٍ ،

مِنْهُمْ مَنْ يُوجِبُهُ وَيَمْنَعُ القَطْعَ بِقَوْلِهِ "أَنَا مُؤْمِنٌ" وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُ وَيُوجِبُ القَطْعَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يُجَوِّزُ الأَمْرَيْنِ وَهُوَ الصَّحِيحُ .

وَالكَلَامُ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ طَوِيلٌ يَحْتَاجُ إِلَى مَوَادِّ كَثِيرَةٍ ، وَقَوَاعِدُ مُنْتَشِرَةٍ ، وَقَلْبُ سَلِيمٍ ،

وَفِكْرٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَمُخَاطَبَةٌ مَنْ يَفْهَمُ عَنْكَ مَا تَقُولُ ، وَيُعَانِي مِثْلَ مَا تُعَانِيهِ فِي المُنْقُولِ

وَالْمَعْقُولِ وَارْتِيَاظٌ فِي العُلُومِ وَاعْتِدَالٌ فِي المُنطُوقِ وَالمَفْهُومِ ، وَطَبِيعَةٌ وَقَادَةٌ وَقَرِيحَةٌ

مُنْقَادَةٌ ، وَتَجَرُّدٌ فِي عِلْمِ الطَّرِيقِ وَالسُّلُوكِ ، وَتَقْوَى وَتَذَكُّرٌ إِذَا عَرَضَ مَسُّ الشَّيْطَانِ

فَيَصْبِرُ مَا تَنْزَاحُ بِهِ عَنْهُ

الشُّكُوكُ وَقَدْ يَأْتِي فِي مَبَاحِثِ هَذِهِ المَسْأَلَةِ مَا أَضْمَنُ بِهِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ لِقَلَّةِ مَنْ يَفْهَمُهُ أَوْ

يَسْلَمُ فِي المَعْتَقَدِ ، لَكِنِّي أَرْجُوهُ مِنَ اللهِ أَنْ يُوفِّقَكَ لِفَهْمِهِ وَيَعْصِمَكَ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ حَالٍ

وَكَدٌ .

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تُسْتَمَدُّ مِنْ مَسَائِلَ إِحْدَاهَا تَحْقِيقُ مَعْنَى الْإِيمَانِ وَقَدْ صَنَّفَتْ فِيهِ مُجَلَّدَاتٍ  
وَيَكْفِي قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ وَذَكَرَ اللَّغَوِيُّونَ قَوْلَيْنِ فِي " أَنْ تُؤْمِنَ " وَمَعْنَى الْإِيمَانِ .  
أَحَدُهُمَا وَهُوَ الْمَشْهُورُ أَنْ تُصَدِّقَ .

وَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ .

فَالْإِيمَانُ التَّصَدِيقُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْخَمْسَةِ .  
وَالثَّانِي أَنْ تُؤْمِنَ نَفْسَكَ مِنَ الْعَذَابِ .

وَالْبَاءُ لِلِاسْتِعَانَةِ أَوْ السَّبَبِيَّةِ .

فَالْإِيمَانُ جَعَلَ النَّفْسَ آمِنَةً بِسَبَبِ اعْتِقَادِ هَذِهِ الْأُمُورِ الْخَمْسَةِ ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَظْهَرُ  
جَوَازُ الْاسْتِنَاءِ .

لِأَنَّ الْأَمْنَ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ مَشْرُوطٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ بِلَا إِشْكَالٍ .

وَتَخْرِيجُ الْاسْتِنَاءِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ لَمْ أَجِدْهُ مَنْقُولًا وَإِنَّمَا ذَكَرْتَهُ وَهَذَا الْقَوْلُ فِي اللُّغَةِ لَمْ  
يَذْكُرْهُ الْأَكْثَرُونَ .

وَلَكِنَّ الْوَاحِدِيَّ ذَكَرَهُ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِهِ .

وَنَاهِيكَ بِهِ فَرَعْتُ أَنَا عَلَيْهِ هَذَا الْجَوَابَ .

( الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ ) هَلِ الْأَعْمَالُ دَاخِلَةٌ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ أَوْ خَارِجَةٌ عَنْهُ ؟ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ

المذكور أنها خارجة عنه .

وقد اشتهر على السنة السلف دخول الأعمال وهما هنا احتمالات أربعة أحدها أن تجعل الأعمال من مسمى الإيمان داخله في مفهومه دخول الأجزاء المقومة حتى يلزم من عدمها عدمه .

(297/305)

وهذا مذهب المعتزلة لم يقل به السلف؛ بل قالوا خلافاً، والثاني: أن تجعل أجزاء داخله في مفهومه لكن لا يلزم

من عدمها عدمه، فإن الأجزاء على قسمين منها ما لا يلزم من عدمه عدم الذات كالشعر واليد والرجل للإنسان والأغصان للشجرة .

فاسم الشجرة صادق على الأصل وحده .

وعليه مع الأغصان ولا يزول بزوال الأغصان .

وهذا هو الذي يدل له كلام السلف .

وقولهم "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص" فلم يجتمع هذان الكلامان إلا على هذا المعنى .

ومن هنا قال الناس "شعب الإيمان" جعلوا الأعمال للإيمان كالشعب للشجرة .



وَقَدْ مَثَلَ اللَّهُ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ وَهُوَ أَصْدَقُ شَاهِدٍ لِذَلِكَ ، الثَّالِثُ أَنْ تَجْعَلَ  
الْآثَارَ آثَارًا خَارِجَةً عَنِ الْإِيمَانِ لِكِنَّهَا مِنْهُ وَسَبَبِهِ .

وَإِذَا أُطْلِقَ عَلَيْهَا فَبِالْمَجَازِ مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ اسْمِ السَّبَبِ عَلَى الْمُسَبَّبِ .  
وَهُوَ قَرِيبٌ لَكِنَّ الَّذِي قَبْلَهُ أَقْرَبُ إِلَى كَلَامِ السَّلْفِ وَظَوَاهِرِ الْأَحَادِيثِ ، الرَّابِعُ .  
أَنْ يُقَالَ أَنَّهَا خَارِجَةٌ بِالْكَلِمَةِ لَا تَطْلُقُ عَلَيْهَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا .  
وَهَذَا بَاطِلٌ لَا يُمَكِّنُ الْقَوْلُ بِهِ ، وَالْمُخْتَارُ الْقَوْلُ الثَّانِي .

وَتَحْقِيقُهُ أَنَّ اسْمَ الْإِيمَانِ مَوْضُوعٌ شَرْعًا لِلْمَعْنَى الْكَلِمِيَّةِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَ الْإِعْتِقَادِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ  
، وَالْإِعْتِقَادِ وَالْقَوْلِ دُونَ الْعَمَلِ .

(298/305)

---

وَالْإِعْتِقَادِ وَحُدَّهُ بِشَرْطِ الْقَوْلِ ، فَإِذَا عُدِمَ الْعَمَلُ لَمْ يُعَدِّمِ الْإِيمَانُ وَإِذَا عُدِمَ الْقَوْلُ لَمْ يُعَدِّمِ  
الْإِيمَانُ وَلَكِنْ عَدِمَ شَرْطُهُ فَيُعَدِّمُ لِعَدَمِ شَرْطِهِ .  
وَإِذَا عُدِمَ الْإِعْتِقَادُ عُدِمَ الْجَمِيعُ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ .  
إِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فَإِذَا قُلْنَا : الْأَعْمَالُ دَاخِلَةٌ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ كَانَ دُخُولُ الْإِسْتِثْنَاءِ جَائِزًا ؛  
لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ غَيْرَ حَازِمٍ بِكَمَالِ الْأَعْمَالِ عِنْدَهُ ، وَبِهَذَا يُشْعِرُ كَلَامُ كَثِيرٍ مِنَ السَّلْفِ ، وَأَنَّهُمْ إِذَا

اسْتُنُوا فَإِنَّمَا اسْتُنُوا لِذَلِكَ ؛

لَكِنَّ هَذَا يَقْتَضِي أَحَدَ أَمْرَيْنِ إِمَّا أَنَّ الْإِيْمَانَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْأَعْمَالِ ، وَقَدْ قُلْنَا إِنَّهُ مَذْهَبُ  
الْمُعْتَزَلَةِ .

وَعَلَيْهِ يُلْزَمُ أَنَّ مَنْ فَقَدَ الْأَعْمَالَ يُجْزَمُ بَعْدَمِ الْإِيْمَانِ إِلَّا أَنَّهُ يَقْتَصِرُ عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ ، وَإِمَّا أَنْ نَقُولَ  
إِنَّ الْإِيْمَانَ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ صَادِقَةٌ عَلَى الْقَلِيلِ وَهُوَ مُجَرَّدُ الْاِعْتِقَادِ الصَّحِيحِ وَالْكَثِيرِ وَهُوَ  
الْمُضَافُ إِلَيْهِ الْأَعْمَالُ ، وَلَهَا مَرَاتِبُ أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَمُؤْمِنٌ اسْمٌ فَاعِلٍ  
مُشْتَقٌّ مِنْ مُطْلَقِ الْإِيْمَانِ ، فَلَا يُشْرَطُ فِيهِ وَجُودُ أَعْلَى مَرَاتِبِهِ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِالْإِيْمَانِ الْإِيْمَانُ  
الْكَامِلُ فَيَصِحُّ ، وَإِمَّا أَصْلُ الْإِيْمَانِ فَلَا يَصِحُّ الْاسْتِثْنَاءُ فِيهِ عَلَى هَذَا الْجَوَابِ عِنْدَ هَذِهِ  
الطَّائِفَةِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ إِنَّ السَّلْفَ إِنَّمَا اسْتُنُوا لِاِعْتِقَادِهِمْ دُخُولَ  
الْأَعْمَالِ فِي الْإِيْمَانِ .

(299/305)

وَفِيهِ نَظَرٌ لَمَّا ذَكَرْنَاهُ فَالْوَجْهُ أَنْ يُضَافَ إِلَى ذَلِكَ إِطْلَاقُ قَوْلِهِمْ أَنَا مُؤْمِنٌ ۝ يَقْتَضِي أَنَّهُ جَامِعٌ بَيْنَ  
الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ .

فَلِذَلِكَ اسْتُنُوا وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ .

(المسألة الثالثة) أن الإيمان إنما ينفع في الآخرة إذا مات عليه .

فمن مات كافراً لم ينفعه إيمانه المتقدم ، وهل نقول إنه لم يكن إيماناً لأن من شرط الإيمان أن لا يعقبه كفر أو كان إيماناً ولكن بطل فيما بعد لطريان ما يحبطه ؛ أو كان الحكم بكونه إيماناً صحيحاً موقوفاً على الخاتمة ؛ كما يتوقف الحكم بصحة الصلاة والصوم على تمامها لأنهما عبادة واحدة يرتبط أولها باخرها ، فيفسد أولها بفساد آخرها فخرج من كلام العلماء ثلاثة أقوال في ذلك .

والأول قول الأشعري .

والثاني ظاهر القرآن يدل له حيث حكم بأن المرتد يحبط عمله إذا مات كافراً .

والثالث اقتضاه كلام بعضهم .

وعلى كل من الأقوال يصح الاستثناء للجهل بالعاقبة التي هي شرط إمام في الأصل .  
وإمام في الدين ، وإمام في النفع ويكون الاستثناء راجعاً إلى أصل الإيمان ، ولا يحتاج أن يقول إن الأعمال داخلة فيه .

وَيَلْزِمُ عَلَى هَذَا حُصُولُ الشَّكِّ فِيهِ ؛ وَيُرَدُّ مَا أُورِدَهُ الْمُخَالَفُ مِنَ التَّشْنِيعِ وَتَسْمِيَتِهِمُ الطَّائِفَةَ  
الْمَشِيئَةَ بِالْمُتَشَكِّكَةِ لَكِنَّ هَذَا شَكٌّ لَا حِيلَةَ لِلْعَبْدِ فِيهِ فَإِنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى الْخَاتِمَةِ الَّتِي لَا  
يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ .

وَلَيْسَ شَكًّا فِي اعْتِقَادِهِ الْحَاصِلِ الْآنَ ، نَعَمْ هُوَ شَكٌّ فِي كَوْنِهِ نَافِعًا وَصَحِيحًا وَيُسَمَّى  
عِنْدَ اللَّهِ إِيْمَانًا وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ جَازِمًا بِأَنَّهُ قَدْ أَتَى بِمَا فِي قُدْرَتِهِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَقْرِيطٍ  
وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا ارْتِيَابٍ عِنْدَهُ فِيهِ .

(المسألة الرابعة) ولم أجد من تعرض للتخريج عليها غيري ، وهي التي أشرت إلى قلة من  
يفهمها واحتياج سامعها لتثبت في الفهم بتوفيق من الله في السلامة أنا وإن سلمنا أن الإيمان  
التصديق وحده من غير إضافة الأعمال إليه .

وَلَا الْأَمْنُ مِنَ الْعَذَابِ بِسَبَبِهِ ، وَلَا اشْتِرَاطُ الْخَاتِمَةِ فِي مُسَمَّاهُ ، فَتَقُولُ التَّصَدِيقُ يَتَعَلَّقُ  
بِالْمُصَدِّقِ بِهِ وَهُوَ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْحَدِيثِ ﴿اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَكُتُبُهُ وَرُسُلُهُ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ﴾ وَيُشْتَرَطُ مَعْرِفَةُ الْمُصَدِّقِ بِهَا ، فَلَا بُدَّ فِي التَّصَدِيقِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ .

(301/305)

---

وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبَغَوِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ بْنِ عَطِيَّةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ  
قَالَ ﴿ بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْشِي اسْتَقْبَلَهُ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ لَهُ

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ ؟ قَالَ

أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ حَقًّا قَالَ انْظُرْ مَا تَقُولُ ؟ فَإِنْ لَكَ قَوْلٌ حَقِيقَةٌ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَرَفْتُ

نَفْسِي عَنْ الدُّنْيَا فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي وَأَضْمَأْتُ نَهَارِي وَكَانِي بِعَرْشِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ بَارِزًا وَكَانِي

أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ تَزَاوُرُونَ فِيهَا ، وَكَانِي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ تَعَاوُونَ فِيهَا .

قَالَ أَبْصَرْتُ فَالزَّمْتُ عَبْدُ نَوَّرَ اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ .

فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ادْعُ اللَّهَ لِي بِالشَّهَادَةِ فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿

وَهَذَا الْحَدِيثُ تَذَكُّرُهُ الصُّوفِيَّةُ كَثِيرًا وَهُوَ مَشْهُورٌ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَ فِي سَنَدِهِ ضَعْفٌ مِنْ

جَهَةِ يُوسُفَ بْنِ عَطِيَّةَ .

وَهُوَ شَاهِدٌ لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا جَوَازُ إِطْلَاقِ " أَنَا مُؤْمِنٌ " مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ .

وَالثَّانِي الْإِشَارَةُ إِلَى مَا قُلْنَا مِنْ أَنَّ هَذَا الْإِطْلَاقَ يُشْرَطُ فِيهِ الْمَعْرِفَةُ .

وَالْمَعْرِفَةُ تَقَاوَتْ النَّاسُ فِيهَا تَفَاوُتًا كَثِيرًا .

فَمَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى مَعْرِفَةٌ وَجُودِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَصِفَاتِهِ أَمَّا ذَاتُهُ فَمُعْتَمِدٌ مَعْلُومٌ لِلْبَشَرِ ؛ وَوُجُودُهُ  
مَعْلُومٌ لِكُلِّ أَحَدٍ ، وَوَحْدَانِيَّتُهُ مَعْلُومَةٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَصِفَاتُهُ تَتَفَاوَتُ الْمُؤْمِنُونَ فِي  
مَعْرِفَتِهَا .

وَأَعْلَى الْمَعَارِفِ لَانْهَائِيَّةٌ لَهَا ، فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَأَعْلَى الْخَلْقِ مَعْرِفَةُ النَّبِيِّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ .  
وَأَدْنَى الْمَرَاتِبِ الْوَاجِبُ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ فِي النَّجَاةِ مِنَ النَّارِ .

وَفِي عِصْمَةِ الدَّمِّ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَسَائِطٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا وَاجِبٌ ، وَمِنْهَا مَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ .  
وَكَلَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ ، لِأَنَّهُ يَصْدُقُ بِهَا وَبِالْإِخْلَالِ بِهِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ بِتَرْكِ ذَلِكَ  
الوَاجِبِ ، فَقَدْ يُخْرَجُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَقَدْ لَا يُخْرَجُ .

وَالْحَدُّ فِي ذَلِكَ مَزَلَةٌ قَدَمٌ  
الْمُتَكَلِّمِينَ وَالسَّالِكِينَ كُلِّ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ عَلَى قَدْرِ عِلْمِهِ ، وَيَقِفُ فِيهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ ،  
وَأَحْوَالُ الْقُلُوبِ فِي ذَلِكَ مُتَفَاوِتَةٌ جِدًّا وَالْمَعَارِفُ الْإِلَهِيَّةُ الْمُفَاضَةُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ  
الْأَعْلَى وَأَسْعَةٌ جِدًّا .

فَالْخَائِفُ مَا مِنْ مَقَامٍ يَنْتَهِي إِلَيْهِ إِلَّا وَيَخَافُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَلَى خَطَرٍ ، وَيَنْخَلَعُ قَلْبُهُ مِنَ الْهَيْبَةِ  
فَيَفْزَعُ إِلَى الْمَشِيئَةِ وَيَقُولُ حَسْبِيَ إِنْ كُنْتُ أَدَيْتُ الْوَاجِبَ ، وَسِوَاهُ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا أَقَامَهُ  
مَقَامَ الْبَسْطِ وَأَنْشَرَا الصَّدْرَ بِالْيَقِينِ فَيُطْلَقُ .

وَالْآخِرُ غَافِلٌ عَنِ الْحَالَيْنِ أَكْفَى بظَاهِرِ الْعِلْمِ فَيُكْتَفَى مِنْهُ بِالْإِطْلَاقِ أَيْضًا وَعَلَى هَذِهِ  
الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ يُحْمَلُ اخْتِلَافُ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ؛ وَكُلُّ قَصْدٍ الْخَيْرِ وَتَكَلَّمَ عَلَى حَسَبِ  
حَالِهِ، وَلَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يُكْفَرُ بَعْضًا، بَلْ كُلُّ تَكَلَّمَ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَرُشِحُ

وَمَنْ قَالَ مِنْ الْعُلَمَاءِ بِوَجُوبِ الْاسْتِثْنَاءِ غَلَبَ عَلَيْهِ حَالُ اسْتِحْضَارِ تِلْكَ الْأُمُورِ الْمَانِعَةِ مِنْ  
الْجَزْمِ وَمَنْ مَنَعَهُ غَلَبَ عَلَيْهِ وَجُوبُ الْجَزْمِ بِالتَّصْدِيقِ وَأَنْعَمَتْ تِلْكَ الْأُمُورُ الْمُقَابِلَةُ لَهُ فِي  
قَلْبِهِ .

وَمَنْ جَوَّزَ الْأَمْرَيْنِ نَظَرَ إِلَى الطَّرْفَيْنِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمَا شَاكًا فِيهَا هُوَ حَاصِلُ الْآنِ، وَلَا  
مُقَصِّرًا فِيمَا وَجَبَ عَلَيْهِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

(الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ) قَالَ بَعْضُ النَّاسِ إِنَّ الْاسْتِثْنَاءَ لِلشَّكِّ فِي الْقَبُولِ وَهَلْ يَلْتَفِتُ عَلَى أَنَّ  
الْإِيمَانَ هَلْ يُوصَفُ بِالْقَبُولِ وَعَدَمِهِ أَوْ بِالصَّحَّةِ وَعَدَمِهَا أَمَّا الْقَبُولُ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَتَى حَصَلَ  
الْإِيمَانُ وَالْوَفَاةُ عَلَيْهِ قَبْلَ قَطْعَا، وَكَذَا الصَّحَّةُ إِذَا اتَّفَقَ التَّصْدِيقُ الْمُطَابِقُ وَمَاتَ عَلَيْهِ فَهُوَ  
صَحِيحٌ قَطْعًا، وَإِنَّمَا يَكُونُ فِسَادُهُ إِذَا صَدَّقَ تَصْدِيقًا غَيْرَ مُطَابِقٍ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ .

فَمَنْ يَعْتَقِدُ فِي اللَّهِ تَعَالَى أَوْ فِي صِفَاتِهِ مَا يَكْفُرُ بِهِ لَا يُقَالُ إِنَّهُ مُؤْمِنٌ إِيْمَانًا فَاسِدًا ، بَلْ لَيْسَ  
بِمُؤْمِنٍ فَالْإِيْمَانُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا إِلَّا وَجْهُ وَاحِدٌ كَأَدَاءِ الدِّينِ وَمَا أَشْبَهَهُ .  
(المسألة السادسة) جَمِيعٌ مَا ذَكَرْنَاهُ حُمِلَتْ " إِنْ " فِيهِ عَلَى مَا وُضِعَتْ لَهُ فِي اللُّغَةِ مِنْ  
دُخُولِهَا عَلَى الْمُحْتَمَلِ الَّذِي يُقَالُ إِنَّهُ الشُّكُّ وَقَدْ عَرَّفْنَاكَ تَخْرِيجَ الشُّكِّ فِيهَا عَلَى وَجْهِ لَا  
يُقْتَضِي كُفْرًا وَلَا شُكًّا فِي الْإِيْمَانِ ، أَمَّا إِذَا قَصَدَ بِهَا جَاهِلٌ شُكًّا فِي أَصْلِ التَّصَدِيقِ  
الْوَاجِبِ عَلَيْهِ لَا بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فَذَلِكَ بَاطِلٌ وَكُفْرٌ وَضَلَالٌ .  
(المسألة السابعة) " إِنْ " تَدْخُلُ عَلَى شَرْطٍ وَجَزَاءٍ وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَلِينَ كَقَوْلِكَ : إِنْ  
جُسْتِي أَكْرَمْتُكَ ، وَلَكَ أَنْ تُقَدِّمَ الْجَزَاءَ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ هُوَ عَيْنَ الْجَزَاءِ عَلَى مَذْهَبِ  
الْكُوفِيِّينَ وَدَلِيلُهُ عَلَى مَذْهَبِ الْبَصْرِيِّينَ : كَقَوْلِكَ أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَوَضَعَ اللِّسَانَ  
يُقْتَضِي الِاسْتِقْبَالَ كَمَا قُلْنَا فِيكَونُ مَعْنَاهُ أَنَا مُؤْمِنٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَمَا أَنَا مُؤْمِنٌ فِي الْحَالِ ،  
لَكِنَّ النَّاسَ لَمْ يَفْهَمُوا مِنْهَا ذَلِكَ وَلَمْ يَضَعُوا هَذَا الْكَلَامَ إِلَّا لِلْإِحْتِرَازِ مِنَ الْقَطْعِ بِالْإِيْمَانِ فِي  
الْحَالِ فَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ أَنَا مُؤْمِنٌ فِي الْحَالِ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا تَطَرَّقَ إِلَيْهِ التَّرَدُّدُ بِالْإِعْتِبَارَاتِ



الَّتِي ذَكَرْنَاهَا صَارَ لَهُ ارْتِبَاطٌ بِالْمُسْتَقْبَلِ ، فَجَازَ تَعْلِيْقَهُ بِالْمُسْتَقْبَلِ وَالْحَاضِرِ لَا يَجُوزُ  
تَعْلِيْقُهُ إِلَّا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَمَّا الْحَاضِرُ الْمُقْطُوعُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ وُجُوْهِهِ فَلَا يُتَصَوَّرُ تَعْلِيْقُهُ ، فَلَا  
يُقَالُ أَنَا إِنْسَانٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا اِعْتِبَارَ بِقَوْلِ الْمَرَاذِقَةِ فَإِنَّهُمْ مُبْتَدِعَةٌ جُهَالٌ ضَلَالٌ فِي ذَلِكَ  
وَلِتَعْلِيْقِ الْحَالِ بِالْمَشِيئَةِ وَجْهٌ يُمْكِنُ الْحَمْلُ عَلَيْهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللُّغَةِ .  
وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى إِنْ كَانَ اللَّهُ شَاءَ فَأَنَا مُؤْمِنٌ فَهُوَ جَائِزٌ بِالِاعْتِبَارَاتِ الَّتِي قَلْنَاهَا ، وَلَكِنَّا  
ذَكَرْنَا لَفْظَ "كَانَ" تَصْحِيْحًا لِلتَّعْلِيْقِ بِحَسَبِ اللُّغَةِ لِيَصِيرَ بِمَعْنَى الثَّبُوتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ  
حَتَّى يَكُونَ الشَّرْطُ مُسْتَقْبَلًا وَالْجِزَاءُ يَكُونُ مَحْذُوفًا يَدُلُّ عَلَيْهِ هَذَا الْمَذْكُورُ ، كَمَا تَقُولُ إِنْ  
أَكْرَمْتَنِي غَدًا فَأَنَا الْآنَ مُحْسِنٌ إِلَيْكَ فَلَا بَدْعَ فِي إِكْرَامِكَ لِي لِأَنِّي مُحْسِنٌ إِلَيْكَ الْآنَ .  
(المَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ) خَرَجُوا "إِنْ شَاءَ اللَّهُ" هَاهُنَا عَلَى مَعْنَى آخَرَ غَيْرِ الشَّكِّ ، وَهُوَ  
التَّبَرُّكُ أَوْ التَّأْدِبُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾  
وَلِقَوْلِهِ ﴿ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ وَقَدْ عَلِمَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَهُ ؛ وَكَقَوْلِهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَتَقَاكُمْ ﴾ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ أَتَقَاهُمْ .

وَهَذَا صَحِيحٌ لِكِنَّهُ كُلُّ مُسْتَقْبَلٍ وَرَبَطِ الْمُسْتَقْبَلِ لَا يُسْتَنْكَرُ وَإِنَّمَا الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِخُصُوصِيَّتِهِ  
مَا نَحْنُ فِيهِ هُوَ رَبَطُ الْحَالِ بِالشَّرْطِ فَلِذَلِكَ أَحْتَجُّنَا إِلَى زِيَادَةِ الْكَلَامِ فِيهِ .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ كِتَابَهُ فِي بَعْضِ نَهَارِ الثَّلَاثَاءِ عَاشِرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ  
بِظَاهِرِ دِمَشْقٍ كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْكَافِي السُّبْكِيُّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ أَنْتَهَى .

(فصل) قال

الشيخ الإمام رحمه الله: الحمد لله رب العالمين ممن قال بالاستثناء منصور ومغيرة  
والأعمش وليث بن أبي سليم وعطاء بن السائب وعمارة بن القعقاع والعلاء بن المسيب  
وإسماعيل بن أبي خالد وابن شبرمة وسفيان الثوري وحمزة الزيات وعلقمة وعبد الله بن  
مسعود، واختلف في رجوعه عنه وعمر بن الخطاب في بعض رأيه وإسحاق بن إبراهيم  
وقال ليس بيننا وبينهم خلاف وابن عيينة .

وقال إنه يؤكد الإيمان .

(307/305)

---

وحماد بن زيد والنضر بن شميل وي زيد بن زريع وعائشة قالت أتم المؤمنون إن شاء الله  
وأحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان والحسن وابن سيرين وأبو يحيى صاحب

الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالْأَجْرِيُّ؛ وَطَاوُسٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ سَعِيدُ بْنُ فَيْرُوزَ؛  
وَالضَّحَّاكُ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ وَعَلِيُّ بْنُ خَلِيفَةَ وَمَعْمَرُ وَجَرِيرُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَأَبْنُ الْمُبَارَكِ  
وَأَبُو وائلٍ وَمَالِكُ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَبْنُ مَهْدِيٍّ وَأَبُو ثَوْرٍ وَأَبُو سَعِيدِ بْنِ  
الْأَعْرَابِيِّ أَنْتَهَى .

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ يُؤَافِي نِعْمَهُ  
وَيُكَافِي مُزِيدَهُ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

وَبَعْدُ فَهَذِهِ نُبْذَةٌ تَتَلَقُّ بِمَا يُقَالُ فِي جَوَابِ مَنْ سَأَلَ أَمُومِنٌ أَنْتَ .

أَوْ مُسْلِمٌ أَنْتَ ؟ دَعَا إِلَى ذِكْرِهَا مَا وَقَعَ مِنَ الْاسْتِنَاءِ عَلَى مَنْ نَسَبَ قَائِلًا أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ  
اللَّهُ إِلَى الشَّكِّ فِي الْإِيمَانِ .

فَأَقُولُ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ يُنْظَرُ أَوَّلًا فِي حَالِ جَوَازِ الْإِقْدَامِ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ .

وَالَّذِي يَظْهَرُ فِي ذَلِكَ أَنَّ يُقَالُ إِنَّ السَّائِلَ إِذَا لَمْ يَعْضُ عِنْدَهُ مَا

يُوجِبُ الشَّكَّ فِيمَا سَأَلَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ فَلَا وَجْهَ لِسُؤَالِهِ .

فَإِنْ انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ حُصُولُ إِذَاءِ الْمَسْئُولِ بِأَنْ يَكُونَ بِحَضْرَةِ مَنْ يُتَوَهَّمُ أَنَّ السَّائِلَ إِنَّمَا سَأَلَ  
عَنْ ذَلِكَ لِشَكِّ فِي إِيمَانِ الْمَسْئُولِ وَيَكُونُ السَّائِلُ مِمَّنْ يُعْتَبَرُ قَدْحُهُ ، فَلَا تَوَقُّفَ إِذَا فِي تَحْرِيمِ  
هَذَا السُّؤَالِ إِنْ لَمْ يَكُنْ سَبَبٌ شَرْعِيٌّ يُقْتَضِيهِ .

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ قَالَ إِذَا قِيلَ لَكَ أَمْؤُنَ أَنْتَ ؟ فَقُلْ أَنَا لَا أَشُكُّ فِي الْإِيمَانِ  
وَسُؤَالِكَ إِيَّايَ بَدْعَةٌ .

وَكَذَلِكَ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ وَغَيْرُهُ إِنْ السُّؤَالُ عَنْ هَذَا بَدْعَةٌ .

فَإِذَا حَصَلَ تَرَدُّدٌ وَاشْتِبَاهٌ فَلَا بَأْسَ بِالسُّؤَالِ وَكَذَا إِنْ عَرَضَ مَا يُقْتَضِي ذَلِكَ شَرْعًا .  
ثُمَّ الْجَوَابُ الَّذِي تَكَلَّمَ السَّلْفُ فِيهِ ذَكَرَ فِي صُورٍ إِحْدَاهَا أَنَا مُؤْمِنٌ وَالثَّانِيَةُ أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ  
اللَّهُ وَالثَّلَاثَةُ .

أَنَا مُؤْمِنٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ .

وَالرَّابِعَةُ أَنَا مُؤْمِنٌ عِنْدَ اللَّهِ وَالْخَامِسَةُ أَنَا مُؤْمِنٌ حَقًّا فَأَمَّا الْأُولَى فَاخْتَلَفَ السَّلْفُ فِي  
الْجَوَابِ بِهَا فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهُ إِذَا سُئِلَ عَنِ الْإِيمَانِ يَقُولُ الْمَسْئُولُ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ  
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا يَقُولُ أَنَا مُؤْمِنٌ وَمِمَّنْ قَالَ بِهَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، جَاءَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ  
رَجُلًا قَالَ عِنْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ إِنِّي مُؤْمِنٌ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَاسْأَلُوهُ أَفِي الْجَنَّةِ هُوَ ؟ فَسَأَلُوهُ .

---

فَقَالَ اللَّهُ أَعْلَمُ فَقَالَ هَلَّا وَكَلْتُ الْأَوْلَى إِلَى اللَّهِ كَمَا وَكَلْتُ الْأَخِيرَةَ ؟ وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ كَانَ عَبْدُ  
اللَّهِ يَقُولُ مَنْ شَهِدَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَلْيَشْهَدْ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ .

وَعَلَى هَذَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ فِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَعَنْ  
الْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ أَنَّهُمَا كَانَا يَقُولَانِ مُسْلِمٌ وَلَوْ مَاتَ مُؤْمِنٌ .  
وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى إِجَازَةِ ذَلِكَ ، فَيَقُولُ أَنَا مُؤْمِنٌ وَيَقْطَعُ .

وَمَنْ قَالَ هَذَا ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَاخْتَارَهُ الْمُحَقِّقُونَ ؛ وَمِنْهُمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ  
الْحَلِيمِيُّ قَالَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَمْتَنِعَ الْمُؤْمِنُ مِنْ تَسْمِيَةِ نَفْسِهِ مُؤْمِنًا ، لِمَا يَخْشَاهُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ  
نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْهُ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْلِبُ الْمَوْجُودَ مَعْدُومًا .

وَإِنَّمَا يُحْبَطُ أَجْرُهُ ، وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ وَهِيَ أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَخَالَفَ بَعْضُ السَّلَفِ  
فِيهَا فَقَالُوا لَا يُسْتَنْى وَمِنْهُمْ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ أَنَّهُ أَخْرَجَ شَاةً لِيَذُبَّهَا فَقَالَ لَهُ  
رَجُلٌ أَنَا أَذُبُّهَا فَرَأَى سَيِّئَ الْهَيْئَةِ فَقَالَ أَنْتَ مُسْلِمٌ ؟ فَقَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ .  
مَا أَنْتَ بِذَابِحٍ لَنَا الْيَوْمَ شَيْئًا .

وَهَذَا الْقَوْلُ مُحْكِيٌّ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَذَهَبَ كَثِيرُونَ إِلَى الْإِسْتِثْنَاءِ ؛ مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ مَسْعُودٍ  
 وَعَائِشَةُ وَخَلَاتِقُ مِنَ التَّابِعِينَ ، وَغَيْرِهِمْ مِنْهُمْ طَاوُسُ وَالْحَسَنُ وَأَبْنُ سِيرِينَ وَالنَّخَعِيُّ  
 وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَأَبْنُ عِيْنَةَ وَأَبْنُ الْمُبَارِكِ وَأَحْمَدُ ؛ وَالشَّافِعِيُّ وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدِ الْقَطَّانُ ،  
 وَقَالَ مَا أَدْرَكَتُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِنَا وَلَا بَلَغَنِي إِلَّا عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ .  
 وَعَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْيُونَ عَلَى مَنْ لَا يَسْتِثْنِي .  
 وَقَالَ قَوْمٌ لَا بُدَّ مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ وَنَسَبَهُ إِلَى أَكْثَرِ الْمُتَكَلِّمِينَ .  
 وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَأَبْنِ مَسْعُودٍ وَعَائِشَةَ وَالْحَقُّ الْجَوَازُ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْأَوْزَاعِيُّ وَغَيْرُهُ ، ثُمَّ  
 الْقَائِلُونَ بِالْوَجُوبِ وَالْجَوَازِ مُطَبِقُونَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ عَلَى مَعْنَى الشَّكِّ فِي الْإِيمَانِ  
 الْمَاضِي وَلَا فِيمَا هُوَ وَاقِعٌ الْآنَ وَلَا فِيمَا يُسْتَقْبَلُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْعَقْدِ .  
 وَذَكَرَ فِيمَا سَبَقَ قَوْلُ " إِنْ شَاءَ اللَّهُ " لِأَجَلِهِ خَمْسَةٌ أَوْجُهُ أَحَدُهَا رِعَايَةُ الْأَدَبِ بِذِكْرِ اللَّهِ  
 تَعَالَى فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ وَنَحْوِهِ الْقَوْلُ إِنَّهُ لِلتَّبَرُّكِ وَفِي  
 قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ إِشْعَارُ بِتَأْدِيبِنَا بِهَذَا وَإِنْ كَانَ  
 الْحُكْمُ مَقْطُوعًا .

وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ الْمَشِيئَةَ مَعَ تَعَلُّقِ عِلْمِهِ الْقَدِيمِ بِأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ  
الْحَرَامَ آمِنِينَ لِنَتَادَبَ فَنَفَعَلْ كَمَا فَعَلَ إِذْ الْقَاعِدَةُ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ صَرَفُهُ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ كَقَوْلِهِ  
تَعَالَى ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ وَنَحْوِهِ ﴿ فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ  
يَخْشَى ﴾ قَالَ سَيَبَوِيهِ فِي مَعْنَاهُ اذْهَبَا عَلَى رَجَائِكُمَا .

وَهُوَ كَثِيرٌ ، وَعَلَى هَذَا مَا جَاءَ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ  
لَاحِقُونَ ﴾ وَنَحْنُ مُتَقَيِّدُونَ بِذَلِكَ ، وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُلُّ أَحَدٍ ؛ لَا يَشُكُّ فِي أَنَّهُ  
لَاحِقٌ بِهِمْ ، وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلَتْ الْمَشِيئَةَ تَأْدِيبًا وَتَبَرُّكًا .

وَعَنْ عَلْقَمَةَ فِي الْمُسْتَحَاضَةِ " لَا يَأْتِيهَا زَوْجُهَا وَلَا تَصُومُ إِِنْ شَاءَ اللَّهُ .  
فَقِيلَ إِنَّكَ إِذَا قُلْتَ إِِنْ شَاءَ اللَّهُ شَكَّكَتَنِي قَالَ إِذَا قُلْتَ إِِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَيْسَ فِيهِ شَكٌّ " وَكَانَ  
أَبْنُ عَوْنٍ قَلَّمَ يَتَكَلَّمُ إِلَّا اسْتَنَى فِي كَلَامِهِ فَقِيلَ أَتَشْكُ فِيمَا تَسْتَنِي قَالَ أَمَّا مَا اسْتَنَى فِيهِ  
فَهُوَ الْيَقِينُ وَإِمَّا مَا شَكَّكَتَ فِيهِ فَلَا أَتَكَلَّمُ بِهِ .

(الوجه الثاني) أَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ هَضْمُ النَّفْسِ بِتَرْكِ التَّزَكِّيَةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ أَفْضَلُ الصِّفَاتِ  
فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ أَنَا مُؤْمِنٌ ، فَقَدْ زَكَّى نَفْسَهُ حَيْثُ أُثْبِتَ لَهَا أَفْضَلُ الصِّفَاتِ وَتَزَكِّيَةُ النَّفْسِ  
مَدْمُومَةٌ .

قَالَ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ فَبِئْسَ قَوْلٌ " إِنْ شَاءَ اللَّهُ " تَحَرُّزٌ مِمَّا يَشْعُرُ بِهِ قَوْلُ " أَنَا مُؤْمِنٌ " مِنَ التَّزَكِّيَّةِ .  
(الوجه الثالث) أَنَّ الْمَشِيئَةَ رَاجِعَةٌ إِلَى كَمَالِ الْإِيمَانِ لَا إِلَى أَصْلِهِ  
وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ مَعَ أَنَّ غَيْرَهُمْ مُؤْمِنُونَ .

فَالْمَقْصُودُ كَوْنُهُمْ كَامِلِي الْإِيمَانِ .

وَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي .

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ﴾ فَقَوْلُ الْمُؤْمِنِ " إِنْ شَاءَ اللَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْعُقْدِ وَالْإِقْرَارِ مِنْ كَمَالَاتِ الْإِيمَانِ لَا بِهِمَا .

(الوجه الرابع) أَنَّ الْمَشِيئَةَ تَرْجِعُ إِلَى مَا يَقَعُ مِنَ الْإِيمَانِ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ كَمَا يَقَعُ عَلَى التَّصَدِيقِ يَقَعُ أَيْضًا عَلَى الْأَعْمَالِ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أَيَّ صَلَاتِكُمْ

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ﴾ وَفُسِّرَ الْإِيمَانُ فِيهِ بِالصَّلَاةِ وَالذَّلَالَةُ حَاصِلَةٌ وَإِنْ لَمْ يُفَسَّرْ بِذَلِكَ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْعَمَلَ قَدْ يُوجَدُ لَانْقَاءٍ وَقَدْ لَا يُوجَدُ كَذَلِكَ .



فَقَوْلُ الْمُؤْمِنِ "أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" مُتَعَلِّقٌ بِالْأَعْمَالِ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَدْرِي كَيْفَ حَالُ عَمَلِهِ  
عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .

(313/305)

(الْوَجْهُ الْخَامِسُ) أَنَّ الْمَشِيئَةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَا فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْخَاتِمَةِ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَدْرِي  
مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فَالْمَعْنَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ أُوْفِيَ عَلَى الْإِيمَانِ وَافِيَتْ عَلَيْهِ .  
وَجَاءَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ أَمُؤْمِنٌ أَنْتَ ؟ فَقَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَقِيلَ لَهُ لَا تَسْتَشْنِ يَا أَبَا سَعِيدٍ فِي الْإِيمَانِ فَقَالَ : أَخَافُ أَنْ أَقُولَ نَعَمْ فَيَقُولَ اللَّهُ كَذَبْتَ .  
وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ "أَنْتُمْ الْمُؤْمِنُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" فَهَذِهِ خَمْسَةٌ أُوجِبُ  
يَتَحَمَّلُهَا قَوْلُ الْمُؤْمِنِ "أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ "أَرْجُو" وَنَحْوُهُ .  
وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ قَالَ إِذَا سُئِلْتَ : أَمُؤْمِنٌ أَنْتَ ؟ فَقُلْ أَرْجُو وَلَا

يَخْفَى مَا يَلِيقُ بِهَذَا مِنَ الْأَوْجُهِ السَّابِقَةِ .

وَقَالَ رَجُلٌ لِعَلْقَمَةَ السُّتِّ مُؤْمِنًا ؟ فَقَالَ "أَرْجُو إِنْ شَاءَ اللَّهُ" وَالْحَاصِلُ أَنَّ الشَّكَّ فِي  
الْإِيمَانِ غَيْرُ مُرَادٍ قَطْعًا بِقَوْلِ الْمُؤْمِنِ "أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" وَذَلِكَ أَنَّ الشَّكَّ فِيمَا مَضَى مِنْ  
الْإِيمَانِ لَا يَتَحَقَّقُ إِذْ الشَّكُّ فِيمَا عُلِمَ وَقُوعُهُ مُحَالٌ .

وَكَذَا الشَّكُّ فِي الْحَالِ ، إِذِ الْوَاقِعُ الْمُحَقَّقُ الْوُقُوعُ وَلَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ شَكٌّ وَلَا يَدْخُلُ فِي الْعَقْلِ  
تَوْهْمٌ ذَلِكَ فِيهِ .

(314/305)

وَهَلْ هَذَا إِلَّا كَتَوْهُمْ تَعَلَّقَ الشَّكُّ بِالْجُوعِ وَالشَّبَعِ عِنْدَ تَحْقِيقِ كَوْنِهِمَا ، مَعَ أَنَّ مَوْضِعَ "إِنْ"  
الشَّرْطِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَالْمَاضِي وَالْحَالِ خَارِجَانِ عَقْلًا وَلُغَةً وَأَمَّا الْمُسْتَقْبَلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى  
العَقْلِ فَخَارِجٌ أَيْضًا ، فَإِنَّ الْعِلْمَ الْحَاصِلَ بِالشَّيْءِ لَا يَدْخُلُهُ تَغْيِيرٌ مَعَ قِيَامِ مُوجِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّمَا  
يَتَطَرَّقُ الشَّكُّ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْمَوْجِبِ لِلْعِلْمِ .

وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُعْتَقَدَ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِ فَضْلًا عَنِ الْأَكْبَارِ .

فَمَنْ اعْتَقَدَ فِي مُؤْمِنٍ قَالَ "أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" أَنَّهُ شَاكٌّ فِي إِيمَانِهِ وَتَغْيِيرَ عِنْدَهُ مُوجِبٌ  
الْإِيمَانَ كُفْرًا .

وَاعْتِقَادَهُ فِي الْمُؤْمِنِ كُفْرًا .

وَلَيْسَ قَوْلُ "إِنْ شَاءَ اللَّهُ" مِمَّا يُوجِبُ اعْتِقَادَ تَغْيِيرِ مَا عِنْدَ قَائِلِهِ مِنَ الْإِيمَانِ لِجَوَازِ اسْتِعْمَالِهِ  
قَطْعًا لِغَيْرِ الشَّكِّ وَاشْتِهَارِهِ فِيهِ ، لَا سِيَّمَا مَعَ قَوْلِ "أَنَا مُؤْمِنٌ" .

وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّلَاثَةُ وَهِيَ "أَنَا مُؤْمِنٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ" فَمَنْعَهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ مَا فِي

عِلْمُ اللَّهِ لَا يَتَغَيَّرُ ، وَالْعَبْدُ لَا يَدْرِي خَاتِمَةَ أَمْرِهِ .  
وَأَمَّا الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ وَهِيَ " أَنَا مُؤْمِنٌ عِنْدَ اللَّهِ " فَاجْزَاهَا مِنْ مَنَعٍ " أَنَا مُؤْمِنٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ "   
وَفَرَّقَ بَأَنَّ " عِنْدَ " تَغْيِيرُ وَالْعِلْمُ لَا يَتَغَيَّرُ ، وَسَوَى بَعْضُهُمْ بَيْنَهُمَا .  
وَعَنْ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ

(315/305)

---

أَنَّهُ قَالَ " مَنْ قَالَ أَنَا مُؤْمِنٌ عِنْدَ اللَّهِ ، فَهُوَ مِنَ الْكٰذٰبِيْنَ " وَالَّذِي يَظْهَرُ فِي الصُّورَةِ الْأُولَى أَنَّ  
قَائِلَ ذَلِكَ إِنْ قَصَدَ الْحَالَ لَمْ يُمْنَعْ وَإِنْ قَصَدَ الْمُسْتَقْبَلَ أُمْتِنِعَ .  
وَالْمَاضِي كَالْحَالَ .  
أَمَّا الْأَوَّلُ فَلِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَى يَتَعَلَّقُ بِالشَّيْءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ .  
فَإِذَا كَانَ الْوَاقِعُ مِنْهُ عِنْدَ النُّطْقِ بِذَلِكَ الْعَقْدِ الْجَازِمِ تَعَلَّقَ عِلْمُ اللَّهِ بِهِ كَمَا هُوَ وَاقِعٌ .  
فَصَحَّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ " فِي عِلْمِ اللَّهِ " وَأَمَّا الثَّانِي فَلِأَنَّ الْعَبْدَ يَجْهَلُ خَاتِمَةَ أَمْرِهِ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى  
فَإِنْ قِيلَ : قَدْ تَعَلَّقَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى بِكُونِهِ مُؤْمِنًا فِي الْحَالَ ، وَعِلْمُ اللَّهِ لَا يَتَغَيَّرُ .  
قِيلَ عِلْمُهُ تَعَالَى يَتَعَلَّقُ بِالشَّيْءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَاقِعَةً بِحَسَبِ خَلْقِهِ تَعَالَى .  
فَإِذَا حَصَلَ الْإِيْمَانُ تَعَلَّقَ بِهِ الْعِلْمُ وَلَمْ يَتَغَيَّرِ الْعِلْمُ ، وَإِنَّمَا تَعَلَّقَ فِي ثَانِي الْحَالَ بِمَا وَجَدَ

مُخَالَفًا لِمَا تَعَلَّقَ بِهِ مَوْجُودًا قَبْلَ ذَلِكَ مَعَ أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى كَمَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ مُتَعَلِّقٌ بِمَا يَكُونُ أَنَّهُ سَيَكُونُ .

وَيُقَالُ فِي الصُّورَةِ الثَّلَاثَةِ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ "عِنْدَ اللَّهِ" مَعْنَى "فِي عِلْمِ اللَّهِ" فَالْكَلَامُ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ فِي حُكْمِ اللَّهِ فَهُوَ صَحِيحٌ .

فَإِنَّ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى جَارٌ عَلَيْهِ كَذَلِكَ .

وَإِنْ تَغَيَّرَ الْحَالُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ جَرَى الْحُكْمُ عَلَى الْمُغَايِرِ .

(316/305)

---

وَأَمَّا الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ وَهِيَ "أَنَا مُؤْمِنٌ حَقًّا فَإِنْ قَصِدَ مِنْهَا أَنْ إِيمَانَهُ الْوَاقِعَ مِنْهُ لَا ارْتِيَابَ فِيهِ وَلَا شَكَّ فَهُوَ حَسَنٌ ، وَإِنْ قَصِدَ رُبْنَةَ الْكَمَالِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ فَهُوَ تَرْكِيَةٌ لِلنَّفْسِ .

وَكَيْفَ يَعْلَمُ الْوَاحِدُ مِمَّا ذَلِكَ ؟ وَهُوَ مَحَلُّ الْإِخْلَالِ وَجَاءَ عَنِ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ "إِنَّ قَوْلَ الْمُؤْمِنِ أَنَا مُؤْمِنٌ حَقًّا بَدْعَةٌ" وَجَاءَ عَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ "مَنْ قَالَ أَنَا مُؤْمِنٌ حَقًّا فَهُوَ كَافِرٌ حَقًّا" .

وَمَنْ قَالَ : أَنَا عَالَمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ .

وَمَنْ قَالَ : أَنَا فِي الْجَنَّةِ فَهُوَ فِي النَّارِ " وَهَذَا مَعْنَى مَا سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ . انتهى انتهى . اهـ

❖ فتاوى السبكي ح 1 ص 63.53 ❖

(317/305)

---

من روائع الشيخ الصابوني في الآيات السابقة :

8 - سورة الأنفال

[ 1 ] حكم الأنفال في الإسلام

التحليل اللفظي

❖ الأنفال ❖ : جمع نفل بالتحريك والمراد به هنا الغنيمة ، قال لبيد :

إِن تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفْلًا . . . وَقَالَ عَنْتَرَةُ :

إِنَّا إِذَا أَحْمَرَّ الْوَعْيَى نَزَوَى الْقَنَّا . . . وَنَعَفُ عِنْدَ مِقَاسِ الْأَنْفَالِ

وأصل النفل ( بالسكون ) الزيادة . ومنه صلاة النافلة لأنها زيادة على الفريضة الواجبة .

ويسمى ( ولد الولد ) نافلة قال تعالى : ❖ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ❖ [ الأنبياء :

72 ] وتسمى الغنيمة نافلة لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرها

وفي الحديث : « وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي » وهنا ثلاثة ألفاظ ( النفل ، الغنيمة ، الفيء ) فالنفل الزيادة كما بينا وتدخّل في الغنيمة أيضاً ، لأنها زيادة أُحلت لهذه الأمة خاصة ، والغنيمة ما أخذ من أموال الكفار بقتال وأما الفيء فهو ما أخذ بغير قتال قال تعالى : ﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوجِبْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [ الحشر : 6 ] .

﴿ فاتقوا الله ﴾ : بامثال أوامره واجتناب نواهيه وأصل التقوى أن يجعل الرجل بينه وبين الشيء الذي يخافه وقاية والمراد أن يتقي عذاب الله بطاعته ، ويتقي غضبه بامثال أوامره قال ابن الوردي :

وانتق الله فتقوى الله ما . . . جاورت قلب امرئ إلا وصل

ليس من يقطع طرقاً بطلاً . . . إنما من يتقي الله البطل

﴿ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ : أحوال بينكم يعني ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة

وانتفاق ، والبين في اللغة يطلق على الوصل ، والافتراق ، وقد جمع المعنيان في قول الشاعر :

فوالله لولا البين لم يكن الهوى . . . ولولا الهوى ما حنّ للبين ألف

(318/305)

﴿ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : أي فزعت لذكره واقشعرت إشفاقاً من عظمته وجلاله ، وأصل  
الوجل : الخوف والفرع قال تعالى : ﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ \* قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام  
علِيم ﴿ [ الحجر : 52-53 ] .

﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ : أي زادتهم ثباتاً في الإيمان . وقوة في الاطمئنان ، ونشاطاً في الأعمال  
الصالحة ، وقد استدل الجمهور بهذه وأشباهها على زيادة الإيمان ، فالإيمان يزيد وينقص ،  
يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي كما نبه عليه البخاري .

﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ : أي يعتمدون عليه والتوكل على الله شعار المؤمنين المتقين قال الله تعالى :  
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [ الفرقان : 58 ] .

﴿ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ : أي يؤدونها كاملة مقومة تامة الأركان والشروط ولم يقل يؤدون  
الصلاة أو يصلون لأنه ليس المراد أداء الصلاة فحسب بل المراد الإتيان بها على الوجه  
الكامل من الاطمئنان والخشوع وأداء الأركان التي أوجبها الله وهذا هو السر في التعبير في  
كثير من الآيات الكريمة بقوله تعالى : ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [ الحج : 41 ] أو ﴿ وَيُقِيمُونَ  
الصَّلَاةَ ﴾ [ البقرة : 3 ] فافهم رعاك الله .

﴿ دَرَجَاتٌ ﴾ : أي منازل ومقامات عاليات في الجنة .

﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ : أي تجاوز عن سيئاتهم .

﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ : وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة . والعرب يصفون الذي لا قبح فيه ولا

ضرر بأنه كريم .

المعنى الإجمالي

(319/305)

---

يقول الله عز وجل مخاطباً رسوله الكريم : يسألك أصحابك يا محمد عن هذه الغنائم التي غنمتها في أول معركة وقعت بينك وبين المشركين وهي « غنائم بدر » لمن هي ؟ وما حكمها ؟ وكيف تقسم ؟ فقل لهم : هي لله وللرسول يحكم فيها الله عز وجل بحكمه ويقسمها الرسول صلى الله عليه وسلم على حسب تشريع الله عز وجل ، فاتقوا الله ولا تختلفوا ولا تنازعوا في شأنها ، لأن ذلك يوجب سخط الله وغضبه عليكم ، ويضعفكم أمام عدوكم ، وربما كان اختلافكم سبباً لتحريمها عليكم ، كما كانت حراماً على من كان قبلكم .

(320/305)

---



وقد كانت الغنائم محرمة على الأمم السابقة فأحلها الله لهذه الأمة رحمة بها وتيسيراً عليها ،  
وعوناً لها على الجهاد في سبيل الله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « وأحلت لي  
الغنائم ولم تحل لأحد قبلي » فلا تختلفوا أيها المؤمنون في شأنها ولا تنازعوا في أمرها  
وأطيعوا الله ورسوله في كل ما يأمركم به ، واجتنبوا نواهيه في كل ما يحذركم عنه ، حتى  
تناولوا الدرجات العالية في الجنة وتكونوا من المؤمنين الصادقين في دعوى الإيمان . ثم بين الله  
عز وجل أوصاف المؤمنين وختمها بما أعد لهم من الجزاء الكريم في الآخرة في دار النعيم التي  
فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، اللهم اجعلنا من السعداء  
الأبرار وأكرم نزلنا في دار القرار إنك سميع مجيب الدعاء .

### سبب النزول

أولاً : عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال : « نزلت فينا معشر أصحاب بدر  
حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى  
الله عليه وسلم ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين على السواء ، وكان  
في ذلك تقوى الله ، وطاعة رسوله ، وإصلاح ذات البين » .

ثانياً : وروى « أبو داود » عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال « » لما كان يوم بدر قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صنع كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا فتسارع في  
ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات فلما كانت المغائم جاءت واطلبون الذي جعل

لهم فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإننا كنا ردءاً لكم لو انكشفتم لثبتم إلينا فتنازعوا »  
فأنزل الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية .

(321/305)

---

ثالثاً: وروى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: لما كان يوم بدر  
قتل أخي « عمير » وقتلت ( سعيد بن العاص ) وأخذت سيفه - وكان يسمى ذا الكتيبة  
- فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال اذهب فاطرحه في القبض قال: فرجعت وبني  
ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي قال فما جاوزت يسيراً حتى نزلت سورة  
الأنفال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب فخذ سلبك .

(322/305)

---

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى: ذكر اسم الجلالة في الأمرين ﴿ اتقوا الله ﴾ و ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ لتربية  
المهابة والروعة في قلوب المؤمنين ، وذكر اسم الرسول مع الله تعالى أولاً وأخيراً لتعظيم شأنه

، وإظهار شرفه ، ولإيدان بأن في طاعة الرسول طاعة الله تعالى كما قال عزّ شأنه : ﴿

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : 80] .

اللطيفة الثانية : توسيط الأمر بإصلاح ذات البين ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ بين الأمر بالتقوى ، والأمر بالطاعة ، لإظهار كمال العناية بشأن الإصلاح بحسب المقام ، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة ، فإنّ الإصلاح بين المسلمين من أعظم الطاعات والقربات إلى الله .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ الشرط متعلق بالأوامر الثلاثة ، والجواب محذوف دلّ عليه ما قبله ، والمعنى : إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ، وليس الغرض التشكيك في إيمانهم ، وإنما هو للإلهاب وتحريك الهمة .

قال الزمخشري : « جعل التقوى ، وإصلاح ذات البين ، وإطاعة الله ورسوله ، من لوازم الإيمان وموجباته ، ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها » .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : الغنائم وحكمها وكيفية تقسيمها :

وضحت هذه الآية الكريمة حكم الأنفال ( الغنائم ) وذكرت أن أمرها مفوض إلى الله عز وجل ورسوله وليس لأحد دخل في قسمتها فالله وحده هو الذي يحكم بما شاء والرسول

صلى الله عليه وسلم يقسمها بحسب حكم اله تعالى . وقد اختلف العلماء هل هذه الآية  
محكمة أم منسوخة ؟

(323/305)

---

فذهب الجمهور إلى أنها محكمة لم ينسخها شيء وأن هذه الآية بينت إجمالاً حكم الغنائم  
ثم وردت الآية الثانية ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيءٍ فإنّ لله خمسُهُ وللرّسولِ ﴾ [ الأتقال : 41 ]  
الأتقال : 41 [ فوضحت هذا الإجمال ، وبينت بالتفصيل قسمة الغنائم ومصارفها  
فالخمس يصرف في المصارف التي بينها الآية الكريمة ، والباقي وهو أربعة أخماس يوزع  
على الغانمين وهذا الرأي الراجح .

وقال بعضهم : إن الآية الكريمة منسوخة بقوله تعالى : ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيءٍ فإنّ  
لله خمسُهُ وللرّسولِ ﴾ [ الأتقال : 41 ] وهذا الرأي ضعيف والصحيح ما ذكرنا من أنه  
لا نسخ في الآية وإنما هو بيان للإجمال المذكور .

قال ابن كثير : والصواب أنها مجملة محكمة بين مصارفها في آية الخمس .

الحكم الثاني : تنفيل بعض المجاهدين من الغنيمة .

التنفيل : إعطاء بعض المجاهدين من الغنيمة قبل قسمتها فالإمام أن يُنفل من شاء من

الجيش قبل التخميس لقصة «سعد بن أبي وقاص» المتقدمة في سبب النزول . ولما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في غزوة بدر «من قتل قتيلاً فله كذا ومن أسر أسيراً فله كذا» وهذا هو رأي الجمهور وهو الصحيح لظاهر الآية الكريمة .  
وقد نقل عن الإمام (مالك) رحمه الله أنه كره ذلك وقال هو قتال على الدنيا .

(324/305)

---

قال ابن العربي في «تفسير آيات الأحكام» ما نصه :  
«قال علماؤنا النفل على قسمين : جائز ، ومكروه – فالجائز بعد القتال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين : من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه ، والمكروه أن يقال قبل القتال : من فعل كذا وكذا فله كذا . . وإنما كره هذا لأنه يكون القتال فيه للغنيمة .» قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : الرجل يقاتل للمغنم ويقا تل ليرى مكانه أي ذلك في سبيل الله ؟ قال : «من قاتل تكن كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» ثم قال : ويحق للرجل أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا وإن نوى في ذلك الغنيمة وإنما المكروه في الحديث أن يكون مقصده المغنم خاصة «انتهى» .

الحكم الثالث : هو التنفيل من أصل الغنيمة أم من الخمس ؟

1 - ذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى أن النفل يكون من الخمس لا من رأس الغنيمة، وحثهم في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: « ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم ». .

2 - وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن النفل يكون في أصل الغنيمة لا من الخمس . . . لما روي « أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بسلب أبي جهل « لمعاذ بن عمرو » وقال يوم حنين: من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه ». .

قال ابن العربي: هذه الأخبار ليس فيها أكثر من إعطاء السلب للقاتل، وهل إعطاء ذلك له من رأس المال مال الغنيمة، أو من الخمس؟

(325/305)

---

ذلك إنما يؤخذ من دليل آخر وقد قسم الله الغنيمة قسمة حق على الأخماس فجعلها خمسها لرسوله وأربعة أخماسها لسائر المسلمين، والذي يدل على صحة ما ذهبنا إليه ما « روي أن (عوف بن مالك) قال: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو فأراد سلبه فمنعه خالد - وكان والياً عليهم - فأخبر عوف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لخالد: ما منعك أن تعطيه سلبه؟ قال: استكثرته يا رسول الله! قال: ادفعه إليه، فلقبي «عوف»

خالداً فجرّ بردائه وقال هل أنجزت ما ذكرت لك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغضب فقال: لا تعطه يا خالد ، هل أتم  
تاركوا لي إمرتي »

قال : فلو كان السلب حقاً له من رأس الغنيمة لما رده رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها  
عقوبة في الأموال وذلك لا يجوز مجال ، وقد ثبت أن - ابن المسيب - قال : ما كان الناس  
ينفلون إلا من الخمس .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً - حرص الصحابة على السؤال عما يهمهم من أمور الدين .

ثانياً - الأحكام كلها مرجعها إلى الله تعالى وإلى رسوله الكريم .

ثالثاً - اهتمام الشارع الحكيم بإصلاح ذات البين حفظاً لوحدة المسلمين .

رابعاً - الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمنون الصادقون ليصلوا إلى حقيقة الإيمان .

خامساً - امتثال أوامر الله وطاعته في ما أمر ونهى سبب لسعادة الإنسان في الدارين .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روائع البيان ح 1 ص 587-594 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

يجوز في حقا أن يكون صفة لمصدر محذوف ، أي : هم المؤمنون إيمانا حقا ، ويجوز أن يكون مؤكداً لمضمون الجملة ، كقولك : هو عبد الله حقا ، والعامل فيه على كلا القولين مُقَدَّرٌ ، أي : أحقُّ حقا ، ويجوز وهو ضعيفٌ جداً أن يكون مؤكداً لمضمون الجملة الواقعة بعده وهي : لهم درجات ويكون الكلام قد تم عند قوله : هم المؤمنون ثم ابتداء ﴿ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ وهذا إنما يجوز على رأي ضعيف ، أعني تقديم المصدر المؤكد لمضمون جملة عليها .

قوله : عند ربهم يجوز أن يكون متعلقاً بـ " دَرَجَاتٌ " ، لأنها بمعنى أجور ، وأن يتعلق بمحذوف ؛ لأنها صفة لـ " درجات " أي : استقرت عند ربهم ، وأن يتعلق بما تعلق به لهم من الاستقرار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 449 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآتين

قال عليه الرحمة :

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) ﴾



لا يرضون في أعمالهم بإخلال ، ولا يتصفون بجمع مال من غير حلال ، ولا يعرجون في  
أوطان التصير بحال ، أولئك الذين صفتهم ألا يكون للشريعة عليهم نكير ، ولا لهم عن  
أحكام الحقيقة مقيل .

﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي حققوا حقاً وصدقوا صدقاً . ويقال حق لهم ذلك حقاً . قوله  
: ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ على حسب ما أهَّلهم له من الرُّتَبِ ؛ فبِسَابِقِ قِسْمَتِهِ لَهُمْ  
استوجبوها ، ثم بصادقِ خِدْمَتِهِمْ - حين وفقهم لها - بلغوها .

ولهم مغفرةٌ في المآل ، والسترُ في الحال لأكابريهم ، فالمغفرة الستر ، والحق سبحانه يستر  
مثالب العاصين ولا يفضحهم لتلايحبوا عن مأمول أفضالهم ، ويستر مناقب العارفين  
عليهم لتلايحبوا بأعمالهم وأحوالهم ، وفرقٌ بين سترٍ وسترٍ ، وشتان ما هما !  
وأما الرزق الكريم فيحتمل أنه الذي يعطيه من حيث لا يُحْتَسَبُ ، ويحتمل أنه الذي لا  
يُنْقَصُ بإجرامهم ، ويحتمل أنه ما لا يشغلهم بوجوده عن شهود الرزاق ، ويحتمل أنه رزق  
الأسرار بما يكون استقلالها به من المكاشفات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات

ح 1 ص 603 ﴿

(327/305)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوى فى تفسير القرآن الكريم  
ويسمى (جنة المشتاق فى تفسير كلام الملك الخلاق)  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورسُلي - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس بعد الثلاثمائة  
حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 5 ﴾ من سورة الأنفال

وحتى الآية ﴿ 10 ﴾ من نفس السورة

(4/306)

قوله تعالى ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (5)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ترك الدنيا شديداً على النفس ، وترك النزاع بعد الانتساب فيه أشد ، شرع يذكر لهم ما كانوا له كارهين ففعله بهم وأمرهم به لعلمه بالعواقب فحمدوا أثره ، ليكون ادعى لتسليمهم لأمره وازدجارهم بزجره ، فشبه حال كراهتهم لترك مرادهم في الأنفال بحال كراهتهم لخروجهم معه ثم بحال كراهتهم للقاء الجيش دون العير ، ثم إنهم رأوا أحسن العاقبة في كلا الأمرين فقال : ﴿ كما ﴾ أي حالهم في كراهية تسليم الأنفال - مع كون التسليم هو الحق والأولى لهم - كما كانت حالهم إذ ﴿ أخرجك ربك ﴾ أي المحسن إليك بالإشارة إلى جميع مقاصد الخير ﴿ من بيتك بالحق ﴾ أي الأمر الفيصل الفارق بين الثابت

والمزلزل ﴿ وإن ﴾ أي والحال أن ﴿ فريقاً ﴾ عبر به لأن آراءهم كانت توول إلى الفرقة  
﴿ من المؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان ﴿ لكارهون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم

الدرج 3 ص 186 ﴿

(5/306)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنَ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (5) ﴿

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن قوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ يقتضي تشبيه شيء بهذا الإخراج وذكره فيه  
وجوهاً : الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى كثرة المشركين يوم بدر وقلة المسلمين  
قال : " من قتل قتيلًا فله سلبه ومن أسر أسيرًا فله كذا وكذا " ليرغبهم في القتال ، فلما انهزم  
المشركون قال سعد بن عباد : يا رسول الله إن جماعة من أصحابك وقومك فدوك  
بأنفسهم ، ولم يتأخروا عن القتال جنباً ولا بجلاً يبذل مهجهم ولكنهم أشفقوا عليك من أن

تغالب فمتى أعطيت هؤلاء ما سميتهم لهم بقي خلق من المسلمين بغير شيء فأنزل الله تعالى  
: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 1] يصنع فيها ما يشاء ،  
فأمسك المسلمون عن الطلب وفي أنفسهم بعضهم شيء من الكراهية وأيضاً حين خرج  
الرسول صلى الله عليه وسلم إلى القتال يوم بدر كانوا كارهين لتلك المقاتلة على ما سنشرح  
حالة تلك الكراهية ، فلما قال تعالى : ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ كان التقدير أنهم رضوا  
بهذا الحكم في الأنفال وإن كانوا كارهين له كما أخرجك ربك من بيتك بالحق إلى القتال وإن  
كانوا كارهين له وهذا الوجه أحسن الوجوه المذكورة هنا .

الثاني : أن يكون التقدير ثبت الحكم بأن الأنفال لله ، وإن كرهوه كما ثبت حكم الله  
ياخرجك إلى القتال وإن كرهوه .

الثالث : لما قال : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ كان التقدير : أن الحكم بكونهم مؤمنين  
حق ، كما أن حكم الله ياخرجك من بيتك للقتال حق .

الرابع : قال الكسائي : "الكاف" متعلق بما بعده ، وهو قوله : ﴿يجادلونك في الحق﴾  
والتقدير ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كره فريق من المؤمنين كذلك هم  
يكرهون القتال ويجادلونك فيه .

والله أعلم .

## المسألة الثانية :

قوله : ﴿ مِنْ بَيْتِكَ ﴾ يريد بيته بالمدينة أو المدينة نفسها ، لأنها موضع هجرته وسكناه بالحق ، أي إخراجاً متلبساً بالحكمة والصواب ﴿ وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهْتُمْ ﴾ في محل الحال ، أي أخرجك في حال كراهيتهم .

روي أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان ، وعمرو بن العاص ، وأقوام آخرون ، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقي العير لكثرة الخير ، وقلة القوم ، فلما أزمعوا وخرجوا ، بلغ أهل مكة خبر خروجهم ، فنادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلولاً إن أخذ محمد عيركم لن تفلحوا أبداً ، وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رؤيا ، فقالت لأخيها : إني رأيت عجباً رأيت كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ، ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة . فحدث بها العباس .

فقال أبو جهل : ما ترضى رجالهم بالنبوة حتى ادعى نساؤهم النبوة فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير ، وفي المثل السائر لا في العير ولا في النفير ف قيل له : العير أخذت طريق الساحل ونجت ، فارجع إلى مكة بالناس .

فقال: لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور ونشرب الخمر، وتغني القينات  
والمعازف بيدر فتسامع جميع العرب بخروجنا، وإن محمداً لم يصب العير فمضى إلى بدر  
بالقوم.

وبدر كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة، فنزل جبريل وقال: يا محمد إن الله  
وعدكم إحدى الطائفتين، إما العير وإما النفير من قريش، واستشار النبي صلى الله عليه  
وسلم أصحابه فقال: "ما تقولون إن القوم خرجوا من مكة على كل صعب وذلول.  
فالعير أحب إليكم أم النفير؟ قالوا بل العير أحب إلينا من لقاء العدو.

(7/306)

---

فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر  
وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فقام عند غضب النبي  
صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر فأحسنا، ثم قام سعد بن عباد فقال امض إلى ما  
أمرك الله به فإننا معك حيثما أردت.

فوالله لو سرت إلى عدن لما تخلف عنك رجل من الأنصار.  
ثم قال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امض إلى ما أمرك الله به، فإننا معك حيثما أردت،

لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى :

﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ [ المائدة : 24 ] ولكننا نقول : اذهب

أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت منا عين تطرف .

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : " سيروا على بركة الله والله لكأنى أنظر

إلى مصارع القوم " ، ولما فرغ رسول الله من بدر ، قال بعضهم : عليك بالغير .

فناداه العباس وهو في وثاقه ، لا يصلح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لم ؟ قال : لأن

الله وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك ما وعدك .

إذا عرفت هذه القصة فنقول : كانت كراهية القتال حاصلة لبعضهم لآلهم ، بدليل قوله

تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15

ص 101.102 ﴾

(8/306)

وقال السمرقندي :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴾ ؛

قال القتيبي : معناه كراهتهم فيما فعلته في الغنائم ، ككراهتهم الخروج معك .



ويقال : معناه أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن كان فريقاً من المؤمنين لكارهون ؛ فكذلك نفل الغنيمة لمن نشاء ، وإن كرهوا ذلك .  
ويقال : هذا ابتداء القصة ، ومعناه امض على وجهك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ،  
وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ بحر العلوم ج 2 ص ﴾

(9/306)

وقال الثعلبي :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ ﴾

اختلفوا في الجالب لهذه الكاف التي في قوله : كما ، فإما الذي شبه بإخراج الله نبيه من بيته بالحق ﴿ قال عكرمة : معنى ذلك فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم كما كان إخراج الله تعالى محمد من بيته بالحق خيراً لكم وإن كرهه فريق منكم .  
وقال مجاهد : كما أخرجك ربك يا محمد من بيتك بالحق على كره فريق من المؤمنين كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه ، أي أنهم يكرهون القتال ويجادلونك فيه كما فعلوا بيدر .  
وقال بعضهم : أمر الله تعالى رسوله عليه السلام أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون .

وقيل : معناه يسألونك عن الأثقال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا : أخرجت العير ولم تعلمنا قتالاً [ فنسخه ] .

وقيل : معناه أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بيتك بالحق .

وقال بعضهم : الكاف بمعنى ( على ) تقديره : أمض على الذي أخرجك ربك .

قال ابن حيّان : عن الكلبي وقال أبو عبيدة : هي بمعنى القسم مجازها : الذي أخرجك من

بيتك بالحق . وقيل : الكاف بمعنى ( إذ ) تقديره : وإذ أخرجك ربك من بيتك بالمدينة إلى

بدر بالحق .

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ لطلب المشركين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف

والبيان ح 4 ص ﴾

(10/306)

---

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : كما أخرجك ربك من مكة إلى المدينة بالحق مع كراهه فريق من المؤمنين كذلك

ينجز وعدك في نصرك على أعدائك بالحق .

والثاني : كما أخرجك ربك من بيتك من المدينة إلى بدر بالحق كذلك جعل لك غنيمة بدر بالحق .

وفي قوله : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنك خرجت ومعك الحق .

الثاني : أنه أخرجك بالحق الذي وجب عليك .

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كارهون خروجك .

الثاني : كارهون صرف الغنيمة عنهم لأنهم لم يعلموا أن الله تعالى قد جعلها لرسوله دونهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(11/306)

وقال ابن عطية :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾

اختلف الناس في الشيء الذي تتعلق به الكاف من قوله ﴿ كما ﴾ حسبما نبين من الأقوال

التي أنا ذاكرها بعد بحول الله ، والذي يلتئم به المعنى ويحسن سرد الألفاظ قولان ، وأنا أبدأ  
بهما ، قال الفراء : التقدير امض لأمرِك في الغنائم ونقل من شئت وإن كرهوا كما أخرجك  
ربك ، هذا نص قوله في هداية مكِّي رحمه الله ، والعبارة بقوله : امض لأمرِك ونقل من شئت  
غير محررة ، وتحريف هذا المعنى عندي أن يقال إن هذه الكاف شبهت هذه القصة التي هي  
إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال ، كأنهم سألوا عن النفل  
وتشاجروا فأخرج الله ذلك عنهم ، فكانت فيه الخيرة كما كرهوا في هذه القصة انبعث  
النبي صلى الله عليه وسلم فأخرجه الله من بيته فكانت في ذلك الخيرة ، فتشاجرهم في  
النفل بمثابة كراهيتهم ها هنا للخروج ، وحكم الله في النفل بأنه لله وللرسول دونهم هو  
بمثابة إخراجه نبيه صلى الله عليه وسلم من بيته ، ثم كانت الخيرة في القصتين فيما صنع الله  
، وعلى هذا التأويل يمكن أن يكون قوله ﴿ يجادلونك ﴾ كلاماً مستأنفاً يراد به الكفار ،  
أي يجادلونك في شريعة الإسلام من بعد ما تبين الحق فيها كأنما يساقون إلى الموت في الدعاء  
إلى الإيمان .

قال القاضي أبو محمد : وهذا الذي ذكرت من أن ﴿ يجادلونك ﴾ في الكفار منصوص  
والقول الثاني قال مجاهد والكسائي وغيرهما : المعنى في هذه الآية كما أخرجك ربك من  
بيتك على كراهية من فريق منهم كذلك يجادلونك في قتال كفار مكة ويودون غير ذات  
الشوكة من بعد ما تبين لهم أنك إنما تفعل ما أمرت به لا ما يريدون هم .

قال القاضي أبو محمد: والتقدير على هذا التأويل يجادلونك في الحق مجادلة ككراهم  
إخراج ربك إياك من بيتك، فالمجادلة على هذا التأويل بمثابة الكراهية وكذلك وقع التشبيه  
في المعنى، وقائل هذه المقالة يقول إن المجادلين هم المؤمنون، وقائل المقالة الأولى يقول إن  
المجادلين هم المشركون، فهذان قولان مطردان يتم بهما المعنى ويحسن رصف اللفظ وقال  
الأخفش: الكاف نعت ل ﴿حقاً﴾ [الأنفال: 4]، والتقدير هم المؤمنون حقاً كما  
أخرجك.

قال القاضي أبو محمد: والمعنى على هذا التأويل كما تراه لا يتناسق وقيل الكاف في موضع  
رفع والتقدير: كما أخرجك ربك فاتقوا الله كأنه ابتداء وخبر.

قال القاضي أبو محمد: وهذا المعنى وضعه هذا المفسر وليس من ألفاظ الآية في ورد ولا  
صدر، وقال أبو عبيدة: هو قسم أي لهم درجات ومغفرة ورزق كريم كما أخرجك بتقدير  
والذي أخرجك، فالكاف في معنى الواو و"ما" بمعنى الذي، وقال الزجاج: الكاف في  
موضع نصب والتقدير الأنفال ثابتة لك ثباتاً كما أخرجك ربك، وقيل: الكاف في موضع  
التقدير لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم هذا وعد حق كما أخرجك، وقيل

المعنى : وأصلحوا ذات بينكم ذلك خير لكم كما أخرجك ، والكاف نعت لخبر ابتداء  
محذوف ، وقيل التقدير : قل الأنفال لله والرسول كما أخرجك ، وهذا نحو أول قول ذكرته ،  
وقال عكرمة : التقدير وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين كما أخرجك ربك أي الطاعة  
خير لكم كما كان إخراجك خيراً لكم ، وقوله ﴿ من بيتك ﴾ يريد من المدينة يثرب ، قاله  
جمهور المفسرين وقال ابن بكير : المعنى كما أخرجك من مكة وقت الهجرة ، وقرأ عبد  
الله بن مسعود : " في الحق بعدما يُبين " بضم الباء من غير تاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الحرر  
الوجيز ح 2 ص ﴾

(13/306)

---

وقال ابن الجوزي :  
قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾  
في متعلق هذه الكاف خمسة أقوال .  
أحدها : أنها متعلقة بالأنفال .  
ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال .  
أحدها : أن تأويله : امض لأمر الله في الغنائم وإن كرهوا ، كما مضيت في خروجك من

بيتك وهم كارهون ، قاله الفراء .

والثاني : أن الانقال لله والرسول صلى الله عليه وسلم بالحق الواجب ، كما أخرجك ربك بالحق ، وإن كرهوا ذلك ، قاله الزجاج .

والثالث : أن المعنى : يسألوك عن الأنقال مجادلة ، كما جادلوك في خروجك ، حكاه جماعة من المفسرين .

والثاني : أنها متعلقة بقوله : ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ﴾ ، والمعنى : إن التقوى والأصلاح خير لكم ، كما كان إخراج الله نبيه محمداً خيراً لكم وإن كرهه بعضكم ، هذا قول عكرمة .

والثالث : أنها متعلقة بقوله : ﴿ يجادلونك ﴾ فالمعنى : مجادلتهم إياك في الغنائم كأخراج الله إياك إلى بدر وهم كارهون ، قاله الكسائي .

والرابع : أنها متعلقة بقوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون ﴾ والمعنى : وهم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، ذكره بعض ناقلي التفسير .

والخامس : أن ﴿ كما ﴾ في موضع قسم ، معناها : والذي أخرجك من بيتك ، قاله أبو عبيدة ، واحتج بأن ﴿ ما ﴾ في موضع "الذي" ومنه قوله : ﴿ وما خلق الذكر والأُنثى ﴾ [ الليل : 3 ] قال ابن الأنباري : وفي هذا القول بُعد ، لأن الكاف ليست من حروف

الاقسام .

وفي هذا الخروج قولان .

أحدهما : أنه خروجه إلى بدر ، وكره ذلك طائفة من أصحابه ، لأنهم علموا أنهم لا

يظفرون بالغنيمة إلا بالقتال .

والثاني : أنه خروجه من مكة إلى المدينة للهجرة .

وفي معنى قوله : ﴿ بالحق ﴾ قولان .

أحدهما : أنك خرجت ومعك الحق .

والثاني : أنك خرجت بالحق الذي وجب عليك .

وفي قوله : ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ قولان .

أحدهما : كارهون خروجك .

والثاني : كارهون صرف الغنيمة عنهم ، وهذه كراهة الطبع لمشقة السفر والقتال ،

وليست كراهةً لأمر الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(14/306)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾



قال الزجاج: الكاف في موضع نصب؛ أي الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق.

أي مثل إخراجك ربك من بيتك بالحق.

والمعنى: امض لأمرك في الغنائم ونقل من شئت وإن كرهوا؛ لأن بعض الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً قال: يبقى أكثر الناس بغير شيء.

فموضع الكاف في "كما" نصبٌ كما ذكرنا.  
وقاله الفراء أيضاً.

قال أبو عبيدة: هو قسم، أي والذي أخرجك؛ فالكاف بمعنى الواو، وما بمعنى الذي.  
وقال سعيد بن مسعدة: المعنى أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بيتك بالحق.

قال: وقال بعض العلماء ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ.

وقال عكرمة: المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك.

وقيل: "كَمَا أَخْرَجَكَ" متعلق بقوله "لَهُمْ دَرَجَاتٌ" المعنى: لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم.

أي هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له ؛  
فأنجزك وعدك وأظفرك بعدوك وأوفى لك ؛ لأنه قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى  
الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ .

فكما أنجز هذا الوعد في الدنيا كذا يُنجزكم ما وعدكم به في الآخرة .  
وهذا قول حسن ذكره النحاس واختاره .

وقيل : الكاف في " كما " كاف التشبيه ، ومخرجه على سبيل المجازاة ؛ كقول القائل لعبده :  
كما وجهتك إلى أعدائي فاستضعفوك وسألت مَدَدًا فأمَدَدتْك وقويتك وأزحت علتك ،  
فخذهم الآن فعاقبهم بكذا .

وكما كسوتك وأجريت عليك الرزق فاعمل كذا وكذا .  
وكما أحسنت إليك فاشكرني عليه .

(15/306)

---

فقال : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وغشاكم النُّعاسُ أمانةً منه يعني به إياه ومن معه  
وأنزل من السماء ماءً ليطهركم به ، وأنزل عليكم من السماء ملائكة مُرْدِفِينَ ؛ فاضربوا فوق  
الأعناق واضربوا منهم كل بنان .

كَأَنَّهُ يَقُولُ : قَدْ أَزَحَتْ عَلَّكُمْ ، وَأَمَدَدْتُمْ بِالْمَلَائِكَةِ فَاضْرِبُوا مِنْهُمْ هَذِهِ الْمَوَاضِعَ ، وَهُوَ الْمَقْتَلُ ؛ لَتَبْلُغُوا مَرَادَ اللَّهِ فِي إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ أَي لَكَارِهُونَ تَرَكَ مَكَّةَ وَتَرَكَ أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسیر القرطبی ج 7 ص ﴾

(16/306)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾

اختلفوا في الجالب لهذه الكاف ما هو ؟ فقال المبرد : تقديره قل الأنفال لله والرسول إن

كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كرهوا .

وقيل : معناه امض لأمر ربك في الأنفال وإن كرهوا كما مضيت لأمر ربك في الخروج من

البيت لطلب العير وهم كارهون .

وقيل : معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم كما أن إخراج محمد (

صلى الله عليه وسلم ) من بيته بالحق هو خير لكم وإن كرهه فريق منكم .

وقيل : هو راجع لقوله سبحانه وتعالى : لهم درجات عند ربهم تقديره وعد الله المؤمنين بالدرجات حق حتى ينجزه الله تعالى كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وأنجز الوعد بالنصر والظفر .

وقيل : هي متعلقة بما بعدها تقديره كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه .

وقيل : الكاف بمعنى على أي امض على الذي أخرجك ربك من بيتك بالحق فإنه حق .  
وقيل : الكاف بمعنى القسم تقديره والذي أخرجك ربك من بيتك وجوابه يجادلونك في الحق .

وقيل : الكاف بمعنى إذ تقديره واذكري يا محمد إذا أخرجك ربك من بيتك بالحق .

قيل : المراد بهذا الإخراج إخراجه من مكة إلى المدينة للهجرة .

وقال جمهور المفسرين : المراد بهذا الإخراج هو خروجه من المدينة إلى بدر ومعناه كما أمرك ربك بالخروج من بيتك بالمدينة بالحق يعني بالوحي لطلب المشركين ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ يعني للقتال وإنما كرهوه لقلّة عددهم وقلّة سلاحهم وكثرة عدوهم وسلاحهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾

اضطرب المفسرون في قوله ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾

واختلفوا على خمسة عشر قولاً .

أحدها أن الكاف بمعنى واو القسم وما بمعنى الذي واقعة على ذي العلم وهو الله كما وقعت في قوله ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ وجواب القسم ﴿ يجادلونك ﴾ ، والتقدير والله الذي أخرجك من بيتك يجادلونك في الحق قاله أبو عبيدة وكان ضعيفاً في علم النحو ، وقال الكرمانى هذا سهو ، وقال ابن الأنبارى الكاف ليست من حروف القسم انتهى .

وفيه أيضاً أن جواب القسم بالمضارع المثبت جاء بغير لام ولا نون توكيد ولا بدّ منهما في مثل هذا على مذهب البصريين أو من معاقبة أحدهما الآخر على مذهب الكوفيين ، أما خلوه عنهما أو أحدهما فهو قول مخالف لما أجمع عليه الكوفيون والبصريون .

القول الثانى أن الكاف بمعنى إذ وما زائدة تقديره أذكر إذ أخرجك وهذا ضعيف لأنه لم يثبت أن الكاف تكون بمعنى إذ في لسان العرب ولم يثبت أن ما تزداد بعد هذا غير الشرطية وكذلك لا تزداد ما ادعى أنه بمعناها ، القول الثالث الكاف بمعنى على وما بمعنى الذي تقديره امض على الذي أخرجك ربك من بيتك وهذا ضعيف لأنه لم يثبت أن الكاف

تكون بمعنى على ولأنه يحتاج الموصول إلى عائد وهو لا يجوز أن يحذف في مثل هذا التركيب .

(18/306)

---

القول الرابع قال عكرمة: التقدير ﴿ وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ كما أخرجك في الطاعة خير لكم كما كان إخراجك خيراً لهم ، القول الخامس قال الكسائي وغيره كما أخرجك ربك من بيتك على كراهة من فريق منهم كذلك يجادلونك في قتال كفار مكة ويودّون غير ذات الشوكة من بعدما تبين لهم أنك إنما تفعل ما أمرت به لا ما يريدون ، قال ابن عطية والتقدير على هذا التأويل يجادلونك في الحق مجادلةً لكراهتهم إخراج ربك إياك من بيتك فالمجادلة على هذا التأويل بمثابة الكراهة وكذا وقع التشبيه في المعنى وقائل هذا المقالة يقول إنّ المجادلين هم المشركون .

القول السادس قال الفراء: التقدير امض لأمرك في الغنائم ونقل من شئت إن كرهوا كما أخرجك ربك انتهى .

قال ابن عطية: والعبارة بقوله امض لأمرك ونقل من شئت غير محرّرة وتحرير هذا المعنى عندي أن يقال هذه الكاف شبهت هذه القصة التي هي إخراجهم من بيته بالقصة المتقدمة

التي هي سؤا لهم عن الأنفال كأنهم سألوا عن النفل وتشاجروا فأخرج الله ذلك عنهم  
فكانت هذه الخيرة كما كرهوا في هذه القصة انبعث النبي (صلى الله عليه وسلم)  
ياخراجه الله من بيته فكانت في ذلك الخيرة وتشاجرهم في النفل بمثابة كراهيتهم ههنا  
الخروج، وحكم الله في النفل بأنه لله والرسول فهو بمثابة إخراج نبيه (صلى الله عليه  
وسلم) من بيته ثم كانت الخيرة في القصتين مما صنع الله وعلى هذا التأويل يمكن أن يكون  
قوله ﴿ يجادلونك ﴾ كلاماً مستأنفاً يراد به الكفار أي يجادلونك في شريعة الإسلام من  
بعدهما تبين الحق فيها كأنما يساقون إلى الموت في الدعاء إلى الإيمان وهذا الذي ذكرت من أن  
يجادلونك في الكفار منصوص، قال ابن عطية: فهذان قولان مطردان يتم بهما المعنى  
ويحسن وصف اللفظ انتهى .  
ونعني بالقولين قول الفراء وقول الكسائي وقد كثر الكلام في هاتين المقاتلين ولا يظهران ولا  
يلتزمان من حيث دلالة العاطف .

(19/306)

---

القول السابع قال الأخفش: الكاف نعت لحقا والتقدير هم المؤمنون حقا كما أخرجك،  
قال ابن عطية والمعنى على هذا التأويل كما زاد لا يتناسق .

القول الثامن أن الكاف في موضع رفع والتقدير ﴿ كما أخرجك ربك ﴾ فاتقوا الله كأنه ابتداء وخبر .

قال ابن عطية : وهذا المعنى وضعه هذا المفسر وليس من ألفاظ الآية في ورد ولا صدر .  
القول التاسع قال الزجاج الكاف في موضع نصب والتقدير الأنفال ثابتة لله ثباتاً كما أخرجك ربك وهذا الفعل أخذه الزمخشري وحسنه .

فقال ينتصب على أنه صفة مصدر للفعل المقدّر في قوله ﴿ الأنفال لله والرسول ﴾ أي الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون انتهى ، وهذا فيه بعد لكثرة الفصل بين المشبه والمشبه به ولا يظهر كبير معنى تشبيه هذا بهذا بل لو كانا متقاربين لم يظهر للتشبيه كبير فائدة .

القول العاشر أن الكاف في موضع رفع والتقدير ﴿ لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ هذا وعد حق ﴿ كما أخرجك ﴾ وهذا في حذف مبتدأ وخبر ولو صرح بذلك لم يلتزم التشبيه ولم يحسن .

القول الحادي عشر أن الكاف في موضع رفع أيضاً والمعنى ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ ذلكم خير لكم ﴿ كما أخرجك ﴾ فالكاف نعت لخبر ابتداء محذوف وهذا أيضاً فيه حذف وطول فصل بين قوله ﴿ وأصلحوا ﴾ وبين ﴿ كما أخرجك ﴾ .



---

القول الثاني عشر أنه شبه كراهية أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بخروجه من المدينة حين تحققوا خروج قريش للدفع عن أبي سفيان وحفظ غيره بكراهيتهم نزع الغنائم من أيديهم وجعلها للرسول أو التنفيل منها وهذا القول أخذه الزمخشري وحسنه فقال: يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا الحال كحال إخراجك يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل القراءة مثل حالهم في كراهة خروجهم للحرب وهذا النهي قاله هذا القائل وحسنه الزمخشري هو ما فسر به ابن عطية قول الفراء بقوله هذه الكاف شبهت هذه القصة التي هي إخراجك من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال إلى آخر كلامه.

القول الثالث عشر أن المعنى قسمتك للغنائم حق كما كان خروجك حقاً.

القول الرابع عشر أن التشبيه وقع بين إخراجك أي إخراجك ربك إياك من بيتك وهو مكة وأنت كاره لخروجك وكانت عاقبة ذلك الخير والنصر والظفر كإخراج ربك إياك من المدينة وبعض المؤمنين كاره يكون عقيب ذلك الظفر والنصر.

القول الخامس عشر الكاف للتشبيه على سبيل المجاز كقول القائل لعبدك كما وجهتك إلى أعدائي فاستضعفوك وسألت مدداً فأمددتك وقويتك وأزحت عنك فخذهم الآن فعاقبهم بكذا وكم كسوتك وأجريت عليك الرزق فاعمل كذا وكما أحسنت إليك ما

شكرتني عليه فتقدير الآية ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ وغشاكم النعاس  
أمنه منه يعني به إياه ومن معه وأنزل من السماء ماء ليطهركم به وأنزل عليكم من السماء  
ملائكة مردفين فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان كأنه يقول قد أزحت عنكم  
وأمددتكم بالملائكة فاضربوا منهم هذه المواضع وهو القتل لتبلغوا مراد الله في إحقاق الحق  
وإبطال الباطل ، وملخص هذا القول الطويل أن ﴿ كما أخرجك ﴾ يتعلق بقوله ﴿  
فاضربوا ﴾ وفيه من الفصل والبعث ما لا يخفى به وقد انتهى ذكر هذه الأقوال الخمسة  
عشر التي وقفنا عليها .

(21/306)

---

ومن دفع إلى حوك الكلام وتقلب في إنشاء أفانيه وزاويل الفصاحة والبلاغة لم يستحسن  
شيئاً من هذه الأقوال وإن كان بعض قائلها له إمامة في علم النحو ورسوخ قدم لكنه لم يحتط  
بلفظ الكلام ولم يكن في طبعه صوغه أحسن صوغ ولا التصرف في النظر فيه من حيث  
الفصاحة وما به يظهر الإعجاز .

وقبل تسطير هذه الأقوال هنا وقعت على جملة منها فلم يلق لحاطري منها شيء فرأيت في  
النوم أنني أمشي في رصيف ومعني رجل أباحثه في قوله ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك

بالحق ﴿ فقلت له ما مرّ بي شيء مشكل مثل هذا ولعل ثم محذوفاً يصح به المعنى وما  
وقفت فيه لأحد من المفسرين على شيء طائل ثم قلت له ظهر لي الساعة تخريجه وإن ذلك  
المحذوف هو نصرك واستحسنت أنا وذلك الرجل هذا التخريج ثم انتبهت من النوم وأنا  
أذكره ، والتقدير فكأنه قيل ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ أي بسبب إظهار  
دين الله وإعزاز شريعته وقد كرهوا خروجك تهيئاً للقتال وخوفاً من الموت إذ كان أمر النبي  
(صلى الله عليه وسلم) لخروجهم بغتة ولم يكونوا مستعدين للخروج وجادلوك في الحق بعد  
وضوحه نصرك الله وأمدك بملائكته ودلّ على هذا المحذوف الكلام الذي بعده وهو قوله  
تعالى ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ﴾ الآيات ، ويظهر أن الكاف في هذا  
التخريج المنامي ليست لمحض التشبيه بل فيها معنى التعليل ، ود نص النحويون على أنها قد  
تحدث فيها معنى التعليل وخرجوا عليه قوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ وأنشدوا  
:

لا تشتم الناس كما لا تشتم . . .

أي لاتقاء أن يشتمك الناس لا تشتمهم ومن الكلام الشائع على هذا المعنى كما تطيع الله  
يدخلك الجنة أي لأجل طاعتك الله يدخلك الجنة فكان المعنى إن خرجت لإعزاز دين  
الله وقتل أعدائه نصرك الله وأمدك بالملائكة والواو في ﴿ وإن فريقاً ﴾ واو الحال والظاهر  
أن ﴿ من بيتك ﴾ هو مقام سكناه وقيل المدينة لأنها مهاجرة ومختصة به ، وقيل مكة  
وفيه بعد لأن الظاهر أن هذا إخبار عن خروجه إلى بدر فصرفه إلى الخروج من مكة ليس  
بظاهر ومفعول ﴿ لكارهون ﴾ هو الخروج أي لكارهون الخروج معك وكرهتهم ذلك إما  
لنفرة الطبع أو لأنهم لم يستنفروا أو العدول من العير إلى النفير لما في ذلك من قوة أخذ الأموال  
ولما في هذا من القتل والقتال ، أو لترك مكة وديارهم وأموالهم أقوال أربعة . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(23/306)

وقال أبو السعود :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾

الكاف في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك يعني  
أن حالهم في كراهتهم لما رأيت مع كونه حقاً كحالهم في كراهتهم لخروجك للحرب وهو حق

أوفي محلّ النصبِ على أنه صفةٌ لمصدرٍ مقدرٍ في قوله تعالى: ﴿الانفالِ لِلَّهِ﴾ أيّ الأنفالِ  
ثبتُ لله والرسولُ مع كراهتهم ثباتاً مثل ثباتِ إخراجِ ربِّك إياك من بيتك في المدينة أو من  
المدينة إخراجاً ملتبساً بالحق ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ أيّ والحالُ أن فريقاً  
منهم كارهون للخروجِ إما لنفرة الطبعِ عن القتالِ أو لعدم الاستعدادِ (وذلك أن عيرَ قريشٍ  
أقبلت من الشام وفيها تجارةٌ عظيمةٌ ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيانَ، وعمرو بنُ  
العاصِ، وعمرو بنُ هشامِ، فأخبر جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين  
فأعجبهم تلقى العيرِ لكثرة الخيرِ وقلّة القومِ، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبرَ خروجِهِم  
فنادى أبو جهلٍ فوق الكعبةِ يا أهل مكة النجاءَ النجاءَ على كل صعبٍ وذلولٍ عيركم  
أموالكم إن أصابها محمدٌ لم تُفلحوا بعدها أبداً، وقد رأت أختُ العباسِ بنِ عبد المطلبِ  
رضي الله عنه رؤيا فقالت لأخيها: إني رأيتُ عجباً رأيتُ كأن ملكاً نزل من السماء  
فأخذ صخرةً من الجبلِ ثم حلق بها فلم يبق بيتٌ من بيوت مكة إلا أصابه حجرٌ من تلك  
الصخرة فحدّث بها العباسُ رضي الله عنه فقال أبو جهلٍ: ما يرضى رجالهم أن يتنبأوا  
حتى تنبأ نساؤهم فخرج أبو جهلٍ بجميع أهل مكة وهم النفيرُ فقيل له: إن العيرَ أخذت  
طريقَ الساحلِ ونجحت فارجعْ بالناسِ إلى مكة فقال: لا واللّاتِ لا يكون أبداً ننحرَ الجزورَ  
ونشربَ الخمرَ وتقيمُ القينات والمعازِفَ بيدر فيتسامع جميعُ العربِ بمخرَجنا وأن محمداً لم

يُصِيبُ الْعَيْرَ وَأَنَا قَدْ أَعْنَاهُ فَمَضَى بِهِمْ إِلَى بَدْرٍ ، مَا كَانَ الْعَرَبُ تُجْتَمِعُ فِيهِ لِسُوقِهِمْ يَوْمًا فِي  
السنة فنزل جبريل عليه السلام

(24/306)

---

فقال : يا محمدُ إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العيرَ وإما قريشاً فاستشار النبي عليه  
الصلاة والسلام أصحابه فقال : " ما تقولون ؟ إن القومَ قد خرجوا من مكة على كل صعبٍ  
وذلولٍ فالعيرُ أحبُّ إليكم أم النفيرُ ؟ " فقالوا : بل العيرُ أحبُّ إلينا من لقاء العدوِّ فتغير وجهُ  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردّد عليهم ، فقال : " إن العيرَ قد مضت على ساحل  
البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل " فقالوا : يا رسول الله عليك بالعيرِ ودع العدوَّ فقام عندما  
غضب النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا قام سعد بن  
عُبادة فقال : انظرُ أمركَ فامضِ فوالله لو سرتَ إلى عدنٍ أبينَ ما تخلف عنك رجلٌ من  
الأنصارِ ثم قال المقدادُ بنُ عمرو رضي الله عنه : يا رسول الله امضِ لما أمركَ الله فإننا معك  
حيثما أحببتَ ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيلَ لموسى عليه السلام : اذهب أنت وربك  
فقاتل إنا هاهنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون ما دامت عينُ  
منا تطرفُ ، فضحك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :

"أشيروا علي أيها الناس" وهو يريد الأنصار لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة: إنا بُراءٌ من ذِمَامِك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان النبي عليه الصلاة والسلام يتخوف أن تكون الأنصار لا ترى عليهم نصرتَه إلا على عدو دهمته بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: "أجل" قال: قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وإنا لصبرٌ عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك فسيرنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد ثم قال: "سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظرُ إلى مصارع القوم" وروى: (أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر: عليك بالغير ليس دونها شيء فناداه العباس رضي الله عنه وهو في وثاقه لا يصلح، فقال

النبي عليه الصلاة والسلام: "لم؟" قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما

وعدك). انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ﴾

(26/306)

وقال الألوسي:

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾

أي إخراجاً متلبساً به فالباء للملابسة، وقيل: هي سببية أي بسبب الحق الذي وجب عليك وهو الجهاد.

والمراد بالبيت مسكنه صلى الله عليه وسلم أو بالمدينة أو المدينة نفسها لأنها مثواه عليه الصلاة والسلام، وزعم بعضهم أن المراد به مكة وليس بذاك، وإضافة الإخراج إلى الرب سبحانه وتعالى إشارة إلى أنه كان بوحى منه عز وجل، ولا يخفى لطف ذكر الرب وإضافته إلى ضميره صلى الله عليه وسلم، والكاف استدعي مشبهاً وهو غير مصرح به في الآية وفيه خفاء، ومن هنا اختلفوا في بيانه وكذا في إعرابه على وجوه فاختر بعضهم أنه خبر مبتدأ محذوف هو المشبه أي حالهم هذه في كراهة ما وقع في أمر الأنفال كحال إخراجك من بيتك في كراهتهم له، وإلى هذا يشير كلام الفراء حيث قال: الكاف شبهت



هذه القصة التي هي إخراجهم صلى الله عليه وسلم من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراهم لما وقع فيها مع أنه أولى مجاهم وأنه صفة مصدر الفعل المقدر في ﴿ لله وللرسول ﴾ [ الأنفال : 1 ] أي الأنفال ثبتت لله تعالى وللرسول عليه الصلاة والسلام مع كراهم ثباتاً كثبات إخراجك وضعف هذا ابن الشجري ، وادعى أن الوجه هو الأولى لتباعد ما بين ذلك الفعل وهذا بعشر جمل ، وأيضاً جعله في حيز قل ليس بحسن في الانتظام ، وقال أبو حيان : إنه ليس فيه كبر معنى ولا يظهر للتشبيه فيه وجه ، وأيضاً لم يعهد مثل هذا المصدر ، وادعى العلامة الطيبي أن هذا الوجه أدق التأم من الأول والتشبيه فيه أكثر تفصيلاً لأنه حينئذ من تنمة الجملة السابقة داخل في حيز المقول مع مراعاة الالتفات وأطال الكلام في بيان ذلك واعتذر عن الفصل بأن الفاصل جار مجرى الاعتراض ولا أراه سالماً من الاعتراض ، وقيل : تقديره وأصلحوا ذات بينكم كما أخرجك وقد التفت من خطاب جماعة إلى خطاب واحد ، وقيل : المراد وأطيعوا الله والرسول كما أخرجك إخراجاً لا مرية فيه ، وقيل : التقدير يتوكلون توكلًا كما أخرجك ، وقيل : إنهم لكارهون كراهة ثابتة كإخراجك ، وقيل : هو صفة لحقاً أي أولئك هم المؤمنون حقاً

---

مثل ما أخرجك ، وقيل : صفة لمصدر ﴿ يجادلون ﴾ أي يجادلونك جداً لا كإخراجك  
ونسب ذلك إلى الكسائي ، وقيل : الكاف بمعنى إذا أي واذكر إذا أخرجك وهو مع بعده لم  
يثبت .

وقيل : الكاف للقسم ولم يثبت أيضاً وإن نقل عن أبي عبيد وجعل ﴿ يجادلونك ﴾ [   
الأنفال : 6 ] الجواب مع خلوه عن اللام والتأكيد و ﴿ ما ﴾ حينئذ موصولة أي والذي  
أخرجك ، وقيل : إنها بمعنى على وما موصولة أيضاً أي امض على الذي أخرجك ربك له  
من بيتك فإنه حق ولا يخفى ما فيه ، وقيل : هي مبتدأ خبره مقدر وهو ركيك جداً ، وقيل  
: في محل رفع خبر مبتدأ محذوف أي وعده حق كما أخرجك ، وقيل : تقديره قسمتك  
حق كإخراجك ، وقيل : ذلك خير لكم كإخراجك ، وقيل : تقديره إخراجك من مكة  
لحكم كإخراجك هذا ، وقيل : هو متعلق ب

﴿ اضربوا ﴾ [ الأنفال : 12 ] وهو كما تقول لعبدك رببتك افعل كذا .

وقال أبو حيان : خطري في المنام أن هنا محذوفاً وهو نصرك والكاف فيها معنى التعليل أي  
لأجل أن خرجت لا عزاز دين الله تعالى نصرك وأمدك بالملائكة ، ودل على هذا المحذوف  
قوله سبحانه بعد : ﴿ إِذِ اسْتَعِينُوا رَبَّهُمْ ﴾ [ الأنفال : 9 ] الآيات ، ولو قيل : إن هذا  
مرتبط بقوله سبحانه : ﴿ رَزُقْ كَرِيمٌ ﴾ [ الأنفال : 4 ] على معنى رزق حسن كحسن

إخراجك من بيتك لم يكن بأبعد من كثير من هذه الوجوه ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ  
﴿ للخروج أما لعدم الاستعداد للقتال أو للميل للغنيمة أو للنفرة الطبيعية عنه ، وهذا مما لا  
يدخل تحت القدرة والاختيار فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ،  
واللجملة في موضع الحال وهي حال مقدره لأن الكراهة وقعت بعد الخروج كما ستره إن  
شاء الله تعالى ، أو يعتبر ذلك ممتداً ، والقصة على ما رواه جماعة وقد تداخلت رواياتهم  
أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان .  
وعمر بن العاص .

(28/306)

---

ومخرمة بن نوفل فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين  
فأعجبهم تلقيها لكثرة المال وقلة الرجال فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنادى أبو جهل  
فرق الكفر النجاء النجاء على كل صعب وذلول غيركم أموالكم إن أصابها محمد لم تقلحوا  
بعدها أبداً ، وقد رأيت عاتكة بنت عبد المطلب في المنام أن راكباً أقبل على بعيره حتى  
وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث فأرى الناس  
قد اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر

الكعبة فصرخ مثلها ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا ودخل فيها فلقة فحدثت بها أخاها العباس فحدثت بها الوليد بن عتبة وكان صديقاً له فحدثت بها أباه عتبة ففشا الحديث وبلغ أبا جعل فقال للعباس : يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم فأنكر عليه الرؤية .  
ثم أنه خرج بجميع مكة ومضى بهم إلى بدر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي دقران فنزل عليه جبريل عليه اللاسم بالوعد يا حدى الطائفتين إما : العير وإما قريش فاستشار أصحابه فقال بعضهم : هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنا خرجنا للعير فقال : إن العير مضت على ساحل البحر وهذا أبوجهل قد أقبل فقالوا : يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو وفضب عليه الصلاة والسلام فقام أبو بكر .

(29/306)

---

وعمر رضي الله تعالى عنهما فأحسنا الكلام في اتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله تعالى فنحن معك حيث أحببت لا نقول كما بنو إسرائيل لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلنا هنا قاعدون ﴾

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم  
ثم قال: أشيروا على أيها الناس وهو يريد الأنصار لأنهم كانوا عدوهم وقد شرطوا حين  
بايعوه بالعقبة أنهم براء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم فتخوف أن لا يروا نصرته إلا على  
عدوهم بالمدينة فقام سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنهما فقال: يا رسول الله إيانا تريد؟  
قال: أجل.

قال: قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا إن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدونا  
وموآثقتنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو  
استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ولا نكره أن  
تلقى بنا عدونا وإنا لنصبر عند الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله تعالى يريد منا ما يقر  
به عينيك فسر بنا على بركات الله تعالى فنشطه قوله ثم قال عليه الصلاة والسلام: سيروا  
على بركة الله تعالى فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع  
القوم اه، وبهذا تبين أن بعض المؤمنين كانوا كارهين وبعضهم لم يكونوا كذلك وهم الأكثر كما  
تشير إليه الآية، وجاء في بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من بدر قيل له  
: عليك بالغير فليس دونها شيء فناداه العباس وهو في وثاقه لا يصلح فقال له: لم؟ فقال:  
لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك. انتهى انتهى. اه ﴿روح

وقال ابن عاشور :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (5)

تشبيه حال مجال ، وهو متصل بما قبله : إما بتقدير مبتدأ محذوف ، هو اسم إشارة لما ذكر

قبله ، تقديره : هذا الحال كحال ما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، ووجه الشبه هو

كراهية المؤمنين في بادئ الأمر لما هو خير لهم في الواقع وإما بتقدير مصدر لفعل الاستقرار

الذي يقتضيه الخبر بالجرور في قوله ﴿ الأنفال لله وللرسول ﴾ [ الأنفال : 1 ] إذ التقدير :

استقرت لله والرسول استقراراً كما أخرجك ربك ، أي فيما يلوح إلى الكراهية والامتعاض

في بادئ الأمر ، ثم نوالهم النصر والغنيمة في نهاية الأمر ، فالتشبيه تمثيلي وليس مراعى فيه

تشبيه بعض أجزاء الهيئة المشبهة ببعض أجزاء الهيئة المشبه بها ، أي أن ما كرهتموه من

قسمة الأنفال على خلاف مشتهاكم سيكون فيه خير عظيم لكم ، حسب عادة الله تعالى

بهم في أمره ونهيه ، وقد دل على ما في الكلام من معنى مخالفة مشتهاهم قوله ﴿ فاتقوا الله

وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم صادقين ﴾ [ الأنفال : 1 ] كما تقدم ،

مع قوله في هذه الجملة ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ .

فجملته: ﴿ وإن فريقاً ﴾ في موضع الحال والعامل فيها ﴿ أخرجك ربك ﴾ هذا وجه اتصال كاف التشبيه بما قبلها على ما الأظهر ، وللمفسرين وجوه كثيرة بلغت العشرين قد استقصاها ابن عادل ، وهي لا تخلو من تكلف ، وبعضها متحد المعنى وبعضها مختلفه ، وأحسن الوجوه ما ذكره ابن عطية ومعناه قريب مما ذكرنا وتقديره بعيد منه .

والمقصود من هذا الأسلوب : الانتقال إلى تذكيرهم بالخروج إلى بدر وما ظهر فيه من دلائل عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين .

﴿ ما ﴾ مصدرية .

والإخراج : إما مراد به الأمر بالخروج للغزو ، وإما تقدير الخروج لهم وتيسيره .

(31/306)

---

والخروج مفارقة المنزل والبلد إلى حين الرجوع إلى المكان الذي خرج منه ، أو إلى حين البلوغ إلى الموضع المنقل إليه .

والإخراج من البيت : هو الإخراج المعين الذي خرج به النبي صلى الله عليه وسلم غازياً إلى بدر .

والباء في ﴿ بالحق ﴾ للمصاحبة أي إخراجاً مصاحباً للحق ، والحق هنا الصواب ، لما

تقدم آنفاً من أن اسم الحق جامع لمعنى كمال كل شيء في محامد نوعه .  
والمعنى أن الله أمره بالخروج إلى المشركين بيدراً موافقاً للمصلحة في حال كراهة فريق  
من المؤمنين ذلك الخروج .

(32/306)

---

وقد أشار هذا الكلام إلى السبب الذي خرج به المسلمون إلى بدر ، فكان بينهم وبين  
المشركين يوم بدر ، وذلك أنه كان في أوائل رمضان في السنة الثانية للهجرة إن قفلت عيرٌ  
لقريش فيها أموال وتجارة لهم من بلاد الشام ، راجعة إلى مكة ، وفيها أبو سفيان بن حرب  
في زهاء ثلاثين رجلاً من قريش ، فلما بلغ خبر هذه العير رسول الله صلى الله عليه وسلم  
ندب المسلمين إليها فانتدب بعضهم وتناقل بعضٌ ، وهم الذين كرهوا الخروج ، ولم ينتظر  
رسول الله صلى الله عليه وسلم من تناقلوا ومن لم يحضر ظهرهم أي رواحلهم فسار وقد  
اجتمع من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر خرجوا يوم ثمانية من رمضان ، وكانوا يحسبون  
أنهم لا يلقون حرباً وأنهم يغيرون على العير ثم يرجعون ، وبلغ أبا سفيان خبر خروج  
المسلمين فأرسل صارخاً يستصرخ قريشاً لحماية العير ، فتجهز منهم جيش ، ولما بلغ  
المسلمون وادي ذفران بلغهم خروج قريش لتلقي العير ، فاستشار رسول الله صلى الله



عليه وسلم فأشاروا عليه بالمضي في سبيله وكانت العير يومئذ فاتتهم ، واطمان أبو سفيان لذلك فأرسل إلى أهل مكة يقول إن الله نجى عيركم فارجعوا ، فقال أبو جهل لا نرجع حتى نرد بدرًا ( وكان بدرُ موضع ماء فيه سوق للعرب في كل عام ) فنقيم ثلاثاً ، فننحر الجزر ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان ، وتتسامع العرب بنا ويمسیرنا فلا يزالوا بها بوننا ويعلموا أن محمداً لم يصب العير ، وأنا قد أعضضناه ، فسار المشركون إلى بدر وتنبكتُ عيرهم على طريق الساحل وأعلم الله النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فأعلم المسلمين ، فاستشارهم وقال : العيرُ أحبُّ إليكم أم النفير ، فقال أكثرهم العيرُ أحبُّ إلينا من لقاء العدو ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أعاد استشارتهم فأشار أكثرهم قائلين : عليك بالعير فإننا خرجنا للعير فظهر الغضبُ على وجهه .

(33/306)

---

فتكلم أبو بكر ، وعمر ، والمقداد بنُ الأسود ، وسعدُ بنُ عبادَةَ ، وأكثرُ الأنصار ، ففوضوا إلى رسول الله ما يرى أن يسير إليه صلى الله عليه وسلم فأمرهم حينئذ أن يسيروا إلى القوم بيدر فساروا .

وكان النصر العظيم الذي هز به الإسلامُ رأسه .

فهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ وذلك أنهم خرجوا على نية التعرض للغير، وأن ليس دون العير قتال، فلما أخبرهم عن تجمع قريش لقتالهم تكلم أبو بكر فأحسن، وتكلم عمر فأحسن، ثم قام المقداد بن الأسود فقال "يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى (برك الغماد) (بفتح باء برك وغيث الغماد ومعجمة مكسورة موضع باليمن بعيد جدا عن مكة) لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه.

(34/306)

---

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أشيروا علي أيها الناس" وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يومئذ "إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فإنك في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا" فكان رسول الله يتخوف أن يكون الأنصار لا يرون نصره إلا آمن دهمه بالمدينة، وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أشيروا علي قال له سعد بن معاذ" والله

لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: أجل قال: فقد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت  
به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله  
لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه  
معك وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصبرٌ في الحرب  
صدقٌ في اللقاء لعل الله يريك بنا ما تقرُّ به عينك فسرُّ بنا على بركة الله " فسرَّ رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين أي ولم  
يخص وعد النصر، بتلقي العير فقط فما كان بعد ذلك إلا أن زال من نفوس المؤمنين  
الكارهين للقتال ما كان في قلوبهم من الكراهية، وقوله ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون  
﴿ في موضع الحال من الإخراج الذي أفادته، ( ما ) المصدرية، وهؤلاء هم الذين تناقلوا  
وقت العزم على الخروج من المدينة، والذين اختاروا العير دون النفير حين استشارة وادي  
ذفران، لأن ذلك كله مقتن بالخروج لأن الخروج كان ممتداً في الزمان، فجملة الحال من قوله  
: ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ حال مقارنة لعاملها وهو ﴿ أخرجك ﴾ .

وتأكيد خبر كراهية فريق من المؤمنين بأن ولائهم مستعمل في التعجيب من شأنهم  
بتنزيل السامع غير المنكر لوقوع الخبر منزلة المنكر لأن وقوع ذلك مما شأنه أن لا يقع ، إذ كان  
الشأن اتباع ما يحبه الرسول صلى الله عليه وسلم أو التفويض إليه ، وما كان ينبغي لهم أن  
يكرهوا لقاء العدو .

ويستلزم هذا التنزيل التعجيب من حال المخبر عنهم بهذه الكراهية فيكون تأكيد الخبر  
كناية عن التعجيب من المخبر عنهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(36/306)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (5)

و"كما" تدل على تشبيه حالة بحالة ، فهم قد رضوا بقسمة الله في الغنائم بعد أن رفضوها

، وكذلك قبلوا من قبل أن يخرجوا لملاقاة النفي بعد كراهيتهم لذلك . لكنهم خرجوا

وحاربوا واتصروا ثم اختلفوا على الغنائم ، ورضوا أخيراً بقسمة الله تعالى والرسول عليه

الصلاة والسلام .

فهل ذكر مسألة كراهيتهم للخروج إلى الحرب هي طعن فيهم ؟ لا ، فهذا القول له حيثية

بشرية؛ لأن الذي يريد أن يخوض معركة لا بد أن يغلب عليه الظن بأنه سوف ينتصر، وإلا سينظر إلى أن عملية الخروج إلى القتال فيها مجازفة. وكان المسلمون في ذلك الوقت قليلي العدد، وليس معهم عدد، بل لم يكن لديهم من مراكب الإفرسان اثنان. وكان خروجهم من أجل البضائع والعيير، لا لملاقاة جيش كبير، وهكذا لم تكن الكراهية لهذه المسألة نابعة من التأبي على أوامر الله تعالى، أو مطالب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكنهم نظروا إلى المسألة كلها بالمقاييس البشرية فلم يجدوا فيها التوازن المحتمل.

ويريد الله أن يثبت لهم أنهم لو ذهبوا وانتصروا على العير فقط، لقليل عنهم إنهم جماعة من قطاع الطرق قد انقضوا على البضائع ونهبوها، فلم يكن مع العير إلا أربعون رجلاً، والمسلمون ثلاثمائة ويزيدون، ومن المعقول أن ينتصروا، ولكن ربنا أراد أن ينصرهم على النفير الذي استنفره الكفار من مكة، هذا النفير الضخم في العدد والعدة ويضم جهابذة قريش وصناديدها، وتحقق إرادة الحق في أن يزهق الباطل. ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ .

(37/306)

---

والخروج من البيت هنا مقصود به خروج الرسول من المدينة لملاقاة الكفار ، وهذا الفريق من المؤمنين لم تخرجهم الكراهية عن الإيمان ؛ لأن معنى " فريق " هم الجماعة الذين يفترون عن جماعة ويجمعهم جميعاً رباط واحد ، فالجيش مثلاً يتكون من فرق ، يجمعهم الجيش الواحد .

وهذه الفرق التي يأتي الحديث عنها هنا هي الفرق التي كرهت أن تخرج إلى القتال رغم أنهم مؤمنون أيضاً ، ونعلم أن كراهية القتال أمر وارد بالنسبة للبشر ، وسبحانه وتعالى القائل :  
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 216] . انتهى انتهى .  
هـ تفسير الشعراوي صـ ﴿

(38/306)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

في قوله ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ ﴾ عشرون وجهاً :

أحدها : أن الكاف نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ تقديره : الأنفالُ ثابتةٌ لله ثبوتاً كما أخرجك ، أي

: ثبوتاً بالحقِّ كإخراجك من بيتك بالحقِّ ، يعني لا مريّة في ذلك ، ووجه هذا التشبيه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى كثرة المشركين يوم بدر ، وقلة المؤمنين قال : مَنْ قتل قتيلاً فله

كذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا ، ليرغبهم في القتال ، فلما انهزم المشركون قال سعدٌ : يا رسول الله إنّ جماعة من أصحابك وقومك فدوك بأنفسهم ، ولم يتأخروا عن القتال جُبناً ،

ولا بخلاً يبذل مهجتهم ، ولكنهم أشفقوا عليك من أن تغتال ، فمتى أعطيت هؤلاء ما سميتهم ؛ بقي خلق من المسلمين بغير شيء ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ

قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [ الأنفال : 1 ] يصنع فيها ما يشاء ، فأمسك المسلمون عن

الطلب ، وفي أنفس بعضهم شيء من الكراهة وحين خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى

القتال يوم بدر كانوا كارهين لتلك المقاتلة على ما سنشرحه ، فلما قال : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ

وَالرَّسُولِ ﴾ [ الأنفال : 1 ] كان التقدير : أنهم رضوا بهذا الحكم في الأنفال وإن كانوا

كارهين له كما أخرجك ربك من بيتك بالحقِّ إلى القتال ، وإن كانوا كارهين .

الثاني : قال عكرمة : تقديره : وأصلحوا ذات بينكم إصلاحاً كما أخرجك ، وقد التفت

من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد .

والثالث : تقديره : وأطيعوا الله ورسوله طاعةً محققةً ثابتةً كما أخرجك ، أي : كما أنّ

إخراج الله إياك لا مريّة فيه ولا شبهة .

الرابع : تقديره : يتوكلون توكلًا حقيقياً كما أخرجك ربك .

الخامس: تقديره: هم المؤمنون حقاً كما أخرجك فهو صفةٌ لـ "حقاً".

السادس: تقديره: استقرَّ لهم درجاتٌ وكذا استقراراً ثابتاً كاستقرار إخراجك.

(39/306)

---

السابع: أنه متعلقٌ بما بعده تقديره: يجادلونك مجادلةً: كما أخرجك ربك، قال الكسائيُّ "الكاف" تتعلّقُ بما بعده وهو قوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ [الأنفال: 6] والتقدير: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كره فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه.

الثامن: تقديره: لكارهون كراهيةً ثابتةً: كما أخرجك ربك أي: إن هذين الشيئين الجدال والكراهية ثابتان لا محالة كما أن إخراجك ثابت لا محالة.

التاسع: أن "الكاف" بمعنى "إذ"، و"ما" زائدة، والتقدير: اذكر إذ أخرجك وهذا فاسدٌ جداً، إذ لم يثبت في موضع أن "الكاف" تكون بمعنى "إذ" وأيضاً فإن "ما" لا تزداد إلا في مواضع ليس هذا منها.

العاشر: أن "الكاف" بمعنى: "واو" القسم، و"ما" بمعنى "الذي" واقعة على ذي العلم مُقسماً به.



وقد وقعت على ذي العلم في قوله: ﴿ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴾ [الشمس: 5] ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ [الليل: 3] والتقدير: والذي أخرجك، ويكون قوله: يُجَادِلُونَكَ جواب القسم وهذا قول أبي عبيدة.

وقد ردَّ النَّاسُ عَلَيْهِ قَاطِبَةً، وَقَالُوا: كَانَ ضَعِيفًا فِي النَّحْوِ.

ومتى ثبت كون الكاف حرف قسم، بمعنى "الواو"؟ وأيضا فإن: يُجَادِلُونَكَ لَا يَصِحُّ كونه جواباً؛ لأنه على مذهب البصريين متى كان مضارعاً مثبتاً؛ وجب فيه شيان: اللام، وإحدى النونين نحو: ﴿ لَيْسَ جَنَّةٌ وَلَيْكُونًا مِنَ الصَّاعِرِينَ ﴾ [يوسف: 32] وعند الكوفيين إمَّا اللام، وإمَّا إحدى النونين، ويُجَادِلُونَكَ عَارِ عِنَهُمَا.

الحادي عشر: أَنَّ الكاف بِمَعْنَى "عَلَى"، و"مَا" بِمَعْنَى: الَّذِي، وَالتَّقْدِيرُ: امضِ عَلَى الَّذِي أَخْرَجَكَ، وَهُوَ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ كَوْنُ الكاف بِمَعْنَى "عَلَى" أَلْبَتَّةَ إِلَّا فِي مَوْضِعٍ يَحْتَمِلُ النِّزَاعَ كَقَوْلِهِ ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ [البقرة: 198].

(40/306)

---

الثاني عشر: أَنَّ الكاف فِي مَحَلِّ رَفْعٍ، وَالتَّقْدِيرُ: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ فَاتَّقُوا اللَّهَ، كَأَنَّهُ ابْتِدَاءٌ وَخَبْرٌ.

قال ابن عطية: " وهذا المعنى وضعه هذا المفسر وليس من ألفاظ الآية في ورد ولا صدر . "

الثالث عشر: أنها في موضع رفع أيضاً والتقدير: لهم درجاتٌ عند ربهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم هذا وعدٌ حقٌ كما أخرجك، وهذا فيه حذفٌ مبتدأٌ وخبر، ولو صرح بذلك لم يلتزم التشبيه ولم يحسن .

الرابع عشر: أنها في موضع رفع أيضاً والتقدير: وأصلحوا ذات بينكم، ذلكم خيرٌ لكم، كما أخرجك، فالكافُ في الحقيقة نعتٌ لخبر مبتدأٌ محذوف، وهو ضعيفٌ لطولِ الفصلِ بين قوله: " وأصلحوا "، وبين قوله: " كما أخرجك " .

الخامس عشر: أنضها في محل رفع أيضاً على خبر ابتداءٍ مضمرة، والمعنى: أنه شبه كراهية أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لخروجه من المدينة، حين تحققوا خروج قريشٍ للدفع عن أبي سفيان وحفظ غيره بكراهيتهم لنزع الغنائم من أيديهم، وجعلها لله ورسوله، يحكم فيها ما يشاء .

واختار الزمخشري هذا الوجه وحسنه .

فقال: " يرتفع محل الكاف على أنه خبر ابتداءٍ محذوف تقديره: هذه الحال كحال إخراجك، يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجهم للحرب " .

وهذا الذي حسَّنه الزمخشريُّ هو قولُ الفراءِ - وقد شرحه ابنُ عطيةَ بنحو ما تقدَّم من الألفاظ - فإنَّ الفراءَ قال: " هذه الكافُ شبَّهت هذه القصة التي هي إخراجُه من بيته بالقصةِ المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال ".  
السادس عشر: أنَّها صفةٌ لخبرٍ مبتدأً أيضاً ، وقد حذف المبتدأَ وخبره ، والتقديرُ: قسمتكُ الغنائمُ حقُّ كما كان إخراجكُ حقاً .

(41/306)

---

السابع عشر: أنَّ التشبيهَ وقعَ بين إخراجين ، أي: إخراج ريكِ إِيَّاكَ من بيتك ، وهو مكةٌ وأنتُ كارهٌ لخروجك ، وكان عاقبة ذلك الإخراجُ النَّصرُ والظفرُ كإِخْرَاجِهِ إِيَّاكَ مِنَ الْمَدِينَةِ وبعضُ المؤمنين كارهٌ ، يكون عقيب ذلك الخروجُ الظفرُ والنصرُ والخيرُ ، كما كان عقيب ذلك الخروجُ الأولُ .

الثامن عشر: أنَّ تعلقَ الكافِ بقوله: " فاضربُوا " ، وسَطُ هذا على ما قاله صاحبُ هذا الوجه أن تكون الكافُ للتشبيهِ على سبيلِ المجازِ كقولِ القائلِ لعبده: كما رجعتكُ إلى أعدائي فاستضعفوكُ ، وسألتُ مدداً فأمددتكُ ، وأزحتُ علكُ ، فخذهم الآن وعاقبهم ، كما أحسنتُ إليك وأجريتُ عليك الرزقَ ، فاعملُ كذا ، واشكرني عليه ،

فتقدير الآية: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وغشاكم النُّعاسُ أَمَنَةً منه ، وأنزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به وأنزل عليكم من السماء ملائكةً مردفين فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كلَّ بنان .

كأنه يقول: قد أزعجتُ علكم ، وأمددتكم بالملائكة ، فاضربوا منهم هذه المواضع وهو القتل ، لتبلغوا مراد الله في إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وهذا الوجه بعد طوله لا طائل تحته لبعده من المعنى وكثرة الفواصل .

التاسع عشر: التقدير: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، أي: بسبب إظهار دين الله ، وإعزاز شريعته ، وقد كرهوا خروجك نهيباً للقتال وخوفاً من الموت إذ كان أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - بخروجهم بغتةً ، ولم يكونوا مُسْعِدِينَ للخروج ، وجادلوك في الحق بعد وضوحه نصرَك اللهُ وأمدك بملائكته ودلَّ على هذا المحذوفِ الكلامُ الذي بعده ، وهو قوله ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ [الأنفال: 9] الآيات .

وهذا الوجهُ استحسنه أبو حيان ، وزعم أنه لم يُسبق به .

ثم قال: " ويظهر أن الكاف ليست لمحض التشبيه ، بل فيها معنى التعليل " .

وقد نصَّ النحويُّون على أنَّها للتعليلِ وخرَجُوا عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَرِهَ اللَّهُ مُبْدَاهُمْ وَذَكَرَهُمْ كَمَا هَدَاكُمْ



وَأَنْشَدُوا: [الرجز]

2671 - لَا تَشْتُمِ النَّاسَ كَمَا لَا تُشْتَمُ . . .

أي: لا تتقاع شتم النَّاس لك لا تشتمهم .

ومن الكلام الشائع: كما تطيع الله يدخلك الجنة، أي: لأجل طاعتك الله يدخلك الجنة،

فكذا الآية، والمعنى: لأن خرجت لإعزاز دين الله، وقتل أعدائه ونصرك وأمدك

بالملائكة .

العشرون: تقديره: وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين كما إخراجك في الطاعة خير لكم  
كما كان إخراجك خيراً لهم، وهذه الأقوال ضعيفة كما بينا .

قوله: " بالحق " فيه وجهان:

أحدهما: أن يتعلق بالفعل، أي: بسبب الحق، أي: إنه إخراجٌ بسبب حق يظهر وهو علوُّ  
كلمة الإسلام، والنصر على أعداء الله .

والثاني: أن يتعلق بمحذوفٍ على أنه حال من مفعول: " أخرجك " أي: ملتبساً بالحق .

قوله: وإن فريقاً الواو للحال، والجملة في محل نصب، ولذلك كسرت " إن " ومفعول "

كارهون " محذوف، أي: لكارهون الخروج، وسبب الكراهية: إمَّا نفرة الطبع ممَّا يتوقع من

القتال ، وإمّا لعدم الاستعداد .

والمراد بـ " بيته " بيته بالمدينة ، أو المدينة نفسها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 450 . 454 ﴾ . باختصار .

(43/306)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) ﴾

يَبِينُ - سبحانه - أن الجدال منهم عادةٌ وَسَجِيَّةٌ ، ففي كل شيء لهم جدال واختيار ؛

فكرهوا خروجه إلى بدرٍ ، كما جادلوا في حديث الغنيمة ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ

الْأَنْفَالِ ﴾ وما يكون من خصال العبد غير متكرر ويكون على وجه الندرة كان أقرب إلى

الصفح عنه والتجاوز ، فأما إذا صار ذلك عادةً فهو أصعب .

ويقال ما لم تباشِر خلاصة الإيمان القلب يوجد كمال التسليم وترك الاختيار ، وما دام

يتحرك من العبد عرق في الاختيار فهو بعيدٌ عن راحة الإيمان .

ولقد أجرى الله سنته مع أنبيائه الأئمة لهم كمال النعمى إلا بعد مفارقة مألوفات الأوطان

، والتجرد عن مساكنة ما فيه حظ ونصيب من كل معهود .  
ويقال إن في هجرة الأنبياء - عليهم السلام - عن أوطانهم أماناً لهم من عادة الأعداء ،  
وإحياء لقلوب قوم تقاصرت أقدامهم عن المسير إليهم .  
وكذلك هجرة الأولياء من خواصه ؛ فيها لهم خلاصٌ من البلاء ، واستخلاصٌ للكثيرين  
من البلاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات - ج 1 ص 604 ﴾

(44/306)

---

قوله تعالى ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (6)



مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم ذكر دليل كراهتهم فقال : ﴿ يجادلونك ﴾ أي يكررون ذلك إرادة أن يفتلوك عن اللقاء  
للجيش إلى الرجوع عنه .

ولما كان الجيش امراً قد حتمه الله فلا بد من وقوعه مع أنه يرضيه ، قال : ﴿ في الحق ﴾ أي  
الذي هو إيثار الجهاد ﴿ بعد ما تبين ﴾ أي وضح وضوحاً عظيماً سهلاً من غير كلفة نظر

بقرائن الأحوال بفوات العير وتيسير أمر النفير وبإعلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم تارة صريحاً وتارة تلويحاً كقوله " والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم ، هذا مصرع فلان وذلك مصرع فلان " .

ولما كان سبحانه قد حكم باللقاء والنصرة تأييداً لوليه وإعلاءً لكلمته مع شدة كراهتهم لذلك ، شبه سوقه لهم إلى مراده .

فقال بانياً للمفعول لأن المكروه إليهم السوق لا كونه من معين : ﴿ كأنما يساقون ﴾ أي يسوقهم سائق لا قدرة لهم على ممانعته ﴿ إلى الموت وهم ينظرون ﴾ لأنها كانت أول غزوة غزاها النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان فيها لقاء ، وكانوا غير متأهين للقتال غاية التأهب ، إنما خرجوا للقاء العير ، هذا مع أنهم عدد يسير ، وعدد أهل النفير كثير ، وكانوا في غاية الهيبة للقائهم والرعب من قتالهم ، وكل هذا تذكير لهم بأنه لم ينصرهم إلا الله بلا صنع منهم ، بل كانوا في يد قدرته كالآلة في يد أحدهم ، لينتج ذلك أنه ليس لهم أن ينازعوا في الأنفال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 186 ﴾



## فصل

قال الفخر :

والحق الذي جادلوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى النفي لإيثارهم العير .

وقوله : ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ المراد منه : إعلام رسول الله بأنهم ينصرون .

وجداهم قوهم : ما كان خروجنا إلا للغير ، وهلاقت لنا ؟ لنستعد وتأهب للقتال ،

وذلك لأنهم كانوا يكرهون القتال ، ثم إنه تعالى شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم بحال من

يجر إلى القتل ويساق إلى الموت ، وهو شاهد لأسبابه ناظر إلى موجباته ، وبالجملة فقوله :

﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ كناية عن الجزم والقطع .

ومنه قوله عليه السلام :

" من نفى ابنه وهو ينظر إليه " أي يعلم أنه ابنه .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ : 40] أي يعلم .

واعلم أنه كان خوفهم لأمر : أحدها : قلة العدد .

وثانيها : أنهم كانوا رجالة .

روي أنه ما كان فيهم إلا فارسان .

وثالثها : قلة السلاح .

المسألة الثالثة :

روي أنه صلى الله عليه وسلم إنما خرج من بيته باختيار نفسه ، ثم إنه تعالى أضاف ذلك الخروج إلى نفسه فقال : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق الله تعالى إما ابتداءً أو بواسطة القدرة والداعية اللذين مجموعهما يوجب الفعل كما هو قولنا .

قال القاضي معناه : أنه حصل ذلك الخروج بأمر الله تعالى وإلزامه ، فأضيف إليه . قلنا : لا شك أن ما ذكرتموه مجاز ، والأصل حمل الكلام على حقيقة . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 ص 102 . 103 ﴾

(46/306)

---

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ يجادلونك في الحق ﴾ ؛

وكان هذا بعد خروجه إلى بدر ، وكانت غزوة بدر في السنة الثانية من مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة .

وفي تلك السنة ، حولت القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، وكانت غزوة بدر في شهر رمضان ، وكانت قصته أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن عير قريش خرجت من

الشام ، فيهم أبو سفيان بن حرب ومخرمة بن نوفل في أربعين رجلاً من تجار قريش ، ويقال أكثر من ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " هذه عير قريش قد أُقْبِلَتْ ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْهَا ، فَلَعَلَّ اللَّهُ أَنْ يُنْفَلَكَمُوهَا ، وَتَتَّقُوا بِهَا عَلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ " .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين من جهينة ، حليفين من الأنصار بأن ينظرا ويأتيا بجزير العير ، فخرجا وأتيا وادي الصفراء ، وهي منزل على طريق الشام ، فقالا لأهل الصفراء : هل أحسستم من أحد ؟ قالوا : لا .

فخرجا فمرا بجاريتين متلازمتين ، فقالت إحداهما للأخرى : اقضيني درهما لي عليك . فقالت : لا والله ما عندي اليوم ، ولكن عير قريش نزلت بموضع كذا ، يقدمون غداً فأعمل لهم ، وأقضيك درهمك .

فسمع الرجلان ما قالت الجاريتان فرجعا .

فجاء أبو سفيان بن حرب حين أمسى الصفراء ، فقال لأهل الصفراء : هل أحسستم من أحد ؟ قالوا : لا إلا رجلين نزلا عند هذا الكثيب ، ثم ركبا .

فرجع أبو سفيان إلى ذلك الموضع ، فرأى هناك بعرا الإبل فأخذ بعرة ففتها ، فوجد فيها النوى فقال : علائق أهل يثرب واللات والعزى ؛ فأرسل من الطريق ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة ، يخبرهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد اعترض لعيركم فأدركوه .

---

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب ، رأت قبل أن يقدم ضمضم بن عمرو بثلاثة أيام في منامها ، كأن ركباً أقبل على بعير أورق ومعه راية سوداء ، فدخل المسجد الحرام ، ثم نادى بأعلى صوته : يا آل فلان ويا آل فلان ، انفروا إلى مصارعكم إلى ثلاث ، ثم ارتقى على أبي قبيس ونادى ثلاث مرات .

ثم قلع صخرة من أبي قبيس فرماها على أهل مكة ، فتكسرت فلم يبق أحد من قريش إلا أصابته فلقة منها .

فلما أصبحت ، قصت رؤياها على أخيها العباس وقالت : إني أخاف أن يصيب قومك سوء .

فاغتم العباس لما سمع منها ، وذكر العباس ذلك للوليد بن عتبة ، وكان صديقاً له ، فذكر الوليد ذلك لأبيه عتبة بن ربيعة ، فذكر ذلك عتبة لأبي جهل بن هشام .

وفشا ذلك الحديث في قريش ، فخرج العباس إلى المسجد وقد اجتمع فيه صناديد قريش يتحدثون عن رؤيا عاتكة ، فقال أبو جهل : يا أبا الفضل ، متى حدثت فيكم هذه النبوة ؟ أما رضيتم أن قلت : منا نبي ، حتى قلت : منا نبوة ؟ فوالله لنتظرن بكم ثلاثاً ، فإن جاء تأويل رؤياها ؛ والإكتبنا عليكم كتاباً بأنكم أكذب أهل بيت في العرب .

فقال له العباس : يا كذاب ، يا مصفر الاست ، بالله أنت أولى بالكذب واللؤم منا .

فلما كان اليوم الثالث ، جاء ضمضم ، وقد شق قميصه ، وجزع أذن ناقته ، وجعل التراب على رأسه ، وهوينادي : يا معشر قريش ، الغوث الغوث ، أدركوا غيركم ، فقد عرض لها أهل محمد .

فاجتمعوا وخرجوا ، وهم كارهون مشفقون من رؤيا عاتكة ، ومعهم القينات والدفوف بطراً ورياء ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [ الأنفال : 47 ] .  
وكل يوم يطعمهم واحد من أغنيائهم .

(48/306)

---

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة وأمر أصحابه بالخروج ، فخرج معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار ، وخرجوا على نواضحهم ليس لهم ظهر غيرها ، ومعهم ثلاثة أفراس ويقال فرسان ، فخرجوا بغير قوت ولا سلاح ، لا يرون أنه يكون ثمة قتال .

فلما نزلوا بالروحاء ، نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بخروج المشركين من مكة إلى غيرهم ، وقال : يا محمد ، إن الله تعالى وعدك إحدى

الطائفتين ، إما العير وإما العسكر .

فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بمخروج المشركين من مكة إلى عيرهم ، فشق ذلك على بعضهم ، وقالوا : يا رسول الله ، هلا كنت أخبرتنا أنه يكون ثم قتال فنخرج معنا سلاحنا وقوسنا ، إنما خرجنا نريد العير ، والعير كانت أهون شوكة وأعظم غنيمة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " أَشِيرُوا عَلَيَّ " . فكان أبو بكر وعمر يشيران عليه بالمسير ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " أَشِيرُوا عَلَيَّ " .

وكان يجب أن يتكلم الأنصار ، فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله امض حيث شئت ، وأقم حيث شئت .

فوالله لئن أمرتنا أن نخوض البحر لنخوضه ، ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنذُرُكَ إِنَّا لَنَنذُرُكَ إِنَّا لَنَنذُرُكَ إِنَّا لَنَنذُرُكَ ﴾ [المائدة: 24] ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴿ [المائدة: 24] ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا ، ونحن معكما متبعون ، فنزل : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرْهُونَ ﴾ ، يعني القتال ﴿ يجادلونك في الحق ﴾ ، يخاصمونك في الحرب . ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ ، يعني بعد ما تبين لهم أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ ﴾

إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢٠٦﴾ ، يعني ينظرون إلى القتل . انتهى انتهى . اهـ ﴿٢٠٦﴾ بجزر العلوم حـ 2

﴿٢٠٦﴾

(49/306)

وقال الثعلبي :

﴿٢٠٦﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴿٢٠٦﴾

أي في القتال وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا [ الشوكة ] والحرب يوم بدر وعرفوا أنه القتال كرهوا ذلك وقالوا : يا رسول الله إنه لم تعلمنا إنا نلقي العدو فنستعد لقتالهم وإنما خرجنا للغير فذلك جدالهم ﴿٢٠٦﴾ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴿٢٠٦﴾ إِنَّكَ لَا تَصْنَعُ إِلَّا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ .

وقال ابن زيد : هؤلاء المشركون يجادلونه في الحق ﴿٢٠٦﴾ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴿٢٠٦﴾ [ يعني ] من يدعون للإسلام لكرهتهم إياه .

﴿٢٠٦﴾ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢٠٦﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿٢٠٦﴾ الكشف والبيان حـ 4 ص ﴿٢٠٦﴾

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿٢٠٦﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴿٢٠٦﴾

يعني في القتال يوم بدر .

﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ :

أحدهما : بعد ما تبين لهم صوابه .

الثاني : بعد ما تبين لهم فرضه .

وفي المجادل له قولان :

أحدهما : أنهم المشركون ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنهم طائفة من المؤمنين وهو قول ابن عباس ، وابن إسحاق ، لأنهم خرجوا لأخذ

الغير المقبلة من الشام مع أبي سفيان فلما فاتهم ذلك أمروا بالقتال فجادلوا طلباً للرخصة

وقالوا ما تاهبنا في الخروج لقتال العدو ، فأنزل الله تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾

يعني كأنهم في قتال عدوهم يساقون إلى الموت ، رعباً وأسفاً لأنه أشد لحال من سيق إلى

الموت أن يكون ناظراً له وعالمًا به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(50/306)

وقال ابن عطية :

والضمير في قوله ﴿ يجادلونك ﴾ قيل : هو للمؤمنين وقيل : للمشركين ، فمن قال للمؤمنين

جعل ﴿ الحق ﴾ قتال مشركي قريش ، ومن قال للمشركين جعل ﴿ الحق ﴾ شريعة



الإسلام ، وقوله ﴿ إلى الموت ﴾ أي في سوقهم على أن المجادلين المؤمنون في دعائهم إلى  
الشرع على أنهم المشركون ، وقوله ﴿ وهم ينظرون ﴾ حال تزيد في فزع السوق وتقتضي  
شدة حاله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ج 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ يجادلونك في الحق ﴾

يعني : في القتال يوم بدر ، لأنهم خرجوا بغير عُدَّة ، فقالوا : هلاً أخبرتنا بالقتال لناخذ العُدَّة  
، فجادلوه طلباً للرخصة في ترك القتال .

وفي قوله ﴿ بعد ما تبين ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : تبين لهم فرضه .

والثاني : تبين لهم صوابه .

والثالث : تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرت به ، وفي "المجادلين" قولان .

أحدهما : أنهم طائفة من المسلمين ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنهم المشركون ، قاله ابن زيد .

فعلى هذا ، يكون جدالهم في الحق الذي هو التوحيد ، لا في القتال .

فعلى الأول ، يكون معنى قوله : ﴿ كأننا يساقون إلى الموت ﴾ أي : في لقاء العدو ﴿ وهم

ينظرون ﴾ ، لأن أشد حال من يساق إلى الموت أن يكون ناظراً إليه ، وعالمًا به .

وعلى قول ابن زيد : كأنما يساقون إلى الموت حين يُدْعَوْنَ إلى الإسلام لكرهتهم إياه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(51/306)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾

مجادلتهم : قولهم لما ندبهم إلى العير وفات العير وأمرهم بالقتال ولم يكن معهم كبير أهبة شقّ

ذلك عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة .

ومعنى "فِي الْحَقِّ" أي فِي الْقِتَالِ .

"بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ" لهم أنك لا تأمر بشيء إلا بإذن الله .

وقيل : بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم إما الظفر بالغير أو بأهل مكة ، وإذ فات العير فلا بدّ

من أهل مكة والظفر بهم .

فعنى الكلام الإنكار لمجادلتهم .

﴿ كأنما يساقون إلى الموت ﴾ كراهة للقاء القوم .

﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي يعلمون أن ذلك واقع بهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا

قَدَمَتْ يَدَاهُ ﴿ [النبأ: 40] أي يعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص



وقال الخازن :

﴿ يجادلونك في الحق ﴾

وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم تعلمنا أننا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وإنما خرجنا لطلب العير فذلك جدالهم ﴿ بعد ما تبين ﴾ يعني تبين لهم أنك لا تصنع شيئاً إلا بأمر ربك وتبين لهم صدقك في الوعد ﴿ كأنما يساقون إلى الموت ﴾ يعني لشدة كراهتهم القتال ﴿ وهم ينظرون ﴾ يعني إلى الموت شبه حالهم في فرط فزعهم بحال من يجر إلى القتل ويساق إلى الموت وهو ينظر إليه ويعلم أنه آتية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴿

(52/306)

وقال أبو حيان :

والظاهر أن ضمير الرفع في ﴿ يجادلونك ﴾ عائد على فريق المؤمنين الكارهين وجدالهم قولهم ما كان خروجنا إلا للعير ولو عرفنا لاستعددنا للقتال والحق هنا نصره دين الإسلام ،

وقيل الضمير يعود على المشركين وجدالهم في الحق هو في شريعة الإسلام.

وقرأ عبد الله بعدما بين بضم الباء من غير تاء وفي قوله ﴿ بعد ما تبين ﴾ إنكار عظيم عليهم لأن من جادل في شيء لم يتضح كان أخف عتباً أما من نازع في أمر واضح فهو جدير باللوم والإنكار ثم شبه حالهم في فرط فزعهم وهم يساريهم إلى الظفر والغنيمة مجال من يساق على الصفا إلى الموت وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها ، وقيل كان خوفهم لقلة العدد وأنهم كانوا رجالاً ، وروي أنه ما كان فيهم إلا فارسان وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر وكان المشركون في نحو ألف رجل وقصة بدر هذه مستوعبة في كتاب السير وقد لخص منها الزمخشري وابن عطية ما يوقف عليه في كتابيهما . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ يجادلونك في الحق ﴾

الذي هو تلقي النفير لإيثارهم عليه تلقي العير ، والجملة استئنافٌ أو حالٌ ثانية أي أخرجك في حال مجادلتهم إياك ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في لكارهون وقوله تعالى : ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ منصوبٌ بيجادلونك ، وما مصدرية أي بعد تبين الحق لهم بإعلامك أنهم ينصرون أينما تواجهوا ويقولون : ما كان خروجنا إلا للعير ، وهلاقت لنا لنستعدَّ وتاهبَ وكان ذلك لكرهتهم القتالَ ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ الكاف في محل

النصب على الحالية من الضمير في لكارهون أي مُشبهين بالذين يُساقون بالعنف والصغار إلى القتل ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ حال من ضمير يساقون أي والحال أنهم ينظرون إلى أسباب الموت ويشاهدونها عيانا ، وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع إلا لقلة عددهم وعدم تأهّبهم وكونهم رجالة . روي أنه لم يكن فيهم إلا فارسان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(53/306)

وقال الأوسى :

﴿ يجادلونك في الحق ﴾

الذي هو تلقي النفي المعلي للدين لإيثارهم عليه تلقي العير ، والجملة إما مستأنفة أو حال ثانية ، وجوز أن تكون حالا من الضمير في ﴿ لَكَارهُونَ ﴾ [ الأنفال : 5 ] وقوله سبحانه : ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ متعلق بيجادلون ، و ﴿ مَا ﴾ مصدرية ، وضمير تبين للحق أي يجادلون بعد تبين الحق لهم بإعلامك أنهم ينصرون ويقولون : ما كان خروجنا إلا للعير وهلا ذكرت لنا القتال حتى نستعد له وتأهب ﴿ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ أي مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار إلى القتل ، فالجملة في محل نصب على الحالية من ضمير

﴿ لكارهون ﴾ [ الأنفال : 5 ] وجوز أن تكون صفة مصدر لكارهون بتقدير مضاف  
أي لكارهون كراهة ككراهة من سيق للموت ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ حال من ضمير يساقون  
وقد شاهدوا أسبابه وعلاماته ، وفي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ كَانَمَا ﴾ الخ إيماء إلى أن  
مجادلتهم كان لفرط فزعهم ورعبهم لأنهم كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً في قول فيهم  
فارسان المقداد بن الأسود .

والزبير بن العوام ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه ما كان منا فارس يوم بدر إلا المقداد وكان  
المشركون ألفاً قد استعدوا للقتال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(54/306)

---

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ يجادلونك ﴾ حال من ﴿ فريقاً ﴾ فالضمير لفريق باعتبار معناه لأنه يدل على  
جمع .

وصيغة المضارع لحكاية حال المجادلة زيادة في التعجيب منها ، وهذا التعجيب كالذي في  
قوله تعالى : ﴿ يجادلنا ﴾ من قوله : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشري  
يُجادلنا في قوم لوط ﴾ [ هود : 74 ] إذ قال ﴿ يجادلنا ﴾ ولم يقل " جادلنا " .

وقوله: ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لوم لهم على المجادلة في الخروج الخاص ، وهو الخروج للنفي وترك العير ، بعد أن تبين أي ظهر أن الله قدر لهم النصر ، وهذا التبين هو بين في ذاته سواء شعر به كلهم أو بعضهم فإنه بحيث لا ينبغي الاختلاف فيه ، فإنهم كانوا عرباً أذكاء ، وكانوا مؤمنين أصفياء ، وقد أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله ناصرهم على إحدى الطائفتين : طائفة العير أو طائفة النفير ، فنصرهم إذن مضمون ، ثم أخبرهم بأن العير قد أخطأتهم ، وقد بقي النفير ، فكان بينا أنهم إذا لقوا النفير ينصرهم الله عليه ، ثم رأوا كراهة النبي صلى الله عليه وسلم لما اختاروا العير ، فكان ذلك كافياً في اليقين بأنهم إذا لقوا المشركين ينتصرون عليهم لا محالة ، ولكنهم فضلوا غنيمة العير على خضد شوكة أعدائهم ونهوض شوكتهم بنصر بدر ، فذلك معنى تبين الحق أي رجحان دليله في ذاته ، ومن خفي عليه هذا التبين من المؤمنين لم يعذره الله في خفائه عليه .  
ومن هذه الآية يؤخذ حكم مؤاخظة المجتهد إذا قصر في فهم ما هو مدلول لأهل النظر ، وقد غضب النبي صلى الله عليه وسلم من سؤال الذي سأله عن ضالة الإبل بعد أن سأله عن ضالة الغنم فأجابه هي لك أو لأخيك أو للذئب .

(55/306)

---

فلما سأله بعد ذلك عن ضالة الإبل تمعر وجهه وقال "مالك ولها معها حذاؤها وسقاؤها  
تشرب الماء وترعى الشجر حتى يلقاها ربها" وروى مالك، في "الموطأ"، أن أبا هريرة مرَّ  
بقومٍ محرمين فاستقوه في لحمٍ صيد وجدوا أناساً أحلة يأكلونه فأقتاهم بالأكل منه ثم قدم  
المدينة فسأل عمر بن الخطاب عن ذلك فقال له عمر بم أقتيتهم قال: أقتيتهم بأكله فقال: "لو  
أقتيتهم بغير ذلك لأوجعتك".

وجملة: ﴿ كأنما يساقون إلى الموت ﴾ في موضع الحال من الضمير المرفوع في ﴿ يجادلونك ﴾  
﴿ أي حالتهم في وقت مجادلتهم إياك تشبه حالتهم لو ساقهم سائق إلى الموت، والمراد  
بالموت الحالة المضادة للحياة وهو معنى تكرهه نفوس البشر، ويصوره كل عقل بما يتخيله  
من الفظاعة والبشاعة كما تصوره أبو ذؤيب في صورة سبُع في قوله:

وإذا المنية أنشبت أظفارها

وكما تخيل، تأبط شراً الموت طامعاً في اغتياله فنجاً منه حين حاصره أعداؤه في جحر في  
جبل:

فخالط سهل الأرض لم يكدر الصفا  
به كدحةً والموتُ خزيانٌ ينظر...

فقوله تعالى: ﴿ كأنما يساقون إلى الموت ﴾ تشبيهه لحالم، في حين المجادلة في اللحاق  
بالمشركين، مجال من يجادل ويمانع من يسوقه إلى ذات الموت.



وهذا التفسير أليق بالتشبيه لتحصل المخالفة المطلقة بين الحالة المشبهة والحالة المشبه بها ،  
والإفان أمرهم بقتال العدو والكثير العدد ، وهم في قلة ، إرجاء بهم إلى الموت إلا أنه موت  
مظنون ، وبهذا التفسير يظهر حسن موقع جملة : ﴿ وهم ينظرون ﴾ أما المفسرون  
فتأولوا الموت في الآية بأنه الموت المتيقن فيكون التخالف بين المشبه والمشبه به تخالفاً  
بالتقييد .

(56/306)

---

وجملة : ﴿ وهم ينظرون ﴾ حال من ضمير ﴿ يساقون ﴾ ومفعول ﴿ ينظرون ﴾  
محذوف دل عليه قوله : ﴿ إلى الموت ﴾ أي : وهم ينظرون الموت ، لأن حالة الخوف من  
الشيء المخوف إذا كان منظوراً إليه تكون أشد منها لو كان يعلم أنه يساق إليه ولا يراه ، لأن  
للحس من التأثير على الإدراك ما ليس لمجرد العقل ، وقريب من هذا المعنى قول جعفر بن  
عُلبَةَ :

يرى غمرات الموت ثم يزورها

وفي عكسه في المسرة قوله تعالى : ﴿ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ [البقرة : 50

[ انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ ،

أي يجادلونك في مسألة الخروج لملاقاة النفيير ، بعد ما تبين لهم الوعد الحق من الله عز وجل وهو وعده سبحانه وتعالى بأن تكون لهم إحدى الطائفتين ، وهما طائفة العير أو النفيير الضخم الذي جمعه قريش لملاقاتهم . وما دام الحق قد وعدكم إحدى الطائفتين ، فلماذا لا تأخذون الوعد في أقوى الطوائف ؟ لماذا تريدون الوعد في أضعف الطوائف ؟ ! لقد وعدكم الحق سبحانه وتعالى أن إحدى الطائفتين ستكون لكم ، فكان المنطق والعقل يؤكدان أنه ما دام قد وعدنا الله عز وجل إحدى الطائفتين ، فلنقدم إلى الأنفع للإسلام والحق الذي نحارب من أجله ، وأن نواجه الطائفة ذات القوة والشوكة والمنعة ؛ لأنه قد يكون من الصحيح أن النصر مؤكد على طائفة العير ، لكن هذا النصر سيبقى من بعد ذلك مجرد نصر يقال عنه ! إنه نصر لقطع طريق ، لأهل قضية إيمان ودين .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ

غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [

الأنفال: 7 ] .

فالمنطق إذن يفرض أن الله عز وجل ما دام قد وعد رسوله صلى الله عليه وسلم بإحدى الطائفتين ، طائفة في غير والأخرى في نفي ، كان المنطق يفرض إقبال المؤمنين على مواجهة الطائفة القوية ؛ لأن النصر على النفي هو أشرف من النصر على طائفة العير . ❁

يَجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ❁ .

ونلاحظ أن هناك " سوق " ، وهناك " قيادة " ، والقيادة تعني أن تكون من الأمام لتدل الناس على الطريق ، و " السوق " يكون من الخلف لتحث المتقدم أن يقصر المسافة مع تقصير الزمن ، فبدلاً من أن تقطع المسافة في ساعة - على سبيل المثال - فنقطعها في نصف ساعة .

(58/306)

وقوله تعالى : ❁ يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ❁ [ الأنفال: 6 ] .

أي أنهم غير منجزين للسير . بل هم مدفوعون إليه دفعا ، وهم ينظرون بشاعة الموت ، لأنهم تصوروا أن مواجعتهم لألف فتى من مقاتلي قريش مسألة صعبة ، فألف أمام ثلاثمائة مسألة ليست هينة ؛ لأن ذلك سيفرض على كل مسلم أن يواجه ثلاثة معهم العدة والعتاد ،

فكان الصورة التي تمثل لهم صورة بشعة ، لكنهم حينما نظروا هذه النظرة لم يلتفتوا إلى أن معهم رباً ينصرهم على هؤلاء جميعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(59/306)

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6) ﴾

(60/306)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي أيوب الأنصاري قال : " قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت فقال " ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا ، فخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتعاد ففعلنا ، فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً

، فأخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بعدتنا ، فسر بذلك وحمد الله وقال : عدة أصحاب  
طالوت . فقال : ما ترون في القوم فانهم قد أخبروا بمخرجكم ؟ فقلنا : يا رسول الله لا والله  
ما لنا طاقة بقتال القوم إنما خرجنا للعر ، ثم قال : ما ترون في قتال القوم ؟ فقلنا مثل ذلك ،  
فقال المقداد : لا تقولوا كما قال أصحاب موسى لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا  
ههنا قاعدون ﴾ [ المائدة : 24 ] فأنزل الله ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن  
فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ إلى قوله ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾  
فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين - اما القوم واما العير - طابت أنفسنا ، ثم إنا اجتمعنا مع  
القوم فصففنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أنشدك وعدك . فقال ابن  
رواحه : يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك - ورسول الله أفضل من أن نشير عليه - إن  
الله أجل وأعظم من أن تُشدهُ وعده . فقال : يا ابن رواحة لأنشدنَّ اللهَ وعده فإن الله لا  
يخلف الميعاد ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوه  
القوم فانهزموا ، فأنزل الله ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [ الأنفال : 17 ]  
فقلنا وأسرنا . فقال عمر : يا رسول الله ما أرى أن تكون لك اسرى ، فانما نحن داعون  
مؤلفون ؟ فقلنا معشر الأنصار : انما يحمل عمر على ما قال حسد لنا . فنام رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ثم استيقظ ، ثم قال : ادعوا لي عمر فدعي له ، فقال له : إن الله قد  
أنزل عليَّ ﴿ ما كان

لنبي أن تكون له أسرى ﴿ [ الأنفال : 56 ] الآية " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه عن جده قال " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر ، حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا ، ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال عمر مثل قول أبي بكر ، ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله إيانا تريد .

.. ؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لتسيرنَّ معك ، ولا نكوننَّ كالذين قالوا لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ [ المائدة : 24 ] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت . فنزل القرآن على قول سعد ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ إلى قوله ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ وإنما رسول الله

صلى الله عليه وسلم يريد غنيمة مع أبي سفيان فأحدث الله إليه القتال " .  
وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن  
مجاهد في قوله ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ قال : كذلك أخرجك ربك إلى  
قوله ﴿ يجادلونك في الحق ﴾ قال : القتال .  
وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾  
قال : خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾  
قال : لطلب المشركين ﴿ يجادلونك في الحق بعدما تبين ﴾ انك لا تصنع إلا ما أمرك الله  
به ﴿ كأنما يساقون إلى الموت ﴾ حين قيل هم المشركون .

(62/306)

---

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما شاور النبي صلى الله عليه وسلم في لقاء العدو ،  
وقال له سعد بن عباد ما قال وذلك يوم بدر ، أمر الناس فتعبوا للقتال وأمرهم بالشوكة ،  
فكره ذلك أهل الايمان ، فأنزل الله ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ إلى قوله ﴿  
وهم ينظرون ﴾ أي كراهية لقاء المشركين .

وأخرج البزار وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن عبد الرحمن بن عوف

قال: نزل الإسلام بالكره والشدة فوجدنا خير الخير في الكره، خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم من مكة فأسكننا سبخة بين ظهراي حره فجعل الله لنا في ذلك العلا والظفر، وخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر على الحال التي ذكر الله ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ إلى قوله ﴿ وهم ينظرون ﴾ فجعل الله لنا في ذلك العلا والظفر فوجدنا خير الخير في الكره.

وأخرج ابن جرير عن الزبيري قال: كان رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر ﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العير. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(63/306)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾

منصوب بالجدال، و"ما" مصدرية، أي: بعد تبيّنه ووضوحه، وهو أقبح من الجدال في الشيء قبل إيضاحه.



وقرأ عبد الله "بَيْنَ" مبنياً للمفعول من: بَيَّنْتُهُ أَي: أظهرته، وقوله: "وَهُمْ يَنْظُرُونَ" حالٌ من مفعول يُسَاقُونَ. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل ج 9 ص 456﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (6) ﴿

جحودُ الحقِّ بعد وضوح برهانه علمٌ لاستكبار صاحبه ، وهو - في الحال - في وحشة

غِيَّهَ ، مُعَاقِبٌ بِالصِّدِّ وَتَنْعُصُ الْعَيْشِ ، يَمَلُّ حَيَاتِهِ وَيَتَمَنَّى وَفَاتِهِ ؛ ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى

الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ج 1 ص 604 ﴾

(64/306)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ

لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (7) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما لانوا بهذا الخطاب ، وأقبلوا على الملك التواب ، أقبل عليهم فقال : ﴿ وإذ ﴾ أي اذكروا هذا الذي ذكره الله لكم وقد كان حالكم فيه ما ذكره ، ثم أفضى إلى سعادة عظيمة وعز لا يشبهه عز ، واذكروا إذ ﴿ يعدكم الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال ﴿ إحدى الطائفتين ﴾ : العير أو النفير ، وأبدل من الإحدى - ليكون الوعد بها مكرراً - قوله : ﴿ أنها لكم ﴾ أي فتكروهون لقاء ذات الشوكة ﴿ وتودون ﴾ أي والحال أنكم تحبون محبة عظيمة ﴿ أن غير ذات الشوكة ﴾ أي السلاح والقتال والكفاح الذي به تعرف الأبطال ويميز بين الرجال من ذوات الحجال ﴿ تكون لكم ﴾ أي العير لكونها لم يكن فيها إلا ناس قليل ، يقال : إنهم أربعون رجلاً ، جهلاً منكم بالعواقب ، ثم تبين لكم أن ما فعله الله خير لكم بما لا يبلغ كنهه ، فسلموا له الأمر في السر والجهر تناولوا الغنى والنصر ، وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير العاصمي في مناسبة تعقيب الأعراف بهذه السورة ومناسبة آخر تلك لأول هذه ما نصه : لما قصَّ سبحانه على نبيه - صلى الله عليه وسلم - في سوة الأعراف أخبار الأمم ، وقطع المؤمنون من مجموع ذلك بأنه لا يكون الهدى إلا بسابقة السعادة ، لافتح السورة من ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام ، وكلاهما كفر على علم ولم ينفعه ما قد كان حصل عليه ، ونبه تعالى عباده على الباب الذي أتى منه على بلعام بقوله سبحانه ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه فأشار سبحانه إلى أن اتباع الأهواء أضل كل ضلال ، نبهوا على ما فيه الحزم من ترك الأهواء جملة فقال تعالى ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾

[الأنفال : 1] الآية ، فكان قد قيل لهم : اتركوا ما ترون أنه حق واجب لكم ، وفوضوا في أمره لله وللرسول ، فذلك أسلم لكم وأحزم في ردع أغراضكم وقمع شهواتكم وترك أمور ربكم وقد ألف في هذه الشريعة السمحة البيضاء حسم الذرائع كثيراً وإقامة مظنة الشيء مقامه كتحريم الجرعة من الخمر والقطرة ، والخطبة في العدة واعتداد النوم

(65/306)

---

الثقل ناقضاً ، فهذه مظان لم يقع الحكم فيها على ما هو لأنفسها ولا بما هي كذا ، بل بما هي مظان ودواع لما منع لعينه أو استوجب حكماً لعينه وعلته الخاصة به ، ولما أمر المسلمون مجل أيديهم عن الأنفال يوم بدر إذ كان المقاتلة قد هموا بأخذها وحدثوا أنفسهم بالانفراد بها ورأوا أنها من حقهم وأن من لم يباشر قتالاً من الشيوخ ومن انحاز منه لمهم فلاحق له فيها ، ورأى الآخرون أيضاً أن حقهم فيها ثابت لأنهم كانوا فيه للمقاتلين عدة وملجأ وراء ظهورهم ، كان ما أمرهم الله به من تسليم الحكم في ذلك إلى الله رسوله من باب حسم الذرائع لأن تمشية أغراضهم في ذلك - وإن تعلق كل من الفريقين بحجة - مظنة لرئاسة النفوس واستسهال اتباع الأهواء ، فأمرهم الله بالتنزه عن ذلك والتفويض الله لرسوله فإن ذلك أسلم لهم وأوفى لدينهم وأبقى في إصلاح ذات البين وأجدى في الأتباع ﴿ فاتقوا الله

وأصلحوا ذات بينكم ﴿ [ الأنفال : 1 ] الآية ، ثم ذكروا بما ينبغي لهم يلتزموا فقال تعالى  
﴿ إنما المؤمنون ﴾ [ الأنفال : 2 ] - إلى قوله : ﴿ زادتهم إيماناً ﴾ [ الأنفال : 2 ] ثم نبهوا  
على أن أعراض الدنيا من نفل أو غيره لا ينبغي للمؤمن أن يعتمد عليه اعتماداً يدخل عليه  
ضراراً من الشرك أو التفاتاً إلى غير الله سبحانه بقوله : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ثم ذكروا  
بما وصف به المتقين من الصلاة والإنفاق ثم قال ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ تنبيهاً على  
أن من قصر في هذه الأحوال ولم يأت بها على كمالها لم يخرج عن الإيمان ولكن ينزل عن  
درجة الكمال بحسب تقصيره ، وكان في هذا إشعار بعذرهم في كلامهم في الأنفال وأنهم  
قد كانوا في مطلبهم على حالة من الصواب وشرب من التمسك والأتباع ، ولكن أعلى  
الدرجات ما بين لهم ومنحوه ، وأنه الكمال والفوز ، ثم نبههم سبحانه بكيفية أمرهم في  
الخروج إلى بدر وودهم أن غير ذات الشوكة تكون لهم وهو سبحانه يريهم حسن العاقبة  
فيما اختاره لهم ، فقد كانوا تمنوا

(66/306)

---

لقاء العير ، واختاروا ذلك على لقاء العدو ولم يعلموا ما وراء ذلك

﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ [ الأنفال : 7 ] إلى ما قصه

تعالى عليهم من اكنافهم برحمته وشمول الطافه والآئه ووسط نفوسهم ونبههم على ما ثبت يقينهم ويزيد في ايمانهم ، ثم أعلم أن الخير كله في التقوى فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ [ الأنفال : 29 ] الآية ، وهذا الفرقان هو الذي حرمه إبليس وبلعام ، فكان منهما ما تقدم من اتباع الأهواء القاطعة لهم عن الرحمة ، وقد تضمنت الآية حصول خير الدنيا والآخرة بنعمة الاتقاء ، ثم أجمل الخياران معاً في قوله ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ [ الأنفال : 29 ] بعد تفصيل ما إليه إسراع المؤمنين من الفرقان والتكفير والغفران ، ولم يقع التصريح بخيري الدنيا الخاص بها مع اقتضاء الآية إياه تنزيهاً للمؤمن في مقام إعطاء الفرقان وتكفير السيئات ، والغفران من ذكر متاع الدنيا التي هي لهو ولعب فلم يكن ذكر متاعها الفاني ليذكر مفصلاً مع ما لا يجانسها ولا يشاكله ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ [ العنكبوت : 64 ] ثم التحمت الآي ، ووجه آخر وهو أنه تعالى لما قال ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له ﴾ بين لهم كيفية هذا الاستماع وما الذي يتصف به المؤمن من ضروبه فقال ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله ﴾ [ الأنفال : 2 ] الآية ، فهؤلاء لم يسمعوا بأذانهم فقط ، ولا كانت لهم آذان لا يسمعون بها ولا قلوب لا يفقهون بها ، ولو كانوا كذا لما وجلت وعمهم الفرع والخشية وزادتهم الآيات إيماناً ، فإذن إنما يكون سماع المؤمن هكذا ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ [ الأنفال : 21 ] ولما كان هؤلاء إنما أتى عليهم من اتباع أهوائهم والوقوف مع أعراضهم وشهواتهم ﴿ يأخذون عرض

هذا الأدنى ﴿ [الأعراف: 169] ﴾ ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴿ [الأعراف

: 176] وهذه بعينها كانت آفة إبليس ، رأى لنفسه المزيد واعتقد لها الحق ثم اتبع هذا

الهوى حين قال ﴿ لم أكن لأسجد

(67/306)

---

لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴿ [الحجر: 33] فلما كان اتباع الهوى أصلاً

في الضلال وتنكب الصراط المستقيم ، أمر المؤمنين بحسم باب الأهواء ، والتسليم فيما لهم

به تعلق وغن لم يكن هوى مجرداً لكنه مظنة تيسير لاتباع الهوى ، فافتحت السورة بسؤالهم

عن الأنفال وأخبروا أنها لله ورسوله ، يحكم فيها ما يشاء ﴿ فاتقوا الله ﴾ واحذروا

الأهواء التي أهلكت من قص عليكم ذكره ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ برفع التنازع ،

وسلموا لله ولرسوله ، وإلا لم تكونوا سامعين وقد أمرتم أن تسمعوا السماع الذي عنه ترجى

الرحمة ، وبيانه في قوله ﴿ إنما المؤمنون ﴾ - الآيات ، ووجه آخر وهو أن قصص بني

إسرائيل عقب بوصاة المؤمنين وخصوصاً بالتقوى وعلى حسب ما يكون الغالب فيما

يذكر من أمر بني إسرائيل ، ففي البقرة أتبع قصصهم بقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا

راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا ﴾ [البقرة: 104] ولما كان قصصهم مفتحاً بذكر

تفضيلهم ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ﴾  
افتتح خطاب هذه الأمة بما يشعر بتفضيلهم ، وتأمل ما بين ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ و ﴿ يا أيها  
الذين آمنوا ﴾ وأمر أولئك بالإيمان ﴿ وآمنوا بما أنزلت ﴾ [ البقرة : 41 ] وأمر هؤلاء  
بتعبد احتياطي فقيل ﴿ وقولوا انظرونا واسمعوا ﴾ [ البقرة : 104 ] ثم أعقبت البقرة بآل  
عمران وافتحت ببيان المحكم والمتشابه الذي من جهته أتى على بني إسرائيل في كثير من  
مرتكباتهم ، ولما ضمنت سورة آل عمران من ذكرهم ما ورد فيها ، أعقبت بقوله تعالى ؛  
﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾  
[ آل عمران : 100 ] ثم أعقبت السورة بقوله ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من  
نفس واحدة ﴾ [ النساء : 1 ] وعدل عن الخطاب باسم الإيمان للمناسبة ، وذلك أن  
سورة آل عمران خصت من مرتكبات بني إسرائيل بجرائم كفولهم في الكفار ﴿ هؤلاء  
أهدى من الذين آمنوا

(68/306)

---

سبيلاً ﴾ [ النساء : 51 ] فهذا بهت ، ومنها قولهم ﴿ الله فقير ونحن أغنياء ﴾ [ آل  
عمران : 181 ] إلى ما تخلل هاتين من الآيات المنبئة عن تعمدهم الجرائم ، فعدل عن

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ إلى ﴿ يا أيها الناس ﴾ ليكون أوقع في الترتيب وأوضح مناسبة لما ذكر ، ولما ضمنت سورة النساء قوله تعالى ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات ﴾ [ النساء : 160 ] - إلى قوله : ﴿ وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ [ النساء : 161 ] أتبعته بقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ [ المائدة : 51 ] ثم ذكر لهم ما أحل لهم وحرم عليهم ليحذروا مما وقع فيه أولئك ، فعلى هذا لما ضمنت سورة الأعراف من قصصهم جملة ، وبين فيها اعتداءهم ، وبناه على اتباع الأهواء والهجوم على الأغراض ، طلب هؤلاء باتقاء ذلك والبعد عما يشبهه جملة ، فقبل في آخر السورة ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾ [ الأعراف : 201 ] ثم اقتتحت السورة الأخرى بصرفهم عما لهم به تعلق وإليه تشبث يقيم عذرهم شرعاً فيما كان منهم ، فكان قد قبل لهم : ترك هذا أعلم وأبعد عن اتباع الأهواء ، فسلموا في ذلك الحكم لله ورسوله واتقوا الله ، ثم تناسج السياق والتحمت الآي ، وقد تبين وجه اتصال الأنفال بالأعراف من وجوه ، والحمد لله - انتهى .



ولما أخبر تعالى بما هو الحق من أن إرادتهم بل ودادتهم إنما كانت منصبة إلى العير لا إلى  
النفير، تبين أنه لا صنع لهم فيما وقع إذ لو كان لكان على ما أرادوا، فلاحظ لهم في الغنيمة  
إلا ما يقسمه الله لهم لأن الحكم لمراده لا لمراد غيره، فقال تعالى عاطفاً على ﴿وتودون﴾  
: ﴿ويريد الله﴾ أي بما له من العز والعظمة والعلم ﴿أن يحق الحق﴾ أي ثبت في عالم  
الشهادة الثابت عنده في عالم الغيب، وهو هنا إصابة ذات الشوكة ﴿بكلماته﴾ أي التي  
أوحاها إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أنهم يهزمون ويقتلون ويؤسرون، وأن هذا مصرع  
فلان وهذا مصرع فلان، ليعلي دينه ويظهر أمره على كل أمر ﴿ويقطع دابر﴾ أي آخر  
﴿الكافرين﴾ أي كما يقطع أولهم، أي يستأصلهم بحيث لا يبقى منهم أحد يشاقق أهل  
حزبه فهو يدبر أمرهم على ما يريد، فلذلك اختار لكم ذات الجد والشوكة ليكون ما  
وعدكم به من إعلاء الدين وقمع المفسدين بقطع دابرهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر  
ح 3 ص 187. 190﴾

(70/306)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿ إِذْ ﴾ منصوب بإضمار اذكر أنها لكم بدل من إحدى الطائفتين .

قال الفراء والزجاج: ومثله قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ [

الزخرف: 66] ﴿ وَأَنْ ﴾ في موضع نصب كما نصب الساعة، وقوله أيضاً: ﴿ وَلَوْلَا

رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ ﴾ [الفتح: 25] ﴿ أَنْ ﴾ في موضع رفع بلولاً .

والطائفتان: العير والنفير: وغير ذات الشوكة .

العير .

لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً والشوكة كانت في النفير لعدددهم وعدتهم .

والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك، ويقال شوك القنا لسنانها، ومنه قولهم شاكبي

السلاح .

أي تمنون أن يكون لكم العير لأنها الطائفة التي لا حدة لها ولا شدة، ولا تريدون الطائفة

الأخرى ولكن الله أراد التوجه إلى الطائفة الأخرى ليحقق الحق بكلماته، وفيه سوالات:

السؤال الأول: أليس أن قوله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ ثم قوله بعد ذلك:

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ تكرير محض؟

والجواب: ليس ههنا تكرير لأن المراد بالأول سبب ما وعد به في هذه الواقعة من النصر

والظفر بالأعداء ، والمراد بالثاني تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة ، لأن الذي وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين كان سبباً لعزة الدين وقوته ، ولهذا السبب قرنه بقوله :  
﴿ وَيُطِلُّ الْبَاطِلَ ﴾ الذي هو الشرك ، ولك في مقابلة ﴿ الْحَقِّ ﴾ الذي هو الدين والإيمان .

السؤال الثاني : الحق حق لذاته ، والباطل باطل لذاته ، وما ثبت للشيء لذاته فإنه يتمتع بتحصيله بجعل جاعل وفعل فاعل فما المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل ؟

(71/306)

---

والجواب : المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل ، بإظهار كون ذلك الحق حقاً ، وإظهار كون ذلك الباطل باطلاً ، وذلك تارة يكون بإظهار الدلائل والبيئات ، وتارة بتقوية رؤساء الحق وقهر رؤساء الباطل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 103 .

﴿ 104

(72/306)

---

## فصل

قال الجصاص :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾  
في هذه القصة ضروبٌ من دلائل النبوة ، أحدها : إخباره إياهم بأن إحدى الطائفتين لهُم ،  
وهي عير قريش التي كانت فيها أموالهم وجيشهم الذين خرجوا لحمايتها ، فكان وعده  
على ما وعده وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ ﴾ يعني أن  
المؤمنين كانوا يودون الظفر لما فيها من الأموال وقلة المقاتلة وذلك لأنهم خرجوا مستخفين  
غير مستعدين للحرب ؛ لأنهم لم يظنوا أن قريشا تخرج لقتالهم وقوله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ  
أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ وهو إنجاز مواعده لهم في قطع دابر  
الكافرين وقتلهم . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص 3 ص ﴾

(73/306)

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ  
تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

فِيهَا خُمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : رَوَى ❁ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَبِي سُفْيَانَ أَنَّهُ مُقْبِلٌ مِنَ الشَّامِ نَذَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ : هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا الْأَمْوَالُ ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُنْفَلِكُمُوهَا فَاتَدَبَ النَّاسُ ، فَخَفَ بَعْضُهُمْ ، وَثَقَلَ بَعْضُهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَطْنُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَلْقَى حَرْبًا ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ دَنَا مِنَ الْحِجَازِ يَتَجَسَّسُ الْأَخْبَارَ ، وَيَسْأَلُ مَنْ لَقِيَ مِنَ الرُّكْبَانِ ؛ تَخَوُّفًا عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ حَتَّى أَصَابَ خَبْرًا مِنْ بَعْضِ الرُّكْبَانِ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ اسْتَنْفَرَكَ ، فَحَذَرَ عِنْدَ ذَلِكَ وَأَسْتَأْجَرَ ضَمُضَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ ، وَبَعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ قُرَيْشًا يَسْتَنْفِرُهُمْ إِلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ عَرَضَ لَهَا فِي أَصْحَابِهِ .

(74/306)

---

فَمَضَى ضَمُضٌ ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَصْحَابِهِ وَأَتَاهُ الْخَبْرُ عَنْ قُرَيْشٍ بِخُرُوجِهِمْ لِيَمْنَعُوا عَيْرَهُمْ ، فَاسْتَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ ، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ قُرَيْشٍ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ فَأَحْسَنَ ، وَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ فَأَحْسَنَ ، ثُمَّ قَامَ الْمُقَدَّادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ امْضُ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ ، وَاللَّهِ لَا نَقُولُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ :

أَذْهَبُ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ، وَلَكِنْ أَذْهَبُ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتُ إِلَى بَرْكِ الْعِمَادِ يَعْنِي مَدِينَةَ الْحَبَشَةِ لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ .

ثُمَّ قَالَ الْأَنْصَارُ بَعْدُ : أَنْ أَمْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أُمِرْتُ ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتُ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَا مَعَكَ .

فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى التَّقَى بِالْمُشْرِكِينَ بِيَدْرٍ ، فَمَنَعُوا الْمَاءَ ، وَالتَّقُوا ، وَنَصَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ وَأَصْحَابَهُ ، فَقَتَلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَبْعِينَ وَأَسْرَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ ، وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ مَا كَانَ مَعَهُمْ .

﴿ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ : رَوَى عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ فَرَّغَ مِنْ بَدْرٍ : عَلَيْكَ بِالْعَيْرِ لَيْسَ دُونَهَا شَيْءٌ . فَتَادَاهُ الْعَبَّاسُ وَهُوَ فِي الْأَسْرَى : لَا يَصْلُحُ هَذَا .

(75/306)

---

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَكَ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَقَدْ أَعْطَاكَ مَا وَعَدَكَ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقْتُ .

وَعَلِمَ ذَلِكَ الْعَبَّاسُ مِنْ تَحَدُّثِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ بَدْرٍ ،  
فَسَمِعَ ذَلِكَ فِي أَثْنَاءِ الْحَدِيثِ .



السُّأَلَةُ الثَّلَاثَةُ: خُرُوجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَتَلَقَى الْعِيرَ بِالْأَمْوَالِ دَلِيلَ عَلَى جَوَازِ  
النَّفْرِ لِلْغَنِيمَةِ؛ لِأَنَّهُ كَسَبُ حَلَالٍ ، وَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: ﴿ إِنَّمَنْ قَاتَلَ تَكُونُ كَلِمَةُ اللَّهِ  
هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُونَ مَنْ يُقَاتِلُ لِلْغَنِيمَةِ ﴾ يُرَادُ بِهِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ قَصْدَهُ وَحَدَّهُ ،  
لَيْسَ لِلدِّينِ فِيهِ حَظٌ .

السُّأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَأَبْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذِ يَعِدُكُمُ  
اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ ، فَقَالَ مَالِكٌ:  
﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَهْلِ قَلْبِ بَدْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: قَدْ وَجَدْنَا مَا  
وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّهُمْ أَمْوَاتٌ ،  
أَفَيَسْمَعُونَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُمْ لَيَسْمَعُونَ مَا أَقُولُ قَالَ قَتَادَةُ:  
أَحْيَاهُمْ اللَّهُ لَهُ ﴾ .

وهذه مسألةٌ بدِيعَةٌ بيَّناها في كتاب المُشكِّلين ، وَحَقَّقْنَا أَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ بِعَدَمٍ مَحْضٍ ، وَلَا فَنَاءَ صِرْفٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَبَدُّلُ حَالٍ ، وَاتِّقَالَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ ، وَالرُّوحُ إِنْ كَانَ جِسْمًا فَيَنْفَصِلُ بِذَاتِهِ عَنِ الْجَسَدِ ، وَإِنْ كَانَ عَرْضًا فَلَا بُدَّ مِنْ جُزْءٍ مِنَ الْجَسَدِ يَقُومُ بِهِ يُفَارِقُ الْجَسَدَ مَعَهُ ، وَلَعَلَّهُ عَجَبُ الذَّنْبِ الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ إِنَّ كُلَّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ ، مِنْهُ خُلِقَ ، وَفِيهِ يُرَكَّبُ ﴾ .

وَالرُّوحُ هِيَ السَّامِعَةُ الْوَاعِيَةُ الْعَالِمَةُ الْقَابِلَةُ ، إِلَّا أَنَّ الْبَارِيَّ لَا يَخْلُقُ الْإِدْرَاكَ إِلَّا كَمَا يَشَاءُ ، فَلَا يَخْلُقُ إِدْرَاكَ الْآخِرَةِ لِأَهْلِ الدُّنْيَا ، وَلَا يَخْلُقُ إِدْرَاكَ الدُّنْيَا لِأَهْلِ الْآخِرَةِ ، فَإِذَا أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَسْمَعَ أَهْلَ الْآخِرَةِ حَالَ أَهْلِ الدُّنْيَا .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ أَنْ الْمَيِّتَ إِذَا انْصَرَفَ عَنْهُ أَهْلُهُ ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نَعَالِهِمْ ، إِذَا أَتَاهُ مَلَكَانِ ﴾ الْحَدِيثِ .

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيلَ لَهُ فِي أَهْلِ بَدْرٍ : أَتَكَلَّمُ قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا ؟ فَقَالَ : مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعُ لَمَّا أَقُولُ مِنْهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ فِي الْجَوَابِ ﴾

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَالَ مَالِكٌ : بَلَّغْنِي ﴿ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَيْفَ أَهْلُ بَدْرٍ فِيكُمْ ؟ قَالَ : خِيَارُنَا .

فَقَالَ جِبْرِيلُ : إِنَّهُمْ كَذَلِكَ فِينَا ﴾ .



(77/306)

---

وَفِي هَذَا مِنْ الْفِقْهِ أَنَّ شَرَفَ الْمَخْلُوقَاتِ لَيْسَ بِالذَّوَاتِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِالْأَفْعَالِ ؛ وَلِلْمَلَائِكَةِ  
أَفْعَالُهَا الشَّرِيفَةُ مِنَ الْمَوَاطِبَةِ عَلَى التَّسْبِيحِ الدَّائِمِ ، وَلَنَا نَحْنُ أَفْعَالُنَا بِإِخْلَاصٍ فِي  
الطَّاعَةِ .

(78/306)

---

وَتَقَاضِلُ الطَّاعَاتُ بِتَفْضِيلِ الشَّرْعِ لَهَا ، وَأَفْضَلُهَا الْجِهَادُ ، وَأَفْضَلُهَا الْجِهَادُ يَوْمَ بَدْرٍ ؛  
فَأَنْجَزَ اللَّهُ لِرَسُولٍ وَعَدَّهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحَدَّهُ ، وَصَرَخَ صَنَادِيدُ الْمُشْرِكِينَ  
، وَاتَّقَمَ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَشَفَى صَدْرَ رَسُولِهِ وَصَدُّورَهُمْ مِنْ غَيْظِهِمْ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ  
حَسَّانُ : عَرَفْتُ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالْكَثِيبِ كَخَطِّ الْوَحْيِ فِي الْوَرَقِ الْقَشِيبِ تَدَاوَلَهَا الرِّيحُ وَكُلُّ  
جَوْنٍ مِنَ الْوَسْمِيِّ مِنْهُمْ سَكُوبٌ فَأَمْسَى رُبْعَهَا خَلْقًا وَأَمْسَتْ يَبَابًا بَعْدَ سَاكِنِهَا الْحَبِيبِ  
فَدَعَّ عَنْكَ التَّذْكَرُ كُلَّ يَوْمٍ وَرَوَّ حَرَارَةَ الصَّدْرِ الْكَيْبِ وَخَبَّرَ بِالَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ بِصِدْقٍ غَيْرِ  
أَخْبَارِ الْكُذُوبِ بِمَا صَنَعَ الْمَلِيكُ غَدَاةَ بَدْرٍ لَنَا فِي الْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ غَدَاةَ كَانَتْ

جَمَعَهُمْ حِرَاءٌ بَدَتْ أَرْكَانُهُ جُنْحَ الْغُرُوبِ فَلَا قَيْنَاهُمْ مِنَّا بِجَمْعِ كَأْسِدِ الْغَابِ مُرْدَانَ وَشَيْبِ  
 أَمَامَ مُحَمَّدٍ قَدْ وَازَرُوهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي لَفْحِ الْحُرُوبِ بِأَيْدِيهِمْ صَوَارِمُ مُرْهَفَاتٍ وَكُلُّ مُجْرَبٍ  
 خَاظِي الْكُعُوبِ بَنُو الْأَوْسِ الْغَطَارِفُ وَازَرْتَهَا بَنُو النَّجَّارِ فِي الدِّينِ الصَّلِيبِ فَعَاذَرْنَا أَبَا  
 جَهْلٍ صَرِيحًا وَعُتْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا بِالْجُبُوبِ وَشَيْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا فِي رِجَالِ ذَوِي حَسَبٍ إِذَا نُسِبُوا  
 حَسِيبٌ يُنَادِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا قَدْ فَتَاهُمْ كِبَاكِبَ فِي الْقَلِيبِ أَلَمْ تَجِدُوا كَلَامِي كَانَ حَقًّا  
 وَأَمْرُ اللَّهِ يَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ فَمَا نَطَقُوا ، وَلَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا صَدَقْتَ ، وَكُنْتُ ذَا رَأْيٍ مُصِيبٍ .  
 انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربي ح 2 ص ﴾

(79/306)

وقال السمرقندي :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ ،

يعني إما العير وإما العسكر .

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ ﴾ ، أي تمنون غير ذات السلاح .

وقال القتيبي : ومنه قيل : فلان شك السلاح ، ويقال : غير ذات الشوكة ، يعني شدة القتال .

﴿ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ الغنيمة ؛ ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ ، يعني أن يظهر الإسلام

بتحقيقه بما أنزل عليك من القرآن .

﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ ، يعني يهلك الشرك ويستأصله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر

العلوم ح 2 ص ﴿

(80/306)

وقال الثعلبي :

﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ الآية .

قال ابن عباس وابن الزبير وابن يسار والسدي : " أغار كرز بن جابر القرشي على سرح المدينة حتى بلغ الصفراء فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فركب في أثره فسبقه كرز فرجع النبي صلى الله عليه وسلم فأقام سنة وكان أبو سفيان أقبل من الشام في عير قريش فيها عمرو بن العاص وعمرو بن هشام ومخرمة بن نوفل الزهري في أربعين راكباً من كبار قريش وفيها تجارة عظيمة وهي اللطيمة حتى إذا كان قريباً من بدر بلغ النبي صلى الله عليه وسلم فندب أصحابه إليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة الجنود فقال : " هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله عز وجل ينفلكموها " فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب لا يرونها إلا غنيمة لهم وخف بعضهم وثقل بعض .

وذلك أنهم كانوا لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يُلقى حرباً فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي صلى الله عليه وسلم استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لغيرهم وأصحابه .

(81/306)

---

فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة وخرج الشيطان معه في صورة سراقه بن خعشم فأتى مكة فقال: إن محمداً وأصحابه قد عرضوا لغيركم فلا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فغضب أهل مكة وانتدبوا وتنادوا لا يتخلف عنا أحد إلا هدمنا داره واستبحناه ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له: وفران ، فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا غيرهم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كانوا بالروحاء أخذ عيناً للقوم فأخبره بهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً عيناً له من جهينة حليفاً للأنصار يدعى ابن الأريقط فأتاه بجبر القوم ، وسبقت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبرئيل فقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريش ، وكان العير أحب إليهم فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال: وأحسن وقام عمر وقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن

عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله ونحن معك والله ما نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة: 24] ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك العماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أشيروا علي أيها الناس " .

(82/306)

---

وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلى دارنا فأنت في ذمامنا فنمنعك مما نمنع عنه أبناءنا ونساءنا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف أن تكون الأنصار لا ترى عليها نصرته إلا على من داهمه بالمدينة من عدوه فإن ليس عليهم أن يسيرهم إلى عدوهم من بلادهم ، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له سعد بن معاذ : والله كأنك تريدنا يا رسول الله ؟  
قال صلى الله عليه وسلم " أجل " .

قال : فقد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله ما أردت فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضت لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقانا بنا عدونا غداً إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء لعل الله عز وجل يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ، وفرح بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ونشطه قول سعد ثم قال : سيروا على بركة الله وابشروا فإن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين . والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم "

وذلك قوله ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ أي الفريقين أحدهما أبو سفيان مع العير والأخرى أبو جهل مع النفير ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ تريدون ﴿ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ يعني العير التي ليس فيها قتال والشوكة الشدة والقوة وأصلها من الشوك ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أي يحققه ويعلنه ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ بأمره إياكم بقتال الكفار ﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ فيستأصلهم . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ الكشف والبيان - 4 ص ﴾

(83/306)

---

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ الآية .

وسبب ذلك أن عير قريش لما أقبلت من الشام مع أبي سفيان هم رسول الله صلى الله عليه

وسلم بالخروج لأخذها ، وسار فبلغ ذلك قريشاً فخرجت للمنع عنها ، فلما علم النبي

صلى الله عليه وسلم بخروجها شاور أصحابه ، فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله قد

آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا

على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك إن استعرضت بنا هذا

البحر فخضته لنخوضه معك ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد وقال : "

سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ وَاللَّهُ لَكَانِي أَنْظُرُ

الآن إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ " فذلك معنى قوله ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ يعني العير

التي مع أبي سفيان أو الظفر بقريش الخارجين للمنع منها .

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ ﴾ أي غير ذات الحرب وهي العير لأن نفوسهم

في لقاءها أسكن ، وهم إلى ما فيها من الأموال أحوج .

وفي الشوكة التي كني بها عن الحرب وجهان :

أحدهما : أنها الشدة فكني بها عن الحرب لما فيها من الشدة ، وهذا قول قطرب .

والثاني : أنها السلاح ، وكني بها عن الحرب لما فيها من السلاح ، من قولهم رجل شاك في

السلاح، قاله ابن قتيبة .

﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : إظهار الحق بإعزاز الدين في وقته على ما تقدم من وعده .

والثاني : أن الحق في أمره لكم أن تجاهدوا عدوكم .

وفي صفة ذلك وجهان لأصحاب الخواطر .

أحدهما : يحق الحق بالإقبال عليه ويبطل الباطل بالإعراض عنه .

الثاني : يحق الحق بالقبول ويبطل الباطل بالرد .

(84/306)

---

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ معناه ليظهر الحق يعني الإسلام .

﴿ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ ﴾ أي يذهب بالباطل يعني الشرك .

قال الحسن . هذه الآية نزلت قبل قوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ وهي

في القراءة بعدها .

روى سماك عن عكرمة قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر عليك بالغير

ليس دونها شيء فقال له العباس وهو أسير في أيديهم : ليس لك ذلك ، فقال : " لم ؟ " فقال



:لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(85/306)

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ الآية ،

(86/306)

---

في هذه الآية قصص حسن أنا اختصره إذ هو مستوعب في كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن هشام ، واختصاره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه وقيل أوحى إليه أن أبا سفيان بن حرب قد أقبل من الشام بالعين التي فيها تجارة قريش وأموالها ، قال لأصحابه إن غير قريش قد عنت لكم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها ، قال فانبعث من معه من خف ، وثقل قوم وكرهوا الخروج وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلوي على من تعذرو ولا ينتظر من غاب ظهره ، فسار في ثلاثمائة وثلاثة عشر من

أصحابه بين مهاجري وأنصاري ، وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلتقى حرباً فلم يكثر استعدادهم ، وكان أبو سفيان في خلال ذلك يستقضي ويحذر ، فلما بلغه خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستفز أهلها ، ففعل ضمضم ، فخرج أهل مكة في ألف رجل أو نحو ذلك ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خروجهم ، أوحى الله إليه وحياً غير متلو يعده إحدى الطائفتين ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك ، فسروا وودوا أن تكون لهم العير التي لا قتال معها ، فلما علم أبو سفيان بقرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ طريق الساحل وأبعد وفات ولم يبق إلا لقاء أهل مكة ، وأشار بعض الكفار على بعض بالانصراف وقالوا غيرنا قد نجب فلننصرف ، فحرش أبو جهل ولج حتى كان أمر الوقعة ، وقال بعض المؤمنين : نحن لم نخرج لقتال ولم نستعد له ، فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وهو بواد يسمى ذفران ، وقال أشيروا علي أيها الناس ، فقام أبو بكر فتكلم فأحسن وحرص على لقاء العدو ، فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستشارة فقام عمر بمثل ذلك ، فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستشارة فتكلم المقداد الكندي فقال : لا تقول لك يا رسول الله اذهب أنت وربك فقاتل إنا ها هنا قاعدون ، ولكن تقول إنا معكما

مقاتلون .

والله لو أردت بنا برك الغماد .

قال القاضي أبو محمد : وهي مدينة الحبشة لقاتلنا معك من دونها ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلامه ودعاه له بخير ، ثم قال أشيروا علي أيها الناس فكلمه سعد بن معاذ وقيل سعد بن عبادة .

قال القاضي أبو محمد : ويمكن أنهما جميعاً تكلمنا في ذلك اليوم ، فقال يا رسول الله كأنك تريدنا معشر الأنصار ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أجل ، فقال إنا آمننا بك واتبعناك فامض لأمر الله ، فوالله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : امضوا على بركة الله فكانني أنظر إلى مصارع القوم ، فالتقوا وكانت وقعة بدر ، وقرأ مسلمة بن محارب " وإذ يعدكم " بجزم الدال ، قال أبو الفتح ذلك لتوالي الحركات ، وقرأ ابن محيصة " وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين " بوصل الألف من ﴿ إحدى ﴾ وصلة الهاء بالحاء ، و﴿ الشوكة ﴾ عبارة عن السلاح والحدة ، ومنه قول الأعور : [الرجز] إن العرفج قد أدبى . . . وقرأ أبو عمرو وفيما حكى أبو حاتم ﴿ الشوكة تكون ﴾ بإدغام التاء في التاء ، ومعنى الآية وتودون العير وتأبون قتال الكفار ، وقوله ﴿ ويريد الله ﴾ الآية ، المعنى ويريد الله أن يظهر الإسلام ويعلي دعوة الشرع ، وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع

بمخلاف عنهم " بكلمته " على الأفراد الذي يراد به الجمع ، والمعنى في قوله ﴿ بكلماته ﴾  
إما أن يريد بأوامره وأمره للملائكة والنصر لجميع ما يظهر الإسلام أن يكون ، وإما أن يريد  
بكلماته التي سبقت في الأزل والمعنى قريب ، و" الدابر " الذي يدبر القوم أي يأتي في آخرهم  
، فإذا قطع فقد أتى على آخرهم بشرط أن يبدأ الإهلاك من أولهم ، وهي عبارة في كل من  
أتى الهلاك عليه . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(88/306)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾

قال أهل التفسير : أقبل أبو سفيان من الشام في غير قريش ، حتى إذا دنا من بدر ، نزل  
جبريل فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فخرج في جماعة من أصحابه يريدهم ،  
فبلغهم ذلك فبعثوا عمرو ابن ضمضم الغفاري إلى مكة مستغيثاً ، فخرجت قريش لمنع  
عنها ، ولحق أبو سفيان بساحل البحر ، ففات رسول الله ، ونزل جبريل بهذه الآية : ﴿ وَإِذْ  
يَعِدُّكُمْ اللَّهُ ﴾ والمعنى : اذكروا إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين .

والطائفتان : أبو سفيان وما معه من المال ، وأبو جهل ومن معه من قريش ؛ فلما سبق أبو

سفيان بما معه ، كتب إلى قريش : إن كنتم خرجتم لتحرزوا ركايبكم ، فقد أحرزتها لكم .  
فقال أبو جهل : والله لا نرجع .

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد القوم ، فكره أصحابه ذلك وودوا أن لو نالوا  
الطائفة التي فيها الغنيمة دون القتال ؛ فذلك قوله ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ ﴾ أي :  
ذاتِ السلاح .

يقال : فلان شاكى السلاح ؛ بالتخفيف ، وشاك في السلاح ؛ بالتشديد ، وشائك .  
قال أبو عبيدة : ومجاز الشوكة : الحد ؛ يقال : ما أشد شوكة بني فلان ، أي : حدّهم .

وقال الأخفش : إنما أنت ﴿ ذات الشوكة ﴾ لأنه يعني الطائفة .

قوله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ في المراد بالحق قولان .

أحدهما : أنه الإسلام ، قاله ابن عباس في آخرين .

والثاني : أنه القرآن ، والمعنى : يُحِقُّ ما أنزل إليك من القرآن .

قوله تعالى : ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي : بعداته التي سبقت من إعزاز الدين ، كقوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ

على الدين كله ﴾ [ التوبة : 33 ] .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : يجتث أصلهم ؛ وقد بيّنّا ذلك في [ الأنعام :

45 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾

"إحدى" في موضع نصب مفعول ثان .

"أَنَّهَا لَكُمْ" في موضع نصب أيضاً بدلاً من "إحدى" .

﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ أي تحبون .

﴿ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ قال أبو عبيدة : أي غير ذات الحدّ .

والشوكة : السلاح .

والشوك : النبت الذي له حدٌّ .

ومنه رجل شائك السلاح ، أي حديد السلاح .

ثم يقلب فيقال : شاكبي السلاح .

أي تودون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح ولا فيها حرب ؛ عن الزجاج .

﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي أن يظهر الإسلام .

والحقُّ حقٌّ أبداً ، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل .

"بِكَلِمَاتِهِ" أي بوعده ؛ فإنه وعد نبيّه ذلك في سورة "الدخان" فقال : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ

البطشة الكبرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ [ الدخان : 16 ] أي من أبي جهل وأصحابه .

وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: 33 والفتح: 28].

وقيل: "بِكَلِمَاتِهِ" أي بأمره؛ إياكم أن تجاهدوهم.

﴿وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي يستأصلهم بالهلاك. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبي

ح 7 ص ﴿

(90/306)

وقال الخازن:

قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾

يعني الفرقتين فرقة أبي سفيان مع العير وفرقة أبي جهل مع النفير ﴿أنها لكم﴾ يعني

إحدى الفرقتين لكم.

قال ابن عباس وعروة بن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدي: أقبل أبو سفيان بن حرب من

الشام في عير قريش في أربعين راكباً من كفار قريش منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل

الزهري ومعهم تجارة كبيرة وهي اللطيمة.

يريد باللطيمة.

الجمال التي تحمل العطر والبنز غير الميرة، حتى إذا كانوا قريباً من بدر، بلغ النبي (صلى الله

عليه وسلم) خبرهم فندب أصحابه إليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو وقال: هذه هي غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يلقي حرباً فلما سمع أبو سفيان بمسير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يتي قريشاً يستنفرهم ويخبرهم أن محمداً في أصحابه قد عرض لعيرهم فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعته فبعثت إليها أخيها العباس بن عبد المطلب.

(91/306)

---

فقلت: يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعته وخشيت أن يدخل علي قومك منها شر ومصيبة فقال لها وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبل علي بعيره حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره علي ظهر الكعبة فصرخ مثلها بأعلى صوته ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث ثم مثل به



بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا ودخلها منها فلقة فقال العباس : والله إن هذه الرؤيا فظيعة فاكتموها ولا تذكرها لأحد .  
ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة ، وكان صديقاً للعباس ، فذكر رؤيا عاتكة له واستكتمه إياها فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش بمكة .  
قال العباس : فعمدت أطوف بالبيت وأبوجهل بن هشام في نفر من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة فغدوت أطوف فلما رأني أبوجهل قال : يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا .

(92/306)

---

قال العباس : فلما رغت من طوافي أقبلت إليهم حتى جلست معهم فقال لي أبوجهل : يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبوة فيكم قلت : وما ذلك ؟ قال : الرؤيا التي رأت عاتكة قلت وما رأت قال يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال انفروا في ثلاث فسنتريص بكم هذه الثلاث فإن يك ما قالت حقاً فسيكون وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً

بأنكم أكذب أهل بيت في العرب قال العباس فوالله ما كان مني إليه من كبير شيء إلا أنني  
جحدت ذلك وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من  
بني عبد المطلب إلا أتني فقلن أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم حتى تناول  
النساء وأنت تسمع ولم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت .

(93/306)

---

قال : قلت قد والله فعلت ما كان مني إليه من شيء وإيم الله لا تعرضن له فإن عاد لأكفيكنه  
، قال : فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أنني قد فاتني شيء  
أحب أن أدركه منه قال فدخلت المسجد فرأيت فوالله إني لأمر نحوه أتعرضه ليعود لبعض  
ما قال فأقع به وكان أبو جهل رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر إذ  
خرج نحو بابا المسجد يشتد قال العباس : فقلت في نفسي ماله لعنه الله أكل هذا فرقاً مني  
أن أشاتمته قال فإذا هو قد سمع ما لم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن  
الوادي واقفاً على بعيره وقد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول : يا معشر  
قريش اللطيمة اللطيمة هذه أموالكم مع أبي سفيان وقد عرض لها محمد في أصحابه ولا  
أرى أن تدركوها الغوث الغوث قال فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر قال : فتجهز

الناس سراعاً ولم يتخلف من أشرف قريش أحد إلا أن أبا لهب قد تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناة ابن كنانة من الحرب فقالوا نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم وكان من أشرف بني بكر فقال أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه فخرجت قريش سراعاً وخرج رسول الله في أصحابه ليلال مضت من شهر رمضان حتى بلغ وادياً يقال له ذا قرد فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن غيرهم فسار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى إذا كان بالروحاء أخذ عيناً للقوم فأخبره بخبرهم وبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عيناً له من جهينة حليفاً للأنصار يدعى أريقط فأتاه بجبر القوم وسبقت العير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنزل جبريل عليه السلام وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إنها لكم إما العير، وإما قريش، وكانت العير أحب إليهم فاستشار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإما العير، وإما قريش، وكانت العير أحب إليهم فاستشار رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

(94/306)

---

( أصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال وأحسن وقام عمر فقال وأحسن  
ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معكم والله ما نقول كما  
قلت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن نقول اذهب  
أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - يعني  
مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى نبغضه فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم )  
له خيراً ودعاه له بخير ثم قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم )

" أشيروا علي أيها الناس " وإنما يريد الأنصار وذلك لأنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه  
بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت  
في زمامنا فنمنعك مما منع منه أبناءنا ونساءنا .

فكان رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا  
من دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسيروا معه إلى عدو من بلادهم فلما قال  
ذلك رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال له سعد بن معاذ : والله لكانك تريدنا يا  
رسول الله .

قال : أجل .

قال : آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا  
ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو

استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا أحد وما نكره أن تلقى بنا  
عدونا وعدوك إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله أن يريك منا ما تقر به  
عينك فسر بنا على بركة الله تعالى ، فسر رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بقول سعد  
ونشطه ذلك فقال : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين  
والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ( م ) .

(95/306)

---

عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب حدثه عن أهل بدر قال : " إن رسول الله ( صلى الله  
عليه وسلم ) كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله  
تعالى وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى  
قال عمر فولذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدها رسول الله ( صلى الله عليه  
وسلم ) قال فجعلوا في بر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله ( صلى الله عليه وسلم )  
حتى انتهى إليهم فقال يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان هل وجدت ما وعدكم الله ورسوله  
حقاً فإني قد وجدت ما وعدني الله حقاً فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا  
أرواح فيها فقال " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليه شيئاً "

فذلك قوله سبحانه وتعالى وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم يعني طائفة أبي سفيان مع العير وطائفة أبي جهل مع النفير ﴿ وتودون ﴾ أي وتريدون وتتمنون ﴿ أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ والمعنى : وتتمنون أن العير التي ليس فيها قتال ولا شوكة تكون لكم والشوكة الشدة والقوة ويقال السلاح ﴿ ويريد الله أن يحق الحق ﴾ أي يظهر الحق ويعليه ﴿ بكلماته ﴾ يعني بأمره إياكم بالقتال وقيل بعداته التي سبقت لكم من إظهار الدين وإعزازه ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ أي ويستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ج 3 ص ﴾

(96/306)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾  
﴿ إحدى الطائفتين ﴾ غير معينة والطائفتان هما كطائفة غير قريش وكانت فيهما تجارة عظيمة لهم ومعها أربعون راكباً فيها أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام وطائفة الذين استنفرهم أبو جهل وكانوا في العدد الذي ذكرناه و ﴿ غير ذات الشوكة ﴾ هي العير لأنها ليست ذات قتال وإنما هي غنيمة باردة ومعنى إثبات الحق تشبيته وإعلاؤه و ﴿

بكلماته ﴿ بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة وبما  
قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قلب بدر وبما ظهر ما أخبر به (صلى الله عليه  
وسلم) وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال والمعنى أنكم ترغبون في إبقاء العاجلة وسلامة  
الأحوال وسفساف الأمور وإعلاء الحق والفوز في الدارين ، وشتان ما بين المرادين ، ولذلك  
اختار لكم ذات الشوكة وأراكم عياناً خذلهم ونصركم وأذلهم وأعزكم وحصل لكم ما  
أرى على دائرة العير وما أدناه خير منهما ، وقرأ مسلمة بن محارب ﴿ يعدكم ﴾ بسكون  
الذال لتوالي الحركات وابن محيصة ﴿ الله إحدى ﴾ بإسقاط همزة ﴿ إحدى ﴾ على  
غير قياس ، وعنه أيضاً أحد على التذكير إذ تأنيث الطائفة مجاز ، وأدغم أبو عمرو ﴿  
الشوكة تكون ﴾ ، وقرأ مسلم بن محارب بكلمته على التوحيد وحكاها ابن عطية عن  
شيبه وأبي جعفر ونافع بخلاف عنهم وأطلق المفرداً به الجمع للعلم به أو أريد به كلمة  
تكوين الأشياء وهو كقيل وكلماته هي ما وعد نبيه في سورة الدخان فقال :  
﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ أي من أبي جهل وأصحابه ، وقيل أوامره  
ونواهيه ، وقيل مواعيده النصر والظفر والاستيلاء على إحدى الطائفتين ، وقيل كلماته  
التي سبقت في الأزل . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾

كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان جميلٍ صنع الله عز وجل بالمؤمنين مع ما بهم من قلة الحزم ودناءة

الهمة وقصور الرأي والخوف والجزع ، وإذ منصوبٌ على المفعولية بمضمرٍ خوطب به

المؤمنون بطريق التلويح والالتفات ، وإحدى الطائفتين مفعول ثانٍ ليعدكم أي اذكروا وقت

وعد الله إياكم إحدى الطائفتين ، وتذكير الوقت مع أن المقصود تذكير ما فيه من الحوادث

لما مراراً من المبالغة في إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجابٌ لذكر ما وقع فيه

بالطريق البرهاني ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها ، فإذا

استحضر كان ما وقع فيه حاضراً مفصلاً كأنه مشاهدٌ عياناً ، وقرىء يعدكم بسكون

المدال تخفيفاً ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها وقوله تعالى :

﴿ أَنَّا لَكُمْ ﴾ بدل اشتمالٍ من إحدى الطائفتين مبینٌ لكيفية الوعد أي يعدكم أن إحدى

الطائفتين كائنة لكم محتصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليها تسلط الملائك وتتصرفون فيهم

كيف شئتم ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ عطفٌ على يعدكم داخلٌ تحت الأمر بالذکر أي تحبون ﴿ أَنَّ

غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ من الطائفتين لا ذات الشوكة وهي النفيور ورئسهم أبو جهل

وهم ألف مقاتل ، وغير ذات الشوكة هي العير إذ يكن فيها إلا أربعون فارساً ورأسهم أبو



سفيان . والتعبيرُ عنهم بهذا العنوانِ للتنبية على سبب وداوتهم لملاقاتهم وموجبِ  
كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفيرِ ، والشوكةُ : العدةُ ، مستعارةٌ من واحدة الشوكِ وشوكِ  
القناسباها ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ ﴾ عطفٌ على تودون منتظمٌ معه في سلكِ التذكيرِ ليظهرَ لهم  
عظيمَ لطفِ الله بهم مع دناءة هممهم وقصور آرائهم ، أي اذكروا وقت وعده تعالى إياكم  
إحدى الطائفتين وودادِكم لأدناهما وإرادته تعالى لأعلاهما وذلك قوله تعالى : ﴿ أَنْ  
يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أي يُثَبِّتَهُ وَيُعْلِيَهُ ﴿

(98/306)

---

بكلماته ﴿ أَي بآياته المنزلة في هذا الشأن أو بأوامره للملائكة بالإمداد وبما قضى من  
أسرهم وقتلهم وطرحهم في قلب بدر ، وقرىء بكلمته ﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي  
آخرهم ويستأصلهم بالمرّة ، المعنى أنتم تريدون سفاسف الأمور والله عز وعل لا يريد معاليها  
وما يرجع إلى علو كلمة الحقِّ وسمو رتبة الدين ، وشتان بين المرادين . انتهى انتهى . ١٠ هـ  
﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(99/306)

وقال الأوسى :

﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾

كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله تعالى بالمؤمنين مع ما بهم من الجزع وقلة الحزم ،  
فإذ نصب على المفعولية بمضمر إن كانت متصرفة أو ظرف لمفعول ذلك الفعل ، وهو  
خطاب للمؤمنين بطريق التلويح والالتفات و ﴿ إِحْدَى ﴾ مفعول ثاني ليعد وهو يتعدى إلى  
المفعول الثاني بنفسه وبالباء ، أي اذكروا وقت أو الحادث وقت وعد الله تعالى إياكم  
إحدى الطائفتين .

وقرىء ﴿ يَعِدُّكُمْ ﴾ بسكون الدال تخفيفاً ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية  
لاستحضار صورتها ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ بدل اشتمال من إحدى  
مبين لكيفية الوعد ، أي يعدكم أن إحدى الطائفتين كائنة لكم محتصة بكم تسلطون عليها  
تسلط الملاك وتتصرفون فيها كيفما شئتم ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ عطف على يعدكم داخل معه  
حيث دخل أي تحبون ﴿ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ من الطائفتين ، وذات الشوكة  
هي النفير ورئيسهم أبو جهل ، وغيرها العير ورئيسهم أبو سفيان ، والتعبير عنهم بهذا  
العنوان للتنبية على سبب ودادتهم لملاقاتهم وموجب كراحتهم ونفرتهم عن موافاة النفير ،  
والشوكة في الأصل واحدة الشوك المعروف ثم استعيرت للشدة والحدة وتطلق على

السلاح أيضاً؛ وفسرها بعضهم به هنا ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أي يظهر كونه حقاً  
﴿ بكلماته ﴾ الموحى بها في هذه القصة أو وأمره للملائكة بالإمداد أو بما قضى من أسر  
الكفار وقتلهم وطرحهم في قليب بدر، وقرىء ﴿ بكلماته ﴾ بالإفراد لجعل المتعدد  
كالشيء الواحد أو على أن المراد بها كلمة كن التي هي عند الكثير عبارة عن القضاء  
والتكوين ﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي آخرهم والمراد يهلكهم جملة من أصلهم لأنه لا  
يفني الآخر إلا بعد فناء الأول، ومنه سمي الهلاك دباراً.

(100/306)

---

والمعنى أتم تردون سفساف الأمور والله عز وجل يريد معاليها وما رجع إلى علو كلمة الحق  
وسمورتبة الدن وشتان بين المرادين، وكأنه للإشارة إلى ذلك عبر أولاً بالودادة وثانياً  
بالإرادة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(101/306)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾

الأحسن أن تكون ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ ﴾ معطوفاً على ﴿ كما أخرجك ﴾ [الأنفال: 5

[عطف المفرد على المفرد فيكون المعطوف مشبهاً به التشبيه المفاد بالكاف والمعنى :

كاخراجك الله من بيتك وكوقت يعدكم الله إحدى الطائفتين الآية واسم الزمان إذا

أضيف إلى الجملة كانت الجملة في تأويل المفرد فتؤول بمصدر ، والتقدير : وكوقت وعد الله

إحدى الطائفتين ، ف ﴿ إذ ﴾ اسم زمان متصرف مجرور بالعطف على مجرور كاف

التشبيه ، وجعل صاحب "الكشاف" ﴿ إذ ﴾ مفعولاً لفعل (اذكر) محذوف شأن ﴿

إذ ﴾ الواقعة في مفتاح القصص ، فيكون عطف جملة الأمر المقدر على جملة ﴿ قل

الأنفال لله ﴾ [الأنفال: 1] والمناسبة هي أن كلا القولين فيه توقيفهم على خطأ رأيهم وأن

ما كرهوه هو الخير لهم .

و"الطائفة" الجماعة من الناس ، وتقدم عند قوله ﴿ فلتقم طائفة منهم معك ﴾ في سورة [

النساء : 102] .

(وجملة : ﴿ أنها لكم ﴾ في تأويل مصدر ، هو بدل اشتمال من إحدى الطائفتين ، أي :

يعدكم مصير إحدى الطائفتين لكم ، أي كونها معطاة لكم ، وهو إعطاء النصر والغلبة

عليها بين قتل وأسر وغنيمة .

واللام للملك وهو هنا ملك عُرْفِي ، كما يقولون كان يومُ كذا لبني فلان على بني فلان ، فيعرف أنه كان لهم فيه غلبة حرب وهي بالقتل والأسر والغنيمة .

﴿ وتودون ﴾ إما عطف على ﴿ يعدكم ﴾ أي إذ يقع الوعد من الله والود منكم ، وإما في موضع الحال والواو والحال ، أي يعدكم الله إحدى الطائفتين في حال ودكم لقاء الطائفة غير ذات الشوكة وهذا الود هو محل التشبيه الذي أفاده عطف ﴿ وإذ يعدكم ﴾ ، مجرور الكاف في قوله : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ [ الأنفال : 5 ] فهو مما شبه به حال سُؤالهم عن الأنفال سؤالاً مشوباً بكراهية صرف الأنفال عن السائلين عنها الرائمين أخذها .

(102/306)

---

و"الود" المحبة و ﴿ ذات الشوكة ﴾ صاحبة الشوكة ووقع ﴿ ذات ﴾ صفة لمقدر تقديره الطائفة غير ذات الشوكة ، أي الطائفة التي لا تستطيع القتال .

﴿ الشوكة ﴾ أصلها الواحدة من الشوك وهو ما يخرج في بعض النبات من أعواد دقيقة تكون محددة الأطراف كالإبر ، فإذا نزع جلد الإنسان أدّمته أو آلمته ، وإذا علقت بثوب أمسكته ، وذلك مثل ما في ورق العرفج ، ويقال هذه شجرة شائكة ، ومن الكناية عن

ظهور الشر قولهم: "إن العوسج قد أورك"، وشوكة العقرب البضعة التي في ذنبها تلسع بها.

وشاع استعارة الشوكة للباس، يقال: فلان ذو شوكة، أي ذو بأس يتقى كما يستعار القرن للباس في قولهم: أبدى قرنه، والناب أيضاً في قولهم: كثر عن نابه، وذلك من تشبيه المعقول بالمحسوس أي تودون الطائفة التي لا يخشى بأسها تكون لكم أي ملككم فتأخذونهم.

وقد أشارت الآية إلى ما في قصة بدر حين أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بانصراف عير قريش نحو الساحل وبمجيء نفيهم إلى بدر، وأخبرهم أن الله وعدهم إحدى الطائفتين، أي إما العير وإما النفير وعداً معلقاً على اختيارهم إحداهما، ثم استشارهم في الأمر أي يختارون اللحاق بالعير أم يقصدون نفير قريش، فقال الناس: إنما خرجنا لأجل العير، وراموا اللحاق بالعير واعتذروا بضعف استعدادهم وأنهم يخرجوا لمقاتلة جيش، وكانت العير لا تشتمل إلا على أربعين رجلاً وكان النفير فيما قيل يشتمل على ألف رجل مسلح، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ أي تودون غنيمة بدون حرب، فلما لم يطمعوا بلقاء الجيش وراموا لقاء العير كانوا يودون أن تحصل لهم غنيمة العير ولعل الاستشارة كانت صورية، أمر الله بها نبيه لتثبيت المسلمين لئلا تنهن قوتهم النفسية إن أعلموا بأنهم سيلقون ذات الشوكة.

وقوله: ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ عطف على جملة ﴿ وتودون ﴾ على احتمالي أن أوها للعطف أو للحال، والمقصود من الإخبار بهذه الجمل الثلاث إظهار أن ما يودونه ليس فيه كمال مصلحتهم، وأن الله اختار لهم ما فيه كمال مصلحتهم، وإن كان يشق عليهم ويرهبهم فإنهم لم يطلعوا على الأصلح بهم. فهذا تल्पف من الله بهم.

والمراد من الإرادة هنا إرادة خاصة وهي المشيئة والتعلق التجيزي للإرادة التي هي صفة الذات.

فهذا كقوله: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة: 185] أي يسر بكم.

ومعنى ﴿ يحق الحق ﴾: يثبت ما يسمى الحق وهو ضد الباطل يقال: حق الشيء، إذا ثبت قال تعالى: ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ﴾ [الزمر: 19]. والمراد بالحق.

هنا: دين الحق وهو الإسلام، وقد أطلق عليه اسم الحق في مواضع كثيرة من القرآن كقوله:

﴿ حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ [الزخرف: 29] الآية .

وإحقاقه باستيصال معانديه ، فأنتم تريدون نفعاً قليلاً عاجلاً ، وأراد الله نفعاً عظيماً في

العاجل والآجل .

والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

(104/306)

وقال ابن عاشور :

وفي قوله : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ جناس الاشتقاق .

وفيه دلالة على أن أصل مادة الحق هو فعل حق .

وأن أصل مادة الباطل هي فعل بطل .

ونظيره قول النبي صلى الله عليه وسلم للذين قالوا في التشهد السلام على الله فقال لهم النبي

صلى الله عليه وسلم أن الله هو السلام .

وكلمات الله ما يدل على مراده وعلى كلامه النفسي ، حقيقته من أقوال لفظية يخلفها خلقاً

غير متعارف ليفهمها أحد البشر ويبلغها عن الله ، مثل القرآن ، أو مجازاً من أدلة غير لفظية

، مثل ما يخاطب به الملائكة المحكي في قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فُزع عن قلوبهم قالوا ماذا



قال ربكم قالوا الحق وهو العليّ الكبير ﴿ [ سبأ : 23 ] وفسره قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قال للذي قال : الحق وهو العلي الكبير "

والجمع المعرف بالإضافة يفيد العموم ، فقوله : ﴿ بكلماته ﴾ يعم أنواع الكلام الذي يوحى به الله الدال على إرادته تثبيت الحق .

مثل آيات القرآن المنزلة في قتال الكفار وما أمر به الملائكة من نصرتهم المسلمين يوم بدر .  
والباء في ﴿ بكلماته ﴾ للسببية ، وذكر هذا القيد للتنويه بإحقاق هذا الحق وبيان أنه مما أراد الله ويسره وبينه للناس من الأمر ، ليقوم كل فريق من المأمورين بما هو حظه من بعض تلك الأوامر ، وللتنبية على أن ذلك واقع لا محالة لأن كلمات الله لا تتخلف كما قال تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلو كلام الله قل لن تتبعوننا كذلكم قال الله من قبل ﴾ [ الفتح : 15 ] ، ولمدح هذا الإحقاق بأنه حصل بسبب كلمات الله .

وقطع دابر الشيء إزالة الشيء كله إزالة تأتي على آخر فرد منه يكون في مؤخرته من ورائه وتقدم في قوله ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ في سورة [ الأنعام : 45 ] .

(105/306)

---

والمعنى : أردتم الغنيمة وأراد الله إظهار أمركم وخضذ شوكة عدوكم وإن كان ذلك  
يحرّمكم الغنى العارض فإن أمنكم واطمئنن بالكم خير لكم وأتم تحسبون أن لا  
تستطيعوا هزيمة عدوكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحريير والتنوير ح 9 ص ﴾

(106/306)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾

والوعد من الله عز وجل يجب أن يستقبل من الموعود بأنه حق ؛ لأن الذي يقدر في وعد  
الناس للناس أن الإنسان له أغيار ، فقد تعد إنساناً بشيء ، وقد حاولت أن تفي بما  
وعدت ولكنك لم تستطع الوفاء بالوعد . أو كانت لك قوة واتهمت . أو قد يتغير رأيك .  
إذن فالوعد من المساوي من الخلق غير مضمون ، لكن الوعد من القادر القوي ، الذي لا  
تقف عراقيل أمام إنفاذ ما يريد ، هو وعد حق ويجب أن يتلقوا هذا الوعد على أنه حق .  
﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ .  
أي إن كنتم تميلون وتحبون أن تكون لكم الطائفة غير ذات الشوكة التي تحرس العير -

والشوكة هي شيء محدد من طرف تحديدًا ينفذ بسهولة من غيره ، وأنت تجد الشوكة  
مدببة رفيعة من الطرف ثم يزداد عرضها من أسفلها ليتناسب الغلط مع القاعدة لتنفذ  
باتساع . وذات الشوكة أي الفئة القوية التي تنفذ إلى الغرض المراد ، ولا يتأبى عليها غرض ،  
ولذلك يقال " شاكي السلاح " . فإن كنتم تمنون وتريدون عدم ملاقاته جيش الكفار في  
معركة فالمولى عز وجل يقول لكم ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ  
﴾ .

أي أن الله تعالى يريد أن ينصر الإسلام بقوة ضئيلة ضعيفة بغير عتاد على جيش قوى  
فيعرفون أن ربنا مؤيدهم ، وبذلك يحق الحق بكلماته أي بوعدده . وهناك الكلمة من الله  
التي قال فيها : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي  
بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى ﴾ [الأعراف : 137] .  
هكذا كان وعد الله الذي تحقق . ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾  
والدابر والدبر هي الخلف ، ونقول : " قطعت دابره " أي لم أجعل له خلفاً . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(107/306)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله "وإذ يعدكم"

"إذ" منصوب بفعل مقدر، أي: اذكر إذ، والجمهور على رفع الدال؛ لأنه مضارع مرفوع.

وقرأ مسلمة بن محارب: بسكونها على التخفيف لتوالي الحركات.

وقرأ ابن محيصن "يعدكم الله أحدي" يوصل همزة أحدي تخفيفاً على غير قياس، وهي

نظير قراءة من قرأ: ﴿إِنهَا لِأَحْدَى﴾ [المدثر: 35] بإسقاط الهمزة أجرى همزة القطع

مجرى همزة الوصل، وقرأ أيضاً أحد بالتذكير؛ لأن الطائفة مؤنث مجازي.

و"أنها لكم" منصوب المحل على البدل من إحدى أي: يعدكم أن إحدى الطائفتين كائنة

لكم، أي: تتسلطون عليها تسلط الملاك، فهي بدل اشتمال وتودون تريدون: ﴿وتودون

أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ يعني: العير التي ليس فيها قتال والشوكة: السلاح

كسنان الرمح، والنصل والسيف، وأصلها من التبت الحديد الطرف، ك: "شوك

السعدان"، يقال منه: رجل شائك، فالهمزة من "واو"، ك: قائم، ويجوز قلبه بتأخير

عينه بعد لامه، فيقال: شاك، فيصير ك: غاز، ووزنه حينئذ فال.

قال زهير: [الطويل]

2672 - لدى أسدٍ شاكٍي السلاحِ مُقذِّفٍ . . .

لَهُ لَبْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تَقْلَمِ

وَيُوصَفُ السِّلَاحُ: بِالشَّاكِي، كَمَا يُوصَفُ بِهِ الرَّجُلُ، فَيُقَالُ: رَجُلٌ شَاكٌ، وَشَاكٌ،  
وَسِلَاحٌ شَاكٌ، وَشَاكٌ.

فَأَمَّا "شَاكٌ" غَيْرُ مَعْتَلِ الْآخِرِ، وَأَلْفُهُ مُنْقَلِبَةٌ عَنِ عَيْنِ الْكَلِمَةِ، وَوَزْنُهُ فِي الْأَصْلِ عَلَى فِعْلِ  
بِكْسْرِ الْعَيْنِ، وَلَكِنْ قَلِبْتَ أَلْفًا، كَمَا قَالُوا: كَبَشٌ صَافٌ أَيُّ صَوْفٍ، وَكَذَلِكَ "شَاكٌ" أَيُّ  
: شَوَكٌ.

وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَذُوفِ الْعَيْنِ، وَأَصْلُهُ "شَائِكٌ"، فَحُذِفَتِ الْعَيْنُ، فَبَقِيَ "شَاكًا" فَأَلْفُهُ  
زَائِدَةٌ، وَوَزْنُهُ عَلَى هَذَا "فَالٌ".

وَأَمَّا "شَاكٌ" فَمِنْ قَوْصٍ، وَطَرِيقَتُهُ بِالْقَلْبِ كَمَا تَقْدَمُ وَمِنْ وَصْفِ السِّلَاحِ بِالشَّاكِ قَوْلُهُ: ]

[الوافر]

2673 - وَأَلْبَسُ مِنْ رِضَاهُ فِي طَرِيقِي . . .

سِلَاحًا يَذْعُرُ الْأَبْطَالَ شَاكًا

فَهَذَا يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَحْذُوفِ الْعَيْنِ، وَأَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ "شَوَكًا"، ك: صَوَفٍ.

وَيُقَالُ أَيْضًا: هُوَ شَاكٌ فِي السِّلَاحِ، بِتَشْدِيدِ الْكَافِ، مِنْ "الشَّكَّةِ"، وَهِيَ السَّلَامُ أَجْمَعُ،

نَقْلُهُ الْهَرَوِيُّ، وَالرَّاعِبُ.

قال: إنكم تريدون الطائفة التي لاحدة لها ، يعني: العير، ولكن الله يريدُ التوجُّهَ إلى الطائفة الأخرى ليحق الحقَّ بكلماته.

(108/306)

وقرأ مسلمة بن محارب: " بكلمته " على التوحيد ، والمراد به: اسم الجنس فيؤدِّي مؤدِّي الجمع ، والمراد بقوله: " بكلماته " أي: بأمره إياكم بالقتال ، وقيل: بهدايته التي سبقت من إظهار الدين وإعزازه: ﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ والدَّابِرُ الآخر من دبر ، ومنه دابرة الطائر وقطع الدَّابِر عبارة عن الاستئصال أي: ليستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 456-458 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) ﴾

التعريضُ في أوطان الكسل ، ومساكنة مألوفات الراحة من خصائص أحكام النَّفس ، فهي بطبعها تؤثر في كل حال نصيبها ، وتتعجل لذة حظها . ولا يصل أحدٌ إلى جلائل النعم إلا

بتجرُّع كاسات الشدائد ، والانسلاخ عن معهودات النصيب . ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ  
بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي إذا أراد الله - سبحانه - تخصيصَ عبدٍ بولايته قضى على طوارقِ نفسه  
بالأقول ، وحكم لبعض شهواته بالذبول ، وإلى طوابع الحقائق ياشراقها ، ولجامع الموانع  
باستحقاقها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 605 ﴾

(109/306)

قوله تعالى ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (8)

"فصل"

قال البقاعي :

﴿ ليحق الحق ﴾ أي الذي هو دينه القيم وفيه فوز الدارين ﴿ ويبطل الباطل ﴾ وهو كل ما  
خالفه ﴿ ولو كره ﴾ أي ذلك ﴿ المجرمون ﴾ أي الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل  
ويكسر قوتهم بضعفكم ويفني كثرتهم بقلتكم ويمحق عزهم بذلتكم فيظهر علو أمره ويخضع  
الأعناق لذكره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 190 ﴾

(110/306)

## فصل

قال الفخر:

واعلم أن أصحابنا تمسكوا في مسألة خلق الأفعال بقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ قالوا  
وجب حملة على أنه يوجد الحق ويكونه، والحق ليس إلا الدين والاعتقاد، فدل هذا على  
أن الاعتقاد الحق لا يحصل إلا بتكوين الله تعالى.

قالوا: ولا يمكن حمل تحقيق الحق على إظهار آثاره لأن ذلك الظهور حصل بفعل العباد،  
فامتنع أيضاً إضافة ذلك الإظهار إلى الله تعالى، ولا يمكن أن يقال المراد من إظهاره وضع  
الدلائل عليها، لأن هذا المعنى حاصل بالنسبة إلى الكافر وإلى المسلم.

وقبل هذه الواقعة، وبعدها فلا يحصل لتخصيص هذه الواقعة بهذا المعنى فائدة أصلاً.  
واعلم أن المعتزلة أيضاً تمسكوا بعين هذه الآية على صحة مذهبهم.

فقالوا هذه الآية تدل على أنه لا يريد تحقيق الباطل وإبطال الحق البتة، بل إنه تعالى أبداً يريد  
تحقيق الحق وإبطال الباطل، وذلك يبطل قول من يقول إنه لا باطل ولا كفر إلا والله تعالى  
مريد له.

وأجاب أصحابنا بأنه ثبت في أصول الفقه أن المفرد المحلى بالألف واللام ينصرف إلى  
المعهود السابق فهذه الآية دلت على أنه تعالى أراد تحقيق الحق وإبطال الباطل في هذه



الصورة، فلم قلتُم إن الأمر كذلك في جميع الصور؟ بل قد بينا بالدليل أن هذه الآية تدل على صحة قولنا .

أما قوله: ﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ فالدابر الآخر فاعل من دبر إذا أدبر، ومنه دابرة الطائر وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال، والمراد أنكم تريدون العير للفوز بالمال، والله تعالى يريد أن توجهوا إلى النفير، لما فيه من إعلاء الدين الحق واستئصال الكافرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ج 15 ص 104 ﴾

(111/306)

---

وقال السمرقندي :

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ ، أي يظهر الإسلام .

﴿ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ ﴾ ، يعني الشرك .

﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ، أي المشركون .

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَصَارِعَ الْقَوْمِ " . وجاءت قريش وأدركوا العير وأفلتوهم ، فقال بعضهم لبعض : إنما خرجتم لأجل العير ، فلما وجدتم العير فارجعوا سالمين .

فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نقتل محمداً ومن معه .

فسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل بدرًا بجانب الوادي الأدنى ، ونزل المشركون

على جانبه الأقصى على الماء ، والوادي فيما بينهما .

فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، حتى أوتر .

وكانت ليلة النصف من شهر رمضان ، وقال في قنوته : " اللَّهُمَّ لَا تُفْلِتَنَّ أَبَا جَهْلٍ بِنِ هِشَامٍ

وَفُلَانًا " وفلاناً فباتوا تلك الليلة وقد أجنبوا وليس معهم ماء ، فأتاهم الشيطان عند ذلك

ووسوس إليهم ، فقال لهم : تزعمون أنكم على دين الله ، وأنكم تصلون محدثين مجنبيين ،

والمشركون على الماء .

(112/306)

---

وكان الوادي ذا رمل تغيب فيه الأقدام ، فمطرت السماء حتى سال الوادي ، فاشتد ذلك

الرمل واغتسل المسلمون من جنابتهم وشرّبوا دوابهم ؛ فذلك قوله : ﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمْ

النَّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَّهَّرَكُم بِهِ وَيُدْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ

وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [ الأنفال : 11 ] إلى قوله : ﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمْ

النَّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَّهَّرَكُم بِهِ وَيُدْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ

وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ [الأَنْفَالُ : 11] وَكَانَ عَلِيٌّ وَالزَّبِيرُ يَحْرَسَانِ  
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجَاءَ سِقَاةُ قَرِيشٍ يَسْقُونَ الْمَاءَ ، فَأَخَذَهُمَ عَلِيٌّ وَالزَّبِيرُ ،  
فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَبِي سَفْيَانَ ، فَقَالُوا : مَا لَنَا بِأَبِي سَفْيَانَ مِنْ عِلْمٍ .  
فَقَالَا : فَمَعُ مِنْ أُنْتُمْ ؟ فَقَالُوا : مَعَ قَرِيشٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ .  
فَقَالَا : كَمْ هُمْ ؟ قَالُوا : لَا نَدْرِي ، هُمْ كَثِيرٌ فَضَرَبَاهُمْ فَقَالُوا : هُمْ قَلِيلٌ فَتَرَكَاهُمْ .  
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " تَضْرِبُونَهُمْ إِنْ صَدَقْتُمْ ، وَتَتْرَكُونَهُمْ إِنْ كَذَبْتُمْ " .  
فَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ :  
" كَمَ الْقَوْمُ " فَقَالُوا : هُمْ كَثِيرٌ فَلَا نَدْرِي كَمْ هُمْ .  
فَقَالَ : " كَمْ يُنْحَرُّ لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ " فَقَالُوا : فِي يَوْمٍ يَنْحَرُّ لَهُمْ عَشْرَةٌ جِزْرٍ ، وَفِي يَوْمٍ تِسْعَةٌ .  
فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " الْقَوْمُ مَا بَيْنَ تِسْعِمِائَةٍ إِلَى أَلْفٍ " وَكَانَتْ عِدَّتُهُمْ تِسْعِمِائَةً  
وَخَمْسِينَ ، وَكَانُوا قَدْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ أَلْفًا وَمِائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ ، فَرَجَعَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ مَعَ  
ثَلَاثِمِائَةٍ مِنْ بَنِي زَهْرَةَ مَعَ الْعَيْرِ ، وَبَقِيَ تِسْعِمِائَةٌ وَخَمْسُونَ رَجُلًا .

(113/306)

---

فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغداة ورفع يديه وقال: "اللَّهُمَّ لَا تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ فَإِنَّكَ إِنِ أَهْلَكْتَهُمْ، لَا تَعْبُدَ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ أَبَدًا" فقال أبو بكر: يا رسول الله، قد دنا القوم.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أَبَشِّرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنِّي رَأَيْتُ جِبْرِيلَ مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ، يَقُودُ فَرَسًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ".

فأمده الله بجبريل في ألف من الملائكة، وميكائيل في ألف من الملائكة، وإسرافيل في ألف من الملائكة؛ فذلك قوله ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125].

فقال أبو جهل: اللهم انصر أحب الدينين إليك، ديننا العتيق ودين محمد الحديث. وقال عتبة بن ربيعة: يا معشر قريش، إن محمداً رجل منكم، فإن يكن نبياً فأنتم أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً تعيشوا في ملك أخيكم، وإن يكن كاذباً يقتله سواكم، لا يكون هذا منكم.

وإني مع ذلك لأرى قوماً زرق العيون لا يموتون، حتى يقتلوا عدداً منكم.

فقال أبو جهل: يا أبا الوليد، جبت وانتفخ سحرك.

فقال له عتبة يا كذاب ستعلم اليوم أننا الجبان فلبس لأمته، وخرج معه أخوه شيبه بن ربيعة، وخرج معه ابنه الوليد بن عتبة، فتقدموا إلى القوم وقالوا: يا محمد، ابعث لنا أكهأنا.

فخرج إليهم قوم من الأنصار ، فقالوا : من أتم ؟ فقالوا : نحن أنصار الله ورسوله فقالوا : لا نريدكم ولكن نريد إخواننا من قريش ، فانصرفوا .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا بني هاشم تقدموا إليهم " فقام علي بن أبي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وعليهم البيض فقال لهم عتبة : تكلموا حتى نعرفكم .

فقال حمزة : أنا أسد الله وأسد رسوله .

فقال عتبة : كفوء كريم .

(114/306)

---

قال : فمن هذان معك ؟ فقال : علي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب . فذهب الشيخ إلى الشيخ والشاب إلى الشاب والكهل إلى الكهل ؛ فذهب عبيدة بن الحارث إلى شيبه بن ربيعة وكلاهما شيخان ، وذهب علي إلى الوليد بن عتبة وكلاهما شابان ، وذهب حمزة إلى عتبة بن ربيعة وكلاهما كهلان .

فقتل حمزة بن عبد المطلب عتبة بن ربيعة ، وقتل علي بن أبي طالب الوليد بن عتبة ، واختلف عبيدة بن الحارث وشيبه بن ربيعة في ضربتين ، ضرب عبيدة بالسيف على

رأس شيبه بن ربيعة، وضرب شيبه ضربة في رجل عبدة.

فمال حمزة وعليُّ على شيبه بن ربيعة، فقتلاه وحملوا عبدة إلى العسكر، فمات عبدة في حال انصرافهم قبل أن يصل إلى المدينة، فدفن بمضيق الصفراء.

ففي هذا الخبر دليل من الفقه أن المشركين إذا طلبوا البراز، فلا بأس للمؤمنين بأن يخرجوا بغير إذن الإمام، ما لم ينههم عن ذلك؛ لأن الأنصار قد خرجوا قبل أن يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وفيه دليل أنه لا بأس بأن ينصر أحد المبارزين صاحبه، لأن حمزة وعليًّا قد أعانا عبدة على قتل شيبه؛ وفيه دليل أنه لا بأس بالافتخار عند الحرب، لأن حمزة قال: أنا أسد الله، وأسد رسوله.

ولا بأس بأن يتبختر في مشيته في حال القتال.

ثم خرج مهجع مولى عمر بن الخطاب، فأصابته رمية بين الصفين؛ فكان أول قتيل يوم بدر وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس على القتال، فقال عمير بن الحمام السلمي، وهو قائم وفي يده تمرات يأكلها: يا رسول الله، إن قتلت في سبيل الله فلي الجنة؟ قال: نعم.

فألقي التمرات، وأخذ سيفه وشد على القوم، فقاتل حتى قتل.

فخرج أبو جهل بن هشام على جمل له لعنه الله فخرج إليه شاب من الأنصار، يقال له معاذ بن عمرو بن الجموح، فضربه ضربة على فخذه فخر أبو جهل عن بعيره.

فخرج إليه عبد الله بن مسعود ، فلما رآه أبو جهل ، قال : يا ابن أم عبد لمن الدولة ؟ وعلى من الدائرة ؟ فقال له ابن مسعود : لله ولرسوله يا عدو الله لأنت أعتى من فرعون ، لأن فرعون جزع عند الغرق وأنت لم يزدك هذا الصرع إلا تمادياً في الضلالة ؟ ثم وضع رجله على عاتق أبي جهل ، فقال له أبو جهل : لأنت رويعنا بالأمس ، لقد ارتقيت مرتقى عظيماً .

فقتله ابن مسعود وحز رأسه ، وجاء برأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجداً ثم قال لأبي بكر ، ويقال لعليّ : " ناولني كفاً من ترابٍ " .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب ، ورماها في وجوه القوم وقال : " شأهت الوجوه " لت في أعين القوم كلهم ، فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلونهم ويأسرون منهم ، وحملوا على المشركين والملائكة معهم وقذف في قلوب المشركين الرعب ، فقتلوا في تلك المعركة منهم سبعين ، وأسروا سبعين ، واستشهد يومئذ من المهاجرين ثلاثة عشر رجلاً .

ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسارى والغنائم إلى المدينة، واستشار النبي

صلى الله عليه وسلم في أمر الأسارى، فأقبل على أبي بكر فقال:

" مَا تَقُولُ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ فقال: قومك وبنو عمك، فإن قتلهم صاروا إلى النار، وإن تقدّمهم

فأفعل الله يهديهم إلى الإسلام، ويكون ما نأخذه منهم قوة للمسلمين وقوة على جهاد

أعدائهم.

ثم أقبل على عمر فقال: " مَا تَقُولُ يَا أَبَا حَفْصٍ ؟ فقال عمر: إن في يدك رؤوس المشركين

وصناديدهم، فاضرب أعناقهم وسيغني الله المؤمنين من فضله.

(116/306)

---

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ مَثَلَكُ يَا أَبَا بَكْرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَثَلُ مِيكَائِيلَ فَإِنَّهُ لَا يَنْزِلُ

إِلَّا بِالرَّحْمَةِ، وَمَثَلُكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَثَلُ إِبْرَاهِيمَ، حَيْثُ قَالَ ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ

النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: 36] وَمَثَلُ

عِيسَى، حَيْثُ قَالَ ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [

المائدة: 118] وَمَثَلُكَ يَا عُمَرُ مَثَلُ جِبْرِيلَ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ بِالْعَذَابِ وَالشَّدَّةِ، وَمَثَلُكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ

مَثَلُ نُوحٍ، حَيْثُ قَالَ: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:



26 [ ومثل موسى ، حيثُ قال : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : 88] .

وروى سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر : عليك بالخير ، فإنه ليس دونها شيء .  
فناداه العباس وهو أسير في وثاقه : إنه لا يصلح .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " لِمَ " ؟ قال : لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك ما وعدك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بجز العلوم ج 2 ص ﴾

(117/306)

وقال القرطبي :

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أي يظهر دين الإسلام ويُعزِّه .

﴿ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ أي الكفر .

وإبطاله إعدامه ؛ كما أن إحقاق الحق إظهاره ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [ الأنبياء : 18] .

﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْجُرْمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن :

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾

يعني ليثبت الإسلام ﴿ ويبطل الباطل ﴾ يعني وينفي الكفر ﴿ ولو كره الجرمون ﴾ يعني المشركين وفي الآية سؤالان : الأول : أن قوله ويريد الله أن يحق الحق ثم قال بعده ليحق الحق تكرير فما معناه ؟ .

والجواب أنه ليس فيه تكرير لأن المراد بالأول تثبيت ما وعد في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء والمراد بالثاني : تقوية القرآن والدين وإظهار منار الشريعة لأن الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قتلهم وقهر الكافرين مع كثرتهم كان سبباً لإعزاز الدين وقوته ولهذا السبب قرنه بقوله ويبطل الباطل يعني الذي هو الشرك .

السؤال الثاني : الحق حق لذاته والباطل باطل لذاته فما المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل .

والجواب : إن المراد من تحقيق الحق إظهار كون ذلك حقاً والمراد من إبطال ذلك الباطل إظهار كون ذلك الباطل باطلاً وذلك بإظهار دلائل الحق وتقويته .

وقمع رؤساء الباطل وقهرهم . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

وقال أبو حيان :

ومعنى ﴿ ليحقّ الحقّ ﴾ ليظهر ما يجب إظهاره وهو الإسلام ﴿ ويبطل الباطل ﴾ فعل ذلك ؛ وقيل ﴿ الحقّ ﴾ القرآن و﴿ الباطل ﴾ إبليس وتعلق هذه اللام بمحذوف تقديره ليحقّ الحقّ ﴿ ويبطل الباطل ﴾ فعل ذلك أي ما فعله إلاهما وهو إثبات الإسلام وإظهاره وإبطال الكفر ومحوه وليس هذا بتكرير لاختلاف المعنيين الأول تبين بين الإرادتين والثاني بيان لما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك على كثرتهم إلا لهذا المقصد الذي هو أسنى المقاصد وتقدير ما تعلق به متأخراً أحسن .

قال الزمخشري ويجب أن يقدر المحذوف متأخراً حتى يفيد معنى الاختصاص وينطبق عليه المعنى انتهى ، وذلك على مذهبه في أن تقديم المفعول والمجرور يدل على الاختصاص والحصر وذلك عندنا لا يدل على ذلك إنما يدل على الاعتناء والاهتمام بما قدم لا على تخصيص ولا حصر وتقدم الكلام معه في ذلك ؛ وقيل يتعلق ﴿ ليحقّ ﴾ بقوله ﴿ ويقطع ﴾ ؛ وقال ابن عطية ﴿ ولو كره ﴾ أي وكراهتكم واقعة فهي جملة في موضع الحال انتهى ، وقد تقدم لنا الكلام معه في ذلك وأن التحقيق فيه أن الواو للعطف على محذوف ذلك المحذوف في موضع الحال والمعطوف على الحال حال ومثلاً ذلك بقوله "أعطوا السائل ولو

جاء على فرس أي على كل حال ولو على هذه الحالة التي تنافي الصدقة على السائل " ، وأن  
﴿ ولو ﴾ هذه تأتي لاستقصاء ما بطن لأنه لا يندرج في عموم ما قبله لملاقاة التي بين هذه  
الحال وبين المسند الذي قبلهما ، وقال الحسن هاتان الآيتان متقدمتان في النزول على قوله  
﴿ كما أخرجك ربك ﴾ وفي القراءة بعدهما لتقابل الحق بالحق والكراهة بالكراهة انتهى  
، وهذه دعوى لا دليل عليها ولا حاجة تضطرنا إلى تصحيحها . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(119/306)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾

جملة مستأنفة سبقت لبيان الحكمة الداعية إلى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع  
إرادتهم لغيرها ، واللام متعلقة بفعل مقدر مؤخر عنها ، أي لهذه الغاية الجليلة فعل ما فعل لا  
لشيء آخر وليس فيه تكرار إذ الأول لبيان تفاوت ما بين الإرادتين ، وهذا لبيان الحكمة  
الداعية إلى ما ذكر ، ومعنى إحقاق الحق إظهار حقيقته لا جعله حقاً بعد أن لم يكن كذلك  
وكذا حال إبطال الباطل ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أي المشركون ذلك أي إحقاق الحق

﴿ وإبطال الباطل . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴿

وقال الأوسى :

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾

جملة مستأنفة سيقت لبيان الحكمة الداعية اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع إرادتهم لغيرها ، واللام متعلقة بفعل مقدر مؤخر عنها ، أي لهذه الحكمة الباهرة فعل ما فعل لأشياء آخر ، وليس فيه مع ما تقدم تكرر إذ الأول لبيان تفاوت ما بين الإرادتين وهذا لبيان الحكمة الداعية إلى ما ذكر .

وأشار الزمخشري إلى أن هذا نظير قولك : أردت أن تفعل الباطل وأردت أن أفعل الحق ففعلت ما أردته لكذا لا لمقتضى إرادتك وليس نظير قولك : أردت أن تفعل الباطل وأردت أن أفعل الحق ففعلت ما أردته لكذا لا لمقتضى إرادتك وليس نظير قولك : أردت أن أكرم زيداً لإكرامه ليكون فيه ما يكون ، ومعنى إبطال الباطل على طرز ما أشرنا إليه في إحقاق الحق ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك أعني إحقاق الحق وإبطال الباطل ، والمراد بهم المشركون لا من كره الذهاب إلى النفي لأنه جرم منهم كما قيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴿

(120/306)

وقال ابن عاشور :

واللام في قوله : ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾

لام التعليل .

وهي متعلقة بقوله ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أي إنما أراد ذلك وكون أسبابه بكلماته لأجل تحقيقه الحق وإبطاله الباطل .

وإذ قد كان محمول هذا التعليل هو عين محمول المعلل في قوله : ﴿ ويريد الله أن يحق الحق

بكلماته ﴾ وشان العلة أن تكون مخالفة للمعلل ، ولو في الجملة ، إذ فائدة التعليل إظهار

الغرض الذي يقصده الفاعل من فعله ، فمقتضى الظاهر أن لا يكون تعليل الفعل بعين ذلك

الفعل ، لأن السامع لا يبجّل أن الفاعل المختار ما فعل فعلاً إلا وهو مرادُّه ، فإذا سمعنا من

كلام البليغ تعليل الفعل بنفس ذلك الفعل ، كان ذلك كناية عن كونه ما فعل ذلك الفعل إلا

لذاتِ الفعل ، لا لغرض آخر عائد عليه ، فإفادة التعليل حينئذ معنى المحصر حاصلة من

مجرد التعليل بنفس المعلل .

والحصر هنا من مستبعات التركيب ، وليس من دلالة اللفظ ، فافهمه فإنه دقيق وقد

وقعت فيه غفلات .

ويجوز أن يكون الاختلاف بين المعلل والعلة بالعموم والخصوص أي يريد الله أن يحق الحق في

هذه الحادثة لأنه يريد إحقاق الحق عموماً .

وأما قوله : ﴿ ويبطل الباطل ﴾ فهو ضد معنى قوله : ﴿ ليُحق الحق ﴾ وهو من لوازم معنى ليُحق الحق ، لأنه إذا حصل الحق ذهب الباطل كما قال تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ [ الأنبياء : 18 ] ، ولما كان الباطل ضد الحق لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر .

ومن لطائف عبد الله بن عباس أنه قال لعمر بن أبي ربيعة : كم سنك فقال ابن أبي ربيعة وُلدت يوم مات عمر بن الخطاب ، فقال ابن عباس : "أي حق رُفِع وأي باطل وضع" أي في ذلك اليوم ، ففائدة قوله : ﴿ ويبطل الباطل ﴾ التصريح بأن الله لا يرضى بالباطل ، فكان ذكر بعد قوله : ﴿ ليُحق الحق ﴾ بمنزلة التوكيد لقوله ﴿ ليُحق الحق ﴾ لأن ثبوت الشيء قد يُؤكّد بنفي ضده كقوله تعالى :

(121/306)

---

﴿ قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ [ الأنعام : 140 ] .

ويجيء في قوله : ﴿ ويبطل الباطل ﴾ من معنى الكلام ، ومن جناس الاشتقاق ، ما جاء في قوله : ﴿ أن يحق الحق ﴾ ثم في مقابلة قوله : ﴿ ليُحق الحق ﴾ بقوله ﴿ ويبطل

الباطل ﴿ محسن الطباق .

﴿ ولو كره المجرمون ﴾ شرط اتصالي .

و ﴿ لو ﴾ اتصالية تدل على المبالغة في الأحوال ، وهو عطف على ﴿ يريد الله ﴾ ، أو

على ﴿ ليُحِقَّ الحق ﴾ أي يريد ذلك لذلك لا لغيره ، ولا يصد مراده ما للمعاندين من قوة

بأن يكرهه المجرمون وهم المشركون .

والكراهة هنا كناية عن لوازمها وهي الاستعداد لمقاومة المراد من تلك الإرادة ، فإن

المشركين ، بكثرة عددهم وعُددهم ، يريدون إحقاق الباطل ، وإرادة الله تنفذ بالرغم

على كراهة المجرمين ، وأما مجرد الكراهة فليس صالحاً أن يكون غاية للمبالغة في أحوال

نفوذ مراد الله تعالى إحقاق الحق : لأنه إحساس قاصر على صاحبه ، ولكنه إذا بعثه على

مدافعة الأمر المكروه كانت أسباب المدافعة هي الغاية لنفوذ الأمر المكروه على الكاره .

وتقدم الكلام على ﴿ لو ﴾ الاتصالية عند قوله تعالى : ﴿ ولو اقتدى به ﴾ في سورة [آل

عمران : 91] وقوله تعالى : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ﴾ في سورة [البقرة :

170] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(122/306)



وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (8)

ونلاحظ أنه سبحانه وتعالى قال من قبل ويريد الله أن ﴿ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ ، وهنا يقول : ﴿

لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ والمراد بالحق الأول نصر الجماعة الضعاف ، القلة الضعيفة على الكثرة

القوية ، هذا هو الحق الأول الذي وعد به الحق بكلماته ، ليحق منهج الإسلام كله ، ولو كره

المجرمون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي صـ ﴾

(123/306)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي

الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (6) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى

الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ

وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (8)

قوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ قال الزجاج : الكاف في موضع نصب ،

أي الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، أي مثل إخراج ربك ، والمعنى :

امض لأمرك في الغنائم .

ونقل من شئت ، وإن كرهوا ، لأن بعض الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم  
حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً قال : بقي أكثر الناس بغير شيء .

فموضع الكاف نصب كما ذكرنا .

وبه قال الفراء .

وقال أبو عبيدة : هو قسم ، أي والذي أخرجك ، فالكاف بمعنى الواو ، و " ما " بمعنى  
الذي .

وقال الأخفش سعيد بن مسعدة المعنى أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك .

وقال عكرمة المعنى : أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك .

وقيل ﴿ كما أخرجك ﴾ متعلق بقوله : ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ أي هذا الوعد للمؤمنين حق

في الآخرة ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ الواجب له ، فأجز وعدك وظفرك

بعدوك وأوفى لك .

ذكره النحاس واختاره .

وقيل الكاف في ﴿ كما ﴾ كـ التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبده : كما

وجهتك إلى أعدائي فاستضعفوك ، وسألت مدداً فأمددتك وقويتك وأزحت علتك ،

فخذهم الآن فعاقبهم .

وقيل : إن الكاف في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك .

(124/306)

---

يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب ، ذكره صاحب الكشاف .

و ﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف ، والتقدير : إخراجاً متلبساً بالحق الذي لا شبهة فيه ، وجملة ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهِونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي كما أخرجك في حال كراهتهم لذلك ، لأنه لما وعدهم الله إحدى الطائفتين ، إما العير أو النفير ، رغبوا في العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال كما سيأتي بيانه .

وجملة ﴿ يجادلونك فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ إما في محل نصب على أنها حال بعد حال ، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر .

ومجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين ، وفات العير وأمرهم بقتال النفير ، ولم يكن معهم كثير أهبة ، لذلك شق عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة وأكملنا الأهبة . ومعنى ﴿ فِي الْحَقِّ ﴾ أي في القتال بعد ما تبين لهم أنك لا تأمر بالشيء إلا بإذن الله ، أو

بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم بالظفر يا حدى الطائفتين .

وأن العير إذا فاتت ظفروا بالنفير .

و ﴿ بعد ﴾ ظرف ليجادلونك .

و ﴿ ما ﴾ مصدرية أي يجادلونك بعد ما تبين الحق لهم .

قوله : ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ الكاف في محل نصب على الحال من

الضمير في ﴿ لَكَارِهُونَ ﴾ أي : حال كونهم في شدة فزعهم من القتال ، يشبهون حال من

يساق ليقتل ، وهو مشاهد لأسباب قتله ، ناظر إليها لا يشك فيها .

قوله : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر ، أي

واذكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين .

وأمرهم بتذكير الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث بقصد المبالغة .

والطائفتان : هما العير والنفير .

و ﴿ إحدى ﴾ هو ثاني مفعولي ﴿ يعِد ﴾ ، و ﴿ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ بدل منه بدل اشتمال .

(125/306)

---

ومعناه: أنها مسخرة لكم ، وأنكم تغلبونها وتغنون منها وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة ، لا يطيقون لكم دفعاً ، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضراً ولا نفعاً .

وفي هذه الجملة تذكير لهم بنعمة من النعم التي أنعم الله بها عليهم .

قوله : ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ معطوف على ﴿ يَعِدُكُمْ ﴾ من جملة الحوادث التي أمروا بذكر وقتها .

﴿ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ ﴾ من الطائفتين ، وهي طائفة العير ﴿ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ دون ذات الشوكة ، وهي طائفة النفير .

قال أبو عبيدة : أي غير ذات الحد .

والشوكة : السلاح ، والشوكة : النبت الذي له حد .

ومنه رجل شائك السلاح ، أي حديد السلاح .

ثم يقلب فيقال شاكي السلاح .

فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك .

والمعنى : وتودون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح ، وهي طائفة العير ، لأنها

غنيمة صافية عن كدر القتال ، إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها .

قوله : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ معطوف على ﴿ تَوَدُّونَ ﴾ وهو من جملة

ما أمروا بذكر وقته ، أي ويريد الله غير ما تريدون ، وهو أن يحق الحق بظهاره ، لما قضاه من

ظفركم بذات الشوكة ، وقتلكم لصناديدهم ، وأسر كثير منهم ، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التي أجلبوا بها عليكم ، وراموا دفعكم بها .

والمراد بالكلمات : الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة ، ووعدكم منه بالظفر بها .

﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ الدابر : الآخر ، وقطعه عبارة عن الاستئصال .

والمعنى : ويستأصلهم جميعاً .

قوله : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ هذه الجملة علة لما يريد الله ، أي أراد ذلك ، أو

يريد ذلك ليظهر الحق ، ويرفعه ﴿ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ ويضعه ، أو اللام متعلقة بمحذوف ،

أي فعل ذلك ليحق الحق .

وقيل متعلق ب ﴿ يقطع ﴾ ، وليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها ، لأن الأولى لبيان

التفاوت فيما بين الإرادتين .

(126/306)

---

وهذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك ، والعلة المقتضية له .

والمصلحة المترتبة عليه .

وإحقاق الحق إظهاره ، وإبطال الباطل إعدامه : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿ [الأنبياء : 18] ومفعول ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْجَرْمُونَ ﴾ محذوف ، أي ولو  
كرهوا أن يحق الحق ، ويبطل الباطل .

والجرمون هم المشركون من قريش ، أو جميع طوائف الكفار .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن  
أبي أيوب الأنصاري قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة ، وبلغه أن  
عير أبي سفيان قد أقبلت فقال :

" ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا " ، فخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين أمرنا رسول

الله صلى الله عليه وسلم أن نتعاد ، ففعلنا ، فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر ، فأخبرنا النبي

صلى الله عليه وسلم بعدتنا ، فسرّ بذلك وحمد الله وقال : " عدة أصحاب طالوت " ،

فقال : " ما ترون في قتال القوم ، فإنهم قد أخبروا بمخرجكم " ، فقلنا : يا رسول الله ، لا

والله ما لنا طاقة بقتال القوم ، إنما خرجنا للغير ، ثم قال : " ما ترون في قتال القوم ؟ " فقلنا

مثل ذلك ، فقال المقداد : لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا

إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : 24] فأنزل الله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ إلى قوله :

﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ .

---

فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين ، إما القوم وإما العير ، طابت أنفسنا ، ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم إني أنشدك وعدك " ، فقال ابن رواحة : يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من أن يشير عليه ، إن الله أجل وأعظم من أن تنشده وعده ، فقال : " يا ابن رواحة لأنشدن الله وعده ، فإن الله لا يخلف الميعاد " ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوه القوم فانهمزوا ، فأنزل الله ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [ الأنفال : 17 ] فقتلنا وأسرننا ، فقال عمر : يا رسول الله ما أرى أن يكون لك أسرى ، فإنما نحن داعون مؤلفون ، فقلنا : يا معشر الأنصار إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا .

فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استيقظ فقال : " ادعوا لي عمر " ، فدعي له فقال : " إن الله قد أنزل عليّ " ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى ﴾ الآية [ الأنفال : 67 ] . وفي إسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه عن جدّه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : ﴿ كيف ترون ؟ ﴾ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، بلغنا



أنهم كذا وكذا ، ثم خطب الناس فقال : " كيف ترون ؟ " فقال عمر مثل قول أبي بكر .  
ثم خطب الناس فقال : " كيف ترون ؟ " فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إيانا تريد ،  
فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ، ولا لي بها علم ، ولئن سرت حتى  
تأتي برك الغماد من ذي يمن ، لنسيرن معك ، ولا نكونن كالذين قالوا لموسى :

(128/306)

---

﴿ اذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة : 24] ولكن اذهب  
أنت وربك فقاتل إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره  
، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت  
، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن على قول  
سعد ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾  
وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الغنيمة مع أبي سفيان ، فأحدث الله إليه  
القتال .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن  
مجاهد ، في قوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ قال : كذلك يجادلونك في

خروج القتال .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن السدي في قوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ  
مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ قال : السدي في قوله ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ قال :  
خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴾ قال :  
لطلب المشركين .

﴿ يجادلونك في الحق بعدما ما تَبَيَّنَ ﴾ أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ  
تَكُونُ لَكُمْ ﴾ قال : هي عير أبي سفيان .

وذا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن العير كانت لهم ، وأن القتال صرف عنهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة : ﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي شأفتهم .

ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث ، والسير ، والتاريخ مستوفاة ، فلا نطيل

بذكرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(129/306)

---

## "فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَإِذِ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8) ﴾

أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب وموسى بن عقبة قالا " مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قتل ابن الحضرمي شهرين ، ثم أقبل أبو سفيان بن حرب في غير قريش من الشام ومعها سبعون راكباً من بطون قريش كلها وفيهم مخزومة بن نوفل ، وعمرو بن العاص ، وكانوا تجاراً بالشام ومعهم خزائن أهل مكة ، ويقال : كانت غيرهم ألف بعير ولم يكن لأحد من قريش أوقية فما فوقها إلا بعث بها مع أبي سفيان إلا حويطب بن عبد العزى ، فذلك كان تخلف عن بدر فلم يشهده ، فذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك ، وقتل ابن الحضرمي وأسر الرجلين عثمان والحكم ، فلما ذكر غير أبي سفيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عدي بن أبي الزغباء الأنصاري من بني غنم وأصله من جهينة وسبس - يعني ابن عمرو - إلى العير عيناه ، فسارا حتى أتيا حياً من جهينة قريباً من ساحل البحر ، فسألوهم عن

العيرو عن تجار قريش ، فأخبروهما بنجر القوم ، فرجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فأخبراه فاستنفر المسلمين للعيرو وذلك في رمضان .

(130/306)

---

وقدم أبو سفيان على الجهنيين وهو متخوّف من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه  
، فقال : أحسوا من محمد فأخبروه خبر الراكين عدي بن أبي الزغباء وسبب ، وأشاروا  
له إلى مناخهما فقال أبو سفيان : خذوا من بحر بعيرهما ففته فوجد فيه النوى ، فقال : هذه  
علائف أهل يثرب وهذه عيون محمد وأصحابه ، فساروا سراعا خائفين للطلب ، وبعث  
أبو سفيان رجلاً من بني غفار يقال له ضمضم بن عمرو إلى قريش أن انقروا فاحموا عيركم  
من محمد وأصحابه فإنه قد استنفر أصحابه ليعرضوا لنا ، وكانت عاتكة بنت عبد  
المطلب ساكنة بمكة وهي عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت مع أخيها العباس  
بن عبد المطلب ، فرأت رؤيا قبل بدر وقبل قدوم ضمضم عليهم ففزعت منها ، فأرسلت  
إلى أخيها العباس بن عبد المطلب من ليلتها ، فجاءها العباس فقالت : رأيت الليلة رؤيا قد  
أشفقت منها وخشيت على قومك منها الهلكة . قال : وماذا رأيت ؟ قالت : لن أحدثك  
حتى تعاهدني أنك لا تذكرها ، فإنهم إن سمعوها آذونا وأسمعونا ما لانبج ، فلما

عاهدها العباس فقالت: رأيت راكباً أقبل من أعلى مكة على راحلته يصيح بأعلى صوته: يا آل غدر اخرجوا في ليلتين أو ثلاث، فأقبل يصيح حتى دخل المسجد على راحلته، فصاح ثلاث صيحات ومال عليه الرجال والنساء والصبيان، وفرغ له الناس أشد الفزع قال: ثم أراه مثل على ظهر الكعبة على راحلته، فصاح ثلاث صيحات فقال: يا آل غدر ويا آل فجر اخرجوا في ليلتين أو ثلاث، ثم أراه مثل على ظهر أبي قبيس كذلك يقول: يا آل غدر ويا آل فجر حتى أسمع من بين الأخشيين من أهل مكة، ثم عمد إلى صخرة فنزعها من أصلها، ثم أرسلها على أهل مكة فأقبلت الصخرة لها حس شديد حتى إذا كانت عند أصل الجبل ارفضت، فلا أعلم بمكة داراً ولا بيتاً إلا وقد دخلتها ففقت من تلك الصخرة، فقد خشيت على قومك.

(131/306)

---

ففرغ العباس من رؤياها، ثم خرج من عندها فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة من آخر تلك الليلة - وكان الوليد خليلاً للعباس - فقص عليه رؤيا عاتكة وأمره أن لا يذكرها لأحد، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، وذكرها عتبة لأخيه شيبه، فارتفع الحديث حتى بلغ أبا جهل بن هشام واستفاض في أهل مكة، فلما أصبحوا غدا العباس يطوف بالبيت، فوجد في

المسجد أبا جهل ، وعتبة ، وشيبة بن ربيعة ، وأمّية ، وأبي ابني خلف ، وزمعة بن الأسود ، وأبا البخترى ، في نفر من قريش يتحدثون ، فلما نظروا إلى العباس ناداه أبو جهل : يا أبا الفضل إذا قضيت طوافك فهلم إلينا ، فلما قضى طوافه جاء فجلس إليهم فقال له أبو جهل : ما رؤيا رأتها عاتكة ؟ ! فقال : ما رأيت من شيء . فقال أبو جهل : أما رضيتم يا بني هاشم كذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النساء ، أنا وإياكم كفرسي رهان فاستبقنا المجد منذ حين ، فلما تحاكت الركب قلت من بني قريظة إلا أن تقولوا منا نبية ، فما أعلم في قريش أهل بيت أكذب امرأة ولا رجل منكم ، وأذاه أشد الأذى وقال أبو جهل : زعمت عاتكة أن الراكب قال : اخرجوا في ليلتين أو ثلاث ، فلو قد مضت هذه الثلاث تبينت قريش كذبكم وكتبت سجلاً إنكم أكذب أهل بيت في العرب رجلاً وامرأة ، أما رضيتم يا بني قصي إن ذهبتم بالحجابه والندوة والسقاية واللواء والوفادة حتى جئتمونا بنبي منكم ؟ فقال العباس : هل أنت مُنْتَهٍ فَإِنَّ الكذب منك ومن أهل بيتك ؟ فقال من حضرهما : ما كنت يا أبا الفضل جهولاً خرقاً . ولقي العباس من عاتكة فيما أفشى عليها من رؤياها أذى شديداً .

(132/306)

---

فلما كان مساء الليلة التي رأت عاتكة فيها الرؤيا ، جاءهم الراكب الذي بعث أبو سفيان ، وهو ضمضم بن عمرو الغفاري فصاح وقال : يا آل غالب بن فهر انفروا فقد خرج محمد وأهل يثرب يعترضون لأبي سفيان فاحرزوا غيركم ، ففرغت قريش أشد الفرع وأشفقوا من رؤيا عاتكة ، وقال العباس : هذا زعمتم كذا وكذب عاتكة فنفروا على كل صعب وذلول ، وقال أبو جهل : أئظن محمد أن يصيب مثل ما أصاب بنخلة ، سيعلم أئمنع غيرنا أم لا . فخرجوا بخمسين وتسعمائة مقاتل ، وساقوا مائة فرس ، ولم يتركوا كارها للخروج يظنون أنه في قهر محمد وأصحابه ، ولا مسلماً يعلمون اسلامه ، ولا أحداً من بني هاشم إلا من لا يهتمون إلا أشخصوه معهم ، فكان ممن أشخصوا العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، وطالب بن أبي طالب ، وعقيل بن أبي طالب في آخرين ، فهناك يقول طالب بن أبي طالب : " إما يخرجن طالب بمقنب من هذه المقانب في نفر مقاتل يحارب وليكن المسلوب غير السالب والراجع المغلوب غير الغالب فساروا حتى نزلوا الجحفة نزلوها عشاء يتزودون من الماء ومنهم رجل من بني عبد المطلب بن عبد مناف يقال له جهيم بن الصلت بن مخزومة فوضع جهيم رأسه فأغفى ثم فرغ فقال لأصحابه : هل رأيتم الفارس الذي وقف علي أنفا ؟ فقالوا : لا إنك مجنون فقال : قد وقف علي فارس أنفا ! فقال : قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأبو البخترى وأميمة بن خلف فعد أشرافا من كفار قريش

فقال له أصحابه : إنما لعب بك الشيطان ورفع حديث جهيم إلى أبي جهل فقال : قد جئتكم  
بكذب بني المطلب مع كذب بني هاشم سيرون غدا من يقتل

(133/306)

---

ثم ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم غير قريش جاءت من الشام وفيها أبو سفيان بن  
حري ومخرمة بن نوفل وعمرو بن العاصي وجماعة من قريش فخرج إليهم رسول الله صلى  
الله عليه وسلم فسلك حين خرج إلى بدر على نقب بني دينار ورجع حين رجع من ثنية  
الوداع فنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نفر ومعه ثلثمائة وسبعة عشر رجلا وفي  
رواية ابن فليح : ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا وأبطأ عنه كثير من أصحابه وتربصوا وكانت  
أول وقعة أعز الله فيها الإسلام فخرج في رمضان على رأس ثمانية عشر شهرا من مقدمه  
المدينة ومعه المسلمون لا يريدون إلا العير فسلك على نقب بني دينار والمسلمون غير معدين  
من الظهر إنما خرجوا على النواضح يعتقب الرجل منهم على البعير الواحد وكان زميل  
رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف  
حمزة فهم معه ليس معهم إلا بعير واحد فساروا حتى إذا كانوا بعرق الظبية لقيهم ركب  
من قبل تهامة - والمسلمون سيرون - فوافقهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه



وسلم فسأله عن أبي سفيان ؟ فقال : لا علم لي به

فلما يسؤوا من خبره فقالوا له : سلم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : وفيكم رسول  
الله

صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : نعم

قال : أيكم هو ؟ فأشاروا له إليه فقال الأعرابي : أنت رسول الله كما تقول ؟ قال : نعم

قال : إن كنت رسول الله كما تزعم فحدثني بما في بطن ناقتي هذه ؟ فغضب رجل من

الأنصار من بني عبد الأشهل يقال له سلمة بن سلامة بن وقش فقال للأعرابي : وقعت على

ناقتك فحملت منك

(134/306)

---

فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال سلمة حين سمعه أفحش فأعرض عنه ثم

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلقاه خبر ولا يعلم بنفرة قريش فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : أشيروا علينا في أمرنا ومسيرنا ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله أنا

أعلم الناس بمسافة الأرض أخبرنا عدي بن أبي الزغباء أن العير كانت بوادي كذا وكذا

فكانا وإياهم فرسخان إلى بدر

ثم قال: أشيروا علي؟ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله إنها قريش وعزها والله ما ذلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أهبتة وأعدد له عدته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشيروا علي؟ فقال المقداد بن عمرو: إنا لا نقول لك كما قال أصحاب موسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون المائدة الآية 24 ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون

فقال رسول الله: أشيروا علي؟ فلما رأى سعد بن معاذ كثرة استشارة النبي أصحابه فيشيرون فيرجع إلى المشورة ظن سعد أنه يستنطق الأنصار شفقا أن لا يستحوذوا معه على ما يريد من أمره فقال سعد بن معاذ لعلك يا رسول الله تحشى أن لا تكون الأنصار يريدون مواساتك ولا يرونها حقا عليهم إلا بأن يروا عدوا في بيوتهم وأولادهم ونسائهم وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: يا رسول الله فاطعن حيث شئت وخذ من أموالنا ما شئت ثم أعطنا ما شئت وما أخذته منا أحب إلينا مما تركت وما ائتمرت من أمر فأمرنا بأمرك فيه تبع فوالله لو سرت حتى تبلغ البركة من ذي يمين لسرنا معك

فلما قال ذلك سعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سيروا على اسم الله فإنني قد رأيت مصارع القوم فعمد لبدر

وخفض أبو سفیان فلصق بساحل البحر وكتب إلى قريش حين خالف مسير رسول الله

صلى الله عليه وسلم ورأى أن قد أحرز ما معه وأمرهم أن يرجعوا فإنما أخرجتم لتحرزوا  
ركبكم فقد أحرز لكم فلقبهم هذا الخبر بالجحفة

(135/306)

---

فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نقدم بدرا فنقيم فيها ونطعم من حضرنا من العرب فإنه  
لن يرانا أحد فيقاتلنا

فكره ذلك الأحنس بن شريق فأحب أن يرجعوا وأشار عليهم بالرجعة فأبوا وعصوا  
وأخذتهم حمية الجاهلية فلما يس الأحنس من رجوع قريش أكب على بني زهرة فأطاعوه  
فرجعوا فلم يشهد أحد منهم بدرا واعتبطوا برأي الأحنس وتبركوا به فلم يزل فيهم مطاعا  
حتى مات وأرادت بنو هاشم الرجوع فيمن رجع فاشتد عليهم أبو جهل وقال : والله لا  
تفارقنا هذه العصاة حتى نرجع

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل أدنى شيء من بدر ثم بعث علي بن أبي  
طالب والزبير بن العوام وسبسا الأنصاري في عصاة من أصحابه فقال لهم : اندفعوا إلى  
هذه الظراب وهي في ناحية بدر فإني أرجو أن تجدوا الخبر عند القلب الذي يعلى  
الظراب فانطلقوا متوشحي السيوف فوجدوا وارد قريش عند القلب الذي ذكر رسول

الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا غلامين أحدهما لبني الحجاج بن الأسود والآخر لأبي العاصي يقال له أسلم وأفلت أصحابهما قبل قريش فأقبلوا بهما حتى أتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في معرشة دون الماء فجعلوا يسألون العبدان عن أبي سفيان وأصحابه لا يرون إلا أنهم لهم فطفقا يحدانهم عن قريش ومن خرج منهم وعن رؤوسهم فيكذبونهما وهم أكره شيء للذي يخبرانه وكانوا يطمعون بأبي سفيان وأصحابه ويكرهون قريشا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يصلي يسمع ويرى الذي يصنعون بالعبدان فجعل العبدان إذا أذلقوهما بالضرب يقولان نعم هذا أبو سفيان والركب كما قال الله تعالى أسفل منكم قال الله إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا الأنفال الآية 42 قال فطفقوا إذا قال العبد إن هذه قريش قد جاءكم كذبوها وإذا قال هذا أبو سفيان تركوهما

(136/306)

---

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صنيعهم بهما سلم من صلاته وقال : ماذا أخبراكم ؟ قالوا : أخبرانا أن قريشا قد جاءت

قال : فإنهما قد صدقا والله إنكم لتضربونهما إذا صدقا وتتركونهما إذا كذبا خرجت  
قريش لتحرز ركبها وخافوكم عليهم ثم دعا رسول الله العبدین فسألهما ؟ فأخبراه بقريش  
وقالا : لا علم لنا بأبي سفيان فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كم القوم ؟ قالوا : لا  
ندري والله هم كثير

فزعموا أن رسول الله قال : من أطعمهم أمس ؟ فسميا رجلا من القوم

قال : كم نحر لهم ؟ قالوا : عشر جزائر

قال : فمن أطعمهم أول أمس ؟ فسميا رجلا آخر من القوم

قال : كم نحر لهم ؟ قالوا : تسعا

فزعموا أن رسول الله قال : القوم ما بين التسعمائة والألف يعتبر ذلك بتسع جزائر ينحرونها

يوما وعشر ينحرونها يوما

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أشيروا علي في المسير ؟ فقام الحباب بن

المنذر أحد بني سلمة فقال : يا رسول الله أنا عالم بها وبقلبها إن رأيت أن تسير إلى قلب

منها قد عرفتها كثيرة الماء عذبة فتنزل إليها ونسب القوم إليها ونغور ما سواها

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيروا فإن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين أنها

لكم فوق في قلوب ناس كثير الخوف وكان فيهم من تخاذل من تخويف الشيطان فسار رسول

الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون مسابقين إلى الماء وسار المشركون سراعا يريدون

الماء فأنزل الله عليهم في تلك الليلة مطرا واحدا فكان على المشركين بلاء شديدا منعهم أن يسيروا وكان على المسلمين ديمة خفيفة لبد لهم المسير والمنزل وكانت بطحاء فسبق المسلمون إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل فاقحم القوم في القليب فما حوها حتى كثر ماؤها وصنعوا حوضا عظيما ثم غوروا ما سواه من المياه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه مصارعهم إن شاء الله بالغداة

(137/306)

---

وأنزل الله إذ يغشيكم النعاس أمانة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام الأنفال الآية 11

ثم صف رسول الله على الحياض فلما طلع المشركون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم هذه قريش قد جاءت بخيالاتها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم إني أسألك ما وعدتني - ورسول الله صلى الله عليه وسلم ممسك بعضد أبي بكر يقول : اللهم إني أسألك ما وعدتني - فقال أبو بكر : أبشر فوالذي نفسي بيده لنيجزن الله لك ما وعدك فاستنصر المسلمون الله واستعانوه فاستجاب الله لنبيه وللمسلمين وأقبل المشكون ومعهم إبليس في صورة سراقه بن جعشم المدلجي يحدثهم أن بني كنانة وراءهم قد أقبلوا النصرهم

وأنه لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم لما أخبرهم من مسير بني كنانة وأنزل الله  
ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورثاء الناس الأنفال الآية 47 هذه الآية والتي  
بعدها

وقال رجال من المشركين لما رأوا قلة من مع محمد صلى الله عليه وسلم: غر هؤلاء دينهم  
فأنزل الله ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم الطلاق الآية 3

وأقبل المشركون حتى نزلوا وتعبوا للقتال والشيطان معهم لا يفارقهم فسعى حكيم بن حزام  
إلى عتبة بن ربيعة فقال له: هل لك أن تكون سيد قريش ما عشت؟ قال عتبة فأفعل ماذا  
؟ قال: تجير بين الناس وتحمل دم ابن الحضرمي وبما أصاب محمد من تلك العير فإنهم لا  
يطلبون من محمد غير هذه العير ودم هذا الرجل

قال عتبة: نعم قد فعلت ونعما قلت ونعما دعوت إليه فاسع في عشيرتك فأنا أتحمّل بها

(138/306)

---

فسعى حكيم في أشرف قريش بذلك يدعوهم فيه وركب عتبة جماله فسار عليه في  
صفوف المشركين في أصحابه فقال: يا قوم أطيعوني فإنكم لا تطلبون عندهم غير دم ابن  
الحضرمي وما أصابوا من غيركم تلك وأنا أتحمّل بوفاء ذلك ودعوا هذا الرجل فإن كان

كاذبا ولي قتله غيركم من العرب فإن فيهم رجالا لكم فيهم قرابة قريبة وإنكم إن تقتلوهم لا يزال الرجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه وأخيه أو ابن أخيه أو ابن عمه فيورث ذلك فيهم احنا وضغائن وإن كان هذا الرجل ملكا كنتم في ملك أخيكم وإن كان نبيا لم تقتلون النبي فتيسؤا به ولن تخلصوا إليهم حتى يصيبوا أعداءهم ولا آمن أن يكون لكم الدبرة عليهم فحسده أبو جهل على مقاتله وأبى الله إلا أن ينفذ أمره وعمد أبو جهل إلى ابن الحضرمي - وهو أخو المقتول - فقال : هذا عتبة يخذل بين الناس وقد تحمل بدية أخيك يزعم أنك قابلها أفلا تسحيون من ذلك أن تقبلوا الدية ؟ فزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو ينظر إلى عتبة : إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر وإن يطيعوه يرشدوا

فلما حرض أبو جهل قريشا على القتال أمر النساء يعولن عمر

فقمن يصحن : واعمره واعمراه

! تحريضا على القتال فاجتمعت قريش على القتال فقال عتبة لأبي جهل : سيعلم اليوم أي

الأميرين أرشد

وأخذت قريش مصاف هذا القتال وقالوا العمير بن وهب : اركب فاحذر محمدا

وأصحابه

فقعد عمير على فرسه فأطاف برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم رجع إلى



المشركين فقال : حذرتهم بثلاثمائة مقاتل زادوا شيئاً أو نقصوا شيئاً وحذرت سبعين بعيراً ونحو ذلك ولكن أنظروني حتى أنظر هل لهم مدد أو كمين فأطاف حولهم وبعثوا خيالهم معه فأطافوا حولهم ثم رجعوا فقالوا : لا مدد لهم ولا كمين وإنما هم أكلة جزور وقالوا لعмир حرش بين القوم فحمل عمير على الصف بمائة فارس

(139/306)

---

واضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لأصحابه : لا نقاتلوا حتى أوذنكم وغشيه نوم فغلبه فلما نظر بعض القوم إلى بعض جعل أبو بكر يقول : يا رسول الله قد دنا القوم ونالوا منا

! فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أراه الله إياهم في منامه قليلاً وقلل المسلمين في أعين المشركين حتى طمع بعض القوم في بعض ولو أراه عدداً كثيراً لفشلوا وتنازعوا في الأمر كما قال الله وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فوعظهم وأخبرهم أن الله قد أوجب الجنة لمن استشهد اليوم فقام عمير بن الحمام من عجين كان يعجنه لأصحابه حين سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن لي الجنة إن قتلت ؟ قال : نعم

فشد على أعداء الله مكانه فاستشهد وكان أول قتيل قتل ثم أقبل الأسود بن عبد الأسد  
المخزومي يحلف بأهته ليشر بن من الحوض الذي صنع محمد وليهد منه فلما دنا من الحوض  
لقيه حمزة بن عبد المطلب فضرب رجله فقطعها فأقبل يجبو حتى وقع في جوف الحوض  
وأتبعه حمزة حتى قتله ثم نزل عتبة بن ربيعة عن جملة ونادى : هل من مبارز ولحقه أخوه  
شيبة والوليد ابنه فناديا يسألان المبارزة فقام إليهم ثلاثة من الأنصار فاستحيا النبي صلى  
الله عليه وسلم من ذلك فناداهم أن ارجعوا إلى مصافكم وليقم إليهم بنو عمهم  
فقام حمزة وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب فقتل حمزة عتبة وقتل عبيدة  
شيبة وقتل علي الوليد وضرب شيبة رجل عبيدة فقطعها فاستنقذه حمزة وعلي فحمل  
حتى توفي بالصفراء وعند ذلك نذرت هند بنت عتبة لتأكلن من كبدة حمزة إن قدرت عليها  
فكان قتل هؤلاء نفر قبل التقاء الجمعين

(140/306)

---

وعج المسلمون إلى الله يسألونه النصر حين رأوا القتال قد نشب ورفع رسول الله صلى الله  
عليه وسلم يديه إلى الله يسأله ما وعده ويسأله النصر ويقول : اللهم إن ظهر على هذه  
العصابة ظهر الشرك ولم يبق لك دين وأبو بكر يقول : يا رسول الله والذي نفسي بيده

لينصرك الله وليبيضن وجهك فأنزل الله جنداً في أكفاف العدو فقال رسول الله: قد أنزل  
الله نصره: ونزلت الملائكة عليهم السلام أبشريا أبا بكر فإني قد رأيت جبريل معتجراً يقود  
فرساً بين السماء والأرض فلما هبط إلى الأرض جلس عليها فتغيب عني ساعة ثم رأيت  
على شفته غباراً

وقال أبو جهل: اللهم انصر خير الدينين اللهم ديننا القديم ودين محمد الحديث ونكص  
الشیطان على عقبه حين رأى الملائكة عليهم السلام وتبرأ من نصره أصحابه وأخذ  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ملء كفه من الحصباء فرمى بها وجوه المشركين فجعل الله  
تلك الحصباء عظيماً شأنها لم يترك من المشركين رجلاً إلا ملأت عينيه والملائكة عليهم  
السلام يقتلونهم ويأسرونهم ويجدون النفر كل رجل منهم مكباً على وجهه لا يدري أن  
يتوجه يعالج التراب ينزعه من عينيه

ورجعت قريش إلى مكة منهزمين مغلوبين وأذل الله بوقعة بدر رقاب المشركين والمنافقين فلم  
يبق بالمدينة منافق ولا يهودي إلا وهو خاضع عنقه لوقعة بدر وكان ذلك يوم الفرقان يوم فرق  
الله بين الشرك والإيمان وقالت اليهود تيقنا: أنه النبي الذي نجد نعمة في التوراة والله لا يرفع  
راية بعد اليوم إلا ظهرت

ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فدخل من ثنية الوداع ونزل القرآن يعرفهم  
الله نعمته فيما كرهوا من خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فقال كما

أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون هذه الآية وثلاث آيات معها  
وقال فيما استجاب للرسول للمؤمنين إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم الأنفال الآية 9  
الآية

(141/306)

---

وأخرى معها وأنزل فيما غشيتهم من النعاس إذ يغشيكم النعاس الأنفال الآية 11 الآية  
ثم أخبرهم بما أوحى إلى الملائكة من نصرهم فقال إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم  
الأنفال الآية 12 الآية والتي بعدها  
وأنزل في قتل المشركين والقبضة التي رمى بها رسول الله فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم الأنفال  
الآية 17 الآية والتي بعدها  
وأنزل في استفتاحهم إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح الأنفال الآية 19 ثم أنزل يا أيها الذين  
آمنوا أطيعوا الله ورسوله في سبع آيات منها وأنزل في منازلهم إذ أنتم بالعدوة الدنيا الأنفال  
الآية 42 الآية والتي بعدها وأنزل فيما تكلم به من رأى قلة المسلمين غر هؤلاء دينهم الأنفال  
الآية 49 الآية وأنزل في قتلى المشركين ومن اتبعهم ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الأنفال الآية  
50 الآية وثمان آيات معها

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وَإِذْ يَدْعُكُمْ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفِينَ ﴾ قال " أقبلت غير أهل مكة من الشام فبلغ أهل المدينة ذلك ، فخرجوا ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد العير ، فبلغ أهل مكة ذلك فخرجوا ، فأسرعوا السير إليها لكي لا يغلب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فسبقت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الله عز وجل وعدهم إحدى الطائفتين ، وكانوا أن يلقوا العير أحب إليهم وأيسر شوكة وأخصر نفراً ، فلما سبقت العير وفاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين يريد القوم ، فكره القوم مسيرهم لشوكة القوم ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة ، فأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ فوسوس بينهم ، يوسوسهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجننين ، وأمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا ، فأذهب الله عنهم رجز الشيطان واشف الرمل من إصابة المطر ، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من

الملائكة عليهم السلام ، فكان جبريل عليه السلام في خمسمائة من الملائكة مجنبة ،  
وميكائيل في خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وجاء إبليس في جند معه راية في صورة رجال  
من بني مدج ، والشيطان في صورة سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين  
﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ [ الأنفال : 48 ] فلما اصطف القوم  
قال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره . ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال :  
يا رب إن تهلك هذه العصاة في الأرض فلن تعبد في الأرض أبداً . فقال له جبريل : خذ  
قبضة من التراب فأرم به وجوههم ، فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخره  
وفمه

(143/306)

---

من تلك القبضة فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام فلما رآه إبليس وكانت يده في يد  
رجل من المشركين ، انتزع إبليس يده ثم ولى مدبراً وشيعته فقال الرجل : يا سراقه أنتزعم  
أنك لنا جار ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله والله شديد العقاب ، فذلك  
حين رأى الملائكة " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي

الله عنه في قوله ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ قال : الطائفتان احداهما أبو سفيان أقبل بالغير من الشام ، والطائفة الأخرى أبو جهل بن هشام معه نفر من قريش ، فكره المسلمون الشوكة والقتال وأحبوا أن يلتقوا الغير ، وأراد الله ما أراد .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ قال : هي غير أبي سفيان ، ودّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إن الغير كانت لهم وإن القتال صرف عنهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ أي يستأصلهم .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبه وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر : عليك الغير ليس دونها شيء ، فناده العباس رضي الله عنه وهو في وثاقه أسير : أنه لا يصلح لك . قال : ولم ؟ قال : لأن الله إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك . قال : صدقت .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: "لِيُحِقَّ" فيه وجهان:

أحدهما: أنه متعلقٌ بما قبله، أي: ويقطع ليحق الحقَّ، والثاني: أن يتعلَّقَ، بمحذوفٍ تقديره: ليحقَّ الحقَّ فعل ذلك، أي: ما فعله إلاَّهما، وهو إثباتُ الإسلامِ وإظهاره وزوالُ الكُفْرِ ومحقُّه.

قال الزمخشريُّ: "ويجب أن يُقدَّرَ المحذوفُ مؤخرًا ليفيد الاختصاص وينطبق عليه المعنى".

وهذا على رأيه، وهو الصحيح. انتهى انتهى. ١٠ هـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص

﴿ 458

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8) ﴾

ليحق الحقَّ بالتوفيق فيما يحصل ببذل المجهود، والتحقيق لما يظهر من عين الجود.



ويقال لِيُحِقَّ الْحَقَّ بِنَشْرِ أَعْلَامِ الْوَصْلِ ، وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ بِقَهْرِ أَقْسَامِ الْهَزْلِ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 605 ﴾

(145/306)

قوله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ

﴿ 9 ﴾

"فصل"

قال البقاعي :

﴿ إِذْ ﴾ ظرف ﴿ ليحق الحق ﴾ ﴿ تستغيثون ربكم ﴾ أي تطلبون إغاثة المحسن إليكم

، وهو بدل من ﴿ إذ يعدكم ﴾ فهو من البيان لكرهتهم لقاء ذات الشوكة بشدة جزعهم

الموجب لهم الاستغاثة مع إسفار العاقبة عن أن الخير فيما كرهوه ، وأنه أحق الحق وأظهر

الدين وأوهن أمر المشركين .

ولما أسرع سبحانه الإجابة ، دل على ذلك بقوله : ﴿ فاستجاب ﴾ أي فأوجد الإجابة

إيجاد من هو طالب لها شديد الرغبة فيها ﴿ لكم ﴾ بغاية ما تريدون تشيئاً لقلوبكم

﴿ أني ﴾ أي باني ﴿ ممدكم ﴾ أي موجد المدد " لكم " أي يمدادكم ، ولعله حول العبارة

لما في التصريح بضميره من العظمة والبركة ﴿ بألف من الملائكة ﴾ حال كونهم  
﴿ مردفين ﴾ أي متبعين بأمثالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 190 ﴾

(146/306)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنه يحق الحق ويبطل الباطل ، بين أنه تعالى نصرهم عند  
الاستغاثة ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

يجوز أن يكون العامل في ﴿ إِذْ ﴾ هو قوله : ﴿ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ ﴾ فتكون الآية متصلة بما  
قبلها ، ويجوز أن تكون الآية مستأنفة على تقدير واذكروا إذ تستغيثون .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ ﴾ قولان :

القول الأول : أن هذه الاستغاثة كانت من الرسول عليه السلام .

قال ابن عباس : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف ، استقبل القبلة ومد يده وهو يقول : " اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض " ولم يزل كذلك حتى سقط رداؤه وورده أبو بكر ثم التزمه ثم قال : كفاك يا نبي الله مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فنزلت هذه الآية ولما اصطفت القوم قال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره ورفع رسول الله يده بالدعاء المذكور .

القول الثاني : أن هذه الاستغاثة كانت من جماعة المؤمنين لأن الوجه الذي لأجله أقدم الرسول على الاستغاثة كان حاصلًا فيهم ، بل خوفهم كان أشد من خوف الرسول ، فالأقرب أنه دعا عليه السلام وتضرع على ما روي ، والقوم كانوا يؤمنون على دعائه تابعين له في الدعاء في أنفسهم فنقل دعاء رسول الله لأنه رفع بذلك الدعاء صوته ، ولم ينقل دعاء القوم ، فهذا هو طريق الجمع بين الروايات المختلفة في هذا الباب .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ إِذِ تَسْتَغِيثُونَ ﴾ أي تطلبون الإغاثة يقول الواقع في بلية أغثنى أي فرج عني .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم الاستغاثة بين أنه تعالى إجابهم .

وقال : ﴿ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله: ﴿أَنْي مُمِدُّكُمْ﴾ أصله بأنني ممدكم، فحذف الجار وسلط عليه استجاب،  
فنصب محله، وعن أبي عمرو: أنه قرأ ﴿أَنْي مُمِدُّكُمْ﴾ بالكسر على إرادة القول أو على  
إجراء استجاب مجرى قال لأن الاستجابة من القول.

#### المسألة الثانية:

قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بفتح الدال والباقون بكسرها.  
قال الفراء: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي متتابعين يأتي بعضهم في أثر بعض كالقوم الذين أردفوا على  
الدواب و ﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي فعل بهم ذلك، ومعناه أنه تعالى أردف المسلمين وأيدهم بهم.

#### المسألة الثالثة:

اختلفوا في أن الملائكة هل قاتلوا يوم بدر؟ فقال قوم نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة  
ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة، وفيها علي بن أبي  
طالب في صورة الرجال عليهم ثيابهم بيض وقاتلوا.

وقيل قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ويوم حنين، وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود:  
من أين كان الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصاً قال هو من الملائكة فقال أبو جهل: هم

غلبونا لا أتم ، وروى أن رجلاً من المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالصوت فوقه فنظر إلى المشرك وقد خر مستلقياً وقد شق وجهه فحدث الأنصاري رسول الله فقال صدقت .

ذاك من مدد السماء ، وقال آخرون : لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين ، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك الدنيا كلها فإن جبريل أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط وأهلك بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة ، والكلام في كيفية هذا الإمداد المذكور في سورة آل عمران بالاستقصاء والذي يدل على صحة أن الملائكة ما نزلوا للقتال قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴾ . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ مفاتيح الغيب - 15 ص 104 .

﴿ 105

(148/306)

وقال السمرقندي :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى كثرة المشركين ، علم أنه لا قوة لهم إلا بالله ، فدعا ربه فقال : " اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي النَّصْرَ ، وَإِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ " .

فاستجاب له ربه ونزل ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ يقول: واذكروا إذ تسألون ربكم  
وتدعونه يوم بدر بالنصرة على عدوكم.

﴿ فاستجاب لكم ﴾ ، يعني فأجابكم ربكم: ﴿ أَنِّي مُدِّدُكُمْ ﴾ ، يعني أزيدكم  
بألفٍ من الملائكة مُرْدِفِينَ ﴾ ، يعني متابعين بعضهم على أثر بعض .

قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ بالنصب ، وقرأ الباقون بالكسر ؛  
وكلاهما يرجع إلى معنى واحد وهو التابع .

وقال عكرمة : أمد هم يوم بدر بألف من الملائكة ، وعددهم ثلاثة آلاف من الملائكة لغزوة  
بعده بدعائه وزاده ألفين فذلك خمسة آلاف من الملائكة ويقال هذا كله كان يوم بدر . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

(149/306)

وقال الثعلبي :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾

أي تستجيرون به من عدوكم وتسالونه النصر عليهم ، قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه  
: " لما كان يوم بدر ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كثرة المشركين وقلة المسلمين

دخل العرش هو وأبو بكر واستقبل القبلة وجعل يدعو ويقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم  
إن تهلك هذه العصاة لا تعبد في الأرض، فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه وأخذ أبو بكر  
رداءه وألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفى مناشدتك ربك فإن الله  
سينجز لك ما وعدك " ﴿ فاستجاب لكم أني ﴾ أي باني . وقرأ عيسى: إني بكسر  
الألف وقال إني ﴿ ممدكم ﴾ وزائدكم ومرسل إليكم مدداً ﴿ بألف من الملائكة مردفين  
﴿ قرأ أهل المدينة: مردفين بفتح الدال والباقون بكسره، لغتان متابعين بعضهم في أثر  
بعض يقال: اردفه وردفته بمعنى تبعته قال الشاعر:

إذا الجوزاء أردفت الثريا . . . ظننت بال فاطمة الظنونا

أراد ردت جاءت بعدها، لأن الجوزاء تطلع بعد الثريا ومن فتح فعلى المفعول، أي أردف  
الله المسلمين وجاءهم به فأمدهم الله بالملائكة ونزل جبرئيل في خمسمائة ملك مجنبة على  
الميمنة فيها أبو بكر رضي الله عنه ونزل ميكائيل في خمسمائة على اليسرة وفيها علي كرم  
الله وجهه وهم في صورة الرجال عليهم ثياب بيض، وعمائم بيض أرخوا ما بين أكتافهم،  
فقاتلت الملائكة يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ولا يوم حنين ولا تقاتل أبداً إنما يكونون حدداً  
أو مدداً .

وقال ابن عباس: " بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع ضربة  
بالسوط فوقه وصوت لفارس يقول قدم حيزوم ونظر إلى المشرك أمامه خرّ مستلقياً، فنظر

إليه فإذا هو قد حُطِمَ وشُقَّ وجهه كضربة السوط فجاء الرجل فحدّث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " صدقت ذلك من مدد السماء " فقتلوا يومئذ سبعين وأسرُوا سبعين " .

قال مجاهد : ما مُدَّ النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكر الله تعالى غير الألف من الملائكة ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ التي ذكر الله في الأنفال وأما الثلاثة والخمسة فكانت بُشْرَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(150/306)

---

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : تستنصرون .

الثاني : تستجيرون .

والفرق بين المستنصر والمستجير أن المستنصر : طالب الظفر ، والمستجير : طالب

الخلاص .



والفرق بين المستغيث والمستعين أن المستغيث : المسلوب القدرة ، والمستعين الضعيف القدرة .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ أي فأعانكم .

والفرق بين الاستجابة والإجابة أن الإجابة ما لم يتقدمها امتناع . ﴿ أَنِّي مُمَدِّكُمْ بِالْأَلْفِ مَنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : مع كل ملك ملك ، وهو قول ابن عباس فتكون الألف ألفين . قال الشاعر :

إذا الجوزاء أردفت الثريا . . . ظننت بال فاطمة الظنونا

الثاني : معناه متابعين ، قاله السدي ، وقناة .

الثالث : معنى مردفين أي ممدّين ، والإرداف إمداد المسلمين بهم ، قاله مجاهد . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(151/306)

---

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الآية ،

﴿ إِذْ ﴾ متعلقة بفعل ، تقديره واذكر إذ وهو الفعل الأول الذي عمل في قوله ﴿ وَإِذْ يَدْعُكُمْ

﴿ [الأنفال الآية: 7] وقال الطبري: هي متعلقة ب ﴿ يحق . . ويبطل ﴾ .

قال القاضي أبو محمد: ويصح أن يعمل فيها ﴿ يعدكم ﴾ [الأنفال: 7] فإن الوعد كان

في وقت الاستغاثة، وقرأ أبو عمرو ويادغام الذال في التاء واستحسنها أبو حاتم، و﴿

تستغيثون ﴾ معناه تطلبون، وليس يبين من ألفاظ هذه الآية أن المؤمنين علموا قبل القتال

بكون الملائكة معهم، فإن استجاب يمكن أن يقع في غيبه تعالى، وقد روي أنهم علموا ذلك

قبل القتال، ومعنى التأنيس وتقوية القلوب يقتضي ذلك، وقرأ جمهور الناس "أني" بفتح

الألف، وقرأ أبو عمرو في بعض ما روي عنه وعيسى بن عمر بخلاف عنه "إني" بكسر

الألف أي قال إني، و﴿ ممدكم ﴾ أي مكثركم ومقويكم من أمددت. وقرأ جمهور الناس "

بألف" وقرأ عاصم الجحدري "بألف" على مثل فلس وأفلس فهي جمع ألف، والإشارة

بها إلى الآلاف المذكورة في آل عمران، وقرأ عاصم الجحدري أيضاً "بالآف" و﴿ مردفين

﴿ معناه متبعين، ويحتمل أن يراد المردين المؤمنين أي أردفوا بالملائكة ف ﴾ مردفين

على هذا حال من الضمير في قوله ﴿ ممدكم ﴾ ويحتمل أن يراد به الملائكة أي أردف

بعضهم بعض غير نافع "مردفين" بكسر الدال وهي قراءة الحسن ومجاهد والمعنى فيها تابع

بعضهم بعضاً وروي عن ابن عباس خلف كل ملك ملك، وهذا معنى التابع يقال ردف

وأردف إذا أتبع وجاء بعد الشيء، ويحتمل أن يراد مردفين المؤمنين.

ويحتمل أن يراد مردفين بعضهم بعضاً، ومن قال "مردفين" بمعنى أن كل ملك أردف ملكاً

وراءه فقول ضعيف لم يأت بمقتضاه رواية، وقرأ رجل من أهل مكة رواه عنه الخليل " مردّفين " بفتح الراء وكسر الدال وشدها .

(152/306)

---

وروي عن الخليل أنها بضم الراء كالتي قبلها وفي غير ذلك، وقرأ بعض الناس بكسر الراء مثلها في غير ذلك، حكى ذلك أبو عمرو عن سيبويه، وحكاه أبو حاتم قال: كأنه أراد مرتدّفين فأدغم وأتبع الحركة ويحسن مع هذه القراءة كسر الميم ولا أحفظه قراءة، وأنشد الطبري شاهداً على أن أردف بمعنى جاء تابعاً قول الشاعر [ خزيمة بن مالك ] : [ الوافر ]

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثريا . . . ظننتُ بالِ فاطمةَ الظنونا

والثريا تطلع قبل الجوزاء وروي في الأشهر أن الملائكة قاتلت يوم بدر، واختلف في غيره من مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قيل: لم تقاتل يوم بدر وإنما وقفت وحضرت وهذا ضعيف، وحكى الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: نزل جبريل في ألف ملك على ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أبو بكر ونزل ميكائيل في ألف ملك في المسيرة وأنا فيها، وقال ابن عباس: كانا في خمسمائة خمسمائة، وقال الزجاج

قال بعضهم: إن الملائكة خمسة آلاف، وقال بعضهم: تسعة آلاف، وفي هذا المعنى  
أحاديث هي مستوعبة في كتاب السير. انتهى انتهى. اهـ ﴿الحرر الوجيز ح 2 ص﴾

(153/306)

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾

سبب نزولها ما روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، نظر النبي  
صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلاثمائة وتيف، ونظر إلى المشركين وهم ألف  
وزيادة، فاستقبل القبلة، ثم مَدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: "اللهم أنجز ما وعدتني  
، اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم إنك إن تُهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض أبداً" فما زال  
يستغيث ربه ويدعوه، حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر الصديق فأخذ رداءه فرداه به، ثم  
التممه من ورائه، وقال: يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك، فانه سينجز لك ما وعدك؛  
وأُنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿إِذْ﴾ قال ابن جرير: هي من صلة "يبطل".

وفي قوله: ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ قولان.

أحدهما : تستنصرون .

والثاني : تستجيرون .

والفرق بينهما أن المستنصر يطلب الظفر ، والمستجير يطلب الخلاص .

وفي المستغيثين قولان .

أحدهما : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، قاله الزهري .

والثاني : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله السدي .

فأما الإمداد فقد سبق في [آل عمران : 124] .

وقوله : ﴿ بألف ﴾ قرأ الضحاك ، وأبورجاء : "بألف" بهمزة ممدودة وبألف على

الجمع .

وقرأ أبو العالية ، وأبو المتوكل : "بالوف" برفع الهمزة واللام وبواو بعدها على الجمع .

وقرأ ابن حذلم ، والجحدري ، "بالف" بضم الألف واللام من غير واو ولا ألف ، وقرأ أبو

الجوزاء ، وأبو عمران : "بيلف" بياء مفتوحة وسكون اللام من غير واو ولا ألف ، فأما قوله

: ﴿ مردفين ﴾ فقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي :

"مردفين" بكسر الدال .

قال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، والفراء : هم المتتابعون .

وقال أبو علي : يحتمل وجهين .

أحدهما : أن يكونوا مردفين مثلهم ، تقول : أردفت زيدا دابتي ؛ فيكون المفعول الثاني محذوفاً في الآية .

والثاني : أن يكونوا جاؤوا بعدهم ؛ تقول العرب : بنو فلان مردوفونا ، أي : هم يجيئون بعدنا .

قال أبو عبيدة : مردفين : جاؤوا بعدُ .

وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : " مردفين " بفتح الدال .

قال الفراء : أراد : فعلَ ذلك بهم ، أي :

إن الله أردف المسلمين بهم .

وقرأ معاذ القاري ، وأبو المتوكل الناجي ، وأبو مجلز : " مُردِّفين " بفتح الراء والدال مع

التشديد .

وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران " مُردِّفين " برفع الراء وكسر الدال .

وقال الزجاج : يقال : ردت الرجل : إذا ركبت خلفه ، وأردفته : إذا أركبته خلفي .

ويقال : هذه دابة لا تُردِف .

ولا يقال: لا تُردِف .

ويقال: أردفتُ الرجلَ: إذا جئتَ بعده .

فمعنى "مردفين" يأتون فرقة بعد فرقة .

ويجوز في اللغة مُرَدِّفِين ومُرَدِّفِين ومُرَدِّفِين ، فالدال مكسورة مشددة على كل حال ، والراء يجوز فيها الفتح والضم والكسر .

قال سيبويه: الأصل مرتدفين ، فأدغمت التاء في الدال فصارت مُرَدِّفِين لأنك طرحت حركة التاء على الراء ؛ وإن شئت لم تطرح حركة التاء ، وكسرت الراء لالتقاء الساكنين .  
والذين ضموا الراء ، جعلوها تابعة لضممة الميم .

وقد سبق في [آل عمران] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(155/306)

وقال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾

الاستغاثة: طلب الغوث والتَّصْر .

غوث الرجل قال: واغوثاه .

والاسم الغوث والغوث والغوث .

واستغاثني فلان فأغثته ؛ والاسم الغياث ؛ عن الجوهري .

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : " لما كان يوم بدر نظر رسول الله

صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً ؛

فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ، ثم مَدَّ يديه ، فجعل يهتف بربه : " اللهم أنجز

لي ما وعدتني .

اللهم ائتني ما وعدتني .

اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض " .

فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه .

فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله ، كهناك

مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك " فأنزل الله تعالى : ﴿ إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

فاستجاب لكم أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ فأمده الله بالملائكة .

وذكر الحديث .

﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ بفتح الدال قراءة نافع .

والباقون بالكسر اسم فاعل ، أي متابعين ، تأتي فرقة بعد فرقة ، وذلك أهيب في العيون .

و"مُردفين" بفتح الدال على ما لم يسم فاعله ؛ لأن الناس الذين قاتلوا يوم بدر أُرْدِفُوا بألف



من الملائكة ، أي أنزلوا إليهم لمعوتهم على الكفار .

فمردفين بفتح الدال نعت لألف .

وقيل : هو حال من الضمير المنصوب في "ممدُّكم" .

أي ممدِّكم في حال إردافكم بألف من الملائكة ؛ وهذا مذهب مجاهد .

وحكى أبو عبيدة أن ردّفي وأردفني واحد .

وأنكر أبو عبيدة أن يكون أردف بمعنى ردّف ؛ قال لقول الله عز وجل : ﴿ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ

﴿ [النازعات : 7] ولم يقل المرْدِفَةُ .

قال النحاس ومكّي وغيرهما : وقراءة كسر الدال أولى ؛ لأن أهل التأويل على هذه القراءة

يفسرون .

(156/306)

---

أي أردف بعضهم بعضاً ، ولأن فيها معنى الفتح على ما حكى أبو عبيدة ، ولأن عليه أكثر

القراء .

قال سيبويه : وقرأ بعضهم "مردّفين" بفتح الراء وشدّ الدال .

وبعضهم "مردّفين" بكسر الراء .

وبعضهم "مُردِّفين" بضم الراء .

والدال مكسورة مشددة في القراءات الثلاث .

فالقراءة الأولى تقديرها عند سيبويه مرتدّفين ، ثم أدغم التاء في الدال ، وألقى حركتها على

الراء لتلايلتقي ساكنان .

والثانية كسرت فيها الراء لالتقاء الساكنين .

وضمت الراء في الثالثة إتباعاً لضمة الميم ؛ كما تقول : ردّ وردّ وردّ يا هذا .

وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدري : " بالّف " جمع ألف ؛ مثل فلس وأفلس .

وعنهما أيضاً " بالّف " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

(157/306)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾

أي واذكرا يا محمد إذ تستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر وفي

المستغيثين قولان أحدهما أنه رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) والمسلمون معه قاله

الزهري والقول الثاني : أنه رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وحده وإنما ذكره بلفظ

الجمع على سبيل التعظيم له (م) عن ابن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب قال : " لما كان يوم بدر نظر رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ( صلى الله عليه وسلم ) القبلة ثم مديده فجعل يهتف بربه يقول : " اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض " فما زال يهتف بربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فالتقاء على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله إذ تستغيثون ربكم ﴿ فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ فأمده الله بالملائكة .

قال سماك : فحدثني ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقياً فنظر إليه فإذا قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السيف فأحصى ذلك أجمع وجاء فحدث بذلك رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال : صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة .

فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقوله سبحانه وتعالى فاستجاب لكم ، يعني فأجاب دعاءكم أني ممدكم أصله بأنني ممدكم أي مرسل إليكم مدداً ورداءً لكم بألف من الملائكة مردفين ، يعني : يردف بعضهم بعضاً بمعنى يتبع بعضهم بعضاً .

روي أنه نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة وميكائيل عليه السلام في خمسمائة في صور الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوها بين أكتافهم .  
وروي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما ناشد ربه وقال أبو بكر إن الله سينجز لك ما وعدك خفق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خفقة وهو في العرش ثم انتبه فقال : يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (خ) .  
عن ابن عباس أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال يوم بدر : " هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب " يعني آلة الحرب قال ابن عباس : كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر ولم تقا تل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام وكانوا يكونون فيما سواه عدداً ومدداً .

وروي عن أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدرًا أنه قال بعد ما ذهب بصره لو كنت معكم اليوم ببدر ومعى بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت من الملائكة تقدم الكلام في سورة آل عمران هل قاتلت الملائكة أم لا والصحيح أنهم قاتلوا يوم بدر لما تقدم من حديث ابن عباس في الذي ضربه بالسوط فحطم أنفه وشق وجهه وكانوا فيما سوى يوم

بدر مدداً وعوناً قيل إنهم لم يقاتلوا وإنما نزلوا ليكثروا سواد المسلمين ويثبثوهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن - 3 ص ﴾

(159/306)

وقال أبو حيان :

﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألفٍ من الملائكة مردفين ﴾ .

استغاث طلب الغوث لما علموا أنه لا بدّ من القتال شرعوا في طلب الغوث من الله تعالى

والدعاء بالنصرة والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله وإذ ﴿ يعدكم ﴾ ﴿ وتودّون

﴿ وأن الخطاب في قوله ﴿ كما أخرجك ﴾ ﴿ ويجادلونك ﴾ هو خطاب للرسول

ولذلك أفرد فالخطابان مختلفان ، وقيل المستغيث هو النبي (صلى الله عليه وسلم) ،

وروي عن ابن عباس أنه قال : حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر

نظر إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف وإلى المشركين وهم ألف فاستقبل القبلة ومدّ يده وهو

يقول : " اللهم أنجزني ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض " ولم ينزل

كذلك حتى سقط رداؤه فرده أبو بكر رضي الله عنه كفأك يا رسول الله مناشدتك الله

فإنه سينجز لك ما وعدك ، قالوا فيكون من خطاب الواحد المعظم خطاب الجميع ،

وروي أن أبا جهل عندما اصطفّ القوم قال : اللهم أولانا بالحق فانصره ﴿ ﴾ وإذ ﴿ ﴾ بدل من  
﴿ ﴾ إذ يعدكم ﴿ ﴾ قاله الزمخشري وابن عطية وكان قد قدم أن العامل في ﴿ ﴾ إذ يعدكم ﴿ ﴾  
﴿ ﴾ اذكر ﴿ ﴾ ، وقال الطبري هي متعلقة بيحق و ﴿ ﴾ يبطل ﴿ ﴾ وأجاز هو والحويني أن تكون  
منصوبة بيعدكم وأجاز الحويني أن تكون مستأنفة على إضمار واذكروا وأجاز أبو البقاء أن  
تكون ظرفاً لتودون واستغاث يتعدى بنفسه كما هو في الآية ويتعدى بحرف جر كما جاء  
في لفظ سيبويه في باب الاستغاث ، وفي باب ابن مالك في النحو المستغاث ولا يقول المستغاث  
به وكأنه لما رآه في القرآن تعدى بنفسه قال المستغاث ولم يعده بالباء كما عداه سيبويه  
والنحويون وزعم أن كلام العرب بخلاف ذلك وكلامه مسموع من كلام العرب فما جاء  
معدى بالباء قول الشاعر :

حتى استغاث بباء لا رشاء له . . .

من الأباطح في حاجاته البرك

مكلل بأصول النبت تنسجه . . .

ريح حريق لضاحي مائه حبيك

كما استغاث بشيء قبر عنطلة . . .

خاف العيون ولم ينظر به الحشك

وقرأ الجمهور ﴿ أني ﴾ بفتح أي بآني وعيسى بن عمرو رواها عن أبي عمرو وإني بكسرها على إضمار القول على مذهب البصريين أو على الحكاية باستجاب لإجرائه مجرى الفعل إذ سوى في معناه وتقدم الكلام في شرح استجاب .

وقرأ الجمهور ﴿ بألف ﴾ على التوحيد والمحدري بألف على وزن أفلس وعنه وعن السدي بألف والجمع بين الأفراد والجمع أن يحمل الأفراد على من قاتل منهم أو على الوجوه الذين من سواهم اتباع لهم ؛ وقرأ نافع وجماعة من أهل المدينة وغيرهم مردفين بفتح الدال وباقي السبعة والحسن ومجاهد بكسرها أي متابعاً بعضهم بعضاً ، وروي عن ابن عباس : خلف كل ملك ملك وراءه .

وقرأ بعض المكيين فيما روى عنه الخليل بن أحمد وحكاه عن ابن عطية ﴿ مردفين ﴾ بفتح الراء وكسر الدال مشددة أصله مرتدين فادغم ؛ وقال أبو الفضل الرازي وقد يجوز فتح الراء فراراً إلى أخف الحركات أو لثقل حركة التاء إلى الراء عند الإدغام ولا يعرف فيه أثراً انتهى ؛ وروي عن الخليل أنه يضم الراء اتباعاً لحركة الميم لقولهم مخضم ؛ وقرئ كذلك إلا أنه بكسر الراء اتباعاً لحركة الدال أو حركت بالكسر على أصل التقاء الساكنين .

قال ابن عطية: ويجسن مع هذه القراءة كسر الميم ولا أحفظه قراءة كقولهم مخصم، وتقدم الكلام في عدد الملائكة وهل قاتلت أم لم تقا تل في آل عمران ولم تعرض الآية لقتالهم والظاهر أن قراءة من قرأ ﴿ مردفين ﴾ بسكون الراء وفتح الدال أنه صفة لقوله ﴿ بألف ﴾ أي أردف بعضهم لبعض؛ قال ابن عطية: ويحتمل أن يراد بالمردين المؤمنين أي أردفوا بالملائكة فمردين على هذا حال من الضمير قال الزمخشري وأردفته إياه إذا اتبعته ويقال أردفته كقولك اتبعته إذا جئت بعده فلا يخلو المسكور الدال أن يكون بمعنى متبعين أو متبعين فإن كان بمعنى متبعين فلا يخلو أن يكون بمعنى متبعين بعضهم بعضاً أو متبعين بعضهم لبعض أو بمعنى متبعين إياهم المؤمنون أي يتقدمونهم فيتبعونهم أنفسهم أو متبعين لهم يشيعوهم ويتقدمونهم بين أيديهم وهم على ساقهم ليكونوا على أعينهم وحفظهم أو بمعنى متبعين أنفسهم ملائكة آخرين أو متبعين غيرهم من الملائكة ويعضد هذا الوجه قوله تعالى في سورة آل عمران

﴿ بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ ﴿ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ انتهى .  
وهذا تكثير في الكلام وملخصه أن اتبع مشدداً يتعدى إلى واحد واتبع مخففاً يتعدى إلى



اثنين وأردف أتى بمعناهما والمفعول لاتبع محذوف والمفعولان لاتبع محذوفان فيقدر ما يصح

به المعنى وقوله أو متبعين إياهم المؤمنين هذا ليس من مواضع فصل الضمير بل مما يتصل  
وتحذف له النون لا يقال هؤلاء كاسون إياك ثوباً بل يقال كاسوك فتصحيحه أن يقول أو بمعنى  
متبعيهم المؤمنين أو يقول أو بمعنى متبعين أنفسهم المؤمنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر

المحيط ح 4 ص ﴿

(162/306)

وقال أبو السعود :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾

بدل من إذ يعدكم معمول لعامله ، فالمراد تذكيراً استمداً دهم منه سبحانه والتجاءهم إليه  
تعالى حين ضاقت عليهم الحيلُ وعيَّتْ بهم العِللُ ، وإمدادهُ تعالى حينئذٍ وقيل : متعلقٌ  
بقوله تعالى ليحِق الحق على الظرفية ، وما قيل من أن قوله تعالى ليحِق مستقبل لأنه منصوبٌ  
بأن فلا يمكن عمله في إذا لأنه ظرف لما مضى ليس بشيء لأن كونه مستقبلاً إنما هو  
بالنسبة إلى زمان ما هو غاية له في الفعل المقدر لا بالنسبة إلى زمان الاستغاثة حتى لا يعمل  
فيه بل هما في وقت واحدٍ وإنما عبر عن زمانها بإذ نظراً إلى زمان النزول ، وصيغةُ

الاستقبال في تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة، وقيل :  
متعلق بمضمر مستأنف أي اذكروا وقت استغاثتكم وذلك أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال  
جعلوا يدعون الله تعالى قائلين : أي رب انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين اغثنا ،  
وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف<sup>١</sup>  
وإلى أصحابه وهو ثلثمائة وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو : " اللهم أنجز لي ما  
وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض " فما زال كذلك حتى سقط رداؤه  
فأخذه أبو بكر رضي الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال : يا نبي الله كفاهك  
مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ) .

(163/306)

---

﴿ فاستجاب لكم ﴾ عطف على تستغيثون داخل معه في حكم التذكير لما عرفت أنه  
ماض وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة ﴿ أني مُمدُّكم ﴾ أي بأني ، فحذف الجار  
وسأط عليه الفعل فنصب محله ، وقرىء بكسر الهمزة على إرادة القول أو على إجراء  
استجاب مجرى قال لأن الاستجابة من مقولة القول ﴿ بألف من الملائكة مُردفين ﴾ أي  
جاعلين غيرهم من الملائكة رديفا لأنفسهم فالمراد بهم رؤسأوهم المستتبعون لغيرهم ، وقد

أَكْفِي هَاهُنَا بِهَذَا الْبَيَانِ الْإِجْمَالِيِّ وَيُنِي فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مَقْدَارُ عَدَدِهِمْ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ مُتَّبِعِينَ أَنْفُسَهُمْ مَلَائِكَةَ آخِرِينَ أَوْ مُتَّبِعِينَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، مِنْ أَرْدَفْتُهُ إِذَا جِئْتُ بَعْدَهُ ، أَوْ مُتَّبِعِينَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا الْمُؤْمِنِينَ أَوْ أَنْفُسَهُمْ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ أَرْدَفْتُهُ إِيَاهُ فَرَدَفَهُ ، وَقُرِئَ مُرْدَفِينَ بِفَتْحِ الدَّالِ أَيُّ مُتَّبِعِينَ أَوْ مُتَّبِعِينَ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُقَدِّمَةَ الْجَيْشِ أَوْ سَاقَتَهُمْ وَقُرِئَ مُرْدَفِينَ بِكَسْرِ الرَّاءِ وَضَمِّهَا وَتَشْدِيدِ الدَّالِ وَأَصْلُهُمَا مُرْتَدَفِينَ بِمَعْنَى مُتْرَدَفِينَ فَادْغَمْتَ التَّاءُ فِي الدَّالِ فَالتَّقَى السَّاكِنَانِ فَحَرَكْتَ الرَّاءَ بِالْكَسْرِ عَلَى الْأَصْلِ أَوْ بِالضَّمِّ عَلَى الْإِتْبَاعِ ، وَقُرِئَ بِالْآلِفِ لِيُؤَافِقَ مَا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ .

وَوَجْهُ التَّوْفِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَشْهُورِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآلِفِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى الْمَقْدِمَةِ أَوْ السَّاقَةِ أَوْ وَجُوهُهُمْ وَأَعْيَانُهُمْ أَوْ مَنْ قَاتَلَ مِنْهُمْ وَاخْتَلَفَ فِي مَقَاتَلَتِهِمْ وَقَدْ رُوِيَ أَخْبَارٌ تُدَلُّ عَلَى وَقُوعِهَا . انْتَهَى . انتهى . اهـ ﴿ تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ح 4 ص ﴾

(164/306)

وقال الألويسي :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾

بدل من ﴿ إِذْ يَعِدُّكُمْ ﴾ [ الأَنْقَالَ : 7 ] وَإِنْ كَانَ زَمَانُ الْوَعْدِ غَيْرَ زَمَانِ الْاسْتِغَاثَةِ لِأَنَّهُ

بتأويل أن الوعد والاستغاثة وقعاً في زمن واسع كما قال الطيب ، قل : وهو يحتمل بدل الكل  
إن جعلاً متسعين وبدل البعض إن جعل الأول متسعاً والثاني معياراً ، وجوز أن يكون  
متعلقاً بقوله سبحانه : ﴿ لِيُحِقَّ ﴾ [ الأنفال : 8 ] واعترض بأنه مستقبل لنصبه بأن ،  
﴿ وَإِذْ ﴾ للزمان الماضي فكيف يعمل بها .  
وأجيب بأن ذلك مبني على ما ذهب إليه بعض النحاة كابن مالك من أن ﴿ إِذْ ﴾ قد  
تكون بمعنى إذا للمستقبل كما في قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْاِغْلَالِ فِيْ اَعْنَاقِهِمْ  
﴿ [ غافر : 70 ، 71 ] .

وقد يجعل من التعبير عن المستقبل بالماضي لتحققه .

وقال بعض المحققين في الجواب : إن كون الإحقاق مستقبلاً إنما هو بالنسبة إلى زمان ما هو  
غاية له من الفعل المقدر لا بالنسبة إلى زمان الاستغاثة حتى لا يعمل فيه بل هما في وقت  
واحد ، وإنما عبر عن زمانها بإذ نظراً إلى زمن النزول ، وصيغة الاستقبال في ﴿ تَسْتَغِيثُونَ ﴾  
﴿ لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة ، وقيل : هو متعلق بمضمر  
مستأنف أي اذكروا ، وقيل : ب ﴿ تودون ﴾ [ الأنفال : 7 ] وليس بشيء ، والاستغاثة  
كما قال غير واحد : طلب الغوث وهو التخليص من الشدة والنقمة والعون ، وهو متعد  
بنفسه ولم يقع في القرآن الكريم إلا كذلك ، وقد يتعدى بالحرف كقوله :  
حتى استغاث بماء لا رشاد له . . .

من الأباطح في حافاته البرك

وكذا استعمله سيبويه وزعم أنه خطأ خطأ ، والظاهر أن المستغيث هم المؤمنون ، قيل :  
إنهم لما علموا أن لا محيص من القتال أخذوا يقولون : أي رب انصرنا على عدوك أغثنا يا  
غياث المستغيثين ، وقال الزهري : إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ،  
وظاهر بعض الأخبار يدل على أنه الرسول عليه الصلاة والسلام .

فقد أخرج أحمد .

ومسلم .

وأبو داود .

(165/306)

---

والترمذي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم قال : حدثني عمر بن الخطاب  
رضي الله تعالى عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم  
ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبلني الله صلى  
الله عليه وسلم القبلة ثم مد يده وجعل يهتف بربه اللهم انجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك  
هذه العصاة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة

حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاهك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فنزلت الآية في ذلك، وعليه فالجمع للتعظيم ﴿ رَبِّكُمْ فَاسْتَجَابْ لَكُمْ ﴾ أي فأجاب دعاءكم عقيب استغاثتكم إياه سبحانه على أتم وجه ﴿ أَنِّي مُمِدُّكُمْ ﴾ أي بأني فحذف الجار، وفي كون المنسبك بعد الحذف منصوباً أو مجروراً خلاف.

وقرأ أبو عمر بالكسر على تقدير القول أو إجراء استجاب مجرى قال لأن الاستجابة من جنس القول، والتأكيد للاعتناء بشأن الخبر، وحمله على تنزيل غير المنكر بمنزلة المنكر بمنزلة المنكر عندي، والمراد بمدكم معينكم وناصركم ﴿ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ أي وراء كل ملك ملك كما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وردف وأردف بمعنى كتبع وأتبع في قول.

وعن الزجاج أن بينهما فرقا فردفت الرجل بمعنى ركبت خلفه وأردفته بمعنى أركبته خلفي، وقال بعضهم: ردفت وأردفت إذا فعلت ذلك فإذا فعلته بغيرك فأردفت لا غير، وجاء أردف بمعنى أتبع مشدداً وهو يتعدى لواحد وبمعنى أتبع مخففاً وهو يتعدى لاثنتين على ما هو المشهور، وبكل فسر هنا، وقد روا المفعول والمفعولين حسبما يصح به المعنى ويقتضيه، وجعلوا الاحتمالات خمسة، احتمالان على المعنى الأول.

---

أحدهما أن يكون الموصوف جملة الملائكة والمفعول المقدر المؤمنين ، والمعنى متبعاً بعضهم بعضاً آخر منهم كرسلم عليهم السلام ، وثلاثة احتمالات على المعنى الثاني .  
الأول : أن يكون الموصوف كل الملائكة والمفعولان بعضهم بعضاً على معنى أنهم جعلوا بعضهم يتبع بعضاً .

الثاني : كذلك إلا أن المفعول الأول بعضهم والثاني المؤمنين على معنى أنهم اتبعوا بعضهم المؤمنين فجعلوا بعضاً منهم خلفهم .

والثالث : كذلك أيضاً إلا أن المفعولين أنفسهم والمؤمنين على معنى أنهم اتبعوا أنفسهم وجعلتهم المؤمنين فجعلوا أنفسهم خلفهم .

وقرأ نافع .

(167/306)

---

ويعقوب ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ بفتح الدال ، وفيه احتمالان أن يكون بمعنى متبعين بالتشديد أي اتبعهم غيرهم ، وأن يكون بمعنى متبعين بالتخفيف أي جعلوا أنفسهم تابعة لغيرهم ، وأريد بالغير في الاحتمالين المؤمنون ، فتكون الملائكة على الأول مقدمة الجيش وعلى الثاني

ساقتهم ، وقد يقال : المراد بالغير آخرون من الملائكة ، وفي الآثار ما يؤيده ، أخرج ابن جرير عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : "نزل جبريل عليه السلام في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أبو بكر رضي الله تعالى عنه ونزل ميكائيل عليه السلام في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنا فيها" لكن في "الكشاف" بدل الألف في الموضعن خمسمائة ، وقرىء ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ بكسر الراء وضمها ، وأصله على هذه القراءة مرتدفين بمعنى مترادفين فأبدلت التاء دالاً لقرب مخرجهما وأدغمت في مثلها فالتقى الساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل ، أو لاتباع الدال أو بالضم لاتباع الميم ، وعن الزجاج أنه يجوز في الراء الفتح أيضاً للتخفيف أو لنقل حركة التاء وهي القراءة التي حكاها الخليل عن بعض المكيين ، وذكر أبو البقاء أنه قرىء بكسر الميم والراء ، ونقل عن بعضهم أن مردفاً بفتح الراء وتشديد الدال من ردف بتضعيف العين أو أن التشديد بدل من الهمزة كأفرحته وفرحته .

ومن الناس من فسر الارتداف بركوب الشخص خلف الآخر وأنكره أبو عبيدة وأيده بعضهم ، وعن السدي أنه قرىء ﴿ بِالْأَفِ ﴾ على الجمع فيوافق ما وقع في سورة أخرى ﴿ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ ﴾ [آل عمران : 124] و ﴿ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ ﴾ [آل عمران : 125] [ قيل : ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالألف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة أو وجوههم أو من قاتل منهم .



وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي أنه قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين وهو جمع

ليس بالجيد .

وأخرج ابن جرير .

(168/306)

---

وعبد بن حميد عن قتادة أنهم أمدوا أولاً بألف ثم بثلاثة آلاف ثم أكملهم الله تعالى خمسة آلاف ، وأنت تعلم أن ظاهر ما روي عن الخبر يقتضي أن ما في الآية ألفان في الحقيقة ، وصرح بعضهم أن ما فيها بيان إجمالي لما في تلك السورة بناءً على أن معنى مردفين جاعلين غيرهم من الملائكة رديفاً لأنفسهم ، وهو ظاهر في أن المراد بالألف الرؤساء المستبعون لغيرهم ، والأكثر على أن الملائكة قاتلت يوم بدر ، وفي الأخبار ما يدل عليه ، وذكروا أنها لم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين ، وتفصيل ذلك في السير ، وقد تقدم بعض الكلام فيما يتعلق بهذا المقام فتذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(169/306)

---

وقال القاسمي :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾

أي : تطلبون منه الغوث ، وهو التخلص من الشدة ، والعون بالنصر عليهم ﴿ فَاسْتَجَابَ

لَكُمْ ﴾ أي : الدعاء ﴿ أَنِّي مُمِدُّكُمْ ﴾ أي : معينكم ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

بكسر الدال ، أي : متابعين ، بعضهم على إثر بعض ، أو مردفين غيرهم .

وقرئ بفتحها على معنى أن الله أُرْدَفَ المسلمين بهم ، أو مردفين بغيرهم ، أي : من ملائكة

آخرين .

وقرئ (بالآف) بالجمع ، كما يأتي .

روى مسلم عن ابن عباس قال : حدثني عُمَرُ بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر ، نظر رسول

الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ؛

فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ، ثم مديده ، فجعل يهتف بربه ويقول : >

اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم آتني ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل

الإسلام ، لا تعبد في الأرض < . فما زال يهتف بربه ما دأ يديه حتى سقط رداؤه عن

منكبيه ، فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا

نبي الله ! كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذْ

تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ .

وروى البخاري عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر :

> هذا جبريل أخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب < .

وروى البخاري عن معاذ بن رفاعه ، عن رافع الزرقني ، عن أبيه - وكان ممن شهد بدرًا -

قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال :

من أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها - قال : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة .

تنبيهات :

(170/306)

---

الأول : قال الجمشي : تدل الآية على أن الملك يجوز أن يشبه بالآدمي ، ولا يخرج من كونه

ملكاً ، بأن يغير أطرافهم دون الأجزاء التي صاروا بها أحياء والذي ينكر أن يقدر أحد

على تغيير الصور ، بل نقول : إن الله هو الذي يقدر على ذلك .

انتهى .

الثاني : قال الزمخشري : وعن السدي : ﴿ بِالْآفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ - على الجمع - ليوافق

ما في سورة آل عمران .

فإن قلت : فيم يُعْتَدَرُ لمن قرأ على التوحيد ، ولم يفسر المردين بإرداف الملائكة ملائكة

آخرين ، والمردفين بارتدافهم غيرهم ؟

قلت : بأن المراد بالآلف ، من قاتل منهم ، أو الوجوه منهم ، الذين من سواهم أتباع لهم .

انتهى .

قال شمس الدين ابن القيم في " زاد المعاد " في بحث غزوة بدر :

فإن قيل : ها هنا ذكر أنه أمدهم بالآف ، وفي سورة آل عمران قال : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ ، فكيف الجمع بينهما ؟

قيل : اختلف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف ، والذي بخمسة على قولين :

أحدهما : أنه كان يوم أحد ، وكان إمدادا معلقا على شرط ، فلما فات شرطه ، فات

الإمداد . وهذا قول الضحاك ومقاتل ، وإحدى الروایتين عن عكرمة .

والثاني : أنه كان يوم بدر ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ، والرواية الأخرى عن

عكرمة ، واختاره جماعة من المفسرين .

وحجة هؤلاء ، أن السياق يدل على ذلك ، فإنه سبحانه قال :

﴿ وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ  
يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ ، إلى أن  
قال : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ أي : هذا الإمداد : ﴿ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾

قال هؤلاء : فلما استغاثوا ، أمدهم بألف ، ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف ، ثم أمدهم بتمام  
خمسة آلاف ، لما صبروا واتقوا . وكان هذا التدرج ، ومتابعة الإمداد ، أحسن موقعا ،  
وأقوى لتقويتهم وأسر لها من أي : يأتي مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحي ، ونزوله مرة  
بعد مرة .

وقالت الفرقة الأولى : القصة في سياق أحد ، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضا في أثنائها ،  
فإنه سبحانه قال : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ  
إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون ﴾ ، ثم قال :  
﴿ وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فذكره نعمه عليهم ، لما  
نصرهم ببدر وهم أذلة ، ثم عاد إلى قصة أحد ، وأخبر عن قول رسوله لهم : ﴿ أَنْ

يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ

بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴾

ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف .

فهذا من قول رسوله ، والإمداد الذي يبدر من قوله تعالى ، وهذا بخمسة آلاف ، وإمداد

بدر بألف ، وهذا معلق على شرط ، وذلك مطلق .

والقصة في سورة آل عمران ، هي قصة أحد مستوفاة مطولة ، وبدر ذكرت فيها اعتراضاً

(172/306)

---

والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة ، فالسياق في آل عمران غير السياق في

الأنفال ، يوضح هذا أن قوله : ﴿ وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا ﴾ قد قال مجاهد : هو يوم أحد

، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه ، فلا يصح قوله إن الإمداد بهذا العدد كان يوم

بدر وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد ، والله أعلم . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل

ح 8 ص 268.270 ﴿

(173/306)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ ﴾

يتعلق ظرف ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ بفعل ﴿ يريد الله ﴾ [ الأنفال : 7 ] لأن إرادة الله

مستمر تعلقها بأزمنة منها زمانُ استغاثة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ربهم على

عدوهم ، حين لقاءهم مع عدوهم يوم بدر ، فكانت استجابة الله لهم بإمدادهم بالملائكة ،

من مظاهر إرادته تحقيق الحق فكانت الاستغاثة يوم القتال في بدر وإرادة الله أن يحق الحق

حصلت في المدينة يوم وعدهم الله إحدى الطائفتين ، ورشح لهم أن تكون إحدى الطائفتين

ذات الشوكة ، وبين وقت الإرادة ووقت الاستغاثة مدة أيام ، ولكن لما كانت الإرادة

مستمرة إلى حين النصر يوم بدر صح تعليق ظرف الاستغاثة بفعلها ، لأنه اقترن ببعضها في

امتدادها ، وهذا أحسن من الوجوه التي ذكروها في متعلق هذا الظرف أو موقعه .

وقد أشارت الآية إلى دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، أخرج الترمذي عن عمر

بن الخطاب قال "نظر نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه

ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مديديه

وجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام (لا

تعبد في الأرض فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن

منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه فقال يا نبي الله

كفأك مُناشدة رَبِّك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ أي فأنزل الله في حكاية تلك الحالة .

(174/306)

---

وعلى هذه الرواية يكون ضمير ﴿ تستغيثون ﴾ مراداً به النبي صلى الله عليه وسلم وعبر عنه بضمير الجماعة لأنه كان يدعو لأجلهم ، ولأنه كان معلناً بدعائه وهم يسمعون ، فهم مجال من يدعون ، وقد جاء في "السيرة" أن المسلمين لما نزلوا بيدرو وأواكثرة المشركين استغاثوا الله تعالى فتكون الاستغاثة في جميع الجيش والضمير شاملاً لهم .

والاستغاثة : طلب الغوث ، وهو الإعانة على رفع الشدة والمشقة ولما كانوا يومئذ في شدة ودعوا بطلب النصر على العدو القوي كان دعاءهم استغاثة .

﴿ فاستجاب لكم ﴾ أي وعدكم بالإغاثة .

وفعل استجاب يدل على قبول الطلب ، والسين والتاء فيه للمبالغة أي تحقيق المطلوب .

وقوله : ﴿ أني ممدكم بألف من الملائكة ﴾ هو الكلام المستجاب به ولذلك قدره في

"الكشاف" بأن أصله بأني ممدكم أي فحذف الجار وسلط عليه ﴿ استجاب ﴾ فنصب



محلّه .

وأرى أن حرف (أن) المفتوحة الهمزة المشددة النون إذا وقعت بعد (ما) فيه معنى القول دون حروفه أن تكون مفيدة للتفسير مع التأكيد كما كانت تفيد معنى المصدرية مع التأكيد ، فمن البين أن (أن) المفتوحة الهمزة مركبة من (أن) المفتوحة الهمزة المخففة النون المصدرية في الغالب ، يجوز أن يُعتبر تركيبها من (أن) التفسيرية إذا وقعت بعد (ما) فيه معنى القول دون حروفه ، وذلك مظنة (أن) التفسيرية ، وأعتضدُ بما في "اللسان" من قول الفراء : "إذا جاءت [أن : ] بعد القول وما تصرف من القول كانت حكاية ، فلم يقع عليها (أي القول) فهي مكسورة ، وإن كانت تفسيراً للقول نصبتُها ومثله : قد قلت لك كلاماً حسناً أن أباك شريف ، فحت أن لأنها فسرت الكلام .

قلت : ووقع (أن) موقع التفسير كثير : في الكلام .

(175/306)

---

وفي القرآن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ [المائدة : 45]

الآية ، ومن تأمل يانصاف وجد مائة معنى قوله : ﴿ أَنِّي مَدَّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ ﴾ في كون (أن) تفسيرية ، دون كونها مجرورة بحرف جر محذوف .

مع أن معنى ذلك الحرف غيريين .

والإمداد إعطاء المدد وهو الزيادة من الشيء النافع .

وقرأ نافع ، وأبو جعفر ، ويعقوب : بفتح الدال من ﴿ مردفين ﴾ أي يرد فهم غيرهم من الملائكة ، وقرأ البقية : بكسر الدال أي تكون الألف رادفاً لغيرهم قبلهم .

والإرداف الإتيان والإلحاق فيكون الوعد بألف وبغيرها على ما هو متعارف عندهم من إعداد نجدة للجيش عند الحاجة تكون لهم مدداً ، وذلك أن الله أمدهم بالآف من الملائكة بلغوا خمسة آلاف كما تقدم في سورة آل عمران ، ويجوز أن يكون المراد بألف هنا مطلق الكثرة فيفسره قوله : ﴿ بثلاثة آلاف ﴾ في سورة آل عمران ( 124 ) ، وهم مردفون بألفين ، فلك خمسة آلاف ، وكانت عادتهم في الحرب إذا كان الجيش عظيماً أن يبعثوا طائفة منه ثم يعقبوها بأخرى لأن ذلك أربح للعدو .

ويوجه سيوفهم ، وحلول الملائكة في المسلمين كان بكيفية يعلمها الله تعالى : إما بتجسيم

المجردات فيراهم من أكرمهم الله برؤيهم ، وإما بإراءة الله الناس ما ليس من شأنه أن يرى

عادة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(176/306)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾

ومادة "استغاث" تفيد طلب الغوث، مثل "استسقى" أي طلب السقيا، و"استفهم" أي طلب الفهم، و"الألف" و"السين" و"التاء" توجد للطلب. و"استغاث" أي طلب الغوث من قوى عنه قادر على الإغاثة، وأصلها من الغيث وهو المطر، فحين تجذب الأرض لعدم نزول المطر ولا يجدون المياه يقال: طلبنا الغوث، ولأن الماء هو أصل الحياة؛ لذلك استعمل في كل ما فيه غوث، وهو إبقاء الحياة، وفي حالة الحرب قد يفنى فيها المقاتلون؛ لذلك يطلبون الغوث من الله عز وجل ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ .

و﴿ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ بضمير الجمع، كأنهم كلهم جميعاً يستغيثون في وقت واحد، وقد استغاث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصطف القوم وقال أبو جهل: اللهم أولانا بالحق فانصره، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه واستقبل القبلة وقال: " اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم ائني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض " .

ويدل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه كان يستغيث بالخالق الذي وعد بالنصر، ورد القوم خلفه: آمين، لأن أي إنسان يؤمن على دعاء يقوله إمام أو قائد فهو بتأمينه هذا كأنما يدعو مثلما يقول الإمام أو القائد . فمن يقول: " آمين " يكون أحد الداعين

بنفس الدعاء . والحق سبحانه وتعالى هو القائل : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ  
وَمَلَآئِهِ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ  
وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : 88] .  
وهذا ما جاء في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام .

(177/306)

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعدها : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ ﴾ [يونس : 89] .  
مع العلم بأن سيدنا موسى عليه السلام هو الذي دعا ، وقوله سبحانه من بعد ذلك ﴿  
أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ ﴾ دليل على أن موسى دعا وهارون قال : " آمين " فصار هارون  
داعياً أيضاً مثل أخيه موسى . ﴿ إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : 9]

﴿ فاستجاب لكم ﴾ الألف والسين والتاء - كما علمنا - تأتي للطلب ، وقول الحق  
سبحانه وتعالى ﴿ فاستجاب ﴾ يعني أنه طلب من جنود الحق في الأرض أن يكونوا مع  
محمد وأصحابه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ، خلق الكون ، وخلق فيه الأسباب . نراها  
ظاهرة ، ووراءها قوى خفية من الملائكة . والملائكة هم خلق الله الخفي الذي لا نراه ولا

نبصره ، إلا أن الله أخبرنا أن له ملائكة .

فالملائكة ليست من المخلوقات المشاهدة لنا ، وإنما إيماننا بالله ، وتصديقنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الله تعالى جعلنا نعرف أنه سبحانه وتعالى قد خلق الملائكة ، وأخبرنا أيضاً أنه خلق الجن وصدقنا ذلك ، إذن فحجة إيماننا بوجود الملائكة والجن هو إخبار الرسول الصادق بالبلاغ عن الله تعالى ومن يقف عقله أمام هذه المسألة ويتساءل : كيف يوجد شيء ولا يرى ، نقول له : هذه أخبار من الله .

(178/306)

---

وهناك من أنكر وجود الملائكة والجن وقال : إنها القوى الميكانيكية في الأسباب ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن أمر غيبي ، فسبحانه يترك في مشهديات وجوده وكونه ما يقرب هذا الأمر الغيبي إلى الذهن ، فيجعلك لا تعرف وجود أشياء تشعر بآثارها ، ثم بمرور الزمن تدرك وجودها ، وهذه الأشياء لم تُخلق حين اكتشفها ، وإنما هي كانت موجودة لكنك لم تتعرف عليها ، وهناك فارق بين وجود الشيء وإدراك وجود الشيء . ومثال ذلك كان اكتشاف الميكروب في القرن السابع عشر وهو موجود من قبل أن يكتشف ، وكان يدخل في أجسام الناس ، وينفذ من الجلد ، وحين اكتشفوه ، دل ذلك

على أنه كان موجوداً لكننا لم نكن نملك أدوات إدراكه . إذن فإن حدثت بأن الله خلقاً  
موجوداً وإن لم تكن تدركه ، فخذ مما أدركته بعد أن لم تكن تدركه دليل تصديق لما لا تدركه

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى بوجود الملائكة ، وكل شيء له ملائكة يدبرونه ، وهم :  
المدبرات أمرا " ، والملائكة الحفظة ، وسبحانه القائل : ﴿ لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ  
خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد : 11] .

وسبحانه أيضاً القائل : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] .  
وهؤلاء الملائكة هم الموكلون بمصالح الإنسان في الأرض ، المطر مثلاً له ملكه ، الزرع مثلاً له  
ملكه ، وكل شيء له ملك . وهو سبب خفي غير منظور يحرك الشيء . ﴿ فاستجاب  
لَكُمْ أَنِّي مُّمَدِّدٌكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ .

والإمداد هو الزيادة التي تجيء للجيش ، لأن الجيش إذا ووجه بمعارك لا يستطيع أن يقوم بها  
العدد الموجود من الرجال أو السلاح ، حينئذ يطلب قائد الجيش إرسال المدد من الرجال  
والعتاد . ﴿ أَنِّي مُّمَدِّدٌكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّفِينَ ﴾

(179/306)

ونعلم أنه ساعة أن أمر ربنا الملائكة أن تسجد لآدم ، لم يكن الأمر لكل جنس الملائكة ، بل صدر الأمر إلى الملائكة الموكلين بمصالح الأرض . أما الملائكة غير الموكلين بهذا ، فلم يدخلوا في هذه المسألة ، ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى حينما عنف إبليس ، قال له :

﴿ اسْتَكْبَرَتْ أُمُّ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ ص : 75 ] .

والمقصود ب " العالين " هم الملائكة الذين لم يشملهم أمر السجود .  
والحق تبارك وتعالى هنا في هذه الآية يبين أنه سبحانه وتعالى قد أمد المسلمين المحاربين في غزوة بدر ب :

﴿ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

والرُدْفُ هو ما يتبعك ، ولذلك يقال : " فلان ركب مطيته وأرْدَفَ فلاناً " ، أي جعله وراءه .

والمردف هو من يكون في الأمام ، والمردف هو من يكون خلفه . والآية توضح لنا أن الملائكة كانت أمام المسلمين ؛ لأن جيش المسلمين كان قليل العدد ، وجيش الكفار كان كثير العدد ، وجاءت الملائكة لتكثير عدد جيش المسلمين ، فإذا كان العدد مكوناً من ألف مقاتل ، فقد أرسل الحق ملائكة بنفس العدد ويزيد بذلك جيش المؤمنين بعدد المؤمنين . وكان يكفي أن يرسل الحق ملكاً واحداً ، كما تحكي الروايات عما حدث لقوم لوط ، فقد روي أن جبريل عليه السلام ، أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط ، وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمار ، ونباح الكلاب ، وصياح

الديوك ، ولم تنكفىء لهم جرّة ، ولم ينسكب لهم إناء ، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض .

وصيحة واحدة زلزلت قوم ثمود . لماذا إذن أرسل الحق تبارك وتعالى هنا ألفاً من

الملائكة ؟ . حدث ذلك لتكثير العدد أمام العدو وليفيد في أمرين اثنين :

الأمر الأول : أن تأخذ العدو رهبة ، والأمر الثاني : أن يأخذ المؤمنون قوة لكن أكان

للملائكة في هذه المسألة عمل ؟ أولاً عمل لهم ؟ هنا حدث خلاف . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(180/306)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الآية .

في " إذ " خمسة أوجه :

أحدها : أنه منصوبٌ بـ " اذكر " مضمراً ، ولذلك سمّاه الحوفي مستأنفاً ، أي : إنه منقطعٌ

عمّا قبله .



والثاني: أنه منصوب بـ "يُحِقُّ" أي: يحقُّ الحقَّ وقت استغاثتكم، وهو قول ابن جرير وهو غلط؛ لأن "لِيُحِقَّ"، مستقبل؛ لأنه منصوبٌ بإضمار "أنَّ" و"إِذْ" ظرف لما مضى، فكيف يعمل المستقبل في الماضي؟ .

الثالث: أنه بدلٌ من "إِذْ" الأولى، قاله الزمخشري، وابن عطية، وأبو البقاء وكانوا قد قدّموا أنَّ العامل في "إِذْ" الأولى "اذكر" مقدراً .

الرابع: أنه منصوب بـ "يَعِدُّكُمْ" قاله الحوفي، وقبله الطبري .

الخامس: أنه منصوب بقوله "تَوَدُّونَ" قاله أبو البقاء، وفيه بُعدٌ لطول الفصل .

واستغاث: يتعدى بنفسه، وبالباء، ولم يجيء في القرآن إلا متعدياً بنفسه، حتى نغم ابن مالك على النحويين قولهم: المستغاث له، أوبه، والمستغاث من أجله، وقد أنشدوا على

تعديه بالحرف قول الشاعر: [ البسيط ]

2674 - حَتَّى اسْتَغَاثَتْ بِمَاءٍ لَارِشَاءَ لَهُ . . .

من الأباطح في حافاتِه البركُ

مُكَلَّلٌ بِأَصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ . . .

ريحٌ خريقٌ لضاحي مائه حُبُكُ

كَمَا اسْتَغَاثَ بِسَيِّءٍ فَرَّغِيظَلَةٍ . . .

خَافَ الْعُيُونََ وَلَمْ يُنْظَرْ بِهِ الْحِشْكُ

فدل هذا على أنه يتعدى بالحرف كما استعمله سيبويه وغيره .

## فصل

الاستغاثة: طلب الغوث، وهو النصر والعون، وقيل: الاستغاثة: سدُّ الخلة وقت الحاجة، وقيل: هي الاستجارة، ويقال: غوثٌ، وغوثٌ، والغيث من المطر، والغوث من النصر، فعلى هذا يكون "استغاث" مشتركا بينهما، ولكن الفرق بينهما في الفعل، فيقال: استغثته فأغاثني من الغوث، وغاثني من الغيث، وفي هذه الاستغاثة قولان:

(181/306)

---

الأول: أن هذه الاستغاثة كانت من الرسول - عليه الصلاة والسلام - .  
قوله: "أني" العامة على فتح الهمزة بتقدير حذف حرف الجر، أي: فاستجاب بأني .  
وقرأ عيسى بن عمر، وتروى عن أبي عمرو أيضا "إني" بكسرها، وفيها مذهبان،  
مذهب البصريين: أنه على إضمار القول، أي: فقال: إني ممدكم .  
ومذهب الكوفيين: أنها محكية بـ "استجاب" إجراء له مجرى القول؛ لأنه بمعناه .  
قوله: "بألف" العامة على التوحيد، وقرأ الجحدري "بألف" بزنة "أفلس" وعنه أيضا،  
وعن السدي "بالألف" بزنة: أحمال، وفي الجمع بين القراءتين، وقراءة الجمهور أن تحمل

قراءة الجمهور على أن المراد بـ "بالألف هم الوجوه، وباقيهم كالأتباع لهم، فذلك لم يُنصَّ عليهم في قراءة الجمهور، ونصَّ عليهم في هاتين القراءتين، أو تحمل الألف على من قاتل من الملائكة دون من لم يقاتل، فلا تنافي حينئذٍ بين القراءات.

قوله: "مُردفين" قرأ نافع، ويروى عن قنبل أيضاً: "مُردفين" بفتح الدال، والباقون بكسرها، وهما واضحتان؛ لأنه يُروى أنه كان وراء كل ملكٍ رديفٌ له، فقراءة الفتح تُشعر بأنَّ غيرهم أردفهم، لركوبهم خلفهم، وقراءة الكسر تُشعر بأنَّ الراكب خلف صاحبه قد أردفه فصحَّ التعبيرُ باسم الفاعل تارة: وباسم المفعول أخرى، وجعل أبو البقاء مفعول "مُردفين" يعني بالكسر محذوفاً أي: مُردفين أمثالهم، وجوز أن يكون معنى الإرداف: الجيء بعد الأوائل، أي: جعلوا ردفاً للأوائل.

ويطلب جواب عن كيفية الجمع بين هذه الآية، وآية آل عمران حيث قال هناك "بخمسة" وقال هنا: "بألف" والقصة واحدة؟

والجواب: أن هذه الألف مردفة لتلك الخمسة؛ فيكون المجموع ستة آلاف، ويظهر هذا، ويقوى في قراءة: "مُردفين" بكسر الدال.

وقد أنكر أبو عبيدٍ: أن تكون الملائكةُ أردفت بعضها أي: ركبت خلفها غيرها من الملائكةِ.

وقال الفارسيُّ: من كسر الدالَّ احتمل وجهين:

أحدهما: أن يكونوا مردفين مثلهم كما تقول: أردفت زيدا دابتي، فيكون المفعول الثاني محذوفاً، وحذف المفعول كثيرٌ، والوجه الآخر: أن يكونوا جاءوا بعد المسلمين. وقال الأخفشُ "بنو فلان يردفوننا، أي: يجيئون بعدنا".

وقال أبو عبيدة "مردفين" جاءوا بعدُ، وردفني، وأردفني واحد.

قال الفارسي: هذا الوجه كأنه أئبن لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ فقوله: "

مردفين" أي: جائين بعد، لاستغاثتكم، ومن فتح الدالَّ فهم مردفون على أردفوا الناس، أي: أنزلوا بعدهم.

وقرأ بعض المكيين فيما حكاه الخليلُ: "مردفين" بفتح الراء وكسر الدالَّ مشددةً،

والأصل: "مرتدين" فادغم.

وقال أبو البقاء: إن هذه القراءة مأخوذة من "ردف" بتشديد الدالَّ على التثنية وإنَّ

التضعيف بدل من الهمزة ك: "أفرحته وفرحته".

وجوز الخليلُ بنُ أحمد: ضمَّ الراءِ إبتاعاً لضم الميم، كقولهم: "مخضم" بضم الخاء، وقد

قراء بها شذوذاً.

وقرىء "مُرْدَفِين" بكسر الرَّاءِ وتشديد الدَّالِ مكسورة، وكسر الرَّاءِ يحتمل وجهين: إمَّا لالتقاء الساكنين، وإمَّا للإتباع.

قال ابن عطية: "ويجوز على هذه القراءة كسر الميم إتباعاً للرَّاءِ، ولا أحفظه قراءة".

قال شهاب الدين: وكذلك الفتحة في "مُرْدَفِين" في القراءة التي حكاها الخليلُ تحتمل

وجهين:

أظهرهما: أنَّها حركةٌ نقلٌ من التَّاءِ - حين قصد إدغامها - إلى الرَّاءِ.

والثاني: أنَّها فُتِحَتْ تخفيفاً وإن كان الأصل الكسر على أصل التقاء الساكنين، كما قد

قرىء به، وقرىء "مُرْدَفِين" بكسر الميم، إتباعاً لكسرة الرَّاءِ.

(183/306)

---

و "الإرداف" الإتباع، والإركاب، وراءك.

وقال الزَّجَّاجُ: "أردفتُ الرَّجُلَ إذا جئتُ بعده".

ومنه: ﴿تَبَعَهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: 7] ويقال: رَدِفَ، وأرْدَفَ.

واختلف اللغويون: فقيل هما بمعنى واحد، وهو قول ابن الأعرابي نقله عنه ثعلب.

وقول أبي زيد نقله عنه أبو عبيدٍ، قال: يقال: رَدِفْتُ الرَّجُلَ وأرْدَفْتُهُ، إذا رَكِبْتُ خَلْفَهُ؛

وأُشَدَّ: [الوافر]

2675 - إِذَا الْجُوزَاءُ أُرْدَفَتِ الثُّرَيَّا . . .

ظَنَنْتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا

أي: جاءت على رُدْفِهَا، وقيل: بينهما فرق فقال الزَّجَّاجُ: "يقال: رَدِفْتُ الرَّجُلَ إِذَا رَكِبْتُ خَلْفَهُ، وَأُرْدَفْتُهُ أَرَكِبْتُهُ خَلْفِي".

وهذا يُنَاسِبُ قَوْلَ مَنْ يُقَدِّرُ مَفْعُولًا فِي: "مُرْدِفِينَ" بِكَسْرِ الدَّالِّ وَأُرْدَفْتُهُ إِذَا جِئْتُ بَعْدَهُ أَيْضًا فَصَارَ "أُرْدَفَ" عَلَى هَذَا مَشْتَرَكًا بَيْنَ مَعْنَيْنِ.

وقال شمر: "رَدِفْتُ وَأُرْدَفْتُ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ، فَأَمَّا إِذَا فَعَلْتَهُمَا بغيرِكَ فَأُرْدَفْتُ لَا غَيْرَ".

وقوله: "مُرْدِفِينَ" بفتح الدَّالِّ فِيهِ وَجْهَانِ، أَظْهَرَهُمَا: أَنَّهُ صِفَةٌ لـ "أَلْفٍ" أَي: أُرْدَفَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَالثَّانِي: أَنَّهُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ فِي مَدِّكُمْ.

قال ابن عطية: "ويحتمل أن يراد بالمرْدِفِينَ: الْمُؤْمِنُونَ، أَي: أُرْدَفُوا بِالْمَلَائِكَةِ".  
وهذا نصُّ فيما ذكر من الوجه الثاني.

وقال الزمخشري: وقرئ "مُرْدِفِينَ" بِكَسْرِ الدَّالِّ وَفَتْحِهَا مِنْ قَوْلِكَ: رَدِفْهُ، إِذَا تَبِعَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿رَدِفْ لَكُمْ﴾ [النمل: 72] أَي: رَدِفْكُمْ، وَأُرْدَفْتُهُ إِيَّاهُ: إِذَا تَبِعْتَهُ، وَيُقَالُ

:أرْدَفْتَهُ كَقَوْلِكَ ، أَتَبَعْتَهُ : إِذَا جِئْتَ بَعْدَهُ ، وَلَا يَخْلُو الْمَكْسُورُ الدَّالَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى :  
مُتَّبِعِينَ ، أَوْ مُتَّبِعِينَ .

(184/306)

فَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى مُتَّبِعِينَ فَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى مُتَّبِعِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، أَوْ مُتَّبِعِينَ بَعْضُهُمْ  
لِبَعْضٍ ، أَيْ بِمَعْنَى مُتَّبِعِينَ إِيَّاهُمْ الْمُؤْمِنِينَ ، بِمَعْنَى يُتَّقِدُونَهُمْ فَيَتَّبِعُونَهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أَوْ مُتَّبِعِينَ لَهُمْ  
يُشَيِّعُونَهُمْ وَيُقَدِّمُونَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَهُمْ عَلَى سَاقَتِهِمْ لِيَكُونُوا عَلَى أَعْيُنِهِمْ وَحَفِظَهُمْ أَوْ بِمَعْنَى  
مُتَّبِعِينَ أَنْفُسَهُمْ مَلَائِكَةَ آخِرِينَ ، أَوْ مُتَّبِعِينَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَيَعْبُذُ هَذَا الْوَجْهَ قَوْلُهُ  
تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 124] ﴿ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ

الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 125] .

وَمِنْ قَرَأَ " مُرْدَفِينَ " بِالْفَتْحِ فَهُوَ بِمَعْنَى مُتَّبِعِينَ أَوْ مُتَّبِعِينَ .

وَهَذَا الْكَلَامُ عَلَى طَوْلِهِ ، شَرْحُهُ أَنَّ " أَتَّبَعْتُ " بِالتَّخْفِيفِ ، يَتَّعِدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ ، وَ" أَتَّبَعْتُ "   
بِالتَّشْدِيدِ ، يَتَّعِدِّي لِوَاحِدٍ ، وَ" أَرْدَفْتُ " قَدْ جَاءَ بِمَعْنَاهُمَا ، وَمَفْعُولُهُ أَوْ مَفْعُولَاهُ ، مُحذوفٌ ،   
لِفَهْمِ الْمَعْنَى ، فَيَقْدَرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مَا يَلِيقُ بِهِ ، إِلَّا أَنَّ أَبَا حَيَّانَ عَابَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : " مُتَّبِعِينَ

إياهم المؤمنين " .

وقال : " هذا ليس من مواضع فصل الضمير ، بل مما يتصل ، وتُحذف له النونُ ، لا يقال : هؤلاء كاسون إياك ثوباً بل : كاسوك ، فتصححُه أن يقول : متبعيهم المؤمنين ، أو متبعين أنفسهم المؤمنين " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 459-463 ﴾ .  
باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) ﴾

الاستغاثة على حسب شهود الفاقة وعدم المنة والطاقة . والتحقق بانفراد الحق بالقدرة على إزالة الشكاة تيسيراً للمسؤول وتحقيقاً للمأمول . فإذا صدقت الاستغاثة بتعجل الإجابة حصلت الآمال وقضيت الحاجة . . . بذلك جرت سنته الكريمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 605 ﴾

(185/306)

---



قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ 10 ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت نصرة المسلمين في هذه الغزوة ظاهرة جداً ، قال : ﴿ وما جعله الله ﴾ أي

الإمداد والوعد به على ما له سبحانه من العظمة التي من راقبها لم يهب شيئاً ﴾ إلا

بشري ﴾ أي لتستبشر به نفوسكم ، ولم يحتج إلى تقييد بأن يقال : لكم ، وأما في قصة أحد

فقد كان المقتول منهم أكثر من المقتول من الكفار فلولا قوله " لكم " لربما طرق بعض الأوهام

حين سماع أول الكلام أن الإمداد بشري للكفار .

ولما كان الذي وقع الحكم به هنا على الإمداد أنه بشري نفسه من غير قيد ، علم أن العناية

به أشد ، فكان المحكوم به الطمأنينة كذلك ، فكان أصل الكلام : إلا بشري هو وطمأنينة

هو ، فلذلك وجب تقديم ضميره في قوله " به " على القلوب تأكيداً الأمره وتفخيماً لشأنه ،

وإشارة إلى إتمامه على عادة العرب في تقديم ما هم به أعنى وهو عندهم أهم فقال :

﴿ ولتطمئن ﴾ أي وطمأنينة لتطمئن ﴾ به ﴾ أي وحده من غير نظر إلى شيء من قوتكم

ولا غيرها ﴾ قلوبكم ﴾ فالآية من الاحتباك ، وأما في قصة أحد فلما قيدت البشري

بالإمداد بلکم لما تقدم ، علم الطمانينة كذلك ، فكان الأنسب تأخير ضميره وتقديم  
القلوب الملاسة لضميرهم موازنة لقوله " لکم " .

(186/306)

---

ولما كان ذلك مفهماً أن النصر ليس إلا بيده وأن شيئاً من الإمداد أو غيره لا يوجب النصر  
بذاته ، صرح به في قوله : ﴿ وما النصر ﴾ أي حاصلًا وموجودًا بالملائكة وغيرهم من  
الأسباب ﴿ إلا من عند الله ﴾ أي لأن له وحده صفات الكمال ، فما عنده ليس منحصرًا  
في الإمداد بالملائكة فالنصر وإن كان بها فليس من عندها ، فلا تعتمدوا على وجودها ولا  
تهنوا بفقدها اعتماداً عليه سبحانه خاصة ، فإن ما عنده من الأسباب لا يحيط به علماً ،  
هذا إذا أراد النصر بالأسباب ، وإن أراد بغير ذلك فعل فكان التعبير بعند لإفهام ذلك .  
ولما كانت هذه الغزوة في أول الأمر ، وكانوا بعد بروز الوعد الصادق لهم بإحدى الطائفتين  
كارهين للقاء ذات الشوكة جداً ، ثم وقع لهم ما وقع من النصر ، كان المقام مقتضياً لإثبات  
عزة الله وحكمته على سبيل التأكيد إعلاماً بأن صفات الكمال ثابتة له دائماً ، فهو ينصر  
من صبر واتفق بعزته ، ويحكم أمره على أتم وجه بحكمته ، هذا فعلة دائماً كما فعل في هذه  
الغزوة فلذلك قال معللاً لما قبله مؤكداً : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ عزيز ﴾ أي هو

في غاية الامتناع والفهر لمن يريد قهره أزلاً وأبد .

لا يغلب ولا يحوج وليه إلى زيادة العدد ولا نفاسة العدد ﴿حكيم﴾ أي إذا قضى أمراً كان في غاية الإقتان والإحكام ، فلا يستطيع أحد نقص شيء منه ، هذا له دائماً ، فهو يفعل في نصركم هكذا مهما استأنستم إلى بشره ولم تنظروا إلى قوتكم ولا غيرها مما سواه فلا تفلتوا إذا أمركم بالهجوم على البأس ولو كان فيه لقاء جميع الناس .

ولما أكد هنا ، لم يحتج إلى إعادة تأكيده في آل عمران فقيل ﴿العزیز الحكيم﴾ [آل عمران

: 126] أي الذي أخبركم عن عزته وحكمته في غزوة بدر بما يليق بذلك المقام من

التأكيد ، وأخبركم أنكم إن فاديتم الأسرى قتل منها في العام المقبل مثل عددهم ، فوقع

الأمر على ما قال مغن عن التأكيد ، ولم يكن أحد من المسلمين في أحد متردداً في اللقاء ولا

هابئاً له إلا ما وقع من الهم بالفشل من الطائفتين والعصمة منه في الحال ، وقد مضى في آل

عمران لهذا مزيد بيان . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر ح 3 ص 191-192﴾

(187/306)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بَشْرِي ﴾

قال الفراء: الضمير عائد إلى الأرداف والتقدير: ما جعل الله الأرداف إلا بشري .

وقال الزجاج: ما جعل الله المردفين إلا بشري ، وهذا أولى لأن الأمداد بالملائكة حصل بالبشري .

قال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر في العريش قاعداً يدعو ، وكان أبو بكر قاعداً عن يمينه ليس معه غيره ، فحقق رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه نعساً ، ثم ضرب يمينه على فخذ أبي بكر وقال :

" أبشر بنصر الله ولقد رأيت في منامي جبريل يقدم الخيل " وهذا يدل على أنه لا غرض من إنزالهم إلا حصول هذه البشري ، وذلك ينفي إقدامهم على القتال .

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ والمقصود التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا قد نزلوا في موافقة المؤمنين ، إلا أن الواجب على المؤمن أن لا يعتمد على ذلك بل يجب أن يكون اعتماده على إغاثة الله ونصره وهدايته وكفائته لأجل أن الله هو العزيز الغالب الذي لا يغلب ، والقاهر الذي لا يقهر ، والحكيم فيما ينزل من النصرة فيضعها في موضعها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 105 . 106 ﴾

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴾

يقول ما أرسل الله من الملائكة إلا للبشارة .

وقال بعضهم : إن الملائكة لم يقاتلوا ، وإنما كانوا مبشرين .

وروي عن ابن عباس أنه قال : قاتلت الملائكة يوم بدر ، ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ولا يوم حنين

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ ، يعني ليس النصر بقلّة العدد ولا بكثرة العدد ، ولكن النصر من

عند الله .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ عزيز بالنعمة ، حكيم حكم بالنصرة للنبي صلى الله عليه وسلم

وللمؤمنين ، وللهزيمة للمشركين . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ بحر العلوم ج ٢ ص ٢ ﴾

(189/306)

---

وقال الماوردى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أن البشرى هي في مددهم بألف من الملائكة بشروهم بالنصر فكانت هي البشرى التي ذكرها الله تعالى .

والثاني : البشرى النصر التي عملها الله لهم .

﴿ وَلَطْمَنَ بِهِ قُلُوبَكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالبشرى .

والثاني : بالملائكة .

واختلفوا في قتال الملائكة معهم على قولين :

أحدهما : لم يقاتلوا وإنما نزلوا بالبشرى لطمئن به قلوبهم ، وإلا فملك واحد يهلك جميع

المشركين كما أهلك جبريل قوم لوط .

الثاني : أن الملائكة قاتلت مع النبي صلى الله عليه وسلم كما روى ابن مسعود أنه سأله أبو

جهل : من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص ؟ قال : " مِنْ قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ " فقال : هم

غلبونا لا أتم .

وقوله : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ لتلايتوهم أن النصر من قبل الملائكة لا من قبل

الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وما جعله الله ﴾ الآية ،

الضمير في ﴿ جعله ﴾ عائد على الوعد .

قال القاضي أبو محمد : وهذا عندي أمكن الأقوال من جهة المعنى ، وقال الزجاج :

الضمير عائد على المدد ، ويحتمل أن يعود على الإمداد ، وهذا يحسن مع قول من يقول إن الملائكة لم تقاتل وإنما أنست بحضورها مع المسلمين .

قال القاضي أبو محمد : وهذا عندي ضعيف ترده الأحاديث الواردة بقتال الملائكة وما

رأى من ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كابن مسعود وغيره ، ويحتمل أن يعود

على الإرداف وهو قول الطبري ، وهذا أيضاً مجرى مجرى القول الذي قبله ويحتمل أن يعود

على " الألف " وهذا أيضاً كذلك ، لأن البشري بالشيء إنما هي ما لم يقع بعد ، و " البشري

" مصدر من بشرت ، والطمأنينة السكون والاستقرار وقوله ﴿ وما النصر إلا من عند الله

﴿ توقيف على أن الأمر كله لله وأن تكسب المرء لا يغني إذا لم يساعده القدر وإن كان

مطلوباً بالجد كما ظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين ، وهذه القصة كلها من

قصة الكفار وغلبة المؤمنين لهم تليق بها من صفات الله عز وجل العزة والحكمة إذا تومل

ذلك . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال الخازن:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴾

يعني وما جعل الله الإرداف بالملائكة إلا بشرى ﴿ وتطمئن به قلوبكم ﴾ وهذا يحقق أنهم إنما نزلوا لذلك للقتال والصحيح هو الأول وأنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواه من الأيام.

وقوله تعالى: ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ يعني أن الله هو ينصركم أيها المؤمنون فتقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وشدة بأسكم وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد المسلم أن لا يتوكل إلا على الله في جميع أحواله ولا يثق بغيره فإن الله تعالى بيده النصر والإعانة ﴿ إن الله عزيز ﴾ يعني أنه تعالى قوي منيع لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شيء ويغلبه ﴿ حكيم ﴾ يعني في تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده.

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

(191/306)

وقال أبو حيان:

﴿ وما جعله الله إلا بشرى وتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز



## حكيم

تقدم تفسير نظير هذه الآية والمعنى ﴿الإبشري﴾ لكم واثبت في آل عمران لأنّ القصة فيها مسهبة وهنا موجزة فناسب هنا الحذف وهنا قدم وأخر هناك على سبيل التقنن والاتساع في الكلام وهنا جاء ﴿إنّ الله عزيز حكيم﴾ مراعاة لأواخر الآي وهناك ليست آخرة تعلق يقطع بما قبله فناسب أن يأتي ﴿العزيز الحكيم﴾ على سبيل الصفة وكلاهما مشعر بالعلية كما تقول أكرم زيدا العالم وأكرم زيدا أنه عالم والضمير في وما جعله عائد على الإمداد المنسبك من ﴿أني ممدكم﴾ أو على المدد أو على الوعد الدال عليه يعدكم إحدى الطائفتين أو على الألف أو على الاستجابة أو على الإرداف أو على الخبر بالإمداد أو على جبريل أقوال محتملة مقولة أظهرها الأول ولم يذكر الزمخشري غيره. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط ح 4 ص﴾

(192/306)

وقال أبو السعود :

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيقُ لبيان أن الأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وإنما

التأثير مختصٌ به عز وجل ليثق المؤمنون ولا يقنطوا من النصر عند فقدان أسبابه ، والجعل متعداً إلى مفعول واحد هو الضمير العائد إلى مصدر فعل مقدر يقتضيه المقام اقتضاءً ظاهراً مغنياً عن التصريح به ، كأنه قيل : فأمدكم بهم وما جعل إمدادكم بهم ﴿ إلا بشيء ﴾ وهو استثناء مفرغ من أعم العلل أي وما جعل إمدادكم بإنزال الملائكة عياناً لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بأنكم تنصرون ﴿ وتطمئن به ﴾ أي بالإمداد ﴿ قلوبكم ﴾ وتسكن إليه نفوسكم كما كانت السكينة لبني إسرائيل كذلك ، فكلاهما مفعول له للجعل ، وقد نصب الأول لاجتماع شرائطه وبقي الثاني على حاله لفقدانها ، وقيل : للإشارة إلى أصالته في العلية وأهميته في نفسه كما قيل في قوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ وفي قصر الإمداد عليهما إشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المباشرين وتكثير سوادهم ونحوه كما هو رأي بعض السلف وقيل : الجعل متعداً إلى اثنين ثانيهما إلا بشرى على أنه استثناء من أعم المفاعيل ، أي وما جعله الله شيئاً من الأشياء إلا بشاراً لكم فاللام في وتطمئن متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره وتطمئن به قلوبكم فعل ذلك لا لشيء آخر ﴿ وما النصر ﴾ أي حقيقة النصر على الإطلاق ﴿ إلا من عند الله ﴾ أي إلا كائن من عنده عز وجل من غير أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب والعدد ، وإنما هي مظاهره بطريق جريان السنة الإلهية ﴿ أن الله عزيز ﴾ لا يغالب في حكمه ولا ينازع في أفضيته ﴿ حكيم ﴾ يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه

الحِكْمَةُ والمِصْلَاحَةُ ، والجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِمَا قَبْلَهَا مُتَضَمِّنٌ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ النِّصْرَ الوَاقِعَ عَلَى الوَجْهِ

المذکور من مقتضیات الحِکْمِ

البالغَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسیر أبی السعود ح 4 ص ﴾

(193/306)

وقال الأوسى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ كلام مستأنف لبيان أن المؤثر الحقيقي هو الله تعالى ليثق به المؤمنون

ولا يقنطوا من النصر عند فقدان أسبابه ، والجعل متعد إلى واحد وهو الضمير العائد إلى

المصدر المنسبك في ﴿ أَنِّي مُدِّدٌكُمْ ﴾ [ الأنفال : 9 ] على قراءة الفتح والمصدر المفهوم

من ذلك على الكسر ، واعتبار القول ورجوع الضمير إليه ليس بمعتبر من القول ، أي وما

جعل إمدادكم بهم لشيء من الأشياء ﴿ إِلَّا بُشْرَى ﴾ أي بشارة لكم بأنكم تنصرون ﴿

وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ ﴾ أي بالإمداد ﴿ قُلُوبُكُمْ ﴾ وتسكن إليه نفوسكم وتزول عنكم الوسوسة

ونصب ﴿ الرِّيحَ بُشْرَى ﴾ على أنه مفعول له ولتطمئن معطوف عليه ، وأظهرت اللام

لفقد شرط نصب ، وقيل : للإشارة إلى أصلاته في العلية وأهميته في نفسه كما قيل في قوله

سبحانه: ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ [النحل: 8].  
وقيل: إن الجعل متعدد إلى اثنين ثانيهما ﴿ بُشْرَى ﴾ على أنه استثناء من أعم المفاعيل،  
واللام متعلقة بمحذوف مؤخر أي وما جعله الله تعالى شيئاً من الأشياء إلا بشارة لكم  
ولتطمئن به قلوبكم فعل ما فعل لا لشيء آخر والأول هو الظاهر، وفي الآية إشعار بأن  
الملائكة لم يباشروا قتالاً وهو مذهب لبعضهم، ويشعر ظاهرها بأن النبي صلى الله عليه  
وسلم أخبرهم بذلك الإمداد وفي الإخبار ما يؤيده، بل جاء في غير ما خبر أن الصحابة  
بأوا الملائكة عليهم السلام.

(194/306)

---

وروي عن أبي أسيد وكان قد شهد بدرًا أنه قال بعد ما ذهب بصره: لو كنت معكم اليوم  
ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ  
اللَّهِ ﴾ أي وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا كائن من عنده عز وجل،  
فالمنصور هو من نصره الله سبحانه والأسباب ليست بمستقلة، أو المعنى لا تحسبوا النصر  
من الملائكة عليهم السلام فإن الناصر هو الله تعالى لكم وللملائكة، وعليه فلا دخل  
للملائكة في النصر أصلاً، وجعل بعضهم القصر على الأول إفرادي وعلى الثاني قلبي ﴿

أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴿ لا يغالب في حكمه ولا ينازع في قضيته ﴾ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل كل ما يفعل  
حسبما تقتضيه الحكمة الباهرة ، والجملة تعليل لما قبلها وفيها إشعار بأن النصر الواقع على  
الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص



(195/306)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾

عطف على ﴿ أني مُمدكم بألفٍ من الملائكة مردفين ﴾ [ الأنفال : 9 ] فالضمير

المنصوب في قوله : ﴿ جَعَلَهُ ﴾ عائد إلى القول الذي تضمنه ﴿ فاستجاب لكم أني ممدكم

﴿ [ الأنفال : 9 ] أي ما جعل جوابكم بهذا الكلام إلا ليشركم ، وإلا فقد كان يكفيكم أن

يضمن لكم النصر دون أن يبين أنه يأمداد من الملائكة .

وفائدة التبشير بإمداد الملائكة أن يوم بدر كان في أول يوم لقي فيه المسلمون عدواً قوياً

وجيشاً عديداً ، فبشرهم الله بكيفية النصر الذي ضمنه لهم بأنه بجيش من الملائكة ، لأن

النفوس أميل إلى المحسوسات ، فالنصر معنى من المعاني يدق إدراكه وسكون النفس

لتصوره بخلاف الصور المحسوسة من تصوير مَدَد الملائكة ورؤية أشكال بعضهم .  
وتقدم القول في نظير هذه الآية في سورة آل عمران إلاّ تعرض لما بين الآيتين من اختلاف في ترتيب النظم وذلك في ثلاثة أمور:

أحدها : أنه قال في آل عمران ( 126 ) : ﴿ إِبْرَاهِيمَ لَكُمْ ﴾ وحُذِفَ (لَكُمْ) هنا دفعا لتكرير لفظه لسبق كلمة ﴿ لَكُمْ ﴾ قريبا في قوله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [ الأنفال : 9 ] فعلم السامع أن البشري لهم ، فأغنت ﴿ لَكُمْ ﴾ الأولى ، بلفظها ومعناها ، عن ذكر ﴿ لَكُمْ ﴾ مرة ثانية ، ولأن آية آل عمران سقت مساق الامتنان والتذكير بنعمة النصر في حين القلة والضعف ، فكان تقييد ﴿ بشري ﴾ بأنها لأجلهم زيادة في المنة أي : جعل الله ذلك بشري لأجلكم كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [ الشرح : 1 ] وأما آية الأنفال فهي مسوقة مساق العتاب على كراهية الخروج إلى بدر في أول الأمر ، وعلى اختيار أن تكون الطائفة التي تلاقيهم غير ذات الشوكة ، فجرد ﴿ بشري ﴾ عن أن يعلق به ﴿ لَكُمْ ﴾ إذ كانت البشري للنبي صلى الله عليه وسلم ومن لم يترددوا من المسلمين ، وقد تقدم ذلك في آل عمران .

(196/306)

---

ثانيها : تقديم المجرور هنا في قوله : ﴿ به قلوبكم ﴾ وهو يفيد الاختصاص ، فيكون المعنى : ولتطمئن به قلوبكم لا بغيره ، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجع من الطائفة ذات الشوكة وقناعتهم بغنم العروض التي كانت مع العير ، فعرض لهم بأنهم لم يفهموا مراد الرسول صلى الله عليه وسلم حين استشارهم ، وأخبرهم بأن العير سلكت طريق الساحل فكان ذلك كافياً في أن يعلموا أن الطائفة الموعود بها تمحضت أنها طائفة النفير ، وكان الشأن أن يظنوا بوعده الله أكمل الأحوال ، فلما أراد الله تسكين روعهم ، وعدهم بنصرة الملائكة علماً بأنه لا يُطمئن قلوبهم إلا ذلك ، وجعل الفخر : التقديم هنا مجرد الاهتمام بذلك الوعد ، وذلك من وجوه التقديم لكنه وجه تأخيره في آل عمران بما هو غير مقبول .

ثالثها : أنه قال في سورة آل عمران ( 126 ) ﴿ العزيز الحكيم ﴾ فصاغ الصفتين العليتين في صيغة النعت ، وجعلهما في هذه الآية في صيغة الخبر المؤكد ، إذ قال : إن الله عزيز حكيم ﴿ فنزل المخاطبين منزلة من يتردد في أنه تعالى موصوف بهاتين الصفتين : وهما العزة ، المقضية أنه إذا وعد بالنصر لم يُعجزه شيء ، والحكمة ، فما يصدر من جانبه غوصُ الإفهام في تبين مقتضاه ، فكيف لا يهدون إلى أن الله لما وعدهم الظفر يا حدى الطائفتين وقد فاتهم العير أن ذلك آيل إلى الوعد بالظفر بالنفير .

وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مستأنفة استينافاً ابتدائياً جعلت كالإخبار بما ليس  
بمعلوم لهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير ح 9 ص﴾

(197/306)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾

أي أن الملائكة هي بشرى لكم، وأنتم الذين تقاتلون أعداءكم، وسبحانه وتعالى هو القائل  
: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾  
[التوبة: 14].

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك للمؤمنين وهم يدخلون أول معركة حربية، ويواجهون أول  
لقاء مسلح بينهم وبين الكافرين، لأنهم إن علموا أن الملائكة ستقاتل وتدخل، فقد  
يتكاسلون عن القتال ويدخلون إلى الحرب بقلوب غير مستعدة، وبغير حمية، فأوضح ربنا  
: أنا جعلت تدخل الملائكة بشرى لكم، و ﴿لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ ، أي أن عدد  
الملائكة يقابل عدد جيش الكفار، والزيادة في العدد هي أتم يا من خرجتم للقتال .  
واعلموا أن الملائكة هي لطمانة القلوب . لكن الحق يريد أن يعذبهم بأيديكم أتم، لأن الله



يريد أن يربي المهابة لهذه العصابة بالذات ، بحيث يحسب لها الناس ألف حساب .  
واختلفت الروايات في دور الملائكة في غزوة بدر ، فنجد أبا جهل يقول لابن مسعود : ما  
هذه الأصوات التي أسمعها في المعركة ؟ فقد كانت هناك أصوات تُفزع الكفار في غزوة بدر  
- ويرد ابن مسعود على أبي جهل : إنها أصوات الملائكة . قال : إذن بالملائكة تغلبون لا  
أتم . . .

فإياكم أن تفتنوا حتى بالملائكة ؛ لأن النصر لا منكم ولا من الملائكة ، ولكن النصر من  
عندي أنا ؛ لأن الذي تحب أن ينصرك ، لا بد أن تكون واثقاً أنه قادر على نصرتك ، والبشر  
مع البشريظنون الانتصار من قبل الحرب ، ومن الجائز أن يغلب الطرف الآخر ، لكن النصر  
الحقيقي من الذي لا يُغلب وهو الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

(198/306)

---

وأنت حين تستنصر أحداً لينصرك على عدوك فهذا الذي نستنصر به إن كان من جنسك  
يصح أن يغلب معك ويصح أن تنغلب أنت وهو ، لكنك تدخل الحرب مظنة أنك تغلب مع  
من ينصرك وقد يحدث لكما معاً الهزيمة أمّا الحق سبحانه وتعالى فهو وحده الذي لا يُغلب  
ولا يُغلب . ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وهو سبحانه وتعالى الناصر ، وهكذا يكون المؤمن الذي يقاتل بحمىة الإيمان واثقاً من النصر ، لكن إياكم أن تظنوا أن النصر من الله لا يصدر عن حكمة ، إن وراء نصر الله للمؤمنين حكمة ، فإن تهاوتم في أي أمر يُسلب منكم النصر ؛ لأن الله لا يغير سننه مع خلقه ، وقد رأينا ما حدث في غزوة أحد حين تحاذلوا ولم ينفذوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ينتصروا ؛ لأن الحكمة اقتضت ألا ينتصروا ، ولو نصرهم الله لاستهانوا بعد ذلك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقال بعض منهم : خالفناه وانتصرنا ، وهكذا نجد أن طاعة الله والرسول والأخذ بالأسباب أمر هام ، فحين جاء الأمر من رسول الله في غزوة أحد بما معناه : يا رماة لا تتركوا أماكنكم ، ولورأيتمونا نفر إلى المدينة ، فلا شأن لكم بنا ، وعلى كل منكم أن يأخذ دوره ومهمته ، فإذا رأى أخاه في دوره قد انهزم فليس له به شأن ، وعلى كل مقاتل أن ينفذ ما عليه .

لكنهم خالفوا فسلبهم الله النصر . وهكذا يتأكد لهم أن النصر من عند الله العزيز الذي لا يغلب . وقال البخاري عن البراء بن عازب قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة ، وأمر عليهم " عبد الله بن جبير " ، وقال عليه الصلاة والسلام : " لا تبرحوا وإن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموا ظهرنا علينا فلا تعينونا " .

---

ونلاحظ أن المدد بالملائكة ورد مرة بألف ، ومرة بثلاثة آلاف في قول الحق سبحانه ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعَىٰ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴾ [ آل عمران : 124 ] .

فإن لم يكفكم ثلاثة آلاف سيزيد الله العدد ، لذلك يقول المولى عز وجل : ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُدْعَىٰ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [ آل عمران : 125 ] .

إذن المدد يتناسب مع حال المؤمنين ، وبين ذلك قوله سبحانه : ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾

فالصبر إذن وحده لا يكفي بل لا بد أيضا من تقوى اللخ ، ولا بد كذلك من المصابرة بمغالبة العدو في الصبر ؛ لذلك يقول المولى تبارك وتعالى في موقع آخر : ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [ آل عمران : 200 ] .

وذلك لأن العدو قد يملك هو أيضا ميزة الصبر ؛ لهذا يزيد الله الصابر ، فإن صبر العدو على شيء فاصبر أنت أيها المؤمن أكثر منه .

وقد جعل الله عز وجل الإمداد بالملائكة بشرى لطمأنة القلوب وثقة من أن النصر من عند الله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأَنْفَالُ : 10] .

وما أن بدأت المعركة حتى بدأ توالي النعم التي سوف تأتي بالنصر ، إمداد بالملائكة ، بشرى لتطمئن القلوب ، وثقة من أن النصر من عند الله العزيز الحكيم .  
ثم يأتي التذكير بالدلالة على ذلك فيقول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَّهَّرَكُم بِهِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي صـ ﴾

(200/306)

وقال الشوكاني في الآيتين :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ (10) ﴾

قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أي واذكروا وقت استغاثتكم .  
وقيل بدل من ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ ﴾ [الأَنْفَالُ : 7] معمول لعامله .

وقيل : متعلق بقوله : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ [ الأنفال : 8 ] والاستغاثه : طلب الغوث .

يقال : استغاثني فلان فأغثته ، والاسم الغياث .

والمعنى : أن المسلمين لما علموا أنه لا بدّ من قتال الطائفة ذات الشوكة ، وهم النفيير كما أمرهم الله بذلك ، وأراده منهم ، ورأوا كثرة عدد النفيير ، وقلة عددهم ، استغاثوا بالله سبحانه .

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن عدد المشركين يوم بدر ألف ، وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلاً ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى ذلك استقبل القبلة ، ثم مديديه فجعل يهتف بربه : " اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم أنتي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض " الحديث ﴿ فاستجاب لكم ﴾ عطف على ﴿ تستغيثون ﴾ داخل معه في التذكير ، وهو وإن كان مستقبلاً فهو بمعنى الماضي ، ولهذا عطف عليه استجاب .

قوله : ﴿ أَنِّي مُدِّكُمُ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَكَةِ ﴾ أي باني ممدكم ، فحذف حرف الجرّ وأوصل

الفعل إلى المفعول ، وقرىء بكسر الهمزة على إرادة القول ، أو على أن في ﴿ استجاب ﴾ معنى القول .

قوله : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول ، وقرأ الباقر بكسرها اسم فاعل

واتصابه على الحال .

والمعنى على القراءة الأولى : أنه جعل بعضهم تابعا لبعض .

(201/306)

---

وعلى القراءة الثانية : أنهم جعلوا بعضهم تابعا لبعض وقيل : إن ﴿ مردفين ﴾ على  
القراءتين نعت لألف .

وقيل : إنه على القراءة الأولى ، حال من الضمير المنصوب في ﴿ ممدكم ﴾ : أي ممدكم في  
حال إردافكم بألف من الملائكة .

وقد قيل : إن ردف وأردف بمعنى واحد .

وأنكره أبو عبيدة قال : لقوله تعالى : ﴿ تَبِعَهَا الرَّادِفَةُ ﴾ [ النازعات : 7 ] ولم يقل  
المردفة .

قال سيبويه : وفي الآية قراءة ثالثة وهي " مردفين " بضم الراء وكسر الدال مشددة .

وقراءة رابعة بفتح الراء وتشديد الدال .

وقرأ جعفر بن محمد ، وعاصم الجحدري " بالآف " جمع ألف ، وهو الموافق لما تقدم في آل

عمران .

والضمير في ﴿ وما جعله الله ﴾ راجع إلى الإمداد المدلول عليه بقوله : ﴿ أَنِّي مُدِّكُمْ ﴾  
﴿ الإِ بشرى ﴾ أي إلهة بشرية لكم بنصره ، وهو استثناء مفرغ ، أي ما جعل إمدادكم  
لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر .

﴿ وَلَتَطْمِئِنَّ بِهِ ﴾ أي بالإمداد قلوبكم .

وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا ، بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم ، وتطمئن  
قلوبهم وتثبتها .

واللام في ﴿ لتطمئن ﴾ متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخراً ، أي وتطمئن قلوبكم فعل ذلك  
لأشياء آخر .

﴿ وَمَا النَّصْرَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ لا من عند غيره ، ليس للملائكة في ذلك أثر ، فهو الناصر  
على الحقيقة ، وليسوا إلا سبباً من أسباب النصر التي سببها الله لكم ، وأمدكم بها .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يغالب ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في كل أفعاله .

وقد أخرج ابن جرير ، عن علي رضي الله عنه ، قال : نزل جبريل في ألف من الملائكة عن  
ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن  
ميسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة .

---

وأخرج سنيد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، قال : ما أمدّ النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من هذه الألف التي ذكر الله في الأنفال ، وما ذكر الثلاثة الآلاف ، والخمسة الآلاف إلا بشرى .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ قال : متابعين .

وأخرج ابن جرير ، عنه ، في قوله : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ يقول : المدد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عنه ، أيضاً في الآية قال : وراء كل ملك ملك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الشعبي ، قال : كان ألف مردفين ، وثلاثة آلاف منزلين ، فكانوا أربعة آلاف ، وهم مدد المسلمين في ثغورهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ قال : مجدّين .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة قال : متابعين ، أمدّهم الله بألف ثم بثلاثة ، ثم أكملهم خمسة آلاف .

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴾ لَكُمْ ﴿ وَتَطْمَئِنُّ بِه قُلُوبُكُمْ ﴾ قال : يعني نزول الملائكة .



قال: وذكر لنا أن عمر قال: أما يوم بدر فلانشك أن الملائكة كانوا معنا.

وأما بعد ذلك فالله أعلم.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قال: بعضهم على أثر بعض.

انتهى انتهى. اهـ ﴿فتح القدير ح 2 ص﴾

(203/306)

"فصل"

قال السيوطي:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(10) ﴿﴾

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو عوانة وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال "حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر

رجلاً، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم ثم  
مديده وجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل  
الإسلام لا تعبد في الأرض. فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه  
، فأثاه أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال:  
يا نبي الله كفك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى ﴿ إذ  
تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ .

(204/306)

---

فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله  
هؤلاء بنو العم والعشيرة، وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على  
الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: ما رأى أبو بكر، ولكنني أرى أن تمكيني من فلان قريب  
لعمر فأضرب عنقه حتى يعلم الله تعالى أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، هؤلاء  
صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر رضي

الله عنه ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر رضي الله عنه :  
فغدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه وهما يبكيان . فقلت : يا  
رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد  
بكاء تبكيت لبكائكما . . . ؟ ! قال النبي صلى الله عليه وسلم : الذي عرض على  
أصحابك من أخذ الفداء قد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة الشجرة قريبة ،  
وأُنزل الله تعالى ﴿ ما كان لنبي أن تكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ [ الأنفال : 67  
[ إلى قوله ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم ﴾ من الفداء ثم أحل لهم الغنائم  
، فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم  
سبعون ، وفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكسرت رباعيته ، وهشمت  
البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه . فأنزل الله تعالى ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد  
أصبتكم مثلها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ [ آل عمران : 165 ] بأخذكم  
الفداء . قال ابن عباس رضي الله عنهما : بينما رجل من المسلمين يشد في أثر رجل من  
المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالصوت فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم إذ نظر إلى  
المشرك أمامه ،

---

فخر مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خطم وشق وجهه كضربة السوط ، فاحضر ذلك أجمع ، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين " .

وأخرج ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال : نزل جبريل عليه السلام في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أبو بكر رضي الله عنه ، ونزل ميكائيل عليه السلام في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة .  
وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة رضي الله عنه " أن رسول الله قال يوم بدر : هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب " .

وأخرج سنيد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه قال : ما أمد النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من هذه الألف التي ذكر الله تعالى في الأنفال ، وما ذكر الثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف إلا بشرى ، ثم أمدوا بالآلف ما أمدوا بأكثر منه .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه وكان من أهل بدر قال : " جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال " من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها . قال : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة " .

وأخرج أبو الشيخ عن عطية بن قيس رضي الله عنه قال : وقف جبريل عليه السلام على

فرس أخضر أتى قد علاه الغبار ، ويبد جبريل عليه السلام رمح وعليه درع فقال : يا محمد إن الله بعثني إليك فأمرني أن لا أفارقك حتى ترضى فهل رضيت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ مردفين ﴾ يقال : المدد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ مردفين ﴾ يقال : المدد .

(206/306)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ مردفين ﴾ قال : وراء كل ملك ملك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي رضي الله عنه قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين فكانوا أربعة آلاف ، وهم مدد المسلمين في ثغورهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ مردفين ﴾ قال : ممدين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ مردفين ﴾ قال :  
متابعين ، أمدهم الله تعالى بألف ، ثم بثلاثة ، ثم أكملهم خمسة آلاف ﴿ وما جعله الله إلا  
بشرى ولتطمئن به قلوبكم ﴾ قال : يعني نزول الملائكة عليهم السلام قال : وذكر لنا أن عمر  
رضي الله عنه قال : أما يوم بدر فلانشك أن الملائكة عليهم السلام كانوا معنا ، وأما بعد  
ذلك فالله أعلم .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه ﴿ مردفين ﴾ قال : بعضهم على  
أثر بعض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ﴾ قال  
: إنما جعلهم الله يستبشرون بهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ج 4 ص ﴾

(207/306)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وما جعله " "

الهاء تعود على الإمداد ، أي : وما جعل الله الإمداد ، ثم هذا الإمداد يُحتمل أن يكون

المنسبك من قوله: "أني مُمدُّك" إذ المعنى: فاستجاب بإمدادكم، ويحتمل أن يكون مدلولاً عليه بقوله: "مُمدُّكم" كما دلَّ عليه فعلُهُ في قوله: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ [المائدة: 8] وهذا الثاني أولى؛ لأنَّ مُتَّاتٍ على قراءة الفتح والكسري: "إني" بخلاف الأول فإنَّهُ لا يتَّجه عودُهُ على الإمداد على قراءة الكسر إلا بتأويلٍ ذكره الزمخشريُّ: وهو أنَّه مفعول القول المضمر، فهو في معنى القول.

وقيل يعودُ على المدد قاله الزَّجَّاجُ، وهذا أولى؛ لأنَّ بالإمداد بالملائكة كانت البشريُّ. وقال الفراءُ: إنَّهُ يعودُ على الإرداف المدلول عليه بـ "مُردفين".  
وقيل: يعودُ على: "الألف".

وقيل: على المدلول عليه بـ "يعدكم".  
وقيل: على جبريل، أو على الاستجابة لأنَّها مؤنثٌ مجازي، أو على الإخبار بالإمداد، وهي كُلُّها محتملة وأرجحها الأوَّلُ، والجعل هنا تصييرٌ. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن

عادل - 9 ص 464 ﴿

من لطائف الإمام القشيري في الآية  
قال عليه الرحمة:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَتَطْمِئِنُّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا التَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾

﴿ حَكِيمٌ (10) ﴾

ويقال بشرهم بالإمداد بالملك ، ثم رقاهم عن هذه الحالة بإشهادهم أن الإنجاز من الملك ، ولم يذرهم في المساكنة إلى الإمداد بالملك فقال : ﴿ وَمَا التَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ فالنجاة من البلاء حاصلة ، وفنون الإنجاز والإمداد بالطاقة متواصلة ، والدعوات مسموعة ، والإجابة غير ممنوعة ، وزوائد الإحسان متاحة ، ولكن الله عزيز .

الطالبُ واجدٌ ولكن بعبائه ، والراغبُ واصلٌ ولكن إلى مباره . والسبيلُ سهلٌ ولكن إلى وجدان لطفه ، فأما الحقُّ فهو عزيزٌ وراء كل وصل وفصل ، وقربٌ وبعُد ، وما وصلَ أحدٌ إلا إلى نصيبه ، وما بقي أحدٌ إلا عن حظه ، وفي معناه أنشدوا :

وَقُلْنَا لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا . . . نَضِيءُ لِمَنْ يَسْرِي بَلِيلٍ وَلَا تَقْرِي

فَلَا بَدْلَ إِلَّا مَا تَزُودُ نَاظِرٌ . . . وَلَا وَصَلَ إِلَّا بِالْجَمَالِ الَّذِي يَسْرِي . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 605.606 ﴾



## "فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)﴾

إلى قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَتَطْمِئِنُّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ  
حَكِيمٌ (10)﴾

(210/306)

التفسير: روى عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من فعل كذا فله كذا، فذهب شبان الرجال وجلس الشيوخ تحت الرايات فلما كانت القسمة جاء الشبان يطلبون نفلهم وقالت الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإننا كنا تحت الرايات ولو انهزمتهم كنا رداً لكم فأنزل الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ فقسمها بينهم بالسواء. وعن عبادة بن الصامت قال: لم هزم العدو يوم بدر وابتعثهم طائفة يقتلونهم،

أحدت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم واستولت طائفة بالعكس والنهب ، فلما  
نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم وقالوا : لنا النفل نحن طلبنا العدو وينا قفاهم الله  
وهزمهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أتم بأحق به منا نحن  
أحدقنا برسول الله لا ينال العدو ومنه صلى الله عليه وسلم غرة . وقال الذين استولوا على  
العسكر والنهب : نحن أخذناه واستولينا عليه فهو لنا فنزلت الآية ، فقسمها رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بينهم بالسواء . وعن سعد بن أبي وقاص لما كان يوم بدر قتل أخي  
عمير وقتل سعيد بن العاص فأخذت سيفه فأعجبني فجئت به إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فقلت : إن الله قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف . فقال :  
ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض أي في المقبوض من الغنائم ، فطرحته وبني ما لا يعلمه  
إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي ، فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني رسول الله صلى الله  
عليه وسلم وقد أنزلت سورة الأنفال عليه فقال : " يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي  
وإنه الآن قد صار لي فاذهب فخذهُ " والنفل بالتحريك الغنيمة وجمعه الأنفال وهي الأموال  
المأخوذة من الكفار قهراً . قال الأزهري : هو ما كان زيادة على الأصل فسميت الغنائم  
بذلك لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل الغنائم لهم .

(211/306)

---

وصلاة التطوع نافلة لأنها زائدة على الفرض وقال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [ الأنبياء : 72 ] أي زيادة على ما سأل . والضمير في ﴿ يسألونك ﴾ عائد إلى جامع معينين من الصحابة لهم تعلق بالغنائم كما قرنا . وحسن العود وإن لم يجز لهم ذكر في اللفظ لدلالة الحال عليهم ، ولفظ السؤال وإن كان مبهماً إلا أن تعيين الجواب يدل على أن المراد أنهم سألوا عن الأنفال كيف مصرفها ومن المستحق لها . قال الزجاج : إنما سألوا عنها لأنها كانت حراماً على من كان قبلهم . وضعف بأن الآية دلت على أنها مسبوقة بالتنازع والتنافس فسألوا عن كيفية قسمتها لا عن حلها وحرمتها . وعن عكرمة أن المراد من هذا السؤال الاستعطاء أي يطلبون منك الغنائم وقال في الكشاف : النفل ما ينقله الغازي أي يعطاه زائداً على سهمه من المغنم وهو أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب . من قتل قتيلاً فله سلبه . أو قال السرية ما أصبتم فهو لكم أو فلکم نصفه أو ربعه . ولا يخمس النفل ويلزم الإمام الوفاء بما وعد به . وهذا التفسير يناسب خبر سعد بن أبي وقاص في إعطاء السيف إياه . وعن ابن عباس في بعض الروايات أن المراد بالأنفال ما شذ عن المشركين إلى المسلمين من غير قتال من دابة أو عبد أو متاع فهو إلى النبي صلى الله عليه وسلم يضعه حيث يشاء . وعن مجاهد : إن الأنفال الخمس الذي جعله الله لأهل الخمس . وعلى هذا فالقوم إنما سألوا عن الخمس فنزلت الآية . ثم أمر بالشروع في الجواب فقال ﴿ قل الأنفال لله

والرسول ﴿ أَي حَكْمَهَا مَحْتَصٌّ بِاللَّهِ وَرَسُولُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ بِقِسْمَتِهَا عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَيُمَثِّلُ الرَّسُولُ أَمْرَ اللَّهِ فِيهَا ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ فِي قِسْمَتِهَا مَفُوضاً إِلَى رَأْيِ أَحَدٍ . قَالَ مُجَاهِدٌ وَعُكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ ﴾ [ الْأَنْفَالُ : 41 ] الْآيَةِ . وَضَعَفَ بَأْنَ جَعَلَ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِهَا مَلِكاً لِلْغَانِمِينَ لَا يَنَافِي كَوْنَ الْحَكْمِ فِيهَا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، وَلَوْ فَسَّرَ الْأَنْفَالَ بِالْخُمْسِ أَوْ بِالسُّلْبِ فَلَا إِشْكَالَ . ثُمَّ

(212/306)

---

حَثَّمُ عَلَى تَرْكِ الْمَنَازِعَةِ وَعَلَى الْمُوَاخَاةِ وَالْمَصَافَاةِ فَقَالَ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَي عِقَابَهُ وَلَا تَقْدُمُوا عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَاتْرَكُوا الْمَنَازِعَةَ وَالْمَخَاصِمَةَ بِسَبَبِ هَذِهِ الْأَمْوَالِ ﴿ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أَي الَّتِي هِيَ بَيْنَكُمْ مِنَ الْأَحْوَالِ حَتَّى تَكُونَ أَحْوَالُ الْفَةِ وَمُودَةٌ وَمُوَافِقَةٌ . لَمَّا كَانَتِ الْأَحْوَالُ وَاقِعَةً فِي الْبَيْنِ قِيلَ لَهَا ذَاتَ الْبَيْنِ كَمَا أَنَّ الْأَسْرَارَ لَمَّا كَانَتْ مَضْمُورَةً فِي الصَّدُورِ قِيلَ لَهَا ذَاتَ الصَّدُورِ . ثُمَّ خَتِمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي كَامِلِي الْإِيمَانَ تَنْبِيهاً عَلَى أَنَّ كِمَالَ الْإِيمَانِ مَوْقُوفٌ وَإِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَطَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . ثُمَّ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ فَقَالَ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَي فَزَعَتْ لَذِكْرِهِ اسْتِعْظَاماً لَجَلَالِهِ وَحَذَرًا مِنَ الْيَمِّ عِقَابِهِ .

وقد يطمئن القلب بعد ذلك إذا تذكر كمال راقته وجزيل ثوابه كقوله ﴿ ثم تلين جلودهم  
وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ [ الزمر : 23 ] وقيل : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهمل لمعصية فيقال  
له اتق الله فينزع ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ قالت العلماء : زيادة الإيمان  
تكون على ثلاثة أنحاء الأول : بقوة الدليل وبكثرتة ، فإن كل دليل مركب لا محالة من  
مقدمات . ولا شك في أن النفوس مختلفة في الأشرار والإنارة ، والأذهان متفاوتة بالذكاء  
والغباوة ، فكل من كان جزمه بالمقدمات أكثر وأدوم كان علمه بالنتيجة أكمل وأتم ، وكذا  
من سئح له على المطلوب دليلان كان علمه أتم من لا يجد على المطلوب دليل واحد ولذا  
يورد العلماء دلائل متعددة على مدلول واحد والله در القائل : وفي كل شيء له آية تدل على  
أنه واحد . الثاني : بتعدد التصديق وتجده ؛ فمن المعلوم أن من صدق إنساناً في شيئين  
كان تصديقه أزيد من تصديق من صدقه في شيء واحد ، فمعنى الآية أنهم كلما سمعوا آية  
متجددة أتوا بإقرار جديد . الثالث : أن يقال : الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار  
والعمل كما ينبيء عنه ظاهر الآية لأنه لما ذكر الأمور الخمسة قال ﴿ أولئك هم المؤمنون  
﴿ فدل ذلك على أن كل تلك الخصال داخلة في مسمى الإيمان ويؤيده ما رواه أبو هريرة أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان " وإذا كان الإيمان عبارة عن مجموع الأركان الثلاثة فبسبب التفاوت في العمل يظهر التفاوت في الإيمان ، وإن لم يكن التفاوت في الإقرار والاعتقاد متصوراً . أما قوله ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ فيفيد الحصر أي لا يتوكلون إلا على ربهم وهذه الصفات مرتبة على أحسن جهات الترتيب ؛ فأولى الفرع من عقاب الله ، والثانية الاتقياء لتكاليفه ، والثالثة الانقطاع بالكلية عما سواه . ثم لما فرغ من أعمال القلوب وهي

(214/306)

---

الخشية والتسليم والتوكل شرع في وصفهم بأعمال الجوارح وذكر منها رأسها وسنامها وهما الصلاة والصدقة ، ثم عظمهم بقوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ وفي ﴿ أولئك ﴾ وفي توسيط الفصل وتعريف الخبر وإيراد ﴿ حقا ﴾ من المبالغات ما لا يخفى و ﴿ حقا ﴾ صفة مصدر محذوف أي إيماناً حقا وهو مصدر مؤكد للجمله قبله ، وقال الفراء : معناه أخبركم بذلك إخباراً حقا ، وقيل : إنه منوط بما بعده أي حقا لهم درجات . واعلم أن الأئمة اتفقوا على أن الرجل المؤمن يجوز له أن يقول أنا مؤمن ، ثم اختلفوا في أنه هل يجوز له أن

يضيف إليه حقاً أولاً بل يستثني فيقول إن شاء الله . والأول مذهب أصحاب أبي حنيفة  
لما ورد في الآية ، ولأن الشك في الإيمان لا يجوز لأن التصديق والإقرار كلاهما محقق .

(215/306)

---

والثاني مذهب أصحاب الشافعي ، وأجابوا عن الآية بأنه لا نزاع في أن الموصوف  
بالصفات المذكورة مؤمن حقاً إنما النزاع من أن القائل أنا مؤمن هل هو موصوف بتلك  
الصفات جزماً أم لا . وأما حديث الشك فمبني على أن الإيمان عبارة عن الأركان الثلاثة ،  
ولا ريب أن كون الإنسان آتياً بالأعمال الصالحة أمر مشكوك فيه ، والشك في أحد أجزاء  
الماهية يوجب الشك في حصول تلك الماهية ، فإن النزاع لفظي على أنا لا نسلم أن  
الاستثناء لأجل الشك وإنما هو لزوال العجب أو لعدم القطع بحسن الخاتمة ، أو لنوع من  
الأدب ففيه تفويض بالأمر إلى علم الله وحكمه كقوله ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء  
الله آمنين ﴾ [ الفتح : 27 ] وإنه تعالى منزّه عن الشك والريب . عن الحسن أن رجلاً  
سأله أمؤمن أنت ؟ قال : الإيمان إيمانان فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه  
ورسوله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن ، وإن كنت تسألني عن  
قوله ﴿ إنما المؤمنون ﴾ فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا . وعن الثوري : من زعم أنه مؤمن بالله

حقاً ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية . وهذا الإلزام منه يعني كما لا يقع بأنه من أهل الجنة حقاً فلا يقطع بأنه مؤمن حقاً . ويحكى عن أبي حنيفة أنه قال لقتادة : لم تستثني في إيمانك ؟ فقال : اتبعا لإبراهيم في قوله ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي ﴾ [الشعراء : 82] فقال له : هلا اقتديت به في قوله ﴿ أو لم تؤمن قال بلى ﴾ [البقرة : 260] قيل : وكان لقتادة أن يقول ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة : 260] وفيه ما فيه . ثم أخبر عن مآل حالهم فقال ﴿ هم درجات عند ربهم ﴾ أي سعادات روحانية متفاوتة في الصعود والارتفاع ، ولكن استغراق كل واحد في سعادته الخاصة به يمنعه عن التأم من حال من فوقه كما قال سبحانه ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ ، ﴿ ومغفرة ﴾ [الحجر : 47] وتجاوز عن سيئاتهم ﴿ ورزق كريم ﴾ هو نعيم الجنة المقرون

(216/306)

---

بالدوام والتعظيم . والكرم اسم جامع لكل ما يحمد ويستحسن في بابه نقله الواحدي عن أهل اللغة . فالله سبحانه موصوف بأنه كريم لأنه محمود في كل ما يحتاج إليه ، والقرآن كريم لأنه يوجد فيه بيان كل شيء ﴿ وقال إني ألقى إليّ كتاب كريم ﴾ [النمل : 29] وقال



﴿ من كل زوج كريم ﴾ [لقمان : 10] وقال ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ [الإسراء :

23] قال بعض العارفين : المغفرة إزالة الظلمات الحاصلة من الاشتغال بغير الله . والرزق

الكريم الأنوار الحاصلة بسبب الاستغراق في معرفته ومحبته .

قوله عز من قائل ﴿ كما أخرجك ﴾ يقتضي تشبيه شيء بهذا الإخراج وذكره فيه

وجوهاً : الأول : أن المشبه محذوف تقديره هذا الحال كحال إخراجك . والمعنى أن

حالمهم في كراهة ما صنعت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب ، وذلك

أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى كثرة المشركين يوم بدر وقلة المسلمين قال :

(217/306)

---

" من قتل قتيلاً فله كذا وكذا " . ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا " ترغيباً لهم في القتال ،

فلما انهزم المشركون قال سعد بن عباد : يا رسول الله لو أعطيت هؤلاء ما سميتهم لهم بقي

خلق كثير بغير شيء فنزلت ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ يصنع فيها ما يشاء فأمسك

المسلمون عن الطلب وفي أنفسهم بعضهم شيء من الكراهة . والثاني : أن ينتصب الكاف

على أنه صفة مصدر الفعل المقدر في قوله ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ أي ثبت الحكم

واستقر بأن الأنفال لله وإن كرهوا ثباتاً مثل إخراج ربك إياك إلى القتال وإن كرهوا ، ووجه

تخصيص هذا المشبه به بالذكر من بين سائر أحكام الله أن القصة واحدة ووجه جعل الإخراج مشبهاً به كونه أقوى في وجه الشبه لأن مدار القصة عليه . وقيل : التقدير هو أن الحكم بكونهم مؤمنين حق كما أن حكم الله بإخراجك من بيتك لأجل القتال حق . الثالث : قال الكسائي : الكاف متعلق بما بعده وهو قوله ﴿ يجادلونك ﴾ والتقدير كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه . والبيت بيته صلى الله عليه وآله بالمدينة أو المدينة نفسها لأنها مهاجرة ومسكنه فلها به اختصاص كاختصاص البيت بساكنه ، ومعنى بالحق أي إخراجاً ملتبساً بالحكمة والصواب ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ في موضع الحال أي أخرجك في حال كراهة بعضهم .

(218/306)

---

ثم بين الكراهة بقوله ﴿ يجادلونك ﴾ ويجوز أن تكون الجملة بدلاً أو خبراً بعد خبر . روي أن قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعهم أربعون راكباً - منهم أبو سفيان وعمر بن العاص وعمر بن هشام - فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم ، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر

خروجهم فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول ،  
عيركم ، أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً . وقد رأت أخت العباس ابن  
عبد المطلب رؤيا فقالت لأخيها : إني رأيت عجباً رأيت كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ  
صخرة من الجبل فرمى بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة .  
فحدث بها العباس فقال أبو جهل : ما يرضى رجالهم أن يتنبأوا حتى تنبأ نساؤهم .  
فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير على ما قيل السائر : " لا في العير ولا في النفير "  
فقيل له : إن العير ولا في النفير " فقيل له : إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع  
بالناس إلى مكة فقال : لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور ونشرب الخمر ونقيم  
القينات والمعازف بيدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وأن محمداً لم يصب العير .

(219/306)

---

فمضى بهم إلى بدر ونزل جبرائيل فقال : يا محمد إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير  
وإما قريشا فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال : ما تقولون إن القوم قد  
خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب إليكم أم النفير ؟ قالوا : بل العير أحب  
إلينا من لقاء العدو . فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردّ عليهم فقال : إن

العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا : يا رسول الله عليك بالعيرو دعو العدو . فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر فأحسنا أي الكلام ، ثم قام سعد بن عبادة فقال : انظر فامض فوالله لو سرت إلى عدن ما تخلف عنك رجل من الأنصار . ثم قال : المقداد بن عمرو : يا رسول الله امض لما أمرك الله فإننا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ [المائدة : 24] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت عين تطرف . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : " أشيروا علي أيها الناس " وهو يريد الأنصار لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوف أن يكون الأنصار لا ترى عليهم نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة . فقام سعد بن معاذ فقال : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . قال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدونا وموآثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أدرت فوالذي بعثك بالحق نبيا لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، إنا بالصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك بنا ما

---

تقرُّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشطه قول سعد ثم قال : " سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم " ولنرجع إلى التفسير . قوله ﴿ في الحق ﴾ أي في تلقي النفير بعد ما تبين أي بعد إعلام النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم هم المنصورون وجداهم قولهم ما كان خروجنا إلا للغير . وهلا قلت لنا لنستعد وتأهب وذلك لكراهم القتال ﴿ كأنما يساقون إلى الموت ﴾ المتيقن لمشاهدة أسبابه من قلة العدد والعدد .

(221/306)

---

روي أنه ما كان منهم إلا فارسان . واتصب بإضمار " اذكر " . قوله ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴾ وقوله ﴿ أنها لكم ﴾ بدل من ﴿ إحدى الطائفتين ﴾ وهما العير أو النفير ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أي تمنون أن يكون لكم العر لأنها الطائفة التي لا حدة لها ولا شدة . والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك ﴿ ويريد الله أن يحق الحق ﴾ يشبه ويعليه ﴿ بكلماته ﴾ بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة من إنزال الملائكة وأسر الكفرة وقتلهم وطرحهم في قلب بدر ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ أي

يستأصلهم . والدبر الآخر يعني أنكم تريدون العاجل وسفساف الأمور والله يريد معاليها  
وما يرجع إلى تقوية الدين وشتان ما بين المرادين . قوله ﴿ ليحق الحق ﴾ متعلق بمحذوف  
أي لإظهار الإسلام وإبطال الكفر . فعل ما فعل وإنما قدر المحذوف متأخراً ليفيد معنى  
الاختصاص أي ما فعل ذلك إلا لتحقيق الحق وإبطال الباطل وقيل : يتعلق ب ﴿ يقطع ﴾  
فإن قيل : الحق حق لذاته والباطل باطل في ذاته وما ثبت للشيء لذاته فإنه يتمتع تحصيله  
بجعل جاعل . قلنا : المراد إظهار كون الحق حقاً والباطل باطلاً وذلك يكون تارة بإظهار  
الدلائل والبيان ، وتارة بتقوية رؤساء الحق وقهر رؤساء الباطل . فإن قيل : ليس في الكلام  
تكرار ؟ قلنا : لا إذ المراد بالأول تثبيت ما وعده في هذه الواقعة من الظفر بالأعداء ،  
والمراد الثاني إعلاء الإسلام ومحق الكفر . والحاصل أن الأول جزئي أي أتم تريدون العير  
والله يريد إهلاك النفير ، الثاني كلي يشمل هذه القضية وغيرها من القضايا التي حصل في  
ضمنها إعلاء كلمة الله وقمع بكلمة الكفر . احتجت الأشاعرة بقوله ﴿ كما أخرجك  
ربك ﴾ وقوله ﴿ ليحق الحق ﴾ على أن الأعمال والعقائد كلها بخلق الله وتكوينه ولا  
يمكن أن يقال : المراد من إظهار الحق وضع الدلائل عليه لأن هذا المعنى حاصل بالنسبة إلى  
المسلم والكافر وقبل هذه الواقعة وبعدها فلا يبقى للتخصيص فائدة .

---

والمعتزلة تمسكوا بالآية على إبطال قول من يقول إنه لا باطل ولا كفر إلا والله مرید له ، لأن ذلك ينافي إرادة تحقيق الحق وإبطال الباطل . واجيب بأن اللام في ﴿ الحق ﴾ ينصرف إلى المعهود السابق أي في هذه القضية فلم قلت : إنه كذلك في جميع الصور ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أي الكافرون أو المشركون كقوله ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [ التوبة : 32 ] وفي موضع آخر ﴿ ولو كره المشركون ﴾ [ الصف : 90 ] وقوله ﴿ إذ تستغيثون ﴾ بدل من قوله ﴿ وإذ يعدكم ﴾ وقيل : يتعلق بقوله ﴿ ليحقق الحق ﴾ واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال طفقوا يدعون الله يقولون : يا غياث المستغيثين أغثنا . وعن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه ثلاثمائة ، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو : اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه ، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال : يا نبي الله كفأك منا شدتك بالدعاء ربك فإنه سينجز لك ما وعدك .

ويروى أنه لما اصطف القوم قال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره . ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده بالدعاء المذكور . ومعنى تستغيثون تطلبون الإغاثة ، يقول الواقع في بلية أغشي أي فرج عني ﴿ فاستجاب لكم ﴾ ، ﴿ أني ﴾ أي باني ﴿ بمدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ بكسر الهمزة وفتحها من أردفته إياه إذا أتبعته متعبداً إلى مفعولين ، أو من ردفته إذا أتبعته أي جئت بعده متعبداً إلى مفعول واحد . ومعنى الأول جاعلين بعضهم أو مجعولين بعضهم تابعا لبعض أو أنفسهم تابعين للمؤمنين يحرسونهم أو لملائكة أخرى . ومعنى الثاني تابعين بعضهم لبعض أو للمؤمنين يقدمونهم على ساقهم يحفظونهم أو لغيرهم من الملائكة . واختلف في قتال الملائكة يوم بدر فقيل : نزل جبرائيل في خمسمائة ملك على اليمين وفيها أبو بكر ، وميكائيل في خمسمائة على اليسرة وفيها علي بن أبي طالب في صور الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا أذناها بين أكفاهم فقاتلت ، وقيل : قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين . وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود : من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصاً ؟ قال : من الملائكة . فقال أبو جهل : هم غلبونا لا أتم . وروى أن رجلاً من المسلمين بينا هو يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوجه فنظر إلى المشرك قد خر مستلقياً وشق وجهه ، فحدث الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : " صدقت ذلك من مدد السماء " وعن أبي داود المازني قال : تبعت رجلاً من



المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي . قيل : لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين وإلا فملك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا ، وقد أجبنا عن هذه الشبهة في تفسير سورة آل عمران وكذا في تفسير قوله ﴿ وما جعله الله ﴾ الآية . وقد مر هناك وقد بقي علينا بيان المتشابه فنقول : حذف ﴿ لكم ﴾ ههنا لأن

(224/306)

---

المخاطبين معلومون في قوله ﴿ فاستجاب لكم ﴾ وقدم ﴿ قلوبكم ﴾ وأخر به في " آل عمران " ازدواجاً بين الخطابين وعكس ههنا ازدواجاً بين الغائبين . ثم إن قصة بدر سابقة على قصة أحد فقليل في الأنفال ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ ليستقر الخبر وجعله في آل عمران صفة لأن الخبر قد سبق والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 372.379 ﴾

(225/306)

---

## فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : كثرة السؤال توجب الملل وإنما سألوا ليكون لهم الأنفال فأجيبوا على خلاف ما  
تمنوا .

وقيل : الأنفال لله والرسول قطعاً لطريق الاعتراض والسؤال . وأصلحوا ما بينكم من  
الأخلاق الردية والههم الدنية ❀ وأطيعوا الله ورسوله ❀ بالتسليم والائتمار ❀ زادتهم  
إيماناً ❀ بحسب تزايد الأنوار ❀ كما أخرجك ربك ❀ فيه أنه أخرج المؤمن الحفي عن  
أوصاف البشرية إلى مقام العبودية بمجذبات العناية ❀ كما أخرجك ❀ من وطن وجودك  
بالحق وهو تجلي صفات الجمال والجلال ❀ وإن فريقاً ❀ هم القلب والروح ❀ لكارهون  
❀ للفناء عند التجلي ، فإن البقاء محبوب عند كل ذي وجود ❀ يجادلونك ❀ أي الروح  
والقلب ❀ في ❀ مجيء ❀ الحق بعد ما تبين ❀ مجيئه كأنهم ينظرون إلى الفناء ولا يرون  
البقاء بعد الفناء كمن يساق إلى الموت ❀ وإذ يعدكم الله ❀ أيها السائرون ❀ إحدى  
الطائفتين ❀ إما الظفر بالأعداء وهي النفوس وإما غير الواردات الروحانية وغنائم  
الأسرار الربانية . ❀ وتودون أن غير ذات الشوكة ❀ أي أردتم أن لا تجاهدوا عدو  
النفس ذات المكر والحيلة والهوى ، واستحلتم الواردات والشواهد الغيبية وذلك أن  
السير قسمان : سير السالكين على أقدام الطاعات وتبديل الصفات النفسانية إلى جنات

الروحانية ، وسير المجذوبين على أجنحة عنقاء الجذبات إلى وراء قاف الأناية ، فكان موسى من السالكين إلى ميقات ربه لم يجاوز طور النفس فكان مقامه مع الله المكاملة ، وكان محمد من المجذوبين وكان سيره على جناح جبرائيل إلى سدرة المنتهى ومنها على رفرफ الجذبة الإلهية إلى قاب قوسين أو أدنى ، فكان مكانه المشاهدة فمن العناية أن لا يكل الله السائر إلى ما يوافق طبعه وهو اه كما قال ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أي بجذباته ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ النفوس الأمارة بالسوء . ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ يعني استغاثة الروح والقلب من النفس إلى الله عند استيلاء صفاتها ﴿ بألف من الملائكة ﴾ هم الصفات الملكية والروحانية ﴿ إلا بشرى لكم ﴾ بتبديل الأخلاق ﴿ وما النصر ﴾ ياهلاك النفس وصفاتها إلا بتجلي صفته

(226/306)

---

القهارية ﴿ إن الله عزيز ﴾ لا يوصل إليه إلا بعد فناء الوجود ﴿ حكيم ﴾ في كل ما يفعل بمن يفعل والله أعلم . انتهى انتهى . اه ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 379 . 380 ﴾

(227/306)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوي في تفسير القرآن الكريم  
ويُسمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَأَقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورُسُلِي - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع بعد الثلاثمائة  
حُقوقُ التَّسْخِخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 11 ﴾ من سورة الأنفال

وحتى الآية ﴿ 14 ﴾ من نفس السورة

(4/307)

قوله تعالى ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ  
وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (11)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر البشري والطمأنينة بالإمداد ، ناسب أن يذكر لهم أنه أتبع القول الفعل فألقى في  
قلوبهم بعزته وحكمته الطمأنينة والأمن والسكينة بدليل النعاس الذي غشيه في موضع  
هو أبعد الأشياء عنه وهو موطن الجلال ومصاولة الأنداد والتيقظ لمخاتلة أهل العناد ،  
وكذا المطر وأثره ، فقال مبدلاً أيضاً من ﴿ إذ يعدكم ﴾ أو معلقاً بالنصر أو بما في الظرف  
من رائحة الفعل مصوراً لعزته وحكمته : ﴿ إذ يغشاكم ﴾ بفتح حرف المضارعة في قراءة  
ابن كثير وأبي عمرو فالفاعل ﴿ النعاس ﴾ وضم الباقون الياء ، وأسكن نافع الغين وفتحها

الباقون وشددوا الشين المكسورة ، فالفاعل في القراءة الأولى مفعول هنا ، والفاعل ضمير يعود على الله ، ولما ذكر هذه التغطية الغريبة الخارقة للعوائد ، ذكر ما فعلت لأجله فقال : ﴿ أمانة ﴾ ولما كان ذلك خارقاً للعادة ، جاء الوصف بقوله : ﴿ منه ﴾ أي بحكمته لأنه لا ينام في مثل تلك الحال إلا الآمن ، ويمنع عنكم العدو وأنتم نائمون بعزته ، ولم يختلف فاعل ، الفعل المعلل في القراءات الثلاث لأن كون النعاس فاعلاً مجاز ، ويصح عندي نصبها على الحال .

(5/307)

---

ولما كان النعاس آية الموت ، ذكر بعده آية الحياة فقال : ﴿ وينزل عليكم ﴾ وحقق كونه مطراً بقوله : ﴿ من السماء ماء ﴾ ووقع في البيضاوي وأصله وكذا تفسير أبي حيان أن المشركين سبقوا إلى الماء وغلبوا عليه ، وليس كذلك بل الذي سبق إلى بدر وغلب على مائتها المؤمنون كما ثبت في صحيح مسلم وغيره ، فيكون شرح القصة أنهم مطروا في المنزل الذي ساروا منه إلى بدر فحصل للمسلمين منه ما ملؤوا منه أسقيتهم فطهروا من حدث أو جنابة ولبد لهم الرمل وسهل عليهم المسير ، وأصاب المشركين ما زلق أرضهم حتى منعهم المسير ، فكان ذلك سبباً لسبق المسلمين لهم إلى المنزل وتمكينهم من بناء الحياض وتعوير ما

وراء الماء الذي نزلوا عليه من القلب كما هو مشهور في السير ، ويكون رجز الشيطان وسوسته لهم بالقلّة والضعف والتخويف بكثرة العدو ، والربط على القلوب طمأنينتهم وطيب نفوسهم بما أراهم من الكرامة كما يوضح ذلك جميعه قول ابن هشام ﴿ وينزل عليكم من السماء ﴾ ماء للمطر الذي أصابهم تلك الليلة ، فحبس المشركين أن يسبقوا إلى الماء وخلقى سبيل المؤمنين إليه ﴿ ليظهركم به ﴾ أي من كل درن ، وابتدأ من فوائد الماء بالتطهير لأنه المقرب من صفات الملائكة المقربين من حضرات القدس وعطف عليه - بقوله : ﴿ ويذهب عنكم ﴾ أي لا عن غيركم ﴿ رجز الشيطان ﴾ بغير لام ما هو لازم له ، وهو العبد الذي كان مع الحدث الذي منه الجنابة المقربة من الخبائث الشيطانية بضيق الصدر والشك والخوف لإبعاد من الحضرات الملائكة " لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جنب " والرجز يطلق على القذر وعبادة الأوثان والعذاب والشرك ، فقد كان الشيطان وسوس لهم ، ولا شك أن وسوسته من أعظم القذر فإنها تجر من تهادى معها إلى كل ما ذكر ؛ ثم عطف عليه ما تهياً له القلب من الحكم الإلهية وهو إفراغ السكينة فقال : ﴿ وليربط ﴾ أي بالصبر واليقين .

ولما كان ذلك ربطاً محكماً غالباً عالياً ، عبر فيه بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ على قلوبكم ﴾ أي بعد إسكانها الوثوق بلطفه عند كل ملمة حتى امتلأت من كل خير وثبت فيها الربط ، فشبها بجراب ملء شيئاً ثم ربط رأسه حتى لا يخرج من ذلك الذي فيه شيء ، وأعاد

اللام إشارة إلى أنه المقصد الأعظم وما قبله وسيلة إليه وعطف عليه بغير لام لازمه من التثبيت فقال: ﴿ويثبت به﴾ أي بالربط بالمطر ﴿الأقدام﴾ أي لعدم الخوف فإن الخائف لا تثبت قدمه في المكان الذي يقف به، بل تصير رجلاه تنتقل من غير اختيار أو بتليد الرمل. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 192. 193﴾

(6/307)

فصل

قال الفخر:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

قال الزجاج: ﴿إِذْ﴾ موضعها نصب على معنى ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ [آل

عمران: 126] في ذلك الوقت.

ويجوز أيضاً أن يكون التقدير: اذكروا إذ يغشاكم النعاس أمانة.

المسألة الثانية:



في ﴿يغشاكم﴾ ثلاث قرآت: الأولى: قرأ نافع بضم الياء، وسكون الغين، وتخفيف الشين ﴿يُغَشِّيكُمُ النعاس﴾ بالنصب.

الثانية: ﴿يغشاكم﴾ بالالف وفتح الياء وسكون العين ﴿يُغَشِّيكُمُ النعاس﴾ بالرفع وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير.

الثالثة: قرأ الباقون ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ بتشديد الشين وضم الياء من التغشية ﴿النعاس﴾ بالنصب، أي يلبسكم النوم.

قال الواحدي: القراءة الأولى من أغشى، والثانية من غشي، والثالثة من غشي فمن قرأ ﴿يغشاكم﴾ فحجته قوله: ﴿الغم أمانة نغاساً﴾ يعني: فكما أسند الفعل هناك إلى النعاس والأمانة التي هي سبب النعاس كذلك في هذه الآية ومن قرأ ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ أو ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ فالمعنى واحد وقد جاء التنزيل بهما في قوله تعالى: ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ [ياس: 9] وقال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ [النجم: 54] وقال: ﴿كأنما أغشيت وجوههم﴾ [يونس: 27] وعلى هذا فالفعل مسند إلى الله.

المسألة الثالثة:

(7/307)

أنه تعالى لما ذكر أنه استجاب دعاءهم ووعدهم بالنصر فقال: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ذكر عقبيه وجوه النصر وهي ستة أنواع: الأول: قوله: ﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِّنْهُ ﴾ أي من قبل الله ، واعلم أن كل نوم ونعاس فإنه لا يحصل إلا من قبل الله تعالى فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله تعالى لا بد فيه من مزيد فائدة وذكرها فيه وجوهاً: أحدها: أن الخائف إذا خاف من عدوه الخوف الشديد على نفسه وأهله فإنه لا يؤخذه النوم ، وإذا نام الخائفون أمنوا ، فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن .

وثانيها: أنهم خافوا من جهات كثيرة .

أحدها: قلة المسلمين وكثرة الكفار .

وثانيها: الأهبة والآلة والعدة للكافرين وقتلها للمؤمنين .

وثالثها: العطش الشديد فلولا حصول هذا النعاس وحصول الاستراحة حتى تمكنوا في

اليوم الثاني من القتال لما تم الظفر .

والوجه الثالث: في بيان كون ذلك النعاس نعمة في حقهم ، أنهم ما ناموا نوماً غرقاً يتمكن

العدو من معاقبتهم بل كان ذلك نعاساً يحصل لهم زوال الأعباء والكلال مع أنهم كانوا

بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله ولقدروا على دفعه .

والوجه الرابع: أنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم ، وحصول النعاس للجمع

العظيم في الخوف الشديد أمر خارق للعادة .

فلهذا السبب قيل : إن ذلك النعاس كان في حكم المعجز .

فإن قيل : فإن كان الأمر كما ذكرتم فلو خافوا بعد ذلك النعاس ؟

قلنا : لأن المعلوم أن الله تعالى يجعل جند الإسلام مظفراً منصوراً وذلك لا يمنع من صيرورة

قوم منهم مقتولين .

فإن قيل : إذا قرىء ﴿يُغَشِّيكُمْ﴾ بالتخفيف والتشديد ونصب ﴿النعاس﴾ فالمضير

لله عز وجل ﴿وأمنة﴾ مفعول له .

أما إذا قرىء ﴿يُغَشِّيكُمْ النعاس﴾ فكيف يمكن جعل قوله : ﴿ءَامِنَةٌ﴾ مفعولاً له ، مع

أن المفعول له يجب أن يكون فعلاً لفاعل الفعل المعلن ؟

(8/307)

---

قلنا : قوله : ﴿يُغَشَّاكُمْ﴾ وإن كان في الظاهر مسنداً إلى النعاس ، إلا أنه في الحقيقة مسند

إلى الله تعالى ، فصح هذا التعليل نظراً إلى المعنى .

قال صاحب "الكشاف" : وقرىء ﴿كَانَتْ ءَامِنَةٌ﴾ بسكون الميم ، ونظير أمن أمنة ،

حي حياة ، ونظير أمن أمنة ، رحم رحمة .

قال ابن عباس : النعاس في القتال أمانة من الله ، وفي الصلاة وسوسة من الشيطان .

النوع الثاني : من أنواع نعم الله تعالى المذكورة في هذا الموضع قوله تعالى : ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ ﴾ ولا شبهة أن المراد منه المطر ، وفي الخبر أن القوم سبقوا إلى موضع الماء ، واستولوا عليه ، وطمعوا لهذا السبب أن تكون لهم الغلبة ، وعطش المؤمنون وخافوا ، وأعوزهم الماء للشرب والطهارة ، وأكثرهم احتلموا وأجنبوا ، وانضاف إلى ذلك أن ذلك الموضع كان رملاً تغوص فيه الأرجل ويرتفع منه الغبار الكثير ، وكان الخوف حاصلاً في قلوبهم ، بسبب كثرة العدو وسبب كثرة آلتهم وأدواتهم ، فلما أنزل الله تعالى ذلك المطر صار ذلك دليلاً على حصول النصر والظفر ، وعظمت النعمة به من جهات : أحدها : زوال العطش ، فقد روي أنهم حفروا موضعاً في الرمل ، فصار كالحوض الكبير ، واجتمع فيه الماء حتى شربوا منه وتطهروا وتزودوا .  
وثانيها : أنهم اغتسلوا من ذلك الماء ، وزالت الجنابة عنهم ، وقد علم بالعادة أن المؤمن يكاد يستقدر نفسه إذا كان جنباً ، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب فلا جرم عد تعالى وتقدس تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه .  
وثالثها : أنهم لما عطشوا ولم يجدوا الماء ثم ناموا واحتلموا تضاعفت حاجتهم إلى الماء ثم إن المطر نزل فزال عنهم تلك البلية والحنة وحصل المقصود .  
وفي هذه الحالة ما قد يستدل به على زوال العسر وحصول اليسر والمسرة .

أما قوله: ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ ففيه وجوه: الأول: أن المراد منه الاحتلام لأن ذلك من وساوس الشيطان .

الثاني: أن الكفار لما نزلوا على الماء ، وسوس الشيطان إليهم وخوفهم من الهلاك ، فلما نزل المطر زالت تلك الوسوسة ، روى أنهم لما ناموا واحتلم أكثرهم ، تمثل لهم إبليس وقال أتم تزعمون أنكم على الحق وأتم تصلون على الجنابة ، وقد عطشتم ولو كنتم على الحق لما غلبوكم على الماء فأنزل الله تعالى المطر حتى جرى الوادي واتخذ المسلمون حياضاً واغتسلوا وتلبد الرمل حتى ثبتت عليه الأقدام .

الثالث: أن المراد من رجز الشيطان سائر ما يدعو الشيطان إليه من معصية وفساد .  
فإن قيل: فأبي هذه الوجوه الثلاثة أولى ؟

قلنا: قوله: ﴿ لِيُطَهَّرَكُمْ ﴾ معناه ليزيل الجنابة عنكم ، فلو حملنا قوله: ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ على الجنابة لزم منه التكرير وأنه خلاف الأصل ، ويمكن أن يجاب عنه فيقال المراد من قوله: ﴿ لِيُطَهَّرَكُمْ ﴾ حصول الطهارة الشرعية .

والمراد من قوله: ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ إزالة جوهر المني عن أعضائهم فإنه

شيء مستحبث ، ثم تقول : حمله على إزالة أثر الاحتلام أولى من حمله على إزالة الوسوسة وذلك لأن تأثير الماء في إزالة العين عن العضو تأثير حقيقي أما تأثيره في إزالة الوسوسة عن القلب فتأثير مجازي وحمل اللفظ على الحقيقة أولى من حمله على المجاز ، واعلم أنا إذا حملنا الآية على هذا الوجه لزم القطع بأن المني رجز الشيطان ، وذلك يوجب الحكم بكونه نجساً مطلقاً لقوله تعالى : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ [ المدثر : 5 ] .

(10/307)

---

النوع الثالث : من النعم المذكورة في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ والمراد أن بسبب نزول هذا المطر قويت قلوبهم وزال الخوف والفرع عنهم ، ومعنى الربط في اللغة الشد ، وقد ذكرنا ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ [ آل عمران : 200 ] ويقال لكل من صبر على أمر ، ربط قلبه عليه كأنه حبس قلبه عن أن يضطرب يقال : رجل رابط أي حابس .

قال الواحدي : ويشبه أن يكون ﴿ على ﴾ ههنا صلة والمعنى ويربط قلوبكم بالنصر وما وقع من تفسيره يشبه أن لا يكون صلة لأن كلمة ﴿ على ﴾ تفيد الاستعلاء .  
فالمعنى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها .

والنوع الرابع: من النعم المذكورة ههنا قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وذكروا فيه وجوهاً: أحدها: أن ذلك المطر لبد ذلك الرمل وصيره بحيث لا تغوص أرجلهم فيه، فقدروا على المشي عليه كيف أرادوا، ولولا هذا المطر لما قدروا عليه، وعلى هذا التقدير، فالضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ عائد إلى المطر.

وثانيها: أن المراد أن ربط قلوبهم أوجب ثبات أقدامهم، لأن من كان قلبه ضعيفاً فـ لم يقف، فلما قوى الله تعالى قلوبهم لا جرم ثبت أقدامهم، وعلى هذا التقدير فالضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ عائد إلى الربط.

وثالثها: روى أنه لما نزل المطر حصل للكافرين ضد ما حصل للمؤمنين، وذلك لأن الموضع الذي نزل الكفار فيه كان موضع التراب والوحل، فلما نزل المطر عظم الوحل، فصار ذلك مانعاً لهم من المشي كيفما أرادوا فقوله: ﴿وَيُثَبِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ يدل دلالة المفهوم على أن حال الأعداء كانت بخلاف ذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 106

﴿ 108.﴾

(11/307)

---

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ ﴾ ،

يقول : ألقى عليكم النوم ﴿ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ ، يعني أمانة من عند الله .

وروى عاصم ، عن زر بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود قال : النعاس عند القتال أمانة من الله ، وهو في الصلاة من الشيطان .

قرأ نافع ﴿ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ ﴾ بضم الياء وجزم الغين ونصب النعاس ؛ ومعناه يُغَشِّيكُمُ اللهُ النَّعَاسَ .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ ﴾ بالألف ونصب الياء وضم النعاس ، يعني أخذكم النعاس وقرأ الباقون بضم الياء وتشديد الشين ونصب النعاس ﴿ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ ﴾ ومعناه يغشيكم الله النعاس أمانة منه والتشديد للمبالغة .

ثم قال ﴿ وَيُنزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ ، يعني بالماء من الأحداث والجنابة .

﴿ وَيُذِيبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ ، يعني وسوسة الشيطان وكيده .

وقال القتيبي : أصل الرجز العذاب ، كقوله : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: 59] ثم سمي كيد الشيطان رجزا ، لأنه سبب العذاب .



ثم قال: ﴿ وَلَيُرَبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ ، يعني يشدد قلوبكم بالنصرة منه عند القتال؛ ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ، يعني لتستقر الرجل على الرمل ، حتى أمكنكم الوقوف عليه .  
ويقال : وثبت به الأقدام في الحرب . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

(12/307)

وقال الثعلبي :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ ﴾

قرأ مجاهد وابن كثير وأبو عمرو : يغشيكم بفتح الياء النعاس رفع على أن الفعل له  
واحتجوا بقوله في سورة آل عمران ﴿ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ ﴾ [آل عمران :  
154] فجعل الفعل له .

وقرأ أهل المدينة يغشيكم بضم الياء مخففة على أن الفعل لله عز وجل ليكون موافقاً لقوله (   
وينزل وليطهركم ) واحتجوا بقوله تعالى ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ [يونس : 27] .  
وقرأ عروة بن الزبير والحسن وأبو رجاء وعكرمة والجحدري وعيسى وأهل الكوفة :  
يغشيكم بضم الياء مشدداً .

فاختاره أبو عبيد وأبو حاتم : لقوله ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَى ﴾ [النجم : 54] والنعاس

النوم تخفيف . وقال أبو عبيدة : هو ابتداء القوم : أمانة بفتح الميم قراءة العامة ، وقرأ أبو حياة وابن محيصن : أمانة بسكون الميم وهو مصدر قولك : أمنت من كذا أمانة وأمانة وكلها بمعنى واحد فلذلك نصب .

قال عبد الله بن مسعود : النعاس في القتال أمانة من الله عز وجل وفي الصلاة من الشيطان ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وذلك أن المسلمين نزلوا كثيراً أخضر بيدر يسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وسبقهم المشركون إلى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليه وأصبح المسلمون بعضهم محدثين وبعضهم مجنبيين وأصابهم الظمأ ووسوس لهم الشيطان فقال تزعمون أن فيكم نبي الله وأنكم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبيين ومحدثين فكيف ترجون أن يظفركم عليهم .

قال : فأرسل الله عز وجل مطراً سال منه الوادي فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضأوا وسقوا الركاب وملؤوا الأسقية وأطفئ الغبار ولبد الأرض حتى ثبت عليه الأقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم فذلك قوله ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ من الأحداث والجنابة .

(13/307)

---

وقرأ سعيد بن المسيب: يُطهركم بطاء ساكنة من أطهره الله ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ أي وسوسة الشيطان .

وقرأ ابن محيصة: رجز بضم الراء . وقرأ أبو العالية: رجس بالسين والعرب تعاقب بين السين والزاء فيقول بزق وسق .

والسراط والزراط والأسد والأزد ﴿ وَيُرْبِطُ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ اليقين والصبر ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ حتى لا يسرح في الرمل بتليد الأرض .

وقيل: بالصبر وقوة القلب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(14/307)

وقال الماوردي:

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ ﴾

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وكثيراً من أصحابه غشيهم النعاس بيدر .

قال سهل بن عبد الله: النعاس يحل في الرأس مع حياة القلب ، والنوم يحل في القلب بعد نزول

من الرأس ، فهوم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ناموا فبشر جبريل رسول الله صلى

الله عليه وسلم بالنصر فأخبر به أبا بكر .

وفي امتنان الله تعالى عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان :

أحدهما : قواهم بالاستراحة على القتال من الغد .

الثاني : أن آمنهم بزوال الرعب من قلوبهم ، كما قال : الأمن منيم ، والخوف مسهر .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْنَةً مِّنْهُ ﴾ يعني به الدعة وسكون النفس من الخوف وفيه وجهان :

أحدهما : أمانة من العدو .

الثاني : أمانة من الله سبحانه وتعالى .

﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَ كُمْ بِهِ ﴾ لأن الله تعالى أنزل عليهم ماء السماء

معوونة لهم بثلاثة أمور :

أحدها : الشرب وإن كانوا على ماء .

الثاني : وهو أخص أحواله بهم في ذلك المكان وهو أن الرمل تلبد بالماء حتى أمكن

المسلمين القتال عليه .

والثالث : ما وصفه الله تعالى به من حال التطهير .

وفي تطهيرهم به وجهان :

أحدهما : من وساوس الشيطان التي ألقى بها في قلوبهم الرعب ، قاله زيد بن أسلم .

والثاني : من الأحداث والأنجاس التي نالتهم ، قاله الجمهور .

قال ابن عطاء : أنزل عليهم ماءً طهر به ظواهر أبدانهم ، وأنزل عليهم رحمة تقي بها سرائر

قلوبهم .

وإنما خصه الله تعالى بهذه الصفة لأمرين .

أحدهما : أنها أخص صفاته .

والثاني : أنها ألزم صفاته .

ثم قال : ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : وسوسته أن المشركين قد غلبوهم على الماء ، قاله ابن عباس .

والثاني : كيده وهو قوله : ليس لكم بهؤلاء القوم طاقة ، قاله ابن زيد .

﴿ وَيُرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

(15/307)

---

أحدهما : ثقة بالنصر .

والثاني : باستيلائهم على الماء .

﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بالصبر الذي أفرغه الله تعالى حتى يثبتوا لعدوهم ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : تلبيد الرمل بالمطر الذي لا يثبت عليه قدم ، وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ،

والضحاك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(16/307)

وقال ابن عطية :

﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ ﴾

العامل في ﴿ إذ ﴾ هو العامل الذي عمل في قوله ﴿ وإذ يعدكم ﴾ [ الأنفال : 7 ] بتقدير

تكراره لأن الاشتراك في العامل الأول نفسه لا يكون إلا بحرف عطف ، وإنما القصد أن

تعدد نعمة الله تعالى على المؤمنين في يوم بدر فقال : واذكروا إذ فعلنا كذا وقال الطبري :

العامل في ﴿ إذ ﴾ قوله ﴿ ولتطمئن ﴾ [ الأنفال : 10 ] .

قال القاضي أبو محمد : وهذا مع احتمال له فيه ضعف ، ولو جعل العامل في ﴿ إذ ﴾ شيئاً

قريباً مما قبلها لكان الأولى في ذلك أن يعمل في ﴿ إذ ﴾ ﴿ حكيم ﴾ [ الأنفال : 10 ]

لأن إلقاء النعاس عليهم وجعله أمانة حكمة من الله عز وجل ، وقرأ نافع " يُغَشِّيكُم " بضم

الياء وسكون الغين وهي قراءة الأعرج وأبي حفص وابن نصاح ، وقرأ عاصم وحمزة وابن

عامر والكسائي " يَغَشِّيكُم " بفتح الغين وشد الشين المكسورة وهي قراءة عروة بن الزبير

وأبي رجاء والحسن وعكرمة وغيرهم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "يغشاكم" بفتح الياء  
وألف بعد الشين وهي قراءة مجاهد وابن محيصن وأهل مكة "النعاسُ" بالرفع ، وحجة من  
قرأ "يغشاكم" إجماعهم في آية أحد على ﴿ يغشى طائفة منكم ﴾ [آل عمران: 154  
] ، وحجة من قرأ "يغشيكم" أن يجيء الكلام متسقاً مع ﴿ ينزل ﴾ ، ومعنى ﴿  
يغشيكم ﴾ يغطيكم به ويفرغه عليكم ، وهذه استعارة و ﴿ النعاس ﴾ أخف النوم وهو  
الذي قد يصيب الإنسان وهو واقف أو ماشٍ ، وينص على ذلك قصص هذه الآية أنهم إنما  
كان بهم خفق في الرؤوس ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم "إذا نعس أحدكم في صلاته"  
الحديث ، وينص على ذلك قول الشاعر [ابن الرقاع] : [الكامل]  
وسنان أقصده النعاس فرنقت . . . في عينه سنّة وليس بنائم

(17/307)

---

وقوله ﴿ أمنة ﴾ مصدر من أمن الرجل يأمن أمانة وأماناً ، والهاء فيها لتأنيث  
المصدر كما هي في المساءة والمشقة ، وقرأ ابن محيصن "أمنة" بسكون الميم وروي عن  
عبد الله بن مسعود أنه قال : النعاس عند حضور القتال علامة أمن من العدو وهو من الله ،  
وهو في الصلاة من الشيطان .

قال القاضي أبو محمد: وهذا إنما طريقه الوحي فهو لا محالة إنما يسنده، وقوله ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ﴾ تعديد أيضاً لهذه النعمة في المطر، فقال بعض المفسرين وحكاه الطبري عن ابن عباس وغيره، وقاله الزجاج: إن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه وبقي المؤمنون لا ماء لهم فوجست نفوسهم وعطشوا وأجنبوا وصلوا كذلك، فقال بعضهم في نفوسهم - يالقاء الشيطان إليهم - نزعاً أنا أولياء الله وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحالنا هذه والمشركون على الماء، فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية فشرب الناس وتطهروا وسقوا الظهر. وتدمت السبخة التي كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أقدام المسلمين، وقت القتال وكانت قبل المطر تسوخ فيها الأرجل فلما نزل الطش تلبدت قالوا: فهذا معنى قوله ﴿ ليطهركم به ﴾ أي من الجنابة، ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ أي عذابه لكم بوساوسه المتقدمة الذكر والرجز العذاب، وقرأ أبو العالية "رجس" بالسين أي وساوسه التي تمت وتقدر، وقرأ ابن محيصن "رجز" بضم الراء، وقرأ عيسى بن عمر "ويذهب" بجزم الباء، ﴿ وليرط على قلوبكم ﴾ أي بتنشيطها وإزالة الكسل عنها وتشجيعها على العدو ومنه قولهم: رابط الجأش أي ثابت النفس عند جأشها في الحرب ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ أي في الرملة الدهسة التي كان المشي فيها صعباً.



---

قال القاضي أبو محمد : والصحيح من القول وهو الذي في سيرة ابن إسحاق وغيرها أن المؤمنين سبقوا إلى الماء ببدر ، وفي هذا كلام حباب بن المنذر الأنصاري حين نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أول ماء ، فقال له حباب : أبوحي يا رسول الله هو المنزل فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو عندك الرأي والمكيدة ؟ الحديث المستوعب في السيرة .

قال القاضي أبو محمد : ولكن نزول المطر كان قبل وصولهم إلى الماء وذلك أن القوم من المؤمنين لحقتهم في سفرهم الجنابات وعدموا الماء قريب بدر فصلوا كذلك فوقع في نفوسهم من ذلك ، ووسوس الشيطان لهم في ذلك مع تخوفه لهم من كثرة العدو وقتلهم ، وهذا قبل الترائي بالأعين ، وأيضاً فكانت بينهم وبين ماء بدر مسافة طويلة من رمل دهس لين تسوخ فيه الأرجل وكانوا يتوقعون أن يسبقهم الكفار إلى ماء بدر فتحرضوا هم أن يسبقوهم إليه فأنزل الله تلك المطرة فسالت الأودية فاغتسلوا وطهرهم الله فذهب رجز الشيطان وتدمت الطريق وتلبدت تلك الرملة فسهل المشي فيها وأمكنهم الإسراع حتى سبقوا إلى الماء ، ووقع في السير أن ما أصاب المشركين من ذلك المطر بعينه صعب عليهم طريقهم ، فسر المؤمنون وتبينوا من جعل الله بهم ذلك قصد المعونة لهم ، فطابت نفوسهم واجتمعت وتشجعت ، فذلك الربط على قلوبهم وثببت الأقدام منهم على الرملة اللينة فأمكنهم لحاق الماء قبل المشركين .

قال القاضي أبو محمد : هذا أحد ما يحتمله قوله ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ والضمير في ﴿ به ﴾ على هذا الاحتمال عائد على الماء ، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿ به ﴾ على ربط القلوب فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب ، وبين أن الرابط الجأش ثبت قدمه عند مكافحة الهول .

(19/307)

---

قال القاضي أبو محمد : ونزول الماء كان في الزمن قبل تغشية النعاس ولم يترتب ذلك في الآية إذ القصد فيها تعديد النعم فقط ، وحكى أبو الفتح أن الشعبي قرأ " وينزل عليكم من السماء ماء " ساكنة الألف ﴿ ليظهركم به ﴾ قال : وهي بمعنى الذي .  
قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف وقرأ ابن المسيب " ليظهركم به " بسكون الطاء .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ج 2 ص ﴾

(20/307)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَاكُمْ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ ﴾

قال الزجاج : ﴿ إِذْ ﴾ موضعها نصب على معنى : وما جعله الله إلا بشرى ، في ذلك

الوقت ، ويجوز أن يكون المعنى : اذكروا إذ يغشاكم النعاس .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : "إذ يغشاكم" بفتح الياء وجزم الغين وفتح الشين وألف "النعاس"

بالرفع .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "يُغْشِيكُمْ" بضم الياء وفتح الغين مشددة

الشين مكسورة "النعاس" بالنصب .

وقرأ نافع : "يُغْشِيكُمْ" بضم الياء وجزم الغين وكسر الشين "النعاس" بالنصب .

وقال أبو سليمان الدمشقي : الكلام راجع على قوله : ﴿ وَلتطمئنن به قلوبكم ﴾ إذ

يغشاكم النعاس .

قال الزجاج : و"أمنة" منصوب : مفعول له ، كقولك : فعلت ذلك حذر الشر .

يقال : أمنتُ آمناً وأماناً وأمنةً .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو المتوكل ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وابن محيصن : ﴿

أمنةً منه ﴾ بسكون الميم .

قوله تعالى : ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ قال ابن عباس : نزل النبي صلى الله عليه

وسلم يوم بدر ، وبينه وبين الماء رملة ، وغلبهم المشركون على الماء ، فأصاب المسلمين  
الظمأ ، وجعلوا يصلون محدثين ، وألقى الشيطان في قلوبهم الوسوسة ، يقول : تزعمون أنكم  
أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون محدثين ، فأنزل  
الله عليهم مطراً ، فشربوا وتطهروا ، واشتد الرمل حين أصابه المطر ، وأزال الله رجز  
الشيطان ، وهو وسواسه ، حيث قال : قد غلبكم المشركون على الماء .  
وقال ابن زيد : رجز الشيطان : كيده ، حيث أوقع في قلوبهم أنه ليس لكم بهؤلاء القوم  
طاقة .

وقال ابن الأنباري : ساءهم عدم الماء عند فقرهم إليه ، فأرسل الله السماء ، فزال  
وسوسة الشيطان التي تكسب عذاب الله وغضبه ، إذ الرجز : العذاب .  
قوله تعالى : ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ الربط : الشد .

(21/307)

---

و"على" في قول بعضهم صلة ، فالمعنى : وليربط قلوبكم .  
وفي الذي ربط به قلوبهم وقواها ثلاثة أقوال .  
أحدها : أنه الصبر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه الإيمان ، قاله مقاتل .

والثالث : أنه المطر الذي أرسله يثبت به قلوبهم بعد اضطرابها بالوسوسة التي تقدم ذكرها .

قوله تعالى : ﴿ وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ في هاء " به " قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الماء ؛ فإن الأرض كانت رَمَلَةً ، فاشتدت بالمطر ، وثبتت عليها الأقدام ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي في آخرين .

والثاني : أنها ترجع إلى الربط ، فالمعنى : ويثبت بالربط الأقدام ، ذكره الزجاج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(22/307)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ ﴾ مفعولان .

وهي قراءة أهل المدينة ، وهي حسنة لإضافة الفعل إلى الله عز وجل لتقدم ذكره في قوله :

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ولأن بعده " وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ " فأضاف الفعل إلى الله عز

وجل .

فكذلك الإغشاء يضاف إلى الله عز وجل ليتشاكل الكلام.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "يُغشَاكُمُ النَّعَاسُ" بإضافة الفعل إلى النعاس.

دليله ﴿ أَمَنَةٌ نَّعَاسًا يَغْشَى ﴾ [آل عمران: 154] في قراءة من قرأ بالياء أو بالتاء؛

فأضاف الفعل إلى النعاس أو إلى الأمانة.

والأمانة هي النعاس؛ فأخبر أن النعاس هو الذي يغشى القوم.

وقرأ الباقر "يُغَشِيكُمْ" بفتح الغين وشد الشين.

"النعاس" بالنصب على معنى قراءة نافع، لغتان بمعنى غشى وأغشى؛ قال الله تعالى:

﴿ فَأَغَشَيْنَاهُمْ ﴾ [يس: 9].

وقال: ﴿ فغَشَّاهَا مَا غَشَى ﴾ [النجم: 54].

وقال: ﴿ كَانَمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ [يونس: 27].

قال مكِّي: والاختيار ضم الياء والتشديد ونصب النعاس؛ لأن بعده "أَمَنَةٌ مِنْهُ" والهاء

في "منه" لله، فهو الذي يغشيهم النعاس، ولأن الأكثر عليه.

وقيل: أمانة من العدو.

و﴿ أَمَنَةٌ ﴾ مفعول من أجله أو مصدر، يقال: أَمِنَ أَمَنَةً وَأَمِنًا وَأَمَانًا؛ كلها سواء.

والنعاس حالة الأمن الذي لا يخاف.

وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها؛ فكان النوم عجيبياً مع ما كان بين

أيديهم من الأمر المهمّ، ولكن الله ربط جأشهم .  
وعن عليّ رضي الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق ،  
ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يصلي ويبكي  
حتى أصبح ؛ ذكره البيهقي .  
الماورديّ : وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان : أحدهما أن قواهم  
بالاستراحة على القتال من الغد .

(23/307)

---

الثاني أن أمتهم بزوال الرعب من قلوبهم ؛ كما يقال : الأمن منيم ، والخوف مسهر .  
وقيل : غشاهم في حال التقاء الصفين .  
وقد مضى مثل هذا في يوم أحد في "آل عمران" .  
قوله تعالى : ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ  
وَلِيُرِيبَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل  
المطر .  
وقال ابن أبي نجيح : كان المطر قبل النعاس .

وحكى الزجاج: أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه ، وبقي المؤمنون  
لا ماء لهم ، فوجست نفوسهم وعطشوا وأجنبوا وصلوا كذلك ؛ فقال بعضهم في نفوسهم  
يألقاء الشيطان إليهم : نزعنا أنا أولياء الله وفينا رسوله وحالنا هذه والمشركون على الماء .  
فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية ؛ فشربوا وتطهروا  
وسقوا الظهر وتلبدت السبخة التي كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أقدام  
المسلمين وقت القتال .

وقد قيل : إن هذه الأحوال كانت قبل وصولهم إلى بدر ؛ وهو أصح ، وهو الذي ذكره ابن  
إسحاق في سيرته وغيره .

وهذا اختصاره : قال ابن عباس لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان أنه  
مقبل من الشام ندب المسلمين إليهم وقال : " هذه عير قريش فيها الأموال فاخرجوا إليهم  
لعل الله أن ينفلكموها " قال : فانبعث معه من خف ؛ وثقل قوم وكرهوا الخروج ، وأسرع  
رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلوي على من تعذر ، ولا ينتظر من غاب ظهره ، فسار  
في ثلثمائة وثلاثة عشر من أصحابه من مهاجري وأنصاري .

وفي البخاري عن البراء بن عازب قال : كان المهاجرون يوم بدر نيفا وثمانين ، وكان الأنصار  
نيفا وأربعين ومائتين .



---

وخرج أيضاً عنه قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ثلثمائة  
وبضعة عشر ، على عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، وما جاوز معه إلا  
مؤمن .

وذكر البيهقي " عن أبي أيوب الأنصاري قال : فخرجنا يعني إلى بدر فلما سرنا يوماً أو يومين  
أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتعاد ، ففعلنا فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً  
، فأخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بعدتنا ، فسرّ بذلك وحمد الله وقال : " عِدَّةُ أَصْحَابِ  
طالوت " قال ابن إسحاق : وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا  
يلقى حرباً فلم يكثر استعدادهم .

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً  
على أموال الناس ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً رسول الله صلى الله  
عليه وسلم قد استنفر لكم الناس ؛ فحذر عند ذلك واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري  
وبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً صلى الله  
عليه وسلم قد عرض لها في أصحابه ؛ ففعل ضمضم .

فخرج أهل مكة في ألف رجل أو نحو ذلك ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه ،  
وأناه الخبر عن قريش بخروجهم ليمنعوا غيرهم ؛ " فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم

الناس ، فقام أبو بكر فقال فأحسن ، وقام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل ﴿ فاذهب أنت وربك فقالتا إنا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة: 24] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، والذي بعثك بالحق لو سرت إلى برك الغماد يعني مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه ؛ فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه له بخير .  
ثم قال : "أشيروا علي أيها الناس" يريد الأنصار .

(25/307)

---

وذلك أنهم عدد الناس ، وكانوا حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول ، إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمنا ، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينة ، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍ بغير بلادهم .  
فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمه سعد بن معاذ وقيل سعد بن عباد ، ويمكن أنهما تكلما جميعاً في ذلك اليوم فقال : يا رسول الله ، كأنك تريدنا معشر الأنصار؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أجل" فقال: إنا قد آمنا بك واتبعناك، فامض لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "امضوا على بركة الله فكأنني أنظر إلى مصارع القوم".

فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبق قريشاً إلى ماء بدر .  
ومنع قريشاً من السبق إليه مطر عظيم أنزله الله عليهم ، ولم يصب منه المسلمون إلا ما شدد لهم دهنس الوادي وأعانهم على المسير .  
والدهس: الرمل اللين الذي تسوخ فيه الأرجل .

فنزّل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة ، فأشار عليه الحُبَاب بن المنذر بن عمرو بن الجموح بغير ذلك وقال له : يا رسول الله ، أ رأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلك الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال عليه السلام : "بل هو الرأي والحرب والمكيدة" .

فقال : يا رسول الله ، إن هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونعور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه فنشرب ولا يشربون .  
فاستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من رأيه ، وفعله .

---

ثم التقوا فنصر الله نبيه والمسلمين ، فقتل من المشركين سبعين وأسر منهم سبعين ، وانتقم  
منهم للمؤمنين ، وشفى الله صدر رسوله عليه السلام وصدور أصحابه من غيظهم "  
وفي ذلك يقول حسان :

عرفتُ ديارَ زينبٍ بالكِئيبِ . . .

كخطِّ الوحي في الورقِ القشيبِ

تداولها الرياحُ وكلَّ جَوْنٍ . . .

من الوَسْمِيِّ منهُمِرٍ سَكُوبِ

فأمسى رُبْعها خلقاً وأمست . . .

يبا بعد ساكنها الحبيب

فدع عنك التذكَر كلَّ يومٍ . . .

ورُدَّ حرارة الصدر الكئيب

وخبِرُ بالذي لا عيب فيه . . .

بصدق غير إخبار الكذوب

بما صنع الإله غداة بدرٍ . . .

لنا في المشركين من النصيب

غداة كأن جمعهم حراء . . .  
بدت أركانه جنح الغروب  
فلاقيناهم منا بجمع . . .  
كأسد الغاب مردان وشيب  
أمام محمد قد وازروه . . .  
على الأعداء في لفح الحروب  
بأيديهم صوارم مرهفات . . .  
وكل مجرب خاظمي الكعوب  
بنو الأوس الغطارف وازرتها . . .  
بنو النجار في الدين الصليب  
فغادرنا أبا جهل صريعا . . .  
وعتبة قد تركنا بالجبوب  
وشيبة قد تركنا في رجال . . .  
ذوي نسب إذا نسبوا حسيب  
يناديهم رسول الله لما . . .  
قذفناهم كباكب في القلب

ألم تجدوا كلامي كان حقاً . . .

وأمر الله يأخذ بالقلوب

فما نطقوا ، ولو نطقوا لقالوا . . .

أصبت وكنت ذا رأي مصيب

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى : قال مالك : بلغني " أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم : " كيف

أهل بدر فيكم " ؟ قال : " خيارنا " فقال : " إنهم كذلك فينا " فدل هذا على أن شرف

المخلوقات ليس بالذوات ، وإنما هو بالأفعال .

فللملائكة أفعالها الشريفة من المواظبة على التسبيح الدائم .

ولنا أفعالنا بالإخلاص بالطاعة .

وتفاضل الطاعات بتفضيل الشرع لها ، وأفضلها الجهاد ، وأفضل الجهاد يوم بدر ؛ لأن بناء

الإسلام كان عليه .

(27/307)

---

الثانية: ودل خروج النبي صلى الله عليه وسلم ليلقى العير على جواز النفي للغنيمة لأنها كسب حلال .

وهو يرد ما كره مالك من ذلك؛ إذ قال: ذلك قتال على الدنيا، وما جاء أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله دون من يقاتل للغنيمة، يراد به إذا كان قصده وحده وليس للدين فيه حظ .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: " قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر: عليك بالعير، ليس دونها شيء .

فناداه العباس وهو في الأسرى: لا يصلح هذا .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " ولم؟ " قال: لأن الله وعدهك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك الله ما وعدهك .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " صدقت " وعلم ذلك العباس بحديث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبما كان من شأن بدر، فسمع ذلك في أثناء الحديث .

الثالثة: روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم قام عليهم فناداهم فقال: " يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبه بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً " .

فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون، وأنى يجيبون وقد جئفوا؟ قال: "والذي نفسي بيده ما أستمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا" ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في القليب، قليب بدر.

"جيفوا" بفتح الجيم والياء، ومعناه أتنوا فصاروا جيفا.

وقول عمر: "يسمعون" استبعاد على ما جرت به حكم العادة.

فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يسمعون كسمع الأحياء.

وفي هذا ما يدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتها، وحيلولة بينهما، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار.

(28/307)

---

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم" الحديث.

أخرجه الصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ الضمير في "به" عائد على الماء الذي شدّ دهنس الوادي، كما تقدم.



وقيل : هو عائد على ربط القلوب ؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في

موطن الحرب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(29/307)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمانة منه ﴾

أي : واذكروا إذ يلقى عليكم النعاس وهو النوم الخفيف أمانة منه أي أمانة من الله لكم من  
عدوكم أن يغلبكم قال عبد الله بن مسعود : النعاس في القتال أمانة من الله وفي الصلاة من  
الشیطان والفائدة في كون النعاس أمانة في القتال أن الخائف على نفسه لا يأخذ النوم فصار  
حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلاً على الأمن وإزالة الخوف .

وقيل إنهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم  
وعددهم وعطشوا عطشاً شديداً ألقى عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم  
الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم وكان ذلك النوم نعمة في حقهم لأنه كان خفيفاً  
بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله إليهم وقدروا على دفعه عنهم وقيل في كون هذا  
النوم كان أمانة من الله أنه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم وحصول

النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة فلهذا السبب قيل

﴿ إن ذلك النعاس كان في حكم المعجزة لأنه أمر خارق للعادة وقوله سبحانه وتعالى : ﴿

وينزل عليكم من السماء ماء ﴾ يعني المطر ﴾ ليظهركم به ﴾ وذلك أن المسلمين نزلوا يوم

بدر على كتيب رمل أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وكان المشركون قد سبقوهم

إلى ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب

وأصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان .

(30/307)

---

وقال : تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على

الماء وأنتم تصلون محدثين ومجننين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم ؟ فأنزل الله

سبحانه وتعالى مطراً سال منه الوادي فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوشؤوا وسقوا

الركاب وملاؤا الأسقية وأطفأ الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت عنهم

وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلاً على

حصول النصر والظفر ، فذلك قوله سبحانه وتعالى : وينزل عليكم من السماء ماء

ليظهركم به يعني : من الإحداث والجنابة ﴾ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ يعني

وسوسته التي ألقاها في قلوبكم ﴿﴾ وليربط على قلوبكم ﴿﴾ يعني بالنصر واليقين والربط في اللغة الشد وكل من صبر على أمر فقد ربط نفسه عليه قال الواحدي ويشبه أن تكون لفظة على صلة والمعنى وليربط قلوبكم بالصبر وما أوقع فيها من اليقين وقيل: إن لفظة على ليست بصلة لأنها تفيد الاستعلاء فيكون المعنى: أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها ﴿﴾ ويثبت به الأقدام ﴿﴾ يعني أن ذاك المطر لبد الأرض وقوى الرمل حتى تثبت عليه الأقدام وحوافر الدواب، وقل المراد به تثبت الأقدام بالصبر وقوة القلب لأن من يكون ضعيف القلب لا يثبت قدمه بل يفر ويهرب عن اللقاء. انتهى انتهى . ا هـ ﴿﴾ تفسير الخازن ج 3 ص ﴿﴾

(31/307)

وقال أبو حيان:

﴿﴾ إذ يغشاكم النعاسُ أمانة منه وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴿﴾  
قال الزمخشري بدل ثان من ﴿﴾ إذ يعدكم ﴿﴾ أو منصوب بالنصر أو بما في ﴿﴾ عند الله ﴿﴾  
من معنى الفعل أو بما جعله الله أو يا ضمرا اذكر انتهى .

أما كونه بدلاً ثانياً من ﴿ إذ يعدكم ﴾ فوافقه عليه ابن عطية فإن العامل في إذ هو العامل في قوله ﴿ إذ يعدكم ﴾ بتقدير تكراره لأن الاشتراك في العامل الأول نفسه لا يكون إلا بحرف عطف وإنما القصد أن يعدّ نعمه على المؤمنين في يوم بدر فقال واذكروا إذ فعلنا بكم كذا اذكروا إذ فعلنا كذا وأما كونه منصوباً بالنصر ففيه ضعف من وجوه: أحدها أنه مصدر فيه أل وفي إعماله خلاف ذهب الكوفيين إلى أنه لا يجوز إعماله ، الثاني أنه موصول وقد فصل بينه وبين معموله بالخبر الذي هو ﴿ إلا من عند الله ﴾ وذلك إعمال لا يجوز لا يقال ضرب زيد شديد عمراً ، الثالث أنه يلزم من ذلك إعمال ما قبل ﴿ إلا ﴾ في ما بعدها من غير أن يكون ذلك المفعول مستثنى أو مستثنى منه أو صفة له وإذ ليس واحداً من هذه الثلاثة فلا يجوز ما قام إلا زيد يوم الجمعة وقد أجاز ذلك الكسائي والأخفش ، وأما كونه منصوباً بما في ﴿ عند الله ﴾ من معنى الفعل فيضعفه المعنى لأنه يصير استقرار النصر مقيداً بالظرف والنصر من عند الله مطلقاً في وقت غشي النعاس وغيره وأما كونه منصوباً بما جعله الله فقد سبقه إليه الحوفي وهو ضعيف أيضاً لطول الفصل ولكونه معمول ما قبل ﴿ إلا ﴾ وليس أحد تلك الثلاثة ، وقال الطبري العامل في ﴿ إذ ﴾ قوله ﴿ ولتطمئن ﴾ .

---

قال ابن عطية: وهذا مع احتمال فيه ضعف، وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون ظرفاً لما دل عليه ﴿عزیز حکیم﴾ وقد سبقه إلى قريب من هذا ابن عطية فقال: ولو جعل العامل في إذا شيئاً قرنهما بما قبلها لكان الأولى في ذلك أن يعمل في ﴿إذ﴾ ﴿حکیم﴾ لأن إلقاء النعاس عليهم وجعله أمانة حكمة من الله عز وجل انتهى، والأجود من هذه الأقوال أن يكون بدلاً.

(33/307)

---

وقرأ مجاهد وابن محيصن وأبو عمرو وابن كثير ﴿يغشاكم النعاس﴾ مضارع غشى و﴿النعاس﴾ رفع به، وقرأ الأعرج وابن نصاح وأبو حفص ونافع يغشيكم مضارع أغشى، وقرأ عروة بن الزبير ومجاهد والحسن وعكرمة وأبورجاء وابن عامر والكوفيون يغشيكم مضارع غشى و﴿النعاس﴾ في هاتين القراءتين منصوب والفاعل ضمير الله وناسبت قراءة نافع قوله ﴿يغشى طائفة منكم﴾ وقراءة الباقيين وينزل حيث لم يختلف الفاعل ومعنى يغشيكم يعطيكم به وهو استعارة جعل ما غلب عليهم من النعاس غشياناً لهم، وتقدم شرح ﴿النعاس﴾ و﴿أمانة﴾ في آل عمران والضمير في ﴿منه﴾ عائذ على

الله وانتصب ﴿ أمنة ﴾ ، قيل على المصدر أي فأمنتم أمنة والأظهر أنه انتصب على أنه  
مفعول له في قراءة يغشاكم لاتحاد الفاعل لأن المغشى والمؤمن هو الله تعالى ، وأما على  
قراءة ﴿ يغشاكم ﴾ فالفاعل مختلف إذ فاعل ﴿ يغشاكم ﴾ هو ﴿ النعاس ﴾ والمؤمن  
هو الله وفي جواز مجيء المفعول له مع اختلاف الفاعل خلاف ، وقال الزمخشري ، ( فإن  
قلت ) : أما وجب أن يكون فاعل الفعل المعلل والعلة واحداً ، قلت بلى ولكن لما كان  
معنى ﴿ يغشاكم النعاس ﴾ تغشون انتصب ﴿ أمنة ﴾ على أن النعاس والأمنة لهم  
والمعنى إذ تغشون أمنة بمعنى أمنا أي لأمنكم و ﴿ منه ﴾ صفة لها أي ﴿ أمنة ﴾  
حاصلة لكم من الله تعالى ، ( فإن قلت ) : هل يجوز أن ينتصب على أن الأمنة للنعاس  
الذي هو يغشاكم أي يغشاكم النعاس لأمنه على أن إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازي  
وهو لأصحاب النعاس على الحقيقة أو على أنه أمانكم في وقته كان من حق النعاس في ذلك  
الوقت المخوف أن لا يقدم على غشياكم وإنما غشاكم أمنة حاصلة من الله تعالى لولاها لم  
يغشكم على طريقة التمثيل والتخييل ، ( قلت ) : لا تعدى فصاحة القرآن عن احتمال  
وله فيه نظائر ولقد ألم به من قال :  
يهاب النوم أن يغشى عيوننا . . .  
تهابك فهو نفار شرود

---

وقرىء ﴿ أمنة ﴾ بسكون الميم ونظير أمن أمنة حيي حياة ونحو أمن من أمنة رحم رحمه ، والمعنى أن ما كان بهم من الخوف كان يمنعهم من النوم فلما طامن الله تعالى قلوبهم أمنهم وأقروا ، وعن ابن عباس : النعاس في القتال أمنة من الله تعالى وفي الصلاة وسوسة من الشيطان انتهى ، وعن ابن مسعود شبيه هذا الكلام وقال النعاس عند حضور القتال علامة أمن من العدو وهو من الله تعالى وهو في الصلاة من الشيطان ، قال ابن عطية : وهذا إنما طريقة الوحي فهو لا محالة يسندها انتهى ، والذي قرأ ﴿ أمنة ﴾ بسكون الميم هو ابن محيصن ورويت عن النخعي ويحيى بن يعمر وغشيان النوم إياهم قيل حال التقاء الصفيين ومضي مثل هذا في يوم أحد في آل عمران ، وقيل : الليلة التي كان القتال في غدها امتن عليهم بالنوم مع الأمر المهم الذي يروونه في غد ليستريحوا تلك الليلة وينشطوا في غدها للقتال وينزل رعبهم ، ويقال : الأمن منيم والخوف مسهر والأولى أن يكون ترتيب هذه الجمل في الزمان كترتيبها في التلاوة فيكون إنزال المطر تأخر عن غشيان النعاس ، وعن ابن نجيح أن المطر كان قبل النعاس واختاره ابن عطية قال ونزول الماء كان قبل تغشية النعاس ولم يترتب كذلك في الآية إذ القصد منها تعديد النعم فقط .

وقرأ طلحة ﴿ وينزل ﴾ بالتشديد ، وقرأ الجمهور ماء بالمد ، وقرأ الشعبي ما بغير همز ، حكاه ابن جنّي ، صاحب اللوامح في شواذ القراءات ، وخرّجاه على أن ما بمعنى الذي ،

قال صاحب اللوامح: وصلته حرف الجر الذي هو ﴿ ليطهركم ﴾ والعائد عليه هو ومعناه الذي هو ﴿ ليطهركم به ﴾ انتهى، وظاهر هذا التخريج فاسد لأن لام كي لا تكون صلة ومن حيث جعل الضمائر هو وقال معناه الذي هو ليطهركم ولا تكون لام كي هي الصلة بل الصلة هو ولام الجر والجرور، وقال ابن جنّي ما موصولة وصلتها حرف الجر بما جره فكأنه قال ما للطهور انتهى.

(35/307)

---

وهذا فيه ما قلنا من مجيء لام كي صلة ويمكن تخريج هذه القراءة على وجه آخر وهو أنّ ما ليس موصولاً بمعنى الذي وأنه بمعنى ماء المحدود وذلك أنهم حكوا أن العرب حذفوا هذه الهمزة فقالوا ما يا هذا بحذف الهمزة وتنوين الميم فيمكن أن تُحرج على هذا إلا أنهم أجروا الوصل مجرى الوقف فحذفوا التنوين لأنك إذا وقفت على شربت ما قلت شربت ما بحذف التنوين وإبقاء الألف إما ألف الوصل الذي هي بدل من الواو وهي عين الكلمة وإما الألف التي هي بدل من التنوين حالة النصب.

وقرأ ابن المسيّب ﴿ ليطهركم ﴾ بسكون الطاء ومعنى ليطهركم من الجنابات وكان المؤمنون لحق أكثرهم في سفرهم الجنابات وعدموا الماء وكانت بينهم وبين ماء بدر مسافة



طويلة من رمل دهس لين تسوخ فيه الأرجل وكان المشركون قد سبقوهم إلى ماء بدر ،  
وقيل بل المؤمنون سبقوا إلى الماء ببدر وكان نزول المطر قبل ذلك ، والمرومي عن ابن عباس  
وغيره أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه وبقي المؤمنون لا ماء لهم  
فوجست نفوسهم وعطشوا وأجنبوا وصلوا كذلك ، فقال بعضهم في نفوسهم يالقاء  
الشیطان إليهم نزعنا أولياء الله وفينا رسول الله ، وحالنا هذه ، والمشركون على الماء  
فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشر من رمضان حتى سالت الأودية فشرب الناس  
وتطهروا وسقوا الظهر وتلبدت السبخة التي كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها  
أقدام المسلمين وقت القتال وكانت قبل المطر تسوخ فيها الأرجل فلما نزل تلبدت قالوا فهذا  
معنى قوله ﴿ ليظهركم به ﴾ أي من الجنابات ويذهب عنكم رجز الشيطان أي عذابه  
لكم بوسواسه والرجز العذاب ، وقيل رجزه كيده ووسوته ، وقيل الجنابة من الاحتلام  
فإنها من الشيطان ، وورد ما احتلم نبي قط إنما الاحتلام يكون من الشيطان .

(36/307)

---

وقرأ عيسى بن عمرو ﴿ يذهب ﴾ بجزم الباء ، وقرأ ابن محيصن ﴿ رجز ﴾ بضم الراء  
وأبو العالية رجز بالسين ومعنى الربط على القلب هو اجتماع الرأي والتشجيع على لقاء

العدو والصبر على مكافحة العدو والربط الشد هو حقيقة في الأجسام فاستعير منها لما حصل في القلب من الشدة والطمأنينة بعد التزلزل، ومقتضى ذلك الربط قال ابن عباس الصبر، وقال مقاتل الإيمان، وقيل نزول المطر، وهو الظاهر، لأن قوله ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ وما بعده تعليل لإنزال المطر والظاهر أن تثبيت الأقدام هو حقيقة لأن المكان الذي وقع فيه اللقاء كان رملاً تغوص فيه الأرجل فلبده المطر حتى ثبتت عليه الأقدام والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على المطر، وقيل التثبيت للأقدام معنوي والمراد به كونه لا يفر وقت القتال والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على المصدر الدال عليه ﴿ ويربط ﴾ وانظر إلى فصاحة مجيء هذه التعليلات بدءاً أولاً منها بالتعليل الظاهر وهو تطهيرهم من الجنابة، وهو فعل جسماني أعني اغتسالهم من الجنابة، وعطف عليه بغير لام العلة ما هو من لازم التطهير وهو إذهاب رجز الشيطان حيث وسوس إليهم بكونهم يصلون ولم يغتسلوا من الجنابة ثم عطف بلام العلة ما ليس بفعل جسماني، وهو فعل محله القلب، وهو التشجيع والاطمئنان والصبر على اللقاء وعطف عليه بغير لام العلة ما هو من لازمه وهو كونهم لا يقرون وقت الحرب فحين ذكر التعليل الظاهر الجسماني والتعليل الباطن القلبي ظهر حرف التعليل وحين ذكر لازمها لم يؤكد بلام التعليل وبداءً أولاً بالتطهير لأنه الآكد والأسبق في الفعل ولأنه الذي تؤدي به أفضل العبادات وتحيا به القلوب. انتهى انتهى. ١٠ هـ ﴿ البحر المحيط

وقال أبو السعود :

﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ ﴾

أي يجعله غاشياً لكم ومحيطاً بكم وهو بدل ثانٍ من إذ يعدكم لإظهار نعمة أخرى ، وصيغة الاستقبال فيه وفيما عطف عليه لحكاية الحال الماضية كما في تستغيثون ، أو منصوبٌ بإضمار اذكروا ، وقيل : هو متعلقٌ بالنصر أو بما في (من عند الله) من معنى الفعل ، أو بالجعل وليس بواضح ، وقرئ يغشيكُم من الإغشاء بمعنى التغشية ، والفاعل في الوجهين هو البارئ تعالى وقرئ يغشاكم على إسناد الفعل إلى النعاس وقوله تعالى : ﴿ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾ على القراءتين الأوليين منصوبٌ على العلية بفعل مترتب على الفعل المذكور أي يغشيكُم النعاس فتعسسون أماناً كأننا من الله تعالى لا كالأولاد وإعفاءً أو على أنه مصدرٌ لفعل آخر كذلك أي فتأمنون أماناً كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ على أحد الوجهين ، وقيل : منصوبٌ بنفس الفعل المذكور ، والأمانة بمعنى الأمان وعلى القراءة الأخيرة منصوبٌ على العلية بيغشاكم باعتبار المعنى فإنه في حكم تعسسون أو على أنه مصدرٌ لفعل مترتب عليه كما مر ، وقرئ أمانةً كرحمة ﴿ وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

﴿ تقديم الجار والجرور على المفعول به لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أُخِّرَ تبقى النفس مترقبَةً له ، فعند وروده يتمكن عندها فضلُ تمكنٍ ، وتقديمُ عليكم لما أن بيانَ كونِ التنزيلِ عليهم أهمُّ من بيانِ كونه من السماء وقرىءَ بالتخفيف من الإنزال ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ أي من الحديث الأصغر والأكبر .

(38/307)

---

﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ الكلامُ في تقديم الجار والجرور كما مرَّ آنفاً ، والمرادُ برجز الشيطانِ وسوستهُ وتخويفه إياهم من العطش . ( روي أنهم نزلوا في كَثِيبٍ أَعْفَرَ تَسْوَخُ فِيهِ الْأَقْدَامُ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ وَنَامُوا فَاحْتَلَمَ أَكْثَرُهُمْ وَقَدْ غَلَبَ الْمَشْرُكُونَ عَلَى الْمَاءِ فتمثل لهم الشيطانُ فوسوس إليهم وقال : أنتم يا أصحابَ محمدٍ تزعمون أنكم على الحق ، وإنكم تصلون على غير وضوءٍ وعلى الجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحق ما غلبكم هؤلاء على الماء ، وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطشُ فإذا قطعَ أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة فحزنوا حزناً شديداً وأشفقوا فأنزل الله عز وجل المطرَ فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي فاغسلوا وتوضأوا وسقوا الركابَ وتلبَّدَ الرملُ الذي كان بينهم وبين العدوِّ حتى ثبتت عليه الأقدامُ وزالت وسوسةُ الشيطانِ وطابت النفوسُ

وَقَوِيَّتِ الْقُلُوبُ ) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَيْرِبُطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه ﴿ وَتُبَّتْ بِهِ الْأَقْدَامُ ﴾ فلا تسوخ في الرمل ، فالضمير للماء كالأول ويجوز أن يكون للربط فإن القلب إذا قوي وتمكن فيه الصبر والجرأة لا تكاد تزل القدم في معارك الحروب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ﴾

(39/307)

وقال الأوسى :

﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ ﴾

أي يجعله غاشياً عليكم ومحيطاً بكم .

والنعاس أول النوم قبل أن يتقل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن النعاس في الرأس والنوم في القلب ولعل مراده الثقل والخفة

والإفلا معنى له ، والفعل نعس كمنع والوصف ناعس ونعسان قليل .

و ﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ ﴾ بدل ثان من ﴿ إِذِ يُعِدُّكُمْ ﴾ [ الأنفال : 7 ] على القول بجواز تعدد

البدل ، وفيه إظهار نعمة أخرى فإن الخوف أطار كراهم من أوكاره فلما طامن الله تعالى

قلوبهم رفر فبجناحه عليها فنعسوا ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو هو

منصوب باذكروا .

وجوز تعلقه بالنصر ، وضعف بأن فيه إعمال المصدر المعرف بأل وفيه خلاف الكوفيين ،  
والفصل بين المصدر ومعموله ، وعمل ما قبل إلا فيما بعدها من غير أن يكون ذلك المعمول  
مستثنى أو مستثنى منه أو صفة له ، والجمهور لا يجوزون ذلك خلافاً للكسائي والأخفش  
، وتعلقه بما في عند الله من معنى الفعل وقل عليه : إذ يلزم تقييد استقرار النصر من الله  
تعالى بهذا الوقت ولا تقييد له به ، وأجاب الحلبي بأن المراد به نصر خاص فلا محذور في  
تقييده وبالجعل ، وفيه الفصل وعمل ما قبل إلا فيما ليس أحد الثلاثة وبما دل عليه ﴿  
عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [ الأنفال : 10 ] وفيه لزوم التقييد ولا تقييد ، وأجيب بما أجيب ،  
والأنصاف بعد الاحتمالات الأربع .

وقرأ نافع ﴿ يُغَشِّيكُمْ ﴾ بالتخفيف من الإغشاء بمعنى التغشية والفاعل في القراءتين هو  
الله تعالى .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو ﴿ يَغْشَاكُمْ ﴾ على إسناد الفعل إلى النعاس .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿النَّعَّاسُ أَمْنَةٌ مِّنْهُ﴾ نصب على أنه مفعول له وهو مصدر بمعنى الأمن كالمنعة وإن كان قد يكون جمعاً وصفة بمعنى آمنين كما ذكره الراغب ، واستشكل بأن شرط النصب الذي هو اتحاد فاعله وفاعل الفعل العامل فيه مفقود إذ فاعله هم الصحابة الآمنون رضي الله تعالى عنهم وفاعل الآخر هو الله على القراءتين الأوليين والنعاس على الأخرى .

وأجيب بأنه مفعول له باعتبار المعنى الكنائي فإن يغشاكم النعاس يلزمه تنعسون ويغشيكم بمعناه فيتحد الفاعلان إذ فاعل كل حينئذ الصحابة ، وقال بعض المدققين : إنه على القراءتين الأوليين يجوز أن يكون منصوباً على العلية لفعل مترتب على الفعل المذكور أي يغشيكم النعاس فتنعسون أمناً أو على أنه مصدر لفعل آخر كذلك أي فتأمنون أمناً ، وعلى القراءة الأخيرة منصوب على العلية بيغشاكم باعتبار المعنى فإنه في حكم تنعسون أو على أنه مصدر لفعل مترتب عليه كما علمت ، وما تقدم أقل اتشاراً .

وجوز أن يراد بالأمنة الإيمان بمعناه اللغوي وهو جعل الغير أمناً فيكون مصدر آمنه ، وهو على بعده إنما يتمشى في القراءتين الأوليين لأن فاعل التغشاة والأمان هو الله تعالى ، وأما على القراءة الأخرى فلا ويحتاج إلى ما مر ، ومن الناس من جوز فيها أن يجعل الأمن فعل النعاس على الإسناد المجازي لكونه من ملابسات أصحاب الأمن ، والإسناد في ذلك مقدر وليس المراد به النسبة التي بين الفعل والمفعول له أي يغشاكم النعاس لأمنه ، أو على

تشبيه حاله مجال إنسان شأنه الأمن والخوف وأنه حصل له من الله تعالى الأمان من الكفار  
في مثل ذلك الوقت المخوف فلذلك غشاكم وأناكم فيكون الكلام تمثيلاً وتخبيلاً للمقصود  
يبرز المعقول في صورة المحسوس .

(41/307)

---

والقطب جعل في الكلام استعارة بالكناية حيث ذكر أنه شبه النعاس بشخص من شأنه أن  
يأتيهم لكنه لا يأتيهم في وقت الخوف وإذا من أتاهم ، ثم ذكر النعاس وأراد ذلك الشخص ،  
والقرينة ذكر الأمانة لأنها من لوازم المشبه به ، وقد وصف الزمخشري النوم بنحو ذلك في قوله  
:

يهاب النوم أن يغشى عيوننا . . .

تهابك فهو نفاش شرود

وما يقال : إن مثل هذا إنما يليق بالشعرا بالقرآن الكريم فغير مسلم ، وذكر ابن المنير في  
توجيه اتحاد الفاعل على القراءتين أن لقائل أن يقول : فاعل تغشية النعاس إياهم هو الله  
تعالى وهو فاعل الأمانة أيضاً لأنه خالقها فحينئذ يتحد فاعل الفعل والعللة فيرتفع السؤال  
وينزل الإشكال على قواعد أهل السنة التي تقتض نسبة أفعال الخلق إلى الله تعالى على أنه



خالقها ومبدعها وتعقبه بأن للمورد أن يقول: المعبر الفاعل اللغوي وهو المتصف بالفعل وهو هنا ليس إلا العبد إذ لا يقال لله سبحانه وتعالى آمن وإن كان هو الخالق وحينئذٍ يحتاج إلى الجواب بما سلف والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لأمنة، أي أمنة كائنة منه تعالى لكم، ولعل مغايرة ما هنا لما في سورة آل عمران لاختلاف المقام فقد قالوا: إن ذلك المقام اقتضى الاهتمام بشأن الأمن ولذلك قدمه سبحانه وتعالى وبسط الكلام فيه كما لا يخفى على من تأمل في السياق والسباق بخلافه هنا لأنه في مقام تعداد النعم فلذا جرى بالقصة مختصرة للرمز وقرئ ﴿ءَامِنَةٌ﴾ بالسكون وهو لغة فيه.

﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ عطف على ﴿يُغَشِّيَكُمُ﴾ وكان هذا قبل النعاس كما روي عن مجاهد وتقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر كما مر غير مرة، وتقديم عليكم لما أن بيان كون التنزيل عليهم أهم من بيان كونه من السماء: وقرأ ابن كثير.

وسهل.

ويعقوب.

وأبو عمر ﴿ وَيُنزَّلُ ﴾ بالتخفيف من الإنزال وقرأ الشعبي ما ﴿ لِيُطَهَّرَكُمْ بِهِ ﴾ أي من الحدث الأصغر والأكبر ووجهها كما قال ابن جني أن ﴿ مَا ﴾ موصولة واللام متعلقة بمحذوف وقع صلة لها أي وينزل عليكم الذي ثبت لتطهيركم ، ونظير هذه اللام اللام في قولك : أعطيت الثوب الذي لدفع البرد وهي في قراءة الجماعة نظير اللام في قولك : زرتك لتكرمني ومرجع القراءتين واحد والمشهورة أفصح بالمراد وانظر لم لا يجوز أن تخرج هذه القراءة على ما سمع من قولهم اسقني ما بالقصر ، وقد حكى ذلك في "القاموس" وأرى أن العدول عن ذلك إن جاز كالتيمم مع وجود الماء .

﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ أي وسوسته وتخوفه إياكم من العطش .  
أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء فظمىء المسلمون وصلوا مجنين محدثين وكانت بينهم رمال فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال : أتزعمون أن فيكم نبياً وأنكم أولياء الله تعالى وتصلون مجنين محدثين ؟ فأنزل الله تعالى من السماء ماء فسال عليهم الوادي فشربوا وتطهروا وثبتت أقدامهم وذهبت وسوسة الشيطان ، وفسر بعضهم الرجز هنا بالجنابة مع اعتبار كون التطهير منها واعتراض بلزوم التكرار ودفع بأن الجملة الثانية تعليل للأولى والمعنى طهركم من الجنابة لأنها كانت من رجز الشيطان وتخيله .

وقرىء ﴿ رَجِسٌ ﴾ وهو بمعنى الرجز ﴿ وَلِيُرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يقويها بالثقة

بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه ، وأصل الربط الشد ويقال لمن صبر على  
الشيء : ربط نفسه عليه .

قال الواحدي : ويشبه أن تكون ﴿ على ﴾ صلة أي ويربط قلوبكم .  
وقيل الأصل ذلك إلا أنه أتى بعلی قصداً للاستعلاء .

(43/307)

---

وفيه إيحاء إلى أن قلوبهم قد امتلأت من ذلك حتى كأنه علا عليها ، وفي ذلك إن إفادة  
التمكن ما لا يخفى ﴿ وَيُثَبِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ولا تسوخ في الرمل فالضمير للماء كالأول .  
وجوز أن يكون للربط ، والمراد بثبيت الأقدام كما قال أبو عبيدة جعلهم صابرين غير  
فارين ولا متزلزين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(44/307)

---

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾

أَيُّ: إِنَّ الْأَنْفَالَ لِلَّهِ يَحْكُمُ فِيهَا بِالْحَقِّ، وَلِرَسُولِهِ يُقَسِّمُهَا بَيْنَ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْحَقَّ فِيهَا  
بِالسَّوِيَّةِ، وَإِنْ كَرِهَ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُتَنَازِعِينَ فِيهَا، وَالَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا،  
فَهِيَ كَأَخْرَاجِ رَبِّكَ إِيَّاكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ لِلِقَاءِ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي الظَّاهِرِ،  
وَكُونَ تِلْكَ الطَّائِفَةُ هِيَ الْمُقَاتِلَةُ فِي الْوَأَقِعِ، وَالْحَالُ إِنْ كَثُرًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ لِذَلِكَ؛  
لِعَدَمِ اسْتِعْدَادِهِمْ لِلْقِتَالِ، أَوْ لَهُ، وَلِغَيْرِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُعَلِّمُ مِمَّا يَأْتِي .  
هَذَا مَا أَرَاهُ الْمُتَبَادِرِ مِنْ هَذَا التَّشْبِيهِ، وَقَدْ رَاجَعْتُ بَعْضَ كُتُبِ التَّفْسِيرِ فَرَأَيْتُ لِلْمُفَسِّرِينَ  
فِيهَا بَضْعَةَ عَشْرَ وَجْهًا أَكْثَرَهَا مُتَكَفِّفٌ، وَبَعْضُهَا قَرِيبٌ، وَلَكِنَّ هَذَا أَقْرَبُ، وَقَدْ بَسَطَهُ  
الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ بِاعْتِبَارِ غَايَتِهِ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِيهِ، وَهُوَ حَقٌّ فِي  
نَفْسِهِ، وَلَكِنَّ اللَّفْظَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَذَكَرَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ مَبْنِيًّا عَلَى قَوَاعِدِ الْأَعْرَابِ .  
وَلَا يَظْهَرُ الْمَعْنَى تَمَامَ الظُّهُورِ فِي الْآيَاتِ إِلَّا بَيَانِ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَجْمَعُهُ رِوَايَةُ مُحَمَّدِ بْنِ  
إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ الزُّهْرِيُّ، وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
أَبِي

بِكْرٍ وَيَزِيدُ بْنُ رُومَانَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَائِنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - كُلُّ  
قَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ هَذَا الْحَدِيثِ فَاجْتَمَعَ حَدِيثُهُمْ فِيمَا سَقْتُ مِنْ حَدِيثِ بَدْرِ " قَالُوا : لَمَّا  
سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَبِي سُفْيَانَ مُقْبِلًا مِنَ الشَّامِ نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ  
وَقَالَ : هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ فَأَخْرَجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُنْفَلِكُمُوهَا ، فَاتَدَبَ النَّاسُ  
فَخَفَ بَعْضُهُمْ وَتَقَلَّ بَعْضُهُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْقَى  
حَرْبًا ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ اسْتَنْفَرَ حِينَ دَنَا مِنَ الْحِجَازِ مَنْ يَتَجَسَّسُ الْأَخْبَارَ ، وَيَسْأَلُ مَنْ  
لَقِيَ مِنَ الرُّكْبَانِ تَخَوُّفًا عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ حَتَّى أَصَابَ خَبْرًا مِنْ بَعْضِ الرُّكْبَانِ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ  
اسْتَنْفَرَ أَصْحَابَهُ لَكَ وَغَيْرِكَ ، فَحَذَرَ عِنْدَ ذَلِكَ فَاسْتَأْجَرَ ضَمُضَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ فَبَعَثَهُ  
إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ قُرَيْشًا فَيَسْتَنْفِرَهُمْ إِلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ  
عَرَضَ لَهَا فِي أَصْحَابِهِ ، فَخَرَجَ ضَمُضُ بْنُ عَمْرٍو سَرِيعًا إِلَى مَكَّةَ ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَصْحَابِهِ حَتَّى بَلَغَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ ذِفْرَانُ ، فَخَرَجَ مِنْهُ حَتَّى إِذَا كَانَ  
بِبَعْضِهِ نَزَلَ ، وَأَتَاهُ الْخَبْرُ عَنْ قُرَيْشٍ بِمَسِيرِهِمْ لِيَمْنَعُوا عِيْرَهُمْ ، فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ

قُرَيْشٍ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ فَأَحْسَنَ ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ  
 فَأَحْسَنَ ، ثُمَّ قَامَ الْمُقَدَّادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ امْضِ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ فَنَحْنُ مَعَكَ ،  
 وَاللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْنَا إِنَّا هَاهُنَا  
 قَاعِدُونَ (5 : 24) وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ  
 بِالْحَقِّ لَوْ سَرْتَنَا إِلَى بَرَكِ الْغَمَادِ - يَعْنِي مَدِينَةَ الْحَبَشَةِ - لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى  
 تَبْلُغَهُ . فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ  
 اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ  
 كَانُوا عَدَدَ النَّاسِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ بَايَعُوهُ بِالْعُقْبَةِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا بَرَاءٌ مِنْ ذِمَّتِكَ  
 حَتَّى تَصِلَ إِلَى دَارِنَا فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِنَا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَبْنَاءَنَا  
 وَنَسَاءَنَا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّفُ أَنْ تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا  
 نَصْرَتَهُ إِلَّا مِمَّنْ دَهَمَهُ بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ ، وَأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ

(47/307)

---

يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوِّهِمْ مِنْ غَيْرِ بِلَادِهِمْ . فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ  
 سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : وَاللَّهِ لَكَ أَنْ تَرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : أَجَلٌ . فَقَالَ : قَدْ آمَنَّا بِكَ

وَصَدَّقْنَاكَ ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَنَا وَمَوَاقِفَنَا  
عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَاْمُضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ  
اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ مَا يَتَخَلَّفُ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَمَا نَكْرَهُ  
أَنْ تُلْقَى بِنَا عَدُوْنَا غَدًا ، إِنَّا لَصَبْرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ صَدُقٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا  
تَقْرُبُهُ عَيْنُكَ ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ . فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ بِقَوْلِ سَعْدٍ ، وَنَشَطَهُ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ : سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ، وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ  
وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَاللَّهُ لَكَانِي الْآنَ أَنْظِرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ " .

(48/307)

---

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مُجَادَلَةِ  
الْمُشْرِكِينَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالتَّوْحِيدِ ، وَهِيَ بِهِمْ أَلْيَقُ ، وَلَكِنَّ مَا  
قَبَلَهَا وَمَا بَعْدَهَا فِي بَيَانِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا كَانَ مِنْ هَفَوَاتِ بَعْضِهِمُ الَّتِي مَحَصَّهُمُ اللَّهُ  
بَعْدَهَا يُعَيِّنُ كَوْنَهَا فِيهِمْ وَفَاقًا لِأَبِي جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ فِيهِ ، وَفِي رَدِّ ذَلِكَ الْقَوْلِ ، وَمُشَايَعَةِ ابْنِ  
كَثِيرٍ لَهُ ، وَذَكَرَ أَنَّ مُجَاهِدًا فَسَّرَ الْحَقَّ هُنَا بِالْقِتَالِ وَكَذَا ابْنُ إِسْحَاقَ ، وَعَلَّلَ الْجِدَالَ فِيهِ  
بِقَوْلِهِ : كَرَاهِيَةَ لِلِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنْكَارًا لِلْمَسِيرِ قَرِيشَ حِينَ ذُكِرُوا لَهُمْ ، وَبَيَانَ ذَلِكَ أَنَّ

المُسْلِمِينَ كَانُوا فِي حَالٍ ضَعْفٍ ، فَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ أَوَّلًا إِحْدَى  
طَائِفَتِي قُرَيْشٍ تَكُونُ عَلَى الْإِبْهَامِ ، فَتَعَلَّقَتْ أَمَلُهُمْ بِطَائِفَةِ الْعَيْرِ الْقَادِمَةِ مِنَ الشَّامِ لِأَنَّهَا  
كَسَبُ عَظِيمٌ لَا مَشَقَّةَ فِي إِحْرَازِهِ وَضَعْفٌ حَامِيَةٌ ، فَلَمَّا ظَهَرَ أَنَّهَا فَاتَتْهُمْ ، وَأَنَّ طَائِفَةَ  
النَّبِيرِ خَرَجَتْ مِنْ مَكَّةَ بِكُلِّ مَا كَانَ عِنْدَ قُرَيْشٍ مِنْ قُوَّةٍ وَقَرَبَتْ مِنْهُمْ ، وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِمْ قِتَالُهَا ،  
إِذْ تَبَيَّنَ أَنَّهَا هِيَ الطَّائِفَةُ الَّتِي وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ لَمْ يَبْقَ غَيْرُهَا ، صَعَبَ عَلَى بَعْضِهِمْ  
لِقَاؤُهَا عَلَى قَلْبِهِمْ وَكَثْرَتِهَا ، وَضَعْفِهِمْ وَقُوَّتِهَا ، وَعَدَمَ اسْتِعْدَادِهِمْ لِلْقِتَالِ كَاسْتِعْدَادِهَا ،  
وَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ لِلنَّبِيِّ

(49/307)

---

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَذَارَاتٍ جَدَلِيَّةً بِأَنَّهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا إِلَّا لِلْعَيْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ لَهُمْ قِتَالَ  
فَيَسْتَعِدُّوْا لَهُ ، كَأَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ إِثْبَاتَ أَنَّ مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى بِإِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ الْعَيْرِ ، بِدَلِيلِ عَدَمِ  
أَمْرِهِمْ بِالْإِسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ ،

(50/307)

---



وَلَكِنَّ الْحَقَّ تَبَيَّنَ بِحَيْثُ لَمْ يُبَقِّ لِلْجِدَالِ فِيهِ وَجْهُ مَا - لَا بَانَ يُقَالُ إِنَّ طَائِفَةَ الْعِيرِ مُرَادُ اللَّهِ  
تَعَالَى فَإِنَّهَا نَجَتْ وَذَهَبَتْ مِنْ طَرِيقِ سَيْفِ الْبَحْرِ ، وَلَوْ كَانَتْ هِيَ الْمُرَادَةَ لَمَا نَجَتْ ، وَلَا  
بَانَ يُقَالُ إِنَّا لَمْ نَعِدْ لِلْقِتَالِ عُدَّتُهُ فَلَا يُمَكِّنُنَا طَلَبُ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى فَإِنَّهُ مَهْمَا تَكُنْ حَالَهَا فَلَا  
بُدَّ مِنَ الظَّفَرِ لَوْعَدِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَمْ يُبَقِّ لْجِدَالِهِمْ وَجْهُ إِلَّا الْجَبْنَ وَالْخَوْفُ مِنَ الْقِتَالِ ؛ وَلِذَلِكَ  
قَالَ : كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ أَيَّ كَأَنَّهُمْ مِنْ فَرَطٍ جَزَعَهُمْ وَرُعِبَهُمْ يُسَاقُونَ  
إِلَى الْمَوْتِ سَوْقًا لَا مَهْرَبَ مِنْهُ ؛ لظُهُورِ أَسْبَابِهِ ، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ بِأَعْيُنِهِمْ ، وَهِيَ مَا  
ذَكَرْنَا مِنَ التَّفَاوُتِ بَيْنَ حَالِهِمْ وَحَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْعُدَدِ وَالْعُدَدِ وَالْخَيْلِ وَالزَّادِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ  
تَعَالَى وَعَدَّ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ الظَّفَرِ بِهِمْ ، وَهَذَا دَلِيلٌ قَطْعِيٌّ لَا يَتَخَلَّفُ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ الْمُوقِنِ ،  
وَمَا تُلِكَ إِلَّا أَسْبَابٌ عَادِيَةٌ كَثِيرَةٌ التَّخَلَّفَ كَمِنْ مِنْ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ (2) :  
(249) وَهَكَذَا أَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَكَانَ الظَّفَرُ التَّامُّ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى ذَلِكَ كُلَّهُ بِقَوْلِهِ  
: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ تَوَلَّى اللَّهُ تَعَالَى إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِالْحَقِّ فِيمَا  
جَادَلُوا فِيهِ رَسُولُهُ بِالْبَاطِلِ ، وَوَجَّهَ الْخِطَابَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ كَانَ

(51/307)

الْخِطَابُ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: وَاذْكُرُوا إِذْ يَعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ - الْعَيْرَ أَوْ  
النَّيِّرَ - أَنَّهَا لَكُمْ، وَهَذَا التَّعْبِيرُ

أَكْدُ فِي الْوَعْدِ مِنْ مِثْلِ: وَإِذْ يَعِدُكُمْ اللَّهُ أَنْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ لَكُمْ؛ لِأَنَّ هَذَا إِثْبَاتٌ بَعْدَ  
إِثْبَاتٍ، إِثْبَاتٌ لِلشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ، وَإِثْبَاتٌ لَهُ فِي بَدَلِهِ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ  
لَكُمْ أَيُّ: وَتُحِبُّونَ وَتَتَمَنُّونَ أَنْ الطَّائِفَةُ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ وَهِيَ الْعَيْرُ تَكُونُ لَكُمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ  
فِيهَا إِلَّا أَرْبَعُونَ فَارِسًا. وَالشُّوْكَةُ الْحِدَّةُ وَالْقُوَّةُ، وَأَصْلُهَا وَاحِدَةُ الشُّوكِ شَبَّهُوا بِهَا أَسِنَّةَ  
الرِّمَاحِ، ثُمَّ أَطْلَقُوهَا تَجَوُّزًا عَلَى كُلِّ حَدِيدٍ مِنَ السِّلَاحِ، فَقَالُوا: شَائِكُ السِّلَاحِ وَشَاكِي  
السِّلَاحِ. وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْهَا بِهَذَا التَّعْبِيرِ؛ لِلتَّعْرِيزِ بِكَرَاهَتِهِمْ لِلْقِتَالِ، وَطَمَعِهِمْ فِي الْمَالِ،  
وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ أَيُّ: وَيُرِيدُ اللَّهُ بِوَعْدِهِ غَيْرَ مَا أَرَدْتُمْ، يُرِيدُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ  
الَّذِي أَرَادَهُ بِكَلِمَاتِهِ الْمُنزَلَةِ عَلَى رَسُولِهِ، أَيُّ وَعَدَهُ لَكُمْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ

(52/307)

---

مُبْهَمَةً وَيَبَيِّنُهَا لَهُ مُعَيَّنَةً مَعَ ضَمَانِ النَّصْرِ لَهُ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ الْمُعَانِدِينَ لَهُ مِنْ مُشْرِكِي  
مَكَّةَ وَأَعْوَانِهِمْ بِاسْتِصْالِهِمْ شَأْفَتَهُمْ، وَمَحَقَّ قُوَّتَهُمْ، فَإِنَّ دَابِرَ الْقَوْمِ آخِرُهُمُ الَّذِي يَأْتِي فِي  
دُبُرِهِمْ، وَيَكُونُ مِنْ وِرَائِهِمْ، وَلَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ الْهَلَاكُ إِلَّا بِهَلَاكِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْجَيْشِ، وَهَكَذَا كَانَ

الظفر بيدر فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة ، وما تخلل ذلك من نيلهم من المؤمنين في أحدٍ وحنينٍ فإنما كان تربيةً على ذنوب لهم اقترفوها كما قال تعالى في الأولى : أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم (3 : 165) وكقوله تعالى : ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين (3 : 141) وقال في الثانية : ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً إلى قوله : ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين (9 : 25 ، 26) إلخ .

(53/307)

قال في الكشاف : يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفاسف الأمور ، وألا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم ، والله عز وجل يريد لكم معالي الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة ، والفوز في الدارين ، وشأن ما بين المرادين : ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم ، وأعزكم ، وأذلهم ، وحصل لكم ما لا تعارض أدناه العير وما فيها .

(54/307)

---

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ أَيُّ: وَعَدَ بِمَا وَعَدَ وَأَرَادَ بِأَحَدِي الطَّائِفَتَيْنِ ذَاتِ الشُّوْكَةِ لِيُحِقَّ  
الْحَقَّ ، أَي يُقَرِّه وَيُثَبِّتَهُ لِأَنَّهُ الْحَقُّ - وَهُوَ الْإِسْلَامُ - وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ أَي يُزِيلُهُ وَيَمْحَقُهُ - وَهُوَ  
الشِّرْكَ - وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ أَوْ لَوِ الْاِعْتِدَاءُ وَالطُّغْيَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَإِحْقَاقُ الْحَقِّ وَإِبْطَالُ  
الْبَاطِلِ لَا يَكُونُ بِاسْتِيْلَانِهِمْ عَلَى الْعَيْرِ ، بَلْ بِقِتْلِ أُمَّةِ الْكُفْرِ وَالطَّاغُوتِ مِنْ صِنَادِيدِ قُرَيْشِ  
الْمُعَانِدِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا إِلَيْكُمْ مِنْ مَكَّةَ زَلِيمَةً صِلَوْكُمْ . وَقَدْ عَلِمَ مِمَّا فَسَّرْنَا بِهِ الْحَقَّ فِي  
الْآيَاتِ أَنَّهُ لَا تَكَرَّرَ فِيهِ ، فَالْحَقُّ الْأَوَّلُ هُوَ الْقِتَالُ لِطَائِفَةِ التَّغْيِيرِ مَعَ ضَمَانِ النَّصْرِ لِلْمُؤْمِنِينَ ،  
وَمَحَقِّ الْكَافِرِينَ ، وَالثَّانِي هُوَ الْإِسْلَامُ ، وَهُوَ الْمَقْصِدُ ، وَالْأَوَّلُ وَسِيلَةٌ لَهُ . وَهَذَا أَظْهَرَ مِمَّا  
قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ وَأَبْنُ الْمُنِيرِ .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ

(55/307)

---

رَوَى أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَبْنُ جَرِيرٍ وَأَبْنُ الْمُثَنَّرِ وَأَبْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُمْ  
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :  
" لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ نَظَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ رَجُلٍ وَبِضْعَةٌ

عَشْرَ رَجُلًا ، وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ ، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيَّ اللَّهِ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ  
وَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ : اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكُ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ  
لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ . فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ مَا دَامَ يَدِيهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ ، فَاتَّاهُ  
أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَالْقَاهُ عَلَى مَنْكِبِيهِ ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وِرَائِهِ وَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ  
كَمَا كُنَّا مُنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُكَ مَا وَعَدَكَ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ  
فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَئِذٍ وَالتَّقُوا هَزَمَ اللَّهُ  
الْمُشْرِكِينَ ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا وَأُسِرَ سَبْعُونَ " الْخُ .  
وَأَمَّا الْبُخَارِيُّ فَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

(56/307)

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إِن  
شِئْتَ لَمْ تُعْبَدُ " فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ : حَسْبُكَ ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ : سِيَهْزِمُ الْجَمْعُ  
وَيُؤَلِّقُونَ الدُّبُرَ (54 : 45) وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ مِنْ طَرِيقِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
عُتْبَةَ قَالَ : " لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَتَكَاثَرَهُمْ  
وَالِى الْمُسْلِمِينَ فَاسْتَقْلَهُمْ فَرَكِعَ رُكْعَيْنِ وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ عَنْ يَمِينِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ : اللَّهُمَّ لَا تُودِعْ مِنِّي ، اللَّهُمَّ لَا تَخْذِلْنِي ، اللَّهُمَّ لَا تَرْتَبِي ، اللَّهُمَّ  
أَنْشُدْكَ مَا وَعَدْتَنِي " وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ فِي سِيرَتِهِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " اللَّهُمَّ  
هَذِهِ قُرَيْشٌ أَتَتْ بِخِيَلِهَا وَفَخَرَهَا تُحَادُّكَ وَتُكْذِبُ رُسُوكَ ، اللَّهُمَّ فَانصُرْكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي

"

(57/307)

وَقَدْ اسْتَشْكَلَ مَا ظَهَرَ مِنْ خَوْفِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ وَعْدِ اللَّهِ لَهُ بِالنَّصْرِ عَامًّا  
وَخَاصًّا وَمِنْ طُمَأْنِينَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى خِلَافِ مَا كَانَ لَيْلَةَ الْغَارِ إِذْ كَانَ النَّبِيُّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمِنًا مُطْمَئِنًّا مُتَوَكِّلًا عَلَى رَبِّهِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ خَائِفًا وَجَلًّا كَمَا يَدُلُّ  
عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي  
الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا  
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (9 : 40) .  
قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ قَالَ الْخَطَّابِيُّ : لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَحَدٌ أَنْ أَبَا بَكْرٍ كَانَ أَوْثَقَ بِرَبِّهِ مِنْ  
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، بَلِ الْحَامِلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى  
ذَلِكَ شَفَقَتُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ وَتَقْوِيَةُ قُلُوبِهِمْ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَشْهَدٍ شَهِدُوهُ ، فَبَالِغَ فِي التَّوَجُّهِ

وَالدُّعَاءِ وَالِابْتِهَالِ وَتَسْكُنُ نَفُوسُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَسِيلَتَهُ مُسْتَجَابَةٌ ،  
فَلَمَّا قَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ مَا قَالَ كَفَّ عَنْ ذَلِكَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ اسْتَجِيبَ لَهُ لَمَّا وَجَدَ أَبُو بَكْرٍ فِي نَفْسِهِ  
مِنَ الْقُوَّةِ وَالطَّمَأِينَةِ فَهَذَا عَقَبَ بِقَوْلِهِ : سِيَهْرُمُ الْجَمْعُ أَنْتَهَى مُلْخَصًا .

(58/307)

" وَقَالَ غَيْرُهُ : وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ فِي مَقَامِ الْخَوْفِ ، وَهُوَ  
أَكْمَلُ حَالَاتِ الصَّلَاةِ ، وَجَازَ عِنْدَهُ الْأَتَقِعَ النَّصْرَ يَوْمِيذٍ لِأَنَّ وَعْدَهُ بِالنَّصْرِ لَمْ يَكُنْ مُعِينًا لِتِلْكَ  
الْوَاقِعَةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مُجْمَلًا . هَذَا الَّذِي يَظْهَرُ ، وَزَلَّ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلَى  
الصُّوفِيَّةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ زَلًّا شَدِيدًا فَلَا يَلْتَقِ إِلَيْهِ ، وَلَعَلَّ الْخَطَّابِيَّ أَشَارَ إِلَيْهِ . اهِمَا  
أُورِدَهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ فَهُوَ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى أَحْسَنَ مِنْهُ عَلَى سَعَةِ إِطْلَاعِهِ .  
وَأَقُولُ : يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَقَاصِدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الدُّعَاءِ يَوْمِيذٍ تَقْوِيَةً قُلُوبِ  
أَصْحَابِهِ ، وَهُوَ مَا يُعْبَرُ عَنْهُ فِي عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ بِالْقُوَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ  
حَتَّى الْيَوْمِ فِي أَنَّهَا أَحَدُ سَبَابِ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ ، وَلَكِنْ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عِلْمٌ بِاسْتِجَابَةِ اللَّهِ  
لَهُ لَمَّا وَجَدَ أَبُو بَكْرٍ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ وَالطَّمَأِينَةَ ، فَعَلِمَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَبِّهِ وَبَوَقْتِ  
اسْتِجَابَتِهِ لَهُ أَقْوَى وَأَعْلَى مِنْ أَنْ يَسْتَنْبِطَهُ اسْتِنْبَاطًا مِنْ حَالِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمِئِذٍ فِي مَقَامِ الْخَوْفِ فَهُوَ ظَاهِرٌ،  
وَلَكِنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ مَعَهُ سَبَبَهُ وَلَا كَوْنَهُ لَا يَتَنَفَّى كَمَا لَوْ تَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ، وَكَوْنَهُ فِيهِ أَعْلَى وَأَكْمَلَ مِنْ  
صَاحِبِهِ بِدَرَجَاتٍ لَا يَعْلُوهَا شَيْءٌ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ بِالتَّفْصِيلِ فِي تَفْسِيرِ: إِنْ يُنْصَرِّكُمْ اللَّهُ فَلَا  
غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (3):  
160) وَهِيَ فِي سِيَاقِ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَنَعِيدُ الْبَحْثِ مَعَ زِيَادَةِ فَايِدَةٍ فَنَقُولُ: إِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُعْطِيَ كُلَّ مَقَامٍ حَقَّهُ بِحَسَبِ الْحَالِ الَّتِي كَانَ فِيهَا، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْخُرُوجِ إِلَى  
الْهَجْرَةِ قَدْ عَمِلَ مَعَ صَاحِبِهِ كُلِّ مَا أَمَكْنَهُمَا مِنَ الْأَسْبَابِ لَهَا، وَهُوَ إِعْدَادُ الزَّادِ وَالرَّاحِلَتَيْنِ  
وَالدَّلِيلِ وَالْأَسْتِخْفَاءِ فِي الْغَارِ، لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِمَا إِلَّا التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالثِّقَةُ بِمَعُونَتِهِ  
وَتَخْذِيلُ أَعْدَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكَمَالِ تَوَكُّلِهِ آمِنًا مُطْمَئِنًّا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ  
السَّكِينَةِ، وَأَيَّدَهُ بِهِ مِنْ أَرْوَاحِ الْمَلَائِكَةِ، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَرْتَقِ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ،  
فَكَانَ خَائِفًا حَزِينًا مُحْتَاجًا إِلَى تَسْلِيَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ.



وَأَمَّا يَوْمٌ بَدَّرَ فَكَانَ الْمَقَامُ فِيهِ مَقَامَ الْخَوْفِ لَا مَقَامَ التَّوَكُّلِ الْمَحْضِ ، وَذَلِكَ أَنَّ التَّوَكُّلَ  
الشَّرْعِيَّ بِالِاسْتِسْلَامِ لِعِنَايَةِ الرَّبِّ تَعَالَى وَحُدُّهُ إِنَّمَا يَصِحُّ فِي كُلِّ حَالٍ بَعْدَ اتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ  
الْمَعْلُومَةِ مِنْ شَرَعِ اللَّهِ وَمِنْ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ

(61/307)

---

تَعَالَى : فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (3) :  
159) مِنْ ذَلِكَ السِّيَاقِ ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ بِالْقَطْعِ أَنَّ أَسْبَابَ النَّصْرِ وَالْغَلَبِ فِي الْحَرْبِ لَمْ  
تَكُنْ تَامَّةً عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، لَا مِنْ الْجِهَةِ الْمَادِيَّةِ كَالْعُدَدِ وَالْعُدَدِ وَالْغِذَاءِ  
وَالْعِتَادِ وَالْخَيْلِ وَالْإِبِلِ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ إِلَّا شَيْئًا ضَعِيفًا ، وَلَا مِنْ الْجِهَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ  
لَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ كِرَاهَةِ بَعْضِهِمْ لِلْقِتَالِ وَجِدَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ . وَلِهَذَا خَشِيَ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُصِيبَ أَصْحَابَهُ تَهْلُكَةً عَلَى قَتْلِهِمْ ، لِتَقْصِيرِهِمْ فِي بَعْضِ الْأَسْبَابِ  
الْمَعْنَوِيَّةِ فَوْقَ التَّقْصِيرِ غَيْرِ الْاِخْتِيَارِيِّ فِي الْأَسْبَابِ الْمَادِيَّةِ ، فَكَانَ يَدْعُو بِاللَّيْئُولِ لِأُخْذِهِمْ اللَّهُ  
تَعَالَى بِتَقْصِيرِ بَعْضِهِمْ فِي إِقَامَةِ سُنَنِهِ عِقَابًا لَهُمْ ، كَمَا عَاقَبَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ ذَلِكَ  
الْعِقَابَ الْمُشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : أَوْلَمَا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنِي هَذَا قُلُ

هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ (3: 165) .

وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّ مَا يَعْلَمُهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(62/307)

---

وَسَلَّمَ ، وَقَدْ رَأَاهُ مُنْزَعِجًا خَائِفًا فَكَانَ هُمُّهُ تَسْلِيَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَذْكَيرُهُ بِوَعْدِ رَبِّهِ لِشِدَّةِ حُبِّهِ لَهُ ، وَفِي الْغَارِ كَانَ خَائِفًا عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ رَأَاهُ مُطْمَئِنًّا فَلَمْ يَحْتِجْ إِلَى تَسْلِيَتِهِ ، بَلْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُسَلِّيَ لَهُ لِمَا رَأَى مِنْ خَوْفِهِ أَنْ يُعْرَضَ لَهُ أَوْ أَدَى .

(63/307)

---

فَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ مَقَامٍ حَقَّهُ : مَقَامَ التَّوَكُّلِ الْمَحْضِ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ أَسْبَابِ انْتِقَاءِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ الْهَجْرَةِ ، وَمَقَامَ الْخَوْفِ عَلَى جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا ذَكَرْنَا أَنْفَاءً مِنْ كَرَاهَةِ بَعْضِهِمْ لِلْقِتَالِ ، وَمُجَادَلَتِهِمْ لَهُ فِيهِ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِوَعْدِهِ إِيَّاهُمْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ . أَجَلٌ ، كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ أَنَّ شُؤْنَ الْجَمَاعَةِ الْبَشَرِيَّ كَسَائِرِ أَطْوَارِ الْعَالَمِ ، لِلَّهِ تَعَالَى فِيهَا سُنَنٌ مُطْرَدَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ

كَمَا تَكَرَّرَ ذَلِكَ فِي السُّورِ الْمَكِّيَّةِ بِوَجْهِ عَامٍ ، ثُمَّ ذَكَرَ بِشَأْنِ الْقِتَالِ خَاصَّةً فِي الْكَلَامِ عَلَى  
غَزْوَةِ أَحَدٍ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ الْمَدِينِيَّةِ : قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ  
فَانظُرُوا (3 : 137) ثُمَّ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ الْمَدِينِيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي غَزْوَتِهَا الَّتِي تُسَمَّى  
غَزْوَةَ الْخَنْدَقِ أَيْضًا . وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ أَنَّ سُنَنَهُ تَعَالَى فِي الْقِتَالِ كَسَائِرِ  
سُنَنِهِ فِي أَنَّهَا لَا تُبَدِّلُ لَهَا ، وَلَا تُحْوِلُ مِنْ قَبْلِ نَزُولِ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ  
الْمَدِينِيَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ نَزَلَا بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ ، فَذَلِكَ كَانَ خَوْفُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ عَظِيمًا .

(64/307)

---

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَصِحُّ هَذَا وَقَدْ وَعَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ ،  
وَكَشَفَ لَهُ عَنْ مَصَارِعِ صِنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ ؟ فَإِذَا كَانَ قَدْ جَوَّزَ أَنْ يَكُونَ وَعْدُهُ الْعَامُّ  
بِالنَّصْرِ لَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ - وَهُوَ مُكْرَّرٌ فِي السُّورِ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدِينِيَّةِ ، وَصَرَّحَ فِي بَعْضِهَا بِأَنَّهُ مِنْ  
سُنَنِهِ فِي رُسُلِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ - غَيْرَ مُعَيَّنٍ أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ  
، فَلَا يَأْتِي مِثْلُ هَذَا الْجَوَازِ فِي وَعْدِهِمْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ فِيهَا وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ أَنْ نَجَتْ -  
طَائِفَةُ الْعِيرِ ، وَأُنْحَصَرَ الْوَعْدُ فِي طَائِفَةِ النَّفِيرِ ، وَبَعْدَ أَنْ كَشَفَ تَعَالَى لَهُ عَنْ مَصَارِعِ الْقَوْمِ

؟ .

قُلْنَا : أَمَا كَشَفُ مَصَارِعِ الْقَوْمِ لَهُ فَالظَّاهِرُ الْمُتَعَيِّنُ أَنَّهُ كَانَ عَقِبَ دُعَائِهِ وَاسْتِغَاثَتِهِ رَبَّهُ ،  
وَلِذَلِكَ تَمَثَّلَ بَعْدَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَمَرِ : سِيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ (54 : 45)  
وَزَالَ خَوْفُهُ وَصَارَ يُعَيِّنُ أُمَّكِنَةَ تِلْكَ الْمَصَارِعِ . وَأَمَّا الْوَعْدُ فَسَيَأْتِي فِيهِ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ  
الِاسْتِغَاثَةِ وَالِاسْتِجَابَةِ ، فَإِنْ كَانَ قَبْلَهُ فَمَا تَمَثَّلَ مَا يُقَالُ فِيهِ وَأَقْوَاهُ ، مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كَثِيرٍ مِنْ  
وَعُودِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الْمُطْلَقَةِ بِالْجِزَاءِ عَلَى بَعْضِ الْأَعْمَالِ بِأَنَّهُ مُقَيَّدٌ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ  
النُّصُوصُ الْأُخْرَى مِنَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْوَعْدَ الْمُطْلَقَ  
بِالنَّصْرِ لِلرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ مُقَيَّدٌ بِمَا اشْتَرَطَ لَهُ فِي آيَاتٍ أُخْرَى ، مِثَالُ الْأَوَّلِ  
قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ غَافِرٍ " الْمُؤْمِنِ " الْمَكِّيَّةِ : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (40 : 51) وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الرُّومِ الْمَكِّيَّةِ أَيْضًا : وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا  
نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (30 : 47) وَمِثَالُ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَى

فِي الْآيَاتِ الَّتِي أَذِنَ اللَّهُ فِيهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْقِتَالِ دِفَاعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَذَلِكَ فِي سُورَةِ  
الْحَجِّ الْمَدْيَنَةِ : وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (22 : 40) وَقَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي  
سُورَةِ الْقِتَالِ أَوْ (مُحَمَّدٍ) : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (47  
: 7) وَقَدْ سَبَقَ لَنَا بَيَانُ هَذَا الْمَعْنَى فِي التَّفْسِيرِ ، وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ  
الْجَاهِلِينَ الْمَغْرُورِينَ وَالْخُرَافِيِّينَ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي أُمُورِهِمْ عَلَى الصُّلَحَاءِ الْمَيِّتِينَ فِي قَضَاءِ  
حَوَائِجِهِمْ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، وَتَبْدِيلِ سُنَنِ اللَّهِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ ، حَتَّى كَانَتْ  
قُبُورُهُمْ مُعَامِلٌ لِلْكَرَامَاتِ ، يَتَهَافَتُ عَلَيْهَا الْأَفْرَادُ وَالْجَمَاعَاتُ ، يَدْعُونَ أَصْحَابَهَا خَاشِعِينَ  
، مَا لَا يَدْعُوهُ الْمُوَحَّدُونَ إِلَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
وَجَمَاعَةُ الْمُؤْمِنِينَ .

(67/307)

---

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْمَقَامِ : أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَعْلَمُ بِإِعْلَامِ الْقُرْآنِ  
أَنَّ لِلنَّصْرِ فِي الْقِتَالِ أَسْبَابًا حَسِيَّةً وَمَعْنَوِيَّةً ، وَأَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى فِيهَا سُنَنًا مُطْرَدَةً ، وَأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ  
تَعَالَى وَآيَاتِهِ مِنْهَا الْمَطْلُوقُ وَمِنْهَا الْمُقْتَدِ ، وَأَنَّ الْمُقْتَدِ يُفَسِّرُ الْمَطْلُوقَ وَلَا يُعَارِضُهُ ، وَلَا  
اِخْتِلَافَ وَلَا تَعَارُضَ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَانَ يَعْلَمُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِنَايَةً وَتَوْفِيقًا

يَمْنَحُهُ مِنْ شَاءَ مَنْ خَلَقَهُ فَيَنْصُرُ بِهِ الضَّعْفَاءَ عَلَى الأَقْوِيَاءِ ، وَالْفِتَّةَ القَلِيلَةَ عَلَى الفِتَّةِ الكَثِيرَةِ  
بِمَا لَا يَنْقُضُ بِهِ سُنَّتهُ ، وَأَنَّ لَهُ فَوْقَ ذَلِكَ آيَاتٍ يُؤَيِّدُ بِهَا رُسُلَهُ ، فَلَمَّا عَرَفَ مِنْ ضَعْفِ  
المُؤْمِنِينَ وَقَلَّتِهِمْ مَا عَرَفَ ، اسْتَغَاثَ اللهُ تَعَالَى وَدَعَاَهُ لِیُؤَيِّدَهُمْ بِالقُوَّةِ المَعْنَوِيَّةِ ، وَيَحْفَظَهُمْ  
بِالعِنَايَةِ الرَّبَّائِيَّةِ ، الَّتِي تَكُونُ بِهَا القُوَّةُ الرُّوحَانِيَّةُ ، أَجْدَرُ بِالنَّصْرِ مِنَ القُوَّةِ المَادِيَّةِ ، وَكَانَ كُلُّ  
مَنْ عِلْمَ بَدْعَائِهِ يُؤْمِنُ عَلَيْهِ ، وَكَانُوا يَتَّسُونَ بِهِ فِي هَذَا الدُّعَاءِ ، فَيَسْتَغِيثُونَ رَبَّهُمْ كَمَا  
اسْتَغَاثَهُ ، وَقَدْ أَسْنَدَ اللهُ إِلَيْهِمْ ذَلِكَ وَأَجَابَهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوا بِقَوْلِهِ : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ الآيَةَ ،  
قِيلَ : إِنَّ هَذَا بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذْ يَعِدُكُمْ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَظَاهِرٌ هَذَا أَنَّ  
زَمَنَ الوَعْدِ وَالاسْتِغَاثَةِ وَالاسْتِجَابَةِ وَاحِدَةٌ عَلَى اتِّسَاعِ

(68/307)

فِيهِ ، وَحِينَئِذٍ يَرْتَفِعُ الأشْكَالُ الَّذِي أَجْبَنَّا عَنْهُ أَنفَاءً مِنْ أَصْلِهِ ، وَظَاهِرُ الرِّوَايَاتِ وَكَلَامِ  
المُفَسِّرِينَ أَنَّ الاسْتِغَاثَةَ وَقَعَتْ بَعْدَ الوَعْدِ ، وَقَدْ وَجَّهُوا ذَلِكَ بِمَا لَيْسَ مِنْ مَوْضُوعِنَا بَيَانُهُ  
مَعَ القَطْعِ بِأَنَّهُ عَرَبِيٌّ فَصِيحٌ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ أَوْ  
بِمَحْذُوفِ عِلْمٍ مِنَ السِّيَاقِ ، وَمَنْ نَظَرَ فِي آيَاتِ أُخْرَى تَقْدِيرُهُ " اذْكُرْ " أَوْ " اذْكُرُوا " إِذْ  
تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ . وَالاسْتِغَاثَةُ طَلَبُ العَوْثِ وَالأِنْقَازِ مِنَ الهَلَكَةِ فَاسْتِجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ

هُوَ فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ أَيُّ بَأَنِي مُمْدُكُمْ ، وَقَرَأَهَا أَبُو عَمْرٍو بِكَسْرِهَا أَيُّ قَائِلًا "   
 إِنِّي مُمْدُكُمْ " أَيُّ نَاصِرُكُمْ وَمُغِيثُكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ قَرَأَ الْجُمْهُورُ مُرْدِفِينَ بِكَسْرِ   
 الدَّالِّ مِنْ أَرْدَفَهُ إِذَا أَرَكَبَهُ وَرَاءَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي يَرْكَبُ وَرَاءَ غَيْرِهِ يَرْكَبُ عَلَى رَدْفِ الدَّابَّةِ   
 غَالِبًا ، وَقَرَأَهَا نَافِعٌ وَيَعْقُوبُ بِفَتْحِهَا ، وَفِي كُلِّ مِنْهُمَا أَحْتِمَالَاتٌ لَا يَخْتَلِفُ بِهَا الْمُرَادُ . أَيُّ   
 يُرْدِفُونَكُمْ أَوْ يُرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَتَّبِعُهُ ، أَوْ يُرْدِفُهُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ غَيْرُهُمْ . وَتَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ مِثْلِ   
 هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، وَتَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ (7) :   
 (202) مِنَ الْأَعْرَافِ مَعْنَى الْمَدَدِ وَالْإِمْدَادِ فِي اللُّغَةِ .

(69/307)

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الْإِمْدَادَ أَمْرٌ رُوحَانِيٌّ يُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ فَيَزِيدُ فِي قُوَّتِهَا الْمَعْنَوِيَّةِ فَقَالَ :   
 وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ أَيُّ : وَمَا جَعَلَ عِزَّ شَأْنِهِ هَذَا الْإِمْدَادَ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ بِأَنَّهُ يُنصِرُكُمْ   
 كَمَا وَعَدَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ أَيُّ : تَسْكُنُ بَعْدَ ذَلِكَ الزَّلْزَالِ وَالْخَوْفِ الَّذِي عَرَضَ لَكُمْ فِي   
 جُمْلَتِكُمْ مِنْ مُجَادَلَتِكُمْ لِلرَّسُولِ فِي أَمْرِ الْقِتَالِ مَا كَانَ . فَتَلْقَوْنَ أَعْدَاءَكُمْ ثَابِتِينَ مُوقِنِينَ   
 بِالنَّصْرِ ، وَسَيَأْتِي فِي مُقَابَلَةِ هَذَا الْإِقَاءِ الرَّعْبِ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ   
 اللَّهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ غَيْرِهِمْ كَالْأَسْبَابِ الْحِسِّيَّةِ ، فَهُوَ عِزٌّ وَجَلٌّ الْفَاعِلُ لِلنَّصْرِ

كغيره مهما تكن أسبابه المادية أو المعنوية، إذ هو المُسخر لها، وتأهيك بما لا كسب  
للبشر فيه كسخر الملائكة تخالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان إن  
الله عزيز حكيم عزيز غالب على أمره، حكيم لا يضع شيئاً في غير موضعه .

(70/307)

---

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس رضي الله عنه أنه فسّر " مُردفين " بالمدد، وبقوله: "   
ملك وراء ملك " وعن الشعبي قال: كان ألفاً مُردفين وثلاثة آلاف مُنزلين، فكانوا أربعة   
آلاف، وهم مدد المسلمين في ثغورهم، وعن قتادة متابعين أمدهم الله تعالى بألف ثم   
بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف وما جعله الله إلا بشري وتطمئن به قلوبكم قال: يعني نزول   
الملائكة عليهم السلام . (قال): وذكر لنا أن عمر رضي الله عنه قال: أما يوم بدر فلا   
نشك أن الملائكة عليهم السلام كانوا معنا، وأما بعد ذلك فالله أعلم . وعن ابن زيد: "   
مردفين " قال: بعضهم على أثر بعض، وعن مجاهد في قوله: وما جعله الله إلا بشري قال   
: إنما جعلهم الله يستبشرون بهم . هذا جملة ما جمعه في الدر المنثور من المأثور في الآيتين   
 . وظاهر نص القرآن أن إنزال الملائكة، وإمداد المسلمين بهم فائدة معنوية كما تقدم،   
 وأنهم لم يكونوا محاربين . وهنالك روايات أخرى في أنهم قاتلوا، وسيأتي بحثها . وما



قَالَ الشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ مِنَ الْعَدَدِ لَا يُقْبَلُ إِلَّا بِنَصِّ مِنَ الشَّارِعِ قَطْعِيَّ الرَّوَايَةِ وَالِدَّلَالَةِ لِأَنَّهُ خَبَرٌ  
عَنِ الْغَيْبِ .

(71/307)

وَقَدْ خَلَطَتْ بَعْضُ الرَّوَايَاتِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُرْدِفِينَ الَّذِينَ أَيْدِ اللَّهِ بِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ  
، وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُنْزِلِينَ وَالْمُسَوِّمِينَ الَّذِينَ ذَكَرَ خَبَرُهُمْ فِي سِيَاقِ غَزْوَةِ أَحَدٍ مِنْ سُورَةِ آلِ  
عِمْرَانَ ، وَقَدْ حَقَّقْنَا هَذَا الْمُبْحَثَ فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الْآيَاتِ فِيهَا ، وَاعْتَمَدْنَا فِي جُلِّهِ عَلَى  
تَحْقِيقِ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَذَكَرْنَا فِيهِ مَا جَاءَ هُنَا ، وَجَمَلْتُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَدَّ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ بَدْرٍ  
بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ قُوَّةً مَعْنَوِيَّةً لَهُمْ ، وَأَمَّا يَوْمَ أَحَدٍ فَقَدْ حَدَّثَهُمُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ بِالْإِمْدَادِ وَوَعَدَهُمْ بِهِ وَعَدًّا مُعَلَّقًا عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى ، وَلَكِنْ انْتَفَى الشَّرْطُ فَانْتَفَى  
الْمَشْرُوطُ . وَيُرَاجَعُ تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي [ص 90 - 97 ج 4 ط الْهَيْئَةِ] . فَإِنَّهُ مُفِيدٌ فِي  
تَحْقِيقِ مَا هُنَا ، وَلِذَلِكَ لَمْ نَطْلِ الْكَلَامَ فِيهِ .

(72/307)

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ هَذِهِ مِثَّةٌ أُخْرَى مِنْ مِثْنِهِ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، الَّتِي كَانَتْ مِنْ  
أَسْبَابِ ظُهُورِهِمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَهِيَ الْقَاوَةُ تَعَالَى النَّعَاسَ عَلَيْهِمْ حَتَّى غَشِيَهُمْ - أَيْ  
غَلَبَ عَلَيْهِمْ فَكَانَ كَالْغَاشِيَةِ تَسْتُرُ الشَّيْءَ وَتُغَطِّيهِ - تَأْمِينًا لَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ الَّذِي كَانَ  
يُسَاوِرُهُمْ مِنَ الْفَرْقِ الْعَظِيمِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ فِي الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . رَوَى أَبُو  
يَعْلَى وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قَالَ : " مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ  
الْمِقْدَادِ ، وَقَدْ رَأَيْتَنَا وَمَا فِينَا نَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي تَحْتَ شَجَرَةٍ  
حَتَّى أَصْبَحَ " وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ النَّعَاسُ لَا يَشْعُرُ بِالْخَوْفِ ، كَمَا أَنَّ الْخَائِفَ لَا يَنَامُ ،  
وَلَكِنْ قَدْ يَنَعَسُ ، وَالنَّعَاسُ قُتُورٌ فِي الْحَوَاسِ وَأَعْصَابِ الرَّأْسِ يَعْتَبُهُ النَّوْمُ ، فَهُوَ يُضْعِفُ  
الْإِدْرَاكَ وَلَا يَزِيلُهُ كُلَّهُ فَمَتَى زَالَ كَانَ نَوْمًا ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ أَوَّلُ النَّوْمِ . وَفِي الْمِصْبَاحِ  
: وَأَوَّلُ النَّوْمِ النَّعَاسُ وَهُوَ أَنْ يَحْتَاجَ الْإِنْسَانُ إِلَى النَّوْمِ ، ثُمَّ الْوَسْنُ وَهُوَ ثِقَلُ النَّعَاسِ ، ثُمَّ  
الْتَرْتِيقُ وَهُوَ مَخَالَطَةُ النَّعَاسِ لِلْعَيْنِ ، ثُمَّ الْكُرَى وَالْغُمُضُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ بَيْنَ النَّائِمِ  
وَالْيَقْظَانِ ، ثُمَّ الْعَفْقُ وَهُوَ النَّوْمُ ، وَأَنْتَ تَسْمَعُ كَلَامَ الْقَوْمِ ، ثُمَّ الْهَجُودُ وَالْهَجُوعُ أَه . وَهُوَ يُفِيدُ  
أَنَّ الْوَسْنَ

(73/307)

والترييق درجتان من درجات النعاس ، وأن الكرى مرتبة فاصلة بين النعاس والنوم ، وفي المصباح أيضا أن النعاس اسم مصدر لنعس من باب قتل ، والجمهور على أنه من باب فتح فهو من البابين ، وضعوا اسمه بوزن فعال بالضم ، كأنهم عدوه من الأمراض كالسعال والفواق والكباد .

وقال علي رضي الله عنه : إني نائم يومئذ ، وظاهر عبارته أنهم نائموا في الليل ، والمبتدأ أن نعاسهم كان في أثناء القتال ، وقد ذكرنا الخلاف في ذلك ، وتحقيق الحق فيه في تفسير قوله تعالى : ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة (3) : (154) وهو في سياق غزوة أحد . وقلت هنالك : قد تقدم في ملخص القصة ذكر هذا النعاس ، وأنه كان في أثناء القتال ، وإنما كان مانعا من الخوف لأنه ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر ، ولكن روي أن السيوف كانت تسقط من أيديهم . واختار الأستاذ الإمام أنه كان بعد القتال الخ ، فيحسن مراجعته ففيه الكلام على النعاس يوم بدر أيضا وهو في [ص 152 ، 153 ج 4 تفسير طه الهيئة] .

(74/307)

وَقَرَأَ الْأَكْثَرُونَ (يُغَشِيكُمْ) بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّغْشِيَةِ وَهُوَ إِمَّا لِلتَّدرِيجِ ، وَإِمَّا لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّغْطِيَةِ ، وَقَرَأَهُ نَافِعٌ بِالتَّخْفِيفِ مِنَ الْإِعْشَاءِ ، وَقَرَأَهُ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو (يُغْشَاكُمْ) مِنَ الثَّلَاثِيِّ وَرَفَعَ النُّعَاسَ عَلَى أَنَّهُ فَاعِلٌ ، وَهَذَا لَا يُخَالِفُ الْقِرَاءَتَيْنِ قَبْلَهُ ، بَلْ هُوَ كَالْمَطَاوِعِ لِهَمَّا ، وَمَعْنَى الثَّلَاثَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ النُّعَاسَ يَغْشَاكُمْ فَيُغْشِيكُمْ ، وَأَمَّا صِبْغُ الْفِعْلِ وَدَلَالَةُ قِرَاءَةِ التَّشْدِيدِ عَلَى التَّدرِيجِ أَوْ الْمُبَالَغَةِ دُونَ قِرَاءَةِ التَّخْفِيفِ فَيُحْمَلُ اخْتِلَافُهُمَا عَلَى اخْتِلَافِ حَالِ مَنْ غَشِيَهُمُ النُّعَاسُ ، فَهُوَ لَا يَكُونُ عَادَةً إِلَّا بِالتَّدرِيجِ ، وَيَكُونُ أَشَدَّ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ مِنْ بَعْضٍ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا بَحْثَ صِبْغَةِ (ع . ش . ي) فِي اللُّغَةِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

(75/307)

وَيُنزَلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ وَهَذِهِ مَنَّةٌ ثَالِثَةٌ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَانَ لَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي انْتِصَارِهِمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، رَوَى ابْنُ الْمُنْذِرِ وَأَبُو الشَّيْخِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ غَلَبُوا الْمُسْلِمِينَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ عَلَى الْمَاءِ فَظَمِيَ الْمُسْلِمُونَ وَصَلُّوا مُجْنِبِينَ مُحَدِّثِينَ ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ رِمَالٌ فَالْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمُ الْحُزْنَ ، وَقَالَ : أَتَزْعُمُونَ أَنَّ فِيكُمْ نَبِيًّا ، وَأَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَتُصَلُّونَ مُجْنِبِينَ مُحَدِّثِينَ ؟ فَانزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءٌ فَسَالَ عَلَيْهِمُ الْوَادِي مَاءً فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ وَتَطَهَّرُوا وَثَبَّتْ أقدامُهُمْ (أَيُّ عَلَى الدَّهَاسِ  
أَوْ الرَّمْلِ اللَّيِّنِ لَتَلْبُدِهِ بِالْمَطَرِ) وَذَهَبَتْ وَسُوسَتُهُ . هَذَا اثْبَتُ وَأَوْضَحُ وَأَبْسَطُ مَا وَرَدَ فِي  
الْمَأْثُورِ عَنْ هَذَا الْمَطَرِ فِي بَدْرِ ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ النَّعَاسِ خِلَافًا لِظَاهِرِ التَّرْتِيبِ  
فِي آيَةِ ، وَالْأَوَّلَا تُوَجِّهُ .

(76/307)

وَلَوْلَا هَذَا الْمَطَرُ لَمَا أَمَكَّنَ الْمُسْلِمِينَ الْقِتَالَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا رِجَالَةً لَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا فَارِسٌ وَاحِدٌ هُوَ  
الْمِقْدَادُ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَكَانَتْ الْأَرْضُ دَهَاسًا تَسِيخُ فِيهَا الْأَقْدَامُ أَوْلَا نَثَبَتْ عَلَيْهَا . قَالَ  
الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيْمِ فِي الْهَدْيِ النَّبَوِيِّ : وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَطَرًا وَاحِدًا فَكَانَ  
عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَابِلًا شَدِيدًا مَنَعَهُمْ مِنَ التَّقَدُّمِ ، وَكَانَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَلًّا طَهَّرَهُمْ بِهِ ،  
وَأَذْهَبَ عَنْهُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ ، وَوَطَّأَ بِهِ الْأَرْضَ وَصَلَّبَ الرَّمْلَ ، وَثَبَّتْ الْأَقْدَامَ ، وَمَهَّدَ بِهِ  
الْمَنْزِلَ ، وَرَبَطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَسَبَقَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْمَاءِ فَنَزَلُوا عَلَيْهِ شَطْرَ اللَّيْلِ  
وَصَنَعُوا الْحِيَاضَ ، ثُمَّ غَوَّروا مَا عَدَاهَا مِنَ الْمِيَاهِ ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
وَأَصْحَابُهُ عَلَى الْحِيَاضِ ، وَنَبِيٌّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرِيشٌ يَكُونُ فِيهَا عَلَى  
تَلِّ مُشْرِفٍ عَلَى الْمَعْرَكَةِ ، وَمَشَى فِي مَوْضِعِ الْمَعَارِكَةِ ، وَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ " هَذَا مَصْرَعٌ

فَلَانٍ ، وَهَذَا مَصْرَعُ فَلَانٍ ، وَهَذَا مَصْرَعُ فَلَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى " فَمَا تَعَدَّى أَحَدٌ مِنْهُمْ  
مَوْضِعَ إِشَارَتِهِ اهـ .

(77/307)

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ هِشَامٍ مَسْأَلَةَ الْمَطَرِ بِنَحْوِ مَا قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ ، ثُمَّ قَالَ : قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ :  
فَحَدَّثْتُ عَنْ رِجَالٍ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا أَنَّ الْحُبَابَ بْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَمُوحِ قَالَ : يَا  
رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ أَمْنَزَلًا أَنْزَلَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ تَقْدَمَهُ ، وَلَا أَنْ تَأَخَّرَ عَنْهُ ؟ أَمْ  
هُوَ الرَّأْيِيُّ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ قَالَ : " بَلْ هُوَ الْحَرْبُ وَالرَّأْيِيُّ وَالْمَكِيدَةُ " قَالَ : يَا رَسُولَ  
اللَّهِ فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ فَانْهَضُ بِالنَّاسِ حَتَّى تَأْتِي أَدْنَى مَاءٍ مِنَ الْقَوْمِ فَتَنْزِلُهُ ثُمَّ نَغُورُ مَا وَرَاءَهُ  
مِنَ الْقَلْبِ - بَضْمَتَيْنِ جَمْعُ قَلِيبٍ ، وَهِيَ الْبِرُّ غَيْرُ الْمَطْوِيَّةِ أَيُّ غَيْرِ الْمَنِينَةِ بِالْحِجَارَةِ - ثُمَّ  
نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلُوهُ مَاءً ثُمَّ نَقَاتِلُ الْقَوْمَ فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَقَدْ أَشْرَتَ بِالرَّأْيِيِّ " وَذَكَرَ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ .

(78/307)

ذَكَرَ تَعَالَى لِدَلِكِ الْمَطَرِ أَرْبَعُ مَنَافِعَ: (الأولى) تَطْهِيرُهُمْ بِهِ، أَيُّ تَطْهِيراً حَسِيّاً بِالنَّظَافَةِ الَّتِي تَشْرَحُ الصَّدْرَ وَتُنَشِّطُ الْأَعْضَاءَ فِي كُلِّ عَمَلٍ، وَشَرْعِيّاً بِالْغُسْلِ مِنَ الْجَنَابَةِ وَالْوُضُوءِ مِنْ الْحَدَثِ الْأَصْغَرِ. (الثانية) إِذْ هَابَ رَجْزُ الشَّيْطَانِ عَنْهُمْ. وَالرَّجْزُ وَالرَّجْسُ وَالرُّكْسُ كُلُّهَا بِمَعْنَى الشَّيْءِ الْمُسْتَقْدَرِ حَسّاً أَوْ مَعْنَى. وَالْمُرَادُ هُنَا وَسُوسَتُهُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْمَأْثُورِ. (الثالثة) الرِّبْطُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَيُعْبَرُ بِهِ عَنْ تَثْبِيثِهَا وَتَوْطِينِهَا عَلَى الصَّبْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا (28: 10) وَتَأْتِي الْمَطَرُ فِي الْقُلُوبِ تَفْسِيرُهُ الْمَنْفَعَةُ. (الرابعة) وَهُوَ تَثْبِيثُ الْأَقْدَامِ بِهِ، فَإِنْ مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُقَاتِلُ فِي أَرْضٍ تَسُوخُ فِيهَا قَدَمُهُ كَمَا تَحْرُكُ وَهُوَ قَدْ يُقَاتِلُ فَارِسًا لَا رَاجِلًا لَا يَكُونُ إِلَّا وَجِلًا مُضْطَرَبَ الْقَلْبِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير المنار ح 9 ص 497. 509 ﴾

(79/307)

وقال ابن عاشور:

﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾

لقد أبدع نظم الآيات في التنقل من قصة إلى أخرى من دلائل عناية الله تعالى برسوله صلى

الله عليه وسلم وبالمؤمنين ، فقرنَها ، في قرنَ زمانها ، وجعل ينتقل من إحداها إلى الأخرى بواسطة إذ الزمانية ، وهذا من أبداع التلخص ، وهو من مبتكرات القرآن فيما أحسب .  
ولذلك فالوجه أن يكون هذا الظرف مفعولاً فيه لقوله : ﴿ وما النصر ﴾ [ الأنفال : 10 ]  
فإن إغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر ، فلا جرم أن يكون وقت حصوله طرفاً للنصر .

والغشي والغشيان كون الشيء غاشياً أي غاماً ومغطياً ، فالنوم يغطي العقل .  
والنعاسُ النوم غير الثقيل ، وهو مثل السنّة .

وقرأ نافع ، وأبو جعفرُ : ﴿ يُغشِيكُمْ ﴾ ، بضم التحتية وسكون الغين وتخفيف الشين  
بعدها ياء مضارع إغشاه ونصب ﴿ النعاس ﴾ والتقدير : إذ يغشيكُم الله النعاس ،  
والنعاس مفعول ثاني ليغشي بسبب تعدية الهمزة وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو : بفتح التحتية  
وفتح الشين بعدها ألف ، ورفع النعاس ، على أن يغشاكم مضارع غشي والنعاس فاعل ،  
وقراه الباقون : بضم التحتية وفتح الغين وتشديد الشين ونصب النعاس ، على أنه مضارع  
غشاه المضاعف والنعاس مفعول ثان .

فإسناد الإغشاء أو التغشية إلى الله لأنه الذي قدر أن يناموا في وقت لا ينام في مثله الخائف ،  
ولا يكون عاماً سائر الجيش ، فهو نوم منحهم الله إياه لفائدتهم .

وإسناد الغشي إلى النعاس حقيقة على المعارف وقد علم أنه من تقدير الله بقوله ﴿ أمنة



منه ❁ .

و(الأمنة) الأمن ، وتقدم في آل عمران ، وهو منصوب على المفعول لأجله على قراءة من نصب (النعاس) ، وعلى الحال على قراءة من رفع (النعاس) .

(80/307)

---

وإنما كان (النعاس) أمناً لهم لأنهم لما ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدة النوم فتلك نعمة ، ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً ، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب .

وصيغة المضارع في ❁ يُغشِيكُمْ ❁ لاستحضار الحالة .

و(من) في قوله : ❁ منه ❁ للابتداء المجازي ، وهو وصف ل (أمنة) لإفادة تشريف ذلك النعاس وأنه وارد من جانب القدس ، فهو لطف وسكينة ورحمة ربانية ، ويتأكد به إسناد الإغشاء إلى الله ، على قراءة من نصبوا (النعاس) ، تنبيهاً على أنه إسناد مخصوص ، وليس الإسناد الذي يعم المقدورات كلها ، وعلى قراءة من رفعوا (النعاس) يكون وصف الأمنة بأنها منه سارياً إلى الغشي فيعلم أنه غشي خاص قدسي ، وليس مثل سائر غشيان النعاس فهو خارق للعادة كان كرامة لهم وقد حصل ذلك للمسلمين يوم بدر كما هو

صريح هذه الآية وحصل النعاس يوم أُحُد لطائفة من الجيش قال تعالى : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾ وتقدم في سورة آل عمران ( 154 ) ، وفي صحيح البخاري عن أبي طلحة قال : "كنتُ فيمن تغشاه النعاس يوم أُحُد حتى سقط سيفي من يدي مراراً"

(81/307)

---

وذكر الله منة أخرى جاءت في وقت الحاجة : وهي أنه أنزل عليهم المطر يوم بدر ، فإسناد هذا الإنزال إلى الله تعالى للتنبية على أنه أكرمهم به وذلك لكونه نزل في وقت احتياجهم إلى الماء ، ولعله كان في غير الوقت المعتاد فيه نزول الأمطار في أفقهم ، قال أهل السير : كان المسلمون حين اقتربوا من بدر راموا أن يسبقوا جيش المشركين إلى ماء بدر ، وكان طريقهم دهباً أي رملاً ليناً ، تسوخ فيه الأرجل فشق عليهم إسراع السير إلى الماء وكانت أرض طريق المشركين ملبدة ، فلما أنزل الله المطر تلبدت الأرض فصار السير أمكن لهم ، واستوحلت الأرض للمشركين فصار السير فيها متعباً ، فأمكن للمسلمين السبق إلى الماء من بدر ونزلوا عليه وادخروا ماء كثيراً من ماء المطر ، وتطهروا وشربوا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ .

و(الرجز) القَدْر ، والمراد الوسخ الحِسي وهو النجس ، والمعنوي المعبر عنه في كتب الفقه بالحدّث .

والمراد الجنابة ، وذلك هو الذي يعم الجيش كله فلذلك قال : ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ ، وإضافته إلى الشيطان لأن غالب الجيش لما ناموا احتلموا فأصبحوا على جنابة وذلك قد يكون خواطر الشيطان يخيلها للنائم ليفسد عليه طهارته بدون اختيار طمعاً في ثقاقه عن الاغتسال حتى يخرج وقت صلاة الصبح ، ولأن فقدان الماء يلجئهم إلى البقاء في تنجس الثياب والأجساد والنجاسة تلائم طبع الشيطان .

وتقدير الجرور في قوله : ﴿ عنكم رجز الشيطان ﴾ للرعاية على الفاصلة ، لأنها بنيت على مد وحرف بعده في هذه الآيات والتي بعدها مع ما فيه من الاهتمام بهم .

وقوله : ﴿ وليرط على قلوبكم ﴾ أي يؤمنكم بكونكم واثقين بوجود الماء لا تخافون عطشاً وتثبيت الأقدام هو التمكّن من السير في الرمل ، بأن لا تسوخ في ذلك الدهس الأرجل ، لأن هذا المعنى هو المناسب حصوله بالمطر .

(82/307)

---

و(الربط) حقيقته شد الوثاق على الشيء وهو مجاز في التثبيت وإزالة الاضطراب ومنه قولهم: فلان رابط الجأش وله رباطة جأش.

﴿على﴾ مستعارة لتمكن الربط فهي ترشيح للمجاز. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير ح 9 ص﴾

(83/307)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿إذ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾

والنعاس عبارة عن السنّة الأولى التي تأخذ الإنسان عندما يجب أن ينام، ويسمى العامة في مصر "تعسيلة" ويقولون: "فلان معسل" أي أخذته سنّة النوم، وهي ليست نوماً بل فتور في الأعصاب يعقبه النوم، وهذا من آيات الله تعالى في أن يهب الإنسان راحة مؤقتة وليست نوماً. وسبحانه يقول عن ذاته العليا: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255].

أي أنه - جل وعلا - لا يأخذه النوم الخفيف ولا النوم الثقيل. لأن السنّة هي إلحاح من الجسم في طلب النوم، ويكون نوماً خفيفاً، وسبحانه وتعالى ليس كمثل شيء فهو عز

وجل لا يتجسد أو يتمثل في شيء ، لا السنّة تأخذه ولا النوم يقاربه ، ونلاحظ أن الإنسان إذا ما تكلم بجانب من تأخذ السنّة فهو يصحو وينتبه . أما النائم بعمق فقد لا يصحو . فالسنّة - إذن - هي الداعي الخفيف للراحة . أما النوم فهو الداعي الثقيل . وهنا أنزل الله عليهم النعاس بمثابة مقدمة للنوم ليستريحوا قليلاً . ونعلم أن النوم آية من آيات الله عز وجل في كونه ؛ لأن الجسم حين يعبر عن نفسه بالحركة والطاقة ويأكل الغذاء ويشرب الماء ويتنفس الهواء ، كل ذلك يتحول إلى طاقة ثم إلى وقود للحركة .

وهذه الطاقة تتكون بالتفاعل بين العناصر المختلفة ، من تمثيل للغذاء وتحويل الطعام إلى نوعيات مختلفة لتغذية كل خلية من خلايا الجسم بما يناسبها ، ثم استخلاص " الأوكسجين " عبر التنفس وطرده ثاني أكسيد الكربون ، وعشرات الآلاف من التفاعلات الكيميائية لا توجد بها فضلات لتخرج ، وهي تختلف عن التفاعلات الأخرى التي تخرج منها الفضلات من أحد السبيلين ، أو من صماخ الأذن أو غير ذلك .

(84/307)

---

ومثل هذه الفضلات إنما تنتج من الاحتراقات التي تقول عنها : " العادم " في الآلات الميكانيكية . والعادم هو نتيجة الاحتراق وهي غازات تنفصل لتسير الحركة . وفي

الإنسان نجد العادم يتمثل في الغائط ، وما خرج من صماخ الأذن ، و "عماص العين" ،  
والعرة ، كلها عوادم . لكن هناك لون من تركيبة هذه التفاعلات يُمثل لإيجاد الطاقة وليس له  
عادم .

والوسيلة الأساسية لاستعادة التوازن الكيميائي المناسب للإنسان هي أن نريح الجسم ،  
وتتفاعل مواد الجسم مع نفسها ويعود طبيعياً . وهذا لا يحدث إلا بالنوم . ولذلك نجد  
الإنسان حين يسهر كثيراً ويذهب إلى النوم يشعر برجليه وقد " خدلت " أو كما يقال : "  
نملت " . وهذا نتيجة عجز مواد الجسم عن التفاعل الذي تحتاجه نتيجة اليقظة ، وهذه  
كلها مسائل لا إرادية . بدليل أن الإنسان يرغب أحياناً في أن ينام ، ويتحایل أحياناً على  
النوم فلا يأتيه ؛ لأن النوم من العمليات المختصة بالحق سبحانه وتعالى ، وهو آية من آيات الله  
في هذا الكون ، ومن ضمن الآيات العجيبة .

واقرا قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [ الروم : 23 ] .

(85/307)

---

وحين حاول العلماء الباحثون أن يفسروا ظاهرة النوم ، وضعوا عشرات النظريات ، وآخر التجارب التي أجريت أنهم أحضروا إنساناً وعلقوه كالرافعة من وسطه ، وكأنه عصا مرفوعة من وسطها بتوازن ، وجعلوا كل نصف من النصفين متساوياً في الوزن ، وحين جاء النوم لهذا الإنسان محل التجربة وجدوا أن جهة من النصفين مالت ، وكان ثقلاً ما جاءها من النصف الآخر فزادت كتلتها ، وهذا آخر ما درسوه في النوم ، هذه التجربة أثبتت أن النوم عجيبة من العجائب التي تستحق أن يقول الحق تبارك وتعالى عنها : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [ الروم : 23 ] .

وانظر إلى كلمة " النهار " هذه ترفيها الرصيد الاحتياطي الموجود في آية النوم ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ .

وفي هذا القول رصيد احتياطي لمن جاء له ظرف من الظروف ولم ينم بالليل ، فيعوض هذا الأمر وينام بالنهار ، ومن حكمة الله تعالى أنه ذيل هذه الآية بقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

وهذا بسبب أن النوم يعطل كل طاقات الجسم ، فعندما ينام الإنسان لا يقدر جسمه على أن يتحرك التحرك الإداري ، إلا السمع فهو باق في وظيفته ؛ لأن به الاستدعاء ، وإن العين - مثلاً - لا ترى أثناء النوم ، إنما الأذن تسمع ولا تتخلى عن السماع أبداً ؛ لأن بالأذن يكون

الاستدعاء ، فإذا ما نادى الأب ابنه وهو نائم فهو يسمع النداء . لذلك قلنا سابقاً : إنَّ الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن ينيم أهل الكهف ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعاً ، قال تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [ الكهف : 11 ] .

(86/307)

---

لأنه لو لم يضرب على آذان أهل الكهف لظل السمع باقياً ، فإذا ظل السمع ، أهاجته الأعاصير ، وعواء الذئاب ، وزئير الأسود ، ولما استطاعوا النوم طيلة هذه المدة .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِّنْهُ ﴾ [ الأنفال : 11 ] .

وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال هو :

وهل هناك نعاس غير أمانة ؟ والجواب نعم ؛ لأنه مجرد الراحة من تعب لتنشط بعدها ، هذا

لنفهم أن " أمانة " جاءت لمهمة هي تهدئة أعماق المؤمنين في المهيجات المحيطة ، فهذا عدو

كثير العدد ، وهو بلا عتاد ؛ لذلك شاء الحق تبارك وتعالى ألا يضيع منهم الطاقة اللازمة

للمواجهة ، ولا تنبدد هذه الطاقة في الفكر ؛ لذلك جعل نعاسهم مخصوصاً يغلبهم وهو "

نعاس أمانة " ، وجعل المولى عز وجل من هذا النعاس آية ، حيث جاءهم كلهم جميعاً ،



وهذه بمفردها آية من آياته سبحانه وتعالى ولو غلبهم النوم العميق لمال عليهم الأعداء ميلةً واحدة، ولكنهم أخذوا شيئاً من الراحة التي فيها شيء من اليقظة .

﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً ﴾ .

وهنا النعاس مفعول به ، وهو أمانة من الله ، وسبحانه يقول في آية أخرى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ

عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاساً ﴾ [آل عمران : 154] .

هنا في آية الأنفال نعاس وأمانة ، وهناك في آية آل عمران أمانة ونعاس ؛ لأن الحالتين مختلفتان

- فتوضح آية آل عمران أن التعاس قد غشى طائفة واحدة من المقاتلين في غزوة أحد بعد

أن أصابهم الغم في هذه الغزوة ، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون الملتقون حول رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، أما في سورة الأنفال فتبين الآية أن النعاس قد غشى الجيش كله

حيث كان الجميع على قلب رجل واحد والإيمان يملأ قلوبهم جميعاً ولا يوجد بينهم منافق

أو مرتاب فغشيتهم جميعاً هذه الأمانة بالنعاس ؛ لأنه يزيل الخوف ، ومن دلائل الأمن

والطمأنينة والثقة بنصر الله .

ويقول الحق تبارك وتعالى متابعاً في ذات الآية:

﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ ﴾ [الأنفال:

11].

ومعنى التطهير أن هناك حادثاً يستحق التطهر منه وهم لم يجدوا ماءً ليتطهروا به حيث كان المشركون قد غلبوا المسلمين على الماء في أول الأمر، فظمى المسلمون وانشغلوا بالعطش، وبالرغبة في تطهير أجسامهم، وهذا يدل على أن المؤمن يجب أن يظل نظيفاً، رغم الوجود في المعركة التي لو استمر فيها الواحد منهم يوماً أو اثنين دون استحمام، لما لامه أحد على ذلك، وجاء هذا القول ليدل على حرص المؤمن على النظافة إن خرج شيء من الإفرازات والعرق، أو كان التطهر من رجز الشيطان؛ لأن الشيطان خيل لهم منامات جنسية، وأخذ يوسوس قائلهم: أنتم تقولون إنكم على حق، فكيف تصلون وأنتم جنب؟ وكان مجرد حدوث هذا الأمر لهم جميعاً هو آية أخرى من الآيات. فأغاظ الله الشيطان وأنزل عليهم الماء ليشربوا ويتطهروا.

ويقول المولى سبحانه وتعالى في ذات الآية: ﴿ وَلَيُرَبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾

(88/307)

وأراد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن المؤمنين فلا تتوزع أو تشتت مشاعرهم ، وما أن نزل المطر حتى حفروا الحفر ليتجمع فيها الماء ، وهكذا حماهم سبحانه وتعالى من نقص الماء ، كما أن نزول المطر على الأرض الرملية نعمة كبرى - من جهة أخرى - حيث يثبت الرمال على الأرض فلا تثير غباراً ، ونعلم أن الإنسان حين يسير على الأرض ، فإن ثقله يدك ما تحته مما يحتمل الدك على قدر وزنه ، فالطفل الصغير حينما يمشي على الرمال ، فأثر سيره يكون بسيطاً ، عكس الرجل الضخم ، وإن قسّمها بالنسبة لوزن الصبي أو الغلام ، ووزن الرجل الممتلئ ، تجد أن الأرض قد غاصت بنسبة الكتلة التي سارت عليها ، وحين يسير الناس دون عمل ولا يقصدون غير السير ، يكون الثقل خفيفاً ، أما حين يدخل الرجال الحرب فالأقدام قد تغوص في الرمال وقد يصير جزءاً من جسد المقاتل معطلاً عن الحركة ؛ لأن القدم هي التي تحقق التوازن .

إن هذه من حكمة الله تعالى ، ونحن نرى ذلك في حياتنا ، فنجد أهل الريف يضعون فوق جداول الماء جزع نخلة أو " عرقاً " من الخشب ليسير عليه الإنسان بين الشطين ، وإن فكر السائر في هذه المسألة قد يقع في الماء ، لكنه إن ترك رجليه للسير تلقائياً ، فهو يمشي محققاً التوازن ، ومثل الأمر يحدث في صناعة سلام البيوت ، إننا نجد لها متساوية في ارتفاع درجاتها ليصعد الإنسان صعوداً رتيباً من غير تفكير ، فإذا اختلفت درجة واحدة في

السلم بأن كارتفاعها مختلفا عن بقية الدرجات يخل التوازن ويقع الإنسان؛ لأن الساق ضبطت نفسها آليا على هذا الوضع .

(89/307)

ولذلك نجد الصعود على السلم الحلزونية متعباً لأن السلم الحلزونية فيها جهة واسعة وأخرى ضيقة . وقد يرتبك الإنسان أثناء الصعود ، ولهذا الأسباب نجد الجيوش تكشف طبيياً على المجندين ، ولا يختارون إلا الشخص المستوي القدمين لتستقبل أقدامه كل الظروف ويكون قادراً على مواجهة الظروف غير العادية ، ومن عظمة الخالق سبحانه وتعالى أن جعل كل عضو من الأعضاء له مواصفات خاصة .

وسبحانه يذيل هذه الآية بقوله عز وجل : ﴿ وَثَبَّتْ بِهٖ الْأَقْدَامَ ﴾  
وثبتت الأقدام من جهة يمثل أمراً معنوياً ، ومن جهة أخرى يكون تثبيت الأقدام " بمعنى أن نزول المطر جعل الأرض ثابتة " ولا تثير الغبار أو الرمال ، وسبحانه هو القائل في مناسبة أخرى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ \* وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [ آل عمران : 146 -

وهكذا نفهم أن تثبيت الأقدام له ألوان متعددة ، حسية ومعنوية . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(90/307)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11) ﴾

أخرج أبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن علي رضي الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأينا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت الشجرة حتى أصبح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب رضي الله عنه في قوله ﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ ﴾ قال : بلغنا أن هذه الآية أنزلت في المؤمنين يوم بدر ، فيما أغشاهم الله من النعاس أمانة

منه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أمانة ﴾ قال : أمانة من الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : النعاس في الرأس ، والنوم في القلب .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : كان النعاس أمانة من الله ، وكان

النعاس نعاسين . نعاس يوم بدر ، ونعاس يوم أحد .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن

سعيد بن المسيب رضي الله عنه في قوله ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾

قال : طس كان يوم بدر .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد

رضي الله عنه في قوله ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ قال : المطر : أنزله

عليهم قبل النعاس فاطفاً بالمطر الغبار ، والتبتت به الأرض ، وطابت به أنفسهم ، وثبتت

به أقدامهم .

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : بعث الله السماء

وكان الوادي دهساً ، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ما لبد

الأرض ولم يمنعهم المسير ، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريح عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن  
المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء ، فظمى المسلمون وصلوا مجننين محدثين  
فكانت بينهم رمال ، فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال : أتزعمون أن فيكم نبياً وإنكم  
أولياء الله وتصلون مجننين محدثين ؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماء ،  
فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم وذهبت وسوسته .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله  
﴿ رجز الشيطان ﴾ قال : وسوسته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وليرط على قلوبكم ﴾ قال : بالصبر ﴿ ويثبت  
به الأقدام ﴾ قال : كان بطن الوادي دهاس ، فلما مطر اشتد الرملة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾  
قال : حتى يشتد على الرمل ، وهو وجه الأرض .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يصلي تلك الليلة ليلة بدر ، ويقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا  
تُعبد ، وأصابهم تلك الليلة مطر شديد ، فذلك قوله ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: "إِذْ يُغَشِّيكُمْ"

في "إذ" وجوه:

أحدها: أنه بدلٌ من "إذ" في قوله: "وَإِذْ يَعِدُكُمُ" قال الزمخشريُّ: "إِذْ يُغَشِّيكُمْ" بدلٌ ثانٍ من "إِذْ يَعِدُكُمُ".

قوله: "ثانس"؛ لأنه أبدل منه "إذ" في قوله: "إِذْ تُسْتَغِيثُونَ" ووافقه على هذا ابن عطية، وأبو البقاء.

الثاني: أنه منصوبٌ بـ "النصر".

الثالث: بما في عند الله من معنى الفعل.

الرابع: بـ "ما جعله الله".

الخامس: بإضمار "أذكر" ذكر ذلك الزمخشريُّ.

وقد سبقه إلى الرابع: الحوفيُّ.



وقد ضعّف أبو حيان الوجه الثاني بثلاثة أوجه :

أحدها : أن فيه إعمال المصدر المقرون بـ "أل" قال : وفيه خلاف : ذهب الكوفيون إلى أنه لا يعمل .

الثاني : أن فيه فصلاً بين المصدر ومعموله بالخير ، وهو قوله : ﴿ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [ الأنفال : 10 ] [ آل عمران : 126 ] ولوقلت : " ضَرَبَ زَيْدٌ شَدِيدٌ عَمْرًا " لَمْ يَجْرُ .  
الثالث : أنه عمل ما قبل "إلا" فيما بعدها ، وليس أحد الثلاثة الجائز ذلك فيها ؛ لأنه لا يعمل ما قبلها فيما بعدها إلا أن يكون مستثنى ، أو مستثنى منه أو صفة له .

(93/307)

---

وقد جوّز الكسائي والأخفش : إعمال ما قبل "إلا" فيما بعدها مطلقاً ، وليس في هذه الأوجه أحسن من أنه أخبر عن الموصول قبل تمام صلته ، وضعّف الثالث بأنه يلزم منه أن يكون استقرار النصر مقيداً بهذا الظرف ، والمنصر من عند الله لا يتقيد بوقت دون وقت وهذا لا يضعف به ؛ لأن المراد بهذا النصر نصرٌ خاص ، وهذا النصر الخاص كان مقيداً بذلك الظرف .

وضعّف الرابع بطول الفصل ، ويكون معمولاً لما قبل "إلا" .

السادى: أنه منصوبُ بقوله: "ولتطمئن به" قاله الطبريُّ.  
السابع: أنه منصوبُ بما دلَّ عليه: "عزيزٌ حكيمٌ" قاله أبو البقاء ونحا إليه ابن عطية قبله.  
وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: "يغشاكمُ النعاس"، ونافع "يغشيكُم" بضمِّ الياءِ، وكسر  
الشينِ خفيفةً "النعاسُ" نصباً والباقون "يغشِكُم" كالذي قبله، إلا أنه بتشديد الشينِ.  
فالقراءة الأولى من: "غشِي يَغشَى"، و"النعاسُ" فاعل، وفي الثانية من: "أغشَى"  
وفاعله ضميرُ الباري تعالى، وكذا في الثالثة من: "غشَى" بالتشديدن و"النعاسُ" فيهما  
مفعول به.

و"أغشَى وغشَى لغتان.

قال الواحديُّ: "من قرأ "يغشاكم" فلقوله: ﴿أَمَنَةٌ نَعَسًا يَغشَى﴾ [آل عمران:  
154] فكما أنسد الفعل هناك إلى "النعاس"، و"الأمنة" التي هي سبب النعاس كذلك  
ههنا، ومن قرأ "يغشيكُم"، أو "يغشِيكُم" فالمعنى واحدٌ، وقد جاء التَّنزِيلُ بهما في قوله  
: ﴿فَأَغشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 8] وقال: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غشَى﴾ [النجم: 54].

قوله: "أمنة" في نصبها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مصدرٌ لفعلٍ مقدر، أي: فأمِنتُم أمنةً.

الثاني: أنها منصوبة على أنها واقعة موقع الحال إما من الفاعل، وإما من المفعول، فإن كان الفاعل "النعاس" فنسبة الأمانة إليه مجاز، وإن كان الباربي تعالى كما هو في القراءتين الأخيرتين فالنسبة حقيقية، وإن كان من المفعول فعلى المبالغة، أي: جعلهم نفس الأمانة، أو على حذف مضاف، أي: ذوي أمانة.

الثالث: أنه مفعول من أجله، وذلك إما أن يكون على القراءتين الأخيرتين أو على الأولى، فعلى القراءتين الأخيرتين أمرها واضح، وذلك أن التغشية، أو الإغشاء من الله تعالى، والأمانة منه أيضاً، فقد اتحد الفاعل فصَحَّ النَّصْبُ على المفعول له، وأما على القراءة الأولى ففاعل "يَغشَى" النَّعَاسُ وفاعل "الأمانة" الباربي تعالى، ومع اختلاف الفاعل يمتنع النَّصْبُ على المفعول له على المشهور، وفيه خلاف اللهم إلا أن يتجوز فيجوز. وقد أوضح ذلك الزمخشري فقال: "أمانة" مفعول له.

فإن قلت: أما وجب أن يكون فاعل الفعل المُعَلَّلِ والعلة واحداً؟ قلت: بلى، ولكن لما كان معنى: "يَغشَاكُمُ النعاسُ" تنعسون، انتصب "أمانة" على معنى أن النَّعَاسَ والأمانة لهم، والمعنى: إذ تنعسون أمانة بمعنى أمانة.

ثم قال: "فإن قلت: هل يجوز أن ينتصب على أن الأمانة للنعاس الذي هو فاعل" يَغشَاكُمُ؟ أي: يغشاكم النعاس لأمانة على أن إسناد الأمن على النعاس إسناد مجازي،

وهو لأصحاب النُّعاس على الحقيقة، أو على أنه أنامكم في وقتٍ كان من حق النعاس في ذلك الوقت المخوف أن لا يقدم على غشيانكم، وإنما غشاكم أمانةً حاصلةً له من الله لولاها لم يغشكم على طريقة التمثيل، والتخييل".

قال شهاب الدين: لا تبعد فصاحة القرآن عن مثله، وله فيه نظائرٌ، ولقد ألمَّ به بعضهم؛

فقال: [الوافر]

2676 - يَهَابُ النَّوْمُ أَنْ يَغْشَى عَيْونًا . . .

(95/307)

تَهَابُكَ فَهوَ نَفَارٌ شَرُّودُ

قوله: "منه" في محل نصب لـ "أمانة" والضمير في: "منه" يجوز أن يعود على الباري تعالى،

وأن يعود على "النعاس" بالمجاز المذكور آنفاً، وقرأ ابن محيصن، والنخعي، ويحيى بن

يعمر: "أمانة" بسكون الميم، ونظير: أمن أمانةً بالتحريك: حَيِّ حَيَاة، ونظير: أمن أمانةً

بالسُّكُون: رَحِمَ رَحْمَةً.

قوله: ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾

العامَّةُ على "ماء"، و"ليطهركم" متعلقٌ بـ: "ينزل".

وقرأ الشعبيُّ: " مَا لِيُطَهِّرَكُمُ " بألفٍ مقصورة، وفيها تخريجان، أشهرهما وهو الذي ذكره

ابن جني وغيره - " أَنْ " " مَا " بمعنى " الذي " و" لِيُطَهِّرَكُمُ " صلتها .

قال بعضهم: تقديره: الذي هو ليطهركم .

فقدّر الجار خبراً لمبتدأ محذوف، والجملة صلة لـ " مَا " وقد ردّ أبو حيان هذين التخريجين

بأنّ لامَ " كِي " لا تنفع صلةً .

والثاني: أن " ما " هو ماء بالمدّ، ولكن العرب قد حذفن همزته فقالوا: " شَرِبْتُ مَا "

بميم منونة حكاها ابن مقسم .

وهذا لا نظير له، إذ لا يجوز أن ينتهك اسمٌ معربٌ بالحذفِ حتى يبقى على حرفٍ واحدٍ،

إذا عرف هذا؛ فيجوز أن يكون قصر " ماء "، وإنما لم يُنونه إجراءً للوصل مجرى الوقف،

ثم هذه الألفُ تحتمل أن تكون عين الكلمة، وأنّ الهمزة محذوفة، وهذه الألفُ بدلٌ من الواوِ

التي في " مَوْه " في الأصل، ويجوز أن تكون المبدلة من التنوين، وأجرى الوصل مجرى الوقف

، والأوّل أولى، لأنهم يراعون في الوقف ألا يتركوا الموقوف عليه على حرفٍ واحدٍ نحو: "

مُرٍ " اسم فاعل من: أرى يري .

قوله: " وَيَذْهَبُ عَنْكُمُ "

نسق على " لِيُطَهِّرَكُمُ " وقرأ عيسى بن عمر: " وَيَذْهَبُ " بسكون الباء وهو تخفيف سَمَاءُ

أبو حيان: جَزْمًا .

والعامة على " رَجَزَ " بكسر الراءِ وبالزاي .

وقرأ ابنُ محيِصن : بضمِّ الراءِ ، وابنُ أبي عَبلَةَ بالسَّينِ ، وقد تقدَّم الكلامُ على كلِّ واحدٍ منهم .

ومعنى : رجز الشيطان ههنا : ما ينشأ عن وسوسته ، وقيل : الاحتلام ، وقيل : إن الكفار لما نزلوا على الماءِ وسوس الشيطانُ للمسلمين وخوفهم من الهلاكِ ، فلما نزل زالت تلك الوسوسة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 465 . 469 ﴾ .  
باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلَّ ذكره : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ التُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ .

غشيتهم التُّعَاسُ تلك الليلة فأزال عن ظواهرهم ونفوسهم كدَّ الأغيار والكلال ، وأنزل على قلوبهم رَوْحَ الأَمْنِ ، وأمطرت السماءُ فاغتسلوا بعد ما لزمتهم الطهارة الكبرى بسبب

الاحتلام، واشتدت الأرض بالمطر فلم ترسب الأقدام في رملها، وانتفى عن قلوبهم ما كانت الشياطين تؤسوس به إليهم أنه سيصيبهم العناء بسلوك رملها وبالانتفاء عن الغسل، فلماً ( . . . ) الإحساس، واستمكن منهم النعاس، وتداركتهم الكفاية والنصرة استيقنوا بأن الإعانة من قبل الله لا بسكونهم وحركتهم، وأشهدهم صرف التأيد وإتمام الكفاية. وكما طهر ظواهرهم بماء المساء طهر سرايرهم بماء التحقيق عن شهود كل غير وكل علة، وصان أسرارهم عن الإصغاء إلى الوسوس، وربط على قلوبهم بشهودهم جريان التقدير على حسب ما يجري الحق من فنون التصريف.

قوله جل ذكره: ﴿ وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ .

أقدام الظاهر في مشاهد القتال، وأقدام السرائر على نهج الاستقامة بشهود مجاري

التقدير. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 606.607 ﴾

(97/307)

---

قوله تعالى ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ

الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر حكمة الإمداد وما تبعه من الآثار المثبتة للقلوب والأقدام ، ذكر ما أمر به المدد من التثبيت بالقول والفعل فقال : ﴿ إذ ﴾ بدلاً ثالثاً من ﴿ إذ يعدكم ﴾ أو ظرفاً ليثبت ﴿ يوحى ربك ﴾ أي المحسن إليك بجميع ذلك ﴿ إلى الملائكة ﴾ وبين أن النصر منه لا من المدد بقوله : ﴿ أني معكم ﴾ أي ومن كنت معه كان ظافراً بجميع مأموله ﴿ فثبتوا ﴾ أي بسبب ذلك ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي بأنواع التثبيت من تكثير سوادهم وتقوية قلوبهم وقاتل أعدائهم وتقليلهم في أعينهم وتحقير شأنهم ؛ ثم بين المعية بقوله : ﴿ سألقي ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ في قلوب الذين كفروا ﴾ أي أوجدوا الكفر ﴿ الرعب ﴾ فلا يكون لهم ثبات ﴿ فاضربوا ﴾ أي أيها المؤمنون من الملائكة والبشر غير هائنين بسبب ذلك .  
ولما كان ضرب العنق والراس أوحى مهلك للإنسان ، وكان العنق يستتر في الحرب غالباً ، عبر بقوله : ﴿ فوق الأعناق ﴾ أي الرؤوس أو أعالي الأعناق منهم لأنها مفاصل ومذابح .  
ولما كان إفساد الأصابع أنكى ما يكون بعد ذلك لأنه يبطل قتال المضروب أو كمال قتاله ، قال : ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ أي فإنه لا مانع من ذلك لكوني معكم . انتهى انتهى .  
هـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 193-194 ﴾

(98/307)



## فصل

قال الفخر:

النوع الخامس: من النعم المذكورة ههنا قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾  
وفيه مجتان: الأول: قال الزجاج: ﴿إِذْ﴾ في موضع نصب، والتقدير: وليربط على  
قلوبكم ويثبت به الأقدام حال ما يوحى إلى الملائكة بكذا وكذا، ويجوز أيضاً أن يكون  
على تقدير اذكروا.

الثاني: قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ فيه وجهان: الأول: أن يكون المراد أنه تعالى أوحى إلى  
الملائكة بأنه تعالى معهم أي مع الملائكة حال ما أرسلهم رداً للمسلمين.  
والثاني: أن يكون المراد أنه تعالى أوحى إلى الملائكة أني مع المؤمنين فانصروهم وثبتوهم،  
وهذا الثاني أولى لأن المقصود من هذا الكلام إزالة التخويف والملائكة ما كانوا يخافون  
الكفار، وإنما الخائف هم المسلمون.

ثم قال: ﴿فَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ واختلفوا في كيفية هذا التثبيت على وجوه: الأول:  
أنهم عرفوا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله ناصر المؤمنين والرسول عرف المؤمنين ذلك  
، فهذا هو التثبيت والثاني: أن الشيطان كما يمكنه إلقاء الوسوسة إلى الإنسان، فكذلك  
الملك يمكنه إلقاء الإلهام إليه فهذا هو التثبيت في هذا الباب.

والثالث : أن الملائكة كانوا يشبهون بصور رجال من معارفهم وكانوا يمدونهم بالنصر

والفتح والظفر .

والنوع السادس : من النعم المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿ سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا

الرعب ﴾ وهذا من النعم الجليلة ، وذلك لأن أمر النفس هو القلب فلما بين الله تعالى أنه

ربط قلوب المؤمنين بمعنى أنه قواها وأزال الخوف عنها ذكر أنه ألقى الرعب والخوف في

قلوب الكافرين فكان ذلك من أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين .

(99/307)

---

أما قوله تعالى : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ ففيه وجهان : الأول : أنه أمر للملائكة متصل

بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَّأُوا ﴾ وقيل : بل أمر للمؤمنين وهذا هو الأصح لما بينا أنه تعالى ما أنزل

الملائكة لأجل المقاتلة والمحاربة ، واعلم أنه تعالى لما بين أنه حصل في حق المسلمين جميع

موجبات النصر والظفر ، فعند هذا أمرهم بمحاربتهم ، وفي قوله : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ

الاعناق ﴾ قولان : الأول : أن ما فوق العنق هو الرأس ، فكان هذا أمراً بإزالة الرأس عن

الجسد .

والثاني : أن قوله : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ أي فاضربوا الأعناق .

ثم قال: ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ يعني الأطراف من اليدين والرجلين، ثم اختلفوا فمنهم من قال المراد أن يضربوهم كما شاءوا، لأن ما فوق العنق هو الرأس، وهو أشرف الأعضاء، والبنان عبارة عن أضعف الأعضاء، فذكر الأشرف والأخس تنبيهاً على كل الأعضاء، ومنهم من قال: بل المراد إما القتل، وهو ضرب ما فوق الأعناق أو قطع البنان، لأن الأصابع هي الآلات في أخذ السيوف والرماح وسائر الأسلحة، فإذا قطع بنانهم عجزوا عن المحاربة. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب ح 15 ص 109﴾

(100/307)

فصل

قال الجصاص:

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ ﴿أَيُّ أَنْصُرُكُمْ﴾ ﴿فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: إِقْدَاؤُهُمْ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَاطِرِ وَالتَّيْبِيهِ أَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُهُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِثَبَاتِهِمْ وَتَحْزُبِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ التَّيْبِيَةُ إِخْبَارَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَيُخْبِرُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَدْعُوهُمْ ذَلِكَ إِلَى الثَّبَاتِ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ

وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴿١٠١﴾ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ كَفًّا  
مِنْ تُرَابٍ وَرَمَى بِهِ وُجُوهُهُمْ فَأَنْهَزُوا وَلَمْ يُبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ فِي  
عَيْنَيْهِ .

وَعَنَى بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ بَلَغَ بِذَلِكَ التُّرَابِ وُجُوهُهُمْ وَعَيْنُوهُمْ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِ أَحَدٍ مِنْ  
الْمَخْلُوقِينَ أَنْ يُبْلَغَ ذَلِكَ التُّرَابُ عَيْنُوهُمْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ .

وَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ دَلَائِلِ النَّبُوءَةِ وَمِنْهَا وُجُودُ مُخْبِرَاتِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ، فَلَا يَجُوزُ  
أَنْ يُتَّفَقَ مِثْلَهَا تَخَرُّصًا وَتَحْمِينًا .

وَمِنْهَا مَا أَنْزَلَ مِنَ الْمَطَرِ الَّذِي لَبَدَ الرَّمْلَ حَتَّى ثَبَتَتْ أَقْدَامُهُمْ عَلَيْهِ وَصَارُوا وَبَالًا عَلَى  
عَدُوِّهِمْ ؛ لِأَنَّ فِي الْخَبَرِ أَنَّ أَرْضَهُمْ صَارَتْ وَحَلًّا حَتَّى مَنَعَهُمْ مِنَ الْمَسِيرِ .

(101/307)

---

وَمِنْهَا الطَّمَأْنِينَةُ الَّتِي صَارَتْ فِي قُلُوبِهِمْ بَعْدَ كَرَاهَتِهِمْ لِلِقَاءِ الْجَيْشِ .  
وَمِنْهَا النَّعَاسُ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِمْ فِي الْحَالِ الَّتِي يَطِيرُ فِيهَا النَّعَاسُ .

وَمِنْهَا رَمِيَهُ لِلرَّابِّ وَهَزِيمَةَ الْكُفَّارِ بِهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص ج 3

﴿ ص ﴾

(102/307)

وقال السمرقندي :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ ،

يعني ألهم ربك الملائكة ، ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ ، أي معينكم وناصركم ؛ ﴿ فَتَبَتُّوا الَّذِينَ

ءَامَنُوا ﴾ ، يعني بشروا المؤمنين بالنصر .

فكان الملك يمشي أمام الصف فيقول : أبشروا فإنكم كثير وعدوكم قليل والله ناصركم .

﴿ سَأَلْتَنِي ﴾ ، يعني سأقذف ﴿ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ ﴾ ، يعني الخوف من

رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

ثم علم المؤمنين كيف يضربون ويقتلون فقال تعالى : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ ، يعني

على الأعناق ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ ، يعني أطراف الأصابع وغيرها ، ويقال كل

مفصل .

قال الفقيه : سمعت من حكى ، عن أبي سعيد الفارسي أنه قال : أراد الله الإيلطخ

سيوفهم بفرث المشركين ، فأمرهم أن يضربوا على الأعناق ولا يضربوا على الوسط ويقال :

معناه اضربوا كل شيء استقبلكم من أعضائهم ولا ترحمهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بجر

العلوم ح 2 ص ﴿

(103/307)

وقال الثعلبي :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾

للذين أمدَّ بهم المؤمنين ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ بالعون والنصر ﴿ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي نوروا

قلوبهم وصحَّحوا عزائمهم وثباتهم في الجهاد ، فقيل : إن ذلك المثبت بحضورهم الحرب

معهم .

وقيل : معوتهم إياهم في قتال عدوهم ، وقال أبو روق : هو أن الملك كان يشبه بالرجل الذي

يعرفون وجهه فيأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : إني قد دنوت

من المشركين فسمعهم يقولون والله لئن حملوا علينا [ لنكشفن ] .

فتحدّث بذلك المسلمون بعضهم بعضاً فيقوي أنفسهم ويزدادون جرأة ، قال ابن إسحاق

والمبرد : فتبتوا الذين آمنوا أي وآزروهم ﴿ سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ ﴾ ثم

علمهم كيف الضرب والقتل فقال ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ قال بعضهم: هذا الأمر متصل بقوله: ﴿ فَنَبِّئُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

وقال آخرون: هو أمر من الله عز وجل للمؤمنين واختلفوا في قوله ﴿ فوق الأعناق ﴾ فقال عطية والضحاك: معناه: فاضربوا الأعناق لقوله ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ [محمد: 4] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لم أبعث لأعذب بعذاب الله وإنما بعثت لضرب الرقاب وشد الوثاق " .

وقال بعضهم: معناه: فاضربوا على الأعناق، (فوق) بمعنى على . وقال عكرمة: معناه فاضربوا الرؤوس فوق الأعناق . وقال ابن عباس: معناه واضربوا فوق الأعناق أي على الأعناق، نظيره قوله ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ [النساء: 11] أي اثنتين فما فوقهما .

﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ قال عطية: يعني كل مفصل .  
وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك: يعني الأطراف والبنان جمع بنانه، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين واشتقاقه من أن بالمكان إذا قام به .  
قال الشاعر:

ألا ليتني قطعت منه بنانه . . . ولاقيته في البيت يقظان حاذراً

وقال يمان بن رثاب: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ يعني الصناديد ﴿ واضربوا منهم كلَّ بَنَانٍ ﴾ يعني السفلة، والصحيح: القول الأول. قال أبو داود المازني وكان شهد بدرًا: اتبعت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يديّ قبل أن يصل سيفي فعرفت أنه قتله غيري.

وروى أبو أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: لقد رأيت يوم بدر وأن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف. وقال ابن عباس: حدثني رجل عن بني غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى صعدنا في جبل ليشرف بنا على بدر ونحن مشركان ننظر الواقعة على من يكون الدبرة فننتهب مع من ينتهب.

قال: فبينما نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها حممة الخيل. فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم قال فأما ابن عمي فأنكشف قناع قلبه فمات أما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت.



---

وقال عكرمة: " قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وأسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم وكان يكتُم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر فقد بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، وكذلك صنعوا لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً فلما جاء الخبر عما أصاب أصحاب بدر من قريش كبتة الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وحزماً فكان رجلاً ضعيفاً قال :

وكتت أعمل الأقداح أنحتها في حجرة زمزم فوالله إني لجالس فيها أنحت الأقداح وعندني أم الفضل جالسة وقد سرنا ما جاء من الخبر إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجله حتى جلس على طناب الحجرة وكان ظهره إلى ظهري فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال أبو لهب : هلم إلي يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ، قال : لا شيء والله كأن الآن لقينا فمنحناهم أكثافاً يقتلون ويأسرون كيف شاؤوا وأيم الله مع تلك ما لمت الناس :

لقينا رجالاً بيضاً على خيل [ معلق ] بين السماء والأرض [ ما تليق ] شيئاً ولا يقوم لها شيء .

قال أبو رافع : فرفعت طرف الحجرة بيدي ثم قلت : تلك الملائكة ، فرفع أبو لهب يده

فضرب وجهي ضربة شديدة فناورته فاحملي فضرب بي الأرض ، ثم برك عليّ فضربني  
وكنت رجلاً ضعيفاً فقامت أم الفضل الى عمود من عمد البيت فأخذته فضربتته ضربة  
فلقت رأسه شجة منكّرة وقالت : تستضعفه أن غاب عنه سيّده ، فقام مولياً ذليلاً فوالله  
ما عاش إلاّ سبع ليالٍ حتّى رماه الله بالعدسة فقتله .

(106/307)

---

ولقد تركه ابنه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفناه حتّى أنتن في بيته ، وكانت قريش تنقي العدسة كما  
تنقي الناس الطاعون حتّى قال لهما رجل من قريش : ويحكما ألاّ تستحيان أن أباكما قد  
أنتن في بيته لا تغسلانه فقالا : إنا نخشى هذه القرحة ، قال : فانطلقا فإننا معكما فما غسلوه  
إلاّ قذفاً بالماء عليه من بعيد ما يمسونه ثم حملوه فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار وقذفوا عليه  
الحجارة حتّى واروه .

وروي مقسّم عن ابن عباس قال : " كان الذي أسر العباس أبا اليسر كعب بن عمرو وأخا  
بني سلمة وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً وكان العباس رجلاً جسيماً ، فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم لأبي اليسر : يا أبا اليسر كيف أسرت العباس ؟  
فقال : يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده ، هيئته كذا وكذا ،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أعانك عليه ملك كريم " . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(107/307)

وقال الماوردي :

﴿ قوله عز وجل : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾

معناه معينكم ويحتمل أن يكون معناه إني معكم في نصره الرسول ، فتكون الملائكة لتثبيت

المؤمنين ، والله تعالى متولي النصر بما ألقاه من الرعب في قلوب المشركين .

﴿ فَتَبَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : فتبتوهم بحضوركم معهم في الحرب .

والثاني : بقالكم معهم يوم بدر ، قاله الحسن .

والثالث : ياخبارهم أنه لا بأس عليهم من عدوهم .

﴿ سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ يعني الخوف ، ويحتمل أحد وجهين :

إما أن يكون إلقاء الرعب بتخاذلهم ، وإما أن يكون بتكثير المسلمين في أعينهم .

وفي ذلك وجهان :

أحدهما : أنه قال ذلك للملائكة معونة لهم .

والثاني : أنه قال ذلك له ليثبتوا به الذين آمنوا . ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ فيه خمسة

أقويل :

أحدها : فاضربوا الأعناق ، وفوق صلة زائدة في الكلام ، قاله عطية والضحاك .

وقد روى المسعودي عن القاسم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَأَعْدَبِ بَعْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا بُعِثْتُ بِضَرْبِ الْأَعْنَاقِ وَشَدِّ الْوَتَاقِ " . والثاني : معناه واضربوا الرؤوس فوق الأعناق ، قاله عكرمة .

والثالث : فاضربوا على الأعناق .

والرابع : فاضربوا على الأعناق .

والخامس : فاضربوا فوق جلدة الأعناق .

﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ يعني المفاصل من أطراف الأيدي والأرجل والبنان :

أطراف الأصابع من اليدين والرجلين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

وقال ابن عطية:

قوله تعالى: ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة ﴾ الآية،

العامل في ﴿ إذ ﴾ العامل الأول على ما تقدم فيما قبلها ، ولو قدرناه قريباً لكان قوله ﴿ ويثبت ﴾ على تأويل عود الضمير على الربط ، وأما على عوده على الماء فيقلق أن تعمل ﴿ ويثبت ﴾ في ﴿ إذ ﴾ ووحى الله إلى الملائكة إما بإلهام أو بإرسال بعض إلى بعض ، وقرأ عيسى بن عمر بخلاف عنه " إني معكم " بكسر الألف على استئناف إيجاب القصة ، وقرأ جمهور الناس " أني " بفتح الألف على أنها معمولة ل ﴿ يوحى ﴾ ، ووجه الكسر أن الوحي في معنى القول ، وقوله ﴿ فثبتوا ﴾ يحتمل أن يكون بالقتال معهم على ما روي . ويحتمل بالحضور في حيزهم والتأنيس لهم بذلك ، ويحتمل أن يريد : فثبتتهم بأقوال مؤنسة مقوية للقلب ، وروي في ذلك أن بعض الملائكة كان في صورة الأدميين فكان أحدهم يقول للذي يليه من المؤمنين : لقد بلغني أن الكفار قالوا لئن حمل المسلمون علينا لننكشفن ، ويقول آخر : ما أرى الغلبة والظفر إلا لنا . ويقول آخر : أقدم يا فلان ، ونحو هذا من الأقوال المثبتة .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أيضاً أن يكون التثبيت الذي أمر به ما يليقه الملك في قلب الإنسان بلمته من توهم الظفر واحتقار الكفار ويجري عليه من خواطر تشجيعه ويوقى هذا التأويل مطابقة قوله تعالى : ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ وإن كان إلقاء

الرعب يطابق التثبيت على أي صورة كان التثبيت ولكنه أشبه بهذا إذ هي من جنس واحد .

قال القاضي أبو محمد : وعلى هذا التأويل يجيء قوله ﴿ سألني في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ مخاطبة للملائكة ، ثم يجيء قوله تعالى : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر عن صورة الحال كما تقول إذا وصفت حرباً لمن تخاطبه لقينا القوم وهزمناهم فاضرب بسيفك حيث شئت واقتل وخذ أسيرك ، أي هذه كانت صفة الحال .

(109/307)

---

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يكون ﴿ سألني ﴾ إلى آخر الآية خبراً يخاطب به المؤمنين عما فعله في الكفار في المستقبل كما فعله في الماضي ، ثم أمرهم بضرب الرقاب والبنان تشجيعاً لهم وحضاً على نصرته الدين ، وقرأ الأعرج " الرعب " بضم العين والناس على تسكينها ، واختلف الناس في قوله ﴿ فوق الأعناق ﴾ ، فقال الأخفش ﴿ فوق ﴾ زيادة ، وحكاها الطبري عن عطية أن المعنى فاضربوا الأعناق وقال غيره بمعنى على ، وقال عكرمة مولى ابن عباس : هي على بابها وأراد الرؤوس إذ هي فوق الأعناق ، وقال

المبرد : وفي هذا إياحة ضرب الكافر في الوجه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل أنبلها ، ويحتمل عندي أن يريد بقوله ﴿ فوق الأعناق ﴾ وصف أبلغ ضربات العنق وأحكمها ، هي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأس في المفصل ، وينظر إلى هذا المعنى قول دريد بن الصمة السلمي حين قال له خذ سيفي وارفع به عن العظم واخفض عن الدماغ فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال ، ومثله قول الشاعر : [ الوافر ] .

جعلت السيف بين الجيد منه . . . وبين أسيل خديه عذارا

فيجيء على هذا ﴿ فوق الأعناق ﴾ متمكناً ، وقال ابن قتيبة ﴿ فوق ﴾ في هذه الآية بمعنى دون ، وهذا خطأ بين ، وإنما دخل عليه اللبس من قوله تعالى : ﴿ ما بعوضة فما فوقها ﴾ [ البقرة : 26 ] أي فما دونها .

قال القاضي أبو محمد : وليست ﴿ فوق ﴾ هنا بمعنى دون وإنما المراد فما فوقها في القلة والصغر فأشبهه المعنى دون وال ﴿ بنان ﴾ قالت فرقة : هي المفاصل حيث كان من الأعضاء ، فالمعنى على هذا واضربوا منهم في كل موضع ، وقالت فرقة : البنان الأصابع ، وهذا هو القول الصحيح ، فعلى هذا التأويل وإن كان الضرب في كل موضع مباحاً فإنما قصد أبلغ المواضع لأن المقاتل إذا قطع بنانه استأسر ولم ينتفع بشيء من أعضائه في مكافحة وقتال . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾

قال الزجاج : ﴿ إِذْ ﴾ في موضع نصب ، والمعنى : ويليربط إذ يوحى .

ويجوز أن يكون المعنى : واذكروا إذ يوحى .

قال ابن عباس : وهذا الوحي : إلهام .

قوله تعالى : ﴿ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ وهم الذين أمدَّ بهم المسلمين .

﴿ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ بالعون والنصرة .

﴿ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : قاتلوا معهم ، قاله الحسن .

والثاني : بشروهم بالنصر ، فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل ، ويقول :

أبشروا فإن الله ناصركم ، قاله مقاتل .

والثالث : تبَيَّنُوا بِأَشْيَاءٍ تَلْقُونَهَا فِي قُلُوبِهِمْ تَقْوَى بِهَا .

ذكره الزجاج .



والرابع : صححوا عزائمهم ونياتهم على الجهاد ، ذكره الثعلبي .

فأما الرعب : فهو الخوف .

قال السائب بن يسار : كنا إذا سألنا يزيد بن عامر السوائي عن الرعب الذي ألقاه الله في قلوب المشركين كيف ؟ كان يأخذ الحصى فيرمي به الطست فيطنُّ ، فيقول : كنا نجد في أجوافنا مثل هذا .

قوله تعالى : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ في المخاطب بهذا قولان .

أحدهما : أنهم الملائكة ، قال ابن الأنباري : لم تعلم الملائكة أين تقصد بالضرب من الناس ، فعلمهم الله تعالى ذلك .

والثاني : أنهم المؤمنون ، ذكره جماعة من المفسرين .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : فاضربوا الأعناق ، و"فوق" صلة ، وهذا قول عطية ، والضحاك ، والأخفش ، وابن قتيبة .

وقال أبو عبيدة : "فوق" بمعنى "على" ، تقول : ضربته فوق الرأس ، وضربته على الرأس .

والثاني : اضربوا الرؤوس لأنها فوق الأعناق ، وبه قال عكرمة .

وفي المراد بالبنان ثلاثة أقوال .

أحدها : إنه الأطراف ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

وقال الفراء : عَلَّمَهُم مَوَاضِعَ الضَّرْبِ ، فقال : اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل .

وقال أبو عبيدة ، وابن قتيبة : البنان أطراف الأصابع .

قال ابن الأنباري : واكتفى بهذا من جملة اليد والرجل .

(111/307)

---

والثاني : أنه كل مَفْصِلٍ ، قاله عطية ، والسدي .

والثالث : أنه الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء ، والمعنى : أنه أباحهم قتلهم بكل نوع ،

هذا قول الزجاج .

قال : واشتقاق البنان من قولهم : أبنَّ بالمكان : إذا أقام به ؛ فالبنان به يُعْتَمَلُ كلُّ ما يكون

للاقامة والحياة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

(112/307)

---

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ العامل في " إذ ، يثبت " أي يثبت

به الأقدام ذلك الوقت .

وقيل : العامل "ليربط" أي ويليربط إذ يوحي .

وقد يكون التقدير : اذكر ﴿ إِذِ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ في موضع نصب ،

والمعنى : بأني معكم ، أي بالنصر والمعونة .

"معكم" بفتح العين ظرف ، ومن أسكنها فهي عنده حرف .

﴿ فَتَّبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير قتال

؛ فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل ويقول : سيروا فإن الله ناصركم .

ويظن المسلمون أنه منهم ؛ وقد تقدم في "آل عمران" أن الملائكة قاتلت ذلك اليوم .

فكانوا يرون رؤوساً تندرج عن الأعناق من غير ضارب يرونه .

وسمع بعضهم قائلاً يسمع قوله ولا يرى شخصه : أقدم حيزوم .

وقيل : كان هذا التثبيت ذكراً رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين نزول الملائكة

مدداً .

قوله تعالى : ﴿ سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّعْبَ ﴾ تقدم في "آل عمران" بيانه .

﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ هذا أمر للملائكة .

وقيل : للمؤمنين ، أي اضربوا الأعناق ، و"فوق" زائدة ؛ قاله الأخفش والضحاك

وعطية .

وقد روى المسعودي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله وإنما بعثت بضرب الرقاب وشدّ الوثاق" وقال محمد بن يزيد: هذا خطأ؛ لأن "فوق" تفيد معنى فلا يجوز زيادتها، ولكن المعنى أنهم أبيع لهم ضرب الوجوه وما قرب منها.

وقال ابن عباس: كل هام وجُمُجُمة.

وقيل: أي ما فوق الأعناق، وهو الرؤوس؛ قاله عكرمة.

والضرب على الرأس أبلغ؛ لأن أدنى شيء يؤثر في الدماغ.

وقد مضى شيء من هذا المعنى في "النساء" وأن "فوق" ليست بزائدة، عند قوله: ﴿

فَوْقَ اثْنَيْنِ ﴾ [النساء: 11].

(113/307)

---

﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ قال الزجاج: واحد البنان بنانة، وهي هنا الأصابع

وغيرها من الأعضاء.

والبنان مشتق من قولهم أبن الرجل بالمكان إذا أقام به.

فالبنان يُعتمَلُ به ما يكون للإقامة والحياة.

وقيل : المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين .

وهو عبارة عن الثبات في الحرب وموضع الضرب ؛ فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء .

قال عنتره :

وكان قتي الهيجاء يجمي ذمارها . . .

ويضرب عند الكرب كل بنان

ومما جاء أن البنان الأصابع قول عنتره أيضاً :

وأن الموت طوع يدي إذا ما . . .

وصلت بنانها بالهندواني

وهو كثير في أشعار العرب ، البنان : الأصابع .

قال ابن فارس : البنان الأصابع ، ويقال : الأطراف .

وذكر بعضهم أنها سميت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التي بها يستقر الإنسان ويبن .

وقال الضحاك : البنان كل مفصل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(114/307)

---

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم ﴾

يعني أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى الملائكة الذين أمد بهم النبي ( صلى الله عليه وسلم )  
وأصحابه إني معكم بالنصر والمعونة ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ أي : قووا قلوبهم واختلفوا  
في كيفية هذا لتقوية والتثبيت .

فقيل : كما أن للشيطان قوة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم بالشر ، فكذلك للملك قوة في  
إلقاء الإلهام في قلب ابن آدم بالخير .

ويسمى ما يلقي الشيطان : وسوسة ، وما يلقي الملك لمة وإلهاماً ، فهذا هو التثبيت .

وقيل : إن ذلك التثبيت هو حضورهم معهم القتال ومعونتهم لهم أي : ثبتوهم بقتالكم معهم  
المشركين ، وقيل معناه بشرورهم بالنصر والظفر فكان الملك يمشي في صورة رجل أمام  
الصف ويقول أبشروا فإن الله ناصركم عليهم ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾  
يعني الخوف وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث ألقى الرعب والخوف في قلوب  
الكافرين ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ قيل هو خطاب مع المؤمنين فيكون منقطعاً عما  
قبله .

وقيل : هو خطاب مع الملائكة فيكون متصلاً بما قبله .

قال ابن الأنباري : ما كانت الملائكة تعرف تقتل بني آدم فعلمهم الله ذلك بقوله تعالى فاضربوا فوق الأعناق .

قال عكرمة : يعني الرؤوس لأنها فوق الأعناق .

وقال الضحاك : معناه فاضربوا الأعناق وفوق صلة .

وقيل : معناه فاضربوا على الأعناق فتكون فوق بمعنى على ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ يعني كل مفصل .

وقال ابن عباس : يعني الأطراف وهي جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين سميت بذلك لأن بها صلاح الأحوال التي يمكن الإنسان أن يبين ما يريد أن يعمله بيديه وإنما خصت بالذكر من دون سائر الأطراف لأجل أن الإنسان بها يقاتل وبها يمسك السلاح في الحرب .  
وقيل : إنه سبحانه وتعالى أمرهم بضرب أعلى الجسد وهو الرأس وهو أشرف الأعضاء وبضرب البنان وهو أضعف الأعضاء فيدخل في ذلك كل عضو في الجسد .

(115/307)

---

وقيل : أمرهم بضرب الرأس وفيه هلاك الإنسان وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الإنسان عن الحرب لأن بالبنان يتمكن من مسك السلاح وحمله والضرب به فإذا قطع بنانه تعطل عن

ذلك كله .

روي عن أبي داود المازني ، وكان شهد بدرًا ، قال : إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذا وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قد قتله غيري .

وعن سهل بن حنيف قال : لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف ، وروى عكرمة عن أبي رافع مولى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وكان الإسلام قد دخل علينا أهل البيت فأسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكرم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق في قومه وكان عدو الله أبو لهب قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما جاء الخبر عن مقتل أصحاب بدر كتبته الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً ، قال أبو رافع وكنت رجلاً ضعيفاً أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم فوالله إني لجالس أنتحت القداح وعندني أم الفضل جالسة إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجله حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره إلى ظهري فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب : إلي يا ابن أخي فعندك الخبر اليقين فجلس إليه والناس قيام عليه فقال أبو لهب : يا ابن أخي خبرني كيف كانت أحوال الناس ؟ قال : لا شيء والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكفاناً يقتلوننا ويأسروننا كيف شاءوا وإيم



الله ما لمت الناس لقينا رجالاً بيضاء على خيل بلق بين السماء والأرض والله لا يتلقاهم شيء ولا يقوم لهم شيء .

(116/307)

---

قال أبو رافع : فرفعت طرف الحجره بيدي وقلت تلك والله الملائكة فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة فساورته فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك على صدري وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت إليه ام الفضل بعمود من عمد الحجره فضربت به ضربه ففلقت رأسه شجة منكراً ، وقالت : تستضعفه إن غاب عنه سيده فقام مولياً ذليلاً فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعدسة فقتله .

وروى مقسم عن ابن عباس قال : كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو وأخو بني سلمة وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً وكان العباس رجلاً جسيماً فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) لأبي اليسر " كيف أسرت العباس " ؟ قال : يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " لقد أعانك عليه ملك كريم " وكانت وقعة بدر في صبيحة يوم الجمعة السابع

عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة النبوية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن

﴿ 3 ص ﴾

(117/307)

وقال أبو حيان :

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا

الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾

هذا أيضاً من تعدد النعم إذ الإيحاء إلى الملائكة بأنه تعالى معهم أي ينصرهم ويعينهم

وأمرهم بتثبيت المؤمنين والإخبار بما يأتي بعد من إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم والأمر

بالضرب فوق أعناقهم وكل بنان منهم من أعظم النعم ، وفي ذلك إعلام بأن الغلبة والظفر

والعاقبة للمؤمنين ، وقال الزمخشري : ﴿ إذ يوحى ﴾ يجوز أن يكون بدلاً ثالثاً من ﴿ إذ

يعدكم ﴾ وأن ينتصب بثبت ، وقال ابن عطية : العامل في إذ العامل الأول على ما تقدم

فيما قبلها ولو قدرناه قريباً لكان قوله ﴿ ويثبت ﴾ على تأويل عود الضمير على الربط

وأما عوده على الماء فيمكن أن يعمل ويثبت في إذ انتهى وإنما يمكن ذلك عنده لاختلاف

زمان التثبيت عنده وزمان هذا الوحي لأن زمان إنزال المطر وما تعلق به من تعاليله متقدم

على تغشية النعاس والإيحاء كانا وقت القتال وهذا الوحي إما بإلهام وإما بإعلام، وقرأ  
عيسى بن عمر بخلاف عنه إذ معكم الهمزة على إضمار القول على مذهب البصريين أو  
على إجراء ﴿يوحى﴾ مجرى تقول على مذهب الكوفيين والملائكة هم الذين أمّد  
المؤمنون بهم، ولما كان ما تقدم من تعداد النعم على المؤمنين جاء الخطاب لهم بيغشاكم ﴿  
وينزل عليكم﴾ ﴿ويطهركم﴾ ﴿ويذهب﴾ رجز ﴿وليربط على قلوبكم﴾ إذ  
كان في هذه أشياء لا تناسب منصب الرسالة ولما ذكر الوحي إلى الملائكة أتى بخطاب  
الرسول وحده فقال ﴿إذ يوحى ربك﴾ ففي ذلك تشریف بمواجهته بالخطاب وحده أي  
مريبك والناظر في مصلحتك .  
ويثبت الذين آمنوا .

(118/307)

---

قال الحسن بالقتال أي فقاتلوا ، وقال مقاتل بشروهم بالنصر فكان الملك يسير أمام الصف  
في صورة الرجل فيقول أبشروا فإن الله ناصركم وذكر الزجاج أنهم يشبّونهم بأشياء يلقونها  
في قلوب تقوى بها ، وذكر الثعلبي ونحوه قال : صححوا عزائمهم ونياتهم على الجهاد ، وقال  
ابن عطية نحوه قال : ويحتمل أيضاً أن يكون التثبيت الذي أمر به ما يلقيه الملك في قلب

الإنسان من توهم الظفر واحتقار الكفار ويجري عليه من خواطر تشجيعه وتقوي هذا التأويل مطابقة قوله ﴿ سألني في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ ﴿ وأن كان إلقاء الرعب يطابق التثبيت على أي صورة كان التثبيت ولكنه أشبه بهذا إذ هي من جنس واحد وعلى هذا التأويل يجيء قوله ﴿ سألني في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ مخاطبة للملائكة ثم يجيء قوله ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر عن صورة الحال كما تقول إذا وصفت لمن تخاطبه لقبنا القوم وهزمناهم فاضرب بسيفك حيث شئت واقتل وخذ أسيرك ، أي هذه كانت صفة الحال ويحتمل أن يكون ﴿ سألني ﴾ إلى آخر الآية خبراً يخاطب به المؤمنين عما يفعله بالكفار في المستقبل كما فعله في الماضي ثم أمرهم بضرب الرقاب والبنان تشجيعاً لهم وحقاً على نصره الدين .

(119/307)

---

وقال الزمخشري والمعني أني معينكم على التثبيت فثبتوهم فقوله ﴿ سألني ﴾ ﴿ فاضربوا ﴾ يجوز أن يكون تفسيراً لقوله ﴿ أني معكم فثبتوا ﴾ ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم واجتماعهما غاية النصره ويجوز أن يكون غير تفسير وأن يراد بالتثبيت أن يخطروا ببالهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم

ونياتهم وأن يظهر ما يتقنون به أنهم ممدون بالملائكة ، وقيل كان الملك يشبه بالرجل الذي يعرفون وجهه فيأتي فيقول إني سمعت المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن ويمشي بين الصفيين فيقول ابشروا فإن الله ناصركم لأنكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه انتهى ، ثم قال ويجوز أن يكون قوله ﴿ سألقي ﴾ إلى قوله ﴿ كل بنان ﴾ عقيب قوله ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ تلقينا للملائكة وما يثبتونهم به كأنه قال قولوا لهم ﴿ سألقي ﴾ والضاربون على هذا هم المؤمنون انتهى .

والذي يظهر أن ما بعد ﴿ يوحى ربك إلى الملائكة ﴾ هو من جملة الموحى به وأن الملائكة هم المخاطبون بتثبيت المؤمنين وبضرب فوق الأعناق وكل بنان ، وقال السائب بن يسار : كنا إذا سألنا يزيد بن عامر السّوأي عن الرّعب الذي ألقاه الله في قلوب المشركين كيف كان يأخذ الحصا ويرمي به الطست فيظن فيقول : كنا نجد في أجوافنا مثل هذا ، وقرأ ابن عامر والكسائي والأعرج ﴿ الرّعب ﴾ بضم العين ﴿ وفوق ﴾ قال الأخفش : زائدة أي فاضربوا الأعناق وهو قول عطية والضحاك ﴿ فيكون الأعناق ﴾ هي المفعول باضربوا هذا ليس بجيد لأن ﴿ فوق ﴾ اسم ظرف والأسماء لا تزداد ، وقال أبو عبيدة : ﴿ فوق ﴾ بمعنى على تقول ضربته فوق الرأس وعلى الرأس ويكون مفعول ﴿ فاضربوا ﴾ على هذا محذوفاً أي فاضربوهم فوق الأعناق وهذا قول حسن لا بقاء ﴿ فوق ﴾ على معناها من الظرفية .

---

وقال ابن قتيبة ﴿ فوق ﴾ بمعنى دون قال ابن عطية: وهذا خطأ بين وإنما دخل عليه اللبس من قوله ﴿ بعوضة فما فوقها ﴾ في القلة والصغر فأشبهه المعنى دون انتهى .  
وعلى قول ابن قتيبة يكون المفعول محذوفاً أي فاضربوهم ، وقال عكرمة: ﴿ فوق ﴾ على بابها وأراد الرؤوس إذ هي فوق الأعناق ، قال الزمخشري: يعني ضرب الهام .  
قال الشاعر:

واضرب هامة البطل المشيح . . .

وقال آخر:

غشيته وهو في جاواء باسلة . . .

عضباً أصاب سوء الرأس فانقلقا

انتهى .

وقال ابن عطية: وهذا التأويل أنبلها ويحتمل عندي أن يريد بقوله ﴿ فوق الأعناق ﴾ بوصف أبلغ ضربات العنق وأحكمها وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأس في المفصل ، وينظر إلى هذا المعنى قول دريد بن الصمة الجشمي لابن الدغنة السلمي

حين قال له أخذ سيفي وأرفع عن العظم وأخفض عن الدماغ فهكذا كنت أضرب أعناق  
الأبطال ومنه قول الشاعر :

جعل السيف بين الجيد منه . . .

وبين أسيل خديه عذارا

فيجيء على هذا ﴿ فوق الأعناق ﴾ متمكناً انتهى .

فإن كان قول عكرمة تفسير معنى فحسن ويكون مفعول ﴿ فاضربوا ﴾ محذوفاً وإن كان

أراد أن ﴿ فوق ﴾ هو المضروب فليس بجيد لأن فوق من الظروف التي لا يتصرف فيها لا

تكون مبتدأة ولا مفعولاً بها ولا مضافاً إليها إنما يتصرف فيها بحرف جر كقوله ﴿ من فوقهم

ظلل ﴾ هذا هو الصحيح في ﴿ فوق ﴾ وقد أجاز بعضهم أن يكون ﴿ فوق ﴾ في الآية

مفعولاً به وأجاز فيها التصرف قال : تقول فوقك رأسك بالرفع وفوقك قلنسوتك بالنصب

ويظهر هذا القول من الزمخشري قال : ﴿ فوق الأعناق ﴾ أراد أعالي الأعناق التي هي

المذابح لأنها مفاصل فكان إيقاع الضرب فيها جزءاً وتطييراً للرأس انتهى ، والبنان تقدم

الكلام فيها في المفردات ، وقالت فرقة منهم الضحاك البنان هي المفاصل حيث كانت من

الأعضاء ، وقالت فرقة البنان الأصابع من اليدين والرجلين .

وقيل الأصابع وغيرها من الأعضاء والمختار أنها الأصابع .

---

وقال عنزة العبسي :

وكان فتى الهيجاء يحمي ذمارها . . .

ويضرب عند الكرب كل بنان

وقال أيضاً :

وأن الموت طرح يدي إذا ما . . .

وصلت بنانها بالهندواني

وضرب الكفار مشروع في كل موضع منهم وإنما قصد أبلغ المواضع وأثبت ما يكون المقاتل

لأنه إذا عمد إلى الرأس أو الأطراف كانت ثابت الجأش متبصراً فيما يضع فيه آلة قتاله من

سيف ورمح وغيرهما مما يقع به اللقاء إذ ضرب الرأس فيه أشغل شاغل عن القتال وكثيراً

ما يؤدي إلى الموت وضرب البنان فيه تعطيل القتال من المضروب بخلاف سائر الأعضاء .

قال الفراء : علمهم مواضع الضرب فقال : اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل فكأنه قال

فاضربوا الأعمالي إن تمكنتم من الضرب فيها فإن لم تقدرُوا فاضربوهم في أوساطهم فإن لم

تقدرُوا فاضربوهم في أسافلهم فإن الضرب في الأعمالي يسرع بهم إلى الموت والضرب في

الأوساط يسرع بهم إلى عدم الامتناع والضرب في الأسافل يمنعم من الكرّ والفرّ فيحصل من

ذلك إما إهلاكهم بالكلية وإما الاستيلاء عليهم انتهى ، وفي قول الفراء هذا تحمیل أفاظ



القرآن ما لا يحتمله ، وقال الزمخشري والمعنى فاضربوا المقاتل والشوى لأن الضرب إما واقع على مقتل أو غير مقتل فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً انتهى . انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(122/307)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾

منصوبٌ بمضمرٍ مستأنفٍ خوطب به النبيُّ عليه الصلاة والسلام بطريق التجريد حسبما

تنطق به الكافُ لما أن المأمورَ به مما لا يستطيعه غيره عليه الصلاة والسلام فإن الوحيَ

المذكورَ قبل ظهوره بالوحي المتلو على لسانه عليه الصلاة والسلام ليس من النعم التي يقف

عليها عامةُ الأمةِ كسائر النعم السابقة التي أمرُوا بذكر وقتها بطريق الشكر ، وقيل :

منصوب بقوله تعالى : ﴿ وَثَبَّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ فلا بد حينئذٍ من عود الضميرِ الجرورِ في به

إلى الربط على القلوب ليكون المعنى : وثبت أقدامكم بتقوية قلوبكم وقت إيجائه إلى

الملائكة وأمره بتثبيتهم إياكم وهو وقت القتال ، ولا يخفى أن تقييد التثبيت المذكور بوقت

مبهم عندهم ليس فيه مزيدُ فائدةٍ ، وأما انتصابه على أنه بدلٌ ثالثٌ من إذ يعدكم كما قيل

فيأباه تخصيصُ الخطابِ به عليه الصلاة والسلام مع ما عرفتَ من أن المأمورَ به ليس من الوظائفِ العامةِ لكلِّ كسائرِ أخواته . وفي التعرضِ لعنوانِ الربوبيةِ مع الإضافةِ إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من التنويه والتشريفِ ما لا يخفى ، والمعنى اذكر وقتَ إيجائه تعالى إلى الملائكة ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ أي بالإمداد والتوفيقِ في أمرِ التثبيتِ فهو مفعولٌ يوحى ، وقرئ بالكسر على إرادة القول أو إجراءِ الوحي مُجراه . وما يُشعر به دخولُ كلمةٍ مع من متبوعية الملائكة إنما هي من حيث إنهم المباشرون للتثبيت صورةً فلهم الأصالةُ من تلك الحيثية كما في أمثالِ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ والفاءُ في قوله تعالى : ﴿ فَتَبَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن إمداده تعالى إياهم من أقوى موجبات التثبيت ، واختلفوا في كيفية التثبيتِ فقالت جماعةٌ : إنما أمرُوا بتثبيتهم بالبشارة وتكثير السوادِ ونحوهما مما تقوى به قلوبهم وتصحَّ عزائمهم ونياتهم ويتأكد جدُّهم في القتال وهو الأنسبُ بمعنى

(123/307)

---

التثبيتِ وحقيقته التي هي عبارةٌ عن الحملِ على الثباتِ في موطنِ الحربِ والجِدِّ في مقاساة شدائدِ القتال . وقد روي أنه كان الملكُ يُشبهه بالرجل الذي يعرفونه بوجهه فيأتي ويقول :

إني سمعتُ المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفنّ ويمشي بين الصفيين فيقول:  
أبشروا فإن الله تعالى ناصركم وقال آخرون: أمروا بمحاربة أعدائهم وجعلوا قوله تعالى:  
﴿ سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ ﴾ تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ وقوله  
تعالى: ﴿ فَاضْرِبُوا ﴾ الخ، تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ فَتَّبَتُوا ﴾ مبيناً لكيفية التثبيت.  
وقد روي عن أبي داود المازني رضي الله عنه وكان ممن شهد بدرًا أنه قال: اتبعتُ رجلاً  
من المشركين يوم بدر لأضربه فوقعتُ رأسه بين يديّ قبل أن يصل إليه سيفي. وعن سهل بن  
حنيف رضي الله عنه أنه قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحداً يُشيرُ بسيفه إلى المشرك فتقعُ  
رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيفُ.

(124/307)

---

وأنت خيرٌ بأن قتلهم للكفرة مع عدم ملاءمته لمعنى تثبيت المؤمنين مما لا يتوقف على  
الإمدادِ بإلقاء الرعب فلا يتجه ترتيبُ الأمر به عليه بالفاء وقد اعتذر الأولون بأن قوله  
تعالى: ﴿ فَتَّبَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ تلقيناً للملائكة ما يثبتونهم به، كأنه قيل: قولوا لهم قولي:  
سألتني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا الخ فالضاربون هم المؤمنون، وأما ما قيل من  
أن ذلك خطابٌ منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين فمبناه توهمٌ وروده قبل القتالِ

وأنى ذلك والسورة الكريمة إنما نزلت بعد تمام الوقعة ، وقوله تعالى : ﴿ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾  
أي أعاليها التي هي المذابح أو الهامات ﴿ وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قيل : البنان أطرافُ  
الأصابع من اليدين والرجلين ، وقيل : هي الأصابعُ من اليدين والرجلين وقال أبو الهيثم  
البنان : المفاصلُ ، وكلُّ مَفْصَلٍ بَنَانُهُ وقال ابن جريج والضحاك : يعني الأطرافُ أي  
اضربوهم في جميع الأعضاء من أعاليها إلى أسافلها . وقيل : المرادُ بالبنان الأذاني وفوق  
الأعناقِ الأعالي والمعنى فاضربوا الصناديدَ والسفلةَ وتكريرُ الأمرِ بالضرب لمزيد الاعتناءِ  
بأمره و (منهم) متعلقٌ به أو بمحذوف وقع حالاً مما بعده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي  
السعود ح 4 ص ﴾

(125/307)

وقال الأوسى :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾

متعلق بمضمرة مستأنفة أي اذكر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التجريد

حسبما ينطق به الكاف ، وقيل : منصوب ب ﴿ يثبت ﴾ [ الأنفال : 11 ] ويتعين

حينئذٍ عود الضمير المجرور في به إلى الربط ليكون المعنى وثبت الأقدام بتقوية قلوبكم وقت

الإيحاء إلى الملائكة والأمر بتثبيتهم إياكم وهو وقت القتال ، ولا يصح أن يعود إلى الماء لتقدم  
زمانه على زمان ذلك ، وقال بعضهم : يجوز ذلك لأن التثبيت بالمطر باق إلى زمانه أو يعتبر  
الزمان متسعاً قد وقع جميع المذكور فيه وفائدة التقييد التذكير بنعمة أخرى والإيحاء إلى  
اقتران تثبيت الأقدام بتثبيت القلوب المأمور به الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم  
ويفعلون ما يؤمرون ، أو الرمز إلى أن التقوية وقعت على أتم وجه ، وقيل : هو بدل ثالث من  
﴿ إِذْ يُعِدُّكُمْ ﴾ [ الأنفال : 7 ] وبعده تخصيص الخطاب بسيد المخاطبين عليه الصلاة  
والسلام .

واختار بعض المحققين الأول مدعياً أن في الثاني تقييد التثبيت بوقت مبهم وليس فيه مزيد  
فائدة .

وفي الثالث إياء التخصيص عنه مع أن المأمور به ليس من الوظائف العامة لكل كسائر  
أخوانه ولا يستطيعه غيره عليه الصلاة والسلام لأن الوحي المذكور قبل ظهوره بالوحي  
المذكور ، ولا يخفى على المتأمل أن ما ذكر لا يقتضي تعيين الأول نعم يقتضي أوليته .

(126/307)

---

والمراد بالملائكة الملائكة الذين وقع بهم الإمداد ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة ،  
والمعنى إذ أوحى ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ أي معينكم على تثبيت المؤمنين ، ولا يمكن حمله على  
إزالة الخوف كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [ التوبة : 40 ] لأن  
الملائكة لا يخافون من الكفرة أصلاً ، وما تشعر به كلمة مع من متبوعية الملائكة لا يضر في  
مثل هذه المقامات ، وهو نظير ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [ البقرة : 153 ] ونحوه ،  
والمنسبك مفعول يوحى ، وقرىء إني بالكسر على تقدير القول أي قائلاً إني معكم ، أو  
إجراء الوحي مجراه لكونه متضمناً معناه ، والفاء في قوله سبحانه : ﴿ فَتَبَتُّوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾  
﴿ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والمراد بالتثبيت الحمل على الثبات في موطن الحرب  
والحد في مقاساة شدائد القتال قالاً أو حالاً ، وكان ذلك هنا في قول بظهورهم لهم في صورة  
بشرية يعرفونها ووعدهم إياهم النصر على أعدائهم ، فقد أخرج البيهقي في الدلائل أن  
الملك كان يأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه فيقول : أبشروا فإنهم ليسوا بشيء والله  
معكم كروا عليهم ، وجاء في رواية كان الملك يشبه بالرجل فيأتي ويقول : إني سمعت  
المشركين يقولون : والله لئن حملوا علينا لنكشفن ويمشي بين الصفين ويقول : أبشروا فإن الله  
تعالى ناصركم .

وقال الزجاج : كان بأشياء يلقونها في قلوبهم تصح بها عزائمهم ويتأكد جدهم ، وللملك قوة

إلقاء الخير في القلب ويقال له الهام كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ويقال له وسوسة؛ وقيل:  
كان ذلك بمجرد تكثير السواد .

(127/307)

---

وعن الحسن أنه كان يحاربه أعدائهم وذهب إلى ذلك جماعة وجعلوا قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ كأنه قيل:  
أني معكم في إعاتهم بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم، والرعب بضم فسكون وقد يقال  
بضمين وبه قرأ ابن عامر والكسائي الخوف وانزعاج النفس بتوقع المكروه، وأصله التقطيع  
من قولهم: رعبت السنام ترعبياً إذا قطعه مستطيلاً كأن الخوف يقطع الفؤاد أو يقطع  
السرور بضده، وجاء رعب السيل الوادي إذا ملاه كأن السيل قطع السلوك فيه أو لأنه  
انقطع إليه من كل الجهات، وجعلوا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَاضْرِبُوا ﴾ الخ تفسيراً لقوله  
تبارك وتعالى: ﴿ فَتَّبَتُوا ﴾ مبين لكيفية التثبيت .  
وقد أخرج عبد بن حميد .

وابن مردويه عن أبي داود المازني قال: بينا أنا أتبع رجلاً من المشركين يوم بدر فأهويت  
بسيفي إليه فوق رأسه قبل أن يصل سيفي إليه فعرفت أنه قد قتلته غيري .

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من  
المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وقائلاً يقول: أقدم حيزوم فخر المشرك  
مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه فجاء فحدث بذلك رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فقال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة.

وجوز بعضهم أن يكون التثبيت بما يلقون إليهم من وعد النصر وما يتقوى به قلوبهم في الجملة  
، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ سَأَلْتَنِي ﴾ الخ جملة استئنافية جارية مجرى التعليل لإفادة  
التثبيت لأنه مصدقه ومبينه لإعانة إياهم على التثبيت ، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿  
فاضربوا ﴾ الخ جملة مستعقبة للتثبيت بمعنى لا تقتصروا على تثبيتهم وأمدوهم بالقتال  
عقبه من غير تراخ ، وكان المعنى أنني معكم فيما أمركم به فثبتوا واضربوا .

(128/307)

---

وجيء بالفاء للنكته المذكورة ، ووسط ﴿ سَأَلْتَنِي ﴾ تصديقا للتثبيت وتمهيدا للأمر  
بعده ، وعلى الاحتمالين تكون الآية دليلاً لمن قال: إن الملائكة قاتلت يوم بدر ، وقال  
آخرون: التثبت بغير المقاتلة ، وقوله عز وجل: ﴿ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي ﴾ تلقين منه تعالى  
للملائكة على إضمار القول على أنه تفسير للتثبيت أو استئناف بياني ، والخطاب في ﴿



فاضربوا ❁ للمؤمنين صادراً من الملائكة حكاة الله تعالى لنا ، وجوز أن يكون ذلك الكلام من جملة الملقن داخلاً تحت القول ، كأنه قيل : قولوا لهم قولي ❁ سألتني ❁ الخ ، أو كأنه قيل : كيف تثبتهم ؟ فقيل : قولوا لهم قولي ❁ سألتني ❁ الخ ، ولا يخفى أن هذا القول أضعف الأقوال معنى ولفظاً .

وأما القول بأن ❁ فاضربوا ❁ الخ خطاب منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين فمبناه توهم وروده قبل القتال ، وأنى ذلك ؟ والسورة الكريمة إنما نزلت بعد تمام الواقعة ، وبالجملة الآية ظاهرة فيما يدعيه الجماعة من وقوع القتال من الملائكة ❁ فوق الأعناق ❁ أي الرؤوس كما روي عن عطاء .

وعكرمة ، وكونها فوق الأعناق ظاهر .

وأما المذابح كما قال البعض فإنها في أعالي الأعناق و❁ فوق ❁ باقية على ظرفيتها لأنها لا تتصرف ؛ وقيل : إنها مفعول به وهي بمعنى الأعلى إذا كانت بمعنى الرأس ، وقيل : هي هنا بمعنى على والمفعول محذوف أي فاضربوهم على الأعناق ، وقيل : زائدة أي فاضربوا الأعناق ❁ واضربوا منهم كل بنان ❁ .

قال ابن الأنباري : البنان أطراف الأصابع من اليدين والرجلين والواحدة بنانة وخصها بعضهم باليد .

---

وقال الراغب : هي الأصابع وسميت بذلك لأن بها إصلاح الأحوال التي بها يمكن للإنسان أن بين أي يقيم من ابن بالمكان وين إذا أقام ، ولذلك خص في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ [ القيامة : 4 ] وما نحن فيه لأجل أنهم بها يقاتلون ويدافعون ، والظاهر أنها حقيقة في ذلك ، وبعضهم يقول : إنها مجاز فيه من تسمية الكل باسم الجزء .

وقيل : المراد بها هنا مطلق الأطراف لوقوعها في مقابلة الأعناق والمقاتل .

والمراد اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها وآثره في "الكشاف" .

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها لجسد كله في لغة هذيل ، ويقال فيها

بنام بالميم وتكرير الأمر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره و ﴿ مِنْهُمْ ﴾ متعلق به أو

بمحذوف وقع حالاً من ﴿ كُلُّ بَنَانٍ ﴾ وضعف كونه حالاً من بنان بأن فيه تقديم حال

المضاف إليه على المضاف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾

﴿ إِذْ ﴾ ظرف متعلق بقوله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمَدِّكُمْ بِالْفَفِّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَرَدِّفِينَ

﴿ [الأنفال: 9] .

وجعل الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم تلطفاً به ، إذ كانت هذه الآية في تفصيل عمل الملائكة يوم بدر ، وما خاطبهم الله به فكان توجيه الخطاب بذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم أولى لأنه أحق من يعلم مثل هذا العلم ويحصل العلم للمسلمين تبعاً له ، وأن الذي

يهم المسلمين من ذلك هو نصر الملائكة إياهم وقد حصل الإعلام بذلك من آية ﴿ إِذْ

تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ [الأنفال: 9] ولأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول من استغاث

الله ، ولذلك عرف الله هنا باسم الرب وإضافته إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم

ليوافق أسلوب ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ [الأنفال: 9] ولما فيه من التنويه بقدر نبوته

صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أنه فعل ذلك لطفاً به ورفعاً لشأنه .

والوحي إلى الملائكة المرسلين : إما بطريق إلقاء هذا الأمر في نفوسهم بتكوين خاص ، وإما

يا بلاغهم ذلك بواسطة .

﴿ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ قيل هو في تأويل مصدر وذلك المصدر مفعول يوحى ، أي يوحى إليهم

ثبوت معيته لهم ، فيكون المصدر ، منصوباً على المفعول به ليوحى ، بهذا التأويل وقيل على

تقدير باء الجر .

وأنت على ذُكْرٍ مما قدمناه قريباً في قوله تعالى : ﴿ أَنِي مَدَّكُمْ بِالْفَفِّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ [ الأَنْفَال : 9 ] من تحقيق أن تكون ( أن ) المفتوحة الهمزة المشددة النون مفيدة معنى ( أن ) التفسيرية ، إذا وقعت معمولة لما فيه معنى القول دون حروفه .  
والمعنى حقيقتها هنا مستحيلة فتحمل على اللاتقة بالله تعالى أعني المعية المجازية ، فقد يكون معناها توجه عنايته إليهم وتيسير العمل لهم ، وقد تكرر إطلاق ( مع ) بمثل هذا في القرآن كقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ [ الحديد : 4 ] .

(131/307)

---

وإيحاء الله إلى الملائكة بهذا مقصود منه تشريفهم وتشريف العمل الذي سيكلفون به ، لأن المعية تؤذن إجمالاً بوجود شيء يستدعي المصاحبة ، فكان قوله لهم : ﴿ أَنِي مَعَكُمْ ﴾ مقدمة للتكليف بعمل شريف ولذلك يذكر ما تتعلق به المعية لأنه سيعلم من بقية الكلام ، أي أنني معكم في عملكم الذي أكفلكم به .

ومن هنا ظهر موقع فاء الترتيب في قوله : ﴿ فَشَبَّوْا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من حيث ما دل عليه ﴿ أَنِي مَعَكُمْ ﴾ من التهيئة لتلقي التكليف بعمل عظيم وإنما كان هذا العمل بهذه المثابة

لأنه إبدال للحقائق الثابتة باقتلاعها ووضع أصدادها لأنه يجعل الجبن شجاعة، والخوف إقداماً والهلج ثباتاً، في جانب المؤمنين، ويجعل العزة رعباً في قلوب المشركين، ويقطع أعناقهم وأيديهم بدون سبب من أسباب القطع المعتادة فكانت الأعمال التي عهد للملائكة عملها خوارق عادات.

والتثبيت هنا مجاز في إزالة الاضطراب النفساني مما ينشأ عن الخوف ومن عدم استقرار الرأي واطمئنانه.

وعُرف المَثْبُوتُ بالموصول لما تومىء إليه صلة ﴿ آمَنُوا ﴾ من كون إيمانهم هو الباعث على هذه العناية، فتكون الملائكة بعناية المؤمنين لأجل وصف الإيمان. وتثبيت المؤمنين إيقاع ظن في نفوسهم بأنهم منصورون ويسمى ذلك إلهاماً وتثبيتاً، لأنه إرشاد إلى ما يطابق الواقع، وإزالة للاضطراب الشيطاني، وإنما يكون خيراً إذا كان جارياً على ما يحبه الله تعالى بحيث لا يكون خاطراً كاذباً، وإلّا صار غروراً، فتشجيع الخائف حيث يريد الله منه الشجاعة خاطر ملكي وتشجيعه حيث ينبغي أن يتوقى ويخاف خاطر شيطاني ووسوسة، لأنه تضليل عن الواقع وتخذيل.

(132/307)

---

ولم يسند إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إلى الملائكة بل أسنده الله إلى نفسه وحده بقوله  
: ﴿ سألني في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ لأن أولئك الملائكة المخاطبين كانوا ملائكة  
نصر وتأيد فلا يليق بقواهم إلقاء الرعب ، لأن الرعب خاطر شيطاني ذميم ، فجعله الله  
في قلوب الذين كفروا بواسطة أخرى غير الملائكة .

وأسند إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إلى الله على طريقة الإجمال دون بيان لكيفية  
إلقائه ، وكل ما يقع في العالم هو من تقدير الله على حسب إرادته ، وأشار ذلك إلى أنه رعب  
شديد قدره الله على كيفية خارقة للعادة ، فإن خوارق العادات قد تصدر من القوى  
الشيطانية بإذن الله وهو ما يسمى في اصطلاح المتكلمين بالإهانة والاستدراج ، ولا  
حاجة إلى قصد تحقير الشيطان بإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قصد تشريف  
الملائكة ، لأن إلقاء الرعب في قلوب المشركين يعود بالفائدة على المسلمين ، فهو مبارك أيضاً  
، وإنما كان إلقاء الرعب في قلوب المشركين خارقاً عادة ، لأن أسباب ضده قائمة ، وهي  
وفرة عددهم وعددهم وإقدامهم على الخروج إلى المسلمين ، وحرصهم على حماية  
أموالهم التي جاءت بها العير .

فجمله : ﴿ سألني في قلوب الذين كفروا ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً لإخباراً لهم بما  
يقتضي التخفيف عليهم في العمل الذي كفهم الله به بأن الله كفاهم تخذيل الكافرين بعمل  
آخر غير الذي كلف الملائكة بعمله ، فليست جملة ﴿ سألني ﴾ مفسرة لمعنى ﴿ أني

معكم ❁ .

ولم يقل سنلقي لئلا يتوهم أن للملائكة المخاطبين سبباً في إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا  
كما علمت آنفاً .

(133/307)

---

وتفريع ❁ فاضربوا فوق الأعناق ❁ على جملة : ❁ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب  
❁ المفرعة هنا أيضاً على جملة : ❁ فثبتوا الذين آمنوا ❁ في المعنى ، يؤذن بما اقتضته  
جملة ❁ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ❁ من تخفيف عمل الملائكة عليهم بعض  
التخفيف الذي دل عليه إجمالاً قوله : ❁ أني معكم ❁ كما تقدم ❁ فوق الأعناق ❁  
على الظرفية لاضرربوا .

و❁ الأعناق ❁ أعناق المشركين وهويين من السياق ، واللام فيه والمراد بعض الجنس  
بالقرينة للجنس أو عوض عن المضاف إليه بقرينة قوله بعد : ❁ واضربوا منهم كل بنان  
❁ .

والبنان اسم جمع بَنَانَةٌ وهي الأصبع وقيل طرف الأصبع ، وإضافة (كل) إليه لاستغراق  
أصحابها .

وإنما خصت الأعناق والبنان لأن ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين وضرب البنان ، يبطل صلاحية المضروب للقتال ، لأن تناول السلاح إنما يكون بالأصابع ، ومن ثم كثر في كلامهم الاستغناء بذكر ما تناوله اليد أو ما تناوله الأصابع ، عن ذكر السيف ، قال  
النابغة :

وَأَنْ تَلَادِي أَنْ نَظَرْتُ وَشَكَّيْ

وَمُهْرِي وَمَا ضَمَّتْ إِلَيَّ الْأَنَامِلُ . . .

يعني سيفه ، وقال أبو الغول الطهوي :

فَدَتْ نَفْسِي وَمَا مَلَكَتْ يَمِينِي . . .

فَوَارَسَ صُدِّقَتْ فِيهِمْ ظَنُونِي

يريد السيف ومثل ذلك كثير في كلامهم فضرب البنان يحصل به تعطيل عمل اليد فإذا  
ضربت اليد كلها فذلك أجدر .

وضرب الملائكة يجوز أن يكون مباشرة بتكوين قطع الأعناق والأصابع بواسطة فعل  
الملائكة على كيفية خارقة للعادة وقد ورد في بعض الآثار عن بعض الصحابة ما يشهد  
لهذا المعنى ، فإسناد الضرب حقيقة .

ويجوز أن يكون بتسديد ضربات المسلمين وتوجيه المشركين إلى جهاتها ، فإسناد الضرب



إلى الملائكة مجاز عقلي لأنهم سببه ، وقد قيل : الأمر بالضرب للمسلمين ، وهو بعيد ، لأن  
السورة نزلت بعد انكشاف الملحمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير - 9 ص ﴾

(134/307)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِذِ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾

والمولى سبحانه وتعالى هنا يبين أنه أوحى إلى الملائكة بالإلهام : أني معكم بالنصر والتأييد  
﴿ فَتَبَتُّوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

أي قووا عزائم المؤمنين وثبتوا قلوبهم . أي اجعلوا قلوبهم كأنها مربوطة عليها فلا يخافون أية  
أغيار من عدوهم ، ويزيد الإيضاح للمؤمنين : إياكم أن تظنوا أن كثرة العدد أو قوة العدد  
هي التي تصنع النصر . بل النصر دائماً من عند الله تعالى وسبحانه القائل : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ  
قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [ البقرة : 249 ] .

وذلك لأن النسبة بين المؤمنين والكافرين غير متوازنة وتحتاج إلى مدد عال من الله تعالى .  
وقلنا إن السماء تتدخل إذا كان الأمر فوق أسباب الخلق ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :  
﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [ النمل : 62 ] .

وإن قال قائل: أنا أدعو الله أكثر من مرة ولا يجيبني . . نرد عليه ونقول له: أنت لم تدع دعوة المضطر، بل دعوت دعوة المترف، مثلما يدعو ساكن في شقة بأن يرزقه الله بقصر صغير . أويدعو من يسير على أقدامه وتحمله سيارة العمل طالباً سيارة خاصة، أويدعو من يملك "تليفوناً" بأن يهبه الله جهاز "فيديو"، هذه كلها ليست دعوة اضطرار؛ لأن المضطر هو من فقد أسبابه .

ويتابع الحق القول في ذات الآية: ﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12] .

(135/307)

---

وإذا ألقى الله عز وجل الرعب والخوف في قلوب العدو ومهما كان عدده ومهما كانت عدده، فسيترك هذا العدو كل ما معه ويفر من حالة الرعب والفرع، وقد فعل بعض من الكفار ذلك . وقد امتنَّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بأن أمدهم بالملائكة بشرى واطمئناناً، وهياً لهم الماء، وطهرهم، وأذهب عنهم رجز الشيطان، وكل هذه مقدمات المعركة مستوفاة من جانب الحق تبارك وتعالى إمداداً لكم، وما عليكم أيها المؤمنون سوى أن تُقبلوا على المعركة بعزيمة صادقة، عزيمة المقاتل الشجاع المحارب الذي له من العقل ما

يفكر به ويدبر في التخطيط ، وفي الكر والفر .

وكانت أدوات القتال قديماً هي السيوف والرماح والنبال ، وكان المقاتل يحتاج رأسه ليخطط به ، ويحتاج يديه وأنامله ليمسك بها السيوف ، ولذلك ينبه الحق المؤمنين إلى هاتين النقطتين المؤثرتين فيقول : ﴿ فَاصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ .  
والضرب لما فوق الأعناق هو ضرب الرأس فيفقد القدرة على التفكير ، أو تذهب حياته لينتهي ، وإن بقي على قيد الحياة فسوف يشاهد مصارع زملائه وذلتهم . والضرب منهم في كل بنان . . أي ضربهم بالسيوف في أيديهم ؛ لأن الضرب في الأيدي إنما يجرحها ويجعلها عاجزة عن القتال .

لماذا ؟ . يجب الحق في الآية التالية : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . . ﴾ . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(136/307)

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

أخرج ابن أبي حاتم أخبرنا أبو بدر عباد بن الوليد المغربي فيما كتب إلي قال : سمعت أبا سعيد أحمد بن داود الحداد يقول : إنه لم يقل الله لشيء أنه معه إلا للملائكة يوم بدر . قال :  
إني معكم بالنصر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه قال : لم تقا تل الملائكة إلا يوم بدر .  
وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال : قال أبي : يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف .

(137/307)

---

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير ويقا تلوا عليها نزلوا على الماء يوم بدر فغلبوا المؤمنين عليه ، فأصاب المؤمنين الظماً فجعلوا يصلون مجننين ومحدثين ؟ فالتقى الشيطان في قلوب المؤمنين الحزن فقال لهم : أتزعمون أن فيكم النبي صلى الله عليه وسلم وإنكم أولياء الله وقد غلبتم على الماء وأنتم تصلون مجننين ومحدثين ؟ حتى تعاظم ذلك في صدور أصحاب النبي صلى الله

عليه وسلم : فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي ، فشرب المؤمنون ، وملأوا  
الأسقية ، وسقوا الركاب ، واغتسلوا من الجنابة ، فجعل الله في ذلك طهوراً وثبت أقدامهم  
، وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة ، فبعث الله المطر عليها فلبدها حتى اشتدت  
وثبت عليها الأقدام ، ونفر النبي صلى الله عليه وسلم بجميع المسلمين وهم يومئذ ثلثمائة  
وثلاثة عشر رجلاً ، منهم سبعون ومائتان من الأنصار وسائرهم من المهاجرين ، وسيد  
المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة لكبر سنه .

فقال عتبة : يا معشر قريش إني لكم ناصح وعليكم مشفق لا أدخر النصيحة لكم بعد  
اليوم ، وقد بلغت الذي تريدون وقد نجا أبو سفيان فارجعوا وأنتم سالمون ، فإن يكن محمد  
صادقاً فأنتم أسعد الناس بصدقه ، وإن يك كاذباً فأنتم أحق من حقن دمه . فالتفت إليه  
أبو جهل فشتمه وفتح وجهه وقال له : قد امتلأت أحشاؤك رعباً . فقال له عتبة : سيعلم  
اليوم من الجبان المفسد لقومه .

(138/307)

---

فنزل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، حتى إذا كانوا أقرب أسنة المسلمين قالوا : ابعثوا  
إلينا عدتنا منكم نقاتلهم . فقام غلظة من بني الخزرج فاجلسهم النبي صلى الله عليه وسلم

ثم قال: يا بني هاشم أتبعثون إلى أخويكم - والنبي منكم - غلمة بني الخزرج؟ فقام حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، فمشوا إليهم في الحديد فقال عتبة: تكلموا نعرفكم، فإن تكونوا أكفأنا نقاتلكم. فقال حمزة رضي الله عنه: أنا أسد الله وأسد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له عتبة: كفء كريم. فوثب إليه شيبة فاختلفا ضربتين فضر به حمزة فقتله، ثم قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الوليد بن عتبة فاختلفا ضربتين فضر به علي رضي الله عنه فقتله، ثم قام عبيدة فخرج إليه عتبة فاختلفا ضربتين فجرح كل واحد منهما صاحبه، وكر حمزة على عتبة فقتله، فقام النبي صلى الله عليه وسلم فقال "اللهم ربنا أنزلت علي الكتاب وأمرتني بالقتال ووعدتني النصر ولا تخلف الميعاد" فأتاه جبريل عليه السلام، فأنزل عليه ﴿الن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ [آل عمران: 124] فأوحى الله إلى الملائكة ﴿إني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فا ضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ فقتل أبو جهل في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً، فوفى ذلك سبعين وأسر سبعون.

(139/307)

---

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن بعض بني ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة رضي الله عنه بعدما أصيب بصره يقول : لو كنت معكم بيدرا الآن ومعني بصري لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى ، فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس ، وأوحى الله : إليهم إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، وثبتتهم أن الملائكة عليهم السلام تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه فيقول : ابشروا فإنهم ليسوا بشيء والله معكم كروا عليهم ، فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه وقال : إني بريء منكم وهو في صورة سراقه ، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول : لا يهولنكم خذلان سراقه إياكم فإنه كان على موعد من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم قال : واللوات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه في الحبال ، فلا تقتلوا وخذوهم أخذاً .

وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال " لما حضر القتال ورسول الله صلى الله عليه وسلم رافع يديه يسأل الله النصر ، ويقول : اللهم إن ظهروا على هذه العصاة ظهر الشرك ، ولا يقوم لك دين ، وأبو بكر رضي الله عنه يقول : والله لينصرك الله وليبيضن وجهك ، فأنزل الله عز وجل ألفاً من الملائكة مردفين عند أكفاف العدو ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبشروا يا أبا بكر هذا جبريل عليه السلام معتجر بعمامة صفراء أخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض ، فلما نزل إلى الأرض تغيب عني ساعة ثم نزل على ثناياه النقع ، يقول : أتاك نصر الله إذ دعوته " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى  
الملائكة عليهم السلام ممن قتلوهم بضرب على الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد  
أحرق به .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ فاضربوا فوق  
الأعناق ﴾ يقول : الرؤوس .

(140/307)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطية رضي الله عنه في قوله ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾  
قال : اضربوا الأعناق .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿  
فاضربوا فوق الأعناق ﴾ يقول : اضربوا الرقاب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿  
واضربوا منهم كل بنان ﴾ قال : كل مفصل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي رضي الله عنه في قوله ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾  
قال : أضرب منه الوجه والعين ، وارمه بشهاب من نار .



وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله تعالى ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ قال : أطراف الأصابع وبلغه هذيل الجسد كله .

قال : فأنشدني في كليهما ؟ قال : نعم ، أما أطراف الأصابع فقول عنتر العبسي :

فنعم فوارس الهيجاء قومي . . . إذا علق الأعنة بالبنان

وقال الهذلي في الجسد :

لها أسد شاكي البنان مقذف . . . له لبد أظفاره لم تقلم

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبي داود المازني رضي الله عنه قال : بينا أنا أتبع

رجلاً من المشركين يوم بدر ، فاهويت إليه بسيفي فوق رأسه قبل أن يصل سيفي إليه ،

فعرفت أن قد قتله غيري .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم

كل بنان ﴾ قال : ما وقعت يوماً ضربة إلا برأس أو وجه أو مفصل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور ج 4 ص ﴾

(141/307)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾

في "إِذْ" أوجه:

أحدها: أنه بدلٌ ثالثٌ من قوله ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمْ﴾ .

الثاني: أن ينتصب بقوله "يُتَّبِتَ" .

قالهما الزمخشريُّ ولم يبن ذلك على عود الضمير .

وأما ابن عطية: فبناه على عود الضمير في قوله "به" فقال: العامل في "إِذْ" العامل الأول

على ما تقدّم فيما قبلها ، ولو قدرناه قريباً لكان قوله: "وَيُتَّبِتَ" على تأويل عوده على

الرَّبِطِ .

وأما على تأويل عوده على: "الماء" فيقول أن يعمل "وَيُتَّبِتَ" في "إِذْ" وإنما قلق ذلك

عنده لاختلاف زمان التَّبِتِ و زمان الوحي ، فإن أنزل المطر وما تعلق به من تعليقاتٍ

متقدِّمٌ على تغشية النُّعاسِ ، وهذا الوحيُّ وتغشية النُّعاسِ والإيجاءُ كانا وقت القتال .

قوله: "أَنْبِيَّ مَعَكُمْ" مفعولٌ بـ "يُوحِي" أي: يوحى كوني كعكم بالغبية والنصر .

وقرأ عيسى بن عمر - بخلافٍ عنه - "أَنْبِيَّ مَعَكُمْ" بكسر الهمزة وفيه وجهان:

أحدهما: أن ذلك على إضمار القول ، وهو مذهب البصريين .

والثاني: إجراء "يُوحِي" مُجْرَى القول؛ لأنه بمعناه، وهو مذهب الكوفيين.

قوله: "فَوْقَ الْأَعْنَاقِ" فيه أوجه:

أحدها: أن "فَوْقَ" باقية على ظرفيتها والمفعول محذوف، أي: فاضربوهم فوق

الأعناق.

علمهم كيف يضربونهم.

والثاني: أن "فَوْقَ" مفعول به على الاتساع؛ لأنه عبارة عن الرأس، كأنه قيل: فاضربوا

رؤوسهم، وهذا ليس بجيد؛ لأنه لا يتصرّف.

وزعم بعضهم أنه يتصرّف، وأنت تقول: فوقك رأسك برفع فوقك، وهو ظاهر قول

الزمخشري، فإنه قال: "فَوْقَ الْأَعْنَاقِ" أراد أعالي الأعناق التي هي المذابح لأنها مفاصل.

الثالث: - وهو قول أبي عبيدة - : أنها بمعنى "على" أي: على الأعناق ويكون المفعول

محذوفاً تقديره: فاضربوهم على الأعناق، وهو قريب من الأول.

الرابع: قال ابن قتيبة: هي بمعنى: "دون".

قال ابن عطية: " وهذا خطأ بين وغلط فاحش، وإنما دخل عليه اللبس من قوله: ﴿...﴾  
بعوضة فما فوقها ﴿ [البقرة: 26] أي: فما دونها وليست "فوق" هنا بمعنى "دون"  
وإنما المراد: فما فوقها في القلة والصغر".

الخامس: أنها زائدة أي: اضربوا الأعناق، وهو قول أبي الحسن.  
وهذا عند الجمهور خطأ؛ لأن زيادة الأسماء لا يجوز.

قوله: ﴿...﴾

منهم كل بنان ﴿ يجوز أن يتعلق: "منهم" بالأمر قبله، أي: ابتدؤا الضرب من هذه  
الأماكن، وهذا الكلام مع ما قبله معناه: اضربوهم في جميع الأماكن والأعضاء من أعاليهم  
إلى أسافلهم، ويجوز أن يتعلق بحذوف على أنه حال من: "كل بنان" لأنه في الأصل يجوز  
أن يكون صفة لتأخر، قال أبو البقاء: "ويضعف أن يكون حالاً من "بنان" إذ فيه تقديم  
حال المضاف إليه على المضاف".

فكان المعنى: اضربوهم كيف ما كان.

قال الزمخشري: يعني ضرب الهام.

قال: [الوافر]

2677 - .....

وأضرب هامة البطل المشيح

وقال: [البسيط]

2678 - غَشَّيْنُهُ وَهُوَ فِي جَأْوَءِ بَاسِلَةٍ . . .

عَضْبًا أَصَابَ سِوَاءَ الرَّأْسِ فَانْفَلَقَا

وقال ابن عطية: ويُحتمل أن يريد بقوله: "فوق الأعناق" وصف أبلغ ضربات العنق،

وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأس.

ثم قال: ومنه قوله: [الوافر]

2679 - جَعَلْتُ السَّيْفَ بَيْنَ الْجَيْدِ مِنْهُ . . .

وَبَيْنَ أَسِيلِ خَدَيْهِ عِذَارًا

وقيل: هذا من ذكر الجزء وإرادة الكل؛ كقول عنتره: [الكامل]

2680 - عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارِ كَأَنَّما . . .

خُضِبَ الْبَنَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْمِ

والبنان: قيل: الأصابع، وهو اسم جنس، الواحد: بنانة؛ قال عنتره: [الوافر]

2681 - وَأَنَّ الْمَوْتَ طَوْعُ يَدِي إِذَا مَا . . .

وَصَلْتُ بِنَانَهَا بِالْهِنْدُؤَانِي

---

وقال أبو الهيثم: "البنانُ: المفاصلُ، وكل مفصل بنانة".

وقيل: البنانُ الأصابع من اليدين والرجلين، وجميع المفاصل من جميع الأعضاء، وأنشد

لعنتره: [الطويل]

2682 - وقد كان في الهيجاء يحمي دماءها . . .

ويضربُ عندَ الكُربِ كلَّ بنانٍ

وقد تُبدلُ نونه الخيرة ميمًا؛ قال رؤبة: [الرجز]

2683 - يا هال ذات المنطق التمام . . .

وكفك المخضب البنام. انتهى انتهى. ١٠هـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 470.

473 . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتُ فِي

قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ .

عرفنا أن الملائكة محتاجون إلى تعريف الحق إياهم قضايا التوحيد . وثبتت الملائكة

للمؤمنين : قيل كانوا يظهرون للمسلمين في صور الرجال يخاطبونهم بالإخبار عن قلة عدد

المشركين واستيلاء المسلمين عليهم ، وهم لا يعرفون أنهم ملائكة .

وقيل تشبيتهم إياهم بأن كانوا يلقون في قلوبهم ذلك من جهة الخواطر ، ثم إن الله يخلق لهم فيها ذلك ، فكما يُوصَلُ الحق سبحانه - وساوس الشيطان إلى القلوب يوصل خواطر الملك ، وأيدهم بإلقاء الخوف والرعب في قلوب الكفار .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاصْرُبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

وذلك بأمر الله وتعريفه من جهة الوحي والكتاب ، ويكون معناه إياحة ضربهم ونيلهم على أي وجه كان كيفما أصابوا أسافلهم وأعاليمهم . ويحتمل فاصربوا فوق الأعناق ضرباً يوجب قتلهم ؛ لأنه لا حياة بعد ضرب العنق . ولفظ فوق يكون صلة .

﴿ وَاصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ أي ضرباً يعجزهم عن الضرب ومقاتلة المسلمين ؛ لأنه لا مقاتلة تحصل بعد فوات الأطراف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص

قوله تعالى ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدٌ

### العقَاب (13) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم علل تسليطهم عليهم بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي التسليط العظيم ، وأخبر عنه بقوله : ﴿ بأنهم ﴾ أي الذي تلبسوا الآن بالكفر ولو كانوا ممن يقضي بإيمانه بعد ﴿ شاقوا الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا يطاق انتقامه ﴿ ورسوله ﴾ أي طلبوا أن يكونوا بمخالفة الأوامر والنواهي في شق غير الذي فيه حزب الهدى في مكر منهم وخداع ، وشاقوه باشتهار السيف جهراً - ثم بين ما لفاعل ذلك ، فقال عاطفاً على تقديره : فمن شاق الله ورسوله فافعلوا به ذلك ، فإني فاعل به ما فعلت بهؤلاء ، وأظهر الإدغام في المضارع لأن القصة للعرب وأمرهم في عداوتهم كان بعد الهجرة شديداً ومجاهرة ، وأدغم في الماضي لأن ما مضى قبلها كان ما بين مساترة بالمماكرة ومجاهرة بالمقااهرة ، وعبر بالمضارع ندباً إلى التوبة بتقيد الوعيد بالاستمرار ، وأدغم في الحشر في الموضعين لأن القصة لليهود وأمرهم كان ضعيفاً ومساترة في مماكرة : ﴿ ومن يشاقق الله ﴾ أي الذي له الأمر كله فلا أمر لأحد معه ويشاقه سراً أو جهراً ﴿ ورسوله ﴾ بأن يكون في شق غير الشق الذي يرضيانه ﴿ فإن الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ شديد العقاب ﴾ أي له هذه الصفة ، فليتوقع



مشاققه عذابه ، فالآية من الاحتباك : ذكر الفعل المدغم أولاً دليل على حذف المظهر ثانياً ،  
والمظهر ثانياً على حذف المدغم أولاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص

﴿ 194

(145/307)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الوجوه الكثيرة من النعم على المسلمين .

قال : ﴿ ذَلِكُ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ والمعنى : أنه تعالى ألقاهم في الخزي والنكال من

هذه الوجوه الكثيرة بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله .

قال الزجاج : ﴿ شَاقُوا ﴾ جانبوا ، وصاروا في شق غير شق المؤمنين ، والشق الجانب

﴿ وَشَاقُوا ﴾ \* \* \* الله ﴿ مجاز ، والمعنى : شاقوا أولياء الله ، ودين الله .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ يعني أن هذا الذي نزل بهم

في ذلك اليوم شيء قليل مما أعده الله لهم من العقاب في القيامة ، والمقصود منه الزجر عن

الكفر والتهديد عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 109 ﴿

وقال السمرقندي :

﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ ﴾ ،

يعني ذلك الضرب والقتل سبب أَنَّهُمْ ﴿ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، يعني عادوا الله ورسوله ،  
وخالفوا الله ورسوله .

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ ﴾ ورسوله ، يعني من يخالف الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ إذا

عاقب . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ بحر العلوم ج ٢ ص ٢٠٠ ﴾

(146/307)

وقال ابن عطية :

﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنون داخلون فيه بالمعنى والضمير في ﴿  
بأنهم ﴾ عائد على الذين كفروا ، و ﴿ شاقوا ﴾ معناه خالفوا ونابدوا وقطعوا ، وهو  
مأخوذ من الشق وهو القطع والفصل بين شيئين ، وهذه مفاعلة فكان الله لما شرع شرعاً  
وأمر بأوامر وكذبوا هم وصدوا تباعد ما بينهم وانفصل وانشق ، مأخوذ من هذا لأنه مع  
شقه الآخر تباعداً وانفصلاً وعبر المفسرون عن قوله ﴿ شاقوا ﴾ أي صاروا في شق

غير شقه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا وإن كان معناه صحيحاً فتحرير الاشتقاق إنما هو ما ذكرناه ، والمثال الأول إنما هو الشَّق بفتح الشين ، وأجمعوا على الإظهار في ﴿ يشاقق ﴾ إتباعاً لخط المصحف ، وقوله ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ جواب الشرط تضمن وعيداً وتهديداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾

الإشارة إلى ما حلّ بهم من إلقاء الرعب في قلوبهم وما أصابهم من الضرب والقتل ، والكاف لخطاب الرسول أو لخطاب كل سامع أو لخطاب الكفار على سبيل الالتفات و ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ و ﴿ بأنهم ﴾ هو الخبر والضمير عائد على الكفار وتقدم الكلام في المشاقّة في قوله ﴿ فإنما هم في شقاق ﴾ والمشاقّة هنا مفاعلة فكأنه تعالى لما شرع شرعاً وأمر بأوامر وكذبوا بها وصدّوا تباعد ما بينهم وانفصل وانشق وعبر المفسرون في قوله شاقوا الله أي صاروا في شقّ غير شقه .

﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ أجمعوا على الفكّ في ﴿ يشاقق ﴾ إتباعاً لخط المصحف وهي لغة الحجاز والإدغام لغة تميم كما جاء في الآية الأخرى ﴿ ومن يشاق الله ﴾ ، وقيل فيه حذف مضاف تقديره شاقوا أولياء الله و ﴿ من ﴾

شرطية والجواب ﴿ فإن ﴾ وما بعدها والعائد على ﴿ من ﴾ محذوف أي ﴿ شديد العقاب ﴾ له وتضمن وعيداً وتهديداً وبدأهم بعذاب الدنيا من القتل والأسر والاستيلاء عليهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(147/307)

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما أصابهم من العقاب ، وما فيه من معنى البعد للإيدان يُبعد درجته في الشدة والفظاعة ، والخطابُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحدٍ ممن يليق بالخطاب ، ومحله الرفع على الابتداء وخبره قوله تعالى : ﴿ بَأَنَّهُمْ شَاتِقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي ذلك العقابُ الفظيعةُ واقعٌ عليهم بسبب مُشاقَّتِهِمْ ومغالبتِهِمْ من لا سبيلَ إلى مغالبتِهِ أصلاً ، واشتقاقُ المُشاقَّةِ من الشَّقِّ لما أن كلاً من المُشاقِّين في شِقِّ الآخر كما أن اشتقاقَ المُعاداةِ والمُخاصمةِ من العَدُوَّةِ والخِصْمِ أي الجانبِ لأن كلاً من المتعاديِّين والمتخاصمِين في عَدُوَّةٍ وخِصْمٍ غيرِ عَدُوَّةِ الآخرِ وخِصْمِهِ ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الإظهارُ في موضع الإضمار لتربية المهابة وإظهار كمالِ شناعة ما اجتروا عليه والإشعار بعلّة الحكم . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ إما نفسُ الجِزاءِ قد حُذِفَ منه العائدُ إلى ( مَنْ )

( عند من يلتزمه ، أي شديد العقاب له ، أو تعليل للجزاء المحذوف أي يعاقبه الله فإن الله شديد العقاب ، وأياً ما كان فالشرطية تكملة لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهاني ، كأنه قيل : ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كائناً من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فإذن لهم بسبب مشاقتهم لهما عقاب شديد ، وأما أنه وعيد لهم بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا كما قيل فيرده ما بعده من قوله تعالى : ﴿ ذلکم فذوقوه وأنّ للکافرين عذاب النار ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسیر أبی السعود ح 4 ص ﴾

(148/307)

وقال الآلوسی :

﴿ ذلک بأنّهم شاقوا الله ورسوله ﴾

﴿ ذلک ﴾ إشارة إلى الضرب والأمر به أو إلى جميع ما مر ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من ذكر قبل من الملائكة والمؤمنين على البدل أو لكل أحد ممن يليق بالخطاب .

وجوز أن يكون خطاباً للجمع ، والكاف تفرد مع تعدد من خوطب بها ، وليست كالضمير

على ما صرحوا به ، ومحل الاسم الرفع على الابتداء وخبره قوله سبحانه وتعالى : ﴿ بَأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وقال أبو البقاء : إن ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك وليس الأمر ذلك ، والباء للسببية والمشاققة العداوة سميت بذلك أخذاً من شق العصا وهي المخالفة أو لأن كلاً من المتعادين يكون في شق غير شق الآخر كما أن العداوة سميت عداوة لأن كلاً منهما في عدوة أي جانب وكما أن المخاصمة من الخصم بمعنى الجانب أيضاً ، والمراد بها هنا المخالفة أي ذلك ثابت لهم أو واقع عليهم بسبب مخالفتهم لمن لا ينبغي لهم مخالفة بوجه من الوجوه ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي يخالف أمر الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ؛ والإظهار في مقام الإضمار لتربية المهابة وإظهار كمال شناعة ما اجتروا عليه والإشعار بعلية الحكم ، وبس خطيب القوم أنت اقتضاه الجمع على وجه لا يبين منه الفرق ممن هو في رتبة التكليف ؛ وأين هذا من ذاك لو وقع ممن لا حجر عليه وإنما لم يدغم المثان لأن الثاني ساكن في الأصل والحركة لالتقاء الساكنين فلا يعتد بها ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ إما نفس الجزاء قد حذف منه العائد عند من يلتزمه ولا يكفي بالفاء في الربط أي شديد العقاب له ، أو تعليل للجزاء المحذوف أي عاقبه الله تعالى فإن الله شديد العقاب ، وأياً ما كان فالشرطية بيان للسببية السابقة بطريقة برهاني ، كأنه قيل : ذلك العقاب الشديد بسبب المشاققة لله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وكل من يشاقق الله ورسوله كائناً من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فأذن لهم بسبب

مشاققة الله ورسوله عقاب شديد ، وقيل : هو ويد بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا ، قال بعض المحققين : ويرده قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14) ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(149/307)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾

تعليل لأن الباء في قوله ﴿ بأنهم ﴾ باء السببية فهي تفيد معنى التعليل ولهذا فصلت الجملة .

والمخاطب بهذه الجملة : إما الملائكة ، فتكون من جملة الموحى به إليهم إطلاعاً لهم على حكمة فعل الله تعالى .

لزيادة تقريبهم ، ولا يريبك أفراد كاف الخطاب في اسم الإشارة لأن الأصل في الكاف مع اسم الإشارة الأفراد والتذكير ، وإجراؤها على حسب حال المخاطب بالإشارة جائز وليس بالمتعين ، وإما من تبلغهم الآية من المشركين الأحياء بعد يوم بدر ، ولذا فالجملة معترضة للتحذير من الاستمرار على مشاققة الله ورسوله .

والقول في إفراد الكاف هو هو إذ الخطاب لغير معين والمراد نوع خاص ، ويجوز أن يكون

المخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم

والمشار إليه ما أمروا به من ضرب الأعناق وقطع البنان .

وإفراد اسم الإشارة بتأويله بالمذكور ، وتقدم غير مرة .

والمشاقة العداوة بعصيان وعناد ، مشتقة من الشق بكسر الشين وهو الجانب ، هو اسم

بمعنى المشقوق أي المفرق ، ولما كان المخالف والمعادي يكون متباعداً عن عدوه فقد

جعل كأنه في شق آخر ، أي ناحية أخرى ، والتصريح بسبب الانتقام تعريض للمؤمنين

ليستزيدوا من طاعة الله ورسوله ، فإن المشيئة لما كانت سبب هذا العقاب العظيم

فيوشك ما هو مخالفة للرسول بدون مشاقة أن يُوقع في عذاب دون ذلك ، وخليق بأن يكون

ضدها وهو الطاعة موجبا للخير .

وجملة : ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ تذييل يعم كل من يشاقق

الله ويعم أصناف العقائد .

والمراد من قوله : ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ الكناية عن عقاب المشاقين وبذلك يظهر

الارتباط بين الجزاء وبين الشرط باعتبار لازم الخبر وهو الكناية عن تعلق مضمون ذلك

الخبر بمن حصل منه مضمون الشرط ، كقول عنتره :

إن تغد في ، دوني القناع فإني



طَبُّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمَسْتَلَمِ . . .

يريد فأنى لا يخفى على من يستر وجهه منى وأنى أتوسمه وأعرفه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(150/307)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

وهنا يوضح الحق سبحانه وتعالى : أن هذا النصر المؤزر للنبي وصحبه والهزيمة للمشركين

؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله ، و " شاقوا " من " الشق " ومعناه أنك تقسم الشيء الواحد إلى

اثنين . وكان المفروض في الإنسان منهم أن يستقبل منهم الله الذي نظم له حركته في هذا

الكون ، ولم يكن هناك داع لتبديد الطاقة بالانشقاق إلى جماعتين ؛ جماعة مع الرسول صلى

الله عليه وسلم وجماعة مع الكفر والشرك ؛ لأن الطاقة التي كانت معدة لإصلاح أمر

الإنسان والكون للخلافة ؛ إنما يتبدد جزء منها في الحروب بين الحق والباطل ، ولو توقفت

الحروب لصارت الطاقة الإنسانية كلها موجهة للإصلاح والارتقاء والنهوض وتحقيق الخير

لبنى الإنسان ، لكنهم شاقوا الله ورسوله ، فجعلوا أنفسهم في جانب يواجه جانب المؤمنين

بالله ورسوله ، فجعلوا أنفسهم في جانب يواجه جانب يواجه جانب المؤمنين بالله والرسول ؛ لذلك استحقوا عذاب الله وعقابه ، وسبب أنهم شاقوا الله ورسوله ، عليهم أن يتحملوا العقاب الشديد من الله ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [ الأنفال : 13 ] .

وهذه قضية عامة ، وسنة من الله في كونه تشمل هؤلاء الذين شاقوا الله ورسوله من بدء الرسالة ، وإلى قيام الساعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(151/307)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ " ،

" ذلك " مبتدأ وخبر ، والإشارة إلى الأمر بضربهم ، والخطابُ يجوزُ أن يكون للرسول -

صلى الله عليه وسلم - ويجوز أن يكون للكفار ، وعلى هذا فيكون التفاتاً .

كذا قال أبو حيان وفيه نظر لوجهين :

أحدهما : أنه يلزم من ذلك خطابُ الجمع بخطاب الواحد ، وهو ممتنعٌ أو قليلٌ ، وقد حُكيتُ

لُغْيَةً .

والثاني : أَنْ بَعْدَهُ : ﴿ بَأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ ﴾ فيكون التفت من الغيبة إلى الخطاب في كلمة واحدة ، ثم رجع إلى الغيبة في الحال ، وهو بعيد .

قوله : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ ﴾ " مَنْ " مبتدأ ، والجملة الواقعة بعدها خبرها ، أو الجملة الواقعة جزءاً أو مجموعهما ، ومن التزم عود ضمير من جملة الجزاء على اسم الشرط قدره هنا محذوفاً تقديره : فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لَهُ .

وانفق القراء على فك الإدغام هنا في : " يُشَاقِقِ " ؛ لأنَّ المصاحف كتبه بقافين مفكوكين ، وفك هذا النوع لغة الحجاز ، والإدغام بشرطه لغة تميم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

ابن عادل ح 9 ص 473 ﴿

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بين أنهم في مغاليط حسابانهم وأكاذيب ظنونهم والمنشئ - بكل وجه - الله ؛ لانفراده بقدرته الإيجاد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

يُمَهِّلُ الجرمَ أيَماً ثم لا يهمله ، بل يُذيقه بأس فعله ، ويزيل عنه شبهة ظنه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 607.608 ﴾

قوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم الآية ببيان السبب الموجب لإهانة الذين كفروا وبما له من الوصف العظيم ، أتبعه ما يقول لهم لبيان الحال عند ذلك بقوله التفاتاً إليهم لمزيد التبكيت والتوبيخ .

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي هو سبحانه بما له من هذا الوصف الهائل يذيق عدوه من عذابه ما لا طاقة لهم به ولا يدان ، فيصير لسان الحال مخاطباً لهم نيابة عن المقال : الأمر الذي حذرتكم منه الرسل وأتتكم به الكتب وكنتم تستهزئون به أيها الكفرة هو هذا الأمر الشديد وقعه البعيد على من ينزل عليه دفعه دهمكم ، فما لكم لا تدافعونه ! كلا والله شغل كلاً ما قابله ولم يقدر أن يزاوله .

ولما كان ما وقع لهم في وقعة بدر من القتل والأسر والقهر يسيراً جداً بالنسبة إلى ما لهم في الآخرة ، سماه ذوقاً لأنه يكون بالقليل ليعرف به حال الكثير فقال : ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ أي باشروه قهراً مباشرة الذائق واعلموا أنه بالنسبة إلى ما تستقبلونه كالمذوق بالنسبة إلى

المذوق لأجله ﴿ وَأَنَّ ﴾ أي والأمر الذي أتكم به الرسل والكتب أن لكم مع هذا الذي  
ذقتموه في الدنيا ، هكذا كان الأصل ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً بالوصف فقال :  
﴿ للكافرين ﴾ أي على كفرهم وإن لم يظهروا المشاققة ﴿ عذاب النار ﴾ وهو مواقعكم  
وهو أكبر وسترون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 195 ﴾

(153/307)

فصل

قال الفخر :

﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14) ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال الزجاج : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ رفع لكونه خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : الأمر ذلكم فذوقوه ،

ولا يجوز أن يكون ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ ابتداء ، وقوله : ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ خبر ، لأن ما بعد الفاء لا

يكون خبراً للمبتدأ ، إلا أن يكون المبتدأ اسماً موصولاً أو نكرة موصوفة ، نحو : الذي يأتيني

فله درهم ، وكل رجل في الدار فمكرم .

أما أن يقال: زيد فمنطلق، فلا يجوز إلا أن نجعل زيدا خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير:  
هذا زيد فمنطلق، أي فهو منطلق.

### المسألة الثانية:

أنه تعالى لما بين أن من يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب، بين من بعد ذلك صفة  
عقابه، وأنه قد يكون معجلاً في الدنيا، وقد يكون مؤجلاً في الآخرة، ونبه بقوله: ﴿ ذلكم  
فَذُوقُوهُ ﴾ وهو المعجل من القتل والأسر على أن ذلك يسير بالإضافة إلى المؤجل لهم في  
الآخرة، فلذلك سماه ذوقاً، لأن الذوق لا يكون إلا تعرف طعم اليسير ليعرف به حال  
الكثير، فعاجل ما حصل لهم من الآلام في الدنيا كالذوق القليل بالنسبة إلى الأمر العظيم  
المعد لهم في الآخرة، وقوله: ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ يدل على أن الذوق يحصل بطريق آخر سوى  
إدراك الطعوم المخصوصة، وهي كقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان  
: 49] وكان عليه السلام يقول: "أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني" فهذا يدل على  
إثبات الذوق والأكل والشرب بطريق روحاني مغاير للطريق الجسماني. انتهى انتهى. اهـ

﴿ مفاتيح الغيب ج 15 ص 110 ﴾

(154/307)

وقال السمرقندی :

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ ، يعني ذلكم القتل يوم بدر ، ﴿ فذوقوه ﴾ في الدنيا ، ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ يوم القيامة مع القتل في الدنيا يعني أن القتل والضرب لم يصر كفارة لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ ذَلِكُمْ فذوقوه ﴾ عاجلا ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ في المعاد ﴿ عَذَابَ النَّارِ ﴾ وفي فتح ( أن ) وجهان من الإعراب أحدهما الرفع والآخر النصب :  
فأما الرفع فعلى تقدير ذلكم تقديره : ذلكم يذوقوه ، وذلك أن للكافرين عذاب النار .  
وأما النصب فعلى وجهين : أحدهما : بمعنى فعل مضمرة : ذلكم فذوقوه وأعلموا وأيقنوا أن للكافرين .

والآخر بمعنى : وما للكافرين فلما حذف الياء نصب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ فذوقوه ﴾

المخاطبة للكفار ، أي ذلك الضرب والقتل وما وأوقع الله بهم يوم بدر ، فكأنه قال الأمر ذلك فذوقوه وكذا فسرہ سيبويه ، وقال بعضهم : يحتمل أن يكون ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ في موضع

نصب كقوله زيداً فاضربه ، وقرأ جمهور الناس " وأن " بفتح الألف ، فإما على تقدير وحتم أن . فيقدر على ابتداء محذوف يكون " أن " خبره ، وإما على تقدير واعلموا أن ، فهي على هذا في موضع نصب ، وروى سليمان عن الحسن بن أبي الحسن و " إن " على القطع والاستئناف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(155/307)

وقال أبو حيان :

﴿ ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾

جمع بين العذاب الدنيا وهو المعجل وعذاب الآخرة وهو المؤجل والإشارة بذلك إلى ما حلّ بهم من عذاب الدنيا والخطاب للمشاقين ولما كان عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة يسيراً سمي ما أصابهم منه ذوقاً لأن الذوق يعرف به الطعم وهو يسير ليعرف به حال الطعم الكثير كما قال تعالى : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمائلون منها البطون ﴾ ﴿ فما حصل لهم من العذاب في الدنيا كالذوق القليل بالنسبة إلى ما أعدّ لهم في الآخرة من العذاب العظيم وذلك مرفوع إما على ابتداء والخبر محذوف أي ذلكم العقاب أو على الخبر والمبتدأ محذوف أي العقاب ذلكم وهما تقديران



للزخشي .

وقال ابن عطية : أي ذلكم الضرب والقتل وما أوقع الله بهم يوم بدر فكأنه قال الأمر ﴿

ذلكم ﴿ ذوقوه ﴿ انتهى .

وهذا تقدير الزجاج .

(156/307)

---

وقال الزخشي ويجوز أن يكون نصباً على عليكم ﴿ ذلكم فذوقوه ﴿ كقولك زيداً  
فاضربه انتهى ، ولا يجوز هذا التقدير لأنّ عليكم من أسماء الأفعال وأسماء الأفعال لا  
تضم وتشبيهه له بقولك زيداً فاضربه ليس بجيد لأنهم لم يقدروه بعليك زيداً فاضربه وإنما  
هذا منصوب على الاشتغال وقد أجاز بعضهم في ذلك أن يكون منصوباً على الاشتغال  
وقال بعضهم لا يجوز أن يكون ذلكم مبتدأ أو فذوقوه خبراً لأنّ ما بعد الفاء لا يكون خبراً  
لمبتدأ إلا أن يكون المبتدأ اسماً موصولاً أو نكرة موصوفة نحو الذي يأتيني فله درهم وكل  
رجل في الدار فمكرم انتهى ، وهذا الذي قاله صحيح ومسألة الاشتغال تنبني على صحة  
جواز أن يكون ﴿ ذلكم ﴿ يصح فيه الابتداء إلا أن قولهم زيداً فاضربه وزيد فاضربه  
ليست الفاء هنا كالفاء في الذي يأتيني فله درهم لأن هذه الفاء دخلت لتضمن المبتدأ

معنى اسم الشرط ولذلك شروط ذكرت في النحو والفاء في زيد فاضربه هي جواب لأمر مقدر ومؤخرة من تقديم والتقدير تنبه فزيداً ضربه وقالت العرب زيدياً فاضربه وقدره النحاة تنبه فاضرب زيدياً وابتنى الاشتغال في زيدياً فاضربه على هذا التقدير فقد بان الفرق بين الفاءين ولولا هذا التقدير لم يجز زيدياً فاضرب بل كان يكون التركيب زيدياً اضرب كما هو إذا لم يقدر هناك أمر بالتنبيه محذوف .

وقرأ الجمهور ﴿ وأن ﴾ بفتح الهمزة .

قال الزمخشري عطف على ﴿ ذلكم ﴾ في وجهيه أو نصب على أن الواو بمعنى مع ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة فوضع الظاهر موضع الضمير أي مكان وأن لكم ﴿ وأن للكافرين ﴾ .

وقال ابن عطية إما على تقدير وحتم ﴿ أن ﴾ فتقدير ابتداء محذوف يكون خبره .  
وقال سيبويه التقدير الأمر ﴿ ذلكم ﴾ وأما على تقدير واعلموا أن فهي في موضع نصب انتهى .

وقرأ الحسن وزيد بن علي وسليمان التيمي وإن بكسر الهمزة على استئناف الأخبار .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

فإنه مع كونه هو المسوق للوعيد بما ذكر ناطقٌ بكون المراد بالعقاب المذكور ما أصابهم عاجلاً سواءً جعل ذلكم إشارةً إلى نفس العقاب أو إلى ما تفيدُه الشرطية من ثبوت العقاب لهم ، أما على الأول فلأن الأظهر أن محله نصبٌ بمضمريستدعيه قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ ، والواو في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ الخ بمعنى مع فالمعنى باشروا ذلكم العقاب الذي أصابكم فذوقوه عاجلاً مع أن لكم عذاب النار آجلاً ، فوضع الظاهر موضع الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به ، وأما على الثاني فلأن الأقرب أن محله الرفع على أنه خبرٌ مبتدأٌ محذوفٍ ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ الخ معطوفٌ عليه ، والمعنى حُكْمُ الله ذلكم ، أي ثبوتُ هذا العقاب لكم عاجلاً وثبوتُ عذاب النار آجلاً ، وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ اعتراضٌ وسَطٌ بين المعطوفين للتهديد ، والضميرُ على الأول لنفس المشار إليه وعلى الثاني لما في ضمنه ، وقد ذكر في إعراب الآية الكريمة وجوهٌ أُخرٌ ، ومدارُ الكل على أن المراد بالعقاب ما أصابهم عاجلاً والله تعالى أعلم ، وقرئء بكسر إن على الاستئناف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ٤٠ ﴾

وقال الأوسى :

﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾

فإنه مع كونه هو المسوق للوعيد بما ذكر ناطق بكون المراد بالعقاب المذكور ما أصابهم عاجلاً سواء جعل ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى نفس العقاب أو إلى ما تقيده الشرطية من ثبوته لهم ، أما على الأول : فلأن الأظهر أن محلة النصب بضمير يستدعيه ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ والواو في ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ الخ بمعنى مع ، فالمعنى باشروا ذلكم العقاب الذي أصابكم فذوقوه عاجلاً مع أن لكم عذاب النار آجلاً ، فوقع الظاهر موضع الضمير لتوخيخهم بالكفر وتعليل الحكم به ، وأما على الثاني : فلأن الأقرب أن محله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ ﴾ الخ معطوف عليه ، والمعنى حكم الله تعالى ذلكم أي ثبوت هذا العقاب لكم عاجلاً وثبوت عذاب النار آجلاً ، وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ اعترض وسط بين المعطوفين للتهديد ، والضمير على الأول لنفس المشار إليه وعلى الثاني لما في ضمنه اه .

واعترض على الاحتمال الأول بأن الكلام عليه من باب الاشتغال وهو إنما يصح لو جوز

ناصحة الابتداء في ﴿ ذلكم ﴾ وظاهر أنه لا يجوز لأن ما بعد الفاء لا يكون خبراً إلا إذا كان المبتدأ موصولاً أو نكرة موصوفة .

ورد بأنه ليس متقفاً عليه فإن الأخفش جوزه مطلقاً ، وتقديره باشروا مما استحسنته أبو البقاء وغيره قالوا : لتكون الفاء عاطفة لازائدة أو جزائية كما في نحو زيداً فاضربه على كلام فيه ، وبعضهم يقدر عليكم اسم فعل .  
واعترضه أبو حيان بأن أسماء الأفعال لا تضم .

(159/307)

---

واعترض عن ذلك الحلبي بأن من قدر لعله نحو الكوفيين فإنهم يجرون اسم الفعل مجرى الفعل مطلقاً ولذلك يعملونه متأخراً نحو ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ [ النساء : 24 ] ، وما أشار إليه كلامه من أن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وأن للكافرين ﴾ الخ منصوب على أنه مفعول معه على التقدير الأول لا يخلو عن شيء ، فإن في نصب المصدر المؤول على أنه مفعول معه نظراً .

ومن هنا اختار بعضهم العطف على ذلكم كما في التقدير الثاني ، وآخرون اختاروا عطفه على قوله تعالى : ﴿ إني معكم ﴾ [ الأنفال : 12 ] داخل معه تحت الإيحاء أو على

المصدر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: 13]  
ولا يخفى أن العطف على ﴿ذلكم﴾ يستدعي أن يكون المعنى باشروا أو عليكم أو  
ذوقوا أن للكافرين عذاب النار وهو ما ياباه الذوق، ولذا قال العلامة الثاني: إنه لا معنى له  
، والعطفان الآخران لا أدري أيهما أمر من الآخر، ولذلك ذهب بعض المحققين إلى اختيار  
كون المصدر خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف، وقيل: هو منصوب باعلموا  
ولعل أهون الوجوه في الآية الوجه الأخير.

والانصاف أنها ظاهرة في كون المراد بالعقاب ما أصابهم عاجلاً، والخطاب فيها مع الكفرة  
على طريق الالتفات من الغيبة في ﴿شاقوا﴾ إليه، ولا يشترط في الخطاب المعتبر في  
الالتفات أن يكون بالاسم كما هو المشهور بل يكون بنحو ذلك أيضاً بشرط أن يكون خطاباً  
لمن وقع الغائب عبارة عنه كذا قيل وفيه كلام، وقرأ الحسن ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ بالكسر،  
وعليه فالجملة تذييلية واللام للجنس والواو للاستئناف. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعاني  
ح 9 ص ﴿

وقال ابن عاشور :

﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14) ﴾

الخطاب في ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ للمشركين الذين قتلوا ، والذين قطعت بنانهم أي يقال لهم هذا الكلام حيث تُضرب أعناقهم وبنانهم بأن يُلقى في نفوسهم حينما يصابون إن أصابتهم كانت لمشاقتهم الله ورسوله ، فإنهم كانوا يسمعون توعد الله إياهم بالعذاب والبطش كقوله : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ [الدخان : 16] وقوله : ﴿ وما لهم ألا

يعذبهم الله وهم يُصدون عن المسجد الحرام ﴾ [الأنفال : 34] ونحو ذلك وكانوا لا يخلون من اختلاج الشك نفوسهم ، فإذا رأوا القتل الذي لم يألفوه ، ورأى الواحد منهم نفسه مضروباً بالسيف ، ضرباً لا يستطيع له دفاعاً ، علم أن وعيد الله تحقق فيه ، فجاش في نفسه أن ذلك لمشاقتة الله ورسوله ، ولعلمهم كانوا يرون إصابات تصيبهم من غير مرئي ، فجملة : ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ مقول قول محذوف تقديره : قائلين ، هو حال من ضمير ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ [الأنفال : 12] .

واسم الإشارة راجع إلى الضرب المأخوذ من قوله : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق وأضربوا منهم كل بنان ﴾ [الأنفال : 12] وهو مبتدأ وخبره محذوف ، فيما أن يقدر ذلك هو العقاب الموعود ، وإما أن يكون مما دل عليه قوله : ﴿ بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ [الأنفال : 13] فالتقدير ذلك بأنكم شاقتم الله ورسوله .

وتفريع ﴿ فذوقوه ﴾ على جملة: ﴿ ذلكم ﴾ بما قدر فيها تفريع للشّماتة على تحقيق  
الوعيد ، فصيغة الأمر مستعملة في الشّماتة والإهانة ، وموقع ﴿ فذوقوه ﴾ اعتراض بين  
الجملة والمعطوف في قوله: ﴿ وأن للكافرين ﴾ ، والاعتراض يكون بالفاء كما في قول  
النابغة:

ضبابِ بني الطّوّالة فاعلميه  
ولا يغرُّك نأبي واغترابي . . .

قالوا وفي قوله: ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾ للعطف على المقول فهو من جملة القول ،  
والتعريفُ في ﴿ الكافرين ﴾ للاستغراق وهو تذييل .

(161/307)

---

والمعنى: ذلكم ، أي ضرب الأعناق ، عقاب الدنيا ، وأن لكم عذاب النار في الآخرة مع  
جميع الكافرين ، والذوق مجاز في الإحساس والعلاقة الإطلاق .  
وقوله: ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾ عطف على الخبر المحذوف أي ذلكم العذاب  
وأن عذاب النار لجميع الكافرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(162/307)



وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14) ﴾

وذلكم إشارة للأمر الذي حدث في موقعة بدر من ضرب المؤمنين للكافرين فوق الأعناق ،  
وضرب كل بنان كافر ، وإن ربنا شديد العقاب ، وهذا الأمر كان يجب أن يذوقه الكافرون  
 . والذوق هو الإحساس بالمطعم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدى كل محسّ به ولو لم  
يكن مطعوماً أو مشروباً ويقول ربنا عز وجل : ﴿ ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [ الدخان  
: 49 ] .

أي ذق الإهانة والمذلة لا مما يطعم أو مما يشرب ، ولكن بالإحساس ؛ لأن ذوق الطعام هو  
الحاسة الظاهرة في الإنسان ؛ قد يجده بالذوق حريفاً ، أو حلواً ، أو خشناً أو ناعماً إلى  
غير ذلك . وها هو ذا الحق يضرب لنا المثل على تعميم شيء : فيقول عز وجل : ﴿  
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ  
اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [ النحل : 112 ] .

والجوع سلب الطعام ، فكيف تكون إذاعة الجوع ؟ الجوع ليس مما يذاق ، ولا اللباس مما يذاق  
 ، ومن قول الحق تبارك وتعالى نفهم أن الإذاعة هي الإحساس الشديد بالمطعم ، واللباس -  
كما نعلم - يعم البدن ، فكان الإذاعة تتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرجل تذوق

، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق ؛ وكان الجوع قد صار محيطاً بالإنسان كله . وهنا يقول  
المولى سبحانه وتعالى : ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ .

(163/307)

---

والذوق غير البلع والشبع ، ونرى ذلك في عالمنا السَّلعي والتجاري ؛ فساعة تشتري -  
على سبيل المثال - جوافة ، أو بلحاً أو تيناً ، يقول لك البائع : إنها فاكهة حلوة ، ذق منها ،  
ولا يقول لك كل منها واشبع ، إنه يطلب منك أن تجرب طعم الفاكهة فقط ثم تشتري لتأكل  
بعد ذلك حسب رغبتك وطاقتك . وما نراه في الدنيا هو مجرد ذوق ينطبق عليه المثل  
الريفى " على لساني ولا تنساني " ، والعذاب الذي رآه الكفار على أيدي المؤمنين مجرد  
ذوق هيّن جداً بالنسبة لما سوف يرونه في الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم ،  
وسياتي الشبع من العذاب في الآخرة ، لماذا ؟ ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ  
يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [ الأنفال : 13 ] .

وهذا اللون من إذاعة الذل والإهانة في الدنيا لهؤلاء الكفار المعاندين ، مجرد نموذج بسيط  
لشدة عقاب الله على الكفر ، وفي يوم القيامة يطبق عليهم القانون الواضح في قوله سبحانه  
وتعالى : ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾

إذن فالهزيمة لمعسكر الكفر والذلة هي مجرد نموذج ذوق هين لما سوف يحدث لهم يوم  
القيامة من العذاب الأليم والحق سبحانه وتعالى هو القائل: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا  
دُونَ ذَلِكَ ﴾ [الطور: 47] .

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً، و"العذاب" هو إيلام الحس، إذا أحببت أن تديم ألمه،  
فأبق فيه آلة الإحساس بالألم، ولذلك تجد الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن سليمان  
والهدد يقول: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ \* لِأَعَذَّبْنَاهُ  
عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْنَاهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ [النمل: 20 - 21] .  
كأن الذبح ينهي العذاب، بدليل أن مقابل العذاب في هذا الموقف هو الذبح .

(164/307)

---

وماذا عن عذاب النار؟ . إن النار المعروفة في حياتنا تحرق أي شيء تدخله فيها، لكن  
نار الآخرة تختلف اختلافا كبيرا لأن الحق هو القائل: ﴿ كَلَّمَ نَضِجَتُ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ  
جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: 56] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الشعراوى صـ ﴿

(165/307)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ التُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبُ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ذَلِكَ بَأْنَهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13) ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14) ﴾

قوله : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُم ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر كالذي قبله ، أو بدل ثان من ﴿ إِذ ﴾ يعدكم ﴾ ، أو منصوب بالنصر المذكور قبله .

وقيل : غير ذلك مما لا وجه له .

و ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُم ﴾ هي : قراءة نافع وأهل المدينة على أن الفاعل هو الله سبحانه .  
وهذه القراءة هي المطابقة لما قبلها .

أعني قوله : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ولما بعدها أعني ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم ﴾  
فيتشاكل الكلام ويتناسب .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " يغشاكم " على أن الفاعل للنعاس .

وقرأ الباقون ﴿ يُغَشِّيكُم ﴾ بفتح الغين وتشديد الشين ، وهي كقراءة نافع وأهل المدينة

في إسناد الفعل إلى الله ، ونصب النعاس .

قال مكّي : والاختيار ضم الياء والتشديد ، ونصب النعاس لأن بعده ﴿ أَمَنَةٌ مِنْهُ ﴾ .

والهاء في ﴿ مِنْهُ ﴾ لله ، فهو الذي يغشيه النعاس ، ولأن الأكثر عليه ، وعلى القراءة

الأولى والثالثة يكون انتصاب ﴿ أَمَنَةٌ ﴾ على أنها مفعول له .

ولا يحتاج في ذلك إلى تأويل وتكلف ، لأن فاعل الفعل المعلن والعلّة واحد بخلاف انتصابها

على العلة ، باعتبار القراءة الثانية ، فإنه يحتاج إلى تكلف .

(166/307)

---

وأما على جعل الأمانة مصدراً فلا إشكال ، يقال أمن أمانة ، وأمناً وأماناً .

وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم ، وهي أنهم مع خوفهم من لقاء العدو

والمهابة لجانبه ، سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين ، وكان هذا النوم في

الليلة التي كان القتال في غدها ، قيل : وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان :

أحدهما أنه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد .

الثاني : أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم .

وقيل : إن النوم غشيه في حال التقاء الصفيين ، وقد مضى في يوم أحد نحو من هذا في سورة

آل عمران .

قوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ هذا المطر كان بعد النعاس .

وقيل : قبل النعاس .

وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر ، فنزلوا عليه وبقي المؤمنون

لا ماء لهم ، فأنزل الله المطر ليلة بدر .

والذي في سيرة ابن إسحاق وغيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر ، وأنه منع قريشاً

من السبق إلى الماء مطر عظيم ، ولم يصب المسلمين منه إلا ما شدّ لهم دهس الوادي ،

وأعانهم على المسير .

ومعنى ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ ؛ ليرفع عنكم الأحداث ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾

أي : وسوسته لكم ، بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التي هي منه من الخوف

والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت ﴿ وَلِيُرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ فيجعلها

صابرة قوية ثابتة في مواطن الحرب .

والضمير في ﴿ بِهِ ﴾ من قوله : ﴿ وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ راجع إلى الماء الذي أنزله الله ،

أي يثبت بهذا الماء الذي أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم في مواطن القتال .

وقيل الضمير راجع إلى الربط المدلول عليه بالفعل .

---

قوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ الظرف منصوب بفعل محذوف خاص  
بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا يقف على ذلك سواه، أي واذكري يا محمد وقت إيجاء  
ربك إلى الملائكة.

وقيل: هو بدل من ﴿إِذْ يَعِدُكُمْ﴾ كما تقدم.

ولكنه يأبى ذلك أن هذا لا يقف عليه المسلمون، فلا يكون من جملة النعم التي عدّها الله  
عليهم.

وقيل: العامل فيه يثبت فيكون المعنى: يثبت الأقدام وقت الوحي، وليس لهذا التقييد  
معنى.

وقيل العامل فيه: ﴿ليربط﴾ ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإيجاء.

ومعنى الآية: أني معكم بالنصر والمعونة، فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول ﴿يُوحَىٰ﴾  
وعلى قراءة الكسر يكون بتقدير القول.

ومعنى ﴿فَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بشروهم بالنصر، أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم  
، وتكثير سوادهم.

وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم.

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

قوله: ﴿ سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ ﴾ قد تقدم بيان معنى إلقاء الرعب في آل عمران.

قيل: هذه الجملة تفسير لقوله: ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ ، قوله: ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ قيل: المراد الأعناق أنفسها .

و ﴿ فَوْقَ ﴾ زائدة قاله الأخفش وغيره .

وقال محمد بن يزيد: هذا خطأ ، لأن ﴿ فوق ﴾ يفيد معنى ، فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنه أبيض لهم ضرب الوجوه وما قرب منها .  
وقيل المراد بما فوق الأعناق الرؤوس .

وقيل المراد بفوق الأعناق: أعاليها ، لأنها المفاصل الذي يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع .

قيل: وهذا أمر للملائكة .

وقيل للمؤمنين ، وعلى الأول قيل هو تفسير لقوله: ﴿ فَتَبَتُّوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ .



قوله: ﴿ واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال الزجاج: واحد البنان بنانة، وهي هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء، والبنان مشتق من قولهم أبن الرجل بالمكان إذا أقام به، لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة والحياة.

وقيل المراد بالبنان هنا: أطراف الأصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة عن الثبات في الحرب.

فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال، بخلاف سائر الأعضاء.  
قال عنتره:

وقد كان في الهيجاء يحمي ذمارها . . . ويضرب عند الكرب كل بنان  
وقال عنتره أيضاً:

وإن الموت طوع عيدي إذا ما . . . وصلت بنانها بالهندواني

قال ابن فارس: البنان الأصابع، ويقال الأطراف، والإشارة بقوله: ﴿ ذلك ﴾ إلى ما وقع عليهم من القتل، ودخل في قلوبهم من الرعب، وهو مبتدأ، و ﴿ بَأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ خبره، أي ذلك بسبب مشاققتهم.

والشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين في شق، وقد تقدم تحقيق ذلك ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ له، يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق.  
قوله: ﴿ ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من العقاب، أو

الخطاب هنا للكافرين ، كما أن الخطاب في قوله : ﴿ ذلکم ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للخطاب .

قال الزجاج : ذلكم رفع بإضمار الأمر أو القصة ، أي الأمر أو القصة ذلكم فذوقوه .

قال : ويجوز أن يضمروا .

قال في الكشاف : ويجوز أن يكون نصباً على عليكم ذلكم فذوقوه ، كقولك زيدا فاضربه .

قال أبو حيان : لا يجوز تقدير عليكم لأنه اسم فعل ، وأسماء الأفعال لا تضم ، وتشبيهه

بزيدا فاضربه غير صحيح ؛ لأنه لم يقدر فيه عليك ، بل هو من باب الاشتغال .

(169/307)

---

وجملة ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ معطوفة على ما قبلها فتكون الإشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذي أصيبوا به ، ويكون ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ إشارة إلى العقاب الآجل .

وقد أخرج أبو يعلى ، والبيهقي في الدلائل ، عن عليّ قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير

المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت

شجرة حتى أصبح .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب في الآية، قال: بلغنا أن هذه الآية أنزلت في المؤمنين يوم بدر، فيما أغشاهم الله من النعاس أمانة منه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ قال: أمانة من الله.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ قال: رحمة منه، أمانة من العدو.

وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: النعاس في الرأس، والنوم في القلب.  
وأخرج عبد بن حميد، عنه، أيضاً قال: كان النعاس أمانة من الله، وكان النعاس نعاسين: نعاس يوم بدر، ونعاس يوم أحد.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن المسيب، في قوله: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهَّرَ كُمْ بِهِ﴾ قال: طش كان يوم بدر.

وأخرج هؤلاء عن مجاهد في الآية قال: المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار، والتبتت به الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن إسحاق، عن عروة بن الزبير، قال: بعث الله السماء وكان

الوادي دهساً ، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما لبد الأرض ، ولم يمنعهم المسير ، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه .

(170/307)

---

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس قال : إن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء ، فضحى المسلمون وصلوا مجننين محدثين ، فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن ، وقال أتزعمون أن فيكم نبياً وأنكم أولياء الله ، وتصلون مجننين محدثين ؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماء ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وثبتت أقدامهم ، وذهبت وسوسته .

وقد قدّمنا أن المشهور في كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء .

وهذا المروي عن ابن عباس في إسناده العوفي ، وهو ضعيف جداً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ رَجَزَ الشَّيْطَانُ ﴾ قال : وسوسته .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ وَكَيْرِبَطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ قال : بالصبر ﴿

وُثِّبَتْ بِهِ الْأَقْدَامُ ❁ قال: كان بطن الوادي دهاساً ، فلما مطروا اشتدت الرملة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ في قوله : ❁ وُثِّبَتْ بِهِ

الْأَقْدَامُ ❁ قال : حتى تشدّ على الرمل ، وهو كهية الأرض .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن عليّ قال : كان رسول الله صلى الله

عليه وسلم يصلي تلك الليلة ويقول : " اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد " وأصابهم تلك

الليلة مطر شديد ، فذلك قوله : ❁ وُثِّبَتْ بِهِ الْأَقْدَامُ ❁ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن مجاهد ، قال : لم تقا تل الملائكة إلا يوم بدر .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، قال : قال لي أبي : يا

بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك ، فيقع رأسه عن جسده

قبل أن يصل إليه السيف .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الربيع بن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن

قتلهم بضرب على الأعناق ، وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق به .

(171/307)

---

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾  
يقول: الرؤوس.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عطية ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ قال: اضربوا  
الأعناق.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾  
يقول: اضربوا الرقاب.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ واضربوا  
منهم كل بنان ﴾ قال: يعني بالبنان الأطراف.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطية  
﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ قال: كل مفصل. انتهى انتهى. اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص



(172/307)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾

يجوزني: " ذَلِكُمْ " أربعة أوجه:

أحدها: أن يكون مرفوعاً على خبر ابتداء مضمرة، أي: العقاب ذلكم، أو الأمر ذلكم.

الثاني: أن يرتفع بالابتداء، والخبر محذوف، أي: ذلكم العقاب وعلى هذين الوجهين؛

فيكون قوله " فذوقوه " لا تعلق لها بما قبلها من جهة الإعراب.

والثالث: أن يرتفع بالابتداء، والخبر قوله: " فذوقوه " وهذا على رأي الأخفش فإنه يرى

زيادة الفاء مطلقاً أعني سواء تضمن المبتدأ معنى الشرط أم لا، وأما غيره فلا يجوز زيادتها

إلا بشرط أن يكون المبتدأ مشبهاً لاسم الشرك ما تقدم تقريره.

واستدل الأخفش على ذلك بقول الشاعر: [ الطويل ]

2684 - وقائلة: حَوْلَانُ فَانْكِحْ فَتَأْتَهُمْ . . .

وأكرومة الحيين خلوكما هيا

وخرجه الآخرون على إضمار مبتدأ تقديره: هذه حولان.

الرابع: أن يكون منصوباً بإضمار فعل يفسره ما بعده، ويكون من باب الاشتغال.

وقال الزمخشري: " ويجوز أن يكون نصباً على: عليكم ذلكم فذوقوه كهولك: زيدا

فاضربط .

قال أبو حيان: " ولا يصح هذا التقدير، لأنَّ " عليكم " من أسماء الأفعال وأسماء الأفعال

لَا تَضْمَرُ ، وَتَشْبِيهُهُ بِقَوْلِكَ : زَيْدًا فَاضْرِبْهُ ، لَيْسَ بِجَيِّدٍ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُقَدِّرُوهُ بِـ "عَلَيْكَ زَيْدًا" فَاضْرِبْهُ " وَإِنَّمَا هَذَا مَنْصُوبٌ عَلَى الْاِسْتِغَالِ .

قَالَ شَهَابُ الدِّينِ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَحْوَ الزَّمْخَشَرِيِّ نَحْوَ الْكُوفِيِّينَ ؛ فَإِنَّهُمْ يَجْرُونَهِمْ بِمَجْرَى الْفِعْلِ مَطْلَقًا ، وَلِذَلِكَ يُعْمَلُونَهُ مَتَأَخَّرًا نَحْوَ ﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : 24] .

وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ : " وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ ، أَيْ ذُو قُوَا ذَلِكُمْ ، وَيَجْعَلُ الْفِعْلُ الَّذِي بَعْدَهُ مُفَسَّرًا لَهُ ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ : بِأَشْرُوا ذَلِكُمْ فَذُقُوهُ ، لِتَكُونَ الْفَاءُ عَاطِفَةً " قَدَّرَ الْفِعْلُ يَرِ وَاوْفَقَ لَمَّا بَعْدَهُ لِفِظًا مَعَ إِمْكَانِهِ ، وَأَيْضًا فَقَدْ جَعَلَ الْفَاءُ عَاطِفَةً لِزَائِدَةٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ تَحْقِيقُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْفَاءِ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِيَّايَ فَا رَهْبُونَ ﴾ [البقرة : 40] .

قَوْلُهُ ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ الْجُمْهُورُ عَلَى فَتْحِ "أَنَّ" وَفِيهَا تَخْرِيجَاتٌ أَحَدُهَا : أَنَهَا ، وَمَا فِي حَيْزِهَا فِي مَحَلِّ رَفْعٍ عَلَى الْاِبْتِدَاءِ ، وَالْخَبْرُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : حَتَّمُ اسْتِقْرَارُ عَذَابِ النَّارِ لِلْكَافِرِينَ .

الثاني : أَنَهَا خَبْرٌ مَبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ أَيْ : الْحَتْمُ ، أَوْ الْوَاجِبُ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ .

الثالث : أَنْ تَكُونَ عَاطِفَةً عَلَى : " ذَلِكُمْ " فِي وَجْهِهِ قَالَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ .

ويعني بقوله " في وجهيه " أي : وجهي الرفع وقد تقدّم .

الرابع : أَنْ تَكُونَ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْمَعْيَةِ .



---

قال الزمخشريُّ: "أو نصب على أن الواو بمعنى "مع" والمعنى: ذوقوا هذا العذابَ العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة، فوضع الظاهر موضع المضمَر "يعني بقوله: "وضع الظاهر موضع المضمَر "أن أصل الكلام فذوقوه وأن لكم فوضع "للكافرين" موضع "لكم" شهادةً عليهم بالكفر ومنبهةً على العلة.

الخامس: أن يكون في محل نصب يا ضمير "واعلموا".

قال الفراء: يجوز نصبه من وجهين:

أحدهما: على إسقاط الباء، أي: بأنَّ للكافرين.

والثاني: على إضمار "اعلموا"؛ قال الشاعر: [الرجز]

2685 - تَسْمَعُ لِلْأَخْشَاءِ عَنْهُ لَغَطًا . . .

وَلِلْيَدَيْنِ جُسَاءٌ وَبَدَا

أي: وترى لليدين بددا، فأضمر "ترى" كذلك: "فذوقوه" واعلموا: "أنَّ للكافرين".

وأنكره الزجاج أشدَّ إنكار.

وقال: لوجاز هذا لجاز: زيد قائمٌ وعمراً منطلقاً، أي: وترى عمراً منطلقاً ولا يُجيزه

أحد.

وتبَّه بقول "فذوقوه" وهو ما عجل من القتل والأسر على أن ذلك يسير بالإضافة إلى

عذاب القيامة فلذلك سماه ذوقاً لأن الذوق لا يكون إلا لتعرف الطعم، فقوله: "فَذُوقُوهُ"  
يدلُّ على أن الذوق يكون في إدراك غير المطعوم كقوله ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [  
الدخان: 49]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 374. 375 ﴾  
من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

قوله جلّ ذكره: ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ .  
ذلك العذاب فذوقوه - أيها المشركون - مُعَجَّلًا ، واعلموا أن للكافرين عذاباً مُؤَجَّلًا ،  
فللعاصين عقوبتان مُحَصَّلٌ بنقد ومُؤَخَّرٌ بوعده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات  
ج 1 ص 608 ﴾

(174/307)

فصل

قال الشيخ سيد قطب في الآيات السابقة:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14) ﴾

موضوع هذا الدرس الأول في السورة ، هو بيان حكم الله في الأنفال . . المغانم التي يغنمها المسلمون في جهادهم في سبيل الله . . بعد ما ثار بين أهل بدر من الجدل حول تقسيمها . فردهم الله إلى حكمه فيها ؛ كما ردهم إلى تقواه وطاعته وطاعة رسوله ؛ واستجاش في قلوبهم وجدان الإيمان والتقوى .

ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا لأنفسهم من العير والغنيمة ، وما أراد الله لهم من النصر والعزة . وكيف سارت المعركة ، وهم قلة لا عدد لها ولا عدة ، وأعداؤهم كثرة في الرجال والعتاد . وكيف ثبتهم بمدد من الملائكة ، وبالمطر يستقون منه ويغتسلون ويثبت الأرض تحت أقدامهم فلا تسوخ في الرمال ، وبالنعاس يغشاهم فيسكب عليهم السكينة والاطمئنان . وكيف ألقى في قلوب أعدائهم الرعب وأنزل بهم شديد العقاب . ومن ثم يأمر المؤمنين أن يثبتوا في كل قتال ، مهما خيل إليهم في أول الأمر من قوة أعدائهم ، فإن الله هو الذي يقتل ، وهو الذي يرمي ، وهو الذي يدبر ، وإن هم إلا ستار لقدر الله وقدرته ، يفعل بهم ما يشاء . .

ثم يسخر من المشركين الذين كانوا قبل الموقعة يستفتحون ، فيطلبون أن تدور الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم ، فيقول لهم : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ .

ويحذر المؤمنون أن يشبهوا بالمنافقين الذين يسمعون ولكنهم لا يسمعون ، لأنهم لا

يستجيبون !

وينتهي الدرس بنداءات متكررة للذين آمنوا . ليستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما  
يحییهم - ولو خیل إليهم أنه الموت والقتل - وليذكرهم كيف كانوا قليلاً مستضعفين يخافون  
أن يخطفهم الناس ، فأوهم وأيدهم بنصره ؛ وليعدهم أن يجعل لهم فرقانا في قلوبهم وفي  
حركتهم إن هم اتقوه . ذلك إلى تكفير السيئات وغفران الذنوب ؛ وما ينتظرهم من فضل  
الله الذي تتضاءل دونه الغنائم والأنفال .

(175/307)

---

﴿ يسألونك عن الأنفال . قل : الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ،  
وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا  
تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم  
ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ . . .  
ذكرنا من قبل في التعريف الإجمالي بالسورة جانباً من الروايات التي وردت عن نزول هذه  
الآيات . ونضيف هنا إليها بعض الروايات ؛ زيادة في استحضار الجو الذي نزلت فيه

السورة جملة ، والذي نزلت فيه الآيات الخاصة بالغنائم والأنفال بوجه خاص ؛ واستحضار الملامح الواقعية للجماعة المسلمة في أول وقعة كبيرة بعد قيام الدولة المسلمة في المدينة . قال ابن كثير في التفسير : روى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه - واللفظ له - وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

(176/307)

---

" من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا " فتسارع في ذلك شبان القوم ، وبقي الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغائم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فإننا كنا رداء لكم ، لو انكشفتم لقتلنا . فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ . . إلى قوله : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ . . وقال الثوري ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا " فجاء أبو اليسير بأسيرين ، فقال : يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنت وعدتنا . فقام سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق

لأصحابك شيء ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ، ولا جبن عن العدو ، وإنما قمنا

هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من ورائك . فتشاجروا ، ونزل القرآن : ﴿

يسألونك عن الأنفال قل : الأنفال لله والرسول ﴾ . . قال : ونزل القرآن : ﴿ واعلموا أنما

غنتم من شيء فإن لله خمسه ﴾ . . إلى آخر الآية . .

وروى الإمام أحمد قال : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا أبو إسحق الشيباني ، عن محمد بن

عبيد الله الثقفي ، عن سعد بن أبي وقاص ، قال : لما كان يوم بدر ، وقتل أخي عمير ،

قتلت سعيد بن العاص ؛ وأخذت سيفه . وكان يسمى ذا الكثيفة . فأتيت به النبي - صلى

الله عليه وسلم - فقال : " اذهب فاطرحه في القبض " قال : فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله

من قتل أخي وأخذ سلمي . قال : فما جاوزت إلا سيرا حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لي

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " اذهب فخذ سلبك " .

(177/307)

---

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا أبو بكر ، عن عاصم بن أبي

النجود ، عن مصعب ابن سعد ، عن سعد بن مالك ، قال : قلت يا رسول الله ، قد شفاني

الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف . فقال : " إن هذا السيف لالك ولا لي ،

ضعه " قال : فوضعتہ ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطي هذا السيف من لا يبلي  
بلائي . قال : فإذا رجل يدعوني من ورائي . قال : قلت : قد أنزل الله في شيئاً ؟ قال : "  
كنت سألتني السيف ، وليس هولي ، وإنه قد وهب لي ، فهولك " قال : " وأنزل الله هذه  
الآية : ﴿ يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ﴾ . . . ورواه أبو داود والترمذي  
والنسائي من طرق عن أبي بكر بن عياش ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(178/307)

---

فهذه الروايات تصور لنا الجو الذي تنزلت فيه آيات الأنفال . . . ولقد يدهش الإنسان حين  
يرى أهل بدر يتكلمون في الغنائم ، وهم إما من المهاجرين السابقين الذين تركوا وراءهم كل  
شيء ، وهاجروا إلى الله بعتيدتهم ، لا يلبون على شيء من أعراض هذه الحياة الدنيا ؛  
وإما من الأنصار الذين آووا المهاجرين ، وشاركوهم ديارهم وأموالهم ، لا يبخلون بشيء  
من أعراض هذه الحياة الدنيا أو كما قال فيهم ربهم : ﴿ يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون  
في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ ولكننا  
نجد بعض التفسير لهذه الظاهرة في الروايات نفسها . لقد كانت الأنفال مرتبطة في الوقت  
ذاته بحسن البلاء في المعركة ؛ وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء ؛ وكان الناس -

يومئذ - حريصين على هذه الشهادة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن الله سبحانه وتعالى ، في أول وقعة يشفي فيها صدورهم من المشركين ! . . . ولقد غطى هذا الحرص وغلب على أمر آخر نسيه من تكلموا في الأنفال حتى ذكرهم الله سبحانه به ، وردهم إليه . . . ذلك هو ضرورة السماح فيما بينهم في التعامل ، والصلاح بين قلوبهم في المشاعر ؛ حتى أحسوا ذلك في مثل ما قاله عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - : " فينا - أصحاب بدر - نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . " .

ولقد أخذهم الله سبحانه بالتربية الربانية قولاً وعملاً . نزع أمر الأنفال كله منهم وردده إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أنزل حكمه في قسمة الغنائم بجملتها ، فلم يعد الأمر حقاً لهم يتنازعون عليه ؛ إنما أصبح فضلاً من الله عليهم ؛ يقسمه رسول الله بينهم كما علمه ربه . . . وإلى جانب الإجراء العملي التربوي كان التوجيه المستطرد الطويل ، الذي بدأ بهذه الآيات ، واستطرد فيما تلاها كذلك .

(179/307)

---



﴿ يسألونك عن الأنفال . قل : الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ، إن كنتم مؤمنين ﴾ . .

لقد كان الهتاف لهذه القلوب التي تنازعت على الأنفال ، هو الهتاف بتقوى الله . .  
وسبحان خالق القلوب العليم بأسرار القلوب . . إنه لا يرد القلب البشري عن الشعور بأعراض الحياة الدنيا ، والنزاع عليها - وإن كان هذا النزاع متلبساً هنا بمعنى الشهادة بحسن البلاء - إلا استجاشة الشعور بتقوى الله وخوفه وتلمس رضاه في الدنيا والأخرى . . إن قلباً لا يتعلق بالله ، يخشى غضبه ويتلمس رضاه ، لا يملك أن يتخلص من ثقله الأعراض ، ولا يملك أن يرف شاعراً بالانطلاق !

إن التقوى زمام هذه القلوب الذي يمكن أن تقاد منه طائفة ذلولة في يسروني هوادة . . وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينها :  
﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ .

وبهذا الزمام يقودها إلى طاعة الله ورسوله :

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ .

وأول الطاعة هنا طاعته في حكمه الذي قضاه في الأنفال . فقد خرجت من أن تكون لأحد من الغزاة على الإطلاق ، وارتدت ملكيتها ابتداءً لله والرسول ، فاتتهى حق

التصرف فيها إلى الله والرسول . فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله وقسم  
رسول الله ؛ طيبة قلوبهم ، راضية نفوسهم ؛ وإلا أن يصلحوا علاقتهم ومشاعرهم ،  
ويصفوا قلوبهم بعضهم لبعضهم . . . ذلك . :

﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ . . .

فلا بد للإيمان من صورة عملية واقعية . يتجلى فيها ، ليثبت وجوده ، ويترجم عن  
حقيقته . وكما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ليس الإيمان بالتمني ، ولا  
بالتحلي ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل " ومن ثم يرد مثل هذا التعقيب كثيراً في  
القرآن لتقرير هذا المعنى الذي يقرره قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولتعريف  
الإيمان وتحديدته ؛ وإخراجه من أن يكون كلمة تقال باللسان ، أو تمنياً لا واقعية له في عالم  
العمل والواقع .

(180/307)

---

ثم يعقب بتقرير صفات الإيمان " الحق " كما يريد رب هذا الدين ؛ ليحدد لهم ما يعنيه قوله  
تعالى : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ . . . فهذا هو ذا الإيمان الذي يريد منكم رب هذا الدين :  
﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ،

وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ❀ . .

إن التعبير القرآني دقيق في بنائه اللفظي ليدل دلالة دقيقة على مدلوله المعنوي . وفي العبارة هنا قصر بلفظ : ❀ إنما ❀ . وليس هنالك مبرر لتأويله - وفيه هذا الجزم الدقيق - ليقال : إن المقصود هو " الإيمان الكامل " ! فلو شاء الله - سبحانه - أن يقول هذا لقاله . إنما هو

تعبير محدد دقيق الدلالة . إن هؤلاء الذين هذه صفاتهم وأعمالهم ومشاعرهم هم المؤمنون . فغيرهم ممن ليس له هذه الصفات بحملتها ليسوا بالمؤمنين . والتوكيد في آخر الآيات : ❀ أولئك هم المؤمنون حقا ❀ يقرر هذه الحقيقة . فغير المؤمنين ❀ حقا ❀ لا يكونون مؤمنين أصلا . . والتعبيرات القرآنية يفسر بعضها بعضا . والله يقول : ❀ فماذا بعد الحق إلا الضلال ❀ فما لم يكن حقا فهو الضلال . وليس المقابل لوصف : ❀ المؤمنون حقا ❀ هو المؤمنون إيمانا غير كامل ! ولا يجوز أن يصبح التعبير القرآني الدقيق عرضة لمثل هذه التأويلات المميعة لكل تصور ولكل تعبير !

لذلك كان السلف يعرفون من هذه الآيات أن من لم يجد في نفسه وعمله هذه الصفات لم يجد الإيمان ، ولم يكن مؤمنا أصلا . . جاء في تفسير ابن كثير : قال علي ابن طلحة عن ابن عباس ، في قوله : ❀ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ❀ قال : المنافقون : لا

يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا (أي عن أعين الناس) ولا يؤدون زكاة أموالهم .

(181/307)

---

فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين . ثم وصف الله المؤمنين فقال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ فادوا فرائضه . ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ يقول : زادتهم تصديقاً ، ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ يقول : لا يرجون غيره .

وسنرى من طبيعة هذه الصفات أنه لا يمكن أن يقوم بدونها الإيمان أصلاً ؛ وأن الأمر فيها ليس أمر كمال الإيمان أو نقصه ؛ إنما هو أمر وجود الإيمان أو عدمه .

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ . . .

إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر بالله في أمر أو نهي ؛ فيغشاه جلاله ، وتنفض فيه مخافته ؛ ويتمثل عظمة الله ومهابته ، إلى جانب تقصيره هو وذنبه ، فينبعث إلى العمل والطاعة . . . أو هي كما قالت أم الدرداء - رضي الله عنها - فيما رواه الثوري ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن شهر بن حوشب ، عن أم الدرداء قال : " الوجل في القلب كاحتراق السعفة ، أما تجد له قشعريرة ؟ قال : بلى . قالت : إذا

وجدت ذلك فادع الله عند ذلك . فإن الدعاء يذهب ذلك " . .

إنها حال ينال القلب منها أمر يحتاج إلى الدعاء ليستريح منها ويقر! وهي الحال التي يجدها القلب المؤمن حين يذكر بالله في صدد أمر أو نهى؛ فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله، وجلا وتقوى لله .

❖ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ❖ .

(182/307)

---

والقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيد إيمانه، وما ينتهي به إلى الاطمئنان . . إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا وساطة، ولا يحول بينه وبينه شيء إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه؛ فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان . . وكما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيد إيمانه، فإن القلب المؤمن هو الذي يدرك هذه الإيقاعات التي تزيد إيمانه . . لذلك يتكرر في القرآن تقرير هذه الحقيقة في أمثال قوله تعالى: ﴿ إن في ذلك لآيات للمؤمنين ﴾ ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ومن ذلك قول أحد الصحابة - رضوان الله عليهم - : كما نوتى الإيمان قبل أن نوتى القرآن . .

وبهذا الإيمان كانوا يجدون في القرآن ذلك المذاق الخاص ، يساعدهم عليه ذلك الجو الذي كانوا يتسمونه ؛ وهم يعيشون القرآن فعلاً وواقعاً ؛ ولا يزالونه مجرد تذوق وإدراك ! وفي الروايات الواردة في نزول الآية قول سعد بن مالك وقد طلب أن ينقله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - السيف ، قبل أن ينزل القرآن الذي يرد ملكية الأنفال للرسول - صلى الله عليه وسلم - فيتصرف فيها بما يريد .

(183/307)

---

وقد قال له : " إن هذا السيف لالك ولا لي ، ضعه " فلما نودي سعد من ورائه بعد وضعه السيف وانصرافه ، توقع أن يكون الله - سبحانه - قد أنزل فيه شيئاً ؛ قال : " قلت : قد أنزل الله فيّ شيئاً " قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " كنت سألتني السيف وهو ليس لي ، وإنه قد وهب لي ، فهو لك " . فهكذا كانوا يعيشون مع ربهم ، ومع هذا القرآن الذي يتنزل عليهم . وهو شيء هائل . وهي فترة عجيبة في حياة البشر . ومن ثم كانوا يتذوقون القرآن هذا التذوق . . كما أن قيامهم بالحركة الواقعية في ظل التوجيهات القرآنية المباشرة كان يجعل التفاعل مع هذا التذوق مضاعفاً . . وإذا كانت الأولى لا تتكرر في حياة البشر ؛ فإن هذه الثانية تتكرر كلما قامت في الأرض عصبة مؤمنة تحاول بالحركة أن

تنشئ هذا الدين في واقع الناس كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تنشئ . . وهذه العصبية المؤمنة التي تتحرك بهذا القرآن لإعادة إنشاء هذا الدين في واقع الناس هي التي تذوق هذا القرآن ؛ وتجد في تلاوته ما يزيد قلوبها إيماناً ؛ لأنها ابتداء مؤمنة . الدين عندها هو الحركة لإقامة هذا الدين بعد الجاهلية التي عادت فطغت على الأرض جميعاً ! وليس الإيمان عندها بالتمني ، لكن ما وقر في القلب وصدقه العمل !

﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ . .

عليه وحده . . كما يفيد بناء العبارة . لا يشركون معه أحداً يستعينون به ويتوكلون عليه . . أو كما عقب عليها الإمام ابن كثير في التفسير : "أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، ولهذا قال سعيد ابن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان . . "

وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحداية الله؛ وإخلاص العبادة له دون سواه فما يمكن أن  
يجتمع في قلب واحد ، توحيد الله والتوكل على أحد معه سبحانه . والذين يجدون في  
قلوبهم الاتكال على أحد أو على سبب يجب أن يبحثوا ابتداء في قلوبهم عن الإيمان بالله!  
وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب . فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب  
الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها ؛ ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ  
النتائج فيتكل عليها . إن الذي ينشئ النتائج - كما ينشئ الأسباب - هو قدر الله . ولا  
علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن . . اتخاذ السبب عبادة بالطاعة .  
وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله . . وبذلك يتحرر  
شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها ؛ وفي الوقت ذاته هو يستوفى بها بقدر طاقته  
لينال ثواب طاعة الله في استيفائها .

ولقد ظلت الجاهلية " العلمية ! " الحديثة تلج فيما تسميه " حتمية القوانين الطبيعية " .  
ذلك لتنفي " قدر الله " وتنفي " غيب الله " . حتى وقفت في النهاية عن طريق وسائلها  
وتجاربها ذاتها ، أمام غيب الله وقدر الله وقفة العاجز عن التنبؤ الحتمي ! ولجأت إلى نظرية  
" الاحتمالات " في عالم المادة . فكل ما كان حتمياً صار احتمالياً . وبقي " الغيب " سراً  
مختماً . وبقي قدر الله هو الحقيقة الوحيدة المستيقنة ؛ وبقي قول الله - سبحانه - ﴿ لا  
تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ هو القانون الحتمي الوحيد ، الذي يتحدث بصدق



عن طلاقة المشيئة الإلهية من وراء القوانين الكونية التي يدبر الله بها هذا الكون ، بقدره

النافذ الطليق !

يقول سير جيمس جينز الإنجليزي الأستاذ في الطبيعيات والرياضيات :

(185/307)

---

" لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق ، أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقاً واحداً ، وهو الطريق الذي رسم من قبل لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته ، وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول ، وأن لا مناص من أن الحالة (أ) تتبعها الحالة (ب) . أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن ، هو أن الحالة (أ) يحتمل أن تتبعها الحالة (ب) أو (ج) أو (د) أو غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر . نعم إن في استطاعته أن يقول : إن حدوث الحالة (ب) أكثر احتمالاً من حدوث الحالة (ج) وإن الحالة (ج) أكثر احتمالاً من (د) . . . وهكذا . بل إن في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات (ب) و (ج) و (د) بعضها بالنسبة إلى بعض . ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين : أي الحالات تتبع الأخرى . لأنه يتحدث دائماً عما يحتمل . أما ما يجب أن يحدث ، فأمره موكول إلى الأقدار . مهما تكن حقيقة هذه الأقدار "

ومتى تخلص القلب من ضغط الأسباب الظاهرة، لم يعد هناك محل فيه للتوكل على غير الله ابتداءً، وقد ر الله هو الذي يحدث كل ما يحدث. وهو وحده الحقيقة المستيقنة. والأسباب الظاهرة لا تنشئ إلا احتمالات ظنية! . . . وهذه النقلة الضخمة التي ينقلها الاعتقاد الإسلامي للقلب البشري - وللعقل البشري أيضاً - النقلة التي تخبطت الجاهلية الحديثة ثلاثة قرون لتصل إلى أولى مراحلها من الناحية العقلية؛ ولم تصل إلى شيء منها في الناحية الشعورية، وما يترتب عليها من نتائج عملية خطيرة في التعامل مع قدر الله؛ والتعامل مع الأسباب والقوى الظاهرية! .

(186/307)

---

. إنها نقلة التحرر العقلي، والتحرر الشعوري، والتحرر السياسي، والتحرر الاجتماعي، والتحرر الأخلاقي . . . آخر أشكال التحرر وأوضاعه . . . وما يمكن أن يتحرر " الإنسان " أصلاً إذا بقي عبداً للأسباب " الحتمية " وما وراءها من عبوديته لإرادة الناس . أو عبوديته لإرادة ( الطبيعة ! ) فكل " حتمية " غير إرادة الله وقدره، هي قاعدة لعبودية لغير الله وقدره . . . ومن ثم هذا التوكيد على التوكل على الله وحده، واعتباره شرطاً لوجود الإيمان أو عدمه . . . والتصور الاعتقادي في الإسلام كل متكامل . ثم هو بدوره كل

متكامل مع الصورة الواقعية التي يريد لها هذا الدين لحياة الناس .

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ . .

وهنا نرى للإيمان صورة حركية ظاهرة - بعد ما رأيناه في الصفات السابقة مشاعر قلبية باطنة - ذلك أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل . فالعمل هو الدلالة الظاهرة

للإيمان التي لا بد من ظهورها للعيان ، تشهد بالوجود الفعلي لهذا الإيمان .

وإقامة الصلاة ليست هي مجرد أدائها . إنما هي الأداء الذي يحقق حقيقتها . الأداء

الكامل اللائق بوقفه العابد في حضرة المعبود - سبحانه - لا مجرد القراءة والقيام والركوع

والسجود والقلب غافل ! وهي في صورتها الكاملة تلك تشهد للإيمان بالوجود فعلاً .

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ . .

في الزكاة وغير الزكاة . . وهم ينفقون ﴿ مما رزقناهم ﴾ . . فهو بعض مما رزقهم الرازق . .

ولنص القرآني دائماً ظلالة وإيحاءاته . فهم لم يخلقوا هذا المال خلقاً . إنما هو مما رزقهم الله

إياه - من بين ما رزقهم وهو كثير لا يحصى - فإذا أنفقوا فإنما ينفقون بعضه ، ويحتفظون منه

ببقية . والأصل هو رزق الله وحده !

تلك هي الصفات التي حدد الله بها - في هذا المقام - الإيمان . وهي تشمل الاعتقاد في

وحدانية الله ؛ والاستجابة الوجدانية لذكره ؛ والتأثر القلبي بآياته ؛ والتوكل عليه وحده ؛

وإقامة الصلاة له ، والإنفاق من بعض رزقه . .

وهي لا تمثل تفصيلات الإيمان - كما وردت في النصوص الأخرى - إنما هي تواجه حالة واقعة . . . حالة الخلاف على الأنفال وفساد ذات البين من جرائمها . . . فتذكر من صفات المؤمنين ما يواجه هذه الحالة . وهي في الوقت ذاته تعين صفات من فقدوا جملةً لم يجد حقيقة الإيمان فعلاً . بغض النظر عما إذا كانت تستقضي شروط الإيمان أولاً تستقضيها . فمنهج التربية الرباني بالقرآن هو الذي يتحكم فيما يذكر من هذه الشروط والتوجيهات في مواجهة الحالات الواقعية المختلفة . ذلك أنه منهج واقعي عملي حركي ، لا منهج نظري معرفي ، مهمته بناء ( نظرية ) وعرضها لذاتها !  
وعلى نفس القاعدة يجيء التعقيب الأخير :

﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ، ومغفرة ، ورزق كريم ﴾ . .

فهذه الصفات إنما يجدها في نفسه وفي عمله المؤمن الحق . فمن لم يجدها جملةً لم يجد صفة الإيمان . وهي في الوقت ذاته تواجه الحالة التي تنزلت فيها الآيات .

ومن ثم تواجه الحرص على الشهادة بحسن البلاء ، بأن هؤلاء الذين يجدون هذه الصفات

﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ . . . وتواجه ما وقع في ذات البين من سوء أخلاق - كما قال

عبادة بن الصامت - بأن الذين يجدون هذه الصفات لهم عند ربهم ﴿ مغفرة ﴾ . . .  
وتواجه ما وقع من نزاع على الأنفال بأن الذين يجدون هذه الصفات لهم عند ربهم ﴿ رزق  
كريم ﴾ . . . فتغطي الحالة كلها ، كل ما لابسها من مشاعر ومواقف . وتقرر في الوقت ذاته  
حقيقة موضوعية ؛ وهي أن هذه صفات المؤمنين ، من فقدوا جملة لم يجد حقيقة الإيمان .  
﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ . . .

(188/307)

---

وقد كانت العصابة المسلمة الأولى تعلم أن للإيمان حقيقة لا بد أن يجدها الإنسان في نفسه ،  
وأنه ليس الإيمان دعوى ، ولا كلمات لسان ، ولا هو بالتمني . قال الحافظ الطبراني :  
حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا  
ابن لهيعة ، عن خالد بن يزيد السكسكي ، عن سعيد ابن أبي هلال ، عن محمد بن أبي  
الجهم ، عن الحارث بن مالك الأنصاري ، أنه " مر برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال  
له : " كيف أصبحت يا حارث ؟ " قال : أصبحت مؤمناً حقا . قال : " انظر ما تقول ،  
فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ " فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرتُ  
ليلي وأظلماتُ نهارِي . وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً . وكأني أنظر إلى أهل الجنة

تزاورون فيها . وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال : " يا حارث . عرفت  
فالزم " . . . ثلاثاً . . . " ولقد ذكر هذا الصحابي الذي استحق شهادة رسول الله - صلى  
الله عليه وسلم - له بالمعرفة من حال نفسه ، ما يصور مشاعره ويشي بما وراء هذه المشاعر  
من عمل وحركة . فالذي كأنه ينظر إلى عرش ربه بارزاً ، وينظر إلى أهل الجنة تزاورون  
فيها ، وإلى أهل النار يتضاغون فيها ، لا ينتهي إلى مجرد النظر . إنما هو يعيش ويعمل  
ويتحرك في ظل هذه المشاعر القوية المسيطرة التي تصبغ كل حركة وتؤثر فيها . ذلك إلى  
جانب ما أسهر ليله وأظمأ نهاره ، وكأنما هو ناظر إلى عرش ربه بارزاً . . .  
إن حقيقة الإيمان يجب أن ينظر إليها بالجد الواجب ، فلا تميع حتى تصبح كلمة يقولها  
لسان ، ومن ورائها واقع يشهد شهادة ظاهرة بعكس ما يقوله اللسان ! إن التحرج ليس  
معناه التميع ! والشعور بمجدية الحقيقة الإيمانية أوجب ؛ والتحرج في تصورها ألزم .  
وبخاصة في قلوب العصابة المؤمنة التي تحاول إعادة إنشاء هذا الدين في دنيا الواقع ، التي  
غلبت عليها الجاهلية ، وصبغتها بصبغتها المنكرة القبيحة !

(189/307)

---

بعد ذلك يأخذ سياق السورة في الحديث عن الموقعة التي تخلفت عنها تلك الأنفال التي تنازعوا عليها ، وساءت أخلاقهم فيها - كما يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه في خلوص وصراحة ووضوح - ويستعرض مجمل أحداثها وملابساتها ، ومواقفهم فيها ، ومشاعرهم تجاهها .

. . . فيتين من هذا الاستعراض أنهم هم لم يكونوا فيها إلا ستاراً لقدّر الله ؛ وأن كل ما كان فيها من أحداث ، وكل ما نشأ عنها من نتائج - بما فيها هذه الأنفال التي تنازعوا عليها - إنما كان بقدر الله وتوجيهه وتدييره وعونه ومدده . . . أما ما أرادوه هم لأنفسهم من الغزوة فقد كان شيئاً صغيراً محدوداً ، لا يقاس إلى ما أرادته الله لهم ، وبهم ، من هذا الفرقان العظيم في السماوات وفي الأرض . ذلك الذي اشتغل به الملائم الأعلى إلى جانب ما اشتغل به الناس في الأرض ، وما اشتغل به التاريخ البشري على الإطلاق . . . ويذكرهم أن فريقاً منهم واجه المعركة كارهاً ؛ كما أن فريقاً منهم كره تقسيم الأنفال وتنازع فيها ؛ ليروا أن ما يرونه هم ، وما يكرهونه أو يحبونه ، ليس بشيء إلى جانب ما يريد الله سبحانه ويقضي فيه بأمره ، وهو يعلم عاقبة الأمور :

(190/307)

---

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . . . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشري ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشاكم النعاس أمانة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، ويربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام . إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألتني في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ؛ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ . . .

لقد رد الله الأنفال كلها إلى الله والرسول ، ليعيد الرسول - صلى الله عليه وسلم - قسمتها بينهم على السواء - بعد استبقاء الخمس الذي ستأتي فيما بعد مصارفه - ذلك لتخلص نفوس العصابة المؤمنة من كل ملابسات الغنيمة ؛ فيمتنع التنازع عليها ، ويصير حق التصرف فيها إلى رسول الله كما يعلمه الله ، فلا يبقى في النفوس من أجلها شيء ؛ وليذهب ما حاك في نفوس الفئة التي حازت الغنائم ، ثم سويت مع الآخرين في القسمة على ما تقدم .



ثم ضرب الله هذا المثل من إرادتهم هو لأنفسهم ، ومن إرادة الله لهم ، وبهم ، ليستيقنوا أن  
الخيرة فيما اختاره الله في الأنفال وغير الأنفال ؛ وأن الناس لا يعلمون إلا ما بين أيديهم  
والغيب عنهم محبوب .

(191/307)

---

. ضرب لهم هذا المثل من واقعهم الذي بين أيديهم . . من المعركة ذاتها تلك التي يتقاسمون  
أنفالها . . فما الذي كانوا يريدونه لأنفسهم فيها ؟ وما الذي أراد الله لهم ، وبهم ؟ وأين ما  
أرادوه مما أراد الله ؟ . . إنها نقلة بعيدة في واقع الأمر ؛ ونقلة بعيدة على مدّ الرؤية  
والتصور !

❖ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في  
الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها  
لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ؛ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر  
الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ❖ . .

إن رد الأنفال لله والرسول . وقسمتها بينهم على السواء ، وكراهة بعض المؤمنين لهذه  
التسوية . . ومن قبل كراهة بعضهم لاختصاص بعض الشباب بالنصيب الأوفر منها . .

إنها شأن يشبه شأن إخراج الله لك من بيتك - بالحق - لمقاتلة الفرقة ذات الشوكة ؛  
وكرهه بعض المؤمنين للقتال . . وبين أيديهم العاقبة التي أنتجت هذه الأنفال . .  
ولقد سبق لنا في استعراض وقائع الغزوة - من كتب السيرة - أن أبا بكر وعمر قاما  
فأحسنا حين استشار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس معه في أمر القتال ، بعدما  
أفلتت القافلة ، وتبين أن قريشاً قد جاءت بشوكتها وقوتها . وأن المقداد بن عمرو قام فقال  
: يا رسول الله ، امض لأمر الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها  
: ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا  
إنا معكما مقاتلون . . الخ " . وأن هذا كان كلام المهاجرين . فلما كرر رسول الله صلى الله  
عليه وسلم القول على الناس فهم الأنصار أنه إنما يعنيهم ، فقام سعد بن معاذ فقال كلاماً  
طويلاً قاطعاً مطمئناً . .

(192/307)

---

ولكن هذا الذي قاله أبو بكر وعمر ، والذي قاله المقداد ، والذي قاله سعد بن معاذ -  
رضي الله عنهم - لم يكن هو مقالة جميع الذين خرجوا من المدينة مع رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - فلقد كره بعضهم القتال ، وعارض فيه ، لأنهم لم يستعدوا للقتال ، إنما خرجوا

لملاقاة الفئة الضعيفة التي تحرس العير؛ فلما أن علموا أن قريشاً قد نفرت بجيئها ورجلها ،  
وشجعانها وفرسانها ، كرهوا لقاءها كراهية شديدة ، هي هذه الكراهية التي يرسم  
التعبير القرآني صورتها بطريقة القرآن الفريدة :

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك في الحق  
بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ !

روى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره - بإسناده - عن أبي أيوب الأنصاري قال : قال  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن بالمدينة :

" إني أخبرت عن عير أبي سفيان بأنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن  
يغنمناها ؟ " فقلنا : نعم . فخرج وخرجنا . فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا : " ما ترون في  
قتال القوم ؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم ! " فقلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكننا  
أردنا العير ! ثم قال : " ما ترون في قتال القوم ؟ " فقلنا مثل ذلك : فقال المقداد بن عمرو :  
إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا  
ها هنا قاعدون . . . ﴾ فتمنينا - معشر الأنصار - أن لو قلنا كما قال المقداد بن عمرو  
أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم ! قال : فأنزل الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم -  
: ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ .

---

فهذا ما حاك في نفوس فريق من المسلمين يومئذ ، وما كرهوا من أجله القتال ، حتى ليقول عنهم القرآن الكريم : ﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ . . وذلك بعد ما تبين الحق ، وعلموا أن الله وعدهم إحدى الطائفتين وأنه لم يبق لهم خيار بعدما ما أفلتت إحدى الطائفتين وهي - العير - وأن عليهم أن يلقوا الطائفة الأخرى ، وقد قدر الله لهم لقاءها وقد رأنها ستكون لهم . كانت ما كانت . كانت العير أو كانت النفير . كانت الضعيفة التي لا شوكة لها أم كانت القوية ذات الشوكة والمنعة .

وإنها لحال تتكشف فيها النفس البشرية أمام الخطر المباشر ؛ ويتجلى فيها أثر المواجهة الواقعية - على الرغم من الاعتقاد القلبي - والصورة التي يرسمها القرآن هنا جديرة بأن تجعلنا نتواضع في تقديرنا لمتطلبات الاعتقاد في مواجهة الواقع ؛ فلا نغفل طاقة النفس البشرية وذذباتها عند المواجهة ؛ ولا نئس من أنفسنا ولا من النفس البشرية جملة حين نراها تهتز في مواجهة الخطر - على الرغم من طمأنينة القلب بالعقيدة - فحسب هذه النفس أن تثبت بعد ذلك وتمضي في الطريق ، وتواجه الخطر فعلاً ، وتنتصر على الهزة الأولى ! . . لقد كان هؤلاء هم أهل بدر ، الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر اطلاعة ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم " . وهذا يكفي . .

ولقد بقيت العصبة المسلمة تود أن لو كانت غير ذات الشوكة هي التي كتب الله عليهم

لقاءها :

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ . .

هذا ما أراده العصبة المسلمة لأنفسها يومذاك . أما ما أراده الله لهم ، وبهم ، فكان أمراً

آخر :

﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو

كره المجرمون ﴾ .

(194/307)

---

لقد أراد الله - وله الفضل والمنة - أن تكون ملحمة لا غنيمة ؛ وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ، ليحق الحق ويثبت ، ويبطل الباطل ويذهقه . وأراد أن يقطع دابر الكافرين ، فيقتل منهم من يقتل ، ويؤسر منهم من يؤسر ، وتذل كبرياؤهم ، وتخضد شوكتهم ، وتعلو راية الإسلام وتعلو معها كلمة الله ، ويمكن الله للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله ، وتنطلق به لتقرير الوهية الله في الأرض ، وتحطيم طاغوت الطواغيت ، وأراد أن يكون هذا التمكين

عن استحقاق لا عن جزاف - تعالى الله عن الجزاف - وبالجهد والجهاد ، وتكاليف  
الجهاد ومعاناتها في عالم الواقع وفي ميدان القتال .  
نعم . أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة ؛ وأن تصبح دولة ؛ وأن يصبح لها قوة  
وسلطان . . . وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها . فترجح ببعض قوتها على  
قوة أعدائها ! وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة ، وليس بالمال والخيل  
والزاد . . . إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تنف لها قوة العباد . وأن يكون  
هذا كله عن تجربة واقعية ، لا عن مجرد تصور واعتقاد قلبي . ذلك لتزود العصبة المسلمة  
من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله ؛ ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك في كل زمان وفي  
كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها مهما تكن هي من القلة ويكن عدوها من الكثرة ؛  
ومهما تكن هي من ضعف العدة المادية ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد . . . وما  
كانت هذه الحقيقة لتستقر في القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة  
الطغيان .

(195/307)

---

وينظر الناظر اليوم ، وبعد اليوم ، ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته العصابة المسلمة لنفسها يومذاك وما أرادته الله لها . بين ما حسبه خيراً لها وما قدره الله لها من الخير . ينظر فيرى الآماد المتطاولة ؛ ويعلم كم يخطئ الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً مما يختاره الله لهم ؛ وحين يتضررون مما يريد الله لهم مما قد يعرضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشيء من الأذى . بينما يكمن وراءه الخير الذي لا يخطر لهم ببال ، ولا بخيال !

فأين ما أرادته العصابة المسلمة لنفسها مما أرادته الله لها ؟ لقد كانت تمضي - لو كانت لهم غير ذات الشوكة - قصة غنيمة . قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها ! فأما بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة . قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل . قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد ؛ والحق في قلة من العدد ، وضعف في الزاد والراحلة . قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله ، وحين تتخلص من ضعفها الذاتي . بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال ! ولكنها بقيتها الثابتة المستعلية على الواقع المادي ، وبيقينها في حقيقة القوى وصحة موازينها ، قد انتصرت على نفسها ، وانتصرت على من فيها ، وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحاناً ظاهراً في جانب الباطل ؛ فقلبت بيقينها ميزان الظاهر ؛ فإذا الحق راجح غالب .

الآن غزوة بدر - بملاساتها هذه - لتمضي مثلاً في التاريخ البشري . ألا وإنها لتقرر دستور النصر والهزيمة ؛ وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة . . الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرة المادية . . ألا وإنها لكتاب مفتوح تقرأه الأجيال في كل زمان وفي كل مكان ، لا تتبدل دلالتها ولا تتغير طبيعتها . فهي آية من آيات الله ، وسنة من سننه الجارية في خلقه ، ما دامت السماوات والأرض . . ألا وإن العصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة النشأة الإسلامية في الأرض - بعد ما غلبت عليها الجاهلية - لجديرة بأن تقف طويلاً أمام ( بدر ) وقيمها الحاسمة التي تقررها ؛ والأبعاد الهائلة التي تكشفها بين ما يريده الناس لأنفسهم وما يريده الله لهم :

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم . ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليقض الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون ﴾ . .

إن العصبة المسلمة التي تحاول اليوم إعادة نشأة هذا الدين في دنيا الناس وفي عالم الواقع ، قد لا تكون اليوم من الناحية الحركية في المرحلة التي كانت فيها العصبة المسلمة الأولى يوم بدر .



ولكن الموازين والقيم والتوجيهات العامة لبدر وملابساتها وتأتجها والتعقيبات القرآنية عليها ما تزال تواجه وتوجه موقف العصبة المسلمة في كل مرحلة من مراحل الحركة ، ذلك أنها موازين وقيم وتوجيهات كلية ودائمة ما دامت السماوات والأرض ، وما كانت عصبة مسلمة في هذه الأرض ، تجاهد في وجه الجاهلية لإعادة النشأة الإسلامية . .

(197/307)

---

ثم يمضي السياق في استحضار جو المعركة وملابساتها ومواقفها ، حيث يتجلى كيف كانت حالهم ، وكيف دبر الله لهم ، وكيف كان النصر كله وليد تدير الله أصلاً . . .  
والتعبير القرآني الفريد يعيد تمثيل الموقف بمشاهدة وحوادثه وانفعالاته وخفقاته ، ليعيشوه مرة أخرى ، ولكن في ضوء التوجيه القرآني ، فيروا أبعاده الحقيقية التي تتجاوز بدرًا ، والجزيرة العربية ، والأرض كلها ؛ وتمتد عبر السماوات وتتناول الملائكة الأعلى ؛ كما أنها تتجاوز يوم بدر ، وتاريخ الجزيرة العربية ، وتاريخ البشرية في الأرض ، وتمتد وراء الحياة الدنيا ، حيث الحساب الختامي في الآخرة والجزاء الأوفى ، وحيث تشعر العصبة المسلمة بقيمتها في ميزان الله ، وقيمة أقدارها وأعمالها وحركتها بهذا الدين ومقامها الأعلى :  
﴿ إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله

الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشاكم النعاس أمانة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، ويربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام .

إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار . . .

إنها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيتته ، وتديره وقدره ؛ وتسير بجند الله وتوجيهه . . . وهي شاخصة بجرقاتها وخطراتها من خلال العبارة القرآنية المصورة المتحركة المحيية للمشهد الذي كان ، كأنه يكون الآن !

(198/307)

---

فأما قصة الاستغاثة فقد روى الإمام أحمد - بإسناده - عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة . فاستقبل النبي - صلى الله عليه وسلم -

القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : " اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً " قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ، ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله ، كفك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ . .

وتروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة في يوم بدر : عدد هم . وطريقة مشاركتهم في المعركة . وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين . . ونحن - على طريقتنا في الظلال - نكتفي في مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد في النصوص المستيقنة من قرآن أو سنة . والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ . . فهذا عدد هم . . ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ . . فهذا عملهم . . ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه الكفاية . . وبجسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصابة المسلمة وحدها في ذلك اليوم ، وهي قلة والأعداء كثرة . وأن أمر هذه العصابة وأمر هذا الدين قد شارك فيها الملائكة الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه الله - سبحانه - في كلماته . .

قال البخاري : باب شهود الملائكة بدرا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا جرير ، عن يحيى بن سعيد ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى ، عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال : جاء جبريل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : " من أفضل المسلمين "

- أو كلمة نحوها - قال : " وكذلك من شهد بدراً من الملائكة " . . . ( انفراد بإخراجه البخاري ) . . .

✽ إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشري ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . . . ✽

لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون ، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين . . . ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصابة وقيمة هذا الدين في ميزان الله ؛ إلا أن الله سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سبباً ينشئ نتيجة ، إنما يرد الأمر كله إليه - سبحانه - تصحيحاً لعقيدة المسلم وتصوره . فهذه الاستجابة ، وهذا المدد ، وهذا

الإخبار به . . . كل ذلك لم يكن إلا بشرى ، ولتطمئن به القلوب . أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ولا يكون . . . هذه هي الحقيقة الاعتقادية التي يقررها السياق القرآني هنا ، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلاً . .

لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا ما في طوقهم فلا يستبقوا منه بقية ؛ وأن يغالبوا الهزة الأولى التي أصابت بعضهم في مواجهة الخطر الواقعي ، وأن يمشوا في طاعة أمر الله ، واثقين بنصر الله . . كان حسبهم هذا لينتهي دورهم ويجيء دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم . . وما عدا هذا فكان بشارة مطمئنة ، وتشبيهاً للقلوب في مواجهة الخطر الواقعي . . وإنه لحسب العصابة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت في المعركة . ثم يجيء النصر من عند الله وحده . حيث لا يملك النصر غيره . وهو "العزیز" القادر الغالب على أمره . وهو "الحكيم" الذي يحل كل أمر محله . .

(200/307)

---

﴿ إذ يغشاكم النعاس أمانة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، ويربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ . .

أما قصة النعاس الذي غشي المسلمين قبل المعركة فهي قصة حالة نفسية عجيبة ، لا تكون

إلا بأمر الله وقدره وتدييره . . لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه ولم يتخذوا له عدته . . فإذا الناس يغشاهم ، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم ؛ والطمأنينة تفيض على قلوبهم (وهكذا كان يوم أحد . . تكرر الفزع ، وتكرر النعاس ، وتكررت الطمأنينة) . . ولقد كنت أمر على هذه الآيات ، وأقرأ أخبار هذا النعاس ، فأدركه كحادث وقع ، يعلم الله سره ، ويحكى لنا خبره . . ثم إذا بي أقع في شدة ، وتمر عليّ لحظات من الضيق المكتوم ، والتوجس القلق ، في ساعة غروب . . ثم تدركني سنة من النوم لا تعدى بضع دقائق . . وأصبحوا إنساناً جديداً غير الذي كان . . ساكن النفس . مطمئن القلب . مستغرقاً في الطمأنينة الواثقة العميقة . . كيف تم هذا ؟ كيف وقع هذا التحول المفاجئ ؟ لست أدري ! ولكني بعدها أدرك قصة بدر وأحد . أدركها في هذه المرة بكياني كله لا بعقلي . وأستشعرها حية في حسي لا مجرد تصور . وأرى فيها يد الله وهي تعمل عملها الخفي المباشر . . ويطمئن قلبي . .

لقد كانت هذه الغشية ، وهذه الطمأنينة ، مدداً من أمداد الله للعصبة المسلمة يوم بدر :

﴿ إذ يغشاكم الناس أمنة منه ﴾ . .

ولفظ ﴿ يغشاكم ﴾ ولفظ ﴿ النعاس ﴾ ولفظ ﴿ أمنة ﴾ . . كلها تشترك في إلقاء ظل لطيف شفيف ؛ وترسم الظل العام للمشهد ، وتصور حال المؤمنين يومذاك ، وتجلي قيمة هذه اللحظة النفسية الفاصلة بين حال للمسلمين وحال .

وأما قصة الماء :

﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط  
على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام ﴾ . .

فهي قصة مدد آخر من أمداد الله للعصبة المسلمة ، قبيل المعركة .

(201/307)

---

قال علي بن طلحة ، عن ابن عباس قال : نزل النبي - صلى الله عليه وسلم - حين سار إلى  
بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة وعصاة ، وأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى  
الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله ،  
وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأتم تصلون مجننين ؟ فأمر الله عليهم مطراً شديداً ،  
فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه  
المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه - صلى الله عليه  
وسلم - بألف من الملائكة ، فكان جبريل في خمسمائة مجنبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنبة  
.. "

ولقد كان ذلك قبل أن ينفذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أشار به الحباب بن المنذر

من النزول على ماء بدر ، وتغوير ما وراءها من القلب .

" والمعروف أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما صار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أي أول ماء وجدته - فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال : يا رسول الله ، هذا المنزل الذي نزلته ، منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزة ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : " بل منزل نزلته للحرب والمكيدة " فقال : يا رسول الله ، ليس بمنزل ، ولكن سربنا حتى نزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب ونسقي الحياض فيكون لما ماء وليس لهم ماء . فسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففعل ذلك " .

(202/307)

---

ففي هذه الليلة - وقبل إنفاذ مشورة الحباب بن المنذر - كانت هذه الحالة التي يذكر الله بها العصبة التي شهدت بدرًا . . والمدد على هذا النحو مدد مزدوج : مادي وروحي . فالماء في الصحراء مادة الحياة ، فضلاً على أن يكون أداة النصر . والجيش الذي يفقد الماء في الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة . ثم هذه الحالة النفسية التي صاحبت الموقف ووسوس بها الشيطان ! حالة التخرج من أداء الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء ( ولم يكن قد رخص لهم بعد في التيمم ، فقد جاء هذا متأخراً في غزوة بن المصطلق في



السنة الخامسة) .

وهنا تنور الهواجس والوساوس ، ويدخل الشيطان من باب الإيمان ليزيد حرج النفوس  
ووجل القلوب ! والنفوس التي تدخل المعركة في مثل هذا الحرج وفي مثل هذا القلق تدخلها  
مزعزة مهزومة من داخلها . . . وهنا يجيء المدد وتجيء النجدة . . .

❖ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط  
على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام ❖ . . .

ويتم المدد الروحي بالمدد المادي ؛ وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطهارة  
؛ وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال .

ذلك إلى ما أوحى الله به إلى الملائكة من تثبيت الذين آمنوا ؛ وإلى ما وعد به من إلقاء

الرعب في قلوب الذين كفروا ؛ وإلى ما أمر به الملائكة من الاشتراك الفعلي في المعركة :

❖ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا

الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ❖ . . .

(203/307)

---

إنه الأمر الهائل . . إنها معية الله سبحانه للملائكة في المعركة ؛ واشتراك الملائكة فيها مع العصابة المسلمة . . هذا هو الأمر الذي لا يجوز أن يشغلنا عنه أن نبحت : كيف اشتركت الملائكة ؟ ولا كم قتيلًا قتلت ؟ ولا كيف قتلت ؟ . . . إن الحقيقة الكبيرة الهائلة في الموقف هي تلك الحقيقة . . إن حركة العصابة المسلمة في الأرض بهذا الدين أمر هائل عظيم . . أمر يستحق معية الله لملائكته في المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصابة المسلمة !

إننا نؤمن بوجود خلق من خلق الله اسمهم الملائكة ؛ ولكننا لا ندرك من طبيعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم . فلانملك من إدراك الكيفية التي اشتركوا بها في نصر المسلمين يوم بدر إلا بمقدار ما يقرره النص القرآني . . وقد أوحى إليهم ربهم : أني معكم . وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ، ففعلوا - لأنهم يفعلون ما يؤمرون - ولكننا لا ندري كيف فعلوا . وأمرهم أن يضربوا فوق أعناق المشركين وأن يضربوا منهم كل بنان . ففعلوا كذلك بكيفية لا نعلمها ، فهذا فرع عن طبيعة إدراكنا نحن لطبيعة الملائكة ، ونحن لا نعلم عنها إلا ما علمنا الله . . ولقد وعد الله سبحانه أن يلقي الرعب في قلوب الذين كفروا . فكان ذلك ، ووعدده الحق ، ولكننا كذلك لا نعلم كيف كان . فالله هو الذي خلق ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو يحول بين المرء وقلبه ؛ وهو أقرب إليه من حبل الوريد . . .

إن البحث التفصيلي في كفيات هذه الأفعال كلها ليس من الجد الذي هو طابع هذه

العقيدة . وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة . . ولكن هذه المباحث صارت من مباحث الفرق الإسلامية ومباحث علم الكلام في العصور المتأخرة ، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية في هذا الدين ، وتسلبت الترف العقلي على النفوس والعقول . وإن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله سبحانه للملائكة في المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة ، لهي أنفع وأجدى . .

(204/307)

---

وفي نهاية هذا الاستعراض ، وفي أعقاب المشهد الهائل الذي تجلّى فيه تلك الحقيقة الهائلة ، يجيء التقرير الموضح لما وراء المعركة كلها . ووراء النصر فيها والهزيمة ، من قاعدة ودستور مجرى هذه الأمور :

❖ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب

.. ❖

إنها ليست فلتة عارضة ، ولا مصادفة عابرة ، أن ينصر الله العصبة المسلمة ، وأن يسلب على أعدائها الرعب والملائكة مع العصبة المسلمة . . إنما ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله ، فاتخذوا لهم شقاً غير شق الله ورسوله ، وصفاً غير صف الله ورسوله . ووقفوا موقف

الخلف والمشاقة هذا يصدون عن سبيل الله ، ويجولون دون منهج الله للحياة .

﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ . .

ينزل عقابه الشديد على الذين يشاقونه ويشاقون رسوله . وهو قادر على عقابهم وهم أضعف من أن يقفوا لعقابه . .

قاعدة وسنة . لافلتة ولا مصادفة . قاعدة وسنة أنه حيثما انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهية الله وحده ، وإقامة منهج الله وحده ، ثم وقف منها عدو لها موقف المشاقة لله ورسوله ، كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة ، وكان الرعب والهزيمة للذين يشاقون الله ورسوله . ما استقامت العصبة المسلمة على الطريق ، واطمأنت إلى ربها ، وتوكلت عليه وحده ، وهي تقطع الطريق .

وفي نهاية المشهد يتوجه بالخطاب إلى أولئك الذين شاقوا الله ورسوله . . إن هذا الذي حل بكم في الدنيا من العرب والهزيمة ليس نهاية المطاف . فأمر هذا الدين والحركة به والوقوف في طريقه ، ليس أمر هذه الأرض وحدها ، ولا أمر هذه الحياة الدنيا بمفردها . . إنه أمر ممتد إلى ما وراء هذه الأرض ، وإلى ما بعد هذه الحياة . . إن أبعاده تمتد وراء هذه الآماد القريبة :

﴿ ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار ﴾ . .

فهذه نهاية المطاف . وهذا هو العذاب الذي لا يقاس إليه ما ذقتم من الرعب والهزيمة ومن  
الضرب فوق الأعناق ومن ضرب كل بنان !

(205/307)

---

والآن . . . وقد أعاد عليهم مشاهد الواقعة وملابساتها ، وأراهم يد الله فيها وتدييره ،  
وعونه ومدده ، وعلموا منها أنهم لم يكونوا فيها سوى ستار لقدر الله وقدرته . . . الله هو  
الذي أخرج رسوله من بيته بالحق - لم يخرج بطراً ولا اعتداءً ولا طغياناً - والله هو الذي  
اختار لهم إحدى الطائفتين لأمر يريده ، من قطع دابر الكافرين ﴿ ليحق الحق ويبطل  
الباطل ولو كره المجرمون ﴾ . . . والله هو الذي أمدهم بألف من الملائكة مردفين . . . والله  
هو الذي غشاهم النعاس أمنة منه ، ونزل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به ، ويذهب  
عنهم رجز الشيطان ، ويربط على قلوبهم ويثبت به الأقدام .  
. والله هو الذي أوحى إلى الملائكة ليثبتوا الذين آمنوا ، وألقى في قلوب الذين كفروا  
الرعب . . . والله هو الذي أشرك الملائكة في المعركة وأمرهم أن يضربوا فوق الأعناق وأن  
يضربوا من المشركين كل بنان . . . والله هو الذي غنمهم الغنيمة ورزقهم من فضله بعد أن  
خرجوا بلا مال ولا ظهر ولا عتاد . . .

الآن . . . وقد استعرض السياق القرآني هذا كله ، فأعاده حاضراً في قلوبهم ، شاخصاً لأبصارهم . وهو يتضمن صورة من النصر الحاسم الذي لا يستند إلى تدير بشري ، ولا إلى قوة العدد ولا قوة العدة ؛ إنما يستند إلى تدير الله وتقديره وعونه ومدده ؛ كما يستند إلى التوكل على الله وحده ، والالتجاء إليه ، والاستغاثة به ، والسير مع تديره وتقديره . .

(206/307)

الآن . . . وهذا المشهد حاضر في القلوب شاخص للأبصار . . . الآن . . . وفي أنسب اللحظات لاستجابة القلوب للتوجيه . . . الآن يجيء الأمر للذين آمنوا - بصفتهم هذه - أن يثبتوا إذا لقوا الذين كفروا ؛ وألا يولوهم الأدبار من الهزيمة والفرار ؛ ما دام أن النصر والهزيمة موكولان إلى إرادة فوق إرادة الناس ؛ وإلى أسباب غير الأسباب الظاهرة التي يراها الناس ؛ وما دام أن الله هو الذي يدبر أمر المعركة - كما يدبر الأمر كله - وهو الذي يقتل الكفار بأيدي المؤمنين ؛ وهو الذي ينجح الرمية حين ترمى - وإنما المؤمنون ستار للقدرة يريد الله أن يجعل لهم ثواب الجهاد والبلاء فيه - وهو الذي يلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ويوهن تديرهم ويذيقهم العذاب في الدنيا والآخرة لأنهم شاقوا الله ورسوله . انتهى انتهى . اهـ

(207/307)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوي في تفسير القرآن الكريم  
ويسمى (جنة المشتاق في تفسير كلام الملك الخلاق)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورْسُلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن بعد الثلاثمائة

حُقوقُ التَّسْخِخِ وَالطَّبْعِ وَالتَّشْرِحِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/308)

---

الجزء الثامن بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 15 ﴾ من سورة الأنفال

وحتى الآية ﴿ 18 ﴾ من نفس السورة

(4/308)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قرر إهاتهم في الدنيا والآخرة بما حسر عليهم القلوب ، حسن أن يتبع ذلك نهى من ادعى الإيمان عن الفرار منهم وتهديد من نكص عنهم بعد هذا البيان وهو يدعي الإيمان فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي بما أتاهم من عند ربهم ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي بآيات ربهم فشاقتوه ، وعبر عن حال لقائهم بالمصدر مبالغة في التشبيه فقال : ﴿ زَحَفًا ﴾ أي حال كونهم زاحفين محارين وهم من الكثرة بحيث لا يدرك من حركتهم - وإن كانت سريعة - إلا مثل الزحف ﴿ فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ أي هرباً منهم وإن كنتم أقل منهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 195 ﴾



## فصل

قال الفخر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى:

قال الأزهري: أصل الزحف للصبى، وهو أن يزحف على أسته قبل أن يقوم، وشبه

بزحف الصبي مشي الطائفتين اللتين تذهب كل واحدة منهما إلى صاحبتهما للقتال،

فيمشي كل فئة مشياً رويداً إلى الفئة الأخرى قبل التداني للضراب.

قال ثعلب: الزحف المشي قليلاً قليلاً إلى الشيء، ومنه الزحاف في الشعر يسقط مما بين

حرفين.

حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾ أي متزاحفين نصب على

الحال، ويجوز أن يكون حالاً للكفار، ويجوز أن يكون حالاً للمخاطبين وهم المؤمنون،

والزحف مصدر موصوف به كالعدل والرضا ، ولذلك لم يجمع ، والمعنى : إذا ذهبتم إليهم للقتال ، فلا تنهزموا ، ومعنى ﴿ فَلَا تُولُوهُمُ الْاُدْبَارَ ﴾ أي لا تجعلوا ظهوركم مما يليهم .  
ثم إنه تعالى لما نهى عن هذا الانهزام بين أن هذا الانهزام محرم إلا في حالتين : إحداهما : أن يكون متحرفاً للقتال ، والمراد منه أن يخيل إلى عدوه أنه منهزم .  
ثم ينعطف عليه ، وهو أحد أبواب خدع الحرب ومكايدها ، يقال : تحرف وانحرف إذا زال عن جهة الاستواء .

والثانية : قوله : ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ قال أبو عبيدة : التحيز التنحي وفيه لغتان : التحيز والتحوز .

قال الواحدي : وأصل هذا الحوز ، وهو الجمع .  
يقال : حزته فانحاز وتحوز وتحيز إذا انضم واجتمع ، ثم سمي التنحي تحيزاً ، لأن المتنحي عن جانب ينفصل عنه ويميل إلى غيره .

(6/308)

---

إذا عرفت هذا فنقول : الفئة الجماعة ، فإذا كان هذا المتحيز كالمفرد ، وفي الكفار كثرة ، وغلب على ظن ذلك المفرد أنه إن ثبت قتل من غير فائدة ، وإن تحيز إلى جمع كان راجحاً

للخلاص ، وطامعاً في العدو بالكثرة ، وربما وجب عليه التحيز إلى هذه الفئة فضلاً عن أن يكون ذلك جائزاً والحاصل أن الانهزام من العدو حرام إلا في هاتين الحالتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 110.111 ﴾

(7/308)

وقال الثعلبي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا ﴾

أي [ محققين ] متزاحفين بعضهم إلى بعض والتزاحف التداني والتقارب .

قال الأعشى :

لمن الضعائن سيرهن زحيف . . . عرم السفين إذا تقاذف مقذف

والزحف مصدر ولذلك لم يجمع كقولهم : قوم عدل ورضى ﴿ فَلَا تُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ يقول

: فلا تولوهم ظهوركم فتنهزموا عنهم ولكن اثبتوا لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف

والبيان ح 4 ص ﴾

(8/308)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾

والزحف : الدنو قليلاً قليلاً .

﴿ فَلَا تُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ يعني بالهزيمة منهم والانصراف عنهم . وفيه قولان :

أحدهما : أن هذا على العموم في تحريم الهزيمة بعد لقاء العدو .

والثاني : مخصوص وهو أن الله تعالى أوجب في أول الإسلام على كل رجل من المسلمين أن

يقف بإزاء عشرة من المشركين لا يحل له بعد اللقاء أن ينهزم عنهم وذلك بقوله : ﴿ إِنْ يَكُنْ

مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ

قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [ الأنفال : 65 ] وفيه وجهان :

أحدهما : لا يعلمون ما فرضه الله تعالى عليه من الإسلام .

الثاني : لا يعلمون ما فرضه الله تعالى عليهم من القتال .

ثم نسخ ذلك عنهم بعد كثرتهم واشتداد شوكتهم فأوجب الله تعالى على كل رجل لاقى

المشركين محارباً أن يقف بإزاء رجلين بعد أن كان عليه أن يقف بإزاء عشرة تخفيفاً

ورخصة وذلك قوله تعالى : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ .

قرىء بضم الصاد وفتحها ، وفي اختلاف القراءتين وجهان :

أحدهما : أنهما لغتان ومعناهما واحد ، قاله الفراء .

والثاني : معناهما مختلف .

وفي اختلافهما وجهان :

أحدهما : أنها بالفتح : الضعف في الأموال ، وبالضم : الضعف في الأحوال .

الثاني : أنها بالفتح : الضعف في النيات ، وبالضم : الضعف في الأبدان . وقيل بعكس

الوجهين في الوجهين .

ثم قال : ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : مع الصابرين على القتال في معونتهم على أعدائهم .

(9/308)

---

الثاني : مع الصابرين على الطاعة في قبول عملهم وإجزال ثوابهم ، فصار حتماً على من لاقى عدوه من المشركين زحفاً أن لا ينهزم مع القوة على المصابرة حتى يقضي الله من أمره ما شاء فأما الهزيمة مع العجز عن المصابرة فإن قاتله أكثر من مثليه جاز أن يولي عنهم منهزماً ، وإن قاتله مثلاه فمن دون حرم عليه أن يولي عنهم منهزماً على صفتين : إما أن يتحرف لقتال

وهو أن يهرب ليطلب ، ويفر ليكر فإن الحرب كُروفرٌ ، وهرب وطلب ، وإما أن يتحيز إلى

فئة أخرى ليقاتل معها ، قربت الفئة أو بعدت ، وذلك ظاهر في قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 ص ﴾

(10/308)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾ الآية ،

﴿ زحفاً ﴾ يراد به متقابل الصفوف والأشخاص ، أي يزحف بعضهم إلى بعض ،

وأصل الزحف الاندفاع على الألية ثم سمي كل ماش إلى آخر في الحرب رويداً زاحفاً ، إذ في

مشيته من التماهل والتباطؤ ما في مشي الزاحف ، ومن الزحف الذي هو الاندفاع قولهم

لنار العرفج وما جرى مجراه في سرعة الانتقاد نار الزحفتين ومن التباطؤ في المشي قول

الشاعر : [ البسيط ]

كأنهنَّ بأيدي القومِ في كبدٍ . . . طير تكشف عن جون مزاحيف

ومنه قول الفرزدق : [ البسيط ]

على عمائنا تلقى وأرجلنا . . . على مزاحيف تزجى منحها رير

ومنه قول الآخر [الأعشى]: [الطويل]

لمن الطعائن سيرهنَّ تزحفُ . . . ومن التزحف بمعنى التدافع قول الهذلي: [الوافر]

كان مزاحف الحيات فيه . . . قبيل الصبح آثار السباط

وأمر الله عز وجل في هذه الآية أن لا يولي المؤمنون أمام الكفار ، وهذا الأمر مقيد بالشريطة

المنصوصة في مثلي المؤمنين ، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضعف المؤمنة من

المشركين فالفرض أن لا يفروا أمامهم ، فالفرار هناك كبيرة موبقة بظاهر القرآن والحديث

وإجماع الأكثر من الأمة ، والذي يراعى العدد حسب ما في كتاب الله عز وجل : وهذا قول

جمهور الأمة ، وقالت فرقة منهم ابن الماجشون في الواضحة : يراعى أيضاً الضعف والقوة

والعدة فيجوز على قولهم أن تفرمئة فارس إذا علموا أن عند المشركين من العدة والنجدة

والبسالة ضعف ما عندهم ، وأمام أقل أو أكثر بحسب ذلك وأما على قول الجمهور فلا

يجل فرار مائة إلا أمام ما زاد على مائتين والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة ،

لأنها بشعة على الفار ذامة له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾

الزحف : جماعة يزحفون إلى عدوهم ؛ قاله الليث .

والتزاحف : التداني والتقارب ، قال الأعشى :

لَمَنْ الظَّعَانُ سِيرُهُنَّ تَزَحَّفُ . . .

قال الزجاج : ومعنى الكلام : إذا واقفتموهم للقتال فلا تدبروا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد

المسير ح 3 ص ﴿

(12/308)

وقال القرطبي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُكَلِّمُوا الْأَدْبَارَ (15) ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ زَحَفًا ﴾ الزحف الدنو قليلاً قليلاً .

وأصله الاندفاع على الألية ؛ ثم سُمي كل ماشٍ في الحرب إلى آخر زاحفاً .

والتزاحف : التداني والتقارب ؛ يقال : زحف إلى العدو زحفاً .



وازدحف القوم ، أي مشى بعضهم إلى بعض .

ومنه زحاف الشعر ، وهو أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر .

يقول : إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفرّوا عنهم ولا تعطوهم أديباركم .

حرّم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار .

قال ابن عطية : والأديبار جمع دُبر .

والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة ؛ لأنها بشعة على الفارّ ، ذامّة له .

الثانية : أمر الله عز وجل في هذه الآية الأيوبي المؤمنين أمام الكفار .

وهذا الأمر مقيد بالشريطة المنصوصة في مثلي المؤمنين ؛ فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة

هي ضعف المؤمنين من المشركين فالفرض ألا يفرّوا أمامهم .

فمن فرّ من اثنين فهو فارّ من الزحف .

ومن فرّ من ثلاثة فليس بفارّ من الزحف ، ولا يتوجّه عليه الوعيد .

والفرار كبيرة موبقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة .

وقالت فرقة منهم ابن الماجشون في الواضحة : إنه يراعى الضعف والقوة والعدة ؛ فيجوز

على قولهم أن يفرّ مائة فارس من مائة فارس إذا علموا أن ما عند المشركين من النجدة

والبسالة ضعف ما عندهم .

وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة الإماما زاد على المائتين ؛ فمهما كان في مقابلة مسلم

أكثر من اثنين فيجوز الانهزام ، والصبر أحسن .

وقد وقف جيش مُؤتة وهم ثلاثة آلاف في مقابلة مائتي ألف ، منهم مائة ألف من الروم ،  
ومائة ألف من المستعربة من لحم وجُذام .

(13/308)

---

قلت : ووقع في تاريخ فتح الأندلس ، أن طارقاً مولى موسى بن نصير سار في ألف وسبعمائة  
رجل إلى الأندلس ، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ؛ فالتقى وملك  
الأندلس لذريق وكان في سبعين ألف عنان ؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الطاغية  
لذريق ، وكان الفتح .

قال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن القوم يلقون العدو أو يكونون في محرس يجرسون  
فيأتيهم العدو وهم يسير ، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم ؟ قال : إن كانوا يقوون  
على قتالهم قاتلوهم ، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فاذنوهم .

الثالثة : واختلف الناس هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أم عام في الزحوف كلها  
إلى يوم القيامة ؟ فروي عن أبي سعيد الخدري أن ذلك مخصوص بيوم بدر ، وبه قال نافع  
والحسن وقتادة ويزيد بن أبي حبيب والضحاك ، وبه قال أبو حنيفة .

وأن ذلك خاص بأهل بدر فلم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو انحازوا لانحازوا للمشركين ، ولم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا للمسلمين فئة إلا النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض .

قال الكيا : وهذا فيه نظر ؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج ولم يكونوا يرون أنه قتال ، وإنما ظنوا أنها العير ؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن خف معه .

ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة .

احتج الأولون بما ذكرنا ، بقوله تعالى : "يَوْمئذٍ" فقالوا : هو إشارة إلى يوم بدر ، وأنه نسخ حكم الآية بآية الضعف .

وبقي حكم الفرار من الزحف ليس بكبيرة .

وقد فرّ الناس يوم أحد فعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حنين ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْبِرِينَ ﴾ [ التوبة : 25 ] ولم يقع على ذلك تعنيف .

وقال الجمهور من العلماء : إنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف الذي يتضمنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ ﴾ .

---

وحكم الآية باقٍ إلى يوم القيامة بشرط الضعف الذي بينه الله تعالى في آية أُخرى ، وليس في الآية نسخ .

والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه .  
وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وأكثر العلماء .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اجتنبوا السبع الموبقات وفيه والتولي يوم الزحف " وهذا نص في المسألة .

وأما يوم أحد فإنما فرّ الناس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عنفوا .

وأما يوم حنين فكذلك من فرّ إنما انكشف عن الكثرة ؛ على ما يأتي بيانه .

الرابعة : قال ابن القاسم : لا تجوز شهادة من فرّ من الزحف ، ولا يجوز لهم الفرار وإن فرّ إمامهم ؛ لقوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ ﴾ الآية .

قال : ويجوز الفرار من أكثر من ضعفهم ، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً ؛ فإن

بلغ اثني عشر ألفاً لم يحل لهم الفرار وإن زاد عدد المشركين على الضعف ؛ لقول رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة " فإن أكثر أهل العلم خصّصوا

هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية .

قلت رواه أبو بشر وأبو سلمة العاملي ، وهو الحكم بن عبد الله بن خُطّاف وهو متروك .

قالا : حدّثنا الزهريّ عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا أكثم

بن الجون اغزم مع غير قومك يحسن خلقك وتكرم على رفقاءك .

يا أكثم بن الجون خير الرفقاء أربعة وخير الطلائع أربعون وخير السرايا أربعمئة وخير

الجيوش أربعة آلاف ولن يؤتى اثنا عشر ألفاً من قلة " وروى عن مالك ما يدل على ذلك من

مذهبه وهو قوله للعمريّ العابد إذ سأله هل لك سعة في ترك مجاهدة من غير الأحكام

وبدلها ؟ فقال : إن كان معك اثنا عشر ألفاً فلا سعة لك في ذلك .

الخامسة : فإن فرّ فليستغفر الله عز وجل .

(15/308)

---

روى الترمذيّ عن بلال بن يسار بن زيد قال : حدّثني أبي عن جدّي سمع النبيّ صلى الله

عليه وسلم يقول : " من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه غفر الله له

وإن كان قد فرّ من الزحف " قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

السادسة : قوله تعالى : ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ التحرف : الزوال عن

جهة الاستواء .

فالتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم ؛ وكذلك المتحيز إذا نوى التحيز

إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضاً .

روى أبو داود " عن عبد الله بن عمر أنه كان في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فحاص الناس حيصة ، فكنت فيمن حاص ، قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب .

فقلنا : ندخل المدينة فنثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد .

قال : فدخلنا قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كانت لنا توبة أقمنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا .

قال : فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر ، فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرارون ؛ فأقبل إلينا فقال : " لا بل أتم العكارون " قال : فدنونا فقبلنا يده . فقال : " أنا فئة المسلمين " قال ثعلب : العكارون هم العطافون .

وقال غيره : يقال للرجل الذي يولي عند الحرب ثم يكر راجعاً : عَكَرَ واعتكر .

وروى جرير عن منصور عن إبراهيم قال : انهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، هلكت ! فررت من الزحف .

فقال عمر : أنا فئتك .

وقال محمد بن سيرين : لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال : لو انحاز إلي لكنت له فئة ، فأنا فئة كل مسلم .

وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفرار كبيرة؛ لأن الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا .

(16/308)

---

وعلى القول الآخر يكون كبيرة؛ لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب .  
هذا على قول الجمهور أن الفرار من الزحف كبيرة .  
قالوا : وإنما كان ذلك القول من النبي صلى الله عليه وسلم وعمر على جهة الحيطة على المؤمنين ، إذ كانوا في ذلك الزمان يشبتون لأضعافهم مراراً .  
والله أعلم .

وفي قوله " والتولي يوم الزحف " ما يكفي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص



(17/308)

---

وقال الخازن:

قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ﴾

يعني مجتمعين متزاحفين بعضهم إلى بعض والتزاحف التداني في القتال وأصل الزحف مشي مع جر الرجل كانبعاث الصبي قبل أن يمشي وسمي مشي الطائفتين بعضهم إلى بعض في القتال زحفاً لأنها تمشي كل طائفة إلى صاحبها مشياً رويداً وذلك قبل التداني للقتال، وقال ثعلب: الزحف المشي قليلاً قليلاً إلى الشيء ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ يعني فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم فإن المنهزم يولي ظهره ودبره. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن - 3 ص ﴾

(18/308)

وقال أبو حيان:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما أخبر أنه سيلقي الرعب في قلوب الكفار وأمر من آمن بضرب فوق أعناقهم وبنانهم حرصهم على الصير عند مكافحة العدو ونهاهم عن الانهزام وانتصب ﴿ زحفاً ﴾ على الحال، فقيل من المفعول أي لقيتموهم وهم جمع كثير وأنتم قليل



فلا تفرّوا فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم ، وقيل من الفاعل أي وأنتم زحف  
من الزحوف وكان ذلك إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين انهزموا وهم اثنا عشر ألفاً  
بعد أن نهاهم عن الفرار يومئذ ، وقيل حال من الفاعل والمفعول أي متزاحفين ولم يذكر ابن  
عطية إلا ما يدل على أنه حال منهما قال ﴿ زحفاً ﴾ يراد به متقابلي الصفوف  
والأشخاص أي يزحف بعضهم إلى بعض .  
وقيل انتصب ﴿ زحفاً ﴾ على المصدر بحال محذوفة أي زاحفين زحفاً وهذا الذي قيل  
محكم فحرم الفرار عند اللقاء بكل حال .  
وقيل كان هذا في الابتداء الإسلام حيث كان الأمر بالمصابرة أن يواقف مسلم عشرة كفار  
ثم خفف فجعل واحد في مقابلة اثنين ويأتي حكم المؤمنة الفارّة من ضعفها في آية التخفيف  
وعدل عن الظهور إلى لفظ ﴿ الأدبار ﴾ تقييحاً لفعل الفار وتبشيعاً لانهزامه وتضمّن  
هذا النهي الأمر بالثبات والمصابرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(19/308)

وقال أبو السعود :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

خطابُ للمؤمنين بحكمِ كليِّ جارٍ فيما سيقع من الوقائع والحروبِ جيءَ به في تضاعيفِ  
القصةِ إظهاراً للاعتناء بشأنه ومبالغةً في حثهم على المحافظة عليه ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا زَحَفًا ﴾ الزحفُ الدبيبُ يقالُ: زحفَ الصبيُّ زحفاً إذا دبَّ على استه قليلاً قليلاً  
، سُمِّيَ به الجيشُ الداہمُ المتوجِّهُ إلى العدو ولأنه لكثرتِه وتكاثفه يَرى كأنه يزحفُ وذلك لأن  
الكلَّ يَرى كجسمٍ واحدٍ متصلٍ فيُحسُّ حركته بالقياس إليه في غاية البُطء وإن كانت في  
نفس الأمر على غاية السرعة قال قائلهم:

وأرعن مثل الطودِ تحسب أنهم . . . وقوفٌ لجاجٍ والركابُ تهملج

ونصبه إما على أنه إما حالٌ من مفعولٍ لقيتم أي زاحفين نحوكم وإما على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ  
لفعلٍ مضمَّرٌ هو الحالُ منه أي يزحفون زحفاً ، وأما كونه حالاً من فاعله أو منه ومن مفعوله  
معاً كما قيل فيأباه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُولُوهُمُ الْإِدْبَارَ ﴾ إذ لا معنى لتقييد النهي عن

الإدبار بتوجههم السابق إلى العدو أو بكثرتهم بل توجه العدو إليهم وكثرتهم هو الداعي إلى  
الإدبار عادةً والمُحوَجُّ إلى النهي عنه ، وحمله على الإشعار بما سيكون منهم يوم حُنينٍ  
حيث تولوا مدبرين وهم زحفٌ من الزحوف اثنا عشر ألفاً بعيداً ، والمعنى إذ لقيتموهم  
للقتال وهم كثيرٌ جُمٌّ وأنتم قليلٌ فلا تولوهم أدباركم فضلاً عن الفرار بل قابلوهم وقاتلوهم مع  
قلتكم فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي

وقال الأوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلُوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) ﴾  
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب للمؤمنين بحكم كلي جار فيما سيقع من الوقائع والحروب  
جىء به في تضاعيف القصة إظهاراً للاعتناء به وحثاً على المحافظة عليه ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾ الزحف كما قال الراغب انبعث مع جر الرجل كانبعاث الصبي قبل  
أن يمشي والبعير المعيبى والعسكر إذا كثرت انبعثاته ، وقال غير واحد : هو الديب يقال  
: زحف الصبي إذا دب على استه قليلاً قليلاً ثم سمي به الجيش الدهم المتوجه إلى العدو  
لأنه لكثرتة وتكاثفه يرى كأنه يزحف لأن الكل يرى كجسم واحد متصل فتحس حركته  
بالقياس في غاية البطء وإن كانت في نفس الأمر في غاية السرعة كما قال سبحانه وتعالى :  
﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ يُنَشِئُ السَّحَابَ ﴾ [ النمل : 88 ] وقال قائلهم

:

وأر عن مثل الطود تحسب أنه . . .

وقوف لجاج والركاب تهملج

ويجمع على زحوف لأنه خرج عن المصدرية ، ونصبه إما على أنه حال من مفعول (لقيتم)  
أي زاحفين نحوكم أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال منه أي يزحفون زحفاً  
وجوز كونه حالاً من فاعله أو منه ومن مفعوله معاً ، واعترض بأنه ياباه قوله تعالى : ﴿ فلا  
تُؤَلِّهُمُ الْآدِبَارُ ﴾ إذ لا معنى لتقييد النهي عن الأدبار بتوجههم السابق إلى العدو وبكثرتهم  
بل توجه العدو إليهم وكثرتهم هو الداعي إلى الأدبار عادة والمحجج إلى النهي ، وحمله على  
الإشعار بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوا وهم اثنا عشر ألفاً بعيد انتهى .

(21/308)

---

وأجيب بأن المراد بالزحف ليس إلا المشي للقتال من دون اعتبار كثرة أو قلة وسمي المشي  
لذلك به لأن الغالب عند ملاقات الطائفتين مشي إحداهما نحو الأخرى مشياً رويداً والمعنى  
إذا لقيتم الكفار ماشين لقتالهم متوجهين لمحاربتهم أو ماشياً كل واحد منكم إلى صاحبه  
فلا تدبروا ، وتقييد النهي بذلك لإيضاح المراد بالملاقاة وتفضيع أمر الأدبار لما أنه مناف  
لتلك الحال ، كأنه قيل حيث أقبلتم فلا تدبروا وفيه تأمل ؛ والمراد من تولية الأدبار الانهزام  
فإن المنهزم يولى ظهره من انهزم منه ، وعدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقييحاً للانهزام  
وتنفيراً عنه .

وقد يقال: الآية على حد ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ ﴾ [الإسراء: 32] والمعنى على تقدير  
الحالية من المفعول كما هو الظاهر واعتبار الكثرة في الزحف وكونها بالنسبة إليهم يا أيها  
الذين آمنوا إذا لقيتم أعداءكم الكفرة للقتال وهم جمع جمع وأنتم عدد نزر فلا تولوهم  
أدباركم فضلاً عن الفرار بل قابلوهم وقاتلوهم مع قلتكم فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو  
تساووهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(22/308)

وقال القاسمي:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ [15].

أي: الظهور بالانهزام، والزحف الجيش الكثير، تسمية بالمصدر، والجمع زحوف، مثل  
فلس وفلوس.

ويقال: زحف إليه، أي: مشى، وزحف الصبي على إسته قبل أن يقوم. شبه بزحف  
الصبيان مشي الجيش الكثير للقتال، لأنه لكثرتة يرى كأنه يزحف، أي: يدب دبيبا قبل  
التداني للضراب أو الطعان.

قال أبو السعود: ﴿ زَحَفًا ﴾ منصوب، إما على أنه حال من مفعول: ﴿ لَقِيتُمُ ﴾ أي:

زاحفين نحوكم ، أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر ، هو الحال منه ، أي : يزحفون زحفاً

وأما كونه حالاً من فاعله أو منه ، ومن مفعوله معاً كما قيل فيأباه قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُؤَلُّوهُمُ

الْأَدْبَارَ ﴾ ، إذ لا معنى لتقييد النهي عن الإدبار بتوجههم السابق إلى العدو أو بكثرتهم ،

بل توجه العدو إليهم وكثرتهم هو الداعي إلى الإدبار عادة ، والمحجوج إلى النهي عنه .

وحمله على الإشعار بما سيكون منهم يوم حنين ، حيث تولوا مدبرين ، وهم زحف من

الزحوف اثنا عشر ألفاً بعيد .

والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال ، وهم كثير جم وأنتم قليل ، فلا تولوهم أدباركم ، فضلاً عن

الفرار ، بل قابلوهم وقاتلوهم ، فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم .

قال الشهاب : عدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقييحاً للإنهزام ، وتنفيراً عنه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 8 ص 273. 274 ﴾

(23/308)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) ﴾

لما ذكرَ الله المسلمين بما أيدهم يوم بدر بالملائكة والنصر من عنده ، وأكرمهم بأن نصرهم على المشركين الذين كانوا أشد منهم وأكثر عدداً وعدداً ، وأعقبه بأن أعلمهم أن ذلك شأنه مع الكافرين به اعترض في خلال ذلك بتحذيرهم من الوهن والقرار ، فالجملة معترضة بين جملة : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم ﴾ [ الأنفال : 12 ] وبين جملة ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ [ الأنفال : 17 ] الآية وفي هذا تدريب للمسلمين على الشجاعة والإقدام والثبات عند اللقاء ، وهي خطة محمودة عند العرب لم يزلها الإسلام الإثوية ، قال الحُصَيْن بن الحُمَام :

تَأخَّرْتُ أُسْتَبْقِي الحَيَاةَ فلم أجد لنفسي . . .

حَيَاةً مِثْلَ أَنْ تُقَدَّمَ

وقد قيل : إن هذه الآية نزلت في قتال بدر ، ولعل مراد هذا القائل أن حكمها نزل يوم بدر ثم أثبتت في سورة الأنفال النازلة بعد الملاحمة ، أو أراد أنها نزلت قبل الآيات التي صدرت بها سورة الأنفال ثم رتبت في التلاوة في مكانها هذا ، والصحيح أنها نزلت بعد وقعة بدر كما سيأتي .

واللقاء غلب استعماله في كلامهم على مناجزة العدو في الحرب .

فالجملة استئناف ابتدائي ، والمناسبة واضحة ، وسيأتي عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها

الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ في هذه السورة ( 45 ) ، وأصل اللقاء أنه الحضور لدى

الغير .

والزحف أصله مصدر زحف من باب منع ، إذا انبعث من مكانه متنقلاً على مقعدته

يجر جيله كما يزحف الصبي .

ثم أطلق على مشي المقاتل إلى عدوه في ساحة القتال زحفٌ ؛ لأنه يدنو إلى العدو و باحتراس

وترصد فرصة ، فكأنه يزحف إليه .

ويطلق الزحف على الجيش الدهم ، أي الكثير عدد الرجال ، لأنه لكثرة الناس فيه يثقل

تنقله فوصف بالمصدر ، ثم غلب إطلاقه حتى صار معنى من معاني الزحف ويجمع على

زحوف .

(24/308)

---

وقد اختلف طرق المفسرين في تفسير المراد من لفظ زحفاً ﴿ في هذه الآية فمنهم من

فسره بالمعنى المصدرى أي المشي في الحرب وجعله وصفاً لتلاحم الجيشين عند القتال ،

لأن المقاتلين يدبون إلى أقرانهم دبيباً ، ومنهم من فسره بمعنى الجيش الدهم الكثير العدد ،

وجعله وصفاً لذات الجيش .

وعلى كلا التقديرين فهو: إما حال من ضمير ﴿ لقيتم ﴾ وإما من ﴿ الذين كفروا ﴾ ،



فعلى التفسير الأول هو نهى عن الانصراف من القتال فراراً إذا التحم الجيشان ، سواء  
جَعَلَتْ زحفاً حالاً من ضمير ﴿ لقيتم ﴾ أو من ﴿ الذين كفروا ﴾ ، لأن مشي أحد  
الجيشين يستلزم مشي الآخر .

وعلى التفسير الثاني فإن جعل حالاً من ضمير لقيتم كان نهياً عن الفرار إذا كان المسلمون  
جيشاً كثيراً ، ومفهومه أنهم إذا كانوا قلة فلا نهى ، وهذا المفهوم مجمل بينه قوله تعالى : ﴿  
إن يكن منكم عشرون صابرون صابرون إلى مع الصابرين ﴾ [ الأنفال : 65 ، 66 ] ، وإن جعل  
حالاً من ﴿ الذين كفروا ﴾ كان المعنى إذا لقيتموهم وهم كثيرون فلا تفروا ، فيفيد النهي  
عن الفرار إذا كان الكفار قلة بفحوى الخطاب ، ويؤول إلى معنى لا تؤلوهم الأدبار في كل  
حال .

وهذه الآية عند جمهور أهل العلم نزلت بعد انقضاء وقعة بدر ، وهو القول الذي لا ينبغي  
التردد في صحته كما تقدم آنفاً ، فإن هذه السورة نزلت بسبب الاختلاف في أنفال الجيش  
من أهل بدر عند قسمة مغانم بدر ، وما هذه الآية إلا جزء من هذه السورة فحكم هذه  
الآية شرع شرعه الله على المسلمين بسبب تلك الغزوة لتوقع حدوث غزوات يكون جيش  
المسلمين فيها قليلاً كما كان يوم بدر ، فنهاهم الله عن التقهقر إذا لاقوا العدو .

فأما يوم بدر فلم يكن حكم مشروع في هذا الشأن ، فإن المسلمين وقعوا في الحرب بغتة  
وتولى الله نصرهم .

وحكم هذه الآية باق غير منسوخ عند جمهور أهل العلم، وروي هذا عن ابن عباس، وبه قال مالك، والشافعي، وجمهور أهل العلم، لكنهم جعلوا عموم هذه الآية مخصوصاً بآية ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا إِلَى قَوْلِهِ يَا ذَنْبَ اللَّهِ﴾ (الأنفال: 65، 66).

(والوجه في الاستدلال أن هذه الآية اشتملت على صيغ عموم في قوله: ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ﴾ إلى قوله ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وهي من جانب آخر مطلقة في حالة اللقاء من قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ فتكون آيات ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ إِلَى قَوْلِهِ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ﴾ [الأنفال: 65، 66] مخصصة لعموم هاتيه الآية بمقدار العدد ومقيدة لإطلاقها اللقاء بقيد حالة ذلك العدد، وروي عن أبي سعيد الخدري، وعطاء، والحسن، ونافع، وقتادة، والضحاك: أن هذه الآية نزلت قبل وقعة بدر، وقالوا إن حكمها نسخ بآية الضعفاء آية ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ [الأنفال: 65] الآية وبهذا قال أبو حنيفة، ومال القولين واحد بالنسبة لما بعد يوم بدر، ولذلك لم يختلفوا في فقه هذه الآية إلا ما روي عن عطاء كما سيأتي، والصحيح هو الأول

كما يقتضيه سياق انتظام آي السورة ، ولو صح قول أصحاب الرأي الثاني للزم أن تكون هذه الآية قد نزلت قبل الشروع في القتال يوم بدر ثم نزلت سورة الأنفال فألحقت الآية بها ، وهذا ما لم يقله أحد من أصحاب الأثر .

وذهب فريق ثالث : إلى أن قوله تعالى : ﴿ فلاتولهم الأدبار ﴾ الآية محكم عام في الأزمان ، لا يخص بيوم بدر ولا بغيره ، ولا يخص بعدد دون عدد ، ونسب ابن الفرس ، عن النحاس ، إلى عطاء بن أبي رباح ، وقال ابن الفرس قال أبو بكر بن العربي هو الصحيح لأنه ظاهر القرآن والحديث ، ولم يذكر أين قال ابن العربي ذلك ، وأنا لم أقف عليه .

(26/308)

---

ولم يستقر من عمل جيوش المسلمين ، في غزواتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع الأمراء الصالحين في زمن الخلفاء الراشدين ، ما ينضبط به مدى الإذن أو المنع من الفرار ، وقد انكشف المسلمون يوم أُحُد فعنفهم الله تعالى بقوله:

﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقي الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ﴾ [آل عمران : 155] وما عفا عنهم إلا بعد أن استحقوا الإثم ، ولما انكشفوا عند لقاء هوازن يوم حنين عنفهم الله بقوله : ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ إلى قوله ﴿

ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفورٌ رحيمٌ ﴿ في سورة براءة (27 25) ﴾  
وذكر التوبة يقتضي سبق الإثم .

ومعنى ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ لا توجهوا إليهم أديباركم ، يقال : ولي وجهه فلانا إذا أقبل عليه بوجهه ومنه قوله تعالى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ [ البقرة : 144 ]  
فيعدى فعل ولى إلى مفعولين بسبب التضعيف ، ( ومجرده ولى ) إذا جعل شيئاً والياً أي قريباً فيكون ولى المضاعف مثل قرب المضاعف ، فهذا نظم هذا التركيب .

و(الأدبار) جمع دُبر ، وهو ضدُّ قُبْل الشيء وجهه ، وما يتوجه إليك منه عند إقباله على شيء وجعله أمامه ، ودبره ظهره وما تراه منه حين انصرافه وجعله إياك وراءه ، ومنه يقال استقبل واستدبر وأقبل وأدبر ، فمعنى توليتهم الأدبار صرف الأدبار إليهم ، أي الرجوع عن استقبالهم ، وتولية الأدبار كناية عن الفرار من العدو بقرينة ذكره في سياق لقاء العدو ، فهو مستعمل في لازم معناه مع بعض المعنى الأصلي ، وإلا فإن صرف الظهر إلى العدو بعد النصر لا بد منه وهو الانصراف إلى المعسكر ، إذ لا يفهم أحد النهي عن إدارة الوجه عن العدو ، وإلا للزم أن يبقى الناس مستقبلين جيش عدوهم ، فلذلك تعين أن المفاد من قوله : ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ النهي عن الفرار قبل النصر أو القتل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ (15) ﴾

ونعلم أن نداء الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، إما أن يكون بعدها أمر بمتعلق الإيمان ومطلوبه ، وإما أن يكون بعدها الإيمان نفسه ، ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾ [ النساء : 136 ] .

وبعضهم يقول : كيف ينادى مؤمنين ثم يقول لهم : " آمِنُوا " ؟ ، وهؤلاء المستفهمون لم يلتفتوا إلى أن الحق حين يكلم المؤمنين يعلم أنهم مؤمنون بالفعل ، ولكن الأغبى في الاختيار قد تدعوهم إلى أن يتراخى البعض منهم عن مطلوبات الإيمان . و " آمِنُوا " الثانية معناها : أنشؤا دائما إيمانا جديداً أي مستمرا يتصل بالإيمان الحاضر والإيمان المستقبل ، ليدوم لكم الإيمان .

(28/308)

---

فإذا كان ما بعد ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أمراً بمطلوب الإيمان ، من حكم شرعي ، أو عظة أخلاقية . يكون أمرها واقعاً ، والمعنى : يا من آمنتم بي إلهاً قادراً حكيماً ، ثقوا في كل ما

أمركم به لأنني لا آمركم بشيء فيه مصلحة لي؛ لأن صفات الكمال لي أزلية، فخلقني لكم لم ينشئ صفة كمال، فإن كلفتكم بشيء، فتكليفني لكم يعود عليكم بالنفع والمصلحة لكم، وضربنا المثل - والله المثل الأعلى منزّه عن كل مثل - أنت تذهب إلى الطبيب بعد أن تشاور مع أهلِكَ وزملائك وتكون واثقاً بأن هذا هو الطبيب الذي ينفع في هذه الحالة التي تشكو منها، وساعة تذهب إليه يشخص لك المرض ويكتب لك الدواء، وسواء استخدمت الدواء أم لم تستخدمه فأنت حر وأثر ذلك يعود عليك وعود استعمالك الدواء لن يضر الطبيب شيئاً، بل أنت الذي تضر نفسك، كذلك منهج الله الذي جعله لصالحية حركة الحياة. إن اتبعته وطبقته تنفع نفسك، وإن تركته فلم تطبقه فسوف تضر نفسك، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: 29].

إذن فالاختيار لك والله سبحانه وتعالى قد خلقك، وخلق الكون الذي يخدمك من قبل أن توجد، وأنت طارئ على هذا الكون، طارئ على الشمس وعلى القمر، وعلى الأرض، وعلى الجبال، وعلى الماء وعلى أي شيء في هذا الوجود. والذي خلق ما سبقك لا بد أن تكون له صفات الكمال المطلق. فهو سبحانه وتعالى قد خلق كل شيء بالحكمة والنظام، وما دامت له سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق المستوعبة، فهو لا يطلب منك بالتكاليف أن تنشئ له صفات كمال جديدة، وهو غني عنك. فإذا

اقتنعت بالإيمان فلمصلحتك أنت ، ولم يكلفك إلا بالأحكام التي تصلح من حالك .  
وحيثية كل حكم هو تصديره ب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

(29/308)

---

إياك أن تبحث عن علة في الحكم ؛ لأنك لو ذهبت إلى الحكم لعلته ، لاشرتكت مع غير المؤمنين ، فالمؤمن - مثلاً - حين سمع الأمر باجتنا ب الخمر ، امتثل للحكم لأنه صادر من الله ، من بعد ذلك عرف غير المؤمنين - بالتحليل العلمي - أن الخمر ضارة فامتنعوا عنها ، فهل امتناعهم هو امتناع إيماني ؟ لا .

إذن فإن المؤمن يأخذ الأمر من الله عز وجل لا لعله الأمر بل مجرد أنه قد صدر من الله ؛ لذلك يمتثل للأمر وينفذه . . فالمسلم يمتثل لأوامر الله ويؤدي العمل الصالح دون بحث أو تساؤل عن علة ، فحين يقال - على سبيل المثال - إن من فوائد الصيام أن يذوق الغني ألم الجوع ، ويعطف على الفقير ، حين أسمع من يقول ذلك أقول له : قولك صحيح لأن فيه لمسة من فهم ، لكن ماذا عن صوم الفقير الذي ليس عنده ما يعطيه لغيره ، ألا يصوم أيضاً ؟ .  
إن المؤمن يصوم لأن الأمر جاء من الله بالصيام . ومعظم أحكام الله تأتي مسبوقه بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، أي : يا من آمنتم بي إلهاً أقبلوا عليّ ، فإنكم إن مجتثتم عن العلة ،

ثم نفذتم الحكم لعلته فأنتم غير مؤمنين بالإله الأمر والمشرع، لكنكم مؤمنون بعلّة المأمور به، والله يريدك أن ترضخ له فقط، ولذلك يأمرك بأوامر وينهاك بنواه، فأنت - مثلاً - حين تحج بيت الله الحرام، تسلم على الحجر الأسود بأمر من الله، وقد تتيح لك الظروف أن تقبل هذا الحجر كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت في كل ذلك لا ترضخ للحجر. بل للأمر الأعلى الذي بعث محمداً مجرباً على الأصنام وعلى الأحجار، وأنت تتبع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنتهى التسليم والإيمان، وتذهب بعد ذلك لترجم الأحجار التي هي رمز إبليس. وتفعل ذلك تسليماً لأوامر الله تعالى التي بلغتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(30/308)

---

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ  
الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: 15].

فما دمت قد آمنت بالإله، لا بد أن تدافع عن منهج الإله؛ لأن هذا أيضاً لمصلحتك؛ لأنك بإيمانك بالله أيها المؤمن ينتفع المجتمع كله بخيرك، ولن يأمرك سبحانه إلا بالخير، فلن تسرق، ولن تزني، ولن تشرب خمرًا، ولن تعربد في الناس، ولن ترتشي، وبكل ذلك السلوك ينتفع



المجتمع؛ لأن المجتمع يضار حين يوجد به فريق غير مهتدٍ . وأنت حين تقا تل تفرض الكلمة  
الإيمانية هلى هؤلاء ، فهذا يعود إلى مصلحتك ، ولذلك فإن اتصافك بالإيمان لا يتحقق إلا  
إن عديته لغيرك ، ومن حبك لنفسك ، أن تعدى الإيمان بالقيم التي عندك إلى غيرك لتنتفع  
أنت بسلوك من يؤمن ، وينتفع غيرك بسلوكك معه ، ومن مصلحتك أن يؤمن الجميع .

و حين يكلفك الحق تبارك وتعالى بالجهاد في سبيل الله فأنت تفعل ذلك لصالحك .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾ [الأنفال: 15] .

وزحفاً مصدر زحَف ، والزحَف في الأصل هو الانتقال من مكان إلى مكان آخر بالنصف  
الأعلى من الجسم . وتقول : " الولد زحف " أي تحرك من مكانه بنقل يديه وشد بذلك بقية  
جسمه . كما تقول : " حبا " . أي استعمل الوركين والركبتين ليتحرك بجسده على الأرض  
، ثم تقول : " مشى " أي وقف على قدميه وسار ، فتلك إذن مراحل تبدأ من زحَف ثم  
حبو ثم مشى ، والطفل يبدأ حركته الأولى بالزحف ، بعد أن يتمكن من السيطرة على  
رأسه ، ويمتلك القدرة على تحريكها بإرادته ، ويقوى نصفه الأعلى ، فيقع ، ثم يزحف ،  
وبعد ذلك تقوى فخذه فيحبو ، ومن بعد ذلك تقوى الساقان فيمشي .  
إذن قوة الطفل تبدأ من أعلى .

---

ولكن ما حكاية " زحفا " هنا في هذه الآية الكريمة ؟ ولماذا لم يقل هَرُّوا إلى القتال ؟ .  
ونقول : إن الزحف هو انتقال كتلته لا ترى الناقل فيها ، فمن يراها يظن أن الكتلة كلها  
تتحرك .

وكان الحق تعالى يقصد : أريد منكم أن تتحركوا إلى الحرب كتلة واحدة متلاصقين تماماً  
فيظهر الأمر وكأنكم تزحفون . وزحفاً أصلها زاحفين ، وقد عدل سبحانه وتعالى عن  
اسم الفاعل وجاء بالمصدر ، مثلما نقول عن إنسان عادل : إنه إنسان عدل ، أي أن عدله  
مجسم . ولذلك نجد الشاعر يقول عن الجيش الزاحف :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه . . . وفي أذن الجوزاء منه زمازم  
والخميس هو الجيش الجرار ، ويريد الشاعر أن يصور الزحف كأنه كتلة واحدة متماسكة  
ومتراصة ، بحيث لا تستطيع أن تميز حركة جندي من حركة جندي آخر ، حتى ليخيل  
إليك أن الكتلة كلها تسير معاً . ومن يريد أن يتأكد من ذلك ندعو الله أن يكتب له الحج  
ويصعد إلى الدور الثاني من الحرم المكي الشريف ويرى الطائفين ، ويجدهم ملتحمين جميعاً  
كأنهم كتلة واحدة تسير ، ولذلك سَمَّوها " السيل " .

" سالت بأعناق المطي الأباطح "

مثلهم مثل السيل في تدفقه لا تفرق فيه نقطة عن أخرى .

والحق تبارك وتعالى يوضح لنا هنا أن لقاء الكفار يجب أن يكون زحفاً أي كتلة واحدة  
متماسكة ، فيصيب المشهد الكافرين بالرعب حين يرون هذه الكتلة الضخمة التي لا يفرق  
أحد بين أعضائها ، وهكذا تكون المواجهة الحقيقية .

ويواصل الحق سبحانه وتعالى التنبية فيقول :

﴿ فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ [ الأنفال : 15 ] .

أي لا تعطوهم ظهوركم ، وهو سبحانه وتعالى في آية أخرى يقول : ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى  
أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [ المائدة : 21 ] .

(32/308)

---

ويريد الله أن يعطي صورة بشعة في أذن القوم ؛ لأن " الأدبار " جمع " دبر " والدبر مفهوم أنه  
الخلف ويقابله القبل ، وهذا تحذير لك من أن تتمكن عدوك من ظهرك أي دبرك ، لأن هذا  
أمر مستهجن ، ولذلك نجد الإمام علياً - كرم الله وجهه - يرد على من قالوا له إن درعك له  
صدار وليس له ظهار ، أي مغطى من الصدر ، وليس له ظهر . وهنا يقول الإمام علي  
رضي الله عنه : " شككتني أمي إن مكنت عدوي من ظهري " ، وكان شهامة وشجاعة  
الإمام تحمله على أنه يترك ظهره من غير وقاية .

وفي قول الحق جل وعلا ﴿ فَلَا تُولُوهُمُ الْاَدْبَارَ ﴾ تحذير من الفرار من مواجهة العدو.

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(33/308)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾ الآية .

في " زَحَفًا " وجهان :

أحدهما : أنه منصوبٌ على المصدر ، وذلك التائب له في محل نصب على الحال ،

والتقدير : إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَاحِفِينَ زَحَفًا أَوْ يَزْحَفُونَ زَحَفًا .

والثاني : أنه منصوبٌ على الحال بنفسه ، ثم اختلفوا في صاحب الحال ، فقيل : الفاعلُ أي

وأنتم زَحَفٌ من الزُحُوفِ ، أي : جماعة ، أو أأنتم تمشون إليهم قليلاً قليلاً ، على حسب ما

يُفسَّرُ به الزَّحْفُ ، وسيأتي .

وقيل : هو المفعول ، أي : وَهُمْ جَمٌّ كَثِيرٌ ، أو يمشون إليكم .

وقيل : هي حالٌ منهما ، أي : لقيتموهم مُتَزاحفين بعضكم إلى بعض ، والزَّحْفُ الدُّنُو قليلاً

قليلاً، يقال: زَحَفَ يَزْحَفُ إليه بالفتح فيها فهو زاحفٌ زحفاً، وكذلك تَزَحَّفُ وتَزاحفُ  
وأزحَفَ لنا عدوُّنا، أي: دنوا لقتالنا .

وقال الليثُ: الزَّحْفُ: الجماعةُ يمشون إلى عدوِّهم؛ قال الأعشى: [الكامل]

2686 - لِمَنْ الطَّعَانُ سِيرُهُنَّ تَزَحَّفُ . . .

مِثْلَ السَّفِينِ إِذَا تَقَاذَفَ تُجَدِفُ

(34/308)

---

وهذا من باب إطلاق المصدر على العين، والزَّحْفُ: الدَّيْبُ أيضاً، مِنْ زَحَفَ الصَّبِيُّ

قال امرؤ القيس: [المقارب]

2687 - فَزَحَفًا أَثَيْتُ عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ . . .

فَثَوْبًا لَبَسْتُ وَثَوْبًا أَجْرًا

ويجوز جمعُه على: زُحُوفٍ ومَزاحِفٍ، لاختلافِ النوع؛ قال الهذليُّ: [الوافر]

2688 - كَانَتْ مَزاحِفِ الحَيَّاتِ فِيهِ . . .

قُبَيْلَ الصُّبْحِ أَثَارُ السَّيَاطِ

ومَزاحِفٍ: جمع "مَزحَف" اسم المصدر.

قوله: ﴿ فَلَا تُكَلِّمُوا الَّذِينَ يُؤْمِنُوا بِالْغَيْبِ ﴾ مفعول: "تولّوهم" الثاني هو "الأدبار"، وكذا "دبره"

مفعول ثانٍ لـ: "يولّوهم" وقرأ الحسن: بالسكون كقولهم: عنق في عنق، وهذا من باب التعريض حيث ذكر لهم حالة تستهجن من فاعلها؛ فأتى بلفظ الدبر دون الظهر لذلك، وبعضهم من أهل علم البيان سمى هذا النوع كنايةً، وليس بشيء. انتهى انتهى. ١٠ هـ

﴿ تفسير ابن عادل ج ٩ ص 376 ﴾

(35/308)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16) ﴾

"فصل"

قال البقاعي:

﴿ ومن يؤلم ﴾ ولما كان الأغلب في وقوع القتال النهار، وكان التولية مما لا يكون الظرف معياراً له لأنها مما لا يمتد زمنه، فالعصيان يقع بمجرد الالتفات بقصد الفرار، والتمادي تكرير أمثال، لا شرط في صحة إطلاق الاسم، عبر باليوم، وجرده عن "في" ندباً إلى الكر بعد الفرع عدم الالتباس، فإن الظرف لا يكون معياراً للفعل إلا إذا كان ممتد الزمان

كالصوم فقال ﴿يومئذ﴾ أي إذ لقيتم على هذه الحالة في أي وقت كان من أوقات القتال من ليل كان أو نهار ﴿دبره﴾ أي يجعل ظهره إليهم لشيء من الأشياء تولية لا يريد الإقبال إلى القتال منها ﴿إلا﴾ أي حال كونه ﴿متحرفاً﴾ أو الحال التحرف ، وهو الزوال عن جهة الاستواء ﴿لقتال﴾ أي لا يتسهل له إلا بذلك يخيل إلى عدوه أنه منهزم خداعاً له ثم يكر عليه ﴿أو متحيزاً﴾ أي متقللاً من حيز إلى آخر ومتحيزاً ﴿إلى فئة﴾ أي جماعة أخرى من أهل حزبه هم أهل لأن يرجع إليهم ليستعين بهم أو يعينهم .

ولما كان هذا محل توقع السامع للجواب وتفرغ ذهنه له ، أجاز رابطاً بالفاء إعلاماً بأن الفعل المحدث عنه سبب لهذا الجزاء فقال : ﴿فقد باء﴾ أي رجع ﴿بغضب من الله﴾ أي الحائز لجميع صفات الكمال ﴿ومأواه جهنم﴾ أي تتجهمه كما أنه هاب تجهم الكفار ولقاء الوجوه العابسة بوجه كالح عابس ﴿وئس المصير﴾ هذا إذا لم يزد الكفار عن الضعف - كما سيأتي النص به . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر ح 3 ص 195 .

## فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى قال : ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ ﴾ إلا في هاتين الحالتين ، فقد باء بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير .

المسألة الثانية :

احتج القاضي بهذه الآية على القطع بوعيد الفساق من أهل الصلاة ، وذلك لأن الآية دلت على أن من انهزم إلا في هاتين الحالتين استوجب غضب الله ونار جهنم . قال وليس للمرجئة أن يحملوا هذه الآية على الكفار دون أهل الصلاة ، كصنعهم في سائر آيات الوعيد ، لأن هذا الوعيد مختص بأهل الصلاة .

واعلم أن هذه المسألة قد ذكرناها على الاستقصاء في سورة البقرة ، وذكرنا أن الاستدلال بهذه الظواهر لا يفيد إلا الظن ، وقد ذكرنا أيضاً أنها معارضة بعمومات الوعد ، وذكرنا أن الترجيح بجانب عمومات الوعد من الوجوه الكثيرة ، فلافائدة في الإعادة .

المسألة الثالثة :

اختلف المفسرون في أن هذا الحكم هل هو مختص بيوم بدر أو هو حاصل على الإطلاق ، فنقل عن أبي سعيد الخدري والحسن وقتادة والضحاك أن هذا الحكم مختص بمن كان انهزم يوم بدر ، قالوا : والسبب في اختصاص يوم بدر بهذا الحكم أمور : أحدها : أن رسول الله



صلى الله عليه وسلم كان حاضراً يوم بدر ومع حضوره لا يعد غيره فيه ، أما لأجل أنه لا يساوي به سائر الفئات .

بل هو أشرف وأعلى من الكل ، وأما لأجل أن الله تعالى وعده بالنصر والظفر فلم يكن لهم التحيز إلى فئة أخرى .

وثانيها : أنه تعالى شدد الأمر على أهل بدر ، لأنه كان أول الجهاد ولو اتفق للمسلمين انهزام فيه ، لزم منه الخلل العظيم ، فهذا وجب عليهم التشدد والمبالغة ، ولهذا السبب منع الله في ذلك اليوم من أخذ الفداء من الأسرى .

(37/308)

---

والقول الثاني : أن الحكم المذكور في هذه الآية كان عاماً في جميع الحروب ، بدليل أن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ عام فيتناول جميع السور ، أقصى ما في الباب أنه نزل في واقعة بدر ، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

المسألة الرابعة :

اختلفوا في أن جواز التحيز إلى فئة هل يحظر إذا كان العسكر عظيماً أو إنما يثبت إذا كان في العسكر خفة ؟ قال بعضهم : إذا عظم العسكر فليس لهم هذا التحيز .

وقال بعضهم: بل الكل سواء، وهذا البق بالظاهر لأنه لم يفصل. انتهى انتهى. اهـ

﴿ مفاتيح الغيب ج 15 ص 111. 112 ﴾

(38/308)

فصل

قال الجصاص:

الْكَلَامُ فِي الْفِرَارِ مِنَ الرَّحْفِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾

رَوَى أَبُو نُضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ أَبُو نُضْرَةَ: ﴿ لَأَنَّهُمْ لَوْ انْحَازُوا يَوْمَئِذٍ لَانْحَازُوا إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ مُسْلِمٌ غَيْرُهُمْ ﴾ .

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ أَبُو نُضْرَةَ لَيْسَ بِسَدِيدٍ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ بِالْمَدِينَةِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْخُرُوجِ وَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ يَكُونُ قِتَالٌ، وَإِنَّمَا ظَنُّوا أَنَّهَا الْعِيرُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَنْ خَفَّ مَعَهُ .

فَقَوْلُ أَبِي نُضْرَةَ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مُسْلِمٌ غَيْرُهُمْ وَإِنَّهُمْ لَوْ انْحَازُوا انْحَازُوا إِلَى الْمُشْرِكِينَ غَلَطٌ لِمَا وَصَفْنَا .

وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ جَائِزًا لَهُمُ الْإِنْحِيَاذُ يَوْمَئِذٍ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
وَلَمْ يَكُنْ الْإِنْحِيَاذُ جَائِزًا لَهُمْ عَنْهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ  
الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فَلَمْ يَكُنْ يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ  
يَخْدُلُوا نَبِيَّهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْصَرِفُوا عَنْهُ وَيُسَلِّمُوهُ ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِهِ  
وَعَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يُعَصِّمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ فَرَضًا  
عَلَيْهِمْ قَلَّتْ أَعْدَاؤُهُمْ أَوْ كَثُرُوا .

وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِئَةَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ ، وَمَنْ كَانَ بِمُنْحَازٍ عَنْ  
الْقِتَالِ فَإِنَّمَا كَانَ يَجُوزُ لَهُ الْإِنْحِيَاذُ عَلَى شَرْطِ أَنْ يَكُونَ انْحِيَاذُهُ إِلَى فِئَةٍ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَاهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِئَةٌ غَيْرُهُ

﴿ قَالَ ابْنُ عُمَرَ : كُنْتُ فِي جَيْشٍ فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً وَاحِدَةً ، وَرَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ  
فَقَلْنَا : نَحْنُ الْفَرَارُونَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنَا فَتَاكُمْ .

---

﴿ فَمَنْ كَانَ بِالْبُعْدِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انْحَازَ عَنِ الْكُفَّارِ فَإِنَّمَا كَانَ يَجُوزُ لَهُ  
الانحياز إلى فئة وهو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِذَا كَانَ مَعَهُمْ فِي الْقِتَالِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ فِئَةٌ  
غَيْرُهُ يَنْحَازُونَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَكُنْ يَجُوزُ لَهُمُ الْفِرَارُ .

(41/308)

---

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دَرَبَهُ ﴾ قَالَ : ﴿ شَدَّدْتُ عَلَى أَهْلِ  
بَدْرٍ ﴾ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَمَى الْجَمْعَانَ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ  
الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فَرُّوا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَذَلِكَ  
يَوْمَ حُنَيْنٍ فَرُّوا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿  
وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ  
ثُمَّ وَكَلْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ فَهَذَا كَانَ حُكْمُهُمْ ؛ إِذْ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَلَّ عَدَدُ  
الْعَدُوِّ أَوْ كَثُرَ ؛ إِذْ لَمْ يَحْدِ اللَّهُ فِيهِ شَيْئًا ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ  
حَرِّضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ  
مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ فِي الْحَالِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاضِرًا مَعَهُمْ ، فَكَانَ عَلَى الْعِشْرِينَ أَنْ يَقَاتِلُوا الْمَائِثِينَ وَلَا يَهْرُبُوا عَنْهُمْ ، فَإِذَا  
كَانَ عَدَدُ الْعَدُوِّ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أَبَاحَ لَهُمُ التَّحِيْزُ إِلَى فِتَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ نُصْرَةٌ لِمَعَاوِدَةَ  
الْقِتَالِ .

(42/308)

ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ  
مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
أَنَّهُ قَالَ : كَتَبَ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ  
أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ الْآيَةَ ، فَكَتَبَ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا يَفِرَّ مِائَةٌ مِنْ مِائَتَيْنِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنْ فَرَّ  
رَجُلٌ مِنْ رَجُلَيْنِ فَقَدْ فَرَّ وَإِنْ فَرَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ فَلَمْ يَفِرَّ قَالَ الشَّيْخُ : يَعْنِي بِقَوْلِهِ فَقَدْ فَرَّ الْفِرَارُ مِنْ  
الزَّحْفِ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ ، وَالَّذِي فِي الْآيَةِ إِجْبَابُ فَرَضِ الْقِتَالِ عَلَى الْوَاحِدِ لِرَجُلَيْنِ مِنَ الْكُفَّارِ ،  
فَإِنْ زَادَ عَدَدُ الْكُفَّارِ عَلَى اثْنَيْنِ فَجَانِزٌ حِينَئِذٍ لِلوَاحِدِ التَّحِيْزُ إِلَى فِتَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا  
نُصْرَةٌ ، فَأَمَّا إِنْ أَرَادَ الْفِرَارَ لِيَلْحَقَ بِقَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا نُصْرَةَ مَعَهُمْ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ  
الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُؤَلَّهِمْ يَوْمَئِذٍ دَرَبُهُ إِلَّا مَتَّحِرًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيْزًا إِلَى فِتَّةٍ فَقَدْ  
بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : أَنَا فِتَّةٌ كُلِّ مُسْلِمٍ .

﴿ وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ أَبَا عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ اسْتَقْتَلَ يَوْمَ الْجَيْشِ حَتَّى قُتِلَ وَلَمْ يَنْهَزْهُمُ رَحِمَ اللَّهُ أَبَا عُبَيْدٍ لَوْ أَنْحَازَ إِلَيَّ لَكُنْتُ لَهُ فِئَةً فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهِ أَصْحَابُ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ :  
أَنَا فِئَةٌ لَكُمْ ، وَلَمْ يُعَنَّهُمْ .

وَهَذَا الْحُكْمُ عِنْدَنَا ثَابِتٌ مَا لَمْ يَبْلُغْ عَدَدُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا لَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يَنْهَزُوا عَنْ مِثْلِهِمْ إِلَّا مُتَحَرِّفِينَ لِقِتَالٍ ، وَهُوَ أَنْ يُصِيرُوا مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى غَيْرِهِ مُكَائِدِينَ لِعَدُوِّهِمْ مِنْ نَحْوِ خُرُوجٍ مِنْ مَضِيقٍ إِلَى

فُسْحَةٍ أَوْ مِنْ سَعَةٍ إِلَى مَضِيقٍ أَوْ يَكْمِنُوا الْعَدُوَّ وَهُمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكُونُ فِيهِ انْصِرَافٌ عَنِ الْحَرْبِ ، أَوْ مُتَحَيِّزِينَ إِلَى فِئَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَهُمْ مَعَهُمْ .

فَإِذَا بَلَغُوا اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ ذَكَرَ أَنَّ الْجَيْشَ إِذَا بَلَغُوا كَذَلِكَ فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يُفِرُّوا مِنْ عَدُوِّهِمْ وَإِنْ كَثُرَ عَدَدُهُمْ ، وَلَمْ يَذْكُرْ خِلَافًا بَيْنَ أَصْحَابِنَا فِيهِ ، وَاحْتِجَّ

بِحَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ خَيْرُ الْأَصْحَابِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ أَلْفٍ

، وَلَنْ يُؤْتَىٰ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قَلَّةٍ وَلَنْ يُغْلَبَ ، وَفِي بَعْضِهَا : مَا غَلِبَ قَوْمٌ يَبْلُغُونَ اثْنَيْ عَشَرَ  
أَلْفًا إِذَا اجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ .

(44/308)

﴿ وَذَكَرَ الطَّحَاوِيُّ أَنَّ مَالِكًا سَأَلَ فَقِيلَ لَهُ : أَيَسَعُنَا التَّخْلُفُ عَنْ قِتَالِ مَنْ خَرَجَ عَنْ أَحْكَامِ  
اللَّهِ وَحَكَمَ بغيرِهَا ؟ فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ : إِنْ كَانَ مَعَكَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِثْلَكَ لَمْ يَسَعِكَ التَّخْلُفُ  
وَالْأَفْئِدَةُ فِي سَعَةِ مَنْ التَّخْلُفِ ؛ وَكَانَ السَّائِلُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ  
اللَّهِ بْنِ عُمَرَ .

وَهَذَا الْمَذْهَبُ مُوَافِقٌ لِمَا ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ .

وَالَّذِي رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا فَهُوَ أَصْلٌ فِي هَذَا الْبَابِ  
وَإِنْ كَثُرَ عَدَدُ الْمُشْرِكِينَ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ لَهُمْ أَنْ يَفِرُوا مِنْهُمْ وَإِنْ كَانُوا أضعَافَهُمْ ، لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِذَا اجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ ﴾ وَقَدْ أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ جَمْعَ كَلِمَتِهِمْ . انتهى

انتهى . ١ هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص ج 3 ص ﴾

(45/308)

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاُدْبَارَ وَمَنْ يُؤَلِّمُ  
يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ  
الْمَصِيرُ ﴾ .

فيها ثلاثُ مسائلٍ :

المسألة الأولى : قوله تعالى : ﴿ زَحَفًا ﴾ : يعني متدائنين ، والتزاحفُ هو التَّدَانِي  
والتَّقَارُبُ ، يقول : إِذَا تَدَانَيْتُمْ وَتَعَانَيْتُمْ فَلَا تَقْرُوا عَنْهُمْ ، وَلَا تُعْطُوهُمْ اُدْبَارَكُمْ ، حَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ  
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حِينَ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الْجِهَادَ ، وَقَتَلَ الْكُفَّارَ ؛ لِعِنَادِهِمْ لِدِينِ اللَّهِ ، وَإِبَائِهِمْ عَنْ  
قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

فَأَمَّا الْمِقْدَارُ الَّذِي يَكُونُ هَذَا مَعَهُ فَسَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

المسألة الثانية : اختلف الناس : هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أم عام في  
الزحوف كلها إلى يوم القيامة ؟ فروي عن أبي سعيد الخدري أن ذلك يوم بدر لم يكن لهم  
فتة إلا رسول الله ؛ وبه قال نافع ، والحسن ، وقتادة ، يزيد بن أبي حبيب ، والضحاك .



وَيُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَائِرِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْآيَةَ بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّمَا شَذَّ مَنْ شَذَّ  
بِخُصُوصِ ذَلِكَ يَوْمِ بَدْرٍ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ يُولَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى يَوْمِ  
بَدْرٍ ، وَلَيْسَ بِهِ ؛ وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى يَوْمِ الزَّحْفِ .  
وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ الْقِتَالِ وَاتِّقِضَاءِ الْحَرْبِ ، وَذَهَابِ الْيَوْمِ بِمَا فِيهِ ، وَقَدْ ثَبَتَ  
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَسْبَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ الْكِبَائِرَ كَذَا .  
وَعِنْدَ الْفِرَارِ يَوْمَ الزَّحْفِ .

وَهَذَا نَصٌّ فِي الْمَسْأَلَةِ يَرْفَعُ الْخِلَافَ ، وَيُبَيِّنُ الْحُكْمَ ، وَقَدْ تَبَهَّنَا عَلَى التُّكْتَةِ الَّتِي وَقَعَ  
الْإِشْكَالُ فِيهَا لَمَنْ وَقَعَ بِاخْتِصَاصِهِ بِيَوْمِ بَدْرٍ .  
الْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ : أَمَا يَوْمُ بَدْرٍ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُجْزِلْ لَهُمْ أَنْ يَفِرُّوا عَنْ رَسُولِ  
اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يُسَلِّمُوهُ لِأَعْدَائِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُمْ عَلَى الْأَرْضِ عَيْنٌ  
تُطْرَفُ .

وَأَمَّا سَائِرُ الْجُيُوشِ وَأَيَّامُ الْقِتَالِ فَلَهَا أَحْكَامٌ تُسْتَقْصَى فِي مَوَاضِعِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربي ح 2 ص ﴾

وقال السمرقندي :

﴿ وَمَنْ يُولَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ ﴾ ،

يعني ظهره منهزماً يومئذ ، يعني يوم حربهم .

وقال الكلبي : يعني يوم بدر خاصة ؛ ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ ، يعني مستطرداً للكفرة يريد

الكفرة للقتال ؛ ﴿ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتَّةٍ ﴾ ، يعني ينحاز من فئة إلى فئة من أصحابه يمنعونه

عن العدو .

قال أهل اللغة تحوّزت وتحيّزت أي انضمت إليه ، ومعناه إذا كان منفرداً فينحاز ليكون مع

المقاتلة ، ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضِبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ وفي الآية تقديم ، يعني ومن يولهم يومئذ دبره ، فقد

باء بغضب من الله ، أي استوجب الغضب من الله .

﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ إلا منحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة .

وروي عن الحسن أنه قال : كان هذا يوم بدر وغيره .

وعن الضحاك قال : هذا يوم بدر خاصة ، لأنه لم يكن لهم فئة ينحازون إليها .

وعن داود بن أبي هند ، عن أبي نضرة قال : نزلت يوم بدر ، لأنهم لم ينحازوا إلا إلى

المشركين ، لم يكن في الأرض مسلمون غيرهم .

وقد قال بعضهم بأن الآية غير منسوخة ، لأنه لا يجوز للواحد أن يهرب من الاثنين وأن يهرب

من الجماعة؛ وإذا لم يكن معه سلاح جاز له أن يهرب ممن معه سلاح، وإذا لم يكن رامياً جاز له أن يهرب من الرامي .

فإذا كان عدد المسلمين نصف عدد الكفار ومعهم سلاح، لا يجوز لهم أن يهربوا منهم؛ وإذا كان المسلمون اثني عشر ألفاً ومعهم سلاح، لا يجوز أن يهربوا من الكفار وإن كانوا مائة ألف، لأنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ؛ وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قَلَّةٍ إِذَا كَانَتْ كَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةً، فَيَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا كَلِمَتَهُمْ وَاحِدَةً وَيُقَاتِلُوهُمْ، حَتَّى يَنْصُرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى " .

(48/308)

والآية نزلت في الذي لا يجوز له الهرب .

وروى سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن أبي المغيث، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤَيَّدَاتِ " .

قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: " الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّيُّ يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بجز العلوم حـ 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ ﴾

ظهره وقرأ الحسن ساكنة ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ أي متعطفاً مستطرداً لقتال عدوه بطلب عورة له تمكنه إصابتها فيكرّ عليه .

﴿ أَوْ مُتَحَيِّرًا ﴾ منضمّاً صابراً ﴿ إِلَى فِتَّةٍ ﴾ جماعة من المؤمنين يفيئون به بسهم الى القتال ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ واختلف العلماء في حكم قوله ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ ﴾ الآية هل هو خاص في أهل بدر أم هو في المؤمنين جميعاً .

فقال أبو سعيد الخدري : إنما كان ذلك يوم بدر خاصة لم يكن لهم أن يتحازوا ولو انحازوا إلى المشركين ، ولم يكن يومئذ في الأرض مسلم غيرهم ولا للمسلمين فيه غير النبي صلى الله عليه وسلم فأما بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض ممثلة ، قاله الحسن والضحاك وقتادة .

قال يزيد ابن أبي حبيب : أوجب الله لمن فرّ يوم بدر النار .

فقال ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ ﴾ الآية . فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال : ﴿ إِنَّمَا  
استزلمهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ﴾ [آل عمران : 155] ثم كان  
يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين . فقال : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : 25] ﴿ ثُمَّ  
يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ [التوبة : 27] . وقال عطاء بن أبي رباح : هذه  
الآية منسوخة بقوله ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾ [الأنفال : 66] الآية فليس لقوم أن  
يفروا من مثلهم فنسخت تلك الآية إلا هذه العدة .

وقال الكلبي : من قبل اليوم مقبلاً أو مدبراً فهو شهيد ولكن سبق المقبل المدبر الى الجنة .  
وروي جرير عن منصور عن إبراهيم قال : انهزم رجل من القادسية فأتى المدينة الى عمر .  
فقال : يا أمير المؤمنين هلكت فررت من الزحف ، فقال عمر رضي الله عنه أنا فتك .

(50/308)

---

وقال محمد بن سيرين : لما قتل أبو عبيد جاء الخبر إلى عمر رضي الله عنه فقال لو أنحاز إليَّ  
فكنت له فئة [فأنا فئة] كل مسلم .

عبد الرحمن بن أبي ليلى " عن عبد الله بن عمر قال : كنا في مُصَيْلِ بَعْثَنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَاضَ النَّاسُ خَيْضَةَ فَاَنْهَزْنَا وَكُنَّا نَفِرُ ، قَلْنَا نَهْرٌ فِي الْأَرْضِ حَيَاءً تَمَّا

صنعنا فدخلنا البيوت . ثم قلنا : يا رسول الله نحن الفارون . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بل أنتم الكرارون وأنا فئة المسلمين " .

وقال بعضهم : بل حكمنا عام في كل من ولي عن العدو وفيهم من روى ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض أهله :

" [إياك والفرار] من الزحف فإن هلكوا فاثبتوا فما [ . . . ] إلا على ارتكاب الكبائر وإلا الشرك بالله والفرار من الزحف لأن الله تعالى يقول ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ ﴾ " الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان - 4 ص ﴾

(51/308)

وقال الماوردي :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

أي صار بالمكان الذي يحق عليه غضب الله ، مأخوذ من المبوأ وهو المكان .

ومذهب الشافعي وأصحابه وموافقيه أن هذا على العموم ، محكوم به في كل مسلم لاقى عدواً ، وبه قال عبد الله بن عباس .

وحكي عن الحسن ، وقتادة ، والضحاك : أن ذلك خاص في أهل بدر ، وبه قال أبو

حنيفة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(52/308)

وقال ابن عطية :

قرأ الجمهور " دُبْرَه " بضم الباء ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " دُبْرَه " بسكون الباء ،  
واختلف المتأولون في المشار إليه بقوله ﴿ يومئذ ﴾ فقالت فرقة الإشارة إلى يوم بدر وما  
وليه ، وفي ذلك اليوم وقع الوعيد بالغضب على من فر ، ونسخ بعد ذلك حكم الآية بآية  
الضعف ، وبقي الفرار من الزحف ليس بكبيرة وقد فر الناس يوم أحد فعفا الله عنهم ،  
وقال فيهم يوم حنين :

﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ [ التوبة : 25 ] ولم يقع على ذلك تعنيف .

قال القاضي أبو محمد : وقال الجمهور من الأمة : الإشارة ب ﴿ يومئذ ﴾ إلى يوم اللقاء  
الذي يتضمنه قوله ﴿ إذا لقيتم ﴾ وحكم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضعف الذي  
بينه الله تعالى في آية أخرى ، وليس في الآية نسخ ، وأما يوم أحد فإنما فر الناس من أكثر من  
ضعفهم ومع ذلك عنفوا لكون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وفرارهم عنه ، وأما

يوم حنين فكذلك من فرإنما انكشف أمام الكثرة ، ويحتمل أن عفو الله عنم فر يوم أحد كان عفواً عن كبيرة ، و ﴿ متحرفاً لقتال ﴾ يراد به الذي يرى أن فعله ذلك أنكى للعدو وأعود عليه بالشر ونصبه على الحال ، وكذلك نصب متحيز ، وأما الاستثناء فهو من المولين الذين يتضمنهم ﴿ من ﴾ ، وقال قوم : الاستثناء هو من أنواع التولي .

قال القاضي أبو محمد : ولو كان ذلك لوجب أن يكون إلا تحرفاً وتحيزاً ، والفئة ها هنا الجماعة من الناس الحاضرة للحرب هذا على قول الجمهور في أن الفرار من الزحف كبيرة ، وأما على القول الآخر فتكون الفئة المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا ، روي هذا القول عن عمر رضي الله عنه وأنه قال : أنا فتكم أيها المسلمون .

(53/308)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا منه على جهة الحبيطة على المؤمنين إذ كانوا في ذلك الزمن يثبتون لأضعافهم مراراً ، وفي مسند ابن أبي شيبية من طريق عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجماعة فرت في سرية من سراياه : " أنا فئة المسلمين " حين قدموا عليه ، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اتقوا السبع الموبقات " وعدد فيها الفرار من الزحف ، و ﴿ باء ﴾ بمعنى



نهض متحملاً للثقل المذكور في الكلام غضباً كان أو نحوه، والغضب من صفات الله عز وجل إذا أخذ بمعنى الإرادة فهي صفات ذات، وإذا أخذ بمعنى إظهار أفعال الغاضب على العبد فهي صفة فعل، وهذا المعنى أشبه بهذه الآية، والمأوى الموضع الذي يأوي إليه الإنسان. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المحرر الوجيز ج 2 ص ﴾

(54/308)

وقال ابن الجوزي:

﴿ ومن يولهم ﴾ يوم حربهم ﴿ دبره ﴾ إلا أن يتحرف ليقاتل، أو يتحيز إلى فئة، ف "متحرفاً" و "متحيزاً" منصوبان على الحال.

ويجوز أن يكون نصبهما على الاستثناء؛ فيكون المعنى: إلا رجلاً متحرفاً أو متحيزاً. وأصل متحيز: مُتْحِيُوز؛ فأدغمت الياء في الواو.

قوله تعالى: ﴿ وما أواه جهنم ﴾ أي: مرجعه إليها؛ ولا يدل ذلك على التخليد.

فصل

اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هذه خاصة في أهل بدر، وهو مروى عن ابن عباس، وأبي سعيد الخدري، والحسن، وابن جبير، وقتادة، والضحاك.

وقال آخرون: هي على عمومها في كل منهزم؛ وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً.

وقال آخرون: هي على عمومها، غير أنها نسخت بقوله: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة

يغلبوا مائتين﴾ [الأنفال: 66] فليس للمسلمين أن يفروا من مثليهم، وبه قال عطاء بن

أبي رباح.

وروى أبو طالب عن أحمد أنه سئل عن الفراء من الزحف، فقال: لا يفر رجل من رجلين؛

فإن كانوا ثلاثة، فلا بأس.

وقد نقل نحو هذا عن ابن عباس.

وقال محمد بن الحسن: إذا بلغ الجيش اثني عشر ألفاً، فليس لهم أن يفروا من عدوهم، وإن

كثُر عدوهم.

ونقل نحو هذا عن مالك؛ ووجهه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما هُزم

قوم إذا بلغوا اثني عشر ألفاً من قلة" إذا صبروا وصدقوا. انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير

ح 3 ص ﴿

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

أي استحق الغضب .

وأصل "باء" رجع .

وقد تقدم .

﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ أي مقامه .

وهذا لا يدل على الخلود ؛ كما تقدم في غير موضع .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم غفر له

وإن كان قد فرّ من الزحف " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

(56/308)

وقال الخازن :

﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾

يعني ومن ينهزم ويول دبره يوم الحرب والقتال ﴿ إلا متحرفاً لقتال ﴾ يعني إلا منقطعاً إلى

القتال يرى عدوه من نفسه الانهزام وقصده طلب الكرة على العدو والعود إليه وهذا هو

أحد أبواب الحرب وخذعها ومكايدها .

وقوله تعالى : ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ يعني أو منضماً وصائراً إلى جماعة من المؤمنين يريدون العود إلى القتال ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ يعني من انهزم من المسلمين وقت الحرب إلا في هاتين الحالتين وهي التحرف للقتال والتحيز إلى فئة من المسلمين فقد رجع بغضب من الله ﴿ وماواه جهنم وبئس المصير ﴾

(فصل في حكم هذه الآية)

اختلف العلماء في ذلك ، فقال أبو سعيد الخدري : هذا في أهل بدر خاصة لأنه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان معهم ولم تكن لهم فئة يتحيزون إليها دون النبي (صلى الله عليه وسلم) ولو انحازوا انحازوا إلى المشركين ولأنها أول غزاة غزاها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بنفسه والمسلمون معه فشدد الله عليهم أمر الانهزام وحرمه عليهم يوم بدر فأما بعد ذلك اليوم فإن المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزاً إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك قال يزيد بن أبي حبيب : أوجب الله النار لمن فر يوم بدر فلما كان يوم أحد قال الله تعالى إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ثم كان يوم حنين بعده فقال سبحانه وتعالى :

﴿ ثم وليتم مدبرين . . . ﴾

ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ﴿ وقال عبد الله بن عمر : كنا في جيش بعثنا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فحاص الناس حيصة فانهمزنا فقلنا يا رسول الله نحن الفرارون قال : لا بل أتم الكرارون إنا فئة المسلمين .  
قوله فحاص الناس حيصة ، يعني جال الناس جولة يطلبون الفرار من العدو .  
والحبيص : الهرب .

(57/308)

---

وقال محمد بن سيرين : لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر بن الخطاب ، فقال : لو انحاز إليّ كنت له فئة أنا فئة كل مسلم .  
وقال بعضهم : حكم الآية عام في حق كل من ظهره منهزماً بدليل قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وهذا خطاب عام فيتناول جميع الصور وإن كانت الآية نزلت في غزاة بدر لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وجاء في الحديث " من الكبائر الفرار من الزحف " وقال عطاء بن أبي رباح : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : " الآن خفف الله عنكم " فليس لقوم أن يفروا من مثلهم فنسخت بذلك إلا في هذه العدة وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين

إذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا منهم ويولوهم ظهورهم وإن كان  
العدو أكثر من المثلين جاز لهم أن يفروا منهم قال ابن عباس من فرّ من ثلاثة لم يفر ومن فرّ من  
اثنين فقد فرّ. انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

(58/308)

وقال أبو حيان :

﴿ ومن يولهم يؤمّد دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة باء بغضب من الله وماواه

جهنم ﴾

لما نهى تعالى عن تولي الأدبار توعد من ولي دبره وقت لقاء العدو وناسب قوله ﴿ ومن

يولهم ﴾ ﴿ فقد باء بغضب ﴾ كان المعنى فقد ولي مصحوباً بغضب الله وعدل أيضاً

عن ذكر الظهر إلى الدبر مبالغة في التقييح والذم إذ تلك الحالة من الصفات القبيحة المذمومة

جداً ألا ترى إلى قول الشاعر :

فلسنا على الأعقاب تجري كلومنا . . .

ولكن على أقدامنا تقطر الدما

قال في التحرير : وهذا النوع من علم البيان يُسمى بالتعريض عرض بسوء حالهم وقبح

فعالهم وخساسة منزلتهم وبعضهم يسميه الإيحاء وبعضهم يسميه الكنانة وهذا ليس بشيء فإن الكناية أن تصرّح باللفظ الجميل على المعنى القبيح انتهى ، والظاهر أن الجملة المحذوفة بعد ﴿ إذ ﴾ وعوض منها التنوين هي قوله ﴿ إذ لقيتم الكفار ﴾ فقيل المراد يوم بدر وما يليه في ذلك اليوم وقع الوعيد بالغضب على من فرّ ونسخ بعد ذلك حكم الآية بآية الضعف وبقي الفرار من الزحف ليس كبيرة وقد فرّ الناس يوم أحد فعفا الله عنهم وقال الله فيهم ويوم حنين ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ ولم يقع على ذلك تعنيف انتهى ، وهذا القول بأن الإشارة بقوله يومئذ لا يظهر إلى يوم بدر لا يظهر لأن ذلك في سياق الشرط وهو مستقبل فإن كانت الآية نزلت يوم بدر قبل انقضاء القتال فيوم بدر فرد من أفراد لقاء الكفار فيندرج فيه ولا يكون خاصاً به وإن كانت نزلت بعده فلا يدخل يوم بدر فيه بل يكون ذلك استئناف حكم في الاستقبال .

(59/308)

---

قال ابن عطية والجمهور على أنه إشارة إلى يوم اللقاء الذي تضمنه قوله ﴿ إذ لقيتم ﴾ وحكم الآية باق إلى يوم القيامة بسبب الضعف الذي بينه الله في آية أخرى وليس في الآية نسخ وأما يوم أحد فإنما فرّ الناس من مراكزهم من ضعفهم ومع ذلك عنفوا لكون رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) فيهم وفرارهم عنه ، وأما يوم حنين فكذلك من فرّ إنما انكشف  
أمام الكرة ويحتمل أن عفو الله عن من فرّ يوم أحد كان عفواً عن كثرة انتهى .  
وقرأ الحسن ﴿ دبره ﴾ بسكون الباء وانتصب ﴿ متحرفاً ﴾ ﴿ متحيزاً ﴾ عن  
الحال من الضمير المستكن في قولهم العائد على ﴿ من ﴾ .

(60/308)

---

قال الزمخشري : وإلغوا أو عن الاستثناء من المولين أي ومن ﴿ يولهم ﴾ إلا رجلاً منهم  
﴿ متحرفاً ﴾ أو ﴿ متحيزاً ﴾ انتهى ، وقال ابن عطية : وأما الاستثناء فهو من المولين  
الذين يتضمنهم من انتهى ولا يريد الزمخشري بقوله ولا لغوا إنها زائدة إنما يريد أن العامل الذي  
هو ﴿ يولهم ﴾ وصل إلى العمل فيما بعدها كما قالوا في لا من قولهم جئت بلا زاد أنها لغو  
وفي الحقيقة هو استثناء من حالة محذوفة والتقدير : ﴿ ومن يولهم ﴾ ملتبساً بأية حالة إلا  
في حال كذا وإن لم يقدر حال غاية محذوفة لم يصح دخول إلا لأن الشرط عندهم واجب  
وحكم الواجب لا تدخل إلا فيه لا في المفعول ولا في غيره من الفضلات لأنه يكون استثناء  
مفرغاً والاستثناء المفرغ لا يكون في الواجب لو قلت ضربت إلا زيدا وقمت إلا صاحكاً لم  
يصح والاستثناء المفرغ لا يكون إلا مع النفي أو النهي أو المؤول بهما فإن جاء ما ظاهره



خلاف ذلك قدر عموم قبل إلا حتى يصح الاستثناء من ذلك العموم فلا يكون استثناء غير مفرغ، وقال قوم الاستثناء هو من أنواع التولي وردّ بأنه لو كان ذلك لوجب أن يكون إلا تحرفاً أو تحيزاً والتحرّف للقتال هو الكرّ بعد الفرّ يخيل عدوّه أنه منهزم ثم ينعطف عليه وهو عين باب خدع الحرب ومكائدها قاله الزمخشري، وقال يراد به الذي يرى أن فعله ذلك أنكى للعدوّ وأعود عليه بالشر، والفئة هنا قال الجمهور هي الجماعة من الناس الحاضرة للحرب فاقضى هذا الإطراق أن تكون هذه الفئة من الكفار أي لكونه يرى أنه ينكح فيها العدو ويولي أكثر من إبلائه فيما قابله من الكفار إما لعدم مقاومته أو لكون غيره يعنى فيمن قاتله منهم فتحيّز إلى فئة أخرى من الكفار ليولي فيها واقتضى أيضاً أن تكون هذه الفئة من المسلمين أي تحيّز إليها لينصرها ويقويها إذا رأى فيها ضعفاً وأغنى غيره في قتال من قاتله من الكفار وبهذا فسر الزمخشري قال ﴿ إلى فئة ﴾ جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو

(61/308)

---

فيها، وقيل الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين أينما كانوا، وروي هذا عن عمر: انهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين هلكت

فررت من الزحف ، فقال عمر رضي الله عنه عنه : أنا فئتك .

وعن ابن عمر رضي الله عنه : خرجت سرية وأنا فيهم ففرّوا فلما رجعوا إلى المدينة

استحيوا فدخلوا البيوت فقلت : يا رسول الله نحن الفرارون .

فقال : بل أنتم العكارون وأنا فئتكم .

قال ثعلب العكارون العطّافون ، وقال غيره : يقال للرجل الذي يولي عن الحرب لم يكن

راجعاً عكراً واعتكراً .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الفرار من الزحف من أكبر الكبائر وفي صحيح

البخاري من حديث أبي هريرة قال : سمعت النبي ( صلى الله عليه وسلم ) " اتقوا السبع

الموبقات " وعد فيها الفرار من الزحف وفي التحرير التولي الذي وقع عليه الوعيد هو الفرار

مع المصابرة على الثبات فأما إذا جاءه من لا يستطيع معه الثبات فليس ذلك بالفرار انتهى .

وما أحسن ما استعذر الحارث بن هشام إذ فرّ ف قيل فيه :

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم . . .

ونجا برأس طمره ولجام

وقال الحرث من أبيات :

وعلمت أني إن أقاتل واحداً . . .

أقتل ولم يضرر عدوي مشهدي

واستدل القاضي بهذه الجملة الشرطية على وعيد الفساق من أهل الصلاة لأنها دلت على أن من انهزم إلا في هاتين الحالتين استوجب غضب الله وماواه جهنم .

(62/308)

---

قال : وليس للمرجئة أن يحملوا ذلك على الكفار كما فعلوا في آيات الوعيد لأن ذلك مفتوح بأهل الصلاة وهو قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ انتهى ، ولا حجة في ذلك لأنه عام مخصوص والظاهر أنه يجوز التحيز سواء عظم العسكر أم لا ، وقيل لا يجوز إذا عظم والظاهر أن الفرار من الزحف بغير شرطه كبيرة للتوعد ولذلك قال ابن القاسم لا تقبلوا شهادة من فر من الزحف وإن فر أماتهم ومنن فر فليستغفر الله ففي الترمذي : من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم غفر له وإن كان قد فر من الزحف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(63/308)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ﴾

أي يوم اللقاء ﴿ دَبْرُهُ ﴾ فضلا عن الفرار ، وقرىء بسكون الباء ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾  
إما بالتوجه إلى قتال طائفةٍ أخرى أهم من هؤلاء وإما بالفر للكرّ بأن يُخَيِّلَ لعدوّه أنه منهزمٌ  
ليُغْرَهُ ويُخْرِجَهُ من بين أعوانه ثم يعطِفَ عليه وحده أو مع من في الكمين من أصحابه وهو  
باب من خدع الحرب ومكايدها ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ أي منحازا إلى جماعةٍ أخرى من  
المؤمنين لينضمّ إليهم ثم يقاتل معهم العدو . ( عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن سريةً  
فروا وأنا معهم فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا ودخلوا البيوت فقلت : يا رسول الله نحن  
الفرارون فقال صلى الله عليه وسلم : " بل أنتم العكارون أي الكرارون من عكر أي رجع  
وأنا فئتكم " ، وانهم رجلٌ من القادسية فأتى المدينة إلى عمر رضي الله عنه فقال : يا أمير  
المؤمنين هلكتُ ففررتُ من الزحف فقال رضي الله عنه : أنا فئتُك ، ووزنٌ متحيزٌ متفيعل  
لا متفعل وإلا لكان متحوزا لأنه من حاز يجوز وانتصأبهما إما على الحالية وإلا لغولا عمل  
لها وإما على الاستثناء من المولين أي ومن يؤلم دبره إلا رجلا منهم متحرفاً أو متحيزا ﴿  
فَقَدْ بَاءَ ﴾ أي رجع ﴿ بِغَضَبٍ ﴾ عظيم لا يقادر قدره و( من ) في قوله تعالى : ﴿ مِنْ  
اللَّهِ ﴾ متعلقةٌ بمحذوف هو صفة لغضب مؤكدةٌ لما أفاده التنوين من الفخامة والهلول  
بالفخامة الإضافية أي بغضب كائنٍ منه تعالى ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ أي بدل ما أراد بفراره

أَنْ يَأْوِيَ إِلَيْهِ مِنْ مَأْوَى يَنْجِيهِ مِنَ الْقَتْلِ ﴿ وَبُسِّ الْمَصِيرِ ﴾ فِي إِتْقَاعِ الْبُؤْءِ فِي مَوْجِعِ جَوَابِ  
الشَّرْطِ الَّذِي هُوَ التَّوَلِيَةُ مَقْرُونًا بِذِكْرِ الْمَأْوَى وَالْمَصِيرِ مِنَ الْجِزَالَةِ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ .

(64/308)

---

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر وهذا إذا لم يكن  
العدو أكثر من الضعف لقوله تعالى: ﴿ الَّنْ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾ الآية، وقيل: الآية  
مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود

ح 4 ص ﴿

(65/308)

وقال الأوسى :

﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾  
﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ أَيُّ يَوْمِ اللَّقَاءِ وَوَقْتَهُ ﴾ دُبْرَهُ ﴿ فضلاً عن الفرار .  
وقرأ الحسن بسكون الباء ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ أي تاركاً موقفه إلى موقف أصح للقتال

منه ، أو متوجهاً إلى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء ، أو مستطرداً يريد الكر كما روى عن ابن جبير رضي الله تعالى عنه .

ومن كلامهم :

نفر ثم نكر . . .

والحرب كروفر

وقد يصير ذلك من خدع الحرب ومكايدها ، وجاء "الحرب خدعة" وأصل التحرف على ما في مجمع البيان الزوال عن جهة الاستواء إلى جهة الحرف ، ومنه الاحتراف وهو أن يقصد جهة من الأسباب طالبا فيها رزقه ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ أي منحازاً إلى جماعة أخرى من المؤمنين ومنضماً إليهم وملحقاً بهم ليقاتل معهم العدو ، والفئة القطعة من الناس ، ويقال : فأوت رأسه بالسيف إذا قطعه وما أطف التعبير بالفئة هنا ، واعتبر بعضهم كون الفئة قريبة للمتحيّز ليستعين بهم ، وكأنه مبني على المعارف وكم يعتبر ذلك آخرون اعتبار للمفهوم اللغوي .

ويؤيده ما أخرجه أحمد .

وابن ماجه .

وأبوداود .

والترمذي وحسنه .

والبخاري في الأدب المفرد واللفظ له عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : كنا في غزاة فخاص الناس حيصة قلنا : كيف تلقى النبي صلى الله عليه وسلم وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر فخرج فقال : من القوم ؟ قلنا : نحن الفارون فقال : لا بل أتم العكارون فقبلنا يده فقال عليه الصلاة والسلام : أنا فتكم وأنا فئة المسلمين ثم قرأ ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ ﴾ والعكارون الكرارون إلى الحرب والعطافون نحوها .

(66/308)

---

وبما روى أنه انهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر رضي الله تعالى عنه فقال : يا أمير المؤمنين هلكت فررت من الزحف فقال عمر رضي الله تعالى عنه : أنا فتك ، وبعضهم يحمل قوله عليه الصلاة والسلام : "أتم العكارون" على تسليتهم وتطيب قلوبهم ، وحمل الكلام كله في الخبرين على ذلك بعيد .

نعم إن ظاهرهما يستدعي أن لا يكاد يوجد فار من الزحف ، ووزن متحيز متفعل لا متفعل وإلا لكان متحوز لأنه من حاز يحوز وإلى هذا ذهب الزمخشري ومن تبعه ، وتعقب بأن الإمام المرزوقي ذكر أن تدير تفعل مع أنه واوي نظر إلى شيوع ديار ، وعليه فيجوز أن

يكون تحيز تفعل نظراً إلى شيوخ الحيز بالياء ، فهذا لم يجيء تدور وتحوز ، وذكر ابن جني أن ما قاله هذا الإمام هو الحق وأنهم قد يعدون المنقلبون كالأصلي ويجرون عليه أحكامه كثيراً ، لكن في دعواه نفي تحوز نظر ، فإن أهل اللغة قالوا : تحوز وتحيز كما يدل عليه ما في القاموس ، وقال ابن قتيبة : تحوز تفعل وتحيز تفيعل ، وهذه المادة في كلامهم تتضمن العدول من جهة إلى أخرى من الحيز بفتح الحاء وتشديد الياء ، وقد وهم فيه من وهم ، وهو فناء الدار ومرافقتها ، ثم قيل لكل ناحية فالمستقر في موضعه كالجبل لا يقال له متحيز وقد يطلق عندهم على ما يحيط به حيز موجود ، والمتكلمون يريدون به الأعم وهو كل ما أشير إليه فالعالم كله متحيز ونصب الوصفين على الحالية والإليست عاملة ولا واسطة في العمل وهو معنى قولهم : لغو وكانت كذلك لأنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال ولولا التفريع لكانت عاملة أو واسطة في العمل على الخلاف المشهور وشرط الاستثناء المفرغ أن يكون في النفي أو صحة عموم المستثنى منه نحو قرأت إلا يوم كذا ومنه ما نحن فيه ويصح أن يكون من الأول باعتبار أن يولي بمعنى لا يقبل على القتال ، ونظير ذلك ما قالوا في قوله عليه الصلاة والسلام

"العالم هلكت إلا العالمون" الحديث .



---

وجوز أن يكون على الاستثناء من المولين ، أي من يولهم دبره إلا رجلاً منهم متحرفاً فالقتال  
أو متحيزاً ﴿ فَقَدْ بَاءَ ﴾ أي رجع ﴿ بَغْضٍ ﴾ عظيم لا يقادر قدره ، وحاصله  
المولون إلا المتحرفين والمتحيزين لهم ما ذكر ﴿ مِنْ اللَّهِ ﴾ صفة غضب مؤكدة لفخامته أي  
بغضب كائن منه تعالى شأنه ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ أي بدل ما أراد بفراره أن يأوي إليه من  
مأوى ينجيه من القتل ﴿ وَسُئِلَ الْمَصِيرُ ﴾ جهنم ولا يخفى ما في إيقاع البوء في موقع جواب  
الشرط الذي هو التولية مقروناً بذكر المأوى والمصير من الجزالة التي لا مزيد عليها ، وفي  
الآية دلالة على تحريم الفرار من الزحف على غير المتحرف أو المتحيز ، وأخرج الشيخان  
وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "  
اجتنبوا السبع الموبقات قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله تعالى والسحر  
وقتل النفس التي يحرم الله تعالى إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف "  
وجاء عده في الكبائر في غير ما حديث قالوا : وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف  
لقوله تعالى : ﴿ التَّانِ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾ الآية أما إذا كان أكثر فيجوز الفرار فالآية  
ليست باقية على عمومها وإلى هذا ذهب أكثر أهل العلم .  
وأخرج الشافعي .

وابن أبي شيبة : عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال من فر من ثلاثة فلم يفرو من

فر من اثنين فقد فر ، وسمي هذا التخصيص نسخاً وهو المروي عن أبي رباح .  
وعن محمد بن الحسن أن المسلمين إذا كانوا اثني عشر ألفاً لم يجز الفرار ، والظاهر أنه لا  
يجوز أصلاً لأنهم لا يغلبون عن قلة كما في الحديث ، وروى عن عمر .  
وأبي سعيد الخدري .  
وأبي نصر .

(68/308)

---

والحسن رضي الله تعالى عنهما وهي رواية عن الخبر أيضاً أن الحكم مخصوص بأهل بدر ،  
وقال آخرون : إن ذلك مخصوص بما ذكر وبجيش فيه النبي صلى الله عليه وسلم وعللوا  
ذلك بأن وقعة بدر أول جهاد وقع في الإسلام ولذا تهيبوه ولو لم يثبتوا فيه لزم مفسد عظيمة  
ولا ينافيه أنه لم يكن لهم فئة ينحازون إليها لأن النظم لا يوجب وجودها وأما إذا كان النبي  
صلى الله عليه وسلم معهم فلأن الله تعالى ناصر ، وأنت تعلم أنه كان في المدينة خلق كثير  
من الأنصار لم يخرجوا لأنهم لم يعلموا بالنفير وظنوها العير فقط وأن النبي صلى الله عليه  
وسلم حيث أن الله تعالى ناصره كان فئة لهم ، وقال : بعضهم إن الإشارة بيومئذ إلى يوم بدر  
لا تكاد تصح لأنه في سياق الشرط وهو مستقبل فالآية وإن كانت نزلت يوم بدر قبل انقضاء

القتال فذلك اليوم فرد من أفراد يوم اللقاء فيكون عاماً فيه لا خاصاً به وإن نزلت بعده فلا يدخل يوم بدر فيه بل يكون ذلك استئناف حكم بده ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ إشارة إلى يوم اللقاء ودفع بأن مراد أولئك القائلين إنها نزلت يوم بدر وقد قامت قرينة على تخصيصها ولا بعد فيه اه ، وعندني أن السورة إنما نزلت بعد تمام القتال ولا دليل على نزول هذه الآية قبله والتخصيص المذكور مما لا يقوم دليل على سياق ويد الله مع الجماعة والله تعالى أعلم .  
انتهى انتهى . اه ﴿ روح المعاني - 9 ص ﴾

(69/308)

فائدة

قال صاحب روح البيان :

وعد بعض العلماء الكبائر إلى سبعين منها : الفرار من الجيش في الغزو إذا كان مثلاً أو ضعفاً ، وكل ما كان شنيعاً بين المسلمين وفيه هتك حرمة الله والدين فهي كبيرة تسقط العدالة في الشهادة ، فعلى العاقل أن يقدم على الحرب بقلب جريء ويعلم أن الجبن لا يؤخر أجله وأن الإقدام على القتال لا يعجل موته ويتشبه الغازي في أوان المقاتلة بأصناف من الخلق فيكون كقلب الأسد لا يجبن ولا يفر كما أن الأسد مقدم غير جبان وكرار غير فرار

وفي كبر النمر بالفارسية (لنك) لا يتواضع للعدو وفي شجاعة الدب يقاتل بجميع جوارحه  
وفي جملة الخنزير لا يولي دبره إذا حمل أي لا يعرض وجهه عما توجه إليه وفي إغارة الذئب إذا  
يُس من وجه أغار من وجه آخر والإغارة بالفارسية (يغما كردن) ، وفي حمل السلاح  
الثقيل كالنملة تحمل أضعاف وزن بدنها وفي الثبات كالحجر لا يزول عن مكانه وفي الصبر  
كالحمار وفي الوفاء كالكلب لو دخل سيده النار يتبعه ، وفي التماس الفرصة والظفر كالديك  
ويكون في الصف ساكناً كالمصلي الخاشع ، ويكون في متابعة أمير العسكر كمتابعة المأموم  
إمامه في الصلاة أي لا يخالفه أصلاً ويغطي نفسه بالسلاح كغطية البكر نفسها بالثياب إذا  
زفت أي أرسلت إلى الزوج وفي تكثير قليل سلاحه وماله كالمرائي إذا قل ماله وعبادته  
ويكون في المكر والحيلة إذا هزمه العدو أي غلب عليه كالثعلب إذا اضطره الكلب فإن  
مدار الحرب على الخداع وفي التبخر والخيلاء بين الصفين كالعروس وفي الخفة في تحريف  
القتال من جانب إلى آخر كالصبي وفي صياحه إذا صاح بالعدو كالرعد وهو اسم ملك  
على قول وفي سوء ظنه أي في الحذر عما يهلكه في جميع أحواله كالغراب الأبقع وهو الذي  
فيه سواد وبياض وفي حراسته والاحتراز عن المكاره كالكركي وهو طير معروف  
لازوردي اللون يشابه اللقلق في الهيئة بالفارسية (كلتك) ومن الحيوان الذي لا يصلح إلا  
برئيس لأن في طبعه الحرس والتحارس بالنوبة والذي يحرس يهتف بصوت خفي

---

كأنه ينذر بأنه حارس فإذا قضى نوبته قام الذي كان نائماً يجرس مكانه حتى يقضي كل ما يلزمه من الحراسة .

قال القزويني والكركي : لا يمشي على الأرض إلا بإحدى رجليه ويعلق الأخرى وإن وضعها وضعها خفيفاً مخافة أن تحسف به الأرض كذا في " حياة الحيوان " . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ روح البيان ح 3 ص 414 . 415 ﴾

(71/308)

---

وقال القاسمي :

﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي : يوم اللقاء ﴿ دَبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ أي : مائلاً له .

يقال : تحرف وانحرف واحرورف : مال وعدل ، وهذا التحرف إما بالتوجه إلى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء ، وإما بالفر للكر ، بأن يخيل عدوه أنه منهزم ليغره ، ويخرجه من بين أعوانه ، فيفر عنه ، ثم بكر عليه وحده أو مع من في الكمين من أصحابه ، وهو باب من مكاييد الحرب : ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ أي : منضمماً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليستعين بهم : ﴿ فَقَدْ بَاءَ ﴾ أي : رجع

﴿ بَغْضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَسُّ الْمَصِيرُ ﴾ أي: ما صار إليه من عذاب النار .

تنبيهات :

الأول : دلت الآية على وجوب مصابرة العدو ، أي : الثبات عند القتال ، وتحريم الفرار منه يوم الزحف ، وعلى أنه من الكبائر ، لأنه توعدده عليه وعيده شديداً .

الثاني : ظاهر الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن ، وعلى كل حال ، إلا حالة التحرف ، أو التحيز ، وهو مروى عن ابن عباس ، واختاره أبو مسلم .

قال الحاكم : وعليه أكثر الفقهاء .

وروى عن جماعة من السلف ، أن تحريم الفرار المذكور مختص بيوم بدر ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدْ ﴾ وأجيب بأن الإشارة في : ﴿ يُؤَمِّدْ ﴾ إلى يوم لقاء الزحف كما يفيد السياق ، لا إلى يوم بدر .

الثالث : ذهب جماعة من السلف إلى أن معنى قوله تعالى :

(72/308)

---

﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ أي : جماعة أخرى من المسلمين ، سوى التي هوف فيها ، سواء

قربت تلك الفئة أو بعدت وقد روي أن أبا عبيد قتل على الجسر بأرض فارس ، لكثرة

الجيش من ناحية الجوس ، فقال عمر رضي الله عنه : لو تحيز إلي لكنت له فئة .

وفي رواية عنه : أيها الناس ! أنا فئتكم .

وقال الضحاك : المتحيز إلى فئة ، الفار إلى النبي وأصحابه .

وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه ، وجنح إلى هذا ابن كثير حيث قال :

من فر من سرية إلى أميره ، أو إلى الإمام الأعظم ، دخل في هذه الرخصة .

ثم أورد حديث عبد الله بن عمر المروي عند الإمام أحمد وأبي داود والترمذي وغيرهم ،

قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحاص الناس حيصة ،

فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع ، وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ، ثم قلنا

: لو دخلنا المدينة فبتنا ! ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم

، فإن كانت لنا توبة ، وإلا ذهبنا ! فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : < من القوم >

؟ فقلنا : نحن الفرارون . فقال :

< لا ، بل أنتم العكارون ، أنا فئتكم وفئة المسلمين > ، قال : فأتيناه حتى قبلنا يده .

قال الترمذي : حديث حسن ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد . انتهى .

أي : وقد تكلم فيه غير واحد من الأئمة .

قال الحاكم في مسألة الفرار : إن ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده ، فإن ظن المقاومة لم

يجل الفرار ، وإن ظن الهلاك جاز الفرار

إلى فئة وإن بعدت ، وإذا لم يقصد الإقلاع عن الجهات . وحمل عليه حديث ابن عمر المذكور .

وعن الكرخي : أن الثبات والمصابرة واجب ، إذا لم يخش الإستئصال ، وعرف عدم نكايته للكفار ، والتجأ إلى مصر للمسلمين ، أو جيش ، وهكذا أطلق في " شرح الإبانة " فلم يبح الفرار إلا بهذا الشروط الثلاثة ، ولم يعتبر العدد الآتي بيانه .

(73/308)

---

الرابع : روي عن عطاء أن حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى : ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ ، قال الحاكم : إذا أمكن الجمع فلانسخ وأقول : كنا أسلفنا أن السلف كثيراً ما يعنون بالنسخ تقييد المطلق ، أو تخصيص العام ، فلا ينافي كونها محكمة إطلاقهم النسخ عليها . قال بعض الأئمة : هذا الآية عامة تقضي بوجوب المصابرة ، وإن تضاعف عدد المشركين أضعافاً كثيرة ، لكن هذا العموم مخصوص بقوله تعالى في السورة هذه : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾ .

وعن ابن عباس : من فر من اثنين فقد فر ، ومن فر من ثلاثة فلم يفر .



وبالجملة ، فلانفاة بين هذه الآية وآية الضعف ، فإن هذه الآية مقيدة بها ، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط بينه الله في آية الضعف .

وفي "المهذب" : إن زاد عددهم على مثلي عدد المسلمين ، جاز الفرار ، لكن إن غلب على ظنهم أنهم لا يهلكون ، فالأفضل الثبات ، وإن ظنوا الهلاك ، فوجهان : يلزم الإنصراف لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ .

والثاني : يستحب ولا يجب ، لأنهم إن قتلوا فازوا بالشهادة وإن لم يزد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين ، فإن لم يظنوا الهلاك لم يجز الفرار ، وإن ظنوه فوجهان :

يجوز لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ .

ولا يجوز ، وصححوه لظاهر الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 8 ص 274 .

﴿ 276

(74/308)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾

وعبر عن حين الزحف بلفظ اليوم في قوله ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم الزحف أي يولهم يوم الزحف

دُبْره أي حين الزحف .

ومن ثم استثنى منه حالة التحرف لأجل الحيلة الحربية والانحياز إلى فئة من الجيش للاستنجاد بها أو لإنجادها .

والمستثنى يجوز أن يكون ذاتاً مستثنى من الموصول في قوله ﴿ ومن يولهم ﴾ والتقدير: إلا رجلاً متحرفاً لقتال ، فحذف الموصوف وبقيت الصفة ، ويجوز أن يكون المستثنى حالة من عموم الأحوال دل عليها الاستثناء أي إلا في حال تحرفه لقتال .

و( التحرف ) الانصراف إلى الحرف ، وهو المكان البعيد عن وسطه فالتحرف مزايلة المكان المستقر فيه والعدول إلى أحد جوانبه ، وهو استدعي تولية الظهر لذلك المكان بمعنى الفرار منه .

واللام للتعليل أي إلا في حال تحرف أي مجانبة لأجل القتال ، أي لأجل أعماله إن كان المراد بالقتال الاسم ، أو لأجل إعادة المقاتلة إن كان المراد بالقتال المصدر ، وتنكير قتال يرجح الوجه الثاني ، فالمراد بهذا التحرف ما يعبر عنه بالفر لأجل الكرفان الحرب كرفر ، وقال عمرو بن معديكرب:

ولقد أجمعُ رجليَّ بها . . .

حذر الموت وإني لفرور

ولقد أعطفها كارهة . . .

حينَ للنفس من الموت هَرِير  
كل ما ذلك مني خُلُق . . .  
وبكلِّ أنا في الرُوع جدير

(75/308)

---

والتحيز طلب الحيز فيُعَل من الحوز ، فأصل إحدى ياءيه الواو ، فلما اجتمعت الواو والياء  
وكانت السابقة ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء ، ثم اشتقوا منه تحيِّز ، فوزنه  
تَفِيْعَل وهو مختار صاحب "الكشاف" جرياً على القياس بقدر الإمكان ، وجوزَّ  
التفازاني أن يكون وزنه تَفَعَل بناء على اعتباره مشتقاً من الكلمة الواقع فيها الإبدال  
والإدغام وهي الحيز ، ونظره بقولهم : "تَدِير" بمعنى الإقامة في الدار ، فإن الدار مشتقة من  
الدوران ولذلك جمعت على دُور ، إلا أنه لما كثرت في جمعها ديار وديرَة عوملت معاملة ما  
عينه ياء ، فقالوا من ذلك تَدِير بمعنى أقام في الدار وهو تَفَعَل من الدار ، واحتج بكلام ابن  
جني والمرزوقي في "شرح الحماسة" ، يعني ما قال ابن جني في "شرح الحماسة" عند قول  
جابر بن حريش :

إذ لا تخاف حُدُوجنا قذف التوى . . .

قبل الفساد إقامةً وتديراً

التدير تفعل من الدار وقياسه تدور إلا أنه لما كثرت استعمالهم ديار أنسوا بالياء ووجدوا جانبها أوطأ حساً وألين مساً فاجتروا عليها فقالوا تدير " وما قال المرزوقي "الأصل في تدير الواو ولكنهم بنوه على ديار لإفهم له بكثرة ترده في كلامهم " .

فمعنى ﴿ متحيزاً إلى فئة ﴾ أن يكون رجوع الفهري ليلتحق بطائفة من أصحابه فيتقوى بهم .

(76/308)

---

والفئة الجماعة من الناس ، وقد تقدم في سورة البقرة ( 249 ) في قوله : ﴿ كم من فئة قليلة ﴾ وتطلق على مؤخرة الجيش لأنها يفيء إليها من يحتاج إلى إصلاح أمره أو من عرض له ما يمنعه من القتال من مرض أو جراحة أو يستجد بهم ، فهو تول لمقصد القتال ، وليس المراد أن ينحاز إلى جماعة مستريحين لأن ذلك من الفرار ، ويدخل في معنى التحيز إلى الفئة الرجوع إلى مقر أمير الجيش للاستجداد بفئة أخرى ، وكذلك القبول إلى مقر أمير المصر الذي وجه الجيش للاستمداد بجيش آخر إذا رأى أمير الجيش ذلك من المصلحة كما فعل المسلمون في فتح إفريقية وغيره في زمن الخلفاء ، ولما انهزم أبو عبيد بن مسعود الثقفي يوم

الجسر بالقادسية ، وقتل هو ومن معه من المسلمين ، قال عمر بن الخطاب : هلاّ تحيّر إليّ  
فأنا فتّة .

وباء ❁ رجع .

والمعنى أن الله غضب عليه في رجوعه ذلك فهو قد رجع ملبساً لغضب الله تعالى عليه .

ومناسبة ( باء ) هنا أنه يشير إلى أن سبب الغضب عليه هو ذلك البؤء الذي بآءه .

وهذا غضب الله عليه في الدنيا المستحق الذم وغيره مما عسى أن يجرمه عناية الله تعالى في

الدنيا ، ثم يترتب عليه المصير إلى عذاب جهنم ، وهذا يدل على أن توليه الظهر إلى

المشركين كبيرة عظيمة .

فالآية دالة على تحريم التولي عن مقابلة العدو حين الزحف .

(77/308)

---

والذي أرى في فقه هذه الآية أن ظاهر الآية هو تحريم التولي على آحادهم وجماعتهم إذا

التقوا مع أعدائهم في ملاحم القتال والمجادة ، بحيث إن المسلمين إذا توجهوا إلى قتال

المشركين أو إذا نزل المشركون لمقاتلتهم وعزموا على المقاتلة فإذا التقى الجيشان للقتال

وجب على المسلمين الثبات والصبر للقتال ، ولو كانوا أقل من جيش المشركين ، فإمّا أن

ينتصروا ، وإما أن تشهدوا ، وعلى هذا فالمسلمين النظر قبل اللقاء هل هم بحيث يستطيعون الثبات وجهه أولاً ، فإن وقت المجادلة يضيق عن التدبير ، فعلى الجيش النظر في عدده وعدده ونسبة ذلك من جيش عدوهم ، فإذا أزمعوا الزحف وجب عليهم الثبات ، وكذلك يكون شأنهم في مدة نزولهم بدار العدو ، فإذا رأوا للعدو نجدة أو ازدياد قوة نظروا في أمرهم هل يثبتون لقتاله أو ينصرفون بإذن أميرهم ، فإما أن يأمرهم بالكف عن متابعة ذلك العدو ، وإما أن يأمرهم بالاستنجاد والعودة إلى قتال العدو كما صنع المسلمون في غزوة إفريقية الأولى ، وهذا هو الذي يشهد له قوله تعالى : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ [ الأنفال : 45 ] وما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قام في الناس فقال : " يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف " ولعل حكمة ذلك أن يمضي المسلمون في نصر الدين .

(78/308)

---

وعلى هذا الوجه يكون لأمير الجيش ، إذا رأى المصلحة في الانجلاء عن دار العدو وترك قتالهم ، أن يغادر دار الحرب ويرجع إلى مقره ، إذا أمن أن يلحق به العدو ، وكان له من القوة ما يستطيع به دفاعهم إذا لحقوا به ، فذلك لا يسمى تولية أذبار ، بل هورأي ومصلحة ،

وهذا عندي هو محمل ما رَوَى أبو داود والترمذي ، عن عبد الله بن عمر : أنه كان في سرية  
بعثها النبي صلى الله عليه وسلم قال : " فحاص الناس حِيصَةً فكنتم فيمن حاص فلما  
برزنا قلنا كيف نصنع إذا دخلنا المدينة وقد فررنا من الزحف وُؤْنَا بالغضب ثم قلنا لو  
عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كان لنا توبة أقمنا ، وإن كان غير  
ذلك ذهبنا قال " فجلسنا لرسول الله قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا نحن  
الفرارون ، فأقبل إلينا فقال لا بل أنتم العكارون ( أي الذين يكرون يعني أن فراركم من قبيل  
الفر للكر ، يقال للرجل إذا ولى عن الحرب ثم كرّ راجعاً إليها عكراً أو اعتكراً ) وأنا فئة  
المسلمين " يتأول لهم أن فرارهم من قبيل قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَحْزِزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ قال ابن عمر  
﴿ فدنونا فقبلنا يده ﴾ فيفهم منه أن فرار ابن عمر وأصحابه لم يكن في وقت مجالدتهم  
المشركين ، ولكنه كان انسلاً لينحازوا إلى المدينة فتلك فئتهم .  
وإنما حرم الله الفرار في وقت مناجزة المشركين ومجالدتهم وهو وقت اللقاء ؛ لأن الفرار  
حينئذٍ يقع في الهزيمة الشنيعة والتقتيل ، وذلك أن الله أوجب على المسلمين قتال المشركين  
فإذا أقدم المسلمون على القتال لم يكن نصرهم إلا بصبرهم وتأيد الله إياهم ، فلو انكشفوا  
بالفرار لأعمل المشركون الرماح في ظهورهم فاستأصلوهم ، فلذلك أمرهم الله ورسوله  
بالصبر والثبات ، فيكون ما في هذه الآية هو حكم الصبر عند اللقاء ، وبهذا يكون التقييد  
بجال الزحف للإحتراز عن اللقاء في غير تلك الحالة .

(79/308)

---

وأما آية ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: 65] فقد بينت حكم العدد الذين عليهم طلب جهاد المشركين بنسبة عددهم إلى عدد المشركين ، ولعل هذا مراد ابن العربي من قوله: ﴿لأنه ظاهر الكتاب والحديث﴾ فيما نقله ابن الفرس . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير ح 9 ص﴾

(80/308)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾

ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة لم يرتب الغضب منه إلا على من يولي الدبر هرباً وفراراً من لقاء الأعداء . أما الذي يولي الدبر احتيلاً ولإيهاام العدو بأنه ينسحب وفي ذات اللحظة يعاود الكرة على العدو مطوقاً له ، فهذا هو المقاتل الحق والصادق في إيمانه الذي يمكر بالعدو . وكذلك من يولي الدبر متحيزاً إلى فئة مؤمنة ليعاود



معها الهجوم على الأعداء حتى لا تضع منه حياته بلائمن ، فهذا أيضاً من أعمال فكرة  
ليُنزل بالعدو والخسارة؛ لأن المؤمن يحرص دائماً على أن يكون موته بمقابل ، فإذا ما وعده  
الله بالجنة . ألا يقاتل هوليصيب الأعداء بالهزيمة ؟ . وكان ثمن المؤمن من قبل عشرة  
كافرين ، بمعنى أن الله تعالى منح كل مؤمن قوة تغلب عشرة ، مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿  
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ  
يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [ الأنفال : 65 ]  
ولكن علم الله أن المؤمنين ضعفاً فجعل مقابل المؤمن في المعركة اثنين من الكفار ، مصداقاً  
لقوله تعالى : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ  
يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [ الأنفال :  
[ 66

ولذلك فإننا نجد الذي يفر أمام ثلاثة من الأعداء لا يسمى فاراً في الحكم الشرعي . لكن  
من يفر من مواجهة اثنين ، يعد فاراً ؛ لأن الحق تعالى قال قبل أن يوجد فينا الضعف : ﴿ إِنْ  
يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ [ الأنفال : 65 ]

(81/308)

أي أن المقاتل المؤمن كان يمكنه أن يواجه عشرة من الكافرين . فإن كان المقابل أقل من عشرة كافرين ، فعلى المؤمن أن يحافظ على نفسه حتى لا يموت رخيص الثمن . ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى أن الضعف سيصيب المؤمنين ؛ لذلك قال : ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال : 66]

وهكذا انتقلت النسبة بين المؤمنين والكافرين من واحد لعشرة ، إلى مؤمن مقابل اثنين من الكفار ، وهذا من رحمة الله تعالى ، فمن رأى نفسه في مواجهة أكثر من اثنين من الأعداء يوضح له الحق تعالى : عليك أن تنحاز إلى فئة من المؤمنين تعصمك من نيلهم منك بلائهم .  
﴿وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ [الأنفال : 16] .

وعرفنا أن المتحرف للقتال هو صاحب الحيلة ، وتقول في الفاظنا التي تجري على ألسنتنا في حياتنا اليومية : " فلان حريف " أي لا يغلبه أمر ويحتال عليه ، وهكذا يكون المتحرف في القتال الذي يكيد للكافرين ويدبر لهم أشياء فيظنون الانهزام ، وهي في الواقع مقدمات للنصر ، وقوله سبحانه : " أومتحيزا " مأخوذ من " الحيز " ، وهو المكان الذي يشغله الجسم ، وكل واحد مناه " حيز " في مكان يشغله ، أي أن كل واحد منا متحز ، والحيز هو الظرف المكاني الذي يسع الإنسان منا واسمه ظرف مكان ، وكل واحد من المخاطبين له مكان وهو متحيز بطبيعته ، وجاءت كلمة " متحيز " في هذه الآية لتوجه كل مؤمن مقاتل أن

يأخذ لنفسه حيزاً جيداً يمكنه من إصابة الهدف ، وكذلك تفيد ضرورة انضمام المقاتل دائماً إلى فئة مع إخوانه بهدف تقوية المواجهة مع العدو .

ومن لا يفعل ذلك فعليه أن يتلقى العقاب من الله ، وقد بينه تعالى في قوله سبحانه : ﴿ فِتَّةٌ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [ الأنفال : 16 ] .

(82/308)

---

و " باء " تعني رجوع ، والتعبير الأدائي في القرآن الكريم مناسب لما فعلوه ؛ لأن من يعطي الأعداء دبره فهو الراجع عن الزحف والقتال . لكن من يرجع بهدف الكيد للأعداء والمناورة في القتال أو لتقوية جماعة أخرى من المؤمنين ، فهذا له وضع مختلف تماماً ، إنه ناصر لدين الله ، عكس المنسحب الفار الذي يصحبه في انسحابه غضب من الله ، والغضب من الله - كما نعلم - هو سبب من أسباب إنزال العذاب ، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴾ [ الأنفال : 16 ] .

والمأوى هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ، ونعلم أن الواحد منا حين يرغب في الراحة فهو يأوي إلى المكان الذي يجد فيه الراحة والأمن من كل سوء .

والفَارُّ من مواجهة العدو في معارك الإسلام لن يجد مأوى إلا النار ، بل وترحب به النار  
ويدور حوار بينها وبين الحق عز وجل يوم القيامة توضحه الآية الكريمة : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ  
هَلْ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ [ ق : 30 ] .

وُثِّبَ الْحَقُّ فِي قرآنه الكريم أن النار تغطاظ من الكافرين لأنها جندٌ من جنود الله تعالى  
ومسخرة لتنفيذ حكم الله ، فمن خالف المنهج في الدنيا تلتقاه النار بتغيظ وزفير ، ويسمع  
الكافرون تغطيتها حين تراهم من بعد ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ  
بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [ الفرقان : 12 ] .

وحيث تكون النار هي المأوى ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟ .  
كأن الراجع من الزحف والفارُّ من مواجهة الأعداء ومخافة أن يُقتل ، سيذهب إلى شيء  
شر من القتل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(83/308)

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ (15) وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدِ

دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا أُوَاهُ جَهَنَّمَ وَنَسِ الْمَصِيرُ

﴿ (16) ﴾

أخرج البخاري في تاريخه والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن نافع رضي الله عنه أنه سأل ابن عمر رضي الله عنهما قال: إنا قوم لا تثبت عند قتال عدونا ولا ندرى من الفئة أماننا أو عسكرنا؟ فقال لي: الفئة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: إن الله تعالى يقول ﴿ إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾ قال: إنما أنزلت هذه الآية في أهل بدر لا قبلها ولا بعدها .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ قال: إنها كانت لأهل بدر خاصة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي نضرة رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ الآية . قال: نزلت يوم بدر ولم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو انحازوا لم ينحازوا إلا للمشركين .

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا تغرنكم هذه الآية فإنها كانت يوم بدر ، وأنا فئة لكل مسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال: ذاكم يوم بدر لأنهم

كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال : نزلت في أهل بدر خاصة ، ما كان لهم أن يهزموا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتركوه .

(84/308)

---

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ قال : إنما كانت يوم بدر خاصة ، ليس الفرار من الزحف من الكبائر .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ قال : ذلك في يوم بدر .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه قال : إنما كان يوم بدر ولم يكن للمسلمين فئة ينحازون إليها .

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ قال : يرون أن ذلك في بدر ، ألا ترى أنه يقول ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن يزيد بن أبي حبيب رضي الله عنه قال : أوجب الله تعالى

لمن فر يوم بدر النار . قال : ومن يولهم يومئذ دبره إلى قوله ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾  
فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال

﴿ إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ﴾ [آل عمران : 155]  
ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين فقال ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ [التوبة : 25] .  
ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ﴿ [التوبة : 27] .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن يولهم  
يومئذ دبره ﴾ قال : يعني يوم بدر خاصة منهزماً ﴿ إلا متحرفاً لقتال ﴾ يعني مستطرداً  
يريد الكرة على المشركين ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ يعني أُوينحاز إلى أصحابه من غير  
هزيمة ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ يقول : استوجب سخطاً من الله ﴿ وماواه جهنم  
وئس المصير ﴾ فهذا يوم بدر خاصة ، كأن الله شدد على المسلمين يومئذ ليقطع دابر  
الكافرين ، وهو أول قتال قاتل فيه المشركين من أهل مكة .

(85/308)

---

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه قال :  
المتحرف : المتقدم في أصحابه ، إنه يرى غرة من العدو فيصيبها ، والمتحيز : الفار إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه قال :  
وإنما هذه وعيد من الله تعالى لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن لا يفروا ، وإنما كان  
النبي صلى الله عليه وسلم ثبتهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه في قوله ﴿  
ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ قال : هذه منسوخة بالآية التي في الأنفال ﴿ الآن خفف الله  
عنكم ﴾ [ الأنفال : 66 ] .

وأخرج ابن جرير والنحاس في ناسخه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الفرار من  
الزحف من الكبائر لأن الله تعالى قال ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ﴾ الآية .  
وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : الفرار من الزحف من الكبائر .  
وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري في  
الأدب المفرد واللفظ له وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم  
والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما  
قال : " كنا في غزاة ، فحاص الناس حيصه قلنا : كيف تلقى النبي صلى الله عليه وسلم  
وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ! فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم قبل صلاة  
الفجر ، فخرج فقال " من القوم . . . ؟ فقلنا : نحن الفرارون . فقال : لا بل أتم العكارون .  
فقبلنا يده فقال : أنا فتكم وأنا فئة المسلمين ، ثم قرأ ﴿ إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة



❖ " " .

وأخرج ابن مردويه عن أمامة رضي الله عنها مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كنت أوضئ النبي صلى الله عليه وسلم أفرغ على يديه ، إذ دخل عليه رجل فقال : يا رسول الله أريد اللحوق بأهلي فأوصني بوصية أحفظها عنك .

(86/308)

---

قال " لا تفريوم الزحف ، فإنه من فرّ يوم الزحف فقد باء بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير " .

وأخرج الشافعي وابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : من فر من اثنين فقد فر .

وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : " لما نزلت هذه الآية ❖ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفوا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . . . ❖ الآية . قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم " قاتلوا كما قال الله " " .

وأخرج أحمد عن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه استعاذ من سبع موتات . موت الفجأة ، ومن لدغ الحية ، ومن السبع ، ومن الغرق ، ومن

الحرق ، ومن أن يخر عليه شيء ، ومن القتل عند فرار الزحف " .

وأخرج أحمد عن أبي اليسر رضي الله عنه " أن رسول الله كان يدعوبهؤلاء الكلمات السبع يقول : اللهم إني أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الغم والغرق والحرق ، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مديراً ، وأعوذ بك أن أموت لديغاً " .

وأخرج ابن سعد وأبو داود والترمذي والبيهقي في الأسماء والصفات عن بلال بن يسار عن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبيه عن جده " أنه سمع رسول الله يقول : من قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان فر من الزحف " .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله " من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ثلاثاً غفرت ذنوبه وإن كان فر من الزحف " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مثله موقوفاً ، وله حكم الرفع . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

قوله : "إِلَّا مُتَّحَرِّفًا" في نصبه وجهان :

أحدهما : أَنَّهُ حَالٌ .

والثاني : أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ وَقَدْ أَوْضَحَ ذَلِكَ الزَّمخَشَرِيُّ .

فقال : "فإن قلت : بِمِ اتَّصَبَ : "إِلَّا مُتَّحَرِّفًا" ؟ قلتُ : على الحال و"إِلَّا لِعَوٍّ ، أو على

الاستثناء من المولين : أي ومن يُؤلِّمهم إلا رجلاً منهم مُتَّحَرِّفًا أو مُتَّحِيزًا" .

قال أبو حيان : "لا يردُّ بقوله "إِلَّا" لِعَوْنِهَا زَائِدَةٌ ، إِنَّمَا يَرِيدُ أَنَّ الْعَامِلَ وَهُوَ "يُؤلِّمُهُمْ" وَصَلَّ

لَمَّا بَعْدَهَا كَقَوْلِهِمْ فِي "لَا" مِنْ قَوْلِهِمْ : جِئْتُ بِالْأَزَادِ - إِنَّهَا لِعَوٍّ .

وفي الحقيقة هي استثناء من حال محذوف والتقدير : وَمَنْ يُؤلِّمُهُمْ مَلْتَبَسًا بِأَيَّةِ حَالٍ إِلَّا مِنْ

حَالٍ كَذَا ، وَإِنْ لَمْ تُقَدَّرْ حَالٌ مُحذوفة لم يَصِحَّ دُخُولُ "إِلَّا" لِأَنَّ الشَّرْطَ عِنْدَهُمْ وَاجِبٌ ،

وَالوَاجِبُ حَكْمُهُ الْأَتَدَخُّلُ "إِلَّا" فِيهِ لَا فِي الْمَفْعُولِ ، وَلَا فِي غَيْرِهِ مِنَ الْفَضَلَاتِ ، لِأَنَّهُ

اسْتِثْنَاءٌ مُفْرَغٌ ، وَالْمُفْرَغُ لَا يَكُونُ فِي الْوَاجِبِ ، إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ النِّفْيِ أَوِ النَّهْيِ أَوِ الْمَوْوَلِ بِهِمَا ،

فَإِنْ جَاءَ مَا ظَاهَرَهُ خِلَافُ ذَلِكَ يُؤوَّلُ" .

قال شهاب الدين : "قوله لا في المفعول ولا في غيره من الفضلات ، لا حاجة إليه لنَّ

الاستثناء المفرغ لا يدخل في الإيجاب مطلقاً ، سواءً أكان ما بعد الإفضلة أو عمدةً فذكرُ

الفضلة والمفعول يوهم جوازه في غيرهما " .

وقال ابن عطية : " وأما الاستثناء فهو من المولين الذين تتضمنهم " مَنْ " فجعل نصبه على

الاستثناء " .

وقال جماعة : إن الاستثناء من أنواع التولي ، وردَّ هذا بأنه لو كان كذلك لوجب أن يكون

التركيب : الإتحيزاً أو تحرفاً ، والتحيزُ والتحوزُ : الاثمام ، وتحوزت الحية : انطوتُ ،

وحزتُ الشيء : ضممتُهُ ، والحوزةُ : ما يضمُّ الأشياء ، ووزنُ " متحيز " " مُتفعِل " "

والأصل " متحيزوز " فاجتمعت الياء والواو ، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً

، وأدغمت في الباء بعدها ، ك : مَيّت ، ولا يجوز أن يكون : " مُتفعلاً " ؛ لأنه لو كان كذلك

لكان " متحوزاً " ، فأما متحوزف " متفعِل " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9

ص 476.477 ﴿

(88/308)

من لطائف الإمام القشيري في الآتين

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ (15) وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدْ  
دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ وَنَسِ الْمَصِيرُ  
(16) ﴾

يقول إذا لقيتم الكفار في المعركة زحفاً مجتمعين فأثبتوا لقتالهم ، ولا تنهزموا فالشجاعة ثبات  
القلوب ، وكما قيل الشجاعة صبر على الطاعة وفي الجهاد مع العدو ، فالواجب الثبات  
عند الصولة - هذا في الظاهر ، وفي الباطن جهاد مع الشيطان ، والواجب فيه الوقوف عن  
دواعيه إلى الزلة ؛ فمن وقف على حد الإمساك عن إجابته ، بلا إنجاز لما يدعوه بوساوسه  
فقد وفى الجهاد حقه .

وكذلك في مجاهدة النفس ، فإذا وقف العبد عن إجابة النفس فيما تدعوه بهواجسها ، ولم  
يُطع شهوته فيها تحمله النفس عليه من البلاء إلى ابتغاء حظه فقد وفى الجهاد حقه .  
والإشارة في قوله : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ يباين بعض الرخص ليتقوى على ما هو أشد ؛  
كأكله مثلاً ما يُقيم صلبه ليقوى على السهر ، وكترفقه بنفسه يباين بعض الراحة من إزالة  
عطش ، أو نفي مقاساة جوع أو برد أو غيره لتلايقى عن مراعاة قلبه ، ولاستدامة اتصال  
قلبه به ، فإن ترك بعض أوراد الظاهر لتلايقى به عن الاستقامة في أحكام واردات السرائر  
أخذ في حق الجهاد مجرم .

---

والإشارة في قوله: ﴿ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ ﴾ إلى اعتضاد المرید بصحبة أقرانه فيما يساعده في المجاهدة، ويُبقي شهوداً ما هم فيه من المكابدة من إقامته على مجاهدته. ثم باستمداده من همم الشيوخ؛ فإن المرید ريب همة شيخه، فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خدامهم من نعمهم، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مرديهم من هممهم، يجبرون كسرهم، ويتوبون منهم، ويساعدونهم بحسن إرشادهم. ومن أهمل مریداً وهو يعرف صدقه، أو خالف شيخاً وهو يعرف فضله وحقه فقد باء من الله بسخط، والله تعالى حسيبه في مكافاته على ما حصل من قبيح وصفه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 608. 609 ﴾

(90/308)

---

"فصل"

قال النسفي في الآيات السابقة:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ النفل الغنيمة لأنها من فضل الله وعطائه، والأنفال الغنائم.

ولقد وقع اختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا رسول الله كيف تقسم  
ولمن الحكم في قسمتها للمهاجرين أم للأَنْصار أم لهم جميعاً ؟ فقيل له : قل لهم هي لرسول الله  
وهو الحاكم فيها خاصة يحكم ما يشاء ليس لأحد غيره فيها حكم .  
ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول أن حكمها مختص بالله ورسوله يأمر الله بقسمتها على  
ما تقتضيه حكمته ، ويمثل الرسول أمر الله فيها ، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي  
أحد ﴿ فاتقوا الله ﴾ في الاختلاف والتخاصم وكونوا متآخين في الله ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ  
بَيْنِكُمْ ﴾ أحوال بينكم يعني ما بينكم من الأحوال التي تكون أحوال ألفة ومحبة وانفاق ،  
وقال الزجاج : معنى ﴿ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ حقيقة وصلكم .  
والبين الوصل أي فاتقوا الله وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله به .

(91/308)

---

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في  
النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم  
فقسمه بين المسلمين على السواء ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمرتم به في الغنائم  
وغيرها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ كاملي الإيمان ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إنما الكاملوا الإيمان ﴿

الذين إِذَا ذَكَرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿﴾ فزعت لذكره استعظاما له وتهيبا من جلاله وعزه  
وسلطانه ﴿﴾ وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴿﴾ أَي الْقُرْآنِ ﴿﴾ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴿﴾ ازدادوا بها يقينا  
وطمأنينة ، لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت تقدمه ، أو زادتهم إيمانا بتلك  
الآيات لأنهم لم يؤمنوا بأحكامها قبل ﴿﴾ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿﴾ يعتمدون ولا يفوضون  
أموالهم إلى غير ربهم لا يخشون ولا يرجون إلا إياه ﴿﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ  
يُنْفِقُونَ ﴿﴾ جمع بين أعمال القلوب من الوجل والإخلاص والتوكل ، وبين أعمال الجوارح من  
الصلاة والصدقة ﴿﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿﴾ هو صفة لمصدر محذوف أي أولئك هم  
المؤمنون إيمانا حقا ، أو هو مصدر مؤكد للجمله التي هي ﴿﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿﴾ كقولك  
"هو عبد الله حقا" أي حق ذلك حقا .

وعن الحسن رحمه الله أن رجلا سأله أمؤمن أنت ؟ قال : إن كنت تسألني عن الإيمان بالله  
وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن ، وإن كنت  
تسألني عن قوله : ﴿﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿﴾ الآية .

فلا أدري أنا منهم أم لا .

وعن الثوري : من زعم أنه مؤمن بالله حقا ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية  
، أي كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقا فلا يقطع بأنه مؤمن حقا ، وبهذا يتشبه



من يقول أنا مؤمن إن شاء الله .

وكان أبو حنيفة رحمه الله لا يقول ذلك .

(92/308)

---

وقال لقادة: لم تستثني في إيمانك؟ قال: اتباعاً لإبراهيم في قوله ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: 82] فقال له: هلا اقتديت به في قوله ﴿ أَوْلَمْ تُؤْمِنُوا قَال بلى ﴾ [البقرة: 260] ، وعن إبراهيم التيمي: قل أنا مؤمن حقاً فإن صدقت أثبت عليه ، وإن كذبت فكفرك أشد من كذبك .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من لم يكن منافقاً فهو مؤمن حقاً .  
وقد احتج عبد الله على أحمد فقال: إيش اسمك؟ فقال: أحمد ، فقال: أنتقول أنا أحمد حقاً أو أنا أحمد إن شاء الله؟ فقال: أنا أحمد حقاً .

فقال: حيث سماك والداك لا تستثني وقد سماك الله في القرآن مؤمناً تستثني .  
﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ مراتب بعضها فوق بعض على قدر الأعمال ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ ﴾  
وتجاوز لسيئاتهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ صافٍ عن كد الاكتساب وخوف الحساب .  
الكاف في ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ في محل النصب على أنه صفة لمصدر الفعل المقدر ،

والتقدير : قل الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ريك  
إياك من بيتك وهم كارهون ﴿ مِنْ بَيْتِكَ ﴾ يريد بيته بالمدينة ، أو المدينة نفسها لأنها  
مهاجرة ومسكنة فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه ﴿ بالحق ﴾  
إخراجاً متلبساً بالحكمة والصواب ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴾ في موضع الحال  
أي أخرجك في حال كراهتهم .

وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو  
سفيان ، فأخبر جبريل النبي عليه السلام فأخبر أصحابه فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير  
وقلة القوم ، فلما خرجوا علمت قريش بذلك فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهو النفير في  
المثل السائر : لا في العير ولا في النفير .

(93/308)

---

فقيل له : إن العير أخذت طريق الساحل ونجت ، فأبى وسار بمن معه إلى بدر وهو ماء  
كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة ونزل جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، إن  
الله وعدكم إحدى الطائفتين ، إما العير وإما قريشاً .  
فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال : " العير أحب إليكم أم النفير " قالوا :

بل العير أحب إلينا من لقاء العدو .

فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردّ عليهم فقال : " إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل " فقالوا : يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو .  
فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا ، ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض ، فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار .

ثم قال المقداد بن عمرو : امض لما أمرك الله فإننا معك حيث أحببت ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : 24] .

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ما دامت عين منا تطرف ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال سعد بن معاذ : امض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، فسر بنا على بركة الله .

ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشطه قول سعد ثم قال : " سيروا على بركة الله أبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم " وكانت الكراهة من بعضهم لقوله ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴾ قال الشيخ أبو منصور رحمه

الله :يحتمل أنهم منافقون كرهوا ذلك اعتقاداً ، ويحتمل أن يكونوا مخلصين ، وأن يكون ذلك كراهة طبع لأنهم غير متأهين له .

(94/308)

﴿ يجادلونك في الحق ﴾ الحق الذي جادلوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقي النفير لإيثارهم عليه تلقي العير ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ بعد إعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم ينصرون وجداهم قولهم ما كان خروجنا إلا للعير ، وهلاقت لنا لنستعد وذلك لكراحتهم القتال ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ شبه حالهم في فرط فزعهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يعتل إلى القتل ويساق على الصغار إلى الموت وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها .

وقيل : كان خوفهم لقلة العدد وإنهم كانوا رجالاً وما كان فيهم إلا فارسان ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ "إذ" منصوب ب"اذكر" و ﴿ إِحْدَى ﴾ مفعول ثانٍ ﴿ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ بدل من ﴿ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ وهما العير والنفير والتقدير : وإذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ أي العير وذات الشوكة ذات السلاح ، والشوكة كانت في النفير لعدددهم وعدتهم أي تمنون أن تكون لكم العير لأنها

الطائفة التي لا سلاح لها ولا تريدون الطائفة الأخرى ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ ﴿ أَيِ  
يُثَبِّتُهُ وَيُعَلِّمُهُ ﴾ بِكَلِمَاتِهِ ﴿ بآيَاتِهِ الْمُنزَلَةِ فِي مُحَارَبَةِ ذَاتِ الشُّوْكَةِ وَبِمَا أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ نَزْوِهِمْ  
لِلنَّصْرَةِ ، وَمِمَّا قَضَى مِنْ قَتْلِهِمْ وَطَرْحِهِمْ فِي قَلْبِ بَدْرٍ ﴾ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿ آخِرَهُمْ  
وَالدَّابِرَ الْآخَرَ فَاعْلَمْ مِنْ دَبْرٍ إِذَا أَدْبَرَ .

(95/308)

---

وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة ، وفسفاس الأمور ،  
والله تعالى يريد معالي الأمور ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة ، وشتان ما بين المرادين ، ولذلك  
اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم وأعزكم وأذلهم ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾  
متعلق ب ﴿ يَقْطَعُ ﴾ أو بمحذوف تقديره ليحق الحق ﴿ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ ﴾ فعل ذلك  
والمقدر متأخر ليفيد الاختصاص أي ما فعله الإلهما ، وهو إثبات الإسلام وإظهاره ،  
وإبطال الكفر ، ومحقه ، وليس هذا بتكرار لأن الأول تمييز بين الإرادتين ، وهذا بيان لمراه  
فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾  
المشركون ذلك

﴿ إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ ﴿ بَدَلٍ مِنْ ﴾ ﴿ إِذِ يَعِدُّكُمْ ﴾ ﴿ أَوْ مَتَّعْتُ بِقَوْلِهِ ﴾ ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ

الباطل ﴿ واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال طفقوا يدعون الله يقولون أي ربنا

انصرنا على عدوك ، يا غياث المستغيثين أغثنا .

وهي طلب الغوث وهو التخليص من المكروه ﴿ فاستجاب لكم ﴿ فأجاب .

وأصل ﴿ أني مُمدُّكم ﴿ "بأنني ممدكم" فحذف الجار ووسط عليه ﴿ استجاب ﴿

فنصب محله ﴿ بألفٍ من الملائكة مُردِّفين ﴿ ﴿ مُردِّفين ﴿ مدني .

غيره بكسر الدال .

فالكسر على أنهم أردفوا غيرهم ، والفتح على أنه أردف كل ملك ملكا آخر .

يقال : ردفه إذا تبعه ، وأردفته إياه إذا اتبعه ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴿ أي الإمداد الذي دل

عليه ممدكم ﴿ الإِ بشرى ﴿ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴿ يعني أنكم

استغثتم وتضرعتم لقلبتكم فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر وتسكيناً منكم

وربطاً على قلوبكم ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿ أي ولا تحسبوا النصر من الملائكة

فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة ، أو وما النصر من الملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من

عند الله ، والمنصور من نصره الله .

واختلف في قتال الملائكة يوم بدر فقيل : نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضي الله عنه ، وميكائيل في خمسمائة على اليسرة وفيها علي رضي الله عنه في صورة الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا أذناها بين أكتافهم فقاتلت حتى قال أبو جهل لابن مسعود : من أين كان يأتينا الضرب ، ولا نرى الشخص ، قال : من قبل الملائكة .

قال : فهم غلبونا لا أتم .

وقيل : لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين وإلا فملك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا .

﴿ أَنْ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ بنصر أوليائه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ بقهر أعدائه .

﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمْ ﴾ بدل ثانٍ من ﴿ إِذِ يَعِدُكُمُ ﴾ أو منصوب بالنصر أو يا ضمرا اذكر .

﴿ يُغَشِّيكُمْ ﴾ مدني ﴿ النعاس ﴾ النوم والفاعل هو الله على القراءتين .

(97/308)

---

﴿ يُغَشِّيكُمُ النعاس ﴾ مكِّي ، وأبو عمرو ﴿ ءَامِنَةٌ ﴾ مفعول له أي إذ تنعسون أمنة

بمعنى أماناً أي لأمنكم ، أو مصدر أي فأمنتم أمنة فالنوم يزيج الرعب ويريح النفس ﴿ مِنْهُ ﴾

﴿ صفة لها أي أمنة حاصلة لكم من الله ﴾ ﴿ وَيُنزَلُ ﴾ بالتخفيف : مكّي وبصري ،  
 وبالتشديد : وغيرهم ﴿ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ ﴾ مطراً ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ بالماء من  
 الحدث والجنابة ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ وسوسته إليهم وتخوفه إياهم من  
 العطش ، أو الجنابة من الاحتلام ، لأنه من الشيطان وقد وسوس إليهم أن لانصرة مع الجنابة  
 ﴿ وَيَلْبِطْ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ بالصبر ﴿ وَيُثَبِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ أي بالماء إذا الأقدام كانت  
 تسوخ في الرمل ، أو بالربط لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر يثبت القدم في مواطن القتال ﴿ إِذِ  
 يُوحَى ﴾ بدل ثالث من ﴿ إِذِ يُعِدُّكُمْ ﴾ أو منصوب ب ﴿ يُثَبِّتُ ﴾ ﴿ رَبُّكَ إِلَى  
 الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ بالنصر ﴿ فَتَبَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بالبشرى وكان الملك يسير أمام  
 الصف في صورة رجل ويقول : أبشروا فإن الله ناصركم ﴿ سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
 الرَّعْبَ ﴾ هو امتلاء القلب من الخوف و ﴿ الرَّعْبَ ﴾ شامي وعلي ﴿ فَاضْرَبُوا ﴾  
 أمر للمؤمنين أو الملائكة ، وفيه دليل على أنهم قاتلوا ﴿ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ أي أعالي  
 الأعناق التي هي المذابح تطييراً للرؤوس ، أو أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق يعني ضرب  
 الهام ﴿ وَاضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ هي الأصابع يريد الأطراف ، والمعنى فاضربوا المقاتل  
 والشوي لأن الضرب إما أن يقع على مقتل أو غير مقتل ، فأمرهم أن يجمعوا عليهم النوعين  
 ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل وهو مبتدأ خبره ﴿  
 بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاققتهم أي مخالفتهم وهي



مشتقة من الشق لأن كلا المتعادين في شق خلاف شق صاحبه ، وكذا المعادة

والمخاصمة لأن

(98/308)

---

هذا في عدوة وخصم أي جانب وذاك في عدوة وخصم ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ والكاف في ذلك لخطاب الرسول أو لكل أحد ، وفي ﴿ ذَلِكَ ﴾ للكفرة على طريقة الالتفات ، ومحله الرفع على "ذلكم العقاب أو العقاب" ﴿ ذَلِكَ فَذُوقُوهُ ﴾ .

والواو في ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ بمعنى "مع" أي ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة فوضع الظاهر موضع الضمير .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾ حال من ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .  
والزحف الجيش الذي يرى لكثرتة كأنه يزحف أي يدب دبيباً من زحف الصبي إذا دب على استه قليلاً قليلاً سمي بالمصدر ﴿ فَلَا تُؤْهِمُ الْأُدْبَارَ ﴾ فلا تنصرفوا عنهم منهزمين أي إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل ، فلا تفروا فضلاً أن تدانوهم في العدد أو تساووهم ، أو حال من المؤمنين أو من الفريقين أي إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم .

﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا ﴾ ﴿ مَائِلًا ﴾ ﴿ لِقِتَالٍ ﴾ ﴿ هُوَ الْكِرْبَعْدُ الْفَرِيحِيُّ خَيْلٌ عَدُوهُ أَنَّهُ مَنهَزَمٌ ثُمَّ يَعْطِفُ عَلَيْهِ وَهُوَ مِنْ خُدَعِ الْحَرْبِ ﴾ ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا ﴾ ﴿ مِنْضَمًّا ﴾ ﴿ إِلَى فِئَةٍ ﴾ ﴿ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سِوَى الْفِئَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا وَهِيَ حَالَانِ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي ﴾ ﴿ يُؤْلِهِمْ ﴾ ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَمَّى الْمَصِيرَ ﴾ ﴿ وَوَزَنَ مُتَحَيِّزٌ "مُتَفَاعِلٌ" لَا "مُتَفَعِّلٌ" ، لِأَنَّهُ مِنْ حَازِيحٍ وَجُوزٍ ، فَبِنَاءِ مُتَفَعِّلٍ مِنْهُ مُتَحَوِّزٌ . انْتَهَى . انْتَهَى . ١ هـ ﴾ ﴿ تَفْسِيرُ النَّسْفِيِّ ح 2 ص 93.98 ﴾

(99/308)

وقال البيضاوي :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾

أي الغنائم يعني حكمها ، وإنما سميت الغنيمة نفالاً لأنها عطية من الله وفضل كما سمي به ما يشترطه الإمام لمقتحم خطر عطية له وزيادة على سهمه . ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ﴿ أي أمرها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمره الله به . وسبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنها كيف تقسم ومن يقسم المهاجرون منهم أو الأنصار . وقيل شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان له غنائم أن ينقله ، فتسارع شبانهم حتى

قتلوا سبعين وأسروا سبعين ثم طلبوا نفلهم وكان المال قليلاً فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا ردءاً لكم وفئةً تنحازون إلينا، فنزلت فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء، ولهذا قيل: لا يلزم الإمام أن يفني بما وعد وهو قول الشافعي رضي الله عنه، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، فأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته منه فقال: ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض فطرحته، وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: سألتني السيف وليس لي وأنه قد صار لي فاذهب فخذ. وقرئ "يسألونك عن نفل" بحذف الهمزة والفاء حركتها على اللام وإدغام نون عن فيها، ويسألونك الأنفال أي يسألك الشبان ما شرطت لهم. ﴿ فاتقوا الله في الاختلاف والمشاجرة. ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴿ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله وتسليم أمره إلى الله والرسول. ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿ فيه. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ فإن الإيمان يقتضي ذلك، أو إن كنتم كاملين الإيمان فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والانتفاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي الكاملون في الإيمان . ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾  
فزعت لذكره استعظاما له وتهيبا من جلاله . وقيل هو الرجل يهجم بمعصية فيقال له اتق الله  
فينزع عنها خوفاً من عقابه . وقرىء ﴿ وَجِلَتْ ﴾ بالفتح وهي لغة ، وفرقت أي  
خافت . ﴿ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ لزيادة المؤمن به ، أو لاطمئنان النفس  
ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة ، أو بالعمل بموجبها وهو قول من قال الإيمان يزيد بالطاعة  
وينقص بالمعصية بناء على أن العمل داخل فيه . ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يفوضون إليه  
أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه .  
﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ .  
﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب  
من الخشية والإخلاص والتوكل ، ومحاسن أفعال الجوارح التي هي العيار عليها من الصلاة  
والصدقة ، و ﴿ حَقًّا ﴾ صفة مصدر محذوف أو مصدر مؤكد كقوله : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ  
حَقًّا ﴾ . ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ كرامة وعلو منزلة . وقيل درجات الجنة يرتقونها  
بأعمالهم . ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ لما فرط منهم . ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أعد لهم في الجنة لا ينقطع  
عدده ولا ينتهي أمده .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال في كراحتهم إياها كحال إخراجك للحرب في كراحتهم له ، وهي كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة . أو صفة مصدر الفعل المقدر في قوله : ﴿ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ أي الأتقال ثبتت لله والرسول صلى الله عليه وسلم مع كراحتهم ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك ، يعني المدينة لأنها مهاجرة ومسكنه أو بيته فيها مع كراحتهم . ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴾ في موقع الحال أي أخرجك في حال كراحتهم ، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام ، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقياً لكثرة المال وقلة الرجال ، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة ، فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول ، عيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً ، وقد رأت قبل ذلك بثلاث عاتكة بنت عبد المطلب أن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت في مكة إلا أصابه شيء منها ، فحدثت بها العباس وبلغ ذلك أبا جهل فقال : ما ترضى

رجالهم أن يتنبؤوا حتى تنبأ نساؤهم ، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ومضى بهم إلى بدر وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوماً في السنة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي ذفران فنزل عليه جبريل عليه السلام بالوعد يا حدى الطائفتين إما العير وإما قریش ، فاستشار فيه أصحابه فقال بعضهم : هلا ذكرت لنا القتال حتى تأهب له إنما خرجنا للعير ، فردد عليهم وقال أن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقالوا : يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وقالوا فأحسننا ، ثم قام سعد بن

(102/308)

---

عبادة فقال : أنظر أمرك فامض فيه فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار ، ثم قال مقداد بن عمرو : امض لما أمرك الله فأنا معك حيثما أحببت ، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : " أشيروا علي أيها الناس " وهو يريد الأنصار لأنهم كانوا ( عدد هم ) وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم براء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم ، فتخوف أن لا يروا نصرته إلا

على عدو دهمه بالمدينة ، فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يا رسول الله فقال : أجل ، قال : آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدونا وموآثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، وإنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى ، فنشطه قوله ثم قال :

(103/308)

---

"سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم" وقيل "إنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بدر قيل له : عليك بالغير فناداه العباس وهو في وثاقه لا يصلح فقال له "لم" فقال : لأن وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك ، فكره بعضهم قوله " . ﴿ يجادلونك في الحق ﴾ في إثارة الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقي العير عليه . ﴿ بعد ما تبين ﴾ لهم أنهم ينصرون أينما توجهوا بإعلام الرسول عليه الصلاة والسلام . ﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ أي يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه ، وكان ذلك لقلّة عددهم

وعدم تأهّبهم إذ روي أنهم كانوا رجالاً وما كان فيهم إلا فارسان ، وفيه إيماء إلى أن  
مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم . ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ على  
إضمار اذكر ، وإحدى ثاني مفعولي ﴿ يَعِدُكُمُ ﴾ وقد أبدل منها . ﴿ أَنَّهُ لَكُمْ ﴾ بدل  
الاشتمال . ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ يعني العير فإنه لم يكن فيها إلا  
أربعون فارساً ولذلك يتمنونها ويكرهون ملاقة النفير لكثرة عددهم ، وعددهم والشوكة  
الحدة مستعارة من واحدة الشوك : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أي يشبهه ويعليه . ﴿  
بِكَلِمَاتِهِ ﴾ الموحى بها في هذه الحال ، أو بأوامره للملائكة بالإمداد ، وقرىء " بكلمته" .  
﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ ويستأصلهم ، والمعنى : أنكم تريدون أن تصيبوا ما لا ولا تلقوا  
مكروها ، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين .  
﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ أي فعل ما فعل وليس بتكرير ، لأن الأول لبيان المراد وما  
بينه وبين مرادهم من التفاوت ، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول على اختيار ذات  
الشوكة ونصرة عليها . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك .

(104/308)

---



﴿ إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ بدل من ﴿ إِذِ يَعِدُكُمْ ﴾ أو متعلق بقوله ﴿ لِيُحِقَّ ﴾ بقوله ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ ، أو على إضمار اذكر ، واستغاثتهم أنهم لما علموا أن لا محيص عن القتال أخذوا يقولون : أي رب انصرنا على عدوك أغثنا يا غياث المستغيثين ، وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه عليه السلام نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة ، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو : " اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض " فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فقال أبو بكر يا نبي الله : كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ ﴾ بأني ممدكم ، فحذف الجار وسلط عليه الفعل وقرأ أبو عمرو بالكسر على إرادة القول أو إجراء استجاب مجرى قال لأن الاستجابة من القول . ﴿ بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضاً من أردفته أنا إذا جئت بعده ، أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين ، أو أنفسهم المؤمنين من أردفته إياه فردفه . وقرأ نافع ويعقوب " مُرَدِّينَ " بفتح الدال أي متبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أو ساقتهم . وقرئ ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ بكسر الراء وضمها وأصله مرتدّين بمعنى مترادفين فأدغمت التاء في الدال فالتقى ساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل أو بالضم على الإتياع . وقرئ " بالآف " ليوافق ما في سورة " آل عمران " ، ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالآف الذين كانوا على المقدمة أو

الساقة ، أو وجوههم وأعيانهم ، أو من قاتل منهم واختلف في مقاتلتهم وقد روي أخبار  
تدل عليها .

(105/308)

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ أي الإمداد ﴿ إِلَّا بَشْرَى ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر . ﴿ وَلَتَطْمَئِنَّ ﴾  
بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴿ فَيَزُولُ مَا بَهَا مِنَ الْوَجَلِ لِقَلَّتْكُمْ وَذَلَّتْكُمْ . ﴾ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ  
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ وإمداد الملائكة وكثرة العدد والأهب ونحوهما وسائط لا تأثير لها فلا  
تحسبوا النصر منها ولا تياسوا منه بفقدها .

﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ ﴾ بدل ثان من ﴿ إِذِ يَدْعُوكُمْ ﴾ لإظهار نعمة ثالثة أو متعلق  
بالنصر أو بما في عند الله معنى الفعل ، أو يجعل أو ياضمار اذكر . وقرأ نافع بالتخفيف من  
أغشيته الشيء إذا غشيته إياه والفاعل على القراءتين هو الله تعالى وقرأ ابن كثير وأبو عمر  
" يغشاكم النعاس " بالرفع . ﴿ أَمَنَّةٌ مِّنْهُ ﴾ أمنا من الله ، وهو مفعول له باعتبار المعنى فإن  
قوله ﴿ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ ﴾ متضمن معنى تنعسون ، و" يغشاكم " بمعناه ، وال ﴿ أَمِنَةٌ ﴾  
﴿ فَعَلْ لِفَاعِلِهِ وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِهَا الْإِيمَانُ فَيَكُونُ فِعْلُ الْمَغْشَى ، وَأَنْ تَجْعَلَ عَلَى الْقِرَاءَةِ  
الْأَخِيرَةَ فِعْلَ النَّعَاسِ عَلَى الْجَمَازِ لِأَنَّهَا لِأَصْحَابِهِ ، أَوْ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ لَا يَغْشَاكُمْ لَشِدَّةِ

الخوف فلما غشهم فكانه حصلت له أمانة من الله لولاها لم يغشهم كقوله :

يَهَابُ النَّوْمُ أَنْ يُغْشَى عَيْنَا . . . تَهَابَكَ فَهُوَ نَفَارٌ شَرُّوْدُ

(106/308)

---

وَقَرَى ﴿ ءَامِنَةٌ ﴾ كرحمة وهي لغة . ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾  
من الحدث والجنابة . ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ ﴾ يعني الجنابة لأنها من تخييله ،  
أو وسوسته وتخوفه إياهم من العطش . روي أنهم نزلوا في كتيب أعفر تسوخ فيه الأقدام  
على غير ماء وناموا فاحتم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء ، فوسوس إليهم  
الشیطان وقال : كيف تنصرون ، وقد غلبتم على الماء وأنتم تصلون محدثين مجننين  
وتزعمون أنكم أولياء الله ، وفيكم رسوله فأشفقوا فأنزل الله المطر ، فمطروا ليلاً حتى  
جرى الوادي واتخذوا الحياض على عدوته وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضؤوا ، وتلبد  
الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة . ﴿ وَكَيْرِبُطَ عَلَى  
قُلُوبِكُمْ ﴾ بالوثوق على لطف الله بهم . ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ أي بالمطر حتى لا تسوخ  
في الرمل ، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة .  
﴿ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ ﴾ بدل ثالث أو متعلق بيثبت . ﴿ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ في

إعانتهم وتشبيتهم وهو مفعول ﴿يُوحَى﴾ . وقرىء بالكسر على إرادة القول أو إجراء الوحي مجراه . ﴿فَتَّبَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالبشارة أو بتكثير سوادهم ، أو بمحاربة أعدائهم فيكون قوله : ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ كالتفسير لقوله ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَتَّبَتُوا﴾ ، وفيه دليل على أنهم قاتلوا ومن منع ذلك جعل الخطاب فيه مع المؤمنين إما على تغيير الخطاب أو على أن قوله : ﴿سَأَلْتِي﴾ إلى قوله : ﴿كُلُّ بَنَانٍ﴾ تلقين للملائكة ما يشنون المؤمنين به كأنه قال ؛ قولوا لهم قولي هذا . ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس . ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أصابع أي جزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم .

(107/308)

---

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الضرب أو الأمر به والخطاب للرسول ، أو لكل أحد من المخاطبين قبل . ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بسبب مشاققتهم لهما واشتقاقه من الشق لأن كلا من المتعادين في شق خلاف شق الآخر كالمعاداة من العدو والمخاصمة من الخصم وهو الجانب . ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا .

﴿ ذلكم ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات ومحله الرفع أي: الأمر ذلكم أو ذلكم واقع أو نصب يفعل دل عليه. ﴿ فذوقوه ﴾ أو غيره مثل باشروا أو عليكم فتكون الفاء عاطفة. ﴿ وأنَّ للكافرين عَذَابَ النَّارِ ﴾ عطف على ذلكم أو نصب على المفعول معه، والمعنى ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم في الآخرة. ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل أو الجمع بينهما. وقرئ ﴿ وأنَّ ﴾ بالكسر على الاستئناف.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾ كثيراً بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبي إذا دب على مقعده قليلاً قليلاً، سمي به وجمع على زحوف وانتصابه على الحال. ﴿ فَلَا تُلَاقُواهُمُ الْآدْبَارَ ﴾ بالانتهزام فضلاً أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم، والأظهر أنها محكمة مخصوصة بقوله: ﴿ حَرَّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ الآية، ويجوز أن ينتصب زحفاً حالاً من الفاعل والمفعول أي: إذا لقيتموهم متزحفين يدبون إليكم وتدبون إليهم فلا تنهزموا، أو من الفاعل وحده ويكون إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوا وهم اثنا عشر ألفاً.

﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ يريد الكر بعد الفر وتغيير العدو ، فإنه من  
مكايد الحرب . ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ أو منحازاً إلى فئة أخرى من المسلمين على  
القرب ليستعين بهم ، ومنهم من لم يعتبر القرب لما روى ابن عمر رضي الله عنهما : أنه كان في  
سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا إلى المدينة فقلت : يا رسول الله نحن  
الفرارون فقال : " بل أنتم العكارون وأنا فتكم " وانتصاب متحرفاً ومتحيزاً على الحال  
والإلغولاً عمل لها ، أو الاستثناء من المولين أي إلا رجلاً متحرفاً أو متحيزاً ، ووزن متحير  
متفيعل لا متفعل وإلا لكان متحوزاً لأنه من حاز يحوز . ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا أُوهُ  
جَهَنَّمَ وَسُسُ الْمَصِيرِ ﴾ هذا إذا لم يزد العدو على الضعف لقوله : ﴿ التَّنْ خَفَّ اللَّهُ  
عَنكُمْ ﴾ الآية ، وقيل الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ تفسير البيضاوى ح 3 ص 96.87 ﴾

(109/308)

وقال ابن جزى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم واسأئلون هم الصحابة ، والأنفال هي الغنائم ، وذلك

أنهم كانوا يوم بدر ثلاث فرق : فرقة مع النبي صلى الله عليه وسلم في العريش تحرسه ،  
وفرقة اتبعوا المشركين فقتلوهم وأسروهم ، وفرقة أحاطوا بأسلاب العدو وعسكرهم لما  
انهزموا ، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس رأت كل فرقة أنها أحق بالغنيمة من غيرها ،  
واختلفوا فيما بينهم ، فنزلت الآية ومعناها : يسألونك عن حكم الغنيمة ومن يستحقها  
وقيل : الأنفال هنا ما ينقله الإمام لبعض الجيش من الغنيمة زيادة على حظه ، وقد اختلف  
الفهاء وقيل : الأنفال هنا ما ينقله الإمام لبعض الجيش من الغنيمة زيادة على حظه ، وقد  
اختلف الفقهاء هل يكون ذلك التنفيل من الخمس وهو قول مالك ؟ أو من الأربعة الأخماس  
، أو من رأس الغنيمة ، قبل إخراج الخمس ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ أي الحكم فيها لله  
والرسول لا لكم ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي اتفقوا واتلفوا ، ولا تنازعوا ، وذات هنا  
بمعنى : الأحوال ، قاله الزمخشري ، وقال ابن عطية : يراد بها في هذا الموضع نفس الشيء  
وحقيقته . وقال الزبيرى : إن إطلاق الذات على نفس الشيء وحقيقته ليس من كلام  
العرب ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يريد في الحكم في الغنائم ، قال عبادة بن الصامت :  
نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا ، فنزع الله الأنفال من أيدينا ،  
وجعلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم قسمها على السواء ، فكانت في ذلك تقوى الله  
وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين .

---

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية: أي الكاملو الإيمان ، فإنما هنا للتأكيد والمبالغة والحصر ﴿ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي خافت وقرأ أبي بن كعب: فرزعت ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أي قوي تصديقهم و يقينهم ، خلافاً لمن قال: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وإن زيادته إنما هي بالعمل ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ يعني في الجنة .  
﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ فيه ثلاث تأويلات :

(111/308)

---

أحدهما : أن تكون الكاف في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك ؛ يعني أن حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في حالة خروجك للحرب ، والثاني أن يكون في موضع الكاف نصب على أنه صفة لمصدر الفعل المقدر في قوله الأنفال لله والرسول أي : استقرت الأنفال لله والرسول استقراراً مثل استقرار خروجك ، والثالث أن تعلق الكاف بقوله يجادلونك ﴿ مِنْ بَيْتِكَ ﴾ يعني مسكنة بالمدينة إذ أخرجه الله لغزوة بدر ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ أي كرهوا قتال العدو ، وذلك أن غير قريش أقبلت من الشام فيها أموال عظيمة ، ومعها أربعون راكباً ، فأخبر بذلك جبريل النبي



صلى الله عليه وسلم ، فخرج بالمسلمين فسمع بذلك أهل مكة ، فاجتمعوا وخرجوا في عدد كثير؛ ليمنعوا غيرهم . فنزل جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين ، إما العير وإما قريش ، فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ، فقالوا : العير أحب إلينا من لقاء العدو ، فقال : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقال له سعد بن عبادة : امض لما شئت فإنك متبعوك وقال سعد بن معاذ : والذي بعثك بالحق لو خضت هذا البحر لخصناه معك فسر بنا على بركة الله ﴿ يجادلونك في الحق بعد ما تبين ﴾ كان جداهم في لقاء قريش ، يأيثارهم لقاء العير؛ إذ كانت أكثر أموالاً ، وأقل رجالاً؛ وتبين الحق : هو إعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم ينصرون ﴿ كأنما يساقون إلى الموت ﴾ تشبيهه لخالهم في إفراط جزعهم من لقاء قريش .

(112/308)

---

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴾ يعني قريش أو غيرهم ، والعمل في إذ محذوف تقديره اذكروا ﴿ أنها لكم ﴾ بدل من إحدى الطائفتين ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ الشوكة عبارة عن السلاح ، سميت بذلك لحدتها ، والمعنى تحبون أن تلقوا

الطائفة التي لا سلاح لها وهي العير ﴿ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ يعني يظهر الإسلام بقتل الكفار وإهلاكهم يوم بدر ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك ، وليس تكراراً للأول ؛ لأن الأول مفعول يريد ، وهذا تعليل لفعل الله تعالى ، ويحتمل أن يريد بالحق الأول الوعد بالنصرة ، وبالحق الثاني الإسلام ، فيكون المعنى أن نصرهم ، ليظهر الإسلام ، ويؤيد هذا قوله : ويبطل الباطل أي يبطل الكفر .

﴿ إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ إذ بدل من إذ يعدكم ، وقيل : يتعلق بقوله ليحق الحق أو بفعل مضمر واستغاثتهم دعاؤهم بالغوث والنصر ﴿ مُمِدُّكُمْ ﴾ أي مكثركم ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ من قولك ردفه إذا تبعه ، واردفته إياه إذا أتبعته إياه . والمعنى : يتبع بعضهم بعضاً ، فمن قرأه بفتح الدال فهو اسم مفعول ، ومن قرأه بالكسر فهو اسم فاعل ، وضح معنى القراءتين ؛ لأن الملائكة المنزلين يتبع بعضهم بعضاً ، فمنهم تابعون ومتبوعون ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ الضمير عائد على الوعد ، أو على الإمداد بالملائكة .

(113/308)

---

﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ ﴾ إذ بدل من إذ يعدكم أو منصوب بالنصر ، أو بما عند الله من معنى النصر ، أو بإضمار فعل تقديره : اذكر ، ومن قرأ يغشيكم بضم الياء والتخفيف فهو

من أغشى ، ومن قرأ بالضم والتشديد فهو من غشى المشدد ، وكلاهما يتعدى إلى مفعولين  
فنصب النعاس على أنه المفعول والثاني ، والمعنى يغطيكم به فهو استعارة ، من الغشاء ،  
ومن قرأ بفتح الياء والشين فهو من غشى المتعدى إلى واحد أي ينزل عليكم النعاس ❀  
أَمْنَةٌ مِّنْهُ ❀ أي أماناً ، والضمير الجرور يعود على الله تعالى ، وانتصاب أمانة على أنه مفعول  
من أجله . قال ابن مسعود : النعاس عند حضور القتال علامة أمن من العدو ❀ وَيُنزَلُ  
عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ❀ تعديداً لنعمة أخرى ؛ وذلك أنهم عدموا الماء في غزوة بدر قبل  
وصولهم إلى بدر ، وقيل : بعد وصولهم ، فأنزل الله لهم المطر حتى سالت الأودية ❀  
لِيَطَهَّرَكُمْ بِهِ ❀ كان منهم من أصابته جنابة فتطهر بماء المطر ، وتوضأ به سائرهم ، وكانوا  
قبله ليس عندهم ماء للطهر ولا للوضوء ❀ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ❀ كان  
الشیطان قد ألقى في نفوس بعضهم وسوسة بسبب عدم الماء ، فقالوا : نحن أولياء الله  
وفينا رسوله فكيف نبقي بلاماء ؟ فأنزل الله المطر ، وأزال عنهم وسوسة الشيطان ❀  
وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ❀ أي يثبتها بزوال ما وسوس لها الشيطان وتنشيطها وإزالة الكسل  
عنها ❀ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ❀ الضمير في به عائد على الماء ، وذلك أنهم كانوا في رمله  
دعصة لا يثبت فيها قدم ، فلما نزل المطر تلبدت وتدقت الطريق ، وسهل المشي عليها  
والوقوف ، وروي أن ذلك المطر بعينه صعب الطريق على المشركين فبين أن ذلك من لطف  
الله .

﴿ إِذِ يُوحَى ﴾ يحتمل أن يكون ذلك بدلاً من إذ المتقدمة كما أنها بدل من التي قبلها ، أو يكون العامل فيه يثبت ﴿ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يحتمل أن يكون التثبيت بقتال الملائكة مع المؤمنين أو بأقوال مؤنسة مقوية للقلب قالوها : إذا تصوروا بصور بني آدم أو بإلقاء الأمن في نفوس المؤمنين ﴿ سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّعْبَ ﴾ يحتمل أن يكون من خطاب الله للملائكة في شأن غزوة بدر تكميلاً لتثبيت المؤمنين ، أو استئناف إخبار عما يفعله الله في المستقبل ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ يحتمل أيضاً أن يكون خطاباً للملائكة أو للمؤمنين ، ومعنى فوق الأعناق : أي على الأعناق ، حيث المفصل بين الرأس والعنق لأنه مذبج ، والضرب فيها يطير الرأس ، وقيل : المراد الرؤوس ، لأنها فوق الأعناق ، وقيل : المراد الأعناق وفوق زائدة ﴿ كُلُّ بَنَانٍ ﴾ قيل : هي المفاصل ، وقيل : الأصابع وهو الأشهر في اللغة ، وفائدة ذلك أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطل عن القتال فأمكن أسره وقتله ﴿ ذَلِكَ بَأْنَهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الإشارة إلى ما أصاب الكفار يوم بدر ، والباء للتعليل ، وشاقوا من الشقاق وهو العداوة والمقاطعة ﴿ ذَلِكَ فَذُوقُوهُ ﴾ الخطاب هنا للكفار ، وذلك مرفوع تقديره ذلكم العقاب أو العذاب ، ويحتمل أن يكون منصوباً بقوله : فذوقوه ،

كقولك زيدا فاضربه ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ عطف على ذلك على تقدير رفعه ، أو نصبه ،  
أو مفعول معه ، والواو بمعنى مع .

(115/308)

---

﴿ زَحْفًا ﴾ حال من الذين كفروا ، أو من الفاعل في لقيتم ، ومعناه متقابلي الصفوف  
والأشخاص ، وأصل الزحف الاندفاع ﴿ فَلَا تُؤَلُّهُمُ الْأَدْبَارُ ﴾ نهي عن الفرار مقيدا  
بأن يكون الكفار أكثر من مثلي المسلمين حسبما يذكره في موضعه ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾  
أي يوم اللقاء في أي عصر كان ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ هو الكر بعد الفر ليرى عدوه أنه  
منهزم ، ثم يعطف عليه ، وذلك من الخداع في الحرب ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ أي منحازا  
إلى جماعة من المسلمين ، فإن كانت الجماعة حاضرة في الحرب ، فالتحيز إليها جائز باتفاق  
، واختلف في التحيز إلى المدينة ، والإمام والجماعة إذا لم يكن شيئا من ذلك حاضرا ،  
ويروى عن عمر بن الخطاب ، أنه قال : أنا فئة لكل مسلم ، وهذا إباحة لذلك ، والفرار من  
الذنوب الكبائر ، وانتصب قوله متحرفاً على الاستثناء من قوله ومن يؤلهم ، وقال  
الزمخشري : انتصب على الحال والإلغو ، ووزن متحيز متفعلا ، ولو كان على متفعل لقال  
متحوز ، لأنه من حاز يحوز . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل ح 2 ص 60 . 63 ﴾

وقال الخطيب الشرييني فى الآيات السابقة :

﴿ بسم الله ﴾ الذى له العظمة الظاهرة والحكمة الباهرة ﴿ الرحمن ﴾ الذى عم جميع خلقه بنعمه المتواترة ﴿ الرحيم ﴾ الذى خص من أراد من عباده بما يرضيه فكان حامده وشاكره .

﴿ يسألونك ﴾ يا أشرف الخلق يا محمد ﴿ عن الأنفال ﴾ أي : الغنائم لمن هي ؟ وكيف مصرفها ؟ وإنما سميت الغنيمة نفلًا ؛ لأنها عطية من الله تعالى وفضل منه كما يسمى به ما يشرطه الإمام لمقتحم خطر عطية له وزيادة على سهمه ﴿ قل ﴾ يا محمد لهم ﴿ الأنفال والرسول ﴾ يجعلانها حيث شاء وأكثر المفسرين أن سبب نزولها اختلاف المسلمين فى غنائم بدر كيف تقسم ؟ فقال الشبان : هي لنا ؛ لأننا باشرنا القتال ، وقال الشيوخ : كنا ردًا لكم ولو انكشفتم لفتّم إلينا ، فنزلت ، وقيل : شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان له غنا . وهو بفتح الغين المعجمة والمد النفع . أن ينقله فسار شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ، ثم طلبوا نفلهم ، وكان المال قليلاً ، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات : كنا ردًا أي : عونًا لكم وفئةً تنحازون إلينا ، فنزلت فقسمها رسول الله صلى الله

عليه وسلم بينهم على السواء ، رواه الحاكم في المستدرک ، وعن عبادة بن الصامت : نزلت  
فينا معاشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من  
أيدينا ، فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء ، وكان  
في ذلك تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإصلاح ذات البين ، وعن سعد  
بن أبي وقاص رضي الله عنه إنه قال : لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير ، وقتلت به سعيد  
بن العاص وأخذت سيفه ، وأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته منه فقال  
: هذا ليس لي ولا لك اطرحه في القبض ، وهو بفتحتين : ما قبض من الغنائم فطرحته ،  
وبي ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلمي ، فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت  
سورة الأنفال ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " سألتني السيف وليس لي وإنه قد  
صار لي  
أذهب فخذة " وقيل : إنها نزلت فيما يصل من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو  
أمة أو متاع ، فهو للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاء .

(117/308)

---

واختلفوا هل هذه الآية منسوخة أو لا؟ فقال مجاهد وعكرمة: هي منسوخة بقوله تعالى

: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإنَّ خمسه وللرسول﴾ (الأنفال ، )

الآية فكانت الغنائم يومئذٍ للنبي صلى الله عليه وسلم فنسخها الله تعالى بالخمس ، وقال

بعضهم : هي ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه وذلك أن الغنائم كانت حراماً على

الأمم الذين من قبلنا في شرائع أنبيائهم ، وأباحها الله تعالى بهذه الآية لهذه الأمة ، وجعلها

ناسخة لشرع من قبلنا ، ثم نسخت بآية الخمس ، وقال عبد الله بن زيد بن أسلم : هي ثابتة

غير منسوخة ، ومعنى الآية : قل الأنفال لله وللرسول يضعها حيث أمره الله تعالى ، وقد بين

الله تعالى مصارفها في قوله : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإنَّ خمسه﴾ الآية .

فإن قيل : ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول ؟

أجيب : بأن معناه أن حكم الغنيمة محتص بالله ورسوله بأمر الله يقسمها على ما تقتضيه

حكيمته ، ويمثل الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الله تعالى فيها وليس الأمر في قسمها

مفوضاً إلى رأي أحد ﴿فاتقوا الله﴾ بطاعته ، واتركوا مخالفته واتركوا المخاصمة

والمنازعة في الغنائم ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي : وأصلحوا الحال فيما بينكم بالموادة

وترك النزاع وتسليم أمر الغنائم إلى الله ورسوله ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ فيما يأمركم به

وينهاكم عنه ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ حقاً ، فإن الإيمان يقتضي ذلك .

﴿إنما المؤمنون﴾ أي : الكاملون في الإيمان ﴿الذين إذا ذكر الله﴾ أي : وعيده



﴿وجلت﴾ أي: خافت وخضعت ورقّت ﴿قلوبهم﴾ أي: أن المؤمن إنما يكون مؤمناً

كاملاً إذا كان خائفاً من الله تعالى، ونظيره قوله تعالى: ﴿والذين هم من عذاب ربهم

مشفقون﴾ (المعارج، )

وقوله تعالى: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ (المؤمنون، ) .

فإن قيل: إنه تعالى قال هنا: ﴿وجلت قلوبهم﴾ وفي آية أخرى ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر

الله﴾ (الرعد، )

فكيف الجمع بينهما؟

(118/308)

---

أجيب: بأنه لا منافاة بينهما؛ لأنّ الوجل هو خوف العقاب، والاطمئنان إنما يكون من

اليقين وشرح الصدر بمعرفة التوحيد، وهذا مقام الخوف والرجاء، وقد اجتمعا في آية

واحدة وهي قوله تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم

إلى ذكر الله﴾ (الزمر، )

عند رجاء ثواب الله.

قال أهل التحقيق: الخوف على قسمين: خوف العقاب وهو خوف العصاة، وخوف

الجلال والعظمة ، وهو خوف الخواص ؛ لأنه تعالى غني بذاته عن كل الموجودات وما سواه من المخلوقات محتاجون إليه ، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغني هابه وخافه ، وليست تلك الهيبة من العقاب بل مجرد علمه بكونه غنياً عنه وكونه محتاجاً إليه يوجب تلك المهابة وذلك الخوف ، وأما العصاة فيخافون عقابه ، والمؤمن إذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ أي : تصديقاً و يقيناً ؛ لأن زيادة الإيمان بزيادة التصديق وذلك على وجهين :

الوجه الأول : وهو الذي عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدي إن كل من كانت عنده الدلائل أكثر وأقوى كان أزيد إيماناً ؛ لأن عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين ، فتكون معرفته بالله أقوى ، فيزداد إيمانه ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : " لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح " .

الوجه الثاني : وهو أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ، ولما كانت التكليف متوالية في زمنه صلى الله عليه وسلم فكلما تجدد تكليف كانوا يزدادون تصديقاً وإقراراً ، ومن المعلوم أن من صدق إنساناً في شئين كان أكثر ممن يصدقه في شيء واحد ، فقوله تعالى : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ معناه : أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد ، فكان ذلك زيادة في الإيمان والتصديق .

---

فإن قيل: إن تلك الآيات لا توجب الزيادة وإنما الموجب هو سماعها أو معرفتها أجيب:  
بأن ذلك هو المراد من الآية، واختلفوا هل الإيمان يقبل الزيادة والنقصان أو لا؟ فالذين قالوا  
: إن الإيمان عبارة عن التصديق القلبي قالوا: لا يقبل الزيادة ولا النقصان، والذين قالوا: إنه  
مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل قالوا: يقبل الزيادة والنقصان، واحتجوا بهذه الآية من  
وجهين:

الأول: أن قوله تعالى: ﴿زادتهم إيماناً﴾ يدل على أن الإيمان يقبل الزيادة، ولو كان عبارة  
عن التصديق فقط لما قبل الزيادة، وإذا قبل الزيادة فقد قبل النقص.

(120/308)

---

الوجه الثاني: أنه تعالى ذكر في هذه الآية أوصافاً متعدّدة من أحوال المؤمنين، ثم قال بعد  
ذلك: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ وذلك يدل على أن تلك الأوصاف داخلة في مسمى  
الإيمان، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:  
"الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن  
الطريق والحياء شعبة من الإيمان" ففي الحديث دليل على أن للإيمان أدنى وأعلى، فيكون

قابلاً للزيادة والنقص ، وقال عمير بن حبيب : إن للإيمان زيادة ونقصاناً ، قيل له : فما زيادته وما نقصانه فقال : إذا ذكرنا الله وحمدناه ، فذلك زيادته ، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي : إن للإيمان فرائض وشرائط وحدوداً وسناً فمن استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، ثم وصف الله تعالى المؤمنين الكاملين بصفة أخرى ثالثة ، وهي الاتكال عليه بقوله تعالى : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي : يفوضون جميع أمورهم إليه لا يرجون غيره ، ولا يخافون سواه ؛ لأن المؤمن إذا كان واثقاً بوعد الله تعالى ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره ، وهذا الحال مرتبة عالية ودرجة شريفة ، وهي أن الإنسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد في أمر من الأمور إلا على الله تعالى ، وهذه الصفات الثلاث مرتبة على أحسن صفات الترتيب ، فإن المرتبة الأولى هي الوجل عند ذكر الله ، والمرتبة الثانية هي الانقياد لمقامات تكاليفه ، والمرتبة الأخيرة الانقطاع بالكلية عما سوى الله والاعتماد بالكلية على فضل الله بل الغنى بالكلية عما سوى الله ، ثم إن هذه المراتب الثلاث أحوال معتبرة في القلوب والبولطن ، ثم انتقل منها إلى رعاية أحوال الظاهر فقال :

(121/308)

---

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أي : الذين يؤدّونها بحقوقها ﴿ ومما رزقناهم ﴾ أي :  
أعطيناهم ﴿ ينفقون ﴾ في طاعة الله ؛ لأنّ رأس الطاعات المعتبرة في الظاهر ورئسها بذل  
النفس في الصلاة ، وبذل المال في مرضاة الله ، ويدخل في ذلك صلاة الفرض والنفل والزكاة  
والصدقات والإنفاق في الجهاد والإنفاق على المساجد والقناطر ، ثم قال تعالى :  
﴿ أولئك ﴾ أي : الموصوفون بهذه الصفات الخمسة ﴿ هم المؤمنون حقاً ﴾ لأنهم حققوا  
إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الحشية والإخلاص والتوكل ومحاسن أفعال  
الجوارح التي المعيار عليها ، وهي الصلاة والصدقة و ﴿ حقاً ﴾ مصدر مؤكد للجمله التي  
هي ﴿ أولئك هم المؤمنون ﴾ كقوله : هو عبد الله حقاً ، أي : أحق ذلك حقاً .  
تنبيه : اختلف العلماء في أنه هل للشخص أن يقول : أنا مؤمن حقاً ، أو لا ؟ فقال أصحاب  
الشافعي رضي الله تعالى عنه : الأولى أن يقول الرجل : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ، ولا  
يقول : أنا مؤمن حقاً ، وقال أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه : الأولى أن يقول : أنا  
مؤمن حقاً ، ولا يجوز أن يقول : إن شاء الله تعالى ، واستدل للأول بوجوه :  
الأول أن قوله : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ليس على سبيل الشك ، ولكن الشخص إذا قال  
: أنا مؤمن فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب ، فإذا قال : إن شاء  
الله تعالى زال ذلك العجب ، وحصل الانكسار له .

الثاني إن الله تعالى ذكر في أول الآية ما يدل على الحصر وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ هُمْ كَذَابٌ وَكُذَّابٌ وَإِنَّمَا تَقِيْدُ الْحَصْرَ، وَذَكَرَ فِي آخِرِ الْآيَةِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وهذا أيضا يقيْدُ الحصر، فلما دلت هذه الآية على هذا المعنى، ثم إنَّ الإنسان لا يمكنه القطع على نفسه بحصول هذه الصفات الخمس، فكان الأولى له أن يقول: إن شاء الله تعالى، وعن الحسن أن رجلاً سأله: أمؤمن أنت؟ فقال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب، فأنا مؤمن بها، وإن كنت تسألني عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية فلا أدري أنا منهم أم لا؟ وقال سفيان الثوري: من زعم أنه مؤمن حقاً عند الله، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية، وهذا الإلزام منه أي: كما لا تقطع أنه من أهل الجنة قطعاً، فلا تقطع أنه مؤمن حقاً.

الثالث: أن قوله: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى للتبرك، فهو كقوله صلى الله عليه وسلم "وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" مع العلم القطعيّ بأنه لاحق بأهل القبور.

الرابع: أن المؤمن لا يكون مؤمناً حقاً إلا إذا ختم له بالإيمان، ومات عليه، وهذا لا يحصل إلا عند الموت، فلهذا السبب حسن أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، فالمراد صرف

هذا الاستثناء إلى الخاتمة.

الخامس : أن ذكر هذه الكلمة لا ينافي حصول الجزم والقطع ألا ترى أنه تعالى قال : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ (الفتح ، ) وهو تعالى منزه عن الشك والريب ، فثبت أنه تعالى إنما ذكر ذلك تعليماً منه لعباده فالأولى ذكر هذه الكلمة الدالة على تفويض الأمور إلى الله تعالى حتى يحصل بركة هذه الكلمة دوام الإيمان ، واستدل الثاني بوجهين :

(123/308)

---

الأول : أن المتحرك يجوز أن يقول : أنا متحرك ، ولا يجوز أن يقول أنا متحرك إن شاء الله تعالى ، وكذا في القول في القائم والقاعد فكذا هنا .

الثاني : أنه تعالى قال : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ فقد حكم الله لهم بكونهم مؤمنين حقا ، فكان قوله : إن شاء الله يوجب الشك فيما قطع الله تعالى لهم به ، وذلك لا يجوز ، وأجاب الأول عن قولهم : المتحرك لا يجوز أن يقول : أنا متحرك إن شاء الله تعالى بالفرق بين وصف الإنسان بكونه مؤمناً وبين وصفه بكونه متحركاً إذ الإيمان يتوقف حاله على الخاتمة ، والحركة فعل للإنسان نفسي ، فحصل الفرق بينهما ، وعن قولهم : إنه تعالى قال : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ فحكم لهم بكونهم مؤمنين حقا إذا أتوا بتلك الأوصاف

الخمسة على الحقيقة ، ونحن لا نعلم ذلك ، فثبت حينئذ أن الصواب مع أصحاب القول  
الأول : ﴿ لهم ﴾ أي : للموصوفين بتلك الصفات ﴿ درجات ﴾ أي : منازل في الجنة  
﴿ عند ربهم ﴾ بعضها أعلى من بعض ؛ لأن المؤمنين تتفاوت أحوالهم في الأخذ بتلك  
الأوصاف المذكورة ، فهذا تتفاوت منازلهم في الجنة على قدر أعمالهم . قال عطاء :  
درجات الجنة يرتفعون فيها بأعمالهم ، وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام " ،  
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " في الجنة مائة  
درجة لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم " ﴿ ومغفرة ﴾ أي : لما فرط منهم  
﴿ ورزق كريم ﴾ أعد لهم في الجنة لا ينقطع عدده ولا ينتهي أمده .  
فإن قيل : ليس المفضل إذا علم حصول الدرجات العالية للفاضل ، وحرمانه منها فإنه  
يتألم قلبه ويتنغص عيشه وذلك يحيل كون الثواب رزقاً حسناً ؟  
أجيب : بأن استغراق كل أحد في سعادته الحاضرة تمنعه من حصول النظر إلى غيره ،  
وبالجملة فأحوال الآخرة لا تناسب أحوال الدنيا إلا بالاسم ، وقوله تعالى :



﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ يقتضي تشبيه شيء بهذا الإخراج واختلفوا في تقدير ذلك ، فقال المبرد : تقديره الأنفال لله والرسول وإن كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق إلى القتال وإن كانوا كارهين له .

(125/308)

---

قال الرازي : وهذا الوجه أحسن الوجوه المذكورة في هذا الموضع ، وقال عكرمة : تقديره فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، فإن ذلك خير لكم كما أن إخراج محمد من بيته خير لكم ، وإن كرهه فريق منكم ، وقال الكسائي : الكاف متعلق بما بعده ، وهو قوله : ﴿ يجادلونك في الحق ﴾ ، والتقدير كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، على كره فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه ، وقيل : الكاف بمعنى على تقديره امض على الذي أخرجك ربك ، وقيل : الكاف بمعنى إذ تقديره واذكر إذ أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ الخروج والجملة حال من كاف أخرجك ، وقيل : كما خبر مبتدأ محذوف أي : هذه الحالة في كراحتهم لها مثل إخراجك في حال كراحتهم ، وقد كان خيراً لهم ، فكذلك هذه أيضاً ، وذلك أن أبا سفيان قدم بعير من الشام في أربعين راكباً منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري ، وفيها تجارة كثيرة ، فأخبر

جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم لقي العير  
لكثرة المال وقلة العدو ، فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي صلى الله عليه وسلم إليه استأجر  
ضمضم بن عمرو الغفاري وبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم ويخبرهم أن  
محمدًا وأصحابه قد خرجوا لغيرهم ، فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة ، وكانت عاتكة  
أخت العباس بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رأت رؤيا فقالت  
لأخيها العباس : إني رأيت عجباً رأيت راكباً أقبل على بعيره حتى وقف بالأبطح ثم  
صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ، فأرى الناس قد اجتمعوا  
عليه ، ورأيت كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها ورمى أي :  
رمى بها إلى فوق

(126/308)

---

فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة ، فقال العباس : أكتمها فلا  
تذكرها لأحد ، ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وكان  
صديقاً له ، فذكرها له واستكتمه فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت  
به قريش ، قال العباس : فغدوت أطوف بالبيت وأبوجهل بن هشام في رهط من قريش

قعود يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآني أبو جهل قال : يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل علينا قال : فلما فرغت من طوافي أقبلت حتى جلست معهم فقال أبو جهل : يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه الفتنة فيكم ؟ قلت : وما ذاك ، قال : الرؤيا التي رأت عاتكة ، قلت : وما رأت ؟ قال : يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تتبأ رجالكم حتى تتبأ نساؤكم ؟ قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال : انفروا في ثلاث فنتريص بكم الثلاث فإن بك ما قالت حقاً فسيكون وإن تمض الثلاث ، ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب ، قال العباس : فوالله ما كان مني إليه كبير أمر إلا أني جحدت ذلك وأنكرته أن لا تكون عاتكة رأت شيئاً ، ثم تفرقنا ، فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتني فقالت : أقررت لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت ، قال : قلت : والله ما كان مني إليه من شيء وأيم الله تعالى لا تعرضن له فإن عاد لأكفينك ، قال : فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا حديد مغضب أرى أن قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه قال : فدخلت المسجد ، فرأيتة قال : فوالله إني لأمشي نحوه لأعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به ، وكان أبو جهل رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر إذ خرج نحو باب المسجد يشتدّ قال : قلت : ماله لعنه الله أكان هذا فرقاً مني أن أشاتمته قال : فإذا

هو سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره ، وقد  
حوّل رحله

(127/308)

وشق

قميصه ، وهو يقول:

يا معشر قريش هذه أموالكم مع أبي سفيان ، وقد عرض لها محمد وأصحابه ، فنادى أبو  
جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء ، وهو بالمدّ : الإسراع منصوب على الإغراء  
أي : الزموا الإسراع على كل صعب وذلول أي : أسرعوا مجتمعين ولا تنفزن لأن تختاروا  
للكوب ذلولاً دون صعب غيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً ، فخرج  
أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير في المثل لا في العير ولا في النفير فليل له : إن العير أخذت  
طريق الساحل ونجت فارجع بالناس ، فقال : والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور  
ونشرب الخمر وتقيم القينات والمعازف بيدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وأن محمداً لم  
يصب العير فإننا قد أعضضناه فمضى بهم إلى بدر ، وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه  
لسوقهم يوماً في السنة ، ونزل جبريل عليه السلام وقال : يا محمد إن الله وعدكم إحدى

الطائفتين إمّا العيرو إمّا قريشاً ، فاستشار النبيّ صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وقال : ما تقولون ؟ إنّ القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلّول ، فالعير أحبّ إليكم أم النفير ؟ قالوا : بل العير أحبّ إلينا من لقاء العدوّ ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردّد عليهم ، وقال : إنّ العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقالوا : يا رسول الله عليك بالعير ودع العدوّ فقام عند غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا الكلام وأمالاه إلى المضيّ إلى العدوّ ، ثم قام سعد بن عبادة ، فقال : انظر أمرك فاقض فوالله لو سرت إلى عدن أبين ، وهي مدينة معروفة باليمن ، وأبين بوزن أبيض اسم رجل من حمير عدن بها أي : أقام ، ما تخلف عنك رجل من الأنصار .

(128/308)

---

ثم قال المقداد بن عمرو : يا رسول الله امض لما أمرك الله فإننا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : اذهب أنت وربك فقاتل إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : " أشيروا عليّ أيها الناس " وهو يريد الأنصار ؛ لأنهم قالوا له حين بايعوه على

العقبة: إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلى ديارنا فأنت في ذمامنا  
نمنعك مما تمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوف أن تكون  
الأنصار لا ترى عليهم نصرته إلا على عدوِّ دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنك  
تريدنا يا رسول الله؟ قال: "أجل" ، قال: قد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أن ما جئت  
به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول  
الله لما أردت ، فوالله الذي بعثك بالحق نبياً لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه  
معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا وإنا لصبر عند الحرب صدق  
عند اللقاء ، ولعلّ الله تعالى يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، ففرح رسول  
الله صلى الله عليه وسلم وسطه قول سعد رضي الله عنه ، قال: سيروا على بركة الله  
تعالى وأبشروا ، فإنّ الله وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع  
القوم .

(129/308)

---

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حدّثه عن أهل بدر  
قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: "هذا

مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى ، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى " قال عمر  
فوالذي بعثه بالحق نبياً ما أخطأ الحدود التي حدّها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
فجعلوا في برّ بعضهم على بعض فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم  
فقال : "يا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً فإنني وجدت ما وعدني الله  
حقاً" فقال عمر : كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ، فقال : " ما أتم أسمع لما أقول لهم منهم  
غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليّ شيئاً " .

وروي أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر : عليك بالغير ليس دونها  
شيء ، فناداه العباس وهو في وثاقه أي : قيده وكان العباس حينئذ مأسوراً مقيداً لا يصلح  
، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم ؟ قال : لأنّ الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك  
ما وعدك فكانت الكراهة من بعضهم لقوله تعالى : ﴿ وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ .  
﴿ يجادلونك في الحق ﴾ أي : القتال ﴿ بعدما تبين ﴾ إنك لا تصنع شيئاً إلا بأمر ربك  
﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ إليه أي : يكرهون القتال كراهة من يساق إلى  
الموت وهو يشاهد أسبابه وذلك أنّ المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك ، وقالوا : لم يعلمنا  
أنا تلقى العدو فنستعد للقائهم ، وإنما خرجنا لطلب الغير ، إذ روي أنهم كانوا رجالة وما  
كان فيهم إلا فارسان ، وفيه إيماء إلى أنّ مجادلتهم كانت لفرط فزعهم ورعبهم .

---

﴿ وإذ ﴾ أي : واذكر إذ ﴿ يعيدكم الله إحدى الطائفتين ﴾ أي : العير أو النفير ، وإحدى  
ثاني مفعولي "يعيدكم" وقد أبدل منها ﴿ أنها لكم ﴾ بدل اشمال ﴿ وتودون ﴾ أي :  
تريدون ﴿ أن غير ذات الشوكة ﴾ أي : القوة والشدة والسلاح وهي العير ﴿ تكون  
لكم ﴾ لقلة عددها وعددها إذ لم يكن فيها إلا أربعون فارساً بخلاف النفير لكثرة عددهم  
وعددهم .

وقرأ أبو عمرو بادغام التاء في التاء بخلاف عنه ﴿ ويريد الله أن يحق الحق ﴾ أي : يظهره  
﴿ بكلماته ﴾ أي : بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة  
، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قلب بدر ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ أي :  
يستأصلهم ، والمعنى أنكم تريدون أن تصيبوا مالا ، ولا تلقوا مكروهاً والله يريد إعلاء  
الدين وإظهار الحق ، وما يحصل لكم من فوز الدارين ﴿ ليحق الحق ﴾ أي : يثبت الإسلام  
﴿ ويبطل الباطل ﴾ أي : يمحى الكفر ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أي : المشركون ذلك .  
فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ ليحق الحق ﴾ بعد قوله : ﴿ أن يحق الحق ﴾ يشبه التكرار  
أجيب : بأن المعنيين متباينان وذلك أن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت  
، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة على غيرها ونصره  
عليها .



﴿ إِذْ ﴾ أَي: واذكر إذ ﴿ تستغيثون ربكم ﴾ واستغاثتهم أنهم لما عملوا أن لا يحيص عن القتال أخذوا يقولون ربنا انصرنا على عدوك أغثنا يا غياث المستغيثين .  
وعن عمر رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة أي وبضعة عشر ، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه ، وأخذه أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله كفاهك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك .

(131/308)

---

وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار ذال إذ عند التاء ، والباقون بالإدغام ، ﴿ فاستجاب لكم أني ﴾ أي : بأني فحذف الجارّ وسلط عليه استجاب فغصب محله ﴿ ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ أي : متابعين يردف بعضهم بعضاً ، وقرأ نافع بفتح الدال ، وقيل : بالفتح والكسر ، والباقون بالكسر ، وعدهم بالألف أولاً ، ثم صارت ثلاثة آلاف ، ثم خمسة آلاف كما في آل عمران ، فقيل : نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة ، وفيها أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وميكائيل عليه السلام على الميسرة ،

وفيهما عليّ رضي الله تعالى عنه في صور الرجال عليهم عمائم بيض وثياب بيض قد أرخوا  
أذناها بين أكفهم ، فقاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ويوم حنين .

وروي أنّ أبا جهل قال لابن مسعود من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى  
شخصاً ؟ قال : من الملائكة ، فقال أبو جهل : هم غلبونا لا أنتم .

وروي أنّ رجلاً من المسلمين بينما هو يشتدّ في طلب رجل من المشركين إذ سمع صوت  
ضربة بالسوط فوقه ، فنظر إلى المشرك وقد خرّ مستلقياً وشق وجهه ، فحدث الأنصاري  
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة ، فقتلوا يوم  
بدر سبعين وأسروا سبعين " ، وعن أبي داود المازنيّ تبعت رجلاً من المشركين لأضربه يوم  
بدر فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي .

وروي أبو أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال : " قال لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير  
بسيفه إلى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف " .

وقيل : إنهم لم يقاتلوا وإنما كانوا يكترون السواد ويثبتون المؤمنين والإفلك واحد كاف في  
إهلاك أهل الدنيا كلهم ، فإنّ جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط ،  
وأهلك بلاد ثمود قوم صالح عليه السلام بصيحة واحدة ، وقيل : يدلّ على هذا قوله تعالى :

(132/308)

---

﴿ وما جعله الله إلا بشرى ﴾ لكم أي: وما جعل الإرداف بالملائكة إلا بشرى لكم  
﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ فيزول ما بها من الوجع لقلوبكم وذلتكم، والصحيح أنهم قاتلوا  
يوم بدر، ولم يقاتلوا فيما سواه لما تقدم ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ أي: لا من عند  
غيره، وأما إمداد الملائكة وكثرة العدد والأهب ونحوها فهي وسائط لا تأثير لها، فلا  
تحسبوا أن النصر منها ولا تياسوا منه بفقدائها، وفي ذلك تنبيه على أن الواجب على  
المسلم أن لا يتوكل إلا على الله تعالى في جميع أحواله، ولا يثق بغيره، فإن الله تعالى بيده  
النصر والإعانة. ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي: إنه تعالى قويّ منيع لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب  
بل هو يقهر كل شيء ويغلبه ﴿ حكيم ﴾ في تدييره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء  
من عباده.

﴿ إذ ﴾ أي: واذكر إذ ﴿ يغشاكم النعاس ﴾ وهو النوم الخفيف ﴿ أمانة ﴾ أي: أمانة مما  
حصل لكم من الخوف من عدوكم ﴿ منه ﴾ أي: من الله تعالى؛ لأنهم لما خافوا على  
أنفسهم لكثرة عددهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم، وعطشوا عطشاً شديداً  
ألقي الله عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش، وتمكنوا من  
قتال عدوهم كان ذلك النوم نعمة في حقهم؛ لأنه كان خفيفاً بحيث لو قصدهم العدو ولعرفوا  
وصولهم إليهم وقدروا على دفعه عنهم.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : النعاس في القتال أمانة من الله تعالى ، وفي الصلاة وسوسة من الشيطان ، وقرأ نافع بضم الياء وكسر الشين مخففة وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والشين مع التخفيف فيهما ، والباقون بضم الياء وكسر الشين مشددة ، ورفع السين من النعاس ابن كثير وأبو عمرو ونصبها الباقون على أن الله تعالى هو الفاعل ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ﴾ أي : مطراً ﴿ ليطهركم به ﴾ أي : من الأحداث والجنابات ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي ، والباقون بفتح النون وتشديد الزاي ، وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب ، فناموا فاحتلم أكثرهم ، وكان المشركون قد سبقوهم على ماء بدر ، فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم العطش ، فوسوس إليهم الشيطان ، أو قال لهم المنافقون : تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله صلى الله عليه وسلم وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ، فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش فإذا قطع العش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة ؟ فحزنوا حزناً شديداً

وأشفقوا ، فأنزل الله تعالى مطراً أسال منه الوادي ، فشرب منه المؤمنون واغتسلوا  
وتوضؤوا وسقوا الدواب وملؤوا الأسقية وطفئ الغبار وعظمت النعمة من الله عليهم  
بذلك ، وكان دليلاً على حصول النصر والظفر وزالت عنهم وسوسة الشيطان كما قال  
تعالى : ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ أي : وسوسة الشيطان التي ألقاها في قلوبكم  
، وقيل : الجنابة ؛ لأنها من تخيله .

(134/308)

---

فإن قيل : يلزم على هذا التكرار فإن هذا تقدم في قوله تعالى : ﴿ ليطهركم به ﴾ وأجيب  
عنه : بأن المراد من قوله تعالى : ﴿ ليطهركم به ﴾ حصول الطهارة الشرعية ومن قوله تعالى  
﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ أن الرجز هو عين المنى ، فإنه شيء مستخبث ،  
وطابت أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ وليربط ﴾ أي : يحبس ﴿ على قلوبكم ﴾ باليقين  
والصبر ولبدت الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام كما قال تعالى : ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾  
أي : أن تسوخ في الرمل ، والضمير في "به" للماء ويجوز كما قال الزمخشري أن يكون للربط ؛  
لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجراءة ثبتت الأقدام في مواطن القتال وقوله تعالى :  
﴿ إذ يوحى ربك ﴾ متعلق بيبثت أو بدل من "إذ يعدكم" ﴿ إلى الملائكة ﴾ أي : الذين

أمدّ بهم المسلمين وقوله تعالى: ﴿إني ﴿أي بأني ﴿معكم ﴿أي: بالعون والنصرة مفعول  
يوحى ﴿فثبتوا الذين آمنوا ﴿أي: قوّوا قلوبهم بأن تقاتلوا المشركين معهم، وقيل:  
بالتبشير والإعانة، فكان الملك يمشي في صورة رجل أمام الصف ويقول: أبشروا فإن الله  
تعالى ناصركم عليهم فإنكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه، وقيل: يالقاء الإلهام في قلوبهم كما  
أنّ للشيطان قوّة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم بالشر ويسمى ما يلقيه الشيطان وسوسة  
وما يلقيه الملك إلهاماً.

(135/308)

---

ثم بين تعالى المعية بقوله تعالى: ﴿سألني في قلوب الذين كفروا الرعب ﴿أي: الخوف فلا  
يكون لهم ثبات وكان ذلك نعمة من الله تعالى على المؤمنين حيث ألقى الخوف في قلوب  
المشركين، وقرأ ابن عامر والكسائي برفع العين، والباقون بالسكون وقوله تعالى:  
﴿فاضربوا ﴿خطاب للمؤمنين وللملائكة ﴿فوق الأعناق ﴿أي: أعاليها التي هي  
المذابح والمفاصل والرؤوس، فإنها فوق الأعناق وقيل: المراد الأعناق، وفوق صلة، أو  
بمعنى على أي: اضربوا على الأعناق ﴿واضربوا منهم كل بنان ﴿قال ابن عطية: يعني:  
كل مفصل، وقال ابن عباس: يعني: الأطراف، والبنان جمع بنانة وهي أطراف الأصابع

من اليدين والرجلين ، وقال ابن الأنباري : كانت الملائكة لا تعلم كيف تقاتل بني آدم فعلمهم الله تعالى : قيل : إنما خصت الرأس والبنان بالذكر ؛ لأن الرأس أعلى الجسد وأشرف الأعضاء ، والبنان أضعف الأعضاء ، فيدخل في ذلك كل عضو في الجسد .  
وقيل : أمرهم بضرب الرأس وبه هلاك الإنسان وبضرب البنان وبه تبطل حركته عن القتال ؛ لأن البنان يتمكن من مسك السيف والسلاح وحمله والضرب به فإذا قطع بنانه تعطل ذلك كله .

﴿ ذلك ﴾ أي : التسليط العظيم الذي وقع من القتل والأسر يوم بدر ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ﴿ بأنهم ﴾ أي : الذين تلبسوا بالكفر ﴿ شاقوا الله ﴾ الذي لا يطاق انتقامه ﴿ ورسوله ﴾ أي : خالفوهما في الأوامر والنواهي والمشاقة المخالفة وأصلها المجانبة كأنهم صاروا في شق وجانب غير الذي يرضيانه ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ له فإن الذي أصابهم في ذلك اليوم من الأسر والقتل شيء قليل في جنب ما أعد الله تعالى لهم من العقاب يوم القيامة ، وقوله تعالى :

(136/308)

---

﴿ ذلكم ﴾ خطاب للكفرة على طريق الالتفات من الغيبة في شاقوا أي : ذلكم الذي عجل لكم بيد من القتل والأسر ﴿ فذوقوه ﴾ عاجلاً ﴿ وأن للكافرين ﴾ آجالاً في الآخرة ﴿ عذاب النار ﴾ ووضع الظاهر فيه موضع المضمرة للدلالة على أن الكفر سبب للعاجل والآجل .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ﴾ أي : مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون أي : يدبون ديباً من زحف الصبي إذا دبّ على استه قليلاً قليلاً سمي به ، وجمع على زحوف ، وانتصابه على الحال وهو مصدر موصوف به كالعدل والرضا ولذلك لم يجمع ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ أي : منهزمين منهم وإن كنتم أقل منهم .

﴿ ومن يولهم يومئذ ﴾ أي : يوم لقائهم ﴿ دبره ﴾ أي : يجعل ظهره إليهم منهزماً ﴿ إلا متحرفاً ﴾ أي : منعطفاً ﴿ لقتال ﴾ بأن يريهم أنه منهزم خداعاً ثم يكر عليهم وهو باب من مكاييد الحرب ﴿ أو متحيزاً ﴾ منضمّاً وصائراً ﴿ إلى فئة ﴾ أي : جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها على القرب يستجد بها .

ومنهم من لا يعتبر القرب لما روى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان في سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا إلى المدينة فقلت : يا رسول الله نحن الفرارون ، فقال : " بل أنتم العكارون " وفي رواية " الكرارون " أي : المتعاطفون إلى الحرب ، وأنا فتكم .  
وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر رضي الله تعالى عنه فقال : يا أمير المؤمنين



هلكت فررت من الزحف ، فقال عمر : أنا فئتُك ﴿ فقد باء ﴾ أي : رجع ﴿ بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير ﴾ أي : المرجع هي ، وعن ابن عباس أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر هذا إذا لم يزد العدد على الضعف لقوله تعالى : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ﴾ .

وقيل : هذا في أهل بدر خاصة ؛ لأنه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان معهم قاله مجاهد . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ السراج المنير ح 2 ص 307 .

﴿ 321

(137/308)

---

فصل في التفسير الإشاري في الآيات السابقة

قال الألوسي :

هذا ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾  
إذ لم يرتفع عنهم إذ ذاك حجاب الأفعال ﴿ قُلِ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ أي حكمها مختص بالله تعالى حقيقة وبالرسول مظهرية ﴿ فاتقوا الله ﴾ بالاجتناب عن رؤية الأفعال بروية فعل الله تعالى ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ بمحو صفات نفوسكم التي هي منشأ

صدوركم ما يوجب التنازع والتخالف ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بفنائها ليتيسر لكم قبول الأمر بالإرادة القلبية الصادقة ﴿ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأنفال : 1 ] [ الايمان الحقيقي ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ كذلك ﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ بملاحظة عظمته تعالى وكبريائه وسائر صفاته وهو ذكر القلب وذكره سبحانه وتعالى بالأفعال ذكر النفس ﴿ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي خافت لإشراق أنوار تجليات تلك الصفات عليها ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ بالترقي من مقام العلم إلى العين .

(138/308)

---

وقد جاء أن الله تعالى تجلى لعباده في كلامه لويعلمون ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [ الأنفال : 2 ] إذ لا يرون فعلاً لغيره تعالى ، وذكر بعض أهل العلم أنه سبحانه وتعالى نبه أولاً : بقوله عز قائلاً : ﴿ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ على بدء حال المرید لأن قلبه لم يقو على تحمل التجليات في المبدأ فيحصل له الوجه كضربة السعفة ويقشع لذلك جلده وترتعد فرائضه ، وأما المنتهى فقلما يعرض له ذلك لما أنه قد قوى قلبه على تحمل التجليات وألفها فلا يتزلزل لها ولا يتغير ، وعلى هذا حمل السهروردي قدس سره ما روى عن الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه أنه رأى رجلاً يبكي عند قراءة القرآن فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب

حيث أراد حتى قويت القلوب إذ أدمنت سماع القرآن وألفت أنواره فما تستغربه حتى  
تتغير، ونبه ثانياً: سبحانه وتعالى بقوله جل وعلا: ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ على أخذ المرید  
في السلوك والتجلي وعروجه في الأحوال، وثالثاً: بقوله عز شأنه ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾  
﴿ على صعوده في الدرجات والمقامات، وفي تقديم المعمول إيدان بالتبري عن الحول  
والقوة والتفويض الكامل وقطع النظر عما سواه تعالى، وفي صيغة المضارع تلويح إلى  
استيعاب مراتب التوكل كلها، وهو كما قال العارف أبو إسماعيل الأنصاري أن يفوق الأمر  
كله إلى مالكة ويعول على وكالته، وهو من أصعب المنازل، وهو دليل العبودية التي هي تاج  
الفخر عند الأحرار، والظاهر أن الخوف الذي هو خوف الجلال والعظمة يتصف به  
الكاملون أضاف ولا يزول عنهم أصلاً وهذا بخلاف خوف العقاب فإنه يزول، وإلى ذلك  
الإشارة بما شاع في الأثر

(139/308)

---

" نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه " ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ أي صلاة الحضور  
القلبي وهي المعراج المعنوي إلى مقام القرب ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من العلوم التي حصلت  
لهم بالسير ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ [ الأنفال: 3 ] ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ لأنهم الذي

ظهرت فيهم الصفات الحقّة وغدوا مرايا لها ومن هنا قيل: المؤمن مرآة المؤمن ﴿لَهُمْ  
 درجات عند ربهم﴾ من مراتب الصفات وروضات جنات القلب ﴿ومَغْفِرَةٌ﴾  
 لذنوب الأفعال ﴿ورزق كريم﴾ [الأنفال: 4] من ثمرات أشعار التجليات الصفاتية،  
 وق لبعض العارفين: المغفرة إزالة الظلمات الحاصلة من الاشتغال بغير الله تعالى والرزق  
 الكريم الأنوار الحاصلة بسبب الاستغراق في معرفته ومحبه وهو قريب مما ذكرنا ﴿كما  
 أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ متلبساً ﴿بالحق وإن فريقتا من المؤمنين﴾ وهم المحتجبون  
 برؤية الأفعال ﴿لكرهُونَ﴾ [الأنفال: 5] أي حالهم في تلك الحال كحالهم في هذه الحال  
 ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾ [الأنفال: 6] لك أولهم بالمعجزات ﴿إذ  
 تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بالبراءة عن الحول والقوة والانسلاخ عن ملابس الأفعال والصفات  
 النفسية ﴿فاستجاب لكم﴾ عند ذلك ﴿أنى مُمدُّكم﴾ من عالم الملكوت لمشابهة  
 قلوبكم إياه حينئذ ﴿بألفٍ من الملائكة﴾ أي القوى السماوية وروحانياتها ﴿مُردِّفينَ  
 ﴾ [الأنفال: 9] لملائكة أخرى وهو إجمال ما في آل عمران ﴿وما جعله الله﴾ [آل  
 عمران: 124، 125] أي ما جعل الله تعالى الإمداد ﴿الإبشري﴾ أي بشارة لكم  
 بالنصر ﴿وتطمئنن به قلوبكم﴾ لما فيها من اتصالها بما يناسبها ﴿وما النصر إلا من  
 عند الله﴾ والأسباب في الحقيقة ملغاة ﴿أن الله عزيز﴾ قوي على النصر من غير

﴿ حَكِيمٌ ﴾ [ الأنفال : 10 ] يفعله على مقتضى الحكمة وقد اقتضت فعله على الوجه المذكور ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ ﴾ وهو هذو القوى البدنية والصفات النفسانية بنزول السكينة ﴿ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ أي أماناً من عنده سبحانه وتعالى ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أي سماء الروح ﴿ مَاءً ﴾ وهو ماء علم اليقين ﴿ لِيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ عن حدث هواجس الوهم وجنابة حديث النفس ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ وسوسته وتخوفه ﴿ وَلِيُرِبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يقويها بقوة اليقين ويسكن جأشكم ﴿ وَوُثِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [ الأنفال : 11 ] إذ الشجاعة وثبات الأقدام في المخاوف من ثمرات قوة اليقين ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ أي يمد الملكوت بالجبروت ﴿ فَتَبَتُّوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ لانقطاع المدد عنهم واستيلاء قدام الوهم عليهم ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ ﴾ لئلا يرفعوا رؤساً ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [ الأنفال : 12 ] لئلا يقدرُوا على المدافعة ، وبعضهم جعل الإشارة في الآيات نفسية والخطاب فيها حسبما يليق له الخطاب من المرشد والسالك مثلاً ، ولكل مقام مقال ، وفي تأويل النيسابوري نبذة من ذلك فارجع إليه إن أردته وما ذكرناه يكفي لغرضنا وهو عدم إخلاء

كتابنا من كلمات القوم ولا تنقيد بأفاقية أو أنفسية والله تعالى الموفق للرشاد . انتهى انتهى .

اه ﴿ روح المعاني ح 8 ص ﴾

(141/308)

قوله تعالى ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (17) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم إليهم في ذلك ، علله بتقرير عزته وحكمته ، وأن النصر ليس إلا من عنده ، فمن صح إيمانه لم يتوقف عن امتثال أوامره ، فقال مسبباً عن تحريمه الفرار وإن كان العدو كثيراً ، تذكيراً بما صنع لهم في بدر ، ليجريهم على مثل ذلك ، ومنعاً لهم من الإعجاب بما كان على أيديهم في ذلك اليوم من الخوارق ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ أي حلَّ على المدبر الغضب لأنه تبين لكل مؤمن أنه تعالى لا يأمر أحداً إلا بما هو قادر سبحانه على تطويقه له ، فإنه قد وضح مما يجري على قوانين العوائد أنكم لم تقتلوا قتلى بدر وإن تعاطيتم أسباب قتلهم ، لأنكم لم تدخلوا قلوب ذلك الجيش العظيم الرعب الذي كان سبب هزيمتهم التي كانت سبب قتل

من قتلتم ، لضعفكم عن مقاومتهم في العادة ، وفيه مع ذلك زجر لهم عن أن يقول أحد منهم على وجه الافتخار : قتل كذا وكذا رجلاً وفعلت كذا ﴿ ولكن الله ﴾ أي الذي له الأمر كله فلا يخرج شيء عن مراده ﴿ قتلهم ﴾ أي بأن هزمهم لكم لما رأوا الملائكة وامتلات أعينهم من التراب الذي رماهم به - صلى الله عليه وسلم - وقلوبهم جزعاً حتى تمكنتم من قتلهم خرق عادة كان وعدكم بها ، فصدق مقاله وتمت أفعاله .

(142/308)

---

ولما رد ما باشروه إليه سبحانه ، أتبعه ما باشره نبيه - صلى الله عليه وسلم - دلالة على ذلك لأنه - صلى الله عليه وسلم - لما رأى قريشاً مقبلة قال : اللهم ! هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، فقال جبرائيل عليه السلام : خذ قبضة من تراب فأرمهم بها ، ففعل فمالت أعينهم فانهزموا فقال : ﴿ وما رميت ﴾ أي يا سيد المؤمنين الرمل في أعين الكفار ﴿ إذ رميت ﴾ أي أوقعت صورة قذفه من كفك ، لأن هذا الأثر الذي وجد عن رميك خارق للعادة ، فمن الواضح أنه ليس فعلك ، وهذا هو الجواب عن كونه لم يقل : فلم تقتلوهم إذ قتلتموهم ، لأن زهوق النفس عن الجراح المشخن هو العادة ، فهم الذين قتلوهم حين باشروا ضربهم ، فلا يصح : فلم تقتلوهم حتى قتلتموهم ، والمنفي

إنما هو السبب المتقدم على القتل الممكن من القتل ، وهو تسكين قلوبهم الناشئ عند إقدامهم وإرعاب الكفار الناشئ عند ضعفهم وانهمزامهم الممكن منهم ، فالمنفي عنهم البداية والمنفي عنه - صلى الله عليه وسلم - الغاية ، أو أن الملائكة عليهم السلام لما باشرت قتل بعضهم صح أن ينفي عنهم قتل الجميع مطلقاً ، أو أنهم لما اقتخر بعضهم بقتل من قتل نفاه سبحانه عنهم مطلقاً لأن مباشرتهم لقتل من قتل في جنب ما أعد لهم من الأسباب وأيدهم به من الجنود عدم ، وأما النبي - صلى الله عليه وسلم - فإنه فعل ما أمر به من رمي الرمل ولم يعد فعله ولا ذكره ، فأثبته سبحانه له مع نفي تأثيره عنه وإثباته لمن إليه ترجع الأمور تأديباً منه سبحانه لهذه الأمة ، أي لا ينظر أحد إلى شيء من طاعته ، فإننا قد نفينا هذا الفعل العظيم عن أكمل الخلق مع أنه عالم مقر بأنه منا فليحذر الذي يرى له فعلاً من عظيم سطواتنا ، ولكن لينسب جميع أفعاله الحسنة إلى الله تعالى كما نسب الرمي إليه بقوله : ﴿ ولكن الله ﴾ أي الذي لا راد لأمره ﴿ رمى ﴾ لأنه الذي أوصل أثره بما كان هازماً للكفار ، فعل ذلك كله ليبيي الكفار منه بأيدي من

(143/308)

---



أراد من عباده بلاء عاقبته سيئة ﴿ وليبلي المؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان ﴿ منه ﴾ أي وحده ﴿ بلاء حسناً ﴾ أي من النصر والغنيمة والأجر ، ومادة بلاء يائية أو واوية بأي ترتيب كان تدور على الخاطئة ، وتارة تكون مطلقة نحو أبلاه عذراً ، وتارة بكثرة ومحاوله وعناء وهو أغلب أحوال المادة ، وتارة تكون للامتحان وأخرى لغيره ، وما أباليه باله - أظنه من البال الذي هو الخاطر فهو من بول لا بلو ، أجوف لا من ذوات الأربعة ، ومعناه : ما أفاعله بالبال ، أي ما أكثره به فما أصرف خاطري إلى مخالطة أحواله حيث يصرف خاطره إلي أي ما أفكر في أمره لهوانه عليّ وسيأتي بسط معاني المادة إن شاء الله تعالى في سورة يوسف عليه السلام عند قوله تعالى ﴿ ما بال النسوة ﴾ [ يوسف : 50 ] وهذه المادة معناها ضد الدعة ، لأن هذه يلزمها شغل الخاطر الذي عنه ينشأ التعب بمدافعة الملابس ، والدعة يلزمها هدوء السر وفراغ البال الذي هو منشأ الراحة ، فمعنى الآية أنه تعالى فعل ذلك من الإمكان من إذلال الكفار ليخالطهم من شؤونه ما يكون لهم في مدافعة عاقبة سيئة ، وليخالط المؤمنين من ذلك ما يكون لهم في مزاولته عاقبة حسنة بل أحسن من الراحة ، لأنه يفضي بهم إلى راحة دائمة ، والدعة تقضي إلى تعب طويل - والله موفق . ولما ثبت بما مضى أن له تعالى الأفعال العظيمة والبطشات الجسمية . ودلت أقوال من قال من المؤمنين : إنا لم نتأهب للقاء ذات الشوكة ، على ضعف العزائم ؛ ختم الآية بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال ﴿ سميع ﴾ أي

لأقوالكم من الاستعانة في المعونة على النصره وغيرها ﴿ عليم ﴾ أي بعزائمكم وإن لم  
تتكلّموا بها ، فهو يجازي المؤمن على حسب إيمانه والكافر على ما يبدي ويخفي من  
كفرانه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 196.198 ﴾

(144/308)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال مجاهد : اختلفوا يوم بدر .

فقال : هذا أنا قتلت .

وقال الآخر أنا قتلت فأنزل الله تعالى هذه الآية يعني أن هذه الكسرة الكبيرة لم تحصل منكم ،

وإنما حصلت بمعونة الله روي أنه لما طلعت قريش قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

هذه قريش ، قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك " اللهم إني أسألك ما وعدتني "

فنزل جبريل وقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان قال لعلي أعطني قبضة من التراب من حصباء الوادي ، فرمى بها في وجوههم ، وقال شامت الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا .

قال صاحب "الكشاف" والفاء في قوله : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ جواب شرط محذوف تقديره إن افتخرتم بقتلهم فاتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم .

ثم قال : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ يعني أن القبضة من الحصباء التي رميتها ، فأنت ما رميتها في الحقيقة ، لأن رميك لا يبلغ أثره إلا ما يبلغه رمي سائر البشر ، ولكن الله رماها حيث نفذ أجزاء ذلك التراب وأوصلها إلى عيونهم ، فصورة الرمية صدرت من الرسول عليه الصلاة والسلام وأثرها إنما صدر من الله ، فلهذا المعنى صح فيه النفي والإثبات .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وجه الاستدلال أنه تعالى قال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ ومن المعلوم أنهم جرحوا ، فدل هذا على أن حدوث تلك الأفعال إنما حصل من الله .

وأيضاً قوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ أثبت كونه عليه السلام رامياً ، ونفى عنه كونه رامياً ، فوجب حمله على أنه رماه كسباً وما رماه خلقاً .

فَأَنْ قِيلَ : أَمَا قَوْلُهُ : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ فِيهِ وَجْهُ : الْأَوَّلُ : أَنْ قَتَلَ الْكُفَّارَ  
إِنَّمَا تَيْسَّرُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ ، فَصَحَّتْ هَذِهِ الْإِضَافَةُ .

(145/308)

---

الثاني : أَنْ الْجَرْحَ كَانَ إِلَيْهِمْ ، وَإِخْرَاجَ الرُّوحِ كَانَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَالتَّقْدِيرُ : فَلَمْ تَمَيِّتُوهُمْ وَلَكِنَّ  
اللَّهَ أَمَاتَهُمْ .

وَأَمَا قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذَا رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ قَالَ الْقَاضِي فِيهِ أَشْيَاءُ : مِنْهَا أَنْ  
الرَّمِيَةَ الْوَاحِدَةَ لَا تَوْجِبُ وَصُولَ التُّرَابِ إِلَى عَيُونِهِمْ ، وَكَانَ يُصَالُ أَجْزَاءَ التُّرَابِ إِلَى عَيُونِهِمْ  
لَيْسَ إِلَّا بِإِصَالِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمِنْهَا أَنَّ التُّرَابَ الَّذِي رَمَاهُ كَانَ قَلِيلًا ، فَيَمْتَنِعُ وَصُولُ ذَلِكَ  
الْقَدْرِ إِلَى عَيُونِ الْكُلِّ ، فَذَلِكَ هَذَا عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى ضَمَّ إِلَيْهَا أَشْيَاءَ أُخْرَى مِنْ أَجْزَاءِ التُّرَابِ  
وَأَوْصَلَهَا إِلَى عَيُونِهِمْ ، وَمِنْهَا أَنَّ عِنْدَ رَمِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى الرَّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَكَانَ الْمُرَادُ  
مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ هُوَ أَنَّهُ تَعَالَى رَمَى قُلُوبَهُمْ بِذَلِكَ الرَّعْبِ .

وَالْجَوَابُ : أَنْ كُلَّ مَا ذَكَرْتُمُوهُ عَدُولٌ عَنِ الظَّاهِرِ ، وَالْأَصْلُ فِي الْكَلَامِ الْحَقِيقَةِ .

فَإِنْ قَالُوا : الدَّلَائِلُ الْعَقْلِيَّةُ تَمْنَعُ مِنَ الْقَوْلِ بِأَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ تَعَالَى .

فَنَقُولُ : هِيَئَاتُ فَإِنَّ الدَّلَائِلَ الْعَقْلِيَّةَ فِي جَانِبِنَا وَالْبَرَاهِينَ النِّقْلِيَّةَ قَائِمَةٌ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِنَا ، فَلَا

يمكنكم أن تعدلوا عن الظاهر إلى المجاز .

والله أعلم .

المسألة الثالثة :

قرىء ﴿ وَلَٰكِن اللّٰهُ قَتَلَهُمْ وَلَٰكِن اللّٰهُ رَمَى ﴾ بتخفيف ولكن ورفع ما بعده .

المسألة الرابعة :

في سبب نزول هذه الآية ثلاثة أقوال : الأول : وهو قول أكثر المفسرين أنها نزلت في يوم بدر .

والمراد أنه عليه السلام أخذ قبضة من الحصباء ، ورمى بها وجوه القوم وقال شأهت

الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا ودخل في عينيه ومنخره منها شيء ، فكانت تلك الرمية سبباً

للهزيمة ، وفيه نزلت هذه الآية .

والثاني : أنها نزلت يوم خيبر روي أنه عليه السلام أخذ قوساً وهو على باب خيبر .

فرمى سهماً .

(146/308)

---

فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق ، وهو على فرسه ، فنزلت ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ

وَلَٰكِن اللّٰهُ رَمَى ﴾ والثالث : أنها نزلت في يوم أحد في قتل أبي بن خلف ، وذلك أنه أتى

النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم وقال يا محمد من يحيى هذا وهو رميم ؟ فقال عليه السلام يحييه الله ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك النار فأسر يوم بدر ، فلما اقتدى .  
قال لرسول الله إن عندي فرساً أعتفها كل يوم فرقاً من ذرة ، كي أقتلك عليها .  
فقال صلى الله عليه وسلم : " بل أنا أقتلك إن شاء الله " فلما كان يوم أحد أقبل أبي يركض على ذلك الفرس حتى دنا من الرسول عليه الصلاة والسلام فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه .

فقال عليه السلام : " استأخروا " ورماه بجرية فكسر ضلعاً من أضلاعه ، فحمل فمات ببعض الطريق ففي ذلك نزلت الآية والأصح أن هذه الآية نزلت في يوم بدر ، والإدخال في أثناء القصة كلام أجنبي عنها ، وذلك لا يليق بل لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلِيُبَلِّغَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءَ حَسَنًا ﴾ فهذا معطوف على قوله : ﴿ وَلَكِنْ اللَّهُ رَمَى ﴾ والمراد من هذا البلاء الأنعام ، أي ينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصرة والغنيمة والأجر والثواب ، قال القاضي : ولولا أن المفسرين انفقوا على حمل الابتلاء ههنا على النعمة ، وإلا لكان يحتمل المحنة بالتكليف فيما بعده من الجهاد ، حتى يقال : إن الذي فعله تعالى يوم بدر ، كان السبب في حصول تكليف شاق عليهم فيما بعد ذلك من الغزوات .  
ثم إنه تعالى ختم هذا بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لكلامكم عليم بأحوال

قلوبكم ، وهذا يجري مجرى التحذير والترهيب ، لتلايغتر العبد بظواهر الأمور ، ويعلم أن الخالق تعالى مطلع على كل ما في الضمائر والقلوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 112.113 ﴾

(147/308)

وقال السمرقندي :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾

وذلك أن المسلمين كانوا يقولون : قتلنا فلانا وقتلنا فلانا .

فأراد الله تعالى أن لا يعجبوا بأنفسهم ، فقال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ يقول : فما قتلتموهم ؛

﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ ، يعني الله تعالى نصركم عليهم وأمدكم بالملائكة .

﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ ، يعني الله تعالى تولى ذلك .

وذلك حين رمى النبي صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب ، فملا الله تعالى أعينهم بها

فانهزموا ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ يعني لم تصب رميتك ولم تبلغ ذلك المبلغ ؛ ﴿

ولكن الله رمى ﴾ الله تعالى تولى ذلك .

ويقال : رمى النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد بالحربة ، فأصاب أبي بن خلف الجمحي

فقتله .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ ولكن الله رمى ﴾ بكسر النون والتخفيف والله بالضم ، وكذلك في قوله ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ وقرأ الباقون بنصب النون مع التشديد ونصب ما بعده ﴿ ولكن الله رمى ﴾ .

قال : ﴿ وَلِيُليَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ ، يعني لينصرهم نصراً جميلاً ويختبرهم بالتي هي أحسن ، ويقال : ولينعم المؤمنين نعمة بينة .  
﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، يعني سميع لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وعليم بإجابته .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 2 ص ﴾

(148/308)

وقال الثعلبي :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ الآية

قال أهل التفسير والمغازي " لما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً قال : هذه مصارع القوم إن شاء الله " ، فلما طلوعوا عليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هذه قريش قد جاءت بجيالاتها وفخرها يكذبون رسولك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني فأتاه



جبرئيل وقال : خذ حفنة من تراب فارمهم بها " .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما التقى الجمعان لعلي رضي الله عنه : " أعطني قبضة من حصا الوادي " فناوله من حصى عليه تراب فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم به في وجوه القوم وقال : " شأهت الوجوه " .

فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه وفمه ومنخره منها شيء ثم رد فهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وكانت تلك الرمية سبب الهزيمة " .

وقال حكيم بن حزام : " لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الرمية فانهمزنا " .  
وقال قتادة وابن زيد : " ذكر له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى حصاة في ميمنة القوم وحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم .  
وقال : " شأهت الوجوه " فانهمزوا " .

الزهرى عن سعيد بن المسيب قال : نزلت هذه الآية في قتل أبي بن كعب الجمحي . وذلك " أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل وهو يفته فقال : يا محمد الله يحيى هذا وهو رميم ؟

---

فقال النبي صلى الله عليه وسلم يحيه الله ثم يميتك ثم يدخلك النار فلما كان يوم بدر أسره  
ثم فدي ، فلما اقتدي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن لي فرساً أعلفها كل يوم [ فرق  
[ ذرة لكي أقتلك عليها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنا أقتلك إن شاء الله ،  
فلما كان يوم أحد أقبل أبي بن خلف يركض بفرسه ذلك حتى دنا من رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه  
وسلم " استأخروا " ، فاستأخروا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بحربة في يده فرمى  
بها أبي بن خلف فكسرت الحربة ضلعاً من أضلاعه فرجع أبي إلى أصحابه ثقيلاً  
فاحتملوه وطفقوا يقولون : لا بأس ، فقال أبي : والله لو كانت الناس لقتلهم ، ألم يقل إني  
أقتلك إن شاء الله ، فانطلق به أصحابه ينعونه حتى مات ببعض الطريق فدنفوه "  
ففي ذلك أنزل الله هذه الآية ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ الآية .  
وروى صفوان بن عمرو عن عبد العزيز بن [ جبير ] " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يوم خيبر دعا بقوس فأتى بقوس طويلة فقال : جيئوني غيرها ، فجاءوا بقوس كبداء فرمى  
النبي صلى الله عليه وسلم الحصن فأقبل السهم يهوي حتى قتل كنانة بن أبي الحقيق وهو  
على فراشه فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ " فهذا سبب نزول الآية .  
فأما معناها فإن الله تعالى أضاف القتل والرمي إلى نفسه لأنه كان منه تعالى التسبب

والتسديد ومن رسوله والمؤمنين الضرب والحذف . وكذلك سائر أفعال الخلق المكتسبة من الله تعالى الإنشاء والايجاد بالقدرة القديمة التامة ومن الخلق الاكتساب بالقوى المحدثه ، وفي هذا القول دليل على ثبوت مذهب أهل الحق وبتلان قول القدرية .  
وقيل : إنما أضافها إلى نفسه لئلا يعجب القوم .

قال مجاهد : قال هذا : قتلت ، وقال هذا : قتلت ، فأنزل الله هذه الآية .

(150/308)

---

وقال الحسن : أراد فلم تُمَيِّتْهُمْ ولكن الله أماتهم وأتم جرحتموهم لأن إخراج الروح إليه لا إلى غيره .

قال ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ أي [ قتل ] يبلغ إلى المشركين بها وملاً عيونهم منها .

وقال ابن إسحاق : ولكن الله رمى أي لم يكن ذلك رميتك لولا الذي جعل الله فيها من نصرك وما ألقى في صدور عدوك منها حتى هزمهم .

وقال أبو عبيده : تقول العرب : رمى الله لك ، أي نصرك . قال الأعمش : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ أي وفقك وسدّد رميتك .

﴿ وَيُئَلِّيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ ﴿ أَيُّ وَلِيْنَعْمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ بِالنَّصْرِ

وَالْغَنِيمَةِ وَالْأَجْرِ وَالثَّوَابِ .

وقال ابن إسحاق: ليعرف المؤمنون نعمة نصرهم وإظهارهم على عدوهم مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا نعمه ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ ﴿ لِأَقْوَاهِمَ ﴾ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ بِأَفْعَالِهِمْ سَمِيعٌ بِأَسْرَارِهِمْ عَلِيمٌ بِأَضْمَارِهِمْ . انتهى انتهى . اهـ ﴾ الكشف والبيان ح

﴿ 4 ص ﴾

(151/308)

وقال الماوردي:

قوله عز وجل: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

يحتمل وجهين:

أحدهما: ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم.

والثاني: ولكن الله قتلهم بمعوته لكم حين ألقى في قلوبهم الرعب وفي قلوبكم النصر.

وفيه وجه ثالث قاله ابن جرير: ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدهم بهم.

وقيل لم تقتلوهم بقوتكم وسلاحكم ولكن الله قتلهم بجذلائهم وقبض أرواحهم.

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : ما حكاه ابن عباس ، وعرة ، والسدي : أن النبي صلى الله عليه وسلم قبض يوم بدر قبضة من تراب رماهم بها وقال : " شَاهَتِ الْوُجُوهُ " أي قبحت ومنه قول الحطيئة :  
أرى لي وجهاً شوه الله خلقه . . . . . فقبح من وجهٍ وقبح حامله .

فألقي الله تعالى القبضة في أبصارهم حتى شغلتهم بأنفسهم وأظفر الله المسلمين بهم ، فهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ . الثاني : معناه وما ظفرت إذ رميت ولكن الله أظفرك ، قاله أبو عبيدة .

الثالث : وما رميت قلوبهم بالرعب إذ رميت وجوههم بالتراب ولكن الله ملاً قلوبهم رعباً .

والقول الرابع : أنه أرد رمى أصحابه بالسهم فأصاب رميهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ يعني بما أرسله من الريح المعينة لسهامهم حتى سددت وأصابت . والمراد بالرمي الإصابة لأن معنى الرمي محمول على الإصابة ، فإن لم يصب قيل رمى فأخطأ . وإذا قيل مطلقاً :

قد رمى ، لم يعقل منه إلا الإصابة . ألا ترى إلى قول امرئ القيس :

فرماها في فرائصها . . . . . فاستغنى بذكر الرمي عن وصفه بالإصابة .

وقال ذو الرمة في الرأي :

رمى فأخطأ والأقدار غالبة . . . . فانصاع والويل هجيره والحربُ  
قوله عز وجل : ﴿ وَيُؤَلِّمِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ قال أصحاب الخواطر : البلاء  
الحسن ما يورثك الرضا به والصبر عليه .

وقال المفسرون : البلاء الحسن ها هنا النعمة بالظفر والغنيمة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(152/308)

وقال ابن عطية :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

هذه مخاطبة للمؤمنين أعلم الله بها أن القتلة من المؤمنين ليس هم مستبدين بالقتل ، لأن  
القتل بالإقدار عليه ، والخلق والاختراع في جميع حالات القتال إنما هي لله تعالى ليس للقاتل  
فيها شيء ، وإنما يشاركه بتكسبه وقصده ، وهذه الألفاظ ترد على من يقول بأن أفعال  
العباد خلق لهم ، وسبب هذه الآية فيما روي عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه  
وسلم لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم مما فعل ، فقال قتلت كذا وفعلت كذا فجاء  
من ذلك تفاخر ونحو ذلك فنزلت الآية ، وقوله ﴿ وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى ﴾

يراد به ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله يومئذ ، وذلك أنه أخذ قبضات من حصى وتراب ، فرمى بها في وجوه القوم وتلقاهم ثلاث مرات فانهمزوا عند آخر رمية ، ويروى أنه قال يوم بدر : شأهت الوجوه ، وهذه الفعله أيضاً كانت يوم حنين بلا خلاف ، وروي أن التراب الذي رمى به لم يبق كافر إلا دخل في عينيه منه شيء ، وروي أنه رمى بثلاثة أحجار فكانت الهزيمة مع الحجر الثالث .

قال القاضي أبو محمد : فيحمل قوله تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ما قلناه في قوله ﴿ فلم تقاتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ وذلك منصوص في الطبري وغيره ، وهو خارج في كلام العرب على معنى وما رميت الرمي الكافي إذ رميت ، ونحوه قول العباس بن مرداس : [ المتقارب ]

فلم أعط شيئاً ولم أمنع . . . أي لن أعط شيئاً مرضياً ويحتمل أن يريد ، وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت حصياتك ، ولكن الله رماه وهذا أيضاً منصوص في المهدوي وغيره ، ويحتمل أن يريد وما أغنيت إذ رميت حصياتك ولكن الله رمى أي أعانك وأظفرك ، والعرب تقول في الدعاء : رمى الله لك ، أي أعانك وصنع لك .

(153/308)

---

وحكى هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز وقرأت فرقة " ولكن الله رمى " بتشديد النون ،  
وفرقة " ولكن الله " بتخفيفها ورفع الهاء من " الله " ﴿ وليبلي ﴾ أي ليصيبهم ببلاء  
حسن ، فظاهر وصفه بالحسن يقتضي أنه أراد الغنيمة والظفر والعزة ، وقيل أراد الشهادة  
لمن استشهد يوم بدر وهم أربعة عشر رجلاً ، منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب  
ومهجع مولى عمر ، ومعاذ وعمر وابنا عفراء ، وغيرهم ، ﴿ إن الله سميع ﴾ لاستغاثتكم  
، ﴿ عليهم ﴾ بوجه الحكمة في جميع أفعاله لا إله إلا هو ، وحكى الطبري : أن المراد بقوله  
﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة على أبي بن  
خلف يوم أحد .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف لأن الآية نزلت عقب بدر ، وعلى هذا القول تكون  
أجنبية مما قبلها وما بعدها وذلك بعيد ، وحكى أيضاً أن المراد السهم الذي رمى به رسول  
الله صلى الله عليه وسلم في حصن خيبر فصار في الهوي حتى أصاب ابن أبي الحقيق فقتله  
وهو على فراشه ، وهذا فاسد ، وخيبر فتحها أبعد من أحد بكثير ، والصحيح في قتل  
ابن أبي الحقيق غير هذا ، فهذان القولان ضعيفان لما ذكرناه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر  
الوجيز ح 2 ص ﴾



وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

قرأ ابن عامر ، وأهل الكوفة إلا عاصماً " وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ " ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ بتخفيف النون ورفع اسم الله فيهما .

وسبب نزول هذا الكلام أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجعوا عن بدر جعلوا يقولون : قتلنا وقتلنا ، هذا معنى قول مجاهد .

فأما قوله تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ ففي سبب نزوله ثلاثة أقوال .

أحدها : " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي : ناولني كفاً من حصباء ، فناوله فرمى به في وجوه القوم ، فما بقي منهم أحد إلا وقعت في عينه حصاة " ، وقيل : أخذ قبضة من التراب ، فرمى بها ، وقال : " شأهت الوجوه " ؛ فما بقي مشرك إلا شغل بعينه يعالج التراب الذي فيها ، فنزلت : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ وذلك يوم بدر ؛ هذا قول الأكثرين .

وقال ابن الأنباري : وتأويل شأهت : قبحت ، يقال : شأهت وجهه يشوه شوهاً وشوهة ، ويقال : رجل أشوه ، وامرأة شوهاء : إذا كانا قبيحين .

والثاني : أن أبي بن خلف أقبل يوم أحد إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد ، فاعترض له

رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلوا سبيله ، وطعنه النبي صلى الله عليه وسلم بجرته ، فسقط أبيض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنه دم ، فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا : إنما هو خدش ، فقال : والذي نفسي بيده ، لو كان الذي بي بأهل الجاز لما تواءموا أجمعون ، فمات قبل أن يقدم مكة ؛ فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن المسيب عن أبيه .

والثالث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى يوم خيبر بسهم ، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو على فراشه ، فنزلت هذه الآية ، ذكره أبو سليمان الدمشقي في آخرين .

قوله تعالى : ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ اختلفوا في معنى إضافة قتلهم إليه على أربعة أقوال .  
أحدها : أنه قتلهم بالملائكة الذين أرسلهم .

(155/308)

---

والثاني : أنه أضاف القتل إليه لأنه تولى نصرهم .

والثالث : لأنه ساقهم إلى المؤمنين وأمكنهم منهم .

والرابع : لأنه ألقى الرعب في قلوبهم .

وفي قوله: ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المعنى : وما ظفرت أنت ولا أصبت ، ولكن الله اظفرك وأيدك ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : وما بلغ رميكَ كفاً من تراب أو حصى أن تملأ عيون ذلك الجيش الكثير ، إنما الله تولى ذلك ، قاله الزجاج .

والثالث : وما رميت قلوبهم بالرعب إذ رميت وجوههم بالتراب ، ذكره ابن الأنباري .  
قوله تعالى : ﴿ ولِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ أي : لينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والأجر .

﴿ إن الله سميع ﴾ ﴿ لدعائهم ﴾ ﴿ عليهم ﴾ بنياتهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(156/308)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

أي يوم بدر .

روي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل : قتل كذا ، فعلت كذا ؛ فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك .

فنزلت الآية إعلماً بأن الله تعالى هو المميت والمقدّر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده .

وهذه الآية تردّ على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم .

فقيل : المعنى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم .

وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم .

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ مثله ، ﴿ ولكن الله رمى ﴾ .

واختلف العلماء في هذا الرمي على أربعة أقوال :

الأول : إن هذا الرمي إنما كان في حصب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؛ رواه ابن وهب عن مالك .

قال مالك : ولم يبق في ذلك اليوم أحد إلا وقد أصابه ذلك .

وكذلك روى عنه ابن القاسم أيضاً .

الثاني : أن هذا كان يوم أحد حين رمى أبي بن خلف بالحربة في عنقه ؛ فكراً أبي منزهماً .

فقال له المشركون : والله ما بك من بأس .

فقال : والله لو بصق عليّ لقتلني .

أليس قد قال : بل أنا أقتله .

وكان قد أوعد أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتل بمكة ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بل أنا أقتلك " فمات عدو الله من ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرجعه إلى مكة ، بموضع يقال له "سرف" .

قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : لما كان يوم أحد أقبل أبي مقنعا في الحديد على فرسه يقول : لا نجوت إن نجا محمد ؛ فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله .

(157/308)

---

قال موسى بن عقبة قال سعيد بن المسيب : فاعترض له رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلوا طريقه ؛ فاستقبله مصعب بن عمير يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ترقة أبي بن خلف من فرجة بين سابعة البيضة والدرع ؛ فطعنه بجريته فوق أبي عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم .

قال سعيد : فكسر ضلعا من أضلاعه ؛ فقال : ففي ذلك نزل ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ وهذا ضعيف ؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر .

الثالث : أن المراد السهم الذي رمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حصن خيبر ،

فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحقيق وهو على فراشه .

وهذا أيضاً فاسد وخبيرٌ وفتحها أبعد من أحد بكثير .

والصحيح في صورة قتل ابن أبي الحقيق غير هذا .

الرابع : أنها كانت يوم بدر ؛ قاله ابن إسحاق .

وهو أصح ؛ لأن السورة بدرية ، وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه

وسلم : " خذ قبضة من التراب " فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فما من

المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة ؛ وقاله ابن

عباس ، وسيأتي .

قال ثعلب : المعنى " وما رميت " الفزع والرعب في قلوبهم " إذ رميت " بالحصباء فانهم

" ولكن الله رمى " أي أعانك وأظفرك .

والعرب تقول : رمى الله لك ، أي أعانك وأظفرك وصنع لك .

حكى هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز .

وقال محمد بن يزيد : وما رميت بقوتك إذ رميت ، ولكنك بقوة الله رميت .

﴿ وَيُبَلِّغِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ البلاء ها هنا النعمة .

واللام تتعلق بمحذوف؛ أي وليبلي المؤمنين فعل ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

القرطبي ح 7 ص ﴿

(158/308)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾

قال مجاهد : سبب نزول هذه الآية أنهم لما انصرفوا عن قتال اهل بدر كان الرجل يقول : أنا

قتلت فلاناً ، ويقول الآخر : أنا قتلت فلاناً فنزلت هذه الآية والمعنى فلم تقتلوهم بقوتكم

ولكن الله قتلهم يعني بنصره إياكم وتقويتكم عليهم وقيل : معناه ولكن الله قتلهم بإمداده

إياكم بالملائكة .

قال الزمخشري : الفاء في قوله فلم تقتلوهم جواب شرط محذوف تقديره وإن افتخرتم بقتلهم

فلم تقتلوهم أتم ولكن الله قتلهم ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ قال أهل

التفسير والمغازي لما ندب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) أصحابه ، انطلقوا حتى

نزلوا بدرًا ووردت عليهم روايا قريش وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجاج وأبوسار غلام

لبني العاص بن سعد فأخذهما وأتوا بهما إلى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فقال

لهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أين قريش ؟ قالوا : هم وراء الكئيب الذي ترى بالعدوة القصوى والكئيب العقنقل .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : كم قومك ؟ قالوا : كثير .

قال : ما عددهم ؟ قالوا : لا ندري .

قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوماً عشرة ويوماً تسعة .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : القوم ما بين التسعمائة إلى ألف .

ثم قال لهما : من فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو

البختري بن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر وطعمة بن عدي والنضر بن الحارث

وأبوجهل بن هشام وأمّية بن خلف ونبية ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو فقال رسول

الله (صلى الله عليه وسلم) هذه مكة قد ألت إليكم أفلاذكبدها .

فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تصوب من العقنقل ، وهو

الكئيب الرمل جاء إلى الوادي .

(159/308)

---



فقال : " اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك اللهم  
فنصرك الذي وعدتني " فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : خذ قبضة من تراب فارمهم بها  
، فلما التقى الجمعان تناول رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) كفاً من الحصباء عليه تراب  
فرمى به وجوه القوم وقال : " شأهت الوجوه " يعني قبحت الوجوه فلم يبق مشرك إلا  
ودخل في عينه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شيء فانهموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم  
ويأسرونهم وقال قتادة وابن زيد : ذكر لنا أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) أخذ يوم  
بدر ثلاثة حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم ، وبحصاة في ميسرة القوم وبحصاة بين  
أظهرهم وقال : " شأهت الوجوه " فانهموا فذلك قوله : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن  
الله رمى ﴾ إذ ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفاً من الحصى في وجوه جيش فلا  
تبقى عين إلا وقد دخل فيها من ذلك شيء فصورة الرمي صدرت من رسول الله ( صلى  
الله عليه وسلم ) وتأثيرها صدر من الله فلهذا المعنى صح النفي والإثبات ، وقيل .  
في معنى الآية : وما بلغت إذ رميت ولكن الله بلغ رميك ، وقيل : ما رميت بالرعب في  
قلوبهم إذ رميت بحصياتك ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم حتى انهزموا ﴿ وليبلي  
المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ يعني ولينعم على المؤمنين نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة والأجر  
والثواب فقد أجمع المفسرون على أن البلاء هنا بمعنى النعمة ﴿ إن الله سميع ﴾ يعني  
لدعائكم ﴿ عليم ﴾ يعني بأحوالكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

فائدة

قال ابن القيم:

قوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾

قلت اعتقد جماعة أن المراد بالآية سلب فعل الرسول عنه وإضافته إلى الرب تعالى وجعلوا

ذلك أصلاً في الجبر وإبطال نسبة الأفعال إلى العباد وتحقيق نسبتها إلى الرب وحده وهذا

غلط منهم في فهم القرآن فلو صح ذلك لوجب طرده في جميع الأعمال فيقال ما صليت إذ

صليت وما صمت إذ صمت وما ضحيت إذ ضحيت ولا فعلت كل فعل إذ فعلته ولكن

الله فعل ذلك فإن طردوا ذلك لزمهم في جميع أفعال العباد طاعتهم ومعاصيهم إذ لا فرق فإن

خصوه بالرسول وحده وأفعاله جميعها أو رميه وحده تناقضوا فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد

بالآية

وبعد فهذه الآية نزلت في شأن رميه المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء فلم تدع وجه

أحد منهم إلا أصابته ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ فكان منه مبدأ

الرمي وهو الحذف ومن الله سبحانه وتعالى نهايته وهو الإيصال فأضاف إليه رمى الحذف

الذي هو مبدؤه ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته ونظير هذا قوله في الآية نفسها فلم  
تقتلوهم ولكن الله قتلهم ثم قال وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى فأخبره أنه هو وحده  
هو الذي تفرد بقتلهم ولم يكن ذلك بكم أتم كما تفرد بإيصال الحصى إلى أعينهم ولم يكن  
ذلك من رسوله ولكن وجه الإشارة بالآية أنه سبحانه أقام أسبابا ظاهرة كدفع المشركين  
وتولى دفعهم وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس فكان ما حصل من  
الهزيمة والقتل والنصرة مضافا إليه به وهو خير الناصرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مدارج  
السالكين - 3 ص 426 . ص 427 ﴾

(161/308)

وقال أبو حيان :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾

لما رجع الصحابة من بدر ذكروا مفاخرهم فيقول القائل قتلت وأسرت فنزلت .

قال الزمخشري : والفاء جواب شرط محذوف تقديره إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم

ولكن الله قتلهم لأنه هو الذي أنزل الملائكة وألقى الرعب في قلوبهم وشاء النصر والظفر

وقوى قلوبكم وأذهب عنها الفزع والجزع انتهى ، وليست الفاء جواب شرط محذوف كما

زعم وإنما هي للربط بين الجمل لأنه لما قال ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾  
﴿ كان امثال ما أمروا به سبباً للقتل فقيل ﴾ ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ ﴿ أي لستم مستبدين بالقتل  
لأن الأقدار عليه والخالق له إنما هو الله ليس للقاتل فيها شيء لكنه أجرى على يده فنفي  
عنهم إيجاد القتل وأثبت لله وفي ذلك ردّ على من زعم أن أفعال العباد خلق لهم ، ومجيء  
﴿ لكن ﴾ ﴿ هنا أحسن مجيء لكونها بين نفي وإثبات فالمثبت لله هو المنفي عنهم وهو  
حقيقة القتل ومن زعم أن أفعال العباد مخلوقة لهم أول الكلام على معنى فلم يتسببوا لقتلكم  
إياهم ولكن الله قتلهم لأنه هو الذي أنزل الملائكة إلى آخر كلامه ، وعطف الجملة المنفية بما  
على الجملة المنفية يلم لأن لم نفي للماضي وإن كان بصورة المضارع لأن لنفي الماضي طريقتين  
إحدهما أن تدخل ما على لفظه والأخرى أن تنفيه بلم فتأتي بالمضارع والأصل هو الأول  
لأن النفي ينبغي أن يكون على حسب الإيجاب وفي الجملة مبالغة من وجهين أحدهما أن  
النفي جاء على حسب الإيجاب لفظاً ؛ الثاني إن نفي ما صرح بإثباته وهو قوله ﴿ وما  
رميت إذ رميت ﴾ ﴿ ولم يصرح في قوله ﴾ ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ ﴿ بقوله إذ قتلتموهم وإنما بولغ في  
هذا لأن الرمي كان أمراً خارقاً للعادة مُعجزاً آية من آيات الله على أي وجه فسر الرمي  
لأنهم اختلفوا فيه ، فقال ابن عباس قبض رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يوم بدر  
قبضة من تراب فقال

---

"شاهت الوجوه" أي قبحت فلم يبقَ مشرِكُ إلا دخل في عينيه وفيه ومنخره منها شيء ،  
وقال حكيم بن حرام فسمعنا صوتاً من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طست فرمى  
رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) تلك الرمية فانهزموا ، وقال أنس : رمى ثلاث  
حصيات يوم بدر واحدة في ميمنة القوم واحدة في ميسرتهم وثالثة بين أظهرهم ، وقال :  
شاهت الوجوه " فانهزموا .

وقيل الرمي هنا رمى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بجرية على أبي بن خلف يوم أحد ،  
قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن الآية نزلت عقب بدر وعلى هذا القول تكون أجنبية  
مما قبلها وبعدها وذلك بعيد ، وقيل المراد السهم الذي رمى به رسول الله ( صلى الله عليه  
وسلم ) في حصن خيبر فسار في الهوى حتى أصاب ابن أبي الحقيق وهذا فاسد  
والصحيح في صورة قتل ابن أبي الحقيق غير هذا وقوله ﴿ وما رميت ﴾ ﴿ نفي ﴾ وإذ  
رميت ﴿ إثبات فاحتجج إلى تأويل وهو أن يغاير بين الرميين فالمنفي الإصابة والظفر  
والمثبت الإرسال ، وقيل المنفي إزهاق الروح والمثبت أثر الرمي وهو الجرح وهذا القولان  
مقاربان ، وقيل ما استبددت بالرمي إذ أرسلت التراب لأن الاستبداد به هو فعل الله  
حقيقة وإرسال التراب منسوب إليه كسبا كان المعنى ، ﴿ وما رميت ﴾ الرمي الكافي  
﴿ إذ رميت ﴾ ونحوه قول العباس بن مرداس :

وقد كنت في الحرب ذا تدرا . . .

فلم أعط شيئاً ولم أمتنع

أي لم أعط شيئاً مرضياً .

(163/308)

---

وقيل متعلق المنفي الرعب ومتعلق المنبت الحصيات أي وما ﴿ رميت ﴾ الرعب في قلوبهم إذ ﴿ رميت ﴾ الحصيات ، وقال الزمخشري يعني أن الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم فأثبت الرمي لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) لأن صورة الرمي وجدت منه ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله فكان الله تعالى هو فاعل الرمي حقيقة وكأنها لم توجد من الرسول أصلاً انتهى ، وهو راجع لمعنى القولين أولاً وتقدّم خلاف الفراء في ﴿ لكن ﴾ وما بعدها عند قوله : ﴿ ولكن الشياطين كفروا وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ .

قال السدي ينصرهم وينعم عليهم يقال أبلاه إذا أنعم عليه وبلاه إذا امتحنه والبلاء يستعمل للخير والشر ووصفه بحسن يدل على النصر والعزة ، قال الزمخشري : وليعطيهم عطاء

جميلاً كما قال ، فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو .

انتهى ، والبلاء الحسن قيل بالنصر والغنيمة ، وقيل بالشهادة لمن استشهد يوم بدر وهم أربعة عشر رجلاً منهم عبدة بن الحرث بن عبد المطلب ومهجع مولى عمر ومعاذ وعمر وإبنا عفراء أنه قال : لولا أن المفسرين اتفقوا على حمل البلاء هنا على النعمة لكان يحتمل المحنة للتكليف بما بعده من الجهاد حتى يقال إن الذي فعله تعالى يوم بدر كان السبب في حصول تكليف شاق عليهم فيما بعد ذلك من الغزوات انتهى .

(164/308)

---

وسياق الكلام ينفي أن يراد بالبلاء المحنة لأنه قال : ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ ، فعل ذلك أي قتل الكفار ورميهم ونسبة ذلك إلى الله وكان ذلك سبب هزيمتهم والنصر عليهم وجعلهم نهباً للمؤمنين وهذا ليس محنة بل منحة إن الله سميع عليم لما كانوا قد أقبلوا على المفاخر بقتل من قتلوا وأسروا وكان ربما قد لا يخلص العمل من بعض المقاتلين إما لقتال حمية وإما لدفع عن نفس أو ما ختمت بهاتين الصفتين فليل إن الله سميع عليم لكلامكم وما تفخرون به عليهم بما انطوت عليه الضمائر ومن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾

رجوعُ إلى بقية أحكام الوقعة وأحوالها وتقريرُ ما سبق منها والفاءُ جوابُ شرطٍ مقدر يستدعيه ما مر من ذكر إمداده تعالى وأمره بالتثبيت وغير ذلك ، كأنه قيل : إذا كان الأمرُ كذلك فلم تقتلُوهم أتم بقوتكم وقدرتكم ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ويجوز أن يكون التقدير : إذا علمتم ذلك فلم تقتلُوهم أي فاعلموا ، أو فأخبركم أنكم لم تقتلُوهم ، وقيل : التقديرُ إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلُوهم على أحد التأويلين ، لما ( روي أنهم لما انصرفوا من المعركة غالبين غانمين أقبلوا يتفاخرون يقولون : قتلنا وأسرتُ وفعلتُ وتركتُ فنزلت ) ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طلعت قريشُ من العتقل قال : " هذه قريشُ جاءتُ بجيالاتها وفخرها يكذبون رسولك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني " فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال : خذ قبضةً من ترابِ فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلي رضي الله تعالى عنه : " أعطني قبضةً من حصباءِ الوادي " فرمى بها في وجوههم وقال : " شأهت الوجوه فلم يبقَ مُشركٌ إلا شغل بعينيه " فانهمزوا



( وذلك قوله عز وجل بطريق تلوين الخطاب : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾  
تحقيقاً لكون الرمي الظاهر على يده عليه الصلاة والسلام حينئذٍ من أفعاله عز وجل ،  
وتجريد الفعل عن المفعول به لما أن المقصود الأصلي بيان حال الرمي نفيًا وإثباتًا ، إذ هو  
الذي ظهر منه ما ظهر وهو المنشأ لتغير المرمي به في نفسه وتكثره إلى حيث أصاب عيني  
كل واحد من أولئك الأمة الجمّة شيءٌ من ذلك ، أي وما فعلت أنت يا محمد تلك الرمية  
المستبعة لهذه الآثار العظيمة حقيقة حين فعلتها صورةً وإلا لكان أثرها من جنس آثار  
الأفاعيل البشرية ولكن الله فعلها أي خلقها حيث باشرتْها لكن لا على نهج عادته تعالى في  
خلق أفعال العباد بل وجه غير معنادٍ ولذلك

(166/308)

---

أثرت هذا التأثير الخارج عن طوق البشر ودائرة القوى والقدرة ، فمدار إثباتها لله تعالى  
ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام كون أثرها من أفعاله عليه الصلاة والسلام . وقرىء ولكن  
الله بالتخفيف والرفع في الحلين ، واللام في قوله تعالى :  
﴿ وَيُؤْتِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ ﴾ أي يعطيهم من عنده تعالى ﴿ بَلَاءَ حَسَنًا ﴾ أي عطاءً جميلاً  
غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره ، واللام إما متعلقة بمحذوف متأخر فالواو

اعتراضية أي وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة فعل ما فعل ، لا لشيء غير ذلك مما لا  
يُجديهم نفعاً ، وإما برمي فالواو للعطف على علة محذوفة أي ولكن الله رمى ليمحق  
الكافرين وليبلي الخ ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ أي لدعائهم واستغاثتهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾  
﴿ أي بنياتهم وأحوالهم الداعية إلى الإجابة ، تعليل للحكم . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير  
أبي السعود ح 4 ص ﴿

(167/308)

وقال الأوسى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾

الخطاب للمؤمنين ، والفاء قيل واقعة في جواب شرط مقدر يستدعيه ما مر من ذكر إمداده  
تعالى وأمر بالتثبيت وغير ذلك ، كأنه قيل : إذا كان الأمر كذلك فلم تقتلوهم أتم بقوتكم  
وقدرتكم ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم .  
وجوز أن يكون التقدير إذا علمتم ذلك فلم تقتلوهم على معنى فاعلموا أو فاخبركم أنكم لم  
تقتلوهم ، وقيل : التقدير إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم لما روى أنهم لما انصرفوا من المعركة  
غالبين غانمين أقبلوا يتفاخرون يقولون : قتل وأسرت وفعلت وتركت فنزلت .

وقال أبو حيان: ليست هذه الفاء جواب شرط محذوف كما زعموا وإنما هي للربط بين  
الجملة لأنه قال سبحانه: ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال:  
12] وكان امثال ما أمر به سبباً للقتل فليل فلم تقتلوهم أي لستم مستبدين بالقتل لأن  
الأقدار عليه والخلق له إنما هو لله تعالى، قال السفاقي: وهذا أولى من دعوى الحذف.  
وقال ابن هشام: إن الجواب المنفي لا تدخل عليه الفاء.  
ومن هنا مع كون الكلام على نفي الفاعل دون الفعل كما قيل ذهب الزمخشري إلى اسمية  
الجملة حيث قدر المبتدأ أي فأنتم لم تقتلوهم، وجعل بعضهم المذكور علة الجزاء أقيمت  
مقامه وقال: إن الأصل إن افتخرتم بقتلهم فلا تتخروا به لأنكم لم تقتلوهم ونظائره كثيرة،  
ولعل كلام أبي حيان كما قال السفاقي أولى، والخطاب في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ  
إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ خطاب لنبيه عليه الصلاة والسلام بطريق التلويح وهو إشارة  
إلى رميه صلى الله عليه وسلم بالحصي.  
يوم بدر وما كان منه.

(168/308)

---

فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام قال : لما طلعت قريش من العقنقل : هذه قريش جاءت  
بجلائها وفخرها اللهم اني أسألك ما وعدتني فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : خذ قبضة  
من تراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان قال لعلي كرم الله تعالى وجهه : أعطني قبضة من  
حصباء الوادي فرمى بها وجوههم فقال : شامت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه  
فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وجاء من عدة طرق ذكرها الحافظ ابن  
حجر أن هذا الرمي كان يوم بدر ، وزعم الطيبي أنه لم يكن إلا يوم حنين وأن أئمة الحديث لم  
يذكر أحد منهم أنه كان يوم بدر وهو كما قال الحافظ السيوطي ناشيء من قلة الاطلاع فإنه  
عليه الرحمة لم يبلغ درجة الحفاظ ومنتهى نظره الكتب الست ومسند أحمد ومسند  
الدارمي وإلا فقد ذكر المحدثون أن الرمي قد وقع في اليومين فنفي وقوعه في يوم بدر مما لا  
ينبغي ، وذكر ما في حنين في هذه القصة من غير قرينة بعيد جداً ، وما ذكره في تقريب ذلك  
ليس بشيء كما لا يخفى على من راجعه وأنصف .  
ويرد نحو هذا على ما روى عن الزهري .

وسعيد بن المسيب من أن الآية إشارة إلى رميه عليه الصلاة والسلام يوم أحد فإن اللعين أبي  
بن خلف قصده عليه الصلاة والسلام فاعترض رجال من المسلمين له ليقتلوه فقال لهم  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : " استأخروا فاستأخروا فأخذ عليه الصلاة والسلام  
حربته بيده فرماه بها فكسر ضلعاً من أضلعه ، وفي رواية خدش ترقوته فرجع إلى

أصحابه ثقيلًا وهو يقول : قتلني محمد فطفقوا يقولون : لا بأس عليك فقال : والله لو كانت بالناس لقتلتهم فجعل يخور حتى مات ببعض الطريق .

(169/308)

---

وما أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم ابن أبي الحقيق وذلك في خبير دعا بقوس فأتى بقوس طويلة فقال عليه الصلاة والسلام : جيئوني بقوس غيرها فجاءه وه بقوس كبداء فرمى صلى الله عليه وسلم الحصن فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق في فراشه فأنزل الله تعالى الآية ، والحق المعول عليه هو الأول ، وتجريد الفعل عن المفعول به لما أن المقصود بيان حال الرمي نفيًا وإثباتًا إذ هو الذي ظهر منه ما ظهر وهو المنشأ لتغير المرمي به في نفسه وتكثره إلى حيث أصاب عيني كل واحد من أولئك الجم الغفير شيء من ذلك ، والمنعنى على ما قيل : وما فعلت أنت يا محمد تلك الرمية المستبعة لتلك الآثار العظيمة حقيقة حين فعلتها صورة ولكن الله تعالى فعلها أي خلقها حين باشرتها على أكمل وجه حيث أوصل بها الحصباء إلى أعينهم جميعاً ، واستدل بالآية على أن أفعال العباد بخلق الله تعالى وإنما لهم كسبها ومباشرتها قال الإمام : أثبت سبحانه كونه صلى الله عليه وسلم رامياً ونفي كونه رامياً فوجب حملة على أنه عليه

الصلاة والسلام رمى كسباً والله تعالى رمى خلقاً ، وقال ابن المنير: إن علامة المجاز أن يصدق نفيه حيث يصدق ثبوته الأترك تقول للبليد حمار ثم تقول ليس بحمار فلما أثبت سبحانه الفعل للخلق ونفاه عنهم دل على أن نفيه على الحقيقة وثبوته على المجاز بلاشبهة ، فالآية تكفح بل تفتح وجوه القدرية بالرد ، فإن قلت : إن أهل المعاني جعلوا ذلك من تنزيل الشيء منزلة عدمه وفسروه بما رميت حقيقة إذ رميت صورة والرومي الصوري موجود والحقيقي لم يوجد فلا تنزيل أُجيبُ بأن الصوري مع وجود الحقيقي كالعدم وما هو إلا كنور الشمع مع شعشعة الشمس ولذا أتى بنفيه مطلقاً كإثباته ، وما ذكره بيان لتصحيح المعنى في نفس الأمر وهو لا ينافي النكته المبنية على الظاهر ، ولذا قال في "شرح المفتاح" النفي والإثبات واردان على شيء واحد باعتبارين

(170/308)

---

فالمنفي هو الرمي باعتبار الحقيقة كما أن المثبت هو الرمي باعتبار الصورة ، والمشهور حمل الرمي في حيز الاستدراك على الكامل وهو الرمي المؤثر ذلك التأثير العظيم ، واعتراض المطلق ينصرف إلى الفرد الكامل لتبادره منه وأما ما جرى على خلاف العادة وخرج عن طوق البشر فلا يتبادر حتى ينصرف إليه بل ذلك ليس من افراده وأجيب بأننا لا ندعي إلا

الفرد الكامل من ذاك المطلق حسبما تقتضيه القاعدة ، وكون ذلك الفرد جارياً على خلاف العادة وخارجاً عن طوق البشر إنما جاء من خارج ، ووصف الرمي بما ذكر بيان لكماله ، ولا يستدعي ذلك أن لا يكون من أفراد المطلق ومن ادعاه فقد كابر .

واعترض على التفسير الأول بأنه مشعر بتفسير ﴿ رمى ﴾ في حيز الاستدراك بخلق الرمي وتفسير ﴿ رميت ﴾ في حيز النفي بخلقت الرمي ، فحاصل المعنى حينئذ وما خلقت الرمي إذ صدر عنك صورة ولكن الله سبحانه خلقه ، ويلزم منه صحة أن يقال مثلاً: ما قمت إذ قمت ولكن الله سبحانه قام على معنى ما خلقت القيام إذ صدر عنك صورة ولكن الله تبارك وتعالى خلقه ولا أظنك في مرية من عدم صحة ذلك وأجيب بأن القياس يقتضي صحة ذلك إلا أن مدار الأمر على التوقيف .

واعترض على ما استدعيه كلام ابن المنير من أن المعنى وما رميت تحقيق إذ رميت مجازاً ولكن الله تعالى رمى حقيقة بأن نفى الرمي حقيقة حين إثباته مجازاً من أجل البديهيات فأبي فائدة في الإخبار بذلك ، قيل : ومثل ذلك يرد على كلام الإمام لأن كسب العبد للفعل

عندهم على المشهور عبارة عن محلية العبد للفعل من غير تأثير لقدرته في إيجاد ويؤول ذلك إلى مباشرته له من غير خلق ، فيكون المعنى وما خلقت الرمي إذ باشرت ولم تخلق وهو كما ترى وهو كما ترى ، وبالجملة كلام أكثر أهل الحق في تفسير الآية والاستدلال بها وكذا بالآية قبلها على مذهبهم لا يخلو عن مناقشة ما ، ولعل الجواب عنها متيسر لأهله .

(171/308)

---

وقال بعض المحققين : إنه أثبت له صلى الله عليه وسلم الرمي لصدوره عنه عليه الصلاة والسلام ونفي عنه لأن أثره ليس في طاقة البشر ، ولذا عد ذلك معجزة حتى كأنه صلى الله عليه وسلم لا مدخل له فيه ، فمبنى الكلام على المبالغة ولا يلزم منه عدم مطابقتها للواقع لأن معناه الحقيقي غير مقصود ، ولا يصح أن تخرج الآية على الخلق والمباشرة لأن جميع أفعال العباد بمباشرتهم وخلق الله تعالى فلا يكون للتخصيص بهذا الرمي معنى وله وجه وإن قيل عليه ما قيل وأنا أقول : إن للعبد قدرة خلقها الله تعالى له مؤثرة بإذنه فما شاء الله سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن لأنه لا قدرة له أصلاً كما يقول الجبرية ، ولأن له قدرة غير مؤثرة كما هو المشهور من مذهب الأشاعرة ، ولأن له قدرة مؤثرة بها يفعل ما لا يشاء الله تعالى فعله كما يقول المعتزلة ، وأدلة ذلك قد بسطت في محلها وألفت فيها رسائل تلقم المخالف حجراً ، وليس إثبات صحة هذا القول وكذا القول المشهور عند الأشاعرة عند من يراه موقوفاً على الاستدلال بهذه الآية حتى إذا لم تقم الآية دليلاً يبقى المطلب بلا دليل .

(172/308)

---



فإذا كان الأمر كذلك فأنا لا أرى بأساً في أن يكون الرمي المثبت له صلى الله عليه وسلم هو الرمي المخصوص الذي ترتب عليه ما ترتب مما أبهر العقول وحير الألباب ، وإثبات ذلك عليه الصلاة والسلام حقيقة على معنى أنه فعله بقدره أعطيت له صلى الله عليه وسلم مؤثرة بإذن الله تعالى إلا أنه لما كان ما ذكر خارجاً عن العادة إذ المعروف في القدر الموهوبة للبشر أن لا تؤثر مثل هذا الأثر نفى ذلك عنه وأثبت لله سبحانه مبالغة ، كأنه قيل : إن ذلك الرمي وإن صدر منك حقيقة بالقدر المؤثرة بإذن الله سبحانه لكنه لعظم أمره وعدم مشابهته لأفعال البشر كأنه لم يصدر منك بل صدر من الله جل شأنه بلا واسطة ، وكذا يجوز أن يكون المعنى وما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ولكن الله تعالى رمى بالرعب ، فالرمي المنفي أولاً والمثبت أخيراً غير المثبت في الأثناء وعلى الوجهين يظهر بأدنى تأمل وجه تخالف أسلوبى الآيتين حيث لم يقل : وما رميت ولكن الله رمى ليكون على أسلوب فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ولا فلم تقتلوهم إذ قتلتموهم ولكن الله قتلهم ليكون على أسلوب ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ ولا يظهر لي نكتة في هذا التخالف على الوجوه التي ذكرها المعظم ، وكونها الإشارة إلى أن الرمي لم يكن في تلك الواقعة كالقتل بل كان في حين دونه على ما فيه مخالف لما صح من أن كلا الأمرين كان في تلك الواقعة كما علمت فتأمل فلمسك الذهن اتساع : وقرئ ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ﴾ بالتخفيف ورفع الاسم الجليل في الحلين ﴿ وَيُئِيلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ أي ليعظيهم سبحانه من عنده

إعطاء جميلاً غير مشوب بالشدائد والمكاره على أن البلاء بمعنى العطاء كما في قول زهير :

جزى الله بالإحساب ما فعلا بكم . . .

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلى

(173/308)

---

واختار بعضهم تفسيره بالإبلاء في الحرب بدليل ما بعده يقال : أبلى بلاء حسناً أي قاتل قتالاً شديداً وصبر صبراً عظيماً ، سمي به ذلك الفعل لأنه ما يجبر به المرء فتظهر جلادته وحسن أثره ، واللام إما للتعليل متعلق بمحذوف متأخر فالواو اعتراضية أي وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة فعل ما فعل لا لشيء آخر غير ذلك مما لا يجديهم نفعاً ، وإما برمي فالواو للعطف على علة محذوفة أي ولكن الله رمي ليمحق الكافرين وليبلي الخ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ أي لدعائهم واستغاثتهم أو لكل مسموع ويدخل فيها ما ذكر ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي بنياتهم وأحوالهم الداعية للإجابة أو لكل معلوم ويدخل فيه ما ذكر أيضاً تعليل للحكم ﴿ ذلکم ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ، ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

وقال القاسمي :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ أي : بقوتكم ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أي : سبب في قتلهم بنصرتكم  
وخذلانهم وألقى الرعب في قلوبهم ، وقوى قلوبكم ، وأمدكم بالملائكة ، وأذهب عنها  
الفرع والجزع .

﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ أي : أنت يا خاتم النبيين ، أي : ما بلغت رمية الحصباء إلى وجوه  
المشركين ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ أي : بالحصباء ، لأن كفاً منها لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية  
بشر ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ أي : بلغ بإيصال ذلك إليهم ليقهرهم .  
وقال أبو مسلم في معنى الآية : أي : ما أصبت إذا رميت ، ولكن الله أصاب .  
والرمي لا يطلق إلا عند الإصابة ، وذلك ظاهر في أشعارهم .

وقد روي عن غير واحد ، أنها نزلت في شأن القبضة من التراب التي حصب بها النبي  
صلى الله عليه وسلم وجوه المشركين يوم بدر ، حين خرج من العريش ، بعد دعائه  
وتضرعه واستكاته ، فرماهم بها وقال : < شأهت الوجوه > . ثم أمر أصحابه أن  
يصدقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين ، فلم يبق

أحد منهم إلا ناله ما شغله عن حاله ، وانهزموا .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية أن فعل العبد يضاف إليه تعالى إذا كان بنصرته ومعوته وتمكينه ، إذ معلوم أنهم قتلوا ، وأنه رمى ، ولذلك قال : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ ولهذا يضاف إلى السيد ما يأتيه غلامه .

وتدل على أن الإضافة بالمعونة والأمر ، صارت أقوى ، فذلك قال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ .  
وقال في " العناية " : استدل بهذه الآية والتي قبلها على أن أفعال العباد بخلقته تعالى ، حيث نفى القتل والرمي .

والمعنى : إذ رميت أو باشرت صرف الآلات .

(175/308)

---

والحاصل : ما رميت خلقاً إذا رميت كسباً . وأورد عليه أن المدعي وإن كان حقاً ، لكن لا دلالة في الآية عليه ، لأن التعارض بين النفي والإثبات الذي يتراءى في بادئ النظر ، مدفوع بأن المراد ما رميت رمياً تقدر به على إيصاله إلى جميع العيون ، وإن رميت حقيقة وصورة ، وهذا مراد من قال : ما رميت حقيقة إذ رميت صورة ، فالمنفي هو الرمي الكامل ،

والمثبت أصله ، وقدر منه .

فالإثبات والنفي لم يردا على

شيء واحد ، حتى يقال : المنفي على وجه الخلق ، والمثبت على وجه المباشرة ، ولو كان

المقصود هذا لما ثبت المطلوب بها ، الذي هو سبب النزول ، من أنه أثبت له الرمي ،

لصدوره عنه ، ونفى عنه ، لأن أثره ليس في طاقة البشر ، ولذا عدت معجزة له ، حتى كأنه

لا مدخل له فيها أصلاً . فمبنى الكلام على المبالغة ، ولا يلزم منه عدم مطابقتها للواقع ، لأن

معناه الحقيقي غير مقصود . هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام إذ لو كان المراد ما ذكر ، لم

يكن مخصوصاً بهذا الرمي ، لأن جميع أفعال العباد كذلك بمباشرتهم وخلق الله . انتهى .

وهذا التحقيق جيد ، وقد نبه عليه أيضاً العلامة ابن القيم في " زاد المعاد " حيث قال :

وقد ظنت طائفة أن الآية دلت على نفي الفعل عن العبد وإثباته لله ، وأنه هو الفاعل حقيقة

، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة ، مذكورة في غير هذا الموضوع .

ومعنى الآية : أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي ، ونفى عنه الإيصال الذي لم

يحصل برمييه ، فالرمي يراد به الحذف والإيصال ، فأثبت لنبيه الحذف ، ونفى عنه الإيصال

. انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ ﴾ أي : ليمنحهم من فضله ﴿ بَلَاءٍ حَسَنًا ﴾ أي :

منحاً جميلاً ، بالنصر والغنيمة والفتح ، ثم بالأجر والثوبة ، غير مشوب بمقاساة الشدائد  
والمكاره ، فيعرفوا حقه ويشكروه .

(176/308)

---

قال أبو السعود : واللام ، إما متعلقة بمحذوف متأخر ، فالواو اعتراضية ، أي : وللإحسان  
إليهم بالنصر والغنيمة ، فعل ما فعل ، لا لشيء غير ذلك ، مما لا يجديهم نفعاً ، وإما برمي ،  
فالواو للعطف على علة محذوفة ، أي : ولكن الله رمى الكافرين وليبلي . الخ .  
وتفسير البلاء هنا بالمنحة هو ما اختاره المحققون من قولهم : أبلاه الله ببليّة إبلاء حسناً ،  
إذا صنع به صنعاً جميلاً ، وأبلاه معروفًا ، قال زهير في قصيدته التي مطلعها :  
صحبا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسألوا أقفر من سلمى التعانيق والثقل  
والتعانيق والثقل : مواضع :

سجزي الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلى  
أي : إحسان فعلهما بكم ، فأبلاهما خير البلاء ، أي : صنع الله إليهما خير الصنيع الذي  
يبتلي به عباده ، والإنسان يبلى بالخير والشر ، أي : صنع بهما خير  
الصنيع الذي يبلو به عباده .

واستظهر الطيبي تفسيره بالإبلاء في الحرب بدليل ما بعده . قال ابن الأعرابي : يقال : أبلى فلان إذا اجتهد في صفة حرب أو كرم ، ويقال : أبلى ذلك اليوم بلاء حسناً .  
﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ أي : لدعائهم واستغاثتهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي : بمن يستحق النصر والغلب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 8 ص 276 . 278 ﴾

(177/308)

وقال ابن عاشور :  
﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ .  
الأظهر أن الفاء فصيحة ناشئة عن جملة : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم ﴾ [ الأنفال : 12 ] تفصح عن مقدر قبلها شرطاً أو غيره والأكثر أن يكون شرطاً فتكون رابطة لجوابه ، والتقدير هنا إذا علمتم أن الله أوحى إلى الملائكة بضرب أعناق المشركين وقطع أيديهم فلم تقتلوهم أتم ولكن الله قتلهم أي فقد تبين أنكم لم تقتلوهم أتم ، وإلى هذا يشير كلام صاحب "الكشاف" هنا وتبعه صاحب "المفتاح" في آخرباب النهي .  
ويجوز أن تكون الفاء عاطفة على جملة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذي كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾ [ الأنفال : 15 ] أي يتفرع على النهي عن أن تولوا المشركين الأدبار

تنبيهكم إلى أن الله هو الذي دفع المشركين عنكم وأتم أقل منهم عددا وعدة ، والتفريع

بالفاء تفريع العلة على المعلول ، فإن كون قتل المشركين ورميهم حاصلاً من الله لأمن

المسلمين يفيد تعليلاً وتوجيهاً لنهيمهم عن أن يولوهم الأدبار .

ولأمرهم الصبر والثبات وهو تعريض بضمان تأييد الله إياهم إن امتثلوا لقوله : ﴿ واصبروا

إن الله مع الصابرين ﴾ [ الأنفال : 46 ] فإنهم إذا امتثلوا ما أمرهم الله كان الله ناصرهم ،

وذلك يؤكد الوعيد على تولية الأدبار ، لأنه يقطع عذر المتولين والفارين ، ولذلك قال الله

تعالى في وقعة أحد : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزهم الشيطان

ببعض ما كسبوا ﴾ [ آل عمران : 155 ] .

(178/308)

---

وإذ قد تضمنت الجملة إخباراً عن حالة أفعال فعلها المخاطبون ، كان المقصود اعلامهم

بنفي ما يظنونه من أن حصول قتل المشركين يوم بدر كان بأسباب ضرب سيوف المسلمين ،

فأنباهم أن تلك السيوف ما كان يحق لها أن تؤثر ذلك التأثير المصيب المطرد العام الذي حل

بإبطال ذوي شجاعة ، وذوي شوكة وشكّة ، وإنما كان ضرب سيوف المسلمين صورياً ،

أكرم الله المسلمين بمقارنته فعل الله تعالى الخارق للعادة ، فالمنفي هو الضرب الكائن سبباً



القتل في العادة ، وبذلك كان القتل الحاصل يومئذٍ معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم  
وكرامة لأصحابه ، وليس المنفي تأثير الضرب في نفس الأمر بناء على القضاء والقدر ، لأنه  
لو كان ذلك لم يكن للقتل الحاصل يوم بدر مزية على أي قتل يقع بالحق أو بالباطل ، في جاهلية  
أو إسلام ، وذلك سياق الآية الذي هو تكريم المسلمين وتعليل نهيمهم عن الفرار إذا لقوا .  
وليس السياق لتعليم العقيدة الحق .

وأصل الخبر المنفي أن يدل على انتفاء صدور المسند عن المسند إليه ، لأن يدل على  
انتفاء وقوع المسند أصلاً فلذلك صح النفي في قوله : ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ مع كون القتل  
حاصلاً ، وإنما المنفي كونه صادراً عن أسبابهم .

ووجه الاستدراك المفاد بـ ﴿ لكن ﴾ أن الخبر نفى أن يكون القتل الواقع صادراً عن  
المخاطبين فكان السامع بحيث يتطلب أن القتل حقيقة أم هو دون القتل ، ومن كان فاعلاً  
له ، فاحتيج إلى الاستدراك بقوله : ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ .

وقدم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله : ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ دون أن يقال ولكن  
قتلهم الله ، مجرد الاهتمام لا الاختصاص ، لأن نفي اعتقاد المخاطبين أنهم القاتلون قد  
حصل من جملة النفي ، فصار المخاطبون متطلبين لمعرفة فاعل قتل المشركين فكان مهماً  
عندهم تعجيل العلم به .

---

استطرد بذكر تأييد إلهي آخر لم يُجر له ذكر في الكلام السابق ، وهو إشارة إلى ما ذكره  
المفسرون وابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن حرّض المؤمنين على  
القتال يوم بدر أتاه جبريل فقال خذ قبضة من تراب فارمهم بها فأخذ حفنة من الحصاء  
فاستقبل بها المشركين ثم قال : "شاهت الوجوه" ثم نفحهم بها ثم أمر أصحابه فقال :  
شدوا فكانت الهزيمة على المشركين ، وقال غيره لم يبق مشرك إلا أصابه شيء من الحصا  
في عينيه فشغل بعينه فانهزموا ، فلكون الرمي قصة مشهورة بينهم حذف مفعول الرمي في  
المواضع الثلاثة ، وهذا أصح الروايات ، والمراد بالرمي رمي الحصباء في وجوه المشركين يوم  
بدر ، وفيه روايات أخرى لا تناسب مهيع السورة ، فالخطاب في قوله : ﴿ رميت ﴾  
للنبي صلى الله عليه وسلم  
والرمي حقيقته إلقاء شيء أمسكته اليد ، ويطلق الرمي على الإصابة بسوء من فعل أو  
قول كما في قول النابغة  
:

رمى الله في تلك الأكف الكوانع

أي أصابها بما يُشلهما وقول جميل : رمى الله في عيني بثينة بالقذى . . .

وفي الغر من أنيابها بالقوازع

وقوله تعالى: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ [النور: 6] فيجوز أن يكون ﴿رميت﴾  
الأول وقوله: ﴿ولكن الله رمى﴾ مستعملين في معناهما المجازي أي وما أصبت أعينهم  
بالقذى ولكن الله أصابها به لأنها إصابة خارقة للعادة فهي معجزة للنبي صلى الله عليه  
وسلم وكرامة لأهل بدر فنفيت عن الرمي المعتاد وأسندت إلى الله لأنها بتقدير خفي من  
الله، ويكون قوله: ﴿إذ رميت﴾ مستعملاً في معناه الحقيقي، وفي "القرطبي" عن ثعلب  
أن المعنى وما رميت الفزع والرعب في قلوبهم إذ رميت بالحصباء فانهمزوا، وفيه عن أبي  
عبيدة أن (رميت) الأول والثاني، و(رمى) مستعملة في معانيها الحقيقية، وهو ما درج  
عليه جمهور المفسرين وجعلوا المنفي هو الرمي الحقيقي والمثبت في قوله: ﴿إذ رميت﴾  
هو الرمي المجازي وجعله السكاكي من الحقيقة والمجاز العقلين فجعل ما رميت نفيًا للرمي  
الحقيقي وجعل (إذ رميت) للرمي المجازي.

وقوله: ﴿إذ رميت﴾ زيادة تقييد للرمي وأنه الرمي المعروف المشهور، وإنما احتج إليه  
في هذا الخبر ولم يؤت بمثله في قوله: ﴿فلم تقتلوهم﴾ لأن القتل لما كانت له أسباب كثيرة  
كان اختصاص سيوف المسلمين بتأثيره غير مشاهد، وكان من المعلوم أن الموت قد يحصل

من غير فعل فاعل غير الله ، لم يكن نفي ذلك التأثير ، وإسناد حصوله إلى مجرد فعل الله محتاجاً إلى التأكيد بخلاف كون رمي الحصى الحاصل بيد الرسول صلى الله عليه وسلم حاصلًا منه ، فإن ذلك أمر مشاهد لا يقبل الاحتمال ، فاحتيج في نفيه إلى التأكيد إبطالاً لاحتمال المجاز في النفي بأن يُحمل على نفي رمي كامل ، فإن العرب قد ينفون الفعل ومرادهم نفي كماله حتى قد يجمعون بين الشيء وإثباته أو نفي ضده بهذا الاعتبار ، كقول عباس بن مرداس

:

فلم أعط شيئاً ولم أُمْنَع

(181/308)

---

أي شيئاً مجدياً ، فدل قوله : ﴿ إذ رميت ﴾ على أن المراد بالنفي في قوله : ﴿ وما رميت ﴾ هو الرمي بمعنى أثره وحصول المقصود منه ، وليس المراد نفي وقوع الرمي مثل المراد في قوله : ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ لأن الرمي واقع من يد النبي صلى الله عليه وسلم ولكن المراد نفي تأثيره ، فإن المقصود من ذلك الرمي إصابة عيون أهل جيش المشركين وما كان ذلك بالذي يحصل برمي اليد ، لأن أثر رمي البشر لا يبلغ أثره مبلغ تلك الرمية ، فلما ظهر من

أثرها ما عم الجيش كلهم ، علم انتفاء أن تكون تلك الرمية مدفوعة بيد مخلوق ، ولكنها مدفوعة بقدرة الخالق الخارجة عن الحد المتعارف ، وأن المراد بإثبات الرمي في قوله : ﴿ ولكن الله رمى ﴾ كالقول في ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ .  
وقرأ نافع والجمهور ﴿ ولكن ﴾ بتشديد النون في الموضعين وقرأه ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي بسكون النون فيهما .  
عطف على محذوف يؤذن به قوله : ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ الآية وقوله ﴿ وما رميت ﴾ الآية .

فإن قتلهم المشركين وإصابة أعينهم كانا الغرض هزم المشركين فهو العلة الأصلية ، وله علة أخرى وهي أن يبلي الله المؤمنين ببلاء حسنأ أي يعطيهم عطاءً حسنأ يشكرونه عليه ، فيظهر ما يدل عن قيامهم بشكره مما تختبر به طويتهم لمن لا يعرفها ، وهذا العطاء هو النصر والغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة .

(182/308)

---

واعلم أن أصل مادة هذا الفعل هي البلاء وجاء منه الإبلاء بالهمز وتصريف هذا الفعل أغفله الراغب في "المفردات" ومن رأيت من المفسرين ، وهو مضارع أبلاه إذا أحسن إليه

مشتق من البلاء والبلوى الذي أصله الاختيار ثم أطلق على إصابة أحد أحدًا بشيء يظهر به مقدار تأثيره، والغالب أن الإصابة بشرّ، ثم توسع فيه فأطلق على ما يشمل الإصابة بخير قال تعالى: ﴿وَنبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَنَنَّ﴾ [الأنبياء: 35] وهو إطلاق كنائي وشاع ذلك الإطلاق الكنائي حتى صار بمنزلة المعنى الصريح، وبقي الفعل المجرد صالحاً للإصابة بالشر والخير، واستعملوا أبلاه مهموز أي أصابه بخير قال ابن قتيبة: "يقال من الخير أبليتة إبلاء ومن الشر بلوته أبلوه بلاء".

قلت: جعلوا الهمزة فيه دالة على الإزالة أي إزالة البلاء الذي غلب في إصابة الشر ولهذا قال تعالى: ﴿بلاء حسناً﴾ وهو مفعول مطلق لفعل يُبلي موكد له، لأن فعل يبلي دال على بلاء حسن وضمير منه عائد إلى اسم الجلالة و(من) الابتداء المجازي لتشريف ذلك الإبلاء ويجوز عود الضمير إلى المذكور من القتل والرمي ويكون (من) للتعليل والسببية.

وقوله: ﴿إن الله سميع عليم﴾ تذييل للكلام و(إن) هذا مقيدة للتعليل والربط أي فعل ذلك لأنه سميع عليم، فقد سمع دعاء المؤمنين واستغاثتهم وعلم أنهم لعنايته ونصره فقبل دعاءهم ونصرهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير ح 9 ص﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

قول الحق تبارك تعالی :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ [ الأنفال : 17 ] .

مثل قوله تعالی فی آیه أخرى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [ آل عمران : 126 ] .

وفي هذا ترتيب من الحق تبارك وتعالی للمؤمنين ، فكما أن النصر من عند الله عز وجل لمن أخذ بالأسباب ، كذلك قتل الكافرين كان بإرادته سبحانه لمن كفر ووقع هذا القتل بيد المؤمن ، فالمؤمن يضرب بالسيف ، وينجح العدو وينزف ، لكن ألم تر جريحا لم يموت ، وألم تر غير مجروح يموت ؟ . إذن فالقتل هو من الله .

سبحان ربي إن أراد فلا مرد له يفوت . . . كم من جريح لا يموت وغير مجروح يموت إذن فالمؤمنون حين حاربوا أهل الكفر . إنما يجرحونهم فقط ، أما الموت فهو واقع بهم من الله سبحانه وتعالی .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ [ الأنفال : 17 ] .

ولفائل أن يقول : إن الحق تبارك وتعالی قال في موقع آخر : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [ التوبة : 14 ] .

إذن فـالمؤمن المقاتل مظهرية القتال ، ولحق حقيقة القتل . ولذلك يأتي سبحانه وتعالی

بعد ذلك بقوله :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: 17] .

وفي هذا القول الكريم عطاء لشيء كان مجهولاً لهم بشيء علم لهم ، وبذلك قاس غير معلوم بمعلوم . وعرفنا من قبل أنك إذا رأيت حدثاً أو فعلاً منفيًا ومثبتاً له في وقت واحد ، قد يبدو لك أن في الكلام تناقضاً . وهنا - على سبيل المثال - ينفي الحق الحدث في قوله : " وما رميت " وثبته في قوله : " إذرمت " . والرمي معروف . والفاعل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف ينفي عنه الفعل أولاً ، ويثبته له ثانياً ؟ .

(184/308)

---

ونعلم أن القائل هورب حكيم ، وأسلوبه على أعلى ما يكون . وحتى نفهم هذه المسألة ، نحن نعرف أن كل حدث له هيئة يقع عليها وله غاية ينتهي إليها ، فمرة يوجد الحدث ، لكن الغاية منه لا تتحقق ، مثلما يقول الوالد لولده : لقد قرب الامتحان فاجلس في حجرتك وذاكر . ويجلس الولد في حجرته وأمامه كتاب ما يقلب صفحاته ، وبعد ساعة يدخل الأب حجرته ابنه ليقول : هات كتابك لأسألك فيما ذاكرته . ويسأل الأب ابنه سؤالاً ثم ثانياً فلا يعرف الابن الإجابة عن الأسئلة ، فيقول الأب : ذاكرت وما ذاكرت . أي كأنه لم



يذاكر ، بل فعل الفعل شكلياً ، بأن جلس إلى المذاكرة ، ولم يؤد ما عليه لأن أثر الفعل وهو المذاكرة لم يتحقق .

وفي غزوة بدر استجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه واستغاث ودعا الله ورفع يديه فقال :

" ( يا رب إن تهلك هذه العصاة فلن تعبد في الأرض أبداً ، فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم ) فأخذ صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين "

ومعلوم أنه ساعة تأتي ذرة تراب في عيني الإنسان يشغل بعينه عن كل شيء . إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [ الأنفال : 17 ] .

أي أنك يا رسول الله ما أرسلت بالرمية الواحدة - حفنة التراب - إلى عيون كل الأعداء ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها أحد ، ولكنك " إذ رميت " أي أدت نصيحة جبريل لك ، أما الإيصال إلى عيون العدو فهذا من فعل الله القوي القادر .

ويتابع سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَيُبْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنفال : 17 ] .

والبلاء الحسن هنا هو خوض المعركة وحسن أداء القتال فيها .

(185/308)

---

ويخطيء الإنسان حين يظن أن البلاء هو نزول المصائب ، لا ، إن البلاء هو الاختبار بأية صورة من الصور . فالطالب الذي استذكر دروسه يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً حسنًا ، ومن لم يستذكر يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً سيئًا . إذن فالابتلاء غير مذموم على إطلاقه ، ولا ممدوح على إطلاقه ، لكن نتيجة الإنسان فيه هل ينجح أم لا . وحتى نعرف أن القرآن يفسر بعضه بعضا فلنقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [ الأنبياء : 35 ] .

فالخير بلاء ، كما أن الشر بلاء ، وحين تستخدم الخير في خدمة منح الله تعالى ولا تطفئ به ، وحين تصبر على الشر ولا تتمرد على قدر الله ، فهذا كله اختبار من الله عز وجل ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ [ الفجر : 15 ] .

وهذا هو الابتلاء بالخير ، أما الابتلاء بالشر فيقول عنه الحق سبحانه : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا

ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿۱۶﴾ [الفجر: 16] .

والابتلاء بالخير أو بالشر هو مجرد اختبار ، والاختبار كما وضحنا غير مذموم على إطلاقه ، ولا ممدوح على إطلاقه ، ولكنه يذم ويمدح بالنسبة لغاياته التي وصل إليها المبتلي أو من يمر بالاختبار ، فإن نجح ، فهذا ابتلاء حسن ، وإن فشل ، فهو ابتلاء سيئ .

(186/308)

---

ونلاحظ - على سبيل المثال - أن الطالب الذي ركز فكره ووقته وحبس نفسه وبذل كل طاقته في التحصيل والاستذكار طوال العام الدراسي ، هذا الطالب حين يدخل الامتحان فهو يحاول أن يتأثر من التعب الذي عاناه في التحصيل والإحاطة ؛ لذلك يجيب على الأسئلة بدقة ، وكلما انتهى من إجابة سؤال إجابة صحيحة ، يشعر ببعض الراحة ، وإن حاول زميل له أن يشوش عليه فهو يصدده ولا يلتفت إليه ، بل قد يستدعي له المراقب .  
والمؤمن الذي يشترك مع المؤمنين في البلاء الحسن فهو التلميذ الذي يؤدي ما عليه بإخلاص .

والذي يسمع همسة كل مؤمن ويرى فعله هو الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك جاء بعد الحديث عن البلاء الحسن بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنفال : 17 ] .

إذن فالله سبحانه وتعالى سميع بما تجهرون به وعليم بما تخفونه في صدوركم . وهو جل وعلا يعلم من حارب بقوة الإيمان ، ومن خالطه الرغبة في أن يرى الآخرون مهارته في القتال ليشيدوا ويتحدثوا بهذه المهارة . ولا أحد بقادر على أن يدلس على الله عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(187/308)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (17) ﴿

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ قال : لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين قال هذا قتلت وهذا قتلت ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم حين حصب الكفار .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وما رميت  
إذ رميت ﴾ قال : رماهم يوم بدر بالحصباء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة  
رضي الله عنه قال : ما وقع شيء من الحصباء إلا في عين رجل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله  
رمى ﴾ قال : هذا يوم بدر ، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث حصيات فرمى  
بحصاة بين أظهرهم ، فقال : شأهت الوجوه فانهزموا .

وأخرج ابن عساکر عن محكول رضي الله عنه قال : لما كَرَّ علي وحمزة على شيبه بن ربيعة  
، غضب المشركون وقالوا : اثنان بواحد ؟ ! فاشتغل القتال ، فقال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم " اللهم إنك أمرتني بالقتال ووعدتني النصر ولا خلف لوعدك ، وأخذ قبضة من  
حصي فرمى بها في وجوههم فانهزموا بإذن الله تعالى ، فذلك قوله ﴿ وما رميت إذ رميت  
ولكن الله رمى ﴾ " .

(188/308)

---

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال " لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ، ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الحصباء وقال : شأهت الوجوه .  
فانهزمننا ، فذلك قول الله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ الآية " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال : " سمعت صوت حصيات وقعت من السماء يوم بدر كأنهن وقعن في طست ، فلما اصطف الناس أخذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى بهن في وجوه المشركين فانهزموا ، فذلك قوله ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه " ناولني قبضة من حصباء . فناوله فرمى بها في وجوه القوم ، فما بقي أحد من القوم إلا امتألت عيناه من الحصباء ، فنزلت هذه الآية ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي رضي الله عنهما قالا : لما دنا القوم بعضهم من بعض ، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال : شأهت الوجوه .

فدخلت في أعينهم كلهم ، وأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ إلى قوله ﴿ سميع عليم ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال :  
لما كان يوم أحد أخذ أبي بن خلف يركض فرسه حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ، واعترض رجال من المسلمين لأبي بن خلف ليقتلوه ، فقال لهم رسول الله صلى الله  
عليه وسلم " استأخروا فاستأخروا ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حربته في  
يده ، فرمى بها أبي بن خلف وكسر ضلعاً من أضلعه ، فرجع أبي بن خلف إلى أصحابه  
ثقيلاً فاحتملوه حين ولوا قافلين ، فطفقوا يقولون : لا بأس ، فقال أبي حين قالوا له ذلك :  
والله لو كانت بالناس لقتلتهم ، ألم يقل إني أقتلك إن شاء الله ؟ فانطلق به أصحابه ينعشونه  
حتى مات ببعض الطريق فدفنوه ، قال ابن المسيب رضي الله عنه : وفي ذلك أنزل الله  
تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب والزهري رضي الله  
عنهما قالا : أنزلت في رمية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أبي بن خلف بالحربة  
وهو في لامته ، فخذشه في ترقوته فجعل يتدأداً عن فرسه مراراً حتى كانت وفاته بها بعد  
أيام ، قاسى فيها العذاب الأليم موصولاً بعذاب البرزخ المتصل بعذاب الآخرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الزهري رضي الله عنه في قوله ﴿ وما رميت إذ رميت  
ولكن الله رمى ﴾ قال : حيث رمى أبي بن خلف يوم أحد مجرته فقبل له : إن يك  
الأحش . قال : أليس قال : أنا أقتلك ؟ والله لو قالها لجميع الخلق لما توا .  
وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير رضي الله عنه " أن رسول الله -  
يوم ابن أبي الحقيق - دعا بقوس : فأتى بقوس طويلة فقال : جيئوني بقوس غيرها . فجاءوه  
بقوس كيداء ، فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحصن ، فأقبل السهم يهوي حتى قتل  
ابن أبي الحقيق في فراشه ، فأنزل الله ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ " .

(190/308)

---

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير رضي الله عنه في قوله ﴿ ولكن الله  
رمى ﴾ أي لم يكن ذلك برميتك لولا الذي جعل الله تعالى من نصرك وما ألقى في صدور  
عدوك منها حتى هزمتهم ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ أي يعرف المؤمنين من  
نعمته عليهم في إظهارهم عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقه  
ويشكروا بذلك نعمته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(191/308)



"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾

في هذه "الفاء" وجهان:

أحدهما - وبه قال الزمخشري - : أَنَّهَا جَوَابُ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ ، أَي : إِنْ اقْتَحَرْتُمْ بِقَتْلِهِمْ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ .

قال أبو حيان : " وليست جواباً ، بل لِرُطِّ الْكَلَامِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ " .

قوله ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

قرأ الأخوان ، وابن عامر : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ بتخفيف " لكن " ورفع الجلالة ، والباقون بالتشديد ونصب الجلالة ، وقد تقدّم توجيه القراءتين في قوله : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ ﴾ [البقرة : 102] وجاءت " لكن " هنا أحسن مجيء لوقوعها بين نفي وإثبات .

قوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ نفى عنه الرمي ، وأثبت له ، وذلك باعتبارين ، أي : ما رَمَيْتَ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِذَا رَمَيْتَ فِي ظَاهِرِ الْحَالِ ، أَوْ مَا رَمَيْتَ الرَّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ إِذْ رَمَيْتَ الْحَصِيَّاتِ وَالتَّرَابِ .

وقوله: " وما رميتَ " هذه الجملة عطفٌ على قوله: " فلم تقتلوهم "؛ لأنَّ المضارع المنفي بـ "لم" في قوة الماضي المنفي بـ "ما" فإنك إذا قلت: "لم يقتل" كان معناه: ما قام ولم يقل هنا: فلم تقتلوهم إذ قتلوهم، ما قال: "إذ رميتَ" مبالغةً في الجملة الثانية.

قوله: ﴿ وَيُبْلِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

متعلقٌ بمحذوفٍ، أي: وليبلي فعل ذلك، أو يكون معطوفاً على علةٍ محذوفة، أي: ولكن الله رمى ليمحق الكفار، وليبلي المؤمنين، والبلاء في الخير والشر، قال زهير: [الوافر]

..... - 2689

وإِبلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يُبْلُو

والهَاءُ فِي " مِنْهُ " تَعُودُ عَلَى الظُّفْرِ بِالْمُشْرِكِينَ .

وقيل: على الرمي قاهلها مكياً، والظاهر أنها تعود على اله تعالى.

وقوله: "بلاءً" يجوز أن يكون اسم مصدر، أي: إبلاء، ويجوز أن يكون أريد بالبلاء نفس

الشيء المبلوبه، والمراد من هذا البلاء الإنعام أي: ولينعم على المؤمنين نعمة عظيمة

بالنصر والغنيمة والأجر.

(192/308)

قال القاضي: ولولا أن المفسرين انفقوا على حمل البلاء هنا على النعمة، والألکان يحتمل  
المحنة بالتكليف فيما بعده من الجهاد ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لدعائكم  
عَلِيمٌ "بنياتكم".

أهـ ﴿تفسير ابن عادل ح 9 ص 479. 483﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ .

الذي نفى عنهم من القتل، هو إماتة الروح وإثبات الموت، وهو من خصائص قدرته -  
سبحانه، والذي يُوصفُ به الخلق من القتل هو ما يفعلونه في أنفسهم، ويحصل ذهاب الروح  
عقبه .

وفائدة الآية قطع دعاواهم في قول كل واحد على جهة التفاخر قتل فلانا، فقال: ﴿فَلَمْ  
تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي لم تكن أفعالكم مما انفردتم بإيجادها بل المنشئ والمبدئ هو الله عز وجل .  
وصانهم بهذه الآية وصان نبيّه - عليه السلام - عن ملاحظة أفعالهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ .

أي ما رميت بنفسك ولكنك رميت بنا، فكان منه (صلوات الله عليه) قبضُ التراب  
وإرساله من يده ولكن من حيث الكسب، وكسبه مُوجدٌ من الله بقدرته، وكان التبليغ

والإصابة من قبل الله خلقاً وإبداعاً ، وليس الذي أثبت ما نفي ولا نفي ما أثبت إلا هو ،  
والفعلُ فعلٌ واحدٌ ولكن التغير في جهة الفعل لا في عينه .

فقوله : ﴿ إِذِ رَمَيْتَ ﴾ فَرَقٌ ، وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ جمع . والفرق صفة  
العبودية ، والجمع نعت الربوبية ، وكلُّ فرقٍ لم يكن مُضمَّناً بجمعٍ وكلُّ جمعٍ لم يكن - في صفة  
العبد - مُؤيِّداً بفرقٍ فصاحبه غير سديد الوتيرة .

وإن الحقَّ - سبحانه - يَكِلُ الأغيار إلى ظنونهم ، فيتيهون في أودية الحساب ويتوهمون أنهم  
منفردون بإجراء ما منهم ، وذلك منه مكرُّ بهم .

(193/308)

---

قال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : 104] وأما أرباب  
التوحيد فيشهدهم مطالع التقدير ، ويعرفهم جريان الحكم ، ويريهم أنفسهم في أسرِ  
التصريف ، وقهر الحكم . وأما الخواص من الأولياء وأصحاب العرفان فيجري عليهم ما  
يُجرى و ( ما ) لهم إحساس بذلك ، مأخوذون يشبههم بشواهد النظر والتقدير ، ويتولى  
حفظهم عن مخالفة الشرع .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ .

البلاء الاختبار ، فيختبرهم مرة بالنعم ليظهر شكرهم أو كفرانهم ، ويختبرهم أخرى بالحن ليظهر صبرهم ، أو ذكركم أو نسيانهم .

"البلاء الحسن" : توفيق الشكر في المنحة ، وتحقيق الصبر في المحبة ، وكل ما يفعله الحق فهو حسنٌ من الحق لأن له أن يفعله . وهذه حقيقة الحسن : وهو ما للفاعل أن يفعله .

ويقال حسنُ البلاء لأنه منه و ( . . . ) البلاء لأنه فيه .

ويقال البلاء الحسن أن تشهد الملبى في عين البلاء .

ويقال البلاء الحسن ما لا دعوى لصاحبه إن كان نعمة ، ولا شكوى إن كان محنة .

ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر إن كان عسراً ، ولا بطر إن كان يسراً .

ويقال بلاء كل أحد على حسب حاله ومقامه ؛ فأصفاهم ولاءً ، قال عليه السلام : "

أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل " .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

تنفيس لقوم وتهديد لقوم ؛ أصحاب الرِّفق يقول لهم إن الله "سميعٌ" لأنينكم ؛ فيروح عليهم

بهذا ، وقتهم ، ويحمل عنهم ولاءهم ، وأنشدوا :

إذا ما تمنى الناس رَوْحاً وراحةً . . . تمنيتُ أن أشكو إليك فتسمعا

وقالوا :

قل لي بالسنة النفس . . . كيف أنت وكيف حالك ؟

(194/308)

---

وأما الأكابر فلا يُؤذَنُ لهم في التَّنَفُّسِ ، وتكون المطالبة متوجهة عليهم بالصبر ، والوقوف تحت جريان التقدير من غير إظهار ولا شكوى ، فيقول : لو ترشح منك ما كلفت بشر به توجَّهتُ عليك الملامة ، فإن لم يكن منك بيان فإني لقاتلك ، عليمٌ بمجالتك .

ويقال في قوله " عليم " تسلية لأرباب البلاء ؛ لأن من علم أن مقصوده يعلم حاله سهل عليه ما يقاسيه فيه ، قال - سبحانه - لنبِيِّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: 97] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 612.609 ﴾

(195/308)

---

قوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ (18) ﴿

"فصل"

قال البقاعي :

الأمر ﴿ ذلكم ﴾ العظيم الشأن البعيد المتناول الذي أمركم فيه بأوامره ونهاكم به عن  
مناهيه وأبلاكم فيه البلاء الحسن ، وأراكم بأعينكم توهينه لهذه الطائفة التي قصدتكم  
وأتم عندها أكلة جزور وعصفور بين يدي صقور ، وبين لكم من علل ذلك وعجائب  
مقدوره ما لم يبق معه عذر لمؤمن ، فالزموا طاعته وسابقوا في طاعة رسوله ولا تنظروا في  
عاقبة شيء مما يأمر به ، فإنه ما ينطق عن الهوى بل إنما يأمر عنا ، ونحن لم نأمر بشيء إلا  
بعد تديره على أحكم الوجوه وأتقنها ﴿ وأن ﴾ أي والأمر أيضاً أن ﴿ الله ﴾ أي الحاوي  
لجميع صفات العز والعظمة ﴿ موهن ﴾ أي مضعف إضعافاً شديداً ثابتاً دائماً أبداً  
﴿ كيد الكافرين ﴾ أي الراسخين في الكفر جميعهم ، فلا تهنوا في ابتغاء القوم وإن نالكم  
قرح فإننا نجعله لكم تطهيراً وللكافرين تدميراً والعاقبة للتقوى ، فنظلمكم على عوراتهم  
ونلقي الرعب في قلوبهم ونفرق كلمتهم وننقض ما أبرموا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر  
ح 3 ص 198 ﴾

(196/308)

فصل

قال الفخر :

﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ (18)

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ مُوهِنٌ ﴾ بتشديد الهاء من التوهين ﴿ كَيْدٌ ﴾ بالنصب ،

وقرأ حفص عن عاصم ﴿ مُوهِنٌ كَيْدٌ ﴾ بالإضافة ، والباقون ﴿ مُوهِنٌ ﴾ بالتخفيف

﴿ كَيْدٌ ﴾ بالنصب ، ومثله قوله : ﴿ كاشفاتُ ضُرِّه ﴾ [ الزمر : 38 ] بالتنوين

وبالإضافة .

المسألة الثانية :

الكلام في ذلك ومحله من الإعراب كما في قوله : ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ [ الأنفال : 14 ] .

المسألة الثالثة :

توهين الله تعالى كيدهم .

يكون بأشياء ياطلاع المؤمنون على عوراتهم ، وإلقاء الرعب في قلوبهم ، وتفريق كلمتهم ،

ونقض ما أبرموا بسبب اختلاف عزائمهم .

قال ابن عباس ينبيء رسول الله ويقول : إني قد أوهنت كيد عدومك حتى قتلت خيارهم

وأسرت أشرافهم . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ مفاتيح الغيب - 15 ص 114 ﴾



وقال السمرقندي :

﴿ ذلكم ﴾ ، أي الهلاك والهزيمة للكفار ، ويقال معناه الأمر من ربكم .

ثم ابتداءً فقال : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ ، يعني مضعف كيد الكافرين ، يعني صنيع الكافرين ببدر .

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ بنصب الواو والتشديد منونة ﴿ بنصب الدال ، وقرأ عاصم في رواية حفص ﴿ مُوهِنٌ كَيْدِ ﴾ بضم النون بغير تنوين ﴿ كَيْدِ ﴾ بكسر الدال على معنى الإضافة ، وقرأ الباقون ﴿ مُوهِنٌ كَيْدِ ﴾ بالتنوين والتخفيف ﴿ كَيْدِ ﴾ بالنصب والموهنُ والموهنُ واحد ؛ ويقال : وهنت الشيء وأوهنته ، إذا جعلته واهناً ضعيفاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم - 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ ذلكم ﴾ يعني : ذكرت من القتل والرمي والأجل الحسن ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ أي : واعلموا أن الله ، وفي فتح ﴿ أَنَّ ﴾ من الوجوه ما في قوله تعالى ﴿ ذلكم فذوقوه وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ [ وقد بيناه هناك ] .

﴿ مُوهِنٌ ﴾ مضعف ﴿ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ قرأ الحجازي والشامي والبصري : موهن بالتشديد والتنوين ( كيد ) نصباً وقرأ أكثر أهل الكوفة ( موهن ) بالتخفيف والتنوين ( كيد

( نصباً واختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

وقرأ الحسن وأبورجاء وابن محيصن و [ الأعمش ] وحفص : موهن كيد ، مخففة مضافة

بالجر فمن نون معناه : وهن ، ومن خفف وأضاف قصر الحنفة كقوله ﴿ مُرْسِلُوا النَّاقَةَ ﴾

[ القمر : 27 ] و ﴿ كَاشِفُوا الْعَذَابَ ﴾ [ الدخان : 15 ] ووهن وأوهن لغتان

صحيحتان فصيحتان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(198/308)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ذلكم ﴾

إشارة إلى ما تقدم من قتل الله ورميه إياهم ، وموضع ﴿ ذلكم ﴾ من الإعراب رفع ، قال

سيبويه : التقدير الأمر ذلكم ، وقال بعض النحويين : يجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير

فعل ذلكم ﴿ وأن ﴾ معطوف على ﴿ ذلكم ﴾ ويحتمل أن يكون خبر ابتداء مقدر

تقديره وحتم وسابق وثابت ونحو هذا ، وقرأت فرقة " وإن " بكسر الهمزة على القطع

والاستئاف ، و ﴿ موهن ﴾ معناه مضعف مبطل ، يقال وهن الشيء مثل وعد يعد ،

ويقال وهن مثل ولي يلي ، وقرىء

﴿ فما وهنوا لما أصابهم ﴾ [آل عمران : 146] بكسر الهاء ، وقرأ حمزة والكسائي  
وابن عامر وأبو بكر عن عاصم "موهن كيد" من أوهن ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو "  
موهن كيد" من وهن ، وقرأ حفص عن عاصم "موهن كيد" بكسر الدال والإضافة ،  
وذكر الزجاج أن فيها أربعة أوجه فذكر هذه القراءات الثلاث ، وزاد "موهن كيد"  
بتشديد الهاء والإضافة إلا أنه لم ينص أنها قراءة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2  
ص ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ ذلكم ﴾

قال الزجاج : موضعه رفع ؛ والمعنى : الأمر ذلكم .

وقال غيره : " ذلكم " إشارة إلى القتل والرمي والبلاء الحسن .

﴿ وأن الله ﴾ أي : واعلموا أن الله .

والذي ذكرناه في فتح "أن" في قوله : ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾ هو مذكور في فتح  
"أن" هذه .

قوله تعالى : ﴿ موهن ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمر : "موهن" بفتح الواو وتشديد  
الهاء منونة "كيد" بالنصب .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "موهن" ساكنة الواو "كيد"

بالنصب .

وروى حفص عن عاصم : "موهنٌ كِيدٌ" مضاف .

والموهن : المضعف ، والكيد : المكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(199/308)

وقال القرطبي :

﴿ ذلكم وأنَّ الله مُوهِنٌ كِيدِ الكَافِرِينَ ﴾

قراءة أهل الحرمين وأبي عمرو .

وقراءة أهل الكوفة ﴿ مُوهِنٌ كِيدِ الكَافِرِينَ ﴾ .

وفي التشديد معنى المبالغة .

وروي عن الحسن "مُوهِنٌ كِيدِ الكَافِرِينَ" بالإضافة والتخفيف .

والمعنى : أن الله عز وجل يلقي في قلوبهم الرعب حتى يششتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا .

والكيد : المكر . وقد تقدّم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ذلكم ﴾ يعني الذين ذكرت من أمر القتل والرمي والبلاء الحسن من الظفر

بهم والنصر عليهم فعلنا ذلك الذي فعلنا ﴿ وأن الله ﴾ يعني واعملوا أن الله مع ذلك ﴿  
موهن ﴾ أي مضعف ﴿ كيد الكافرين ﴾ يعني مكرهم وكيدهم . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ تفسير الخازن - 3 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ذلكم وأن الله هو موهن كيد الكافرين ﴾  
قال : ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع ﴿ وأن الله موهن ﴾ معطوف  
على ﴿ وليبلي ﴾ يعني أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين انتهى ، وقال ابن  
عطية ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قتل الله ورميه إياهم وموضع ذلك من الإعراب  
رفع قال سيبويه : التقدير الأمر ﴿ ذلكم ﴾ ، وقال بعض النحويين يجوز أن يكون في موضع  
نصب بتقدير فعل ذلك ﴿ وأن ﴾ معطوف على ﴿ ذلكم ﴾ ويحتمل أن يكون خبر  
مبتدأ مقدر تقديره وحتم وسابق وثابت ونحو هذا انتهى ، وقال الحوفي ﴿ ذلكم ﴾ رفع  
بالابتداء والخبر محذوف والتقدير ذلكم الأمر ويجوز أن يكون ذلكم الخبر والأمر الابتداء  
ويجوز أن يكون في موضع نصب تقديره فعلنا ذلكم والإشارة إلى القتل وإلى إبلاء المؤمنين  
بلاء حسناً وفي فتح ﴿ أن ﴾ وجهان النصب والرفع عطفاً على ﴿ ذلكم ﴾ على  
حسب التقديرين أو على إضمار فعل تقديره واعلموا ﴿ أن الله موهن ﴾ انتهى ، وقرأ  
الحرميان وأبو عمرو ﴿ موهن ﴾ من وهن والتعدية بالتضعيف فيما عينه حرف حلق

غير الهمزة قليل نحو ضعفت ووهنت وبابه أن يعدى بالهمزة نحو أذهلته وأوهنته وألحمته ،  
وقرأ باقي السبعة والحسن وأبورجاء والأعمش وابن محيصن من أوهن وأضافه حفص .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(200/308)

وقال أبو السعود :

﴿ ذلکم ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ بالإضافة معطوف عليه أي المقصد إِبْلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ

وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم ، وقيل : المشار إليه القتل والرمي والمبتدأ الأمر ، أي

القتل فيكون قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ الآية ، من قبيل عطف البيان ، وقرئ موهن

بالتنوين مخففاً ومشدداً ونصب كيد الكافرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح

4 ص ﴾

وقال الأوسى :

﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18) ﴾

معطوف عليه أي المقصد إِبْلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم ، وقيل :

المشار إليه القتل أو الرمي والمبتدأ الأمر أي الأمر ذلكم أي القتل أو الرمي فيكون قوله تعالى  
: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ الخ من قبيل عطف البيان ، وقيل : المشار إليه الجميع بتأويل ما ذكر .  
وجوز جعل اسم الإشارة مبتدأ محذوف الخبر وجعله منصوباً بفعل مقدر .  
وقرأ ابن كثير .

ونافع .

وأبو بكر ﴿ مُوهِنٌ ﴾ بالتشديد ونصب كيد .

وقرأ حفص عن عاصم بالتخفيف والاضافة وقرأ الباقون بالتخفيف والنصب . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(201/308)

وقال القاسمي :

﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ [ 18 ] .

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ، أو القتل ، أو الرمي . ومحلّه الرفع ، أي : المقصود أو  
الأمر ذلكم .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ معطوف عليه ، أي : مضعف بأس الكافرين

وحيلهم بنصركم وخذلانهم، أي: أن المقصود إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين .  
قال ابن كثير: هذا بشارة أخرى، مع ما حصل من النصر، فإنه أعلمهم بأنه مضعف كيد  
الكافرين فيما يستقبل، مصغراً أمرهم، وأنه في تبار ودمار، أي: وقد وجد المخبر على  
وفق الخبر، فصار معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، والله الحمد والمنة. انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ محاسن التأويل ح 8 ص 279 ﴾

(202/308)

وقال ابن عاشور:

﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18) ﴾

الإشارة بـ ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إلى البلاء الحسن وهذه الإشارة مجرد تأكيد المقصود من البلاء  
الحسن وأن ذلك البلاء علة للتوهين .

واسم الإشارة يفتح به الكلام لمقاصد يجمعها التنبيه على أهمية ما يرد بعده كقوله تعالى:

﴿ هذا وإن للطاغين لشر مئاب ﴾ [ص: 55] ويجيء في الكلام الوارد تعليلاً لقوله

تعالى: ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ [الأنفال: 51].

وعليه فاسم الإشارة هنا مبتدأ حذف خبره وعطف عليه جملة: ﴿ وأن الله موهن كيد



الكافرين ﴿﴾ .

وقوله: ﴿﴾ وأن الله ﴿﴾ بفتح همزة (أن) ، فما بعدها في تأويل مصدر ، مجرور بلام التعليل محذوفة ، والتقدير وتوهين كيد الكافرين .

ويجوز أن تكون الإشارة بـ ﴿﴾ ذلكم ﴿﴾ إلى الأمرين ، وهو ما اقتضاه قوله: ﴿﴾ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴿﴾ [ الأنفال : 17 ] من تعليل الرمي بخذل المشركين وهزمهم وإبلاء المؤمنين البلاء الحسن .

وإفراد اسم الإشارة مع كون المشار إليه اثنين على تأويل المشار إليه بالمذكور كما تقدم في نظيره في سورة البقرة .

﴿﴾ كيد الكافرين ﴿﴾ هو قصدهم الإضرار بالمسلمين في صورة ليست ظاهرها بمضرة ، وذلك أن جيش المشركين الذين جاءوا لإنتقاذ العير لما علموا بنجاة عيرهم ، وظنوا خيبة المسلمين الذين خرجوا في طلبها ، أبوا أن يرجعوا إلى مكة ، وأقاموا على بدر لينحروا ويشربوا الخمر ويضربوا الدفوف فرحاً وافتخاراً بنجاة عيرهم ، وليس ذلك مجرد اللهو ، ولكن ليتسامع العرب فيتساءلوا عن سبب ذلك فيخبروا بأنهم غلبوا المسلمين فيصرفهم ذلك عن إتباع الإسلام ، فأراد الله توهينهم بهزمهم تلك الهزيمة الشنعاء فهو موهن كيدهم في الحال وتقدم تفسير ، الكيد عند قوله تعالى: ﴿﴾ وأملني لهم إن كيدي متين ﴿﴾ في سورة [ الأعراف : 183 ] .

(203/308)

---

وقرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ﴿مُوهِنٌ﴾ بفتح الواو وتشديد الهاء  
وبالتنوين ونصب ﴿كَيْدٍ﴾، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم  
، وخلف، ويعقوب، ﴿مُوهِنٌ﴾ بتسكين الواو وتخفيف الهاء ونصب ﴿كَيْدٍ﴾  
والمعنى على القراءتين سواء، وقرأ حفص عن عاصم بإضافة ﴿مُوهِنٌ﴾ إلى ﴿كَيْدٍ﴾  
، والمعنى وهي إضافة لفظية مساوية للتنكير. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير﴾  
ح 9 ص ﴿﴾

(204/308)

---

وقال الشيخ الشعراوي:  
"ذلكم" إشارة إلى أن الأمر كان كذلك، وسبحانه وتعالى هنا يخبرنا أنه موهن كيد  
الكافرين، أي يضعف هذا الكيد، ولسائل أن يقول: لماذا لا ينهاتهم؟ ولماذا يضعف الكفر  
فقط؟ ونقول: إن إضعاف الكفر يهيج على الإيمان ويوجب المؤمنين في الإيمان حين يرون

آثار الكفر التي تفسد في الأرض وهي تضعف ، ولأن الحمية الإيمانية تزيد حين يهاج الإسلام

من خصومه . إذن فبقاء الكفر لون من استبقاء الإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الشعراوى ص ﴿

(205/308)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ذَلِكُمْ "

يجوز فيه الرفع على الابتداء أي : ذلكم الأمر ، والخبر محذوف قاله الحوفي ، والأحسن أن  
يقدر الخبر ذلكم البلاء حق وحثم .

وقيل : هو خبر مبتدأ ، أي : الأمر ذلكم ، وهو تقدير سيبويه .

وقيل : محله نصب يا ضمير فعل أي : فعل ذلكم ، والإشارة بـ " ذَلِكُمْ " إلى القتل والرمي

والإبلاء .

قوله : " وَأَنَّ اللَّهَ " يجوز أن يكون معطوفاً على : " ذَلِكُمْ " فيحكم على محله بما يحكم على

محلك " ذَلِكُمْ " ، وأن يكون في حل نصب بفعل مقدر أي : واعلموا أن الله ، وقد تقدم ما

في ذلك .

وقال الزمخشريُّ: "إنه معطوف على: "وليُبلَى" والمعنى: أن الغرض إبلاء المؤمنين ،  
توهين كيد الكافرين " .

وقرأ ابنُ عامر والكوفيون: "مُوهِن" بسكون الواو وتخفيف الهاءِ ، من "أوهَن" ك: أُكْرِمَ ،  
ونَوَّنَ "موهن" غير حفص ، وقرأ الباقرن: "مُوهِن" بفتح الواو ، وتشديد الهاءِ ،  
والتنوين ، ف "كَيْدٌ" منصوبٌ على المفعول به في قراءة غير حفص ، ومخفوضٌ في قراءة  
حفص ، وأصله النَّصْبُ وقراءة الكوفيين جاءت على الأكثر ؛ لأن ما عينه حرف حلقٍ  
غير الهمزة تعديته بالهمزة ولا يُعدَّى بالتضعيف إلا كمْ محفوظ نحو: وهَنْتُهُ وَضَعْتُهُ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 483 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18) ﴾

موهن كدهم : بتقوية قلوب المؤمنين بنور اليقين ، والثبات على انتظار الفضل من قبل الله ،  
وموهن كيدهم : بأن يأخذ الكافرين من حيث لا يشعرون ، ويظفر جند المسلمين عليهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 612 ﴾

## فصل

قال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَنَسَّ الْمَصِيرُ (16) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18) ﴾

الزحف : الدنو قليلاً قليلاً ، وأصله الاندفاع على الإلية .

ثم سمي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفاً .

والتزاحف : التداني والتقارب .

تقول زحف إلى العدو زحفاً ، وازدحف القوم ، أي مشى بعضهم إلى بعض ، وانتصاب ﴿ زحفاً ﴾ إما على أنه مصدر لفعل محذوف ، أي تزحفون زحفاً ، أو على أنه حال من المؤمنين ، أي حال كونكم زاحفين إلى الكفار ، أو حال من الذين كفروا ، أي حال كون الكفار زاحفين إليكم ، أو حال من الفريقين ، أي متزاحفين .

﴿ فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ نهي الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم ، وقد دبّ

بعضهم إلى بعض للقتال ، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن ، وعلى كل حال ،

الإحالة التحرف والتحيز .

وقد روي عن عمر ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد ، وأبي نضرة ،  
وعكرمة ، ونافع ، والحسن ، وقتادة ، وزيد بن أبي حبيب ، والضحاك : أن تحريم الفرار  
من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر .

وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين ، إذ لم يكن في  
الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا لهم فئة إلا النبي صلى الله عليه وسلم .  
فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض .

(207/308)

---

وبه قال أبو حنيفة ، قالوا : ويؤيده قوله : ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ ﴾ فإنه إشارة إلى يوم  
بدر .

وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف .

وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة ، وأن الفرار من الزحف  
محرم ، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر .

وأجيب عن قول الأولين بأن الإشارة في ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم

الزحف كما يفيد السياق ، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف .

بل هذه الآية مقيدة بها ، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله في آية الضعف ، ولا وجه لما ذكره من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها ، فقد كان في المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج ، لأنه صلى الله عليه وسلم ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء أنه سيكون قتال .

ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما في حديث : " اجتنبوا السبع الموبقات " ، وفيه : " والتولي يوم الزحف " ونحوه من الأحاديث ، وهذا البحث تطول ذبوله وتشعب طرقه ، وهو مبين في مواطنه .

قال ابن عطية : والأدبار جمع دبر ، والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفار والذم له .

قوله : ﴿ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ التحرف : الزوال عن جهة الاستواء .

والمراد به هنا التحرف من جانب إلى جانب في المعركة طلباً لمكائد الحرب ، وخداعاً للعدو ، وكن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو ، فيكرّ عليه ويتمكن منه ، ونحو ذلك من مكائد الحرب ، فإن الحرب خدعة .

قوله : ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ أي : إلى جماعة من المسلمين ، غير الجماعة المقابلة

للعدو .

وانتصاب ﴿ متحرِّفاً ﴾ و ﴿ متحيزاً ﴾ على الاستثناء من المولين ، أي ومن يولهم دبره  
إلا رجلاً منهم متحرِّفاً أو متحيزاً .

(208/308)

---

ويجوز انتصابهما على الحال ، ويكون حرف الاستثناء لغواً لا عمل له .

وجملة ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضِبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ جزاء للشرط .

والمعنى : من ينهزم ويفرّ من الزحف ، فقد رجع بغضب كائن من الله إلا المتحرِّف  
والمتحيز .

﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ أي : المكان الذي يأوي إليه هو النار .

ففراره أو وقعه إلى ما هو أشدّ بلاء مما فرّ منه وأعظم عقوبة .

والمأوى : ما يأوي إليه الإنسان ﴿ وَبُسِّ الْمَصِيرِ ﴾ ما صار إليه من عذاب النار .

وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفرّ عن الزحف ، وفي ذلك دلالة

على أنه من الكبائر الموقفة .

قوله :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ الفاء جواب شرط مقدر ، أي إذا عرفتم ما قصه الله



عليكم من إمداده لكم بالملائكة ، وإيقاع الرعب في قلوبهم ، فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر .

قوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ اختلف المفسرون في هذا الرمي على أقوال : فروي عن مالك أن المراد به : ما كان منه صلى الله عليه وسلم في يوم حنين ، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادي ، فأصابت كل واحد منهم .  
وقيل المراد به : الرمية التي رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بن خلف بالحربة في عنقه ، فانهزم ومات منها .

وقيل المراد به : السهم الذي رمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حصن خيبر ، فسار في الهوى حتى أصاب ابن أبي الحقيق ، وهو على فراشه .  
وهذه الأقوال ضعيفة ، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر .  
وأيضاً المشهور في كتب السير والحديث في قتل ابن أبي الحقيق : أنه وقع على صورة غير هذه الصورة .

والصحيح كما قال ابن إسحاق وغيره ، أن المراد بالرمي المذكور في هذه الآية هو : ما كان منه صلى الله عليه وسلم في يوم بدر ، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين ، فأصابت كل واحد منهم ودخلت في عينيه ومنخره وأنفه .

---

قال ثعلب: المعنى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ الفزع والرعب في قلوبهم ﴿ إِذِ رَمَيْتَ ﴾ بالحصباء فانهمزوا ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ أي: أعانك وأظفرك، والعرب تقول: رمى الله لك، أي أعانك وأظفرك وصنع لك.

وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز.

وقال محمد بن يزيد المبرد: المعنى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ بقوتك ﴿ إِذِ رَمَيْتَ ﴾ ولكنك بقوة الله رميت.

وقيل المعنى: إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه، لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل، فكان الله فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أصلاً، هكذا في الكشاف.

قوله: ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ البلاء ها هنا: النعمة.

والمعنى: ولينعم على المؤمنين إنعاماً جميلاً.

واللام متعلقة بمحذوف، أي وللإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لا لغيره، أو الواو

عاطفة لما بعدها على علة مقدره قبلها ، أي ولكن الله رمى ، ليمحق الكافرين ، وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً .

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لدعائهم ، عليهم بأحوالهم .

والإشارة بقوله ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى البلاء الحسن ، وهو في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ

محذوف ، أي الغرض ﴿ ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : إن الغرض منه

سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة ، إيلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين .

وقيل المشار إليه القتل والرمي .

وقد قرىء بتشديد الهاء وتخفيفها مع التنوين ، وقرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة ،

والكيد : المكر .

وقد تقدم بيانه .

(210/308)

---

وقد أخرج البخاري في تاريخه ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن نافع ، أنه

سأل ابن عمر قال : إنا قوم لا تثبت عند قتال عدونا ، ولا ندري من الفئة أماننا أو

عسكرنا ؟ فقال لي : الفئة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إن الله يقول : ﴿ إِذَا

لَقَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٠﴾ قال: إنما نزلت هذه الآية في أهل بدر، لا قبلها ولا بعدها.

وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، في قوله: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرُهُ﴾ الآية قال: إنها كانت لأهل بدر خاصة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عمر بن الخطاب قال: لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في الآية قال: نزلت في أهل بدر خاصة ما كان لهم أن ينهزموا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتركوه.

وقد روي اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين ومن بعدهم، وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ يعني: مستطرداً يريد الكرة على المشركين ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ يعني: أو ينجاز إلى أصحابه من غير هزيمة ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يقول: استوجبوا سخطاً من الله ﴿وَمَا أُوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فهذا يوم بدر خاصة، كان شديداً على المسلمين يومئذ، ليقطع دابر الكافرين وهو أول قتال قاتل المشركين من أهل مكة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: المتحرّف:  
المتقدّم من أصحابه أن يرى عورة من العدو فيصيبها.

(211/308)

---

والمتحيز: الفارّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره  
وأصحابه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عطاء بن أبي رباح، في قوله: ﴿ وَمَنْ  
يُولَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ قال: هذه الآية منسوخة بالآية التي في الأنفال ﴿ النَّان خَفَّفَ اللَّهُ  
عَنْكُمْ ﴾ الآية [الأنفال: 66].

وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد،  
والبخاري في الأدب المفرد، واللفظ له، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه،  
وإبن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في شعب  
الإيمان، عن ابن عمر قال: كنا في غزاة فحاص الناس حيصة، قلنا: كيف نلقى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم وقد فررنا من الزحف، ويؤنا بالغضب؟ فأتينا رسول الله صلى الله  
عليه وسلم قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: " من القوم؟ " فقالنا: نحن الفرّارون، فقال: "

لا ، بل أتم العكارون " فقبلنا يده فقال : " أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين ، ثم قرأ ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ ﴾ . "

وقد روي في تحريم الفرار من الزحف ، وأنه من الكبائر أحاديث ، وورد عن جماعة من

الصحابة أنه من الكبائر ، كما أخرجه ابن جرير ، عن ابن عباس .

وأخرجه ابن أبي شيبة ، عن ابن عمر .

وأخرجه ابن أبي شيبة ، وابن أبي حاتم ، عن علي بن أبي طالب .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو

الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ قال لأصحاب محمد صلى الله عليه

وسلم حين قال : هذا قتلت وهذا قتلت ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ قال لمحمد صلى الله

عليه وسلم حين حصب الكفار .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ

رَمَيْتَ ﴾ قال : رماهم يوم بدر بالحصباء .

(212/308)

---

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ، ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الحصباء وقال :

"شاهت الوجوه" ، فانهزمتنا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن جابر ، قال : سمعت صوت حصيات وقعن من السماء يوم بدر ، كأنهن وقعن في طست ، فلما اصطف الناس أخذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى بهن في وجوه المشركين ، فانهزموا .

فذلك قوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ .

وأخرج الطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي "ناولني قبضة من حصباء" ، فناوله فرمى بها في وجوه القوم ، فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ، فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن المسيب ، قال : لما كان يوم أحد أخذ أبي بن خلف يركض فرسه حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعترض رجال من المسلمين لأبي بن خلف ليقتلوه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "استأخروا" ، فاستأخروا فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حربته في يده

، فرمى بها أبي بن خلف ، وكسر ضلعاً من أضلاعه ، فرجع أبي بن خلف إلى أصحابه  
ثقيلاً ، فاحتملوه حين ولوا قافلين ، فطفقوا يقولون لا بأس ، فقال أبي حين قالوا له ذلك :  
والله لو كانت بالناس لقتلتهم ، ألم يقل إني أقتلك إن شاء الله ، فانطلق به أصحابه ينعشونه  
حتى مات ببعض الطريق ، فدفنوه .

قال ابن المسيب : وفي ذلك أنزل الله ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ .

(213/308)

---

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن المسيب ، والزهري نحوه ،  
وإسناده صحيح إليهما ، وقد أخرجه الحاكم في المستدرک .

قال ابن كثير : وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جداً ، ولعلهما أرادا أن الآية تتناولهما  
بعمومها ، وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جبير كما سيأتي .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن عبد الرحمن بن جبير : أن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم [ لما خرج ] يوم ابن أبي الحقيق دعا بقوس فرمى بها الحصن ، فأقبل السهم حتى  
قتل ابن أبي الحقيق في فراشه ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ .  
وأخرج ابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، عن عروة بن الزبير ، في قوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾



أي: لم يكن ذلك برميته لولا الذي جعل الله من نصرك وما ألقى في صدور عدوك حتى  
هزمهم ﴿ وَيُئْتِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ أي ليعرف المؤمنون من نعمته عليهم في  
إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا  
بذلك نعمته. انتهى انتهى. اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(214/308)

ومن روائع الشيخ الصابوني في الآيات السابقة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلُوهُمُ الْأُدْبَارَ (15) ﴾

[2] [الفرار من الزحف

التحليل اللفظي

﴿ زَحَفًا ﴾: زحف الرجل إذا مشى على بطنه كالحية، أودب على مقعده كالصبي،

وشبهه به هنا مشي الجيش الكثير للقتال بزحف الصبيان، لأنه لكثرة يري كأنه يزحف  
زحفاً.

﴿ الأدبار ﴾: جمع دبر وهو الخلف ويقابله (القبل) وهو الأمام، ويطلق القبل والدبر

على سواهما الإنسان، وأما إطلاقه على الأمام والخلف فمشهور في اللغة قال تعالى: ﴿

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴿٢٥﴾ [يوسف: 25] .

﴿ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ : يقال : تحرف وانحرف إذا مال وعدل من طرف إلى طرف ، مأخوذ من الحرف وهو الطرف أي الجانب ، والتحرف للقتال الفر للكرأي يتظاهر بالفرار ليغرر عدوه حتى يُخيّل له أنه انهزم ، ثم يكر عليه فيقتله ، وهذا من باب مكاييد الحرب (والحرب خدعة) .

﴿ مُتَحَيِّزًا ﴾ : أي منظماً ، والفئة : الجماعة قال تعالى : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ [ الأنفال : 45 ] والمراد أن ينهزم لينضم إلى جماعة أخرى يعينهم أو يستعين بهم .  
﴿ بَاءً بَغْضَبٍ ﴾ : أي رجع بغضب وسخط من الله .  
﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ : أي مسكنه وملجأه جهنم وبئس هذا الملجأ والمصير .

(215/308)

---

﴿ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ : أي مضعف بأس الكافرين بجذلانهم ونصر المؤمنين عليهم .  
قال ابن كثير : هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر فإنه تبارك وتعالى أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ومصغر أمرهم ، وأنهم في تبارك ودمار وقد وجد المخبر وفق الخبر فصار معجزاً للنبي صلى الله عليه وسلم فله الحمد والمنة .

## المعنى الإجمالي

هذه الآيات الكريمة نزلت لتثبيت قلوب المؤمنين في أول غزوة وقعت بينهم وبين المشركين ألا وهي « غزوة بدر » وقد كانت هذه المعركة هي الفارقة بين عهدين عهد الكفر ، وعهد

الإيمان ولذلك سمي يومها بيوم الفرقان قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾

[ الأنفال : 41 ] لأنها فرقت بين الظلام والنور وبين الكفر والإيمان وفي هذه الآيات يأمر الله

عباده المؤمنين أن يصمدوا أمام أعدائهم ، وألا ينهزموا مهما كان جيش الكفر عظيماً وكبيراً

، فإن الغلبة ليست بالكثرة ، والمؤمنون أولى بالثبات والشجاعة من الكافرين ، لأنهم

يطلبون إحدى الحسنيين : إما العزة في الدنيا والنصر على الأعداء ، وإما الشهادة في سبيل

الله التي لا يعاد لها شيء من الأشياء وقد حذرهم من الفرار والهزيمة لأن فيه كسراً لجيش

المسلمين والقاء للرجب في قلوب المجاهدين وبين تعالى أن الفرار يجوز في حالتين اثنتين .

الأولى : إذا كان يقصد خداع العدو والتغريبه ، لأن الحرب خدعة ، والعاقل من عرف

كيف يبطش بعدوه ويستدرجه .

والثانية : إذا بقي هذا المسلم وحيداً فريداً فانضم إلى جماعة أخرى ليتقوى بها أورأى أنها

محااجة إليه ليشد أزهم ويقوي عزمهم .

وما عدا ذلك فالفرار من الزحف جريمة نهى الله تعالى عنه وتوعد عليه أشد التوعيد وهو

أن يرجع بغضب من الله وأن مقره في جهنم وبئس ذلك المقر والمصير .

ثم بين تعالى أن المؤمنين لم ينتصروا في بدر ولا في غيرها من الغزوات بقوة سلاحهم ولا بوفرة عددهم وإنما انتصروا بتأييد الله لهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم ، فليعتمدوا إذاً على الله وليتوكّلوا عليه فإنه نعم المولى ونعم النصير .

تنبيه وفائدة: ذكر المفسرون عند قوله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ « أن النبي صلى الله عليه وسلم صفّ الصفوف يوم بدر ثم أخذ قبضة من تراب وحصباء ثم استقبل بها قريشاً فقال : شأهت الوجوه ثم رمى بها المشركين فلم يبق أحد منهم إلا وقد أصابه ذلك اليوم منها فدخلت في عيونهم ثم أمر عليه الصلاة والسلام أصحابه أن يشدوا عليهم فكانت الهزيمة وقتل من قتل من صناديد قريش وأسروا من أسروا من أشرفهم » .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : الفرار من الزحف من الكبائر .

تدل ظواهر النصوص الشرعية على حرمة الفرار من الزحف إلا في حالتين اثنتين وهما :  
حالة الفرار من أجل الكرّ خدعة للعدو - وحالة الالتحاق إلى جماعة المسلمين والانضمام

إلى صفوفهم ليتقوى بهم وقد بينت السنة النبوية أن الفرار من الزحف من الكبائر فقد قال صلى الله عليه وسلم «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.» .

الحكم الثاني: كم عدد العدو الذي يحرم الفرار منه؟

(217/308)

---

هذه الآية حرمت الفرار من القتال، وأما عدد العدو الذي يحرم الفرار منه فقد بينته الآية في آخر سورة الأنفال وهي قوله تعالى: ﴿الآن خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 66] فقد أوجبت هذه الآية على المسلمين أن يثبتوا أمام أعدائهم إذا كان العدو ضعفهم وقد كانوا من قبل مكلفين بملاقاة العدو والصمود حتى ولو كانوا عشرة أضعافهم فنسخ الله ذلك وخفف عن عباده رحمة بهم وتيسيراً عليهم، فإذا كان جيش الكفار يزيد أضعافاً مضاعفة على جيش المسلمين فإنه لا يجب عليهم ملاقاته إلا إذا كان هناك خطر جسيم كهجوم المشركين على ديار المسلمين فإنه يجب حينئذٍ الدفاع

عليهم ، ويفترض القتال على الرجل والمرأة والصغير والكبير .  
وأما المغامرة في الحرب فقد قال بعض العلماء : لا يقتحم الواحد على العشرة ولا القليل  
على الكثير لأن في ذلك إلقاء إلى التهلكة .  
والصحيح كما قال ( ابن العربي ) : إنه تجوز المغامرة لكسر شوكة المشركين وإضعاف  
نفوسهم فإنهم إذا رأوا هذه الشجاعة النادرة من شخص واحد دبّ الرعب في قلوبهم  
وأيقنوا بعدم قدرتهم على مقاومة المسلمين وفي ذلك إعزاز لدين الله وقهر للمشركين والله  
أعلم .

(218/308)

---

الحكم الثالث : هل يجوز الفرار عند الضرورة ؟

يجوز الفرار عند الضرورة في غير الحالتين السابقتين التي أشارت إليهما الآية وذلك كأن  
يحيط العدو بالجيش أو يقطعوا على المجاهدين طريق المؤنة والغذاء فقد « روي عن ابن  
عمر رضي الله عنهما أنه قال : « كنا في غزاة فحاص الناس حيصةً » أي « فروا أمام العدو  
« قلنا كيف تلقى النبي صلى الله عليه وسلم وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ، فأتينا  
النبي صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر فخرج فقال : من القوم ؟ قلنا : نحن الفرّارون

. فقال : لا بل أتم العكارون فقبلنا يده . فقال : أنا فتكم وأنا فئة المسلمين « ثم قرأ ﴿ إِلَّا

مُتَحَرِّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ .

العكارون : أي الكرارون العطافون .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً – المؤمن يجاهد لإعلاء كلمة الله فعليه أن يتحمل الشدائد لأن العمر بيد الله .

ثانياً – الفرار من الزحف كبيرة من الكبائر لأنه يعرض جيش المسلمين للتدهور والخطر .

ثالثاً – لا يجوز الفرار إلا في الحالات الضرورية .

رابعاً – النصر بيد الله ، فعلى المؤمن أن يعتمد على الله مع الأخذ بالأسباب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روائع البيان ح 1 ص 595.599 ﴾

(219/308)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحاوي في تفسير القرآن الكريم

وَيُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورُسُلَى - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع بعد الثلاثمائة  
حُقوقُ النَّسخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/309)

---

الجزء التاسع بعد الثلاثمائة  
من الآية ﴿ 19 ﴾ من سورة الأنفال  
وحتى الآية ﴿ 24 ﴾ من نفس السورة

(4/309)

---



قوله تعالى ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنُ  
تَغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (19) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تضمن ذلك إيقاع الإهانة بالكفار بهذه الواقعة ، والوعد بالزامهم الإهانة فيما يأتي ، كان ذلك مفصلاً للالتفات إلى تهديدهم في قالب استجلابهم والاستهزاء بهم وتفخيم أمر

المؤمنين فقال : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا ﴾ أي تسألوا الفتح أيها الكفار بعد هذا اليوم كما

استفتحتم في هذه الواقعة عند أخذكم أستار الكعبة وقت خروجكم بقولكم : اللهم انصر  
أهدى الحزين ، وأكرم الجندين ، وأعلى الفئتين ، وأفضل الدينين ، ووقت ترائي الجمعين ؛  
بقول أبي جهل : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعلم فأحنه الغداة ؛ أتاكم الفتح كما أتاكم في

هذا اليوم ﴿ فقد جاءكم ﴾ أي في هذا اليوم بنصر المؤمنين ﴿ الفتح ﴾ أي الذي

استفتحتم له لأنهم أهدى الفئتين وأكرم الطائفتين ﴿ وإن تنتهوا ﴾ أي بعد هذا عن مثل

هذه الأقوال والأفعال المتضمنه للشك أو العناد ﴿ فهو خير لكم ﴾ وقد رأيتم دلائل ذلك

﴿ وإن تعودوا ﴾ أي إلى المغالبة لأنكم لم تنتهوا ﴿ نعد ﴾ أي إلى خذلانكم ﴿ ولن تغني

عنكم ﴾ أي أبداً ﴿ فتكم ﴾ أي جماعتكم التي ترجعون إليها للاعتزاز بها ﴿ شيئاً ﴾

أي من الإغناء ﴿ ولو كثرت ﴾ لأن الله على الكافرين ﴿ وأن الله ﴾ أي الملك الأعظم

﴿ مع المؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان ، ولعله عبر المستقبل في الشرط والماضي في  
الجزاء إشارة إلى أنكم استفتحتم في بدر وجاءكم من الفتح ما رأيتم ، فإن كان أعجبكم  
فألزموه في المستقبل ، فإني لا أجيئكم أبداً ما دتم على حالكم إلا بما جئكم به يومئذ ،  
والفتح يحتمل أن يكون بمعنى النصر فيكون تهكماً بهم ، وأن يكون بمعنى القضاء . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 198 . 199 ﴾

(5/309)

فصل

قال الفخر :

﴿ أما قوله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ ﴾

فيه قولان :

القول الأول : وهو قول الحسن ومجاهد والسدي أنه خطاب للكفار ، روي أن أبا جهل قال  
يوم بدر : اللهم انصر أفضل الدينين وأحقه بالنصر ، وروي أنه قال : اللهم أينما كان أقطع  
للرحم وأفجر ، فأهلكه الغداة ، وقال السدي : إن المشركين لما أرادوا الخروج إلى بدر  
أخذوا أستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل

الدينين ، فأنزل الله هذه الآية ، والمعنى : إن تستفتحوا أي تستنصروا الأهدى الفئتين وأكرم  
الحزبين ، فقد جاءكم النصر .

وقال آخرون : أن تستقضوا فقد جاءكم القضاء .

والقول الثاني : أنه خطاب للمؤمنين ، روي أنه عليه السلام لما رأى المشركين وكثرة عددهم  
استغاث بالله ، وكذلك الصحابة وطلب ما وعده الله به من إحدى الطائفتين وتضرع إلى  
الله فقال : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ والمراد أنه طلب النصر التي تقدم بها  
الوعد ، فقد جاءكم الفتح ، أي حصل ما وعدتم به فاشكروا الله والزموا طاعته .

قال القاضي : وهذا القول أولى لأن قوله : ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ لا يليق إلا بالمؤمنين ، أما  
لو حملنا الفتح على البيات والحكم والقضاء ، لم يمتنع أن يراد به الكفار .

أما قوله : ﴿ وَإِن تَنهَوْا فهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فتفسير هذه الآية ، يتفرع على ما ذكرنا من أن قوله  
: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ خطاب للكفار أو للمؤمنين .

فإن قلنا : إن ذلك خطاب للكفار ، كان تأويل هذه الآية إن تنهوا عن قتال الرسول

وعداوته وتكذيبه فهو خير لكم ، أما في الدين فبالخلاص من العقاب والفوز بالثواب .

وأما في الدنيا فبالخلاص من القتل والأسر والنهب .

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا﴾ أي إلى القتال ﴿نَعُدُّ﴾ أي نسلطهم عليكم ، فقد شاهدتم ذلك يوم بدر وعرفتم تأثير نصره الله للمؤمنين عليكم ﴿وَلَنْ تَغْنَىٰ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ﴾ أي كثرة الجموع كما لم يغن ذلك يوم بدر .

وأما إن قلنا إن ذلك خطاب للمؤمنين كان تأويل هذه الآية وإن تنتهوا عن المنازعة في أمر الأنفال وتنتهوا عن طلب الفداء على الأسرى فقد كان وقع منهم نزاع يوم بدر في هذه الأشياء حتى عاتبهم الله بقوله :

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: 68] فقال تعالى: ﴿إِنْ تَنَهَوُا﴾ عن مثله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا﴾ إلى تلك المنازعات ﴿نَعُدُّ﴾ إلى ترك نصرتكم لأن الوعد بنصرتكم مشروط بشرط استمراركم على الطاعة وترك المخالفة ، ثم لا تنفعكم الفئمة والكثرة ، فإن الله لا يكون إلا مع المؤمنين الذين لا يرتكبون الذنوب .

واعلم أن أكثر المفسرين حملوا قوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ على أنه خطاب للكفار ، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نَعُدُّ﴾ فظنوا أن ذلك لا يليق إلا بالقتال ، وقد بينا أن ذلك يحتمل الحمل على ما ذكرناه من أحوال المؤمنين ، فسقط هذا الترجيح .

وأما قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَهُ﴾ فقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم ﴿الارض وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بفتح الألف في أن والباقون بكسرها .

أما الفتح فقيل : على تقدير ، ولأن الله مع المؤمنين ، وقيل هو معطوف على قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ وأما الكسر فعلى الابتداء . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 114.115 ﴾

(7/309)

وقال السمرقندي :

﴿ إِنَّ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾

يقول إن تستنصروا فقد نصركم الله حين قلتم ؛ وذلك أن أبا جهل بن هشام قال : اللهم انصر أحب الدينين وأحب الجندين وأحب الفئتين إليك ، فاستجيب دعاؤه على نفسه وعلى أصحابه .

ثم قال : ﴿ وَإِنْ تَنَهَوْا ﴾ عن قتاله ، ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من قتاله ؛ ويقال : إن أهل مكة حين أرادوا الخروج إلى بدر ، أخذوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم أي الفئتين أحب إليك فانصرهم .

فنزّل ﴿ إِنَّ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنَهَوْا ﴾ عن قتال محمد صلى الله عليه وسلم وعن الكفر ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من الإقامة عليه ، ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا ﴾ لقتال محمد

صلى الله عليه وسلم ، ﴿ نَعُدُّ ﴾ على القتل والأسر والهزيمة .  
﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ قِتْنَتَكُمْ ﴾ ، يعني جماعتكم ﴿ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ في العدد .  
﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يعني معين لهم وناصرهم .  
قرأ نافع وابن عامر وعاصم في إحدى الروايتين : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ بالنصب ، والباقون  
بالكسر ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ على معنى الاستئناف ويشهد لها قراء عبد الله بن مسعود والله  
مع المؤمنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 2 ص ﴾

(8/309)

وقال الثعلبي :

﴿ إِن تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾

وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينما كان أفجر وأقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فانصرنا  
عليه ، فاستجاب الله دعاءه وجاء بالفتح وضر به ابنا عفراء : عوف ومسعود ، وأجهز  
عليه عبد الله بن مسعود .

وقال السدي والكلبي : كان المشركون حين خرجوا الى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة  
أخذوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصرنا على الحزبين وأهدى القبتين وأكرم الجندين

وأفضل الدينين فأنزل الله هذه الآية . وقال عكرمة : قال المشركون اللهم لا نعرف ما جاء به محمد فأفتح بيننا وبينه بالحق فأنزل الله تعالى ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ أي أن تستفتوا فقد جاءكم القضاء .

وقال أبي بن كعب وعطاء الخراساني : هذا خطاب أصحاب رسول الله قال الله للمسلمين : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ أي تستنصروا الله وتسالوه الفتح فقد جاءكم الفتح أي بالنصرة .

" وقال حباب بن الارت : شكونا الى رسول الله عليه السلام فقلنا : لا تستنصر لنا ، فاحمر وجهه وقال : " كان الرجل قبلكم يؤخذ ويحفر له في الأرض ، ثم يجاء بالمنشار فيقطع بنصفين ما يصرفه عن دينه شيء ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ولا يخشى إلا الله عز وجل والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون " .

ثم قال للكفار ﴿ وَإِن تَنَهَوْا ﴾ عن الكفر بالله وقتال نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُدُّوا ﴾ لقتاله وحربه ﴿ نَعُدُّ ﴾ بمثل الواقعة التي أوقعت لكم يوم بدر .

وقيل : وإن تعودوا إلى هذا القول وقتال محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَكُنْ تَغْنِي عَنْكُمْ ﴾  
فَتَكُمُ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [قرأ] أهل المدينة والشام : ( وَأَنَّ اللَّهَ ) بفتح  
الألف ، والمعنى : ولأن الله ، وقيل : هو عطف على قوله ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾  
.

وقرأ الباقر بالكسر على الاستئناف ، واختلفوا فيه وقراءة أبي حاتم (لأن) في قراءة  
عبد الله : والله مع المؤمنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 ص ﴾

(10/309)

---

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ إِنْ تَسْتَجِيبُوا لَنَا فَدَلَّكُمْ إِيَّاهُ فَذُكِّرُوا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : إن تستنصروا الله ، فالفتح النصر ، فقد جاءكم فضل الله بنصرنا ، حكاها ابن  
الأنباري .

والثاني : معناه إن تستنصروا الله ، والفتح النصر ، فقد جاءكم نصر الله لنا عليكم ، وفي  
هذا الخطاب قولان .

أحدهما : أنه خطاب للمشركين لأنهم استنصروا يوم بدر بأن قالوا : اللهم أقطعنا للرحم



وأظلمنا لصاحبه فانصره عليه ، فنصر الله تعالى نبيه والمسلمين عليهم .  
ثم قال ﴿ وَإِنْ تَنَهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لأن الاستنصار كان عليهم لاهم . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا  
نَعْدُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وإن تعودوا إلى مثل هذا التكذيب نعد إلى مثل هذا التصديق .

والثاني : وإن تعودوا إلى مثل هذا الاستفتاح نعد إلى مثل هذا النصر .

والقول الثاني : أنه خطاب للمؤمنين نصرهم الله تعالى يوم بدر حين استنصروه ﴿ وَإِنْ  
تَنَهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ يعني عما فعلتموه في الأسرى والغنيمة .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وإن تعودوا إلى الطمع نعد إلى المؤاخذة .

الثاني : وإن تعودوا إلى مثل ما كان منكم في الأسرى والغنيمة نعد إلى الإنكار عليكم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 ص ﴾

(11/309)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾

قال بعض المتأولين : هذه الآية مخاطبة للمؤمنين الحاضرين يوم بدر ، قال الله لهم : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ وهو الحكم بينكم وبين الكافرين فقد جاءكم ، وقد حكم الله لكم ، ﴿ وإن تنتهوا ﴾ عما فعلتم من الكلام في أمر الغنائم وما شجر بينكم فيها وعن تفاخركم بأفعالكم من قتل وغيره فهو خير لكم ﴿ وإن تعودوا ﴾ لهذه الأفعال نعد لتوبيخكم ، ثم أعلمهم أن الفئة وهي الجماعة لا تعني وإن كثرت إلا بنصر الله تعالى ومعوته ، ثم أنسهم بقوله وإيجابه ، أنه مع المؤمنين ، وقال أكثر المتأولين : هذه الآية مخاطبة للكفار أهل مكة ، وذلك أنه روي أن أبا جهل كان يدعو أبداً في محافل قريش ، ويقول اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأهلكه واجعله المغلوب ، يريد محمداً صلى الله عليه وسلم وإياهم ، وروي أن قريشاً لما عزموا على الخروج إلى حماية العير تعلقوا بأستار الكعبة واستفتحوا ، وروي أن أبا جهل قال صبيحة يوم بدر : اللهم انصر أحب الفئتين إليك وأظهر خير الدينين عندك ، اللهم أقطعنا للرحم فاحنه الغداة ، ونحو هذا فقال لهم الله ، إن تطلبوا الفتح فقد جاءكم أي كما ترونه عليكم لا لكم .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا توبيخ ، ثم قال لهم ﴿ وإن تنتهوا ﴾ عن كفركم وغيركم ، ﴿ فهو خير لكم ﴾ ثم أخبرهم أنهم إن عادوا للاستفتاح عاد بمثل الواقعة يوم بدر عليهم ، ثم أعلمهم أن فئتهم لا تعني شيئاً وإن كانت كثيرة ، ثم أعلمهم أنه مع المؤمنين .

---

وقالت فرقة من المتأولين : قوله ﴿ وإن تستفتحوا فقد جائكم الفتح ﴾ ، هي مخاطبة للمؤمنين ، وسائر الآية مخاطبة للمشركين ، كأنه قال وأتم إن تنتهوا فهو خير لكم ، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر وأبي عمرو وحمزة والكسائي " وإن الله " بكسر الهمزة على القطع ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص " وأن " بفتح الألف ، فإما أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء محتمل المعنى ، وفي قراءة ابن مسعود : " ولو كثرت والله مع المؤمنين " . وهذا يقوي قراءة من كسر الألف ، من " إن " . انتهى انتهى . ١٠ هـ

﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(13/309)

---

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ إن تستفتحوا ﴾

في سبب نزولها خمسة أقوال .

أحدها : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم استنصروا الله وسألوه الفتح ، فنزلت هذه الآية ؛ وهذا المعنى مروى عن أبي بن كعب ، وعطاء الخراساني .

والثاني: أن أبا جهل قال: اللهم أينما كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أن المشركين أخذوا بأستار الكعبة قبل خروجهم إلى بدر، فقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم القبيلتين؛ فنزلت هذه الآية، قاله السدي.

والرابع: أن المشركين قالوا: اللهم إنا لا نعرف ما جاء به محمد، فافتح بيننا وبينه بالحق؛ فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة.

والخامس: أنهم قالوا بمكة: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء...﴾

﴿[الأنفال: 32] الآية فعذبوا يوم بدر، قاله ابن زيد.

فخرج من هذه الأقوال أن في المخاطبين بقوله: ﴿إن تستفتحوا﴾ قولان. أحدهما: أنهم المؤمنون.

والثاني: المشركون؛ وهو الأشهر.

وفي الاستفتاح قولان.

أحدهما: أنه الاستنصار، قاله ابن عباس، والزجاج في آخرين.

فإن قلنا: إنهم المسلمون، كان المعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر بالملائكة؛ وإن قلنا: إنهم المشركون؛ احتمل وجهين.

أحدهما : إن تستنصروا فقد جاء النصر عليكم .

والثاني : إن تستنصروا لأحب الفريقين إلى الله ، فقد جاء النصر لأحب الفريقين .

والثاني : أن الاستفتاح : طلب الحكم ، والمعنى : إن تسألوا الحكم بينكم وبين المسلمين ،

فقد جاءكم الحكم ؛ وإلى هذا المعنى ذهب عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة .

فأما قوله : ﴿ وإن تنهوا فهو خير لكم ﴾ فهو خطاب للمشركين على قول الجماعة .

وفي معناه قولان .

أحدهما : إن تنهوا عن قتال محمد صلى الله عليه وسلم والكفر ، قاله أبو صالح عن ابن

عباس .

(14/309)

---

والثاني : إن تنهوا عن استفتاحكم ، فهو خير لكم ، لأنه كان عليهم ، لا لهم ، ذكره

الماوردي .

وفي قوله : ﴿ وإن تعودوا نعد ﴾ قولان .

أحدهما : وإن تعودوا إلى القتال ، نعدُ إلى هزيمتكم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : وإن تعودوا إلى الاستفتاح ، نعدُ إلى الفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم ، قاله

السدي .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُمْ شَيْئاً ﴾ أي : جماعتكم وإن كثرت ، ﴿ وَأَنْ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالعون والنصر .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم : " وإن الله " بكسر الألف .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : " وأن " بفتح الألف .

فمن قرأ بكسر " أن " استأنف .

قال الفراء : وهو أحب إليّ من فتحها .

ومن فتحها أراد : ولأن الله مع المؤمنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

(15/309)

---

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾

شرطٌ وجوابه .

وفيه ثلاثة أقوال : يكون خطاباً للكفار ؛ لأنهم استفتحوا فقالوا : اللَّهُمَّ أَقْطَعْنَا لِلرَّحْمِ

وَأَظْلَمْنَا لِسَابِحِهِ فَانصُرْهُ عَلَيْهِ .

قاله الحسن ومجاهد وغيرهما .

وكان هذا القول منهم وقت خروجهم لنصرة العير .

وقيل : قاله أبو جهل وقت القتال .

وقال النضر بن الحارث ؛ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من

السماء أو اتنا بعذاب اليم .

وهومن قتل بيدر .

والاستفتاح : طلب النصر ؛ أي قد جاءكم الفتح ولكنه كان للمسلمين عليكم .

أي فقد جاءكم ما بان به الأمر ، وانكشف لكم الحق .

﴿ وَإِنْ تَنَّهُوا ﴾ أي عن الكفر ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا ﴾ أي إلى هذا القول وقتال محمد .

﴿ نَعْدُ ﴾ إلى نصر المؤمنين .

﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ ﴾ أي عن جماعتكم ﴿ شَيْئاً ﴾ .

﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أي في العدد .

الثاني : يكون خطاباً للمؤمنين ؛ أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر .

﴿ وَإِنْ تَنَّهُوا ﴾ أي عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى قبل الإذن ؛ " فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ " .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا ﴾ أي إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم .

كما قال: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية.

والقول الثالث: أن يكون ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ خطاباً للمؤمنين؛ وما بعده للكفار.

أي وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر.

القشيري: والصحيح أنه خطاب للكفار؛ فإنهم لما نفرؤا إلى نصره العير تعلقوا بأستار

الكعبة وقالوا: اللهم انصر أهدي الطائفتين، وأفضل الدينين.

المهدوي: وروي أن المشركين خرجوا معهم بأستار الكعبة يستفتحون بها، أي

يستنصرون.

قلت: ولا تعارض لاحتمال أن يكونوا فعلوا الحالتين.

(16/309)

---

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بكسر الألف على الاستئناف، وفتحها عطف على قوله:

"وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ".

أو على قوله: "أَنِّي مَعَكُمْ".

والمعنى: ولأن الله؛ والتقدير لكثرتها وأن الله.



أي من كان الله في نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7



(17/309)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾

هذا خطاب مع المشركين الذين قاتلوا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يوم بدر وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر ، لما التقى الجمعان : اللهم أينما كان أفخريعني نفسه ومحمداً ( صلى الله عليه وسلم ) قاطعاً للرحم فأحنه اليوم .

وقيل : إنه قال : اللهم أينما كان خيراً عندك فانصره .

وقيل : قال : اللهم انصر أهدي الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين اللهم من كان أفخر وأقطع لرحمه فأحنه اليوم فأنزل الله إن تستفتحوا ومعنى الآية إن تستحكموا الله على أقطع الفريقين للحرم وأظلم الفئتين فينصر المظلوم على الظالم والمحق على المبطل والمقطع على القاطع ( ق ) .

عن عبد الرحمن بن عوف قال : إني لواقف في الصف يوم بدر .

فنظرت عن يميني وعن شمالي ، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثه أسنانهما فتمنيت أن  
أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال أي عم هل تعرف أبا جهل قلت نعم فما  
حاجتك إليه يا ابن أخي .

قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا  
يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجب لذلك قال : وغمزني الآخر فقال لي  
مثلا فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس فقلت : ألا ترى أن هذا صاحبكما  
الذي تسألاني عنه قال فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله (   
صلى الله عليه وسلم ) فأخبراه فقال : أيكما قتله ؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتله .  
فقال : هل مسحتما سيفكما ؟ فقالا : لا فنظر رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) إلى  
السيفين فقال كلاكما قتله وقضى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بسلبه لهما  
والرجالن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء ( ق ) .

(18/309)

---

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " من ينظر لنا ما صنع أبو  
جهل " فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد قال فأخذ بلحيته فقال

أنت أبو جهل وفي كتاب البخاري أنت أبو جهل هكذا قاله أنس فقال وهل فوق رجل  
قتلتموه أو قال قتله قومه وفي رواية فقال أبو جهل فلو غير أكار قتلني " عن عبد الله بن  
مسعود قال : مررت فإذا أبو جهل صريع قد ضربت رجله فقلت يا عدو الله يا أبا جهل قد  
أخزى الله الآخر قال : ولا أها به عند ذلك فقال أعمد من رجل قتله قومه فضربه بسيف  
غير طائل فلم يغن شيئاً حتى سقط سيفه من يده فضربه حتى برد أخرجه أبو داود  
وأخرجه البخاري مختصراً .

قال : إنه أتى أبا جهل يوم بدر وبه رمق فقال : هل أعمد من رجل قتلتموه .  
وقال عكرمة : قال المشركون والله ما نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فأنزل  
الله عز وجل إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعني إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء .  
وقال السدي والكلبي : كان المشركون لما خرجوا إلى النبي ( صلى الله عليه وسلم ) من  
مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين  
وأفضل الدينين ففيه نزلت : إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح .

يعني : إن تستنصروا فقد جاءكم النصر .  
وهو على ما سأله فكان النصر لأهدى الفئتين وهم أصحاب محمد ( صلى الله عليه  
وسلم ) .

---

وقال محمد بن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر قال : قال معاذ بن عمرو بن الجموح :  
لما فرغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من غزوة بدر أمر بأبي جهل بن هشام أن يلتبس  
في القتلى فقال : اللهم لا يعجزك ، فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربتة ضربة  
طيرت قدمه بنصف ساقه قال : وضربني ابنة عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت  
بجلده وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي فلما أذنتني  
جعلت عليها قدمي ثم تمطيت بها حتى طرحتها ثم مر بأبي جهل وهو عفير معاذ بن  
عفراء فضربه حتى أتته وتركه وبه رمق فمر به عبد الله بن مسعود قال عبد الله وجدته  
بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه فقلت هل أخزأك الله يا عدو الله قال وبماذا  
أخزاني أعمد من رجل قتلتموه أخبرني لمن الدبرة قلت لله ولرسوله .  
روي عن ابن مسعود أنه قال : قال لي أبو جهل لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً ثم  
احتزرت رأسه ثم جئت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قلت يا رسول الله هذا  
رأس عدو الله أبي جهل قال : الله الذي لا إله غيره فقلت نعم والذي لا إله غيره ثم ألقيته بين  
يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فحمد الله .

وقال أبي بن كعب : هذا خطاب لأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال الله  
للمسلمين إن تستفتحوا أي تستنصروا فقد جاءكم الفتح أي النصر (خ) عن خباب بن

الأرت قال : " شكونا إلى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعونا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون "

(20/309)

---

قلت : استدل البغوي بهذا الحديث على ما فسر به أبي بن كعب الآية وفيه نظر ، لأن هذه الواقعة المذكورة في الحديث كانت بمكة والآية مدنية ، فلا تعلق للحديث بتفسير الآية والله أعلم ولكن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) لما دعا الله بيدر وسأله إنجاز ما وعده من إحدى الطائفتين وألح في الدعاء والمسألة حتى سقط رداؤه وقال الله سبحانه وتعالى مجيباً له إن تستفتحوا يعني تطلبوا النصر وإنجاز ما وعدكم الله به فقد جاءكم الفتح يعني فقد حصل لكم ما طلبتم فاشركوا الله على ما أنعم به عليكم من إجابة دعائكم وإنجاز ما وعدكم به وهذا القول أولى لأن قوله فقد جاءكم الفتح لا يليق إلا بالمؤمنين .

هذا إذا فسرنا الفتح بالنصر والظفر على الأعداء .

أما إذا فسرناه بالقضاء والحكم لم يمنع أن يراد به الكفار .

أما قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَيُخَيْرْكُمْ ﴾ فهو خطاب للكفار يعني وإن

تنتهوا عن قتال محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وعن تكذيبه فهو خير لكم في الدين والدنيا

أما في الدين بأن تؤمنوا به وتكفوا عنه فيجعل لكم بذلك الفوز بالثواب والخلاص من

العقاب .

وأما في الدنيا فهو الخلاص من القتل والأسر ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا نَعِدْ ﴾ يعني وإن تعودوا لقتال

محمد ( صلى الله عليه وسلم ) نعد بتسليطه عليكم ونصره عليكم ﴿ وَلَنْ تَغْنِيَّ عَنْكُمْ

فِتْنَكُمْ ﴾ يعني جماعتكم ﴿ شَيْئاً ﴾ يعني لا تغني عنكم شيئاً ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ يعني

جماعتكم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني بالنصر لهم عليكم يا معشر الكفار . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ج 3 ص ﴾

(21/309)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾

تقدّم ذكر المؤمنين والكافرين وسبق الخطاب للمؤمنين بقوله ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ وبقوله ﴿ ذلكم ﴾ فحملة قوم على أنه خطاب للمؤمنين ويؤيده قوله ﴿ فقد جاءكم الفتح ﴾ إذ لا يليق هذا الخطاب إلا بالمؤمنين على إرادة النصر بالاستفتاح وأن حملة على البيان والحكم ناسب أن يكون خطاباً للكفار والمؤمنين فإذا كان خطاباً للمؤمنين فالمعنى أن تستنصروا فقد جاءكم النصر ﴿ وإن تنهوا ﴾ عن مثل ما فعلتموه في الغنائم والأسرى قبل الإذن ﴿ فهو خير لكم وإن تعودوا ﴾ إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم كما قال ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ الآية ثم أعلمهم أن الفئّة وهي الجماعة لا تغني وإن كثرت إلا بنصر الله ومعوته ثم أنسهم بإخباره أنه تعالى مع المؤمنين .

(22/309)

---

وقال الأكثرون هي خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم وذلك أنه حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعاني إن كان محمد على حق فانصره وإن كنا على حق فانصرنا ، وروى أنهم قالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين ، وروى أن أبا جهل قال صبيحة يوم بدر : اللهم أينما كان أهجر وأقطع للرحم فاحنه اليوم أي فأهلكه ، وروى عنه دعا شبه هذا ، وقال

الحسن ومجاهد وغيرهما : كان هذا القول من قريش وقت خروجهم لنصرة العير ، وقال  
النضر بن الحرث : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية وهو ممن قتل يوم بدر ،  
وعلى هذا القول يكون معنى قوله ﴿ فقد جاءكم الفتح ﴾ ولكنه كان للمسلمين عليكم ،  
وقيل معناه : ﴿ فقد جاءكم ﴾ ما بان لكم به الأمر واستقر به الحكم وانكشف لكم الحق  
به ، ويكون الاستفتاح على هذا بمعنى الحكم والقضاء وإن انتهوا عن الكفر وإن تعودوا إلى  
هذا القول وقتال محمد بعد ﴿ نعد ﴾ إلى نصر المؤمنين وخذلانكم ، وقالت فرقة : ﴿ إن  
تستفتحوا ﴾ خطاب للمؤمنين وإن انتهوا خطاب للكافرين أي وإن انتهوا عن عداوة  
رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ﴿ فهو خير لكم وإن تعودوا ﴾ لمحاربه ﴿ نعد ﴾  
لنصرته عليكم ، وقال الكرماني : ﴿ وإن انتهوا ﴾ عن أمر الأنفال وفداء الأسرى ببدر  
﴿ وإن تعودوا ﴾ إلى معصية الله ﴿ نعد ﴾ إلى الإنكار وقرىء : ولن يغني بالياء لأن  
التأنيث مجاز وحسنه الفصل ، وقرأ الصحابان وحفص : ﴿ وأن الله ﴾ بفتح الهمزة  
وباقى السبعة بكسرها وابن مسعود ﴿ والله مع المؤمنين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر  
المحيط ح 4 ص ﴾



وقال أبو السعود :

﴿ إِن تَسْتَقْتِحُوا ﴾

خطابُ لأهل مكة على سبيل التهكم بهم وذلك أنهم حين أرادوا الخروجَ تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصرُ أعلى الجندين وأهدي الفئتين وأكرم الحزبين ، أي إن تستنصروا لأعلى الجندين ﴿ فقد جاءكمُ الفتح ﴾ حيث نصرَ أعلاهما وقد زعمتم أنكم الأعلى فالتهمكمُ في الجبيء ، أو فقد جاءكم الهزيمةُ والقهرُ فالتهمكم في نفس الفتح حيث وضع موضعَ ما يقابله ﴿ وإن تنهوا ﴾ عما كنتم عليه من الحرابِ ومعاداةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم ﴿ فهو ﴾ أي الانتهاء ﴿ خيرٌ لكم ﴾ أي من الحرابِ الذي ذُقمَ غائلته لما فيه من السلامة من القتل والأسر ، ومبنى اعتبار أصلِ الخيرية في المفضل عليه هو التهكم ﴿ وإن تعودوا ﴾ أي إلى حرابه عليه الصلاة والسلام ﴿ نعدُّ ﴾ لما شاهدتموه من الفتح ﴿ ولن تغني ﴾ بالتاء الفوقانية وقرىء بالياء التحانية لأن تأنيث الفة غير حقيقي وللفصل أي لن تدفع أبداً ﴿ عنكم فتكم ﴾ جماعتكم التي تجمعونهم وتستعينون بهم ﴿ شيئاً ﴾ أي من الإغناء أو من المضاربة وقوله تعالى : ﴿ ولو كثرت ﴾ جملةٌ حالية وقد مر التحقيق ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ أي ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك ، أو الأمر أن الله مع المؤمنين ، ويقرب منه بحسب المعنى قراءة الكسر على الاستئناف ، وقيل : الخطاب للمؤمنين والمعنى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر وإن تنهوا عن التكاسل والرغبة عما

يرغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خير لكم من كل شيء لما أنه مناط لنيل  
سعادة الدارين وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار وتهيب العدا ولن تغني حينئذ كثيركم  
إذا لم يكن الله معكم بالنصر والأمر أن الله مع الكاملين في الإيمان . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(24/309)

وقال الأوسى :

﴿ إِن تَسْتَقْتِحُوا ﴾

خطاب للمشركين على سبيل التهكم فقد روي أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار  
الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين .  
وفي رواية أن أبا جهل قال حين التقى الجمعان : اللهم ربنا ديننا القديم ودين محمد الحديث  
فأي الدينين كان أحب إليك وأرضى عنك فانصر أهله اليوم .  
والأول مروى عن الكلبي .

والسدى ، والمعنى إن تستنصروا الأعلى الجندين وأهداهما ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾  
حيث نصر أعلاهما وأهداهما وقد زعمتم أنكم الأعلى والأهدى فالتهمكم في الجبيء أو

فقد جاءكم الهلاك والذلة فالتهمكم في نفس الفتح حيث وضع موضع ما يقاله ﴿ وَإِنْ تَنْهَوُا ۚ ﴾  
عن حراب الرسول عليه الصلاة والسلام ومعاداته ﴿ فَهُوَ ۚ ﴾ أي الانتهاء ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾  
من الحراب الذي ذقتم بسببه ما ذقتم من القتل والأسر ، ومبنى اعتبار أصل الخيرية في  
المفضل عليه هو التهمكم ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوْا ۚ ﴾ أي إلى حرا به عليه الصلاة والسلام ﴿ نَعُدُّ ۚ ﴾  
لما شاهدتموه من الفتح ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ ۚ ﴾ أي لن تدفع ﴿ عَنكُمْ فِتْنَكُمْ ۚ ﴾ جماعتكم التي  
تجمعونها وتستغيثون بها ﴿ شَيْئًا ۚ ﴾ من الاغناء أو المضار ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ ﴾ تلك الفئة  
وقرىء ﴿ وَلَنْ يُغْنِيَ ۚ ﴾ بالياء التحانية لأن تأنيث الفئة غير حقيقي وللفضل ونصب  
شيأف على أنه مفعول مطلق أو مفعول به ، وجملة ولو كثرت في الموضع الحال ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ۚ ﴾  
مَعَ ﴿ أَي وَلَآنَ اللَّهِ تَعَالَى مَعِينِ الْمُؤْمِنِينَ كَانَ ذَلِكَ أَوْ وَالْأَمْرَ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ مَعَهُمْ ، وَقَرَأَ ۚ ﴾  
الأكثر ﴿ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّ ۚ ﴾ بالكسر على الاستئناف ، قيل : وهي أوجه من قراءة الفتح  
لأن الجملة حينئذ تذييل ، كأنه قيل : القصد اعلاء أمر المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وكيت  
وكيت ، وإن سنة الله تعالى جارية في نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ، وهذا وإن أمكن  
اجراؤه على قراءة الفتح لكن قراءة الكسر نص فيه ، ويؤيدها قراءة ابن مسعود ﴿ وَاللَّهُ مَعَ ۚ ﴾  
المؤمنين ، وروي عن عطاء .

---

وأبي بن كعب ، وإليه ذهب أبو علي الجبائي أن الخطاب للمؤمنين ، والمعنى إن تستنصروا  
فقد جاءكم النصر وإن تنتهوا عن التكاسل والرغبة عما يرغب فيه الرسول صلى الله عليه  
وسلم فهو خير لكم من كل شيء لما أنه مدار لسعادة الدارين وإن تعودوا إليه نعد عليكم  
بالإنكار وتهيج العدو ولن تغني عنكم حينئذ كثرتكم إذ لم يكن الله تعالى معكم بالنصر  
والأمر ان الله سبحانه مع الكاملين في الإيمان ، ويفهم كلام بعضهم أن الخطاب في ﴿  
تَسْتَفْتِحُوا﴾ و ﴿جَاءَكُمْ﴾ للمؤمنين ، وفيما بعده للمشركين ولا يخفى أنه خلاف  
الظاهر جداً ، وأيد كون الخطاب في الجميع للمؤمنين بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتُّمَّ تَسْمِعُونَ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعاني حـ  
9 ص﴾

(26/309)

---

وقال الشوكاني :

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾

الاستفتاح : طلب النصر ، وقد اختلف في المخاطبين بالآية من هم ؟ فقيل : إنها خطاب

للكفار تهكماً بهم ، والمعنى : إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر .  
وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر ، فتهكم الله  
بهم ، وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً .

ومعنى بقية الآية على هذا القول ﴿ وَإِنْ تَنَهَوُا ﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة  
لرسول الله ﴿ فَهُوَ ﴾ أي : الانتهاء ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا ﴾ إلى ما كنتم عليه من  
الكفر والعداوة ﴿ نَعْدُ ﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ، ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم  
في يوم بدر ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ ﴾ أي : جماعتكم ﴿ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أي : لا  
تغني عنكم في حال من الأحوال ، ولو في حال كثرتها ، ثم قال : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾  
ومن كان الله معه ، فهو المنصور ، ومن كان الله عليه ، فهو المخذول .

قرىء بكسر " إن " وفتحها ، فالكسر على الاستئناف ، والفتح على تقدير : ولأن الله مع  
المؤمنين فعل ذلك .

وقيل : إن الآية خطاب للمؤمنين ، والمعنى إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر في يوم بدر  
، وإن تنهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم ، وفداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك ، فهو  
خير لكم ، وإن تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم ، كما في قوله : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ  
سَبَقَ ﴾ [ الأنفال : 68 ] الآية ، ولا يخفى أنه يأتي هذا القول معنى ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ  
فِئَتِكُمْ شَيْئاً ﴾ ويأباه أيضاً ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلف

وتعسف .

وقيل إن الخطاب في ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ للمؤمنين ، وما بعده للكافرين ، ولا يخفى ما في هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية في الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين .

(27/309)

---

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن منده ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن شهاب ، عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير ، أن أبا جهل قال حين التقى القوم : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف ، فأحنه الغداة ، فكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن عطية ، قال : قال أبو جهل يوم بدر : اللهم انصر أهدي الفئتين ، وأفضل الفئتين ، وخير الفئتين ، فنزلت الآية . وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ يعني المشركين ، أي إن تستنصروا فقد جاءكم المدد .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن مجاهد ﴿ إِن تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾

قال : كفار قريش في قولهم : ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه .

ففتح بينهم يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن عكرمة ، في قوله : ﴿ إِن تَسْتَقْتِحُوا ﴾

قال : إِن تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْقَضَاءُ فِي يَوْمِ بَدْر .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السندي ، في قوله : ﴿ وَإِن تَنْهَوْا ﴾

قال : عن قتال محمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَإِن تَعُودُوا نَعُدُّ ﴾ قال : إِن تَسْتَقْتِحُوا

الثانية أفتح لمحمد ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : مع محمد وأصحابه .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة ﴿ وَإِن تَعُودُوا نَعُدُّ ﴾ يقول : نعد لكم بالأسر والقتل .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(28/309)

---

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

﴿ إِذِ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

الظرف هنا غير بدل من " إذ " في الآيات التي قبله ولا متعلق بما تعلقت به ، بل هو متعلق

بـ "يُبْتُّ" وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يُبْتُّ الْأَقْدَامَ بِالْمَطْرِ فِي وَقْتِ الْكِفَاحِ ، الَّذِي يُوحِي رَبُّكَ فِيهِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَمْرًا لَهُمْ أَنْ يُبْتُّوا بِهِ الْأَنْفُسَ بِمَلَأْسَتِهِمْ لَهَا وَاتِّصَالِهِمْ بِهَا ، وَإِلَهَا مَهَا تَذَكُّرٌ وَعَدْلٌ لِلَّهِ لِرَسُولِهِ ، وَكَوْنُهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ، وَالْمَعْيَةُ فِي قَوْلِهِ : أَنِّي مَعَكُمْ مَعْيَةَ الْإِعَانَةِ كَقَوْلِهِ : إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (8 : 46) .

(29/309)

سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ الرَّعْبُ بوزن قفل اسم مصدر من رعبه (وتضم عينه) وبه قرأ ابن عامر والكسائي ، ومعناه الخوف الذي يملأ القلب . ولما فيه من معنى الملء يقال : رعبت الحوض أو الإناء أي ملأته ، ورعب السيل الوادي . وقيل : أصل معناه القطع إذ يقال رعبت السنام ورعبته ترعبيا إذا قطعه طولا ، وفسره الراغب بما يجمع بين المعنيين فقال : الرَّعْبُ الْإِنْقِطَاعُ مِنْ امْتِلَاءِ الْخَوْفِ اهـ . ويُقال : رعبته (من باب فتح) وأرعبته ، وأبلغ منه تعبير التنزيل بإلقاء الرعب ، ويقذف الرعب في القلب لما فيه من الأشعار بأنه يصب في القلوب دفعة واحدة فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان - أي : فاضربوا الهام وافلقوا الرؤوس واضربوا على الأعناق ، وقطعوا الأيدي ذات البنان التي هي أداة التصرف في الضرب وغيره ، وهو متعين في حال هجوم الفارس من



الْكُفَّارِ عَلَى الرَّاجِلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِذَا لَمْ يَسْبِقْ هَذَا إِلَى قَطْعِ يَدِهِ قَطَعَ ذَاكَ رَأْسَهُ .  
وَالْبَنَانُ جَمْعُ بَنَانَةٍ وَهُوَ أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ .

(30/309)

وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ عَنْ بَعْضِ الْمَغَازِي أَنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ يَمْرُؤَيْنِ الْقَتْلَى  
بِيدْرٍ - أَيُ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْمَعْرَكَةِ - وَيَقُولُ : " نَفَلَقُ هَامًا " فَيَتِمُّ الْبَيْتُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
وَهُوَ

نَفَلَقُ هَامًا مِنْ رِجَالِ أَعِزَّةٍ . . . عَلَيْنَا ، وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمًا  
وَهُوَ يُدَلُّ عَلَى الْمِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ مِنَ الضَّرُورَةِ الَّتِي اضْطَرَّتْ لَهُمْ إِلَى  
قَتْلِ صَنَادِيدِ قَوْمِهِ . وَاسْمُ التَّفْضِيلِ فِي " أَعَقَّ وَأَظْلَمَ " هُنَا عَلَى غَيْرِ بَابِهِ مُرَاعَاةٌ لِلظَّاهِرِ  
فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَحَدَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَقَوْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَظَلَمُوهُ هُوَ وَمَنْ آمَنَ بِهِ ،  
حَتَّى

أَخْرَجُوهُمْ مِنْ وَطَنِهِمْ بَغِيًّا وَعَدُوًّا نَا ثُمَّ تَبِعُوهُمْ إِلَى دَارِ هِجْرَتِهِمْ يُقَاتِلُونَهُمْ فِيهَا ، وَرُوِيَ أَنَّهُ  
أَوْصَى بِنَفَرٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ إِلَيْهِ خَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ كَرَاهًا لِأَيُّقَاتِلُوا ، كَانَ مِنْهُمْ عَمَةُ الْعَبَّاسِ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَمْ يَكُنْ أَسْلَمَ .

مُتَّضِي السِّيَاقِ أَنَّ وَحْيَ اللَّهِ لِلْمَلَائِكَةِ قَدْ تَمَّ بِأَمْرِ إِيَّاهُمْ بِتَثْبِيتِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ  
الْحَصْرُ فِي قَوْلِهِ عَنِ إِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ : وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ إِيَّاهُمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : سَأَلْتَنِي  
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ إِيَّاهُمْ . بَدَأَ كَلَامَ خُوطْبِهِ بِهَذَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
وَالْمُؤْمِنُونَ تَمَّتْ لِلْبُشْرَىٰ ، فَيَكُونُ الْأَمْرُ بِالضَّرْبِ مُوجَّهًا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ قَطْعًا ، وَعَلَيْهِ  
الْمُحَقِّقُونَ الَّذِينَ جَزَمُوا بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تُقَاتِلْ يَوْمَ بَدْرٍ تَبَعًا لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْآيَاتِ ، وَقِيلَ : إِنَّ  
هَذَا مِمَّا أُوحِيَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَتَأْوَلَهُ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُمْ بِأَن يَلْقُوا هَذَا الْمَعْنَى فِي  
قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِلَهَامِ ، كَمَا كَانَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُهُمْ ، وَيُلْقِي فِي قُلُوبِهِمْ ضِدَّهُ بِالْوَسْوَسِ .  
وَلَا يَرُدُّ عَلَى الْأَوَّلِ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِلَّا إِذَا كَانَ الْخِطَابُ قَدْ وُجِّهَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ الْقِتَالِ  
، وَالسُّورَةُ قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَهُ - لِأَنَّ نَزُولَ السُّورَةِ بِنِظْمِهَا وَتَرْتِيبِهَا بَعْدَهُ لَا يُنَافِي حُصُولَ مَعَانِيهَا  
قَبْلَهُ وَفِي اثْنَانِهِ ، فَإِنَّ الْبَشَارَةَ بِالْإِمْدَادِ بِالْمَلَائِكَةِ وَمَا وَلِيَهُ قَدْ حَصَلَ قَبْلَ الْقِتَالِ ، وَأَخْبَرَ بِهِ  
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ بِإِنزَالِ السُّورَةِ بِرُمَّتِهَا تَذْكِيرًا  
بِمَنِّهِ ، وَلَوْلَا هَذَا لَمْ تَكُنْ لِلْبَشَارَةِ تِلْكَ الْفَائِدَةُ ، وَالْخِطَابُ

فِي السِّيَاقِ كُلِّهِ مُوجَّهٌ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ فِيهَا وَحْيَهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ بِمَا ذَكَرَ عَرَضًا .  
وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى الْاَلُوسِيُّ تَبَعًا لِغَيْرِهِ وَادَّعَى أَنَّ الْآيَةَ ظَاهِرَةٌ فِي قِتَالِ الْمَلَائِكَةِ ،  
وَقَدْ وَرَدَتْ رَوَايَاتٌ ضَعِيفَةٌ تُدَلُّ عَلَى قِتَالِ الْمَلَائِكَةِ لَمْ يَعْبَأِ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا ،  
وَلَمْ يَجْعَلْهَا حَقِيقَةً أَنْ تَذَكَرَ ، وَلَوْ تَرَجَّحَ غَيْرُهَا عَلَيْهَا .

وَمَا أَذْرِي أَيْنَ يَضَعُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عُقُولَهُمْ عِنْدَ مَا يَغْتَرُّونَ بِبَعْضِ الظُّوَاهِرِ وَبَعْضِ الرِّوَايَاتِ  
الْغَرِيبَةِ الَّتِي يَرُدُّهَا الْعَقْلُ ، وَلَا يُشْبِثُهَا مَا لَهُ قِيَمَةٌ مِنَ التَّقْلِ . فَإِذَا كَانَ تَأْيِيدُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ  
بِالتَّيْيدَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي تُضَاعِفُ الْقُوَّةَ الْمَعْنَوِيَّةَ ، وَتَسْهِّلُهُ لُهُمُ الْأَسْبَابَ الْحَسِيَّةَ كَانَزَالِ  
الْمَطَرِ ، وَمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْفَوَائِدِ لَمْ يَكُنْ كَافِيًا لِنَصْرِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِقَتْلِ سَبْعِينَ وَأَسْرَ  
سَبْعِينَ حَتَّى كَانَ أَلْفٌ - وَقِيلَ أَلْفٌ - مِنْ

(33/309)

الْمَلَائِكَةِ يُقَاتِلُونَهُمْ مَعَهُمْ فَيُفْلِقُونَ مِنْهُمْ الْهَامَ ، وَيَقْطَعُونَ مِنْ أَيْدِيهِمْ كُلَّ بَنَانٍ ، فَأَيُّ مَزِيَّةٍ لِأَهْلِ  
بَدْرٍ فَضَلُوا بِهَا عَلَى سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّنْ غَزَوْا بَعْدَهُمْ ، وَأَذَلُّوا الْمُشْرِكِينَ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ الْأَلْفَ  
؟ ! وَمَاذَا اسْتَحَقُّوا قَوْلَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : " وَمَا

يُذْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ؟" رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا . وَفِي كِتَابِ السِّيَرِ وَصَفٌ لِلْمَعْرَكَةِ عِلْمٌ مِنْهُ الْقَاتِلُونَ وَالْأَسْرُونَ لِأَشَدِّ الْمُشْرِكِينَ بَأْسًا - فَهَلْ تُعَارِضُ هَذِهِ الْبَيِّنَاتُ النَّقْلِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ بِرَوَايَاتٍ لَمْ يَرَهَا شَيْخُ الْمُفَسِّرِينَ ابْنُ جُرَيْرٍ حَرِيَّةً بَأَنَّ تُنْقَلَ . وَلَمْ يَذْكُرْ ابْنُ كَثِيرٍ مِنْهَا إِلَّا قَوْلَ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ : "كَانَ النَّاسُ يَوْمَ بَدْرٍ يَعْرِفُونَ قَتْلَى الْمَلَائِكَةِ مِمَّنْ قُتِلُوا بِضَرْبِ فَوْقِ الْأَعْنَاقِ ، وَعَلَى الْبَنَانِ ، مِثْلَ سِمَةِ النَّارِ قَدْ أَحْرَقَ بِهِ " وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ الرَّبِيعُ بِهَذِهِ الدَّعْوَى ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي رُوِيَ مِنْ الْقَتْلَى بِهَذِهِ الصِّفَةِ ؟ وَكَمْ عَدَدٌ مِنْ قَتْلِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ السَّبْعِينَ ، وَعَدَدٌ مِنْ قَتْلِ أَهْلِ بَدْرٍ غَيْرِ مَنْ سُمُّوا وَقَالُوا قَتَلَهُمْ فَلَانٌ وَفَلَانٌ ؟ كَفَانَا اللَّهُ شَرَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي شَوَّهَتْ التَّفْسِيرَ وَقَلَّبَتِ الْحَقَائِقَ ، حَتَّى إِنَّهَا خَالَفَتْ نَصَّ الْقُرْآنِ نَفْسَهُ ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي إِمْدَادِ

(34/309)

الْمَلَائِكَةِ : وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ تَقُولُ بَلْ جَعَلَهَا مُقَاتَلَةً ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ السَّبْعِينَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يُمْكِنْ قَتْلُهُمْ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ أَلْفٍ أَوْ الْوَفِّ مِنْ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ خَصَّهُمُ اللَّهُ بِمَا ذَكَرَ مِنْ أَسْبَابِ النُّصْرَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ ! .  
إِلَّا إِنَّ فِي هَذَا مِنْ شَأْنِ تَعْظِيمِ الْمُشْرِكِينَ ، وَرَفْعِ شَأْنِهِمْ ، وَتَكْبِيرِ شَجَاعَتِهِمْ ، وَتَصْغِيرِ

شأن أفضل أصحاب الرسول ، وأشجعهم ما لا يصدر عن عاقل إلا وقد سلب عقله  
لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند ، ولم يرفع منها إلا حديث مرسل عن ابن عباس  
ذكره الأوسى وغيره بغير سند ، وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لأنه كان صغيراً ،  
فرواياته عنها حتى في الصحيح مرسلة ، وقد روي عن غير الصحابة حتى عن كعب  
الأخبار وأمثاله .

ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله أي: ذلك الذي ذكره كله من تأييده تعالى للمؤمنين وخذلانه  
للمشركين ؛ بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله أي عادوهم ، فكان

(35/309)

---

كل منهما في شق غير الذي فيه الآخر فالله هو الحق والداعي إلى الحق ، ورسوله هو  
المبلغ عنه الحق ، والمشركون على الباطل ، وما يترتب عليه من الشرور والخرافات ومن  
يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب أي: فإن عقاب الله شديد ، وأحق الناس به  
المشاقون له بإيثار الشرك ، وعبادة الطاغوت على توحيد وعبادته ، وبالاعتداء على  
أوليائه أولاً بمحاولة رددهم عن دينهم بالقوة والقهر ، وإخراجهم من ديارهم ثم اتباعهم إلى  
مهجرهم يقاتلونهم فيه .

ذِكْرُكُمْ فَذُوقُوا الْخِطَابَ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُنْكَسِرِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ ، أَي لِمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَسْرَى  
وَالْمَهْزُومِينَ عَلَى طَرِيقِ الْإِلْتِقَاتِ عَنِ الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى قَبْلَهُ : بَأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
وَالْمَعْنَى الْأَمْرُ ذِكْرُكُمْ - أَي أَنَّ الْأَمْرَ الْمُبَيَّنَ أَنفَاءً وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ يُشَاقَّهُ  
وَرَسُولَهُ - فَذُوقُوا هَذَا الْعِقَابَ الشَّدِيدَ ، وَهُوَ الْإِنْكَسَارُ وَالْإِنْهَزَامُ مَعَ الْخِزْيِ وَالذَّلِّ أَمَامَ فِئَةٍ  
قَلِيلَةٍ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ هَذَا عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، أَي  
وَالْأَمْرُ الْمُتَقَرَّرُ مَعَ هَذَا الْعِقَابِ الدُّنْيَوِيِّ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ ، فَمَنْ أَصْرَرَ  
مِنْكُمْ عَلَى كُفْرِهِ عَذَّبَ هُنَاكَ فِيهَا ، وَهُوَ شَرُّ الْعَذَابَيْنِ وَأَدْوَمُهُمَا ، وَفِي الْجَمْعِ بَيْنَ عَذَابِ  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِلْكَفَّارِ آيَاتٌ مُتَفَرِّقَةٌ فِي عِدَّةِ سُورٍ .  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ  
نُبْدًا بِتَفْسِيرِ الْأَلْفَاظِ الْغَرِيبَةِ فِي الْآيَاتِ فَتَقُولُ : (الزَّحْفُ) مَصْدَرٌ زَحَفَ إِذَا مَشَى عَلَى  
بَطْنِهِ كَالْحَيَّةِ ، أَوْ دَبَّ عَلَى مَقْعَدِهِ كَالصَّبِيِّ ، أَوْ عَلَى رُكْبَتَيْهِ ، قَالَ أَمْرُ الْقَيْسِ :  
فَأَقْبَلْتُ زَحَفًا عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ . . . فَتَوْبٌ لِبَسْتِ وَتَوْبٌ أُجْرٌ

---

وَالْمَشْيُ يُثَقَلُ فِي الْحَرَكَةِ وَاتِّصَالَ وَتَقَارُبِ فِي الْخَطْوِ كَزَحْفِ الدَّبِيِّ (صِغَارُ الْجَرَادِ قَبْلَ طَيْرَانَهَا) قَالَ فِي الْأَسَاسِ: وَزَحَفَ الْبَعِيرُ وَأَزْحَفَ: أَعْيَا حَتَّى جَرَّ فَرَسِنَهُ، وَزَحَفَ الشَّيْءُ جَرَّهُ جَرًّا ضَعِيفًا، وَزَحَفَ الْعَسْكَرُ إِلَى الْعَدُوِّ: مَشَوْا إِلَيْهِمْ فِي ثِقَلِ لِكثْرَتِهِمْ، وَلَقَوْهُمْ زَحْفًا، وَتَزَاخَفَ الْقَوْمُ وَزَاخَفْنَاهُمْ، وَأَزْحَفَ لَنَا بَنُو فُلَانٍ صَارُوا الْقِتَالَ لَنَا. انْتَهَى مُلْخَصًا. وَالزَّحْفُ الْجَيْشُ، وَيُجْمَعُ عَلَى زُحُوفٍ لِخُرُوجِهِ عَنْ مَعْنَى الْمَصْدَرِيَّةِ، وَ (الْأَدْبَارُ) جَمْعُ دُبْرٍ (بِضْمَتَيْنِ) وَهُوَ الْخَلْفُ، وَمُقَابِلُهُ الْقَبْلُ بِوِزْنِهِ وَهُوَ الْقَدَامُ؛ وَلِذَلِكَ يُكْتَبُ بِهِمَا عَنِ السَّوَاتِينِ، وَتَوَلِيَّةِ الدُّبْرِ وَالْأَدْبَارِ عِبَارَةٌ عَنِ الْهَزِيمَةِ؛ لِأَنَّ الْمُنْهَزِمَ يَجْعَلُ خِصْمَهُ مُتَوَلِيًّا وَمُتَوَجِّهًا إِلَى دُبْرِهِ وَمُؤَخَّرِهِ، وَذَلِكَ أَعْوَنُ لَهُ عَلَى قِتْلِهِ إِذَا أُدْرِكَهُ وَ (الْمُنْحَرِفُ) لِلْقِتَالِ أَوْ غَيْرِهِ هُوَ الْمُنْحَرِفُ عَنِ جَانِبٍ إِلَى آخَرَ، وَأَصْلُهُ فِي الْحَرْفِ وَهُوَ الطَّرْفُ، وَصِيغَةُ التَّعْيِيلِ تُعْطِيهِ مَعْنَى التَّكْلِيفِ أَوْ مُعَانَاةِ الْفِعْلِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ أَوْ بِالتَّدْرِيجِ، وَفِي مَعْنَاهُ (الْمُتَحَيِّزُ)

وَهُوَ الْمُنْتَقِلُ مِنْ حَيْزٍ إِلَى آخَرَ . وَالْحَيْزُ الْمَكَانُ ، وَمَادَّتُهُ الْوَأْوُ ، فَالْحَوْزُ الْمَكَانُ يُبْنَى حَوْلَهُ حَائِطٌ ، قَالَ فِي الْأَسَاسِ : أَنْحَازَ عَنِ الْقَوْمِ : اعْتَزَلَهُمْ ، وَأَنْحَازَ إِلَيْهِمْ وَتَحَيَّزَ انْضَمَّ . وَذَكَرَ جُمْلَةَ الْآيَةِ وَالْفِئَةِ الطَّائِفَةَ مِنَ النَّاسِ وَالْمَأْوَى الْمَلْجَأَ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ وَيَنْضَمُّ وَ (مُوَهِنٌ) الشَّيْءُ مُضْعَفُهُ ، اسْمٌ فَاعِلٍ مِنْ أَوْهَنَهُ أَيْ أَضْعَفَهُ ، وَمِثْلُهُ وَهْنَةٌ وَهْنًا وَوَهْنَةٌ تَوْهِينًا . وَ (الْكَيْدُ) التَّدْبِيرُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ غَيْرُ ظَاهِرِهِ فَتَسْوَأُ غَايَتُهُ الْمَكِيدِيَّةُ بِهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ 183 مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ . وَ "الِاسْتِفْتَاْحُ" طَلَبُ الْفَتْحِ وَالْفَصْلِ فِي الْأَمْرِ ، كَالْتَّصُرِ فِي الْحَرْبِ .

وَالْمَعْنَى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا أَيُّ : إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ حَالَ كَوْنِهِمْ زَاحِفِينَ لِقَاتِكُمْ ، كَمَا كَانَتْ الْحَالُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ ، فَإِنَّ الْكُفَّارَ هُمُ الَّذِينَ زَحَفُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِقَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فَتَقَفُوهُمْ فِي بَدْرٍ فَلَا تَوَلَّوْهُمْ الْأَدْبَارَ

(39/309)

---

أَيُّ : فَلَا تَوَلَّوْهُمْ ظُهُورَكُمْ وَأَقْفَيْتُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ عَدَدًا وَعَدَدًا ، وَإِذَا كَانَ التَّزَاحِفُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَوْ كَانَ الزَّحْفُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَحْرِيمُ الْفِرَارِ وَالْهَزِيمَةِ أَوْلَى ، وَلَفْظُ "لَقِيتُمُوهُمْ زَحَفًا" يَصِلُحُ لِلْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ ، وَرُجِحَ الْأَوَّلُ هُنَا بِقَرِينَةِ الْحَالِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا



الآيَةُ ، وَكَوْنُ النَّهْيِ عَنِ التَّوَلَّى وَالْفِرَارِ إِنَّمَا يَلِيقُ بِالْمَرْحُوفِ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ مَظْنَنَةٌ لَهُ ، وَيَلِيهِ مَا إِذَا  
 كَانَ التَّزَاحُفُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَأَمَّا الزَّاحِفُ الْمُهَاجِمُ فَلَيْسَ مَظْنَنَةً لِلتَّوَلَّى وَالْإِنْهَازِ فَيُؤَيِّدُ  
 بِالنَّهْيِ عَنْهُ ، وَهُوَ مِنْهُ أَقْبَحُ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ عَبَّرَ بِلَفْظِ تَوَلَّى الدُّبْرِ فِي وَعِيدِ كُلِّ فَرْدٍ ،  
 كَمَا عَبَّرَ بِهِ فِي نَهْيِ الْجَمَاعَةِ لِتَأْكِيدِ حُرْمَةِ جَرِيرَةِ الْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ وَكَوْنِ الْفَرْدِ فِيهَا  
 كَالْجَمَاعَةِ ، وَآثَرَ هَذَا اللَّفْظَ مُفْرَدًا وَجَمْعًا عَلَى لَفْظِ الظُّهُورِ وَالظُّهْرِ أَوْ الْقَفَا وَالْأَقْفِيَّةِ زِيَادَةً  
 فِي تَشْنِيعِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَفْظٌ يُكْنَى بِهِ عَنِ السَّوْءِ ، أَيُّ وَكُلُّ مَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَ إِذْ تَلَقَّوْنَهُمْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا  
 لِقِتَالِ أَيُّ : إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِمَكَانٍ مِنْ أَمْكِنَةِ الْقِتَالِ رَأَاهُ أَحْجَجَ إِلَى الْقِتَالِ فِيهِ - أَوْ مُتَحَرِّفًا لِمَضْرَبٍ  
 مِنْ ضُرُوبِهِ رَأَاهُ أْبْلَغَ فِي النِّكَايَةِ بِالْعَدُوِّ ، كَانَ يُؤَلِّمُ خَصْمَهُ أَنَّهُ مُنْهَزِمٌ مِنْهُ لِيُغْرِيَهُ بِاتِّبَاعِهِ  
 فَيَنْفَرِدَ عَنْ أَشْيَاعِهِ فَيَكْرَهُ عَلَيْهِ

(40/309)

فَيَقْتُلُهُ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَى فِتْنَةِ أَيُّ : مُنْتَقِلًا إِلَى فِتْنَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَيْزٍ غَيْرِ الَّذِي كَانَ فِيهِ  
 لِيُنْصِرَهُمْ عَلَى عَدُوِّ تَكَاثَرَ جَمْعُهُ عَلَيْهِمْ ، فَصَارُوا أَحْجَجَ إِلَيْهِ مِمَّنْ كَانَ فِي حَيْزِهِمْ فَقَدْ بَاءَ  
 بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ أَيُّ : فَقَدْ رَجَعَ مُتَلَبِّسًا بِغَضَبِ عَظِيمٍ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَسُوسَ  
 الْمَصِيرُ وَمَا وَاهُ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ جَهَنَّمَ دَارُ الْعِقَابِ وَسُوسَ الْمَصِيرِ جَهَنَّمَ . كَانَ

الْمُنْهَزِمَ أَرَادَ أَنْ يَأْوِيَ إِلَى مَكَانٍ يَأْمَنُ فِيهِ مِنَ الْهَلَاكِ فَعُوقِبَ عَلَى ذَلِكَ بِجَعْلِ عَاقِبَتِهِ الَّتِي  
يَصِيرُ إِلَيْهَا دَارَ الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ الدَّائِمِ أَيُّ جُوزِي بَصْدٍ غَرَضِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ الْفِرَارِ ، وَقَدْ  
تَكَرَّرَ فِي التَّنْزِيلِ التَّعْبِيرُ عَنْ جَهَنَّمَ وَالنَّارِ بِالْمَأْوَى ، وَهُوَ إِمَّا مِنْ قَبِيلِ مَا هُنَا ، وَإِمَّا لِلتَّهَكُّمِ  
الْمَحْضِ ، فَإِنَّكَ إِذَا رَاجَعْتَ اسْتِعْمَالَ هَذَا الْحَرْفِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَقَامِ مِنَ التَّنْزِيلِ تَجِدُهُ لَا  
يُذَكَّرُ إِلَّا فِي مَقَامِ النَّجَاةِ مِنْ خَوْفٍ أَوْ شِدَّةٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : إِذْ أَوْى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ (18 :  
10) وَقَوْلِهِ : أَوْ آوِيَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (11 : 80)

وَقَوْلِهِ : سَآوِيَ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ (11 : 43) وَقَوْلِهِ : وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا (8 :  
72) الْخ .

وَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ مِنْ كِبَائِرِ الْمَعَاصِي ، وَقَدْ جَاءَ التَّصْرِيحُ

(41/309)

---

بِذَلِكَ فِي أَحَادِيثِ أَصْحَابِهَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ اجْتَنَبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ  
- أَيِ الْمُهْلِكَاتِ - قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : الشِّرْكَ بِاللَّهِ ، وَالسَّحْرُ ، وَقَتْلُ  
النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ  
الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ وَقَدْ قَيَّدَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ هَذَا بِمَا إِذَا كَانَ الْكُفَّارُ لَا يَزِيدُونَ

عَلَى ضِعْفِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَدَّ بَعْضُهُمُ الْآيَةَ مَنْسُوخَةً بِقَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ : الْآنَ  
خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضِعْفًا (8 : 66) الْآيَةَ وَسَاتِي . وَهَذَا ظَاهِرٌ عَلَى قَوْلِ  
مَنْ يُسَمِّي التَّخْصِصَ نَسْخًا كَالْمُقَدِّمِينَ . قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : إِذَا غَزَا  
الْمُسْلِمُونَ فَلَقُوا ضِعْفَهُمْ مِنَ الْعَدُوِّ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُكَلِّمُوا إِلَّا مُتَحَرِّفِينَ لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزِينَ إِلَى فِتْنَةٍ  
، وَإِنْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ أَكْثَرَ مِنْ ضِعْفِهِمْ لَمْ أَحِبَّ لَهُمْ أَنْ يُكَلِّمُوا ، وَلَا يَسْتَوْجِبُونَ السُّخْطَ عِنْدِي  
مِنَ اللَّهِ لَوْ كَلَّمُوا عَنْهُمْ عَلَى غَيْرِ التَّحْرِيفِ لِلِقِتَالٍ أَوْ التَّحْيِزِ إِلَى فِتْنَةٍ ، وَرَوَى هُوَ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : مَنْ فَرَّ مِنْ ثَلَاثَةِ فَلَمْ يَفِرَّ ، وَمَنْ فَرَّ مِنْ اثْنَيْنِ فَقَدْ فَرَّ .

(42/309)

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِهِ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي بَصْرَةَ  
وَعِكْرِمَةَ وَنَافِعٍ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَزَيْدِ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ وَالضَّحَّاكَ أَنَّ تَحْرِيمَ الْفِرَارِ مِنَ  
الزَّحْفِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ خَاصٌّ بِيَوْمِ بَدْرٍ - قِيلَ : إِنَّهُ بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : يَوْمَئِذٍ يَرَادُ بِهِ يَوْمُ  
بَدْرٍ ، وَلَكِنَّ هَذَا خِلَافُ قَاعِدَةٍ : الْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ ، وَيُؤَيِّدُهُ نَزُولُ الْآيَةِ  
بَعْدَ انْتِهَاءِ الْغَزْوَةِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ "يَوْمِ بَدْرٍ" وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِتَنْوِينِ يَوْمِئِذٍ مَا فَهِمَ مِنْ أَوَّلِ  
الآيَةِ ، أَيُّ يَوْمٍ لِقَائِهِمْ زَحْفًا كَمَا تَقَدَّمَ ، فَالْيَوْمُ فِيهِ بِمَعْنَى الْوَقْتِ . وَإِنَّمَا قَدْ تَجَهَّ بِبِنَاءِ

التَّخْصِصِ عَلَى قَرِينَةِ الْحَالِ لَوْ كَانَتْ الْآيَةُ قَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ اشْتِبَاكِ الْقِتَالِ - خِلَافًا لِلْجُمْهُورِ -  
مَعَ مَا لِعَزْوَةِ بَدْرٍ مِنَ الْخِصَائِصِ كَكُونِهَا أَوَّلَ غَزْوَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ، لَوَانْهَزَمَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ  
وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ لَكَانَتِ الْفِتْنَةُ كَبِيرَةً ، وَتَأْيِيدُ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا بِالْمَلَائِكَةِ  
يُتَبَوَّنُهُمْ ، وَوَعْدُهُ تَعَالَى بِنَصْرِهِمْ ، وَإِلْقَاءِ الرَّعْبِ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ - فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى  
مَجْمُوعِ الْخِصَائِصِ ، وَقَرِينَةِ الْحَالِ فِي النَّهْيِ ، اتَّجَهَ كَوْنُ التَّحْرِيمِ الْمَقْرُونِ بِالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ  
الَّذِي فِي الْآيَةِ خَاصًّا بِهَا ، أَضْفُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى امْتَحَنَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ  
بِالتَّوَلَّى

(43/309)

---

وَالْإِدْبَارِ خَاصًّا بِهَا ، أَضْفُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى امْتَحَنَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِالتَّوَلَّى  
وَالْإِدْبَارِ فِي الْقِتَالِ مَرَّتَيْنِ مَعَ وُجُودِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمْ : يَوْمَ أُحُدٍ ، وَفِيهِ يَقُولُ اللَّهُ  
تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ  
مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (3 : 155) وَيَوْمَ حُنَيْنٍ وَفِيهِ يَقُولُ اللَّهُ  
تَعَالَى : لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ  
شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ

## وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ

(9: 25، 26) إِنْخ . وَهَذَا لَا يُنَافِي كَوْنَ التَّوَلَّى حَرَامًا وَمِنَ الْكِبَائِرِ ، وَلَا يَقْتَضِي أَنَّ  
يَكُونُ كُلُّ تَوَلَّى لغيرِ السَّبَبِينَ الْمُسْتَشِينِينَ فِي آيَةِ الْأَنْفَالِ يُبَوِّءُ صَاحِبَهُ بِغَضَبٍ عَظِيمٍ مِنَ اللَّهِ  
وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَسُسِ الْمَصِيرُ ، بَلْ قَدْ يَكُونُ دُونَ ذَلِكَ ، وَيَتَقَيَّدُ بِآيَةِ رُخْصَةِ الضَّعْفِ الْآتِيَةِ  
فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَبِالتَّهْيِ عَنْ إِقَاءِ النَّفْسِ فِي التَّهْلُكَةِ مِنْ حَيْثُ عُمُومِهَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي  
سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ قَرِيبًا .

(44/309)

وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ إِلَّا النَّسَائِيَّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : " كُنْتُ فِي سَرِيَّةٍ  
مِنْ سَرَائِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً ، وَكُنْتُ فِيْمِنْ حَاصٍ ، -  
فَقُلْنَا : كَيْفَ نَصْنَعُ وَقَدْ فَرَرْنَا مِنَ الرَّحْفِ وَبُؤْنَا بِالْغَضَبِ ؟ ثُمَّ قُلْنَا : لَوْ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ فَبِتْنَا  
، ثُمَّ قُلْنَا لَوْ عَرَضْنَا نَفُوسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنْ كَانَ لَنَا تَوْبَةٌ وَإِلَّا  
ذَهَبْنَا . فَأَتَيْنَاهُ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ فَخَرَجَ فَقَالَ : مَنْ ، الْفَرَارُونَ ؟ . فَقُلْنَا : نَحْنُ الْفَرَارُونَ .  
قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ أَنَا فَتُكُّمُ وَفِئَةُ الْمُسْلِمِينَ . قَالَ : فَأَتَيْنَاهُ حَتَّى قَبَلْنَا يَدَهُ . وَكَلَفَ أَبِي  
دَاوُدَ فَقُلْنَا : نَدْخُلُ الْمَدِينَةَ فَنَبِيْتُ فِيهَا لِنَذْهَبَ ، وَلَا يَرَانَا أَحَدٌ ، فَدَخَلْنَا فَقُلْنَا : لَوْ

عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنْ كَانَتْ لَنَا تَوْبَةٌ أَقْمَنَا ، وَإِنْ كَانَ  
غَيْرُ ذَلِكَ ذَهَبْنَا ، فَجَلَسْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ فَلَمَّا خَرَجَ  
قَمْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا : نَحْنُ الْفَرَّارُونَ الْخُ . " تَأَوَّلَ بَعْضُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ بِتَوْسَعٍ فِي مَعْنَى التَّحْيِزِ  
إِلَى فِتْنَةٍ لَا يَبْقَى مَعَهُ لِلْوَعِيدِ مَعْنَى ، وَلَا لِللُّغَةِ حُكْمٌ ، وَقَدْ قَالَ التِّرْمِذِيُّ فِيهِ : حَسَنٌ لَا نَعْرِفُهُ  
إِلَّا مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَبِي زِيَادٍ أَقُولُ : وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ ، ضَعَّفَهُ الْكَثِيرُونَ . وَقَالَ ابْنُ  
حِبَّانَ : كَانَ صَدُوقًا

(45/309)

إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَبِرَ سَاءَ حِفْظُهُ وَتَغَيَّرَ فَوْقَ عَتِ الْمَنَاقِبِ فِي حَدِيثِهِ ، فَمَنْ سَمِعَ مِنْهُ قَبْلَ التَّغْيِيرِ  
فَسَمَاعُهُ صَحِيحٌ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَا وَزْنَ لَهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا مَنَّا وَلَا  
سَنَدًا ، وَفِي مَعْنَاهُ أَثَرٌ عَنْ عُمَرَ هُوَ دُونَهُ فَلَا يُوضَعُ فِي مِيزَانِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ .  
وَأَمَّا قَوْلُهُ : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ فَهُوَ وَصَلٌ لِلنَّهْيِ عَنِ التَّوَلَّى بِمَا هُوَ حُجَّةٌ عَلَى  
جِدَارَتِهِمْ بِالْإِتِّهَاءِ ، فَإِنْ كَانَتِ الْآيَةُ الَّتِي قَبْلَهُ قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْقِتَالِ فِي غَزْوَةٍ بَدُرَ  
كَسَائِرِ السُّورَةِ كَمَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ فَوَجْهُ الْوَصْلِ بِالْفَاءِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا  
الْمُؤْمِنُونَ لَا تَكُونُوا الْكُفَّارَ ظُهُورَكُمْ فِي الْقِتَالِ أَبَدًا ، فَاتَّمَّ أَوْلَى مِنْهُمْ بِالثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ ثُمَّ بَنَصَرَ

اللَّهُ تَعَالَى ، فَهَا أَنْتُمْ أَوْلَاءِ قَدْ أَنْصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ عَلَى قَلَّةٍ عَدَدِكُمْ وَعُدَدِكُمْ وَكَثْرَتِهِمْ  
وَاسْتَعْدَادِهِمْ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ

(46/309)

بِأَيْدِي اللَّهِ تَعَالَى لَكُمْ ، وَرَبُّطِهِ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَتَثْبِيتِ أَقْدَامِكُمْ ، فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ذَلِكَ الْقَتْلَ  
الذَّرِيعَ بِمَحْضِ قُوَّتِكُمْ وَاسْتَعْدَادِكُمُ الْمَادِيِّ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ بِأَيْدِيكُمْ بِمَا كَانَ مِنْ تَثْبِيتِ  
قُلُوبِكُمْ بِمُخَالَطَةِ الْمَلَائِكَةِ وَمُلَابَسَتِهَا لِأَرْوَاحِكُمْ ، وَيَالِقَائِهِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَهُوَ بِمَعْنَى  
قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : قَاتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ (9 : 14) الْآيَةَ ،  
وَالْمُؤْمِنُ أَجْدَرُ بِالصَّبْرِ الَّذِي هُوَ الرُّكْنُ الْأَعْظَمُ لِلنَّصْرِ مِنَ الْكَافِرِ لِأَنَّهُ أَقْلُ حِرْصًا عَلَى مَتَاعِ  
الدُّنْيَا ، وَأَعْظَمُ رَجَاءً بِاللَّهِ وَالِدَّارِ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا  
تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ (4 : 104) وَقَالَ حِكَايَةُ لِرَدِّ  
الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا الرَّجَاءِ ، عَلَى الْخَائِفِينَ مِنْ كَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ : كَمْ مِنْ فِتَّةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتَّةً كَثِيرَةً  
يَا ذُنَّ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (2 : 249) .

(47/309)

ثُمَّ التَفَّتْ عَنْ خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقَاتِلِينَ بِأَيْدِيهِمْ ، وَالْمُجَنَّدِينَ لِصِنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ بِسُيُوفِهِمْ  
إِلَى خِطَابِ قَائِدِهِمْ وَهُوَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُؤَيَّدُ مِنْهُ تَعَالَى بِالْآيَاتِ ، وَمِنْهَا أَنَّهُ  
رَمَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ بِقُبْضَةٍ مِنَ التُّرَابِ قَائِلًا : " شَاهَتِ الْوُجُوهُ " فَأَعْقَبَتْ رَمِيَّتُهُ هَزِيمَتَهُمْ ،  
رَوَى عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ الْمَدَنِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ بِالْمَعْنَى .  
وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَالَ فِي  
اسْتِغَاثَتِهِ يَوْمَ بَدْرٍ : " يَا رَبِّ إِنَّ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا . قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ  
: خُذْ قُبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَارْمِ بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ - فَفَعَلَ فَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا أَصَابَ  
عَيْنَيْهِ وَمَنْخَرِيهِ وَفَمَهُ تُرَابٌ مِنْ تِلْكَ الْقُبْضَةِ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ " وَرَوَى السُّدِّيُّ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَبَ مِنْ عَلِيٍّ أَنْ يُعْطِيَهُ حَصْبًا مِنَ الْأَرْضِ ، فَنَآوَلَهُ حَصْبًا عَلَيْهِ تُرَابٌ فَرَمَاهُمْ  
بِهِ الْخُ . وَعَنْ عُرْوَةَ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَقَتَادَةَ أَيْضًا أَنَّ الْآيَةَ فِي رَمِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
فِي بَدْرٍ . فَإِذَا لَمْ تَكُنْ رِوَايَةٌ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ وَصَلَتْ إِلَى دَرَجَةِ الصَّحِيحِ فَمَجْمُوعُهَا



مَعَ الْقَرِينَةِ حُجَّةً عَلَى ذَلِكَ . وَرُوِيَ مِثْلُ هَذِهِ الرَّمِيَّةِ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ ، فَحَمَلُ الْآيَةِ بَعْضُهُمْ  
 عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ شَاذٌ ، وَحَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى رَمِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمِّيَّةِ بْنِ خَلْفٍ  
 بِالْحَرْبَةِ يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ مُقْتَعٌ بِالْحَدِيدِ فَقَتَلَهُ وَهُوَ شَاذٌ أَيْضًا ، فَالآيَةُ بَلِ السُّورَةُ نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ  
 بَدْرٍ . وَالْمَعْنَى وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتَ الْإِخ . وَمَا رَمَيْتَ أَيُّهَا الرَّسُولُ أَحَدًا مِنْ أَوْلِكَ  
 الْمُشْرِكِينَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي رَمَيْتَ فِيهِ تِلْكَ الْقُبْضَةَ مِنَ التَّرَابِ ، يَالْقَائَهَا فِي الْهَوَاءِ فَأَصَابَتْ  
 وَجُوهَهُمْ ، فَإِنْ مَا أُوتِيَتْهُ كَأَمْثَالِكَ مِنَ الْبَشَرِ مِنْ اسْتِطَاعَةِ عَلَى الرَّمِيِّ لَا يَبْلُغُ هَذَا التَّأثيرَ  
 الَّذِي هُوَ فَوْقَ الْأَسْبَابِ الْمَمْنُوحَةِ لَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَجُوهَهُمْ كُلَّهُمْ بِمَا أَوْصَلَ التَّرَابَ الَّذِي  
 أَتَيْتَهُ فِي الْهَوَاءِ إِلَيْهَا مَعَ قَلْتِهِ ، أَوْ بَعْدَ تَكْثِيرِهِ بِمَحْضِ قُدْرَتِهِ ، وَحَذَفِ مَفْعُولِ الرَّمِيِّ لِلدَّلَالَةِ  
 عَلَى عُمُومِهِ فِي كُلِّ مِنَ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ ، كَمَا قَدَرْنَا فِيهِمَا وَفَاقًا لِمَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي -  
 وَقَدْ عَلِمَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ الْمُتَبَادِرِ مِنَ اللَّفْظِ بغيرِ تَكْلُفٍ وَجْهَ الْفَرْقِ بَيْنَ قَتْلِ الْمُؤْمِنِينَ  
 لِلْكَفَّارِ الَّذِي هُوَ فَعْلٌ مِنْ أَفْعَالِهِمُ الْمُقَدُّورَةِ لَهُمْ بِحَسَبِ سُنَنِ اللَّهِ فِي الْأَسْبَابِ

(49/309)

---

الدُّبُيَّةِ ، وَيَبِينُ رَمِيَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهُمْ بِالتَّرَابِ الَّذِي لَيْسَ بِسَبَبٍ لِشِكَايَةِ  
 أَعْيُنِهِمْ وَشَوْهَةِ وَجُوهِهِمْ لِقَتْلِهِ ، وَبُعْدِهِمْ عَنْ رَامِيهِ ، وَكُونِهِمْ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِينَ كُلَّهُمْ لَهُ ،

وَلَأَجْلَ هَذَا الْفَرْقِ ذُكِرَ مَفْعُولُ الْقَتْلِ مُثَبِّتًا وَمَنْفِيًّا - وَهُوَ ضَمِيرُ الْمُشْرِكِينَ - فَفَنِيَ الْقَتْلُ  
 الْمَحْسُوسَ مُطْلَقًا ، وَأُثِّبَتِ الْمَعْقُولُ مُطْلَقًا ؛ لِعَدَمِ تَعَارُضِهِمَا ، فَالْمُرَادُ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا ظَاهِرٌ  
 بغيرِ شُبْهَةٍ ، وَلَوْ أُثِّبَتِ لَهُمُ الْقَتْلُ مَعَ نَفْيِهِ عَنْهُمْ بَأَنَّ قَالَ : إِذِ قَتَلْتُمُوهُمْ - لَكَانَ تَنَاقُضًا ظَاهِرًا  
 يَخْفَى وَجْهَهُ جَعَلَ الْمُثَبِّتَ مِنْهُ غَيْرَ الْمَنْفِيِّ . وَقَتْلُهُمْ لَهُمْ مُشَاهِدٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى إِثْبَاتٍ مِنْ  
 حَيْثُ كَانَ سَبَبًا نَاقِصًا ، وَإِنَّمَا الْحَاجَةُ إِلَى بَيَانِ نَقْصِهِ وَعَدَمِ اسْتِقْلَالِهِ بِالسَّبَبِيَّةِ ، ثُمَّ بَيَانُ  
 مَا لَوْلَاهُ لَمْ يَكُنْ ، وَهُوَ إِعَانَةُ اللَّهِ وَنَصْرُهُ .

(50/309)

وَأَمَّا رَمِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْجُوهِ الْقَوْمِ فَلَمْ يَكُنْ سَبَبًا عَادِيًّا لِإِصَابَتِهِمْ وَهَزِيمَتِهِمْ ،  
 لَا مُشَاهِدًا كَضَرْبِ أَصْحَابِهِ لِأَعْنَاقِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَا غَيْرَ مُشَاهِدٍ ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ نَفْيِهِ وَإِثْبَاتِهِ  
 لَا يُوهِمُ التَّنَاقُضَ لِلْعِلْمِ بِعَدَمِ السَّبَبِيَّةِ . وَلَمْ يُذَكَّرْ مَفْعُولُ الرَّمْيِ بِأَنَّ يُقَالَ : " وَمَا رَمَيْتَ  
 وَجُوهَهُمْ " إِذْ لَا شُبْهَةَ هُنَا فِي عَدَمِ اسْتِطَاعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِهَذَا اسْتِقْلَالًا  
 بِكَسْبِهِ الْعَادِيِّ ، وَأَمَّا هُنَا فَالظَّاهِرُ أَنَّ الْقَتْلَ مِنْ كَسْبِهِمُ الْاسْتِقْلَالِيَّ . وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَوْلَا  
 تَأْيِيدُ اللَّهِ تَعَالَى وَنَصْرُهُ بِمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ لَمَا وَصَلَ كَسْبُهُمُ الْمَحْضُ إِلَى  
 هَذَا الْقَتْلِ ، وَقَدْ عَلِمْنَا مَا كَانَ مِنْ خَوْفِهِمْ وَكَرَاهَتِهِمْ لِلْقِتَالِ وَمُجَادَلَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فِيهِ : كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (8 : 6) فَلَوْ ظَلَمُوا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ  
الْمَعْنَوِيَّةِ مَعَ قَلْبِهِمْ وَضَعْفِهِمْ لَكَانَ مُقْتَضَى الْأَسْبَابِ أَنْ يَمْحَقَهُمُ الْمُشْرِكُونَ مَحَقًّا .

(51/309)

وَأَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ فِعْلِهِ تَعَالَى فِي الْقَتْلِ وَفِعْلِهِ فِي الرَّمِيِّ . فَالْأَوَّلُ عِبَارَةٌ عَنْ تَسْخِيرِهِ تَعَالَى لَهُمْ  
أَسْبَابَ الْقَتْلِ الَّتِي تَقْدَمُ بَيَانُهَا ، كَمَا هُوَ الشَّانُ فِي جَمِيعِ كَسْبِ الْبَشَرِ وَأَعْمَالِهِمُ الْاِخْتِيَارِيَّةِ  
مِنْ كَوْنِهَا لَا تَسْتَقِلُّ فِي حُصُولِ غَايَاتِهَا إِلَّا بِفِعْلِ اللَّهِ وَتَسْخِيرِهِ لَهُمْ وَلِلْأَسْبَابِ الَّتِي لَا يَصِلُ إِلَيْهَا  
كَسْبُهُمْ عَادَةً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ  
لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا (56 : 63 - 65) الْإِخ . فَالْإِنْسَانُ يَحْرُثُ الْأَرْضَ ، وَيُلْقِي فِيهَا الْبَذَرَ ،  
وَلَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ إِزْئَالَ الْمَطَرِ ، وَلَا إِبْنَاتِ الْحَبِّ وَتَغْذِيَتَهُ بِالْتَّرَابِ الْمُخْتَلِفِ الْعِنَاصِرِ ، وَلَا دَفْعِ  
الْجَوَائِحِ عَنْهُ ، وَلَا يَسْتَقِلُّ إِجَادُ الزَّرْعِ وَبُلُوغُ ثَمَرَتِهِ وَصَلَاحَتِهَا بِكَسْبِهِ وَحُدُّهُ . وَأَمَّا الثَّانِي  
فَهُوَ مِنْ فِعْلِهِ تَعَالَى وَحُدُّهُ بِدُونِ كَسْبِ عَادِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَأْثِيرِهِ ،  
فَالرَّمِيُّ مِنْهُ كَانَ صُورِيًّا لَتَظْهَرِ الْآيَةُ عَلَى يَدِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ ، فَمَثَلُهُ فِي  
ذَلِكَ كَمَثَلِ أَخِيهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي إِقَابَةِ الْعَصَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تُسْعَى (20 : 20)  
فَخَافَ مِنْهَا أَوَّلًا كَمَا وَرَدَ فِي سُورَتِي طه وَالنَّمْلِ .

هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ نَظْمُ الْكَلَامِ بِمَا تَكَلَّفَ ، وَلَا حَمْلٌ عَلَى الْمَذَاهِبِ وَالْأَرَءِ الْحَادِثَةِ مِنْ

كَلَامِيَّة

(52/309)

وَتَصَوُّقِيَّةٍ وَغَيْرِهَا ، فَالْجَبْرِيُّ يُحْتَجُّ بِهَا عَلَى سَلْبِ الْاِخْتِيَارِ ، وَكَوْنِ الْاِنْسَانِ كَالرِّيشَةِ فِي  
الْهَوَاءِ ، وَالْاِتِّحَادِيُّ يُحْتَجُّ بِهَا عَلَى وَحْدَةِ الْوُجُودِ ، وَكَوْنِ الْعَبْدِ هُوَ الرَّبُّ الْمَعْبُودُ ،  
وَالْاَشْعَرِيُّ يُحْتَجُّ بِهَا عَلَى الْجَمْعِ بَيْنِ كَسْبِ الْعَبْدِ وَخَلْقِ الرَّبِّ يَأْسِنَادِ الرَّمِيِّ إِلَى النَّبِيِّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِلَى الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ . وَهُوَ يُغْنِي عَنْ إِسْنَادِ الْقَتْلِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ  
بِالْأَوْلَى ، وَالْقُرْآنُ فَوْقَ الْمَذَاهِبِ وَقَبْلَهَا ، غَنِيٌّ بِفَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ عَنْ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ كُلِّهَا  
كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (30 : 32) وَكَلَامُ اللَّهِ فَوْقَ مَا يَظُنُّونَ .

وَأَمَّا مَوْقِعُ " الْفَاءِ " فِي أَوَّلِ الْآيَةِ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ عَلَيْهَا نَزَلَتْ قَبْلَ الْقِتَالِ تَحْرِيفًا  
عَلَيْهِ ، فَقَدْ قِيلَ : إِنَّهَا وَقَعَتْ فِي جَوَابِ شَرْطِ مُقَدَّرٍ ، وَاخْتَلَفُوا فِي تَقْدِيرِهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ :  
بَلْ هِيَ لِمُجَرَّدِ رِبْطِ الْجُمْلِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ نَزُولِهَا بَعْدَ الْمَعْرَكَةِ ،  
وَوَصْلِهَا بِمَا قَبْلَهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّغْلِيلِ وَالِاِحْتِجَاجِ

عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ النَّهْيِ عَنِ الْهَزِيمَةِ ، وَأَوْلَى مِنْهُ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى نُزُولِ مَا قَبْلَهَا فِي ضِمْنِ  
السُّورَةِ بَعْدَ الْمَعْرَكَةِ .

(53/309)

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلِيُبَلِّغِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى تَعْلِيلِ مُسْتَقَادِ مِمَّا قَبْلَهُ  
، أَيُّ أَنَّهُ فَعَلَ مَا ذَكَرَ لِإِقَامَةِ حُجَّتِهِ ، وَتَأْيِيدِ رَسُولِهِ وَلِيُبَلِّغِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا بِالنَّصْرِ  
وَالْغَنِيمَةِ وَحُسْنِ السُّمْعَةِ . وَالْبَلَاءُ : الْإِخْتِبَارُ بِالْحَسَنِ أَوْ بِالسَّيِّئِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي نَبِيِّ  
إِسْرَائِيلَ : وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ (7 : 168) وَتَقَدَّمَ بَيَانُهُ بِالتَّفْصِيلِ . وَحَتَمَ  
الآيَةَ بِقَوْلِهِ : إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَهُوَ تَعْلِيلٌ مُسْتَأْنَفٌ لِلْبَلَاءِ الْحَسَنِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ  
لَمَّا كَانَ مِنَ اسْتِغَاثَةِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ الرَّسُولِ رَبِّهِمْ وَدُعَائِهِمْ إِيَّاهُ وَحَدُّهُ ، عَلِيمٌ بِصِدْقِهِمْ  
وَإِخْلَاصِهِمْ ، وَبِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى اسْتِجَابَتِهِ لَهُمْ مِنْ تَأْيِيدِ الْحَقِّ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ ، وَخِذْلَانِ  
الشَّرِكِ ، كَمَا أَنَّهُ سَمِيعٌ لِكُلِّ نِدَاءٍ وَكَلَامٍ ، عَلِيمٌ بِالنِّيَّاتِ الْبَاطِنَةِ عَلَيْهِ ، وَالْعَوَاقِبِ الَّتِي تَنْشَأُ  
عَنْهُ ، وَبِكُلِّ شَيْءٍ .

(54/309)

---

وَلَمَّا كَانَ مِنْ سُتَّةِ الْقُرْآنِ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ ، وَبَيْنَ أَهْلِ كُلِّ مِنْهُمَا وَجَزَائِهِمَا عَلَيْهِمَا  
قَالَ : ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ أَيُّ : الْأَمْرِ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَفَائِدَتُهُمْ مِمَّا تَقَدَّمَ هُوَ ذَلِكُمْ  
الَّذِي سَمِعْتُمْ ، وَيُضَافُ إِلَيْهِ تَعْلِيلٌ آخَرٌ ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ، أَيُّ  
مُضَعِفٌ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَمُحَاوَلَتِهِمُ الْقَضَاءَ  
عَلَى دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ وَالْإِصْلَاحِ قَبْلَ أَنْ تَقْوَى وَتَشْتَدَّ ، قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَأَبُو بَكْرٍ (مُوهِنٌ)  
بِتَشْدِيدِ الْهَاءِ وَالتَّنْوِينِ وَنَصَبِ (كَيْدٍ) وَالتَّشْدِيدِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْوَهْنِ . وَقَرَأَ حَفْصٌ عَنْ  
عَاصِمٍ بِالتَّخْفِيفِ وَالْإِضَافَةِ وَالْبَاقُونَ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّنْصِبِ .  
وَقَدْ صَرَّحَ التَّنْزِيلُ بِجَزَاءِ الْفَرِيقَيْنِ فِي تَعْلِيلِ آخَرٍ فِي عَاقِبَةِ الْحَرْبِ ، قَالَ فِي سِيَاقِ غَزْوَةِ  
أَحَدٍ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا  
بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ  
الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ  
(3 : 140 ، 141) .

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ قِيلَ: إِنَّ الْخِطَابَ لِلْكَفَّارِ، ذَكَرَ خِذْلَانُهُمْ وَإِضْعَافَ  
كَيْدِهِمْ، ثُمَّ التَّفَتَّ عَنْهُ إِلَى تَذْكِيرِهِمْ وَتَوْبِيخِهِمْ عَلَى اسْتِنْصَارِهِمْ إِيَّاهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(56/309)

ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَعُرْوَةُ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ "أَنَّ أَبَا جَهْلٍ  
قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: اللَّهُمَّ إِنَّا كَانُوا أَقْطَعَ لِلرَّحِمِ، وَأَتَى بِمَا لَا يُعْرَفُ فَأَحْنَهُ الْغَدَاةَ. فَكَانَ ذَلِكَ  
اسْتِفْتَا حَامِنَهُ" رَوَاهُ عَنْهُ أَحْمَدُ، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنِ  
الزُّهْرِيِّ، وَرَوَى مِثْلَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ  
: كَانَ الْمُشْرِكُونَ حِينَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَدْرٍ أَخَذُوا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَاسْتَنْصَرُوا اللَّهَ  
وَقَالُوا: اللَّهُمَّ انصُرْ أَعْلَى الْجُنْدَيْنِ، وَأَكْرَمَ الْفِئَتَيْنِ، وَخَيْرَ الْقَبِيلَتَيْنِ، فَقَالَ اللَّهُ: إِنْ  
تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ يَقُولُ: قَدْ نَصَرْتُ مَا قَاتَلْتُمْ وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"  
وَفِي رِوَايَةٍ "أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ حِينَ اتَّقَى الْجَمْعَانَ: اللَّهُمَّ رَبَّ دِينِنَا الْقَدِيمِ وَدِينِ مُحَمَّدٍ  
الْحَدِيثِ، فَأَيُّ الدِّينَيْنِ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْكَ، وَأَرْضِي عِنْدَكَ فَانصُرْ أَهْلَهُ الْيَوْمَ" فَالْفَتْحُ هُوَ  
نَصْرُ النَّبِيِّ وَدِينِهِ وَأَتْبَاعِهِ. وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ مَغْرُورًا بِشِرْكِهِ وَاتِّقًا بِدِينِهِ،

وَلَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ أَكْبَارِ مُجْرِمِي مَكَّةَ كَذَلِكَ ، بَلْ كَانَ كُفْرُهُمْ عَنْ كِبَرِ وَعُلُوِّ وَحَسَدِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَإِنْ تَنَّهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ أَيُّ: إِنْ تَنَّهُوا عَنْ عِدَاوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ وَقَاتَلَهُ فَالِاتِّهَاءُ

(57/309)

خَيْرٌ لَكُمْ وَلَا نَكُمْ لَا تَكُونُوا إِلَّا مَغْلُوبِينَ مَخْذُولِينَ كَقَوْلِهِ : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ وَمَا لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ  
إِلَى جَهَنَّمَ وَبَسَّ الْمِهَادُ (3 : 12) وَالْخَيْرِيَّةُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْإِسْتِمْرَارِ عَلَى  
الْعُدْوَانِ وَالْقِتَالِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْإِتِّهَاءُ عَنِ الشَّرِكِ فَتَكُونُ الْخَيْرِيَّةُ عَلَى حَقِيقَتِهَا  
وَكَمَا لَهَا وَإِنْ تَعُدُّوْا نَعْدُ أَيُّ: إِنْ تَعُدُّوْا إِلَى مُقَاتَلَتِهِ نَعْدُ لِمَا رَأَيْتُمْ مِنَ الْفَتْحِ لَهُ عَلَيْكُمْ حَتَّى  
يَجِيءَ الْفَتْحُ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَذِلُّ فِيهِ شُرَكَكُمْ ، وَتُدُولُ الدَّوْلَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَيْكُمْ وَلَنْ تَغْنِي  
عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ أَيُّ: وَلَنْ تَدْفَعَنَّ عَنْكُمْ جَمَاعَتَكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَيْئًا مِنْ بَأْسِ  
اللَّهِ وَبَطْشِهِ وَلَوْ كَثُرَتْ عَدَدًا فَالْكَثْرَةُ لَا تَكُونُ سَبَبًا لِلنَّصْرِ ، إِلَّا إِذَا تَسَاوَتْ مَعَ الْقَلَّةِ فِي  
النَّبَاتِ وَالصَّبْرِ ، وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَعُونَةِ وَالْوَلَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ فَلَا  
تَضُرُّهُمْ قَلَّتْهُمْ . قَرَأَ نَافِعُ وَابْنُ عَامِرٍ (وَأَنَّ) وَحَفْصٌ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ بِتَقْدِيرِ اللَّامِ أَيُّ: وَلَئِنَّ اللَّهَ مَعَ  
الْمُؤْمِنِينَ



كَانَ الْأَمْرُ مَا ذَكَرَهُ، وَقَرَأَهَا الْبَاقُونَ بِالْكَسْرِ عَلَى الْإِسْتِنَافِ .

وَقِيلَ: إِنَّ الْخِطَابَ فِي آيَةِ الْمُؤْمِنِينَ كَسَابِقِهِ وَلَا حَقَّهُ، وَالْمَعْنَى: إِنَّ تَسْتَنْصِرُوا رَبَّكُمْ  
وَتَسْتَغِيثُوهُ عِنْدَ شُعُورِكُمْ بِالضَّعْفِ وَالْقِلَّةِ فَقَدْ جَاءَكُمْ النَّصْرُ، وَإِنْ نَتَيْتُمْ عَنْ التَّكَاسُلِ فِي  
الْقِتَالِ

(58/309)

---

وَالرَّغْبَةُ عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ الرَّسُولُ، وَمُجَادَلَتُهُ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . وَإِنْ تَعُودُوا  
إِلَيْهِ نَعُدُّ عَلَيْكُمْ بِالْإِنْكَارِ أَوْ تَهْيِيجِ الْعَدُوِّ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ كَثْرَتُكُمْ إِذَا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ مَعَكُمْ  
بِالنَّصْرِ، فَهِيَ نَحْنُ أَوْلَاءُ قَدْ نَصَرْنَاكُمْ عَلَى قَتْلِكُمْ وَضَعْفِكُمْ . هَذَا أَقْوَى مِنْ كُلِّ مَا رَأَيْنَاهُ فِي  
تَصْوِيرِ الْمَعْنَى، فَأَكْثَرُ مَا قَالُوهُ ظَاهِرُ التَّكْلِيفِ، وَلَوْلَا السِّيَاقُ لَكَانَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَرْجَحَ؛ لِأَنَّهُ  
أَظْهَرَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار ح 9 ص 509.520 ﴾

(59/309)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾

جمهور المفسرين جعلوا الخطاب موجهاً إلى المشركين ، فيكون الكلام اعتراضاً خوطب به المشركون في خلال خطبات المسلمين بمناسبة قوله : ﴿ ذلکم وأن الله موهن كيد الكافرين

﴿ [ الأنفال : 18 ] والخطاب التفات من طريق الغيبة الذي اقتضاه قوله : ﴿ وأن الله

موهن كيد الكافرين ﴾ [ الأنفال : 18 ] وذكر المفسرون في سبب نزولها أن أبا جهل

وأصحابه لما أزمعوا الخروج إلى بدر استنصروا الله تجاه الكعبة ، وأنهم قبل أن يشرعوا في

القتال يوم بدر استنصروا الله أيضاً وقالوا ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه ، فخطبوا

بأن قد جاءهم الفتح على سبيل التهكم أي الفتح الذي هونصر المسلمين عليهم .

وإنما كان تهكماً لأن في معنى ﴿ جاءكم الفتح ﴾ استعارة الجيء للحصول عندهم

تشبيهاً بمجيء المنجد لأن جعل الفتح جاءياً إياهم .

يقضي أن النصر كان في جانبهم ولمنفعتهم ، والواقع يخالف ذلك ، فعلم أن الخبر مستعمل في

التهكم بقرينة مخالفة الواقع بمسمع المخاطبين ومرآهم .

وحمل ابن عطية فعل ﴿ جاءكم ﴾ على معنى : فقد تبين لكم النصر ورأيتموه أنه عليكم

للكم ، وعلى هذا يكون الجيء بمعنى الظهور : مثل ﴿ وجاء ربك ﴾ [ الفجر : 22 ]

ومثل ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ﴾ [ الإسراء : 81 ] ولا يكون في الكلام تهكم .

وصيغ ﴿ تستفتحوا ﴾ بصيغة المضارع مع أن الفعل مضى لقصد استحضار الحالة من تكريرهم الدعاء بالنصر على المسلمين ، وبذلك تظهر مناسبة عطف ﴿ وإن تنهوا فهو خير لكم ﴾ إلى قوله ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ أي تنهوا عن كفركم بعد ظهور الحق في جانب المسلمين .

وعطف الوعيد على ذلك بقوله : ﴿ وإن تعودوا نعد ﴾ أي : إن تعودوا إلى العناد والقتال نعد ، أي نعد إلى هزمتكم كما فعلنا بكم يوم بدر .

(60/309)

---

ثم أيأسهم من الانتصار في المستقبل كله بقوله : ﴿ ولن تغني عنكم فتكم شيئاً ولو كثرت ﴾ أي لا تنفعكم جماعتكم على كثرتها كما لم تغن عنكم يوم بدر ، فإن المشركين كانوا يومئذٍ واثقين بالنصر على المسلمين لكثرة عددهم وعددهم .

والظاهر أن جملة : ﴿ إن تعودوا ﴾ معطوفة على جملة الجزاء وهي : ﴿ فقد جاءكم الفتح ﴾ .

﴿ لو ﴾ اتصالية أي ﴿ لن ﴾ تغني عنكم في حال من الأحوال ولو كانت في حال كثرة على فئة أعدائكم ، وصاحب الحال المقترنة بـ ( لو ) الاتصالية قد يكون متصفاً بمضمونها ،

وقد يكون متصفاً بنقيضه ، فإن كان المراد من العود في قوله : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا ﴾ العود إلى طلب النصر للمُحَقِّ فالمعنى واضح ، وإن كان المراد منه العود إلى محاربة المسلمين فقد يشكل بأن المشركين انتصروا على المسلمين يوم أُحُد فلم يتحقق معنى نَعُدُّ ولا موقع لجملة : ﴿ وَلَنْ تَغْنِيَّ عَنْكُمْ فَتُّكُمْ ﴾ فَإِنْ فَتَّتْهُمْ أَغْنَتْ عَنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ .

والجواب عن هذا الإشكال أن الشرط لم يكن بأداة شرط مما يفيد العموم مثل ( مَهْمَا ) فلا يُبطله تخلف حصول مضمون الجزاء عن حصول الشرط في مرة ، أو نقول إن الله قضى للمسلمين بالنصر يوم أُحُد ، ونصرهم وعلم المشركون أنهم قد غلبوا ثم دارت الهزيمة على المسلمين ؛ لأنهم لم يمتثلوا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرحوا عن الموضع الذي أمرهم أن لا يبرحوا عنه طلباً للغنيمة فعوقبوا بالهزيمة كما قال :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِيِّ الْجَمْعَانَ فَيَاذَنَ اللَّهُ ﴾ [ آل عمران : 166 ] وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقِيِّ الْجَمْعَانَ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ وقد مضى ذلك في سورة [ آل عمران : 155 ] ، وبعدُ ففي هذا الوعيد بشارة أن النصر الحاسم سيكون للمسلمين وهو نصر يوم فتح مكة .

(61/309)

وجملة: وأن الله مع المؤمنين ﴿ على هذا التفسير زيادة في تأييس المشركين من النصر ، وتنويه بفضل المؤمنين بأن النصر الذي اتصروه هو من الله لا بأسبابهم فإنهم دون المشركين عدداً وعدة .

ومن المفسرين من جعل الخطاب بهذه الآية للمسلمين ، ونسب إلى أبي بن كعب وعطاء ، لكون خطاب المشركين بعد الهجرة قد صار نادراً ، لأنهم أصبحوا بعداء عن سماع القرآن ، فتكون الجملة مستأنفة استينافاً بيانياً فإنهم لما ذكروا باستجابة دعائهم بقوله : ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ [ الأنفال : 9 ] الآيات ، وأمروا بالثبات للمشركين ، وذكروا بنصر الله تعالى إياهم يوم بدر بقوله : ﴿ فلم تقتلوهم إلى قوله مؤهن كيد الكافرين ﴾ [ الأنفال : 17 ، 18 ] كان ذلك كله يثير سؤالاً يختلج في نفوسهم أن يقولوا أيكون كذلك شأننا كلما جاهدنا أم هذه مزية لوقعة بدر ، فكانت هذه الآية مفيدة جواب هذا التساؤل .

فالمعنى : إن تستنصروا في المستقبل قوله فقد جاءكم الفتح ، والتعبير بالفعل الماضي في جواب الشرط للتنبيه على تحقيق وقوعه ، ويكون قوله ﴿ فقد جاءكم الفتح ﴾ دليلاً على كلام محذوف ، والتقدير : إن تستنصروا في المستقبل نصركم فقد نصرناكم يوم بدر . والاستقناع على هذا التفسير كناية عن الخروج للجهاد ، لأن ذلك يستلزم طلب النصر ومعنى ﴿ وإن انتهوا فهو خير لكم ﴾ أي إن تمسكوا عن الجهاد حيث لا يتعين فهو أي الإمساك ، خير لكم لتستجمعوا قوتكم وأعدادكم ، فأنتم في حال الجهاد منتصرون ، وفي

حال السلم قائمون بأمر الدين وتدير شؤونكم الصالحة ، فيكون كقول النبي صلى الله عليه وسلم لا تمنوا لقاء العدو ، وقيل المراد وإن تنهوا عن التشاجر في أمر الغنيمة أو عن التفاخر بانتصاركم يوم بدر فهو خير لكم من وقوعه .

وأما قوله : ﴿ وإن تoodوا نعد ﴾ على هذا التفسير فهو إن تoodوا إلى طلب النصر نعد فننصركم أي لا ينقص ذلك من عطائنا كما قال زهير :  
سألنا فأعطيتكم وعدنا فعدتُم

(62/309)

ومن أكثر التسأل يوماً سيُحرم . . .

يُعلمهم الله صدق التوجه إليه ، ويكون موقع ﴿ ولن تغني عنكم فتكم شيئاً ﴾ زيادة تقرير لمضمون ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ وقوله : ﴿ وإن تoodوا نعد ﴾ أي لا تعتمدوا إلا على نصر الله .

فموقع قوله : ﴿ ولن تغني عنكم فتكم شيئاً ﴾ بمنزلة التعليل لتعليق مجيء الفتح على أن ﴿ تستفتحوا ﴾ المشعر بأن النصر غير مضمون الحصول إلا إذا استنصروا بالله تعالى وجملة ﴿ ولو كثرت ﴾ في موضع الحال ، و ﴿ لو ﴾ اتصالية ، وصاحب الحال متصف

بضد مضمونها ، أي : ولو كثرت فكيف وفئتكم قليلة ، وعلى هذا الوجه يكون في قوله :  
﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ إظهار في مقام الإضمار ، لأن مقتضى الظاهر أن يقال : وإن الله  
معكم ، فعدل إلى الاسم الظاهر للإيماء إلى أن سبب عناية الله بهم هو إيمانهم .  
فهذان تفسيران للآية والوجدان يكون كلاهما مراداً .  
والفتح حقيقة إزالة شيء مجعول حاجزاً دون شيء آخر ، حفظاً له من الضياع أو  
الافتكاك والسرقة ، فالجدار حاجز ، والباب حاجز ، والسد حاجز ، والصندوق حاجز  
، والعدل تجعل فيه الثياب والمتاع حاجز ، فإذا أزيل الحاجز أو فرج فيه فرجة يسلك منها  
إلى المحجوز سميت تلك الإزالة فتحاً ، وذلك هو المعنى الحقيقي ، إذ هو المعنى الذي لا  
يخلو عن اعتباره جميع استعمال مادة الفتح وهو بهذا المعنى يستعار لإعطاء الشيء العزيز  
النوال استعارة مفردة أو تمثيلية وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا  
عليهم أبواب كل شيء ﴾ [ الأنعام : 44 ] وقوله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا  
لفتحنا عليهم بركات ﴾ الآية في سورة [ الأعراف : 96 ] فالاستفتاح هنا طلب الفتح أي  
النصر ، والمعنى إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر .

(63/309)

---

وكثير إطلاق الفتح على حلول قوم بأرض أو بلد غيرهم في حرب أو غارة، وعلى النصر،  
وعلى الحُكم، وعلى معانٍ أُخر، على وجه المجاز أو الكناية وقوله: وأن الله مع المؤمنين  
﴿ وقرأه نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، بفتح همزة ﴾ أن ﴿ على  
تقدير لام التعليل عطفاً على قوله: ﴿ وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ [الأفقال: 18]  
وقراه الباقون بكسر الهمزة، فهو تذييل للآية في معنى التعليل، لأن التذييل لما فيه من العموم  
يصلح لإفادة تعليل المذيل، لأنه بمنزلة المقدمة الكبرى للمقدمة الصغرى. انتهى انتهى. اهـ  
﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(64/309)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿ إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾

و"تستفتحوا" من الاستفتاح وهو طلب الفتح؛ لأن الألف والسين والتاء تأتي بمعنى  
الطلب، فنقول: استفهم أي طلب الفهم، و"إن تستفتحوا"، أي تطلبوا الفتح، ونعلم أن  
المعنويات مأخوذة كلها من الأمر الحسي؛ لأن أول إلف للإنسان في المعلومات جاء من  
الأمر الحسي؛ ثم تكون للإنسان المعلومات العقلية. ومثال ذلك قولنا: "إن النار محرقة



" ، وعرفنا هذا القول من تجربة حسية مرت بأكثر من إنسان ثم صارت قضية عقلية يعرفها الإنسان وإن لم ير ناراً وإن لم ير إحراقاً .

وعندما تجتمع المحسات تتكون عند الإنسان خمائر معنوية وقضايا كلية يدير بها شؤونه العامة ، ومثال ذلك : إننا نعرف جميعاً أن المجتهد ينجح ، وأخذنا هذه الحقيقة من الواقع ، تماماً كما أخذنا الحقيقة القائلة : إن المقصر والمهمل كل منهما يرسب .

وسبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه فيقول : ﴿ وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [النحل : 78] .

أي أن الإنسان منا مخلوق وهو خالي الذهن ، وخلقوا الذهن يطلب الامتلاء ، وكل معلومة يتلقاها الذهن الصغير يستطيع أن يستظهرها فوراً ، ولذلك نجد التلميذ الصغير أقدر على حفظ القرآن الكريم من الشاب الكبير ؛ لأن هذا الشاب الكبير قد يزدحم ذهنه بالمعلوم العقلي .

وقد شرح لنا علماء النفس هذه المسألة حين قالوا : إن لكل شعور بؤرة هي مركز الشعور . والأمر الذي تفكر فيه تجد المعلومات الخاصة به في ذهنك فوراً . وقد تزحزح هذه

المعلومات من ذاكرتك إذا فكرت في موضوع آخر ، كما تزحزح المعلومات الخاصة بالموضوع السابق إلى حافة الشعور لتحل مكانها المعلومات الخاصة بالموضوع الجديد في بؤرة الشعور .

والحيز في المعنويات مثله مثل الحيز في الحسيّات ، فأنت حين تملأ زجاجة بالمياه لا بد أن تكون فوهة الزجاجة متسعة لتدخل فيها المياه ويخرج الهواء الذي بداخل الزجاجة . لكن إن كانت فوهة الزجاجة ضيقة كفوهة زجاجة العطر مثلاً فهذه يصعب ملؤها بالمياه إلا بواسطة أداة لها سن رفيع كالسرنجة الطبية حتى يمكن إدخال المياه وطردها الهواء الموجود بداخل الزجاجة ذات الفوهة الضيقة .

وهكذا نرى أن الحيز في الأمور المحسوسة لا يسع كميتين مختلفتي النوعية ، ويكون حجم كل منهما مساوياً لحجم الحيز . وتقرب المسألة في المنح من هذا الأمر أيضاً ، فأنت لا تتذكر المعلومات الخاصة بموضوع معين إلا إذا كان الموضوع في مركز الشعور ، فإذا ما ابتعد الموضوع عن تفكيرك بعدت المعلومات الخاصة به إلى حاشية الشعور البعيدة . والطفل الصغير يكون خالي الذهن لذلك يستقبل المعلومات بسرعة ويكون مستحضراً لها . ولذلك لا يجب أن تتهم إنساناً بالغباء وآخر بالذكاء لمجرد قدرة واحد على سرعة التذكر وعجز الآخر عن مجاراة زميله في ذلك ، فالذكاء له مقاييس متعددة ما زال العلماء إلى الآن يختلفون حولها .

لكن في موضوع التذكر اتفق جانب كبير من العلماء على أن الذهن كآلة التصوير يأخذ المعلومة من أول لقطة شريطة أن تكون بؤرة الشعور خالية لهذه المعلومة . أما إن كانت بؤرة الشعور مشغولة بأمر آخر فهي لا تلتقط المعلومة . والحق سبحانه وتعالى هو القائل : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78] .  
والسمع والأبصار هما عمدة الحواس ، نأخذ بهما محسّات ونُكوّنُ منها معلومات عقلية .  
والحق تبارك وتعالى هنا يقول :

(66/309)

---

﴿ إِن تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِن تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : 19] .  
والفتح يُطلق إطلاقات متعددة ، منها الحسّي ، مثل فتح الباب أو فتح الكيس ويقصد إزالة إغلاق شيء يصون شيئاً ، مثل فتح الباب ، والباب إنما يصون ما بداخل الغرفة . والفتح الحسّي يمثله القرآن الكريم بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ [يوسف : 65] .

أي إن إخوة يوسف حين فتحوا الأخراج - وكانت هي بديلة الحقائب - وجدوا البضاعة التي كانوا قد أخذوها معهم ليستبدلوا بها سلعاً أخرى . وهذا هو الفتح الحسي .

وقد يكون الفتح في الأمور المعنوية كالفتح في الخير وفي العلم مثل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [ فاطر : 2 ] .

إذن ففتح الرحمة فتح معنوي .

وقد يكون الفتح في الحكم ؛ لأن الحكم يكون بين أطراف مشتبكة في قضية ، وكل طرف يدعي على الآخر ، ويأتي الحكم ليزيل خفاء القضية ويفتحها .

ومثال ذلك ما حدث بين سيدنا نوح عليه السلام وقومه . فقومه قالوا : ﴿ لَنْ لَمْ تُنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [ الشعراء : 116 ] .

فماذا قال سيدنا نوح عليه السلام ؟ : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ \* فَاتِّحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَبَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الشعراء : 117 - 118 ] .

أي أن سيدنا نوحاً عليه السلام قد دعا الله أن يفصل في القضية التي بينه وبين قومه بالحق وهو يعلم أن الله تعالى معه . لذلك طلب منه النجاة لنفسه ولمن معه من المؤمنين .

(67/309)

وهنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد أن الفتح يأتي بمعنى الحكم الذي يفصل بين المتنازعين ، وهو صلب حكم يفصل بين فريقين ، فريق الهدى والداعي إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين ، وفريق الضلال وهم كفار قريش . وقد استفتح الفريقان ، فقد قال أبو جهل حين التقى القوم : " اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة " .

لقد ظن أبو جهل أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم يقطع رحمهم ، ويجعل الولد يترك أباه وأمه ، وأيضا كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا :

" اللهم انصر أعلى الجندين ، وأكرم الفتى وخير القبيلتين "

هكذا كان دعاء الكفار .

أما دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو قوله :

" يا رب إن تهلك هذه العصاة فلن تعبد في الأرض أبداً " .

والاستفتاح من الطرفين يدل على أن كلامهما مجهد بأمر الآخر ، فلو كان أحدهما مرتاحا والآخر متعبا لطلب المتعب الفتح وحده .

وجاء الحكم من الله سبحانه وتعالى في القضية هذه ، حيث حكم تبارك وتعالى على الكافرين بأن يُسلبوا ويقتلوا ويصبحوا مثار السخرية من أنفسهم وممن يرونهم وقد استحقوا

ذلك بسبب كفرهم وضلالهم وعنادهم ومحاربتهم للحق ، والذي رجح أن الفتح جاء  
أيضاً من المؤمنين أن الحق قال :

﴿ فَقدَ جاءَ كُمُ الفُتْحِ ﴾ [ الأنفال : 19 ] .

(68/309)

---

أي إن كنتم قد استفتحتم وطلبتم الفصل والحكم فقد جاءكم الفتح ، وهذا الفتح كان في  
صالح المؤمنين ، وأيضاً في صالح دعاء الكافرين ، إنه جاء في الأمرين الاثنين ؛ فتح للمؤمنين ،  
وفي صالح دعاء الكفار . فأتتم - أيها الكافرون - قد دعوتهم ، فإما أن تكونوا قد دعوتهم  
والله أجاب دعاءكم وهو شر عليكم ، وهذا دليل على أنكم أغبياء في الدعاء ، وما دام  
الفتح قد جاء ، كان الواجب أن ينتهي كل فريق عند الحد الذي وقع ، وكان على الكافرين  
أن يقتنعوا بأنهم انهزموا ، وعلى المؤمنين أن يقتنعوا بأنهم انتصروا .

﴿ وَإِن تَنهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [ الأنفال : 19 ] .

"وتنهوا" هذه صالحة أولاً بظاهرها للكفار ، أي إن تنهوا عن معاداة الرسول وخصومته  
، والليجج في أنكم جعلتموه عدوا ، وتكتلون وتآمرون عليه ، فإن تنهوا فهذا خير لكم في  
دنياكم لأنكم قد رأيتم النتيجة . حيث قتل البعض من صناديدكم ، وأسر البعض الآخر ،

وأخذت منكم الأسلاب والغنائم . فإن اتهمتم عن العمل الذي سبب هذا فهو خير لكم في دنياكم ، وخير لكم أيضاً في آخراكم ؛ إذا كان الانتهاء سيئاً بكم إلى أن تنتهوا عن محاصمة الدين الذي تحاصمونه وتصبحوا من المنتمين إليه .  
ويتابع سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدُكُمْ لَنْ تَغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ [ الأنفال : 19 ] .

وإن لم تنتهوا وعدتم إلى العداة ومحاربة هذا الدين فسنعود لنصرة المؤمنين ، وإياكم أن تقولوا إنكم فئة كثيرة ؛ ففتنكم لن تغني من الله عنكم شيئاً ، والدليل على ذلك أنكم هزمتهم في بدر وأتم كثرة ، وأصحاب عدد ، وأصحاب عدة . فما أغنت عنكم كثرتكم ولا عدتكم شيئاً .

﴿ وَلَنْ تَغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأنفال : 19 ] .

وكان المؤمنون قلة ورغم ذلك كانوا هم الغالبين .

(69/309)

---

وما تقدم إنما يعني الكلام بالنسبة للكفار ، فماذا إذا كان الكلام والاستفتاح بالنسبة للمؤمنين ، ففي أي شيء ينتهون ؟ .

إن عليهم أن ينتهوا عن اللجاج والخلاف في الغنائم ، الذي جاء فيه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [ الأنفال : 1 ] .

وهم قد اضطروا أن يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ربه ، فإن عادوا للنزاع والجدل فيما بينهم وكأنهم فريقان متعارضان غير مجموعين على إيمان ، فلن تغني فئة عن أخرى شيئاً ، وعليكم أن تعلموا يا أهل الإيمان أنه إن عزت طائفة منكم ، فلتهن أمامها الطائفة الأخرى ، ولا تظنوا أنكم بالنصر قد صرتم كثيراً لأن النصر لم يكن لا بالفئة ولا بالملائكة ، ولكن النصر كان من عند الله العزيز الحكيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص



(70/309)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ إِنَّ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ نَتَيْتُهَا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدُ وَلَنْ تَغْنِيَ

عَنْكُمْ فِتْنِكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم



وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب  
عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير. أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم اقطعنا للرحم  
وأنا بما لا نعرف فاحنه الغداة. فكان ذلك استقاحاً منه، فنزلت ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ  
جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ الآية.

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما  
﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ يعني المشركين، إن تستنصروا فقد جاءكم المدد.  
وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية رضي الله عنه قال:  
قال أبو جهل يوم بدر: اللهم انصر إحدى الفئتين، وأفضل الفئتين، وخير الفئتين. فنزلت  
﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾.

وأخرج أبو عبيد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ "إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ  
الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنهم فئتهم من الله شيئاً".  
وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ  
جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ قال: كفار قريش في قولهم: ربنا افتح بيننا وبين محمد صلى الله عليه  
وسلم وأصحابه. ففتح بينهم يوم بدر.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿إِنْ  
تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ قال: إن تستفتحوا فقد جاءكم القضاء في يوم بدر.

(71/309)

---

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ قال: عن قتال محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا نَعِدْ ﴾ قال: إن تستفتحوا الثانية افتح لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَنْ لَكُمْ مِنْهُ مَبْرَأَةٌ ﴾ قال: مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا نَعِدْ ﴾ يقول: نعد لكم بالأسر والقتل. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور ج 4 ص ﴾

(72/309)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: "وَلَنْ تَغْنِيَّ"

قرأ الجمهور بالتاء من فوق، لتأنيث الفة.

وقرىء " ولن يُعْنيَ " بالياء من تحت لأن تأنيثه مجازي، وللفضل أيضاً: " ولو كَثُرَتْ " هذه الجملة الامتناعية حالية، وقد تقدّم تحقيق ذلك.

قوله: ﴿ وَكُنْ تَعْنِي ﴾ قرأ نافع، ابن عامر، وحفص عن عاصم، بالفتح.

والباقون: بالكسر، فالفتح من أوجه:

أحدها: أنه على لام العلة تقديره: ولأن الله مع المؤمنين كان كيت وكيت.

والثاني: أن التقدير: ولأن الله مع المؤمنين امتنع عنادهم.

والثالث: إنه خبر مبتدأ محذوف أي: والأمر أن الله مع المؤمنين، وهذا الوجه الأخير يقرب

في المعنى من قراءة الكسر لأنه استئناف.

أهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 485.486 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

قوله جلّ ذكره: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ .

قال المشركون - يوم بدر - اللهم انصر أحبّ الفئتين إليك، فاستجاب دعاءهم ونصر

أحبّ الفئتين إليه. . وهم المسلمون، فسألوا بألسنتهم هلاك أنفسهم، وذلك لانجرارهم في

مغاليط ما يُعلقون من ظنونهم، فهم توهّموا استحقاق القرية، وكانوا في عين الفرقة وحكم

الشّقوة، موسومين باستيجاب اللعنة بدعائهم، والوقوع في شقائهم؛ فاخيارهم منّوا

ببوارهم .

ويقال ظنوا أنهم من أهل الرحمة فزلوا ، فلما كشف الستر خابوا وذلوا ، فعند ذلك علموا أنهم زاغوا في ظنهم وضلوا .

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَإِن تَنَّهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

فيغفر لكم ما قد سلف من خلاف محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ليس المراد منه المبالغة؛ لأنه يقال هذا خير لك من هذا إذا كان الثاني ليس في شر ، وترك موافقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم - بكل وجه - هو شر لهم ، ولكنه أراد به في الأحوال الدنيوية ، وعلى موجب ظنهم .

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ ﴾ .

(73/309)

---

يعني إن عُدتم إلى الجميل من السيرة عُدنا عليكم بجميل المنّة ، وإن عاودتم الإقدام على الشرّ أعدنا عليكم ما أذقناكم من الضرّ .

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَلَن تَغْنَىٰ عَنْكُمْ فَتُكْمُ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

مَنْ غَلَبَتْهُ قَدْرَةُ الْأَحَدِ لَمْ تَعْنِ عَنْهُ كَثْرَةُ الْعَدَدِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح

1 ص 612.613 ﴿

(74/309)

ومن فوائد العلامة الزمخشري في الآيات

قال رحمه الله :

سورة الأنفال

مدنية ، [إلا من آية 30 إلى غاية آية 36 فمكية] وهي خمس وسبعون آية [نزلت بعد

البقرة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنفال (8) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ

وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)

النفل : الغنيمة ، لأنها من فضل الله تعالى وعطائه .

قال لبيد :

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرٌ نَفْلٌ «1»

(1) إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريشى وعجل

أحمد الله فلانده بيديه الخير ما شاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم الببال ومن شاء أضل

للبيد بن ربيعة العامري ، شبه الثواب الذي وعده الله عباده على التقوى بالنفل -

بالتحريك - وهو ما يعده الامام المجاهد تحريضا على اقتحام الحرب فاستعار النفل له على

طريق التصريحية وأخبر به عن التقوى لأنها سببه . ويجوز استعارة النفل التقوى يجمع النفع

، وبإذن الله وتسهيله . ريشى : أى بطئى ، وعجل : أى سرعتي ، فحذفت ياء الاضافة

للوزن ، فلانده : أى لا مثل له ، بيديه : أى بقدرته التي هي كآلة في أفعاله تعالى كاليدين

لأفعالنا . ويحتمل أنه شبه خزائنه سبحانه باليد فيها شيء ، لسهولة تصرفه فيما فيها

واختصاصه به ، فالباء بمعنى في . وتثنية اليد للمبالغة في التشبيه ، ولا مانع من جعله

ترشيحا للاستعارة على الوجهين . «ما شاء فعل» أى ما أراد فعله ، وبين ذلك بقوله «من

هداه طرق الخير اهتدى» حتما حال كونه طيب الشأن . ومن شاء إضلاله أضله حتما ،

أى تركه ونفسه ومنعه لطفه ، حتى يضل حال كونه كاسف الببال أى حزين القلب في العاقبة

، فهي حال منتظرة «أوسىء الحال والشأن ، وهذا محذوف معلوم من المقابلة بما قبله .

والنفل ما ينقله الغازي ، أي يعطاه زائداً على سهمه من المغنم ، وهو أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب : من قتل قتيلا فله سلبه . أو قال لسرية : ما أصبتم فهولكم ، أو فلكم نصفه أو ربعه . ولا يخمس النفل ، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه . وعند الشافعي رحمه الله في أحد قوليهِ : لا يلزم . ولقد وقع الاختلاف بين المسلمين في غنائم بدر ، وفي قسمتها ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ، ولمن الحكم في قسمتها ؟ اللهم اجرين أم للأنصار ؟ أم لهم جميعاً ؟

فقيل له : قل لهم هي لرسول الله صلى الله عليه وسلم «1» وهو الحاكم فيها خاصة بحكم فيها ما يشاء ، ليس لأحد غيره فيها حكم . وقيل شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينقله ، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ، فلما يسر الله لهم الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا ، فقال الشبان :

نحن المقاتلون ، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات : كنا رداً لكم وفئةً تنحازون إليها إن انهزمت «2» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المغنم قليل والناس كثير : وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك . فنزلت . وعن سعد بن أبي وقاص :

قتل أخى عمير يوم بدر ، فقتلت به سعيد بن العاص «3» وأخذت سيفه فأعجبني ،  
فجئت به إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقلت : إن الله قد شفى  
صدرى من المشركين ، فهب لي هذا السيف فقال :

ليس هذا لي ولا لك ، اطرحه في القبض «4» فطرحته وبى ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل  
أخى وأخذ سبى ، فما جاوزت إلا قليلا حتى جاءني رسول الله صلى الله تعالى عليه  
وآله وسلم وقد أنزلت

---

(1) . أخرجه أحمد وإسحاق وابن حبان والحاكم من حديث أبى أمامة عن عبادة بن  
الصامت . قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فشهدنا معه بدرا . فالتقى الناس .  
فهزم الله العدو . فذكر الحديث في اختلافهم في قسمة الغنائم . قال : فنزلت ويسألونك عن  
الأنفال - الآية . فقسمها النبي صلى الله عليه وسلم بين المسلمين .

(2) . أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم من رواية داود بن أبى هند عن  
عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أتى مكان كذا وكذا  
فله من النفل كذا وكذا . فتسارع إليه الشبان وثبت الشيوخ تحت الرايات - الحديث»  
قلت : وأما قوله «حتى قتلوا سبعين وأسرنا سبعين» فليس في هذا الحديث .

(3) . «قوله فقتلت به سعيد بن العاص» في حواشي البيضاوي : أنه العاص بن سعيد .



(ع)

(4) . قوله «في القبض - كسب - : المال المقبوض . (ع)

(76/309)

سورة الأنفال ، فقال : يا سعد ، إنك سألتني السيف وليس لي ، وإنه قد صار لي فاذهب  
فخذه «1» وعن عبادة بن الصامت : نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في  
النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى الله تعالى عليه  
وآله وسلم ، فقسمه بين المسلمين على السواء ، وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله  
وإصلاح ذات البين «2» . وقرأ ابن محيصة :

يسألونك عن نفل ، بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، وإدغام نون عن في اللام : وقرأ  
ابن مسعود : يسألونك الأنفال ، أى يسألك الشبان ما شرطت لهم من الأنفال . فان قلت :  
ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول في قوله قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ؟ قلت : معناه أن  
حكما مختص بالله ورسوله ، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ويمثل الرسول أمر  
الله فيها ، وليس الأمر في قسمتها مفوضا إلى رأى أحد ، والمراد : أن الذي اقتضته حكمة  
الله وأمر به رسوله أن يواسى المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات

، فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم ، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدر ذلك  
فيما بين المسلمين من التحاب والتصافي فانقوا الله في الاختلاف والتخاصم ، وكونوا  
متحدين متآخين في الله وأصلحوا ذات بينكم وتأسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضل  
به عليكم . وعن عطاء : كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال : اقسما غنائمكم بالعدل ،  
فقالوا : قد أكلنا وأنفقنا ، فقال : ليرد بعضكم على بعض . فان قلت : ما حقيقة قوله ذات  
بينكم ؟ قلت : أحوال بينكم ، يعنى ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة  
وانفاق ، كقوله بذات الصدور وهي مضمراتها .

لما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها : ذات البين ، كقولهم : اسقني ذا إنائك ، يريدون ما  
في الإناء من الشراب . وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم  
الإيمان وموجباته ، ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها . ومعنى قوله إن كنتم  
مؤمنين إن كنتم كاملين الإيمان . واللام في قوله إنما المؤمنون إشارة إليهم . أى إنما الكاملو  
الإيمان من صفتهم كيت وكيت والدليل عليه قوله أولئك هم المؤمنون حقا . وجلت قلوبهم  
فزعت . وعن أم الدرداء : الوجل في القلب كاحتراق السعفة «3» ، أما تجده له  
قشعيرة ؟ قال . بلى ، قالت : فادع الله فإن الدعاء يذهب ، يعنى فزعت لذكره  
استعظاما له ، وتهيبا من جلاله وعزّة

---

(1) . أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وأبو شيبة وأبو عبيد في الأموال : وسعيد ابن منصور

كلهم قال : حدثنا أبو معاوية عن الشيباني عن محمد بن عبيد بن أبي عون عنه قال أبو  
عبيد : كذا يقول : سعيد بن العاصي . والصواب العاص بن سعيد . وفي روايتهم فقلت  
سعيد بن العاصي لم يقولوا به . [ . . . . . ]

(2) . أخرجه أحمد وإسحاق والطبري من طريق ابن إسحاق عن عبد الرحمن عن  
الحارث عن سليمان بن مكحول - عن أبي أمامة عنه به .

(3) . قوله « كاحتراق السعفة » أي غصن النخلة ، كما في للصحاح . (ع)

(77/309)

---

سلطانه وبطشه بالعصاة وعقابه ، وهذا الذكر خلاف الذكر في قوله ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ  
وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ لِأَنَّ ذَلِكَ ذَكَرَ رَحْمَتَهُ وَرَأْفَتَهُ وَثَوَابَهُ . وقيل : هو الرجل يريد أن يظلم أو  
يهم بمعصية فيقال له : اتق الله فينزع . وقرئ : وجلت ، بالفتح ، وهي لغة نحو « وبق » في  
« وبق » « 1 » .

وفي قراءة عبد الله : فرقت زادتهم إيماناً ازدادوا بها يقينا وطمأنينة في نفس ، لأن تظاهر  
الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه ، وقد حمل على زيادة العمل . وعن أبي هريرة  
رضي الله عنه : الإيمان سبع وسبعون شعبة ، أعلاها : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها :

إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان «2» . وعن عمر بن عبد العزيز  
رضى الله عنه : إن للإيمان سننا وفرائض وشرائع ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن  
لم يستكملها لم يستكمل الإيمان وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَلَا يَفْوضُونَ أمورهم إلى غير ربهم ، لا  
يخشون ولا يرجون إلا إياه .

جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ، وبين أعمال الجوارح من الصلاة  
والصدقة حَقًّا صفة للمصدر المحذوف ، أى أولئك هم المؤمنون إيمانًا حقا ، أو هو مصدر  
مؤكد للجمله التي هي أولئك هم المؤمنون كقولك : هو عبد الله حقا ، أى حق ذلك حقا .  
وعن الحسن أن رجلا سأله : أمؤمن أنت ؟ قال : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن  
الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنسار والبعث والحساب ، فأنا  
مؤمن .

وإن كنت تسألنى عن قوله إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ فَوَاللَّهِ لا أدري أمنهم أنا أم لا . وعن الثوري : من  
زعم أنه مؤمن بالله حقا ، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة ، فقد آمن بنصف الآية . وهذا الإزام  
منه ، يعنى كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقا ، فلا يقطع بأنه مؤمن حقا ، وبهذا  
تعلق من يستنى في الإيمان . وكان أبو حنيفة رضى الله عنه ممن لا يستنى فيه . وحكى  
عنه أنه قال لقتادة :

لم تستنى في إيمانك ؟ قال : اتبعا لإبراهيم عليه السلام في قوله وَالَّذِي أُطْمَعُ أَنْ يُغْفَرَ لِي

خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ فقال له : هلا اقتديت به في قوله أَوْلَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى ؟ دَرَجَاتُ شَرَفٍ  
وَكِرَامَةٍ وَعَلَوِّ مَنْزِلَةٍ وَمَغْفِرَةٍ وَتَجَاوُزٍ لِسَيِّئَاتِهِمْ وَرِزْقٍ كَرِيمٍ نعيم الجنة . يعنى لهم منافع حسنة  
دائمة على سبيل التعظيم ، وهذا معنى الثواب .

[سورة الأنفال (8) : آية 5]

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5)

- 
- (1) . قوله «نحو وبق في وبق . . . الخ» وبق : أى هلك . وفرقت : خافت . (ع)  
(2) . أخرجه مسلم وأصحاب السنن وابن حبان برواية أبي صالح عن أبي هريرة ، وهو  
في البخاري باختصار .

(78/309)

---

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ فِيهِ وَجْهَانِ «1» أَحَدُهُمَا . أَنْ يَرْتَفِعَ مَحَلُّ الْكَافِ عَلَى أَنَّهُ خَبِرَ مَبْتَدَأِ  
مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ . هَذِهِ الْحَالُ كَحَالِ إِخْرَاجِكَ . يَعْنِي أَنَّ حَالَهُمْ فِي كِرَاهَةِ مَا رَأَيْتَ مِنْ تَنْفِيلِ  
الغزاة ، مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب . والثاني : أن ينتصب على أنه صفة  
مصدر الفعل المقدّر في قوله الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولُ أَيْ الْأَنْفَالُ اسْتَقَرَّتْ لِلَّهِ وَالرَّسُولُ ، وَثَبَّتْ  
مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون . وَمِنْ بَيْتِكَ يَرِيدُ بَيْتَهُ

بالمدينة ، أو المدينة نفسها ، لأنها مهاجرة ومسكنه ، فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه بالحقّ أى إخراجاً ملتبساً بالحكمة والصواب الذي لا محيد عنه وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون في موضع الحال ، أى أخرجك في حال كراحتهم ، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة «2» معها أربعون راكباً ، منهم أبو سفيان وعمر وبن العاص وعمر و ابن هشام ، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين ، فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم ، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم ، فنادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول ، عيركم أموالكم ، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً ، وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رؤيا فقالت لأخيها : إنى رأيت عجباً رأيت كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة . فحدّث بها العباس فقال أبو جهل : ما يرضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تنبأ نساؤهم ، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير .

في المثل السائر : لا في العير ولا في النفير ، فقيل له : إنّ العير أخذت طريق الساحل ونجت ، فارجع بالناس إلى مكة ، فقال : لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور ، ونشرب الخمر ، ونقيم القينات والمعازف بيدر ، فيتسامع جميع العرب بمخرجنا ، وإنّ محمداً لم يصب العير ، وإنّا قد أعضضناه «3» ، فمضى

(1) . قال محمود : «في «كما» وجهان ، أحدهما : أن يرتفع محل الكاف . . . الخ» قال أحمد : وكان جدي أبو العباس أحمد الفقيه الوزير رحمه الله يذكر في معنى الآية وجهها أوجه من هذين ، وهو أن المراد تشبيه اختصاصه عليه السلام بالأنفال ، وتفويض أمرها إلى حكمه من حيث الإثابة والجزاء ، بإخراجه من بيته مطيعاً لله تعالى سامعاً لأمره راضياً بحكمه على كراهة المؤمنين لذلك في الطاعة ، فشبّه الله تعالى ثوابه بهذه المزية بطاعته المرضية ، فكما بلغت طاعته الغاية في نوع الطاعات ، فكذلك بلغت إثابة الله له الغاية في جنس المثوبات . وجماع هذا المعنى هو المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام «الأجر على قدر النصب» ولك على هذا المعنى أن تجعل الكاف مرفوعة ومنصوبة على حسب التقدير ، والله الموفق .

(2) . هذه القصة منتزعة من سيرة ابن هشام إلا قوله «إن في أهل العير عمرو بن هشام فان عمرو بن هشام هو أبو جهل ولم يكن في العير ، وإنما كان في النفير وأخرجه الطبري من قول ابن إسحاق ، وبعضه عن ابن عباس وعن عروة وعن السدي بتقديم وتأخير وزيادة ونقص وفي مغازي الواقدي عن محمود بن لبيد بعضه . وعن سعيد بن المسيب بعضه .

(3) . قوله «وإنا قد أعضضناه» في الصحاح : أعضضته الشيء فعضه . وفي الحديث «فأعضوه بهن أبيه» ويقال :

أعضضته سيفي، أي ضربته به. وأعض القوم. أكلت إيلهم العض، وهو بالضم علف  
الأمصار، وبالكسر الشوك الصغير. (ع).

(79/309)

---

بهم إلى بدر - وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة - فنزل جبريل عليه  
السلام فقال: يا محمد، إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إمّا العير، وإمّا قريشا،  
فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال: ما تقولون، إن القوم قد خرجوا من  
مكة على كل صعب وذلول، فالعير أحب إليكم أن النفير؟ قالوا: بل العير أحب إلينا من  
لقاء العدو، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم ردّد عليهم فقال: إن العير قد  
مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا يا رسول الله، عليك بالعير  
ودع العدو، فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضی الله عنهما  
فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة فقال:  
انظر أمرك فامض. فوالله لو سرت إلى عدن أئين «1» ما تخلف عنك رجل من الأنصار،  
ثم قال المقداد بن عمرو يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فإننا معك حيثما أحببت لا نقول  
لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن:



اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، ما دامت عين منا تطرف ، فضحك رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أشيروا علي أيها الناس وهو يريد الأنصار ، لأنهم قالوا له  
حين بايعوه على العقبة : إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت  
في ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوف أن  
لا تكون الأنصار لا ترى «2» عليهم نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة ، فقام سعد بن  
معاذ فقال : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال : أجل ، قال : قد آمننا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك  
على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي  
بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد  
، وما نكره أن تلقى بنا عدونا إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا  
ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه  
قول سعد ، ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ،  
والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم . وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم  
حين فرغ من بدر : عليك بالغير ليس

---

(1) . قوله «إلى عدن أيين» في الصحاح : أيين اسم رجل نسب إليه عدن ، فقيل : عدن

(2) . قوله «يتخوف أن لا تكون الأنصار لا ترى» لعله «أن تكون» أو لعله «الأنصار ترى»

وبالجملة فأحد الحرفين يغنى عن الآخر . (ع)

(80/309)

دونها شيء ، فناداه العباس وهو في وثاقه : لا يصلح «1» فقال له النبي صلى الله عليه

وسلم : لم ؟

قال : لأن الله وعدك إحدى الطائفتين . وقد أعطاك ما وعدك ، وكانت الكراهة من

بعضهم لقوله وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون .

[سورة الأنفال (8) : آية 6]

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6)

والحق الذي جادلوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلقى النفي ، لإيثارهم عليه تلقى

الغير بعد ما تبين بعد إعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم ينصرون . وجداهم :

قولهم ما كان خروجنا إلا للغير ، وهلاقت لنا لنستعد وتأهب ؟ وذلك لكراهتهم

القتال . ثم شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة ، مجال من

يعتل إلى القتل «2» ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن ، وهو مشاهد لأسبابه ، ناظر

إليها لا يشك فيها . وقيل :

كان خوفهم لقلة العدد ، وأنهم كانوا رجالة . وروى أنه ما كان فيهم إلا فارسان .

[سورة الأنفال (8) : آية 7]

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ  
أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7)

إِذْ مَنْصُوبٌ بِضَمِّ رِذْكَرٍ . وَأَنَّهَا لَكُمْ بَدَلٌ مِنْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ . وَالطَّائِفَتَانِ :

الْعَيْرُ وَالنَّفِيرُ . غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ

الْعَيْرُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا أَرْبَعُونَ فَارِسًا ، وَالشَّوْكَةُ كَانَتْ فِي النَّفِيرِ لِعَدَدِهِمْ وَعَدَّتْهُمْ :

وَالشَّوْكَةُ : الْحَدَّةُ مُسْتَعَارَةٌ مِنْ وَاحِدَةِ الشُّوكِ . وَيُقَالُ : شُوكَ الْقَنَا لَشِبَاهِهَا «3» . وَمِنْهَا

قَوْلُهُمْ : شَائِكَ السَّلَاحُ ، أَيْ تَتَمَنَّوْنَ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ الْعَيْرُ ، لِأَنَّهَا الطَّائِفَةُ الَّتِي لَا حَدَّةَ لَهَا وَلَا

شِدَّةَ ، وَلَا تَرِيدُونَ الطَّائِفَةَ الْآخَرَى أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ أَنْ يَثْبِتَهُ وَيُعْلِيَهُ بِكَلِمَاتِهِ بآيَاتِهِ الْمُنزَلَةَ فِي

مُحَارَبَةِ ذَاتِ الشَّوْكَةِ ، وَمَا أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ نَزْوَلِهِمْ لِلنَّصْرَةِ ، وَمَا قَضَى مِنْ أَسْرِهِمْ وَقَتْلِهِمْ

وَطَرْحِهِمْ فِي قَلْبِ بَدْرٍ . وَالذَّابِرُ الْآخَرُ : فَاعِلٌ مِنْ دَبَرَ . إِذَا دَبَرَ . وَمِنْهُ دَابِرَةُ الطَّائِرِ .

وَقَطَعَ الذَّابِرُ عِبَارَةً عَنِ الْإِسْتِصْالِ ، يَعْنِي أَنَّكُمْ تَرِيدُونَ الْفَائِذَةَ الْعَاجِلَةَ وَسَفْسَافَ

---

(1) . أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ وَأَبُو يَعْلَى وَابْنُ بَزَّازٍ وَابْنُ حَيَّانٍ وَالْحَاكِمُ مِنْ رِوَايَةِ

إِسْرَائِيلَ عَنْ سَمَّاكٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

(2) . قوله «بجال من يعتل إلى القتل» أى يجذب جذبا عنيفا . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قوله «شوك القنا لشباها» شباه كل شيء : حد طرفه ، والجمع شبا وشبوات ،

كذا في الصحاح . مشياها جمع مضاف لضمير القنا . (ع)

(81/309)

---

الأمور «1» وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأحوالكم «2» والله عز وجل يريد معالى الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة ، والفوز في الدارين .  
وستان ما بين المرادين . ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ،  
وغلب كثرتهم بقلتهم ، وأعزكم وأذلهم ، وحصل لكم ما لا تعارض أدناه العير وما فيها .  
وقرى : بكلمته ، على التوحيد .

[سورة الأنفال (8) : آية 8]

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)

فإن قلت : بم يتعلق قوله لِيُحِقَّ الْحَقَّ ؟ قلت : بمحذوف تقديره : ليحق الحق ويبطل الباطل  
فعل ذلك ، ما فعله الإلهما . وهو إثبات الإسلام وإظهاره ، وإبطال الكفر ومحقه .

فإن قلت : أليس هذا تكريرا ؟ قلت : لا ، لأن المعنيين متباينان ، وذلك أن الأول تمييز بين

الإرادتين وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها ، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو سيد الأغراض . ويجب أن يقدر المحذوف متأخراً حتى يفيد معنى الاختصاص فينطبق عليه المعنى : وقيل : قد تعلق بيقطع .

[سورة الأنفال (8) : آية 9]

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَنِّي مُّمَدِّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9)  
فإن قلت : بم يتعلق إذ تستغيثون ؟ قلت : هو بدل من إذ يعدكم وقيل بقوله ليحق الحق ويؤطل الباطل واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال ، طفقوا يدعون الله ويقولون : أي ربنا انصرنا على عدوك ، يا غياث المستغيثين أغثنا . وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة ، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو : اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض - فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضى الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله كفك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك «3» أني مُمدِّكم

(1) . قال محمود : «يعنى أنكم تريدون العاجلة وسفاسف الأمور . . . الخ» قال أحمد :

والتحقيق في التمييز بين الكلامين أن الأول ذكر الإرادة فيه مطلقة غير مقيدة بالواقعة

الخاصة ، كأنه قيل : وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ومن شأن الله تعالى إرادة تحقيق الحق وتمحيق الكفر على الإطلاق ، ولإرادته أن يحق الحق ويبطل الباطل خصكم بذات الشوكة ، فبين الكلامين عموم وخصوص ، وإطلاق وتقييد . وفي ذلك ما لا يخفى من المبالغة في تأكيد المعنى بذكره على وجهين : إطلاق ، وتقييد . والله أعلم .

(2) . قوله «وأحوالكم» لعله وأموالكم . (ع) [ . . . . . ]

(3) . أخرجه مسلم من رواية ابن عباس عن عمر رضى الله عنه .

(82/309)

---

أصله بأنى ممدكم ، فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله . وعن أبى عمرو أنه قرأ أنى مُمدُّكم بالكسر ، على ارادة القول ، أو على إجراء استجاب مجرى «قال» لأن الاستجابة من القول . فإن قلت : هل قاتلت الملائكة يوم بدر ؟ قلت : اختلف فيه ، فقيل :

نزل جبريل في يوم بدر في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر ، وميكائيل في خمسمائة على اليسرة وفيها على بن أبى طالب في صور الرجال ، عليهم ثياب بيض وعمائم بيض وقد أرخوا أذناها بين أكافهم . فقالت . وقيل : قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم

حنين .

وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود : من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى  
شخصا ؟ قال : من الملائكة ، فقال أبو جهل : هم غلبونا لا أتم . وروى أن رجلا من  
المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين : إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه ،  
فنظر إلى المشرك قد خر مستلقيا وشق وجهه ، فحدث الأنصاري رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فقال : صدقت ذاك من مدد السماء «1» . وعن أبي داود المازني : تبعت  
رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر فوق رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه «2» سيفي ،  
وقيل لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين ، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك  
أهل الدنيا كلهم ، فإن جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط ، وأهلك  
بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة . وقرئ مُرْدِفِينَ بكسر الدال وفتحها ، من قولك : ردفه  
إذا تبعه . ومنه قوله تعالى رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ بمعنى ردفكم . وأردفته إياه :  
إذا أتبعته . ويقال : أردفته ، كقولك أتبعته ، إذا جئت بعده ، فلا يخلو المكسور الدال من  
أن يكون بمعنى متبعين ، أو متبعين ، فإن كان بمعنى متبعين «3» فلا يخلو من أن يكون بمعنى  
: متبعين بعضهم بعضاً ، أو متبعين بعضهم لبعض ، أو بمعنى : متبعين إياهم المؤمنين ، أي  
يتقدمونهم فيتبعونهم أنفسهم ، أو متبعين لهم يشيعونهم ويقدمونهم بين أيديهم وهم على  
ساقهم ، ليكونوا على أعينهم وحفظهم . أو بمعنى متبعين أنفسهم ملائكة آخرين ، أو

متبعين غيرهم من الملائكة: ويعضد هذا الوجه قوله تعالى في سورة آل عمران بثلاثة آلاف  
مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ .

بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَنْ قَرَأَ مُرْدِّفِينَ بِالْفَتْحِ فَهُوَ بِمَعْنَى مُتَّبِعِينَ أَوْ مُتَّبَعِينَ .  
وقرئ: مردفين ، بكسر الراء وضمها وتشديد الدال : وأصله مرتدفين ، أى مترادفين أو  
متبعين ، من ارتدفه ، فأدغمت تاء الافتعال

---

(1) . هذا طرف من حديث ابن عباس رضی الله عنهما في الذي قبله .

(2) . أخرجه ابن إسحاق في المغازي : حدثني أبي عن رجال من بني مازن عن أبي داود  
المازني - فذكره ، ومن طريقه أخرجه إسحاق والطبري وغيرهما .

(3) . قوله «فان كان بمعنى متبعين» يقرأ هذا بالتسكين ، ولم يذكر مقابله وهو ما كان

بمعنى متبعين بالتشديد . (ع)

(83/309)

---

في الدال ، فالتقى ساكنان فحرّكت الراء بالكسر على الأصل ، أو على إتباع الدال .  
وبالضم على إتباع الميم . وعن السدي : بالآف من الملائكة . على الجمع ليوافق ما في سورة  
آل عمران .



فإن قلت : فبم يعتذر لمن قرأ على التوحيد ولم يفسر المردين بإرداف الملائكة ملائكة آخرين ، والمردين بارتدافهم غيرهم ؟ قلت : بأن المراد بالألف من قاتل منهم . أو الوجوه منهم الذين من سواهم أتباع لهم .

[سورة الأنفال (8) : آية 10]

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ  
(10)

فإن قلت : الإم يرجع الضمير في وما جعله ؟ قلت : إلى قوله أنني مُمدُّكم لأن المعنى : قاستجاب لكم بإمدادكم . فإن قلت : ففيم قرأ بالكسر ؟ قلت : إلى قوله أنني مُمدُّكم لأنه مفعول القول المضمر فهو في معنى القول . ويجوز أن يرجع إلى الإمداد الذي يدل عليه ممدُّكم إلا بُشْرَىٰ إلا بشارة لكم بالنصر ، كالسكينة لبنى إسرائيل ، يعني أنكم استغثتم وتضرعتم لقلتكم وذلتكم ، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر ، وتسكيناً منكم ، وربطاً على قلوبكم وما النصر إلا من عند الله يريد ولا تحسبوا النصر من الملائكة ، فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة . أو وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله ، والمنصور من نصره الله .

[سورة الأنفال (8) : آية 11]

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجْزَ

الشَّيْطَانِ وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11)

إِذْ يُغَشِّيكُمْ بَدَلِ ثَانٍ مِنْ إِذْ يُعِدُّكُمْ أَوْ مَنْصُوبٌ بِالنَّصْرِ ، أَوْ بِمَا فِي مَنْ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ ، أَوْ بِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ، أَوْ بِإِضْمَارِ إِذْ كَر . وَقُرَى : يُغَشِّيكُمْ بِالْتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ «1»

ونصب النعاس

(1) . قال محمود : «وقرئ إِذْ يُغَشِّيكُمْ بِالْتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ . . . الخ» قال أحمد : ومثل

هذا النظر يجري عند قوله تعالى هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا لِأَنَّ فَاعِلَ الْإِرَادَةِ هُوَ

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَفَاعِلَ الْخَوْفِ وَالطَّمَعِ هُمْ ، وَقَدْ انْتَصَبَا مَفْعُولًا لِهَمَا فَالْجَوَابُ : أَنَّهُ لَمَّا كَانَ

اللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَرَاهُمْ الْبَرْقَ رَأَوْهُ ، كَانُوا فَاعِلِينَ فِي الْمَعْنَى وَكَانَ الْمَعْنَى وَهُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ

فَتَرَوْنَهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، فَهَذَا مِثْلُ آيَةِ الْأَنْفَالِ ، فَإِنَّ الْمَفْعُولَ فِي الْمَعْنَى فَاعِلٌ . وَسَيَأْتِي مَزِيدٌ

بِحِثِّ فِي هَذِهِ النَّكَّةِ . وَقَدْ جَرَى الْقَلَمُ بِتَعْجِيلِهَا هَاهُنَا ، وَذَلِكَ أَنَّ لِقَائِلَ أَنْ يَقُولَ : فَاعِلٌ

يُغَشِّي النَّعَاسَ إِيَّاهُمْ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ فَاعِلُ الْأَمْنَةِ أَيْضًا وَخَالِقُهَا وَحِينَئِذٍ يَتَّحِدُ فَاعِلُ

الْفِعْلِ وَالْعَلَّةُ فَيَرْتَفِعُ السُّؤَالُ وَيُزُولُ الْأَشْكَالُ عَلَى قَوَاعِدِ السَّنَةِ الَّتِي تَقْتَضِي نِسْبَةَ أفعال

الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ خَالِقُهَا وَمَبْدَعُهَا ، وَلَمُورِدِ السُّؤَالِ أَنْ يَقُولَ الْمُعْتَبِرُ أَنْ يَكُونَ فَاعِلُ

الْفِعْلِ مُتَّصِفًا بِالْعَلَّةِ كَمَا هُوَ مُتَّصِفٌ بِالْفِعْلِ ، وَالْبَارِي عَزَّ وَجَلَّ . إِنْ كَانَ خَالِقُ الْأَمْنَةِ الْعَبْدُ

وَكَانَ بِهَا آمِنًا فَالْعَبْدُ هُوَ الْفَاعِلُ اللَّغَوِيُّ وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْفَاعِلُ حَقِيقَةً وَعَقِيدَةً ،

وَحِينَئِذٍ يَفْتَقِرُ السُّؤَالُ إِلَى الْجَوَابِ السَّالِفِ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ .

والضمير لله عز وجل . وأمنةً مفعول له . فإن قلت : أما وجب أن يكون فاعل الفعل المعلن  
والعلة واحداً ؟ قلت : بلى ، ولكن لما كان معنى يغشاكم النعاس . تنعسون ، انتصب أمانة  
على أن النعاس والأمنة لهم . والمعنى : إذ تنعسون أمانة بمعنى أمانة ، أى لأمنكم ، ومنه  
صفة لها : أى أمانة حاصلة لكم من الله عز وجل . فإن قلت : فعلى غير هذه القراءة «1»  
قلت : يجوز أن تكون الأمانة بمعنى الإيمان ، أى ينعسكم إيماناً منه . أو على يغشاكم  
النعاس فتنعسون أمانة ، فإن قلت : هل يجوز أن ينتصب على أن الأمانة للنعاس الذي هو  
فاعل يغشاكم ؟ أى يغشاكم النعاس لأمنه على أن إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازى  
وهو لأصحاب النعاس على الحقيقة ، أو على أنه أنامكم في وقت كان من حق النعاس في  
مثل ذلك الوقت المخوف أن لا يقدم على غشيانكم ؟ وإنما غشيانكم أمانة حاصلة من الله  
لولاها لم يغشكم على طريقة التمثيل والتخييل ؟ قلت : لا تبعد فصاحة القرآن عن احتمالها  
، وله فيه نظائر ، وقد ألم به من قال :

يهاب النوم أن يغشى عيوننا تهايك فهو نفاًر شرود «2»

وقرى «أمنة» بسكون الميم . ونظير «أمن أمانة» «حيي حياة» ونحو «أمن أمانة» «رحم

رحمة» والمعنى: أن ما كان بهم من الخوف كان يمنعهم من النوم، فلما طامن الله قلوبهم وأمنهم رقدوا وعن ابن عباس رضى الله عنه: النعاس في القتال: أمانة من الله، وفي الصلاة: وسوسة من الشيطان «3» وَيُنزَلُ قُرْئًا بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ . وقرأ الشعبي: ما لي يطهركم به: قال ابن جنى:

ما موصولة وصلتها حرف الجر بما جره، فكأنه قال: ما للطهور. وَرَجَزَ الشَّيْطَانِ وَسُوسَتِهِ إِلَيْهِمْ، وتخويفه إياهم من العطش. وقيل: الجنابة، لأنها من تخيله. وقرئ: رجس الشيطان مم؟؟؟

وذلك أن إبليس تمثل لهم، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الماء «4» ونزل المسلمون في كتيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء، وناموا فاحتمل أكثرهم، فقال لهم: أتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة، وقد عطشتم، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش، فإذا قطع العطش أعناقكم

- 
- (1). عاد كلامه. قال: فان قلت فعلى غير هذه القراءة قلت كذلك... الخ» قال أحمد: وجه حسن بشرط الأدب في إسقاط لفظة التخيل، وقد تقدمت له أمثالها.
- (2). للزمخشري، يقول: يخالف النوم أن يغزو عيوننا تخافك فالنوم كثير النفار والشروء، شبهه بجيوان يصح منه الخوف على طريق المكينة. وقوله فهو نفار شروء: تفرغ للترشيح.

ونسبة الخوف للعيون مجاز عقلي .

(3) . لم أجده عن ابن عباس . والظاهر أنه تحرف وإنما هو ابن مسعود . كذا ذكره

الثعلبي . وأخرجه عبد الرزاق والطبري . وكذا ابن أبي شيبة والطبراني كلهم من حديث ابن مسعود موقوفا .

(4) . الثعلبي بغير إسناد . وأخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مطولا وفي هذا ما ليس فيه وهو عند أبي نعيم والبيهقي في الدلائل من هذا الوجه .

(85/309)

---

مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة ، فحزنوا حزنا شديداً وأشفقوا ،  
فأنزل الله عز وجل المطر ، فمطروا ليلا حتى جرى الوادي واتخذ رسول الله صلى الله  
عليه وسلم وأصحابه الحياض على عدوة الوادي ، وسقوا الركاب ، واغتسلوا وتوضؤوا ،  
وتلبد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام ، وزالت وسوسة  
الشیطان وطابت النفوس . والضمير في به للماء . ويجوز أن يكون للربط ، لأن القلب إذا  
تمكن فيه الصبر والجرأة ثبتت القدم في مواطن القتال .

[سورة الأنفال (8) : آية 12]

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12)

إِذْ يُوحِي يجوز أن يكون بدلا ثالثا من إِذْ يَعِدُّكُمْ وَأَنْ يَنْتَصِبَ بِيَثَبْتُ أَنْي مَعَكُمْ مفعول يوحى  
وقرى: إني ، بالكسر على إرادة القول ، أو على إجراء يوحى مجرى يقول ، كقوله إني  
مُمدُّكُمْ والمعنى : إني معينكم على التثبيت فتبوتهم . وقوله سَالَتِي . . . فَاضْرِبُوا يجوز  
أن يكون تفسيرا لقوله إني مَعَكُمْ فَتَبَتُوا ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة ولا  
تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم . واجتماعهما غاية النصر . ويجوز أن يكون غير تفسير ،  
وأن يراد بالتثبيت أن يخطروا ببالهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم في القتال ،  
وأن يظهروا ما يتيقنون به أنهم ممدون بالملائكة . وقيل : كان الملك يشبه بالرجل الذي  
يعرفون وجهه فيأتي فيقول : إني سمعت المشركين يقولون : والله لئن حملوا علينا لننكشفن ،  
ويمشى بين الصفين فيقول : أبشروا ، فإن الله ناصركم لأنكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه .  
وقرى «الرعب» بالتحليل فوق الأعناق أراد أعالي الأعناق التي هي المذايح ، لأنها مفاصل  
، فكان إيقاع الضرب فيها حزا وتطيرا للرءوس . وقيل : أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق  
، يعني ضرب الهام . قال :

وَأَضْرِبْ هَامَةَ الْبَطْلِ الْمُشِيحِ «1»

غشّيته وهو في جاأء باسلة عضبا أصاب سواء الرأس فانقلقا «2»

(1) . مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة (409) فراجعه إن شئت اه

مصححه .

(2) وفارس في غمار الموت منغمس إذا تآلى على مكروهة صدقا

غشّيته وهو في جاأء باسلة عضبا أصاب سواء الرأس فانقلقا

لبلاء بنى قيس الكنانى والغمر الماء الكثير فشبه الموت بسيل عظيم على سبيل الكناية .

والغمار والانغماس فيه تخييل .

ويجوز أن تستعار الغمار لأهوال الموت على طريق التصريحية . ويحتمل أن تستعار لجيش

ذلك الفارس على طريق التصريحية أيضا . وأضافه للموت لأنه ينشأ عنها والانغماس

ترشيح . «إذا تآلى» أى حلف «على مكروهة» أى حرب «صدق» أى بر في يمينه

«غشّيته» ألحقت به والحال أنه «في جاأء» أى كتيبة عظيمة اسودت أو اخضرت بكثرة

السلح والدروع ، من الجوة مثل الحوة ، أو من الجؤوة مثل الحمرة ، وهي هي بشرط أن

يرهقها سواد .

وقيل السواد يرهقه خضرة لصداد دروعها «باسلة» أى مانعة عابسة . ويجوز أن الجأء

الدرع الصدئة . وعضبا :

مفعول غشيته ، أى سيفاً قاطعاً «أصاب» أى طلب ونال «سواء» أى وسط الرأس  
«فانفلق» الرأس أو وسطه ، مدح قرنه مع ظفره به ، ليدل على بلوغه غاية الشجاعة .

(86/309)

والبنان : الأصابع ، يريد الأطراف . والمعنى : فاضربوا المقاتل والشوى ، لأن الضرب إما  
واقع على مقتل أو غير مقتل ، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً . ويجوز أن يكون قوله  
سألني إلى قوله كل بنان عقيب قوله فثبتوا الذين آمنوا تلقينا للملائكة ما يشنونهم به ، كأنه  
قال : قولوا لهم قوله سألتني في قلوب الذين كفروا الرعب أو كأنهم قالوا : كيف تشبههم ؟  
ف قيل : قولوا لهم قوله سألتني فالضاربون على هذا هم المؤمنون .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 13 إلى 14]

ذِكْ بَأْنَهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13) ذِكْكُمْ  
فَذُو قُوَّةٍ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14)

ك

إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل ، ومحله الرفع على الابتداء وأنهم  
خبره ، أى ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم . والمشاقة : مشتقة من الشق ، لأن



كلا المتعادين في شق خلاف شق صاحبه ، وسئلت في المنام عن اشتقاق المعادة فقلت :  
لأن هذا في عدوة وذاك في عدوة ، كما قيل : المخاصمة والمشاقة ، لأن هذا في خصم أى  
في جانب ، وذاك في خصم ، وهذا في شق ، وذاك في شق . والكاف في لك  
لخطاب الرسول عليه السلام ، أو لخطاب كل واحد ، وفي ذلكم للكفرة ، على طريقة  
الالتفات . ومحل ذلكم الرفع على ذلكم العقاب ، أو العقاب ذلكم فذوقوه ويجوز أن يكون  
نصباً على : عليكم ذلكم فذوقوه ، كهولك : زيدا فاضربه وأن للكافرين عطف على ذلكم  
في وجهيه ، أو نصب على أن الواو بمعنى مع . والمعنى : ذوقوا هذا العذاب العاجل مع  
الآجل الذي لكم في الآخرة ، فوضع الظاهر موضع الضمير ، وقرأ الحسن : وإن للكافرين  
بالكسر .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 15 إلى 16]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأُدْبَارَ (15) وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدِ  
دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ  
(16)

(87/309)

زَحْفًا حال من الذين كفروا . والزحف : الجيش الدهم «1» الذي يرى لكثرة كانه  
يزحف ، أى يدب دبيباً ، من زحف الصبي إذا دبّ على استه قليلاً قليلاً ، سمي بالمصدر  
والجمع زحوف والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفروا ، فضلاً أن  
تدانوهم في العدد أو تساووهم ، أو حال من الفريقين . أى إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم  
، أو حال من المؤمنين كأنهم أشعروا بما كان سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين ، وهم  
زحف من الزحوف اثني عشر ألفاً ، وتقدمة «2» نهى لهم عن الفرار يومئذ . وفي قوله  
وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ أَمَارَةً عَلَيْهِ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ هُوَ الْكَرْبُ بَعْدَ الْفَرِّ ، يخيل عدوه أنه منهزم ثم  
يعطف عليه ، وهو باب من خدع الحرب ومكايدها أو مُتَحَيِّزًا أو من حاز إلى فِئَةٍ إلى  
جماعة أخرى من المسلمين سوى الفِئَةِ التي هو فيها . وعن ابن عمر رضى الله عنه :  
خرجت سرية وأنا فيهم ففروا «3» فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت ،  
فقلت : يا رسول الله نحن الفرارون ، فقال : بل أنتم العكارون «4» وأنا فئتكم . وانهمز  
رجل من القادسية ، فأتى المدينة إلى عمر رضى الله عنه فقال :  
يا أمير المؤمنين هلكت ، فررت من الزحف ، فقال عمر رضى الله عنه : أنا فئتك «5» .  
وعن ابن عباس رضى الله عنه : إن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر . فإن قلت : بم  
انتصب إِلَّا مُتَحَرِّفًا ؟

قلت : على الحال ، وإلا لغو . أو على الاستثناء من المولين ، أى : ومن يؤلمهم إلا رجلاً منهم

متحرِّفاً أو متحيزاً ، وقرأ الحسن دُبْرَهُ بالسكون ووزن متحيز متفيعل لا متفعل ، لأنه من حاز يحوز ، فبناء متفعل منه متحوز .

[سورة الأنفال (8) : آية 17]

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17)

لما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا أقبلوا على التفاوض ، فكان القائل يقول : قتلت

---

(1) . قوله «الجيش الدهم» هو العدد الكثير ، والدهمة : السواد ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . قوله و«تقدمة نهى لهم» لعله عطف على المعنى ، أى : إشعاراً وتقدمة نهى . (ع)

(3) . أخرجه أبو داود والترمذي والبخاري في الأدب المفرد من رواية يزيد بن أبي زياد

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عمر رضى الله عنهما . وكذا أخرجه أحمد وإسحاق

وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار في مسانيدهم . قال الترمذي : لا نعرفه إلا من رواية يزيد

بن أبي زياد . [ . . . . . ]

(4) . قوله «بل أتم العكارون» من عكر إذا عطف وكر . أفاده الصحاح . (ع)

(5) . أخرجه ابن أبي شيبة من رواية منصور عن إبراهيم . قال : فر رجل فذكره .

---

وأسرت ، ولما طلعت قريش قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه قريش قد جاءت  
«1» بجيلائها وفخرها يكذبون رسلك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني ، فأتاه جبريل عليه  
السلام فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فقال - لما التقى الجمعان - لعلى رضى الله  
عنه : أعطنى قبضة من حصباء الوادي ، فرمى بها في وجوههم وقال : شأهت الوجوه ،  
فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه ، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم «2» ،  
فقليل لهم فلم تقتلوهم<sup>وؤ</sup> والفاء جواب شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم  
تقتلوهم ولكن الله قتلهم لأنه هو الذي أنزل الملائكة وألقى الرعب في قلوبهم ، وشاء النصر  
والظفر وقوى قلوبكم ، وأذهب عنها الفرع والجزع وما رميت أنت يا محمد إذ رميت ولكن  
الله رمى يعنى أن الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها  
إلا ما يبلغه أثر رمى البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت  
الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها  
الذي لا تطيقه البشر فعل الله عز وجل ، فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم  
توجد من الرسول عليه الصلاة والسلام أصلا . وقرئ : ولكن الله

---

(1) . قال محمود : «ولما جاءت قريش قال عليه الصلاة والسلام : هذه قريش جاءت

... الخ» قال أحمد رحمه الله :

أوضح مصداق في التمييز بين الحقيقة والمجاز . ألا تراك تقول للبليد : ليس بحمار ، ويصدق عليه مع صدق قولك فيه على سبيل التجوز إنه حمار ، فإذا ثبت لك أن من مميزات المجاز صدق سلبه بخلاف الحقيقة ، فافهم أن هذه الآية تكفح وجوه القدرية بالرد ، وذلك أن الله تعالى أثبت الفعل للخلق ونفاه عنهم ، ولا محمل لذلك إلا أن ثبوته لهم مجاز ، والفاعل والخالق حقيقة هو الله تعالى ، فأثبتته لهم مجازاً ، ونفاه عنهم حقيقة . وإياك أن تعرج على تنكيس الزمخشري في تأويل الآية ، فانه نظر أعوج ، وباطل مخلج ، والحق أبلج ، والله الموفق بكرمه .

(2) . قال الطيبي : لم يذكر أحد من أئمة الحديث أن هذه الرمية كانت بيد ، ثم حديث سلمة بن الأكوع .

قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيننا فذكر القصة ، وهو تعقيب غير مرضى فقد روى الواقدي في المغازي عن ابن أبي الزهري عن الزهري عن عروة بن الزبير قال «لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فذكر نحوه إلى قوله : ما وعدتني» وروى الطبري من وجه آخر عن هشام بن عروة عن عروة قال «لما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا قال : فزعموا أنه قال ، هذه قريش قد جاءت بجيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني . فلما أقبلوا استقتلوا فحثا في وجوههم

فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى» وَرَوَى الطَّبْرِيُّ مِنْ رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِحَةَ قَالَ «رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ يَوْمَ بَدْرٍ» فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ تَهْلُكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ فَلَنْ نَعْبُدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا. فَأَمَرَ جَبْرِيلَ فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ. فَمَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَحَدٍ إِلَّا أَصَابَ عَيْنَيْهِ وَمَنْخَرَهُ وَفَمَهُ تَرَابٌ. فَوَلَوْا مَدْبَرِينَ» وَعِنْدَهُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أُسْبَاطٍ عَنِ السَّدِيِّ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعَلِيِّ يَوْمَ بَدْرٍ: أَعْطَنِي حَصْبَاءَ مِنَ الْأَرْضِ. فَتَنَاوَلَهُ حَصْبًا عَلَيْهِ تَرَابٌ، فَرَمَى بِهِ فِي وَجُوهِ الْقَوْمِ، فَلَمْ يَبْقَ مُشْرِكٌ إِلَّا دَخَلَ فِي عَيْنِهِ مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ، ثُمَّ رَدَّفَهُمُ الْمُسْلِمُونَ يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْسِرُونَهُمْ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ - الْآيَةُ. وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ فِي الْمَغَازِيِّ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ فِي قِصَّةِ بَدْرِ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَ كَفًّا مِنَ الْحَصْبَاءِ فَرَمَاهُمْ بِهَا وَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ. فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْتَلَأَ وَجْهَهُ وَعَيْنَاهُ فَانْهَزَمَ أَعْدَاءُ اللَّهِ، وَالْمُسْلِمُونَ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ. وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ نَحْوَهُ دُونَ مَا فِي آخِرِهِ.

(89/309)

---

قتلهم . ولكن الله رمى ، بتخفيف «لكن» ورفع ما بعده وُلِّيَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْطِيَهُمْ بَلَاءً

حَسَنًا عَطَاءً جَمِيلًا . قال زهير :

فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو «1»

والمعنى : وللاإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل ، وما فعله إلا لذلك إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لِدَعَائِهِمْ

عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ .

[سورة الأنفال (8) : آية 18]

ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18)

ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى الْبَلَاءِ الْحَسَنِ ، ومحلّه الرفع : أى الغرض ذلكم وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ مَعْطُوفٌ عَلَى

ذَلِكَ . يعنى : أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين . وقرئ : موهن ، بالتشديد .

وقرئ على الإضافة ، وعلى الأصل الذي هو التنوين والإعمال .

[سورة الأنفال (8) : آية 19]

إِنْ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ نَتَيْتُهَا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَّ عَنْكُمْ

فِتْنِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)

إِنْ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ خُطَابَ لِأَهْلِ مَكَّةَ عَلَى سَبِيلِ التَّهْكَمِ ، وذلك أنهم حين

أَرَادُوا أَنْ يَنْفِرُوا تَعَلَّقُوا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَقَالُوا : اللَّهُمَّ انصُرْ أَقْرَانَا لِلضَّيْفِ وَأَوْصِلْنَا لِلرَّحْمِ

وَأَفْكِنَا لِلْعَانِي ، إن كان محمد على حق فانصره ، وإن كنا على حق فانصرنا . وروى أنهم

قالوا :

اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين . وروى أن أبا جهل قال يوم بدر :  
اللهم أينما كان أهبج وأقطع للرحم فأحنه اليوم ، أى فأهلكه . وقيل : إن تَسْتَفْتِحُوا خطاب  
للمؤمنين وإن تَنْتَهُوا خطاب للكافرين ، يعنى : وإن تنهوا عن عداوة رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فهو خير لكم وأسلم وإن تعودوا لمحاربه نعد لنصرته عليكم وأن الله قرئ  
بالفتح على : ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك . وقرئ بالكسر ، وهذه أوجه . وبعضها  
قراءة ابن مسعود : والله مع المؤمنين . وقرئ : ولن يغنى عنكم ، بالباء للفصل . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ الكشاف ح 2 ص 208.193 ﴾

---

(1) جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

يقول : كافأ الله بإحسانه إليهما ما فعلاه بكم من الإحسان . وأبلى : مضمن معنى أعطى .

يقال : بلاه الله وأبلاه وابتلاه ، بمعنى اختبره . والاسم : البلاء . ويجيء بمعنى النعمة

وبمعنى النعمة كما هنا . وأعطاهما خير نعمته التي يبلوها الناس ويختبرهم بإعطائها

(90/309)

---



وقال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (11)

إلى قوله تعالى :

﴿ إِنْ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (19)

(91/309)

---

التفسير: قال في الكشاف ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُم ﴾ "إذ" بدل ثانٍ من ﴿ إِذْ يَعدُّكُمْ ﴾ أو منصوب بالنصر أبو بوما في عند الله من معنى الفعل أو بما جعله الله أو يا ضمرا اذكروا و ﴿ أَمَنَةً ﴾ مفعول لأجله ﴿ ومنه ﴾ صفة لها أي أمانة حاصلة لكم من عند الله . ولما كان غشيان النعاس وكذا إغشائه وتغشيته متضمنا لمعنى تنعسون كان فاعل الفعل المعلل والعلة واحداً كما هو شريطة انتصاب المفعول له . والمعنى إذ تنعسون لأمنتكم أو يغشاكم النعاس فتنعسون أماناً . وجوز على قراءة الإغشاء والتغشية أن تكون الأمانة بمعنى الإيمان أي ينعسكم إيماناً منه . وجوز أن ينتصب الأمانة على أنها للنعاس الذي هو فاعل ﴿

يغشاكم ﴿ أي يغشاكم النعاس لأمنه على أن إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازي وهو لأصحاب النعاس على الحقيقة ، أو على أن المراد أنه أنامكم في وقت كان من حق النعاس في مثل ذلك الوقت المخوف أن لا يقدم على غشيانكم وإنما غشاكم أمانة حاصلة له من الله لولاها لم يغشكم على طريقة التمثيل والتخييل ، وقد مر فوائد هذا النعاس في سورة آل عمران . ومن نعم الله تعالى عليهم في تلك الواقعة إنزال المطر عليهم وكان فيه فوائد : إحداهما : تحصيل الطهارة ، والثانية : إذهاب رجز الشيطان . وقيل : هو الجنابة التي أصابتهم لأنها من تخييل الشيطان ولا تكرر لأن الأولى عام وهذه خاص . وقيل : المراد المنى لأنه شيء مستحب مستقذر وعلى هذا يكون في الآية دلالة على نجاسة المنى لقوله

(92/309)

---

﴿ والرجز فاهجر ﴾ [ المدثر : 5 ] وقيل : المراد وسوسة الشيطان إليهم وتخويفه إياهم من العطش وذلك أن المشركين سبقوهم إلى الماء ونزل المؤمنون في كئيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء فناموا فاحتلم أكثرهم فتمثل لهم إبليس في صورة إنسان فقال لهم : أتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة قد عطشتم ، ولو كنتم على حق لما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن

يجهدكم العطش فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة . فحزنوا حزناً شديداً وأشفقوا فأنزل الله المطر فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذ أصحاب رسول الله الحياض على عدوة الوادي وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضأوا وتلبد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وكانت هذه ثلاثة الفوائد وأشار إليها بقوله ﴿ ويثبت به ﴾ أي بالماء ﴿ الأقدام ﴾ وقيل : الضمير عائد إلى الربط الذي يدل عليه قوله ﴿ ليربط على قلوبكم ﴾ والمراد من تثبيت الأقدام الصبر في مواطن القتال ، وذلك أن من كان قلبه ضعيفاً فرّ ولم يقف فلما ربط الله على قلوبهم أي قواها ثبتت أقدامهم ومعنى " على " أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأن علاها وارتفع فوقها . قال الواحدي : يشبه أن يكون على صلة والمعنى و ليربط قلوبكم بالنصر وما أوقع فيها من اليقين . روي أن المطر نزل على الكافرين أيضاً ولكن الموضع الذي نزل الكفار فيه كان موضع التراب فعظم الوحل وصار مانعاً لهم من المشي والاستقرار . فقوله ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ يدل مفهومه على أن حال الأعداء كان بخلاف ذلك . ومن جملة النعم قوله ﴿ إذ يوحى ربك ﴾ وهو بدل ثالث من ﴿ إذ يعدكم ﴾ ومنصوب ب ﴿ يثبت ﴾ أو بذكر أني معكم الخطاب للملائكة والمراد أني معينكم على التثبيت فثبتوهم . وقيل : الخطاب للمؤمنين لأن المقصود من هذا الكلام إزالة التخويف والملائكة ما كانوا يخافون الكفار .

وقوله ﴿

فثبتوا الذين آمنوا ﴿ في هذا التثبيت وجوه: أحدها: أنه مفسر لقوله ﴿ سألقي ﴾ ﴿ فاضربوا ﴾ ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة، ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم واجتماعهما غاية النصر. وثانيها: أن يراد بالتثبيت أن يخطرأ وبالهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم في القتال فالإلهام من الملائكة كالوسوسة من الشياطين .  
وثالثها: أن الملائكة كانوا يتشبهون بصور رجال من معارفهم وكانوا يعدونهم النصر والظفر . ومعنى ﴿ فوق الأعناق ﴾ أعالي الأعناق التي هي المذابح لأنها مفاصل ، فكان إيقاع الضرب فيها إزالة الرأس من الجسد . وقيل: أراد ضرب إلهام لأن الرؤوس فوق الأعناق . والبنان الأصابع سميت بذلك لأن بها صلاح أحوال الإنسان التي يريد أن يقيمها من أين بالمكان أي أقام به ، والمراد نفي الأطراف من اليدين والرجلين .

ثم اختلفوا فمنهم من قال: المراد أن يضربوهم كما شاؤا لأن ما فوق العنق هو الرأس وهو أشرف الأعضاء والبنان عبارة عن أضعف الأعضاء فذكر الأشرف والأخس تنبيهاً على كل الأعضاء . بوجه آخر الضرب إما وقع على مقتل أو غير مقتل ، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً . ومنهم من قال : الأول إشارة إلى القتل ، وقطع البنان عبارة عن إفناء آلات المدافعة والمحاربة ليعجزوا عن القتال . وجوز في الكشف أن يكون قوله ﴿ سألني ﴾ إلى قوله ﴿ كل بنان ﴾ تلقيناً للملائكة ما يشبثونهم به أي قولوا لهم قول سألني ، أو يكون وارداً على الاستئناف كأنهم قالوا : كيف تشبثهم ؟ فقيل : قولوا لهم قول سألني . فالضاربون على هذا هم المؤمنون ﴿ ذلك ﴾ العقاب العاجل من الضرب والقتل وقع عليهم ﴿ بأنهم شاقوا ﴾ بسبب مشاققتهم ومخالفتهم ﴿ الله ورسوله ﴾ ثم بين أن الذي نزل بهم في ذلك اليوم شيء يسير وقد نزر في جنب ما أعد الله لهم ولأمثالهم في الآجل فقال ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ أي له . والكاف في ﴿ ذلك ﴾ للرسول أو لكل من له أهلية الخطاب ، في ﴿ ذلكم ﴾ للكفرة على طريقة الالتفات ومحله الرفع تقديره : ذلكم العذاب المعجل من القتل والأسر أو العذاب ذلكم ، أو النصب والتقدير : عليكم ذلكم أي الزموه فذوقوه أو هو كقولك زيدا فاضربه . قال في الكشف : ﴿ وإن للكافرين ﴾ عطف على ﴿ ذلكم ﴾ في وجهيه أو نصب على أن الواو بمعنى " مع " والمعنى : ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة . فوضع الظاهر

موضع ضمير الخطاب . قلت : ويجوز أن يكون مبتدأ محذوف الخبر أي وأن للكافرين عذاب النار حق أو بالعكس أي والحكم والشأن أن للكافرين . وفي ذكر الذوق إشارة إلى أن عذاب الدنيا شيء قليل بالنسبة إلى عذاب الآخرة .

(95/309)

---

قوله سبحانه ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ﴾ قال الأزهري : أصل الزحف هو أن يزحف الصبي على أسته قبل أن يقوم ، شبه بزحف الصبي مشي الطائفتين تمشي كل فئة مشياً رويداً إلى الفئة الأخرى تدانى للضرب . فانتصابه على الحال من الفريقين أي ، إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم ، ويجوز أن يكون حالاً من الذين كفروا . والزحف الجيش الدهم الذي يرى لكثرة كأنه يزحف أي يدب ديباً سمي بالمصدر ، والجمع زحوف والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفروا فضلاً عن حالتي المداناة والمساواة ، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين وهم المؤمنون أي إذا ذهبتم إليهم للقتال فلا تنهزموا ومعنى ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ لا تجعلوا ظهوركم مما يليهم أو هو تقدمه نهبي عن الفرار يوم حنين حين تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفاً . وفي قوله ﴿ من يولهم يومئذ دبره ﴾ أمانة عليه ، ثم بين أن الانهزام محرم إلا في حالتين فقال

﴿ إلا متحرفاً لقتال ﴾ هو المكر بعد الفرّ يخيل إلى عدوّه أنه منهزم ثم يعطف عليه وهو نوع من خدع الحرب ﴿ أو متحيزاً ﴾ أي منحازاً ﴿ إلى فئة ﴾ إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها .

(96/309)

---

وعلى هذا انتصب ﴿ متحرفاً ﴾ و ﴿ متحيزاً ﴾ على أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال ووجد صحته من أنه ليس في الكلام نفي ظاهر هو أنه في معنى النفي كأنه قيل : ومن لا يقدم أو لا يعطف عليهم في حال من الأحوال إلا في حال التحرف أن التحيز ، ويجوز أن يكون الاستثناء تاماً على أن الموصوف محذوف والتقدير : ومن يولهم دبره إلا رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً . ووزن متحيزاً " متفيعل " لأنه من حاز يحوز فعل به ما فعل بأيام ، لو كان " متفعلاً " ل قيل " متحوزاً " . عن ابن عمر : خرجت سرية وأنا فيهم ففروا ، فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت فقلت : يا رسول الله نحن الفرارون فقال : بل أنتم العكارون وأنا فتكم . والعكرة البكرة . وعن ابن عباس أن الفرار من الزحف في غير هاتين الصورتين من أكبر الكبائر . واحتج القاضي بالآية على القطع بوعيد الفساق من أهل الصلاة . وأجيب بأنه مشروط بعدم العفو . وعن أبي سعيد الخدري والحسن وقتادة

والضحاك أن هذا الحكم مختص بيوم بدر لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حاضراً  
بنفسه ، لأنه تعالى وعدهم النصره ، ولأنه كان أول جهاده فناسب التشديد ولهذا منع من  
أخذ الفداء . وأكثر المفسرين على أنه عام في جميع الحروب لأن العبرة بعموم اللفظ لا  
بخصوص السبب . قال أكثر المفسرين : إن المؤمنين لما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا  
أقبلوا على التقاخر وكان القائل يقول قتلت وأسرت فقليل لهم : فلم تقتلوهم . والفاء جواب  
شرط محذوف تقديره إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكن صلى الله عليه وسلم قتلهم  
لأنه هو الذي أنزل الملائكة وألقى الرعب في قلوبهم وشاء النصر والظفر وقوى قلوبكم  
وربط عليها . ولما طلعت قريش قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذه قريش قد  
جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم إني أسألك ما وعدتني " فاتاه جبرائيل  
عليه السلام فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها فقال : -لما التقى الجمعان -لعلي :

(97/309)

---

أعطني قبضة من حصباء الوادي فأعطاه فرمى بها في وجوههم وقال : " شأهت الوجوه "  
فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا فنزلت ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ أي وما رميت  
أنت يا محمد إذ رميت ﴿ ولكن الله رمى ﴾ أثبت الرمية للرسول الله صلى الله عليه



وسلم لأن صورتها وجدت منه عليه السلام ونفاها عنه لأن أثرها فوق حد تأثير القوى

البشرية .

(98/309)

---

قال حكيم بن حزام : لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت  
حصاة وقعت في طست ، ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الحصباء فانهزمتنا  
، وعن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : أقبل أبي بن خلف يوم أحد إلى النبي صلى الله عليه  
وسلم يريد فاعترض له رجال من المؤمنين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلوا  
سبيله فاستقبله مصعب ابن عمير أخو بني عبد الدار ورأى رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ترقوه أبي من فرجة بين سابعة البيضة والدرع فطعنه بجريته فسقط أبي من فرسه ولم  
يخرج من طعنته دم وكسر ضلعاً من أضلعه ، فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور فقالوا  
له : ما أعجزك إنما هو خدش فقال : والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي  
الجواز لما أتوا أجمعين فمات أبي إلى النار قبل أن يقدم مكة فأنزل الله في ذلك ﴿ وما رميت  
إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ وقيل : نزلت في خير حين دعا رسول الله صلى الله عليه  
وسلم بقوس فرمى منها بسهم فأقبل السهم يهوي حتى قتل كنانة بن أبي الحقيق وهو على

فراشه . وأصح الأقوال هو الأوّل كيلا يدخل في أثناء القصة كلام أجنبي ، نعم لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ وليعطيهم عطاءً جميلاً فعمل ما فعل وما فعله إلا لذلك . قال القاضي : ولولا أن المفسرين أجمعوا على أن معنى البلاء ههنا النعمة وإلا لكان يحتمل المحنة أي الذي فعله تعالى يوم بدر كان كالسبب في حصول تكليف شاق عليهم فيما بعد ذلك من الغزوات . ﴿ إن الله سميع ﴾ لكلامكم ﴿ عليم ﴾ بضمائركم . وهذا يجري مجرى التحذير والترهيب كيلا يغتر العبد بظواهر الأمور ﴿ ذلكم ﴾ الغرض أي الغرض ذلكم ﴿ وإن الله موهن كيد الكافرين ﴾ إعرابه كما مر في قوله ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾ [ الأنفال : 14 ] قال ابن عباس : نبيء رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول إني قد أوهنت كيد عدوك حتى

(99/309)

---

قتلت جبابرتهم وأسرت أشرفهم . قال السدي والكلبي والحسن : كان المشركين حين خرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين فأنزل الله تعالى خطاباً لهم

على سبيل التهكم ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ وقال عكرمة: قال المشركون:  
اللهم لا نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فنزلت. وروى أن أبا جهل قال يوم  
بدر: اللهم أينما كان أفجر وأقطع للرحم فأحنه اليوم أي فأهلكه. وقيل: إنه خطاب  
للمؤمنين الذين استغاثوا الله وطلبوا النصر.

ثم خاطب الكفار بقوله ﴿ وإن تنتهوا ﴾ أي عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم  
﴿ فهو خير لكم ﴾ وأسلم وإن تعودوا لمحاربتة نعد لنصرتة عليكم. وجوز بعضهم أن  
يكون الخطاب في الجميع للمؤمنين أي إن تكفوا عن المنازعة في أمر القتال أو عن طلب  
الفداء فهو خير لكم ﴿ وإن تعودوا ﴾ إلى تلك المنازعات ﴿ نعد ﴾ إلى ترك نصرتكم.  
ثم ختم الآية بقوله ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ تقديره على قراءة الفتح ولأن الله معين المؤمنين  
كان ذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 381.385 ﴾

(100/309)

---

فصل في التفسير الإشاري في الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابوري:

(101/309)

التأويل: ﴿ إذ يغشاكم النعاس أمنة ﴾ فيه تغليب الحال إلى ضده بأمر التكوين كما قال للنار ﴿ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ [ الأنبياء : 69 ] كذلك قال للخوف كن أمناً على محمد وأصحابه فكان ﴿ ينزل عليكم ﴾ من سماء الروحانية ماء الإلهام الرباني ﴿ ليطهركم به ﴾ من دنس الصفات النفسانية والحيوانية ﴿ ويذهب عنكم ﴾ وساوس الشيطان وهو جسده ﴿ ويليرط على قلوبكم ﴾ بالصدق والإخلاص والمحبة والتوكل واليقين ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ على طريق الطلب ﴿ إني معكم فثبتوا ﴾ فيه أن التثبيت من الله لا من غيره ، وكذلك إلقاء الرعب في قلوبهم وغير ذلك . ﴿ إذا لقيتم الذين كفروا ﴾ إذا لقيتم كفار النفوس وصفاتها مجتمعين على قهر القلوب وصفاتها فلا تنهزموا فتقعوا عن صراط الطلب ﴿ إلا متحرفاً ﴾ إلا قلباً يتحرك ليتها لأسباب القتال مع النفس أو راجعاً إلى الاستمداد من الروح وصفاتها أو إلى ولاية الشيخ أو إلى حضرة الله تعالى مستمداً في قمع النفس وقهرها بطريق المجاهدة فإنها تورث المشاهدة ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ نفى القتل عن الصحابة بالكلية أو حاله إلى نفسه فقال ﴿ ولكن ﴾ ولم ينف الرمي عن النبي بالكلية حيث قال ﴿ إذ رميت ﴾ لأن الله تعالى كان قد تجلى بالقدرة وكان يده يد الله كما كان حل عيسى حين تجلى له بصفة الإحياء كان يحيي الموتى ﴿ وليبلى المؤمنين منه ﴾ فيجهدوا في متابعته إلى أن يبلغوا هذا المقام ﴿ إن تستفتحوا ﴾ أي تفتحوا أبواب

قلوبكم بمفتاح الصدق والإخلاص وترك ما سوى الله في طلب التجلي ﴿ فقد جاءكم  
الفتح ﴾ بالتجلي فإنه تعالى متجل في ذاته أزلاً وأبداً فلا تغير له وإنما التغير في أحوال الخلق  
، فهم عند انغلاق أبواب قلوبهم محرومون وعند انفتاح أبوابها محظوظون ﴿ وأن تنتهوا ﴾  
عن طلب غير الله ﴿ فهو خير لكم وأن تعودوا ﴾ إلى طلب الدنيا وزخارفها ﴿ نعد ﴾  
إلى خذلانكم ونكالكم ونكلكم إلى أنفسكم ودواعيها ﴿ ولن تغني عنكم ﴾ لا يقوم  
شيء من الدنيا والآخرة  
وما فيهما مقام شيء مما أعد لأهل الله وخاصته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن ح  
3 ص 385.386 ﴾

(102/309)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتُّمَّ تَسْمِعُونَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان سبب ما أحله بالكفار - من الإعراض عن إجاباتهم فيما قصدوا من دعائهم ومن  
خذلانهم في هذه الواقعة وإيجاب مثل ذلك لهم أبداً - هو عصيانهم الرسول وتوليهم عن

قبول ما يسمعون منه من الروح؛ حذر المؤمنين من مثل حالهم بالتمادي في التنازع في الغنيمة أو غيرها فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أي ادعوا ذلك ﴿أطيعوا الله﴾ أي الذي له جميع العز والعظمة ﴿ورسوله﴾ تصديقاً لدعواكم الإيمان.

ولما كانت طاعة الرسول هي طاعة الله لأنه إنما يدعوه إليه وإنما خلقه القرآن، وحد الضمير فقال: ﴿ولا تولوا عنه﴾ أي عن الرسول في حال من الأحوال، في أمر من الأوامر من الجهاد وغيره، من الغنائم وغيرها، خف أو ثقل، سهل أو صعب ﴿وأتم﴾ أي والحال أنكم ﴿تسمعون﴾ أي لكم سمع لما يقوله، أو وأتم تصدقونه، لأن ارتكاب شيء من ذلك يكذب دعوى الإيمان وينطبق على أحوال الكفار، وإلى ذلك إشارة بقوله: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر ح 3 ص 199﴾

(103/309)

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله:

القراءات: ﴿ولا تولوا﴾ بالإدغام: البزي وابن فليح.

الوقوف: ﴿ تسمعون ﴾ هـ ﴿ الآيات واللطف ﴾ لا يسمعون ﴿ هـ ﴾ لا يعقلون ﴿ هـ ﴾  
لا أسمعهم ﴿ ط ﴾ معرضون ﴿ هـ ﴾ لما يحييكم ﴿ ج لطف المتفقتين مع اعتراض  
الظرف ﴾ تحشرون ﴿ هـ ﴾ خاصة ﴿ ج لما مر ﴾ العقاب ﴿ هـ ﴾ تشكرون ﴿ هـ ﴾  
﴿ تعلمون ﴾ هـ ﴿ فتنه ﴾ لا للطف ﴿ عظيم ﴾ هـ ﴿ ويغفر لكم ﴾ ط ﴿ العظيم  
﴿ هـ ﴾ أو يخرجوك ﴿ ط ﴾ ويمكر الله ﴿ ط ﴾ الماكرين ﴿ هـ ﴾ انتهى انتهى . اهـ  
﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 386.387 ﴾

(104/309)

فصل

قال الفخر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) ﴾  
اعلم أنه تعالى لما خاطب المؤمنين بقوله: ﴿ إِنَّ تَنْهَاهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدُ وَكُنْ  
تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُمْ شَيْئاً ﴾ [ الأنفال: 19 ] أتبعه بتأديبهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ ولم يبين أنهم ماذا يسمعون إلا أن الكلام  
من أول السورة إلى هنا لما كان واقعاً في الجهاد علم أن المراد وأنت تسمعون دعاءه إلى الجهاد

، ثم إن الجهاد اشتمل على أمرين: أحدهما: المخاطرة بالنفس .

والثاني: الفوز بالأموال ، ولما كانت المخاطرة بالنفس شاقة شديدة على كل أحد ، وكان

ترك المال بعد القدرة على أخذه شاقاً شديداً ، لا جرم بالغ الله تعالى في التأديب في هذا

الباب فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في الإجابة إلى الجهاد ، وفي الإجابة إلى تركه المال

إذا أمره الله بتركه والمقصود تقرير ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْإِنْفَالِ لِلَّهِ

والرسول ﴾ [ الأنفال : 1 ] .

فإن قيل : فلم قال ولا تولوا عنه فجعل الكناية واحدة مع أنه تقدم ذكر الله ورسوله .

قلنا : إنه تعالى أمر بطاعة الله ويطاعة رسوله .

ثم قال : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا ﴾ لأن التولي إنما يصح في حق الرسول بأن يعرضوا عنه وعن قبول قوله

وعن معوته في الجهاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 115 . 116 ﴾

(105/309)

---

وقال السمرقندي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

في أمر الغنيمة والصلح .



﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ ، يعني لا تعرضوا عن أمره ، ويقال عن طاعته ، ويقال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ الموعظ في القرآن وفي أمر الصلح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾  
ولا تدبروا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أمره وليه .  
قال ابن عباس : وأتم تسمعون القرآن وموعظه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ج 4 ص ﴾

(106/309)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية  
الخطاب للمؤمنين المصدقين ، جدد عليهم الأمر بطاعة الله والرسول ونهوا عن التولي عنه ،  
وهذا قول الجمهور ، ويكون هذا متناصراً مع قول من يقول : إن الخطاب بقوله ﴿ وَإِنْ تَنهَوْا  
﴿ هو للمؤمنين ، فيجيء الكلام من نمط واحد في معناه ، وأما على قول من يقول إن

المخاطبة ﴿ إِن تَتَّبِعُوا ﴾ هي للكفار فيرى أن هذه الآية إنما نزلت بسبب اختلافهم في النفل ومجادلتهم في الحق وكراهيتهم خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفاخرهم بقتل الكفار والنكايه فيهم ، وقالت فرقة : الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالسنتهم فقط .

قال القاضي أبو محمد : وهذا وإن كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً لأجل أن الله وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان ، والإيمان التصديق ، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء ، وقيل إن بالفعل المستقبل فحذفت الواحدة ، والحذوفة هي تاء تفعل ، والباقية هي تاء العلامة ، لأن الحاجة إليها هنا أمس ليبقى الفعل مستقبلاً ، وقوله ﴿ وَأْتَم تسمعون ﴾ يريد دعاءه لكم بالقرآن والمواعظ والآيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(107/309)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الخطاب للمؤمنين المصدقين .  
أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالاً لهم .

جدّد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول ، ونهاهم عن التولي عنه .

هذا قول الجمهور .

وقالت فرقة : الخطاب بهذه الآية إنما هو للمناقين .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالسننهم فقط .

قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً ؛ لأن الله تعالى وصف

من خاطب في هذه الآية بالإيمان .

والإيمان التصديق ، والمناقون لا يتصفون من التصديق بشيء .

وأبعد من هذا من قال : إن الخطاب لبني إسرائيل .

فإنه أجنبي من الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ التولي الإعراض ، وقال "عنه" ولم يقل عنهما لأن طاعة

الرسول طاعته ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] .

﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال .

والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين في القرآن . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

يعني في أمر الجهاد لأن فيه بذل المال والنفس ﴿ ولا تولوا عنه ﴾ يعني عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأن التولي لا يصح إلا في حق الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا في حق الله تعالى والمعنى لا تعرضوا عنه وعن معوته ونصرته في الجهاد ﴿ وأتم تسمعون ﴾ يعني القرآن يلى عليكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

(108/309)

---

وقال أبو حيان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأتم تسمعون ﴾ لما تقدم قوله ﴿ وإن تنهوا ﴾ وكان الضمير ظاهره العود على المؤمنين ناداهم وحركهم إلى طاعة الله ورسوله والظاهر أنه نداء وخطاب للمؤمنين الخالص حثهم بالأمر على طاعة الله ورسوله ولما كانت الآية قبلها مسوقة في أمر الجهاد .

(109/309)

---

قيل معنى أطيعوه فيما يدعوكم إليه من الجهاد ، وقيل في امتثال الأمر والنهي وأفردهم بالأمر  
رفعا لأقدارهم وإن كان غيرهم مأمورا بطاعة الله ورسوله وهذا قول الجمهور ، وأما من  
قال إن قوله ﴿ وإن تنهوا ﴾ خطاب للكفار فيرى أن هذه الآية نزلت بسبب اختلافهم في  
النفل ومجادلتهم في الحق وتفاخرهم بقتل الكفار والنكايه فيهم وأبعد من ذهب إلى أنه نداء  
وخطاب للمنافقين أي يا أيها الذين آمنوا بالسنتهم وهذا لا يناسب لأن وصفهم بالإيمان وهو  
التصديق وليس المنافقون من التصديق في شيء وأبعد من ذهب إلى أنه نداء وخطاب لبني  
إسرائيل لأنه أيضا يكون أجنبيا من الآيات وأصل ﴿ ولا تولوا ﴾ ولا تولوا ، وتقدم  
الخلاف في حرف التاء في نحو هذا أهى حرف المضارعة أم تاء تفعل والضمير في ﴿ عنه  
﴿ قال الزمخشري لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) لأن المعنى وأطيعوا رسول الله  
كقوله ﴿ والله ورسوله أحق أن ترضوه ﴾ ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد  
من يطع الرسول فقد أطاع الله فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما كقولك  
الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان ويجوز أن يرجع إلى الأمر بالطاعة ﴿ ولا تولوا ﴾ عن  
هذا الأمر وامثاله وأتم تسمعونه أو لا تولوا عن رسول الله ولا تحالفوه ﴿ وأتم تسمعون  
﴿ أي تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة انتهى ، وإنما عاد على  
الرسول لأن التولي إنما يصح في حق الرسول بأن يعرضوا عنه وهذا على أن يكون التولي  
حقيقة وإذا عاد على الأمر كان مجازا ، وقيل هو عائد على الطاعة ، وقيل هو عائد على

الله ، وقال الكرمانى ما معناه إنه لما لم يطلق لفظ التثنية على الله وحده لم يجمع بينه تعالى وبين غيره في ضميرها بخلاف الجمع فإنه أطلق على لفظة تعظيماً فجمع بينه وبين غيره في ضميره ولهذا نظائر في القرآن منها ﴿ إذا دعاكم ﴾ ومنها ﴿ أن يرضوه ﴾ ففي الحديث ذم من جمع في التثنية بينهما في الضمير وتعليمه أن يقول

(110/309)

---

: ومن عصى الله ورسوله ﴿ وأنتم تسمعون ﴾ جملة حالية أي لا يناسب سماعكم التولي ولا يجمعه وفي متعلقه أقوال: أحدها وعظ الله لكم ، الثاني : الأمر والنهي ، الثالث : التعبير بالسمع عن العقل والفهم ، الرابع : التعبير عن التصديق وهو الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(111/309)

---

وقال أبو السعود :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا ﴾ بطرح إحدى التاءين وقرىء

يادغامها ﴿ عَنْهُ ﴾ أي لا تتولوا عن الرسول ، فإن المراد هو الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه ، وذكر طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أن طاعته تعالى في طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وقيل : الضمير للجهاد وقيل : للأمر الذي دل عليه الطاعة وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ جملةٌ حاليةٌ واردةٌ للتأكيد بوجوب الانتهاء عن التولي مطلقاً كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ لا لتقييد النهي عنه بحال السماع كما في قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ أي لا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بطاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته أي سماع فهم وإذعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ﴾ وقال الألوسي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا ﴾

أي تولوا ، وقرىء بتشديد التاء ﴿ عَنْهُ ﴾ أي عن الرسول وأعيد الضمير إليه عليه الصلاة والسلام ون المقصود طاعته صلى الله عليه وسلم ، وذكر طاعة الله تعالى توطئة لطاعته وهي مستلزمة لطاعة الله تعالى لأنه مبلغ عنه فكان الراجع إليه كالراجع إلى الله تعالى ورسوله وقيل : الضمير للجهاد ، وقيل : للأمر الذي دل عليه الطاعة ؛ والتولي مجاز ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ جملةٌ حاليةٌ واردةٌ لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي مطلقاً لا لتقييد النهي عنه بحال السماع : أي لا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن

الناطق بوجوب طاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع تفهم واذعان ، وقد يراد  
بالسمع التصديق ، وقد يبقى الكلام على ظاهره من غير ارتكاب تجوز أصلاً . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(112/309)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (20)

لما أراهم الله آيات لطفه وعنايته بهم ، ورأوا فوائد امثال أمر الرسول صلى الله عليه وسلم  
بالخروج إلى بدر ، وقد كانوا كارهين الخروج ، أعقب ذلك بأن أمرهم بطاعة الله ورسوله  
شكراً على نعمة النصر ، واعتباراً بأن ما يأمرهم به خيرٌ عواقبه ، وحذرهم من مخالفة أمر  
الله ورسول صلى الله عليه وسلم

(113/309)

---



وفي هذا رجوع إلى الأمر بالطاعة الذي اقتتحت به السورة في قوله: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾  
ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴿ [ الأنفال : 1 ] رجوع الخطيب إلى مقدمة كلامه ودليله  
ليأخذها بعد الاستدلال في صورة نتيجة أسفر عنها احتجاجه ، لأن مطلوب القياس هو  
عين النتيجة ، فإنه لما ابتدأ فأمرهم بطاعة الله ورسوله بقوله: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ ورسوله إن  
كنتم مؤمنين ﴿ [ الأنفال : 1 ] في سياق ترجيح ما أمرهم به الرسول عليه الصلاة والسلام  
على ما تهواه أنفسهم ، وضرب لهم مثلاً لذلك بحادثة كراهتهم الخروج إلى بدر في بدء الأمر  
ومجادلتهم للرغبة في عدمه ، ثم حادثة اختيارهم لقاء العير دون لقاء النفيرخشية الهزيمة ،  
وما نجم عن طاعتهم الرسول عليه الصلاة والسلام ومخالفتهم هواهم ذلك من النصر العظيم  
والغنم الوفير لهم مع نزارة الرزء ، ومن التأييد المبين للرسول صلى الله عليه وسلم  
والتأسيس لإقرار دينه ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق  
الحق ويبطل الباطل ﴾ [ الأنفال : 7 ، 8 ] وكيف أمدهم الله بالنصر العجيب لما أطاعوه  
وانخلعوا عن هواهم ، وكيف هزم المشركين ؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله ، والمشاقة ضد  
الطاعة تعريضاً للمسلمين بوجوب التبرؤ مما فيه شائبة عصيان الرسول صلى الله عليه  
وسلم ثم أمرهم بأمر شديد على النفوس ألا وهو ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا تُؤَلُّوهُم  
الأدبار ﴾ [ الأنفال : 15 ] وأظهر لهم ما كان من عجيب النصر لما ثبتوا كما أمرهم الله  
﴿ فَلَئِمُ تَقْتُلُوهُمُ وَلَكِنِ اللَّهُ قَتَلَهُمُ ﴾ [ الأنفال : 17 ] ، وضمن لهم النصر إن هم أطاعوا

الله ورسوله وطلبوا من الله النصر ، أعقب ذلك بإعادة أمرهم بأن يطيعوا الله ورسوله ولا يتولوا عنه ، فذلّة للمقصود من الموعظة الواقعة بطولها عقب قوله : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ [ الأنفال : 1 ] وذلك كله يقتضي فصل الجملة عما قبلها ، ولذلك افتتح بـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ .

(114/309)

---

وافتح الخطاب بالنداء للاهتمام بما سيُلقى إلى المخاطبين قصداً لإحضار الذهن لوعي ما سيقال لهم ، فنزل الحاضر منزلة البعيد ، فطلب حضوره بحرف النداء الموضوع لطلب الإقبال .

والتعريف بالموصلية في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ للتنبية على أن الموصوفين بهذه الصلة من شأنهم أن يتقبلوا ما سيؤمرون به ، وأنه كما كان الشرك مسبباً لمشاقة الله ورسوله في قوله : ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ [ الأنفال : 13 ] ، فخلق بالإيمان أن يكون باعثاً على طاعة الله ورسوله ، فقوله هنا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ يساوي قوله في الآية المردود إليها :

﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ [ الأنفال : 1 ] ، مع الإشارة هنا إلى تحقق وصف الإيمان فيهم وأن

إفراغه في صورة الشرطي في الآية السابقة ما قصد منه إلا شحذ العزائم ، وبذلك انتظم هذا الأسلوب البديع في المحاوره من أول السورة إلى هنا انتظاماً بديعاً معجزاً .

والطاعة امتثال الأمر والنهي .

والتولي الانصراف ، وتقدم أنفاً ، وهو مستعار هنا للمخالفة والعصيان .

وإفراد الضمير المجرور بـ ( عن ) لأنه راجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إذ هذا

المناسب للتولي بحسب الحقيقة .

فإفراد الضمير هنا يشبه ترشيح الاستعارة ، وقد علم أن النهي عن التولي عن الرسول نهى

عن الإعراض عن أمر الله لقوله : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [الأعراف : 80]

وأصل ﴿ تولوا ﴾ تولوا بتاءين حذف إحداهما تخفيفاً .

وجملة : ﴿ وأنتم تسمعون ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ تولوا ﴾ والمقصود من هذه

الحال تشويه التولي المنهي عنه ، فإن العصيان مع توفر أسباب الطاعة أشد منه في حين

انحرام بعضها .

(115/309)

---

فالمراد بالسمع هنا حقيقته أي في حال لا يعوزكم ترك التولي بمعنى الإعراض وذلك لأن فائدة  
السمع العمل بالمسموع، فمن سمع الحق ولم يعمل به فهو الذي لا يسمع سواء في عدم الانتفاع  
بذلك المسموع، ولما كان الأمر بالطاعة كإطاعة كلام يطاع ظهر موقع ﴿ وأتم تسمعون ﴾ فلما  
كان الكلام الصادر من الله ورسوله من شأنه أن يقبله أهل العقول كان مجرد سماعه مقتضياً  
عدم التولي عنه، ضمن تولى عنه بعد أن سمعه فأمر عجب ثم زاد في تشويه التولي عن  
الرسول صلى الله عليه وسلم بالتحذير من التشبه بفتنة ذميمة يقولون للرسول عليه الصلاة  
والسلام: سمعنا، وهم لا يصدقونه ولا يعملون بما يأمرهم وينهاهم.  
و(إن) للتمثيل والتنظير في الحسن والقبيح أثراً عظيماً في حث النفس على التشبه أو  
التجنب، وهذا كقوله تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ﴾ [الأنفال  
: 47] وسيأتي وأصحاب هذه الصلة معروفون عند المؤمنين بمشاهدتهم، وبإخبار  
القرآن عنهم، فقد عرفوا ذلك من المشركين من قبل، قال تعالى: ﴿ وإذا تلى عليهم آيتنا  
قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال: 31] وقال: ﴿ ومنهم من يستمع  
إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ [الأنعام: 25]، وعن ابن عباس أن المراد بهم نفر من  
قريش، وهم بنو عبد الدار بن قصي، كانوا يقولون: نحن صم بكم عما جاء به محمد، فلم  
يسلم منهم إلا رجلاً من مصعب بن عمير وسويط بن حرملة، وبقيتهم قتلوا جميعاً في أحد،  
وكانوا أصحاب اللواء في الجاهلية. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّمَّ تَسْمَعُونَ (20) ﴾

وهذا نداء واضح من الله عز وجل للمؤمنين ، وأمر محدد منه بطاعة الله والرسول ؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد الجازم القلبي بالله وبملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالتقدير خيره وشره ، وعلى المؤمنين أن يؤدوا مطلوب الإيمان . ومطلوب الإيمان - أيها المؤمنون - أن تنفذوا التكليف التي يأتي بها المنهج من الله عز وجل ، ومن المبلغ عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الأوامر وفي النواهي .

وقد فصلنا من قبل مسألة الطاعة ، الطاعة لله تكون في الأمر الإجمالي ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تكون في اتباع الحكم التفصيلي التطبيقي الذي يأتي به رسول الله للأمر الإجمالي . وكذلك تكون طاعة الرسول واجبة في أي أمر أو حكم ؛ لأن الله قد فوض رسوله صلى الله عليه وسلم في ذلك : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [ النساء :

. [ 80

ويتمثل التفويض من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في قول الحق

تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: 7] .  
وهنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الملحظ الجميل في الأداء القرآني:  
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِّيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: 20]

(117/309)

---

والتولي - كما نعلم - هو الإعراض، والأمر هنا بعدم الإعراض، وما دتم قد آمنتم فلا  
إعراض عما تؤمنون به . والملحظ الجميل أنه سبحانه لم يقل: ولا تولوا عنهما . قياساً  
بالأسلوب البشري . لكنه قال: ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أي أنه سبحانه وتعالى قد وحد  
الكلام في أمرين اثنين؛ طاعة الله وطاعة الرسول، ولأن الرسول مبلغ عن الله فلا تقسيم بين  
الطاعتين؛ لأن طاعة الرسول هي طاعة الله تعالى .  
أو نقول: إن التولي لا يكون أبداً بالنسبة إلى الله، فلا أحد بقادر على أن يتولى عن الله؛ لأن  
الله لاحقه ومدركه في أي وقت .

لذلك نجد الحق تبارك وتعالى يقول في آية ثانية: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ  
وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: 62] .

وهو سبحانه وتعالى في هذا القول يوحد بين رضا الله والرسول فيجعله رضاً واحداً ،  
فالواحد من هؤلاء يقسم أنه لم يفعل الفعل المخالف للإيمان إرضاءً للمؤمنين ، وليبرئ نفسه  
عند البشر ، لكن هناك رضا أعلى هو رضا مراعاة تطبيق المنهج الذي أنزله الله عز  
وجل وجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهناك قيوم أعلى يرقب كل سلوك ، ويعلم  
ما ظهر وما بطن . فلو كنا متروكين لبعضنا البعض لكان لأي إنسان أن يواجه الآخر ، كل  
بقوته ، لكن نحن في الإيمان نعلم أننا تحت رقابة المقدر القيوم ، فمن ظلم أخاه ؛ وغفر  
المظلوم لظالمه ، فالله سبحانه وتعالى رب الظالم ورب المظلوم - لا يغفر للظالم بل يؤاخذه .  
وسبحانه وحد أيضاً في هذه الآية بين رضا الله ورضا الرسول ولم يقل : والله ورسوله  
أحق أن يرضوهما بظاهر الأسلوب في لغة البشر ، لكنه شاء أن يوحد الرضا ؛ لأنه يدور  
حول أمر واحد بطاعة واحدة ، وحول نهبي واحد بانتهااء واحد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : 20]

(118/309)

---

وهذا الأمر بطاعة الله تعالى والرسول بلاغ من الله ، والبلاغ أول وسيلة له الأذن ، لأن الأذن أول وسيلة للإدراكات ، ولذلك فإن الرسول يبلغ الأوامر بالقول للناس ، ولم يبلغهم بالكتابة ؛ لأن كل الناس لا تقرأ ، فأبلغ صلى الله عليه وسلم الناس قولاً كما أمر أن يكتب القرآن ليظل محفوظاً .

ونعلم أن السماع هو الأصل في القراءة . وأنت لا تقرأ مكتوباً ، ولا تكتب مسموعاً إلا إذا عرفت القواعد ، وعرفت كيفية نطق الحروف .

والمعلم يعلم طالب المعرفة القراءة والكتابة عن طريق السماع أولاً ، إذن فالسماع مقدم في كل شيء ، ولن يستطيع واحد أن يقول في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم تبلغني الدعوة ؛ لأن الدعوة أبلغت للناس بالسماع ، وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ تعطينا أن الإنسان إن لم تبلغه الدعوة ، فليس مناطاً للتكليف ، لأن ربنا سبحانه وتعالى هو القائل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : 15] .

والمجتمعات التي تعيش في غفلة وليس عندهم رسول ولم يبلغهم المنهج ، لن يعذبهم الله ، وهذا أمر وارد الآن في البلاد النائية البعيدة عن الالتقاء بالإسلام وبمنهج الإسلام ، وبالسماع عن الإسلام ؛ لأنهم ما سمعوا شيئاً عن الدين ولم يعرفوا منهجه . وهؤلاء ناجون من العذاب طبقاً لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء :



فثمرة بعث الرسول أن يبلغ الناس ، ولذلك أخذنا حكماً هاماً من الأحكام من قوله الحق

تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [ الأنفال : 20 ] .

(119/309)

---

أخذنا من هذا القول أن من لم يبلغهم المنهج لا يحاسبون . ولكن يكفي السماع في أن نعلم المنهج . لا ، لا يكفي في السماع أن نعلم أن هناك رسولاً جاء ليعقب على رسول سبق ، ولكن عليك أن تبحث أنت . فإن كان في الأرض من لم يبلغه هذا فهو ناجح ، وإن كان قد بلغه خبر رسول ولم يبلغه المنهج الكامل فعليه أن يبحث بنفسه ، بدليل أن الإنسان يبحث عن أهون الأشياء بمجرد أن يسمع عنها ، ويشغل نفسه بالبحث .

ولنفرض أن إنساناً قال في قرية : إن الدولة ستغير بطاقة التموين ، ألا يتجه كل فرد في القرية ليسأل عن هذا الأمر ويهتم به كل الاهتمام ؟ . إذن كان يكفي في وصول البلاغ أن يسمع الإنسان رسولاً في العرب قد جاء للناس كافة برسالة عامة ، وأن هذه الرسالة تعقب الرسائل السابقة ، ومن سمع هذا السماع كان عليه أن يعامل هذا الخبر معاملة المصالح الدنيوية الأساسية لأنه إذا كان أمر الدنيا هاماً فما بالناس بأمر صلاح الدنيا والآخرة ؟ .

وجزاء من التبعة في ذلك يقع على المسلمين الذين لم يجدوا وبلغوا منهج الله ودين الله إلى غيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(120/309)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا ﴾

الأصل : تَوَلَّوْا فحذف إحدى التاءين ، وقد تقدم الخلاف في أيتهما المحذوفة .

وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

جملة حالية ، والضمير في " عَنْهُ " يعود على الرسول ؛ لأن طاعته من طاعة الله .

وقيل : يعود على الله ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ [ التوبة :

62 ] وقيل : يعود على الأمر بالطاعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص

﴿ 486 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

الناس في طاعة الله على أقسام: فمطيعٌ لخوفِ عقوبته ، ومطيعٌ طمعاً في مثوبته ، وآخر  
تحققاً بعبوديته ، وآخر تشرفاً بربوبيته .

وكم بين مطيعٍ ومطيعٍ ! وأنشدوا :

أحبك يا شمسَ النهارِ وبدره . . . وإن لآمني فيك السُّها والفراقد

وذاك لأنَّ الفضلَ عندك زاخرٌ . . . وذاك لأنَّ العيشَ عندك باردٌ

قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ولم يقل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وفي ذلك نوع

تخصيص ، وحزب تفضيل يُلطفُ عن العبارة ويُبعدُ عن الإشارة .

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ .

أي تسمعون دعاءه إياكم ، وتسمعون ما أنزلَ عليه من دعائي إياكم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 613 ﴾

(121/309)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (21)

"فصل"

قال البقاعى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ أي بأذاننا ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يستجبون  
فكانهم لم يسمعوا ، لما انتفت الثمرة عد المثمر عدماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح

﴿ 3 ص 199 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ المعنى : أن الإنسان لا يمكنه أن يقبل  
التكليف وأن يلتزمه إلا بعد أن يسمعه ، فجعل السماع كناية عن القبول .

ومنه قولهم سمع الله لمن حمده ، والمعنى : ولا تكونوا كالذين يقولون بالسنتهم أنا قبلنا

تكاليف الله تعالى ، ثم إنهم بقلوبهم لا يقبلونها .

وهو صفة للمنافقين كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا

خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [ البقرة : 14 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح

الغيب ح 15 ص 116 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

يعني لم يفهموا ولم يتفكروا فيما سمعوا ؛ ويقال : قوله ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ

لَا يَسْمَعُونَ ﴿﴾ ، يعني لا يطيعون .

قال الكلبي : وهم بنو عبد الدار ، لم يسلم منهم إلا رجلا ن : مصعب بن عمير وسويد بن  
حرملة .

وقال الضحاك ومقاتل : أي سمعنا الإيمان وهم لا يسمعون ، يعني المنافقين . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ بجر العلوم ح 2 ص ﴾

(122/309)

وقال الثعلبي :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾

يعني المنافقين والمشركين الذين سمعوا كتاب الله بأذانهم فقالوا سمعنا ﴿﴾ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ  
﴿﴾ يعني لا يتعظون بالقرآن ولا ينتفعون بسماعهم وكأنهم لم يسمعوا الحقيقة . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿﴾ كَالَّذِينَ قَالُوا ﴿﴾ يريد الكفار ، فإما من قريش لقولهم ﴿﴾ سمعنا لو نشاء لقلنا مثل  
هذا ﴿﴾ [ الأنفال : 8 ] وإما الكفار على الإطلاق الذين يقولون سمعنا القرآن وعلمنا أنه

سحراً أو شعر وأساطير بحسب اختلافهم ، ثم أخبر الله عنهم خبراً نفى به أنهم سمعوا أي فهمو ووعوا ، لأنه لا خلاف أنهم كانوا يسمعون التلاوة بأذانهم ولكن صدورهم مطبقة لم يشرحها الله عز وجل لتلقي معاني القرآن والإيمان به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الحرر الوجيز

ح 2 ص ﴿

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ ولا تولوا عنه ﴾

﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في بني عبد الدار بن قصي ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : في اليهود قريظة والنضير ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : في المنافقين ، قاله ابن إسحاق ، والواقدي ، ومقاتل .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنهم قالوا : سمعنا ، ولم يتفكروا فيما سمعوا ، فكانوا كمن لم يسمع ، قاله

الزجاج .

والثاني : أنهم قالوا : سمعنا سماع من يقبل ، وليسوا كذلك ، حكى عن مقاتل . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴿

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾

أي كاليهود أو المنافقين أو المشركين .

وهو من سماع الأذن .

﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يتدبرون ما سمعوا ، ولا يفكرون فيه ؛ فهم بمنزلة من لم يسمع

وأعرض عن الحق .

نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم .

فدلت الآية على أن قول المؤمن : سمعت وأطعت ، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه

بامثال فعله .

فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها ، واعتمد النواهي فاقحهما فأبي سمع عنده وأي طاعة !

وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان ، ويسر الكفر ؛ وذلك هو المراد بقوله :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

يعني بذلك المنافقين ، أو اليهود أو المشركين ، على ما تقدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

القرطبي ح 7 ص ﴿

وقال أبو حيان :

﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ نهي عن أن يكونوا كالذين ادّعوا السماع والمشبه بهم اليهود أو المنافقون أو المشركون أو ﴿ الذين قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ ، أو بنو عبد الدار بن قصيٍّ ولم يسلم منهم إلا رجلا ن مصعب بن عمير وسويد بن حرملة أو النضر بن الحارث ومن تابعه ستة أقوال ، ولما لم يجد سماعهم ولا أثر فيهم نفى عنهم السّماع لاتفاء ثمرته إذ ثمره سماع الوحي تصديقه والإيمان به والمعنى أنكم تصدّقون بالقرآن والنبوة فإذا صدر منكم تولٌّ عن الطاعة كان تصديقكم كالتصديق فأشبه سماعكم سماع من لا يصدق ، وجاءت الجملة النافية على غير لفظ المثبتة إذ لم تأت وهم ما سمعوا لأنّ لفظ الماضي لا يدلّ على استمرار الحال ولا ديمومته بخلاف نفي المضارع فكما يدلّ إثباته على الديمومة في قولهم هو يعطي ويمنع كذلك يجيء نفيه وجاء حرف النفي لأنها أوسع في نفس المضارع من ما وأدلّ على انتفاء السماع في المستقبل أي هم ممن لا يقبل أن يسمع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(124/309)



وقال أبو السعود :

﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾

تقريرُ النهي السابق وتحذيرٌ عن مخالفته بالتنبيه على أنه مؤديةٌ إلى انتظامهم في سلك الكفرة  
بكون سماعهم كلاسماعٍ أي لا تكونوا بمخالفة الأمر والنهي ﴿ كالذين قالوا سَمِعْنَا ﴾  
بمجرد الادعاء من غير فهمٍ وإذعانٍ كالكفرة والمنافقين الذي يدعون السماع ﴿ وَهُمْ لَا  
يَسْمَعُونَ ﴾ حالٌ من ضمير قالوا أي قالوا ذلك والحال أنهم لا يسمعون حيث لا يصدقون  
ما سمعوه ولا يفهمونه حق فهمه فكأنهم لا يسمعونه رأساً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي

السعود ح 4 ص ﴿

وقال الأوسى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (21) ﴿

﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ تقريراً لما قبله أي لا تكونوا بمخالفة الأمر والنهي ﴿ كالذين قالوا سَمِعْنَا  
﴿ كالكفرة والمنافقين الذين يدعون السماع ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي سماعاً ينتفعون به  
لأنهم لا يصدقون ما سمعوه ولا يفهمونه حق فهمه والجملة في موضع الحال من ضمير قالوا :  
والمنفى سماع خاص لكنه أتى به مطلقاً للإشارة إلى أنهم نزلوا منزلة من لم يسمع أصلاً يجعل  
سماعهم كالعدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴿

وقال ابن عاشور :

﴿ ولكن هؤلاء لم يقولوا سمعنا بل قالوا : نحن صم بكم ، فلا يصح أن يكونوا هم المراد بهذه الآية بل المراد طوائف من المشركين ، وقيل : المراد بهم اليهود ، وقد عرفوا بهذه المقالة ، واجهوا بها النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ ويقولون سمعنا وعصينا ﴾ [

النساء : 46] وقيل : أريد المنافقون قال تعالى :

﴿ ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول ﴾ [ النساء : 81] وإنما يقولون سمعنا لقصد إيهام الانتفاع بما سمعوا ، لأن السمع يكتنى به عن الانتفاع بالسموع وهو مضمون ما حكى عنهم من قولهم ﴿ طاعة ﴾ ولذلك نفي عنهم السمع بهذا المعنى بقوله : ﴿ وهم لا يسمعون ﴾ أي لا ينتفعون بما سمعوه ، فالمعنى هو معنى السمع الذي أرادوه بقولهم : ﴿ سمعنا ﴾ وهو إيهامهم أنهم مطيعون ، فالواو في قوله : ﴿ وهم لا يسمعون ﴾ واو الحال .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي للاهتمام به ليتقرر مفهومه في ذهن السامع فيرسخ اتصافه بمفهوم المسند ، وهو انتفاء السمع عنهم ، على أن المقصود الأهم من قوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ هو التعريض بأهل هذه الصلة من الكافرين أو المنافقين لا خشية وقوع المؤمنين في مثل ذلك .

وصيغ فعل ﴿ لا يسمعون ﴾ بصيغة المضارع لإفادة أنهم مستمرين على عدم السمع ،  
فلذلك لم يقل وهم لم يسمعوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(126/309)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَكَأَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (21)

في هذه الآية الكريمة ينهانا الحق جل وعلا أن نكون مثل من قالوا : "سمعنا " وحكم الله  
بأنهم لا يسمعون ، وهؤلاء هم من أخذوا السمع بقانون الأحداث الجارية على ظواهر  
الحركة فسمعوا ولم يلتفتوا ؛ لأن المراد بالسمع ليس أن تسمع فقط ، بل أن تؤدي مطلوب ما  
سمعت ، فإن لم تؤدي مطلوب ما سمعت ، فكأنك لم تسمع . بل تكون شرّاً ممن لم يسمع ؛ لأن  
الذي لم يسمع لم تبلغه دعوة ، أما أنت فسمعت فبلغتك الدعوة ولكنك لك تستجب ولم  
تنفذ مطلوبها .

إذن قول الله تعالى :

﴿ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [ الأنفال : 21 ] .

يفسر لنا أن هذا السمع منهم كان مجرد انتقال الصوت من المتكلم إلى أذن السامع بالذبذبة

التي تحدث ، ولم يأخذوا ما سمعوه مأخذاً جاداً ليكون له الأثر العميق في حياتهم . فإذا لم يتأثروا بالمنهج ، فكانهم لم يسمعوا ، وياليتهم لم يسمعوا ؛ لأنهم صاروا شراً ممن لم يسمع .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [ الأنفال : 21 ] .

أو أن السمع يراد ويقصد به القبول ، مثلما نقول : اللهم اسمع دعاء فلان ، وأنت تعلم أن الله سميع الدعاء وإن لم تقل أنت ذلك ، لكنك تقول : اللهم اسمع دعاء فلان بمعنى " اللهم اقبله " ، فيكون المراد بالسمع القبول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(127/309)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (21)

لا تكونوا ممن يشهد جهراً ، ويجحد سراً .

ويقال لا تُقرُّوا بلسانكم ، وتصروا على كفرانكم .

ويقال من نطق بتلبيسه تشهد الخبيرة بتكذيبه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح

1 ص 613.614 ﴿

قوله تعالى ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (22)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت حال من هذا شأنه مشابهة لحال الأصم في عدم السماع لعدم الانتفاع به ،  
والأبكم في عدم كلامه لعدم تكلمه بما ينفع ، والعادم للعقل في عدم عقله لعدم انتفاعه به ،  
قال معللاً لهذا النهي معبراً بأنسب الأشياء لما وصفهم به : ﴿ إن شر الدواب ﴾ أي التي  
تدب على وجه الأرض ، جعلهم من جنس الحشرات أو البهائم ثم جعلهم شرها .  
ولما كان لهم من يفضلهم ، وكانت العبرة بما عنده سبحانه ، قال تعالى : ﴿ عند الله ﴾ أي  
الذي له جميع الكمال من إحاطة العلم والقدرة وغيرها ﴿ الصم البكم ﴾ أي الطرش  
الخرس طرشاً وخرساً بالغين ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ أي لا يتجدد لهم عقل ، ومن لم ينتفع  
بسماع الداعي كان كذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 199 ﴾

## فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الْبِكْمَ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

اختلفوا في الدواب .

فقيل : شبههم بالدواب لجهلهم وعدو لهم عن الانتفاع بما يقولون .

ويقال لهم : ولذلك وصفهم بالصم والبكم وبأنهم لا يعقلون .

وقيل : بل هم من الدواب لأنه اسم لما دب على الأرض ولم يذكره في معرض التشبيه ، بل

وصفهم بصفة تليق بهم على طريقة الذم ، كما يقال لمن لا يفهم الكلام ، هو شبح وجسد

وطلل على جهة الذم .

ثم قال : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ تَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ والمعنى

أن كل ما كان حاصلًا فإنه يجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه ، فلا

جرم حسن التعبير عن عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده ، وتقرير الكلام لو حصل فيهم

خير ، لأسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهم ، ولو أسمعهم بعد أن علم أنه لا خير

فيهم لم ينتفعوا بها ، وتولوا وهم معرضون .

قيل : إن الكفار سألوا الرسول عليه السلام أن يجيب لهم قصي بن كلاب وغيره من أمواتهم

ليخبروهم بصحة نبوته ، فبين تعالى أنه لو علم فيهم خيراً ، وهو انتفاعهم بقول هؤلاء

الأموات لأحياءهم حتى يسمعوا كلامهم ، ولكنه تعالى علم منهم أنهم لا يقولون هذا الكلام إلا على سبيل العناد والتعنت ، وأنه لم أسمعهم الله كلامهم لتولوا عن قبول الحق ولأعرضوا عنه ، وفي هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى حكم عليهم بالتولي عن الدلائل وبالإعراض عن الحق وأنهم لا يقبلونه ألبتة ، ولا ينتفعون به ألبتة .

فنقول : وجب أن يكون صدور الإيمان منهم محالاً ، لأنه لو صدر الإيمان ، لكان إما أن يوجد ذلك الإيمان مع بقاء هذا الخبر صدقاً أو مع انقلابه كذباً والأول محال ، لأن وجود الإيمان مع الأخبار بعدم الإيمان جمع بين النقيضين وهو محال .  
والثاني محال ، لأن انقلاب خبر الله الصدق كذباً محال .

لا سيما في الزمان الماضي المنقضي ، وهكذا القول في انقلاب علم الله جهلاً ، وتقريره سبق مراراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 116 ﴾

(130/309)

---

وقال السمرقندي :

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ،

يعني شر الناس عند الله ﴿ الصم ﴾ عن الهدى ﴿ البكم ﴾ ، يعني الخرس الذين لا يتكلمون بخير ، ﴿ الذين لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الإيمان ، يعني بني عبد الدار وغيرهم من الكفار ، لم يسلموا . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾

يعني أن شرّ [ الدواب ] على وجه الأرض من خلق الله ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فقال الأخفش : كل محتاج إلى غذا فهو دابة .

﴿ الصم البكم ﴾ عن الحق كأنهم لا يسمعون ولا ينطقون .

قال ابن زيد : هم صم القلوب وبكمها وعميها . وقرأ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ

تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [ الحج : 46 ] .

وقال ابن عباس وعكرمة : هم بنو عبد الدار بن قصي كانوا يقولون نحن صمُّ بكم عمي عن

مخاطبة محمد لا نسمعه ولا نجيبه ، [ فكانوا ] جميعاً [ بأحد ] ، وكانوا أصحاب اللواء ولم

يسلم منهم إلا رجلا ن مصعب بن عمير وسويط بن حرملة ﴿ الذين لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أمر

الله . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾



وقال الماوردي:

﴿قوله عز وجل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾﴾

أما الدواب فاسم لكل ما دب على الأرض من حيوانها لذيبيه عليها مشياً، وكان بالخيل

أخص. والمراد بشرّ الدواب الكفار لأنهم شر ما دب على الأرض من الحيوان.

ثم قال: ﴿الصُّمُّ﴾ لأنهم لا يسمعون الوعظ. ﴿الْبُكْمُ﴾ والأبكم هو المخلوق أخرس

، وإنما وصفهم بالبكم لأنهم لا يقرون بالله تعالى ولا بلوازم طاعته.

﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: لا يعقلون عن الله تعالى أمره ونهيه.

والثاني: لا يعتبرون اعتبار العقلاء.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في بني عبد الدار. انتهى انتهى. اهـ ﴿النكت والعيون

ح 2 ص ﴿

وقال ابن عطية:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (22) ﴿

المقصود بهذه الآية أن يبين أن هذه الصنيفة العاتية من الكفار هي شر الناس عند الله عز وجل ، وأنها أحس المنازل لديه ، عبر ﴿ الدواب ﴾ ليتأكد ذمهم وليفضل عليهم الكلب العقور والخنزير ونحوهما من السبع ، والخمس الفواسق وغيرها ، و ﴿ الدواب ﴾ كل ما دب فهو جميع الحيوان بجملته ، وقوله ﴿ الصم البكم ﴾ عبارة عما في قلوبهم وقلة انشراح صدورهم وإدراك عقولهم ، فلذلك وصفهم بالصم والبكم وسلب العقل ، وروي أن هذه الآية نزلت في طائفة من بني الدار وظاهرها العموم فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بهذه الأوصاف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ج 2 ص ﴾

(132/309)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدهما : أنها نزلت في بني عبد الدار بن قصي ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : في المنافقين ، قاله ابن إسحاق ، والواقدي .

والدواب : اسم كل حيوان يدبُ وقد بينا في سورة [ البقرة : 18 ] معنى الصم والبكم ،

ولم سَمَّاهم بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

ثم أخبر تعالى أن الكفار شرُّ ما دبَّ على الأرض .

وفي البخاري عن ابن عباس ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

قال : هم نفر من بني عبد الدار .

والأصل أشرّ ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال .

وكذا خير ؛ الأصل أخير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

يعني إن شر من دب على وجه الأرض من خلق الله عند الله ﴿ الصم ﴾ عن سماع الحق

﴿ البكم ﴾ عن النطق به فلا يقولونه ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ يعني لا يفهمون عن الله أمره

ونهيهم ولا يقبلونه وإنما سماهم دواب لقلّة انتفاعهم بعقولهم .

قال ابن عباس : هم نفر من بني عبد الدار بن قصي كانوا يقولون نحن صم بكم عمي عما

جاء به محمد ( صلى الله عليه وسلم ) فقتلوا جميعاً يوم أحد وكانوا أصحاب اللواء ولم

يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن عمير وسويط بن حرملة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الخازن ح 3 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إن شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾

لما أخبر تعالى إن هؤلاء المشبه بهم ﴿ لا يسمعون ﴾ أخبر أن شرّ الحيوان الذي يدبّ ﴿ الصم ﴾ أو أن شرّ البهائم فجمع بين هؤلاء وبين جمع الدواب وأخبر أنهم شرّ الحيوان مطلقاً ومعنى ﴿ الصم ﴾ عن ما يلقي إليهم من ﴿ القرآن ﴾ البكم عن الإقرار بالإيمان وما فيه نجاتهم ثم جاء بانتفاء الوصف المنتج لهم الصمم والبكم الناشئين عنه وهو العقل وكان الابتداء بالصمم لأنه ناشئ عنه البكم إذ يلزم أن يكون كل أصم خلقه أبكم لأن الكلام إنما يتلقنه ويتعلمه من كان سالم حاسة السمع وهذا مطابق لقوله تعالى ﴿ صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ إلا أنه زاد في هذا وصف العمى وكل هذه الأوصاف كناية عن انتفاء قبولهم للإيمان وإعراضهم عما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) وظاهر هذه الأخبار العموم، وقيل: نزلت في طائفة من بني عبد الدار كانوا يقولون: نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه فقتلوا جميعاً بيدرو وكانوا أصحاب اللواء، وقال ابن جريج

هم المنافقون ، وقال الحسن : هم أهل الكتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4

﴿ ص ﴾

(134/309)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾

استئنافٌ مسوقٌ لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغةً في التحذير وتقريراً للنهي إثر تقرير  
، أي إن شرَّ ما يدب على الأرض أو شرَّ البهائم ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿  
الصم﴾ الذين لا يسمعون الحق ﴿ البكم ﴾ الذين لا ينطقون به ، وُصفوا بالصم والبكم  
لأن ما خُلِقَ له الأذن واللسان سماعُ الحق والنطق به ، وحيث لم يوجد فيهم شيءٌ من ذلك  
صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأساً ، وتقديم الصم على البكم لما أن صمَّهم متقدمٌ  
على بكمهم ، فإن السكوتَ عن النطق لما لحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به  
من فروع سماعه ثم وُصفوا بعدم التعقل ف قيل : ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ تحقيقاً لكمال سوء  
حالهم فإن الأصمَّ الأبكم إذا كان له عقلٌ ربما يفهم بعض الأمور ويفهمه غيره بالإشارة  
ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه ، وأما إذا كان فاقداً للعقل أيضاً فهو الغاية في الشرية وسوء

الحال ، وبذلك يظهر كونهم شراً من البهائم حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها وبه يفضلون على كثير من خلق الله عز وجل فصاروا أحسن من كل خسيس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

أبي السعود ح 4 ص ﴿

وقال الأوسى :

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (22) ﴿

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ استئناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغة في

التحذير وتقريراً للنهي أثر تقرير ، والدواب جمع دابة ، والمراد بها إما المعنى اللغوي أو

العرفي أي أن شر من يدب على الأرض أو شر البهائم ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي في حكمه

وقضائه ﴿ الصم ﴾ الذين لا يسمعون الحق ﴿ البكم ﴾ الذين لا ينطقون به ، والجمع

على المعنى ، ووصفوا بذلك لأن ما خلق له الحاستان سماع الحق والنطق به وحيث لم يوجد

فيهم شيء من ذلك صاروا كأنهم فاقدون لهما رأساً .

وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكمهم فإن السكوت عن النطق بالحق

من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعه ، وقيل : التقديم لأن وصفهم

بالصم أهم نظراً إلى السابق واللاحق ، ثم وصفوا بعدم التعقل في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ لَا

يَعْقِلُونَ ﴾ تحقيقاً لكمال سوء حالهم فإن الأصم الأبكم إذا كان له عقل ربما يفهم بعض

الأمر ويفهمه غيره ويهتدي إلى بعض مطالبه .

أما إذا كان فاقداً للعقل أيضاً فقد بلغ الغاية في الشرية وسوء الحال ، وبذلك يظهر كونهم شر الدواب حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(135/309)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ معترضة ، وسوقها في هذا الموضع تعريض بالذين ﴿ قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ بأنهم يشبهون دواب صماء بكماء .

والتعريض قد يكون كناية وليس من أصنافها فإن بينه وبين الكناية عموماً وخصوصاً وجهياً ، لأن التعريض كلام أريد به لازم مدلوله ، وأما الكناية فهي لفظ مفرد يراد به لازم معناه إما الحقيقي كقوله تعالى : ﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ [ الزمر : 12 ] ، وإما المجازي نحو قولهم للجواد : جبان الكلب إذا لم يكن له كلب ، فأما التعريض فليس إرادة لازم معنى لفظ مفرد ولا لازم معنى تركيب ، وإنما هو إرادة لنطق المتكلم بكلامه ، قال في "الكشاف" عند قوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ في سورة [ البقرة : 235 ] التعريض أن تذكر شيئاً يدل به على شيء لم تذكره

يريد أن تذكر كلاماً دالاً كما يقول المحتاج لغيره جئت لأسلم عليك .  
قلت : ومن أمثلة التعريض قول القائل حين يسمع رجلاً يسب مسلماً أو يضربه : المسلم من  
سلم المسلمون من لسانه ويده ، فكذلك قوله تعالى : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم  
البكم ﴾ لم يرد به لازم معنى ألفاظه ولا لازم معنى الكلام ، ولكن أريد به لازم النطق به في  
ذلك المكان بدون مقتض للإخبار من حقيقة ولا مجاز ولا تمثيل .  
والفرق بين التعريض وبين ضرب المثل : أن ضرب المثل ذكر كلام يدل على تشبيه هيئة  
مضربه بهيئة مورده ، والتعريض ليس فيه تشبيه هيئة بهيئة .  
فالتعريض كلام مستعمل في حقيقته أو مجازه ، ويحصل به قصد التعريض من قرينة سوقه  
فالتعريض من مستبغات التراكيب .

(136/309)

---

وهذه الآية تعريض بتشبيهم بالدواب ، فإن الدواب ضعيفة الإدراك ، فإذا كانت صماء  
كانت مثلاً في انتفاء الإدراك ، وإذا كانت مع ذلك بكماً انعدم منها ما انعدم منها ما يعرف به  
صاحبها ما بها ، فانضم عدم الإفهام إلى عدم الفهم ، فقوله : ﴿ الصم البكم ﴾ خبران  
عن الدواب بمعناها الحقيقي ، وقوله : ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ خبر ثالث ، وهذا عدول



عن التشبيه إلى التوصيف لأن ﴿ الذين ﴾ مما يناسب المشبهين إذ هو اسم موصول بصيغة جمع العقلاء وهذا تخلص إلى أحوال المشبهين كما تخلص طرفة في قوله

:

خذول تراعي ربرباً مجميلة

تناول أطراف البرير وترتدي . . .

وتبسم عن ألمى كأن منوراً

توسط حر الرمل دعص له ندي . . .

و ﴿ شر ﴾ اسم تفضيل ، وأصله "أشر" فحذفت همزته تخفياً كما حذفت همزة خير

كقوله تعالى : ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ﴾ [المائدة : 60] الآية .

والمراد بالدواب معناه الحقيقي ، وظاهر أن الدابة الصماء البكماء أحسن الدواب .

﴿ عند الله ﴾ قيد أريد به زيادة تحقيق كونهم ، أشر الدواب بأن ذلك مقرر في علم الله ،

وليس مجرد اصطلاح ادعائي ، أي هذه هي الحقيقة في تفاضل الأنواع لا في تسامح العرف

والاصطلاح ، فالعرف يعد الإنسان أكمل من البهائم ، والحقيقة تفصل حالات الإنسان

فالإنسان المنتفع بمواهبه فيما يبلغه إلى الكمال هو بحق أفضل من العجم ، والإنسان الذي

دكى نفسه إلى حضيض تعطيل انتفاعه بمواهبه السامية يصير أخط من العجاوات .

والمشبهون بالصم البكم هم الذين قالوا ﴿ سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ ، شبهوا بالصم في

عدم الانتفاع بما سمعوا لأنه مما يكفي سماعه في قبوله والعمل به وشبهوا بالكم في انقطاع  
الحجة والعجز عن رد ما جاءهم به القرآن فهم ما قبلوا ولا أظهروا عذراً عن عدم قبوله.

(137/309)

---

ولما وصفهم بانتهاؤ قبول المعقولات والعجز عن النطق بالحجة أتبعه بانتفاء العقل عنهم أي  
عقل النظر والتأمل بله عقل التقبل ، وقد وصف بهذه الأوصاف في القرآن كل من المشركين  
والمنافقين في مواضع كثيرة.

ولعل ما روي عن ابن عباس من قوله إن الآية نزلت في نفر من بني عبد الدار كما تقدم آنفاً إنما  
عنى بهم نزول قوله تعالى : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾  
لأنهم الذين قالوا مقالة تقرب مما جاء في الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9

ص ﴿

(138/309)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (22)

وكلمة "دابة" تعني كل ما يدب على الأرض، ولكنها خُصَّتْ عرفاً بذوات الأربع . وجمع دابة دواب .

و"الدواب" كما نعلم هي القسم الثالث من الوجود، لأن الوجود مرتقي إلى حلقات؛ أولها الجماد، وثانيها النبات، وثالثها الحيوان، ورابعها الإنسان، ويجمع هذه الأشياء الأربعة رباط واحد، فنجد أن أعلى مرتبة في الأدنى، هي أول مرتبة في الأعلى، فالأدنى هو الجماد، وفوقه النبات، وأعلى شيء في الجماد، يُمثل أول شيء في النبات، مثل المرجانيات، كأن الجماد نفسه له ارتقاءات في ذاته توقف عند مرحلة معينة لا يتعداها، فلا ترتقي إلى أن تصير نباتاً، أو أن يصبح النبات حيواناً، لا، إن كل قسم يظل مستقلاً بذاته وفيه ارتقاءات تقف عند حد معين . وإذا كان أعلى شيء في الجماد يكاد أن يماثل أول شيء في النبات، فهو لا يتحول نباتاً مثل ظاهرة نمو الشعاب المرجانية التي أخذت ظاهرة النبات، لكنها لا تنتقل إلى نبات، بل تظل أعلى قمة في الجماد . وكذلك النبات، نجده يرتقي إلى أن ينتهي إلى أعلى مرحلة فيه . فالنبات مراحل، وآخر مرحلة فيه أن يوجد نبات يُحسّ، لأن الإحساس فرع الحياة، وهذا ما نراه في نباتات الظل التي نشاهدها وهي تتجه بطبيعة تكوينها إلى نور النهار . وكأن فيها نوعاً من الإحساس . وإن تغير مكان

الضوء ، فإنها تُغيّر اتجاهها إلى المكان الجديد .

وهناك نوع من النبات يذبل فور أن تلمسه . ونسمع عن نبات يسمى في الريف " الست المستحية " وهي تغلق أوراقها على ثمرها فور اللمس ، وأخذت أعلى مرتبة في النبات ، وهي أول مرتبة في الحيوان ، لكنها لا ترتقي إلى حيوان . بل تظل في حلقتها كنبات .

(139/309)

---

ونأتي إلى الحيوانات لنجدها ترتقي ، فهناك حيوانات تستأنس ، وحيوانات لا تستأنس ، بل تظل متوحشة ، وقد خلقها ربنا لحكمة ما . فالإنسان يستأنس الجمل ولا يستطيع أن يستأنس الثعبان ، ولا البرغوث ، كأن الله يريد بذلك أن يعلمنا أننا لم نستأنس الحيوانات التي نستأنسها بقدرتنا وبذكائنا ؛ بل هو الذي جعلك تأنس بها ، فأنت أنست بالجمل ، وقد ترى البنت الصغيرة وهي تقوده ، وتأمره بالقيام والعود ، بينما البرغوث الصغير قد يجعل الإنسان ساهراً طوال الليل لا يعرف كيف يصطاده . إذن هذه الأمور تعطينا حكمة أوجزها الحق تبارك وتعالى في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ \* وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : 71 - 72] .

ولو لم يذلل الحق تبارك وتعالى هذه المخلوقات ، لما استطاع الإنسان تذليلها ، ونرى المخلوق

الصغير وقد عجز الإنسان أمام تذييله ، ليعرف أن المذلل ليس الإنسان ، بل المذلل هو الله سبحانه وتعالى .

وفي المستأنس من الحيوانات تجد نوعاً تعود على بعض الأشياء فيعتادها ويقوم بها مثل القرد الذي يقول له مدربه اعجن عجين الصبية ، أو العجوزة ، فيقلد القرد الصبية أو " العجوزة " ؛ لأن فيه قابلية التقليد ، فهو يملك درجة من الفهم وهو أعلى مرتبة في الحيوان ، ويقف عندها ولا يتطور إلى خارجها ، بدليل أنك إن علمت قرداً كل شيء ، فهو يصنع ما تعلمه له من الحركات ويضحك الناس منه ، لكن القرد لا يستطيع أن يعلمها لبني جنسه . وكذلك نجد من يدرّب الأسد والنمر ليؤدي فقرات ترفيهية في السيرك ، لكن الأسد لا يعلم أولاده من الأشبال ما تعلمه من مدرّب السيرك .

(140/309)

---

إذن فالوجود بمخلقاته الأربع ؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وإنساناً لا ترتقي فيه حلقة إلى الأعلى منها ؛ بل تقف عند حد معين ، وتلك هي الشبهة التي أصابت بعض المفكرين في أن يظنوا أن أصل الإنسان قرد ؛ لأن المخلوقات حلقات يسلم بعضها لبعض ، وأدنى مرتبة في الأعلى لكل حلقة هي أعلى مرتبة في الأدنى وتقف في حدودها . والذي يهدم نظرية داروين من

أولها هو هذا الفهم لطبيعة التطور: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: 49].

أي أن كل الكائنات مخلوقة ابتداءً من الله، ولا يوجد جنس قد نشأ من جنس آخر .  
وتقدم هذا الدليل العقلي لغير المتدينين، فنقول: لماذا لم تؤثر الظروف التي أثرت في القرد الأول ليصير إنساناً، في بقية القروود لتكون أناساً؟  
وهكذا تنهدم النظرية - نظرية داروين - من أولها لآخرها، وعلماء الأجناس يهدمونها الآن .  
والحق تبارك وتعالى أخبرنا أن هذه المخلوقات التي تقع في المرتبة تحت الإنسان، لا تستطيع أن ترتب المقدمات، وتأخذ منها النتائج . ولا تعرف البديلات في الاختيار،  
والحيوان وهو أرقى الأجناس ليس عنده بديلات؛ إنه يتعلم مهمة واحدة وتنتهي المسألة؛  
لأنها دواب لا تعقل، لكن الإنسان يملك القدرة على الاختيار بين البديلات . وجرب أن  
تعاكس قطة فإنك تجدها تهاجمك وتجرحك بمخالبتها إلا إن كنت أنت مستأنسها وتعرف  
أنك تداعبها . أمّا المؤمن العاقل المكلف فهو يتصرف في المواقف بشكل مختلف . فإن قام  
إنسان بإيدائه فقد يعاقبه بمثل ما عوقب، وقد يعفو عنه، وقد يكظم غيظه . ﴿  
والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ [آل عمران: 134] .

إذن فأنت أيها المؤمن عندك بديلات كثيرة، لكن الحيوان لا يملك مثل هذه البديلات .

---

ولذلك ضربنا من قبل المثل : لو أنك علفت حيواناً إلى أن أكل وشبع ثم جئت إليه بعد

شبعه بشيء زائد من أشهى طعام عنده ؛ تجده لا يأكله . بينما الإنسان إن شبع فقد لا

يمنع أن يأكل فوق الشبع من صنف يحبه .

ومثال آخر : نرى في الريف أن الحمار حين يرى جدولاً من المياه ويكون اتساع الجدول فوق

قدرته على أن يقفز عليه ليعبره ، نجد الحمار قد توقف رافضاً القفز أو المرور فوق هذا

الجدول .

فهل قاس الحمار المسافة بنظره ووازنها بقدرته ؟ ! إنه يقفز فوق الجداول التي في متناول

قدرته ، لكنه يرفض ما فوق هذه القدرة ، رغم أننا نصف الحمار بالبلادة .

وهذا يبين لنا أن كل جنس يسير في ناموس تكوينه ليؤدي مهمته التي أرادها له الله . ولقائل

أن يقول : كيف يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ بينما الحيوانات

كلها مسخرة ؟ ونقول : إذا كنت أيها الإنسان تأخذ وظيفة الأدنى فأنت تختار أن تكون

شراً من الدابة ؛ لأن الأدنى مسخر بقانونه ويفعل الأشياء بغرائزه لا بفكره ، فكأن فكر

الاختيار بين البديلات غير موجود فيه ، لكنك أيها الإنسان ميزك الله بالعقل الذي يختار بين

البديلات ، فإن أوقفت عقلك عن العمل ، وسلبت قدرتك على القبول لما تسمع من وحي

الألا تكون شر الدواب ؟

وحين تأمل كلمة "شر وخير" نقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8].

فالخير يقابله الشر، وحين يقابل الخير الشر، فالإنسان يميز الخير، لأنه نافع وحسن، ويميز الشر؛ لأنه ضار وقبيح.

ولكن كلمة "خير" تستعمل أحياناً استعمالاً آخر لا يقابله الشر، بل يقال: إن هذا الأمر خير من الثاني، رغم أن الثاني أيضاً خير، مثل قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه:

"المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير".

(142/309)

---

إن كلاهما - أي المؤمن القوي والمؤمن الضعيف - فيه خير، لكن في الخير ارتقاءات، هناك خير يزيد عن خير، ويخبر المولى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ البكم الذين لا يعقلون﴾.

أي أن الكفار شر ما دبَّ على الأرض لأنهم قد افتقدوا وسيلة الهداية وهي السماع،



وبذلك صاروا بكما أي لا ينطقون كلمة الهدى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي

ص ﴿

(143/309)

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (22)

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ

عند الله ﴾ قال : هم الكفار .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي

حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

قال : هم نفر من قريش من بني عبد الدار .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ الصم البكم الذين لا يعقلون

﴿ قال : لا يتبعون الحق .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : أنزلت في حي من

أحياء العرب من بني عبد الدار .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث وقومه .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قال :  
الدواب الخلق ، وقرأ ﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [ فاطر : 45 ] .  
﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى رِزْقِهَا ﴾ [ هود : 6 ] قال : هذا يدخل في هذا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(144/309)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (22)

دواعي الحق مجسن البيان ناطقة ، وألسنة البرهان فيما ورد به التكليف صادقة ،  
وخواطر الغيب بكشف ظلم الرب مفضحة ، وزواجر التحقيق عن متابعة التمويه للقلوب  
ملازمة . فمن صم عن إدراك ما خوطب به سره ، وعمي عن شهود ما كوشف به قلبه ،

وخرس - عن إجابة ما أرشد إليه من حجة - فهمه وعقله فدُون رُتبة البهائم قدره ،  
وفوق كل ( . . . ) من حكم الله ذله وصغره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح

﴿ 1 ص 614 ﴾

(145/309)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (23) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك ربما دعا السامع إلى أن يقول : ما للقادر لم يقبل بمن هذا شأنه إلى الخير ؟  
أجاب بأنه جبلهم من أول الأمر - وله أن يفعل في ملكه ومملكه ما يريد - جبلة عريقة في  
الفساد ، وجعل جواهرهم شريرة كجوهر العقرب التي لا تقبل التأديب بوجه ولا تمر بشيء  
إلا لسبته ، فعلم سبحانه أنه لا خير فيهم فتركهم على ما علم منهم ﴿ ولو علم الله ﴾ أي  
الذي له الكمال كله ﴿ فيهم خيراً ﴾ أي قبولاً للخير ﴿ لأسمعهم ﴾ أي إسماعاً هو  
الإسماع ، وهو ما تعقبه الإجابة المستمرة .

(146/309)

---

ولما كان علم الله تعالى محيطاً ، وجب أن يعلم كل ما كان حاصلًا ، فكان عدم علمه بوجود الشيء من لوازم عدمه ، فلا جرم كان التقدير هنا : ولكنه لم يعلم فيهم خيراً ، بل علم أنه لا خير فيهم فلم يسمعهم هذا الإسماع ﴿ ولو أسمعهم ﴾ وهم على هذه الحالة من عدم القابلية للخير إسماعاً قسرهم فيه على الإجابة ﴿ لتولوا ﴾ أي بعد إجابتهم ﴿ وهم معرضون ﴾ أي ثابت إعراضهم مرتدين على أعقابهم ، ولم يستمروا على إجابتهم لما جبلوا عليه من ملاءمة الشر ومباعدة الخير ، فلم يريدوا الإسلام وأهله بعد إقبالهم إلا وهناً ، وكما كان لأهل الردة الذين قتلوا مرتدين بعد أن كانوا دخلوا في الإسلام خوفاً من السيف ورغبة في المال وهو من وادي ﴿ ولوردوا العادوا لما نهوا عنه ﴾ [ الأنعام : 28 ] فإن علم الله تعالى أربعة أقسام : جملة الموجودات ، وجملة المعدومات ، وأن كل واحد من الموجودات لو كان معدوماً كيف يكون حاله ، وأن كل واحد من المعدومات لو كان موجوداً كيف يكون حاله ، والقسمان الأولان علم بالواقع ، والآخران علم بالقدر ، والآية من القسم الأخير ، ولعمري إنا دفعنا إلى زمان أغلب من فيه على قريب من هذا الأمر ، أجزأ الناس على الباطل ، وأثبتهم في المصاولة فيه ، وأوسعهم حبلاً في التوصيل إليه ، وأجبنهم عند الدعوة إلى الحق ، وأسرعهم نكوصاً عند الإقدام بعد جهده عليه ، وألكنهم

عند الجدال له ، فصار ما كان مقدراً مفروضاً حاصلاً وموجوداً ، وكلمة ﴿ لو ﴾ هنا  
يحتمل أن تكون هي التي يعلق بها أمر على آخر هو بضده أولى فيكون المراد أن المعلق .

(147/309)

---

وهو الثاني - موجود دائماً مثل قول عمر - رضى الله عنهم - : نعم العبد صهيب - رضى الله  
عنهم - ! لو لم يخف الله لم يعصه ، فالمراد هنا على هذا أنهم إذا كانوا يتولون مع الإسماع  
والإجابة ، فتوليهم مع عدمهما أولى - نبه على ذلك الرازي ، ويحتمل أن يكون على بابها  
من أن الجزءين بعدها منفيان ، وانتفاء التولي إنما يكون خيراً إذا نشأ عن الإسماع المترتب  
على علم الخير فيهم ، وأما عدمه لعدم إسماعهم الإسماع الموصوف لأنه لا خير فيهم فليس  
من الخير في شيء بل هو شر محض ، التولي المنفي عنهم ليس هو الموجود منهم ، بل هو  
الناشئ عن الإسماع الموصوف فلا يناقض ادعائه تحقق عنادهم وعدم انقيادهم ،  
وتحقيقه أن المنفي إنما هو زيادة التولي الناشئة عن الإسماع ، فالمعنى : ولو أسمعهم لزدوا  
إعراضاً ، فالمنفي في هذا السياق تلك الزيادة - والله الموفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم

الدرج 3 ص 201.200 ﴿

(148/309)

## فصل

قال الفخر:

النحويون يقولون: كلمة ﴿لَوْ﴾ وضعت للدلالة على انتفاء الشيء لأجل انتفاء غيره، فإذا قلت: لو جئتني لأكرمك، أفاد أنه ما حصل المجيء، وما حصل الإكرام. ومن الفقهاء من قال: إنه لا يفيد إلا الاستلزام، فأما الانتفاء لأجل انتفاء الغير، فلا يفيد هذا اللفظ والدليل عليه الآية والخبر، أما الآية، فهي هذه الآية، وتقريره: أن كلمة ﴿لَوْ﴾ لو أفادت ما ذكره لكان قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ يقتضي أنه تعالى ما علم فيهم خيراً وما أسمعهم.

ثم قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ فيكون معناه: أنه ما أسمعهم وأنهم ما تولوا لكن عدم التولي خير من الخيرات، فأول الكلام يقتضي نفي الخير، وآخره يقتضي حصول الخير، وذلك متناقض.

فثبت أن القول بأن كلمة ﴿لَوْ﴾ تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره يوجب هذا التناقض، فوجب أن لا يصار إليه.

وأما الخبر فقوله عليه السلام: "نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" فلو كانت لفظة "لو" تفيد ما ذكره لصار المعنى أنه خاف الله وعصاه، وذلك متناقض.

فثبت أن كلمة ﴿لَوْ﴾ لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، وإنما تفيد مجرد الاستلزام.

واعلم أن هذا الدليل أحسن إلا أنه على خلاف قول جمهور الأدباء .

المسألة الثالثة :

إن معلومات الله تعالى على أربعة أقسام : أحدها : جملة الموجودات .

والثاني : جملة المعدومات .

والثالث : أن كل واحد من الموجودات لو كان معدوماً فكيف يكون حاله .

(149/309)

---

الرابع : أن كل واحد من المعدومات لو كان موجوداً كيف يكون حاله ، والقسمان الأولان

علم بالواقع ، والقسمان الثانيان عم بالمقدر الذي هو غير واقع ، فقوله : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ

فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ من القسم الثاني وهو العلم بالمقدرات ، وليس من أقسام العلم

بالواقعات ونظيره قوله تعالى حكاية عن المنافقين : ﴿لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَإِن

قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ وقال تعالى : ﴿لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ

وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأَدْبَارَ﴾ [الحشر : 11 ، 12] فعلم تعالى في المعدوم أنه لو كان

موجوداً كيف يكون حاله ، وأيضاً قوله : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام : 28

[فأخبر عن المعدوم أنه لو كان موجوداً كيف يكون حاله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح

الغيب حـ 15 صـ 116.117 ﴾

(150/309)

وقال السمرقندي :

﴿ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾

يقول : لو علم الله تعالى فيهم صدقاً ، لأعطاهم الإيمان وأكرمهم به .

﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ ، يعني لو أكرمهم بالإسلام ، ﴿ تَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ؛ يعني

أعرضوا عن الإيمان ؛ بما سبق في علم الله تعالى منهم أنهم لا يؤمنون .

وقال الزجاج : معناه ولو علم الله فيهم خيراً ، لأسمعهم الجواب عن كل ما يسألون عنه .

﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ ، يعني لو بين لهم كل ما يختلج في نفوسهم ، لأعرضوا عنه لمعاندتهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾

صدقاً وإسلاماً ﴿ لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ لرزقهم الفهم والعلم بالقرآن ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ تَوَلَّوْا ﴾ عن



القرآن ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ عن الإيمان بالقرآن لعلم الله فيهم وحكمه عليهم بالكفر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : اهتداء .

الثاني : إصغاء .

﴿ لِأَسْمَعَهُمْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدهما : لأسمعهم الحجج والمواعظ سماع تفهيم وتعليم ، قاله ابن جريج وابن زيد .

الثاني : لأسمعهم كلام الذين طلبوا إحياءهم من قصي بن كلاب وغيره يشهدون بنبوتك قاله بعض المتأخرين .

والثالث : لأسمعهم جواب كل ما يسألون عنه ، قاله الزجاج . ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ

مُعْرِضُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ولو أسمعهم الحجج والمواعظ لأعرضوا عن الإصغاء والتفهم .

والثاني : ولو أجابهم إلى ما اقترحوه لأعرضوا عن التصديق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت

والعيون ح 2 ص ﴾

وقال ابن عطية :

ثم أخبر تعالى بأن عدم سماعهم وهداهم إنما هو بما علمه الله منهم وسبق من قضائه عليهم فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمهم في قوله ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ والمراد لأسمعهم إسماع تفهيم وهدى ، ثم ابتداء عز وجل الخبر عنهم بما هم عليه من حتمه عليهم بالكفر فقال ﴿ ولو أسمعهم ﴾ أي ولو أفهمهم ﴿ لتولوا ﴾ بحكم القضاء السابق فيهم ولأعرضوا عما تبين لهم من الهدى ، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت : المعنى بهذه الآية المنافقون ، وضعفه الطبري وكذلك هو ضعيف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2

ص ﴿

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً ﴾

فيه أربعة أقوال .

أحدها : ولو علم فيهم صدقاً وإسلاماً .

والثاني : لو علم فيهم خيراً في سابق القضاء .

والثالث : لو علم أنهم يصلحون .

والرابع : لو علم أنهم يصغون .

وفي قوله : ﴿ لأسمعهم ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : لأسمعهم جواب كل ما يسألون عنه ، قاله الزجاج .

والثاني : لرزقهم الفهم ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والثالث : لأسمعهم كلام الموتى يشهدون بنبوتك ، حكاه الماوردي .

وفي قوله : ﴿ وهم معرضون ﴾ قولان .

أحدهما : مكذبون ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : وهم معرضون عما أسمعهم لمعاندتهم ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد

المسيرح 3 ص ﴿

(152/309)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ قيل : الحجج والبراهين ؛ إسماع نفهم .

ولكن سبق علمه بشقاوتهم ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أي لو أفهمهم لما آمنوا بعد علمه الأزلي

بكفرهم .

وقيل المعنى لأسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ؛ لأنهم طلبوا إحياء قُصَيِّ بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم : الزجاج : لأسمعهم جواب كل ما سألوا عنه .

﴿ وَلَوْ أَسْمَعُهُمْ تَلَوُوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ إِذْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . انتهى انتهى . ١٠

هـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن :

﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾

يعني سماع تفهم وانتفاع وقبول للحق ومعنى ولو علم الله .

قال الإمام فخر الدين : إن كان ما كان حاصلًا فيجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده

من لوازم عدمه فلا جرم حسن التعبير عن عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده وتقديره

الكلام لو حصل فيهم خير لأسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهم ﴿ ولو أسمعهم

﴿ يعني بعد أن علم أنه لا خير فيهم لم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل لقوله تعالى :

﴿ لتولوا وهم معرضون ﴾ يعني لتولوا عن سماع الحق وهم معرضون عنه لعنادهم

وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل : إنهم كانوا يقولون للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) : أحي

لنا قضيًا فإنه كان شيخًا مباركًا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك فقال الله سبحانه وتعالى

: ولو أحياء لهم قصياً وسمعوا كلامه لتولوا عنه وهم معرضون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الخازن - 3 ص ﴿

(153/309)

وقال أبو حيان :

﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾

قال ابن عطية : أخبر تعالى بأن عدم سماعهم وهداهم إنما هو بما علمه الله منهم وسبق من

قضائه عليهم فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمهم ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾

والمراد لأسمعهم إسماع نفهم وهدى ثم ابتداء عز وجل الخبر عنهم بما هو عليه من ختمه

عليهم بالكفر فقال : ﴿ ولو أسمعهم ﴾ أي ولو فهمهم ﴿ لتولوا وهم معرضون ﴾

بالقضاء السابق فيهم ولأعرضوا عما تبين لهم من الهدى ، وقال الزمخشري : ولو علم الله

في هؤلاء الصمّ البكم خيراً أي انتفاعاً باللفظ لأسمعهم اللطف بهم حتى سمعوا سماع

المصدقين ثم قال ﴿ ولو أسمعهم لتولوا ﴾ يعني ولو لطف بهم لما نفعهم اللطف فلذلك منعهم

الطافه أي ولو لطف أي ولو لطف بهم فصدّقوا لارتدّوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا ،

وقال الزجاج : ﴿ لأسمعهم ﴾ جواب كلما سألوا ، وحكى ابن الجوزي : ﴿ لأسمعهم ﴾

كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم لأنهم طلبوا إحياء قُصي بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال أبو عبد الله الرازي: التعبير عن عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده وتقدير الكلام لو حصل فيهم خير ﴿ لأسمعهم ﴾ الله الحجج والمواعظ سماع تعليم مفهم ﴿ ولو أسمعهم ﴾ إذ علم أنه لا خير فيهم لم ينتفعوا بها وتولوا وهم معرضون ، وقال أيضاً : معلومات الله على أربعة أقسام .

(154/309)

---

أحدها : جملة الموجودات ، الثاني : جملة المعدومات ، الثالث : إن كان كل واحد من الموجودات لو كان معدوماً فكيف حاله ، الرابع : إن كان كل واحد من المعدومات لو كان موجوداً فكيف حاله فالقسمان الأولان علم بالواقع والقسمان الثانيان علم بالمقدور الذي هو غير واقع فقوله ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ من القسم الثاني وهو العلم بالمقدورات وليس من أقسام العلم بالواقعات ، ونظيره قوله تعال حكاية عن المنافقين ﴿ لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ فقال تعالى ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ فعلم

الله تعالى في المعدوم أنه لو كان موجوداً كيف يكون حاله وأيضاً قوله ﴿ ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ أخبر عن المعدوم أنه لو كان موجوداً كيف يكون حاله انتهى .

وأقول : ظاهر هاتين الملازمين يحتاج إلى تأويل لأنه أخبر أنه كان يقع إسماع منه لهم على تقدير علمه خيراً فيهم ثم أخبر أنه كان يقع توليهم على تقدير إسماعهم إياهم فأتبع أنه كان يقع توليهم على تقدير علمه تعالى خيراً فيهم وذلك مجرد الواسطة لأن المرتب على شيء يكون مرتباً على ما رتب عليه ذلك الشيء وهذا لا يكون لأنه لا يقع التولي على تقدير علمه فيهم خيراً ويصير الكلام في الجملتين في تقدير كلام واحد فيكون التقدير ولو علم الله فيهم خيراً فأسمعهم تولوا ومعلوم أنه لو علم فيهم خيراً ما تولوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر

المحيط ح 4 ص ﴿

(155/309)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾

شياً من جنس الخير الذي من جملة صرف قواهم إلى تحريم الحق واتباع الهدى ﴿  
لا سمعهم ﴿ سماع تفهم وتدبر ولوقفوا على حقيقة الرسول عليه الصلاة والسلام وأطاعوه

وآمنوا به ولكن لم يعلم فيهم شيئاً من ذلك لخلوهم عنه بالمرّة فلم يُسمعهم كذلك لخلوه عن  
الفائدة وخروجه عن الحكمة وإليه أشير بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعُهُمْ لَتَوَلَّوْا ﴾ أي لو  
أسمعهم سماع تفهم وهم على هذه الحالة العارية من الخير بالكلية لتولوا عما سمعوه من الحق  
ولم ينتفعوا به قط أو ارتدوا بعد ما صدقوه وصاروا كأن لم يسمعوه أصلاً وقوله تعالى: ﴿  
وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ إما حال من ضمير تولوا أي لتولوا على أذبارهم والحال أنهم معرضون  
عما سمعوه بقلوبهم ، وإما اعتراض تذييلي أي وهم قوم عادتهم الإعراض وقيل : كانوا  
يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أحبي قصياً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد  
لك ونؤمن بك فالمعنى ولو أسمعهم كلام قصي الخ وقيل : هم بنو عبد الدار بن قصي ، لم  
يسلم منهم إلا مصعب بن عمير وسويد بن حرملة كانوا يقولون : نحن صمُّ بكم عمي عما  
جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه قاتلهم الله تعالى فقتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء  
وعن ابن جريج أنهم المنافقون وعن الحسن رضي الله عنه أنهم أهل الكتاب . انتهى انتهى .  
اه ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(156/309)

---



وقال الألوسي :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (23) ﴿  
﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ أي في هؤلاء الصم البكم ﴿ خَيْرًا ﴾ أي شيئاً من جنس الخير  
الذي من جملة صرف قواهم إلى تحري الحق واتباع الهدى ﴿ لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ سماع تدبر  
وتفهم ولو قفوا على الحق وآمنوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وأطاعوه ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾  
﴿ سماع تفهم وتدبر وقد علم أن لا خير فيهم ﴾ ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ ولو ينفعوا به وارتدوا بعد  
التصدق والقبول ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ لعنادهم ، والجملة حال مؤكدة مع اقترانها بالواو ،  
ومما ذكر يعلم الجواب عما قيل : إن الآية قياس اقتراني من شرطيتين وتبيجه غير صحيحة  
لما أنه أشير فيه أولاً إلى منع القصد إلى القياس لفقد الكلية الكبرى ، وثانياً إلى منع فساد  
النتيجة إذ اللازم لو علم الله تعالى فيهم خيراً في وقت لتولوا بعده قاله بعض المحققين ، وفي  
المغنى والجواب من ثلاثة أوجه اثنان يرجعان إلى منع كون المذكور قياساً وذلك لاختلاف  
الوسط .

أحدهما أن التقدير لأسمعهم سماعاً نافعاً ولو أسمعهم سماعاً غير نافع لتولوا .  
والثاني أن يقدر ولو أسمعهم على تقدير علم عدم الخير فيهم كما أشير إليه .  
والثالث إلى منع استحالة النتيجة بتقدير كونه قياساً متحد الوسط ، إذ التقدير ولو علم الله  
تعالى فيهم خيراً في وقت ما لتولوا بعد ذلك ، ولا يخفى ضعف الجواب الأول لأنه لا قرينة

على تقييد لو أسمعهم بالسمع الغير النافع ولأنه يحقق فيهم الاسماع الغير النافع إلا أن يقيّد بالاسماع بعد نزول هذه الآية، وكذا ضعف الثالث لأن علمه تعالى بالخير ولو في وقت لا يستلزم التولي بل عدمه .

(157/309)

وأما الجواب الثاني فهو قوي لأن الشرطية الأولى قرينة على تقييد الاسماع في الشرطية الثانية بتقدير علم عدم الخير فيهم، وذكر بعضهم في الجواب أن الشرطيتين مهملتان وكبرى الشكل الأول يجب أن تكون كلية ولو سلم فإنما ينتجان أي اللزومية لو كانتا لزوميتين وهو ممنوع ولو سلم فاستحالة النتيجة ممنوعة، أي لا نسلم استحالة الحكم باللزوم بين المقدم والتالي وإن كان الطرفان محالين لأن علم الله تعالى فيهم خيراً محال والمحال جاز أن يستلزم المحال وإن لم يوجد بينهما علاقة عقلية على ما هو التحقيق من عدم اشتراط العلاقة في استلزام المحال للمحال .

واعترض على أصل السؤال بأن لفظ ﴿لَوْ﴾ لم يستعمل في فصيح الكلام في القياس الاقتراني وإنما يستعمل في القياس الاستثنائي المستثنى فيه نقيض التالي لأنها لامتناع الشيء لامتناع غيره، ولهذا لا يصح باستثناء نقيض التالي، وعلى الجواب بأن فيه تسليم كون ما

ذكر قياساف ومنع كونه منتجا لاتقاء شرائط الإنتاج وكيف يصح اعتقاد وقوع قياس في كلام الحكيم تعالى أهملت فيه شرائط الإنتاج وإن لم يكن مراده تعالى قياسيته وذكر أن الحق أن قوله سبحانه: ﴿لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ وورد على قاعدة اللغة يعني أن سبب عدم الإسماع عدم العلم بالخير فيهم ثم ابتداء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ كلاما آخر على طريقة لو لم يخف الله تعالى لم يعصه وحاصل ذلك أنه كلام منقطع عما قبله والمقصود منه تقرير قولهم في جميع الأزمنة حيث ادعى لزومه لما هو مناف له ليفيد ثبوته على تقدير الشرط وعدمه ، فمعنى الآية حينئذ أنه انتهى الإسماع لاتقاء علم الخير وأنهم ثابتون على التولي ففي الشرطية الأولى اللزوم في نفس الأمر وفي الثانية إدعائي فلا يكون على هيئة القياس .

(158/309)

---

وقال العلامة الثاني: يجوز أن يكون التولي منفيًا بسبب انتفاء الإسماع كما هو مقتضى أصل ﴿لَوْ﴾ لأن التولي بمعنى الاعراض عن الشيء كما هو أصل معناه لا بمعنى مطلق التكذيب والآنكار ، فعلى تقدير عدم إسماعهم ذلك الشيء لم يتحقق التولي والاعراض لأن الاعراض عن الشيء فرع تحققه ولم يلزم من هذا تحقق الانتقياد له لأن الانتقياد للشيء وعدم

الانقياد له ليسا على طرفي النقيض بل العدول والتحصيل لجواز ارتفاعهما بعدم ذلك  
الشيء وحاصله كما قيل: إنه إذا كان التولي بمعنى الاعراض يجوز أن يكون ﴿لَوْ﴾  
بمعناه المشهور، ويكون المقصود الأخبار بأن انتفاء الثاني في الخارج لاتقاء الأول فيه  
كالشرطية الأولى ولا ينتظم منهما القياس إذ ليس المقصود منهما بيان استلزام الأول للثاني  
في نفس الأمر ليستدل بل اعتبار السببية واللزوم بينهما ليعلم السببية بين الانتفائين المعلومين  
في الخارج، وما يقال: من أن انتفاء التولي خير وقد ذكر أن لا خير فيهم مجاب عنه بأن لا  
نسلم ان انتفاء التولي بسبب انتفاء الاسماع خير لأنه يجوز أن يكون ذلك بسبب عدم  
الأهلية للاسماع وهو داء عضال وشر عظيم، وإنما يكون خيراً لو كانوا من أهله بأن أسمعوا  
شيئاً ثم انتقادوا له ولم يعرضوا وهذا كما يقال: لا خير في فلان لو كانت به قوة لقتل المسلمين،  
فإن عدم قتل المسلمين بناء على عدم القوة والقدرة ليس خيراً فيه وإن كان خيراً له اهـ.  
ورده الشريف قدس سره بما تعقبه السالكوتي عليه الرحمة.

(159/309)

---

نعم قال مولانا محمد أمين بن صدر الدين: إن حمل التولي ههنا على معنى الاعراض غير  
ممکن لمكان قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وأوجب أن يحمل اما على لازم معناه

وهو عدم الانتفاء لأنه يلزم الاعراض أو على ملزومه وهو الارتداد لأنه يلزمه الاعراض  
فليفهم ، وعن الجبائي أنهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أحي لنا قصيا  
فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك وتؤمن بك ، فالمعنى ولو أسمعهم كلام قصى الخ ،  
وقيل : هم بنو عبد الدار بن قصى لم يسلم منهم إلا مصعب بن عمير .  
وسويد بن حرملة كانوا يقولون : نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه  
قاتلهم الله تعالى فقتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء ، وعن ابن جريج أنهم المنافقون  
وعن الحسن أنهم أهل الكتاب ، والجملة الاسمية في موضع الحال من ضمير ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ ،  
وجوز أن تكون اعتراضاً تذيلاً أي وهم قوم عادتهم الإعراض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح  
المعاني - 9 ص ﴾

(160/309)

وقال القاسمي :

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴾ أي : في هؤلاء الصم البكم ﴿ خَيْرًا ﴾ صدقاً  
ورغبة ، ﴿ لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي : الحجج والمواعظ ، سماع تفهم وتدبر ، أي : لجعلهم سامعين  
حتى

يسمعوا سماع المصدقين ، أي : ولكن لم يعلم الله فيهم شيئاً من ذلك ، لخلوهم عنه بالمرّة ، فلم يسمعهم كذلك ، لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة ، وإليه أشير بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا ﴾ أي : ولو أسمعهم سماع تفهم ، وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية ، لتولوا عما سمعوه من الحق .

﴿ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي : عن قبوله جحوداً وعناداً .

قال الرازي : كل ما كان حاصلًا ، فإنه يجب أن يعلمه الله ، فقدم علم الله بوجوده ، من لوازم عدمه ، فلا جرم حسن التعبير عن عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده .  
تنبيه :

قد يتوهم أن الشرطيتين في الآية مقدماتا قياسا اقتراني ، هكذا : لو علم فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا ، ينتج : لو علم فيهم خيراً لتولوا ، وفساده بين .  
وأجيب : بأنه إنما يلزم النتيجة الفاسدة لو كانت الثانية كلية ، وهو ممنوع .  
واعترض بأن هذا المنع ، وإن صح في قانون النظر ، إلا أنه خطأ في تفسير الآية ، لا ابتناؤه على أن المذكور قياس مفقود شرائط الإنتاج ، ولا مساع لحمل كلام الله عليه .  
وأجيب : بأن المراد منع كون القصد إلى ترتيب قياس ، لا انتفاء شرط ، لأنه قياس فقد شرطه ، كما أنه يمنع منه عدم تكرار الوسط أيضاً ، وإنما المقصود من المقدمة الثانية تأكيد

الأولى ، إذ مآله إلى أنه انتفى الإسماع ، لعدم الخيرية فيهم ، ولو وقع الإسماع ، لا تحصل الخيرية فيهم ، لعدم قابلية الحل . كذا في " العناية " .

(161/309)

---

وقد حاول بعضهم تصحيح كونها قياساً شرطياً ، متحد الوسط ، صحيح الإنتاج ،  
بتقدير : لو علم فيهم خيراً في وقت ، لتولوا بعده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 8  
ص 282 ﴾

(162/309)

---

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾  
كَانَتْ السُّورَةُ مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى هُنَا فِي قِصَّةِ غَزْوَةِ بَدْرِ الْكُبْرَى ، إِلَّا أَنَّهَا افْتِتِحَتْ بَعْدَ بَرَاةِ  
الْمَطَّلَعِ - وَهُوَ السُّؤَالُ عَنِ الْغَنَائِمِ - بِالْمُقْصِدِ مِنَ الدِّينِ ، وَهُوَ الْإِيمَانُ وَطَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَوَصْفُ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ ، وَانْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى مُقَدِّمَاتِ الْغَزْوَةِ ، وَمَا كَانَ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ فِيهَا

بِالْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ انْتَقَلَ هُنَا أَوْ فِيمَا قَبْلَهُ إِلَى نِدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ، وَتَوْجِيهِ الْأَمْرِ  
وَالنَّوَاهِي إِلَيْهِمْ فِي مَقاصِدِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ - وَيُنْتَهِي هَذَا بِالآيَةِ 29 ثُمَّ يَنْتَقِلُ  
مِنْ ذَلِكَ إِلَى شُؤْنِ الْكُفَّارِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَدَاوَتِهِمْ لَهُمْ وَلِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
وَكَيْدِهِمْ لَهُ وَعُدْوَانِهِمْ عَلَيْهِ ، وَقِتْنَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ - وَمِنْهُ إِلَى الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ وَحِكْمَتِهِ ، ثُمَّ يَعُودُ  
الْكَلَامُ إِلَى غَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ حِكْمٍ وَسُنَنِ وَأَحْكَامٍ وَتَشْرِيحٍ ، وَهَذَا يَدْخُلُ فِي  
أَوَّلِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ وَهُوَ آيَةٌ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ (41) الْخ .  
قَالَ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ذُكِرَتْ هَذِهِ الطَّاعَةُ فِي

(163/309)

---

الآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَأَعِيدَتْ هُنَا لِيُعْطَفَ عَلَيْهَا قَوْلُهُ : وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ  
تَسْمَعُونَ أَيُّ : وَلَا تَوَلَّوْا وَتُعْرَضُوا عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْحَالُ أَنْكُمْ تَسْمَعُونَ  
مِنْهُ كَلَامَ اللَّهِ الْمُصْرَحِ بِبُجُوبِ طَاعَتِهِ وَمُؤَالَاتِهِ وَاتِّبَاعِهِ وَنَصْرِهِ ، وَالْمُرَادُ بِالسَّمَاعِ هُنَا سَمَاعُ  
الْفَهْمِ وَالتَّصْدِيقِ وَالْإِذْعَانَ ، الَّذِي هُوَ شَأْنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ دَأَّبَهُمْ أَنْ يَقُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا  
غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (2 : 285) وَالْمَوْصُوفِينَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ



يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (39) :

(18، 17)

(164/309)

ثُمَّ قَرَّرَ هَذَا الْمَعْنَى وَبَيَّنَ مُقَابَلَهُ بِقَوْلِهِ : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَهُمْ  
فَرِيقَانِ : (الأول) الكفار المعاندون من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون  
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأُسْنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا  
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا  
قَلِيلًا (4 : 46) وَأَمْثَلُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ الْمُعَانِدِينَ وَالْمُقَلِّدِينَ ، وَوَرَدَ فِيهِمْ آيَاتٌ سَيُذَكَّرُ  
بَعْضُهَا هُنَا . (الثاني) المنافقون الذين قال تعالى فِي بَعْضِهِمْ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى  
إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا (47 : 16) وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ  
الْأَعْرَافِ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ النَّارِ فِي الدُّنْيَا : وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا (7 : 179) مَعَ آيَاتِ  
أُخْرَى ، وَالْمُرَادُ فِي هَذَا كُلِّهِمْ لَا يَسْمَعُونَ سَمَاعَ تَفْقَهُ وَاعْتِبَارَ يَتَّبِعُهُ الْإِنْتِفَاعُ وَالْعَمَلُ .

(165/309)

ثُمَّ عَلَّلَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ بِقَوْلِهِ: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ الدَّوَابُّ جَمْعُ دَابَّةٍ، وَهِيَ كُلُّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ، قَالَ فِي سُورَةِ التَّوْرَةِ: وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ (24: 45) الْآيَةَ، وَقَلَّمَا يُسْتَعْمَلُ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْإِنْسَانِ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا يَغْلِبُ فِي الْحَشَرَاتِ وَدَوَابِّ الرُّكُوبِ، فَإِنْ كَانَ قَدِيمًا فَهُوَ هُنَا يُشْعَرُ بِالْإِحْتِقَارِ .  
وَالْمَعْنَى أَنَّ شَرَّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ فِي حُكْمِ اللَّهِ الْحَقِّ هُمُ الْأَشْرَارُ مِنَ الْبَشَرِ "الصُّمُّ"  
الَّذِينَ لَا يَلْقَوْنَ السَّمْعَ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْإِعْتِبَارِ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، فَكَانُوا يَفْقَدُ

(166/309)

مَنْفَعَةَ السَّمْعِ كَالَّذِينَ فَقَدُوا حَاسَتَهُ "الْبُكْمُ" الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ الْحَقَّ، كَانَتْهُمْ فَقَدُوا قُوَّةَ النَّطْقِ .  
"الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" أَيَّ فَقَدُوا فَضِيلَةَ الْعَقْلِ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ . وَيُفَرِّقُ بَيْنَ  
الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، إِذْ لَوْ عَقَلُوا لَطَلَّبُوا، وَلَوْ طَلَبُوا لَسَمِعُوا وَمَيَّزُوا، وَلَوْ سَمِعُوا لَنَطَقُوا وَبَيَّنَّا،  
وَتَذَكَّرُوا وَذَكَرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ  
شَهِيدٌ (50: 37) فَهُمْ لَفَقَدُوا مَنْفَعَةَ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ وَالنَّطْقِ كَالْفَاقِدِينَ لِهَذِهِ الْمَشَاعِرِ

وَالْقَوَى ، بَأْنُ خُلِقُوا خِدَاجًا أَوْ طَرَأَتْ عَلَيْهِمْ آفَاتٌ ذَهَبَتْ بِمَشَاعِرِهِمُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ ،  
بَلْ هُمْ شَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَشَاعِرَ وَالْقَوَى خُلِقَتْ لَهُمْ فَافْسَدُوهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَعَدَمِ  
اسْتِعْمَالِهَا فِيمَا خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَجَلِهِ فِي سِنِّ التَّمْيِيزِ ثُمَّ التَّكْلِيفِ . فَهَمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :  
خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لِمَكْرَمَةٍ . . . فَكَانَتْهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا  
رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا سَمَاحِيْدٍ . . . فَكَانَتْهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا

(167/309)

---

وَإِذَا أَرَدْتَ فَهَمْ آيَةِ فَهَمَّا تَفْصِيْلِيًّا فَارْجِعْ إِلَى تَفْسِيْرِنَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيْرًا  
مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوْبٌ لَّا يَفْقَهُوْنَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُوْنَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُوْنَ بِهَا  
أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُوْنَ (7 : 179) وَلَمْ يَصِفْهُمْ هُنَا بِالْعَمَى كَمَا  
وَصَفْهُمْ فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ وَآيَةِ الْبَقْرَةِ ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ هُنَا مَقَامُ التَّعْرِِيْضِ بِالَّذِيْنَ رَدُّوْا دَعْوَةَ  
الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يُهْتَدُوا بِسَمَاعِ آيَاتِ الْقُرْآنِ .

(168/309)

---

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ أَيْ: وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ اسْتِعْدَادًا لِلإِيمَانِ وَالهُدَى بِبَقِيَّةٍ مِنْ  
 نُورِ الْفِطْرَةِ، لَمْ تُطْفِئْهَا مَفَاسِدُ التَّرْبِيَةِ وَسُوءُ الْقُدُورَةِ، لَأَسْمَعَهُمْ بِتَوْفِيْقِهِ وَعِنَايَةِ الْكِتَابِ  
 وَالْحِكْمَةِ سَمَاعَ تَفْقَهُ وَتَدَبَّرِ، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ مِمَّنْ أَحَاطَتْ بِهِمْ خَطَايَاهُمْ  
 ، وَخُتِمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ لَا خَيْرَ فِيهِمْ (لَتَوَلَّوْا) عَنِ الْقَبُولِ وَالإِذْعَانِ لِمَا  
 فَهِمُوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ مُعْرِضُونَ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ بِقُلُوبِهِمْ عَنِ قَبُولِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ - كَمَا  
 هُوَ مَدْلُولُ الْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ - كَرَاهَةً وَعِنَادًا لِلدَّاعِي إِلَيْهِ وَوَالِهِهِ، لَا تَوَلَّى عَارِضًا مُؤَقَّتًا،  
 وَفَرَقَ عَظِيمٌ بَيْنَ التَّوَلَّى الْعَارِضِ لِمَصَارِفِ مُؤَقَّتٍ، وَتَوَلَّى الْإِعْرَاضِ وَالْكَرَاهَةِ الَّذِي فَقَدَ  
 صَاحِبُهُ الْاسْتِعْدَادَ لِلْحَقِّ، وَقَبُولَ الْخَيْرِ فَقْدًا تَامًا، وَمَنْ اضْطَرَبَ فِي فَهْمِ الْجَمْعِ بَيْنَ  
 التَّوَلَّى وَالْإِعْرَاضِ

(169/309)

فَقَدْ جَهَلَ مَعْنَى الْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ الْفَارِقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَالِ الْمُفْرَدَةِ كَمَا بَيَّنَّهُ الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ  
 فِي دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ، وَالآيَةُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُسْمِعَهُمْ، أَيْ لَمْ يُوفِّقَهُمْ لِلْسَمَاعِ النَّافِعِ؛ لِأَنَّ  
 الْبَاعِثَ عَلَيْهِ هُوَ مَا فِي الْفِطْرَةِ مِنْ نُورِ الْحَقِّ الْمُحِبِّ لِلنَّفْسِ فِي الْخَيْرِ، وَقَدْ فَقَدُوا ذَلِكَ  
 بِإِفْسَادِهِمْ لِفِطْرَتِهِمْ، وَإِطْفَاءِ نُورِ الْاسْتِعْدَادِ لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ الَّذِي يُذَكِّهِ سَمَاعُ الْحِكْمَةِ

وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ ، فَصَارُوا مِمَّنْ وَصَفَهُمْ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّينَ بِقَوْلِهِ : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (83 : 14) وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (2 : 81) وَوَصَفَهُمْ فِيهَا بِقَوْلِهِ : صُمُّكُمْ عُمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (2 : 18) وَضَرَبَ الْمَثَلَ لِسَمَاعِهِمْ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى مِنْهَا : وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّكُمْ عُمِي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (2 : 171) يَعْنِي أَنَّهُمْ كَسَارِحَةَ النَّعَمِ تَسْمَعُ الصُّرَاخَ النَّاعِقَ فَتَرْفَعُ رُءُوسَهَا ، وَلَكِنَّهَا لَا تَفْهَمُ لَهُ مَعْنَى ، فَإِذَا سَكَتَ عَادَتْ إِلَى رَعِيهَا كَمَا قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ فِي مَقْصُورَتِهِ :

نَحْنُ وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ كَمَا . . . قَدْ قِيلَ فِي السَّارِبِ أَخْلَى فَاثْتَعَى  
إِذَا أَحْسَبْنَا رِيْعَ وَإِنْ . . . تَطَامَنْتُ عَنْهُ تَمَادَى وَلَهَا

(170/309)

---

وَفِي الْآيَتَيْنِ 42 وَ 43 مِنْ سُورَةِ يُونُسَ (10) إِيَّاسُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِسْمَاعِ هَوْلَاءِ الصُّمِّ ، وَهَدَايَةِ هَوْلَاءِ الْعُمِيِّ ، وَقَفَى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (10 : 44) فَأَمثالُ هَذِهِ الْآيَاتِ تَحْتُو التَّرَابَ فِي

فِي مَنْ يُزْعَمُ أَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى الْجَبْرِ وَعَدَمِ اخْتِيَارِ الْعَبْدِ فِي كُفْرِهِ وَإِيمَانِهِ ، كَمَا أَنَّهَا تُسَجِّلُ  
الْجَهْلَ بِاللُّغَةِ عَلَى مَنْ يُزْعَمُ أَنَّ فِيهَا إِشْكَالًا فِي النَّظْمِ بِجَوَازِ تَقْدِيرِ : وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَعَلِمَهُ بِأَنَّ  
فِيهِمْ خَيْرًا لَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى ، وَنَقُولُ : إِنَّ تَقْدِيرَهُ هَذَا هُوَ الْبَاطِلُ لِأَنَّهُ  
تَقْيِضُ مَا أَفَادَتْهُ

لَوْ " مِنْ أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِمْ فَهُوَ لَا يُنْتِجُ إِلَّا بَاطِلًا ، وَعَفَا اللَّهُ عَمَّنْ صَوَّرُوا هَذَا الْإِشْكَالَ  
الْوَهْمِيَّ بِالْأَصْطِلَاحِ الْمُنْطِقِيِّ الْفَلْسَفِيِّ وَأَطَالُوا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الطَّرِيقِ الْأَصْطِلَاحِيَّةِ  
السَّاعِلَةِ عَنِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى .

أَلَمْ يَكُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْحَذَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ الصَّارِفَةِ عَنِ الْقُرْآنِ ، تَوْجِيهُ قَلْبِ سَامِعِهِ  
لِمَحَاسِنِهِ نَفْسِهِ عَلَى هَذَا السَّمَاعِ ، وَدَرَجَةِ حَظِّهِ مِنْهُ ؟ فَإِنَّ السَّمَاعَ دَرَجَاتٍ بِاعْتِبَارِ مَا  
يُطَالِبُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْإِهْتِدَاءِ بِكِتَابِهِ : أَسْفَلَهَا أَنْ يَتَعَمَّدَ مِنْ يُتَلَى عَلَيْهِ الْقُرْآنُ أَلَّا يَسْمَعَهُ

(171/309)

---

مُبَارَزَةً لَهُ بِالْعِدَاوَةِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ ، خَوْفًا مِنْ سُلْطَانِهِ عَلَى الْقُلُوبِ أَنْ يَغْلِبَهُمْ عَلَيْهَا كَالَّذِينَ قَالَ  
اللَّهُ فِيهِمْ : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ (41 : 26)  
وَيَلِيهَا مَنْ يَسْتَمِعُ وَهُوَ لَا يَنْوِي أَنْ يَفْهَمَ وَيَعْلَمَ كَالْمُنَافِقِينَ الْمُشَارِإِلَيْهِمْ فِي آيَةِ الْقِتَالِ (47 :

16) وَذَكَرَتْ فِي هَذَا السِّيَاقِ - وَيَلِيهَا مَنْ يَسْتَمِعُ لِأَجْلِ التَّمَّاسِ شُبُهَةً لِلطَّعْنِ وَالِاعْتِرَاضِ  
، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الْمُعَانِدُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، وَكَمَا يَفْعَلُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مُرْتَزِقَةً  
دُعَاةَ النَّصْرَانِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ إِذَا اسْتَمَعُوا لِلْقُرْآنِ أَوْ نَظَرُوا فِيهِ - وَيَلِيهَا أَنْ يَسْمَعَ لِيَفْهَمَ ، وَيَعْلَمَ ثُمَّ  
يَحْكُمُ لِلْكَلامِ أَوْ عَلَيْهِ .

(172/309)

وَهَذِهِ الدَّرَجَاتُ كُلُّهَا لِغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَالْمُنْصِفُ مِنْهُمْ الْفَرِيقُ الْأَخِيرُ ، وَكَمْ آمَنَ مِنْهُمْ مَنْ  
تَأَمَّلَ وَفَهِمَ . نَظَرَ طَبِيبٌ إِفْرَنْسِيُّ مُعَاصِرِي تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ فَرَأَى أَنَّ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالطَّبِّ  
وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى الصِّحَّةِ مِنْهُ - كَالطَّهَارَةِ وَالِاعْتِدَالِ وَعَدَمِ الْإِسْرَافِ - مُوَافِقٌ لِأَحْدَثِ  
الْمَسَائِلِ الَّتِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهَا رَأْيُ الْأَطِبَّاءِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، فَرَغِبَهُ ذَلِكَ فِي تَأَمُّلِهِ كُلِّهِ فَاسْلَمَ  
. وَنَظَرَ (مِسْتَرَبْرَاون) وَهُورَبَانُ بَارِحٍ مِنَ الْإِنْكَلِيزِ فِي تَرْجَمَةِ مِسْتَرَسَايِلِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ لَهُ  
فَاسْتَقْصَى فِيهِ الْكَلَامَ عَنِ الْبِحَارِ وَالرِّبَاحِ فَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ  
رَبَّانِي الْمَلَّاحِينَ ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُ لَمْ يَرِ الْبِحْرَ قَطُّ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ أُمِّيًّا لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا ،  
وَلَا تَلَقَّى عَنْ أَحَدٍ دَرْسًا ، (قَالَ) : فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا كَانَ بُوْحِي مِنَ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ حَقَاقِقٌ لَمْ

يَعْلَمُهَا مِنْ اخْتِبَارِهِ بِنَفْسِهِ ، وَلَا بِتَلْقِيهِ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُخْتَبِرِينَ ، وَقَدْ أَسْلَمَ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ  
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

(173/309)

وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ فَأَكْثَرُهُمُ الْيَوْمَ يَسْمَعُونَ الْقَارِيَّ يَتْلُو الْقُرْآنَ فَلَا يَسْتَمِعُونَ لَهُ ،  
وَلَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَى سَمَاعِهِ ، وَأَكْثَرُ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ لَهُ وَيُنْصِتُونَ يَقْصِدُونَ  
بِذَلِكَ التَّلَذُّذَ بِتَجْوِيدِهِ ، وَتَوْقِيعَ التَّلَاوَةِ عَلَى قَوَاعِدِ النَّغَمَاتِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْصِدُ بِسَمَاعِهِ  
التَّبَرُّكَ فَقَطْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْضِرُ الْحِفَاظَ لِتَلَاوَتِهِ عِنْدَهُ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ شَعَائِرِ  
أَكْبَرِ الْوُجْهَاءِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ التَّلَاوَةُ فِي حُجْرَةِ الْبُؤَابِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْخَدَمِ ، وَإِذَا سَمِعْتَ  
بَعْضَ السَّامِعِينَ لِلتَّلَاوَةِ يَقُولُ : اللَّهُ اللَّهُ ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ كَلِمَةٍ مُفْرَدَةٍ أَوْ مُرَكَّبَةٍ أَوْ صَوْتٍ لَا  
مَعْنَى لَهُ فَإِنَّمَا يَنْطِقُ بِهِ إِعْجَابًا بِنِعْمَةِ التَّلَاوَةِ ، حَتَّى إِذَا لَيْنَطِقُونَ عِنْدَ سَمَاعِهِ بِبَعْضِ  
الْأَصْوَاتِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْغِنَاءِ .

دُعِيَتْ مَرَّةً إِلَى حَفْلَةِ عُرْسٍ فَإِذَا أَنَا بِقَارِيٍّ يَتْلُو بِالنَّغْمِ وَالتَّطْرِبِ ، وَبَعْضُ

(174/309)



---

الْحَاضِرِينَ يَهْتَرُ وَيُنْطِقُ بِتِلْكَ الْحُرُوفِ الْمُعْتَادَةِ فِي مَجَالِسِ الْغِنَاءِ ، وَيَسْتَعِيدُونَ بَعْضَ الْجُمَلِ أَوْ الْآيَاتِ كَمَا يَسْتَعِيدُونَ الْمَعْنَى عَلَى سَوَاءٍ ، وَكَانَ الْقَارِئُ يُتْلُو تِلْكَ الْوَصَايَا الصَّادِعَةَ مِنْ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ، وَمَا يَتْلُوهَا مِنْ وَصْفِ الْقُرْآنِ وَهَدَايَتِهِ وَمَوَاعِظِهِ ، وَتَوْبِيخِ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (17 : 41) إِلَى قَوْلِهِ : وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (17 : 45 ، 47) .

(175/309)

---

فَلَمَّا سَمِعَتْ مُكَاءَ أُولَئِكَ السَّفْهَاءِ وَأَصْوَاتَهُمُ الْمُنْكَرَةَ عِنْدَ سَمَاعِ هَذِهِ الْحِكْمِ الرَّوَاعِ وَالْمَوَاعِظِ الصَّوَادِعِ ، لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي أَنْ صِحْتُ فِيهِمْ صِيحَةً مَرُوعَةً ، وَوَقَفْتُ عَلَى الْكُرْسِيِّ الَّذِي كُنْتُ جَالِسًا عَلَيْهِ وَوَيَّخَيْتُهُمْ تَوْبِيخًا شَدِيدًا ، مُبَيِّنًا لَهُمْ مَا يَجِبُ مِنَ الْأَدَبِ وَالْخُشُوعِ وَالْخَشْيَةِ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ، وَلَا سِيَّمَا أَمْثَالَ هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَتَلَوْتُ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُ

تَعَالَى: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ  
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21 : 59) فَسَكَنُوا وَسَكَنُوا إِلَّا وَاحِدًا مِنْهُمْ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ  
بِالْإِثْمِ ، وَلَكِنَّهُ صَارٍ يَتَظَاهَرُ بِأَنَّهُ يَهْتَزُّ مُتَخَشِّعًا ، وَيَهْمُهُمْ مُعْتَبِرًا مُتَدَبِّرًا .

(176/309)

وَيَعْلَمُ الْقَارِئُ أَنَّ لِفَهْمِ الْكَلَامِ نَفْسَهُ دَرَجَاتٍ ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ مِنَ الْكَلَامِ إِلَّا مَدْلُولَاتِ  
الْأَلْفَافِ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ إِجْمَالٍ وَإِبْهَامٍ بِحَسَبِ مَا تُفَسِّرُ بِهِ الْمَفْرَدَاتُ فِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ ، أَوْ  
مَعَ الْمُرَكَّبَاتِ بِحَسَبِ قَوَاعِدِ النَّحْوِ وَالْبَيَانِ ، كَكَوْنِ لَفْظِي الصِّمِّ وَالْبُكْمِ هُنَا مِنْ مَجَازِ  
الاسْتِعَارَةِ مَثَلًا ، وَهَذَا الْفَهْمُ قَاصِرٌ لَا يَتَّسِعُ عَقْلُ صَاحِبِهِ لِلتَّدْبِيرِ وَالتَّذَكُّرِ الْمَطْلُوبِ ، وَمِنْهُمْ  
مَنْ يَكُونُ فَهْمُهُ تَفْصِيلِيًّا يَنْتَقِلُ مِنَ الْكَلِمَاتِ إِلَى الْجُزْئِيَّاتِ ، وَيَعْدُو الْمَفْهُومَاتِ الذَّهْنِيَّةَ إِلَى  
الْمَاصِدَقَاتِ ، وَلَكِنَّهُ يَجْعَلُهَا بِمَعزَلٍ عَنِ نَفْسِهِ ، وَيَتَصَوَّرُ أَنَّ الْكَلَامَ كُلَّهُ لغيرِهِ وَفِي غيرِهِ ، بَأَنَّ  
يَقُولُ: هَذِهِ آيَةٌ نَزَلَتْ فِي الْكَافِرِينَ أَوْ الْمُنَافِقِينَ ، لَا فِي أَمْثَالِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ كَانَ  
مُتَّصِفًا بِمَا تَنْهَى عَنْهُ وَتَوَعَّدُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، فَصَاحِبُهَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ بِوَجْهِ مَا  
أَنَّ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ،  
وَإِنَّمَا الدَّرَجَةُ الْعُلْيَا لِلسَّمَاعِ أَنْ تَسْمَعَ فَتَفْقَهُ ، وَتَعْقِلَ وَتَدَبِّرَ فَتَعْتَبِرَ وَتَعْمَلَ ، حَتَّى لَا تَقُولَ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (67: 10). انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير المنار ح 9 ص 520.524 ﴾

(177/309)

وقال ابن عاشور:

وجملة: ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾

يجوز أن تكون معطوفة على جملة: ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم ﴾ الخ باعتبار

أن الدواب مشبه به الذين قالوا ﴿ سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ ويجوز أن تكون معطوفة

على شبه الجملة في قوله: ﴿ كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ وقد سكت

المفسرون عن موقع إعراب هذه الجملة وهو دقيق والمعنى أن جبلتهم لا تقبل دعوة الخير

والهداية والكمال، فلذلك انتفى عنهم الانتفاع بما يسمعون من الحكمة والموعظة والإرشاد

، فكانوا كالصم، وانتفى عنهم أن تصدر منهم الدعوة إلى الخير والكلام بما يفيد كمالاً

نفسانياً فكانوا كالصم، فالمعنى: لو علم الله في نفوسهم قابلية لتلقي الخير لتعلقت إرادته

بخلق نفوذ الحق في نفوسهم لأن تعلق الإرادة يجري على وفق التعلم، ولكنهم انتفت قابلية

الخير عن جبلتهم التي جبلوا عليها فلم تنفذ دعوة الخير من أسماعهم إلى تعقلهم، أي بحيث

لا يدخل الهدى إلى نفوسهم إلا بما يُقلب قلوبهم من لطف الإلهي بنحو اختراق أنوار نبوية إلى قلوبهم .

و ﴿ لو ﴾ حرف شرط يقتضي انتفاء مضمون جملة الشرط وانتفاء مضمون جملة الجزاء لأجل انتفاء مضمون الشرط والاستدلال بانتفاء الجزاء على تحقق انتفاء الشرط .  
(وفي) للظرفية المجازية التي هي في معنى الملابس ، ومن لطائفها هنا أنها تعبر عن ملابسه باطنية .

ولما كان ( لو ) حرفاً يفيد امتناع حصول جوابه بسبب حصول شرطه ، كان أصل معنى ﴿ لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ ولو كان في إدراكهم خير يعلمه الله لقبولوا هديه ولكنهم لا خير في جبلة مداركهم فلا يعلم الله فيهم خيراً ، فلذلك لم ينتفعوا بكلام الله فهم كمن لا يسمع .

فوقعت الكناية عن عدم استعداد مداركهم للخير ، بعلم الله عدم الخير فيهم .

(178/309)

---

ووقع تشبيه عدم انتفاعهم بفهم آيات القرآن بعدم إسماع الله إياهم ، لأن الآيات كلام الله فإذا لم يقبلوها فكان الله لم يُسمعهم كلامه فالمراد انتفاء الخير الجبلي عنهم ، وهو القابلية للخير ،

ومعلوم أن انتفاء علم الله بشيء يساوي علمه بعدمه لأن علم الله لا يختلف عن شيء .  
فصار معنى ﴿ لو علم الله فيهم خيراً ﴾ لو كان في نفوسهم خير ، وعبر عن قبولهم الخير  
المسموع وانفعال نفوسهم به بإسماع الله إياهم ما يُبلغهم الرسول عليه الصلاة والسلام من  
القرآن والمواعظ ، فالمراد انتفاء الخير الانفعالي عنهم وهو التخلق والامتثال لما يسمعون من  
الخير .

وحاصل المعنى : لو جبلهم الله على قبول الخير لجعلهم يسمعون أي يعملون بما يدخل  
أصماخهم من الدعوة إلى الخير .

فالكلام استدلال بانتفاء فرد من أفراد جنس الخير .

وذلك هو فرد الانتفاع بالمسموع الحق ، على انتفاء جنس الخير من نفوسهم ، فمناطق  
الاستدلال هو إجراء أمرهم على المألوف من حكمة الله في خلق أجناس الصفات  
وأشخاصها ، وإن كان ذلك لا يخرج عن قدرة الله تعالى لو شاء أن يجري أمرهم على غير  
المعتاد من أمثالهم .

وبهذا تعلم أن كل من لم يؤمن من المشركين حتى مات على الشرك فقد انتفت مخالطة الخير  
نفسه ، وكل من آمن منهم فهو في وقت عناده وتصميمه على العناد قد انتفت مخالطة الخير  
نفسه ولكن الخير يلمع عليه ، حتى إذا استولى نور الخير في نفسه على ظلمة كفره ألقى الله في  
نفسه الخير فأصبح قابلاً للإرشاد والهدى ، فحق عليه أنه قد علم الله فيه خيراً حينئذٍ

فأسمعه .

فمثل ذلك مثل أبي سفيان ، إذ كان فيما قبل ليلة فتح مكة قائد أهل الشرك فلما اقترب من جيش الفتح وأدخل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله ، قال أبو سفيان : "لقد علمت أن لو كان معه إله آخر لقد أغنى عني شيئاً" ثم قال له الرسول عليه الصلاة والسلام:

(179/309)

---

"وأن تشهد أنني رسول الله" فقال: أما هذه ففي القلب منها شيء " فلم يكمل حينئذ إسماع الله إياه ، ثم تم في نفسه الخير فلم يلبث أن أسلم فأصبح من خيرة المسلمين .  
وجملة : ﴿ ولو أسمعهم تولوا وهم معرضون ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ أي لأفهمهم ما يسمعون وهو ارتقاء في الأخبار عنهم بانتفاء قابلية الاهداء عن نفوسهم في أصل جبلتهم .

فإنهم لما أخبر عنهم بانتفاء تعلمهم الحكمة والهدى فلذلك انتفى عنهم الاهداء ، ارتقى بالإخبار في هذا المعنى بأنهم لو قبلوا فهم الموعظة والحكمة فيما يسمعون من القرآن وكلام النبوة لغلب ما في نفوسهم من التخلق بالباطل على ما خالطها من إدراك الخير ، فحال ذلك

التخلق بينهم وبين العمل بما علموا ، فتولوا وأعرضوا .

وهذا الحال المستقر في نفوس المشركين متفاوت القوة ، وبمقدار تفاوته وبلوغه نهايته تكون مدة دوامهم على الشرك ، فإذا انتهى إلى أجله الذي وضعه الله في نفوسهم وكان انتهاءه قبل انتهاء أجل الحياة استطاع الواحد منهم الانتفاع بما يُلقى إليه فاهتدى ، وعلى ذلك حال الذين اهتدوا منهم إلى الإسلام بعد التريث على الكفر زمناً متفاوت الطول والقصر .

(180/309)

---

وأعلم أن ليس عطف جملة : ﴿ ولو أسمعهم لتولوا ﴾ على جملة : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ بمقصود منه تفرع الثانية على الأولى تفرع القضايا بعضها على بعض في تركيب القياس ، لأن ذلك لا يجيء في القياس الاستثنائي ولا أنه من تفرع النتيجة على المقدمات لأن تفرع الأقيسة بتلك الطريقة التي تشبه التفرع بالفاء ليس أسلوباً عربياً ، فالجملتان في هذه الآية كل واحدة منهما مستقلة عن الأخرى ، ولا تجمع بينهما إلا مناسبة المعنى والغرض ، فليس اقتران هاتين الجملتين هنا بمنزلة اقتران قولهم لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجوداً ، ولو كان النهار موجوداً لدرجت الدواجن ، فإنه قد ينتج : لو كانت الشمس طالعة لدرجت الدواجن ، بواسطة تدرج اللزومات في ذهن المحجوج تقريباً

لفهمه ، فإن ذلك بمنزلة التصريح بتهيحة ثم جعل تلك النتيجة الحاصلة مقدمة قياس ثان  
فقطوى النتيجة لظهورها اختصاراً ، وهذا ليس بأسلوب عربي إنما الأسلوب العربي في  
إقامة الدليل بالشرطية أن يقتصر على مقدم وتال ، ثم يُستدرك عليه بالاستنتاج بذكر

تقيض المقدم كقول أبي بن سلمى بن ربيعة يصف فرسه :

ولو طار ذو حافر قبلها

لطارت ولكنه لم يطر . . .

وقول المعري :

ولو دامت الدولات كانوا كثيرهم

رعايا ولكن ما لهنّ دوام . . .

أوبذكر مساوي تقيض المقدم كقول عمرو بن معديكرب :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم

نطقت ولكن الرماح أجرت . . .

فإن إجرار اللسان يمنع نطقه ، فكان في معنى ولكن الرماح تنطقني .

والأكثر أنهم يستغنون عن هذا الاستدراك لظهور الاستنتاج من مجرد ذكر الشرط

والجزاء .



واعلم أن (لو) الواقعة في هذه الجملة الثانية من قبيل (لو) المشتهرة بين النحاة بلو الصهيبية (بسبب وقوع التمثيل بها بينهم بقول عمر بن الخطاب : "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" وذلك أن تستعمل (لو) لقصد الدلالة على أن مضمون الجزاء مستمر الوجود في جميع الأزمنة والأحوال عند المتكلم ، فيأتي بجملة الشرط حينئذ متضمنة الحالة التي هي مظنة أن يتخلف مضمون عند حصلها الجزاء لو كان ذلك مما يحتمل التخلف ، فقوله : "لو لم يخف الله لم يعصمه" المقصود منه انتفاء العصيان في جميع الأزمنة والأحوال حتى في حال أمنه من غضب الله ، فليس المراد أنه خاف فعصى ، ولكن المراد أنه لو فرض عدم خوفه لما عصى ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان : 27] فالمقصود عدم انتهاء كلمات الله حتى في حالة ما لو كتبت بماء البحر كله وجعلت لها أعواد الشجر كله أقلاماً ، لا أن كلمات الله تنفذ إن لم تكن الأشجار أقلاماً والأبحر مداداً ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : 111] ليس المعنى لكن لم تنزل عليهم الملائكة ولا كلمهم الموتى ولا حشرنا عليهم كل شيء فآمنوا بل المعنى أن إيمانهم منتف في جميع الأحوال حتى في هذه الحالة التي شأنها أن لا ينتفي عندها الإيمان .

وفي هذا الاستعمال يضعف معنى الامتناع الموضوعه له (لو) وتصير (لو) في مجرد الاستلزام على طريقة مستعملة المجاز المرسل وستجىء زيادة في استعمال (لو) الصهبية عند قوله تعالى: ﴿ولو تواعدتم لاختلتم في الميعاد﴾ في هذه السورة [42].

(182/309)

---

فهكذا تقرير التلازم في قوله تعالى هنا: ﴿ولو أسمعهم تولوا وهم معرضون﴾ ليس المعنى على أنه لم يسمعهم فلم يتولوا، لأن توليهم ثابت، بل المعنى على أنهم يتولون حتى في حالة ما لو سمعهم الله الإسماع المخصوص، وهو إسماع الإفهام، فكيف إذا لم يسمعوه.

وجملة: ﴿وهم معرضون﴾ حال من ضمير تولوا وهي مبينة للمراد من التولي وهو معناه المجازي وصوغ هذه الجملة بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على تمكن إعراضهم أي إعراضاً لا قبول بعده، وهذا يفيد أن من التولي ما يعقبه إقبال، وهو تولي الذين تولوا ثم أسلموا بعد ذلك مثل مصعب بن عمير. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير ح 9 ص﴾

(183/309)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (23)

فهو سبحانه وتعالى قد علم أنه ليس فيهم خير ، فلم يسمعهم سماع الاستجابة .

والمولى سبحانه وتعالى منزّه من أن يتدبّرهم بعدم إسماعهم ؛ لأنهم لم يوجد فيهم خير ، والخير

هنا مقصود به الإيمان الأول بالرسول ، وهم لم يؤمنوا . فلم يستمعوا لنداء الهداية منه صلى

الله عليه وسلم كبلغ عن الله تعالى . إذن فعدم وجود الخير بدأ من ناحيتهم ، وسبحانه

وتعالى القائل : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 264] .

وهم - إذن - سبقوا بالكفر فلم يهدهم الله . ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة:

258] .

وهم سبقوا بالظلم فلم يهدهم الله .

وسبحانه وتعالى القائل : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: 108] .

وهم سبقوا بالفسق فلم يهدهم الله .

والله منزّه عن الاقتئات على بعض عباده ، فلم يسمعهم سماع الاستجابة لنداء رسول الله

صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾

وعلم الله تعالى أزلي، لكنه لا يحاكم عباده بما علم عنهم أزلاً . بل ينزل لهم حق الاختيار في التجربة الحياتية العملية . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - تجد أباً يعاني من مأساة فشل ابنه في الدراسة أو في الاعتماد على نفسه في الحياة، ويحيا الولد لاهياً غير مقدر لتبعات الحياة، فيقول أصدقاء الوالد له : لماذا لا تقيم لابنك مشروعاً يشغله بدلاً من اللهو، فيرد الأب : إنني أعرف هذا الولد، سيأخذ المشروع لبيعه ويصرف ثمنه على اللهو . والأب يقول ذلك بتجربته مع الابن . لكن الأيُّحتمل أن يكون هذا الابن قد ملَّ الانحراف واللهو وأراد أن يتوب، أو على الأقل ليثبت للناس أن رأى والده فيه غير صحيح ؟ لذلك نجد الأب يفتح لابنه مشروعاً، لكن الولد يغلبه طبعه السيء فيبيع المشروع ليصرف نقوده في الفساد .

هل حدث ذلك من نقص في تجربة الوالد ؟ لا، بل عرف الأب عدم الجد عن ابنه، وسهولة انقياده لهواه . فما بالناس بالحق الأعلى العليم أزلاً بكل ما خفي وما ظهر من عباده ؟ . ولكنه سبحانه وتعالى شاء ألا يحاسب عباده بما علمه أزلاً، بل يحاسبهم سبحانه وتعالى بما يحدث منهم واقعاً، فهو القائل : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [ العنكبوت : 11 ] .

فسبحانه وتعالى العالم أزلاً، لكنه شاء أن يعلم أيضاً علم الإقرار من العبد نفسه ؛ لأن الله لو

حكم على العباد بما علم أولاً ، لقال العبد : كنت سأفعل ما يطلبه المنهج يا رب . لذلك  
يترك الحق الاختيار للبشر ليعلموا على ضوء اختياراتهم ويكون العمل إقراراً بما حدث  
منهم .

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [ الأنفال : 23 ]

(185/309)

---

وحتى لو أسمعهم الله عز وجل لتولوا هم عن السماع وأعرضوا عنه ؛ لأنه سبحانه وتعالى  
يعلم أنهم اختاروا أن يكونوا شراً من الدواب عنده ، وهو الصم الذين لا يسمعون دعوة  
هداية ، وبكم لا ينطقون كلمة توحيد ، ولا يعقلون فائدة المنهج الذي وضعه الله تعالى  
لصالح دنياهم وآخرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(186/309)

---

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (23) ﴿

أخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير رضي الله عنه في قوله ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ أي لأعد لهم قولهم الذي قالوا بالسنتهم ولكن القلوب خالفت ذلك منهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولو أسمعهم ﴾ بعد أن يعلم أن لا خير فيهم ما نفعهم بعد أن ينفذ علمه بأنهم لا ينتفعون به .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه في الآية قال : قالوا : نحن صم عما يدعونا إليه محمد لا نسمعه بكم لا نجيبه فيه بتصديق ، قتلوا جميعاً بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء يوم أحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(187/309)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

## فصل

قال النحاة: كلمة "لو" وضعت للدلالة على انتفاء الشيء لانتفاء غيره.

فإذا قلت: لو جئتني لأكرمك، أفاد أنه ما حصل المجيء، وما حصل الإكرام، ومن الفقهاء من قال: إنه يفيد الاستلزام، فأما الانتفاء لأجل انتفاء الغير، فلا يفيد هذا اللفظ، ويدل عليه الآية والخبر.

أما الآية فهذه وتقريره: أن كلمة "لو" لو أفادت ما ذكره لكان قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ يقتضي أنه تعالى ما علم خيراً وما أسمعهم، ثم قال ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ فيكون معناه: أنه ما أسمعهم، وأنهم ما تولوا لكن عدم التولي خير من الخيرات، فأول الكلام يقتضي نفي الخير، وآخره يقتضي حصول الخير، وذلك متناقض.

فثبت القول: بأنه لو كانت كلمة: "لو" تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره لوجب هذا التناقض؛ فوجب أن لا يُصار إليه.

وأما الخبر فقوله عليه السلام: "نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" فلو كانت لفظه "لو" تفيد ما ذكره لصار المعنى أنه خاف الله وعصاه، وذلك متناقض.

فثبت أن كلمة "لو" لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، وإنما تفيد مجرد الاستلزام، وهذا دليل حسن إلا أنه خلاف قول الجمهور. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل ح 9 ص

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

❖ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ❖

من أقصته سوابق القسمة لم تدنه لواحق الخدمة ، ومن علمه الله بنعت الشقوة حرمة ما  
يوجب عفوّه .

ويقال لو كانوا في متناولات الرحمة لألبسهم صدار العصمة ، ولكن سبق بالحرمان حكمهم

، فحتم بالضلالة أمرهم . انتهى انتهى . اهـ ❖ لطائف الإشارات ح 1 ص 614 ❖

(188/309)

فصل

قال الشوكاني في الآيات السابقة :

❖ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلَا تَكُونُوا

كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا

يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)





أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ونهاهم عن التولي عن رسوله ، فالضمير في ﴿ عَنْهُ ﴾ عائد إلى الرسول ، لأن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي من طاعة الله ، و ﴿ مَّن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : 80] ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى رسوله ، كما في قوله : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] وقيل : الضمير راجع إلى الأمر الذي دلّ عليه ﴿ أَطِيعُوا ﴾ ، وأصل تولوا : تولوا ، فطرح إحدى التاءين ، هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين ، وبه قال الجمهور .

وقيل : إنه خطاب للمنافقين ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً ، لأن الله وصف من خاطبه في هذه الآية بالإيمان وهو التصديق . والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء ، وأبعد من هذا من قال : الخطاب لبني إسرائيل ، فإنه أجنبي من الآية .

وجملة ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين وتصدقون بها ولستم كالصم البكم ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا

سَمِعْنَا ﴿ وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء ، فإنهم يسمعون  
بأذانهم من غير فهم ولا عمل ، فهم كالذي لم يسمع أصلاً ؛ لأنه لم ينتفع بما سمعه .

(189/309)

---

ثم أخبر سبحانه ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ أي : ما دبّ على الأرض ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي :  
في حكمه ﴿ الصَّمِّ الْبِكْمِ ﴾ أي : الذين لا يسمعون ولا ينطقون ، وصفوا بذلك مع كونهم  
من يسمع وينطق ، لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ما فيه النفع لهم  
فياً تونه ، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه ، فهم شرّ الدوابّ عند الله ، لأنها تميز بعض تمييز  
، وتفرق بين ما ينفعها ويضرّها .

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴾ أي : في هؤلاء الصمّ البكم ﴿ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ سماعاً ينتفعون  
به ، ويتعلّون عنده الحجج والبراهين .

قال الزجاج ﴿ لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ جواب كل ما سألوا عنه .

وقيل : ﴿ لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ، لأنهم طلبوا إحياء قصي بن  
كلاب وغيره ؛ ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ  
مُعْرِضُونَ ﴾ لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون .

وجملة ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ في محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ،

وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قال : عاصون .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن علي بن أبي طالب ، في قوله : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

الآية قال : إن هذه الآية نزلت في فلان وأصحاب له .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وابن جرير ، وابن المنذر

، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

قال هم نفر من قريش من بني عبد الدار .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه ، في قوله : ﴿ الصَّمَّ الْبِكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ قال : لا يتبعون

الحق .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج ، قال : نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث وقومه ،

ولعله المكنى عنه " بفلان " فيما تقدم من قول علي رضي الله عنه .

(190/309)

---

وأخرج ابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، عن عروة بن الزبير ، في قوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي : لأنفذ لهم قولهم الذي قالوا بالسنتهم ، ولكن القلوب خالفت ذلك منهم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن عكرمة ، في الآية قال : قالوا نحن صمّ عما يدعونا إليه محمد لا نسمعه ، بكم لانجيبه فيه بتصديق ، قتلوا جميعاً بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء يوم أحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(191/309)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (24) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ما مضى من نكال الكافرين مسبباً عن عدم الاستجابة ، أمر المؤمنين بها تحذيراً من الكون الكفرة في مثل حالهم فيحشروا معهم في ما لهم فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي أقرؤا بالإيمان بالسنتهم ﴿ استجيبوا ﴾ أي صدقوا دعواكم ذلك بإيجاد الإجابة إيجاد من

هو في غاية الرغبة فيها ﴿الله﴾ أي واجعلوا إجاباتكم هذه خاصة للذي له جميع صفات الكمال ﴿وللرسول﴾ الذي أرسله إلى جميع الخلق .

ولما كان - صلى الله عليه وسلم - يدعوهم لا محالة لأن الله تعالى أمره بدعائهم ، وكان لا يدعوهم إلا إلى ما أمره الله به ، وكان سبحانه لا يدعو إلا إلى صلاح ورشد ؛ عبر بأداة التحقيق ووحيد الضمير وشوق يثمر الحياة فقال : ﴿إذا دعاكم﴾ أي الرسول بالنذب والتحريض .

ولما كان اجتناء ثمرة الطاعة في غاية القرب ، نبه على ذلك باللام دون " إلى " فقال : ﴿لما يحييكم﴾ أي ينقلكم بعز الإيمان والعلم عن حال الكفرة من الصمم والبكم وعدم العقل الذي هو الموت المعنوي إلى الحياة المعنوية ، ولا يعوقكم عن الاستجابة في أمر من الأمور أن تقولوا : إنا استجبنا إلى الإيمان وكثير من شرائعه ، فلولا أن ربنا علم فينا الخير ما أسمعنا ، فنحن ناجون ؛ روى البخاري في التفسير وغيره عن أبي سعيد ابن المعلي - رضي الله عنهم - قال : " كنت أصلي فمر بي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيت فقال : ما منعك أن تأتي ؟ فقلت كنت أصلي ، فقال : ألم يقل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا﴾ - الآية ، ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد ، فذهب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليخرج فذكرت له فقال : هي

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [ الفاتحة : 1 ] " هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي

أوتيته "

(192/309)

---

وللترمذي عن أبي هريرة- رضى الله عنهم- " أن النبي- صلى الله عليه وسلم- خرج على  
أبي بن كعب- رضى الله عنهم- فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : يا أباي ! وهو  
يصلني ، فالتفت أباي فلم يجبه و صلى أباي فخفف ، ثم انصرف إلى رسول الله- صلى الله  
عليه وسلم- فقال : السلام عليك يا رسول الله ! فقال رسول- صلى الله عليه وسلم- : يا  
أباي ! وهو يصلني ، فالتفت أباي فلم يجبه و صلى أباي فخفف ، ثم انصرف إلى رسول الله-  
صلى الله عليه وسلم- فقال : السلام عليك يا رسول الله ! فقال رسول الله- صلى الله عليه  
وسلم- : وعليك السلام ، ما منعك يا أباي أن تجيبني إذ دعوتك ، فقال : يا رسول الله ! إني  
كنت في الصلاة ، قال : فلم تجد فيما أوحى الله إلي أن ﴿ استجيبوا لله وللرسول إذا  
دعاكم لما يحبيكم ﴾ [ الأنفال : 24 ] قال : بلى ! ولا أعود إن شاء الله ! قال : تجب أن  
أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ؟ قال : نعم ،  
يا رسول الله ! فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : كيف تقرأ في الصلاة ؟ قال : فقراً

أم القرآن ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : والذي نفسي بيده ! ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته " - هذا حديث حسن صحيح .

(193/309)

---

ولما كان الإنسان إذا كان على حالة يستعبد جداً أن يصبر على غيرها ، قال تعالى مرغباً مرهباً : ﴿ واعلموا أن الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ يحول ﴾ أي بشمول علمه وكمال قدرته ﴿ بين المرء وقلبه ﴾ فيرده إلى ما علم منه فيصير فيما كشفه الحال كافراً معانداً بعد أن كان في ظاهر الحال مؤمناً مستسلماً فيكون ممن علم الله أنه لا خير فيه وقصره على الإجابة فلم يستمر عليها ، ويرد الكافر بعد عناده إلى الإيمان بغاية ما يرى من سهولة قيادة ، فكفى سبحانه بشدة القرب اللازم للحيلولة عن شدة الاقتدار على تبديل العزائم والمرادات ، وهو تحريض على المبادرة إلى اتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما دامت القلوب مقبلة على ذلك خوفاً من تغييرها .

(194/309)

---

ولما خوفهم عاقبة الحال ، حذرهم شأن المال فقال : ﴿ وأنه ﴾ أي واعلموا أنه تعالى  
﴿ إليه تحشرون ﴾ لا إلى غيره ، فيحشر المستجيبين في زمرة المؤمنين ، والمعرضين في  
عداد الكافرين وإن أبوا حكماً واحداً ، لأن الدين لا يتجزأ ، وقدم علم أن " إذا " ليست  
قيداً وإنما هي تنبيه على وجوب اتباعه في كل ما يدعوا إليه لعصمته ، وحكمة الإتيان بها  
الإعلام بأنه ما ترك خيراً إلا دعا إليه ؛ قال الحرالي في أواخر كتاب له في أصول الفقه : ولها  
- أي العصمة - معنيان : أحدهما عصمة الحفظ ، وهو معنى ينشأ من التزام الحكم عليه  
بماضي شرعته ، وهي العصمة العامة للأنبياء ، وفي هذه الرتبة يقع الكلام في الحفظ من  
الصغائر بعد الاتفاق على الحفظ عما يخل بالتبليغ ويحط الرتبة والكبائر ، وحقيقة الصغائر  
مقدمات الذنوب التي لم تتم ، فيكون تمامها كبيرتها ، وعلى ذلك بنى قوم احتمال وقوع الفعل  
محظوراً من نبي ، وكل ذلك - وإن كان من أحوال أنبياء - فإن المتحقق من أمر النبي - صلى  
الله عليه وسلم - إنما هو علو عن هذا المحل ؛ المعنى الثاني من العصمة رفع الحكم عن النبي -  
صلى الله عليه وسلم - بما حفظه الحافظ من ماضي ظاهر شرعته وبما بلغ إليه فهمه من  
مبادئ التنشؤ من سننه ، واتخاذ فعله مبدءاً للأحكام في كل آن من غير التفات لما تقرر في  
ماضي الزمان ، وهذه هي العصمة الخاصة بالنبي - صلى الله عليه وسلم - الجامع ، فلا  
يكون لفعله حكم إلا ما يفهمه إنبأؤه عن حال وقوعه ، ويكون الأحكام تبعاً لفعله ، لأن



فعله يتبع حكماً ، فهذا وجه عصمته الخاصة الممتنع عليها جواز الخروج عنها ، فمن كان يسبق إليه من أكابر الصحابة نحو من هذا المعنى لا يتوقف في شيء من أمره كالصديق - رضی الله عنهم - وكما كان عبد الله بن عمر - رضی الله عنهما - في اقتدائه حتى في إدارة راحلته وصبغه بالصفرة ولبسه النعال السبئية ونحو ذلك من أمره وأمر من حذا منهم هذا الحذو ، ومن كان يتوهم الحكم عليه

(195/309)

---

بمقتضى علمه وفهمه من أمر شرعته لا يكاد يسلم من وقوع في أمر يرد عليه انتحاله كما حكم أبي - رضی الله عنهم - لما كان يصلي يامضاً عمل الصلاة إذ دعاه حتى بين له قصور فهمه عن الله في حقه أي بقوله : ألم تسمع الله يقول ﴿ استجبوا لله وللرسول ﴾ وكالذي قال : انزل فاجدع لنا ، فقال : إن عليك نهارة ، فقال له في الثالثة أو الرابعة : انزل فاجدع لنا ويلك أو ويحك ! فإذا وضح أن فعله مبدأ الحكم ومعلم الإنباء لزم صحة التأسّي به في جميع أحواله ، إما على بيان من تعين رتبة الحكم من وجوب أو نذب أو أباحة ، أو على مطلق التأسّي مع إيهام رتبة الحكم والاتكال على ما عنده هو - صلى الله عليه وسلم - من العلم ، فنية التأسّي به على إيهام في الحكم ربما كان أتم من العمل بما تبين حكمه ، أحرم علي -

رضى الله عنهم - وهو باليمن ، توجه إلى مكة بإحرام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا يتطرق لشيء من أمره - صلى الله عليه وسلم - بما وقع من كونه يفتي بأمر ثم يوافق في غيره ، لأن الآخذ في ذلك عن قصور في العلم بمكاته من علم رحمانية الله وكلمته وتنزله إلى موافقة أمر سنة الله وحكمته نحو الذي أفتاه بتكفير الجهاد كل ذنب بناء على علمه برحمانية الله وإمضاء كلمته ، ثم ذكر له ما قال جبرائيل عليه السلام من استثناء الدين الدين مما أنزل على حكم أمر الله في محكم شرعته وسنته ، يعني - والله أعلم - أن من صح جهاده تكفر كل ذنوبه ، وأن توقف الدين على إرضاء الله لخصمه ، فالإخبار بالكفارة ناظر إلى المال ، والإخبار بنفسها ناظر إلى الابتداء ، وكذلك أفتى بترك التلقيح بناء على إنفاذ كلمة الله ، وردهم على عادة دنياهم حين لم يتجشموا الصبر إلى ظهور كلمة الله على مستمر عاداته ، فقد عمل بأول فتياه غير واحد ممن لم يسترب في نفاذ حكمه وصحته فأخفق ثمرات ثلاث سنين ثم عاد - في غنى عن التلقيح - إلى أحسن من حاله في متقدم عاداته ، ولا يتقاصر عن إدراك ذلك من

أمره في كل نازلة من نحوه إلا من لم يسم به التأييد إلى معرفة حظ من مكاته ، فإذا وضح ذلك فكل فعل فعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن كان بياناً لواجب فهو منج من عقاب الله ، وإن كان تعليماً لقربي من الله فهو وصلة إلى محبة الله كما قال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ [آل عمران : 31] وإن لم يتضح له مجمل منهما تأسى

بها على إيهام يغنيه عمله وتعلو به نيته ، وما كان مختصاً به فلا بد من إظهار أمر اختصاصه  
بخطاب من الله سبحانه أو منه عليه السلام كما قال تعالى ﴿ خالصة لك من دون  
المؤمنين ﴾ [ الأحزاب : 50 ] انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 201 .  
﴿ 204

(196/309)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو عبيد والزجاج ﴿ استجيبوا ﴾ معناه أجبوا وأنشد قول الشاعر :

فلم يستجبه عند ذاك مجيب . . المسألة الثانية :

أكثر الفقهاء على أن ظاهر الأمر للوجوب ، وتمسكوا بهذه الآية على صحة قولهم من

وجهين :

الوجه الأول: أن كل من أمره الله بفعل فقد دعاه إلى ذلك الفعل وهذه الآية تدل على أنه لا بد من الإجابة في كل ما دعاه الله إليه .

فإن قيل: قوله: ﴿استجيبوا لله﴾ أمر .

فلم قلت: إنه يدل على الوجوب؟ وهل النزاع إلا فيه، فيرجع حاصل هذا الكلام إلى إثبات أن الأمر للوجوب بناء على أن هذا الأمر يفيد الوجوب، وهو يقتضي إثبات الشيء بنفسه وهو محال .

والجواب: أن من المعلوم بالضرورة أن كل ما أمر الله به فهو مرغّب فيه مندوب إليه، فلو حملنا قوله: ﴿استجيبوا لله ولرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ على هذا المعنى كان هذا جارياً مجرى إيضاح الواضحات وأنه عبث، فوجب حملة على فائدة زائدة، وهي الوجوب صوتاً لهذا النص عن التعطيل، ويتأكد هذا بأن قوله تعالى بعد ذلك ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾ جار مجرى التهديد والوعيد، وذلك لا يليق إلا بالإيجاب .

الوجه الثاني: في الاستدلال بهذه الآية على ثبوت هذا المطلوب .

(197/309)

---

ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على باب أبي بن كعب فناداه وهو في الصلاة فعجل في صلاته ثم جاء فقال: "ما منعك عن إجابتي" قال كنت أصلي قال: "ألم تخبر فيما أوحى إلي استجبوا لله وللرسول" فقال: لا جرم لا تدعوني إلا أجيبك، والاستدلال به أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاه فلم يجبه لأمه على ترك الإجابة، وتمسك في تقرير ذلك اللوم بهذه الآية فلولا دلالة هذه الآية على الوجوب، وإلا لما صح ذلك الاستدلال وقول من يقول مسألة أن الأمر يفيد الوجوب، مسألة قطعية، فلا يجوز التمسك فيها بخبر الواحد ضعيف، لأننا لا نسلم أن مسألة الأمر يفيد الوجوب مسألة قطعية، بل هي عندنا مسألة ظنية، لأن المقصود منها العمل، والدلائل الظنية كافية في المطالب العملية.

فإن قالوا: إنه تعالى ما أمر بالإجابة على الإطلاق بل بشرط خاص وهو قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فلم قلتم إن هذا الشرط حاصل في جميع الأوامر؟ قلنا: قصة أبي بن كعب تدل على أن هذا الحكم عام وغير مخصوص بشرط معين، وأيضاً فلا يمكن حمل الحياة ههنا على نفس الحياة.

لأن إحياء الحي محال.

فوجب حمله على شيء آخر وهو الفوز بالثواب، وكل ما دعا الله إليه ورغب فيه فهو مشتمل على ثواب، فكان هذا الحكم عاماً في جميع الأوامر وذلك يفيد المطلوب.

## المسألة الثالثة :

ذكروا في قوله : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ وجوهاً : الأول : قال السدي : هو الإيمان والإسلام وفيه الحياة لأن الإيمان حياة القلب والكفر موته ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ [ الروم : 19 ] قيل المؤمن من الكافر .

الثاني : قال قتادة : يعني القرآن أي أجيبوه إلى ما في القرآن ففيه الحياة والنجاة والعصمة ، وإنما سمي القرآن بالحياة لأن القرآن سبب العلم .  
والعلم حياة ، فجاز أن يسمى سبب الحياة بالحياة .

(198/309)

---

الثالث : قال الأثرون : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ هو الجهاد ، ثم في سبب تسمية الجهاد بالحياة وجوه : أحدها : هو أن وهن أحد العدو حياة للعدو والثاني .  
فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار .

وثانيها : أن الجهاد سبب لحصول الشهادة وهي توجب الحياة الدائمة قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [ آل عمران : 169 ] وثالثها : أن الجهاد قد يفضي إلى القتل ، والقتل يوصل إلى الدار الآخرة ، والدار

الآخرة معدن الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ [ العنكبوت : 64 ] أي الحياة الدائمة .

والقول الرابع : ﴿ لَمَّا يُحْيِيكُمُ ﴾ أي لكل حق و صواب ، وعلى هذا التقدير فيدخل فيه

القرآن والإيمان والجهاد وكل أعمال البر والطاعة .

والمراد من قوله : ﴿ لَمَّا يُحْيِيكُمُ ﴾ الحياة الطيبة الدائمة قال تعالى : ﴿ فلنحيينه حياة

طيبة ﴾ [ النحل : 97 ] .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ يختلف تفسيره بحسب اختلاف

الناس في الجبر والقدر .

أما القائلون بالجبر ، فقال الواحدي حكاية عن ابن عباس والضحاك : يحول بين المرء الكافر

وطاعته ، ويحول بين المرء المطيع ومعصيته ، فالسعيد من أسعده الله ، والشقي من أضله

الله .

والقلوب بيد الله يقبلها كيف يشاء ، فإذا أراد الكافر أن يؤمن والله تعالى لا يريد إيمانه يحول

بينه وبين قلبه .

وإذا أراد المؤمن أن يكفر والله لا يريد كفره حال بينه وبين قلبه .

قلت : وقد دللنا بالبراهين العقلية على صحة أن الأمر كذلك وذلك لأن الأحوال القلبية إما

العقائد وإما الإرادات والدواعي .

أما العقائد : فهي إما العلم ، وإما الجهل .

(199/309)

---

أما العلم فيمتنع أن يقصد الفاعل إلى تحصيله إلا إذا علم كونه علماً ولا يعلم ذلك إلا إذا علم كون ذلك الاعتقاد مطابقاً للمعلوم ولا يعلم ذلك إلا إذا سبق علمه بالمعلوم وذلك يوجب توقف الشيء على نفسه وأما الجهل فالإنسان البتة لا يختاره ولا يريدُه إلا إذا ظن أن ذلك الاعتقاد علم ، ولا يحصل له هذا الظن إلا بسبق جهل آخر ، وذلك أيضاً يوجب توقف الشيء على نفسه ، وأما الدواعي والإرادات فحصولها إن لم يكن بفاعل يلزم الحدوث لا عن محدث ، وإن كان بفاعل فذلك الفاعل إما العبد وإما الله تعالى ، والأول باطل ، وإلا لزم توقف ذلك القصد على قصد آخر وهو محال ، فتعين أن يكون فاعل الاعتقادات والإرادات والدواعي هو الله تعالى ، فنص القرآن دل على أن أحوال القلوب من الله ، والدلائل العقلية دلت على ذلك ، فثبت أن الحق ما ذكرناه .

أما القائلون بالقدر فقالوا : لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية ما ذكرتم ، وبيانه من وجوه :  
الوجه الأول : قال الجبائي : إن من حال الله بينه وبين الإيمان فهو عاجز ، وأمر العاجز سفه



، ولو جاز ذلك لجاز أن يأمرنا الله بصعود السماء ، وقد أجمعوا على أن الزمن لا يؤمر  
بالصلاة قائماً ، فكيف يجوز ذلك على الله تعالى ؟ وقد قال تعالى : ﴿ لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا  
إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: 286] وقال في المظاهر : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ  
مِسْكِينًا ﴾ [المجادلة: 4] فأسقط فرض الصوم عن لا يستطيعه .

الوجه الثاني : أن الله تعالى أمر بالاستجابة لله وللرسول .

وذكر هذا الكلام في معرض الذكر والتحذير عن ترك الإجابة ، ولو كان المراد ما ذكرتم لكان  
ذلك عذراً قوياً في ترك الإجابة ، ولا يكون زجراً عن ترك الإجابة .

(200/309)

---

الوجه الثالث : أنه تعالى أنزل القرآن ليكون حجة للرسول على الكفار ، لا ليكون حجة  
للكفار على الرسول ، ولو كان المعنى ما ذكرتم لصارت هذه الآية من أقوى الدلائل للكفار  
على الرسول ولقالوا إنه تعالى لما منعنا من الإيمان فكيف يأمرنا به ؟ فثبت بهذه الوجوه أنه  
لا يمكن حمل الآية على ما قاله أهل الجبر ، قالوا ونحن نذكر في الآية وجوهاً : الأول : أن الله  
تعالى يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بسبب الموت ، يعني بذلك أن تبادروا في الاستجابة  
فيما ألزمتكم من الجهاد وغيره قبل أن يأتيكم الموت الذي لا بد منه ويحول بينكم وبين

الطاعة والتوبة .

قال القاضي : ولذلك قال تعالى عقيب ما يدل عليه وهو قوله : ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

والمقصود من هذه الآية الحث على الطاعة قبل نزول الموت الذي يمنع منها .

الثاني : أن المراد أنه تعالى يحول بين المرء وبين ما يتمناه ويريده بقلبه ، فإن الأجل يحول دون

الأمل ، فكأنه قال : بادروا إلى الأعمال الصالحة ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم من توقع

طول البقاء ، فإن ذلك غير موثوق به ، وإنما حسن إطلاق لفظ القلب على الأمانى الحاصلة

في القلب لأن تسمية الشيء باسم ظرفه جائزة كقولهم ، سال الوادي .

الثالث : أن المؤمنين كانوا خائفين من القتال يوم بدر ، فكأنه قيل لهم ، سارعوا إلى الطاعة

ولا تمنعوا عنها بسبب ما تجدون في قلوبكم من الضعف والجبن ، فإن الله تعالى يغير تلك

الأحوال فيبدل الضعف بالقوة ، والجبن بالشجاعة ، لأنه تعالى مقلب القلوب .

الرابع : قال مجاهد : المراد من القلب ههنا العقل فكان المعنى أنه يحول بين المرء وقلبه .

والمعنى فبادروا إلى الأعمال وأتم تعقلون ، فإنكم لا تؤمنون زوال العقول التي عند ارتفاعها

يبطل التكليف .

وجعل القلب كناية عن العقل جائز ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ ق : 37 ] أي لمن كان له عقل .

---

الخامس: قال الحسن معناه ، أن الله حائل بين المرء وقلبه ، والمعنى أن قربته تعالى من عبده أشد من قرب قلب العبد منه ، والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لا يخفى عليه شيء مما في باطن العبد ومما في ضميره ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ ق : 16 ] فهذه جملة الوجوه المذكورة في هذا الباب لأصحاب الجبر والقدر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي واعلموا أنكم إليه تحشرون أي إلى الله ولا تتركون مهملين معطلين ، وفيه ترغيب شديد في العمل وتحذير عن الكسل والغفلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 117 . 120 ﴾

(202/309)

---

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .  
فيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : الاستجابة : هي الإجابة ، وقد يكون استتعل بمعنى أفعل ، حسبما بيناه

فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، وَقَدْ قَالَ شَاعِرُ الْعَرَبِ : وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى التَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ  
عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ

السُّأَلَةُ الثَّانِيَّةُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ لَيْسَ يُرِيدُ بِهِ حَيَاةَ الْمَشَاهِدَةِ وَالْأَجْسَامِ ،  
وَأِنَّمَا يُرِيدُ بِهِ حَيَاةَ الْمَعَانِي وَالْقُلُوبِ بِالْإِفْهَامِ بِدُعَائِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ ، وَالْحَقِّ  
وَالْجِهَادِ ، وَالطَّاعَةِ وَالْأَلْفَةِ .

وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ لِمَا يُحْيِيكُمْ فِي الْآخِرَةِ الْحَيَاةَ الدَّائِمَةَ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ .  
السُّأَلَةُ الثَّلَاثَةُ : ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا أَبِيًّا  
وَهُوَ يُصَلِّي ، فَلَمْ يُجِبْهُ أَبِيٌّ فَخَفَّفَ الصَّلَاةَ ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
فَقَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا مَنَعَكَ إِذْ دَعَوْتُكَ أَنْ تُجِيبَنِي ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،  
كُنْتُ أَصَلِّي .

قَالَ لَهُ : أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾  
؟ قَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَا أَعُودُ .

(203/309)

---

فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ لِلْفَرْضِ أَوْ الْقَوْلَ الْفَرْضُ إِذَا أُتِيَ بِهِ فِي الصَّلَاةِ لَا يُبْطَلُ الصَّلَاةُ لِأَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بِالْإِجَابَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ. وَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ إِجَابَةِ النَّبِيِّ وَتَقْدِيمِهَا عَلَى الصَّلَاةِ، وَهَلْ تَبْقَى الصَّلَاةُ مَعَهَا أَمْ تَبْطُلُ؟ مَسْأَلَةٌ أُخْرَى.

وَقَدْ قَرَّرْنَا عَلَى وَجْهِهِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ. انْتَهَى انْتَهَى. اهـ ﴿ أَحكام القرآن لابن

العربي ح 2 ص ﴿

(204/309)

وقال السمرقندي:

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ﴾ ،

يعني أجبوا الله بالطاعة في أمر القتال .

﴿ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ إلى القتال أو غيره .

وإنما قال: إذا دعاكم، ولم يقل: إذا دعواكم، لأن الدعوة واحدة ومن يجب الرسول فقد

أجاب الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، يعني القرآن الذي به حياة القلوب، ويقال ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ

﴿ ، يعني يهديكم في أمر الحرب الذي يعزكم ويصلحكم ويقويكم بعد الضعف ، ويقال :

﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، أي يهديكم .

ويقال : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، يعني لما يكون سبباً للحياة الدائمة في نعيم الآخرة .

﴿ واعلموا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ .

قال الفقيه : حدثنا محمد بن الفضل قال : حدثنا فارس بن مردويه ، عن محمد بن الفضل ،

عن أبي صالح مطيع ، عن حماد بن سلمة ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال

: يحول بين المؤمن ومعاصيه التي تسوقه وتجره إلى النار ، ويحول بين الكافر وطاعته التي تجره

إلى الجنة ؛ ويقال : تحول بين المرء وإرادته ، لأن الأمر لا يكون بإرادة العبد وإنما يكون بإرادة

الله تعالى ، كما قال أبو الدرداء :

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُعْطَى مِنْهُ .

.. وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا مَا أَرَادَا

ويقال : يحال بين المرء وأجله ، لأن الأجل حال دون الأمل .

وقال سعيد بن جبير : يحول بين الكافر والإيمان وبين المؤمن والكفر .

وقال مجاهد : يحول بين المرء وقلبه يعني حتى يتركه ولا يفعله .

ثم قال : ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ، يعني في الآخرة فتشأبون بأعمالكم . انتهى انتهى . ١ هـ

﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

اختلفوا في قوله (لما يحييكم) :

فقال السدي : هو الإيمان يحييهم بعد موتهم أي كفرهم . وقال مجاهد : للحق . وقال قتادة هو هذا القرآن فيه الحياة والفقہ والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة .

وقال ابن إسحاق : لما يحييكم يعني الحرب والجهاد التي أعزكم الله بها بعد الذل . وقواكم بها بعد الضعف ومنعكم بها عن عدوكم بعد الفهر منهم لكم .

وقال [القتبي] : لما يحييكم : لما يتقيكم ، يعني الشهادة . وقرأ قوله ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ

رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : 169] فاللام في قوله (لما) بمعنى إلى ومعنى الاستجابة في

هذه الآية الطاعة يدل عليه ما روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : " مرّ

رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب وهو قائم يصلي فصاح له فقال : " تعال

إلي " ، فعجل أبي في صلاته ثم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما منعك

يا أبا أن تجيبني إذا دعوتك ؟ أليس الله يقول يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا

دعاكم لما يُحييكم " .

قال : لا جرم يا رسول الله لا تدعوني إلا أجبتك وإن كنت مصلياً .

قال : " تحب أن أعلمك سورة لم تنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها  
" ؟

قال أبي : نعم يا رسول الله .

قال : " لا تخرج من باب المسجد حتى تعلمها " والنبي صلى الله عليه وسلم يمشي يريد أن

يخرج من المسجد فلما بلغ الباب ليخرج قال له أبي : يا رسول الله ، فوقف فقال : " نعم

كيف تقرأ في صلاتك " فقرأ أبي أم القرآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي

نفسى بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن [ مثلها ] وإنما هي

السبع المثاني التي أتاني الله عز وجل " .

(206/309)

---

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ قال سعيد بن جبیر : معناه يحول بين الكافر أن

يؤمن وبين المؤمن أن يكفر .

ابن عباس : بين الكافر وبين طاعته ويحول بين المؤمن وبين معصيته .



وقال مجاهد : يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدري ما يفعل ، وروى خصيف عنه قال :  
يحول بين قلب الكافر وبين أن يعمل خيراً .

وقال السدي : يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلا بإذنه .

وقال قتادة : معنى ذلك أنه قريب من قلبه ولا يخفى عليه شيء أظهره أو أسره . وهي

كقوله عز وجل ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ ق : 16 ] .

وقيل : هو أن القوم لما دعوا إلى القتال في الحال الصعبة جاءت ظنونهم واختلجت

صدر وهم فقيل [ فيهم ] ﴿ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ آل عمران : 167 ] وأعلموا أن الله

يحول بين المرء وبين ما في قلبه فيبدل الخوف أمناً والجبن جرأة .

وقيل : يحول بينه وبين مراده ، لأن الأجل حال دون الأمل . والتقدير منع من التدبير .

وقرأ الحسن : بين المرء ، وتشديد الراء من غير همزة .

وقرأ الزهري : بضم الميم والهمزة وهي لغات صحيحة .

﴿ وَأَنَّ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ويجزيكم بأعمالكم .

قال أنس بن مالك : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب

ثبت قلبي على دينك ، قلنا : يا رسول الله أمنا بك فهل تخاف علينا ؟

قال : " إن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف شاء إن شاء أقامه وإن

شاء أزاغه " .

والإصبع في اللغة الأثر الحسن ، فمعنى قوله : بين إصبعين : بين أثرين من آثار الروبوبة وفيها  
الإزاعة والإقامة .

قال الشاعر :

صلاة وتسبيح والخطأ نائل . . . وذو رحم تناله منك إصبع  
أي أثر حسن .

وقال آخر :

من يجعل الله عليه اصبعاً . . . في الشر أو في الخير يلقه معاً  
فالإصبع أيضاً في اللغة الإصبع .

(207/309)

---

فمعنى الحديث بين مملكتين من ممالكه ، وبين الإزاعة والإقامة والتوفيق والخذلان .  
قال الشاعر :

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن . . . للغدر خائنة مغل الإصبع . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(208/309)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾

يعني أجبوا الله والرسول قال كعب ابن سعد الغنوي .

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى . . . فلم يستجبه عند ذلك مجيب

وإجابة الله تعالى هي طاعة أمره ، وإنما خرجت عن هذا اللفظ لأنها في مقابلة الدعاء

إليها فصارت إجابة لها .

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ فيه سبعة أقاويل :

أحدها : إذا دعاكم إلى الإيمان ، قاله السدي .

والثاني : إذا دعاكم إلى الحق ، قاله مجاهد .

والثالث : إذا دعاكم إلى ما في القرآن ، قاله قتادة .

والرابع : إذا دعاكم إلى الحرب وجهاد العدو ، قاله ابن إسحاق .

والخامس : إذا دعاكم إلى ما فيه دوام حياتكم في الآخرة ، ذكره علي بن عيسى .

والسادس : إذا دعاكم إلى ما فيه إحياء أمركم في الدنيا ، قاله الفراء .

والسابع : أنه على عموم الدعاء فيما أمرهم به .

روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : مر رسول الله صلى الله عليه

وسلم على أبي وهو قائم يصلي فصرخ به قال: "يا أباي" قال فعجل في صلاته، ثم جاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منعك إذ دعوتك أن تجيئني؟" قال: يا رسول الله كنت أصلي، فقال: "ألم تجد فيما أوحى إليّ ﴿ استجبوا لله ولرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾" قال بلى يا رسول الله، لا أعود.

﴿ وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ فيه لأهل التأويل سبعة أقاويل:

أحدها: يحول بين الكافر والإيمان، وبين المؤمن والكفر، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير والضحاك.

والثاني: يحول بين المرء وعقله فلا يدري ما يعمل، قاله مجاهد.

والثالث: يحول بين المرء وقلبه أن يقدر على إيمان أو كفر إلا يذنه، قاله السدي.

(209/309)

---

والرابع: معناه أنه قريب من قلبه يحول بينه وبين أن يخفى عليه شيء من سره أو جهره فصار أقرب من حبل الوريد، وهذا تحذير شديد، قاله قتادة.

والخامس: معناه يفرق بين المرء وقلبه بالموت فلا يقدر على استدراك فائت. ذكره علي بن عيسى.

والسادس : يحول بين المرء وما يتمناه بقلبه من البقاء وطول العمر والظفر والنصر ، حكاة ابن الأنباري .

والسابع : يحول بين المرء وما يوقعه في قلبه من رعب خوف أو قوة وأمن ، فيأمن المؤمن من خوفه ، ويخاف الكافر عذابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(210/309)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول ﴾ الآية ،

هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف ، و ﴿ استجبوا ﴾ بمعنى أجبوا ، ولكن عرف الكلام أن يتعدى استجاب بلام ويتعدى أجباب دوم لام ، وقد يجيء تعدي استجاب بغير لام والشاهد قول الشاعر : [ الطويل ]

وداعِ دعا يا من يجيبُ إلى النداء . . . فلم يستجبهُ عند ذاك مجيب

وقوله ﴿ لما يجيبكم ﴾ قال مجاهد والجمهور : المعنى للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه ، وهذا إحياء مستعار لأنه من موت الكفر والجهل ، وقيل الإسلام وهذا نحو الأول ويضعف من جهة أن من آمن لا يقال له ادخل في الإسلام ، وقيل ﴿ لما يجيبكم ﴾ معناه

للحرب وجهاد العدو وهو يحيى بالعزة والغلبة والظفر ، فسمي ذلك حياة كما تقول حييت حال فلان إذا ارتفعت ، ويحيى أيضاً كما يحيى الإسلام والطاعة وغير ذلك بأنه يؤدي إلى الحياة الدائمة في الآخرة ، وقال النقاش : المراد إذا دعاكم للشهادة .

قال القاضي أبو محمد : فهذه صلة حياة الدنيا بحياة الآخرة ، وقوله ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ يحتمل وجوهاً ، ومنها أنه لما أمرهم بالاستجابة في الطاعة حضهم على المبادرة والاستعجال فقال : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ بالموت والقبض أي فبادروا بالطاعات ، ويلتئم مع هذا التأويل قوله ﴿ وأنه إليه تحشرون ﴾ ، أي فبادروا الطاعات وتزودوها ليوم الحشر ، ومنها أن يقصد بقوله ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ إعلامهم أن قدرة الله وإحاطته وعلمه والجنة بين المرء وقلبه حاصلة هناك حائلة بينه وبين قلبه .

(211/309)

---

قال القاضي أبو محمد : فكأن هذا المعنى يحض على المراقبة والخوف لله المطع على الضمائر ، ويشبه على هذا التأويل هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ ق : 16 ] ، حكى هذا التأويل عن قتادة ، ويحتمل أن يريد تخويفهم إن لم يمتثلوا

الطاعات ويستجيبوا لله وللرسول بما حل بالكفار الذين أرادهم بقوله ﴿ ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ ، لأن حتمه عليهم بأنهم لو سمعوا وفهموا لم ينتفعوا يقتضي أنه قد كان حال بينهم وبين قلوبهم ، فكأنه قال للمؤمنين في هذه الأخرى استجيبوا لله وللرسول ولا تأمنوا إن فعلوا أن ينزل بكم ما نزل بالكفار من الحول بينهم وبين قلوبهم ، فنبه على ما جرى على الكفار بأبلغ عبارة وأعلقها بالنفس ، ومنها أن يكون المعنى ترجية لهم بأن الله يبدل الخوف الذي في قلوبهم من كثرة العدو فيجعله جرأة وقوة وبضد ذلك الكفار فإن الله هو مقلب القلوب كما كان قسم النبي صلى الله عليه وسلم ، قال بعض الناس ومنه لا حول ولا قوة إلا بالله أي لا حول على معصية ولا قوى على طاعة إلا بالله ، وقال المفسرون في ذلك أقوالاً هي أجنبية من ألفاظ الآية حكاه الطبري ، منها أن الله يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والإيمان ونحو هذا ، وقرأ ابن أبي إسحاق " بين المرء " بكسر الميم ذكره أبو حاتم ، قال أبو الفتح : وقرأ الحسن والزبيدي " بين المرء " بفتح الميم وشد الراء المكسورة ، و ﴿ تحشرون ﴾ أي تبعثون يوم القيامة ، وروي عن طريق مالك بن أنس والنسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أبي بن كعب وهو في الصلاة فلم يجب وأسرع في بقية صلاته ، فلما جاءه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما سمعت فيما يوحى إلي ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ فقال أبي : لا جرم يا رسول الله لا تدعوني أبداً إلا أجبتك ، الحديث بطوله واختلاف ألفاظه ، وفي البخاري ومسلم أن

ذلك وقع مع أبي سعيد

بن المعلی ، وروى أنه وقع نحوه مع حذيفة بن اليمان في غزوة الخندق . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(212/309)

وقال ابن الجوزي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ استجيبوا ﴾ أي : أجبوا .

قوله تعالى : ﴿ إذا دعاكم ﴾ يعني : الرسول ﴿ لما يحييكم ﴾ وفيه ستة أقوال .

أحدها : أن الذي يحييكم كل ما يدعو الرسول إليه ، وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس .

وفي أفراد البخاري " من حديث أبي سعيد بن المعلی قال : كنت أصلي في المسجد ،

فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم أجبه ، ثم أتيت فقلت : يا رسول الله ، إني

كنت أصلي ، فقال : " ألم يقل الله : استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ؟ " قلت :

بلى ، ولا أعود إن شاء الله . "



والثاني: أنه الحق ، رواه شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثالث: أنه الإيمان ، رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال السدي .

والرابع: أنه اتباع القرآن ، قاله قتادة ، وابن زيد .

والخامس: أنه الجهاد ، قاله ابن إسحاق .

وقال ابن قتيبة: هو الجهاد الذي يحيي دينهم ويعليهم .

والسادس: أنه إحياء أمورهم ، قاله الفراء .

فيخرج في إحيائهم خمسة أقوال .

أحدها: أنه إصلاح أمورهم في الدنيا والآخرة .

والثاني: بقاء الذكر الجميل لهم في الدنيا ، وحياة الأبد في الآخرة .

والثالث: أنه دوام نعيمهم في الآخرة .

والرابع: أنه كونهم مؤمنين ، لأن الكافر كالميت .

والخامس: أنه يحييهم بعد موتهم ، وهو على قول من قال هو الجهاد ، لأن الشهداء أحياء ،

ولأن الجهاد يُعزُّهم بعد ذلهم ، فكانهم صاروا به أحياء .

قوله تعالى: ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ وفيه عشرة أقوال .

أحدها: يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن

عباس ، وبه قال سعيد بن جبير .

والثاني : يحول بين المؤمن وبين معصيته ، وبين الكافر وبين طاعته ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك ، والفراء .

(213/309)

- 
- والثالث : يحول بين المرء وقلبه حتى لا يتركه يعقل ، قاله مجاهد .
- قال ابن الأنباري : المعنى : يحول بين المرء وعقله ، فبادروا الأعمال ، فانكم لا تأمنون زوال العقول ، فتحصلون على ما قدمتم .
- والرابع : أن المعنى : هو قريب من المرء ، لا يخفى عليه شيء من سرّه ، كقوله : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ ق : 16 ] وهذا معنى قول قتادة .
- والخامس : يحول بين المرء وقلبه ، فلا يستطيع إيماناً ولا كفراً إلا بإذنه ، قاله السدي .
- والسادس : يحول بين المرء وبين هواه ، ذكره ابن قتيبة .
- والسابع : يحول بين المرء وبين ما يتمنى بقلبه من طول العمر والنصر وغيره .
- والثامن : يحول بين المرء وقلبه بالموت ، فبادروا الأعمال قبل وقوعه .
- والتاسع : يحول بين المرء وقلبه بعلمه ، فلا يضر العبد شيئاً في نفسه إلا والله عالم به ، لا يقدر على تغييره عنه .

والعاشر : يحول بين ما يوقعه في قلبه من خوف أو أمن ، فيأمن بعد خوفه ، ويخاف بعد أمنه ، ذكر معنى هذه الأقوال ابن الأنباري .

وحكى الزجاج : أنهم لما فكروا في كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فدخل الخوف قلوبهم ، أعلمهم الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدله بالخوف الأمن ، ويبدل عدوه بالقوة الضعف ، وقد أعلمت هذه الآية أن الله تعالى هو المقلب للقلوب ، المتصرف فيها .  
قوله تعالى : ﴿ وَأَنهٖ إِلَيْهٖ تَحْشُرُونَ ﴾ أي : للجزاء على أعمالكم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(214/309)

وقال القرطبي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف .

والاستجابة : الإجابة : و ﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾ أصله يحييكم ، حذف الضمة من الياء

لثقلها .

ولا يجوز الإدغام .

قال أبو عبيدة : معنى " استَجِيبُوا " أجيئوا ؛ ولكن عُرِفَ الكلامُ أن يتعدى استجاب بلام ، ويتعدى أجاب دون لام .

قال الله تعالى : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ [ الأحقاف : 31 ] .

وقد يتعدى استجاب بغير لام ؛ والشاهد له قول الشاعر :

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجِيبُ إلى الندى . . .

فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجِيبٌ

تقول : أجا به وأجاب عن سؤاله .

والمصدر الإجابة .

والاسم الجابة ؛ بمنزلة الطاقة والطاعة .

تقول : أساء سَمْعاً فأساء جابة .

هكذا يتكلم بهذا الحرف .

والمجاوبة والتجاوب : التحاور .

وتقول : إنه لحسن الجيبة ( بالكسر ) أي الجواب .

﴿ لَمَّا يُحْيِيكُمُ ﴾ متعلق بقوله : " استجيبوا " .

المعنى : استجبوا لما يحييكم إذا دعاكم .

وقيل : اللام بمعنى إلى ، أي إلى ما يحييكم ، أي يحيي دينكم ويعلمكم .

وقيل : أي إلى ما يحيي به قلوبكم فتوحده ، وهذا إحياء مستعار ؛ لأنه من موت الكفر

والجهل .

وقال مجاهد والجمهور : المعنى استجبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي ؛

ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية ، وقيل : المراد بقوله "لما يحييكم" الجهاد ؛ فإنه

سبب الحياة في الظاهر ، لأن العدو إذا لم يُغزَ غزا ؛ وفي غزوه الموت ، والموت والجهاد الحياة

الأبدية ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءُ ﴾ [

آل عمران : 169] والصحيح العموم كما قال الجمهور .

(215/309)

---

الثانية : روى البخاري " عن أبي سعيد بن المعلّى قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني

رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، ثم أتيت فقلت : يا رسول الله ، إنني كنت

أصلي .

فقال : " ألم يقل الله عز وجل ﴿ استجبوا لله ولرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ " وذكر

الحديث .

وقد تقدم في الفاتحة .

وقال الشافعي رحمه الله : هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أتى به في

الصلاة لا تبطل ، الأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة وإن كان في الصلاة .

قلت : وفيه حجة لقول الأوزاعي : لو أن رجلاً يصلي فأبصر غلاماً يريد أن يسقط في بر

فصاح به وانصرف إليه وانتهره لم يكن بذلك بأس .

والله أعلم .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ قيل : إنه يقتضي النص

منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان فيحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذي أمره به ، فلا

يكتسبه إذا لم يقدره عليه بل أقدره على ضده وهو الكفر .

وهكذا المؤمن يحول بينه وبين الكفر .

فبان بهذا النص أنه تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خيرها وشرها .

وهذا معنى قوله عليه السلام : " لا ، ومقلب القلوب "

وكان فعل الله تعالى ذلك عدلاً فيمن أضله وخذله ؛ إذ لم يمنعهم حقاً وجب عليه فتزول

صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

قال السدي : يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه ، ولا يكفر أيضاً إلا بإذنه ؛

أي بمشيئته .

والقلب موضع الفكر .

وقد تقدّم في "البقرة" بيانه .

وهو بيد الله ، متى شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل .

أي بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال العقل .

وقال مجاهد : المعنى يحول بين المرء وعقله حتى لا يدري ما يصنع .

وفي التنزيل : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : 37] أي عقل .

(216/309)

---

وقيل : يحول بينه وبينه بالموت ، فلا يمكنه استدراك ما فات .

وقيل : خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم

بعد الخوف أمناً ، ويبدل عدوّهم من الأمن خوفاً .

وقيل : المعنى يقلّب الأمور من حال إلى حال ؛ وهذا جامع ، واختيار الطبري أن يكون

ذلك إخباراً من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب العباد منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء

؛ حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئة الله عز وجل .

﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ عطف .

قال الفراء : ولو استأنفت فكسرت ، " وأنه " كان صواباً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

القرطبي ح 7 ص ﴿

(217/309)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾

يعني أجيبوهما بالطاعة والانتقاد لأمرهما ﴿ إذا دعاكم ﴾ يعني الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) .

وإنما وجد الضمير في قوله تعالى إذا دعاكم لأن استجابة الرسول ( صلى الله عليه وسلم )

استجابة لله تعالى وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد واستدل أكثر الفقهاء بهذه الآية

على أن ظاهر الأمر للوجوب لأن كل من أمره الله ورسوله ( صلى الله عليه وسلم ) بفعل

فقد دعاه إليه وهذه الآية تدل على أنه لا بد من الإجابة في كل ما دعا الله ورسوله إليه ( خ

.(

عن أبي سعيد بن المعلى قال : " كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ( صلى الله



عليه وسلم) فلم أجبه ثم أتيت فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي فقال (صلى الله عليه وسلم) ألم يقل الله "استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم" ثم ذكر الحديث عن أبي هريرة "أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خرج على أبي بن كعب وهو يصلي فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يا أبي فالتفت أبي ولم يجبه وصلى أبي وخفف ثم انصرف إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال السلام عليك يا رسول الله فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتك فقال: يا رسول الله إني كنت في الصلاة فقال (صلى الله عليه وسلم) أفلم تجد فيما أوحى الله إلي: استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم قال بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى" وذكر الحديث أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

قيل هذه الإجابة مختصة بالنبي (صلى الله عليه وسلم) فعلى هذا ليس لأحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر وقيل لو دعاه أحد لأمر مهم لا يحتمل التأخير فله أن يقطع صلاته. وقوله تعالى: ﴿لما يحييكم﴾ يعني إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم.

قال السدي: هو الإيمان، لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان.

(218/309)

---

وقال قتادة : هو القرآن ، لأنه حياة القلوب وفيه النجاة والعصمة في الدارين .

وقال مجاهد : هو الحق وقال محمد بن إسحاق : هو الجهاد لأن الله أعزه به بعد الذل .

وقيل : هو الشهادة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين

المرء وقلبه ﴾ قال ابن عباس : يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله ويحول بين الكافر

وبين الإيمان وطاعة الله .

وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد .

وقال السدي : يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإذنه وقد دلت

البراهين العقلية على هذا القول لأن أحوال القلوب اعتقادات ودواعي وتلك الاعتقادات

والدواعي لا بد أن تتقدمها الإرادة وتلك الإرادة لا بد لها من فاعل مختار وهو الله سبحانه

وتعالى فثبت بذلك أن المتصرف في القلب كيف شاء هو الله تعالى ( م ) عن عبد الله بن

عمر وبن العاص قال : سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يقول " إن قلوب بني آدم

بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله ( صلى

الله عليه وسلم ) اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك " عن أنس بن مالك قال : "

كان رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك

فقلنا يا رسول الله قد أمن بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال : نعم إن القلوب بين

أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء "

أخرجه الترمذي وهذا الحديث من أحاديث الصفات ، فيجب على المرء المسلم أن يمره على ما جاء مع الاعتقاد الحازم بتنزيه الله تعالى عن الجارحة والجسم .

وقيل في معنى الآية : إن الله يحول بين المرء وقلبه حتى لا يدري ما يصنع ولا يعقل شيئاً .  
وقيل : إن القوم لما دعوا إلى القتال والجهاد وكانوا في غاية الضعف والقلّة خافت قلوبهم وضاعت صدورهم ف قيل لهم : قاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الخوف أمناً والجن جراءة .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يعني في الآخرة فيجزى كل عامل بعمله فيثيب المحسن ويعاقب العاصي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

(219/309)

(فائدة جليلة)

قال ابن القيم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ  
بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

تضمنت هذه الآية أموراً ، أحدها : أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله ،

فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له, وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين  
أرذل الحيوانات . فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرا  
وباطنا . فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا, وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان . ولهذا  
كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم, فإن كل ما  
دعا إليه ففيه الحياة, فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة, وفيه من الحياة بحسب ما  
استجاب للرسول صلى الله عليه وسلم . قال مجاهد: ﴿لَمَّا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني للحق,  
وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة . وقال  
السدي: هو الإسلام أحياءهم به بعد موتهم بالكفر . وقال ابن إسحاق وعروة بن الزبير:  
واللفظ له: ﴿لَمَّا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل, وقواكم بعد  
الضعف, ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم .  
وكل هذه عبارات عن حقيقة واحدة وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهرا وباطنا . قال  
الواحدي: والأكثر على أن معنى قوله: ﴿لَمَّا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهاد . وهو قول ابن  
إسحاق واختيار أكثر أهل المعاني . قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم  
يريد إنما يقوي بالحرب والجهاد, فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم .  
قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة . أما في الدنيا فإن قوتهم  
وقهرهم لعدوهم بالجهاد . وأما في البرزخ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ

الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ آل عمران 169 . وأما في الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم . ولهذا قال تين قتيبة: ﴿لما يحييكم﴾ يعني الشهادة . وقال بعض المفسرين: ﴿لما يحييكم﴾ يعني الجنة . فإنها دار الحيوان وفيها الحياة الدائمة الطيبة . حكاها أبو علي الجرجاني . والآية تناول هذا كله ، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة الطيبة . وكمال الحياة في الجنة ، والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة ، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة . والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة : حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار ويؤثر ما ينفعه على ما يضره . ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك . ولذلك كانت حياة المريض والحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك . وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل والغي والرشاد والهوى والضلال ، فيختار الحق على ضده . فتقيد هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال . وتقيد قوة الإيمان والإرادة والحب للحق ، وقوة البغض والكراهة للباطل . فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته بحسب نصيبه من هذه

الحياة, كما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم, ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم. فهذا بحسب حياة البدن, وذاك بحسب حياة القلب. فإذا بطلت حياته بطل تمييزه. وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار. كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك, الذي هو رسول الله (الملك الذي ينفخ الروح في الإنسان بأمر الله), من روحه, فيصير حيا بذلك النفخ. وكان قبل ذلك من جملة الأموات. وكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من الروح الذي ألقى

(221/309)

---

إليه, قال تعالى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ النحل 2, وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ غافر 15, وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الشورى 52. فأخبر أن وحيه روح ونور, فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي, فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان. ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين

وفاتته الأخرى, قال تعالى: ﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ الأنعام 122, فجمع له بين النور والحياة كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة. قال ابن عباس وجميع المفسرين: كان كافرا ضالا فهديناه.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ يتضمن أمورا: أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة, فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق. وآخر معه نور يمشي في الطريق ويراهما ويرى ما يحذره فيها. وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور. وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

(222/309)

---

وقوله: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الأنفال 24. المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر, وبين الكافر وبين الإيمان. ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته, وبين أهل معصيته وبين طاعته, وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين. وفي الآية قول آخر أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية, فهو

بينه وبين قلبه . ذكره الواحدي عن قتادة, وكان هذا أنسب بالسياق, لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب, فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه فيعلم هل استجاب له قلبه وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه . وعلى القول الأول, فوجه المناسبة أنكم إن ثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن يحول الله بينكم وبين قلوبكم فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستباته, فيكون قوله: ﴿ وَتَقَلُّبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الأنعام 110 . وقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ الصف 5 . وقوله ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ الأعراف 101 . ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب وان استجاب بالجوارح . وفي الآية سر آخر: وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به, وهو الاستجابة, وبين القدر والإيمان به, فهي كقوله تعالى: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ \* وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ التكويد 28, 29 . وقوله: ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ المدثر 55, 56, والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الفوائد ص 88 . 91 ﴾

(223/309)



وقال أبو حيان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾  
تقدم الكلام في استجاب في ﴿ فليستجيبوا لي ﴾ وأفرد الضمير في ﴿ دعاكم ﴾ كما  
أفرده في ﴿ ولا تولوا عنه ﴾ لأن ذكر أحدهما مع الآخر إنما هو على سبيل التوكيد  
والاستجابة هنا الامتثال والدعاء بمعنى التحريض والبعث على ما فيه حياتهم وظاهر  
﴿ استجيبوا ﴾ الوجوب ، ولذلك قال ( صلى الله عليه وسلم ) : لأبي حين دعاه وهو  
في الصلاة مثلث : " ما منعك عن الاستجابة ألم تخبر فيما أوحى إلي استجيبوا الله  
وللرسول " ؟ والظاهر تعلق ﴿ لما ﴾ بقوله ﴿ دعاكم ﴾ ودعا يتعدى باللام .

قال :

دعوت لما نابني مسورا . . .

وقال آخر :

وإن أدع للجلى أكن من حماتها . . .

وقيل : اللام بمعنى إلى ويتعلق باستجيبوا فلذلك قدره ي إلى حتى يتغاير مدلول اللام فيتعلق  
الحرفان بفعل واحد ، قال مجاهد والجمهور : المعنى ﴿ استجيبوا ﴾ للطاعة وما تضمنه  
القرآن من أوامر ونواهي ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية ، وقيل : ﴿ لما يحييكم ﴾  
هو مجاهدة الكفار لأنهم لو تركوها لغلبوهم وقتلوهم ﴿ ولكم في القصص حياة ﴾ ، وقيل

: الشهادة لقوله : ﴿ بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ قاله ابن إسحاق ، وقيل : لما يحييكم  
من علوم الديانات والشرائع لأن العلم حياة كما أن الجهل موت .

قال الشاعر :

لا تعجبن الجهول حليته . . .

فذاك ميّت وثوبه كفن

وهذا نحو من قول الجمهور ومجاهد ، وقال مجاهد أيضاً : ﴿ ما يحييكم ﴾ هو الحق ،

وقيل : هو أحياء أمورهم وطيب أحوالهم في الدنيا ورفعتهم ، يقال : حييت حاله إذا

ارتفعت ، وقيل : ما يحصل لكم من الغنائم في الجهاد ويعيشون منها ، وقيل : الجنة والذي

يظهر هو القول الأول لأنه في سياق قوله ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم فالذي يحيي به من

الجهل هو سماع ما ينفع مما أمر به ونهى عنه فيمثل المأمور به ويجتنب المنهي عنه فيؤول إلى

الحياتين الطيبتين الدنيوية والأخروية .

(224/309)

---

﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾ المعنى : أنه تعالى هو

المتصرف في جميع الأشياء والقادر على الحيلولة بين الإنسان وبين ما يشتهي قلبه فهو الذي

ينبغي أن يستجاب له إذا دعاه إذ بيده تعالى ملكوت كل شيء وزمامه وفي ذلك حضّ على

المراقبة والخوف من الله تعالى والبدار إلى الاستجابة له ، وقال ابن عباس وابن جبير

والضحاك : ﴿ يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والإيمان ، وقال مجاهد : ﴿ يحول

بين المرء وعقله فلا يدري ما يعمل عقوبة على عناده ففي التنزيل ﴿ إن في ذلك لذكرى

لمن كان له قلب ﴿ أي عقل ، وقال السدي : ﴿ يحول بين كل واحد ﴿ وقلبه ﴿ فلا

يقدر على إيمان ولا كفر إلا بإذنه ، وقال ابن الأنباري : بينه وبين ما يتمناه ، وقال ابن قتيبة :

بينه وبين هواه وهذان راجعان إلى القول الأول ، وقال علي بن عيسى : هو أن يتوفاه ولأنّ

الأجل يحول بينه وبين أمل قلبه وهذا حدث على انتهاز الفرصة قبل الوفاة التي هو واجدها

وهي التمكن من إخلاص القلب ومخالجة أدوائه وعالله وردّه سليماً كما يريد الله فاغتموا

هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله انتهى ، وهو على طريقة المعتزلة وعلي

بن عيسى هو الرماني وهو معتزلي .

وقال الزمخشري أيضاً .

وقيل معناه : أن الله قد يملك على العبد قلبه فيفسخ وقيل : يبدل الجبن جراءة وهو تحريض

على القتال بعد الأمر به بقوله ﴿ استجبوا ﴿ ويكشف حقيقة قوله ( صلى الله عليه

وسلم ) : " قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء وتأويله بين أثرتين

من آثار ربوبيته "

وقيل : يحول بين المؤمن وبين المعاصي التي يهَمُّ بها قلبه بالعصمة ، وقيل : معناه أنه يطلع على كل ما يخطر المرء بباله لا يخفى عليه شيء من ضمائرهِ فكانه بينه وبين قلبه واختار الطبري أن يكون المعنى أن الله أخبر أنه أملك لقلوب العباد منهم وأنه يحول بينهم وبينهما إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته تعالى .

وقرأ ابن أبي إسحاق : ﴿ بين المرء ﴾ بكسر الميم اتباعاً لحركة الإعراب إذ في المرء لغتان : فتح الميم مطلقاً واتباعها حركة الإعراب ، وقرأ الحسن والزهري : بين المرء بتشديد الراء من غير همز ووجهه أنه نقل حركة الهمزة إلى الراء وحذف الهمزة ثم شدّها كما تشدّد في الوقف وأجرى الوصل مجرى الوقف وكثيراً ما تفعل العرب ذلك تجري الوصل مجرى الوقف ، وهذا توجيه شذوذ ﴿ وأنه إليه تحشرون ﴾ الظاهر أن الضمير في ﴿ أنه ﴾ عائد إلى الله ويحتمل أن يكون ضمير الشأن ولما أمرهم بأن يعلموا قدرة الله وحيلوته بين المرء ومقاصد قلبه أعلمهم بأنه تعالى إليه يحشرهم فيثيبهم على أعمالهم فكان في ذلك تذكّار لما يؤول إليه أمرهم من البعث والجزاء والثواب والعقاب . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ البحر المحيط

وقال أبو السعود :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتنشطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر وتنبههم على أن فيهم ما يوجب ذلك ﴿ استجيبوا لله ولرَسُولِهِ ﴾ بحسن الطاعة ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ أي الرسول إذ هو المباشر لدعوة الله تعالى ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ من العلوم الدينية التي هي مناط الحياة الأبدية كما أن الجهل مدار الموت الحقيقي أو هي ماء حياة القلب كما أن الجهل موجبُ موته ، وقيل : لمجاهدة الكفار لأنهم لورفضوها لغلبوهم وقتلوهم كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام (مر على أبي بن كعب وهو يصلي فدعاه فعجل في صلاته ثم جاء فقال عليه الصلاة والسلام : " ما منعك من إجابتي ؟ " قال : كنت في الصلاة قال : " ألم تخبر فيما أوحى إلي ﴿ استجيبوا لله ولرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ الخ ) . واختلف فيه فقيل : هذا من خصائص دعائه عليه الصلاة والسلام وقيل : لأن إجابته عليه الصلاة والسلام لا تقطع الصلاة وقيل : كان ذلك الدعاء لأمر مهم لا يحتمل التأخير وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله ﴿ واعلموا أن

اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴿٢٧٩﴾ تَمَثِيلٌ لِّغَايَةِ قُرْبِهِ تَعَالَى مِنَ الْعَبْدِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿٢٨٠﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ  
إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿٢٨١﴾ وَتَنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى مَطَّلَعٌ مِنْ مَنْكُونَاتِ الْقُلُوبِ عَلَى مَا عَسَى يَغْفُلُ  
عَنْهُ صَاحِبُهَا أَوْ حَثٌّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى إِخْلَاصِ الْقُلُوبِ وَتَصْفِيَّتِهَا قَبْلَ إِدْرَاكِ الْمَنِيَةِ فَإِنَّهَا  
حَائِلَةٌ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ أَوْ تَصْوِيرٌ وَتَخْيِيلٌ تَمَلِّكُهُ عَلَى الْعَبْدِ قَلْبَهُ مَجِيثٌ يَفْسُخُ عِزَائِمَهُ وَيَغَيِّرُ  
نِيَاتَهُ وَمَقَاصِدَهُ وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكُفْرِ إِنْ إِرَادَ سَعَادَتَهُ وَيَبْدِلُهُ بِالْأَمْنِ خَوْفًا وَبِالذِّكْرِ نَسْيَانًا  
وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُعْتَرِضَةِ الْمَفُوتَةِ لِلْفُرْصَةِ ، وَقِرْيَاءُ (بَيْنَ الْمَرْءِ) بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ عَلَى  
حَذْفِ الْهَمْزَةِ وَالْقَاءِ حَرَكَتِهَا عَلَى الرَّاءِ وَإِجْرَاءُ الْوَصْلِ مَجْرَى الْوَقْفِ ﴿٢٨٢﴾ وَأَنَّهُ ﴿٢٨٣﴾ أَيُّ اللَّهِ

(227/309)

---

عَزَّوَجَلَّ أَوْ الشَّانَ ﴿٢٨٤﴾ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٨٥﴾ لَا إِلَى غَيْرِهِ فَيَجَازِيكُمْ بِحَسَبِ مَرَاتِبِ أَعْمَالِكُمْ  
فَسَارِعُوا إِلَى طَاعَتِهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَبِالْغَوَا فِي الْإِسْتِجَابَةِ لِهَمَّا . انتهى انتهى . اهـ

﴿٢٨٦﴾ تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ح 4 ص ٤٠٠

(228/309)

---

وقال الأوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال

على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر وتنبههم على أن فيهم ما يوجب ذلك ﴿ استجيبوا

لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ بحسن الطاعة ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ أي الرسول إذ هو المباشر لدعوة الله

تعالى مع ما أشرنا إليه آنفاً ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ أي لما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم

من العقائد والأعمال أو من الجهاد الذي أعزكم الله تعالى به بعد الذل وقواكم به بعد

الضعف ومنعكم به من عدوكم بعد القهر كما روي ذلك عن عروة بن الزبير، وإطلاق ما

ذكر على العقائد والأعمال وكذا على الجهاد اما استعارة أو مجاز مرسل باطلاق السبب

على المسبب، وقال القتيبي: المراد به الشهادة وهو مجاز أيضاً، وقال قتادة: القرآن، وقال

أبو مسلم: الجنة، وقال غير واحد: هو العلوم الدينية التي هي مناط الحياة الأبدية كما أن

الجهل مدار الموت الحقيقي، وهو استعارة مشهورة ذكرها الأدباء وعلماء المعاني.

وللمخشري :

لا تعجبن لجهول حلتة . . .

فذاك ميت وثوبه كفن

واستدل بالآية على وجوب إجابته صلى الله عليه وسلم إذا نادى أحداً وهو في الصلاة،

وعن الشافعي أن ذلك لا يبطلها لأنها أيضاً إجابة، وحكى الروياني أنها لا تجب وتبطل الصلاة بها، وقيل: إنه يقطع الصلاة إذا كان الدعاء لأمر يفوت بالتأخير كما إذا رأى أعمى وصل إلى بئر ولو لم يحذره لهلك، وأيد القول بالوجوب بما أخرجه الترمذي .  
والنسائي عن أبي هريرة " أنه صلى الله عليه وسلم مر على أبي بن كعب وهو يصلي فدعاه فعجل في صلاته ثم جاء فقال : ما منعك من إجابتي ؟ قال : كنت أصلي .

(229/309)

---

قال : ألم تخبر فيما أوحى ﴿ استجيبوا لله ولرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ قال : بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم قال له : لأعلمنك سورة أعظم سورة في القرآن ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [ الفاتحة : 2 ] هي السبع المثاني " وأنت تعلم أنه لا دلالة فيه على أن إجابه صلى الله عليه وسلم لا تقطع الصلاة ، وقال بعضهم : إن ذلك الدعاء كان لأمر مهم لا يحتمل التأخير وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله ، وفيه نظر ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ عطف على استجيبوا ، وأصل الحول كما قال الراغب تغير الشيء وانفصاله عن غيره ، وباعتبار التغير قيل حال الشيء يحول وباعتبار الانفصال قيل حال بينهما كذا ، وهذا غير متصور في حق الله تعالى فهو مجاز عن غاية



القرب من العبد لأن من فصل بين شيئين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر لاتصاله بهما  
وانفصال أحدهما عن الآخر ، وظاهر كلام كثير أن الكلام من باب الاستعارة التمثيلية ،  
ويجوز أن يكون هناك استعارة تبعية ، فمعنى يحول يقرب ، ولا بعد في أن يكون من باب  
المجاز المرسل المركب لاستعماله في لازم معناه وهو القرب ، بل ادعى أنه الأنسب ، وإرادة  
هذا المعنى هو المروى عن الحسن .

(230/309)

---

وقتادة ، فالآية نظير قوله سبحانه : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وفيها تنبيه  
على أنه تعالى مطلع من مكنونات القلوب على ما قد يغفل عنه أصحابها ، وجوز أن يكون  
المراد من ذلك الحث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها ، فمعنى يحول بينه وبين  
قلبه يميته فيفوته الفرصة التي هو واجدها وهو التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه  
وعلله ورده سليماً كما يريد الله تعالى ، فكانه سبحانه بعد أن أمرهم بإجابة الرسول عليه  
الصلاة والسلام أشار لهم إلى اغتنام الفرصة من إخلاص القلوب للطاعة وشبه الموت  
بالحيلولة بين المرء وقلبه الذي به يعقل في عدم التمكن من علم ما ينفعه علمه ، وإلى هذا  
ذهب الجبائي .

وقال غير واحد : إنه استعارة تمثيلية لتمكّنه تعالى من قلوب العباد فيصرفها كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها فيفسخ عزائمه ويغير مقاصده ويلهمه رشده وينزع عن الصراط السوي قلبه ويبدله بالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً ، وذلك كمن حال بين شخص ومآعه فإنه القادر على التصرف فيه دونه وهذا كما في حديث شهر بن حوشب عن أم سلمة وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إكثاره الدعاء بيا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقال لها : يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله تعالى فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ ، ويؤيد هذا التفسير ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال عليه الصلاة والسلام : يحول بين المؤمن والكفر ويحول بين الكافر والهدى .

(231/309)

---

ولعل ذلك منه عليه الصلاة والسلام إقتصار على الأمرين اللذين هما أعظم مدار للسعادة والشقاوة وإلا فهذا من فروع التمكّن الذي أشرنا إليه ولا يختص أمره بما ذكر ، وقد حال سبحانه بين العدلية وبين اعتقاد هذا فعدلوا عن سواء السبيل ، وبين بعض الأفاضل ربط الآيات على ذلك بأنه تعالى لما نص بقوله عز من قائل : ﴿لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾

﴿ [الأنفال: 23] الخ، على أن الإسماع لا ينفع فيهم تسجيلاً على أولئك الصم البكم من على المؤمنين بما منحهم من الإيمان ويسر لهم من الطاعة، كأنه قيل: إنكم لستم مثل أولئك المطبوعين على قلوبهم فإنهم إنما امتنعوا عن الطاعة لأنهم ما خلقوا إلا للكفر فما تيسر لهم الاستجابة، وكل ميسر لما خلق له، فأنتم لما منحتم الإيمان ووقفتم للطاعة فاستجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما فيه حياتكم من مجاهدة الكفار وطلب الحياة الأبدية واغتموا تلك الفرصة واعلموا أن الله تعالى قد يحول بين المرء وقلبه بأن يحول بينه وبين الإيمان وبينه وبين الطاعة ثم يجازيه في الآخرة بالنار، وتلخيصه أوليتكم النعمة فاشكروها ولا تكفروها لئلا أزيلها عنكم اهـ .

ولا يخفى ما فيه من التكليف، وقيل: إن القوم لما دعوا إلى القتال والجهاد وكانوا في غاية الضعف والقلة خافت قلوبهم وضافت صدورهم فقليل لهم: قاتلوا في سبيل الله تعالى إذا دعيتم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الأمن خوفاً والجن جرأة.

(232/309)

---

وقرىء ﴿ بَيْنَ الْمَرْءِ ﴾ بتشديد الراء على حذف الهمزة ونقل حركتها إليها وإجراء الوصل مجرى الوقف ﴿ وَأَنَّهُ ﴾ أي الله عز وجل أو الشأن ﴿ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ لا إلى

غيره فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم التي لم يخف عليه شيء منها فسارعوا إلى طاعته  
وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالغوا في الاستجابة ، وقيل : المعنى إنه تحشرون  
إليه تعالى دون غيره فيجازيكم فلا تألوا جهداً في انتهاز الفرصة ، أو المعنى أنه المتصرف في  
قلوبكم في الدنيا ولا مهرب لكم عنه في الآخرة فسلموا الأمر إليه عز شأنه ولا تحذثوا  
أنفسكم بمخالفته .

وزعم بعضهم أنه سبحانه لما أشار في صدر الآية إلى أن السعيد من أسعده والشقي من  
أشله وأن القلوب بيده يقلبهما كيفما يشاء ويخلق فيها الدواعي والعقائد حسبما يريد  
ختمها بما يفيد أن الحشر إليه ليعلم أنه مع كون العباد مجبورين خلقوا مثابين معاقبين إما للجنة  
وإما للناس لا يتركون مهملين معطلين ، وأنت تعلم أن الآية لا دلالة فيها على الجبر بالمعنى  
المشهور وليس فيها عند من أنصف بعد التأمل أكثر من انتهاء الأمور بالآخرة إليه عز  
شأنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعاني ح 9 ص﴾

(233/309)

وقال القاسمي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

الإستجابة : بمعنى الإجابة . قال :

سوداع دعا يا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الدِّاءِ فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ

يريد : فلم يجبه .

وقائله كعب بن سعد الغنوي ، والقصيدة في الأصمعيات رقم 14 .

والمراد بها الطاعة والإمتثال ، وإنما وحد الضمير في قوله : ﴿ دَعَاكُمْ ﴾ - أي : الرسول

- لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله تعالى .

وقال الزمخشري : لأن استجابته صلى الله عليه وسلم ، كاستجابته تعالى ، وإنما يذكر

أحدهما مع الآخر للتوكيد .

وقوله : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، قال عروة بن الزبير - فيما رواه ابن إسحاق - أي : للحرب

التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد

القهر منهم لكم .

وإنما سمي الجهاد حياة ، لأن في وهن عدوهم بسببه حياة لهم وقوة ، أولأنه سبب الشهادة

الموجبة للحياة الدائمة ، أو سبب المثوبة الأخروية التي هي معدن الحياة ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أي : الحياة الدائمة ، فيكون مجازاً مرسلًا ، بإطلاق

السبب على المسبب ، أو استعارة . وقيل : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ أي : من العلوم الدينية

التي هي مناط حياة القلب ، كما أن الجهل موته .

قال الشهاب : وإطلاق الحياة على العلم ، والموت على الجهل استعارة معروفة ، ذكرها  
الأدباء ، وأهل المعاني . وأنشد الزمخشري لبعضهم :  
~ لا تعجبنَّ الجهولَ حُلَّتْهُ فَذَاكَ مَيِّتٌ ، وَثَوْبُهُ كُنُّ  
وقد ألم فيه بقول أبي الطيب ، من قصيدته التي أولها :

(234/309)

---

أفاضل الناس أغراضُ لذا الزمنِ يخلوا من الهمِّ أخلاهم من الفطنِ  
والأظهر أن يُعنى بما يحييكم ، ما يصلحكم من أعمال البر والطاعة ، فيدخل فيه ما تقدم  
وغيره .

تنبيه :

استدل النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية على وجوب إجابته إذا نادى أحداً وهو في  
الصلاة .

روى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال : كنت أصلي ، فمرّ بي  
النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعاني ، فلم آتته حتى صليت ، ثم أتيت فقال : ما منعك أن  
تأتيني ؟ ألم يقل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا ۖ ﴾ الآية .

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ﴿١﴾ يحتمل وجوهاً من المعاني .

أحدهما : أنه تعالى يملك على المرء قلبه فيصرفه كيف يشاء ، فيحول بينه وبين الكفر ، إن أراد هدايته ، وبينه وبين الإيمان ، إن أراد ضلّاته ، وهذا المعنى رواه الحاكم في مستدرکه عن ابن عباس ، وصححه ، وقاله غير واحد من السلف .

ويؤيده ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر أن يقول : > يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك < .

فقيل : يا رسول الله ! آمنا بك ، وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : > نعم ، إن

القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى ، يقلبها < .

رواه الإمام أحمد والترمذي عن أنس ولفظ مسلم :

> إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفها كيف شاء < ،

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : > اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا إلى

طاعتك < . انفرد مسلم عن البخاري بإخراجه عن عبد الله بن عمرو .

وفي رواية : > إن قلب الأدمي بين إصبعين من أصابع الله ، فإذا شاء أزاغه ، وإذا شاء

أقامه < - رواه الإمام أحمد عن عائشة - .

وروي أيضاً مثله عن جابر وبلال ، والنواس بن سميان وأم سلمة ، كما ساقه ابن كثير .

---

وعلى هذا المعنى ، فالآية استعارة تمثيلية ، لتمكنه من قلوب العباد ، فيصرفها كيف يشاء ، بما لا يقدر عليه صاحبها .

شبه بمن حال بين شخص ومتاعه ، فإنه يقدر على التصرف فيه دونه .  
ثانيها : أنه حث على المبادرة إلى الطاعة ، قبل حلول المنية ، فمعنى يحول بينه وبين قلبه ، يميته فقوته الفرصة التي هو واجدها ، وهو التمكن من إخلاص القلب ، ومعالجة أدوائه وعلله ، ورده سليماً ، كما يريد الله ، فاغتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوها لطاعة الله ورسوله .

فشبه الموت بالحيلولة بين المرء وقلبه ، والذي به يعقل ، في عدم التمكن من علم ما ينفعه علمه .

ثالثها : أنه مجاز عن غاية القرب من العبد ، لأن من فصل بن شيين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر لاتصاله بهما ، وانفصال أحدهما عن الآخر .

ويحول إما استعارة تبعية معناه يقرب ، أو استعارة تمثيلية . وهذا المعنى نقل عن قتادة حيث قال : الآية كقوله تعالى : ﴿ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وفيه تنبيه على أنه تعالى مطلع ، من مكونات القلوب على ما عسى أن يغفل عنه صاحبها .



﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي: فيجزئكم بأعمالكم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ محاسن التأويل

ح 8 ص 283.285 ﴿

(236/309)

وقال ابن عاشور:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

إعادة لمضمون قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأنفال: 20] الذي

هو بمنزلة النتيجة من الدليل أو مقصد الخطبة من مقدمتها كما تقدم هنالك .

فافتتاح السورة كان بالأمر بالطاعة والتقوى ، ثم بيان أن حق المؤمنين الكمل أن يخافوا الله

ويطيعوه ويمتثلوا أمره وإن كانوا كارهين ، وضرب لهم مثلاً بكرائهم الخروج إلى بدر ، ثم

بكرائهم لقاء النفيرو وأوقفهم على ما اجتنوه من بركات الامتثال وكيف أيدهم الله بنصره

ونصب لهم عليه أمانة الوعد بإمداد الملائكة ؛ لتطمئن قلوبهم بالنصر وما لطف بهم من

الأحوال ، وجعل ذلك كله إقناعاً لهم بوجود الثبات في وجه المشركين عند الزحف ثم

عاد إلى الأمر بالطاعة وحذرهم من أحوال الذين يقولون سمعنا وهم لا يسمعون ، وأعقب

ذلك بالأمر بالاستجابة للرسول إذا دعاهم إلى شيء ، فإن في دعوته إياهم إحياء لنفوسهم

وأعلمهم أن الله يكسب قلوبهم بتلك الاستجابة قوى قدسية .  
واختير في تعريفهم ، عند النداء ، وصف الإيمان ليوميء إلى التعليل كما تقدم في الآيات من  
قبل ، أي أن الإيمان هو الذي يقتضي أن يثقوا بعناية الله بهم فيمتثلوا أمره إذا دعاهم .  
والاستجابة : الإجابة ، فالسين والتاء فيها للتأكيد ، وقد غلب استعمال الاستجابة في  
إجابة طلب معين أو في الأعم ، فأما الإجابة فهي إجابة لنداء وغلب أن يُعدي باللام إذا  
اقترن بالسين والتاء ، وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ في [آل  
عمران : 195] .

(237/309)

---

(وإعادة حرف بعد واو العطف في قوله : ﴿ وللرسول ﴾ للإشارة إلى استقلال الجرور  
بالتعلق بفعل الاستجابة ، تنبيهاً على أن استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم أعم من  
استجابة الله لأن الاستجابة لله لا تكون إلا بمعنى المجاز وهو الطاعة بخلاف الاستجابة  
للرسول عليه الصلاة والسلام فإنها بالمعنى الأعم الشامل للحقيقة وهو استجابة نداءه ،  
وللمجاز وهو الطاعة فأريد أمرهم بالاستجابة للرسول بالمعنيين كلما صدرت منه دعوة  
تقتضي أحدهما .

الأ ترى أنه لم يُعَد ذكر اللام في الموقع الذي كانت فيه الاستجابة لله والرسول صلى الله عليه وسلم بمعنى واحد ، وهو الطاعة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ﴾ [آل عمران : 172] فإنها الطاعة للأمر بالحق بجيش قريش في حمراء الأسد بعد الانصراف من أحد ، فهي استجابة لدعوة معينة .

وإفراد ضمير ﴿ دعاكم ﴾ لأن الدعاء من فعل الرسول مباشرة ، كما أفرد الضمير في قوله : ﴿ ولا تولوا عنه ﴾ [الأنفال : 20] وقد تقدم آنفاً .

وليس قوله : ﴿ إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ قيلاً للأمر باستجابة ، ولكنه تنبيه على أن دعاءه إياهم لا يكون إلا إلى ما فيه خير لهم وإحياء لأنفسهم .

واللام في ﴿ لما يحييكم ﴾ لام التعليل أي دعاكم لأجل ما هو سبب حياتكم الروحية .

والإحياء تكوين الحياة في الجسد ، والحياة قوة بها يكون الإدراك والتحرك بالاختيار ويُستعار الإحياء تبعاً لاستعارة الحياة للصفة أو القوة التي بها كمال موصوفها فيما يراد منه

مثل حياة الأرض بالإنبات وحياة العقل بالعلم وسداد الرأي ، وضدها الموت في المعاني

الحقيقية والمجازية ، قال تعالى : ﴿ أمواتٌ غير أحياء ﴾ [النحل : 21] ﴿ أو من كان

ميتاً فأحييناه ﴾ وقد تقدم في سورة [الأنعام : 122] .

والإحياء والإماتة تكوين الحياة والموت .

---

وتستعار الحياة والإحياء لبقاء الحياة واستبقائها بدفع العوادي عنها ﴿ ولکم فی القصاص  
حیاء ﴾ [البقرة: 179] ﴿ ومن أحيها فكأنما أحيأ الناس جميعاً ﴾ [المائدة: 32  
.

والإحياء هذا مستعار لما يشبه إحياء الميت ، وهو إعطاء الإنسان ما به كمال الإنسان ،  
فيعم كل ما به ذلك الكمال من إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح والخلق الكريم ، والدلالة  
على الأعمال الصالحة وإصلاح الفرد والمجتمع ، وما يقوم به ذلك من الخلال الشريفة  
العظيمة ، فالشجاعة حياة للنفس ، والاستقلال حياة ، والحرية حياة ، واستقامة أحوال  
العيش حياة .

(239/309)

---

ولما كان دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لا يخلوا عن إفادة شيء من معاني هذه الحياة  
أمر الله الأمة بالاستجابة له ، فالآية تقتضي الأمر بالامتثال لما يدعوا إليه الرسول سواء دعا  
حقيقة بطلب القدوم ، أم طلب عملاً من الأعمال ، فذلك لم يكن قيداً ﴿ لما يحبيكم ﴾  
مقصوداً لتقييد الدعوة ببعض الأحوال بل هو قيد كاشف ، فإن الرسول صلى الله عليه

وسلم لا يدعوهم إلا وفي حضورهم لديه حياة لهم ، ويكشف عن هذا المعنى في قيد ❖  
لما يحييكم ❖ ما رواه أهل الصحيح عن أبي سعيد بن المعلّى ، قال : كنتُ أصلي في  
المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ثم أتيتُه فقلت يا رسول الله إني  
كنتُ أصلي فقال : ألم يقل الله تعالى : ❖ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا  
دعاكم ❖ ثم قال : ألا أعلمك صورة الحديث في فضل فاتحة الكتاب ، فوقفه على قوله :  
❖ إذا دعاكم ❖ يدل على أن ❖ لما يحييكم ❖ قيدٌ كاشف وفي "جامع الترمذي" عن  
أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أبي بن كعب فقال : يا أباي وهو  
يصلي فالتفت أبي ولم يجبه وصلى أبي فحفف ثم انصرف إلى رسول الله فقال : السلام  
عليك يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليك السلام ما منعك يا أباي أن  
تجيبني إذ دعوتك فقال : يا رسول الله إني كنت في الصلاة فقال : أفلم تجد فيما أوحى إلي  
أن استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم قال : بلى ولا أعود إن شاء الله " الحديث  
بمثل حديث أبي سعيد بن المعلّى قال ابن عطية : وهو مروى أيضاً من طريق مالك بن أنس  
( يريد حديث أبي بن كعب وهو عند مالك حضر منه عند الترمذي ) قال ابن عطية  
وروي أنه وقع نحوه مع حذيفة بن اليمان في غزوة الخندق ، فتكون عدة قضايا متماثلة ولا  
شك أن القصد منها التنبيه على هذه الخصوصية لدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم

---

مقتضى ارتباط نظم الكلام يوجب أن يكون مضمونُ هذه الجملة مرتبطاً بمضمون الجملة التي قبلها فيكون عطفها عليها عطف التكملة على ما تكمّله، والجملتان مجعولتان آية واحدة في المصحف .

وافتحت الجملة باعلموا ؛ للاهتمام بما تتضمنه وحث المخاطبين على التأمل فيما بعده ، وذلك من أساليب الكلام البليغ أن يفتح بعض الجمل المشتملة على خبر أو طلب فهم باعلم أو تعلم لفتاً لذهن المخاطب .

وفيه تعريض غالباً بغفلة المخاطب عن أمر مهم فمن المعروف أن المخبر أو الطالب ما يريد الإعلم المخاطب فالتصريح بالفعل الدال على طلب العلم مقصود للاهتمام ، قال تعالى :

﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفورٌ رحيمٌ ﴾ [ المائدة : 196 ] وقال ﴿

اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ وهوٌ ﴾ [ الحديد : 20 ] الآية وقال في الآية ، بعد هذه ﴿

واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ [ الأنفال : 25 ] وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال لأبي مسعود الأنصاري وقد رآه يضرب عبداً له " أعلم أبا مسعود اعلم أبا

مسعود : أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام " وقد يفتتحون بتعلم أو تعلمن قال

زهير :

قلتُ تعلمُ أن للصيد غرة . . .

وَالْأُتْصِيْعُهَا فَاِنَّكَ قَاتِلُهُ

وقال زياد بن سيّار :

تَعَلَّمَ شِفَاءَ النَّفْسِ قَهْرُ عَدُوِّهَا

فَبَالِغُ بَلَطْفٍ فِي التَّحِيْلِ وَالْمَكْرِ . . .

وقال بشر بن أبي خازم :

وَالْأَفَاعِلْمُوا أَنَا وَأَنْتُمْ

بُعَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شَقَاقٍ . . .

و ﴿ أن ﴾ بعد هذا الفعل مفتوحة الهمزة حيثما وقعت ، والمصدر المؤول يسدّ مسدّ

مفعولي علم مع إفادة (أن) التأكيد .

والمحوّل ، ويقال المحوّل : منع شيء اتصالاً بين شيئين أو أشياء قال تعالى : ﴿ وحال بينهما

الموج ﴾ [هود : 43] .

(241/309)

---

وإسناد الحول إلى الله مجاز عقلي لأن الله منزّه عن المكان ، والمعنى يحول شأن من شؤون صفاته ، وهو تعلق صفة العلم بالإطلاع على ما يضمّره المرء أو تعلق صفة القدرة بتنفيذ ما

عزم عليه المرءُ أو بصرفه عن فعله ، وليس المرادُ بالقلب هنا البضعة الصنوبرية المستقرة في باطن الصدر ، وهي الآلة التي تدفع الدم إلى عروق الجسم ، بل المراد عقل المرء وعزمه ، وهو إطلاق شائع في العربية .

فلما كان مضمون هذه الجملة تكملة لمضمون الجملة التي قبلها يجوز أن يكون المعنى :  
واعلموا أن علم الله يخلص بين المرء وعقله خلوص الحائل بين شيئين فإنه يكون شديد الاتصال بكليهما .

والمراد بـ ﴿ المرء ﴾ عمله وتصرفاته الجسمانية .

فالمعنى : أن الله يعلم عزم المرء ويثبته قبل أن تنفعل بعزمه جوارحه ، فشبه علم الله بذلك بالحائل بين شيئين في كونه أشد اتصالاً بالحول عنه من أقرب الأشياء إليه على نحو قوله تعالى : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد .

وجيء بصيغة المضارع يحول ﴿ للدلالة على أن ذلك يتجدد ويستمر ، وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ ق : 16 ] قاله قتادة .

والمقصود من هذا تحذير المؤمنين من كل خاطر يخطر في النفوس : من التراخي في الاستجابة إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم والتنصل منها ، أو التستر في مخالفته ، وهو معنى قوله : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ [ البقرة : 235 ] .



---

وبهذا يظهر وقع قوله: ﴿ وَأَنه إِليه تحشرون ﴾ عقبه فكان ما قبله تحذيراً وكان هو تهديداً وفي "الكشاف"، و"ابن عطية": قيل إن المراد الحث على المبادرة بالامتثال وعدم إرجاء ذلك إلى وقت آخر خشية أن تعترض المرء موانع من تنفيذ عزمه على الطاعة أي فيكون الكلام على حذف مضاف تقديره: إن أجل الله يحول بين المرء وقلبه، أي بين عمله وعزمه قال تعالى: ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ [المنافقون: 10] الآية.

وهناك أقوال أخرى للمفسرين يحتملها اللفظ ولا يساعد عليها ارتباط الكلام والذي حملنا على تفسير الآية بهذا دون ما عداه أن ليس في جملة: ﴿ أَن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ إلا تعلق شأن من شؤون الله بالمرء وقلبه أي جثمانه وعقله دون شيء آخر خارج عنهما، مثل دعوة الإيمان ودعوة الكفر، وأن كلمة ﴿ بين ﴾ تقتضي شيئاً فما يكون تحول إلا إلى أحدهما لا إلى أمر آخر خارج عنهما كالطباع، فإن ذلك تحويل وليس حُولاً. وجملة: ﴿ وَأَنه إِليه تحشرون ﴾ عطف على ﴿ أَن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ والضمير الواقع اسم (أن) ضمير اسم الجلالة، وليس ضمير الشأن لعدم مناسبته، ولإجراء أسلوب الكلام على أسلوب قوله: ﴿ أَن الله يحول ﴾ الخ. وتقديم متعلق ﴿ تحشرون ﴾ عليه لإفادة الاختصاص أي: إليه إلى غيره تحشرون،

وهذا الاختصاص للكتابة عن انعدام ملجأٍ أو مَخْبِئَةٍ تَلْتَجُونَ إليه من الحشر إلى الله فكفي  
عن انتفاء المكان بانتفاء محشورٍ إليه غير الله بأبدع أسلوب ، وليس الاختصاص لرد  
اعتقادٍ ، لأن المخاطبين بذلك هم المؤمنون ، فلا مقتضى لقصر الحشر على الكون إلى الله  
بالنسبة إليهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(243/309)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الآية .  
هذه الآية تدل بظاهرها على أن الاستجابة للرسول التي هي طاعته لا تجب إلا إذا دعانا  
لما يحيينا ونظيرها قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ وقد جاء في آيات أخر ما  
يدل على وجوب اتباعه مطلقا من غير قيد كقوله: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ  
عَنْهُ فَاتَّهُوا ﴾ .

وقوله: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ الآية .

وقوله: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

والظاهر أن وجه الجمع والله تعالى أعلم أن آيات الإطلاق مبينة أنه صلى الله عليه وسلم لا يدعونا إلا لما يحيينا من خيري الدنيا والآخرة فالشرط المذكور في قوله إذا دعاكم متوفر في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لمكان عصمته كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ .

والحاصل أن الآية إذا دعاكم لما يحييكم مبينة أنه لا طاعة إلا لما يدعوا إلى ما يرضي الله وأن الآيات الأخرى بينت أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يدعوا أبداً إلا إلى ذلك صلوات الله عليه وسلامه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب ص 135 . 136 ﴾

(244/309)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

وهنا نقل المسألة من سماع إلى استجابة ؛ لأن مهمة السماع أن تستجيب .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

أي استجيبوا لله تعالى تشريعاً ، وللرسول صلى الله عليه وسلم بلاغاً ، وغاية التشريع

والبلاغ واحدة ، فلا بلاغ عن الرسول إلا بتشريع من الله عز وجل ، بل وللرسول صلى الله

عليه وسلم تفويض بأن يشرع . ورسول الله لم يشرع من نفسه ، وإنما شرع بواسطة حكم  
من الله تعالى حيث يقول : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر  
: 7] .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - : نسمع أن فلاناً قد فصل لأنه غاب خمسة عشر  
يوماً عن عمله في وظيفته ، ويعود المحامي إلى الدستور الذي تتبعه البلد فلا يجد في مواد  
الدستور هذه الحكاية ، ويسمع من المحامي الأكثر خبرة أن هذا القانون مأخوذ من تفويض  
الدستور للهيئة التي تنظم العمل والعاملين .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مفوض من ربه بالبلاغ والتشريع .  
﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الأنفال : 24] .

(245/309)

---

ونجد هنا أيضاً أن الحق تبارك وتعالى قال : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ ولم يقل : إذا دعواكم ، وفي  
ذلك توحيد للغاية ، فلم يفصل بين حكم الله التشريعي وبلاغ الرسول لنا . ونعلم أن الأشياء  
التي حكم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم حكماً ثم عدل الله له فيها الحكم ، هذا  
التعديل نشأ من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم لم ينشئ حكماً عدله الله تعالى إلا فيما لم

يُنزِلُ اللهُ فِيهِ حِكْمًا . وَحِينَ يَنْزِلُ اللهُ حِكْمًا مُخَالَفًا لِحُكْمِ وَضَعِهِ الرَّسُولَ ، فَمَنْ عَظَمْتَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أَبْلَغْنَا هَذَا التَّعْدِيلَ ، وَهَكَذَا جَاءَتْ أَحْكَامُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا وَافَقَتْ حَقًّا فَلَا تَعْدِيلَ لَهَا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَهُوَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْدِلُ لَنَا . وَبِذَلِكَ تَنْتَهِي كُلُّ الْأَحْكَامِ إِلَى اللهِ تَعَالَى . فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ : كَيْفَ تَقُولُ إِنْ قَوْلَ الرَّسُولِ يَكُونُ مِنَ اللهِ ؟ نَجِيبُ : إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ الْقَائِلُ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : 3-4] .

و"الهوى" - كما نعلم - أن تعلم حكمًا ثم تميل عن الحكم إلى مقابله لتخدم هوى في نفسك ، والرسول صلى الله عليه وسلم حينما عمد إلى أي حكم شرعه ولم يكن عنده حكم من الله عز وجل ، فإن جاءه تعديل أبلغنا . إذن ما ينطق عن الهوى . أي من كل ما لم ينزله الله ، وحكم فيه صلى الله عليه وسلم ببشريته ، ولم يكن له هوى يخدم أي حكم ، ونجد في قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الأنفال : 24] .

أن كلمة "دعاكم" مفردة ، مثلها مثل كلمة "يرضوه" في قوله لكم :

﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : 62] .

ومثلها مثل الضمير في "عنه" في قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ [

الأنفال : 20] .

وفي هذه الآيات الكريمة توحيد للضمير بعد المشى ، وهذا التوحيد كان مثار شبهة عند المستشرقين ، فقالوا : كيف يخاطب اثنين ثم يوحد هما ؟ وتقول لمن يقول ذلك : لأنك استقبلت القرآن بغير ملكة العربية . فلم تفهم ، ولو وجد الكفار في أسلوب القرآن ما يخالف اللغة لما سكتوا ، فهم المعاندون ، ولو كانوا جربوا في القرآن كلمة واحدة مخالفة لأعلنوا هذه المخالفة . وعدم إعلان الكفار عن هذه الشبهات التي يثيرها الأعداء ، يدل على أنهم فهموا مرمى ومعنى كل ما جاء بالقرآن ، وهم فهموا - على سبيل المثال - الآية التي يكرر المستشرقون الحديث عنها ليشككوا الناس في القرآن الكريم ، وهي قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ ﴾ [الحجرات : 9] .

وتساءل المستشرقون - مستكبرين - : كيف يتحدث القرآن عن طائفتين ، ثم يأتي الفعل الصادر منهما بصيغة الجمع ؟ . وتقول : إن " طائفتان " هي مشى طائفة ، والطائفة لا تطلق على الفرد ، إنما تطلق على جماعة ، مثلما تقول : المدرستان اجتمعوا ؛ وصحيح أن

المدرسة مفرد . لكن كل مدرسة بها تلاميذ كثيرون ، وكذلك " طائفتان " ، معناها أن كل طائفة مكونة من أفراد ، وحين يحدث القتال فهو قتال بين جمع وجمع ؛ لذلك كان القرآن الكريم دقيقاً حين قال :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلَا ﴾

(247/309)

---

ولم يقل القرآن الكريم : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا ؛ لأن هذا القول لا يعبر بدقة عن موقف الاقتتال لأنهم كطائفتين ، إن انتهوا فيما بينهم إلى القتال . فساعة القتال لا يتحيز كل فرد لفرد ليقاتله ، وإنما كل فرد يقاتل في كل أفراد الطائفة الأخرى ، وهكذا يكون القتال بين جمع كبير من أفراد الطائفتين .

وبعد ذلك يواصل الحق تبارك وتعالى تصوير الموقف من الاقتتال بدقة فيقول سبحانه : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيَاءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات : 9]

وهنا يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ، ولم يقل : أصلحوا بينهم . وهكذا عدل عن الجمع الذي جاء في الاقتتال إلى المشى ؛ لأننا في الصلح إنما نصلح بين فئتين

متحاربتين ، ونحن لا نأتي بكل فرد من الطائفة لنصلحه مع أفراد الطائفة الأخرى . ويمثل كل طائفة رؤساؤها أو وفد منها ، وهكذا استخدم الحق المشنى في مجاله ، واستخدم الجمع في مجاله ، وسبحانه وتعالى منزه عن الخطأ .

وهنا في الآية التي ما زلنا بصدد خواطرنا عنها وفيها يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [ الأنفال : 24 ]

وفي أولها نداء من الله للمؤمنين ، والنداء يقتضي أولاً أن يكون المنادى حياً ؛ لأنه سبحانه وتعالى القائل : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [ فاطر : 22 ] .

إذن : كيف يقول سبحانه لمن يخاطبهم وهم أحياء : ﴿ دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ؟ .

(248/309)

---

وهنا نقول : ما هي الحياة أولاً ؟ . نحن نعلم أن الحياة تأخذ مظهرين ، مظهر الحسّ ومظهر الحركة ، ولا يتأتى ذلك إلا بعد أن توجد الروح في المادة فتكون الحياة ، وهذه مسألة يتساوى فيها المؤمن والكافر . وثمره الحياة أن يسعد فيها الإنسان ، لا أن يجيأ في حرب



وكرهية وتنغيص الآخرين له وتنغيصه للآخرين ، والحياة الحقيقية أن يوجد الحسّ والحركة ، شرط أن تكون حركة كل إنسان تسعده وتسعد من حوله ، وبذلك تتآزر الطاقات في زيادة الإصلاح في الأمور النافعة والمفيدة ، أما إذا تبددت الطاقات الناتجة من الحسّ والحركة وضاعت الحياة في معاندة البعض للبعض الآخر ، فهذه حياة التعب والمشقة ، حياة ليس فيها خير ولا راحة . وهذا ما يخالف ما أراده الحق سبحانه وتعالى للخلق ، فقد جعل الله عز وجل الإنسان خليفة له في الأرض ليصلح لا يفسد ، وليزيد الصالح صلاحاً ، ولا تتعاند حركة الفرد مع غيره ؛ لأن كل إنسان هو خليفة لله ، وما دمنا كلنا خلفاء لله تعالى في الأرض . فلماذا لا نجعل حركاتنا في الحياة متساندة غير متعاندة ؟ وعلى سبيل المثال : إن أراد إنسان أن يخدم نفسه ومن حوله بجفر بئر ، هنا يجب أن يتعاون معه جميع من سوف يستفيدون من البئر ؛ فمجموعة تحفر ، ومجموعة تحمل التراب بعيداً ، ليخرج الماء ويستفيد منه الجميع ، لكن أن يتسلل إنسان ليردم البئر ، فهذا يجعل حركة الحياة متعاندة لا متساندة .

وقد نزل المنهج من الله عز وجل ليجعل حركة الحياة متساندة ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [ الأنفال : 24 ]

والنداء هنا من الله للمؤمنين فقط ، فإذا قال الله : يا أيها الذين آمنوا استجبوا لما آمنتم به ؛ فهو لم يطلب أن تستجيب لمن لم تؤمن به ، بل يطلب منك الاستجابة إذا كنت قد دخلت في حظيرة الإيمان بالله ، واهتديت إلى ذلك بعقلك ، وبالأدلة الكونية واقتنعت بذلك ، وصرت تؤمن أنه إذا طلب منك شيئاً فهو لا يطلب منك عبثاً ؛ بل طلب منك لأنك آمنت به تعالى لها ، ورباً ، وخالقاً ، ورازقاً ، وحكيماً ، وعادلاً .

حين يأمرك من له هذه الصفات ، فمن الواجب عليك أن تستجيب لما يدعوك إليه . والله المثل الأعلى ؛ نجد في حياتنا الأب والأم يراعيان المصالح القريبة للغلام ، ويأمره الأب قائلاً : اسمع الكلام لأنني والدك الذي يتعب من أجل أن تنعم أنت .

وتضيف الأم قائلة له : اسمع كلام والدك ، فليس غريباً عنك ، بل لك به صلة وهو ليس عدواً لك ، وتجربته معك أنه نافع لك ويجب لك الخير ، هنا يستجيب الابن . وكلنا عيال الله ، فإذا ما قال الله : يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول المبلغ عن الله لأنه سيد دعوتكم لما يحييكم فعلينا أن نستجيب للدعوة .

الداعي - إذن - هو الله تعالى وقد سبقت نعمه عليك قبل أن يكلفك ، وهو سبحانه قد

أرسل رسولاً مؤيداً بمعجزة لا يستطيع واحد أن يأتي بها ، ويدعو كل إنسان إلى ما فيه الخير ، ولا يمنع الإنسان من الاستجابة لهذا الدعاء إلا أن يكون غيباً .

(250/309)

---

ونلاحظ في حياتنا اليومية أن الإنسان المريض ، المصاب في أعز وأثمن شيء عنده وهو عافيته وصحته ، وهو يحاول التماس الشفاء من هذا المرض ويسأل عن الطبيب المتخصص فيما يشكو منه ، وهناك لكل جزء من الجسم طبيب متخصص ، فإذا كان له علم بالأطباء فهو يذهب إلى الطبيب المعين ، وإن لم يكن له علم فهو يسأل إلى أن يعرف الطبيب المناسب ، وبذلك يكون قد أدى مهمة العقل في الوصول إلى من يأمنه على صحته . فإذا ما ذهب إلى الطبيب وشخص له الدواء وكتب الدواء ، في هذه اللحظة لن يقول المريض : أنا لا أشرب الدواء إلا إن أقنعتني بحكمته وفائدته وماذا سيفعل في جسمي ؛ لأن الطبيب قد يقول للمريض : إن أردت أن تعرف حكمة هذا الدواء ، اذهب إلى كلية الطب لتعلم مثلما تعلمت . وطبعاً لن يفعل مريض ذلك ؛ لأن المسألة متعلقة بعافيته ، وهو سيذهب إلى الصيدلية ويشترى الدواء ويسأل عن كيفية تناوله ، والمريض حين يفعل ذلك إنما يفعله لصالحه لا لصالح الطبيب أو الصيدلي .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يدعونا لما يخبئنا به ، إنما يفعل ذلك لأن الله تعالى أوكل له البلاغ بالمنهج الذي يصلح حالنا ، وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة ، بعد أن تأتي الروح في المادة ، يواجه الإنسان ظروف الحياة من بعد ذلك إلى الممات . وهذه حياة للمؤمن والكافر . وقد يكون في الحياة منغصات وتمتلىء بالحركات المتعاندة ، وقد يمتلىء البيت الواحد بالخلافات بين الأولاد وبين الجيران ، ويقول الإنسان : هذه حياة صعبة وقاسية . والموت أحسن منها . والشاعر يقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً . . . وشاعر آخر يقول :  
ذل من يغبط الذليل بعيش . . . رب عيش أخف منه الحِمام

(251/309)

---

والحِمام هو الموت ، وكأن الموت - كما يراه الشاعر - أخف من الحياة المليئة بالمنغصات . إذن فليس مجرد الحياة الأولى هو المطلوب ، بل المطلوب حياة خليفة يأتي في مجتمع خلفاء لله في الأرض . وكل منا موكل بالتعاون وإصلاح المجال الذي يخصه . ولا يصح للوكلاء أن يتعاندوا مع بعضهم البعض ، بل عليهم أن يتفقوا ؛ لأنهم وكلاء لواحد أحد . كذلك خلف الله الإنسان ، خلفه خليفة له في الأرض وأنجب الخليفة خلفاء ؛ ليؤدوا

الخلافة بشكل متساند لا متعاند .

إننا - على سبيل المثال - حين نرغب في تفصيل جلاباب واحد ، نجد الفلاح يزرع القطن ، والغزال يغزله ، والنساج ينسجه ، ومن بعد ذلك نشتره لنذهب به إلى الحياط الذي يأخذ المقاسات المناسبة للجسم ، ثم يقوم بجياكة الجلاباب على آلة اشتراها بعد أن صنعها آخرون . إذن فجلاباب واحد يحتاج إلى تعاون بين كثير من البشر ، هكذا تتعاضد الحياة .

وإذا نظرنا إلى العالم الذي نحيا فيه نجد مليئاً بالتعب ، خصوصاً الأمم المتخلفة ، وأيضاً نجد التعب في الأمم المتقدمة ؛ لأننا نجد صعاليك من أية دولة يصعدون إلى طائرة تتبع دولة كبرى ويهددون بتفجير الطائرة بمن فيها ويفرضون الشروط ، ويُزلون الدولة الكبرى . إذن فالحياة حتى في الدول الراقية متعبة .

وعلى سبيل المثال : الحروب التي قامت في منطقتنا منذ عام 1948 مع إسرائيل واستمرت كل هذه المدة الطويلة ، ثم الحرب الأهلية في لبنان ، ثم الحرب التي دارت بين العراق وإيران ؛ هذه الحروب تكلفت المليارات التي لو استخدمت في وجه آخر لرفعت من شأن تقدم بلادنا .

(252/309)

---

إذن الذي يتعب العالم هو الحركة المتعانة ، والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم  
ليجعل حركة حياتنا متساندة . فإن اتبعنا المنهج صرنا نأخذ الأوامر من إله واحد ،  
وصار كل منا مكلفاً بالتعاون مع غيره ، وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعونا الله  
تسريعاً والرسول بلاغاً ، وبهذا تتساند الحياة وتصبح حياة لها طعم . وينطبق عليها قول  
الحق تبارك وتعالى : ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مَنْ ذَكَرِ أَوْ أَتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً  
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] .  
أمّا من يجيا بغير منهج فتكون حالته كما بينها قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي  
فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : 124] .  
وعلى هذا : فالعقاب على عدم اتباع المنهج الإلهي لا يتأخر إلى يوم القيامة ، ولكن الحياة في  
الدنيا تكون مرهقة ، والمعيشة ضنكا .  
إذن إياكم أن تفهموا أن المنهج الديني لله غايته الآخرة فقط ، لا . بل إن اتباع المنهج الديني لله  
جزاؤه في الآخرة ، وأما ثمرته ففي الدنيا . فمن يوفق في هذه الدنيا ، وحركته متساندة مع  
غيره ، يعطي له الله الجزاء في الحياة المستريحة في الدنيا بالإضافة إلى جزاء الآخرة .  
وهكذا نفهم أن موضوع الدين هو الدنيا ، أما الآخرة فهي جزاء على هذا الاختبار  
الديني .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [ الأنفال : 24 ] .

أي يعطيكم منهجاً من إله واحد ؛ لا يعود بالخير عليه ولا على المبلغ عنه وهو الرسول ، وإنما يعود بالخير عليكم أتم ، وتلك هي حيثيات الاستجابة ، ومن لا يستجيب لهذه فهو الأحمق .

﴿ استجبوا لله ولرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [ الأنفال : 24 ] .

(253/309)

---

إذن فالخير يأتي من أمر إله واحد ؛ فلا يجعل كل منا إله هواه ، حتى لا تتعدد الأهواء : ﴿

وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىَّ فَمَا يَهْوَى لِمَا أُفْسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [ المؤمنون : 71 ] .

ولذلك لا يتعرض التشريع من الله سبحانه وتعالى إلا ما للأهواء فيه مدخل ، أمّا الشيء الذي ليس للأهواء فيه مدخل فهو يترك الإنسان ليواجهه بملكاته التي خلقها الله له ، والشرع يتدخل فقط فيما يمكن أن يخضع للهوى ، أما الأمور التي لا تخضع للهوى فألد الأعداء يتفقون فيها .

والحياة الآن فيها موجة ارتقاء طموحي علمي ، وهذا الطموح العلمي نشأ عن التجربة في

المعمل حيث يجلس العلماء الوقت الطويل ليخترعوا ويطوروا ، مثال ذلك : " أديسون " الذي قضى وقتاً طويلاً ليخترع المصباح الكهربائي ، وغيره من العلماء طوروا مخترعاته وجاءوا باختراعات جديدة ، ولم ندر عنهم شيئاً إلا أننا نفاجأ بمخترع قد أتى منهم ، والعالم من هؤلاء تجده أشعث أغبر ، لا يفكر في العناية بحسن مظهره وقد لا يأكل ولا يشرب ، ولا تدري أنت به إلا إذا الثمرة من عمله واخترعه جاءت ، ويقال : فلان اخترع الشيء " الفلاني " . وتنفع أنت بما اخترع رغم أنك لم تشق شقاءه حين أخذت الخير الناتج منه . ونرى المعسكرات المتضادة في عالمنا المعاصر تحاول أن تسرق تجارب غيرها في العلوم ، وهذه المعسكرات تختلف فقط في الأهواء ، فذلك شيوعي ، وآخر رأسمالي ، وثالث وجودي . الخلاف - إذن - في الأهواء غير الحكومة بالمادة أو بالتجربة . ومن المؤسف حقاً أن ما اتفقنا عليه كالعلوم المادية الكونية التي هي وليدة التجربة ، هذه المخترعات نستعملها في فرض ما نختلف فيه ، وهكذا تجد أن التعب في العالم إنما يأتي من الطموح الأهوائي لا الطموح المادي العلمي ؛ لذلك يتدخل الشرع في الأهواء ويحسمها ؛ ليكون كل منا عبداً لله تعالى ، وكل منا حراً أمام غيره .

(254/309)

---



والرسول صلى الله عليه وسلم بمنهجه الذي جاء به من الله يدعو الحىّ - صاحب الحس والحركة - إلى أن تكون حياته حياة طيبة ليس فيها ضنك ؛ هذا إن نظرنا إلى كيفية الحياة . فإن قسنا الحياة بعمر الآخرة ، فهي لا تساوي إلا القليل ؛ لأن ما لا يختلف فيه كأفراد في الخلافة يجب أن يكون غاية للخلفاء ، فربنا قد يخلق واحدا ليموت في بطن أمه ، وواحدا يموت بعد ساعة من مولده ، وثالثا يموت بعد شهر من ميلاده ، ومنا من يعمر مائة سنة ، ولا يمكن أن يكون الأمر المختلف فيه غاية للمتحدّين في الجنس ، فالغاية أن نعلم الدنيا بالعمل الصالح لنسعد بها ، ونعبر منها إلى ما هو أجمل وهي الآخرة ، ومأمون فيها أننا لا نموت ، ومأمون فيها أننا لن نتعب أبداً ، لأنه كلما اشتهيت شيئاً ستجده أمامك . وهذه قمة الحياة الطيبة .

وعلى فرض أنك ستعب في سبيل منبج الله حين تبلغه للناس ، دفاعاً عنه بالحرب والقتال وبالتضحية بالأموال ، فأنت رابح لحياة طيبة أبدية ، ويبين القرآن الكريم لنا هذه الحياة في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [ العنكبوت : 64 ] .

فالدار الآخرة ليست مجرد حياة ، بل أكبر من حياة ؛ لأن حياتك الدنيا موقوتة ومحددة ، ونعيمك فيها على قدر إمكانياتك وتصوراتك ، ولكن الحياة الأخرى ليست موقوتة بل ممتدة ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات خالقك المنعم القادر . وهكذا تتأكد أنه صلى

الله عليه وسلم قد دعانا إلى ما ينجينا .

والحق سبحانه وتعالى حينما دعانا إلى الحياة الطيبة سمي المعيشة في منهجه حياة ، لأنها حياة سعيدة ، وتسلم إلى حياة خالدة . ولذلك سمي الحياة الأولى التي تأتي إذا نفخ الله الروح في المادة ، وقال عن آدم وكل بني آدم : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ [ ص : 72 ] .

(255/309)

---

وأعطى الله سبحانه وتعالى هذه الحياة للمؤمن والكافر . وسمى سبحانه وتعالى ما يحمل المنهج للناس وهو القرآن روحاً : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [ الشورى : 52 ] .

والمنهج - إذن - روح من أمر الله سبحانه وتعالى نزل به الروح الأمين ، وهذه هي الحياة المطلوبة لله سعادة ، وتسانداً ، وخلوداً في الجنة . ولذلك أنزل المنهج ليمنع التعاند والتعارض والتضاد بين المؤمنين ، وليحمي كل مؤمن نفسه من الزلل ، فيقاوم المعصية وهي صغيرة قبل أن تكبر وتستفحل .  
ثم يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [ الأنفال : 24 ] .

وماذا يعني قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ ؟ .

وأقول : إياك أن تظن أن الكافر - على سبيل المثال - يعلن أن قلبه قد انعقد على الكفر ؛ لأنه قد يجرب أن يخلع نفسه من هواه وينظر إلى حقيقة الإيمان فيقتنع به ، ولن يسيطر على هواه ، وقد انقلب أكثر من قلب شرير إلى قلب خير ، مثل صناديد قریش من الكفار الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كانت قلوبهم معقودة على الشر ، لكنها لم تستمر على الشر ، بل حال الحق بين كل إمريء منهم وقلبه .

والقلب هو محل التمنيات والأمانى ، وأول الأمانى أن تطول حياة الإنسان ، خصوصاً وهو يرى أن من في مثل عمره يموت ، ومن في مثل عمر والده يموت . وأن جده يموت ، ولأن الإنسان يجب أن تطول حياته ، يرغب في أن ينجب ولداً ليتمد ذكره ، إنه يريد الحياة ولو من غيره ، ما دام منسوباً له .

(256/309)

---

كما أن الإنسان يجب الآمال ، ويبني في أحلامه الكثير مما يريد أن يحققه ، والواجب عليه ألا ينسى أن لهذا الكون إلهاً قادراً ، قد ينهى حياة أي منا رغم أن كل إنسان يحلم أن تطول

حياته ، وقد يقف بين الإنسان وبين آمله التي يريد أن يحققها ، ولا أحد منا معزول عن خالقه ، وكل منا في يد الخالق ، وسبحانه وتعالى لم يخلق الخلق ثم يترك النواميس لتعمل دون إرادته ، بل كل النواميس في يده .

وما دام الحق يحول بين المرء وتمنيات قلبه ؛ استطالة حياة ، وتحقيق آمال ، وستراً للموت وأسبابه وزمنه ، كل ذلك لنتجه دائماً إلى فعل الخير لنحيا في ضوء المنهج وأنت لا تعرف متى ينتهي الأجل ، وإلى الله المصير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(257/309)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ قال : هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة .

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير رضي الله عنه في قوله ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾

لما يحييكم ﴿ أي للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم .

وأخرج ابن أبي شيبة وحشيش بن أصرم في الاستقامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ قال : يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله ، ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ يحول بين المرء وقلبه ﴾ قال " يحول بين المؤمن والكفر ، ويحول بين الكافر وبين الهدى " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ قال : يحول بين الكافر وبين أن يعي باباً من الخير أو يعمله أو يهتدي له .  
وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ قال : علمه يحول بين المرء وقلبه .

(258/309)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي غالب الخالجي قال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله ﴿ يحول بين المرء وقلبه ﴾ قال : يحول بين المؤمن وبين معصيته التي تستوجب بها الهلكة ، فلا بد لابن آدم أن يصيب دون ذلك ، ولا يدخل على قلبه الموبقات التي يستوجب بها دار الفاسقين ، ويحول بين الكافر وبين طاعته ما يستوجب ما يصيب أولياءه من الخير شيئاً ، وكان ذلك في العلم السابق الذي ينتهي إليه أمر الله تعالى ، وتستقر عنده أعمال العباد .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي غالب قال : " سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله ﴿ يحول بين المرء وقلبه ﴾ قال : قد سبقت بها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ وصف لهم عن القضاء قال لعمر رضي الله عنه وغيره ممن سأله من أصحابه " اعمل فكل ميسر . قال : وما ذاك التيسير ؟ قال : صاحب النار ميسر لعمل النار ، وصاحب الجنة ميسر لعمل الجنة " .

وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . أنه سمع غلاماً يدعو : اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه فحل بيني وبين الخطايا فلا أعمل بسوء منها . فقال عمر رضي الله عنه : رحمك الله ، ودعاه بخير .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ يحول بين المرء وقلبه ﴾ قال : في القرب منه . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: "بَيْنَ الْمَرْءِ"

العامّة على فتح الميم.

وقرأ ابن أبي إسحاق: بكسرها على إتيانها لحركة الهمزة، وذلك ان في "المرء" لغتين: أفصحهما: فتح الميم مطلقاً، والثانية: إتيان الميم لحركة الإعراب فتقول: هذا مرءٌ - بضم الميم، ورأيت مرءاً - بفتحها، ومررت بمرءٍ - بكسرها، وقرأ الحسن، والزهري: بفتح الميم وتشديد الراء.

وتوجيهها: أن يكون نقل حركة الهمزة إلى الراء، ثم ضعف الراء، وأجرى الوصل مجرى الوقف.

قوله "وأنه" يجوز أن تكون الهاء ضمير الأمر والشأن، وأن تعود على الله تعالى، وهو الأحسن لقوله: "إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" أي إلى الله؛ ولا تكون مهملين. انتهى انتهى. اهـ

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ .

(260/309)

---

أجاب واستجاب بمعنى مثل أوقد واستوقد ، وقيل للاستجابة مزية وخصوصية بأنها تكون طوعاً لا كرهاً ، وفرق بين من يجيب لخوفٍ أو طمعٍ وبين من يستجيب لا بعوضٍ ولا على ملاحظة غرضٍ . وحق الاستجابة أن تجيب بالكلية من غير أن تذر من المستطاع بقية .

والمستجيبُ لربه محوٌّ عن كُله باستيلاء الحقيقة ، والمستجيب للرسول - صلى الله عليه وسلم وعلى آله - قائم بشريعته من غير إخلال بشيء من أحكامها . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالاستجابة له - سبحانه ، وبالإستجابة للرسول ؛ فالعبدُ المستجيبُ - على الحقيقة - من قام بالله سرّاً ، وانصف بالشرع جهراً فيُفردُه الحقُّ - سبحانه - بمقتائق الجمع و ( . . . ) في مشاهدة الفرق ، فلا يكون للحدثان في مشرب حقائقه تكدير ، ولا لمطالبات الشرع على أحواله نكير .



قوله جلّ ذكره: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ .

إذ لما أفناهم عنهم أحياءهم به .

ويقال العابدون أحياءهم بطاعته بعد ما أفناهم عن مخالفته ، وأما العالمون فأحياءهم بدلائل

ربوبيته ، بعد ما أفناهم بسيوف مجاهدتهم . وأما الموحّدون فأحياءهم بنور توحيده بعد ما

أفناهم عن الإحساس بكل غير ، والملاحظة لكل حدثان .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

يصون القلب عن قلب آرباها فيقلبها كما يشاء هو ، من بيان هداية وضلال ، وغيبة

ووصول ، وحُجبة وقربة ، ويقين ومرية ، وأنس ووحشة .

ويقال صان قلوب العباد عن الجنوح إلى الكسل ، فجدوا في معاملاتهم ، وصان قلوب

المريدين عن التعريج في أوطان الفشل فصدقوا في منازلهم ، وصان قلوب العارفين - على

حد الاستقامة - عن الميل فتحققوا بدوام مواصلاتهم .

(261/309)

---

ويقال حال بينهم وبين قلوبهم لتلايكون لهم رجوعٌ إلا إلى الله ، فإذا سَنَحَ لهم أمر فليس لهم

إلا الأغيار سبيل ، ولا على قلوبهم تعويل . وكم بين من يرجع عند سوانحه إلى قلبه وبين من

لا يهتدي إلى شيء إلا إلى ربه! كما قيل :

لا يهتدي قلبي إلى غيركم . . . لأنه سُدَّ عليه الطريق

ويقال العلماء هم الذين وجدوا قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ

قَلْبٌ ﴾ [ ق : 37 ] والعارفون هم الذين فقدوا قلوبهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف

الإشارات ح 1 ص 614.616 ﴿

(262/309)

---

كلام نفيس لحجة الإسلام الغزالي في شرح عجائب القلب :

قال عليه الرحمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربيع المهلكات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي تحير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر وتدهش في مبادي إشراق أنواره

الأحداق والنواظر المطمع على خفيات السرائر العالم بمكنونات الضمائر المستغني في تديير

مملكته عن المشاور والموازر مقلب القلوب وغفار الذنوب وستار العيوب ومفرج الكروب

والصلاة على سيد المرسلين وجامع شمل الدين وقاطع دابر الملحدين

وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيرا

أما بعد فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة

الله سبحانه التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره وفي الآخرة عدته وذخره وإنما استعد

للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه فالقلب هو العالم بالله

(263/309)

---

وهو المتقرب إلى الله وهو العامل لله وهو الساعي إلى الله وهو المكاشف بما عند الله ولديه

وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد

واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله

وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله وهو المطالب وهو المخاطب وهو

المعاتب وهو الذي يسعد بالتقرب من الله فيفلح إذا زكاه وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه

ودسائه وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره وهو

العاصي المتمرد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره وبإظلامه

واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه إذ كل إناء ينضح بما فيه وهو الذي إذا عرفه  
الإنسان فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد  
جهل نفسه وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل إذ أكثر الخلق  
جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم فإن الله يحول بين المرء وقلبه  
وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية ثقليه بين أصبعين مع  
أصابع الرحمن وأنه كيف يهوي مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين وكيف  
يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين  
ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصده لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه فهو ممن قال  
الله تعالى فيه نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فمعرفة القلب وحقيقة  
أوصافه  
أصل الدين وأساس طريق السالكين

(264/309)

---

وإذ فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجري على الجوارح من العبادات  
والعادات وهو العلم الظاهر وواعدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجري على القلب من

الصفات المهلكات والمنجيات وهو العلم الباطن فلا بد أن تقدم عليه كتابين كتابا في شرح  
عجائب صفات القلب وأخلاقه وكتابا في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه ثم نندفع  
بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام فإن  
التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة في جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام  
بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسماء  
أعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه  
الأسماء واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى  
هذه الأسماء واشتراكها بين مسميات مختلفة ونحن نشرح في معنى هذه الأسماء ما يتعلق  
بغرضنا

اللفظ الأول لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين

أحدهما اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص  
وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ولسنا نقصد الآن  
شرح شكله وكيفية إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية وهذا القلب  
موجود للبهائم بل هو موجود للميت ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به

ذلك فإنه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر

فضلا عن الأدميين

(265/309)

---

والمعنى الثاني هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ولها علاقة مع القلب الجسماني وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته فإن تعلقه به يضاهاى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك مما توقاه لمعنيين أحدهما أنه متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب الإلغوم المعاملة والثاني أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم // حديث أنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم في الروح متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح وفيه فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم فعلمت أنه يوحى إليه الحديث وقد تقدم // فليس لغيره أن يتكلم فيه والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها

وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر

إلى ذكر حقيقتها

اللفظ الثاني الروح وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين

أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينشر بواسطة العروق الضواري

إلى سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع

والشم منها على أعضائها يضاها فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت فإنه

لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان والروح

مثالها السراج وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت

بتحريك محركه والأطباء إذا أطلقوا لفظ

(266/309)

---

الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب وليس شرحه من

غرضنا إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان فأما غرض أطباء الدين

المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا

المعنى الثاني هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو الذي شرحناه في أحد معاني

القلب وهو الذي أراده الله تعالى بقوله قل الروح من أمر ربي وهو أمر عجيب رباني تعجز  
أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته

اللفظ الثالث النفس وهو أيضا مشترك بين معان ويتعلق بغرضنا منه معنيان  
أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان على ما سيأتي شرحه  
وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع  
للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون لا بد من مجاهدة النفس وكسرها وإليه الإشارة  
بقوله صلى الله عليه وسلم أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك // حديث أعدى عدوك  
نفسك التي بين جنبيك // أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس وفيه  
محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين

المعنى الثاني هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته  
ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر  
وزالها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس مطمئنة

قال الله تعالى في مثلها يا أيها النفس مطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية والنفس  
بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى فإنها مبعدة عن الله وهي من حزب الشيطان  
وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعتزلة عليها سميت النفس  
اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه



قال الله تعالى ولا أقسم بالنفس اللوامة وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى  
الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء

(267/309)

---

قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز وما أبرئ نفسي إن النفس  
لأمارة بالسوء وقد يجوز أن يقال المراد بالأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول فإذا  
النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته  
وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات  
اللفظ الرابع العقل وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم والمتعلق بغرضنا  
من جملتها معنيان  
أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله  
القلب

والثاني أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة  
ونحن نعلم أن كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه والعلم صفة حالة فيه  
والصفة غير الموصوف والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق ويراد به محل الإدراك

أعني المدرك وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله العقل // حديث أول ما خلق الله العقل وفي الخبر أنه قال له أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر الحديث تقدم في العلم فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقاً قبله أو معه ولأنه لا يمكن الخطاب معه

وفي الخبر أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر الحديث  
فإذن قد انكشف لك أن معاني هذه الأسماء موجودة وهي القلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعلوم

فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ومعنى خامس وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان

والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها فالمعاني خمسة والألفاظ أربعة وكل لفظ أطلق لمعنيين

(268/309)

---

وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح وهذا خاطر القلب وهذا خاطر النفس

وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسماء وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء وقد يكمن عنه بالقلب الذي في الصدر لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الأول بالقلب وكأنه محلها ومملكها وعالمها ومطيتها ولذلك شبه سهل التستري القلب بالعرش والصدر بالكرسي فقال القلب هو العرش والصدر هو الكرسي ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه فإن ذلك محال بل أراد به أنه مملكة الإنسان والمجرى الأول لتدييره وتصرفه فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه وشرح ذلك أيضا لا يليق بغرضنا فلنجاوزه

بيان جنود القلب

قال الله تعالى وما يعلم جنود ربك إلا هو فله سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو

ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب فهو الذي يتعلق بغرضنا

وله جندان جند يرى بالأبصار وجند لا يرى إلا بالبصائر وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم والأعوان فهذا معنى الجند فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين

والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة فإن جميعها خادمة للقلب ومسخرة له  
فهو المتصرف فيها والمردد لها وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه  
تمردا فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت وإذا أمر اللسان  
بالكلام وجزم الحكم به تكلم وكذا سائر الأعضاء

(269/309)

---

وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى فإنهم مجبولون  
على الطاعة لا يستطيعون له خلافا بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وإنما  
يفترقان في شيء وهو أن الملائكة عليهم السلام عاملة بطاعتها وامثالها والأجفان تطيع  
القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب  
وإنما اقتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث اقتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذي لأجله  
خلق وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه فالأجله خلقت القلوب  
قال الله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون وإنما مركبه البدن وزاده العلم  
وإنما الأسباب التي توصله إلى الزاد وتمكنه من التزود منه هو العمل الصالح وليس يمكن  
العبد أن يصل إلى الله سبحانه ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا فإن المنزل الأدنى لا بد من

قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى فالدنيا مزرعة الآخرة وهي منزل من منازل الهدى وإنما سميت دنيا لأنها أدنى المنزلتين فاضطر إلى أن تزود من هذا العالم فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين باطن وهو الشهوة

وظاهر وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين باطن وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء

وظاهر

وهو اليد والرجل للذين بهما يعمل بمقتضى الغضب وكل ذلك بأمر خارجة فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها ثم المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإفقه فافتقر للمعرفة إلى جندين باطن وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق وظاهر وهو العين والأذن والأنف وغيرها

(270/309)

---

وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة

وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في كتاب الشكر فليقتنع به

فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف صنف باعث ومستحث إما إلى جلب النافع

الموافق كالشهوة وإما إلى دفع الضار المنافي كالغضب وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة

والثاني هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة وهي

جنود مبنوثة في سائر الأعضاء لا سيما العضلات منها والأوتار

والثالث هو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس وهي قوة البصر والسمع والشم والذوق

واللمس وهي مبنوثة في أعضاء معينة ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك ومع كل واحد من

هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهي الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب

والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود فإن قوة البطش إنما هي بالأصابع وقوة البصر

إنما هي بالعين

وكذا سائر القوى ولسنا نتكلم في الجنود الظاهرة أعني الأعضاء فإنها من عالم الملك

والشهادة وإنما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها

وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل الظاهرة

وهي الحواس الخمس أعني السمع والبصر والشم والذوق واللمس وإلى ما أسكن منازل

باطنة وهي تجاوزيف الدماغ وهي أيضا خمسة فإن الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه

فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو  
الجند الحافظ ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ثم يتذكر ما قد نسيه  
ويعود إليه ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ففي  
الباطن حس مشترك وتخييل وتفكر وتذكر وحفظ ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر  
والتخييل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه فتلك القوى أيضا جنود باطنة  
وأماكنها أيضا باطنة فهذه هي أقسام جنود القلب وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء  
بضرب الأمثلة يطول

(271/309)

---

ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء ولكننا نجتهد في تفهيم

الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جندي الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيادا تاما فيعينه ذلك على طريقه

الذي يسلكه وتحسن مرافقتهما في السفر الذي هو بصدده وقد يستعصيان عليه

استعصاء بغي وتمرد حتى يملكاه ويستبعدها وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذي به

وصوله إلى سعادة الأبد وللقب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكر كما سيأتي شرحه  
وحقه أن يستعين بهذا الجند فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين فإنهما قد يلتحقان  
بجذب الشيطان

فإن ترك الاستعانة ووسط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرا  
مبيننا وذلك حالة أكثر الخلق فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل  
لقضاء الشهوة وكان ينبغي أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتقر العقل إليه ونحن  
نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة

المثال الأول أن نقول مثل نفس الإنسان في بدنه أعني بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك في  
مدينته ومملكته

فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها وجوارحها وقواها بمنزلة الصانع  
والعملة والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل  
والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة والغضب والحمية له كصاحب  
الشرطة

(272/309)

---



والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر  
الهائل والسم القاتل وديده وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتديراته حتى لا يخلو  
من منازعته ومعارضته ساعة كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنيا في تديراته بوزيره  
مستشيرا له ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث مستدلا بإشارته في أن الصواب في  
نقيض رأيه أدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على  
هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره حتى يكون العبد مسوسا لاسائسا ومأمورا مدبرا لا  
أميرا مدبرا استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه فكذا النفس متى استعانت بالعقل  
وأدبت بحمية الغضب وسلطتها على الشهوة واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن  
تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها وتارة بقمع الشهوة وقهرها  
بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبیح مقتضياتها اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ومن  
عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله  
على علم وقال تعالى واتبع هواه فمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث وقال  
عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن  
الجنة هي المأوى وسيأتي كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض في كتاب  
رياضة النفس إن شاء الله تعالى

---

المثال الثاني اعلم أن البدن كالمدينة والعقل أعني المدرك من الإنسان كملك مدبر لها وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه وأعضاؤه كرعيته والنفس الأمارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته فصار بدنه كرباط وثغر ونفسه كمقيم فيه مرابط فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يجب حمد أثره وإذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك // حديث يقال يوم القيامة يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة الخبر لم أجد له أصلا كما ورد في الخبر

وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر // حديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر أخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال هذا إسناد في ضعف

المثال الثالث مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح ومتى كان هوفي

نفسه أخرق وكان الفرس جموحا والكلب عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه  
يسترسل بإشارته مطيعا فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال ما طلب وإنما خرق  
الفرس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة  
خصوصا شهوة البطن والفرج وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه

نسأل الله حسن التوفيق بلطفه

بيان خاصية قلب الإنسان

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الأدمي إذ للحيوان الشهوة  
والغضب والحواس

(274/309)

---

الظاهرة والباطنة أيضا حتى إن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه

فذلك هو الإدراك الباطن

فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى

وهو راجع إلى علم وإرادة

أما العلم فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فإن هذه أمور وراء

المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ  
يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة وهذا  
حكم منه على كل شخص  
ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما  
أدركه الحس

وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر  
وأما الإرادة فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى  
جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات  
بل يكون على ضد الشهوة

فإن الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة والعقل يريد لها ويطلبها ويبدل المال فيها  
والشهوة تميل إلى لذائد الأطعمة في حين المرض والعامل يجد في نفسه زاجراً عنها وليس  
ذلك زاجر الشهوة

ولو خلق الله العقل المعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على  
مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعاً على التحقيق  
فإذن قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سائر الحيوان بل ينفك عنها الصبي في أول  
الفطرة وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ

وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبي

ثم الصبي في حصول هذه العلوم فيه له درجتان

(275/309)

---

إحدهما أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد الثانية أن تحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشرا للكتابة بقدرته عليها

وهذه هي غاية درجة الإنسانية

ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى بتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقتلها وشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة وبعضهم بتعلم واكتساب وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء

## الحصول

وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء فدرجات الترقى فيه غير

محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها

وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف

بكشف إلهي في أسرع وقت وبهذه السعادة يقرب العبد العبد من الله تعالى قربا بالمعنى

والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراقبي هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله

تعالى ولا حصر لتلك المنازل وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه فيعرفه

ويعرف ما خلفه من المنزل

فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب كما أنا نؤمن بالنبوة

والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي وكما لا يعرف الجنين حال

الطفل ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من

(276/309)

---

العلوم الضرورية ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف

العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته ما يفتح الله للناس من رحمة

فلامسك لها وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضمون  
بها على أحد ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضه لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى  
الله عليه وسلم إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها // حديث إن لربكم في أيام  
دهركم لنفحات الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم  
والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة  
كما سيأتي بيانه وإلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ينزل الله كل ليلة إلى  
سماء الدنيا فيقول هل من داع فاستجيب له ويقول صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه  
عز وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقاءهم أشد شوقا // حديث يقول الله عز  
وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقاءي الحديث لم أجد له أصلا إلا أن صاحب الفردوس  
خرجه من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس إسنادا  
ويقوله تعالى من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا // حديث يقول الله من تقرب إلي شبرا  
تقربت إليه ذراعا متفق عليه من حديث أبي هريرة  
كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن  
البخل والمنع علوا كبيرا ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب فإن القلوب  
كالأواني فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها  
المعرفة بجلال الله تعالى

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحمون على قلوب بني آدم  
لنظروا إلى ملكوت السماء // حديث لولا أن الشياطين يحمون على قلوب بني آدم الحديث  
أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه وقد تقدم في الصيام

(277/309)

---

ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة  
وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فبه كمال الإنسان وفي كماله سعادته  
وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال  
فالبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجله  
خلق  
وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكر والفرو وحسن الهيئة  
فيكون الفرس مخلوقاً لأجل تلك الخاصية فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار  
وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويفارقهما في أمور هي خاصيته وتلك  
الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين  
والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات ومن



حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكما لصورة المنقوشة  
على الحائط وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء

من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه  
بالملائكة فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا كما أخبر الله تعالى عن

صواحيب يوسف عليه السلام بقوله ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم

ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق  
البهائم فيصير إما غمرا كثورا وإما شرها كخنزير

وإما ضربا ككلب أو سنور أو حقودا كجمل

أو متكبرا كتمر أو ذا روغان كثعلب أو يجمع ذلك كله كشیطان مرید

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق

الوصول إلى الله تعالى كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشكر فمن استعمله فيه فقد

فاز ومن عدل عنه فقد خسر وخاب

وجملة السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده والدار الآخرة مستقره والدنيا منزله

والبدن مركبه والأعضاء

خدمه

---

فيستقر هو أعني المدرك من الإنسان في القلب الذي هو وسط مملكته كالملك ويجري القوة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريدة إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده ويجري القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه ويجري اللسان مجرى ترجمانه ويجري الأعضاء المتحركة مجرى كتابه ويجري الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع فيوكل العين بعالم الألوان والسمع بعالم الأصوات والشم بعالم الروائح

وكذلك سائرها فإنها أصحاب أخبار يلتقونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج إليه في تدير مملكته وإتمام سفره الذي هو بصده ووقع عدوه الذي هو مبتلي به ودفع قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موقفا سعيدا شاكرًا نعمة الله وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة أو في عمارة طريقه دون منزله إذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره ووطنه ومستقره الآخرة كان مخذولا شقيا كافرا بنعمة الله تعالى مضيعا لجنود الله تعالى ناصر الأعداء الله مخذولا لحزب الله فيستحق المقت والإبعاد في المنقلب والمعاد نعوذ بالله من ذلك

وإلى المثال الذي ضربناه أشار كعب الأحبار حيث قال دخلت على عائشة رضي الله  
عنها فقلت للإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويده جناحان ورجلاه يريد  
والقلب منه ملك // حديث عائشة الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان الحديث  
أخرجه أو نعيم في الطب النبوي والطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من  
حديث أبي هريرة ونحوه وله ولأحمد من حديث أبي ذر وأما الأذن فقمع وأما العين فمقرعة لما  
يوعي القلب ولا يصح منها شيء

فإذا طاب الملك طابت جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

(279/309)

---

وقال علي رضي الله عنه في تمثيل القلوب إن الله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب فأحبها  
إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسره فقال أصلبها في الدين وأصفاها في اليقين  
وأرقها على الإخوان وهو إشارة إلى قوله تعالى أشدء على الكفار رحماء بينهم وقوله تعالى  
مثل نوره كمشكاة فيها مصباح قال أبي بن كعب رضي الله عنه معناه مثل نور المؤمن وقلبه  
وقوله تعالى أو كظلمات في مجرلجي مثل قلب المنافق  
وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى في لوح محفوظ وهو قلب المؤمن

وقال سهل مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسي فهذه أمثلة القلب

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثله

اعلم أن الإنسان قد اصطحب في خلقه وتركيبه أربع شوائب فلذلك اجتمع عليه أربعة

أنواع من الأوصاف وهي الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية

فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم

على الناس بالضرب والشم

ومن حيث سلط عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره

ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى قل الروح من أمر ربي فإنه يدعي لنفسه

الربوبية ويحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص والاستبداد بالأمور كلها والتفرد

بالرياسة والانسلال عن ربة العبودية والتواضع ويشتهي الاطلاع على العلوم كلها بل يدعي

لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور ويفرح إذا نسب إلى العلم ويحزن إذا نسب

إلى الجهل والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف

الربوبية وفي الإنسان حرص على ذلك

ومن حيث يختص من البهائم بالتميز مع مشاركتها لها في الغضب والشهوة حصلت فيه

شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز في

استنباط وجوه الشر ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ويظهر الشر في معرض  
الخير وهذه أخلاق الشياطين

(280/309)

---

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة أعني الربانية والشيطانية والسبعية  
والبهيمية وكل ذلك مجموع في القلب  
فكان المجموع في إهاب الإنسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم  
فالخنزير هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموما للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه  
وحرصه

والكلب هو الغضب فإن السبع الضاري والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة  
واللون والشكل بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر وفي باطن الإنسان ضراوة  
السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه  
فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر والسبع بالغضب إلى الظلم والإيذاء  
والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغیظ السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما  
هما مجبولان عليه

والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبسه  
ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه  
إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب  
مقهورا تحت سياسته فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن  
وجرى الكل على الصراط المستقيم وإن عجز عن قهرها وقهره واستخدمه فلا يزال في  
استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائما في عبادة كلب  
وخنزير

وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء والعجب منه  
أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ولو كشف الغطاء عنه وكشف بحقيقة  
حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين إما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه ما ثلابين  
يدي خنزير ساجدا له مرة وراكما أخرى ومنتظرا لإشارته وأمره

(281/309)

---

فمهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته وإحضار شهوته  
أورأى نفسه ما ثلابين يدي كلب عقور عابدا له مطيعا سامعا لما يقتضيه ويلتمسه مدققا

بالفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه فإنه الذي يهيج الخنزير

ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما

فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ولينظر بعين البصيرة

فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعيا طول النهار في عبادة هؤلاء وهذا غاية الظلم إذ جعل

المالك مملوكا والرب مربوبا والسيد عبدا والقاهر مقهروا إذ العقل هو المستحق للسيادة

والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء

الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعا ورينا مهلكا للقلب ومميتا له أما طاعة خنزير

الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقير والرياء والهتكة والمجانة

والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها

وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف

والاستشاشة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر

وشهوة الظلم وغيرها

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة

والدهاء والجراءة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها

ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر في القلب من الصفات

الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بمقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه

والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم  
وجلاله ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولانتشر إليه

(282/309)

---

من ضبط خنزير الشهوة وردّه إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو  
والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها  
ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردّها إلى حد الواجب صفة الشجاعة  
والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبيل والشهامة  
والوقار وغيرها

فالقلب في حكم مرآة قد اكنفته هذه الأمور المؤثرة فيه وهذه الآثار على التواصل واصلة  
إلى القلب

أما الآثار المحمودة التي ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقا ونورا وضياء حتى  
يتلأ فيه جليلة الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين وإلى مثل هذا القلب  
الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه //  
حديث إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه أخرجه أبو منصور الديلمي في



مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد

ويقوله صلى الله عليه وسلم من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ // حديث

من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ لم أجد له أصلاً

وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر قال الله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب

وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرة

بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوباً عن الله تعالى وهو الطبع وهو الرين

قال الله تعالى كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وقال عز وجل أن لو نشاء أصبناهم

بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كما ربط

السماع بالتقوى فقال تعالى واتقوا الله واسمعوا واتقوا الله ويعلمكم الله

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح

الدين ويستهن بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها

(283/309)

---

فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في

القلب ولم يجره إلى التوبة والتدارك أولئك يسوا من الآخرة كما يس الكفار من أصحاب

القبور وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة

قال ميمون بن مهران إذا أذنب العبد ذنبا نكت في قلبه نكته سوداء فإذا هونزع وتاب صقل

وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن

أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس // حديث قلب المؤمن أجرد فيه سراج

يزهر الحديث أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض

الحديث الذي يليه

فطاعة الله سبحانه بخالفة الشهوات مصقلة للقلب ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على

المعاصي اسود قلبه ومن أتبع السيئة الحسنة ومحأ أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره

كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح فإنها لا تخلو عن كدورة

وقد قال صلى الله عليه وسلم القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن

وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب

المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق // حديث القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر

الحديث أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري وقد تقدم

فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب

ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصدید فأی المادتين غلبت عليه حكم له بها

وفي رواية ذهبت به

قال الله تعالى إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون فأخبر

أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا

فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الأكبر وهو الفوز بقاء الله

تعالى

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

(284/309)

---

اعلم أن محل العلم هو القلب أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهي المطاعة المخدومة

من جميع الأعضاء وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور

المتلونات فكما أن للمتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها كذلك لكل

معلوم حقيقة وتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتوضح فيها وكما أن المرآة غير

وصور الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير فهي ثلاثة أمور

فكذلك ههنا ثلاثة أمور القلب وحقائق الأشياء وحصول نفس الحقائق في القلب

وحضورها فيه

فالعلم عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقائق الأشياء والمعلوم عبارة عن حقائق

الأشياء

والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة

وكما أن القبض مثلاً يستدعي قابضاً كاليد ومقبوضاً كالسيف ووصولاً بين السيف واليد

بحصول السيف في اليد ويسمى قبضاً فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علماً

وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجوداً ولم يكن العلم حاصلًا لأن العلم عبارة عن

وصول الحقيقة إلى القلب كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض

والأخذ حاصلًا لعدم وقوع السيف في اليد نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في

اليد والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب فمن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه ولكن

الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها فتمثيله بالمرآة أولى لأن عين الإنسان لا تحصل

في المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له

وكذلك حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم في القلب يسمى علماً

وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور

أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل

والثاني لخنثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل

والثالث لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة

والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصورة

والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر

الصورة وجهتها

(285/309)

---

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها وإنما خلت القلوب

عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة

أولها نقصان في ذاته كقلب الصبي فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه

والثاني لكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن

ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا //

حديث من قارف ذنبا فراقه عقل لا يعود إليه أبدا لم أر له أصلا

أي حصل في قلبه كدورة لا يزول أثرها إذ غايته أن يتبعه بحسنة يحوه بها فلو جاء بالحسنة

ولم تقدم السيئة لآزاد لا محالة إشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة

لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نورا

فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له فليست المرأة التي تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتي

تمسح بالمصقلة لزيادة جلالها من غير دنس سابق فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم //

حديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد تقدم في العلم

الثالث أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافيا فإنه ليس يتضح فيه جليلة الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب

بل ربما يكون متسوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرا فيها أو مصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها

(286/309)

---

وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جليلة الحق فما ظنك

فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلاقتها فكيف لا يمنع عن الكشف

الحقيقي

الرابع الحجاب فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا

ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد

والقبول بحسن الظن فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه

خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين

والمعصيين للمذاهب بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم

محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجابا

بينهم وبين درك الحقائق

الخامس الجهل بالجهة التي يقع منها العثر على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن

يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه

ترتبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب

فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة

العلوم الحاصلة بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلغا ويزدوجان على وجه

مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل الناتج من ازدواج الفحل

والأنثى

ثم كما أن من أراد أن يستنج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل  
مخصوص من الخيل الذكر والأنثى وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص  
فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما  
العلم المستفاد المطلوب فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم

(287/309)

---

ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلاً  
بالمرأة فإنه إذا رفع المرأة يازاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا وإن  
رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرأة عن عينه فلا يرى المرأة ولا صورة القفا فيها  
فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويراعي  
مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا ثم تنطبع صورة هذه  
المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين ثم تدرك العين صورة القفا فكذلك في اقتناص  
العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب ما ذكرناه في المرأة يعز على بسيط  
الأرض من يهتدي إلى كيفية الحيلة في تلك الأزورارات



فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور  
والإفكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر  
العالم بهذه الخاصية والشرف  
وإليه الإشارة بقوله عز وجل إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن  
يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات  
والأرض والجبال بها صار مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى  
وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها في  
الأصل ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها  
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه  
ويمجسانه // حديث كل مولود يولد على الفطرة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة  
وقول رسول الله

صلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت  
السماء // حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم الحديث تقدم  
إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلوب وبين الملكوت

---

وإليه الإشارة بما روى عن ابن عمر رضی الله عنهما قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السماء قال في قلوب عباده المؤمنين // حديث ابن عمر أين الله قال في قلوب عباده المؤمنين لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال إن لله آية من أهل الأرض وآية ربكم قلوب عباده الصالحين الحديث فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث //

وفي الخبر قال الله تعالى لم يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوداع // حديث قال الله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوداع لم أر له أصلاً وفي حديث أبي عتبة قبله عند الطبراني بعد قوله وآية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألبينها وأرقها

وفي الخبر أنه قيل يا رسول الله من خير الناس فقال كل مؤمن مخموم القلب فقيل وما مخموم القلب فقال هو التقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد //

حديث قيل من خير الناس قال كل مؤمن مخموم القلب الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح //

ولذلك قال عمر رضي الله عنه رأى قلبي ربي

إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك  
والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض أما جملتها فأكثر سعة من  
السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان  
واسع الأطراف متباعد الأكفاف فهو متناه على الجملة وأما عالم الملكوت وهي الأسرار  
الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلانهاية له نعم الذي يلوح للقلب  
منه مقدار متناه ولكنه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله لانهاية له

(289/309)

---

وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة  
الربوبية محيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ومملكته  
وعبيده من أفعاله فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم وهو سبب  
استحقاق الجنة عند أهل الحق ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما  
تجلى له من الله وصفاته وأفعاله

وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلالته قد أفلح من زكاها  
ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه أعني إشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى فمن

يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام أضمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه

نعم هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب

المرتبة الأولى إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض

والثانية إيمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام

والثالثة إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين

ونبين لك هذه المراتب بمثال وهو أن تصديقك بكون زيد مثلاً في الدار له ثلاث درجات

الأولى أن يخبرك من تجربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا اتهمته في القول فإن قلبك يسكن

إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع وهذا الإيمان بمجرد التقليد وهو مثل إيمان العوام فإنهم لما

بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر

صفاته وبعثة الرسل وصدقهم وما جاءوا به وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه

ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بأبائهم وأمهاتهم ومعلميهم وهذا الإيمان

سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لأنه ليس

فيه كشف وبصيرة وانسراح صدر بنور اليقين إذ الخطأ ممكن فيما سمع من الأحاد بل من

الأعداد فيما يتعلق

---

بالاعتقادات فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم إلا أنهم  
اعتقدوا ما اعتقدوا خطأ لأنهم ألقى إليهم الخطأ والمسلمون اعتقدوا الحق لا لإطلاعهم  
عليه ولكن ألقى إليهم كلمة الحق

الرتبة الثانية أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به  
على كونه في الدار فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك  
بمجرد السماع فإنك إذا قيل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته ازدادت به يقينا لأن الأصوات  
تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة فيحكم قلبه  
بأن هذا صوت ذلك الشخص وهذا إيمان ممزوج بدليل والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق إليه إذ  
الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال  
السامع لأنه ليس يجعل للتهمة موضعا ولا يقدر في هذا التلبس والمحاكاة غرضا  
الرتبة الثالثة أن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده وهذه هي المعرفة الحقيقية  
والمشاهدة اليقينية وهي تشبه معرفة المقربين والصديقين لأنهم يؤمنون عن مشاهدة  
فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ  
نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم ودرجات الكشف  
أما درجات الكشف فمثاله أن يبصر زيدا في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت

إشراق الشمس فيكمل له إدراكه والآخر يدركه في بيت أو من بعد أو في وقت عشية  
فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من

صورته

ومثل هذا متصور في تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية

وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيدا وعمرا وبكرا غير ذلك وآخر لا يرى إلا زيدا

فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة

فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدينية

والأخرية

(291/309)

---

أعلم أن القلب بغيريته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التي تحل فيه

تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية

والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة

والمكتسبة إلى دنيوية وأخرية

أما العقلية فنعني بها ما تقضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع وهي تنقسم إلى  
ضرورة لا يدري من أين حصلت وكيف حصلت كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا  
يكون في مكانين والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما معا فإن هذه علوم  
يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطورا عليها ولا يدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين  
حصل له أعني أنه لا يدري له سببا قريبا وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه  
وهده

وإلى علوم مكتسبة وهي الاستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلا  
قال علي رضي الله عنه

رأيت العقل عقليين . . . فمطبوع ومسموع

ولا ينفع مسموع . . . إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس . . . وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلي ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل //

حديث ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول

بإسناد ضعيف وقد تقدم في العلم //

والثاني هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه إذا تقرب الناس إلى الله

تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك // حديث إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب  
أنت بعقلك أخرجه أبو نعيم من حديث علي بإسناد ضعيف //

(292/309)

---

إذا لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة ولكن مثل علي رضي  
الله عنه هو الذي يقدر على التقرب باستعمال العقل في اقتناص العلوم التي بها ينال القرب  
من رب العالمين فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر في العين  
وقوة الإبصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه  
الليل والعلم الحاصل منه في القلب جار مجرى قوة إدراك البصر في العين ورؤيته لأعيان  
الأشياء وتأخر العلوم عن عين العقل في مدة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهي تأخر  
الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات والقلم الذي  
سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجرى مجرى قرص الشمس وإنما لم يحصل العلم في  
قلب الصبي قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نفس العلم والقلم عبارة عن خلق من  
خلق الله تعالى جعله سببا لحصول نقش العلوم في قلوب البشر قال الله تعالى الذي علم بالقلم  
علم الإنسان ما لم يعلم وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصفه وصف خلقه



فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض فالموازنة بين  
البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه لا مناسبة بينهما في  
الشرف فإن البصيرة الباطنة هي عين النفس التي هي اللطيفة المدركة وهي كالفارس  
والبدن كالفرس وعمى الفارس أضرم على الفارس من عمى الفرس بل لا نسبة لأحد  
الضررين إلى الآخر

(293/309)

---

ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ما كذب الفؤاد ما رأى  
سمى إدراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض  
وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض في  
معرض الامتنان ولذلك سمي ضد إدراكه عمى فقال تعالى فإنها لا تعمى الأبصار ولكن  
تعمية القلوب التي في الصدور وقال تعالى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى  
وأضل سبيلا فهذا بيان العلم العقلي

(294/309)

---

أما العلوم الدينية فهي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما بعد السماع وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الأدوية والأمراض فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وإن كان محتاجا إليها كما أن العقل غير كاف في استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء إذ مجرد العقل لا يهتدي إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل فلاغنى بالعقل عن السماع ولاغنى بالسماع عن العقل فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور فأياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء فكذلك أمراض القلوب لا يكثر علاجها إلا بالأدوية المستفاد من الشريعة وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادات الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض في

الدين فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه  
خيل إليه نقضا في الدين وهيهات وإنما مثاله مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها  
بأواني الدار فقال لهم ما بال هذه الأواني

(295/309)

---

تركت على الطريق لم لا ترد إلى مواضعها فقالوا له تلك الأواني في مواضعها وإنما أنت لست  
تهدي للطريق لعمالك فالعجب منك أنك لا تحيل عشرتك على عمالك وإنما تحيلها على  
تقصير غيرك فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية  
والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية  
فالدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات  
والأخروية كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله كما  
فصلناه في كتاب العلم وهما علما من متافيان أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى  
تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ولذلك ضرب علي رضي الله عنه للدنيا  
والآخرة ثلاثة أمثلة فقال هما ككفتي الميزان وكالمشرق والمغرب وكالضرتين إذا أرضيت  
إحدهما أسخطت الأخرى

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالا في  
أمور الآخرة والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالا في أكثر علوم الدنيا لأن قوة العقل لا تنفي  
بالأميرين جميعا في الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال في الثاني ولذلك قال صلى الله  
عليه وسلم إن أكثر أهل الجنة البله // حديث أكثر أهل الجنة البله أخرجه البزار من  
حديث أنس وضعفه وصححه القرطبي في التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدي أنه  
منكر // أي البله في أمور الدنيا

(296/309)

---

وقال الحسن في بعض مواعظه لقد أدركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو أدركوكم لقالوا  
شياطين فمهما سمعت أمرا غريبا من أمور الدين جحدته أهل الكياسة في سائر العلوم فلا  
يغرنك جحودهم عن قبوله إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب  
فكذلك يجري أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة  
الدنيا واطمأنوا بها الآية وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم  
غافلون وقال عز وجل فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من  
العلم فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله

لتدبير عبادته في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة  
الإلهية التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها فأما قلوب سائر الخلق فإنها إذا استقلت  
بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها . انتهى انتهى . ١٠ هـ

❖ الإحياء ح 3 ص 18.2 ❖

(297/309)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب : الحاوي في تفسير القرآن الكريم  
ويسمى ( جنة المشتاق في تفسير كلام الملك الخلاق )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسُلَى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العاشر بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/310)

---

الجزء العاشر بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 25 ﴾ من سورة الأنفال

وحتى الآية ﴿ 32 ﴾ من نفس السورة

(4/310)

---

قوله تعالى ﴿ وَأَنْتُمْ فِتْنَةٌ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

العِقَابِ ﴾ (25)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان لجيب ربما قال : ليس عليّ إلا الإجابة في خاصة نفسي ، وليس عليّ تعريض

نفسى للأذى بالأخذ على يد غيري ، بَّه سبحانه على أن ذلك منابذة للدين واجتثاث له من أصله ، لأن ترك العاصي على عصيانه كترك الكافر على كفرانه ، وذلك موجب لعموم البلاء ، ومزيد القضاء فقال تعالى : ﴿ وانقوا فتنة ﴾ أي بلاء مميلاً محيلاً إن لا تقوه يعمكم ، هكذا كان الأصل ، لكن لما كان نهى الفتنة على إصابتهم أروع من سوق ذلك مساق الشرط ومن نهيمهم عن التعريض لها لما فيه من تصوير حضورها وفهمها للنهي أتى به ، ولما كان نهيمها عن تخصيص الظالم أشد روعة لإفهامه ، أمرها بأن تعم ؛ قال مجيباً للأمر : ﴿ لا تصيين ﴾ ولحقه نون التأكيد لأن فيه معنى النهي ﴿ الذين ظلموا ﴾ أي فعلوا بموافقة المعصية ما لا يفعله إلا من لا نور له ﴿ منكم ﴾ أيها المأمورن بالتقوى ﴿ خاصة ﴾ أي بل تعمكم ، فهو نهى للفتنة والمراد نهى مباشرتها ، أي لا يفعل أحد منكم الذنب يصيبكم أثره عموماً أو لا يباشر أسباب العذاب بعضكم والبعض الآخر مقر له يعمكم الله به ، وذلك مثل : لا أرينك ها هنا ، والمعنى فكن ها هنا فأراك فالتقدير : واجعلوا بينكم وبين البلاء العام وقاية بإصلاح ذات بينكم واجتماع كلمتكم على أمر الله ورد من خالف إلى أمر الله ولا تختلفوا كما اختلفتم في أمر الغنيمة فتفشلوا فيسلط عليكم عذاب عام من أعدائكم أو غيرهم ، فإن كان الطائع منكم أقوى من العاصي أو ليس أضعف منه فلم يردده فقد اشترك الكل في الظلم ، ذلك بفعله وهذا برضاه ، فيكون العذاب عذاب انتقام للجميع ؛ روى أصحاب السنن الأربعة وحسنه الترميذي عن أبي الصديق -رضى الله عنهم- أنه قال في

خطبة خطبها : أيها الناس ! إنكم تقرؤون هذه الآية وتأولونها على خلاف تأويلها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم ﴾ [ المائدة : 105 ] إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم

(5/310)

---

من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده " ؛ وللترمذي وحسنه عن حذيفة - رضى الله عنهم - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " والذي نفسي بيد ! لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم " ؛ وللإمام أحمد عنه - رضى الله عنهم - أنه قال : لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتحاضن على الخير أو ليسحتنكم الله جميعاً بعذاب أو ليؤمرن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لكم . وهو في حكم المرفوع لأنه لا يقال من قبل الرأي ، فإن كان الطائع أضعف من العاصي نزل على ما روى أبو داود والترمذي - وحسنه - وابن ماجه عن أبي ثعلبة الخشني - رضى الله عنهم - أنه قيل له : " كيف تقول في هذه الآية ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ [ المائدة : 105 ] فقال : أما والله لقد سألت عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : بل اتتمروا



بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وديناً مؤثرة  
وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام ، فإن من ورائكم أيام الصبر  
، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله  
، قال : يارسول الله ! أجر خمسين رجلاً منهم ؟ قال : أجر خمسين منكم " والأحاديث في  
مثله كثيرة ، وحينئذ يكون العذاب للعاصي نقمة وللطائع رحمة ويبعثون على نياتهم .  
ولما حذرهم سبحانه عموم البلاء ، أتبعه الإعلام بأنه قادر مربوب ليلزموا سبيل الاستقامة  
فقال : ﴿ واعلموا أن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بصفات العظمة ﴿ شديد العقاب ﴾ .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 204 . 205 ﴾

(6/310)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَانْتَفُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾

اعلم أنه تعالى كما حذر الإنسان أن يحال بينه وبين قلبه ، فكذلك حذره من الفتن ، والمعنى  
: واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة بل تعدى إليكم جميعاً وتصل

إلى الصالح والطالح .

عن الحسن : نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير وهو يوم الجمل خاصة .

قال الزبير : نزلت فينا وقرأناها زماناً وما ظننا أننا أهلها فإذا نحن المعنيون بها ، وعن

السدي : نزلت في أهل بدر اقتتلوا يوم الجمل ، وروي أن الزبير كان يسامر النبي صلى الله

عليه وسلم يوماً إذ أقبل علي رضي الله عنه ، فضحك إليه الزبير فقال رسول الله : "كيف

حبك لعلي ، فقال يا رسول الله أحبه كحبي لولدي أو أشد فقال : "كيف أنت إذا سرت إليه

تقاتله" .

فإن قيل : كيف جاز دخول النون المؤكدة في جواب الأمر ؟

قلنا : فيه وجهان : الأول : أن جواب الأمر جاء بلفظ النهي ، ومتى كان كذلك حسن

إدخال النون المؤكدة في ذلك النهي ، كقولك انزل عن الدابة لا تطرحك أو لا تطرحنك ،

وكقوله تعالى : ﴿ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ [

النمل : 18 ] الثاني : أن التقدير : واتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ، إلا أنه

جاء بصيغة النهي مبالغة في نفي اختصاص الفتنة بالظالمين كأن الفتنة نهيت عن ذلك

الاختصاص .

وقيل لها لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، والمراد منه : المبالغة في عدم الاختصاص على

سبيل الاستعارة .

ثم قال تعالى: ﴿واعلموا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والمراد منه: الحث على لزوم الاستقامة خوفاً من عقاب الله.

فإن قيل: حاصل الكلام في الآية أنه تعالى يخوفهم من عذاب لو نزل لعم المذنب وغيره، وكيف يليق برحمة الرحيم الحكيم أن يوصل الفتنة والعذاب إلى من لم يذنب؟

(7/310)

---

قلنا: إنه تعالى قد ينزل الموت والفقر والعمى والزمانة بعبدته ابتداء، إما لأنه يحسن منه تعالى ذلك بحكم المالكية، أو لأنه تعالى علم اشتمال ذلك على نوع من أنواع الصلاح على اختلاف المذاهب، وإذا جاز ذلك لأحد هذين الوجهين فكذا ههنا. والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب ج 15 ص 120. 121﴾

(8/310)

---

وقال ابن العربي:  
قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

العقاب ❁ .

فيها أربع مسائل :

المسألة الأولى : في تأويل الفتنه : فيها ثلاثة اقوال : الأول : الفتنه : المناكير ؛ نهى الناس أن يقرؤها بين أظهرهم فيعمهم العذاب ؛ قاله ابن عباس .

الثاني : أنها فتنه الأموال والأولاد ، كما قال : ❁ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنه ❁  
رواه عبد الله بن مسعود .

وقد روى حذيفة في الحديث الصحيح حين سأل عمر عن الفتنه ، فقال له حذيفة : ❁  
فتنه الرجل في جاره وماله وأهله يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف ، والنهي عن

المنكر ❁ .

الثالث : أنها البلاء الذي يبتلى به المرء ؛ قاله الحسن .

المسألة الثانية : المختار عندنا : أنها فتنه المناكير بالسكوت عليها أو التراضي بها ، وكل ذلك مهلك ، وهو كان داء الأمم السالفه قال الله سبحانه : ❁ كانوا لا يتناهون عن منكر

فعلوه ❁ .

وقد قدمنا من تفسير قوله : ❁ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا

اهتديتم ❁ .

أن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده .

وَبَيَّنَتْ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَنْهَلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخُبْتُ﴾ .

وَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِذَنْبِ الْخَاصَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا عَمِلَ الْمُتَكْرِبُ جَهَارًا اسْتَحَلُّوا الْعُقُوبَةَ كُلَّهُمْ.

وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا

اَكْتَسَبَتْ﴾ .

وَقَالَ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ﴿فَقَدْ أَخْبَرَنَا رَبُّنَا أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، وَأَنَّهُ لَا يُؤْخَذُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا تَعْلَقُ كُلُّ عُقُوبَةٍ بِصَاحِبِ الذَّنْبِ، يُبَدِّدُ النَّاسَ إِذَا تَظَاهَرُوا بِالْمُنْكَرِ فَمِنْ الْفُرْضِ عَلَى كُلِّ مَنْ رَأَاهُ أَنْ يُغَيِّرَهُ، فَإِذَا سَكَتَ عَنْهُ فَكُلُّهُمْ عَاصٍ، هَذَا بِنِعْلِهِ، وَهَذَا بِرِضَاهُ بِهِ .

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِي حُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ الرَّاضِيَ بِمَنْزِلَةِ الْعَامِلِ؛ فَاتَّظَمَ الذَّنْبُ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَمْ يَتَّعَدْ مَوْضِعَهُ، وَهَذَا نَفِيسٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ .

فَإِنْ قِيلَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ : فَمَا مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ ؟ قُلْنَا : هِيَ آيَةٌ بَدِيعَةٌ ، وَمَعْنَاهَا  
عَلَى النَّاسِ مُرْتَبِكٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَا فِي قَبْسِ الْمُوْطَأِ ، وَفِي " مُلْجَةِ الْمُتَفَهِّمِينَ " .  
لِبَابِهِ أَنْ قَوْلَهُ : ( انْقُوا ) أَمْرٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ نَهْيٌ ، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ جَوَابَ الْأَمْرِ ، فَيَبْقَى  
الْأَمْرُ بغيرِ جَوَابٍ ، فَيُشْكَلُ الْخِطَابُ .

(10/310)

---

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ نَهْيٌ دُخُولُ النُّونِ الثَّقِيلَةِ فِيهِ ، وَهِيَ لَا  
تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى فِعْلِ النَّهْيِ ، أَوْ جَوَابِ الْقَسَمِ .  
وَلَا نَظَنُّوْا أَنَّ إِشْكَالَ هَذِهِ الْآيَةِ حَدَثَ بَيْنَ الْمُتَأَخِّرِينَ ؛ بَلْ هُوَ أَمْرٌ سَالَفٌ عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ ،  
وَلِذَلِكَ قَرَأَهَا قَوْمٌ : وَأَنْقُوا فِتْنَةً أَنْ تُصِيبَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً .  
وَقَرَأَهَا آخَرُونَ : وَأَنْقُوا فِتْنَةً لِتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً .  
وَهَكَذَا يُرْوَى فِيهَا عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، وَكَانَ يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ إِذَا  
قَرَأَهَا : مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ فِتْنَةٌ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ .  
وَكَانَ الزُّبَيْرِيُّ يَقُولُ : كُنَّا نَظَنُّهَا لِغَيْرِنَا فَإِذَا بِهَا قَدْ أَصَابَتْنَا .

وَكَذَلِكَ كَانَ يَرَى ابْنُ عَبَّاسٍ .

وَأَمَّا

فُتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ فَلَا تَعْدَاهُ ، وَلَا تَأْخُذُ بِالْعُقُوبَةِ سِوَاهُ ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ مَا ذَكَرْنَاهُ .  
فَأَمَّا اعْتِرَاضُهُمُ بِالْأَعْرَابِ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فَقَدْ أَوْضَحْنَا هَا فِي الرَّسَالَةِ الْمُلْجِئَةِ  
وَقَلْنَا : فِيهَا ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ أُمِرَ ثُمَّ نَهِيَ ، كُلُّ وَاحِدٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ ، كَمَا تَقُولُ : قُمْ  
غَدًا .

لَا تَتَكَلَّمُ الْيَوْمَ .

الثَّانِي : الْأَعْرَابُ اتَّقُوا فِتْنَةَ إِنْ لَمْ تَتَّقَوْهَا أَصَابَتْكُمْ .

فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّ قَوْلَ : ( اتَّقُوا فِتْنَةَ ) لَيْسَ بِكَلَامٍ مُسْتَقِلٍّ ، فَيَصِحُّ أَنْ يَتَرَكَبَ عَلَيْهِ  
غَيْرُهُ .

(11/310)

---

وَأَمَّا الثَّانِي ، وَهُوَ جَوَابُ الطَّبْرِيِّ ، فَلَا يُشْبَهُ مَنْزِلَتَهُ فِي الْعِلْمِ ؛ لِأَنَّ مِجَازَهُ : لَا تُصِيبُ الَّذِينَ  
ظَلَمُوا ، وَلَمْ يَرُدُّ كَذَلِكَ .

الثَّلَاثُ : قَالَ لَنَا شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ النَّحْوِيُّ : هَذَا نَهْيٌ فِيهِ مَعْنَى جَوَابِ الْأَمْرِ ، كَمَا يُقَالُ :

لَا تَزُلْ مِنَ الدَّابَّةِ لَا تَطْرَحَنَّكَ ، وَقَدْ جَاءَ مِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ .

وَهَذَا مُنْتَهَى الْاِخْتِصَارِ وَقَدْ طَوَّلْنَاهُ فِي مَكَانِهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن

العربي ح 2 ص ﴾

(12/310)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾

قال مقاتل : نزلت الآية في شأن عليّ وطلحة والزبير .

قال الفقيه : حدثنا عمر بن محمد قال : حدثنا أبو بكر الواسطي قال : حدثنا إبراهيم بن

يوسف قال : حدثنا قبيصة ، عن سفيان ، عن جوير ، عن الضحاك في قوله تعالى : ﴿

واتقوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ قال : نزلت في شأن أصحاب محمد

صلى الله عليه وسلم .

قال : حدثنا عمر بن محمد قال : حدثنا أبو بكر الواسطي قال : حدثنا إبراهيم بن يوسف

قال : حدثنا أبو معاوية ، عن السدي ، عن المعلى ، عن أبي ذرّان عمر رضي الله عنه



أخذ بيده يوماً فغمزها ، فقال : خل عني يا قفل الفتنة .

فقال عمر : ما قولك قفل الفتنة ؟ قال : إنك جئت ذات يوم فجلست في آخر القوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تُصَيِّبَنَّكُمْ فِتْنَةٌ مَا دَامَ هَذَا فِيكُمْ " .

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال : جعلت أنا وعثمان فتنة لهذه الأمة .

وقال بعضهم : قوله ﴿ لا تُصَيِّبَنَّ ﴾ هذا على وجه النهي ومعناه اتقوا فتنة ، ثم نهى فقال

: ﴿ لا تُصَيِّبَنَّ ﴾ ، يعني الذين ظلموا منكم خاصة ، أي لا يتعرض الذين ظلموا منكم

خاصة لما نزل بهم ، وقال بعضهم هذا جواب الأمر بلفظ النهي مثل قوله تعالى : ﴿ حتى

إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان

وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ [ النمل : 18 ] .

ثم قال تعالى : ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ ، أي لمن وقع في الفتنة . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

(13/310)

وقال الثعلبي :

﴿ واتقوا فتنة ﴾

أي اختبار وبلاء يصيبكم .

وقال ابن زيد : الفتنه الضلالة ﴿ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ واختلّفوا في وجه قوله ﴿ لَا تُصِيبَنَّ ﴾ من الاعراب .

فقال أهل البصرة : قوله ( لا تصيبين ) ليس بجواب ولكنه نهي بعد أمره ، ولو كان جواباً ما دخلت النون .

وقال أهل الكوفة : أمرهم ثم نهاهم وفيه تأويل الجزاء فإن كان نهياً كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ [ النمل : 18 ] . أمرهم ثم نهاهم ، وفيه تأويل الجزاء وتقديره : واتقوا الله إن لم تنتهوا أصابتكم .

وقال الكسائي : وقعت النون في الجر بمكان التحذير ، فلو قلت : قم لا أغضب عليك لم يكن فيه النون لأنه جزاء محض .

وقال الفراء : هو جزاء فيه طرف من النهي كما تقول : أنزل عن الدابة لا يطرحك . ولا يطرحنك فهذا [ جزاء من ] الأمر بلفظ النهي . ومعناه : إن تنزل عنه لا يطرحنك .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خاصة . وقال : أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكرين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب .

وقال الحسن : نزلت في عليّ وعمار وطلحة والزبير قال الزبير بن العوام : يوم الجمل لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما أرنأ من أهلها فإذا نحن المعنيون بها .

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً . فَحَلَفْنَا حَتَّى أَصَابَتْنا خَاصَّةٌ . قال  
السدي : هذه الآية نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فأقبلوا .

(14/310)

---

وقال عبد الله بن مسعود ما منكم من أحد إلا هو مشتمل على الفتنه إن الله يقول : ﴿ أَنَّمَا  
أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [ الأنفال : 28 ] فَإِيكُمْ اسْتِعَاذَ فَلَيْسْتَ عِزًّا بِاللَّهِ مِنْ مَضَلَّاتِ  
الفتن .

حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون من ناس من أصحابي  
إساءة يغفرها الله لهم بصحبته إياي يستن بهم فيها ناس يعذبهم فيدخلهم الله بها النار " .  
يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبي هريره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا  
تقوم الساعة حتى تأتي فتنة [ عمياء مظلمة ] المضطجع فيها خير من الجالس والجالس  
فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي " .  
فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله إن أدركتني [ وأنا  
مضطجع ] قال : " فامش " .

قال : أفرأيت إن أدركتني وأنا أمشي . قال " ارقد " قال : أفرأيت إن أدركتني وأنا راقد

فأجلس . قال : أفرايت إن أدركتني وأنا جالس .

قال : " فقل هكذا بيدك ، وضم يديه الى جسده ، حتى تكون عند الله المظلوم ولا تكون عند الله الظالم " .

عن زيد بن أبي زياد عن زيد بن الأصم عن حذيفة قال : أتكم فتن كقطع الليل المظلم يهلك فيها كل شجاع بطل وكل راكب موضع وكل خطيب مشفع . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(15/310)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾

فيها أربعة أقاويل :

أحدها : أنه المنكر ، أمر الله تعالى المؤمنين ألا يقروه بين أظهرهم فيعذبهم العذاب قاله ابن عباس .

والثاني : أنها الفتنة بالأموال والأولاد كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [

الأنفال : 28 ] قاله عبد الله بن مسعود .

والثالث : أن الفتنة ها هنا البلية التي يبلى الإنسان بها ، قاله الحسن .

والرابع : أنها نزلت في النكاح بغير وليّ ، قاله بشر بن الحارث .

ويحتمل خامساً : أنها إظهار البدع .

وفي قوله تعالى : ﴿ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ وجهان :

أحدهما : لا تصيبن الفتنة الذين ظلموا .

الثاني : لا يصيبن عقاب الفتنة ، فتكون لأهل الجرائم عقوبة ، ولأهل الصلاح ابتلاء .

وفيه وجه ثالث : أنه دعاء للمؤمن أن لا تصيبه فتنة ، قاله الأخفش . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(16/310)

وقال ابن عطية :

﴿ وَأَنْتُقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾

هذه الآية تحتمل تأويلات ، أسبقها إلى النفس أن يريد الله أن يحذر جميع المؤمنين من فتنة إن

أصابت لم تخص الظلمة فقط ، بل تصيب الكل من ظالم وبريء ، وهذا التأويل تأول فيها

الزبير بن العوام رضي الله عنه ، فإنه قال يوم الجمل وما علمت أنا أردنا بهذه الآية إلا اليوم ،

وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب بها ذلك الوقت ، وكذلك تأول الحسن البصري ، فإنه قال :  
هذه الآية في علي وعمار وطلحة والزبير ، وكذلك تأول ابن عباس ، فإنه قال : أمر الله  
المؤمنين في هذه الآية أن لا يقرؤا المنكرين أظهرهم فيعمهم العذاب ، وبينه القتيبي فيما ذكر  
مكي عنه بيانا شافيا .

قال القاضي أبو محمد : فيجيء قوله ﴿ لا تصيبن ﴾ على هذا التأويل صفة ل ﴿ فتنة ﴾  
﴿ ، فكان الواجب إذا قدرنا ذلك أن يكون اللفظ لا تصيب وتلطف لدخول النون الثقيلة  
في الخبر عن الفتنة فقال الزجاج : زعم بعض النحويين أن الكلام جزاء فيه طرق من النهي ،  
قال ومثله قوله تعالى : ﴿ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم ﴾ [ النمل : 18 ] فالمعنى أن  
تدخلوا لا يحطمنكم فكذلك هذا إن تثقوا لا تصيبن ، وقال قوم : هو خبر بمعنى الجزاء  
فلذلك أمكن دخول النون ، وقال المهدوي : وقيل هو جواب قسم مقدر تقديره وانتقوا فتنة  
لا تصيبن ، ودخلت النون مع لا حملا على دخولها مع اللام فقط .

(17/310)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا في القول تكراه ، لأن جواب القسم إذا دخلته " لا " أو كان  
منفيا في الجملة لم تدخل النون ، وإذا كان موجبا دخلته اللام والنون الشديدة كقوله والله لا

يقوم زيد والله ليقومن زيد ، هذا هو قانون الباب ولكن معنى هذه الآية يستقيم مع التكره  
الذي ذكرناه والتأويل الآخر في الآية هو أن يكون قوله ﴿ وانقوا فتنة ﴾ خطاباً عاماً لجميع  
المؤمنين مستقلاً بنفسه تم الكلام عنده ثم ابتدأ نهى الظلمة خاصة عن التعرض للظلم  
فتصبيهم الفتنة خاصة وأخرج النهي على جهة المخاطبة للفتنة فهو نهى محمول .

والعرب تفعل هذا كما قالوا لا أرينك ها هنا يريدون لا نقم ها هنا فتقع مني رؤيتك ، ولم  
يريدوا نهى الإنسان الرائي نفسه ، فكذلك المراد في الآية لا يقع من ظلمتكم ظلم فتقع من  
الفتنة إصابتهم ، نحاً إليه ، الزجاج ، وهو قول أبي العباس المبرد وحكاة النقاش عن الفراء ،  
ونهى الظلمة ها هنا بلفظ مخاطبة الجمع كما تقول ليقوم لا يفعل سفهاءكم كذا وكذا وأنت  
إنما تريد نهى السفهاء فقط ، و ﴿ خاصة ﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره إصابة خاصة  
، فهي نصب على الحال لما انحذف المصدر من الضمير في ﴿ تصيين ﴾ وهذا الفعل هو  
العامل ، ويحتمل أن تكون ﴿ خاصة ﴾ حالاً من الضمير في ﴿ ظلموا ﴾ ولا يحتاج إلى  
تقدير مصدر محذوف والأول أمكن في المعنى ، وقرأ علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبو  
جعفر محمد بن علي والربيع بن أنس وأبو العالية وابن جمار " لتصيين " باللام على جواب  
قسم ، والمعنى على هذا وعيد الظلمة فقط ، قال أبو الفتح : يحتمل أن يراد بهذه القراءة "  
لا تصيين " فحذف الألف من " لا " تخفيفاً واكتفاءً بالحركة كما قالوا أم والله ويحتمل أن يراد  
بقراءة الجماعة ، " لا تصيين " فمطلت حركة اللام فحدثت عنها ألف .

(18/310)

---

قال القاضي أبو محمد: وهذا تنطع في التحميل وحكى النقاش هذه القراءة عن الزبير بن العوام، وهذا خلاف لما حكى الطبري وغيره من تأويل الزبير رضي الله عنه في الآية، وحكى النقاش عن ابن مسعود أنه قرأ "واتقوا فتنة أن تصيب" وقوله ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ وعيد يلتئم مع تأويل الزبير والحسن التماماً حسناً ويلتئم مع سائر التأويلات بوجوه مختلفة.

وروي عن علي بن سليمان الأخفش أن قوله ﴿لا تصيبن﴾ هي على معنى الدعاء ذكره الزهراوي. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز ح 2 ص﴾

(19/310)

---

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة﴾

اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال.



أحدها : أنها نزلت في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، قاله ابن عباس ،  
والضحاك .

وقال الزبير بن العوام : لقد قرأناها زماناً ، وما نرى أننا من أهلها ، فإذا نحن المعنئون بها .

والثاني : أنها نزلت في رجلين من قريش ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، ولم يسمهما .

والثالث : أنها عامة ، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : في هذه الآية ، أمر الله المؤمنين أن

لا يُقرُّوا المنكرين أظهرهم ، فيعمهم الله بالعذاب .

وقال مجاهد : هذه الآية لكم أيضاً .

والرابع : أنها نزلت في علي ، وعمار ، وطلحة ، والزبير ، قاله الحسن .

وقال السدي : نزلت في أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل .

وفي الفتنة ها هنا سبعة أقوال .

أحدها : القتال .

والثاني : الضلالة .

والثالث : السكوت عن إنكار المنكر .

والرابع : الاختبار .

والخامس : الفتنة بالأموال والأولاد .

والسادس : البلاء .

والسابع: ظهور البدع.

فأما قوله: ﴿ لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فقال الفراء: أمرهم، ثم نهاهم، وفيه طرف من الجزاء.

وإن كان نهياً، كقوله: ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان ﴾ [ النمل : 18 ] أمرهم، ثم نهاهم؛ وفيه تأويل الجزاء.

وقال الأخفش: ﴿ لا تصيبن ﴾ ليس بجواب، وإنما هو نهى بعد نهى؛ ولو كان جواباً ما دخلت النون.

وذكر ابن الأنباري فيها قولين.

أحدهما: أن الكلام تأويله تأويل الخبر، إذ كان المعنى: إن لا يتقوها، تُصِبُّ الذين ظلموا، أي: وغيرهم، أي: لا تقع بالظالمين دون غيرهم، لكنها تقع بالصالحين والطالحين؛ فلما ظهر الفعل ظهور النهي، والنهي راجع إلى معنى الأمر، إذ القائل يقول: لا تقم، يريد: دع القيام، ووقع مع هذا جواباً للأمر، أو كالجواب له، فأُكِّد له شبه النهي، فدخلت النون المعروف دخولها في النهي وما يضارعه.

(20/310)

---

والثاني: أنها نهي محض ، معناه : لا يقصدن الظالمون هذه الفتنة ، فيهلكوا ؛ فدخلت

النون لتوكيد الاستقبال ، كقوله : ﴿ لا يحطمنكم ﴾ .

وللمفسرين في معنى الكلام قولان .

أحدهما : لا تصيبن الفتنة الذين ظلموا .

والثاني : لا يصيبن عقاب الفتنة .

فإن قيل : فما ذنب من لم يظلم ؟ فالجواب : أنه بموافقته للأشرار ، أو بسكوته عن الإنكار ،

أو بتركه للفرار ، استحق العقوبة .

وقد قرأ عليٌّ ، وابن مسعود ، وأبيُّ بن كعب : "لَتَصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا" بغير ألف . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(21/310)

وقال القرطبي :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (25)



فيه مسألتان :

الأولى : قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يُقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب .  
وكذلك تأوّل فيها الزبير بن العوّام فإنه قال يوم الجمل ، وكان سنة ست وثلاثين : ما علمت أنا  
أردنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت .  
وكذلك تأوّل الحسن البصري والسّدي وغيرهما .

قال السّدي : نزلت الآية في أهل بدر خاصة : فأصابتهم الفتنة يوم الجمل فاقتتلوا .  
وقال ابن عباس رضي الله عنه ؛ نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله صلى الله عليه  
وسلم : وقال : أمر الله المؤمنين ألا يُقرّوا المنكر فيما بينهم فيعمهم الله بالعذاب .  
وعن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون بين ناس من  
أصحابي فتنة يغفرها الله لهم بصحبته إياي يستنّب بهم فيها ناس بعدهم يدخلهم الله بها  
النار " .

قلت : وهذه التأويلات هي التي تعضدها الأحاديث الصحيحة ؛ ففي صحيح مسلم "  
عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا رسول  
الله ، أنهلك وفينا الصالحون قال : " نعم إذا كثرت الخبث " وفي صحيح الترمذي : " إن  
الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " وقد  
تقدّمت هذه الأحاديث .

---

وفي صحيح البخاريّ والترمذي عن النعمان بن بشير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :  
"مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ  
أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ  
فَقَالُوا لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نَأْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِن يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا  
وَإِن أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَبَجَوْا جَمِيعًا" ففي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب  
الخاصة.

وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال علماؤنا : فالفتنة إذا عملت هلك الكل .

وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير ، وإذا لم تُغيَّرْ وجب على المؤمنين  
المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها .

وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم ؛ كما في قصة السَّبْتِ حين هجروا العاصين  
وقالوا لا نساكنكم .

وبهذا قال السلف رضي الله عنهم .

روى ابن وهب عن مالك أنه قال : تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهاراً ولا يستقر

فيها .

واحتج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا ، فأجاز بيع

سقاية الذهب بأكثر من وزنها .

خرجه الصحيح .

وروى ابن البخاري عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم " فهذا يدل

على أن الهلاك العام منه ما يكون طهرة للمؤمنين ومنه ما يكون نقمة للفاسقين .

وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير " أن عائشة رضي الله عنها قالت : عبث رسول الله

صلى الله عليه وسلم في منامه ، فقلت : يا رسول الله ، صنعت شيئاً في منامك لم تكن

تفعله ؟ فقال : " العجب ، إن ناساً من أمتي يؤمنون هذا البيت برجل من قريش قد لجأ

بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم " .

فقلنا : يا رسول الله ، إن الطريق قد يجمع الناس .

(23/310)

---

قال : " نعم ، فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر

شتى يبعثهم الله تعالى على نياتهم " " فإن قيل : فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

أخرى ﴿ [ الأنعام: 164 ] .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [ المدثر: 38 ] .

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [ البقرة: 286 ] .

وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب .

فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره ؛ فإذا سكت

عليه فكلهم عاص .

هذا بفعله وهذا برضاه .

وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل ؛ فانتظم في العقوبة ؛ قاله ابن

العربيّ : وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا .

ومقصود الآية : واتقوا فتنة تعدى الظالم ، فتصيب الصالح والطالح .

الثانية : واختلف النحاة في دخول النون في " لا تصيبن " .

قال الفراء : هو بمنزلة قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنك ؛ فهو جواب الأمر بلفظ النهي ؛

أي إن تنزل عنها لا تطرحنك .

ومثله قوله تعالى : ﴿ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم ﴾ [ النمل: 18 ] .

أي إن تدخلوا لا يحطمنكم ؛ فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء .

وقيل : لأنه خرج مخرج القسم ، والنون لا تدخل إلا على فعل النهي أو جواب القسم .

وقال أبو العباس المبرد: إنه نهى بعد أمر، والمعنى النهي للظالمين؛ أي لا تقربن الظلم.

وحكى سيبويه: لا أرينك هاهنا؛ أي لا تكن هاهنا؛ فإنه من كان هاهنا رأته.

وقال الجرجاني: المعنى اتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا خاصة.

فقوله ﴿لَا تُصَيِّنَنَّ﴾ نهى في موضع وصف النكرة؛ وتأويله الإخبار بإصابتها الذين

ظلموا.

وقرأ عليّ وزيد بن ثابت وأبي وابن مسعود "لتصين" بلا ألف.

(24/310)

---

قال المهدوي: من قرأ "لتصين" جازيكون مقصوراً من "لا تصين" حذف الألف كما

حذفت من "ما" وهي أخت "لا" في نحو أم والله لأفعلن، وشبهه.

ويجوز أن تكون مخالفة لقراءة الجماعة؛ فيكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة. انتهى

انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبي ح 7 ص﴾

(25/310)

---



وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾

لما أخبر الله أنه يحول بين المرء وقلبه حذر من وقوع المرء في الفتن والمعنى واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعدى إليكم جميعاً وتصل إلى الصالح والطالح وأراد بالفتنة الابتلاء والاختبار وقيل : تقديره واتقوا فتنة إن لم تتقوها أصابكم جميعاً الظالم وغير الظالم .

قال الحسن : نزلت هذه الآية في علي وعمار وطلحة والزبير .

قال الزبير : لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما نرى أنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها يعني ما كان منهم في يوم الجمل .

وقال السدي ومجاهد والضحاك وقادة : هذا في قوم مخصوصين من أصحاب محمد ( صلى الله عليه وسلم ) أصابتهم الفتنة يوم الجمل .

وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن لا يقرروا المنكر بين أظهرهم فيعصمهم الله بالعذاب فيصيب الظالم وغير الظالم روى البغوي بسنده عن عدي بن عدي الكندي قال حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يقول " إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة " والذي ذكره ابن الأثير في جامع الأصول

عن عدي بن عميرة الكندي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "إذا علمت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها" أخرجه أبو داود عن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول "ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه ولم يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا" أخرجه أبو داود .

(26/310)

---

وقال ابن زيد: أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذبه" فإن قلت ظاهر قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ يشمل الظالم وغير الظالم كما تقدم تفسير فكيف يليق برحمة الله وكرمه أن يوصل الفتنة إلى من يذنب .

قلت: إنه تعالى مالك الملك وخالق الخلق وهم عبيده وفي ملكه يتصرف فيهم كيف شاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فيحسن ذلك منه على سبيل المالكية أو لأنه تعالى علم

اشتمال ذلك على أنواع المصلحة والله أعلم بمراده .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ فيه تحذير ووعيد لمن واقع

الفتنة التي حذر الله منها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

(27/310)

وقال أبو حيان :

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ هذا الخطاب ظاهره العموم باتقاء

الفتنة التي لا تختص بالظالم بل تعم الصالح والطالح وكذلك روي عن ابن عباس قال : أمر

المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب ففي البخاري والترمذي أن

الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده ، وفي

مسلم من حديث زينب بنت جحش سألت رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) أنهلك

وفينا الصالحون ؟ قال : " نعم إذا كثرت الخبث " ، وقيل الخطاب للصحابة ، وقيل لأهل بدر ،

وقيل لعلي وعمار وطلحة والزبير ، وقيل لرجلين من قريش قاله أبو صالح عن ابن عباس ولم

يسمهما والفتنة هنا القتال في وقعة الجمل أو الضلالة أو عدم إنكار المنكر أو بالأموال

والأولاد أو بظهور البدع أو العقوبة أقوال ، وقال الزبير بن العوام يوم الجمل : ما علمت أنا

أردنا بهذه الآية إلا اليوم وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب بها في ذلك الوقت والجملة من قوله ﴿ لا تصيين ﴾ خبرية صفة لقوله فتنة أي غير مصيبة الظالم خاصة إلا أن دخول نون التوكيد على المنفى بلا مختلف فيه ، فالجمهور لا يجيزونه ويحملون ما جاء منه على الضرورة أو الدور والذي نختاره الجواز وإليه ذهب بعض النحويين وإذا كان قد جاء لحاقها الفعل مبنياً بلا مع الفصل نحو قوله :

فلاذا نعيم يتركن لنعيمه . . .

وإن قال قرظني وخذ رشوة أبي

ولاذا بئس يتركن لبؤسه . . .

فينفعه شكوى إليه إن اشتكى

فلان يلحقه مع غير الفصل أولى نحو ﴿ لا تصيين ﴾ وزعم الزمخشري أن الجملة صفة وهي نهى قال وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول كأنه قيل ﴿ واتقوا ﴾ فتنة مقولاً فيها ﴿ لا تصيين ﴾ ونظيره قوله :

حتى إذا جنّ الظلام واختلط . . .

جاءوا بمدق هل رأيت الذئب قط

أي بمدق مقول فيه هذا القول لأن فيه لون الزرقة التي هي معنى الذئب انتهى .

---

وتحريره أن الجملة معمولة لصفة محذوفة وزعم الفراء أن الجملة جواب للأمر نحو قولك : إنزل  
عن الدابة لا تطرحنك أي إن تنزل عنها لا تطرحنك ، قال : ومنه ﴿ لا يحطمنكم سليمان  
﴿ أي إن تدخلوا لا يحطمنكم فدخلت النون لما فيها من معنى الجزاء انتهى ، وهذا المثال  
بقوله ﴿ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم ﴾ ليس نظير ﴿ واتقوا فتنة ﴾ لأنه ينتظم من  
المثال والآية شرط وجزاء كما قدر ولا ينتظم ذلك هناك ألا ترى أنه لا يصح تقدير إن تقوا  
فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة لأنه يترتب إذ ذاك على الشرط مقتضاه من جهة  
المعنى وأخذ الزمخشري قول الفراء وزاده فساداً وخبط فيه فقال وقوله ﴿ لا تصيبن ﴾ لا  
يخلو من أن يكون جواباً للأمر أو نهياً بعد أمر أو صفة لفتنة فإذا كان جواباً فالمعنى إن  
أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم انتهى .

(29/310)

---

تقرير هذا القول فانظر كيف قدر أن يكون جواباً للأمر الذي هو ﴿ اتقوا ﴾ ثم قدر أداة  
الشرط داخلة على غير مضارع ﴿ اتقوا ﴾ فقال فالمعنى إن أصابتكم يعني الفتنة وانظر  
كيف قدر الفراء في أنزل عن الدابة لا تطرحنك وفي قوله ﴿ ادخلوا مساكنكم لا

يخطئكم ﴿ فادخل أداة الشرط على مضارع فعل الأمر وهكذا يقدر ما كان جواباً للأمر  
وزعم بعضهم أن قوله ﴿ لا تصيين ﴾ جواب قسم محذوف ، وقيل ﴿ لا ﴾ نافية وشبهه  
النفي بالموجب فدخلت النون كما دخلت في لتضربن التقدير : والله ﴿ لا تصيين ﴾  
فعلى القول الأول بأنها صفة أو جواب أمر أو جواب قسم تكون النون قد دخلت في المنفى  
بلا وذهب بعض النحويين إلى أنها جواب قسم محذوف والجملة موجبة فدخلت النون في  
محلها ومطلت اللام فصارت لا والمعنى لتصيين ويؤيد هذا قراءة ابن مسعود وعلى وزيد ان  
ثابت والباقر والربيع بن أنس وأبي العالية لتصيين وفي ذلك وعيد للظالمين فقط وعلى هذا  
التوجيه خرج ابن جني أيضاً قراءة الجماعة ﴿ لا تصيين ﴾ وكون اللام مطلت فحدثت  
عنها الألف إشباعاً لأن الإشباع بابه الشعر ، وقال ابن جني في قراءة ابن مسعود ومن معه  
يحتمل أن يراد بهذه القراءة ﴿ لا تصيين ﴾ فحذفت الألف تخفيفاً واكتفاء بالحركة كما  
قالوا أم والله .

قال المهدوي كما حذفت من ما وهي أخت لا في قوله أم والله لأفعلن وشبهه انتهى وليست  
للنفي ، وحكى النقاش عن ابن مسعود أنه قرأ فتنة أن تصيب ، وعن الزبير : لتصيين وخرج  
المبرد والفراء والزجاج قراءة ﴿ لا تصيين ﴾ على أن تكون ناهية .

---

وتم الكلام عند قوله ﴿ واتقوا فتنة ﴾ وهو خطاب عام للمؤمنين تم الكلام عنده ثم  
ابتدىء نهي الظلمة خاصة عن التعرض للظلم فتصيبهم الفتنة خاصة وأخرج النهي على  
جهة إسناده للفتنة فهو نهي محول كما قالوا لا أرينك ههنا أي لا تكن هنا فيقع مني رؤيتك  
والمراد هنا لا يتعرض الظالم للفتنة فتقع إصابتها له خاصة ، وقال الزمخشري في تقدير هذا  
الوجه وإذا كانت نهياً بعد أمر فكأنه قيل واحذروا ذنباً أو عقاباً ثم قيل لا تعرضوا للظلم  
فيصيب العقاب أو أثر الذنب من ظلم منكم خاصة ، وقال الأخفش ﴿ لا تصيبن ﴾ هو  
على معنى الدعاء انتهى والذي دعاه إلى هذا والله أعلم استبعاد دخول نون التوكيد في  
المنفي بلا واعتياض تقريره نهياً فعدل إلى جعله دعاءً فيصير المعنى لا أصابت الفتنة  
الظالمين خاصة واستلزمت الدعاء على غير الظالمين فصار التقدير لا أصابت ظالماً ولا  
غير ظالم فكأنه ﴿ واتقوا فتنة ﴾ ، لا أوقعها الله بأحد ، فتلخص في تخريج قوله ﴿ لا  
تصيبن ﴾ أقوال الدعاء والنهي على تقديرين وجواب أمر على تقديرين وصفة .

قال الزمخشري ، ( فإن قلت ) : كيف جاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الأمر ، ( قلت  
( : لأن فيه معنى التمني إذا قلت إنزل عن الدابة لا تطرحك فلذلك جاز لا تطرحك ولا  
تصيين ولا يحطمنكم انتهى ، وإذا قلت لا تطرحك وجعلته جواباً لقولك إنزل وليس فيه  
نهي بل نفي محض جواب الأمر نفي بلا وجزمه على الجواب على الخلاف الذي في جواب  
الأمر والستة معه هل ثم شرط محذوف دل عليه الأمر وما ذكر معه معنى الشرط وإذا  
فرعنا على مذهب الجمهور في أن الفعل المنفي بلا لا تدخل عليه النون للتوكيد لم يجز أنزل  
عن الدابة لا تطرحك ، وقال الزمخشري ، ( فإن قلت ) : ما معنى من في قوله ﴿ الذين  
ظلموا منكم خاصة ﴾ ، ( قلت ) : التبعض على الوجه الأول فالتبيين على الثاني لأن  
المعنى لا تصيبكم خاصة على ظلمكم لأن الظلم منكم أقبح من سائر الناس انتهى ، ويعني  
بالأول أن يكون جواباً بعد أمر وبالثاني أن يكون نهياً بعد أمر وخاصة أصله أن يكون نعتاً  
لمصدر محذوف أي إصابة خاصة وهي حال من الفاعل المستكن في ﴿ لا تصيين ﴾  
ويحتمل أن يكون حالاً من الذين ظلموا أي مخصوصين بها بل تعميم وغيرهم ، وقال ابن  
عطية ويحتمل أن تكون خاصة حالاً من الضمير في ظلموا ولا أتعلق هذا الوجه .

﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ هذا وعيد شديد مناسب لقوله ﴿ لا تصيين الذين  
ظلموا منكم خاصة ﴾ إذ فيه حث على لزوم الاستقامة خوفاً من عقاب الله لا يقال كيف  
يوصل الرحيم الكريم الفتنة والعذاب لمن لم يذنب ، ( قلت ) : لأنه تصرف بحكم الملك كما



قد ينزل الفقر والمرض بعبدہ ابتداءً فيحسن ذلك منه أو لأنه علم اشتمال ذلك على مزيد

ثواب لمن أوقع به ذلك . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ البحر المحیط ج 4 ص ﴾

(32/310)

وقال أبو السعود :

﴿ واتقوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾

أي لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم بل يعمه وغيره كإقرار المنكر بين أظهرهم  
والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في  
الجهاد ، على أن قوله : لا تصيبن الخ إما جواب الأمر على معنى أن إصابتكم لا تصيبن الخ  
وفيه أن جواب الشرط مترددٌ فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهي ساع فيه

كقوله تعالى : ﴿ ادخلوا مساكنكم لَا يُحِطْمَنَّكُمْ ﴾ وإما صفة لفنة ولا للنفي وفيه

شدوذ لأن النون لا تدخل المنفي في غير القسم ، أو للنهي على إرادة القول كقول من قال :

فحتى إذا جنّ الظلام واختلط . . . جاؤوا بمذقٍ هل رأيت الذئب قطّ

وإما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ : تصيبن وإن اختلف المعنى فيهما ، وقد جُوز أن

يكون نهياً عن التعرض للظلم بعد الأمر باتقاء الذئب فإن وباله يصيب الظالم خاصة ويعود

عليه ومن في منكم على الوجوه الأول للتبعيض وعلى الآخرين للتبيين ، وفائدته التنبيه على  
أن الظلم منكم أقبح منه من غيركم ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ ولذلك يصيب  
بالعذاب من لم يباشر سببه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(33/310)

وقال الأوسى :

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾

أي لا تختص إصابتها لمن يباشر الظلم منكم بل تعمه وغيره والمراد بالفتنة الذنب وفسر  
بنحو إقرار المنكر والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور  
البدع والتكاسل في الجهاد حسبما يقتضيه المعنى ، والمصيب على هذا هو الأثر كالشامة  
والوبال ، وحينئذ إما أن يقدر أو يتجوز في إصابته ، وجوز أن يراد به العذاب فلا حاجة إلى  
التقدير أو التجوز فيما ذكر لأن إصابته بنفسه ، وكذا لا حاجة إلى ارتكاب تقدير في  
جانب الأمر ولا التزام استخدام و ﴿ لا ﴾ نافية ، والجملة المنفية قيل جواب الأمر على  
معنى إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم ، واعترض بأن جواب الأمر إنما يقدر فعله من  
جنس الأمر المظهر لا من جنس الجواب ولو قدر ذلك وفاء بالقاعدة فسد المعنى ، إذ يكون

إن تتقوا الفتنة تعمكم إصابتها ولا تختص بالظالمين منكم وهو كما ترى ، وأجيب بأن أصل الكلام واتقوا فتنة لا تصيبنكم فإن أصابتكم لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل عمتم فأقيم جواب الشرط الثاني مقام جواب الشرط الثاني مقام جواب الشرط المقدر في جواب الأمر لتسببه منه ، وسمي جواب الأمر لأن المعاملة معه لفظاً .

(34/310)

---

وفيه أن البين أن عموم الإصابة ليس مسبباً عن عدم الإصابة ولا عن الأمر وظاهر التعبير يقتضيه ، وقال بعض المحققين : إن ذلك على رأي الكوفيين من تقدير ما سناصب الكلام وعدم التزام كون المقدر من جنس الملفوظ نفيّاً أو إثباتاً فيقدرون في نحو لا تدن من الأسد يأكل الإثبات أي إن تدن يأكلك وفي نحو اتقوا فتنة النفي أي إن لم تتقوا تصبكم واعترض عليه بأن ذلك القائل لم يقدر لا هذا ولا ذاك وإنما قدر ما يستقيم به المعنى من غير نظر إلى مضمون الأمر أو نقيضه ، وأجيب بأن مراده أن التقدير إن لم تتقوا تصبكم وإن أصابتكم لا تختص بالظالمين فأقيم جواب الشرط الثاني مقام جواب الشرط المقدر الذي هو نقيض الأمر لتسببه عنه ، وما أورد على هذا من أنه لا حاجة إلى اعتبار الواسطة حينئذ إذ يكفي أن يقال : إن لم تتقوا لا تصب الظالمين خاصة فمع كونه مناقشة لفظية مدفوع بأدنى

تأمل لأن عدم اختصاص إصابة الفتنة بالظالمين كما يكون بعموم الإصابة لهم ولغيرهم كذلك يكون بعدم أصابتها لهم رأساً فلا بد من اعتبار الواسطة قطعاً .

وقال بعض المتأخرين : مراد من قدر أن أصابتكم ، إن لم تتقوا على مذهب من يرى تقدير النفي ، لكنه عبر عنه بأصابت لتلازمها فلا يرد حديث الواسطة ، نعم قيل : إن جواب الشرط متردد فلا يليق تأكيده بالنون إذ التأكيد يقتضي دفع التردد ، وأجيب بأنه هنا طلبي معنى فيؤكد كما يؤكد الطلبي وهو لا ينافيه التردد في وقوعه لأنه لا تردد في طلبه على أنه قيل : إنه وإن كان متردداً في نفسه لكونه معلقاً بما هو متردد وهو الشرط لكنه ليس بمتردد بحسب الشرط ، وعلى تقدير وقوعه فيليق به التأكيد بذلك الاعتبار ، وأنت تعلم أن ابن جني رجع أن المنفي بلا يؤكد في السعة لشبهه بالنهي كما في قوله سبحانه :

﴿ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان ﴾ [النمل : 18] .

(35/310)

---

وقال ناصر الدين : إن هذا الجواب لما تضمن معنى انه يساغ توكيده ، ووجه أن النفي إذا كان مطلوباً كان في معنى النهي وفي حكمه فيجوز فيه التأكيد كالنهي الصريح ، ولا خفاء في أن عدم كونهم بحيث تصيبهم الفتنة مطلوب كما أن عدم كونهم يحطمهم سليمان وجنوده

كذلك ، وجوز أن تكون الجملة المنفية في موضع نصب صفة لفتنة ، واعترض بأن فيه شذوذاً ون النون لا تدخل المنفي في غير القسم ، وقد يجاب بأنك قد عرفت أن ابن جني وكذا بعض النحاة جوز ذلك ، وقد ارتضاع ابن مالك في التسهيل ، نعم ما ذكر كلام الجمهور .

وقال أبو البقاء وغيره : يحتمل أن تكون ﴿ لا ﴾ ناهية والجملة في موضع الفة أيضاً لكن على إرادة القول كقوله :

حتى إذا جن الظلام واختلط . . .

جاؤوا بمدق هل رأيت الذئب قط

لأن المشهور أن الجملة الإنشائية نهياً كانت أو غيرها لا تقع صفة ونحوها إلا بتقدير القول ، وقد صرحوا بأن قولك : مررت برجل أضربه بتقدير مقول فيه أضربه ، وليس المقصود بالمقولية الحكاية بل استحقاقه لذلك حتى كأنه مقول فيه ، ومن الناس من جوز الوصف بذلك باعتبار تأويله بمطلوب ضربه فلا يتعين تقدير القول ، وأن تكون الجملة جواب قسم محذوف أي والله لا تبين الظالمين خاصة بل نعم ، وحينئذ يظهر أمر التأكيد ، وأيد ذلك بقراءة علي كرم الله تعالى وجهه .

وزيد بن ثابت .

وأبي .

وابن مسعود .

والباقر .

والربيع .

وأبو العالية ﴿ لتصين ﴾ فإن الظاهر فيها القسمية ، وقيل : إن الأصل لا إلا أن الألف  
حذفت تخفيفاً كما قالوا : أم والله ، وقال بعضهم : أن ﴿ لفتاه لا ﴾ في القراءة المتواترة هي  
اللام والألف تولدت من إشباع الفتحة كما في قوله :  
فأنت من العواتك حين ترمي . . .

ومن ذم الرجال بمنزاح

(36/310)

---

وكلا القولين لا يعول عليه ، ويحتمل أن تكون نهياً مستأنفاً لتقرير الأمر وتأكيده ، وهو من  
باب الكناية لأن الفتنة لا تنهى عن الإصابة إذ لا يتصور الامتثال منها مجال ، والمعنى حينئذ  
لا تتعرضوا للظلم فتصيبكم الفتنة خاصة و ﴿ من ﴾ على تقدير كون ﴿ لا ﴾ ناهية  
سواء جعلت الجملة صفة أو مؤكدة للأمر بيانية لا تبعية لأنّها لو اعتبرت كذلك لكان  
النهي عن التعرض للظلم مخصوصاً بالظالمين منهم دون غيرهم فغير الظالم لا يكون منهياً عن

التعرض له بمنطوق الآية وذلك شيء لا يراد .

وأما على الوجوه الأخر من كون ﴿ لا ﴾ نافية لانهية سواء كان قوله سبحانه وتعالى :  
﴿ لا تُصِيبَنَّ ﴾ صفة لفتنة كما هو الظاهر أو جواب الأمر أو جواب قسم فهي تبعية  
قطعا ، إذ الآية على هذه التقادير جميعا مخبرة بأن إصابة الفتنة لا تخص بالظالمين بل تعم  
غيرهم أيضا ، فلويين الذين ظلموا بالمخاطبين لأفهمت أن الأصحاب رضي الله تعالى  
عنهم كلهم ظالموا وحاشاهم ، ثم لا يخفى أن الخطاب إذا كان عاما لأمة وفسرت الفتنة  
بإثارة المنكر لا يجيء الإشكال على عموم الإصابة بقوله سبحانه : ﴿ ولا تزرُ وازرةٌ وزرًا ﴾  
أخرى ﴿ الأنعام : 164 ﴾ لأنه كما يجب على مرتكب الذنب الانتهاء عنه يجب على  
الباقيين رفعه وإذا لم يفعلوا كانوا آثمين فيصيبهم ما يصيبهم لأثمهم .

ويدل للوجوب ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أمر الله تعالى المؤمنين أن لا  
يقروا المنكر بين أظهرهم فيهمهم الله تعالى بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم ، وأخرج  
الترمذي .

(37/310)

---

وأبو داود عن قيس بن حازم عن أبي بكر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب " وروى الترمذي أيضاً عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهاهم علماءهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم  
وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود  
وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

ومن ذهب إلى أن الخطاب خاص فسر الفتنه بافتراق الكلمة ، وجعل ذلك إشارة إلى ما  
حدث بين أصحاب بدر يوم الجمل .

ومن ذهب إلى أنهم المعنيون السدي وغيره ، وأخرج غير واحد عن الزبير قال : قرأنا هذه  
الآية زمماً وما نرى أنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها ، وقد أخرج نهيهم عن ذلك على أبلغ  
وجه وأقيم الظالمون مقام ضميرهم تنبيهاً على أن تعرض الفتنه وهي افتراق الكلمة من أشد  
الظلم لا سيما هؤلاء الأجلاء ، ثم فسر بضميرهم دلالة على الاختصاص صواًك بخاصة  
وكثيراً ما يشدد الأمر على الخاصة ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لم يخالف أمره  
وكذا من أقر من انتهك محارمه ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل ﴾ أي في العدد ، والجملة الاسمية  
للإيدان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9



وقال الشوكاني في الآيتين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ  
بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً  
وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25) ﴾

الأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الأمر بالطاعة ، ووجد الضمير هنا حيث قال :

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ كما وحده في قوله : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ [ الأنفال : 20 ] وقد قدمنا

الكلام في وجه ذلك ، والاستجابة : الطاعة .

قال أبو عبيدة معنى استجيبوا : أجبوا .

وإن كان استجاب يتعدى باللام ، وأجاب بنفسه كما في قوله : ﴿ يَا قَوْمِنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ

اللَّهِ ﴾ [ الأحقاف : 31 ] ، وقد يتعدى استجاب بنفسه كما في قول الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى . . . فلم يستجبه عند ذاك مجيب

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ اللام متعلقة بقوله : ﴿ استجيبوا ﴾ أي : استجيبوا لما

يحييكم إذا دعاكم ، ولا مانع من أن تكون متعلقة " بدعا " أي إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم

من علوم الشريعة ، فإن العلم حياة ، كما أن الجهل موت .

فالحياة هنا مستعارة للعلم .

قال الجمهور من المفسرين : المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه ففيه

الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية .

وقيل المراد بقوله : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الجهاد ، فإنه سبب الحياة في الظاهر ، لأن العدو إذا

لم يغز غزاً .

ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله

في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائناً ما كان ، ويدع ما خالفه من الرأي

وأقوال الرجال .

(39/310)

---

وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة ، وترك التقيد بالمذاهب ،

وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان .

قوله : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ قيل معناه : بادروا إلى الاستجابة قبل

أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي كتبه الله عليكم .

وقيل معناه: إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمناً، ويبدل عدوهم من الأمن خوفاً.

وقيل هو: من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: 16] ومعناه: أنه مطلع على ضمائر القلوب، لا تخفى عليه منها خافية. واختار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته عز وجل. ولا يخفأك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني.

﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ معطوف على ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ وأنكم محشورون إليه، وهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشر شراً. قال الفراء: ولو استأنفت فكسرت همزة "إنه" لكان صواباً.

ولعل مراده أن مثل هذا جائز في العربية.

قوله: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ أي: اتقوا فتنة تعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم.

وقد اختلف النحاة في دخول هذه النون المؤكدة في ﴿ تُصِيبَنَّ ﴾ فقال الفراء: هو بمنزلة

قولك: انزل عن الدابة لا تطرحنك، فهو جواب الأمر بلفظ النهي، أي إن تنزل عنها لا

تطرحنك ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ [ النمل : 18 ] أي : إن تدخلوا لا يحطمنكم .

(40/310)

---

فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء .

وقال المبرد : إنه نهى بعد أمر .

والمعنى : النهي للظالمين ، أي لا يقربن الظلم ، ومثله ما روى عن سيويه لا أرينك ها هنا .  
فإن معناه : لا تكن ها هنا ، فإن من كان ها هنا رأته .

وقال الجرجاني : إن ﴿ لا تصيبن ﴾ نهى في موضع وصف لفتنة .

وقرأ عليّ ، وزيد بن ثابت ، وأبي وابن مسعود " تصيبن " على أن اللام جواب لقسم

محذوف ، والتقدير : اتقوا فتنة والله لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة .

فيكون معنى هذه القراءة مخالفاً لمعنى قراءة الجماعة ، لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة ، بخلاف قراءة الجماعة .

﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ ، ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر

أسبابه ، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه ، ولا يعذب إلا بجنايته ،

ويمكن حمل ما في هذه الآية على العقوبات التي تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض .

ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة ، والله أعلم .

ويمكن أن يقال : إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب : كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فتكون الأسباب المتعدية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ قال : للحق .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة في الآية : قال هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، عن عروة بن الزبير ، في قوله : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ أي : للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل .

وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم .

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد بن المعلى ، قال كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، ثم أتيت فقلت : يا رسول الله إني كنت أصلي ، فقال : " ألم يقل الله تعالى ﴿ استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ " الحديث .  
وفيه دليل على ما ذكرنا من أن الآية تعم كل دعاء من الله أو من رسوله .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه من طرق ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ قال : يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله .

ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الربيع بن أنس ، في الآية قال علمه يحول بين المرء وقلبه .  
وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في الآية قال : يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن ، في الآية قال : في القرب منه .

وأخرج أحمد ، والبخاري ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن عساکر ، عن مطرف ، قال : قلت للزبير يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل ، ثم جئتم تطلبون بدمه .

قال الزبير : إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان ﴿ وانقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ ولم نكن نحسب أنها أهلها حتى

وقعت فينا حيث وقعت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن ، قال : قرأ الزبير ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ قال : البلاء والأمر الذي هو كائن .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن الحسن ، في الآية قال : نزلت في عليّ وعثمان وطلحة والزبير .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الضحاك قال نزلت في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

(42/310)

---

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن السديّ قال : نزلت في أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل فاقتلوا ، فكان من المقتولين طلحة والزبير ، وهما من أهل بدر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ في الآية قال : تصيب الظالم والصالح عامة .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال : هي مثل ﴿ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ حتى

يتركه لا يعقل .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في الآية قال : أمر الله

المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الأمة إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن

المنكر ، عمهم الله بعذاب من عنده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(43/310)

وقال القاسمي :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾

الفتنة : إما بمعنى الذنب كإقرار المنكر ، وافتراق الكلمة والتكاسل في الجهاد وإما بمعنى

العذاب .

فإن أريد الذنب فأصابته بإصابة أثره ، وإن أريد العذاب ، فأصابته بنفسه .

و: ﴿ لَا تُصِيبَنَّ ﴾ جواب للأمر ، أي : إن إصابتكم لا تخص إصابتها بمن يباشر الظلم

منكم ، بل تشملهم وغيرهم بشؤم صحبتهم ، وتعدي رذيلتهم إلى من يخالطهم ، كقوله تعالى

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ .



قاله القاشاني .

وقد روى الإمام أحمد عن جرير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من قوم يعلم

فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعملون، ثم لم يغيروه، إلا عمهم الله بعقاب .

وروي نحوه عن عدي بن عميرة وحذيفة والنعمان وعائشة وأم سلمة .

قال الكرخي : ولا يستشكل هذا بقوله تعالى : ﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ، لأن

الناس إذا تظاهروا بالمنكر ، فالواجب على كل من رآه أن يغيّره ، إذا كان قادراً على ذلك

فإذا سكت فكلهم عصاة . هذا يفعله ، وهذا برضاه . وقد جعل تعالى ، بحكمته ،

الراضي بمنزلة العامل ، فانتظم في العقوبة . انتهى .

وذكر القسطلاني : أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل

المعاصي ، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً له ، إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين ، كما يتألم

ويتوجع لفقد ماله أو ولده ، فكل من لم يكن بهذه الحالة

فهو راض بالمنكر ، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار . انتهى .

(44/310)

---

وعن ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم ، فيعمهم الله بالعذاب ﴿  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي : لمن يخالف أو امره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن  
التأويل ح 8 ص 285 . 286 ﴾

(45/310)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَنْتُقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾

عقب تحريض جميعهم على الاستجابة ، المستلزم تحذيرهم من ضدها بتحذير المستجيبين  
من إعراض المعرضين ، ليعلموا أنهم قد يلحقهم أذى من جراء فعل غيرهم إذا هم لم يُقَوِّمُوا  
عَوَجَ قَوْمِهِمْ ، كيلا يحسبوا أن امثالهم كاف إذا عصى دهماؤهم ، فحذرهم فتنة تلحقهم  
فتعم الظالم وغيره .

فإن المسلمين إن لم يكونوا كلمة واحدة في الاستجابة لله وللرسول عليه الصلاة والسلام دب  
بينهم الاختلاف واضطربت أحوالهم واختل نظام جماعتهم باختلاف الآراء وذلك الحال  
هو المعبر عنه بالفتنة .

وحاصل معنى الفتنة يرجع إلى اضطراب الآراء ، واختلال السير ، وحلول الخوف والحذر

في نفوس الناس ، قال تعالى : ﴿ وَفْتَنَّاكَ فِتُونًا ﴾ [ طه : 40 ] وقد تقدم ذكر الفتنة في قوله : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ في سورة [ البقرة : 91 ] .

فعلى عقلاء الأقسام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا ديب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حل بالناس من الضلال في نفوسهم ، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه ، وأن يمنعوه منه بما أوتوه من الموعظة والسلطان ، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا ، فإن هم تركوا ذلك ، وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره ، حتى يعم أويكاد ، فيعسر اقتلاعه من النفوس ، وذلك الاختلال يفسد على الصالحين صلاحهم وينكد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم ، فظهر أن الفتنة إذا حلت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمه والصالح ، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل ، لأن إضرار حلولها تصيب جميعهم .

(46/310)

---

وبهذا تعلم أن الفتنة قد تكون عقاباً من الله تعالى في الدنيا ، فهي تأخذ حكم العقوبات الدنيوية التي تصيب الأمم ، فإن من سنّها أن لا تخص المجرمين إذا كان الغالب على الناس هو الفساد ، لأنها عقوبات تحصل بجمادات كونية يستتب في نظام العالم الذي سنه الله تعالى

في خلق هذا العالم أن يوزع على الأشخاص كما ورد في حديث النهي عن المنكر في الصحيح: أن النبي قال: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً وفي صحيح مسلم ﴿عن زينب بنت جحش أنها قالت: "يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال: نعم إذا كثر الخبث ثم يحشرون على نياتهم".

وحرف ﴿ لا ﴾ في قوله: ﴿ لا تصيين ﴾ نهى بقرينة اتصال مدخولها بنون التوكيد المختصة بالإثبات في الخبر وبالطلب، فالجملة الطلبية: إما نعتل ﴿ فتنة ﴾ بتقدير قول محذوف، ومثله وارد في كلام العرب كقول العجاج:

حتى إذا جن الظلام واختلط  
جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط . . .  
أي مقول فيه .

---

وباب حذف القول باب متسع ، وقد اقتضاه مقام المبالغة في التحذير هنا والاتقاء من الفتنة فأكد الأمر باتقائها بنهيتها هي عن إصابتها إياهم ، لأن هذا النهي من أبلغ صيغ النهي بأن يُوجه النهي إلى غير المراد نهيه تنبيهاً له على تحذيره من الأمر المنهي عنه في اللفظ ، والمقصود تحذير المخاطب بطريق الكناية لأن نهى ذلك المذكور في صيغة النهي يستلزم تحذير المخاطب فكان المتكلم يجمع بين نهيين ، ومنه قول العرب : لا أعرِفَنَّكَ تفعل كذا ، فإنه في الظاهر المتكلم نفسه عن فعل المخاطب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لا يفتننكم الشيطان ﴾ [الأعراف : 27] ويسمى هذا بالنهي المحول ، فلا ضمير في النعت بالجملة الطلبية .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ لا تصين ﴾ نهياً مستأنفاً تأكيداً للأمر باتقائها مع زيادة التحذير بشمولها من لم يكن من الظالمين .

ولا يصح جعل جملة : ﴿ لا تصين ﴾ جواباً للأمر في قوله : ﴿ واتقوا فتنة ﴾ لأنه يمنع منه قوله : ﴿ الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ وإنما كان يجوز لو قال : "لا تصينكم" كما يظهر بالتأمل ، وقد أبطل في "مغني اللبيب" جعل (لا) نافية هنا ، ورد على الزمخشري تجويزه ذلك .

و ﴿ خاصة ﴾ اسم فاعل مؤنث لجريانه على ﴿ فتنة ﴾ فهو منتصب على الحال من

ضمير ﴿ تصيين ﴾ وهي حال مفيدة لأنها المقصود من التحذير .

وافتح جملة : ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ بفعل الأمر بالعلم للإهتمام لقصد شدة التحذير ، كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ [ الأنفال : 24 ] والمعنى أنه شديد العقاب لمن يخالف أمره ، وذلك يشمل من يخالف الأمر بالاستجابة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(48/310)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَأَنْتُمْ فِتْنَةٌ لَا تُصِيبنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾

ويأمرنا الحق عز وجل أن نتقي الفتن من بدئها قبل أن يستفحل شأنها . وأن يتجنب الإنسان المعصية ، وأن يضرب المجتمع على يد أي انحراف ، فمن يسرق الآن الخزائن قد بدأ أولاً بسرقة اليسير ، سرق من أخيه أو من البيت ثم من الجيران ثم من البنك . ولو أن كل انحراف عوجل بالضرب على يد من فعله وهو صغير لما كبر المنحرف والانحراف . وتم وأد الجرائم الكبيرة في مهدها ؛ لأن من ارتكب الصغيرة قد عوقب . وإياكم أن يقول أحدكم ما دام مثل هذا الانحراف لا يمسنني فليس لي به شأن ؛ لأن الذي اجترأ على مثلك ،

من السهل أن يجترىء عليك . ونحن نعرف جميعاً قصة الثيران الثلاثة؛ الأحمر والأبيض والأسود ، فقد هاجم الأسد الثور الأبيض فأكله ، ولم يدافع عنه الثور الأحمر أو الأسود . وهاجم الأسد الثور الأحمر بعد ذلك فقال الثور الأسود لنفسه : ما دام الأسد لم يأكلني فلا دخل لي بهذا الأمر . وجاء الأسد إلى الثور الأسود ، بينما هو يقترب منه قال : لقد أكلت يوم أكل الثور الأبيض .

إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [ الأنفال : 25 ] .

هذا القول يدلنا على أن اتقاء الفتنة يبدأ من الضرب على أيدي صانع الفتنة وهي في بدايتها . وأضرب هذا المثل ليبقى في الذاكرة دائماً ؛ إن الأم التي قسمت الأكل بما فيه من لحم وخضر وفاكهة على الأبناء ، فأكل أحد الأبناء نصيبه ، ثم احتفظت الأم ببقية أنصبة إخوته في الثلاجة ، ومن بعد ذلك لاحظت الأم أن الابن الذي أكل نصيبه يأكل نصيب أحد إخوته من خلف ظهرها ودون استئذانها ، وهنا يجب أن تُوَبنه وتعاقبه على مثل هذا الفعل حتى لا يتمادى في ذلك .

(49/310)

---

كذلك إن دخل الابن بلعبة أو بشيء يفوق قدرة مصروف يده على الشراء ، فعلى الأب أن يضرب على يد الابن حتى لا يتمادى الولد في إفساد نفسه . ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى جعل الدية في القتل الخطأ على العاقلة وهم العصابة أي قرابة القاتل من جهة أبيه ، ويطلق عليهم العائلة - أي عائلة القاتل - لأن أفراد العائلة حين يرون أن كلاً منهم سوف يصيبه جزء من الغرم ، فإنه يضرب على يد من يتمادى في إرهاب الغير وتهديدهم إن كان من عائلته .

ولذلك ترى أن الناس إذا رأوا الظالم ثم لم يضربوا على يده فإن الله يعمهم بغضبه من عنده ؛ لأن الظالم يتمادى في ظلمه وطغيانه ويعربد في الآخرين . فيستشري الظلم في المجتمع ويحرق على الجميع عقاب الله . ولذلك نجد سيدنا أبا بكر رضوان الله عليه - يقول ، يبين لنا ذلك فيما رواه عنه الإمام أحمد .

فقد روى الإمام أحمد قال : قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس أتمموا هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها .

وإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه ، يوشك الله - عز وجل - أن يعمهم بعقابه " .



ويبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطريق الفاصل في القضايا العقدية والحكمية  
ويأتي بمثال واضح يتفق عليه الكل ، فيقول صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عنه النعمان  
بن بشير :

" مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم  
أعلاها ، وبعضهم أسفلها . فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم  
، فقالوا لو أنا خرقنا خرقاً في نصيبنا ولم نؤذ من فوقنا . فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا  
جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً " .

(50/310)

---

والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب لنا المثل بقوم ركبوا سفينة ، وأجروا فيما بينهم  
القرعة لينقسموا إلى جماعتين ؛ جماعة تجلس في النصف الأعلى من السفينة أي على  
سطحها ، وجماعة تسكن في بطن السفينة ، حسب ما تأتي به قسمة القرعة وهي ما  
تسمى بالاستهام .

وهذا يدلنا على أنهم أناس طيبون ، ولا توجد فيهم جماعة قوية تفرض شيئاً على جماعة  
ضعيفة . وكان الذين يسكنون أسفل السفينة حين يريدون الماء يصعدون إلى أعلى لينزلوا

الأواني من فوق سطح السفينة إلى النهر .

ولو ترك الذين في أسفل السفينة لتنفيذ رغبتهم في حرق السفينة ليأخذوا الماء من النهر لغرقت السفينة ، لكن إن ضرب الذين يعيشون فوق السفينة على يد من يريدون حرقها لنجوا جميعاً .

وهكذا يكون فهمنا لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [

الأنفال : 25 ] .

ولسائل أن يسأل ويقول : إن العقاب يقع هنا على الظالم والمظلوم ، والظالم هو الذي يستحق العقاب على ما وقع منه من ظلم ، ولكن ما ذنب المظلوم ؟ والجواب : أن المظلوم قد كان في مكنته أن يرد الظلم لكنه سكت عن ذلك فاستحق أن يشمله العقاب .

وإن لم تنتبه المجتمعات إلى مقاومة الفتن ، أنزل الله بها العقاب ، وعقاب الحق تبارك وتعالى

أشد من عقاب الخلق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(51/310)

---

## "فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (25)



أخرج أحمد والبزار وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن مطرف قال : قلنا للزبير : يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال : الزبير رضي الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، وعمر وعثمان رضي الله عنهم ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ، ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن الزبير رضي الله عنه قال : لقد قرأنا زماناً وما نرى إنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ قال : البلاء ، والأمر الذي هو كائن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ قال : نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه في الآية قال : أما والله لقد علم أقوام حين نزلت أنه سيخص بها قوم .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : علم - والله - ذو الألباب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية أنه سيكون فتن .  
وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : نزلت في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : هذه نزلت في أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل فقتلوا ، فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر .

(52/310)

---

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ قال : أخبرت أنهم أصحاب الجمل .  
وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ قال : تصيب الظالم والصالح عامة .  
وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم

خاصة ﴿ قال : هي يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في

قوله ﴿ واتقوا فتنة . . . ﴾ الآية . قال : أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم

فيعلمهم الله بالعذاب . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ الدر المنثور ج 4 ص ﴾

(53/310)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ .

في " لا " وجهان :

أحدهما : أنها ناهية ، وعلى هذا ، فالجملة لا يجوز أن تكون صفة لـ " فتنة " لأن الجملة

الطلبية لا تقع صفة ، ويجوز أن تكون محمولة لقول ، ذلك القول هو الصفة أي : فتنة مقولاً

فيها : لا تصيبن ، والنهي في الصورة للمصيبة ، وفي المعنى للمخاطبين ، وهو في المعنى

كقولهم : لا أرينك ههنا ، أي : لا تتعاطوا أسباباً يصيبكم بسببها مصيبة لا تخص ظالمكم ،

ونون التوكيد على هذا في محلها ، ونظير إضمار القول قوله : [ الرجز ]

2691 – جاءوا بمذقٍ هل رأيت الذئبَ قط . . .

أي مقول فيها ما رأيت .

والثاني: أن "لا" نافية، والجملة صفة لـ "قِنَّةٌ" وهذا واضحٌ من هذه الجهة إلا أنه يشكك عليه توكيد المضارع في غير قسم، ولا طلب، ولا شرط، وفيه خلافٌ: هل يجري المنفي

بـ "لا" مجرى النهي؟ فقال بعضهم: نعم؛ واستشهد بقوله: [الطويل]

2692 – فلا الجارة الدنيا بها تلحينها . . .

ولا الضيفُ فيها إن أناخَ محوّلٌ

وقال الآخر: [الطويل]

2693 – فلا إذا نعيمٍ يُتركنُ لنعيمِهِ . . .

وإن قال قرطبي وخذ رشوةً أباي

ولا إذا بئس يتركنُ لبؤسِهِ . . .

فينفعهُ شكواً إليه إن اشتكى

فإذا جاز أن يؤكد المنفي بـ "لا" مع انفصاليه، فلأن يؤكد المنفي غير المفصول بطريق الأولى إلا أن الجمهور يحملون ذلك على الضرورة.

وزعم الفراء أن: "لا تصيبن" جواب للأمر نحو: انزل عن الدابة لا تطرحنك، أي: إن

تنزل عنها لا تطرحنك، ومنه قوله تعالى ﴿ لا يحطمنكم ﴾ [النمل: 18] أي: إن

تدخلوا لا يحطمنكم ، فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء .

قال أبو حيان .

(54/310)

وقوله " لا يحطمنكم " وهذا المثال ، ليس نظير ﴿ فِتْنَةٌ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ﴾ ؛ لأنه ينتظم من المثال والآية شرط وجزاء كما قدر ، ولا ينتظم ذلك هنا ، ألا ترى أنه لا يصح تقدير : إن تنقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا ، لأنه يترتب على الشرط غير مقتضاه من جهة المعنى .

قال الزمخشري : " لا تُصِيبَنَّ " لا يخلو إما أن يكون جواباً للأمر ، أو نهياً بعد أمر ، أو صفة لـ " فِتْنَةٌ " فإن كان جواباً فالمعنى : إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة بل تعمكم .

قال أبو حيان " وأخذ الزمخشري قول الفراء ، وزاده فساداً وخبط فيه " فذكر ما نقلته عنه ثم قال : " فانظر إليه كيف قدر أن يكون جواباً للأمر الذي هو : " اتقوا " ثم قدر أداة الشرط

داخلة على غير مضارع " اتقوا " ؟ فقال المعنى : إن أصابتكم يعني : الفتنة .

وانظر كيف قدر الفراء ، انزل عن الدآبة لا تطرحنك ، وفي قوله : ﴿ ادخلوا مساكنكم لا

يحطمنكم ﴾ [ النمل : 18 ] فأدخل أداة الشرط على مضارع فعل الأمر ، وهكذا يُقدر

ما كان جواباً للأمر .

وقيل: "لا تُصَيَّبَنَّ" جوابُ قسمٍ محذوفٍ، والجملةُ القسميةُ صفةٌ لـ "فِنَّةٌ" أي: فتنَةٌ  
والله لا تُصَيَّبَنَّ، ودخولُ النونِ أيضاً قليلاً، لأنه منفيٌّ.

وقال أبو البقاء "ودخلتِ النونُ على المنفي في غير القسم على الشذوذ" وظاهرُ هذا أنَّه  
إذا كان النَّفي في جواب القسم يطرُد دخولُ النونِ، وليس كذلك، وقيل: إنَّ اللامَ لامُ  
التوكيدِ والفعلُ بعدها مثبتٌ، وإنما أشبعتُ فتحةُ اللامِ؛ فتولدت ألفاً، فدخولُ النونِ فيها  
قياسٌ، وتأثر هذا القائلُ بقراءةِ جماعةٍ كثيرةٍ "لُصَيَّبَنَّ" وهي قراءةُ أمير المؤمنين، وابن  
مسعود، وزيد بن ثابت، والباقر، والربيع بن أنس، وأبي العالية، وابن جمار.

(55/310)

---

ومَن وجَّهَ ذلكَ ابنُ جنبي، والعجبُ أنه وجَّهَ هذه القراءةَ الشاذَّةَ بتوجيهٍ يرُدُّها إلى قراءةِ  
العامَّةِ، فقال: "يجوز أن تكون قراءةُ ابن مسعود، ومن ذكر معه مخففةً من "لا" يعني  
حذفت ألفُ "لا" تخفيفاً واكتفي بالحركة".  
قال: "كما قالوا: أم والله، يريدون: أما والله".

قال المهدويُّ "كما حذفت من "ما" وهي أخت "لا" في نحو: أم والله لأفعلنَّ وشبهه".  
قوله "أخت لا" ليس كذلك؛ لأنَّ "أما" هذه للاستفتاح، كـ "ألا"، وليست من النَّافية



في شيءٍ ، فقد تحصّل من هذا أنّ ابن جني خرج كلاً من القراءتين على الأخرى .  
وهذا لا ينبغي أن يجوز البتّة ، كيف يوجد لفظ نفي ، ويتأوّل بثبوتٍ وعكسه ؟ وهذا ممّا  
يقلب الحقائق ، ويؤدّي إلى التعمية .

وقال المبرّد ، والفراء ، والزجاج : في قراءة العامّة " لا تُصيبنَ " الكلام قد تمّ عند قوله : "   
فِتْنَةٌ " وهو خطابٌ عامٌّ للمؤمنين ، ثم ابتداءً نهي الظلمة خاصة عن التعرّض للظلم فتصيبهم  
الفتنة خاصة ، والمراد هنا : لا تعرّض الظالم للفتنة فتقع إصابتها له خاصة .  
قال الزمخشري في تقدير هذا الوجه : " وإذا كانت نهياً بعد أمر ؛ فكأنه قيل : واحذروا  
ذنباً أو عقاباً .

ثم قيل : لا تعرّضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب من ظلم منكم خاصة " .  
وقال عليّ بن سليمان : هو نهيٌ على معنى الدُّعاء ، وإنما جعله نهياً بمعنى الدُّعاء لأنّ  
دخول النون في النفي بـ " لا " عنده لا يجوز ، فيصير المعنى : لا أصابت الفتنة الظالمين  
خاصة ، واستلزمت الدُّعاء على غير الظالمين ، فصار التقدير : لا أصابت ظالماً ولا غير  
ظالم فكأنه قيل : وانقوا فتنة لا أوقعها الله بأحدٍ .

وقد تحصّلت في تخريج هذه الكلمة أقوال : النهي بتقديره ، والدُّعاء بتقديره ، والجواب  
للأمر بتقديره وكونها صفةً بتقدير القول .

قوله: " مِنْكُمْ " فيه ثلاثة أوجه:

أظهرها: أنها للبيان مطلقاً، والثاني: أنها حال، فيتعلق بمحذوف.

وجعلها الزمخشري: للتبعيض على تقدير، وللبيان على تقدير آخر، فقال " فإن قلت:

فما معنى " مِنْ " في قوله: ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ ﴾ ؟ قلت: التبعيضُ على الوجه الأول،

والبيان على الثاني؛ لأنَّ المعنى: لا تصيبنكم خاصة على ظلمكم، لأن الظلم منكم أقبحُ

من سائر النَّاسِ " يعني بالأول كونه جواباً للأمر، وبالثاني كونه نهياً بعد أمر، وفي تخصيصه

التبعيض بأحد الوجهين دون الآخر، وكذا الثاني: نظرٌ، إذ المعنى يصح بأحد التقديرين

مع التبعيض والبيان.

قوله: " خَاصَّةً " فيه ثلاثة أوجه:

أظهرها: أنها حال من الفاعل المستكن في قوله: " لا تصيبن " وأصلها أن تكون صفةً

لمصدر محذوف، تقديره: إصابة خاصة.

الثاني: أنها حال من المفعول وهو الموصول، تقديره: لا تصيبن الظالمين خاصة، بل تعمهم،

وتعم غيرهم.

الثالث: أنها حال من فاعل " ظلموا " قاله ابن عطية.

قال أبو حيان: " ولا يُعقلُ هذا الوجهُ " .

قال شهابُ الدِّينِ: "ولا أدري ما عدمُ تعقله؟ فإنَّ المعنى: واتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا، وَلَا يَظْلِمُ غَيْرَهُمْ، بِمَعْنَى: أَنَّهُمْ اخْتَصَمُوا بِالظُّلْمِ، وَلَمْ يَشَارِكْهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ، فَهَذِهِ الْفِتْنَةُ لَا تَخْتَصُّ إِصَابَتَهَا لِهَؤُلَاءِ، بَلْ تُصِيبُهُمْ، وَتُصِيبُ مَنْ لَمْ يَظْلَمْ أَلْبَتَّةَ، وَهَذَا مَعْنَى وَاضِحٌ". انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 491.494 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (25)



احذروا أن ترتكبوا زلةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها، بل يعمُّ شؤمها من تعاطاها ومن لم يتعاطها.

(57/310)

---

وغير المجرم لا يؤخذ بجُرم من أذنب، ولكن قد ينفرد أحدٌ مجرم فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجُرم، كأن يتعصبوا له إذا أخذَ بحكم ذلك المجرم فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاوتهم وتعصبهم لهذا الظالم؛ فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالماً في الحال

بل إنها تصيب أيضاً ظالماً في المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقته معه ، ورضاه به ، وهذا معنى التفسير من حيث الظاهر . فأمّا من جهة الإشارة : فإن العبد إذا باشر زلةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة وهي العقوبة المعجلة ، وتصيب النفس منها العقوبة المؤجلة ، والقلب إذا حصلت منه فتنة الزلة - عندما بهم بما لا يجوز - تعدّت فتنته إلى السر وهي الحُجبة .

والمُقدّم في شأنه إذا فعل ما لا يجوز انقطعت البركات التي كانت تعدى منه إلى مُتبعيه وتلامذته ، وكان لهم نصيبهم من الفتنة وهم لم يعملوا ذنباً . ويقال إن الأكارب إذا سكتوا عن التنكير على الأصغر عند تركهم الأذكار أصابتهم فتنة ما فعلوه ؛ فلقد قيل إن السفية إذا لم يُنه مأموراً . فعلى هذا تصيب فتنة الزلة مرتكبها ومن ترك التّهي عن المنكر - مثل من ترك الأمر بالمعروف - يؤخذ بجُرمه .

ويقال إن الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع في أخذ الزيادة من الدنيا مما فوق الكفاية - وإن كان من وجهٍ حلال - تؤدي فتنته إلى من يخرج به من المبتدئين ، فبجملته ما أبدى من الرغبة في الدنيا ، وترك التقليل يؤدي إلى الانهماك في أودية الغفلة والأشغال الدنيوية .

والعابد إذا جنح عن الأشق وترك الأولى تعدى ذلك إلى من كان ينشط في المجاهدة ؛ فيستوطنون الكسل ، ثم يحملهم الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات فيصيرون كما قيل :

إن الشباب والفراغ والجدة . . . مفسدة للمرء أي مفسدة  
وهكذا يكون نصيبهم من الفتنة .

(58/310)

---

والعارف إذا رجع إلى ما فيه حظ له ، نظر إليه المرید ، فتداخله فترة فيما هو به من صدق  
المنازلة ، ويكون ذلك نصيبه من فتنة العارف .

وفي الجملة إذا غفل الملك ، وتشاغل عن سياسة رعيته تعطل الجند والرعية ، وعظم فيهم  
الخلل والبليّة ، وفي معناه أنشدوا :

رُعَاتُكَ ضَيَّعُوا - بِالْجَهْلِ مِنْهُمْ - . . . غُنِيْمَاتٍ فَاسَتْهَا ذِنَابُ

﴿ اللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ بتعجيله ذلك ، ومن شدة عقوبته أنه إذا أخذ عبداً يُعَاقِبُهُ لَا

يُمْكِنُهُ مِنْ تَلَاْفِي مَوْجِبِ تِلْكَ الْعُقُوبَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات - 1 ص

﴿ 617.616 ﴾

(59/310)

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَّاكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (26)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من أشد العقاب الإذلال ، حذرهموه بالتذكير بما كانوا فيه من الذل ، لأنه أبعث على الشكر وأزجر عن الكفر فقال : ﴿ واذكروا ﴾ وذكر المفعول به فقال : ﴿ إذ أنتم ﴾ أي في أوائل الإسلام ﴿ قليل ﴾ أي عددكم .

ولما كان وجود مطلق الاستضعاف دالاً على غاية الضعف بنى للمفعول قوله :

﴿ مستضعفون ﴾ أي لا منفذ عندكم ﴿ في الأرض ﴾ أطلقها والمراد مكة ، لأنها لعظمتها كأنها هي الأرض كلها ، ولأن حالهم كان في بقية البلاد كحالهم فيها أو قريباً من ذلك ، ولذلك عبر الناس في قوله : ﴿ تخافون ﴾ أي في حال اجتماعكم فكيف عند الانفراد

﴿ أن يخطفكم ﴾ أي على سبيل التدرج ﴿ الناس ﴾ أي كما تتخطف الجوارح الصيود

، فحذرهم سبحانه - بالتنبيه على قادر على أن يعيدهم إلى ما كانوا عليه - من هذه

الأحوال بالمخالفة بين كلمتهم وترك التسبب إلى اجتماعها بالأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر ، وفي ذلك أيضاً إشارة إلى أنهم لما كانوا في تلك الحالة التي هي في غاية الضعف ،

وكانت كلمتهم مجتمعاً على أمر الله الذي هو توحيدهِ وطاعة رسوله ، أعقبهم الإيواء في دار

منیعة ، قد أیدهم بالنصر وأحسن رزقهم ، وذلك معنی قوله تعالى مسبباً عما قبله :

﴿ فآواكم ﴾ أي في دار الهجرة رحمة لكم ﴿ وأیدکم بنصره ﴾ أي بأهلها مع الملائكة

﴿ ورزقکم من الطيبات ﴾ أي الغنائم الكاملة الطيبة بالإحلال وعدم المنازع التي لم تحل

لأحد قبلکم وغيرها ﴿ لعلکم تشكرون ﴾ أي ليكون حالکم حال من يرجى شكره ،

فيكون بعيداً عن المنازعه في الأنفال ، وذلك إشارة إلى أنهم مهما استمروا على تلك الحالة

، كان - بإقبالهم على مثل ما أتاهم به وزادهم من فضله - أن جعلهم سادة في الدارين بما

يهب لهم من الفرقان الآتي في الآية بعدها والتوفيق عند إتيانه ، فالآية منصبة إلى الصحابة

بالقصد الأول وهي صالحة للعرب كافة فتصرف إليهم بالقصد الثاني ؛ قال قتادة : كان

هذا الحمي من العرب أذل الناس وأشقاهم عيشاً وأجوعهم بطناً وأعراهم جلدًا وأبينهم

ضلالاً ، من عاش شقيماً ومن مات منهم تردى في النار معكوفين على رأس الحجرين

الشديدين : فارس والروم ، يؤكلون ولا يأكلون ، وما في بلادهم شيء عليه يحسدون حتى

جاء الله بالإسلام ، فمکن لهم من البلاد ووسع

لهم في الرزق والغنائم وجعلهم ملوكاً على قارب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم

فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم يجب شكره والشاكر في مزيد من الله تعالى . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 205-206 ﴾

## فصل

قال الفخر:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول، ثم أمرهم باتقاء المعصية، أكد ذلك التكليف بهذه الآية، وذلك لأنه تعالى بين أنهم كانوا قبل ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم في غاية القلة والذلة، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة، وذلك يوجب عليهم الطاعة وترك المخالفة.

أما بيان الأحوال التي كانوا عليها قبل ظهور محمد فمن وجوه: أولها: أنهم كانوا قليلين في العدد.

وثانيها: أنهم كانوا مستضعفين، والمراد أن غيرهم يستضعفهم، والمراد من هذا الاستضعاف أنهم كانوا يخافون أن يتخطفهم الناس.

والمعنى: أنهم كانوا إذا خرجوا من بلدهم خافوا أن يتخطفهم العرب، لأنهم كانوا يخافون من مشركي العرب لقربهم منهم وشدة عداوتهم لهم، ثم بين تعالى أنهم بعد أن كانوا كذلك قلبت تلك الأحوال بالسعادات والخيرات، فأولها: أنه آوَاهم والمراد منه أنه تعالى نقلهم إلى المدينة، فصاروا آمنين من شر الكفار، وثانيها: قوله: ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ والمراد منه



وجوه النصر في يوم بدر ، وثالثها : قوله : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ وهو أنه تعالى أحل لهم الغنائم بعد أن كانت محرمة على من كان قبل هذه الأمة .

ثم قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي نقلناكم من الشدة إلى الرخاء ، ومن البلاء إلى النعماء والآلاء ، حتى تشغلوا بالشكر والطاعة ، فكيف يليق بكم أن تشغلوا بالمنازعة والمخاصمة بسبب الأنفال ؟ . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ مفاتيح الغيب - ص 15 ص

﴿ 121

(61/310)

وقال السمرقندي :

ثم ذكرهم النعم فقال تعالى : ﴿ واذكروا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴾ ، يعني واحفظوا نعمة الله عليكم إذ كنتم قليلاً في العدد وهم المهاجرون ، ﴿ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ يعني مهجورون في أرض مكة .

﴿ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ ، يعني يختلسكم ويذهب بكم الكفار .

﴿ فَأَوَّاكُمُ ﴾ بالمدينة ﴿ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهٖ ﴾ بنصره يوم بدر .

وقال قتادة : كانوا بين أسدين ، بين قيصر وكسرى ، يخافون أن يخطفهم الناس ، وهم أهل

فارس والروم والعرب ممن حول مكة .

ثم قال ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ، يعني الحلال وهو الغنيمة .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ، يعني لكي تشكروا الله وتطيعوه وتعرفوا ذلك منه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

(62/310)

وقال الثعلبي :

﴿ واذكروا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴾

في العدد ﴿ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض مكة في عنفوان الإسلام ﴿ تَخَافُونَ أَنْ

يَخَطَّفَكُمْ ﴾ يُذْهِبْ بِكُمْ ﴿ النَّاسِ ﴾ كفار مكة ، وقال وهب : فارس والروم ﴿

فَأَوَّكُمْ ﴾ إلى المدينة ﴿ وَأَيَّدَكُمْ ﴾ يوم بدر أيديكم بالانتصار وأمدكم بالملائكة ﴿

وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعني الغنائم أجالها لكم ولم يجلبها لأحد قبلكم ﴿ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴾ .

قال قتادة : كان هذا الحمي من العرب أذل الناس ذلاً وأشقاهم عيشاً وأجوعهم بطناً

وأغراهم جلوداً وآمنهم ضللاً ، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم ردى في النار

مكعوبين على رأس الحجرين الأشدين فارس والروم .

يؤكلون ولا يأكلون وما في بلادهم شيء عليه يحسدون ، والله ما نعلم قبيلًا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا شر منزلًا منهم حتى جاء الله عز وجل بالاسلام فمكن في البلاد ووسع به في الرزق وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس .

وبالاسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا لله نعمه ، فإن ربكم منعم يجب الشكر له [ وأجمل

[الشكر في مزيد من الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(63/310)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

يريد بذلك قلتهم إذ كانوا بمكة وذلّتهم باستضعاف قريش لهم .

وفي هذا القول وجهان :

أحدهما : أن الله ذكرهم بذلك نعمه عليهم .

والثاني : الإخبار بصدق وعده لهم .

﴿ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني بالناس كفار قريش ، قاله عكرمة وقتادة .

والثاني : فارس والروم ، قاله وهب بن منبه .

ثم بين ما أنعم به عليهم فقال ﴿ فَاَوَّاكُمُ ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : أي جعل لكم مأوى تسكنون فيه آمنين .

والثاني : فأواكم بالهجرة إلى المدينة ، قاله السدي .

﴿ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهٖ ﴾ أي قواكم بنصره لكم على أعدائكم يوم بدر .

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعني من الحلال ، وفيه قولان :

أحدهما : ما مكنكم فيه من الخيرات .

والثاني : ما أباحكم من الغنائم ، قاله السدي .

وقال الكلبي ومقاتل : نزلت هذه الآية في المهاجرين خاصة بعد بدر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(64/310)

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل ﴾ الآية ،

هذه آية تتضمن تعديد نعم الله على المؤمنين ، ﴿ إذ ﴾ ﴿ ظرف لمعمول ﴾ ﴿ واذكروا ﴾ ،  
تقديره واذكروا حالكم الكائنة أو الثابتة إذ أتم قليل ، ولا يجوز أن تكون ﴿ إذ ﴾ ظرفاً  
للذكر وإنما يعمل الذكر في ﴿ إذ ﴾ ﴿ لو قدرناها مفعولة ، واختلف الناس في الحال المشار  
إليها بهذه الآية ، فقالت فرقة هي الأكثر : هي حال مكة في وقت بداءة الإسلام ، والناس  
الذين يخاف " تخطفهم " كفار مكة ، و" المأوى " على هذا التأويل المدينة والأنصار ، و"  
التأييد بالنصر " وقعة بدر وما أنجز معها في وقتها ، و ﴿ الطيبات ﴾ ﴿ الغنائم وسائر ما فتح  
الله عليهم به ، وقالت فرقة : الحال المشار إليها هي حال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وأصحابه في غزوة بدر ، والناس الذي يخاف تخطفهم على هذا عسكر مكة وسائر  
القبائل المجاورة ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتخوف من بعضهم ، والمأوى  
على هذا والتأييد بالنصر هو الإمداد بالملائكة والتغليب على العدو ، و ﴿ الطيبات ﴾ ﴿  
الغنيمة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قولان يناسبان وقت نزول الآية لأنها نزلت عقب بدر ،  
وقال وهب بن منبه وقتادة : الحال المشار إليها هي حال العرب قاطبة ، فإنها كانت أعرى  
الناس أجساماً وأجوعهم بطوناً وأقلهم حالاً ونعماً ، والناس الذين يخاف " تخطفهم " على  
هذا التأويل فارس والروم ، و" المأوى " على هذا هو النبوءة والشريعة ، و" التأييد بالنصر "  
هو فتح البلاد وغلبة الملوك ، و ﴿ الطيبات ﴾ ﴿ هي نعم المأكّل والمشرب والملابس .

(65/310)

---

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأويل يردّه أن العرب كانت في وقت نزول هذه الآية كافرة إلا القليل ولم تترتب الأحوال التي ذكر هذا المتأول، وإنما كان يمكن أن يخاطب العرب في هذه الآية في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإن تمثل أحد بهذه الآية لحالة العرب فتمثله صحيح، وأما أن تكون حالة العرب هي سبب الآية فبعيد لما ذكرناه، وقوله ﴿لعلكم تشكرون﴾ ترج بحسب البشر متعلق بقوله ﴿واذكروا﴾. انتهى انتهى. اهـ

﴿المحرر الوجيز ح 2 ص﴾

(66/310)

---

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾

قال ابن عباس: نزلت في المهاجرين خاصة، كانت عدّتهم قليلة، وهم مقهورون في أرض مكة، يخافون أن يستلبهم المشركون.

وفي المراد بالناس ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أهل مكة ، قاله ابن عباس .

والثاني : فارس والروم ، قاله وهب بن منبه .

والثالث : أنهم المشركون الذين حضروا بدرًا ، والمسلمون قليلون يومئذ ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ فَاوَاكُم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : فَاوَاكُم إلى المدينة بالهجرة ، قاله ابن عباس والأكثر .

والثاني : جعل لكم مأوى تسكنون فيه آمنين ، ذكره الماوردي .

وفي قوله : ﴿ وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ ﴾ قولان .

أحدهما : قَوَاكُم بالملائكة يوم بدر ، قاله الجمهور .

والثاني : عضدكم بنصره في بدر وغيرها ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

وفي قوله : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ قولان .

أحدهما : أنها الغنائم التي أحلها لهم ، قاله السدي .

والثاني : أنها الخيرات التي مكنتهم منها ، ذكره الماوردي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير

ح 3 ص ﴿

---

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴾

قال الكلبي : نزلت في المهاجرين ؛ يعني وصف حالهم قبل الهجرة وفي ابتداء الإسلام .

﴿ مُسْتَضْعَفُونَ ﴾ نعت .

﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أرض مكة .

﴿ تَخَافُونَ ﴾ نعت .

﴿ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ ﴾ في موضع نصب .

والخطف : الأخذ بسرعة .

﴿ النَّاسِ ﴾ رفع على الفاعل .

قتادة وعكرمة : هم مشركو قريش .

وهب بن منبه : فارس والروم .

﴿ فَأَوَّاكُمُ ﴾ قال ابن عباس : إلى الأنصار .

السُّدِّي : إلى المدينة ؛ والمعنى واحد .

أوى إليه ( بالمد ) : ضم إليه .

وأوى إليه ( بالقصر ) : انضم إليه .



﴿ وَأَيُّدِكُمْ ﴾ قَوَّامِكُمْ .

﴿ بِنَصْرِهِ ﴾ أَيُّ بَعُونَهُ .

وقيل : بالأنصار .

وقيل : بالملائكة يوم بدر .

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أَيُّ الْغَنَائِمِ .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ قد تقدّم معناه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص



(68/310)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ﴾

لما أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله وحذرهم من الفتنة ذكرهم  
نعمة عليهم .

فقال تعالى : واذكروا يا معشر المؤمنين المهاجرين إذ أنتم قليل يعني في العدد مستضعفون في

الأرض يعني في أرض مكة في ابتداء الإسلام ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ يعني كفار

مكة قال عكرمة كفار العرب وقال وهب ابن منبه يعني فارس والروم ﴿ فآؤاكم ﴾ يعني إلى المدينة ﴿ وأيدكم بنصره ﴾ يعني وقواكم بالأنصار .

وقال الكلبي : وقواكم يوم بدر بالملائكة ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ يعني الغنائم أهلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ يعني تشكرون الله على نعمه عليكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ج 3 ص ﴾

(69/310)

وقال أبو حيان :

﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ﴾

نزلت عقب بدر ، فقيل خطاب للمهاجرين خاصة كانوا بمكة قليلي العدد مقهورين فيها يخافون أن يسلبهم المشركون ، قال ابن عباس فاتواهم بالمدينة وأيدهم بالنصر يوم بدر و ﴿ الطيبات ﴾ الغنائم وما فتح به عليهم ، وقيل الخطاب للرسول والصحابة وهي حالهم يوم بدر و ﴿ الطيبات ﴾ الغنائم والناس عسكر مكة وسائر القبائل المجاورة والتأييد هو الإمداد بالملائكة والتغلب على العدد ، وقال وهب وقتادة الخطاب للعرب قاطبة فإنها كانت أعرى الناس أجساماً وأجوعهم بطوناً وأقلهم حالاً حسنة والناس فارس والروم

والمأوى النبوة والشريعة والتأييد بالنصر فتح البلاد وغلبة الملوك و﴿ الطيبات ﴾ ﴿ تعم  
المأكل والمشرب والملابس ، قال ابن عطية : هذا التأويل يرده أن العرب كانت في وقت  
نزول هذه الآية كافرة إلا القليل ولم تترتب الأحوال التي ذكر هذا المتأول وإنما كان يمكن أن  
يخاطب العرب بهذه الآية في آخر زمان عمر رضي الله عنه فإن تمثل أحد بهذه الآية مجال  
العرب فتمثيله صحيح وإما أن يكون حالة العرب هي سبب نزول الآية فبعيد لما ذكرناه  
انتهى ، وهذه الآية تعديل لنعمه تعالى عليهم ، قال الزمخشري : ﴿ إذ أنتم ﴾ ﴿ نصب على  
أنه مفعول به لاذكروا ظرف أي ﴿ اذكروا ﴾ ﴿ وقت كونكم أقلّة أذلة انتهى ، وفيه التصرف  
في ﴿ إذ ﴾ ﴿ بنصبها مفعولة وهي من الظروف التي لا تصرف إلا بأن أضيف إليها الأزمان  
، وقال ابن عطية : وإذ ﴿ ظرف ﴾ ﴿ لمعمول و﴿ اذكروا ﴾ ﴿ تقديره واذكروا حالكم  
الكائنة أو الثابتة إذ أنتم قليل ولا يجوز أن تكون ﴿ إذ ﴾ ﴿ ظرفاً لا ذكر وإنما تعمل اذكر في إذ  
لو قدرناها مفعولة انتهى ، وهو تخرّيج حسن .

وقال الحوفي ﴿ إذ أنتم ﴾ ﴿ ظرف العامل فيه ﴿ اذكروا ﴾ ﴿ انتهى ، وهذا لا يتأتى أصلاً  
لأنّ اذكر للمستقبل فلا يكون ظرفه إلا مستقبلاً وإذ ظرف ماضٍ يستحيل أن يقع فيه  
المستقبل و﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ﴿ متعلق بقوله ﴿ فأواكم ﴾ ﴿ وما بعده أي فعل هذا  
الإحسان لإرادة الشكر . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾ ﴿

وقال أبو السعود :

﴿ واذكروا إذ أنتم قليل ﴾

أي وقت كونكم قليلاً في العدد ، وإيثارُ الجملةِ الاسمية للإيذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف ، وقوله تعالى : ﴿ مُسْتَضْعَفُونَ ﴾ خبرٌ ثانٍ أو صفةٌ لقليل وقوله تعالى : ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي في أرض مكة تحت أيدي قريشٍ والخطابُ للمهاجرين ، أو تحت أيدي فارسَ والرومَ ، والخطابُ للعربِ كافةً فإنهم كانوا أذلاً تحت أيدي الطائفتين ، وقوله تعالى : ﴿ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ خبرٌ ثالثٌ أو صفةٌ ثانية لقليلٍ وُصِفَ بالجملة بعد ما وُصِفَ بالمفرد ، أو حالٌ من المستكنِّ في مستضعفون والمرادُ بالناس على الأول وهو الأظهرُ إما كفارُ قريشٍ وإما كفارُ العربِ لقربهم منهم وشدةِ عداوتهم لهم ، وعلى الثاني فارسَ والرومَ أي واذكروا وقت قتلِكُم وذلتِكُم وهوانِكُم على الناس وخوفِكُم من اختطافهم ﴿ فَأَوَّاكُم ﴾ إلى المدينة أو جعل لكم ماوىً تتحصنون به من أعدائِكُم ﴿ وَأَيَّدِكُم بِنَصْرِهِ ﴾ على الكفارِ أو بمظاهرةِ الأنصارِ أو بإمدادِ الملائكةِ ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من الغنائم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعمَ الجليلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

وقال الأوسى :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

﴿ مُسْتَضْعَفُونَ ﴾ خبر ثان وجوز أن يكون صفة لقليل ، وقوله تعالى : ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾

﴿ أَي فِي أَرْضِ مَكَّةَ تَحْتَ أَيْدِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَالْخَطَابِ لِلْمُهَاجِرِينَ ، أَوْ تَحْتَ أَيْدِي فِارِسَ

وَالرُّومِ وَالْخَطَابِ لِلْعَرَبِ كَافَّةً مُسَلِّمِهِمْ وَكَافِرِهِمْ عَلَى مَا نَقَلَ عَنْ وَهْبٍ .

واعترض بأنه بعيد لا يناسب المقام مع أن فارس لم تحكم على جميع العرب ، وقوله تعالى :

﴿ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ خبر ثالث أو ثقة ثانية لقليل وصف بالجملة بعدما

وصف بغيرها ، وجوز أبو البقاء أن تكون حالاً من المستكن في مستضعفون والمراد بالناس

على الأول : وهو الأظهر أما كفار قريش أو كفار العرب كما قال عكرمة لقربهم منهم وشدة

عداوتهم لهم ، وعلى الثاني : فارس والروم .

وأخرج الديلمي وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قيل : يا رسول الله ومن

الناس ؟ قال : أهل فارس ، والتخطف كالخطف الأخذ بسرعة ، وفسر هنا بالاستلاب

أي واذكروا حالكم وقت قتلكم وذلتم وهوانكم على الناس وخوفكم من اختطافكم ،

أو اذكروا ذلك الوقت ﴿ فَاوَاكُمُ ﴾ أي إلى المدينة أو جعل لكم مأوى تحصنون به من أعدائكم ﴿ وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ ﴾ بمظاهرة الأنصار أو بإمداد الملائكة يوم بدر أو بأن قوى شوكتكم إذ بعث منكم من تضطرب قلوب أعدائكم من اسمه ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من الغنائم ولم تطب إلا هذه الأمة، وقيل: هي عامة في جميع ما أعطاهم من الأطعمة اللذيذة؛ والأول أنسب بالمقام والامتنان به هنا أظهر.

والثاني متعين عند من يجعل الخطاب للعرب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعم الجليلة.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني - 9 ص ﴾

(72/310)

وقال ابن عاشور:

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

عُظِفَ عَلَى الْأَمْرِ بِالْإِسْتِجَابَةِ لِلَّهِ فِيمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَعَلَى إِعْلَامِهِمْ أَنَّ اللَّهَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ نِيَاتُهُمْ، وَعَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ فِتْنَةِ الْخِلَافِ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذْكَيرُهُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ بِالْعِزَّةِ وَالنَّصْرِ، بَعْدَ الضَّعْفِ وَالْقَلَّةِ وَالْخَوْفِ، لِيَذْكُرُوا كَيْفَ يَسِّرَ اللَّهُ لَهُمْ أَسْبَابَ النَّصْرِ مِنْ غَيْرِ مِطَانِهَا، حَتَّى أَوْصَلَهُمْ إِلَى مَكَافِحَةِ عَدُوِّهِمْ وَأَنْ يَتَّقِيَ أَعْدَاؤَهُمْ

بأسهم ، فكيف لا يستجيبون لله فيما بعد ذلك ، وهم قد كثروا وعزوا وانتصروا ،  
فالخطاب للمؤمنين يومئذٍ ، ومجيء هذه الخطابات بعد وصفهم بالذين آمنوا إيماء إلى أن  
الإيمان هو الذي ساق لهم هذه الخيرات كلها ، وأنه سيكون هذا أثره فيهم كلما احتفظوا  
عليه كفوه من قبل سؤلهم ، ومن قبل تسديد حالهم ، فكيف لا يكونون بعد ترفه حالهم  
أشد استجابة وأثبت قلوباً .

وفعل ﴿ واذكروا ﴾ مشتق من الذكر بضم الدال وهو التذكر لا ذكر اللسان ، أي  
تذكروا .

و ﴿ إذ ﴾ اسم زمان مجرد عن الظرفية ، فهو منصوب على المفعول به ، أي اذكروا زمن  
كنتم قليلاً .

وجملة : ﴿ أتم قليل ﴾ مضاف إليها ﴿ إذ ﴾ ليحصل تعريف المضاف ، وجيء  
بالجملة اسمية للدلالة على ثبات وصف القلة والاستضعاف فيهم .

وأخبر بـ ﴿ قليل ﴾ وهو مفرد عن ضمير الجماعة لأن قليلاً وكثيراً قد يجيئان غير  
مطابقين لما جريا عليه ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ معه ربون كثير ﴾ في سورة [آل  
عمران : 146] .

(73/310)

والأرض يراد بها الدنيا كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ في سورة [

الأعراف: 56] فالتعريف شبيه بتعريف الجنس، أو أريد بها أرض مكة، فالتعريف

للعهد، والمعنى تذكير المؤمنين بأيام إقامتهم بمكة قليلاً مستضعفين بين المشركين، فإنهم

كانوا حينئذ طائفة قليلة العدد قد جفاهم قومهم وعادوهم فصاروا لا قوم لهم وكانوا على

دين لا يعرفه أحد من أهل العالم فلا يطمعون في نصرٍ موافق لهم في دينهم وإذا كانوا كذلك

وهم في مكة فهم كذلك في غيرها من الأرض فأواهم الله بأن صرف أهل مكة عن

استيصالهم ثم بأن قيض الإنصار أهل العقبة الأولى وأهل العقبة الثانية، فأسلموا وصاروا

أنصاراً لهم يثرب، ثم أخرجهم من مكة إلى بلاد الحبشة فأواهم بها، ثم أمرهم بالهجرة

إلى يثرب فأواهم بها، ثم صار جميع المؤمنين بها أعداء للمشركين فنصرهم هنالك على

المشركين يوم بدر، فالله الذي يسّر لهم ذلك كله قبل أن يكون لهم فيه كسب أو تعمل، أفلا

يكون ناصراً لهم بعد أن ازدادوا وعزوا وسعوا للنصر بأسبابه، وأفلا يستجيبونهم له إذا

دعاهم لما يحييهم وحالهم أقرب إلى النصر منها يوم كانوا قليلاً مستضعفين.

والتخطف شدة الخطف، والخطف: الأخذ بسرعة، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾

[البقرة: 20] وهو هنا مستعار للغلبة السريعة لأن الغلبة شبه الأخذ، فإذا كانت سريعة



أشبهت الخطف ، قال تعالى : ﴿ ويتخطف الناس من حولهم ﴾ [ العنكبوت : 27 ] أي يأخذكم أعداؤكم بدون كبرى مشقة ، ولا طول محاربة إذ كنتم لقمة سائغة لهم ، وكانوا أشد منكم قوة ، لولا أن الله صرفهم عنكم ، وقد كان المؤمنون خائفين في مكة ، وكانوا خائفين في طرق هجرتهم ، وكانوا خائفين يوم بدر ، حتى أذاقهم الله نعمة الأمن من بعد النصر يوم بدر .

(74/310)

---

و ﴿ الناس ﴾ مراد بهم ناس معهودون وهم الأعداء ، المشركون من أهل مكة وغيرهم ، أي طائفة معروفة من جنس الناس من العراب الموالين لهم .  
وما رزقهم الله من الطيبات : هي الأموال التي غنموها يوم بدر .  
والإيواء : جعل الغيرءا وياً ، أي راجعاً إلى الذي يجعله ، فيؤول معناه إلى الحفظ والرعاية .  
والتأييد : التقوية أي جعل الشيء ذا أيد ، أي ذا قدرة على العمل ، لأن اليد يكنى بها عن القدرة قال تعالى : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ [ ص : 17 ] .  
وجملة : ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ إدماج بذكر نعمة توفير الرزق في خلال المنة بنعمة النصر وتوفير العدد بعد الضعف والقلّة ، فإن الأمن ووفرة العدد يجلبان سعة الرزق .

ومضمون هذه الآية صادق أيضاً على المسلمين في كل عصر من عصور النبوة والخلافة الراشدة، فجماعتهم لم تنزل في ازدياد عزة ومنعة، ولم تنزل منصوراً على الأمم العظيمة التي كانوا يخافونها من قبل أن يؤمنوا، فقد نصرهم الله على هوازن يوم حُنين، ونصرهم على الروم يوم تبوك ونصرهم على الفرس يوم القادسية، وعلى الروم في مصر، وفي برقة، وفي إفريقية، وفي بلاد الجلالقة، وفي بلاد الفرنجة من أوروبا، فلما زاع المسلمون وتفرقوا أخذ أمرهم يقف ثم ينقبض ابتداءً من ظهور الدعوة العباسية، وهي أعظم تفرق وقع في الدولة الإسلامية.

وقد نبههم الله تعالى بقوله: ﴿لعلكم تشكرون﴾ فلما أعطوا حق الشكر دام أمرهم في تصاعد، وحين نسوه أخذ أمرهم في تراجع والله عاقبة الأمور.

(75/310)

---

ولم ينزل النبي صلى الله عليه وسلم ينبه المسلمين بالموعظة أن لا يجيدوا عن أسباب بقاء عزهم، وفي الحديث، عن حذيفة بن اليمان قال: "قلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر" قال: نعم "قلت: وهل بعد ذلك

الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دَخْنٌ " الحديث ، وفي الحديث الآخر " بُدِيَءَ هذا الدين  
غريباً وسيُعوَدُ كما بُدِيَءَ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(76/310)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

وبعد كل ما حدث من وقائع ، يذكر الحق عز وجل هنا صاحب الحال الأعلى بالماضي  
الأدنى ، ليثبت له : أن الذي نقلك من أدنى حياة إلى أعلى حياة ، موجود ولا يزال موجوداً  
، وما دام قد شاءت قدرته أن ينقلك من الأدنى للأعلى ، فقد رته سبحانه وتعالى - إن  
شاءت - نقلتك من الأعلى إلى الأدنى . فإذا كنت في حال أعلى ؛ إياك أن تنسى أنك  
كنت في حال أدنى . وعليك أن تعترف بجميل عطاء الخالق المنعم المتفضل وتقول : إن ربي  
القوي العظيم هو الذي وهبني ورفع مكانتي ولم أفعل ذلك بمهارتي ، وحتى إن كنت قد  
ارتقيت بالمهارة ، فالمهارة عطاء منه سبحانه وتعالى ، لذلك يقول المولى عز وجل هنا :  
﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

أي اجعلوا هذا الأمر على بالكم دائماً وإياكم أن تخافوا أية قوة مهما بلغت هذه القوة ، ولكن

أعدوا لكل قوة ما يناسبها من أسلوب المواجهة الكثير؛ لأنكم حملة دعوة، ومن يحمل الدعوة قد يعاني من المصاعب والمتاعب والمشقات؛ لكن يجب ألا يفتر ذلك في عضدكم

لقد كان المسلمون الأوائل قلة تعاني من إذلال واضطهاد الكافرين الأقوياء . وكان المسلم من الأوائل لا يجد أحياناً من يحميه من اضطهاد المتجبرين ، فيلجأ إلى كافر يتوسم فيه الرحمة ويقول له : أجرني من إخوانك الكفر . وحين بلغ الضعف بالمسلمين الأوائل أشده ، ولم يجدوا حامياً لهم من ظلم وتعذيب الكفار ، عرض عليهم صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا إلى الحبشة ؛ لأن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد . وكانت الهجرة إلى الحبشة هرباً من قوة الخصوم ، ولم يظلم حال المسلمين كذلك ، بل نصرهم الله لا بقوتهم ، ولكنه سبحانه وتعالى شاء لهم أن يأخذوا بأسباب منهجه فاتصروا وعلت كلمة الله عز وجل .

(77/310)

---

إننا نتخذ من هذه المسألة حجة ومثلاً نواجه به من يشككون في قدرة المسلمين على إدارة الحياة والارتقاء بها ؛ لأن العالم كله قد شهد ألف عام كان المسلمون فيها هم قادة العلم والفكر والابتكار ، وكانت غالبية الدول تخضع لحكم دولة الإسلام .

لقد سبق أن قلت : إن هارون الرشيد الخليفة المسلم بعث لشارلمان ملك فرنسا بهدية هي ساعة دقاقة بالماء ؛ تم تصميمها بدقة عالية تفوق طاقة خيال الناس في فرنسا ، ولحظة أن شاهدوها في فرنسا ظنوا أن الشياطين هي التي تحركها ؛ لأن التقدم العلمي والتطبيقي في بغداد في ذلك الوقت فاق كل التصور الأوروبي حيث كانوا يعيشون في تخلف علمي شديد .

لكن المسألة انعكست في زماننا هذا وصرنا نعاني من تخلف في الأخذ بأسباب الله للاستفادة بالعلم ، فحين جاء "الراديو" وجاء "التليفزيون" إلى بعض البلاد الإسلامية ، وجدنا من يقول عن الراديو : إن بداخله شيطاناً يتكلم ويلون ويغير من صوته . ولم يغير أصحاب هذا الرأي اندهاشهم ورفضهم لوجودوا محطة الإذاعة وأجهزة الاستقبال في بلادهم إلا بعد أن قلنا لهم : حركوا مؤشر الراديو وستجدونه يذيع القرآن الكريم ، وحين فعلوا ذلك استمعوا إلى صوت الشيخ محمد رفعت ، وكان يقرأ في سورة مريم ، وقلنا لأصحاب هذا الرأي : إن الشيطان لا يقرأ القرآن ، بل إن الإذاعة وأجهزة الاستقبال هي اختراعات علمية توصل إليها من أخذوا بأسباب الله في العلم التطبيقي .

(78/310)

---

وحين جاء اختراع "الميكروفون" وطالب الكثير بوضعه في المساجد وقت صلاة الجمعة ، وجدنا البعض يرفض دخول الميكروفون إلى المسجد ، متجاهلاً أن هناك مساجد كبيرة يحتاج إسماع الناس فيها لخطبة الجمعة وجود أكثر من "ميكروفون" . وقلت لواحد من هؤلاء : ليصلح الله حالك وبالك ، لماذا ترتدي نظارة طبية وتضعها على عينيك ؟ أجابني : لأن نظري ضعيف والنظارة تكبري الكتابة . فقلت : وهكذا "الميكروفون" يكبر الصوت ليسمعه من يجلس بعيداً عن المنبر والإمام ، أثناء صلاة الجماعة وصلاة الجمعة . فإذا كان بعض من الدول الإسلامية قد وصل بها الحال إلى هذا الحد من العجز في تقبل العلم ، فهذا تنبيه لنا لأن نعيد الأخذ بأسباب الله في الكون ، ولنتطور العلوم ، ونخدم بها منهج الله ، بدلاً من أن نظل متخلفين رغم أن منهج الله يحضنا على الأخذ بالأسباب الموجودة في الكون ، وكلنا يعلم أن كون الله في يده والنواميس في يده ، يسخرها سبحانه وتعالى لمن يأخذ بالأبواب .

ويذكرنا الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿ واذكروا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ ﴾ [ الأنفال

: 26 ] .

والخطف هو أخذ بسرعة ، أي أن يأخذ إنسان أو جماعة غير الحق ، وعرفنا من قبل أن أخذ غير الحق له صور متعددة ، والمثال : نجد تاجراً يعرض أي يفرش بضاعته من تمر أو

تفاح، ويأتي أحد المارة لينظر إلى البضاعة المعروضة والمفروشة وليس معه نقود يشتري بها فيخطف تفاحة أو بعضاً من التمر ويجري بسرعة، ويحاول صاحب البضاعة أن يلحق به وحاول اللص أن يتخلص ويفلت منه؛ فهذا اسمه " غصب "، أما السرقة، فهي أخذ المال خفيةً من حرز وصاحبه غير موجود . ويختلف كل ذلك عن الاختلاس؛ لأن الاختلاس هو أن تأخذ مما في حوزتك وأنت مأمون عليه؛ إذن أخذ غير الحق له عدة صور هي: خطف، أو غصب، أو سرقة أو اختلاس . والحق تبارك وتعالى يقول:

(79/310)

---

﴿ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَّاكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ ﴾ [ الأنفال: 26 ] .

أي يأخذونكم دون أن يدافع عنكم أحد . وها أنتم أولاء قد صرتم أقوياء باستقرار الإيمان في قلوبكم، ويمدد من الله عز وجل؛ لذلك يجب أن تذكروه دائماً امتناناً وتقديراً وعبادة، وشكراً، وخشوعاً .

فهو سبحانه وتعالى قد أعطاكم الاستقرار في المأوى الجديد - المدينة المنورة - ورحب بكم مجتمع الإيمان في المدينة المنورة .

وعندما دخلتم إلى المدينة أقمتم المسجد وهو سمة استمرار النور من السماء هداية

للأرض . كان هذا هو أول عمل لكم ولم تشغلوا من قبله بأي عمل آخر . واعتبركم  
الأنصار إخوةً ، فصرتم أقوياء بأخوة الإيمان ، وصاروا هم أيضا أقوياء بهذه الأخوة بعد أن  
كان اليهود هناك يستفتحون عليهم بالرسول القادم ، جاء الرسول وكان في نصرة  
المستضعفين وصار منهجه قوة لكم وللأنصار ، وكان المهاجر منكم يجد الدعوة من  
الأنصاري إلى بيته ، لا للطعام ولا للشراب فقط ، بل للإقامة أيضا .  
ثم حدث الملاحظ العجيب ، فالإنسان إذا أنعم الله عليه بنعم شتى ، فقد يجب أن يمتنع  
صاحبه من هذه النعم ، إلا المرأة ، فالزوج يغار على نسائه . لكن الأنصاري من هؤلاء إن  
كان متزوجاً من اثنين ، يقول للمهاجر : لقد جئت من مكة إلى المدينة دون أهلك . فانظر  
إلى زوجتي ، فأيهما تعجبك أطلقها وتزوجها بعد انقضاء عدتها ، هذا هو الملاحظ العجيب  
، وهي مسألة لا يمكن أن تمر على خيال العربي أبداً .

ويذيل الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال : 26]

(80/310)

---



وقد رزقهم المولى سبحانه وتعالى وأمدهم بالخيرات والأسلحة والنفائس وهزموا صناديد  
قريش ، ولم تكن الغنائم تحل لأحد من الأنبياء من قبل ، لكنها أحلت لسيدنا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم . إذن فالذي صنع لكم كل ذلك حقيق أن يذكر فلا ينسى وأن يشكر  
دائماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(81/310)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ واذكروا إذ أنتم قليلٌ مُستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآوكم  
وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ (26)

أخرج ابن المنذر وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ واذكروا إذ أنتم  
قليل . . . ﴾ الآية . قال : كان هذا الحي أذل الناس ذلاً ، وأشقاء عيشاً ، وأجوعه بطوناً  
، وأعرأه جلوداً ، وأبينه ضلالة ، معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم . لا والله ما  
في بلادهم يحسدون عليه ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم ردى في النار ،  
يؤكلون ولا يأكلون . لا والله ما نعلم قبيلاً من حاضر الأرض يومئذ كان أشر منزلاً منهم حتى

جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد ، ووسع به في الرزق ، وجعلكم به ملوكاً على رقاب  
الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا لله نعمه فإن ربكم منعم يجب الشكر ،  
وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ يتخطفكم الناس ﴾ قال : في  
الجاهلية بمكة فأوكم إلى الإسلام .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب رضي  
الله عنه في قوله ﴿ يتخطفكم الناس ﴾ قال : الناس إذ ذاك : فارس والروم .

وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس رضي الله عنهما "  
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في  
الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ قيل : يا رسول الله ومن الناس ؟ قال " أهل فارس "  
.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فأوكم  
﴾ قال : إلى الأنصار بالمدينة ﴿ وأيدكم بنصره ﴾ قال : يوم بدر . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ( واذكروا إذ أنتم قليل ) الآية .

في " إذ " ثلاثة أوجه ، أوضحها : أنه ظرف ناصبة محذوف ، تقديره : واذكروا حالكم

الثابتة في وقت قتلكم ، قاله ابن عطية .

والثاني : أنه مفعول به .

قال الزمخشري : " نصب على أنه مفعول به مذكور لا ظرف ، أي : اذكروا وقت كونكم أقلّة

أذلة " وفيه نظر ؛ لأن " إذ " لا يتصرف فيها إلا بما تقدم ذكره ، وليس هذا منه .

الثالث : أن يكون ظرفاً لـ " اذكروا " قاله الحوفي ، وهو فاسد ؛ لأن العامل مستقبل ،

والظرف ماض فكيف يتلاقيان .

قوله : " تخافون " فيه ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنه خبر ثالث .

والثاني : أنه صفة لـ " قليل " وقد بدئ بالوصف بالمفرد ، ثم بالجملة .

والثالث : أن يكون حالاً من الضمير المستتر في " مستضعفون " . انتهى انتهى . اهـ

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ  
النَّاسُ فَأَوَّكُواكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ .

يذكرهم ما كانوا فيه من القلة والذلة وصنوف ( . . . ) ثم ما نقلهم إليه من الإمكان  
والبسطة ، ووجوه الأمان والحيطه ، وقربهم إلى إقامة الشكر على جزيل تلك القسم ،  
وإدامة الحمد على جميل تلك النعم ، فمهد لهم في ظل أبوابه مقبلاً ، ولم يجعل للعدو إليهم -  
يؤمن رعايته - سبيلاً .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .  
رزق الأشباح والظواهر من طيبات الغذاء ، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء .  
وحقيقة الشكر على هذه النعم الغيبية عنها بالاستغراق في شهود المنعم . انتهى انتهى . ١ هـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 617.618 ﴾

(83/310)

---

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(27) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم الآية هوي في غاية النصيحة منه تعالى لهم من الإيواء والنصر والرزق الطيب المشار به إلى الامتنان بإحلال المنعم ، وختم ذلك بالحث على الشكر ؛ نهانا عن تضييع الشكر في ذلك بالخيانة في أوامره بالغلول أو غيره فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تذكيراً بما أُلِّموا به أنفسهم من الوفاء ﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ ﴾ أي تنقصوا من حقوق الملك الأعظم ، فإن أصل الخون النقص ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء فصارت نقصاً خاصاً ﴿ وَالرَّسُولَ ﴾ بغلول ولا غيره ، بل أدوا الأمانة في جميع ذلك ، ولعله كرر العامل في قوله : ﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ من الفرائض والحدود والنوافل وغيرها إشارة إلى أن الخيانتين مختلفتان ، فخيانتهم لله حقيقة ، وخيانتهم للأمانة استعارة ، لأن حاملها لما أخل بها كان كأنه خانها ؛ وخفف عنهم بقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حال الغفلة ونحوها ، ويجوز أن يكون المفعول غير مراد فيكون المعنى : وَأَنْتُمْ عُلَمَاءُ ، ويكون ذلك مبالغة في النهي عنها بأنهم جديرون بأن لا يقبل منهم عذر بجهل ولا نسيان لأنهم علماء ، والعالم هو العارف بالله ، والعارف لا ينبغي أن ينفك عن المراقبة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 206 . 207 ﴾

## فصل

قال الفخر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنه رزقهم من الطيبات ، فههنا منعهم من الخيانة ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في المراد بتلك الخيانة على أقوال : الأول : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في أبي لبابة حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قريظة لما حاصروهم ، وكان أهله وولد فيهم .

فقالوا يا أبا لبابة ما ترى لنا أننزل على حكم سعد بن معاد فينا ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقة ، أي أنه الذبح فلا تفعلوا ، فكان ذلك منه خيانة لله ورسوله .

الثاني : قال السدي : كانوا يسمعون الشيء من النبي صلى الله عليه وسلم ، فيشقونه ويلقونه إلى المشركين ، فنهاهم الله عن ذلك .

الثالث : قال ابن زيد : نهاهم الله أن يخونوا كما صنع المنافقون ، يظهرون الإيمان ويسرون

الكفر .

الرابع : عن جابر بن عبد الله : أن أبا سفيان خرج من مكة ، فعلم النبي صلى الله عليه وسلم خروجه وعزم على الذهاب إليه ، فكتب إليه رجل من المنافقين أن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم ، فأنزل الله هذه الآية .

الخامس : قال الزهري والكلبي : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة لما هم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج إليها ، حكاها الأصم .

والسادس : قال القاضي : الأقرب أن خيانة الله غير خيانة رسوله ، وخيانة الرسول غير خيانة الأمانة ، لأن العطف يقتضي المغايرة .

(85/310)

---

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى أمرهم أن لا يخونوا الغنائم ، وجعل ذلك خيانة له ، لأنه خيانة لعطيته وخيانة لرسوله لأنه القيم بقسمها ، فمن خانها فقد خان الرسول ، وهذه الغنيمة قد جعلها الرسول أمانة في أيدي الغانمين والزمهم أن لا يتناولوا لأنفسهم منها شيئاً فصارت ودیعة ، والودیعة أمانة في يد المودع ، فمن خان منهم فيها فقد خان أمانة الناس ، إذ الخيانة ضد الأمانة ، قال : ويحتمل أن يريد بالأمانة كل ما تعبد به ، وعلى هذا التقدير :

فيدخل فيه الغنيمة وغيرها ، فكان معنى الآية : إيجاب أداء التكاليف بأسرها على سبيل التمام والكمال من غير نقص ولا إخلال .

وأما الوجوه المذكورة في سبب نزول الآية ، فهي داخلة فيها ، لكن لا يجب قصر الآية عليها ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" : معنى الخون النقص .

كما أن معنى الوفاء التمام .

ومنه تخونه إذا انتقصه ، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء .

لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ وجوه : الأول : التقدير ﴿ وَلَا تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾

والدليل عليه ما روي في حرف عبد الله ﴿ وَلَا تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ الثاني : التقدير : لا

تخونوا الله والرسول ، فإنكم إن فعلتم ذلك فقد خنتم أماناتكم ، والعرب قد تذكر الجواب

تارة بالفاء ، وأخرى بالواو ، ومنهم من أنكر ذلك .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه وجوه :

الأول : وأنتم تعلمون أنكم تخونون يعني أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو .



الثاني : وأتم علماء تعلمون قبح القبيح ، وحسن الحسن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح

الغيب ح 15 ص 121.122 ﴾

(86/310)

وقال السمرقندي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

روى أسباط عن السدي قال : كانوا يسمعون من النبي عليه السلام الحديث ، فيفشونه حتى يبلغ المشركين ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال : ﴿ تَشْكُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ .

ويقال كل رجل مؤتمن على ما فرض الله عليه ، إن شاء أداها ، وإن شاء خانها .

وقال القتيبي : الخيانة أن يؤتمن على شيء فلا يؤدي إليه .

ثم سُمي العاصي من المسلمين خائناً ، لأنه قد ائتمن على دينه فخان .

كما قال في آية أخرى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ

لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْنَّ بَاشِرُوهُنَّ

وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ

الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأتموا عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴿ [البقرة: 187] ، ويقال: نزلت الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر ، حين أشار إلى بني قريظة أن لا ينزلوا على حكم سعد وأشار إلى حلقه إنه الذبح .

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حاصر بني قريظة من بعد انصرافهم من الخندق ، ووقف بباب الحصن وفيه ستمائة رجل من اليهود ، وقد كانوا ظاهروا قريشاً على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فناداهم : " يا إخوة القردة والخنازير ، انزلوا على حكم الله ورَسُولِهِ " .

فقلت لليهود : يا محمد ، ما كنت فحاشاً قبل هذا .

(87/310)

---

فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة بن عبد المنذر ، فدخل على اليهود فركبوا إليه وقالوا يا أبا لبابة ، أأمرنا بالنزول إلى محمد صلى الله عليه وسلم . فأشار بيده إلى حلقه ، يعني إنه الذبح إن نزلتم إليه .

فقال أبو لبابة : والذي نفسي بيده ، ما زالت قدماي من مكاني ، حتى علمت أنني قد

خنت الله ورسوله؛ وأوثق نفسه إلى سارية المسجد ، حتى أنزل الله تعالى توبته ونزل : ﴿

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ

﴿ وَتَخُونُوا ءَامَانَاتِكُمْ ۖ ﴾ ، يعني لا تخونوا ءاماناتكم .

﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ ﴾ أنها خيانة .

قال محمد بن إسحاق : ﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ ﴾ يعني لا تظهروا له من الحق ما يرضى

عنكم ثم تحالفوه في السر .

قال : فإن ذلك هلاكاً لأنفسكم وخيانة لءاماناتكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 2

ص ﴿

(88/310)

وقال الثعلبي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ ﴾

قال عطاء ابن أبي رباح : حدثني جابر بن عبد الله " أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى

جبرئيل ( عليه السلام ) النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبا سفيان في مكان كذا

وكذا .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " إنَّ أبا سفيان في مكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا " قال : فكتب رجلا من المنافقين إليه أن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم فأنزل الله تعالى الآية " .

وقال السدي : كانوا يسمعون الشيء من النبي صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى بلغ المشركين .

وقال الزهري والكلبي : نزلت هذه الآية في أبي لبابة واسم أبي لبابة هارون بن عبد المنذر الأنصاري من بني عوف بن مالك وذلك " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله الصلح على ما صالح عليه إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم ، لأن عياله وماله وولده كانت عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فقالوا : يا أبا لبابة ما ترى أنزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده إلى طقه أنه الذبح فلا تفعلوا .

قال أبو لبابة : والله ما زالت قدمي من مكانهما حتى عرفت أن قد خنت الله والرسول فلما نزلت هذه الآية شد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال : والله لا أذوق

طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شرباً حتى خر مغمياً عليه ثم تاب الله عليه ، فقيل له : يا أبا لبابة قد ثبت عليك .

(89/310)

---

قال : لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فجاءه فحله بيده ، ثم قال أبو لبابة : إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب . وأن أنخلع من مالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يجزيك الثلث إن تصدقت " .

فقال المغيرة بن شعبة : نزلت هذه الآية في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه .  
قال محمد بن إسحاق : معنى الآية لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم ثم تخالفونه في السر إلى غيره .

وقال ابن عباس : لا تخونوا الله بترك فرائضه ، والرسول بترك سنته ، وتخونوا أماناتكم .

قال السدي : إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم .

وعلى هذا التأويل يكون قوله ( ويخونوا ) نصباً على جواب النهي .

والعرب تنصب جواب النهي وقالوا كما ينصب بالفاء .

وقيل : هو نصب على الصرف كقول الشاعر :

لا تنهى عن خلق وتأتي مثله . . . عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وقال الأخفش : هو عطف على ما قبله من النهي ، تقديره : ولا تخونوا أماناتكم .

وقرأ مجاهد : أمانتكم واحدة . واختلفوا في هذه [ الآية ] فقال ابن عباس : هو ما يخفي

عن أعين الناس من فرائض الله عز وجل والأعمال التي ائتمن الله عليها العباد يقول لا

تنقضوها .

وقال ابن زيد : معنى الامانات ها هنا الدين وهؤلاء المنافقون ائتمنهم الله على دينه فخانوا ،

إذ أظهروا الإيمان وأسرّوا الكفر .

قال قتادة : إن دين الله أمانة فأدّوا إلى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده . ومن

كانت عليه أمانة فليردّها إلى من ائتمنه عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4

ص ﴿

(90/310)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : لا تخونوا الله سبحانه والرسول عليه السلام كما صنع المنافقون في خيانتهم ، قاله الحسن والسدي .

والثاني : لا تخونوا الله والرسول فيما جعله لعباده من أموالكم .

ويحتمل ثالثاً : أن خيانة الله بمعصية رسوله ، وخيانة الرسول ، بمعصية كلماته .

﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : فيما أخذتموه من الغنيمة أن تحضروه إلى المغنم .

الثاني : فيما ائتمن الله العباد عليه من الفرائض والأحكام أن تؤدوها بحقتها ولا تخونها بتركها .

والثالث : أنه على العموم في كل أمانة أن تؤدى ولا تخان .

﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : وأنتم تعلمون أنها أمانة من غير شبهة .

والثاني : وأنتم تعلمون ما في الخيانة من المآثم بخلاف من جهل .

قال الكلبي ومقاتل : نزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر أرسله رسول الله صلى الله

عليه وسلم إلى بني قريظة لنزلوا على حكم سعد فاستشاروه وكان قد أحرز أولاده وأمواله

عندهم فأشار عليهم أن لا يفعلوا وأوماً بيده إلى حلقة أنه الذبح فأنزل الله تعالى هذه الآية

إلى قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمُوا لَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَّةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون ح 2 ص﴾

(91/310)

وقال ابن عطية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾

هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة ، وهو يجمع أنواع الخيانات كلها قليلاً وكثيرها ،

قال الزهراوي: والمعنى لا تخونوا بغلول الغنائم ، وقال الزهراوي وعبد الله بن أبي قتادة:

سبب نزولها أمر أبي حنيفة ، وذلك أنه أشار لبني قريظة حين سفر إليهم إلى حلقة يريد

بذلك إعلامهم أنه ليس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الذبح ، أي فلا تنزلوا ، ثم

ندم وربط نفسه بسارية من سواري المسجد حتى تاب الله عليه ، الحديث المشهور ،

وحكى الطبري أنه أقام سبعة أيام لا يذوق شيئاً حتى تيب عليه ، وحكى أنه كان لأبي

لبابة عندهم مال وأولاد فلذلك نزلت ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمُوا لَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَّةٌ﴾ ، وقال

عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله: سببها أن رجلاً من المنافقين كتب إلى أبي

سفيان بن حرب بجبر من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية ، فقوله: ﴿



يا أيها الذين آمنوا ﴿﴾ معناه أظهروا الإيمان ، ويحتمل أن يخاطب المؤمنين حقاً أن لا يفعلوا  
فعل ذلك المناق ، وحكى الطبري عن المغيرة بن شعبة أنه قال : أنزلت هذه الآية في قتل  
عثمان رضي الله عنه .

(92/310)

---

قال القاضي أبو محمد : يشبه أن تمثل بالآية في قتل عثمان رحمه الله ، فقد كانت خيانة لله  
ولرسول والأمانات ، والخيانة التنقص للشيء باختفاء وهي مستعملة في أن يفعل الإنسان  
خلاف ما ينبغي من حفظ أمر ما ، مالا كان أو سراً أو غير ذلك ، والخيانة لله تعالى هي في  
تنقص أو امره في سر وخيانة الرسول تنقص فقد أوتمن على دينه وعبادته وحقوق الغير ،  
وقيل المعنى وتخونوا ذوي أماناتكم ، وأظن الفارسي أبا علي حكاه ، ﴿﴾ وأتم تعلمون ﴿﴾  
، يريد أن ذلك لا يضر منه إلا ما كان عن تعمد ، وقوله ﴿﴾ فتنة ﴿﴾ يريد محنة واختباراً  
وابتلاء ليرى كيف العمل في جميع ذلك ، وقوله ﴿﴾ وأن الله عنده أجر عظيم ﴿﴾ يريد فوز  
الآخرة فلا تدعوا حظكم منه للحيلة على أموالكم وأبنائكم فإن المدخور للآخرة أعظم  
قدراً من مكاسب الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿﴾ وتخونوا ﴿﴾ قال الطبري : يحتمل أن يكون داخل في النهي كأنه قال : لا

تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم فمكانه على هذا جزم، ويحتمل أن يكون المعنى لا تخونوا الله والرسول فذلك خيانة لأماناتكم فموضعه على هذا نصب على تقدير وأن تخونوا أماناتكم، قال الشاعر:

لأنه عن خلق وتأتي مثله . . . عارٌ عليك إذا فعلت عظيمٌ

وقرأ مجاهد وأبو عمرو بن العلاء فيما روي عنه أيضاً "وتخونوا أماناتكم" على أفراد الأمانة. انتهى انتهى. اهـ ﴿الحرر الوجيز ح 2 ص﴾

(93/310)

وقال ابن الجوزي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27)﴾

قوله تعالى: ﴿لا تخونوا الله والرسول﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال.

أحدها: أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، وذلك "أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حاصر قريظة سأله أن يصالحهم على ما صالح عليه بني النضير، على أن يسيروا إلى أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا، وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم، لأن ولده وأهله كانوا عندهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما

تري ، أنزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه : إنه الذبح فلا تفعلوا ، فطاعوه ، فكانت تلك حياته ؛ قال أبو لبابة : فما زالت قدمي حتى عرفتُ أني قد خنت الله ورسوله ، ونزلت هذه الآية ، هذا قول ابن عباس ، والأكثرين .

وروي أن أبا لبابة ربط نفسه بعد نزول هذه الآية إلى سارية من سواري المسجد ، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ ، فمكث سبعة أيام كذلك ، ثم تاب الله عليه ، فقال : والله لا أحلُّ نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلُّني ، فجاء فحله بيده ، فقال أبو لبابة : إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يجزئك الثلث " .

والثاني : " أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " اخرجوا إليه واكتبوا " فكتب إليه رجل من المنافقين : إن محمداً يريدكم ، فخذوا حذرکم ، فنزلت هذه الآية " ، قاله جابر بن عبد الله .

والثالث : أنها نزلت في قتل عثمان بن عفان ، قاله المغيرة بن شعبة .

---

والرابع: أن قوماً كانوا يسمعون الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيفشونه حتى يبلغ المشركين، فنزلت هذه الآية، قاله السدي.

وفي خيانة الله قولان.

أحدهما: ترك فرائضه.

والثاني: معصية رسوله.

وفي خيانة الرسول قولان.

أحدهما: مخالفته في السرِّ بعد طاعته في الظاهر.

والثاني: ترك سنّته.

وفي المراد بالأمانات ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها الفرائض، قاله ابن عباس.

وفي خيانتها قولان.

أحدهما: تنقيصها.

والثاني: تركها.

والثاني: أنها الدين، قاله ابن زيد.

فيكون المعنى: لا تظهروا الإيمان وتبطنوا الكفر.

والثالث : أنها عامة في خيانة كل مُؤْتَمَنٍ ، ويؤكد نزولها في ما جرى لأبي لبابة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(95/310)

وقال القرطبي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) ﴾

روي أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قريظة بالذبح .

قال أبو لبابة : والله ما زالت قدمي حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله ؛ فنزلت هذه

الآية .

فلما نزلت شدّ نفسه إلى سارية من سواري المسجد ، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا

شرباً حتى أموت ، أو يتوب الله عليّ .

الخبر مشهور .

وعن عكرمة قال : " لما كان شأن قريظة بعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله

عنه فيمن كان عنده من الناس ؛ فلما انتهى إليهم وقعوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وجاء جبريل عليه السلام على فرس أبلق فقالت عائشة رضي الله عنها : فلكأنني أنظر إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجه جبريل عليهما السلام؛ فقلت:

هذا دحية يا رسول الله؟ فقال: "هذا جبريل عليه السلام".

قال: "يا رسول الله ما يمنعك من بني قريظة أن تأتيهم؟" فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: "فيكف لي بحصنهم؟" فقال جبريل: "فإني أدخل فرسي هذا عليهم".

فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً معرووراً؛ فلما رآه علي رضي الله عنه قال:

يا رسول الله، لا عليك ألا تأتيهم، فإنهم يشتمونك.

فقال: "كلا إنها ستكون تحية".

فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا إخوة القردة والخنازير" فقالوا: يا أبا القاسم،

ما كنت فحاشاً! فقالوا: لا ننزل على حكم محمد، ولكننا ننزل على حكم سعد بن معاذ

؛ فنزل.

فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بذلك طرقني الملك سحراً" فنزل فيهم ﴿يا أيها

الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾.

نزلت في أبي لبابة ، أشار إلى بني قريظة حين قالوا : نزل على حكم سعد بن معاذ ، لا تفعلوا فإنه الذبح ، وأشار إلى حلقه .

وقيل : نزلت الآية في أنهم كانوا يسمعون الشيء من النبي صلى الله عليه وسلم فيلقونه إلى المشركين ويفشونه .

وقيل : المعنى بغلول الغنائم .

ونسبها إلى الله ؛ لأنه هو الذي أمر بقسمتها .

وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه المؤدّي عن الله عز وجل والقيّم بها .

والخيانة : الغدر وإخفاء الشيء ؛ ومنه : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ [ غافر : 19 ] وكان

عليه السلام يقول : " اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بسّ الضجيع ومن الخيانة فإنها

بسّت البطانة " خرّجه النسائي عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول . . .

؛ فذكره .

﴿ وَتَحُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ في موضع جزم ، نسقا على الأوّل .

وقد يكون على الجواب ؛ كما يقال : لا تأكل السمك وتشرب اللبن .

والأمانات : الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد .

وسميت أمانة لأنها يؤمن معها من منع الحق ؛ مأخوذة من الأمن .

وقد تقدّم في "النساء" القول في أداء الأمانات والودائع وغير ذلك .

﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ما في الخيانة من القبح والعار .

وقيل : تعلمون أنها أمانة . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(97/310)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

قال الزهري والكلبي : نزلت هذه الآية في أبي لبابة هارون بن عبد المنذر الأنصاري من بني

عوف بن مالك وذلك أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) حاصر يهود قريظة إحدى

وعشرين ليلة فسألوا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) الصلح على ما صالح عليه

إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام فأبى

رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعيد بن معاذ

فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله

كان عندهم فبعثه رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فأتاهم فقالوا : يا أبا لبابة ما ترى

أنزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه يعني إنه الذبح فلا تفعلوا .



قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أنني قد خنت الله ورسوله  
ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وشدّ نفسه على سارية  
من سواري المسجد .

وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فلما بلغ رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) خبره ، قال : أما لو جاءني لاستغفرت له أما إذا فعل ما فعل فإنني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقبل له يا أبا لبابة قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) هو الذي يجلي فجاء فحله بيده ثم قال أبو لبابة إن تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " يجزيك الثلث أن تصدق به " فنزل فيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ﴾ .

(98/310)

---

وقال السدي : كانوا يسمعون السر من النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت هذه الآية وقال جابر بن عبد الله : إن أبا سفيان خرج من مكة فأتى

جبريل النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال لي إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه إن أبا سفيان في موضع كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتبوا قال فكتب رجل من المنافقين إليه إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم فأنزل الله لا تخونوا الله والرسول ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ ومعنى الآية لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم ﴿ وأتم تعلمون ﴾ يعني أنها أمانة وقيل : معناه وأتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الخلق خيانة وأصل الخيانة من الخون وهو النقص لأن من خان شيئاً فقد نقصه والخيانة ضد الأمانة ، وقيل في معنى الآية : لا تخونوا الله والرسول فإنكم إذا فعلتم ذلك فقد ختمت أماناتكم .

وقال ابن عباس : معناه لا تخونوا الله بترك فرائضه ولا تخونوا الرسول بترك سنته ولا تخونوا أماناتكم قال ابن عباس هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله تعالى والأعمال التي ائتمن عليها العباد وقال قتادة : اعلّموا أن دين الله أمانة فأدوا إلى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمن عليها ومنه الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك " أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن - 3 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾

قال ابن عباس والأكثر : نزلت في أبي لبابة حين استنصحته قريظة لما أتى الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) أن يسيرهم إلى أذرعات وأريحا كفعله ببني النضير فأشار أبو لبابة إلى حلقه أي ليس عند الرسول إلا الذبح فكانت هذه حياته في قصة طويلة ، وقال جابر في رجل من المنافقين كتب إلى أبي سفيان بشيء من إخبار الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، وقال المغيرة بن شعبه في قتل عثمان .

قال ابن عطية ويشبه أن يتمثل بالآية في قتله فقد كان قتله خيانة لله ورسوله والأمانات انتهى ، وقيل في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة يعلمهم بخروج الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) إليها ، وقيل في قوم كانوا يسمعون الحديث من الرسول فيفشونه حتى يبلغ المشركين وخيانتهم الله في عدم امتثال أوامره وفعل ما نهى عنه في سرّ وخيانة الرسول فيما استحفظ وخيانة الأمانات إسقاطها وعدم الاعتبار بها ، وقيل و ﴿ تخونوا ﴾ ذوي أماناتكم و ﴿ أنتم تعلمون ﴾ جملة حالية أي وأنتم تعلمون تبعه ذلك ووباله فكان ذلك أبعد لكم من الوقوع في الخيانة لأن العالم بما يترتب على الذنب يكون أبعد الناس عنه ، وقيل ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو ، وقيل وأنتم عالمون

تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن وجوزوا في ﴿ وتخنونوا ﴾ أن يكون مجزوماً عطفاً على ﴿ لا تخنونا ﴾ ومنصوباً على جواب النهي وكونه مجزوماً هو الراجح لأن النصب يقتضي النهي عن الجمع والجزم يقتضي النهي عن كل واحد ، وقرأ مجاهد أمانتكم على التوحيد وروى ذلك عن أبي عمرو . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(100/310)

وقال أبو السعود :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

أصلُ الخَوْنِ النقصُ كما أن أصلَ الوفاءِ التمامُ ، واستعمالُهُ في ضد الأمانة لتضمنه إياه أي لا تخنوهما بتعطيل الفرائض والسنن أو بأن تضمروا خلاف ما تظهرون ، أو في الغلول في الغنائم ، روي ( أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلةً فسألوا الصُّلحَ كما صالح بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعَاتٍ وأريحاءٍ من الشام ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لما أن ماله ووعيلُه كانا في أيديهم ، فبعثه إليهم فقالوا : ما ترى هل ننزل على حكم سعدٍ فأشار إلى حلقه إنه الذبحُ قال أبو لبابة : فما زالت قدماي حتى عملتُ

أني خنتُ اللهَ ورسولَهُ فنزلت فشدَّ نفسه على سارية من سواري المسجدِ وقال: والله لا أذوقُ طعاماً ولا شرباً حتى أموتَ أو يتوبَ اللهُ عليّ فمكثَ سبعةَ أيامٍ حتى خرَّ مغشياً عليه ثم تاب اللهُ عليه ، فقيل له : قد تيبَ عليك فحلَّ نفسك ، قال : لا والله لا أحلها حتى يكونَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم هو الذي يجلني فجاهه عليه الصلاة والسلام فحله فقال : إن من تمام تويتي أن أهجرَ دارَ قومي التي أصبتُ فيها الذنبَ وأن أنخلعَ من مالي فقال عليه الصلاة والسلام : "يُجزئُك الثلثُ أن تصدقَ به " ﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ فيما بينكم وهو مجزومٌ معطوفٌ على الأول أو منصوبٌ على الجواب بالواو ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنكم تخونون أو وأنتم علماءٌ تميزون الحسنَ من القبيح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(101/310)

وقال الأوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

أصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء الإتمام ، واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه فإن الخائن ينقص المخون شيئاً مما خانه فيه ، اعتبر الراغب في الخيانة أن تكون سراً ، والمراد بها

هنا عدم العمل بما أمر الله تعالى به ورسوله عليه الصلاة والسلام .  
وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن خيانة الله سبحانه بترك فرائضه  
والرسول صلى الله عليه وسلم بترك سنته وارتكاب معصيته .  
وقيل : المراد النهي عن الخيانة بأن يضمروا خلاف ما يظهرون أو يغفلوا في الغنائم .  
وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبي حبيب رضي الله تعالى عنه أن المراد بها الإخلال  
بالسلاح في المغازي .  
وذكر الزهر .

والكلبي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر هود قرظة إحدى وعشرين ليلة وفي  
رواية البيهقي خمسا وعشرين .  
فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح .

كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرع من أرض الشام فأبى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا  
وقالوا : أرسل لنا أبا لبابة ورفاعة بن عبد المنذر .  
وكان مناصحاً لهم لأن ماله وولده ووعيله كان عندهم .

فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فقالوا : يا أبا لبابة ما ترى أننزل على حكم  
سعد بن معاذ فأشار بيده إلى حلقه يعني أنه الذبح فلا تفعلوا .

قال أبو لبابة : والله ما زالت قدمي عن مكانهما حتى عرفت أنني قد خنت الله تعالى  
ورسوله عليه الصلاة والسلام ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى  
أموت أو يتوب الله تعالى علي ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره قال : أما لو  
جاءني لاستغفرت له أما إذا فعل ما فعل فإني لا أطلقه حتى توب الله تعالى عليه فمكث  
سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شرباً حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله تعالى عليه فقيل له :  
يا أبا لبابة قد تيب عليك .

فقال : والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني  
فجاءه عله الصلاة والسلام فحله بيده ثم قال أبو لبابة : إن تمام توبتي أن أهجر دار قوم التي  
أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي .

فقال صلى الله عليه وسلم : يجزيك الثلث أن تصدق به ونزلت فيه هذه الآية " وقال  
السدي : كانوا يسمعون الشيء من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ  
المشركين فهو عن ذلك ، وأخرج أبو الشيخ وغيره عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج

من مكة فأتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن أبا سفيان بمكان  
كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا فاخرجوا  
إليه واكتبوا فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان إن محمداً صلى الله عليه وسلم  
مريدكم فخذوا حذرکم فنزلت ﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ عطف على المجزوم أولاً والمراد  
النهي عن خيانة الله تعالى والرسول وخيانة بعضهم بعضاً ، والكلام عند بعض على حذف  
مضاف أي أصحاب أماناتكم ، ويجوز أن تجعل الأمانة نفسها مخونة ، وجوز أبو البقاء أن  
يكون الفعل منصوباً بإضمار أن بعد الواو في جواب النهي كما في قوله :  
لا تنه عن خلق وتأتي مثله . . .

عار عليك إذا فعلت عظيم

(103/310)

---

والمعنى لا تجمعوا بين الخيأتين والأول أولى لأن فيه النهي عن كل واحد على حدته بخلاف  
هذا فإنه نهى عن الجمع بينهما ولا يلزمه النهي عن كل واحد على حدته ، وعن ابن عباس  
رضي الله تعالى عنهما تفسير الأمانات بالأعمال التي ائتمن الله تعالى عليها عباده ، وقرأ  
مجاهد ﴿ أماناتكم ﴾ بالتوحيد وهي رواية عن أبي عمرو ولا منافاة بينها وبين القراءة



الأخرى ﴿ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تبعة ذلك ووباله أو أنكم تخونون أو وأنتم علماء  
تميزون الحسن من القبيح ، فالفعل إما متعد له مفعول مقدر بقرينة المقام أو منزل منزلة اللازم  
، قيل : ولس المراد بذلك التقييد على كل حال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9  
ص ﴾

(104/310)

وقال ابن عاشور :  
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾  
استئناف خطاب للمؤمنين يحذرهم من العصيان الخفي .  
بعد أن أمرهم بالطاعة والاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم حذرهم من أن  
يظهروا الطاعة والاستجابة في ظاهر أمرهم ويبطنوا المعصية والخلاف في باطنه ،  
ومناسبته لما قبله ظاهرة وإن لم تسبق من المسلمين خيانة وإنما هو تحذير .  
وذكر الواحدي في "أسباب النزول" وروى جمهور المفسرين وأهل السير ، عن الزهري  
والكلبي ، وعبد الله بن أبي قتادة ، أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري لما  
حاصر المسلمون بني قريظة ، فسألت بنو قريظة الصلح فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم "تنزلون على حكم سعد بن معاذ" فأبوا وقالوا: "أرسل إلينا أبا لبابة" فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم أبا لبابة وكان ولده وعياله وماله عندهم ، فلما جاءهم قالوا له ما ترى أننزل على حكم سعد ، فأشار أبو لبابة بيده على حلقه : أنه الذئب ، ثم فطن أنه قد خان الله ورسوله فنزلت فيه هذه الآية ، وهذا الخبر لم يثبت في الصحيح ، ولكنه اشتهر بين أهل السير والمفسرين ، فإذا صح ، وهو الأقرب كانت الآية مما نزل بعد زمن طويل من وقت نزول الآيات التي قبلها ، المتعلقة باختلاف المسلمين في أمر الأنفال فإن بين الحادثتين نحواً من ثلاث سنين ويقرب هذا ما أشرنا إليه آنفاً من انتفاء وقوع خيانة لله ورسوله بين المسلمين .

(105/310)

---

والخون والخيانة : إبطال ونقض ما وقع عليه تعاقد من دون إعلان بذلك النقض ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ [ الأنفال : 58 ] والخيانة ضد الوفاء قال الزمخشري : " وأصل معنى الخون النقص ، كما أن أصل الوفاء التمام ، ثم استعمل الخون في ضد الوفاء لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه " أي واستعمل الوفاء في الإتمام بالعهد ، لأن من أنجز بما عاهد عليه فقد أتم عهده فلذلك

يقال : أوفى بما عاهد عليه .

فالإيمان والطاعة لله ورسوله عهد بين المؤمن وبين الله ورسوله ، فكما حذروا من المعصية العلنية حذروا من المعصية الخفية .

وتشمل الخيانة كل معصية خفية ، فهي داخلة في ﴿ لا تخونوا ﴾ ، لأن الفعل في سياق

النهي يعم ، فكل معصية خفية فهي مراد من هذا النهي ، فتشمل الغلول الذي حاموا حوله في قضية الأنفال ، لأنهم لما سأل بعضهم النفل وكانوا قد خرجوا يتبعون آثار القتلى ليتنفلوا منهم ، تعين تحذيرهم من الغلول ، فذلك مناسبة وقع هذه الآية من هذه الآيات سواء صح ما حكى في سبب النزول أم كانت متصلة النزول بقريناتها .

وفعل "الخيانة" أصله أن يتعدى إلى مفعول واحد وهو المخون ، وقد يعدى تعدية ثانية إلى ما وقع نقضه ، يقال : خان فلاناً أمانته أو عهده ، وأصله أنه نصب على نزع الخافض ، أي خانته في عهده أو في أمانته ، فاقصر في هذه الآية على المخوف ابتداءً ، واقتصر على المخون فيه في قوله : ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ أي في أماناتكم أي وتخونوا الناس في أماناتكم .

والنهي عن خيانة الأمانة هنا : إن كانت الآية نازلة في قضية أبي لبابة : إن ما صدر منه من إشارة إلى ما في تحكيم سعد بن معاذ من الضر عليهم يعتبر خيانة لمن بعثه مستفسراً ، لأن حقه أن لا يشير عليهم بشيء ، إذ هو مبعوث وليس بمستشار .

وإن كانت الآية نزلت مع قريناتها فنهى المسلمين عن خيانة الأمانة استطراد لاستكمال النهي عن أنواع الخيانة ، وقد عدل عن ذكر المفعول الأصلي ، إلى ذكر المفعول المتسع فيه ، لقصده تبشيع الخيانة بأنها نقض للأمانة ، فإن الأمانة وصف محمود مشهور بالحسن بين الناس ، فما يكون نقضاً له يكون قبيحاً فظيماً ، ولأجل هذا لم يقل : وتخنونوا الناس في أماناتهم فهذا حذف من الإيجاز .

والأمانة اسم لما يحفظه المرء عند غيره مشتقة من الأمن ؛ لأنه يأمنه من أن يضيعها ، والأمين الذي يحفظ حقوق من يواليه ، وإنما أضيفت الأمانات إلى المخاطبين مبالغة في تفضيع الخيانة ، بأنها نقض لأمانة منسوبة إلى ناقضها ، بمنزلة قوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [ النساء : 29 ] دون : ولا تقتلوا النفس .

وللأمانة شأن عظيم في استقامة أحوال المسلمين ، ما ثبتوا عليها وتخلقوا بها ، وهي دليل نزاهة النفس واعتدال أعمالها ، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من إضاعتها والتهاون بها ، وأشار إلى أن في إضاعتها انحلال أمر المسلمين ، ففي "صحيح البخاري" عن حذيفة بن اليمان قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين : رأيت أحدهما

وأنا انتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت على جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة ، وحدثنا عن رفعها فقال : ينام الرجل النومة فتقبض من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنقط فتراه مُنتبراً وليس فيه شيء ، ويصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة فيقال إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبه خردل من إيمان .

(107/310)

---

(الوكت سواد يكون في البسر إذا قارب أن يصير رطباً ، والمجل غلط الجلد من أثر العمل والخدمة ، ونقط تقرح ومُنتبراً منتفخاً ) ، وقد جعلها النبي صلى الله عليه وسلم من الإيمان إذ قال في آخر الأخبار عنها وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، وحسبك من رفع شأن الأمانة : أن كان صاحبها حقيقاً بولاية أمر المسلمين لأن ولاية أمر المسلمين ، أمانة لهم ونصح ، ولذلك قال عمر بن الخطاب حين أوصى بأن يكون الأمر شورى بين ستة "ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لعهدت إليه لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم له إنه أمين هذه الأمة".

وقوله: ﴿ وَتَحُونُوا ﴾ عطف على قوله: ﴿ لَا تَخُونُوا ﴾ فهو في حيز النهي، والتقدير:  
ولا تخونوا أماناتكم، وإنما أعيد فعل ﴿ تَحُونُوا ﴾ ولم يُكْتَفَ بِجَرَفِ الْعَطْفِ، الصالح  
للنيابة عن العامل في المعطوف، للتنبيه على نوع آخر من الخيانة فإن خيانتهم الله ورسوله  
نقضُ الوفاءِ لهما بالطاعة والامثال، وخيانة الأمانة نقض الوفاء بأداء ما أئتمنوا عليه.  
وجملة ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ تَخُونُوا ﴾ الأول والثاني، وهي  
حال كاشفة والمقصود منها تشديد النهي، أو تشنيع المنهي عنه لأن النهي عن القبيح في  
حال معرفة المنهي أنه قبيح يكون أشد، ولأن القبيح في حال علم فاعله بقبحه يكون أشنعَ  
، فالحال هنا بمنزلة الصفة الكاشفة في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ  
بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [المؤمنون: 117] وقوله ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ  
تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 22] وليس المراد تقييد النهي عن الخيانة بمجاله العلم بها، لأن ذلك  
قليل الجدوى، فإن كل تكليف مشروط بالعلم وكون الخيانة قبيحة أمر معلوم.

(108/310)

---

ولك أن تجعل فعل ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ منزلاً منزلة اللازم، فلا يُقَدَّرُ له مفعول، فيكون معناه  
"وأنتم ذوو علم" أي معرفة حقائق الأشياء، أي وأنتم علماء لا تجهلون الفرق بين المحاسن

والقبائح ، فيكون كقوله : ﴿ فَلَاتَجْعَلُوا لِلّٰهِ اٰدَاۗءًا وَاَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴾ في سورة البقرة (22)

.(

ولك أن تقدر له هنا مفعولاً دل عليه قوله : ﴿ وَتَخُونُوا اٰمَانَاتِكُمْ ﴾ أي وأنتم تعلمون خيانة الأمانة أي تعلمون قبحها فإن المسلمين قد تقرر عندهم في آداب دينهم تقييح الخيانة ، بل هو أمر معلوم للناس حتى في الجاهلية . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ التحرير والتنوير - 9 ص ﴾

(109/310)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

والخيانة مقابلها الأمانة ، والأمانة هي الشيء يستودعه واحد عند آخر بدون وثيقة عليه ،

ولا شهود . بل الأمر متروك إلى من عنده الأمانة ، إن شاء أقربها وإن شاء أنكرها ؛ لأن

الأمانة ليس عليها صك ولا عليها شهود . ولا عليها " كميالة " ، وغير محكومة بأي شيء

إلا بذمة من اتّمن ، والحق سبحانه تعالى يقول : ﴿ اِنَّا عَرَضْنَا الْاٰمَانَ عَلٰى السَّمٰوٰتِ

وَالْاَرْضِ وَالْجِبَالِ فَاَبَيْنَ اَنْ يَّحْمِلْنَهَا وَاَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْاِنْسَانُ اِنَّهٗ كَانَ ظَلُوْمًا جَهُوْلًا ﴾

[الأحزاب : 72] .

وكل الأجناس التي في الوجود ودون الإنسان من حيوان ونبات وجماد ، كلها مُسخرة ، ولا تملك الاختيار في أن تفعل أو لا تفعل . الشمس ليس لها اختيار في أن تقول : سأشرق اليوم على هؤلاء الناس ، أولن أشرق اليوم . والهواء لا يملك إرادة الاختيار ، كل الكائنات التي أوجدها الله في هذا الوجود ما عدا الإنسان مسخرة للمؤمن وللكافر . ورفضت هذه الكائنات أن تحمل أمانة الاختيار ، لكن الإنسان قال : أنا لي عقل يختار بين البديلات وأقبل تحمل الأمانة وسوف أؤدي كل مطلوبات الأمانة لأنني أقدر على الاختيار . لكن الإنسان ادعى لنفسه القدرة على أداء الأمانة . وكأنه قد وثق من نفسه أنه سيؤديها ، وهو لا يعلم بأي شيء حكم ذلك الحكم على أمر غيبي مستقبلي .

(110/310)

---

صحيح أنه ساعة التحمل كان في نيته أن يؤدي الأمانة ، لكن ماذا عن ساعة الأداء ؟ . وأنت لا تعرف ماذا تجيء به الأحداث والأغيار معك ، فقد يأتي لك ظرف تضطر أن تبدد فيه الأمانة ؛ لذلك تجد العاقل هو من يقول : ابعد عني أمانة الاختيار ، لأنني لا أعلم ماذا ماذا ستفعل بي الأغيار لحظة الأداء . وكل ما دون الإنسان أعلن عدم تحمل الأمانة وقبل التسخير ، أما الإنسان فأعلن قبول الأمانة وأنه سيؤديها . ووصفه القرآن الكريم



بقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: 72].

"ظلوماً" لنفسه لأنه حمل نفسه شيئاً ليس في يده. و"جهولاً" لأنه قاس وقت التحمل ولم يذكر وقت الأداء. فلم يضع في الاعتبار ما سوف تفعل به الأغيار.

ويقول الحق عز وجل هنا:

﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

وكثير من التصرفات السلوكية للإنسان تكون مستترة عن أعين الخلق؛ لأن أعين الخلق حين ترى جريمة ما، فهي تستدعي رجال القانون ليأخذوا حق المجتمع من المجرم، لكن ماذا عن الجرائم المستترة؟.

نحن نعلم أن كل جريمة تطفو وتظهر واضحة إنما توجد تحتها جرائم مخفية؛ لأن الذي يقتل إنما يخفي جرائم أخرى؛ مثل شرائه السلاح بدون ترخيص، وإن كان لا يملك نقوداً فقد يسرق ليشتري السلاح، ثم يقوم بتجنيد غيره لمساعدته في القتل، وكل ذلك جرائم مستترة، وبالتأكيد هناك سلوكيات باطنة يأتي بعدها السلوك المقلق للمجتمع وهو الجريمة الظاهرة، وقصارى قانون البشر أن يحرس المجتمع من الجرائم الظاهرة فقط، لكن عين القانون لا ترى الجرائم الباطنة والخفية، أما عين الدين فتختلف، إنها ترشد الأعماق إلى الصواب؛ لأن الدين أمانة وضعها الحق - الذي خلق الخلق - في ضمير الإنسان.

---

فإياك أن تخون الأمانة في الأمور السرية التي لا يعرفها أحد سوى الله؛ لأن الأمور التي يعرفها الناس يمكن أن تدافع عنها أمام هؤلاء الناس، بخلاف الأمور الباطنة وهي المهمة؛ لأنها هي التي تسيطر على إيجاد السلوك .

فإياك أن تخون الله والرسول، وتخون الأمانة التي وضعت لك . ولا حجة لك - في ذلك - إلا اختيارك . إن شئت فعلت وإن شئت تركت، وعلى الإنسان ألا يخون الأمانة التي بينه وبين ربه وإذا لم تتوافر الحراسة الإيمانية من ضميره على الأعمال الباطنة قد ينحرف؛ لأن كل جريمة ظاهرة إنما تتم بتبويت أمر باطن .

وما دمت قد آمنت بالله تعالى رباً بمحض اختيارك، فالتزم بالأشياء التي جاء لك بها من آمنت به، وأنت تعلم: أن الإيمان هو علة كل تكليف، وعلى سبيل المثال؛ أنت تصلي خمسة فروض لأن المشرع أمرك بذلك؛ تصلي في الصباح ركعتين، وفي الظهر أربع ركعات، وفي العصر أربع ركعات، وثلاث ركعات في المغرب، وأربع ركعات في العشاء؛ لأن المشرع وهو المولى سبحانه وتعالى أمرك بذلك . وأنت تصوم لأن الله أمرك أن تصوم، فإن أدركت من بعد الصيام أن فيه منافع لك، فهذا موضوع آخر، ومع ذلك تظل علة الصيام أن الله أمرك به، وهكذا تكون علة كل حكم هي الإيمان بمن حكم بهذا الحكم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [ الأنفال: 27 ] .

وما الخيانة؟ . إن مادة الخيانة كلها الانتقاص؛ وضده التمام، والكمال، والوفاء . ويقابل كل ذلك الاختيان والغدر . فإذا كان الله يقول لنا : لا تخونوا الله والرسول ، فعلينا أن نلتزم؛ لأن التشريع وصلنا من الله بواسطة الرسول ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ؛ لأن الله لم يخاطبنا مباشرة ، بل خاطب رسولا اصطفاه من خلقه وأيده بمعجزة . وكل بلاغ وصلنا إنما كان بواسطة الرسول .

﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾ .

(112/310)

---

فلا تخن الله فيما جاء في القرآن ، وجاء من الرسول المفوض من الله بأن يشرع . وتشريع الرسول واتباعه جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: 7] .

فله أمانة فيما نص عليها قرآناً ، وللرسول أمانة فيما لم ينص عليه القرآن إلا بتفويض قائل القرآن للرسول بأن يشرع ، فإن أطعت هذا الرسول ، فقد أطعت الله .  
وعرفنا أن الاختيان هو الانتقاص ، ومعنى الانتقاص هو الوقوف بعيداً عن الكمال والإتمام المطلوب . والإنسان حين آمن يصبح للإيمان في النفس أمانة .

فأنت قد آمنت أنه لا إله إلا الله ، وأمانة هذا الإيمان تقتضيك ألا تجعل لمخلوق ولاية عليك ولا ولاء له إلا أن يكون هذا الولاء نابعاً من اتباع منهج الله تعالى . وهذه هي أمانة الشهادة ، أما أمانة الرسالة فهي الحرص على تطبيق كل ما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه قدر الاستطاعة .

إذن فالأمانة مع الله تعالى أن تلتزم بكلمة الإيمان في أنه لا إله إلا الله ، وإياك أن تعتقد في أن أحداً يمكنه أن يتصرف فيك ، أو يملك لك ضرراً أو نفعاً ، أو أن مصالحك ممكن أن تقضى بعيداً عن الله ، فكل شيء بيد الله سبحانه صاحب الحول والطول ولا إله إلا الله ، وإياك أن تفهم أن حكماً يجيء لك عن غير طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنك إن خرجت عن هذا الإطار تكون إنساناً لم يؤد أمانة الله ولا أمانة الرسول .

والقمة في الأمانة هي إيمان بالله ، وإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم . والله قد أمر بأحكام وحين تقبلها فلها أمانة ، وأمانتها هي أداؤها من غير نقص في شيء سواء كان عاماً أو خاصاً ، ولو في الحديث يجري أمامك ، وتمتد أمانة الإيمان إلى كل شيء ، مثل أمانة أي مجلس توجد فيه ، فلا يحق لك ان تنقل أسرار غيرك إلى هذا المجلس أو أسرار المجلس إلى آخرين .

(113/310)

---

ونعرف رجلاً من قادة العرب هو زياد بن أبيه وكان شديد الحزم ، فوشى واش بهمام بن عبد الله السلوي إلى زياد ، وتوقع القوم عقاباً صارماً بهمام ؛ لأن زياداً كان يأخذ بالظن ، لكن الله ألهم همماً كلمة ظلت دستوراً يطبق ، وحين استدعى زياد همماً ، قال زياد : بلغني أنك هجوتني . قال هممام : كلا أصلحك الله . ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل . فقال : إن هذا الرجل - وأخرج الرجل من الخباء - أخبرني . فنظر هممام إليه فوجده جليساً وصديقاً ومؤنساً ، فلما رآه كذلك أقبل عليه وقال : أنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فحنت ، وإما قلت قولاً بلا علم فأبت - رجعت - من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة الخيانة والإثم ، أي إما أنك خائن أو آثم ، فإن كنت قد ائتمنتك على كلمة نفست بها عن نفسي فأنت خائن ، وإن كنت اختلقتها عليّ فأنت كاذب ، فأعجب زياد هذا المنطق ، وأقصى الواشي ولم يتقبل منه . ويقال إنه خلع هممام الصلّة والعطايا . فكان هممام حين يرى الواشي يقول له : هل لك في وشاية أخرى تغنيني ؟ ! !

وفي سيرته صلى الله عليه وسلم وقائع حدثت في تاريخه حتى من بعض الصحابة ، وعلى سبيل المثال : نحن نعلم أنه حينما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، جعل عهداً بينه وبين اليهود ، فاستقام لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استقاموا للعهد ،

فلما خالفوا هم العهد ؛ أراد رسول الله أن يؤدبهم ، فأدبهم ، وكان أول ذلك في بني النضير وأوضح لهم أنه لن يقتلهم ، بل سيكتفي بإخراجهم من ديارهم وإبعادهم إلى الشام .

(114/310)

---

ثم حدثت خيانة من بني قريظة ، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من الزمن . فبعثوا إلى رسول الله من يقول : يا رسول الله إن بني قريظة يريدون ان تصنع بهم ما صنعتهم مع بني النضير ، أي أن بني قريظة يعرضون ترك البلاد إلى الشام ، فرفض الرسول ذلك إلا بعد أن يحكم فيهم سعد بن معاذ ، وكان يجب بني قريظة وبينه وبينهم صلة ، وعرف بنو قريظة أن رسول الله يطمئن إلى حكم سعد بن معاذ فقالوا : لا ولكن أرسل لنا أولاً أبا لبابة ، وهذه كُنيته ، أما اسمه فهو مروان بن عبد المنذر ، وكان ماله في يد اليهود يتاجرون له فيه ، أي أن بينه وبينهم صلة مالية .

ذهب أبو لبابة إلى اليهود ، فاستشاروه في الأمر متسائلين : أنرضى بحكم سعد بن معاذ ؟ فماذا قال أبو لبابة ؟ قال : إنه الذبح ، وأشار إلى حلقومه ، وبعد ذلك لام أبو لبابة نفسه وقال : والله ما جالت قدماي حتى تيقنت أنني خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن انظروا إلى الإيمان ، ويقين الإيمان ، وترجيح أمر الآخرة على أمر الدنيا ، والنظر إلى أن

اقتضاح الإنسان في الدنيا أمر هين بالنسبة لاقتضاحه في الآخرة .  
ذهب إلى سارية المسجد - أي عمود في وسط المسجد - على مرأى ومشهد من الناس ،  
وحكم على نفسه بأن يربط نفسه بالسارية بيده ، وظل لا يطعم ولا يشرب سبعة أيام ،  
حتى خارت قواه وغشي عليه وسقط ، فعطف الله عليه ، وأبلغه رسول الله صلى الله  
عليه وسلم بأن الله قد تاب عليه . فقالوا له : حل نفسك بنفسك لأنك أنت الذي ربطت  
نفسك ، فقال : والله لأحلها حتى يحلني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذهب  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وحله من السارية .  
لماذا فعل أبو لبابة ذلك بنفسه ؟ لأنه شعر بأنه خان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه  
قال لليهود إنه الذبح .

(115/310)

---

وهناك صحابي آخر هو حاطب بن أبي بلتعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد  
جمع أمره لفتح مكة وأراد أن يستمر مقدمه حتى تفاجأ قريش . وتكون المفاجأة سبباً في  
عدم تولد اللدد وليتم الصلح . لذلك كتم الأمر ، وبعد ذلك جلس رسول الله بين صحابته  
وأعلمه الله أن حاطباً قد أرسل إلى قريش يخبرها . فانتدب علياً ومعه صحابييان وأمرهم

الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهبوا إلى مكان حدّده لهم في الطريق إلى مكة ليجدوا فتاةً معها كتاب إلى قريش ، فلما ذهبوا إلى المكان المحدد وجدوا الفتاة ، فقال لها الإمام عليّ : أخرجي ما معك ، فقالت : ليس معي شيء .

فمسك عليّ بن أبي طالب عقيصتها وأخرج الكتاب من المكان الذي تخبىء فيه أشياءها ، فوجد رسالة تحذير لقريش ، وعاد عليّ - كرم الله وجهه - بالرسالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم حاطبا : ما حملك على هذا يا حاطب ؟

قال : والله يا رسول الله لقد علمت أن ذلك لا يضرّك في شيء ، وأن الله ناصرك . .  
ناصرك ، ولكنني أردت أن أتخذ بيدي عند قريش ، لأنني رجل ضعيف ولا مالي ولا أهل .

فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أن هذا نوع من اختيان الرسول . ولكن عليك أن تعلم أن كل مخالفة لحكم قبلته من الله الذي آمنت به يعتبر خيانة للأمانة .  
﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنفال : 27 ] .

(116/310)

---



أي لا تخونوا الله والرسول في المنهج ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وأنتم تعلمون ، أي ألا يخون أحدكم قومه عن عمد ، ويؤخذ من هذا القول ثبوت المغفرة في حالة الخطأ والنسيان ، والممنوع أن تخون وأنت تعلم وتقصد ، لكن إن حدث أمر بسبب فلتة لسان ، فاعلم أن ربنا سبحانه وتعالى غفور رحيم ، وله فضل عظيم ، لا يأخذك بالسهو ، وأنتم تعلمون بالفطرة أن مثل هذا الفعل رذيلة لا يقبل عليها إنسان كريم ، ولو لم يكن متديناً ، وعليك أن تقيس الأمر بمقياس واضح هو : أتحب أن يفعل أحد معك نفس ما تفعله مع غيرك ؟ . وهذا سؤال تكون إجابته دليل الفطرة . فإن عرفت أن الفطرة ترفض الفعل ولا تقبله ، فعليك ألا تفعله ، لأنه مناف لهذه الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها ، وعلى سبيل المثال : إن اللص لو تخيل نفسه مسروقاً لما رضي أن يسرق ، والمعتدي على العرض ، لو تخيل أن هناك من يعتدي على عرضه لما اقترب الاعتداء على عرض الغير بهدف تحقيق شهوة في النفس . وما لا ترضاه لنفسك يجب عليك ألا ترضاه لغيرك . أتحب أن يخونك أحد في حديث أو في أمانة ؟ لا ؛ لذلك عليك أن تقيس كل أمر لا من الطرف الآخر ، بل من طرفك أنت .

إذن فقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي متعمدون ، غير ناسين أو ساهين ، أوجاء الأمر كفتة لسان ؛ لأنكم إذا كنتم تعلمون ، ففي ارتكاب هذه الأفعال خيانة والله ينهي عن ذلك فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: 27].

ونلاحظ أن الخطاب هنا لجماعة المؤمنين، وجاءت الأمانات أيضاً لجماعة، وأنت حين تُفصل الأمانات المجموعة على القوم المخاطبين بذلك، تعلم أن على كل إنسان تكليفاً محدوداً هو ألا يخون أمانته مثلما يقول الأستاذ للتلاميذ: أخرجوا أقلامكم . فعذاً أمر لجماعة التلاميذ بأن يخرج كل واحد قلمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي صـ ﴾

(117/310)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قال أبو العباس المقرئ : ورد لفظ " الخيانة " في القرآن بإزاء خمسة معان :

الأول : أن المراد بالخيانة : الذنب في الإسلام ، كهذه الآية ، لما نزلت في أبي لباية .

الثاني : الخيانة : السرقة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء : 105]

[نزلت في طعمة ، لما سرق الدرعين .

الثالث : نقض العهد ، قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ [الأنفال : 58] .

الرابع: الخيانة: المخالفة، قال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: خالفتاهما في الدين؛ لأنه يروى أنه ما زنت امرأة نبي قط.

الخامس: الخيانة: الزنا، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: 52]

[يعني: الزنا .

قوله: "وتخونوا"

يجوز فيه أن يكون منصوباً بإضمار "أن" على جواب النهي، أي: لا تجمعوا بين الخيانتين.

كقوله: [الكامل]

2694 - لا تَنَّهُ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ . . .

عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

والثاني: أن يكون مجزوماً نسقاً على الأول، وهذا الثاني أولى؛ لأن فيه النهي عن كل واحدٍ على حدته بخلاف ما قبله فإنه نهى عن الجمع بينهما، ولا يلزم من النهي عن الجمع بين الشيين النهي عن كل واحدٍ على حدته، وقد تقدم تحريره في قوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: 42] أول البقرة.

و"أماناتكم" على حذف مضاف، أي: أصحاب أماناتكم، ويجوز أن يكونوا نهوا عن خيانة الأمانات مبالغة كأنها جعلت مخونةً.

وقرأ مجاهدٌ ورويت عن أبي عمرو "أمانتكم" بالتوحيد، والمراد الجمع.

وقوله: " وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " جملة حالية ، وملتق العلم يجوز أن يكون مراداً أي : وأنتم تعلمون  
قُبِحَ ذلك أو أنكم مؤخذون بها ، ويجوز الأيقَدَر ، أي : وأنتم من ذوي العلم . انتهى انتهى .  
اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 496 . 498 ﴾ . باختصار .

(118/310)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (27) ﴿  
الخيانة الاستبطن بخلاف ما يُؤمَل منك بحق التعويل ، فخيانةُ الله بتضييع ما ائتمنك عليه ،  
وذلك بمخالفة النصح في دينه ، وخيانة الرسول بالانصاف بمخالفة ما تبدي من مشايعته .  
والخيانة في الأمانات بترك الإنصاف ، والانصاف بغير الصدق .  
وخيانة كل أحد على حسب ما وضع عنده من الأمانة ، فمن أوتمن في مال فتصرف فيه  
بغير إذن صاحبه - خيانة ، ومن أوتمن على الحرم فملاحظته إياهن - خيانة . فعلى هذا :  
الخيانة في الأعمال الدعوى فيها بأنها من قبلك دون التحقيق بأن منشأها الله .  
والخيانة في الأحوال ملاحظتك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق ،

إن لم يكن استهلاكك في وجود الحق . وإذا أُخِلَّتْ بِسُنَّةٍ مِنَ السُّنَنِ أَوْ أَدَبٍ مِنْ آدَابِ الشَّرْعِ  
فتلك خيانة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والخيانة في الأمانات - بينك وبين الخلق - تكون يائثار نصيب نفسك على نصيب المسلمين  
، بإرادة القلب فضلاً عن المعاملة بالفعل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1

﴿ 618 ﴾

(119/310)

قوله تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (28)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان سبب الخيانة غالباً محبة المال أو الولد ، وكان سبب التقاؤل المسبب عنه إنزال  
هذه السورة - كما سلف بيانه أولها - الأموال من الأنفال ، وكان من أعظم الخيانة في  
الأنفال الغلول ، وكان الحامل على الغلول المحنة يجب جمع المال إما استلذاذاً به أو لإنفاقه  
على محبوب ، وكان الولد أعز محبوب ؛ حسن كل الحسن إيلاء ذلك قوله : ﴿ واعلموا ﴾  
وهي كلمة ينبه بها السامع على أن ما بعدها مهم جداً ﴿ إنما أموالكم ﴾ قلت أو جلت

هانت أو عزّت ﴿ وأولادكم ﴾ كذلك ﴿ فتنة ﴾ أي سببها ، يفعل الله بها فعل المختبر  
لينكشف للعباد من يغتر بالعاجل الفاني ممن تسمو نفسه عن ذلك ، فلا يحملنكم ذلك على  
مخالفة أمر الله فتهلكوا ﴿ وأن الله ﴾ أي المحيط بكل كمال ﴿ عنده أجر عظيم ﴾ عاجلاً  
وآجلاً لمن وقف عند حدوده ، فيحفظ له ماله ويثمر أولاده ويبارك له فيهم مع ما يدخر له  
في دار السعادة ، وعنده عذاب أليم لمن ضيعها ، فأقبلوا بجميع هممكم إليه تسعدوا ، وزاد  
وضعها هنا حسناً سبب نزول التي قبلها من قصة أبي لبابة . رضى الله عنهم . الحامل عليها  
ماله وولده ، وكانت قصته في قريظة سنة خمس وغزوة بدر في السنة الثانية . انتهى انتهى .  
اه ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 207 ﴾

(120/310)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه لما كان الداعي إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد .  
نبه تعالى على أنه يجب على العاقل أن يحتز عن المضار المتولدة من ذلك الحب .  
فقال : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ لأنها تشغل القلب بالدنيا ، وتصير حجاباً عن

خدمة المولى .

ثم قال : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ تنبيهاً على أن سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا لأنها أعظم في الشرف ، وأعظم في الفوز ، وأعظم في المدة ، لأنها تبقى بقاء لانهاية له ، فهذا هو المراد من وصف الله الأجر الذي عنده بالعظم .

ويمكن أن يتمسك بهذه الآية في بيان أن الاشتغال بالنوافل أفضل من الاشتغال بالنكاح لأن الاشتغال بالنوافل يفيد الأجر العظيم عند الله ، والاشتغال بالنكاح يفيد الولد ويوجب الحاجة إلى المال ، وذلك فتنة ، ومعلوم أن ما أفضى إلى الأجر العظيم عند الله ، فالاشتغال به خير مما أفضى إلى الفتنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 122 .

﴿ 123

وقال السمرقندي :

﴿ واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾

يعني بلاء عليكم ، لأن أبا لبابة إنما ناصحهم من أجل ماله وولده الذي كان عند بني قريظة .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ، يعني الجنة لمن صبر ولم يخن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر

العلوم ح 2 ص ﴿

(121/310)

وقال الماوردي :

قوله : ﴿ وَعَلِّمُوا أَنْمَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

يحتمل وجهين :

أحدهما : أن ما عند الله تعالى من الأجر خير من الأموال والأولاد .

والثاني : أن ما عند الله تعالى من أجر الحسنة التي يجازي عليها بعشر أمثالها أكثر من

عقوبة السيئة التي لا يجازي عليها إلا بمثلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون - 2 ص



وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَعَلِّمُوا أَنْمَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةً ﴾

قال ابن عباس : هذا خطاب لأبي لبابة ، لأنه كانت له أموال وأولاد عند بني قريظة .

فأما الفتنة ، فالمراد بها : الابتلاء والامتحان الذي يظهر ما في النفس من اتباع الهوى أو

تجنُّبه ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ خير من الأموال والأولاد . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير - 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَعَلِّمُوا أَنْمَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةً ﴾ كان لأبي لبابة أموال وأولاد في بني



قريظة: وهو الذي حمله على ملاينتهم؛ فهذا إشارة إلى ذلك .

﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أي اختبار؛ امتحنهم بها .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فَآثَرُوا حَقَّهُ عَلَى حَقِّكُمْ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

القرطبي ح 7 ص ﴿

(122/310)

وقال الخازن:

قوله ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ .

قيل: هذا مما نزل في أبي لبابة وذلك لأن أمواله وأولاده كانت في بني قريظة فلذلك قال ما قال خوفاً عليهم .

وقيل: إنه عام في جميع الناس وذلك أنه لما كان الإقدام على الخيانة في الأمانة هو حب المال

والولد تبه الله سبحانه وتعالى بقوله: واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة على أنه يجب

على العاقل أن يحذر من المضار المتولدة من حب المال والولد ، لأن ذلك يشغل القلب

ويصيره مجبواً عن خدمة المولى وهذا من أعظم الفتن وروى البغوي بسنده عن عائشة أن

النبي (صلى الله عليه وسلم) " أتى بصبي فقبله وقال أما إنهم مبخلة مجبنة وإنهم لمن

ريحان الله " أخرج الترمذي عن عمر بن عبد العزيز قال زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم قال : " خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول إنكم لتبخلون وتجنون وتجهلون وإنكم لمن ريحان الله "

قال الترمذي : لانعرف لعمر بن عبد العزيز سماعاً عن خولة .

قوله ، لمن ريحان الله : أي لمن رزق الله والريحان في اللغة الرزق .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني لمن أدى الأمانة ولم يخن وفيه تنبيه على أن سعادة الآخرة وهو ثواب الله أفضل من سعادة الدنيا وهو المال والولد . انتهى انتهى . ١

هـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾

أي سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب أو محنة واختبار لكم وكيف تحافظون على

حدوده فيها ففي كون الأجر العظيم عنده إشارة إلى أن لا يُفتن المرء بماله وولده فيؤثر محبته

لهما على ما عند الله فيجمع المال ويجب الولد حتى يؤثر ذلك كما فعل أبو لبابة لأجل كون

ماله وولده كانوا عند بني قريظة . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(123/310)

وقال أبو السعود :

﴿ واعلموا أنَّ أموالكم وأولادكم فتنة ﴾

لأنها سبب الوقوع في الإثم والعقاب أو محنة من الله عز وجل ليلوكم في ذلك فلا يحملنكم  
حبهما على الخيانة كأبي لبابة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر رضاه تعالى عليهما  
وراعى حدوده فيهما فنيطوا هممكم بما يؤديكم إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي

السعود ح 4 ص ﴿

وقال الأوسى :

﴿ واعلموا أنَّ أموالكم وأولادكم فتنة ﴾

لأنها سبب الوقوع في الإثم والعقاب ، أو محنة من الله عز وجل يختبركم بها فلا يحملنكم  
حبها على الخيانة كأبي لبابة ، ولعل الفتنة في المال أكثر منها في الولد ولذا قدمت الأموال  
على الأولاد ، ولا يخفى ما في الأخبار من المبالغة .

وجاء عن ابن مسعود ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة لأن الله سبحانه يقول :

﴿ واعلموا أنَّ أموالكم ﴾ الخ فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن ؛

ومثله عن علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن مال إليه

سبحانه وآثر رضاه عليهما وراعى حدوده فيهما فانيطوا هممكم بما يؤديكم إليه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَعَلَّمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [ 28 ] .

﴿ وَعَلَّمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي : محنة من الله ليبلوكم ، هل تقعون بهما في

الخيانة ، أو تتركون لهما الإستجابة لله ورسوله ، أو لا تلهون بهما عن ذكره ولا تعاضون بهما منه .

فسموا فتنة اعتباراً بما ينال الإنسان من الإختبار بهم ، ويجوز أن يراد بالفتنة الإثم أو

العذاب ، فإنهم سبب الوقوع في ذلك .

قال الحاكم : قد أمر الله بالعلم بذلك ، وطريق العلم به التفكير في أحوالهما وزوالهما ، وقلة

الإنتفاع بهما ، وكثرة الضرر ، وأنه قد يعصي الله بسببهما .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : لمن آثر رضاه على جمع المال وحب

الولد ، فلم يورط نفسه من أجلهما .

وقد جاء التحذير من فتنتهما صراحة مع الترهيب الشديد في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

قيل : هذه الآية من جملة ما نزل في أبي لبابة ، وما فرط منه لأجل ماله وولده . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 8 ص 288.289 ﴾

وقال ابن عاشور :

وابتداء جملة : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾  
بفعل ﴿ اعلموا ﴾ للاهتمام كما تقدم آنفاً عند قوله : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء  
وقلبه ﴾ [ الأنفال : 24 ] وقوله ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ [ الأنفال : 25 ]  
وهذا تنبيه على الحذر من الخيانة التي يحمل عليها المرء حب المال وهي خيانة الغلول  
وغيرها ، فتقديم الأموال لأنها مظنة الحمل على الخيانة في هذا المقام .  
وعطف الأولاد على الأموال لاستيفاء أقوى دواعي الخيانة ، فإن غرض جمهور الناس في  
جمع الأموال أن يتركوها لابنائهم من بعدهم ، وقد كثر قرن الأموال والأولاد في التحذير ،  
ونجده في القرآن ، قيل إن هاته الآية من جملة ما نزل في أبي لبابة .  
وجيء في الإخبار عن كون الأموال والأولاد فتنة بطريق القصر قصراً ادعائياً لقصد المبالغة  
في إثبات أنهم فتنة .

وجعل نفس "الأموال والأولاد" فتنة لكثرة حدوث فتنة المرء من جراء أحوالهما ، مبالغة  
في التحذير من تلك الأحوال وما ينشأ عنها ، فكان وجود الأموال والأولاد نفس الفتنة .

وعطف قوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ على قوله: ﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ للإشارة إلى أن ما عند الله من الأجر على كف النفس عن المنهيات هو خير من المنافع الحاصلة عن اقتحام المناهي لأجل الأموال والأولاد. انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ﴾

(125/310)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (28)

وإذا بحثنا عن علاقة هذه الآية بالآية السابقة عليها نجد أن العلاقة واضحة؛ لأن خيانة الله، وخيانة الرسول، وخيانة الأمانات إنما يكون لتحقيق شهوة أو نفع في النفس، وعليك أن تقدر أنت على نفسك لأنك قد لا تقدر على غيرك، ومثال ذلك: أنت قد لا تقدر على مطالب أولادك، وقد لا يكفي دخلك لمطالبهم، فهل يعني ذلك أن تأخذ من أمانة استودعها واحد عندك؟ لا .

هل يعني ذلك أن تخون في البيع والشراء لتحقيق مصلحة ما؟ لا .

هل تخون أمانات الناس من أجل مصالح أولادك أو لتصير غنياً؟ لا .

وقد جاء الحق هنا بالأمرين ، والأولاد وأخبرنا أنهما فتنة ، والفتنة - كما علمنا من قبل - لا تدم ولا تمدح إلا بنتيجتها ؛ فقد تكون ممدوحة إذا نجحت في الاختبار ، وتكون مذمومة حين ترسب في ذلك الاختبار المبين في تلك الآية الكريمة .

والمستبعون لأسرار الأداء القرآني يعرفون أن لكل حرف حكمة ، وكل كلمة بحكمة ، وكل جملة بحكمة ؛ لذلك نجد من يتساءل : لماذا قدم الحق تبارك وتعالى الأموال على الأولاد ؟ . ونقول : لأن كل واحد له مال ولو لم يكن له إلا ملبسه . وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد . ثم إن الأبناء ينشأون من الزواج ، ومجيء الزوج ، يحتاج إلى المال ؛ لذلك كان من المنطق أن يأتي الحق بالأموال أولاً ثم يأتي بذكر الأولاد .

وأساليب القرآن الكريم تناول هذا الموضوع بألوان مختلفة ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى :  
﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ  
﴿ [آل عمران : 14] .

(126/310)

---

وفي هذا القول نجد أن القناطر المقنطرة من الذهب والفضة تأخرت هنا عن النساء والبنين . ولم يأت بذكر الأموال أولاً ثم الأولاد كفتنة . وعلينا أن ننتبه أنه سبحانه وتعالى

جاء هنا بالقناطير المقنطرة، وهي تأتي بعد تحقيق الشهوة الأولى؛ وهي النساء، والزينة الثانية وهي الأبناء، ونعلم أن من عنده مال يكفيه للزواج والإنجاب قد يطمع في المزيد من المال، فإن كانت الوحدة من القناطير المقنطرة هي القنطار، فمعنى ذلك أن الإنسان الذي يملك قنطاراً إنما يطمع في الزيادة مثلما يطمع من يملك ألف جنيه في أن يزيد ما يمتلكه ويصل إلى مليون جنيه، وهكذا. إذن فالقناطير المقنطرة تعني الرغبة في المبالغة في الغنى.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [الأنفال: 28].

ويقول في آية ثانية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّ لكم فاحذروهم ﴾ [التغابن: 14].

وفي هذا القول نجد أن العداوة تأتي من الأزواج قبل الأولاد، ونعلم أن الزوجة في بعض الأحيان هي التي تكره أولادهم ثم يتأثر بكرهيتها ويتشبه بها الأبناء، وهذا كلام منطقي؛ لأن الذي يتكلم هورب حكيم.

﴿ واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾.

وفي هذا القول تحذير واضح: إياكم أن ترسبوا في هذا الاختبار؛ فمن يجمع المال من حرام لترف أبنائه فهو خائن للأمانة، وهذا له عقاب، ولذلك يذكرنا الحق تبارك وتعالى في آخر



هذه الآية بما يجب إلينا النجاح في الاختبار فيقول سبحانه :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

(127/310)

---

ونعلم أن النفس البشرية مولعة بحكم تكوينها الفطري من الله بحب النفع لنفسها ، ولكن المختلف فيه قيمة هذا النفع ؛ وعمر هذا النفع ؛ لأن الذي يسرق إنما يريد أن ينفع نفسه بجهد غيره ، ومن لا يسرق يريد أيضاً أن ينفع نفسه ليبارك الله له في المال وأن يعطيه الرزق الحلال . وهكذا تكون النفعية وراء كل عمل سواء أكان إيجاباً أم سلباً ، والمثال الذي أضربه دائماً لذلك هو الطالب الذي يهمل في دروسه ، ويوقظه أهله كل صباح بصعوبة ، ثم يخرج من المنزل ليتسكع في الشوارع ، والطالب الثاني الذي استيقظ صباحاً وذهب إلى مدرسته وانكب على دروسه ، إن كلاً من الطالبين قد أراد نفع نفسه ، الفاشل أراد النفع الأحق ، والناجح أراد النفع في المستقبل . ونعرف أن النفع غاية مطلوبة لكل نفس . والمهم هو قيمة النفع ، وعمر النفع . فإذا كانت الخيانة ستؤدي لك نفعاً في أولادك أو أموالك ؛ فاذا ما يقابل الأمانة من الأجر عند الله عز وجل ، وضع هذه في كفة ، وضع تلك في الكفة الأخرى ، وانظر أي كفة ترجح ، ولا بد أن ترجح الكفة الأجر عند الله عز

وجل .

ولذلك قال المتنبى :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه . . . حريصاً عليها مستهماً بها صباً

فحبُّ الجبانِ النفسَ أوردَه التقى . . . وحبُّ الشجاعِ النفسَ أوردَه الحرباً

فكلنا نحب الحياة؛ الجبان الخائف من الحرب يحب الحياة، والشجاع الذي يحب نفسه ويعلم

قيمتها عند خالقها يخوض الحرب رغبة في حياة الاستشهاد، وهي حياة عند الله إلى أن

تقوم الساعة، ثم تلوها حياة الجنة حيث يخلد فيها أبداً .

إذن فالمعيار الذي تقيس به النفع هو محل الاختلاف .

وفي عرف البشر نجد أن الأجر يساوي قيمة العمل، لكن الأجر عند الله لا يساوي العمل

فقط، بل هو عظيم بطلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى. انتهى انتهى . اهـ ❁ تفسير

الشعراوى صـ ❁

(128/310)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) وَعَلِمُوا  
أَنْمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه . أن أبا  
سفيان خرج من مكة ، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبا سفيان بمكان  
كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا . فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان : إن محمداً  
صلى الله عليه وسلم يريدكم ، فخذوا حذرکم ، فأنزل الله ﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾  
الآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن  
قتادة رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية ﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾ في أبي لبابة بن  
عبد المنذر ، سأله يوم قريظة ما هذا الأمر ؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح ، فنزلت قال أبو  
لبابة رضي الله عنه : ما زالت قدماي حتى علمت أنني خنت الله ورسوله .

وأخرج سنيد وابن جرير عن الزهري رضي الله عنه في قوله ﴿ لا تخونوا الله  
والرسول . . . ﴾ الآية . قال " نزلت في أبي لبابة رضي الله عنه ، بعثه رسول الله صلى  
الله عليه وسلم فأشار إلى حلقه أنه الذبح ، فقال أبو لبابة رضي الله عنه : لا والله لا أذوق  
طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب عليّ ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً  
حتى خر مغشياً عليه ، ثم تاب الله عليه فقيل له : يا أبا لبابة قد تيب عليك . قال : لا والله

لأحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يجليني . فجاء فحله  
بيده " .

(129/310)

---

وأخرج عبد بن حميد عن الكلبى رضى الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث  
أبا لبابة رضى الله عنه إلى قريظة وكان حليفاً لهم ، فأوماً بيده أي الذبح ، فأنزل الله ﴿ يا  
أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم لأمرأة أبي لبابة . أيصلي ويصوم ويغتسل من الجنابة ؟ فقالت : إنه  
ليصلي ويصوم ويغتسل من الجنابة ويجب الله ورسوله . فبعث إليه فأتاه فقال : يا رسول الله  
والله إني لأصلي وأصوم وأغتسل من الجنابة . وإنما نهست إلى النساء والصبيان فوقعت  
لهم ما زالت في قلبي حتى عرفت أنني خنت الله ورسوله " .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضى الله عنه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول  
﴿ قال : نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر رضى الله عنه نسختها الآية التي في براءة ﴾  
وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ [ التوبة : 102 ] .

وأخرج ابن مردويه عن عكرمة رضى الله عنه قال " لما كان شأن بني قريظة ، بعث إليهم

النبي صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه فيمن كان عنده من الناس ، انتهى إليهم  
وقعوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى  
الله عليه وسلم على فرس أبلق ، فقالت عائشة رضي الله عنها : فلكأنني أنظر إلى رسول  
الله صلى الله عليه وسلم مسح الغبار عن وجه جبريل عليه السلام ، فقلت : هذا دحية يا  
رسول الله ؟ قال : هذا جبريل .

(130/310)

---

فقال : يا رسول الله ما يمنعك من بني قريظة أن تأتيهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم : فكيف لي بمحصنهم ؟ فقال جبريل عليه السلام : إني أدخل فرسي هذا عليهم ،  
فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً معروراً ، فلما رآه علي رضي الله عنه قال :  
يا رسول الله لا عليك أن لا تأتيهم فإنهم يشتمونك . فقال : كلا إنها ستكون تحية ، فأثامهم  
النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أخوة القردة والخنزير . فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت  
فحاشاً . . . ؟ ! فقالوا : لا ننزل على حكم محمد صلى الله عليه وسلم ولكننا ننزل على  
حكم سعد بن معاذ ، فنزلوا فحكم فيهم : أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم . فقال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : بذلك طرقتني الملك سحراً ، فنزل فيهم ﴿ يا أيها الذين

آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴿ نزلت في أبي لبابة رضي الله عنه ، أشار إلى بني قريظة حين قالوا : نزل على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه ، لا تفعلوا فإنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لا تخونوا الله ﴾ قال : بترك فرائضه ﴿ والرسول ﴾ بترك سنته وارتكاب معصيته ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ يقول : لا تنقصوها والأمانة التي ائتمن الله عليها العباد .  
وأخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه .

وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبي حبيب رضي الله عنه في قوله ﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾ هو الإخلال بالسلاح في المغازي .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ رضي الله عنه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة لأن الله يقول ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ واعلموا  
أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ قال : فتنة الاختبار اختبرهم وقرأ قول الله تعالى ﴿ ونبلوكم  
بالشر والخير فتنة ﴾ [ الأنبياء : 35 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 ص ﴾

(132/310)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ (28)

أموالكم وأولادكم سبب فتنتكم لأن المرء - لأجل جمع ماله ولأجل أولاده - يرتكب ما هو  
خلاف الأمر ، فيورثه فتنة العقوبة .

ويقال الفتنة الاختبار ؛ فيختبرك بالأموال . . هل تؤثرها على حق الله ؟

وبالأولاد . . هل تترك لأجلهم ما فيه رضاء الله ؟

فإن أثرتم حقه على حَقِّكم ظهرت به فضيلتكم ، وإن اتصفتُم بضده عوملتُم بما يوجبُه  
العكس من محبوبكم .

ويقال المال فتنة إذا كان عن الله يشغلُكم ، والأولاد فتنة إذا لأجلهم قصرتُم في حقِّ الله أو

فَرَطْتُمْ .

ويقال المال - ما للكفافِ والعفافِ - نِعْمَةٌ ، وما للتقاصرِ والتفاخرِ فتنةٌ ، وفي الجملة ما يشغلك عن الله فهو فتنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ج 1 ص 619 ﴾

(133/310)

فصل

قال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ واذكروا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَّاكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (26) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28) ﴾

الخطاب بقوله : ﴿ واذكروا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴾ للمهاجرين ، أي اذكروا وقت قلتكم ، و ﴿ مُسْتَضْعَفُونَ ﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ ، والأرض هي أرض مكة ، والخطف : الأخذ بسرعة ، والمراد بالناس : مشركو قريش .

وقيل : فارس والروم ﴿ فَأَوَّاكُمْ ﴾ يقال : آوى إليه بالمد وبالقصر بمعنى : انضم إليه .



فالمعنى : ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار ﴿ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ﴾ أي : قوَّاكم بالنصر في مواطن الحرب التي منها يوم بدر ، أو قوَّاكم بالملائكة يوم بدر ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ التي من جملتها الغنائم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : إرادة أن تشكروا هذه النعم ، التي أنعم بها عليكم ، والخون أصله كما في الكشف : النقص .

كما أن الوفاء التمام ، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان .

وقيل معناه : الغدر وإخفاء الشيء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ [ غافر : 19 ] نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم ، أو يخونوا رسوله بترك شيء مما آمنهم عليه ، أو بترك شيء مما سنه لهم ، أو يخونوا شيئاً من الأمانات التي أوتمنوا عليها ، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق ، مأخوذة من الأمن .

(134/310)

---

وجملة ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة ، فتفعلون الخيانة عن عمد ، أو وأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل .

ثم قال: ﴿واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ لأنهم سبب الوقوع في كثير من الذنوب ، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده ، وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا كما في الآية الأخرى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فآثروا حقه على أموالكم وأولادكم ، ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله: ﴿واذكروا إذا تمّ قليل﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذلّ الناس ذلاً ، وأشقاه عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعراه جلوداً ، وأبينه ضلالةً ، من عاش عاش شقياً ، ومن مات منهم ردّي في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، لا والله ما نعلم قبيلاً من حاضري الأرض يومئذ كان أشرّ منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام ، فمكّن به في البلاد ، ووسع به في الرزق ، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس .

وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا لله نعمه ، فإن ربكم منعم يجب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج ، في قوله: ﴿يَتَخَطَّفُكُمُ النَّاسُ﴾ قال: في الجاهلية بمكة ﴿فَأَوَّكُمُ﴾ إلى الإسلام .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن وهب ، في قوله: ﴿يَتَخَطَّفُكُمُ النَّاسُ﴾ قال: الناس إذ ذاك فارس والروم .

وأخرج أبو الشيخ، وأبونعيم، والديلمي، في مسند الفردوس، عن ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في قوله: ﴿وَإِذْ كَرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ قيل: يا رسول الله ومن الناس؟ قال: "أهل فارس" وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿فَاوَاكُمُ﴾ قال: إلى الأنصار بالمدينة ﴿وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ قال: يوم بدر.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن جابر بن عبد الله، أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا"، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبد الله بن أبي قتادة، قال: نزلت هذه الآية ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ في أبي لبابة بن عبد المنذر، سأله يوم قريظة ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، فنزلت.

قال أبو لبابة: ما زالت قدماي حتى علمت أنني خنت الله ورسوله.

وأخرج سنيد، وابن جرير، عن الزهري نحوه بأطول منه.

وأخرج عبد بن حميد، عن الكلبي أن رسول الله بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفاً لهم، فأوماً بيده أنه الذبح، فنزلت.

وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في هذه الآية: أنها نزلت في أبي لبابة، ونسختها الآية التي في براءة ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 102].

(136/310)

---

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ قال: بترك فرائضه ﴿والرسول﴾ بترك سننه، وارتكاب معصيته ﴿وَتَخُونُوا أماناتكم﴾ يقول: لا تنقصوها.

والأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد.

وأخرج ابن جرير، عن المغيرة بن شعبة، قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان.

ولعل مراده أن من جملة من يدخل تحت عمومها قتل عثمان.

وأخرج أبو الشيخ، عن يزيد بن أبي حبيب، في الآية قال: هو الإخلال بالسلاح في المغازي

، ولعل مراده أن هذا مما يندرج تحت عمومها .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن مسعود ، قال : ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة ، لأن الله يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ فمن استعاذ منكم ، فليستعذ بالله من مضلات الفتن .

وأخرج هؤلاء عن ابن زيد في الآية قال : فتنة الإختبار اختبرهم ، وقرأ ﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [ الأنبياء : 35 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(137/310)

---

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (29) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكرهم ما كانوا عليه قبل الهجرة من الضعف ، وامتن عليهم بما أعزهم به ، وختم هذه بالتحذير من الأموال والأولاد الموقعة في الردى ، وتعظيم ما عنده الحامل على الرجاء ، تلاها بالأمر بالتقوى الناهية عن الهوى بالإشارة إلى الخوف من سطواته إشارة إلى أنه يجب

الجمع بينهما ، وبين تعالى أنه يتسبب عنه الأمن من غيره في الأولى والنجاة من عذابه في الأخرى فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ تكريماً لهذا الوصف تذكيراً بما يلزم بادعائه ﴿ إن تتقوا الله ﴾ بإصلاح ذات بينكم ، وذلك جامع لأمر الدين كله ﴿ يجعل لكم فرقاناً ﴾ أي نصراً ، لأن مادة " فرق " ترجع إلى الفصل ، فكأن الشيء إذا كان متصلاً كان كل جزء منه مقهوراً على ملازمة صاحبه ، فإذا جعل له قوة الفرق قدر على الاتصال والانفصال ، فحقيقته : يجعل لكم عزاً تصيرون به بحيث تفرقون ممن أردتم متى أردتم وتصلون بمن أردتم متى أردتم لما عندكم من عزة الممانعة ، وتفرقون بين من أردتم متى أردتم لما لديكم من قوة المدافعة ، أي يجعل لكم ما يصير لكم به قوة التصرف فيما تريدون من الفصل والوصل الذي هو وظيفة السادة المرجوع إلى قولهم عند التنازع ، لا كما كنتم في مكة ، لا تأمنون في المقام ولا تقدرتون على الكلام - فضلاً عن الخصام - إلا على تهيب شديد ، ومع ذلك فلا يؤثر كلامكم أثراً يسمى به فارقاً ، والفاروق من الناس الذي يفرق بين الأمور ويفصلها ، وبه سمي عمر - رضي الله عنهم - لأنه أظهر الإسلام بمكة إظهاراً فيه عز وقوة ، جعل فيه الإيمان مفارقاً للكفر لا يخافه ، وفرق - بالكسر بمعنى خاف - يرجع إلى ما دارت عليه المادة ، فإن المراد به : تفرقت همومه من اتساع الخوف ، والفرق الذي هو المكيال الكبير كأنه هو الفارق بين الغني والفقير ، قال الهروي : هو اثنا عشر مداً : وأفرق

من علته - إذا برىء ، أي صارت له حالة فرقت بين صحته ومرضه الذي كان به ، ومنه  
الفريقة وهي تمر وحلبة يطبخ للنساء ؛

(138/310)

---

وقرفت الشيء - بتقديم القاف : قشرته ، والقرف : الخلط ، كأنه من الإزالة ، لأنهم قالوا :  
إن " فعل " يدخل في كل باب ، ومنه : قرف الشيء واقترافه : اكتسبه ، والاقتراف بمعنى  
الجماع ، ويمكن أن يرجع إلى الوعاء لأن القرف الوعاء ، لأنه يفصل مطروفه عن غيره ،  
وفلان قرفتي ، أي موضع ظني منه كأنه صار وعاء لذلك ، وفرس مقرف ، أي بين القرفة ،  
أي هجين لأنه واضح التمييز من العربي ، وقرف بسوء : رمى به ، أي جعل وعاء له أوفرق  
همومه ؛ والقفر - بتقديم القاف : المكان الخالي لانفصاله من الناس ، وأقفر المكان : خلا ،  
وأقفر الرجل من أهله : انفرد عنهم ، وقفر الطعام : خلا من الأدم ، ورجل قفر الرأس : لا  
شعر عليه لانفصاله عنه ، وقفر الجسد : لا لحم عليه ، والقفار : الطعام لا أدم له ، واقفرت  
الأثر : اتبعته لتفصله من غيره ؛ والفقرة - بتقديم الفاء - والفقار : ما تنصد من عظام  
الصلب من لدن الكاهل إلى العجب لتمييز كل واحدة عن أختها ، وفقرت الأرض فقراً :  
حفرتها حفراً ، فصارت كل واحدة منفصلة من الأخرى ، والفاقرة : الداهية الكاسرة

للفقار ، ومنه الفقر والافتقار للحاجة ، وأفقرني دابته : أعارني ظهرها ، وراميته من أدنى  
فقرة : من أدنى معلم لأن العالم منفصل بعضها عن بعض ، والتقفر في رجل الدابة بياض  
لانفصاله عن بقية لونها ، ورفقت بالأمر : لطفت به ، ولا يكون ذلك إلا بفصله عما يضره ،  
ومنه الرفيق للصاحب من الرفقة ، والمرق من ذلك لما يحصل به من اللطف .

(139/310)

---

ولما كان الإنسان محل النقصان فلا يخلو من زلة أو هفوة ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ وَيَكْفُرْ  
عَنكُمْ سِيئَاتِكُمْ ﴾ أي يسترها ما دتم على التقوى ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أي يحو ما كان  
منكم غير صالح عيناً وأثراً ، وفيه تنبيه لهم على أن السادات على خطر عظيم لأنهم  
مأمورون بالمساواة بين الناس ، والنفس مجبولة على ترجيح من لاءمها على من نافرها ،  
وإشارة إلى أن الحكم بالعدل في أعلى الدرجات لا يتسنمه إلا الفرد النادر ، وقوله :  
﴿ وَاللَّهُ ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ مرجح للزيادة على  
الكفارة والمغفرة من فضله ، ومعلم بأنه لا يمتنع عليه شيء ، فمن الممكن أن يلزم كلاً منهم  
طريق العدل وإن كانت من خرق العادة في أعلى محل ، وفي الآية أعظم مناسبة لقصة أبي  
لبابة -رضي الله عنهم- لأنه لما كان الحامل له على ما فعل بنفسه من العقوبة التقوى ،



فكفرت عنه خطيئته وغفر له ، عقت بها ترغيباً لغيره في الإسراع بالتوبة عند مواجهة الهفوة ، وختم هذه الآية بالفضل على ما كان من نقص ، إشارة إلى تفضله سبحانه بما رزق أهل الإسلام من علو المنزلة وانتشار الهيبة وفخامة الأمر في قلوب المخالفين كما هو مشاهد ، وختم الآية المحذرة من المداهنة بشديد العقاب ، إشارة إلى ما ألبسهم من الأحوال المذكورة في التي تليها من قلة منعتهم واستضعافهم وخوفهم من تحطف المخالفين لهم ، ولكنه تعالى رحمهم بأن جعل ذلك من بعضهم ممن يشمله اسم الإسلام لبعض ، لا من غيرهم فلبسهم شيعاً وأذاق بعضهم بأس بعض ، فكل خائف من الآخر ، وصار المتقي من كثرة المخالف لا يزال من المعاطب والمتالف خائفاً يترقب ، ومباعداً لا يقرب ، على أنهم لا يعدمون أنصاراً يؤيدهم الله بهم ، ولا يزال أهل الظلم يختلفون فيما بينهم فيرجع الفريقان إليهم ويعولون عليهم ، فمن نصره فهو المنصور ، فكلامهم عند المضائق هو الفرقان ، وهم في قلوب الظالمين هيبة وإن نزلت بهم الحال أكثر مما للظلمة في قلوبهم من الهيبة ليتيقن الكل أنهم على الحق الذي الله ناصره ، وأن أهل الشر على الباطل الذي الله خاذله ، قال الحسن البصري رحمه الله في حق العالين في الأرض : أما والله ! إن للمعصية في قلوبهم لذلاً وإن طفطف بهم اللحم ، فقد انقسم الخوف بينهم نصفين وشتان ما بين الحزين ، فخوفهم يزيدهم الله به أجراً ويجعله لهم ذخراً ، وخوف أهل الباطل يزيدهم به وزوراً

ويجعله لدينه أزرًا ، فهذه حقيقة الحال في وصف أهل الحق والحال . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر ح 3 ص 207 . 209 ﴾

(140/310)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾

واعلم أنه تعالى لما حذر عن الفتنة بالأموال والأولاد ، رغب في التقوى التي توجب ترك الميل والهوى في محبة الأموال والأولاد .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

لقائل أن يقول : إدخال الشرط في الحكم إنما يحسن في حق من كان جاهلاً بعواقب الأمور ، وذلك لا يليق بالله تعالى .

والجواب : أن قولنا إن كان كذا كان كذا ، لا يفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء ، فأما أن وقوع الشرط مشكوك فيه أو معلوم فذلك غير مستفاد من هذا اللفظ ، سلمنا أنه يفيد هذا

الشك إلا أنه تعالى يعامل العباد في الجزاء معاملة الشاك ، وعليه يخرج قوله تعالى :

﴿ وَنَبِّئُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ [ محمد : 31 ] .

المسألة الثانية :

هذه القضية الشرطية شرطها شيء واحد وهو تقوى الله تعالى ، وذلك يتناول اتقاء الله في جميع الكبائر .

وإنما خصصنا هذا بالكبائر لأنه تعالى ذكر في الجزاء تكفير السيئات ، والجزاء يجب أن يكون مغايراً للشرط ، فحملنا التقوى على تقوى الكبائر وحملنا السيئات على الصغائر ليظهر الفرق بين الشرط والجزاء ، وأما الجزاء المرتب على هذا الشرط فأمور ثلاثة : الأول : قوله : ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ والمعنى أنه تعالى يفرق بينكم وبين الكفار .

ولما كان اللفظ مطلقاً وجب حمله على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار فنقول : هذا الفرقان إما أن يعتبر في أحوال الدنيا أو في أحوال الآخرة .

أما في أحوال الدنيا فإما أن يعتبر في أحوال القلوب وهي الأحوال الباطنة أو في الأحوال الظاهرة ، أما في أحوال القلوب فأمور : أحدها : أنه تعالى يخص المؤمنين بالهداية والمعرفة .

(141/310)

---

وثانيها : أنه يخص قلوبهم وصدورهم بالانشراح كما قال : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ  
لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ﴾ [ الزمر : 22 ] وثالثها : أنه يزيل الغل والحقد والحسد عن  
قلوبهم ويزيل المكر والخداع عن صدورهم ، مع أن المنافق والكافر يكون قلبه مملوءاً من هذه  
الأحوال الخسيسة والأخلاق الذميمة ، والسبب في حصول هذه الأمور أن القلب إذا صار  
مشرقاً بطاعة الله تعالى زالت عنه كل هذه الظلمات لأن معرفة الله نور ، وهذه الأخلاق  
ظلمات ، وإذا ظهر النور فلا بد من زوال الظلمة .

وأما في الأحوال الظاهرة ، فإن الله تعالى يخص المسلمين بالعلو والفتح والنصر والظفر ، كما  
قال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ المنافقين : 8 ] وكما قال : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى  
الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [ التوبة : 33 ] وأمر الفاسق والكافر بالعكس من ذلك .  
وأما في أحوال الآخرة ، فالثواب والمنافع الدائمة والتعظيم من الله والملائكة وكل هذه  
الأحوال داخلة في الفرقان .

والنوع الثاني : من الأجزية المرتبة على التقوى قوله : ﴿ وَيُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ فنقول :  
إن حملنا قوله : ﴿ إِنَّ تَقَوْا اللَّهَ ﴾ على الانتقاء من الكفر ، كان المراد بقوله : ﴿ وَيُكْفِّرْ  
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ جميع السيئات التي وجدت قبل الكفر ، وإن حملناه على الانتقاء عن  
الكبائر ، كان المراد من هذا تكفير الصغائر .

والنوع الثالث : قوله : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ واعلم أن المراد من تكفير السيئات سترها في الدنيا  
ومن المغفرة إزالتها في القيامة لتلايلزم التكرار .

(142/310)

---

ثم قال : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ومن كان كذلك فإنه إذا وعد بشيء وفى به ، وإنما  
قلنا : إن أفضال الله أعظم من أفضال غيره لوجوه : الأول : أن كل ما سوى الحق سبحانه  
فإنه لا يتفضل ولا يحسن إلا إذا حصلت في قلبه داعية الإفضال والإحسان ، وتلك الداعية  
حادثه فلا تحصل إلا بتخليق الله تعالى ، وعند هذا ينكشف أن المتفضل ليس إلا الله الذي  
خلق تلك الداعية الموجبة لذلك الفعل .

الثاني : أن كل من تفضل يستفيد به نوعاً من أنواع الكمال إما عوضاً من المال أو عوضاً من  
المدح والثناء ، وإما عوضاً من نوع آخر وهو دفع الألم الحاصل في القلب بسبب الرقة  
الجنسية والله تعالى يعطي ويتفضل ولا يطلب به شيئاً من الأعواض لأنه كامل لذاته ، وما  
كان حاصلًا للشيء لذاته امتنع أن يستفیده من غيره .

الثالث : أن كل من تفضل على الغير فإن المتفضل عليه يصير ممنوناً عليه من ذلك المتفضل ،  
وذلك منفر ، أما الحق سبحانه وتعالى فهو الموجد لذات كل أحد بجميع صفاته ، فلا

يُحصل الاستنكاف من قبول إحسانه .

الرابع : أن كل من تفضل على غيره فإنه لا ينتفع المتفضل عليه بذلك التفضل إلا إذا حصلت له عين باصرة وأذن سامعة ومعدة هاضمة .

حتى ينتفع بذلك الإحسان ، وعند هذا ينكشف أن المتفضل هو الله في الحقيقة فثبت بهذه البراهين صحة قوله : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح

الغيب ح 15 ص 123.124 ﴾

(143/310)

---

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

(144/310)

---

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي التَّقْوَى وَحَقِيقَتِهَا  
 وَأَنَّهَا فَعْلَى ، مِنْ وَقَى يَقِي وَقَايَةً وَوَقَايَةً ، أُبْدِلَتْ الْوَاوُ تَاءً لُغَةً ؛ وَذَلِكَ بَأَنْ يُجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ  
 مُخَالَفَةِ اللَّهِ وَمَعْصِيَتِهِ وَقَايَةً وَحِجَابًا ، وَلَهَا فِيهِ مَحَالٌ : الْمَحَلُّ الْأَوَّلُ : الْعَيْنُ : فَإِنَّهَا رَأْدُ  
 الْقَلْبِ وَرَبِيئَتُهُ ، فَمَا تَطَّلَعَ عَلَيْهِ أُرْسِلَتْهُ إِلَيْهِ ، فَهُوَ يَفْصِلُ مِنْهُ الْجَائِزَ مِمَّا لَا يَجُوزُ ، وَإِذَا  
 جَلَّتْهَا بِحِجَابِ التَّقْوَى لَمْ تُرْسَلْ إِلَى الْقَلْبِ إِلَّا مَا يَجُوزُ ، فَيَسْتَرِيحُ مِنْ شَغَبِ ذَلِكَ الْإِلْقَاءِ ؛  
 وَرَبَّمَا أَصَابَتْ هَذَا الْمَعْنَى الشُّعْرَاءُ كَقَوْلِهِمْ : وَأَنْتَ إِذَا أُرْسَلْتَ طَرَفَكَ رَأْدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا  
 أَسْلَمْتُكَ الْمَنَاظِرُ رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ  
 أَخَذَ طَرَفًا مِنَ الْمَعْنَى ، فَإِنَّ شَيْخَنَا عَطَاءَ الْمَقْدِسِيِّ شَيْخَ الْفُقَهَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ بَيْتَ  
 الْمَقْدِسِ اسْتَوْفَى الْمَعْنَى فِي بَيْتَيْنِ أَنْشَدَنَاهُمَا : إِذَا لُمْتَ عَيْنِي اللَّتَيْنِ أَضْرَتَا بِجِسْمِي  
 وَقَلْبِي قَالَتَا لَمْ الْقَلْبَا فَإِنْ لُمْتَ قَلْبِي قَالَ عَيْنَاكَ جَرَّتَا عَلَيَّ الرَّزَايَا ثُمَّ لِي تَجْعَلُ الذَّنْبَا وَقَدْ قَالَ  
 النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانَا .  
 أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ؛ فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزَنَاهُمَا النَّظْرُ ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزَنَاهُمَا الْبَطْشُ



المحل الثاني: الأذن: وهي رائد عظيم في قبيل الأصوات يلقي إلى القلب منها ما يُغييه،  
وقد كانت البواطل فيه أكثر من الحقائق،

فعلى العبد أن يمتنع من الخوض في الباطل أولاً، ويُنزّه نفسه عن مجالسة أهله؛ وإذا سمع  
القول اتبع أحسنه، ووعى أسلمه، وصان عن غيره أذنه، أو قذفه عن قلبه إن وصل  
إليه.

المحل الثالث: اللسان: وفيه تيف على عشرين آفة وخصلة واحدة، وهي الصدق،  
وبها ينتفي عنه جميع الخصال الذميمة، وعن بدنه جميع الأفعال القبيحة، فإذا حجبته  
بالصدق فقد كملت له التقوى، ونال المرتبة القصوى.

المحل الرابع: اليد: وهي للبطش والتناول، وفيها معاص منها: الغضب، والسرقعة،  
ومحاولة الزنا، والأذية للحيوان والناس، وحجابها الكف إلا عمّا أراد الله.  
المحل الخامس: الرجل: وهي للمشّي إلى ما يحل، وإلى ما يجب، وحجابها الكف  
عمّا لا يجوز.



المحل السادس: القلب: وهو البحر الخضم، وفي القلب الفوائد الدينية، والآفات المهلكة، والتقوى، فيه حجاب يسد الآفات عنه، وشحنه بالنية الخالصة؛ وشرحه بالتوحيد، وخلع الكبر والعجب بمعرفته بأوله وآخره، والتبري من الحسد، والتحفظ من شوائب الشرك الظاهر والخفي، بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالغفلة عن المال.

فإذا انتهى العبد إلى هذا المقام مهد له قبوله مكانا، ورزقه فيما يريد من الخير إماما، وجعل له بين الحق والباطل والطاعة والمعصية فرقانا، وهي:

المسألة الثانية: في قسم العمل في هذه الآية، والإشارة إليه: أن يمثل ما أمر، ويحْتَب كيف استطاع ما عنه نهي؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ .

وقد قال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: مخرجا.

ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُقِ اللّٰهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ إلى: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ .

وقال ابن القاسم: سألت مالكا عن قوله: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللّٰهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: يعني مخرجا.

وقال أشهب: سألت مالكا عنها فذكر معنى ما تقدم.

وقال ابن إسحاق: يجعل لكم فضلا بين الحق والباطل.

وَهَذِهِ كُلُّهَا أَبْوَابُ الْعَمَلِ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن

العربي ح 2 ص ﴿

(147/310)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾

يعني إن تطيعوا الله ولا تعصوه ، ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ؛ يعني يجعل لكم مخرجاً في الدنيا ونجاة ونصراً في الدين ؛ ويقال : المخرج من الشبهات .

وقال مجاهد : مخرجاً في الدنيا والآخرة .

﴿ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ، يقول : يمحو عنكم ذنوبكم ، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ؛ يعني يستر ذنوبكم وعيوبكم .

﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ، يعني ذو الكلام والتجاوز عن عباده . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴿

وقال الثعلبي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾

بطاعته وترك معصيته واجتناب خيانه ﴿يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال مجاهد : مخرجاً في الدنيا والآخرة .

وقال مقاتل بن حيان : مخرجاً في الدين من الشبهات . وقال عكرمة : نجاه . وقال الضحاك : بياناً . وقال مقاتل : منقذاً .

قال الكلبي : بصراً ، وقال ابن إسحاق : فصلاً بين الحق والباطل ، يظهر الله به حقكم ويظفيء به باطل من خالفكم .

وقال ابن زيد : فرقاً يفرق في قلوبهم بين الحق والباطل حتى يعرفوه ويشهدوا به . والفرقان مصدر كالرحمان والنقصان .

تقول : فرقت بين الشيء والشيء أفرق بينهما فرقاً وفروقاً وفرقانا ، ﴿وَيُكْفِّرُ عَنْكُمْ﴾ ما سلف من ذنوبكم ﴿وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿الكشف والبيان ح 4 ص﴾

(148/310)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : معنى فرقاناً أي هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل ، قاله ابن زيد وابن إسحاق .

والثاني : يعني مخرجاً في الدنيا والآخرة ، قاله مجاهد .

والثالث : يعني نجاة ، قاله السدي .

والرابع : فتحاً ونصراً ، قاله الفراء .

ويحتمل خامساً : يفرق بينكم وبين الكافر في الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون

ح 2 ص ﴿

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله ﴾ الآية ،

وعد للمؤمنين بشرط الاتقاء والطاعة له ، و ﴿ يجعل لكم فرقاناً ﴾ معناه فرقاً بين

حقكم وباطل من ينازعكم أي بالنصرة والتأييد عليهم ، و " الفرقان " مصدر من فرق بين

الشيئين إذا حال بينهما أو خالف حكمهما ، ومنه قوله

﴿ يوم الفرقان ﴾ [ الأنفال : 41 ] وعبر قتادة وبعض المفسرين عن الفرقان ها هنا

بالنجاة ، وقال السدي ومجاهد معناه مخرجاً ونحو هذا مما يعمه ما ذكرناه ، وقد يوجد

للعب استعمال الفرقان كما ذكر المفسرون فمن ذلك قول مزرد بن ضرار : [ الحنيف ]

بأدر الأفق أن يغيب فلما . . . أظلم الليل لم يجد فرقانا

وقال الآخر: [الرجز]

مالك من طول الأسي فرقان . . . بعد قطين رحلوا وبانوا

وقال الآخر: [الطويل]

وكيف أرجي الخلد والموت طالبي . . . ومالي من كأس المنية فرقان . انتهى انتهى . اهـ

❖ المحرر الوجيز ح 2 ص ❖

(149/310)

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ❖ إن تقوا الله ❖

أي: بترك معصيته، واجتناب الخيانة لله ورسوله.

قوله تعالى: ❖ يجعل لكم فرقانا ❖ فيه أربعة أقوال.

أحدها: أنه المخرج، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، ومجاهد،

والضحاك، وابن قتيبة.

والمعنى: يجعل لكم مخرجاً في الدين من الضلال.

والثاني: أنه النجاة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والسدي.

والثالث: أنه النصر، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال الفراء.

والرابع: أنه هدى في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل، قاله ابن زيد، وابن إسحاق.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(150/310)

وقال القرطبي:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾

قد تقدم معنى "التقوى".

وكان الله عالماً بأنهم يتقون أم لا يتقون.

فذكر بلفظ الشرط؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضاً.

فإذا اتقى العبد ربه وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه وترك الشبهات مخافة الوقوع في

الحرمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفظ من

شوائب الشرك الخفي والظاهر بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعفة عن

المال، جعل له بين الحق والباطل فرقاناً، ورزقه فيما يريد من الخير إيماناً.

قال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا

﴾ قال : مخرجا ، ثم قرأ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق : 2] .

وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك مثله سواء ، وقاله مجاهد قبله .

وقال الشاعر :

مَالِكٌ مِنْ طُولِ الْأَسَى فُرْقَانٌ . . .

بَعْدَ قَطِينٍ رَحَلُوا وَبَانُوا

وقال آخر :

وَكَيْفَ أَرْجِي الْخُلْدَ وَالْمَوْتَ طَالِبِي . . .

وَمَا لِي مِنْ كَأْسِ الْمُنِيَةِ فُرْقَانُ

ابن إسحاق : "فُرْقَانًا" فَصْلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ؛ وقاله ابن زيد .

السديّ : نَجَاةٌ .

الفراء : فَتْحًا وَنَصْرًا .

وقيل : فِي الْآخِرَةِ ، فَيَدْخُلُكُمْ الْجَنَّةُ وَيَدْخُلُ الْكُفَّارُ النَّارَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله ﴾

يعني بطاعته وترك معاصيه ﴿ يجعل لكم فرقاناً ﴾ يعني يجعل لكم نوراً وتوفيقاً في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل والفرقان أصله الفرق بين الشيئين لكنه أبلغ من أصله لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل والحجة والشبهة .

قال مجاهد : يجعل لكم مخرجاً في الدنيا والآخرة ، وقال مقاتل : مخرجاً في الدين من

الشبهات وقال عكرمة : نجاة أي يفرق بينكم وبين ما تخافون وقال محمد بن إسحاق :

فصلاً بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويظفي باطل من خالفكم وقيل يفرق بينكم وبين

الكفار بأن يظهر دينكم ويعليه ويبطل الكفر ويوهنه ﴿ ويكفر عنكم سيئاتكم ﴾ يعني

ويمح عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿ ويغفر لكم ﴾ يعني ويستر عليكم بأن لا يفضحكم في

الدنيا ولا في الآخرة ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ لأنه هو الذي يفعل ذلك بكم فله الفضل

العظيم وعلى غيركم من خلقه ومن كان كذلك فإنه إذا وعد بشيء وفى به قيل إنه يتفضل

على الطائعين بقبول الطاعات ويتفضل على العاصين بغفران السيئات وقيل : معناه أن بيده

الفضل العظيم فلا يطلب من عند غيره . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ تفسير الخازن - 3 ص ﴾



وقال أبو حيان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾

فرقانا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك والسدي وابن قتيبة ومالك فيما روي  
عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب مخرجاً ، وقرأ مالك ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً  
﴿ والمعنى مخرجاً في الدين من الضلال ، وقال مزرد بن ضرار :

بادر الأفق أن يغيب فلما . . .

أظلم الليل لم يجد فرقانا

وقال الآخر :

مالك من طول الأسى فرقان . . .

بعد قطين رحلوا وبانوا

وقال الآخر :

وكيف أرجى الخلد والموت طالبي . . .

وما لي من كأس المنية فرقان

وقال ابن زيد وابن إسحاق فصلاً بين الحق والباطل ، وقال قتادة وغيره : نجاة ، وقال الفراء  
فتحاً ونصراً وهو في الآخرة يدخلكم الجنة والكفار النار ، وقال ابن عطية : فرقا بين  
حقكم وباطل من ينازعكم أي بالنصر والتأييد عليهم والفرقان مصدر من فرق بين الشيئين  
حال بينهما ، وقال الزمخشري : نصراً لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه  
والإسلام بإعزاز أهله ومنه قوله تعالى ﴿ يوم الفرقان ﴾ أو بياناً وظهوراً يشهد أمركم  
ويثبت صيتكم وأثاركم في أقطار الأرض تقول بت أفعل كذا حتى سطم الفرقان أي طلع  
الفجر أو مخرجاً من الشبهات وتوفيقاً وشرحاً للصدور أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل  
الاديان وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة انتهى ، ولفظ ﴿ فرقانا ﴾ مطلق فيصالح لما يقع به  
فرق بين المؤمنين والكافرين في أمور الدنيا والآخرة والتقوى هنا إن كانت من اتقاء الكبائر  
كانت السيئات الصغائر ليتغير الشرط والجواز وتكفيرها في الدنيا ومغفرتها إزالتها في  
القيامة وتغاير الظرفان لتلازم التكرار ، وتقدم تفسير والله ذو الفضل العظيم في البقرة .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(153/310)

---

وقال أبو السعود :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

تكرير الخطاب والوصف بالإيمان لإظهار كمال العناية بما بعده والإيدان بأنه مما يقتضي  
الإيمان يقتضي الإيمان مراعاته والمحافظة عليه كما في الخطابين السابقين ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾  
أي في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ فُرْقَانًا ﴾ هداية في  
قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أو نصرًا يفرق بين الحق والمبطل يعزاز المؤمنين  
وإذلال الكافرين ، أو مخرجًا من الشبهات أو نجاة عما تحذرون في الدارين أو ظهورًا يشهر  
أمركم وينشر صييتكم ، من قولهم بتّ أفعل كذا حتى سطع الفرقان أي الصبح ﴿ وَيُكْفِّرْ  
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي يسترها ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم بالعمو والتجاوز عنها ، وقيل :  
السيئات الصغائر والذنوب الكبائر ، وقيل : المراد ما تقدم وما تأخر لأنها في أهل بدر وقد  
غفرها الله تعالى لهم وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ تعليل لما قبله وتنبية على  
أن ما وعده الله تعالى لهم على التقوى تفضل منه وإحسان لأنه مما يوجب التقوى كما إذا  
وعد السيد عبده إنعاماً على عمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص



وقال الأوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾

في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ يَجْعَلْ لَّكُمْ ﴾ بسبب ذلك الالتقاء ﴿ فُرْقَانًا ﴾ أي هداية

ونورا في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل كما روي عن ابن جريج وابن زيد ، أو نصرا

يفرق بين الحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين كما قال الفراء ، أو نجاة في الدارين

كما هو ظاهر كلام السدي ، أو مخرجا من الشبهات كما جاء عن مقاتل ، أو ظهورا يشهر

أمركم وينشر صتكم كما يشعر به كلام محمد بن إسحاق من بت أفعل كذا حتى سطم

الفرقان أي الصبح ، وكل المعان ترجع إلى الفرق بن أمرن ، وجوز بعض المحققين الجمع بينهما

﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي يسترها في الدنيا ﴿ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ﴾ بالتجاوز عنها في

الأخرى فلا تكرر ، وقد يقال : مفعول يغفر الذنوب وتفسر بالكبائر وتفسر السيئات

بالصغائر ، أو يقال : المراد ما تقدم وما تأخر لأن الآية ف أهل بدر وقد غفر لهم .

ففي الخبر لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ﴿

والله ذو الفضل العظيم ﴿ تعليل لما قبله وتنبيه على أن ما وعد لهم على التقوى تفضل منه

سبحانه وإحسان وأنها بمعزل عن أن توجب عليه جل شأنه شيئا ، قيل : ومن عظيم

فضله تعالى أنه يتفضل من غير واسطة وبدون التماس عوض ولا كذلك غيره سبحانه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعاني - 9 ص﴾

(155/310)

وقال الشوكاني :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾

جعل سبحانه التقوى شرطاً في الجعل المذكور ، مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون جرياً على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضاً .

والتقوى : انقاء مخالفة أو امره والوقوع في مناهيه .

والفرقان : ما يفرق به بين الحق والباطل ، والمعنى : أنه يجعل لهم من ثبات القلوب ، وثقوب البصائر ، وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس .

وقيل : الفرقان المخرج من الشبهات والنجاة من كل ما يخافونه ، ومنه قول الشاعر :

مالك من طول الأسى فرقان . . . بعد قطين رحلوا وبانوا

ومنه قول الآخر :

وكيف أرجوا الخلد والموت طالبي . . . وما لي من كأس المنية فرقان

وقال الفراء : المراد بالفرقان الفتح والنصر .

قال ابن إسحاق : الفرقان الفصل بين الحق والباطل ، ويمثله قال ابن زيد ، وقال السدي :

الفرقان النجاة ، ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق : 2] وبه قال مجاهد ومالك بن أنس .

﴿ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي : يسترها حتى تكون غير ظاهرة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما اقترقتم من الذنوب .

وقد قيل إن المراد بالسيئات : الصغائر ، وبالذنوب التي تغفر : الكبائر .

وقيل المعنى : أنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ قال : هو المخرج .

وأخرج ابن جرير عنه ، قال : هو : النجاة .

وأخرج ابن جرير ، عن عكرمة ، مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : هو النصر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(156/310)

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(157/310)

يُقَالُ دَعَاهُ فَاجَابَهُ وَاسْتَجَابَهُ وَاسْتَجَابَ لَهُ ، وَكَثُرَ الْمُتَعَدِّي فِي التَّنْزِيلِ ، وَيَقُولُ الرَّاعِبُ :  
إِنَّ أَصْلَ الْاسْتِجَابَةِ التَّهَيُّؤُ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْإِجَابَةِ فَحَلَّ مَحَلَّهَا ، أَقُولُ : وَالْأَقْرَبُ إِلَى الْفَهْمِ قَلْبُ  
هَذَا وَعَكْسُهُ ، وَهُوَ أَنَّ الْاسْتِجَابَةَ هِيَ الْإِجَابَةُ بِعِنَايَةٍ وَاسْتِعْدَادٍ ، فَتَكُونُ زِيَادَةُ السَّيْنِ  
وَالْتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ ، وَهُوَ يَقْرُبُ مِمَّا قَالُوهُ فِي مَعَانِيهِمَا مِنَ التَّكْلِيفِ وَالتَّحْرِي أَوْ هُوَ بِعَيْنِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ  
لَا يُعْبَرُ بِهِ فِي مَا يُسْنَدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كَقَوْلِهِ : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ (3 : 195) فَقَوْلُهُ : يَا أَيُّهَا  
الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ مَعْنَاهُ إِذَا عَلِمْتُمْ مَا فَرَضْنَا  
عَلَيْكُمْ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَشَأْنُ سَمَاعِ التَّفَقُّهِ مِنَ الْهُدَايَةِ ، وَقَدْ دَعَاكُمْ الرَّسُولُ بِالتَّلْبِيغِ عَنِ اللَّهِ  
تَعَالَى لِمَا يُحْيِيكُمْ ، فَاجِيبُوا الدَّعْوَةَ بِعِنَايَةٍ وَهَمَّةٍ ، وَعَزِيمَةٍ وَقُوَّةٍ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : خُذُوا

مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ (2 : 63) وَالْمُرَادُ بِالْحَيَاةِ هُنَا حَيَاةُ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّهِ فِي خَلْقِهِ ،  
وَأَحْكَامِ شَرْعِهِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَكْمُلُ بِهَا الْفِطْرَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي  
الدُّنْيَا ، وَتُسْتَعَدُّ لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْحَيَاةِ هُنَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
زَلَّانَهُ سَبَبُ الْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ وَالسُّلْطَانِ - وَالصَّوَابُ أَنَّ الْجِهَادَ يَدْخُلُ فِيْمَا ذَكَرْنَا ،

(158/310)

وَلَيْسَ هُوَ الْحَيَاةُ الْمَطْلُوبَةُ ، بَلْ هُوَ وَسِيلَةٌ لِتَحَقُّقِهَا وَسِيَاجٌ  
لَهَا بَعْدَ حُصُولِهَا ، وَقِيلَ : هِيَ الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ ، وَإِنَّمَا يَصِحُّ بِاعْتِبَارِ مَا كَانَ يَتَجَدَّدُ مِنْ  
الْأَحْكَامِ ، وَثَمَرَتُهُ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ ، وَبِمَا فِيهَا اسْتِجَابَةٌ مِنْ مَعْنَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْإِجَابَةِ  
، وَإِلَّا فَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَقِيلَ : هِيَ الْقُرْآنُ ، وَكَاشَكَ أَنَّهُ يُنْبِئُهَا الْأَعْظَمُ ، الْهَادِي إِلَى  
سَبِيلِهَا الْأَقْوَمِ ، مَعَ بَيَانِهِ مِنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ وَهَدْيِهِ الَّذِي أَمَرْنَا بِأَنْ يَكُونَ لَنَا فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ،  
وَيَدُلُّ عَلَيْهِ اقْتِرَانُ طَاعَتِهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، بَلْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنَّهُ كَانَ إِذَا دَعَا شَخْصًا  
وَهُوَ يُصَلِّي يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ

(159/310)



الصَّلَاةُ اسْتِجَابَةٌ لَهُ ، وَأَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَبْطُلُ بِإِجَابَتِهِ ، بَلْ لَهُ أَنْ يُبْنِيَ عَلَيَّ مَا كَانَ صَلَّى وَتَمَّ ،  
 وَاسْتَدَلُّوا عَلَيَّ ذَلِكَ بِحَدِيثِ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمَعْلِيِّ قَالَ : كُنْتُ أُصَلِّي فِي  
 الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَمْ أُجِبْهُ - أَوْ قَالَ : فَلَمْ آتِهِ حَتَّى  
 صَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ - فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي ، فَقَالَ : " أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ : اسْتَجِيبُوا  
 لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ ؟ الْحَدِيثَ . وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ " أَنَّهُ  
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا أَبِي بِن كَعْبٍ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ " وَذَكَرْنَا نَحْوًا مِمَّا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ  
 أَبِي سَعِيدٍ وَصَحَّحَهُ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي بَابِ فَضَائِلِ الْفَاتِحَةِ مِنَ الْفَتْحِ عِنْدَ ذِكْرِ فَتْحِهِ  
 الْحَدِيثَ : وَفِيهِ أَنَّ الْأَمْرَ يَقْتَضِي الْفُورَ ؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاتَبَ الصَّحَابَةَ عَلَى  
 تَأْخِيرِ إِجَابَتِهِ ، وَفِيهِ اسْتِعْمَالُ صِيغَةِ الْعُمُومِ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا . قَالَ الْخَطَّابِيُّ : فِيهِ أَنَّ  
 حُكْمَ لَفْظِ الْعُمُومِ أَنْ يُجْرِيَ عَلَى جَمِيعِ مُقْتَضَاهُ ، وَأَنَّ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ إِذَا تَقَابَلَا كَانَ الْعَامُّ  
 مُنْزَلًا عَلَى الْخَاصِّ ؛ لِأَنَّ الشَّارِعَ حَرَّمَ الْكَلَامَ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْعُمُومِ ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْهَا إِجَابَةَ  
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ ( وَفِيهِ ) أَنَّ إِجَابَةَ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
 لَا تُفْسِدُ الصَّلَاةَ - هَكَذَا صَرَّحَ بِهِ

---

جَمَاعَةٌ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ ، وَفِيهِ بَحْثٌ لِاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ إِجَابَتُهُ وَاجِبَةً مُطْلَقًا سِوَاءَ  
كَانَ الْمُخَاطَبُ مُصَلِّيًّا أَوْ غَيْرَ مُصَلٍّ ، أَمَّا كَوْنُهُ يُخْرِجُ لِإِجَابَتِهِ مِنَ الصَّلَاةِ أَوْ لَا يَخْرُجُ فَلَيْسَ  
فِي الْحَدِيثِ مَا يَسْتَلْزِمُهُ ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ تَجِبَ الْإِجَابَةُ ، وَلَوْ خَرَجَ الْمُجِيبُ مِنَ الصَّلَاةِ وَإِلَى  
ذَلِكَ جَنَحَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ إِلَى آخِرِ مَا أوردَهُ ، وَلَا تَعْرُضُ فِيهِ لِمَا يَدْعُو الْمَرْءَ إِلَيْهِ ، وَهَلْ  
يُشْتَرَطُ لِمَا ذُكِرَ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ أَمْ لَا ؟ وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا سَعِيدًا  
هَذَا لِيُعَلِّمَهُ فَضْلَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ ، وَأَنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي ، وَفِي مَثْنِ الْحَدِيثِ شَيْءٌ مِنْ  
الْإِضْطِرَابِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ بَعْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَلٌ .  
وَأَحَقُّ مِنْ هَذَا بِالْبَيَانِ أَنْ طَاعَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاجِبَةٌ فِي حَيَاتِهِ ، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ  
فِيَعْلَمُ

(161/310)

---

أَنَّهُ دَعَا إِلَيْهِ دَعْوَةً عَامَّةً مِنْ أَمْرِ الدِّينِ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، كَبَيَانِهِ لِصِفَةِ الصَّلَوَاتِ  
وَعَدَدِهَا وَالْمَنَاسِكِ وَلَوْ بِالْفِعْلِ ، مَعَ قَوْلِهِ : صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي وَقَوْلِهِ : خُذُوا عَنِّي  
مَنَاسِكَكُمْ وَمَقَادِيرَ الزَّكَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ السُّنَنِ الْعَمَلِيَّةِ الدِّينِيَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ ، وَكَذَا أَقْوَالُهُ

المُتَوَاتِرَةُ الَّتِي أُمِرَ بِتَلْيِغِهَا فِيمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ دَلَالَةٌ قَطْعِيَّةٌ - وَأَمَّا غَيْرُ الْقَطْعِيِّ رَوَايَةٌ وَدَلَالَةٌ مِنْ  
سُنَنِهِ فَهُوَ مَحَلُّ اجْتِهَادٍ ، فَكُلُّ مَنْ ثَبَتَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْهَا بَبَحْثِهِ أَوْ بَحْثِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَثِقُ  
بِهِمْ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ، فَيُنَبِّغِي لَهُ الْاِهْتِدَاءَ بِهِ فِيمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْخَمْسَةِ  
بِحَسَبِهَا - الْوُجُوبُ ، وَالنَّدْبُ ، وَالْحُرْمَةُ ، وَالْكَرَاهَةُ ، وَالْإِبَاحَةُ - لِأَنَّ الْأُمُورَ الْعَمَلِيَّةَ  
الْاجْتِهَادِيَّةَ يُكْتَفَى فِيهَا بِالظَّنِّ الرَّاجِحِ فِي الدَّلِيلِ وَفِي دَلَالَتِهِ ، وَلَكِنْ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَجْعَلَ اجْتِهَادَهُ تَشْرِيْعًا عَامًّا يُلْزِمُهُ غَيْرُهُ أَوْ يُنْكَرُ عَلَيْهِ مُخَالَفَتَهُ أَوْ مُخَالَفَةَ مَنْ  
قَدَّهُ هُوَ فِيهِ ، إِلَّا الْأُمَّةَ أَوْلَى الْأَمْرِ ، فَتَجِبُ طَاعَتُهُمْ فِي اجْتِهَادِهِمْ فِي أَحْكَامِ الْمُعَامَلَاتِ  
الْقَضَائِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ إِذَا حَكَمُوا بِهَا لِإِقَامَةِ الشَّرْعِ وَصِيَانَةِ

(162/310)

---

النِّظَامِ الْعَامِّ - وَعَلَى هَذَا كَلَّهَ جَرَى السَّلْفِ الصَّالِحُ ، وَجَمِيعُ أُمَّةِ الْأَمْصَارِ ، وَمِنْ كَلَامِهِمْ :  
إِنَّ الْمُجْتَهِدَ لَا يُقَدُّ مُجْتَهِدًا ، وَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى أَحَدٍ أَنْ يُقَدَّ أَحَدًا مُعَيَّنًا فِي دِينِهِ ، وَلَكِنْ  
مَنْ عَرَضَ لَهُ أَمْرٌ يَسْتَقْتِي فِيهِ مَنْ يَطْمَنُّ قَلْبُهُ لِعِلْمِهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَيَأْخُذُ بِفَوَاهِ إِذَا  
اطْمَأَنَّ لَهَا . وَقَدْ امْتَنَعَ الْإِمَامُ مَالِكٌ مِنْ إِجَابَةِ الْمَنْصُورِ ثُمَّ الرَّشِيدِ إِلَى مَا عَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ  
إِلْزَامِ النَّاسِ الْعَمَلَ بِكُتُبِهِ ، حَتَّى الْمَوْطَأِ الَّذِي هُوَ سُنُّنٌ وَاطَّاهُ جُلُّ عُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ عَلَيْهَا .

أَمَّا مَنْ يَقُولُونَ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا كَانَتْ تُجِبُ طَاعَتَهُ فِي عَهْدِهِ ، وَلَا يُجِبُ  
الْعَمَلُ بَعْدَهُ إِلَّا بِالْقُرْآنِ وَحْدِهِ ، فَهُمْ زَنَادِقَةٌ ضَالُونَ مُضِلُونَ يُرِيدُونَ هَدْمَ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَى  
الْإِسْلَامِ ، بَلْ تُجِبُ طَاعَةَ الرَّسُولِ كَمَا أَطْلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَيَجِبُ التَّاسِّيُّ بِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ  
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، بَلْ نَقُولُ : إِنَّا نَهْتَدِي بِخَلْفَائِهِ الرَّاشِدِينَ ، وَأُمَّةِ أَهْلِ بَيْتِهِ الطَّاهِرِينَ ،  
وَعُلَمَاءِ أَصْحَابِهِ الْعَامِلِينَ ، وَعُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنَ التَّابِعِينَ ، وَأُمَّةِ الْأَمْصَارِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ  
وَالْفُقَهَاءِ الْمُحَدِّثِينَ ، يُهْتَدَى بِهِمْ فِي آدَابِهِمْ وَأَجْهَادَاتِهِمْ الْقَضَائِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ مَعَ مُرَاعَاةِ  
الْقَوَاعِدِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ ، وَلَا نُسَمِّي شَيْئًا مِنْهَا دِينًا نَدِينُ لِلَّهِ بِهِ إِلَّا

(163/310)

---

مَا ثَبَتَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْوَجْهِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَأَمَّا السُّنَنُ  
وَالْإِرْشَادَاتُ النَّبَوِيَّةُ فِي أُمُورِ الْعَادَاتِ كَاللِّبَاسِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنَّوْمِ فَلَمْ يُعَدِّهَا أَحَدٌ مِنَ  
السَّلَفِ ، وَلَا عُلَمَاءِ الْخَلْفِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ ، فَتَسْمِيَةُ شَيْءٍ مِنْهَا دِينًا بِدَعْوَةٍ مُنْكَرَةٍ لِأَنَّهُ  
تَشْرِيحٌ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ تَعَالَى ، وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مِنْ قَبْلُ فِي هَذَا التَّقْسِيرِ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ  
مَقَالَاتِ الْمَنَارِ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ هَذَا نَبِيَّهُ لَأَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ أَمْرَانَا

اللَّهُ أَنْ نَعْلَمَهُمَا عِلْمًا يَقِينًا إِذْ عَاتَبَنَا لِمَا لَهُمَا مِنَ الشَّانِ فِي مَقَامِ الْوَصِيَّةِ بِالِاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ  
الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعُلْيَا الَّتِي فِيهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(164/310)

(الأول) أَنْ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْبَشَرِ الْحَيُولَةُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ قَلْبِهِ ، الَّذِي هُوَ مَرْكَزُ الْوُجْدَانِ  
وَالْإِدْرَاكِ ، ذِي السُّلْطَانِ عَلَى إِرَادَتِهِ وَعَمَلِهِ ، وَهَذَا أَخَوْفُ مَا يَخَافُهُ الْمُتَّقِي عَلَى نَفْسِهِ ،  
إِذَا غَفَلَ عَنْهَا ، وَفَرَطَ فِي جَنْبِ رَبِّهِ ، كَمَا أَنَّهُ أَرْجَى مَا يَرْجُوهُ الْمُسْرِفُ عَلَيْهَا إِذَا لَمْ يَأْسُ  
مِنْ رُوحِ اللَّهِ فِيهَا ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ أَعْجَبُ جُمَلِ الْقُرْآنِ ، وَلَعَلَّهَا أُبْلَغُهَا فِي التَّعْبِيرِ ، وَأَجْمَعُهَا  
لِحَقَائِقِ عِلْمِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَعِلْمِ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ ، وَعِلْمِ التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ ، الَّتِي تُعْرَفُ  
دِقَاتُهَا بِمَا تُثْمِرُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، فَبَيْنَا زَيْدٌ يَسِيرُ عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى ، وَيَتَّقِي بُنْيَاتِ  
طُرُقِ الضَّلَالَةِ الْمُوصِلَةِ إِلَى مَهَاوِي الرَّدَى ، إِذَا بَقَلْبِهِ قَدْ تَقَلَّبَ بِعُصُوفِ هَوَى جَدِيدٍ ، يَمِيلُ  
بِهِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، مِنْ شُبُهَةِ تَزَعُّعِ الْإِعْتِقَادِ ، أَوْ شَهْوَةِ يَغْلِبُ بِهَا الْغِيُّ عَلَى الرَّشَادِ  
. فَيُطِيعُ هَوَاهُ ، وَيَتَّخِذُهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا  
(25 : 43) عَلَى أَنَّهُ فِيهِ مُخْتَارٌ ، فَلَا جَبْرَ وَلَا اضْطِرَّارَ .

(165/310)

وَيُقَابِلُ هَذَا مِنَ الْحَيْلُولَةِ مَا حَكَى بَعْضُهُمْ عَنْ نَفْسِهِ ، أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ كَمَا فِي شَهَوَاتِهِ وَلَهْوِهِ ،  
تَارِكًا لِهُدَاةِ وَطَاعَةِ رَبِّهِ ، فَنَزَلَ يَوْمًا فِي زُورِقٍ مَعَ خِلَانٍ لَهُ فِي نَهْرِ دِجْلَةَ لِتَنْزِهِ وَمَعَهُمُ التَّبِيدُ  
وَالْمَعَارِزُ ، فَبَيْنَا هُمْ يَعْرِفُونَ وَيَشْرِبُونَ ، إِذِ التَّقْوَا بِزُورِقٍ آخَرَ فِيهِ تَالٌ لِلْقُرْآنِ يُرْتَلُ سُورَةُ إِذَا  
الشَّمْسُ كُورَتْ (1 : 81) فَوَقَعَتْ تِلَاوَتُهُ مِنْ نَفْسِهِ مَوْقِعَ التَّأْثِيرِ وَالْعِظَةِ ، فَاسْتَمَعَ لَهُ  
وَأَنْصَتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10 : 81) امْتَلَأَ قَلْبُهُ خَشْيَةً  
مِنَ اللَّهِ ، وَتَدَبَّرًا لاطَّلَاعِهِ عَلَى صَحِيفَةِ عَمَلِهِ يَوْمَ يَلْقَاهُ . فَأَخَذَ الْعُودَ مِنَ الْعَارِزِ  
فَكَسَرَهُ ، وَأَلْقَاهُ فِي دِجْلَةَ ، وَتَنَّى بِنَبْذِ قَنَانِي التَّبِيدِ وَكُؤُسِهِ فِيهَا ، وَصَارَ يُرَدِّدُ آيَةَ ، وَعَادَ  
إِلَى مَنْزِلِهِ تَائِبًا مِنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ ، مُجْتَهِدًا فِي كُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ طَاعَةٍ .

(166/310)

فَتَذَكَّرَ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّانَا بِهَذَا الشَّانِ مِنْ شُؤْنِ الْإِنْسَانِ ، وَهَذِهِ السُّنَّةُ الْقَلْبِيَّةُ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ  
تَعَالَى فِي الْإِرَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ ، وَأَمْرُهُ إِيَّانَا بِأَنْ نَعْلَمَهَا عِلْمَ إِيقَانٍ وَإِذْعَانٍ ، يُفِيدُنَا فَائِدَتَيْنِ لَا  
يُكْمَلُ بِدُونِهِمَا الْإِيمَانُ ، وَهُمَا أَلَا يَأْمَنُ الطَّائِعُ الْمُشْمَرُّ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ فَيَغْتَرَّ بِطَاعَتِهِ وَيُعْجَبُ  
بِنَفْسِهِ ، وَالْأَيُّاسُ الْعَاصِي وَالْمُقَصِّرُ فِي الطَّاعَةِ مِنْ رُوحِ اللَّهِ ، فَيَسْتَرْسِلُ فِي اتِّبَاعِ هَوَاهُ ،

حَتَّى تُحِيطَ بِهِ خَطَايَاهُ . وَمَنْ لَمْ يَأْمَنْ عِقَابَ اللَّهِ ، وَلَمْ يَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، يَكُونُ جَدِيرًا  
بِأَنْ يُرَاقِبَ قَلْبَهُ ، وَيَحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى خَوَاطِرِهِ ، وَيُعَاقِبَ نَفْسَهُ عَلَى هَفَوَاتِهِ ؛ لِتُظَلَّ عَلَى  
صِرَاطِ الْعَدْلِ الْمُسْتَقِيمِ ، مُتَجَنِّبَةً الْإِفْرَاطَ وَالْتَفْرِيطَ ، وَيَتَحَرَّى أَنْ يَكُونَ دَائِمًا بَيْنَ خَوْفِ  
يُحْجِزُهُ عَنِ الْمَعَاصِي ، وَرَجَاءِ يَحْمِلُهُ عَلَى الطَّاعَاتِ ، وَيُسَاعِدُنَا عَلَى ذَلِكَ (الْأَمْرُ  
الثَّانِي) وَهُوَ أَنْ نَذْكُرَ حَشْرَنَا إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُحَاسَبَتَهُ إِيَّانَا عَلَى أَعْمَالِنَا الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ ،  
وَمُجَازَاتِهِ إِيَّانَا عَلَيْهَا إِمَّا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَإِمَّا بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَهَذَا مِنْهُ مُقْتَضَى الْفَضْلِ ،  
وَذَلِكَ أَثَرُ الْعَدْلِ .

(167/310)

---

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا فَهَمْنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ ، مَقَامِ حَرْمَانِ الرَّاسِخِينَ فِي الْكُفْرِ مِنْ سَمَاعِ الْفِقْهِ  
وَالْهُدَى ، وَالْحَيْلُولَةِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ أَنْ يُعْصِيَ الْهَوَى أَفْرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ  
عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا  
تَذَكَّرُونَ (23 : 45) فَهِيَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ مِنْ هَذَا حَالُهُ لَيْسَ مَجْبُورًا عَلَيْهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ  
يَحْرُمْهُ الْهُدَى بِإِعْجَازِهِ عَنْهُ ، وَهُوَ يُؤَثِّرُهُ وَيُفْضِلُهُ ، أَوْ يَأْكُرَاهِهِ عَلَى اتِّبَاعِ الْهَوَى ، وَهُوَ كَارِهِ لَهُ  
، فَإِنَّهُ أَسْنَدَ إِلَيْهِ اتِّخَاذَهُ هَوَاهُ إِلَهًا ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا دَاوُدُ إِنَّا

جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
(26 : 38) الْآيَةُ .

فَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى سَبَبٌ لِلضَّلَالِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَقَوْلُهُ فِي آيَةِ الْجَائِثَةِ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ  
عَلَىٰ عِلْمٍ لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ فِيهِ الضَّلَالَ اسْتِقْلَالًا - كَمَا يَدَّعِي بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ - بَلْ  
هُوَ دَاخِلٌ فِي سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ وَيُؤَيِّدُهُ  
إِثْبَاتُ كَوْنِ ضَلَالِهِ عَلَى عِلْمٍ ، وَهُوَ أَنَّهُ مُتَعَمِّدٌ لِاتِّبَاعِ الْهَوَى ، مُؤَثِّرٌ لَهُ عَلَى الْهُدَى ، وَاللَّهُ تَعَالَى  
يُسْنِدُ الْأُمُورَ إِلَىٰ

(168/310)

---

أَسْبَابِهَا تَارَةً ، وَإِلَيْهِ تَعَالَى تَارَةً ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَوَاضِعُ سُنَنِ الْأَسْبَابِ  
وَالْمُسَبَّبَاتِ . وَمِنَ الْأَسْبَابِ مَا جَعَلَهُ مِنْ أَعْمَالِ الْمَخْلُوقَاتِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ عَلَى عِلْمٍ ، وَمَا  
جَعَلَهُ بِأَسْبَابٍ لَا يُعْلَمُ لِلخَلْقِ اِخْتِيَارُ فِيهَا وَلَا عِلْمٌ ، وَكُلٌّ مِنَ الْقِسْمَيْنِ يُسْنَدُ إِلَى سَبَبِهِ تَارَةً ،  
وَإِلَى رَبِّ الْأَسْبَابِ تَارَةً ، وَالْجِهَةُ مُخْتَلِفَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَيُخْتَارُ هَذَا أَوْ ذَاكَ فِي الْبَيَانِ بِحَسَبِ  
سِيَاقِ الْكَلَامِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْحَرْثِ : أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ  
(56 : 63 ، 64) فَهَلْ يَقُولُ عَاقِلٌ : إِنَّ الْفَلَاحَ لَا فِعْلَ لَهُ ، وَلَا اِخْتِيَارَ فِي زَرْعِهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ



يَخْلُقُهُ لَهُ بِدُونِ إِرَادَتِهِ وَلَا فِعْلِهِ ، أَوْ أَنَّ فِعْلَهُ وَتَرْكَهُ فِي أَرْضِهِ سَوَاءٌ ، وَتَلْقِيحُهُ لِنَحْلِهِ وَعَدَمُهُ  
سَيِّانٌ ؟ ! .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ مِنْ سُنَنِ تَعَالَى فِي الْبَشَرِ أَنَّ مَنْ يَتَّبِعْ هَوَاهُ فِي أَعْمَالِهِ ، وَيَسْتَمِرَّ عَلَى ذَلِكَ  
وَيُدْمِنُهُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ ، تَضَعُفُ إِرَادَتُهُ فِي هَوَاهُ حَتَّى تَذُوبَ وَتَفْنَى فِيهِ ، فَلَا تَعُودُ تُؤَثِّرُ فِيهِ  
الْمَوَاعِظُ الْقَوِيَّةُ ، وَلَا الْعِبَرُ الْمُبْصِرَةُ وَلَا الْمَعْقُولَةُ ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ يُعْبَرُ عَنْهَا بِالْخَمِّ وَالرَّيْنِ  
وَالطَّعْنِ عَلَى الْقَلْبِ ، وَالصَّمَمِ وَالْعَمَى وَالْبُكْمِ كَمَا تَقَدَّمَ أَيْضًا ، وَسَبَقَ مِثْلُهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ  
الْبَقَرَةِ وَغَيْرِهَا .

(169/310)

---

وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ لِهَذِهِ الْحَالَةِ قَدْ ضَلَّ بِهَا الْجَبْرِيَّةُ غَافِلِينَ عَنْ كَوْنِهَا عَاقِبَةٌ  
طَبِيعِيَّةٌ لِإِدْمَانِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ ، كَالْخِمَارِ الَّذِي يَعْتَرِي مُدْمِنَ الْخَمْرِ ، فَيَشْعُرُ بِفُتُورٍ  
وَأَلَمٍ عَصَبِيٍّ لَا يَسْكُنُ إِلَّا بِالْعُودَةِ إِلَى الشُّرْبِ ، عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَّمْتَنَا عَدَمَ الْيَأْسِ .  
وَمِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ فِي تَقْلِيْبِ الْقُلُوبِ ، وَالْحَيْلُولَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ الْمُتَصَرِّفَةِ  
فِي قُدْرَتِهِ وَمَشَاعِرِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : وَنَقَلَبُ أَعْيُنَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا  
بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (6 : 110) فَيُرَاجِعُ مَعْنَاهَا فِي آخِرِ تَفْسِيرِ

الجزء السابع ، وقال الراغب : تَقْلِبُ اللهُ الْقُلُوبَ صَرْفَهَا مِنْ رَأْيٍ إِلَى رَأْيٍ . وَذَكَرَ آيَةَ  
الْأَنْعَامِ هَذِهِ .

وَمِنْ تَفْسِيرِ آيَةِ الْمَأْثُورِ فِي السُّنَّةِ مَا رَوَاهُ ابْنُ مَرْدُويه فِي تَفْسِيرِهَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا "   
وَيَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ ، وَبَيْنَ الْكَافِرِ وَبَيْنَ الْهُدَى " وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ

(170/310)

---

كَمَا قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ وَلَهُ وَغَيْرُهُ آثَارٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى . وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَأَصْحَابُ  
السُّنَنِ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
" لَا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ " وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ عَنْهُ " أَكْبَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُ : "   
لَا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ " وَفِي مَعْنَاهُ أَحَادِيثُ أُخْرَى عِنْدَ ابْنِ مَاجَهَ وَغَيْرِهِ ، وَلِلْمُفَسِّرِينَ وَشُرَاحِ  
الْأَحَادِيثِ أَغْلَاطٌ لَفْظِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ فِي تَفْسِيرِ لَفْظِ الْقَلْبِ ، وَفِي تَقْلِيبِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ . وَقَدْ  
تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ اللَّفْظِيُّ مِنْ قَبْلُ ، وَمَعْنَى تَقْلِيبِهِ أَنفَا ، وَقَوْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْقُلُوبِ وَمُقَلَّبُهَا حَقٌّ  
، وَكَذَا أفعالُ الْعِبَادِ كُلِّهَا ، وَلَيْسَ بِحَقِّ مَا عَبَّرَ بِهِ بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَمْنَعُ الْكَافِرَ  
بِمَحْضِ قُدْرَتِهِ عَنِ الْإِيمَانِ وَغَيْرِهِ مِنْ أفعالِ الْخَيْرِ مُبَاشَرَةً ، وَيَخْلُقُ فِي قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ الْكُفْرَ  
اعْتِقَادًا وَنُطْقًا خَلْقًا أَنفَا لَا فِعْلًا لَهُ فِيهِ ، فَالْجَمْعُ بَيْنَ الْآيَاتِ الَّتِي أوردْنَاها وَمَا فِي مَعْنَاهَا

يُبْطِلُهُ وَيُثَبِّتُ الْأَسْبَابَ الْاِخْتِيَارِيَّةَ ، وَالْقَائِلُونَ بِمَا ذَكَرُوا يُثَبِّتُونَ قَوْلَ الْقَدَرِيَّةِ ، وَيَحْتَجُونَ بِهِ عَلَى قَوْلِ الْجَبْرِيَّةِ ، فَهُمْ يُؤَيِّدُونَ الْفَاسِدَ بِالْفَاسِدِ وَلَا يَشْعُرُونَ ، وَيَمْدُهُمْ إِخْوَانُهُمُ الصُّوفِيَّةُ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ .

(171/310)

بَعْدَ هَذِهِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الْخَاصَّةِ بِأَعْمَالِ النَّاسِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَمَا يُخْشَى أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَيْهِ مِمَّا يَحْرِمُهُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ الْخُصُوصِيَّةِ ، بِانْتِهَاءِ الْاِخْتِيَارِيِّ مِنْهَا إِلَى مَا يَكَادُ يُخْرَجُ عَنِ الْاِخْتِيَارِ ، بِإِضْعَافِ الْإِرَادَةِ وَاسْتِعْبَادِهَا لِلْأَهْوَاءِ ، - أَمْرُهُمْ بِاتِّقَاءِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْفِتَنِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ تَبَعَةً عَقُوبَتِهَا مُشْرَكَةً بَيْنَ الْمُصْطَلِيِّ بِنَارِهِ فِعْلًا ، وَبَيْنَ الْمُوَآخِذِ بِهِ لِتَقْصِيرِهِ فِي دَرْتِهِ ، وَإِقْرَارِهِ عَلَى فِعْلِهِ ، فَقَالَ : وَاتَّقُوا فِتْنَةَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً أَيُّ : وَاتَّقُوا وَقُوعَ الْفِتَنِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْمِلِّيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَقَعَ بَيْنَ الْأُمَمِ فِي التَّنَازُعِ عَلَى مَصَالِحِهَا الْعَامَّةِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسِّيَادَةِ أَوِ التَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ ، وَالانْتِقَامِ إِلَى الْأَحْزَابِ الدِّينِيَّةِ كَالْمَذَاهِبِ ، وَالسِّيَاسِيَّةِ كَالْحُكْمِ ، فَإِنَّ الْعِقَابَ عَلَى ذُنُوبِ الْأُمَّمِ أَثَرٌ لَازِمٌ لَهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ كَمَا تَقَدَّمَ مَرَارًا ، وَلِهَذَا عَبَّرْنَا بِالْفِتْنَةِ ، دُونَ الذَّنْبِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَالْفِتْنَةُ الْبَلَاءُ وَالْاِخْتِبَارُ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مَرَارًا .

رَوَى أَحْمَدُ وَالْبَزَّازُ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ : قُلْنَا لِلزُّبَيْرِ : " يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ  
ضَيَعْتُمُ الْخَلِيفَةَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ جَسَمُ تَطْلُبُونَ بَدَمَهُ ؟ فَقَالَ : إِنَّا قَرَأْنَا

(172/310)

عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ  
الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَلَمْ نَكُنْ نَحْسَبُ أَنَا أَهْلَهَا حَتَّى وَقَعَتْ فِينَا حَيْثُ وَقَعَتْ ،  
وَرَوَى عَنْهُ جَمُهورٌ مُخْرَجِي التَّفْسِيرِ المَأثورِ : لَقَدْ قَرَأْنَاهَا زَمَانًا وَمَا نَرَى أَنَا مِنْ أَهْلِهَا فَإِذَا  
نَحْنُ الْمَعْنِيُّونَ بِهَا . وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ عَنْهُ قَالَ : لَقَدْ خُوفْنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ  
وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا ظَنْنَا أَنَّ خُصِمْنَا بِهَا . قَالَ الْحَافِظُ فِي  
الْفَتْحِ وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَنَحْوِهِ ، وَلَهُ طُرُقٌ أُخْرَى عَنِ الزُّبَيْرِ عِنْدَ الطَّبْرِيِّ  
وغيرِهِ . وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ فِي الْآيَةِ قَالَ : نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ وَطَلْحَةَ  
وَالزُّبَيْرِ - وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنْهُ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ أَقْوَامٌ حِينَ نَزَلَتْ أَنْ يُسْتَخَصَّ بِهَا قَوْمٌ  
. وَهُوَ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : عَلِمَ وَاللَّهِ ذَوُوا الْأَلْبَابِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ سَيَكُونُ قَتْلُهُ . وَابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ السُّدِّيِّ فِي  
الْآيَةِ قَالَ : نَزَلَتْ فِي أَهْلِ بَدْرٍ خَاصَّةً ، فَأَصَابَتْهُمْ يَوْمَ الْجَمَلِ فَاقْتُلُوا فَكَانَ مِنَ الْمَقْتُولِينَ

طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرُ وَهُمَا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ . وَآخَرُونَ عَنْهُ قَالَ : أَخْبَرْتُ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْجَمَلِ . وَابْنُ أَبِي  
حَاتِمٍ عَنِ الضَّحَّاكِ قَالَ : تُصِيبُ الظَّالِمَ

(173/310)

وَالصَّالِحَ عَامَّةً . وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : هِيَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ حَتَّى يَتْرُكَهُ لَا  
يُعْقِلُ . وَرَوَى جُمُهورُهُمْ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْرَأُوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ  
فَيَعْمَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ .

قَالَ الْحَافِظُ : وَلِهَذَا الْاَثَرُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ عُمَيْرَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ  
أَظْهُرِهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ ،  
أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ ، وَهُوَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ الْعُرْسِ بْنِ عُمَيْرَةَ وَهُوَ أَخُو  
عَدِيِّ ، وَلَهُ شَوَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ حُدَيْفَةَ وَجَرِيرٍ وَغَيْرِهِمَا عِنْدَ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ .

وَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ مُتَّفِقَةٌ صَحِيحَةٌ الْمَعَانِي إِلَّا قَوْلَ مَنْ قَالَ بِالتَّخْصِيسِ ، فَهِيَ عَامَّةٌ إِلَى يَوْمِ  
الْقِيَامَةِ لِأَنَّهَا بَيَانٌ لِسُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأُمَّمِ وَالْمَلِكِ كَمَا بَيَّنَّا . وَأَمَّا فِتْنَةُ عُثْمَانَ

فَكَانَتْ أَوَّلَ هَذِهِ الْفِتَنِ الَّتِي اخْتَلَفَتْ فِيهَا الْأَرَءُ فَاخْتَلَفَتْ الْأَعْمَالُ مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ،  
فَخَلَا الْجَوُّ لِلْمُفْسِدِينَ مِنَ السَّيِّئِينَ وَأَعْوَانِهِمْ مِنْ زَنَادِقَةِ الْيَهُودِ

(174/310)

وَالْمَجُوسِ وَغَيْرِهِمْ ، وَأَعْقَبَ فِتْنَةَ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ ، ثُمَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ مَعَ بَنِي أُمِّيَّةٍ ثُمَّ قَتَلَهُمُ  
الْحُسَيْنَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْإِخ . وَلَوْ تَدَارَكُوهَا كَمَا تَدَارَكُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِتْنَةَ الرِّدَّةِ  
لَمَا كَانَتْ فِتْنَةً تَبَعَتْهَا فِتْنٌ كَثِيرَةٌ لَا يَزَالُ الْمُسْلِمُونَ مُصَابِينَ بِهَا وَمُعَذِّبِينَ بِعَذَابِهَا ، وَأَكْبَرُهَا فِتْنُ  
الْخِلَافَةِ وَالْمَلِكِ وَقِتْنُ افْتِرَاقِ الْمَذَاهِبِ .

(175/310)

(وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) لِمَنْ خَالَفَ سُنَنَهُ فِي الْأُمَّمِ وَالْأَفْرَادِ الَّتِي لَا تُبَدَّلُ لَهَا وَلَا  
تُحْوِيلُ ، وَلِمَنْ خَالَفَ هِدَايَةَ دِينِهِ الْمُزَكِّيَّةَ لِلنَّفْسِ ، وَقَطْعِيَّاتِ شَرْعِهِ الْمُنِيَّةِ عَلَى دَرْءِ  
الْمَفَاسِدِ وَالْمَضَارِّ وَحِفْظِ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ . وَهَذَا الْعِقَابُ مِنْهُ مَا يَقَعُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
، وَمِنْهُ مَا يَقَعُ فِي إِحْدَاهُمَا فَقَطْ ، سِوَاءِ كَانِ لِلْأَفْرَادِ أَوْ لِلْأُمَّمِ ، وَعِقَابُ الْأُمَّمِ الْمَذْكُورِ فِي

هَذِهِ الْآيَةُ مُطْرَدٌ فِي الدُّنْيَا ، وَأَوَّلُ مَنْ أُصَابَهُ مِنْ أُمَّتِنَا الْإِسْلَامِيَّةِ أَهْلُ الْقُرْنِ الْأَوَّلِ الَّذِينَ كَانُوا  
خَيْرَهَا بَلْ خَيْرِ الْأُمَّمِ كُلِّهَا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا قَصَرُوا فِي دَرِّ الْفِتْنَةِ الْأُولَى عَاقَبَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا  
عِقَابًا شَدِيدًا كَمَا تَقَدَّمَ أَنفَاءً ، وَهَكَذَا تَسْلُسَلُ الْعِقَابُ فِي كُلِّ جِيلٍ وَقَعَ فِيهِ ذَلِكَ ، ثُمَّ  
امْتَزَجَتِ الْفِتْنَةُ الْمَذْهَبِيَّةُ بِالْفِتْنِ السِّيَاسِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِالْخِلَافَةِ وَالسُّلْطَانِ ، وَلِهَذَا كَانَتْ فِتْنَةُ  
الْخِلَافِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ أَشَدَّ مَصَائِبَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَدْوَمَهَا ، فَزَالَتِ الْخِلَافَةُ الَّتِي  
تَنَازَعُوا عَلَيْهَا ، وَتَنَافَسُوا فِيهَا ، وَتَقَاتَلُوا لِأَجْلِهَا ، وَلَمْ تَزَلْ هِيَ ، بَلْ تَزْدَادُ قُوَّةً وَشَبَابًا ، وَقَدْ  
شَرَحْنَا هَذَا الْمَوْضُوعَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ مَجَلَّةِ الْمَنَارِ .

(176/310)

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ قِيلَ : إِنَّ الْخِطَابَ لِلْمُهَاجِرِينَ يُذَكِّرُهُمْ بِمَا كَانَ  
مِنْ ضَعْفِهِمْ وَقَلَّتِهِمْ بِمَكَّةَ - وَقِيلَ : إِنَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ كَافَّةً فِي عَهْدِ نَزُولِ السُّورَةِ ، يُذَكِّرُهُمْ بِمَا  
كَانَ مِنْ ضَعْفِ أُمَّتِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ فِي جَزِيرَتِهِمْ بَيْنَ الدُّوَلِ الْقَوِيَّةِ مِنَ الرُّومِ وَالْفُرْسِ ، وَلَا مَانِعَ فِيهِ  
مِنْ إِرَادَةِ هَذَا وَذَلِكَ مَعًا . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ أَيُّ : تَخَافُونَ مِنْ أَوَّلِ  
الْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِ الْهَجْرَةِ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ مُشْرِكُو قَوْمِكُمْ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعَرَبِ ، أَيُّ أَنْ  
يَنْتَزِعُوكُمْ بِسُرْعَةٍ فَيَفْتِكُوا بِكُمْ - كَمَا كَانَ يَخَطَّفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا خَارِجَ الْحَرَمِ ،

وَتَخَطَّفَهُمُ الْأُمَمُ مِنْ أَطْرَافِ جَزِيرَتِهِمْ . قَالَ تَعَالَى فِي أَهْلِ الْحَرَمِ : أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا

حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ

مِنْ حَوْلِهِمْ

(29 : 67) فَأَوْأَكُمُ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْأَنْصَارِ وَأَيُّكُمْ وَإِيَّاهُمْ بِنَصْرِهِ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ

، وَسَيُؤَيِّدُكُمْ عَلَى الرُّومِ وَفَارِسَ وَغَيْرِهِمْ كَمَا وَعَدَّكُمْ فِي كِتَابِهِ بِالْإِجْمَالِ وَيَبَيِّنُهُ لَكُمْ الرَّسُولُ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّصْرِيحِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ هَذِهِ الثَّلَاثُ وَغَيْرُهَا

مِنْ نِعْمِهِ ، فَيَزِيدُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ كَمَا وَعَدَّكُمْ بِقَوْلِهِ : وَإِذَا تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لِنَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلِنَنْ

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (14 : 7) .

(177/310)

وَقَدْ جَاءَ فِي الدَّرِّ الْمُنْثُورِ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ بِالْمَأْثُورِ بِاخْتِصَارِ قَلِيلٍ مَا نَصَّهُ : أَخْرَجَ ابْنُ

الْمُنْذِرِ وَأَبْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ : وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ الْآيَةَ

: "كَانَ هَذَا الْحَيُّ أَذَلَّ النَّاسَ ذَلًّا وَأَشْقَاهُ عَيْشًا وَأَجْوَعَهُ بَطُونًا ، وَأَعْرَاهُ جُلُودًا وَأَبْيَنَهُ

ضَلَالَةً ، مَعْكُوفِينَ عَلَى رَأْسِ حَجْرٍ بَيْنَ فَارِسَ وَالرُّومِ ، لَا وَاللَّهِ مَا فِي بِلَادِهِمْ مَا يُحْسَدُونَ

عَلَيْهِ ، مَنْ عَاشَ مِنْهُمْ عَاشَ شَقِيًّا ، وَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ رُدِّيًّا فِي النَّارِ ، يُؤْكَلُونَ وَلَا يَأْكُلُونَ ، لَا



وَاللَّهُ مَا نَعْلَمُ قَبِيلًا مِنْ حَاضِرِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ كَانَ أَشْرَ مَنْزِلًا مِنْهُمْ ، حَتَّى جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ  
فَمَكَنَ بِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَوَسَّعَ بِهِ فِي الرِّزْقِ ، وَجَعَلَكُمْ بِهِ مُلُوكًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، وَبِالْإِسْلَامِ  
أَعْطَى اللَّهُ مَا رَأَيْتُمْ ، فَاشْكُرُوا لِلَّهِ نِعْمَهُ فَإِنَّ رَبَّكُمْ مُنْعِمٌ يُحِبُّ الشُّكْرَ وَأَهْلُ الشُّكْرِ فِي  
مَزِيدٍ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - .

(178/310)

---

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي قَوْلِهِ : يَخْطَفُكُمْ النَّاسُ : فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِمَكَّةَ فَأَوَّأَكُمْ  
إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ وَأَبُو نَعِيمٍ وَالدَّيْلَمِيُّ فِي مُسْنَدِ الْفَرْدَوْسِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ  
مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخْطَفَكُمْ النَّاسُ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ النَّاسُ ؟ قَالَ  
: " أَهْلُ فَارِسَ " وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ السُّدِّيِّ فِي قَوْلِهِ : فَأَوَّأَكُمْ  
قَالَ : إِلَى الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ قَالَ : يَوْمَ بَدْرَاهُ .  
وَمِنَ الْعِبَرَةِ فِي الْآيَاتِ أَنَّهَا حُجَجٌ تَارِيخِيَّةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ عَلَى كَوْنِ الْإِسْلَامِ إِصْلَاحًا أَوْرَثَ  
وَيُورِثُ مَنْ اهْتَدَى بِهِ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالسِّيَادَةَ وَالسُّلْطَانَ فِيهَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، وَلَكِنْ أَعْدَاءُهُ -

الْجَاهِدِينَ لِهَذَا عَلَى عِلْمٍ - قَدْ شَوَّهُوا تَارِيخَهُ، وَصَدَّوْا النَّاسَ عَنْهُ بِالْبَاطِلِ . وَأَنَّ أَهْلَهُ  
قَدْ هَجَرُوا كِتَابَهُ، وَتَرَكَوا هِدَايَتَهُ، وَجَهَلُوا تَارِيخَهُ، ثُمَّ صَارُوا

(179/310)

يُقَدِّدُونَ أَوْلِيَاءَ الْأَعْدَاءِ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ، حَتَّى زَعَمُوا أَنَّهُ هُوَ سَبَبُ جَهْلِهِمْ وَضَعْفِهِمْ،  
وَزَوَالِ مُلْكِهِمْ الَّذِي كَانَ عُقُوبَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِخَلْفِهِمُ الطَّالِحِ عَلَى تَرْكِهِ، بَعْدَ تِلْكَ الْعُقُوبَةِ  
لِسَلْفِهِمُ الصَّالِحِ عَلَى الْفِتْنَةِ بِالتَّنَازُعِ عَلَى مُلْكِهِ . فَإِلَى مَتَى أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ؟ إِنْ لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ  
رَاجِعُونَ ! .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا  
أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ قَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ التَّنَاسُبِ بَيْنَ هَذِهِ النَّدَاءَاتِ  
الْإِلَهِيَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ . وَوَرَدَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذَا  
النَّدَاءِ بِالنَّهْيِ عَنِ الْخِيَاثَتَيْنِ هُنَا مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ " أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ - وَكَانَ لَا  
يَخْرُجُ إِلَّا فِي عِدَاوَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ - فَأَعْلَمَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِمَكَانِهِ،  
فَكَتَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يُرِيدُكُمْ فَخُذُوا حِذْرَكُمْ . فَانزَلَ اللَّهُ  
: لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ الْآيَةَ " وَالْمُرَادُ أَنَّ فِيهَا تَعْرِيفًا بِفِعْلَةِ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَدَّعِي الْإِيمَانَ بَأَنَّ

عَمَلُهُ خِيَانَةٌ تَنَافِيهِ . وَالْخِيَانَةُ لِلنَّاسِ وَحَدُّهُمْ مِنْ أَرْكَانِ النِّفَاقِ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ  
الصَّحِيحِ - وَسَيَأْتِي - فَكَيْفَ بِمَثَلِ هَذِهِ الْخِيَانَةِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ ؟ .

(180/310)

---

وَفِي عِدَّةِ رَوَايَاتٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَتَادَةَ وَالزُّهْرِيِّ وَالْكَلْبِيِّ وَالسُّدِّيِّ وَعِكْرِمَةَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي  
أَبِي لُبَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ كَانَ حَلِيفًا لِنَبِيِّ قُرَيْظَةَ مِنَ الْيَهُودِ ، فَلَمَّا خَرَجَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ إِجْلَاءِ إِخْوَانِهِمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ، أَرَادُوا بَعْدَ طُولِ الْحِصَارِ أَنْ يَنْزِلُوا مِنْ  
حِصْنِهِمْ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، وَكَانَ مِنْ حَلِيفَتِهِمْ مِنْ قَبْلِ غَدْرِهِمْ وَتَقْضِهِمْ لِعَهْدِ النَّبِيِّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَبُو لُبَابَةَ بِاللَّيْفِ ، وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ يَعْنِي أَنْ سَعْدًا  
يَحْكُمُ بِذُبْحِهِمْ ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ . قَالَ أَبُو لُبَابَةَ : " مَا زَلَّتْ قَدَمَايَ حَتَّى عَلِمْتُ أَنَّي خُنْتُ  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ " وَفِي رَوَايَةٍ عَنْ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ عَنِ الْكَلْبِيِّ أَنَّ

(181/310)

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ أَبَا لُبَابَةَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَكَانَ حَلِيفًا لَهُمْ ، بَلُّ رُوي أَنَّهُ  
كَانَ وَضَعَ مَالَهُ وَوَلَدَهُ عِنْدَهُمْ ، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الذَّبْحِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ - وَذَكَرَهَا ثُمَّ قَالَ -  
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَامْرَأَةَ أَبِي لُبَابَةَ : " أَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَغْتَسِلُ مِنَ  
الْجَنَابَةِ ؟ فَقَالَتْ : إِنَّهُ لِيَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ وَيُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ " وَالْمُرَادُ :  
أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَكَ فِي إِيمَانِهِ حَتَّى إِنَّهُ سَأَلَ امْرَأَتَهُ : هَلْ يَقُومُ فِي بَيْتِهِ  
بِوَأَجِبَاتِ الْإِسْلَامِ ؟ فَجَابَتْهُ بِصِغَةِ التَّكْيِيدِ الَّتِي يُجَابُ بِهَا مَنْ أَظْهَرَ شَكَّهُ ، وَفِيهِ عِبْرَةٌ  
لِمُنَافِقِي هَذَا الزَّمَانِ الَّذِينَ يُخْلِصُونَ الْخِدْمَةَ ، وَيُسَدُّونَ النَّصِيحَةَ إِلَى أَعْدَاءِ مِلَّتِهِمْ  
وَأَوْطَانِهِمْ فِيمَا يُمَكِّنُ لَهُمُ السُّلْطَانَ فِي بِلَادِهِمْ ، وَالسِّيَادَةَ عَلَى أُمَّتِهِمْ .

(182/310)

وَلْيَنْظُرِ الْمُعْتَبِرُ كَيْفَ عَاقَبَ أَبُو لُبَابَةَ نَفْسَهُ نُوْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى " شَدَّ نَفْسَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ  
الْمَسْجِدِ وَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَذُوقُ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ يُتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ - فَمَكَثَ  
سَبْعَةَ أَيَّامٍ لَا يَذُوقُ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا حَتَّى خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقِيلَ لَهُ : قَدْ  
تَيْبَ عَلَيْكَ . فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَحُلُّ نَفْسِي ، حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ  
الَّذِي يَحُلُّنِي ، فَجَاءَهُ فَحَلَّهُ بِيَدِهِ " وَغَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ كَانَتْ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا

سُورَةُ الْأَنْفَالِ بِسِنِينَ ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِنُزُولِ الْآيَةِ فِي أَبِي لُبَابَةَ أَنَّهَا تَتَنَاوَلُ فِعْلَتَهُ -  
وَهَذَا التَّعْيِيرُ يَكْثُرُ مِثْلَهُ عَنْهُمْ فِيمَا يُسَمُّونَهُ أَسْبَابَ النُّزُولِ ، كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ  
وغيره . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي قَتْلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ نَزَلَتْ بَعْدَ نَزُولِ السُّورَةِ فَالْحَقَّتْ بِهَا بِأَمْرِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ .

وَمَهْمَا يَكُنُ سَبَبُ النُّزُولِ فَالْآيَةُ عَامَّةٌ تَشْتَمِلُ كُلَّ خِيَانَةٍ ، وَلِذَلِكَ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ خِيَانَةَ اللَّهِ  
بِتَرْكِ فَرَائِضِهِ وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ ، وَالْأَمَانَةَ بِكُلِّ مَا اتَّمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعِبَادَ بِالْأَيْتِنِقْصَاهَا . رَوَاهُ  
عَنْهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

(183/310)

---

وَالْخِيَانَةُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى الْإِخْلَافِ وَالْخَيْبَةِ بِنَقْضِ مَا كَانَ يُرْجَى وَيُؤْمَلُ مِنَ  
الْخَائِنِ ، أَوْ نَقْضِ شَيْءٍ مِنْهُ يَنَافِي حُصُولَهُ وَتَحَقُّقَهُ . وَمِنْهُ : خَانَهُ سَيْفُهُ ، إِذَا نَبَأَ عَنِ  
الضَّرِيْبَةِ . وَخَانَتْهُ رِجْلَاهُ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْمَشْيِ ، وَخَانَ الرَّشَاءُ الدُّلُؤَ إِذَا انْقَطَعَ . وَمِنْ  
مَعْنَى النَّقْضِ أَوْ الْإِتْقَاصِ فِي الْمَادَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخَانُونَ  
أَنْفُسَكُمْ (2 : 187) أَيِ تَنْقُصُونَهَا بَعْضَ مَا أُحِلَّ لَهَا مِنَ اللَّذَاتِ ، وَمِثْلُهُ التَّخَوُّنُ ،

وَيَقْرَأَانِ فِي مَعْنَى الصَّفَةِ ، قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ فِي الْأَسَاسِ : وَتَخَوَّنَ فُلَانٌ حَقِّي إِذَا تَنَقَّصَهُ  
كَأَنَّهُ خَانَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَكُلُّ مَا غَيْرَكَ عَنْ حَالِكَ فَقَدْ تَخَوَّنَكَ . قَالَ لَبِيدٌ .

تَخَوَّنَهَا نُزُولِي وَارْتِحَالِي

(184/310)

اهـ . وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مِنَ الْكَشَافِ وَتَبَعَهُ غَيْرُهُ : مَعْنَى الْخَوْنِ النَّقْصُ ، كَمَا أَنَّ مَعْنَى  
الْوَفَاءِ التَّمَامَ ، وَمِنْهُ تَخَوَّنَهُ إِذَا تَنَقَّصَهُ ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي ضِدِّ الْأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ ؛ لِأَنَّكَ إِذَا خُنْتَ  
الرَّجُلَ فِي شَيْءٍ فَقَدْ أُدْخِلْتَ عَلَيْهِ التُّنْقِصَانَ فِيهِ اهـ . وَمَا قُلْنَا أَوْلَا أَعْمٌ مِنْ هَذَا وَأَشْمَلٌ  
لِمَا وَرَدَ مِنَ اسْتِعْمَالِ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ . وَقَالَ الرَّاعِبُ : الْخِيَانَةُ وَالنِّفَاقُ وَاحِدٌ  
إِلَّا أَنَّ الْخِيَانَةَ تُقَالُ اعْتِبَارًا بِالْعَهْدِ وَالْأَمَانَةِ ، وَالنِّفَاقُ يُقَالُ اعْتِبَارًا بِالدِّينِ ، ثُمَّ يَتَدَخَّلَانِ إِلَى  
آخِرِ مَا قَالَهُ ، وَهُوَ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ مَا قُلْنَا ، وَلَا يَصِحُّ كَوْنُهُ حَدًّا تَامًّا .

وَالْمَعْنَى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ تَعَالَى بِتَعْطِيلِ فَرَائِضِهِ أَوْ تَعَدِّي حُدُودِهِ ، وَاتِّهَاكِ  
مَحَارِمِهِ الَّتِي بَيْنَهَا لَكُمْ فِي كِتَابِهِ (وَالرَّسُولِ) بِالرَّغْبَةِ عَنْ بَيَانِهِ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى  
أَهْوَائِكُمْ ، أَوْ آرَاءِ مَشَايِخِكُمْ أَوْ آبَائِكُمْ ، أَوْ الْمُخَالَفَةِ عَنْ أَمْرِهِ إِلَى أَوْامِرِ أَمْرَائِكُمْ ، وَتَرْكِ

سُنَّتِهِ إِلَى سُنَّةِ أَوْلِيَائِكُمْ ، بِنَاءٍ عَلَى زَعْمِكُمْ أَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِمُرَادِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْكُمْ وَتَخَوَّنَا  
أَمَانَاتِكُمْ أَيُّ

(185/310)

وَلَا تَخَوَّنُوا أَمَانَاتِكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَوْلِيَاءِ أُمُورِكُمْ مِنَ الشُّؤْنِ السِّيَاسِيَّةِ وَلَا سِيَّمَا الْحَرْبِيَّةِ  
، وَفِيمَا بَيْنَكُمْ بَعْضُكُمْ مَعَ بَعْضٍ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ الْمَالِيَّةِ وَغَيْرِهَا حَتَّى الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ ،  
فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَجَالِسُ بِالْأَمَانَةِ رَوَاهُ الْخَطِيبُ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ وَحَسَنُوهُ وَأَبُو  
دَاوُدَ عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدَةَ " إِلَّا ثَلَاثَةَ مَجَالِسَ : سَفَكَ دَمَ حَرَامٍ ، أَوْ فَرَجَ حَرَامٍ ، أَوْ اقْتَطَعَ مَالٍ  
بِغَيْرِ حَقٍّ " أَيْضًا " إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِحَدِيثٍ ثُمَّ التَّقَتْ فَهُوَ أَمَانَةٌ " وَرَوَاهُ أَبُو يَعْلَى عَنْ أَنَسٍ ،  
وَأَشَارَ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ إِلَى صِحَّتِهِ . فإِفْشَاءُ السَّرِّ خِيَانَةٌ مُحَرَّمَةٌ ، وَيَكْفِي فِي الْعِلْمِ  
بِكُونِهِ سِرًّا الْقَرِينَةُ الْقَوْلِيَّةُ كَقَوْلِ مُحَدِّثِكَ : هَلْ يَسْمَعُنَا أَحَدٌ ؟ أَوْ لِلْفِعْلِيَّةِ كَاللَّتَاتِ لِرُؤْيَةِ مَنْ  
عَسَاهُ يَجِيءُ . وَآكِدُ أَمَانَاتِ السَّرِّ وَأَحَقُّهَا بِالْحِفْظِ مَا يَكُونُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ . الْخِيَانَةُ مِنْ  
صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ ، وَالْأَمَانَةُ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : " قَلَّمَا خَطَبَنَا  
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَالَ : لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ ، وَلَا دِينَ

(186/310)

---

لَمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبْنُ حِبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ . وَرَوَى الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ زَادَ مُسْلِمٌ " وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ " وَقَدْ وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ إِطْلَاقُ الْأَمَانَةِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْوَدِيعَةِ وَالثِّقَةِ وَالْأَمَانِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْحَصْرَ ، بَلْ كُلُّ مَا يَجِبُ حِفْظُهُ فَهُوَ أَمَانَةٌ ، وَكُلُّ حَقٍّ مَادِّيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ يَجِبُ عَلَيْكَ أَدَاؤُهُ إِلَى أَهْلِهِ فَهُوَ أَمَانَةٌ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ (2 : 283) وَقَالَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا (4 : 58) .

(187/310)

---

وَقَدْ أوردْنَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ النَّسَاءِ هَذِهِ مَبَاحِثَ نَفِيَسَةَ فِي الْأَمَانَاتِ وَالْعَدْلِ ، مِنْهَا (الْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ) فِي أَنْوَاعِ الْأَمَانَةِ (وَالْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ) فِي حِكْمَةِ تَأْكِيدِ الْأَمْرِ بِالْأَمَانَةِ . وَأوردْنَا فِي هَذِهِ مَا قَالَهُ حَكِيمُ الشَّرْقِ السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْأَفْغَانِيُّ فِي بَيَانِ كَوْنِ الْأَمَانَةِ مِنَ الصِّفَاتِ الدِّينِيَّةِ ، الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا بِنَاءُ الْمَدِينَةِ وَبِهَا حِفْظُ الْعُمَرَانِ ، وَإِصْلَاحُ حَالِ الْأُمَّةِ ، وَلَا بَقَاءَ



لِدَوْلَةٍ بَدُونِهَا؛ لِأَنَّ عَلَيْهَا مَدَارَ الثَّقَةِ فِي جَمِيعِ الْمُعَامَلَاتِ . وَنَاهِيكَ بِمَا عَظَّمَ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ  
الْأَمَانَةِ فِي قَوْلِهِ : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا  
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (33 : 72) .

(188/310)

وَأَمَّا قَوْلُهُ : وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَمَعْنَاهُ : وَالْحَالُ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ مَفَاسِدَ الْخِيَانَةِ ، وَتَحْرِيمَ اللَّهِ تَعَالَى  
إِيَّاهَا ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ تِلْكَ الْمَفَاسِدِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَوْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَا فَصَلْتُمُوهُ خِيَانَةً  
لِظُهُورِهِ ، وَأَمَّا مَا خَفِيَ عَنْكُمْ حُكْمُهُ فَالْجَهْلُ لَهُ عَذْرٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّا عَلِمَ مِنَ الدِّينِ  
بِالضَّرُورَةِ أَوْ مِمَّا يَعْلَمُ بِبِدَاهَةِ الْعَقْلِ ، أَوْ اسْتِقْنَاءِ الْقَلْبِ ، كَفَعْلَةِ أَبِي لُبَابَةَ الَّتِي كَانَتْ هَفْوَةً  
سَبَبَهَا الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْوَلَدِ ؛ وَلِذَلِكَ فَطِنَ لَهَا قَبْلَ أَنْ يُبْرَحَ مَوْقِفُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَمَّا  
كَانَ حُبُّ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ مَزَلَةً فِي الْخِيَانَةِ أَعْلَمْنَا بِهِ عَقِبَ النَّهْيِ عَنْهَا فَقَالَ : وَاعْلَمُوا أَنَّ  
أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةُ الْفِتْنَةِ : هِيَ الْاِخْتِبَارُ وَالْامْتِحَانُ بِمَا يَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ فَعَلُهُ أَوْ تَرَكَهُ  
أَوْ قَبَلَهُ أَوْ أَنْكَارَهُ ، فَتَكُونُ فِي الْاِعْتِقَادِ وَالْاِقْوَالِ وَالْاِفْعَالِ وَالْاَشْيَاءِ ، يَمْتَحِنُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ  
وَالْكَافِرِينَ ، وَالصَّادِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَيَحَاسِبُهُمْ

(189/310)

وَيَجْزِيهِمْ بِمَا يَتَرْتَبُ عَلَى فِتْنَتِهِمْ مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ أَوْ الْبَاطِلِ ، وَعَمَلِ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ  
الْكَلَامُ فِي الْفِتْنَةِ مَرَارًا مِنْ وَجْهِهِ . وَقِتْنَةُ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ عَظِيمَةٌ لَا تَخْفَى عَلَى ذِي فَهْمٍ ، إِلَّا  
أَنَّ الْأَفْهَامَ تَتَفَاوَتُ فِي وَجْهِهَا وَطُرُقِهَا ، فَأَمْوَالُ الْإِنْسَانِ عَلَيْهَا مَدَارُ مَعِيشَتِهِ ، وَتَحْصِيلُ  
رَغَائِبِهِ وَشَهْوَاتِهِ ، وَدَفْعُ كَثِيرٍ مِنَ الْمَكَارِهِ عَنْهُ ، فَهُوَ يَتَكَلَّفُ فِي كَسْبِهَا الْمَشَاقَّ ، وَيَرْكَبُ  
الصَّعَابَ ، وَيُكَلِّفُهُ الشَّرْعُ فِيهَا التِّزَامَ الْحَلَالَ ، وَاجْتِنَابَ الْحَرَامِ ، وَيُرْغِبُهُ فِي الْقَصْدِ  
وَالْإِعْتِدَالِ ، ثُمَّ إِنَّهُ يَتَكَلَّفُ الْعِنَاءَ فِي حِفْظِهَا ، وَتَنَازُعَهُ الْأَهْوَاءَ الْمُتَنَاوِحَةَ فِي إِفْقَاقِهَا ،  
فَالشَّرْعُ يَفْرِضُ عَلَيْهِ فِيهَا حُقُوقًا مُقَدَّرَةً وَغَيْرَ مُقَدَّرَةٍ ، وَمُعِينَةً وَغَيْرَ مُعِينَةٍ ، وَمَحْصُورَةً  
وَغَيْرَ مَحْصُورَةٍ ، كَالزَّكَاةِ وَنَفَقَاتِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ وَغَيْرِهِمْ ، وَكُفَّارَاتِ بَعْضِ الذُّنُوبِ  
الْمُعِينَةِ ، مِنْ عَتَقٍ وَصَدَقَةٍ وَنُسُكٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَيُنْدَبُ لَهُ نَفَقَاتُ أُخْرَى لِلْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ  
وَالْخَاصَّةِ تَكْفُرُ الذُّنُوبَ غَيْرَ الْمُعِينَةِ ، وَيَتَرْتَبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ .  
وَالضَّابِطُ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْبَدْلِ مِنْ صِفَاتِ النَّفْسِ : السَّمَاحَةُ وَالسَّخَاءُ ، وَهُمَا مِنْ أَرْكَانِ  
الْفَضَائِلِ ، وَلِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْأَمْسَاكِ : الْبُخْلُ ، وَهُوَ مِنْ أُمَّهَاتِ الرَّذَائِلِ ، وَلِكُلِّ مِنْهُمَا دَرَجَاتٌ  
وَدَرَكَاتٌ .

وَأَمَّا الْأَوْلَادُ فَهُمْ كَمَا يَقُولُ الْأَدَبَاءُ : ثَمَرَةُ الْفَوَادِ وَأَفْلاذُ الْأَكْبَادِ ، وَحُبُّهُمْ كَمَا قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ  
: ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ يُلْقِيهِ الْفَاطِرُ الْحَكِيمُ فِي قُلُوبِ الْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ ، يَحْمِلُهَا عَلَى بَدَلِ كُلِّ  
مَا يُسْتَطَاعُ بِذَلِكُ فِي سَبِيلِهِمْ مِنْ مَالٍ وَصِحَّةٍ وَرَاحَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، بَلْ رَوَى أَبُو يَعْلَى مِنْ  
حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مَرْفُوعًا إِلَى سَيِّدِ الْحُكَمَاءِ وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ الْوَلَدُ ثَمَرَةُ الْقَلْبِ وَإِنَّهُ مَجْبُونَةٌ مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ فَإِنْ كَانَ سَنَدُهُ ضَعِيفًا كَمَا قَالُوا فَفَسْنُهُ  
صَحِيحٌ ، فَحُبُّ الْوَلَدِ قَدْ يَحْمِلُ الْوَالِدِينَ عَلَى اقْتِرَافِ الْآثَامِ فِي سَبِيلِ تَرْبِيَّتِهِمْ ، وَالْإِنْفَاقِ  
عَلَيْهِمْ ، وَتَأْثِيلِ الثَّرْوَةِ لَهُمْ : يَحْمِلُهُمَا ذَلِكَ عَلَى الْجُبْنِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الدِّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ أَوْ  
الْحَقِيقَةِ ، أَوْ الْمِلَّةِ وَالْأُمَّةِ ، وَعَلَى الْبُخْلِ بِالزَّكَاةِ وَالتَّنْفِقَاتِ الْمَفْرُوضَةِ ، وَالْحُقُوقِ الثَّابِتَةِ ، دَعْوِ  
صَدَقَاتِ التَّطَوُّعِ وَالضِّيَافَةِ ، كَمَا يَحْمِلُهُمَا الْحُزْنُ عَلَى مَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ عَلَى السُّخْطِ عَلَى  
الرَّبِّ تَعَالَى وَالْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَاصِي كَنُوحِ الْأُمَّهَاتِ وَتَمْزِيقِ ثِيَابِهِنَّ وَطَمِّ  
وَجُوهِهِنَّ ، فَفِتْنَةُ الْأَوْلَادِ لَهَا جِهَاتٌ كَثِيرَةٌ ، فَهِيَ أَكْبَرُ مِنْ فِتْنَةِ الْأَمْوَالِ ، وَأَكْثَرُ تَكَالِيفِ مَالِيَّةٍ  
وَنَفْسِيَّةٍ وَبَدَنِيَّةٍ . فَالرَّجُلُ يَكْسِبُ الْحَرَامَ ،

وَيَأْكُلُ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ لِأَجْلِ أَوْلَادِهِ كَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِكِبَارِ شَهَوَاتِهِ ، فَإِذَا قَلَّتْ  
شَهَوَاتُهُ فِي الْكِبَرِ فَصَارَ يَكْفِيهِ الْقَلِيلُ مِنَ الْمَالِ ، يَقْوَى فِي نَفْسِهِ الْحِرْصُ عَلَى شَهَوَاتِ  
أَوْلَادِهِ ، وَمَا يَكْفِي الْوَاحِدَ لَا يَكْفِي الْآحَادَ ، وَفِتْنَةُ الْأَمْوَالِ قَدْ تَكُونُ جُزْءًا مِنْ فِتْنَةِ الْأَوْلَادِ ،  
فَتَقْدِيمُهَا وَتَأْخِيرُ فِتْنَةِ الْأَوْلَادِ مِنْ بَابِ الْإِتِّقَالِ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى .  
فَالْوَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ اتِّقَاءَ خَطَرِ الْفِتْنَةِ الْأُولَى بِكَسْبِ الْمَالِ مِنَ الْحَلَالِ ، وَإِنْفَاقِهِ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ ، وَاتِّقَاءَ الْحَرَامِ مِنَ الْكَسْبِ وَالْإِنْفَاقِ ، وَاتِّقَاءَ خَطَرِ الْفِتْنَةِ  
الثَّانِيَةِ مِنْ جِهَةِ مَا يَتَعَلَّقُ مِنْهَا بِالْمَالِ وَغَيْرِهِ مِمَّا يُشِيرُ إِلَيْهِ الْحَدِيثُ ، وَمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى  
الْوَالِدِينَ مِنْ حُسْنِ تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ عَلَى الدِّينِ وَالْفَضَائِلِ ، وَتَجْنِيْبِهِمْ أَسْبَابَ الْمَعَاصِي  
وَالرَّذَائِلِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا (66 : 6) .

(192/310)

---

وَقَدْ عَطَفَ عَلَى هَذَا التَّحْذِيرِ قَوْلُهُ : وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ لِتَذْكَيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُعِينُهُمْ  
عَلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ اتِّقَاءِ الْفِتْنَتَيْنِ ، وَهُوَ إِثَارُ مَا عِنْدَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنَ الْأَجْرِ  
الْعَظِيمِ لِمَنْ رَاعَى أَحْكَامَ دِينِهِ وَشَرَعَهُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وَوَقَفَ عِنْدَ حُدُودِهِ ،  
وَتَفَضَّلَهُ عَلَى كُلِّ مَا عَسَاهُ يَفُوتُهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّمَتُّعِ بِهِمَا ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ مِثْلَ هَفْوَةِ أَبِي لُبَابَةَ

حِينَ حَذَرَ أَعْدَاءَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ فِتْحِ حَصْنِهِمْ ، وَالنُّزُولِ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، لِمَا  
كَانَ لَهُ مِنَ الْاعْتِمَادِ عَلَيْهِمْ فِي حِفْظِ مَالِهِ وَوَلَدِهِ ، عَلَى أَنَّ لِلْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ حُسْنَ قُدْوَةٍ بِأَبِي  
لُبَابَةَ فِي تَوْبَتِهِ النَّصُوحِ ، إِذْ أَلَمَ بِهِ ضَعْفُ فَوْقِ فِي مِثْلِ هَفْوَتِهِ أَوْ مَا دُونَهَا مِنْ خِيَانَةٍ ، وَأَيْنَ  
مِثْلُ أَبِي لُبَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ ؟ وَنَحْنُ نَرَى كَثِيرًا مِمَّنْ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ يَخُونُونَ اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ فِي اتِّهَاكِ حُرْمَاتِ دِينِهِمْ ، وَيَخُونُونَ أُمَّتَهُمْ وَدَوْلَتَهُمْ بِثَمَنِ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَالِ  
يُرْجُونَهُ أَوْ يَنَالُونَهُ مِنْ عَدُوِّهِمْ - وَقَدْ يَكُونُ مِنْ مَالِ أُمَّتِهِمْ وَغَنَائِمِ وَطَنِهِمْ - أَوْ خَوْفًا عَلَى  
مَالِهِمْ وَوَلَدِهِمْ مِنْ سُلْطَانِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرَّ لَهُ السُّلْطَانُ ، وَقَدْ اسْقَطَتِ الْخِيَانَةُ دَوْلَةً كَانَتْ  
أَعْظَمَ دَوْلِ الْأَرْضِ قُوَّةً وَيَأْسًا بَارْتِكَابِ رِجَالِهَا الرِّشْوَةَ مِنْ أَهْلِهَا ، وَمِنْ الْأَجَانِبِ حَتَّى  
مُسِخَتْ فَصَارَتْ دُوَيْلَةً

(193/310)

---

صَغِيرَةً فَقِيرَةً ، وَلَكِنَّ الْخَلْفَ الْمَغْرُورَ لِذَلِكَ السَّلْفِ الْمُخْرَبِ يَدَّعُونَ أَنَّهَا إِنَّمَا اسْقَطَهَا  
تَعَالِيمُ الْإِسْلَامِ الْقَوِيمَةِ لِأَنَّهَا صَارَتْ قَدِيمَةً ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا وَاجِبًا وَاحِدًا أَوْ أَدْبًا وَاحِدًا مِنْ  
آدَابِ الْقُرْآنِ ، لَكَانَ كَافِيًا لَوْقَاتِهَا مِنَ الزَّوَالِ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو  
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

(194/310)

هَذِهِ آيَةٌ آخَرُ وَصَايَا الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا السِّيَاقِ وَهِيَ أَعْمَهَا ، وَالْأَصْلُ الْجَامِعُ لَهَا وَغَيْرُهَا ،  
وَكَلِمَةُ "الْفُرْقَانِ" فِيهَا كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ كَكَلِمَةِ التَّقْوَى فِي مَجِيئِهَا هُنَا مُطْلَقَةً ، فَالتَّقْوَى هِيَ  
الشَّجَرَةُ ، وَالْفُرْقَانُ هُوَ الثَّمَرَةُ ، وَهُوَ صَيْغَةٌ مُبَالَغَةٌ مِنْ مَادَّةِ الْفَرْقِ ، وَمَعْنَاهَا فِي أَصْلِ اللُّغَةِ  
: الْفَضْلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوْ الْأَشْيَاءِ ، وَالْمُرَادُ بِالْفُرْقَانِ هُنَا الْعِلْمُ الصَّحِيحُ وَالْحُكْمُ الْحَقُّ فِيهَا  
، وَكَذَلِكَ فَسَّرُوهُ بِالنُّورِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْفَضْلَ وَالتَّفْرِيقَ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَالْأُمُورِ فِي الْعِلْمِ هُوَ  
الْوَسِيلَةُ لِلخُرُوجِ مِنْ حَيْزِ الْأَجْمَالِ إِلَى حَيْزِ التَّفْصِيلِ ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ الصَّحِيحُ هُوَ الْعِلْمُ  
التَّفْصِيلِيُّ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَجْنَاسِ وَالْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ وَالْأَشْخَاصِ ، وَإِنْ شِئْتَ قَلْتَ بَيْنَ  
الْكَلِمَاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ ، وَالْبَسَائِطِ وَالْمُرَكَّبَاتِ ، وَالنَّسَبِ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْمُرَكَّبَاتِ ، مِنْ  
الْحِسِّيَّاتِ وَالْمَعْنَوِيَّاتِ ، وَيُبَيِّنُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُعْطِيهِ حَقَّهُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ مُمْتَازًا مِنْ  
غَيْرِهِ . وَإِيرَادُ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ يَطُولُ فَيَشْغَلُ عَنِ الْقَدْرِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ لَفْظِ  
الْفُرْقَانِ "إِلَّا أَنْ تَتْرَكَ عَوَالِمَ الْمَادَّةِ وَقَوَاهَا وَنَاتِي بِمِثَالٍ مِنَ اللُّغَةِ لِأَنَّ لَفْظَ الْفُرْقَانِ مِنْ

مُفْرَدَاتِهَا ، فنقول : إِنَّ الْعَامِّيَّ يَعْلَمُ مِنَ اللُّغَةِ أَمْرًا إِجْمَالِيًّا ، وَهُوَ أَنَّهَا الْفَاطِيَةُ بِهَا الْإِنْسَانُ

عَمَّا

(195/310)

يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِهِ مِنْ عِلْمِهِ ، وَمِنَ الْعِلْمِ التَّفْصِيلِيُّ فِيهَا مَا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي عِلْمِ النَّحْوِ وَالصَّرْفِ ،  
وَفِي عُلُومِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ وَالْوَضْعِ وَالْإِشْتِقَاقِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ - كَالْعَامِّ وَالْخَاصِّ  
وَالْمُطْلَقِ وَالْمُقَيَّدِ مِنَ الْآخِرِ مَثَلًا - وَأَنْتَ تَرَى أَنَّكَ بِهَذَا الْبَيَانِ الْوَجِيزِ لِمَعْنَى الْفُرْقَانِ قَدْ  
اتَّضَحَ لَكَ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى الْعِلْمِ الصَّحِيحِ ، وَالْحُكْمِ الرَّجِيحِ مَا كَانَ خَفِيًّا ، وَفَصَّلَ مِنْهَا مَا  
كَانَ مُجْمَلًا ، وَلِذَلِكَ نَعُدُّهُ مِنْ تَفْسِيرِ اللَّفْظِ لَا اسْتِطْرَادًا أَجْنَبِيًّا ، وَلَا سَيْلًا أَيْبًا ، كَأَكْثَرِ الَّذِي  
يَأْتِيهِ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ مَبَاحِثِ النَّحْوِ وَفُنُونِ الْبَلَاغَةِ وَغَيْرِهَا .

وَكَمَا يَكُونُ الْفُرْقَانُ فِي مَسَائِلِ الْعُلُومِ وَمَوَادِّهَا مِنْ طَبِيعِيَّةٍ وَعَقْلِيَّةٍ وَغَوِيَّةٍ ، وَفِي الْمَوْجُودَاتِ  
الَّتِي اسْتُنْبَطَتِ الْعُلُومُ مِنْهَا ، يَكُونُ فِي الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ وَالْأَدْيَانِ ، وَفِي الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ  
فِي الْمَظَالِمِ وَالْحُقُوقِ وَفِي الْحُرُوبِ ، وَقَدْ أُطْلِقَ الْفُرْقَانُ عَلَى

(196/310)

---

أَشْهُرَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ وَهِيَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ وَغَلَبَ عَلَى الْقُرْآنِ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَلَ  
الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1 : 25) ؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى يُفَرِّقُ فِي الْعِلْمِ  
وَالْإِعْتِقَادِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَفِي الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْجَوْرِ ، وَفِي  
الْأَعْمَالِ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ . وَأُطْلِقَ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى يَوْمٍ بَدُرَ كَمَا  
سَيَأْتِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَعَ بَيَانٍ وَجْهِهِ ، وَمُتَعَلِّقٌ فَصْلُهُ وَتَفْرِيقُهُ .  
فَقَوْلُهُ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا مَعْنَاهُ : إِن تَتَّقُوا اللَّهَ فِي كُلِّ مَا  
يَجِبُ أَنْ يُتَّقَى بِمُقْتَضَى دِينِهِ وَشَرْعِهِ ، وَبِمُقْتَضَى سُنَنِهِ فِي نِظَامِ خَلْقِهِ ، يَجْعَلْ لَكُمْ  
بِمُقْتَضَى هَذِهِ التَّقْوَى مَلَكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ تَفَرِّقُونَ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَتَفْصِلُونَ  
بَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ ، وَتُمَيِّزُونَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ ، وَتُزِيلُونَ بَيْنَ الْحُجَّةِ وَالشُّبْهَةِ . وَقَدْ رُوِيَ  
عَنْ بَعْضِ مُفَسِّرِي السَّلَفِ تَفْسِيرُ الْفُرْقَانِ هُنَا بِنُورِ الْبَصِيرَةِ الَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ،

(197/310)

---

وَهُوَ عَيْنُ مَا فَصَّلْنَاهُ مِنَ الْفُرْقَانِ الْعِلْمِيِّ الْحَكْمِيِّ ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ بِالنَّصْرِ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُحِقِّ  
وَالْمُبْطِلِ ، بِمَا يُعْزُ الْمُؤْمِنُ وَيُذِلُّ الْكَافِرَ ، وَبِالنَّجَاةِ مِنَ الشَّدَائِدِ فِي الدُّنْيَا ، وَمِنَ الْعَذَابِ فِي



الآخِرَةَ . وَهَذَا مِنَ الْفُرْقَانِ الْعَمَلِيِّ الَّذِي هُوَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِيِّ . ذَكَرَ كُلُّ مَا رَأَاهُ مُنَاسِبًا لِحَالِ  
وَقْتِهِ أَوْ حَالِ مَنْ لَقِنَهُ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَقْصِدْ تَحْدِيدَ الْمَدْلُولِ الْغَوِيِّ ، وَلَا الْمَعْنَى الْكَلْبِيَّ الَّذِي هُوَ  
ثَمَرَةُ التَّقْوَى بِأَنْوَاعِهَا ، وَهَذَا النُّورُ فِي الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَيْهِ طَالِبُهُ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، هُوَ الْحِكْمَةُ  
الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا  
يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (2 : 269) فَهُوَ كَعَهْدِ اللَّهِ فِي إِمَامَةِ النَّاسِ بِالْحَقِّ لَا يَنْالُ الظَّالِمِينَ  
لأنفسهم بالتقليد لغيرهم لا حتقارها في جنب إطرانهم لمقلديهم ، بل هم لا يطلبونه ولا  
يقصدون الوصول إليه ؛ لأنهم صدقوا بعض الجاهلين في ادعائهم إقبال بابه ، وكثافة  
حجابه ، بل أصحابه هم الأئمة المجتهدون في الشرع والدين والواضعون للعلوم التي تنفع  
الناس ، وكان لشيخنا الأستاذ الإمام حظ عظيم منه .

(198/310)

---

أمر الله - تعالى - في مواضع كثيرة من كتابه باتباعه ، واتباع النار ، واتباع الشرك  
والمعاصي ، واتباع الفتن العامة في الدول والأمم ، وتقدم في وصايا هذا السياق -  
واتباع الفشل والخذلان في الحرب ، واتباع ظلم النساء ، وبين أن العاقبة في إرث  
الأرض

لِلْمُتَّقِينَ ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ فِي الْآخِرَةِ لِلْمُتَّقِينَ ، وَقَالَ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ  
حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (65 : 2 ، 3) وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ  
سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (65 : 5) وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فِي التَّقْوَى الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَأَجْرُهَا  
وَعَاقِبَتُهَا كَثِيرٌ ، فَمَعْنَى التَّقْوَى الْعَامَّةِ اتِّقَاءُ كُلِّ مَا يَضُرُّ الْإِنْسَانَ فِي نَفْسِهِ ، وَفِي جَنْبِهِ  
الْإِنْسَانِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَمَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ وَالْغَايَاتِ الْحَسَنَةِ ،  
وَالْكَمَالِ الْمُمْكِنِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْعُلَمَاءُ : إِنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ تَرْكِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي مَا  
يُسْتَطَاعُ مِنَ الطَّاعَاتِ ، وَزِدْنَا عَلَى ذَلِكَ : اتِّقَاءُ الْأَسْبَابِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْكَمَالِ  
وَسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ بِحَسَبِ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكُونِ ، كَالْتَصَرُّ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَجَعْلُ كَلِمَةِ  
اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فِي الْأَرْضِ كَمَا هِيَ فِي الْوَاقِعِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ ، وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا هِيَ السُّفْلَى  
كَذَلِكَ . وَكَمَالُ ذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْعِلْمِ الْوَاسِعِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ - وَكَمَالُ هَذَا يَتَوَقَّفُ عَلَى  
مَعْرِفَةِ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْإِنْسَانِ مُجْتَمَعًا وَمُنْفَرِدًا كَمَا أُرْشِدُ إِلَيْهِ فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ ، وَمَنْ  
ثُمَّ كَانَتْ ثَمَرَةُ التَّقْوَى الْعَامَّةِ الْكَامِلَةِ هُنَا حُصُولُ مَلَكَةِ الْفُرْقَانِ الَّتِي يُفَرِّقُ صَاحِبُهَا بِنُورِهِ بَيْنَ  
الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَعْرِضُ لَهُ مِنْ عِلْمِ

(200/310)

وَحُكْمٍ وَعَمَلٍ ، فَيَفْصِلُ فِيهَا بَيْنَ مَا يَجِبُ قَبُولُهُ ، وَمَا يَجِبُ رَفْضُهُ ، وَبَيْنَ مَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ ،  
وَمَا يَجِبُ تَرْكُهُ ، وَتَنْكِيرُ الْفُرْقَانِ لِلتَّنْوِيعِ التَّابِعِ لِأَنْوَاعِ التَّقْوَى كَالْفِتَنِ فِي السِّيَاسَةِ وَالرِّيَاسَةِ  
وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْعَدْلِ وَالظُّلْمِ ، فَكُلُّ مُتَّقٍ لِلَّهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتِيهِ فُرْقَانًا فِيهِ ، وَبِذَلِكَ كَانَ  
الْخُلَفَاءُ وَالْحُكَّامُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ خُلَفَاءِ  
الْعَرَبِ أَعْدَلَ حُكَّامِ الْأُمَّةِ فِي الْأَرْضِ حَتَّى فِي عَهْدِ الْفَتْحِ . قَالَ بَعْضُ حُكَمَاءِ الْإِفْرَنْجِ : مَا  
عَرَفَ التَّارِيخُ فَاتِحًا

(201/310)

أَعْدَلَ وَلَا أَرْحَمَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَّقُوا فِتْنَ السِّيَاسَةِ وَالرِّيَاسَةِ لِقَلَّةِ اخْتِبَارِهِمْ فَعُوقِبُوا  
عَلَيْهَا بِتَفَرُّقِهِمْ فَضَعْفِهِمْ فَزَوَالَ مُلْكِهِمْ ، وَكَانَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ أَعَاجِمِ الْمُسْلِمِينَ دُونِهِمْ لِحُجْمِهِمْ  
بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّقْوَى الْوَاجِبَةِ ، وَحَرَمَانِهِمْ مِنْ فُرْقَانِهَا ، فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنََّّهُمْ يَجِدُونَ  
مَجْدَهُمْ مَعَ جَهْلِ هَذَا الْفُرْقَانِ الْمُبِينِ ، وَعَدَمِ الْإِعْتِصَامِ بِالتَّقْوَى الْمُرَكَّبَةِ لِلنَّفْسِ ، الْمُؤَهَّلَةِ لَهَا

لِلْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ ، بَلْ مَعَ انْغِمَاسِهِمْ فِي السُّكْرِ وَالْفَوَاحِشِ زِلْظَنَّهُمْ أَنَّ الْإِفْرِيحَ قَدْ تَرَقَّوْا  
فِي دُنْيَاهُمْ بِفُسَاقِهِمْ وَفُجَّارِهِمْ ، وَإِنَّمَا تَرَقَّوْا بِحُكْمَاتِهِمْ وَأَبْرَارِهِمْ ، الَّذِينَ وَقَفُوا حَيَاتِهِمْ  
عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ النَّافِعِ وَيُكْفِرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ هَذَا عَطْفٌ عَلَى يَجْعَلُ  
لَكُمْ فُرْقَانًا أَيُّ: وَيَمْحُو بِسَبَبِ هَذَا الْفُرْقَانِ وَتَأْثِيرِهِ مَا كَانَ مِنْ تَدْنِيْسِ سَيِّئَاتِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ،  
فَتَزُولُ مِنْهَا دَاعِيَةُ الْعُودِ إِلَيْهَا الْمُؤَدِّي إِلَى الْإِصْرَارِ الْمُهْلِكِ ، وَيَغْفِرُهَا لَكُمْ بِسْتَرِهَا ، وَتَرْكِ  
الْعِقَابِ عَلَيْهَا وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَمَنْ أَعْظَمَ فَضْلَهُ أَنْ جَعَلَ هَذَا الْجَزَاءَ الْعَظِيمَ  
بِقِسْمِيهِ السَّلْبِيِّ وَالْإِيْجَابِيِّ جَزَاءً لِلتَّقْوَى وَآثَرًا لَهَا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار ح 9  
ص 525. 540 ﴾

(202/310)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾

استئناف ابتدائي متصل بالآيات السابقة ابتداء من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ ﴾ [ الأنفال : 20 ] الآية وما بعده من الآيات إلى هنا .  
وافتح بالنداء للاهتمام ، كما تقدم آنفاً .

وخطب المؤمنون بوصف الإيمان تذكيراً لهم بعهد الإيمان وما يقتضيه كما تقدم آنفاً في نظائره، وعقب التحذير من العصيان والتنبيه على سوء عواقبه، بالترغيب في التقوى وبيان حسن عاقبتها وبالوعد بدوام النصر واستقامة الأحوال إن هم داموا على التقوى. ففعل الشرط مراد به الدوام، فإنهم كانوا متقين، ولكنهم لما حذروا من المخالفة والخيانة ناسب أن تفرض لهم الطاعة في مقابل ذلك.

ولقد بدأ حُسن المناسبة إذ رُتبت على المنهيات تحذيراتٌ من شرور وأضرار من قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمْبُ﴾ [الأنفال: 22] وقوله ﴿وَ اتَّقُوا فِتْنَةً﴾ [الأنفال: 25] الآية، ورتب على التقوى: الوعد بالنصر ومغفرة الذنوب وسعة الفضل.

(203/310)

---

والفرقان أصله مصدر كالشكران والغفران والبُتَّان، وهو ما يفرق أي يميز بين شيئين متشابهين، وقد أطلق بالخصوص على أنواع من التفرقة فأطلق على النصر، لأنه يفرق بين حالين كانا محتملين قبل ظهور النصر، ولُقّب القرآن بالفرقان؛ لأنه فرّق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: 1] ولعل اختياره هنا لقصد شموله ما يصلح للمقام من معانيه، فقد فسّر بالنصر، وعن السدي، والضحاك،

ومجاهد ، الفرقانُ المخرَجُ ، وفي "أحكام ابن العربي" ، عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب أنهم سألوا مالكا عن قوله تعالى : ﴿ يجعل لكم فرقانا ﴾ قال مخرجا ثم قرأ : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ [ الطلاق : 3 ] ، وفسر بالتمييز بينهم وبين الكفار في الأحوال التي يستحب فيها التمايز في أحوال الدنيا ، فيشمل ذلك أحوال النفس : من الهداية ، والمعرفة ، والرضى ، وانسراح القلب ، وإزالة الحقد والغل والحسد بينهم ، والمكر والخداع وذميم الخلاق .

وقد أشعر قوله : ﴿ لكم ﴾ أن الفرقان شيء نافع لهم فالظاهر أن المراد منه كل ما فيه مخرج لهم ونجاة من التباس الأحوال وارتباك الأمور وانبهاهم المقاصد ، فيؤول إلى استقامة أحوال الحياة ، حتى يكونوا مطمئني البال منشرحي الخاطر وذلك يستدعي أن يكونوا : منصورين ، غالبيين ، بصراء بالأمور ، كَمَلَة الأخلاق سائرين في طريق الحق والرشد ، وذلك هو ملاك استقامة الأمم ، فاختيار الفرقان هنا ، لأنه اللفظ الذي لا يؤدي غيره مؤداه في هذا الغرض وذلك من تمام الفصاحة .

والتقوى تشمل التوبة ، فتكفير السيئات يصح أن يكون المراد به تكفير السيئات الفارطة التي تعقبها التقوى .

ومفعول ﴿ يغفر لكم ﴾ ، محذوف وهو ما يستحق الغفران وذلك هو الذنب ، ويتعين أن يحمل على نوع من الذنوب .

(204/310)

---

وهو الصغائر التي عبر عنها باللمم ، ويجوز العكس بأن يراد بالسيئات الصغائر وبالمغفرة مغفرة الكبائر بالتوبة المعقبة لها ، وقيل التكفير الستري في الدنيا ، والغفران عدم المؤاخذة بها في الآخرة ، والحاصل أن الإجمال مقصود للحث على التقوى وتحقيق فائدتها والتعريض بالتحذير من التفريط فيها ، فلا يحصل التكفير ولا المغفرة بأي احتمال .

وقوله : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ تذييل وتكميل وهو كناية عن حصول منافع أخرى لهم من جراء التقوى . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ التحرير والتنوير ج 9 ص ﴾

(205/310)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾

ويستهل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بنداء الإيمان ، ثم يضع شرطاً هو : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، ويكون جواب الشرط أن يجعل لنا فرقاناً ، ويكفر عنا السيئات ، ويغفر لنا

وسبحانه هو الكريم وصاحب الفضل العظيم .

والمراد بالتقوى هنا أن تكون التزاماً بالأحكام؛ وقمة الالتزام بالأحكام هي الإيمان بالله عز

وجل، وإذا وجد الاثنان؛ الإيمان بالله والالتزام بالأحكام، لا بد أن يتحقق وعد الله

المتنثل في قوله تعالى

﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [

الأنفال: 29] .

والفرقان من مادة " فرق " " الفاء والراء والقاف " ، وتأتي دائماً للفصل بين شيئين ، مثلما

ضرب موسى البحر بعصاه فكان كل فرق كالطود العظيم . وسبحانه وتعالى يقول : ﴿

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾ [ البقرة: 50] .

أي نزع الله سبحانه الاتصال بين متصلين فصار بينهما فرق كبير .

وافرض - على سبيل المثال - أنك أحضرت ثوباً من قماشٍ مُتَسَاوٍ فِي النِّسِيجِ وَاللَّوْنِ ، ثم

شقت من الثوب جزءاً منه ؛ هنا لا يقال إنك فرقت بين القطعتين ، بل فصلت بينهما ، لكن

لا يقال فرق إلا إذا كان الفصل يؤدي إلى فرقتين ؛ فرقة هنا ، وفرقة هناك وهذه أشياء

ومتعلقات ، وتلك لها أشياء ومتعلقات .

إذن فالفرق ليس هو الفصل بين متلاحين فقط ، بل هو فصل يؤدي إلى أن يكون لكل فرقة

منهج ، ومذهب ، ورأي .



و ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي يفصل بين شيئين لم يكن يوجد بينهما اتفاق؛ لأنه لو كان بينهما اتفاق لصارا فرقة واحدة، لكن لأنهما مختلفات لذلك لا بد من وجود تناقض بينهما . وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : إنه يجعل لكم فرقانا ، مثال ذلك ، هناك من يهتدي ، وهناك من يضل . وبطبيعة الحال يوجد فرق بين الهدى وبين الضلال . فالله شرح صدر المهتدي للإسلام ، وجعل صدر الكافر ضيقاً حرجاً ؛ فيه غل وحقد وحسد ومكر ، وخديعة ؛ لذلك يفصل ربنا بين من بقلبه طمأنينة الإيمان وبين من يمتلىء صدره بالضغينة ، فالؤمن من فرقة تختلف عن فرقة أصحاب القلوب الحقودة .

و حين يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [ الأنفال : 29 ] .

أي أنه سبحانه وتعالى يفصل بينكم أو يفصل بين عموم الحق وعموم الباطل ؛ لأنه يريد أن تكون حركة الحياة وحدة متكاملة منسجمة ، لا يسودها هوى جماعة ضد جماعة لها هوى آخر ؛ لأنهم كلهم خلفاء لله في الأرض ، وكلهم مخلوقون لله ، وكلهم متمتعون بنحيرات الله ؛ لذلك يجب أن تكون حركاتهم متساندة ومتناسقة غير متعاعدة .

والفرق - كما نعلم - إنما ينشأ عن اشتباك ؛ بين فريقين اثنين ، واحد منهما يمثل فريق

الهدى ، والثاني هو من حق عليه عذاب الله .

﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [ الأنفال : 29 ] .

(207/310)

---

ويتمثل الفرقان في هدى القلب ، والبصيرة والعلم ؛ وأي شيء يفصل بين الحق والباطل ،  
وأحوال الإنسان - كما نعلم - قسمان : أحوال الدنيا ، وأحوال الآخرة ، وأحوال الدنيا  
فيها أمور قلبية مستترة ، وفيها أمور ظاهرة ، وإن نظرنا إلى حالات الدنيا نجد منها الظاهر  
وهو الحركة المحسنة ، ومنها القلبي الذي لا يعرفه من بعد الله إلا صاحب القلب . والفرقان  
في أحوال الدنيا القلبية تلمسه حين تجد من اهتدى ، ومن ضل ؛ ونجد أن المهتدي قد شرح  
ربنا صدره للإسلام . ونجد أن الضال هو من لم يشرح الله صدره للإسلام والمهتدي يعيش  
ضمن الفريق الذي لا غل فيه ولا حقد ، والضال هو من يعيش في فريق يتصف بالغل والحقد  
، هذا في الأمور القلبية . أما في الأعمال الظاهرة ، فالحق يجعل الفرقان بين أهل الإيمان  
وأهل الكفر ؛ بالنصر ، والغلبة ، والعزة .  
وماذا عن الفرقان في الآخرة ؟ .

إن الحق يجعل الفرقان في الآخرة بحيث يكون لأهل الإيمان النعيم المقيم والثواب العظيم،  
ويجعل لأهل الكفر العذاب الشديد والمقت الكبير .

﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [ الأنفال : 29 ] .

وإذا كنا سنتقي الله فهل سيكون لنا سيئات ؟ .

وأقول : إن أردت بقوله : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ إيماناً به ، فسبحانه يُكفِّر عنكم سيئاتكم ؛

صغائرهما وكبائرها . ولا يضر مع الإيمان معصية ، بل تدخل في عفو الله وغفرانه .

وإن أردت بالتقوى " التزام أمر " فتكفير السيئات يعني أن تقى الله بترك الكبائر فيكفر عنا

السيئات وهي الصغائر . والتكفير على نوعين ؛ أولاً أن يسترها عليك في الدنيا ، أو

يذهب عنك عقوبة الآخرة ، ولذلك يقول سبحانه في ختام جميل للآية :

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [ الأنفال : 29 ] .

(208/310)

---

وحين يوصف الفضل بأنه عظيم ، فمعنى ذلك أن هناك فضلاً أقل من عظيم ، كما أن هناك

فضلاً يعلوه تميزاً . نعم ، ونعلم أن التفاضل موجود عند البشر ؛ هذا يتفضل على هذا

بطعام ، أو يتفضل عليه بملبس ، أو يتفضل عليه بشراب ، أو يتفضل عليه بمسكن ، أي أن

هناك أنواعاً متعددة من الفضل ، لكنها لا توصف بالعظمة ؛ لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط لأنه سيؤول إليه كل فضل من دونه ، فمن أعطى آخر رغيف خبز فلنعلم أن وراءه من أحضر الخبز من الخبز ، ووراءه من جاء بالدقيق من المطحن ، ووراءه من زرع وحصد .

إذن كل فضل هو من الله وماله مردود إلى الله عز وجل ، وهذا هو الفضل العظيم . وأيضاً نجد أن الذي يتفضل على واحد لا بد أنه يبغى من وراء هذا الفضل شيئاً ، مثل كمال الذات ، وأنه يود الحمد والثناء ، ويبغى راحة نفس إنسانية ، ونرى أناساً يؤدون الفضل لغيرهم ليقبلوا من الأهم ، لأنهم يطبقون منهج الله ، بل يرغبون في مجرد راحة النفس ، مثل الكفار الذين يصنعون أشياء تفيد الناس ، فهم يفعلونها وليس في بالهم الله ، بل في بالهم راحة النفس وانسجامها .

إذن فالذي يتفضل إنما يريد شيئاً ، إما كمال مال أو ثناء وإطراء ، وراحة نفس من مناظر الإيلام التي يراها ، وهذا دليل على أنه يعاني من نقص ما ويريد أن يكمله . فإذا كان الله عز وجل هو صاحب الفضل ، الله نقص في كمال ؟ ! لا . إذن فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضلاً منه دون رغبة في كمال أو ثناء ، وأيضاً فكل فضل من دون الله يتضمن المنّ ، لكن فضل الله تعالى ليس فيه منّ وليس فيه ذلة لأحد . وقد يستنكف إنسان أن يأخذ شيئاً من إنسان آخر . لكن من الذي يستنكف على فضل الله ؟ . لا

أحد . لأنَّ الحياةَ كلها هبة منه ، ولذلك يُضرب المثل بالفتاة التي قالت لمعن بن زائدة :

فَعُدُّ إِنَّ الْكَرِيمَ لَهُ مَعَاد . . . وَظَنِّي بِأَبْنِ أَرْوَى أَنْ يَعُودَا

(209/310)

---

وكانت الفتاة تطالب ابن زائدة أن يعود إلى التفضل عليهم ، فنهرها أبوها ، فقالت له : يا أباي  
إن الملوك لا يُستَحَى من الطلب منهم .

﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ [ الأتفال : 29 ] .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن تنبّه إلى أن كل مظهر من مظاهر وجودك في الحياة ومظاهر  
استبقاء حياتك ، ومظاهر نعيمك كلها ، إن نسبتها فستصل إلى الله ، فإن كنت تشتري -  
على سبيل المثال - أثاثاً لبيتك ، واخترت خشب الورد ليكون هو الخشب الذي يصنع لك  
منه النجار هذا الأثاث ، فأنت تأتي بهذا الخشب من أندونيسيا أو باكستان مثلاً ؛ لأن  
الغابات هناك تنتج مثل هذا النوع من الخشب ، وكل شيء في حياتك إن سلسلته ستجد  
أن أيدي المخلوقات من البشر تنتهي عند خلق الله وهبته للإنسان ، وهذا هو الفضل العظيم  
من الله تبارك وتعالى .

وبعد أن أوضح الحق سبحانه وتعالى بهذا التوجيه : لا تخونوا الله ، ولا تخونوا الرسول ، ولا

تخونوا أماناتكم ، من أجل أولادكم أو أزواجكم ، واعلموا أن مرد كل الفضل إلى الله تعالى ،  
واذكروا واقع الدنيا معكم ، أصدقت هذه المسائل أم لم تصدق ؟ لقد صدقت كلها ، كما  
قال الحق سبحانه وتعالى من قبل : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ  
تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ ﴾ [الأنفال: 26] .

وكان هذا القول بالنسبة للمسلمين ، فماذا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ . هنا يقول  
المولى سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ . . . ﴾ .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(210/310)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ  
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (29)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿  
يجعل لكم فرقانا ﴾ قال : نجاة .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يجعل لكم فرقاناً ﴾ قال : نصراً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ يجعل لكم فرقاناً ﴾ يقول : مخرجاً في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(211/310)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قال أبو العباس المقرئ : " الفرقان " على أربعة أوجه :

الأول : الفرقان النور ، كهذه الآية أي : يجعل لكم نوراً في قلوبكم تُفرِّقون به بين الحلال والحرام .

والثاني : الحجة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ [ البقرة : 53 ] أي : الحجة .

الثالث : القرآن .

قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ [ الفرقان : 1 ] أي : القرآن .

الرابع : يوم بدر قال تعالى ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّمَيُّمِ الْجَمْعَانِ ﴾ [ الأنفال : 41 ] أي : يوم

بدر .

فصل

ومعنى الآية : إن تتقوا الله بطاعته وترك معصيته يجعل لكم فرقانا .

قال مجاهد : " مَخْرَجًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الضَّلَالِ " وقال مقاتل : " مَخْرَجًا فِي الدِّينِ مِنْ

الشُّبُهَاتِ " .

وقال عكرمة " نجاة ، أي : يفرق بينكم وبين ما تخافون " .

وقال الضحاك : " بياناً " .

وقال ابن إسحاق : " فصلًا بين الحق والباطل .

يُظْهِرُ اللَّهُ بِهِ حَقِّكُمْ وَيُطْفِئُ بَاطِلَ مَنْ خَالَفَكُمْ " قال مُزَرَّدُ بْنُ ضَرَّارٍ : [ الخفيف ]

2695 - بَادِرَ الْأَفُقِ أَنْ يُغِيبَ فَلَمَّا . . .

أظلم الليل لم يجد فرقانا

قال آخر : [ الرجز ]

2696 - مَا لَكَ مِنْ طُولِ الْأَسَى فُرْقَانٌ . . .



بَعْدَ قَطِينٍ رَحَلُوا وَبَانُوا

وقال آخر: [الطويل]

(212/310)

2697 - وَكَيْفَ أَرْجِي الخُدَّ والمَوْتُ طَالِبِي . . .

وَمَا لِي مِنْ كَأْسِشِ المِنِيَّةِ فُرْقَانُ

والفرقان: مصدر كالرُجْحَانِ والتُّقْصَانِ، وتقدم الكلام عليه أول البقرة. انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 499. 500 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29) ﴾

الفرقان ما به يفرق بين الحق والباطل من علم وافرو إلهام قاهر، فالعلماء فرقانهم مجلوب

برهانهم، والعارفون فرقانهم موهوب عرفانهم؛ فأولئك مع مجهود أنفسهم، وهؤلاء

بمقتضى جود ربهم.

والعرفانُ تعريفٌ من الله ، والتكفيرُ تخفيفٌ من الله ، والغفرانُ تشریفٌ للعبد من الله .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات - ج 1 ص 619 ﴾

(213/310)

## فصل

قال الشيخ سيد قطب في الآيات السابقة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره  
- إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة - فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهنم وبئس  
المصير . فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلي  
المؤمنين منه بلاءً حسناً ، إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ . .  
ويبدو في التعبير القرآني شدة في التحذير ؛ وتغليظ في العقوبة ؛ وتهديد بغضب من الله  
وماوى في النار :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره  
- إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة - فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهنم وبئس  
المصير ﴾ . .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا واجهتم الذين كفروا ﴿ زحفاً ﴾ أي متدانيين متقاربين متواجهين ؛ فلا تفروا عنهم ، إلا أن يكون ذلك مكيدة حرب ، حيث تختارون موقعاً أحسن ، أو تدبرون خطة أحكم ؛ أو أن يكون ذلك انضماماً إلى فئة أخرى من المسلمين ، أو إلى قواعد المسلمين ، لتعاودوا القتال . . وأن من تولى ، وأعطى العدو دبره يوم الزحف فقد استحق ذلك العقاب : غضباً من الله وما أوى في جهنم . .

وقد وردت بعض الأقوال في اعتبار هذا الحكم خاصاً بأهل بدر ، أو بالقتال الذي يكون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حاضره .

ولكن الجمهور على أنها عامة ، وأن التولي يوم الزحف كبيرة من السبع الموبقات . كما روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " اجتنبوا السبع الموبقات قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " .

وقد أورد الجصاص في " أحكام القرآن " تفصيلاً لأبأس من الإمام به قال :

(214/310)

---

"قال الله تعالى: ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ﴾ روى أبو  
نضرة عن أبي سعيد أن ذلك إنما كان يوم بدر . قال أبو نضرة لأنهم لو انحازوا يومئذ لانحازوا  
إلى المشركين ، ولم يكن يومئذ مسلم غيرهم . . وهذا الذي قاله أبو نضرة ليس بسديد ، لأنه  
قد كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار ، ولم يأمرهم النبي عليه السلام بالخروج ، ولم يكونوا  
يرون أنه يكون قتال ، وإنما ظنوا أنها العير ، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيمن  
خف معه . فقول أبي نضرة إنه لم يكن هناك مسلم غيرهم وإنهم لو انحازوا ، انحازوا إلى  
المشركين ، غلط لما وصفنا . . وقد قيل : إنه لم يكن جائزاً لهم الانحياز يومئذ لأنهم كانوا مع  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يكن الانحياز جائزاً لهم عنه ، قال الله تعالى : ﴿ ما  
كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن  
نفسه ﴾ فلم يكن يجوز لهم أن يخذلوا نبيهم - صلى الله عليه وسلم - وينصرفوا عنه ويسلموه  
، وإن كان الله قد تكفل بنصره وعصمه من الناس ، كما قال الله تعالى : ﴿ والله يعصمك  
من الناس ﴾ وكان ذلك فرضاً عليهم ، قلت أعداؤهم أو كثروا ، وأيضاً فإن النبي -  
صلى الله عليه وسلم - كان فئة المسلمين يومئذ ، ومن كان بمنحاز عن القتال فإنما كان يجوز  
له الانحياز على شرط أن يكون انحيازه إلى فئة ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - فئتهم  
يومئذ ، ولم تكن فئة غيره . قال ابن عمر : كنت في جيش ، فحاص الناس حيصة واحدة  
ورجعنا إلى المدينة . فقلنا : نحن الفرارون . فقال النبي عليه السلام : " أنا فئتمكم " فمن كان

بالبعد من النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا انحاز عن الكفار فإنما كان يجوز له الانحياز إلى  
فئة النبي - صلى الله عليه وسلم - وإذا كان معهم في القتال لم يكن هناك فئة غيره ينحازون  
إليه ، فلم يكن يجوز لهم الفرار .

(215/310)

---

وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ قال : شددت على أهل بدر .  
وقال الله تعالى : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما  
كسبوا ﴾ وذلك لأنهم فروا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وكذلك يوم حنين فروا عن  
النبي - صلى الله عليه وسلم - فعاقبهم الله على ذلك في قوله تعالى : ﴿ ويوم حنين إذ  
أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم  
مدبرين ﴾ . . فهذا كان حكمهم إذا كانوا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - قتل العدو أو  
كثر ، إذا لم يجد الله فيه شيئاً . وقال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ يا أيها النبي حرّض المؤمنين  
على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً  
من الذين كفروا ﴾ وهذا - والله أعلم - في الحال التي لم يكن النبي - صلى الله عليه وسلم -  
حاضراً معهم ، فكان على العشرين أن يقاتلوا المائتين لا يهربوا عنهم ، فإذا كان عدد العدو

أكثر من ذلك أباح لهم التحيز إلى فئة من المسلمين فيهم نصره لمعاودة القتال ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾ فروي عن ابن عباس أنه قال : كتب عليكم ألا يفر واحد من عشرة : ثم قلت : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ﴾ الآية . فكتب عليكم ألا يفر مئة من مئتين . وقال ابن عباس : إن فر رجل من رجلين فقد فر ، وإن فر من ثلاثة فلم يفر - قال الشيخ يعني بقوله : فقد فر : الفرار من الزحف المراد بالآية ، والذي في الآية إيجاب فرض القتال على الواحد لرجلين من الكفار ، فإن زاد عدد الكفار على اثنين فجاءت حينئذ للواحد التحيز إلى فئة من المسلمين فيها نصره ، فأما إن أراد الفرار ليلحق بقوم من المسلمين لا نصره معهم فهو من أهل الوعيد المذكور في قوله تعالى : ﴿ ومن يولهم

(216/310)

---

يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ﴾ ولذلك قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " أنا فئة كل مسلم " وقال عمر بن الخطاب لما بلغه أن أبا عبيد بن مسعود استقل يوم الجيش حتى قتل ولم ينهزم : " رحم الله أبا عبيد ! لو انحاز إليّ لكنت له

فئة . فلما رجع إليه أصحاب أبي عبيد قال : " أنا فئة لكم " ولم يعنفهم . . وهذا الحكم عندنا (يعني عند الحنفية) ثابت ، ما لم يبلغ عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفا لا يجوز لهم أن ينهزموا عن مثلهم إلا متحرفين لقتال ، وهو أن يصيروا من موضع إلى غيره مكايدين لعدوهم ، ونحو ذلك ، مما لا يكون فيه انصراف عن الحرب ، أو متحيزين إلى فئة من المسلمين يقا تلونهم معهم .

فإذا بلغوا اثني عشر ألفاً فإن محمد بن الحسن ذكر أن الجيش إذا بلغوا كذلك فليس لهم أن يفروا من عدوهم ، وإن كثرت عددهم ، ولم يذكر خلافاً بين أصحابنا فيه (يعني الحنفية) واحتج بحديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله ، أن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " خير الأصحاب أربعة . وخير السرايا أربع مائة . وخير الجيوش أربعة آلاف . ولن يؤتى اثنا عشر ألفاً من قلة ولن يغلبوا " وفي بعضها : " ما غلب قوم يبلغون اثني عشر ألفاً إذا اجتمعت كلمتهم " وذكر الطحاوي أن مالكا سئل ، فقيل له : أيسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله وحكم بغيرها ؟ فقال مالك : إن كان معك اثنا عشر ألفاً مثلك لم يسعك التخلف ، وإلا فأنت في سعة من التخلف . . وكان السائل له عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر . وهذا المذهب موافق لما ذكر محمد بن الحسن . والذي روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في اثني عشر ألفاً فهو أصل في هذا الباب ، وإن كثرت عدد المشركين فغير جائز لهم أن يفروا منهم وإن كانوا أضعافهم لقوله -

صلى الله عليه وسلم. " إذا اجتمعت كلمتهم " وقد أوجب عليهم بذلك جمع كلمتهم  
... انتهى .

(217/310)

---

كذلك أورد " ابن العربي " في " أحكام القرآن " تعقيباً على الخلاف في المقصود بهذا الحكم  
قال :

" اختلف الناس : هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر ، أم عام في الزحوف كلها إلى يوم  
القيامة ؟

" فروى ابن سعيد الخدري أن ذلك يوم بدر ، لم يكن لهم فئة إلا رسول الله ، وبه قال نافع ،  
والحسن ، وقتادة ، ويزيد بن حبيب ، والضحاك .

" ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة ؛ وإنما شذ من شذ  
بخصوص ذلك يوم بدر بقوله : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ فظن قوم أن ذلك إشارة إلى يوم  
بدر . وليس به . وإنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف .

" والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال ، وانقضاء الحرب ، وذهاب اليوم بما فيه . وقد  
ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - حسبما قدمناه في الحديث الصحيح أن الكبائر



كذا . . . وعدّ الفرار يوم الزحف . وهذا نص في المسألة يرفع الخلاف ، ويبين الحكم ، وقد نبهنا على النكته التي وقع الإشكال فيها لمن وقع باختصاصه بيوم بدر " .

ونحن نأخذ بهذا الذي ذكره ابن العربي من رأي " ابن عباس وسائر العلماء " . . . ذلك أن التولي يوم الزحف على إطلاقه يستحق هذا التشديد لضخامة آثاره الحركية من ناحية ؛ ولمسأسه بأصل الاعتقاد من ناحية . . .

(218/310)

---

إن قلب المؤمن ينبغي أن يكون راسخاً ثابتاً لا تهزمه في الأرض قوة ، وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده . . . وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة - وهو يواجه الخطر - فإن هذه الهزة لا يجوز أن تبلغ أن تكون هزيمة وفراراً . والآجال بيد الله ، فما يجوز أن يولي المؤمن خوفاً على الحياة . وليس في هذا تكليف للنفس فوق طاقتها . فالمؤمن إنسان يواجه عدوه إنساناً ، فهما من هذه الناحية يقفان على أرض واحدة . ثم يمتاز المؤمن بأنه موصول بالقوة الكبرى التي لا غالب لها . ثم إنه إلى الله إن كان حياً ، وإلى الله إن كتبت له الشهادة . فهو في كل حالة أقوى من خصمه الذي يواجهه وهو يشاق الله ورسوله . . . ومن

ثم هذا الحكم القاطع :

﴿ ومن يولهم يومئذ دبره - إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة - فقد باء بغضب من الله ،  
وماوأه جهنم وبئس المصير ﴾ . .

ولا بد أن نقف هنا عند التعبير ذاته ، وما فيه من إيماءات عجيبة : ﴿ فلا تولوهم الأدبار  
﴿ . . ﴾ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ . . فهو تعبير عن الهزيمة في صورتها الحسية ، مع  
التقبيح والتشنيع ، والتعريض بإعطاء الأدبار للأعداء ! . . ثم : ﴿ فقد باء بغضب من  
الله ﴾ . . فالمهزوم مولٌّ ومعه ﴿ غضب من الله ﴾ يذهب به إلى مأواه : ﴿ وماوأه  
جهنم وبئس المصير ﴾ . .

وهكذا تشترك ظلال التعبير مع دلالة في رسم الجو العام ؛ وتثير في الوجدان شعور  
الاستقباح والاستنكار للتولي يوم الزحف والفرار .

ثم يمضي السياق بعد هذا التحذير من التولي يوم الزحف ؛ ليكشف لهم عن يد الله وهي  
تدير المعركة من ورائهم ؛ وتقتل لهم أعداءهم ، وترمي لهم وتصيب . . . وهم ينالون أجر  
البلاء لأن الله يريد أن يفضل عليهم بحسن البلاء ، لينيبهم عليه من فضله وهو الذي وهبهم  
إياه :

﴿ فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت - إذ رميت - ولكن الله رمى . وليبلي  
المؤمنين منه بلاء حسنا . إن الله سميع عليم ﴾ . .

---

وتذهب الروايات المأثورة إلى تفسير الرمي هنا بأنه رمية الحصى التي حثاها رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم - في وجوه الكفار ، وهو يقول : " شأهت الوجوه . شأهت الوجوه "  
فأصابت وجوه المشركين ممن كذب عليهم القتل في علم الله . .  
ولكن دلالة الآية أعم . فهي تمثل تدبير الله للأمر كله من وراء الحركة الظاهرة للنبي صلى الله  
عليه وسلم والعصبة المسلمة معه . ولذلك تلاها قول الله تعالى :  
﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا ﴾ .

أي ليرزقهم من عنده أن يبلوا البلاء الحسن الذي ينالون عليه الأجر ، بعد أن يكتب لهم به  
النصر . فهو الفضل المضاعف أولاً وأخيراً .

﴿ إن الله سميع عليم ﴾ . .

يسمع استغاثتكم ويعلم حالكم ؛ ويجعلكم ستارا لقدرته ، متى علم منكم الخلوص له ؛  
ويعطيكم النصر والأجر . . كما أعطاكم هذا وذاك في بدر . .  
﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ . .

وهذه أخرى بعد تلك الأولى! إن التدبير لا ينتهي عند أن يقتل لكم أعداءكم بأيديكم،  
ويصيبهم برمية رسولكم، ويمنحكم حسن البلاء ليأجركم عليه. . إنما هو يضيف إليه  
توهين كيد الكافرين، وإضعاف تدييرهم وتقديرهم. . فلامجال إذن للخوف، ولا مجال  
إذن للهزيمة، ولا مجال إذن لأن يولي المؤمنون الأدبار عند لقاء الكفار. .  
ويتصل السياق هنا بكل ملابسات المعركة. . فإذا كان الله هو الذي قتل المشركين، وهو  
الذي رماهم، وهو الذي أبلى المؤمنين فيها ذلك البلاء الحسن، وهو الذين أوهن كيد  
الكافرين. . فما النزاع والاختلاف في الأنفال، والمعركة كلها أديرت بتديير الله وتقديره،  
وليس لهم فيها إلا أن كانوا ستارا لهذا التدبير والتقدير؟!

(220/310)

---

وعندما يصل السياق إلى تقرير. . أن الله موهن كيد الكافرين. . يتجه بالخطاب إلى  
الكافرين، أولئك الذين استفتحوا قبيل المعركة، فدعوا الله أن يجعل الدائرة على أضل  
الفريقين وآتاهما بما لا يعرف وأقطعهما للرحم - كما كان دعاء أبي جهل وهو استفتاحه:  
أي طلبه الفتح من الله والفصل - فدارت الدائرة على المشركين! . . يتوجه إليهم بالخطاب  
، ساخرا من استفتاحهم ذاك؛ مؤكدا لهم أن ما حدث في بدر إنما هو نموذج من السنة

الجارية وليس فلة عارضة؛ وأن جمعهم وكثرتهم لن تغير من الأمر شيئاً؛ لأنها السنة  
الجارية: أن يكون الله مع المؤمنين :

﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح . وإن تنتهوا فهو خير لكم . وإن تعودوا نعد ، ولن تغني  
عنكم فتككم شيئاً ولو كثرت . وأن الله مع المؤمنين ﴾ . .

إن تستفتحوا فتطلبوا من الله أن يفتح بينكم وبين المسلمين ، وأن يهلك أضل الفريقين  
وأقطعهما للرحم . . فقد استجاب الله ، فجعل الدائرة عليكم ، تصديقا لاستفتاحكم !  
لقد دارت الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم ! ولقد علمتم - إن كنتم تريدون أن  
تعلموا - من هم أضل الفريقين وأقطعهما للرحم !

وعلى ضوء هذه الحقيقة ، وفي ظل هذا الإيجاء ، يرغبهم في الانتهاء عما هم فيه من الشرك  
والكفر والحرب للمسلمين ، والمشاقة لله ورسوله :

﴿ وإن تنتهوا فهو خير لكم ﴾ . .

ومع الترغيب والترهيب :

﴿ وإن تعودوا نعد ﴾ . .

والعاقبة معروفة ، لا يغيرها تجمع ، ولا تبدلها كثرة .

﴿ ولن تغني عنكم فتككم شيئاً ولو كثرت ﴾ . .

وماذا تفعل الكثرة إذا كان الله في جانب المؤمنين ؟

﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾

إن المعركة على هذا النحو لن تكون متكافئة أبداً؛ لأن المؤمنين - ومعهم الله - سيكونون في صف؛ والكفار - وليس معهم إلا ناس من البشر من أمثالهم - سيكونون في الصف الآخر.

والمعركة على هذا النحو مقررة المصير!

(221/310)

---

ولقد كان مشركو العرب يعرفون هذه الحقيقة. فإن معرفتهم بالله سبحانه لم تكن قليلة ولا سطحية ولا غامضة؛ كما يتصور الناس اليوم من خلال تأثيرهم ببعض التعميمات التاريخية. ولم يكن شرك العرب ممثلاً في إنكار الله - سبحانه - ولا في عدم معرفتهم الحقيقة. . إنما كان يمثل، أكثر ما يمثل، في عدم إخلاصهم العبودية له؛ وذلك بتلقي منهج حياتهم وشرائعهم من غيره؛ وهو ما لم يكن متفقاً مع إقرارهم بالوهية الله ومعرفتهم لحقيقته. . . .

ولقد مر بنا في استعراض أحداث الواقعة من كتب السيرة: أن خفاف بن أيماء بن رخصة الغفاري - أو أبوه أيماء بن رخصة الغفاري - بعث إلى قريش، حين مروا به، ابناً له بجزائر

أهداها لهم؛ وقال لهم: إن أحببتهم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا. قال: فأرسلوا إليه مع ابنه: أن وصلتك رحم! قد قضيت الذي عليك. فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم. ولئن كنا إنما نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله من طاقة. كذلك مر بنا قول الأحنس بن شريق لبني زهرة - وهو مشرك وهم مشركون - : يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرقة بن نوفل . . . إلخ. ومثله استفاح أبي جهل نفسه - فرعون هذه الأمة كما قال عنه صلى الله عليه وسلم - وهو يقول: " اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف، فأحنه الغداة" . . . وكذلك قوله لحكيم بن حزام وقد جاءه رسولا من عتبة بن ربيعة ليرجع عن القتال: " كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد!"

(222/310)

---

فهكذا كان تصورهم للحقيقة الإلهية، واستحضارهم لها في كل مناسبة. ولم يكن أمرهم أنهم لا يعرفون الله؛ أو لا يعرفون أنه ما لأحد بالله من طاقة، أو لا يعرفون أنه هو الذي يحكم ويفصل بين الجبهتين حيث لا راد لحكمه! إنما كان شركهم الحقيقي يتمثل ابتداء في تلقي منهج حياتهم وشرائعهم من غير الله، الذي يعرفونه ويعترفون به على هذا النحو. الأمر

الذي يشاركهم فيه اليوم أقوام يظنون أنهم مسلمون - على دين محمد - كما كان المشركون يظنون أنهم مهتدون على دين أبيهم إبراهيم! حتى لكان أبو جهل - وهو أبو جهل - يستفتح على الله فيقول: " اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف - وفي رواية: اللهم أضل الفريقين وأقطعهما للرحم - فأحنه الغداة! "

فأما تلك الأصنام التي عرف أنهم يعبدونها ، فما كان ذلك قط لاعتقادهم بالوهية لها كألوهية الله - سبحانه - ولقد صرح القرآن الكريم بحقيقة تصورهم الاعتقادي فيها وسبب تقديمهم الشعائر لها في قوله تعالى: ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

(223/310)

---

. فهذا كان مبلغ تصورهم لها . . مجرد شفعاء عند الله . . وما كان شركهم الحقيقي من هذه الجهة ؛ ولا كان إسلام من أسلم منهم متمثلا في مجرد التخلي عن الاستشفاع بهذه الأصنام . وإلا فإن الحنفاء ، الذين اعتزلوا عبادة الأصنام هذه وقدموا الشعائر لله وحده ما اعتبروا مسلمين ! إنما تمثل الإسلام في الاعتقاد والشعائر وإفراد الله سبحانه بالحاكمية . والذين لا يفردون الله سبحانه بالحاكمية - في أي زمان وفي أي مكان - هم مشركون . لا



يخرجهم من هذا الشرك أن يكون اعتقادهم أن لا إله إلا الله - مجرد اعتقاد - ولا أن يقدموا الشعائر لله وحده . . . فإلى هنا يكونون كالحنفاء الذين لم يعتبرهم أحد مسلمين - إنما يعتبر الناس مسلمين حين يتمون حلقات السلسلة ، أي حين يضمون إلى الاعتقاد والشعائر ، أفراد الله سبحانه بالحاكمية ، ورفضهم الاعتراف بشرعية حكم أو قانون أو وضع أو قيمة أو تقليد لم يصدر عن الله وحده . . . وهذا وحده هو الإسلام ، لأنه وحده مدلول شهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ كما عرف هذا المدلول في الاعتقاد الإسلامي وفي الواقع الإسلامي سواء ! . . . ثم أن يتجمع هؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله على هذا النحو وبهذا المدلول في تجمع حركي بقيادة مسلمة وينسلخوا من التجمع الجاهلي وقيادته الجاهلية !

وهذا ما ينبغي أن يتبينه الذين يريدون أن يكونوا " مسلمين " فلا تخدعهم عن حقيقة ما هم فيه خدعة أنهم مسلمون اعتقاداً وتعبدًا . فإن هذا وحده لا يجعل الناس " مسلمين " ما لم يتحقق لهم أنهم يفردون الله سبحانه بالحاكمية ، ويرفضون حاكمية العبيد ، ويخلعون ولاءهم للمجتمع الجاهلي وقيادته الجاهلية .

(224/310)

---

إن كثيرا من المخلصين الطيبين تحذعهم هذه الخدعة . . وهم يريدون لأنفسهم الإسلام  
ولكنهم يُخدعون عنه . فأولى لهم أن يستيقنوا صورة الإسلام الحقيقية . . والوحيدة . .  
وأن يعرفوا أن المشركين من العرب الذين يحملون اسم " المشركين " لم يكونوا يختلفون عنهم  
في شيء ! فلقد كانوا يعرفون الله بحقيقته - كما تبين - ويقدمون له شفعاء من أصنامهم .  
وكان شركهم الأساسي يتمثل - لافي الاعتقاد - ولكن في الحاكمية !  
وإذا كان ينبغي للطيبين المخلصين الذي يريدون أن يكونوا مسلمين ، أن يتبينوا هذه الحقيقة  
، فإن العصبية المسلمة التي تجاهد لإعادة نشأة هذا الدين في الأرض في عالم الواقع يجب أن  
تستيقن هذه الحقيقة بوضوح وعمق ؛ ويجب ألا تلجج فيها أي تلجج ؛ ويجب أن تعرف  
الناس بها تعريفا صريحا واضحا جازما . . فهذه هي نقطة البدء والانطلاق . . فإذا  
انحرفت الحركة عنها - منذ البدء - أدنى انحراف ضلت طريقها كله وبنيت على غير  
أساس ؛ مهما توافر لها من الإخلاص بعد ذلك والصبر والتصميم على المضي في الطريق !  
ثم يعود السياق إلى الهتاف للذين آمنوا - في سلسلة متوالية من الهتافات الموحية - عقب  
ذكرهم : وذكر أن الله معهم .

. يعود إليهم ليهتف بهم إلى طاعة الله ورسوله ؛ ويحذرهم التولي عنه ، والتشبه بأولئك  
الذين يسمعون آيات الله تتلى عليهم فكأنهم لم يسمعوها . . أولئك الصم البكم ، وإن كانت  
لهم آذان تسمع الأصوات والسنة تنطق بالكلمات . . أولئك الذين هم شر الدواب التي

تدب على هذه الأرض؛ لأنهم لا يهتدون بما يسمعون :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا : سمعنا ، وهم لا يسمعون . إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ .

(225/310)

---

إن الهتاف هنا للذين آمنوا ليطيعوا الله ورسوله ، ولا يتولوا عنه وهم يسمعون آياته وكلماته . . إن هذا الهتاف هنا إنما يجيء بعد جميع مقدماته الموحية . . يجيء بعد استعراض أحداث المعركة؛ وبعد رؤية يد الله فيها ، وتدييره وتقديره ، وعونه ومدده؛ وبعد تأكيد أن الله مع المؤمنين ، وأن الله موهن كيد الكافرين . فما يبقى بعد ذلك كله مجال لغير السمع والطاعة لله والرسول . وإن التولي عن الرسول وأوامره بعد هذا كله ليبدو مستكراً قبيحاً لا يقدم عليه إنسان له قلب يتدبر وعقل يتفكر . . ومن هنا يجيء ذكر الدواب في موضعه المناسب! ولفظ " الدواب " يشمل الناس فيما يشمل ، فهم يدبون على الأرض ، ولكن استعماله يكثر في الدواب من الأنعام ، فيلقي ظله بمجرد إطلاقه؛ ويخلع على ﴿ الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ صورة البهيمة في الحس والخيال! وإنهم كذلك!

إنهم لدواب بهذا الظل . بل هم شر الدواب ! فالبهائم لها آذان ولكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمة ؛ ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتا مفهومة . إلا أن البهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية . أما هؤلاء الدواب فهم موكولون إلى إدراكهم الذي لا ينتفعون به . فهم شر الدواب قطعاً !

﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ . . .

﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ . . .

أي لأسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم . . . ولكنه - سبحانه - لم يعلم فيهم خيراً ولا رغبة في الهدى فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقي والاستجابة ؛ فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم ، وما أفسدوا هم من فطرتهم . ولو جعلهم الله يدركون بعقولهم حقيقة ما يدعون إليه ، ما فتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا . . . ﴿ ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ . . .

لأن العقل قد يدرك ، ولكن القلب المطموس لا يستجيب . فحتى لو أسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة .

والاستجابة هي السماع الصحيح . وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا

تستجيب !

ومرة أخرى يتكرر الهتاف للذين آمنوا . الهتاف بهم ليستجيبوا لله والرسول ، مع الترغيب

في الاستجابة والترهيب من الإعراض ؛ والتذكير بنعمة الله عليهم حين استجابوا لله

وللرسول :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول

بين المرء وقلبه . وأنه إليه تحشرون . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ،

واعلموا أن الله شديد العقاب . واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن

يتخطفكم الناس ، فأواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ . .

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنما يدعوهم إلى ما يحييهم . . إنها دعوة إلى الحياة

بكل صور الحياة ، وبكل معاني الحياة . .

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة ، ومن

ضغط الوهم والأسطورة ، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والاحتميات القاهرة ، ومن

العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات سواء . .

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله ؛ تعلن تحرر " الإنسان " وتكريمه بصدورها عن الله

وحده ، ووقوف البشر كلهم صفا متساوين في مواجهتها ؛ لا يتحكم فرد في شعب ، ولا

طبقة في أمة ، ولا جنس في جنس ، ولا قوم في قوم . ولكنهم ينطلقون كلهم أحراراً  
متساوين في ظل شريعة صاحبها الله رب العباد .

ويدعوهم إلى منهج للحياة ، ومنهج للفكر ، ومنهج للتصور ؛ يطلقهم من كل قيد لإضوابط  
الفطرة ، المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان ، العليم بما خلق ؛ هذه الضوابط  
التي تصون الطاقة البانية من التبدد ؛ ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن  
النشاط الإيجابي البناء .

(227/310)

---

ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم ، والثقة بدينهم وبربهم ،  
والانطلاق في " الأرض " كلها لتحرير " الإنسان " بجملته ؛ وإخراجه من عبودية العباد إلى  
عبودية الله وحده ؛ وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله ، فاستلبها منه الطغاة !  
ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله ، لتقرير ألوهية الله سبحانه - في الأرض وفي حياة الناس  
؛ وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة ؛ ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله - سبحانه -  
وحاكميته وسلطانه ؛ حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده ؛ وعندئذ يكون الدين كله لله .  
حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة .

ذلك مجمل ما يدعوههم إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة .

إن هذا الدين منهج حياة كاملة ، لا مجرد عقيدة مستسرة . منهج واقعي تنمو الحياة في ظله وتترقى . ومن ثم هو دعوة إلى الحياة في كل صورها وأشكالها . وفي كل مجالاتها ودلالاتها .  
والتعبير القرآني يجمل هذا كله في كلمات قليلة موحية :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ .

استجبوا له طائعين مختارين ؛ وإن كان الله - سبحانه - قادراً على قهركم على الهدى لو أراد :

﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه . . ﴾

ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقادرة القاهرة اللطيفة . . ﴿ يحول بين المرء وقلبه ﴾  
فيفصل بينه وبين قلبه ؛ ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه ، ويصرفه كيف شاء ، ويقبله كما يريد . وصاحبه لا يملك منه شيئاً وهو قلبه الذي بين جنبيه !

إنها صورة رهيبة حقا ؛ يتمثلها القلب في النص القرآني ، ولكن التعبير البشري يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب ، ووصف هذا الإيقاع في العصب والحس !

---

إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة ، والحذر الدائم ، والاحتياط الدائم . اليقظة  
لخبايا القلب وخفقاته ولفقاته ؛ والحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون  
انزلاقا والاحتياط الدائم للمزلق والهواتف والهواجس . . والتعلق الدائم بالله - سبحانه  
- مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته ، أو غفلة من غفلاته ، أو دفعة من  
دفعاته . .

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو رسول الله المعصوم يكثر من دعاء ربه : "  
اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " . فكيف بالناس ، وهم غير مرسلين ولا  
معصومين ؟ !

إنها صورة تهز القلب حقاً ، ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إليها لحظات ، ناظرا  
إلى قلبه الذي بين جنبيه ، وهو في قبضة القاهر الجبار ، وهو لا يملك منه شيئا ، وإن كان  
يحملة بين جنبيه ويسير !

صورة يعرضها على الذين آمنوا وهو يناديهم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ . .

ليقول لهم : إن الله قادر على أن يقهركم على الهدى - لو كان يريد - وعلى الاستجابة التي  
يدعوكم إليها هذه الدعوة ، ولكنه - سبحانه - يكرمكم ؛ فيدعوكم لتستجيبوا عن



طواعية تناولون عليها الأجر؛ وعن إرادة تعلوبها إنسانيتكم وترتفع إلى مستوى الأمانة التي ناطها الله بهذا الخلق المسمى بالإنسان. . أمانة الهداية المختارة؛ وأمانة الخلافة الواعية، وأمانة الإرادة المتصرفة عن قصد ومعرفة.

﴿ وأنه إليه تحشرون ﴾ . .

فقلوبكم بين يديه . وأتم بعد ذلك محشورون إليه . فما لكم منه مفر . لا في دنيا ولا في آخرة . وهو مع هذا يدعوكم لتستجيبوا استجابة الحر المأجور ، لا استجابة العبد المقهور .

ثم يحذره القعود عن الجهاد ، وعن تلبية دعوة الحياة ، والتراخي في تغيير المنكر في أية صورة كان :

﴿ وانقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ . .

(229/310)

---

والفتنة : الابتلاء أو البلاء . . والجماعة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صوره - وأظلم الظلم نبذ شريعة الله ومنهجه للحياة - ولا تقف في وجه الظالمين ؛ ولا تأخذ الطريق على المفسدين .

. جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين . . فالإسلام منهج تكافلي إيجابي لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد والمنكر يشيع (فضلا على أن يروا دين الله لا يتبع ؛ بل أن يروا الوهية الله تنكر وتقوم الوهية العبيد مقامها ! ) وهم ساكنون . ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة لأنهم هم في ذاتهم صالحون طيبون !

ولما كانت مقاومة الظلم تكلف الناس التكاليف في الأنفس والأموال ؛ فقد عاد القرآن بذكر العصبة المسلمة - التي كانت تخاطب بهذا القرآن أول مرة - بما كان من ضعفها وقلة عددها . وبما كان من الأذى الذي ينالها ، والخوف الذي يظللها . . وكيف آواها الله بدينه هذا وأعزها ورزقها رزقا طيبا . . فلا تقعد إذن عن الحياة التي يدعوها إليها رسول الله . ولا عن تكاليف هذه الحياة ، التي أعزها بها الله ، وأعطاه وحماها :

﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يخطفكم الناس فأوأمكم ،

وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ . .

اذكروا هذا لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحبيكم ؛ واذكروه كي لا تقعدوا عن مكافحة الظلم في كل صورته وأشكاله . . اذكروا أيام الضعف والخوف ، قبل أن يوجهكم الله إلى قتال

المشركين ، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة وأتم كارهون . . ثم انظروا

كيف صرتم بعد الدعوة الحمية التي انقلبتم بها أعزاء منصورين ماجورين مرزوقين .

يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم لشكره فتؤجروا على شكركم لفضله !

ويرسم التعبير مشهداً حياً للقلّة والضعف والقلق والخوف :

﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ . .

(230/310)

---

وهو مشهد التربص الوجلي، والترقب الفرع، حتى لتكاد العين تبصر بالسّمات الخائفة،  
والحرّكات المفزعة، والعيون الزائغة . . والأيدي تمتد للتخطف؛ والقلّة المسلمة في ارتقَاب  
وتوجس!

ومن هذا المشهد المفزع إلى الأمن والقوة والنصر والرزق الطيب والمتاع الكريم . في ظل الله  
الذي آواهم إلى حماه:

﴿ فاواكم، وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات ﴾ . .

وفي ظل توجيه الله لهم ليشكروا فيؤجروا:

﴿ لعلكم تشكرون ﴾ . .

فمن ذا الذي يتأمل هذه النقلة البعيدة، ثم لا يستجيب لصوت الحياة الآمنة القوية الغنية . .  
صوت الرسول الأمين الكريم . . ثم من ذا الذي لا يشكر الله على إيوائه ونصره والآئه،  
وهذا المشهد وذلك معروضان عليه، ولكل منهما إيقاعه وإجاءه؟

على أن القوم إنما كانوا يعيشون هذا المشهد وذاك . . كانوا يذكرون بما يعرفون من حالهم في ماضيهم وحاضرهم . . ومن ثم كان لهذا القرآن في حسهم ذلك المذاق . .

والعصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة إنشاء هذا الدين في واقع الأرض وفي حياة الناس ؛ قد لا تكون قد مرت بالمرحلتين ، ولا تذوقت المذاقين . . ولكن هذا القرآن يهتف لها

بهذه الحقيقة كذلك . ولئن كانت اليوم إنما تعيش في قوله تعالى :

﴿ إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ .

فأولى لها أن تستجيب لدعوة الحياة التي يدعوها إليها رسول الله ؛ وأن تترقب في يقين وثقة ، موعود الله للعصبة المسلمة ، موعوده الذي حققه للعصبة الأولى ، ووعد بتحقيقه لكل عصبة تستقيم على طريقه ، وتصبر على تكاليفه . . وأن تنتظر قوله تعالى :

﴿ فأواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ .

وهي إنما تتعامل مع وعد الله الصادق - لامع ظواهر الواقع الخادع - ووعد الله هو واقع العصبة المسلمة الذي يرجح كل واقع !

(231/310)

---

ثم يتكرر الهتاف للذين آمنوا مرة أخرى . . إن الأموال والأولاد قد تُفقد الناس عن الاستجابة خوفاً وبجلاً . والحياة التي يدعو إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حياة كريمة ، لا بد لها من تكاليف ، ولا بد لها من تضحيات . . لذلك يعالج القرآن هذا الحرص بالتنبيه إلى فتنة الأموال والأولاد - فهي موضع ابتلاء واختبار وامتحان - وبالتحذير من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان ؛ ومن التخلف عن دعوة الجهاد ؛ وعن تكاليف الأمانة والعهد والبيعة . واعتبار هذا التخلف خيانة لله والرسول ، وخيانة للأمانات التي تضطلع بها الأمة المسلمة في الأرض ، وهي إعلاء كلمة الله وتقرير ألوهيته وحده للعباد ، والوصاية على البشرية بالحق والعدل . . ومع هذا التحذير التذكيري بما عند الله من أجر عظيم يرجح الأموال والأولاد ، التي قد تُفقد الناس عن التضحية والجهاد .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ . .

(232/310)

---

إن التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة في الأرض خيانة لله والرسول . فالقضية الأولى في هذا الدين هي قضية : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " . . قضية أفراد الله - سبحانه

- بالألوهية؛ والأخذ في هذا بما بلغه محمد - صلى الله عليه وسلم - وحده . . والبشرية في تاريخها كله لم تكن تجحد الله البتة؛ ولكنها إنما كانت تشرك معه آلهة أخرى . أحيانا قليلة في الاعتقاد والعبادة . وأحيانا كثيرة في الحاكمية والسلطان - وهذا هو غالب الشرك ومعظمه - ومن ثم كانت القضية الأولى لهذا الدين ليست هي حمل الناس على الاعتقاد بالألوهية الله . ولكن حملهم على إفراده - سبحانه - بالألوهية ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، أي إفراده بالحاكمية في حياتهم الأرضية - كما أنهم مقرون بحاكميته في نظام الكون - تحقيقا لقول الله تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ كذلك كانت هي حملهم على أن الرسول هو وحده المبلغ عن الله ؛ ومن ثم الالتزام بكل ما يبلغهم إياه . . هذه هي قضية هذا الدين - اعتقادا لتقريره في الضمير ، وحركة لتقريره في الحياة - ومن هنا كان التحلي عنها خيانة لله والرسول ؛ يحذر الله منها العصبة المسلمة التي آمنت به وأعلنت هذا الإيمان ؛ فأصبح متعينا عليها أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعي ؛ والنهوض بتكاليف هذا الجهاد في الأنفس والأموال والأولاد .

(233/310)

---

كذلك يحذرنا خيانة الأمانة التي حملتها يوم بايعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
على الإسلام . فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان ، وليس مجرد عبارات وأدعيات . إنما هو  
منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق . إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة  
أن لا إله إلا الله ؛ وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق ؛ ورد المجتمع إلى حاكميته  
وشريعته ، ورد الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء ؛ وتأمين  
الحق والعدل للناس جميعا ؛ وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت ؛ وتعمير الأرض والنهوض  
بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله . .

وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها ؛ وخاس بعهد الذي عاهد الله عليه ، وتقض  
بيعته التي بايع بها رسوله .

وكل أولئك في حاجة إلى التضحية والصبر والاحتمال ؛ وإلى الاستعلاء على فتنة الأموال  
والأولاد ، وإلى التطلع إلى ما عند الله من الأجر العظيم ، المدخر لعباده الأمناء على أماناته  
، الصابرين المؤثرين المضحين :

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ . .

إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية ، بما يعلم خالقها من تركيبها الخفي ، وبما يطلع منها  
على الظاهر والباطن ، وعلى المنحنيات والدروب والمسالك !

وهو - سبحانه - يعلم مواطن الضعف في هذه الكينونة . ويعلم أن الحرص على الأموال

وعلى الأولاد من أعمق مواطن الضعف فيها . . ومن هنا ينبها إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد . . لقد وهبها الله للناس ليلوهم بها ويفتنهم فيها . فهي من زينة الحياة الدنيا التي تكون موضع امتحان وابتلاء ؛ ليرى الله فيها صنيع العبد وتصرفه . . أشكر عليها ويؤدي حق النعمة فيها ؟ أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فيها ؟ : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ فالفتنة لا تكون بالشدة وبالحرمان وحدهما . . إنها كذلك تكون بالرخاء والعطاء أيضا ! ومن الرخاء العطاء هذه الأموال والأولاد . .

(234/310)

هذا هو التنبيه الأول :

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ . .

فإذا انتبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار ، كان ذلك عوناً له على الحذر واليقظة

والاحتياط ؛ أن يستغرق وينسى ويخفق في الامتحان والفتنة .

ثم لا يده الله بلا عون منه ولا عوض . . فقد يضعف عن الأداء - بعد الانتباه - لثقل

التضحية وضخامة التكليف ؛ وبخاصة في موطن الضعف في الأموال والأولاد ! إنما يلوح له

بما هو خير وأبقى ، ليستعين به على الفتنة ويتقوى :



﴿ وإن الله عنده أجر عظيم ﴾ . .

إنه - سبحانه - هو الذي وهب الأموال والأولاد . . وعنده وراءهما أجر عظيم لمن يستعلي على فتنة الأموال والأولاد ، فلا يقعد أحد إذن عن تكاليف الأمانة وتضحيات الجهاد . . وهذا هو العون والمدد للإنسان الضعيف ، الذي يعلم خالقه مواطن الضعف فيه :

﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ إنه منهج متكامل في الاعتقاد والتصور ، والتربية والتوجيه ، والفرض والتكليف . منهج الله الذي يعلم ؛ لأنه هو الذي خلق : ﴿ الأيعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ ﴾ والهتاف الأخير للذين آمنوا - في هذا المقطع من السورة - هو الهتاف بالتقوى . فما تنهض القلوب بهذه الأعباء الثقال ، إلا وهي على بينة من أمرها ونور يكشف الشبهات وينزل الوسوس ويثبت الأقدام على الطريق الشائك الطويل . . وما يكون لها هذا الفرقان إلا بحساسية التقوى وإلا بنور الله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ . .

هذا هو الزاد ، وهذه هي عدة الطريق . . زاد التقوى التي تحيي القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيلة والتوقي . وعدة النور الهادي الذي يكشف منحنيات الطريق ودروبه على مد البصر ؛ فلا تغبشه الشبهات التي تحجب الرؤية الكاملة

الصحيحة . . ثم هو زاد المغفرة للخطايا . الزاد المطمئن الذي يسكب الهدوء والقرار . .  
وزاد الأمل في فضل الله العظيم يوم تنفذ الأزواد وتقتصر الأعمال .

(235/310)

---

إنها حقيقة : أن تقوى الله تجعل في القلب فرقانا يكشف له منحرجات الطريق . ولكن هذه  
الحقيقة - ككل حقائق العقيدة - لا يعرفها إلا من ذاقها فعلا ! إن الوصف لا ينقل مذاق  
هذه الحقيقة لمن لم يذوقها ! .

إن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل ؛ والطرق تظل متشابكة في النظر والفكر ؛  
والباطل يظل متلبسا بالحق عند مفارق الطريق ! وتظل الحجة تُفحم ولكن لا تُقنع .  
وتسكت ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل . ويظل الجدل عبثا والمناقشة جهدا  
ضائعا . . ذلك ما لم تكن هي التقوى . . فإذا كانت استنار العقل ، ووضح الحق ،  
وتكشف الطريق ، واطمان القلب ، واستراح الضمير ، واستقرت القدم وثبتت على  
الطريق !

إن الحق في ذاته لا يخفى على الفطرة . . إن هناك اصطلاحا من الفطرة على الحق الذي  
فطرت عليه ؛ والذي خلقت به السماوات والأرض . . ولكنه الهوى هو الذي يحول بين

الحق والفترة . . الهوى هو الذي ينشر الغبش ، ويججب الرؤية ، ويُعمي المسالك ، ويخفي  
الدروب . . والهوى لا تدفعه الحجة إنما تدفعه التقوى . . تدفعه مخافة الله ، ومراقبته في  
السر والعلن . . ومن ثم هذا الفرقان الذي ينير البصيرة ، ويرفع اللبس ، ويكشف الطريق .  
وهو أمر لا يقدر بثمن . . ولكن فضل الله العظيم يضيف إليه تكفير الخطايا ومغفرة  
الذنوب . ثم يضيف إليهما ﴿ الفضل العظيم ﴾ . .  
ألا إنه العطاء العميم الذي لا يعطيه إلا الرب " الكريم " ذو الفضل العظيم ! . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ الضلال ح 3 ص 1487.1499 ﴾

(236/310)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ  
اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وعد سبحانه بهذا الفضل العظيم والنبأ الجسيم ، ذكرهم من أحوال داعيهم وقائدهم  
وهادئهم عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام بما يدعوهم إلى ملازمة أسبابه في سياق

المخاطبة له - صلى الله عليه وسلم - تذكيراً بنعمته وإشارة إلى دوام نصرته فقال تعالى  
عاطفاً على ﴿ إِذْ أَنْتُمْ ﴾ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ أي يدبر في أذاك على وجه الستر ﴿ الَّذِينَ  
كَفَرُوا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف ، وفيهم من لم يكن راسخ القدم فيه ؛ ثم بين غاية  
مكرهم فقال : ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ أي ليمنعوك من التصرف بالحبس في بيت يسدون عليك بابه  
- كما هو واضح من قصة مشاورتهم في دار الندوة في أمره - صلى الله عليه وسلم - في  
السير ، ومن قرأها بالموحدة ثم التحانية من البيات الذي معناه إهلاك العدو ليلاً ، فعطفُ  
﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ عنده بمعنى القتل نهاراً جهاراً ، وكأنه عد البيات للاستخفاء به عدماً  
بالنسبة على المجاهرة ﴿ أَوْ يَخْرِجُوكَ ﴾ أي من مكة ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ أي والحال أنهم  
يمكرون يا إخفاء ما يريدون بك من ذلك وغيره من الكيد ﴿ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ أي يفعل المحيط  
بكل شيء قدرة وعلماً في أمرهم فعل من يمكر يا إخفاء ما يقابلهم به ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ  
الْمَاكِرِينَ ﴾ لأنه لا يمكن أحداً علم ما يريد إخفاءه لأنه الملك الأعلى المحيط بالجلال والجمال  
، فالنافذ إنما هو مكره ، والعالى إنما هو نصره ، فكأنه تعالى يقول : انظروا إلى مصداق ما  
وعدتكم به في أحوال نبي - صلى الله عليه وسلم - فإنه كان وحده وجميع الناس يخالفونه  
فثبت على أداء الرسالة إليهم وإبلاغ النصيحة لهم على ما يصله منهم من الأذى ولا يزيده  
أذاهم له إلا اجتهداً في أداء ما ينفعهم إليهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص

## فصل

قال الفخر:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر المؤمنين نعمه عليهم بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: 26]

[فكذلك ذكر رسوله نعمه عليه وهو دفع كيد المشركين ومكر الماكرين عنه، وهذه السورة

مدنية.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم من المفسرين: إن مشركي قريش تأمروا في دار

الندوة ودخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وذكر أنه من أهل نجد.

فقال بعضهم: قيدوه نترص به ريب المنون، فقال إبليس: لا مصلحة فيه، لأنه يغضب له

قومه فتسفك له الدماء.

وقال بعضهم أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه لكم، فقال إبليس: لا مصلحة فيه لأنه يجمع

طائفة على نفسه ويقا تلکم بهم.

وقال أبو جهل: الرأي أن نجمع من كل قبيلة رجلاً فيضربوه بأسيا فبهم ضربة واحدة فإذا

قتلوه تفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنوهاشم على محاربة قريش كلها ، فيرضون بأخذ الدية ، فقال إبليس : هذا هو الرأي الصواب ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه بذلك وأذن له في الخروج إلى المدينة وأمره أن لا يبيت في مضجعه وأذن الله له في الهجرة ، وأمر علياً أن يبيت في مضجعه ، وقال له : تسبح يردتي فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه وياتوا مترصدين ، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه فأبصروا علياً فبهتوا وخيب الله سعيهم .

وقوله : ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ قال ابن عباس : ليوثقوك ويشدوك وكل من شد فقد أثبت ، لأنه لا يقدر على الحركة ولهذا يقال لمن اشتدت به علة أو جراحه تمنعه من الحركة .

(238/310)

---

فقد أثبت فلان فهو مثبت ، وقيل ليسجنوك ، وقيل ليحبسوك ، وقيل ليثبتوك في بيت فحذف المحل لوضوح معناه ، وقرأ بعضهم ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالتشديد وقرأ النخعي ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ من البيات وقوله : ﴿ أَوْ يُقْتَلُوكَ ﴾ وهو الذي حكيناه عن أبي جهل لعنه الله ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ أي من مكة ، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الثلاثة قال : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ وقد ذكرنا في سورة آل عمران في تفسير قوله : ﴿ وَمَكْرُؤُاْ وَمَكْرَأَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : 54] تفسير المكرفي حق الله تعالى ،

والحاصل أنهم احتالوا على إبطال أمر محمد والله تعالى نصره وقواه ، فضاع فعلهم وظهر صنع الله تعالى .

قال القاضي : القصة التي ذكرها ابن عباس موافقة للقرآن إلا ما فيها من حديث إبليس ، فإنه زعم أنه كانت صورته موافقة لصورة الإنس وذلك باطل ، لأن ذلك التصوير إما أن يكون من فعل الله أو من فعل إبليس ، والأول باطل لأنه لا يجوز من الله تعالى أن يفعل ذلك ليفتن الكفار في المكر ، والثاني أيضاً باطل ، لأنه لا يليق بحكمة الله تعالى أن يقدر إبليس على تغيير صورة نفسه .

واعلم أن هذا النزاع عجيب ، فإنه لما لم يبعد من الله تعالى أن يقدر إبليس على أنواع الوسوس فكيف يبعد منه أن يقدره على تغيير صورة نفسه ؟

فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ولا خير في مكرهم .

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أن يكون المراد أقوى الماكرين فوضع ﴿ خَيْرٌ ﴾ موضع أقوى وأشد ، لينبه بذلك على أن كل مكر فهو يبطل في مقابلة فعل الله تعالى .

وثانيها : أن يكون المراد خير الماكرين لو قدر في مكرهم ما يكون خيراً وحسناً .

وثالثها : أن يكون المراد من قوله : ﴿ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ليس هو التفضيل ، بل المراد أنه في

نفسه خير كما يقال : الثريد خير من الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

فيها مسألتان :

المسألة الأولى : قد بينا أنها مكيدة .

وسبب نزولها ، والمراد بها ما روي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة وقالت : إن أمر محمد قد طال علينا ، فماذا ترون ؟ فأخذوا في كل جانب من القول ، فقال قائل : نرى أن يُقتل ويحبس .

وقال آخر : نرى أن يُنفى ويُخرج .

وقال آخر : نرى أن يأخذ من كل قبيلة رجل سيفاً فيضربونه ضربة واحدة ، فلا يقدر بنو هاشم على مطالبة القبائل .

وكان القائل هذا أبا جهل .

فاتفقوا عليه ، وجاء جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بذلك ، وأذن له في



الخُرُوجِ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ بِأَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى فِرَاشِهِ،  
وَيَتَسَجَّى بِبُرْدِهِ الْحَضْرَمِيِّ.

(240/310)

وَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [عَلَيْهِمْ] حَتَّى وَضَعَ التُّرَابَ عَلَى رُءُوسِهِمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا  
بِهِ، وَأَخَذَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ إِلَى الْغَارِ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا نَظَرُوا إِلَى عَلِيٍّ فِي مَوْضِعِهِ، وَقَدَّ فَاتَهُمْ،  
وَوَجَدُوا التُّرَابَ عَلَى رُءُوسِهِمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا، تَحْتَ خِزْيٍ وَذَلَّةٍ، فَامْتَنَّ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ  
بِذَلِكَ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ وَسَلَامَتِهِ مِنْ مَكْرِهِمْ بِمَا أَظْهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ نَوْمِ عَلِيٍّ عَلَى السَّرِيرِ كَأَنَّهُ  
النَّبِيُّ، وَمَنْ وَضَعَ التُّرَابَ عَلَى رُءُوسِهِمْ، وَهَذَا كُلُّهُ مَكْرٌ مِنْ فِعْلِهِ جَزَاءً عَلَى مَكْرِهِمْ،  
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.

المَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ: قَامَ عَلِيٌّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِدَاءً لَهُ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ  
مَعَ النَّبِيِّ مُؤْنَسًا لَهُ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَلِيًّا قَالَ

لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ﴾.

وَهَذَا تَأْمِينٌ يُقِينُ، وَيَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ أَنْ يَقُوا بِنَفْسِهِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَأَنْ يَهْلِكُوا أَجْمَعِينَ فِي نَجَاتِهِ ، فَلَنْ يُؤْمِنَ أَحَدٌ حَتَّى يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَالْخَلْقِ أَجْمَعِينَ .  
وَمَنْ وَقَى مُسْلِمًا بِنَفْسِهِ فَلَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ .  
وَذَلِكَ جَائِزٌ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ وَجُوبُ مَدَافِعَةِ الْمُطَالِبِ وَالصَّائِلِ عَلَى أَخِيكَ الْمُسْلِمِ . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ أحكام القرآن لابن العربي ح 2 ص ﴾

(241/310)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

وذلك أن نفراً من قريش اجتمعوا في دار الندوة ؛ وكانت قريش إذا اجتمعوا للمشورة والتدبير يجتمعون في تلك الدار ، فاجتمعوا فيها وأغلقوا الباب لكيلا يدخل رجل من بني هاشم ، ليمكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ويحتالوا في أمره ؛ فدخل إبليس في صورة شيخ وعليه ثياب أظمار ، وجلس معهم فقالوا من أدخلك أيها الشيخ في خلوتنا بغير إذننا ؟ فقال : أنا رجل من أهل نجد ، ورأيت حسن وجوهكم وطيب ريحكم ، فأردت أن

أسمع حديثكم ، وأقتبس منكم خيراً وقد عرفت مرادكم ، فإن كرهتم مجلسي خرجت عنكم .

فقالوا : هذا رجل من أهل نجد وليس من أرض تهامة ، لا بأس عليكم منه فتكلموا فيما بينهم .

فقال عمرو بن هشام : أرى أن تأخذوه وتجعلوه في بيت وتسدوا بابه ، وتجعلوا له كوة لطعامه وشرابه حتى يموت .

فقال إبليس : بس الرأي الذي رأيت ، تعمدون إلى رجل له فيكم أهل بيت ، وقد سمع به من حولكم فتحبسونه وتطعمونه ، يوشك أهل بيته الذين فيكم أن يقاتلوكم أو يفسدوا جماعتكم .

فقالوا : صدق والله الشيخ .

ثم تكلم أبو البختری بن هشام قال : أرى أن تحملوه على بعير ثم تخرجوه من أرضكم ، حتى يموت أو يذهب به حيث شاء ، فقال إبليس عدو الله : بس الرأي الذي رأيت ، تعمدون إلى رجل أفسد جماعتكم ومعه منكم طائفة ، فتخرجوه إلى غيركم ، فيأتيهم سوء فيفسد منهم أيضاً جماعة ، ويقبل إليكم ويكون فيه هلاككم .

فقالوا : صدق والله الشيخ .

فقال أبو جهل : أرى أن يجتمع من كل بطن منكم رجل ، ثم تعطونهم السيوف فيضربونه

جميعاً ، فلا يدري قومه من يأخذون وتؤدي قريش ديته .

فقال إبليس : صدق والله هذا الشاب .

فتفرقوا على ذلك ، فأمر الله تعالى بالهجرة وأخبره بمكر المشركين فنزلت هذه الآية ﴿ وَإِذْ

يَمْكُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ ، يعني ليحبسوك في البيت أو يقتلوك بالبيت ، ﴿ أَوْ

يُخْرِجُوكَ ﴾ من مكة .

(242/310)

---

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب بأن يبيت في مكانه ، ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه ونام علي مكانه ، وأهل مكة يحرسونه ويظنون أنه في البيت ؛ ثم دخلوا البيت ، فإذا هو علي رضي الله عنه فقالوا : يا علي أين محمد ؟ فقال : لا أدري .

فطلبوه فلم يجدوه .

﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ ، يعني ويمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويريدون به الشر ﴿ وَيَمْكُرُ

الله ﴾ ، يعني يريد بهم الهلاك حين أخرجهم إلى بدر فقتلوا .

﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ ﴾ ، يعني أصدق الماكرين فعلاً وأفضل الصانعين صنعاً وأعدل  
العادلين عدلاً . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ بحر العلوم ج 2 ص ﴾

(243/310)

وقال الثعلبي :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾

هذه الآية معطوفة على قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل ﴾ [ الأنفال : 26 ] .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ ﴾ لأن هذه السورة مدنية .

وهذا القول والمكر كان بمكة ، ولكن الله تعالى ذكرهم ذلك بالمدينة كقوله ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ

فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ [ التوبة : 40 ] وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من

المفسرين أن قريشاً لما أسلمت الأنصار فرقوا أن تتقاهم أمور رسول الله صلى الله عليه

وسلم .

فاجتمع نفر من مشايخهم وكبارهم في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله صلى الله

عليه وسلم وكانت رؤوساتهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبا جهل وأبا سفيان وطعمة بن

عدي والنضر بن الحرث وأبو البحتري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام وبنيه

ومنبه ابنا الحجاج وأمّية بن خلف فاعترض لهم إبليس في صورة شيخ فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال : أنا شيخ من نجد سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا من رأي ونصح ، قالوا : ادخل فدخل .

فقال أبو البحتري : أمّا أنا فأرى أن تأخذوه وتحبسوه في بيته وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت فتتركوه وتقدموا إليه طعامه وشرابه وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة ، وإنما هو كأحدهم .

فصرخ إبليس الشيخ النجدي وقال : بسّ الرأي رأيتم تعدون إلى الرجل وتحبسونه فيتم أجره ، وقد سمع به من حولكم ، [ فأوشكوا أن يشبوا فينتزعوه من أيديكم ] ويقا تلونكم عنه حتى يأخذوه منكم .

(244/310)

---

قالوا : صدق الشيخ . فقال هشام بن عمرو وهو من بني عامر بن لؤي : أمّا أنا فأرى أن تحمله على بعير فيخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم [ ما ضر من ] وقع إذا غاب عنكم واسترحم وكان أمره في غيركم . فقال إبليس بسّ الرأي رأيكم تعدون إلى رجل قد أفسد سفهاءكم فخرجوا به إلى غيركم يفسدهم كما أفسدكم ، ألم تروا حلاوة قوله

وطلاقه لسانه وأخذ القلوب ما يسمع من حديثه . والله لئن فعلتم ، ثم استعرض العرب  
لتجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم فيخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم .  
قالوا : صدق والله الشيخ .

فقال أبو جهل : لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره : إني أرى أن نأخذ واحداً من كل بطن  
من قريش غلاماً وسبطاً ثم يعطى كل رجل منهم سيفاً صارماً ثم يضربونه ضربة رجل  
واحد فإذا قتلوه تفرق دمّه في القبائل كلّها ، ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على  
حرب قريش كلّها وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدّي قريش ديته واسترحنا ، فقال  
إبليس : صدق هذا الفتى و [ هذا ] أجودكم رأياً ، القول ما قاله لا أرى غيره .

فتفرقوا على قول أبي جهل ، وهم مجتمعون فأتى جبرئيل النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبره  
بذلك وأمره أن لا يبيت على مضجعه الذي كان يبيت فيه ، وأذن الله تعالى له عند ذلك  
بالخروج الى المدينة وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه  
فنام في مضجعه فقال : اتشح يردي فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه .

(245/310)

---

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ قبضه من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه وجعل ينثر التراب على رؤسهم وهو يقرأ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ [يس : 8] ومضى إلى الغار من ثور فدخله هو وأبو بكر وخلف علياً رضي الله عنه بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي قبلها وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته وكان المشركون يتحرسون علياً رضي الله عنه وهو على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون أنه النبي ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فرأوا علياً رضي الله عنه .  
وقد ردّ الله مكرهم وما ترك منهم رجلاً إلا وضع على رأسه التراب .

فقالوا : أين صاحبك ؟

قال : لا أدري فاقصّوا أثره وأرسلوا في طلبه فلما بلغوا الجبل ، فمروا بالغار فرأوا على بابهِ نسيج العنكبوت ، وقالوا : لو دخل هاهنا لم يكن نسيج العنكبوت على بابهِ ، فمكث فيه ثلاث أيام ثم قدم المدينة فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ .  
قال ابن عباس ومجاهد ومقسم والسدي : ليوثقوك . وقال قتادة : ليشدوك وثاقاً .

وقال عطاء . وعبد الله بن كثير : ليسجنوك . وقال أبان بن ثعلب . وأبو حاتم : ليشخنوك بالجراحات والضرب . وأنشد :

فقلت ويحك ماذا في صحيفتكم . . . قالوا الخليفة امسى مثباً وجعاً

وقيل : معناه ليسخروك .



وروى ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عبد المطلب بن أبي وداعة " أن أبا

طالب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدري ما أضمر بك قومك ؟

قال : " نعم [ يريدون ] أن يسخروا بي ويقتلوني أو يخرجوني " فقال : من أخبرك بهذا ؟

قال : " ربي " .

قال : نعم الرب ربك فاستوص ربك خيراً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا استوصي به بل هو يستوصي بي خيراً " .

(246/310)

---

وقرأ إبراهيم النخعي ( وليبتوك ) من البيات ﴿ أَوْ يُقْتَلُونَ أَوْ يُخْرِجُونَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ

اللَّهُ ﴾ قال الحسن : فيقولون ويقول الله .

وقال الضحاك : يصنعون ويصنع الله ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ خير من استنقذك منهم

وأهلكهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(247/310)

---

وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

وذلك أن قريشاً تآمروا في دار الندوة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمرو بن

هشام : قيدوه واحبسوه في بيت نتريص به ريب المنون . وقال أبو البختري : أخرجوه

عنكم على بعير مطرود تستريحوا منه ومن أذاه لكم . قال أبو جهل : ما هذا برأي ولكن

اقتلوه وليجتمع عليه من كل قبيلة رجل فيضربوه بأسيا فهم ضربة رجل واحد فترضى

حينئذ بنو هاشم بالدية . فأوحى الله عز وجل بذلك إلى نبيه صلى الله عليه وسلم فخرج

إلى الغار مع أبي بكر رضي الله عنه ثم هاجر منه إلى المدينة ، قاله ابن عباس ومجاهد

وقتادة .

فهذا بيان قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ليثبتوك في الوثاق ، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة .

والثاني : ليثبتوك في الحبس ، قاله عطاء وعبد الله بن كثير والسدي .

والثالث : معنى يثبتوك أي يخرجوك ، كما يقال قد أثبتته في الحرب إذا أخرجته ، قاله بعض

المؤخرين .

﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أو يخرجوك من مكة إلى طرف من أطراف الأرض كالنفي .

والثاني: أو يخرجوك على بعير مطرود حتى تهلك، أو يأخذك بعض العرب فتقتلك

فتريجهم منك، قاله الفراء. انتهى انتهى. اهـ ﴿النكت والعيون ح 2 ص﴾

(248/310)

وقال ابن عطية:

قوله تعالى: ﴿وإذ يمكركم الذين كفروا﴾ الآية

يشبه أن يكون قوله ﴿وإذ﴾ معطوفاً على قوله ﴿إذ أنتم قليل﴾ [الأنفال: 26]

وهذا تذكير بحال مكة وضيقها مع الكفرة وجميل صنع الله تعالى في جمعها، ويحتمل أن

يكون ابتداء كلام، وهذا كله على أن الآية مدنية كسائر السورة وهذا هو الصواب،

وحكى الطبري عن عكرمة ومجاهد أن هذه الآية مكية، وحكى عن ابن زيد أنها نزلت

عقب كفاية الله ورسوله المستهزئين بما أحله بكل واحد منهم، الحديث المشهور، ويحتمل

عندي قول عكرمة ومجاهد هذه مكية أن أشارا إلى القصة لا إلى الآية، والمكر المخاتلة

والتداهي، تقول: فلان يمكر بفلان إذا كان يستدرجه ويسوقه إلى هوة وهو يظهر جميلاً

وتستراً بما يريد، ويقال أصل المكر القتل، قاله ابن فورك فكان الماكر بالإنسان يقاتله حتى

يوقعه، ومن المكر الذي هو القتل قولهم للجارية المعتدلة اللحم: ممكورة، فمكر قريش

بالنبي صلى الله عليه وسلم كان تدبيرهم ما يسوءه وسعيهم في فساد حاله وإطفاء نوره ،  
وتدبير قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الخصال الثلاث لم يزل قديماً من  
لذن ظهوره لكن إعلانهم لا يسمى مكرًا وما استسروا به هو المكر ، وقد ذكر الطبري  
بسند أن أبا طالب قال للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد ماذا يدبر فيك قومك ، قال :  
يريدون أن أقتل أو أسجن أو أخرج ، قال أبو طالب من أعلمك هذا ؟ قال : ربي ، قال : إن  
ربك لرب صدق فاستوص به خيراً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل هو يا عم  
يستوصي بي خيراً .

(249/310)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا المكر الذي ذكره الله في هذه الآية هو إجماع من المفسرين  
إشارة إلى اجتماع قريش في دار الندوة بمحضر إبليس في صورة شيخ نجدى على ما نص  
ابن إسحاق في سيره ، الحديث بطوله ، وهو الذي كان خروج رسول الله صلى الله عليه  
وسلم من مكة بسببه ، ولا خلاف أن ذلك كان بعد موت أبي طالب ، ففي القصة أن أبا  
جهل قال : الرأي أن نأخذ من كل بطن في قريش فتى قوياً جلدًا فيجتمعون ثم يأخذ كل  
واحد منهم سيفاً ويأتون محمداً في مضجعه فيضربونه ضربة رجل واحد ، فلا يقدر بنو

هاشم على قتال قريش بأسرها ، فيأخذون العقل ونستريح منه ، فقال النجدي : صدق  
الفتى ، هذا الرأي لا أرى غيره ، فافترقوا على ذلك فأخبر الله بذلك نبيه صلى الله عليه  
وسلم ، وأذن له في الخروج إلى المدينة فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من ليلته ،  
وقال لعلي بن أبي طالب التف في بردي الحضرمي واضطجع في مضجعي فإنه لا يضرك  
شيء ، ففعل علي وجاء فتیان قريش فجعلوا يرصدون الشخص وينتظرون قيامه  
فيصرون به ، فلما قام رأوا علياً فقالوا له أين صاحبك ؟ قال : لا أدري .  
وفي السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وهم في طريقه فطمس الله  
عيونهم عنه ، وجعل على رأس كل واحد منهم تراباً ومضى لوجهه فجاءهم رجل فقال ما  
تنتظرون ، قالوا محمداً ، قال إني رأيتك الآن جائئاً من ناحيتكم وهو لا محالة وضع التراب  
على رؤوسكم ، فمد كل واحد يده إلى رأسه ، وجاءوا إلى مضجع النبي صلى الله عليه  
وسلم فوجدوا علياً فركبوا وراءه حينئذ كل صعب وذلول وهو بالغار ، ومعنى ﴿ ليثبتوك ﴾  
﴿ ليثبتوك فتثبت ، قاله السدي وعطاء وابن أبي كثير ، وقال ابن عباس ومجاهد :  
معناه ليوثقوك ، وقال الطبري وقال آخرون المعنى ليسحروك .

(250/310)

---

وقرأ يحيى بن وثاب فيما ذكر أبو عمرو والداني "ليبتوك" وهذه أيضاً بالتضعيف، وحكى النقاش عن يحيى بن وثاب أنه قرأ "ليبيتوك" من البيات، وهذا أخذ مع القتل فيضعف من هذه الجهة، وقال أبو حاتم معنى ﴿ليبتوك﴾ أي بالجراحة، كما يقال أثبتته الجراحة، وحكاها النقاش عن أهل اللغة ولم يسم أحداً، وقوله تعالى: ﴿ويمكر الله﴾ معناه يفعل أفعالاً منها تعذيب لهم وعقوبة ومنها ما هو إبطال لمكرهم ورد له ودفع في صدره حتى لا ينجع، فسمى ذلك كله باسم الذنب الذي جاء ذلك من أجله، ولا يحسن في هذا المعنى إلا هذا وأما أن ينضاف المكر إلى الله عز وجل على ما يفهم في اللغة فغير جائز أن يقال، وقد ذكر ابن فورك في هذا ما يقرب من هذا الذي ضعفناه، وإنما قولنا ويمكر الله كما نقول في رجل شتم الأمير فقتله الأمير هذا هو الشتم فتسمى العقوبة باسم الذنب، وقوله ﴿خير الماكرين﴾ أي أقدرهم وأعزهم جانباً.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذه الجهة أعني القدرة والعزة يقع التفضيل لأن مكر الكفار لهم قدرة ما، فوقع التفضيل لمشاركتهم بها، وأما من جهة الصلاح الذي فيما يعلمه الله تعالى فلا مشاركة للكفار بصلاح، فيتعذر التفضيل على مذهب سيئويه والبصريين إلا على ما قد بيناه في الفاظ العموم مثل خير واجب ونحو هذا إذ لا يخلو من اشتراك ولو على معتقد من فرقة أو من واحد. انتهى انتهى. ١٠هـ ﴿المحرر الوجيز ح 2 ص﴾

---

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

هذه الآية متعلقة بقوله : ﴿ وَذَكَرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا ﴾ [الأعراف : 86] فالمعنى : اذْكُرِ

المؤمنين ما منَّ الله به عليهم ، واذكُرِ اذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا .

الإشارة إلى كيفية مكرهم

قال أهل التفسير : لما بويع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، وأمر أصحابه أن

يلحقوا بالمدينة ، أشفت قريش أن يعلوا أمره ، وقالوا : والله لكانكم به قد كرَّ عليكم

بالرجال ، فاجتمع جماعة من أشرافهم ليدخلوا دار الندوة فيتشاوروا في أمره ، فاعترضهم

إبليس في صورة شيخ كبير ، فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا شيخ من أهل نجد ، سمعت ما

اجتمعتم له ، فأردت أن أحضركم ، ولن تعدموا من رأيي نصحاً ، فقالوا : ادخل ، فدخل

معهم ، فقالوا : انظروا في أمر هذا الرجل ، فقال بعضهم : احبسوه في وثاق ، وتربصوا به

ريب المنون .

فقال إبليس : ما هذا برأيي ، يوشك أن يثب أصحابه فيأخذوه من أيديكم .

فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم .

فقال : ما هذا برأيي ، يوشك أن يجمع عليكم ثم يسير إليكم .

فقال أبو جهل: نأخذ من كل قبيلة غلاماً ، ثم نعطي كل غلام سيفاً فيضربوه به ضربة رجل واحد ، فيفرق دمه في القبائل ، فما أظن هذا الحي من قريش يقوى على ضرب قريش كلها ، فيقبلون العقل ونستريح .

فقال إبليس : هذا والله الرأي ، ففرقوا عن ذلك .

وأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبيت في مضجعه تلك الليلة ، وأمر علياً فبات في مكانه ، وبات المشركون يحرسونه ، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أذن له الله في الخروج إلى المدينة ، وجاء المشركون لما أصبحوا ، فرأوا علياً ، فقالوا : أين صاحبك ؟ قال : لا أدري ، فاقصوا أثره حتى بلغوا الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخله لم يكن عليه نسج العنكبوت .

(252/310)

---

فأما قوله : ﴿ ليثبتوك ﴾ فقال ابن قتيبة : معناه : ليحبسوك .

يقال فلان مثبت وجعاً : إذا لم يقدر على الحركة .

وللمفسرين فيه قولان .



أحدهما : ليشبتوك في الوثاق ، قاله ابن عباس ، والحسن في آخرين .

والثاني : ليشبتوك في الحبس ، قاله عطاء ، والسدي في آخرين .

وكان القوم أرادوا أن يجسوه في بيت ويشدوا عليه بابه ويلقوا إليه الطعام والشراب ، وقد

سبق بيان المكرفي [آل عمران : 54] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

(253/310)

وقال القرطبي :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾

هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ؛

فاجتمع رأيهم على قتله فيبيته ، ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج ؛

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ، ودعا الله عز

وجل أن يعمي عليهم أثره ، فطمس الله على أبصارهم ، فخرج وقد غشيهم النوم ، فوضع

على رؤوسهم تراباً ونهض .

فلما أصبحوا خرج عليهم عليٌّ فأخبرهم أن ليس في الدار أحد ، فعلموا أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قد فات ونجا .

الخبر مشهور في السيرة وغيرها .  
ومعنى "لَيْثُوكَ" ليحبسوك ؛ يقال : أثبته إذا حبسته .  
وقال قتادة : "لَيْثُوكَ" وثاقاً .  
وعنه أيضاً وعبد الله بن كثير : ليسجنوك .  
وقال أبان بن تغلب وأبو حاتم : ليخنوك بالجراحات والضرب الشديد .  
قال الشاعر :

فقلتُ ويحكما ما في صحيفتكم . . .

قالوا الحليفة أمسى مُثبِثاً وجعا

﴿ أَوْ يَتْلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ عطف .

﴿ وَيَمَكُرُونَ ﴾ مستأنف .

والمكر : التدبير في الأمر في خفية .

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ابتداء وخبر .

والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

لما ذكر الله المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى : واذكروا إذ أنتم قليل ذكر نبيه ( صلى الله عليه وسلم ) نعمه عليه فيما جرى عليه بمكة من قومه لأن هذه السورة مدنية وهذه الواقعة كانت بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة والمعنى واذكري يا محمد إذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير قالوا جميعاً إن قريشاً فرقوا لما أسلمت الأنصار أن يتفارق أمر رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ويظهر فاجتمع نفر من كبار قريش في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وكان رؤوسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأبوسفيان وطعيمة بن عدي والنضر بن الحرث وأبوالبختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأممية بن خلف ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ ، فلما رأوه قالوا له : من أنت ؟ قال : أنا شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً .

فقالوا : ادخل .

فدخل ، فقال أبوالبختري : أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه في بيت مقيداً

وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون منها طعامه وشرابه وتربصوا به ريب

المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله إبليس وهو الشيخ  
النجدي وقال : بس الرأي رأيتم لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم  
دونه إلى أصحابه فيوشك أن يشبوا عليكم فيقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم فقالوا صدق  
الشيخ النجدي .

فقام هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي ، فقال : أما أنا فأرى أن تحملوه على بعير وتخرجوه  
من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه .

(255/310)

---

فقال إبليس اللعين : ما هذا لكم برأيي تعتمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه  
إلى غيركم فيفسدهم ألم تروا إلى حلاوة منطقه وطلاقة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من  
حديثه والله لئن فعلتم ذلك يذهب ويستميل قلوب قوم آخرين ثم يسير بهم إليكم  
فيخرجكم من بلادكم فقالوا : صدق الشيخ النجدي .

فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأيي ما أرى غيره إنني أرى أن تأخذوا من كل بطن من  
قريش شاباً نسيباً وسطاً فتياً ثم نعطي كل فتى سيفاً صارماً ثم يضربوه جميعاً ضربة رجل  
واحد فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على

حرب قريش كلها وأنهم إذا أرادوا ذلك .

قالوا : العقل فتؤدي قريش دية فقال إبليس اللعين : صدق هذا الفتى هو أجودكم رأياً .  
والقول ما قال لا أرى غيره فتفرقوا على قول أبي جهل وهم مجتمعون عليه فأتى جبريل عليه  
السلام النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان  
يبيت فيه وأذن الله له عند ذلك بالخروج إلى المدينة

" فأمر رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) علي بن أبي طالب أن يبيت في مضجعه وقال له  
: اتشح ببردتي فإنه لن يخلص إليكم منهم أمر تكرهه " ثم خرج رسول الله ( صلى الله عليه  
وسلم ) ، فأخذ قبضه من تراب وأخذ الله أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على  
رؤوسهم وهو يقرأ : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ إلى قوله ، فهم لا يبصرون .  
ومضى إلى الغار من ثور وهو أبو بكر وخلف علياً بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي قبلها  
وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته .

قالوا : وبات المشركون يجرسون علياً وهو على فراش رسول الله ( صلى الله عليه وسلم )  
يحسبون أنه النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فلما أصبحوا ، ساروا إليه ليقتلوه فأراه علياً  
فقالوا له : أين صاحبك ؟ قال : لا أدري .

(256/310)

---

فاقتفوا أثره وأرسلوا في طلبه ، فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله  
لم يكن لنسج العنكبوت على بابه أثر فمكث في الغار ثلاثاً ثم خرج إلى المدينة فذلك قوله  
سبحانه وتعالى : ﴿ وإذ يمكركم الذين كفروا ﴾ وأصل المكر احتيال في خفية ﴿  
ليثبتوك ﴾ أي ليحبسوك ويوثقوك لأن كل من شد شيئاً وأوثقه فقد أثبتته لأنه لا يقدر على  
الحركة ﴿ أو يقتلوك ﴾ يعني كما أشار عليهم أبو جهل ﴿ أو يخرجوك ﴾ يعني من مكة  
﴿ ويمكرون ﴾ يعني ويحتالون ويدبرون في أمرك ﴿ ويمكر الله ﴾ يعني ويجازيهم الله  
جزاء مكرهم فسمى الجزاء مكر ، لأنه في مقابلته .

وقيل : معناه ويعاملهم الله معاملة مكرهم .

والمكر : هو التدبير وهو من الله تعالى التدبير بالحق .

والمعنى : أنهم احتالوا في إبطال أمر محمد صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى أظهره  
وقواه ونصره فضاع فعلهم وتديبرهم وظهر فعل الله وتديبره ﴿ والله خير الماكرين ﴾ فإن  
قلت كيف قال الله سبحانه وتعالى والله خير الماكرين ولا خير في مكرهم .

قلت : يحتمل أن يكون المراد والله أقوى الماكرين فوضع خبر موضع أقوى وفيه تنبيه على أن  
كل مكر يبطل بفعل الله .

وقيل : يحتمل أن يكون المراد أن مكرهم فيه خير بزعمهم فقال سبحانه وتعالى في مقابلته :

والله خير الماكرين .

وقيل : ليس المراد التفضيل بل إن فعل الله خير مطلقاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن

ح 3 ص ﴿

(257/310)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذ يمكر الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير

الماكرين ﴿

لما ذكر المؤمنين نعمه عليهم ذكره ( صلى الله عليه وسلم ) نعمه عليه في خاصة نفسه  
وكانت قريش قد تشاوروا في دار الندوة بما تفعل به فمن قائل : يحبس ويقيد ويتربص به  
ريب المنون ومن قائل : يخرج من مكة تستريحوا منه وتصور إبليس في صورة شيخ نجد  
وقيل هذين الرأيين ومن قائل : يجتمع من كل قبيلة رجل ويضربونه ضربة واحدة بأسيا فهم  
فيتفرق دمه في القبائل فلا تقدر بنو هاشم لمحاربة قريش كلها فيرضون بأخذ الدية فصوب  
إبليس هذا الرأي فأوحى الله تعالى إلى نبيه ( صلى الله عليه وسلم ) بذلك وأمره أن لا  
يبعث في مضجعه وأذن له بالخروج إلى المدينة وأمر علياً أن يبيت في مضجعه ويتشع ويردته

وباتوا راصدين فبادروا إلى المضجع فأبصروا علياً فبُهِتوا وخلف علياً ليردّ ودائع كانت عنده وخرج إلى المدينة .

قال ابن عباس ومجاهد : ﴿ لَيْبَتُوكَ ﴾ أي يقيدوك ، وقال عطاء والسدي : ليشخنوك بالجرح والضرب من قولهم ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح ورمي الطائر فأثبته أي أثخنه .

قال الشاعر :

فقلت ويحك ماذا في صحيفتكم . . .

قال الخليفة أمسى مثباً وجعا

أي مثخناً .

وقرأ النخعي لبيبتوك من البيات وهذا المكر هنا هو بإجماع المفسرين ما اجتمعت عليه قریش في دار الندوة كما أشرنا إليه وهذه الآية مدنية كسائر السورة وهو الصواب ، وعن عكرمة ومجاهد إنها مكية وعن ابن زيد نزلت عقيب كفاية الله رسوله المستهزئين ويتأول قول عكرمة ومجاهد على أنهما أشارا إلى قصة الآية إلى وقت نزولها وتكرر ويمكرون إخباراً باستمرار مكرهم وكثرته وتقدم شرح مثل باقي الآية في آل عمران . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾



---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

منصوبٌ على المفعولية بمضمَرِ خوطب به النبيُّ صلى الله عليه وسلم معطوفٍ على قوله تعالى : واذكروا إِذْ أَنْتُمْ الخ مسوقٌ لتذكير النعمة العامة لكل ، أي واذكر وقت مكرهم بك ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالوثاق ، ويعضده قراءةٌ من قرأ : ليقيدوك ، أو الإثخان بالجرح ، من قولهم : ضربه حتى أثبتته لا حراك به ولا براح ، وقرئ لِيُثْبِتُوكَ بالتشديد وليثبتوك من البيات .

(259/310)

---

﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ أي بسيوفهم ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ أي من مكة ( وذلك أنهم لما سمعوا

بإسلام الأنصار ومبايعتهم له عليه الصلاة والسلام فرقوا واجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره صلى الله عليه وسلم فدخل إبليسُ عليهم في صورة شيخ وقال : أنا من نجد سمعتُ باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً فقال أبو البَحْتري : رأيتُ أن تجسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت فقال الشيخ : بسُّ الرأي يأتكم من يقا تلکم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشامُ بن عمرو :

رأى أن تحملوه على جمل وتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع فقال: وبس الرأي  
يفسد قوماً غيركم ويقا تلکم بهم فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً  
وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب  
قریش کلهم فإذا طلبوا العقل عقلناه فقال: صدق هذا الفتى فتفرقوا على رأيه فأتى جبريل  
النبي عليهما الصلاة والسلام وأخبره بالخبر وأمره بالهجرة فبيت علياً رضي الله تعالى عنه  
على مضجعه وخرج هو مع أبي بكر رضي الله عنه إلى الغار ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ  
﴿ أي يرد مكرهم عليهم أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين وذلك بأن أخرجهم  
إلى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم ما لقوا ﴾ والله خير الماكرين  
﴿ لا يُعبأ بمكرهم عند مكره، وإسناد أمثال هذا إليه سبحانه مما يحسن للمشاكلة، ولا  
مساغله ابتداءً لما فيه من إيهام ما لا يليق به سبحانه. انتهى انتهى. اهـ ﴾ تفسير أبي

السعود ح 4 ص ﴿

(260/310)

وقال الأوسى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾

ثم أنه عز وجل لما ذكر من ذكر نعمته بقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴾ [الأنفال]:

26 [ الخ ذكر نبيه عليه الصلاة والسلام النعمة الخاصة به بقوله عز من قائل:

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴾ الخ ذكر نبيه عليه الصلاة والسلام النعمة الخاصة به بقوله عز من قائل: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فهو متعلق بمحذوف وقع مفعولاً لفعل محذوف معطوف على ما تقدم أو منصوب بالفعل المضمرة المعطوف على ذلك، أي واذكر نعمته تعالى عليك إذ أو اذكر وقت مكرهم بك ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالوثاق ويعضده قراءة ابن عباس ﴿ لِيُقَيِّدُوكَ ﴾ وإليه ذهب الحسن.

ومجاهد .

وقتادة .

أوبالإنخان بالجرح من قولهم: ضربه حتى أثبتته لا حراك به ولا براح، وهو المروى عن أبان .

وأبي حاتم .

والجبائي، وأنشد:

فقلت ويحكم ما في صحيفتكم . . .

قالوا الخليفة أمسى مثبتاً وجعاً

أوالحبس في بيت كما روي عن عطاء .

والسدي .

(261/310)

---

وكل الأقوال ترجع إلى أصل واحد وهو جعله صلى الله عليه وسلم ثابتاً في مكانه أعم من أن يكون ذلك بالربط أو الحبس أو الإثخان بالجراح حتى لا يقدر على الحركة ، ولا يردان الإثخان إن كان بدون قتل فلا ذكر له فما اشتهر من القصة وإن كان بالقتل يتكرر مع قوله تعالى : ﴿ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ لآنا نختار الأول ، ولا يلزم أن يذكر في القصة لأنه قد يكون رأي من لا يعتد برأيه فلم يذكر والمراد على ما تقتضيه أو يقتلوك بسيوفهم ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ أي من مكة ، وذلك على ما ذكر ابن إسحاق أن قريشاً لما رأت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم من غير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة فحذروا رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم فاجتمعوا في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها يتشاورون فيها ما يصنعون في أمره عليه الصلاة والسلام فلما اجتمعوا كما قال ابن عباس لذلك واتعدوا أن يدخلوا الدار

ليتشاوروا فيها غدواً في اليوم الذي اتعدوا فيه وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة فاعترضهم إبليس عليه اللعنة في هيئة شيخ جليل عليه بدلة فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً قالوا: أجل فادخل فدخل معهم وقد اجتمع أشرف قريش فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم وإنا والله ما نأمنه قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد واغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً والنابعة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم.

(262/310)

---

فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا برأيي والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلاؤشكوا أن يشبوا عليكم فينزعه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ما هذا لكم برأيي فانظروا في غيره فتشاوروا ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا والفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه  
وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يجلب علي ح من  
العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يبايعوه عليه ثم يسير بهم إليكم فيطؤكم  
بهم في بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأياً غيره .  
قال فقال أبو جهل : والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد .  
قالوا وما هويأ أبا الحكم؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً  
فيينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدون إليه فيضربونه بها ضربة رجل واحد  
فيقتلونه فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فرضوا منها بالعقل  
فعقلناه لهم .

(263/310)

---

قال فقال : الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل هو هذا الرأي لا أرى غيره فتفرقوا على  
ذلك ، فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبت هذه الليلة  
على فراشك الذي كنت تبيت عليه فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه  
متى ينام فيثبون عليه فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلي كرم الله

تعالى وجهه نم على فراشي وتسبح بردي هذا الحضرم الأخضر فتم فيه فإنه لن يخلص إليك  
شيء تكرهه منهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك إذا نام، وأذن له  
عليه الصلاة والسلام في الهجرة فخرج مع صاحبه أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى الغار،  
وأشد علي كرم الله تعالى وجهه مشيراً لما من الله تعالى به عليه :

وقيت بنفسي خير من وطىء الحصى . . .

ومن طاف بالبيت العتيقوب بالحجر

رسول اله خاف أن يمكروا به . . .

فنجاه ذو الطول الإله من المكر

وبات رسول الله في الغار آمناً . . .

وقد صار في حفظ الإله وفي ستر

وبت أراعهم وما تهموني . . .

وقد وطنت نفسي على القتل والأسر

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ أي يرد مكرهم ويجعل وخامته عليهم أو يجازيهم عنه أو

يعاملهم معاملة الماكرن وذلك بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا

عليهم فلقوا منهم ما يشيب منه الوليد ، ففي الكلام استعارة تبعية أو مجاز مرسل أو

استعارة تمثيلية ، وقد يكتفي بالمشاكلة الصرفة ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ إذ لا يعتد بمكرهم عند مكره سبحانه .

(264/310)

---

قال بعض المحققين : إطلاق هذا المركب الإضافي عليه تعالى إن كان باعتبار أن مكره جل شأنه أنفذ وأبلغ تأثيراً فالإضافة للتفضيل لأن لمكر الغير أيضاً نفوذاً وتأثيراً في الجملة ، وهذا معنى أصل فعل الخير فتحصل المشاركة فيه ، وإذا كان باعتبار أنه سبحانه لا ينزل إلا الحق ولا يصيب إلا بما يستوجبه الممكور به فلا شركة لمكر الغير فيه فالإضافة حينئذٍ للاختصاص كما في أعد لابن مروان لاتقاء المشاركة .

وقيل : هو من قبيل الصيف أحر من الشتاء بمعنى أن مكره تعالى في خريته أبلغ من مكر الغير في شريته .

وإدعى غير واحد أن المكر لا يطلق عليه سبحانه دون مشاكلة لأنه حيلة يجلب بها مضرة إلى الغير وذلك مما لا يجوز في حقه سبحانه .

واعترض بوروده من دون مشاكلة في قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمِنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : 99] .



وأجيب بأن المشاكلة فيما ذكر تقديرية وهي كافية في الغرض ، وفيه نظر ، فقد جاء عن علي كرم الله تعالى وجهه "من وسع عليه في دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع في عقله" والمشاكلة التقديرية فيه بعيدة جداً بل لا يكاد يدعيها منصف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني - 9 ص ﴾

(265/310)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾

يجوز أن يكون عطف قصة على قصة من قصص تأييد الله رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين فيكون ﴿ إِذْ ﴾ متعلقاً بفعل محذوف تقديره واذكر إذ يكر بك الذين كفروا ، على طريقة نظائره الكثيرة في القرآن .

ويجوز أن يكون عطفاً على قوله : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [ الأنفال : 26 ] فهو متعلق بفعل ( اذكروا ) من قوله ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل ﴾ [ الأنفال : 26 ] ، فإن المكر بالرسول عليه الصلاة والسلام مكر بالمسلمين ويكون ما بينهما اعتراضاً . فهذا تعداد لنعم النصر ، التي أنعم الله بها على رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، في

أحوال ما كان يظن الناس أن سيجدوا منها مخلصاً ، وهذه نعمة خاصة بالنبى صلى الله عليه وسلم والإنعام بحياته وسلامته نعمة تشمل المسلمين كلهم ، وهذا تذكير بأيام مقامهم بمكة ، وما لاقاه المسلمون عموماً وما لاقاه النبى صلى الله عليه وسلم خصوصاً وأن سلامة النبى صلى الله عليه وسلم سلامة لأمة .

والمكر إيقاع الضر خفية ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ في [آل عمران : 54] ، وعند قوله تعالى : ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ في سورة [الأعراف : 99] .

والإتيان بالمضارع في موضع الماضي الذي هو الغالب مع ﴿ إذ ﴾ استحضار للحالة التي دبروا فيها المكر ، كما في قوله تعالى : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ [فاطر : 9] .

ومعنى : ﴿ لِيُثْبِتْكَ ﴾ لِيُحْبِسُوكَ يقال أثبتته إذا حبسه ومنعه من الحركة وأوثقه ، والتعير بالمضارع في ﴿ يثبوك ﴾ ، و ﴿ يقتلوك ﴾ ، و ﴿ يخرجوك ﴾ ، لأن تلك الأفعال مستقبلية بالنسبة لفعل المكر إذ غاية مكرهم تحصيل واحد من هذه الأفعال .

(266/310)

---

وأشارت الآية إلى تردد قريش في أمر النبي صلى الله عليه وسلم حين اجتمعوا للتشاور في ذلك بدار الندوة في الأيام الأخيرة قبيل هجرته ، فقال أبو البختري : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق وسدوا عليه باب بيت غير كوة تلقون إليه منها الطعام ، وقال أبو جهل : أرى أن نأخذ من كل بطن في قريش فتى جلدًا فيجتمعون ثم يأخذ كل واحد منهم سيفاً ويأتون محمداً في بيته فيضربونه ضربة رجل واحد فلا تقدر بنو هاشم على قتال قريش بأسرها فيأخذون العقل ونستريح منه ، وقال هشام بن عمرو : الرأي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع .

وموقع الواو في قوله ﴿ ويمكرون ﴾ لم أر أحداً من المفسرين عرج على بيانه وهي تحتل وجهين :

أحدهما : أن تكون واو الحال ، والجملة حال من ﴿ الذين كفروا ﴾ وهي حال مؤسسة غير مؤكدة ، باعتبار ما اتصل بها من الجملة المعطوفة عليها ، وهي جملة : ﴿ ويمكر الله ﴾ فقوله : ﴿ ويمكر الله ﴾ هو مناط الفائدة من الحال وما قبله تمهيد له وتنصيب على أن مكرهم يقارنه مكر الله بهم ، والمضارع في ﴿ يمكرون ﴾ و ﴿ يمكر ﴾ الله لاستحضار حالة المكر .

وثانيهما : أن تكون واو الاعتراض أي العطف الصوري ، ويكون المراد بالفعل المعطوف الدوام أي هم مكروا بك لثبوتك أو يقتلوك أو يخرجوك وهم لا يزالون يمكرون كقول كعب بن

الأشرف لحمد بن مسleme "وأيضاً تَمَلَّنَه" يعني النبي ، فتكون جملة ﴿ ويمكرون ﴾  
معتضة ويكون جملة: ﴿ ويمكر الله ﴾ معطوفة على جملة: ﴿ وإذ يمكركم بك الذين  
كفروا ﴾ والمضارع في جملة: ﴿ ويمكرون ﴾ للاستقبال والمضارع في ﴿ ويمكر الله ﴾  
لاستحضار حالة مكر الله في وقت مكرهم مثل المضارع المعطوف هو عليه .  
وبيان معنى إسناد المكر إلى الله تقدم: في آية سورة آل عمران [ 54 ] وآية سورة الأعراف  
[ 99 ] وكذلك قوله: ﴿ والله خير الماكرين ﴾ .

(267/310)

---

والذين تولوا المكرهم سادة المشركين وكبرائهم وأعوان أولئك الذين كان دأبهم الطعن في  
نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفي نزول القرآن عليه ، وإنما أسند إلى جميع الكافرين لأن  
البقية كانوا أتباعاً للزعماء يأترون بأمرهم ، ومن هؤلاء أبو جهل ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة  
، وأممية بن خلف ، وأضرابهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(268/310)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾

ونلاحظ أنه سبحانه وتعالى لم يأت بمادة الذكر في جانب النبي صلى الله عليه وسلم . ولم يقل

له : واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا ؛ لكنه في جانب الصحابة جاء بمادة الذكر حيث قال :

واذكروا إذ أنتم قليل ، فما السبب ؟

ذلك لأنه لا يطرأ على البال أن يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذكر الله تعالى ؛ لأن

الذكر هو مهمته عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه وتعالى القائل : ﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴾

﴿ [ الغاشية : 21 ] .

هذا الذكر والتذكير هما وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويختلف هذا عن مهمة

الإيمان في حياة المؤمنين ؛ لأن الإيمان بالنسبة لهم إنما يعدل من حياتهم . لذلك جاء هنا

بالظرف فقط .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ

خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [ الأنفال : 30 ] .

وهذا كله شرط وحيثية لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [ الأنفال : 29 ] .

والمكر هو التبييت بشيء خفي يضر بالخصم . والذي يمكر ويبيت شيئاً خفياً بالنسبة

لعدوه ، لا يملك قدرة على المواجهة ، فيبيت من ورائه ، ولو كانت عنده قدرة على

المواجهة فلن يمكر؛ لذلك لا يمارس المكر إلا الضعيف . ونجد ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : 76] .

ثم نجده سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمًا ﴾ [يوسف : 28] .

وما دام كيدهن عظيما فضعفهن أعظم . ولذلك نجد الشاعر العربي يقول :

وضعيفة فإذا أصابتُ فرصةً . . . قتلْتُ كذلكُ قدرةً الضعفاءُ

(269/310)

---

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة ثانية؛ لذلك

يندفع إلى قتل خصمه . أمّا القوي فهو يثق في نفسه وقدراته ولذلك يعطي خصمه فرصة

ثانية وثالثة ، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال : 30] .

أي يذكرون الكيد والتببب لك بالمكر ، لكنهم لا يعلمون أن من أرسلك يا رسول الله لا

تخفى عليه خافية ، فقد يقدر على المكر لمن هم في مثلهم من القدرة ، لكنك يا رسول

الله محاط بعناية الله تعالى وقدرته وحامل لرسالته فأنت في حفظه ورعايته .

إذن فلست وحدك لأنك تأوي إلى الله ، ويكشف الله لك كل مكرهم ، وهذا المكر

والتبیت مکشوف ومفضوح من الله ؛ لذلك يقول لك المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [ الأنفال : 30 ] .

والمكر منهم له وسائل وغايات ، هم يمكرون ليشبتوك ، ويمكرون ليقتلوك ، ويمكرون ليخرجوك . وكل لقطة من الثلاثة لها سبب . فحين علم كفار قريش أن أهل المدينة من الأوس والخزرج قد بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصروه ؛ هنا فزع كفار قريش وأرادوا أن يضعوا حداً لهذه المسألة ، فاجتمعوا في دار الندوة يريدون أن يجدوا حلاً يوقف رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليهم أعرابي فوجدهم يتشاورون ؛ وقالوا لنبته ، والتبیت ضد الحركة ، وقوله : " ليشبتوك " أي ليقيدوا حركتك في الدعوة ؛ لأن هذه الدعوة تنزلهم .

ولولا الرسالة ، لظلوا على الترحيب بك يا رسول الله ، فقد كنت في نظرهم الصادق والأمين ، ولم يرهقهم إلا التحرك الأخير لإشاعة منهج الله تعالى في الأرض ، لذلك أرادوا أن يقيدوا حركته صلى الله عليه وسلم .

(270/310)

---

والتقييد إما أن يكون بأن تمتنع المتحرك عن الحركة ، وإما أن تقيد المتحرك نفسه فتحدد مجال حركته . إذن فالتثبيت يكون بالقيود أو السجن ، وقيل لهم : إن هذا رأي غير صائب لأنكم لو قيدتموه أو سجنتموه فسوف يقوم قومه ويغيرون عليكم ، أو يحالون ليفكوا عنه القيد أو السجن ، وقد سبق لكم أن حاصرتموه فلم تفلحوا ، وقال آخر : نخرجه من بلادنا ، وناقشوا هذا الأمر فلم يجدوه صواباً ، وقالوا : إنه إن خرج ، فلسوف يؤثر فيمن يخرج إليهم تأثيراً يجعل له منهم أتباعاً ، يأتون إلينا من بعد ذلك ليقاتلونا ، وأشار الأعرابي بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن كبار قريش قالوا : نخاف من قومه أن يأخذوا بثأره ، فاقترح أبو جهل قائلاً : نأخذ من كل قبيلة من قبائلنا فتى جلدًا قويًا ، وبعد ذلك يذهبون إلى محمد وهو في فراشه ويضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا مات تفرق دمه في القبائل ، ولن تستطيع قبيلة محمد أن تواجه القبائل كلها ، فيرضون بالدية ، وندفعها لهم وننهي هذا الأمر .

هكذا ناقش القوم تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقييد حركته أو إخراجه من بلده أو قتله ، وكل هذا بمكر وتبليت . وكشف الله لرسوله كل ذلك وأخرجه من مكة مهاجرًا إلى المدينة ليوضح لهم أنه سبحانه خير الماكرين حقًا وصدقًا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾



## "فصل"

قال السيوطي:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (30)

أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والخطيب عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق - يريدون النبي صلى الله عليه وسلم - وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك، فبات علي رضي الله عنه على فراش النبي صلى الله عليه وسلم، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً رضي الله عنه يحسبونه النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوه علياً رضي الله عنه رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لأ أدري...! فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل، فأروا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال.

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن نفراً من قريش ومن أشرف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، واعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمعت بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح . قالوا : أجل فادخل فدخل معهم فقال : انظروا في شأن هذا الرجل - فوالله - ليوشكن أن يواتيكم في أمركم بأمره . فقال قائل : احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير ونابغة ، فإنما هو كأحدهم فقال عدو الله الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه ، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ثم يمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم فانظروا في غير هذا الرأي . فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وأين وقع ، وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وكان أمره في غيركم . فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذه القلوب بما تستمع

من حديث؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن إليه ، ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم . قالوا : صدق - والله - فانظروا رأياً غير هذا . فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأى ما أرى غيره .

(273/310)

---

قالوا : وما هذا ؟ قال : تأخذوا من كل قبيلة غلاماً وسطاً شاباً مهدياً ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربوه به - يعني ضربة رجل واحد - فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم ، وإنهم إذا أرادوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه . فقال الشيخ النجدي : هذا - والله - هو الرأي ، القول ما قال الفتي لا أرى غيره ، فتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له . فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك في الخروج وأمرهم بالهجرة وافترض عليهم القتال ، فأنزل الله ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ [ الحج : 39 ] فكانت هاتان الآيتان أول ما نزل في الحرب ، وأنزل بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه ﴿ وإذ يكر بك الذين كفروا ﴾ الآية .

وأخرج سنيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال " لما ائتمروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليثبته أو يقتلوه أو يخرجوه قال له عمه أبو طالب : هل تدري ما ائتمروا بك ؟ قال : يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني . قال : من حدثك بهذا ؟ قال : ربي . قال : نعم الرب ربك استوص به خيراً . . . ! قال : أنا استوصي به بل هو استوصي بي " .

وأخرج ابن جرير من طريق عبيد بن عمير رضي الله عنه عن المطلب بن أبي وداعة " أنا أبا طالب قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما يَأْتُرُ بك قومك ؟ قال : يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني . قال : من حدثك بهذا ؟ قال : ربي . قال : نعم الرب ربك فاستوص به خيراً . . . ! قال : أنا أستوصي به بل هو استوصي بي : فنزلت ﴿ وإذ يمكركم الذين كفروا ﴾ . "

(274/310)

---

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريح رضي الله عنه ﴿ وإذ يمكركم الذين كفروا ﴾ قال : هي مكة .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " سأل النبي صلى الله عليه

وسلم عن الأيام ، سئل عن يوم السبت فقال " هو يوم مكر وخديعة " . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : فيه مكرت قريش في دار الندوة إذ قال الله ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ .  
وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ليثبتوك ﴾ يعني ليوثقوك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : دخلوا دار الندوة يأترون بالنبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : لا يدخل عليكم أحد ليس منكم ، فدخل معهم الشيطان في صورة شيخ من أهل نجد ، فتشاوروا فقال أحدهم : نخرجه : فقال الشيطان : بسما رأى هذا هو قد كاد أن يفسد فيما بينكم وهو بين أظهركم فكيف إذا أخرجتموه فأنفسد الناس ثم حملهم عليكم يقاتلونكم .

قالوا : نعم ما رأى هذا . . . ! فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فخرج هو وأبو بكر رضي الله عنه إلى غار في جبل يقال له ثور ، وقام علي بن أبي طالب على فراش النبي صلى الله عليه وسلم وابتوا يجرسونه يحسبون أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فإذا هم بعلي رضي الله عنه . فقالوا : أين صاحبك ؟ فقال : لا أدري . . . ! فاقتصوا أثره حتى بلغوا الغار ثم رجعوا ، ومكث فيه هو وأبو بكر رضي الله عنه ثلاث ليال .

وأخرج عبد بن حميد عن معاوية بن قررة رضي الله عنه . أن قريشاً اجتمعت في بيت وقالوا : لا يدخل معكم اليوم إلا من هو منكم ، فجاء إبليس فقال له : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد وأنا ابن أختكم . فقالوا : ابن أخت القوم منهم . فقال بعضهم : أو ثقوه . فقال : أيرضى بنو هاشم بذلك ؟ فقال بعضهم : أخرجوه . فقال : يؤويه غيركم . فقال أبو جهل : ليجتمع من كل بني أب رجل فيقتلوه . فقال إبليس : هذا الأمر الذي قال الفتى . فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وإذ يكره الذين كفروا أن ليثبوك ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ليثبوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ قال : كفار قريش أرادوا ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يخرج من مكة .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : شرى علي رضي الله عنه نفسه ولبس ثوب النبي صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه ، وكان المشركون يحسبون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت من قريش تريد أن تقتل النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا يرمقون علياً ويرونه النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل علي رضي الله

عنه يتصور فإذا هو علي رضي الله عنه ، فقالوا : إنك للئيم ، إنك لتصور وكان صاحبك لا يتصورك ولقد استنكرناه منك .

وأخرج الحاكم وصححه عن علي بن الحسين رضي الله عنه وقال في ذلك :

وقيت بنفسي خير من وطىء الحصى . . . ومن طاف بالبيت العتيق والحجر

رسول الإله خاف أن يمكروا به . . . فنجاه ذو الطول الإله من المكر

وبات رسول الله في الغار آمنا . . . وفي حفظ من الله وفي ستر

وبت اراعيه وما يتهمونني . . . وقد وطنت نفسي على القتل والأسر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور ج 4 ص ﴾

(276/310)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله " لِيُثْبِتُكَ "

متعلقٌ بـ " يَمَكُرُ " والتثبیتُ هنا الضربُ ، حتى لا يبقى للمضروب حركة ؛ قال : [ البسيط

[

2698 - فقلتُ: وَيُحَكِّمَ مَاذَا فِي صَحِيفَتِكُمْ؟ . . .

قالوا: الخليفةُ أُمِّسَى مُثَبِّتًا وَجَعًا

وقرأ ابن وثاب "لِيُثَبِّتُوكَ" فعدَّاهُ بالتضعيف، وقرأ النخعي "لِيُثَبِّتُوكَ" من البيات والمعنى:

قال ابن عباس: ليوثقوك ومن شد فقد أثبت؛ لأنَّهُ لا يقدر على الحركة، ولهذا يقال لمن

اشتدَّتْ به علةٌ أو جراحةٌ تمنعه من الحركة قد أثبت فلانٌ، فهو مُثَبِّتٌ.

وقيل: ليسجنوك، وقيل: ليثبتوك في بيتٍ، أو يقتلوك، وهو ما حكى من أبي جهل "أو

يُخْرِجُوكَ" من مكة كما تقدم. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل ح 9 ص 502﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثَبِّتُوكَ أَوْ يُقَاتِلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ

خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30)﴾

ذكره عظيم منته عليه حيث خلصه من أعدائه حين خرج من مكة مهاجرًا إلى المدينة،

وهمَّوا بقتله، وحاولوا أن يمكروا به في السرِّ، فأعلمه الله ذلك.

والمكرُ إظهارُ الإحسانِ مع قصدِ الإساءةِ في السرِّ، والمكرُ من الله الجزاءُ على المكرِ،

ويكون المكرُ بهم أن يُلقِيَ في قلوبهم أنه مُحْسِنٌ إليهم ثم - في التحقيق - يُعذِّبهم، وإذا شغلَّ

قومًا بالدنيا صرفَ همومهم إليها حتى ينسوا أمرَ الآخرة، وذلك مكرٌ بهم، إذ يُوظِّنون



نفوسهم عليها ، ففتح لهم من مآمنهم سوءاً ، يأخذهم بغتةً .

ومن جملة مكره اغترار قوم بما يرزقهم من الصيت الجميل بين الناس ، وإجراء كثير من الطعات عليهم ، فأسرارهم تكون بالأغيار منوطةً ، وهم عن الله غافلون ، وعند الناس أنهم مكرمون ، وفي معناه قيل :

وقد حسدوني في قرب داري منكم . . . . . وكم من قريب الدار وهو بعيد . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 620 ﴾

(277/310)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30) ﴾

(278/310)

التفسير: إنه سبحانه بعد ذكر نحو من قصة بدر والغنائم. أدب المؤمنين أحسن تأديب  
فأمرهم بطاعته وطاعة رسوله في قسمة الغنائم وغيرها ثم قال ﴿ ولا تولوا عنه ﴾ فوجد  
الضمير لأن التولي إنما يصح في حق الرسول بأن يعرضوا عنه وعن قبول قوله وعن معوته في  
الجهاد، أولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد فكان رجوع الضمير إلى أحدهما  
كرجوعه إليهما كقوله ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة: 62] وكقولك  
الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان وجوز أن يرجع إلى الأمر بالطاعة أي لا تولوا عن هذا  
الأمر وامثاله ﴿ وأتم تسمعون ﴾ لم يبين أنهم ماذا يسمعون إلا أنه يعلم من مساق الكلام في  
السورة أن المراد وأتم تسمعون دعاءه إلى الجهاد أو المراد وأتم تسمعون الأمر المذكور، أو  
وأتم تصدقون بدليل قوله ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ لأنهم  
ليسوا بمصدقين فلا يصح دعوى السماع منهم. وتحقيق ذلك لأن الإنسان لا يمكنه أن يقبل  
التكليف ويلتزمه إلا بعد أن يسمعه، فجعل السماع كناية عن القبول، ثم أكد التكليف  
المذكورة بقوله ﴿ إن شر الدواب ﴾ أي إن شر من يدب على الأرض، أو إن شر البهائم.  
والفرق بين التفسيرين أن الأول حقيقة إلا أنه ذكر في معرض الذم كقولك لمن لا يفهم الكلام هو  
شبح وجسد. والثاني مذكور في معرض التشبيه بالبهائم بل جعلهم شرها لجهلهم  
وعدو لهم عن الانتفاع بالحواس كقوله ﴿ بل هم أضل ﴾ [الأعراف: 179] ومعنى ﴿

عند الله ﴿ أي في حكمه وقضائه . ثم قال ﴿ ولو علم الله فيهم ﴾ أي في هؤلاء الصم  
البيكم ﴿ خيراً لأسمعهم ﴾ عن ابن جريج : هم المنافقون . وعن الحسن : أهل الكتاب ،  
وقيل : بنو عبد الدار بن قصي لم يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن عمير وسويد بن حرملة  
كانوا يقولون : نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه فقتلوا جميعاً بأحد  
وكانوا أصحاب اللواء . وروي أنهم سألوا النبي أن يجيبي لهم قصي ابن كلاب وعيره من

(279/310)

---

أمواتهم ليخبروهم بصحة نبوته ، فبين تعالى أنه لو علم فيهم خيراً وهو انتفاعهم بقول هؤلاء  
الأموات لأحياءهم حتى يسمعوا كلامهم ولكنه تعالى علم منهم أنهم لا يقولون هذا الكلام إلا  
على سبيل العناد والتعنت .

(280/310)

---

وأنهم لو أسمعهم الله كلامهم لتولوا عن قبول الحق ولأعرضوا عنه على عاداتهم المستمرة .  
واعلم أن معلومات الله تعالى على أربعة أقسام : جملة الموجودات ، وجملة المعدومات ،

وإن كل واحد من الموجودات لو كان معدوماً فكيف يكون حاله ، وإن كل واحد من  
المعدومات لو كان موجوداً فكيف يكون حاله ، والأولان علم بالواقع ، والآخران الباقيان  
علم بالمقدر ومن هذا القبيل . قوله تعالى ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ وتقدير  
الكلام لو حصل فيهم خيراً لأسمعهم الله الحجاج والمواعظ فعبّر عن عدمه في نفسه بعدم علم  
الله بوجوده ، وأورد على الآية أنها على صورة قياس شرطي فإذا حذفنا الحد الأوسط  
بقيت النتيجة : لو علم الله فيهم خيراً لتولوا ولكن كلمة " لو " وضعت للدلالة على انتفاء  
الشيء لانتفاء غيره فيكون التولي منتفياً لأجل انتفاء علم الله الخير فيهم بل لأجل انتفاء  
الخير فيهم . لكن انتفاء التولي خير من الخيرات فأول الكلام يقتضي نفي الخير عنهم وأخره  
يقتضي . حصول الخير فيهم وهذا تناقض والجواب المنع من أن الحد الأوسط مكرر لأن  
المراد بالإسماع الأول إسماع التفهم وإلزام القبول ، والمراد بالإسماع الثاني صورة الإسماع  
فحسب ، وأيضاً كلمة " لو " في المقدمة الثانية هي التي تجيء للمبالغة بمعنى " أن " كقوله  
صلى الله عليه وسلم : " نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه " فإذا لا تعلق لإحدى  
الجملتين بالأخرى فلا قياس . واستدلت الأشاعرة بالآية على أن صدور الإيمان عن  
الكافر محال لأن الصادق قد أخبر أنهم على تقدير الإسماع معرضون وخلاف علمه وخبره  
محال . وقال في الكشف : لو علم الله فيهم خيراً أي انتفاعاً باللفظ للطف بهم حتى  
يسمعوا سماع المصدقين ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف فلذلك منعهم الطافه ، أو ولو

لطف بهم فصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا وتزييف هذا التفسير سهل . ثم علم المؤمنین أداً آخر فقال ﴿ استجیبوا لله وللرسول إذا دعاكم

(281/310)

---

﴿ فوحد الضمیر كما مر . والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال ، وبال دعوة البعث والتحریض . عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على باب أبي بن كعب فناده وهو في الصلاة فعجل في صلاته ثم جاء فقال : ما منعك عن إجابتي ؟ قال : كنت أصلي . قال : ألم تخبر فيما أوحى إليّ ﴿ استجیبوا لله وللرسول ﴾ ؟ قال : لا جرم لا تدعوني إلا أجبتك ، وقد تمسك الفقهاء بهذا الخبر على أن ظاهر الأمر للوجوب والإفلم يتوجه اللوم . ثم قيل : إن هذا مما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل : إن دعاءه كان لأمر لم يحتمل التأخير وإذا وقع مثله للمصلي فله أن يقطع صلاته . ثم الإحياء لا يمكن أن يحمل على نفس الحياة لأن إحياء الحي محال فذكروا فيه وجوهاً : قال السدي : هو الإسلام والإيمان لأن الإيمان حياة القلب والكفر موته بدليل قوله

(282/310)

---

﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ [ الأنعام : 95 ] أي المؤمن من الكافر . وقال قتادة : يعني القرآن لأن فيه العلم الذي به الحياة الحقيقية . والأكثر على أنه الجهاد لأن وهن أحد العدوين سبب حياة الآخر ، ولأن الجهاد سبب حصول الشهادة التي توجب الحياة الدائمة لقوله ﴿ بل أحياء عند ربهم ﴾ [ آل عمران : 169 ] ، وقيل : إنه عام في كل حق وصواب فيدخل فيه القرآن والإيمان والجهاد وكل أعمال البر والطاعة . والمراد لما يحييكم الحياة الطيبة كما قال ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ [ آل عمران : 169 ] ، ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ اختلف الناس فيه بحسب اختلافهم في مسألة الجبر والقدر فنقل الواحدي عن ابن عباس والضحاك : يحول بين الكافر وطاعته ويحول بين المطيع ومعصيته . فالسعيد من أسعده الله والشقي من أضله الله ، والقلوب بيد الله يقبلها كيف يشاء ويخلق فيها القصود والدواعي والعقائد حسبما يريد ، وتقرير ذلك من حيث العقل وجوب انتهاء جميع الأسباب إليه ، ثم ختم الآية بقوله ﴿ وإنه إليه يحشرون ﴾ ليعلم أنهم مع كونهم مجبورين خلقوا مثابين ومعاقبين إما للجنة وإما للنار لا يتركون مهملين معطلين . وقالت المعتزلة : إن من حال الله بينه وبين الإيمان فهو عاجز وأمر العاجز سفه ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وإنه تعالى أمر بالاستجابة لله وللرسول فلو لم تكن الإجابة ممكنة فكيف يأمر بها ، ولو كان الأمر بغير المقدور جائزاً لكان القرآن حجة للكفار على الرسول

لا له عليهم . فإذا لا يمكن حمل الآية على ما قاله أهل الجبر . فتأويلها أن الله يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بسبب الموت يدل عليه قوله ﴿ وإنه ﴾ أي وأن الشأن أو الله إليه تحشرون والمقصود الحث على الطاعة قبل نزول سلطان الموت ، وأنه تعالى يحول بين المرء وبين ما يتمناه بقلبه تسمية للشيء باسم محله فكأنه قيل : بادروا إلى الأعمال الصالحة ولا تعتمدوا على طول البقاء فإن الأجل يحول دون

(283/310)

---

الأمل أو المراد سارعوا إلى الطاعة ولا تمتنعوا عنها بسبب ما تجدون في قلوبكم من الضعف والجبن فإن الله مقلب القلوب من حالة العجز والجبن إلى القوة والشجاعة وقد يبدل بالأمن خوفاً وبالخوف أمناً ، وبالذكر نسياناً وبالنسيان ذكراً ، وما أشبه ذلك مما هو جائز على الله تعالى ، فأما ما يثاب عليه العبد ويعاقب من أفعال القلوب فلا . وقال مجاهد : المراد بالقلب العقل والمعنى بادروا إلى الأعمال وأنتم تعقلون . ولا تأمنوا زوال العقول التي عند ارتفاعها يبطل التكليف فلا يقدر على الكفر والإيمان . وعن الحسن : إن الغرض التنبيه على أنه تعالى مطلع على بواطن العبد وضمائره ، وإن قربه من عبده أشد من قرب قلبه منه كقوله ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ ق : 16 ] ثم حذرهم الفتن

والاختلاف فقال ﴿ واتقوا فتنة ﴾ قيل : هو العذاب . وقيل : افتراق الكلمة . وقيل :  
إقرار المنكر بين أظهرهم . وقوله ﴿ لا تصيبن ﴾ إما أن يكون جواباً للأمر وجاز دخول  
النون المؤكدة فيه مع خلوه من الطلب لأن فيه معنى النهي كقولك : انزل عن الدابة لا  
تطرحك وإن شئت قلت لا تطرحنك . وعلى هذا " من " في ﴿ منكم ﴾ للتبويض .  
وقيل : الجواب محذوف والمعنى إن أصابتكم لا تصيب بعضكم وهم الظالمون حال كونهم  
﴿ خاصة ﴾ ولكنها تعم الظالمين وغيرهم لأنه يحسن من الله تعالى ذلك بحكم المالكية أو  
لاشتمال ذلك على نوع من الصلاح ، وإما أن يكون نهياً بعد أمر و " من " للبيان كأنه قيل :  
احذروا ذنباً أو عقاباً . ثم قيل لا تصيبنكم تلك العقوبة خاصة على ظلمكم كأن الفتنة  
نهيت عن ذلك الاختصاص على طريق الاستعارة . وهكذا إن جعلت الجملة الناهية  
صفة للفتنة على إرادة القول أي اتقوا فتنة مقولاً فيها لا تصيبن كقوله .

(284/310)

---

جاءوا بمدق هل رأيت الذئب قط . . . عن الحسن : نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير  
وهو يوم الجمل خاصة على ما قال الزبير : نزلت فينا وقرأناها زماناً وما رأينا أنا من أهلها  
فإذا نحن المعنيون بها . وعن السدي : نزلت في أهل بدر فاقتلوا يوم الجمل . وروي أن الزبير



كان يسامر النبي صلى الله عليه وسلم يوماً إذ أقبل علي فضحك إليه الزبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف حبك لعلي؟ فقال: يا رسول الله يأبى أنت وأمي إني أحبه كحبي لولدي أو أشد حباً. قال: فكيف أنت إذا سرت إليه ثقائله؟ ثم ختم الآية بقوله ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ والمراد منه الحث على لزوم الاستقامة. ثم ذكرهم نعمه عليهم فقال ﴿ واذكروا إذ أنتم ﴾ وانتصابه على أنه مفعول به أي وقت أنكم ﴿ قليل ﴾ يستوي فيه الواحد والجمع ﴿ مستضعفون في الأرض ﴾ أرض مكة قبل الهجرة ﴿ تخافون أن يخطفكم الناس ﴾ يستلبونكم لكونهم أعداء لكم ﴿ فأواكم ﴾ إلى المدينة ﴿ وأيدكم بنصره ﴾ بمظاهرة الأنصار ويأمدادكم بالملائكة يوم بدر ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ من الغنائم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أي ينقلكم من الشدة إلى الرخاء، ومن البلاء إلى النعماء والآلاء حتى تشغلوا بالشكر والطاعة فكيف يليق بكم أن تشغلوا بالمنازعة في الأنفال؟، ثم منعهم من الخيانة في الأمانة. يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صلح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة بن مروان بن المنذر وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم.

---

فبعثه إليهم فقالوا له : ما ترى هل نزل على حكم سعد ؟ فأشار إلى حلقه إنه أي إن حكم سعد بن معاذ هو الذبح . قال أبو لبابة : فما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله فنزلت الآية . فشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ . فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له : قد تيب عليك في نفسك . فقال : لا والله لأحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني . فجاءه فحله بيده فقال : إن من تمام توبيتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي . فقال صلى الله عليه وسلم : يجزيك الثلث أن تصدق به . وقال السدي : كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فيفشونه ويلقونه إلى المشركين فنهاهم الله عن ذلك . وقال ابن زيد نهاهم الله أن يخونوا كما صنع المنافقون يظهرون الإيمان ويسرون الكفر . وعن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فعلم النبي صلى الله عليه وسلم خروجه وعزم على الذهاب إليه فكتب إليه رجل من المنافقين إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم فنزلت . وقال الزهري والكلبي : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة بخروج النبي صلى الله عليه وسلم إليها حكاها الأصم . قال القاضي : والأقرب أنها في الغنائم . فالخيانة فيها خيانة الله لأنها عطيته ، وخيانة لرسوله لأنه القيم بقسمتها ، وخيانة للمؤمنين الغانمين فلكل منهم فيها

حق . قال : ويحتمل أن يراد بالأمانة كل ما تعبد به كأن معنى الآية إيجاب أداء التكليف بأسرها في الغنيمة وغيرها على سبيل التمام والكمال من غير نقص ولا إخلال ، ومعنى الخون النقص كما أن معنى الوفاء التمام فإذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت النقصان فيه ، وقد استعير فقيل : خان الدلو الكرب ، وخان الشتر السبب . والكرب حبل قصير يوصل بالرشاء ويكون على العراقيّ سمي كرباً لأنه يكرب من الدلو أي يقرب

(286/310)

---

منه . واشتار العسل إذا اجتناه وجمعه . وتخونوا يحتمل أن يكون جزماً داخلياً في حكم النهي وأن يكون نصباً بإضرار أن كقوله ﴿ وتكتموا الحق ﴾ [ البقرة : 42 ] ومعنى الآية على الوجه العام لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه ورسوله بأن لا تستنوا به وأماناتكم فيما بينكم بأن لا تحفظوها وأنتم تعلمون تبعة ذلك ووباله ، أو تعلمون أنكم تخونون يعني أن الخيانة توجد منكم عمداً لا سهواً . وقيل : وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن . ثم لما كان الداعي إلى الخيانة وهو محبة الأموال والأولاد ولعل ما فرط من أبي لبابة كان بسبب ذلك نبه الله سبحانه على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضار المتولدة من ذلك الحب فقال ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ أي أنها سبب الوقوع في الفتنة وهي

الإثم أو العذاب أو هي محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون على حدوده في ذلك الباب ﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ فعليكم أن تزهّدوا في الدنيا وما يتعلق بها وتنوّطوا هممكم بما يفضي إلى السعادات الروحانية الباقية .

(287/310)

---

ويمكن أن يتمسك بالآية في بيان أن الاشتغال بالنوافل لكونه مفضياً إلى الأجر العظيم عند الله هو أفضل من الاشتغال بالنكاح لأدائه إلى الفتنة . ثم رغب في التقوى التي توجب الإعراض عن محبة الأموال والأولاد وعن التهالك في شأنهم فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا أن تقوا الله ﴾ في ارتكاب الكبائر والإصرار على الصغائر ﴿ ويجعل لكم فرقاناً ﴾ فارقاً بينكم وبين الكفار في الأحوال الباطنة بالاختصاص بالمعرفة والهداية وانسراح الصدر وإزالة الغل والحسد والمكر وسائر الأخلاق الذميمة والأوصاف السبعية والبهيمية ، وفي الأحوال الظاهرة بإعلاء الكلمة والإظهار على أهل الأديان كلهم ، وفي أحوال الآخرة بالثواب الجزيل والمنافع الدائمة والتعظيم من الله والملائكة . ﴿ ويكفر عنكم سيئاتكم ﴾ يستر عليكم في الدنيا صغائركم إن فرطت منكم ﴿ ويغفر لكم ﴾ في دار الجزاء ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ فإذا وعد بشيء وفيه أحسن الإيفاء . ومن عظيم فضله أنه

يتفضل بذاته من غير واسطة وبدون التماس عوض وكل متفضل سواه فإنه لا يتفضل إلا بعد أن يخلق الله فيه داعية التفضل وبعد أن يمكن المتفضل عليه من الانتفاع بذلك . وبعد أن يكون قد تصوّر فيه ثواباً أو ثناء ، أو حملة على ذلك رقة طبع أو عصبية وإلا فلا فضل في الحقيقة إلا لله سبحانه فهذا وصفه بالعظم . ثم لما ذكر المؤمنين نعمه عليهم بقولهم ﴿ واذكروا إذا أنتم قليل ﴾ ذكر رسوله نعمته عليه وذلك دفع كيد المشركين عنه حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في نجاته من مكهم وفيما أتاح له من حسن العاقبة . والمعنى واذكر وقت مكهم . فإن ابن عباس ومجاهد وقادة وغيرهم من المفسرين : ذكروا أن قريشاً اجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال : أنا شيخ من نجد ما أنا من تهامة دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدوا مني رأياً ونصحاً . فقالوا : هذا من نجد لا بأس عليكم

(288/310)

---

به . فقال أبو البختري من بني عبد الدار : رأيت أن تحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة وتلقون إليه طعامه وشرابه منها وتربصوا به ريب المنون ، فقال إبليس : بس

الرأي يأتيكم من يقا تلکم من قومہ ويخلصه من أيديکم . فقال هشام بن عمرو : رأيي أن  
تحمّلوہ علی جمل وتخرجوه من بين أظهرکم فلا يضرکم ما صنع واسترحتم .

(289/310)

---

فقال : بس الرأي يفسد قوماً غيرکم ويقا تلکم بهم . فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من  
كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا  
يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا . فقال الشيخ  
: صدق هذا الفتى هو أجودکم رأياً . فتفرقوا على رأي أبي جهل مجمعين على قتله ،  
فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا يبيت في مضجعه وأذن الله له في  
الهجرة فأمر علياً عليه السلام فنام في مضجعه وقال له : اتشح يردتي فإنه لن يخلص إليك  
أمر تكراهه . وياتوا مترصدين فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه فأبصروا علياً فبهتوا  
وخيب الله سعيهم واقتصوا أثره فأبطل مكرهم . ومعنى ﴿ ليثبتوك ﴾ قال ابن عباس :  
ليوثقوك ويسجنوك لأنه لا يقدر على الحركة وهو إشارة إلى رأي أبي البختري . وقوله ﴿ أو  
يقتلوك ﴾ إشارة إلى رأي أبي جهل . وقوله ﴿ أو يخرجوك ﴾ أي من مكة إشارة إلى رأي  
هشام . وأنكر القاضي حديث إبليس في القصة وتصويره نفسه بصورة الإنس . قال : لأن

ذلك التغيير إن كان بفعل الله فهو إعانة للكفار على المكر ، وإن كان من فعل إبليس فلذلك لا يليق بحكمة الله تعالى لأن إقدار إبليس على تغيير صورة نفسه إعانة له على الإغواء والتلبيس . هذا ما حكى عن القاضي وذهب عليه أن هذا الاعتراض وارد على خلق إبليس نفسه وعلى خلق سائر أسباب الشرور والآثام وقد أجبنا عن أمثال ذلك مراراً ، وقد عرفت تفسير المكر في سورة آل عمران . والحاصل أنهم احتالوا في إبطال أمر محمد والله نصره وقواه فضاع فعلهم وظهر صنع الله . فإن قيل : لا خير في مكرهم فكيف قال والله أنه خير الماكرين ؟ وأجيب بأن المراد أقوى الماكرين ، أو المراد أنه لو قدر في مكرهم خير لكان الخيري في مكره أكثر ، أو المراد أنه في نفسه خير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 387.393 ﴾

(290/310)

---

فصل في التفسير الإشاري في الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابوري :

التأويل : إن شر من دب في الوجود هم ﴿ الصم ﴾ عن استماع كلام الحق . يسمع القلب والقبول ﴿ إليكم ﴾ عن كلام الحق والكلام مع الحق . والأصم لا بد أن يكون أبكم فلذلك

خصا بالذكر ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ أنهم لما خلقوا فلا جرم يؤل حالهم من أن يكونوا خير البرية إلى أن يكونوا شرّ الدواب ﴿ استجيبوا لله ﴾ إنه تعالى يطلب بالمحجة من العبد الإجابة كما يطلب العبد للحاجة منه الإجابة ، فالاستجابة لله إجابة الأرواح للشهود وإجابة القلوب للشواهد ، وإجابة الأسرار للمشاهدة ، وإجابة الخفي للفناء في الله ، والاستجابة للرسول بالمتابعة لما يحييكم يفنيكم عنكم ويبقيكم به ﴿ واعلموا أن الله يحول بسطوات أنوار جماله وجلاله بين مرآة قلبه وظلمة أوصاف قلبه ﴾ وإنه إليه تحشرون ﴿ بالفناء عنكم والبقاء به ﴾ واتقوا ﴿ أيها الواصلون فتنة ابتلاء النفوس بحظوظها الدنيوية والأخروية .

(291/310)

---

لا تصيب النفوس الظالمة فقط بل تصيب ظلمتها الأرواح النورانية والقلوب الربانية فتجذبها من حظائر القدس ورياض الأنس إلى حضائض صفات الإنس ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ يعاقب الواصلين بالانتقطاع والاستدراج عن الالتفات إلى ما سواه ﴿ واذكروا إذ أنتم ﴾ أيها الأرواح والقلوب ﴿ قليل ﴾ لم ينشأ بعد لكما الصفات الأخلاق الروحانية ﴿ مستضعفون ﴾ من غلبات صفات النفس لإعواز التربية بالبان



آداب الطريقة ولانعدام جريان أحكام الشريعة عليكم إلى أوان البلوغ. ﴿ يخافون ﴾ أن  
تسلبكم النفوس وصفاتها والشيطان وأعوانه ﴿ فآواكم ﴾ إلى حظائر القدس ﴿  
وأيدكم ﴾ بالواردات الربانية ﴿ ورزقكم ﴾ المواهب الطاهرة من لوث الحدوث. ﴿ يا  
أيها الذين آمنوا ﴾ يعني الأرواح والقلوب المنورة بنور الإيمان المستعدة بسعادات العرفان  
﴿ لا تخونوا الله ﴾ فيما آتاكم من المواهب فتجعلوها شبكة لاصطياد الدنيا ولا تخونوا  
الرسول بترك السنة والقيام بالبدعة ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ التي هي محبة الله ، وخياتها  
تبدلها بمحبة المخلوقات ﴿ وأتم تعلمون ﴾ إنكم تبعون الدين بالدنيا والمولى بالأولى ﴿  
فتنة ﴾ يختبركم الله بها بالتمييز الموافق من المناق ، والصديق من الزنديق . ﴿ يا أيها  
الذين آمنوا ﴾ بهذه المقامات والكرامات ﴿ أن تتقوا الله ﴾ من غير الله ﴿ يجعل لكم  
فرقانا ﴾ يفض عليكم من سجال جماله وجلاله القديم ما تفرقون به بين الحدوث والقدم  
﴿ ويكفر عنكم ﴾ سيئات وجودكم الفاني ﴿ ويغفر لكم ﴾ يستركم بأنوار جماله  
وجلاله ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ وهو البقاء بالله بعد الفناء فيه ﴿ ليثبتوك ﴾ أيها  
الروح في أسفل سافلين الطبيعة أو يعدموك بانعدام آثارك ﴿ أو يخرجوك ﴾ من عالم  
الأرواح ﴿ والله خير الماكرين ﴾ يصلح حال أهل الصلاح ألبتة . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 393. 394 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (31) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر مكرهم بالرسول ، ذكر مكرهم بما أرسل به ، فقال عاطفاً على " إذ أنتم " :  
﴿ وَإِذَا تَلَىٰ ﴾ أي من أي تال فرض ﴿ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي التي هي الفرقان جلالة وعظماً  
لم يدعوها تؤثر في تلك الحالة ، بل ﴿ قَالُوا ﴾ إظهاراً لعنادهم لها وتشيعاً بما لم يعطوا  
وادعاء لما لمن ينالوا ﴿ قَدْ سَمِعْنَا ﴾ ولما لم يتأثر عن سماعهم الإذعان ، تشوف السامع إلى  
علة إعراضهم فقال معللاً أو مستأنفاً : ﴿ لَوْ نَشَاءُ ﴾ أي في أي وقت أردنا ﴿ لَقُلْنَا مِثْلَ  
هَذَا ﴾ أي لأنه ليس قول الله كما يزعم محمد ﴿ إِنْ ﴾ أي ما ﴿ هَذَا ﴾ الذي يتلى عليكم  
﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ ﴾ جمع سطور وأسطار جمع سطر ﴿ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي من بني آدم ، سطوراً  
فيها علومهم وأخبارهم فهو من جنس كلامنا وقائله من جنسنا ، وهذا غاية المكابرة لأنه  
قد تحداهم بقطعة من مثله إن كان له - كما يزعمون - مثل ، وبالغ في تفريرهم فما منعهم -  
من إبراز شيء مما يدعون وليس بينهم وبينه بزعمهم إلا أن يشاؤوا ، مع انتقالهم إلى أشد  
الأمور : السيف الماحق على تهالكهم على قهره - صلى الله عليه وسلم - وعلى ما لهم من

فرط الأنفة من العار والبعد مما يقضي عليهم بالغلب أو أن يوصفوا بالكذب - إلا علمهم بأن ذلك فاضحهم ، ومخزيهم مدى الدهر وقائحهم ، والمعنى أنني أثبت هذا النبي الكريم على صبره على ذلك ومثابرتة على أداء الأمانة بالاجتهاد في النصيحة على ما يلقي إن نجيتة منهم ومنعته من جميع ما كادوه به ، وكنت لا أزل أؤيده باتباع من أعلم فيه الخير إلى أن هيات له داراً وخبأت له أنصاراً ، وجعلت داره بالأصحاب منيعة ، وبنيت لها أعمدة بصوارم الأحباب ثابتة رفيعة ، نقلته إلى ذلك مع اجتهاد أهل العناد وهم جميع أهل الأرض في المنع ، فلم يؤثر كيدهم ، ولا أفادهم مع أيدي أيدهم ، وجعلت نفس نقلته له فرقاناً يفرق بها بين الحق والباطل ، وصار إلى ما ترون من قبول الأمر وجلالة القدر ونفاذ الفصل بين الأمور وظهر دينه أي ظهور ، فلازموا التقوى ملازمته وداوموا على الطاعة مداومته أهب لكم من سيادته وأحملكم بملايس إمامته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 210.211 ﴾

(293/310)

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات: ﴿ بما تعملون ﴾ ، ﴿ بصير ﴾ بآء الخطاب: يعقوب .  
الوقوف: ﴿ مثل هذا ﴾ لأن الابتداء بأن هذا الإسطير الأولين قبيح ﴿ الأولين ﴾ هـ  
﴿ أليم ﴾ هـ ﴿ وأنت فيهم ﴾ ط ﴿ يستغفرون ﴾ هـ ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ ط ﴿ لا  
يعلمون ﴾ هـ ﴿ وتصديه ﴾ ط ﴿ تكفرون ﴾ هـ ﴿ عن سبيل الله ﴾ ط ﴿ يغلبون  
﴿ ط لأن ما بعده مبتدأ ﴾ يحشرون ﴿ ه لالتعا اللام ﴾ في جهنم ﴿ ط الخاسرون  
﴿ ه ما سلف ﴾ ط لابتداء الشرط مع العطف ﴿ الأولين ﴾ ه ﴿ كله لله ﴾ ط  
﴿ بصير ﴾ ه ﴿ مولاكم ﴾ ط ﴿ النصير ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن  
ح 3 ص 394.395 ﴾

(294/310)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(31) ﴿

اعلم أنه تعالى لما حكى مكرهم في ذات محمد .

حكى مكرهم في دين محمد ، روى أن النضر بن الحرث خرج إلى الحيرة تاجراً ، واشترى  
أحاديث كليلة ودمنة ، وكان يقعد مع المستهزئين والمقتسمين وهو منهم ، فيقرأ عليهم  
أساطير الأولين ، وكان يزعم أنها مثل ما يذكره محمد من قصص الأولين ، فهذا هو المراد من  
قوله : ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ ﴾ وههنا  
موضع بحث ، وذلك لأن الاعتماد في كون القرآن معجزاً عن أنه صلى الله عليه وسلم  
تحدى العرب بالمعارضة ، فلم يأتوا بها ، وهذا إشارة إلى أنهم أتوا بتلك المعارضة ، وذلك  
يوجب سقوط الدليل المعول عليه .

والجواب : أن كلمة ﴿ لَوْ ﴾ تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره .

فقوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ يدل على أنه ما شاء ذلك القول ، وما قال .  
فثبت أن النضر بن الحرث أقر أنه ما أتى بالمعارضة ، وإنما أخبر أنه لو شاءها لآتى بها ،  
وهذا ضعيف .

لأن المقصود إنما يحصل لو أتى بالمعارضة ، أما مجرد هذا القول فلا فائدة فيه . انتهى انتهى .

اه ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 126 ﴾

(295/310)

وقال السمرقندي :

﴿ وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾

يعني القرآن .

﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا ﴾ ، يعني قد سمعنا قولك .

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ ، أي مثل هذا القرآن .

﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ، نزلت في شأن نصر بن الحارث ، كان يحدث عن الأمم

الحالية من حديث رستم وإسفنديار ، فقال : إن الذي يخبركم محمد مثل ما أحدثكم من

أحاديث الأولين وكذبهم ، فقال له عثمان بن مظعون : اتق الله يا نصر ، فإنه ما يقول إلا حقاً

، فقال النصر بن الحارث قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ

﴿ . انتهى انتهى . اهـ ﴾ بجز العلوم ح 2 ص

وقال الثعلبي :

﴿ وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا ﴾

يعني النصر بن الحرث ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ وذلك أنه كان [يختلف]

تاجراً إلى فارس والحيرة فيسمع سجع أهلها وذكرهم أخبار العجم وغيرهم من الأمم ، فمر

باليهود والنصارى فرآهم يقرأون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون ، فجاء مكة فوجد

محمدًا يقرأ القرآن ويصلي . فقال النصر : قد سمعنا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤﴾ أَخْبَارُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَأَعْمَارِهِمْ ، قَالَ السُّدِّيُّ : أَسَاجِيْعُ أَهْلِ الْحَيْرَةِ .  
وَالْأَسَاطِيرُ جَمْعُ الْجَمْعِ وَأَصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِ : سَطَرْتُ أَيَّ كَتَبْتُ ، وَوَاحِدُهَا سَطَرٌ ثُمَّ تَجْمَعُ  
أَسْطَارٌ أَوْ سَطُورٌ ثُمَّ فِي جَمْعَانِ أَسَاطِرٌ وَأَسَاطِيرٌ . وَقِيلَ : الْأَسَاطِيرُ وَاحِدُهَا أُسْطُورَةٌ  
وَأَسْطَارٌ . وَالْجَمْعُ الْقَلِيلُ : أَسْطَرٌ . انْتَهَى انْتَهَى . ١٠ هـ ﴿٤﴾ الْكَشْفُ وَالْبَيَانُ ح 4 ص ﴿٤﴾

(296/310)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿٤﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا ﴿٤﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : قد سمعنا هذا منكم ولا نطيعكم .

والثاني : قد سمعنا قبل هذا مثله فماذا أغناكم .

﴿٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴿٤﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : مثل هذا في النظم والبيان معارضة له في الإعجاز .

والثاني : مثل هذا في الاحتجاج معارضة له في الاستدعاء إلى الكفر .

﴿٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤﴾ يعني أحاديث الأولين ويحتمل وجهين :

أحدهما : أنه قصص من مضي وأخبار من تقدم .

والثاني : أنه مأخوذ عن تقدم وليس بوحي من الله تعالى .

وقيل إن هذه الآية نزلت في النصر بن الحارث بن كعدة ، وقد قتلته النبي صلى الله عليه وسلم صبراً في جملة ثلاثة من قريش : عقبه بن أبي معيط ، والمطعم بن عدي ، والنصر بن الحارث وكان أسير المقداد ، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل النصر قال المقداد : أسيري يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ اغْنِ الْمَقْدَادَ " ، فقال : هذا أردت . وفيه أنزل الله تعالى الآية التي بعدها .

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ اتِّنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(297/310)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾



(298/310)



---

الضمير في ﴿ عليهم ﴾ عائد على الكفار، و" الآيات " هنا آيات القرآن خاصة بقريظة  
قوله ﴿ تتلى ﴾ ، و ﴿ قد سمعنا ﴾ يريد وقد سمعنا هذا المتلو ﴿ لو نشاء لقلنا ﴾  
مثله وقد سمعنا نظيره على ما روي أن النضر سمع أحاديث أهل الحيرة من العباد فلونشاء  
لقلنا مثله من القصص والأنباء فإن هذه إنما هي أساطير من قد تقدم ، أي قصصهم  
المكتوبة المسطورة ، و ﴿ أساطير ﴾ جمع اسطورة ، ويحتمل أن يكون جمع أسطار ولا  
يكون جمع أسطر كما قال الطبري ، لأنه كان يجيء أساطر دون ياء ، هذا هو قانون الباب ،  
وقد شذ منه شيء كصيرف قالوا في جمعه صيارف ، والذي تواترت به الروايات عن ابن  
جريح والسدي وابن جبير الذي قال هذه المقالة هو النضر بن الحارث ، وذلك أنه كان كثير  
السفر إلى فارس والحيرة ، فكان قد سمع من قصص الرهبان والأناجيل ، وسمع من أخبار  
رستم وإسبنديار ، فلما سمع القرآن ورأى فيه من أخبار الأنبياء والأمم ، قال : لو شئت  
لقلت مثل هذا ، وكان النضر من مرادة قريش النائلين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
ونزلت فيه آيات من كتاب الله ، وقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم صبياً بالصفراء  
منصرفه من بدر في موضع يقال له الأثيل وكان أسره المقداد ، فلما أمر رسول الله صلى الله  
عليه وسلم بضرب عنقه قال المقداد : أسيري يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : إنه كان يقول في كتاب الله ما قد علمتم ، ثم أعاد المقداد مقالته حتى قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم أغن المقداد من فضلك " فقال المقداد : هذا الذي أردت ، ف ضرب عنق النضر ، وحكى الطبري عن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل يوم بدر صبراً ثلاثة نفر ، المطعم بن عدي ، والنضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط .

(299/310)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا وهم عظيم في خبر المطعم ، فقد كان مات قبل يوم بدر ، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لو كان المطعم حياً وكلمني في هؤلاء الننى لتركهم له " يعني أسرى بدر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ج 2 ص ﴾

(300/310)

---

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾

ذكر أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث بن علقمة بن كعدة ، وأنه لما سمع

رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر قصص القرون الماضية ، قال : لو شئت لقلت مثل هذا .

وفي قوله : ﴿ قد سمعنا ﴾ قولان .

أحدهما : قد سمعنا منك ولا نطيعك .

والثاني : قد سمعنا قبل هذا مثله ، وكان النضر يختلف إلى فارس تاجراً ، فيسمع العباد يقرؤون الإنجيل .

وقد بين التحدي كذب من قال : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ .

وقد سبق معنى الأساطير في [ الأنعام : 25 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص



(301/310)

وقال القرطبي :

﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(31) ﴿

نزلت في النضر بن الحارث ؛ كان خرج إلى الحيرة في التجارة فاشترى أحاديث كيلة ودمنة ،

وكسرى وقيصر؛ فلما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار من مضى قال النضر:

لو شئت لقلت مثل هذا.

وكان هذا وقاحة وكذبا.

وقيل: إنهم توهموا أنهم يأتون بمثله، كما توهمت سحرة موسى، ثم راموا ذلك فعجزوا

عنه وقالوا عنادا: إن هذا إلا أساطير الأولين.

وقد تقدم. انتهى انتهى. ١٠ هـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(302/310)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ وإذا تلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾

نزلت في النضر بن الحارث بن علقمة من بني عبد الدار وذلك أنه كان يختلف إلى أرض

فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وأحاديث العجم وكان يبر بالعباد

من اليهود والنصارى فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون ويكون فلما

جاء مكة وجد النبي (صلى الله عليه وسلم) قد أوحى إليه وهو يقرأ ويصلي.

فقال النضر بن الحارث: قد سمعنا يعني مثل هذا الذي جاء به محمد لو نشاء لقلنا مثل هذا

فدمهم الله بدفعهم الحق الذي لا شبهة فيه بادعائهم الباطل بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا  
بعد التحدي وأبان عجزهم عن ذلك ولو قدروا ما تحلفوا عنه وهم أهل الفصاحة  
وفرسان البلاغة فبان بذلك كذبهم في قولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا ❀ إن هذا إلا أساطير  
الأولين ❀ يعني أخبار الماضين . انتهى انتهى . اهـ ❀ تفسير الخازن حـ 3 ص ❀  
وقال أبو حيان :

❀ وإذا تلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ❀ .

قائل ذلك هو النضر بن الحارث واتبعه قائلون كثيرون وكان من مرادة قریش سافر إلى فارس  
والحيرة وسمع من قصص الرهبان والأناجيل وأخبار رستم واسفنديار ويرى اليهود  
والنصارى يركعون ويسجدون ، قتله رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) صبراً بالصفراء  
بالأثيل منها منصرفه من بدر ، وفي هذا التركيب جواز وقوع المضارع بعد إذا وجوابه  
الماضي جوازاً فصيحاً بخلاف أدوات الشرط فإنه لا يجوز ذلك فيها إلا في الشعر نحو :  
من يك دنى بشيء كنت منه . . .

ومعنى ❀ قد سمعنا ❀ قد سمعنا ولا نطيع أو قد سمعنا منك هذا وقولهم ❀ لو نشاء

❀ أي لو نشاء القول ❀ لقلنا مثل هذا ❀ الذي تلوته وذكر على معنى المتلو وهذا القول

منهم على سبيل البهت والمصادمة وليس ذلك في استطاعتهم فقد طولبوا بسورة منه

فعجزوا وكان أصعب شيء إليهم الغلبة وخصوصاً في باب البيان فقد كانوا يتماطون

ويتعارضون ويحكم بينهم في ذلك وكانوا أحرص الناس على قهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكيف يجيلون المعارضة على المشيئة وتعللون بأنهم لو أرادوا لقالوا مثل هذا القول .

﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

تقدم شرحه في الأنعام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(303/310)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾

التي حقها أن يجزها صم الجبال ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ قاله اللعين  
النضر بن الحارث ، وإسناده إلى الكل لما أنه كان رئيسهم وقاضيهم الذي يقولون بقوله  
ويأخذون برأيه وقيل : قاله الذين ائتمروا في أمره صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ،  
وهذا كما ترى غاية المكابرة ونهاية العناد كيف لا ولو استطاعوا شيئاً من ذلك فما الذي  
كان يمنعهم من المشيئة وقد تحدوا عشر سنين وقرعوا على العجز وذاقوا من ذلك الأمرين  
ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوا بما سواه مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا لاسيما في

باب البيان ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا أساطير الأولين ﴾ أي ما يسطرونه من القصص . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(304/310)

وقال الأوسى :

﴿ وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾

التي لو أنزلناها على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ  
نشأ لقلنا مثل هذا ﴾ قائله النصر بن الحرث من بن عبد الدار على ما عليه جمهور  
المفسرن وكان ختلف إلى أرض فارس والحرة فيسمع أخبارهم عن رستم .  
واسفنديار وكبار العجم وكان يير باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل ،  
وإسناد القول إلى ضمير الجمع من إسناد فعل البعض إلى الكل لما أن اللعين كان رئيسهم  
وقاضيهم الذي يقولون بقوله ويعملون برأيه .

وقيل : قاله الذين ائتمروا في أمره عليه الصلاة والسلام في دار الندوة ، وأياً ما كان فهو غاية  
المكابرة ونهاية العناد ، إذ لو استطاعوا شيئاً من ذلك فما منعهم من المشيئة ؟ وقد  
تخداهم عليه الصلاة والسلام وقرعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم

يعارضوا بما سواه من أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا لاسيما في ميدان البيان فإنهم كانوا  
فرسانه المالكين لأزمته الحائزين قصب السبق به .  
واشتهر أنهم علقوا القصائد السبعة المشهورة على باب الكعبة متحدين بها ، لكن تعقب  
أن ذلك مما لا أصل له وإن اشتهر ، وزعم بعضهم أن هذا القول كان منهم قبل أن ينقطع  
طمعهم عن القدرة على الإتيان بمثله ، وليس بشيء ❀ إن هذا الإسطير الأولين ❀ جمع  
أسطورة على ما قاله المبرد كأحد وثرة وأحاديث ومعناه ما سطر وكتب .  
وفي "القاموس" الأساطير الأحاديث لانظام لها جمع اسطار وإسطير وأسطور وبالهاء في  
الكل .

(305/310)

---

وأصل السطر الصف من الشيء كالكتاب والشجر وغيره وجمعه أسطر وسطور  
وأسطار وجمع الجمع أساطير ويحرك في الكل ، وقال بعضهم : إن جمع سطر بالسكون  
أسطر وسطور وجمع سطر أسطار وأساطر ، وهو مخالف لما في "القاموس" ، والكلام  
على التشبيه ، وأرادوا ما هذا إلا كقصص الأولين وحكاياتهم التي سطورها وليس كلام



الله تعالى ، وكأنه بيان لوجه قدرتهم على قول مثله لو شاؤوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح

المعاني - 9 ص ﴿

(306/310)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

(31) ﴿

انتقال إلى ذكر بهتان آخر من حجاج هؤلاء المشركين ، لم تنزل آيات هذه السورة يتخللها أخبار كفرهم من قوله : ﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ الأنفال : 7 ] وقوله ﴿ ذَلِكَ بَأْنِهِمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [ الأنفال : 13 ] وقوله ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ [ الأنفال : 17 ] وقوله ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [ الأنفال : 21 ] ثم بقوله ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [ الأنفال : 30 ] .  
وهذه الجمل عطف على جملة : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ [ الأنفال : 23 ] .

وهذا القول مقالة المتصددين للطعن على الرسول صلى الله عليه وسلم ومحاجته ،

والتشغيب عليه : منهم النضر بن الحارث ، وطعمية بن عدي ، وعقبة بن أبي معيط .  
ومعنى ﴿ قد سمعنا ﴾ : قد فهمنا ما تحتوي عليه ، لو نشاء لقلنا مثلها وإنما اهتموا  
بالقصص ولم يتبينوا مغزاها ولا ما في القرآن من الآداب والحقائق ، فلذلك قال الله تعالى  
عنهم ﴿ كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ [ الأنفال : 21 ] أي لا يفقهون ما سمعوا .

(307/310)

---

ومن عجيب بهتانهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم تحدّاهم بمعارضة سورة من القرآن ،  
فعجزوا عن ذلك وأفحموا ، ثم اعتذروا بأن ما في القرآن أساطير الأولين وأنهم قادرون  
على الإتيان بمثل ذلك قيل : قائل ذلك هو النضر بن الحارث من بني عبد الدار ، كان رجلاً  
من مردة قريش ومن المستهزئين ، وكان كثير الأسفار إلى الحيرة وإلى أطراف بلاد العجم في  
تجارته ، فكان يلتقى بالحيرة ناساً من العباد ( بتخفيف الباء اسم طائفة من النصارى )  
فيحدثونه من أخبار الإنجيل ويلقى من العرب من ينقل أسطورة حروب ( رُسُتم ) و  
أسفندياذ ) من ملوك الفرس في قصصهم الخرافي ، وإنما كانت تلك الأخبار تترجم للعرب  
باللسان ويستظهرها قصاصهم وأصحاب النوادر منهم ولم يذكر أحد أن تلك الأخبار  
كانت مكتوبة بالعربية ، فيما أحسب ، إلا ما وقع في "الكشاف" أن النضر بن الحارث جاء

بنسخة من خبر (رُستم) و (اسفندياذ) ولا يبعد أن يكون بعض تلك الأخبار مكتوباً بالعربية كتبها القصاصون من أهل الحيرة والأنبار تذكراً لأنفسهم، وإنما هي أخبار لا حكمة فيها ولا موعظة، وقد أطل فيها الفردوسي في كتاب "الشاهنامه" تطويلاً مملاً على عادة أهل القصص، وقال الفخر: اشترى النضر من الحيرة أحاديث كليلة ودمنة، وكان يقعد مع المستهزئين والمقتسمين وهو منهم فيقرأ عليهم أساطير الأولين، فإسناد قول النضر بن الحارث إلى جماعة المشركين: من حيث إنهم كانوا يؤيدونه ويحكونه ويحاكونه، ويحسبون فيه معذرة لهم عن العجز الذي تلبسوا به في معارضة القرآن، وأنه نفس عليهم بهذه الأغلوطة، فإذا كان الذي ابتكره هو النضر بن الحارث فليس يمتنع أن تصدر أمثال هذا القول من أمثاله وأتباعه، فمن ضمنهم مجلسه الذي جاء فيه بهذه النزاقة.

(308/310)

---

وقولهم: ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ إيهام بأنهم ترفعوا عن معارضته، وأنهم لو شاءوا لنقلوا من أساطير الأولين إلى العربية ما يوازي قصص القرآن وهذه وقاحة، وإلّا فما منعهم أن يشاءوا معارضة من تحداهم وقرعهم بالعجز بقوله: ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ [ البقرة: 24 ] مع تحيزهم وتآمرهم في إيجاد معذرة يعتذرون بها عن القرآن وإعجازه إياهم

وتحديه لهم ، وما قاله الوليد بن المغيرة في أمر القرآن .

و"الأساطير" جمع أسطورة بضم الهمزة وهي القصة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ في سورة [ الأنعام : 25 ] .

والمخالفة بين شرط ﴿ لو ﴾ وجوابها إذ جعل شرطها مضارعاً والجزاء ماضياً جرى على الاستعمال في ( لو ) غالباً ، لأنها موضوعة للماضي فلزم أن يكون أحد جزأئي جملتها ماضياً ، أو كلاهما .

فإذا أريد التقنن خولف بينهما ، فالتقدير : لو شئنا لقلنا ، ولا يبعد عندي في مثل هذا التركيب أن يكون احتباكاً قائماً مقام شرطين وجزأين فأحدى الجملتين مستقبلة والأخرى ماضية ، فالتقدير لو نشاء أن نقول نقول ، ولو شئنا القول في الماضي لقلنا فيه ، فذلك أوعب للأزمان ، ويكون هذا هو الفرق بين قوله : ﴿ ولو شئنا لآتيننا كل نفسٍ هداها ﴾ [ السجدة : 13 ] وقوله : ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ [ الرعد : 31 ] فهم لما قالوا : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ ادعوا القدرة على قول مثله في الماضي وفي المستقبل إغراقاً في المفاجأة والوقاحة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص



وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(31) ﴿

وقول الحق : " آياتنا " يعني آيات القرآن ؛ لأننا عرفنا من قبل أن الآيات إما أن تكون الآيات الكونية التي تلفت إلى وجود المكون الأعلى مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، وإما أن تكون الآيات بمعنى المعجزات : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ [الأعراف : 203] .

وهذه الآيات المعجزة علامة على أنه صادق . أو الآيات التي هي قسط من القرآن وهو المنهج .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ [الأنفال : 31] .

ونفهم من التلاوة أن المقصود هو آيات القرآن الكريم . فماذا قالوا ؟

﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ [الأنفال : 31] .

وقولهم : " لو نشاء " هذا يدل على أنهم لم يقولوا ؛ لأن " لو " حرف امتناع لامتناع ، مثلما

نقول : لو جئتني لأكرمك ، فامتنع الإكرام مني لامتناع المجيء منك ، فهذا يعني امتناع لامتناع

، ومثلما يقول قائل : لو عندي مال لاشتريت قصراً ، ولأنه لا يملك مالاً ، فهو لم يشتر القصر  
- إذن هم لم يشاءوا ولم يقولوا ؛ لذلك كان كلامهم مجرد " تهوئش " وتهديد لا محل له . فلم  
يحصل منهم هذا ولا ذاك .

إذن ثبت الإعجاز . لقد ثبت لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب منهم أولاً أن يأتوا  
بمثل هذا القرآن ، وحين قالوا : إن القرآن كثير ولا يقدر أن يأتوا بمثله ، تحداهم بأن يأتوا  
بعشر سور ، وحين فشلوا ، تحداهم بأن يأتوا بسورة ، فلم يأتوا ، وكان هذا تدرجاً في  
الإعجاز .

(310/310)

---

لقد تحداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعنى التحدي حفز المتحدى أن يُجند كل  
ما يقوى عليه ليرد التحدي . فإن لم تتجمع لهم المواهب التي تكفل قبول التحدي انسحبوا ؛  
لكن واحداً منهم " النضر بن الحارث " ذهب لفارس ، ورأى كتاباً هناك يضم أساطير  
وحكايات ، وجاء ليقول وسط قريش : هاأنذا أقول مثل محمد . لكن كلامه لم يكن له  
هدف ولا يحمل منهجاً ولا توجد لكل كلمة فيه قدرة جذب لمعنى ، ولم يوجد في قوله أي  
معنى جاذب للكلمة ، لذلك انصرف عنه القوم .

﴿ وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: 31] .

وهذا قولهم ، وسبق أن اعترفوا بأنه قرآن ، وسبق لهم أن قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا \* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا \* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا \* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: 90 - 93] .

(311/310)

---

وحيث نقرأ هذه الآيات الكريمة ونقوم بتعداد ما طلبوا منه ، نجد أنهم طلبوا تفجير الأرض بينبع ماء ، وطلبوا أن تكون له جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، وطلبوا أن تسقط السماء كما زعم عليهم كسفا ، وطلبوا أن يأتي بالله والملائكة قبيلة ، وطلبوا أن يكون له بيت من زخرف ، وطلبوا أن يرقى في السماء ، وكل هذا كلام طويل أثبتته القرآن الكريم ، فهل ما قالوه يعد قرآنا ؟ لا ، ولنلتفت إلى دقة أداء القرآن ، فلم يقل كل

هذه الطلبات إنسان واحد ، بل قال كل منهم طلباً ، وبأسلوب مختلف ، ولكن بلاغة القرآن الكريم جمعت كل الأساليب فأدتها بتوضيح دقيق وبإعجاز بالغ ، ولذلك لنا أن نلتفت أننا ساعة نسمع نقلاً للكلام الغير من القرآن ، فعلينا ألا نأخذه على أن هذا الكلام الذي قيل هو معانٍ قيلت ، وجاء القرآن الكريم بها بأسلوب الله .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - إذا جئت لابنك وقلت له : يا بني اذهب إلى عمك فلان وقل له : إن أبي يدعوك غداً مساءً لتناول العشاء معه ؛ لأن عنده ضيوفاً ويحرص على أن تشاهدهم ويشاهدوك وتقوي من مكاتته . وحين ذهب الولد لعمه ، هل قال له نفس الكلام ؟ طبعاً لا ؛ لأن الأب قد يكون متعلماً ، ولا يستطيع الابن أن يقول ذات الكلمات . أو قد يكون الأب أمياً ، والابن مثقفاً ناضجاً فينقل الابن رسالة أكثر بلاغة . إذن فأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً من غير الله على لسان أحد ، فاعلم أن هذا أداء الله لمطلوبات المتكلم .

﴿ وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [ الأنفال : 31 ] .

والأساطير جمع أسطورة ، أي الحوادث والأحداث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص





"فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ (31) ﴾

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال "قتل النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث ، وكان المقداد أسراً النضر فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله أسيري . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول : وفيه أنزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم ، فلما قدم إلى مكة سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن فقال : ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 ص ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ (31) ﴾

فرطُ جهلهم ، وشؤمُ جحدهم سترَ على عقولهم قُبْحَ دعاويهم في القدرة على معارضة

القرآن فافتضحوا عند الامتحان بعدم البرهان ، والعجز عما وصفوا به أنفسهم من

الفصاحة والبيان ، وقديماً قيل :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ . . . فَضَحَ الْإِمْتِحَانُ مَا يَدَّعِيهِ

ويقال لما لاحظوا القرآن بعين الاستصغار حُرِّمُوا بِرَكَاتِ الْفَهْمِ فَعَدُّوهُ مِنْ جَمَلَةِ أَسَاطِيرِ

الأولين ، وكذلك من لا يراعي على حرمة الأولياء ، يعاقبُ بأن تُسْتَرَ عَلَيْهِ أحوالهم ،

فيظنهم مثله في استحقاق مثالبه ، فيطلق فيهم لسان الوقعة ، وهو بذلك أحقُّ ، كما قيل :

"رَمَيْتَنِي بِدَائِهَا وَأَنْسَلْتُ". انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 620 .

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْدَابٍ أَلِيمٍ (32)﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك موضع عجب من عدم إعجال الضلال بالعذاب وإمهالهم إلى أن أوقع بهم في غزوة بدر لا سيما مع قوله ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ بين السري في ذلك وإن بالغوا في استعجاله فقال : ﴿وَإِذْ قَالُوا﴾ أي إرادة المكابرة بالتحويل إلى الناس أنهم على القطع من أنه باطل وإلا لما دعوا بهذا الدعاء ﴿اللهم﴾ أي يا من له تمام الملك وعموم الملك ﴿إِنْ كَانَ هَذَا﴾ أي الأمر الذي أتانا به محمد ﴿هُوَ﴾ أي لا ما نحن عليه ﴿الْحَقُّ﴾ حال كونه منزلاً ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ وقال الزجاج : إنه لا يعلم أحداً قرأ ﴿الْحَقُّ﴾ بالرفع - أفاده أبو حيان ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ ولعل تقييده بقوله : ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ مع أن الأمطار لا يكون إلا منها - لإزالة وهم من يتوهم أن الأمطار مجاز عن مطلق الرجم وأنه إنما ذكر لبيان أن الحجارة المرجوم بها في الكثرة مثل المطر ﴿أَوْ ائْتِنَا بَعْدَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي غير

الحجارة ، ولعل مرادهم بقولهم ذلك الإشارة إلى أن مجيء الوحي إليك من السماء خارق  
كما أن إتيان الحجارة منها كذلك ، فإن كنت صادقاً في إتيان الوحي إليك منها فأتنا  
بججارة منها كما أتت الحجارة منها أصحاب الفيل صوتاً من الله لبيته الذي أراد الجيش  
انتهاك حرمة وإعظاماً له - أشار إلى ذلك أبو حيان ، وهذه الآية والتي قبلها في "النضر بن  
الحارث أسره المقداد يوم بدر فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقتله فقال المقداد : أسيري  
يا رسول الله ! فقال : إنه كان يقول في كتاب الله تعالى ما يقول ، فعاد المقداد - رضى الله  
عنهم - لقوله ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : اللهم أغن المقداد من فضلك ، فقال :  
ذاك الذي أردت يا رسول الله ! فقتله النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنشدت أخته قبيلة  
أبياتاً منها :

ما كان ضرك لو مننت وربما . . .

منّ الفتى وهو المغيظ المخنق

" فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : لو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه " وعن

معاوية - رضى الله عنهم - أنه قال لرجل من سباً : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة !

قال : أجهل من قومي قومك قالوا ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [ الأنفال : 32 ]

وما قالوا : فاهدنا به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 211.212 ﴾

## فصل

قال الفخر:

والشبهة الثانية: لهم قولهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ أي بنوع آخر من العذاب أشد من ذلك وأشق منه علينا.

فإن قيل: هذا الكلام يوجب الإشكال من وجهين: الأول: أن قوله ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ حكاه الله عن الكفار، وكان هذا كلام الكفار وهو من جنس نظم القرآن فقد حصلت المعارضة في هذا القدر، وأيضاً حكى عنهم أنهم قالوا في سورة بني إسرائيل: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ [الإسراء: 90] وذلك أيضاً كلام الكفار فقد حصل من كلامهم ما يشبه نظم القرآن ومعارضته، وذلك يدل على حصول المعارضة.

الثاني: أن كفار قريش كانوا معترفين بوجود الإله وقدرته وحكمته وكانوا قد سمعوا التهديد الكثير من محمد عليه الصلاة والسلام في نزول العذاب، فلو كان نزول القرآن معجزاً لعرفوا كونه معجزاً لأنهم أرباب الفصاحة والبلاغة، ولو عرفوا ذلك لكان أقل الأحوال أن يصيروا شاكين في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ولو كانوا كذلك لما أقدموا على قولهم: ﴿اللهم

إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴿١﴾ لأن المتوقف الشاك لا يتجاسر على مثل هذه المبالغة ، وحيث أتوا بهذه المبالغة ، علمنا أنه ما لاح لهم في القرآن وجه من الوجوه المعجزة .

والجواب عن الأول : أن الإتيان بهذا القدر من الكلام لا يكفي في حصول المعارضة ، لأن هذا المقدار كلام قليل لا يظهر فيه وجوه الفصاحة والبلاغة ، وهذا الجواب لا يتمشى إلا إذا قلنا التحدي ما وقع بجميع السور ، وإنما وقع بالسورة الطويلة التي يظهر فيها قوة الكلام .

(316/310)

---

والجواب عن الثاني : هب أنه لم يظهر لهم الوجه في كون القرآن معجز إلا أنه لما كان معجزاً في نفسه ، فسواء عرفوا ذلك الوجه أو لم يعرفوا فإنه لا يتفاوت الحال فيه .  
المسألة الثانية :

قوله : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ قال الزجاج : القراءة بنصب ﴿الحق﴾ على خبر ﴿كَانَ﴾ ودخلت ﴿هُوَ﴾ للفصل ولا موضع لها ، وهي بمنزلة "ما" المؤكدة ودخلت ليعلم أن قوله : ﴿الحق﴾ ليس بصفة لهذا وأنه خبر .  
قال : ويجوز هو الحق رفعاً ولا أعلم أحداً قرأ بها ولا خلاف بين النحويين في إجازتها ،

ولكن القراءة سنة، وروى صاحب "الكشاف" عن الأعمش أنه قرأ بها .

واعلم أنه تعالى لما حكى هاتين الشبهتين لم يذكر الجواب عن الشبهة الأولى، وهو قوله:

﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ ولكنه ذكر الجواب عن الشبهة الثانية، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ

اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 126. 127 ﴾

(317/310)

وقال السمرقندي:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ .

يعني إن كان ما يقول محمد من القرآن حقاً، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ .

قال أبو عبيدة كل شيء في القرآن أمطر فهو من العذاب، وما كان من الرحمة فهو مطر .

وروى أسباط عن السدي قال: قال النضر بن الحارث: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً،

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾، ﴿أَوَاتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزل ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ

وَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1] فاستجيب دعاؤه وقتل في يوم بدر .

قال سعيد بن جبير: قتل النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلاثة صبراً النضر بن الحارث،

وطعمة بن عدي ، وعقبة بن أبي معيط .

وكان النضر أسره المقداد ، فقال المقداد : يا رسول الله أسيري .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يَقُولُ " فقال : يا رسول

الله صلى الله عليه وسلم أسيري .

فقال : " اللَّهُمَّ اغْنِ الْمِقْدَادَ مِنْ فَضْلِكَ " .

فقال المقداد : هذا الذي أردت فنزل ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

(318/310)

وقال الثعلبي :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ ﴾ الآية

نزلت أيضاً في النضر بن الحارث بن علقمة بن كندة من بني عبد الدار .

قال ابن عباس : لما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن القرون الماضية ، قال النضر

: لو شئت لقلت مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين في كتبهم .

فقال عثمان بن مظعون : اتق الله فإن محمداً يقول الحق . قال : فأنا أقول الحق . قال : فإن



محمدًا يقول: لا إله إلا الله . قال: فأنا أقول لا إله إلا الله . ولكن هذه شأن الله يعني الاصنام

. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدُّ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [

الزخرف: 81] قال النضر: ألا ترون أن محمدًا قد صدقني فيما أقول يعني قوله ﴿ إِنْ

كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدُّ ﴾ [الزخرف: 81].

قال له المغيرة بن الوليد: والله ما صدقتك ولكنه يقول ما كان للرحمن ولد .

ففظن لذلك النضر فقال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك .

﴿ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ ﴿ هُوَ ﴾ عماداً (1)

وتوكيد وصلة في الكلام، و ﴿ الحق ﴾ نصب بـجبر كان ﴿ فَأَمْطِرُ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ

السَّمَاءِ ﴾ كما أمطرتها على قوم لوط .

قال أبو عبيدة: ما كان من العذاب . يقال: فينا مطر ومن الرحمة مطر ﴿ أَوَائْتْنَا بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ ﴾ أي بنفس ما عذبت به الأمم وفيه نزل: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج:

1].

قال عطاء: لقد نزل في النضر بضعة عشرة آية من كتاب الله فحاق به ما سأل من العذاب

يوم بدر .

قال سعيد بن جبير: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: " ثلاثة صبروا منكم

من قريش المطعم بن عدي . وعقبة بن أبي معيط . والنضر بن الحارث " .

(1) العماد : الذي يكون بين كلامين لا يتم المعنى إلا به ، ويسمى عند البصريين ضمير

الفصل

(319/310)

---

" وكان النضر أسير المقداد فلما أمر بقتله قال المقداد : أسيري يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول " قال المقداد : أسيري يا رسول الله ، قالها ثلاث مرّات . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الثالثة : " اللهم اغن المقداد من فضلك " .

فقال المقداد : هذا الذي أردت " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(320/310)

---

وقال الماوردي :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

في هذا القول وجهان :

أحدهما : أنهم قالوا ذلك عنادا للحق وبغضا للرسول صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنهم قالوا ذلك اعتقادا أنه ليس بحق . وفيهم نزل قوله تعالى ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ

وَاقِعٍ ﴾ [المعارج : 1] وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا ﴾ [ص : 16] .

قال عطاء : لقد نزلت في النضر بضع عشرة آية من كتاب الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(321/310)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ الآية ،

روي عن مجاهد وابن جبير وعطاء والسدي أن قائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث

الذي تقدم ذكره ، وفيه نزلت هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد : وترتب أن يقول النضر بن الحارث مقالة وينسبها القرآن إلى جميعهم

، لأن النضر كان فيهم موسوماً بالنبيل والفهم مسكوناً إلى قوله ، فكان إذا قال قولاً قاله منهم

كثير واتبعوه عليه حسبما يفعله الناس أبداً بعلمائهم وفقهائهم ، والمشار إليه بهذا هو القرآن

وشرع محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي حملهم على هذه المقالة هو الحسد ، وذلك أنهم استبعدوا أن يكرم الله عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم هذه الكرامة ، وعميت بصائرهم عن الهدى ، وصمموا على أن هذا ليس بحق ، فقالوا هذه المقالة كما يقول الإنسان لأمر قد تحقق بزعمه إنه لم يكن ، إن كان كذا وكذا ففعل الله بي وصنع ، وحكى ابن فورك أن هذه المقالة خرجت مخرج العناد مع علمهم بأنه حق ، وكذلك ألزم بعض أهل اليمن معاوية بن أبي سفيان القصة المشهورة في باب الأجوبة ، وحكاها الطبري عن محمد بن قيس ويزيد بن رومان .

قال القاضي أبو محمد : وهذا بعيد التأويل ولا يقول هذا على جهة العناد عاقل ، ويجوز في العربية رفع ﴿ الحق ﴾ على أنه خبر ﴿ هو ﴾ والجملة خبر ﴿ كان ﴾ ، قال الزجاج : ولا أعلم أحداً قرأ بهذا الجائز وقراءة الناس إنما هي بنصب " الحق " على أن يكون خبر " كان " ويكون هو فصلاً ، فهو حينئذ اسم وفيه معنى الإعلام بان الذي بعده خبر ليس بصفة . و ﴿ أمطر ﴾ إنما يستعمل في المكروه ومطر في الرحمة كذا قال أبو عبيدة .

قال القاضي أبو محمد : ويعارض هذه قوله ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ [ الأحقاف : 24 ] لأنهم ظنوها سحابة رحمة ، وقولهم ﴿ من السماء ﴾ مبالغة وإغراق وهذا النوعان اللذان اقترحوهما هما السالفان في الأمم عافانا الله وعفا عنا ولا أضلنا بمنّة وبمنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في النصر أيضاً ، رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، والسدي .

والثاني : أنها نزلت في أبي جهل ، فهو القائل لهذا ؛ قاله أنس بن مالك ، وهو مخرج في "الصحيحين" .

والثالث : أنها نزلت في قريش ، قالوا : هذا ، ثم ندموا فقالوا غفرانك اللهم ، فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، رواه أبو معشر عن يزيد ابن رومان ، ومحمد بن قيس .

وفي المشار إليه بقوله : ﴿ إِن كَانَ هَذَا ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه القرآن .

والثاني : كل ما يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمر بالتوحيد وغيره .

والثالث : أنه إكرام محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة من بين قريش . انتهى انتهى . اهـ

❖ زاد المسير ح 3 ص ❖

(323/310)

وقال القرطبي :

❖ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) ❖

القراء على نصب "الحق" على خبر "كان" .

ودخلت "هو" للفصل .

ويجوز "هو الحق" بالرفع .

❖ مِنْ عِنْدِكَ ❖ قال الزجاج : ولا أعلم أحداً قرأ بها ، ولا اختلاف بين النحويين في

إجازتها ، ولكن القراءة سنة ، لا يقرأ فيها إلا بقراءة مرضية .

واختلف فيمن قال هذه المقالة ؛ فقال مجاهد وابن جبير : قائل هذا هو النضر بن الحارث .

أنس بن مالك : قائله أبو جهل ؛ رواه البخاري ومسلم .

ثم يجوز أن يقال : قالوه لشبهة كانت في صدورهم ، أو على وجه العناد والإبهام على الناس

أنهم على بصيرة، ثم حل بهم يوم بدر ما سألوا .

حكى أن ابن عباس لقيه رجل من اليهود؛ فقال اليهودي: ممن أنت؟ قال: من قريش .

فقال: أنت من القوم الذين قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية .

فهلأ عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له! إن هؤلاء قوم يجهلون .

قال ابن عباس: وأنت يا إسرائيلي، من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذي

أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه؛ حتى قالوا: ﴿اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة

﴾ [الأعراف: 138] فقال لهم موسى: "إنكم قوم تجهلون" فأطرق اليهودي مفحماً .

﴿فأمطر﴾ أمطر في العذاب .

ومطر في الرحمة؛ عن أبي عبيدة . وقد تقدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير القرطبي ح 7

ص ﴿

(324/310)

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا

حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾

نزلت في النضر بن الحرث أيضاً .

قال ابن عباس : لما قص رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) شأن القرون الماضية ، قال النضر بن الحرث : لو شئت لقلت مثل هذا فقال له عثمان بن مظعون : اتق الله فإن محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) يقول الحق قال وأنا أقول الحق .

قال : فإن محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) يقول لا إله إلا الله .

قال : وأنا أقول لا إله إلا الله .

ولكن هذه بنات الله ، يعني الأصنام ، ثم قال : اللهم إن كان هذا هو الحق يعني القرآن الذي جاء به محمد ( صلى الله عليه وسلم ) .

وقيل : يعني إن كان الذي يقول محمد ( صلى الله عليه وسلم ) من أمر التوحيد وادعاء النبوة وغير ذلك هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء يعني كما أمطرتها على قوم لوط أو اتنا بعذاب أليم : يعني مثل ما عذبت به الأمم الماضية ، في النضر بن الحرث نزل سأل سائل بعذاب واقع .

قال عطاء : لقد نزل في النضر بن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر قال سعيد بن جبير : قتل رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحرث وروى أنس بن مالك أن الذي قال ذلك أبو جهل ( ق ) .



عن أنس قال : قال أبو جهل اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية فلما أخرجوه نزلت وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدونهم عن المسجد الحرام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ﴾

(325/310)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ قائل ذلك النضر ، وقيل أبو جهل رواه البخاري ومسلم ، وقال الجمهور : قائل ذلك كفار قريش والإشارة في قوله إن كان هذا إلى القرآن أو ما جاء به الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) من التوحيد وغيره أو نبوة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) من بين سائر قريش أقوال وتقدم الكلام على اللهم ، وقرأ الجمهور هو الحق بالنصب جعلوا هو فصلاً ، وقرأ الأعمش وزيد بن علي بالرفع وهي جائزة في العربية فالجملة خبر كان وهي لغة تميم يرفعون بعد هو التي هي فصل في لغة غيرهم كما قال :  
وكنت عليها بالملائت أقدر . . .

وتقدّم الكلام على الفصل وفائدته في أول البقرة، وقال ابن عطية ويجوز في العربية رفع الحق  
على أنه خبر والجملة خبر ﴿ كان ﴾ .

(326/310)

---

قال الزجاج ولا أعلم أحداً قرأ بهذا الجائز، وقراءة الناس إنما هي بنصب ﴿ الحق ﴾  
انتهى، وقد ذكر من قرأ بالرفع وهذه الجملة الشرطية فيها مبالغة في إنكار الحق عظيمة أي  
إن كان حقاً فعاقبنا على إنكاره بأمطار الحجارة علينا أم بعذاب آخر، قال الزمخشري  
ومراد نفى كونه حقاً فإذا انتفى كونه حقاً لم يستوجب منكره عذاباً فكان تعليق العذاب  
بكونه حقاً مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالحال في قوله إن كان الباطل حقاً مع اعتقاده أنه  
ليس بحق وقوله ﴿ هو الحق ﴾ تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين هذا هو  
الحق ويقال أمطرت كأنجمت وأسبلت ومطرت كهتفت وكثر الأمطار في معنى العذاب،  
فإن قلت ) : فما فائدة قوله ﴿ من السماء ﴾ والأمطار لا تكون إلا منها، ( قلت ) : كأنه  
أراد أن يقال فأمطر علينا السجيل وهي الحجارة المسومة للعذاب موضع حجارة من  
السماء موضع السجيل، كما يقال صبّ عليه مسرودة من حديد يريد درعاً انتهى،  
ومعنى جوابه أن قوله ﴿ من السماء ﴾ جاء على سبيل التأكيد كما أن قوله من حديد

معناه التأكيد لأن المسرودة لا تكون إلا من حديد كما أن الأمطار لا تكون إلا من السماء .  
وقال ابن عطية: وقولهم ﴿ من السماء ﴾ مبالغة وإغراق انتهى .

(327/310)

---

والذي يظهر لي أن حكمة قولهم ﴿ من السماء ﴾ هي مقابلتهم مجيء الأمطار من الجهة التي ذكر ( صلى الله عليه وسلم ) أنه يأتيه الوحي من جهتها أي إنك تذكر أنه يأتيك الوحي من السماء فأتنا بعداب من الجهة التي يأتيك منها الوحي إذ كان يحسن أن يعبر عن إرسال الحجارة عليهم من غير جهة السماء بقولهم: ﴿ فأمطر علينا حجارة ﴾ ، وقالوا ذلك على سبيل الاستبعاد والاعتقاد أن ما أتى به ليس بحق ، وقيل على سبيل الحسد والعناد مع علمهم أنه حق واستبعد هذا الثاني ابن فورك قال : ولا يقول هذا على وجه العناد عاقل انتهى ، وكأنه لم يقرأ ﴿ ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ وقصة أمية بن أبي الصلت وأخبار اليهود الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ ، وقول الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) لهم : " والله إنكم تعلمون أنني رسول الله " أو كلام يقاربه واقتراحهم هذين النوعين هو على ما جرى عليه اقتراح الأمم السالفة ، وسأل يهودي ابن عباس ممن أنت قال من قریش فقال أنت من الذين قالوا ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك

﴿ الآيّة ، فهلا قالوا فاهدنا إليه ، فقال ابن عباس فأنّت يا إسرائيلي من الذين لم تحفّ  
أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه ونجا موسى وقومه حتى قالوا اجعل لنا  
إلهاً كما لهم آلهة فقال له موسى ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ فأطرق اليهودي مفحماً ، وعن  
معاوية أنه قال لرجل من سبأ ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة فقال أجهل من قومي  
قومك قالوا لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) حين دعاهم إلى الحق إن كان هذا هو الحق  
الآيّة ، ولم يقولوا : فاهدنا له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(328/310)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هذا أيضاً من أباطيل ذلك اللعين . روي أنه لما قال : إن هذا إلا أساطيرُ  
الأولين قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ويلك إنه كلامُ الله تعالى " فقال ذلك والمعنى أن  
القرآن إن كان حقاً منزلاً من عندك فأَمْطِرْ عَلَيْنَا الحِجَارَةَ عقوبةً على إنكارنا أو ائتنا  
بعذاب أليم سواه ، والمرادُ منه التهكُّمُ وإظهارُ اليقين والجزمِ التامِ على أنه ليس كذلك  
وحاشاه ، وقرىء الحقُّ بالرفع على أن هو مبتدأُ لأفصل ، وفائدةُ التعريفِ فيه الدلالةُ على

أن المعلق به كونه حقاً على الوجه الذي يدّعيه صلى الله عليه وسلم وهو تنزيله لا الحقُّ  
مطلقاً لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل كالأساطير. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير  
أبي السعود ح 4 ص ﴾

وقال الألوسى :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (32)

قائل هذا النصر أيضاً على ما روي عن مجاهد .

وسعيد بن جبر ، وجاء في رواية أنه لما قال أولاً ما قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ويحك  
إنه كلام الله تعالى فقال ذلك .

وأخرج البخاري .

والبيهقي في الدلائل عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما أنه أبو جهل بن هشام .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن رومان .

ومحمد بن قيس أن قريشاً قال بعضها لبعض أكرم الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم من

بيننا اللهم إن كان هذا هو الحق الخ وهو أبلغ في الجحود من القول الأول لأنهم عدوا حقيقته

محالاً فلذا علقوا عليها طلب العذاب الذي لا يطلبه عاقل ولو كانت ممكنة لفروا من تعليقه

عليها ، وما يقال : إن أن للخلو عن الجزم فكيف استعملت في صورة الجزم ؟ أجاب عنه

القطب بأنها لعدم الجزم بوقوع الشرط ومتى جزم بعدم وقوعه عدم الجزم بوقوعه ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ [البقرة: 23] وفيه بحث ذكره العلامة الثاني .

(329/310)

---

واللام في ﴿ الحق ﴾ قيل للعهد ، ومعنى العهد فيه أنه الحق الذي ادعاه النبي صلى الله عليه وسلم وهو أنه كلام الله تعالى المنزل عليه عليه الصلاة والسلام على النمط المخصوص ﴿ وَمَنْ عِنْدَكَ ﴾ إن سلم دلالة عليه فهو للتأكيد وحينئذٍ فالمعلق به كونه حقاً بالوجه الذي يدعيه النبي صلى الله عليه وسلم لا الحق مطلقاً لتجويزهم أن كون مطابقاً للواقع غير منزل ﴿ أساطير الأولين ﴾ وفي "الكشاف" أن قولهم : هو الحق تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين ، هذا هو الحق ، وزعم بعضهم أن هذا قول بأن اللام للجنس وأشار إلى أن الأولى حملها على العهد الخارجي على معنى الحق المعهود المنزل من عند الله تعالى هذا الأساطير الأولين فالتركيب مفيد لتخصيص المسند إليه بالمسند على أكد وجه ، وحمل كلام البيضاوي على ذلك وطعن في مسلك الكشاف بعدم ثبوت قائل أولاً على وجه التخصيص تهكم به ، ولا يخفى ما فيه من المنع والتعسف ﴿ وأمطر ﴾ استعارة أو مجاز لأنزل ، وقد تقدم الكلام في المطر والإمطار ، وقوله سبحانه : ﴿ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ

﴿ صفة حجارة وذكره للإشارة إلى أن المراد بها السجيل والحجارة المسومة للعذاب ،  
يروى أنها حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم ، وجوز أن يكون  
الجار متعلقاً بالفعل قبله ، والمراد بالعذاب الأليم غير إمطار الحجارة بقريئة المقابلة ، ويصح  
أن يكون من عطف العام على الخاص ، وتعلق ﴿ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ بمحذوف قيل : هو حال  
مما عنده أو صفة له ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما .  
والأعمش ﴿ الحق ﴾ بالرفع على أن هو مبتدأ لأفصل ، وقول الطبرسي : إنه لم يقرأ بذلك  
ليس بذلك ، ولا أرى فرقا بين القراءتين من جهة المراد بالتعريف خلافاً لمن زعمه . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(330/310)

---

وقال ابن عاشور :  
﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (32)  
عطف على ﴿ وإذ يكره الذين كفروا ﴾ [ الأنفال : 30 ] أو على ﴿ قالوا قد سمعنا  
﴿ [ الأنفال : 31 ] وقائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث صاحب المقالة السابقة ،

وقالها أيضاً أبو جهل وإسناد القول إلى جميع المشركين للوجه الذي أسند له قول النضر ﴿  
قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال: 31] فارجع إليه ، وكذلك طريق حكاية  
كلامهم إنما هو جار على نحو ما قررته هنالك من حكاية المعنى .  
وكلامهم هذا جار مجرى القسم ، وذلك أنهم يقسمون بطريقة الدعاء على أنفسهم إذا كان  
ما حصل في الوجود على خلاف ما يحكونه أو يعتقدونه ، وهم يحسبون أن دعوة المرء على  
نفسه مستجابة ، وهذه طريقة شهيرة في كلامهم قال النابغة :

ما إن أتيتُ بشيء أنت تكرهه

إذن فلارفعتُ سوطي إليَّ يدي . . .

وقال معدان بن جواس الكندي ، أو حُجَّية بن المضرب السكوني :

إن كان ما بُلِّغْتَ عني فلامني

صديقي وشكَّتُ من يدي الأنامل . . .

وكفَّنتُ وحدي مُنذراً بردائه

وصادفَ حوطاً من أعاديِّ قاتل . . .

وقال الأشتر النخعي :

بقيتُ وفري وانخرفتُ عن العلا

ولقيتُ أضيافي بوجه عبوس . . .



إن لم أشنَّ على ابن حرب غارة

لم تحل يوماً من نهاب نفوس . . .

وقد ضمّن الحريري في "المقامة العاشرة" هذه الطريقة في حكاية يمين وجهها أبو زيد

السروجي على غلامه المزعوم لدى والي رَحبة مالك بن طوق حتى اضطرَّ الغلام إلى أن

يقول: "الاصطلاء بالبلية، ولا الابتلاء بهذه الإلية".

(331/310)

---

فمعنى كلامهم: إن هذا القرآن ليس حقاً من عندك فإن كان حقاً فأصبنا بالعذاب، وهذا

يقتضي أنهم قد جزموا بأنه ليس بحق وليس الشرط على ظاهره حتى يفيد ترددهم في كونه

حقاً ولكنه كناية عن اليمين وقد كانوا لجهلهم وضلالهم يحسبون أن الله يتصدى لمخاطرتهم

، فإذا سألوه أن يمطر عليهم حجارة إن كان القرآن حقاً منه أمطر عليهم الحجارة وأرادوا أن

يظهروا لقومهم صحة جزمهم بعدم حقية القرآن فأعلنوا الدعاء على أنفسهم بأن يصيبهم

عذاب عاجل إن كان القرآن حقاً من الله ليستدلوا بعدم نزول العذاب على أن القرآن ليس

من عند الله، وذلك في معنى القسم كما علمت.

وتعليق الشرط بجرف ﴿ إن ﴾ لأن الأصل فيها عدم اليقين بوقوع الشرط، فهم غير

جازمين بأن القرآن حق ومنزل من الله بل هم موقنون بأنه غير حق واليقين بأنه غير حق  
أخص من عدم اليقين بأنه حق .

وضمير ﴿ هو ﴾ ضميرُ فصل فهو يقتضي تقوي الخبر أي : إن كان هذا حقاً ومن عندك  
بلاشك .

وتعريف المسند بلام الجنس يقتضي الحصر فاجتمع في التركيب ثنؤ وحصر وذلك تعبيرهم  
يكون به أقوال القرآن المنوّهة بصدقه كقوله تعالى : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ [ آل  
عمران : 62 ] وهم إنما أرادوا إن كان القرآن حقاً ولا داعي لهم إلى نفي قوة حقيقته ولا نفي  
انحصار الحقيقة فيه ، وإن كان ذلك لازماً لكونه حقاً ، لأنه إذا كان حقاً كان ما هم عليه  
باطلاً فصح اعتبار انحصار الحقيقة فيه انحصاراً إضافياً ، إلا أنه لا داعي إليه لولا أنهم  
أرادوا حكاية الكلام الذي يبطلونه .

وهذا الدعاء كناية منهم عن كون القرآن ليس كما يوصف به ، للتلازم بين الدعاء على  
أنفسهم وبين الجزم بانتفاء ما جعلوه سبب الدعاء بحسب عرف كلامهم واعتقادهم .  
و ﴿ من عندك ﴾ حال من الحق أي منزلاً من عندك فهم يطعنون في كونه حقاً وفي كونه  
منزلاً من عند الله .

---

وقوله: ﴿ من السماء ﴾ وصف لحجارة أي حجارة مخلوقة لعذاب من تصيبه لأن الشأن أن مطر السماء لا يكون بحجارة كقوله تعالى: ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ [ الفجر: 13 ] (والصب قريب من الأمطار).

وذكروا عذاباً خاصاً وهو مطر الحجارة ثم عمموا فقالوا: ﴿ أو اتنا بعذاب اليم ﴾ ويريدون بذلك كله عذاب الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالآخرة. ووصفوا العذاب بالأيام زيادة في تحقيق يقينهم بأن المحلوف عليه بهذا الدعاء ليس منزلاً من عند الله فلذلك عرضوا أنفسهم لخطر عظيم على تقدير أن يكون القرآن حقاً ومنزلاً من عند الله.

وإذ كان هذا القول إنما يلزم قائله خاصة ومن شاركه فيه ونطق به مثل النضر وأبي جهل ومن التزم ذلك وشارك فيه من أهل ناديهم، كانوا قد عرضوا أنفسهم به إلى تعذيب الله إياهم انتصاراً للنبيه وكتابه، وكانت الآية نزلت بعد أن حق العذاب على قائله هذا القول وهو عذاب القتل المهين بأيدي المسلمين يوم بدر، قال تعالى: ﴿ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِمُهُمْ وَيُنْصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [ التوبة: 14 ] وكان العذاب قد تأخر عنهم زمناً اقتضته حكمة الله، بين الله لرسوله في هذه الآية سبب تأخر العذاب عنهم حين قالوا ما قالوا،

وأيقظ النفوس إلى حلوله بهم وهم لا يشعرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9



(333/310)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (32)

و"إذ" تأتي للظرف أيضاً ، ولم يقل سبحانه وتعالى : واذكر أن قالوا ، بل قال : "إذ قالوا" .  
وقد بلغ بهم العجز إلى أن قالوا إن كان هذا القرآن هو الحق القادم من عندك فأمطر علينا  
حجارة ، أو ائتنا بعذاب أليم .

أليس هذا الكلام دليلاً على غباء قائله ؟ بالله لو كان عندهم عقل ومنطق وتفكير ، أكانوا  
يقولون ذلك ؟

ألم يكن من المناسب أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، أو  
فاجعلنا تقبله ؟ . وما داموا قد قالوا : " اللهم " فالمنادى هو الله .

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ [ الأنفال : 32 ] .

إذن هم يعلمون أن الله عز وجل عنديّة، وفيها حق، وهكذا نرى أنهم اعترفوا بوجود الله، وأنّ عند الإله حقاً . فكيف إن جاء إنسان وقال لكم: إني رسول من عند الله، وهذا هو المنهج، وهو منهج ومعجزة في وقت واحد، ألم يكن من الواجب أن تستشرف آذانكم إلى من يبلغ عن الله هذا الحق وأن تستجيبوا له؟ . لكن ما داموا قد استمطروا على أنفسهم اللعنة والعذاب، فهذا دليل كراهيتهم لمحمد، ومن أجل هذه الكراهية دعوا الله أن ينزل عليهم العذاب كما فعل بالأمم السابقة - وطلبهم هذا للعذاب يدل على أنهم علموا أن من يكذب الرسل ويرفض المنهج إنما يتلقى العذاب من الله . وهكذا يتبين لنا أن ما ينقصهم لإعلان الإيمان هو عدم قبولهم لرسول الله شخصياً، ويتمثل هذا في قول الحق تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: 31] .

(334/310)

---

إذن لو أن القرآن نزل على شخص آخر؛ لآمنوا به . وفي هذا اعتراف بأن القرآن معجزة، ومنهج . وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ورد على لسان أبي جهل وهذا يدل على كثرة

جهله وشدة تكذبه وعناده وعتوه هو ومن معه من المشركين المكذبين . فعن أنس بن

مالك : قال أبو جهل بن هشام :

﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب  
اليم ﴾ فنزلت : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾  
﴿

وهؤلاء المعاندون قالوا أيضا : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ [

الإسراء : 92 ] .

وهذا دليل على التخبط في الكلام ، وفقدان الوعي العقلي .

﴿ أو ائتنا بعذاب اليم ﴾ [ الأنفال : 32 ] .

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يصيب بالعذاب قوماً بعينهم وقادر على نجاة المؤمنين

، وشاء الله سبحانه ألا ينزل العذاب ؛ لأن رؤية المتألم حتى ولو كان عدواً ، فيه إيلاء -

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ . . . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(335/310)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله "هُوَ الْحَقُّ"

العامّةُ على نصب "الحقّ" وهو خبر الكون، و"هُوَ" فصل، وقد تقدّم الكلام عليه.

وقال الأخفش: "هُوَ" زائد، ومراده ما تقدّم من كونه فصلاً.

وقرأ الأعمش، وزيد بن علي: برفع "الحقّ" ووجهها ظاهرٌ، برفع "هُوَ" بالابتداء و

الحقّ "خبره، والجملَةُ خبرُ الكون؛ كقوله: [الطويل]

2699 - تَحِنُّ إِلَى لَيْلَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا . . .

وَكُنْتَ عَلَيْهَا بِالْمَلَأَنْتَ أَقْدَرُ

وهي لغةُ تميم.

وقال ابن عطية: ويجوز في العربية رفع "الحقّ" على خبر "هُوَ" والجملَةُ خبر لـ "كان".

قال الزّجاجُ "ولا أعلم أحداً قرأ بهذا الجائز"، وقد ظهر من قرأ به وهما رجلان جليلان.

قوله: "مِنْ عِنْدِكَ" حال من معنى "الحقّ": أي: الثَّابِتُ حال كونه من عندك.

وقوله "مِنْ السَّمَاءِ" فيه وجهان:

أحدهما: أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْفِعْلِ قَبْلَهُ.

والثاني: أَنَّهُ صِفَةٌ لـ "حِجَارَةٍ" فيتعلّقُ بِمَحذُوفٍ.

وقوله: "مِنَ السَّمَاءِ" مع أَنَّ المطر لا يكون إلا منها ، قال الزمخشريُّ: "كأنه أراد أن يقال: فأمطرُ علينا السَّجِيلَ ، فوضع حجارة من السماء موضع السَّجِيلِ كما يقالك صب عليه مسرودة من حديد ، تريدُ درعاً" .

قال أبو حيان: "إنه يريد بذلك التأكيد" قال: "كَمَا أَنَّ قوله: "من حديد" معناه التأكيد؛ لأنَّ المسرود لا يكون إلا من حديدٍ ، كما أَنَّ الأمطار لا تكونُ إلا من السَّمَاءِ" .

(336/310)

---

وقال ابنُ عطية: "قولهم "مِنَ السَّمَاءِ" مبالغة وإغراق" .  
قال أبو حيان: "والذي يظهر أَنَّ حكمة قولهم: "مِنَ السَّمَاءِ" هي مقابلتهم مجيء الأمطار من الجهة التي ذكر عليه السلام أنه يأتيه الوحي من جهتها ، أي: إنك تذكر أن الوحي يأتيك من السَّمَاءِ ، فأتنا بالعذاب من الجهة التي يأتيك الوحي منها ، قالوه استبعاداً له" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 504 . 505 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا



بَعْدَابِ أَلِيمٍ (32) ❖

دَلَّ سَوَالَهُمُ الْعَذَابَ عَلَى تَصْمِيمِ عَقْدِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،  
وَاسْتَيْقَنُوا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُ لَا يُسْتَجَابُ فِيهِمْ مَا يَدْعُونَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ .  
وَفِي هَذَا أَظْهَرَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ سَكُونَ النَّفْسِ إِلَى الشَّيْءِ لَيْسَ بِعِلْمٍ ؛ لِأَنَّهُ كَمَا يَوْجَدُ مَعَ الْعِلْمِ  
يَوْجَدُ مَعَ الْجَهْلِ . انْتَهَى . انتهى . ❖ لطائف الإشارات ج 1 ص 621 ❖

(337/310)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْكِتَابُ : الْحَاوِي فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ  
وَيُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاكِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورْسُلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى عشر بعد الثلاثائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/311)

---

الجزء الحادى عشر بعد الثلاثائة

من الآية ﴿ 33 ﴾ من سورة الأنفال

وحتى الآية ﴿ 37 ﴾ من نفس السورة

(4/311)

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (33)



مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

والسر الذي بينه في هذه الآية في إِمها لهم هو أنه ما منعه من الإسراع في إجابة دعائهم كما فعل في وقعة بدر إلا إجلال مقامه - صلى الله عليه وسلم - بين أظهرهم فقال: ﴿ وما كان الله ﴾ أي مع ما له من صفات الكمال والعظمة والجلال ، وأكد النفي بقوله :  
﴿ ليعذبهم ﴾ أي ليجدد لهم ذلك في وقت من الأوقات ﴿ وأنت ﴾ أي يا أكرم الخلق  
﴿ فيهم ﴾ فإنه لعين

تجازي ألف عين وتكرم . . .

ولما بين بركة وجوده ، أتبعه ما يخلفه - صلى الله عليه وسلم - إذا غاب في العباد من العذاب فقال : ﴿ وما كان الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ معذبهم ﴾ أي مثبتاً وصف تعذيبهم بحيث يدوم ﴿ وهم يستغفرون ﴾ أي يطلبون الغفران بالدعاء أو يوجدون هذا اللفظ فيقولون : أسْتَغْفِرُ الله ، فإن لفظه وإن كان خيراً فهو دعاء وطلب ، فوجوده - صلى الله عليه وسلم - في قوم أبلغ من نفي العذاب عنهم ، وهذا الكلام ندب لهم إلى الاستغفار وتعليم لما يدفع العذاب عنهم كما تقول : ما كنت لأضربك وأنت تطيعني ، أي فأطعني - نبه عليه الإمام أبو جعفر النحاس ، وفي ذلك حث عظيم لمن صار - صلى الله عليه وسلم - بين أظهرهم من المسلمين صادقهم ومنافقهم على الرغبة في مواصلته والرغبة من مفارقه ، وتعريف لهم بما لهم في حلول ذاته المشرقة في ساحتهم من جليل النعمة ترغيباً في المحبة لطول عمره والاستمسك بعزره في نهيه وأمره إذ المراد - والله أعلم - بالاستغفار طلب المغفرة

بشرطه من الإيمان والطاعة ، وعن أبي موسى الأشعري -رضى الله عنهم- أنه كان في هذه الأمة أمانان ، أما النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد مضى ، وأما الاستغفار فهو كائن فيكم إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 212 ﴾

(5/311)

## فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن تقرير وجه الجواب أن الكفار لما بالغوا وقالوا : اللهم إن كان محمد محققاً فأمطر علينا حجارة من السماء ، ذكر تعالى أن محمداً وإن كان محققاً في قوله إلا أنه مع ذلك لا يطر الحجارة على أعدائه ، وعلى منكري نبوته ، لسببين : الأول : أن محمداً عليه الصلاة والسلام ما دام يكون حاضراً معهم ، فإنه تعالى لا يفعل بهم ذلك تعظيماً له ، وهذا أيضاً عادة الله مع جميع الأنبياء المتقدمين ، فإنه لم يعذب أهل قرية إلا بعد أن يخرج رسوهم منها ،

كما كان في حق هود وصالح ولوط .

فإن قيل : لما كان حضوره فيهم مانعاً من نزول العذاب عليهم ، فكيف قال : ﴿ قَاتِلُوهُمْ

يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [ التوبة : 14 ] .

قلنا : المراد من الأول عذاب الاستئصال ، ومن الثاني : العذاب الحاصل بالحاربة

والمقاتلة .

والسبب الثاني : قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ وفي تفسيره وجوه :

الأول : وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون ، فاللفظ وإن كان عاماً

إلا أن المراد بعضهم كما يقال : قتل أهل الحلة رجلاً ، وأقدم أهل البلدة الفلانية على الفساد

، والمراد بعضهم .

الثاني : وما كان الله معذب هؤلاء الكفار ، وفي علم الله أنه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله

ويستغفرونه ، فوصفوا بصفة أولادهم وذرايرهم .

الثالث : قال قتادة والسدي : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي لو استغفروا لم

يعذبوا ، فكان المطلوب من ذكر هذا الكلام استدعاء الاستغفار منهم .

أي لو اشتغلوا بالاستغفار لما عذبهم الله .

ولهذا ذهب بعضهم إلى أن الاستغفار ههنا بمعنى الإسلام والمعنى : أنه كان معهم قوم كان

في علم الله أن يسلموا .  
منهم أبو سفيان بن حرب .

(6/311)

وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب .

والحرث بن هشام .

وحكيم بن حزام .

وعدد كثير ، والمعنى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ مع أن في علم الله أن فيهم من يؤل أمره إلى الإيمان .

قال أهل المعاني : دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب .

قال ابن عباس : كان فيهم أمانان نبي الله والاستغفار ، أما النبي فقد مضى ، وأما

الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص

﴿ 127

(7/311)

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

وكان ذلك القول من النضر حين كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ، فأخبر الله تعالى أنه لا يعذبهم وأنت بين ظهرانيهم ، حتى يخرجك عنهم كما أخرج الأنبياء قبلك عن قومهم ثم عذبهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، يعني يصلون لله الخمس وهم أهل الإيمان ؛ وقال مجاهد : وهم يستغفرون يعني وهم مسلمون ؛ ويقال : وفيهم من يؤول مرة إلى الإسلام ؛ ويقال : وهم يستغفرون يعني وفي أصلابهم من يسلم .

وروي عن أبي موسى الأشعري أنه قال : كان أمانان في الأرض ، رفع الله أحدهما وبقي الآخر ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ وقال عطية : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ ، يعني المشركين حتى يخرجك منهم .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، يعني المؤمنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر

العلوم - 2 ص ﴿

وقال الثعلبي :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

اختلفوا في معنى هذه الآية فقال محمد بن إسحاق بن يسار : هذه حكاية عن المشركين ،  
إنهم قالوها وهي متصلة بالآية الأولى ، [ وقيل ] : إن المشركين كانوا يقولون : والله إن الله لا  
يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمة ونبينا معهم ، وذلك من قولهم ورسول الله بين أظهرهم ،  
فقال الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم يذكر له جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على  
أنفسهم إذ قالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ وقالوا : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ  
لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ثم قال ردًا عليهم ﴿  
وَمَا لَهُمْ الْأَيُّعُذِبُهُمُ اللَّهُ ﴾ وإن كنت بين أظهرهم أن كانوا يستغفرون ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ  
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ .

وقال آخرون : هذا كلام مستأنف وهو قول الله تعالى حكاية عن نفسه ثم اختلفوا في

وجهها وتأويلها :

فقال ابن أبيزي وأبو مالك والضحاك : تأويلها : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم بين



أظهرهم .

قالوا : فأنزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة ثم خرج النبي من

بين أظهرهم .

وبقيت منها بقية من المسلمين يستغفرون . فأنزل الله بعد خروجه عليه حين استغفر

أولئك بها ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

ثم خرج أولئك البقية من المسلمين من بينهم فعذبوا وأذن الله بفتح مكة ، فهو العذاب الذي

وعدهم .

ابن عباس : لم يعذب أولئك حتى يخرج النبي منها والمؤمنون . قال الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يعني المسلمين فلما خرجوا قال

الله : ﴿ وَمَا لَهُمْ الْأَيُّعُذُّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ يعذبهم يوم بدر .

(9/311)

---

وقال بعضهم : هذا الاستغفار راجع الى المشركين : وما كان الله يعذب هؤلاء المشركين ما

دمت فيهم وما داموا يستغفرون . وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويقولون لبيك لبيك لا

شريك لك إلا شريك هو لك بملكه لو ما ملك ، ويقولون غفرانك غفرانك . هذه رواية أبي

زميل عن ابن عباس .

وروى ابن معشر عن يزيد بن روحان ومحمد بن قيس قالا : قالت قریش بعضها لبعض :  
محمد أكرمہ الله من بیننا ﴿ اللہم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من  
السماء ﴾ . الآية فلما أمسوا ندموا على ما قالوا ، فقالوا : غفرانك اللہم . فأنزل اللہ عز  
وجل ﴿ وما كان اللہ معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .  
وقال أبو موسى الأشعري : إنه كان فيكم أماناً لقوله تعالى ﴿ وما كان اللہ ليعذبهم وأنت  
فيهم وما كان اللہ معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

وأما النبي صلى الله عليه وسلم فقد مضى وأما الاستغفار فهو كائن إلى يوم القيامة .  
وقال قتادة [ وابن عباس ] وابن يزيد معنى : ﴿ وما كان اللہ معذبهم وهم يستغفرون ﴾ :  
أن لو استغفروا ، يقول إن القوم لو كانوا يستغفرون لما عذبوا ولكم لم يكونوا استغفروا ولو  
استغفروا فأقروا بالذنوب لكانوا مؤمنين .

وقال مجاهد وعكرمة : ( وهم يستغفرون ) أي يسلمون ، يقول : لو أسلموا لما عذبوا .  
وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ( وهم يستغفرون ) أي وفيهم من سبق له من اللہ  
الدخول في الإيمان .

وروى عن ابن عباس ومجاهد والضحاك : وهم يستغفرون أي يصلون . وقال الحسن :  
هذه الآية منسوخة بالآية التي تلتها : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم اللہ ﴾ إلى قوله : ﴿ بما كنتم

تَكْفُرُونَ ﴿ فقاتلوا بمكة فأصابوا فيها الجوع والخير .

وروى عبد الوهاب عن مجاهد ( وهم يستغفرون ) أي في [ أصلابهم ] من يستغفره . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(10/311)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه قال ذلك إكراما لنبيه وتعظيما لقدره أن يعذب قوما هو بينهم . تعظيما

لحرمة .

والثاني : إرساله فيهم رحمة لهم ونعمة عليهم فلم يجز أن يعذبهم وهو فيهم حتى يستحقوا

سلب النعمة بإخراجه عنهم .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : وما كان الله ليعذب مشركي أهل مكة وقد بقي فيهم من المسلمين قوم يستغفرون

وهذا قول الضحاك وأبي مالك وعطية .

والثاني : لا يعذبهم في الدنيا وهم يستغفرون فيها فيقولون : غفرانك .

قال ابن عباس : كان المشركون بمكة يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك لبيك لا شريك لك ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : " قَدْ قَدْ " فيقولون : الإِشْرِيكاً هُوك ، تملكه وما ملك ، ويقولون غفرانك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قاله أبو موسى ويزيد بن رومان ومحمد بن قيس .

والثالث : أن الاستغفار في هذا الموضع الإسلام ، ومعنى الكلام : وما كان الله معذبهم وهم يسلمون ، قاله عكرمة ومجاهد .

والرابع : وما كان الله معذب من قد سبق له من الله الدخول في الإسلام ، قاله ابن عباس .  
والخامس : معناه أنهم لو استغفروا لم يعذبوا استدعاء لهم إلى الاستغفار ، قاله قتادة والسدي وابن زيد .

والسادس : وما كان الله معذبهم أي مهلكهم وقد علم أن لهم أولاد وذرية يؤمنون ويستغفرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون - 2 ص ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (33)

قالت فرقة : نزلت هذه الآية كلها بمكة ، وقالت فرقة : نزلت كلها بعد وقعة بدر حكاية

عما مضى ، وقال ابن أبيزى : نزل قوله ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ بمكة إثر

قولهم ﴿ أوائنا بعذاب أليم ﴾ [ الأنفال : 32 ] ونزل قوله ﴿ وما كان الله معذبهم وهم

يستغفرون ﴾ عند خروج النبي صلى الله عليه وسلم عن مكة في طريقه إلى المدينة ، وقد

بقي بمكة مؤمنون يستغفرون ، ونزل قوله ﴿ وما لهم ﴾ إلى آخر الآية بعد بدر عند ظهور

العذاب عليهم .

قال القاضي أبو محمد : وأجمع المتأولون على أن معنى قوله ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت

فيهم ﴾ أن الله عز وجل لم يعذب قط أمة ونبيها بين أظهرها ، فما كان ليعذب هذه وأنت

فيهم ، بل كرامتك لديه أعظم ، قال : أراه عن أبي زيد سمعت من العرب من يقول " ما كان

ليعذبهم " بفتح اللام وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن ، واختلفوا في معنى قوله

﴿ وما كان الله معذبهم وهم مستغفرون ﴾ فقال ابن عباس وابن أبيزى وأبو مالك

والضحاك ما مقتضاه : إن الضمير في قوله ﴿ معذبهم ﴾ يعود على كفار مكة والضمير في

قوله ﴿ وهم ﴾ عائد على المؤمنين الذين بقوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ،

أي وما كان الله ليعذب الكفار والمؤمنون بينهم يستغفرون .

قال القاضي أبو محمد: ويدفع في صدر هذا القول أن المؤمنين الذين رد الضمير عليهم لم يجز لهم ذكر، وقال ابن عباس أيضاً ما مقتضاه: أن يقال الضميران عائدان على الكفار، وذلك أنهم كانوا يقولون في دعائهم غفرانك، ويقولون لبيك لا شريك لك، ونحو هذا مما هو دعاء واستغفار، فجعله الله أمانة من عذاب الدنيا، وعلى هذا تركب قول أبي موسى الأشعري وابن عباس إن الله جعل من عذاب الدنيا أمتين، كون الرسول صلى الله عليه وسلم مع الناس والاستغفار، فارتفعت الواحدة وبقي الاستغفار إلى يوم القيامة، وقال قتادة: الضمير للكفار، وقوله ﴿وهم يستغفرون﴾، جملة في موضع الحال أن لو كانت، فالمعنى وما كان الله معذبهم وهو بحال توبة واستغفار من كفرهم لو وقع ذلك منهم، واختاره الطبري، ثم حسن الزجر والتوقيف بعد هذا بقوله ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ وقال الزجاج ما معناه، إن الضمير في قوله ﴿وهم﴾ عائد على الكفار. والمراد به سبق له في علم الله أن يسلم ويستغفر، فالمعنى: وما كان الله ليعذب الكفار وفيهم من يستغفر ويؤمن في ثاني حال، وحكاها الطبري عن ابن عباس. وقال مجاهد في كتاب الزهراوي: المراد بقوله ﴿وهم يستغفرون﴾ ذرية المشركين يومئذ

الذين سبق لهم في علم الله أن يكونوا مؤمنين ، فالمعنى : وما كان الله ليعذبهم وذريتهم  
يستغفرون ويؤمنون ، فنسب الاستغفار إليهم ، إذ ذريتهم منهم ، وذكره مكّي ولم ينسبه ،  
وفي الطبري عن فرقة أن معنى ﴿ يستغفرون ﴾ يصلون ، وعن أخرى يسلمون ونحو هذا  
من الأقوال التي تتقارب مع قول قتادة . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(13/311)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

في المشار إليه قولان .

أحدهما : أهل مكة .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : وما كان الله ليعذبهم وأنت مقيم بين أظهرهم .

قال ابن عباس : لم تعذب قرية حتى يخرج نبيها والمؤمنون معه .

والثاني : وما كان الله ليعذبهم وأنت حي ؛ قاله أبو سليمان .

والثاني : أن المشار إليهم المؤمنون ، والمعنى : وما كان الله ليعذب المؤمنين بضرب من

العذاب الذي أهلك به من قبلهم وأنت حي ؛ ذكره أبو سليمان الدمشقي .

## فصل

قال الحسن ، وعكرمة : هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ [ الأنفال : 34 ] وفيه بعد لأن النسخ لا يدخل على الأخبار ، وقال ابن أبي عمير : كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ فخرج إلى المدينة ، فأنزل الله ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ وكان أولئك البقية من المسلمين بمكة يستغفرون ، فلما خرجوا أنزل الله ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ .  
وجميع أقوال المفسرين تدل على أن قوله : ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ كلام مبتدأ من إخبار الله عز وجل .

وقد روي عن محمد بن إسحاق أنه قال : هذه الآية من قول المشركين ، قالوا : والله إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ، فرد الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ .  
قوله تعالى : ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ وفي معنى هذا الكلام خمسة أقوال .

أحدها : وما كان الله معذب المشركين ، وفيهم من قد سبق له أن يؤمن ؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، واختاره الزجاج .



والثاني: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون الله، فانهم كانوا يلبون ويقولون: غفرانك؛ وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً، وفيه ضعف، لأن استغفار المشرك لا أثر له في القبول.

(14/311)

والثالث: وما كان الله معذبهم، يعني: المشركين، وهم يعني المؤمنين الذين بينهم يستغفرون؛ روى عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الضحاك، وأبو مالك: قال ابن الأنباري وُصفوا بصفة بعضهم، لأن المؤمنين بين أظهرهم، فأوقع العموم على الخصوص، كما يقال: قتل أهل المسجد رجلاً، وأخذ أهل البصرة فلاناً، ولعله لم يفعل ذلك إلا رجل واحد.

والرابع: وما كان الله معذبهم وفي أصلابهم من يستغفر الله، قاله مجاهد.

قال ابن الأنباري: فيكون معنى تعذيبهم: إهلاكهم؛ فالمعنى: وما كان الله مهلكهم، وقد سبق في علمه أنه يكون لهم أولاد يؤمنون به ويستغفرونه؛ فوصفهم بصفة ذراريهم، وغلبوا عليهم كما غلب بعضهم على كلهم في الجواب الذي قبله.

والخامس: أن المعنى لو استغفروا لما عذبهم الله، ولكنهم لم يستغفروا فاستحقوا العذاب، وهذا كما تقول العرب: ما كنت لأهينك وأنت تكرمني؛ يريدون: ما كنت لأهينك لو أكرمتني، فأما إذ لست تكرمني، فانك مستحقٌ لإهانتني، وإلى هذا القول ذهب قتادة

والسدي .

قال ابن الأنباري : وهو اختيار اللغويين .

وذكر المفسرون في معنى هذا الاستغفار ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الاستغفار المعروف ، وقد ذكرناه عن ابن عباس .

والثاني : أنه بمعنى الصلاة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، ومنصور عن مجاهد ، وبه

قال الضحاك .

والثالث : أنه بمعنى الإسلام ، رواه ابن أبي نجیح عن مجاهد وبه قال عكرمة . انتهى انتهى .

اه ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(15/311)

وقال القرطبي :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (33)

لما قال أبو جهل : ﴿ اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ الآية ، نزلت ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ كذا في صحيح مسلم .

وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبي صلى الله عليه وسلم منها والمؤمنون ؛

ويلحقوا بحيث أمروا .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ابن عباس : كانوا يقولون في الطواف :

غفرانك .

والاستغفار وإن وقع من الفجار يُدفع به ضرب من الشرور والإضرار .

وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم .

أي وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ؛ فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره قاله الضحاك وغيره .

وقيل : إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام .

أي ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي يسلمون ، قاله مجاهد وعكرمة .

وقيل : " وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ " أي في أصلابهم من يستغفر الله .

رُوي عن مجاهد أيضاً .

وقيل : معنى " يَسْتَغْفِرُونَ " لو استغفروا .

أي لو استغفروا لم يعذبوا .

استدعاهم إلى الاستغفار ؛ قاله قتادة وابن زيد .

وقال المدائني عن بعض العلماء قال : كان رجل من العرب في زمن النبي صلى الله عليه

وسلم مُسْرِفاً على نفسه ، لم يكن يتحرج ؛ فلما أن تُوفِّي النبي صلى الله عليه وسلم لبس

الصوف ورجع عما كان عليه ، وأظهر الدين والنسك .

فقيل له : لو فعلت هذا والنبي صلى الله عليه وسلم حي لفرح بك .

قال : كان لي أمانان ، فمضى واحد وبقي الآخر ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ فهذا أمان .

والثاني ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

القرطبي ح 7 ص ﴿

(16/311)

وقال الثعالبي :

قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ . . . ﴾ الآية : قالت فرقة : نزلت هذه الآية كلها بمكة ، وقالت فرقة : نزلت كلها بعد وقعة بدر ؛ حكاية عما مضى .

وقال ابن أبي عمير : نزل قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ بمكة إثر قولهم : ﴿ أَوْ

إِنَّا بِعَذَابِ إِلِيمٍ ﴾ ، ونزل قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، عند

خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة في طريقه إلى المدينة ، وقد بقي بمكة مؤمنون

يستغفرون ، ونزل قوله : ﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَعْدَاءُ بِهُمْ اللَّهُ . . . ﴾ إلى آخر الآية ، بعد بدر عند

ظهور العذاب عليهم .

\* ت \* : وهذا التأويل بين ، وعليه اعتمد عياضُ في «الشفا» قال : وفي الآية تأويل آخر ، ثم ذكر حديث الترمذي ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أنزل الله تعالى عليَّ أمانين لأمتي : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، فَإِذَا مَضَيْتُ ، تَرَكْتُ فِيهِمْ الْاسْتِغْفَارَ " انتهى .

قال \* ع \* : وأجمع المتأولون على أن معنى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ أن الله عز وجل لم يعذب قط أمةً ونبيها بين أظهرها ، أي : فما كان الله ليعذب هذه الأمة ، وأنت فيهم ، بل كرامتك لديه أعظم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان ج 2 ص ﴾

(17/311)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

اختلفوا في معنى هذه الآية فقال محمد بن إسحاق : هذه الآية متصلة بما قبلها وهي حكاية عن المشركين وذلك أنهم قالوا إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمة ونبيها معها فقال الله لنبيه ( صلى الله عليه وسلم ) يذكره جهالتهم وغرتهم واستقناحهم على أنفسهم وإذا

قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴿﴾ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴿﴾ ثم قال تعالى رداً عليهم : وما لهم ألا يعذبهم الله وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون وهم يصدون عن المسجد الحرام .

وقال آخرون : هذا كلام مستأنف يقول الله إخباراً عن نفسه تعالى وتقدس وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، واختلفوا في معناه فقال الضحاك وجماعة : تأويلها : وما كان الله ليعذبهم وأنت يا محمد مقيم فيهم بين أظهرهم .

قالوا : نزلت هذه الآية على النبي ( صلى الله عليه وسلم ) وهو مقيم بمكة ثم لما خرج منها بقي بقية من المسلمين يستغفرون ، فأنزل الله وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين أذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم .

وقال ابن عباس : لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه ويلحق بجيث أمر فقال الله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يعني المسلمين فلما خرجوا قال الله لهم وما لهم ألا يعذبهم الله ، وقال بعضهم : هذا الاستغفار راجع إلى المشركين وذلك أنهم كانوا يقولون بعد فراغهم من الطواف غفرانك غفرانك . وقال زيد بن رومان : قالت قریش اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا

حجارة من السماء فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا غفرانك اللهم فقال الله تعالى وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون .

(18/311)

---

وقال قتادة والسدي : معناه وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون أي لو استغفروا ولكنهم لم يكونوا مستغفرين ولو أقروا بالذنب واستغفروا الله لكانوا مؤمنين .

وقيل : هذا دعاء لهم إلى الإسلام والاستغفار بهذه الكلمة ، كالرجل يقول لعبده لا أعاقبك .

وأنت تطيعني أي أطعني حتى لا أعاقبك وقال مجاهد وعكرمة : وهم يستغفرون أي يسلمون .

يعني : لو أسلموا لما عذبوا .

وقال ابن عباس : وفيهم من سبق له من الله العناية أنه يؤمن ويستغفر مثل أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم .

وقال مجاهد : وهم يستغفرون ، أي وفي أصلابهم من يستغفر وقيل في معنى الآية : إن

الكفار لما بالغوا وقالوا إن كان محمد محققاً في قوله فأمطر علينا حجارة من السماء أخبر الله سبحانه وتعالى أن محمداً محق في قوله وأنه مع ذلك لا يطر على أعدائه ومنكري نبوته حجارة من السماء ما دام بين أظهرهم وذلك تعظيماً له (صلى الله عليه وسلم) وأورد على هذا أنه إذا كانت إقامته مانعة من نزول العذاب بهم فكيف قال في غير هذه الآية قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم فالجواب أن المراد من العذاب الأول هو عذاب الاستئصال والمراد من العذاب الثاني وهو قوله سبحانه وتعالى يعذبهم الله بأيديكم هو عذاب القتل والسبي والأسر وذلك دون عذاب الاستئصال .

قال أهل المعاني : دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان سلامة من العذاب عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله أنزل عليّ أمانين لأمتي وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة " أخرجه الترمذي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الخانزني 3 ص ﴿

(19/311)

---



وقال أبو حيان :

﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾

نزلت هذه إلى يعلمون بمكة ، وقيل بعد وقعة بدر حكاية عما حصل فيها .

وقال ابن ابزي : الجملة الأولى بمكة إثر قوله ﴿ بعذاب أليم ﴾ ، والثانية عند خروجه من

مكة في طريقه إلى المدينة وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون ، والثالثة بعد بدر عند ظهور

العذاب عليهم ولما علقوا أمطار الحجارة أو الإتيان بعذاب أليم على تقدير كينونة ما جاء به

الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) حقا أخبر تعالى أنهم مستحقو العذاب لكنه لا يعذبهم

وأنت فيهم إكراما له وجريا على عادته تعالى مع مكذبي أنبيائه أن لا يعذبهم وأنبياءهم

مقيمون فيهم عذابا يستأصلهم فيه ، قال ابن عباس لم تعذب أمة قط ونبيها فيها وعليه

جماعة المتأولين فالمعنى فما كانت تعذب أمك وأنت فيهم بل كرامتك عند ربك أعظم

وقال تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ومن رحمته تعالى أن لا يعذبهم والرسول

فيهما ولما كان الإمطار للحجارة عليهم مندرجا تحت العذاب كان النفي متسلطا على

العذاب الذي إمطار الحجارة نوع منه فقال تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم ﴾ ولم يجيء

التركيب ، وما كان الله ليمطر أوليائي بعذاب وتقييد نفي العذاب بكينونة الرسول فيهم

إعلام بأنه إذا لم يكن فيهم وفارقهم عذبهم ولكنه لم يعذبهم إكراما له مع كونهم بصدد من

يعذب لتكذيبهم .

قال ابن عطية عن أبي زيد : سمعت من العرب من يقول ﴿ وما كان الله ليعذبهم ﴾ بفتح اللام وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن انتهى ، وفتح اللام في ﴿ ليعذبهم ﴾ قرأ أبو السَّمال ، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو بالفتح في لام الأمر في قوله ﴿ فليُنظر الإنسان إلى طعامه ﴾ ، وروى ابن مجاهد عن أبي زيد أن من العرب من يفتح كل لام إلا في نحو : الحمد لله انتهى ، يعني لام الجر إذا دخلت على الظاهر أو على ياء المتكلم والظرفية في فيهم مجاز والمعنى : وأنت مقيم بينهم غير راجل عنهم .

(20/311)

---

﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

أنظر إلى حُسن مساق هاتين الجملتين لما كانت كينوته فيهم سبباً لانتفاء تعذيبهم أكد خبر كان باللام على رأي الكوفيين أو جعل خبر كان الإرادة المنفية على رأي البصريين وانتفاء الإرادة للعذاب أبلغ من انتفاء العذاب ولما كان استغفارهم دون تلك الكينونة الشريفة لم يؤكد باللام بل جاء خبر ﴿ كان ﴾ قوله معذبهم ، فشتان ما بين استغفارهم وكينوته ( صلى الله عليه وسلم ) فيهم والظاهر أن هذه الضمائر كلها في الجمل عائدة على الكفار وهو قول قتادة ، وقال ابن عباس وابن أبيزي وأبو مالك والضحاك ما مقتضاه : إن الضمير في

قوله ﴿ معذبهم ﴾ عائداً على كفار مكة والضمير في قوله وهم عائداً على المؤمنين الذين بقوا بعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بمكة أي وما كان الله ليعذب الكفار والمؤمنون بينهم يستغفرون ، قال ابن عطية : ويدفع في صدر هذا القول أن المؤمنين الذين ردّ الضمير إليهم لم يجز لهم ذكر ، وقال ابن عباس أيضاً ما مقتضاه إن الضميرين عائداً على الكفار وكانوا يقولون في دعائهم غفرانك ويقولون لبيك لا شريك لك ونحو هذا مما هو دعاء واستغفار فجعله الله أمانة من عذاب الدنيا على هذا تركب قول أبي موسى الأشعري وابن عباس إن الله جعل من عذاب الدنيا أمتين كون الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع الناس والاستغفار فارتفعت الواحدة وبقي الاستغفار إلى يوم القيامة .

(21/311)

---

وقال الزجاج وحكى عن ابن عباس ﴿ وهم يستغفرون ﴾ عائداً على الكفار والمراد به من سبق له في علم الله أن يسلم ويستغفر فالمعنى وما كان الله ليعذب الكفار ومنهم من يستغفر ويؤمن في ثاني حال ، وقال مجاهد ﴿ وهم يستغفرون ﴾ أي وذريتهم يستغفرون ويؤمنون فأسند إليهم إذ ذريتهم منهم والاستغفار طلب الغفران ، وقال الضحاك ومجاهد : معنى يستغفرون يصلون ، وقال عكرمة ومجاهد أيضاً : يسلمون وظاهر قوله وهم

يستغفرون أنهم ملتبسون بالاستغفار أي ﴿ هم يستغفرون ﴾ فلا يعذبون كما أن الرسول  
فيهم فلا يعذبون فكلا الحالين موجود كون الرسول فيهم واستغفارهم ، وقال الزمخشري ﴿  
وهم يستغفرون ﴾ في موضع الحال ومعناه نفي الاستغفار عنهم أي ولو كانوا ممن يؤمن  
ويستغفر من الكفر لما عذبهم كقوله تعالى  
﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ ولكنهم لا يستغفرون ولا يؤمنون  
ولا يتوقع ذلك منهم انتهى ، وما قاله تقدمه إليه غيره ، فقال : المعنى وهم بحال توبة  
واستغفار من كفرهم أن لو وقع ذلك منهم ، واختاره الطبري وهو مروى عن قتادة وابن  
زيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(22/311)

وقال الإمام ابن تيمية :

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

الكلام عليها من وجهين :

"أحدهما" في الاستغفار الدافع للعذاب .

"والثاني" في العذاب المدفوع بالاستغفار .

أَمَّا "الأوَّلُ" : فَإِنَّ الْعَذَابَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الذُّنُوبِ وَالِاسْتِغْفَارُ يُوجِبُ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ الَّتِي  
هِيَ سَبَبُ الْعَذَابِ فَيَنْدَفِعُ الْعَذَابُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الرِّكَابُ أَكْرَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ  
مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾ ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ ﴿ وَأَنْ  
اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ  
فَضْلَهُ ﴾ فَيَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ مُتَّعُوا مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ إِنْ كَانَ  
لَهُمْ فَضْلٌ أَوْ تَوَاتُوا الْفَضْلَ .

(23/311)

---

وَقَالَ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْتَقُوا وَاطِيعُونَ  
﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ  
إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ الْآيَةُ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا قَوْمِ  
اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ وَذَلِكَ  
أَنَّهُ قَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾  
وَقَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا  
كَسَبُوا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ

مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴿ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ .

(24/311)

---

وَأَمَّا الْعَذَابُ الْمَدْفُوعُ فَهُوَ يَعْمُ الْعَذَابُ السَّمَاوِيِّ وَيَعْمُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعِبَادِ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَمِيعَ قَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ عَذَابًا كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي النَّوعِ الثَّانِي : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّقْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ وَكَذَلِكَ : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ تَرَبِّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا ﴾ إِذِ التَّقْدِيرِ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِعَذَابِ بَأْيَدِنَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ .

(25/311)

وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْعَذَابُ بِفِعْلِ الْعِبَادِ وَقَدْ يُقَالُ: التَّقْدِيرُ: ﴿ وَنَحْنُ تَرَبِّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ أَوْ يُصِيبَكُم بِأَيْدِينَا؛ لَكِنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْأَوْجَهُ؛ لِأَنَّ الْإِصَابَةَ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا إِصَابَةٌ بِسُوءٍ؛ إِذْ قَدْ يُقَالُ: أَصَابَهُ بِخَيْرٍ وَأَصَابَهُ بِشَرٍّ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَفِظُ الْإِصَابَةِ يَدُلُّ عَلَى الْإِصَابَةِ بِالشَّرِّ لَأَكْفَى بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ ﴾ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُقَالُ فِي بِلَالٍ وَنَحْوِهِ: كَانُوا مِنَ الْمُعَذِّبِينَ فِي اللَّهِ وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ اشْتَرَى سَبْعَةً  
 مِنَ الْمُعَذِّبِينَ فِي اللَّهِ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ﴿ السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ " .  
 وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا بَأْسًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ  
 مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ مَعَ مَا قَدْ ثَبَتَ فِي  
 الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ﴿ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ هُوَ  
 الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا بَأْسًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قَالَ : أَعُوذُ بِوَجْهِكَ ﴾ أَوْ مِنْ تَحْتِ  
 أَرْجُلِكُمْ ﴾ قَالَ : أَعُوذُ بِوَجْهِكَ ﴾ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قَالَ :  
 هَاتَانِ أَهْوَنُ ﴾ " يَقْتَضِي أَنْ لُبْسَنَا شِيْعًا وَإِذَا قَعَّ بَعْضُنَا بِأَسِّ بَعْضٍ هُوَ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي  
 يَنْدَفَعُ بِالِاسْتِغْفَارِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ وَإِنَّمَا  
 تُنْفَى الْفِتْنَةُ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ  
 عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ قَدْ يَكُونُ الْعَذَابُ مِنْ عِنْدِهِ وَقَدْ يَكُونُ بِأَيْدِي الْعِبَادِ  
 فَإِذَا تَرَكَ النَّاسُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ يُبْتَلِيهِمْ بِأَنْ يُوقِعَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ حَتَّى تَفْعَ بَيْنَهُمْ  
 الْفِتْنَةُ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا اشْتَعَلُوا بِالْجِهَادِ فِي



سَبِيلِ اللَّهِ جَمَعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَأَلْفَ بَيْنَهُمْ وَجَعَلَ بَأْسَهُمْ عَلَى عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِمْ  
وَإِذَا لَمْ يَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ يُلْبَسَهُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ .  
وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾  
يَدْخُلُ فِي الْعَذَابِ الْأَدْنَى مَا يَكُونُ بِأَيْدِي الْعِبَادِ كَمَا قَدْ فَسَّرَ بَوَقْعَةً بَدْرٍ بَعْضُ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ  
الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَذَابِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجموع الفتاوى ح 15 ص 41.45 ﴾

(28/311)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

جوابُ لكلمتهم الشنعاءِ وبيانُ للموجبِ لإمهاهم والتوقفِ في إجابة دعائهم واللامُ لتأكيد  
النفي والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصالِ النبي عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم  
خارج عن عادته تعالى غير مستقيم في حكمه وقضائه ، والمرادُ باستغفارهم في قوله تعالى  
: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ إما استغفارُ مَنْ بَقِيَ منهم من المؤمنين أو  
قولهم : اللهم اغفرْ أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ  
لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْطَحُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4

وقال الأوسى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان لما كان الموجب لإمهالهم وعدم إجابة دعائهم الذي قصدوا به ما قصدوا ، واللام هي التي تسمى لام الجحود ولام النفي لاختصاصها بمنف كان الماضية لفظاً أو معنى ، وهي إما زائدة أو غر زائدة والخبر محذوف ، أي ما كان الله مريداً لتعذيبهم ؛ وأياً ما كان فالمراد تأكيد النفي أما على زيادتها فظاهر وأما على عدم زيادتها وجعل الخبر ما علمت فلان نفي إرادة الفعل أبلغ من نفيه ، وقيل : في وجه إفادة اللام تأكيد النفي هنا أنها هي التي في قولهم : أنت لهذه الخطة أي مناسب لها وهي تليق بك ، ونفي اللياقة أبلغ من نفي أصل الفعل ولا يخلو عن حسن وإن قيل : إنه تكلف لا حاجة إليه بعد ما بينه النحاة في وجه ذلك ، وحمل غير واحد العذاب على عذاب الاستئصال ، واعترض بأنه لا دليل على هذا التقييد مع أنه لا يلائمه المقام ؛ وأجب بمنع عدم الملازمة ، بل من أمعن النظر في كلامهم رآه مشعراً بطلب ذلك ، والدليل على التقييد أنه وقع عليهم العذاب والنبي صلى الله عليه وسلم فيهم كالتحط فعلم أن المراد به عذاب الاستئصال والقرينة عليه تأكيد النفي الذي يصرفه إلى أعظمه ، فالمراد من الآية الإخبار بأن تعذيبهم عذاب استئصال ، والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم خارج عن عادته تعالى غير مستقيم

في حكمه وقضائه ، والمراد بالاستغفار في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أما استغفار من بقي بينهم من المؤمنين المستضعفين حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى هذا عن الضحاك واختاره الجبائي ، وقال الطيبي : إنه أبلغ لدلالته على استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة ، وإسناد الاستغفار إلى ضمير الجميع لوقوعه فيما بينهم ولجعل ما صدر عن البعض كما قيل بمنزلة الصادر عن الكل فليس هناك تفكيك للضمائر كما يوهمه كلام ابن عطية .

(29/311)

---

وأما دعاء الكفرة بالمغفرة وقولهم غفرانك فيكون مجرد طلب المغفرة منه تعالى مانعاً من عذابه جحل شأنه ولو من الكفرة ، وروى هذا عن يزيد بن رومان .  
ومحمد بن قيس قالاً : إن قريشاً لما قالوا ما قالوا ندموا حين أمسوا فقالوا : غفرانك اللهم ،  
وأما التوبة والرجوع عن جميع ما هم عليه من الكفر وغيره على معنى لو استغفروا لم يعذبوا  
كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [ هود : 117 ]  
وروى هذا عن السدي .  
وقتادة .

وابن زيد ، وجاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كل من الأقوال الثلاثة ، وأياً ما كان فالجملة الاسمية في موضع الحال إلا أن القيد مثبت على الوجهين الأولين منفي على الوجه الأخير ، ومبني الاختلاف في ذلك ما نقل عن السلف من الاختلاف في تفسيره ، والقاعدة المقررة بين القوم في القيد الواقع بعد الفعل المنفي ، وحاصلها على ما قيل : إن القيد في الكلام المنفي قد يكون لتقييد النفي وقد يكون لنفي التقييد بمعنى انتفاء كل من الفعل والقيد أو القيد فقط أو الفعل فقط ، وقيل : إن الدال على انتفاء الاستغفار هنا على الوجه الأخير القرينة والمقام لأنفس الكلام وإلا لكان معنى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ نَفِي كونه فيهم لأن أمر الحالية مشترك بين الجملتين ، وأطال الكلام في نفي تساوي الجملتين سؤالاً وجواباً ، ثم تكلف للفرقة بما تكلف ، واعترض عليه بما اعترض ، والظاهر عندي عدم الفرق في احتمال كل من حيث أنه كلام فيه قيد توجه النفي إلى القيد .

(30/311)

---

ومن هنا قال بعضهم : إن المعنى الأولى لو كنت فيهم لم يعذبوا كما قيل في معنى الثانية : لو استغفروا لم يعذبوا ، ويكون ذلك إشارة إلى أنهم عذبوا بما وقع لهم في بدر لأنهم أخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ولم يبق فيهم فيها إلا أن هذا خلاف الظاهر ولا يظهر

عليه كون الآية جواباً لكلمتهم الشنعاء ، وعن ابن عباس أن المراد بهذا الاستغفار استغفار  
من يؤيد منهم بعد ، أي وما كان الله معذبهم وفيهم من سبق له من الله تعالى العناية أنه يؤمن  
ويستغفر كصفوان بن أمية .

وعكرمة بن أبي جهل .

وسهل بن عمرو .

وأضارهم ، وعن مجاهد أن المراد به استغفار من في أصلابهم ممن علم الله تعالى أنه يؤمن ،  
أي ما كان الله معذبهم وفي أصلابهم من يستغفر وهو كما ترى ، ويظهر لي من تأكيد النفي في  
الجملة الأولى وعدم تأكيده في الجملة الثانية أن كون النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ادعى  
حكمة لعدم التعذيب من الاستغفار ، وحمل بعضهم التعذيب المنفي في الجملة الثانية بناء  
على الوجه الأخير على ما عدا تعذيب الاستئصال ، وحمل الأول : على التعذيب الدنيوي  
والثاني : على الأخروي ليس بشيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعاني - 9 ص﴾

(31/311)

وقال القاسمي :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

بيان للموجب لإمها لهم ، وعدم إجابة دعائهم .

واللام لتأكيد النفي ، والدلالة على أن تعذيبهم ، والنبي بين أظهرهم ، غير مستقيم في الحكمة ، لأن سنته تعالى ، وقضية حكمته ، ألا يعذب أمة ونبيا بين ظهرانيها ، لأنه لو نزل العذاب في مكانهم لأصاب كل من كان فيه ، وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ذكروا فيه ثلاثة أوجه :

الأول : أن المراد استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين .

قال الطيبي : وهذا الوجه أبلغ ، لدلالته على أن استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة .

والثاني : أن المراد به دعاء الكفرة بالمغفرة ، وقولهم : غفرانك في طوافهم بالبيت ، كما رواه ابن أبي حاتم ، فيكون مجرد طلب المغفرة منه تعالى مانعا من عذابه ، ولو من الكفرة .

والثالث : أن المراد بالإستغفار التوبة ، والرجوع عن الجميع ما هم عليه من الكفر وغيره ، فيكون القيد منقيا في هذا ، ثابتا في الوجهين الأولين .

قال القاشاني : العذاب سورة الغضب وأثره ، فلا يكون إلا من غضب النبي ، أو من غضب الله المسبب من ذنوب الأمة ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان صورة الرحمة ، لقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، ولهذا لما كسروا ربا عيته قال : > اللهم اهد

قومي فإنهم لا يعلمون > ، ولم يغضب كما غضب نوح عليه السلام وقال : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ  
لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ .

(32/311)

---

فوجوده فيهم مانع من نزول العذاب ، وكذا وجود الإستغفار ، فإن السبب الأولي للعذاب  
لما كان وجود الذنب ، والإستغفار مانع من تراكم الذنب وثباته ، بل يوجب زواله ، فلا  
يتسبب لغضب الله ، فما دام الإستغفار فيهم فهم لا يعذبون . انتهى .

روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : >  
أنزل الله

عليّ أمانين لأمتي : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ الآية ، فإذا مضيت تركت فيهم الإستغفار  
إلى يوم القيامة > .

قال ابن كثير : ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه ، عن أبي سعيد أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك ، لا أبرح أغوي  
بني آدم ما دامت الأرواح فيهم ، فقال الله : فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني

وروى الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: العبد آمن من عذاب الله عز وجل ما استغفر الله عز وجل. انتهى انتهى. اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 8 ص 293. 294 ﴾

(33/311)

وقال ابن عاشور:

قوله: ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم ﴾

كناية عن استحقاقهم، وإعلام بكرامة رسوله صلى الله عليه وسلم عنده، لأنه جعل وجوده بين ظهراني المشركين مع استحقاقهم العقاب سبباً في تأخير العذاب عنهم، وهذه مكرمة أكرم الله بها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل وجوده في مكان مانعاً من نزول العذاب على أهله، فهذه الآية إخبار عما قدره الله فيما مضى.

وقال ابن عطية قالت فرقة نزلت هذه الآية كلها بمكة، وقال ابن أبي نزي نزل قوله: ﴿ وما كان

الله ليعذبهم وأنتَ فيهم ﴾ بمكة إثر قولهم: ﴿ أو اتنا بعذاب اليم ﴾، ونزل قوله: ﴿

وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ عند خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة

وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، ونزل قوله: ﴿ وما لهم أن لا يعذبهم الله ﴾ [الأنفال:



وفي توجيه الخطاب بهذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم واجتلاب ضمير خطابه بقوله :  
﴿ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ لطيفة من التكرمة إذ لم يقل : وما كان الله ليعذبهم وفيهم رسوله ، كما  
قال : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصِدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(34/311)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (33) ﴿  
لأن سنة الله مع خلقه المكذبين للرسول ، أنه سبحانه وتعالى قبل أن ينزل العذاب يخرج  
الرسول والمؤمنين به ، مثال ذلك أمره نوحاً عليه السلام بأن يصنع السفينة ؛ لينجو من  
الطوفان . وكل رسول لم تستجب أمته أصابها شيء من هذا ، وعلى ذلك يخرج الرسول  
أولاً ، ثم ينزل الحق عذابه ، كما أنه يقول سبحانه وتعالى موضحاً فضل اللجوء إلى الله  
بالاستغفار :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [ الأنفال : 33 ] .

وهم إن استغفروا الله فمعنى ذلك أنهم آمنوا به ، ولكن الحق جاء بهذا القول ليدلهم على المتقذ الذي يخلص الإنسان منهم من جريمة الكفر ، وفي ذلك رحمة منه سبحانه وتعالى ، وكأنه يحضهم على أن يستغفروا حتى لا ينزل بهم العذاب . ويرسم لهم وسيلة النجاة .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [ الأنفال : 33 ] .

وتسمى اللام في " ليعذبهم " ب " لام الجحود " ، نجد أن يعذبهم الله وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذن فوجود الرسول فيما بينهم أمر له تقدير خاص ، أما هم فالحق تبارك وتعالى يقول بشأنهم : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [ الأنفال : 33 ]

(35/311)

---

وهكذا نرى الحقائق الإيمانية ، فالنفس المؤمنة الصافية حين يكون لها عدو ، ثم تحل بالعدو مصيبة ، لا تأتي أبداً كلمة الشماتة على بال المؤمن ، هذا هو الخلق الإيماني الذي قد يؤلمه مظهر الضعف والمهانة للعدو ، فيضن الله على أن يعذب قوماً وفيهم من يستغفر ، وكأنه يوضح لنا : هب مسيئنا لحسننا ، أي أن يداري الحسن على المسيء . ولذلك نجد " أن الرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية صدَّ عن البيت الحرام ، وهذا الصد

تسبب في أنهم يعتقدون معه معاهدة هي صلح الحديبية ، وكان هناك من المؤمنين من يعارض هذه المعاهدة ، ومنهم من قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ . والقائل لذلك هو عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - ، وفي التفاوض ، جاء علي بن أبي طالب ليكتب المعاهدة وفي بدئها " هذا ما صالح عليه رسول الله " فاعترض المفاوض عن معسكر الشرك قائلاً : لو كنا مؤمنين بأنك رسول الله لما حاربناك ، بل أكتب : " هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله " ، فامتنع علي عن الكتابة ، وقال : لا أكتبها إلا رسول الله . فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتبها كما يقولون لينهي الموقف ، وليعطي معجزة ، فينظر لعلي وهو مغتبط به ، فيقول له :

" أكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد " ويتحقق ذلك بعد حياة النبي ، وخلافة أبي بكر ، وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، ثم تجيء الخلافة لعلي وحدث فيها ما حدث . ويتحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
" أكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد "

(36/311)

---

أي سيقفون منك موقفاً مثل هذا وسوف تقبله ، ولما جاء الخلف بين معاوية وجنوده ،  
وبين علي وجنوده ، أرادوا أن يوقعوا معاهدة فيما بينهم ليمنعوا النزاع بين المسلمين ، فقال  
علي - كرم الله وجهه - : هذا ما تعاهد وتعاهد عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ،  
فقال المفاوض عن معاوية : لو كنت أميراً للمؤمنين أكننا نحاربك ؟ ، فتذكر علي كرم الله  
وجهه ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم صلح الحديبية : " أكتب فإن لك مثلها .  
..... الخ " .

ومعنى ذلك أن السياسة تقتضي ألا تتجمد كمن يكون في قالب حديدي ، بل تفترض  
السياسة فيمن يعمل بها شيئاً من الليونة وبعد النظر لتنتهي المواقف الصعبة ؛ لأن كل طرف  
لو أصر على موقفه لما وقعت المعاهدة ، وكانت معاهدة صلح الحديبية مطلوبة ومناسبة  
ليتفرغ المسلمون - بعد الأمن من قريش - للدعوة إلى منهج الله في الأرض ، وهذا ما حدث  
خلال السنوات العشر التي تلت هذه المعاهدة ، وانتشر الإسلام في ربوع الجزيرة العربية ،  
ومن بعدها إلى آفاق الأرض كلها .

إذن فولي الأمر عليه أن يملك البصيرة التي لا تجعله جامداً ، لأنه لو تجمد لأنهى الخير الموجود  
فيه وفي قومه ، وهكذا أراد رسول الله أن يعلمنا عدم الجمود بصلح الحديبية على الرغم من  
أن بعض المسلمين ومنهم عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - قالوا : لا ، علام نعطي  
الدنية في ديننا ؟ وبعضهم قالوا متسائلين ، بل وعاتين : ألم تعدنا يا رسول الله أننا سندخل

البيت الحرام؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقلت لكم هذا العام؟ .  
ولم ينتبه المسلمون حين سمعوا ذلك إلى أهمية أن تنضج القرارات السياسية لتأخذ طريقها  
إلى التنفيذ . وكادت الفرقة أن تحدث بين المسلمين ، ودخل رسول الله صلى الله عليه  
وسلم إلى زوجته أم سلمة مكروباً . وقال لها : يا أم سلمة هلك المسلمون . أمرتهم فلم  
يبتلوا .

(37/311)

---

ونرى موقف أم سلمة رضي الله عنها وهي الزوجة الأمينة المشيرة الناصحة ، لقد قالت :  
يا رسول الله إنهم مكروبون ، لقد جاءوا وفي نيتهم أن يذهبوا إلى البيت الحرام بعد طول  
فرقة واشتياق ، ثم حرموا من ذلك وهم بمرأى من البيت ، ولكن قم يا رسول الله فاعمد  
إلى ما أمرك الله به ، ولا تقل لهم شيئاً ، بل اذبح هديك ، وهم إذا رأوك فعلت فعلوا .  
وبالفعل خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وذبح الهدي ، وفعل المسلمون مثله . ونجد  
سيدنا أبا بكر - رضي الله عنه - يقول عن الحديدية : هي الفتح في الإسلام . وما كان فتح  
الحديدية ، ولكن الناس لم تتسع ظنونهم إلى السر من الله . والعباد دائماً يعجلون ، والله لا  
يعجل بعجلة عباده حتى تبلغ الأمور ما يراد لها .

وقد كان المخالفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم غيورين على دينهم ، على قدر علمهم  
لا علم الله . وشاء الحق تبارك وتعالى أن يبين لهم السبب في أنه لم يجعل من الحديبية أرض  
قتال أو التحام ؛ فقال : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا  
أَنْ يُبَلِّغَ مَحَلَّهُ وَلَوْ لَرَجَلٌ مُؤْمِنُونَ وَإِنَّمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ تَطَّوُّهُمُ قَتَابِكُمْ مِنْهُمْ  
مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا  
﴾ [ الفتح : 25 ] .

نعم فقد كان هناك مؤمنون ومؤمنات يخفون بين الكفار ، فلم يكن في مكة قبل الفتح - حياً  
للمسلمين الذين يخفون إيمانهم ، وحي للكفار ، بل كان الناس يسكنون معاً ، فإذا ما قامت  
الحرب بين أهل مكة وبين الجيش القادم إلى الحديبية ، قتل المسلم أخاه المسلم الذي لم يعلن  
إسلامه ، ولو أمكن التفريق بين المسلمين الذين لم يعلنوا إسلامهم وبين الكفار ، لعذب الله  
الكفار بأيدي المؤمنين عذاباً أليماً .

(38/311)

---

وهنا في هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواتمها عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [ الأنفال : 33 ] .

ويعني بذلك أن بعضهم هو الذي يستغفر فيمنع الله عز وجل العذاب عن الكل ، مثلما منع تعذيب الكافرين بصلح الحديبية ؛ لأن هناك مؤمنين مستخفين فيما بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(39/311)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أن لكفار مكة أمانين يدفع الله عنهم العذاب بسببها: أحدهما كونه صلى الله عليه وسلم فيهم لأن الله لم يهلك أمة ونبىهم فيهم .

والثاني استغفارهم الله وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ الْأَيْعُذُ بِهِمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ ﴾ يدل على خلاف ذلك .

والجواب من أربعة أوجه:

الأول: وهو اختيار ابن جرير ونقله عن قتادة والسدي وابن زيد أن الأمانين منتفیان فالنبي

صلى الله عليه وسلم خرج من بين أظهرهم مهاجرا واستغفارهم معدوم لإصرارهم على

الكفر فجملة الحال أريد بها أن العذاب لا ينزل في حاله استغفارهم لو استغفروا ولا في حالة وجود نبيهم فيهم لكنه خرج من بين أظهرهم ولم يستغفروا لكفرهم ومعلوم أن الحال قيد لعاملها ووصف لصاحبها فالاستغفار مثلاً قيد في نفي العذاب لكنهم لم يأتوا بالقيد فتقرير المعنى وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون لو استغفروا .

وبعد انتفاء الأمرين عذبهم بالقتل والأسريوم بدر كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ .

الوجه الثاني: أن المراد بقوله: يستغفرون استغفار المؤمنين المستضعفين بمكة وعليه فالمعنى أنه بعد خروجه صلى الله عليه وسلم كان استغفار المؤمنين سبباً لرفع العذاب الدنيوي عن الكفار المستعجلين للعذاب بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ .  
الآية .

(40/311)

---

وعلى هذا القول فقد أسند الاستغفار إلى مجموع أهل مكة الصادق بخصوص المؤمنين منهم ونظير الآية عليه قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ مع أن العاقر واحد منهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ



سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴿٤١﴾ : أي جعل القمر في مجموعهن الصادق

بخصوص السماء التي فيها القمر لأنه لم يجعل في كل سماء قمراً .

وقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ ﴿٤١﴾ أي من مجموعكم الصادق

بخصوص الإنس على الأصح إذا ليس من الجن رسل وأما تمثيل كثير من العلماء لإطلاق

المجموع مراداً بعضه بقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ﴿٤١﴾ زاعمين أن معنى قوله

منهما: أي من مجموعهما الصادق بخصوص البحر الملح لأن العذب لا يخرج منه لؤلؤ ولا

مرجان فهو قول باطل بنص القرآن العظيم .

فقد صرح تعالى باستخراج اللؤلؤ والمرجان من البحرين كليهما حيث قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي

الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا

وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ﴿٤١﴾ فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كُلَّ﴾ نص صريح في إرادة العذب

والملاح معاً وقوله: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ هي اللؤلؤ والمرجان ، وعلى هذا القول فالعذاب

الديني يدفعه الله عنهم باستغفار المؤمنين الكائنين بين أظهرهم .

(41/311)

---

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَعْدَابُ اللَّهُ ﴾ : أي بعد خروج المؤمنين الذين كان استغفارهم

سببا لدفع العذاب الدنيوي فبعد خروجهم عذب الله أهل مكة في الدنيا بأن سلب عليهم

رسول الله عليه وسلم حتى فتح مكة ويدل لكونه تعالى يدفع العذاب الدنيوي عن الكفار

بسبب وجود المسلمين بين أظهرهم ما وقع في صلح الحديبية كما بينه تعالى بقوله: ﴿ وَلَوْلَا

رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ

لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

فقوله: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أي لو تزيل الكفار عن المسلمين لعذبنا الكفار بتسليط المسلمين

عليهم ولكننا رفعنا عن الكفار هذا العذاب الدنيوي لعدم تمييزهم من المؤمنين كما بينه

بقوله: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ﴾ الآية .

ونقل ابن جرير هذا القول عن ابن عباس والضحاك وأبي مالك وابن أبيزي وحاصل هذا

القول أن كفار مكة لما قالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

حِجَارَةً ﴾ الآية .

أنزل الله قوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ ثم لما هاجر النبي صلى الله عليه

وسلم بقيت طائفة من المسلمين بمكة يستغفرون الله ويعبدونه فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ وَمَا

لَهُمُ الْأَعْدَابُ اللَّهُ ﴾ أي: أي شيء ثبت لهم يدفع عنهم عذاب الله .

وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من بين أظهرهم .

فآية على هذا كقوله: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ .

(42/311)

الوجه الثالث: أن المراد بقوله: ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ كفار مكة وعليه فوجه الجمع أن الله تعالى يرد عنهم العذاب الدنيوي بسبب استغفارهم أما عذاب الآخرة فهو واقع بهم لا محالة فقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ أي في الدنيا في حالة استغفارهم وقوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي في الآخرة وقد كانوا كفارا في الدنيا .

ونقل ابن جرير هذا القول عن ابن عباس وعلى هذا القول فعمل الكافر ينفعه في الدنيا كما فسر به جماعة قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ ﴾ : أي أثابه من عمله الطيب في الدنيا وهو صريح قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ . الآية .

وقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ .  
وقوله: ﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ ونحو ذلك من الآيات يدل على بطلان عمل الكافر من أصله كما أوضحه الله تعالى بقوله: ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴿ فُجْعَلُ كُلُّمَا الدَّارَيْنِ ظَرْفًا لِبَطْلَانِ أَعْمَالِهِمْ وَأَضْمَحَلَهَا وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَحْقِيقَ هَذَا الْمَقَامِ فِي سُورَةِ هُودٍ .

الوجه الرابع: أن معنى قوله: ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي يسلمون أي وما كان الله معذبهم وقد سبق في عمله أن منهم من يسلم ويستغفر الله من كفره وعلى هذا القول فقوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ في الذين سبقت لهم الشقاوة كأبي جهل وأصحابه الذين عذبوا بالقتل يوم بدر ونقل ابن جرير معنى هذا القول عن عكرمة ومجاهد .

(43/311)

---

وأما ما رواه ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري من أن قوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ ناسخ لقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فبطلانه ظاهر لأن قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ ﴾ الآية .

خبر من الله بعدم تعذيبه لهم في حالة استغفارهم والخبر لا يجوز نسخه شرعا بإجماع المسلمين وأظهر هذه الأقوال الأولان منها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ

﴿ 141.136

(44/311)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

اللَّامِ فِي "لِيُعَذِّبَهُمْ" قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهَا لَامُ الْمَجْهُودِ ، وَالْمَجْهُورُ عَلَى كَسْرِهَا ، وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ :  
بِفَتْحِهَا .

قال ابن عطية عن أبي زيد : "سمعت من العرب من يقول "لِيُعَذِّبَهُمْ" بفتح اللام ، وهي لغة  
غير معروفة ولا مستعملة في القرآن ."

يعني في المشهور منه ، ولم يُعْتَدَ بقراءة أبي السمال ، وروى ابن مجاهد عن أبي زيد فُتِحَ كُلُّ  
لَامٍ عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ الْإِفِي ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الفاتحة : 2] وروى عبد الوارث عن أبي  
عمرو : فُتِحَ لَامُ الْأَمْرِ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ [عبس : 24] ، وَأَتَى  
بِجَبْرِ "كَانَ" الْأُولَى عَلَى خِلَافِ مَا أَتَى بِهِ فِي الثَّانِيَةِ فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَحْذُوفًا ، وَهُوَ الْإِرَادَةُ  
كَمَا يَقْدِرُهُ الْبَصْرِيُّونَ أَي : مَا كَانَ اللَّهُ مُرِيدًا لَتُعَذِّبَهُمْ وَاتِّقَاءَ إِرَادَةِ الْعَذَابِ أبلغ من نفي  
العذاب ، وَإِمَّا أَنَّهُ أَكَّدَهُ بِاللَّامِ عَلَى رَأْيِ الْكُوفِيِّينَ لِأَنَّ كَيْنُوتَهُ فِيهِمْ أبلغ من استغفارهم  
فَشَتَّانَ بَيْنَ وَجُودِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَبَيْنَ اسْتِغْفَارِهِمْ .

وقوله " وَأَنْتَ فِيهِمْ " حَالٌ ، وَكَذَلِكَ " وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ " .

والظاهر أنَّ الضمائرَ كلها عائدةٌ على الكفار .

وقيل : الضمير في "يُعَذِّبُهُمْ" و "مُعَذِّبُهُمْ" للكفار ، والضمير من قوله "وَهُمْ" للمؤمنين .  
وقال الزمخشريُّ : "وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" في موضع الحال ، ومعناه : نفيُ الاستغفار عنهم أي :  
ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ  
الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْطِحُونَ ﴾ [هود : 117] ولكنهم لا يستغفرون ، ولا يؤمنون ولا  
يتوقع ذلك منهم .

وهذا المعنى الذي ذكره منقول عن قتادة ، وأبي زيد ، واختاره ابن جرير .

## فصل

قال أبو العباس المقرئُ : ورد لفظ " في " في القرآن بإزاء ستة أوجه :  
الأول : بمعنى " مع " كهذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ  
﴿ [النمل : 19] أي : مع عبادك ، ومثله : ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ [الفجر : 29]  
.

الثاني : بمعنى " على " .

قال تعالى ﴿وَأَصْلَبْنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: 71] أي: على جذوع النخل،  
ومثله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: 38].

أي: عليه.

الثالث: بمعنى "إلى" قال تعالى ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِعَةَ فَتَهَا جَرُوا فِيهَا﴾ [النساء  
: 97] أي: أليها.

الرابع: بمعنى "عن" قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: 72] أي:  
عن هذه الآيات.

الخامس: بمعنى "من" قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ [النحل: 89] أي: من  
كل أمة "شهيذاً".

السادس: بمعنى "عند" قال تعالى ﴿كُنْتُمْ فِينَا مَرْجُوعًا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: 62].

انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير ابن عادل ح 9 ص 505.506﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ .

ما كان الله معذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله ليعذب أسلافهم وأنت في أصلابهم ، وليس  
يعذبهم اليوم وأنت فيما بينهم إجلالاً لقدرك ، وإكراماً لملكك ، وإذا خرجت من بينهم فلا

يعذبهم وفيهم خدامك الذين يستغفرون ، فالآية تجل على تشریف قَدْر الرسول - صلى الله عليه وسلم .

ويقال للجوارِ حُرْمَةٌ ، فجارُ الكرام في ظل إناهم ؛ فالكفار إن لم ينعموا بقرب الرسول -

صلى الله عليه وسلم - منهم فقد اندفع العذاب - بمجاورته - عنهم :

وأحبُّها وأحبُّ منزلها الذي . . . نزلت به وأحبُّ أهل المنزل

ويقال إذا كان كون الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الكفار يمنع العذاب عنهم فكون

المعرفة في القلوب أولى بدفع العذاب عنها .

ويقال إن العذاب - وإن تأخر عنهم مدة مقامهم في الدنيا ما دام هو عليه السلام فيهم - فلا

محالة يصيبهم العذاب في الآخرة ، إذ الاعتبار بالعواقب لا بالأوقات والطوارق .

(46/311)

---

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

علم أنه - عليه السلام - لا يتأبد مكثه في أمته إذا قال له : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ

الْخُلْدَ ﴾ [ الأنبياء : 34 ] ، فقال إني لا أضيع أمته وإن قضى فيهم مدته ، فما دامت



ألسنتهم بالاستغفار مُتَّطَلَعَةً فَصَنُوفَ الْعَذَابِ عَنْهُمْ مَرْتَفَعَةً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف

الإشارات ح 1 ص 621.622 ﴿

(47/311)

## فصل

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30) وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) ﴾

قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الظرف معمول لفعل محذوف ، أي : واذا كريا محمد

وقت مكر الكافرين بك ، أو معطوف على ما تقدم من قوله ﴿ واذكروا ﴾ ذكر الله

رسوله هذه النعمة العظمى التي أنعم بها عليه ، وهي نجاته من مكر الكافرين وكيدهم كما

سياأتي بيانه ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ أي : يثبتوك بالجراحات ، كما قال ثعلب وأبو حاتم ، وغيرهما

، ومنه قول الشاعر :

فقلت ويحكم ما في صحيفتكم . . . قالوا الخليفة أمسى مثبتاً وجعا

وقيل : المعنى ليحبسوك ، يقال أثبتته : إذا حبسه .

وقيل : ليوثقوك ، ومنه : ﴿ فَشُدُّوا الْوِثَاقَ ﴾ [ محمد : 4 ] .

وقرأ الشعبي " لبيبتوك " من البيات .

وقرىء " ليشتوك " بالتشديد ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ معطوف على ما قبله ، أي يخرجوك من

مكة التي هي بلدك وبلد أهلك .

وجملة : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ مستأنفة .

والمكر : التدبير في الأمر في خفية .

والمعنى : أنهم يخفون ما يعدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم من المكائد ، فيجازيهم

الله على ذلك ويرد كيدهم في نحورهم .

(48/311)

---

وسمى ما يقع منه تعالى مكرًا مشاكلة ، كما في نظائره ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ أي :

المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم ، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون ، فيكون

ذلك أشدّ ضرراً عليهم وأعظم بلاء من مكرهم .

قوله : ﴿ وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي التي تأتيهم بها ، وتلوها عليهم ﴿ قَالُوا ﴾ ﴿ تَعْنَا ﴾  
وتمرّداً وبعداً عن الحق ﴿ قَدْ سَمِعْنَا ﴾ ما تلوه علينا ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾  
الذي تلوته علينا .

قيل : إنهم قالوا هذا توهماً منهم أنهم يقدرّون على ذلك .

فلما راموا أن يقولوا مثله عجزوا عنه .

ثم قالوا عناداً وتمرّداً ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : ما يستطره الوراقون من أخبار  
الأولين ، وقد تقدّم بيانه مستوفى .

﴿ وَإِذْ قَالُوا ﴾ ﴿ أَي : واذكر إذ قالوا ﴾ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴿ بنصب  
الحق على أنه خبر كان ، والضمير للفصل ، ويجوز الرفع .

قال الزجاج : ولا أعلم أحداً قرأ بها ، ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها ، ولكن القراءة  
سنة ، والمعنى : إن كان القرآن الذي جاءنا به محمد هو الحق ، ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا ﴾ قالوا  
هذه المقالة مبالغة في الجحود والإنكار .

قال أبو عبيدة : يقال أمطر في العذاب ، ومطر في الرحمة .

وقال في الكشاف : قد كثرت الإمطار في معنى العذاب .

﴿ أَوِ اتُّنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ ﴾ سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء ، أو بغيرها من

أنواع العذاب الشديد .

فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ فِيهِمْ ﴾ موجود ، فإنك ما دمت فيهم فهم في مهلة من العذاب الذي هو الاستئصال ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ روي أنهم كانوا يقولون في الطواف غفرانك ، أي : وما كان الله معذبهم في حال كونهم يستغفرونه .

وقيل المعنى : لو كانوا ممن يؤمن بالله ويستغفروه لم يعذبهم .

(49/311)

---

وقيل إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم ، أي وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ، فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر وما بعده .  
وقيل المعنى : وما كان الله معذبهم وفي أصلاهم من يستغفر الله .

وقد أخرج عبد الرزاق ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل ، والخطيب ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال : تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا أصبح فأتبوه بالوثاق ، يريدون النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : بل اقلوه ، وقال بعضهم : بل

أخرجوه ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فبات عليّ على فراش النبي صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوه علياً ردّ الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا أدري ، فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار ، فأروا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم ، والبيهقي ، عن ابن عباس ، فذكر القصة بأطول مما هنا .

وفيها ذكر الشيخ النجدي أي إبليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم في دار الندوة للمشاورة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاماً ، ويعطوا كل واحد منهم سيفاً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل ، فقال الشيخ النجدي : هذا والله هو الرأي ، فتفرّقوا على ذلك .

(50/311)

---

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن  
عبيد بن عمير ، قال : لما ائتمروا بالنبى صلى الله عليه وسلم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ،  
قال له عمه أبو طالب : هل تدري ما ائتمروا بك ؟ قال : " يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني  
أو يخرجوني " ، قال : من حدّثك بهذا ؟ قال : " ربي " ، قال : نعم الربّ ربك استوص به  
خيراً ، قال : " أنا أستوصي به ؟ بل هو يستوصي بي " وأخرجه ابن جرير من طريق أخرى  
عنه .

وهذا لا يصح ، فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنين .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن جرير ، في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾  
قال : قال عكرمة هي مكية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عطاء في قوله : ﴿  
لِيُثَبِّتُكَ ﴾ يعني : ليوثقوك .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، عن سعيد بن جبير ، قال : قتل النبي صلى الله عليه  
وسلم يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط ، وطعيمة بن عدي ، والنضر بن الحارث ، وكان  
المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله أسيري ، فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : " إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول " ، قال : وفيه أنزلت هذه الآية  
﴿ وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ وهذا مرسل .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن السدي أنها نزلت في النصر بن الحارث .  
وأخرج البخاري ، وابن أبي حاتم ، وابن الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن أنس بن  
مالك قال : قال أبو جهل بن هشام ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ الآية فنزلت  
﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة ، أنها نزلت في أبي جهل .  
وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير ، في الآية ، أنها نزلت في النصر بن  
الحارث .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ عن مجاهد مثله .

(51/311)

---

وأخرج ابن جرير ، عن عطاء ، نحوه .  
وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في  
سننه ، عن ابن عباس قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لا  
شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، ويقولون : غفرانك غفرانك ، فأنزل الله  
﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ الآية .

قال ابن عباس ، كان فيهم أمانان : النبي صلى الله عليه وسلم ، والاستغفار ، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم ، وبقي الاستغفار .

وأخرج الترمذي وضعفه ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ الآية ، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار " وأخرج أبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة قال : كان فيكم أمانان مضى أحدهما وبقي الآخر ، قال ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس نحوه .  
وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، والطبراني وابن مردويه ، والحاكم ، وابن عساكر ، عن أبي موسى الأشعري نحوه أيضاً ، والأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مطلق الاستغفار كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص





قوله تعالى ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصَدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (34) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا ليس نصاً في استحقاقهم العذاب ، قال تعالى عاطفاً على ما تقديره :  
وليُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ إِذْ هَاجَرَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ يُؤْمِنُوا فَيَسْتَغْفِرُوا : ﴿ وما لهم ﴾ قال أبو حيان :  
الظاهر أن " ما " استفهامية ، أي أي شيء لهم في انتفاء العذاب ، وهو استفهام معناه  
التقرير ، أي كيف لا يعذبون وهم متصفون بهذه الصفة المتقضية للعذاب وهي صدقهم  
المؤمنين عن المسجد الحرام وليسوا بولاية البيت - انتهى .

وتقدير الكلام : وأي حظ لهم في ﴿ ألا يعذبهم الله ﴾ أي الذي له كمال العز والعظمة على  
الظالم والإكرام والرفق بالطائع عاجلاً ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم مستحقون للعذاب فهو  
واقع بهم لا محالة وإن تأخر مدة إبانته وأبطأ عنهم أوانه وقوعاً ينسيهم ما نالوه من اللذات وإن  
عظم عندهم شأنها وامتد طويلاً زمانها لأنهم ﴿ يصدون ﴾ أي يوجدون الصد ﴿ عن  
المسجد ﴾ أي من أراد تعظيمه بالصلاة التي وضع المسجد لها وغيرها ﴿ الحرام ﴾ أي  
العظيم حرمة عند كل أحد فلا اختصاص به لشخص دون آخر ، أي شأنهم فعل حقيقة  
الصدق في الماضي والحال والمآل ، لا ينفكون عن ذلك ، كما كانوا يمنعون من شأؤوا من

دخول البيت ويقولون : نحن ولاته ، نفعل ما نشاء ، ويصدون المؤمنين عن الطواف به التعذيب والفتنة وصدوا رسول الله عليه وسلم ومن معه بالإخراج ثم صدوهم عام الحديبية عن الوصول إلى البيت وعام عمرة القضية عن الإقامة بعد الثلاثة الأيام ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه لم يكن لهم ذلك لأنهم ما ﴿ كانوا أولياءه ﴾ أي أهلاً لولايته بحيث إن صداهم ربما يقع موقعه ؛ روى البخاري في التفسير عن أنس -رضى الله عنهم- قال : قال أبو جهل : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [ الأنفال : 32 ] فنزلت ﴿ وما كان الله ليعذبهم ﴾ [ الأنفال : 33 ] إلى ﴿ عن المسجد الحرام ﴾ [ الأنفال : 33 ] .

ولما نفى عنهم الولاية .

ذكر أهلها فقال ؛ ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أولياءه ﴾ أي بالاستحقاق ﴿ إلا المتقون ﴾ أي العريقون في هذا الوصف بما يجعلون بينهم وبين سخط الله من وقايات الطاعات ، لا كل من آمن بل خاصة المؤمنين ، وهم ليسوا كذلك لتلبسهم الآن بالكفر ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي ليس لهم علم بالأمر ليميزوا بين الحق والباطل والمتقي والفاسق وحسن العواقب وسيئها ، ولعله عبر بالأكثر إعلماً بأن فيهم المعاند ، ولأنه كان منهم من آمن بعد ذلك فصار من أولي العلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 212-213 ﴾

## فصل

قال الفخر:

﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَيُّذُ بِهَمِّ اللَّهِ ﴾

اعلم أنه تعالى بين في الآية الأولى أنه لا يعذبهم ما دام رسول الله فيهم، وذكر في هذه الآية أنه يعذبهم فكان المعنى أنه يعذبهم إذا خرج الرسول من بينهم ثم اختلفوا في هذا العذاب فقال بعضهم: لحقهم هذا العذاب المتوقع به يوم بدر، وقيل بل يوم فتح مكة، وقال ابن عباس: هذا العذاب هو عذاب الآخرة، والعذاب الذي نفاه عنهم هو عذاب الدنيا، ثم بين تعالى ما لأجله يعذبهم، فقال: ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وقد ظهرت الأخبار أنهم كيف صدوا عنه عام الحديبية، ونبه على أنهم يصدون لادعائهم أنهم أولياؤه، ثم بين بطلان هذه الدعوى بقوله: ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءُ لَهُ إِنِ أَوْلِيَاءُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ الذين يتحرزون عن المنكرات، كالذي كانوا يفعلونه عند البيت من المكاء والتصديّة، والمقصود بيان أن من كانت هذه حاله لم يكن ولياً للمسجد الحرام، فهم إذن أهل لأن يقتلوا بالسيف ويحاربوا، فقتلهم الله يوم بدر، وأعز الإسلام بذلك على ما تقدم شرحه. انتهى انتهى. اهـ

﴿ مفاتيح الغيب ج 15 ص 127 ﴾

وقال السمرقندي :

ثم عاد إلى ذكر المشركين فقال : ﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَيْدِيَّ بِهٖمُ اللّٰهُ ﴾ ، يعني بعد ما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من بينهم .

﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ، يعني يمنعون المؤمنين عن المسجد الحرام .  
﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ ؛ يعني المشركين .

قال الكلبي : يعني ما كانوا أولياء المسجد الحرام ؛ ويقال : وما كانوا أولياء الله .  
﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ ، يعني ما كان أولياء الله إلا المتقون من الشرك ، ﴿ وَلٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ توحيد الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بجز العلوم ج 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَيْدِيَّ بِهٖمُ اللّٰهُ ﴾

أي : ما يمنعهم من أن يعذبوا . قيل : [إِنَّ] ﴿ إِنَّ ﴾ هنا زائدة ] .

﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾

المؤمنون من حيث كانوا ومن كانوا ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه .  
﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(55/311)

وقال ابن عطية :

قوله عز وجل : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾

توعد بعذاب الدنيا ، فتقديره وما يعلمهم أو يدرهم ونحو هذا من الأفعال التي توجب أن تكون " أن " في موضع نصب ، وقال الطبري : تقديره وما يمنعهم من أن يعذبوا ، والظاهر في قوله ﴿ وما ﴾ أنها استفهام على جهة التقرير والتوبيخ والسيؤال ، وهذا أفصح في القول وأقطع لهم في الحجة ، ويصح أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ويكون القول إخباراً ، أي وليس لهم ألا يعذبوا وهم يصدون ، وقوله ﴿ وهم يصدون ﴾ على التأويلين جملة في موضع الحال ، و ﴿ يصدون ﴾ في هذا الموضع معناه يمنعون غيرهم ، فهو متعد كما قال الشاعر : ]

[الوافر]

صددت الكأسَ عنا أم عمرو . . . وقد تجيء صد غير متعد كما أنشد أبو علي : ]

[البسيط]

صدت خليدة عنّا ما تكلمنا . . . والضمير في قوله ﴿ أولياؤه ﴾ عائد على الله عز وجل من قوله ﴿ يعذبهم الله ﴾ ، أو على المسجد الحرام ، كل ذلك جيد ، روي الأخير عن الحسن ، والضمير الآخر تابع للأول وقوله ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ معناه لا يعلمون أنهم ليسوا بأولياءه بل يظنون أنهم أولياؤه ، وقوله ﴿ أكثرهم ﴾ ونحن نجد كلهم بهذه الصفة ، لفظ خارج إما على أن تقول إنه لفظ خصوص أريد به العموم وهذا كثير في كلام العرب ، ومنه حكى سيبويه من قولهم : قل من يقول ذلك ، وهم يريدون لا يقوله أحد . وإما أن يقول : إنه أراد بقوله ﴿ أكثرهم ﴾ أن يعلم ويشعر أن بينهم وفي خلالهم قوماً قد جنحوا إلى الإيمان ووقع لهم علم وإن كان ظاهرهم الكفر فاستثارهم من الجميع بقوله ﴿ أكثرهم ﴾ وكذلك كانت حال مكة وأهلها ، فقد كان فيهم العباس وأم الفضل وغيرها ، وحكى الطبري عن عكرمة قال الحسن بن أبي الحسن : إن قوله ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ ، ناسخ لقوله ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا نظر ، لأنه خبر لا يدخله نسخ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَعْدَابُ مِنْ اللَّهِ ﴾

هذه الآية أجازت تعذيبهم ، والأولى نفت ذلك ، وهل المراد بهذا : العذابُ الأولُ ، أم لا ؟  
فيه قولان .

أحدهما : أنه هو الأول ، إلا أن الأول امتنع بشيئين .

أحدهما : كون النبي صلى الله عليه وسلم فيهم .

والثاني : كون المؤمنين المستغفرين بينهم ، فلما وقع التمييز بالهجرة ، وقع العذاب بالباقيين يوم بدر ، وقيل : بل وقع بفتح مكة .

والثاني : أنهما مختلفان ، وفي ذلك قولان .

أحدهما : أن العذاب الثاني : قتل بعضهم يوم بدر ، والأول : استئصال الكلِّ ، فلم يقع الأول لما قد علم من إيمان بعضهم ، وإسلام بعض ذراريهم ، ووقع الثاني .  
والثاني : أن العذاب الأول : عذاب الدنيا .

والثاني : عذاب الآخرة ، قاله ابن عباس ، فيكون المعنى : وما كان الله معذبَ المشركين لاستغفارهم في الدنيا ، وما لهم ألا يعذبهم الله في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وهم يصدون ﴾ قال الزجاج : المعنى : وهم يصدون ﴿ عن المسجد الحرام ﴾ أولياءه .

وفي هاء الكناية في قوله: ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى "المسجد" ، وهو قول الجمهور .

قال الحسن : إن المشركين قالوا : نحن أولياء المسجد الحرام ، فرد الله عليهم بهذا .

والثاني : أنها تعود إلى الله عز وجل ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ إن أولياءه ﴾ أي : ما أولياءه ﴿ إلا المتقون ﴾ للشرك والمعاصي ، ولكنَّ

أكثر أهل مكة لا يعلمون من الأولى بيت الله . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص



(57/311)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾

المعنى : وما يمنعونهم من أن يعذبوا .

أي إنهم مستحقون العذاب لما ارتكبوا من القبائح والأسباب ، ولكن لكل أجل كتاب ؛

فعذبهم الله بالسيف بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي ذلك نزلت : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ [المعارج : 1] وقال الأخفش : إن "أن"



زائدة .

قال النحاس : لو كان كما قال لرفع "يعذبهم" .

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي إن المتقين أولياؤه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

القرطبي ح 7 ص ﴾

(58/311)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا لَهُمُ اللَّائِي عَذَّبَهُمُ اللَّهُ ﴾

يعني أي شيء يمنعهم من أن يعذبهم يعني بعد خروجك من بين أظهرهم ، لأنه سبحانه وتعالى بين في الآية الأولى أنه لا يعذبهم وهو مقيم فيهم بين أظهرهم وبين في هذه الآية أنه معذبهم .

ثم اختلفوا في هذا العذاب فقيل : هو القتل والأسر يوم بدر .

وقيل : أراد به عذاب الآخرة .

وقيل : أراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال وأراد بالعذاب الثاني : العذاب بالسيف .

وقيل : أراد بالعذاب الأول عذاب الدنيا وبهذا العذاب عذاب الآخرة .

وقال الحسن : الآية الأولى وهو قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم منسوخة بقوله وما لهم إلا  
يعذبهم الله وفيه بعد لأن الاخبار لا يدخلها النسخ ثم بين ما لأجله يعذبهم فقال تعالى : ﴿  
وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ يعني وهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالبيت وذلك  
حين صدوا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وأصحابه عن البيت الحرام عام الحديبية  
﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ قال الحسن : كان المشركون يقولون نحن أولياء المسجد الحرام فرد  
الله عليهم بقوله وما كانوا أولياءه يعني ليسوا أولياء المسجد الحرام ﴿ إن أولياءه إلا المتقون  
﴿ يعني المؤمنين الذين يتقون الشرك ﴾ ولكن أكثرهم ﴾ يعني المشركين ﴿ لا يعلمون  
﴿ . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير الخازن ج 3 ص ٤٠

(59/311)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ .

(60/311)

---

الظاهر أن ﴿ ما ﴾ استفهامية أي شيء لهم في انتفاء العذاب وهو استفهام معناه التقرير أي كيف لا يعذبون وهم متصفون بهذه الحالة المتقضية للعذاب وهي صدّهم المؤمنين عن المسجد الحرام وليسوا بولاية البيت ولا متأهلين لولايته ومن صدّهم ما فعلوا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) عام الحديبية وإخراجه مع المؤمنين داخل في الصدّ كانوا يقولون نحن ولاية البيت نصدّ من نشاء وندخل من نشاء ﴿ وأن ﴾ مصدرية، وقال الأخفش: هي زائدة، قال النحاس: لو كان كما قال لرفع تعذيبهم انتهى، فكان يكون الفعل في موضع الحال كقوله: ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله ﴾ وموضع إن نصب أو جر على الخلاف إذ حذف منه اني وهي تعلق بما تعلق به ﴿ لهم ﴾ أي أي شيء كائن أو مستقرّ لهم في أن لا يعذبهم الله والمعنى لاحظ لهم في انتفاء العذاب وإذا انتفى ذلك فهم معذبون ولا بدّ وتقدير الطبري وما يمنعه من أن يعذبوا هو تفسير معنى لا تفسير إعراب وكذلك ينبغي أن يتأول كلام ابن عطية أن التقدير وما قدرتهم ونحوه من الأفعال موجب أن يكون في موضع نصب والظاهر عود الضمير في أولياءه على ﴿ المسجد ﴾ لقربه وصحة المعنى، وقيل ﴿ ما ﴾ للنفي فيكون إخباراً أي وليس لهم أن لا يعذبهم الله أي ليس ينتفي العذاب عنهم مع تلبّسهم بهذه الحال، وقيل الضمير في ﴿ أولياءه ﴾ عائد على الله تعالى، وروي عن الحسن والظاهر أن قوله ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ استئناف إخبار أي وما استحقوا أن يكونوا ولاية أمره ﴿ إن أولياءه إلا المتقون ﴾ أي المتقون للشرك وقال الزمخشري: ﴿ إلا

المتقون ﴿ من المسلمين ليس كل مسلم أيضاً ممن يصلح أن يلي أمره إنما يستأهل ولايته من كان براً ثقيلاً فكيف عبدة الأصنام انتهى ؟ ويجوز أن يكون ﴾ ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ ﴿ معطوفاً على ﴾ ﴿ وهم يصدّون ﴾ ﴿ فيكون حالاً والمعنى كيف لا يعذبهم الله وهم متصفون بهذين الوصفين صدّهم عن المسجد الحرام واتقاء كونهم أولياءه أو أولياءه أي

(61/311)

---

أولياء المسجد أي ليسوا ولايته فلا ينبغي أن يصدّوا عنه أو أولياء الله فهو كفار فيكون قد ارتقى من حال إلى أعظم منها وهو كونهم ليسوا مؤمنين فمن كان صادداً عن المسجد كافراً بالله فهو حقيق بالتعذيب والضمير في أن ﴿ أولياؤه ﴾ ﴿ مترتب على ما يعود عليه في قوله : ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ ﴿ واختلفوا في هذا التعذيب فقال قوم : هو الأول إلا أنه كان امتنع بشيئين كون النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فيهم واستغفار من بينهم من المؤمنين فلما وقع التمييز بالهجرة وقع بالباقيين يوم بدر ، وقيل : بل وقع بفتح مكة ، وقال قوم : هذا التعذيب غير ذلك فالأول : استئصال كلهم فلم يقع لما علم من إسلام بعضهم وإسلام بعض ذراريهم ، والثاني : قتل بعضهم يوم بدر ، وقال ابن عباس : الأول عذاب الدنيا ، والثاني : عذاب الآخرة ، فالمعنى وما كان الله معذب المشركين لاستغفارهم في الدنيا وما لهم أن لا يعذبهم

الله في الآخرة ومتعلق ﴿ لا يعلمون ﴾ محذوف تقديره ﴿ لا يعلمون ﴾ أنهم ليسوا  
أولياءه بل يظنون أنهم أولياؤه والظاهر استدراك الأكثر في انتفاء العلم إذ كان بينهم وفي  
خلاصهم من جنح إلى الإيمان فكان يعلم أن أولئك الصادقين ليسوا أولياء البيت أو أولياء الله  
فكانه قيل ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي أكثر المقيمين بمكة ﴿ لا يعلمون ﴾ لتخرج منهم  
العباس وأم الفضل وغيرهما ممن وقع له علم أو إذ كان فيهم من يعلمه وهو يعاند طلباً للرياسة  
أو أريد بالأكثر الجميع على سبيل المجاز فكانه قيل ولكنهم لا يعلمون كما قيل: قلما رجل  
يقول ذلك في معنى النفي المحض وإبقاء الأكثر على ظاهره أولى وكونه أريد به الجميع هو  
تخريج الزمخشري وابن عطية. انتهى انتهى. اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(62/311)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا لَهُمْ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾

بيانٌ لاستحقاقهم العذاب بعد بيان أن المانع ليس من قبيلهم ، أي وما لهم مما يمنع تعذيبهم متى  
زال ذلك وكيف لا يعذبون ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي وحالهم ذلك ، ومن  
صدّهم عنه إجماع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة وإحصارهم عام الحديبية

﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ ﴿ حَالٌ مِنْ ضَمِيرٍ يَصُدُّونَ مُفِيدَةٌ لِكَمَالِ قُبْحِ مَا صَنَعُوا مِنَ الصَّدَقَاتِ فَإِنَّ مَبَاشِرَتَهُمْ لِلصَّدَقَاتِ عَنْهُ مَعَ عَدَمِ اسْتِحْقَاقِهِمْ لَوْلَايَةِ أَمْرِهِ فِي غَايَةِ الْقُبْحِ وَهُوَ رَدُّ مَا كَانُوا يَقُولُونَ : نَحْنُ وَوَلَاةُ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ فَنُصِدُّ مِنْ نَشَاءٍ وَنُدْخِلُ مِنْ نَشَاءٍ ﴾ ﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ ﴿ مِنَ الشَّرِكِ الَّذِينَ لَا يُعْبُدُونَ فِيهِ غَيْرَهُ تَعَالَى ﴾ ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ أَنَّهُ لَا وَلايَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ يَعَانِدُ ، وَقِيلَ : أُرِيدُ بِأَكْثَرِهِمْ كُلَّهُمْ كَمَا يَرَادُ بِالْقَلَّةِ الْعَدَمُ . انْتَهَى انْتَهَى . اهـ ﴾ ﴿ تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ج 4 ص 4 ﴾

(63/311)

وقال الألوسي :

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾

أي أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم أي لا حظ لهم في ذلك وهم معذبون لا محالة إذا زال المانع وكيف لا يعذبون ﴿ وَهُمْ يُصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي وحالهم الصد عن ذلك حقيقة كما فعلوا عام الحديبية وحكما كما فعلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى ألجأوهم للهجرة ، ولما كانت الآيات يتراءى منهما التناقض زادوا في التفسير إذا زال ليزول كما ذكرنا ، وأنت تعلم أنه إذا حمل التعذيب في كل على تعذيب

الاستئصال احتيج إلى القول بوقوعه بعد زوال المانع وهو خلاف الواقع ، وقال بعضهم في دفع ذلك : إن التعذيب فيما مر تعذيب الاستئصال وهنا التعذيب بقتل بعضهم ، ونقل الشهاب عن الحسن والعهد عليه أن هذه نسخت ما قبلها ، والظاهر أنه أراد النفيين السابقين ، والذي في " الدر المنثور " أنه وكذا عكرمة والسدي قالوا : إن قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [ الأنفال : 33 ] منسوخ بهذه الآية ، وأياً ما كان يرد عليه أنه لا نسخ في الأخبار إلا إذا تضمنت حكماً شرعياً ، وفي تضمن المنسوخ هنا ذلك خفاء ، وقال محمد بن إسحاق : أن الآية الأولى متصلة بما قبلها على أنها حكاية عن المشركين فإنهم كانوا يقولون : إن الله تعالى لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب سبحانه أمة ونبينا معها فقصر الله تعالى ذلك على نبيه صلى الله عليه وسلم مع قولهم الآخر فكأنه قيل : وإذ قالوا اللهم الخ وقالوا أيضاً : كيت وكيت ثم رد عليهم بقوله سبحانه : ﴿ لَهُمُ الْأَلَاءُ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ ﴾ على معنى أنهم يعذبون وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون ، وفيه أن وقوع ذلك القول منهم في غاية البعد مع أن الظاهر حينئذ أن يقال : ليعذبنا ومعذبنا ونحن نستغفر ليكون على طرز قولهم السابق ، وأيضاً الأخبار الكثيرة تأبى ذلك ، فقد أخرج أبو الشيخ .  
والحاكم وصححه .

---

والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : كان فيكم إمامان  
مضى أحدهما وبقي الآخر وتلا ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ [الأنفال: 33] الخ.

وجاء مثل ذلك عن ابن عباس .

وأبي موسى الأشعري ، وأخرج أبو داود .

والترمذي في الشمال .

والنسائي .

عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : " انكسفت الشمس على عهد رسول  
الله صلى الله عليه وسلم فقام عليه الصلاة والسلام فلم يكد يركع ثم ركع فلم يكد يرفع ثم  
رفع فلم يكد يسجد ثم سجد فلم يكد يرفع ثم رفع فلم يكد يسجد ثم سجد فلم يكد يرفع  
ثم رفع وفعل في الركعة الأخرى مثل ذلك ثم نفخ في آخر سجوده ثم قال : رب ألم تعدني أن لا  
تعذبهم وأنا فيهم ؟ رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون ؟ ونحن نستغفرك ففرغ

رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته وقد انحسرت الشمس " وذهب الجبائي إلى أن  
المنفي فيما مر عذاب الدنيا وهذا العذاب عذاب الآخرة أي أنه يعذبهم في الآخرة لا محالة  
وهو خلاف سياق الآية ، ﴿ وَمَا ﴾ على ما عليه الجمهور وهو الظاهر استفهامية ، وقيل  
: إنها نافية أي ليس ينفي عنهم العذاب مع تلبسهم بالصد عن المسجد الحرام ﴿ وَمَا كَانُوا ﴾



أَوْلِيَاءُهُ ﴿ أَيُّ وَمَا كَانُوا مُسْتَحِقِّينَ وَلَايَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَعَ شُرَكَهُمْ ، وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرٍ يَصُدُّونَ مَبِينَةٌ لِكَمَالِ قَبْحِ مَا صَنَعُوا مِنَ الصَّدْفَانِ مَبَاشِرَتِهِمْ لِلصَّدْعِ عَنْهُ مَعَ عَدَمِ اسْتِحْقَاقِهِمْ لَوْلَايَةِ أَمْرِهِ فِي غَايَةِ الْقَبْحِ ، وَهَذَا رَدٌّ لِمَا كَانُوا يَقُولُونَ : نَحْنُ وَلَاةُ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ فَنَصُدُّ مِنْ نَشَاءٍ وَنَدْخُلُ مِنْ نَشَاءٍ ﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أَيُّ مَا أَوْلِيَاءُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ مِنَ الشَّرْكَ الَّذِي لَا يَعْبُدُونَ فِيهِ غَيْرَهُ تَعَالَى ، وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ وَهَذِهِ الْمُرْتَبَةُ الْأُولَى مِنَ التَّقْوَى ، وَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ رَجُوعِ الضَّمِيرِينَ إِلَى الْمَسْجِدِ هُوَ الْمَتَبَادِرُ الْمُرَوِّي عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ .

(65/311)

---

وَالْحَسَنُ ، وَقِيلَ : هُمَا رَاجِعَانِ إِلَيْهِ تَعَالَى ، وَعَلَيْهِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى اعْتِبَارِ اسْتِحْقَاقِ فِيمَا تَقْدُمُ أَنْفَاءً إِذْ لَمْ تُثَبِّتْ لَهُمْ وَلَايَةَ اللَّهِ تَعَالَى أَصْلًا بِخِلَافِ وَلَايَةِ الْمَسْجِدِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُتَوَلِّينَ لَهُ وَقَدْ نَزَلَ فَاحْتِيجُ إِلَى التَّأْوِيلِ بِنَفْيِ اسْتِحْقَاقِ ، وَيُفَسِّرُ الْمُتَّقُونَ حِينَئِذٍ بِمَا هُوَ أَحْصَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّ وَلَايَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَكْفِي فِيهَا الْإِسْلَامُ بَلْ لَا بُدَّ فِيهَا أَيْضًا مِنَ الْمُرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ التَّقْوَى وَإِنْ وَجَدْتَ الْمُرْتَبَةَ الثَّلَاثَةَ مِنْهَا فَالْوَلَايَةُ وَلَايَةُ كِبَرِيٍّ ، وَهَذَا مَا نَعْرِفُهُ مِنْ نصوصِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُطَهَّرَةِ وَالْمَحْجَةِ الْبَيْضَاءِ الَّتِي لَيْلَهَا كُنْهَارُهَا ، وَغَالِبُ الْجَهْلَةِ الْيَوْمِ عَلَى أَنَّ الْوَلِيَّ هُوَ

المجنون ويعبرون عنه بالمجذوب ، صدقوا ولكن عن الهدى ، وكلما أطبق جنونه وكثر  
هذيانه واستقدرت النفوس السليمة أحواله كانت ولايته أكمل وتصرف في ملك الله تعالى  
أتم ، وبعضهم يطلق الولي عليه وعلى من ترك الأحكام الشرعية ومرق من الدين الحمدي  
وتكلم بكلمات القوم وتزيا بزيمهم ، وليس منهم في غير ولا نفي ، وزعم أن من أجهد نفسه في  
العبادة محجوباً ومن تمسك بالشرعية مغبوناً ، وإن هناك باطن يخالف الظاهر إذا هو عرف  
انحل القيد ورفع التكليف وكملت النفس :  
وأقت عصاها واستقر بها النوى . . .

كما قرعينا بالأياب المسافر

ويسمون هذا المرشد ، صدقوا ولكن إلى النار ، والشيخ صدقوا ولكن النجدي ،  
والعارف صدقوا ولكن بسباب الضلال ، والموحد صدقوا ولكن للكفر والإيمان ، وقد  
ذكر مونا حجة الإسلام الغزالي هذا النوع من الكفرة الفجرة وقال : إن قتل واحد منهم  
أفضل عند الله تعالى من قتل مائة كافر ، وكذا تكلم فيهم الشيخ الأكبر قدس سره في  
الفتوحات بنحو ذلك :

إلى الماء يسعى من يغص بلقمة . . .

إلى أين يسعى من يغص بماء

---

والزحشري جعل المتقون أخص من المسلمين على الوجه الأول أيضاً وهو أبلغ في نفي الولاية عن المذكورين أي لا يصلح لأن يلي أمر المسجد من ليس بمسلم وإنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً فكيف بالكفرة عبدة الأوثان ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن لا ولاية لهم عليه ، وكأنه نبه سبحانه بذكر الأكثر على أن منهم من يعلم ذلك ولكن يجحده عناداً ، وقد يراد بالأكثر الكل لأن له حكمه في كثير من الأحكام كما أن الأقل قد لا يعتبر فينزل منزلة العدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(67/311)

---

وقال القاسمي :

﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَعْدَابُ بِهِمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي : وأي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم ، وحالهم الصد عن المسجد الحرام ، كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ، ومن صد هم عنه إجماع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الهجرة .

قال القاشاني : أي : ليس عدم نزول العذاب لعدم استحقاقهم لذلك بحسب أنفسهم ، بل

إنهم مستحقون بذواتهم ، لصدودهم ، وصددهم المستعدين ، وعدم بقاء الخيرية فيهم ، ولكن يمنعه وجودك ووجود المؤمنين المستغفرين معك فيهم .

ثم قال : واعلم أن الوجود الإمكانى يتبع الخير الغالب ، لأن الوجود الواجبي هو الخير المحض ، فما رجح [ في المطبوع : رجح ] خيره على شره فهو موجود بوجوده بالمناسبة الخيرية ، وإذا غلب الشر لم يتبق المناسبة ، فلزم استئصاله وإعدامه .

فهم ما داموا على الصورة الاجتماعية كان الخير فيهم غالباً ، فلم يستحقوا الدمار بالعذاب ، وأما إذا تفرقوا فما بقي إلا شرهم خالصاً فوجب تدميرهم ، كما وقع في واقعة بدر .

ومن هذا يظهر تحقيق المعنى الثانى فى قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾

لغلبة الشرع على المجموع حينئذ . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ رد لما كانوا يقولون : نحن ولاية البيت والحرم ، نصد من

نشاء ، وندخل من نشاء ، أي : ما كانوا مستحقين ولاية أمره ، لشركهم : ﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا

الْمُتَّقُونَ ﴾ أي : من الشرك ، فلهم أن يصدوا المفسدين : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

أي : أنهم لا ولاية لهم عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل - ج 8 - ص 295 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَعْدِبُ بِهِمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ .

عطف على قوله : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم ﴾ [ الأنفال : 33 ] وهو ارتقاء في بيان أنهم أحقاء بتعذيب الله إياهم ، بيانا بالصراحة .

و ﴿ ما ﴾ استفهامية ، والاستفهام إنكاري ، وهي في محل المبتدأ و ﴿ لهم ﴾ خبره ، واللام للاستحقاق والتقدير ما الذي ثبت لهم لأن ينتفي عنهم عذاب الله فكلمة ( ما ) اسم استفهام إنكاري ، والمعنى : لم يثبت لهم شيء .

و ﴿ أن لا يعذبهم ﴾ مجرور بلام جر محذوفة بعد ( إن ) على الشائع من حذف الجر مع ( أن ) والتقدير : أي شيء كان لهم في عدم تعذيبهم أي لم يكن شيء في عدم تعذيبهم أو من عدم تعذيبهم أي أنهم لا شيء يمنعهم من العذاب ، والمقصود الكناية عن استحقاقهم العذاب وحلوله بهم ، أو توقع حلوله بهم ، تقول العرب : مالك أن لا تُكْرِمَ ، أي : أنت حقيق بأن تُكْرِمَ ولا يمنعك من الإكرام شيء ، فاللفظ نفي لما منع الفعل ، والمقصود أن الفعل توفرت أسبابه ثم انتفت موانعه ، فلم يبق ما يحول بينك وبينه .

وقد يتركون ( أن ) ويقولون : مالك لا تفعل فتكون الجملة المنفية بعد الاستفهام في موضع الحال وتكون تلك الحال هي مُثير الاستفهام الإنكاري ، وهذا هو المعنى الجاري على

الاستعمال .

﴿ وجوزوا أن تكون ﴾ ﴿ ما ﴾ ﴿ في الآية نافية فيكون ﴾ ﴿ أن لا يعذبهم ﴾ ﴿ اسمها و ﴾ ﴿ لهم ﴾ ﴿  
خبرها والتقدير وما عدم التعذيب كائناً لهم .

وجملة : ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ في موضع الحال على التقديرين .

(69/311)

---

والصد الصرف ، ومفعول ﴿ يصدون ﴾ محذوف دل عليه السياق ، أي يصدون المؤمنين  
عن المسجد الحرام بقريظة قوله : ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ فكان الصد عن المسجد  
الحرام جريمة عظيمة يستحق فاعلوه عذاب الدنيا قبيل عذاب الآخرة ، لأنه يؤول إلى الصد  
عن التوحيد لأن ذلك المسجد بناه مؤسسه ليكون علماً على توحيد الله وماوى  
للموحدين ، فصد هم المسلمين عنه ، لأنهم آمنوا ياله واحد ، صرف له عن كونه علماً على  
التوحيد ، إذ صار الموحدون معدودين غير أهل لزيادته ، فقد جعلوا مضادين له ، فلزم أن  
يكون ذلك المسجد مضاداً للتوحيد وأهله ، ولذلك عقب بقوله : ﴿ وما كانوا أولياءه إن  
أولياؤه إلا المتقون ﴾ وهذا كقوله : ﴿ ومن يُرد فيه بالحادِ بظلمِ نذقه من عذابِ أليمٍ ﴾  
[ الحج : 25 ] ، والظلم الشرك لقوله : ﴿ إن الشرك لظلمٌ عظيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] .

وهذا الصد الذي ذكرته الآية : هو عزمهم على صدّ المسلمين المهاجرين عن أن يحجوا  
ويُعتمروا ، ولعلمهم أعلنوا بذلك بحيث كان المسلمون لا يدخلون مكة .  
وفي "الكشاف" : "كانوا يقولون نحن وُلَاة البيت والحرم فنصد من نشاء ونُدخل من نشاء" .  
قلت : ويشهد لذلك قضية سعد بن معاذ مع أبي جهل ففي "صحيح البخاري" عن عبد  
الله بن مسعود ، أنه حدث عن سعد بن معاذ : "أنه كان صديقاً لأمية بن خلف ، وكان  
أمية إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد ، وكان سعد إذا مرَّ بمكة نزل على أمية ، فلما هاجر  
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة انطلق سعد معتمراً فنزل على أمية بمكة فقال  
لأمية انظر لي ساعة خلوة لعلني أطوف بالبيت فخرج قريباً من نصف النهار ، فلقيهما أبو  
جهل ، فقال : يا أبا صفوان من (كنية أمية بن خلف) هذا معك فقال : هذا سعد ، فقال  
له أبو جهل : ألا أراك تطوف بالبيت آمناً وقد آوَيْتُ الصباة أما والله لولا أنك مع أبي صفوان  
ما رجعت إلى أهلِكَ سالماً" الحديث .

(70/311)

---

وقد أفادت الآية : أنهم استحقوا العذاب فنبهت على أن ما أصابهم يوم بدر ، من القتل  
والأسر ، هو من العذاب ، ولكن الله قد رحم هذه الأمة تكريماً لنبيه محمد صلى الله عليه

وسلم فلم يؤخذ عامتهم بظلم الخاصة بل ساط على كل أحد من العذاب ما يُجازي كفره  
 وظلمه وإذاته النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ولذلك عذب بالقتل والأسر  
 والإهانة نفرأ عرفوا بالغلوفى كفرهم وأذاهم ، مثل النضر بن الحارث ، وطعيمة بن عدي ،  
 وعقبة بن أبي معيط ، وأبي جهل ، وعذب بالخوف والجوع من كانوا دون هؤلاء كفراً  
 واستبقاهم وأمهلهم فكان عاقبة أمرهم أن أسلموا بقرب أو بعد وهؤلاء مثل أبي سفيان ،  
 وحكيم بن حزام ، وخالد بن الوليد ، فكان جزاؤه إياهم على حسب علمه ، وحقق  
 بذلك رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : " لعل الله أن يخرج من أصلابهم من  
 يعبده " وجملة : ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يصدون ﴾  
 والمقصود من هذه الحال إظهار اعتدائهم في صدهم عن المسجد الحرام ، فإن من صدّ عما  
 هوله من الخير كان ظالماً ، ومن صدّ عما ليس من حقه كان أشدّ ظلماً ، ولذلك قال تعالى  
 : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه ﴾ [البقرة : 114] أي لا أظلم  
 منه أحد لأنه منع شيئاً عن مستحقه .  
 وجملة : ﴿ إن أولياءه إلا المتقون ﴾ تعيين لأوليائه الحق ، وتقرير لمضمون ﴿ وما كانوا  
 أولياءه ﴾ مع زيادة ما أفاده القصر من تعيين أوليائه ، فهي بمنزلة الدليل على نفي ولاية  
 المشركين ، ولذلك فصلت .



---

وإنما لم يُكْتَفَ بجُملة القصر مع اقتضائه أن غير المتقين ليسوا أولياء المسجد الحرام ، لقصد التصريح بظلم المشركين في صدقهم المسلمين عن المسجد الحرام بأنهم لا ولاية لهم عليه ، فكانت جملة : ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ أشد تعلقاً بجملة : ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ من جملة : ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ وكانت جملة : ﴿ إن أولياءه إلا المتقون ﴾ كالدليل ، فاتنظم الاستدلال أبداع انتظام ، ولما في إناطة ولاية المسجد الحرام بالمتقين من الإشارة إلى أن المشركين الذين سلبت عنهم ولايته ليسوا من المتقين ، فهو مذمة لهم وتحقيق للنفي بحجة .

والاستدراك الذي أفاده ﴿ لكن ﴾ ناشى عن المقدمتين اللتين تضمنتهما جملتنا ﴿ وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ لأن ذلك يثير فرض سائل يسأل عن الموجب الذي أقحمهم في الصد عن المسجد الحرام ، ويحسبون أنهم حقيقون بولايته لما تقدم عن "الكشاف" ، فحذف مفعول ﴿ يعلمون ﴾ لدلالة الاستدراك عليه لتعلق الاستدراك بقوله : ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ .

وإنما نفى العلم عن أكثرهم دون أن يقال ولكنهم لا يعلمون فاقضى أن منهم من يعلم أنهم ليسوا أولياء المسجد الحرام ، وهم من أيقنوا بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم واستفاقوا من غفلتهم القديمة ، ولكن حملهم على المشايعة للصادقين عن المسجد الحرام ،

العنادُ وطلبُ الرئاسة ، وموافقةُ الدهماءِ على ضلالهم ، وهؤلاء هم عقلاء أهل مكة ومن تهباً للإيمان منهم مثل العباسِ وعقيل بن أبي طالب وأبي سفيان بن حرب وحكيم بن حزم وخالد بن الوليد ، ومن استبقاهم الله للإسلام فكانوا من نصرائه من بعد نزول هذه الآية . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(72/311)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَيْدِيَّاتُ بِمَنِّ اللَّهِ وَهُمْ يُصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾

وهنا تساءل : أي شيء يمنعهم من أن يعذبهم الله ؟ . إن تعذيبهم هو عدالة ؛ لأنهم فعلوا

ما يستحقون عليه التعذيب . لقد صدوا الرسول والمسلمين عن زيارة المسجد الحرام ؛

لأنهم ظنوا أن لهم الولاية عليه ، رغم أن منهم من سمع خبر أبرهة الأشرم حين جاء بالأفيال

ليهدم الكعبة . واستولى أبرهة الأشرم على مائة من الإبل كانت لسيد قريش عبد المطلب

جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه عبد المطلب وقال له : إنك قد أصبت لي

مائة بعير فأرجو أن تردّها إليّ . فقال أبرهة الأشرم : جئت لأهدم بيتكم ، وبيت آبائكم ،

ثم لا تكلمني فيه وتكلمني في مائة من الإبل أصبتها منك ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب هذه

الإبل ، أما البيت فله رب يحميه .

وهذه كلمة لا يقولها إلا واثق من أن للبيت الحرام رباً يحميه .

وجاءت طير أبابيل ترمي بحجارة من جهنم فجعلته هو وجيشه كعصف مأكول .

إذن فكيف تصد قريش محمداً والمؤمنين معه عن البيت الحرام ، وهم بإقرار سيدهم قديماً

يعلمون أن للبيت رباً يحميه ، فكيف تكون لكم على البيت ولاية ؟ وكان عليهم أن يعلموا

أن ولاية أمر بيت الله باختيار الله ولا تكون إلا للمتقين ، ولم تكن قريش من المتقين .

وحيثيات التعذيب إذن هي صدهم عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه . لماذا ؟

﴿ إِنِ أَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنفال : 34 ] .

(73/311)

---

وإذا كان أكثرهم لا يعلم ، فأقلهم يعلم علم اليقين حقيقة البيت الحرام ، فقداسة هذا البيت

التي تعلمها الأقلية ونسيتها الأكثرية من كفار قريش هو قول الحق تبارك وتعالى على لسان

سيدنا إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ رَبَّنَا

لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ [ إبراهيم :

[ 37 ] .

لقد جعلهم الله عز وجل في هذا المكان ليقيموا الصلاة؛ لأنه سبحانه وتعالى يجب أن يعبد في الأرض ولو بواحد في هذا المكان، وتظل عبادته دائمة . ومهما علت فئة من البشر مثل قريش فهي بصددها عن البيت الحرام قد اتبعت أهواءها ، وسبحانه يحقق ما يريد ، فهزم قريشا ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعادت للكعبة حرمتها وصارت مكانا للعبادة لله بصفة مستمرة .

وإننا نجد تشريعات الحق سبحانه في أوقات الصلاة ، فالصبح عند قوم هو ظهر عند قوم آخرين ، والظهر عند قوم هو صبح عند قوم آخرين ، والعصر عند قوم هو صبح أو ظهر أو مغرب أو عشاء عند أقوام آخرين ، وهكذا نجد كل أجزاء النهار مشغولة بأوقات الاتجاه إلى الله ، وهناك في كل لحظة من يتجه إلى بيت الله الحرام بصلاة ما في ميقاتها ، ولا تخلو بقعة في الأرض من قول: "الله أكبر" ، وقد تم بناء البيت الحرام من أجل هذه الصلاة .

لكن قريشا حولت الصلاة من خضوع وخشوع وعبادة لله تعالى واستحضار لعظمته وجلاله إلى ما يقول عنه الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(74/311)

## "فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَإِذِ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ  
(33) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصَدِّقُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ  
إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34) ﴾

أخرج البخاري وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال أبو جهل بن هشام ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ فنزلت ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .  
وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : ذكر لنا أنها أنزلت في أبي جهل بن هشام .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ قال : نزلت في النضر بن الحارث .

وأخرج ابن جرير عن عطاء قال : نزلت في النضر ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم

الحساب ﴿ [ ص : 16 ] . ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ [ الأنعام :  
94 ] و ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ [ المعارج : 1 ] قال عطاء رضي الله عنه : لقد  
نزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله .

وأخرج ابن مروديه عن بريدة رضي الله عنه قال : رأيت عمرو بن العاص واقفاً على فرس  
يوم أحد وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فاحسف بي وفرسي .

(75/311)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن  
ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك لا شريك  
لك لبيك . فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : قد ، قد . ويقولون : لا شريك لك إلا شريك  
هو لك تملكه وما ملك ، ويقولون : غفرانك غفرانك . فأنزل الله تعالى ﴿ وما كان الله  
ليعذبهم وأنت فيهم . . . ﴾ الآية . فقال ابن عباس رضي الله عنه : كان فيهم أمانان النبي  
صلى الله عليه وسلم والاستغفار ، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم وبقي الاستغفار  
﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ قال : هو عذاب الآخرة وذلك عذاب الدنيا .  
وأخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا : قالت قريش بعضها لبعض :

محمد صلى الله عليه وسلم أكرمه الله من بيننا ﴿ اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك  
فأمطر علينا حجارة من السماء . . . ﴾ الآية . فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا :  
غفرانك اللهم . فأنزل الله ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ إلى قوله ﴿ لا  
يعلمون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن أبي رضى الله عنه قال : كان رسول  
الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فأنزل الله ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ فخرج  
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فأنزل الله ﴿ وما كان الله معذبهم وهم  
يستغفرون ﴾ فلما خرجوا أنزل الله ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله .  
. . ﴾ الآية فأذن في فتح مكة ، فهو العذاب الذي وعدهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطية رضى  
الله عنه في قوله ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ يعني المشركين حتى يخرجك منهم  
﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ قال : يعني المؤمنين ، ثم أعاد المشركين فقال  
﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ يقول: لو استغفروا وأقروا بالذنوب لكانوا مؤمنين. وفي قوله ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ يقول: وكيف لا أعذبهم وهم لا يستغفرون.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وما كان الله ليُعذبهم وأنت فيهم ﴾ قال: بين أظهرهم ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ يقول: وما كان الله معذبهم وهو لا يزال الرجل منهم يدخل في الإسلام. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ قال: وهم يدخلون في الإسلام.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار رضي الله عنه قال: سئل سعيد بن جبير رضي الله عنه عن الاستغفار؟ فقال: قال الله ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ يقول: يعملون على الغفران، وعلمت أن ناساً سيدخلون جهنم ممن يستغفرون بألسنتهم ممن يدعي الإسلام وسائر الملل.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة والحسن رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ قال: نسختها الآية التي تليها ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ فقوتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والحصر.



وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه . مثله .  
وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي مالك رضي الله عنه ﴿ وما كان الله ليعذبهم  
وأنت فيهم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ وما كان الله معذبهم ﴾ وفيهم المؤمنون يستغفرون .  
وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن قتادة رضي الله عنه قال : إن القرآن يدلكم على  
دائكم ودوائكم ، أما داءكم فذنوبكم ، وأما دواؤكم فالاستغفار .

(77/311)

---

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن كعب رضي الله عنه قال : إن العبد ليزنب الذنب  
الصغير فيحترقه ولا يندم عليه ولا يستغفر منه ، فيعظم عند الله حتى يكون مثل الطود ،  
ويذنب الذنب فيندم عليه ويستغفر منه فيصغر عند الله عز وجل حتى يعفوله .  
وأخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم

" أنزل الله علي أمانين لأمتي ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم  
يستغفرون ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة " .

وأخرج أبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله

عنه قال : كان فيكم أمانان مضى أحدهما وبقي الآخر .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم ، فأمان قبضه الله تعالى إليه ، وأمان بقي فيكم قوله ﴿ وما كان الله ليعذبهم . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه والحاكم وابن عساكر عن أبي موسى رضي الله عنه قال : إنه قد كان فيكم أمانان ، مضى أحدهما وبقي الآخر ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ فإما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد مضى لسبيله ، وأما الاستغفار فهو كائن إلى يوم القيامة .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان في هذه الأمة أمانان : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستغفار ، فذهب أمان - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - وبقي أمان ، يعني الاستغفار .

وأخرج أحمد عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله " .

وأخرج أحمد والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان قال : وعزتك يا رب ، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم . قال الرب : وعزتي وجلالي ، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني " .

وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أكثر من الاستغفار ، جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن استطعتم أن تكثروا من الاستغفار فافعلوا ، فإنه ليس شيء أنجح عند الله ولا أحب إليه منه " .

وأخرج أحمد في الزهد عن مغيث بن أسماء رضي الله عنه قال : كان رجل ممن كان قبلكم يعمل بالمعاصي ، فبينما هو ذات يوم يسير إذ تفكر فيما سلف منه فقال : اللهم غفرانك . فادركه الموت على تلك الحال فغفر له .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : طوبى لمن وجد في صحيفته بنداً من الاستغفار .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : من قال : أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه خمس مرات ، غفر له وإن كان عليه مثل زبد البحر .

(79/311)

---

وأخرج أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال " انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى رسول الله ، فقام فلم يكديرك ، ثم ركع فلم يكديسجد ، ثم سجد فلم يكديرفع ، ثم رفع وفعل في الركعة الأخرى مثل ذلك ، ثم نفخ في آخر سجوده ، ثم قال : رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم ، رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك . ففرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته وقد انخفضت الشمس " .

وأخرج الديلمي عن عثمان ابن أبي العاص قال : قال رسول الله " في الأرض أمانان : أنا امان ، والاستغفار أمان ، وأنا مذهب بي ويبقى أمان الاستغفار ، فعليكم بالاستغفار

عند كل حدث وذنوب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ قال : ما كان الله ليعذب قوماً وأنبياءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ يقول : وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان : وهو الاستغفار . وقال للكافر ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ [ آل عمران : 179 ] فيميز الله أهل السعادة من أهل الشقاوة ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ فعذبهم يوم بدر بالسيف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والنحاس وأبو الشيخ عن الضحاك ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ قال : المشركين الذين بمكة ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ قال : المؤمنين بمكة ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ قال : كفار مكة .  
وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ قال : عذابهم فتح مكة .

---

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ وهم يجحدون آيات الله ويكذبون رسله ، وإن كان فيهم ما يدعون .  
وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير رضي الله عنه في قوله ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ أي من آمن بالله وعبدته أنت ومن اتبعك . ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ الذين يخرجون منه ويقيمون الصلاة عنده ، أي أنت ومن آمن بك .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ قال : من كانوا حيث كانوا .  
وأخرج البخاري في الأدب المفرد والطبراني والحاكم وصححه عن رفاعة بن رافع رضي الله عنه . " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله عنه : " اجمع لي قومك ، فجمعهم فلما حضروا باب النبي صلى الله عليه وسلم دخل عمر رضي الله عنه عليه فقال : قد جمعت لك قومي . فسمع ذلك الأنصار فقالوا : قد نزل في قريش الوحي . فجاء المستمع والناظر ما يقال لهم ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقام بين أظهرهم فقال : هل فيكم من غيركم ؟ قالوا : نعم ، فينا حليفنا وابن أختنا وموالينا . قال النبي صلى الله عليه وسلم : حليفنا منا ، وابن أختنا منا ، ومولانا منا ، أتم تسمعون أن أوليائي منكم إلا

المتقون ، فإن كنتم أولئك فذلك ، وإلا فانظروا لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون  
بالأثقال فيعرض عنكم " .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه . أن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم قال " إن أوليائي يوم القيامة المتقون وإن كان نسب أقرب من نسب ، فلا يأتيني  
الناس بالأعمال ، وتأتونني بالدنيا تحملونها على رقابكم فأقول هكذا وهكذا إلا وأعرض  
في كل عطفيه " .

(81/311)

---

وأخرج ابن مردويه والطبراني والبيهقي في سننه عن أنس رضي الله عنه قال : " سئل  
رسول الله صلى الله عليه وسلم من آلك ؟ فقال : كل تقي ، وتلا رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ﴿ إن أوليائه إلا المتقون ﴾ " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه : سمعت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يقول : " إن آل فلان ليسوا لي بأولياء ، إنما وليي الله وصالح المؤمنين  
." .

وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

"إن أولى الناس بي المتقون، من كانوا وحيث كانوا". انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور ح

﴿ 4 ص

(82/311)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَعْدِبُ اللَّهُ ﴾ الآية.

في "أن" وجهان:

أظهرهما: أنها مصدرية، وموضعها إما نصب، أو جر؛ لأنها على حذف حرف الجر، إذ التقدير: في الأعدبهم، وهذا الجار متعلق بما تعل به: "لهم" من الاستقرار، والتقدير: أي شيء استقر لهم في عدم تعذيب الله إياهم؟ بمعنى: لاحظ لهم في انتفاء العذاب.

والثاني: أنها زائدة وهو قول الأخفش.

قال النحاس: لو كانت كما قال لرفع "يعذبهم".

يعني النحاس: فكان ينبغي أن يرتفع الفعل على أنه واقع موضع الحال، كقوله: ﴿ وَمَا لَنَا لَا

نؤمن بالله ﴾ [المائدة: 84] ولكن لا يلزم من الزيادة عدم العمل، ألا ترى: "أن من و"



الباء "يعملان وهما مزيدتان .

وقال أبو البقاء : " وقيل هو حال ، وهو بعيدٌ ، لأنَّ " أن " تُخَصُّ الفعل للاستقبال " والظاهر أنَّ " ما " في قول " وَمَا لَهُمْ " استفهامية ، وهو استفهامٌ معناه التقرير ، أي : كيف لا يُعذَّبون وهم مُتَّصفون بهذه الحال ؟ .

وقيل : " ما " نافية ، فهي إخبارٌ بذلك ، أي : ليس عدمُ التعذيب ، أي : لا ينتفي عنهم التعذيب مع تلبسهم بهذه الحال .

قوله ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾

(83/311)

في هذه الجملة وجهان :

أحدهما : أنها استنافية ، والهاء تعود على المسجد أي : وما كانوا أولياء المسجد .

والثاني : أنها نسقٌ على الجملة الحالية قبلها وهي : " وَهُمْ يَصُدُّونَ " والمعنى : كيف لا

يُعذَّبهم الله ، وهم مُتَّصفون بهذين الوصفين : صدَّهم عن المسجد الحرام ، وانتفاء كونهم

أولياءه ؟ ويجوز أن يعود الضمير على الله تعالى ، أي : لم يكونوا أولياء الله . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 508 . 509 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَعْدَابُ بِهِمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ .

نفى العذاب عنهم في آية ، وأثبتته في آية ، فالمنفي في الدنيا والمثبت في الآخرة .

ثم بين إيصال العذاب إليهم في الآخرة بقوله تعالى . ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

دليل الخطاب أن إعانة المسلمين على ما فيه قيام بحق الدين يوجب استحقاق القرية

والتواب .

وفي الآية دليل على أنه لا يعذب أولياءه بقوله : ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ فإذا عذب مَنْ

يكونوا أولياءه دل على أنه يعذب من كان من جملة أولياءه . والمؤمنون كلهم أولياء الله لأنه

قال : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة : 257] . والمؤمن - وإن عذب بمقدار جرمه

زماناً فإنه لا يُخَلد في دار العقوبة ، فما يُقاسون بالإضافة إلى تأييد الخلاص جَلَلٌ ، وقيل :

إذا سَلِمَ العهد الذي كان بيننا . . . فودّي وإن شطّ المزار سليمٌ

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وليس أولياءه إلا المتقون ، وهم الذين اتقوا الشُّرك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

تَكْفُرُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانوا يفعلون عند البيت ما ينزه البيت عنه مما هو غاية في الجهل ، قال مبيناً لجهلهم  
واستحقاقهم للنكال وبعدهم عن استحقاق ولايته : ﴿ وما كان صلاتهم ﴾ أي التي  
ينبغي أن تكون مبنية على الخشوع ، وزاد في التبشيع عليهم بقوله : ﴿ عند البيت ﴾ أي  
فعلهم الذي يعدونه صلاة أو يبدلونها به ﴿ الإمكاء ﴾ أي صغيراً يشبه صغير الطير  
والدبر بريح الحدث - من مكأ يمكؤ مكواً ومكأء - إذا صفر بفيه أو شبك أصابعه ونفخ  
فيها ، ومكت الشجرة بريحها : صوت ، والدبر بريح الحدث : صوت - قال أبو حيان :  
وجاء على فعال أي بالضم ويكثر فعال في الأصوات كالصراخ - انتهى .

﴿ وتصدية ﴾ أي وتصفيقا ، كان أهل الجاهلية يطوفون عراة ويصفرون بأفواههم ويصفقون بأيديهم مقصورة ، فيكون تصويتهم ذلك يشبه الذي رجّع الصوت في المكان الخالي ، فهو كناية عن أن صلاتهم لا معنى لها ، وأصله صدد - مضاعف - إذا أعرض ومال مثل التظني من ظنن - ، فهذا لهو لا عبادة وهزء لا جد مع أن الأمر جد وأي جد كما قال تعالى : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ [ النجم : 59 - 61 ] أي ولا تبكون في حال جدكم بدأ بكم في العمل الصالح ، فهذا الذي يعملونه مناف لحال البيت فهو تخريب لا تعمیر ، قال مقاتل : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا صلى في المسجد قام رجالان من المشركين عن يمينه يصفران ويصفقان ، ورجلان كذلك عن يساره ليخلطوا عليه صلاته ، وتقدير الكلام على قراءة الأعمش : صلاتهم - بالنصب : وما كان شيء إلا مكاء وتصدية صلاتهم ، فنفي عما يجعلونه صلاة كل شيء إلا المكاء والتصدية ، فالصلاة مقصورة عليهما بهذا الاعتبار ، فقد صارت بهذا الطريق بمعنى القراءة المشهورة سواء فأملة فإنه نفيس جداً ، وخرج عليه الخلاف في آية الأنعام ﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ [ الأنعام : 23 ] وغيره ، وقد مضى هناك ما ينفع هنا ، ومما يجب أن يعلم أن هؤلاء لم يذمهم الله لأنه أعلى الذم ، بل ذمهم لكونهم اتخذوا العبادة لعباً لينبه بذلك على ذم من أشبههم في ذلك فعمد إلى ما هو مباح في أصله فاتخذوه ديناً فكيف إذا كان مكروهاً أم كيف إذا كان حراماً ، فقبح الله قوماً ادعوا أنهم أعرضوا عن الدنيا ثم اتخذوا

الطبول والغنى والتصديّة شعارهم ثم ضربوا به حتى فعلوه في المساجد وزادوا على فعل  
الجاهلية الرقص الذي ابتدعه قوم السامري لما عبدوا العجل ، فأخذوا أنواعاً من أفعال  
أنواع من الكفرة وجعلوها عادتهم وشعارهم وديانتهم ، فلقد اتهموا حرّمت الشريعة  
وبدلوها واستهانوا بها واستزدلوها .

ولما كان مساق الكلام لبيان استحقاقهم العذاب ، وأنه لا مانع لهم منه وكان قد أوقع بهم  
في هذه الغزوة مباديه ، وكانت المواجهة بالتعنيف وقت إيقاع ما لا يطاق بالعدو إنكاء ، قال  
مسبباً عن قبيح كانوا يرتكبونه : ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ أي الذي توعدكم الله والذي  
رأيتموه بيدرو طلبتموه في استقتائكم حكم الاستهانة به ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ أي إنكم  
قد صرتم بهذا الفعل أهلاً لذوقه بما تسترون مما دلتكم عليه عقولكم من هذا الحق  
الواضح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 213 . 214 ﴾

(86/311)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال في حق الكفار أنهم ما كانوا أولياء البيت الحرام .

وقال : ﴿ إِنِ أَوْلِيَاءُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ [ الأنفال : 34 ] بين بعده ما به خرجوا من أن يكونوا

أولياء البيت ، وهو أن صلاتهم عند البيت وتقربهم وعبادتهم إنما كان بالمكاء والتصدية .

قال صاحب "الكشاف" : المكاء فعال بوزن النغاء والرغاء من مكأ يمكؤ إذا صفر ،

والمكاء الصفير .

ومنه المكاء وهو طائر يألف الريف ، وجمعه المكاكي سمي بذلك لكثرة مكانه .

وأما التصدية فهي التصفيق .

يقال : صدى يصدي تصدية إذا صفق بيديه ، وفي أصلها قولان : الأول : أنها من الصدى

وهو الصوت الذي يرجع من جبل .

الثاني : قال أبو عبيدة : أصلها تصددة ، فأبدلت الياء من الدال .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [ الزخرف : 57 ] أي يعجزون ، وأنكر

بعضهم هذا الكلام ، والأزهري صحح قول أبي عبيدة .

وقال : صدى أصله صدى ، فكثرت الدالات الدالة فقلبت إحداهن ياء .

إذا عرفت هذا فنقول : قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون

ويصفقون وقال مجاهد : كانوا يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف ويستهنؤون

به ويصفرون ويخاطون عليه طوافه وصلاته ، وقال مقاتل : كان إذا صلى الرسول في

المسجد يقومون عن يمينه ويساره بالتصفير والتصفيق ليخلطوا عليه صلاته .  
فعلى قول ابن عباس : كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم ، وعلى قول مجاهد ومقاتل ،  
كان إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم .  
والأول أقرب لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾ .  
فإن قيل : المكاء والتصدية ما كانا من جنس الصلاة فكيف يجوز استثناءهما عن الصلاة ؟

قلنا : فيه وجوه : الأول : أنهم كانوا يعتقدون أن المكاء والتصدية من جنس الصلاة ،  
فخرج هذا الاستثناء على حسب معتقدهم .

(87/311)

---

الثاني : أن هذا كقولك وددت الأمير فجعل جفائي صلتي .  
أي أقام الجفاء مقام الصلة فكذا ههنا .  
الثالث : الغرض منه أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له ، كما تقول العرب ، ما  
لفلان عيب إلا السخاء .  
يريد من كان السخاء عيبه فلا عيب له .

ثم قال تعالى: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي عذاب السيف يوم بدر، وقيل:

يقال لهم في الآخرة: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب - 15 ص 128 ﴾

(88/311)

وقال السمرقندي:

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ ﴾

معناه وما لهم إلا يعذبهم الله ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ الْإِمَّكَاءِ وَتَصَدِيَةً ﴾ ، يعني

لم تكن صلاتهم حول البيت إلا مكاءً ، يعني إلا الصغير وتصدية ، يعني التصفيق باليدين ،

إذا صلى النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام .

قرأ الأعمش ﴿ مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ ﴾ بالنصب ﴿ الْإِمَّكَاءِ وَتَصَدِيَةً ﴾ بالضم؛ وهكذا

قرأ عاصم في إحدى الروايتين ، فجعل الصلاة خبر كان وجعل المكاء والتصدية اسم كان؛

وقرأ الباقون ﴿ صَلَاتُهُمْ ﴾ بالضم فجعلوه اسم كان ﴿ مَكَّاءِ وَتَصَدِيَةً ﴾ بالنصب

على معنى خبر كان .



ثم قال: ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ بتوحيد الله تعالى ، فأهلكهم الله تعالى في الدنيا ولهم عذاب الخلود في الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 2 ص ﴾

(89/311)

وقال الثعلبي :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ والمكاء الصغير . يقال مكأء تمكأوا  
مكا ومكوا . وقال عنتره :

وحليل غانية تركت مجدلاً . . . تمكوا فريسته كشدق الاعلم

ومنه قيل : مكأ اسم الدابة مكأ إذا نفخت بالريح . (وتصدية) يعني التصفيق .

قال جعفر بن ربيعة : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله ﴿ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾  
فجمع كفيه ثم نفخ فيها صغيراً .

وقال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون . و [ قال ]

مجاهد : كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف

يستهنئون به فيدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون ، يخلطون عليه صلواته وطوافه .

وقال مقاتل : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى في المسجد قام رجلان من المشركين

عن يمينه فيصفران ويصفقان ورجلان كذلك عن يساره ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته . وهم بنو عبد الدار فقتلهم الله ببدر .

وقال السدي : المكاء الصغير على لحن طائر أبيض يكون بالحجاز يقال له : المكا .  
قال الشاعر :

إذا غرّد المكاء في غير روضة . . . قيل لأهل الشاء والحمرات

وقال سعيد بن جبير وابن إسحاق وابن زيد : التصدية صدهم عن بيت الله وعن دين الله ، والتصدية على هذا التأويل التصديد فقلبت إحدى الدالين تاءً كما يقال تظنيت من الظن .

قال الشاعر :

تقضي البازي إذا البازي كسر . . . يريد : تظنيت وتفضض .

وقرأ الفضل عن عاصم : وما كان صلاتهم بالنصف إلا مكاء وتصدية بالرفع محل الخبر في الصلاة كما قال القطامي :

قفي قبل التفرق يا ضبا عاً . . . ولايك موقف منك الوداعا

وسمعت من يقول : كان المكاء أذانهم والتصفيق إقامتهم ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ يوم بدر

﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

---

وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾

في المكاء قولان :

أحدهما : أنه إدخال أصابعهم في أفواههم ، قاله مجاهد .

والثاني : هو أن يشبك بين أصابعه ويصفر في كفه بفيه فيكون المكاء هو الصفير ، ومنه قول

عنتره :

وحليل غنية تركت مُجدلاً . . . تمكوفريسته بشدق الأعلم

أي تصفر بالريح لما طعنته .

وأما التصدية ففيها خمسة أقاويل :

أحدهما : أنه التصفيق ، قاله ابن عباس وابن عمر والحسن ومجاهد وقتادة والسدي ومنه

قول عمرو بن الإطنابة :

وظلوا جميعاً لهم ضجة . . . مكاء لدى البيت بالتصدية

والثاني : أنه الصد عن البيت الحرام ، قاله سعيد بن جبيرة وابن زيد .

والثالث : أن تصدى بعضهم لبعض ليفعل مثل فعله ، ويصفر له إن غفل عنه ، قاله بعض

المتأخرين .

الرابع: أنها تفعلة من صد يصد ، وهو الضجيج ، قاله أبو عبيدة . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [ الزخرف : 57 ] أي يضجون .

الخامس : أنه الصدى الذي يجيب الصائح فيرد عليه مثل قوله ، قاله ابن بحر .

فإن قيل : فلم سمى الله تعالى ما كانوا يفعلونه عند البيت من المكاء والتصدية صلاة وليس منها ؟

قيل عن ذلك جوابان :

أحدهما : أنهم كانوا يقيمون التصفيق والصفير مقام الدعاء والتسبيح فجعلوا ذلك صلاة وإن لم يكن في حكم الشرع صلاة .

والثاني : أنهم كانوا يعملون كعمل الصلاة .

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : عذاب السيف يوم بدر ، قاله الحسن الضحاك وابن جريج وابن إسحاق .

والثاني : أنه يقال لهم في الآخرة ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : فالتقوا .

الثاني : فجربوا .

---

وحكى مقاتل في نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى في المسجد الحرام قام من كفار بني عبد الدار بن قصي رجلاً عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم يصفران كما يصفر المكاء والمكاء طائر، ورجلان منهم عن يساره يصفقان بأيديهما ليخطوا عليه صلاته وقراءته، فنزلت هذه الآية فيهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿النكت والعيون ح 2 ص﴾

(92/311)

---

وقال ابن عطية:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

(35) ﴿﴾

قرأ الجمهور "وما كان صلاتهم" بالرفع "عند البيت لا مكاءً" بالنصب "وتصدية" كذلك، وروى عن عاصم أنه قرأ: "صلاتهم" بالنصب "إلا مكاءً وتصدية" بالرفع، وروى عن سليمان الأعمش بخلاف عنه فيما حكى أبو حاتم، وذكر أبو علي عن الأعمش أنه قال في قراءة عاصم: أفإن لحن عاصم تلحن أنت؟ قال أبو الفتح: وقد روي الحرف كذلك

عن أبان بن تغلب ، قال قوم : وهذه القراءة خطأ لأنه جعل الاسم نكرة والخبر معرفة ، قال أبو حاتم : فإن قيل إن المكاء والتصديقة اسم جنس واسم الجنس معرفاً ومنكراً واحداً في التعريف ، قيل إن استعماله هكذا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ، كما قال حسان : [ الوافر . ]

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ . . . يَكُونُ مَزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ

ولا يقاس على ذلك ، فأما أبو الفتح فوجه هذه القراءة بما ذكرناه من تعريف اسم الجنس وبعد ذلك يرجح قراءة الناس قال أبو علي الفارسي : وإنما ذهب من ذهب إلى هذه القراءة لما رأى الفعل أن الصلاة مؤنثة ورأى المسند إليها ليس فيه علامة تأنيث فأراد تعليقه بمذكر وهو المكاء ، وأخطأ في ذلك ، فإن العرب تعلق الفعل لا علامة فيه بالمؤنث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ [ هود : 67 ] وقوله ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمِهِمْ ﴾ [ النمل : 51 ] وكيف كان عاقبة المفسدين ﴿ [ الأعراف : 86 - 103 ، النمل : 14 ] ونحو هذا مما أسند فيه الفعل دون علامة إلى المؤنث ، والمكاء على وزن الفعال الصغير قاله ابن عباس والجمهور ، فقد يكون بالفم وقد يكون بالأصابع والكف في الفم ، قال مجاهد وأبوسلمة بن عبد الرحمن ، وقد يشارك الأنف يقال مكأ يمكو إذا صفر ، ومنه قول عنتره : [ الكامل ]

وخليل غانية تركت مجداً . . . تمكوفريسته كشدق الأعلم

ومنه قول الشاعر :

(93/311)

فكأنما يمكوبأعصم عاقل . . . يصف رجلاً فربه حيوان

ومنه قول الطرماح : [ الكامل ]

فنحاً لأولها بطعنة محفظ . . . تمكوجوانبها من الإنهار

ومكت است الدابة إذا صفرت يقال ولا تمكوا إلا است مكشوفة ومن هذا قيل للاست

مكوة قال أبو علي : فالهمزة في ﴿ مكاء ﴾ منقلبة عن واو .

قال القاضي أبو محمد : ومن هذا قيل للطائر المكاء لأنه يمكوا أي يصفر في تغريده ، ووزنه

فعال بشد العين كخطاف ، والأصوات في الأكثر تجيء على فعال بتخفيف العين كالبعاء

والصراخ والدعاء والجوار والنباح ونحوه ، وروي عن قتادة أن المكاء صوت الأيدي وذلك

ضعيف ، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ " إلامكا " بالقصر ، و" التصدية " عبر عنها أكثر

الناس بأنها التصفيق ، وقتادة بأنه الضجيج والصياح ، وسعيد بن جبير بأنها الصد والمنع ،

ومن قال التصفيق قال : إنما كان للمنع عن ذكر الله ومعارضة لقراءة رسول الله صلى الله

عليه وسلم للقرآن ، و" التصدية " يمكن أن تكون من صدى يصدى إذا صوت والصدى

الصوت ، ومنه قول الرماح يصف الأروية : [ الطويل ]

لها كلما ريعت صداة وركدة . . . بمصران أعلى ابني شمام البوائن

(94/311)

---

فيلتئم على هذا الاشتقاق قوم من قال : هو التصفيق ، وقول من قال الضجيج ، ولا يلتئم  
عليه قول من قال هو الصد والمنع إلا أن يجعل التصويت إنما يقصد به المنع ، ففسر اللفظ  
بالمقصود لا بما يخصه من معناه ، ويمكن أن تكون " التصدية " من صدى يصد استعمل الفعل  
مضعفاً للمبالغة والتكثير لا ليعدى فليل صد ، وذلك أن الفعل الذي يتعدى إذا ضعف  
فإنما يضعف للتكثير ، إذ التعدي حاصل قبل التضعيف ، وذلك نحو قوله ﴿ وغلقت  
الأبواب ﴾ [ يوسف : 23 ] والذي يضعف ليعدى هو كقولهم علم وغرم فإذا قلنا في صد  
صد ففعل في الصحيح يجيء مصدره في الأكثر على تفعيل وفي الأقل على تفعلة مثل كمل  
تكميلاً وتكملة وغير ذلك ، بخلاف المعتل فإنه يجيء في الأكثر على تفعلة مثل عزى وتعزية  
وفي الشاذ على تفعيل ، مثل قول الشاعر : [ الرجز ]

(95/311)



---

بات ينزي دلوّه تنزياً . . . وإذا كان فعل في الصحيح يتسق فيه المثلان رفض فيه تفعلة مثل قولنا تصدية وصير إلى تفعيل لتحول الياء بين المثلين كتخفيف وتشديد ، فلما سلكوا مصدر صدد المسلك المرفوض أصلح ذلك بأن إبدال أحد المثلين ياء كبد لهم في تظننت ونحوه ، فجاء " تصدية " فعلى هذا الاشتقاق يلتزم قول من قال التصدية الصد عن البيت والمنع ، ويمكن أن تكون التصدية من صد يصد بكسر الصاد في المستقبل إذا ضح ، ويبدل أيضاً على هذا أحد المثلين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إذا قومك منه يصدون ﴾ [ الزخرف : 57 ] بكسر الصاد ، ذكره النحاس ، وذهب أكثر المفسرين إلى أن " المكاء والتصدية " إنما أحدثها الكفار عند مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقطع عليه يمينه وشماله من يمكو ويصدي حتى تختلط عليه قراءته ، فلما نفى الله تعالى ولايتهم للبيت أمكن أن يعترض معترض بأن يقول ، وكيف لا نكون أولياءه ونحن نسكنه ونصلي عنده ؟ فقطع الله هذا الاعتراض بأن قال وما كان صلاتهم إلا المكاء والتصدية ، وهذا كما يقول رجل أنا أفعل الخير فيقال له ما فعلك الخير إلا أن تشرب الخمر وتقتل ، أي هذه عادتك وغايتك . قال القاضي أبو محمد : والذي مر بي من أمر العرب في غير ما ديوان أن المكاء والتصدية كان من فعل العرب قديماً قبل الإسلام على جهة التقرب به والتشريع ، ورأيت عن بعض أقوياء العرب أنه كان يمكو على الصفا فيسمع من جبل حراء ، وبينهما أربعة أميال ، وعلى

هذا يستقيم تعييرهم وتنقصهم بأن شرعهم وصلاتهم وعبادتهم لم تكن رهبة ولا رغبة ،  
إنما كانت مكاء وتصدية من نوع اللعب ، ولكنهم كانوا يزيدون فيها وقت النبي صلى الله  
عليه وسلم ليشغلوه وأمه عن القراءة والصلاة ، وقوله ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون  
﴾ إشارة إلى عذابهم بيدر بالسيف قاله ابن جريج والحسن والضحاك ، فيلزم من هذا أن  
هذه الآية الأخيرة نزلت بعد بدر ولا بد .

قال القاضي أبو محمد : والأشبه أن الكل نزل بعد بدر حكاية عما مضى والله ولي التوفيق  
برحمته . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ المحرر الوجيز ج 2 ص ﴾

(96/311)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ﴾

سبب نزولها : أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويصنقون ويصنقون ويضعون خدودهم بالأرض  
، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عمر .

فأما المكاء ففيه قولان .

أحدهما : أنه الصفير ، قاله ابن عمر ، وابن عباس ، وابن جبير ، وقتادة ، وأبو عبيدة ،

والزجاج، وابن قتيبة.

قال ابن فارس: يقال: مكا الطائر [يمكو] مكاءً: إذا صفر، ويقال: مكيت يده [تمكى]  
[مكى، مقصور، أي: غلظت وخشنت، ويقال: تمكى: إذا توضأ.

وأنشدوا:

[إِنَّكَ وَالْجُورَ عَلَى سَبِيلٍ] . . .

كَالْتَمَكِّي بِدَمِ الْقَتِيلِ

وسئل أبو سلمة بن عبد الرحمن عن المكاء، فجمع كفيه وجعل يصفر فيهما.

والثاني: أنه إدخال أصابعهم في أفواههم يخلطون به وبالتصدية على محمد صلى الله عليه

وسلم صلاته، قاله مجاهد: قال ابن الأنباري: أهل اللغة ينكرون أن يكون المكاء إدخال

الأصابع في الأفواه، وقالوا: لا يكون إلا الصغير.

وفي التصدية قولان.

أحدهما: أنها التصفيق، قاله [ابن] عمر، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة،

والجمهور.

قال ابن قتيبة: يقال: صدى: إذا صفق بيديه.

قال الراجز:

ضَنْتَ بَجْدٍ وَجَلَّتْ عَنْ خَدِّ . . .

وَأَنَا مِنْ غُرِّ الْهَوَى أُصَدِّي

الغرو: العجب ، يقال : لا غرو من كذا ، أي : لا عجب .

والثاني : أن التصدية : صدُّهم الناس عن البيت الحرام ، قاله سعيد بن جبير .

وقال ابن زيد : هو صدُّهم عن سبيل الله ودينه .

وزعم مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى في المسجد الحرام ، قام رجلان

من المشركين من بني عبد الدار عن يمينه فيصفران ، ورجلان عن يساره فيصفقان ،

فتخطط على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته وقراءته ، فقتلهم الله بيدر ، فذلك قوله :

﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ بتوحيد الله .

فإن قيل : كيف سمى المكاء والتصدية صلاةً ؟ .

(97/311)

---

فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : أنهم جعلوا ذلك مكان الصلاة ، ومشهور في كلام العرب أن يقول الرجل : زرت

عبد الله ، فجعل جفائي صِلتي ، أي : أقام الجفاء مقام الصلة ، قال الشاعر :

قُلْتُ لَهُ اطْعِمْنِي عَمِيمٌ تَمْرًا . . .

فَكَانَ تَمْرِي كَهَرَّةً وَزُبْرًا

أي: أقام الصياح عليّ مقام التمر.

والثاني: أن من كان المكاء والتصديةُ صلّاته، فلا صلاة له، كما تقول العرب: ما لفلان

عيب إلا السخاء، يريدون: من السخاء عيبه، فلا عيب له، قال الشاعر:

فَتِي كَمَلْتُ خَيْرَاتُهُ غَيْرَ أَنَّهُ . . .

جوادٌ فلا يُبقي من المال باقيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(98/311)

وقال القرطبي:

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾

قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت عُرّة، يصفقون ويصفرون؛ فكان ذلك عبادة

في ظنهم.

والمكّاء: الصّفير.

والتصدية: التصفيق؛ قاله مجاهد والسديّ وابن عمر رضي الله عنهم.

ومنه قول عنترّة:

وحليل غانية تركت مُجدلاً . . .

تمكؤ فريسته كشدق الأعلم

أي تصوت .

ومنه مكت است الدابة إذا نفخت بالريح .

قال السدي: المكاء الصغير، على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء .

قال الشاعر:

إذا غرد المكاء في غير روضة . . .

فويل لأهل الشاء والحمرات

قتادة: المكاء ضرب بالأيدي، والتصدية صياح .

وعلى التفسيرين ففيه رد على الجهال من الصوفية الذين يرقصون ويصفقون ويصعقون .

وذلك كله منكر يتنزه عن مثله العقلاء، ويتشبهه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند

البيت .

وروى ابن جريج وابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: المكاء إدخالهم أصابعهم في

أفواههم .

والتصدية: الصفير، يريدون أن يشغلوا بذلك محمدا صلى الله عليه وسلم عن الصلاة .

قال النحاس: المعروف في اللغة ما روي عن ابن عمر .

حكى أبو عبيد وغيره أنه يقال: مَكَأَ يَمْكُو مَكَاً وَمُكَاءً إِذَا صَفَّرَ .

وَصَدَّى يُصَدِّي تَصْدِيَةً إِذَا صَفَّقَ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ عَمْرِو بْنِ الْإِطْنَابَةِ :

وظَلُّوا جَمِيعاً لَهُمْ ضِجَّةٌ . . .

مُكَاءً لَدَى الْبَيْتِ بِالتَّصْدِيَةِ

أَيُّ بِالتَّصْفِيقِ .

سعيد بن جبير وابن زيد : معنى التَّصْدِيَةِ صَدَّهِمْ عَنِ الْبَيْتِ ؛ فَالْأَصْلُ عَلَى هَذَا تَصَدَّدَةٌ

، فَأَبْدَلُ مِنْ أَحَدِ الدَّالَيْنِ يَاءً . انْتَهَى انْتَهَى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 7 ص ﴾

(99/311)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾

لما ذكر الله أن الكفار ليسوا بأولياء البيت الحرام ذكر عقبة السبب في ذلك وهو أن صلواتهم

عنده كانت مكاء وتصدية .

والمكاء في اللغة : الصفير .

يقال : مكا الطير يمكو إذا صفر والمكاء : اسم طير أبيض يكون بالحجاز له صفير .

وقيل : هو طائر يألف الريف سمي بذلك لكثرة مكائه يعني صفيه .

والتصدية : التصفيق وفي أصله واشتقاقه قولان أحدهما : أنه من الصدى وهو الصوت

الذي يرجع من الجبل كالجيب للمتكلم ولا يرجع إلى شيء .

الثاني : قال أبو عبيدة أصله تصددة فأبدلت الياء من الدال .

قال الأزهري : والمكاء والتصدية ، ليسا بصلاة ، ولكن الله سبحانه وتعالى أخبر أنهم

جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية قال حسان بن ثابت :

صلاتهم التصدي والمكاء .

قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون .

وقال مجاهد : كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف

ويستهزؤون به ويدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون .

فالمكاء : جعل الأصابع في الشدق ، والتصدية : الصفير .

وقال جعفر بن ربيعة : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله : الإكاء وتصدية ،

فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيراً .

وقال مقاتل : كان النبي ( صلى الله عليه وسلم ) إذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه

يصفران ورجلان عن يساره يصفقان ليخاطبوا على النبي ( صلى الله عليه وسلم ) صلاته

وهم من بني عبد الدار .



فعلى قول ابن عباس كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم ، وعلى قول غيره كان نوع أذى للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) ، وقول ابن عباس أصح ، لأن الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة .

فإن قلت كيف سماها صلاة وليس ذلك من جنس الصلاة ؟

(100/311)

---

قلت : إنهم كانوا يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة فخرج ذلك على حسب معتقدهم وفيه وجه آخر وهو أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له فهو كقول العرب من كان السخاء عيبة فلا عيب له وقال سعيد بن جبير : التصدية صدقهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين والصلاة فعلى هذا التصدية من الصد وهو المنع وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ يعني عذاب القتل والأسر في الدنيا .  
وقيل : يقال لهم في الآخرة فذوقوا العذاب ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ يعني بسبب كفرهم في الدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

(101/311)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .  
لما نفي عنهم أن يكونوا ولاية البيت ذكر من فعلهم القبيح ما يؤكد ذلك وأن من كانت صلاته  
ما ذكر لا يستأهل أن يكونوا أولياءه فالمعنى والله أعلم أن الذي يقوم مقام صلاتهم هو المكاء  
والتصدية وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق كانوا يطوفون غرارة ،  
رجالهم ونسأؤهم مشبكين بين أصابعهم يصفرون ويصفقون يفعلون ذلك إذا قرأ الرسول (   
صلى الله عليه وسلم ) يخاطبون عليه في صلاته ونظير هذا المعنى قولهم كانت عقوبتك  
عزلتك أي القائم مقام العقوبة هو العزل .

وقال الشاعر :

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه . . .

أذا هم سوداً أو مدحرجة سمرا

(102/311)

---

أقام مقام العطاء والقبود والسيّاط كما أقاموا مقام الصلاة المكاء والتصدية ، وقال ابن عباس

: كان ذلك عبادة في ظنهم ، قال ابن عطية لما نفى تعالى ولايتهم للبيت أمكن أن يعترض

معارض بأن يقول كيف لا نكون أولياءه ونحن نسكنه ونصلي عنده فقطع الله هذا

الاعتراض ، ﴿ وما كان صلاتهم ﴾ إلا المكاء والتصدية كما يقال الرجل : أنا أفعل الخير ،

فيقال له : ما فعلك الخير إلا أن تشرب الخمر وتقتل أي هذه عادتك وغايتك قال : والذي

مربي من أمر العرب في غير ما ديوان أن المكاء والتصدية كانا من فعل العرب قديماً قبل

الإسلام على جهة التقرب والتشريع ، وروي عن بعض أقوياء العرب أنه كان يكو على

الصفاء فيسمع من جبل حراء وبينهما أربعة أميال وعلى هذا يستقيم تعبيرهم وتنقيصهم

بأن شرعهم وصلاتهم وعبادتهم لم تكن رهبة ولا رغبة إنما كانت ﴿ مكاء وتصدية ﴾

من نوع اللعب ، ولكنهم كانوا يتزيدون فيها وقت قراءة النبي ( صلى الله عليه وسلم )

ليشغلوه وأتمه عن القراءة والصلاة ، قال ابن عمر ومجاهد والسدي : والمكاء : الصفير ،

والتصدية : التصفيق ، وعن مجاهد أيضاً المكاء إدخالهم أصابعهم في أفواههم والتصدية

الصفير والصفير بالفم وقد يكون بالأصابع والكف في الفم قاله مجاهد وأبوسلمة بن عبد

الرحمن ، وقد يشارك الأنف يريدون أن يشغلوا بذلك الرسول عن الصلاة ، وقال ابن جبير

وابن زيد : التصدية صداهم عن البيت ، وقال ابن حجر : إن صلاتهم ودعاهم غير رادين

عليهم ثواباً إلا كما يجب الصدى الصائح فتلخص في معنى الآية ثلاثة أقوال : أحدها : ما

ظاهره أن الكفار كانت لهم صلاة وتعبّد وذلك هو المكاء والتصدية ، والثاني : أنه كانت لهم صلاة ولا جدوى لها ولا ثواب فجعلت كأنها أصوات الصدا حيث لها حقيقة ،  
والثالث : أنه لا صلاة لهم لكنهم أقاموا مقامها المكاء والتصدية ، وقال بعض شيوخنا :  
أكثر أهل العلم على أن الصلاة هنا هي الطواف وقد سمّاه الرسول ( صلى الله عليه

(103/311)

---

وسلم) صلاة ، وقرأ إبان بن تغلب وعاصم والأعمش بخلاف عنهما ﴿ صلاتهم ﴾  
بالنصب ﴿ الإمكاء وتصدية ﴾ بالرفع وخطا قوم منهم أبو علي الفارسي هذه القراءة  
لجعل المعرفة خيراً والنكرة اسماً قالوا : ولا يجوز ذلك إلا في ضرورة كقوله :  
يكون مزاجها غسل وماء . . .

وخرّجها أبو الفتح على أن المكاء والتصدية اسم جنس واسم الجنس تعريفه وتنكيره  
واحد انتهى ، وهو نظير قول من جعل نسلخ صفة لليل في قوله ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه  
النهار ﴾ ويسبني صفة للنّيم في قوله :

ولقد أمرُّ على اللّيم يسبني . . .

وقرأ أبو عمر وفيما روي عنه الإمكاء بالقصر منوّناً فمن مدّ فكالثغاء والرغاء ومن قصر

فكالبكا في لغة من قصر والعذاب في قوله ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ ، قيل هو في الآخرة ،  
وقيل هو قتلهم وأخذ غنائمهم ببدر وأسرههم ، قال ابن عطية : فيلزم أن تكون هذه الآية  
الأخيرة نزلت بعد بدر ولا بدّ ، والأشبه أن الكلّ بعد بدر حكاية عن ماض وكون عذابهم  
بالقتل يوم بدر هو قول الحسن والضحاك وابن جريج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح

﴿ 4 ص

(104/311)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ﴾

أي دعائهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعون موضعها ﴿ الْإِمَاءَ ﴾ أي صغيراً فعال من  
مكأ يمكأ إذا صفر وقرىء بالقصر كالبكى ﴿ وَتَصَدِيَةً ﴾ أي تصفيقا ، تفعلة من الصدى  
أو من الصدّ على إبدال أحد حرفي التضعيف بالياء ، وقرىء صلاتهم بالنصب على أنه  
الخبر لكان ، ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فإنها لا  
تليق بمن هذه صلاته . روي أنهم كانوا يطوفون عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم  
يصفرون فيها ويصفقون وقيل : كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن

يصلي يَخِطُونَ عَلَيْهِ وَيُرُونَ أَنَّهُمْ يَصِلُونَ أَيْضًا ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ ﴿ أَيِ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ يَوْمَ  
بَدْرٍ وَقِيلَ : عَذَابَ الْآخِرَةِ ، وَاللَّامُ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَهْدِ وَالْمَعْهُودِ أَيْضًا بِعَذَابِ الْيَمِّ ﴾ ﴿ بِمَا  
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿ اعْتِقَادًا وَعَمَلًا . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴾ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ﴾

(105/311)

وقال الألويسي :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ﴾

أي المسجد الحرام الذي صدوا المسلمين عنه ، والتعير عنه بالبيت للاختصار مع الإشارة  
إلى أنه بيت الله تعالى فينبغي أن يعظم بالعبادة وهم لم يفعلوا ﴿ إِلَّا ﴾ أي صغيراً ، وهو  
فعال بضم أوله كسائر أسماء الأصوات فإنها تجيء على فعال إلا ما شذ كالنداء من مكاء  
يكون إذا صفر ، وقرىء بالقصر كبكا ﴿ مَكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ أي تصفيقاً ، وهو ضرب اليد  
باليد بحيث يسمع له صوت ، ووزنه تفعلة من الصد كما قال أبو عبيدة فحول إحدى الدالين  
ياء كما في تقضي البازي لتقضضه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا قَوْمٌ مِّنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [   
الزخرف : 57 ] أي يضحون لمزيد تعجبهم ، وأنكر عليه ، وقيل : هو من الصدا وهو ما  
يسمع من رجع الصوت عند جبل ونحوه ، والمراد بالصلاة إما الدعاء أو أفعال أخر كانوا

يفعلونها ويسمونها صلاة، وحمل المكاء والتصدية عليها على ما يشير إليه كلام الراغب  
بتأويل ذلك بأنها لا فائدة فيها ولا معنى لها كصفير الطيور وتصفيق اللعب .

وقد يقال: المراد أنهم وضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة التي تليق أن تقع عند البيت

على حد :

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

يروى أنهم كانوا إذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي يخلطون عليه بالصفير  
والتصفيق ويرون أنهم يصلون أيضاً .

وروى أنهم كانوا يطوفون عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها  
ويصفقون .

وقال بعض القائلين: إن التصدية بمعنى الصد، والمراد صدهم عن القراءة أو عن الدين أو

الصد بمعنى الضجة كما نقل عن ابن يعيش في قوله تعالى: ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [

الزخرف: 57] والمأثور عن ابن عباس وجمع من السلف ما ذكرناه .

(106/311)

---

نعم روى عن ابن جبير: تفسير التصدية بصد الناس عن المسجد الحرام، وفيه بعد ،  
وأبعد من ذلك تفسير عكرمة لها بالطواف على الشمال بل لا يكاد يسلم، والجملة معطوفة  
إما على ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ [ الأنفال: 34 ] فتكون لتقرير استحقاقهم للعذاب ببيان  
أنهم صدوا ولم يقوموا مقام من صدوه في تعظيم البيت، أو على ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ [ الأنفال: 34 ] فتكون تقريراً لعدم استحقاقهم لولايته.  
وقرأ الأعمش .

﴿ صَلَاتِهِمْ ﴾ بالنصب وهي رواية عن عاصم .  
وأبان، وهو حينئذ خبر كان ومكاء بالرفع اسمها، وفي ذلك الإخبار عن النكرة بالمعرفة  
وهو من القلب عند السكاكي، وقال ابن جني: لا قلب ثم قال: لسنا ندفع أن جعل اسم  
كان نكرة وخبرها معرفة قبيح وإنما جاءت منه أبيات شاذة لكن من وراء ذلك ما أذكره،  
وهو أن نكرة الجنس تفيد مفاد معرفته .

الأ تراك تقول: خرجت فإذا أسد بالباب، فتجد معناه فإذا الأسد ولا فرق بينهما .  
وذلك أنك في الموضعين لا تريد أسداً واحداً معيناً وإنما تريد واحد من هذا الجنس، وإذا  
كان كذلك جاز هنا النصب والرفع جوازاً قريباً كأنه قيل: وما كان صلاتهم إلا هذا  
الجنس من الفعل ولا يكون مثل قولك: كان قائم أخاك، لأنه ليس في قائم معنى الجنسية .  
وأيضاً فإنه يجوز مع النفي ما لا يجوز مع الإيجاب .



الأترك تقول: ما كان إنسان خيراً منك ولا تجيز كان إنسان خيراً منك، وتام الكلام عليه في موضعه ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ يعني القتل والأسر يوم بدر كما روى عن الحسن .

(107/311)

---

والضحك، وقيل: عذاب الآخرة، وقيل: العذاب المعهود في قوله سبحانه: ﴿ أو اتنا بعذاب ﴾ [ الأنفال: 32 ] ولا تعين، والباء في قوله تعالى: ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ للسببية، والفاء على تقدير أن لا يراد من العذاب عذاب الآخرة للتعقيب، وعلى تقدير أن يراد ذلك للسببية كالباء وأمر اجتماعهما ظاهر، والمتبادر من الكفر ما يرجع إلى الاعتقاد، وقد يراد به ما يشمل الاعتقاد والعمل كما يراد من الإيمان في العرف ذلك أيضاً. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(108/311)

---

وقال القاسمي:

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً ﴾

أي: تصفيرا: ﴿ وَتَصَدِيَةً ﴾ أي: تصفيقا بالألف .

روى ابن أبي حاتم أن ابن عمرو رضي الله عنهما حكى فعلهم، فصفرو، وأمال خده،  
وصفق بيديه .

وعن ابن عمر أيضا قال: إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفرون ويصفقون .  
وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، يصفرون ويصفقون

وعن مجاهد أنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته .  
وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين .

وهذا الجملة إما معطوفة على: ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ ، فيكون لتقرير استحقاقهم للعذاب  
، أو على قوله: ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ ، فيكون لتقريراً لعدم استحقاقهم لولايته .  
قال الزمخشري: فإن قلت: ما وجه هذا الكلام؟ قلت: هو نحو من قوله- أي: الفرزدق-

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه أداهم سوداً أو مُحدرجة سُمراً

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء، ووضعوا المكاء والتصدية موضع  
الصلاة .

وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء، وهم مشبكون بين أصابعهم،

يصفرون فيها ويصفقون .

وكانوا يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته ، ويخلطون عليه .

ما كنت أخشى ، أي : ما كنت أعلم . وأداهم : جمع أدهم ، وهو الأسود من الحيات .

والعرب تذكر الأدهم ، وتزيد به القيد ، كما في قصة القبعثري .

والمدرجة : السياط . انتهى .

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : اعتقاداً وعملاً ، وفيه إشعار بأن هذا الفعل

المبطل لحرمة البيت ، كفر ، للإستهانة بشعائره تعالى والسخرية بها .

(109/311)

---

والعذاب المذكور هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي ، كما قاله غير واحد من السلف

واختاره ابن جرير .

تنبيه :

قال ابن القيم في "إغاثة اللفهان" : المتقربون إلى الله بالصغير والتصفيق ، والمخلطون به

على أهل الصلاة والذكر والقراءة ، أشباه هؤلاء المشركين ، قال ابن عرفة وابن الأنباري :

المكء والتصديفة ليسا بصلاة ، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا

بها ، المكاء والتصدية ، فالزمهم ذلك عظيم الأوزار . وهذا كقولك : زرته فجعل جفائي  
صلتي ، أي : أقام الجفاء مقام الصلة .

والمقصود أن المصنفين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه ، فيهم شبه من هؤلاء ، ولو أنه  
مجرد الشبه الظاهر ، فلهم قسط من الذم ، بحسب تشبيههم بهم ، وإن لم يشبهوا بهم في جميع  
مكائهم وتصديتهم ، والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا  
نابهم أمر ، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسييح ، لتلايتشبهوا بالنساء ، فكيف إذا فعلوه ، لا  
لحاجة ، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً . انتهى .

وقال قبله : ومن مكائد عدو الله ومصاديه التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل  
والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين ، سماع المكاء والتصدية ، والغناء بالآلات  
المحرمة الذي يصد القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان .

(110/311)

---

وقال شيخه تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى ، في بعض فتاويه : وأما اتخاذ التصفيق  
والغناء والضرب بالدفوف والنفخ بالشبابات والاجتماع على ذلك ، ديناً وطريقاً إلى الله  
وقربة ، فهذا ليس من دين الإسلام ، وليس مما شرعه لهم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم

، ولا أحد من خلفائه ، ولا استحسن ذلك أحد من أئمة المسلمين ، بل ولم يكن أحد من أهل الدين يفعل ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عهد أصحابه ، ولا تابعيهم بإحسان ، ولا تابعي التابعين ، بل لم يكن أحد من أهل الدين من الأعصار الثلاثة ، لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا العراق ولا بخراسان ولا المغرب ولا مصر يجتمع على مثل هذا السماع ، وإنما ابتدع في الإسلام بعد القرون الثلاثة ، ولهذا قال الشافعي - لما رأى ذلك - : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغيير ، يصدون به الناس عن القرآن ، وسئل عنه أحمد فقال : أكرهه ، هو محدث . قيل ، أتجلس معهم ؟ قال : لا ! وكذلك كرهه سائر أئمة الدين ، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه ، فلم يحضره مثل إبراهيم بن أدهم ، ولا الفضيل بن عياض ، ولا معروف الكرخي ، ولا أبو سليمان الداراني ولا أحمد بن أبي الحواري ، ولا السري السقطي ، وأمثالهم .

والذين حضروه من الشيوخ من الحمودين ، تركوه في آخر أمرهم ، وأعيان المشايخ عابوا أهله ، كما ذكر ذلك الشيخ عبد القادر ، والشيخ أبو البيان وغيرهما من الشيوخ ، وما ذكره الإمام الشافعي رضي الله عنهم أنه من إحداث الزنادقة ، من كلام إمام خبير بأصول الإسلام ، فإن هذا السماع لم يرغب فيه ، ويدعوا إليه في الأصل ، إلا من هو متهم بالزندقة ، كابن الزاوندي والفارابي وابن سينا وأمثالهم .

---

ثم قال رحمه الله : نعم ! قد حضره أقوام من أهل الإرادة والمحبة ، ومن لم نصيب في المحبة ،  
لما فيه من التحريك لهم ، ولم يعلموا غائلته ، ولا عرفوا مغبته ، كما دخل قوم من الفقهاء في  
أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام ظناً منهم أنه حق موافق ، ولم يعلموا غائلته ،  
ولا عرفوا مغبته ، فإن القيام بحقائق الدين علماً وقولاً وعملاً وذوقاً وخبرة لا يستقل به  
أكثر الناس ، ولكن الدليل الجامع هو الإعتصام بالكتاب والسنة .

ثم قال رحمه الله : ومن كان له خبرة بحقائق الدين ، وأحوال القلوب ، ومعارفها وأذواقها ،  
عرف أن سماع المكاء والتصديّة لا يجلب للقلب منفعة ولا مصلحة ، إلا وفي ضمن ذلك من  
المفسدة ما هو أعظم منه ، فهو للروح كالخمر للجسد ، يفعل في النفوس ، أعظم ما تفعله  
حمياً الكووس . ثم قال : وبالجملة فعلى المؤمن أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك  
شيئاً يقرب إلى الجنة ، إلا وقد حدث به ، ولا شيئاً يبعد عن النار ، إلا وقد حدث به ،  
وإن هذا السماع ، لو كان مصلحة ، لشرعه الله ورسوله ، فإن الله يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ  
لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية .

وإذا وجد السامع به منفعة لقلبه ، ولم يجد شاهد ذلك من كتاب الله ولا من سنة رسوله ،  
لم يلتفت إليه . كما أن الفقيه إذا رأى قياساً لا يشهد له الكتاب والسنة ، لم يلتفت إليه انتهى

وقد سلف لنا شيء من هذا البحث عند قوله تعالى: ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾

فليراجع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ج 8 ص 295 . 298 ﴾

(112/311)

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

هَاتَانِ الْآيَاتَانِ وَمَا بَعْدَهُمَا تَذَكِيرٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا كَانَ مِنْ حَالِهِ وَحَالِ قَوْمِهِ

مَعَهُ فِي مَكَّةَ كَمَا سَبَقَ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ حَسُنَ هَذَا التَّذَكِيرُ بِذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ

بِنَصْرِهِ تَعَالَى لَهُ عَلَى أَوْلِيكَ الْجَاهِلِينَ الْمُعَانِدِينَ ، الْفَاتِنِينَ الْمَفْتُونِينَ ، الصَّادِقِينَ عَنْ سَبِيلِ

اللَّهِ تَعَالَى وَعَنْ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ بِالْقُوَّةِ الْقَاهِرَةِ .

قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيُّ : وَادْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي نَفْسِكَ ، مَا تَقْصُهُ فِي

الْكِتَابِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي عَهْدِكَ وَمِنْ بَعْدِكَ ؛ لِأَنَّهُ حُجَّةٌ لَكَ عَلَى صِدْقِ دَعْوَتِكَ

، وَوَعْدِ رَبِّكَ بِنَصْرِكَ . اذْكُرْ ذَلِكَ الزَّمَانَ الْغَرِيبَ الَّذِي يَمْكُرُ بِكَ فِيهِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِكَ

فِي وَطَنِكَ . بِمَا يُدْبِرُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالسَّرِّ مِنْ وَسَائِلِ الْإِيقَاعِ بِكَ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ

يُخْرِجُوكَ فَأَمَّا الْإِثْبَاتُ فَالْمُرَادُ بِهِ الشَّدُّ بِالْوَثَاقِ وَالْإِرْهَاقُ بِالْقَيْدِ ، وَالْحَبْسُ الْمَانِعُ مِنْ لِقَاءِ

النَّاسِ وَدَعَوْتَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَمَّا الْقَتْلُ فَالْمَكْرُفِيهِ طَرِيقَتُهُ وَصِفَتُهُ الْمُمَكِّنَةُ الَّتِي لَا يَكُونُ  
ضَرَرُهَا فِيهِمْ عَظِيمًا ، وَهُوَ مَا بَيَّنَّتْهُ الرَّوَايَةُ الْآتِيَةُ عَنْهُمْ ، وَأَمَّا الْإِخْرَاجُ فَهُوَ التَّنْفِي مِنَ الْوَطَنِ

(113/311)

وَقَدْ رَوَى كِبَارُ مُصَنِّفِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ " أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا  
يَأْتِمُرُ بِهِ قَوْمُكَ ؟ قَالَ :

يُرِيدُونَ أَنْ يَسْجُنُونِي أَوْ يَقْتُلُونِي أَوْ يَخْرِجُونِي . قَالَ : مَنْ حَدَّثَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ رَبِّي . قَالَ :  
نَعَمْ الرَّبُّ رَبُّكَ ، فَاسْتَوْصِ بِهِ خَيْرًا . قَالَ : أَنَا أَسْتَوْصِي بِهِ ؟ بَلْ هُوَ يَسْتَوْصِي بِي " فَنَزَلَتْ  
: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : إِنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَهُوَ قَوْلُ ضَعِيفٍ كَمَا  
تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى نَزُولِ السُّورَةِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِهَا ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ التَّشَاوُرَ فِي الْأُمُورِ  
الثَّلَاثَةِ بَدَارِ النَّدْوَةِ كَانَ عَقِبَ مَوْتِ أَبِي طَالِبٍ وَخَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَكَانَ الْخُرُوجُ  
لِلْهَجْرَةِ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أَجْمَعُوا فِيهَا أَمْرَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا يَأْتِي بَيَانُهُ ،  
وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ تَحَدَّثُوا بِهِ قَبْلَ إِجْمَاعِهِ ، وَإِرَادَةَ الشَّرُوعِ فِيهِ الَّذِي وَقَعَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي  
طَالِبٍ فَبَلَغَهُ فَسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ .



وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ فَهُوَ بَيَانٌ لِحَالَتِهِمُ الْعَامَّةِ الدَّائِمَةِ فِي مُعَامَلَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ التَّذْكِيرِ بِشَرِّ مَا كَانَ مِنْهَا فِي مَكَّةَ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ " وَيَمْكُرُونَ بِكَ " أَيْ : وَهَكَذَا دَأْبُهُمْ مَعَكَ ، وَمَعَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، يَمْكُرُونَ بِكُمْ وَيَمْكُرُ اللَّهُ لَكُمْ بِهِمْ كَمَا فَعَلَ مِنْ قَبْلِ إِذْ أَحْبَطَ مَكْرَهُمْ ، وَأَخْرَجَ رَسُولُهُ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَى حَيْثُ مَهَّدَ لَهُ فِي دَارِ الْهَجْرَةِ وَوَطَنِ السُّلْطَانِ وَالْقُوَّةِ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ لِأَنَّ مَكْرَهُ نَصْرٌ لِلْحَقِّ ، وَإِعْزَازٌ لِأَهْلِهِ ، وَخَذْلٌ لِلْبَاطِلِ ، وَإِذْلالٌ لِأَهْلِهِ ، وَإِقَامَةٌ لِلسُّنَنِ ، وَإِتْمَامٌ لِلْحُكْمِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ الْمَكْرِ فِي اللُّغَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَكُرُوا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (3 : 54) وَفِي تَفْسِيرِ : أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ (7 : 99) الْآيَةَ وَخُلَاصَتُهُ : أَنَّ الْمَكْرَ هُوَ التَّدْيِيرُ الْخَفِيُّ لِإِيصَالِ الْمَكْرُوهِ إِلَى الْمَمْكُورِ بِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَوَقَايَةُ الْمَمْكُورِ لَهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ كَذَلِكَ . وَالْغَالِبُ فِي عَادَاتِ الْبَشَرِ أَنْ يَكُونَ الْمَكْرُ فِيهَا يَسُوءُ وَيُذِمُّ مِنَ الْكُذْبِ وَالْحَيْلِ ، وَلِذَلِكَ تَأَوَّلَ الْمُفَسِّرُونَ مَا أُسْنِدَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ ، فَقَالُوا فِي مِثْلِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ - آيَةِ الْأَنْفَالِ وَآيَةِ آلِ عِمْرَانَ - إِنَّهُ أُسْنِدَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ

---

بِسْمِيَّةِ تَخِيْبِ سَعِيْهِمْ فِي مَكْرِهِمْ أَوْ مُجَازَاتِهِمْ عَلَيْهِ بِاسْمِهِ ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْمَكْرَ مِنْهُ الْخَيْرُ  
وَالشَّرُّ ، وَالْحَسَنُ وَالسَّيِّئُ - كَمَا قَالَ تَعَالَى : اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ  
الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (35 : 43) وَمِنَ الدُّعَاءِ الْمَرْفُوعِ " وَأَمْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ " رَوَاهُ  
أَبُو دَاوُدَ ، وَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ مِنَ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ ، وَتَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ مِنَ الْجُزْءِ  
التَّاسِعِ .

وَأَمَّا قِصَّةُ مَكْرِهِمُ الَّذِي تَرْتَبَ عَلَيْهِ هِجْرَةُ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَظُهُورُ  
الْإِسْلَامِ ، وَخِذْلَانُ الشِّرْكِ ، فَفِيهَا رَوَايَاتٌ أَوْفَاهَا رَوَايَةُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي سِيرَتِهِ ، وَابْنِ جَرِيرٍ  
وَابْنِ الْمُنْذِرِ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفَاسِيرِهِمْ ، وَأَبُو نَعِيمٍ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ عَنِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْفَاظِ مُتَقَارِبَةٍ ، نَقَلُ مَا أوردَ السَّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمُنْشُورِ مِنْهَا عَنْهُ  
قَالَ : " وَإِنَّ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنْ أَشْرَافِ كُلِّ قَبِيلَةٍ اجْتَمَعُوا لِئَدْخُلُوا دَارَ النَّدْوَةِ وَاعْتَرَضَهُمْ

إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخِ جَلِيلٍ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ  
سَمِعْتُ بِمَا اجْتَمَعْتُمْ لَهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَحْضَرُكُمْ ، وَلَنْ يُعَدِمَكُمْ مِنِّي رَأْيِي وَنُصْحِي ، قَالُوا : أَجَلُ  
فَادْخُلْ فَدَخَلَ مَعَهُمْ فَقَالَ : انظُرُوا فِي شَأْنِ هَذَا الرَّجُلِ فَوَاللَّهِ لِيُوشِكَنَّ أَنْ يُؤَاتِيَكُمْ فِي  
أَمْرِكُمْ بِأَمْرِهِ ، فَقَالَ قَائِلٌ : أَحْبَسُوهُ فِي وَثَاقٍ ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ الْمُنُونَ حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ  
كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، زُهَيْرٌ وَنَابِغَةٌ ، فَإِنَّمَا هُوَ كَأَحَدِهِمْ ، فَقَالَ عَدُوُّ اللَّهِ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ :  
لَا وَاللَّهِ مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيِي ، وَاللَّهِ لِيُخْرِجَنَّ رَأْيِي مِنْ مُحْبِسِهِ لِأَصْحَابِهِ فَيُوشِكَنَّ أَنْ يَبُوءَا  
عَلَيْهِ حَتَّى يَأْخُذُوهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ ، ثُمَّ يَمْنَعُوهُ مِنْكُمْ ، فَمَا آمَنُ عَلَيْكُمْ أَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ  
فَانظُرَا فِي غَيْرِ هَذَا الرَّأْيِ ، فَقَالَ قَائِلٌ : فَأَخْرِجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ فَاسْتَرِيحُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ إِذَا  
خَرَجَ لَمْ يُضِرْكُمُ مَا صَنَعَ وَأَيْنَ وَقَعَ ، وَإِذَا غَابَ عَنْكُمْ أَذَاهُ اسْتَرَحْتُمْ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ إِذَا خَرَجَ لَمْ  
يُضِرْكُمُ مَا صَنَعَ ، وَكَانَ أَمْرُهُ فِي غَيْرِكُمْ ، فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ : لَا وَاللَّهِ مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيِي ،  
أَلَمْ تَرَوْا حَلَاوَةَ قَوْلِهِ ، وَطَلَّاقَةَ لِسَانِهِ ، وَأَخْذَهُ لِلْقُلُوبِ بِمَا تَسْمَعُ مِنْ حَدِيثِهِ ، وَاللَّهِ لَنْ فَعَلْتُمْ  
ثُمَّ اسْتَعْرَضَ الْعَرَبَ لِتَجْتَمِعَنَّ إِلَيْهِ ثُمَّ لَيْسِيرُنَّ إِلَيْكُمْ حَتَّى يُخْرِجَكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ ، وَيَقْتُلَ  
أَشْرَافَكُمْ ، قَالُوا :

(117/311)

صَدَقَ وَاللَّهِ فَانظُرُوا رَأْيَا غَيْرَ هَذَا ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَاللَّهِ لَأُشِيرَنَّ عَلَيْكُمْ بِرَأْيِي لَا أَرَى غَيْرَهُ ، قَالُوا : وَمَا هَذَا ؟ قَالَ : نَأْخُذُ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ غُلَامًا وَسَطًا شَابًّا نَهْدًا ثُمَّ يُعْطَى كُلُّ غُلَامٍ مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ بِهِ ضَرْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمُوهُ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقِبَائِلِ كُلِّهَا ، فَلَا أَظُنُّ هَذَا الْحَيَّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَقْدِرُونَ عَلَى حَرْبِ قُرَيْشٍ كُلِّهِمْ ، وَأَنْتُمْ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ قَبَلُوا الْعَقْلَ وَاسْتَرَحْنَا ، وَقَطَعْنَا عَنَّا أَذَاهُ . فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ : هَذَا وَاللَّهِ هُوَ الرَّأْيُ ، الْقَوْلُ مَا قَالَ الْفَتَى لَا أَرَى غَيْرَهُ . وَتَفَرَّقُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ لَهُ ، فَاتَى جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَهُ الْأَيْبِتُ فِي مَضْجَعِهِ الَّذِي كَانَ يَبِيتُ فِيهِ وَأَخْبَرَهُ بِمَكْرِ الْقَوْمِ ،

فَلَمْ يَبْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، وَأَذِنَ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ فِي الْخُرُوجِ ، وَأَمَرَهُمْ بِالْهَجْرَةِ ، وَاقْتَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : اذْنِ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ (22) : (39) الْآيَةَ : فَكَانَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ أَوَّلَ مَا أَنْزَلَ فِي الْحَرْبِ ، وَأَنْزَلَ بَعْدَ قُدُومِهِ الْمَدِينَةَ ، يُذَكِّرُهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْآيَةَ اهـ . وَسَائِرُ خَبَرِ الْهَجْرَةِ مَعْرُوفٌ .

(118/311)

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مُكَابَرَةً مِنْ مُكَابَرَاتِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ الْمَاكِرِينَ ، قَالَهَا بَعْضُهُمْ  
فَأَعْجَبَتْ أَمْثَالَهُ مِنْهُمْ فَرَدَّدُوهَا فَعَزَّيْتُ إِلَيْهِمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَهِيَ : وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا  
الْمُنزَّلَةَ فِي الْقُرْآنِ ، الَّذِي يَعْجُزُ عَنْ مِثْلِهِ الثَّقَلَانِ ، فِيمَا أُوْدِعَ مِنْ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ وَتَشْرِيعٍ  
وَقَصَصٍ وَبَيَانٍ ، وَمَالَهُ مِنَ التَّأثيرِ فِي نَفْسِ كُلِّ إِنْسَانٍ ، بِقَدْرِ مَا أُوتِيَ مِنْ بِلَاغَةٍ وَعَقْلٍ وَقَلْبٍ  
وَوَجْدَانٍ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقَلْنَا مِثْلَ هَذَا نَقْلَ هَذَا الْقَوْلِ جُمُهورِ رِوَاةِ التَّفْسِيرِ المَأثورِ  
عَنِ النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ ، وَعَلَّلَ هَذِهِ الدَّعْوَى الكاذِبَةَ بِمَا هُوَ أَكْذَبُ مِنْهَا  
وَهُوَ قَوْلُهُ : إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَي : قِصَصُهُمْ وَأَحَادِيثُهُم الَّتِي سَطَّرَتْ فِي الْكُتُبِ

(119/311)

---

عَلَى عِلَاتِهَا ، وَمَا هُوَ بَوْحِي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى . قَالَ الْمُبَرِّدُ فِي أَسَاطِيرِ : هِيَ جَمْعُ  
أَسْطُورَةٍ كَأَرْجُوحَةٍ وَأَرَاجِيحٍ وَأَثِيَّةٍ وَأَثَافِيٍّ وَأُحْدُوثةٍ وَأَحَادِيثَ . وَفِي الْقَامُوسِ :  
الْأَسَاطِيرُ الْأَحَادِيثُ لِأَنَّهَا جَمْعُ أَسْطَارٍ وَأَسْطِيرٍ وَأَسْطُورٍ وَبِالْهَاءِ فِي الْكَلِّ . وَأَصْلُ  
السَّطْرِ الصَّفُّ مِنَ الشَّيْءِ كَالْكِتَابِ وَالشَّجَرِ اهـ . قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : وَكَانَ النَّضْرُ هَذَا  
يَخْتَلِفُ إِلَى أَرْضِ فَارِسَ فَيَسْمَعُ أَخْبَارَهُمْ عَنْ رُسُومِ وَأَسْفِنْدِيَارِ وَكِبَارِ الْعَجَمِ ، وَيَمُرُّ  
بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَيَسْمَعُ مِنْهُمْ التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، كَأَنَّهُمْ يُعْنُونَ أَنَّ أَخْبَارَ الْقُرْآنِ عَنِ الرُّسُلِ

وَأَقْوَامِهِمْ أَشْبِهَتْ عَلَيْهِ بِقِصَصِ أُولَئِكَ الْأُمَّمِ فَقَالَ: إِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهَا ، فَمَا هِيَ مِنْ خَبَرِ الْغَيْبِ الدَّالِّ عَلَى أَنَّهُ وَحِيٌّ مِنَ اللَّهِ ، وَلَعَلَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ فَقَلَدَهُ فِيهَا غَيْرُهُ ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا أَسَاطِيرُ مُخْتَلِفَةٌ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي اقْتَرَاهَا ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ كَمَا نُقِلَ عَنْ كِبَارِ طَوَاغِيَتِهِمْ ، وَمِنْهُمْ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي ذَلِكَ : فَإِنَّهُمْ لَا يُكذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (6 : 33) بَلْ كَانُوا يُوهَمُونَ عَامَّةَ الْعَرَبِ أَنَّهُ أَكْتَبَهَا وَجَمَعَهَا كَمَا فِي آيَةِ الْفُرْقَانِ : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ

(120/311)

بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5 : 25) أَي لِيَحْفَظَهَا ، وَلَمْ يَكُنْ كِبْرَاءً مُجْرِمِي قُرَيْشٍ ، وَلَا أَهْلَ مَكَّةَ يَعْتَقِدُونَ هَذَا أَيْضًا ، فَإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ أُمِّيٌّ لَمْ يَتَعَلَّمْ شَيْئًا ، بَلْ تَشَاوَرُوا فِي شَيْءٍ يَقُولُونَهُ لِيَصُدُّوا بِهِ الْعَرَبَ عَنِ الْقُرْآنِ فَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ ، وَقَدْ كَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ إِثْبَاتًا ، وَكَانَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ أَشَدِّهِمْ كُفْرًا وَعِنَادًا ، وَحِرْصًا عَلَى صَدِّ النَّاسِ عَنِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بغيرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُؤًا (31 : 6) إِذِ اشْتَرَى قَيْنَةً جَمِيلَةً كَانَتْ تُغْنِي  
النَّاسَ بِأَخْبَارِ الْأُمَمِ وَغَيْرِ الْأُمَمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ لَصِرْفِهِمْ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ إِلَيْهَا ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَتْ  
فِيهِ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بَصَدَدٍ تَفْسِيرِهَا ، وَهِيَ الدَّالَّةُ عَلَى مُنْهَى الْجُحُودِ  
وَالْعِنَادِ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الرُّوَاةِ .

(121/311)

وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ النَّضْرُ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَرَى مِنْ نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ  
فِي أُسْلُوبِهِ أَوْ بِلَاغَتِهِ وَتَأْثِيرِهِ ، وَهُوَ مِنْ بُلْغَاءِ قُرَيْشٍ ، إِذْ لَوْ قَدَرَ لِفَعْلٍ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَحْرَصِهِمْ  
عَلَى تَكْذِيبِهِ ، بَلْ هُوَ طَعْنٌ فِي أَخْبَارِ الْقُرْآنِ عَنِ الرَّسُولِ وَتَشْكِيكِ الْعَرَبِ فِيهِ وَصَرَفَهَا عَنْهُ  
، وَقَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا " اقْتَرَاهُ " وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُهُمْ اعْتَقَدَ ذَلِكَ إِذَا كَانَ نَفِيً  
لِتَكْذِيبِهِمْ آيَاهُ خَاصًّا بِبَعْضِهِمْ كَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الَّذِي قَالَ لِأَبِي جَهْلٍ وَالْأَخْنَسِ وَغَيْرِهِمَا  
حِينَ دَعَاهُ لِتَكْذِيبِهِ : إِنْ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ يَكْذِبُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، أَفَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ ؟  
وَقَدْ شَمَلَ التَّحْدِيَّ بِالْقُرْآنِ هَؤُلَاءِ الْمُفْتَرِينَ عَنِ اعْتِقَادٍ أَوْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ إِذْ قَالَ فِي سُورَةِ  
يُونُسَ : أَمْ يَقُولُونَ اقْتَرَاهُ قُلُوبًا فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ (10 : 38) أَيِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ مُفْرَاةٍ كَمَا صَرَّحَ بِالْوَصْفِ فِي سُورَةِ هُودٍ فَقَالَ : أُمُّ  
يَقُولُونَ اقْرَأْهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْرِيَاتٍ

(122/311)

(11 : 13) إلخ . وَبَيْنَا الْفَرْقَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَآيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي التَّحْدِي عِنْدَ تَفْسِيرِ  
هَذِهِ الْأَخِيرَةِ (رَاجِعْ 159 - 164 مِنْ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ تَفْسِيرَ طَاهِيَةَ) . وَلَقَدْ كَانَ زُعَمَاءُ  
طَوَاغِيَتِ قُرَيْشٍ كَالنَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ هَذَا وَأَبِي جَهْلٍ ، وَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ يَتَوَاصُونَ  
بِالْإِعْرَاضِ عَنِ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ، كَمَا يَمْنَعُونَ النَّاسَ مِنْهُ ثُمَّ يَخْتَلِفُونَ أَفْرَادًا إِلَى بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَلْمُوا سَمَاعَ الْقُرْآنِ ، وَيَعْجَبُونَ مِنْهُ وَمِنْ تَأْثِيرِهِ وَسُلْطَانِهِ عَلَى الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ  
، وَكَانَ يَلْتَقِي بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ أَحْيَانًا فَيَتَلَاوَمُونَ ، وَيُؤَكِّدُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الْقَوْلَ بِعَدَمِ الْعُودِ إِلَى  
ذَلِكَ ، وَمِمَّا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِ اسْتِمَاعِهِمْ أَنْ قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ

فِيهِ كَلِمَةٌ مَشْهُورَةٌ فِي وَصْفِهِ وَمِنْهَا " أَنَّهُ يُعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ يُحْطَمُ مَا تَحْتَهُ " فَخَافُوا  
أَنْ تَسْمَعَهَا الْعَرَبُ ، فَمَا زَالُوا يُلْحُونَ عَلَيْهِ فِي قَوْلِ كَلِمَةٍ مُنْفَرَةٍ تُؤَثِّرُ عَنْهُ حَتَّى إِذَا مَا أَقْنَعُوهُ  
بُجُوبِ ذَلِكَ أَطَالَ التَّفْكِيرَ وَالتَّقْدِيرَ وَالتَّنْظَرَ وَالتَّأَمَّلَ وَالعُبُوسَ وَالتَّقْطِيبَ حَتَّى اهْتَدَى إِلَى



الكلمة الماثورة عن جميع مكذبي الأنبياء في تسمية آياتهم سحراً فقال: سحر يؤثر - وقد  
تقدم بيان هذا في بحث الإعجاز من تفسير آية البقرة في التحدي .

(123/311)

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلَّا  
يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ  
تَكْفُرُونَ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ تَعَالَى مَكْرَ قُرَيْشٍ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ  
سَبَبَهُ الْجُحُودُ وَالْعِنَادُ فَقَالَ: وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا  
حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ قَائِلَ هَذَا أَبُو جَهْلٍ . قَالَ  
الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ فِي الْفَتْحِ: الظاهر أنه أبو جهل، وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة  
، فلعله بدأ به ورَضِي

(124/311)

---

الْبَاقُونَ فَنُسِبَ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ رَوَى الطَّبْرَانِيُّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ قَائِلَ ذَلِكَ هُوَ التَّضَرُّ بْنُ  
الْحَارِثِ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَائِلَ بَعْدَاقِ وَقَعَ (70 : 1) وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ  
وَالسُّدِّيُّ، وَلَا يَنَافِي ذَلِكَ مَا فِي الصَّحِيحِ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَا قَالَاهُ، وَلَكِنَّ نَسْبَتَهُ إِلَى أَبِي  
جَهْلٍ أَوْلَى، وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ ذَلِكَ سَفَهَةٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَجَهَلَتَهَا . اهـ . وَقَالَ الْقُسْطَلَانِيُّ  
فِي شَرْحِهِ لَهُ: وَرَوَى أَنَّهُ التَّضَرُّ بْنُ الْحَارِثِ لَعَنَهُ اللَّهُ لَمَّا قَالَ: إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ  
قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَيْلَكَ، إِنَّهُ كَلَّمَ اللَّهُ" فَقَالَ هُوَ وَأَبُو جَهْلٍ:  
اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الْإِنْحِ، وَإِسْنَادُهُ إِلَى الْجَمْعِ إِسْنَادٌ مَا فَعَلَهُ رَئِيسُ الْقَوْمِ إِلَيْهِمْ اهـ .

(125/311)

---

وَالْمَعْنَى: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ مُنْزَلًا مِنْ عِنْدِكَ وَلَيْدِينَ بِهِ  
عِبَادُكَ كَمَا يَدْعِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَافْعَلْ بِنَا كَذَا وَكَذَا - أَيَّ أَنْهُمْ لَا يَتَّبِعُونَهُ،  
وَإِنْ كَانَ هُوَ الْحَقُّ الْمُنْزَلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ: لِأَنَّهُ نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الَّذِي يُلقَّبُ بِهِ ابْنُ  
أَبِي كَبْشَةَ، بَلْ يُفَضِّلُونَ الْهَلَاكَ بِحِجَارَةٍ يُرْجَمُونَ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ بَعْدَاقِ الْيَمِّ آخِرًا يَأْخُذُهُمْ  
عَلَى اتِّبَاعِهِ، وَمِنْ هَذَا الدُّعَاءِ عَلِمَ أَنَّ كُفْرَهُمْ عِنَادٌ وَكِبْرِيَاءٌ، وَعَمْتَوْ وَعَلَوْ فِي الْأَرْضِ، لَا

لَأَنَّ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ بَاطِلٌ أَوْ قَبِيحٌ أَوْ ضَارٌّ، وَرَوَى أَنَّ مَعَاوِيَةَ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ سَيِّئِ " مَا أَجْهَلُ  
قَوْمَكَ حِينَ مَلَكَوا عَلَيْهِمْ امْرَأَةٌ؟ فَقَالَ: أَجْهَلُ مِنْ قَوْمِي قَوْمَكَ حِينَ قَالُوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا  
هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ وَلَمْ يَقُولُوا فَاهْدِنَا لَهُ " اهـ . وَمَا  
يَحْكِيهِ الْقُرْآنُ مِنْ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ قَدْ يَكُونُ بِالْمَعْنَى دُونَ نَصِّ اللَّفْظِ، كَمَا هُوَ  
الْمُعْتَادُ بَيْنَ النَّاسِ، وَقَدْ يَكُونُ نَظْمُهُ مَعَ آدَائِهِ لِلْمَعْنَى بَدُونَ إِخْلَالِ مِمَّا يَعْبُرُ الْمَحْكِي عَنْهُمْ  
عَنْ مِثْلِهِ، وَقَدْ تَعَيَّنَ هَذَا فِي الْكَلَامِ الطَّوِيلِ الَّذِي يَتَحَقَّقُ بِمِثْلِ الْأَعْجَازِ .

(126/311)

---

قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ أَيُّ: وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ اللَّهِ تَعَالَى  
وَسُنَّتِهِ، وَلَا مِنْ مُقْتَضَى رَحْمَتِهِ وَلَا حِكْمَتِهِ، أَنْ يُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِيهِمْ، وَهُوَ إِنَّمَا  
أَرْسَلَكَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَنِعْمَةً لَا عَذَابًا وَنِقْمَةً، بَلْ لَمْ يَكُنْ مِنْ سُنَّتِهِ أَيْضًا أَنْ يُعَذِّبَ أَمْثَلَهُمْ  
مِنْ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ وَهُمْ فِيهِمْ، بَلْ كَانَ يُخْرِجُهُمْ مِنْهُمْ أَوْلًا كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَا كَانَ اللَّهُ  
مُعَذِّبَهُمْ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْعَذَابِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي عَذَّبَ بِمِثْلِهِ الْأُمَّمَ فَاسْتَأْصَلَهُمْ أَوْ مُطْلَقًا وَهُمْ  
يَسْتَغْفِرُونَ أَيُّ: فِي حَالِ هُمْ يَتَلَبَّسُونَ فِيهَا بِاسْتِغْفَارِهِ تَعَالَى بِالِاسْتِمْرَارِ، رَوَى الشَّيْخَانُ  
مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ أَبُو جَهْلٍ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ - الْآيَةُ - فَانزَلتُ: وَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُعَذِّبَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ : وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ الْآيَةَ . قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ مِنَ الْفَتْحِ :  
رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ زَيْدِ بْنِ رُوْمَانَ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ ، ثُمَّ لَمَّا أَمْسَوْا نَدِمُوا فَقَالُوا : غُفْرَانَكَ  
اللَّهُمَّ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ  
بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ : وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ  
أَيُّ مَنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُؤْمِنَ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ مَنْ كَانَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حِينَئِذٍ

(127/311)

---

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ الضَّحَّاكُ وَأَبُو مَالِكٍ ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي زَيْمٍ قَالَ :  
" كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ثُمَّ  
خَرَجَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَكَانَ مِنْ بَقِيَّةِ مَنْ  
الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ يَسْتَغْفِرُونَ فَلَمَّا خَرَجُوا أَنْزَلَ اللَّهُ : وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ  
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الْآيَةَ . فَأَذَّنَ اللَّهُ فِي فَتْحِ مَكَّةَ ، فَهُوَ الْعَذَابُ الَّذِي نَوَّعَهُ اللَّهُ تَعَالَى "  
وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى فِي رَفْعِهِ قَالَ : أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ فَذَكَرَ هَذِهِ  
الْآيَةَ قَالَ : " فَإِذَا مَضَيْتُ تَرَكْتُ فِيهِمْ الْاسْتِغْفَارَ " وَهُوَ يَقْوِي الْقَوْلَ الْأَوَّلَ ، وَالْحَمْلُ عَلَيْهِ  
أَوْلَى ، وَأَنَّ الْعَذَابَ حَلَّ بِهِمْ لَمَّا تَرَكُوا النَّدَمَ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُمْ ، وَبِالْغَوَا فِي مُعَانَدَةِ الْمُسْلِمِينَ

وَمُحَارَبَتِهِمْ ، وَصَدَّهِمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا أُرْدَاهُ الْحَافِظُ ، وَيُرَدُّ عَلَيْهِ أَنَّ  
اللَّهَ عَذَّبَهُمْ بِالْقَحْطِ لَمَّا دَعَا بِهِ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ ،  
حَتَّى أَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ ، وَلَمْ يَرْتَفِعُوا إِلَّا بِدُعَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا يَنْدَفِعُ إِلَّا بِتَفْسِيرِ  
الْعَذَابِ الْمُمْتَعِ مَعَ وُجُودِ الرَّسُولِ وَالِاسْتِغْفَارِ بِعَذَابِ الْاسْتِصْصَالِ . وَيُؤَيِّدُهُ

(128/311)

---

أَنَّ مَا عَذَّبَ اللَّهُ بِهِ قَوْمَ فِرْعَوْنَ كَانَ مَعَ وُجُودِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ  
الْأَعْرَافِ وَالآيَاتُ نَزَلَتْ مَعَ السُّورَةِ بِالْمَدِينَةِ .

(129/311)

---

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَمَا لَهُمُ الْإِعْدَابُ بِهِمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَيُّ : وَمَاذَا وَثَبَتْ  
لَهُمْ مِمَّا يَمْنَعُ تَعْذِيبَهُمْ بِمَا دُونَ عَذَابِ الْاسْتِصْصَالِ عِنْدَ زَوَالِ الْمَانِعِينَ مِنْهُ بَعْدُ ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ  
يَمْنَعُونَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَلَوْ لِلنُّسُكِ ، قِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ صَدُّهُمْ النَّبِيِّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ سَنَةِ سِتِّ ، وَالآيَةُ نَزَلَتْ عَقِبَ غَزْوَةِ بَدْرٍ

سَنَةَ اثْنَتَيْنِ . وَالْمَنْعُ كَانَ وَقَعًا مُنْذُ الْهِجْرَةِ ، مَا كَانَ يَقْدِرُ مُسْلِمٌ أَنْ يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ  
فَإِنْ دَخَلَ مَكَّةَ عَذَّبُوهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ يَجِيرُهُ ، وَالْمُرَادُ بِالْعَذَابِ هُنَا عَذَابُ بَدْرٍ إِذْ قُتِلَ  
صَنَادِيدُهُمْ وَرُءُوسُ الْكُفْرِ فِيهِمْ ، وَمِنْهُمْ أَبُو جَهْلٍ ، وَأُسِرَ سُرَاتُهُمْ ، لَافَتْحَ مَكَّةَ كَمَا قَالَ  
الْحَافِظُ - بَلْ لَمْ تَكُنِ الْهِجْرَةُ نَفْسَهَا إِلَّا بَصَدَّ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ ، فَقَدْ كَانُوا يُؤْذُونَ مَنْ طَافَ أَوْ  
صَلَّى فِيهِ مِنْهُمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ مَنْ يَمْنَعُهُ وَيَحْمِيهِ ، وَقَدْ وَضَعُوا  
عَلَى ظَهْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرْتِ الْجُزُورِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَلَمْ يَتَجَرَّأْ أَحَدٌ عَلَى  
رَمِيهِ عَنْهُ إِلَّا ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - وَمَنْعُوا أَبَا بَكْرٍ مِنْ

(130/311)

---

الصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِيهِ فَبَنَى لِنَفْسِهِ مَسْجِدًا كَانَ يُصَلِّي فِيهِ ، وَيَجْهَرُ بِالْقُرْآنِ ، فَصَدَّوهُ  
عَنِ الصَّلَاةِ فِيهِ أَيْضًا لِأَنَّ النِّسَاءَ وَالْأَوْلَادَ كَانُوا يَجْتَمِعُونَ لِسَمَاعِ قِرَاءَتِهِ الْمُؤَثِّرَةِ فَخَافُوا  
عَلَيْهِمْ أَنْ يَهْتَدُوا إِلَى الْإِسْلَامِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ خَبْرُهُ فِي ذَلِكَ ، وَإِجَارَةُ ابْنِ الدُّغْنَةِ لَهُ ثُمَّ  
اضْطِرَّارُهُ إِلَى رَدِّ جَوَارِهِ ، وَهُوَ مِنْ حَدِيثِ الْهِجْرَةِ فِي الْبُخَارِيِّ .

(131/311)

وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ أَيُّ مُسْتَحِقِّينَ الْوَلَايَةِ عَلَيْهِ لِشِرْكِهِمْ وَمَفَاسِدِهِمْ فِيهِ ، كَطَوَّافِهِمْ فِيهِ عُرَاةَ  
 الْأَجْسَامِ رِجَالًا وَنِسَاءً ، وَلَمَّا أَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ بِأَنْ يُجْعَلَ لِلنَّاسِ أُمَّةٌ مِنْ  
 ذُرِّيَّتِهِ كَمَا جَعَلَهُ إِمَامًا لَهُمْ ، أَجَابَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ عَهْدَهُ بِالْإِمَامَةِ لَا يَنَالُ الظَّالِمِينَ ، وَأَيُّ ظَلَمٍ  
 أَكْبَرُ شِنَاعَةً وَفَسَادًا مِنَ الشِّرْكِ ؟ إِنَّ الشِّرْكَ لظَلَمٌ عَظِيمٌ (31 : 13) وَكَانُوا يَقُولُونَ  
 نَحْنُ وِلَاةُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ فَتَصَدُّ مِنْ نَشَأٍ ، وَتَدْخُلُ مِنْ نَشَأٍ فَقَالَ تَعَالَى : إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا  
 الْمُتَّقِينَ لِلشِّرْكِ وَسَائِرِ الْفَسَادِ وَالظُّلْمِ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ الصَّادِقُونَ ، وَقَدْ وَجَدُوا . وَهَذَا  
 غَايَةُ التَّكْيِيدِ ، فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ نَفَى وِلَايَةَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ بَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى نَفَى كُلَّ وِلَايَةٍ عَلَى  
 الْإِطْلَاقِ ، وَاسْتَنْتَى مِنْهَا وِلَايَةَ الْمُتَّقِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُمْ عَدُوُّ لَهُمْ وَخِيَارُهُمْ لَا مِنْ لَّا فَضْلَ  
 لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَدْعُونَ حَقَّ الْوَلَايَةِ بِأَنْسَابِهِمْ . وَقِيلَ : إِنَّ الضَّمِيرَ فِي الْمَوْضِعِينَ لِلَّهِ  
 تَعَالَى ، أَيُّ وَلَمْ لَا يُعَذِّبُ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ اتِّفَاءِ سَبَبِي مَنْعِ الْعَذَابِ ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ  
 لَيْسُوا أَوْلِيَاءَهُ وَأَنْصَارَ دِينِهِ الَّذِينَ لَا يُعَذِّبُهُمْ ؟ وَكَانَ سَائِلًا يُسْأَلُ : مَنْ أَوْلِيَاءُ تَعَالَى إِذَا ؟  
 فَاجْتَبَى بِصِيغَةِ الْحَصْرِ بِالْإِثْبَاتِ بَعْدَ النَّفْيِ : مَا أَوْلِيَاءُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ، أَيُّ الَّذِينَ صَارَتْ  
 التَّقْوَى

---

العامّة صفة راسخة فيهم، وتقدم ما يدل عليه هذا الإطلاق فيها من التفصيل في تفسير آية  
إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا وما هي ببعيد . والقول الأول أقرب في هذا

(133/311)

---

السياق، والثاني أخص ويؤيده في حد ذاته قوله تعالى: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ  
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (10 : 62 ، 63) ويجوز الجمع بينهما ولكن  
أكثرهم لا يعلمون أنه لا حق لهم في الولاية على هذا البيت ولا سيما بعد ظهور الإسلام،  
ووجود أولياء الله الموحدين الصالحين، وكانوا يدعون هذا الحق بنسبهم الأبراهيمي،  
وقد أبطله الظلم، وتقوتهم في قومهم، وإن كانت إلى ضعف أو لا يعلمون أنهم ليسوا أولياء  
الله - عز وجل -، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين، فهم المؤمنون من عذابه بمقتضى عدله  
في خلقه، والحقيقون بالولاية على بيته، على ما أعد لهم من الثواب والتعظيم بفضله، كما  
صرحت به آياته في كتابه، وقد أسند هذا الجهل إلى أكثرهم إذ كان فيهم من لا يجهل  
سوء حالهم في جاهليتهم وضلالهم في شركهم، وكونه لا يرضي الله تعالى، فإن امتنع



رُؤْسَاؤُهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ كَبْرًا وَعِنَادًا ، فَقَدْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُكْتَمُ إِيمَانَهُ خَوْفًا مِنَ الْفِتْنَةِ ، وَيَتَرَبَّصُ  
الْفُرْصَةَ لِإِظْهَارِهِ بِالِاسْتِعْدَادِ لِلْهَجْرَةِ ، وَمِنْهُمْ الْمُسْتَعِدُّونَ لَهُ بِسَلَامَةِ الْفِطْرَةِ ، وَلِلتَّفَاوُتِ

(134/311)

فِي الْاسْتِعْدَادِ كَانَ يَطْهَرُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ . وَالنَّاسُ يُطْلِقُونَ الْحُكْمَ فِي مِثْلِ الْحَالِ الَّتِي كَانُوا  
عَلَيْهَا عَلَى الْجَمِيعِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْقَلِيلَ لَا حُكْمَ لَهُ إِنْ وُجِدَ فَكَيْفَ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ بِوُجُودِهِ ؟  
وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَلَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ ، وَمِثْلُ هَذَا الْحُكْمِ عَلَى أَكْثَرِ الْأُمَّمِ  
وَالشُّعُوبِ أَوْ اسْتِنَاءِ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ بَعْدَ إِطْلَاقِ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ ، هُوَ مِنْ دَقَائِقِ الْقُرْآنِ فِي تَحْرِيرِ  
الْحَقِّ ، وَهُوَ مُكْرَّرٌ فِي مَوَاضِعَ مِنْ عِدَّةِ سُورٍ ، وَسَبَقَ تَنْبِيْهُنَا لِهَذَا فِي تَفْسِيرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا .

(135/311)

هَذَا وَإِنَّ جَمَاهِيرَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَكْثَرِ بِلَادِهِمْ صَارُوا فِي هَذَا الْعَصْرِ أَجْهَلَ مِنْ مُشْرِكِي  
قُرَيْشٍ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ بِمَعْنَى وِلَايَةِ اللَّهِ وَأَوْلِيَّائِهِ - سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ وِلَايَةِ الْحُكْمِ وَالسُّلْطَانِ ،  
وَهِيَ الْإِمَامَةُ الْعَامَّةُ ، وَوِلَايَةِ التَّقْوَى وَالصَّلَاحِ ، وَهِيَ الْإِمَامَةُ الشَّخْصِيَّةُ الْخَاصَّةُ ، وَجَهْلُهُمْ

بِهَذِهِ أَعْمٌ وَأَعْمَقٌ ، فَالْوَلَايَةُ عِنْدَهُمْ تَشْمَلُ الْمَجَانِينَ وَالْمَجَاذِبَ الَّذِينَ تَرْتَعُ الْحَشْرَاتُ فِي  
أَجْسَادِهِمُ النَّجِسَةَ ، وَيَتَابِعُهُمُ الْقَدْرَةَ ، وَيَسِيلُ اللَّعَابُ مِنْ أَشْدَاقِهِمُ الشَّرْهَةَ ، وَتَشْمَلُ  
أَصْحَابَ الدَّجَلِ وَالْخُرَافَاتِ ، وَالِدَعَاوَى الْبَاطِلَةِ لِلْكَرَامَاتِ ، وَالشَّرِكِ بِاللَّهِ بِدُعَاءِ  
الْأَمْوَاتِ ، وَمَنْ أَدْلَتِهِمْ عَلَيْهَا مَا يَتَخَيَّلُونَ مِنْ رُؤْيِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَقْطَابِ فِي الْمَنَامِ ، وَمَا يَزْعُمُونَ  
مِنْ تَلْقِيهِمْ عَنْهُمْ مَا تَنْبِذَهُ شَرِيعَةُ الْمُصْطَفَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، حَتَّى صَارَ مَا هُمْ  
عَلَيْهِ دِينَ شِرْكٍَ مُنَافِيًا لِدِينِ الْإِسْلَامِ ، فَعَلَيْكَ بِمُطَالَعَةِ كِتَابِ الْفُرْقَانِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ  
وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ ، لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ ، وَمَنْ أَوْلَى مِنْهُ بِمِثْلِ هَذَا الْفُرْقَانِ ؟ .

(136/311)

---

ثُمَّ عَطَفَ عَلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ حُجَّةٌ عَلَى صِحَّتِهِ ، وَهُوَ بَيَانُ حَالِهِمْ فِي أَفْضَلِ مَا بُنِيَ  
الْبَيْتُ لِأَجْلِهِ وَهُوَ الصَّلَاةُ ، إِذْ كَانَ سُوءُ حَالِهِمْ فِي الطَّوَافِ عُرَاةً مَعْرُوفًا لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ ، أَوْ  
فِي الْعِبَادَةِ الْجَامِعَةِ لِلطَّوَافِ وَالصَّلَاةِ فَقَالَ : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيَةً  
مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْبَيْتَ إِذَا أُطْلِقَ مَعْرَفًا أَنْصَرَفَ عِنْدَهُمْ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْمَعْرُوفِ بِالْكَعْبَةِ  
وَالْبَيْتِ الْحَرَامِ ، عَلَى الْقَاعِدَةِ اللَّغْوِيَّةِ فِي أَنْصَرَفَ مِثْلَهُ إِلَى الْأَكْمَلِ فِي جِنْسِهِ كَالنَّجْمِ لِلشَّرِّيَا  
، وَهِيَ أَعْظَمُ النُّجُومِ هِدَايَةٌ . رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ : كَانَتْ قُرَيْشٌ

تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةٌ تُصَفِّرُ وَتُصَفَّقُ . وَقَالَ : الْمُكَاءُ الصَّفِيرُ ، وَالتَّصْدِيَةُ التَّصْفِيقُ ، وَقَالَ :  
كَانَ أَحَدُهُمْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْأُخْرَى وَيُصَفِّرُ . وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ مِنْهُمْ كَانُوا  
يَطُوفُونَ عُرَاةً مُشَبِّكِينَ بَيْنَ أَصَابِعِهِمْ يُصَفِّرُونَ فِيهَا وَيُصَفَّقُونَ ، وَرَوَى الطَّسْتِيُّ فِيمَا رَوَى  
مِنْ أَسْئَلَةِ نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : الْإِمَاءُ وَتَصْدِيَةُ  
قَالَ : الْمُكَاءُ : صَوْتُ الْقُنْبُرَةِ ، وَالتَّصْدِيَةُ صَوْتُ الْعَصَافِيرِ وَهُوَ التَّصْفِيقُ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ  
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ بِمَكَّةَ كَانَ يُصَلِّي بَيْنَ الْحَجَرِ  
(الْأَسْوَدِ) وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ - يَعْنِي

(137/311)

---

أَنَّهُ يُتَوَجَّهُ إِلَى الشَّمَالِ لِجَمْعِ بَيْنِ الْكُتْبَةِ وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي الْإِسْتِقْبَالِ - فَيَجِيءُ رَجُلَانِ  
مِنْ بَنِي سَهْمٍ يَقُومُ أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِهِ ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ ، وَيَصِيحُ أَحَدُهُمَا كَمَا يَصِيحُ  
الْمُكَاءُ ، وَالْآخَرُ يَصَفَّقُ بِيَدَيْهِ تَصْدِيَةَ الْعَصَافِيرِ لِيُفْسِدَا عَلَيْهِ صَلَاتَهُ . قَالَ (نَافِعٌ) : وَهَلْ  
تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ أَمَا سَمِعْتَ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ يَقُولُ :  
تَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ إِذَا دُعِينَا . . . وَهَمَّتْكَ التَّصَدِّي وَالْمُكَاءُ  
وَفِي بَعْضِ كُتُبِ اللُّغَةِ أَنَّ الْمُكَاءَ طَائِرٌ أبيضٌ ، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : كَانَتْ قُرَيْشٌ

يُعَارِضُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الطَّوَافِ يَسْتَهْزِئُونَ وَيُصَفِّرُونَ فَنَزَلَتْ: وَمَا كَانَ  
صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيَةً وَقَالَ الرَّاعِبُ: مَكَاءُ الطَّيْرِ يُمَكُّ مَكَاءً: صَفْرًا .  
وَذَكَرَ أَنَّ الْمَكَاءَ فِي الْآيَةِ جَارٌ مَجْرَى مَكَاءِ الطَّيْرِ فِي قَلَّةِ الْغِنَاءِ . قَالَ: وَالْمَكَاءُ (بِالضَّمِّ  
وَالتَّشْدِيدِ) طَائِرٌ، وَمَكَتْ أَسْتَهْ صَوَّتَتْ أَهْ . وَيَحْتَمِلُ أَنَّ هَذِهِ الْفِعْلَةَ الْقَبِيحَةَ كَانَتْ تَقَعُ  
مِنْهُمْ

(138/311)

---

عَمْدًا أَيْضًا ، فَذَكَرَ الْفِعْلَ الْمُشْتَرَكَ لِيَدُلَّ عَلَيْهَا ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْفِعْلَ الَّذِي وُضِعَ لَهَا وَحَدَّهَا  
نِزَاهَةً ، وَقَالَ فِي التَّصَدِيَةِ: كُلُّ صَوْتٍ يَجْرِي مَجْرَى الصَّدى فِي أَنْ لَا غِنَاءَ فِيهِ أَهْ .  
وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ: أَنَّ صَلَاتَهُمْ وَطَوَافَهُمْ كَانَ مِنْ قَبِيلِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ سَوَاءً عَارَضُوا بِذَلِكَ  
الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَوَافِهِ وَخُشُوعِ صَلَاتِهِ وَحُسْنِ تِلَاوَتِهِ أَمْ لَا .  
قَالَ تَعَالَى: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ فَسَرَّ الضَّحَّاكُ الْعَذَابَ هُنَا بِمَا كَانَ مِنْ قَتْلِ  
الْمُؤْمِنِينَ لِبَعْضِ كِبَرَانِهِمْ وَأَسْرِهِمْ لِأَخْرِيْنِ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَيْ وَأَنْهَزَامِ الْبَاقِينَ مَكْسُورِينَ  
مَدْحُورِينَ . وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِمْ: أَوَاتِنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ كَأَنَّهُ يَقُولُ: فَذُوقُوا الْعَذَابَ الَّذِي  
طَلَبْتُمُوهُ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَسْتَعْجِلُوهُ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ  
يُغْلِبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ  
بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ نَزَلَ هَذَا فِي  
اسْتِعْدَادِ قُرَيْشٍ لِعَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَمَا سَيَكُونُ مِنْ اسْتِعْدَادِهِمْ لغيرِهَا بَعْدَهَا . وَيَشْمَلُ اللَّفْظُ  
بِعُمُومِهِ مَا سَيَكُونُ مِثْلُ ذَلِكَ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي كُلِّ زَمَنٍ . ذَكَرَ رِوَاةَ التَّفْسِيرِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ  
وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَغَيْرِهِمْ : أَنَّ هَذِهِ آيَةُ الْاُولَى نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَانَ ، وَمَا كَانَ  
مِنْ اِنْفَاقِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ ، وَمِنْ اِعَانَتِهِ عَلَى ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ اِحْدٍ وَغَيْرِهَا ففِي  
بَعْضِ الرِّوَايَاتِ اَنَّهُ لَمَّا نَجَا بِالْعَيْرِ بِطَرِيقِ الْبَحْرِ اِلَى مَكَّةَ مَشَى وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
يَسْتَنْفِرُونَ النَّاسَ لِلْقِتَالِ ، فَجَاءُوا كُلٌّ مِنْ كَانَتْ لَهُمْ تِجَارَةٌ فَقَالُوا : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اِنَّ مُحَمَّدًا  
قَدْ وُتِرَكُمْ وَقَتَلَ رِجَالَكُمْ ، فَاَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ فَلَعَلَّنَا نَدْرِكُ مِنْهُ ثَارًا - ففَعَلُوا .  
وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : اِنَّهُ اسْتَأْجَرَ يَوْمَ اِحْدِ الْفَيْنِ مِنَ الْاَحَابِيْشِ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يُقَاتِلُ بِهِمْ  
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِوَى مَنْ  
اسْتَجَاشَ مِنَ الْعَرَبِ . وَفِيهِمْ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ

(140/311)

وَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطُهُ . . . أَحَابِيشٌ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُتَعِّعٌ

ثَلَاثَةُ أَلْفٍ وَنَحْنُ عَصَابَةٌ . . . ثَلَاثُ مِائِينَ إِنْ كَثُرْنَا فَارْبَعٌ

وَقَالَ الْحَكَمُ بْنُ عُثَيْبَةَ فِي الْآيَةِ: نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَانَ، انْفَقَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أَحُدٍ أَرْبَعِينَ

أَوْقِيَةً مِنْ ذَهَبٍ، وَكَانَتِ الْأَوْقِيَةُ يَوْمَئِذٍ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ مِثْقَالًا، هَذَا عَلَى مَا كَانَ مَعْرُوفًا مِنْ

بُخْلِ أَبِي سُفْيَانَ كَمَا قَالَتْ زَوْجَتُهُ يَوْمَ الْمُبَايَعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار ج 9 ص 540.550 ﴾

(141/311)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾

معطوفة على جملة ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ [ الأنفال : 34 ] فمضمونها

سبب ثانٍ لاستحقاقهم العذاب ، وموقعها ، عقب جملة : ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ [ ]

الأُنفال : 34] يجعلها كالدليل المقرر لانتفاء ولايتهم للمسجد الحرام ، لأن من كان يفعل مثل هذا عند مسجد الله لم يكن من المتقين ، فكان حقيقاً بسلب ولاية المسجد عنه ، فعطفت الجملة باعتبارها سبباً للعذاب ، ولو فصلت باعتبارها مقررة لسلب أهلية الولاية عنهم لصح ذلك ، ولكن كان الاعتبار الأول أرجح ؛ لأن العطف أدل عليه مع كون موقعها يفيد الاعتبار الثاني .

والمكآء على صيغة مصادر الأصوات كالرغاء والثغاء والبكاء والنواح ، يقال : مكأ يُمكُو إذا صَفَّرَ بفيه ، ومنه سمي نوع من الطير المكآء بفتح الميم وتشديد الكاف ، وجمعه مكآكيء بهمزة في آخره بعد الياء ، وهو طائر أبيض يكون بالحجاز . وعن الأصمعي قلت لمنتجع بن نبهان " ما تمكُو " فشبك بين أصابعه ثم وضعها على فمه ونفخ .

والتصدية التصفيق مشتقاً من الصدى وهو الصوت الذي يردده الهواء محاكياً لصوت صالح في البراح من جهة مقابلة .

ولا تعرف للمشركين صلاة ، فتسمية مكآئهم وتصديتهم صلاة مشاكلة تقديرية ؛ لأنهم لما صدوا المسلمين عن الصلاة وقراءة القرآن في المسجد الحرام عند البيت .

(142/311)

---

كان من جملة طرائق صدقهم إياهم تشغيبهم عليهم وسخرتهم بهم يحاكون قراءة المسلمين  
وصلاتهم بالمكاء والتصدية، قال مجاهد: "فَعَلَ ذلك نفر من بني عبد الدار يخلطون على  
محمد صلواته" وبنو عبد الدار هم سدنة الكعبة وأهل عمارة المسجد الحرام فلما فعلوا  
ذلك للاستسحار من الصلاة سمي فعلهم ذلك صلاة على طريقة المشاكلة التقديرية،  
والمشاكلة ترجع إلى استعارة علاقتها المشاكلة اللفظية أو التقديرية فلم تكن للمشركين  
صلاة بالمكاء والتصدية، وهذا الذي نحاه حذاق المفسرين: مجاهد، وابن جبير، وقتادة،  
، ويؤيد هذا قوله: ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ [الأحقاف: 34] لأن شأن  
التفريع أن يكون جزاء على العمل المحكي قبله، والمكاء والتصدية لا يعدان كفراً إلا إذا كانا  
صادرين للسخرية بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالدين، وأما لو أريد مجرد لهُو عملوه في  
المسجد الحرام فليس بمقتض كونه كفراً إلا على تأويله بأثر من آثار الكفر كقوله تعالى: ﴿  
إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ [التوبة: 37].

ومن المفسرين من ذكر أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة ويمكّون ويصفقون روي عن  
ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفقون ويصغرون، وعليه فإطلاق الصلاة  
على المكاء والتصدية مجاز مرسل، قال طلحة بن عمرو: أراني سعيد بن جبيرة المكان  
الذي كانوا يمكّون فيه نحو أبي قبيس، فإذا صح الذي قاله طلحة بن عمرو فالعندية في قوله



: ﴿ عند البيت ﴾ بمعنى مطلق المقاربة وليست على حقيقة ما يفيد ( عند ) من شدة القرب .

ودل قوله : ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ على عذاب واقع بهم ، إذ الأمر هنا للتوبيخ والتغليظ وذلك هو العذاب الذي حل بهم يوم بدر ، من قتل وأسر وحرب ( بفتح الراء ) .

(143/311)

---

﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ أي بكفركم ف ( ما ) مصدرية ، و ﴿ كان ﴾ إذا جعل خبرها جملة مضارعية أفادت الاستمرار والعادة ، كقول عائشة ، " فكانوا لا يقطعون السارق في الشيء التافه " وقول سعيد بن المسيب في "الموطأ" : " كانوا يعطون النفل من الخمس " .  
وعبر هنا بـ ﴿ تكفرون ﴾ وفي سورة [ الأعراف : 39 ] بـ ﴿ تكسبون ﴾ لأن العذاب المتحدث عنه هنال لأجل الكُفر .

والمتحدث عنه في الأعراف لأجل الكفر والإضلال وما يجره الإضلال من الكبرياء الروثاسة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(144/311)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾

حيث كانت صلواتهم مظهرا من مظاهر اللهو واللعب يؤدونها بالمكاء والتصديّة، والمكاء هو التصفير الذي يصفرونه، والتصديّة هي التصفيق، وكانت صلواتهم هي صفير يسبب صدى للأذان، بالإضافة إلى التصفيق بإيقاع معين، فكيف تكون الصلاة هكذا؟ .

وكيف يصدون عن البيت الحرام ولا ولاية لهم عليه؛ لأن الذي يلي أمر البيت الحرام لا بد أن يكون متقيا لله، لكن هؤلاء لم يكونوا أهلا للتقوى؛ لأنهم لم يقوموا بالصلاة المطلوبة للبيت الحرام والتي يجب أن يذكر فيها الله ويُعبد؛ لذلك كان التعذيب لمن أصر على ذلك بعد أن نزل منهج الله الخاتم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(145/311)

---

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

(35) ﴿

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: كانت قريش

يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف، يستهزئون ويصفرون ويصفقون،

فنزلت ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن نبيط - وكان من الصحابة رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما كان

صلاتهم عند البيت . . . ﴾ الآية . قال: كانوا يطوفون بالبيت الحرام وهم يصفرون .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال

: كانوا يطوفون بالبيت عراة تصفر وتصفق، فأنزل الله ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا

مكاء وتصدية ﴾ قال: والمكاء الصفير، وإنما شبهوا بصفير الطير وتصدية التصفيق،

وأنزل فيهم ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ [الأعراف: 32] الآية .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن

قوله عز وجل ﴿ إلا مكاء وتصدية ﴾ قال: المكاء، صوت القنبرة . والتصدية، صوت

العصافير وهو التصفيق . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة

وهو بمكة، كان يصلي قائماً بين الحجر والركن اليماني، فيجيء رجلان من بني سهم يقوم

أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، ويصيح أحدهما كما يصيح المكاء، والآخر يصفق

بيديه تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ فقال : نعم ،  
أما سمعت حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه يقول :  
نقوم إلى الصلاة إذا دعينا . . . وهمتك التصدي والمكاء  
وقال آخر من الشعراء في التصدية :  
حتى تنبهننا سحيراً . . . قبل تصدية العصافير  
وأخرج ابن المنذر من طريق عطية عن ابن عباس رضي الله عنه قال : المكاء ، الصغير .  
كان أحدهما يضع يده على الأخرى ثم يصفر .

(146/311)

---

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في  
قوله ﴿إلّا مكاء وتصدية﴾ قال : المكاء الصغير ، والتصدية التصفيق .  
وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ  
وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : المكاء الصغير ، والتصدية التصفيق .  
وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد  
رضي الله عنه قال : المكاء ، إدخال أصابعهم في أفواههم . والتصدية ، الصغير يخالطون

بذلك كله على محمد صلى الله عليه وسلم صلواته .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : المكاء ، الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء يكون بأرض الحجاز ، والتصدية التصفيق .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ قال : صداهم إلا مكاء ﴾ قال : كانوا يشبكون أصابعهم ويصفرون فيهن ﴿ وتصدية ﴾ قال : صداهم الناس .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال وهو قوله ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ فالمكاء ، مثل نفخ البوق . والتصدية ، طوافهم على الشمال .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ قال : يعني أهل بدر ، عذبهم الله بالقتل والأسر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(147/311)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

المُكَّاءُ: فُعَّالٌ، بناءً مبالغةً؛ قال أبو عبيدة: "يقال: مَكَائِمُكُوا مُكُّوًا وَمُكَّاءً: صَفَرَ،  
والمُكَّاءُ: بالضمِّ، كالبُكَّاءِ والصُّراخِ".

قال الزمخشريُّ: "المُكَّاءُ": فُعَّالٌ، بوزن: الثُّغَاءِ والرُّغَاءِ، من مَكَائِمُكُوا: إذا صَفَرَ  
والمُكَّاءُ: الصَّفِيرُ "ومنه: المُكَّاءُ: وهو طائر يألف الرِّيفَ، وجمعه المَكَاكِيُّ.  
قيل: ولم يشذَّ من أسماء الأصوات بالكسر إلا الغنَاءُ، والنداءُ.  
والتَّصْدِيَةُ فيها قولان:

أحدهما: أنها من الصَّدَى، وهو ما يُسْمَعُ من رجع الصَّوْتِ في الأمكنة الخالية الصُّلْبَةِ يقال  
منه: صَدَى يَصْدِي تَصْدِيَةً، والمراد بها هنا: ما يسمع من صوت التَّصْفِيقِ بإحدى اليدين  
على الأخرى.

(148/311)

---

وقيل: هي مأخوذةٌ من التَّصَدُّدِ، وهي الضَّجِيحُ، والصَّيْحُ، والتَّصْفِيقُ، فأبدلت إحدى  
الدَّالِّينِ ياءً تخفيفاً، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف]:

57] في قراءة من كسر الصَّاد ، أي : يَضْجُون وَيَلْغَطُونَ ، وهذا قول أبي عبيدة ، وردّه عليه أبو جعفر الرُّسْتَمِي ، وقال : إِنَّمَا هُوَ مِنَ الصَّدِّي ، فكيف يُجْعَلُ مِنَ المَضْعَفِ ؟ وقد ردَّ أبو عليّ عليّ أبي جعفر ردّه وقال " قد ثبت أن يَصُدُّونَ من نحو الصَّوْتِ ، فأخذه منه ، وتصدية : تَفْعَلَةٌ " ثم ذكر كلاماً كثيراً .

والثاني : أنها من الصَّدِّ ، وهو المنعُ ؛ والأصل : تَصَدِّدَةٌ ، بدلين أيضاً ، فأبدلت ثانيتهما ياءً ويُؤيِّدُ هذا قراءةٌ من قرأ " يَصُدُّونَ " بالضمِّ ، أي : يَمْنَعُونَ .  
وقرأ العامةُ : " صَلَاتُهُمْ " رفعاً ، " مَكَاءً " نصباً .

وأبان بن تغلب والأعمش وعاصم بخلاف عنهما : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ ﴾ نصباً ، " مَكَاءً " رفعاً وخطأً الفارسيُّ هذه القراءة ، وقال : لا يجوز أن يُخْبَرَ عن النكرة بالمعرفة إلاّ

في ضرورة ؛ كقول حسّان : [ الوافر ]

2703 - كَانَ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ . . .

يَكُونُ مَزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ

وخرَّجها أبو الفتح عليّ أنّ " المَكَاءَ " و " التصدية " اسما جنس ، يعني : أنَّهُمَا مصدران .  
قال : واسم الجنس تعريفه وتنكيره متقاربان ، فلم يُقالَ بَأَيِّهِمَا جعل اسماً ، والآخر خبراً ؟  
وهذا يقرب من المعرفِّ بـ " أل " الجنسيّة ، حيث وُصِفَ بِالْجُمْلَةِ ، كما يُوصَفُ بِهِ النكرة ،  
كقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ [ يس : 37 ] ؛ وقول الآخر : [ الكامل

[

2704 - ولقد أمرُّ على اللِّيمِ يَسِينِي . . .

فَمَضَيْتُ ثَمَّتْ قَلْتُ " لَا يَعْنِينِي

وقال بعضهم: وقد قرأ أبو عمرو: "الإمكاً" بالقصر والتنوين، وهذا كما قالوه: بُكاءً،

وَبُكْيٍ .

بالمَدِّ والقصر .

(149/311)

---

وقد جمع الشاعر بين اللغتين، فقال: [الوافر]

2705 - بَكَتُ عَيْنِي وَحُقَّ لَهَا بُكَاهَا . . .

وَمَا يُعْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 510 .

﴿ 511

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

قوله جل ذكره: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾ .



تجردت أعمالهم بطواهرهم عن خلوص عقائد هم ، فلم يوجد - سبحانه وتعالى - لها احتساباً ؛ فزكاء القالة لا يكون إلا مع صفاء الحالة ، وعناء الظاهر لا يقبل إلا مع ضياء السرائر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

كان العذاب مُعْجَلًا وهو حسبانهم أنهم على شيء ، قال الله تعالى .

﴿ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : 104] ، ومُوجَلًا وهو كما قال

الله تعالى : ﴿ وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ [الرعد : 34] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف

الإشارات ح 1 ص 623 ﴿

(150/311)

---

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ

عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (36) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر سبحانه عن أحوال الكفار في الأعمال البدنية ، وكان غلبهم مع كثرتهم وقوتهم

مستبعداً ، أخبر بما يقربه مبيناً لأعمالهم المالية فقال : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي مع كثرتهم لأنهم ستروا مرآتي عقولهم التي هي الإنسان بالحقيقة فنقصوا بذلك نقصاً لا يدرك كفه ﴿ ينفقون أموالهم ﴾ أي يعزمون على إنفاقها فيما يأتي ﴿ ليصدوا ﴾ أي بزعمهم أنفسهم وغيرهم ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي عن سلوك طريق - الذي لا يدني عظمته عظمة مع اتساعه ووضوحه وسهولته ﴿ فسينفقونها ﴾ أي بحكم قاهر لهم لا يقدرّون على الانفكاك عنه ﴿ ثم تكون ﴾ أي بعد إنفاقها بمدة ، وعبر بعبارة ظاهرة في مضرتها فقال : ﴿ عليهم ﴾ وأبلغ في ذلك بأن أوقع عليها المصدر فقال : ﴿ حسرة ﴾ أي لضياعتها وعدم تأثيرها ﴿ ثم يغلبون ﴾ أي كما اتفق لهم في بدر سواء ، فإنهم أنفقوا مع الكثرة والقوة ولم يغن عنهم شيء من ذلك شيئاً مما أراد الله بهم ، بل كان وبالاً عليهم ، فإنه كان سبباً لجرأتهم حتى أقدموا نظراً إلى الحاضر وقصوراً عن الغائب كالبهائم فهلكوا ، وكان ذلك قوة للمؤمنين فما كان في الحقيقة إلا لهم ، وهذا الكلام منطبق على ما كان سبب نزوله الآية وعلى كل ما شاكله ، وذلك أنهم لما قهروا في بدر قال لهم أبو سفيان : إنه ينبغي أن تنفقوا مال تلك العير - يعني التي كانت معه - ونحث على حرب محمد ، فأجابوا وأنفقوه على غزوة أحد - فحصل لهم فيها بعض ظفر ثم تعقبه الحسرة والمغلوبة في بدر الموعد وكل ما بعدها ؛ ثم أظهر وصفهم الذي استحقوا به ذلك تعليقاً للحكم به وتعميماً منذراً لهم بما هو أشد من

ذلك فقال: ﴿والذين كفروا﴾ أي حكم بدوام كفرهم عامة سواء زادوا على الكفر فعل ما تقدم أم لا ﴿إلى جهنم﴾ أي لا إلى غيرها .

(151/311)

---

ولما كان المنكى هو الحشر ، لا كونه من معين ، بني للمفعول قوله : ﴿يحشرون﴾ أي بعد الموت فهم في خزي دائم دنيا وأخرى ، ويجوز أن يتجاوز بجهنم عن أسبابها فيكون المعنى أنهم يستدرجون مباشرة أسبابها إليها ويحملون في الدنيا عليها ، وهذه الآيات - مع كونها معلمة بما لهم في الدنيا وما لهم في الآخرة من أن آخر أمرهم في الدنيا الغلب كما كشف عنه الزمان علماً من أعلام النبوة وفي الآخرة جهنم - هي مبينة لكذبهم في قولهم ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ [الأنفال: 31] فإنهم لو كانوا صادقين في دعواهم لقالوا مثله ثم قالوا : لو كان هذا هو الحق لا غيره لما قلنا مثله ، موضع قولهم ﴿إن كان هذا هو الحق﴾ [الأنفال: 32] إلى آخره ، وأما آية المكاء والتصديّة فكأنها تقول : هذا القرآن في أعلى درج البلاغة ولم تؤهلوا أتم - مع ادعائكم السبق في البلاغة - لأن تعارضوا بشيء له أهلية لشيء من البلاغة ، بل نزلتم إلى أصوات الحيوانات العجم حقيقة ، فلا أجلى من هذا البيان على ما ادعيتم من الزور والبهتان ، وأما آية الإنفاق فقائلة : لو قدرتم في معارضته على إنفاق

الأقوال لما عدتم عنه إلى إنفاق الأموال المفضي إلى مقاساة الأهوال وفساد الأشباح ونفوق

ما حوت من الأرواح المؤدي إلى الذل السرمد بالعذاب المؤبد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم

الدرج ح 3 ص 215.216 ﴿

(152/311)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال هؤلاء الكفار في الطاعات البدنية ، أتبعها بشرح أحوالهم في الطاعات المالية .

قال مقاتل والكلبي : نزلت في المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش .

وقال سعيد بن جبير ومجاهد : نزلت في أبي سفيان وإنفاقه المال على حرب محمد يوم أحد

، وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب ، وأنفق عليهم

أربعين أوقية والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً ، هكذا قاله صاحب "الكشاف" .

ثم بين تعالى أنهم إنما ينفقون هذا المال ليصدوا عن سبيل الله ، أي كان غرضهم في الإنفاق

الصد عن اتباع محمد وهو سبيل الله ، وإن لم يكن عندهم كذلك .

ثم قال : ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ يعني : أنه سيقع هذا الإنفاق ويكون عاقبته الحسرة ، لأنه يذهب المال ولا يحصل المقصود ، بل يصيرون مغلوبين في آخر الأمر كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة : 21] وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : أنه لم يقل : وإلى جهنم يحشرون ، لأنه كان فيهم من أسلم ، بل ذكر أن الذين بقوا على الكفر يكونون كذلك .

البحث الثاني : أن ظاهر قوله : ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ يفيد أنه لا يكون حشرهم إلا إلى جهنم ، لأن تقديم الخبر يفيد الحصر .

واعلم أن المقصود من هذا الكلام أنهم لا يستفيدون من بذلهم أموالهم في تلك الانفاقات إلا الحسرة والخيبة في الدنيا ، والعذاب الشديد في الآخرة ، وذلك يوجب الزجر العظيم عن ذلك الإنفاق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب - 15 ص 129 ﴾

(153/311)

---

وقال السمرقندي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴾

على عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصدوا عن سبيل الله ، يعني ليصرفوا الناس عن دين الله وطاعته .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت الآية في المطعمين يوم بدر ، وهم الذين كانوا يطعمون أهل بدر حين خرجوا في طريقهم .

قال الله تعالى : ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ﴾ .

وكانوا ثلاثة عشر رجلاً أطمعوا الناس الطعام ، فكان على كل رجل منهم يوماً ، منهم : أبو جهل ، وأخوه الحارث ، ابنا هشام وعتبة وشيبة ، ابنا ربيعة ومنبه ونبيه ، ابنا الحجاج ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، وأبي بن خلف وغيرهم ؛ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ ، يعني تكون نفقاتهم عليهم حسرة وندامة ، لأنها تكون لهم زيادة العذاب ، فتكوى بها جنوبهم وظهورهم .

وقال مجاهد : هونفقة أبي سفيان على الكفار يوم أحد .

وقال الحكم : أنفق أبو سفيان على المشركين يوم أحد أربعين أوقية ذهباً .

﴿ ثُمَّ يَغْلِبُونَ ﴾ ، يعني يهزمون ولا تنفعهم نفقتهم شيئاً : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾

يُحْشَرُونَ ﴿﴾ ، يعني إن القتل والهزيمة لم تكن كفارة لذنوبهم ، فيحشرون في الآخرة إلى جهنم . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿﴾ بحر العلوم ح 2 ص ﴿﴾

(154/311)

وقال الثعلبي :

﴿﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿﴾

ليصرفوا عن دين الله الناس .

قال سعيد بن جبير : وابن ابزي نزلت في أبي سفيان بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من [

الأحابيش ] يقاتل بهم النبي صلى الله عليه وسلم [ سوى ] من أشخاص من العرب .

وفيهم يقول كعب بن مالك :

فجينا إلى موج البحر وسطه . . . أحابيش منهم حاسر ومقنع

وفينا رسول الله تتبع قوله . . . إذ قال فينا القول لا ينقطع

ثلاثة الألف ونحن نظنه ثلاث . . . مئين أن كثرن فاربع

وقال الحكم بن عيينة : نزلت في أبي سفيان بن حرب حيث أنفق على المشركين يوم أحد

أربعين أوقية وكانت أوقيته اثنين وأربعين مثقالاً .

وقال ابن إسحاق عن رجاله : لما أُصيبت قريش من أصحاب القليب يوم بدر ، فرجع فيلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان ببيعه إلى مكة [ مشى ] عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أُصيب أبائهم وأبنائهم وإخوانهم يوم [ بدر ] فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال الذي أفلت على حربته أملنا أن ندرك منه ثاراً بمن أُصيب منا ، ففعلوا فأنزل الله فيهم هذه الآية . وقال الضحاك : هم أهل بدر .

وقال مقاتل والكلبي : نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً : عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس وبنيه ومنبه ابنا الحجاج البحتري بن هشام والنضر بن حارث وحكم بن حزام وأبي بن خلف ، وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر ونوفل والعباس بن عبد المطلب كلهم من قريش ، وكان يطعم كل واحد منهم عشر جزر .

قال الله ﴿ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ ﴿ وَلَا يظْفِرُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ﴿ مِنْهُمْ خَصَّ الْكُفَّارَ لِأَجْلِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ﴾ ﴿ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(155/311)



وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنها نفقة قريش في قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، قاله الضحاك . والثاني : أنه أبو سفيان استأجر معه يوم أحد ألفين من الأحابيش ومنه كنانة ليقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سوى من انحاز إليه من العرب ، قاله سعيد ومجاهد والحكم بن عيينة ، وفي ذلك يقول كعب بن مالك :

وجئنا إلى موج من البحر وسطه . . . أحابيش منهم حاسرٌ ومقنع

ثلاثة آلافٍ ونحن نصيبة . . . ثلاثُ مئينٍ إن كثرنا فأربع

﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ ﴿ يحتمل وجهين :

أحدهما : يكون إنفاقها عليهم حسرة وأسفاً عليها .

والثاني : تكون خيبتهم فيما أملوه من الظفر عليهم حسرة تحذرهم بعدها .

﴿ ثُمَّ يَغْلِبُونَ ﴾ ﴿ وعد بالنصر فحقق وعده . انتهى انتهى . اهـ ﴾ النكت والعيون ح 2

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ﴾

قال بعض الرواة منهم ابن أبنى وابن جبير والسدي ومجاهد : سبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان أنفق في غزوة أحد على الأحابيش وغيرهم أربعين أوقية من الذهب أو نحو هذا ، وأن الآية نزلت في ذلك ، وقال ابن شهاب ومحمد بن يحيى بن حيان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصبين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ إنه لما قتل من قتل بيدرا اجتمع أبناؤهم وقرابتهم وقالوا لمن خالص ماله في العير : إن محمداً قد نال منا ما ترون ، ولكن أعينونا بهذا المال الذي كان سبب الواقعة ، فلعلنا أن ننال منه ثأراً ، ففعلوا فنزلت الآية في ذلك .

قال القاضي أبو محمد : وعلى القولين فإنما أنفق المال في غزوة أحد ، فأخبر الله تعالى في هذه الآية خبراً لفظه عام في الكفار ، والإشارة به إلى مخصوصين أنهم ينفقون أموالهم يقصدون بذلك الصد عن سبيل الله والدفع في صدر الإسلام ، ثم أخبر خبراً يخص المشار إليهم أنهم ينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، إذ لا تتم لهم إرادة ويذهب المال باطلاً ،

والحسرة التلهف على الفائت ، ويحتمل أن تكون الحسرة في يوم القيامة ، والأول أظهر وإن كانت حسرة القيامة راتبه عليهم ، ثم أخبر أنه يغلبون بعد ذلك ، بأن تكون الدائرة عليهم ، وهذا من إخبار القرآن بالغيوب لأنه أخبر بما يكون قبل أن يكون ، فكان كما أخبر ، قال ابن سلام : بين الله عز وجل أنهم يغلبون قبل أن يقاتلوا بسنة ، حكاة الزهراوي ، ثم أخبر تعالى عن الكافرين أنهم يجمعون إلى جهنم ، والحشر جمع الناس والبهائم إلى غير ذلك مما يجمع ويحضر ، ومنه قوله ﴿ وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ﴾ [ الأنعام : 111 ] ومنه في التفسير : أن السلوى طائر كانت الجنوب تحشره على بني إسرائيل ، والقوم الذين جلبهم أبو سفيان وأنفق المال عليهم هم الأحابيش من كنانة ، ولهم يقول كعب بن مالك : [ الطويل ]

(157/311)

---

وَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطَهُ . . . أَحَابِيشٌ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمَقْنَعٌ

ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَنَحْنُ قِصِيَّةٌ . . . ثَلَاثُ مِئِينَ إِنْ كَثُرْنَ وَأَرْبَعُ

وقال الضحاك وغيره : إن هذه الآية نزلت في نفقة المشركين الخارجين إلى بدر الذين كانوا

يذبحون يوماً عشراً ويوماً تسعاً من الإبل ، وحكى نحو هذا النقاش . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في المطعمين ببدر ، وكانوا اثني عشر رجلاً يطعمون الناس الطعام ، كل رجل يطعم يوماً ، وهم عتبة ، وشيبة ، ومُنَبِّه ، ونُبَيْه ابنا الحجاج ، وأبو البخري ، والنضر

بن الحارث ، وأبو جهل ، وأخوه الحارث ، وحكيم بن حزام ، وأبي بن خلف ، وزمعة بن

الأسود ، والحارث بن عامر ابن نوفل ، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في أبي سفيان بن حرب ، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش لقتال

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سوى من استجاش من العرب ، قاله سعيد بن جبير .

وقال مجاهد : نزلت في نفقة أبي سفيان على الكفار يوم أحد .

والثالث : أنها نزلت في أهل بدر ، وبه قال الضحاك .

فأما سبيل الله ، فهو دين الله .

قوله تعالى: ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ أي: تكون عاقبة نفقتهم ندامة، لأنهم لم يظفروا. انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير ح 3 ص﴾

(159/311)

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾  
لما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة الكفار البدنية وهي المكاء والتصدية، ذكر عقبها  
عبادتهم المالية التي لا جدوى لها في الآخرة.

وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً أبو جهل بن هشام  
وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونيبه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البختري بن هشام  
والنضر بن الحارث وحكيم بن حزام وأبي بن خلق وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر بن  
نوفل والعباس بن عبد المطلب، وكلهم من قريش، فكان يطعم كل واحد منهم الجيش في  
كل يوم عشر جزر وأسلم من هؤلاء: العباس بن عبد المطلب عم رسول الله (صلى الله  
عليه وسلم) وحكيم بن حزام.

وقال الحكم بن عتبة: نزلت في أبي سفيان بن حرب حين أنفق على المشركين يوم أحد

أربعين أوقية كل أوقية اثنان وأربعون مثقالاً .

وقال ابن أبيزي : استأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين ليقاتل بهم رسول الله ( صلى الله عليه

وسلم ) سوى من استجاش من العرب .

وقيل : استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من كنانة فقاتل بهم رسول الله ( صلى الله عليه

وسلم ) .

وقيل : لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان بغيره إلى مكة مشى عبد

الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش قد أصيب

أباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير

من قريش تجارة .

فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه

لعلنا ندرك منه ثأراً .

(160/311)

---

بمن أصيب منافقيهم نزلت إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله أي

ليصرفوا الناس عن الإيمان بالله ورسوله وقيل ينفقون أموالهم على أمثالهم من المشركين

ليتقوا بهم على قتال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) والمؤمنين ﴿ فسينفقونها ﴾  
يعني أموالهم في ذلك الوجه ﴿ ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴾ يعني ما أنفقوا من  
أموالهم يكون عليهم حسرة وندمة يوم القيامة لأن أموالهم تذهب ويغلبون ولا يظفرون بما  
يؤملون ﴿ والذين كفروا ﴾ يعني منهم لأن فيه من أسلم ولهذا قال والذين كفروا يعني من  
المنفقين أموالهم ﴿ إلى جهنم يحشرون ﴾ يعني يساقون إلى النار . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ تفسير الخازن - 3 ص ﴾

(161/311)

وقال أبو حيان :

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم

حسرة ثم يغلبون ﴾

قال مقاتل والكلبي نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً أبو جهل بن هشام  
وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ونبية ومنبه ابنا حجّاج وأبو البحتري بن هشام والنضر بن الحرث  
وحكيم بن حرام وأبي بن خلف وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر بن نوفل والعباس بن  
عبد المطلب ، وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزائر ، وقال

مجاهد والسدي وابن جبير وابن أبنى: نزلت في أبي سفيان بن حرب استأجر يوم أحد  
الذين من الأحابيش يقاتل بهم النبي (صلى الله عليه وسلم) سوى من استجاش من العرب  
، وفيهم يقول كعب بن مالك :  
فجئنا إلى موج من البحر وسطه . . .  
أحابيش منهم حاسر ومقنع  
ثلاثة آلاف ونحن بقية . . .  
ثلاث مئين إن كثرنا وأربع

(162/311)

---

وقال الحكم بن عيينة: أنفق على الأحابيش وغيرهم أربعين أوقية من ذهب، وقال  
الضحّاك وغيره: نزلت في نفقة المشركين الخارجين إلى بدر كانوا ينحرون يوماً عشراً من  
الإبل ويوماً تسعاً وهذا نحو من القول الأول، وقال ابن إسحاق عن رجاله لما رجع فل قريش  
إلى مكة من بدر ورجع أبو سفيان بعيره كلف أبناء من أصيب ببدر وغيرهم أبا سفيان  
وتجار العير في الإعانة بالمال الذي سلم لعلنا ندرك ثاراً لمن أصيب ففعلوا فنزلت، وروي  
نحوه عن ابن شهاب ومحمد بن يحيى بن حيان وعاصم بن عمرو بن قتادة والحصين بن عبد



الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر من شرح  
أحوالهم في الطاعات البدنية وهي صلاتهم شرح حالهم في الطاعات المالية وهي إنفاقهم  
أموالهم للصدّ عن سبيل الله ، والظاهر الإخبار عن الكفار بأن إنفاقهم ليس في سبيل الله  
بل سببه الصدّ عن سبيل الله فيندرج هؤلاء الذين ذكروا في هذا العموم وقد يكون اللفظ  
عاماً والسبب خاصاً والمعنى أنّ الكفار يقصدون بنفقتهم الصدّ عن سبيل الله وغلبة  
المؤمنين فلا يقع إلا عكس ما قصدوا وهو تندمهم وتحسّرهم على ذهاب أموالهم ثم غلبتهم  
والتمكن منهم أسراً وقتلاً وغنماً والعطف بثم يقوي أنّ الحسرة في الدنيا ، وقيل الحسرة في  
الآخرة ، وفي الآخرة ﴿ فسيفنقونها ﴾ إلى آخره من الإخبار بالغيوب لأنه أخبر بما يكون  
قبل كونه ثم كان أخبروا الإخبار بين الاستقبال يدل على إنفاق متأخر عن وقعة أحد ويدر  
وأنّ ذلك إخبار عن علو الإسلام وغلبة أهله ، وكذا وقع فتحوا البلاد ودوخوا العباد وملا  
الإسلام معظم أقطار الأرض واتسعت هذه الملة اتساعاً لم يكن لشيء من الملل السابقة .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(163/311)

---

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

نزلت في المطعمين يوم بدر ( وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش يُطعم واحد منهم كل يوم عشر

جُزُر ، أو في أبي سفيان استأجر ليوم أحد ألفين سوى من استجاش من العرب وأنفق فيهم

أربعين أوقيةً أو في أصحاب العير فإنه لما أصيب قريش يوم بدر قيل لهم : أعينوا بهذا المال

على حرب محمد لعلنا ندرك ثأرتنا منه ففعلوا والمراد بسبيل الله دينه واتباع رسوله ﴿

فَسَيُنْفِقُونَهَا ﴾ بتامها ، ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال وهو إنفاق يوم بدر ،

والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يُستقبل وهو إنفاق يوم أحد ، ويحتمل أن يُراد بهما واحدٌ

على مساق الأول لبيان الغرض من الانفاق ، ومساق الثاني لبيان عاقبته وأنه لم يقع بعد ﴿

ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ ندماً وغماً لفواتها من غير حصول المقصود ، جعل ذاتها حسرة

وهي عاقبة إنفاقها مبالغة ﴿ ثُمَّ يَغْلِبُونَ ﴾ آخر الأمر وإن كان الحرب بينهم سجالاتاً قبل

ذلك ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي تموا على الكفر وأصروا عليه ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ أي

يساقون لا إلى غيرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(164/311)

وقال الأوسى :

﴿ إِنِّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

نزلت على ما روى عن الكلبي .

والضحاك .

ومقاتل .

في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً .

أبو جهل .

وعتبة .

وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس .

وننية .

ومنية ابنا الحجاج .

وأبو البحتري بن هشام والنضر بن الحرث .

وحكيم بن حزام .

وأبي بن خلف .

وزمعة بن الأسود والحرث بن عامر بن نوفل .

والعباس بن عبد المطلب وكلهم من قريش ، وكان كل يوم يطعم كل واحد عشر جزر

وكانت النوبة يوم الهزيمة للعباس ، وروى ابن إسحاق أنها نزلت في أصحاب العير .

وذلك أنه لما أصيبت قريش يوم بدر ورجعوا إلى مكة مشى صفوان بن أمية .

وعكرمة بن أبي جهل في رجال من قريش أصيب آبائهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان

ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم

وقتل رجالكم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأرنا بمن أصيب منا ففعلوا

، وعن سعيد بن جبير .

ومجاهد أنها نزلت في أبي سفيان استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش ليقاتل بهم النبي

صلى الله عليه وسلم سوى من استجاشهم من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية من

الذهب وكانت الأوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالاً من الذهب ، وفيهم يقول كعب بن مالك

من قصيدة طويلة أجاب بها هبيرة بن أبي وهب :

فجئنا إلى موج من البحر وسطهم . . .

أحابيش منهم حاسر ومقنع

ثلاثة آلاف ونحن عصابة . . .

ثلاث مئين إن كثرتنا فأربع

---

وسبيل الله طريقه ، والمراد به دينه واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، واللام في ﴿ لِيَصُدُّوا ﴾ لام الصيرورة ويصح أن تكون للتعليل لأن غرضهم الصد عن السبيل بحسب الواقع وإن لم يكن كذلك في اعتقادهم ، وكان هذا بيان لعبادتهم المالية بعد عبادتهم البدنية ، والموصول اسم إن وخبرها على ما قال العلامة الطيبي في قوله تعالى : ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ﴾ وينفقون إما حال أو بدل من كفروا أو عطف بيان ، واقترن الخبر بالفاء لتضمن المبتدأ الموصول مع صلته معنى الشرط كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ [البروج: 10] فهو جزاء بحسب المعنى ، وفي تكرير الإنفاق في الشرط والجزاء الدلالة على كمال سوء الإنفاق كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مِنْ تَدْخِلِ النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [آل عمران: 192] وقولهم : من أدرك الضمان فقد أدرك المرعى ، والكلام مشعر بالتوبيخ على الإنفاق والإنكار عليه ، قيل : وإلى هذا يرجع قول بعضهم إن مساق ما تقدم لبيان غرض الإنفاق ومساق هذا البيان عاقبته وأنه لم يقع بعد فليس ذلك من التكرار المحذور ، وقيل : في دفعه أيضاً : المراد من الأول : الإنفاق في بدر .

(166/311)

---

﴿ وينفقون ﴾ لحكاية الحال الماضية ، وهو خبر إن ، ومن الثاني : الإنفاق في أحد ،  
والاستقبال على حاله ، والجمله عطف على الخبر لكن لما كان إنفاق الطائفة الأولى سبباً  
لإنفاق الثانية ، أتى بالفاء لابتنائه عليه ، وذهب القطب إلى هذا الإعراب أيضاً على تقدير  
دفع التكرار باختلاف الغرضين ، وذكر أن الحاصل أنا لو حملنا ﴿ رزقناهم يُنْفِقُونَ ﴾  
على الحال فلا بد من تغاير الإنفاقين وإن حملناه على الاستقبال اتحداً ، كأنه قيل : إن الذين  
كفروا يريدون أن ينفقون أموالهم فسينفقونها ، وحمل المنفق في الأول على البعض وفي الثاني  
على الكل لا أراه كما ترى ، وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ عطف على ما  
قبله ، والتراخي زماني ، والحسرة الندم والتأسف ، وفعله حسر كفح أي ثم تكون عليهم  
ندماً وتأسفاً لفواتها من غير حصول المطلوب ، وهذا في بدر ظاهر .  
وأما في أحد فلائن المقصود لهم لم ينتج بعد ذلك فكان كالفأئ ، وضمير تكون للأموال على  
معنى تكون عاقبتها عليهم حسرة ، فالكلام على تقدير مضافين أو ارتكاب تجوزي في  
الإسناد .

وقال العلامة الثاني : إنه من قبيل الاستعارة في المركب حيث شبه كون عاقبة إنفاقهم  
حسرة بكون ذات الأموال كذلك وأطلق المشبه به على المشبه وفيه خفاء ، ومن الناس من  
قال : إن إطلاق الحسرة بطريق التجوز على الإنفاق مبالغة فافهم ﴿ ثُمَّ يَغْلِبُونَ ﴾ أي في  
مواطن أخر بعد ذلك ﴿ والذين كفروا ﴾ أي الذي أصروا على الكفر من هؤلاء ولم

يسلموا ﴿ إلى جهنم يُحشرون ﴾ ﴿ أي يساقون لا إلى غيرها . انتهى انتهى . اه ﴾ روح

المعاني - 9 ص ﴿

(167/311)

وقال القاسمي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾

نزلت فيمن ينفق على حرب النبي صلى الله عليه وسلم من المشركين ، وبيان سوء مغبة

هذا الإنفاق ، وقد ذهب الضحاك إلى أنه عني بها المطعمون منهم يوم بدر ، وكانوا اثني

عشر رجلاً من قريش ، يطعم كل واحد منهم ، كل يوم عشرة جزر .

وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم أنها نزلت في أبي سفيان ، ونفقته

الأموال في أحد لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى محمد بن إسحاق عن الزهري أنه لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ،

ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى رجال من قريش أصيب آبؤهم وأبنائهم وإخوانهم ببدر ،

فكلموا أبا سفيان ، ومن كانت له في تلك العير تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد

وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربيه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ، ففعلوا . قال : ففيهم . كما ذكر عن ابن عباس . أنزلت الآية . ولا يخفى شمول الآية لجميع ذلك .

واللام في ليصدوا ، لام الصيرورة ويصح أن تكون للتعليل ، لأن غرضهم الصدر عما هو سبيل الله بحسب الواقع ، وإن لم يكن كذلك في اعتقادهم .  
وسبيل الله طريقه وهو دينه ، واتباع رسوله ، ولما تضمن الموصول معنى الشرط ، والخبر بمنزلة الجزاء ، وهو : ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ﴾ اقترن  
بالفاء ﴿ يَنْفِقُونَ ﴾ إما حال ، أو بدل من : ﴿ كَفَرُوا ﴾ وفي تضمن الجزاء من معنى الإعلام والإخبار ، التوبيخ على الإنفاق ، والإنكار عليه ، كما في قوله :

(168/311)

---

﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ .

وفي تكرير الإنفاق في شبه الشرط والجزاء ، الدلالة على كمال سوء الإنفاق ، كما في قوله :  
﴿ إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ . وقولهم : من أدرك الصَّمان فقد أدرك المرعى ،  
والمعنى : الذين ينفقون أموالهم لإطفاء نور الله ، والصدّ عن اتباع رسوله صلى الله عليه



وسلم ، سيعلمون عن قريب سوء مغبة ذلك الإنفاق ، وانقلابه إلى أشد الخسران ، من

القتل والأسر في الدنيا ، والنكال في العقبى : قال المتنبى :

إذا الجود لم يُرزق خلاصاً من الأذى فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً

والأذى هنا المنّ

وفي جعل ذات الأموال تصير : ﴿ حسرة ﴾ أي : ندماً وتأسفاً - وهي عاقبة أمرها -

مبالغة .

والمراد بالغلبة في قوله : ﴿ ثم يغلبون ﴾ الغلبة التي استقر عليها الأمر ، وإن كانت الحرب

بينهم سجالاتاً قبل ذلك . فإن قلت : غلبة المسلمين متقدمة على تحسرهم ، بالزمان ، فلم

أخرت بالذكر ؟

قلت : المراد أنهم يغلبون في مواطن أخر بعد ذلك . كذا في " العناية " .

تنبيه :

قال بعضهم ثمرة الآفة خطر المعاونة على معصية الله تعالى ، وأن الإنفاق في ذلك معصية ،

فيدخل في هذا معاونة الظلمة على حركاتهم في البغي والظلم ، وكذلك بيع السلاح والكراع

، ممن يستعين بذلك على حرب المسلمين .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 8 ص

﴿ 300.299 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

لما ذكر صدقهم المسلمين عن المسجد الحرام الموجب لتعذيبهم ، عقب بذكر محاولتهم  
استيصال المسلمين وصدقهم عن الإسلام وهو المعني بـ ﴿ سبيل الله ﴾ وجعلت الجملة  
مستأنفة ، غير معطوفة ، اهتماماً بها أي أنهم ينفقون أموالهم وهي أعز الأشياء عليهم  
للصدق عن الإسلام ، وأتى بصيغة المضارع في ﴿ ينفقون ﴾ للإشارة إلى أن ذلك دأبهم وأن  
الإنفاق مستمر لإعداد العدد لغزو المسلمين ، فإنفاقهم حصل في الماضي ويحصل في الحال  
والاستقبال ، وأشعرت لام التعليل بأن الإنفاق مستمر لأنه منوط بعلّة ملازمة لنفوسهم  
وهي بغض الإسلام وصدقهم الناس عنه .

وهذا الإنفاق : أنهم كانوا يطعمون جيشهم يوم بدر اللحم كل يوم ، وكان المطعمون اثني عشر  
رجلاً وهم أبو جهل ، وأمّية بن خلف ، والعباس بن عبد المطلب وعتبة بن ربيعة ،  
والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعمية بن عدي بن نوفل ، وأبو البخترى والعاصي بن هاشم  
، وحكيم بن حزام ، والنضر بن الحارث ، ونبيّه بن حجاج السهمي ، وأخوه منبه ، وسهيل

بن عمرو العامري، كانوا يطعمون في كل يوم عشر جزائر.

وهذا الإنفاق وقع يوم بدر، وقد مضى، فالتعبير عنه بصيغة المضارع لاستحضار حالة الإنفاق وأنها حالة عجيبة في وفرة النفقات.

وهو جمع بالإضافة يجعله من صيغ العموم، فكأنه قيل ينفقون أموالهم كلها مبالغة، وإلا فإنهم ينفقون بعض أموالهم.

والفاء في ﴿ فسيفقونها ﴾ تفريع على العلة لأنهم لما كان الإنفاق دأبهم لتلك العلة المذكورة، كان مما يتفرع على ذلك تكرر هذا الإنفاق في المستقبل، أي ستكون لهم شدائد من بأس المسلمين تضطرهم إلى تكرير الإنفاق على الجيوش لدفاع قوة المسلمين.

(170/311)

---

وضمير ﴿ ينفقونها ﴾ راجع إلى الأموال لا بقيد كونها المنفقة بل الأموال الباقية أو بما يكتسبونه.

﴿ ثم ﴾ للتراخي الحقيقي والرتبي، أي وبعد ذلك تكون تلك الأموال التي ينفقونها حسرة عليهم، والحسرة شدة الندامة والتلهف على ما فات، وأسندت الحسرة إلى الأموال لأنها سبب الحسرة بإنفاقها.

ثم إن الإخبار عنها بنفس الحسرة مبالغة مثل الإخبار بالمصادر ، لأن الأموال سبب التحسر لا سبب الحسرة نفسها .

وهذا إنذار بأنهم لا يحصلون من إنفاقهم على طائل فيما أنفقوا لأجله ، لأن المنفق إنما يتحسر ويندم إذا لم يحصل له المقصود من إنفاقه .

ومعنى ذلك أنهم ينفقون ليغلبوا فلا يغلبون ، فقد أنفقوا بعد ذلك على الجيش يوم أُحُد : استأجر أبو سفيان ألفين من الأحابيش لقتال المسلمين يوم أُحُد .

والأحابيش : فرقة من كنانة تجمعت من أفاذ شتى وحالفوا قريشاً وسكنوا حول مكة سموأحابيش جمع أحبوش وهو الجماعة أي الجماعات فكان ما أحرزوه من النصر كفاءً لنصر يوم بدر ، بل كان نصر يوم بدر أعظم .

ولذلك اقتنع أبو سفيان يوم أُحُد أن يقول "يوم بيوم بدر والحرب سجال" وكان يحسب أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قُتل وأن أبا بكر وعمر قتلا فخاب في حسابه ، ثم أنفقوا على الأحزاب حين هاجموا المدينة ثم انصرفوا بلا طائل ، فكان إنفاقهم حسرة عليهم .

وقوله : ﴿ ثم يُغلبون ﴾ ارتقاء في الإنذار بجيبتهم وخذلانهم ، فإنهم بعد أن لم يحصلوا من إنفاقهم على طائل توعدوا بأنهم سيغلبهم المسلمون بعد أن غلبوهم أيضاً يوم بدر ، وهو إنذار لهم بغلب فتح مكة وانقطاع دابر أمرهم ، وهذا كالإنذار في قوله : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ [ آل عمران : 12 ] وإسناد الفعل

إلى المجهول لكون فاعل الفعل معلوماً بالسياق فإن أهل مكة ما كانوا يقاتلون غير المسلمين  
وكانت مكة لقاحاً .

و ﴿ ثم ﴾ للتراخي الحقيقي والرتبي مثل التي قبلها .

(171/311)

---

كان مقتضى الظاهر أن يقال وإلى جهنم يحشرون كما قال في الآية الأخرى : ﴿ قل للذين  
كفروا استغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ [آل عمران : 12] فعدل عن  
الإضمار هنا إلى الإظهار تخريباً على خلاف مقتضى الظاهر ، للإفصاح عن التشنيع بهم  
في هذا الإنذار حتى يعاد استحضار وصفهم بالكفر بإصح عبارة ، وهذا كقول عوف  
القوافي :

اللؤم أكرم من وُبرٍ ووالده

واللؤم أكرم من وُبرٍ وما وكداً . . .

لقصد زيادة تشنيع وُبرٍ المهجوب بتقرير اسمه واسم اللؤم الذي شبه به تشبيهاً بليغاً .

وعرفوا بالموصلية إيماء إلى أن علة استحقاقهم الأمرين في الدنيا والآخرة هو وصف الكفر

، فيعلم أن هذا يحصل لمن لم يقلعوا عن هذا الوصف قبل حلول الأمرين بهم . انتهى انتهى . ا

هـ ✨ التحرير والتنوير ح 9 ص ✨

(172/311)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِنِّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

وبين المولى في هذه الآية أن هؤلاء المشركين قد كفروا بالله و صرفوا المال ليصدوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأت ذلك الأمر بأدنى نتيجة ، وكان الحق يغري الكافر بأن يتمادى في الإنفاق ضد الإيمان ، فيخسر الكافر ماله ويتجرع آلام الحسرة ؛ لأن الله يغلبه من بعد ذلك .

و حين سمعوا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [

الأنفال : 36 ] .

لم ينتبهوا إلى أن الحق سبحانه يتحدث عن المستقبل ، وأنه مهما أنفق الكفار ضد دين الله فلن يصلوا إلى أية نتيجة ، ومصادق الأحداث يؤكد أن كل ما يجيء به القرآن الكريم حق .

ولماذا لم ينتبهوا إلى ذلك؟ ولم يدخروا أموالهم؛ وقد نصر الله دينه؟ .  
إذن هذا هو فعل من فقد البصيرة والذكاء . وحين يأتي القرآن الكريم بقول الله تعالى :  
" فسينفقونها " أي أن الإنفاق سيكون في المستقبل ، والاستقبال له مرحلتان ؛ استقبال  
قريب ، واستقبال بعيد . فإن كان الاستقبال قريباً فهو يقول : " فسينفقونها " ، وأما إن  
كان بعيداً فيقول : فسوف ينفقونها مثلما قال القرآن أيضاً : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ  
مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ [ البقرة : 142 ] .  
وقد أعلمنا القرآن صلاة من رسول الله ، وجها من الصحابة بالخبر ، وأعلمهم القرآن  
الكريم أيضاً ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى التحذير الذي صار من بعد ذلك خيراً يروي دليل  
اقتادهم لصفاء الفطرة . ؛ لذلك تجيء لهم الحسرة بعد أن أنفقوا المال ، وخسروه فلم  
يستفيدوا شيئاً ولم يحققوا مرادهم ولا آمالهم . ويتابع سبحانه وتعالى تذييل هذه الآية  
فيقول :

﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ [ الأنفال : 36 ] .

(173/311)

---

وحيثما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الأمور التي تحدث للكفار من عذاب عظيم في جهنم ، فسبحانه لا يريد بهذا الحديث أن يجعل مأواهم النار ، لكنه يخوفهم ويرهبهم من الكفر ويدعوهم إلى الإيمان ، ويحضهم على ألا يكونوا كافرين حتى لا يحشروا في جهنم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(174/311)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (36)

يرومون بإنفاقهم صنوف أموالهم صلاحاً ونظاماً لأحوالهم ، ثم لا يحظون إلا بخسران ، ولا يحصلون إلا على نقصان . خسروا وهم لا يشعرون ، وخابوا وسوف يعلمون :

سوف ترى إذا انجلى الغبار . . . أفرس تحك أم حمار ؟

قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ وَإِنَّ أَمْوَالَهُمْ فِي الْهَوَانِ وَالذَّلَّةِ ﴾



مَالَهُمْ ، لَمْ تَغْنِ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ، وَلَمْ تَنْفَعَهُمْ أَعْمَالُهُمْ ، بَلْ خُتِمَتْ بِالشَّقَاوَةِ أَحْوَالُهُمْ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 623 ﴾

(175/311)

قوله تعالى ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (37) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر حشر الكافرين ذكر علته فقال معلقاً بيحشرون : ﴿ ليميز الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال بذلك الحشر ﴿ الخبيث من الطيب ﴾ أي إنما جعل للكفار داراً تخصهم ويخصونها لإظهار العدل والفضل بأن يميز الكافر من المؤمن فجعل لكل دار يتميز بها عدلاً في الكافرين وفضلاً على المؤمنين ، فيجعل الطيب في مكان واسع حسن ﴿ ويجعل الخبيث ﴾ أي الفريق المتصف بهذا الوصف ﴿ بعضه على بعض ﴾ والركم : جمع الشيء بعضه فوق بعض ، فكان قوله : ﴿ فيركمه جميعاً ﴾ عطف تفسير يؤكد الذي قبله في إرادة الحقيقة مع إفهام شدة الاتصال حتى يصير الكل كالشيء الواحد كالسحاب المركوم ،

والنتيجة قوله: ﴿ فيجعله في جهنم ﴾ أي دار الضيق والغم والتهجم والهم .  
ولما كان هذا أمراً لا فلاح معه ، استأنف قوله جامعاً تصريحاً بالعموم : ﴿ أولئك ﴾ أي  
البعداء البغضاء الذين أفهمهم اسم الجنس في الخبيث ﴿ هم الخاسرون ﴾ أي خاصة  
لناهي خسراتهم ، لأنهم اشتروا بأموالهم إهلاك أنفسهم بذلك الحشر . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ نظم الدرر ح 3 ص 216 ﴾

(176/311)

فصل

قال الفخر :

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

فيه قولان :

القول الأول : ليميز الله الفريق الخبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين فيجعل  
الفريق الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً وهو عبارة عن الجمع والضم حتى يتراكموا  
كقوله تعالى : ﴿ كَادُوا يُكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدَا ﴾ [ الجن : 19 ] يعني لفرط ازدحامهم فقوله :  
﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الفريق الخبيث .

والقول الثاني: المراد بالخبيث نفقة الكافر على عداوة محمد، وبالطيب نفقة المؤمن في  
جهاد الكفار، كإنفاق أبي بكر وعثمان في نصرته الرسول عليه الصلاة والسلام فيضم تعالى  
تلك الأمور الخبيثة بعضها إلى بعض فيلقبها في جهنم ويعذبهم بها كقوله تعالى: ﴿ فَتَكُونُ  
بِهَا جِبَابَهُمْ وَجَنُوبَهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ [التوبة: 35] واللام في قوله: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ  
الْخَبِيثَ ﴾ على القول الأول متعلق بقوله: ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾ والمعنى أنهم يحشرون ليميز الله  
الفريق الخبيث من الفريق الطيب، وعلى القول الثاني متعلق بقوله: ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ  
حَسْرَةً ﴾ ثم قال: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وهو إشارة إلى الذين كفروا. انتهى انتهى.  
اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 129 ﴾

(177/311)

وقال السمرقندي:

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

يعني الخبيث من العمل والطيب من العمل، ﴿ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ  
جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾؛ قول الكلبي، وقال مقاتل: ليميز الله الكافرين من المؤمنين،  
ويجعل في الآخرة الخبيثة أنفسهم ونفقاتهم وأقوالهم، فيركم بعضهم على بعض جميعاً،

فيجعله في جهنم؛ ويقال: ليميز الله الخبيث من الطيب بين نفقة المؤمنين ونفقة المشركين، فيقبل نفقة المؤمنين ويشيهم على ذلك، ويجعل نفقة الكفار وبالاً عليهم؛ ويجعل ذلك سبباً لعقوبتهم، فتكوى بها جباههم.

وقال القتيبي: فيركمه، أي يجعله ركناً ما بعضه على بعض.

ثم قال ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾، أي المغبونون في العقوبة.

قرأ حمزة والكسائي ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ ﴾ بضم الياء مع التشديد، والباقون ﴿ لِيَمِيزَ ﴾ بالنصب مع التخفيف؛ ومعناهما واحد.

مَا زُيْمِزُ وَمِيْزٌ وَمِيْزٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 2 ص ﴾

(178/311)

---

وقال الثعلبي:

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ ﴾ بذلك الحشر ﴿ الخبيث من الطيب ﴾ الكافر من المؤمن فيدخل الله المؤمن الجنان والكافر النيران.

وقال الكلبي: يعني العمل الخبيث من العمل الطيب الصالح فيثيب على الأعمال الصالحة الجنة ويثيب على الأعمال الخبيثة النار.

قرأ أهل الكوفة والحسن وقتادة والأعمش وعيسى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ﴾ بالتشديد .  
واختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

وقال ابن زيد : يعني الإنفاق الطيب في سبيل الله من الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان  
فجعل نفقاتهم في قعر جهنم ثم يقال لهم : الحقوا بها .

وقال مرة الهمداني : يعني يميز المؤمن في علمه السابق الذي خلقه حين خلقه طيباً من  
الخبيث الكافر في علمه السابق الذي خلقه خبيثاً ، وذلك أنهم كانوا على ملة الكفر فبعث  
الله الرسول بالكتاب ليميز [ الله ] الخبيث من الطيب فمن [ أطاع ] استبان أنه طيب ومن  
خالفه استبان أنه خبيث ﴿ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ﴾ بعضه فوق بعض ﴿  
فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً ﴾ أي يجمعه حتى يصيره مثل السحاب الركام وهو المجتمع الكثيف ﴿  
فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾ فوحد الخبر عنهم لتوحيد قول الله تعالى ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ ﴾ ثم  
قال ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ فجمع ، رده إلى أول الخبر ، يعني قوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا  
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الذين غنيت صفقتهم وخسرت تجارتهم  
لأنهم اشتروا بأمواهم عذاب الله في الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4

ص ﴿

وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : الحلال من الحرام .

الثاني : الخبيث ما لم تخرج منه حقوق الله تعالى ، والطيب : ما أخرجت منه حقوق الله تعالى .

يحتمل ثالثاً : أن الخبيث : ما أنفق في المعاصي ، والطيب : ما أنفق في الطاعات .

﴿ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي يجمعه في الآخرة وإن تفرق في الدنيا  
﴿ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً ﴾ أي يجعل بعضه فوق بعض ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّاماً ﴾ [ النور : 43 ] .

وفي قوله تعالى ﴿ فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾ وإن كانت الأموال لا تعذب وجهان :

أحدهما : أن يجعلها عذاباً في النار يعذبون بها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [ التوبة : 35 ] الآية .

الثاني : أنه يجعل أموالهم معهم في جهنم لأنهم استظالوا بها وتقوا على معاصي الله فجعلها

معهم في الذل والعذاب كما كانت لهم في الدنيا عزاً ونعيماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت

والعيون ح 2 ص ﴿

(180/311)

وقال ابن عطية :

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

وقرأ ابن كثير ونافع عاصم وأبو عمرو وواين عامر " لِيَمِيزَ " بفتح الياء وكسر الميم ، وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر وشيبة بن نصاح وشبل وأبي عبد الرحمن والحسن وعكرمة ومالك بن دينار ، تقول مزت الشيء ، والعرب تقول مزته فلم يتميز لي ، حكاه يعقوب وفي

شاذ القراءة وانمازوا اليوم ، وأنشد أبو زيد : [ البسيط ]

لما ثنى الله عني شرَّ عدوته . . . وانمزت لا منشأً ذعراً ولا وجلاً

وهو مطاوع ماز ، وقرأ حمزة والكسائي " لِيَمِيزَ " بضم الياء وفتح الميم وشد الياء ، وهي

قراءة الأعرج وطلحة بن مصرف والأعمش والحسن أيضاً عيسى البصري ، تقول ميزت

أميز إذا فرقت بين شيئين فصاعداً ، وفي القرآن ﴿ تميز من الغيظ ﴾ [ الملك : 8 ] فهو

مطاوع ميز ومعناه تفصل ، وقال ابن عباس رضي الله عنه والسدي ، المعنيّ ب ﴿

الخبِيثُ ﴿ الكفاروب ﴾ الطيب ﴿ المؤمنون .

قال القاضي أبو محمد : واللام على هذا التأويل من قوله ﴿ ليميز ﴾ متعلقة ب ﴿ يغلبون ﴾ [ الأنفال : 36 ] والمعنى أن الله يحشر الكافرين إلى جهنم ليميز الكافرين من المؤمنين بأن يجمع الكافرين جميعاً فيلقبهم في جهنم ، ثم أخبر عنهم أنهم هم الخاسرون أي الذين خابت سعايتهم وتبت أيديهم وصاروا إلى النار ، وقال ابن سلام والزجاج : المعني ب ﴿ الخبيث ﴾ المال الذي أنفقه المشركون في الصد عن سبيل الله ، و ﴿ الطيب ﴾ هو ما أنفقه المؤمنون في سبيل الله .

(181/311)

---

قال القاضي أبو محمد : واللام على هذا التأويل من قوله ﴿ ليميز ﴾ متعلقة ب ﴿ يغلبون ﴾ [ الأنفال : 36 ] ، والمعنى : الكفار ينفقون أموالهم فتكون عليهم حسرة ثم يغلبون مع نفقتها ، وذلك ليميز الله الفرق بين الخبيث والطيب فيخذل أهل الخبيث وينصر أهل الطيب ، وقوله تعالى على هذا التأويل ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض ﴾ إلى قوله ﴿ في جهنم ﴾ مترتب على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الله تعالى يخرج من الأموال ما كان صدقة أو قربة يوم القيامة ثم يأمر بسائر ذلك فيلقى في النار ، وحكى



الزهر اوي عن الحسن أن الكفار يعذبون بذلك المال ، فهي كقوله ﴿ فتكوى بها جباههم  
وجنوبهم وظهورهم ﴾ [ التوبة : 35 ] وقاله الزجاج : وعلى التأويلين فقوله ﴿ ويجعل  
الخبث بعضه على بعض فيركمه جميعاً ﴾ إنما هي عبارة عن جمع ذلك وضمه وتأليف  
أشئاته وتكاثفه بالاجتماع ، و ﴿ يركمه ﴾ في كلام العرب يكثفه ، ومنه سحاب مركوم  
وركام ، ومنه قول ذي الرمة : [ البسيط ]

زغ بالزمام وجوز الليل مركوم . . . وقوله ﴿ ويجعل الخبيث ﴾ بمعنى يلقي ، قاله أبو علي ،  
﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ على هذه التأويل يراد المنافقون من الكفار ، ولفظة الخسارة  
تليق بهم من جهة المال وبغير ذلك من الجهات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2

ص ﴿

(182/311)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "ليميز" خفيفة .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "ليمّيز" بالتشديد وهما لغتان : مرّتُهُ وميّزَتُهُ .

وفي لام "ليميز" قولان .

أحدهما : أنها متعلقة بقوله : "فسينفقونها" قاله ابن الأنباري .

والثاني : أنها متعلقة بقوله : ﴿ إلى جهنم يحشرون ﴾ قاله ابن جرير الطبري .

وفي معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : ليميز أهل السعادة من أهل الشقاء ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقال السدي ، ومقاتل : يميز المؤمن من الكافر .

والثاني : ليميز العمل الطيب من العمل الخبيث ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : ليميز الإنفاق الطيب في سبيله ، من الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان ، قاله ابن

زيد ، والزجاج .

قوله تعالى : ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض ﴾ أي : يجمع بعضه فوق بعض ، وهو

قوله : ﴿ فيركمه ﴾ .

قال الزجاج : الركم : أن يجعل بعض الشيء على بعض ، يقال : ركمت الشيء أركمه ركماً

، والركام : الاسم ؛ فمن قال : المراد بالخبيث : الكفار ، فإنهم في النار بعضهم على بعض ؛

ومن قال : أمواهم ، فله في ذلك قولان .

أحدهما : أنها أقيمت في النار ليعذب بها أربابها ، كما قال تعالى : ﴿ فتكوى بها جباههم

﴿ [ التوبة : 35 ] .

والثاني: أنهم لما عظموها في الدنيا ، أراهم هوانها بالقاءها في النار كما تلقى الشمس والقمر في النار ، ليرى من عبدهما ذلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(183/311)

وقال القرطبي :

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

أي المؤمن من الكافر .

وقيل : هو عام في كل شيء ، من الأعمال والنفقات وغير ذلك . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبي ح 7 ص ﴾

وقال الخازن :

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

يعني ليفرق الله بين فريق الكفار وهم الفريق الخبيث وبين فريق المؤمنين وهم الفريق الطيب وهذا معنى قول ابن عباس فإنه قال : يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة وقال : ليميز العمل الخبيث من العمل الطيب فيجازي على العمل الخبيث النار وعلى العمل الطيب الجنة وقيل : المراد به إنفاق الكفار في سبيل الشيطان وإنفاق المؤمنين في سبيل الله ﴿ ويجعل الخبيث

بعضه على بعض ﴿ يعني بعضه فوق بعض ﴾ فيركمه جميعاً ﴿ يعني فيجمعه جميعاً ﴾  
ويضم بعضه إلى بعض حتى يتراكم ﴿ فيجعله في جهنم ﴾ يعني الخبيث ﴿ أولئك ﴾  
إشارة إلى المنفقين في سبيل الشيطان أو إلى الخبيث ﴿ هم الخاسرون ﴾ يعني أنهم  
خسروا الدنيا والآخرة لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير  
الخازن - 3 ص ﴾

(184/311)

وقال أبو حيان :

﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه  
على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾  
هذا إخبار بما يؤول إليه حال الكفار في الآخرة من حشرهم إلى جهنم إذ أخبر بما آل إليه  
حاله في الدنيا من حسرتهم وكونهم مغلوبين ومعنى قوله ﴿ والذين كفروا ﴾ من وافى  
على الكفر وأعاد الظاهر لأن من أنفق ماله من الكفار أسلم منهم جماعة ولام ﴿ ليميز ﴾  
متعلقة بقوله ﴿ يحشرون ﴾ ، و ﴿ الخبيث ﴾ و ﴿ الطيب ﴾ وصفان يصلحان  
للأدمين وللمال وتقدم ذكرهما في قوله ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ﴾ فمن المفسرين

من تأوّل ﴿ الخبيث ﴾ و ﴿ الطيب ﴾ على الآدميين ، فقال ابن عباس : ﴿ ليميز ﴾  
أهل السعادة من أهل الشقاوة ونحوه ، قال السدّي ومقاتل قالا : أراد المؤمن من الكفار  
وتحريره ليميز أهل الشقاوة من أهل السعادة والكافر من المؤمن ، وقدّره الزمخشري : الفريق  
الخبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين ، ومعنى جعل الخبيث بعضه على بعض  
وركبه ضمّه وجمعه حتى لا يفلت منهم أحد واحتمل الجعل أن يكون من باب التصيير ومن  
باب الإلقاء .

(185/311)

---

وقال ابن القشيري : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ بتأخير عذاب كفار هذه الأمة  
إلى يوم القيامة ليستخرج المؤمنين من أصلاب الكفار انتهى ، فعلى ما سبق يكون التمييز في  
الآخرة وعلى القول الأخير يكون في الدنيا ومن المفسرين من تأوّل ﴿ الخبيث ﴾ و ﴿  
الطيب ﴾ على الأموال ، فقال ابن سلام والزجاج : المعنى بالخبيث المال الذي أنفقه  
المشركون كمال أبي سفيان وأبي جهل وغيرهما المنفق في عداوة رسول الله ( صلى الله  
عليه وسلم ) والإعانة عليه في الصد عن سبيل الله و ﴿ الطيب ﴾ هو ما أنفقه المؤمنون  
في سبيل الله كمال أبي بكر وعمر وعثمان ولأم ﴿ ليميز ﴾ على هذا متعلقة بقوله ﴿

يغلبون ﴿ قاله ابن عطية ، وقال الزمخشري بقوله ﴿ ثم تكون عليهم حسرة ﴾ والمعنى  
﴿ ليميز ﴾ الله الفرق بين ﴿ الخبيث والطيب ﴾ فيخذل أهل الخبث وينصر أهل  
الطيب ويكون قوله ﴿ فيجعله في جهنم ﴾ من جملة ما يعذبون به كقوله ﴿ فتكوى بها  
جباههم ﴾ - إلى قوله - ﴿ فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ قاله الحسن ، وقيل الخبيث ما  
أنفق في المعاصي والطيب ما أنفق في الطاعات ، وقيل المال الحرام من المال الحلال ، وقيل ما  
لم تؤد زكاته من الذي أدت زكاته ، وقيل هو عام في الأعمال السيئة وركمها ختمها وجعلها  
قلائد في أعناق عمالها في النار ولكثرتها جعل بعضها فوق بعض وإن كان المعنى بالخبيث  
الأموال التي أنفقوها في حرب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، فقيل : الفائدة في إلقائها  
في النار أنها لما كانت عزيزة في أنفسها عظيمة بينهم ألقاها الله في النار ليربهم هو أنها كما  
تلقى الشمس والقمر في النار ليرى من عبدهما ذلهما وصغارهما والذي يظهر من هذه  
الأقوال هو الأول ، وهو أن يكون المراد بالخبيث الكفار وبالطيب المؤمنون إذ الكفار أولاهم  
المحدث عنهم بقوله ينفقون أموالهم ، وقوله ﴿ فسينفقونها ﴾ ويقوله ثم ﴿ إلى جهنم  
يحشرون ﴾ وأخراهم المشار إليهم بقوله ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ ولما كان تغلب

الإنسان في ماله وتصرفه فيه يرجو بذلك حصول الربح له أخبر تعالى أن هؤلاء هم الذين خسروا في إنفاقهم وأخفقت صفقتهم حيث بذل أعز ما عنده في مقابلة عذاب الله ولا خسران أعظم من هذا ، وتقدم ذكر الخلاف في قراءة ليميز في قوله

﴿ حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ويقال ميزته فتميز وميزته فانماز حكاه يعقوب ، وفي الشاذ وانمازوا اليوم وأنشد أبو زيد قول الشاعر :

لما ثنى الله عني شرّ عذرتة . . .

وانمزت لا منسأ دعراً ولا رجلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(187/311)

وقال أبو السعود :

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

أي الكافر من المؤمن ، أو الفساد من الصلاح واللام متعلقة بيحشرون أو ييغلبون أو ما أنفقه المشركون في عداوته صلى الله عليه وسلم مما أنفقه المسلمون في نصرته واللام متعلقة بقوله :

ثم تكون عليهم حسرة وقرىء ليميز بالتشديد ﴿ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً ﴾ أي يضم بعضه إلى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم فيجمعه أو يضم

إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كما للكافرين ﴿ فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾ كَلَّهُ .  
﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الخبيث إذ هو عبارة عن الفريق أو إلى المنفقين ، وما فيه من معنى  
البعد للإيدان يُبعد درجاتهم في الخبث ﴿ همُ الخاسرون ﴾ الكاملون في الخسران لأنهم  
خسروا أنفسهم وأموالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ﴾

(188/311)

وقال الأوسى :

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

أي الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح ، واللام على الوجهين متعلقة ب ﴿ يحشرون ﴾  
﴿ [ الأنفال : 36 ] ﴾ وقد يراد من الخبيث ما أنفقه المشركون لعداوة رسول الله صلى الله  
عليه وسلم و ﴿ من الطيب ﴾ ما أنفقه المسلمون لنصرته عليه الصلاة والسلام ، فاللام  
متعلقة ب ﴿ تكون عليهم حسرة ﴾ [ الأنفال : 36 ] دون يحشرون ، إذ لا معنى لتعليل  
حشرهم بتمييز المال الخبيث من الطيب ، ولم تعلق بتكون على الوجهين الأولين إذ لا معنى  
لتعليل كون أموالهم عليهم حسرة بتمييز الكفار من المؤمنين أو الفساد من الصلاح .  
وقرأ حمزة .



والكسائي .

ويعقوب ( ليميز ) من التمييز وهو أبلغ من الميز لزيادة حروفه .

وجاء من هذا ميزته فتميز ومن الأول مزته فانماز .

وقرء شاذاً ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ [يس : 59] .

﴿ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً ﴾ أي يضم بعضه إلى بعض ويجمعه

من قولهم : سحاب مركوم ويوصف به الرمل والجيش أيضاً ، والمراد بالخبِيث إما الكافر

فيكون المراد بذلك فرط ازدحامهم في الحشر ، وإما الفساد فالمراد أنه سبحانه يضم كل

صنف بعضه إلى بعض ﴿ فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾ كله ، وجعل الفساد فيها بجعل أصحابه

فيها ، وأما المال المنفق في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم وجعله في جهنم لتكوى به

جباههم وجنوبهم .

وقد يراد به هنا ما يعم الكافر وذلك المال على معنى أنه يضم إلى الكافر الخبيث ما له

الخبِيث ليزيد به عذابه ويضم إلى حسرة الدنيا حسرة الآخرة ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى

الخبِيث ، والجمع لأنه مقدر بالفريق الخبيث أو إلى المنفقين الذين بقوا على الكفر فوجه

الجمع ظاهر ، وما فيه من معنى البعد على الوجهين للإيذان ببعد درجاتهم في الخبيث .

﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ لِيَمِيزَ ﴾ متعلق بـ ﴿ يحشرون ﴾ لبيان أن من حكمة حشرهم إلى جهنم أن يتميز الفريق الخبيث من الناس من الفريق الطيب في يوم الحشر ، لأن العلة غير المؤثرة تكون متعددة ، فتمييز الخبيث من الطيب من جملة الحكم لحشر الكافرين إلى جهنم .  
وقرأ الجمهور ﴿ لِيَمِيزَ ﴾ بفتح التحتية الأولى وكسر الميم وسكون التحتية الثانية مضارع ماز بمعنى فرز وقرأ حمزة والكسائي ، ويعقوب ، وخلف : بضم التحتية الأولى وفتح الميم التحتية وتشديد الثانية .

مضارع ميم إذا محص الفرز وإذا أسند هذا الفعل إلى الله تعالى استوت القراءتان .  
والخبيث الشيء الموصوف بالخُبث والخباثة وحقيقة ذلك أنه حالة حشية لشيء تجعله مكروهاً مثل القذر ، والوسخ ، ويطلق الخُبث مجازاً على الحالة المعنوية من نحو ما ذكرنا تشبيهاً للمعقول بالمحسوس ، وهو مجاز مشهور ، والمراد به هنا خسة النفوس الصادرة عنها مفسد الأعمال ، والطيب الموصوف بالطيب ضد الخُبث بإطلاقه فالكفر خُبث لأن أساسه الاعتقاد ، الفاسد ، فنفس صاحبه تصور الأشياء على خلاف حقيقتها فلا

جرم أن تأتي صاحبها بالأفعال على خلاف وجهها ، ثم إن شرائع أهل الكفر تأمر بالمفاسد والضلالات وتصرف عن المصالح والهداية بسبب السلوك في طرائق الجهل وتقليب حقائق الأمور ، وما من ضلالة إلا وهي تفضي بصاحبها إلى أخرى مثلها ، والإيمان بخلاف ذلك .  
(مِنْ) في قوله : ﴿ من الطيب ﴾ للفصل ، وتقدم بيانها عند قوله تعالى : ﴿ والله يعلم

المفسد من المصلح ﴾ في سورة [البقرة : 220]

وجعل الخبيث بعضه على بعض : علة أخرى لحشر الكافرين إلى جهنم ولذلك عطف بالواو فالمقصود جمع الخبيث وإن اختلف أصنافه في مجمع واحد ، لزيادة تمييزه عن الطيب ، وتشهير من كانوا يسرون الكفر ويظهرون الإيمان ، وفي جمعه بهذه الكيفية تدليل لهم وإيلاء ، إذ يجعل بعضهم على بعض حتى يصيروا ركماً .

(190/311)

---

والركم : ضم شيء أعلى إلى أسفل منه ، وقد وصف السحاب بقوله : ﴿ ثم يجعله ركاماً

﴿ [النور : 43] واسم الإشارة بـ ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ للتنبية على أن

استحقاقهم الخبر الواقع عن اسم الإشارة كان بسبب الصفات التي ذكرت قبل اسم

الإشارة ، فإن من كانت تلك حاله كان حقيقاً بأنه قد خسر أعظم الخسران ، لأنه خسر

منافع الدنيا ومنافع الآخرة .

فصيغة القصر في قوله : ﴿ هم الخاسرون ﴾ هي للقصر الادعائي ، للمبالغة في اتصافهم بالخسران ، حتى يعد خسران غيرهم كالاخسران وكأنهم انفردوا بالخسران من بين الناس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(191/311)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

وهذه الآية الكريمة تكشف لنا أن المعارك التي تنشأ بين الإسلام وأتباعه من جهة ، وبين خصوم الإسلام وأتباعهم من جهة أخرى : هذه المعارك إنما هي أمر مراد من الله تعالى : لأن الزلزلة التي تحدث ، حتى لمن آمن ، إنما هي تصفية لعنصر الإيمان ، ومثال ذلك ما حدث في الإسراء ، حيث وجدنا من كان إيمانه ضعيفاً يتساءل : أمعقول أن يذهب محمد إلى بيت المقدس في ليلة ؟ ! بينما نجد ثابت الإيمان مثل الصديق أبي بكر يقول : إن كان قد قال فقد صدق . إن الثابت والقوي إيمانه يصدق ، أما من لم يثبت إيمانه فهو يكذب . وهكذا كانت أحداث الإسلام ، فقد جاءت كلها لتميز الخبيث من الطيب ، وتجمع

الخبث بعضه إلى بعض ليصير ركاماً ثم يضعهم الله في النار .

لقد جاءت أحداث الإسلام للتمحيص ، مثلما تضع الحديد في النار لتستخرج منه الخبث

ويصير صافياً ، وهكذا جاء الإسلام لتصفو به قلوب المؤمنين ، ويقوي إيمانهم ؛ لأنهم

يحملون رسالة الله تعالى إلى الأرض كلها ، بعد أن مروا بالتصفيات الكثيرة .

ومثل هذه التصفيات تحدث في المجال الرياضي ، فحملة الأثقال – على سبيل المثال –

يدخلون في مباريات أولية ، ومن يستطيع حمل الوزن الأثقل هو الذي يكون مؤهلاً لأن يدخل

المباريات الدولية ، ليبقى الأقوى .

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ

فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [ الأنفال : 37 ] .

(192/311)

---

والحق سبحانه وتعالى أعطانا أمثالا لأحداث تميز الخبيث من الطيب ، فالناس في الأحوال

العادية الرتيبة لا تظهر معادن نفوسهم ؛ لأن الناس إذا كانوا آمنين لا يواجهون ؛ خطراً ،

ادعوا الشجاعة والكرم والشهامة ، وادعوا الإيمان القوي المستعد لأي تضحية في سبيل

الله ، فإذا جاءت الأحداث فهي الاختبار الحقيقي لما في القلوب . فقد يقول إنسان

لصديقه : أنا ومالي لك . وإذا ما أصابت هذا الصديق كارثة ، يتهرب منه . فما الذي يحدد - إذن - صدق الحديث عن النفس ؟ إنها الأحداث . وهكذا أراد الله تعالى أن يميز الخبيث من الطيب فعركت المؤمنين الحوادث ، وزال الطلاء عن ذوي العقيدة الهشة ؛ ليكون الناس شهداء على أنفسهم ، ويبقى المؤمنون أصحاب صفاء القلب والعقيدة .

وحين يميز الله الخبيث من الطيب ، فهو سبحانه وتعالى : يريد تمييز الطيب حتى لا يختلط بالخبيث . والخبيث إنما يكون على ألوان مختلفة وأنواع متعددة ، فهذا خبيث في ناحية ، وذلك خبيث في ناحية أخرى ، وثالث خبيث في ناحية ثالثة ، وغيرهم في ناحية رابعة ، وخامسة إلى ما شاء الله ، ويجمع الله كل الخبيث فيركمه في النار جميعاً . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(193/311)

فائدة

قال التستري :

وقوله : ﴿ لَيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [ 37 ] قال : الخبيث على ضروب : الكفر والنفاق والكبائر ، والطيب على ضروب : وهو الإيمان ، فيه درجة الأنبياء والصديقين

والشهداء والصالحين ، فأخبر الله تعالى أنه يميز بينهما ، ثم يجعل الخبيث بعضه على بعض  
على مقدار ذنوبهم طبقة طبقة ، كما قال : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾  
[النساء : 145] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التستري ص 71 ﴾

(194/311)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ  
حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ  
وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ  
(37) ﴿

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل كلهم من طريقه  
قال : حدثني الزهري ، ومحمد بن يحيى بن حيان ، وعاصم بن عمرو بن قتادة ، والحسين  
بن عبد الرحمن بن عمر ، قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو  
سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في

رجال من قريش إلى من كان معه تجارة . فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثأراً . ففعلوا . ففيهم كما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنزل الله ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ إلى قوله ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ قال : نزلت في أبي سفيان بن حرب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ﴾ . . . إلى قوله ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ قال : في نفقة أبي سفيان على الكفار يوم أحد .

(195/311)

---

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبيرة في قوله ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل ﴾ . . . الآية . قال : نزلت في أبي سفيان بن حرب ، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة يقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب ، فأنزل الله



هذه الآية ، وهم الذين قال فيهم كعب بن مالك رضي الله عنه :

وجئنا إلى موج من البحر وسطه . . . أحابيش منهم حاسر ومقنع

ثلاثة آلاف ونحن نصية . . . ثلاث مئين إن كثرن فأربع

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحكم بن عتيبة في قوله ﴿ إن الذين

الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ قال : نزلت في أبي سفيان ، أنفق

على مشركي قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب ، وكانت الأوقية يومئذ اثنين وأربعين

مقالاً من ذهب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين

كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿

فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ﴾ يقول : ندامة يوم القيامة .

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه في قوله ﴿

والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ يعني نفر الذين مشوا إلى أبي سفيان ، وإلى من كان له

مال من قريش في تلك التجارة ، فسألوهم أن يقوؤهم بها على حرب رسول الله صلى الله

عليه وسلم ففعلوا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن شهر بن عطية رضي الله عنه ﴿ ليميز الله الخبيث

من الطيب ﴾ قال : يميز يوم القيامة ما كان لله من عمل صالح في الدنيا ، ثم تؤخذ الدنيا

بأسرها فتلقى في جهنم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ فيركمه جميعاً ﴾ قال : يجمعه جميعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ج 4 ص ﴾

(196/311)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ ﴾ قد تقدّم الكلام فيه في آل عمران : [ 179 ] .  
والمعنى : ليميز الله الفريق الخبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين ، فيجعل الفريق الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً ، أي : يجمعهم ويضمهم حتى يتراكموا .  
" أولئك " إشارة إلى الفريق الخبيث ، وقيل : المراد في جهاد الكفار ، كإنفاق أبي بكر وعثمان في نصره الرسول - عليه السلام - ، فيضم تعالى تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض فيلقبها في جهنم ، ويعذبهم بها ، كقوله تعالى : ﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ [ التوبة : 35 ] فاللأم في قوله ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ ﴾ على القول الأول متعلقة بقوله تعالى : ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾ أي : يحشرون ليميز الله الفريق الخبيث من الفريق

الطيب ، وعلى القول الثاني متعلقة بقوله : ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ و "يَجْعَلُ" يحتمل أن تكون تصيريةً ، فتصب مفعولين ، وأن تكون بمعنى الإلقاء ، فتعدى لواحد ، وعلى كلا التقديرين ف "بَعْضُهُ" بدل بعض من كل ، وعلى القول الأول يكون "عَلَى بَعْضٍ" في موضع المفعول الثاني ، وعلى الثاني يكون متعلقاً بنفس الجعل ، نحو قولك : أَلْقَيْتَ مَتَاعَكَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ .

وقال أبو البقاء ، بعد أن حكم عليها بأنها تعدى لواحد :

"وقيل : الجار والمجرور حال تقديره : ويجعل الخبيث بعضه عالياً على بعض ؟ .

ويقال : مَيِّزْتُهُ قَمِيْزًا ، ومزْنُهُ فَاثْمَارًا ، وقرىء شاذًا : ﴿ وَاثْمَارُوا الْيَوْمَ ﴾ [يس : 59] ؛

وأشده أبو زيد : [البسيط]

2706 - لَمَّا نَبَضَا اللَّهَ عَنِّي شَرَّ غُدْرَتِهِ . . .

وَأَنْمَزْتُ لَا مُنْسِيًّا ذُعْرًا وَلَا وَجَلًا

وقد تقدم الفرق بين هذه الألفاظ في آل عمران [179] .

(197/311)

---

قوله "فَيْرُكْمُهُ" نسقٌ على المنصوبِ قبله ، والرُّكْمُ جمعُ الشَّيْءِ فوق الشَّيْءِ ، حتى يصير  
رُكْمًا مَرَكُومًا كما يُرْكَمُ الرملُ والسحابُ ، ومنه : ﴿ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور : 44]  
والمُرْتَكَمُ : جَادَةٌ الطريق للرُّكْمِ الذي فيه أي : ازدحام السَّبَابِلَةِ وآثارهم ، و" جَمِيعًا " حالٌ  
، ويجوز أن يكون توكيداً عند بعضهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص

﴿ 514.513 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيْرُكْمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ  
فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (37) ﴿

الخبِيثُ ما لا يصلح لله ، والطيبُ ما يصلح لله .

الخبِيثُ ما حكم الشرعُ بقبحه وفساده ، والطيبُ ما شهد العلمُ بحسنه وصلاحه .

ويقال الخبيثُ الكافرُ ، والطيبُ المؤمنُ .

الخبِيثُ ما شغَلَ صاحبه عن الله ، والطيبُ ما أوصل صاحبه إلى الله .

الخبِيثُ ما يأخذه المرءُ وينفقه لحظَّ نفسه ، والطيبُ ما ينفقه بأمر ربه .

الخبِيثُ عملُ الكافرِ يُصَوَّرُ له ويُعَذَّبُ بإلقائه عليه ، والطيبُ عملُ المؤمنِ يُصَوَّرُ له في صورةٍ

جميلة فيحمل المؤمن عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 624 ﴾

فصل

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا  
الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً  
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (35) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ  
اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36)  
لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي  
جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37) ﴾

قوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمان

المتقدمان وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهورهم ، ووقوع الاستغفار .

ذكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفار ، أعني : كفار مكة ، مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من

القبائح .

والمعنى : أي شيء لهم يمنع من تعذيبهم ؟ قال الأخفش : إن "أن" زائدة .

قال النحاس: لو كان كما قال لرفع ﴿ يعذبهم ﴾ ، وجملة: ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي وما يمنع من تعذيبهم ؟ والحال أنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام ، كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من البيت ، وجملة ﴿ وَمَا كُنَّا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ في محل نصب على أنها حال من فاعل ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ ، وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من أنهم ولاية البيت ، وأن أمره مفوض إليهم ، ثم قال مبيناً لمن له ذلك : ﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ أي : ما أولياؤه إلا من كان في عداد المتقين للشرك والمعاصي ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ، والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعاندون .

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾ المكاء : الصفير من مكاء يمكوا مكاء ، ومنه قول عنتره :

وخليل غانية تركت مجندلا . . . تمكوفريسته كشدق الأعلم

أي : تصوت .

ومنه مكت است الدابة : إذا نفخت بالريح ، قيل المكاء : هو الصفير على لحن طائر أبيض

بالحجاز يقال له المكاء .

قال الشاعر :

إذا غرّد المكاء في غير دوحه . . . فويل لأهل الشاء والحمرات

والتصدية : التصفيق ، يقال صدّى يصدّى تصديّة : إذا صفق ، ومنه قول عمر بن الإطنابة :

وظلوا جميعاً لهم ضجة . . . مكاء لدى البيت بالتصدية  
أي بالتصفيق .

وقيل المكاء : الضرب بالأيدي ، والتصدية : الصياح .

وقيل المكاء : إدخالهم أصابعهم في أفواههم ، والتصدية : الصفير .

وقيل التصدية : صدّهم عن البيت .

قيل : والأصل على هذا تصددة ، فأبدل من إحدى الدالين ياء .

ومعنى الآية : أن المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذي هو موضع للصلاة

والعبادة ، فوضعوا ذلك موضع الصلاة ، قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن

الصلاة .

وقرىء بنصب " صلاتهم " على أنها خبر كان ، وما بعده اسمها .

قوله: ﴿ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿ هذا التفات إلى مخاطبة الكفار تهديداً لهم ومبالغة في إدخال الروعة في قلوبهم ، والمراد به : عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة .  
قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ﴿ لما فرغ سبحانه من شرح أحوال هؤلاء الكفرة في الطاعات البدنية ، أتبعها شرح أحوالهم في الطاعات المالية .  
والمعنى : أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصدّ عن سبيل الحق ، بمحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمع الجيوش لذلك ، وإنفاق أموالهم عليها ، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الأحزاب .

فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش ، ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز فقال : ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ﴾ ﴿ أي : سيقع منهم هذا الإنفاق ﴾ ﴿ ثُمَّ تَكُونُ ﴾ ﴿ عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم ، وكان ذات الأموال تنقلب حسرة تصير ندماً .

﴿ ثُمَّ ﴾ ﴿ آخِرُ الْأَمْرِ ﴾ ﴿ يُغْلِبُونَ ﴾ ﴿ كما وعد الله به في مثل قوله : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا ﴾ ﴿ وَرُسُلِي ﴾ ﴿ [المجادلة : 21] .

ومعنى ﴿ ثُمَّ ﴾ ﴿ في الموضوعين إما التراخي في الزمان لما بين الإنفاق المذكور ، وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد ، وإما التراخي في الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة ، ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ ﴿ أي : استمروا على الكفر ،



لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقاً من أسلم وحسن إسلامه ، أي يساقون إليها لا إلى غيرها .

(201/311)

---

ثم بين العلة التي لأجلها فعل بهم ما فعله فقال : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ ﴾ أي : الفريق الخبيث من الكفار ﴿ مِنْ ﴾ الفريق ﴿ الطيب ﴾ وهم المؤمنون ﴿ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي : يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض ﴿ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً ﴾ عبارة عن الجمع والضم ، أي يجمع بعضهم إلى بعض ، ويضم بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم .

يقال ركم الشيء يركمه : إذا جمعه وألقى بعضه على بعض .

والإشارة بقوله : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إلى الفريق الخبيث ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي : الكاملون في الخسران .

وقيل : الخبيث والطيب : صفة للمال ، والتقدير يميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون ، فيضم تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض ، فيلقى في جهنم ويعذبهم بها ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ [

التوبة: [35].

قال في الكشاف: واللام على هذا متعلقة بقوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ، وعلى الأول ﴿يَجْشُرُونَ﴾ ، و ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الذين كفروا . انتهى .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال ﴿وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير ، في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ قال: عذابهم فتح مكة .

وأخرج ابن إسحاق ، وأبو حاتم ، عن عباد بن عبد الله بن الزبير ﴿وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ وهم يجحدون بآيات الله ويكذبون رسله .

(202/311)

---

وأخرج ابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، عن عروة بن الزبير ، في قوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: من آمن بالله وعبدته ، أنت ومن اتبعك ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ الذين يخرجون منه ويقيمون الصلاة عنده ، أي أنت ومن آمن بك .

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمَتَّوْنُونَ﴾ قال: من كانوا حيث كانوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبير، قال: كانت قريش يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف، ويستهنئون ويصفرون ويصفقون، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والضياء عن ابن عباس، قال: كانت قريش يطوفون بالكعبة عراة تصفر وتصفق، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ قال: والمكاء الصغير، إنما شبهوا بصفير الطير، وتصديّة: التصفيق وأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 32].

وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، نحوه.

وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عنه نحوه أيضاً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عمر قال: المكاء الصغير، والتصديّة: التصفيق.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: المكاء إدخال أصابعهم في أفواههم، والتصديّة الصغير، يخلطون بذلك كله على محمد صلى الله عليه وسلم صلواته.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السديّ: قال: المكاء الصغير على نحو طير أبيض يقال له المكاء يكون بأرض الحجاز، والتصديّة: التصفيق.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿إِلَّا مَكَاءٌ﴾ قال: كانوا يشبكون أصابعهم ويصفرون فيهنّ ﴿وَتَصْدِيَةٌ﴾ قال: صدّهم الناس.

وأخرج عبد بن حميد، عن عكرمة قال: كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال. وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ فالمكاء مثل نفخ البوق، والتصديّة: طوافهم على الشمال.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك في قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال: يعني أهل بدر عذبهم الله بالقتل والأسر. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، كلهم من طريقه، قال: حدّثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة

ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم ، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وترك خياركم ، فأعينوا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثاراً .

ففعّلوا ، ففيهم كما ذكر ابن عباس ، أنزل الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إلى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد نحوه .

وأخرج هؤلاء وغيرهم عن سعيد بن جبير نحوه .

(204/311)

---

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحكم بن عتيبة ، في الآية قال : نزلت في أبي سفيان أنفق على مشركي قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب ، وكانت الوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالاً من ذهب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن شمر بن عطية ، في قوله : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ

الطيب ﴿ قال: يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا ، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها  
فتلقى في جهنم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، في قوله: ﴿ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً ﴾ قال:  
يجمعه جميعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(205/311)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوي في تفسير القرآن الكريم  
ويسمى (جنة المشتاق في تفسير كلام الملك الخلاق)  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسُلَى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثاني عشر بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/312)

---

الجزء الثاني عشر بعد الثلاثمائة  
من الآية ﴿ 38 ﴾ من سورة الأنفال  
وحتى الآية ﴿ 40 ﴾ من نفس السورة

(4/312)

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ  
الْأَوَّلِينَ ﴾ (38)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين ضلالتهم في عبادتهم البدنية والمالية ، وكان في كثير من العبارات السالفة القطع للذين

كفروا بلفظ الماضي بالشقاء ، كان ذلك موهماً لأن يراد من أوقع الكفر في الزمن الماضي وإن تاب ، فيكون مؤيساً من التوبة فيكون موجباً للثبات على الكفر ، قال تعالى متلفظاً بعباده مرشداً لهم إلى طريق الصواب مبيناً المخلص مما هم فيه من الوبال في جواب من كأنه قال : أما لهم من جبلة يتخلصون بها من الخسارة ﴿ قل للذين ﴾ أي لأجل الذين ﴿ كفروا ﴾ أي أقبل توبة من تاب منهم بمجرد انتهائه عن حاله ﴿ إن ينتهوا ﴾ أي يتجدد لهم وقتاً ما الانتهاء عن مغالبتهم بالانتهاه عن كفرهم فيذلوا لله ويخضعوا لأوامره ﴿ يغفر لهم ﴾ بناء للمفعول لأن النافع نفس الغفران وهو محو الذنب ﴿ ما قد سلف ﴾ أي مما اجترحوه كأنما ما كان فيمحي عيناً وأثراً فلا عقاب عليه ولا عتاب ﴿ وإن ﴾ أي وإن يثبتوا على كفرهم و ﴿ يعودوا ﴾ أي إلى المغالبة ﴿ فقد مضت سنت ﴾ أي طريقة ﴿ الأولين ﴾ أي وجدت وانقضت ونفذت فلا مرد لها بدليل ما سمع من أخبار الماضين وشوهد من حال أهل بدر مما أوجب القطع بأن الله مع المؤمنين وعلى الكافرين ، ومن كان معه نصر ، ومن كان عليه خذل وأخذ وقسر ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ [الحج : 40] ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [القصص : 128] وإن كانت الحرب سجالاتاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 216 .



## فصل

قال الفخر:

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين صلاتهم في عباداتهم البدنية، وعباداتهم المالية، أرشدهم إلى طريق

الصواب وقال: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

قال صاحب "الكشاف": ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي قل لأجلهم هذا القول، وهو: ﴿ إِنْ

يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم به لقال: إِنْ تَنْتَهُوا يُغْفَرْ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ هَكَذَا.

المسألة الثانية:

المعنى: أَنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّاءِ إِنْ انْتَهُوا عَنِ الْكُفْرِ وَعَدَاوَةِ الرَّسُولِ، وَدَخَلُوا الْإِسْلَامَ وَاتَّزَمُوا

شِرَائِعَهُ غَفَرَ اللَّهُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لِلرَّسُولِ وَإِنْ عَادُوا إِلَيْهِ وَاصْرُوا

عَلَيْهِ فَقَدْ مَضَتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ.

وفيه وجوه: الأول: المراد فقد مضت سنة الأولين منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر.

الثاني: فقد مضت سنة الأولين الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الذين قد مروا فليتوقعوا

مثل ذلك إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا.

الثالث : أن معناه أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين وهي قوله : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة : 21] ﴿ وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾ [الصفات : 171] ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴿ أَنْ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : 105] .

### المسألة الثالثة :

اختلف الفقهاء في أن توبة الزنديق هل تقبل أم لا ؟ والصحيح أنها مقبولة لوجوه : الأول : هذه الآية ، فإن قوله : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ يتناول جميع أنواع الكفر .

فإن قيل : الزنديق لا يعلم من حاله أنه هل انتهى من زندقته أم لا ؟

قلنا : أحكام الشرع مبنية على الظواهر ، كما قال عليه السلام : " نحن نحكم بالظاهر " فلما رجع وجب قبول قوله فيه .



الثاني : لاشك أنه مكلف بالرجوع ولا طريق له إليه إلا بهذه التوبة فلو لم تقبل لزم تكليف ما لا يطاق .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ [ الشورى : 25 ] .

المسألة الرابعة :

احتج أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشرائع ، قالوا لأنهم لو كانوا مخاطبين بها ، لكان إما أن يكونوا مخاطبين بها مع الكفر أو بعد زوال الكفر . والأول باطل بالإجماع ، والثاني باطل ؛ لأن هذه الآية تدل على أن الكافر بعد الإسلام لا يؤخذ بشيء مما مر عليه في زمان الكفر وإيجاب قضاء تلك العبادات ينافي ظاهره هذه الآية .

المسألة الخامسة :

احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية على أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات التي تركها في حالة الردة وقبلها ، ووجه الدلالة ظاهر .

المسألة السادسة :

قال عليه السلام : " الإسلام يجب ما قبله " فإذا أسلم الكافر لم يلزمه قضاء شيء من العبادات البدنية والمالية وما كان له من جنابة على نفس أو مال فهو معفو عنه وهو ساعة

إسلامه كيوم ولدته أمه .

وقال يحيى بن معاذ الرازي في هذه الآية أن توحيد ساعة يهدم كفر سبعين سنة ، وتوحيد سبعين سنة كيف لا يقوى على هدم ذنب ساعة ؟ . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ مفاتيح الغيب

ح 15 ص 130 ﴾

(7/312)

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

فيها أربع مسائل :

المسألة الأولى : ثبت عن ﴿ ابن شماسة المهري قال : حضرنا عمرو بن العاص ، وهو في سياقة الموت ، فبكى طويلاً ، وحول وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : ما يبكيك يا أبتاه ؟ أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا أما بشرك رسول الله بكذا ؟ قال : فاقبل بوجهه ، فقال : إن أفضل ما بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أني كنت على أطباق ثلاث : لقد رأيتني وما أحد أشدُّ بغضاً لرسول الله مني ، ولا أحبُّ إليَّ

أَنْ يُكُونَ قَدْ اسْتَمَكَّتْ مِنْهُ فَقَتَلْتَهُ ، فَلَوِمْتُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ .  
فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ فَقُلْتُ : أَبْسُطْ يَمِينَكَ لِأَبَايَعِكَ ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ .  
قَالَ : فَقَبَضْتُ يَدِي .

قَالَ : مَا لَكَ يَا عَمْرُو ؟ قَالَ : قُلْتُ : أَرَدْتُ أَنْ أَشْرَطَ .

قَالَ : تَشْرَطُ مَاذَا ؟ قُلْتُ : أَنْ يُغْفِرَ لِي .

(8/312)

قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا قَبْلَهُ ، وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا ، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا  
قَبْلَهُ وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، وَلَا أَجَلَ فِي عَيْنِي مِنْهُ ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ  
أَمْلَأَ عَيْنِي مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ ، وَلَوْ سَأَلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنِي مِنْهُ ، وَلَوْ  
مِتُّ عَلَى ذَلِكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ وُلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي  
فِيهَا ؛ فَإِذَا أَنَا مِتُّ فَلَا تَصْحَبُنِي نَائِحَةٌ ، وَلَا نَارٌ ؛ فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَسَنُوا التُّفْلَ عَلَيَّ التُّرَابَ  
سَنًّا ، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جُرُورٌ ،

وَيُقَسَّمُ لِحْمُهَا حَتَّى اسْتَأْنَسَ بِكُمْ ، وَأَنْظِرْ مَاذَا أَرَا جُعِ بِهِ رُسُلَ رَبِّي ﴿٤٠﴾ .

(9/312)

المسألة الثانية: قال علماؤنا: هذه لطيفة من الله سبحانه من بها على الخليفة؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم، ويرتكبون المعاصي، ويرتكبون المآثم، فلو كان ذلك يوجب مؤاخذتهم لما استدرکوا أبداً توبة، ولا نالهم مغفرة؛ فيسر الله عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم؛ ليكون ذلك أقرب إلى دخولهم في الدين، وأدعى إلى قبولهم كلمة الإسلام، وتأليفا على الأمة، وترغيباً في الشريعة؛ فإنهم لو علموا أنهم يؤاخذون لما أنابوا ولا أسلموا.

فقد روى مسلم ﴿ أن رجلاً كان فيمن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفساً، سأل: هل له توبة؟ فجاء عالماً فسأله، فقال: لا توبة لك، فقتله وكمل به مائة.

ثم جاء عالماً آخر فسأله، فقال: ومن يسد عليك باب التوبة؟ أنت الأرض المقدسة. فمشى إليها، فحضره الأجل في الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب؛ فأوحى الله أن قيسوا إلى أي الأرضين هو أقرب، أرضه التي خرج منها أم الأرض المقدسة؟ فالفوه أقرب إلى الأرض المقدسة بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة.

وفي رواية: فقا سموه فوجدوه قد دنا بصدرة.



فَانظُرُوا إِلَى قَوْلِ الْعَالِمِ لَهُ: لَا تَوْبَةَ لَهُ.

فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ أَيَّسَهُ قَتْلُهُ؟ فَعِلُّ الْيَأْسِ مِنَ الرَّحْمَةِ؛ وَالتَّنْفِيرُ مَفْسَدَةُ الْخَلِيقَةِ، وَالتَّيْسِيرُ مَصْلَحَةٌ لَهُمْ.

وَقَدْ قَدَّمْنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَ إِلَيْهِ رَجُلٌ لَمْ يَقْتُلْ فَسَأَلَهُ: هَلْ لِلْقَاتِلِ تَوْبَةٌ؟  
فَيَقُولُ لَهُ: لَا تَوْبَةَ لَهُ؛ تَخْوِيفًا وَتَحْذِيرًا.

فَإِذَا جَاءَهُ مَنْ قَتَلَ فَسَأَلَهُ: هَلْ لِقَاتِلٍ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ لَهُ: لَكَ تَوْبَةٌ؛ تَيْسِيرًا وَتَأْلِيفًا.  
الْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ: قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ، وَأَشْهَبُ، وَابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَنْ طَلَّقَ  
فِي الشَّرْكِ ثُمَّ أَسْلَمَ فَلَا طَلَّاقَ لَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ حَلَفَ فَأَسْلَمَ فَلَا حِنْثَ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مَنْ  
وَجَبَ عَلَيْهِ مِثْلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ثُمَّ أَسْلَمَ فَذَلِكَ مَغْفُورٌ لَهُ.

فَأَمَّا مَنْ افْتَرَى عَلَى مُسْلِمٍ ثُمَّ أَسْلَمَ، أَوْ سَرَقَ ثُمَّ أَسْلَمَ، أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ لِلْفِرْيَةِ وَالسَّرِقَةِ،  
وَلَوْ زَنَى وَأَسْلَمَ أَوْ اغْتَضَبَ مُسْلِمَةً ثُمَّ أَسْلَمَ لَسَقَطَ عَنْهُ الْحَدُّ.

وَرَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ: إِنَّمَا يَعْنِي عَزَّ وَجَلَّ مَا قَدْ مَضَى قَبْلَ الْإِسْلَامِ مِنْ مَالٍ أَوْ دَمٍ أَوْ  
شَيْءٍ.

وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ؛ لِمَا قَدَّمْنَا مِنْ عُمومِ قَوْلِهِ: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ،  
وَقَوْلِهِ: ﴿الْإِسْلَامُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ﴾ .  
وَمَا بَيْنَاهُ مِنَ الْمَعْنَى فِي التَّسْيِيرِ وَعَدَمِ التَّنْفِيرِ .

(11/312)

---

المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: إِذَا اسْلَمَ الْمُرْتَدُّ، وَقَدْ فَاتَتْهُ صَلَوَاتٌ، وَأَصَابَ جَنَايَاتٍ، وَأَتْلَفَ أَمْوَالًا  
فَإِنَّ الشَّافِعِيَّ قَالَ: يَلْزِمُهُ كُلُّ حَقٍّ لِلَّهِ وَلِلْأَدَمِيِّ .  
وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: مَا كَانَ لِلَّهِ يَسْقُطُ، وَمَا كَانَ لِلْأَدَمِيِّ يَلْزِمُهُ؛ وَقَالَ بِهِ عُلَمَاءُنَا .  
وَدَلِيلُهُمْ عُمومُ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ .  
وَقَوْلِ النَّبِيِّ: ﴿الْإِسْلَامُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ﴾ .  
وَهَذَا عَامٌّ فِي الْحُقُوقِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ كُلِّهَا .  
فَإِنْ قِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْكُفْرُ الْأَصْلِيُّ، بِدَلِيلِ أَنَّ حُقُوقَ الْأَدَمِيِّينَ تَلْزِمُ الْمُرْتَدَّ؛ فَوَجَبَ أَنْ  
تَلْزِمَهُ حُقُوقُ اللَّهِ .

فَاجْزَأُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ اعْتِبَارُ حُقُوقِ الْأَدَمِيِّينَ بِحُقُوقِ اللَّهِ، وَلَا حُقُوقِ اللَّهِ بِحُقُوقِ الْأَدَمِيِّينَ  
فِي الْإِجَابِ وَالْإِسْقَاطِ؛ لِأَنَّ حَقَّ اللَّهِ يُسْتَعْنَى عَنْهُ، وَحَقَّ الْأَدَمِيِّ يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ



حُقُوقَ اللَّهِ لَا تَجِبُ عَلَى الصَّبِيِّ ، وَتَلْزِمُهُ حُقُوقُ الْأَدَمِيِّينَ ، وَفِي ذَلِكَ تَمْهِيدٌ طَوِيلٌ بَيْنَاهُ فِي تَخْلِيصِ التَّلْخِيصِ فَلْيُنْظَرْ هُنَاكَ . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربي ح 2

ص ﴿

(12/312)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

يعني أبا سفيان وأصحابه ومن كان في مثل حالهم إلى يوم القيامة : ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ عن الشرك وعن قتال محمد وعن المؤمنين ، ﴿ يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ؛ يعني يتجاوز عنهم ما سلف من ذنوبهم وشركهم .

﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ إلى قتال محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بنصرة أوليائه وقهر أعدائه .

ويقال : يعني القتل يحذرهم بالعقوبة لكيلا يعودوا فيصيبهم مثل ما أصابهم ؛ وقال الكلبي : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أن ينصر الله أنبيائه ومن آمن معهم ، كقوله : ﴿ إِنْ أَلَّ لَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [ غافر : 51 ] . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أبي سفيان وأصحابه ﴿ إِنَّ يَنْتَهُوا يُغْفَرُ لَهُمْ ﴾ ان ينتهوا من الشرك  
وقال محمد : يغفر لهم ﴿ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ من عملهم قبل الإسلام ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ لقتال  
محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ في نصر الأنبياء والأولياء  
وهلاك الكفار والأعداء مثل يوم بدر .

قال الأستاذ الإمام أبو إسحاق : سمعت الحسن بن محمد بن الحسن يقول : سمعت أبي يقول

: سمعت علي بن محمد الوراق يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول : إني لأرجو أن

توحيداً لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب .

وأنشدني أبو القاسم الحبيبي بذلك أنشدني أبو سعيد أحمد بن محمد الزيدي :

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف . . . ثم انتهى عما أتاه واقترف

لقوله سبحانه [ في المعترف : ] ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿ قَلِّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : إن ينتهوا عن المحاربة إلى المودة يغفر لهم ما قد سلف من المؤاخذة والمعاقبة .

والثاني : إن ينتهوا عن الكفر بالإسلام يغفر لهم ما قد سلف من الآثام .

﴿ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولِينَ ﴾ تأويله على احتمال الوجهين الأولين :

فعلى الوجه الأول : تأويله : وإن يعودوا إلى المحاربة فقد مضت سنة الأولين فيمن قتل يوم

بدر وأسر ، قاله الحسن ومجاهد والسدي .

وعلى الوجه الثاني : فقد مضت سنة الأولين من الأمم السالفة فيما أخذهم الله به في الدنيا

من عذاب الاستئصال .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في أهل مكة بعد أن دخلها رسول الله صلى الله عليه

وسلم عام الفتح وقال لهم : " ما ظنكم بي وما الذي ترون أني صانع بكم ؟ " قالوا : ابن عم

كريم فإن تعف فذاك الظن بك وإن تنتقم فقد أسأنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أقولُ

لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

﴿ [يوسف : 92] فأنزل الله تعالى هذه الآية . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ النكت والعيون

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ قل للذين كفروا ﴾ الآية ،

أمر من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار هذا المعنى الذي تضمنه ألفاظ قوله ﴿ إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ وسواء قاله النبي صلى الله عليه وسلم في هذه العبارة أو غيرها ، ولو كان الكلام كما ذكر الكسائي أنه في مصحف ابن مسعود " قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لكم " لما تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها ، هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ ، وقوله ﴿ إن ينتهوا ﴾ يريد به عن الكفر ولا بد ، والحامل على ذلك جواب الشرط ﴿ يغفر بهم ما قد سلف ﴾ ، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمنته عن الكفر ، وقوله ﴿ إن يعودوا ﴾ يريد به إلى القتال لأن لفظة عاد يعود إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان الإنسان عليها ثم تنقل عنها .

ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال ، ولا يصح أن يتأول ﴿ وإن يعودوا ﴾ إلى الكفر لأنهم لم ينفصلوا عنه وإنما قلنا في عاد إذا كانت مطلقة لأنها قد تجيء في كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر بمنزلة صار ، وذلك كما تقول عاد زيد

ملكاً تريد صار ، ومنه قول أبي الصلت :

تلك المكارم لا قعبان من لبن . . . شيبيا بماء فعادا بعد أبوالا

وهذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان العائد عليها قبل ، لكنها مقيدة بخبرها لا يجوز  
الاقتصار دونه ، فحكمها حكم صار ، وقوله ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ عبارة بجمع  
الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله حين صد في وجه  
نبيه ومن هلك في يوم بدر بسيف الإسلام والشرع ، والمعنى قد رأيتم وسمعتم عن الأمم ما  
حل .

قال القاضي أبو محمد : والتخويف عليهم بقصة بدر أشد إذ هي القريبة منهم والمعانة  
عندهم وعليها نص ابن إسحاق والسدي . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص



(15/312)

وقال ابن الجوزي :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ نزلت في أبي سفيان وأصحابه ، قاله أبو صالح عن ابن

عباس .

وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : إن ينتهوا عن المحاربة ، يُغْفَرُ لَهُمْ ما قد سلف من حربهم ، فلا يُؤْخَذُونَ به ، وإن يعودوا إلى المحاربة ، فقد مضت سنة الأولين في نصر الله أولياءه ، وقيل : في قتل من قُتِلَ يوم بدر وأسر .

والثاني : إن ينتهوا عن الكفر ، يُغْفَرُ لَهُمْ ما قد سلف من الإثم ؛ وإن يعودوا إليه ، فقد مضت سنة الأولين من الأمم السالفة حين أخذوا بالعذاب المستأصل .

قال يحيى بن معاذ .

في هذه الآية : إن توحيداً لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر ، لا يعجز عن هدم ما بعده من

ذنب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(16/312)

وقال القرطبي :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(38) ﴿

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار هذا المعنى ، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها .

قال ابن عطية : ولو كان كما ذكر الكسائي أنه في مصحف عبد الله بن مسعود " قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم " لما تأدّت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها ؛ هذا مجسب ما تقتضيه الألفاظ .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ يريد عن الكفر .

قال ابن عطية : ولا بُدَّ ؛ والحامل على ذلك جواب الشرط " يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ " ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لِمُنْتَهٍ عن الكفر .

ولقد أحسن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزبيري :

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعترفُ . . .

ثم انتهى عما أتاه واقترفُ

لقوله سبحانه في المعترفُ . . .

إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلفُ

روى مسلم عن أبي شُماسة المهري قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت

يبكي طويلاً .

الحديث .

وفيه : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن

الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله " الحديث .

قال ابن العربي : هذه لطيفة من الله سبحانه من بها على الخلق ؛ وذلك أن الكفار يقتحمون

الكفر والجرائم ، ويرتكبون المعاصي والمآثم ؛ فلو كان ذلك يوجب مؤاخضة لهم لما

استدركوا أبداً توبة ، ولا نالتهم مغفرة .

فيسر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإنابة ، وبذل المغفرة بالإسلام ، وهدم جميع ما تقدم

؛ ليكون ذلك أقرب لدخولهم في الدين ، وأدعى إلى قبولهم لكلمة المسلمين ، ولو علموا أنهم

يؤاخضون لما تابوا ولا أسلموا .

(17/312)

---

وفي صحيح مسلم : " أن رجلاً فمِن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفساً ثم سأل هل له من

توبة فجاء عابداً فسأله هل له من توبة فقال : لا توبة لك فقتله فكمل به مائة " الحديث .

فانظروا إلى قول العابد : لا توبة لك ؛ فلما علم أنه قد أيّسه قتله ، فَعَلَ الأيس من الرحمة .

فالتغير مفسدة للخليقة ، والتيسير مصلحة لهم .



وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان إذا جاء إليه رجل لم يقتل فسأله: هل لقاتلٍ من توبة؟ فيقول: لا توبة؛ تخويفاً وتحذيراً.

فإذا جاءه من قتل فسأله: هل لقاتل من توبة؟ قال له: لك توبة؛ تيسيراً وتأليفاً. وقد تقدّم.

الثالثة: قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك فيمن طلق في الشرك ثم أسلم؛ فلا طلاق له. وكذلك من حلف فأسلم فلا حنث عليه.

وكذا من وجبت عليه هذه الأشياء؛ فذلك مغفور له.

فأما من افتري على مسلم ثم أسلم أو سرق ثم أسلم أقيم عليه الحدّ للفرية والسرقة.

ولوزني وأسلم، أو اغتصب مسلمة ثم أسلم سقط عنه الحدّ.

وروي أشهب عن مالك أنه قال: إنما يعني الله عز وجل ما قد مضى قبل الإسلام، من مال أودم أو شيء.

قال ابن العربي: وهذا هو الصواب؛ لما قدّمناه من عموم قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ

يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، وقوله: "الإسلام يهدم ما قبله"، وما بيناه من المعنى من

التيسير وعدم التنفير.

قلت: أما الكافر الحربيّ فلا خلاف في إسقاط ما فعله في حال كفره في دار الحرب.

وأما إن دخل إلينا بأمان فقدف مسلماً فإنه يحدّ، وإن سرق قطع.

وكذلك الذمّي إذا قذف حدّ ثمانين ، وإذا سرق قطع ، وإن قتل قتل .  
ولأيسقط الإسلام ذلك عنه لنقضه العهد حال كفره ؛ على رواية ابن القاسم وغيره .

(18/312)

---

قال ابن المنذر : واختلفوا في النصراني يزني ثم يسلم ، وقد شهدت عليه بينة من المسلمين ؛  
فحكى عن الشافعي رضي الله عنه إذ هو بالعراق لا حدّ عليه ولا تعريب ؛ لقول الله عز  
وجل : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ .

قال ابن المنذر : وهذا موافق لما روي عن مالك .

وقال أبو ثور : إذا أقر وهو مسلم أنه زنى وهو كافر أقيم عليه الحدّ .

وحكى عن الكوفي أنه قال : لا يحدّ .

الرابعة : فأما المرتد إذا أسلم وقد فاتته صلوات ، وأصاب جنایاتٍ وأتلف أموالاً ؛ فقبيل :

حكمه حكم الكافر الأصلي إذا أسلم ؛ لا يؤخذ بشيء مما أحدثه في حال ارتداده .

وقال الشافعي في أحد قوليه : يلزمه كل حق لله عز وجل وللآدمي ؛ بدليل أن حقوق

الآدميين تلزمه فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى .

وقال أبو حنيفة : ما كان لله يسقط ، وما كان للآدمي لا يسقط .

قال ابن العربي: وهو قول علمائنا؛ لأن الله تعالى مستغن عن حقه، والآدمي مفتقر إليه.  
الأتري أن حقوق الله عز وجل لا تجب على الصبي وتلزمه حقوق الآدميين.  
قالوا: وقوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ عام في الحقوق لله  
تعالى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُعْودُوا ﴾ يريد إلى القتال؛ لأن لفظة "عاد" إذا جاءت  
مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة كان الإنسان عليها ثم انتقل عنها.  
قال ابن عطية: ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال.  
ولا يجوز أن يتأول إلى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا ذلك في "عاد" إذا كانت  
مطلقة لأنها قد تجيء في كلام العرب داخلة في الابتداء والخبر، فيكون معناها معنى صار  
؛ كما تقول: عاد زيد ملكاً؛ يريد صار.

ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

تلك المكارم لا قعبان من لبن . . .

شيباً بماء فعادا بعد أبوالأ

وهذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان العائد عليها قبل .

فهي مقيدة بخبرها لا يجوز الاقتصار دونها ؛ فحكمها حكم صار .

قوله تعالى : ﴿ فَقدَ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن

هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 7

ص ﴿

(20/312)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قل ﴾ يعني قل يا محمد ﴿ للذين كفروا إن ينتهوا ﴾ يعني عن

الشرك ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ يعني ما قد مضى من كفرهم وذنوبهم قبل الإسلام ﴿

وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴿ يعني في إهلاك أعدائه ونصر أوليائه .

ومعنى الآية : إن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن الكفر ودخلوا في دين الإسلام والتزموا شرائعه

غفر الله لهم ما قد سلف من كفرهم وشركهم وإن عادوا إلى الكفر وأصروا عليه فقد

مضت سنة الأولين بإهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه وأجمع العلماء على أن الإسلام

يجب ما قبله وإذا أسلم الكافر لم يلزمه شيء من قضاء العبادات البدنية والمالية .

وهو ساعة إسلامه كيوم ولدته أمه يعني بذلك أنه ليس عليه ذنب .

قال يحيى بن معاذ الرازي : التوحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر فأرجوا الله أن لا يعجز

عن هدم ما بعده من ذنب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ج 3 ص ﴾

(21/312)

وقال أبو حيان :

﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾

لما ذكر ما يجلب بهم من حشرهم إلى النار وجعلهم فيها وخسرهم تلطّف بهم وأنهم إذا انتهوا

هن الكفر وآمنوا غفرت لهم ذنوبهم السالفة وليس ثم ما يترتب على الانتهاء عنه غفران

الذنوب سوى الكفر فلذلك كان المعنى ﴿ إن ينتهوا ﴾ عن الكفر واللام في ﴿ للذين ﴾

الظاهر أنها للتبليغ وأنه أمر أن يقول لهم هذا المعنى الذي تضمنته ألفاظ الجملة المحكية

بالقول وسواء قاله بهذه العبارة أم غيرها ، وجعل الزمخشري اللام لام العلة ، فقال : أي ﴿

قل ﴾ لأجلهم هذا القول ﴿ إن ينتهوا ﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم به لقليل إن تنتهوا يغفر

لكم ، وهي قراءة ابن مسعود ونحوه ، ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما

سبقونا إليه ﴾ خاطبوا به غيرهم ليسمعوه انتهى ، وقرئ ﴿ يغفر ﴾ مبنياً للفاعل

والضمير لله تعالى .

﴿ وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾ .

(22/312)

---

العود يقتضي الرجوع إلى شيء سابق ولا يكون الكفر لأنهم لم ينفصلوا عنه فالمعنى عودهم إلى ما أمكن انفصالهم منه وهو قتال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقيل ﴿ وإن يعودوا ﴾ إلى الارتداد بعد الإسلام ، وبه فسّر أبو حنيفة ﴿ وإن يعودوا ﴾ واحتج بالآية على أن المرتد إذا أسلم فلا يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الردة وقبلها وأجمعوا على أن الحربي إذا أسلم لم تبقى عليه تبعة وأما إذا أسلم الذمي فيلزمه قضاء حقوق الأدميين لا حقوق الله تعالى والظاهر دخول الزنديق في عموم قوله ﴿ قل للذين كفروا ﴾ فتقبل توبته وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وقال مالك لا تقبل ، وقال يحيى بن معاذ الرازي : التوحيد لا يعجز عن هدم ما قبله من كفر فلا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب وجواب الشرط قالوا : ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ ، ولا يصح ذلك على ظاهره بل ذلك دليل على الجواب والتقدير ﴿ وإن يعودوا ﴾ انتقمنا منهم وأهلكناهم فقد مضت سنة الأولين في أنا انتقمنا منهم وأهلكناهم بتكذيب أنبيائهم وكفرهم ويحتمل ﴿ سنة

الأولين ﴿ أن يراد بها سنة الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر وسنة الذين تحزّبوا على أنبيائهم  
فدمروا فليتوقعوا مثل ذلك وتخوفهم بقصة بدر أشدّ إذ هي قريبة معاينة لهم وعليها نص  
السديّ وابن إسحاق ، ويحتمل أن يراد بقوله ﴿ سنة الأولين ﴾ من تقدم من أهل بدر  
والأمم السالفة والمعنى فقد عاينتم قصة بدر وسمعتم ما حلّ بهم . انتهى انتهى . ١٠ هـ  
﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(23/312)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

هم أبو سفيان وأصحابه أي قل لأجلهم ﴿ إِن يَنْتَهُوا ﴾ عما هم فيه من معاداة النبيّ صلى  
الله عليه وسلم بالدخول في الإسلام ﴿ يُغْفِرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ من الذنوب وقرىء إن  
تنتهوا يُغْفِرْ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿ وَإِن يَعْودُوا ﴾ إلى قتالهم  
﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولِينَ ﴾ الذين تحزّبوا على الأنبياء عليهم السلام بالتدمير كما  
جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص



وقال الأوسى :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي المعهودين وهم أبو سفيان وأصحابه ، واللام عند جمع للتعليل

أي قل لأجلهم ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ عما هم فيه من معاداة الرسول صلى الله عليه وسلم

بالدخول في الإسلام ﴿ يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ منهم من الذنوب التي من جملتها المعاداة

والانفاق في الضلال ، وقال أبو حيان : الظاهر أن اللام للتبليغ وأنه عليه الصلاة والسلام أمر

أن يقول هذا المعنى الذي تضمنته ألفاظ هذه الجملة المحكية بالقول سواء قاله بهذه العبارة

أم غيرها ، وهذا الخلاف إنما هو على قراءة الجماعة وأما على قراءة ابن مسعود ﴿ إِنْ

تَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَكُمْ ﴾ بالخطاب فلا خلاف في أنها للتبليغ على معنى خاطبهم بذلك ، وقرىء

﴿ نَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ على أن الضمير لله عز وجل ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ إلى قتاله صلى الله عليه

وسلم أو إلى المعاداة على معنى إن داوموا عليها ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي عادة

الله تعالى الجارية في الذين تحزبوا على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من نصر المؤمنين عليهم

وخذلانهم وتدميرهم .

(24/312)



وأضيفت السنة إليهم لما بينهما من الملازمة الظاهرة ، ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ رَأْسُنَا ﴾ [الإسراء : 77] فأضاف السنة إلى المرسلين مع أنها سنته تعالى لقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : 77] باعتبار جريانها على أيديهم ، ويدخل في الأولين الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر ، وبعضهم فسره بذلك ولعل الأول أولى لعمومه ولأن السنة تقتضي التكرار في العرف وإن قالوا : العادة تثبت بمرة ، والجملة على ما في البحر دليل الجواب ، والتقدير أن يعودوا انتقمنا منه أو نصرنا المؤمنين عليهم فقد مضت سنة الأولين ، وذهب غير واحد إلى أن المراد بالذين كفروا الكفار مطلقاً ، والآية حث على الإيمان وترغيب فيه ، والمعنى أن الكفار أن اتهاوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما سلف منهم من الكفر والمعاصي وخرجوا منها كما تنسل الشعرة من العجين وإن عادوا إلى الكفر بالارتداد فقد رجع التسليط والقهر عليهم ، واستدل بالآية على أن الإسلام يجب ما قبله ، وأن الكافر إذا أسلم لا يخاطب بقضاء ما فاتته من صلاة أو زكاة أو صوم أو إتلاف مال أو نفس ، وأجرى المالكية ذلك كله في المرتد إذا تاب لعموم الآية ، واستدل بها على إسقاط ما على الذمي من جزية وجبت عليه قبل إسلامه ، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب عن مالك قال : لا يؤخذ الكافر بشيء صنعته في كفره إذا أسلم وذلك لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنْ يَنْهَوُا ﴾ الخ .

وقال بعض : إن الحربي إذا أسلم لم يتبق عليه تبعة أصلاً وأما الذمي فلا يلزمه قضاء حقوق

الله تعالى وتلزمه حقوق العباد ، ونسب إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أن مذهب في المرتد كمذهب المالكية في أنه إذا رجع إلى الإسلام لم يتبق عليه تبعة وهو كالريح في أن من عصى طول العمر ثم ارتد ثم أسلم لم يبق عليه ذنب .

(25/312)

---

ونسب بعضهم قول ذلك إليه رضي الله تعالى عنه صريحا وادعى أنه احتج عليه بالآية وأنه في غاية الضعف إذ المراد بالكفر المشار إليه في الآية هو الكفر الأصلي وبما سلف ما مضى في حال الكفر ، وتعقب ذلك بأن أبا حنيفة ومالكاً أبقيا الآية على عمومها لحديث " الإسلام يعدم ما كان قبله " وإنهما قالا : إن المرتد يلزمه حقوق الأدميين دون حقوق الله تعالى كما في كتاب أحكام القرآن لابن عبد الحق ، وخالفهما الشافعي رضي الله تعالى عنه وقال : يلزمه جميع الحقوق ، وأنا أقول ما ذكره ذلك البعض عن أبي حنيفة في العاصي المذكور في غاية الغرابة ، وفي كتب الأصحاب ما يخالفه ، ففي الخانية إذا كان المرتد قضاء صلوات أو صيامات تركها في الإسلام ثم أسلم قال شمس الأئمة الحلواني : عليه قضاء ما ترك في الإسلام لأن ترك الصلاة والصيام معصية تبقى بعد الردة .

(26/312)

---

نعم ذكر قاضيخان فيها ما يدل على أن بعض الأشياء يسقط عن هذا المرتد إذا عاد إلى الإسلام وأطال الكلام في المرتد ولا بأس بنقل شيء مما له تعلق في هذا المبحث إذ لا يخلو عن فائدة، وذلك أنه قال: مسلم أصاب مالاً أو شيئاً يجب به القصاص أو حد قذف ثم ارتد أو أصاب ذلك، وهو مرتد في دار الإسلام ثم لحق بدار الحرب وحارب المسلمين زمناً ثم جاء مسلماً فهو مأخوذ بجميع ذلك ولو أصاب ذلك بعد ما لحق بدار الحرب مرتداً وأسلم فذلك كله موضوع عنه، وما أصاب المسلم من حدود الله تعالى كالزنا والسرقة وقطع الطريق ثم ارتد أو أصاب ذلك بعد الردة ثم لحق بدار الحرب ثم جاء مسلماً فكل ذلك يكون موضوعاً عنه إلا أنه يضمن المال في السرقة، وإذا أصاب دماً في الطريق كان عليه القصاص، وما أصاب في قطع الطريق من القتل خطأ ففيه الدية على عاقلته إن أصابه قبل الردة وفي ماله أصابه بعدها، وإن وجب على المسلم حد الشرب ثم ارتد ثم أسلم قبل اللحوق بدار الحرب فإنه لا يؤخذ بذلك لأن الكفر بمنع وجوب الحد ابتداءً فإذا اعترض منع البقاء وإن أصاب المرتد ذلك وهو محبوس لا يؤخذ بحد الخمر والسكر ويؤخذ بما سوى ذلك من حدود الله تعالى، ويتمكن الإمام من إقامة هذا الحد إذا كان في يده فإن لم يكن في يده حين أصاب ذلك ثم أسلم قبل اللحوق بدار الحرب فهو موضوع عنه أيضاً انتهى، ومنه يعلم أن قولهم المرتد يلزمه حقوق العباد دون حقوق الله تعالى ليس على إطلاقه وتام

الكلام في الفروع ، وأنت تعلم أن الوجه في الآية هو المطابق لمقتضى المقام وأن المتبادر من الكفر الكفر الأصلي .

(27/312)

---

و " الإسلام يهدم ما كان قبله " بعض من حديث أخرجه مسلم عن عمرو بن العاص قال : " أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ابسط يمينك لأبائعك فبسط يمينه الشريفة قال : فقبضت يدي فقال : عليه الصلاة والسلام ما لك يا عمرو ؟ قلت : أردت أن أشرط قال : تشرط ماذا ؟ قلت : أشرط أن يغفر لي قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله " الحديث .

والظاهر أن ﴿ مَا ﴾ لا يمكن حملها في الكل على العموم كما لا يخفى فلا تغفل .  
وذكر بعضهم أن الكافر إذا أسلم يلزمه التوبة والندم على ما سلف مع الإيمان حتى يغفر له وفيه تأمل فتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(28/312)

وقال ابن عاشور:

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنِّي نُنَهَوُا يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

جرى هذا الكلام على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب، والوعيد بالوعد،  
والعكس، فأنذرهم بما أنذر، وتوعددهم بما توعد ثم ذكرهم بأنهم متمكنون من التدارك  
وإصلاح ما أفسدوا، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما يفتح لهم باب  
الإنبابة.

والجملة استئناف يصح جعله بيانياً لأن ما تقدم بين يديه من الوعيد وقلة الاكتراث بشأنهم،  
وذكر خيبة مساعيهم، مما يثير في أنفسهم بعضهم والسامعين أن يتساءلوا عما إذا بقي لهم  
مخلص ينجيهم من ورطتهم التي ارتبقوا فيها، فأمر الرسول بأن يقول لهم هذا المقال ليريهم أن  
باب التوبة مفتوح، والإقلاع في مكنتهم.

وأسند الفعل في الجملة المحكية بالقول إلى ضمير الغائبين لأنه حكاية بالمعنى روعي فيها  
جانب المخاطب بالأمر تنبيهاً على أنه ليس حظه مجرد تبليغ مقالة، فجعل حظه حظ  
لمخبر بالقضية الذي يراد تقررها لديه قبل تبليغها، وهو إذا بلغ إليهم يبلغ إليهم ما أعلم به  
وبلغ إليه، فيكون مخبراً بمخبر وليس مجرد حامل لرسالة.

والمراد بالانتهاء: الانتهاء عن شيء معلوم دل عليه وصف الكفر هنا وما تقدمه من أمثاله

وآثاره من الانفاق للصد عن سبيل الله ، أي إن ينتهوا عن ذلك ، وإنما يكون الانتهاء عن ذلك كله بالإيمان .

و ﴿ ما قد سلف ﴾ هو ما أسلفوه من الكفر وآثاره ، وهذا ، وإن كان قضية خاصة بالمشركين المخاطبين ، فهو شامل كل كافر لتساوي الحال .

ولفظ الغفران حقيقة شرعية في العفو عن جزاء الذنوب في الآخرة ، وذلك مهيع الآية فهو معلوم منها بالقصد الأول لا محالة ، ويلحق به هنا عذاب الله في الدنيا لقوله : ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ .

وأسنبت أيمتنا من هذه الآية أحكاماً للأفعال والتبعات التي قد تصدر من الكافر في حال كفره فإذا هو أسلم قبل أن يؤخذ بها هل يسقط عنه إسلامه التبعات بها .

(29/312)

---

وذلك يرجع إلى ما استقرته وأصلته في دلالة آي القرآن على ما يصح أن تدل عليه ألفاظها وتراكيبها في المقدمة التاسعة من هذا التفسير ، فروى ابن العربي في "الأحكام" أن ابن القاسم ، وأشهب ، وابن وهب ، رروا عن مالك في هذه الآية : أن من طلق في الشرك ثم أسلم فلا طلاق عليه ، ومن حلف يميناً ثم أسلم فلا حنث عليه فيها ، وروى عن مالك :

إنما يعني عز وجل ما قد مضى قبل الإسلام من مال أو دم أو شيء ، قال ابن العربي وهو الصواب لعموم قوله : ﴿ إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ ، وإن ابن القاسم ، وابن وهب ، روي عن مالك أن الكافر إذا افتري على مسلم أو سرق ثم أسلم يقام عليه الحد ، ولو زنى ثم أسلم أو اغتصب مسلمة ثم أسلم لسقط عنه الحد تفرقة بين ما كان حقاً لله محضاً وما كان فيه حق للناس .

وذكر القرطبي عن ابن المنذر : أنه حكى مثل ذلك عن الشافعي ، وأنه احتج بهذه الآية ، وفي "المدونة" تسقط عنه الحدود كلها .

وذكر في "الكشاف" عن أبي حنيفة أن الحربي إذا أسلم لم يتبق عليه تبعة ، وأما الذمي فلا يلزمه قضاء حقوق الله وتبقى عليه حقوق الأدميين ، واحتج بهذه الآية ، وفي كتب الفتوى لعلماء الحنفية بعض مخالفة لهذا ، وحكوا في المرتد إذا تاب وعاد إلى الإسلام أنه لا يلزمه قضاء ما فاتته من الصلاة ولا غرم ما أصاب من جنایات وملتفات .

وعن الشافعي يلزم ذلك كله وهو ما نسبته ابن العربي إلى الشافعي بخلاف ما نسبته إليه ابن المنذر كما تقدم وعن أبي حنيفة يسقط عنه كل حق هو لله ولا يسقط عنه حق الناس وحجة الجميع هذه الآية تعميماً وتخصيصاً بمخصصات أخرى .

وفي قوله تعالى : ﴿ إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ مُحسنٌ بدعي وهو الاتزان لأنه في ميزان الرجز .

والمراد بالعود الرجوع إلى ما هم فيه من مناوأة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ،  
والتجهز لحربهم ، مثل صنعهم يوم بدر ، وليس المراد عودهم إلى الكفر بعد الانتهاء لأن  
مقابله بقوله : ﴿ إن ينتهوا ﴾ تقتضي أنه تريد بين حالتين لبيان ما يترتب على كل واحدة  
منهما وهذا كقول العرب بعضهم لبعض : "أسلمت أنت أم حرب" ولأن الذين كفروا لما يفارقوا  
الكفر بعدُ فلا يكون المراد بالعود عودهم إلى الكفر بعد أن يسلموا .  
والسنة العادة المألوفة والسيرة .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ في [آل عمران : 137] .  
ومعنى ﴿ مضت ﴾ تقدمت وعرفها الناس .

وهذا الخبر تعريض بالوعيد بأنهم سيلقون ما لقيه الأولون ، والقرينة على إرادة التعريض  
بالوعيد أن ظاهر الإخبار بمضي سنة الأولين ، وهو من الإخبار بشيء معلوم للمخبرين به ،  
وبهذا الاعتبار حسن تأكيده بقدر إذ المراد تأكيد المعنى التعريضي .

وبهذا الاعتبار صح وقوع قوله : ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ جزاء للشرط .  
ولولا ذلك لما كان بين الشرط وجوابه ملازمة في شيء .



والأولون : السابقون المتقدمون في حالة ، والمراد هنا الأمم التي سبقت وعرفوا أخبارهم أنهم كذبوا رسل الله فلقوا عذاب الاستيصال مثل عاد وثمود قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولِينَ ﴾ [فاطر : 43] .

ويجوز أن المراد بالأولين أيضاً السابقون للمخاطبين من قومهم من أهل مكة الذين استأصلهم السيف يوم بدر ، وفي كل أولئك عبرة للحاضرين الباقين ، وتهديد بأن يصيروا مصيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(31/312)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

و" قل " أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وما دام قد وجد أمر ، فلا بد من وجود المبلغ للأمر ، أي أن هناك مخاطباً ومخاطباً ، والمخاطب هنا هو الله سبحانه ، والمخاطب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله تعالى قال له : " قل " ، والبلاغ المطلوب منه إبلاغه للناس هو ما يتضمنه قول المولى سبحانه :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : 38] .

أي إن انتهوا عن الكفر غفرت لهم ذنوبهم التي ارتكبوها أيام كفرهم ، ونلاحظ هنا اختلافاً في أسلوب الكلام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يخاطب الكافرين كان الذي يفرضه السياق أن يقول لهم : إن تنتهوا يغفر لكم ؛ لأن الخطاب لا بد أن ينسجم مع المخاطب ، وعادة عندما توجه الخطاب لشخص تكون هناك " لام التوجيه " ، تقول : وجهت الخطاب لفلان ، وتخاطبه بشكل مباشر ، ولكن الله يقول هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ﴾ [الأنفال: 38] .

وكان سياق الكلام يقتضي القول : إن تنتهوا يغفر لكم ، ولكن الله سبحانه وتعالى عدل عن إن تنتهوا إلى " إن ينتهوا " ، والكلام مخاطب به الكفار ، والكفار حاضرون فكيف يخاطبهم بصيغة الغائب ؟

لقد أراد الله تعالى أن يأتي الخطاب ليعم كل متكلم يقال له هذا الكلام من أي مؤمن ، فكأنه قد عمم الخطاب ليقطع المعاذير . ومثل ذلك مثل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: 11] .

(32/312)

---

وإذا أخذنا ذات المقياس لكان الكلام يقتضي أن يقال: لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه، ولأن هذه العبارة قيلت من أكثر من كافر في أماكن متعددة للمؤمنين، وأراد الله سبحانه وتعالى: أن يلفتنا لذلك، فعمم الخطاب حتى يشمل جميع الحالات ولا ينطبق على حالة واحدة فقط، بل ينطبق على كل حالة تماثلة؛ لذلك قال سبحانه:

﴿ إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: 38]

وهذا يدلنا على أنهم إن انتهوا عن مقاومة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنادهم معه فهو سبحانه وتعالى يغفر لهم، لأن العناد والمقاومة ناشئان عن الكفر، فإن انتهوا عنهما، صاروا مؤمنين. والإسلام يجب ما قبله.

ولذلك عندما أعلن محارب عن إيمانه واعتنق الإسلام وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم دخل المعركة فاستشهد صار شهيداً؛ لأنه قد غفر له بشهادة الإسلام كل ذنوبه التي حدثت منه أثناء الكفر، وهي الذنوب التي تتعلق بحقوق الله تعالى، أما ما يتعلق بحقوق الناس، فعلى ورثته أن يؤديها عنه.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِن يَئُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: 38].

وقوله هنا: ﴿ وَإِن يَئُودُوا ﴾ أراد الله أن يعلمنا أن تجري هذه الكلمة على اللسان، فإن عادوا مرة أخرى إلى الكفر والعناد، يطردها من رحمة الله ومغفرته، إذن فشرط الغفران

لهم أن يستمروا في إيمانهم وألا يعودوا للكفر مرة أخرى ، وقوله تعالى : ﴿ مَضَتْ سُنَّةُ  
الْأَوَّلِينَ ﴾ .

والسنة هي الطريقة أو الكيفية أو الحالة التي يكونون عليها ولذلك يقول الحق سبحانه

وتعالى : ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [ الأحزاب : 62 ] .

أي الطريقة التي اختارها الله لمعالجة الأمور بالحق والعدل ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ مَضَتْ  
سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ :

(33/312)

---

أي الطريقة التي عرفتموها وعالج بها الله عز وجل أمر من عاند الرسل ووقف منهم موقف  
المنازعة والمعارضة . ومثل ذلك حدث للكفار في بدر ، فكان من يقف أمام دعوة الله  
ومنهجه لا بد أن يتعرض للهلاك كما حدث مع كل من قاوم الأنبياء ، فأنتم تعرفون ما صنعه  
الله بقوم هود وقوم عاد وقوم ثمود وقوم فرعون . ومر كل ذلك عليكم ، كسنة عامة تشمل  
كل من قاوم الأنبياء ووقف في طريق دعوتهم إلى الله .

والخطاب هنا إما أن يكون خطاباً لهم على حالهم في وطنهم وما حدث للمخالفين في بدر

وقد رأوا مصارعهم ، وإما أن يكون الخطاب مبيناً لسنة الله تعالى وقد شاءت سنته

سبحانه بإدابة كل مخالف لسنته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(34/312)

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(38) ﴿

وأخرج ابن أحمد ومسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال " لما جعل الله الإسلام في

قلبي ، أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ابسط يدك فالأبايعك . فبسط يمينه

فقبضت يدي . قال : مالك . . . ؟ ! قلت : أردت أن اشترط . قال : قال : تشترط قلت

: ان يغفر لي . قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها

، وأن الحج يهدم ما كان قبله " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس رضي الله عنه قال : لا يؤخذ الكافر بشيء صنعته

في كفره إذا أسلم ، وذلك أن الله تعالى يقول ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ

سلف ❖ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي  
الله عنه في قوله ❖ فقد مضت سنة الأولين ❖ قال: في قريش وغيرها يوم بدر والأمم قبل  
ذلك . انتهى انتهى . اه ❖ الدر المنثور ج 4 ص ❖

(35/312)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

❖ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ❖ .

وفي هذه اللام الوجهان المشهوران:

الأول: أنها للتبليغ، أمر أن يُبلِّغهم معنى هذه الجملة المحكية بالقول، وسواء أوردتها بهذا  
اللفظ أم بلفظ آخر مؤدِّ لمعناها .

والثاني: أنها للتعليل، وبه قال الزمخشريُّ .

ومنع أن تكون للتبليغ، فقال: "أي قل لأجلهم هذا القول: "إن ينتهوا" ن ولو كان بمعنى  
خاطبهم به، ل قيل: "إن تنتهوا يغفر لكم وهي قراءة ابن مسعود، ونحو ❖ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا ﴿ [الأحقاف : 11 ] خاطبوا به غيرهم لِيَسْمَعُوهُ "

وقرىء "يغفره" مبنياً للفاعل ، وهو ضمير يعود على الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 514 . 515 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنِ يَنْهَوُا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنةُ الْأَوَّلِينَ

(38) ﴾

إِنْ كَبَحُوا لِجَامِ التَّمَرْدِ ، وَأَقْلَعُوا عَنِ الرُّكُضِ فِي مِيدَانِ الْعِنَادِ وَالتَّجْبُرِ أَرْزَلْنَا عَنْهُمْ صَغَارَ

الهُوَانِ ، وَأَوْجَبْنَا لَهُمْ رُوحَ الْأَمَانِ .

ويقال إن حلوا نطاق العناد أطلقنا عنهم عقاب البعاد .

ويقال إن أبصروا قُبْحَ فِعَالِهِمْ جُدْنَا عَلَيْهِمْ بِإِصْلَاحِ أحوالِهِمْ .

ويقال إن جنحوا للاعتذار أقبينا عليهم حالة الاعتذار .

ويقال إن عادوا إلى التَّصَلُّ أَمَجْنَا لَهُمْ حُسْنَ التَّفَضُّلِ :

أَنَاسٌ أَعْرَضُوا عَنَّا . . . بِلَا جُرْمٍ وَلَا مَعْنَى

أَسَاءُوا ظَنَّهُمْ فِينَا . . . فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّ

فَإِنْ كَانُوا لَنَا - كُنَّا ، . . . وَإِنْ عَادُوا لَنَا عُدْنَا

وإن كانوا قد استغنوا . . . فإننا عنهم أغنى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ

﴿ 1 ص 624 ﴾

(36/312)

قوله تعالى ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ اتَّهَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا  
يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (39) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أشار ختم الآية قتالهم إن أصروا ، وكان التقدير : فأقدموا عليهم حيثما عادوكم إقدام  
الليوث الجريئة غير هائئين كثرتهم ولا قوتهم فإن الله خاذلهم ، عطف عليه قوله مصرحاً  
بالمقصود : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ أي دائماً ﴿ حتى لا تكون فتنة ﴾ أي سبب يوجب ميلاً عن  
الدين أصلاً ﴿ ويكون الدين ﴾ .

ولما كانت هذه الواقعة قد سرت كائب هيبتها في القلوب فوجبت أيما وجبت ، فضاقت  
وضعت صدور الكافرين ، وانشرحت وقويت قلوب المؤمنين ؛ اقتضى هذا السياق  
التأكيد فقال : ﴿ كله لله ﴾ أي الملك الأعظم خالصاً غير مشوب بنوع خوف أو إغضاء



على قذى ، وأصل الفتن : الخاططة المحيلة ، ويلزم ذلك أن يكون السبب عظيماً لأن الشيء لا يحول عن حاله إلا الأمر عظيم لأن مخالفة المألوف عسرة ، ومنه النفت ، وكذا نفت القدر ، وهو أن يغلي المرق فيلزم بجوانبها ، والتنوفة : القفر ، لأنه موضع ذلك ، ويلزمه الإخلاص ، من فنت الذهب - إذا أذبه تميز جيده من رديئه ، وتارة يكون الميل إلى جهة الرديء وهو الأغلب ، وتارة إلى الجيد ، ومنه ﴿ وقتناك فتونا ﴾ [ طه : 40 ] .

(37/312)

---

ولما كان لهم حال اللقاء حالان : إسلام وإقبال ، وكفر وإعراض وإخلال ، قال مبيناً للحكم القسمين : ﴿ فإن انتهوا ﴾ أي عن قتالكم بالمواجهة بالإسلام فاقبلوا منهم وانتهوا عن مسهم بسوء ولا تقولوا : أتم متعودون بذلك غير مخلصين ، تمسكاً بالتأكيد بكله ، فإنه ليس عليكم إلا ردهم عن المخالفة الظاهرة ، وأما الباطن فألى الله ﴿ فإن الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ، وقدم المجرور اهتماماً به إنها ما لأن العلم به كالمختص به فقال : ﴿ بما يعملون ﴾ أي وإن دق ﴿ بصير ﴾ فيجاريهم عليه ، وأما أتم فلستم عالمين بالظاهر والباطن معاً فعليكم قبول الظاهر ، والله بما تعملون أتم أيضاً - من كف عنهم وقتل الله أو لحظ نفس - بصير ، فيجازيكم على حقائق الأمور وبواطنها وإن أظهرتم للناس ما يقيم

عذرکم ، ویکمل لكل منکم أجر ما کان عزم علی مباشرته من قتالهم لو لم ینتهوا . انتهى

انتهی . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 217.218 ﴾

(38/312)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن هؤلاء الكفار إن اتهموا عن كفرهم حصل لهم الغفران ، وإن عادوا فهم متوعدون بسنة الأولين ، أتبعه بأن أمر بقتالهم إذا أصرروا فقال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ﴾ قال عروة بن الزبير : كان المؤمنون في مبدأ الدعوة يفتنون عن دين الله ، فاقتن من المسلمين بعضهم وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يخرجوا إلى الحبشة ، وفتنة ثانية وهو أنه لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة ، توامرت قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم ، فأصاب المؤمنين جهد شديد ، فهذا هو المراد من الفتنة ، فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة .

وفيه وجه آخر ، وهو أن مبالغة الناس في حبهم أديانهم أشد من مبالغتهم في حبهم أرواحهم

، فالكافر أبداً يسعى بأعظم وجوه السعي في إيذاء المؤمنين وفي إلقاء الشبهات في قلوبهم  
وفي إلقاءهم في وجوه المحنة والمشقة ، وإذا وقعت المقاتلة زال الكفر والمشقة ، وخلص  
الإسلام وزالت تلك الفتن بالكلية .

قال القاضي : إنه تعالى أمر بقتالهم ثم بين العلة التي بها أوجب قتالهم ، فقال : ﴿ حتى لا  
تكون فتنة ﴾ ويخلص الدين الذي هو دين الله من سائر الأديان ، وإنما يحصل هذا المقصود  
إذا زال الكفر بالكلية .

(39/312)

---

إذا عرفت هذا فنقول : إما أن يكون المراد من الآية ﴿ وقاتلوهم ﴾ لأجل أن يحصل هذا  
المعنى أو يكون المراد ﴿ وقاتلوهم ﴾ لغرض أن يحصل هذا المعنى فإن كان المراد من الآية  
هو الأول وجب أن يحصل هذا المعنى من القتال فوجب أن يكون المراد ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ  
كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ في أرض مكة وما حواليتها ، لأن المقصود حصل هنا ، قال عليه السلام : " لا  
يجتمع دينان في جزيرة العرب " ولا يمكن حمله على جميع البلاد ، إذ لو كان ذلك مراداً لما بقي  
الكفر فيها مع حصول القتال الذي أمر الله به ، وأما إذا كان المراد من الآية هو الثاني ، وهو  
قوله : قاتلوهم لغرض أن يكون الدين كله لله ، فعلى هذا التقدير لم يمنع حمله على إزالة

الكفر عن جميع العالم لأنه ليس كل ما كان غرضاً للإنسان ، فإنه يحصل ، فكان المراد الأمر

بالتقال لحصول هذا الغرض سواء حصل في نفس الأمر أو لم يحصل .

ثم قال : ﴿ فَإِنْ أَتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ والمعنى ﴿ فَإِنْ أَتَهُوا ﴾ عن الكفر

وسائر المعاصي بالتوبة والإيمان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ عالم لا يخفى عليه شيء

يوصل إليهم ثوابهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ج 15 ص 131 ﴾

(40/312)

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ أَتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا

يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ ، وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ كُفْرٌ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا يُفْتَنَ أَحَدٌ عَنْ دِينِهِ .

وَكِلَاهُمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا ، وَهَذِهِ الْغَايَةُ لَا تَحَقُّقُ إِلَّا بِنُزُولِ عَيْسَى .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَمَسَائِلِ الْخِلَافِ .

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا ابْنُ عُمَرَ فَرَجَوْنَا أَنْ يُحَدِّثَنَا حَدِيثًا

حَسَنًا .

قَالَ : فَبَادَرْنَا إِلَيْهِ رَجُلٌ ، فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، حَدَّثْنَا عَنْ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ ، وَاللَّهُ يَقُولُ : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ .

فَقَالَ : هَلْ تَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ ؟ ثَكَلْتُكَ أُمَّكَ ، إِنَّمَا كَانَ مُحَمَّدٌ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَانَ الدُّخُولُ فِي دِينِهِمْ فِتْنَةً ، وَلَيْسَ يُقَاتِلُكُمْ عَلَى الْمُلْكِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربي ح 2 ص ﴾

(41/312)

وقال السمرقندي :

ثم حثَّ المؤمنين على قتال الكفار فقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ، يعني لا يكون الشرك بمكة ، ويقال : حتى لا يتخذوا شركاء ويوحدوا ربهم ، ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ ؛ يعني يظهر دين الإسلام ولا يكون دين غير دين الإسلام .

﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا ﴾ عن الشرك وعن عبادة الأوثان وقاتل المسلمين ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ؛ فينبئهم بأعمالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾

أي شرك ، وقال أبو العالية : بلاء ، وقال الربيع : حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ﴿ وَيَكُونَ  
الدينُ ﴾ التوحيد خالصاً ﴿ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ عز وجل ليس فيه شرك ويخلع ما دونه من  
الأنداد .

وقال قتادة : حتى يقال : لا إله إلا الله ، عليها قاتل نبي الله وإليها دعا .

وقيل : حتى تكون الطاعة والعبادة لله خالصة دون غيره ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا ﴾ عن الكفر  
والقتال ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص  
﴿

(42/312)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ الآية

أمر من الله عز وجل فرض به على المؤمنين أن يقاتلوا الكفار ، و"الفتنة" قال ابن عباس  
وغيره معناها الشرك ، وقال ابن إسحاق : معناها حتى لا يفتن أحد عن دينه كما كانت  
قريش تفعل بمكة بمن أسلم كبلال وغيره ، وهو مقتضى قول عروة بن الزبير في جوابه لعبد

الملك بن مروان حين سأله عن خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً ،  
وقوله ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ أي لا يشرك معه صنم ولا وثن ولا يعبد غيره ، وقال قتادة  
حتى تستوسق كلمة الإخلاص لا إله إلا الله .

قال القاضي أبو محمد : وهذه المعاني تتلازم كلها ، وقال الحسن : حتى لا يكون بلاء ،  
وهذا يلزم عليه القتال في فتن المسلمين الفئة الباغية ، على سائر ما ذكرناه من الأقوال يكون  
المعتزل في فسحة ، وعلى هذا جاء قول عبد الله بن عمر رضي الله عنه أما نحن فقد قاتلنا  
حتى لم تكن فتنة ، وأما أنت وأصحابك فتزيدون أن نقاتل حتى تكون فتنة .

قال القاضي أبو محمد : فمذهب عمر أن " الفتنة " الشرك في هذه الآية وهو الظاهر ،  
وفسر هذه الآية قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله  
إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " ، ومن  
قال المعنى حتى لا يكون شرك فالآية عنده يريد بها الخصوص فيمن لا يقبل منه جزية ، قال  
ابن سلام : وهي في مشركي العرب ، ثم قال الله تعالى : ﴿ فإن انتهوا ﴾ أي عن الكفر فإن  
الله بصير بعملهم مجاز عليه ، عنده ثوابه وجميل المعاوضة عليه وقرأ يعقوب بن إسحاق  
وسلام بن سليمان " بما تعملون " بالتاء أي في قتالكم وجدكم وجلادكم عن دينه . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾

أي : شرك .

وقال الزجاج : حتى لا يفتن الناس فتنة كفر ؛ ويدل عليه قوله : ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِقَوْلِ اللَّهِ ﴾

﴿ . ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعُوا ﴾ أي : عن الكفر والقتال ﴿ فَإِنِ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْقِيَاسِ ﴾ .

وقرأ يعقوب الأرواحاً "بما تعملون" بالتاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال الخازن :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾

قال ابن عباس : حتى لا يكون بلاء ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِقَوْلِ اللَّهِ ﴾ يعني تكون الطاعة والعبادة

كلها لله خالصة دون غيره ، وقال قتادة : حتى يقال لا إله إلا الله عليها قاتل نبي الله ( صلى

الله عليه وسلم ) وإليها عاد وقال محمد بن إسحاق في قوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة

ويكون الدين كله لله يعني لا يفتن مؤمن عن دينه ويكون التوحيد لله خالصاً ليس فيه شرك

ويجزع ما دونه من الأنداد والشركاء ﴿ فَإِنِ اتَّبَعُوا ﴾ يعني عن الشرك وإفتان المؤمنين

وأيذائهم ﴿ فَإِنِ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْقِيَاسِ ﴾ يعني فإن الله لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد



ونياتهم حتى يوصل إليهم ثوابهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾  
وقال أبو حيان :

﴿ وقَاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ .  
تقدم تفسير نظير هذه الآية وهنا زيادة ﴿ كله ﴾ توكيداً للدين .  
وقرأ الأعمش : ويكون برفع النون والجمهور بنصبها .

﴿ فَإِنِ اتَّهَمُوا فَإِنِ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي ﴿ فَإِنِ اتَّهَمُوا ﴾ عن الكفر ومعنى بصير  
بإيمانهم فيجازيهم على ذلك ويشبههم ، وقرأ الحسن ويعقوب وسلام بن سليمان بما تعملون  
بالتاء على الخطاب لمن أمروا بالمقاتلة أي بما تعملون من الجهاد في سبيله والدعاء إلى دينه  
يصير يُجازيكم عليه أحسن الجزاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(44/312)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وقَاتلوهم ﴾

عطف على قل ، وقد عمم الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمنه  
قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الوعيد ﴿ حتى لا تكون فتناه ﴾ أي لا

يُوجَدُ مِنْهُمْ شَرِكٌ ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ وَتَضْمَحِلُّ الأديانُ الباطلةُ إما يَاهِلَاكُ أَهْلِهَا  
جَمِيعاً أَوْ بِرُجُوعِهِمْ عَنْهَا خَشِيَةَ القَتْلِ ﴿ فَإِنَّ انْتِهَوا ﴾ عَنِ الكُفْرِ بِقِتالِكُمْ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا  
يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ فَيُجَازِيهِمْ عَلَى انْتِهائِهِمْ عَنْهُ وَإِسْلَامِهِمْ ، وَقَرِءَ بِتَاءِ الخِطَابِ أَيُّ بِمَا  
تَعْمَلُونَ مِنَ الجِهَادِ المُخْرِجِ لَهُمْ إِلَى الإِسْلامِ ، وَتَعْلِيْقُهُ بِانْتِهائِهِمْ لِلدَّلالةِ عَلَى أَنَّهُمْ يَثابُونَ  
بِالسَّبِيبَةِ كَمَا يَثابُ المُباشِرُونَ بِالمُباشِرَةِ . انْتَهَى انْتَهَى . اهـ ﴿ تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ح 4

﴿ ص ﴾

وقال الأوسى :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ عَطَفَ عَلَى ﴿ قُلْ ﴾ [ الأَنْفالُ : 38 ] وَعَمَّ الخِطَابُ لِزِيادَةِ تَرْغِيبِ

المُؤْمِنِينَ فِي القِتالِ لِتَحْقِيقِ ما يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ سَبْحانَهُ : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴾ [

الأَنْفالُ : 38 ] مِنَ الوَعِيدِ ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أَيُّ لا يَوجَدُ مِنْهُمْ شَرِكٌ كَمَا رَوَى عَنِ

ابن عباس .

والْحَسَنُ ، وَقِيلَ : المُرادُ حَتَّى لا يَفْتَنَ مُؤْمِنٌ عَنِ دِينِهِ ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ وَتَضْمَحِلُّ

الأديانُ الباطلةُ كُلُّها إما بِهَلَاكِ أَهْلِها جَمِيعاً أَوْ بِرُجُوعِهِمْ عَنْها خَشِيَةَ القَتْلِ ، قِيلَ : لِمَ يُجِئُ

تَأْوِيلُ هَذِهِ الآيَةِ بَعْدَ وَسَيَتَحَقَّقُ مَضْمُونُها إِذا ظَهَرَ المُهْدِيُّ فَإِنَّهُ لا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ

مُشْرِكٌ أَصْلاً عَلَى ما رَوَى عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ﴿ فَإِنَّ انْتِهَوا ﴾ عَنِ

الكفر بقتالكم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الجملة قائمة مقام الجزاء أي فيجازيهم على انتهاهم وإسلامهم ، أو جعلت مجازاً عن الجزاء أو كناية وإلا فكونه تعالى بصيراً أمر ثابت قبل الانتهاء وبعده ليس معلقاً على شيء .

وعن يعقوب أنه قرأ ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء على أنه خطاب للمسلمين المجاهدين أي بما تعملون من الجهاد المخرج لهم إلى الإسلام ، وتعليق الجزاء بانتهاهم للدلالة على أنهم يثابون بالسببية كما يثاب المباشرون بالمباشرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 9 ص ﴾

(45/312)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

عطف على جملة ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ﴾ [ الأنفال : 36 ] الآية ، ويجوز أن

تكون عطفاً على جملة ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ [ الأنفال : 38 ] فتكون مما يدخل

في حكم جواب الشرط .

والتقدير : فإن يعودوا فقاتلوهم ، كقوله : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ [ الإسراء : 8 ] وقوله

﴿ وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ﴾ [ التوبة : 3 ] والضمير عائد إلى مشركي

مكة.

والفتنة اضطراب أمر الناس ومَرَجهم ، وقد تقدم بيانها غير مرة ، منها عند قوله تعالى :  
﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ في سورة [البقرة: 102] وقوله : ﴿ وَحَسِبُوا أَنْ لَا تَكُونَ  
فِتْنَةٌ ﴾ في سورة [العنكبوت: 71] .

والمراد هنا أن لا تكون فتنة من المشركين لأنه لما جُعل انتفاء والفتنة غاية لقتالهم ، وكان  
قتالهم مقصوداً منه إعدامهم أو إسلامهم ، وبأحد هذين يكون انتفاء الفتنة ، فنتج من ذلك  
أن الفتنة المراد نفيها كانت حاصلة منهم وهي فتنتهم المسلمين لا محالة ، لأنهم إنما يفتنون  
مَنْ خالفهم في الدين فإذا أسلموا حصل انتفاء فتنتهم وإذا أعدمهم الله فكذلك .  
وهذه الآية دالة على ما ذهب إليه جمهور علماء الأمة من أن قتال المشركين واجب حتى  
يسلموا ، وأنهم لا تقبل منهم الجزية ، ولذلك قال الله تعالى هنا : ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾  
وقال في الآية الأخرى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ  
وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ  
صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: 29] .

(46/312)

---

وهي أيضاً دالة على ما رآه المحققون من مؤرخينا : من أن قتال المسلمين المشركين إنما كان أوله دفاعاً لأذى المشركين ضعفاء المسلمين ، والتصديق عليهم حيثما حلوا ، فتلك الفتنة التي أشار إليها القرآن ولذلك قال في الآية الأخرى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ﴾ [البقرة: 191] .  
والتعريف في ﴿ الدين ﴾ للجنس وتقدم الكلام على نظيرها في سورة البقرة ، إلا أن هذه الآية زيد فيها اسم التأكيد وهو ﴿ كله ﴾ وذلك لأن هذه الآية أسبق نزولاً من آية البقرة فاحتج فيها إلى تأكيد مفاد صيغة اختصاص جنس الدين بأنه لله تعالى ، لتلايتوهم الاقتناع بإسلام غالب المشركين فلما تقرر معنى العموم وصار نصاً من هذه الآية عدل عن إعادته في آية البقرة تطلباً للإيجاز .

وقوله : ﴿ فإن الله بما يعملون بصير ﴾ أي عليم كناية عن حسن مجازاته إياهم لأن القادر على نفع أوليائه ومطيعيه لا يحول بينه وبين إيصال النفع إليهم الإخفاء حال من يخلص إليه ، فلما أخبروا بأن الله مطلع على انتهاهم عن الكفر إن انتهوا عنه وكان ذلك لا يظن خلافه علم أن المقصود لازم ذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ يعلمون ﴾ بياء الغائب وقرأه رؤيس عن يعقوب بياء الخطاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

وهذا أمر من الله عز وجل بالقتال ، والقتال مفاعلة تحدث بين اثنين أو أكثر ، أي اشتباك بين مقاتل ومقاتل . ولذلك عندما تسمع كلمة " قتال " يتبادر إلى ذهنك وجود طرفين اثنين وليس طرفاً واحداً ، أو بين فريق وفريق آخر .

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ نفهم أن هذا أمر للمؤمنين ليقاتلوا الكفار ، ولا بد أن يكون الكفار قد فعلوا شيئاً يستحق أن يقاتلوا عليه ، أو أنهم يبيتون للمؤمنين القتال وعلى المؤمنين أن يواجهوهم ويقاتلوهم . ولم يقل الله سبحانه وتعالى : اقتلوهم بل قال : " قاتلوهم " ؛ أي مواجهة فيها مفاعلة القتال . والتفاعل معناه أن الحدث لا يأتي من طرف واحد بل لا بد من مقابل معه . فأنت تقول : " قابلت " أي أنك قابلت شخصاً ، وهو قابلك أيضاً ، وهذه مفاعلة . أو تقول : " شاركت " أي أنك اشتركت أنت وآخر في عمل ما . وهنا قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ﴾ [ الأنفال : 39 ] .

ومعنى ذلك أن هناك قتالاً يؤدي للقتال . وجاء القتال ليحسم الأمر ؛ لأن ترك هؤلاء الكفار يعتدون على المسلمين ، يأخذون أموالهم بالباطل ، فيرى الناس المؤمنين أدلة

مستضعفين ، والكفار عاين أقوياء فتحدث فتنة في الدين ، أي يفتن الناس في دينهم وهم يرون الذل دون أي محاولة أو تحرك لدفعه .

(48/312)

---

ويريد الله سبحانه وتعالى أن تنتهي الفتنة . والفتنة هي الاختبار . وكما قلنا : إن الاختبار ليس مذموماً لذاته ، ولكنه يُذم بنتيجته . فإن رسب الطالب في الاختبار تكون نتيجة الاختبار مذمومة . وإن نجح تكون محمودة . ولقد كان كفار قريش يفتنون الناس في دينهم بتعذيبهم تعذيباً شديداً حتى تخور قواهم ويخضعوا لأحكامهم . وأراد الله سبحانه وتعالى أن يضع نهاية لهذا الظلم . فإذن بقا لهم ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستوجب قتالهم .

ونجد قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [ الأنفال : 39 ] .

بينما نجد أنه قد ذكر في سورة البقرة بدون " كله " ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى فيها :

﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [ البقرة : 193 ] .

دون أن تذكر كلمة " كله " ولكل آية لقطعة ومعنى ؛ لأن كل لفظ في القرآن له معنى ، فقوله

تعالى: ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

يعني أنه لا يجب أن يجتمع دينان في جزيرة العرب وقد حدث . وأما قوله تعالى: ﴿ الدين لله ﴾

فقد أعطتنا لقطة أخرى ، فالأولى تخص العرب والجزيرة العربية ، والثانية تعني أن الإسلام للعالم كله ، ويقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصددتها :

﴿ فَإِنِ اتَّهَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [ الأنفال : 39 ] .

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنِ اتَّهَمُوا ﴾ أي استجابوا وأطاعوا ، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي فليحذروا أن يتم هذا خداعاً لأن الله بصير بهم ، ومطلع عليهم ، وما داموا قد انتقلوا من حظيرة الكفر إلى حظيرة الإيمان فالله يحوس سيئاتهم ويبدلها حسنات ؛ لأن قوما عاشوا على الكفر وأفوا خصاله ثم تركوا ذلك إلى الإيمان فهذا أمر صعب يحتاج إلى جهاد شديد مع النفس ، ويشبههم الله تعالى بقدر مجاهدتهم لأنفسهم ، ويشبههم المولى سبحانه وتعالى بسخاء .

وهناك معنى ثان في قوله تعالى :

(49/312)

---



﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [ الأنفال : 39 ] .

أي : فيا من وقفتم موقف العداء من الإيمان ، وتعرضتم للكافرين التعرض الذي أعاد لهم التهذيب وحسن التعامل مع المؤمنين ، اعلموا أنه سبحانه وتعالى بصير بما عملتم ليكون الدين كله لله .

وهكذا نرى أن كلامنا من المعنيين يكمل الآخر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص



(50/312)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" ويكون "

العامّة على نصبه ، نسقاً على المنصوب مرفوعاً على الاستئناف . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 515 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ اتَّهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ (39) ﴾

أمرهم بمقاتلة الكفار والإبلاغ فيها حتى تستأصل شأفتهم بحيث يأمن المسلمون مضرتهم ،  
ويكفون بالكلية فتنهم . . . وحيّة الوادي لا تؤمن ما دامت تبقى فيها حركة ؛ كذلك العدو  
إذا قهر فحقه أن تقتل جميع عروقه ، وتنتفى رباع الإسلام من كل شكيرة تنبت من الشرك .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات - ج 1 ص 625 ﴾

(51/312)

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (40) ﴿

"فصل"

قال البقاعي :

وإن لم ينتهوا بل أقدموا على قتالكم ، هكذا كان الأصل ، ولكنه سبحانه عبر بقوله :  
﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي عن الإجابة تبشيراً لهم بهزيمتهم وقلة ثباتهم لما ألقى في قلوبهم من  
الرب ، ويؤيد ذلك قوله : ﴿ فاعلموا أن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء  
﴿ مولاكم ﴾ أي متولي أموركم فهو يعمل معكم ما يعمل من يتولى امر من يحبه من الاجتهاد

في تحصيل ما ينفعه ودفع ما يضره فهو لا محالة ناصركم؛ ثم استأنف مدحه بما هو أهله  
تعريفاً بقدره وترغيباً في تولية فقال: ﴿نعم المولى﴾ ولم يدخل فاء السبب هنا لأن المأمور  
به العلم، واعتقاد كونه مولى واجب لذاته لا لشيء آخر، بخلاف ما في آخر الحج، فإن  
المأمور هناك الاعتصام ﴿ونعم النصير﴾ أي فلا تخافوهم أصلاً وإن زادت كثرتهم  
وقويت شوكتهم فلا تبارحوهم حتى لا يكون إلا كلمة الله. انتهى انتهى. ١هـ ﴿نظم الدرر  
ح 3 ص 218﴾

(52/312)

فصل

قال الفخر:

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾

يعني عن التوبة والإيمان ﴿فاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي وليكم الذي يحفظكم ويرفع البلاء  
عنكم، ثم بين أنه تعالى ﴿نعم المولى ونعم النصير﴾ وكل ما كان في حماية هذا المولى وفي  
حفظه وكفائته، كان آمناً من الآفات مصوناً عن المخوفات. انتهى انتهى. ١هـ ﴿مفاتيح

الغيب ح 15 ص 131﴾

وقال السمرقندي :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾

يعني أبوا وأعرضوا عن الإيمان ، يا معشر المسلمين ، ﴿ فاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ؛ يعني حافظكم وناصركم .

ثم قال : ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِير ﴾ ، يعني الحفيظ والمانع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر

العلوم ح 2 ص ﴿

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ الآية ،

معادل لقوله ﴿ فَإِنْ اتَّهَمُوا ﴾ ، والمعنى اتهموا عن الكفر فالله مجازيهم أو مجازيكم على

قراءة " تعملون " ، وإن تولوا ولم ينتهوا فاعلموا أن الله ينصركم عليهم ، وهذا وعد محض

بالنصر والظفر ، أي فجدوا ، و" المولى " ها هنا الموالي والمعين ، والمولى في اللغة على معان

هذا هو الذي يليق بهذا الموضع منها ، والمولى الذي هو السيد المقترب بالعبد يعم المؤمنين

والمشركين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴿

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾

أي : أعرضوا عن الإيمان وعادوا إلى القتال ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ أي : وليكم  
وناصرکم .

قال ابن قتيبة : ﴿ نعم المولى ﴾ أي : نعم الولي ﴿ ونعم النصير ﴾ أي : الناصر ، مثل  
قدير وقادر ، وسميع وسامع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال الخازن :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾

يعني وإن أعرضوا عن الإيمان وأصروا على الكفر وعادوا إلى قتال المؤمنين وإيذائهم ﴿  
فاعلموا ﴾ يعني أيها المؤمنون ﴿ أن الله مولاكم ﴾ يعني أن الله وليكم وناصرکم عليها  
وحافظكم ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى هو نعم المولى فمن  
كان في حفظه ونصره وكفائته وكلاءته فهو له نعم المولى ونعم النصير . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ .

أي مواليكم ومعينكم وهذا وعد صريح بالظفر والنصر والأعرق في الفصاحة أن يكون ﴿

مولاكم ﴿ خبر ﴾ أن ﴿ ويجوز أن يكون عطف بيان والجملة بعده خبر أن والمخصوص بالمدح محذوف أي الله أو هو والمعنى فتقوا بموالاته ونصرته واستدل بقوله ﴿ وقاتلوهم ﴾ على وجوب قتال أصناف أهل الكفر إلا ما خصه الدليل وهم أهل الكتاب والمجوس فإنهم يقرون بالجزية وإنه لا يقرب سائر الكفار على دينهم بالذمة إلا هؤلاء الثلاثة لقيام الدليل على واز إقرارها بالجزية. انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(54/312)

وقال ابن كثير:

قوله: ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ﴾ سيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

وقال محمد بن جرير: حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا أبان العطار، حدثنا هشام بن عروة، عن عروة: أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: "سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنك كتبت إلي تسألني عن مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، وسأخبرك

به ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . كان من شأن مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، أن الله أعطاه النبوة ، فَنِعْمَ النَّبِيُّ ، ونعم السيد ، ونعم العشيرة ، فجزاه الله خيراً ، وعرفنا وجهه في الجنة ، وأحيانا على ملته ، وأماننا عليها ، وبعثنا عليه وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه ، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه ، وكادوا يسمعون منه ، حتى ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش ، لهم أموال ، أنكروا ذلك عليه الناس واشتدوا عليه وكرهوا ما قال ، وأغروا به من أطاعهم ، فانصفق عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظه الله منهم ، وهم قليل . فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث ، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم ، وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال ، فاقتن من اقتن ، وعصم الله من شاء منهم ، فلما فعل ذلك بالمسلمين ، أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة . وكان

(55/312)

---

بالحبشة ملك صالح يقال له : " النجاشي " ، لا يظلم أحد بأرضه ، وكان يُثنى عليه مع ذلك ، وكانت أرض الحبشة متجرا القريش ، يتجرون فيها ، وكانت مسكناً لتجارهم ، يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمانا ومتجرا حسنا ، فأمرهم بها النبي صلى الله عليه وسلم ،

فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة ، وخاف عليهم الفتن . ومكث هو فلم يبرح . فمكث  
بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم . ثم إنه فشا الإسلام فيها ، ودخل فيه رجال  
من أشرفهم ومنعتهم . فلما رأوا ذلك . استرخوا استرخاءة عن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم وعن أصحابه ، وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قبل أرض الحبشة مخافتها ، وفرار مما كانوا فيه من الفتن والزلال ،  
فلما استرخى عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم ، تحدث باسترخائهم عنهم ، فبلغ  
ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه : قد  
استرخى عن من كان منهم بمكة ، وأنهم لا يفتنون ، فرجعوا إلى مكة ، وكادوا يأمنون بها ،  
وجعلوا يزدادون ويكثرون . وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير ، وفشا بالمدينة  
الإسلام ، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فلما رأت قريش  
ذلك ، تأمرت على أن يفتنوهم ويشدوا ، فأخذوهم ، فحرصوا على أن يفتنوهم ،  
فأصابهم جهد شديد ، فكانت الفتنة الأخيرة ، فكانت فتنان : فتنة أخرجت من خرج  
منهم إلى أرض الحبشة ، حين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بها ، وأذن لهم في الخروج  
إليها - وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتهم من أهل المدينة . ثم إنه جاء رسول الله صلى الله  
عليه وسلم من المدينة سبعون تقيًا ، رؤوس الذين أسلموا ، فوافوه بالحج ، فبايعوه بالعقبة ،



وأعطوه عهدهم على أنا منك وأنت منا ، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئنا ، فإننا  
نمنعك مما نمنع منه أنفسنا ، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك ، فأمر صلى الله عليه وسلم

(56/312)

---

أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة ، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله صلى الله  
عليه وسلم أصحابه ، وخرج هو ، وهي التي أنزل الله ، عز وجل ، فيها : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ  
حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه  
، عن عروة بن الزبير : أنه كتب إلى الوليد - يعني ابن عبد الملك بن مروان - بهذا ، فذكر  
مثله وهذا صحيح إلى عروة ، رحمه الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير ج 4 ص

﴿ 58.57

(57/312)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ ولم ينتهوا عن ذلك ﴿ فاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ناصركم فشقوا به ولا  
تبالوا بمعاداتهم ﴿ نَعْمَ الْمَوْلَى ﴾ لا يضيع من تولاہ ﴿ وَنَعْمَ النَّصِير ﴾ لا يغلب من نصره .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

وقال الألوسی :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نَعْمَ الْمَوْلَى وَنَعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (40) ﴿  
﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ ولم ينتهوا عن كفرهم ﴿ فاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي ناصركم فشقوا به  
ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿ نَعْمَ الْمَوْلَى ﴾ لا يضيع من تولاہ ﴿ وَنَعْمَ النَّصِير ﴾ لا يغلب من  
نصره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 9 ص ﴾

(58/312)

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(59/312)

أَيُّ عَنِ الْإِسْلَامِ وَاتَّبَاعِ خَاتَمِ الرَّسُلِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَسَيُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ  
الشَّيْطَانِ صَدًّا وَفِتْنَةً وَقِتَالًا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً وَنَدْمًا وَأَسْفًا ، لِذَهَابِهَا سُدًى ،  
وَخُسْرَانَهَا عِبْتًا ، إِذْ لَا يُعْطِيهِمْ مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ هِدَايَتَهُمْ أَحَدٌ ثُمَّ يَغْلِبُونَ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ،  
وَيُنْكَسِرُونَ الْكُرَّةَ بَعْدَ الْكُرَّةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ أَيُّ : يُسَاقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَيْهَا  
دُونَ غَيْرِهَا كَمَا أَفَادَهُ تَقْدِيمُ الظَّرْفِ عَلَى مُتَعَلِّقِهِ . هَذَا إِذَا أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ حَتَّى مَاتُوا  
عَلَيْهِ ، فَيَكُونُ لَهُمْ شِقَاءُ الدَّارَيْنِ وَعَذَابُهُمَا . وَمِنَ الْعِبْرَةِ فِي هَذَا لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ أَوْلَى مِنَ  
الْكَافِرِينَ بِبَدْلِ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لِأَنَّ لَهُمْ بِهَا مِنْ حَيْثُ جُمِلَتْهُمْ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ ،  
وَمِنْ حَيْثُ أَفْرَادَهُمُ الْفَوْزُ بِأَحَدِي الْحُسْنَيْنِ ، هَكَذَا كَانَ فِي كُلِّ زَمَانٍ قَامَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ  
بِحُقُوقِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ ، وَهَكَذَا سَيَكُونُ ، إِذَا عَادُوا إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمُ الصَّالِحُونَ  
 . وَالْكَافِرُ فِي هَذَا الزَّمَانِ يُنْفِقُونَ الْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنَ الْأَمْوَالِ لِلصَّدِّ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَفِتْنَةِ  
الضُّعْفَاءِ مِنَ الْعَوَامِّ ، بِجِهَادِ سَلْمِيٍّ ، أَعَمَّ مِنَ الْجِهَادِ الْحَرْبِيِّ ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى أَدْيَانِهِمْ ،  
وَالْتَّوَسُّلُ إِلَى نَشْرِهَا بِتَعْلِيمِ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَدَارِسِهِمْ ، وَمُعَالَجَةِ رِجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ فِي  
مُسْتَشْفِيَاتِهِمْ .

---

وَالْمُسْلِمُونَ مُؤْتُونَ ، يُرْسِلُونَ أَوْلَادَهُمْ إِلَيْهِمْ وَلَا يُبَالُونَ مَا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (5)

: (58) .

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ النَّصْرَ وَالْغَلْبَ وَالْفَوْزَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ  
الْمُتَّقِينَ ، وَالْخِذْلَانَ وَالْحُسْرَةَ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ وَيُقَاتِلُهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ لِلصِّدِّقِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي  
اسْتَقَامُوا عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ هَذَا جَزَاءَ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ

(61/312)

---

مَا دَامَا عَلَى حَالِهِمَا ، فَإِذَا غَيَّرَا مَا بَأَنفُسِهِمَا غَيْرَ اللَّهِ مَا بِهِمَا . جَعَلَ هَذَا جَزَاءَهُمَا فِي  
الدُّنْيَا ، وَجَعَلَ جَهَنَّمَ مَأْوَى لِّلْكَفَّارِ وَحَدَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ زِلَاجِلٍ أَنْ يُمَيِّزَ الْكُفْرَ مِنَ الْإِيمَانِ ،  
وَالْحَقَّ وَالْعَدْلَ مِنَ الْجَوْرِ وَالطُّغْيَانِ ، فَلَنْ يُجْتَمَعَ فِي حِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ الضِّدَّانِ ، وَلَا يَسْتَوِي  
فِي جَزَائِهِ النَّقِيزَانِ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ  
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (5 : 100) الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ الْمَعْنَوِيَّانِ فِي حُكْمِ الْعُقَلَاءِ وَالْفُضَلَاءِ ،  
كَالْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ الْحَسِيِّينِ فِي حُكْمِ سَلِيمِي الْحَوَاسِّ وَلَا سَيِّمَا الشَّمِّ . وَقَدْ سَبَقَ لَنَا  
تَحْقِيقُ هَذَا الْمَعْنَى فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَفِي تَفْسِيرِ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ

المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب (3 : 179) قرأ حمزة  
والكسائي (يميز) بالتشديد من التمييز ، وقرأها الجمهور بالتخفيف . والمراد بالميز  
والتمييز ما كان بالفعل والجزاء كما قلنا لا بالعلم فهو بكل شيء عليم ، وهذا التمييز الإلهي  
بين الأمرين في الاجتماع البشري يوافق ما يسمى في عرف هذا العصر بسنة الانتخاب  
الطبيعي ، ويقاء أمثل الأمرين المتقابلين وأصلحهما . وسنن الله في الدنيا والآخرة واحدة  
كما قال أبو حامد الغزالي - رحمه الله تعالى -

(62/312)

وإن جهل ذلك الخبيثون المتكلمون على الشفاعات والمغترون باللقاب الدينية من كل ملة  
وأمة . فالخبيث في الدنيا خبيث في الآخرة لا ينفعه شيء ، ولذلك قال : ويجعل  
الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً أي ويجعل سبحانه الخبيث بعضه منضمماً  
مترابطاً على بعض بحسب سنته تعالى في اجتماع المشاكلات ، وانضمام المناسبات ،  
واتلاف المتعارفات ، واختلاف المتناكرات ، يقال : ركمه إذا جمع بعضه إلى بعض ، ومنه  
سحاب مركوم فيجعلهم في جهنم يجعل أصحابه فيها يوم القيامة أولئك هم الخاسرون  
التأمو الخسران وخذهم ولأنهم خسروا أموالهم وأنفسهم .

جاءَ مصرَ القاهرةَ منْ عهدِ قريبِ صاحبِ صحيفةِ سُورِيَّةِ دُورِيَّةٍ مِنْ دُعاةِ الإلحادِ  
المُتفَرِّجينَ ، فأقامَ فيها أيامًا قلائلَ استحكمتَ فيها له مودةٌ أشهرَ ملاحدةِ مصرَ ، ودُعاةِ  
الزُّندقةِ والإباحةِ فيها ، فعادَ ينوهُ بهم ، وينشرُ دعائيتهم ، ويزعمُ أنهم

(63/312)

دُعاةُ التُّرقيِّ والعُمرانِ ، بالدَّعايةِ إلى تجديدِ ثقافةِ لمصرَ تخلفُ ما كانَ لها منْ ثقافةِ العُربِ  
والإسلامِ ، والحقُّ أنَّ هؤلاءِ كلُّهمْ هُدَّامونَ للعقائدِ والفضائلِ وجميعِ مقوماتِ الأُمَّةِ  
ومُشخصاتِها ، وليسوا بأهلٍ لبناءِ شيءٍ لها ، إلا إذا سُميتِ الزُّندقةُ ، وإباحةُ الأعراسِ ،  
وتمهيدُ السَّبيلِ للاستعبادِ الأجنبيِّ لأمَّتِهِم بِناءِ مجدِّ لها . وقد ذكَّرتُ ذلكَ رجلًا منْ قريَّةِ  
صالحيةٍ مرَّ به رجلٌ منْ معارفِهِ كانَ في إحدى المُدنِ فطَفِقَ يسألهُ عنِ المساجدِ ومدارسِ  
العِلْمِ فيها ، وعنِ الصَّالحينَ مِنْ أهلِها ، فأجابَهُ الرَّجُلُ : أعنْ هذا تسألُ مثلي ؟ سلني عنِ  
أهلِ الحاناتِ والمواخيرِ ، فإنني بها وبهمُ عليمٌ خبيرٌ وكذلكَ نُولي بعضَ الظالمينَ بعضًا بما  
كانوا يكسبونَ (6 : 129) .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولَى وَقَاتِلُوهُمْ

حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا  
أَنَّ اللَّهَ مُوَلَّاكُمْ نَعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنَعْمَ النَّصِيرُ

(64/312)

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَىٰ حَالَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَتَالَ  
رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، قَفَىٰ عَلَيْهِ بَيَانِ حُكْمِ الَّذِينَ يَرْجِعُونَ عَنْهُ ،  
وَيَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ لِأَنَّ الْأَنْفُسَ صَارَتْ تَشَوَّفُ إِلَىٰ هَذَا الْبَيَانِ ، وَتَسْأَلُ عَنْهُ بِلِسَانِ  
الْحَالِ أَوْ الْمَقَالِ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا أُمَّيْ: قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ ، أَيُّ لَأَجْلِهِمْ وَفِي  
شَأْنِهِمْ ، فَاللَّامُ لِلتَّلْيِغِ : إِنْ يَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عُدْوَانِكَ وَعِنَادِكَ بِالصِّدْقِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ،  
وَالْقِتَالِ لِأَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ يُغْفِرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَنْ  
غَيْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ ، يُغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهُ ، وَيَغْفِرُ لَهُمْ  
الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَا يَخْصِمُهُمْ مِنْ إِجْرَامِهِمْ فَلَا يُطَابُونَ قَاتِلًا مِنْهُمْ بَدَمَ ، وَلَا سَالِبًا أَوْ غَانِمًا  
بِسَلْبِ أَوْ غَنَمٍ .

(65/312)

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ "إِنْ تَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَكُمْ" بِالْخِطَابِ ، رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ  
قَالَ : " فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : ابْسُطْ  
يَدَكَ أَبَايَعُكَ ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ فَقَبَضَتْ يَدِي . قَالَ : مَا لَكَ ؟ قُلْتُ : أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ . قَالَ  
: تَشْتَرِطُ بِمَاذَا ؟ قُلْتُ : أَنْ يُغْفَرَ لِي ، قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ يَا عَمْرُو أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ  
، وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا ، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ؟ " وَإِنْ يُعُودُوا إِلَى الْعِدَاءِ  
وَالصِّدْقِ وَالْقِتَالِ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَيُّ : تَجْرِي عَلَيْهِمْ سُنَّةُ الْمُطْرِدَةِ فِي أُمَّتِهِمْ مِنْ  
الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ عَادُوا وَقَاتَلُوهُمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : فِي قُرَيْشٍ وَغَيْرِهَا يَوْمَ بَدْرٍ وَالْأُمَّمِ قَبْلَ ذَلِكَ  
، أَقُولُ : وَهِيَ السُّنَّةُ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا بِمِثْلِ قَوْلِهِ : إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي  
الْأَذِينَ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (58 : 20 ، 21) وَقَوْلِهِ : إِنَّا لَنَنْصُرُ  
رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (40 : 51) فإِضَافَةُ السُّنَّةِ إِلَى  
الْأَوَّلِينَ ، لِمَلَابَسَتِهَا لَهُمْ وَجَرِيَانِهَا عَلَيْهِمْ .  
وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ أَيُّ : وَقَاتَلُوهُمْ حِينَئِذٍ أَيُّهَا الرَّسُولُ



أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى تَزُولَ الْفِتْنَةُ فِي الدِّينِ بِالتَّعْذِيبِ ، وَضُرُوبِ الْإِذَاءِ لِأَجْلِ  
تَرْكِهِ ، كَمَا فَعَلُوا فِيكُمْ عِنْدَمَا كَانَتْ لَهُمُ الْقُوَّةُ وَالسُّلْطَانُ فِي مَكَّةَ ، حَتَّى أَخْرَجُوكُمْ مِنْهَا  
لِأَجْلِ دِينِكُمْ ثُمَّ صَارُوا يَأْتُونَ لِقَاتِكُمْ فِي دَارِ الْهَجْرَةِ ، وَحَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، لَا  
يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُفْتِنَ أَحَدًا عَنْ دِينِهِ وَيُكْرِهَهُ عَلَى تَرْكِهِ إِلَى دِينِ الْمَكْرَهَةِ لَهُ فَيَتَقَلَّدُهُ تَقِيَّةً  
وَنَفَاقًا - وَنَقُولُ : إِنَّ الْمَعْنَى بِتَعْيِيرِ هَذَا الْعَصْرِ : وَيَكُونُ الدِّينُ حُرًّا ، أَيْ يَكُونُ النَّاسُ أُحْرَارًا  
فِي الدِّينِ لَا يُكْرَهُ أَحَدٌ عَلَى تَرْكِهِ إِكْرَاهًا ، وَلَا يُؤْذَى وَيُعَذَّبُ لِأَجْلِهِ تَعْذِيبًا ، وَيَدُلُّ عَلَى  
الْعُمُومِ قَوْلُهُ تَعَالَى : لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (2 : 256) وَسَبَبُ نَزُولِ  
هَذِهِ آيَةِ أَنْ بَعْضَ الْأَنْصَارِ كَانَ لَهُمْ أَوْلَادٌ يَهُودُوا وَتَنَصَّرُوا مِنْذُ الصَّغَرِ فَأَرَادُوا إِكْرَاهَهُمْ عَلَى  
الْإِسْلَامِ فَنَزَلَتْ ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَخْيِيرِهِمْ ، وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا  
يُقَاتِلُونَ لِحُرِّيَّةِ دِينِهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يُكْرَهُوا عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ دُونِهِمْ ، وَمَا رَضِيَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي  
مُعَاهَدَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ بِتِلْكَ الشُّرُوطِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي اشْتَرَطَهَا الْمُشْرِكُونَ إِلَّا لِمَا فِيهَا مِنَ الصُّلْحِ  
الْمَانِعِ مِنَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ ، الْمُبِيحِ لِاخْتِلَاطِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُشْرِكِينَ وَإِسْمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ ، إِذْ كَانَ  
هَذَا إِيَابَةً

(67/312)

لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَلِرُؤْيَةِ الْمُشْرِكِينَ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ  
وَمُشَاهَدَتِهِمْ أَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ حَالِهِمْ ، وَلِذَلِكَ كَثُرَ دُخُولُهُمْ فِي  
الْإِسْلَامِ بَعْدَهَا ، وَسَمَّى اللَّهُ هَذَا الصُّلْحَ فَتْحًا مُبِينًا . وَأَمَّا وَرُودُ الْحَدِيثِ بِقَتْلِ الْمُرْتَدِّ فَلَهُ  
وَجْهٌ آخَرٌ مِنْ مَنَعِ الْعَبَثِ بِالْإِسْلَامِ كَانَ لَهُ سَبَبٌ سِيَاسِيٌّ اجْتِمَاعِيٌّ بَيْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ .

(68/312)

هَذَا هُوَ التَّفْسِيرُ الْمُتَبَادِرُ مِنَ اللَّفْظِ بِحَسَبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَتَارِيخِ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ ، وَرُويَ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرُ الْفِتْنَةِ بِالشِّرْكِ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ  
وَمُقَاتِلٌ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ . أَقُولُ : عَلَيْهِ جُمْهُورٌ مُؤَلِّفِي التَّفَاسِيرِ الْمَشْهُورَةِ مِنَ الْخَلْفِ ، قَالُوا :  
وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا يَبْقَى شِرْكٌ وَتَزُولُ الْأَدْيَانُ الْبَاطِلَةُ فَلَا يَبْقَى إِلَّا الْإِسْلَامُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ  
: لَمْ يَجِئْ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدُ ، وَسَيَحْتَقُّ مَضْمُونُهَا إِذَا ظَهَرَ الْمَهْدِيُّ ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى عَلَى  
ظَهْرِ الْأَرْضِ مُشْرِكٌ أَصْلًا عَلَى مَا رُويَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ هَذَا الْأَلُوسِيُّ  
، وَهُوَ لَا يَصِحُّ أَصْلًا وَلَا فَرْعًا ، وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ مَا رُويَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ " أَنَّ  
رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا (49 : 9) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، فَمَا يَمْنَعُكَ أَلَّا تَقَاتِلَ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ؟

فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أُعِيرُ بِهَذِهِ آيَةَ ، وَلَا أَقَاتِلُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعِيرَ بِهَذِهِ آيَةَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ  
تَعَالَى فِيهَا : وَمَنْ يُقْتَلْ مُؤْمِنًا مُعَمَّدًا (4 : 93) إِلَى آخِرِهَا . قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ :  
وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ قَالَ ابْنُ عُمَرَ : قَدْ فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ إِذْ كَانَ

(69/312)

الإِسْلَامُ قَلِيلًا . فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ ، إِمَّا يَقْتُلُوهُ وَإِمَّا يُوثَقُوهُ حَتَّى كَثُرَ الإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ  
فِتْنَةً " إِيخْفَانُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُفَسِّرُ الْفِتْنَةَ فِي آيَةِ الْأَنْفَالِ هَذِهِ بِمَا قُلْنَا إِنَّهُ الْمُبَادَرُ  
مِنْهُمَا وَيَقُولُ :

إِنَّمَا قَدْ زَالَتْ بَكْرَةُ الْمُسْلِمِينَ وَقَوَّتِهِمْ ، فَلَا يَقْدِرُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى اضْطِهَاذِهِمْ وَتَعْذِيْبِهِمْ ،  
وَلَوْ كَانَتْ بِمَعْنَى الشِّرْكِ لَمَا قَالَ هَذَا ، فَإِنَّ الشِّرْكَ لَمْ يَكُنْ قَدْ زَالَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَنْ يَزُولَ وَلَوْ  
شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً (11 : 118) آيَةَ .

وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ آيَةَ ابْنِ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ ، وَزَادَ عَلَيْهَا رَوَايَاتٍ عَنْهُ أُخْرَى بِمَعْنَاهَا مِنْهَا "   
أَنَّهُ جَاءَهُ رَجُلَانِ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَالَا : إِنَّ النَّاسَ قَدْ صَنَعُوا مَا تَرَى ، وَأَنْتَ ابْنُ عُمَرَ ابْنُ  
الْخَطَّابِ وَأَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ ؟ قَالَ :

يَمْنَعُنِي أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ دَمَ أَخِي الْمُسْلِمِ قَالَا : أَوْلَمْ يَقُلِ اللَّهُ : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ قَالَ : قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةً ، وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ ، وَأَنْتُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةً ، وَيَكُونَ الدِّينُ لغيرِ اللَّهِ " وَفِي رِوَايَةٍ زِيَادَةٌ " وَذَهَبَ الشِّرْكَ " وَذَكَرَ

(70/312)

أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا أوردَ آيَةَ عَلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، وَسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَا : قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةً ، وَكَانَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ . وَهَذَا وَمَا قَبْلَهُ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : بَلَغَنِي عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَائِنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً حَتَّى لَا يُفْتَنَ مُسْلِمٌ عَنْ دِينِهِ .

فَإِنْ انْتَهَوْا أَيُّ : فَإِنْ انْتَهَوْا عَنِ الْكُفْرِ وَعَنْ قِتَالِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ . وَقَرَأَ يَعْقُوبُ (تَعْمَلُونَ) بِالتَّاءِ الْفَوْقِيَّةِ بِالْخِطَابِ . وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (2) : (193) وَإِنْ تَوَلَّوْا وَأَعْرَضُوا عَنْ سَمَاعِ تَبْلِيغِكُمْ ، وَلَمْ يَنْتَهَوْا عَنْ كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ أَيُّ : فَاقْبَلُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ نَاصِرُكُمْ ، وَمُتَوَلِّي أُمُورِكُمْ ، فَلَا تُبَالُوا بِهِمْ وَلَا تَخَافُوا ، فَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ هُوَ ، فَلَا يُضَيِّعُ مَنْ تَوَلَّاهُ ، وَلَا يُغْلِبُ مَنْ نَصَرَهُ .

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ انْتِصَارَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى كَانَ لِأَسْبَابِ اجْتِمَاعِيَّةٍ، فَلَمَّا تَغَيَّرَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ خَانَهُمُ التَّصَرُّحُ حَتَّى فَقَدُوا أَكْثَرَ مَمَالِكِهِمْ، وَإِنَّا لَنَرَى الْأُمَّمَ يَنْتَصِرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بِالِاسْتِعْدَادِ الْمَادِيِّ مِنْ سِلَاحٍ وَعَتَادٍ بِالنِّظَامِ الْحَرْبِيِّ الَّذِي جَهَلَهُ الْمُسْلِمُونَ بِغُرُورِهِمْ بِدِينِهِمْ، وَاتِّكَالِهِمْ عَلَى خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَقِرَاءَةِ الْأَحَادِيثِ وَالِدَعَوَاتِ، وَلِذَلِكَ تَرَكَهُ سَاسَةَ التُّرْكِ، وَأَسَّسُوا لِنَفْسِهِمْ حُكُومَةً مَدَنِيَّةً إِحَادِيَّةً تَنَاهِضُ الْإِسْلَامَ، وَيُوشِكُ أَنْ يَتَّبِعَهُمْ سَاسَةَ الْمِصْرِيِّينَ وَالْأَفْغَانِ .

قُلْنَا: إِنَّ مَا ذَكَرَهُ الْمُعْتَرِضُ - وَهُوَ وَاقِعٌ لَا مَفْرُوضٌ - حُجَّةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ لَا عَلَى الْإِسْلَامِ، فَالْإِسْلَامُ يَأْمُرُ بِإِعْدَادِ الْقُوَى الْمَادِيَّةِ، وَيُضَيِّفُ إِلَيْهَا الْقُوَى الْمَعْنَوِيَّةَ، وَمِنْهَا بَلْ أَعْظَمُهَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَدَعَاؤُهُ، وَالِاتِّكَالُ عَلَيْهِ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ حَتَّى الْمَادِيِّينَ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَشْرَعْ لِلنَّاسِ الْإِتِّكَالَ عَلَى خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، حَتَّى فِي أَيَّامِ الرَّسُولِ الْمُؤَيَّدِ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَلَمَّا غَلِبَ

المُسلِمونَ في وَقَعَةِ أُحُدٍ لِتَقْصِيرِهِمْ فِي الأَسْبَابِ ، وَتَعْجَبُوا مِنْ ذَلِكَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : أَوَلَمْآ  
أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ (3 : 165)  
وَقَدْ وَفَّيْنَا هَذَا البَحْثَ حَقَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ وَأَمْثَالِهَا مِنَ الآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي تِلْكَ  
الْغَزْوَةِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، وَسَنَعُودُ إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ آيَةٍ : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ  
مِنْ قُوَّةٍ (60) وَغَيْرِهَا مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

(73/312)

---

وَمَا أضعَفَ التُّرْكَ وَالْمِصْرِيِّينَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ شُعُوبِ المُسْلِمِينَ ، إِلا تَرَكَهُمْ لِهَدَايَةِ القُرْآنِ فِي  
مِثْلِ هَذَا وَغَيْرِهِ مِنْ إِقَامَةِ العَدْلِ وَالْفَضَائِلِ ، وَسُنَنِ اللهِ فِي الاجْتِمَاعِ الَّتِي انْتَصَرَ بِهَا السَّلْفُ  
الصَّالِحُ ، وَاسْتِبْدَادِ حُكَّامِهِمْ فِيهِمْ ، وَإِنْفَاقِ أُمُوالِ الأُمَّةِ وَالدَّوْلَةِ فِيْمَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ  
الإِسْرَافِ فِي شَهْوَاتِهِمْ ، وَقَدْ اتَّبَعَ الإِفْرَنْجُ تَعَالِيمَ الإِسْلَامِ فِي الاسْتِعْدَادِ فِي الأُمُورِ الرُّوحِيَّةِ  
مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي العُمُرَانِ فَرَجَحَتْ بِهِمْ كِفَّةَ المِيزَانِ ، وَسَيَتَّبِعُونَهَا فِي الأُمُورِ الرُّوحِيَّةِ بَعْدَ أَنْ  
تُبْرِحَ بِهِمُ التَّعَالِيمُ المَادِيَّةُ وَالبَلْشَقِيَّةُ ، وَيَتَفَاقَمُ فسادُهَا فِي أُمَّمِهِمْ ، حَتَّى تُخْرَبَ بِيُوتِهِمْ  
بأيديهم ، مِنْ حَيْثُ فَقَدَ المُسْلِمُونَ الجُغْرَافِيُونَ النُّوعَيْنِ كِلَيْهِمَا مِنْ تَعَالِيمِهِ ، وَقَامَ الجَاهِلُونَ

مِنْهُمْ يَحْتَجُونَ عَلَيْهِ ، بِمَا أَفْسَدُوا وَأَبْتَدَعُوا فِيهِ وَنَسَبُوهُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ وَعَلَى  
جَمِيعِ الْخَلْقِ .

(74/312)

وَأَمَّا الْأُمُورُ الْجَمَاعِيَّةُ الَّتِي مَكَتَتْ سَلَفَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قِتْحِ بِلَادِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَغَيْرِهِمَا  
مِنَ الشُّعُوبِ فَهِيَ أَكْبَرُ حُجَّةٍ لِلْإِسْلَامِ أَيْضًا ، إِذْ لَيْسَتْ تِلْكَ الْأُمُورُ إِلَّا مَا كَانَ أَصَابَ تِلْكَ  
الشُّعُوبَ مِنَ الشَّرْكِ وَفَسَادِ الْعَقَائِدِ وَالْأَدَابِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ ، مِنْ فُشُوقِ  
الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، وَسُلْطَانِ الْبِدْعِ وَالْخُرَافَاتِ ، الَّتِي جَاءَ الْإِسْلَامُ لِإِزَالَتِهَا ،  
وَأَسْتِبْدَالِ التَّوْحِيدِ وَالْفَضَائِلِ بِهَا ، وَلِهَذَا وَحَدَهُ نَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَى الْأُمَّمِ كُلِّهَا ، إِذْ لَا خِلَافَ  
بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّارِيخِ فِي أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا دُونَ تِلْكَ الشُّعُوبِ كُلِّهَا فِي الْأَسْتِعْدَادِ الْحَرْبِيِّ  
الْمَادِيِّ ، فَلَمْ يُبْقِ لَهُمْ مَا يَمْتَازُونَ بِهِ إِلَّا إِصْلَاحَ الْإِسْلَامِ الْمَعْنَوِيِّ . وَلَمَّا أَضَاعَ جَمَاهِيرُ  
الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْعَقَائِدَ وَالْفَضَائِلَ ، وَاتَّبَعُوا سُنَنَ تِلْكَ الْأُمَّمِ مِنَ الْبِدْعِ وَالرَّذَائِلِ - وَهُوَ مَا  
حَذَرَهُمُ الْإِسْلَامُ مِنْهُ - ثُمَّ قَصَرُوا فِي الْأَسْتِعْدَادِ الْمَادِيِّ لِلتَّنَصُّرِ فِي الْحَرْبِ فَفَقَدُوا التَّنَوُّعَ  
مِنْهُ ، عَادَ الْغَلْبُ لِغَيْرِهِمْ عَلَيْهِمْ .

فَنَسَأَلُهُ تَعَالَى هِدَايَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَكَشْفَ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ غَمَّةٍ ، لَتَسْتَحِقَّ نَصْرَهُ بِاتِّبَاعِ شَرْعِهِ

، وَمُرَاعَاةِ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَتَقْوَاهُ الْمُشْمِرَةَ لِلْفُرْقَانِ فِي الْعُلُومِ وَالْأَحْكَامِ وَالْأَعْمَالِ ، فَيَعُودُ  
لَهَا مَا فَقَدَتْ مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ اللَّهُمَّ آمِينَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار ج 9 ص

﴿ 555.550 ﴾

(75/312)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ﴾

التولي : الإعراض وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلِيَ رَسُولُنَا الْبَلَاغِ  
الْمُبِينِ ﴾ في سورة [العقود : 92] .

والمولى الذي يتولى أمر غيره ويدفع عنه وفيه معنى النصر .

والمعنى وإن تولوا عن هاتاه الدعوة فالله مغن لكم عن ولائهم ، أي لا يضركم توليهم فقوله :

﴿ أَنْ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ﴾ يؤذن بجواب محذوف تقديره : فلا تخافوا توليهم فإن الله مولاكم وهو

يقدر لكم ما فيه نفعكم حتى لا تكون فتنة .

وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم لمسيمة الكذاب " ولئن توليت ليعفرنك الله " وإنما

الخسارة عليهم إذ حرموا السلامة والكرامة .



وافتح جملة جواب الشرط ب ﴿ اعلموا ﴾ لقصد الاهتمام بهذا الخبر وتحقيقه ، أي لا تغفلوا عن ذلك ، كما مر آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ [ الأنفال : 24 ] .

وجملة : ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ مستأنفة لأنها إنشاء ثناء على الله فكانت بمنزلة التذييل .

وعطف على ﴿ نعم المولى ﴾ قوله : ﴿ ونعم النصير ﴾ لما في المولى من معنى النصر كما تقدم وقد تقدم بيان عطف قوله تعالى : ﴿ ونعم الوكيل ﴾ على قوله : ﴿ حسبنا الله ﴾ سورة [ آل عمران : 173 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(76/312)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40) ﴾

والله سبحانه وتعالى يرغب الناس حتى يؤمنوا ، ولكنه في ذات الوقت يبين لهم أن كثرة عدد المؤمنين ليست هي التي تعلي راية الإسلام وتصنع النصر للإيمان ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ .

وهنا شبهة في أن الله تعالى يحزن هؤلاء على أن يؤمنوا ، وأن يسلموا ، وأن يعودوا إلى حظيرة الحق ، وربما ظن ظان أن الإسلام يريد أن يقوى بهم ، ولذلك قال الحق : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي إياكم أن يفت ذلك في عضدكم ، أو أن يقلل هذا الأمر من هممكم وشجاعتكم ؛ لأنكم إنما تنتصرون بمدد من الله العليّ القدير ، فهم إن لم يؤمنوا ، فاعلموا أن الإسلام لا ينتصر بهم ، وانتشاره ليس بكثرة المسلمين أو قتلهم ؛ لأن النصر من عند الله ، وسبحانه ليس محتاجاً لخلقه ، وكثرة جنود الإسلام لا تصنع النصر ؛ لأن نصر الله للمسلمين إن اتبعوا منهجه يتحقق سواء قلوا أم كثروا . ولذلك يلفت نظرهم وينبههم إلى أنه إن تولى هؤلاء ولم يؤمنوا ، فإياكم أن يؤثر ذلك على شجاعتكم ؛ لأنكم لا تنتصرون بمدد من هؤلاء الذين رفضوا الإيمان ، ولكن بمدد من الله سبحانه وتعالى ، فالله هو مولاكم . وإذا كان الله مولى لكم أي ناصراً ومؤيداً فهو سبحانه وتعالى :

﴿ نَعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنَعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [ الأنفال : 40 ] .

لماذا ؟ .

(77/312)

---

لأن المولى إذا كان غير الله فهو من الأغيار ، قد يكون اليوم قويا قادرا على أن يأخذ بيدنا وينصرنا ، ولكنه قد يموت غداً ؛ لذلك فهو لا يصلح مولى . وقد يسقط عنه سلطانه وقوته ويصبح ضعيفاً محتاجاً لمن ينصره فلا ينفع وليا ولا معيناً لأحد . والمولى الحق الذي يجب أن تمسك به هو الذي لا تصيبه الأغيار لأنه دائم الوجود لا ينتهي بالموت وهو دائم القوة والقدرة لا يضعف أبداً ، هذا هو المولى الذي تضع فيه ثقتك وتتوكل عليه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أننا يجب ألا نضع ثقتنا وأملنا إلا فيه وتوكلنا إلا عليه سبحانه وتعالى فيقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [ الفرقان : 58 ] .

أي إذا أردت فعلاً أن تتوكل ، فتوكل على من هو موجود دائماً قويا دائماً ، فتوكل على الله . وقوله تعالى : ﴿ نَعْمَ الْمَوْلَى ﴾ يؤكد أن الله قوي قادر دائم الوجود ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَعْمَ النَّصِير ﴾ .

يؤكد أنه سبحانه وتعالى محيط بكل ما يدبره لك أعداؤك ، فلا يغيب عنه شيء . أنت تحاربهم بما تعرفه من الحيل وفنون القتال وهم يفعلون ذلك . ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم حيلهم فيبطلها ، ويحقق لكم النصر بأن يلهمكم من الحيل ما لا يستطيعون مواجهته . ، يعطيكم مدداً من السماء وهذا المدد هو الذي يحقق لكم النصر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

وفي "مولاكم" وجهان :

أظهرهما : أن "مولاكم" هو الخبر ، و"نعم المولى" جملة مستقلة سبقت للمدح .

والثاني : أن يكون بدلاً من "الله" والجملة المدحية خبراً "أن" والمخصوص بالمدح محذوف ، أي : نعم المولى الله ، أورتكم .

وكل ما كان من حماية هذا المولى ، ومن كان في حفظه ، كان آمناً من الآفات مصوناً عن

المخوفات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل - ج 9 ص 516 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40) ﴾

فإن أبوا عتوا ، وعن الإيمان الأنبؤاً ، فلا على قلوبكم ظلُّ مخافة منهم ؛ فإن الله - سبحانه

- وليُّ نصرتم ، ومتوليُّ كهاتكم ؛ إن لم تكونوا بحيث نعم العبيد فهو نعم المولى لكم ونعم

الناصر لكم .

ويقال نعم المولى لكم يوم قسمة العرفان ، ونعم الناصر لكم يوم نعمة الغفران ويقال نعم المولى

لك حين لم تكن ، ونعم الناصر لك حين كنت .

ويقال نعم المولى بالتعريف قبل التكليف ، ونعم الناصر لكم بالتخفيف والتضعيف ؛

يُخَفِّفُ عَنْكُمْ السَّيِّئَاتِ وَيُضَاعِفُ الْحَسَنَاتِ :

وهو اك أول ما عرُفْتُ مِنَ الْهَوَى . . . والقلب لا ينسى الحبيب الأول . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 625 ﴾

(79/312)

ومن فوائد العلامة الزمخشري في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) ﴾

وَلَا تَوَلَّوْا قَرْيَةً بَطَرَ حِجَابُ أَحَدٍ التَّائِبِينَ وَإِدْغَامُهَا ، والضمير في عنه لرسول الله صلى الله عليه

وسلم ، لأنَّ المعنى : وأطيعوا رسول الله كقوله : الله ورسوله أحق أن يرضوه ، ولأنَّ طاعة

الرسول وطاعة الله شيء واحد مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ فَكَانَ رَجُوعَ الضَّمِيرِ إِلَى

أحدهما كرجوعه إليهما ، كقولك : الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان . ويجوز أن يرجع إلى

الأمر بالطاعة ، أي : ولا تولوا عن هذا الأمر وامثاله وأنتم تسمعونه . أو ولا تولوا عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوه وأنتم تسمعون أى تصدقون لأنكم مؤمنون لستم  
كالصم المكذبين من الكفرة ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا أى ادعوا السماع وهم لا  
يسمعون لأنهم ليسوا بمصدقين فكانهم غير سامعين . والمعنى : أنكم تصدقون بالقرآن  
والنبوة ، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها ، كان  
تصديقكم كالتصديق ، وأشبه سماعكم سماع من لا يؤمن . ثم قال إن شر الدواب أى إن  
شر من يدب على وجه الأرض . أو إن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه ،  
جعلهم من جنس البهائم ، ثم جعلهم شرها ولو علم الله في هؤلاء الصم البكم خيراً أى  
انتفاعاً باللفظ لأسمعهم للطف بهم «1» حتى يسمعوا سماع المصدقين ، ثم قال ولو  
أسمعهم لتولوا عنه .

يعنى : ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف ، فلذلك منعهم الطافه . أو ولو لطف بهم فصدقوا  
لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا ، وقيل : هم بنو عبد الدار بن قصى لم يسلم منهم إلا

---

(1) . قال محمود «يعنى : ولو علم الله أن اللطف ينفع في هؤلاء . . . الخ» قال أحمد رحمه

الله : إطلاق القول بأن الله تعالى يلفظ بالعبد فلا ينفع لطفه مردود ، فان اللطف هو  
إسداء الجميل والالطاف به ، واسمه اللطيف من ذلك ، فإذا أسدى الجميل إلى العبد بأن  
أسمعه إسماع لطيف به ، فتلك الغاية المرجوة ومعنى اللطف به على هذا : أن يخلق في قلبه  
قبول الحق وحسن الإصغاء إليه والاهتداء به ، ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال

والرأى الفاسد في خلق الأفعال ، لأن مقتضاها أن العبد هو الذي يخلق لنفسه قبول الحق  
والهداية وحسن الاستماع والإصغاء ، وأن الله تعالى لا يشارك العبد في خلق ذلك ، بل  
الذي ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق ، ولا يلزم حصول مراده على العموم  
- تعالى الله عما يقولون - ثم ولو تنزل منزل على هذه القاعدة لما استقام تأويل الزمخشري  
أيضا ، فان حاصله : ولو علم الله فيهم خيرا للطف بهم ، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللطف ،  
فيلزم عدم انتفاعهم باللطف على تقدير علم الله الخير فيهم ، وهذا غير مستقيم لما يلزم  
عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى ، وذلك محال عقلا ، فلا يرتفع الاشكال إلا بتقدير  
الاسماع الواقع جوابا أولا وخلاف الاسماع الواقع شرطا ثانيا ، كيلا يتكرر الوسط فيلزم  
المحال المذكور . وأقرب وجه في اختلاف الاسماعين : أن يراد بالأول : ولو علم الله فيهم  
خيرا لأسمعهم إسماعا يخلق لهم به الهداية والقبول ، ولو أسمعهم لا على أنه يخلق لهم  
الاهتداء ، بل إسماعا مجردا من ذلك ، لتولوا وهم معرضون . فهذا هو الوجه في تأويل الآية  
، والله الموفق .

(80/312)

---

رجلان : مصعب بن عمير ، وسويد بن حرملة : كانوا يقولون : نحن صمُّ بكم عمى عما  
جاء به محمد ، لا نسمعه ولا نجيبه ، فقتلوا جميعا بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء . وعن ابن  
جريج : هم المنافقون .

وعن الحسن : أهل الكتاب .

[سورة الأنفال (8) : آية 24]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ  
الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

إذا دعاكم وحد الضمير كما وحده فيما قبله ، لأن استجابة رسول الله صلى الله عليه  
وسلم كاستجابته ، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد ، والمراد بالاستجابة . الطاعة  
والامتثال .

وبالدعوة : البعث والتحريض . وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على باب  
أبي ابن كعب فناده وهو في الصلاة فبعجل في صلاته ثم جاء فقال : ما منعك عن إجابتي ؟  
قال : كنت أصلي . قال : ألم تخبر فيما أوحى إليّ استجبوا لله وللرسول قال : لا جرم لا  
تدعوني إلا أجبتك «1» . وفيه قولان ، أحدهما : إن هذا ما اختص به رسول الله صلى  
الله عليه وسلم . والثاني أن دعاءه كان لأمر لم يحتمل التأخير ، وإذا وقع مثله للمصلي فله  
أن يقطع صلاته لما يحييكم من علوم الديانات والشرائع ، لأن العلم حياة ، كما أن الجهل



موت . ولبعضهم :

لَا تُعْجِبَنَّ الْجُهُولَ حُلَّةً فَذَلِكَ مَيِّتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنٌ «2»

وقبل لمجاهدة الكفار ، لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم ، كقوله وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ  
وقيل للشهادة ، لقوله بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ . وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ يَعْنِي أَنَّهُ

يُمِيتُهُ فَتَقْوَتُهُ الْفُرْصَةُ الَّتِي هُوَ وَاجِدُهَا «3» وهي التمكن من إخلاص القلب ومعالجة

أدوائه وعلله ورده سليما كما يريد الله ، فاغتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوا قلوبكم لطاعة

اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ فَيُشَبِّحُكُمْ عَلَى حَسَبِ سَلَامَةِ الْقُلُوبِ وَإِخْلَاصِ

الطاعة . وقيل :

---

(1) . أخرجه الترمذي والنسائي دون قوله : لا جرم إلى آخره وأخرجه ابن مردويه من

الوجه الذي أخرجه منه الترمذي وفي آخره قال «انى لا جرم يا رسول الله لا تدعوني إلا

أجبتك هو إن كنت أصلى» وفي الباب عن أبي سعيد ابن الحكم ، أخرجه البخاري بغير

هذا السياق واقتصر عليه الطيبي .

(2) . للزمخشري ، نهى للجهول عن العجب والخيلاء بشيابه ، لأنه كالميت في عدم النفع

وعدم الإدراك ، ويلزم من ذلك أن ثوبه الذي يعجب به كالكفن ، حيث اشتمل على جسم

لا إدراك فيه ولا نفع . والميت هنا بالتخفيف .

(3) . قال محمود : «معناه أنه يميتة فتقوته الفرصة التي هو واجدها . . . الخ» قال أحمد

رحمه الله : نعم ، هذا عقد أهل السنة الذي استعار لهم لقب الجبيرة ، وهو العقد الحق  
المؤسس على التقوى وتفويض المخلوقات كلها إلى الواحد الحق خالق الخلق ، فان كان ذلك  
ظلماً فأنا بريء من الطائفة المتسمية بالعدلية ، إصراراً على هذا الرأي الباطل والمعتقد  
المالح ، والله الموفق .

(81/312)

---

معناه إن الله قد يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائم ، ويغير نيته ومقاصده ، ويبدله  
بالخوف أمناً وبالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً ، وبالنسيان ذكراً ، وما أشبه ذلك مما هو جائز  
على الله تعالى .

فأما ما يثاب عليه العبد ويعاقب «1» من أفعال القلوب فلا ، والجبيرة على أنه يحول بين  
المرء والإيمان إذا كفر ، وبينه وبين الكفر إذا آمن ، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .  
وقيل معناه : أنه يطلع على كل ما يخطر المرء بباله ، لا يخفى عليه شيء من ضمائرهم ،  
فكانه بينه وبين قلبه .

وقرى : بين المرء ، بتشديد الراء . ووجهه أنه قد حذف الهمزة وألقى حركتها على الراء ،  
كالخب ، ثم نوى الوقف على لغة من يقول : مررت بعمراً .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 25 إلى 26]

وَأَنْتُمْ قُنْتُمْ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25)  
وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمُ النَّاسُ فَأَوْأَكُمُ وَيَأْذِكُمْ  
بِنَصْرِهِ وَرَزَقِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26)

فِتْنَةٌ ذَنْبًا . قيل هو إقرار المنكرين بأظلمتهم . وقيل : افتراق الكلمة . وقيل فِتْنَةٌ عَذَابًا .  
وقوله : لَا تُصِيبَنَّ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا لِلأَمْرِ . أو نهيًا بعد أمر . أو صفة لفتنة ، فإذا  
كان جوابًا ، فالمعنى إن إصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم وهذا  
كما يحكى أن علماء بنى إسرائيل نهوا عن المنكر تعذيرًا «2» فعمهم الله بالعذاب ، وإذا  
كانت نهيًا بعد أمر فكانه قيل : واحذروا ذنبًا أو عقابًا ، ثم قيل : لا تتعرضوا للظلم  
فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة ، وكذلك إذا جعلته صفة على  
إرادة القول ، كأنه قيل :

وَأَنْتُمْ قُنْتُمْ مَقُولًا فِيهَا لَا تُصِيبَنَّ ، ونظيره قوله :

حَتَّى إِذَا جَنَّ الظُّلَمُ وَاخْتَلَطَ جَاءُوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّبَّ قَطُّ «3»

(1) . قوله «فَأَمَّا مَا يَثَابُ الْعَبْدَ عَلَيْهِ . . . الخ» المسألة هنا من فروع مسألة خلق أفعال

العباد الاختيارية ، فعند المعتزلة أن المرید الخالق لها هو العبد ، وإذا صح تكليفه لظهور

اختياره . وعند أهل السنة أن المرید الخالق لها هو الله تعالى . وإنما صح تكليف العبد لما

له فيها من الكسب ، وهو اختيار بعضها على بعض بشهادة الوجدان ، خلافا للجبرية  
القائلين بالجبر المحض ، ومحلّه التوحيد .

(2) . قوله نهوا عن المنكر تعذيرا التعذير في الأمر : التقصير فيه اه صحاح . (ع)

(3) بتنا مجسان ومعزاه يَطُّ يلحس أذنيه وحيناً يمتخط

ما زلت أسعى فيهمو وأختبط حتى إذا جن الظلام واختلط

جاءوا بمدق هل رأيت الذيب قط

لأحمد الرجاز . وقيل : إنه للعجاج ، يصف رجلا بالبخل . ويات بالقوم : إذا نزل بهم ليلا .

والأط : صوت الجوف . والمعز - محرّكة ومسكنة - والمعيز ، والأمعوز ، والمعزى :

خلاف الضأن من الغنم . فهو اسم جمع ، وتأنيث المعزى لغة . والاختباط : تطلب

المعروف من غير اهتداء . يقول : نزلنا عند حسان ليلا ، والحال أن معزاه جائعة هزيلة ،

فالأطيط كناية عن الأول ، والامتخاط كناية عن الثاني ، ويجوز أن ذلك كناية عن كثرة

المعز عنده ، وليخله قراهم بالمدق بعد مدة كان يمكنه أن يذبح لهم فيها شاة ، وهذا أنسب

بما بعده ، وضمير أذنيه يحتمل عوده على المعزى لأنه مذكّر عند الأكثر ، ويجوز أنه عائد

لحسان ، وهو ذم شنيع . وفيهم : أى في حيه . وجن النبت : طال . والليل : أظلم .

والذباب : كثرت أصواته . والظلام : كثروا اختلط وتراكم بعضه فوق بعض بحيث لا يتخلله

نور . والمدق : المزج . والمراد به لبن مخلوط بماء . ويروى : بمدق - بالكسر - : وهو ذلك

اللبن .

ويروى : جاءوا بضحك ، بمعجمة فمشاة تحتية فمهملة ، بمعنى المذق ، إلا أنه رقيق ، و«هل رأيت» استفهام تقريرى والجملة صفة لمذق ، أى مذق مقول فيه ذلك ، والمراد تشبيه المذق بالذئب في الكدرة ، فكنى بالاستفهام عن ذلك ، لأن من أراد إخطار الشيء بالبال ورسمه في الخيال يستفهم عنه ، فكأنه قال له هل رأيت ؟ فقال نعم ، قال : إن اللبنة مثله ، لكن حذف هذا كله واستغنى بالاستفهام عنه . وقط : ظرف مبنى على الضم ، وسكن الوقف .

(82/312)

---

أى بمذق مقول فيه هذا القول ، لأنه سمار فيه لون الورقة «1» التي هي لون الذئب . ويعضد المعنى الأخير قراءة ابن مسعود : لتصيين ، على جواب القسم المحذوف . وعن الحسن : نزلت في على وعمار وطلحة والزبير وهو يوم الجمل خاصة . قال الزبير : نزلت فينا وقرأناها زماناً ، وما أرانا من أهلها ، فإذا نحن المعنيون بها . وعن السدى : نزلت في أهل بدر فاقتتلوا يوم الجمل . وروى «أن الزبير كان يساير النبي صلى الله عليه وسلم يوماً ، إذ أقبل على رضى الله عنه ، فضحك إليه الزبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف

حبك لعلّي؟ فقال يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني أحبه كحبي لوالدي أو أشدّ حبا .

قال : فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله» «2» فإن قلت : كيف جاز أن يدخل النون

المؤكد في جواب الأمر؟ قلت : لأنّ فيه معنى النهي ، إذا قلت : انزل عن الدابة لا تطرحك

، فلذلك جاز لا تطرحنك ولا تصيبن ولا يحطمنكم . فإن قلت : فما معنى «من» في قوله

الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ؟ قلت : التبعض على الوجه الأوّل ، والتبيين على الثاني ، لأنّ المعنى :

لا تصيبنكم خاصة على ظلمكم ، لأنّ الظلم أقبح منكم من سائر الناس «3» .

---

(1) . قوله «لأنه سمار فيه لون الورقة» قوله «سمار» هو - بالفتح - ابن رقيق . وتسمير

اللين . ترقيقه بالماء .

والورقة : بياض يضرب إلى سواد وإلى خضرة اه صحاح . (ع)

(2) . لم أجده هكذا وإنما رواه ابن أبي شيببة من طريق الأسود بن قيس حدثني من رأى

الزبير يعقص الخيل فناده على : يا أبا عبد الله فأقبل حتى التقت أعناق دوابهما فقال له

على : أنشدك الله ، أتذكر يوم أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أناجيك فقال :

أتناجيه؟ والله ليقاتلنك وهولك ظالم قال : فضرب الزبير وجه دابته فانصرف «وروى

البيهقي في الدلائل من طريق أبي حرب بن أبي الأسود الديلمي عن أبيه قال : «لما دنا على

وأصحابه من طلحة والزبير ودنت الصفوف بعضها من بعض خرج على فنادى : ادعوا لي

الزبير فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابهما فقال على رضى الله عنهما يا زبير ، نشدتك

اللَّهِ ، أتذكر يوم مر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمكان كذا وكذا فقال : يا زبير ، أتحب عليا ؟ فقلت : ألا أحب ابن خالي وابن عمّتي وعلى قريبي ؟ قال : أما والله لتقاتلنه وأنت له ظالم ؟ قال ، بلى ، ولكنني نسيته وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة قال «لما ولى الزبير يوم الجمل بلغ عليا فقال : لو كان يعلم أنه على حق ما ولى وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لقيه في سقيفة بني ساعدة فقال : أتجبه يا زبير ؟ قال : وما يمنعني ؟ قال : فكيف بك إذا قاتلته» . [ . . . . . ]

(3) . قوله «أقبح منكم من سائر الناس» لعله منه من سائر الناس . (ع)

(83/312)

---

إِذْ أَنْتُمْ نَصَبْتُمْ عَلَىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ مَذْكُورٌ لَا ظَرْفَ : أَيِ اذْكُرُوا وَقْتُ كَوْنِكُمْ أَقْلَةً أَذَلَّةً  
مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ أَرْضِ مَكَّةَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ تَسْتَضْعِفُكُمْ قَرِيشٌ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ  
النَّاسُ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا جَمِيعًا لَهُمْ أَعْدَاءُ مُنَافِينَ مُضَادِّينَ فَأَوَّكُمُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ  
بِمُظَاهَرَةِ الْأَنْصَارِ وَيَأْمُدُّ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْغَنَائِمِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ  
إِرَادَةَ أَنْ تَشْكُرُوا هَذِهِ النِّعَمَ . وَعَنْ قَتَادَةَ : كَانَ هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْعَرَبِ أَذَلَّ النَّاسِ ، وَأَشَقَّاهُمْ  
عَيْشًا ، وَأَعْرَاهُمْ جِلْدًا ، وَأَبْيَنَهُمْ ضَلَالًا ، يُؤْكَلُونَ وَلَا يَأْكَلُونَ ، فَمَكَنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْبِلَادِ ،

ووسع لهم في الرزق والغنائم وجعلهم ملوكا .

[سورة الأنفال (8) : آية 27]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27)

معنى الخون : النقص ، كما أن معنى الوفاء التمام . ومنه : تخونه ، إذا تنقصه ، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه ، وقد استعير فقيلا : خان الدلو الكرب ، وخان المشتار السبب «1» لأنه إذا انقطع به فكانه لم يف له .

ومنه قوله تعالى وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ والمعنى لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه ، ورسوله بأن لا تستنوا به . وأماناتكم فيما بينكم بأن لا تحفظوها وأنتم تعلمون تبعه ذلك ووباله ، وقيل وأنتم تعلمون أنكم تخونون ، يعنى أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو . وقيل : وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن . وروى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بنى قريظة إحدى وعشرين ليلة «2» فسألوا الصلح كما صلح إخوانهم

---

(1) . قوله «خان الدلو الكرب وخان المشتار السبب . قوله «الكرب» حبل يشد في

رأس الدلو . والمشتار مجتنى العسل . والسبب : الحبل اه صحاح (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند ، لكن سنده إليه في أول الكتاب . وقد روى

ابن إسحاق في المغازي :



حدثنا إسحاق بن يسار عن عبد بن كعب السلمى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصرهم - يعنى قريظة - خمساً وعشرين ليلة - فذكر القصة بطولها - إلى أن قال :  
ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر فذكر قصة مختصرة . وأخرجها البيهقي في الدلائل من طريق سعيد بن المسيب في قصة طويلة - فذكر نحو ما هنا . وهكذا ذكرها عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : كان أبو لبابة ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك . فربط نفسه بسارية فذكر القصة» وأخرجه الواقدي عن معمر عن الزهري عن ابن كعب بن مالك مثله .

«تنبه» تسمية أبي لبابة مروان لم أره إلا من هذه الرواية . ومدة حصار بني قريظة المحفوظ فيها ما قاله ابن إسحاق .

(84/312)

---

بنى النضير على أن يسيروا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة مروان بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم ، فبعثه إليهم فقالوا له : ما ترى ، هل ننزل على حكم سعد ؟ فأشار إلى حلقه إنه الذبح ، قال أبو لبابة فما زالت

قد ما بي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله فنزلت ، فشدّ نفسه على سارية من  
سوارى المسجد وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ ،  
فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه ، فقيل له : قد تيب عليك فحل  
نفسك . فقال : لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي  
يجليني ، فجاءه فحله بيده فقال : إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها  
الذنب ، وأن أنخلع من مالي . فقال صلى الله عليه وسلم : يجزيك الثلث أن تصدق به .  
وعن المغيرة : نزلت في قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه . وقيل أماناتكم ما ائتمنكم الله  
عليه من فرائضه وحدوده . فإن قلت : وتخنونوا جزم هو أم نصب ؟ قلت : يحتمل أن يكون  
جزماً داخلياً في حكم النهي « وأن يكون نصباً يا ضمير » أن « كقولهم وتكتموا الحق وقرأ  
مجاهد :

وتخنونوا أمانتكم ، على التوحيد .

[سورة الأنفال (8) : آية 28]

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28)

جعل الأموال والأولاد فتنة ، لأنهم سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب . أو محنة من  
الله ليلبوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده وأن الله عنده أجر عظيم  
فعليكم أن تنوطوا بطلبه وما تؤدي إليه هممكم ، وتزهدوا في الدنيا ، ولا تحرصوا على جمع

المال وحب الولد ، حتى تورطوا أنفسهم من أجلهما ، كقوله المال والبُنون الآية . وقيل :  
هي من جملة ما نزل في أبي لبابة وما فرط منه لأجل ماله وولده .

[سورة الأنفال (8) : آية 29]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو  
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

فُرْقَانًا نصرًا ، لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه ، والإسلام بإعزاز أهله .  
ومنه قوله تعالى يَوْمَ الْفُرْقَانِ أَوْ بَيَانًا وظهورا يشهر أمركم ويث صيتكم وآثاركم في أقطار  
الأرض ، من قولهم «بتّ أفعل كذا» حتى سطع الفرقان : أى طلع الفجر . أو مخرجا من  
الشبهات وتوفيقا وشرحا للصدور . أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان ، وفضلا  
ومزية في الدنيا والآخرة .

(85/312)

[سورة الأنفال (8) : آية 30]

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ  
الْمَاكِرِينَ (30)

لما فتح الله عليه ، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة ، ليشكر نعمة الله عز وجل في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وما أتاح الله له من حسن العاقبة ، والمعنى : واذكر إذ يمكرون بك وذلك أن قريشا - لما أسلمت الأنصار وبايعوه - فرقوا أن يتواقم أمره «1» ، فاجتمعوا في دار الندوة ومشاورين في أمره ، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال : أنا شيخ من نجد ، ما أنا من تهامة دخلت مكة فسمعت باجتماعكم ، فأردت أن أحضركم ولن تعدوا مني رأيا ونصحا ، فقال أبو البخترى : رأيي أن تحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتربصوا به ريب المنون . فقال إبليس : بسس الرأي ، يأتيكم من يقا تلکم من قومہ ويخلصه من أيديکم : فقال هشام بن عمرو : رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم ، فلا يضركم ما صنعوا واسترحتم . فقال إبليس : بسس الرأي يفسد قوما غيركم ويقا تلکم بهم . فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً ، فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا . فقال الشيخ - لعنه الله - : صدق هذا الفتى ، هو أجودكم رأياً . ففرقوا على رأى أبى جهل مجتمعين على قتله . فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأذن الله له في الهجرة ، فأمر علياً رضي الله عنه فنام في مضجعه ، وقال له : اتشح يردتي ، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه ، وباتوا

مترصدين ، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه ، فأبصروا علياً فبهتوا وخيب الله عز وجل  
سعيهم ، واقتصوا أثره فأبطل الله مكرهم «2» لِيُثْبِتُوكَ لِيَسْجُنُوكَ أَوْ يُوَثِّقُوكَ أَوْ يَخْنُوكَ  
بالضرب والجرح ، من قولهم :

ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح ، وفلان مثبت وجعاً . وقرئ : لِيُثْبِتُوكَ ،  
بالتشديد . وقرأ النخعي : لِيُثْبِتُوكَ ، من البيات ، وعن ابن عباس : ليقيدوك ، وهو دليل  
لمن فسره بالإيثاق

- 
- (1) . قوله «فرقوا أن يتفارق أمره» أي خافوا أن يعظم أمره . اه صحاح . (ع)  
(2) . القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي : حدثني من لا أنهم عن ابن أبي نجيح عن  
مجاهد عن ابن عباس قال «لما اجتمعت قريش في دار الندوة وتشاوروا في أمر رسول الله  
صلى الله عليه وسلم اعترضهم إبليس في هيئة شيخ فذكره مطولا» وأخرجه الطبري وأبو  
نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح . وليس في أوله أن ذلك بسبب  
الأنصار . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة قال «لما كثر المسلمون -  
فذكر معناها . ووصلها الواقدي عن معمر بذكر عائشة قال : وعن ابن أبي خيثمة عن  
داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس نحوه .

وَيَمْكُرُونَ وَيَخْفُونَ الْمَكَائِدَ لَهُ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَيَخْفَى اللَّهُ مَا أَعَدَّ لَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَاللَّهُ خَيْرُ  
الْمَاكِرِينَ أَى مَكْرَهُ أَنْفَذَ مِنْ مَكْرٍ غَيْرِهِ وَأَبْلَغَ تَأْثِيرًا ، أَوْ لِأَنَّهُ لَا يَنْزِلُ إِلَّا مَا هُوَ حَقٌّ وَعَدْلٌ وَلَا  
يُصِيبُ إِلَّا بِمَا هُوَ مُسْتَوْجِبٌ .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 31 إلى 34]

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ  
(31) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ  
أَتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ  
يَسْتَغْفِرُونَ (33) وَمَا لَهُمُ الْأَعْدَاءُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا  
أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34)

لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا نَفَاجَةً مِنْهُمْ وَصَلَفٌ «1» تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَتَوَانُوا فِي مَشِيئَتِهِمْ  
لَوْ سَاعَدْتَهُمُ الْإِسْطَاعَةَ ، وَإِلَّا فَمَا مَنَعَهُمْ إِنْ كَانُوا مُسْتَطِيعِينَ أَنْ يَشَاءُوا غَلْبَةَ مَنْ تَحَدَّاهُمْ  
وَقَرَعَهُمْ بِالْعِجْزِ ، حَتَّى يَفُوزُوا بِالْقَدْحِ الْمَعْلَى دُونَهُ ، مَعَ فِرْطِ أَنْفَتِهِمْ وَاسْتِنكَافِهِمْ أَنْ يَغْلِبُوا  
فِي بَابِ الْبَيَانِ خَاصَّةً ، وَأَنْ يِمَاتَنَّهُمْ وَاحِدٌ ، فَيَتَعَلَّلُوا بِامْتِنَاعِ الْمَشِيئَةِ ، وَمَعَ مَا عَلِمَ وَظَهَرَ  
ظُهُورَ الشَّمْسِ ، مِنْ حِرْصِهِمْ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَهَالُكِهِمْ  
عَلَى أَنْ يَغْمُرُوهُ «2» . وَقِيلَ : قَاتَلَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَرِثِ الْمَقْتُولُ صَبْرًا ، حِينَ سَمِعَ اقْتِصَاصَ

اللّه أحاديث القرون: لو شئت لقلت مثل هذا . وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وإسفنديار فزعم أن هذا مثل ذلك ، وأنه من جملة تلك الأساطير ، وهو القائل إن كان هذا هو الحق وهذا أسلوب من الجحود بليغ ، يعنى إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل ، كما فعلت بأصحاب الفيل ، أو بعذاب آخر . ومراده نفى كونه حقاً ، وإذا اتفى كونه حقاً لم يستوجب منكره عذاباً فكان تعليق العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنه ليس بحق ، كتعليقه بالمحال في قولك :

إن كان الباطل حقاً ، فأمطر علينا حجارة . وقوله : هو الحق تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين : هذا هو الحق . وقرأ الأعمش «هو الحق» بالرفع ، على أن هو مبتدأ غير

---

(1) . قوله «نفاجة منهم و صلف الخ» «نفاجة» أى تكبر . و«الصلة» مجاوزة الحد كيرا .

«و الراعدة» السحابة . وهذا مثل يضرب للرجل يتوعد ثم لا يقوم به . والقدر المعلى :

أحد سهام الميسر يخرج للغالب اه صحاح (ع)

(2) . قوله «على أن يغمره» يقال للرجل : غمره القوم ، إذا علوه شرفاً ، كذا في

الصحاح . (ع)

---

فصل . وهو في القراءة الأولى فصل . ويقال : أمطرت السماء ، كقولك أنجمت وأسبلت  
«1» ومطرت ، كقولك : هنتت وهتلت . وقد كثر الأمطار في معنى العذاب . فإن قلت :  
ما فائدة قوله من السماء ؟ والأمطار لا تكون إلا منها . قلت : كأنه يريد أن يقال : فأمطر  
علينا السجيل وهي الحجارة المسومة للعذاب ، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل  
، كما تقول :

صب عليه مسرودة من حديد ، تريد درعا بعذاب الأليم أي بنوع آخر من جنس العذاب  
الأليم ، يعني أن أمطار السجيل بعض العذاب الأليم ، فعذبنا به أو بنوع آخر من أنواعه .  
وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ! قال : أجهل من  
قومي قومك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى الحق إن كان هذا هو  
الحق من عندك فأمطر علينا حجارة ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له . اللام  
لتأكيد النفي ، والدلالة على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة ، لأن  
عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال ما دام نبينهم بين أظهرهم وفيه  
إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم . والدليل على هذا الإشعار قوله وما لهم  
ألا يعذبهم الله وإنما يصح هذا بعد إثبات التعذيب ، كأنه قال : وما كان الله ليعذبهم وأنت  
فيهم ، وهو معذبهم إذا فارقتهم ، وما لهم أن لا يعذبهم وهم يستغفرون في موضع الحال .



ومعناه نفى الاستغفار عنهم: أى ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم، كقوله:  
وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون، ولا  
يتوقع ذلك منهم. وقيل: معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر، وهم المسلمون بين  
أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين، وما لهم ألا  
يُعذَّبهم الله وأى شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم، يعنى:  
لاحظ لهم في ذلك وهم معذبون لا محالة. وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن  
المسجد الحرام كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية، وإخراجهم  
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من الصد، وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم  
فنصد من نشاء وندخل من نشاء وما كانوا أولياءه وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم  
للدين أن يكونوا ولاة أمره وأربابه إن أولياءه إلا المتقون من المسلمين ليس كل مسلم أيضاً ممن  
يصلح لأن يلي أمره، إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً، فكيف بالكفرة عبدة الأصنام  
ولكن أكثرهم لا يعلمون كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند ويطلب الرياسة. أو أراد  
بالأكثر: الجميع، كما يراد بالقلّة: العدم.

---

(1). قوله «أنجمت وأسبلت الخ» أنجمت: أى انكشفت نجومها. وأسبلت: أمطرت.

وهنت وهتلت:

تتابع مطرها. اه صحاح (ع)

[سورة الأنفال (8) : آية 35]

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35)  
المكاء : فعال بوزن الثغاء والرخاء «1» من مكأ يمكؤ إذا صفر : ومنه المكاء ، كأنه سمي  
بذلك لكثرة مكائه . وأصله الصفة ، نحو الوضاء والفراء . وقرئ : مكأ بالقصر .

ونظيرهما :

البكى والبكاء . والتصدية : التصفيق ، تفعلة من الصدى أو من صدَّ يصد «2» إذا  
قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقِرَاءُ الْأَعْمَشِ : وما كان صلاتهم ، بالنصب على تقديم خبر كان على  
اسمه ، فإن قلت : ما وجه هذا الكلام ؟ قلت : هو نحو من قوله :

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُودًا أَوْ مُحَدَّرَجَةً سُمْرًا «3»

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء ، ووضعوا المكاء والتصدية موضع  
الصلاة ، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة : الرجال والنساء ، وهم مشبكون بين  
أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون ، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله صلى الله  
عليه وسلم في صلاته يخاطبون عليه فذُوقُوا عَذَابَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ يَوْمَ بَدْرٍ ، بسبب كفركم

وأفعالكم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 36 إلى 37]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ  
يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ  
الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37)  
قيل نزلت في المطعمين يوم بدر ، كان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزائر . وقيل :

(1) . قوله «بوزن الثغاء والرغاء» الثغاء : صوت الغنم . والرغاء : صوت الإبل . والمكا

- بالتشديد - : طائر وجمعه مكاكى اه صحاح (ع)

(2) . قوله «أو من صد يصد» في الصحاح : صد يصد ويصد صديداً : أى ضج (ع)

(3) . للفرزدق «والأدهم» في الأصل الأسود ، ثم غلب على الحية السوداء ، ثم سمي به

القيد الحديد .

«والمحدرج» المفتول : أى ما كنت . أظن أن يكون عطاؤه قيوداً سوداً ، أو سياتاً مفتولة

سمرا حقيقة ، أو وصفها بذلك لقبحها ، كما يصفون الحسن بالأخضر . ويروى «حمرا»

فوضع القيود والسياط موضع العطاء ، ووضع الشاعر الرجاء موضع الظن ، وأطلق

العطاء على العقاب مجازاً ، وعرض بذلك إلى أنه كان يرجو العطا ، ويروى «أخاف زيادا

أن يكون» .

قالوا لكل من كان له تجارة في العير: أعيئوا بهذا المال على حرب محمد ، لعلنا ندرك منه  
ثأرنا بما أصيب منا ببدر . وقيل : نزلت في أبي سفيان وقد استأجر ليوم أحد ألفين من  
الأحابيش سوى من استجاش من العرب ، وأنفق عليهم أربعين أوقية . والأوقية اثنان  
وأربعون مثقالاً ليصدوا عن سبيل الله أي كان غرضهم في الإنفاق الصدّ عن اتباع محمد  
وهو سبيل الله ، وإن لم يكن عندهم كذلك ثم تكون عليهم حسرة أي تكون عاقبة إنفاقها  
ندماً وحسرة ، فكان ذاتها تصير ندماً وتقلب حسرة ثم يغلبون آخر الأمر وإن كانت  
الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالات قبل ذلك فيرجعون طلقاء « 1 » كَبَّ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّا إِيَّاهُ  
وَرُسُلِي . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالْكَافِرُونَ مِنْهُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ وَحَسَنَ  
إِسْلَامَهُ لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ الْفَرِيقَ الْخَبِيثَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنَ الْفَرِيقِ الطَّيِّبِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ،  
فيجعل الفريق الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً عبارة عن الجمع والضم ، حتى  
يتراكبوا ، كقوله تعالى : كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا يَعْنِي لِفِرْطٍ أزدحامهم أولئك إشارة إلى  
الفريق الخبيث ، وقيل : ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة رسول الله صلى  
الله عليه وسلم ، من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون كأبي بكر وعثمان في نصرته فيركمه

فيجعله في جهنم في جملة ما يعذبون به ، كقوله فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ . . . الآية ،  
واللام على هذا متعلقة بقوله ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً وَعَلَى الْأُولَىٰ يَبْحَثُونَ ، وأولئك :  
إشارة إلى الذين كفروا . وقرئ : ليميز على التخفيف .

[سورة الأنفال (8) : آية 38]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38)  
قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَبِي سَفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ . أَي قُلْ لِأَجْلِهِمْ هَذَا الْقَوْلُ وَهُوَ إِنْ يَنْتَهُوا وَلَوْ كَانَ  
بمعنى خاطبهم به لقليل : إِنْ تَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَكُمْ ، وهي قراءة ابن مسعود . ونحوه :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ خَاطَبُوا بِهِ غَيْرَهُمْ لِأَجْلِهِمْ  
ليسمعوه ، أى إِنْ يَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقِتَالِهِ  
بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ لَهُمْ مِنَ الْعِدَاوَةِ وَإِنْ يَعُودُوا لِقِتَالِهِ فَقَدْ مَضَتْ  
سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ الَّذِينَ حَاقَ بِهِمْ مَكْرَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ . أَوْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَى  
أَنْبِيَائِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ فَدَمَرُوا ، فليتوقعوا مثل ذلك إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا . وقيل : معناه أَنْ الْكُفَّارَ إِذَا انْتَهَوْا  
عن

---

(1) . قوله «فيرجعون طلقاء» في الصحاح «الطلاق» الأسير الذي أطلق عنه إيساره

وخلى سبيله . (ع)

الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف لهم من الكفر والمعاصي ، وخرجوا منها كما تنسلّ الشعرة من العجين . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «الإسلام يجب ما قبله» «1» وقالوا : الحربي إذا أسلم لم يبق عليه تبعة قط . وأما الذي فلا يلزمه قضاء حقوق الله وتبقى عليه حقوق الآدميين .

وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله في أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الردة . وقبلها ، وفسر وإن يعودوا بالارتداد . وقرئ يُغفر لهم على أن الضمير لله عز وجل

[سورة الأنفال (8) : الآيات 39 إلى 40]

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39)  
وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ إِلَىٰ أَنْ لَا يَوجَدَ فِيهِمْ شَرِكٌ قَطُّ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَيُضْمَحَلُّ عَنْهُمْ كُلُّ دِينٍ بَاطِلٍ ، وَيَبْقَىٰ فِيهِمْ دِينُ الْإِسْلَامِ وَحَدَهُ فَإِنِ انْتَهَوْا عَنِ الْكُفْرِ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ يُشَبِّهُهُمْ عَلَى تَوْبَتِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ . وقرئ : تعملون ، بالتاء ، فيكون المعنى :

فإن الله بما تعملون من الجهاد في سبيله والدعوة إلى دينه والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام بصيرٌ مجازيكم عليه أحسن الجزاء وإن تولّوا ولم ينتهوا فأعلموا أن الله مولاكم أي ناصركم ومعينكم ، فتقوا بولايته ونصرته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف ح 2 ص

﴿ 220.209 ﴾

(1) . أخرجه مسلم من رواية عبد الرحمن بن أسامة عن عمرو بن العاص في قصة . وفيها هذا لكن بلفظ «يهدم ما قبله» قال النووي : غلط كثير من الفقهاء فذكره بلفظ «يجب ما قبله» ويروى «يحت» بالمهملة والمثناة اهـ . وقد رواه الطبري من هذا الوجه ، بلفظ «إن الإسلام يجب ما كان قبله» وأخرجه ابن إسحاق في المغازي من طريق حبيب بن أبي أويس الثقفي حدثني عمرو بن العاص من فيه إلى في قال «لما جئت أريد الإسلام فذكر القصة . وفيها يا عمرو ، إن الإسلام يجب ما قبله . والهجرة تجب ما كان قبلها» ومن هذا الوجه أخرجه أحمد وإسحاق والبيهقي في الدلائل . وأخرجه ابن سعد في خالد بن الوليد من طريق المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال قال خالد ابن الوليد . . . فذكر قصة إسلامه وفيها «إن الإسلام يجب ما كان قبله» وفي ترجمة المغيرة بن شعبة من رواية يعقوب ابن عتبة عن المغيرة . فذكر قصة إسلامه . وفيها ذلك . وفي ترجمة هبار بن الأسود من حديث جبير بن مطعم في قصة إسلام هبار . وفيه «والإسلام يجب ما كان قبله» وفي أسانيد الثلاثة الواقدي .

(91/312)

---

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ (31) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (40) ﴿

(92/312)

---

التفسير : لما حكى مكرهم في ذات محمد صلى الله عليه وآله حكى مكرهم في دينه .  
وروي أن النضر بن الحرث خرج إلى الحيرة تاجراً واشترى أحاديث كليلة ودمنة وقصة  
رستم واسفنديار ، وكان يقعد مع المستهزئين والمقتسمين فيقرأ عليهم ويقول هذا مثل ما  
يذكره محمد من قصص الأولين ، ولو شئت لقلت مثل قوله ، وهذا منه ومن أمثاله صلف  
تحت الراعدة لأنهم لم يتوانوا في مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة . ويروي عن النضر أو



عن أبي جهل على ما في الصحيحين أن أحدهما قال ما معناه ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق  
﴿ الآية . وهذا أسلوب من العناد بليغ لأن قوله ﴿ هو الحق ﴾ بالفصل وتعريف الخبر  
تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين هذا هو الحق . ومعنى ﴿ حجارة من  
السماء ﴾ الحجارة المسومة للعذاب أي إن كان القرآن هو المخصوص بالحقية فعاقبنا على  
إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل أو بنوع آخر من جنس العذاب الأليم . ومراده  
نفي كونه حقاً فلذلك علق بحقيقته العذاب كما لو علق بأمر محال فهو كقول القائل إن كان  
الباطل حقاً فأمطر علينا حجارة . وعن معاوية أنه قال لرجل من سباً : ما أجهد قومك  
حين ملكوا عليهم امرأة . قال : أجهد من قومي قومك قالوا لرسول الله صلى الله عليه  
وسلم حين دعاهم إلى الحق ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة ﴾  
ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق فاهدنا له . ثم شرع في الجواب عن شبهتهم فقال ﴿ وما كان  
الله ليعذبهم ﴾ اللام لتأكيد النفي دلالة على أن تعذيبهم بعذاب الاستئصال والنبي بين  
أظهرهم غير مستقيم عادة تعظيماً لشأن النبي ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون  
﴿ قال قتادة والسدي : المراد نفي الاستغفار عنهم أي لو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر  
لما عذبهم . وقيل : اللفظ عام لأن المراد بعضهم وهم الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم من المستضعفين المؤمنين فهو كقولك : قتل أهل المحلة فلاناً وإنما قتله واحد منهم  
أو اثنان . وقيل :

(93/312)

---

وصفوا بصفة أولادهم والمعنى وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفي علم الله أنه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه ، وفي علم الله أن فيهم من يؤل أمره إلى الإيمان كحكيم بن حزام والحرث بن هشام وعدد كثير ممن آمن يوم الفتح وقبله وبعده .

(94/312)

---

وفي الآية دلالة على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب . قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : نبي الله والاستغفار . أما النبي فقد مضى وأما الاستغفار فهو باقٍ إلى يوم القيامة . ثم بين أنه يعذبهم إذا خرج الرسول من بينهم فقال ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ وأي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم يعني لا حظ لهم في ذلك وهم معذبون لا محالة . قيل : لحقهم هذا العذاب المتوعد به يوم بدر . وقيل : يوم فتح مكة بدليل قوله ﴿ وهم يصدون ﴾ أي كيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله عام الحديبية . والأولون قالوا : إن إخراجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من الصدّ . وعن

ابن عباس أن هذا العذاب عذاب الآخرة والذي نفاه عنهم هو عذاب الدنيا وكانوا يقولون :  
نحن ولاية البيت والحرم فنصدّ من نشاء وندخل من نشاء فنفى الله استحقاقهم الولاية بقوله  
﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ من المسلمين وليس كل مسلم يصلح لذلك  
فضلاً عن مشرك ﴾ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ كان فيهم من كان يعلم وهو يعاند ويطلب  
الرياسة . أو أراد بالأكثر الجميع كما يراد بالقلة العدم . ثم ذكر بعض أسباب سلب الولاية  
عنهم فقال ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ المكاء " فعال " كالثغاء  
والرغاء من مكأ يمكأ إذا صفر . والتصدية التصفيق " تفعله " من الصدى وهو الصوت  
الذي يرجع من الجبل فيكون في الأصل معتل اللام ، أو من صدّ يصدّ مضاعفاً أي صاح  
فقلبت الدال الأخيرة ياء كالتقضي في التقضض ، وأنكر هذا الاشتقاق بعضهم وصوّبه  
الأزهري وأبو عبيدة . قال جعفر بن ربيعة : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن المكاء  
والتصدية فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيراً . وقيل : هو أن يجعل بعض أصابع اليمين وبعض  
أصابع الشمال في الفم ثم يصفر به . وقيل : تصويب يشبه صوت المكاء بالتشديد وهو طائر  
معروف . عن ابن عمر : كانوا يطوفون بالبيت عراة وهم مشبكون بين أصابعهم

(95/312)

---

يصفرون فيها ويصفقون . فالمكء والتصدية على هذا نوع عبادة لهم فلماذا وضعوا موضع الصلاة بناء على معتقدهم . وفيه أن من كان المكء والتدية صلاته فلا صلاة له كقول العرب : ما لفلان عيب إلا السخاء أي من كان السخاء عيبه فلا عيب له . وقال مجاهد ومقاتل : كانوا يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف والصلاة عند المسجد الحرام يستهزؤون به ويخالطون عليه فجعل المكء والتصدية صلاة لهم كقولك : زرت الأمير فجعل جفائي صليتي أي أقام الجفاء مقام الصلاة .  
ثم خاطبهم على سبيل المجازاة بقوله ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر أو عذاب الآخرة ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ بسبب كفركم وأفعالكم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة .

(96/312)

---

ولما شرح أحوال هؤلاء الكفار في الطاعات البدنية أتبعها شرح أحوالهم في الطاعات المالية فقال ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ﴾ الآية . قال مقاتل والكلبي : نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً : أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ونبه ومنبه ابنا حجاج وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحرث وحكيم بن حزام وأبي بن خلف وزمعة

بن أسود والحرث بن عامر بن نوفل والعباس ابن عبد المطلب . وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر . وقال سعيد بن جبيرة وابن أبي نزي : نزلت في أبي سفيان بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش - والأحبوش جماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة - وأنفق عليهم أربعين أوقية من فضة . والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً - قاله في الكشف . وقال محمد بن إسحق عن رجاله : لما أصيب قريش يوم بدر فرجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم بيدركموا أبا سفيان بن حرب ومن كان له في تلك العير تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال الذي أفلت على حربه لعلنا أن ندرك منه ثاراً لمن أصيب منا فأنزل الله تعالى الآية . ومعنى ﴿ ليصدوا عن سبيل الله ﴾ أن غرضهم في الإنفاق كان هو الصدّ عن اتباع محمد وهو سبيل الله وإن لم يكن عندهم كذلك . ثم أخبر عن الغيب على وجه الإعجاز فقال ﴿ فيسنفقونها ﴾ أي سيقع منهم هذا الإنفاق ثم تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة فكان ذاتها تصير ندماً وتنقلب حسرة ثم يغلبون آخر الأمر وإن كانت الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالاتاً لقوله ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] ومعنى " ثمك " في الجملتين إما التراخي في الزمان لما بين الإنفاق المذكور وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد ، وإما التراخي في الرتبة لما بين بذل المال وعدم

(97/312)

---

حصول المقصود من المباينة. ثم قال ﴿والذين كفروا﴾ أي الكافرون منهم ولم يقل "ثم يغلبون وإلى جهنم يحشرون" لأن منهم من أسلم وحسن إسلامه فذكر أن الذي بقوا على الكفر لا يكون حشرهم إلا إلى جهنم دون من أسلم منهم. ثم بين الغاية والغرض فيما يفعل بهم من الغلبة ثم الحشر إلى جهنم فقال ﴿ليميز الله الخبيث﴾ أي الفريق الخبيث من الكفار ﴿من﴾ الفريق ﴿الطيب﴾ وهم المؤمنون ﴿ويجعل﴾ الفريق ﴿الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً﴾ عبارة عن الجمع والضم وفرط الازدحام.

(98/312)

---

يقال: ركم الشيء يركمه إذا جمعه وألقى بعضه على بعض ﴿أولئك﴾ الفريق الخبيث ﴿هم الخاسرون﴾ وقيل: الخبيث والطيب صفة المال أي ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من المال الطيب الذي أنفقه المهاجرون والأنصار في نصرته فيركمه فيضم تلك الأموال الخبيثة بعضها على بعض

فيلقيه في جهنم ويعذبهم بها كقوله ﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم ﴾ [ التوبة : 35 ]  
وعلى هذا فاللام في قوله ﴿ ليميز الله ﴾ يتعلق بقوله ﴿ ثم تكون عليهم حسرة ﴾ قاله  
في الكشف . ولا يبعد عندي أن يتعلق ﴿ يحشرون ﴾ و ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى  
الذين كفروا . ولما بين ضلالهم في عباداتهم البدنية والمالية أرشدهم إلى الطريق المستقيم  
وما يتبعه من الصلاح فقال ﴿ قل للذين كفروا ﴾ أي قل لأجلهم هذا القول وهو أن ينتهوا  
عما هم عليه من عداوة الرسول وقاتله بالدخول في السلم والإسلام ﴿ يغفر لهم ما قد  
سلف ﴾ من الكفر والمعاصي . ولو كان المراد خطابهم بهذا القول ل قيل : " أن تنتهوا يغفر  
لكم " . وقد قرأ بذلك ابن مسعود ﴿ وإن تعودوا ﴾ لقاتله ﴿ فقد مضت سنة الأولين  
﴿ منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر أو سنة الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم  
فأهلكوا أو غلبوا كقوله ﴾ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴿ [ المجادلة : 21 ] واستدل  
كثير من العلماء منهم أصحاب أبي حنيفة الآية على أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع  
الإسلام لأن الخطاب مع الكفر باطل بالإجماع وبعد زواله لا يؤمر بقضاء العبادات الفاتئة ،  
بل ذهب أبو حنيفة إلى أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الردة  
وقبلها وفسر ﴿ وإن تعودوا ﴾ بالعودة إلى الردة . واختلفوا في أن الزنديق هل تقبل تبوته أم  
لا ؟ والصحيح أنها مقبولة لشمول الآية جميع الكفار لقوله صلى الله عليه وسلم : " نحن  
نحكم بالظاهر " ولأنه يكلف بالرجوع ولا طريق له إلا التوبة ، فلو لم تقبل لزم تكليف ما لا

(99/312)

---

يطاق . ثم أمر بقتالهم إن أصرروا على الكفر فقال ﴿ وقاتلوهم ﴾ الآية . وقد مر تفسيره في سورة البقرة إلا أنه زاد ههنا لفظة ﴿ كره ﴾ في قوله ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ لأن القتال ههنا مع جميع الكفار وهناك كان مع أهل مكة فحسب ﴿ فإن انتهوا ﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿ فإن الله بما يعملون بصير ﴾ يشيهم على توبتهم وإسلامهم . ومن قرأ بقاء الخطاب أراد فإن الله بما تعملون من الجهاد في سبيله والدعوة إلى دينه بصير يجازيكم عليه أحسن الجزاء . ﴿ وإن تولوا ﴾ ولم ينتهوا ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ ناصركم ومتولي أموركم يحفظكم ويدفع شر الكفار عنكم فإنه ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ فتقوا بولايته ونصرته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 395 . 398 ﴾

(100/312)

---

وقال البيضاوي في الآيات السابقة :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ بقوتكم . ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء



الرعب في قلوبهم . روي : أنه لما طلعت قريش من العنقل قال عليه الصلاة والسلام : هذه قريش جاءت بجيلائها وفخرها يكذبون رسولك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان تناول كفاً من الحصباء فرمى بها في وجوههم وقال "شاهت الوجوه" ، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهمزوا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر فيقول الرجل قتل وأسرت ، فنزلت . والفاء جواب شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم . ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ يا محمد رمياً توصله إلى أعينهم ولم تقدر عليه . ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ أي إذ أتيت بصورة الرمي . ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ أتى بما هو غاية الرمي فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم ، وقد عرفت أن اللفظ يطلق على المسمى وعلى ما هو كماله والمقصود منه . وقيل معناه ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم . وقيل إنه نزل في طعنة طعن بها أبي بن خلف يوم أحد ولم يخرج منه دم فجعل يخور حتى مات . أو رمية سهم رماه يوم خيبر نحو الحصن فأصاب كنانة بن أبي الحقيق على فراشه ، والجمهور على الأول . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿ وَلَكِنْ ﴾ بالتخفيف ورفع ما بعده في الموضعين . ﴿ وَيُؤْتِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة

الآيات فعل ما فعل . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم . ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم وأحوالهم .

(101/312)

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ، أو القتل أو الرمي ، ومحله الرفع أي المقصود أو الأمر ذلكم وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ معطوف عليه أي المقصود إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ مُوهِنٌ ﴾ بالتشديد ، وحفص ﴿ مُوهِنٌ كَيْدِ ﴾ بالإضافة والتخفيف .

﴿ إِنْ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم ، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين . ﴿ وَإِنْ تَنْهَوْا ﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا ﴾ لمحاربه . ﴿ نَعْدُ ﴾ لنصرته عليكم . ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ ﴾ ولن تدفع . ﴿ عَنْكُمْ فَتُكَّمْ ﴾ جماعتكم . ﴿ شَيْئاً ﴾ من الإغناء أو المضار . ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ فتكم . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والمعونة . وقرأ

نافع وابن عامر وحفص ﴿ وَأَنْ ﴾ بالفتح على تقدير ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك .  
وقيل الآية خطاب للمؤمنين والمعنى : إن تستنصروا فقد جاءكم النصر ، وإن تنتهوا عن  
التكاسل في القتال والرغبة عما يستأثره الرسول فهو خير لكم وإن تعودوا إليه نعد عليكم  
بالإنكار أو تهيب العـدو ، ولن تغني حينئذ كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فإنه مع  
الكاملين في إيمانهم ويؤيد ذلك .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ ﴾ أي ولا تولوا عن الرسول ، فإن  
المراد من الآية الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه ، وذكر طاعة الله للتوسط والتنبية  
على أن طاعة الله في طاعة الرسول لقوله تعالى ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وقيل  
الضمير للجهد أو للأمر الذي دل عليه الطاعة . ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ القرآن والمواظ  
سماع فهم وتصديق .

(102/312)

---

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ كالكفرة والمنافقين الذين ادعوا السماع . ﴿ وَهُمْ لَا  
يَسْمَعُونَ ﴾ سماعاً ينتفعون به فكانهم لا يسمعون رأساً .  
﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ شر ما يدب على الأرض ، أو شر البهائم . ﴿ الصم ﴾

عن الحق . ﴿ البكم الذين لا يعقلون ﴾ إياه ، عدتهم من البهائم ثم جعلهم شرها لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله .

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ سعادة كتبت لهم أو انتفاعاً بالآيات . ﴿ لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ سماع تفهم . ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم . ﴿ لَتَوَلَّوْا ﴾ ولم ينتفعوا به ، أو ارتدوا بعد التصديق والقبول . ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ لعنادهم . وقيل كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : أحبي لنا قصياً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك ونؤمن بك . والمعنى لأسمعهم كلام قصي .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ بالطاعة . ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ وحد الضمير فيه لما سبق ولأن دعوة الله تسمع من الرسول . وروي أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبي وهو يصلي فدعاه فعجل في صلاته ثم جاء فقال : ما منعك عن إجابتي قال : كنت أصلي ، قال : " ألم تخبر فيما أوحى إلي " ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ . واختلف فيه فقيل هذا لأن إجابته لا تقطع الصلاة فإن الصلاة أيضاً إجابة . وقيل لأن دعاءه كان لأمر لا يحتمل التأخير وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله وظاهر الحديث يناسب الأول . ﴿ لَمَّا يُحْيِيكُم ﴾ من العلوم الدينية فإنها حياة القلب والجهل موته . قال : لا تعجبَنَّ الجهولَ حِلَّتَهُ . . . فذَاكَ مَيِّتٌ وَتَوْبُهُ كَفَنٌ

أومما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال ، أو من الجهاد فإنه سبب بقائكم إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم ، أو الشهادة لقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴾ ﴿ واعلموا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وتنبيه على أنه مطلع على مكونات القلوب مما عسى يغفل عنه صاحبها ، أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره ، أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ويغير مقاصده ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته ، وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته . وقرىء " بَيْنَ الْمَرْءِ " بالتشديد على حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الراء وإجراء الوصل مجرى الوقف على لغة من يشدد فيه . ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ اتقوا ذنبا يعمكم أثره كإقرار المنكر بين أظهركم والمداهنة في الأمر بالمعروف وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في الجهاد على أن قوله لا تصيبن إنما جواب الأمر على معنى أن أصابتمكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة بل تعمكم ، وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهي ساع فيه كقوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ ﴾ وأما صفة ﴿

لفتنة ❁ ، ولا للنفى وفيه شذوذ لأن النون لا تدخل المنفي في غير القسم ، أولنهي على

إرادة القول كقوله :

حتى إذا جن الظلام واختلط . . . جاؤوا بمذق هل رأيت الذئب قط

(104/312)

---

وإما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيين وإن اختلفا في المعنى ، ويحتمل أن يكون نهياً بعد الأمر باتقاء الذئب عن التعرض للظلم لأن وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه ، ومن في منكم على الوجه الأول للتبعيض وعلى الأخيرين للتبيين وفائدته التنبيه على أن الظلم منكم أقبح من غيركم . ❁ واعلموا أن الله شديد العقاب . ❁

❁ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ❁ أرض مكة يستضعفكم قريش ، والخطاب للمهاجرين . وقيل للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم . ❁

تخافون أن يخطفكم الناس ❁ كفار قريش أو من عداهم فإنهم كانوا جميعاً معادين لهم مضادين لهم . ❁ فآؤاكم ❁ إلى المدينة ، أو جعل لكم مأوى تحصنون به عن أعاديكم . ❁

❁ وأيدكم بنصره ❁ على الكفار أو بمظاهرة الأنصار ، أو بإمداد الملائكة يوم بدر . ❁

❁ ورزقكم من الطيبات ❁ من الغنائم . ❁ لعلكم تشكرون ❁ هذه النعم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ بتعطيل الفرائض والسنن ، أو بأن تضمروا خلاف ما تظهرون ، أو بالغلول في المغانم . وروي : ( أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسأله الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرع وأريحاء بأرض الشام ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم ، فبعثه إليهم فقالوا ما ترى هل نزل على حكم سعد بن معاذ ، فأشار إلى حلقه أنه الذبح ، قال أبو لبابة : فما زالت قدمي حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله ، فنزلت . فشد نفسه على سارية في المسجد وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله علي ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ، ثم تاب الله عليه فقيل له : قد تيب عليك فحل نفسك فقال : لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني ، فجاءه فحله بيده فقال إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنزع من مالي فقال عليه الصلاة والسلام "يجزيك الثلث أن تصدق به " وأصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام ، واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه . ﴿ وَتَخُونُوا ﴾

أماناتكم ﴿ فيما بينكم وهو مجزوم بالعطف على الأول أو منصوب على الجواب بالواو .  
﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنكم تخونون ، أو أنتم علماء تميزون الحسن من القبيح .  
﴿ واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ لأنهم سبب الوقوع في الإثم أو العقاب ، أو محنة  
من الله تعالى ليلوكم فيهم فلا يحملنكم حبههم على الخيانة كأبي لباثة . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ  
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر رضا الله عليهم وراعى حدوده فيهم ، فأنيطوا هممكم بما يؤديكم  
إليه .

(106/312)

---

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ هداية في قلوبكم تفرقون بها بين  
الحق والباطل أو نصراً يفرق بين الحق والمبطل يا عزاز المؤمنين وإذلال الكافرين ، أو مخرجاً  
من الشبهات ، أو نجاة عما تحذرون في الدارين ، أو ظهوراً يشهر أمركم ويث صيتكم من  
قولهم بت أفعل كذا حتى سطر الفرقان أي الصبح .

﴿ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ويسترها . ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ بالتجاوز والعفو عنكم .  
وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر . وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لأنها في أهل بدر  
وقد غفرهما الله تعالى لهم . ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ تنبيه على أن ما وعده لهم



على التقوى تفضل منه وإحسان ، وأنه ليس مما يوجب تقواهم عليه كالسيد إذا وعد عبده  
إنعاماً على عمل .

(107/312)

---

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تذكر لما مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله  
في خلاصه . من مكرهم واستيلائه عليهم ، والمعنى واذكر إذ يمكرون بك . ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾  
﴿ بِالوِثَاقِ أَوِ الحَبْسِ ، أَوِ الإِثْحَانِ بِالْجِرْحِ مِنْ قَوْلِهِمْ ضَرْبَهُ حَتَّى أَثْبَتَهُ لِأَحْرَاقِ بِهِ وَلَا بَرَا حِ ،  
وَقَرَى ﴾ ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالتشديد " وليثبتوك " من البيات " وليقيدوك " . ﴿ أَوْ يُقْتَلُوكَ ﴾  
بسيوفهم . ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ من مكة ، وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم  
فرقوا واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره ، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال  
: أنا من نجد سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً فقال أبو  
البحري : رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها  
حتى يموت ، فقال الشيخ بس الرأي يأتاكم من يقا تلکم من قومہ ويخلصه من أيديکم ، فقال  
هشام بن عمر ورأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع ، فقال  
بس الرأي يفسد قوماً غيركم ويقا تلکم بهم ، فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن

غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقوى بنو  
هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه . فقال صدق هذا الفتى ففترقوا  
على رأيه ، فأتى جبريل النبي عليهما السلام وأخبره الخبر وأمره بالهجرة ، فبيت علياً  
رضي الله تعالى عنه في مضجعه وخرج مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى الغار . ﴿  
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ بَرَدَ مَكْرَهُمْ عَلَيْهِمْ ، أَوْ بِمَجَازَاتِهِمْ عَلَيْهِ ، أَوْ بِمَعَامَلَةِ الْمَاكِرِينَ مَعَهُمْ  
بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ  
الْمَاكِرِينَ ﴾ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره ، وإسناد أمثال هذا ما يحسن للمزاوجة ولا يجوز  
إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم .

(108/312)

---

﴿ وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ هو قول النضر بن  
الحارث ، وإسناده إلى الجميع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم فإنه كان قاصمهم ، أو قول  
الذين ائتمروا في أمره عليه الصلاة والسلام وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم ، إذ لو  
استطاعوا ذلك فما منعهم أن يشاءوا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين ، ثم  
قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سورة مع أنفقتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصاً في

باب البيان . ﴿ إِنِ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأُولِينَ ﴾ ما سطره الأولون من القصص .  
﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هذا أيضاً من كلام ذلك القائل أبلغ في الجحود . روي أنه لما قال النصر إن  
هذا إلا أساطير الأولين قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ويلك إنه كلام الله " فقال  
ذلك . والمعنى إن كان هذا حقاً منزلاً فأمطر الحجارة علينا عقوبة على إنكاره ، أو آتينا  
بعذاب أليم سواه ، والمراد منه التهكم وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً . وقرئ  
﴿ الحق ﴾ بالرفع على أن ﴿ هُوَ ﴾ مبتدأ غير فصل ، وفائدة التعريف فيه الدلالة على  
أن المعلق به كونه حقاً بالوجه الذي يدعيه النبي صلى الله عليه وسلم وهو تنزيله لا الحق  
مطلقاً لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل كأساطير الأولين .

(109/312)

---

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ بيان لما كان  
الموجب لإمهالهم والتوقف في إجابة دعائهم ، واللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم  
عذاب استئصال والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم خارج عن عادته غير مستقيم  
في قضائه ، والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين ، أو قولهم اللهم

غفرانك ، أو فرصة على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْذِحُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَعْدَابُ مِنْ اللَّهِ ﴾ وما لهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يعذبون . ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وحالهم ذلك ومن صدهم عنه إجماع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الهجرة وإحصارهم عام الحديبية . ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ مستحقين ولاية أمره مع شركهم ، وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاية البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء . ﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره ، وقيل الضميران ﴿ لِلَّهِ ﴾ . ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن لا ولاية لهم عليه كأنه نبه بالأكثر أن منهم من يعلم ويعاند ، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم .

(110/312)

---

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ﴾ أي دعاءهم أو ما يسمونه صلاة ، أو ما يضعون موضعها . ﴿ إِلَّا مَكَاءَ ﴾ صغيراً فعال من مكاء إذا صفر . وقرئ بالقصر كالبيكا . ﴿ وَتَصَدِيَةً ﴾ تصفيقاً تفعله من الصدا ، أو من الصد على إبدال أحد حرفي التضعيف بالياء . وقرئ ﴿ صَلَاتِهِمْ ﴾ بالنصب على أنه الخبر المقدم ، ومساق الكلام لتقرير

استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فإنها لا تليق بمن هذه صلواته . روي : أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون . وقيل : كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي يخلطون عليه ويرون أنهم يصلون أيضاً . ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ يعني القتل والأسريوم بدر ، وقيل عذاب الآخرة واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود : ﴿ اثنا بعداب ﴾ . ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ اعتقاداً وعملاً .

(111/312)

---

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر ، أو في أبي سفيان استأجر ليوم أحد ألفين من العرب سوى من استجاش من العرب ، وأنفق عليهم أربعين أوقية . أو في أصحاب العير فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا ، والمراد ب ﴿ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه واتباع رسوله . ﴿ فَسَيَنْفِقُونَهَا ﴾ بتامها ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال وهو إنفاق بدر ، والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو إنفاق أحد ، ويحتمل أن يراد بهما واحد على

أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق ومساق الثاني لبيان عاقبته وإنه لم يقع بعد . ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ ندماً وغمّاً لفواتها من غير مقصود جعل ذاتها تصير حسرة وهي عاقبة إنفاقها مبالغة . ﴿ ثُمَّ يَغْلِبُونَ ﴾ آخر الأمر وإن كان الحرب بينهم سجالاتاً قبل ذلك . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي الذين ثبتوا على الكفر منهم إذا أسلم بعضهم . ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ يساقون .

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الكافر من المؤمن ، أو الفساد من الصلاح . واللام متعلقة ب ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾ أو ﴿ يَغْلِبُونَ ﴾ أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أنفقه المسلمون في نصرته ، واللام متعلقة بقوله ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب ﴿ لِيَمِيزَ ﴾ من التمييز وهو أبلغ من الميز . ﴿ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا ﴾ فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض حتى يترابوا لفرط ازدحامهم ، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كمال الكافرين . ﴿ فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾ كله . ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى الخبيث لأنه مقدر بالفريق الخبيث أو إلى المنفقين .

﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم .  
﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه والمعنى قل لأجلهم . ﴿ إِن يَنْتَهُوا ﴾  
عن معاداة الرسول صلى الله عليه وسلم بالدخول في الإسلام . ﴿ يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَفَّ ﴾  
﴿ من ذنوبهم ، وقرىء بالتاء والكاف على أنه خاطبهم و﴿ يَغْفِرُ ﴾ على البناء للفاعل  
وهو الله تعالى . ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ إلى قتاله . ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولِينَ ﴾ الذين  
تحزبوا على الأنبياء بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك .  
﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ لا يوجد فيهم شرك . ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾  
وتضمحل عنهم الأديان الباطلة . ﴿ فَإِنْ انْتَهُوا ﴾ عن الكفر . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾  
﴿ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيهم على انتهاهم عنه وإسلامهم . وعن يعقوب "تعملون" بالتاء على معنى  
﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من الجهاد والدعوة إلى الإسلام والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان  
بصير ، فيجازيكم ويكون تعليقه بانتهاهم دلالة على أنه كما استدعي إثابهم للمباشرة  
يستدعي إثابة مقاتليهم للتسبب .

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ ولم ينتهوا . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ناصركم فتقوا به ولا تبالوا  
بمعاداتهم . ﴿ نِعَمَ الْمَوْلَى ﴾ لا يضيع من تولاه . ﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ لا يغلب من نصره .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى ح 3 ص 108.96 ﴾

وقال الخطيب الشربيني في الآيات السابقة :

﴿ فلم تقتلوهم ﴾ أي : بقوتكم ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ أي : بنصره إياكم بأن هزمهم لكم .  
قال البيضاوي تبعاً للزمخشري : والفاء جواب شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم ،  
فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، اه . ورد ابن هشام بأن الجواب المنفي بلم لا تدخل عليه الفاء ،  
واختلف في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وما رميت ﴾ يا محمد ﴿ إذ رميت ولكن الله  
رمى ﴾ على ثلاثة أقوال : الأول وهو قول أكثر المفسرين نزلت في يوم بدر ، وذلك أن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم لما ندب إلى قتال بدر نزلوا بدرًا ووردت عليهم رواد قريش وفيهم  
أسلم غلام أسود لبني الحجاج وأبوسار غلام لبني العاصي بن سعد ، فأتوا بهما إلى رسول  
الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما : أين قريش ؟ فقالا : هم وراء هذا الكئيب الذي  
بالعدوة القصوى الكئيب العقتل ، وهو الكئيب العظيم المتداخل الرمل ، قاله الجوهري ،  
فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم "كم القوم ؟" قالوا : كثير ، قال : ما عدتكم ، قالوا  
: لا ندري ، قال : "كم ينحرون كل يوم ؟" قالوا : يوماً عشرة ويوماً تسعة ، فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم "القوم ما بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما : " فمن فيهم من  
أشراف قريش ؟" قالوا : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختری بن هشام وأبو جهل  
بن هشام وعدداً جماعة أخرى ، فقال صلى الله عليه وسلم "هذه مكة قد ألقت إليكم



أفلاذ كبدها" فلما طلعت قريش من العنقل قال عليه الصلاة والسلام: "هذه قريش  
جاءت بجيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم إني أسألك ما وعدتني" فأتاه جبريل عليه  
السلام، وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان قال لعلي رضي الله

(114/312)

---

عنه: "أعطني قبضة من حصباء الوادي" فرمى بها في وجوههم وقال: "شاهت الوجوه"  
أي: قبحت، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه وفمه ومنخره، فانهزموا وردفهم المسلمون  
يقتلونهم ويأسرونهم، والمعنى إن الرمية التي رميتها بلغ أثرها إلى ما لا يبلغه أثر البشر لكونها  
كانت برمي الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم؛ لأن كفاً من الحصباء لا يملأ عيون  
الجيش الكثير برمية البشر فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورته  
وجدت منه ونفاها عنه؛ لأن أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله تعالى، فكان الله تعالى  
هو فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من الرسول صلى الله عليه وسلم أصلاً.  
القول الثاني: إنها نزلت يوم خيبر، روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ قوساً وهو على باب  
خيبر، فرمى سهماً، فأقبل السهم حتى قتل لبابة بن أبي الحقيق وهو على فرسه فنزلت.

(115/312)

---

القول الثالث : إنها نزلت في يوم أحد في قتل أبي بن خلف ، وذلك إنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم وقتته وقال : يا محمد من يحيي هذه وهي رميم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم "يحييه الله ، ثم يميتك ، ثم يحييك ثم يدخلك النار" فأسر يوم بدر ، فلما اقتدي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنَّ عندي فرساً أعلفها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "بل أنا أقتلك إن شاء الله تعالى" فلما كان يوم أحد أقبل أبي يركض على ذلك الفرس حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "استأخروا" ورماه بحربة كسر ضلعاً من أضلاعه ، فمات ببعض الطريق فنزلت ، والأصح الأوّل وإلا أدخل في أثناء القصة كلاماً أجنبياً عنها ، وذلك لا يليق ، وقال الرازي : لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع ؛ لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي : ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ ، ﴿ ولكن الله رمى ﴾ بكسر النون مخففة ورفع الهاء من اسم الله فيهما والباقون بفتح النون مشدّدة ونصب الهاء وقوله تعالى : ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿ ولكن الله رمى ﴾ أي : ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ، ثم ختم الله تعالى هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إن الله سميع ﴾ لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ بأحوال قلوبكم وهذا جرى مجرى التحذير والترهيب ؛ لئلا

يغتر العبد بظواهر الأمور ويعلم أنّ الخالق تعالى يطلع على ما في الضمائر والقلوب ، وقوله تعالى:

﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ، ومحله الرفع أي : الغرض ذلكم ، وقوله تعالى :  
﴿ وإنّ الله موهن كيد الكافرين ﴾ معطوف على " ذلكم " أي : المقصود إبلاء المؤمنين  
وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم .

(116/312)

---

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وفتح الواو وتشديد الهاء وتنوين النون ونصب الدال ، وقرأ حفص بسكون الواو وتخفيف الهاء وعدم تنوين النون وخفض الدال والباقون بسكون الواو وتخفيف الهاء مع تنوين النون ونصب الدال وقوله تعالى:

﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ أكثر المفسرين على أنه خطاب للكفار .  
روي أنّ أبا جهل لعنه الله قال يوم بدر : اللهم أينما كان أقطع للرحم وأفجر فأهلكه الغداة ،  
وقال السدي : إنّ المشركين لما أرادوا الخروج إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم  
انصر أعلى الجندين وأهدى القبيلتين وأكرم الحزبين بأفضل الدين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية  
أي : " إن تستنصروا الأهدى القبيلتين وتستقتضوا ، فقد جاءكم النصر والقضاء بهلاك من

هو كذلك ، وهو أبل جهل ، ومن قتل معه دون النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .  
وقيل : خطاب للمؤمنين وذلك إنه صلى الله عليه وسلم لما رأى المشركين وكثرة عددهم  
وعددهم استغاث بالله تعالى وطلب ما وعده الله تعالى به من إحدى الطائفتين ، وتضرع  
إلى الله تعالى ، وكذلك الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فقال تعالى : ﴿ إن تستفتحوا ﴾  
أي : إن تطلبوا النصر الذي تقدم به الوعد فقد جاءكم الفتح أي : حصل ما وعدتم  
فاشكروا الله تعالى والزموا الطاعة .  
قال القاضي عياض : وهذا القول أولى ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ فقد جاءكم الفتح ﴾ لا يليق  
إلا بالمؤمنين ، اه .

(117/312)

---

وقال البيضاوي إنه خطاب لأهل مكة عن سبيل التهكم اه . ويدل له قوله تعالى : ﴿ وإن  
تنتهوا ﴾ أي : عن الكفر ومعاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فهو خير لكم ﴾ أي  
: لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلتين ﴿ وإن تعودوا ﴾ أي : لقتال النبي صلى الله عليه  
وسلم ﴿ نعد ﴾ أي : لنصرته عليكم ﴿ ولن تغني ﴾ أي : تدفع ﴿ عنكم فتكم ﴾ أي :  
جماعتكم ﴿ شيئاً ﴾ ؛ لأن الله تعالى على الكافرين فيخذلهم ﴿ ولو كثرت ﴾ فتكم

﴿ وإن الله مع المؤمنين ﴾ بالنصر والمعونة ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح الهمزة على  
ولأن الله تعالى والباقون بالكسر على الاستئناف .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا ﴾ أي : تعرضوا ﴿ عنه ﴾ أي :  
الرسول صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره ، فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهي عن  
الإعراض عنه ، وذكر طاعة الله للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله في طاعة الرسول لقوله  
تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (النساء ، )

وقيل : الضمير للجهاد ﴿ وأتم تسمعون ﴾ أي : القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق .  
﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا ﴾ أي : بألسنتهم ﴿ وهم لا يسمعون ﴾ سمعاً ينتفعون به  
، وهذه صفة المنافقين .

﴿ إن شر الدواب عند الله ﴾ أي : إن شر من دب على وجه الأرض من خلق الله عنده  
﴿ الصم ﴾ عن سماع الحق ﴿ البكم ﴾ عن النطق بالحق فلا يقولونه ﴿ الذين لا يعقلون ﴾  
أمر الله ، وسماهم دواب لقلّة انتفاعهم بعقولهم كما قال تعالى : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم  
أضل ﴾ (الأعراف ، )

قال ابن عباس : هم نفر من بني عبد الدار بن قصي كانوا يقولون : نحن صم بكم عما جاء به  
محمد ، فقتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء ، ولم يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن  
عمير وسويط بن حرملة .

﴿ ولو علم الله فيهم خيراً ﴾ أي : سعادة كتبت لهم أو انتفاعاً بالآيات ﴿ لأسمعهم ﴾  
سماع تفهم ﴿ ولو أسمعهم ﴾ على سبيل الفرض ، وقد علم أن لا خير فيهم ﴿ لتولوا ﴾  
عنه ولم ينتفعوا به وارتدوا عن التصديق والقبول ﴿ وهم معرضون ﴾ لعنادهم وجحودهم  
الحق بعد ظهوره ، وقيل : إنهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحي لنا قصياً  
فإنه كان شيخاً مباركاً يشهد لك بالنبوة ، فنؤمن بك ، فقال الله تعالى : ولو أسمعهم كلام  
قصي لتولوا وهم معرضون .

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا للرسول ﴾ أي : أجبوهما بالطاعة ، ووحده الضمير في  
قوله تعالى : ﴿ إذا دعاكم ﴾ ؛ لأن دعوة الله تعالى تسمع من الرسول صلى الله عليه وسلم  
روى الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم مرّ على أبي بن كعب وهو يصلي فدعاه ، فعجل في  
صلاته ثم جاء ، فقال له صلى الله عليه وسلم " ما منعك عن إجابتي ؟ " قال : كنت أصلي  
، قال : " ألم تجد فيما أوحى إليّ ﴿ استجبوا للرسول ﴾ ؟ ويؤخذ من ذلك أن إجابه  
صلى الله عليه وسلم بالقول : لا تقطع الصلاة ، وهو كذلك ، بل ولا بالفعل الكثير كما قاله  
بعض أصحابنا ، وهو ظاهر الحديث أيضاً .

ولما كان اجتناء ثمرة الطاعة في غاية القرب منه نبه على ذلك باللام دون إلى فقال : ﴿ لما

يحييكم ﴾ من العلوم الدينية فإنها حياة القلوب والجهل موتها ، قال أبو الطيب :

\* لا تعجبن الجهول حليته \* \* فذاك ميت وثوبه كفن \*

أوما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد ، وقال السدي : هو الإيمان ؛ لأن

الكافر ميت فيحيا بالإيمان ، وقال ابن إسحق : هو الجهاد أعزكم الله تعالى به بعد الذل ،

وقال العتيبي : هو الشهادة لقوله تعالى : ﴿ بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ( آل عمران ، )

﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ أي : إنه يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها

وهي التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعالله ورده سليماً كما يرده الله تعالى ،

فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله .

(119/312)

---

وقال الضحاك : يحول بين المرء المؤمن والمعصية وبين الكافر والطاعة ، وقال السدي : يحول

بين المرء وقلبه ، فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلا بإذنه ، وقال مجاهد : يحول بين المرء

وقلبه ، فلا يعقل ولا يدري ما يعمل .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن

يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" قالوا: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به  
فهل تخاف علينا؟ قال: "القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء" ❀ وإنه ❀  
أي: واعلموا أنه تعالى: ❀ إليه تحشرون ❀ لا إلى غيره فلا تتركوا مهملين معطلين  
فيجازيكم بأعمالكم وفي هذا تشديد في العمل وتحذير عن الكسل والغفلة.  
❀ واتقوا فتنة ❀ أي: ذنبا، قيل: هو إقرار المنكر بين أظهرهم، وقيل: افتراق الكلمة،  
وقيل: فتنة عذابا، وقوله تعالى: ❀ لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ❀ جواب الأمر،  
والمعنى إن إصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة، ولكنها تعمكم، كما يحكى إن  
علماء بني إسرائيل لم ينهوا عن المنكر، فعمهم الله تعالى بالعذاب.  
فإن قيل: كيف جاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الأمر؟  
أجيب: بأن فيه معنى النهي كقولك: انزل عن الدابة لا تطرحك ولا تطرحنك، وكقوله  
تعالى: ❀ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان ❀ (النمل،)  
❀ واعلموا أن الله شديد العقاب ❀ لمن خالفه.

(120/312)

---



﴿ واذكروا ﴾ يا معاشر المهاجرين ﴿ إذ أنتم ﴾ في أوائل الإسلام ﴿ قليل ﴾ أي :  
عددكم ﴿ مستضعفون ﴾ أي : لا منعة لكم ﴿ في الأرض ﴾ أي : أرض مكة ، وإطلاقها  
لأنها لعظمتها كأنها هي الأرض كلها ، أولأن حالهم كان في بقية البلاد كحالهم فيها أوقرباً  
من ذلك ، ولهذا عبر بالناس في قوله تعالى : ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ أي :  
تأخذكم الكفار بسرعة كما تتخطف الجوارح الصيد ﴿ فاوآكم ﴾ إلى المدينة ، أو جعل  
لكم ماوى تحصنون فيه على أعدائكم ﴿ وأيدكم ﴾ أي : قواكم ﴿ بنصره ﴾ أي :  
بإمداد الملائكة يوم بدر ، وبمظاهرة الأنصار ﴿ وورزقكم من الطيبات ﴾ أي : الغنائم  
أحلها لكم ، ولم يحلها لأحد قبلكم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم العظيمة .  
﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ﴾ أي : بأن تضمروا خلاف ما تظهرون .

(121/312)

---

روي أنه صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسألوا رسول  
الله صلى الله عليه وسلم الصلح كما صلح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم  
بأذرع وأرجح من الشام فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك إلا أن  
ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة واسمه رفاعة ، أو مروان

بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم؛ لأنّ ماله وعياله عندهم ، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فقالوا : يا أبا لبابة ما ترى أنزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه إنه الذبح أي : حكم سعد هو القتل ، فلا تفعلوا ، فقال أبو لبابة : والله ما زالت قدمي من مكانهما حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله ، ثم انطلق على وجهه ، ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما لوجاءني لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فإنني لا أطلقه حتى يتوب الله تعالى عليه ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه ، ثم تاب الله عليه ، فقيل له : قد تيب عليك فحل نفسك ، فقال : لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يجليني ، فجاءه فحله بيده فقال : إن من تمام توبيتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي ، فقال له صلى الله عليه وسلم "يجزيك الثلث أن تصدّق به" فنزلت هذه الآية .

(122/312)

---

وعن المغيرة نزلت في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وعن جابر بن عبد الله أن أبا  
سفيان خرج من مكة ، فعلم النبي صلى الله عليه وسلم خروجه وعزم الذهاب إليه ،  
فكتب رجل من المنافقين إليه : إنَّ محمداً يريدكم فخذوا حذرکم ، فنزلت ، وقيل : معنى  
لا تخونوا الله بأن لا تعطلوا فرائضه ، ورسوله بأن لا تستنوا به ، وأصل الخون النقص كما أن  
أصل الوفاء التمام ، واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه ، وقوله تعالى : ﴿ وتخونوا  
أماناتكم ﴾ أي : ما إئتمنتم عليه من الدين وغيره مجزوم بالعطف على الأول أي : ولا تخونوا  
، أو منصوب بأن مضمره بعد الواو على جواب النهي أي : لا تجمعوا بين الخياتين كقوله :  
\*لاتنه عن خلق وتأتي مثله\*

﴿ وأتم تعلمون ﴾ أنكم تخونون أي : وأتم علماء مميزون الحسن من القبيح .  
﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ أي : محنة من الله تعالى ليلوكم فيهم ، فلا  
يحملنكم حبهم على الخيانة كأبي لبابة ؛ لأنه يشغل القلب بالدنيا ويصيره حجاباً عن خدمة  
المولى .

ثم إنه تعالى نبه بقوله تعالى : ﴿ وإن الله عنده أجر عظيم ﴾ على أن سعادات الآخرة خير  
من سعادات الدنيا ؛ لأنها أعظم في الشرف ، وأعظم في القوة ، وأعظم في المدّة ؛ لأنها تبقى  
بقاء لا نهاية له فهذا هو المراد من وصف الله الأجر الذي عنده بالعظم .

قال الرازي : ويمكن أن يتمسك بهذه الآية في بيان أن الاشتغال بالنوافل أفضل من الاشتغال

بالنكاح؛ لأنَّ الاشتغال بالنوافل يفيد الأجر العظيم عند الله ، والاشتغال بالنكاح يفيد الولد ، ويوجب الحاجة إلى المال ، وذلك فتنة ، ومعلوم أنَّ ما يفضي إلى الأجر العظيم عند الله هو خير مما يفضي إلى الفتنة ، اهـ . لكن محله في غير المحتاج إلى النكاح الواجد أهبته ، وإلا فالنكاح حينئذٍ أفضل وأولى من التخلي للعبادة .

ولما حذر الله تعالى عن الفتنة بالأموال والأولاد رغب في التقوى التي توجب ترك الميل والهوى في محبة الأموال والأولاد بقوله:

(123/312)

---

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله ﴾ أي : بالأمانة وغيرها ﴿ يجعل لكم فرقاناً ﴾ أي : هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل ﴿ ويكفر عنكم سيئاتكم ﴾ أي : يسترها ما دتم على التقوى ﴿ ويغفر لكم ﴾ أي : يمح ما كان منكم غير صالح عيناً وأثراً ، وقيل : السيئات الصغائر ، والذنوب الكبائر ، وقيل : المراد ما تقدّم وما تأخر ؛ لأنها في أهل بدر ، وقد غفر الله تعالى لهم ، وقوله تعالى : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان ، وإنه ليس مما توجبه تقواهم عليه كالسيد إذا وعد عبده إنعاماً على عمله .

ولما ذكر سبحانه وتعالى المؤمنين بنعمه عليهم بقوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل ﴾ إلى آخره ، عطف عليه قوله تعالى :

(124/312)

---

﴿ واذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ فذكر رسوله الله صلى الله عليه وسلم نعمه عليه ، وهو دفع كيد المشركين ومكر الماكرين عنه ، وهذه السورة مدنية ، وهذا المكر كان بمكة ، ولكن الله تعالى ذكره بالمدينة مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله تعالى عليه في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم ، وكان ذلك المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من المفسرين إن قريشاً لما أسلمت الأنصار ويايعوه فرقوا أن يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعت رؤسائهم كأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبي سفيان وهشام بن عمرو وطعيمة بن عدي والنضر بن الحرث وأبي البحتري بن هشام في دار الندوة متشاورين في أمره صلى الله عليه وسلم فدخل عليهم إبليس لعنه الله تعالى في صورة شيخ ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال : شيخ من نجد سمعت باجتماعكم ، فأردت أن أحضركم ولن تعدوا مني رأياً ونصحاً قالوا : ادخل فدخل ، فقال أبو البحتري : رأيت أن تجسوه في بيت وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها وتربصوا به

ريب المنون حتى يهلك مثل ما هلك من قبله من الشعراء ، فصرخ عدو الله النجدي وقال :  
بُس الرأي رأيتم والله لئن حبستموه في بيت لياأتينكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من  
أيديكم قالوا : صدق الشيخ النجدي ، فقال هشام بن عمرو : رأيت أن تحملوه على جمل  
وتخرجوه من بين أظهركم ، فلا يضركم ما صنعوا واسترحتم ، فقال النجدي : بَس الرأي  
تعمدون إلى رجل قد أفسد سفهاءكم ، فتخرجوه إلى غيركم فيفسدهم ، ألم تروا إلى  
حلاوة منطقه وطلاوة لسانه وأخذ القلوب ما يسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ذلك  
فيذهب ويستميل قلوب قوم ، ثم يسير بهم إليكم ويخرجكم من بلادكم ، قالوا : صدق  
والله الشيخ النجدي ، فقال أبو جهل لعنه الله تعالى : والله لأشيرن عليكم برأي لا رأي غيره  
، إني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً وتعطوه سيفاً صارماً ، فيضربوه ضربة  
رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا تقوى بنو

(125/312)

---

هاشم على

حرب قريش كلهم فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا ، فقال إبليس الملعون : صدق هذا  
الفتى هو أجدكم رأياً القول ما قال لا أرى غيره ، فتفرقوا على قول أبي جهل مجتمعين على

قتله ، فأتى جبريل عليه الصلاة والسلام النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه ، وأذن الله تعالى له عند ذلك بالخروج إلى المدينة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه فنام في مضجعه ، وقال له :  
اتشح يردتي فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه ، ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ قبضة من تراب ، وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه ، وجعل ينثر التراب على رؤوسهم ، وهو يقرأ : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ (يس ، )  
ومضى إلى الغار هو وأبو بكر ، وخلف علياً بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت بمكة عنده ، وكانت الودائع تودع عنده لصدقه وأمانته ، وبات المشركون يحرسون علياً على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون إنه النبي صلى الله عليه وسلم فلما أصبحوا بادروا إليه فرأوا علياً ، فقالوا له : وأين صاحبك ؟ فقال : لا أدري ، فاقصوا أثره وأرسلوا في طلبه ، فلما بلغوا الغار ، رأوا علياً بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخله لم تكن تنسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثاً ، ثم قدم المدينة وأبطل الله مكرهم ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وإذ يكر بك الذين كفروا ﴾ ﴿ ليثبتوك ﴾ أي : يوثقوك ويجبسوك ﴿ أو يقتلوك ﴾ كلهم قتلة رجل واحد ﴿ أو يخرجوك ﴾ من مكة ﴿ ويمكرون ﴾ بك ﴿ ويمكر الله ﴾ أي : يرد مكرهم عليهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه ، وأمرك بالخروج إلى المدينة ، وأخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا

﴿ والله خير الماكرين ﴾ أي: أعلمهم به، فلا ينفذ مكرهم دون مكره.

قال البيضاوي: وإسناد أمثال هذا إنما يحسن للمزاوجة، ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم، اهـ.

(126/312)

---

واعترض عليه بأنه لا يتعين في مثل ذلك المشاكلة بل يجوز أن يكون ذلك استعارة؛ لأنّ إطلاق المكر على إخفاء الله تعالى ما أوعده لمن استوجبه إن جعل باعتبار أنّ صورته تشبه صورة المكر فاستعارة، أو باعتبار الوقوع في صحبة مكر العبد فمشاكلة، وعلى هذا لا يحتاج كما قال الطيبي إلى وقوعه في صحبة مكر العبد قال: ومنه قول علي رضي الله عنه: من وسع الله تعالى عليه في دنياه ولم يعلم إنه مكر به فهو مخدوع في عقله.

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ أي: القرآن ﴿ قالوا ﴾ أي: هؤلاء الذين ائتمروا في أمره صلى الله عليه وسلم ﴿ قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ وهذا غاية مكابرتهم، وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك لفعلوه وإلا فما منعهم لو كانوا مستطيعين، وقرعهم بالعجز عشر سنين، ثم قارعهم بالسيف، فلم يعارضوا بسورة مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصاً في باب البيان، وقيل: قائله النضر بن الحرث المقتول صبراً؛ لأنه كان يأتي



الحيرة يتجر فيشتري كتب أخبار العجم ويحدّث بها أهل مكة ، وإسناده إلى الجميع إسناد  
ما فعله رئيس القوم إليهم ، فكأنه كان قاضيهم ، وقد أسره المقداد يوم بدر ، فأمر النبي  
صلى الله عليه وسلم بقتله ، فقال المقداد : أسيري يا رسول الله ؟ فقال : " إنه كان يقول في  
كتاب الله تعالى ما يقول " فعاد المقداد لقوله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " اللهم أغن  
المقداد من فضلك " فقال : ذلك الذي أردت يا رسول الله فقتله النبي صلى الله عليه وسلم  
فأنشدت أخته :

\* ما كان ضرك لو مننت وربما \* \* من الفتي وهو المغيظ المحنق \*

فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه " ﴿ إن ﴾ أي :  
ما ﴿ هذا ﴾ أي : القرآن ﴿ إلا أساطير الأولين ﴾ أي : أخبار الأمم الماضية وأسماؤهم  
، وما سطر الأولون في كتبهم ، والأساطير جمع أسطورة وهي المكتوبة من قولهم سطرت  
أي : كتبت وقيل : أساطير جمع أسطور وأسطار جمع سطر .

(127/312)

---

﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا ﴾ أي : الذي يقرؤه محمد ﴿ هو الحق ﴾ المنزل ﴿ من  
عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ أي : مؤلم على إنكاره غير

الحجارة قاله النضر وغيره ، استهزاء وإيها ما أنه على بصيرة وجزم ببطلانه .

وعن معاوية رضي الله عنه أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة

قال : أجهل من قومي قومك قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية ، وما

قالوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه .

فإن قيل : قد حكى الله تعالى هذه المقالة عن الكفار ، وهي من حسن نظم القرآن ، فقد

حصلت المعارضة في هذا القدر ، وأيضاً حكى عنهم أنهم قالوا في سورة بني إسرائيل ،

وقالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ (الإسراء ، )

الآية ، وذلك أيضاً كلام الكفار ، فقد حصل من كلامهم ما يشبه نظم القرآن وذلك يدل على

حصول المعارضة ، أجيب : بأن الإتيان بهذا القدر لا يكفي في حصول المعارضة ؛ لأنه

كلام قليل لا تظهر فيه وجوه المعارضة والفصاحة والبلاغة ؛ لأن أقل ما وقع به التحدي

سورة أوقدرها قال الله تعالى :

﴿ وما كان الله ليعذبهم ﴾ أي : بما سألوه ﴿ وأنت فيهم ﴾ أي : لأن العذاب إذا نزل عمّ ،

ولم يعذب أمة إلا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾

أي : وفيهم من يستغفر ، وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم من المستضعفين .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه كان في هذه الأمة أمانان أما النبي صلى الله عليه

وسلم فقد مضى وأما الاستغفار فهو كائن فيكم إلى يوم القيامة ، فاللفظ وإن كان عاماً إلا أن المراد بعضهم كما يقال قدم أهل البلدة الفلانية على القتال والمراد بعضهم .

(128/312)

---

﴿ وما لهم أن لا يعذبهم الله ﴾ بالسيف بعد خروجك والمستضعفين ، فنفى تعالى في الآية أنه لا يعذبهم ما دام الرسول والمؤمنون فيهم ، وذكر في هذه الآية أنه يعذبهم إذا خرجوا من بينهم ، وقال الحسن : الآية الأولى منسوخة بهذه ، ورد بأن الأخبار لا يدخلها النسخ ، واختلفوا في هذا العذاب فقال بعضهم : لحقهم هذا العذاب المتوعد به يوم بدر ، وقيل : يوم فتح مكة ، وقال ابن عباس : هذا العذاب هو عذاب الآخرة ، والعذاب الذي نفي عنهم هو عذاب الدنيا ، ثم بين تعالى ما لأجله يعذبهم ، فقال : ﴿ وهم يصدّون ﴾ أي : يمنعون النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ﴿ عن المسجد الحرام ﴾ أن يطوفوا به وذلك عام الحديبية ، ونبه تعالى على أنهم يصدّونهم لادعائهم أنهم أولياؤه ، فكانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم ، فنصد من نشاء وندخل من نشاء ، ثم بين تعالى بطلان هذه الدعوى بقوله تعالى : ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ كما زعموا ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أولياؤه إلا المتقون ﴾ أي : الذين يتحرّزون عن المنكرات الذين لا يعبدون فيه غيره ، وقيل : الضميران لله ﴿ ولكنّ

أكثرهم ﴿ أي: الناس ﴾ لا يعلمون ﴿ أن لا ولاية لهم عليه وكأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ويعاند ، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم .  
﴿ وما كان صلاتهم عند البيت ﴾ أي: دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة ، أو ما يضعون موضعها ﴿ إلا مكاء ﴾ أي: صفيراً ﴿ وتصدية ﴾ أي: تصفيقاً ، قال ابن عباس :  
كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون .

(129/312)

---

وقال مجاهد : كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف ويستهزؤون به ، ويدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون ، ويخالطون عليه طوافه وصلاته ، فالمكاء جعل الأصابع في الشدق ، والتصدية الصفيير ، وقال مقاتل : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد الحرام قام رجلان عن يمينه ورجلان عن يساره يصفران ويصفقان ليخالطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلته ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ أي : عذاب القتل والأسر بيدري في الدنيا ، وعذاب النار في الآخرة ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كنتم تكفرون ﴾ اعتقاداً وعملاً . ولما ذكر تعالى عبادة الكفار البدنية ، وهي المكاء والتصدية ، ذكر عقبه عبادتهم المالية التي لا جدوى لها في الآخرة بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ في حرب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لِيَصِدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي: ليصرفوا عن دين الله تعالى نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً منهم: أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وكلهم من قريش، وكان يطعم كل واحد منهم أيام بدر عشر جزائر، أو في أبي سفيان استأجر يوم أحد ألفين من العرب سوى من استجاش أي: اتخذ جيشاً، وأنفق عليهم أربعين أوقية، والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً، أو في أصحاب العير، فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم: أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك ثأرنا ففعلوا ﴿ فسينفقونها ثم تكون ﴾ أي: عاقبة الأمر ﴿ عليهم ﴾ حسرة ﴿ أي: ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه ﴾ ثم يغلبون ﴿ أي: آخر الأمر وإن كان الحرب بينهم سجالات قبل ذلك كما انفق لهم في بدر، فإنهم أنفقوا مع الكثرة والقوة، ولم يغن عنهم شيء من ذلك بل كان وبالاً عليهم فإنه كان سبباً لجرأتهم حتى قدموا فما كان في الحقيقة إلا قوة للمؤمنين ﴿ والذين كفروا ﴾ أي: ثبتوا على الكفر ﴿ إلى جهنم يحشرون ﴾ أي: يساقون إليها يوم القيامة فهم في خزي في الدنيا والآخرة.

(130/312)

---

فإن قيل : لِمَ لَمْ يَقُلْ تَعَالَى : وَإِلَى جَهَنَّمَ يَحْشَرُونَ ؟

أجيب : بأنه أسلم منهم جماعة كأبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وحكيم بن حزام ، بل ذكر أن الذين ثبتوا على الكفر يكونون كذلك .

﴿ لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ ﴾ أي : الفريق الكافر ﴿ مِنْ الطَّيِّبِ ﴾ أي : من الفريق المؤمن  
﴿ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيُرَكِّمُهُمْ جَمِيعاً ﴾ أي : يجمعه متراكماً بعضه على  
بعض كقوله تعالى : ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (الجن ، )

أي : لفرط ازدحامهم ، وقيل : ليميز المال الخبيث الذي أنفقه الكافر على عداوة محمد  
صلى الله عليه وسلم من المال الطيب الذي أنفقه المؤمن في جهاد الكفار كإنفاق أبي بكر  
وعثمان رضي الله عنهما في نصرته النبي صلى الله عليه وسلم فيركمه جميعاً ﴿ فَيَجْعَلُهُ فِي  
جَهَنَّمَ ﴾ في جملة ما يعذبون به كقوله تعالى : ﴿ فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ  
وظهورهم ﴾ (التوبة ، )

الآية ، واللام على هذا متعلقة بتكون من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ وعلى  
الأول متعلقة بيحشرون أو يغلبون .

وقرأ ﴿ لِيُمِيزَ ﴾ حمزة والكسائي بضم الياء الأولى وفتح الميم وتشديد الياء الثانية مع  
الكسر والباقون بفتح الياء الأولى وكسر الميم وسكون الياء الثانية ، وقوله تعالى :  
﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى الذين كفروا ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي : الكاملون في الخسران ؛

لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم .

ولما بين تعالى ضلالهم في عباداتهم البدنية والمالية أرشدهم إلى طريق الصواب .

(131/312)

---

فقال : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ للذين كفروا ﴾ كأبي سفيان وأصحابه ﴿ إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ أي : قل لأجلهم هذا القول وهو أن ينتهوا عن الكفر وقاتل النبي صلى الله عليه وسلم يغفر لهم ما قد سلف من ذلك ولو كان بمعنى خاطبهم به لقليل : إن تنتهوا يغفر لكم ﴿ وإن يعودوا ﴾ أي : إلى الكفر ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ أي : ياهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه وأجمع العلماء على أن الإسلام يجب ما قبله ، واختلفوا هل الكافر الأصلي مخاطب بفروع الشريعة ؟ وهل يسقط عن المرتد ما مضى في حال رده كالكافر الأصلي كما هو ظاهر الآية ؟ وهل الردة تجب ما مضى من العبادات قبلها ، ذهب أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه إلى أنه مخاطب بدليل قوله تعالى : ﴿ ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ﴾ (المدثر ، الآيات : -) الآية ، وأن المرتد لا تسقط عنه العبادات الفاتية في الردة تغليظاً عليه ، وأن الردة لا تجب ما مضى ، وقد تقدم الكلام على ذلك في المائة ، وعن يحيى بن معاذ أنه قال : توحيد لم يعجز

عن هدم ما قبله من كفر أرجو أن لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب .  
ولما بين تعالى أن هؤلاء الكفار إن اتهموا عن كفرهم حصل لهم الغفران ، وإن عادوا فهم  
متوعدون سنة الأولين أتبعه بالأمر بقتالهم إذا أصرّوا ، فقال تعالى :

(132/312)

---

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ أي : شرك كما قاله ابن عباس ، وقال الربيع : حتى لا  
يفتن أحدكم عن دينه ؛ لأن المؤمنين كانوا يفتنون عن دين الله في مبدأ الدعوة ، فاقتن من  
المسلمين بعضهم ، وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى الحبشة ، وقتنة  
ثانية وهو أنه لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة توامرت قريش  
أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم ، فأصاب المؤمنين جهد شديد ، فأمر الله تعالى بقتالهم  
حتى تزول هذه الفتنة ﴿ ويكون الدين كله ﴾ خالصاً تعالى وحده لا يعبد غيره ﴿ فإن  
انتها ﴾ عن الكفر ﴿ فإن الله بما يعملون بصير ﴾ أي : فيجازيهم به .  
﴿ وإن تولوا ﴾ عن الإيمان ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ أي : ناصركم ومتولي أموركم  
﴿ نعم المولى ﴾ هو فإنه لا يضيع من تولاه ﴿ ونعم النصير ﴾ أي : الناصر ، فلا يغلب من



ينصره فمن كان في حماية هذا المولى وفي حفظه وكفايته كان آمناً من الآفات مصوناً عن

المخالفات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير ح 2 ص 322-335 ﴾

(133/312)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ  
(38) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

(39) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (40)

أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار هذا المعنى .

وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها .

قال ابن عطية : ولو كان كما قال الكسائي إنه في مصحف عبد الله بن مسعود " قُلْ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا إِنْ تَنَتَّهُوْا " يعني : بالتاء المثناة من فوق ، لما تأدّت الرسالة إلابتلك الألفاظ بعينها .

وقال في الكشاف : أي قل لأجلهم هذا القول ، وهو ﴿ إِنْ يَنْتَهُوْا ﴾ ولو كان بمعنى

خاطبهم ، لقليل إن تنتهوا يغفر لكم ، وهي قراءة ابن مسعود ، ونحوه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [ الأحقاف : 11 ] خاطبوا به غيرهم لأجلهم

ليسمعوه ، أي إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله  
بالدخول في الإسلام ﴿ يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ لهم من العداوة .  
انتهى .

وقيل معناه : إن ينتهوا عن الكفر ، قال ابن عطية : والحامل على ذلك جواب الشرط ﴿  
يغفر لهم ما قد سلف ﴾ ، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمنته عن الكفر .  
وفي هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله .

(134/312)

---

﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ إلى القتال والعداوة أو إلى الكفر الذي هم عليه ، ويكون العود بمعنى  
الاستمرار ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولِينَ ﴾ هذه العبارة مشتملة على الوعيد ، والتهديد  
والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله ، أي قد مضت سنة الله فيمن فعل  
مثل فعل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب ، فليتوقعوا مثل ذلك .  
﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ﴾ أي : كفر .

وقد تقدم تفسير هذا في البقرة مستوفى ﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوا ﴾ عما ذكر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ  
بَصِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عما أمروا به من الانتهاء

﴿ فاعلموا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي: ناصركم عليهم ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ

النصير ﴾ فمن والاه فاز ومن نصره غلب .

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن

مجاهد، في قوله: ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولِينَ ﴾ قال: في قريش وغيرها يوم بدر،

والأمم قبل ذلك .

وأخرج أحمد، ومسلم، عن عمرو بن العاص، قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت

النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: ابسط يدك فلأبايعك، فبسط يمينه فقبضت يدي،

قال: " مالك؟ " قلت: أردت أن أشرط، قال: " تشرط ماذا؟ " قلت: أن تستغفر لي

، قال: " أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج

يهدم ما كان قبله " وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مسعود، أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال: " الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها " وقد فسر كثير من

السلف قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولِينَ ﴾ بما مضى في الأمم المتقدمة من

عذاب من قاتل الأنبياء، وصمم على الكفر .

وقال السدي ومحمد بن إسحاق: المراد بالآية يوم بدر .

وفسر جمهور السلف الفتنة المذكورة هنا بالكفر .

وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري عن عروة ابن الزبير، وغيره من علمائنا ﴿

حتى لا تكون قننة ﴿ حتى لا يفتن مسلم عن دينه . انتهى انتهى . اهـ ﴾ فتح القدير حـ 2

ص ﴿

(135/312)

وقال الشيخ سيد قطب في الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30) ﴾

يمضي السياق في السورة ، يستعرض الماضي في مواجهة الحاضر ؛ ويصور للعصبة المسلمة

التي خاضت المعركة وانتصرت فيها ذلك النصر المؤزر ، مدى النقلة الهائلة بين ذلك

الماضي وهذا الحاضر ؛ ويربها فضل الله عليها في تديره لها وتقديره . . الأمر الذي

تضاءل إلى جانبه الأنفال والغنائم ؛ كما تهون إلى جانبه التضحيات والمشاق .

ولقد سبق في الدرس الماضي تصوير ما كان عليه موقف المسلمين في مكة - وقبل هذه

الغزوة - من القلة والضعف وقلة المنعة ، حتى ليخافون أن يتخطفهم الناس ؛ وتصوير ما

صاروا إليه من الإيواء والعزة والنعمة بتدبير الله ورعايته وفضله . .

وهنا يستطرد إلى تصوير موقف المشركين وهم يبيتون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قبيل الهجرة ويتآمرون . وهم يُعرضون عما معه من الآيات ويزعمون أنهم قادرون على  
الإتيان بمثلها لو يشاءون ! وهم يعاندون ويلج بهم العناد حتى ليستعجلون العذاب - إن  
كان هذا هو الحق من عند الله - بدلا من أن يفيئوا إليه ويهدوا به !  
ثم يذكر كيف ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، ويجمعوا لحرب رسول الله ؛  
ويوعدهم بالخيبة والحسرة في الدنيا ، والحشر إلى جهنم في الآخرة ، والخسارة هنا وهناك  
من وراء الكيد والجمع والتدير .

وفي النهاية يأمر الله نبيه أن يواجه الذين كفروا فيخيرهم بين أمرين : أن ينتهوا عن الكفر  
العناد وحرب الله ورسوله فيغفر لهم ما سبق في جاهليتهم من هذه المنكرات . أو أن  
يعودوا لما هم عليه وما حاولوه فيصيبهم ما أصاب الأولين من أمثالهم ؛ وتجري عليه سنة  
الله بالعذاب الذي يشاؤه الله ويقدره كما يريد . . .

(136/312)

---

ثم يأمر الله المسلمين أن يقاتلوهم حتى لا تكون للكفر قوة يفتنون بها المسلمين ؛ وحتى تقرر  
الألوهية في الأرض لله وحده - فيكون الدين كله لله - فإن أعلنوا الاستسلام قبل منهم النبي  
- صلى الله عليه وسلم - هذا ونيتهم يحاسبهم بها الله ، والله بما يعملون بصير . وإن تولوا

وظلوا على حربهم وعنادهم وعدم اعترافهم بالوهية الله وحده ، وعدم استسلامهم  
لسلطان الله في الأرض ، واصل المسلمون جهادهم ، مستيقنين أن الله مولاهم ، ونعم المولى  
ونعم النصير . . .

❖ وإذ يكررك الذين كفروا ليشتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله . والله  
خير الماكرين ❖ . . .

إنه التذكير بما كان في مكة ، قبل تغير الحال ، وتبدل الموقف . وإنه ليوحي بالثقة واليقين في  
المستقبل ، كما ينبه إلى تدير قدر الله وحكمته فيما يقضي به ويأمر . . . ولقد كان  
المسلمون الذين يخاطبون بهذا القرآن أول مرة ، يعرفون الحالين معرفة الذي عاش ورأى  
وذاق . وكان يكفي أن يذكروا بهذا الماضي القريب ، وما كان فيه من خوف وقلق ؛ في  
مواجهة الحاضر الواقع وما فيه من أمن وطمأنينة .

. وما كان من تدير المشركين ومكرهم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مواجهة ما  
صار إليه من غلبة عليهم ، لا مجرد النجاة منهم !

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويحبسوه حتى يموت ؛ أو ليقتلوه  
ويتخلصوا منه ؛ أو ليخرجوه من مكة منقيا مطرودا . . . ولقد ائتمروا بهذا كله ثم اختاروا  
قتله ؛ على أن يتولى ذلك المنكر فتيه من القبائل جميعا ؛ ليتفرق دمه في القبائل ؛ ويعجز بنو  
هاشم عن قتال العرب كلها ، فيرضوا بالدية وينتهي الأمر !

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، أخبرني عثمان الجريدي ، عن مقسم مولى ابن عباس ، أخبره ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ . . قال : " تشاورت قريش ليلة بمكة . فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق - يريدون النبي صلى الله عليه وسلم - وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجه . فأطلع الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - على ذلك ؛ فبات عليّ - رضي الله عنه - على فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى لحق بالغار . وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما أصبحوا ثاروا إليه ؛ فلما رأوه عليا رد الله تعالى عليهم مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري ! فاقصوا أثره ؛ فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه . . فمكث فيه ثلاث ليال . "

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ . .

والصورة التي يرسمها قوله تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ . . صورة عميقة التأثير . .

ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قریش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون . .

والله من ورائهم ، محيط ، يكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون !

إنها صورة ساخرة ، وهي في الوقت ذاته صورة مفرجة . . فأين هؤلاء البشر الضعاف

المهازيل ، من تلك القدرة القادرة . . قدرة الله الجبار ، القاهر فوق عباده ، الغالب على

أمره ، وهو بكل شيء محيط ؟

والتعبير القرآني يرسم الصورة على طريقة القرآن الفريدة في التصوير ؛ فيهبها القلوب ،

ويحرك بها أعماق الشعور .

ويمضي السياق في وصف أحوال الكفار وأفعالهم ؛ ودعاويهم ومفترياتهم . حتى ليبلغ بهم

الادعاء أن يزعموا أن في مقدورهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن لو شاءوا ! مع وصف هذا

القرآن الكريم ، بأنه أساطير الأولين :

(138/312)

---

❖ وإذا تلى عليهم آياتنا قالوا : قد سمعنا ! لو نشاء لقلنا مثل هذا ! إن هذا إلا أساطير

الاولين ❖ . .

ذكر ابن كثير في التفسير - نقلا عن سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم - أن



القائل لذلك هو النضر ابن الحارث قال : " فإنه - لعنه الله - كان قد ذهب إلى بلاد فارس ،  
وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار ؛ ولما قدم وجد رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن .

فكان - عليه الصلاة والسلام - إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار  
أولئك ؛ ثم يقول : بالله أينما أحسن قصصا ؟ أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى فيه يوم  
بدر ووقع في الأسارى ، أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن تضرب رقبة صبرا بين  
يديه ، ففعل ذلك والحمد لله . وكان الذي أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه . . كما  
قال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي  
بشر ، عن سعيد ابن جبير قال : " قتل النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر صبرا عقبه بن  
أبي معيط ، وطعيمة بن عدي ، والنضر بن الحارث . وكان المقداد أسر النضر ، فلما فأمر  
بقتله قال المقداد : يا رسول الله ، أسيري ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إنه  
كان يقول في كتاب الله عز وجل ما يقول " . فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقتله ،  
فقال المقداد : يا رسول الله ، أسيري ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " اللهم  
أغن المقداد من فضلك " . فقال المقداد : هذا الذي أردت ! " قال : وفيه أنزلت هذه الآية  
: ﴿ وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا : قَدْ سَمِعْنَا ، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ، إِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ  
الْأُولَى ﴾ . .

ولقد تكررت في القرآن حكاية قول المشركين عن القرآن: إنه أساطير الأولين: ﴿ وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ وما كان هذا القول إلا حلقة من سلسلة المناورات التي كانوا يحاولون أن يقفوا بها في وجه هذا القرآن، وهو يخاطب الفطرة البشرية بالحق الذي تعرفه في أعماقها فتتهز وتستجيب؛ ويواجه القلوب بسلطانه القاهر فترتجف لإيقاعه ولا تتماسك. وهنا كان يلجأ العلية من قريش إلى مثل هذه المناورات. وهم يعلمون أنها مناورات! ولكنهم كانوا يبحثون في القرآن عن شيء يشبه الأساطير المعهودة في أساطير الأمم من حولهم ليموهوا به على جماهير العرب، الذين من أجلهم تطلق هذه المناورات، للاحتفاظ بهم في حظيرة العبودية للعبيد!

لقد كان الملأ من قريش يعرفون طبيعة هذه الدعوة، مذ كانوا يعرفون مدلولات لغتهم الصحيحة! كانوا يعرفون أن شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، معناها إعلان التمرد على سلطان البشر كافة، والخروج من حاكمية العباد جملة؛ والفرار إلى ألوهية الله وحده وحاكميته. ثم التقي في هذه العبودية لله عن محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحده، دون الناطقين باسم الآلهة أو باسم الله!.

. وكانوا يرون الذين يشهدون هذه الشهادة يخرجون لتوهم من سلطان قريش وقيادتها  
وحاكميتها؛ وينضمون إلى التجمع الحركي الذي يقوده محمد - صلى الله عليه وسلم -  
ويخضعون لقيادته وسلطانه؛ وينزعون ولاءهم للأسرة والعشيرة عليها هذه القيادة  
الجديدة..

كان هذا كله مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. وكان هذا واقعاً  
يشهده الملا من قريش؛ ويحسون خطره على كياناتهم، وعلى الأوضاع الاجتماعية  
والسياسية والاقتصادية والعقيدية التي يقوم عليها كياناتهم.

(140/312)

---

لم يكن مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، هو هذا المدلول الباهت الفارغ  
الهزيل الذي يعنيه اليوم من يزعمون أنهم مسلمون - مجرد أنهم يشهدون هذه الشهادة  
بالسنتهم؛ ويؤدون بعض الشعائر التعبدية، بينما ألوهية الله في الأرض وفي حياة الناس لا  
وجود لها ولا ظل؛ وبينما القيادات الجاهلية والشرائع الجاهلية هي التي تحكم المجتمع  
وتصرف شؤونه.

وحقيقة إنه في مكة لم تكن للإسلام شريعة ولا دولة.. ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين

كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية؛ ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة؛ كما كانوا ينسأون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها؛ وينزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية بمجرد نطقهم بالشهادتين.. فلم يكن الأمر هو هذا النطق الفارغ الباهت الهزيل. ولكن كانت دلالة الواقعة العملية هي التي تترجمه إلى حقيقة يقوم عليها الإسلام..

(141/312)

---

وهذا هو الذي كان يزعم الملامن قريش من زحف الإسلام، ومن هذا القرآن.. إنه لم يزعمهم من قبل أن "الحنفاء" اعتزلوا معتقدات المشركين وعباداتهم؛ واعتقدوا بالوهمية الله وحده وقدموا له الشعائر وحده، واجتنبوا عبادة الأصنام أصلاً.. فإلى هنا لا يهم الطاغوت الجاهلي شيء؛ لأنه لا خطر على الطاغوت من الاعتقاد السلبي والشعائر التعبدية! إن هذا ليس هو الإسلام - كما يظن بعض الطيبين الخيرين الذين يريدون اليوم أن يكونوا مسلمين، ولكنهم لا يعرفون ما هو الإسلام معرفة اليقين! - إنما الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين.. هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقياداته وسلطانه وشرائعه؛ والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية وللعصبة المسلمة التي تريد أن

تحقق الإسلام في عالم الواقع . . وهذا ما كان يقض مضاجع الملأمن قريش ، فيقاومونه  
بشتى الأساليب . . ومنها هذا الأسلوب . . أسلوب الادعاء على القرآن الكريم ، بأنه  
أساطير الأولين ! وأنهم - لو شاءوا - قالوا مثله ! ذلك مع تحديهم به مرة ومرة ومرة . .  
وهم في كل مرة يعجزون ويخنسون !

والأساطير واحدتها أسطورة . وهي الحكاية المتلبسة - غالباً - بالتصورات الخرافية عن  
الآلهة ، وعن أقاصيص القدامى وبطولاتهم الخارقة ، وعن الأحداث التي يلعب فيها الخيال  
والخرافة دوراً كبيراً .

(142/312)

---

وقد كان الملأمن قريش يعمدون إلى ما في القرآن من قصص الأولين ؛ وقصص الخوارق  
والمعجزات ؛ وفعل الله بالمكذبين وإنجائه للمؤمنين . . إلى آخر ما في القصص القرآني من  
هذه الموضوعات ؛ فيقولون للجماهير المستغفلة : إنها أساطير الأولين ؛ أكتبها محمد ممن  
يجمعونها ؛ وجاءت يتلوها عليكم ، زاعماً أنه أوحى إليه بها من عند الله . . وكذلك كان  
النضر ابن الحارث يجلس في مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد انتهائه ؛ أو

يجلس مجلساً آخر يجاوره؛ ويقص الأساطير الفارسية التي تعلمها من رحلاته في بلاد فارس؛ ليقول للناس: إن هذا من جنس ما يقوله لكم محمد . وها أنا ذا لا أدعي النبوة ولا الوحي كما يدعي! فإن هي إلا أساطير من نوع هذه الأساطير!  
ولا بد أن تقدر أنه كان هناك تأثير لهذه البلبلة في الوسط الجاهلي عند عامة الناس .  
وبخاصة في أول الأمر ، قبل أن تتجلى الفوارق بين هذه الأساطير والقصص ، وبين القرآن الكريم . لندرك لم نادى منادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل المعركة في بدر بقتل النضر بن الحارث . ثم لما وجدته أسيراً أمر بقتله هو والنفر القليل الذين أمر بقتلهم من الأسرى؛ ولم يقبل فيه فدية كالأخرين .

(143/312)

---

على أن الذي انتهى إليه الأمر في مكة أن هذه الأساليب لم تعش طويلاً؛ وأن هذا النوع من المناورات قد انكشف بعد حين؛ وأن القرآن بسلطانه القاهر الذي يحمله من عند الله؛ وبالحق العميق الذي تصطح عليه الفطرة سريعاً، قد اكتسح هذه الأساليب وهذه المناورات، فلم يقف له منها شيء؛ وراح الملائم من قريش - في ذعر - يقولون: ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون! ﴾ ووجد كبراًؤهم، من أمثال أبي سفيان،

وأبي جهل والأخنس بن شريق أنفسهم يخالس بعضهم بعضاً ليبيت ليلته يستمع خفية لهذا القرآن؛ ولا يملك نفسه من أن تقوده قدماه ليلة بعد ليلة إلى حيث يستمع لرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في خفية عن الآخرين؛ حتى تعاهدوا وأكدوا على أنفسهم العهود، ألا يعودوا إليها، مخافة أن يراهم الفتية فيفتنوا بهذا القرآن وبهذا الدين!

على أن محاولة النضر بن الحارث أن يلهي الناس عن هذا القرآن بشيء آخر يخذلهم به عنه، لم تكن هي المحاولة الأخيرة ولن تكون... لقد تكررت في صور شتى وسوف تتكرر... لقد حاول أعداء هذا الدين دائماً أن يصرفوا الناس نهائياً عن هذا القرآن. فلما عجزوا حولوه إلى تراويل يتزعم بها القراء ويضطرب لها المستمعون، وحولوه إلى تائم وتعاويد يضعها الناس في جيوبهم وفي صدورهم وتحت وسائد هم... ويفهمون أنهم مسلمون، ويظنون أنهم أدوا حق هذا القرآن وحق هذا الدين! لم يعد القرآن في حياة الناس هو مصدر التوجيه.

(144/312)

---

. لقد صاغ لهم أعداء هذا الدين أبداً منه يتلقون منها التوجيه في شؤون الحياة كلها... حتى ليتلقون منها تصوراتهم ومفاهيمهم، إلى جانب ما يتلقون منها شرائعهم وقوانينهم،

وقيمهم وموازينهم! ثم قالوا لهم: إن هذا الدين محترم، وإن هذا القرآن مصون. وهو يتلى عليكم صباحاً ومساءً وفي كل حين؛ ويتزعم به المترنمون، ويرتلله المرتلون. . فماذا تريدون من القرآن بعد هذا التزعم وهذا الترتيل؟! فأما تصوراتكم ومفهوماتكم، وأما أنظمتكم وأوضاعكم، وأما شرائعكم وقوانينكم، وأما قيمكم وموازينكم، فإن هناك قرآناً آخر هو المرجع فيها كلها، فإليه ترجعون!

إنها مناورة النصر بن الحارث، ولكن في صورة متطورة معقدة، تناسب تطور الزمان وتعتقد الحياة. . ولكنها هي هي في شكل من أشكالها الكثيرة، التي عرفها تاريخ الكيد لهذا الدين، على مدار القرون!

ولكن العجيب في شأن هذا القرآن، أنه - على طول الكيد وتعقده وتطوره وترقيه - ما يزال يغلب! . . إن لهذا الكتاب من الخصائص العجيبة، والسلطان القاهر على الفطرة، ما يغلب به كيد الجاهلية في الأرض كلها وكيد الشياطين من اليهود والصليبيين؛ وكيد الأجهزة العالمية التي يقيمها اليهود والصليبيون في كل أرض وفي كل حين!

إن هذا الكتاب ما يزال يلوي أعناق أعدائه في الأرض كلها ليجعلوه مادة إذاعية في جميع محطات العالم الإذاعية؛ بحيث يذيعه - على السواء - اليهود، ويذيعه الصليبيون، ويذيعه عملاؤهم المستترون تحت أسماء المسلمين!



---

وحقيقة إنهم يذيعونه بعد أن نجحوا في تحويله في نفوس الناس "المسلمين" ! - إلى مجرد أنغام وتراتيل؛ أو مجرد تئاتم وتعاويد! وبعد أن أبعده - حتى في خاطر الناس . .

المسلمين! . . من أن يكون مصدر التوجيه للحياة؛ وأقاموا مصادر غيره للتوجيه في جميع الشؤون . . ولكن هذا الكتاب ما يزال يعمل من وراء هذا الكيد؛ وسيظل يعمل؛ وما تزال في أنحاء في الأرض عصابة مسلمة تتجمع على جدية هذا الكتاب، وتتخذة وحده مصدر التوجيه؛ وهي ترتقب وعد الله لها بالنصر والتمكين، من وراء الكيد والسحق والقتل والتشريد . . وما كان مرة لا بد أن سيكون . .

ثم يمضي السياق يصف العجب العاجب من عناد المشركين في وجه الحق الذي يغالبهم فيغلبهم؛ فإذا الكبرياء تصد هم عن الاستسلام له والإذعان لسلطانه؛ وإذا بهم يتمنون على الله - إن كان هذا هو الحق من عنده - أن يمطر عليهم حجارة من السماء، أو أن يأتبهم بعذاب أليم. بدلاً من أن يسألوا الله أن يرزقهم اتباع هذا الحق والوقوف في صفه:

﴿ وإذ قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ . .

وهو دعاء غريب؛ يصور حالة من العناد الجامح الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق، حتى ولو كان حقاً! إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق

، وأن يهديها إليه ، دون أن تجد في هذا غضاضة .  
ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجاحمة ، تأخذها العزة بالإثم ، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب ،  
على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحا لا ريب فيه . . ويمثل هذا العناد كان  
المشركون في مكة يواجهون دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن هذه الدعوة هي  
التي انتصرت في النهاية في وجه هذا العناد الجامح الشموس !

(146/312)

---

ويعقب السياق على هذا العناد ، وعلى هذا الادعاء ، بأنهم مع استحقاقهم لإمطار  
الحجارة عليهم من السماء وللعذاب الأليم الذي طلبوه - إن كان هذا هو الحق من عنده -  
وإنه للحق . . مع هذا فإن الله قد أمسك عنهم عذاب الاستئصال الذي أخذ به المكذبين  
قبلهم . لأن رسول - صلى الله عليه وسلم - بينهم ، ولا يزال يدعوهم إلى الهدى . والله لا  
يعذبهم عذاب الاستئصال والرسول فيهم . كما أنه لا يعذبهم هذا العذاب على معاصيهم  
إذا كانوا يستغفرون منها ؛ وليس تأخير العذاب عنهم مجرد أنهم أهل هذا البيت . فهم  
ليسوا بأولياء هذا البيت إنما أولياؤه المتقون :

❖ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون . وما لهم ألا

يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، وما كانوا أولياءه ، إن أولياءه إلا المتقون ،  
ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديّة . فذوقوا العذاب  
بما كنتم تكفرون ❁ . .

إنها رحمة الله تمهلهم فلا يأخذهم الله بعنادهم ؛ ولا يأخذهم بصدّهم عن المسجد الحرام  
- وقد كانوا يمنعون المسلمين أن يحجوا إليه ، وهم لا يمنعون أحداً ولا يهيجونه عنه !

إنها رحمة الله تمهلهم عسى أن يستجيب للهدى منهم من تحالط بشاشة الإيمان قلبه - ولو  
بعد حين - وما دام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينهم ، يدعوهم ، فهناك توقع

لاستجابة البعض منهم ؛ فهم إكراماً لوجود رسول الله بينهم يهلون . والطريق أمامهم لانتقاء  
عذاب الاستئصال دائماً مفتوح إذا هم استجابوا واستغفروا عما فرط منهم وأنابوا :

❁ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ❁ . .

فأما لو عاملهم الله بما هم فيه فهم مستحقون لهذا العذاب :

❁ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام . وما كانوا أولياءه . إن أولياءه

إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ❁ . .

إنه لا يمنع العذاب عنهم ما يدعونه من أنهم ورثة إبراهيم وسدنة بيت الله الحرام . . فهذه ليست سوى دعوى لا أساس لها من الواقع . إنهم ليسوا أولياء هذا البيت ولا أصحابه . إنهم أعداء هذا البيت وغاصبوه ! إن بيت الله الحرام ليس تركته يرثها الخلف عن السلف . إنه بيت الله يرثه أولياء الله المتقون لله .

. ومثله دعواهم أنهم ورثة إبراهيم - عليه السلام - فورثة إبراهيم ليست وراثته دم ونسب ؛ إنما هي وراثته دين وعقيدة . والمتقون هم ورثة إبراهيم وبيت الله الذي بناه الله ؛ فإذا هم يصدون عنه أولياءه الحقيقيين المؤمنين بدين إبراهيم ! إنهم ليسوا أولياء لهذا البيت وإن كانوا يصلون عنده صلواتهم . فما هذه بصلاة ! إنما كانت صغيراً بالأفواه وتصفيفاً بالأيدي ، وهرجاً ومرجاً لا وقار فيه ، ولا استشعاراً لحرمة البيت ، ولا خشوعاً لهيبة الله .

عن ابن عمر - رضي الله عنه - أنه قال : إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ، ويصفقون ويصفرون .

وإن هذا ليخطر بالبال صور العازفين المصفيقين الصاخبين المرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات اليوم في كثير من البلاد التي يسمونها " بلاد المسلمين " ! إنها الجاهلية تبرز في صورة من صورها الكثيرة . بعدما برزت في صورتها الواضحة الكبيرة : صورة ألوهية العبيد في الأرض ، وحاكميتهم في حياة الناس . . وإذا وقعت هذه فكل صور

الجاهلية الأخرى إنما هي تبع لها ، وفرع منها !

﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ . . .

وهو ذلك العذاب الذي نزل بهم في بدر بأيدي العصابة المسلمة . فأما العذاب الذي طلبوه

- عذاب الاستئصال المعروف - فهو مؤجل عنهم ، رحمة من الله بهم ، وإكراماً لنبيه .

صلى الله عليه وسلم . ومقامه فيهم ، عسى أن ينتهي بهم الأمر إلى التوبة والاستغفار مما هم

فيه .

(148/312)

---

والكفار ينفقون أموالهم ليتعاونوا على الصد عن سبيل الله . . . هكذا فعلوا يوم بدر ، على

نحو ما ذكرنا في سياق الحديث عن الموقعة من كتب السيرة . . . وهكذا ظلوا بعد بدر

يستعدون للموقعة التالية . والله يذرهم بالخبيثة فيما يبغون وبالחסرة على ما ينفقون ،

ويعدهم الهزيمة في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة :

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . فسينفقونها ثم تكون عليهم

حسرة ؛ ثم يغلبون ؛ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل

الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعاً ، فيجعله في جهنم ، أولئك هم الخاسرون



روى محمد بن إسحاق عن الزهري وغيره قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلهم -  
أي جيشهم المهزوم - إلى مكة ؛ ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن ربيعة ،  
وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال من قريش أصيب آبؤهم وأبنائهم  
وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ،  
فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم ! فأعينونا بهذا المال على  
حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا . ففعلوا . فقال : ففيهم - كما ذكر ابن  
عباس - أنزل الله عز وجل : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم . . . ﴾ .

وليس هذا الذي حدث قبل بدر وبعدها إلا نموذجاً من الأسلوب التقليدي لأعداء هذا  
الدين .

. إنهم ينفقون أموالهم ، ويبدلون جهودهم ، ويستنفدون كيدهم ، في الصد عن سبيل الله ،  
وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين . وفي حرب العصابة المسلمة في كل أرض وفي كل  
حين . . .

إن المعركة لن تكف . وأعداء هذا الدين لن يدعوه في راحة . ولن يتركوا أولياء هذا الدين  
في أمن . وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية ، وسبيل أوليائه أن يتحركوا  
لتحطيم قدرة الجاهلية على العدوان ؛ ثم لإعلاء راية الله حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت .

والله - سبحانه - يندر الكفار الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله بأنها ستعود عليهم بالحسرة.. إنهم سينفقونها لتضيع في النهاية، وليغلبواهم وينتصر الحق في هذه الدنيا. وسيحشرون في الآخرة إلى جهنم، فتم الحسرة الكبرى.. ذلك..

﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض، فيركمه جميعاً؛ فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ ..

فكيف؟

إن هذا المال الذي ينفق يؤلب الباطل ويملي له في العدوان؛ فيقابلة الحق بالكفاح والجهاد؛ وبالحرمة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة.. وفي هذا الاحتكاك المرير، تنكشف الطباع، ويتميز الحق من الباطل، كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل - حتى بين الصفوف التي تقف ابتداء تحت راية الحق قبل التجربة والابتلاء! - ويظهر الصامدون الصابرون المثابرون الذين يستحقون نصر الله، لأنهم أهل لحمل أماناته، والقيام عليها، وعدم التفريط فيها تحت ضغط الفتنة والحننة.. عند ذلك يجمع الله الخبيث على الخبيث، فيلقي به في جهنم.. وتلك غاية الخسران..

والتعبير القرآني يجسم الخبيث حتى لكأنه جرم ذو حجم ، وكأنما هو كومة من الأقدار ،

يقذف بها في النار ، دون اهتمام ولا اعتبار !

﴿ فيركمه جميعاً فيجعلهُ في جهنم ﴾ . . .

وهذا التجسيم يمنح المدلول وقعاً أعمق في الحس . . . وتلك طريقة القرآن الكريم في التعبير

والتأثير . . .

وعندما يصل السياق إلى هذا التقرير الحاسم ، عن مصير الكفر المتعاون ، ونهاية الخبث

المتراكم ، يتجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لينذر الكافرين إنذاره

الأخير ، ويتجه بالخطاب كذلك إلى الجبهة المسلمة يأمرها بالقتال حتى لا تكون في الأرض

فتنة ، وحتى يكون الدين كله لله ، ويطمئن العصابة المسلمة المجاهدة إلى أن الله مولاها

ونصيرها ، فلا غالب لها من الناس مجرب ولا بكيد ، والله وليها الناصر المعين :

(150/312)

---

﴿ قل للذين كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين .

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن

تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير ﴾ . . .



قل للذين كفروا - في ضوء ما سبق من قرار الخالق الجبار عن خيبتهم في جمعهم ،  
وحسرتهم على ما أنفقوا ، وصيرورتهم بعد الخزي والحسرة في الدنيا إلى أن يركم الخبيث  
منهم على الخبيث فيجعل الخبيث كله في جهنم .

❖ قل للذين كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين  
.. ❖

فالفرة أما مهم سائحة لينتهوا عما هم فيه من الكفر ، ومن التجمع لحرب الإسلام وأهله ،  
ومن إنفاق الأموال للصد عن سبيل الله . . والطريق أما مهم مفتوح ليتوبوا عن هذا كله  
ويرجعوا إلى الله ، ولهم عندئذ أن يغفر لهم ما قد سلف . فالإسلام يجب ما قبله ، ويدخله  
الإنسان برياً من كل ما كان قبله كما ولدته أمه . . فأما إن هم عادوا - بعد هذا البيان -  
إلى ما هم فيه من الكفر والعدوان فإن سنة الله في الأولين لا تتخلف . . ولقد مضت سنة  
الله أن يعذب المكذبين بعد التبليغ والتبيين ؛ وأن يرزق أولياءه النصر والعز والتمكين . . .  
وهذه السنة ماضية لا تتخلف . . وللذين كفروا أن يختاروا وهم على مفرق الطريق !  
بذلك ينتهي الحديث مع الذين كفروا ويتجه السياق إلى الذين آمنوا :

❖ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير .  
وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير ❖ . .

وهذه حدود الجهاد في سبيل الله في كل زمان ، لا في ذلك الزمان . . ومع أن النصوص المتعلقة بالجهاد في هذه السورة ، وقوانين الحرب والسلام ، ليست هي النصوص النهائية ، فقد نزلت النصوص الأخيرة في هذا الباب في سورة براءة التي نزلت في السنة التاسعة ؛ ومع أن الإسلام - كما قلنا في تقديم السورة - حركة إيجابية تواجه الواقع البشري بوسائل مكافئة ، وأنه حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . .

ومع هذا فإن قوله تعالى :

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ . .

يقرر حكماً دائماً للحركة الإسلامية في مواجهة الواقع الجاهلي الدائم . .

ولقد جاء الإسلام - كما سبق في التعريف بالسورة - ليكون إعلاناً عاماً لتحرير " الإنسان

" في " الأرض " من العبودية للعباد - ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد -

وذلك بإعلان ألوهية الله وحده - سبحانه - وربوبيته للعالمين . . وأن معنى هذا الإعلان

: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ،

والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض ، الحكم فيه للبشر في صورة من الصور . .

الخ.

ولا بد لتحقيق هذا الهدف الضخم من أمرين أساسيين :

أولهما : دفع الأذى والفتنة عن معتنقون هذا الدين ، ويعلنون تحررهم من حاكمية الإنسان

، ويرجعون بعبوديتهم لله وحده ، ويخرجون من العبودية للعبيد في جميع الصور

والأشكال . . وهذا لا يتم إلا بوجود عصابة مؤمنة ذات تجمع حركي تحت قيادة تؤمن بهذا

الإعلان العام ، وتنفذه في عالم الواقع ، وتجاهد كل طاغوت يعتدي بالأذى والفتنة على

معتنقي هذا الدين ، أو يصد بالقوة وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه .

(152/312)

---

وثانيهما : تحطيم كل قوة في الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر - في صورة من

الصور - وذلك لضمان الهدف الأول ، وإعلان الوهية الله وحدها في الأرض كلها ،

بحيث لا تكون هناك دينونة إلا لله وحده - فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان الله - وليس

هو مجرد الاعتقاد . .

ولا بد هنا من بيان الشبهة التي قد تحيك في الصدور من هذا القول ، على حين أن الله سبحانه يقول : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ ومع أن فيما سبق تقريره عن طبيعة الجهاد في الإسلام - وبخاصة فيما اقتطفناه من كتاب : " الجهاد في سبيل الله " للأستاذ أبي الأعلى المودودي ، ما يكفي للبيان الواضح . . إلا أننا نزيد الأمر إيضاحاً ، وذلك لكثرة ما لبس الملبسون ومكر الماكرون من أعداء هذا الدين !

إن الذي يعنيه هذا النص : ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ . . هو إزالة الحواجز المادية ، المتمثلة في سلطان الطواغيت ، وفي الأوضاع القاهرة للأفراد ، فلا يكون هناك - حينئذ - سلطان في الأرض لغير الله ، ولا يدين العباد يوماً لسلطان قاهر إلا سلطان الله . . فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس أفراداً يختارون عقيدتهم أحراراً من كل ضغط . على ألا تمثل العقيدة المخالفة للإسلام في تجمع له قوة مادية يضغط بها على الآخرين ، ويحول بها دون اهتداء من يرغبون في الهدى ، ويفتن بها الذين يتحررون فعلاً من كل سلطان إلا سلطان الله . . إن الناس أحرار في اختيار عقيدتهم ، على أن يعتنقوا هذه العقيدة أفراداً ، فلا يكونون سلطة القاهرة يدين لها العباد . فالعباد لا يدينون إلا لسلطان رب العباد .

ولن تنال البشرية الكرامة التي وهبها لها الله ، ولن يتحرر " الإنسان " في " الأرض " ، إلا حين يكون الدين كله لله ، فلا تكون هنالك دينونة لسلطان سواه .

ولهذه الغاية الكبرى نقاتل العصابة المؤمنة :

﴿ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ . .

(153/312)

---

فمن قبل هذا المبدأ وأعلن استسلامه له ، قبل منه المسلمون إعلانه هذا واستسلامه ، ولم يفتشوا عن نيته وما يخفي صدره ، وتركوا هذا الله :

﴿ فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾ . .

ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان الله قاتله المسلمون معتمدين على نصره الله :

﴿ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم . نعم المولى ونعم النصير ﴾ . .

هذه تكاليف هذا الدين ؛ وهذه هي جديته وواقعيته وإيجابيته وهو يتحرك لتحقيق ذاته في عالم الواقع ؛ ولتقرير ألوهية الله وحده في دنيا الناس . .

إن هذا الدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب ؛ للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة !

وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى ! كما أنه ليس مجرد

شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه !

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان .

. وهو منهج حركي واقعي ، يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة . . يواجه حواجز الإدراك

والرؤية بالتبليغ والبيان . . ويواجه حواجز الأوضاع والسلطة بالجهاد المادي لتحطيم

سلطان الطواغيت وتقرير سلطان الله . .

والحركة بهذا الدين حركة في واقع بشري . والصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صراع

نظري يقابل بنظرية ! إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع وسلطة ، ولا بد - كي يقابلها هذا

الدين بوسائل مكافئة - أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة ، ولا بد بعد ذلك أن يجاهد

ليكون الدين كله لله ، فلا تكون هناك دينونة لسواه .

هذا هو المنهج الواقعي الحركي الإيجابي لهذا الدين . . لا ما يقوله المهزومون

والمخدوعون . . ولو كانوا من المخلصين الطيبين الذين يريدون أن يكونوا من " المسلمين " ،

ولكن تغييم في عقولهم وفي قلوبهم صورة هذا الدين !

. . والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الضلال ح 3 ص 1500.1510 ﴾

(154/312)

---

## فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : قالوا قد سمعنا وما سمعوا فى الحقيقة وإلا لم يقولوا لو نشاء لقلنا فإن كلام المخلوق لن يكون مثل كلام الله . ثم انظر كيف استخرج الله منهم عقيب دعواهم ﴿ لقلنا مثل هذا ﴾ قولهم ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر ﴾ ليعلم أن من هذا حاله كيف يكون مثل القرآن مقاله ، ولو كان لهم عقل لقالوا إن كان هذا حقاً فاهدنا له وتمعنا به وبأنواره وأسراره ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ لأنه رحمة للعالمين والرحمة تنافى العذاب ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ ، ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ يعني أكثر المتقين أو ﴿ لا يعلمون ﴾ أنهم أولياؤه لأن الولي قد لا يعرف أنه ولي ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ﴾ كذلك دأب كفار النفوس ينفقون أموال الاستعداد الفطري فى غير طلب الله وإنما تصرفها فى استيفاء اللذات والشهوات فستندم حين لا ينفع الندم ﴿ ثم يغلبون ﴾ لا يظفرون بمشتهيات النفس كلها ولأجلها ، والذين كفروا من الأرواح والقلوب التابعة والنفوس ﴿ إلى جهنم ﴾ البعد والقطعية ﴿ يحشرون ﴾ ، ﴿ ليميز الله ﴾ الأرواح والقلوب الخبيثة من الطيبة التى لا تركز إلى الدنيا ولا تنخدع بانخداع النفوس ﴿ فيركمه جميعاً ﴾ فيجعل الأرواح الخبيثة فوق النفوس الخبيثة فيلقى الجميع فى جهنم القطعية ﴿ قل للذين كفروا ﴾ من الأرواح والقلوب أى ستروا النور الروحاني بظلمات صفات النفس ﴿ إن ينتهوا ﴾

عن اتباع الهوى ﴿ يغفر لهم ﴾ يستر لهم تلك الظلمات بنور الفرقان والرشاد . ﴿ وقاتلوا ﴾ كفار النفوس ﴿ حتى لا تكون ﴾ آفة مانعة عن الوصول ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾  
ببذل الوجود وفقد الموجود لنيل الوجود وكرامة الشهود والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 398.399 ﴾

(155/312)

وقال الأوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ تأديب منه سبحانه لأهل بدر وهداية لهم إلى فناء الأفعال حيث سلب الفعل عنهم بالكلية ، ويشبه هذا من وجه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ والفرق أنه لما كان النبي صلى الله عليه وسلم في مقام البقاء بالحق سبحانه نسب إليه الفعل بقوله تعالى : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ مع سلبه عنه ﴿ بِمَا رَمَيْتَ ﴾ وإثباته لله تعالى في حيز الاستدراك ليفيد معنى التفصيل في عين الجمع فيكون الرامي محمداً عليه الصلاة والسلام لا بنفسه ولعلو مقامه صلى الله عليه وسلم وعدم كونهم في ذلك المقام الأرفع نسب سبحانه إليه صلى الله عليه وسلم ما نسب ولم ينسب إليهم رضي الله تعالى عنهم من الفعل شيئاً ، وهذا أحد أسرار



تغيير الأسلوب في الجملتين حيث لم ينسب في الأولى ونسب في الثانية ، بقي سر التعبير  
بالمضارع المنفي ﴿ بلم ﴾ في حدهما والماضي المنفي ﴿ تَفَرَّحُوا بِمَا ﴾ في الأخرى  
فارجع إلى فكرك .

(156/312)

---

فعل الله تعالى يفتح عليك : ﴿ وَيُبَلِّغِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءَ حَسَنًا ﴾ ليعطيهم عطاءً جميلاً  
وهو توحيد الأفعال ، والمراد لهذا فعل ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ بمخاطرات نفوسكم بنسبة  
القتل إليكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنفال : 17 ] بأنه القتل حقيقة وكونكم مظهر الفعله ﴿ وَأَنَّ  
اللَّهُ مُهِينٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ [ الأنفال : 18 ] لاحتجابهم بأنفسهم ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا ﴾  
الآية ، قيل فيها : أي فتحو أبواب قلوبكم بمفاتيح الصدق والإخلاص وترك السوي في  
طلب التجلي ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ بالتجلي فإنه سبحانه لم يزل متجلياً ولا يزال لكن لا  
يدرك ذلك إلا من فتح قلبه ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ عن طلب السوي ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لما فيه  
من الفوز بالمولى ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا ﴾ إلى طلب الدنيا وزخارفها ﴿ نَعُدُّ ﴾ إلى خذلانكم  
ونكلكم إلى أنفسكم ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ ﴾ الدنيوية ﴿ شَيْئاً ﴾ مما لخاصته  
سبحانه ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ [ الأنفال : 19 ] لأنها كسر اب بقية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿ [الأنفال: 20] لأن ثمره السماع الفهم  
والتصديق وثمرتهما الإرادة وثمرتها الطاعة فلا تصح دعوى السماع مع الإعراض ﴿ ولا  
تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ [الأنفال: 21] لكونهم محجوبين عن الفهم  
﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمْ ﴿ عن السماع ﴿ البكم ﴿ عن القبول ﴿ الذين لا  
يَعْقِلُونَ ﴿ [الأنفال: 22] لماذا خلقوا ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴿ استعداداً صالحاً  
﴿ لَأَسْمَعَهُمْ ﴿ سماع تفهم ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴿ مع عدم علم الخير فيهم

(157/312)

---

﴿ تَوَلَّوْا ﴿ [الأنفال: 23] ولم ينتفعوا به وارتدوا سريعاً إذ شأن العارض الزوال وهم  
معرضون بالذات ﴿ مُعْرَضُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴿ بالتصفية  
﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿ وهو العلم بالله تعالى ، وقد يقال : استجيبوا لله تعالى  
بالباطن والأعمال القلبية وللرسول بالظاهر والأعمال النفسية ، أو استجيبوا لله تعالى  
بالفناء في الجمع وللرسول عليه الصلاة والسلام بمراعاة حقوق التفصيل إذا دعاكم لما  
يحييكم من البقاء ﴿ واعلموا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴿ فيزول الاستعداد فانتهزوا  
الفرصة ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿ [الأنفال: 24] فيجازيكم على حسب مراتبكم ﴿

وانقوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴿ [الأنفال: 25] بل تشملهم وغيرهم  
بشؤم الصحبة ﴿ واذكروا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴿ من حيث القدر لجهلكم ﴿ مُسْتَضْعَفُونَ ﴿ في  
أرض النفس ﴿ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ ﴿ أي ناس القوى الحسية لضعف نفوسكم  
﴿ فَأَوَّاكُمْ ﴿ إلى مدينة العلم ، وأيدكم بنصره في مقام توحيد الأفعال ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنْ  
الطَّيِّبَاتِ ﴿ أي لوم تجليات الصفات ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ [الأنفال: 26] ذلك ، وقد  
يقال : واذكروا أيها الأرواح والقلوب إذ كنتم قليلاً ليس معكم غيركم إذ لم ينشأ لكم بعد  
الصفات والأخلاق الروحانية ﴿ مُسْتَضْعَفُونَ ﴿ في أرض البدن ﴿ تَخَافُونَ أَنْ  
يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ ﴿ من النفس وأعوانها ﴿ فَأَوَّاكُمْ ﴿ إلى حظائر قدسه ﴿ وَأَيَّدَكُمْ  
بِنَصْرِهِ ﴿ بالواردات الربانية ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴿ وهي تجلياته سبحانه ﴿  
تَشْكُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ ﴿ بترك الإيمان ﴿ والرسول ﴿ بترك التخلق  
بأخلاقه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴿ وهي ما رزقكم الله تعالى من

القدرة وسلامة

(158/312)

الآلات بترك الأعمال الحسنة أو لا تخونوا الله تعالى بنقض ميثاق التوحيد الفطري السابق  
والرسول عليه الصلاة والسلام بنقض العزيمة ونبذ العقد اللاحق وتخونوا أماناتكم من  
المعارف والحقائق التي استودع الله تعالى فيكم حسب استعدادكم بإخفائها بصفات  
النفس ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنفال : 27 ] قبح ذلك أو تعلمون أنكم حاملوها ﴿  
واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ ﴿ يَجْتَبِئُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا لِيَرَى أَتَحْتَجِبُونَ بِمَحَبَّتِهَا عَنْ  
مَحَبَّتِهِ أَوْ لَا تَحْتَجِبُونَ ﴾ ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [ الأنفال : 28 ] لمن لا يفتن بذلك  
ولا يشغله عن محبته ﴿ عَظِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ ﴾ ﴿ بِالاجْتِنَابِ عَنِ الْخِيَانَةِ  
وَالاجْتِنَابِ بِمَحَبَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ ﴿ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ﴿ نورا تفرقه بين الحق  
والباطل ، وربما يقال : إن ذلك إشارة إلى نور يفرقون به بين الأشياء بأن يعرفوها بواسطة  
معرفة يمتاز به بعضها عن بعض وهو المسمى عندهم بالفراصة .

وفي بعض الآثار "انقوا فراصة المؤمن فإنه ينظر بنور من نور الله تعالى" ﴿ وَيُكْفِّرْ عَنْكُمْ ﴾  
وهي صفات نفوسكم ﴿ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ﴿ ذنوب ذواتكم ﴾ ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ  
﴿ [ الأنفال : 29 ] فيجعل لكم الفرقان ويفعل ويفعل ﴾ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾  
الآية جعلها بعضهم خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم ومعناها ما ذكرناه سابقاً ، وجعلها  
بعضهم خطاباً للروح وهو تأويل أنفسي ، أي وإذ يكر بك أيها الروح الذين كفروا وهي  
النفس وقواها ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ ﴿ ليقيدوك في أسر الطبيعة ﴾ ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ ﴿ بانعدام آثارك

﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [ الأنفال : 30 ] من عالم الأرواح ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾  
﴿ لَأَنَّكَ الرَّحْمَةُ لِلْعَالِينَ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [ الأنفال : 33 ] إذ لا  
ذنب مع الاستغفار ولا عذاب من غير ذنب ﴿ وَمَا لَهُمُ الْأَيْدِيَّ بِهَمُّ اللَّهِ ﴾ أي أنهم  
مستحقون لذلك كيف لا وهم يصدون المستعدين عن المسجد الحرام الذي هو القلب  
ياغرائهم على الأمور النفسانية والذات الطبيعية ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ لغلبة صفات  
أنفسهم عليهم ﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ تلك الصفات ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [   
الأنفال : 34 ] ذلك الحكم ، وقال النيسابوري : ولكن أكثرهم أي المتقين لا يعلمون أنهم  
أولياؤه لأن الولي قد لا يعرف أنه ولي ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ﴾ وهو ذلك  
المسجد ﴿ الْإِمَاءِ ﴾ الإوساوس وخطرات شيطانية ﴿ وَتَصَدِيَةً ﴾ [ الأنفال :  
35 ] وعزماً على الأفعال الشنيعة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ من الاستعداد  
الفطري في غير مرضاة الله تعالى ﴿ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ طريقه الموصل إليه ﴿  
فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ لزوال لذاتهم حتى تكون نسياً منسياً ﴿ ثُمَّ يَغْلِبُونَ ﴾  
﴿ لَتَمُكِّنَ الْأَخْلَاقَ الذَّمِيمَةَ فِيهِمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْعُدُولَ عَنْهَا ﴾ والذين كفروا ﴿ أَي

وهم ، إلا أنه أقيم الظاهر مقام المضمَر تعليلاً للحكم الذي تضمنه قوله سبحانه : ﴿ إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [ الأنفال : 36 ] وهي جهنم القطعية ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ عما هم عليه ﴿ يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [ الأنفال : 38 ] ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ أي قاتلوا أيها المؤمنون كفار النفوس فإن جهادها هو الجهاد الأكبر ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ﴾ مانعة عن الوصول إلى الحق ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ ويضمحل دين النفس الذي

(160/312)

---

شرعته ﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [ الأنفال : 39 ] فيجازيهم على ذلك والله تعالى الموفق لأوضح المسالك لأرب غيره ولا يرجى إلا خيره . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعاني ج 8 ص ﴾

(161/312)

---

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)

الإعراب :

(يسألون) فعل مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون - والواو ضمير في محل رفع فاعل  
و(الكاف) ضمير مفعول به في محل نصب (عن الأنفال) جارّ ومجرور متعلق بـ (يسألون) ،  
(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الأنفال) مبتدأ مرفوع (لله) جارّ  
ومجرور متعلق بمحذوف خبر (الواو) عاطفة (الرسول) معطوف على لفظ الجلالة مجرور  
(الفاء) لربط الجواب بشرط مقدر (اتقوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . والواو فاعل  
(الله) لفظ الجلالة مفعول به (الواو) عاطفة (أصلحوا) مثل اتقوا (ذات) مفعول به منصوب  
(بين) مضاف إليه مجرور

و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أطيعوا) مثل اتقوا (الله) لفظ الجلالة مثل الأول  
(الواو) عاطفة (رسول) معطوف على لفظ الجلالة و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إن)  
حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبني على السكون في محل جزم  
فعل الشرط . . و(تم) ضمير في محل رفع اسم كان (مؤمنين) خبر كان منصوب وعلامة  
النصب الياء .

جملة: "يسألونك . . . لا محل لها ابتدائية .

وجملة: " قل . . . لا محل لها استئناف بياني .

وجملة: " الأنفال لله . . . " في محل نصب مقول القول .

وجملة: " اتقوا الله . . . " في محل جزم جواب شرط مقدر أي إن آمنتم بهذا فاتقوا الله .

وجملة: " أصلحوا . . . " معطوفة على جملة اتقوا الله .

وجملة: " أطيعوا . . . " معطوفة على جملة اتقوا الله .

(162/312)

---

وجملة: " كنتم مؤمنين " لا محل لها تفسير للشرط المقدر . . . وجواب الشرط الثاني

محذوف دل عليه ما قبله أي: إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله وأصلحوا . . . وأطيعوا .

الصرف:

(الأنفال)، جمع نفل، اسم بمعنى الغنيمة وزنه فعل لفتحتين، ووزن الأنفال أفعال .

الفوائد

1 - مادة (سأل) إذا كان السؤال عن أمور فكرية أو معنوية فيتعدى الفعل بـ " عن " نحو

الآية " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ " أي عن حكمها ، وإذا كانت لطلب



شيء مادي فتعدى لمفعولين : نحو : سألت الكريم معونة للفقراء " .

2- من قصة الأنفال " إصلاح ذات البين " . قال عبادة بن الصامت : نزلت آية الأنفال فينا

- معشر الذين حضروا بدرًا - وقد اختلفنا في قسمة " النفل " ، وهي غنائمنا يوم بدر ،

وقد ساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، وجعله لرسول الله ، فقسمه بالعدل بين

المسلمين ، وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 2 إلى 4]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ  
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

الإعراب :

(163/312)

إِنَّمَا (إنما) كافة ومكفوفة (المؤمنون) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو (الذين) اسم موصول

مبني في محل رفع خبر المبتدأ (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط مبني في محل

نصب متعلق بالجواب وجلت . . (ذكر) فعل ماض مبني للمجهول (الله) لفظ الجلالة نائب

الفاعل مرفوع (وجلت) فعل ماض . . و(التاء) للتأنيث (قلوب) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (إذا تليت . . آياته) مثل ذكر الله ، و(التاء) للتأنيث ، و(الهاء) مضاف إليه (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محل جرّ متعلق بـ (تليت) ، (زادت) مثل وجلت والفاعل ضمير مستتر تقديره هي أي الآيات و(هم) ضمير مفعول به (إيماناً) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (على ربّ) جارّ ومجرور متعلق بـ (يتوكلون) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (يتوكلون) مثل يسألون " 1 " .

---

(1) في الآية (1) من هذه السورة . [ . . . . . ]

(164/312)

---

جملة: " المؤمنون الذين . . . " لا محل لها استئنافية .  
وجملة الشرط وفعله وجوابه لا محل لها صلة الموصول (الذين) .  
وجملة: " ذكر الله " في محل جرّ مضاف إليه .  
وجملة: " وجلت قلوبهم " لا محل لها جواب شرط غير جازم .  
وجملة: " تليت . . آياته " في محل جرّ مضاف إليه .  
وجملة: " زادتهم . . . " لا محل لها جواب شرط غير جازم .

وجملة الشرط الثاني وفعله وجوابه لا محل لها معطوفة على جملة الشرط الأول .  
وجملة : " يتوكلون " لا محل لها معطوفة على جملة الشرط الأول وهي جملة الصلة " 1 " .  
(الذين) بدل من الموصول الأول - أو نعت له - (يقيمون) مثل يسألون " 2 " ، (الصلاة)  
مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ  
متعلق بـ (ينفقون) ، (رزقنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير فاعل و(هم)  
ضمير مفعول به (ينفقون) مثل يسألون " 3 " .  
وجملة : " يقيمون . . . " لا محل لها صلة الموصول (الذين) .  
وجملة : " رزقناهم " لا محل لها صلة الموصول (ما) .  
وجملة : " ينفقون " لا محل لها معطوفة على جملة يقيمون .

---

(1) يجوز قطعها على الاستئناف ، ويجوز نصبها على الحال من مفعول زادتهم .

(2 ، 3) في الآية (1) من هذه السورة .

(165/312)

---

(أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) حرف خطاب (هم) ضمير فصل "  
1 " (المؤمنون) خبر المبتدأ أولئك ، وعلامة الرفع الواو (حقاً) مفعول مطلق مؤكّد لمضمون

المجلد السابقة " 2 " ، (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محل جرّ متعلّق بمحذوف خبر  
مقدّم (درجات) مبتدأ مؤخر مرفوع (عند) ظرف منصوب متعلّق بدرجات بمعنى أجور "  
3 " ، (ربّ) مضاف إليه مجرور و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (مغفرة)  
معطوف على درجات مرفوع ومثله (رزق) ، (كريم) نعت لرزق مرفوع .  
وجملة: " أولئك . . المؤمنون " لا محلّ لها استئناف بياني .  
وجملة: " لهم درجات . . . " في محلّ نصب حال من الضمير المستكنّ في (المؤمنون) .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 5 إلى 6]

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي  
الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6)  
الإعراب :

(الكاف) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (أخرج) فعل ماضٍ و(الكاف) ضمير مفعول به  
(ربّ) فاعل مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (من بيت) جارّ ومجرور متعلّق بـ  
(أخرجك) ، و(الكاف) مثل الأخير (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من  
مفعول أخرجك

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ ثانٍ خبره المؤمنون ، والجملة الاسميّة خبر أولئك .

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفة أي المؤمنون إيماناً حقاً .

(3) أو متعلق بمحذوف نعت لدرجات .

(166/312)

أي متلبساً بالحق " 1 " .

والمصدر المؤول (ما أخرجك) في محل جر بالكاف متعلق بجزء مبتدأ محذوف تقديره الحال

أو قسمتك الغنائم " 2 " .

(الواو) حالية (أن) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (فريقا) اسم إن منصوب (من المؤمنين)

جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لـ (فريقا) ، (اللام) هي المرحلة للتوكيد (كارهون)

خبر إن مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة: " أخرجك ربك . . . " لا محل لها صلة الموصول الحرفي .

وجملة: " إن فريقا . . . كارهون " في محل نصب حال من ضمير المفعول في (أخرجك) .

(1) أو متعلق بفعل أخرجك أي أخرجك بسبب الحق الذي سيظهر .

(2) يجوز أن يتعلق الجار بمحذوف مفعول مطلق أي ثبتت الأنفال ثبوتاً كما أخرجك بالحق

. . . وثمة أوجه أخرى في تعليق الجار وجعلها أبو حيان في البحر خمسة عشر وجهاً منقولة

عن المفسرين منها : - تعليقه بمفعول مطلق عامله أصلحوا أي أصلحوا ذات بينكم  
إصلاحاً كإخراجك من بيتك ، وفيه التفات من خطاب الجماعة إلى خطاب المفرد . ب -  
أو بمفعول مطلق عامله أطيعوا أي أطيعوا الله ورسوله كإخراجك من بيتك بالحق أي طاعة  
محققة . ج - أو بمفعول مطلق عامله يتوكلون أي يتوكلون توكلًا كإخراجك . د - أو هو صفة  
لـ (حقًا) من قولهم هم المؤمنون حقًا أي حقًا كإخراج . . . ه - أو بمفعول مطلق عامله  
كارهون أي هم كارهون كراهية كإخراجك . . .  
وقد ردّ أبو حيان كل ذلك فقال : " . . . وقبل تسطير هذه الأقوال في البحر ولم يلق  
بخطري منها شيء رأيت في النوم أنني أمشي مع رجل أباحثه في الآية فقلت له : ما مرّ بي  
شيء مشكل في القرآن مثل هذا ولعلّ ثم محذوف يصحّ به المعنى وما وقفت فيه لأحد من  
المفسرين على شيء طائل ، ثم قلت له : إن ذلك المحذوف هو نصرك واستحسنتم أنا  
وذلك الرجل هذا التخريج ثم انتهت من النوم وأنا أذكره . . . الخ .

(167/312)

---

(يجادلون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل و(الكاف) ضمير مفعول به (في الحق) جارّ  
ومجرور متعلّق بفعل يجادلون (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ(يجادلون) ، (ما) حرف

مصدرِيّ (تبيّن) فعل ماضٍ ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الحق وهو القتال .

والمصدر المؤول (ما تبيّن . .) في محل جر مضاف إليه .

(كأنما) كافة ومكفوفة (يساقون) مضارع مبني للمجهول مرفوع . .

والواو ضمير في محل رفع نائب الفاعل (إلى الموت) جار ومجرور متعلق بـ (يساقون) ،

(الواو) حالية (هم) ضمير منفصل مبتدأ (ينظرون) مثل يجادلون .

وجملة: " يجادلونك . . . " لا محل لها استنافية " 1 " .

وجملة: " يساقون . . . " لا محل لها استئناف آخر " 2 " .

وجملة: " هم ينظرون " في محل نصب حال من نائب الفاعل .

وجملة: " ينظرون " في محل رفع خبر المبتدأ هم .

البلاغة

التشبيه التمثيلي: في الآية الكريمة . حيث شبه اختصاصه عليه السلام بالأنفال ، وتفويض

أمرها إلى حكمه من حيث الإثابة والجزاء ، بإخراجه من بيته مطيعاً لله تعالى ، سامعاً

لأمره ، راضياً بحكمه ، على كراهة المؤمنين لذلك في الطاعة ، فشبه الله تعالى ثوابه بهذه

المزية بطاعته المرضية ، فكما بلغت طاعته الغاية في نوع الطاعات ، فكذلك بلغت إثابة

الله له الغاية في جنس المثوبات .

(1) يجوز أن تكون حالا من الضمير في كارهون .

(2) يجوز أن تكون حالا ثانية من ضمير كارهون .

(168/312)

---

التشبيه التمثيلي : في هذه الآية الكريمة ، شبه حالهم ، في فرط فزعهم ورعبهم ، وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة ، بحال من يعقل إلى القتل .

الفوائد

3 - اختلاف المعربين حول " كما " لم يبق من النحاة والمفسرين أحد إلا وأدلى بدلوه في إعرابها ، وقد بلغت الآراء قرابة خمسة عشر وجها ، ولولا التطويل لعرضنا عليك جملة آراء النحاة وتقديراتهم ورغم أنها تكاد تخرج من مشكاة واحدة فالذي أشعر بوجاهته أن التشبيه يدور حول موقفين الأول : اختلاف المؤمنين حول توزيع الأنفال ، حتى قال فيه عبادة بن الصامت " وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا " .

والثاني : موقفهم من دعوة الرسول لمقابلة جيش قريش ، وميولهم للقاء العير بدلا من النفير . فالكاف خبر لمبتدأ محذوف . فالتشبيه قائم بين موقفين كلاهما كان ثقيلا على المؤمنين وكانوا له كارهين ، وكأنه سبحانه يقول هذا الحال مثل حال كذا . . وإن كنت من



ذوي الطموحات النحوية فعليك بالمطولات ففيها ما يثلج الصدر وينقع الغليل .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 7 إلى 8]

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (إذ) اسم ظرفي في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكروا  
(يعد) مضارع مرفوع و(كم) ضمير مفعول به (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (إحدى)  
مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على الألف (الطائفتين) مضاف إليه  
مجرور وعلامة الجرّ الياء (أنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(ها) ضمير في محل نصب  
اسم أنّ (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محل جرّ متعلّق بمحذوف خبر أنّ .

(169/312)

---

والمصدر المؤوّل (أنّها لكم) في محل نصب بدل من المفعول الثاني إحدى . . أي يعدكم  
ملكية إحدى الطائفتين (الواو) عاطفة - أو حالية - (تودّون) مضارع مرفوع . . والواو

فاعل (أن) مثل الأول (غير) اسم أن منصوب (ذات) مضاف إليه مجرور (الشوكة) مضاف إليه مجرور (تكون) مضارع تام مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي أي غير ذات الشوكة (لكم) مثل الأول متعلق بـ (تكون) .

والمصدر المؤول (أن غير ذات . . .) في محل نصب مفعول به عامله تودون .

(الواو) عاطفة (يريد) مضارع مرفوع (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (أن) حرف مصدري ونصب (يحق) مضارع منصوب ، والفاعل هو (الحق) مفعول به منصوب .

والمصدر المؤول (أن يحق) في محل نصب مفعول به عامله يريد .

(بكلمات) جارّ ومجرور متعلق بـ (يحق) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (يقطع دابر) مثل يحق الحق ومعطوف عليه (الكافرين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة: " (اذكروا) إذ يعدكم " لا محل لها استئنافية .

وجملة: " يعدكم . . . " في محل جرّ مضاف إليه .

وجملة: " تودون . . . " في محل جرّ معطوفة على جملة يعدكم " 1 " .

---

(1) أو في محل نصب حال من ضمير المفعول في (يعدكم) .

---

وجملة: " تكون لكم " في محل رفع خبر أن .

وجملة: " يريد الله " لا محل لها معطوفة على الاستئنافية .

وجملة: " يحق الحق " لا محل لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة: " يقطع . . . " لا محل لها معطوفة على جملة يحق .

(اللام) لام التعليل (يحق) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل هو أي الله

(الحق) مثل الأول (الواو) عاطفة (يبطل الباطل) مثل يحق الحق ومعطوف عليه (الواو)

حالية (لو) حرف شرط غير جازم (كره) فعل ماض (المجرمون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع

الواو .

والمصدر المؤول (أن يحق . . . ) في محل جر باللام متعلق بفعل محذوف تقديره أمركم

بالقتال .

وجملة: " يحق . . . " لا محل لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمرة .

وجملة: " يبطل . . . " لا محل لها معطوفة على جملة يحق . . .

وجملة: " كره المجرمون " في محل نصب حال من مفعول الأمر ، والرابط مقدر أي ولو كره

المجرمون ذلك . . وجواب الشرط محذوف دل عليه مضمون الكلام السابق أي : لو كره

المجرمون القتال فقد أمركم الله به لإحقاق الحق .

الصرف :

(الشوكة) ، اسم بمعنى القوة والبأس ، وزنه فعلة بفتح الفاء وهو مستعار من واحدة

الشوك .

البلاغة

العموم والخصوص : في قوله تعالى " لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ " بعد قوله

تعالى " يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ " . والتحقيق في التمييز بين الكلامين أن الأول ذكر

الإرادة فيه مطلقه غير مقيدة بالواقعة الخاصة ، كأنه قيل : وتودون أن غير ذات الشوكة

تكون لكم ، ومن شأن الله تعالى إرادة تحقيق الحق وتمحيق الكفر على الإطلاق ، ولإرادته

أن يحق الحق ويبطل الباطل خصكم بذات الشوكة ، فبين الكلامين عموم وخصوص ،

وإطلاق وتقييد . وفي ذلك ما لا يخفى من المبالغة في تأكيد المعنى بذكره على وجهين :

إطلاق ، وتقييد .

[سورة الأنفال (8) : آية 9]

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُّمَدِّدُكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9)

الإعراب :

(171/312)

---

(إذ) بدل من (إذ يعدكم) في محل نصب " 1 " ، (تستغيثون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (ربّ) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (استجاب) فعل ماض ، والفاعل هو (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (استجاب) ، (أني) حرف مشبّه بالفعل واسمه (مدّ) خبر مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (بألف) جارّ ومجرور متعلّق باسم الفاعل (مدّ) (من الملائكة) جارّ ومجرور نعت لألف (مردفين) حال من ألف منصوبة وعلامة النصب الياء .

والمصدر المؤوّل (أني مدّكم) في محلّ جرّ مجرّف جرّ محذوف تقديره بأني مدّكم متعلّق بـ (استجاب) .

جملة: " تستغيثون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: " استجاب " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تستغيثون .

---

(1) أو متعلّق بفعل تودّون .

(172/312)

---

الصرف :

(استجاب) ، الألف منقلبة عن واو ، أصله استجوب ، جاءت الواو متحركة بعد فتح

قلبت الفاء ، وزنه استفعل " 1 " .

(ممدكم) ، اسم فاعل من أمدّ الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين ، وقد نقلت

كسرة العين إلى الحرف الذي قبله لمناسبة التضعيف .

(مردفين) ، جمع مردف ، اسم فاعل من أردف الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر

العين .

الفوائد

1 - إذ : ظرف لما مضى من الزمان وقد مرّ معنا ما يستفاد من مجته فعد إليه في مآانه .

2 - من التاريخ :

دعا محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين لاعتراض قافلة قريش العائدة من الشام ،

وعلم بذلك أبو جهل ، فندب قريشا لحمايتها فنفروا لذلك . وكان أبو سفيان على رأس

القافلة ، فانحاز بها إلى طريق الساحل ، ونجا بها . وعلم أبو جهل بذلك . ولكنه ركب

رأسه ، وأبى إلا أن يبلغ ماء بدر ، وينحر الجزور ويشرب الخمر .

وعند ما بلغ محمداً خروج قريش ، استشار أصحابه من مهاجرين وأنصار ، وقرّ الرأي

على مقابلة جيش المشركين .

ففرح محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقال : سيروا على بركة الله ، فإن الله وعدني  
إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم . وكانت وقعة بدر ، وهزم الله

(1) الألف والسين والتاء في الفعل زائدة دون الدلالة على شيء ، بعكس ذلك في

تستغيثون فهي زائدة للطلب .

(173/312)

المشركين . وقتل المسلمون منهم سبعين وأسروا سبعين ، وحديث بدر يطول . وقد  
اجتزأنا منه هذه القصاصة .

[سورة الأنفال (8) : آية 10]

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

(10)

" 1 "

الإعراب :

(الواو) استئنافية (ما) حرف نفى (جعل) فعل ماضٍ و(الهاء) ضمير مفعول به (الله) لفظ

الجلالة فاعل مرفوع (إلا) أداة حصر (بشرى) مفعول به ثانٍ منصوب " 2 " وعلامة النصب

الفتحة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (تطمئنّ) مضارع منصوب بأن  
مضمرة بعد اللام (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تطمئنّ) ،  
(قلوب) فاعل مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه .  
والمصدر المؤوّل (أنّ تطمئنّ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره هيأ أو فعل أو  
يسرّ " 3 " .

(الواو) استئنافية (ما) نافية مهملة (النصر) مبتدأ مرفوع (إلا) مثل الأولى (من عند) جارّ  
ومجرور خبر المبتدأ (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (إنّ) حرف مشبّه بالفعل -  
ناسخ - (الله) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (عزيز) خبر إنّ مرفوع (حكيم) خبر ثان  
مرفوع .  
جملة: " جعله الله . . . " لا محلّ لها استئنافية .

---

(1) انظر اعراب هذه الآية أيضا في سورة (آل عمران) ، الآية (126) .

(2) أو مفعول لأجله ، والفعل متعدّ لواحد . [ . . . . ]

(3) يجوز عطفه على (بشرى) - بكونه مفعولا لأجله - وقد جرّ باللام لاختلال شرط

النصب .

(174/312)



وجملة: "تطمئن به قلوبكم" لا محل لها صلة الموصول الحرقى (أن) المضمر .

وجملة: "ما النصر إلا من عند الله" لا محل لها استئنافية .

وجملة: "إن الله عزيز . . ." لا محل لها تعليلية .

[سورة الأنفال (8) : آية 11]

إذ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11)

الإعراب:

(إذ يغشئكم) مثل إذ يعدكم " 1 " ، والفاعل هو أي الله (النعاس) مفعول به ثان منصوب  
(أمنة) حال منصوبة من الفاعل " 2 " ، (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محل جرّ متعلق  
بأمنة (الواو) عاطفة (ينزل) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (على) حرف جرّ و(كم) ضمير  
في محل جرّ متعلق بـ(ينزل) ، (من السماء) جارّ ومجرور متعلق بـ(ينزل) ، (ماء) مفعول به  
منصوب (ليطهّر) مثل لتطمئن " 3 " ، والفاعل هو و(كم) ضمير مفعول به (به) مثل منه  
متعلق بـ(يطهّر كم) .

والمصدر المؤول (أن يطهّر كم) في محل جرّ باللام متعلق بـ(ينزل) .

(الواو) عاطفة (يذهب) مثل يطهّر ومعطوف عليه (عنكم) مثل عليكم

---

(1) في الآية (7) من هذه السورة .

(2) أو من المفعول الأول أي ذوي أمان على حذف مضاف . . ويجوز أن يكون مفعولا لأجله .

(3) في الآية (1) السابقة .

(175/312)

---

متعلق بـ (يذهب) ، (رجز) مفعول به (الشيطان) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة  
(يربط) مثل ليطهر (على قلوب) جارّ ومجرور متعلق بـ (يربط) و(كم) ضمير مضاف إليه .  
والمصدر المؤول (أن يربط) في محلّ جرّ باللام متعلق بـ (يغشّيكُم أو ينزل) .  
(الواو) عاطفة (يثبت) مضارع منصوب معطوف على (يربط) ، والفاعل هو (به) مثل منه  
متعلق بـ (يثبت) ، (الأقدام) مفعول به منصوب .  
جملة: " يغشّيكُم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .  
وجملة: " ينزل . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يغشّيكُم .  
وجملة: " يطهركم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرقى (أن) المضمرة .  
وجملة: " يذهب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرقى .

وجملة: "يربط" . . . "لا محل لها صلة الموصول الحرفي (أن) الثاني .

وجملة: "يثبت" . . . "لا محل لها معطوفة على جملة يربط .

[سورة الأنفال (8): الآيات 12 إلى 13]

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13)

الإعراب:

(إذ) بدل من الأول " 1 " ، (يوحى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء

(ربّ) فاعل مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (إلى الملائكة) جارٌّ ومجرور متعلق بـ

(يوحى) ، (أنّ) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - و(الياء) ضمير في محل نصب اسم أنّ (مع)

ظرف منصوب متعلق بمحذوف خبر أنّ و(كم) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤول (أنّي معكم) في محل جرٍّ مجرّف جرّ محذوف أي بأنّي معكم . . . متعلق بـ

(يوحى) .

(176/312)

(الفاء) رابطة لجواب مقدر (ثبتوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل  
(الذين) اسم موصول مبني في محل نصب مفعول به (آمنوا) فعل ماض وفاعله ، (السين)  
حرف استقبال (ألقي) مثل يوحى ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (في قلوب) جار  
ومجرور متعلق بـ (ألقي) ، (الذين) موصول في محل جر مضاف إليه (كفروا) مثل آمنوا  
(الرعب) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (اضربوا) مثل ثبتوا (فوق) ظرف مكان  
منصوب متعلق بفعل اضربوا ، ومفعول اضربوا محذوف تقديره اضربوهم " 2 " ،  
(الأعناق) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (اضربوا) مثل ثبتوا (من) حرف جرّ و(هم)  
ضمير في محل جرّ متعلق بحال من كل بنان (كل) مفعول به منصوب (بنان) مضاف إليه  
مجرور .

جملة: " يوحى ربك " في محل جرّ مضاف إليه .

وجملة: " ثبتوا " . . . جواب شرط مقدر أي إن بدأ القتال فثبتوا . . .

---

(1) في الآية (11) من هذه السورة ويجوز أن يكون متعلقاً بـ (يثبت) .

(2) أجاز بعضهم نقل (فوق) عن الظرفية وجعلها مفعولاً على السعة ، وقد ردّ ذلك أبو

حيان .

---

وجملة: " آمنوا . . . " لا محل لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة: " سألقي " لا محل لها تفسير لقوله أني معكم . . . أو اعتراض بين متعاطفين .

وجملة: " كفروا . . . " لا محل لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة: " اضربوا . . . " في محل جزم معطوفة على جملة ثبتوا .

وجملة: " اضربوا (الثانية) " معطوفة على جملة اضربوا (الأولى) .

(ذا) اسم إشارة مبني في محل رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الباء) حرف جرّ للسببية (أن) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(هم) ضمير في محل نصب اسم أن (شاقوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (رسول) معطوف بالواو على لفظ الجلالة منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه . والمصدر المؤول (أنهم شاقوا . . . ) في محل جرّ بالباء متعلق بخبر المبتدأ ذلك . . أي ذلك العذاب أو العقاب بسبب مشاققتهم لله تعالى ورسوله (الواو) استئنافية (من) اسم شرط جازم مبني في محل رفع مبتدأ (يشاقق) مضارع مجزوم ، وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على من (الله) لفظ الجلالة مثل السابق وكذلك (رسوله) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط " 1 " ، (إن) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (الله) لفظ الجلالة اسم إن منصوب (شديد) خبر مرفوع (العقاب) مضاف إليه مجرور .

---

(1) أوهي تعليلية عند من يجعل الجزاء محذوفاً ، فالجملة بعدها تعليل لهذا الجزاء أي :  
من يشاقق الله ورسوله يعاقبه فإن الله شديد العقاب .

(178/312)

---

وجملة: " ذلك بأنهم . . . " لا محل لها تعليلية لمضمون العذاب المتقدم .

وجملة: " شاقوا . . . " في محل رفع خبر أن .

وجملة: " من يشاقق . . . " لا محل لها استئنافية .

وجملة: " يشاقق . . . " في محل رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " وجملة: " إن الله شديد

. . . " في محل جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الصرف :

(الأعناق) ، جمع عنق اسم للعضو المعروف ، وزنه فعل بضم الفاء وضم العين أو سكونها  
وهو مذكور ومؤنث .

(بنان) ، اسم جامد لأطراف الأصابع أو الأصابع ، وزنه فعال بفتح الفاء واحده بنانة .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى " وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ " الكلام مجازي في تسمية الكل باسم الجزء .

فالبنان الإصبع ، عبّر بالجزء وهو الإصبع ، وأراد الكل وهو الأيدي والأرجل . فالعلاقة

جزئية .

الفوائد

- من خصائص اللغة العربية تسهيل النطق ولذلك فقد اصطلح العرب على أمور كلها

وسيلة لهذه الغاية منها " الإدغام " وهو على ثلاثة أقسام :

أ- واجب : وهو عند ما يتحرك المثلان معا ، وذلك بشروط ، قد تبلغ أحد عشر شرطا

، لا يتسع نهج الكتاب لتفصيلها ، نحو " مدّ " أصلها مدد ، وملّ وحبّ إلخ .

ب - جائز : يجوز الإدغام في ثلاث مسائل (الأولى) إذا كان الفعل ماضيا وقد افتتح بتاءين

مثل : تتبّع وتتابع جاز بهما الإدغام ، ويتوسّل للنطق به

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملي الشرط والجواب معا .

(179/312)

---

ياضافة همزة الوصل ، فيقال : اتبّع واتبّع . (والثانية والثالثة) أن تكون الكلمة فعلا

مضارعا مجزوما ، أو فعل أمر مبنيّا على السكون ، فيجوز فيه الفكّ والإدغام ، كفعل

يشاقق من الآية المنوّه بها .

ب - ويمتنع الإدغام إذا تحرك أحد المثليين، الأول أو الثاني، أو كان الأول هاء سكت، أو مدّة في الآخر، أو همزة منفصلة.

[سورة الأنفال (8): آية 14]

ذِكْرُكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14)

الإعراب:

(ذلكم) مثل المتقدم " 1 "، والخبر محذوف تقديره واقع أو مستحق " 2 "، (الفاء) عاطفة " 3 "، (ذوقوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (أنّ) مثل السابق " 4 " . (للكافرين) جارّ ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم لأنّ (عذاب) اسم أنّ مؤخر منصوب (النار) مضاف إليه مجرور .  
جملة: " ذلكم واقع " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة: " ذوقوه " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدر أي تنبّهوا فذوقوه . .  
والمصدر المؤوّل (أنّ للكافرين عذاب . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره المحتمّ أو الواجب . . أو في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره محتمّ أي استقرار عذاب النار للكافرين محتمّ " 5 " .

---

(1) في الآية السابقة (13) .

(2) يجوز أن يكون (ذلك) خبراً لمبتدأ محذوف تقديره الأمر أو العقاب .



(3) هي جواب لأمر مقدر عند أبي حيان أي تنبها فذوقوه .

(4) في الآية السابقة (13) .

(5) ويجوز أن يكون في محل نصب مفعولا به لفعل محذوف تقديره اعلما .

(180/312)

---

وجملة المصدر المؤول - المبتدأ والخبر - لا محل لها معطوفة على الاستئنافية الأولى .

البلاغة

الالتفات : في الآية الكريمة ، حيث أن الخطاب فيها مع الكفرة على طريق الالتفات من

الغيبة .

الفوائد

1 - " ذلكم " :

معروف لدى جميع النحاة أن " ذا " هو اسم إشارة وأن اللام للبعد ، وأن الكاف حرف

خطاب . والذي نريد أن نوضحه أن اسم الإشارة " ذلك " يتبع دائما بحرف يناسب

المخاطب من أفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث فتقول : ذلك للمفرد وذلكما لامثنى

وذلكم لجمع الذكور ، وذلكن لجمع الإناث ، وفي بحث اسم الإشارة تفصيل وتوضيح

تجاوزناه تمشياً مع نهجنا بهذا الكتاب .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 15 إلى 16]

(181/312)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ (15) وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدْ  
دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَنَسِ الْمَصِيرُ  
(16)

الإعراب :

(يا) أداة نداء (أي) منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب و(ها) للتنبية  
(الذين) اسم موصول مبني في محل نصب بدل من أي أو نعت (آمنوا) فعل ماض مبني على  
الضم . . . والواو فاعل (إذا) ظرف شرطي للمستقبل مبني في محل نصب متعلق بمضمون  
الجواب (لقيتم) فعل ماض مبني على السكون . . . و(تم) ضمير فاعل (الذين) موصول  
مفعول به (كفروا) مثل آمنوا (زحفا) مصدر في موضع الحال من الضمير المفعول في (لقيتم) ،  
أو من ضمير الفاعل ، أو منهما

معاً " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) ناهية جازمة (تولوا) مضارع مجزوم وعلامة

الجزم حذف النون . . . والواو فاعل و(هم) ضمير مفعول به أوّل (الأدبار) مفعول به ثان منصوب .

جملة النداء " يا أيها الذين . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة: " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " لقيتم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة الشرط وفعله وجوابه لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة: " كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة: " لا تولّوهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(182/312)

---

(الواو) عاطفة (من يولّ) مثل من يشاقق ، وعلامة الجزم حذف حرف العلة و(هم) ضمير مفعول به (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يولّ) " 2 " ، (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ جرّ مضاف إليه " 3 " ، (دبر) مفعول به ثان منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إلا) حرف للاستثناء (متحرّفاً) منصوب على الاستثناء من حال عامّة مقدّرة " 4 " ، (نقتال) جارّ ومجرور متعلّق باسم الفاعل متحرّف (أو) حرف عطف (متحيّزا) معطوف على

(متحرِّفاً) منصوب (إلى فئة) جارٌّ ومجرور متعلق بـ (متحيزاً) ، (الفاء)

(1) أو مفعول مطلق لحال محذوفة أي زاحفين زحفاً . [ . . . . . ]

(2) يجوز ان يكون مبنيًا لأنه أضيف إلى ظرف مبني وهو (إذ) .

(3) التنوين هنا تنوين عوض ، فهو عوض من جملة محذوفة أي يوم إذ لقيتموهم .

(4) أي ومن يولِّهم ملتبسا بأية حالٍ إلا متحرِّفاً . . . وإن لم يقدر ذلك لم يصح دخول (إلا)

لأن الشرط موجب لا منفي . . وبعضهم يجعل (متحرِّفاً) مستثنى من المولِّين أي ومن يولِّهم

. . إلا رجلاً متحرِّفاً قاله الزمخشري .

(183/312)

رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (باء) فعل ماض ، والفاعل هو (بغضب) جارٌّ

ومجرور متعلق بمجال من الفاعل أي ملتبسا أو مصحوبا بغضب (من الله) جارٌّ ومجرور

متعلق بنعت لغضب (الواو) عاطفة (ماوى) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة

على الألف و(الهاء) ضمير مضاف إليه (جهنم) خبر مرفوع ، (الواو) عاطفة (بئس) فعل

ماض جامد لإنشاء الذم (المصير) فاعل مرفوع . . والمخصوص بالذم محذوف تقدير

جهنم .

وجملة: " من يولهم . . . " لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة: " يولهم . . . " في محل رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة: " قد باء بغضب " في محل جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة: " ماواه جهنم " في محل جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة: " بس المصير " لا محل لها استنافية .

الصرف :

(زحفا) ، مصدر سماعي لفعل زحف الثلاثي ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(تولوا) فيه إعلال بالحذف ، أصله توليوا بضم الياء ، استثقلت الضمة على الياء فنقلت

حركتها إلى الحرف قبلها ، فلما اجتمع ساكنان حذفت الياء لام الكلمة فأصبح تولوا وزنه

تفعوا .

(يولهم) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، أصله يوليهم ، وزنه يفعهم .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملي الشرط والجواب معا .

(184/312)

(متحرّفاً) ، اسم فاعل من تحرّف الخماسيّ فوزنه متفعل بضم الميم وكسر العين .

(متحيّزا) اسم فاعل من تحيّر الخماسي فوزنه متفعل بضم الميم وكسر العين ، وفيه إعلال

لأن أصله متحيوز ، اجتمعت الياء والواو والأولى منهما ساكنة قلبت الواو إلى ياء

وأدغمت مع الياء الأولى .

(باء) ، فيه إعلال بالقلب إذ الألف أصلها واو مضارعة بيوء ، وأصله بوا ، جاءت الواو

متحركة بعد فتح قلبت الفاء .

### البلاغة

فن التعريض : في قوله تعالى : " وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرُهُ " ، فقد ذكر لهم حالة تستهجن من

فاعلها ، فأتى بلفظ الدبر دون الظهر . وبعضهم يدخله في ضمن الكناية .

قال السعد التفتازاني : " الكناية إذا كانت عرضية مسوقة لأجل موصوف غير مذكور كان

المناسب أن يطلق عليها اسم التعريض ، فقال عرضت لفلان وعرضت بفلان ، إذا قلت

قولا وأنت تعنيه ، فكأنك أشرت إلى جانب وتريد جانبا آخر ، ومنه المعارض في الكلام ،

وهي التورية بالشيء عن الشيء .

[سورة الأنفال (8) : آية 17]

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً

حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17)

الإعراب :

(185/312)

(الفاء) عاطفة (لم) حرف نفي وقلب وجزم (تقتلوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل و(هم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف مشبّه بالفعل للاستدراك - ناسخ -

(الله) لفظ الجلالة اسم لكنّ منصوب (قتل) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الواو) عاطفة (ما) نافية (رمى) فعل ماض مبني على السكون . . . و(التاء) فاعل (إذا) ظرف للزمن الماضي مبني في محل نصب متعلق بـ (رمى) قبله (رمى) مثل الأول (الواو) عاطفة (لكنّ الله رمى) مثل لكنّ الله قتل (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (يبلي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل هو (المؤمنين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (من) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محل جرّ متعلق بـ (يبلي) ، (بلاء) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر لأنه اسم مصدر (حسنا) نعت لبلاء منصوب .

والمصدر المؤول (أن يبلي) في محل جر باللام متعلق بفعل محذوف تقديره فعل ذلك أي القتل والرمي " 1 " .

(إن) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (الله) لفظ الجلالة اسم إن منصوب (سميع) خبر مرفوع (عليم) خبر ثان مرفوع .

جملة : " لم تقتلوهم ) لا محل لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تفاخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم .

وجملة : " لكنّ الله قتلهم " لا محل لها معطوفة على جملة لم تقتلوهم .

وجملة : " قتلهم " في محل رفع خبر لكنّ .

وجملة : " ما رميت " لا محل لها معطوفة على جملة لم تقتلوهم .

وجملة : " رميت (الثانية) " في محل جر مضاف إليه .

وجملة : " لكنّ الله رمى " لا محل لها معطوفة على جملة ما رميت .

---

(1) وجملة الفعل المقدّرة معطوفة على جملة الاستدراك : لكنّ الله رمى .

(186/312)

---



وجملة: "رمى" في محل رفع خبر لكن (الثاني).

وجملة: "يلبي" . . . "لا محل لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر.

وجملة: "إن الله سميع" لا محل لها استنافية فيها معنى التعليل.

## البلاغة

فن الاستدراك والرجوع: وهو الكلام المشتمل على لفظة لكن، وذلك في قوله تعالى "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى" فقد أتى الاستدراك في هذه الكلمات في موضعين، كل منهما مرشح للتعطف، فإن لفظة تقتلوهم وقتلهم، ورمىيت هذه الكلمات في موضعين، كل منهما مرشح للتعطف، فإن لفظة تقتلوهم وقتلهم، ورمىيت ورمى، تعطف. وهذا أقرب استدراك وقع في الكلام لتوسط حرفه بين لفظي العطف في الموضعين.

## الفوائد

1 - قوله تعالى: " وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى " .

حدثنا التاريخ أن أبي بن خلف أخذ يدفع بفرسه حتى دنا من رسول الله / صلى الله عليه وآله وسلم / وقد اعترضه رجال من المسلمين ليقتلوه، فقال لهم رسول الله / صلى الله عليه وآله وسلم / استأخروا، فاستأخروا، فأخذ رسول الله حربته في يده، فرمى بها أبي بن خلف، وكسر ضلعا من أضلاعه، فرجع أبي مع أصحابه ثقيلًا، فاحتملوه حين ولوا قافلين، فظفقوا يقولون: لا بأس، فقال أبي حين قالوا له ذلك: والله لو كانت بالناس لقتلتهم

، ألم يقل : إني أقتلك إن شاء الله فانطلق به أصحابه ينعشونه ، حتى مات ببعض الطريق  
فدفنوه

، قال ابن المسيب وفي ذلك أنزل الله " وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ " الخ .  
لكن - حرف مشبّه بالفعل ينصب الاسم ويرفع الخبر . معنى لكن الاستدراك  
والتوكيد : فالاستدراك والتوكيد . فالاستدراك مثل : خالد كريم لكنه جبان .  
والتوكيد ، مثل : لوزارني خليل لأكرمه لكنه لم يزرني .

[سورة الأنفال (8) : آية 18]

ذِكْرُكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18)

الإعراب :

(187/312)

---

(ذلكم) اسم إشارة مبني في محل رفع مبتدأ ، خبره محذوف تقديره حق " 1 " ، و(اللام)  
للبعد ، و(الكاف) حرف خطاب ، و(الميم) حرف لجمع الذكور (الواو) عاطفة (أن)  
حرف مشبّه للفعل - ناسخ - (الله) لفظ الجلالة اسم أن منصوب (موهن) خبر مرفوع  
كيد) مضاف إليه مجرور (الكافرين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

والمصدر المؤول (أن الله موهن . . .) في محل رفع مبتدأ ، خبره محذوف تقديره حق " 2 "

جملة : " ذلكم (حق) " لا محل لها استئنافية .

وجملة المصدر المؤول وخبره لا محل لها معطوفة على الاستئنافية أي ذلكم الإبلاء حق

وتوهين كيد الكافرين حق .

الصرف :

(موهن) ، اسم فاعل من أوهن الرباعيّ وزنه مفعل بضم الميم وكسر العين .

- 19

[سورة الأنفال (8) : آية 19]

إِنْ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ نَتَيْتُهَا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ  
فِتْنُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره (الأمر) ذلكم .

(2) وقال الزمخشريّ هو معطوف على (ليبلي) في محل جرّ . . وقال العكبريّ هو خبر

لمبتدأ محذوف تقديره الأمر إن الله موهن . . .

(188/312)

## الإعراب :

(إن) حرف شرط جازم (تستفتحوا) فعل مضارع مجزوم فعل الشرط ، وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (جاء) فعل ماض و(كم) ضمير مفعول به (الفتح) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (إن تنتهوا) مثل إن تستفتحوا (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هو) ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ (خير) خبر مرفوع (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (خير) (الواو) عاطفة (تعودوا) مثل تستفتحوا (نعد) مضارع مجزوم جواب الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (الواو) عاطفة (لن) حرف نفي ونصب (تغني) مضارع منصوب (عنكم) مثل لكم متعلّق بـ (تغني) بتضمينه معنى تدفع (فئة) فاعل مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (شيئاً) مفعول به منصوب بتضمين الفعل معنى تدفع أي شيئاً من الضرر " 1 " ، (الواو) حالية (لو) حرف شرط غير جازم (كثرت) فعل ماض و(التاء) للتأنيث ، والفاعل هي أي فتكم (الواو) عاطفة أو استئنافية (أنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (الله) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر أنّ (المؤمنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

والمصدر المؤوّل (أنّ الله مع المؤمنين) في محلّ جرّ مجرّف جرّ محذوف هو اللام متعلّق بفعل

محذوف تقديره فعل كذا وكذا لأن الله . . . " 2 " .

- 
- (1) يجوز أن يحمل الفعل معنى تنفع أو تجدي ، فيعرب (شيئاً) مفعولاً مطلقاً نائباً عن المصدر أي لا تغني عنكم فتتكم أي إغناء أو شيئاً من الإغناء .
- (2) يجوز أن يكون المصدر المؤول خبراً مبتدأ محذوف تقديره : الأمر أن الله مع المؤمنين . . . والجملة الاسمية لا محل لها استنافية .

(189/312)

- 
- جملة : " ان تستفتحوا . . . " لا محل لها استنافية .
- وجملة : " قد جاءكم الفتح " في محل جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .
- وجملة : " إن تنهوا . . . " لا محل لها معطوفة على الاستنافية .
- وجملة : " هو خير لكم " في محل جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .
- وجملة : " إن تعودوا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة الاستئناف .
- وجملة : " نعد " لا محل لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .
- وجملة : " لن تغني عنكم فتتكم " لا محل لها معطوفة على الاستنافية .
- وجملة : " كثرت " في محل نصب حال من فتتكم " 1 " .

وجملة: " (فعل كذا) المقدرة " لا محل لها معطوفة على جملة لن تعني .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 20 إلى 23]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ  
قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ  
(22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)

الإعراب :

(يا) حرف نداء (أي) منادى نكرة مقصودة مبني على

(1) وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله وهو قوله لن تعني عنكم فتكم .

(190/312)

الضمّ في محل نصب و(ها) حرف تنبيه (الذين) اسم موصول مبني في محل نصب بدل من أيّ

أو نعت له (آمنوا) فعل ماض مبني على الضمّ . . . والواو فاعل (أطيعوا) فعل أمر مبنيّ

على حذف النون . . . والواو فاعل (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة

(رسول) معطوف على لفظ الجلالة منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة

(لا) ناهية جازمة (تولوا) مضارع مجزوم محذوف منه إحدى التاءين ، وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (عن) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تولوا) ، (الواو) حالّية (أتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (تسمعون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة: " يأيها الذين . . . لا محلّ لها استنافية .

(191/312)

وجملة: " آمنوا . . . لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " أطيعوا . . . لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة: " لا تولّوا " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة: " أنتم تسمعون " في محلّ نصب حال من فاعل تولّوا .

وجملة: " تسمعون " في محلّ رفع خبر المبتدأ أنتم .

(الواو) عاطفة (لا) مثل الأولى (تكونوا) مضارع ناقص - ناسخ - مجزوم وعلامة الجزم

حذف النون . . . والواو ضمير في محلّ رفع اسم تكون (الكاف) حرف جرّ (الذين)

موصول في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر تكونوا (قالوا) مثل آمنوا (سمعنا) فعل ماض

وفاعله (الواو) حالية (هم) لا يسمعون) مثل أتم تسمعون . . . و(لا) نافية .

وجملة: " لا تكونوا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة لا تولوا .

وجملة: " قالوا . . . " لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " سمعنا . . . " في محل نصب مقول القول .

وجملة: " هم لا يسمعون " في محل نصب حال من فاعل سمعنا .

وجملة: " لا يسمعون) في محل رفع خبر المبتدأ (هم) .

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (شرّ) اسم إن منصوب (الدوابّ) مضاف إليه مجرور

(عند) ظرف منصوب متعلق باسم التفضيل شرّ (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور

(الصمّ) خبر إنّ مرفوع (البكم) خبر ثان مرفوع (الذين) موصول في محل رفع نعت للصمّ

البكم (لا يعقلون) مثل لا يسمعون .

وجملة: " إنّ شرّ الدوابّ . . . الصمّ " لها محل لها في حكم التعليل .

وجملة: " لا يعقلون " لا محل لها صلة الموصول (الذين) .



(الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (علم) فعل ماضٍ (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (في) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (علم) " 1 " ، (خييراً) مفعول به منصوب (اللام) واقعة في جواب أو (أسمع) فعل ماضٍ و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (لو) مثل الأول (أسمعهم) مثل الأولى (اللام) مثل الأول (تولّوا) مثل آمنوا (وهم) مثل الأول (معرضون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .  
وجملة: " لو علم الله . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ شرّ الدوابّ .  
وجملة: " أسمعهم " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) أو بمحذوف حال من (خييراً) .

(193/312)

---

وجملة: " لو أسمعهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لو علم الله .

وجملة: " تولّوا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط الثاني .

وجملة: " هم معرضون " في محلّ نصب حال من فاعل تولّوا .

الصرف:

(شر) ، اسم تفضيل من الثلاثي شرّ يشرب باب نصر و ضرب و فتح ، وقد حذفت فيه الهمزة تخفيفا ، وقد يقال أشر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

الفوائد

1 - قوله تعالى : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ . هو ضرب من فن التمثيل لأنه أبلغ للقلوب ، وأقدر على الهجوم على العقول . وقد مر معنا التنويه بهذا الفن ومقامه في القرآن الكريم .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 24 إلى 25]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25)

الإعراب :

(194/312)

---

(يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (لله) جارّ ومجرور متعلق بـ (استجيبوا) ، (الواو) عاطفة (لِلرَّسُولِ) مثل لله (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى

الشرطي في محلّ نصب متعلّق بالجواب ، (دعا) فعل ماضٍ مبنيّ على الفتح المقدّر على  
الألف و(كم)

(1) في الآية (20) من هذه السورة .

(195/312)

ضمير مفعول به والفاعل أي الرسول - والاستجابة للرسول استجابة لله - (اللام) حرف  
جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (دعاكم) ، (يحيي) مضارع . مرفوع  
وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و(كم) مثل المتقدّم ، والفاعل هو وهو العائد (الواو)  
عاطفة (اعلموا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (أنّ) حرف مشبّه  
بالفعل - ناسخ - (الله) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (يجول) مضارع مرفوع ، والفاعل هو  
(بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (يجول) ، (المرء) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (قلب)  
معطوف على المرء مجرور و(الهاء) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أنّ الله يجول . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي اعلموا .

(الواو) عاطفة (أنّ) مثل الأول و(الهاء) ضمير يعود إلى الله تعالى " 1 " في محلّ نصب اسم

أنَّ (الى) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (تحشرون) وهو مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . . والواو نائب الفاعل .

والمصدر المؤوّل (أنّه إليه تحشرون) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأوّل .

جملة النداء: " يا أيها الذين . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة: " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " استجيبوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

---

(1) يجوز أن يكون الضمير هو ضمير الشأن .

(196/312)

---

وجملة: " دعاكم " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي: فاستجيبوا له .

وجملة: " يحييكم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: " اعلموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استجيبوا .

وجملة: " يحول . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة: " تحشرون " في محلّ رفع خبر أنّ (الثاني) .

(الواو) عاطفة (أتقوا) مثل اعلّموا (فتنة) مفعول به منصوب على حذف مضاف أي  
سبب فتنة (لا) نافية (تصيين) مضارع مبني على الفتح في محل رفع لتجرّده عن الناصب  
والجازم . . و(النون) للتوكيد " 1 " ، (الذين) موصول مبني في محل نصب مفعول به  
(ظلموا) فعل ماض مبني على الضم . . والواو فاعل (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محل  
جرّ متعلق بمحذوف حال من ضمير الفاعل في (ظلموا) ، (خاصّة) حال منصوبة من  
فاعل تصيين العائد على فتنة أي مختصّة بهم ، أو من ضمير ظلموا أي مختصين بهذه  
الإصابة " 2 " ، (الواو) عاطفة (اعلموا أنّ الله) مثل

---

(1) لا يقرّ البصريون جواز توكيد المضارع المسبوق بـ (لا) النافية ، ويؤوّلون مثل هذه الآية  
أنّ الفعل هو جواب لقسم مقدّر ، والجملة لا محلّ لها ، وهذا القسم نعت لفتنة ، والفعل هنا  
مؤكّد للضرورة . . هذا الكلام تأباه النصوص العربيّة العالية الأسلوب كالقرآن ، إذ يجوز  
تأكيد الفعل المنفيّ بـ (لا) . هذا . . ويجعل بعضهم الفعل في محلّ جزم بـ (لا) الناهية ،  
والكلام محمول على المعنى أي لا تدخلوا في الفتنة ، فإنّ من يدخل فيها ينزل عليه جزاء عام  
. . والجملة في محلّ نصب مقول القول لمقدّر هو نعت لفتنة أي : فتنة مقولا فيها لا تصيين  
. . . والنهي في اللفظ للمصيبة وفي المعنى للمخاطبين . [ . . . . . ]  
(2) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر بكونه صفة له أي إصابة خاصّة .

الأولى (شديد) خبر أن مرفوع (العقاب) مضاف إليه مجرور .  
وجملة: " اتقوا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة استجبوا .  
وجملة: " لا تصيبن . . . " في محل نصب نعت لفتنة .  
وجملة: " اعلموا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة اتقوا .  
والمصدر المؤول (أن الله شديد العقاب) في محل نصب سد مسد مفعولي اعلموا .

الصرف:

(خاصة) ، اسم ضد عامة أو هو ما يشمل فئة دون أخرى وزنه فاعلة وعينه ولامه من

حرف واحد .

البلاغة

المجاز: في قوله تعالى " وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ " فهو مجاز عن غاية القرب من  
العبد ، لأن من فصل بين شيئين ، كان أقرب إلى كل منهما من الآخر ، لاتصاله بهما وانفصال  
أحدهما عن الآخر وظاهر كلام كثير أن الكلام من باب الاستعارة التمثيلية ، ويجوز أن  
يكون هناك استعارة تبعية ، فمعنى يحول يقرب ، ولا بعد في أن يكون من باب المجاز المرسل

المركب لاستعماله في لازم معناه وهو القرب .

الفوائد

1 - اختلف النحاة حول " لا " في قوله تعالى " لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً " .

بين كونها نافية أو ناهية . وتشعب الخلاف فيما بينهم مما نحن في غنى عن ذكره .

ونحن نرجح ما تؤيده السليقة العربية ، ويهجم فهمه على ذوي الألباب ، دون

الرجوع إلى التحوير والتقدير . " فلا " نافية ، ومفهوم الجملة لدى كل من يسمعها مبرءاً من

التكليف والتمحل ، أن الفتنة إذا وقعت لا تصيب الظالمين وحدهم ، إنما تصيب المتقين

معهم ، وليست قصة تلك المدينة التي أخبر الله أنه سيهلك أهلها جميعاً بسبب سبعين

رجلاً فسقوا عن أمر ربهم فيها . أقول ، ليست قصة تلك المدينة بعيدة عنا ، وقد مر معنا

ذكرها .

[سورة الأنفال (8) : آية 26]

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَاكُمُ وَيَأْخُذَكُمْ

بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26)

الإعراب :

(198/312)

---

(الواو) استئنافية (اذكروا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (إذ) اسم ظرفي مبني في محل نصب مفعول به عامله اذكروا " 1 " ، (أنتم) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ (قليل) خبر مرفوع ، (مستضعفون) خبر ثان مرفوع وعلامة الرفع الواو (في الأرض) جارٌّ ومجرور متعلق بـ (مستضعفون) ، (تخافون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (أن) حرف مصدري ونصب (يتخطف) مضارع منصوب و(كم) ضمير مفعول به (الناس) فاعل مرفوع .

والمصدر المؤول (أن يتخطفكم الناس) في محل نصب مفعول به .

---

(1) هذا رأي الزمخشري وقد رده أبو حيان فقال : فيه التصرف في إذ بنصبها مفعولة وهي من الظروف التي لا تتصرف إلا بأن أضيف إليها الأزمان . . . اهـ . وقال ابن عطية (إذ) ظرف لمعمول الفعل اذكروا تقديره : واذكروا حالكم الكائنة أو الثابتة إذ أنتم قليل ، ولا يجوز أن تكون ظرفا لا ذكروا ، إنما يعمل اذكروا في إذ لو قدرناه مفعولا .

(199/312)

---



(الفاء) عاطفة (أوى) فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف و(كم) مثل المتقدّم ،  
والفاعل هو (الواو) عاطفة (أيدكم) مثل آواكم (بنصر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أيدكم) ،  
(والهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (رزقكم) مثل آواكم (من الطيّبات) جارّ  
ومجرور متعلّق بـ (رزقكم) ، (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجيّ - ناسخ - و(كم) ضمير  
في محلّ نصب اسم لعلّ (تشكرون) مثل تخافون .

جملة: " اذكروا . . . " لا محلّ لها استنائيّة .

وجملة: " أنتم قليل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة: " تخافون " في محلّ رفع خبر ثالث للمبتدأ أنتم " 1 " .

وجملة: " يتخطفكم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرقى (أن) .

وجملة: " آواكم " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أنتم قليل .

وجملة: " أيدكم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة آواكم .

وجملة: " رزقكم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة آواكم .

وجملة: " لعلكم تشكرون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة: " تشكرون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 27 إلى 28]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) وَعَلِمُوا أَنَّ

أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتَنَّا وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28)

الإعراب:

"يا أيها الذين آمنوا" مرّ إعرابها ، (لا تخونوا) مثل لا

(1) أو في محلّ نصب حال من الضمير في (مستضعفون) .

(200/312)

تولّوا " 1 " ، (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (الرسول) معطوف على

لفظ الجلالة منصوب (الواو) عاطفة " 2 " ، (تخونوا) مجزوم معطوف على (تخونوا) الأول

(أمانات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (وكم) ضمير مضاف إليه (وأنتم

تعلمون) مثل وأنتم تسمعون " 3 " .

جملة: "يا أيها الذين . . ." لا محلّ لها استئنافية .

وجملة: "آمنوا . . ." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "لا تخونوا (الثانية)" لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة: "أنتم تعلمون" في محلّ نصب حال .

وجملة: "تعلمون" في محلّ رفع خبر المبتدأ أنتم .

(الواو) عاطفة (اعلموا) مثل اذكروا " 4 " (أنما) كافة ومكفوفة (أموال) مبتدأ مرفوع  
و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أولاد) معطوف على أموال مرفوع و(كم) مثل  
الأول (فتنة) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (أن الله) مرّ إعرابها " 5 " ، (عند) ظرف  
منصوب متعلّق بجبر مقدّم و(الهاء) ضمير مضاف إليه (أجر) مبتدأ مؤخر مرفوع (عظيم)  
نعت لأجر مرفوع مثله .

---

(1) في الآية (20) من هذه السورة .

(2) أو هي واو المعية ، والفعل بعدها منصوب بـ (أن) مضمرة وجوبا بعدها ، والمصدر  
المؤول معطوف على مصدر متصيّد من النهي السابق أي لا يكن منكم خيانة لله والرسول  
وخيانة لأماناتكم

(3) في الآية (20) من هذه السورة .

(4) في الآية (26) من هذه السورة .

(5) في الآية (24) من هذه السورة .

(201/312)

---

والمصدر المؤول (أنَّ الله عنده . . . ) في محل نصب سدّ مسدّ مفعولي اعلموا مقدّرا .

وجملة: " اعلموا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة: " (أعلموا) المقدّرة " لا محل لها معطوفة على جملة اعلموا المذكورة .

وجملة: " عنده أجر . . . " في محل رفع خبر أنّ .

### البلاغة

الاستعارة: في قوله تعالى " وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ " فمعنى الخون: النقص، كما أن معنى الوفاء

التمام . ومنه تخونه، إذا تنقصه، ثم استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت

الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه، وقد أستعير فقيلا: خان الدلو الكرب،

وخان المشتار السبب، والمشتار مجتني العسل، والسبب الحبل، وإذا انقطع الحبل فيهما

فكانه لم يقف .

والاستعارة هنا تصرّحية تبعية .

### الفوائد

1 - اختلف المفسرون في معنى الفرقان إلى أقوال، أوضحها وأرجحها هي قوة في النظر،

وهداية في العقل، يفرق بها الإنسان بين الحق والباطل .

2 - مواضع إن مكسورة الهمزة .

تكسر همزتها حيث لا يصح أن يسدّ المصدر مسدّها وذلك في اثني عشر موضعا .

- أ- أن تقع في ابتداء الكلام نحو "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ" .
- ب- أن تقع بعد حيث "تجلس حيث إن العلم موجود" .
- ج- أن تقع بعد إذ .
- د- أن تأتي تالية للموصول .
- ه- أن تكون جوابا للقسم .
- و- أن تقع بعد القول .
- ز- أن يكون ما بعدها حالا .
- ح- أن يكون ما بعدها صفة لما قبلها .
- ط- أن تقع صدر جملة استئنافية .

(202/312)

---

ي- أن تقع في خبرها لام الابتداء .

ك- أن تقع مع ما في حيزها خبرا عن اسم ذات .

ل- أن تقع بعد كالا رادعة نحو "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ" .

وبعض هذه الأقسام متداخل بعضها في بعض فقد يشتمل مثال واحد على قسمين أو ثلاثة

من الأقسام المذكورة فتأمل وتدبر . . .

[سورة الأنفال (8) : آية 29]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو  
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

الإعراب :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " مرّ إعرابها " 1 " ، (إن) حرف شرط جازم (تتقوا) مضارع مجزوم فعل  
الشرط وعلامة الجزم حذف النون . .

والواو فاعل (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (يجعل) مضارع مجزوم جواب الشرط  
والفاعل هو أي الله (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يجعل) " 2 " ،  
(فرقانا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (يكفرّ) مضارع مجزوم معطوف على (يجعل) ،  
والفاعل هو (عنكم) مثل لكم متعلّق بـ (يكفرّ) ، (سيئات) مفعول به

---

(1) في الآية (20) من هذه السورة .

(2) أو بمحذوف مفعول به ثان لفعل جعل المتعدّي المفعولين

(203/312)

---

منصوب وعلامة النصب الكسرة و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (يغفر لكم) مثل يجعل لكم فهو معطوف عليه (الواو) استئنافية (الله) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (ذو) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو (الفضل) مضاف إليه مجرور (العظيم) نعت للفضل مجرور .

وجملة النداء: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ . . . " لا محل لها استئنافية .

وجملة: " آمَنُوا " لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " تَتَّقُوا . . . " لا محل لها جواب النداء .

وجملة: " يجعل . . . " لا محل لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة: " يكفِّر . . . " لا محل لها معطوفة على جملة يجعل .

وجملة: " يغفر . . . " لا محل لها معطوفة على جملة يجعل .

وجملة: " اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ . . . " لا محل لها استئنافية .

[سورة الأنفال (8): آية 30]

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُسْقِطُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ  
الْمَاكِرِينَ (30)

الإعراب:

(الواو) استئنافية (إذ) اسم ظرفي في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر

(يمكر) مضارع مرفوع (الباء) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محل جرّ متعلق بـ (يمكر) ،

(الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (اللام) للتعليل (يثبتوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . . والواو فاعل و(الكاف) ضمير مفعول به .

والمصدر المؤول (أن يثبتوك) في محلّ جرّ متعلّق بـ(يكر) . . . أو بفعل محذوف تقديره اجتمعوا .

(أو) حرف عطف في الموضعين (يقتلوك ، يخرجوك) مثل يثبتوك ومعطوفان عليه (الواو) عاطفة في موضعين (يكرون) مضارع مرفوع . .

والواو فاعل (يكر) مثل الأول المتقدّم (الواو) استئنافية (اللّه خير الماكرين) مثل اللّه ذو الفضل " 1 " . . . وعلامة الجرّ الياء .

وجملة: " يكر . . الذين . . . " في محلّ جرّ بإضافة (إذ) إليها .

وجملة: " كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " يثبتوك " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة: " يقتلوك " لا محلّ لها معطوفة على جملة يثبتوك .

وجملة: " يخرجوك " لا محلّ لها معطوفة على جملة يثبتوك .

وجملة: " يكرون " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يكر بك الذين . .

وجملة: " يكر الله " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يكرون .



وجملة: "الله خير الماكرين" لا محل لها استنافية.

البلاغة

(204/312)

---

- قوله تعالى "وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" أي يرد مكرهم ويجعل وخامته عليهم أو يجازيهم عليه، أو يعاملهم معاملة الماكرين، ففي الكلام استعارة تبعية، أو مجاز مرسل، أو استعارة تمثيلية، وقد يكفى بالمشاكلة الصرفة.

---

(1) في الآية (29) السابقة.

(205/312)

---

[سورة الأنفال (8): آية 31]

وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

(31)

## الإعراب :

(الواو) استئنافية (إذا) ظرف للزمن المستقبل مبني في محل نصب ، شرطي ، متعلق بـ  
(قالوا) ، (تتلى) ، (آيات) نائب الفاعل مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (قالوا) فعل ماض  
مبني على الضم . . . والواو فاعل (قد) حرف تحقيق (سمعنا) فعل ماض مبني على  
السكون . . . و(نا) فاعل (لو) حرف شرط غير جازم (نشاء) مضارع مرفوع ، والفاعل  
ضمير مستتر تقديره نحن (اللام) رابطة لجواب لو (قلنا) مثل سمعنا (مثل) مفعول به  
منصوب عامله قلنا (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محل جر مضاف إليه (إن)  
حرف نفي (هذا) مبتدأ (إلا) أداة حصر (أساطير) خبر مرفوع (الأولين) مضاف إليه  
مجرور وعلامة الجر الياء .

وجملة: " تتلى . . . آياتنا " في محل جر مضاف إليه .

وجملة: " قالوا . . . " لا محل لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: " قد سمعنا " في محل نصب مفعول القول .

وجملة: " لو نشاء " لا محل لها استئنافية .

وجملة: " لقلنا " لا محل لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: " إن هذا إلا أساطير " لا محل لها استئناف في حكم التعليل .

## البلاغة

فن التغاير: في قوله تعالى "قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا"، وهو تغاير المذهبين، إما في المعنى الواحد، بحيث يمدح إنسان شيئاً ويذمه، أو يذم ما مدحه غيره، أو بالعكس. أو يفضل شيئاً على شيء ثم يعود فيجعل المفضل فاضلاً، والفاضل مفضولاً. وتقول إن التغاير هنا المقصود مغايرتهم أنفسهم، فقد قالت قريش عن القرآن: "ما سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ" إنكاراً منهم لغرابة أسلوبه وما بهرهم من فصاحته. ويلزم هذا الكلام إقرارهم بالعجز عن محاكاته، ثم غايرت قريش نفسها فقالت: قد سمعنا "لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا"، ولو كان القولان في وقت واحد لكان ذلك تناقضاً وهو عيب، ولم يعد في المحاسن، لكن وقوعه في زمنين مختلفين ووقتين متباينين اعتد من المحاسن، ولذلك سمي تغايراً لا تناقضاً.

## الفوائد

(قد) حرف. إن دخلت قد على الماضي أفادت تحقيق معناه. وإن دخلت على المضارع أفادت تقليل وقوعه. مثل: (قد جاء خالد). و(قد يوجد البخيل). وفي الآية: قد سمعنا.

[سورة الأنفال (8): آية 32]

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32)

الإعراب:

(وَإِذْ) مثل المتقدّم " 1 " ، (قالوا) فعل ماضٍ وفاعله (الله) لفظ الجلالة منادى مبني على

الضمّ في محلّ نصبٍ و(الميم) عوض من حرف النداء المحذوف (إِنْ) حرف شرط جازم

(كَانَ) فعل ماضٍ ناقص - ناسخ - مبني في محلّ جزم فعل الشرط (ها) حرف تنبيه (ذَا)

اسم إشارة

---

(1) في الآية (30) من هذه السورة.

(207/312)

---

مبني في محلّ رفع اسم كان (هو) ضمير فصل (الحقّ) خبر كان منصوب (من عند) جارّ

ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الحقّ " 1 " ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الفاء)

رابطة لجواب الشرط (أمطر) فعل أمر دعائيّ ، والفاعل أنت (على) حرف جرّ و(نا)

ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب(أمطر) (حجارة) مفعول به منصوب (من السماء) جارّ ومجرور

متعلّق ب(أمطر) " 2 " ، (أو) حرف عطف (أنت) مثل أمر مبني على حذف حرف العلة

و(نا) ضمير مفعول به (بعذاب) جارّ ومجرور متعلق بـ (ائت) ، (أليم) نعت لعذاب  
مجرور .

جملة: " قالوا . . . " في محلّ جرّ بإضافة (إذ) إليها .

وجملة النداء وجوابها في محلّ نصب مقول القول " 3 " .

وجملة: " كان هذا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة: " أمطر . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة: " ائتنا " في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

البلاغة

الاستعارة: في قوله تعالى " فَاَمْطُرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ " الكلام استعارة أو مجاز  
لأنزل .

[سورة الأنفال (8) : آية 33]

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)

(1) أو هو حال من معنى الحقّ أي الثابت من عندك - العكبري .

(2) أو هو نعت لحجارة في محلّ نصب . [ . . . . . ]

(3) يجوز أن تكون جملة النداء اعتراضية دعائية ، وجملة كان هذا هو الحقّ هو مقول

القول .

الإعراب :

(الواو) عاطفة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - (الله) لفظ الجلالة اسم كان

مرفوع (اللام) لام الجحود (يعذب) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود و(هم)

ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الواو) حالية (أنت) ضمير منفصل مبتدأ في محل رفع (في)

حرف جرّ و(هم) ضمير في محل جرّ متعلق بخبر المبتدأ أنت .

والمصدر المؤول (أن يعذبهم) في محل جرّ باللام متعلق بحذوف خبر كان .

(الواو) عاطفة (ما كان الله) مثل الأولى (معذب) خبر كان منصوب و(هم) ضمير مضاف

إليه (وهم) مثل وأنت (يستغفرون) مضارع مرفوع . .

والواو فاعل .

جملة : " ما كان الله . . . " لا محل لها معطوفة على الاستئناف المقدّر في الآية السابقة .

وجملة : " يعذبهم " لا محل لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمرة .

وجملة : " أنت فيهم " في محل نصب حال .

وجملة : " ما كان الله (الثانية) " لا محل لها معطوفة على جملة ما كان الله (الأولى) .

وجملة: "هم مستغفرون" في محل نصب حال.

الفوائد

1- لام الجحود وهي التي تسبق بكون منفي، وقد عولجت في آيات سابقة

فعد إليها في مواطنها.

ولما استبدلت اللام والفعل باسم الفاعل نصب على أنه خبر كان. فتأمل.

[سورة الأنفال (8): آية 34]

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصَدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا  
الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34)

الإعراب

- (الواو) استئنافية (ما) اسم استفهام مبني في محل رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّو (هم)

ضمير في محل جرّ متعلق بخبر ما (أن) حرف مصدرّي ونصب (لا) حرف نفي (يعذب)

مضارع منصوب بأن و(هم) ضمير مفعول به (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع.

والمصدر المؤول (الأيّ عذبهم) في محل جرّ ب(في) محذوف متعلق بما تعلق به الجار والمجرور

في (لهم) أي في الخبر، والتقدير أي شيء لهم في انتفاء العذاب.

(209/312)

---

(الواو) حالية (هم) ضمير في محل رفع مبتدأ (يصدّون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل  
(عن المسجد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يصدّون) ، (الحرام) نعت للمسجد مجرور مثله  
(الواو) عاطفة (ما) نافية (كانوا) ماض ناقص - ناسخ - مبني على الضمّ . . . والواو  
ضمير اسم كان (أولياء) خبر كان منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إن) حرف نفي  
(أولياء) مبتدأ مرفوع و(الهاء) مثل المتقدم (إلا) أداة حصر (المتقون) خبر مرفوع وعلامة  
الرفع الواو (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف استدراك ونصب (أكثر) اسم لكنّ منصوب  
و(هم) ضمير مضاف إليه (لا) نافية (يعلمون) مثل يصدّون .  
وجملة: " ما لهم . . . " لا محلّ لها استئنافية .  
وجملة: " يعذبهم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .  
وجملة: " هم يصدّون " في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في (يعذبهم) .  
وجملة: " يصدّون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .  
وجملة: " ما كانوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال .  
وجملة: " إن أولياؤه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ أو تعليليّة .  
وجملة: " لكنّ أكثرهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن أولياؤه .  
وجملة: " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر لكنّ .



[سورة الأنفال (8) : آية 35]

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (35)

الإعراب :

(210/312)

---

(الواو) استئنافية (ما) حرف نفي (كان) فعل ماض ناقص (صلاة) اسم كان مرفوع و(هم)

ضمير مضاف إليه (عند) ظرف منصوب متعلق بمحذوف حال من الصلاة " 1 " ،

(البيت) مضاف إليه مجرور (إلا) أداة حصر (مكاء) خبر كان منصوب (الواو) عاطفة

(تصدية) معطوفة على مكاء منصوب (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر (ذوقوا) فعل أمر

مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (العذاب) مفعول به منصوب (الباء) حرف جرّ

للسببية (ما) حرف مصدرى (كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ -

---

(1) أو متعلق بالصلاة لأنه مصدر .

(211/312)

---

واسمه (تكفرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة: " ما كان صلاتهم . . . لا محل لها استنافية .

وجملة: " ذوقوا . . . " في محل جزم جواب شرط مقدر أي إن كانت هذه طبيعة صلاتكم

فذوقوا . . .

وجملة: " كنتم تكفرون " لا محل لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة: " تكفرون " في محل نصب خبر كنتم .

والمصدر المؤول (ما كنتم تكفرون) في محل جرّ بالباء متعلق بـ (ذوقوا) .

الصرف :

(المكاء) ، مصدر سماعي لفعل مكأ يمكو بمعنى صفر ، وزنه فعال بضمّ الفاء ، وهو

خاضع لضابط تقريبي لأن الفعل يدلّ على صوت فجاء المصدر بكباء وصراخ . والهمزة

منقلبة عن واو لأن مضارعه يمكو فلما جاءت الواو متطرفة بعد ألف زائدة ساكنة قلبت

همزة .

(التصدية) ، مصدر قياسي لفعل صدّى يصدّي وزنه تفعله ، وأصله تصدّي - بكسر

الذال وتشديد الياء - استقلت الشدة على الياء فحذفت لام الفعل وبقيت ياء تفعيل -

أو حذفت ياء تفعيل وبقيت لام الفعل - واستعيض من المحذوف تاء مربوطة فأصبح

تصدية ، والتصدية التصفيق .

الفوائد

(212/312)

1 - كان العرب في الجاهلية يطوفون بالكعبة عراة ، رجالا في النهار ، ونساء في الليل ، مشبكين أصابعهم بعضها إلى بعض ، يصفرون فيها ، ثم يصفقون . ويزعمون أن هذه هي الصلاة . فندد الله بعملهم هذا ، ووصف ما يصدر عنهم من صياح وضجيج وتصفيق بالتصدية ، مبالغة في الكفر وضياح المسعى .

[سورة الأنفال (8) : آية 36]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محل نصب اسم إنّ (كفروا) فعل ماض وفاعله (ينفقون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (أموال) مفعول به منصوب (وهم) ضمير مضاف إليه (اللام) للتعليل (يصدّوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة

النصب حذف النون . . . والواو فاعل (عن سبيل) جارّ ومجرور متعلق بـ (يصدّوا) ،  
 (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه (الفاء) استنافية (السين) حرف استقبال (ينفقون) مثل  
الأول و(ها) ضمير مفعول به (ثم) حرف عطف (تكون) مضارع مرفوع ، واسمه ضمير  
مستتر تقديره هي (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلق بـ (حسرة) " 1 "  
وهو خبر تكون منصوب (ثم) حرف عطف (يغلبون) مضارع مبني للمجهول مرفوع . .  
والواو نائب الفاعل (الواو) عاطفة (الذين) مبتدأ (كفروا) مثل الأول (إلى جهنّم) جارّ  
ومجرور متعلق بـ (يخشرون) وعلامة الجرّ الفتحة (يخشرون) مثل يغلبون . والمصدر المؤوّل  
(أن يصدّوا) في محلّ جرّ باللام متعلق بـ (ينفقون) .  
جملة: " إنّ الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استنافية .  
وجملة: " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) أو متعلق بمحذوف حال من حسرة - نعت تقدّم على المنعوت - .

(213/312)

---

وجملة: " ينفقون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .  
وجملة: " يصدّوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة: "سينفقونها" لا محل لها استنافية.

وجملة: "تكون" . . حسرة" لا محل لها معطوفة على جملة سينفقونها .

وجملة: " يغلبون" لا محل لها معطوفة على جملة تكون . . .

وجملة: "الذين كفروا" . . . "لا محل لها معطوفة على جملة إن الذين كفروا .

وجملة: "كفروا" لا محل لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة: "يحشرون" في محل رفع محل رفع خبر المبتدأ (الذين) .

الصرف:

(حسرة) صدر مرة من حسر على الشيء يحسر باب تعب ، وزنه فعلة بفتح الفاء ، أو هو

مصدر الفعل الثلاثي السماعي ، وثمة مصدر آخر هو حسرة بفتحين ، أو هو اسم مصدر

لفعل تحسّر الخماسي .

[سورة الأنفال (8) : آية 37]

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي

جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37)

الإعراب:

(اللام) للتعليل (يمييز) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع

(الخبِيث) مفعول به منصوب (من الطيب) جارٌّ ومجرور متعلق بـ (يمييز) .

والمصدر المؤول (أن يميز) في محل جرّ باللام متعلق بـ (يحشرون) أو بـ (يغلبون) في الآية السابقة . . . و(الخبِيث) بمعنى الكافر و(الطيب) بمعنى المؤمن .

(214/312)

---

(الواو) عاطفة (يجعل) مضارع منصوب معطوف على (يميز) ، والفاعل هو (الخبِيث) مثل الأول (بعض) بدل من الخبيث - بعض من كل - و(الهاء) ضمير مضاف إليه (على بعض) جارٌّ ومجرور متعلق بالمفعول الثاني لفعل جعل " 1 " ، (الفاء) عاطفة (يركم) مثل يجعل ومعطوف عليه (الهاء) ضمير مفعول به (جميعاً) حال منصوبة من ضمير الغائب في (يركمه) ، (الفاء) عاطفة (يجعله) مثل (يركمه) (في جهنم) مثل إلى جهنم " 2 " ومتعلق بـ (يجعل) ، (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . . و(الكاف) للخطاب (هم) ضمير فصل " 3 " ، (الخاسرون) خبر المبتدأ أولئك ، مرفوع وعلامة الرفع الواو .  
وجملة: " يميز الله . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .  
وجملة: " يجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يميز الله .  
وجملة: " يركمه " لا محلّ لها معطوفة على جملة يجعل .  
وجملة: " يجعله " لا محلّ لها معطوفة على جملة يركمه .

وجملة: " أولئك . . . الخاسرون " لا محل لها استئناف فيه معنى التعليل .

(1) أو متعلق بالفعل جعل ، أو بمحذوف حال إذا كان الفعل متعدياً لواحد .

(2) في الآية (36) من هذه السورة .

(3) أو هو مبتدأ خبره الخاسرون ، والجملة الاسمية خبر المبتدأ أولئك .

(215/312)

[سورة الأنفال (8) : الآيات 38 إلى 40]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ (38)  
وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ اتَّهَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39)  
وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ (الذين) موصول في محل جرّ متعلق بـ (قل) ،

(كفروا) فعل ماضٍ وفاعله (إن) حرف شرط جازم (ينتهوا) مضارع مجزوم فعل الشرط

وعلامة الجزم حذف النون . .

والواو فاعل (يغفر) مضارع مبني للمجهول مجزوم جواب الشرط (اللام) حرف جرّ و(هم)

ضمير في محل جر متعلق بـ (يغفر) (ما) اسم موصول مبني في محل رفع نائب الفاعل (قد)  
حرف تحقيق (سلف) فعل ماض والفاعل هو وهو العائد " 1 " (الواو) عاطفة (إن  
يعودوا) مثل إن ينتهوا ومعطوفة عليه (الفاء) تعليلية (قد مضت) مثل قد سلف ، والبناء  
على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(التاء) للتأنيث (سنّة) فاعل  
مرفوع (الأولين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .  
جملة: " قل . . . لا محلّ لها استنائية .  
وجملة: " كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .  
وجملة: " إن ينتهوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .  
وجملة: " يغفر لهم " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .  
وجملة: " قد سلف " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 2 " .

---

(1 ، 2) يجوز أن يكون (ما) نكرة موصوفة ، والجملة نعت لها في محلّ رفع .

(216/312)

---

وجملة: " إن يعودوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إن ينتهوا .  
وجملة: " قد مضت سنّة . . . " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المقدّر أي إن يعودوا ننتقم



منهم لأنه قد مضت سنة الأولين " 1 " .

(الواو) عاطفة (قاتلوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل و(هم) ضمير مفعول به (حتى) حرف غاية وجرّ (لا) نافية (تكون) مضارع تام منصوب بأن مضمرة بعد حتى (فتنة) فاعل تكون مرفوع .

والمصدر المؤول (الّا تكون فتنة) في محل جرّ به (حتى) متعلق به (قاتلوهم) .

(الواو) عاطفة (يكون الدين) مثل تكون فتنة ومعطوف عليه " 2 " (كلّ) توكيد للدين مرفوع مثله و(الهاء) ضمير مضاف إليه (لله) جارّ ومجرور متعلق بمحذوف حال من الدين " 3 " ، (الفاء) استئنافية (إن) حرف شرط جازم (اتهوا) فعل ماض مبني على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ جزم فعل الشرط . . . والواو فاعل ، (الفاء) تعليلية (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الله) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدري " 4 " (يعملون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (بصير) خبر إنّ مرفوع .

---

(1) يجوز جعل الجملة جواباً للشرط في محلّ جزم .

(2 ، 3) يجوز أن يكون الفعل ناقصاً و(الدين) اسمه و(لله) خبره . . . وانظر الآية

(193) من سورة البقرة .

(4) أو هو اسم موصول أو نكرة موصوفة ، والجملة بعده إما صلة وإما نعت والعائد

محذوف .

(217/312)

---

والمصدر المؤول (ما يعملون) في محل جرّ بالباء متعلّق بـ (بصير) .  
وجملة: " قاتلوهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل للذين . . .  
وجملة: " لا تكون فتنة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .  
وجملة: " يكون الدين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ .  
وجملة: " إن انتهوا " لا محلّ لها استئنافية . . . وجواب الشرط محذوف تقديره جازاهم  
الله .

وجملة: " إن الله . . . " لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر .  
وجملة: " يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .  
(الواو) عاطفة (إن تولّوا) مثل إن انتهوا (الفاء) تعليلية (اعلموا) مثل قاتلوا (أنّ الله مولى)  
مثل إنّ الله بصير و(كم) ضمير مضاف إليه (نعم) فعل ماض جامد لإنشاء المدح (المولى)

فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف . . . والمخصوص بالمدح محذوف  
تقديره الله (الواو) عاطفة (نعم النصير) مثل نعم المولى .

(218/312)

---

والمصدر المؤول (أن الله مولاكم) في محل نصب سدّ مسدّ مفعولي اعلموا .  
وجملة: " إن تولوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن انتهوا .  
وجملة: " اعلموا . . . " لا محلّ لها تعليل للجواب المحذوف أي إن تولوا فلا تخشوا بأسهم  
لأنّ الله مولاكم . . . أو الجملة جواب الشرط في محلّ جزم .  
وجملة: " نعم المولى . . . " لا محلّ لها استنافية " 1 " .  
وجملة: " نعم النصير " لا محلّ لها معطوفة على جملة نعم المولى .  
الصرف :

(سنّة) ، اسم بمعنى الطريقة أو السيرة أو الشريعة وزنه فعلة بضم فسكون وعينه ولامه من  
حرف واحد .

(مضت) فيه إعلال بالحذف ، حذفت لام الفعل لالتقاء ساكنة مع تاء التانيث الساكنة

وزنة فعت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجدول ح 9 ص 167 . 222 ﴾

---

(1) يجوز أن يكون (مولاكم) عطف بيان من لفظ الجلالة وجملة نعم المولى خبر أن ونعم

النصير معطوفة عليها .

(219/312)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(8) سورة الأنفال

مدنية وآياتها خمس وسبعون

[سورة الأنفال (8) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ

وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ

عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنْفِقُونَ (3) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

اللغة :

(الأنفال) : جمع نفل ، بفتح النون والفاء ، كفرس وأفراس ، والمراد بها الأغنام . والنفل :

الزيادة والغنيمة . ومنه قول لبيد :

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفْلٍ وَيَأْذَنُ اللَّهُ رِيثِي وَعَجَل

شبه لبيد الثواب الذي وعده الله عباده على التقوى بالنفل ، وهو ما يعده الإمام المجاهد تحريضا على اقتحام الحرب ، فاستعار النفل نه على طريق الاستعارة التصريحية ، وأخبر به عن التقوى ، لأنها سببه . ويجوز استعارة النفل للتقوى بجامع النفع . وريثي : بطي ،

وعجل : أي عجلي ، فحذفت الياء لوزن الشعر . وفي المصباح : النَّفْل :

الغنيمة : والجمع أنفال ، مثل سبب وأسباب ، والنفل بسكون الفاء :

مثله .

(وَجَلْتُ) وجل بالكسر في الماضي ، يؤجل بالفتح في المضارع ، وفيه لغة أخرى ، وهي

وجل بفتح الجيم في الماضي ، وكسرها في المضارع ، فتحذف الواو ، كوعد يعد .

الاعراب :

(220/312)

---

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) كلام مستأنف مسوق لتقرير تشريع الغنيمة في

الجهاد ، ويسألونك فعل مضارع وفاعل ومفعول به ، والضمير الفاعل هو من سأل هذا

السؤال ، ممن حضروا غزوة بدر . وسأل يكون تارة لاقتضاء معنى في نفس المسؤل ،  
فيتعدى إلى الثاني بعن ، كهذه الآية وقد يكون لاقتضاء مادة أو مال ، فيتعدى لاثنين نحو  
سألت زيدا مالا . وعن الأنفال متعلقان بيسألونك كما تقدم ، وقل فعل أمر والأنفال مبتدأ  
ولله خبره والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول والرسول عطف على الله (فَاتَّقُوا اللَّهَ  
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الفاء  
الفصيحة ، واتقوا فعل أمر وفاعل ، ولفظ الجلالة مفعول به ، وأصلحوا عطف على اتقوا ،  
وذات بينكم مفعول به ، ومعنى ذات بينكم : ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال  
ألفة ومحبة واتفاق . فالبين هنا بمعنى الاتصال ، ويطلق أيضا على الفراق ، فهو من  
الأضداد .

(221/312)

---

وإن شرطية ، وكنتم فعل الشرط ، والتاء اسمها ، ومؤمنين خبرها ، والجواب محذوف  
لدلالة ما قبله عليه (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) إنما كافة ومكفوفة ،  
والمؤمنون مبتدأ ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان من أراد بالمؤمنين ، بذكر أوصافهم الجليلة  
المستتعة لما ذكر من الخصال الثلاث الآتية ، والذين خبر ، وإذا ظرف لما يستقبل متضمن

معنى الشرط ، وجملة ذكر الله في محل جر بالإضافة ، والله نائب فاعل ، وجملة وجلت قلوبهم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادْتُمْ إِيمَانًا) عطف على الصفة الأولى ، وجملة زادتهم لا محل لها ، وإيمانا مفعول به ثان أو تمييز (وَعَلَى رَبِّهِمْ تَوَكَّلُونَ) صفة ثلاثة داخلية في نطاق الصلة للموصول ، وعلى ربهم جار ومجرور متعلقان بتوكلون ، والتقديم يفيد الاختصاص ، أي : عليه لا على غيره (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وأردف الصفات الثلاث المتقدمة - وهي من أفعال القلوب ، وهي الخشية والإخلاص والتوكل - بصفتين من أعمال الجوارح ، وهما إقامة الصلاة والصدقة . وقد تقدم إعراب نظائرها (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) اسم الإشارة مبتدأ ، وهم ضمير فصل أو خبر ثان ، والمؤمنون خبر على كل حال ، والجملة خبر اسم الإشارة ، والجملة مستأنفة ، وحقا صفة لمصدر محذوف ، أي هم المؤمنون إيمانا حقا ، ويجوز أن يكون مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة ، كقولك : هو عبد الله حقا (لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) لهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ودرجات مبتدأ مؤخر ، وعند ربهم ظرف متعلق بدرجات لأنها بمعنى أجور أو يتعلق بمحذوف صفة لدرجات لأنها نكرة ، ومغفرة وورزق كريم عطف على درجات .

الفوائد :

روى التاريخ أن الاختلاف وقع بين المسلمين في غنائم بدر وقسمتها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف تقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها؟ اللهم اجرين أم للأَنْصار؟ أم لهم جميعا؟ فقيل لهم:

هي للرسول وهو الحاكم فيها خاصة يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم، وقيل: شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينقله فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين، فلما يسر الله الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، فقال الشبان: نحن المقاتلون، وقال الشيوخ الوجوه الذين كانوا عند الرايات: إنا كنا رداء لكم، وقفة تنحازون إليها إن انهزمت، وقالوا لرسول الله: المغنم قليل والناس كثير، وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك فنزلت.

قصة سعد بن أبي وقاص:

وعن سعيد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبني فجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إن الله قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف فقال: ليس هذا لي ولالك اطرحه في القبر،



يعني المال المقبوض ، فطرحته وبي ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلمي ، فما

جاوزت إلا قليلا حتى جاءني رسول الله وقد أنزلت سورة

الأنفال فقال : يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي وأنه قد صار لي فاذهب وخذه .

رواية عبادة بن الصامت :

وعن عبادة بن الصامت : نزلت فينا معشر أصحاب بدر ، حين اختلفنا في النفل ،

وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله فقسمه بين المسلمين على

السواء وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 5 إلى 9]

(223/312)

---

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي  
الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6) وَإِذْ يُعِدُّكُمُ اللَّهُ إِحْدَى  
الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ  
وَيُقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ  
رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9)

اللغة :

(الشوكة) للشوكة معان كثيرة وهي هنا بمعنى البأس والقوة والسلاح، وحدته على أن جميع معانيها ترجع إلى معنى التفوق والظهور والغلبة، ومن معانيها إبرة العقرب، وحمرة تعلق الجسد، والنكابة في العدو، يقال: لا تشوكك مني شوكة، أي لا يلحقك مني أذى. وشوكة الحائك: الآلة التي يسوي بها السدى واللحمة، ويقال: شاكِت إصبعه شوكة، وشوكت النخلة: خرج شوكتها، وشوكت الحائط: جعلت عليه الشوك، ومن المجاز: شوكت الزرع وزرع مشوك إذا خرج أوله، وشوكت ثدي الجارية وتشوكت: إذا بدأ خروجه.

قال:

أحببت هذي قديما وهي ماشية وما تشوكت ثدياها وما نهدا

(224/312)

---

وإذا استعرضنا مادة الشين والواو فاء وعينا للكلمة وجدنا خاصة عجيبية لها كأنها قد وضعت خاصة لمعاني الظهور والتأثير والارتفاع والتفوق، فالشوب: خلط الشيء بغيره بحيث يؤثر فيه، يقال: شاب العسل بالماء وكان ريقتها خمريشوبها عسل، ولهم

المشاجب والمشابوب وهي أسفاط وحقق تتخذ من الخوص ، وشوّرت به فتشور ومنه  
قيل : أبدى الله شوارك أي عورتك ، وفي حديث الزّباء : أشوار عروس ترى ؟ وهذا من  
عجيب أمر لغتنا العربية الشريفة فافهم وتدبر .

الاعراب :

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ) كما يجوز أن تكون الكاف

(225/312)

---

بمعنى مثل ومحلها الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك ،  
ويجوز أن تكون حرفا جارا ، ومحل الجار والمجرور الرفع كما تقدّم والمعنى : ان حالهم في  
كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب ، ويجوز أن يكون  
محلها النصب على أنها صفة لمصدر الفعل المقدر في قوله : الأنفال لله والرسول ، أي الأنفال  
استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم  
كارهون . وقد توسّع المعربون القدامى في التقدير والتأويل ، وأنهاها بعضهم إلى عشرين  
وجها ولكنها لا تخرج عما ذكرناه . ومن بيتك جار ومجرور متعلقان بأخرج ، وبالحق جار  
ومجرور متعلقان بمحذوف حال أي ملتبسا بالحق والحكمة والصواب الذي لا محيد عنه ،

وسياتي في باب الفوائد ذكر بعض الحوادث التاريخية التي توضح هذا المعنى والاعراب  
(وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ) الواو حالية وإن واسمها ومن المؤمنين جار ومجرور  
متعلقان بمحذوف صفة ، واللام المرحلقة وكارهون خبر إن ، والجملة في محل نصب حال  
من الكاف في أخرجك ، أي أخرجك في حالة كراهتهم (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ)  
الجملة مستأنفة مسوقة للإخبار عن حالهم بالمجادلة ، ويجوز أن تكون حالا ثانية من الكاف  
أي أخرجك في حال مجادلتهم إياك أو من الضمير في كارهون أي لكارهون في حال الجدل ،  
وفي الحق جار ومجرور متعلقان بيجادلونك وبعد ظرف زمان متعلق بيجادلونك وما  
مصدرية وهي وما في حيزها مصدر مضاف للظرف أي بعد تبينه وخروجه وهو أقبح من  
الجدال في الشيء قبل اتصاحه (كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ) الجملة حالية من  
الضمير في " لكارهون " أي حال كونهم مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار إلى القتل ،  
وكأنما كافة

(226/312)

---

ومكفوفة ، ويساقون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والى الموت جار  
ومجرور متعلقان بيساقون ، والواو حالية وهم ينظرون جملة في محل نصب على الحال .

(وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ) الواو عاطفة وإذ ظرف متعلق بفعل محذوف أي " واذكر إذ " وجملة يعدكم الله في محل جر بالإضافة وإحدى الطائفتين مفعول به ، ولا بد من تقدير محذوف ، أي : الظفر بإحدى الطائفتين ، والطائفتان العير والنفير (أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ) ان واسمها ولكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، وأن وما في حيزها بدل اشتمال من أحد الطائفتين ، وتودون : الواو حالية أو عاطفة ، وتودون فعل مضارع مرفوع وعلامة بثبوت النون والواو فاعل ، وأن وما في حيزها مفعول تودون ، وجملة تكون خبر أن ، ولكم جار ومجرور لكم العير لأنها الطائفة التي لا شوكة لها ولا تريدون الطائفة الأخرى (وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) الواو عاطفة ويريد الله فعل وفاعل وأن مصدرية وهي وما في حيزها مفعول يريد ، وبكلماته جار ومجرور متعلقان بيحق . ويقطع دابر الكافرين جملة معطوفة ، وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) اللام للتعليل ويحق فعل مضارع منصوب بأن مضمرة واللام وما في حيزها متعلقان بمحذوف تقديره فعل ذلك ليحق الحق ويبطل الباطل وليس هذا تكريرا لما قبله لأن الأول خاص والثاني عام فالمراد بالأول تثبيت ما وعد به في هذه الواقعة من النصر والظفر . والمراد بالثاني تدعيم الدين وتقويته وإظهار الشريعة ونشيتها .

---

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ) الظرف متعلق بمحذوف ، أي : واذكروا ، ويجوز أن يتعلق بيحق ،  
وعبر بالحق حكاية للحال الماضية ولذلك عطف عليه : فاستجاب لكم بصيغة الماضي  
(فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) الفاء عاطفة كما تقدم ولكم جار  
ومجرور

متعلقان باستجاب وإن وما في حيزها في محل نصب بنزع الخافض أي :  
بأنني ممدكم ، والجار والمجرور متعلقان باستجاب أيضا ، وممدكم خبر إن ، وبالف جار  
ومجرور متعلقان بممدكم ومن الملائكة جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لأف ،  
ومردفين صفة ثانية ومفعول مردفين محذوف لأنه اسم فاعل أي أمثالهم أي متبعين بعضهم  
بعضا ، أو متبعين بعضهم لبعض .

الفوائد :

ما يقوله التاريخ ؟ :

أقبلت عير قريش من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكا حتى نحر الجزور  
ونشرب الخمر ، وتقيم القينات والمعازف بيدر فيتسامع العرب بمخرجنا ، وإن محمدا لم  
يصب العير وإنما قد أعضضناه فمضى بهم إلى بدر ، وبدر ماء كانت العرب تجمع فيه نوقهم  
يوما في السنة ، فنزل جبريل فقال : يا محمد إن الله وعدكم إحدى الطائفتين : إما العير وإما

فريشا ، فاستشار النبي أصحابه وقال : ما تقولون ؟ إن القوم قد خرجوا  
من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب إليكم أم النفير ؟ قالوا : بل العير أحب إلينا من  
لقاء العدو ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردّ عليهم فقال : إن العير قد  
مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا : يا رسول عليك بالعير ودع العدو  
، فقام عند غضب النبي أبوبكر وعمر فأحسنا ثم قام سعد بن عبادة فقال :

(228/312)

---

انظر أمرك فوالله لو سرت بنا إلى عدن لسرنا ما تخلف رجل ، ثم قال المقداد : يا رسول الله  
امض لما أمرك الله فإننا معك حيث لا تقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت  
وربك فقاتلنا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلنا معكما مقاتلون ما  
دامت منا عين تطرف ، فضحك رسول الله ثم قال : أشيروا علي أيها الناس وهو يريد  
الأنصار لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا  
وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك ما نمنع منه آباءنا ونساءنا ، فكان النبي صلى الله عليه  
وسلم يتخوف أن تكون الأنصار لا ترى عليهم نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة ، فقام  
سعد ابن معاذ فقال : لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجل ، قال : قد آماننا بك

وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على  
السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا  
البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا وإنا  
لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك فسر بنا على  
بركة الله ، وفرح رسول الله ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى  
الطائفتين ، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم . وقد أطلنا في الاقتباس لأهمية هذا  
الفصل وبلاغته .

خلاصة مفيدة لأقوال المعربين في " كما " :

اختلفوا على خمسة عشر قولاً :

1- ان " الكاف " بمعنى واو القسم و" ما " بمعنى " الذي " واقعة على ذي العلم وهو الله ،  
وجواب القسم يجادلونك . قاله أبو عبيدة .

2- إن الكاف بمعنى " إذا " و" ما " زائدة والتقدير : اذكر إذ جاءك 3- إن الكاف بمعنى  
" على " و" ما " بمعنى " الذي " .

(229/312)

---



4- وقال عكرمة: التقدير: وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين، كما أخرجكم في

الطاعة خير لكم كان إخراجك خيرا إليهم.

5- قال الكسائي: كما أخرجك ربك من بيتك على كراهة من فريق منهم كذلك

يجادلونك في قتال كفار مكة ويودون غير ذات الشوكة من بعد ما تبين لهم أنك إنما تفعل ما

أمرت به لا ما يريدون.

6- قال الفراء: امض لأمرك في الغنائم ونقل من شئت إن كرهوا كما أخرجك ربك.

7- قال الأخفش: الكاف نعت ل "حقا" والتقدير: هم المؤمنون حقا كما.

8- إن الكاف في موضع رفع، والتقدير: كما أخرجك ربك فاتقوا الله كأنه ابتداء وخبر.

9- قال الزجاج: الكاف في موضع نصب، والتقدير: الأنفال ثابتة لله ثباتا كما أخرجك

ربك.

10- إن الكاف في موضع رفع، والتقدير: لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم،

وهذا وعد حق كما أخرجك.

11- إن الكاف في موضع رفع أيضا، والمعنى: وأصلحوا ذات بينكم ذلكم خير لكم كما

أخرجك، فالكاف نعت لخبر ابتداء محذوف.

12- إنه شبه كراهية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخروجه من المدينة حين

تحققوا خروج قريش للدفع عن أبي سفيان وحفظ غيره بكراهيتهم نزع الغنائم من أيديهم

وجعلها للرسول أو التنفيل منها ، وهذا القول أخذه الزمخشري وحسنه فقال : " يرتفع

الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا الحال كحال اخراجك " .

13- ان قسمك للغنائم حق كما كان خروجك حقا .

14- إن التشبيه وقع بين اخراجين ، أي : اخراجك ربك إياك من بيتك وهو مكة وأنت

كاره لخروجك وكانت عاقبة ذلك الخير والنصر والظفر كاخراج ربك إياك من المدينة

وبعض المؤمنين كاره يكون عقيب ذلك الظفر والنصر .

15- الكاف للتشبيه على سبيل المجاز كقول القائل لعبده : كما وجهتك إلى أعدائي

فاستضعفوك وسألت مددا فأمدتك وقويتك فخذهم الآن فعاقبهم بكذا ، وكم كسوتك

وأجريت عليك الرزق فاعمل كذا وكما أحسنت إليك فاشكرني عليك .

(230/312)

---

وواضح أن مرجع هذه الأوجه واحد فتدبر والله يعصمك .

البلاغة :

1- التشبيهات التمثيلية الواردة في الآيات قد أشرنا إليها أثناء الإعراب لعلاقتها الوثيقة

به .

2- العموم والخصوص في قوله تعالى " ليحق الحق ويبطل الباطل " بعد قوله : " يريد الله أن يحق الحق بكلماته " . والتحقيق في التمييز بين الكلامين أن الأول ذكرت فيه الإرادة مطلقة غير مقيدة بالواقعة الخاصة كأنه قيل : وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ومن شأن الله تعالى إرادة تحقيق الحق وتمحيق الكفر على الإطلاق ولإرادته أن يحق الحق ويبطل الباطل خصكم بذات الشوكة ، فبين الكلامين عموم وخصوص وإطلاق وتقييد ، ولا يخفى ما في ذلك من المبالغة في تأكيد المعنى بذكره على وجهين : اطلاق وتقييد .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 10 إلى 11]

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ  
(10) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَّهَّرَكُم بِهِ وَيُدْهَبَ  
عَنكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11)  
الإعراب :

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى) الواو استئنافية أو عاطفة على ما تقدم ،

(231/312)

---

وما نافية ، وجعله الله فعل ومفعول به وفاعل ، والضمير يعود للامداد ، وإلا أداة حصر  
وبشرى مفعول لأجله مستثنى من أعم العلل (وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ) الواو عاطفة واللام  
للتعليل وتطمئن فعل مضارع منصوب أن مضمرة بعدها والجار والمجرور عطف على  
بشرى ، وجر المفعول من أجله باللام هنا لفقد شرط النصب وهو اتحاد الفاعل ، وقلوبكم  
فاعل تطمئن (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) الواو استئنافية أو حالية أيضا ، وما نافية  
والنصر مبتدأ ، وإلا أداة حصر ، ومن عند الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (إِنَّ  
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) الجملة الاسمية تعليل لما تقدم (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ) إذ ظرف  
مبدل من إذ يعدكم وهو ثاني بدل كما تقدم ، وجملة يغشيكم النعاس في محل جر بالإضافة  
والنعاس مفعول به وأمنة حال أو مفعول من أجله ، ومنه جار ومجرور متعلقان بمحذوف  
صفة لأمنة (وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهَّرَكُم بِهِ) وينزل عطف على يغشيكم  
وعليكم جار ومجرور متعلقان بينزل وكذلك من السماء ، وماء مفعول به ، وليطهركم :  
اللام للتعليل ويطهركم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعدها ، وبه جار ومجرور متعلقان  
بيطهركم (وَيَذُوبَ عَنْكُم رَجُزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) جمل  
معطوفة على ما تقدم والضمير في به يعود على الماء حتى يسهل المشي على الرمال لأن  
العادة ان المشي عليها عسر فإذا نزل عليه الماء جمد ، وسهل المشي عليه وقيل الضمير

يعود على الربط لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجرأة ثبت الأقدام في مواطن القتال .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 12 إلى 14]

(232/312)

إذ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ذَلِكَ بَأْتُهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13) ذَلِكَمُ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ  
النَّارِ (14)

اللغة :

(البنان) : الأصابع كما في المصباح أو أطرافها ، الواحدة : بنانة .

وقال أبو الهيثم : البنان : المفاصل وكل مفصل بنانة . وقيل : البنان الأصابع من اليدين

والرجلين وجميع المفاصل من كل الأعضاء .

أقوا

: خالفوا والمشاقة مشتقة من الشق لأن كلا المتعادين في عدوة خلاف عدوة صاحبه

وكذلك المخاصمة لأن هذا في خصم أي في جانب وذلك في خصم .

الاعراب :

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ) الظرف يجوز أن يكون بدلا ثالثا من إذ يعدكم ويجوز أن ينتصب بيثبت أو أن يكون معمولا محذوف ، أي : " اذكر " وجملة يوحى ربك في محل جر بالإضافة ، والى الملائكة جار ومجرور متعلقان بيوحي ، وأني وما في حيزها مفعول يوحى ومعكم ظرف متعلق بمحذوف خبر أني (فَثَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) الفاء الفصيحة أي إذا ثبت هذا فثبتوا الذين آمنوا بتبشيرهم بالنصر ، والذين مفعول به وجملة آمنوا لا محل لها لأنها صلة الموصول (سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ) يجوز أن تكون الجملة تفسيرا لقوله :

(233/312)

---

إني معكم فثبتوا ، ولا معونة أوكد وأجدى من إلقاء الرعب في قلوب الأعداء ، ويجوز أن تكون مستأنفة ، وفي كلتا الحالين لا محل لها من الاعراب ، وفي قلوب جار ومجرور متعلقان بألقي ، والرعب مفعول به لألقي ، وجملة كفروا لا محل لها لأنها صلة الموصول (فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) فعل أمر وفاعل ، وفوق ظرف متعلق باضربوا والمفعول به محذوف ، أي فاضربوهم فوق الأعناق ، ويجوز أن تكون " فوق " مفعولا به

على الاتساع لأنه عبارة عن الرأس .

كأنه قيل : فاضربوا فوق رؤوسهم وهذا ما اختاره الزمخشري ، قال :

"أراد أعالي الأعناق التي هي المذابح لأنها مفاصل فكان إيقاع الضرب فيها حزا وتطييرا

للرؤوس ، وقيل : أراد الرؤوس لأن نها فوق الأعناق بمعنى ضرب الهام ، قال عمرو بن

الاطنابة :

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيع

وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح

لأدفع عن مآثر صالحات وأحجب بعد عن عرض صحيح

لِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

اسم الاشارة مبتدأ ، والاشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعذاب وبأنهم خبره ،

وجملة شاقوا الله ورسوله خبر أن ، ولفظ الجلالة مفعول به ، ورسوله عطف عليه .

مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

الواو استئنافية ، ومن شرطية مبتدأ ، ويشاقون فعل الشرط ، والفاء رابطة ، وإن واسمها

، وخبرها ، وفعل الشرط وجوابه خبر " من " ، والشرط هنا تكملة لما قبله وتكرير

لمضمونه (ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ) اسم الاشارة مبتدأ ، والخطاب للكفرة

على طريق الالتفات ، والخبر محذوف تقديره :

العقاب ، ولك أن تعرب اسم الإشارة خبرا مبتدأ محذوف ، أي :  
العقاب ذلكم ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الاشتغال ، كقولك :

(234/312)

زيدا فاضربه ، وعلى كل حال فالفاء استئنافية ، وذوقوه كلام مستأنف ، وأن عطف على ذلكم في أوجهه الثلاثة ، وللكافرين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر " أن " المقدم ، وعذاب النار اسمها المؤخر ، والمعنى : ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل .

البلاغة :

في هذه الآيات فنون عديدة من البلاغة ، المعنا إليها خلال الاعراب لعلاقتها به ، وهي المجاز والالتفات والاستعارة في قوله : " فذوقوه " ، وقد تقدمت هذه الفنون في مواطنها .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 15 إلى 18]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ (15) وَمَنْ يُولُوهُمْ يُومِدْ  
دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ وَبَسَّ الْمَصِيرُ  
(16) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ  
مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18)



اللغة :

(زَحْفًا) : الزحف مصدر زحف ، وفي المصباح : زحف القوم زحفا من باب نفع وزحوا  
، ويطلق على الجيش الكثير زحف تسمية بالمصدر ، والجمع : زحوف ، مثل فلس وفلوس  
، والصبي يزحف على الأرض قبل أن يمشي .

(مُتَحَرِّفًا) : منعطفًا ، أو هو الكرّ بعد الفرّ ، ليخيل لعدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه ، وهو  
باب من خدع الحرب ومكايدها .

(مُتَحَيِّزًا) : منحازًا منضمًا ، والتحيز والتحوّز : الانضمام ، وتحوّزت الحية : انطوت ،  
وحزت الشيء : ضمته ، والحوزة ما يضم الأشياء . وأصل متحيز : متحيوز ،  
فاجتمعت الياء والواو ، وسبقت إحداها بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء  
بالياء .

الاعراب :

)

(235/312)

---

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) : تقدم إعرابها كثيرا (إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ) إذا ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط ، وجملة لقيتم في محل جر بالإضافة ، والذين مفعوله ، وجملة كفروا صلة ، وزحفا حال من الذين ، أي : حال كونهم زاحفين ، وقيل : انتصب " زحفا " على المصدر بحال محذوفة ، أي : زاحفين زحفا ، وهذا الذي قيل محكم ، فحرم الفرار عند اللقاء بكل حال ، والفاء رابطة ، ولا ناهية ، وتولوهم فعل مضارع مجزوم بلا ، والواو فاعل ، والهاء مفعول به ، والأدبار : مفعول به ثان (وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ)

(236/312)

الواو استئنافية ، ومن شرطية مبتدأ ، ويولم فعل وفاعل مستتر ومفعوله الأول ، ودبره مفعول يولم الثاني ، ويومئذ ظرف مضاف لظرف وهو متعلق بيولم (إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ) " إلا " يجوز أن تكون أداة حصر لتقدم النهي ، ومتحرفا حال ، ويجوز أن تكون " إلا " أداة استثناء ، ومتحرفا مستثنى من ضمير المؤمنين ، ولقتال جار ومجرور متعلقان ب " متحرفا " ، أو متحيزا إلى فئة عطف على سابقه (فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ) الفاء رابطة لجواب الشرط لاقتران الجواب بقد ، وباء : فعل ماض ، وبغضب جار ومجرور

متعلقان بياء أو بمحذوف حال ، ومن الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ، والجملة  
في محل جزم جواب الشرط (وَمَا أُوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُسُّ الْمَصِيرِ) الواو استئنافية أو عاطفة ،  
وماواه مبتدأ ، وجهنم خبره ، وبس فعل ماض جامد لإنشاء الذم ، والمصير فاعل بس ،  
والمخصوص بالذم محذوف ، أي : مصيرهم (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ) الفاء الفصيحة  
، أي : إذا اقتحرت بقتلهم فلم تقتلوهم ، فقد وقعت جوابا لشرط مقدر ، ولم حرف نفي  
وقلب وجزم ، وتقتلوهم فعل مضارع مجزوم بلم ، والواو حرف عطف ، ولكن حرف مشبه  
بالفعل ، وقد جاءت أحسن مجيء لوقوعها بين نفي وإثبات ، والله اسمها ، وجملة قتلهم  
خبرها (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) عطف على ما تقدم ، وإذ ظرف لما مضى  
من الزمن متعلق برميت ، والواو عاطفة ولكن واسمها ، وجملة رمى خبرها (وَلِيُبْلِيَ  
الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) الواو عاطفة ، واللام للتعليل ، ويبلي فعل  
مضارع منصوب بأن مضمرة ، وأن وما في حيزها في محل جر باللام متعلقان بفعل محذوف ،  
تقديره :

(237/312)

---

فعل ذلك ، والمؤمنين مفعول به ، وبلاء مفعول مطلق ، والبلاء هنا محمول على النعمة لأنه يقع

على النعمة والمحنة معا ، لأن أصله الاختبار ،

فهو مردوده ، وحسنا صفة ، وإن الله سميع عليم عطف على ما تقدم ، وإن واسمها

وخبرها (ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ) تقدم إعراب نظير اسم الإشارة ، فهو مبتدأ

، وخبره محذوف ، أي ذلكم الإبلاء حق ، وأن الله أن وما في حيزها عطف على ذلكم ،

وموهن خبر " أن " ، وكيد الكافرين مضاف لموهن ، والإشارة للقتل والرمي والإبلاء ،

ويجوز أن تكون " أن " وما في حيزها عطف على " وليبلي " أو في محل نصب بفعل مقدر ،

أي : واعلموا أن الله .

البلاغة :

1- فن التعريض :

في قوله تعالى " ومن يولهم يومئذ دبره " فن يقال له : فن التعريض وبعضهم يدخله في ضمن

الكناية ، قال السعد التتازاني :

" الكناية إذا كانت عرضية مسوقة لأجل موصوف غير مذكور كان المناسب أن يطلق

عليها اسم التعريض ، فقال عرضت لفلان وعرضت بفلان ، إذا قلت قولاً وأنت تعنيه

فكأنك أشرت إلى جانب وتريد جانبا آخر ، ومنه المعارض في الكلام ، وهي التورية

بالشيء عن الشيء " وقال الزمخشري : " الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ،

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك  
لأسلم عليك ، فكأنه أمال الكلام إلى عرض يدل على المقصود ، وعرض الشيء بالضم  
ناصيته من أي وجه جئت .

وقال ابن الأثير في المثل السائر : " الكناية ما يدل على معنى يجوز حملة على جانب الحقيقة  
والمجاز بوصف جامع بينهما ، ويكون في المفرد

(238/312)

---

والمركب ، والتعريض هو اللفظ الدال على معنى لا من جهة الوضع الحقيقي أو المجازي بل  
من جهة التلويح والإشارة ، فيختص باللفظ المركب ، كقول من يتوقع صلة : والله إني .  
محتاج ، فإنه تعريض بالطلب مع أنه لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً ، وإنما فهم منه المعنى ، من  
عرض اللفظ ، أي : جانبه .

إذا عرفت هذا سهل عليك أن تعرف سر التعريض في هذا التعبير الرشيق بالآية ، فقد ذكر  
لهم حالة تستهجن من فاعلها ، فأتى بلفظ الدبر دون الظهر .  
وقد ولع أبو الطيب بهذا الفن ، فقد قال يعرض بكافور الاخشيدي :  
ومن ركب الثور بعد الجواد أنكر أظلافه والغيب

يريد أن من ركب الثور وكان من عادته أن يركب الجواد ينكر أظلاف الثور وغيبه ، وأما من كان مثل كافور وقد سبق له ركوب الثور فلا ينكر ذلك إن ركبته بعد الجواد . وقال أيضا يستزيد كافورا من الجوائز بعد مدحه :

أبا المسك هل في الكأس فضل أنا له فإني أغني منذ حين وتشرب

يقول مديحي إياك يطربك كما يطرب الغناء الشارب ، فقد حان أن تسقيني من فضل كأسك . ثم قال بعده :

وهبت على مقدار كفي زماننا ونفسي على مقدار كفيك تطلب

2- فن الاستدراك والرجوع :

وهو الكلام المشتمل على لفظة " لكن " ، وهو قسمان : قسم يتقدم الاستدراك فيه تقرير ، وقسم لا يتقدمه ، ومن القسم الثاني قوله تعالى : " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " ، فقد أتى الاستدراك في هذه الكلمات في موضعين كل منهما مرشح للتعطف ، فان لفظة تقتلوهم وقتلهم ، ورميت ورمى ، تعطف .

وهذا أقرب استدراك وقع في الكلام لتوسط حرفه بين لفظي التعطف في الموضعين .

وسياتي مثال القسم الأول قريبا .

ومما ورد منه شعرا قول أبي الطيب :

هم المحسنون الكرّفي حومة الوغى وأحسن منه كرّهم في المكارم

ولولا احتقار الأسد شبّهتها بهم لكنّها معدودة في البهائم  
وما أحسن قول بعضهم في الرأس المصلوب على الرمح :

(239/312)

---

وعاد لكتفه رأس بلا جسد يمشي ولكن على ساق بلا قدم  
إذا تراءى على الخطي أسفر في حال العبوس لنا عن ثغر مبتسم  
الفوائد :

روى التاريخ أنه لما كان يوم أحد أخذ أبي بن خلف يركض فرسه حتى دنا من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، واعترض رجال من المسلمين لأبي بن خلف ليقتلوه ، فقال لهم  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : استأخروا ، فاستأخروا . فأخذ رسول الله صلى الله  
عليه وسلم حربته في يده فرمى بها أبي بن خلف وكسر ضلعا من أضلاعه ، فرجع أبي بن  
خلف إلى أصحابه ثقيلًا ، فاحتملوه حين ولوا قافلين ، فطفقوا يقولون : لا بأس . فقال أبي  
حين قالوا له ذلك : والله لو كانت بالناس لقتلتهم ، ألم يقل إني أقتلك إن شاء الله . فانطلق به  
أصحابه ينعشونه حتى مات ببعض الطريق فدفنوه . قال ابن المسيب وفي ذلك أنزل الله :  
" وما رميت إذ رميت "

[سورة الأنفال (8) : الآيات 19 إلى 23]

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ  
فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا  
تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ  
شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ  
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)

اللغة :

)

(240/312)

---

تَسْتَفْتِحُوا) : تطلبوا الفتح ، أي : القضاء والحكم بينكم وبين محمد بنصر الحق وخذلان  
المبطل ، روي أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة ، وقالوا : اللهم أينما كان أقطع  
للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة . أي : أهلكه .

(الدَّوَابِّ) : جمع دابة . والمراد بها هنا الإنسان . وإطلاق الدابة على الإنسان حقيقي لما

ذكره في كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدميا . وفي المصباح : الدابة كل



حيوان في الأرض مميز أو غير مميز .

الاعراب :

(إِنْ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ) إن شرطية ، وتستفتحوا فعل مضارع مجزوم لأنه فعل

الشرط ، والفاء رابطة لاقتران الجواب بقد ، وقد حرف تحقيق ، وجاءكم الفتح فعل

ومفعول به وفاعل (وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) عطف على ما تقدم ، والإعراب مماثل لما قبله

، واقتران الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية مؤلفة من مبتدأ وخبر . وجملة الجواب في الموضعين

في محل جزم (وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ) عطف أيضا .

وجملة الجواب لا محل لها . (وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ)

عطف أيضا ، وفئتكم فاعل تغني ، وشيئا مفعول مطلق أو مفعول به ، والواو حالية ، ولو

شرطية ، وكثرت فعل الشرط ، والجواب محذوف .

)

(241/312)

---

وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) عطف أيضا ، وفتح همزة " أن " بتقدير اللام ، والتقدير ولأن الله مع

المؤمنين ، والله اسم أن ومع ظرف مكان متعلق بمحذوف هو الخبر (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

تقدم إعرابها (أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ) أطيعوا فعل أمر وفاعل ،  
والله مفعول به ، ورسوله عطف على الله ، وجملة ولا تولوا عطف على جملة أطيعوا ، ولا  
ناهية ، وتولوا مضارع مجزوم بلا الناهية ، والواو فاعل ، وعنه جار ومجرور متعلقان بتولوا ،  
وَأَنْتُمْ : الواو حالية ، وَأَنْتُمْ مبتدأ ، وجملة تسمعون خبر (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا  
وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) عطف على ما تقدم ، والكاف اسم بمعنى مثل خبر تكونوا ، وهي  
حرف جر ، والجار والمجرور خبر ، وجملة قالوا صلة ، وجملة سمعنا مقول القول ، والواو  
حالية ، وجملة هم لا يسمعون في محل نصب على الحال .

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

إن واسمها ، وعند الله الظرف متعلق بمحذوف حال ، والصم خبر إن ، والبكم خبر ثان ،  
والذين صفة ، وجملة لا يعقلون صلة (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ) الواو استئنافية ،  
ولو حرف امتناع لامتناع متضمن معنى الشرط ، وعلم الله فعل وفاعل ، وفيهم جار  
ومجرور متعلقان بعلم ، وخيرا مفعول به ، ولأسمعهم : اللام رابطة لجواب لو ، وأسمعهم فعل  
وفاعل مستتر والهاء مفعول به . (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) الواو عاطفة ، ولو  
لمجرد الربط ولا يصح أن تكون امتناعية ، لأنه يصير المعنى : اتقى توليهم لانتفاء إسماعهم ،  
وهذا خلاف الواقع فهي حينئذ لمجرد الربط بمعنى إن ، وأسمعهم فعل ماض والهاء مفعول  
به ، لتولوا : اللام رابطة ، وتولوا فعل ماض وفاعل ، والواو حالية ، وهم

معرضون مبتدأ وخبر والجملة حالية ، والفرق بين الإسماعين أن يراد بالإول : ولو علم الله  
فيهم خيرا لأسمعهم إسماعا يخلق لهم به الهداية والقبول ، ولو أسمعهم لا على أنه يخلق لهم  
الاهتداء بل إسماعا مجردا من ذلك لتولوا وهم معرضون .

الفوائد :

قال ابن هشام :

" لهجت الطلبة بالسؤال عن قوله تعالى : " ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا  
" وتوجيهه أن الجملتين يتركب معهما قياس ، وحينئذ فنتج : لو علم الله فيهم خيرا لتولوا ،  
وهذا مستحيل .

والجواب من ثلاثة أوجه : اثنان يرجعان إلى نفي كونه قياسا ، وذلك بإثبات اختلاف  
الوسط ، أحدهما أن التقدير لأسمعهم إسماعا نافعا ولو أسمعهم إسماعا لتولوا . والثاني أن  
يقدر : ولو أسمعهم ، على تقدير عدم علم الخير فيهم . الثالث بتقدير كونه قياسا متحد  
الوسط صحيح الانتاج ، والتقدير : ولو علم الله فيه خيرا وقتا ما لتولوا بعد ذلك الوقت .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 24 إلى 26]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ  
الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً  
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ  
أَن يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26)

الاعراب :

)

(243/312)

---

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تقدم إعرابها (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) استجيبوا  
فعل أمر وفاعل ، والله جار ومجرور متعلقان باستجيبوا ، وللرسول عطف على لله ، وإذا  
ظرف مستقبل ، وجملة دعاكم في محل جر بالإضافة ، ولما جار ومجرور متعلقان بدعاكم ،  
وجملة يحييكم صلة ما . واختلفوا في قوله " لما يحييكم " ، والأصح أنه عام شامل لكل ما  
فيه حياة القلوب والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة (واعلموا أن الله يحول بين المرء  
وقلبه) واعلموا عطف على استجيبوا ، وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي اعلموا ،  
وجملة يحول خبر أن ، وبين ظرف متعلق بيحول ، والمرء مضاف إليه ، وقلبه عطف على

المرء . وسيأتي معنى المجاز في حيلولة الله بين المرء وقلبه في باب البلاغة (وَأَنَّهُ إِلَيْهِ  
تُحْشَرُونَ) عطف على أن الله ، وإليه جار ومجرور متعلقان بتحشرون ، وجملة تحشرون  
خبر أن (وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) واتقوا عطف على استجبوا  
واعلموا ، وقتنة مفعول به ، وجملة لا تصيبن صفة لفتنة ، و"لا" على ذلك نافية ، ويجوز أن  
تكون معمولا لقول محذوف ، وتكون لانهية ، وذلك القول هو الصفة ، أي : فتنة مقولا فيها  
: لا تصيبن ، والنهي في

الصورة للمصيبة ، وفي المعنى للمخاطبين ، وقد أعربها الزمخشري إعرابا جميلا حيث قال  
: ما نصه بالحرف : وقوله : "لا تصيبن" لا يخلو من أن يكون جوابا للأمر أو نهيا بعد أمر ، أو  
صفة لفتنة . فإذا كان جوابا فالمعنى إن أصابكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها  
تعمكم .

(244/312)

---

وهذا كما يحكى أن علماء بني إسرائيل نهوا عن المنكر تعذيرا فغمهم الله بالعذاب . وإذا  
كانت نهيا بعد أمر فكأنه قيل واحذروا ذنبا أو عقابا ثم ، قيل : لا تعرضوا للظلم فيصيب  
العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة ، وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة

القول ، كأنه قيل ، واتقوا فتنة مقولا فيها لا تصيين ، ونظيره قوله :  
حتى إذا جنّ الظلام واخطط جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قطّ  
والذين مفعول به ، وجملة ظلّموا صلة ، ومنكم حال ، وخاصة منصوبة على الحال من  
الفاعل المستتر في قوله : لا تصيين ، وأصلها أن تكون صفة لمصدر محذوف ، تقديره :  
إصابة خاصة (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) أن وما في حيزها سدت مسد مفعولي  
اعلموا (وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ) واذكروا عطف على اعلموا ، واذ  
نصب الظرف هنا على أنه مفعول به لا ظرف ، أي : اذكروا وقت كونكم أقلّة مستضعفين ،  
وجملة أنتم قليل مضافة للظرف ، وأنتم مبتدأ أخبر عنه بثلاثة أخبار ، وهي قليل  
ومستضعفون وفي الأرض (تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ) جملة تخافون صفة كالتي قبلها ،  
أي : خائفون ، ويجوز أن تكون حالا من الضمير في " قليل " و " مستضعفون " ،  
وأن وما في حيزها مفعول تخافون ، والناس فاعل يتخطفكم (فَأَوَّكِمُ وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ  
وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الفاء عاطفة ، وأوأكم فعل ماض وفاعل مستتر ،  
وعطف عليه ما بعده ، ولعل واسمها ، وجملة تشكرون خبرها .

الفوائد :

قال ابن هشام في المغني ما نصه : " قوله تعالى : " لا تصيين الذين ظلّموا منكم خاصة " فإنه  
يجوز أن تقدر لا ناهية أو نافية ، وعلى الأول فهي مقولة لقول محذوف هو الصفة ، أي : فتنة

مقولا فيها ذلك ، ويرجحہ أن توكيد الفعل بالنون بعد لا الناهية قياس ، نحو :

”

(245/312)

---

ولا تحسبن الله غافلا " وعلى الثاني فهي صفة لفتنة ، ويرجحہ سلامته من تقدير القيد الثاني صلاحيتها للاستغناء عنها ، وخرج بذلك الصلة ، وجملة الخبر ، والجملة المحكية بالقول ، فإنها لا يستغنى عنها ، بمعنى أن معقولية القول متوقفة عليها .

وقال أبو حيان : " والجملة من قوله " لا تصيبين " خبرية صفة لقوله : " فتنة " ، أي : غير

مصيبة الظالم خاصة . إلا أن دخول نون التوكيد على المنفي ب " لا " مختلف فيه ،

فالجمهور لا يجزونه ، ويحملون ما جاء منه على الضرورة أو الندور . والذي نختاره الجواز

، وإليه ذهب بعض النحويين . وإذا كان قد جاء لحاقها الفعل منفياب " لا " مع الفصل ،

نحو قوله :

فلاذا نعيم يتركن لنعيمه وإن قال قرظني وخذ رشوة أباي

ولا إذا بئس يتركن لبؤسه فينفعه شكوى إليه إن اشتكى

فلأن تلحقه مع غير الفصل أولى ، نحو : ولا تصيبين .

البلاغة :

1- المجاز في قوله تعالى : " يحول بين المرء وقلبه " . فأصل الحول تغير الشيء وانفصاله عن

غيره ، وباعتبار التغير قيل : حال الشيء يحول ، وباعتبار الانفصال قيل : حال بينهما  
فحقيقة كون الله يحول بين المرء وقلبه أنه يفصل بينهما ، فهو مجاز مرسل عن غاية القرب من  
العبد ، لأن من فصل بين شيئين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر لاتصاله بهما ، فالعلاقة  
الحلية أو السببية . ويجوز أن يكون الكلام استعارة تمثيلية لغاية قربه من العبد ، واطلاعه  
على مكنونات القلوب وسرائر النفوس .

2- واختلف في " لا " من قوله تعالى : " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة "

على قولين :

(246/312)

---

أ- أن " لا " ناهية ، وهو نهى بعد أمر ، أي : إنه كلام منقطع عما قبله ، كقولك : صلّ  
الصبح ولا تضرب زيدا ، فالأصل : اتقوا فتنة ، أي : عذابا ، ثم قيل : لا تعرضوا للفتنة  
فتصيب الذين . . . إلخ ، وعلى هذا فالإصابة بالمعرضين . وتوكيد الفعل بالنون واضح  
لاقترانه بحرف الطلب ، مثل : " ولا تحسبن الله غافلا " ، ولكن وقوع الطلب صفة للنكرة



ممتنع ، فوجب إضمار القول ، أي : واتقوا فتنة مقولا فيها ذلك ، كما قيل في قوله :

حتى إذا جن الظلام واخطط جاءوا بمدق هل رأيت الذئب قط

ب- أنها نافية ، واختلف القائلون بذلك على قولين : أحدهما أن الجملة صفة لفتنة ، ولا

حاجة إلى إضمار قول ، لأن الجملة خبرية .

فلا الجارة الدنيا بها تلحيتها ولا الضيف فيها إن أناخ محوّل

بل هو في الآية أسهل ، لعدم الفصل ، وهو فيهما سماعي . والذي جوزته تشبيهه لا النافية بلا

الناهية ، وعلى هذا الوجه تكون الاصابة عامة للظالم وغيره لا خاصة بالظالمين ، كما ذكره

الزمخشري ، لأنها قد وصفت بأنها لا تصيب الظالمين ، خاصة ، فكيف تكون مع هذا

خاصة بهم ! والثاني أن الفعل جواب الأمر ، وعلى هذا فيكون التوكيد أيضا خارجا عن

القياس وشاذا . وممن ذكر هذا الوجه الزمخشري ، وهو فاسد ، لأن المعنى حينئذ : فإنكم

إن تقوها لا تصب الظالم خاصة . وقوله : إن التقدير :

إن أصابتكم لا تصيب الظالم خاصة ، مردود ، لأن الشرط إنما يقدر من جنس الأمر ، لا

من جنس الجواب .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 27 إلى 29]

(247/312)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) وَعَلِمُوا أَنَّ  
أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ  
يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

الاعراب :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ) لانهائية ، وتخونوا مضارع مجزوم بلا الناهية ،  
والواو فاعل ، ولفظ الجلالة مفعول به ، والرسول عطف على الله (وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ  
تَعْلَمُونَ) الواو يجوز فيها أن تكون واو المعية ، فيكون " تخونوا " منصوبا بأن مضمرة بعدها ،  
لأنها وقعت جوابا للنهي ، ويجوز أن تكون عاطفة فيكون " تخونوا " مجزوما داخلا في حكم  
النهي . ولعل الثاني أولى ، لأن فيه النهي عن كل واحد على حدته ، بخلاف الأول ، فإن فيه  
النهي عن الجمع بينهما . ولا يترتب على النهي عن الجمع بين الشيين النهي عن كل واحد  
على حدته . وأماناتكم مفعول به على تقدير محذوف ، أي أصحاب أماناتكم . وسيأتي  
بحث استعارة الخيانة في باب البلاغة ، وأنتم الواو للحال ، وأنتم مبتدأ ، وجملة تعلمون خبر  
، وجملة أنتم تعلمون حالية ، وحذف مفعول يعلمون للعلم به ، أي تعلمون أن ما وقع منكم  
خيانة .

(وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

واعلموا عطف على مقدم ، وأما كافة ومكفوفة ، وقد سدت مسد مفعولي اعلموا ،  
ولذلك فتحت همزتها ، وسيأتي بحث فتح همزة إن وكسرها في باب الفوائد ، وأموالكم  
مبتدأ ، وأولادكم عطف على " أموالكم " ، وفتنة خبر ، وجعل الأموال والأولاد فتنة لأنهم  
سبب الوقوع في الفتنة ، وهي الإثم والعذاب ، أو محنة وابتلاء من الله ليسبر ، غوركم ،  
ويكثنه حقيقتكم ،

فما عليكم - والأمر بهذه المثابة - إلا توطين النفس على الإخلاص والتزهد في زخارف  
الدنيا ، وعدم الاعتزاز بأباطيلها وأفانيقها ، وأن الله عطف على أنما أموالكم وأولادكم ،  
وأن واسمها ، وعنده الظرف خبر مقدم ، وأجر مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر " أن " ، وفي  
هذا صارف لكم عن حب الدنيا وإيثارها على ما عند الله ، وهو خير وأبقى . وفي هذا  
كله حث على اكتساب الأجر ، وحسن الأحدث ، وخلود الذكر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا إِن شَرِطِيَّة ، وتقفوا فعل الشرط ، ولكم  
جار ومجرور متعلقان بيجعل ، وفرقانا مفعول به ، أي : نصرا يفرق بين الحق والباطل ، وبين  
الكفر بإذلال مشاييعه ، والإسلام بتعزيز مناجديه ، أو منجاة من الشبهات التي تزيع فيها

الضمائر ، وتضل الأفهام ، وتعشو النواظر عن رؤية الحق .

هذا وقد اختلف في "الفرقان" هنا ، فقال بعضهم : هو ما يفرق به بين الحق والباطل ، والمعنى أنه يجعل لهم من ثبات القلوب ، وثقوب البصائر ، وحسن الهداية ، ما يفرقون به بينهما عند الالتباس . وقيل :

الفرقان المخرج من الشبهات ، والنجاة من كل ما يخافونه ، ومنه قول الشاعر :

مالك من طول الأسى فرقان بعد قطين رحلوا وبانوا

ومنه قول الآخر :

وكيف أرجي الخلل والموت طالبي ومالي من كأس المنية فرقان

وقال الفراء : المراد بالفرقان : الفتح والنصر . وقال ابن اسحق :

(249/312)

---

الفرقان الفصل بين الحق والباطل . وقال السدي : الفرقان النجاة .

(وَيُكْفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ) عطف على ما تقدم (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) الواو

استئنافية ، والله مبتدأ ، وذو الفضل خبره ، والعظيم صفة للفضل .

البلاغة :

الاستعارة في " لا تخونوا أماناتكم " فالخون في الأصل هو النقص ، ومنه تخونه إذا تنقصه ، ثم استعير فيما هو ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت النقصان عليه .

وقد استعير أيضا في قولهم خان الدلو الكرب . والكرب هو - كما في الصحاح - حبل يشد في رأس الدلو . وخان المشتار السبب ، والمشتار مجتني العسل ، والسبب الحبل ، وإذا انقطع الحبل فيهما فكأنه لم يقف . والاستعارة هنا تصريرية تبعية .

الفوائد :

مواضع كسر همزة إن :

يجب أن تكسر همزة (إن) حيث لا يصح أن يسد المصدر مسدها ومسدها معمولها ، وذلك في اثني عشر موضعا :

1- أن تقع في ابتداء الكلام حقيقة كقوله تعالى : " إنا أنزلناه في ليلة القدر " أو حكما كقوله

تعالى : " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " .

2- أن تقع بعد " حيث " ، نحو : اجلس حيث إن العلم موجود .

3- أن تقع بعد " إذ " ، نحو جئت إذ إن الشمس تطلع .

4- أن تقع تالية للموصول ، نحو " وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة " .

5- أن تقع جوابا للقسم نحو: والله إن العلم نور، وقوله تعالى: "والعصر إن الإنسان لفي خسر".

6- أن تقع بعد القول محكية به، كقوله تعالى: "قال: إني عبد الله" فإن كان القول بمعنى الظن لم تكسر، مثل أتقول أن عبد الله يقول كذا؟ أي: أنظن. وإن كانت غير محكية بالقول لم تكسر أيضا، نحو: أخصك بالقول أنك فاضل، فهي هنا بمعنى التعليل، أي: لأنك فاضل، فهي مع ما في حيزها منصوبة بنزع الخافض.

(250/312)

---

7- أن تقع مع ما بعدها حالا، نحو: جئت وإن الشمس تغرب، ومنه قوله تعالى: "كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون".

8- أن تقع مع ما بعدها صفة لما قبلها، نحو: جاء رجل إنه فاضل.

9- أن تقع صدر جملة استئنافية، نحو: فلان يزعم أنني أسأت إليه، إنه لكاذب. وهذه من الواقعة ابتداء.

10- أن تقع في خبرها لام الابتداء أو اللام المزحلقة، كما يسميها النحاة كقوله تعالى "والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون".

11- أن تقع مع ما في حيزها خبرا عن اسم ذات ، نحو علي إنه فهفل . ومنه قوله تعالى : " إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم " ، فجملة :

" إن الله يفصل بينهم " خبر إن الذين آمنوا ، وما عطف عليه ، لأنها أسماء .

12- أن تقع بعد "كلا" الرادعة ، كقوله تعالى : " كلا إن الإنسان ليطغى " .  
مواضع فتح همزة أن :

ويجب فتح همزة (أن) حيث يصح أن يسد المصدر مسدها ومسد معموليها ، وذلك في أحد عشر موضعا :

1- أن تكون وما في حيزها في موضع الفاعل ، نحو : بلغني أنك مجتهد ، ومنه قوله تعالى : " أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب " .

ومن ذلك أن تقع بعد "لو" ، نحو " ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير " فما بعد " أن " في تأويل مصدر مرفوع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت ، واللام لام الجواب فالجملة بعدها جواب " لو " .

2- أن تكون وما في حيزها في موضع نائب الفاعل ، نحو قوله تعالى " قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن " أي استماع نفر .

3- أن تكون هي وما في حيزها في موضع المبتدأ ، كقوله تعالى : " ومن آياته أنك ترى

الأرض خاشعة" فالجار والمجرور خبر مقدم، وما بعد "أن" في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر  
، أي: رؤيتك الأرض خاشعة من آياته .

(251/312)

---

4- أن تكون هي وما بعدها في موضع الخبر عن اسم معنى غير قول ولا صادق عليه ، أي  
على اسم المعنى خبرها نحو: اعتقادي أنه فاضل ، فيجب فتحها لأنها خبر "اعتقادي"  
، وهو اسم معنى ، غير قول ولا صادق ، على اعتقادي خبرها ، لأن "فاضل" لا يصدق  
على الاعتقاد .

وانما فتحت لسد المصدر مسدها ومسد معموليها ، والتقدير ، اعتقادي فضله أي  
معتقدي ذلك . ولم يجز كسرهما على أن تكون مع معموليها جملة مخبرا بها عن اعتقادي ،  
لعدم الرابط ، لأن اسم "أن" لا يعود على المبتدأ الذي هو اعتقادي ، لأن خبرها غير  
صادق عليه ، فهو يعود على غيره ، فتبقى الجملة بلا رابط ، بخلاف: قولي: إنه فاضل ،  
فيجب كسرهما ، لأنها وقعت خبرا عن "قولي" ولا تحتاج إلى رابط لأن الجملة إذا قصد  
حكاية لفظها كانت نفس المبتدأ في المعنى ، والتقدير: قولي هذا اللفظ لا غيره ، وبخلاف:  
"اعتقاد زيد إنه حق" فيجب كسر همزة "إنه" أيضا ، لأن خبرها وهو صادق على



الاعتقاد ، ولا مانع من وقوع جملة إن ومعموليهما خبرا عن المبتدأ ، لأن اسم إن رابط بينهما ، ولا يصح فتحها لأنه يصير اعتقاد زيد كون اعتقاده حقا ، وذلك لا يفيد ، لأن الخبر لا بد أن يستفاد منه ما لا يستفاد من المبتدأ .

5- أن تكون هي وما في حيزها في موضع تابع لرفوع على أنه معطوف عليه أو بدل منه ، نحو بلغني اجتهادك وأنتك حسن الخلق ، والتأويل : بلغني اجتهادك وحسن خلقك ، فهو معطوف عليه ، ونحو :

يعجبني سعيد أنه مجتهد ، والتأويل يعجبني سعيد اجتهاده فالمصدر المؤول بدل اشتمال من " سعيد " .

6- أن تكون هي وما في حيزها في موضع المفعول به ، كقوله تعالى " ولا تخافون أنكم أشركتم بالله " والتأويل : ولا تخافون إشراركم 7- أن تكون هي وما في حيزها في موضع خبرا لكان أو إحدى أخواتها ، نحو : كان يقيني أنك تتبع الحق ، والتأويل : كان يقيني اتباعك للحق .

(252/312)

---

8- أن تكون هي وما في حيزها في موضع تابع لمنصوب بالعطف أو بالبدلية ، كقوله تعالى :

" اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين " والتقدير : اذكروا نعمتي عليكم وتفضيلي إياكم .

وقوله تعالى " وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم " ، والتقدير - كما تقدم - يعدكم إحدى الطائفتين كونها لكم ، فما بعد أن في تأويل مصدر منصوب بدل اشتمال من إحدى .

9- أن تقع بعد حرف الجر كقوله تعالى : " ذلك بأن الله هو الحق " .

10- أن تقع هي وما في حيزها في موضع المضاف إليه ، كقوله تعالى : " إنه لحق مثلما أنكم تنطقون " ، أي مثل نطقكم .

11- أن تقع هي وما في حيزها في موضع تابع لجرور بالعطف أو بالبدلية ، نحو سررت من أدب علي وأنه عاقل ، والتقدير : سررت من أدب علي وعقله . ونحو : عجبت منه أنه مهمل ، والتقدير : عجيب منه إهماله ، والمعنى : عجبت من إهماله . فما بعد " أن " في تأويل مصدر مجرور بدل اشتمال من الهاء في " منه " .

المواضع التي يجوز فيها الكسر والفتح :

ويجوز الأمران : كسر همزة إن وفتحها حيث يصح الاعتباران :

التأويل بمصدر ، وعدم التأويل ، وذلك في تسعة مواضع :

1- بعد " إذا " الفجائية ، نحو : خرجت فإذا أن سعيدا واقف ، فالكسر على معنى :  
فإذا سعيد واقف ، والفتح على تأويل ما بعدها بمصدر مبتدأ محذوف الخبر ، والتأويل :  
فإذا وقوفه حاصل .

وقد روي بالوجهين قول الشاعر :

وكنت أرى زيدا ، كما قيل سيذا إذا أنه عبد القفا واللهازم  
أنشده سيبويه ولم يعزه إلى أحد ، وأرى بضم الهمزة ، وأصله :

(253/312)

---

يريني الله ، فعمل فيه العمل المشهور من ضم أوله وفتح ما قبل آخره وحذف الفاعل ، وزيد  
على ذلك هنا ابدال الياء همزة للاحتياج إلى ذلك ، لأنه لما حذف الفاعل وأنيب المفعول به  
لزم إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم ، ولا يسند له إلا المبدوء بالهمزة ، فحذفت الياء واتي  
بالهمزة عوضها ، وهو متعد إلى ثلاثة مفاعيل ، الأول هو النائب عن الفاعل ، والثاني "  
زيدا " ، والثالث " سيذا " ، وجملة " كما قيل " اعتراضية ، فالكسر على معنى الجملة ،  
أي فإذا هو عبد القفا ، والفتح على معنى الأفراد ، أي : فالعبودية حاصلة ، على جعلها  
مبتدأ حذف خبره ، كما تقول : خرجت فإذا الأسد ، أي : حاضر . واللهازم جمع لهزمة ،

بكسر اللام والزاي ، وهي عظم ناتئ تحت الأذن . والمعنى : كنت أظن سيادته فلما نظرت إلى قفاه ولهازمه تبين لي عبوديته وكفى عن ذلك بأنه يضرب على قفاه ولهزمته ، والقفاه موضع الصفع .

2- بعد فاء الجزاء ، كقوله تعالى : " من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم " ، قرئ بكسر " إن " وفتحها ، فالكسر على جعل ما بعد فاء الجزاء جملة تامة ، والمعنى : فالغفران والرحمة حاصلان ، والفتح على تقدير أن ومعمولها خبرا لمبتدأ محذوف ، والمعنى : فالحاصل الغفران والرحمة ، أو مبتدأ والخبر محذوف ، والمعنى : فالغفران والرحمة حاصلان .

3- أن تقع مع ما في حيزها في موضع التعليل كقوله تعالى : " صل عليهم إن صلاتك سكن لهم " ، فالكسر على أنها جملة تعليلية ، والفتح على تقدير لام التعليل الجارة ، أي : لأن صلاتك سكن لهم .

ومنه الحديث الشريف : " لبيك إن الحمد والنعمة لك " ، يروى بكسر " إن " وفتحها ، فالكسر على أنه تعليل مستأنف ، والفتح على تقدير لام العلة .

4- أن تقع بعد فعل قسم ولا لام بعدها ، كقول رؤبه :

أو تحلفي بربك العليّ أني أبو ذئالك الصبي

---

يروى بكسر "إن" وفتحها فالكسر على الجواب للقسم، والفتح بتقدير "على".

5- أن تقع خبراً عن قول، ومخبراً عنها بقول، والقائل للقولين واحد، نحو: قولي أني أحمد الله، بفتح همزة "أن" وكسرها. فالفتح على حقيقته من المصدرية، أي قولي حمداً لله، والكسر على معنى المقول، أي: مقولي إني أحمد الله.

6- أن تقع بعد واو مسبوقه بمفرد صالح للعطف عليه، كقوله تعالى: "إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظماً ولا تضحى"، قرأ نافع وأبو بكر بالكسر في "وإنك لا تظماً" إما على الاستئناف أو العطف على جملة "إن الأولى"، وعليهما فلا محل لها من الإعراب.

وقرأ الباقر من السبعة بالفتح بالعطف على "أن لا يجوع" من عطف المفرد على مثله، والتقدير: أن لك عدم الجوع وعدم الظماً.

7- أن تقع بعد "حتى"، ويختص الكسر بالابتدائية، نحو:

مرض زيد حتى إنهم لا يرجونه، ويختص الفتح بالجارة والعاطفة، نحو: عرفت أمورك حتى أنك فاضل ف "حتى" في هذا المثال تصلح لأن تكون جارة ولأن تكون عاطفة، وأن فيهما مفتوحة.

8- أن تقع بعد "أما" بفتح الهمزة وتخفيف الميم، نحو:

أما أنك فاضل فالكسر على أن "أما" حرف استفتاح بمنزلة "ألا" وتلك تكسر "إن" بعدها ، والفتح على أنها مركبة من همزة الاستفهام و"ما" العامة بمعنى شيء ، وصارا بعد التركيب بمعنى : أحقا .

9- أن تقع بعد "لا جرم" ، نحو قوله تعالى : "لا جرم أن الله يعلم ما يسرون" ، والغالب الفتح ، ووجهه أن تجعل ما بعد "أن" مؤولا بمصدر مرفوع فاعل لجرم ، وجرم معناه ثبت وحق ، وأصل الجرم القطع ، وعلم الله بالأشياء مقطوع به ، لأنه حق وثابت ، ولا حرف نفي للجواب يراد به كلام سابق ، فكأنه قال : لا ، أي : ليس الأمر كما زعموا ، ثم قال جرم ان الله يعلم ، أي حق وثبت علمه .

(255/312)

---

وسياتي مزيد من القول في "لا جرم" عند الكلام عليها في موضعها .

تنبيه لا بد منه :

حيث جاز فتح "إن" وكسرها فالكسر أولى وأكثر لعدم تكلفه ، إلا إذا وقعت بعد "لا جرم" كما علمت .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 30 إلى 31]

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ  
الْمَاكِرِينَ (30) وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا  
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31)

اللغة:

(أساطير): جمع أسطورة، كأحد وثة وأحاديث: ما سطر وكتب من القصص

والأخبار.

الاعراب:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ) الظرف مفعول به لأذكر مقدرة،

والمعنى: واذكريا محمد إذ يمكر بك الذين كفروا. والمكر الاحتيال في إيصال الضرر

للآخرين. وقصة هذا المكر في المطولات. وجملة يمكر مضاف إليها الظرف، وبك متعلق

بيمكر، والذين فاعل يمكر، وجملة كفروا صلة الموصول، واللام للتعليل، ويثبتوك منصوب

بأن مضمرة بعد لام التعليل، أو يقتلوك عطف عليه، أو يخرجوك عطف أيضا. والمعنى:

اذكري إذ اجتمعوا في

(256/312)

دار الندوة- وهي أول دار بنيت بمكة- ليثبتوك، أي: يوثقوك ويحبسوك، أو يقتلوك كلهم  
قتلة رجل واحد، أو يخرجوك من مكة (وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) الواو  
استئنافية، ويمكرون فعل مضارع، والواو فاعل، ويمكر الله عطف، والله مبتدأ، وخير  
الماكرين خبره، وسيأتي بحث هذا في باب البلاغة (وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا)  
الواو استئنافية، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة تلى مضاف إليها  
الظرف، وعليهم جار ومجرور متعلقان بتلى، وآياتنا نائب فاعل، وجملة قالوا لا محل لها  
لأنها جواب شرط غير جازم، وجملة قد سمعنا مقول القول (لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا) لو  
شرطية، ونشاء فعل الشرط، واللام رابطة، وجملة قلنا لا محل لأنها جواب شرط غير  
جازم، ومثل صفة لمفعول مطلق، أي: قولاً مثل هذا (لِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) إن نافية  
، وهذا مبتدأ، وإلا أداة حصر، وأساطير الأولين خبر هذا.

البلاغة:

1- يحتمل قوله " ويمكر الله " أن يكون استعارة تبعية من إطلاق المكر على الرد، لأنه لما  
كان معنى المكر حيلة يجلب بها مضرة إلى الآخرين، وهو ما لا يجوز في حقه تعالى، كان  
المراد بمكر الله رد مكرهم، أي عاقبته ووخامته عليهم. ويجوز أن يكون من باب المشاكلة  
، وقد تقدم نظيره، كما تقدم الحديث عن هذا الفن، أي:  
ان المراد بمكر الله مجازاتهم على مكرهم بجنسه، على سبيل المجاز المرسل، والعلاقة



السببية . ويحتمل أن يكون الكلام استعارة تمثيلية ، بتشبيه حالة تعليل المسلمين في أعينهم الحامل لهم على هلاكهم بمعاملة الماكر المحتال الذي يظهر خلاف ما يبطن .

(257/312)

2- في قوله تعالى " قد سمعنا لونها مثل هذا " فن يسمى التغير ، وهو تغاير المذهبين ، أما في المعنى الواحد بحيث يمدح إنسان شيئا أو يذمه أو يذم ما مدحه غيره ، أو بالعكس أو يفضل شيئا على شيء ، ثم يعود فيجعل المفضل فاضلا ، والفاضل مفضولا . وقد تقدمت الإشارة إليه مع ذكر نماذج منه . ونقول إن التغير هنا المقصود مغايرتهم أنفسهم ، فقد قالت قریش عن القرآن : " ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين " إنكارا منهم لغرابة أسلوبه وما بهرهم من فصاحته . ويلزم هذا الكلام إقرارهم بالعجز عن محاكاته ، ثم غايرت قریش نفسها فقالت قد سمعنا " لونها مثل هذا " ، ولو كان القولان في وقت واحد لكان ذلك تناقضا ، وهو عيب ، ولم يعد في المحاسن ، لكن وقوعه في زمنين مختلفين ووقتین متباينین اعتد من المحاسن ، ولذلك سمي تغايرا لا تناقضا .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 32 إلى 34]

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا

بِعَذَابِ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ  
(33) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصَدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ  
إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34)

الاعراب :

)

(258/312)

---

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ إِذْ مَنْصُوبٌ بِأَذْكَرٍ مَحذُوفَةٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ  
الْقَوْلُ فِيهَا مَشْبَعًا ، وَجُمْلَةٌ قَالُوا مُضَافٌ إِلَيْهَا الظَّرْفُ ، وَاللَّهُمَّ مَنَادَى مَفْرَدٌ عِلْمٌ حَذَفَتْ مِنْهُ  
" يَا " وَعَوِضَتْ عَنْهَا المِيمُ المَشْدُودَةُ ، وَإِنْ شَرْطِيَّةٌ ، وَكَانَ فِعْلٌ مَاضٍ نَاقِصٌ فِي مَحَلِّ جَزْمِ فِعْلِ  
الشَّرْطِ ، وَهَذَا اسْمُهَا ، وَهُوَ ضَمِيرُ فَصْلِ ، وَالْحَقُّ خَبَرٌ كَانَ وَمِنْ عِنْدِكَ جَارٌ وَمَجْرُورٌ  
مَتَعَلِّقَانِ بِمَحذُوفٍ حَالٍ (فَأَمْطَرْنَا عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ) الْفَاءُ رَابِطَةٌ ، وَأَمْطَرَ فِعْلٌ أَمْرٌ ،  
وَعَلَيْنَا جَارٌ وَمَجْرُورٌ مَتَعَلِّقَانِ بِأَمْطَرَ ، وَحِجَارَةٌ مَفْعُولٌ بِهِ ، وَمِنْ السَّمَاءِ صِفَةٌ لِحِجَارَةٍ ،  
وَالجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ جَزْمِ جَوَابِ الشَّرْطِ (أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ) أَوْ حَرْفٌ عَطْفٌ ، وَاتَتْ فِعْلٌ أَمْرٌ  
مَبْنِيٌّ عَلَى حَذْفِ حَرْفِ الْعِلَّةِ ، وَالْفَاعِلُ مُسْتَرٌ ، وَبِعَذَابِ جَارٌ وَمَجْرُورٌ مَتَعَلِّقَانِ بِأَتَيْنَا ،

وأليم صفة. (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) الواو استئنافية، وما نافية، وكان واسمها، واللام لام الجحود، ويعذبهم منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، والجار والجرور متعلقان بمحذوف خبر كان، وأنت فيهم الواو للحال، والجملة الاسمية من المبتدأ والخبر حالية (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) عطف على الجملة السابقة، وهم يستغفرون في موضع الحال، ومعناه نفى الاستغفار عنهم، أي: ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم، ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون، ولا يتوقع ذلك منهم. (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ) الواو عاطفة، وما اسم استفهام إنكاري للنفي مبتدأ، ولهم خبر، وأن لا يعذبهم الله أن وما في حيزها مصدر منصوب بنزع الخافض، متعلق بما تعلق به الجار والجرور السابق، أو بمحذوف حال، على حد قوله:

تقول سليمان ما لجسمك شاحبا كأنك يحميك الطعام طيب

(259/312)

---

والمعنى: وكيف لا يعذبون، وأي شيء ثبت واستقر لهم في أن لا يعذبوا، أي: ليس ثمة ما يمنع من حيلولة عذابه بهم (وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) الواو للحال، وجملة هم يصدون حالية، والمعنى وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما

صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية (وَمَا كُنَّا أَوْلِيَاءَهُ) الواو عاطفة أو  
حالية، وكانوا أولياءه كان واسمها وخبرها (إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) إن نافية، وأولياءه  
مبتدأ، وإلا أداة حصر، والمتقون خبر "أولياءه" (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) لكن واسمها،  
والجملة خبرها، والواو حالية أو استئنافية.

البلاغة:

في قوله تعالى "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم" إلخ فن عجيب يسمى "فن التنكيت".  
وحده أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذکر دون غيره مما يسد مسده، لأجل نكته في المذكور  
ترجح مجيئه على سواه، فإن لقائل أن يقول: ما النكته التي رجحت اختلاف الصيغتين من  
الفعل وهو "يعذبهم"، واسم الفاعل وهو "معذبهم" على اتفاهما، مع اتفاق زمانيهما،  
فإن مدة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم في مخاطبين منقسمة على الحال والاستقبال،  
وكذلك مدة الاستغفار، وهل يجوز مجيء كل واحدة من الصيغتين في مجاز الأخرى أم لا  
يجوز إلا ما جاء به الرسل؟ أو هل يجوز الاقتصار على الفعل الدال على الزمانين دون اسم  
الفاعل أم لا؟ والجواب أن معرفة النكته رجحت مجيء الكلام على ما جاء عليه بحيث لا  
يجوز غيره أن مخاطبين به هم المنافقون الذين لم يؤذن النبي صلى الله عليه وسلم في إهمالهم  
مدة مقامه

فيهم ، لا من قبل نزول الآية ولا من بعدها . والخبر الصادق يجب أن يكون طبق المخبر ،  
ولما كان الرابع الذي أمر الخبير به نفي تعذيبهم في الماضي والحال دون الاستقبال فإن الخبر  
الصادق قد أخبر بهم في الاستقبال حيث قال : " وما لهم أن لا يعذبهم الله " اقتضت  
البلاغة مجيء الفعل المضارع الدال - مع الإطلاق - على الزمانين مع القرينة على أحدهما  
بحسب ما يدل عليه واقترن به قوله تعالى : " وأنت فيهم " فأفاد دلالة على الحال دون  
الاستقبال ، ونفي حصول العلم بنفي تعذيبهم فيما مضى من الزمان قبل نزول الآية ، فأتى  
سبحانه بصيغة اسم الفاعل المضاف ليدل على الماضي ، فاقضى حسن الترتيب أن يقدم  
صيغة الفعل لدالتها على الحال الذي هو مدة مقامه فيهم ، لأن نفي العذاب فيما هو  
الأهم . وسيرد من التنكيت في القرآن ما يبهر العقول .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 35 إلى 37]

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (35)  
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ  
يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ  
الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37)

اللغة :

(المكء) : بضم الميم كالثغاء والرغاء من مكاء يمكوا إذا صفر ، ومنه المكاء كأنه سمي

بذلك لكثرة مكائه . قال عنتره :

وحليل غانية تركت مجدلاً تمكوفريسته كشدق الأعلم

أي : ورب زوج امرأة بارعة الجمال ، مستغنية بجمالها عن التزين ، قتله وألقيته على

الأرض ، وكانت فريسته تمكوبانصباب الدم منها ، كشدق الأعلم .

)

(261/312)

---

التصدية) : التصفيق ، وقد اختلف في أصله ، فقيل : هو من الصدى وهو ما يسمع من

رجع الصوت في الأمكنة الصلبة الخالية ، يقال منه : صدّي يصدّي تصدّية ، والمراد بها هنا

ما يسمع من صوت التصفيق بإحدى اليدين على الأخرى . وقيل : هو مأخوذ من التصدد

، وهو الضجيج والصياح والتصفيق ، فأبدلت إحدى الدالين ياء تخفيفاً .

وقيل هو من الصدّ أي المنع ، والأصل تصددة بدالين أيضاً ، فأبدلت ثانيتهما ياء .

وقال ابن يعيش : " فأما التصدية من قوله تعالى : " وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء

وتصدية " فالياء بدل من الدال ، لأنه من صد يصد ، وهو التصفيق والصوت ، ومنه قوله

تعالى: "إذا قومك منه يصدّون" أي: يضجّون ويعجّون، فحوّل إحدى الدالين ياء، هذا قول أبي عبيدة، وأنكر الرّسّمي هذا القول، وقال: إنما هو من الصدى، وهو الصوت. والوجه الأول غير ممتنع لوقوع يصدون على الصوت أو ضرب منه، وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يكون تصدية

منه، فتكون "تفعلة" كالتحة والتعلة، فلما قلبت الدال الثانية ياء امتنع الإدغام لاختلاف اللفظين".

(ركمه): يجمعه متراكما بعضه على بعضه. وفي المختار:

"ركم الشيء إذا جمعه وألقى بعضه على بعض، وبابه نصر. وارتكم الشيء وتراكم اجتمع، والركام بالضم الرمل المتراكم والسحاب ونحوه".

الاعراب:

(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً) الواو استئنافية أو عاطفة، وما نافية، وكان واسمها، وعند البيت الظرف متعلق بمحذوف حال، وإلا أداة حصر، ومكاء خبر كان، وتصدية عطف على مكاء، والمعنى أنهم وضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، وهم مشبكون بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون. وهذا أسلوب بليغ من أساليب العرب على حد قول

الفرزدق :

وما كنت أرجو أن يكون عطاؤه أداهم سودا أو محدرجة حمرا

(262/312)

---

أي : ما كنت أظن أن يكون عطاؤه قيودا سودا أو سياتا مفتولة حمرا ، ويروى : "سمرا"  
، فوضع القيود والسياط موضع العطاء ، ووضع الشاعر الرجاء موضع الظن ، وأطلق  
العطاء على العقاب مجازا .

(فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) الفاء الفصيحة ، وذوقوا فعل أمر وفاعل ، والعذاب  
مفعول به ، والباء للسببية ، وما مصدرية ، أي :

سبب كفركم ، وقد تقدمت له نظائر (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ  
اللَّهِ)

إن واسمها ، وجملة كفروا صلة ، وجملة ينفقون أموالهم خبر الذين ، وليصدوا اللام للتعليل ،  
ويصدوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة ، والواو فاعل ، وعن سبيل الله متعلق بيصدوا  
(فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ) الفاء عاطفة ، والسين حرف استقبال ،  
وينفقونها فعل مضارع وفاعل ومفعول به ، ثم حرف عطف للتراخي والترتيب ، وتكون



معطوف على ينفقونها ، واسمها مستتر تقديره هي ، وعليهم متعلقان بمحذوف حال ،  
لأنها كانت في الأصل صفة لحسرة وتقدمت ، وحسرة خبر تكون ، ثم يغلبون عطف على  
ثم تكون ، والواو نائب فاعل (وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) الذين مبتدأ ، وكفروا  
صلة ، وجملة يحشرون خبر الذين ، والى جهنم متعلق بيحشرون (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ  
الطَّيِّبِ) اللام للتعليل ويميز منصوب بأن مضمرة ، والجار والمجرور متعلقان بأحد الأفعال  
المتقدمة ، والله فاعل ، والخبِيث مفعول به ، ومن الطيب متعلق بيميز ، أي الفريق الخبيث  
من الفريق الطيب (وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ) ويجعل عطف على يميز ، والخبِيث  
مفعوله ، وبعضه بدل من الخبيث بدل بعض من كل ، وعلى بعض جار ومجرور متعلقان  
بمحذوف حال ، أو في محل نصب مفعول به ثان ليجعل ، والتقدير :

(263/312)

---

ويجعل بعض الخبيث عاليا على بعض (فَيَرَكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ) الفاء عاطفة ،  
ويركمه عطف على يجعل ، والهاء مفعوله ، وجميعا حال من الهاء في يركمه ، أو توكيد لها ،  
فيجعله عطف على يركمه ، وفي جهنم مفعول به ثان (أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) مبتدأ وخبر  
، وهم ضمير فصل ، أو مبتدأ أول وثان ، والخاسرون خبر الثاني ، والجملة الاسمية خبر

أولئك .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 38 إلى 40]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38)  
وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39)  
وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)

الإعراب :

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ (الجار والمجرور متعلقان بقل ، واختلف في

معنى هذه اللام ، والأرجح أنها للتبليغ ، أمر أن يبلغهم بالجملة المحكية بالقول ، سواء

أوردوها بهذا اللفظ أم بلفظ آخر مؤدّ لمعناها ومضمونها ، واختار الزمخشري أن تكون

للتعليل ، أي : قل لأجلهم هذا القول ، وهو : إن ينتهوا إلخ .

وحجة الزمخشري أنه لو كان بمعنى خاطبهم لقليل : إن انتهوا يغفر لكم .

(264/312)

---

وإن شرطية ، وينتهوا فعل الشرط ، ويغفر بالبناء للمجهول جواب الشرط ، ولهم جار

ومجرور متعلقان بيغفر ، وما اسم موصول نائب فاعل ، وجملة قد سلف صلة . (وإن

يُعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ) الواو عاطفة، وإن شرطية، ويعودوا فعل الشرط،  
ومتعلقة محذوف، أي لقتاله أو للكفر، وكلاهما مراد فقد الفاء رابطة للجواب، وقد  
حرف تحقيق، ومضت سنة الأولين فعل وفاعل ومضاف إليه (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ  
فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) عطف على قل للذين، وأفرد الأمر في الأول لأن الخطاب للنبي  
وحده بما هو داخل في نطاق مهمته، وجمع الأمر في الثاني لأن الخطاب للمؤمنين جميعا،

لتهييجهم إلى

المحاربة، ومقاتلة عدوهم، ومثيري الفتن عامة، وحتى حرف غاية وجر، ولا نافية،  
وتكون منصوبة بأن مضمرة بعد حتى، والجار والمجرور متعلقان بقاتلوهم، وتكون هنا  
تامة، وفتنة فاعل، ويكون عطف على تكون، وهي هنا ناقصة، والدين اسمها، وكله  
توكيد، ولله خبر (فَإِنْ أَنتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) الفاء عاطفة. وإن شرطية،  
وانتهوا فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، والفاء رابطة، وإن واسمها، وبصير خبرها،  
وبما يعملون جار ومجرور متعلقان ببصير، وجملة يعملون صلة (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ  
مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ) عطف على سابقه، والإعراب مماثل، وأن وما في حيزها  
سدت مسد مفعولي فاعلموا، ونعم فعل ماض جامد لإنشاء المدح، والمولى فاعل،  
والمخصوص بالمدح محذوف، أي: هو، ومثله ونعم النصير. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب

القرآن وبيانه ح 3 ص 525.576 ﴿

(265/312)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوي في تفسير القرآن الكريم  
ويُسمى (جَنَّةُ الْمُشْتَأَقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورْسُلِي - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث عشر بعد الثلاثمائة  
حُقوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالتَّشْرِيرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/313)

---

الجزء الثالث عشر بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 41 ﴾ من سورة الأنفال

وحتى الآية ﴿ 42 ﴾ من نفس السورة

(4/313)

قوله تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي  
الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (41)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : فإذا أعانكم مولاكم عليهم وغلبتموهم وغنمتم فيه فلا تنسبوا إلى  
أنفسكم فعلاً ، بل اعلموا أنه هو الفاعل وحده لأن جميع الأفعال متلاشية بالنسبة إلى فعله  
فلا تنازعوا في المغنم تنازع من أخذه بقوته وحازه بقدرته ، عطف عليه قوله :

﴿ واعلموا ﴾ ابتداء بهذا الأمر إشارة إلى أن ما بعدها من المهمات ليبذلوا الجهد في تفرغ  
أذنانهم لوعيه وتنزيله منازل ورعيه ﴿ أنما ﴾ أي الذي ﴿ غنمتم ﴾ الغنيمة لغة : الفوز

بالشيء ، وشرعاً ما دخل في أيدي المسلمين من مال الكفار قهراً بالخيل والركاب ، وزاد في التعميم حتى لأقل ما يمكن بقوله : ﴿ من شيء ﴾ أي حتى الخيط والمخييط فإنه كله له ، لأنه الناصر وحده وإنما أتم آله لا قدرة لكم على مقاومة الأعداء لأنهم جميع أهل الأرض ولا نسبة لكم منهم في عدد ولا قوة أصلاً ، فالجاري على منهاج العدل المتعارف عندكم أن يأخذه كله ولا يمكنكم من شيء منه كما كان فيمن قبلكم ، يعزل فتنزل نار من السماء فتأكله ، ولكنه سبحانه - علم ضعفكم فمنّ عليكم به ورضي منكم منه بالخمسة فسماه لنفسه وردّه عليكم ، وهو معنى قوله : ﴿ فإن لله ﴾ أي الذي له كل شيء ﴿ خمسة ﴾ .

(5/313)

---

ولما كان من المعلوم أن الله تعالى أجل من أن يناله نفع أو ضرر ، كان من المعلوم أن ذكر اسمه سبحانه إنما هو للإعلام بأن إسلام هذا الخمس والتخلي عنه لا حظ للنفس فيه ، وإنما هو لمحض الدين تقرباً إليه سبحانه ، فذكر مصرفه بقوله : ﴿ وللرسول ﴾ أي يصرف إليه خمس هذا الخمس ما دام حياً ليصرفه في مصالح المسلمين ، ويصرف بعده إلى القائم مقامه ، يفعل فيه ما كان - صلى الله عليه وسلم - يفعله ﴿ ولذي القربى ﴾ أي من الرسول ، وهم آل الذين تحرم عليهم الزكاة : بنو هاشم وبنو المطلب ﴿ واليتامى ﴾ أي لضعفهم

﴿ والمساكين ﴾ لعجزهم ﴿ وابن السبيل ﴾ أي المسافر لأن الأسفار مظنات الاقتار ،  
فالحاصل أنه سبحانه لم يبرزكم من المغنم شيئاً ، فاعرفوا فضله عليكم أولاً بالإنعام بالنصر  
، وثانياً بحل المغنم ، وثالثاً بالإمكان من الأربعة الأخماس ، ورابعاً برد الخمس الخامس  
فيكم ، فاشتعلوا بشكره فضلاً عن أن تغفلوا عن ذلك فضلاً عن أن تتوهموا أن بكم فعلاً  
تستحقون به شيئاً فضلاً عن أن تفعلوا من المنازعة في المغنم فعل القاطع بالاستحقاق ،  
اعلموا ذلك كله علم المصدق المؤمن المذعن لما علم لتنشأ عنه ثمرة العمل ﴿ إن كنتم ﴾  
صادقين في أنكم ﴿ آمنتم بالله ﴾ أي الذي لا أمر لأحد معه ﴿ وما ﴾ أي وبالذي  
﴿ أنزلنا ﴾ أي إنزالاً واحداً سريعاً لأجل التفريح عنكم من القرآن والجنود والسكينة في  
قلوبكم وغير ذلك مما تقدم وصفه ﴿ على عبدنا ﴾ أي الذي يرى دائماً أن الأفعال كلها لنا  
فلا ينسب لنفسه شيئاً إلا بنا ﴿ يوم الفرقان ﴾ أي يوم بدر الذي جعلنا لكم فيه عزاً ينفذ  
به أقوالكم وأفعالكم في فصل الأمور .

ولما وصفه سبحانه بالفرقان تذكيراً لهم بالنعمة ، بينه بما صور حالهم إتماماً لذلك - أو  
أبدل منه - فقال : ﴿ يوم التقى ﴾ أي عن غير قصد من الفريقين بل بمحض تدير الله  
﴿ الجمعان ﴾ أي اللذان أحدهما أنتم وكنتم حين الترائي - لولا فضلنا - قاطعين بالموت ،  
وثانيهما أعداؤكم وكانوا على اليقين بأنكم في قبضتهم ، وذلك هو الجاري على مناهج  
العوائد ، ولوقيل : يوم بدر ، لم يفد هذه الفوائد .

ولما كان انعكاس الأمر في النصر محل عجب ، ختم الآية بقوله : ﴿ والله على كل شيء ﴾  
أي من نصر القليل على الكثير وعكسه وغير ذلك من جميع الأمور ﴿ قدير ﴾ فكان  
ختمها بذلك كاشفاً للسر ومزيلاً للعجب ومبيناً أن ما فعل هو الجاري على سنن سنته  
المطرد في قديم عاداته عند من يعلم أيامه الماضية في جميع الأعصر الخالية . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 218.220 ﴾

(6/313)

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ بالعدوة ﴾ بكسر العين في الحرفين : ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب . الباقر :  
بالضم . ﴿ من حيبي ﴾ بياءين : أبو جعفر ونافع وخلف وسهل ويعقوب والبيزي ونصير  
وأبو بكر وحماد . الباقر : بالإدغام ﴿ ولا تنازعوا ﴾ بالإدغام : البيزي وابن فليح ﴿  
وتذهب ﴾ بالجزم للجزاء عن هبيرة ﴿ وإذ زين ﴾ وبابه مدغماً : أبو عمرو وعلي  
وحمزة في رواية خلاد ابن سعدان وهشام ﴿ إني أرى ﴾ ، ﴿ إني أخاف ﴾ بفتح الياء  
فيهما : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . ﴿ تراءت الفئتان ﴾ بالإمالة : نصير .



الوقوف : ﴿ وابن السبيل ﴾ ط تعلق حرف الشرط بمحذوف يدل عليه ما قبلها تقديره  
: واعلموا واعتقدوا هذه الأقسام إن كنتم . ﴿ الجمعان ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ ه ﴿ أسفل  
منكم ﴾ ط ﴿ في الميعاد ﴾ لا لعطف لكن ﴿ مفعولا ﴾ لا تعلق اللام ﴿ من حي عن  
بينه ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ لا تعلق " إذ " ﴿ قليلاً ﴾ ط ﴿ منكم ﴾ ط ﴿ الصدور ﴾  
ه ﴿ مفعولا ﴾ ط ﴿ الأمور ﴾ ه ﴿ تفلحون ﴾ هج للآية وللعطف ﴿ واصبروا ﴾  
ط ﴿ الصابرين ﴾ هج لما ذكر ﴿ عن سبيل الله ﴾ ط ﴿ محيط ﴾ ه ﴿ جار لكم ﴾  
ط ﴿ أخاف الله ﴾ ط ﴿ العقاب ﴾ ه ﴿ دينهم ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ ه . انتهى  
انتهى . اه ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 400.401 ﴾

(7/313)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر بالمقاتلة في قوله : ﴿ وقاتلوهم ﴾ وكان من المعلوم أن عند المقاتلة قد

تحصل الغنيمة ، لا جرم ذكر الله تعالى حكم الغنيمة ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى: الغنم: الفوز بالشيء ، يقال : غنم يغنم غنماً فهو غانم ، والغنيمة في الشريعة ما دخلت في أيدي المسلمين من أموال المشركين على سبيل القهر بالخيل والركاب .

المسألة الثانية: قال صاحب "الكشاف" : ﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ موصولة وقوله : ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يعني أي شيء كان حتى الخيط والمخيط ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره : فحق أو فواجب أن لله خمسه ، وروى النخعي عن ابن عمر ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ بالكسر ، وتقديره : على قراءة النخعي فله خمسه والمشهور أكد وأثبت للإيجاب ، كأنه قيل : فلا بد من إثبات الخمس فيه ، ولا سبيل إلى الإخلال به ، وذلك لأنه إذا حذف الخبر واحتمل وجوهاً كثيرة من المقدرات كهولك ثابت : واجب ، حق ، لازم ، كان أقوى لإيجابه من النص على واحد ، وقرئ ﴿ خُمُسَهُ ﴾ بالسكون .

المسألة الثالثة: في كيفية قسمة الغنائم .

اعلم أن هذه الآية تقتضي أن يؤخذ خمسها ، وفي كيفية قسمة ذلك الخمس قولان :

(8/313)

---

القول الأول : وهو المشهور أن ذلك الخمس يخمس ، فسهم لرسول الله ، وسهم لذوي قرباه من بني هاشم وبني المطلب ، دون بني عبد شمس وبني نوفل ، لما روي عن عثمان وجبير بن

مطعم أنهما قالاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ينكر فضلهم  
لكونك منهم أرايت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا ، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة ،  
فقال عليه السلام : " إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء  
واحد وشبك بين أصابعه " وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأما بعد وفاة  
الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعند الشافعي رحمه الله : أنه يقسم على خمسة أسهم ،  
سهم لرسول الله ، يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين ، كعدة الغزاة من  
الكراع والسلاح ، وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم للذكر مثل حظ  
الأنثيين ، والباقي للفرق الثلاثة وهم : اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : إن بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام سهمه ساقط بسبب  
موته ، وكذلك سهم ذوي القربى ، وإنما يعطون لفقرهم ، فهو أسوة سائر الفقراء ، ولا يعطى  
أغنياءهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل .

وقال مالك : الأمر في الخمس مفوض إلى رأي الإمام إن رأى قسمته على هؤلاء فعل ، وإن  
رأى إعطاء بعضهم دون بعض ، فله ذلك .

واعلم أن ظاهر الآية مطابق لقول الشافعي رحمه الله وصريح فيه ، فلا يجوز العدول عنه إلا  
لدليل منفصل أقوى منها ، وكيف وقد قال في آخر الآية : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنَّمَا إِيَّايُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ طَائِفَةٌ لَّقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَاتَّبِعُوا آلَئِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْإِيمَانَ أَذِينَ بَلَايَا تُهْلِكُ الْوَعْدَ وَالْوَعْدَ وَمَنْ يُلَاحِظْ وَاظْمِرْ حَيْثُ يَخْتَبِرُ فَسَوْفَ يَكُونُ لِغَوَاةٍ مَّرْتَبًا ﴾ يعني :

إن كنتم آمنتم بالله فأحكموا بهذه القسمة ، وهو يدل على أنه متى لم يحصل الحكم بهذه القسمة ، لم يحصل الإيمان بالله .

(9/313)

---

والقول الثاني : وهو قول أبي العالية : إن خمس الغنيمة يقسم على ستة أقسام ، فواحد منها لله ، وواحد لرسول الله ، والثالث لذوي القربى ، والثلاثة الباقية لليتامى والمساكين وابن السبيل قالوا : والدليل عليه أنه تعالى جعل خمس الغنيمة لله ، ثم للطوائف الخمسة ، ثم القائلون بهذا القول منهم من قال : يصرف سهم الله إلى الرسول ، ومنهم من قال : يصرف إلى عمارة الكعبة .

وقال بعضهم : إنه عليه السلام كان يضرب يده في هذا الخمس ، فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة ، وهو الذي سمي لله تعالى .

والقائلون بالقول الأول أجابوا عنه : بأن قوله : ﴿لِلَّهِ﴾ ليس المقصود منه أثبات نصيب لله .

فإن الأشياء كلها ملك لله ، وملكه وإنما المقصود منه افتتاح الكلام بذكر الله على سبيل التعظيم ، كما في قوله : ﴿قُلِ الْإِنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولُ﴾ واحتج القفال على صحة هذا القول

بما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لهم في غنائم خيبر : " مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم " فقلوه : مالي إلا الخمس يدل على أن سهم الله وسهم الرسول واحد ، وعلى الإضمام سهمه السدس لا الخمس ، وإن قلنا : إن السهمين يكونان للرسول .

صار سهمه أزيد من الخمس ، وكلا القولين ينافي ظاهر قوله : " مالي إلا الخمس " هذا هو الكلام في قسمة خمس الغنيمة ، وأما الباقي وهو أربعة أخماس الغنيمة فهي للغنمين .  
لأنهم الذين حازوه واكتسبوه كما يكتسب الكلاب بالاحتشاش ، والطير بالاصطياد ، والفقهاء استنبطوا من هذه الآية مسائل كثيرة مذكورة في كتب الفقه .

المسألة الرابعة :

(10/313)

---

دلت الآية على أنه يجوز قسمة الغنائم في دار الحرب ، كما هو قول الشافعي رحمه الله ، والدليل عليه : أن قوله : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ يقتضي ثبوت الملك لهؤلاء في الغنيمة ، وإذا حصل الملك لهم فيه ، وجب جواز القسمة لأنه لا معنى للقسمة على هذا التقدير إلا صرف الملك إلى المالك ، وذلك جائز

بالاتفاق .

المسألة الخامسة :

اختلفوا في ذوي القربى .

قيل : هم بنو هاشم .

وقال الشافعي رحمه الله : هم بنو هاشم وبنو المطلب .

واحتج بالخبر الذي روينا .

وقيل : آل علي ، وجعفر ، وعقيل ، وآل عباس ، وولد الحرث بن عبد المطلب ، وهو قول

أبي حنيفة .

المسألة السادسة :

حكى صاحب "الكشاف" عن الكلبي : أن هذه الآية نزلت ببدر .

وقال الواقدي رحمه الله : كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف

من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ والمعنى اعلموا أن

خمس الغنيمة مصروف إلى هذه الوجوه الخمسة فاقطعوا عنه أطما عكم واقنعوا بالأخماس

الأربعة ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ يعني : إن كنتم آمنتم بالله

وبالمنزل على عبدنا يوم الفرقان ، يوم بدر .

والجمعان : الفريقان من المسلمين والكافرين ، والمراد منه ما أنزل عليه من الآيات ،  
والملائكة ، والفتح في ذلك اليوم ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي يقدر على نصركم وأتم  
قليلون ذليلون والله أعلم . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 132 .

﴿ 133

(11/313)

"فصل"

قال الماوردي :

(12/313)

مُخْتَصَرٌ مِنْ كِتَابِ قَسَمِ الْفَيْءِ وَقَسَمِ الْغَنَائِمِ مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : " أَصْلُ مَا  
يُقُومُ بِهِ الْوَلَاةُ مِنْ جَمَلِ الْمَالِ ثَلَاثَةٌ وَجُوهٌ أَحَدُهَا مَا أُخِذَ مِنْ مَالِ مُسْلِمٍ تَطْهِيرًا لَهُ فَذَلِكَ لِأَهْلِ  
الصَّدَقَاتِ لِأَهْلِ الْفَيْءِ ، وَالْوَجْهَانِ الْآخِرَانِ مَا أُخِذَ مِنْ مَالِ مُشْرِكٍ فَكِلَاهُمَا مُبَيَّنٌ فِي  
كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفَعَلَهُ فَأَحَدُهُمَا الْغَنِيمَةُ قَالَ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى : وَعَلِمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ [الأنفال : 41]  
الآية وَالْوَجْهَ الثَّانِي : هُوَ الْفِيءُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ]  
الحشر : 17 [ الآية . ( قَالَ الشَّافِعِيُّ ) - رَحِمَهُ اللَّهُ - : فَالْغَنِيمَةُ وَالْفِيءُ يَجْتَمِعَانِ فِي أَنْ  
فِيهِمَا مَعَا الْخُمْسَ مِنْ جَمِيعِهِمَا لِمَنْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي الْآيَتَيْنِ مَعَا سَوَاءٌ ، ثُمَّ تَفَرَّقَ  
الْأَحْكَامُ فِي الْأَرْبَعَةِ الْأَخْمَاسِ بِمَا بَيَّنَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفِي فِعْلِهِ ، فَإِنَّهُ قَسَمَ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِ الْغَنِيمَةِ عَلَى مَا وَصَفَتْ مِنْ قَسَمٍ  
الْغَنِيمَةِ وَهِيَ الْمَوْجِفُ عَلَيْهَا بِالْخَيْلِ وَالرِّكَابِ لِمَنْ حَضَرَ مِنْ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ ، وَالْفِيءُ هُوَ مَا لَمْ  
يُوجِفْ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ فَكَانَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي قُرَى  
عَرَبِيَّةٍ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِهَا

(13/313)

---

لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَاصَّةً دُونَ الْمُسْلِمِينَ يَضَعُهُ حَيْثُ أَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى .  
قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَيْثُ اخْتَصَمَ إِلَيْهِ الْعَبَّاسُ وَعَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمَا - فِي أَمْوَالِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ  
عَلَى رَسُولِهِ مِمَّا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ



عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَاصَّةً دُونَ الْمُسْلِمِينَ ، فَكَانَ يُنْفِقُ مِنْهَا عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً سَنَةً فَمَا فَضَلَ  
جَعَلَهُ فِي الْكُرَاعِ وَالسَّلَاحِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
- فَوَلِيهَا أَبُو بَكْرٍ بِمِثْلِ مَا وَلِيَهَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ثُمَّ وَلِيَهَا عُمَرُ بِمِثْلِ  
مَا وَلِيَهَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَبُو بَكْرٍ ، فَوَلَّيْتُكُمَا هَا عَلَيَّ أَنْ تَعْمَلَا فِيهَا  
بِمِثْلِ ذَلِكَ ، فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا فَادْفَعَا هَا إِلَيَّ أَكْفَيْكُمَا هَا . ( قَالَ الشَّافِعِيُّ ) : وَفِي ذَلِكَ  
دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَكَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَهُوَ أَمْضِيًا مَا يَبْقَى مِنْ هَذِهِ الْأَمْوَالِ  
الَّتِي كَانَتْ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَيَّ مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعْمَلُ بِهِ فِيهَا وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لُهُمَا مِمَّا لَمْ يُوجِفْ عَلَيْهِ مِنَ الْفَيْءِ مَا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(14/313)

- وَأَهُمَا فِيهِ أَسْوَةٌ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَذَلِكَ سِيرَتُهُمَا وَسِيرَةُ مَنْ بَعْدَهُمَا وَقَدْ مَضَى مَنْ كَانَ  
يُنْفِقُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ أَعْلَمْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ قَالَ : إِنَّ

(15/313)

ذَلِكَ لَوَرِثَتَهُمْ وَلَا خَالَفَ فِي أَنْ تُجْعَلَ تِلْكَ التَّفَقَّاتِ حَيْثُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَجْعَلُ فَضُولَ غَلَاتِ تِلْكَ الْأَمْوَالِ فِيمَا فِيهِ صَلَاحٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَا يُقْتَسَمَنَّ وَرَثَتِي دِينَارًا ، مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ أَهْلِي وَمُؤْنَةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ قَالَ : فَمَا صَارَ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ فِئَةٍ لَمْ يُوجَفْ عَلَيْهِ فَخُمُسُهُ حَيْثُ قَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَرْبَعَةٌ أَخْمَاسِهِ عَلَى مَا سَأَبَيْنَهُ ، وَكَذَلِكَ مَا أَخَذَ مِنْ مُشْرِكٍ مِنْ جَزِيَّةٍ وَصَلَحَ عَنْ أَرْضِهِمْ ، أَوْ أَخَذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ مَاتَ مِنْهُمْ مَيِّتٌ لَا وَارِثَ لَهُ ، أَوْ مَا أَشْبَهَ هَذَا مِمَّا أَخَذَهُ الْوَلَاةُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَالْخُمْسُ فِيهِ ثَابِتٌ عَلَى مَنْ قَسَمَهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْخُمْسِ الْمُوجَفِ عَلَيْهِ مِنَ الْغَنِيمَةِ ، وَهَذَا هُوَ الْمُسَمَّى فِي كِتَابِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْفِيءُ ، وَفُتِحَ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فُتُوحٌ مِنْ قُرَى عَرَبِيَّةٍ وَعَدَّهَا اللَّهُ رَسُولُهُ قَبْلَ فَتْحِهَا فَأَمْضَاهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمَنْ سَمَّاهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحْبَسْ مِنْهَا مَا حُبِسَ مِنَ الْقُرَى الَّتِي كَانَتْ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَمَعْنَى قَوْلِ عُمَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ خَاصَّةٌ يُرِيدُ مَا كَانَ يَكُونُ لِلْمُوجِفِينَ وَذَلِكَ أَرْبَعَةٌ أَخْمَاسٍ ، فَاسْتَدَلَّنَا بِذَلِكَ

أَنَّ خُمْسَ ذَلِكَ كَخُمْسِ مَا أُوجِفَ عَلَيْهِ لِأَهْلِهِ وَجُمْلَةِ الْفِيءِ مَا رَدَّهُ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ دِينِهِ مِنْ مَالٍ مَنْ خَالَفَ دِينَهُ " . قَالَ الْمَأُورِدِيُّ : أَمَّا الْغَنِيمَةُ فَهِيَ مِنَ الْغَنَمِ وَالْغَنَمُ مُسْتَفَادٌ بِغَيْرِ بَدَلٍ ، قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ : وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى رَضَيْتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ وَأَمَّا الْفِيءُ فَهُوَ الرُّجُوعُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ [ الْحُجْرَاتِ : 9 ] أَي تَرْجِعَ ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لَمَّا بَعُدَ الزَّوَالُ مِنَ الظِّلِّ فِي الْفِيءِ . لِرُجُوعِهِ وَالْأَنْفَالِ لَمَّا قَبِلَ الزَّوَالُ فِي الْفِيءِ إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ ، قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ : تَيَمَّمَتِ الْعَيْنُ الَّتِي عِنْدَ ضَارِحِ يَفِيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ عَرْمَضُهَا

طَامِي

الْقَوْلِ فِي حَدِّ الْغَنِيمَةِ وَالْفِيءِ

[ الْقَوْلُ فِي حَدِّ الْغَنِيمَةِ وَالْفِيءِ ] وَالْغَنِيمَةُ كُلُّ مَالٍ أُخِذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَهْرًا - بِقِتَالٍ - بِإِجَافِ خَيْلٍ أَوْ رِكَابٍ . سُمِّيَ غَنِيمَةً لِاسْتِقَادَتِهِ بِغَيْرِ بَدَلٍ . وَالْفِيءُ كُلُّ مَا أُخِذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَفْوًا بِغَيْرِ قِتَالٍ وَلَا إِجَافِ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، سُمِّيَ فَيْئًا لِرُجُوعِهِ إِلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَهْلِ طَاعَتِهِ بَعْدَ خُرُوجِهِ عَنْهُمْ إِلَى أَعْدَائِهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ .

(17/313)

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ: الْغَنِيمَةُ مَا ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُشْرِكِينَ وَالْفِيءُ مَا ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَرْضِينَ، وَهَذَا قَوْلٌ شَدِيدٌ بِعَنِ الْكَافَّةِ، فَكَانَ مُطْرَحًا، وَمُعْمَلٌ فِي الْفِيءِ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى [الْحَشْرُ: 7] وَلَمْ يُقَلِّ مِنَ الْقُرَى. وَالْأَصْلُ فِي الْغَنِيمَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ [الأنفال: 41]. وَالْأَصْلُ فِي الْفِيءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ [الْحَشْرُ: 7] الْآيَةُ.

(18/313)

فَصُلِّ: وَقَدْ كَانَتْ الْغَنِيمَةُ مُحَرَّمَةً عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ حَلَّ الْغَنِيمَةَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ وَكَانَتْ تُجْمَعُ فَتَنْزَلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُحْرِقُهَا إِلَى أَنْ أَحَلَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أُعْطِيَتْ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَى أَنْ قَالَ: وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ الْحَدِيثَ. فَجَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ مِلْكًا لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَالِصًا دُونَ غَيْرِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَانقُوا لِلَّهِ [الأنفال: 1]. وَالْأَنْفَالُ هِيَ: الْغَنَائِمُ؛ لِأَنَّ النَّفْلَ فِي كَلَامِهِمْ هُوَ الزِّيَادَةُ مِنَ الْخَيْرِ وَمِنْهُ

صَلَاةُ النَّافِلَةِ ، وَقَالَ لَبِيدُ بْنُ رَيْبَعَةَ : إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفْلٍ وَيَا ذَنْ لِهَيْبَةِ رَبِّنَا وَعَجَلُ فُسْمَيْتِ  
 الْغَنَائِمِ أَنْفَالًا لِأَنَّهَا زِيَادَةٌ مَالٍ مُسْتَفَادٍ وَفِي السَّبَبِ الَّذِي نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ مِنْ أَجَلِهِ ثَلَاثَةٌ أَقْوِيلُ  
 : أَحَدُهَا : أَنَّ أَهْلَ بَدْرٍ شَكُّوا فِي غَنَائِمِهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ [ الْأَنْفَالُ :  
 1 ] . وَلَمْ يَعْلَمُوا حُكْمَ إِبَاحَتِهَا وَحَظَرِهَا حَتَّى سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
 - عَنْهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ [ الْأَنْفَالُ : 1 ] .  
 وَالثَّانِي : أَنَّ شُبَّانَ الْمُقَاتِلَةِ يَوْمَ بَدْرٍ تَسَارَعُوا إِلَى الْقِتَالِ وَبَيَّتَ

(19/313)

الشُّيُوخُ تَحْتَ الرَّيَّاتِ ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَالَ الشُّبَّانُ : نَحْنُ أَحَقُّ بِالْغَنَائِمِ لِقِتَالِنَا ، وَقَالَ  
 الشُّيُوخُ : لَا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْنَا فَإِنَّا كُنَّا رِدَاءَ لَكُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ آيَةً فِيهِمْ . وَالثَّلَاثُ :  
 أَنَّ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ اخْتَلَفُوا وَكَانُوا اثْنًا فِي الْغَنَائِمِ أَيُّهُمْ أَحَقُّ بِهَا ،  
 فَزَلَّتْ هَذِهِ آيَةٌ فِيهِمْ وَجَعَلَهَا اللَّهُ لِرَسُولِهِ دُونَهُمْ حَسْمًا لِنِزَاعِهِمْ ، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ -  
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهِمْ عَلَى رَأْيِهِ وَاجْتِهَادِهِ وَأَدْخَلَ مِنْهُمْ ثَمَانِيَةَ لَمْ يَشْهَدُوا بَدْرًا ،

منهم

(20/313)

عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَطَلْحَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، أَمَّا عُثْمَانُ فَلِتَشَاغُلِهِ بِتَمْرِ يَرْضِ زَوْجَتَهُ  
رُقَيْةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَأَمَّا طَلْحَةُ فَلِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ كَانَ أَنْفَذَهُ لِيَتَعَرَّفَ خَيْرَ الْعِيرِ وَأَبِي سُفْيَانَ ، ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَسَخَ هَذِهِ  
الآيَةَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى  
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ [ الأَنْفَالِ : 41 ] الْآيَةَ ، فَلَمَّا أَضَافَ اللَّهُ تَعَالَى مَالَ  
الْغَنِيمَةِ إِلَى الْغَانِمِينَ ، ثُمَّ اسْتَتَى مِنْ خُمُسِهِ لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنْ سُمِّيَ  
مَعَهُ أَهْلَ الْخُمُسِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ  
وَأَبْنِ السَّبِيلِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْبَاقِيَّ مِنْ أَرْبَعَةِ أَخْمَاسِهِ مِلْكٌ لِلْغَانِمِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ  
فَلِأَنَّ الْبَاقِيَّ [ النِّسَاءِ : 11 ] فَدَلَّ إِضَافَةَ الْمَالِ إِلَيْهِمَا عَلَى اسْتِثْنَاءِ الثَّلَاثِ مِنْهُ لِلأَمِّ يُوجِبُ  
أَنْ يَكُونَ الْبَاقِيُّ لِلأَبِ ، ثُمَّ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -  
تَارَةً مَوْقُوفًا عَلَيْهِ ، وَتَارَةً مُسْنَدًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : "  
الْغَنِيمَةُ لِمَنْ شَهِدَ الْوُقُوعَةَ " ، فَصَارَ مَالُ الْغَنِيمَةِ مَقْسُومًا عَلَى خُمُسَةٍ وَعِشْرِينَ سَهْمًا ،  
خُمُسَةٌ مِنْهَا لِأَهْلِ

---

الْخُمْسِ وَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَذَوُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ وَابْنُ  
السَّبِيلِ ، وَفِيهِ خِلاَفٌ يُذَكَّرُ مِنْ بَعْدِ أَرْبَعَةِ أَخْمَاسِهِ وَهُوَ عِشْرُونَ سَهْمًا تُقَسَّمُ بَيْنَ الْغَانِمِينَ  
لَا يَجُوزُ أَنْ يُشَارِكَهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ وَلَا يُفْضَلُ ذُو غِنَى عَلَى غَيْرِهِ ، فَهَذَا حُكْمُ مَالِ الْغَنِيمَةِ .  
فَصَلِّ حُكْمُ مَالِ الْفَيْءِ

(22/313)

---

فَصَلِّ : [ حُكْمُ مَالِ الْفَيْءِ ] وَأَمَّا مَالُ الْفَيْءِ وَهِيَ الْأَمْوَالُ الْوَالِصَّةُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِغَيْرِ قِتَالٍ  
وَلَا إِجْبَافِ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، كَالَّذِي أَنْجَلَى عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ خَوْفًا وَرُعْبًا ، كَالْأَمْوَالِ الَّتِي  
صَالِحُونَ بِهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَدِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ اسْتَكْفَافًا وَتَوَرُّعًا وَالْمَأْخُودَةَ مِنْ عَشُورِ  
أَمْوَالِهِمْ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْنَا تَجَارًا ، وَالْجَزِيَّةَ الَّتِي نَقْرَهُمْ بِهَا فِي دَارِنَا وَقَالَ : وَالْخَرَاجَ  
الْمَضْرُوبَ عَلَى أَرْضِيهِمْ ، وَالْأَرْضِينَ الْمَأْخُودَةَ عَفْوًا مِنْهُمْ وَقَالَ : مَنْ مَاتَ فِي دَارِنَا وَلَا  
وَارِثَ لَهُ مِنْهُمْ ، كُلُّ ذَلِكَ فِيَّ ؛ لِأَنَّهُ وَاصِلٌ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَلَا إِجْبَافِ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، هَذَا هُوَ  
الْمَنْصُوصُ عَلَيْهِ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ فِي الْجَدِيدِ ، وَلَهُ فِي الْقَدِيمِ قَوْلٌ آخَرٌ : أَنَّ الْفَيْءَ فِي  
جَمِيعِ ذَلِكَ مَا أَنْجَلَى عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ ذَلِكَ خَوْفًا وَرُعْبًا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى

رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ [ الْحَشْرُ : 7 ] وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ وَعُشُورٍ  
تِجَارَتِهِمْ وَمِيرَاثٍ مِنْ مَاتَ مِنْهُمْ لَا يَكُونُ فَيْئًا وَيَكُونُ مَصْرُوفًا فِي الْمَصَالِحِ وَلَا يُخَمَّسُ ،  
وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ مِنْ قَوْلِهِ أَصَحُّ ، لِاسْتِوَاءِ جَمِيعِهِمَا فِي الْوُصُولِ إِلَيْنَا بَغَيْرِ قِتَالٍ وَلَا إِجْبَافِ خَيْلٍ  
وَلَا رِكَابٍ ، وَإِذَا كَانَ جَمِيعُ ذَلِكَ فَيْئًا فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي  
صَدْرِ الْإِسْلَامِ يَمْلِكُ جَمِيعَ الْفَيْءِ كَمَا مَلَكَ جَمِيعَ الْغَنِيمَةِ ،

(23/313)

---

وَلِذَلِكَ مَلَكَ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ ، فَكَانَتْ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِ لَمْ يُشَارِكْ فِيهَا  
أَحَدٌ وَصَارَتْ مِنْ صَدَقَاتِهِ الَّتِي تَصَدَّقُ بِهَا إِلَى أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى :

(24/313)

---

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ]  
[ الْحَشْرُ : 7 ] الْآيَةَ ، فَاخْتَلَفَ النَّاسُ حِينَئِذٍ ، فِيمَا اسْتَقَرَّ حُكْمُ الْفَيْءِ مَصَارِفُهُ عَلَيْهِ عَلَى  
ثَلَاثَةِ مَذَاهِبَ : أَحَدُهُمَا وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ : أَنَّ مَالَ الْفَيْءِ مَصْرُوفٌ فِي وُجُوهِ الْمَصَالِحِ



وَلَا يُخَمَّسُ ، اسْتِدْلَالًا بِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَصْرِفُهُ فِيهَا . وَالثَّانِي وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ : أَنَّ مَالَ الْفَيْءِ مَقْسُومٌ عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُمٍ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهَا سَهْمٌ كَأَحَدِ أَهْلِ الْخُمْسِ وَلَا يَخْتَصُّ بِأَرْبَعَةِ أَخْمَاسِهِ ، اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " مَا لِي مِمَّا آفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْخُمْسُ وَالْخُمْسُ مُرْدُودٌ فِيكُمْ " .

وَالثَّلَاثُ وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَنَّ خُمْسَهُ مَقْسُومٌ عَلَى خَمْسَةِ ، مِنْهَا لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَهْمٌ ، وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهِ لَهُ خَاصَّةٌ ، فَيَكُونُ جَمِيعُ مَالِ الْفَيْءِ مَقْسُومًا عَلَى خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ سَهْمًا ، مِنْهَا أَحَدٌ وَعِشْرُونَ سَهْمًا لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَأَرْبَعَةُ أَسْهُمٍ هِيَ لِأَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ هُمْ ذَوُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ وَأَبْنُ السَّبِيلِ . وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ فَأُضَافَ اللَّهُ

(25/313)

تَعَالَى الْفَيْءِ إِلَى رَسُولِهِ كَمَا أُضَافَ الْغَنِيمَةُ إِلَى الْغَانِمِينَ ، ثُمَّ اسْتُنْتِنِي مِنْ اسْتِنَائِهِ فِي سَهْمِ الْغَانِمِينَ ، فَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ إِطْلَاقُ مَا جُعِلَ لَهُ مِنَ الْفَيْءِ مَحْمُولًا عَلَى الْمِقْدَارِ الْمَجْعُولِ لَهُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَهُوَ الْخُمْسُ وَيَكُونُ الْبَاقِي بَعْدَهُ لِمَنْ أُضَافَ الْمَالُ إِلَيْهِ وَهُوَ الرَّسُولُ - صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا كَانَ الْبَاقِي مِنَ الْغَنِيمَةِ لِمَنْ أَضَافَهَا إِلَيْهِ وَهُمْ الْغَانِمُونَ . وَرَوَى  
 الشَّافِعِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَ عُيَيْنَةَ يُحَدِّثُ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ مَالِكَ بْنَ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانَ  
 يَقُولُ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَالْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَخْتَصِمَانِ  
 إِلَيْهِ فِي أَمْوَالِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ عُمَرُ : كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ  
 اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِمَّا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ -  
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَالِصًا دُونَ الْمُسْلِمِينَ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
 - يُنْفِقُ مِنْهَا عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَةٍ فَمَا فَضَلَ مِنْهَا جَعَلَهُ فِي الْكِرَاعِ وَالسَّلَاحِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ  
 اللَّهِ ، ثُمَّ تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَوَلِيَهَا أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِمِثْلِ  
 مَا وَلِيَهَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ثُمَّ وَلِيَتْهَا بِمِثْلِ مَا وَلِيَهَا رَسُولُ - صَلَّى  
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَبُو بَكْرٍ

(26/313)

---

الصَّدِيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، ثُمَّ سَأَلْتُمَنِي أَنْ أُوَلِّيكُمَاهَا فَوَلِّيتُكُمَاهَا عَلَى الْإِتِّعْمَالِ فِيهَا  
 إِلَّا بِمِثْلِ مَا وَلِيَهَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ - رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُ - ، ثُمَّ وَلِيَتْهَا ثُمَّ جِئْتُمَنِي تَخْتَصِمَانِ ، أَتْرِيدَانِ أَنْ أُدْفَعَ إِلَيْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا نِصْفًا ،

أَتُرِيدَانِ مِنِّي قَضَاءَ غَيْرِ مَا قَضَيْتُ بَيْنَكُمَا أَوَّلًا ؟ فَلَا وَالَّذِي يَأْذِنُهُ تَقْوَمُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ  
، لَا أَقْضِي بَيْنَكُمَا قَضَاءَ غَيْرِ هَذَا ، فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا فَادْفَعَاهَا إِلَيَّ أَكْفِيكُمَاهَا .

(27/313)

---

فَوَجَّهَ الدَّلَالََةَ أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ يَقْتَضِي كُلَّ مَرَّةٍ بَأَنَّ جَمِيعَ الْفِيءِ مِلْكٌ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَظَاهِرُ الْآيَةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ الْفِيءِ مَقْسُومٌ عَلَى خُمْسَةٍ فَاقْتَضَى الْجَمْعُ  
بَيْنَهُمَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْخَبَرِ أَنَّ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِهِ خَالِصٌ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
- ، وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ خُمْسَهُ مَقْسُومٌ عَلَى خُمْسَةٍ حَتَّى يُسْتَعْمَلَ عَلَى وَجْهِ لَا يَتَنَافَى وَلَا  
يَسْتَقْطُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا بِالْآخِرِ ، ثُمَّ يَدُلُّ عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ مَا يَمْلِكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَكُنْ  
جَمِيعُهُ خُمْسًا كَالْغَنِيمَةِ ، ثُمَّ يَدُلُّ عَلَيْهَا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِ الْغَنِيمَةِ مِلْكًا لِلْغَانِمِينَ  
لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا بِالرُّعْبِ مِنَ الْمُقَاتَلَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِ الْفِيءِ مِلْكًا لِرَسُولِ اللَّهِ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ بِالرُّعْبِ مِنْهُ ، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :  
نَصِرْتُ بِالرُّعْبِ فَالْعَدُوُّ يَرْهِنُنِي مَسِيرَةَ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ . فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ اسْتِدْلَالِ أَبِي  
حَنِيفَةَ بِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَصْرِفُ ذَلِكَ فِي الْمَصَالِحِ ، فَهُوَ أَنَّ أَمْوَالَهُ  
كَانَ يَصْرِفُهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَلَا يَدُلُّ لِقُرْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِهَا عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَالِكٍ لَهَا . وَأَمَّا

الْجَوَابُ عَنْ اسْتِدْلَالِ مَالِكٍ بِقَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : مَا لِي فِيمَا أَفَاءَ اللَّهُ  
عَلَيْكُمْ إِلَّا الْخُمْسُ

(28/313)

فَهُوَ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْغَنِيمَةِ دُونَ الْفَيْءِ ؛ لِأَنَّهُ أَضَافَ ذَلِكَ إِلَيْنَا ، وَالْغَنِيمَةُ هِيَ الْمُضَافَةُ  
إِلَيْنَا ، فَأَمَّا الْفَيْءُ فَهُوَ مُضَافٌ إِلَيْهِ لَا إِلَيْنَا .

(29/313)

فَصُلِّ : فَإِذَا تَقَرَّرَ مَا وَصَفْنَا مِنْ حُكْمِ الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ فَالَّذِي مَلَكَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مِنْهُمَا  
مِمَّا يَبِينُ : أَحَدُهُمَا : خُمْسُ الْخُمْسِ مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ . وَالثَّانِي : أَرْبَعَةُ أْخْمَاسِ الْفَيْءِ  
، فَأَمَّا الصَّفِيُّ مِنَ الْغَنِيمَةِ فَقَدْ كَانَ مَخْصُوصًا بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَصْطَفِي مِنَ  
الْغَنِيمَةِ مَا شَاءَ مِنْ جَارِيَةٍ وَثَوْبٍ وَعَبْدٍ وَفَرَسٍ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ ، وَكَانَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ  
حَبِيبٍ مِمَّا اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ بِخَيْرٍ ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا . وَقِيلَ إِنَّهَا سُمِّيَتْ صَفِيَّةً ؛ لِأَنَّهُ  
اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ وَكَانَتْ الصَّفَايَا مِمَّا يَخْتَصُّ بِهَا مُلُوكُ الْعَرَبِ مِنْ جَاهِلِيَّةٍ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ

لَكَ الْمَرْبَاعُ فِيهَا وَالصَّفَايَا وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ فَصَارَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَالِكًا لَأَرْبَعَةِ أَمْوَالٍ: مَالَيْنِ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَهُوَ خُمْسُ الْخُمْسِ وَالصَّفِيُّ، وَمَالَيْنِ مِنَ الْفَيْءِ وَهُوَ خُمْسُ خُمْسِهِ وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهِ . فَأَمَّا حُكْمُ ذَلِكَ بَعْدَ وَفَاتِهِ فَهُوَ أَنَّ مَا كَانَ قَدُ مَلَكَهُ مِنْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ كَأَمْوَالِ بَنِي النَّضْرِ وَالنَّصْفِ مِنْ فَدَكٍ وَالثَّلْثِ مِنْ وَادِي الْقُرَى وَثَلَاثَةَ حُصُونٍ مِنْ خَيْبَرَ الْكُتَيْبَةِ وَالْوَطِيحِ وَالسَّلَامِ فَهَذِهِ صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا فِي حَيَاتِهِ لَا تُورَثُ عَنْهُ ، وَمَا مَلَكَ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ

(30/313)

وَفَاتِهِ فَسَهْمُهُ مِنْ خُمْسِ الْخُمْسِ مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ مَصْرُوفٌ بَعْدَهُ فِي الْمَصَالِحِ مِنَ الْكُرَاعِ وَالسَّلَاحِ وَأَرْزَاقِ الْمُقَاتِلَةِ وَالْقُضَاةِ وَالْأَثَمَةِ وَعِمَارَاتِ الْمَسَاجِدِ وَقَنَاطِرِ السَّائِلَةِ ، وَأَمَّا سَهْمُهُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَخْمَاسِ الْفَيْءِ فَفِي مَصْرُوفِهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : فِي الْمُقَاتِلَةِ مِنَ الْجَيْشِ الَّذِينَ يَذُبُّونَ عَنِ الْبَيْضَةِ وَيَمْنَعُونَ عَنِ الْحَرْفَةِ وَيُجَاهِدُونَ الْعَدُوَّ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَلَكَهُ فِي حَيَاتِهِ لِرُغْبِ الْعَدُوِّ مِنْهُ وَرُغْبِ الْعَدُوِّ بَعْدَهُ مِنَ الْجَيْشِ الْمُقَاتِلَةِ ، فَمَلَكَوا بَعْدَهُ مَا مَلَكَهُ ، فَعَلَى هَذَا يُصْرَفُ جَمِيعُهُ فِيهِمْ وَإِنْ فَضَلَ عَنْ كِفَايَتِهِمْ وَلَا يُصْرَفُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْمَصَالِحِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّهُ يُصْرَفُ جَمِيعُهُ فِي

المصالح كلها ؛ لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يملك ذلك ويصرفه فيها ،  
فمن المصالح إعطاء الجيش وأرزاق المقاتلة ، وما قدمنا ذكره مما فيه إعزاز الإسلام  
وصلاح المسلمين ، فعلى هذا لا تزداد جيوش المقاتلة على قدر كفايتهم ، لخروج الزيادة  
عن المصلحة ، وأما الصفي فقد سقط حكمه وبطل أن يستحقه أحد بعده .

(31/313)

---

فصل : فإذا تقرر أن سهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بعده من الفيء والغنيمة كيف  
يصرف سهم النبي بعده ؟ مصروف فيما وصفتنا فالإمام الناظر فيه كأحد أهل الجيش  
فيما يستحق منه وهو قدر كفايته ، يأخذه رزقا كأرزاق الجيش . وقال : يملك الإمام بعد  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الفيء والغنيمة ما كان يملكه رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - فيصير مالكا لخمس الخمس من الفيء والغنيمة ولأربعة أخماس الفيء  
استدلالا برواية أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - : أن رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - قال : ما أطعم الله نبيا طعمة ثم قبضه إلا جعلها للذي أتى بعده . وهذا القول  
خطأ ، والدليل على فساده قوله - صلى الله عليه وسلم - : ما لي مما أفاء الله عليكم إلا  
الخمس والخمس مردود فيكم ، فصار مردودا عليها بعد موته لا على الخليفة من بعده ،

وَلَأَنَّ الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - مِنْ بَعْدِهِ لَمْ يَتَمَلَّكُوا مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ يَمْلِكُهُ ،  
فَانْعَقَدَ بِهِ الْإِجْمَاعُ عَلَى رَدِّ مَا خَالَفَهُ . فَأَمَّا الْخَبْرُ الْمُسْتَدَلُّ بِهِ فَمَعْنَاهُ : مَا أَطْعَمَ اللَّهُ نَبِيًّا  
طُعْمَةً إِلَّا جَعَلَ النَّظَرَ فِيهَا لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ لَا مَلَكًا لَهُ .

(32/313)

---

فَصُلِّ : فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يُورَثُ وَأَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَهُ لَا يَمْلِكُهُ ،  
ثَبَتَ مِنَ التَّعْلِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَنَّ مَصْرَفَهُ فِيمَا وَصَفْنَاهُ ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْفِيءُ وَالْغَنِيمَةُ  
يَجْتَمِعَانِ مِنْ وَجْهَيْنِ وَيَفْتَرِقَانِ مِنْ وَجْهَيْنِ ، فَأَمَّا وَجْهُهُمَا الْاجْتِمَاعُ . فَأَحَدُهُمَا : أَنْ كُلَّ  
وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَا خُوذَ مِنْ مُشْرِكٍ .

وَالثَّانِي : أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُخَمَسُ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : مَالُ الْفِيءِ لَا يُخَمَسُ وَفِي نَصِّ  
الآيَةِ مَا يَدْفَعُ قَوْلُهُ . وَأَمَّا وَجْهُ الْاِقْتِرَاقِ : فَأَحَدُهُمَا : فِي الْأَسْمِ ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا  
يَخْتَصُّ بِاسْمٍ ، وَالثَّانِي : فِي حُكْمِ أَرْبَعَةِ أَخْمَاسِهَا ، فَإِنَّ مَصْرَفَهَا مُخْتَلَفٌ .

(33/313)

---

فَصَلِّ: فَأَمَّا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي صَدْرِ هَذَا الْبَابِ أَصْلُ مَا يَقُومُ بِهِ الْوَلَاةُ مِنْ جَعْلِ الْمَالِ ثَلَاثَةً  
وَجُوبِهِ: أَحَدُهَا: مَا أُخِذَ مِنْ مَالِ مُسْلِمٍ تَطْهِيراً لَهُ فَذَلِكَ لِأَهْلِ الصَّدَقَاتِ لِأَهْلِ الْفَيْءِ ،  
وَالْوَجْهَانِ الْآخِرَانِ مَا أُخِذَ مِنْ مَالِ مُشْرِكٍ وَكِلَاهُمَا مُبَيَّنٌّ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ  
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفَعَلِهِ فَجَعَلَ نَظْرَ الْإِمَامِ فِي الْأَمْوَالِ مُخْتَصِماً بِثَلَاثَةِ أَمْوَالٍ :  
أَحَدُهَا: مَا أُخِذَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمْ تَطْهِيراً لَهُمْ وَهِيَ الزَّكَاةُ . وَالثَّانِي: مَا  
أُخِذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَنُودٌ وَهُوَ الْغَنِيمَةُ . وَالثَّلَاثُ: مَا أُخِذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَفْوَاً وَهُوَ الْفَيْءُ  
وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَمْوَالِ الثَّلَاثَةِ مَنْصُوصٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى وَجُوبِهِ وَجَهَةِ  
مَصْرَفِهِ وَلَيْسَ قِيَامُ الْإِمَامِ بِهِ إِلَّا قِيَامُ نِيَابَةٍ إِلَّا أَنَّهُ فِي الزَّكَاةِ يُنُوبُ عَنْ مُعْطِيهَا وَمُسْتَحِقِّهَا مَعاً  
وَفِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ يُنُوبُ عَنْ مُسْتَحِقِّهَا دُونَ مُعْطِيهَا ؛ لِأَنَّ نِيَابَتَهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا عَنِ  
الْمُشْرِكِينَ ، ثُمَّ إِنَّ أَصْحَابَنَا اعْتَرَضُوا عَلَى هَذَا الْفَصْلِ مِنْ كَلَامِ الشَّافِعِيِّ مِنْ وَجْهَيْنِ :  
أَحَدُهُمَا: قَالُوا: قَدْ جَعَلَ الشَّافِعِيُّ نَظْرَ الْإِمَامِ مَقْصُوراً عَلَى النَّظْرِ فِي ثَلَاثَةِ أَمْوَالٍ وَقَدْ  
يَنْظُرُ الْإِمَامُ فِي الْمَوَاتِ وَفِي الْمَعَادِنِ الْبَاطِنَةِ ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَدْ خُصَّ الْأَمْوَالُ الثَّلَاثَةُ  
بِنَظَرِهِ لِاخْتِصَاصِ وَجُوبِهَا



لِكِتَابِ اللَّهِ وَنَعَيْنِ مُسْتَحِقِّيَهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَيْسَ غَيْرُهَا مُسَاوِيًا لَهَا فِي هَذَيْنِ الْحُكْمَيْنِ  
فَتَمَيَّزَتْ فِي نَظَرِهِ . وَالْاِعْتِرَاضُ الثَّانِي : أَنْ قَالُوا : قَدْ جُعِلَ الْإِمَامُ مُخْتَصًّا بِالْوِلَايَةِ عَلَى  
الصَّدَقَاتِ ، وَلَوْ أُخْرِجَهَا أَرْبَابُهَا أَجْزَاءً فَلَمْ يَكُنْ يَخْتَصُّ بِالْوِلَايَةِ عَلَيْهَا ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنْ  
يُقَالُ لَهُمْ : أَمَّا الْأَمْوَالُ الْبَاطِنَةُ وَإِنْ جَازَ لِأَرْبَابِهَا أَنْ يَنْفَرِدُوا بِإِخْرَاجِهَا فَوِلَايَتُهُ فِيهَا عَلَى مَنْ  
امْتَنَعَ مِنْ أَدَائِهَا أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْهُ جَبْرًا ، فَلَوْلَمْ يَكُنْ لَهُ وِلَايَةٌ عَلَيْهَا لَمَا اِعْتَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي  
أَخْذِهَا جَبْرًا مِنْهُمْ وَأَمَّا الْأَمْوَالُ الظَّاهِرَةُ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَا يَصِحُّ مِنْ أَرْبَابِهَا أَنْ يَنْفَرِدُوا  
بِإِخْرَاجِهَا ، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ وِلَايَتُهُ عَامَّةً عَلَى الْمُعْطِيِ وَالْمُتَمَتِّعِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّهُ يَصِحُّ  
مِنْهُمْ أَنْ يَنْفَرِدُوا بِإِخْرَاجِهَا ، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ وِلَايَتُهُ خَاصَّةً عَلَى الْمُتَمَتِّعِ دُونَ الْمُعْطِيِ ،  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ . انْتَهَى انْتَهَى . اهـ ﴿ الحَاوِي الكَبِير ح 7 ص 385 . 392 ﴾

(35/313)

وقال الجصاص :

الْكَلَامُ فِي قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾



وَقَالَ فِي آيَةِ أُخْرَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ فَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ

أَنَّ هَذِهِ آيَةٌ نَاسِخَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلِ الْاِنْفَالِ لِلّٰهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وَذَلِكَ لِاَنَّهُ قَدْ كَانَ جَعَلَ  
 النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنْفِلُ مَا أُحْرَزُوهُ بِالْقِتَالِ لِمَنْ شَاءَ مِنَ النَّاسِ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ فِيهِ إِلَّا  
 مَنْ جَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ؛ وَقَدْ ذَكَرْنَا حَدِيثَ ﴿  
 سَعْدٍ فِي قِصَّةِ السَّيْفِ الَّذِي اسْتَوْهَبَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ النَّبِيُّ  
 صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَذَا السَّيْفُ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ ﴾ ، ثُمَّ لَمَّا نَزَلَ : ﴿ قُلِ الْاِنْفَالِ لِلّٰهِ  
 وَالرَّسُولِ ﴾ دَعَاهُ وَقَالَ ﴿ : إِنَّكَ سَأَلْتَنِي هَذَا السَّيْفَ وَلَيْسَ هُوَ لِي وَلَا لَكَ وَقَدْ جَعَلَهُ  
 اللَّهُ لِي وَجَعَلْتَهُ لَكَ ﴾ ، وَحَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مَا  
 حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِيِّ بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَى قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ قَالَ  
 : حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنِ أَبِي صَالِحٍ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ  
 تَعَجَّلَ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَصَابُوا مِنَ الْغَنَائِمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَمْ  
 تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِقَوْمِ سُودِ الرَّءُوسِ قَبْلَكُمْ ، كَانَ النَّبِيُّ إِذَا غَنِمَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ جَمَعُوا غَنَائِمَهُمْ  
 فَتَنَزَلُ مِنَ السَّمَاءِ نَارٌ فَتَأْكُلُهَا ﴾ ، فَانزَلَ

اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ وَقَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ

حَنْبَلٍ

قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو نُوحٍ قَالَ : أَخْبَرَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ قَالَ : حَدَّثَنَا سِمَاكُ الْحَنْفِيُّ قَالَ : حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ : حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ ﴿ : لَمَّا كَانَ يَوْمٌ بَدْرٍ فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفِدَاءَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ مِنْ الْفِدَاءِ ، ثُمَّ أَحَلَّ لَهُمُ الْغَنَائِمَ ﴾ . فَأَخْبَرَ فِي هَذَيْنِ الْخَبْرَيْنِ أَنَّ الْغَنَائِمَ إِنَّمَا أَحَلَّتْ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، وَهَذَا مَرَّتَبٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وَأَنَّهَا كَانَتْ مَوْكُؤَةً إِلَى رَأْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(37/313)

---

فَهَذِهِ الْآيَةُ أَوَّلُ آيَةٍ أُبِيحَتْ بِهَا الْغَنَائِمُ عَلَى جِهَةِ تَخْيِيرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِعْطَائِهَا مَنْ رَأَى ، ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ وَأَنَّ فِدَاءَ الْأَسَارِيِّ كَانَ بَعْدَ نَزُولِ قَوْلِهِ

تعالى: ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وَإِنَّمَا كَانَ النَّكِيرُ عَلَيْهِمْ فِي أَخْذِ الْفِدَاءِ مِنَ الْأَسْرَى  
بَدِيًّا ، وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّ الْغَنَائِمَ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُحِلَّتْ قَبْلَ ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي جُعِلَتْ  
لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الْغَنَائِمُ مُبَاحَةً وَفِدَاءُ الْأَسْرَى مَحْظُورًا ،  
وَكَذَلِكَ يَقُولُ أَبُو حَنِيفَةَ إِنَّهُ لَا تَجُوزُ مُفَادَاةُ أَسْرَى الْمُشْرِكِينَ .  
وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْجَيْشَ لَمْ يَكُونُوا اسْتَحَقُّوا قِسْمَةَ الْغَنِيمَةِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ إِلَّا بِجَعْلِ النَّبِيِّ ذَلِكَ  
لَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُخَمَّسْ غَنَائِمَ بَدْرٍ وَلَمْ يَبَيِّنْ سِهَامَ الْفَارِسِ وَالرَّاجِلِ إِلَى  
أَنْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا

(38/313)

غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ ﴾ ، فَجَعَلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسٍ الْغَنِيمَةَ لِلْغَانِمِينَ  
وَالْخُمْسَ لِلْوَجْهِ الْمَذْكُورَةِ وَنَسَخَ بِهِ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَنْفَالِ إِلَّا مَا  
كَانَ شَرْطُهُ قَبْلَ إِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ ، نَحْوَ أَنْ يَقُولَ : مَنْ أَصَابَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ ، وَمَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ  
سَلْبُهُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَنْتَظِمْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إِذْ لَمْ يَحْصُلْ  
ذَلِكَ غَنِيمَةً لِغَيْرِ أَخْذِهِ أَوْ قَاتِلِهِ .

وَقَدْ اُخْتَلَفَ فِي النَّفْلِ بَعْدَ إِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ ذَكَرَ الْخِلَافَ فِيهِ قَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ : ﴿ لَا

نفل بعد إحرار الغنيمة إنما النفل أن يقول: من قتل قتيلا فله سلبه ومن أصاب شيئا فهو له



وقال الأوزاعي: ﴿ في رسول الله أسوة حسنة، كان ينفل في البدأة الربع وفي الرجعة

الثلث ﴾ .

وقال مالك والشافعي: ﴿ يجوز أن ينفل بعد إحرار الغنيمة على وجه الاجتهاد ﴾ .

قال الشيخ: ولا خلاف في جواز النفل قبل إحرار الغنيمة، نحو أن يقول: من أخذ شيئا فهو له ومن قتل قتيلا فله سلبه، وقد روى حبيب بن مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل في بدأته الربع وفي رجعته الثلث بعد الخمس .

(39/313)

---

فأما التنفل في البدأة فقد ذكرنا اتفاق الفقهاء عليه، وأما قوله: في الرجعة الثلث، فإنه يحتمل وجهين: أحدهما: ما يصيب السرية في الرجعة بأن يقول لهم: ما أصبتم من شيء فلكم الثلث بعد الخمس؛ ومعلوم أن ذلك ليس بلفظ عموم في سائر الغنائم وإنما هي حكاية فعل النبي صلى الله عليه وسلم في شيء بعينه لم يبين كيفيته، وجاز أن يكون معناه ما ذكرناه من قوله للسرية في الرجعة وجعل لهم في الرجعة أكثر مما جعله في

الْبَدَأَةُ؛ لِأَنَّ فِي الرَّجْعَةِ يَحْتَاجُ إِلَى حِفْظِ الْغَنَائِمِ وَإِحْرَازِهَا وَيَكُونُ مِنْ حَوَالِيهِمُ الْكُفَّارُ  
مُتَاهِبِينَ مُسْتَعِدِّينَ لِلْقِتَالِ لِاتِّشَارِ الْخَبَرِ بِوُقُوعِ الْجَيْشِ إِلَى أَرْضِهِمْ .  
وَالْوَجْهُ الْآخِرُ : أَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ إِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي  
كَانَتْ الْغَنِيمَةُ كُلُّهَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَهَا لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ ، وَذَلِكَ مَنْسُوخٌ بِمَا  
ذَكَرْنَا .

(40/313)

---

فَإِنْ قِيلَ : ذَكَرَ فِي حَدِيثِ حَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ الثَّلَاثُ بَعْدَ الْخُمْسِ ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ  
كَانَ بَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ قِيلَ لَهُ : لَا دَلَالَةَ فِيهِ  
عَلَى مَا ذَكَرْتُمْ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ الْخُمْسُ الْمُسْتَحَقُّ لِأَهْلِهِ مِنْ جُمْلَةِ الْغَنِيمَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :  
﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى خُمْسٍ مِنَ الْغَنِيمَةِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الثَّلَاثِ  
وَالنَّصْفِ وَلَمَّا احْتَمَلَ حَدِيثُ حَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ مَا وَصَفْنَا لَمْ يَجْزُ الْاِعْتِرَاضُ بِهِ عَلَى  
ظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ إِذْ كَانَ قَوْلُهُ ذَلِكَ  
يُقْتَضِي إِجْبَابَ الْأَرْبَعَةِ الْأَخْمَاسِ لِلْغَانِمِينَ اقْتِضَاءً إِجْبَابِ الْخُمْسِ لِأَهْلِهِ الْمَذْكُورِينَ ، فَمَتَى  
أُحْرِزَتِ الْغَنِيمَةُ فَقَدْ ثَبَتَ حَقُّ الْجَمِيعِ فِيهَا بِظَاهِرِ الْآيَةِ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُجْعَلَ شَيْءٌ مِنْهَا

لغيره على غير مقتضى الآية إلا بما يجوز بمثله تخصيص الآية.

وحدَّثنا محمد بن بكر قال: حدَّثنا أبو داود قال: حدَّثنا مسدد قال: حدَّثنا يحيى عن

عبيد الله قال: حدَّثني نافع عن عبد الله بن عمر قال: ﴿: بعثنا رسول الله

(41/313)

صلى الله عليه وسلم في سرية فبلغت سهامنا اثني عشر بعيراً ونقلنا رسول الله صلى الله

عليه وسلم بعيراً بعيراً ﴿: ، فبين في هذا الحديث سهمان الجيش وأخبر أن النفل لم يكن

من جملة الغنيمة وإنما كان بعد السهمان وذلك من الخمس .

ويدل على أن النفل بعد إحرار الغنيمة لا يجوز إلا من الخمس ما حدَّثنا محمد بن بكر قال

: حدَّثنا أبو داود قال: حدَّثنا الوليد بن عتبة قال: حدَّثنا الوليد قال: حدَّثنا عبد الله بن

العلاء أنه سمع أبا سلام بن الأسود يقول ، قال: سمعت عمرو بن عبسة قال: ﴿: صلى بنا

رسول الله إلى بعير من المغنم ، فلما سلم أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال: ولا يحل لي من

غنائمكم مثل هذا إلا الخمس والخمس مردود فيكم ﴿: ، فأخبر عليه السلام أنه لم يكن

جائز التصرف إلا في الخمس من الغنائم وأن الأربعة الأخماس للغانمين ، وفي ذلك دليل

على أن ما أحرز من الغنيمة فهو لأهلها ولا يجوز التنفيل منه .

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا لَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَا يَتِمَّانَعُهُ النَّاسُ مِنْ نَحْوِ النَّوَاةِ وَالتَّبَنَةِ  
وَالْحَرِيقِ الَّتِي يُرْمَى بِهَا يَجُوزُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَأْخُذَهُ وَيُنْفِلَهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
أَخَذَ وَبِرَّةً مِنْ جَنْبِ بَعِيرٍ مِنَ الْمَغْنَمِ وَقَالَ: ﴿ لَا يَحِلُّ لِي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مِثْلُ هَذَا ﴾ يَعْنِي  
فِي أَنْ يَأْخُذَهُ لِنَفْسِهِ وَيَنْتَفِعَ بِهِ أَوْ يَجْعَلَهُ لِغَيْرِهِ دُونَ جَمَاعَتِهِمْ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ لَتِلْكَ الْوَبِرَةِ قِيَمَةٌ.  
فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ قَالَ: ﴿ لَا يَحِلُّ لِي مِثْلُ هَذَا ﴾ قِيلَ لَهُ: إِنَّمَا أَرَادَ: مِثْلُ هَذَا فِيمَا يَتِمَّانَعُهُ  
النَّاسُ لَا ذَاكَ بَعِينِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَخَذَهُ.  
وَيُدَلُّ

عَلَى مَا ذَكَرْنَا مَا رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ: حَدَّثَنَا خَالِدُ الْحَذَاءُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ  
رَجُلٍ مِنْ بُلْقَيْنَ ذَكَرَ قِصَّةً قَالَ: ﴿ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِي هَذَا الْمَالِ؟ قَالَ:  
خُمْسُهُ لِلَّهِ وَأَرْبَعَةٌ أَخْمَاسِهِ لِلْجَيْشِ قَالَ: قُلْتُ: هَلْ أَحَقُّ أَحَدٍ بِهِ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَ: لَوْ  
انْتَزَعْتَ سَهْمَكَ مِنْ جَنْبِكَ لَمْ تَكُنْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ ﴾ وَرَوَى أَبُو عَاصِمٍ التَّبِيلُ  
عَنْ وَهْبِ أَبِي خَالِدِ الْحَمْصِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي أُمُّ حَبِيبَةَ عَنْ أَبِيهَا الْعَرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ أَنَّ ﴿



النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ وَبِرَّةً فَقَالَ: مَا لِي فِيكُمْ هَذِهِ مَا لِي فِيهِ إِلَّا الْخُمْسُ، فَأَدُّوا  
الْخَيْطَ وَالْمَخِيطَ فَإِنَّهُ عَارٌ وَنَارٌ وَشَنَارٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

(43/313)

﴿ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا  
حَمَّادٌ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، ذَكَرَ غَنَائِمَ هَوَازِنَ  
وَقَالَ: ﴿ ثُمَّ دَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَعِيرٍ فَأَخَذَ وَبِرَّةً مِنْ سَنَامِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا  
النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنْ هَذَا الْفَيْءِ شَيْءٌ وَلَا هَذَا وَرَفَعَ أُصْبُعِيهِ: إِلَّا الْخُمْسُ وَالْخُمْسُ  
مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ، فَأَدُّوا الْخَيْطَ وَالْمَخِيطَ، فَقَامَ رَجُلٌ فِي يَدِهِ كَبَّةٌ مِنْ شَعْرٍ فَقَالَ: أَخَذْتُ  
هَذِهِ لِأَصْلِحَ بِهَا بُرْدَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا مَا كَانَ لِي وَلِئِنِّي عَبْدُ  
الْمُطَلَّبِ فَهُوَ لَكَ فَقَالَ: أَمَا إِذْ بَلَغَتْ مَا أَرَى فَلَا أَرُبُّ لِي فِيهَا، وَبَنَدَهَا.

﴿ فَهَذِهِ الْأَخْبَارُ مُوَافِقَةٌ لِظَاهِرِ الْكِتَابِ، فَهِيَ أَوْلَى مِمَّا يُخَالِفُهُ مِنْ حَدِيثِ حَبِيبِ بْنِ  
مَسْلَمَةَ مَعَ احْتِمَالِ حَدِيثِهِ لِلتَّأْوِيلِ الَّذِي وَصَفْنَاهُ، وَجَمَعْنَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَرْبَعَةِ  
الْأَخْمَاسِ حَقٌّ لِغَيْرِ الْغَانِمِينَ

وَيُخْبِرُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُ فِيهَا.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ فِي غَزَاةٍ فَأَصَابُوا سَبِيًّا ، فَأَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَ أَنَسًا مِنْ السَّبْيِ قَبْلَ أَنْ يُقَسِّمَ ، فَقَالَ أَنَسٌ : لَا ، وَلَكِنْ اقْسِمْ ثُمَّ اعْطِنِي مِنَ الْخُمْسِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : لَا ، إِلَّا مِنْ جَمِيعِ الْغَنَائِمِ فَأَبَى أَنَسٌ أَنْ يَقْبَلَ وَأَبَى عَبْدُ اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنَ الْخُمْسِ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ : حَدَّثَنَا حَمَّادٌ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَا نَفَلَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ قَالَ الشَّيْخُ أَيَّدَهُ اللَّهُ : يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ مِنْ جُمْلَةِ الْغَنِيمَةِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانَتْ لَهُ الْأَنْفَالُ ثُمَّ نَسَخَ بَابَةَ الْقِسْمَةِ وَهَذَا مِمَّا يَحْتَجُّ بِهِ لِصِحَّةِ مَذْهَبِنَا لِأَنَّ ظَاهِرَهُ يَقْتَضِي أَنْ لَا يَكُونَ لِأَحَدٍ نَفْلٌ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عُمُومِ الْأَحْوَالِ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ قَامَتْ الدَّلَالَةُ فِي أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا قَالَ مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ أَنَّهُ يُصِيرُ ذَلِكَ لَهُ بِالِاتِّفَاقِ ، فَخَصَّصْنَاهُ وَبَقِيَ الْبَاقِي عَلَى مُقْتَضَاهُ فِي أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ الْإِمَامُ فَلَا شَيْءَ لَهُ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ قَالَ : كَانَ النَّاسُ يُعْطُونَ النَّفْلَ مِنَ الْخُمْسِ .

---

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ أُعْطِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ صِنَادِيدَ الْعَرَبِ عَطَايَا  
نَحْوَ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ وَالزُّبَيْرِ قَانَ بْنَ بَدْرِ وَأَبِي سَفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَصَفْوَانَ  
بْنَ أُمَيَّةَ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُعْطِهِمْ ذَلِكَ مِنْ سَهْمِهِ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَسَهْمِهِ مِنَ الْخُمْسِ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ  
يَتَّسِعُ لِهَذِهِ الْعَطَايَا لِأَنَّهُ أُعْطِيَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِيُعْطِيَهُمْ  
مِنْ بَقِيَّةِ سَهَامِ الْخُمْسِ سِوَى سَهْمِهِمْ لِأَنَّهَا لِلْفُقَرَاءِ وَلَمْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ فَقَرَاءَ ، فَثَبَتَ أَنَّهُ أُعْطَاهُمْ  
مِنْ جُمْلَةِ الْغَنِيمَةِ ، وَلَمَّا لَمْ يَسْتَأْذِنُهُمْ فِيهِ ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ أُعْطَاهُمْ عَلَى وَجْهِ النَّفْلِ وَأَنَّهُ قَدْ كَانَ  
لَهُ أَنْ يَنْفَلَ قَبْلَ لَهْ : إِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ كَانُوا مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ  
سَهْمًا مِنَ الصَّدَقَاتِ ، وَسَبِيلَ الْخُمْسِ سَبِيلَ الصَّدَقَةِ لِأَنَّهُ مَصْرُوفٌ إِلَى الْفُقَرَاءِ  
كَالصَّدَقَاتِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَيْهِمْ ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَاهُمْ مِنْ  
جُمْلَةِ الْخُمْسِ كَمَا يُعْطِيهِمْ مِنَ الصَّدَقَاتِ .

(46/313)

---

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي سَلْبِ الْقَتِيلِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَمَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ : ﴿ السَّلْبُ مِنْ غَنِيمَةِ  
الْجَيْشِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْأَمِيرُ قَالَ مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ ﴾ وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ وَاللِّثُّ وَالشَّافِعِيُّ

﴿ السَّلْبُ لِلْقَاتِلِ وَإِنْ لَمْ يَقُلِ الْأَمِيرُ ﴾ قَالَ الشَّيْخُ أَيَّدَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يَقْتَضِي وَجُوبَ الْغَنِيمَةِ لِجَمَاعَةِ الْغَانِمِينَ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا خِصَاصٌ بِشَيْءٍ مِنْهَا دُونَ غَيْرِهِ .

(47/313)

فَإِنْ قِيلَ: يُنْبَغِي أَنْ يُدْلَّ عَلَى أَنَّ السَّلْبَ غَنِيمَةٌ قِيلَ لَهُ: غَنِمْتُمْ هِيَ الَّتِي حَازُوهَا بِاجْتِمَاعِهِمْ وَتَوَازَرِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ وَأَخَذِ الْغَنِيمَةِ ، فَلَمَّا كَانَ قَتْلُهُ لِهَذَا الْقَتِيلِ وَأَخْذُهُ سَلْبَهُ بِتَضَافِرِ الْجَمَاعَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ غَنِيمَةً ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَوْ أَخَذَ سَلْبَهُ مِنْ غَيْرِ قَتْلِ لَكَانَ غَنِيمَةً ؛ إِذْ لَمْ يَصِلْ إِلَى أَخْذِهِ إِلَّا بِقُوَّتِهِمْ ، وَكَذَلِكَ مَنْ لَمْ يُقَاتِلْ وَكَانَ قَائِمًا فِي الصَّفِّ رَدًّا لَهُمْ مُسْتَحِقُّ الْغَنِيمَةِ وَيَصِيرُ غَانِمًا لِأَنَّ بَطْنَهُ وَمُعَاوَضَتَهُ حَصَلَتْ وَأُخِذَتْ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ السَّلْبُ غَنِيمَةً فَيَكُونُ كَسَائِرِ الْغَنَائِمِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ وَالسَّلْبُ مِمَّا غَنِمَهُ الْجَمَاعَةُ فَهُوَ لَهُمْ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ

مِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ مَا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ الْجَزُورِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُبَارَكِ وَهَشَامُ بْنُ عَمَّارٍ قَالَا: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ وَاقِدٍ عَنْ مُوسَى بْنِ يَسَارٍ عَنْ مَكْحُولٍ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ أَبِي أُمِيَّةٍ قَالَ: نَزَلْنَا دَابِقَ وَعَلَيْنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ، فَبَلَغَ حَبِيبَ

بْنُ مُسْلِمٍ أَنَّ صَاحِبَ قَبْرِ صَخْرَجٍ يُرِيدُ طَرِيقَ أَذْرِيحَانَ مَعَهُ زَبْرُجَدٌ وَيَأْقُوتٌ وَوُلُوذٌ وَدِيْبَاجٌ  
، فَخَرَجَ فِي جَبَلٍ حَتَّى

(48/313)

قَتَلَهُ فِي الدَّرْبِ وَجَاءَ بِمَا كَانَ مَعَهُ إِلَى عُبَيْدَةَ ، فَأَرَادَ أَنْ يُخَمِّسَهُ فَقَالَ حَبِيبٌ : يَا أَبَا  
عُبَيْدَةَ لَا تَحْرِمْنِي رِزْقًا رَزَقَنِيهِ اللَّهُ فَإِنَّ رَسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ السَّلْبَ  
لِلْقَاتِلِ ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : مَهَلًا يَا حَبِيبُ إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :  
﴿ إِنَّمَا لِلْمَرْءِ مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُ إِمَامِهِ .

﴿ فَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنَّمَا لِلْمَرْءِ مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُ إِمَامِهِ ﴾ يَقْتَضِي حَظْرَ مَا لَمْ تَطْبُ  
نَفْسُ إِمَامِهِ ، فَمَنْ لَمْ تَطْبُ نَفْسُ إِمَامِهِ لَمْ يَحِلَّ لَهُ السَّلْبُ ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ أَخْبَرَ مُعَاذٌ أَنَّ ذَلِكَ  
فِي شَأْنِ السَّلْبِ .

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَبُو قَتَادَةَ وَطَلْحَةَ وَسَمُرَةَ  
بْنُ جُنْدُبٍ وَغَيْرُهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ ﴾ .  
وَرَوَى سَلْمَةُ بْنُ الْأَكُوْعِ وَأَبْنُ عَبَّاسٍ وَعَوْفُ بْنُ مَالِكٍ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ : أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ جَعَلَ السَّلْبَ لِلْقَاتِلِ ، ﴿ وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى مَعْنِيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّ

يَسْتَحِقُّ الْقَاتِلُ السَّلْبَ ، وَالثَّانِي : أَنَّهُ فَسَّرَ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ : ﴿ إِنَّمَا لِلْمَرْءِ مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُ إِمَامِهِ ﴾ أَنَّ نَفْسَهُ قَدْ طَابَتْ لِلْقَاتِلِ بِذَلِكَ وَهُوَ إِمَامُ الْأُمَّةِ .

(49/313)

قِيلَ لَهُ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَيْسَ لِلْمَرْءِ إِلَّا مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُ إِمَامِهِ ﴾ الْمَقْهُومُ مِنْهُ أَمِيرُهُ الَّذِي يَلْزِمُهُ طَاعَتُهُ ، وَكَذَلِكَ عَقَلَ مُعَاذٌ وَهُوَ رَاوِي ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ أَرَادَ بِذَلِكَ نَفْسَهُ لَقَالَ إِنَّمَا لِلْمَرْءِ مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسِي ، فَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ هَذَا السَّائِلُ تَأْوِيلٌ سَاقِطٌ لَا مَعْنَى لَهُ .

وَأَمَّا الْأَخْبَارُ الْمَرْوِيَّةُ فِي أَنَّ السَّلْبَ لِلْقَاتِلِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ

كَلَامٌ خَرَجَ عَلَى الْحَالِ الَّتِي حَضَّ فِيهَا لِلْقِتَالِ ، وَكَانَ يَقُولُ ذَلِكَ تَحْرِيسًا لَهُمْ وَتَضْرِيحًا عَلَى الْعَدُوِّ ، كَمَا رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ : مَنْ أَصَابَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ ﴾ ، وَكَمَا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ الْجَزُورِيُّ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الدَّهَّانِيُّ : حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ : حَدَّثَنَا غَالِبُ بْنُ حُجْرَةَ قَالَ : حَدَّثَنِي أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ وَهِيَ ابْنَةُ الْمَلْقَامِ بْنِ التَّلْبِ عَنْ أَبِيهَا عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : مَنْ أَتَى بِمَوْلٍ فَلَهُ سَلْبُهُ ﴾ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ حُكْمٌ مَقْصُورٌ عَلَى الْحَالِ فِي تِلْكَ الْحَرْبِ خَاصَّةً ؛ إِذْ لَا خِلَافَ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ السَّلْبَ بِأَخْذِهِ مُوَلِّيًّا ، وَهُوَ

كَتَوَّلَهُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ ❁ : مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ  
دَخَلَ بَيْتَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَتَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ ❁ .

(50/313)

---

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّلْبَ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِلْقَاتِلِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ قَالَ الْأَمِيرُ مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ ،  
مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ قَالَ : حَدَّثَنَا  
الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ : حَدَّثَنِي صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ  
عَوْفِ بْنِ مَالِكِ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ : خَرَجْتُ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ وَرَافَقَنِي مَدَدِيُّ  
مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُ سَيْفِهِ ، فَنَحَرَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ جُزُورًا ، فَسَأَلَهُ الْمَدَدِيُّ  
طَائِفَةً مِنْ جِلْدِهِ ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، فَاتَّخَذَهُ كَهَيْئَةِ الدَّرَقِ ، وَمَضَيْنَا فَلَقِينَا جُمُوعَ الرُّومِ وَفِيهِمْ  
رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشْقَرٌ عَلَيْهِ سَرَجٌ مُذَهَّبٌ وَسِلَاحٌ مُذَهَّبٌ ، فَجَعَلَ الرُّومِيُّ يُغْرِي  
بِالْمُسْلِمِينَ وَقَعَدَ لَهُ الْمَدَدِيُّ خَلْفَ صَخْرَةٍ ، فَمَرَّ بِهِ الرُّومِيُّ فَعَرَقَ فَرَسَهُ وَخَرَّ وَعَلَاهُ

(51/313)

فَقَتَلَهُ وَحَازَ فَرَسَهُ وَسِلَاحَهُ ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُسْلِمِينَ بَعَثَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ  
فَأَخَذَ مِنْهُ السَّلْبَ ؛ قَالَ عَوْفٌ : فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ : يَا خَالِدُ أَمَا عَلِمْتَ ❀ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بِالسَّلْبِ لِلْقَاتِلِ ❀ ؟ فَقَالَ : بَلَى وَلَكِنْ اسْتَكْرَهْتَهُ ، فَقُلْتُ : تَرُدُّنَهُ  
إِلَيْهِ أَوْ لَأَعْرِفَنَّهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبَى أَنْ يُرَدَّ عَلَيْهِ ؛ قَالَ عَوْفٌ : ❀  
فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَصَّصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةَ الْمَدَدِيِّ وَمَا فَعَلَ  
خَالِدٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا خَالِدُ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ  
: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَكْرَهْتَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا خَالِدُ رُدَّ عَلَيْهِ مَا  
أَخَذْتَ مِنْهُ قَالَ عَوْفٌ : فَقُلْتُ : دُونَكَ يَا خَالِدُ أَلَمْ أَفِ لَكَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَمَا ذَاكَ ؟ فَأَخْبَرْتَهُ ، قَالَ : فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :  
يَا خَالِدُ لَا تَرُدَّ عَلَيْهِ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ أَمْرًا لَكُمْ صَفْوَةٌ أَمْرِهِمْ وَعَلَيْهِمْ كَدْرِهِ ❀ .  
حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ قَالَ : حَدَّثَنَا  
الْوَلِيدُ قَالَ : سَأَلْتُ ثَوْرًا عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، فَحَدَّثَنِي عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ  
نَفِيرٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ الْأَشْجَعِيِّ نَحْوَهُ .



فَلَمَّا ﴿ قَالَ النَّبِيُّ: يَا خَالِدُ لَا تَرُدَّ عَلَيْهِ ﴾ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ السَّلْبَ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِلْقَاتِلِ ؛  
لأنَّهُ لَوْ اسْتَحَقَّهُ لَمَا جَازَأَن يُمْنَعُهُ ، وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ بَدِيًّا اذْفَعُهُ إِلَيْهِ لَمْ يَكُنْ عَلَى جِهَةِ  
الْإِجَابِ وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّنْفِيلِ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنَ الْخُمْسِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَى  
يُوسُفُ الْمَاجْشُونُ قَالَ :

حَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﴿ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ عَفْرَاءَ  
وَمُعَاذَ بْنَ عَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ قَتَلَا أَبَا جَهْلٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَلَاكُمَا قَتَلَهُ  
﴿ وَقَضَى بِسَلْبِهِ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو .

فَلَمَّا قَضَى بِهِ لِأَحَدِهِمَا مَعَ إِخْبَارِهِ أَنَّهُمَا قَتَلَاهُ دَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَحِقَّاهُ بِالْقَتْلِ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ  
لَوْ قَالَ مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ ثُمَّ قَتَلَهُ رَجُلَانِ اسْتَحَقَّا السَّلْبَ نِصْفَيْنِ ؟ فَلَوْ كَانَ الْقَاتِلُ  
مُسْتَحِقًّا لِلْسَّلْبِ لَوْجَبَ أَنْ يَكُونَ لَوْ وُجِدَ قَتِيلٌ لَا يُعْرَفُ قَاتِلُهُ أَنْ لَا يَكُونَ سَلْبُهُ مِنْ جُمْلَةِ  
الْغَنِيمَةِ بَلْ يَكُونُ لِقِطْعَةٍ لِأَنَّ لَهُ مُسْتَحَقًّا بَعِيْنَهُ ، فَلَمَّا انْفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ سَلْبَ مَنْ لَمْ يُعْرَفْ  
قَاتِلُهُ فِي الْمَعْرَكَةِ مِنْ جُمْلَةِ الْغَنِيمَةِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْقَاتِلَ لَا يَسْتَحِقُّهُ .

(53/313)

---

وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ: ﴿ إِنَّ الْقَاتِلَ لَا يَسْتَحِقُّ السَّلْبَ فِي الْإِدْبَارِ وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّهُ فِي الْإِقْبَالِ

﴿ ، فَالْأَثَرُ الْوَارِدُ فِي السَّلْبِ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ حَالِ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ .

فَإِنْ أُحْتِجَّ بِالْخَبَرِ فَقَدْ خَالَفَهُ ، وَإِنْ أُحْتِجَّ بِالنَّظَرِ فَالنَّظَرُ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ غَنِيمَةً لِلْجَمِيعِ  
لَا تَفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّهُ إِذَا قَتَلَهُ فِي حَالِ الْإِدْبَارِ لَمْ يَسْتَحِقَّهُ وَكَانَ غَنِيمَةً ، وَالْمَعْنَى الْجَامِعُ بَيْنَهُمَا

أَنَّهُ قَتَلَهُ بِمَعَاوَنَةِ الْجَمِيعِ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ مِنَ الْأَمِيرِ قَوْلٌ فِي اسْتِحْقَاقِهِ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَاتِلَ إِنَّمَا يَسْتَحِقُّهُ إِذَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمِيرِ قَوْلٌ قَبْلَ إِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ أَنَّهُ لَوْ قَالَ : مَنْ

قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ ، ثُمَّ قَتَلَهُ مُقْبِلًا أَوْ مُدْبِرًا اسْتَحَقَّ سَلْبَهُ وَلَمْ يَخْتَلَفْ حَالُ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ

، فَلَوْ كَانَ السَّلْبُ مُسْتَحِقًّا بِنَفْسِ الْقَتْلِ لَمَا اخْتَلَفَ حُكْمُهُ فِي حَالِ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ

عُمَرُ فِي قَتِيلِ الْبِرَاءِ بْنِ مَالِكٍ أَنَا كُنَّا لَا نَخْمَسُ السَّلْبَ وَأَنْ سَلَبَ الْبِرَاءِ قَدْ بَلَغَ مَالًا وَلَا أَرَأَانَا

إِلَّا خَامِسِيهِ .

وَاخْتَلَفَ فِي الْأَمِيرِ إِذَا قَالَ : مَنْ أَصَابَ شَيْئًا فَهُوَلَهُ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ :

﴿ هُوَ كَمَا قَالَ وَلَا خُمْسَ فِيهِ ﴾ ، وَكَرِهَ مَالِكٌ أَنْ يَقُولَ مَنْ أَصَابَ شَيْئًا فَهُوَلَهُ لِأَنَّهُ قَاتِلٌ

بِجَعْلٍ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ﴿ يَخْمَسُ مَا أَصَابَهُ إِلَّا سَلَبَ الْمَقْتُولِ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى جَوَازِ أَنْ يَقُولَ: مَنْ أَصَابَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ، وَأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ وَجِبَ أَنْ لَا خُمْسَ فِيهِ وَأَنْ يَجُوزَ قَطْعُ حُقُوقِ أَهْلِ الْخُمْسِ عَنْهُ كَمَا جَازَ قَطْعُ حُقُوقِ سَائِرِ الْغَنَائِمِ عَنْهُ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ قَوْلَهُ: مَنْ أَصَابَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَهُوَ سَلْبُهُ، فَلَمَّا لَمْ يَجِبْ فِي السَّلْبِ الْخُمْسُ إِذَا قَالَ الْأَمِيرُ ذَلِكَ كَذَلِكَ سَائِرِ الْغَنِيمَةِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَوْجَبَ الْخُمْسَ فِيمَا صَارَ غَنِيمَةً لَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ وَهَذَا لَمْ يَصِرْ غَنِيمَةً لَهُمْ لِأَنَّ قَوْلَ الْأَمِيرِ فِي ذَلِكَ جَائِزٌ عَلَى الْجَيْشِ، فَلَمَّا لَمْ يَصِرْ غَنِيمَةً لَهُمْ وَجِبَ أَنْ لَا خُمْسَ فِيهِ.

وَاخْتَلَفَ فِي الرَّجُلِ يَدْخُلُ دَارَ الْحَرْبِ وَحَدَّهُ مُغَيَّرًا بِغَيْرِ إِذْنِ الْإِمَامِ فَقَالَ أَصْحَابُنَا: ﴿مَا غَنِمَهُ فَهُوَ لَهُ خَاصَّةً وَلَا خُمْسَ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ لَهُمْ مَنَعَةٌ﴾.

وَلَمْ يَحْدُ مُحَمَّدٌ فِي الْمَنَعَةِ شَيْئًا.

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ: ﴿إِذَا كَانُوا تِسْعَةً فِيهِ الْخُمْسُ﴾.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالشَّافِعِيُّ: ﴿يُخَمَّسُ مَا أَخَذَهُ وَالْبَاقِي لَهُ﴾.

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: ﴿إِنْ شَاءَ الْإِمَامُ عَاقَبَهُ وَحَرَمَهُ وَإِنْ شَاءَ خَمَّسَ مَا أَصَابَ وَالْبَاقِي لَهُ﴾.

• ❁

قال أبو بكر: قوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ يقتضي أن يكون الغانمون جماعة؛ لأن حصول الغنيمة منهم شرط في الاستحقاق، وليس ذلك بمنزلة قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ و ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في لزوم قتل الواحد على حياله وإن لم يكن معه جماعة إذا كان مشتركا؛ لأن ذلك أمر بقتل الجماعة والأمر بقتل الجماعة لا يوجب اعتبار الجميع؛ إذ ليس فيه شرط، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ فيه معنى الشرط، وهو حصول الغنيمة لهم وبقائهم، فهو كقول القائل: إن كلمت هؤلاء الجماعة فعبدي حر، أن شرط الحنث وجود الكلام للجماعة ولا يحنث بكلام بعضها.

وأیضا لما اتفق الجميع على أن الجيش إذا غنموا لم يشاركهم سائر المسلمين في الأربعة الأخماس لأنهم لم يشهدوا القتال ولم تكن منهم حيازة الغنيمة وجب أن يكون هذا المغير وحده استحق ما غنمه، وأما الخمس فإنما يستحق من الغنيمة التي حصلت بظهر المسلمين ونصرتهم وهو أن يكونوا فئة للغانمين، ومن دخل دار الحرب وحده مغيرا فقد

تَبَرَّأَ مِنْ نُصْرَةِ الْإِمَامِ لِأَنَّهُ عَاصٍ لَهُ دَاخِلٌ بِغَيْرِ أَمْرِهِ فَوَجِبَ أَنْ لَا يَسْتَحِقَّ مِنْهُ الْخُمْسُ ؛  
وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِي الرِّكَازِ الْمَوْجُودِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ : لَمَّا كَانَ الْمَوْضِعُ مَظْهُورًا عَلَيْهِ  
بِالْإِسْلَامِ وَجَبَ فِيهِ الْخُمْسُ وَلَوْ وَجَدَهُ فِي دَارِ الْحَرْبِ لَمْ يَجِبْ فِيهِ الْخُمْسُ .  
وَإِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ بِإِذْنِ الْإِمَامِ خُمِسَ مَا غَنِمَ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أُذِنَ لَهُ فِي الدُّخُولِ ضَمِنَ  
نُصْرَتَهُ وَحَيَاتَهُ ، وَالْإِمَامُ قَائِمٌ مَقَامَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ فَاسْتَحَقَّ لَهُمُ الْخُمْسُ .  
وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمَغِيرُونَ بِغَيْرِ إِذْنِ الْإِمَامِ جَمَاعَةً لَهُمْ مَنَعَةٌ فَإِنَّهُ يَجِبُ فِيهِ الْخُمْسُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :  
﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ فَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ بِمَنْزِلَةِ السَّرِيَّةِ  
وَالْجَيْشِ ، لِحُصُولِ الْمَنَعَةِ لَهُمْ وَلِتَوَجُّهِ الْخِطَابِ إِلَيْهِمْ بِإِخْرَاجِ الْخُمْسِ مِنْ غَنَائِمِهِمْ .  
وَاخْتَلَفَ فِي الْمَدَدِ يَلْحَقُ الْجَيْشَ فِي دَارِ الْحَرْبِ قَبْلَ إِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا :  
﴿ إِذَا غَنِمُوا فِي دَارِ الْحَرْبِ ثُمَّ لَحِقَهُمْ جَيْشٌ آخَرَ قَبْلَ إِخْرَاجِهَا إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ فَهُمْ  
شُرَكَاءُ فِيهَا ﴾ .

وَقَالَ مَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَاللِّثُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ : ﴿ لَا يُشَارِكُونَهُمْ ﴾ .

قال أبو بكر: الأصل في ذلك عند أصحابنا أن الغنيمة إنما يثبت فيها الحق بالأحرار في دار الإسلام ولا يملك إلا بالقسمة، وحصولها في أيديهم في دار الحرب لا يثبت لهم فيها حقاً؛ والدليل عليه أن الموضع الذي حصل فيه الجيش من دار الحرب لا يصير مغنوماً إذا لم يفتحوها إلا ترى أنهم لو خرجوا ثم دخل جيش آخر فتحوها لم يصير الموضع الذي صار فيه الأولون ملكاً لهم وكان حكمه حكم غيره من بقاع أرض الحرب؟ ولمعنى فيه أنهم لم يحرزوه في دار الإسلام، فكذلك سائر ما يحصل في أيديهم قبل خروجهم إلى دار الإسلام لم يثبت لهم فيه حق إلا بالحيازة في دارنا، فإذا لحقهم جيش آخر قبل الأحرار في دار الإسلام كان حكم ما أخذوه حكم ما في أيدي أهل الحرب فيشارك الجميع فيه.

(58/313)

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يقتضي أن يكون غنيمة لجميعهم؛ إذ بهم صار محرزاً في دار الإسلام إلا ترى أنهم ما داموا في دار الحرب فإنهم يحتاجون إلى معونة هؤلاء في إخراجها كما لو لحقوهم قبل أخذها شاركوهم؟ ولو كان حصولها في أيديهم يثبت لهم فيها حقاً قبل إخراجها في دار الإسلام لوجب أن يصير الموضع الذي وطئه الجيش من دار الإسلام، كما لو اقتحوها لصارت داراً للإسلام

، وَفِي اتِّفَاقِ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ وَطْءَ الْجَيْشِ لِمَوْضِعٍ فِي دَارِ الْحَرْبِ لَا يَجْعَلُهُ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ ،  
دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ لَا يَنْبُتُ فِيهِ إِلَّا بِالْحِيَازَةِ .

وَاحْتِجَّ مَنْ لَمْ يَقْسِمْ لِلْمَدَدِ بِمَا رَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ عُنْبَسَةَ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ أَبَانَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى سَرِيَّةٍ قَبْلَ نَجْدٍ ، فَقَدِمَ أَبَانُ وَأَصْحَابُهُ بِخَيْبَرَ بَعْدَ مَا فَتَحَتْ وَإِنَّ حُزْمَ خَيْلِهِمُ اللَّيْفُ ، قَالَ أَبَانُ : اقْسِمْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَقُلْتُ : لَا تَقْسِمْ لَهُمْ شَيْئًا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ : قَالَ أَبَانُ : أَنْتَ بِهَذَا يَا وَتَرَ نَجْدٍ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اجْلِسْ يَا أَبَانُ فَلَمْ يَقْسِمْ لَهُمْ .  
وَهَذَا لَا حُجَّةَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ خَيْبَرَ صَارَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ بظُهُورِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهَا ، وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ .

(59/313)

وَقَدْ قِيلَ فِيهِ وَجْهٌ آخَرٌ ، وَهُوَ مَا رَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ عَنْ عَمَّارِ بْنِ أَبِي عَمَّارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ مَا شَهِدْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ مَغْنَمًا إِلَّا قَسَمَ لِي إِلَّا خَيْبَرَ فَإِنَّهَا كَانَتْ لِلأَهْلِ الْحُدُوبِيَّةِ خَاصَّةً ﴾ .

فَأَخْبَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ خَيْبَرَ كَانَتْ لِلأَهْلِ الْحُدُوبِيَّةِ خَاصَّةً شَهِدُوهَا أَوْ لَمْ يَشْهَدُوهَا

دُونَ مَنْ سِوَاهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ وَعَدَهُمْ إِيَّاهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ وَقَدْ رَوَى أَبُو بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: ﴿ قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ فَتْحِ خَيْبَرَ ثَلَاثَ أَيَّامٍ، فَقَسَمَ لَنَا وَلَمْ يَقْسِمْ لِأَحَدٍ لَمْ يَشْهَدْ الْفَتْحَ غَيْرَنَا ﴾ .  
فَذَكَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسَمَ لِأَبِي مُوسَى

(60/313)

---

وَأَصْحَابِهِ مِنْ غَنَائِمِ خَيْبَرَ وَلَمْ يَشْهَدُوا الْوَقْعَةَ وَلَمْ يَقْسِمْ فِيهَا لِأَحَدٍ لَمْ يَشْهَدْ الْوَقْعَةَ وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِطَيْبَةِ أَنْفُسِ أَهْلِ الْغَنِيمَةِ، كَمَا رَوَى خُثَيْمُ بْنُ عِرَاكِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ هُوَ وَنَفَرٌ مِنْ قَوْمِهِ، قَالَ: فَقَدِمْنَا وَقَدْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ افْتَحَ خَيْبَرَ، فَكَلَّمَ النَّاسَ فَأَشْرَكُونَا فِي سَهَامِهِمْ فَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَخْبَارِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَدَدَ إِذَا لَحِقَ بِالْجَيْشِ وَهُمْ فِي دَارِ الْحَرْبِ أَنَّهُمْ لَا يُشْرَكُونَ فِي الْغَنِيمَةِ.

(61/313)



---

وَقَدْ رَوَى قَيْسُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ أَنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ غَزَوْا نَهَاوَنْدَ فَأَمَدَهُمْ أَهْلُ الْكُوفَةِ وَظَهَرُوا ، فَأَرَادَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ أَنْ لَا يُقْسِمُوا لِأَهْلِ الْكُوفَةِ ، وَكَانَ عَمَّارٌ عَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَطَّارِدَ : أَيُّهَا الْأَجْدَعُ تُرِيدُ أَنْ تُشَارِكَنَا فِي غَنَائِمِنَا فَقَالَ : جِيرُ إِذْ بِي سَبَيْتَ ؛ فَكَتَبَ فِي ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ ، فَكَتَبَ عُمَرُ فِي ذَلِكَ : إِنَّ الْغَنِيمَةَ لَمَنْ شَهِدَ الْوَقْعَةَ وَهَذَا أَيْضًا لَا دَلَالََةَ فِيهِ عَلَى خِلَافِ قَوْلِنَا ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ ظَهَرُوا عَلَى نَهَاوَنْدَ وَصَارَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ ؛ إِذْ لَمْ يَبْقَ لِلْكَفَّارِ هُنَاكَ فِئَةٌ ، فَإِنَّمَا قَالَ : إِنَّ الْغَنِيمَةَ لَمَنْ شَهِدَ الْوَقْعَةَ مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ لِحِقْوِهِمْ بَعْدَ مَا صَارَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ رَأَى عَمَّارٌ وَمَنْ مَعَهُ أَنْ يُشْرِكُوهُمْ ، وَرَأَى عُمَرُ أَنْ لَا يُشْرِكُوهُمْ لِأَنَّهُمْ لِحِقْوِهِ بَعْدَ حِيَازَةِ الْغَنِيمَةِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ لِأَنَّ الْأَرْضَ صَارَتْ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ .

(62/313)

---

بَابُ سُهْمَانَ الْخَيْلِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُهُ يُقْتَضَى الْمَسَاوَاةَ بَيْنَ الْفَارِسِ وَالرَّاجِلِ ، وَهُوَ خِطَابٌ لِجَمِيعِ الْغَانِمِينَ وَقَدْ شَمِلَهُمْ هَذَا الْأِسْمُ ، أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا

تَرَكَ ﴿ قَدْ عَقَلَ مِنْ ظَاهِرِهِ اسْتِحْقَاقُهُنَّ لِلثَّلَاثِينَ عَلَى الْمَسَاوَاةِ ؟ وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ : هَذَا الْعَبْدُ لَهُوَلَاءُ أَنَّهُ لَهُمْ بِالْمَسَاوَاةِ مَا لَمْ يَذْكَرُ التَّفْضِيلَ ، كَذَلِكَ مُقْتَضَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ غَنِمْتُمْ ﴾ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونُوا مُتَسَاوِينَ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ غَنِمْتُمْ ﴾ عِبَارَةٌ عَنْ مَلَكَهُمْ لَهُ .  
وَقَدْ اُخْتَلَفَ فِي سَهْمِ الْفَارِسِ ذِكْرَ الْخِلَافِ فِي ذَلِكَ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : ﴿ لِلْفَارِسِ سَهْمَانِ ﴾  
وَلِلرَّاجِلِ سَهْمٌ .

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَابْنُ أَبِي لَيْلَى وَمَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَاللَّيْثُ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ :  
﴿ لِلْفَارِسِ ثَلَاثَةُ أَسْهُمٍ وَلِلرَّاجِلِ سَهْمٌ ﴾ .

وَرَوَى مِثْلَ قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ أَبِي حِمَّصَةَ عَامِلِ عُمَرَ أَنَّهُ جَعَلَ لِلْفَارِسِ سَهْمَيْنِ  
وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا فَرَضِيَهُ عُمَرُ وَمِثْلُهُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ .

وَرَوَى شَرِيكَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ : قَدِمَ قِثْمُ بْنُ الْعَبَّاسِ عَلَى سَعِيدِ بْنِ عُثْمَانَ بِخُرَاسَانَ  
وَقَدْ غَنِمُوا ، فَقَالَ : جُعِلُ جَائِزَتُكَ أَنْ أَضْرِبَ لَكَ بِأَلْفِ سَهْمٍ ، فَقَالَ : اضْرِبْ لِي بِسَهْمٍ  
وَلِفَرَسِي بِسَهْمٍ .

(63/313)

قال أبو بكر: قد بينا أن ظاهر الآية يقتضي المساواة بين الفارس والراجل، فلما اتفق الجميع على تفضيل الفارس بسهم فضلناه وخصصنا به للظاهر وبقي حكم اللفظ فيما عداه وحدثننا عبد الباقي بن قانع قال: حدثنا يعقوب بن غيلان العماني قال: حدثنا محمد بن الصباح الجرجرائي قال: حدثنا

عبد الله بن رجاء عن سفیان الثوري عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر: ﴿ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفارس سهمين وللراجل سهمًا ﴾ قال عبد الباقي: لم يجرى به عن الثوري غير محمد بن الصباح.

قال أبو بكر: وقد حدثنا عبد الباقي قال: حدثنا بشر بن موسى قال: حدثنا الحميدي قال: حدثنا أبو أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه. ﴾

(64/313)

---

﴿ واختلف حديث عبيد الله بن عمر في ذلك، وجائز أن يكونا صحيحين بأن يكون أعطاه بدنيا سهمين وهو المستحق ثم أعطاه في غنيمة أخرى ثلاثة أسهم وكان السهم الزائد على وجه النفل، ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمنع المستحق، وجائز أن

يَبْرَعُ بِمَا لَيْسَ بِمُسْتَحِقٍّ عَلَى وَجْهِ النَّفْلِ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ عُمَرَ فِي حَدِيثٍ قَدْ قَدَّمْنَا ذِكْرَ سَنَدِهِ  
أَنَّهُ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ قَالَ: فَبَلَغَتْ سُهْمَانَا اثْنَيْ عَشَرَ بَعِيرًا وَنَفَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ بَعِيرًا بَعِيرًا وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ الْكُمَيْتِ الْمُوَصِّلِيُّ  
قَالَ: حَدَّثَنَا صَبِيحُ بْنُ دِينَارٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَفِيفُ بْنُ سَالِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ نَافِعِ  
عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَسْهَمَ يَوْمَ بَدْرٍ لِلْفَارِسِ سَهْمَيْنِ  
وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا ، ﴿ وَهَذَا إِنْ ثَبَتَ فَلَا حُجَّةَ فِيهِ لِأَبِي حَنِيفَةَ ؛ لِأَنَّ قِسْمَةَ يَوْمِ بَدْرٍ لَمْ تَكُنْ  
مُسْتَحِقَّةً لِلجَيْشِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْأَنْفَالَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرُهُ فِي  
إِعْطَائِهِ

(65/313)

مَنْ رَأَى ، وَلَوْ لَمْ يُعْطِهِمْ شَيْئًا لَكَانَ جَائِرًا فَلَمْ تَكُنْ قِسْمَةُ الْغَنِيمَةِ مُسْتَحِقَّةً يَوْمَئِذٍ وَإِنَّمَا  
وَجِبَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ وَسَخَّ  
بِهَذَا الْأَنْفَالِ الَّتِي جَعَلَهَا لِلرَّسُولِ فِي جُمْلَةِ الْغَنِيمَةِ وَقَدْ رَوَى مُجَمَّعُ بْنُ جَارِيَةَ : أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسَمَ غَنَائِمَ خَيْبَرَ فَجَعَلَ لِلْفَارِسِ سَهْمَيْنِ وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا ﴾ ، وَرَوَى  
ابْنُ الْفُضَيْلِ عَنْ الْحَجَّاجِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ ﴿ لِلْفَارِسِ ثَلَاثَةَ أَسْهُمٍ وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا .

﴿ وَهَذَا خِلَافُ رِوَايَةِ مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ ، وَقَدْ يُمَكِّنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِأَنْ يَكُونَ قِسْمَ لِبَعْضِ الْفُرْسَانَ سَهْمَيْنِ وَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ وَقِسْمَ لِبَعْضِهِمْ ثَلَاثَةَ أَسْهُمٍ وَكَانَ السَّهْمُ الزَّائِدُ عَلَى وَجْهِ النَّفْلِ ، كَمَا رَوَى سَلْمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ : أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَاهُ فِي غَزْوَةِ ذِي قَرْدٍ سَهْمَيْنِ سَهْمِ الْفَارِسِ وَالرَّاجِلِ وَكَانَ رَاجِلًا يَوْمَئِذٍ ، ﴿ وَكَمَا رَوَى أَنَّهُ أَعْطَى الزُّبَيْرَ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَةَ أَسْهُمٍ .

(66/313)

وَرَوَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ الزُّبَيْرَ كَانَ يَضْرِبُ لَهُ فِي الْمَغْنَمِ بِأَرْبَعَةِ أَسْهُمٍ ، وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ كَانَتْ عَلَى وَجْهِ النَّفْلِ تَحْرِيفًا لَهُمْ عَلَى إِجْأَفِ الْخَيْلِ ، كَمَا كَانَ يُنْفَلُ سَلْبَ الْقَتِيلِ وَيَقُولُ : ﴿ مَنْ أَصَابَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ ﴿ تَحْرِيفًا عَلَى الْقِتَالِ .

فَإِنْ قِيلَ : لَمَّا اِخْتَلَفَتْ الْأَخْبَارُ كَانَ خَيْرُ الزَّائِدِ أَوْلَى : قِيلَ لَهُ : هَذَا إِذَا ثَبَتَتْ الزِّيَادَةُ كَانَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَسْتَحْقَاقِ ، فَأَمَّا إِذَا احْتَمَلَ أَنْ تَكُونَ عَلَى وَجْهِ النَّفْلِ فَلَمْ تَثْبُتْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ مُسْتَحَقَّةٌ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ فِي

خَبْرَنَا إِثْبَاتَ زِيَادَةِ لِسْهُمِ الرَّاجِلِ لِأَنَّهُ كَمَا نَقَصَ نَصِيبُ الْفَارِسِ زَادَ نَصِيبُ الرَّاجِلِ ، وَيَدُلُّ  
عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ طَرِيقِ النَّظَرِ أَنَّ الْفَرَسَ لَمَّا كَانَ اللَّهُ كَانَ الْقِيَاسُ أَنْ لَا يُسْهَمَ لَهُ كَسَائِرُ الْأَلَاتِ  
، فَتَرَكْنَا الْقِيَاسَ فِي السَّهْمِ الْوَاحِدِ وَالْبَاقِي مَحْمُولٌ عَلَى الْقِيَاسِ ؛ وَعَلَى هَذَا لَوْ حَضَرَ  
الْفَرَسُ دُونَ الرَّجُلِ لَمْ يَسْتَحِقَّ شَيْئًا وَلَوْ حَضَرَ الرَّجُلُ دُونَ الْفَرَسِ اسْتَحَقَّ ، فَلَمَّا لَمْ يُجَاوِزْ  
بِالرَّجُلِ سَهْمًا وَاحِدًا كَانَ الْفَرَسُ بِهِ أَوْلَى .

(67/313)

وَأَيْضًا الرَّجُلُ أَكْدُ أَمْرًا فِي اسْتِحْقَاقِ السَّهْمِ مِنَ الْفَرَسِ ، بِدَلَالَةِ أَنَّ الرِّجَالَ وَإِنْ كَثُرُوا  
اسْتَحَقُّوا سَهَامَهُمْ ، وَلَوْ حَضَرَتْ جَمَاعَةٌ أَفْرَاسٍ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ لَمْ يَسْتَحِقَّ إِلَّا الْفَرَسَ وَاحِدًا ،  
فَلَمَّا كَانَ الرَّجُلُ أَكْدُ أَمْرًا مِنَ الْفَرَسِ وَلَمْ يَسْتَحِقَّ أَكْثَرَ مِنْ سَهْمٍ فَالْفَرَسُ أُخْرَى بِذَلِكَ .  
وَاخْتَلَفَ فِي الْبَرَادِينِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَمَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَالشَّافِعِيُّ : ﴿ الْبَرْدُونَ وَالْفَرَسُ  
سَوَاءٌ ﴾ .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : ﴿ كَانَتْ أُمَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا سَلَفَ لَا يُسْهَمُونَ لِلْبَرَادِينِ حَتَّى هَاجَتْ  
الْفِتْنَةُ مِنْ بَعْدِ قَتْلِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ ﴾ .

وَقَالَ اللَّيْثُ: ﴿لِلْهَجِينِ وَالْبِرْدُونِ سَهْمٌ وَاحِدٌ وَلَا يُلْحَقَانِ بِالْعَرَابِ﴾ .  
قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وَقَالَ  
: ﴿فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ وَقَالَ: ﴿وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ﴾  
فَعَقِلَ بِاسْمِ الْخَيْلِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَرَادِينِ كَمَا عَقِلَ مِنْهَا الْعَرَابُ ، فَلَمَّا شَمِلَهَا اسْمُ الْخَيْلِ  
وَجَبَّ أَنْ يُسْتَوِيَا فِي السُّهْمَانِ .

(68/313)

---

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ رَاكِبَ الْبِرْدُونِ يُسَمَّى فَارِسًا كَمَا يُسَمَّى بِرَاكِبِ الْفَرَسِ الْعَرَبِيِّ ، فَلَمَّا  
أُجْرِيَ عَلَيْهِمَا اسْمُ الْفَارِسِ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لِلْفَارِسِ سَهْمَانِ  
وَلِلرَّاجِلِ سَهْمٌ﴾ عَمَّ ذَلِكَ فَارِسَ الْبِرْدُونِ كَمَا عَمَّ فَارِسَ الْعَرَابِ وَأَيْضًا إِنْ كَانَ مِنَ الْخَيْلِ  
فَوَاجِبٌ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ سَهْمُهُ وَسَهْمُ الْعَرَبِيِّ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْخَيْلِ فَوَاجِبٌ أَنْ لَا يَسْتَحِقَّ  
شَيْئًا ، فَلَمَّا وَافَقْنَا اللَّيْثَ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِ إِنَّهُ يُسَمَّى لَهُ دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْخَيْلِ وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُ  
وَبَيْنَ الْعَرَبِيِّ .

وَأَيْضًا لَا يَخْتَلِفُ الْفُقَهَاءُ فِي أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْفَرَسِ الْعَرَبِيِّ فِي جَوَازِ أَكْلِهِ وَحَضْرِهِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ  
فِيهِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا جِنْسٌ وَاحِدٌ ، فَصَارَ فَرْقُ مَا بَيْنَهُمَا كَفَرْقِ مَا بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى

وَالْهَزِيلِ وَالسَّمِينِ وَالْجَوَادِ وَمَا دُونَهُ ، وَأَنَّ اخْتِلَافَهُمَا فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ لَمْ يُوجِبْ اخْتِلَافَ

سَهَامِهِمَا .

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْفَرَسَ الْعَرَبِيَّ وَإِنْ كَانَ أَجْرَى مِنَ الْبِرْدُونِ فَإِنَّ

الْبِرْدُونُ أَقْوَى مِنْهُ عَلَى حَمْلِ السَّلَاحِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ الرَّجُلَ الْعَرَبِيَّ وَالْعَجَمِيَّ لَا يَخْتَلِفَانِ فِي حُكْمِ السَّهَامِ كَذَلِكَ الْخَيْلُ الْعَرَبِيَّةُ

وَالْعَجَمِيَّةُ .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ : سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيْبِ عَنْ صَدَقَةِ الْبَرَادِينِ فَقَالَ سَعِيدٌ : وَهَلْ

فِي الْخَيْلِ مِنْ صَدَقَةٍ ؟ وَعَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : الْبَرَادِينُ بِمَنْزِلَةِ الْخَيْلِ .

(69/313)

وَقَالَ مَكْحُولٌ : أَوَّلُ مَنْ قَسَمَ لِلْبَرَادِينِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يَوْمَ دِمَشْقَ ، قَسَمَ لِلْبَرَادِينِ نِصْفَ

سَهْمَانِ الْخَيْلِ لَمَّا رَأَى مِنْ جَرِيهَا وَقُوَّتِهَا ، فَكَانَ يُعْطِي الْبَرَادِينَ سَهْمًا سَهْمًا ، وَهَذَا

حَدِيثٌ مُقْطُوعٌ وَقَدْ أَخْبَرَ فِيهِ أَنَّهُ فَعَلَهُ مِنْ طَرِيقِ الرَّأْيِ وَالْإِجْتِهَادِ لَمَّا رَأَى مِنْ قُوَّتِهَا ، فَإِذَا

لَيْسَ بِتَوْقِيفٍ وَقَدْ رَوَى إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْشَرِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : أَغَارَتْ الْخَيْلُ بِالشَّامِ

وَعَلَى النَّاسِ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ يُقَالُ لَهُ الْمُنْذِرُ بْنُ أَبِي حِمَّصَةَ الْوَادِعِيُّ ، فَأَدْرَكَتْ الْخَيْلُ



العَرَابُ مِنْ يَوْمِهَا وَأَدْرَكَتُ الْكَوَادِنُ مِنْ الْغَدِ ، فَقَالَ : لَا أَجْعَلُ مَا أَدْرَكَتُ كَمَا لَمْ يُدْرِكْ ،  
فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ فِيهِ ، فَكَتَبَ عُمَرُ : هَبَّتِ الْوَادِعِيَّ أُمَّهُ لَقَدْ أَذَكَّرْتُ بِهِ ، أَمْضُوهَا عَلَيَّ مَا  
قَالَ فَاحْتَجَّ مَنْ لَمْ يُسْهِمِ لِلْبَرَادِينِ بِذَلِكَ .  
وَلَا دَلَالَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ رَأْيَ عُمَرَ ، وَإِنَّمَا أَجَارَهُ لِأَنَّهُ مِمَّا يُسَوَّغُ فِيهِ  
الاجْتِهَادُ ، وَقَدْ حَكَمَ بِهِ أَمِيرُ الْجَيْشِ فَأَنْفَذَهُ .  
وَاخْتَلَفَ فِيمَنْ يُغْزَوُ بِأَفْرَاسٍ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ : ﴿ لَا يُسْهِمُ إِلَّا  
لِفَرَسٍ وَاحِدٍ ﴾ .

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَالثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ : ﴿ يُسْهِمُ لِفَرَسَيْنِ ﴾ .

(70/313)

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الْجَيْشَ قَدْ كَانُوا يُغْزُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَا ظَهَرَ الْإِسْلَامُ بِفَتْحِ خَيْبَرَ وَمَكَّةَ وَحَنِينَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَغَازِي ، وَلَمْ  
يَكُنْ يَخْلُو الْجَمَاعَةُ مِنْهُمْ مَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ فَرَسَانِ أَوْ أَكْثَرَ ، وَلَمْ يُنْقَلْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ لِأَكْثَرِ مِنْ فَرَسٍ وَاحِدٍ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْفَرَسَ آتَهُ وَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ لَا يُضْرَبَ لَهُ بِسَهْمٍ كَسَائِرِ الْأَلَاتِ ، فَلَمَّا ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ

وَالاتِّفَاقِ سَهْمِ الْفَرَسِ الْوَاحِدِ اثْبَتَانَهُ وَلَمْ تُنْبِتِ الزِّيَادَةَ إِلَّا بِتَوْقِيفٍ؛ إِذْ كَانَ الْقِيَاسُ يَمْنَعُهُ .  
بَابُ قِسْمَةِ الْخُمْسِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَانَ لِلَّهِ خُمْسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ .

(71/313)

وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي كَيْفِيَّةِ قِسْمَةِ الْخُمْسِ فِي الْأَصْلِ ، فَرَوَى مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ عَلِيٍّ  
بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ كَانَتْ الْغَنِيمَةُ تُقَسَّمُ عَلَى خُمْسَةِ أَخْمَاسٍ ؛ فَأَرْبَعَةٌ  
مِنْهَا لِمَنْ قَاتَلَ عَلَيْهَا ، وَخُمْسٌ وَاحِدٌ يُقَسَّمُ عَلَى أَرْبَعَةٍ ، فَرُبُّهُ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ  
يَعْنِي قَرَابَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا كَانَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فَهُوَ لِقَرَابَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ وَلَمْ يَأْخُذْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْخُمْسِ شَيْئًا ، وَالرُّبْعُ الثَّانِي لِلْيَتَامَىٰ ،  
وَالرُّبْعُ الثَّلَاثُ لِلْمَسَاكِينِ ، وَالرُّبْعُ الرَّابِعُ لِأَبْنِ السَّبِيلِ وَهُوَ الضَّيْفُ الْفَقِيرُ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْمُسْلِمِينَ  
﴾ .

وَرَوَى قَتَادَةُ عَنْ عِكْرَمَةَ مِثْلَهُ .

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَانَ لِلَّهِ خُمْسُهُ ﴾ قَالَ : ﴿ يُقَسَّمُ الْخُمْسُ عَلَى خُمْسَةِ  
أَسْهُمٍ : لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ خُمْسٌ ، وَلِقَرَابَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُمْسٌ ، وَلِلْيَتَامَىٰ خُمْسٌ

، وَلِلْمَسَاكِينِ خُمْسٌ ، وَلِابْنِ السَّبِيلِ خُمْسٌ ﴿٧٢﴾ .

وَقَالَ عَطَاءٌ وَالشَّعْبِيُّ خُمْسُ اللَّهِ وَخُمْسُ الرَّسُولِ وَاحِدٌ ، قَالَ الشَّعْبِيُّ : هُوَ مِفْتَاحُ

الْكَلَامِ .

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ : سَأَلْتُ الْحَسَنَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ

وَجَلَّ : ﴿ فَانَ لِلَّهِ خُمْسُهُ ﴾ قَالَ : ﴿ هَذَا مِفْتَاحُ كَلَامٍ ، لَيْسَ لِلَّهِ نَصِيبٌ ، لِلَّهِ الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةُ ﴾ .

(72/313)

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ الْجَزَّارِ : ﴿ فَانَ لِلَّهِ خُمْسُهُ ﴾ قَالَ : ﴿ لِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ وَإِنَّمَا النَّبِيُّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُمْسُ الْخُمْسِ ﴾ .

وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ : ﴿ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤْتَى بِالْغَنِيمَةِ فَيَضْرِبُ بِيَدِهِ فَمَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ جَعَلَهُ لِلْكَعْبَةِ وَهُوَ سَهْمٌ

بَيْتِ اللَّهِ ؛ ثُمَّ يَقْسِمُ مَا بَقِيَ عَلَى خُمْسَةٍ ، فَيَكُونُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهْمٌ وَلِذَوِي

الْقُرْبَى سَهْمٌ وَلِلْيَتَامَى سَهْمٌ وَلِلْمَسَاكِينِ سَهْمٌ وَلِابْنِ السَّبِيلِ سَهْمٌ ، وَالَّذِي جَعَلَهُ لِلْكَعْبَةِ هُوَ

السَّهْمُ الَّذِي لِلَّهِ تَعَالَى ﴿٧٢﴾ .

وَرَوَى أَبُو يُوسُفَ عَنْ أَشْعَثِ بْنِ سَوَّارٍ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: ﴿ كَانَ يَحْمِلُ  
الْخُمْسَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى وَيُعْطِي مِنْهُ نَائِبَةَ الْقَوْمِ ، فَلَمَّا كَثُرَ الْمَالُ جَعَلَهُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ

• ❁

وَرَوَى أَبُو يُوسُفَ عَنْ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ أَنَّ الْخُمْسَ الَّذِي كَانَ  
يُقَسِّمُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى خُمْسَةِ أَسْهُمٍ : لِلَّهِ وَالرَّسُولِ سَهْمٌ ،  
وَلِذَوِي الْقُرْبَى سَهْمٌ ، وَلِلْيَتَامَى سَهْمٌ ، وَلِلْمَسَاكِينِ سَهْمٌ ، وَلِابْنِ السَّبِيلِ سَهْمٌ ، ثُمَّ قَسَمَ أَبُو  
بَكْرٌ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ : لِلْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ❁ .

(73/313)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي قِسْمَةِ الْخُمْسِ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي  
رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ : ﴿ إِنَّ الْقِسْمَةَ كَانَتْ عَلَى أَرْبَعَةِ سَهْمٍ لِلَّهِ وَسَهْمٍ الرَّسُولِ وَسَهْمٍ  
ذِي الْقُرْبَى كَانَ وَاحِدًا ، وَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذُ مِنَ الْخُمْسِ شَيْئًا

• ❁

وَقَالَ آخَرُونَ : قَوْلُهُ ﴿ لِلَّهِ ❁ ﴾ افْتِاحُ كَلَامٍ وَهُوَ مُقْسُومٌ عَلَى خُمْسَةٍ ، وَهُوَ قَوْلُ عَطَاءٍ  
وَالشَّعْبِيِّ وَقَتَادَةَ .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كَانَ مَقْسُومًا عَلَى سِتَّةِ أَسْهُمٍ لِلَّهِ سَهْمٌ يُجْعَلُ لِلْكَعْبَةِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ  
الْمُسَمَّيْنَ فِي آيَةِ سَهْمٍ.

وَأَخْبَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثِ الْكَلْبِيِّ أَنَّ الْخُلَفَاءَ الْأَرْبَعَةَ قَسَمُوهُ عَلَى ثَلَاثَةٍ.

وَقَالَ جَابِرٌ

بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: كَانَ يَحْمِلُ مِنَ الْخُمْسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُعْطِي مِنْهُ نَائِبَةَ الْقَوْمِ ثُمَّ جُعِلَ فِي غَيْرِ  
ذَلِكَ.

(74/313)

---

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ وَهُوَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: جَعَلَ اللَّهُ الرَّأْيَ فِي الْخُمْسِ  
إِلَى نَبِيِّهِ كَمَا كَانَتْ الْأَنْفَالُ لَهُ قَبْلَ نَزُولِ آيَةِ قِسْمَةِ الْغَنِيمَةِ، فَنَسَخَتْ الْأَنْفَالَ فِي الْأَرْبَعَةِ  
الْأَخْمَاسِ وَتَرَكَ الْخُمْسُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مَوْكُولا إِلَى رَأْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
وَكَمَا قَالَ: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى  
وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ  
الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ فَذَكَرَ هَذِهِ الْوُجُوهُ ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ فَبَيَّنَ فِي  
آخِرِهِ أَنَّهُ مَوْكُولٌ إِلَى رَأْيِ النَّبِيِّ.

وَكذلكَ الخُمسُ قالَ فيه إِنَّهُ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ يَعْنِي قِسْمَتَهُ مَوْكُولَةً إِلَيْهِ ، ثُمَّ بَيْنَ الوُجُوهِ الَّتِي يُقَسَّمُ عَلَيْهَا عَلَى مَا يَرَى وَيَخْتَارُ .

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زِيَادٍ عَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ أَرْطَاةَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ سُئِلَ : ﴿ كَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ بِالْخُمُسِ ؟ قَالَ : كَانَ يَحْمِلُ مِنْهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الرَّجُلُ ثُمَّ الرَّجُلُ ثُمَّ الرَّجُلُ ﴾ .

(75/313)

وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُعْطَى مِنْهُ الْمُسْتَحِقِّينَ وَلَمْ يَكُنْ يُقَسِّمُهُ أَخْمَاسًا وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : ﴿ إِنَّ الْقِسْمَةَ كَانَتْ فِي الْأَصْلِ عَلَى سِتَّةٍ وَإِنْ سَهَّمَهُ اللَّهُ كَانَ مَصْرُوفًا إِلَى الْكَعْبَةِ ﴾ فَلَا مَعْنَى لَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ ثَابِتًا لَوَرَدَ النَّقْلُ بِهِ مُتَوَاتِرًا وَلَكَانَتْ الْخُلَفَاءُ بَعْدَ النَّبِيِّ أَوْلَى النَّاسِ بِاسْتِعْمَالِ ذَلِكَ ، فَلَمَّا لَمْ يُثْبِتْ ذَلِكَ عَنْهُمْ عَلِمَ أَنَّهُ غَيْرُ ثَابِتٍ .

وَأَيْضًا

فَإِنَّ سَهْمَ الْكَعْبَةِ لَيْسَ بِأَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ مَنْسُوبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ سَائِرِ السَّهَامِ الْمَذْكُورَةِ فِي آيَةِ إِذْ كُلَّهَا مَصْرُوفٌ فِي وَجْهِ الْقُرْبِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ غَيْرُ مَخْصُوصٍ بِسَهْمِ الْكَعْبَةِ ، فَلَمَّا بَطَلَ ذَلِكَ لَمْ يَخُلْ الْمُرَادُ بِذَلِكَ مِنْ أَحَدٍ

وَجُهَيْنَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِفْتَاحًا لِلْكَلَامِ عَلَى مَا حَكَيْنَاهُ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ وَعَلَى وَجْهِ  
تَعْلِيمِنَا التَّبَرُّكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَافْتِتَاحِ الْأُمُورِ بِاسْمِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ الْخُمْسَ مَصْرُوفٌ فِي  
وُجُوهِ الْقُرْبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ ثُمَّ يَبِينُ تِلْكَ الْوُجُوهَ فَقَالَ: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الْآيَةُ،  
فَأَجْمَلَ بَدِيًّا حُكْمَ الْخُمْسِ ثُمَّ فَسَّرَ الْوُجُوهَ الَّتِي أَجْمَلَهَا.  
فَإِنْ قِيلَ: لَوْ أَرَادَ مَا قُلْتَ لَقَالَ: فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ لِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ، وَلَمْ يَكُنْ يُدْخِلُ الْوَاوَ  
بَيْنَ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْمِ رَسُولِ اللَّهِ.

(76/313)

---

قِيلَ لَهُ: لَا يَجِبُ ذَلِكَ، مِنْ قَبْلِ أَنَّهُ جَاءَتْ فِي اللُّغَةِ إِدْخَالُ الْوَاوِ وَالْمُرَادُ الْغَاوُهَا كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ وَالْوَاوُ مُلْغَاةٌ وَالْفُرْقَانُ ضِيَاءٌ،  
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ مَعْنَاهُ: لَمَّا أَسْلَمَا تَلَّهُ لِلْجَبِينِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿  
فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ يَقْتَضِي جَوَابًا وَجَوَابُهُ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ؛ وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: بَلَى شَيْءٌ يُوَافِقُ  
بَعْضَ شَيْءٍ وَأَحْيَانًا وَبَاطِلُهُ كَثِيرٌ وَمَعْنَاهُ: يُوَافِقُ بَعْضَ شَيْءٍ أَحْيَانًا، وَالْوَاوُ مُلْغَاةٌ؛ وَكَمَا  
قَالَ الْآخَرُ: فَإِنَّ رَشِيدًا وَأَبْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ حَتَّى يُصْدِرَ الْأَمْرَ مَصْدَرًا وَمَعْنَاهُ: فَإِنَّ  
رَشِيدَ بْنَ مَرْوَانَ؛ وَقَالَ الْآخَرُ: إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَأَبْنِ الْهَمَامِ وَلَيْثِ الْكُتَيْبَةِ فِي الْمُرْدَحَمِ

وَالْوَأُوفِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ

دُخُولِهَا وَخُرُوجِهَا سَوَاءً .

فَتَبَّتْ بِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ ﴾ عَلَى أَحَدِ الْمَعْنِيِّينَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا؛ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ جَمِيعًا مُرَادِينَ لِاحْتِمَالِ الْآيَةِ لَهُمَا ، فَيَنْتَظِمُ تَعْلِيمُنَا افْتِتَاحَ الْأُمُورِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّ الْخُمْسَ مَصْرُوفٌ فِي وُجُوهِ الْقُرْبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَكَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهْمٌ مِنَ الْخُمْسِ وَكَانَ لَهُ الصَّفِيُّ وَسَهْمٌ مِنَ الْغَنِيمَةِ كَسَهُمْ رَجُلٌ مِنَ الْجُنْدِ إِذَا شَهِدَ الْقِتَالَ .

(77/313)

وَرَوَى أَبُو حَمْرَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ﴿ قَالَ لَوْ فِدِ عَبْدِ الْقَيْسِ : أَمْرُكُمْ بَأَرْبَعِ شَهَادَةٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَتُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَتُعْطُوا سَهْمَ اللَّهِ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالصَّفِيِّ .



وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي سَهْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ قَالَ : ﴿ اخْتَلَفَ النَّاسُ بَعْدَ وِفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَهْمِ الرَّسُولِ وَسَهْمِ ذِي الْقُرْبَى ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ سَهْمِ الرَّسُولِ  
لِلْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ سَهْمِ ذِي الْقُرْبَى لِقَرَابَةِ الْخَلِيفَةِ ، وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنْ جَعَلُوا  
هَذَيْنِ السَّهْمَيْنِ فِي الْكِرَاعِ وَالْعِدَّةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ❁ قَالَ أَبُو بَكْرٍ سَهْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ إِنَّمَا كَانَ لَهُ مَا دَامَ حَيًّا ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ سَقَطَ سَهْمُهُ كَمَا سَقَطَ الصَّفِيُّ بِمَوْتِهِ ، فَرَجَعَ  
سَهْمُهُ إِلَى جُمْلَةِ الْغَنِيمَةِ كَمَا رَجَعَ إِلَيْهَا وَلَمْ يُعَدِّ لِلنَّوَابِ .

وَاخْتَلَفَ فِي سَهْمِ ذَوِي الْقُرْبَى ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ : ❁ يُقَسَّمُ الْخُمْسُ  
عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ : لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ❁ .

وَرَوَى بَشْرُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنْ أَبِي يُوسُفَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ قَالَ ❁ خُمْسُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَاحِدٌ ،  
وَخُمْسُ ذَوِي الْقُرْبَى لِكُلِّ صِنْفٍ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ آيَةِ خُمْسِ الْخُمْسِ ❁ .

(78/313)

---

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ ❁ سَهْمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْخُمْسِ هُوَ خُمْسُ الْخُمْسِ وَمَا بَقِيَ  
فَلِلطَّبَقَاتِ الَّتِي سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى ❁ .

وَقَالَ مَالِكٌ : ❁ يُعْطَى مِنَ الْخُمْسِ أَقْرَبَاءَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا يَرَى  
وَيَجْتَهِدُ ❁ .

وَقَالَ ﴿ الْأَوْزَاعِيُّ خُمْسُ الْغَنِيمَةِ لِمَنْ سُمِّيَ فِي الْآيَةِ ﴾ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ﴿ يُقَسَّمُ سَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى بَيْنَ غَنِيِّهِمْ وَفَقِيرِهِمْ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ لَفْظٌ مُجْمَلٌ مُفْتَقِرٌ إِلَى الْبَيَانِ وَلَيْسَ بِعُمُومٍ ؛

وَذَلِكَ لِأَنَّ ذَا الْقُرْبَى لَا يَخْتَصُّ بِقَرَابَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ ،

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرَدِّ بِهَا أَقْرَبَاءَ سَائِرِ النَّاسِ ، فَصَارَ اللَّفْظُ مُجْمَلًا مُفْتَقِرًا إِلَى الْبَيَانِ .

وَقَدْ اتَّفَقَ السَّلَفُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ أُرِيدَ أَقْرَبَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّ

الْمُسْتَحِقِّينَ لِسَهْمِ الْخُمْسِ مِنَ الْأَقْرَبَاءِ هُمُ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ نَصْرَةٌ وَإِنَّ السَّهْمَ كَانَ مُسْتَحِقًّا

بِالْأَمْرَيْنِ مِنَ الْقَرَابَةِ وَالنُّصْرَةِ وَإِنْ مِنْ لَيْسَ لَهُ نَصْرَةٌ مِمَّنْ حَدَثَ بَعْدُ فَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّهُ بِالْفَقْرِ كَمَا

يَسْتَحِقُّهُ سَائِرُ الْفُقَرَاءِ ؛ وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِحَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ

جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ قَالَ : ﴿ لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهْمَ ذَوِي الْقُرْبَى بَيْنَ

بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي

(79/313)

---

الْمُطَلَّبِ أَثِيَّتَهُ أَنَا وَعُثْمَانُ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَؤُلَاءِ بَنُو هَاشِمٍ لَا نُنْكِرُ فَضْلَهُمْ بِمَكَانِكَ  
الَّذِي وَضَعَكَ اللَّهُ فِيهِمْ ، أَرَأَيْتَ بَنِي الْمُطَلَّبِ أُعْطِيَتْهُمْ وَمَنْعَتْنَا وَإِنَّمَا هُمْ وَنَحْنُ مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ

؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونِي فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ وَإِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ .

﴿ فَهَذَا يَدُلُّ مِنْ وَجْهَيْنِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ بِالْقُرَابَةِ فَحَسَبُ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَبَنِي عَبْدِ شَمْسٍ فِي الْقُرْبِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَوَاءٌ ، فَأَعْطَى بَنِي الْمُطَّلِبِ وَلَمْ يُعْطِ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، وَلَوْ كَانَ مُسْتَحِقًّا بِالْقُرَابَةِ لَسَاوَى بَيْنَهُمْ .  
وَالثَّانِي: أَنَّ فِعْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ خَرَجَ مَخْرَجَ الْبَيَانِ لِمَا أُجْمِلَ فِي الْكِتَابِ مِنْ ذِكْرِ ذِي الْقُرْبَى ، وَفِعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا وَرَدَ عَلَى وَجْهِ الْبَيَانِ فَهُوَ عَلَى الْوُجُوبِ ، فَلَمَّا ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّصْرَةَ مَعَ الْقُرَابَةِ دَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُمْ نَصْرَةٌ فَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّه بِالْفَقْرِ .

(80/313)

---

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْخُلَفَاءَ الْأَرْبَعَةَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ إِلَّا بِالْفَقْرِ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ :  
سَأَلْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ فَقُلْتُ : مَا فَعَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي رَضِيٍّ اللَّهُ عَنْهُ اللَّهُ عَنْهُ بِسَهْمِ ذَوِي الْقُرْبَى حِينَ  
وُلِّيَ ؟ فَقَالَ : سَلَكَ بِهِ سَبِيلَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَكَرِهَ أَنْ يُدْعَى عَلَيْهِ خِلَافُهُمَا .  
قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَوْلَمْ يَكُنْ هَذَا رَأْيُهُ لَمَا قَضَى بِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ خَالَفَهُمَا فِي أَشْيَاءَ مِثْلِ الْجَدِّ

والتسوية في العطايا وأشياء آخر، فثبت أن رأيه ورأيهما كان سواء في أن سهم ذوي  
القربى إنما يستحقه  
الفقراء منهم.

ولما أجمع الخلفاء الأربعة عليه ثبت حجة يجمعهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿

عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي.

﴿ وفي حديث يزيد بن هرمز عن ابن عباس فيما كتب به إلى نجدة الحروري حين سأله  
عن سهم ذي القربى فقال: كُنا نرى أنه لنا فدعانا عمر إلى أن نزوج منه أيمنا ونقضي منه  
عن مغيرنا فأبينا أن لا يسلمه لنا وأبى ذلك علينا قومنا " وفي بعض الألفاظ: " فأبى ذلك  
علينا بنو عمنا " .

(81/313)

---

فأخبر أن قومه وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رأوه لفقرائهم دون أغنيائهم،  
وقول ابن عباس: " كُنا نرى أنه لنا إخبار أنه قاله من طريق الرأي ولا حظ للرأي مع السنة  
وإنفاق جل الصحابة من الخلفاء الأربعة .

ويدل على صحة قول عمر فيما حكاه ابن عباس عنه حديث الزهري عن عبد الله بن

الْحَارِثُ بْنُ نُوفَلٍ عَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّهُ وَالْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ قَالَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ  
 قَدْ بَلَّغْنَا النِّكَاحَ فَجِئْنَاكَ لِتُؤَمِّرَنَا عَلَى هَذِهِ الصَّدَقَاتِ فَنُؤَدِّي إِلَيْكَ مَا يُؤَدِّي الْعَمَّالُ وَنُصِيبَ  
 مَا يُصِيبُونَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْبَغِي لِآلِ مُحَمَّدٍ إِنَّمَا هِيَ  
 أَوْسَاحُ النَّاسِ ﴾ ثُمَّ أَمَرَ مُحَمَّدِيَّةً أَنْ يُصَدِّقَهُمَا مِنَ الْخُمْسِ ؛ وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ  
 مُسْتَحَقٌّ بِالْفَقْرِ ، إِذْ كَانَ إِنَّمَا اقْتَضَى لِهَمَّا عَلَى مِقْدَارِ الصَّدَاقِ الَّذِي أَحْتَاجَا إِلَيْهِ لِلتَّزْوِجِ  
 وَلَمْ يَأْمُرْ لَهُمَا بِمَا فَضَلَ عَنِ الْحَاجَةِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخُمْسَ غَيْرُ مُسْتَحَقٍّ قِسْمَتُهُ عَلَى  
 السُّهُمَانِ وَأَنَّهُ مُوَكَّلُ إِلَى رَأْيِ الْإِمَامِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(82/313)

﴿ مَا لِي مِنْ هَذَا الْمَالِ إِلَّا الْخُمْسُ وَالْخُمْسُ مُرْدُودٌ إِلَيْكُمْ ﴾ وَلَمْ يُخَصَّصْ الْقَرَابَةَ بِشَيْءٍ  
 مِنْهُ دُونَ غَيْرِهِمْ ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ فِيهِ كَسَائِرُ الْفُقَرَاءِ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهُ مِقْدَارَ الْكِفَايَةِ وَسَدِّ  
 الْخَلَّةِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ يَذْهَبُ كِسْرِي فَلَا كِسْرِي بَعْدَهُ أَبَدًا  
 وَيَذْهَبُ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ أَبَدًا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾  
 فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَمْ يُخَصَّصْ بِهِ قَوْمًا مِنْ قَوْمٍ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُوَكَّلًا إِلَى رَأْيِ  
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أُعْطِيَ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَلَيْسَ لَهُمْ ذِكْرٌ فِي آيَةِ الْخُمْسِ ، فَدَلَّ

عَلَى مَا ذَكَرْنَا .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ كُلَّ مَنْ سُمِّيَ فِي آيَةِ الْخُمْسِ لَا يَسْتَحِقُّ إِلَّا بِالْفَقْرِ وَهُمْ الْيَتَامَى وَأَبْنُ السَّبِيلِ ،  
فَكَذَلِكَ ذُو الْقُرْبَى ؛ لِأَنَّهُ سَهُمٌ مِنَ الْخُمْسِ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ أُقِيمَ ذَلِكَ لَهُمْ مَقَامَ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، فَوَجَبَ أَنْ لَا  
يَسْتَحِقَّهُ مِنْهُمْ إِلَّا فَقِيرٌ كَمَا أَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي أُقِيمَ هَذَا مَقَامَهُ لَا يَسْتَحِقُّهُ إِلَّا فَقِيرٌ .  
فَإِنْ قِيلَ : مَوَالِي بَنِي هَاشِمٍ لَا تَحِلُّ لَهُمُ الصَّدَقَةُ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي اسْتِحْقَاقِ السَّهْمِ مِنْ  
الْخُمْسِ .

قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ مَوَالِي بَنِي هَاشِمٍ لَهُمْ سَهُمٌ مِنَ الْخُمْسِ إِذَا كَانُوا فَقَرَاءً عَلَى حَسَبِ  
مَا هُوَ لِي بَنِي هَاشِمٍ .

(83/313)

---

فَإِنْ قِيلَ : إِذَا كَانَتْ قَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَحِقُّونَ سَهْمَهُمْ بِالْفَقْرِ  
وَالْحَاجَةِ فَمَا وَجْهُ تَخْصِيصِهِ إِيَّاهُمْ بِالذِّكْرِ وَقَدْ دَخَلُوا فِي جُمْلَةِ الْمَسَاكِينِ ؟ قِيلَ لَهُ : كَمَا  
خَصَّ الْيَتَامَى وَأَبْنُ السَّبِيلِ بِالذِّكْرِ وَلَا يَسْتَحِقُّونَهُ إِلَّا بِالْفَقْرِ ، وَأَيْضًا لَمَّا سَمَّى اللَّهُ الْخُمْسَ  
لِلْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ

السَّبِيلِ كَمَا قَالَ : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الآية ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنِ الصَّدَقَةُ لَا تَحِلُّ لآلِ مُحَمَّدٍ ﴾ فَلَوْلَمْ يُسَمِّهِمْ فِي الْخُمْسِ جَازًا أَنْ يُظَنَّ ظَانَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِعْطَاؤُهُمْ مِنْهُ كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطُوا مِنَ الصَّدَقَاتِ ، فَسَمَّاهُمْ إِعْلَامًا مِنْهُ لَنَا أَنْ سَبِيلَهُمْ فِيهِ بِخِلَافِ سَبِيلِهِمْ فِي الصَّدَقَاتِ .

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ أُعْطِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَبَّاسَ مِنَ الْخُمْسِ وَكَانَ ذَا يَسَارٍ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لِلْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ .

قِيلَ لَهُ : الْجَوَابُ عَنْ هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ أُعْطَاهُمْ بِالنُّصْرَةِ وَالْقَرَابَةِ ، لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونِي فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ﴾ فَاسْتَوَى فِيهِ الْفَقِيرُ وَالْغَنِيُّ لِتَسَاوِيهِمْ فِي النُّصْرَةِ وَالْقَرَابَةِ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا أُعْطِيَ الْعَبَّاسَ لِيُفَرِّقَهُ فِي فُقَرَاءِ بَنِي هَاشِمٍ وَلَمْ يُعْطِهِ لِنَفْسِهِ

(84/313)

---

وَقَدْ اُخْتَلَفَ فِي ذَوِي الْقُرْبَى مِنْهُمْ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا قَرَابَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ هُمْ ذَوُو قَرَابَاتِهِ وَاللَّهُ وَهُمْ آلُ جَعْفَرٍ وَآلُ عَقِيلٍ وَوَكْدُ الْحَارِثِ بْنِ

عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَرُوِيَ نَحْوَ ذَلِكَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ .

وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ بَنُو الْمُطَّلِبِ دَاخِلُونَ فِيهِمْ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَاهُمْ مِنْ

الْخُمْسِ ﴾ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ ﴿ قُرَيْشٌ كُلُّهَا مِنْ أَقْرَبَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ لَهُمْ سَهْمٌ مِنْ

الْخُمْسِ إِلَّا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنْ رَأْيِ مَنْهُمْ ﴾ .

(85/313)

قال أبو بكر : أمّا من ذكرناهم فلا خلاف بين الفقهاء أنّهم ذوو قراباته ، وأمّا بنو المطلب فهم

و بنو عبد شمس في القرب من النبي صلى الله عليه وسلم سواء ، فإن وجب أن يدخلوا

في القرابة الذين تحرم عليهم الصدقة فواجب أن يكون بنو عبد شمس مثلهم لمساواتهم

إياهم في الدرجة ، وأمّا إعطاء سهم الخمس فإنما خص هؤلاء به دون بني عبد شمس

بالنصرة لأنه قال : ﴿ لم يفارقوني في جاهليّة ولا إسلام ﴾ وأمّا الصدقة فلم تعلق

تحرّمها بالنصرة عند جميع الفقهاء ، فثبت أن بني المطلب ليسوا من آل النبي صلى الله

عليه وسلم الذين تحرم الصدقة عليهم كبنّي عبد شمس ، وموالي بني هاشم تحرم عليهم

الصدقة ولا قرابة لهم ولا يستحقون من الخمس شيئاً بالقرابة ﴿ ؛ وقد سأله فاطمة



رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خَادِمًا مِنْ الْخُمْسِ فَوَكَّلَهَا إِلَى التَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ وَلَمْ يُعْطَهَا .  
﴿ فَإِنْ قِيلَ : إِنَّمَا لَمْ يُعْطَهَا لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُ .

(86/313)

قِيلَ لَهُ فَقَدْ خَاطَبَ عَلِيًّا بِمِثْلِ ذَلِكَ وَهُوَ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى ، وَقَالَ لِبَعْضِ بَنَاتِ عَمِّهِ حِينَ  
ذَهَبَتْ مَعَ فَاطِمَةَ إِلَيْهِ تَسْتَحْدِمُهُ : ﴿ سَبَقُنِي يَتَامَى بَدْرٍ ، ﴾ ﴿ وَفِي يَتَامَى بَدْرٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ  
مِنْ بَنِي هَاشِمٍ لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ اسْتَحَقَّتْ بِالْقَرَابَةِ شَيْئًا لَا يَجُوزُ مَنَعُهُمَا إِيَّاهُ لَمَّا  
مَنَعَهُمَا حَقَّهُمَا وَلَا عَدَلَ بِهِمَا إِلَى غَيْرِهِمَا ؛ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَعْنِيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ  
سَهْمَهُمْ مِنَ الْخُمْسِ أَمْرُهُ كَانَ مَوْكُولا إِلَى رَأْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَنْ يُعْطِيَهُ مَنْ  
شَاءَ مِنْهُمْ ، وَالثَّانِي : أَنْ يُعْطَاَهُمْ مِنَ الْخُمْسِ أَوْ مَنَعَهُ لَا تَعْلُقُ لَهُ بِتَحْرِيمِ الصَّدَقَةِ .  
وَأَمَّا مَنْ قَالَ إِنَّ قَرَابَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشٍ كُلِّهَا فَإِنَّهُ يَحْتَجُّ لِذَلِكَ بِأَنَّهُ نَزَلَتْ :  
﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا بَنِي فَهْرٍ يَا بَنِي  
عَدِي يَا بَنِي فُلَانٍ ﴿ لِبَطُونِ قُرَيْشٍ ﴾ ﴿ إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .  
وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ وَأَنَّهُ قَالَ : يَا بَنِي هَاشِمٍ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ .  
وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِعَلِيِّ : ﴿ اجْمَعْ لِي بَنِي هَاشِمٍ وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا .

(87/313)

قَالُوا: فَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّ قُرَيْشًا كُلَّهَا مِنْ أَقْرَبَائِهِ وَكَانَ إِعْطَاءُ السَّهْمِ مِنَ الْخُمْسِ مُوَكُّوْلًا إِلَى رَأْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَاهُ مِنْ كَانَ لَهُ مِنْهُمْ نَصْرَةً دُونَ غَيْرِهِمْ .  
قَالَ أَبُو بَكْرٍ: اسْمُ الْقَرَابَةِ وَقَعُ عَلَى هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ لِدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَيِّهِمْ  
عِنْدَ نَزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فَبِتَبْذِيرِكَ أَنْ الْأَسْمَ يَتَنَاوَلُ  
الْجَمِيعَ فَقَدْ تَعَلَّقَ بِذَوِي قُرْبَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْكَامٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا:

(88/313)

اسْتِحْقَاقُ سَهْمٍ مِنَ الْخُمْسِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ وَهُمْ الْفُقَرَاءُ مِنْهُمْ  
عَلَى الشَّرَاطِطِ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا عَنِ الْمُخْتَلِفِينَ فِيهَا ، وَالثَّانِي: تَحْرِيمُ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ  
أَلْ عَلِيٍّ وَأَلْ عَبَّاسٍ وَأَلْ عَقِيلٍ وَأَلْ جَعْفَرٍ وَوَلَدُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ  
بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا حَظَّ لِبَنِي الْمُطَّلِبِ فِي هَذَا الْحُكْمِ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلُ  
بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَانَتْ

بُنُو أُمَّيَّةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ آلِهِ ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا كَذَلِكَ  
فَكَذَلِكَ بَنُو الْمُطَلَّبِ لِمَسَاوَاتِهِمْ إِيَّاهُ فِي نَسَبِهِمْ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَالثَّلَاثُ :  
تَخْصِيصُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ يَا نَذَارِ عَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ ؛ فَانْتِظِمَ ذَلِكَ بَطُونِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا عَلَى مَا  
وَرَدَ بِهِ الْأَثَرُ فِي إِنْذَارِهِ إِيَّاهُمْ عِنْدَ نَزُولِ الْآيَةِ ، وَإِنَّمَا خَصَّ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ بِالْإِنْذَارِ لِأَنَّهُ أُبْلِغَ  
عِنْدَ نَزُولِ الْآيَةِ فِي الدُّعَاءِ إِلَى الدِّينِ وَأَقْرَبُ إِلَى نَفْيِ الْمُحَابَاةِ وَالْمُدَاهَنَةِ فِي الدُّعَاءِ إِلَى  
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ لِأَنَّ سَائِرَ النَّاسِ إِذَا عَلِمُوا أَنَّهُ لَمْ يَحْتَمِلْ عَشِيرَتَهُ عَلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ  
وَأَنْذَرَهُمْ وَبَهَاهُمْ أَنَّهُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُمْ ؛ إِذْ لَوْ جَازَتْ الْمُحَابَاةُ فِي ذَلِكَ لِأَحَدٍ

(89/313)

لَكَانَتْ أَقْرَبًا وَهُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِهَا .  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْيَتَمِ هُوَ الْإِنْفِرَادُ ، وَمِنْهُ الرَّابِيعَةُ الْمُنْفَرِدَةُ تُسَمَّى  
يَتِيمَةً وَالْمَرْأَةُ الْمُنْفَرِدَةُ عَنِ الْأَزْوَاجِ تُسَمَّى يَتِيمَةً ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ اخْتُصَّ فِي النَّاسِ بِالصَّغِيرِ الَّذِي  
قَدْ مَاتَ أَبُوهُ ، وَهُوَ يُفِيدُ الْفَقْرَ مَعَ ذَلِكَ أَيْضًا عِنْدَ الْإِطْلَاقِ ؛ وَكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ  
أَوْصَى لِيَتَامَى بَنِي فُلَانٍ وَهُمْ لَا يَحْصُونَ أَنَّ الْوَصِيَّةَ جَائِزَةٌ لِأَنَّهَا لِلْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ .  
وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ قَدْ أُرِيدَ مَعَ الْيَتَمِ الْفَقْرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَأَنَّ الْأَغْنِيَاءَ مِنَ الْيَتَامِ لَا حَظَّ لَهُمْ فِيهِ

وَيُدَلُّ عَلَى أَنَّ الْيَتِيمَ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى الصَّغِيرِ الَّذِي قَدِمَاتُ أَبُوهُ دُونَ الْكَبِيرِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لَا يُتَمُّ بَعْدَ حُلْمٍ ﴾ ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ كُلَّ وَدٍ يَتِيمٍ مِنْ قَبْلِ أُمِّهِ إِلَّا الْإِنْسَانَ فَإِنَّ يُتَمُّ مِنْ قَبْلِ أَبِيهِ .

(90/313)

وقوله تعالى: ﴿ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ فَإِنَّهُ الْمُسَافِرُ الْمُنْقَطِعُ بِهِ الْمُحْتَاجُ إِلَى مَا يُتَحَمَّلُ بِهِ إِلَى بَلَدِهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فِي بَلَدِهِ ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْفَقِيرِ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى فِي وَجُوبِ إِعْطَائِهِ حَاجَتَهُ إِلَيْهِ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ لَهُ مَالٌ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ وَبَيْنَ مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَأَمَّا الْمَسْكِينُ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ ، وَسَنَدُّ كُرْهُهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ آيَةِ الصَّدَقَاتِ وَفِي اتِّفَاقِ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ ابْنَ السَّبِيلِ وَالْيَتِيمَ إِنَّمَا يَسْتَحِقَّانِ حَقَّهُمَا مِنَ الْخُمْسِ بِالْحَاجَةِ دُونَ الْأَسْمِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ الْمَقْصِدَ بِالْخُمْسِ صَرْفُهُ إِلَى الْمَسَاكِينِ .

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ الْمَعْنَى هُوَ الْفَقْرُ فَلَا فَائِدَةَ فِي ذِكْرِ ذَوِي الْقُرْبَى قِيلَ لَهُ: فِيهِ أَعْظَمُ الْفَوَائِدِ ، وَهُوَ أَنَّ آلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ كَانَ جَائِزًا أَنْ يُظَنَّ ظَانًّا أَنَّ الْخُمْسَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ كَتَحْرِيمِهَا ؛ إِذَا كَانَ سَبِيلُهُ صَرْفُهُ إِلَى الْفُقَرَاءِ ، فَأَبَانَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَسْمِيَتِهِمْ فِي الْآيَةِ عَنْ جَوَازِ إِعْطَائِهِمْ مِنَ الْخُمْسِ بِالْفَقْرِ ، وَيَلْزَمُ هَذَا السَّائِلُ أَنْ يُعْطِيَ

الْيَتَامَىٰ وَأَبْنَ السَّبِيلِ بِالاسْمِ دُونَ الْحَاجَةِ عَنْ قَضِيَّتِهِ بَأَنَّ لَوْ كَانَ مُسْتَحِقًّا بِالْفَقْرِ مَا كَانَ  
لَتَسْمِيَّتِهِ ابْنَ السَّبِيلِ وَالْيَتِيمِ مَعْنَىٰ وَهُمَا إِنَّمَا يَسْتَحِقُّانِهِ بِالْفَقْرِ . انتهى انتهى . ١٠ هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص ج 3 ص ﴾

(91/313)

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ  
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ  
التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فيها ثلاث عشرة مسألة :

المسألة الأولى : قوله : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ﴾ قد بينا القول في الغنيمة والفِيء .  
فأما الأحكاميون ، فقالوا : إن الغنيمة من الأموال المنقولة ، والفِيء : الأرضون ؛ قاله  
مجاهد .

وقيل : إن الغنيمة ما أخذ عنوة .

والفِيء ما أخذ على صلح ؛ قاله الشافعي .

وَقِيلَ: إِنَّ النَّفْيَ وَالْغَنِيمَةَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ .

وَأَمَّا قَوْلُ مُجَاهِدٍ فَصَارَ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ النَّفْيَ فِي الْقُرَى ، وَذَكَرَ الْغَنِيمَةَ مُطْلَقًا ، فَفَصَّلَ الْفَرْقَ هَكَذَا .

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فَبَنَاهُ عَلَى الْعُرْفِ ، وَأَنَّ الْغَنِيمَةَ تُنْطَلِقُ فِي الْعُرْفِ عَلَى الْأَمْوَالِ الْقَهْرِيَّةِ ، وَيَنْطَلِقُ النَّفْيُ عُرْفًا عَلَى مَا أُخِذَ مِنْ غَيْرِ قَهْرٍ .

وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلِ النَّفْيُ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ مَا صَارَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَمْوَالِ بِقَهْرٍ وَغَيْرِ قَهْرٍ .

(92/313)

---

وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخُلُقَ لِيَعْبُدُوهُ ، وَجَعَلَ الْأَمْوَالَ لَهُمْ لِيَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى مَا يُرْضِيهِ ، وَرَبَّمَا صَارَتْ فِي أَيْدِي أَهْلِ الْبَاطِلِ ، فَإِذَا صَارَتْ فِي أَيْدِي أَهْلِ الْحَقِّ فَقَدْ صَرَفَهَا عَنْ طَرِيقِ الْإِرَادَةِ إِلَى طَرِيقِ الْأَمْرِ وَالْعِبَادَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ : إِذَا عَرَفْتُمْ أَنَّ الْغَنِيمَةَ هِيَ مَا أُخِذَ مِنْ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ فِيهَا بِحُكْمِهِ ، وَأَنْفَذَ فِيهَا سَابِقَ عِلْمِهِ ، فَجَعَلَ خُمْسَهَا لِلْخُمْسَةِ الْأَسْمَاءِ ، وَأَبْقَى سَائِرَهَا لِمَنْ غَنِمَهَا ؛ وَنَحْنُ نُسَمِّيهَا ، ثُمَّ نَعْطِفُ عَلَى الْوَاجِبِ فِيهَا فنقولُ : أَمَّا سَهْمُ اللَّهِ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ وَسَهْمُ الرَّسُولِ وَاحِدٌ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ لِلَّهِ ﴾ اسْتِفْحَاحُ كَلَامٍ ، فَلِلَّهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ

وَالْخَلْقُ أَجْمَعُ.

الثاني: رُوِيَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ الرِّيَاحِيِّ قَالَ: ﴿كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوتَى بِالْغَنِيمَةِ فَيُقَسَّمُهَا عَلَى خَمْسَةٍ، يَكُونُ أَرْبَعٌ أَخْمَاسِهَا لِمَنْ شَهِدَهَا، ثُمَّ يَأْخُذُ الْخُمْسَ فَيَضْرِبُ بِيَدِهِ فَيَأْخُذُ مِنْهُ الَّذِي قَبِضَ كَفَّهُ فَيَجْعَلُهُ لِلْكَعْبَةِ، وَهُوَ سَهْمُ اللَّهِ ثُمَّ يُقَسِّمُ مَا بَقِيَ عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُمٍ﴾.

(93/313)

وَأَمَّا سَهْمُ الرَّسُولِ فَقِيلَ: هُوَ اسْتِقْطَاحُ كَلَامٍ، مِثْلُ قَوْلِهِ: لِلَّهِ، لَيْسَ لِلَّهِ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَا لِلرَّسُولِ، وَيُقَسَّمُ الْخُمْسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَسْهُمٍ: سَهْمٌ لِبَنِي هَاشِمٍ، وَلِبَنِي الْمُطَّلِبِ سَهْمٌ، وَلِبَنِي تَمِيمٍ سَهْمٌ، وَالْمَسَاكِينِ سَهْمٌ [وَلِبَنِي السَّبِيلِ سَهْمٌ]؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ.

وقيل: هُوَ لِلرَّسُولِ، فِيهِ كَيْفِيَّةٌ كَوْنُهُ لَهُ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: فَقِيلَ: لِقَرَابَتِهِ إِزْنًا، وَقِيلَ: لِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ، وَقِيلَ: هُوَ يَلْحَقُ بِالْأَسْهُمِ الْأَرْبَعِ، وَقِيلَ: هُوَ مَصْرُوفٌ فِي الْكِرَاعِ وَالسَّلَاحِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ مَصْرُوفٌ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّةِ؛ قَالَ الشَّافِعِيُّ.

وَأَمَّا سَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى فَقِيلَ: هُمْ قُرَيْشٌ، وَقِيلَ: بَنُو هَاشِمٍ [وَقِيلَ بَنُو هَاشِمٍ] وَبَنُو الْمُطَّلِبِ؛ وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ.

وَقِيلَ : ذَهَبَ ذَلِكَ بِمَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَكُونُ لِقَرَابَةِ الْإِمَامِ بَعْدَهُ .

وَقِيلَ : هُوَ لِلْإِمَامِ يَضَعُهُ

حَيْثُ يَشَاءُ .

وَأَمَّا سَهْمُ الْيَتَامَى فَإِنَّ الْيَتِيمَ مِنْ فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَوْصَافٍ : مَوْتُ الْأَبِ ، وَعَدَمُ الْبُلُوغِ ، وَوُجُودُ

الْإِسْلَامِ أَصْلًا فِيهِ أَوْ تَبَعًا لِأَحَدِ أَبِيهِ ، وَحَاجَتُهُ إِلَى الرَّفْدِ .

وَأَمَّا الْمِسْكِينُ فَهُوَ الْمُحْتَاجُ .

وَأَمَّا ابْنُ السَّبِيلِ فَهُوَ الَّذِي يَأْخُذُهُ الطَّرِيقُ مُحْتَاجًا ، وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا فِي بَلَدِهِ .

(94/313)

المَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ : فِي التَّنْقِيحِ : أَمَّا قَوْلُ أَبِي الْعَالِيَةِ فَلَيْسَ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَرْتَبَةِ الْعَالِيَةِ ؛ فَإِنَّ

الْأَرْضَ كُلَّهَا لِلَّهِ مَلَكًا وَخَلْقًا ، وَهِيَ لِعِبَادِهِ رِزْقًا وَقِسْمًا .

وَأَمَّا الرَّسُولُ فَهُوَ مَمَّنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَمَلَكَهُ .

وَلَكِنَّهُ تَبَتَّ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَا لِي مِمَّا آفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِلَّا

الْخُمْسُ ، وَالْخُمْسُ مُرْدُودٌ فِيكُمْ ﴾ .

وَهَذَا يُعْضَدُ قَوْلَ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ يَرْجَعُ فِي مَصَالِحِ الْعَامَّةِ .



وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ يَرْجِعُ لِقَرَابَتِهِ إِرْثًا فَإِنَّهُ بَاطِلٌ يَاجْمَاعٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَإِنَّ فَاطِمَةَ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهَا أُرْسِلَتْ تَطْلُبُ مِيرَاثَهَا مِنْ أَبِي بَكْرٍ ، فَقَالَ لَهَا : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ نَحْنُ لَا نُورِثُ ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْأَصُولِ ، وَسَائِرِ الْأَقْوَالِ دَعَاوَى لَا بُرْهَانَ عَلَيْهَا .  
أَمَّا سَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى فَأَصَحُّهَا أَنَّهُمْ بَنُو هَاشِمٍ ، وَبَنُو الْمُطَّلِبِ ، وَسَائِرُ الْأَقْسَامِ صَحِيحَةٌ  
فِي الْأَقْوَالِ وَالتَّوْجِيهِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ ، وَأَشْهَبَ ، وَعَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ الْفَيْءَ وَالْخُمْسَ يُجْعَلَانِ  
فِي بَيْتِ الْمَالِ ، وَيُعْطِي الْإِمَامُ قَرَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمَا .  
وَرَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ : أَنَّ الْفَيْءَ وَالْخُمْسَ وَاحِدٌ .

(95/313)

---

وَرَوَى دَاوُدُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ عَمِّهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّ الْقَرَابَةَ لَا لِلْسَّلَامِ مِنْهُ إِلَّا  
بِالْفَقْرِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَالَ مَالِكٌ : وَبِهِ أَقُولُ .  
وَقَدْ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يُعْطَى الْقَرَابَةَ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا فَقَرَاءً : فزَادَ الْفَقْرَ عَلَى النَّصِّ ، وَالزِّيَادَةُ  
عِنْدَهُ عَلَى النَّصِّ نَسْخٌ ، وَلَا يَجُوزُ نَسْخُ الْقُرْآنِ إِلَّا بِقُرْآنٍ مِثْلِهِ أَوْ بِخَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ .

فَأَمَّا مَالِكٌ فَاحْتَجَّ بِأَنَّ ذَلِكَ جُعِلَ لَهُمْ عَوَضًا عَنِ الصَّدَقَةِ .

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ يَعْنِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ .  
وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ كُلُّهُ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ سَرِيَّةً قَبْلَ نَجْدٍ ،  
فَأَصَابُوا فِي سُهُمَانِهِمْ اثْنَيْ عَشَرَ بَعِيرًا ، وَنَفَلُوا بَعِيرًا بَعِيرًا ﴾ .  
وَتَبَّتْ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ : ﴿ لَوْ كَانَ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا وَكَلَّمَنِي  
فِي هَوْلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ ﴾ .  
وَتَبَّتْ عَنْهُ أَنَّهُ رَدَّ سَبِيَّ هَوَازِنَ وَفِيهِ الْخُمْسُ .

(96/313)

---

وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : ﴿ أَثَرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ  
حُنَيْنٍ أَنَا سَأَفِي الْغَنِيمَةِ ، فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ ، وَأَعْطَى عُبَيْنَةَ مِائَةَ مِنَ  
الْإِبِلِ ، وَأَعْطَى أَنَا سَأَمِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ وَأَثَرُهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : وَاللَّهِ إِنْ  
هَذِهِ الْقِسْمَةُ مَا عُدِلَ فِيهَا ، أَوْ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ .  
فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَأَخْبَرْتَهُ ، فَقَالَ : يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَى ، لَقَدْ أُوزِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ ﴿١﴾ .  
وَفِي الصَّحِيحِ : ﴿٢﴾ إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ ، يُعْتَدُ أَنْ أُقْسِمَ بَيْنَكُمْ فَاللَّهُ حَاكِمٌ ، وَالنَّبِيُّ قَاسِمٌ ،  
وَالْحَقُّ لِلْخَلْقِ ﴿٣﴾ .

وَصَحَّ عَنْهُ ﴿٤﴾ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ لِي شَارِفٌ مِنْ نَصِيبِي يَوْمَ بَدْرٍ ، وَأَعْطَانِي  
رَسُولُ اللَّهِ شَارِفًا مِنَ الْخُمْسِ ﴿٥﴾ .

وَرَوَى مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ ، عَنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ : ﴿٦﴾ اجْتَمَعَ رَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ ،  
وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَقَالَا : وَاللَّهِ لَوْ بَعَثْنَا هَذَيْنِ فَقَالَا لِي ، وَلِلْفُضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ : اذْهَبَا  
إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَكَلِمَاهُ يُؤْمِنُكُمْ عَلَى هَذِهِ الصَّدَقَةِ ، فَأَدِيَا مَا يُؤَدِّي النَّاسُ ، بِشِرَاءٍ مِمَّا  
يُصِيبُ النَّاسَ ، فَبَيْنَمَا هُمَا فِي ذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا ، فَذَكَرَا  
ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : لَا تَفْعَلَا ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ بِفَاعِلٍ .

(97/313)

---

فَأَبْدَأَهُ رَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا هَذَا إِلَّا نَفَاسَةٌ مِنْكَ عَلَيْنَا ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ نَلْتِ صِهْرُ  
رَسُولِ اللَّهِ فَمَا نَفْسُنَا عَلَيْكَ .

فَقَالَ عَلِيٌّ : أَنَا أَبُو حَسَنِ الْقَوْمِ أَرْسَلُوهُمَا ، فَانْطَلَقَا ، وَأَضْطَجَعَ عَلِيٌّ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظُّهْرَ سَبَقْنَا إِلَى الْحُجْرَةِ، فَقَمْنَا عِنْدَهَا حَتَّى جَاءَ، فَأَخَذَ  
بِأَذَانِنَا، ثُمَّ قَالَ: أَخْرَجَا مَا تُصَرَّرَانِ ثُمَّ دَخَلَ، وَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَهُوَ يَوْمِئِذٍ عِنْدَ زَيْنَبِ بِنْتِ  
جَحْشٍ قَالَ: فَزَالِنَا الْكَلَامَ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَحَدُنَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَنْتَ أَبْرُ النَّاسِ بِشِرَاءِ  
النَّاسِ، وَقَدْ بَلَّغْنَا النِّكَاحَ، فَجِنَّاكَ لِتُؤَمِّرَنَا عَلَى بَعْضِ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ، فَنُؤَدِّي إِلَيْكَ مَا  
يُؤَدِّي النَّاسُ، وَنُصِيبُ كَمَا يُصِيبُونَ.

قَالَ: فَسَكَتَ طَوِيلًا حَتَّى أَرَدْنَا أَنْ نُكَلِّمَهُ.

قَالَ: وَجَعَلْتُ زَيْنَبُ يُزَالُ إِلَيْنَا مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ إِلَّا تَكَلَّمَاهُ.

ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لَأَلِ مُحَمَّدٍ؛ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، أَدْعُوا لِي مَحْمِيَّةً وَكَانَ  
عَلَى الْخُمْسِ، وَنُؤْفَلُ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

قَالَ:

فَجَاءَ آهٌ.

فَقَالَ لِمَحْمِيَّةَ: أَنْكِحْ هَذَا الْغُلَامَ ابْنَتَكَ لِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ يَعْنِي لِي، فَاثْنِكْهُ.

وَقَالَ لِنُؤْفَلِ بْنِ الْحَارِثِ: أَنْكِحْ هَذَا الْغُلَامَ بِنْتَكَ يَعْنِي لِي، فَاثْنِكْنِي.

وَقَالَ لِمَحْمِيَّةَ: أَصْدِقْ عَنْهُمَا مِنْ مَالِ الْخُمْسِ كَذَا وَكَذَا.

﴿ فِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ لَهُمَا : ﴿ إِنَّ الصَّدَقَةَ أَوْسَاخُ النَّاسِ ، وَلَكِنْ أَنْظِرُوا إِذَا أَخَذْتُ بِحَلْقَةِ الْجَنَّةِ ، هَلْ أُوتِرُ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ؟ ﴾ وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ : خُمْسُ الْخُمْسِ لِلرَّسُولِ ، وَالْأَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ مِنَ الْخُمْسِ لِلْأَرْبَعَةِ أَصْنَافِ الْمُسَمَّيْنَ مَعَهُ ، وَلَهُ سَهْمٌ كَسَائِرِ سِهَامِ الْغَانِمِينَ إِذَا حَضَرَ الْغَنِيمَةَ ، وَلَهُ سَهْمٌ الصَّفِيِّ يَصْطَفِي سَيْفًا أَوْ خَادِمًا أَوْ دَابَّةً . فَمَا سَهْمُ الْقِتَالِ فَبِكَوْنِهِ أَشْرَفُ الْمُقَاتِلِينَ ، وَأَمَّا سَهْمُ الصَّفِيِّ فَمَنْصُوصٌ لَهُ فِي السَّيْرِ ، مِنْهُ ذُو الْفَقَارِ ، وَصَفِيَّةٌ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ .

وَأَمَّا خُمْسُ الْخُمْسِ فَبِحَقِّ التَّقْسِيمِ فِي الْآيَةِ .

قَالَ الْإِمَامُ الْفَاضِلُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَدْ بَيَّنَّا الرَّدَّ عَلَيْهِ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا ذَكَرَ نَفْسَهُ تَشْرِيفًا لِهَذَا الْمُكْتَسَبِ ، وَأَمَّا رَسُولُهُ فَقَدْ قَالَ : ﴿ إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ ، وَاللَّهُ الْمُعْطِي ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ مَا لِي مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْخُمْسُ ، وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ ﴾ وَقَدْ أُعْطِيَ جَمِيعُهُ وَبَعْضُهُ ، وَأُعْطِيَ مِنْهُ لِلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَلَيْسُوا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي التَّقْسِيمِ ، وَرَدَّهُ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ بِأَعْيَانِهِمْ تَارَةً أُخْرَى ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذِكْرَ هَذِهِ الْأَقْسَامِ بَيَانٌ مَصْرُفٍ وَمَحَلٌّ ، لَا بَيَانَ اسْتِحْقَاقٍ وَمِلْكٍ ؛ وَهَذَا مَا لَا جَوَابَ عَنْهُ لِمُنْصِفٍ .

وَأَمَّا الصَّفِيُّ فَحَقٌّ فِي حَيَاتِهِ ، وَقَدْ انْقَطَعَ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلَّا عِنْدَ أَبِي ثَوْرٍ ، فَإِنَّهُ رَأَاهُ بَاقِيًا لِلْإِمَامِ ،  
فَجَعَلَهُ مَجْعَلَ سَهْمِ النَّبِيِّ ، وَهَذَا ضَعِيفٌ ؛

وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا يَرُونَ لِلرَّئِيسِ فِي الْغَنِيمَةِ مَا قَالَ الشَّاعِرُ : لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْهَا  
وَالصَّفَايَا وَحُكْمُكَ وَالتَّشْيِيطَةُ وَالْفُضُولُ فَكَانَ يَأْخُذُ بِغَيْرِ شَرْعٍ وَلَا دِينَ الرَّبْعَ مِنَ الْغَنِيمَةِ ؛  
وَيُصْطَفِي مِنْهَا ، ثُمَّ يَحْكُمُ بَعْدَ الصَّفِيِّ فِي أَيِّ شَيْءٍ أَرَادَ ، وَكَانَ مَا شَدَّ مِنْهَا لَهُ ، وَمَا  
فَضَلَ مِنْ خُرْتِي وَمَتَاعٍ ؛ فَأَحْكَمَ اللَّهُ الدِّينَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ  
خُمُسَهُ ﴾ وَأَبْقَى سَهْمَ الصَّفِيِّ لِرَسُولِهِ ، وَأَسْقَطَ حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ  
حُكْمًا أَوْ أَوْسَعُ مِنْهُ عِلْمًا .

المَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : ادَّعَى الْمُقْصِرُونَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ أَنَّ خُمُسَ الْخُمْسِ كَانَ  
لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْرِفُهُ : فِي كِفَايَةِ أَوْلَادِهِ وَنِسَائِهِ ، وَيَدَّخِرُ مِنْ ذَلِكَ قُوَّةَ  
سَنَّتِهِ ، وَيَصْرِفُ الْبَاقِيَّ إِلَى الْكِرَاعِ وَالسَّلَاحِ ؛ وَهَذَا فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ الدَّلِيلَ  
قَدْ تَقَدَّمَ عَلَى أَنَّ الْخُمْسَ كُلَّهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَا لِي مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ  
عَلَيْكُمْ إِلَّا الْخُمْسُ ، وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ ﴾ .

الثاني: ما ثبت في الصحيح عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: قال: بينا أنا جالسٌ عند عمر أتاه حاجبه يرفأً، فقال: هل لك في عثمان، وعبد الرحمن بن عوفٍ والزبير، وسعد بن أبي وقاصٍ يستأذنون؟ قال: نعم.

فأذن لهم، فدخلوا فسلموا وجلسوا، ثم جلس يرفأً يسيراً، ثم قال: هل لك في عليٍّ وعباس؟ قال: نعم، فأذن لهما فدخلا فسلما وجلسا، فقال العباس: يا أمير المؤمنين، اقض بيني وبين هذا، وهما يختصمان فيما أفاء الله على رسوله من بني التضير.

فقال الرهط عثمان وأصحابه: يا أمير

المؤمنين، اقض بينهما، وأرخ أحدهما من الآخر.

فقال عمر: يا أيُّد، كم أنشدكم بالله الذي يأذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ لا نورث ما تركنا صدقة ﴾ ؟ يريد رسول الله نفسه.

قال الرهط: قد قال ذلك.

فَأَقْبَلَ عُمَرُ عَلِيَّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ : أَنْشُدْ كَمَا بِاللَّهِ تَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ ذَلِكَ ؟ قَالَا : نَعَمْ .

(101/313)

قَالَ عُمَرُ : فَإِنِّي أُحَدِّثُكُمْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ خَصَّ رَسُولَهُ فِي هَذَا الْفِيءِ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْطِهِ غَيْرُهُ ، قَالَ : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

فَكَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَاللَّهُ مَا اخْتَارَهَا دُونَكُمْ ، وَلَا اسْتَأْثَرِ بِهَا عَلَيْكُمْ ، قَدْ أُعْطَاكُمْوهَا ، وَبِئْسَ فِيكُمْ حَتَّى يَبْقِيَ مِنْهَا هَذَا الْمَالُ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِمْ مِنْ هَذَا الْمَالِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ ، فَيَجْعَلُهُ مَجْعَلَ مَالِ اللَّهِ .

فَهَذَا حَدِيثُ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ فِيهِ : إِنَّ بَنِي النَّضِيرِ كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ يُنْفِقُ مِنْهَا عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِمْ .

وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ فِي الصَّحِيحِ : ﴿ تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ وَفَدَكَ وَصَدَقْتَهُ بِالْمَدِينَةِ ﴾ ؛ فَأَمَّا صَدَقَتُهُ بِالْمَدِينَةِ فَدَفَعَهَا عُمَرُ إِلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ .



وَأَمَّا خَيْبِرُ وَفَدَكُ فَامْسُكُهُمَا عُمَرُ ، وَقَالَ : هُمَا صَدَقَةٌ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
كَانَتْ لِحَقُوقِهِ الَّتِي تَعْرُوهُ وَنَوَائِبِهِ ، وَأَمْرُهَا إِلَى مَنْ وُلِيَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ .  
فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ خَيْبِرَ وَفَدَكَ وَبَنِي النَّضِيرِ كَانَتْ لِقَوْتِ

(102/313)

---

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ وَعِيَالِهِ سَنَةً ، وَلِحَقُوقِهِ وَنَوَائِبِهِ الَّتِي تَعْرُوهُ ، لَا  
خُمْسَ الْخُمْسِ الَّذِي ادَّعَاهُ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ .  
وَهَذَا نَصٌّ لَا غِبَارَ عَلَيْهِ وَلَا كَلَامَ لِأَحَدٍ فِيهِ .  
الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ لَدِي الْقُرْبَى ﴾ ؛ فَنَظَرَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّهَا قُرْبَى  
مِنْ قُرَيْشٍ ، لِقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْآخَرَى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ .  
﴿

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِلَّا أَنْ تَصِلُوا قَرَابَةَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ .  
وَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .  
وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ .  
وَقَالَ : ﴿ يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ؛ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ؛ يَا بَنِي مُرَّةِ بْنِ كَعْبٍ ؛ أَنْقِذُوا

أَنْفُسِكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ؛ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ؛ يَا بَنِي هَاشِمٍ ؛ أَنْقِذُوا  
أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؛ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةَ ؛ أَنْقِذِي  
نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ ؛ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ❁ .

(103/313)

---

فَهَذِهِ قَرَابَاتُهُ الَّتِي دَعَا عَلَى الْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ حِينَ دُعِيَ إِلَى أَنْ يَدْعُوهُمْ ، لَكِنْ ثَبَتَ فِي  
الصَّحِيحِ أَنَّ عُثْمَانَ قَالَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَعْطَيْتَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ وَتَرَكْتَنَا ،  
وَإِنَّمَا نَحْنُ وَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ فَقَالَ : ❁ إِنَّ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي  
جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ❁ .

أَمَّا قَوْلُهُ : " وَإِنَّمَا نَحْنُ وَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ " .

فَلِإِنَّ هَاشِمًا وَالْمُطَّلِبَ وَعَبْدَ شَمْسٍ بَنُو عَبْدِ مُنَافٍ .

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ❁ إِنَّ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ

❁ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَلْفَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَتْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ فِي الشَّعْبِ ،

وَخَرَجَتْ عَنْهُمْ بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ إِلَى الْمُبَايَنَةِ ، فَاتَّصَلَتِ الْقَرَابَةُ الْجَاهِلِيَّةُ بِالْمُودَةِ ،

فَانْتَضَمًا .

وَهَذَا يُعْضَدُ أَنْ يَبَيِّنَ اللَّهُ  
لِلْأَصْنَافِ بَيَانَ لِلْمَصْرِفِ وَكَيْسَ بَيَانًا لِلْمُسْتَحِقِّ .

(104/313)

المَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : فَأَمَّا الأَرْبَعَةُ الأَخْمَاسُ فَهِيَ مِلْكٌ لِلْغَانِمِينَ : مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ بَيْنَ الأُمَّةِ ،  
يُبَيِّنُ أَنَّ الإِمَامَ إِذَا رَأَى أَنَّ يَمُنَّ عَلَى الأَسْرَى بِالإِطْلَاقِ فَعَلَّ وَتَبَطَّلَ حُقُوقَ الغَانِمِينَ فِيهِمْ لِقَوْلِهِ  
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَوْ كَانَ المُطْعَمُ بِنِ عَدِي حَيًّا وَكَلَّمَنِي فِي هؤُلَاءِ الشَّيْءِ لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ  
﴿ ، وَلَهُ أَنْ يُنْفَلَ جَمِيعُهُمْ ، وَيُبَطَّلَ حَقُّ الغَانِمِينَ بِالقِتَالِ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ ؛ وَذَلِكَ بِحُكْمِ مَا  
يَرَى أَنَّهُ نَظَرٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَأَصْلَحُ لَهُمْ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الخِلَافِ .

المَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : أَطْلَقَ اللهُ القَوْلَ فِي الأَرْبَعَةِ الأَخْمَاسِ لِلْغَانِمِينَ تَضْمِينًا ، وَبَيْنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى  
اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفَاضَلَ بَيْنَ الفَارِسِ وَالرَّاجِلِ .

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الأَوَّلُ : لِلْفَارِسِ سَهْمَانِ ، وَلِلرَّاجِلِ سَهْمٌ ؛ قَالَهُ  
أَبُو حَنِيفَةَ .

الثَّانِي : لِلْفَرَسِ سَهْمَانِ ، وَلِلْفَارِسِ سَهْمٌ الثَّلَاثُ : يَجْتَهِدُ فِي ذَلِكَ الإِمَامُ ، فَيُنْفَذُ مَا رَأَى

منه .

وَقَدْ رُوِيَ الرَّوَايَتَانِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثَيْنِ .  
وَالصَّحِيحُ أَنْ يُعْطَى الْفَارِسُ سَهْمَيْنِ ، وَيُعْطَى لِلرَّاجِلِ سَهْمٌ وَاحِدٌ ، وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ الْعَنَاءِ ،  
وَعِظَمِ الْمُنْفَعَةِ ؛ فَجَعَلَ اللَّهُ التَّقْدِيرَ فِي الْغَنِيمَةِ بِقَدْرِ الْعَنَاءِ فِي أَخْذِهَا حِكْمَةً مِنْهُ سُبْحَانَهُ  
فِيهَا .

(105/313)

المسألة التاسعة : ولا يفاضل بين الفارس والرجل بأكثر من فرس واحد ؛ وبه قال  
الشافعي .

وقال أبو حنيفة : يسهم لأكثر من فرس واحد ؛ لأنه أكثر عناءً ، وأعظم منفعةً ، وهذا  
فاسدٌ لوجهين : أحدهما : أن الرواية لم ترد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يسهم  
لأكثر من فرس واحد .

الثاني : أن المفاضلة في أصل العناء والمنفعة قد روعيت ؛ فأمَّا زيادتها فزيادة تفصيلها  
، فليس لها أصل في الشريعة يرجع إليه ، ولا ينضبط ذلك فيها ؛ لأن القتال لا يكون إلا على  
فرس واحد ، فالزيادة عليه لا تؤثر في الحال ، وإنما يظهر تأثيرها في المال في بعض

الأحوال؛ فلا حظ في الاعتبار لذلك.

المسألة العاشرة: لا حق في الغنائم للحشوة كالأجراء والصناع الذين يصحبون الجيوش للمعاش؛ لأنهم لم يقصدوا قتالاً، ولا خرجوا مجاهدين.

وقيل: يسهم لهم، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿الغنيمة لمن شهد الواقعة﴾. وهذا منه صلى الله عليه وسلم إنما جاء لبيان خروج من لم يحضر القتال عن الاستهام، وأنها لمن باشره وخرج إليه.

(106/313)

---

وقد بين الله سبحانه أحوال المقاتلين وأهل المعاش من المسلمين، وجعلهم فرقتين متميزتين لكل واحدة حالها وحكمها، فقال: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾. إلا أن هؤلاء إذا قاتلوا لم يضربهم كونهم على معاشهم؛ لأن سبب الاستحقاق قد وجد منهم.

وتفصيل المذهب: أن من قاتل أسهم له، إلا أن يكون أجيراً للخدمة؛ فقال ابن القصار: لا سهم له حينئذ، وإن قاتل.

وَالأَوَّلُ أَصَحُّ .

المَسْأَلَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ : العَبْدُ لَا سَهْمَ لَهُ : لِأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ خُوِطِبَ بِالقِتَالِ ، لِاسْتِغْرَاقِ بَدَنِهِ بِحُقُوقِ السَّيِّدِ .

فَأَمَّا الصَّبِيُّ فَلَا سَهْمَ لَهُ : أَيْضًا إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مُرَاهِقًا لِلْبُلُوغِ مُطِيقًا للقِتَالِ فَيُسَهَّمُ لَهُ عِنْدَنَا .  
وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ : لَا يُسَهَّمُ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُبْلَغْ حَدَّ التَّكْلِيفِ ، فَلَا يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ ، فَلَا يَكُونُ مِنْ أَهْلِ القِتَالِ .

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ عُرِضَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أَحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ يُجْزِنِي ، وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ الخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خُمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَنِي ﴾ .

فَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الشَّافِعِيُّ : إِنَّمَا ذَلِكَ حَدُّ البُلُوغِ .  
وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا مِنْهُمْ ابْنُ وَهْبٍ ، وَابْنُ حَبِيبٍ .

(107/313)

---

وَالصَّحِيحُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ فِي ذَلِكَ إِلَى إِطَاقَتِهِ للقِتَالِ ، فَأَمَّا البُلُوغُ فَلَا أَثَرَ لَهُ فِيهِ ، وَقَدْ أَمَرَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ أَنْ يُقْتَلَ مِنْهُمْ مَنْ أُبْتُ ، وَيُخَلَّى مَنْ لَمْ يُنْبِتْ ؛ وَهَذِهِ

مُرَاعَاةٌ لِإِطَاقَةِ الْقِتَالِ أَيْضًا لِالْبُلُوغِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةٌ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾

هَذَا خِطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ لَا مَدْخَلَ فِيهِ لِلْكَفَّارِ وَلَا لِلنِّسَاءِ ، وَإِنَّمَا خُوطِبَ بِهِ مَنْ قَاتَلَ الْكَفَّارَ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ ، وَخُوطِبَ بِهِ مَنْ يُقَاتِلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ دُونَ مَنْ لَا يُقَاتِلُ .

فَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَلَا سَهْمَ لَهَا فِيهِ ، وَإِنْ قَاتَلَتْ إِلَّا عِنْدَ ابْنِ حَبِيبٍ ؛ وَهَذَا ضَعِيفٌ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : ﴿ إِنْ النِّسَاءُ كُنَّ يَحْذِينَ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَلَا يُسَهَّمُ لِهِنَّ ﴾ ؛ فَإِنَّ الْقِتَالَ لَمْ يُفْرَضْ عَلَيْهِنَّ ، وَالسَّهْمُ لَمْ يُقْضَ بِهِ لِهِنَّ .

وَأَمَّا الْعَبِيدُ وَأَهْلُ الذِّمَّةِ فَإِذَا خَرَجُوا لِصُوصًا ، وَأَخَذُوا مَالَ أَهْلِ الْحَرْبِ فَهُوَ لَهُمْ ، وَلَا يُخَمَّسُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْخِطَابِ أَحَدٌ مِنْهُمْ .

وَقَالَ سَحْنُونٌ : لَا يُخَمَّسُ مَا يُنُوبُ الْعَبْدَ .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : يُخَمَّسُ ؛ لِأَنَّهُ يُجُوزُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ سَيِّدُهُ فِي الْقِتَالِ ، وَيُقَاتِلَ عَنِ الدِّينِ بِخِلَافِ الْكَافِرِ .

فَأَمَّا إِذَا كَانُوا فِي جُمْلَةِ الْجَيْشِ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنْ لَا يُسْتَهْمَ لِعَبْدٍ وَلَا لِلْكَافِرِ يَكُونُ فِي الْجَيْشِ ؛ قَالَهُ مَالِكٌ ، وَأَبْنُ الْقَاسِمِ .

زَادَ ابْنُ حَبِيبٍ : وَهُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي : وَلَا نَصِيبَ لَهُمْ .

الثَّالِثُ : قَالَ سَخْنُونٌ : إِنْ قَدَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْغَنِيمَةِ دُونَهُمْ لَمْ يُسْتَهْمَ لَهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْغَنِيمَةِ إِلَّا بِأَهْلِ الذِّمَّةِ أُسْتَهْمَ لَهُمْ ، وَكَذَلِكَ الْعَبِيدُ مَعَ الْأَحْرَارِ .

الرَّابِعُ : قَالَ أَشْهَبٌ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ : إِذَا خَرَجَ الْعَبْدُ وَالذَّمِّيُّ مِنَ الْجَيْشِ وَعِنَّمَا الْغَنِيمَةُ لِلْجَيْشِ دُونَهُمْ .

المسألة الثالثة عشرة : إِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْغَنِيمَةَ لِمَنْ حَضَرَ ، فَأَمَّا مَنْ غَابَ فَلَا شَيْءَ لَهُ .

وَالْمَغِيبُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ : إِمَّا بِمَرَضٍ ، أَوْ بِضَلَالٍ ، أَوْ بِأَسْرِ .

فَأَمَّا الْمَرِيضُ فَلَا شَيْءَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ رَأْيٌ ، وَقَالَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ عُلَمَائِنَا : إِنْ مَرَضَ بَعْدَ الْقِتَالِ أُسْتَهْمَ لَهُ ، وَإِنْ مَرَضَ بَعْدَ الْإِرَادَةِ وَقَبْلَ الْقِتَالِ فِيهِ قَوْلَانِ : وَالْأَصَحُّ وَجُوبُ ذَلِكَ لَهُ .

وَاخْتَلَفَ فِي الضَّالِّ عَلَى قَوْلَيْنِ ؛ وَقَالَ أَشْهَبٌ : يُسْتَهْمُ لِلْأَسِيرِ ، وَإِنْ كَانَ فِي الْحَدِيدِ .

وَالصَّحِيحُ أَنْ لَا سَهْمَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ مَلِكٌ يُسْتَحَقُّ بِالْقِتَالِ ، فَمَنْ غَابَ خَابَ ، وَمَنْ حَضَرَ مَرِيضًا كَمَنْ لَمْ يَحْضُرْ .



---

وَأَمَّا الْغَائِبُ الْمَطْلُوقُ فَلَمْ يُسْأَلْ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ لِغَائِبٍ إِلَّا يَوْمَ خَيْبَرَ؛  
قَسَمَ لِأَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ مَنْ حَضَرَ مِنْهُمْ وَمَنْ غَابَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَّكُمْ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً  
تَأْخُذُونَهَا ﴾، وَقَسَمَ يَوْمَ بَدْرٍ لِعُثْمَانَ لِبَقَائِهِ عَلَى ابْنَتِهِ، وَقَسَمَ لِسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ وَطَلْحَةَ  
وَكَانَا غَائِبَيْنِ.

فَأَمَّا أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ فَكَانَ مِيعَادًا مِنْ اللهِ اخْتِصَّ بِأَوْلِيكَ التَّفَرُّ، فَلَا يُشَارِكُهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ.  
وَأَمَّا عُثْمَانُ وَسَعِيدٌ وَطَلْحَةُ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَسْهُمُ لَهُمْ مِنَ الْخُمْسِ؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ أَجْمَعَتْ  
عَلَى أَنَّهُ مِنْ بَقِيٍّ لِعُذْرٍ فَلَا شَيْءَ لَهُ، بَيِّنٌ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْمَوَازِ قَالَ: إِذَا أُرْسِلَ الْإِمَامُ أَحَدًا فِي  
مَصْلَحَةِ الْجَيْشِ فَإِنَّهُ يُشْرِكُ مِنْ غَنَمِ بَسْمِهِ؛ قَالَ ابْنُ وَهْبٍ، وَابْنُ نَافِعٍ عَنْ مَالِكٍ.  
وَقِيلَ عَنْهُ أَيْضًا: لَا شَيْءَ لَهُ، وَهَذَا أَحْسَنُ؛ فَإِنَّ الْإِمَامَ يَرْضَخُ لَهُ، وَلَا يُعْطَى مِنَ الْغَنِيمَةِ  
لِعَدَمِ السَّبَبِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِهِ عِنْدَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

هَذَا لِبَابِ مَا فِي الْكِتَابِ الْكَبِيرِ، فَمَنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فَلْيَنْظُرْهُ هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربي ح 2 ص ﴾

وقال الشيخ الصابوني :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾

[ 3 ] كيفية قسمة الغنائم

التحليل اللفظي

﴿ غَنِمْتُمْ ﴾ : الغنيمة . . ما أخذ من الكفار قهراً بطريق القتال والغلبة ، أما ما أخذ

منهم بغير حرب أو قتال فهو « فيء » كما مر سابقاً . قال الشاعر :

وقد طوّفت في الآفاق حتى . . . رضيت من الغنيمة بالإياب

﴿ خُمُسَهُ ﴾ : بضم الميم وإسكانها لغتان وقد قرئ بهما ، والخمس أن يقسم الشيء إلى

خمس أجزاء ثم يؤخذ جزء واحد منه ، والواجب الشرعي أن تخمس الغنائم فيصرف

الخمس فيما ذكره الله ، ويوزع الباقي وهو أربعة أخماس بين الغانمين .

قال القرطبي : لما بين الله تعالى حكم الخمس وسكت عن الباقي دل ذلك على أنه ملك

للغانمين .

﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ : هم قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم وهم : « بنو هاشم ، وبنو

المطلب » على الصحيح من الأقوال كما سيأتي إن شاء الله .

﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ : هم أولاد المسلمين الذين هلك آبائهم في سن الصغر قبل البلوغ ، لأنه لا

يتم بعد البلوغ .

﴿ والمساكين ﴾ : هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين .

﴿ وابن السبيل ﴾ : هو المنقطع في سفره مع شدة حاجته وإنما قيل « ابن السبيل » لأنه لما انقطع في سفره أصبح الطريق كأنه أب له .

﴿ يوم الفرقان ﴾ : هو يوم بدر لأن الله سبحانه وتعالى فرق فيه بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر وهذه الغزوة كانت في السنة الثانية من الهجرة وفي السابع عشر من رمضان وهي أول معركة وقعت بين المسلمين والمشركين .

﴿ الجمعان ﴾ : المراد به جمع المؤمنين وجمع المشركين .

المعنى الإجمالي

(111/313)

---

يقول الله جل ثناؤه ما معناه : اعلّموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتموه من الكفار المحاربين أيّاً كان قليلاً أو كثيراً حق ثابت لكم . وحكمه : أن الله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فاقسموه - خمسة أقسام - واجعلوا خمسة لله ، ينفق في مصالح الدين ، وإقامة الشعائر ، وعمارة الكعبة وكسوتها ، ثم أعطوا الرسول صلى الله عليه وسلم منه كفايته لنفسه ولنسائه ، ثم أعطوا منه ذي القربى من أهله وعشيرته ، ثم

المحتاجين من سائر المسلمين وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل ثم بين سبحانه وتعالى أن هذا هو مقتضى الإيمان وهو الإذعان . والخضوع لأوامره وأحكامه وعدم الخلاف والنزاع فيما بينهم لأن الله عز وجل هو الذي قسم فأعطى كل ذي حق حقه كما راعى مصالح العباد جميعاً فما على المؤمنين إلا الرضى والتسليم لحكم الله العلي الكبير .

وجه الارتباط بالآيات السابقة

لما أمر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة بقتال الكفرة المعتدين ، الذين كانوا يفتنون المؤمنين ، ويقفون في وجه الدعوة الإسلامية ، ووعده المؤمنين بالنصر عليهم ، وكان ذلك مستلزماً لكسب الغنائم منهم ، بين جل وعلا هنا حكم قسمة هذه الغنائم ، وأوضح وجوه المصارف فيها حتى لا يكون ثمة نزاع ولا خلاف بين الغانمين ، فهذا هو وجه الارتباط .

(112/313)

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : التنكير في قوله تعالى : ﴿ مِّنْ شَيْءٍ ﴾ يفيد التقليل أي أي شيء كان ، سواء كان هذا الشيء قليلاً أو كثيراً ، عظيماً أو حقيراً ، حتى الخيط والمخيط (الإبرة)

اللطيفة الثانية: ذكرُ الله تعالى في القسمة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ لتعليمنا التبرك بذكر اسم الله المعظم، واستفتاح الأمور باسمه تعالى، ولا يقصد منه أن الخمس يقسم على ستة منها (الله) فإن الله الدنيا والآخرة، والله هو الغني الحميد، أو يراد منه إنفاقه في سبيل الله فيكون الكلام على (حذف مضاف).

اللطيفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ المراد به محمد صلى الله عليه وسلم وإنما لم يذكره باسمه تعظيماً له وتكريماً، لأن أعظم وأشرف أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم وصفه بالعبودية، وهذا هو السر في ذكره في سورة الإسراء بهذا الوصف الجليل ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1] وإضافة العبد إليه تعالى تشعر بكمال العناية والتكريم كما قال أحد العارفين:

وَمَا زَادَنِي شَرَفًا وَتَيْهًا . . . وَكَدْتُ بِأَخْصِي أَطَا الثُّرَيَّا

دخولي تحت قولك «يا عبادي» . . . وَإِنْ صَيَّرْتَ «أحمد» لي نبياً

فائدة هامة: قال المراغي: في «تفسيره» وإنما خص الرسول صلى الله عليه وسلم من ذي

القربى بني هاشم، وبني المطلب دون بني عبد شمس، ونوفل لأن قريشاً لما كتبت

وأخرجت بني هاشم من مكة وحصرتهم في الشعب، لأنهم ناصرُوا الرسول صلى الله

عليه وسلم دخل معهم فيه بنو المطلب ولم يدخل بنو عبد شمس ولا بنو نوفل لذلك خصهم

عليه الصلاة والسلام بالقسمة تكريماً لهم وتقديراً.

## الأحكام الشرعية

الحكم الأول: هل الغنيمة والفبيء شيء واحد؟!

بيننا فيما سبق التعريف لكل من الغنيمة والفبيء . وقد اختلف العلماء فيهما :

(113/313)

---

فقال بعضهم: الغنيمة ما أخذ عنوة من الكفار في الحرب . والفبيء ما أخذ عن صلح . .

وهذا قول الشافعي .

وقال بعضهم: الغنيمة ما أخذ من مال منقول . والفبيء هو مال غير المنقول كالأرضين

والعقارات وغيرها . . وهذا قول مجاهد .

وقيل: الغنيمة والفبيء بمعنى واحد . والصحيح الأول وهو ما ذهب إليه الشافعي رحمه

الله .

قال القرطبي: واعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿ غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ ﴾

﴿ مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر ، ولا تقتضي اللغة هذا

التخصيص على ما بينا ، ولكن عُرِفُ الشرع قيّد اللفظ بهذا النوع . وسمي الشرع المال

الواصل إلينا من الكفار باسمين: ( غنيمة ) و ( فبيء ) فالشيء الذي يناله المسلمون من

عدوهم بالسعي وإيجاف الخيل والركاب « غنيمة » ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفاً ، والفيء مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف كخراج الأرضين .

(114/313)

الحكم الثاني : كيف يوزع الخمس بين الغانمين ؟

ذكرت الآية الكريمة أن خمس الغنائم يوزع لمن سّمّاهم الله عز وجل في كتابه العزيز وهم ستة ( الله ، الرسول ، ذو القربى ، اليتامى ، المساكين ، ابن السبيل ) وسكتت عن الباقي فدل ذلك على أنه يوزع على الغانمين .

سهم الله : أما سهم « الله » عز وجل فقد اختلف المفسرون فيه على قولين :

أ- إنه يصرف على الكعبة لأن قوله ( لله ) أي لبيت الله فهو على ( حذف مضاف ) .

ب- وقال الجمهور إن قوله ( لله ) استفتاح كلام يقصد به التبرك فله الدنيا والآخرة وهو

المالك لكل ما في السماوات والأرض فليس سبحانه بحاجة إلى سهم من هذه السهام لأنه

هو الغني وإنما ذكر تبارك وتعالى اسمه ليعلمنا التبرك بذكره وافتتاح الأمور باسمه وعلى هذا

الرأي يكون الخمس بين خمسة ( الرسول ، ذي القربى ، اليتامى ، المساكين ، ابن السبيل ) .

سهم الرسول : أما سهم الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه حق له صلى الله عليه وسلم يأخذه من الغنيمة ويضعه حيث شاء لأهل بيته أو في مصالح المسلمين ، يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم » . وقال آخرون إن لفظ ( الرسول ) في الآية استفتاح كلام كما قالوا في قوله ( لله ) وأن الخمس يقسم على أربعة أسهم ( ذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ) .

سهم ذي القربى : والمراد قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد اختلف في ( ذي القربى ) على ثلاثة أقوال :

أ- قيل إنهم قريش جميعاً .

ب- وقيل إنهم بنو هاشم فقط .

ج- وقيل إنهم ( بنو هاشم وبنو المطلب ) وهذا هو الرأي الصحيح والراجح .

(115/313)

---

ومما يدل عليه ما رواه البخاري عن ( مطعم بن جبير ) من بني نوفل قال : مشيتُ أنا وعثمان بن عفان - من بني عبد شمس - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد ، إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام » فدل الحديث على أن



المراد بذى القربى (بنو المطلب وبنو هاشم) ويرى بعضهم أن القرابة لا يعطون إلا أن يكونوا فقراء وهذا الحكم ثابت للرسول صلى الله عليه وسلم ولذي قرباه في حياته وأما بعد وفاته يرجع إلى بيت مال المسلمين .

قال أبو حنيفة: يقسم الخمس على ثلاثة (اليتامى، والمساكين، وابن السبيل) لأنه قد ارتفع سهم الرسول صلى الله عليه وسلم بموته كما ارتفع سهم أقربائه بموته وهذا منقول عن الشافعي أيضاً . قالوا: ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر، وبناء المساجد، وأرزاق القضاة والجند .

ويصرف في مصالح المسلمين .

سهم اليتامى: وهذا السهم يصرف على أطفال المسلمين الذين هلك آباؤهم وهم في سن الصغر وأما بعد البلوغ فيزول عنهم وصف اليتيم .

(116/313)

---

سهم المساكين: وهم أهل الفاقة والحاجة من ضعفاء المسلمين الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً ويحتاجون إلى مواساة ومساعدة .

سهم ابن السبيل: وهو الغريب الذي انقطع في سفره فإنه يعطى من الخمس حتى ولو كان

غنياً في بلده . ذلك لأننا نعتبر حالته التي هو عليها الآن .

مذهب المالكية : وقد خالف المالكية هذه الأقوال المتقدمة جميعاً ورأوا أن الخمس -

خمس الغنيمة - يجعل في بيت المال ينفق منه على ما ذكر في الآية وعلى غيرهم بحسب ما

يراه الإمام من المصلحة وقالوا : إن ذكر هذه الأصناف في الآية الكريمة إنما هو على سبيل

المثال لا على سبيل التمليك وهو من باب إطلاق (الخاص وأريد به العام) .

أدلة المالكية :

وقد استدلل المالكية لمذهبهم ببضعة أدلة ثبتت في المغازي والسير جعلتهم يذهبون إلى

هذا الرأي وقد ذكرها ابن العربي في «أحكام القرآن» وهي :

أولاً : روي في الصحيح «أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية قبل نجد فأصابوا في

سهمانهم اثني عشر بعيراً ونقلوا بعيراً بعيراً» .

ثانياً : ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال في أساري بدر : (لو كان المطعم بن عدي

حيّاً وكلمني في هؤلاء النتنى لتركهم له) والمراد بالنتنى (الأسرى من المشركين) والمطعم

بن عدي هو الذي أجاز النبي صلى الله عليه وسلم حين رجع من الطائف وهو الذي قام

بنقض الصحيفة ، فقال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم مكافأة له على جميلة وإحسانه .

ثالثاً : ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ردّ سبي هوازن وفيه الخمس .

---

رابعاً : روي في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : « آثر النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين أناساً من الغنيمة فأعطى (الأقرع بن حابس ) مائة من الإبل وأعطى ( عيينة ) مائة من الإبل ، وأعطى أناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذٍ في القسمة فقال رجل : والله إن هذه القسمة ما عدل فيها . أو ما أريد بها وجه الله ! ! فقلت : والله لأخبرن النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته : فقال : « يرحم الله أخي موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » . «

خامساً : روي في الصحيح أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمسُ والخمسُ مردود عليكم » .

فمن هذه الأحاديث يتبين أن الخمس من حق الإمام يتصرف به كيف يشاء ، ويجعله في مصالح المؤمنين وأن ذكر هذه الأصناف في الآية إنما هو على سبيل ( التمثيل ) لا على سبيل ( التملك ) إذ لو كان ملكاً واستحقاقاً لهم لما جعله الرسول صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان في غيرهم وهذا الرأي للمالكية سديد ووجيه .

الحكم الثالث : كيف توزع الغنائم ؟

ظاهر الآية يدل على أن توزيع الغنينة يكون بين المحاربين على السوية ، من دون تفضيل أو زيادة أو نقص ، وقد وردت السنة النبوية تشير إلى التفضيل ، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم « جعل للفارس سهمين وللراجل سهماً » وفي « البخاري » عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « جعل للفارس سهمين ولصاحبه سهماً » .

ورأي الجمهور من العلماء أن يعطى الفارس سهمين ويُعطى الراجل سهماً واحداً وذلك لأن الذي يركب الفرس يحتاج إلى نفقة لفروسه ويكون بلاؤه في الحرب أعظم ولذلك فإن الشارع الحكيم راعى هذه الناحية فزاده في القسمة فأعطى سهماً له وسهماً لفروسه .

الحكم الرابع : هل الآية هذه ناسخة للآية السابقة ؟

يذهب بضع العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة لأول السورة لأن الآية الأولى ذكرت أن الأنفال لله والرسول . وهذه الآية بينت أن للغنمين أربعة أخماس الغنينة فتكون هذه الآية ناسخة لتلك ، والصحيح أنه لا نسخ كما وضحنا ذلك في السابق والله أعلم .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً - التشريع لله سبحانه وليس لأحد أن يشرع من تلقاء نفسه .

ثانياً - الخمس يصرف في سبيل الله وفي المصارف التي أشارت إليها الآية الكريمة .

ثالثاً : الغنائم توزع بين المجاهدين حسب ما شرع الله وفصله الرسول صلى الله عليه وسلم

رابعاً : على المؤمن أن يمتثل أمر الله ويطيع رسوله في كل شؤون الحياة .  
خامساً : يوم بدر هو يوم الفرقان الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ روائع البيان ح 1 ص 600-608 ﴾

(119/313)

وقال السمرقندي :

﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شئء ﴾

فعلمهم قسّم الغنيمة وجعل أربعة أخمسها للذين أصابوها ، وأمر بأن يقسم الخمس على خمسة أسهم ؛ وقال بعضهم : على ستة أسهم ؛ وقال أبو العالية الرياحي : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة أسهم ، أربعة لمن شهدها ؛ ويأخذ الخمس ، فيجعله على ستة أسهم : سهم لله تعالى للكعبة ، سهم الرسول ، وسهم لذوي القربى أي قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل .

وقال بعضهم : سهم الله ورسوله واحد .

وروى سفيان ، عن قيس بن مسلم قال : سألت الحسن بن محمد بن الحنفية عن قوله : ﴿ فَاَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ﴿ فَاَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ ، قال : هذا مفتاح الكلام ، لله الدنيا والآخرة ؛ ثم قال : وقد اختلف بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في سهم الرسول وسهم ذوي القربى ، فقال بعضهم : للخليفة ، وقال بعضهم : لقراة الخليفة ، فاجتمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والعدة في سبيل الله تعالى ، فكانا كذلك في خلافة أبي بكر وعمر .

وروى أبو يوسف ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : كان الخمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم على خمسة أسهم : سهم الله ورسوله واحد ، ولذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ؛ وقسم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ على ثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل . وبهذا أخذ أبو حنيفة رضي الله عنه وأصحابه أن الخمس يقسم على ثلاثة أسهم ، ولا يكون لأغنياء ذوي القربى شيء ، ويكون لفقرائهم فيه نصيب ، كما يكون لسائر الفقراء ، وكذلك يتأماهم وابن السبيل منهم ، وذلك قوله : ﴿ فَاَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ ﴾ .

---

يجوز أن تكون متعلقة بقوله: ﴿ فاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ، إن كنتم آمنتم بالله عز وجل ،  
ويجوز أن يكون معناه فاقبلوا ما أمرتم به من الغنيمة في الخمس إن كنتم آمنتم بالله ، يعني إذ  
كنتم صدقتم بتوحيد الله ، ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ ؛ يعني وصدقتم بما  
أنزلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن يوم الفرقان يعني يوم بدر قال الكلبي  
: أي يوم النصره ؛ ويوم بدر في أمر الغنيمة فرَّق بين الحق والباطل .  
وقال مقاتل : معناه وما أنزلنا من الفرقان يوم بدر فأقرُّوا بحكم الله تعالى في أمر الغنيمة .  
﴿ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ ﴾ ؛ يعني يوم جمع المسلمين وجمع المشركين .  
﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، يعني على نصره المؤمنين وهزيمة الكافرين . انتهى انتهى .  
اه ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

(121/313)

---

وقال الثعلبي :

﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ ﴾

حتى الخيط والمخيط .

واختلف العلماء في معنى الغنيمة والفِي ، ففرّق قوم بينهما :

قال الحسن بن صالح : سألت عطاء بن السائب عن الفِي والغنيمة فقال : إذا ظهر المسلمون على المشركين على أرضهم فأخذوه عنوة فما أخذوا من مال ظهروا عليه فهو غنيمة . وأمّا الأرض فهو في سواد هذا الفِي .

وقال سفيان الثوري : الغنيمة ما أصاب المسلمون عنوة بقتال ، والفِي ما كان من صلح بغير قتال .

وقال قتادة : هما بمعنى واحد ومصرفهما واحد وهو قوله تعالى ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ .  
اختلاف أهل التأويل في ذلك فقال بعضهم قوله : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ مفتاح الكلام .  
ولله الدنيا والآخرة فإنما معنى الكلام : فإنّ للرسول خُمسه وهو قول الحسن و قتادة وعطاء ، فإنّهم جعلوا سهم الله وسهم الرسول واحداً ، وهي رواية الضحاك عن ابن عباس . قالوا : كانت الغنيمة تقسم خمسة أخماس فأربعة أخماس لمن قاتل عليها ، وقسم الخمس الباقي على خمسة أخماس : خمس للنبيّ صلى الله عليه وسلم كان له ويصنع فيه ما شاء وسهم لذوي القربى ، وخمس اليتامى وخمس للمساكين وخمس لابن السبيل . فسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس الخمس .

وقال بعضهم : معنى قوله : ( فَأَنَّ لِلَّهِ ) فإنّ لبيت الله خمسة . وهو قول الربيع وأبي العالية قالوا : كان يجاء بالغنيمة فيقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أسهم ، فجعل



أربعة لمن شهد القتال ويعزل أسهماً [ فيضرب يده ] في جميع ذلك فما قبض من شيء جعله للكعبة وهو الذي سُمِّيَ لله ثم يقسّم ما بقي على خمسة أسهم : سهم للنبي صلى الله عليه وسلم وسهم لذوي القربى ، وسهم اليتامى ، وسهم للمساكين ، وخمس لابن السبيل ، وسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخمس الخمس .

وقال ابن عباس : سهم الله وسهم رسوله جميعاً لذوي القربى وليس لله ولا لرسوله منه شيء .

(122/313)

---

وكانت الغنيمة تُقسّم على خمسة أخماس فأربعة منها لمن قاتل عليها وخمس واحد تقسّم على أربعة ، فربع لله والرسول ولذوي القربى . فما كان لله والرسول فهو لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأخذ النبي من الخمس شيئاً . والربع الثاني لليتامى ، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل .

وأما قوله ( ولذوي القربى ) فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل لهم الصدقة فجعل لهم خمس الخمس مكان الصدقة واختلفوا فيهم .

فقال مجاهد وعلي بن الحسين وعبد الله بن الحسن : هم بنو هاشم .

وقال الشافعي: هم بنو هاشم وبنو عبد المطلب خاصة . واحتج في ذلك بما روى  
الزهري عن سعيد بن جبير بن مطعم قال: " لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم  
سهماً لذوي القربى من خير علي بن هاشم والمطلب مشيت أنا وعثمان بن عفان فقلنا:  
يا رسول الله هؤلاء إخوانك بنو هاشم لا تنكر فضلهم مكانك الذي حملك الله منهم أرايت  
إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركنا ، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة ، فقال صلى الله عليه  
وسلم "إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام . إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد "  
ثم أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى يديه بالأخرى .

وقال بعضهم: هم قريش كلها .

كتب نجدة الى ابن عباس وسأله عن ذوي القربى فكتب إليه ابن عباس: قد كنا نقول: إنا  
هم ، فأبى ذلك علينا قومنا وقالوا: قريش كلها ذوقربى .

واختلفوا في حكم النبي صلى الله عليه وسلم وسهم ذي القربى بعد رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فكان ابن عباس والحسن يجعلانه في الخيل والسلاح ، والعدة في سبيل الله  
ومعونة الإسلام وأهله .

وروى الأعمش عن إبراهيم . قال: كان أبو بكر رضي الله عنه وعمر يجعلان سهم النبي  
صلى الله عليه وسلم في الكراع والسلاح ، فقلت لإبراهيم: ما كان لعلي رضي الله عنه  
قول فيه . قال: كان أشدهم فيه .

قال الزهري: إن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر الصديق يطلبان ميراثهم من فذك وخير .  
فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "نحن  
معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة" فانصرفا .

وقال قتادة: كان سهم ذي القربى طعمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حياً .  
فلما توفي جعل لولي الأمر بعده .

وقال علي كرم الله وجهه: يعطى كل إنسان نصيبه من الخمس لا يعطى غيره، ويلي الإمام  
سهم الله ورسوله .

وقال بعضهم: سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مردود بعده في الخمس . والخمس  
بعده مقسوم على ثلاث أسهم: على اليتامى والمساكين وابن السبيل وهو قول جماعة من  
أهل العراق .

وقال عمرو عن عيينة: "صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بغير من المغنم فلما  
فرغ أخذ وبره من جسد البعير فقال: "إنه لا يحل لي من هذا المغنم مثل هذا إلا الخمس،  
والخمس مردود فيكم" .

وقال آخرون : الخمس كله لقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال المنهال ابن عمرو : سألت عبد الله بن محمد بن عليّ وعليّ بن الحسين عن الخمس فقالا : هولنا ، فقلت لعلي رضي الله عنه : إن الله تعالى يقول ﴿ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ فقال : يتامانا ومساكيننا .

وأما اليتامى فهم أطفال المسلمين الذين هلك أبائهم ، والمساكين أهل الفاقة والحاجة من المسلمين ، وابن السبيل المسافر المنقطع .

وقال ابن عباس : هو الفتى الضعيف الذي ترك المسلمين ﴿ إِنَّ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ يوم فرق فيه بين الحق والباطل بيدر ﴿ يَوْمَ اتَّقَى الْجَمْعَانِ ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين وهو يوم بدر وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة وكان يوم الجمعة لسبع عشر مضت من شهر رمضان ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ الكشف والبيان - 4 ص ﴾

(124/313)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾

ذكر الله تعالى الفيء في سورة الحشر والغنيمة في هذه السورة .

واختلفوا في الفيء والغنيمة على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الغنيمة ما ظهر عليه من أموال المشركين والفيء ما ظهر عليه من الأرض ، قاله عطاء بن السائب .

والثاني : أن الغنيمة ما أخذ عنوة ، والفيء ما أخذ عن صلح ، قاله الشافعي وسفيان الثوري .

والثالث : أن الفيء والغنيمة سواء وهو كل مال أخذ من المشركين ، وآية الفيء التي هي في سور الحشر منسوخة بآية الغنيمة التي في سورة الأنفال ، قاله قتادة .

وقوله تعالى ﴿ مِّنْ شَيْءٍ ﴾ يريد جميع ما وقع عليه اسم شيء مباح حواه المسلمون من أموال المشركين .

﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ ﴾

أحدهما : أنه استفتاح كلام ، فله الدنيا والآخرة وما فيهما ، ومعنى الكلام فإن للرسول خمسه ، قاله الحسن وعطاء وقتادة وإبراهيم والشافعي ، وروى نهشل عن الضحاك عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فصرف ذلك الخمس في خمسة ثم قرأ ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ وإنما قوله ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ ﴾ مفتاح كلام ، ولله ما في السموات وما في الأرض فجعل

سهم الله وسهم الرسول واحد .

والثاني : أن سهم الله مستحق لبيته ، ومعناه فإن لبيت الله خمسة وللرسول وقد روى الربيع بن أنس عن أبي العالية الرياحي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة تكون أربعة أخماس لمن شهدها ، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه الذي قبض كفه فيجعله للكعبة وهو سهم الله ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم فيكون سهم للرسول ، وسهم لذي القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل .

وقوله تعالى ﴿ وَلِرَسُولٍ ﴾ فيه قولان :

(125/313)

---

أحدهما : أنه مفتاح كلام اقترن بذكر الله وليس للرسول من ذلك شيء كما لم يكن لله من ذلك شيء ، وأن الخمس مقسوم على أربعة أسهم ، وهذا قول ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة .

والثاني : أن ذلك للرسول وهو قول الجمهور .

واختلفوا في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على خمسة أقاويل :

أحدها : أنه للخليفة بعده ، قاله قتادة .

والثاني : أنه لقراة النبي صلى الله عليه وسلم إرثاً ، وهذا قول من جعل النبي موروثاً .

والثالث : أن سهم الرسول صلى الله عليه وسلم مردود على السهام الباقية ويقسم الخمس على أربعة .

والرابع : أنه مصروف في مصالح المسلمين العامة ، قاله الشافعي . والخامس : أن ذلك

مصروف في الكراع والسلاح ، وروي أن ذلك فعل أبي بكر وعمر ، رواه النخعي .

أما قوله تعالى ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ فاختلف فيه على ثلاثة أقاويل : أحدها : أنهم بنو هاشم ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم قريش كلها ، روى سعيد المقري قال : كتب نجدة إلى عبد الله بن عباس

يسأله عن ذي القربى ، قال : فكتب إليه عبد الله بن عباس : كنا نقول إننا هم فأبى ذلك علينا قومنا وقالوا : قريش كلها ذوو قربي .

الثالث : أنهم بنو هاشم وبنو المطلب ، قاله الشافعي والطبري .

واختلفوا في سهمهم اليوم على أربعة أقاويل :

أحدها : أنه لهم أبداً كما كان لهم من قبل ، قاله الشافعي .

والثاني : أنه لقراة الخليفة القائم بأمر الأمة .

والثالث : أنه إلى الإمام يضعه حيث شاء .

والرابع: أن سهمهم وسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مردود على باقي السهام وهي ثلاثة، قاله أبو حنيفة.

وأما ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ فهم من اجتمعت فيهم أربعة شروط:

أحدها: موت الأب وإن كانت الأم باقية، لأن يتم الأدميين بموت الآباء دون الأمهات ويتم البهائم بموت الأمهات دون الآباء. والثاني: الصغر، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

: "لَا يَتِمُّ بَعْدَ حُلْمٍ

". والثالث: الإسلام لأنه مال المسلمين.

(126/313)

---

والرابع: الحاجة لأنه معد للمصالح.

ثم فيهم قولان:

أحدهما: أنه لا يتم أهل الفيء خاصة.

والثاني: أنه لجميع الأيتام.

وأما ﴿ الْمَسَاكِين ﴾ فهم الذين لا يجدون ما يكفيهم.

وأما أبناء السبيل فهم المسافرون من ذوي الحاجات، والإسلام فيهم معتبر. وهل يختص



بأله الفيء ؟ على القولين . وقال مالك : الخمس موقوف على رأي الإمام فيمن يراه أحق به ،  
وإنما ذكرت هذه الأصناف لصدق حاجتها في وقتها .

قوله عز وجل ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانِ ﴾ وهو يوم بدر فرق  
الله تعالى فيه بين الحق والباطل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 ص ﴾

(127/313)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾

موضع " أن " الثانية رفع ، التقدير " فحكمه أن " ، فهي في موضع خبر الابتداء ، والغنمية  
في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي من ذلك قول الشاعر [ امرؤ القيس ] : [ الوافر ]  
وقد طفت في الآفاق حتى . . . رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال آخر : [ البسيط ]

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه . . . أنى توجهَ والمحروم محروم

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الرهن : " له غنمه وعليه حرمة " وقوله : " الصيام  
في الشتاء هو الغنيمة الباردة " فالشيء الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي وإيجاف

الخيل والركاب غنيمة، ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفاً له، والفيء مأخوذ من فاء إذا رجع وهو كل ما دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف كخراج الأرض وجزية الجماجم وخمس الغنيمة ونحو هذا .

قال القاضي أبو محمد: والزكوات أيضاً مال على حدته، أحكامه منفردة دون أحكام هذين، قال سفيان الثوري وعطاء بن السائب: الغنيمة ما أخذ عنوة والفيء ما أخذ صلحاً، وهذا قريب مما بيناه، وقال قتادة: الفيء والغنيمة شيء واحد فيهما الخمس، وهذه الآية التي في الأنفال ناسخة لقوله في سورة الحشر ﴿ وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ [الآية: 7] وذلك أن تلك كانت الحكم أولاً، ثم أعطى الله أهلها الخمس فقط وجعل الأربعة والأخماس في المقاتلين .

(128/313)

---

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول ضعيف نص العلماء على ضعفه وأن لا وجه له من جهات، منها أن هذه السورة نزلت قبل سورة الحشر هذه بيدر، وتلك في بني النضير وقرى عرينة، ولأن الآيتين متفتحتان وحكم الخمس وحكم تلك الآية واحد لأنها نزلت في بني النضير حين جلوا وهربوا وأهل فدك حين دعوا إلى صلح ونال المسلمون ما لهم دون إيجاف

، وحكى ابن المنذر عن الشافعي أن في الفيء الخمس ، وأنه كان في قرى عرينة زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أربعة أخماسها كان للرسول صلى الله عليه وسلم خاصة دون المسلمين يضعها حيث شاء .

وقال أبو عبيدة : هذه الآية ناسخة لقوله في أول السورة ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ [ الأنفال : 1 ] ولم يخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بدر فنسخ حكمه في ترك التخميس بهذه الآية .

قال القاضي أبو محمد : ويظهر في قول علي بن أبي طالب في البخاري كانت لي شارق من نصيبي من المغنم ببدر وشارق أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخمس حينئذ أن غنيمة بدر خمست فإن كان ذلك فسد قول أبي عبيدة ، ويحتمل أني كون الخمس الذي ذكره علي بن أبي طالب من إحدى الغزوات التي كانت بين بدر وأحد ، فقد كانت غزوة بني سليم وغزوة السويق وغزوة ذي أمر وغزوة نجران ولم يحفظ فيها قتال ولكن يمكن أن غنمت غنائم والله أعلم .

وقوله في هذه الآية ﴿ من شيء ﴾ ظاهره عام ومعناه الخصوص ، فأما الناض والمناع والأطفال والنساء وما لا يؤكل لحمه من الحيوان ويصح تملكه فليس للإمام في جميع ذلك ما كثير منه وما قل كالخايط والمخيط إلا أن يأخذ الخمس ويقسم الباقي في أهل الجيش ، وأما الأرض فقال فيها مالك : يقسمها الإمام إن رأى ذلك سواباً كما فعل النبي صلى الله عليه

وسلم بخير ، ولا يقسمها إن أداها اجتهاده إلى ذلك كما فعل عمر بأرض مصر سواد الكوفة .

(129/313)

---

قال القاضي أبو محمد : لأن فعل عمر ليس بمخالف لفعل النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ ليست النازلة واحدة بحسب قرائن الوقتين وحاجة الصحابة وقتهم ، وهذا كله انعكس في زمان عمر ، وأما الرجال ومن شارف البلوغ من الصبيان فالإمام عند مالك وجمهور العلماء مخير فيهم على خمسة أوجه ، منها القتل وهو مستحسن في أهل الشجاعة والنكابة ، ومنها الفداء وهو مستحسن في ذي المنصب الذي ليس بشجاع ولا يخاف منه رأي ولا مكيدة لا تنفع المسلمين بالمال الذي يؤخذ منه ، ومنها المن وهو مستحسن فيمن يرجى أن يحنو على أسرى المسلمين ونحو ذلك من القرائن ، ومنها الاسترقاق ، ومنها ضرب الجزية والترك في الذمة ، وأما الطعام والغنم ونحوهما مما يؤكل فهو مباح في بلد العدو يأكله الناس فما بقي كان في المغنم .

قال القاضي أبو محمد : وأما أربعة أخماس ما غنم فيقسمه الإمام على الجيش ، ولا يختص بهذه الآية ذكر القسمة فأنا أختصره هنا ، وأما الخمس فاختلف العلماء فيه ، فقال مالك

رحمه الله : الرأي فيه للإمام يلحقه ببيت النبي ؑ ويعطي من ذلك البيت لقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رآه ، كما يعطي منه اليتامى والمساكين وغيرهم ، وإنما ذكر من ذكر على وجه التنبية عليهم لأنهم من أهم من يدفع إليه ، قال الزجاج محتجاً لما لك : قال الله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [ البقرة : 215 ] .

(130/313)

---

وللإمام بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك ، وقالت فرقة : كان الخميس يقسم على ستة أقسام ، قسم لله وهو مردود على فقراء المسلمين أو على بيت الله ، وقسم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقسم لقرايته ، وقسم لسائر من سمي ، حكى القول منذر بن سعيد ورد عليه ، قال أبو العالية الرياحي : كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يقبض من خمس الغنيمة قبضة فيجعلها للكعبة فذلك لله ، ثم يقسم الباقي على خمسة ، قسم له وقسم لسائر من سمي ، وقال الحسن بن محمد وابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة والشافعي : قوله ﴿ فأن لله خمسة ﴾ استفتاح كلام كما يقول الرجل لعبده قد أعتقتك الله وأعتقتك على جهة التبرك وتفخيم الأمر ، والدنيا كلها لله ، وقسم لله وقسم الرسول واحد

، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقسم الخمس على خمسة أقسام كما تقدم ، وقال ابن عباس أيضاً فيما روى عنه الطبري ، الخمس مقسوم على أربعة أقسام ، وسهم الرسول صلة الله عليه وسلم ، لقربته وليس لله ولا للرسول شيء ، وقالت فرقة : قسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد موته مردود على أهل الخمس القرابة وغيرها ، وقالت فرقة : هو مردود على الجيش أصحاب الأربعة الأقسام ، وقال علي بن أبي طالب : يلي الإمام منهم سهم الله ورسوله ، وقالت فرقة : هو موقوف لشراء العدد وللكرء في سبيل الله ، وقال إبراهيم النخعي وهو الذي اختاره أبو بكر وعمر فيه ، وقال أصحاب الرأي : الخمس بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، مقسوم ثلاثة أقسام ، قسم لليتامى ، وقسم للمساكين وقسم لابن السبيل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يورث ، فسقط سهمه وسهم ذوي القربى ، وحجتهم فيه منع أبي بكر وعمر وعثمان لذوي القربى .

(131/313)

---

قال القاضي أبو محمد : ولم يثبت المنع بل عورض بنو هاشم بأن قریشاً قريبي ، وقيل لم يكن في مدة أبي بكر مغنم ، وقال الشافعي : يعطي أهل الخمس منه ولا بد ويفضل الإمام أهل الحاجة ولكن لا يحرم صنفاً منهم حرماناً تاماً ، وقول مالك رحمه الله : إن للإمام أن يعطي

الأحوج وإن حرم الغير .

قال القاضي أبو محمد : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخصوصاً من الغنيمة بثلاثة أشياء كان له خمس الخمس ، وكان له سهم في سائر الأربعة الأخماس ، وكان له صفيّ يأخذه قبل القسمة ، دابة أو سيف ، أو جارية ولا صفيّ لأحد بعده بإجماع إلا ما قال أبو ثور من أن الصفيّ باق للإمام ، وهو قول معدود في شواذ الأقوال ، وذوو القربى قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال علي بن الحسين وعبد الله بن الحسن وعبد الله بن عباس : هم بنو هاشم فقط ، فقال مجاهد : كان آل محمد صلى الله عليه وسلم لا تحل لهم الصدقة فجعل لهم خمس الخمس ، قال ابن عباس : ولكن أبي ذلك علينا قومنا ، وقالوا قريش كلها قريبي ، وقال الشافعي : هم بنو هاشم وبنو المطلب فقط ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن عفان وجبير بن مطعم في وقت قسمة سهم ذوي القربى من خبير على بني هاشم وبني المطلب " إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد ما فارقونا في جاهلية ولا في الإسلام " .

(132/313)

---

قال القاضي أبو محمد: كانوا مع بني هاشم في الشعب وقالت فرقة: قريش كلها قريبي، وروي عن علي بن الحسين وعبد الله بن محمد بن علي أنهما قالوا: الآية كلها في قريش، والمراد يتامى قريش ومساكينها، وقالت فرقة: سهم القرابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم موقوف على قرابته، وقد بعثه إليهم عمر بن عبد العزيز إلى بني هاشم وبني المطلب فقط، وقالت فرقة: هو لقرابة الإمام القائم بالأمر، وقال قتادة: كان سهم ذوي القربى طعمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حياً، فلما توفي جعل لولي الأمر بعده، وقاله الحسن بن أبي الحسن البصري، وحكى الطبري أيضاً عن الحسن أنه قال: اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال قوم: سهم النبي صلى الله عليه وسلم للخليفة، وقال قوم: سهم النبي صلى الله عليه وسلم لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم، وقال قوم: سهم القرابة لقرابة الخليفة، فاجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة، فكان على ذلك مدة أبي بكر رضي الله عنه، قال غير الحسن وعمر و﴿اليتامى﴾ الذين فقدوا آباءهم من الصبيان، واليتيم في بني آدم من قبل الآباء وفي البهائم من قبل الأمهات، ﴿والمساكين﴾ الذين لا شيء لهم وهو مأخوذ من السكون وقلة الحراك، ﴿وابن السبيل﴾ الرجل المجتاز الذي قد احتاج في سفر، وسواء كان غنياً في بلده أو فقيراً فإنه ابن السبيل يسمى بذلك إما لأن السبيل تبرزه فكانها تلده، وإما لملازمة السبيل كما قالوا ابن ماء وأخو سفر، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:



"لا يدخل الجنة ابن زني" وقد تقدم هذا .

قال القاضي أبو محمد : وقد اقتضت فقه هذه الآية حسب الاختصار والله المستعان .

(133/313)

---

قال القاضي أبو محمد : و ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ ما غنمتم ﴾ بمعنى الذي ، وفي قوله ﴿ غنمتم ﴾ ضمير يعود عليها ، وحكي عن الفراء أنه جوز أن تكون " ما " شرطية بتقدير أنه ما ، وحذف هذا الضمير لا يجوز عند سيبويه إلا في الشعر ، ومنه إن من يدخل الكنيسة يوماً . . . وقرأ الجمهور " فأن لله " بفتح الهمزة ، وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم وحسين عن أبي عمرو " فإن " بكسر الهمزة ، وقرأ الحسن " خمسُه " بسكون الميم ، وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ الآية ، قال الزجاج عن فرقة : المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم ، " فإن " متعلقة بهذا الوعد ، وقال أيضاً عن فرقة : إنها متعلقة بقوله ﴿ واعلموا أنما غنمتم ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو الصحيح ، لأن قوله ﴿ واعلموا ﴾ يتضمن بانتقاد وتسليم لأمر الله في الغنائم فعلق " أن " بقوله ﴿ واعلموا ﴾ على هذا المعنى أي إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة ، وقوله ﴿

وما أنزلنا ﴿ عطف على قوله ﴾ بالله ﴿ والمشار إليه ﴾ ما ﴿ هو النصر والظهور  
الذي أنزله الله يوم بدر على نبيه وأصحابه ، أي إن كنتم مؤمنين بالله وبهذه الآيات والعظائم  
الباهرة التي أنزلت يوم بدر ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى قرآن نزل يوم بدر أو في قصة يوم  
بدر على تكروه في هذا التأويل الأخير .

(134/313)

---

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يكون المعنى واعلموا أنما غنمتم يوم الفرقان يوم التقى  
الجمعان فإن خمسه لكذا وكذا إن كنتم آمنتم ، أي فاقادوا لذلك وسلموا وهذا تأويل  
حسن في المعنى ، ويعترض فيه الفصل بين الظرف وما تعلق به بهذه الجملة الكثيرة من  
الكلام ، و ﴿ يوم الفرقان ﴾ معناه يوم الفرق بين الحق والباطل بإعزاز الإسلام وإذلال  
الشرك ، و ﴿ الفرقان ﴾ مصدر من فرق يفرق و ﴿ الجمعان ﴾ يريد جمع المسلمين وجمع  
الكفار ، وهو يوم الواقعة التي قتل فيها صناديد قريش ببدر ، ولا خلاف في ذلك ، وعليه  
نص ابن عباس ومجاهد ومقسم والحسن بن علي وقادة وغيرهم ، وكانت يوم الجمعة  
السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة هذا قول جمهور الناس .  
وقال أبو صالح : تسع عشرة ، وشك في ذلك عروة بن الزبير ، وقال تسع عشرة أو لسبع

عشرة، والصحيح ما عليه الجمهور، وقوله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ،  
يعضد أن قوله ﴿ وما أنزلنا علىٰ عبدنا ﴾ يراد به النصر والظفر، أي الآيات والعظائم من  
غلبة القليل الكثير، وذلك بقدره الله تعالى الذي هو علىٰ كل شيء قدير. انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(135/313)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾

اختلفوا ، هل الغنيمة والفىء بمعنى واحد ، أم يختلفان ؟ على قولين .

أحدهما : أنهما يختلفان .

ثم في ذلك قولان .

أحدهما : أن الغنيمة : ما ظهر عليه من أموال المشركين ، والفىء ، ما ظهر عليه من

الأرضين ، قاله عطاء بن السائب .

والثاني : أن الغنيمة : ما أخذ عنوةً ، والفىء : ما أخذ عن صلح ، قاله سفيان الثوري .

وقيل : بل الفىء : ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، كالعشور ، والجزية ، وأموال المهادنة ،

والصلح ، وما هربوا عنه .

والثاني : أنهما واحد ، وهما : كل ما نيل من المشركين ، ذكره الماوردي .

وقال الزجاج : الأموال : ثلاثة أصناف ؛ فما صار إلى المسلمين من المشركين في حال الحرب ، فقد سماه الله تعالى : أنفالاً وغنائم ، وما صار من المشركين من خراج أو جزية مما لم يؤخذ في الحرب ، فقد سماه : فيئاً ؛ وما خرج من أموال المسلمين كالزكاة ، والنذر والقرب سماه : صدقة .

وأما قوله : ﴿ من شيء ﴾ فالمراد به : كل ما وقع عليه اسم شيء .

قال مجاهد : المَخِيطُ من الشيء .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ ﴾ وروى عبد الوارث : " خُمْسُهُ " بسكون الميم .

وفي المراد بالكلام قولان .

أحدهما : أن نصيب الله مستحقٌ يُصرف إلى بيته .

قال أبو العالية : كان يجاء بالغنيمة فيقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم ، فيقسم أربعة بين الناس ، ثم يجعل من السهم الخامس للكعبة ؛ وهذا مما انفرد به أبو العالية فيما يقال .

والثاني : أن ذكر الله ها هنا لأحد وجهين .

أحدهما : لأنه المتحكّم فيه ، والمالك له ، والمعنى : فإن للرسول خمسة ولذي القربى ،

كقوله: ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ [ الأنفال : 1 ] .  
والثاني : أن يكون المعنى : إن الخمس مصروف في وجوه القرب إلى الله تعالى ، وهذا قول  
الجمهور .

(136/313)

---

فعلى هذا ، تكون الواو زائدة ، كقوله : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه ﴾ [ الصافات  
: 103 ] المعنى : ناديناه ، ومثله كثير .

فصل

أجمع العلماء على أن أربعة أخماس الغنيمة لأهل الحرب خاصة ، فأما الخمس الخامس ،  
فكيف يقسم ؟ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : يقسم منه لله وللرسول ولمن ذكر في الآية .

وقد ذكرنا أن هذا مما انفرد به أبو العالية ، وهو يقتضي أن يقسم على ستة أسهم .

والثاني : أنه مقسوم على خمسة أسهم : سهم للرسول ، وسهم لذوي القربى ، وسهم

لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لأبناء السبيل ، على ظاهر الآية ، وبه قال الجمهور .

والثالث : أنه يقسم على أربعة أسهم .

فسهم الله عز وجل وسهم رسوله عائد على ذوي القربى ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يأخذ منه شيئاً ، وهذا المعنى رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

## فصل

فأما سهم الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان يصنع فيه ما بيننا .

وهل سقط بموته ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : لم يسقط بموته ، وبه قال أحمد ، والشافعي في آخرين .

وفيما يصنع به قولان .

أحدهما : أنه للخليفة بعده ، قاله قتادة .

والثاني : أنه يُصْرَفُ في المصالح ، وبه قال أحمد ، والشافعي .

والثاني : أنه يسقط بموته كما يسقط الصفيُّ ، فيرجع إلى جملة الغنيمة ، وبه قال أبو حنيفة .

وأما ذوو القربى ، ففيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم جميع قريش .

قال ابن عباس : كنا نقول : نحن هم ؛ فأبى علينا قومنا ، وقالوا : قريش كلها ذوو قربى .

والثاني : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبه قال أحمد ، والشافعي .

والثالث : أنهم بنو هاشم فقط ، قاله أبو حنيفة .

وبماذا يستحقون ؟ فيه قولان .

أحدهما : بالقرابة ، وإن كانوا أغنياء ، وبه قال أحمد ، والشافعي .

والثاني : بالفقر ، لا بالاسم ، وبه قال أبو حنيفة .

وقد سبق في [ البقرة : 177 ] معنى اليتامى والمساكين ، وابن السبيل .

(137/313)

---

وينبغي أن تُعتبر في اليتيم أربعة أوصاف : موت الأب ، وإن كانت الأم باقية ، والصَّغَرُ لقوله

عليه السلام : " لا يُتَمَّ بعد حُلْمٍ " والإسلام ، لأنه مال للمسلمين .

والحاجة ، لأنه مُعَدُّ للمصالح .

قوله تعالى : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ هو يوم بدر ، فُرق فيه بين الحق

والباطل بنصر المؤمنين .

والذي أنزل عليه يومئذ قوله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ [ الأنفال : 1 ] نزلت حين

اختلفوا فيها ، فالمعنى : إن كنتم آمنتم بذلك ، فاصدروا عن أمر الرسول في هذا أيضاً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

(138/313)

وقال ابن جزى :

﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾

لفظه عام يراد به الخصوص ، لأن الأموال التي تؤخذ من الكفار منها ما يخمس : وهو ما أخذ على وجه الغلبة بعد القتال ، ومنها : ما لا يخمس بل يكون جميعه لمن أخذه ، وهو ما أخذه من كان ببلاد الحرب من غير إيجاف ، وما طرحه العدو وخوف الغرق ، ومنها : ما يكون جميعه للإمام يأخذ منه حاجته ، ويصرف سائرته في مصالح المسلمين وهي الفيء الذي لم يوجف عليه بجيل ولا ركاب ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ الآية : اختلف في قسم الخمس على هذه الأصناف فقال قوم : يصرف على ستة أسهم سهم لله في عمارة الكعبة ، وسهم للنبي صلى الله عليه وسلم في مصالح المسلمين ، وقيل : للوالي بعده : وسهم لذوي القربى الذين لا تحل لهم الصدقة ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل . وقال الشافعي : على خمسة أسهم ، ولا يجعل لله سهماً مختصاً ، وإنما بدأ عنده بالله ، لأن الكل ملكه ، وقال أبو حنيفة على ثلاثة أسهم : لليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، وقال مالك الخمس إلى اجتهاد الإمام يأخذ منه كفايته ويصرف الباقي في المصالح ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ راجع إلى ما تقدم ، والمعنى : إن كنتم مؤمنين فاعلموا ما ذكر الله لكم من قسمة الخمس ، واعملوا بحسب ذلك ولا تخالفوه ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ يعني النبي



صلى الله عليه وسلم والذي أنزل عليه القرآن والنصر ﴿يَوْمَ الْفِرْقَانِ﴾ أي التفرقة بين  
الحق والباطل وهو يوم بدر ﴿التقى الجمعان﴾ يعني المسلمين والكفار. انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿التسهيل ح 2 ص 66﴾

(139/313)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ  
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أٰمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ .

فيه ست وعشرون مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ الغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو

الجماعة بسعيٍ ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

وقد طوّفت في الآفاق حتى . . .

رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال آخر :

وَمُطْعَمِ الْغَنَمِ يَوْمَ الْغَنَمِ مُطْعَمُهُ . . .

أنى توجّه والمحروم محروم

والمغنم والغنيمة بمعنى؛ يقال غنم القوم غنماً .

واعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿ غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ مال الكفار

إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر .

ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص على ما بيناه ، ولكن عُرف الشرع قيّد اللفظ بهذا النوع .

وسمى الشرع الواصل من الكفار إلينا من الأموال باسمين : غنيمة وفيأ .

فالشيء الذي يناله المسلمون من عدوّهم بالسعي وإيجاف الخيل والركاب يُسمى غنيمة .

ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عُرفاً .

والفيء مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع ، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا

إيجاف .

كخراج الأرضين وجزية الجماجم وخمس الغنائم .

ونحو هذا قال سفيان الثوريّ وعطاء بن السائب .

وقيل : إنهما واحد ، وفيهما الخمس ؛ قاله قتادة .

وقيل : الفيء عبارة عن كل ما صار للمسلمين من الأموال بغير قهر .

والمعنى متقارب .

الثانية هذه الآية ناسخة لأول السورة ؛ عند الجمهور .

وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية نزلت بعد قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين؛ على ما يأتي بيانه.

وأن قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ نزلت في حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر؛ على ما تقدم أول السورة.

(140/313)

---

قلت: ومما يدل على صحة هذا ما ذكره إسماعيل بن إسحاق قال: حدثنا محمد بن كثير قال حدثنا سفيان قال حدثني محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من قتل قتيلاً فله كذا ومن أسر أسيراً فله كذا" وكانوا قتلوا سبعين، وأسروا سبعين، فجاء أبو اليسر بن عمرو بأسيرين؛ فقال: يا رسول الله، إنك وعدتنا من قتل قتيلاً فله كذا، وقد جئت بأسيرين.

فقام سعد فقال: يا رسول الله، إنا لم يمنعنا زيادة في الأجر ولا جبن عن العدو ولكننا قمنا هذا المقام خشية أن يعطى المشركون؛ فإنك إن تعطي هؤلاء لا يبقى لأصحابك شيء.

قال: وجعل هؤلاء يقولون: فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فسلموا الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نزلت

﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ الآية .

وقد قيل : إنها مُحْكَمَةٌ غيرُ منسوخة ، وأن الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
وليست مقسومة بين الغانمين ؛ وكذلك لمن بعده من الأئمة .

كذا حكاها المازري عن كثير من أصحابنا ، رضي الله عنهم ، وأن للإمام أن يخرجها  
عنهم .

واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين .

وكان أبو عبيد يقول : افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عَنُوةً ومنَّ على أهلها  
فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها عليهم فَيًّا .  
ورأى بعض الناس أن هذا جائز للأئمة بعده .

قلت : وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ  
خُمُسَهُ ﴾ والأربعة الأخماس للإمام ، إن شاء حبسها وإن شاء قسمها بين الغانمين .

(141/313)

---

وهذا ليس بشيء ؛ لما ذكرناه ، ولأن الله سبحانه أضاف الغنيمة للغانمين فقال : ﴿  
واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ ثم عين الخمس لمن سمى في كتابه ، وسكت عن الأربعة

الأخماس؛ كما سكت عن الثلثين في قوله: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمَّهِ الثَّلَاثُ﴾ [النساء: 11]  
[فكان للأب الثلثان اتفاقاً .

وكذا الأربعة الأخماس للغانمين إجماعاً؛ على ما ذكره ابن المنذر وابن عبد البر والداؤدي  
والمازري أيضاً والقاضي عياض وابن العربي .

والأخبار بهذا المعنى متظاهرة، سيأتي بعضها .

ويكون معنى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية، ما ينقله الإمام لمن شاء لما يراه من  
المصلحة قبل القسمة .

وقال عطاء والحسن: هي مخصوصة بما شذ من المشركين إلى المسلمين، من عبد أو أمة أو  
دابة؛ يقضي فيها الإمام بما أحب .

وقيل: المراد بها أنفال السرايا أي غنائمها، إن شاء خمسها الإمام، وإن شاء نقلها كلها .

وقال إبراهيم النخعي في الإمام يبعث السرية فيصيبون المغنم: إن شاء الإمام نقله كله .  
وإن شاء خمسته .

وحكاه أبو عمر عن مكحول وعطاء .

قال علي بن ثابت: سألت مكحولاً وعطاء عن الإمام ينقل القوم ما أصابوا؛ قال: ذلك لهم

: قال أبو عمر: من ذهب إلى هذا تأول قول الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ

الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أن ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم يضعها حيث شاء .

ولم ير أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾



وقيل: غير هذا مما قد أتينا عليه في كتاب (القبس في شرح موطأ مالك بن أنس).

(142/313)

ولم يقل أحد من العلماء فيما أعلم أن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية، ناسخ

لقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ بل قال الجمهور على ما ذكرنا:

إن قوله: "مَا غَنِمْتُمْ" ناسخ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله

تعالى.

وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها.

وقد قال أبو عبيد: ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلدان من جهتين: إحداهما أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم كان الله قد خصه من الأنفال والغنائم ما لم يجعله لغيره؛ وذلك

لقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية؛ فنرى أن هذا كان خاصاً له.

والجهة الأخرى أنه سنّ لمكة سنناً ليست لشيء من البلاد.

وأما قصة حنين فقد عوض الأنصار لما قالوا: يُعْطِي الْغَنَائِمَ قَرِيشاً وَيَتْرَكُنَا وَسِيوفَنَا نَقْطَر

من دمائهم! فقال لهم: "أما ترضون أن يرجع الناس بالدينيا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيوتكم" خرّجه مسلم وغيره.

وليس لغيره أن يقول هذا القول، مع أن ذلك خاص به على ما قاله بعض علمائنا .  
والله أعلم.

الثالثة لم يختلف العلماء أن قوله: ﴿واعلموا أنّما غنمتم من شيء﴾ ليس على عمومه .  
وأنه يدخله الخصوص؛ فما خصّصوه بإجماع أن قالوا: سلبُ المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام.

وكذلك الرقاب؛ أعني الأسارى، الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف، على ما يأتي بيانه .  
ومما خصّ به أيضاً الأرض .

والمعنى: ما غنمتم من ذهب وفضة وسائر الأمتعة والسبي .

وأما الأرض فغير داخله في عموم هذه الآية؛ لما روى أبو داود عن عمر بن الخطاب أنه قال:  
لولا آخر الناس ما فحت قريّة إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم  
خير .

ومما يصح هذا المذهب ما رواه الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "منعت العراق قفيزها ودرهمها ومنعت الشام مدها ودينارها" الحديث .  
قال الطحاوي: "منعت" بمعنى ستمنع؛ فدل ذلك على أنها لا تكون للغنمين؛ لأن ما ملكه الغنمون لا يكون فيه قفيز ولا درهم، ولو كانت الأرض تقسم ما بقي لمن جاء بعد الغنمين شيء .

والله تعالى يقول: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ [الحشر: 10] بالعطف على قوله: "لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ" .

قال: وإنما يقسم ما ينقل من موضع إلى موضع .  
وقال الشافعي: كل ما حصل من الغنائم من أهل دار الحرب من شيء قل أو كثر من دار أو أرض أو متاع أو غير ذلك قسم؛ إلا الرجال البالغين فإن الإمام فيهم مخير أن يمن أو يقتل أو يسبي .

وسبيل ما أخذ منهم وسبي سبيل الغنيمة .

واحتج بعموم الآية .

قال: والأرض مغنومة لا محالة؛ فوجب أن تقسم كسائر الغنائم .

وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اقتح عنوة من خيبر .

قالوا: ولو جاز أن يدعي الخصوص في الأرض جاز أن يدعي في غير الأرض فيبطل حكم



الآية .

وأما آية "الحشر" فلا حجة فيها ؛ لأن ذلك إنما هو في الفيء لا في الغنيمة .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ استئناف كلام بالدعاء لمن سبقهم بالإيمان لا لغير

ذلك .

قالوا : وليس يخلو فعل عمر في توقيفه الأرض من أحد وجهين : إما أن تكون غنيمة

استطاب أنفس أهلها ؛ وطابت بذلك فوقفها .

وكذلك روى جرير أن عمر استطاب أنفس أهلها .

وكذلك صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبي هَوازِنَ ، لما أتوه استطاب أنفس

أصحابه عما كان في أيديهم .

وإما أن يكون ما وقفه عمر فئياً فلم يحتج إلى مُراضاة أحد .

وذهب الكوفيون إلى تختيار الإمام في قسمها أو إقرارها وتوظيف الخراج عليها .

(144/313)

---

وتصير ملكاً لهم كأرض الصلح : قال شيخنا أبو العباس رضي الله عنه : وكأن هذا جمع

بين الدليلين ووسط بين المذهبين ، وهو الذي فهمه عمر رضي الله عنه قطعاً ؛ ولذلك قال :

لولا آخر الناس؛ فلم يخبر بنسخ فعل النبي صلى الله عليه وسلم ولا بتخصيصه بهم، غير أن الكوفيين زادوا على ما فعل عمر، فإن عمر إنما وقفها على مصالح المسلمين ولم يملكها لأهل الصلح، وهم الذين قالوا للإمام أن يملكها لأهل الصلح.

الرابعة ذهب مالك وأبو حنيفة والثوري إلى أن السلب ليس للقاتل، وأن حكمه حكم الغنيمة، إلا أن يقول الأمير: من قتل قتيلاً فله سلبه؛ فيكون حينئذ له.

وقال الليث والأوزاعي والشافعي وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد والطبري وابن المنذر: السلب للقاتل على كل حال؛ قاله الإمام أو لم يقله.

إلا أن الشافعي رضي الله عنه قال: إنما يكون السلب للقاتل إذا قتل قتيلاً مقبلاً عليه، وأما إذا قتله مدبراً عنه فلا.

قال أبو العباس بن سريج من أصحاب الشافعي: ليس الحديث: "من قتل قتيلاً فله سلبه" على عمومته؛ لإجماع العلماء على أن من قتل أسيراً أو امرأة أو شيخاً أنه ليس له سلبٌ واحدٍ منهم.

وكذلك من ذفف على جريح، ومن قتل من قطعت يده ورجلاه.

قال: وكذلك المنهزم لا يمتنع في انهزامه؛ وهو كالمكثوف.

قال: فعلم بذلك أن الحديث إنما جعل السلب لمن لقتله معنى زائد، أو لمن في قتله فضيلة، وهو القاتل في الإقبال؛ لما في ذلك من المؤنة.

وأما من أثنى فلا .

وقال الطبري: السلب للقاتل، مقبلاً قتله أو مدبراً، هارباً أو مبارزاً إذا كان في المعركة وهذا يردّه ما ذكره عبد الرزاق ومحمد بن بكر عن ابن جريج قال سمعت نافعاً مولى ابن عمر يقول: لم نزل نسمع إذا التقى المسلمون والكفار فقتل رجل من المسلمين رجلاً من الكفار فإن سلبه له، إلا أن يكون في معمة القتال؛ لأنه حينئذ لا يدري من قتل قتيلاً.

(145/313)

---

فظاهر هذا يردّ قول الطبري لاشتراطه في السلب القتل في المعركة خاصة .

وقال أبو ثور وابن المنذر: السلب للقاتل في معركة كان أو غير معركة، في الإقبال والإدبار والهروب والانتهاز، على كل الوجوه، لعموم قوله صلى الله عليه وسلم: "من قتل قتيلاً فله سلبه" .

قلت: روى مسلم "عن سلمة بن الأكوع قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هوازن فبينما نحن نتضحى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه، ثم انتزع طلقاً من حقه فقيّد به الجمل، ثم تقدّم يتعدى مع القوم وجعل ينظر، وفينا ضعفة ورقة في الظهر، وبعضنا مشاة؛ إذ خرج يشتدّ، فأتى جملة فأطلق قيده ثم

أناخه وقعد عليه فأثاره فاشتد به الجمل ، فاتبعه رجل على ناقة ورّقاء .

قال سلمة : وخرجت أشتدّ فكنت عند وركِ الناقة ، ثم تقدّمت حتى كنت عند وركِ

الجمل ، ثم تقدّمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنخته ، فلما وضع ركبته في الأرض

اخترطت سيفي فضربت رأس الرجل فنَدَرَ ، ثم جئت بالجمل أقوده ، عليه رحله

وسلاحه ؛ فاستقبلني رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه فقال : "من قتل

الرجل" ؟ قالوا : ابن الأكوّع .

قال : "له سلبه أجمع" " فهذا سلمة قتله هاربا غير مقبل ، وأعطاه سلبه .

وفيه حجة لمالك من أن السلب لا يستحقه القاتل إلا بإذن الإمام ، إذ لو كان واجبا له بنفس

القتل لما احتاج إلى تكرير هذا القول .

ومن حجته أيضا ما ذكره أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدّثنا أبو الأحوص عن الأسود بن

قيس عن بشر بن علقمة قال : بارزت رجلا يوم القادسية فقتلته وأخذت سلبه ، فأتيت

سعدا فخطب سعد أصحابه ثم قال : هذا سلب بشر بن علقمة ، فهو خير من اثني عشر

ألف درهم ، وإنما قد نقلناه إياه .

فلو كان السلب للقاتل قضاءً من النبي صلى الله عليه وسلم ما احتاج الأمر أن يضيفوا ذلك

إلى أنفسهم باجتهادهم ، ولأخذه القاتل دون أمرهم .

والله أعلم .

وفي الصحيح " أن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء ضربا أبا جهل بسيفيهما حتى قتلاه ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أيكما قتله" ؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتله .

فنظر في السيفين فقال : "كلاكما قتله" وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح " ، وهذا نص على أن السلب ليس للقاتل ، إذ لو كان له لقسمه النبي صلى الله عليه وسلم بينهما . وفي الصحيح أيضا عن عوف بن مالك قال : خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ، ورافقني مددي من اليمن .

وساق الحديث ، وفيه : فقال عوف : يا خالد ، أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالسلب للقاتل ؟ قال : بلى ، ولكني استكثرته .

وأخرجه أبو بكر البرقاني بإسناده الذي أخرجه به مسلم ، وزاد فيه بيانا " أن عوف بن مالك قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يخمس السلب وإن مدديا كان رفيقا لهم في غزوة مؤتة في طرف من الشام ، قال : فجعل رومي منهم يشتد على المسلمين وهو على فرس أشقر وسرج مذهب ومنطقة ملطخة وسيف محلي بذهب .

قال: فَيُغْرِي بِهِمْ، قال: فتلطف له المددي حتى مرَّ به فضرب عُرقوب فرسه فوقه، وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه.

قال: فأعطاه خالد بن الوليد وحبس منه، قال عوف: فقلت له أعطه كله، أليس قد سمعت رسول الله يقول: "السلب للقاتل"! قال: بلى، ولكنني استكثرته.

قال عوف: وكان بيني وبينه كلام، فقلت له: لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال عوف: فلما اجتمعنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عوف ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لخالد: "لم لم تعطه"؟ قال فقال: استكثرته.

قال: "فادفعه إليه" فقلت له: ألم أنجز لك ما وعدتك؟ قال: فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "يا خالد لا تدفعه إليه هل أنتم تاركون لي أمرائي"

(147/313)

---

فهذا يدلّ دلالة واضحة على أن السلب لا يستحقه القاتل بنفس القتل بل برأي الإمام ونظره.

وقال أحمد ابن حنبل: لا يكون السلب للقاتل إلا في المبارزة خاصة.

الخامسة اختلف العلماء في تخميس السلب؛ فقال الشافعي: لا يخمس.

وقال إسحاق: إن كان السلب يسيراً فهو للقاتل، وإن كان كثيراً خمّس.

وفعله عمر بن الخطاب مع البراء بن مالك حين بارز المرزبان فقتله، فكانت قيمة منطقتة وسواريه ثلاثين ألفاً فخمّس ذلك.

أنس عن البراء بن مالك أنه قتل من المشركين مائة رجل إلا رجلاً مبارزة، وأنهم لما غزوا الزارة خرج دهقان الزارة فقال: رجل ورجل؛ فبرز البراء فاختلفا بسيفيهما ثم اعتنقا فتورّكه البراء فقعد على كبده، ثم أخذ السيف فذبحه، وأخذ سلاحه ومنطقته وأتى به عمر؛ فنقله السلاح وقوم المنطقة بثلاثين ألفاً فخمّسها، وقال: إنها مال.

وقال الأوزاعي ومكحول: السلب مغنم وفيه الخمس.

وروي نحوه عن عمر بن الخطاب.

والحجة للشافعي ما رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي وخالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في السلب للقاتل ولم يخمّس السلب.

السادسة ذهب جمهور العلماء إلى أن السلب لا يعطى للقاتل إلا أن يُقيم البيّنة على قتله. قال أكثرهم: ويجزىء شاهد واحد؛ على حديث أبي قتادة.

وقيل: شاهدان أو شاهد ويمين.

وقال الأوزاعي: يُعطاه بمجرد دعواه، وليست البيّنة شرطاً في الاستحقاق، بل إن اتفق ذلك فهو الأولى دفعا للمنازعة.

ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أبا قتادة سلب مقتوله من غير شهادة ولا يمين .  
ولا تكفي شهادة واحد ، ولا يناط بها حكم بمجرد ها .  
وبه قال الليث بن سعد .

قلت : سمعت شيخنا الحافظ المنذري الشافعيّ أبا محمد عبد العظيم يقول : إنما أعطاه  
النبي صلى الله عليه وسلم السلب بشهادة الأسود بن خزاعيّ وعبد الله بن أنيس .  
وعلى هذا يندفع النزاع ويزول الإشكال ، ويطرّد الحكم .

(148/313)

---

وأما المالكية فيخرج على قولهم أنه لا يحتاج الإمام فيه إلى بينة ؛ لأنه من الإمام ابتداءً  
عطية .

فإن شرط الشهادة كان له ، وإن لم يشترط جاز أن يعطيه من غير شهادة .  
السابعة واختلفوا في السلب ما هو ؛ فأما السلاح وكل ما يحتاج للقتال فلا خلاف أنه من  
السلب ، وفرسه إن قاتل عليه وصرع عنه .  
وقال أحمد في الفرس : ليس من السلب .  
وكذلك إن كان في هميانه وفي منطقته دنانير أو جواهر أو نحو هذا ، فلا خلاف أنه ليس من



السلب .

واختلفوا فيما يتزّين به للحرب ، فقال الأوزاعيّ : ذلك كله من السلب .

وقالت فرقة : ليس من السلب .

وهذا مروِيٌّ عن سُحنون رحمه الله ؛ إلا المنطقة فإنها عنده من السلب .

وقال ابن حبيب في الواضحة : والسوّاران من السلب .

الثامنة قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ قال أبو عبيد : هذا ناسخ لقوله عز وجل في أوّل

السورة ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ولم يخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم

بدر ، فنسخ حكمه في ترك الخميس بهذا .

إلا أنه يظهر من قول عليّ رضي الله عنه في صحيح مسلم : "كان لي شارف من نصيبي من

المغنم يوم بدر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني شارفاً من الخمس يومئذ "

الحديث أنه خمس ؛ فإن كان هذا فقول أبي عبيد مردودٌ .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الخمس الذي ذكر عليّ من إحدى الغزوات التي كانت بين

بدر وأحد ؛ فقد كانت غزوة بني سليم وغزوة بني المصطلق وغزوة ذي أمر وغزوة بجران

، ولم يحفظ فيها قتال ، ولكن يمكن أن غنمت غنائم .

والله أعلم .

---

قلت : وهذا التأويل يردده قول عليّ يومئذ ، وذلك إشارة إلى يوم قسم غنائم بدر ؛ إلا أنه  
يحتمل أن يكون من الخمس إن كان لم يقع في بدر تخميس ، من خمس سرّية عبد الله بن  
جَحْش فإنها أول غنيمة غنمت في الإسلام ، وأول خمس كان في الإسلام ؛ ثم نزل القرآن  
﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيءٍ فإنّ لله خمسُهُ ﴾ وهذا أولى من التأويل الأوّل .  
والله أعلم .

التاسعة " ما " في قوله : ﴿ مَا غَنِمْتُمْ ﴾ بمعنى الذي ، والهاء محذوفة ؛ أي الذي غنمتموه .  
ودخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة .

و"أنّ" الثانية توكيد للأولى ، ويجوز كسرهما ، ورؤي عن أبي عمرو .

قال الحسن : هذا مفتاح كلام ، الدنيا والآخرة لله ؛ ذكره النسائي .

واستفتح عز وجل الكلام في الفياء والخمس بذكر نفسه ؛ لأنهما أشرف الكسب ، ولم  
ينسب الصدقة إليه لأنها أوساخ الناس .

العاشرة واختلف العلماء في كيفية قسم الخمس على أقوال ستة :

الأول قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة ؛ فيجعل السدس للكعبة ، وهو الذي لله .

والثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثالث لذوي القربى .

والرابع لليتامى .

والخامس للمساكين .

والسادس لابن السبيل .

وقال بعض أصحاب هذا القول : يردُّ السهم الذي لله على ذوي الحاجة .

الثاني قال أبو العالية والربيع : تقسم الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهم واحد ، وتقسم

الأربعة على الناس ، ثم يضرب بيده على السهم الذي عزله فما قبض عليه من شيء جعله

للكعبة ، ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة ، سهم للنبي صلى الله عليه وسلم ،

وسهم لذوي القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل .

الثالث قال المنهال بن عمرو : سألت عبد الله بن محمد ابن عليّ وعلي بن الحسين عن

الخمس فقال : هولنا .

قلت لعليّ : إن الله تعالى يقول : ﴿ واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [البقرة : 177 ]

فقال : أيتامنا ومساكيننا .

(150/313)

---

الرابع قال الشافعيّ: يقسم على خمسة .

ورأى أن سهم الله ورسوله واحد ، وأنه يصرف في مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورين في الآية .

الخامس قال أبو حنيفة: يقسم على ثلاثة: اليتامى والمساكين وابن السبيل .

وارتفع عنده حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بموته ؛ كما ارتفع حكم سهمه .  
قالوا : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر ، وبناء المساجد ، وأرزاق القضاة والجند .  
وروي نحو هذا عن الشافعيّ أيضاً .

السادس قال مالك : هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده ؛ فيأخذ منه من غير تقدير ،  
ويعطي منه القرابة باجتهاد ويصرف الباقي في مصالح المسلمين .  
وبه قال الخلفاء الأربعة ، وبه عملوا .

وعليه يدلّ قوله صلى الله عليه وسلم : " مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس  
مردود عليكم " فإنه لم يقسمه أخماساً ولا أثلاثاً ، وإنما ذكر في الآية من ذكر على وجه  
التنبيه عليهم ؛ لأنهم من أهمّ من يدفع إليه .

قال الزجاج محتجاً لمالك : قال الله عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ  
خَيْرٍ فَلِلَّهِ دَيْنٌ وَاللِّأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة: 215] وللرجل  
جائز ياجمع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك .

وذكر النسائي عن عطاء قال : خمسُ الله وخمسُ رسوله واحد ، كان رسول الله صلى الله

عليه وسلم يحمل منه ويعطي منه ويضعه حيث شاء ويصنع به ما شاء .

الحادية عشرة قوله تعالى : ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ ليست اللام لبيان الاستحقاق والملك ،

وإنما هي لبيان المصرف والحل .

والدليل عليه ما رواه مسلم " أن الفضل بن عباس وربيعه بن عبد المطلب أتيا النبي صلى

الله عليه وسلم ، فتكلم أحدهما فقال : يا رسول الله ، أنت أبر الناس ، وأوصل الناس ،

وقد بلغنا النكاح فجئنا لتؤمرنا على بعض هذه الصدقات ، فنؤدِّي إليك كما يؤدِّي الناس ،

ونصيب كما يصيبون .

(151/313)

---

فسكت طويلاً حتى أردنا أن نكلّمه ، قال : وجعلت زينب تلمع إلينا من وراء الحجاب ألاّ

تكلّماه ، قال : ثم قال : "إن الصدقة لا تحل لآل محمد إنما هي أوساخ الناس ادعوا لي

مَحْمِيَّةً وكان على الخُمس ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب " قال : فجاءاه فقال لمحمية :

"أنكح هذا الغلام ابنتك" للفضل بن عباس فأنكحه .

وقال لنوفل بن الحارث : "أنكح هذا الغلام ابنتك" يعني ربيعة بن عبد المطلب .

وقال لمُحمية: "أصدق عنهما من الخمس كذا وكذا"

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم  
"وقد أعطى جميعه وبعضه، وأعطى منه المؤلفة قلوبهم، وليس ممن ذكرهم الله في التقسيم  
؛ فدل على ما ذكرناه، والموفق الإله.

الثانية عشرة واختلف العلماء في ذوي القربى على ثلاثة أقوال: قريش كلها؛ قاله بعض  
السلف، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما صعد الصفا جعل يهتف: "يا بني فلان يا بني  
عبد مناف يا بني عبد المطلب يا بني كعب يا بني مرة يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من  
النار" الحديث.

وسياتي في "الشعراء".

وقال الشافعي وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد: بنو هاشم  
وبنو عبد المطلب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما قسم سهم ذوى القربى بين بني هاشم  
وبني عبد المطلب قال: "إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب  
شيء واحد" وشبك بين أصابعه؛ أخرجه النسائي والبخاري.

قال البخاري: قال الليث حدثني يونس، وزاد: ولم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني  
عبد شمس ولا لبني نوفل شيئاً.

قال ابن إسحاق: وعبد شمس وهاشم والمطلب إخوة لأم، وأمهم عاتكة بنت مرة.

وكان نوفل أخاهم لأبيهم .

قال النَّسَائِيُّ : وأسهم النبيّ صلى الله عليه وسلم لذوي القربى ، وهم بنو هاشم وبنو

المطلب ، بينهم الغني والفقير .

(152/313)

---

وقد قيل : إنه للفقير منهم دون الغنيّ ؛ كإليّامى وابن السبيل وهو أشبه القولين بالصواب

عندي .

والله أعلم والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء ؛ لأن الله تعالى جعل ذلك لهم ، وقسمه

رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم .

وليس في الحديث أنه فضل بعضهم على بعض .

الثالث بنو هاشم خاصة ؛ قاله مجاهد وعليّ بن الحسين .

وهو قول مالك والثوريّ والأوزاعيّ وغيرهم .

الثالثة عشرة لما بين الله عز وجل حكم الخمس وسكت عن الأربعة الأخماس ، دلّ ذلك

على أنها ملك للغانمين .

ويبين النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : " وأيما قرية عصت الله ورسوله فإن خمسها

لله ورسوله ثم هي لكم "

وهذا ما لا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة ؛ على ما حكاه ابن العربي في (أحكامه )  
وغيره .

يُبدَأُ أن الإمام إن رأى أن يَمُنَّ على الأسارى بالإطلاق فعل ، وبطلت حقوق الغانمين فيهم ؛  
كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بثامة بن أثال وغيره ، وقال : " لو كان المُطعم بن عدي  
حيًّا ثم كلمني في هؤلاء التنتى يعني أسارى بدر لتركهم له " أخرجه البخاري .  
مكافأة له لقيامه في شأن نقض الصحيفة .

وله أن يقتل جميعهم ؛ وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عُقبَةَ بن أبي مُعيط من بين  
الأسرى صَبْرًا ، وكذلك النضر بن الحارث قتله بالصفراء صَبْرًا ، وهذا ما لا خلاف فيه .  
وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم الغانمين ، حضر أو غاب .  
وسهم الصَّفِيِّ ، يصطفي سيفاً أو سهماً أو خادماً أو دابة .  
وكانت صَفِيَّة بنت حَبِيٍّ من الصَّفِيِّ من غنائم خَيْبَر .  
وكذلك ذو الفقار كان من الصَّفِيِّ .

وقد انقطع بموته ؛ إلا عند أبي ثور فإنه رآه باقياً للإمام يجعله يجعل سهم النبي صلى الله عليه  
وسلم .

وكانت الحكمة في ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يرون للرئيس ربع الغنيمة .



قال شاعرهم :

لك المرباع منها والصفايا . . .

وحكّمك والنشيطه والفضول

وقال آخر :

(153/313)

منّا الذي ربّع الجيوش ، لصلبه . . .

عشرون وهو يعدّ في الأحياء

يقال : ربّع الجيش يربّعه رباعة إذا أخذ ربّع الغنيمة .

قال الأصمعيّ : ربّع في الجاهلية وخمّس في الإسلام ؛ فكان يأخذ بغير شرع ولا دين الربّع

من الغنيمة ، ويصطفي منها ، ثم يتحكّم بعد الصّفيّ في أي شيء أراد ، وكان ما شدّ منها

وما فضل من حرثيّ ومناعه .

فأحكّم الله سبحانه الدين بقوله : ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيءٍ فإنّ لله خمسُهُ ﴾ [

الأنفال : 41 ] .

وأبقى سهم الصّفيّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم وأسقط حكم الجاهلية .

وقال عامر الشَّعْبِيّ: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم يُدعى الصَّفِيّ إن شاء عبداً أو أمةً أو فرساً يختاره قبل الخمس؛ أخرجه أبو داود .

وفي حديث أبي هريرة قال: فيلقى العبد فيقول: "أيُّ فُلٍ أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخرُك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع" الحديث .

أخرجه مسلم .

"تربع" بالباء الموحدة من تحتها: تأخذ المربع، أي الربع مما يحصل لقومك من الغنائم والكسب .

وقد ذهب بعض أصحاب الشافعي رضي الله عنه إلى أن خمس الخمس كان للنبي صلى الله عليه وسلم يصرفه في كفاية أولاده ونسائه، ويدخر من ذلك قوت سنته، ويصرف الباقي في الكراع والسلاح .

وهذا يرواه عمر قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجب عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، فكان ينفق على نفسه منها قوت سنة، وما بقي جعله في الكراع والسلاح عدّة في سبيل الله .

أخرجه مسلم .

وقال: "والخمس مردود عليكم" .

الرابعة عشرة ليس في كتاب الله تعالى دلالة على تفضيل الفارس على الراجل ، بل فيه أنهم سواء ؛ لأن الله تعالى جعل الأربعة أخماس لهم ولم يخص راجلاً من فارس .

(154/313)

---

ولولا الأخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم لكان الفارس كالراجل ، والعبد كالحرّ ، والصبي كالبالغ .

وقد اختلف العلماء في قسمة الأربعة الأخماس ؛ فالذي عليه عامة أهل العلم فيما ذكر ابن المنذر أنه يُسهم للفارس سهمان ، وللراجل سهم .

ومن قال ذلك مالك بن أنس ومن تبعه من أهل المدينة .

وكذلك قال الأوزاعي ومن وافقه من أهل الشام .

وكذلك قال الثوري ومن وافقه من أهل العراق .

وهو قول الليث بن سعد ومن تبعه من أهل مصر .

وكذلك قال الشافعي رضي الله عنه وأصحابه .

وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق وأبو ثور ويعقوب ومحمد .

قال ابن المنذر : ولا نعلم أحداً خالف في ذلك إلا النعمان فإنه خالف فيه السنن وما عليه

جُلَّ أهل العلم في القديم والحديث .

قال : لأيسهم للفارس الإسهم واحد .

قلت : ولعله شُبه عليه بمجديث ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفارس سهمين ، وللراجل سهماً .

خرجه الدارقطني وقال : قال الرمادي كذا يقول ابن نمير قال لنا النيسابوري : هذا عندي

وهم من ابن أبي شيبَةَ أو من الرمادي ؛ لأن أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن بشر وغيرهما

رووه عن ابن عمر ( رضي الله عنهما ) بخلاف هذا ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أسهم للرجل وفارسه ثلاثة أسهم ، سهماً له وسهمين لفارسه ؛ هكذا رواه عبد

الرحمن بن بشر عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ؛ وذكر

الحديث .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفارس

سهمين ولصاحبه سهماً .

وهذا نص .

وقد روى الدارقطني عن الزبير قال : أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أسهم

يوم بدر ، سهمين لفارسي وسهماً لي وسهماً لأمي من ذوي القرابة .

وفي رواية : وسهماً لأمة سهم ذوي القربى .

وخرَج " عن بشير بن عمرو بن محصن قال : أسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرسيّ أربعة أسهم ، ولي سهماً ؛ فأخذت خمسة أسهم " وقيل : إن ذلك راجع إلى اجتهاد الإمام ، فينفذ ما رأى .

والله أعلم .

الخامسة عشرة لا يفاضل بين الفارس والراجل بأكثر من فرس واحد ؛ وبه قال الشافعيّ .  
وقال أبو حنيفة : يُسهم لأكثر من فرس واحد ؛ لأنه أكثر عناء وأعظم منفعة ؛ وبه قال ابن الجهم من أصحابنا ، ورواه سُحنون عن ابن وهب .

ودليلنا أنه لم ترد رواية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يُسهم لأكثر من فرس واحد ، وكذلك الأئمة بعده ، ولأن العدو ولا يمكن أن يقاتل إلا على فرس واحد ، وما زاد على ذلك فرفاهية وزيادة عدّة ؛ وذلك لا يُوثر في زيادة السهمان ، كالذي معه زيادة سيوف أو رماح ، واعتباراً بالثالث والرابع .

وقد رُوِيَ عن سليمان بن موسى أنه يُسهم لمن كان عنده أفراس ، لكل فرس سهم .

السادسة عشرة لا يسهم إلا للعتاق من الخيل ؛ لما فيها من الكرم والفر ، وما كان من البراذين

والهجن بمثابتها في ذلك .

وما لم يكن كذلك لم يسهم له .

وقيل : إن أجازها الإمام أسهم لها ؛ لأن الانتفاع بها يختلف بحسب الموضع ، فالهجن والبراذين تصلح للمواضع المتوعرة كالشعاب والجبال ، والعناق تصلح للمواضع التي يتأتى فيها الكر والفر ؛ فكان ذلك متعلقاً برأي الإمام .

والعناق : خيل العرب .

والهجن والبراذين : خيل الروم .

السابعة عشرة واختلف علماؤنا في الفرس الضعيف ؛ فقال أشهب وابن نافع : لا يسهم له ؛ لأنه لا يمكن القتال عليه فأشبهه الكسير .

وقيل : يسهم له لأنه يرجى برؤه .

ولا يسهم للأعرج إذا كان في حيز ما لا ينتفع به ، كما لا يسهم للكسير .

فأما المريض مرضاً خفيفاً مثل الرهيص ، وما يجري مجراه مما لا يمنعه المرض عن حصول المنفعة المقصودة منه فإنه يسهم له .

ويعطى الفرس المستعار والمستأجر ، وكذلك المغصوب ؛ وسهمه لصاحبه .

---

ويستحق السهم للخيل وإن كانت في السفن ووقعت الغنيمة في البحر؛ لأنها معدة للنزول إلى البر.

الثامنة عشرة لا حق في الغنائم للحشوة كالأجراء والصناع الذين يصحبون الجيش للمعاش؛ لأنهم لم يقصدوا قتالاً ولا خرجوا مجاهدين.

وقيل: يسهم لهم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: "الغنيمة لمن شهد الواقعة" أخرجه البخاري.

وهذا لا حجة فيه لأنه جاء بياناً لمن باشر الحرب وخرج إليه، وكفى ببيان الله عز وجل المقاتلين وأهل المعاش من المسلمين حيث جعلهم فرقين متميزتين، لكل واحدة حالها في حكمها، فقال: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: 20].

إلا أن هؤلاء إذا قاتلوا لا يضرهم كونهم على معاشهم؛ لأن سبب الاستحقاق قد وجد منهم.

وقال أشهب: لا يستحق أحد منهم وإن قاتل، وبه قال ابن القصار في الأجير: لا يسهم له وإن قاتل.

وهذا يرده حديث سلمة بن الأكوع قال: كنت تبياً لطلحة بن عبيد الله أسقي فرسه

وأحسُّه وأخدمه وأكل من طعامه ، الحديث .

وفيه : ثم أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين ، سهم الفارس وسهم الراجل ، فجمعهما لي .

خرجه مسلم .

واحتج ابن القصار ومن قال بقوله بجديث عبد الرحمن بن عوف ، ذكره عبد الرزاق ؛ وفيه :

" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن : " هذه الثلاثة الدناير حظه ونصيبه من غزوته في أمر دنياه وآخرته " .

التاسعة عشرة فأما العبيد والنساء فمذهب الكتاب أنه لا يسُّهم لهم ولا يُرضخ .

وقيل : يرضخ لهم ؛ وبه قال جمهور العلماء .

وقال الأوزاعي : إن قاتلت المرأة أسهم لها .

وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للنساء يوم خيبر .

قال : وأخذ المسلمون بذلك عندنا .

وإلى هذا القول مال ابن حبيب من أصحابنا .



---

خرج مسلم عن ابن عباس أنه كان في كتابه إلى نجدة: تسألني هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء؟ وقد كان يغزوهن فيداوين الجرحى ويحذين من الغنيمة، وأما بسهم فلم يضرب لهن.

وأما الصبيان فإن كان مطيقاً للقتال ففيه عندنا ثلاثة أقوال: الإسهام ونفيه حتى يبلغ، لحديث ابن عمر، وبه قال أبو حنيفة والشافعي.

والفرقة بين أن يقاتل فيسهم له أو لا يقاتل فلا يسهم له.

والصحيح الأول: لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني قريظة أن يقتل منهم من أنبت ويخلى منهم من لم ينبت.

وهذه مراعاة لإطاقة القتال للبلوغ.

وقد روى أبو عمر في الاستيعاب عن سمرة بن جندب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عليه الغلمان من الأنصار فيلحق من أدرك منهم؛ فعرضت عليه عاماً فألحق غلاماً وردني، فقلت: يا رسول الله، ألحقته ورددتني، ولو صار عني صرعته قال: فصار عني فصرعته فألحقني.

وأما العبيد فلا يسهم لهم أيضاً ويروض لهم.

الموفية عشرين الكافر إذا حضر بإذن الإمام وقاتل ففي الإسهام له عندنا ثلاثة أقوال:

الإسهام ونفيه؛ وبه قال مالك وابن القاسم.

زاد ابن حبيب: ولا نصيب لهم.

ويفرق في الثالث وهو لسُحُنون بين أن يستقل المسلمون بأنفسهم فلا يُسهم له، أو لا يستقلوا

ويفتقروا إلى معوته فيسهم له.

فإن لم يقاتل فلا يستحق شيئاً.

وكذلك العبيد مع الأحرار.

وقال الثوري والأوزاعي: إذا استعين بأهل الذمة أسهم لهم.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا يسهم لهم، ولكن يُرضخ لهم.

وقال الشافعي رضي الله عنه: يستأجرهم الإمام من مال لا مالك له بعينه.

فإن لم يفعل أعطاهم سهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال في موضع آخر: يُرضخ للمشركين إذا قاتلوا مع المسلمين.

قال أبو عمر: اتفق الجميع أن العبد، وهو ممن يجوز أمانه، إذا قاتل لم يسهم له ولكن يرضخ؛

فالكافر بذلك أولى ألا يسهم له.

الحادية والعشرون لو خرج العبد وأهل الذمة لصوصاً وأخذوا مال أهل الحرب فهو لهم ولا  
يُخَمَّسُ؛ لأنه لم يدخل في عموم قوله عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ  
خُمُسَهُ﴾ أحدٌ منهم ولا من النساء .

فأما الكفار فلا مدخل لهم من غير خلاف .

وقال سُحنون .

لا يُخَمَّسُ ما ينوب العبدَ .

وقال ابن القاسم : يُخَمَّسُ ؛ لأنه يجوز أن يأذن له سيِّده في القتال ويقا تل على الدِّين ؛ بخلاف  
الكافر .

وقال أشهب في كتاب محمد : إذا خرج العبد والذميّ من الجيش وغنما فالغنيمة للجيش  
دونهم .

الثانية والعشرون سبب استحقاق السهم شهود الواقعة لنصر المسلمين ، على ما تقدّم .  
فلو شهد آخر الواقعة استحق .

ولو حضر بعد انقضاء القتال فلا .

ولو غاب بانهزام فكذلك .

فإن كان قصد التحيز إلى فئة فلا يسقط استحقاقه .

روى البخاريّ وأبو داود : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبان بن سعيد على

سَرِيَّةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ قَبْلَ نَجْدٍ ؛ فَقَدِمَ أَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ وَأَصْحَابُهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ بِخَيْرٍ بَعْدَ أَنْ فَتَحَهَا ، وَإِنَّ حُزْمَ خَيْلِهِمْ لَيْفٌ ، فَقَالَ أَبَانُ : أَقْسِمُ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَقُلْتُ لَا تَقْسِمْ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ أَبَانُ : أَنْتَ بِهَا يَا وَبْرًا تَحَدَّرَ عَلَيْنَا مِنْ رَأْسِ ضَالٍ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " اجْلِسْ يَا أَبَانُ " وَلَمْ يَقْسِمْ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

الثالثة والعشرون واختلف العلماء فيمن خرج لشهود الواقعة فمنعه العذر منه كمرض ؛

ففي ثبوت الإسهام له وبنفيه ثلاثة أقوال : يفرق في الثالث ، وهو المشهور ، فيثبته إن كان

الضلال قبل القتال وبعد الإدراب ، وهو الأصح ؛ قاله ابن العربي .

وينفيه إن كان قبله .

وكن بعثه الأمير من الجيش في أمر من مصلحة الجيش فشغله ذلك عن شهود الواقعة فإنه

يسهم له ؛ قاله ابن المَوَازِ ، ورواه ابن وهب وابن نافع عن مالك .

وروي لا يسهم له بل يُرَضَّخُ له لعدم السبب الذي يستحق به السهم ، والله أعلم .

(159/313)

---

وقال أشهب: يُسهم للأسير وإن كان في الحديد .

والصحيح أنه لا يسهم له ؛ لأنه ملك مستحقّ بالقتال ؛ فمن غاب أو حضر مريضاً كمن لم يحضر .

الرابعة والعشرون الغائب المطلق لا يسهم له ، ولم يسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لغائب قطّ إلا يوم خيبر ؛ فإنه أسهم لأهل الحُدَيْبِيَّة مَنْ حضر منهم ومَنْ غاب ؛ لقول الله عز وجل : ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ [ الفتح : 20 ] ؛ قاله موسى بن عقبة . ورُوي ذلك عن جماعة من السلف .

وقسم يوم بدر لعثمان ولسعيد ابن زيد وطلحة ، وكانوا غائبين ؛ فهم كمن حضرها إن شاء الله تعالى .

فأما عثمان فإنه تخلف على رُقِيَّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره من أجل مرضها .

فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ؛ فكان كمن شهدها .

وأما طلحة بن عبيد الله فكان بالشام في تجارة فضرِب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ؛ فيعدّ لذلك في أهل بدر .

وأما سعيد بن زيد فكان غائباً بالشام أيضاً فضرِب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره .

فهو معدود في البدرين .

قال ابن العربي : أما أهل الحديبية فكان ميعاداً من الله اختص به أولئك نفر فلا يشار إليهم فيه غيرهم .

وأما عثمان وسعيد وطلحة فيحتمل أن يكون أسهم لهم من الخمس ؛ لأن الأمة مجمعة على أن من بقي لعذر فلا يسهم له .

قلت : الظاهر أن ذلك مخصوص بعثمان وطلحة وسعيد فلا يقاس عليهم غيرهم .

وأن سهمهم كان من صلب الغنيمة كسائر من حضرها لا من الخمس .

هذا الظاهر من الأحاديث والله أعلم .

وقد روى البخاري عن ابن عمر قال : " لما تغيب عثمان عن بدر فإنه كان تحت ابنة رسول

الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " إن لك

أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه " .

(160/313)

---

الخامسة والعشرون قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ آمِنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ قال الزجاج عن فرقة : المعنى

فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم ؛ ف "إن" متعلقة بهذا الوعد .

وقالت فرقة: إنَّ "إن" متعلقة بقوله "واعلموا أنما غنمتم".

قال ابن عطية: وهذا هو الصحيح؛ لأن قوله: "واعلموا" يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم؛ فعلق "إن" بقوله: "واعلموا" على هذا المعنى؛ أي إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ "ما" في موضع خفض عطف على

اسم الله "يَوْمَ الْفُرْقَانِ" أي اليوم الذي فرقت فيه بين الحق والباطل، وهو يوم بدر.

﴿ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ ﴾ حزب الله وحزب الشيطان ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 8 ص ٨٨ ﴾

(161/313)

وقال الثعالبي:

قوله عز وجل: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ . . . ﴾ الآية:

الغنيمة؛ في اللغة: ما يناله الرجل بسعي؛ ومنه صلى الله عليه وسلم: «الصِّيَامُ فِي الشَّيْءِ

هِيَ الْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ»، وقوله: ﴿ مِّنْ شَيْءٍ ﴾ : ظاهرة العموم، ومعناه الخصوص، فأما

النَّاضُ وَالْمَتَاعُ وَالْأَطْفَالُ وَالنِّسَاءُ وَمَا لَا يُؤْكَلُ [ لحمه ] من الحيوان وَيَصِحُّ تَمَلُّكُهُ ، فالإمام

يَأْخُذُ خُمْسَهُ ، وَيَقْسِمُ الْبَاقِي فِي الْجَيْشِ ، وَأَمَّا الْأَرْضُ ، فَقَالَ فِيهَا مَالِكٌ : يَقْسِمُهَا الْإِمَامُ ؛  
إِنْ رَأَى ذَلِكَ صَوَابًا ؛ كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَيْبَرَ ، أَوْ لَا يَقْسِمُهَا ، بَلْ يَتْرَكُهَا  
لِنَوَائِبِ الْمُسْلِمِينَ ؛ إِنْ أَدَاهُ اجْتِهَادُهُ إِلَى ذَلِكَ ؛ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
بِأَرْضِ مِصْرَ وَسَوَادِ الْكُوفَةِ ، وَأَمَّا الرِّجَالُ ، وَمَنْ شَارَفَ الْبُلُوغَ مِنَ الصَّبِيَّانِ ، فَالْإِمَامُ ؛  
عِنْدَ مَالِكٍ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ ، مُخَيَّرٌ فِيهِمْ عَلَى خَمْسَةِ أَوْجِهٍ :

مِنْهَا : الْقَتْلُ ، وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ فِي أَهْلِ الشُّجَاعَةِ وَالنَّكَايَةِ .

وَمِنْهَا : الْفِدَاءُ ، وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ فِي ذِي الْمُنْصَبِ الَّذِي لَيْسَ بِشُّجَاعٍ وَلَا يُخَافُ مِنْهُ رَأْيُ  
وَمَكِيدَةٍ ؛ لِانْتِفَاعِ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَالِ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْهُ .

وَمِنْهَا : الْمَنْ ، وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ فِيمَنْ يَرَجَى أَنْ يُخَوَّلَ عَلَى أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ  
الْقَرَائِنِ .

وَمِنْهَا : الْاسْتِرْقَاقُ .

وَمِنْهَا : ضَرْبُ الْجَزْيَةِ ، وَالتَّرْكَ ، فِي الذِّمَّةِ .

وَأَمَّا الطَّعَامُ ، وَالْغَنَمُ ، وَنَحْوَهَا تَمَّا يُؤْكَلُ ، فَهُوَ مَبَاحٌ فِي بِلَدِ الْعَدُوِّ أَكَلَهُ ، وَمَا فَضَّلَ مِنْهُ كَانَ فِي  
الْمَغْنَمِ .

وَمَحَلُّ اسْتِيعَابِ فُرُوعِ هَذَا الْفَصْلِ كَتَبَ الْفَقْهُ .



---

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ ، أي: من النصر والظهور الذي أنزله الله سبحانه يوم بدر ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى قرآن نزل يوم بدر ، أو في قصة يوم بدر ، ويوم الفرقان : معناه : يوم الفرق بين الحق والباطل ؛ بإعزاز الإسلام وإذلال الشرك ، والجمعان : يريد : جمع المسلمين وجمع الكفار ، وهو يوم بدر ، ولا خلاف في ذلك .

وقوله سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، يُعْضِدُ أَنْ قَوْلَهُ : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ ، يراد به النصر والظفر ، أي : الآيات والعظائم من غلبة القليل للكثير ، وذلك بقدرة الله عز وجل الذي هو على كل شيء قدير . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ الجواهر الحسان ح 2 ص ﴾

(163/313)

---

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾

الغنم الفوز بالشيء يقال يغنم غنماً فهو غانم واختلف العلماء هل الغنيمة والفيء اسمان لمسمى واحد أم يختلفان في التسمية فقال عطاء بن السائب : الغنيمة ما ظهر المسلمون

عليه من أموال المشركين فأخذه عنوة وأما الأرض فهي فيء .

وقال سفيان الثوري : الغنيمة ما أصاب المسلمون من مال الكفار عنوة بقتال وفيه الخمس وأربعة أخماسه لمن شهد الواقعة .

والفيء : ما صولحوا عليه بغير قتال وليس فيه خمس فهو لمن سمى الله .

وقيل : الغنيمة ما أخذ من أموال الكفار عنوة عن قهر وغلبة ، والفيء : ما لم يوجف عليه بجيل ولا ركاب كالعشور والجزية وأموال الصلح والمهادنة .

وقيل : إن الفيء والغنيمة معناهما واحد وهما اسمان لشيء واحد ، والصحيح أنهما يختلفان فالفيء ما أخذ من أموال الكفار بغير إيجاب خيل ولا ركاب والغنيمة ما أخذ من أموالهم على سبيل القهر والغلبة بإيجاب خيل عليه وركاب فذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية حكم الغنيمة فقال تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ يعني من أي شيء كان حتى الخيط والمخيط فإن لله خمسه وللرسول .

وقد ذكر أكثر المفسرين والفقهاء أن قوله لله افتتاح كلام على سبيل التبرك وإنما أضافه لنفسه تعالى لأنه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه أن سهماً منه لله منفرداً لأن الدنيا والآخرة كلها لله وهذا قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعي قالوا : سهم الله وسهم رسوله واحد والغنيمة تقسم خمسة أخماس أربعة أخماسها لمن قاتل عليها

وأحرزها والخمس الباقي لخمسة أصناف كما ذكر الله للرسول ولذي القربى واليتامى  
والمساكين وابن السبيل .

(164/313)

---

وقال أبو العالية : يقسم خمس الخمس على ستة أسهم سهم لله فيصرف إلى الكعبة القول  
الأول أصح أي إن خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله ( صلى الله عليه  
وسلم ) كان له في حياته واليوم هو لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام وهذا قول الشافعي  
وأحمد .

وروى الأعمش عن إبراهيم قال : كان أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما يجعلان سهم  
النبي ( صلى الله عليه وسلم ) في الكراع والسلاح .  
وقال قتادة : هو للخليفة .

وقال أبو حنيفة : سهم النبي ( صلى الله عليه وسلم ) بعد موته مردود في الخمس فيقسم  
الخمس على الأربعة الأصناف المذكورين في الآية وهم ذوو القربى واليتامى والمساكين وابن  
السبيل .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولذي القربى ﴾ يعني أن سهماً من خمس الخمس لذوي القربى

وهم أقارب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واختلفوا فيهم فقال قوم هم جميع قريش  
وقال قوم هم الذين لا تحل لهم الصدقة وقال مجاهد وعلي بن الحسين: هم بنو هاشم.

(165/313)

---

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس ولا لبني  
نوفل منه شيء وإن كانوا إخوة ويدل عليه ما روي عن جبير بن مطعم "قال جئت أنا  
وعثمان بن عفان إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقلت يا رسول الله أعطيت بني  
المطلب وتركنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إنما بنو  
هاشم وبنو المطلب شيء واحد" وفي رواية: "أعطيت بني المطلب من خمس الخمس  
وتركنا" وفي رواية قال جبير: ولم يقسم النبي (صلى الله عليه وسلم) لبني عبد شمس ولا  
لبني نوفل شيئاً أخرجه البخاري وفي رواية أبي داود "أن جبير بن مطعم جاء هو وعثمان  
بن عفان يكلمان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما يقسم من الخمس في بني هاشم  
وبني المطلب فقلت يا رسول الله قسمت لإخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيئاً وقرابتنا  
وقرابتهم واحدة فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إنما بنو هاشم وبنو المطلب  
شيء واحد" وفي رواية النسائي قال لما كان يوم خيبر رفع رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) سهم ذوي القربى في بني هاشم وبني المطلب وترك بني نوفل وبني عبد شمس فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركنا وقرابتنا واحدة فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد وشبك بين أصابعه واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت فيعطي فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الأنثيين وهو قول مالك والشافعي وهذب أبو حنيفة وأصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت قالوا سهم النبي (صلى الله عليه وسلم) وسهم ذوي القربى مردود في الخمس فيقسم خمس الغنيمة على ثلاث أصناف اليتامى

(166/313)

---

والمساكين وابن السبيل فيصرف إلى فقراء ذوي القربى مع هذه الأصناف دون أغنيائهم وحبجة الجمهور أن الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كانوا يعطون ذوي القربى ولا يفضلون فقيراً على غني،

لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله وكذا  
الخلفاء بعده كانوا يعطونه وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم  
يعطون القريب والبعيد قال ويفضل الذكر على الأنثى فيعطى الذكر سهمين والأنثى سهماً .  
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ واليتامى ﴾ جمع يتيم يعني ويعطى من خمس الخمس لليتامى ،  
واليتيم الذي له سهم في الخمس هو الصغير المسلم الذي لا أب له فيعطى مع الحاجة إليه ﴿  
والمساكين ﴾ وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر  
البعيد عن ماله فيعطى من خمس الخمس مع الحاجة فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم  
أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الذين شهدوا الواقعة وحازوا الغنيمة فيعطى للفارس  
ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه ، ويعطى الراجل سهماً واحداً لما روي عن ابن عمر أن  
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قسم في النفل للفارس سهمين وللرجل سهماً .  
وفي رواية نحوه بإسقاط لفظ النفل أخرجه البخاري ومسلم .  
وفي رواية أبي داود ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة  
أسهم سهماً له وسهمين لفرسه وهذا قول أكثر أهل العلم وإليه ذهب الثوري والأوزاعي  
ومالك وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق .

(167/313)

---

وقال أبو حنيفة: للفارس سهمان وللراجل سهم ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال ويقسم العقار الذي استولى عليه المسلمون كالمنقول وعند أبي حنيفة يتخير الإمام في العقار بين أن يقسمه بينهم وبين أن يجعله وقفاً على المصالح وظاهر الآية يدل على أنه لا فرق بين العقار والمنقول ومن قتل من المسلمين مشركاً في القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة لما روي عن أبي قتادة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال "من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه" أخرجه الترمذي وأخرجه البخاري ومسلم في حديث طويل والسلب كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح والفرس الذي كان راكبه ويجوز للإمام أن ينفل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم في الحرب يخصهم به من بين سائر الجيش ثم يجعلهم أسوة الجماعة في سائر الغنيمة (ق) عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى عامة الجيش

عن حبيب بن سلمة الفهري، قال: شهدت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نفل الرابع في البدأة والثلاث في الرجعة أخرجه أبو داود واختلف العلماء في أن النفل من أين يعطى فقال قوم من خمس الخمس من سهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال الشافعي.

وهذا معنى قول النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما رواه عبادة بن الصامت قال: أخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم خيبر وبرة من جنب بعير فقال: يا أيها الذين أنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم أخرجه النسائي .  
وقال قوم: هو من الأربعة الأخماس بعد إقرار الخمس كسهام الغزاة وهو قول أحمد وإسحاق .

(168/313)

---

وذهب قوم إلى أن النفل من رأس الغنيمة قبل التخميس كالسلب للقاتل وأما الفيء ، وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفار بغير إيجاب خيل ولا ركاب بأن صالحهم على ما يؤدون ، وكذلك الجزية وما أخذ من أموالهم إذا دخلوا دار الإسلام للتجارة أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له فهذا كله فيء ومال الفيء كان خالصاً لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مدة حياته .

وقال عمر: إن الله سبحانه وتعالى خص نبيه (صلى الله عليه وسلم) في هذا الفيء بشيء لم يخص به أحداً غيره ثم قرأ عمر: وما أفاء الله على رسوله منهم الآية فكانت هذه لرسول الله خالصة وكان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال ثم ما بقي يجعله



مجعل مال الله في الكراع والسلاح واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فقال قوم هو للأئمة بعده وللإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة الذين أثبتت أسماءهم في ديوان الجهاد لأنهم هم القائمون مقام النبي ( صلى الله عليه وسلم ) في إرهاب العدو .

والقول الثاني : إنه لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة فيعطون منه كفايتهم فالأهم من المصالح واختلف أهل العلم في تخميس الفيء فذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه إلى أنه يخمس وخمسه لأهل الخمس من الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل يصرفه جميعه مصرفاً واحداً ولجميع المسلمين فيه حق .

(169/313)

---

عن مالك بن أنس قال : ذكر عمر يوماً الفيء منكم ما أنا أحق بهذا الفيء منكم وما أحد منا أحق به الآخر إلا أنا على منازلنا من كتاب الله وقسمة رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وقدمه والرجل وعتاله والرجل وحاجته أخرجه أبو داود وأخرج البغوي بسنده عنه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : ما على وجه الأرض مسلم إلا له في هذا الفيء حق إلا

ما ملكت أيمانكم وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ ﴾ يعني واعملوا أيها  
المؤمنون أن خمس الغنيمة مصروف إلى ما ذكر في هذه الآية من الأصناف فاقطعوا عنه  
أطعامكم واقنعوا بأربعة أخماس الغنيمة إن كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوحدانيته ﴿ وما  
أنزلنا على عبدنا ﴾ يعني وآمنتم بالمنزل على عبدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهذا  
إضافة تشريف وتعظيم للنبي (صلى الله عليه وسلم) والذي أنزله على عبده محمد (صلى  
الله عليه وسلم) يسألونك عن الأنفال ﴿ يوم الفرقان ﴾ يعني يوم بدر .  
قال ابن عباس : يوم الفرقان يوم بدر فرق الله بين الحق والباطل ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾  
يعني جميع المؤمنين وجميع الكافرين وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله (صلى  
الله عليه وسلم) وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو  
لسبع عشرة من رمضان وأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يؤمذ ثلاثمائة  
وبضعة عشر رجلاً والمشركون ما بين الألف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة  
على سبعين وأسر منهم مثل ذلك ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ يعني على نصركم أيها  
المؤمنون مع قتلكم وكثرة أعدائكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ج 3 ص ﴾

(170/313)

---

وقال أبو حيان :

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ﴾ .

قال الكلبي : نزلت بدر ، وقال الواقدي : كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما أمر تعالى بقتال الكفار حتى لا تكون فتنة اقتضى ذلك وقائع وحروباً فذكر بعض أحكام الغنائم وكان في ذلك تبشير للمؤمنين بغلبتهم للكفار وقسم ما تحصل منهم من الغنائم ، والخطاب في ﴿ واعلموا ﴾ للمؤمنين والغنيمة عرفاً ما يناله المسلمون من العدو بسعي وأصله الفوز بالشيء يقال غنم غنماً .

قال الشاعر :

وقد طوّفت في الآفاق حتى . . .

رضيت من الغنم بالإياب

وقال الآخر :

ويوم الغنم يوم الغنم مطعمه . . .

أني توجه والمحروم محروم

والغنيمة والفيء هل هما مترادفان أو متباينان قولان وسيأتي ذلك عند ذكر الفيء إن شاء

الله تعالى .

والظاهر أن ما غنم يخمس كائناً ما كان فيكون خمسة لمن ذكر الله فأما قوله ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ فالظاهر أن ما نسب إلى الله يصرف في الطاعات كالصدقة على فقراء المسلمين وعمارة الكعبة ونحوهما ، وقال بذلك فرقة وأنه كان الخمس يُقسم على ستة فما نسب إلى الله قسّم على من ذكرنا ، وقال أبو العالية سهم الله يصرف إلى رتاج الكعبة وعنه كان رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ بيده قبضة فيجعلها للكعبة وهو سهم الله تعالى ثم يقسم ما بقي على خمسة ، وقيل سهم الله لبيت المال ، وقال ابن عباس والحسن والنخعي وقتادة والشافعي قوله ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ استفتاح كلام كما يقول الرجل لعبده : أعتقك الله وأعتقك على جهة التبرك وتفخيم الأمر والدنيا ، كلها لله وقسم الله وقسم الرسول واحد وكان الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) يقسم الخمس على خمسة أقسام ، وهذا القول هو الذي أورده الزمخشري احتمالاً ، فقال : يحتمل أن يكون معنى لله ﴿ وللرسول ﴾ كقوله تعالى ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ وأن يراد بقوله ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ أي من حق الخمس أن يكون متقرباً به إليه لا غير ثم خص من

وجوه القرب هذه الخمسة تفضيلاً لها على غيرها كقوله تعالى ﴿ وجبريل وميكال ﴾  
والظاهر أن للرسول عليه الصلاة والسلام سهماً من الخمس .

(172/313)

---

وقال ابن عباس فيما روى الطبري : ليس لله ولا للرسول شيء وسهمه لقرايته يقسم  
الخمس على أربعة أقسام ، وقالت فرقة : هو مردود على الأربعة الأقسام ، وقال علي يلي  
الإمام سهم الله ورسوله والظاهر أنه ليس له عليه السلام غير سهم واحد من الغنيمة ، وقال  
ابن عطية : كان مخصوصاً عليه السلام من الغنيمة بثلاثة أشياء ، كان له خمس الخمس ،  
وكان له سهم رجل في سائر الأربعة الأقسام ، وكان له صفي يأخذه قبل قسم الغنيمة دابة  
أو سيفاً أو جارية ولا صفي بعده لا حد بالإجماع إلا ما قاله أبو ثور من أن الصفي إلى الإمام  
، وهو قول معدود في شواذ الأقوال انتهى ، وقالت فرقة : لم يورث الرسول ( صلى الله عليه  
وسلم ) فسقط سهمه ، وقيل سهمه موقوف على قرايته وقد بعثه إليهم عمر بن عبد العزيز  
، وقالت فرقة : هو لقراية القائم بالأمر بعده ، وقال الحسن وقتادة : كان للرسول ( صلى الله  
عليه وسلم ) في حياته فلما توفي جعل لولي الأمر من بعده انتهى .

(173/313)

---

وذوو القربى معناه قربى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والظاهر عموم قريبه ، فقالت  
فرقة : قريش كلها بأسرها ذوو قربى ، وقال أبو حنيفة والشافعي : هم بنو هاشم وبنو  
المطلب استحقوه بالنصرة والمظاهرة دون بني عبد شمس وبني نوفل ، وقال علي بن الحسين  
وعبد الله بن الحسن وابن عباس : هم بنو هاشم فقط ، قال مجاهد : كان آل محمد لا تحل  
لهم الصدقة فجعل له خمس الخمس ، قال ابن عباس : ولكن أبى ذلك علينا قومنا وقالوا  
قريش كلها قربى والظاهر بقاء هذا السهم لذوي القربى وأنه لغنيهم وفقيرهم ، وقال ابن  
عباس كان على ستة لله وللرسول سهمان وسهم لأقاربه حتى قبض فأجرى أبو بكر  
الخمس على ثلاثة ، ولذلك روي عن عمرو من بعده من الخلفاء ، وروي أن أبا بكر منع بني  
هاشم الخمس وقال إنما لكم أن يعطى فقيركم ويزوج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم وإنما  
الغني منكم فهو بمنزلة ابن السبيل الغني لا يعطى من الصدقة شيئاً ولا يتيم موسر ، وعن زيد  
بن علي : ليس لنا أن نبني منه قصوراً ولا أن نركب منه البراذين ، وقال قوم : سهم ذوي  
القربى لقراة الخليفة والظاهر أن ﴿ اليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ عام في يتامى  
المسلمين ومساكينهم وابن السبيل منهم ، وقيل : الخمس كله للقراة ، وقيل : لعلي إن الله  
تعالى قال : ﴿ واليتامى والمساكين ﴾ فقال : أيتامنا ومساكيننا ، وروي عن علي بن  
الحسين وعبد الله بن محمد بن علي أنهما قالوا : الآية كلها في قريش ومساكينها وظاهر

العطف يقتضي التشريك فلا يحرم أحد قاله الشافعي ، قال : وللإمام أن يفضل أهل الحاجة لكن لا يحرم صنفاً منهم ، وقال مالك : للإمام أن يعطي الأحوج ويحرم غيره من الأصناف ، ولم تعرض الآية لمن يصرف أربعة الأخماس والظاهر أنه لا يقسم لمن لم يغنم فلو لحق مدد للغنمين قبل حوز الغنيمة لدار الإسلام فعند أبي حنيفة هم شركاؤهم فيها ، وقال مالك والثوري والأوزاعي والليث والشافعي ، لا يشاركونهم والظاهر أن

(174/313)

---

من غنم شيئاً خمس ما غنم إذا كان وحده ولم يأذن الإمام ، وبه قال الثوري والشافعي ، وقال أصحاب أبي حنيفة : هو له خاصة ولا يخمس وعن بعضهم فيه تفصيل ، وقال الأوزاعي إن شاء الإمام عاقبه وحرمه وإن شاء خمس والباقي له . والظاهر أن قوله ﴿ غنمتم ﴾ خطاب للمؤمنين فلا يسهم لكافر حضر يأذن الإمام وقاتل ويندرج في الخطاب العبيد المسلمون فما يخصهم لساداتهم ، وقال الثوري والأوزاعي إذا استعين بأهل الذمة يسهم لهم ، وقال أشهب إذا خرج المقتيد والذمي من الجيش وغنماً فالغنيمة للجيش دونهم والظاهر أن قوله ﴿ أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ﴾ عام في كل ما يغنم من حيوان ومتاع ومعدن وأرض وغير ذلك فيخمس جميع ذلك وبه قال

الشافعي إلا الرجال البالغين ، فقال الإمام فيهم مخيرين أن يمين أو يقتل أو يسبى ومن سبى منهم فسبيله سبيل الغنيمة ، وقال مالك إن رأى الإمام قسمة الأرض كان صواباً أو إن أداه الاجتهاد إلى أن لا يقسمها لم يقسمها والظاهر أنه لا يخرج من الغنيمة غير الخمس فسلب المقتول غنيمة لا يختص به القاتل إلا أن يجعل له الأمير ذلك على قتله وبه قال مالك وأبو حنيفة والثوري ، وقال الأوزاعي والليث والشافعي وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد والطبري وابن المنذر : السلب للقاتل ، قال ابن سريج وأجمعوا على أن من قتل أسيراً أو امرأة أو شيخاً أو ذفف على جريح أو قتل من قطعت يده ورجله أو منهزماً لا يمنع في انهزامة كالمكتوف ليس له سلب واحد من هؤلاء والخلاف هل من شرطه أن يكون القاتل مقبلاً على المقتول وفي معركة أم ليس ذلك من شرطه ودلائل هذه المسائل مستوفاة في كتب الفقه وفي كتب مسائل الخلاف وفي كتب أحكام القرآن .

(175/313)

---

والظاهر أن ﴿ ما ﴾ موصولة بمعنى الذي وهي اسم أن وكتبت أن متصلة بما وكان القياس أن تكتب مفصولة كما كتبوا ﴿ إن ما توعدون لآت ﴾ مفصولة وخبر إن هو قوله : ﴿ فإن لله خمسه ﴾ وإن لله في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي فالحكم إن لله



ودخلت الفاء في هذه الجملة الواقعة خبراً لأن ، كما دخلت في خبر أن في قوله ﴿ إن الذين  
قتلوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ﴾ وقال الزمخشري : ﴿ فإن لله  
مبتدأ خبره محذوف تقديره حق أو فواجب أمن لله خمسة انتهى ، وهذا التقدير الثاني  
الذي هو أو فواجب أن لله خمسة تكون ﴾ أن ﴾ ومعمولها في موضع مبتدأ خبره  
محذوف وهو قوله فواجب وأجاز الفراء أن تكون ما شرطية منصوبة بغنمتم واسم ﴾ أن  
﴿ ضمير الشأن محذوف تقديره أنه وحذف هذا الضمير مع أن المشددة مخصوص عند  
سيبويه بالشعر .

(176/313)

---

وروى الجعفي عن هارون عن أبي عمرو ﴿ فإن لله ﴾ بكسر الهمزة ، وحكاها ابن  
عطية عن الجعفي عن أبي بكر عن عاصم ، ويقوي هذه القراءة قراءة النخعي فله خمسة ،  
وقرأ الحسن وعبد لوarith عن أبي عمرو : ﴿ خمسة ﴾ بسكون الميم ، وقرأ النخعي ﴿  
خمسه ﴾ بكسر الحاء على الاتباع يعني اتباع حركة الحاء لحركة ما قبلها كقراءة من قرأ ﴿  
والسما ذات الحبك ﴾ بكسر الحاء اتباعاً لحركة التاء ولم يعتد بالساكن لأنه ساكن غير  
حصين ، وانظر إلى حسن هذا التركيب كيف أفرد كينونة الخمس لله وفصل بين اسمه تعالى

وبين المعاطيف بقوله خمسه ليظهر استبداده تعالى بكيونة الخمس له ثم أشرك المعاطيف معه على سبل التبعية له ولم يأت التركيب ﴿ فإن لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ خمسه ، وجواب الشرط محذوف أي ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ولا يراد مجرد العلم بل العلم والعمل بمقتضاه ولذلك قدر بعضهم ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ فاقبلوا ما أمرتم به في الغنائم وأبعد من ذهب إلى أن الشرط متعلق معناه بقوله فنعم المولى ونعم النصير والتقدير فاعلموا أن الله مولاكم ﴿ وما أنزلنا ﴾ معطوف على ﴿ بالله ﴾ .

(177/313)

---

﴿ ويوم الفرقان ﴾ يوم بدر بلا خلاف فرق فيه بين الحق والباطل و ﴿ الجمعان ﴾ جمع المؤمنين وجمع الكافرين قتل فيها صناديد قريش نصّ عليه ابن عباس ومجاهد ومقسم والحسن وقتادة وكانت يوم الجمعة سابع عشر رمضان في السنة الثانية من الهجرة هذا قول الجمهور ، وقال أبو صالح تسعة عشر يوماً والمنزل : الآيات والملائكة والنصر وختم بصفة القدرة لأنه تعالى أدال المؤمنين على قتلهم على الكافرين على كثرتهم ذلك اليوم ، وقرأ زيد بن علي عبدنا بضمين كقراءة من قرأ ﴿ وعبد الطاغوت ﴾ بضمين فعلى ﴿ عبدنا ﴾

هو الرسول (صلى الله عليه وسلم) و ﴿ على عبدنا ﴾ هو الرسول ومن معه من المؤمنين  
وانتصاب يوم الفرقان على أنه ظرف معمول لقوله ﴿ وما أنزلنا ﴾ ، وقال الزجاج ويحتمل  
أن ينتصب ﴿ بغنمتم ﴾ أي إن ما غنمتم ﴿ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ فإن خمسه  
لكذا وكذا ، أي كنتم آمنتم بالله أي فانتقادوا لذلك وسلموا ، قال ابن عطية : وهذا تأويل  
حسن في المعنى ويعترض فيه الفضل بين الظرف وبين ما تعلقه به بهذه الجملة الكثيرة من  
الكلام انتهى ، ولا يجوز ما قاله الزجاج لأنه إن كانت ما شرطية على تخريج الفراء لزم فيه  
الفصل بين فعل الشرط ومعموله بجملة الجزاء ومتعلقاتها وإن كانت موصولة فلا يجوز  
الفصل بين فعل الصلة ومعموله بخبر ﴿ أن ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4

ص ﴿

(178/313)

وقال ابن كثير:

﴿ وَاَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصا لهذه الأمة الشريفة ، من بين سائر الأمم المتقدمة ، من

إحلال المغانم . و"الغنيمة" : هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب .

و"الفيء": ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف.

ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة، والغنيمة على الفيء أيضا؛ ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية "الحشر": ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الآية [الحشر: 7]، قال: فنسخت آية "الأنفال" تلك، وجعلت الغنائم: أربعة أخماسها للمجاهدين، وخمسا منها لهؤلاء المذكورين. وهذا الذي قاله بعيد؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت في بني النضير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر، هذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول: تلك نزلت في أموال الفيء وهذه في المغانم. ومن يجعل أمر المغانم والفيء راجعا إلى رأي الإمام يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 161].

وقوله: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ اختلف المفسرون ها هنا ، فقال بعضهم : لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة .

قال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ، عن أبي العالية الرياحي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة ، تكون أربعة أخماس لمن شهدها ، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه ، يأخذ منه الذي قبض كفه ، فيجعله للكعبة وهو سهم الله . ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم ، فيكون سهم للرسول ، وسهم لذوي القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل

وقال آخرون : ذكر الله ها هنا استفتاح كلام للتبرك ، وسهم لرسوله عليه السلام قال الضحاك ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية فغنموا ، خَمَسَ الغنيمة ، فضرب ذلك الخمس في خمسة . ثم قرأ : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [قال : وقوله] ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ مفتاح كلام ، لله ما في السموات وما في الأرض ، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً .

وهكذا قال إبراهيم النخعي ، والحسن بن محمد ابن الحنفية . والحسن البصري ، والشعبي ، وعطاء بن أبي رباح ، وعبد الله بن بريدة وقتادة ، ومغيرة ، وغير واحد : أن سهم الله

ورسوله واحد .

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح ، عن عبد الله بن شقيق ، عن رجل من بلقين قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بوادي القرى ، وهو يعرض فرساً ، فقلت : يا رسول الله ، ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : "لله خمسها ، وأربعة أخماس للجيش" . قلت : فما أحد أولى به من أحد ؟ قال : "لا ولا السهم تستخرجه من جنبك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم" (1)

---

(1) السنن الكبرى (324/6) .

(180/313)

---

وقال ابن جرير : حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا أبان ، عن الحسن قال : أوصى أبو بكر بالخمس من ماله ، وقال : ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه ثم اختلف قائلو هذا القول ، فروى علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس ، فأربعة منها بين من قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة فربح لله وللرسول ولذي القربى - يعني : قرابة النبي صلى الله عليه وسلم . فما كان لله وللرسول فهو لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم

من الخمس شيئاً ، [والربع الثاني لليتامى ، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن

السبيل] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو معمر المنقري ، حدثنا عبد الوارث بن سعيد

، عن حسين المعلم ، عن عبد الله بن بريدة في قوله : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ

لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ قال : الذي لله فلنبيه ، والذي للرسول لأزواجه .

وقال عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء بن أبي رباح قال : خمس الله والرسول واحد ،

يحمل منه ويصنع فيه ما شاء - يعني : النبي صلى الله عليه وسلم .

(181/313)

---

وهذا أعم وأشمل ، وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف في الخمس الذي جعله

الله له بما شاء ، ويرده في أمته كيف شاء - ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي

مريم ، عن أبي سلام الأعرج ، عن المقدم بن معد يكرب الكندي : أنه جلس مع عبادة بن

الصامت ، وأبي الدرداء ، والحارث بن معاوية الكندي ، رضي الله عنهم ، فتذكروا

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة ، كلمات

رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس ؟ فقال عبادة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم في غزوة إلى بغير من المغنم ، فلما سلم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتناول وبرة بين أئمتيه فقال : " إن هذه من غنائمكم ، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيظ والمخيظ ، وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوا ، فإن الغلول نار وعار على أصحابه في الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد ، ولا تبالوا في الله لومة لائم ، وأقيموا حدود الله في الحضر والسفر ، وجاهدوا في [سبيل] الله ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة [عظيم] ينجي به الله من الهم والغم " (1)

هذا حديث حسن عظيم ، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه . ولكن روى الإمام أحمد أيضاً ، وأبوداود ، والنسائي ، من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغلول (2)

وعن عمرو بن عبسة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم إلى بغير من المغنم ، فلما سلم أخذ وبرة من ذلك البعير ثم قال : " ولا يجلي لي من غنائمكم مثل هذه ، إلا الخمس ، والخمس مردود فيكم " . رواه أبو داود والنسائي (3)

وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم من المغانم (13) شيء يصطفيه لنفسه عبداً أو أمة



أوفرساً أو سيفاً أو نحو ذلك ، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي ،  
وتبعهما على ذلك أكثر العلماء .

---

(1) المسند (316/5) .

(2) المسند (184/2) وسنن أبي داود برقم (2694) .

(3) سنن أبي داود برقم (2755) .

(182/313)

---

وروى الإمام أحمد ، والترمذي - وحسنه - عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم تنفل سيفه ذا

الفقار يوم بدر ، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد (1)

وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كانت صفيية من الصّفي . رواه أبو داود في سننه  
(2)

وروى أيضاً بإسناده ، والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال : كنا بالمرْبَد إذ دخل رجل  
معه قطعة أديم ، فقرأناها فإذا فيها : " من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش ، إنكم إن  
شهدتم أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأديتم

الخمس من المغنم ، وسهم النبي وسهم الصّفي ، أتم آمنون بأمان الله ورسوله " . فقلنا : من

كتب لك هذا ؟ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم (3)

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوتها ؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص  
له صلوات الله وسلامه عليه .

وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين ، كما يتصرف في مال  
الفيء .

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية ، رحمه الله : وهذا قول مالك وأكثر السلف ، وهو  
أصح الأقوال .

فإذا ثبت هذا وعلم ، فقد اختلف أيضا في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس ، ماذا  
يُصنع به من بعده ؟ فقال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده . روى هذا عن أبي بكر  
وعلي وقتادة جماعة ، وجاء فيه حديث مرفوع (4)  
وقال آخرون : يصرف في مصالح المسلمين .

---

(1) المسند (271/1) وسنن الترمذي برقم (1561) .

(2) سنن أبي داود برقم (2994) .

(3) سنن أبي داود برقم (2994) .

(4) رواه البيهقي في السنن الكبرى (303/6) من طريق الوليد بن جميع عن أبي الطفيل

: لما سألت فاطمة أبا بكر عن الخمس فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا أطمع الله نبيا طعمته ثم قبضه كانت للذي يلي بعده" فلما وليت رأيت أن أردّه على المسلمين.

(183/313)

---

وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، اختاره ابن جرير.

وقال آخرون: بل سهم النبي صلى الله عليه وسلم وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق.

وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى كما رواه ابن جرير.

حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المنهال بن عمرو، وسألت عبد الله بن محمد بن علي، وعلي بن الحسين، عن الخمس فقالا هولنا. فقلت لعلي: فإن الله يقول: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ فقالا يتامانا ومساكيننا.

(184/313)

---

وقال سفيان الثوري، وأبو نعيم، وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد ابن الحنفية، رحمه الله تعالى، عن قول الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قال هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة. ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال قائلون: سهم النبي صلى الله عليه وسلم تسليما للخليفة من بعده. وقال قائلون: لقراة النبي صلى الله عليه وسلم. وقال قائلون: سهم القراة لقراة الخليفة. فاجتمع قولهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما قال الأعمش، عن إبراهيم كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي صلى الله عليه وسلم في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان علي يقول فيه؟ قال: كان [علي] أشدهم فيه.

وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء، رحمهم الله.

وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية [وفي أول الإسلام] ودخلوا معهم في الشعب غضبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحماية له: مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل - وإن كانوا أبناء عمهم - فلم

يوافقوهم على ذلك ، بل حاربوهم وناذبوهم ، ومالوا بطون قريش على حرب الرسول ؛  
ولهذا كان ذمُّ أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم ، لشدة قربهم . ولهذا

يقول في أثناء قصيدته

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنُوفَلاً عُقُوبَةً شَرَّ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلٍ  
بِمِيزَانِ قَسْطٍ لَا يَخِيْسُ شَعِيرَةً شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرِ عَائِلٍ  
لَقَدْ سَفَهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بَنِي خَلْفٍ قَيْضًا بَنَا وَالغِيَا طِلَّ  
وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذَوَابَةِ هَاشِمِ مَوَالٍ قُصِيَ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ (1)

(1) الأبيات في السيرة النبوية لابن هشام (277/1) .

(185/313)

وقال جبير بن مطعم بن عدي [بن نوفل] مشيت أنا وعثمان بن عفان - يعني ابن أبي العاص  
بن أمية بن عبد شمس - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : يا رسول الله ،  
أعطيت بني المطلب من خمس خبير وتركتنا ، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة ، فقال : "إنما  
بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد" .

رواه مسلم (1) وفي بعض روايات هذا الحديث : "إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام"

(2)

وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب .

قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم . ثم روى عن خُصَيْفٍ ، عن مجاهد قال :

علم الله أن في بني هاشم فقراء ، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة .

وفي رواية عنه قال : هم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لا تحل لهم الصدقة .

ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك .

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلها .

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، حدثني عبد الله بن نافع ، عن أبي معشر ، عن سعيد

المقبري قال : كتب نجدة إلى عبد الله بن عباس يسأله عن " ذِي الْقُرْبَى " ، فكتب إليه ابن

عباس : كنا نقول : إنا هم فأبى ذلك علينا قومنا ، وقالوا : قريش كلها ذوو قريبي

وهذا الحديث في صحيح مسلم ، وأبي داود ، والترمذي ، والنسائي من حديث سعيد

المقبري عن يزيد بن هرمز أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوي القربى فذكره إلى قوله

: " فأبى ذلك علينا قومنا " (3) والزيادة من أفراد أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني ،

وفيه ضعف .

---

(1) لم أجده في صحيح مسلم ولا عزاه المزي له في تحفة الأشراف ، ولم أجزم بوجه المحافظ

هنا ؛ لأن الزيلعي عزاه للصحيحين في تخرج الكشاف (30/2) ، ورواه البخاري في

صحيحه برقم (3140) من طريق سعيد بن المسيب عن جبير بن مطعم ، رضي الله عنه ، بنحوه .

(2) الرواية في سنن النسائي (130/7) .

(3) صحيح مسلم برقم (1812) وسنن أبي داود برقم (2982) وسنن الترمذي برقم (1556) وسنن النسائي (128/7) ، وهو عند أبي داود والنسائي من حديث الزهري عن يزيد .

(186/313)

---

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم بن مهدي المصيبي ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن حنَّش ، عن عِكْرَمَةَ ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رغبت لكم عن غَسَّالَةِ الأَيْدِي ؛ لأنَّ لكم من خُمْسِ الخُمْسِ ما يغنيكم أو يكفيكم " .

هذا حديث حسن الإسناد ، وإبراهيم بن مهدي هذا وثَّقه أبو حاتم ، وقال يحيى بن معين يأتي بمناكير (1) والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ أي : يتامى المسلمين . واختلف العلماء هل يختص باليتام الفقراء

، أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ على قولين .

﴿ الْمَسَاكِين ﴾ هم المحاوِج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم .

﴿ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ هو المسافر ، أو المرید للسفر ، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة ، وليس

له ما ينفقه في سفره ذلك . وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة "براءة" ، إن

شاء الله تعالى ، وبه الثقة ، وعليه التكلان .

---

(1) انظر : ميزان الاعتدال للذهبي (1/68) .

(187/313)

---

وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيَّ عَبْدِنَا ﴾ أي : امثلوا ما شرعنا لكم من

الخمسة في الغنائم ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله ؛ ولهذا جاء في

الصحيحين ، من حديث عبد الله بن عباس ، في حديث وفد عبد القيس : أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال لهم : " وأمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : أمركم بالإيمان بالله ثم قال

: هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة

وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم . . " الحديث بطوله (1) فجعل أداء الخمس من

جملة الإيمان ، وقد بَوَّب البخاري على ذلك في "كتاب الإيمان" من صحيحه فقال : (باب



أداء الخمس من الإيمان) ، ثم أورد حديث ابن عباس هذا ، وقد بسطنا الكلام عليه في

"شرح البخاري" والله الحمد والمنة (2)

وقال مقاتل بن حيان : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أي : في القسمة ، وقوله :

﴿ يَوْمَ تَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى

خلقه بما فرّق به بين الحق والباطل بيدرويسمى "الفرقان" ؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة

الإيمان على كلمة الباطل ، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه .

قال علي بن أبي طالب والعوفي ، عن ابن عباس : ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ يوم بدر ، فرّق الله فيه

بين الحق والباطل . رواه الحاكم .

وكذا قال مجاهد ، ومقسم وعبيد الله بن عبد الله ، والضحاك ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان

، وغير واحد : أنه يوم بدر .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن عروة بن الزبير في قوله : ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾

﴿ يوم

---

(1) صحيح البخاري برقم (53) وصحيح مسلم برقم (17) .

(2) وانظر كلام المحافظ ابن حجر في : فتح الباري (1/129 - 135) .

---

فرق الله [فيه] بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة ، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة - أو : سبع عشرة - مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الألف والتسعمائة .

فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة على السبعين ، وأسر منهم مثل ذلك . وقد روى الحاكم في مستدركه ، من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن ابن مسعود ، قال في ليلة القدر : تحروها لإحدى عشرة يبقين فإن صبيحتها يوم بدر . وقال : على شرطهما (1)

وروي مثله عن عبد الله بن الزبير أيضاً ، من حديث جعفر بن بُرقان ، عن رجل ، عنه . وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب ، عن ابن عَوْن محمد بن عبید الله الثقفي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : قال الحسن بن علي : كانت ليلة "الفرقان يوم التقى الجمعان" لسبع عشرة من رمضان إسناد جيد قوي .

ورواه ابن مَرْدُويه ، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب ، عن علي قال : كانت ليلة الفرقان ، ليلة التقى الجمعان ، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشر مضت من شهر

رمضان .

وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير .

وقال يزيد بن أبي حبيب إمام أهل الديار المصرية في زمانه : كان يوم بدر يوم الاثنين ولم يتابع على هذا ، وقول الجمهور مقدم عليه ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير ح

4 ص 66.59 ﴿

---

(1) المستدرك (20/3) .

(189/313)

---

وقال أبو السعود :

﴿ واعلموا أنّما غنمتم ﴾

عن الكلبي أنها نزلت ببدر وقال الواقدي : كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة ، وما موصولة وعائدها محذوف أي الذي أصبتموه من الكفار عنوة وأصل الغنيمة إصابة الغنم من العدو ثم اتسع وأطلق على كل ما أصيب منهم كائناً ما كان ، وقوله تعالى : ﴿ من شيء ﴾ بيان للموصول محله النصب على أنه حال من عائذ الموصول قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة وأن

لا يشذ عنها شيءٌ أي ما غنمتموه كائنًا مما يقع عليه اسمُ الشيءِ حتى الخيطُ والمخيطُ خلا  
أن سلبَ المقتولَ للقاتل إذا نقله الإمامُ وأن الأسارى يُخيرَ فيها الإمامُ وكذا الأراضى  
المغنومةُ، وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مبتدأٌ خبره محذوفٌ أي فحقُّ أو واجبٌ أن  
له تعالى خُمُسَه، وهذه الجملةُ خبرٌ لأنما الخ وقرىء بالكسر والأولى أكدٌ وأقوى في الأيجاب  
لما فيه من تكرر الإسنادِ كأنه قيل: فلا بد من ثبات الخُمس ولا سبيل إلى الإخلال به،  
وقرىء فله خُمُسُه وقرىء خُمُسَه بسكون الميم والجمهورُ على أن ذكرَ الله تعالى للتعظيم  
كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ وأن المراد قسمةُ الخُمسِ على  
المعطوفين عليه بقوله تعالى: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ  
﴿وَإِعَادَةُ اللّامِ فِي ذِي الْقُرْبَىٰ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ اشْتِرَاكِهِمْ فِي  
سَهْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَزِيدِ اتِّصَالِهِمْ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو  
الْمَطْلَبِ دُونَ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ وَبَنِي نَوْفَلٍ لَمَّا رُوِيَ عَنْ عَثْمَانَ وَجَبْرِ بْنِ مَطْعَمٍ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمَا أَنَّهُمَا قَالَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَؤُلَاءِ إِخْوَانُكَ بَنُو هَاشِمٍ لَا نُنْكِرُ  
فَضْلَهُمْ لِمَكَانِكَ الَّذِي جَعَلَكَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَرَأَيْتَ إِخْوَانَنَا بَنِي الْمَطْلَبِ أَعْطَيْتَهُمْ وَحَرَمْنَا وَإِنَّمَا  
نَحْنُ وَهُمْ بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "

(190/313)

إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد " وشبَّك بين أصابعه وكيفية قسَمَتها عندنا أنها كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم ، سهم له عليه الصلاة والسلام وسهم للمذكورين من ذوي قريبه ، وثلاثة أسهم للأصناف الثلاثة الباقية وأما بعده صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط وكذا سهم ذوي القربى وإنما يعطون لفقيرهم فهم أسوة لسائر الفقراء ولا يعطي أغنياؤهم فيقسم على الأصناف الثلاثة ، ويؤيده ما روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه منع بني هاشم الخمس وقال : إنما لكم أن يعطى فقيركم وتزوج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم . ومن عداهم فهو بمنزلة ابن السبيل الغني لا يعطى من الصدقة شيئاً وعن زيد بن علي مثله قال : ليس بنا أن نبني منه قصورا ولا نركب منه البراذين وقيل : سهم الرسول صلى الله عليه وسلم لولي الأمر بعده ، وأما عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يُصرف إلى ما كان يصرفه عليه الصلاة والسلام من مصالح المسلمين كعدّة الغزاة من الكراع والسلاح ونحو ذلك ، وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم يُقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين والباقي للفرق الثلاث ، وعند مالك رحمه الله الأمر فيه مفوض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء وإن رأى أعطاه بعضاً منهم دون بعض وإن رأى غيرهم أولى وأهمّ فغيرهم .

(191/313)

---

وتعلق أبو العالية بظاهر الآية الكريمة فقال: يُقسم ستة أسهم ويُصرف سهمُ الله تعالى إلى رتاج الكعبة لما روي (أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ منه قبضةً فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم) وقيل: سهمُ الله لبيت المال وقيل: هو مضمومٌ إلى سهم الرسول عليه الصلاة والسلام هذا شأنُ الخمسِ وأما الأُخماسُ الأربعة فتقسم بين الغانمين للراجل سهمٌ وللفارس سهمان عند أبي حنيفة رضى الله عنه وثلاثة أسهم عندهما رحمهما الله. قال القرطبي: لما بين الله تعالى حكمَ الخمسِ وسكت عن الباقي دل ذلك على أنه ملك للغانمين وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف ينبىء عنه المذكورُ أي إن كنتم آمنتم به تعالى فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقربُ به إلى الله فاقطعوا أطماعكم منه واقنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المرادُ به مجرد العلم بذلك بل العلم المشفوعَ بالعمل والطاعة لأمره تعالى.

(192/313)

---

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا ﴾ عطف على الاسم الجليل أي إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه ﴿ على  
عَبْدَنَا ﴾ وقرىء عَبْدَنَا وهو اسم جمع أريد به الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنون فإن  
بعض ما نزل نازل عليهم بالذات كما ستعرفه ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ يوم بدر سمي به لفرقه بين  
الحق والباطل ، وهو منصوب بأنزلنا أو بآمنتهم ﴿ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ ﴾ أي الفريقان من  
المؤمنين والكافرين وهو بدل من (يوم الفرقان) أو منصوب بالفرقان ، والمراد ما أنزل عليه  
عليه الصلاة والسلام يومئذ من الوحي والملائكة والفتح ، على أن المراد بالإنزال مجرد  
الإيصال والتيسير فينتظم الكل انتظاماً حقيقياً ، وجعل الإيمان بإنزال هذه الأشياء من  
موجبات العلم بكون الخمس لله تعالى على الوجه المذكور من حيث أن الوحي ناطقٌ بذلك  
وأن الملائكة والفتح لما كانا من جهته تعالى وجب أن يكون ما حصل بسببهما من الغنيمة  
مصرفاً إلى الجهات التي عينها الله تعالى ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ يقدر على نصر  
القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير  
أبي السعود ح 4 ص ﴾

(193/313)

---

وقال الألوسى :

﴿ واعلموا أنّما غنمتم ﴾

روى عن الكلبى أنها نزلت في بدر وهو الذي يقتضيه كلام الجمهور ، وقال الواقدي : كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة .

﴿ مَا ﴾ موصولة والعائد محذوف ، وكان حقها أن تكون مفصولة وجعلها شرطية خلاف الظاهر وكذا جعلها مصدرية ، وغنم في الأصل من الغنم بمعنى الربح ، وجاء غنم غنماً بالضم وبالفتح وبالتحريك وغنيمة وغنمانا بالضم ؛ وفي "القاموس" المغم والغنيم والغنيمة والغنم بالضم الفى ء ، والمشهور تغاير الغنيمة والفى ء ، وقيل : اسم الفى ء يشملهما لأنها راجعة إلينا ولا عكس فهي أخص ، وقيل : هما كالفقير والمسكين ، وفسروها بما أخذ من الكفار قهراً بقتال أو إيجاب فما أخذ اختلاساً لا يسمى غنيمة وليس له حكمها ، فإذا دخل الواحد أو الاثنان دار الحرب مغيرين بغير إذن الإمام فأخذوا شيئاً لم يخمس ، وفي الدخول يأذنه روايتان والمشهور أنه يخمس لأنه لما أذن لهم فقد التزم نصرتهم بالإمداد فصاروا كالمنعة ، وحكى عن الشافعي رضي الله تعالى عنه في المسألة الأولى التخمس وإن لم يسم ذلك غنيمة عنده لإلحاقه بها ، وقوله سبحانه : ﴿ من شئء ﴾ بيان للموصول محله النصب على أنه حال من عائده المحذوف قصد به الاعتناء بشأن



الغنيمة وأن لا يشذ عنها شيء ، أي ما غنمتموه كائناً مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط  
والمخيط خلا أن سلب المقتول لقاتله إذا نقله الإمام ، وقال الشافعية : السلب للقاتل ولو  
نحو صبي وقتل وإن لم يشترط له وإن كان المقتول نحو قريبه وإن لم يقاتل أو نحو امرأة أو صبي إن  
قاتلوا ولو أعرض عنه للخبر المتفق عليه "من قتل قتيلاً فله سلبه" نعم القاتل المسلم القن  
لذمي لا يستحقه عندهم وإن خرج بإذن الإمام .

(194/313)

---

وأجاب أصحابنا بأن السلب مأخوذ بقوة الجيش فيكون غنيمة فيقسم قسمتها ، وقد قال  
صلى الله عليه وسلم لحبيب بن أبي سلمة : " ليس لك من صلب قتيك إلا ما طابت به  
نفس إمامك " وما رووه يحتمل نصب الشرع ويحتمل التنفيل فيحمل على الثاني لما روينا ،  
والأسارى يخبر فيهم الإمام وكذا الأرض المغنومة عندنا وتفصيله في الفقه ، والمصدر  
المؤول من أن المفتوحة مع ما في حيزها في قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ مبتدأ خبره  
محذوف أي فحق أو واجب أن لله خمسه ، وقدر مقدماً لأن المطرد في خبرها إذا ذكر  
تقديمه لتلايتوهم أنها مكسورة فأجرى على المعتاد فيه ، ومنهم من أعربه خبر مبتدأ  
محذوف أي فالحكم أن الخ ، والجملة خبر لأن الأولى ، والفاء لما في الموصول من معنى

المجازاة، وقيل: إنها صلة وأن بدل من أن الأولى، وروى الجعفي عن أبي عمر ﴿فَإِنَّ﴾  
بالكسر وتقوية قراءة النخعي فله خمسة ورجحت المشهورة بأنها أكد لدالتها على إثبات  
الخمسة وأنه لا سبيل لتركه مع احتمال الخبر لتقديرات كالأمر وواجب ونحوه، وتعقبه  
صاحب التقريب بأنه معارض بلزوم الإجمال.

وأجيب بأنه إن أريد بالإجمال ما يحتمل الوجوب والندب والإباحة فالمقام يأبى إلا الوجوب  
وإن أريد ما ذكر من لازم وحق وواجب فالتعميم يوجب التفخيم والتهويل.

(195/313)

---

وقرىء ﴿خُمْسُهُ﴾ بسكون الميم والجمهور على أن ذكر الله تعالى لتعظيم الرسول عليه  
الصلاة والسلام كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: 62] أو  
ليبان أنه لا بد في الخمسية من إخلاصها له سبحانه وأن المراد قسمة الخمس على ما ذكر  
في قوله تعالى: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قيل ويكون  
قوله تعالى: ﴿لِلرَّسُولِ﴾ معطوفاً على ﴿يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ على التعليل الأول وتقدير  
مبتدأ أي وهو أي الخمس للرسول الخ على التعليل الثاني، وإعادة اللام في القربى دون  
غيرهم من الأصناف الباقية لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي صلى الله عليه وسلم لمزيد

اتصاهم به عليه الصلاة والسلام ، وأريد بهم بنو هاشم وبنو المطلب المسلمون لأنه صلى الله عليه وسلم وضع سهم ذوي القربى فيهم دون بني أخيها شقيقهما عبد شمس ، وأخيها لأبيهما نوفل مجيباً عن ذلك حين قال له عثمان .

وجبير بن مطعم : هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ينكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله تعالى منهم أرايت إخواننا من بني عبد المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنما نحن وهم بمنزلة نحن وبنو المطلب شيء واحد وشبك بين أصابعه رواه البخاري ، أي لم يفارقوا بني هاشم في نصرته صلى الله عليه وسلم جاهلية ولا إسلاماً .

وكيفية القسمة عند الأصحاب أنها كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم .

سهم له عليه الصلاة والسلام .

وسهم للمذكورين من ذوي القربى .

(196/313)

---

وثلاثة أسهم للأصناف الثلاثة الباقية ، وأما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فسقط سهمه صلى الله عليه وسلم كما سقط الصفي وهو ما كان يصطفيه لنفسه من الغنيمة مثل درع

وسيف وجارية بموته صلى الله عليه وسلم لأنه كان يستحقه برسالته ولا رسول بعده  
صلى الله عليه وسلم وكذا سقط سهم ذوي القربى وإنما يعطون بالفقر وتقدم فقراؤهم  
على فقراء غيرهم ولا حق لأغنيائهم لأن الخلفاء الأربعة الراشدين قسموه كذلك وكفى  
بهم قدوة ، وروى عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه منع بني هاشم الخمس وقال : إنما  
لكم أن يعطى فقيركم ويزوج أيمكم ويخدم ما لا خادم له منكم فأما الغني منكم فهو بمنزلة ابن  
السبيل غنى لا يعطي من الصدقة شيئاً ولا يتيم موسر .  
وعن زيد بن علي كذلك قال : ليس لنا أن نبني منه القصور ولا أن نركب منه البراذين ، ولأن  
النبي صلى الله عليه وسلم إنما أعطاهم للنصرة لا للقربة كما يشير إليه جوابه لعثمان .  
وجير رضي الله تعالى عنهما وهو يدل على أن المراد بالقربى في النص قرب النصره لا قرب  
القربة ، وحيث انتهت النصره انتهى الإعطاء لأن الحكم ينتهي بانتهاء علته واليتيم صغير  
لا أب له فيدخل فقراء اليتامى من ذوي القربى في سهم اليتامى المذكورين دون أغنيائهم  
والمسكين منهم في سهم المساكين ، وفائدة ذكر اليتيم مع كون استحقاقه بالفقر والمسكنة لا  
باليتيم دفع توهم أن اليتيم لا يستحق من الغنيمة شيئاً لأن استحقاقها بالجهاد واليتيم صغير  
فلا يستحقها .

(197/313)

---

وفي التأويلات لعلم الهدى الشيخ أبي منصور أن ذوي القربى إنما يستحقون بالفقر أيضاً ،  
وفائدة ذكرهم دفع ما يتوهم أن الفقير منهم لا يستحق لأنه من قبيل الصدقة ولا تحل لهم ،  
وفي "الحاوي القدسي" عن أبي يوسف أن الخمس يصرف لذوي القربى واليتامى  
والمساكين وابن السبيل وبه نأخذ انتهى ، وهو يقتضي أن القوتى على الصرف إلى ذوي  
القربى الأغنياء فليحفظ ، وفي "التحفة" أن هذه الثلاثة مصارف الخمس عندنا لا على  
سبيل الاستحقاق حتى لو صرف إلى صنف واحد منهم جاز كما في الصدقات كذا في  
"فتح القدير" ، ومذهب الإمام مالك رضي الله تعالى عنه أن الخمس لا يلزم تخميسه وأنه  
مفوض إلى رأي الإمام كما يشعر به كلام خليل ؛ وبه صرح ابن الحاجب فقال : ولا يخمس  
لزوماً بل يصرف منه لآله عليه الصلاة والسلام بالاجتهاد ومصالح المسلمين ويبدأون  
استحباباً كما نقل التتائي عن السنباطي بالصرف على غيرهم ، وذكر أنهم بنوهاشم  
وأنهم يوفر نصيبهم لمنعهم من الزكاة حسبما يرى من قلة المال وكثرته ، وكان عمر بن عبد  
العزیز يخص ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها كل عام باثني عشر ألف دينار سوى ما يعطي  
غيرهم من ذوي القربى ، وقيل : يساوي بين الغني والفقير وهو فعل أبي بكر رضي الله تعالى  
عنه ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يعطي حسب ما يراه ، وقيل : يخيّر لأن  
فعل كل من الشيخين حجة .

وقال عبد الوهاب: أن الإمام يبدأ بنفقته ونفقة عياله بغير تقدير، وظاهر كلام الجمهور أنه لا يبدأ بذلك وبه قال ابن عبد الحكم، والمراد بذكر الله سبحانه عند هذا الإمام أن الخمس يصرف في وجوه القربات لله تعالى والمذكور بعد ليس للتخصيص بل لتفضيله على غيره ولا يرفع حكم العموم الأول بل هو قار على حاله وذلك كالعموم الثابت للملائكة وإن خص جبريل وميكائيل عليهما السلام بعد .

(198/313)

---

ومذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه في قسمة الغنيمة أن يقدم من أصل المال السلب ثم يخرج منه حيث لا متطوع مؤنة الحفظ والنقل وغيرهما من المؤن اللازمة للحاجة إليها ثم يخمس الباقي فيجعل خمسة أقسام متساوية ويكتب على رقعة لله تعالى أو للمصالح وعلى رقعة للغانمين وتدرج في بنادق فما خرج لله تعالى قسم على خمس مصالح المسلمين كالغور والمشتغلين بعلوم الشرع وآلاتها ولو مبتدين والأئمة والمؤذنين ولو أغنياء وسائر من يشتغل عن نحو كسبه بمصالح المسلمين لعموم نفعهم وألحق بهم العاجزون عن الكسب والعطاء إلى رأي الإمام معتبراً سعة المال وضيقه، وهذا هو السهم الذي كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته وكان ينفق منه على نفسه وعياله ويدخر منه مؤنة سنة ويصرف الباقي في

المصالح ، وهل كان عليه الصلاة والسلام مع هذا التصرف مالكاً لذلك أو غير مالك قولان  
ذهب إلى الثاني الإمام الرافعي وسبقه إليه جمع متقدمون قال : إنه عليه الصلاة والسلام مع  
تصرفه في الخمس المذكور لم يكن يملكه ولا ينتقل منه إلى غيره إرثاً .

ورد بأن الصواب المنصوص أنه كان يملكه ، وقد غلط الشيخ أبو حامد من قال : لم يكن  
صلى الله عليه وسلم يملك شيئاً وإن أبيع له ما يحتاج إليه ، وقد يؤول كلام الرافعي بأنه لم  
ينف الملك المطلق بل الملك المقتضي للإرث عنه .  
ويؤيد ذلك اقتضاء كلامه في الخصائص أنه يملك .  
وبنو هاشم .

والمطلب ، والعبرة بالانتساب للأباء دون الأمهات ويشترك فيه الغني والفقير لإطلاق الآية ،  
وإعطائه عليه الصلاة والسلام العباس وكان غنياً والنساء ، ويفضل الذكر كالإرث  
واليتامى ، ولا يمنع وجود جد ، ويدخل فيهم ولد الزنا والمنفى لا اللقيط على الأوجه ؛  
ويشترط فقره على المشهور ولا بد في ثبوت اليتيم والإسلام والفقير هنا من البينة ، وكذا في  
الهاشمي .

والمطلبي ، واشترط جمع فيهما معها استفاضة النسبة والمساكين وابن السبيل ولو بقولهم  
بلايين .

---

نعم يظهر في مدعي تلف مال له عرف أو عيال أنه يكلف بينة .  
ويشترط الإسلام في الكل والفقير في ابن السبيل أيضاً وتمامه في كتبهم .  
وتعلق أبو العالية بظاهر الآية الكريمة فقال : يقسم ستة أسهم ويصرف سهم الله تعالى  
لمصالح الكعبة أي إن كانت قريبة وإلا فالى مسجد كل بلدة وقع فيها الخمس كما قاله ابن  
الهام : وقد روى أبو داود في "المراسيل" وابن جرير عنه أنه عليه الصلاة والسلام كان  
يأخذ منه قبضة فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسم ما بقي خمسة أسهم ، ومذهب الإمامية  
أنه ينقسم إلى ستة أسهم أيضاً كذهب أبي العالية إلا أنهم قالوا : إن سهم الله تعالى وسهم  
الرسول صلى الله عليه وسلم وسهم ذوي القربى للإمام القائم مقام الرسول عليه الصلاة  
والسلام .

وسهم ليتامى آل محمد صلى الله عليه وسلم .  
وسهم لمساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم لا يشركهم في ذلك غيرهم ورووا ذلك عن زين  
العابدین .

ومحمد بن علي الباقر رضي الله تعالى عنهم ، والظاهر أن الأسهم الثلاثة الأول التي ذكروها  
اليوم تحباً في السرداب إذ القائم مقام الرسول قد غاب عندهم فتحباً له حتى يرجع من  
غيبته ، وقيل : سهم الله تعالى لبيت المال ، وقيل : هو مضموم لسهم الرسول صلى الله عليه



وسلم .

هذا ولم يبين سبحانه حال الأخماس الأربعة الباقية وحيث بين جل شأنه حكم الخمس ولم يبينها دل على أنها ملك الغانمين ، وقسمتها عند أبي حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم واحد .

لما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم فعل كذلك ، والفارس في السفينة يستحق سهمين أيضاً وإن لم يمكنه القتال عليها فيها للتأهل ، والمتأهب للشيء كالمباشر كما في " المحيط " ، ولا فرق بين الفرس المملوك والمستأجر والمستعار وكذا المغصوب على تفصيل فيه ، وذهب الشافعي .

ومالك إلى أن للفارس ثلاثة أسهم لما روى عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم أسهم للفارس ذلك وهو قول الإمامين .

(200/313)

---

وأجيب بأنه قد روى عن ابن عمر أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قسم للفارس سهمين فإذا تعارضت روايته ترجح رواية غيره بسلامتها عن المعارضة فيعمل بها ، وهذه الرواية رواية ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وفي "الهداية" أنه عليه الصلاة والسلام تعارض فعلاه في الفارس فنرجع إلى قوله عليه الصلاة والسلام وقد قال صلى الله عليه وسلم: "للفارس سهمان وللراجل سهم" وتعقبه في العناية بأن طريقة استدلاله مخالفة لقواعد الأصول فإن الأصل أن الدليلين إذا تعارضا وتعذر التوفيق والترجيح يصار إلى ما بعده لا إلى ما قبله وهو قال: فتعارض فعلاه فنرجع إلى قوله، والمسلك المعهود في مثله أن نستدل بقوله ونقول فعله لا يعارض قوله لأن القول أقوى بالاتفاق، وذهب الإمام إلى أنه لا يسهم إلا لفارس واحد وعند أبي يوسف يسهم لفرسين، وما يستدل به على ذلك محمول على التنفيل عند الإمام كما أعطى عليه الصلاة والسلام سلمة بن الأكوع سهمين وهوراجل ولا يسهم لثلاثة اتفاقاً ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ حَافِظِينَ عَهْدِي بِمَا نَجَّيْتُكُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ فَاذْكُرُونِي أَنْ أَكْفُرَ بِكُمْ وَلِيَدْعُنَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّكُمْ مِنْكُمْ وَمَنْ يَدْعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

شرط جزاؤه محذوف أي إن كنتم آمنتم بالله تعالى فاعلموا أنه تعالى جعل الخمس لمن جعل فسلموه إليهم واقنعوا بالأخماس الأربعة الباقية، وليس المراد مجرد العلم بذلك بل العلم المشفوع بالعمل والطاعة لأمره تعالى، ولم يجعل الجزاء ما قبل لأنه لا يصح تقدم الجزاء على الشرط على الصحيح عند أهل العربية، وإنما لم يقدر العمل قصراً للمسافة كما فعله النسفي لأن المطرف في أمثال ذلك أن يقدر ما يدل ما قبله عليه فيقدر من جنسه، وقوله

سبحانه : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا ﴾ عطف على الاسم الجليل و ﴿ مَا ﴾ موصولة والعائد محذوف أي الذي أنزلناه ﴿ على عَبْدِنَا ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي التعبير عنه بذلك ما لا يخفى من التشريف والتعظيم ، وقرىء ﴿ عَبْدَنَا ﴾ بضمين جمع عبد ، وقيل : اسم جمع له وأريد به النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون فإن بعض ما نزل نازل عليهم ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ هو يوم بدر فالإضافة للعهد ، والفرقان بالمعنى اللغوي فإن ذلك اليوم قد فرق فيه بين الحق والباطل ، والظرف منصوب بأنزلنا ، وجوز أبو البقاء تعلقه بآمنتم ، وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ ﴾

(202/313)

---

﴿ بدل منه أو متعلق بالفرقان ، وتعريف الجمعان للعهد ، والمراد بهم الفريقان من المؤمنين والكافرين ؛ والمراد بما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات والملائكة والنصر على أن المراد بالإنزال مجرد الإيصال والتيسير فيشمل الكل شمولاً حقيقياً فالموصول عام ولا جمع بين الحقيقة والمجاز خلافاً لمن توهم فيه ، وجعل الإيمان بهذه الأشياء من موجبات العلم بكون الخمس لله تعالى على الوجه المذكور من حيث أن الوحي ناطق بذلك وأن الملائكة والنصر لما كانا منه تعالى وجب أن يكون ما حصل بسببهما من الغنيمة مصروفاً إلى الجهات

التي عينها الله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومن آثار قدرته جل شأنه ما شاهدتموه يوم التقى الجمعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 10 ص ﴾

(203/313)

وقال القاسمي :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾

أي : قل أو أكثر من الكفار ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ ﴾ أي : الذي

منه النصر المتفرع عليه الغنيمة ﴿ خُمُسُهُ ﴾ شكرًا له على نصره وإعطائه الغنيمة ﴿

وَلِرَسُولٍ ﴾ أي : الذي هو الأصل في أسباب النصر ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ وهم بنو هاشم

والمطلب ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ أي : من مات أباهم ولم يبلغوا ، لأنهم ضعفاء ، ﴿ وَالْمَسَاكِينَ

﴿ لأنهم أيضاً ضعفاء كاليتامى ﴿ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر الذي قطع عليه الطريق

ويريد الرجوع إلى بلده ، ولا يجد ما يتبلغ بهم .

وفي هذه الآية مسائل :

الأولى : قال الفقهاء : الغنيمة المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب ، أي : ما

ظهر عليه المسلمون بالقتال . وهل هي والفية والنفل شيء واحد أو لا ؟ وسنفضله في

آخر المسائل .

الثانية: ما في: ﴿أَمَّا﴾ بمعنى الذي والعائد محذوف، وكان حقها، على أصولهم، أن تكتب مفصولة .

قال الشهاب: وقد أجزيت في ما هذه أن تكون شرطية .

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ ، بيان للموصول، محله النصب، على أنه حال من عائد الموصول، قصد به الإعتناء بشأن الغنيمة، والأيشذ عنها شيء، أي: ما غنمتموه كائناً ما كان يقع عليه اسم الشيء، حتى الخيط والمخيط .  
الرابعة: الخمس بضم الميم، وسكونها، لغتان قد قرئ بهما .

(204/313)

---

الخامسة: أفادت الآية أن الواجب في المغنم تخميسه، وصرف الخمس إلى من ذكره الله تعالى، وقسمة الباقي بين الغانمين بالعدل، للراجل سهم، ولل فارس ذي الفرس العربي ثلاثة أسهم، سهم له وسهمان لفرسه .

هكذا قسم النبي صلى الله عليه وسلم عام خيبر .

ومن الفقهاء من يقول: للفارس سهمان .

والأول هو الذي دلت عليه السنة الصحيحة ، ولأن الفرس يحتاج إلى مؤونة نفسه وسائسه ، ومنفعة الفارس به أكثر من منفعة رجلين .

ومنهم من يقول : يسوى بين الفرس العربي والهجين في هذا ، الهجين يسمى البرزون والأكديش .

ويجب قسمتها بينهم بالعدل ، فلا يجابى أحد ، لا لرياسته ولا لنسبه ولا لفضله ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يقسمونها .

وفي صحيح البخاري أن سعد بن أبي وقاص رأى أن له فضلاً على من دونه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ وفي مسند أحمد أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : ثكلتك أمك ابن أم سعد وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم . كذا في " السياسة الشرعية " لابن تيمية .

في " زاد المعاد " لابن القيم : كان صلى الله عليه وسلم إذا ظفر بعدوه ، أمر منادياً فجمع الغنائم كلها ، فبدأ بالأسلاب فأعطأها لأهلها ، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أراه الله وأمره به من مصالح الإسلام ، ثم يرضخ من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد ، ثم قسم الباقي بالسوية بين الجيش : للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم ، وكان ينفل من صلب الغنيمة بحسب ما يراه من المصلحة .

وقيل : بل كان النفل من الخمس ، وجمع لسلمة بن الأكوع ، في بعض مغازيه ، بين سهم الراجل

والفارس ، فأعطاه خمسة أسهم ، لعظم غنائه في تلك الغزوة .

قال ابن تيمية : وما زالت الغنائم تقسم بين الغانمين في دولة بني أمية وبني العباس ، لما كان

المسلمون يغزون الروم والترك والبربر .

(205/313)

---

السادسة : ذهب الجمهور إليه أن ذكر الله تعالى في قوله : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ ﴾ للتعظيم ، أي :  
تعظيم الرسول ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ ، أو لبيان أنه لا بد  
في الخمسة من إخلاصها لله تعالى ، وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه ، وتمسك  
بعضهم بظاهر ذلك ، فأوجب سهماً سادساً لله تعالى ، يصرف في وجوه الخير ، أو يؤخذ  
للكعبة قال : لأن كلام الحكيم لا يعرَى عن الفائدة ، ولأنه ثبت اختصاصه في آية الصدقات  
في قوله تعالى : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، فكذا هنا .

وهذا مروى عن أبي العالية ، والربيع والقاسم وأسباطه ويؤيد ما للجمهور ، ما رواه  
البيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبي صلى الله عليه  
وسلم ، وهو بوادي القرى ، وهو معترض فرساً ، فقلت : يا رسول الله ! ما تقول في الغنيمة  
؟ فقال : < لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش > . قلت : فما أحد أولى به من أحد ؟

قال ، < لا ، ولا السهم تستخرجه من جيبيك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم > .

ومن لطائف الحسن أنه أوصى بالخمسة من ماله وقال : ألا

أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه ؟

السابعة : خمس النبي صلى الله عليه وسلم الذي جعله الله له ، كان أمره في حياته مفوضاً

إليه ، يتصرف فيه بما شاء ، ويرده في أمته كيف شاء .

روى الإمام أحمد أن أبا الدرداء قال لعبادة بن الصامت : يا عبادة ! كلمات رسول الله

صلى الله عليه وسلم في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس ؟ فقال عبادة : إن رسول الله

صلى الله عليه وسلم صلى بهم في غزوهم إلى بغير من المقسم ، فلما سلم قام رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فتناول وبرة بين أئمتيه فقال : < إن هذا من غنائمكم ، وإنه ليس لي

فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيطة والمخيطة ، وأكبر

من ذلك وأصغر ، ولا تغلوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه في

(206/313)

---

الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس ، في الله تبارك وتعالى ، القريب والبعيد ، ولا تبالوا في الله

لومة لائم ، وأقيموا حدود الله في الحضر والسفر ، وجاهدوا في سبيل الله ، فإن الجهاد باب



من أبواب الجنة ، ينجي الله تبارك وتعالى به من الغم والهـم < .

قال ابن كثير : هذا حديث حسن عظيم .

وروى أبو داود والنسائي عن عمرو بن عبسة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى

بهم إلى بعير من المغنم ، فلما سلم أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال : > ولا يجلي لي من

غنائمكم مثل هذا إلا الخمس والخمس مردود عليكم < - واستدل به على أنه عليه

الصلاة والسلام كان يصرفه لمصالح المسلمين .

وكان له صلى الله عليه وسلم من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه ، عبد أو أمة أو فرس أو

سيف أو نحو ذلك ، رواه أبو داود عن محمد بن سيرين والشعبي مرسلًا ، وأحمد والترمذي

عن ابن عباس .

وللعلماء فيما يصنع بخمسه صلى الله عليه وسلم من بعده مذاهب :

فمن قائل : يكون لمن يلي الأمر من بعده ، قال ابن كثير : روي هذا عن أبي بكر وعلي

وقادة وجماعة . وجاء فيه حديث مرفوع .

ومن قائل : يصرف في مصالح المسلمين ، قال الأعمش عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر

يجعلان سهم النبي صلى الله عليه وسلم في الكراع والسلاح .

ومن قائل : بأنه يصرف لقرابته صلى الله عليه وسلم .

ومن قائل : بأنه مردود على بقية الأصناف : ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل

. واختاره ابن جرير . وللمسألة حظ من النظر .

الثانية : أجمعوا على أن المراد بذوي القربى قرابته صلى الله عليه وسلم .

وذهب الجمهور إلى أن سهم ذوي القربى يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب خاصة ، لأن

بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية ، وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب

غضباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحماية له ، مسلمهم طاعة لله ولرسوله ،

وكافرهم حمية للعشيرة ، وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(207/313)

---

وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا ابني عمهم ، لم يوافقهم ، بل حاربوهم وناذبوهم

، وماتوا بطون قريش على حرب الرسول ، ولهذا كان ذمهم أبو طالب في قصيدته بقوله

منها :

بجزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً عقوبة شرٍ عاجلاً غير آجلٍ

نوفل : هو ابن خويلد ، كان من شياطين قريش ، قتله على بن أبي طالب يوم بدر .

بميزان قسطٍ لا يخيسُ شعيرةً له شاهدٌ من نفسه غير عائلٍ

لا يخيس ، من قولهم : خاس بالعهد إذا نقضه وأفسده . والعائل : الحائر .

لقد سَفَهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بَنِي خَلْفٍ قَيْضًا بَنَا وَالْغِيَاظِل

قَيْضًا : عَوْضًا ، وَالْغِيَاظِل : بَنُو سَهْمٍ .

وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُوَابَةِ هَاشِمٍ وَآلِ قُصَيٍّ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ

الصميم: الخالص من كل شيء ، والذوابة: الجماعة العالية ، وأصله الخصلة من شعر

الرأس .

وقال جبير بن مُطعم بن عدي بن نوفل : مشيت أنا وعثمان بن عفان ، إلى النبي صلى الله

عليه وسلم ، فقلنا : أعطيت بني المطلب من خمس خبير وتركتنا ، ونحن وهم بمنزلة

واحدة منك ؟ فقال : > إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد < . - رواه مسلم .

وفي رواية : أنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام - أفاده ابن كثير .

وقد روي عن ابن عباس وزين العابدين والباقر أنه يسوى في العطاء بين غنيهم وفقيرهم ،

ذكورهم وإناثهم ، لأن اسم القرابة يشملهم ، ولأنهم عؤضوه لما حرمت

عليهم الزكاة ، وقياساً على المال المقربه لبني فلان .

واعتبر الشافعي أن سهمهم استحق بالقرابة ، فأشبه الميراث . قال : فلذلك منه مثل حظ

الأتنين . انتهى .

وقال في " العناية " : إنه كان لعبد مناف - جد النبي صلى الله عليه وسلم - خمس بنين :

هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب وأبو عمرو ، وكلهم أعقبوا إلا أبا عمرو .

التاسعة: سهم اليتامى: قيل يخص به فقراؤهم، وقيل: يعم الأغنياء والفقراء، حكاه ابن كثير. والأظهر الثاني، والسرف فيه ما قدمناه في سورة البقرة، فتذكره فإنه مهم.

العاشرة: المساكين: المحاويج الذين لا يجدون ما يسدُّ خلتهم ويكفيهم، وابن السبيل: ذكرنا معناه أولاً.

الحادية عشرة: قال بعضهم: يقتضي ما ذكر في هذه الآية وما في صدر هذه السورة من الأنفال، وما في سورة الحشر من قوله تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ أن القسمة في الأموال المظفور بها ثلاثية: نفل: وغنيمة، وفيء، ويتقضي إطلاق جعل النفل لله ولرسوله، والغنيمة لمن ذكر محمسة، والفيء لمن ذكر بلا قيد. التخميس أن لكل من الثلاثة حكماً يخالف الآخر، وإن النفل ما يعطى لمن له من العناية والمقاتلة ما ليس لغيره، وفاء لعدته بذلك، قبل إحراز الغنيمة كالسلب، وإن الغنيمة ما أحرز بالقتال، سوى ما شرط التنفيل به، لأنه لا نجس، والفيء ما أخذ من الكفار بغير قتال، كالأموال التي يصالحون عليها، والجزية والخراج، ونحو ذلك، وإلى هذا التفصيل ذهب الجمهور.

وذهب بعضهم إلى اتحاد الثلاثة، وعدم التفرقة بينها، وإلى دخولها في الغنيمة، وقال: ما

أطلق في آية الأنفال ، وآية الحشر ، مقيد بآية الغنيمة هذه . وهذا هو مراد قول بعضهم :

إنهما منسوختان بهذه ، بمعنى أن إطلاقهما مقيد بهذه . والله أعلم . .

وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ أي : فاعملوا بما ذكر ، وارضوا بهذه القمسة

فالإيمان يوجب العمل بالعلم ، والرضا بالحكم .

وقد جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس ، في حديث وفد عبد القيس : أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : > وأمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : أمركم

(209/313)

---

بالإيمان بالله < . ثم قال : > هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن

محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم < ، الحديث

- فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان ، وقد بوّب البخاري على ذلك في باب الإيمان من

صحيحه ، فقال : باب أداء الخمس من الإيمان ، وساق الحديث المذكور .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا ﴾ معطوف على : ﴿ بِاللَّهِ ﴾ أي : إن كنتم آمنتم بالله

وبالمنزل ﴿ عَلَى عَبْدِنَا ﴾ أي : محمد عليه الصلاة والسلام ، أي : من الآيات والملائكة

والنصر ، ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أي : يوم بدر ، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل . والفرقان

بمعناه اللغوي، والإضافة فيه للعهد ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ يعني جمع المؤمنين وجمع الكافرين، فالتعريف للعهد، وكان التقاؤهما يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، والمؤمنون يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشرة رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة، فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على سبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير، كما فعل بكم يوم بدر. انتهى انتهى. اهـ ﴿محاسن التأويل - ج 8 ص 302. 308﴾

(210/313)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾

التفسير: في أول هذه السورة جاء قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ». . . جاء هذا القول حكماً في شأن الأنفال التي وقعت لأيدي المسلمين في غزوة بدر. ، وقد بينا في شرح هذه الآية أن المسلمين قد اختلفوا في شأن هذه الأنفال، فكان أن اتزعها الله من أيديهم ووضعها في يد الرسول، ليضعها حيث يرى.

وقد سُمي القرآن الكريم هذه «الغنائم» أنفالاً، لأنها جاءت للمسلمين على غير تقدير

منهم ، حيث كانوا قلة في وجه العدو ، الذي جاء بجيش جرار ، يريد استئصالهم بضربة قاضية .

(211/313)

---

ولكن الله - سبحانه - صنع للمسلمين في هذه المعركة ، وأراهم نصره وتأيدته لأولياته . . . فكانت يد الله هي التي ردت عنهم هذا العدو ، وهي التي أظفرتهم بقريش ، وما خلفت وراءها في المعركة من عتاد ومتاع ، وكان المنتظر أن يكون المسلمون غنيمة ليد المشركين يومئذ ، لأن يكون المشركون غنيمة لهم .

إذن فهذه المغانم التي وقعت لأيدي المسلمين هي « أنفال » . . . والأنفال :

جمع نفل ، وهو ما جاء زائدا عن المطلوب . . . ومنه النوافل في الطاعات والعبادات ، وهو

ما جاء زائدا عن المطلوب . . . ومن هذا قوله تعالى للنبي الكريم : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ

نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » (79 : الإسراء) فتشهد النبي بالقرآن

الكريم في الليل هو تكليف خاص بالنبي ، ليرفعه الله بهذه العبادة الواجبة عليه مقاما فوق

مقامه . . . أما المسلمون فلهم في النبي الكريم الأسوة والقدوة . . . وعلى هذا فالتهجد

بالقرآن أمر مطلوب من المسلمين على سبيل الاستحباب لا الوجوب ، وليس الشأن هكذا

بالنسبة للنبي الذي اختصه الله بهذا التكليف ، فجعل التهجد بالقرآن فرضا عليه .  
ومن ذلك قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا  
جَعَلْنَا صَالِحِينَ » (72 : الأنبياء) .

فإسحق هو ابن إبراهيم ، وقد جاءه على كبر ، بعد أن بلغ هو وامرأته سنّ اليأس . . فهو  
أشبه بالنافلة ، لأنه جاء على غير انتظار . . وكذلك « يعقوب » وهو ابن إسحق ، وقد  
بشّر به إبراهيم كما بشر بإسحاق . .

فهو نافلة النافلة ، إذ لم يكن إبراهيم يرجو أكثر من أن يكون له ولد . .  
أما ولد الولد فهو أبعد ما يكون عن توقعه والتطلع إليه ، بعد أن بلغ من الكبر عتياً .

(212/313)

---

نقول هذا لتبين الفرق بين « الأنفال » و « المغنم » . . إذ كانت « الأنفال » قد وقعت  
لأيدي المسلمين يوم بدر على غير ما يتوقعون . .

(213/313)

---



أما المغنم التي سيغنمها المسلمون فيما بعد ، فهي عن بلاء وعمل ظاهرين منهم ، حيث يستقل المسلمون بأمرهم . بعد بدر . في لقاء العدو ، دون أن يلتفتوا إلى أمداد من الملائكة تقاتل معهم ، كما رأوا ذلك في « بدر » ، وإن كان تأييد الله وعونه لهم غير منقطع عنهم أبدا . . . فهذه المغنم التي غنمها المسلمون يوم بدر أقرب إلى الأنفال منها إلى المغنم ، ولهذا سماها الله سبحانه وتعالى « أنفالا » ليدكر المسلمون بهذه التسمية ما كان لله من فضل عليهم فيها .

وإذن فقوله تعالى : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » . . . ليس ناسخا لما جاء في أول السورة في قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » . . . كما يقول بذلك أكثر المفسرين . . . فهذه الآية تقرر حكما في شأن الغنائم ، أما آية أول الأنفال ، فهي خاصة بحكم الأنفال . . . و فرق بين الغنائم والأنفال . . . وإذن فلا تناسخ بين الآيتين .

والأنفال . كما قلنا . هي التي تقع ليد المسلم من غير قتال ، أو بقتال لم يكونوا فيه إلا مظهرا تخفى وراءه يد الله التي تكذب لهم النصر ، وتمنحهم الغلب .

ولهذا ، فقد ظل حكم الأنفال قائما ، إلى جوار الحكم الخاص بالغنائم . . . فكان ما يقع للمسلمين من غير بلاء هو « أنفال » يكون أمرها لله ولرسول الله . . . وما يقع لهم من غنائم فهو على الحكم الذي بينته الآية الكريمة : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » . . . الآية » والتي

سنعرض لشرحها بعد قليل .

ففى غزوة خيبر سلم اليهود للنبيّ والمسلمين من غير قتال ، وذلك بعد

(214/313)

---

أن سار إليهم النبيّ والمسلمون بعد صلح الحديبية ، فلما استشعروا الهزيمة والهلاك أعطوا يدهم واستسلموا صاغرين . . وفى هذا نزل قوله تعالى : «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا» . . وقد اعتبرت مغنم خيبر أنفالا ، كلها ليد الرسول ، ينفقها فيما أمره الله به أن ينفقها فيه . . وفى هذا يقول الله تعالى :

« وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ 1 « عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . . ثم يقول سبحانه بعد هذا : « مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » (6.7 : الحشر) .

فقد جعل الله سبحانه الفية هنا كله لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين ، ولم يجعل فيه نصيبا مفروضا للمجاهدين ، حيث لم تقع حرب ، ولم يكن قتال . . نعود بعد

هذا إلى شرح الآيات :

فقوله تعالى : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ  
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ » هو بيان لحكم الله في الغنائم التي يغنمها المجاهدون  
بسيوفهم في القتال . . فهي ثمرة عاجلة من ثمرات جهادهم . . ولو كان القتال لحسابهم  
لكانت هذه المغانم كلها لأيديهم ، وأما وهم إنما يقاتلون لحساب الإسلام ، ولإعلاء كلمة الله  
، فقد وجب أن يكون لله حق في هذه المغانم ، بل وجب أن تكون هذه المغانم كلها

---

(1) قوله تعالى : « فَمَا أُوجِبْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » أي فما هجمتم عليه بخيل ولا

ركاب ، أي إبل . . وأصل الوجيف الاضطراب ، ومنه قوله تعالى :

« قُلُوبٌ يُؤْمِنُ وَجُنُودٌ يُؤْمِنُ وَاجِفَةٌ » . وهذا هو شأن الخيل والإبل وخفقتها في السير .

(215/313)

---

حقاً لله . . ولكن الله سبحانه وتعالى عاد بفضلته على المجاهدين ، فعجل لهم هذه  
الثمرة من جهادهم ، وجعلها حظاً مشاعاً بينهم ، بعد أن يخرج منها الخمس الذي هو لله  
ولرسوله ولذی القربى والیتامى والمساکین وابن السبیل .

فالمغانم التي يغنمها المجاهدون في القتال تقسم هكذا :

الخمسة: لله ولرسول . . ولذو القربى . . واليتامى . . والمساكين . . وابن السبيل . .  
فهذا الخمس من الغنائم موزع على خمسة أقسام:  
قسم لله . . وما كان لله فهو لرسول الله . . وقسم لذو القربى من رسول الله . . من بنى  
عبد المطلب وبنى هاشم . . وثلاثة أقسام للفقراء والمساكين وابن السبيل . .  
أما أربعة الأقسام الباقية من المغنم بعد مخرج هذا الخمس منها ، فهي للمجاهدين الذين  
قاتلوا على تلك الغنائم . . تقسم بالسوية بينهم . . لكل مقاتل سهم . .

(216/313)

---

وفى التسوية بين المجاهدين ، مع اختلافهم فى القوة والضعف ، حيث يكون فيهم من يرجح  
بعشرات الأبطال ، على حين يكون فيهم من هو دون ذلك بكثير. فى هذه التسوية احتفاء  
بالجهاد من حيث هو جهاد ، وتكريم للمجاهدين من حيث هم على نية الجهاد ، وفى  
ميدان القتال ، ومعرض الاستشهاد . . فهذا هو الذي يحكم الناس فى هذا المجال . . أما  
فضل بعض المجاهدين على بعض فى البأس والقوة ، والنكاية بالعدو ، فذلك - وإن كان له  
حسابه وجزاؤه. إلا أنه لا يصح أن يكون بالمكان الذي يجعل من المجاهدين درجات ،  
ومنازل . . فهم جميعا على درجة واحدة ، مع تلك النيات التي انعقدت منهم على الجهاد ،

ومع هذا الموقف الذي واجهوا فيه الاستشهاد في سبيل الله . .

وقد وقع في نفس بعض المسلمين شيء من هذا ، بل ربّما كان ذلك من أقويائهم وضعفائهم على السواء . . حين نظر بعض الأقوياء فرأوا أن في التسوية بينهم وبين الضعفاء في الغنائم غبنا لهم من الجانب المادى ، الذي ربّما ينسحب على الأجر الأخرى . . على حين نظر الضعفاء إلى حظهم المادى الذي تساوا فيه مع الأقوياء ، فوقع في أنفسهم أن ذلك ربّما لا ينسحب على حظهم الأخرى ، فلا يكون لهم من الجزاء الأخرى ما لإخوانهم الأقوياء ! . .

روى أحمد في مسنده عن سعد بن أبي وقاص ، قال : قلت : يا رسول الله . .

الرجل يكون حامية القوم . . سهمه وسهم غيره سواء . . ؟ فقال : « شكلك أمك ابن أم سعد ! وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ؟ » .

ثم كان من عمل الرسول بعد أن اتصل التحام المسلمين بالمشركين أن جعل للفارس سهمين : له سهم ، ولفرسه سهم . . أما الراجل فله سهم واحد . .

(217/313)

---

وذلك ليستحث المسلمين على اقتناء الخيل ، وإعدادها للقتال ، لتكون سلاحا عاما  
منهم فى الجهاد ، ولهذا جاء قوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ  
الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » . جاء قوله تعالى هنا منبها إلى قيمة الخيل ، وملفتا  
النظر إلى آثارها فى ميدان الحرب ، وأنها . وعليها فرسانها . مصدر رهبة ، ومثار فزع  
ورعب للعدو ، الأمر الذى إن تحقق للمسلمين فى عدوهم كان أول ضربة ، يصيبون بها  
العدو فى مقاتله . .

هذا ، وقد اختلف فى الخمس الذى كان للرسول ، مع الخمس الذى كان لقرابته ، مما جعله  
الله لهما فى خمس الغنائم الذى توزع إلى خمسة أخماس . . وذلك بعد وفاة الرسول  
صلوات الله وسلامه عليه .

أما خمس الرسول ، فهو خمس الله الذى أضافه الله سبحانه إلى رسوله . .  
وعلى هذا يضاف هذا الخمس إلى ثلاثة الأقسام التى لليتامى والمساكين وابن السبيل . .  
وأما خمس ذوى القربى فقد أباه أبو بكر رضى الله عنه عليهم بعد وفاة النبىؐ ، واعتبره  
ميراثا . . فقد كان النبىؐ ينفق منه على ذوى قرابته ، فلما توفى . صلوات الله وسلامه  
عليه . لم يكن لذوى قرابته حق فيه ، عملا بقول الرسول الكريم : « نحن معاشر الأنبياء لا  
نورث . . ما تركناه صدقة » .

وقد أخذ عمر بهذا بعد أبى بكر ، كما أخذ به عثمان ، ثم على . . رضى الله عنهم ،

وأبى على كرم الله وجهه أن يخرج على ما سار عليه الخلفاء الراشدون قبله . . وإن كان من رأيه . كاجتهاد له . أن خمس ذوى القربى حق لهم بعد الرسول ، كما هو حق لهم فى حياته . وبهذا الرأى أخذ الإمام الشافعي ، وبعض الأئمة ، كما أنه هو الرأى المعتمد عند الشيعة .

(218/313)

---

وقوله تعالى : « إِن كُنتُمْ آمِنُكُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . . هو تأكيد لتلك الدعوة التي دعى إليها المجاهدون من الله سبحانه ، بأن يجعلوا مما يغمون . . خمس هذه الغنائم ، لله وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل . .

فهذا الحكم الذي قضى به الله سبحانه ، هو دعوة منه سبحانه إلى من آمن به . . فإن من شأن من آمن بالله أن يتقبل أحكامه راضياً مطمئناً ، لا يطوف بنفسه طائف من الضيق أو الحرج . .

والإسلام حريص أشد الحرص على سلامة نفوس المجاهدين ، وتصفيتها من أية شائبة تعلق بها فى هذا الوطن ، الذي ينبغى أن يكون المسلم فيه ، على ولاء مطلق للقضية التي يقاتل

فى سبيلها ، ويستشهد راضيا قرير العين من أجلها ، الأمر الذي لا يتحقق إذا تسرب إلى النفوس شىء من دخان الضيق أو الشك .

ولهذا ، فإن من تدير الحكيم العليم فى هذا ، أنه بعد أن شدّ المؤمنين إلى الإيمان الذي وصلهم بالله ، وأقامهم على الجهاد فى سبيله . ذكرهم بما يمدّهم به من

(219/313)

---

أمداد عونته ونصره ، وهم فى مواجهة العدو ، وفى ملتحم القتال معه ، وأنهم إنما ينتصرون على أعدائهم بتلك الأمداد التي يمدّهم الله بها . . فإن نسوا هذا فليذكروا ما أنزل الله على عبده «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» أي يوم بدر ، حيث كان يوما فارقا بين الحق والباطل . . بين الإيمان والكفر . . «يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ» جمع المسلمين ، وجمع الكافرين . . فقد شهد المسلمون فى هذا اليوم كيف كانت أمداد السماء تنزل عليهم ، وكيف كانت آثار هذه الأمداد فى عدوّهم ، وفى دحره وهزيمته . . «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» لا يعجزه شىء ، فإن بيده . سبحانه وتعالى . مقاليد كل شىء : يعزّ من يشاء ويذل من يشاء ، وينصر من يشاء ، ويهزم من يشاء : «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» . . فالذى أنزله الله على عبده يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، هو هذا المدد السماوي



من الملائكة . . وإيمان المسلمين بهذا المدد : هو التصديق بنزول الملائكة ومظاهرتهم لهم  
في هذا اليوم . ، فهذا خبر جاء به القرآن يجب على كل مؤمن أن يؤمن به ! . انتهى انتهى . ا  
هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن ح 5 ص 612.619 ﴾

(220/313)

وقال صاحب المنار :

﴿ وَاَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾  
تقدّم وجه التناسب بين الآيات من أول السورة إلى هنا ، وفي هذه الآية عود إلى وصف  
غزوة بدر ، وما فيها من الحكم والعبر والأحكام ، وقد بدى هذا السياق بحكم شرعي  
يتعلق بالقتال وهو تخميس الغنائم ، كما بدت السورة بذكر  
الأنفال (الغنائم) التي اختلفوا فيها

(221/313)

وَتَسَاءَلُوا عَنْهَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، وَالْمُنَاسِبَةُ بَيْنَ الْآيَةِ هُنَا وَمَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةٌ ظَاهِرَةٌ ، فَقَدْ  
 جَاءَ فِي الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَهَا الْأَمْرُ بِقِتَالِ الْكُفَّارِ الْمُعْتَدِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَفْتِنُونَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ  
 دِينِهِمْ ، حَتَّى لَا تَكُونَ قِتْنَةٌ ، وَوَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ يَسْتَبَعُ أَخْذَ الْغَنَائِمِ  
 مِنْهُمْ فَنَاسَبَ أَنْ يُذَكَّرَ بَعْدَهُ مَا يُرْضِيهِ سُبْحَانَهُ فِي قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ ، وَإِنَّا نَذَكُرُ أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ  
 فِي الْغَنِيمَةِ ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا أَوْ عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنْهَا ، كَالْفِيءِ وَالنَّفْلِ وَالسَّلْبِ وَالصَّفِيِّ قَبْلَ  
 تَفْسِيرِ الْآيَةِ لِطَوْلِهِ : حَتَّى لَا يَخْتَلِطَ بِمَدْلُولِ الْأَفْظَانِ فَنَقُولُ : الْغَنِمُ بِالضَّمِّ وَالْمَغْنَمُ وَالْغَنِيمَةُ فِي  
 اللُّغَةِ : مَا يُصِيبُهُ الْإِنْسَانُ وَيَنَالُهُ وَيَظْفَرُ بِهِ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ ، كَذَا فِي الْقَامُوسِ ، وَهُوَ قَيْدٌ يُشِيرُ  
 إِلَيْهِ ذَوْقُ اللُّغَةِ أَوْ يَشْتَمُّ مِنْهُ مَا يُقَارِبُهُ ، وَلَكِنَّهُ غَيْرٌ دَقِيقٍ ، فَمِنْ الْمَعْلُومِ بِالْبَدَاهَةِ أَنَّهُ لَا يُسَمَّى  
 كُلُّ كَسْبٍ أَوْ رَيْحٍ أَوْ ظَفَرٍ بِمَطْلُوبِ غَنِيمَةٍ ، كَمَا أَنَّ الْعَرَبَ أَنْفُسَهُمْ قَدْ سَمَّوْا مَا يُؤْخَذُ مِنْ  
 الْأَعْدَاءِ فِي الْحَرْبِ غَنِيمَةً ، وَهُوَ لَا يَخْلُو مِنْ مَشَقَّةٍ ، فَالْمُبَادِرُ مِنَ الْاسْتِعْمَالِ أَنَّ الْغَنِيمَةَ  
 وَالْغَنَمَ : مَا يَنَالُهُ الْإِنْسَانُ ، وَيَظْفَرُ بِهِ مِنْ غَيْرِ مُقَابِلِ مَا دَيَّ يَبْذُلُهُ فِي سَبِيلِهِ (كَالْمَالِ فِي  
 التِّجَارَةِ مَثَلًا) ، وَلِذَلِكَ قَالُوا : إِنَّ الْغَرْمَ ضِدُّ الْغَنَمِ ، وَهُوَ مَا

(222/313)

يَحْمِلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ حُسْرٍ وَضُرَرٍ بَغَيْرِ جَنَابَةٍ مِنْهُ ، وَلَا خِيَانَةٍ يَكُونُ عِقَابًا عَلَيْهِمَا . فَإِنْ  
جَاءَتِ الْغَنِيمَةُ بِغَيْرِ عَمَلٍ وَلَا سَعْيٍ مُطْلَقًا سُمِّيَتْ الْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ . وَفِي كَلِمَاتِ أَبِي الْبَقَاءِ  
: الْغَنِمُ بِالضَّمِّ : الْغَنِيمَةُ ، وَغَنِمْتُ الشَّيْءَ : أَصَبْتُهُ غَنِيمَةً وَمَغْنَمًا ، وَالْجَمْعُ غَنَائِمٌ وَمَغَانِمٌ  
وَالْغَنِمُ بِالغَرَمِ "أَيُّ مُقَابِلٍ بِهِ . وَغَرِمْتُ الدِّيَةَ وَالِدَيْنِ : أَدَيْتُهُ . وَيَتَعَدَّى بِالتَّضْعِيفِ يُقَالُ :  
غَرِمْتُهُ ، وَبِالْأَلْفِ (أَغْرَمْتُهُ) : جَعَلْتُهُ لِي غَارِمًا . وَالْغَنِيمَةُ أَعْمٌ مِنَ النَّفْلِ ، وَالْفِيءُ أَعْمٌ مِنَ  
الْغَنِيمَةِ ؛ لِأَنَّهُ اسْمٌ لِكُلِّ مَا صَارَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الشَّرْكِ بَعْدَ مَا تَضَعُ الْحَرْبُ  
أَوْزَارَهَا ، وَتَصِيرُ الدَّارُ دَارَ الْإِسْلَامِ . وَحُكْمُهُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يَخْمَسُ .  
وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ الْغَنِيمَةَ مَا أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ عَنُودَةً يُقَاتَلُ ، وَالْفِيءُ مَا كَانَ عَنْ صُلْحٍ  
بِغَيْرِ قِتَالٍ . وَقِيلَ : النَّفْلُ إِذَا اعْتُبِرَ كَوْنُهُ مَظْفُورًا بِهِ يُقَالُ

(223/313)

لَهُ غَنِيمَةٌ ، وَإِذَا اعْتُبِرَ كَوْنُهُ مَنُوحَةً مِنَ اللَّهِ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ وَجُوبٍ يُقَالُ لَهُ : نَفْلٌ وَقِيلَ : الْغَنِيمَةُ  
مَا حَصَلَ مُسْتَعْنَمًا بَتَعَبٍ كَانَ أَوْ بَغَيْرِ تَعَبٍ ، وَبِاسْتِحْقَاقٍ كَانَ أَوْ بَغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ ، وَقَبْلَ  
الظَّفَرِ أَوْ بَعْدَهُ . وَالنَّفْلُ مَا يَحْصُلُ لِلإِنْسَانِ قَبْلَ (قِسْمَةِ) الْغَنِيمَةِ مِنْ جُمْلَةِ الْغَنِيمَةِ . وَقَالَ  
بَعْضُهُمْ : الْغَنِيمَةُ وَالْجِزْيَةُ وَمَالُ الصُّلْحِ وَالْخَرَاجُ كُلُّهُ فِيءٌ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى

المؤمنين . وعند الفقهاء : كل ما يحل أخذه من أموالهم فهو فيء اهـ .  
والتحقيق أن الغنيمة في الشرع : ما أخذهُ المسلمون من المنقولات في حرب الكفار عنوةً ،  
وهذه هي التي تخمسُ فخمسها لله وللرسول كما سيأتي تفصيله ، والباقي للغانمين  
يقتسم بينهم . وأما الفيء فهو عند الجمهور ما أخذ من مال الكفار المحارِبين بغير قهر  
الحرب لقوله تعالى : وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب  
(59 : 6) الآية وهو لمصالح جمهور المسلمين ، وقيل كالغنيمة .

(224/313)

---

ويدخل في هذا الباب (التفل) بالمعنى الخاص ، وهو ما يُعطيه الإمام لبعض الغزاة بعد  
القسمة زيادة على سهمه من الغنائم لمصلحة استحقة بها قيل : يكون من خمس الخمس  
(والسلب) وهو ما يسلب من المقتول في المعركة من سلاح وثياب ، وخصه الشافعي  
بأداة الحرب يُعطى للقاتل قيل : مطلقاً . وقيل : إذا جعل الإمام له ذلك كما قال النبي صلى  
الله عليه وسلم : من قتل قتيلاً فله سلبه لما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي قتادة رضي  
الله عنه . و(الصفى) وكان للرسول . صلى الله عليه وسلم . أن يضطفي لنفسه شيئاً من  
الغنيمة يكون سهماً له خاصاً به سواء كان من السبي أو الخيل أو الأسلحة أو غيرها من

التَّفَاسِيسِ قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ ذَلِكَ خَاصًّا بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ ذَلِكَ  
لِلْإِمَامِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ إِمَامٌ .

(تَفْسِيرُ الْآيَةِ)

وَأَعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَساكِينِ  
وَأَبْنِ السَّبِيلِ هَذَا عَطْفٌ عَلَى الْأَمْرِ بِالْقِتالِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فِي الْآيَتَيْنِ

(225/313)

---

الَّتَيْنِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا تَقَدَّمَ آنفًا وَ "أَنَّ مَا" رُسِمَتْ فِي مُصْحَفِ الْإِمَامِ مَوْصُولَةً هَكَذَا :  
أَنَّما وَالْجُمُهورُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ عَلَى أَنَّ ابْتِدَاءَ فَرَضِ قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ  
كَانَ بِهَا ، وَلَكِنَّ أَهْلَ السَّبِيلِ اخْتَلَفُوا فِيهَا فَرَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّها شَرَعَتْ يَوْمَ قُرَيْظَةَ ، وَبَعْضُهُمْ أَنَّها  
لَمْ تُبَيِّنْ بِالصَّرَاحَةِ إِلَّا فِي غَنَائِمِ حُنَيْنٍ ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحاقَ : فِي سَرِيَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ  
الَّتِي كَانَتْ فِي رَجَبٍ قَبْلَ بَدْرٍ بِشَهْرَيْنِ ، قَالَ : ذَكَرَ لِي بَعْضُ آلِ جَحْشٍ أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ  
لِأَصْحَابِهِ : إِنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِمَّا غَنِمْنَا الْخُمْسَ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ  
يُفْرَضَ لِلَّهِ الْخُمْسَ ، فَعَزَلَ لَهُ الْخُمْسَ ، وَقَسَمَ سَائِرَ الْغَنِيمَةِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ (قَالَ) : فَوَقَعَ  
رِضا اللَّهُ بِذَلِكَ ، وَقَالَ السُّبْكِيُّ : نَزَلَتْ الْأَنْفالُ فِي بَدْرٍ وَغَنَائِمِها . وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ آيَةَ

قِسْمَةَ الْغَنِيمَةِ نَزَلَتْ بَعْدَ تَفْرِقَةِ الْغَنَائِمِ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ السَّيْرِ نَقَلُوا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
قَسَمَهَا عَلَى السَّوَاءِ ، وَأَعْطَاهَا لِمَنْ شَهِدَ الْوُقُوعَةَ أَوْ غَابَ لِعُذْرٍ تَكَرَّمَا مِنْهُ ؛ لِأَنَّ الْغَنِيمَةَ  
كَانَتْ أَوْلَى بِنَصِّ أَوَّلِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (قَالَ) : وَلَكِنْ يُعَكَّرُ عَلَى  
مَا قَالَ أَهْلُ السَّيْرِ حَدِيثُ عَلِيٍّ حَيْثُ قَالَ : وَأَعْطَانِي شَارِفًا مِنَ الْخُمْسِ يَوْمَئِذٍ ؛ فَإِنَّهُ  
ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُ كَانَ فِيهَا خُمْسٌ أَه .

(226/313)

وَالْمُرَادُ بِحَدِيثِ عَلِيٍّ مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي أَوَّلِ كِتَابِ فِرَاضِ الْخُمْسِ وَغَيْرِهِ عَنْهُ قَالَ :  
كَانَتْ لِي شَارِفٌ مِنْ نَصِيبِي مِنَ الْمَغْنَمِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَانِي  
شَارِفًا مِنَ الْخُمْسِ الْخ . قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ مِنَ الْفَتْحِ عَقَبَ نَقْلَ عِبَارَةِ السُّبُكِيِّ :  
وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ

قِسْمَةَ غَنَائِمِ بَدْرٍ وَقَعَتْ عَلَى السَّوَاءِ بَعْدَ أَنْ أُخْرِجَ الْخُمْسُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قِصَّةِ سَرِيَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ وَأَفَادَتْ آيَةَ الْأَنْفَالِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى :  
وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ إِلَى آخِرِهَا بَيَانَ مَصْرِفِ الْخُمْسِ لِمَشْرُوعِيَّةِ أَصْلِ الْخُمْسِ ، وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ .

ثُمَّ قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِ حَدِيثِ حِلِّ الْغَنَائِمِ لَنَا دُونَ مَنْ قَبْلَنَا : وَكَانَ أِبْتِدَاءُ ذَلِكَ مِنْ غَزْوَةِ  
بَدْرٍ ، وَفِيهَا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا (8 : 69) فَأَحَلَّ اللَّهُ لَهُمُ الْغَنِيمَةَ  
. وَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَدْ قَدَّمْتُ

فِي أَوَائِلِ فَرَضِ الْخُمْسِ أَوَّلَ غَنِيمَةٍ خُمِسَتْ غَنِيمَةُ السَّرِيَّةِ الَّتِي خَرَجَ فِيهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
جَحْشٍ ، وَذَلِكَ قَبْلَ بَدْرِ بِشَهْرَيْنِ ، وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بِمَا ذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ . أُخْرَ غَنِيمَةُ تِلْكَ السَّرِيَّةِ حَتَّى رَجَعَ مِنْ بَدْرِ فَقَسَمَهَا مَعَ غَنَائِمِ بَدْرِ اهـ .

(227/313)

---

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ : كَانَ الْخُمْسُ فِي غَزْوَةِ بَنِي قَيْنُقَاعَ بَعْدَ بَدْرِ بِشَهْرَيْنِ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لِلنَّصْفِ مِنْ  
شَوَّالٍ عَلَى رَأْسِ عِشْرِينَ شَهْرًا مِنَ الْهَجْرَةِ . وَإِنَّمَا يَصِحُّ هَذَا الْقَوْلُ إِذَا أُريدَ بِهِ أَنَّ أَوَّلَ غَنِيمَةٍ  
غُنِمَتْ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ غَنِيمَةُ الْغَزْوَةِ الْمَذْكُورَةِ بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي جُمْلَةٍ  
السُّورَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْقِتَالِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَالصَّوَابُ مَا حَقَّقَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ  
وَذَكَرْنَاهُ آنفًا .

(228/313)

وَقَالَ فِي فَتْحِ الْبَيَانِ : وَأَمَّا مَعْنَى الْغَنِيمَةِ فِي الشَّرْعِ فَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ الْإِتِّفَاقَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : أَمَّا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ مَالِ الْكُفَّارِ إِذَا ظَفَرَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى وَجْهِ الْغَلْبَةِ وَالْقَهْرِ . قَالَ : وَلَا يَقْتَضِي فِي اللَّغَةِ هَذَا التَّخْصِيسَ ، وَلَكِنْ عَرَّفَ الشَّرْعُ قَيْدَ هَذَا اللَّفْظِ بِهَذَا التَّنَوُّعِ . وَقَدْ ادَّعَى ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ قَوْلِهِ : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ (8) :

1) حِينَ تَشَاجَرُ أَهْلُ بَدْرٍ فِي غَنَائِمٍ بَدْرٍ وَقِيلَ : إِنَّهَا - يَعْنِي آيَةَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ مُحْكَمَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ ، وَأَنَّ الْغَنِيمَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَيْسَتْ مَقْسُومَةً بَيْنَ الْغَانِمِينَ ، وَكَذَلِكَ لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأُمَّةِ . حَكَاهُ الْمَأْوَرِدِيُّ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ قَالُوا : وَلِلْإِمَامِ أَنْ يُخْرِجَهَا عَنْهُمْ . وَاحْتَجُّوا بِفَتْحِ مَكَّةَ وَقِصَّةِ حُنَيْنٍ . وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ : افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَكَّةَ عَنُوتًا وَمَنْ عَلَى أَهْلِهَا فَرَدَّهَا عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُقْسِمِهَا وَلَمْ يُجْعَلْهَا فَيْئًا .

(229/313)

" وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعُ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِ الْغَنِيمَةِ لِلْغَانِمِينَ ، وَمَنْ حَكَى ذَلِكَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَالِدَاوُدِيُّ وَالْمَازِرِيُّ وَالْقَاضِي عِيَاضُ وَابْنُ الْعَرَبِيِّ .



وَالْحَادِيثُ الْوَارِدُ فِي قِسْمَةِ الْغَنِيمَةِ بَيْنَ الْغَانِمِينَ كَثِيرَةٌ جَدًّا . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ فِيمَا أَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ الْآيَةِ نَاسِخٌ لِقَوْلِهِ : وَعَلِمُوا أَنَّ غَنِمَتُمُ الْآيَةَ . بَلْ قَالَ الْجُمْهُورُ : إِنَّ قَوْلَهُ : وَعَلِمُوا أَنَّ غَنِمَتُمُ نَاسِخٌ وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ التَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ لِكِتَابِ اللَّهِ . وَأَمَّا قِصَّةُ مَكَّةَ فَلَا حُجَّةَ فِيهَا ، لِاخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِي قُحِّهَا . (قَالَ) :  
وَأَمَّا قِصَّةُ حُنَيْنٍ فَقَدْ عَوَّضَ الْأَنْصَارَ - لَمَّا قَالُوا : يُعْطِي الْغَنَائِمَ قُرَيْشًا وَيَتْرَكُنَا وَسَيُوفُنَا نَقْطَرُ مِنْ دِمَائِهِمْ - نَفْسَهُ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَالَ : " أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . إِلَى يُيُوتِكُمْ ؟ " كَمَا فِي مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ .  
وَلَيْسَ لغيرِهِ أَنْ يَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ بَلْ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِ .

(230/313)

وَالْتَحْقِيقُ أَنَّ مَكَّةَ فَتَحَتْ عُنُودًا ، وَأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَعْتَقَ أَهْلَهَا فَقَالَ : " أَنْتُمْ الطَّلَقَاءُ " وَأَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تَفْتَحُ عُنُودًا لَا يَجِبُ قِسْمُهَا كَالْغَنَائِمِ الْمُنْقُولَةِ ، بَلْ يَعْمَلُ الْإِمَامُ فِيهَا بِمَا يَرَى فِيهِ الْمَصْلَحَةَ ، دَعَا مَا مَيَّزَ اللَّهُ بِهِ مَكَّةَ عَلَى سَائِرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ بَيْتِهِ وَشَعَائِرِ دِينِهِ حَتَّى قِيلَ : إِنَّهَا لَا تُمَلِّكُ . وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ تَعَارُضٌ يُتَقَصَّى مِنْهُ بِالنَّسْخِ ،

فَالْأُولَى نَاطِقَةٌ بِأَنَّ الْأَنْفَالَ لِلَّهِ يَحْكُمُ فِيهَا بِحُكْمِهِ ، وَلِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُنْفِذُ  
حُكْمَهُ تَعَالَى بِالْبَيَانِ وَالْعَمَلِ وَالْاجْتِهَادِ . وَالثَّانِيَةُ نَاطِقَةٌ بِوُجُوبِ اخْتِزِ خُمْسِ الْغَنَائِمِ ،  
وَتَقْسِيمِهِ عَلَى مَنْ ذَكَرَ فِيهَا . فَهِيَ إِذَا مُبَيَّنَّةٌ لِأَجْمَالِ الْأُولَى ، وَمُفَسَّرَةٌ لَهَا لِأَنَّهَا نَاسِخَةٌ .

(231/313)

وَمَعْنَى الْآيَةِ : وَاعْلَمُوا أَنَّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ كُلَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنَ الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ ، فَالْحَقُّ الْأَوَّلُ  
الْوَاجِبُ فِيهِ أَنَّ خُمْسَهُ لِلَّهِ تَعَالَى يُصْرَفُ فِيمَا يُرْضِيهِ مِنْ مَصَالِحِ الدِّينِ الْعَامَّةِ : كَالدَّعْوَةِ إِلَى  
الْإِسْلَامِ ، وَعِمَارَةِ الْكُعْبَةِ وَكُسُوتِهَا ، وَإِقَامَةِ شَعَائِرِهِ تَعَالَى ، وَلِلرَّسُولِ يَأْخُذُ كِفَايَتَهُ مِنْهُ  
لِنَفْسِهِ وَنِسَائِهِ ، وَكَانَ يُمَوِّئُهُنَّ إِلَى سَنَةِ ، وَلِذِي الْقُرْبَى أَيُّ أَقْرَبِ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ إِلَيْهِ نَسَبًا  
وَوَلَاءً وَنُصْرَةً ، وَهُمْ الَّذِينَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ كَمَا حُرِّمَتْ عَلَيْهِ تَكْرِيمًا لَهُ وَلَهُمْ بِالتَّبَعِ لَهُ  
عَنْ أَنْ يَكُونَ رِزْقُهُمْ مِنْ أَوْسَاحِ النَّاسِ ، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حَمَلٍ مِنْهُمْ . وَقَدْ خَصَّ الرَّسُولُ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَلِكَ بِنَبِيِّ هَاشِمٍ وَبِنَبِيِّ أَخِيهِ الْمُطَّلَبِ الْمُسْلِمِينَ دُونَ بَنِي أَخِيهِ  
الشَّقِيقِ بِلِ التَّوَعْمِ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَأَخِيهِ  
لِأَبِيهِ نَوْفَلٍ ، وَكُلُّهُمْ أَوْلَادُ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَيَلِي ذَوِي الْقُرْبَى الْمُحْتَاجُونَ مِنْ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ  
وَهُمُ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ وَأَبْنُ السَّبِيلِ .

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ - وَهُوَ مِنْ بَنِي نُوْفَلٍ - قَالَ مَشَيْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ  
- وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ  
أَعْطَيْتَ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَتَرَكْنَا وَنَحْنُ وَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إِنَّمَا بَنُو الْمُطَّلِبِ وَبَنُو هَاشِمٍ شَيْءٌ وَاحِدٌ" هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي  
الْخُمْسِ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ "فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ لَاءِ بَنُو  
هَاشِمٍ لَا نُنْكِرُ فَضْلَهُمْ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي وَضَعَكَ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَمَا بَالُ إِخْوَانِنَا بَنِي الْمُطَّلِبِ  
أَعْطَيْتَهُمْ وَتَرَكْنَا؟" فَقَالَ: إِنَا وَبَنُو الْمُطَّلِبِ لَمْ نَفْتَرِقْ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَإِنَّمَا نَحْنُ  
وَهُمْ شَيْءٌ وَاحِدٌ "وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ أَيْ . وَمِنْ هَذَا الْإِتِّحَادِ بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ، وَبَنِي  
الْمُطَّلِبِ فِي الْوَلَاءِ وَالنُّصْرَةِ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ قُرَيْشًا لَمَّا كَتَبَتِ الصَّحِيفَةَ،  
وَأَخْرَجَتْ بَنِي هَاشِمٍ مِنْ مَكَّةَ، وَحَصَرَتْهُمْ فِي الشَّعْبِ لِحِمَايَتِهِمْ

لَهُ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . دَخَلَ مَعَهُمْ فِيهِ بَنُو الْمُطَلَبِ ، وَلَمْ تَدْخُلْ بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ ، وَلَا بَنُو  
نُوفَلٍ . وَمَعْلُومٌ مَا كَانَ مِنْ عِدَاوَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ لِبَنِي هَاشِمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ  
وَالْإِسْلَامِ ، فَقَدْ ظَلَّ أَبُو سُفْيَانَ يُقَاتِلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَيُؤَلِّبُ عَلَيْهِ الْمُشْرِكِينَ  
وَأَهْلَ الْكِتَابِ إِلَى أَنْ أَظْفَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ، وَدَانَتْ لَهُ الْعَرَبُ بِفَتْحِ مَكَّةَ - وَمَعْلُومٌ مَا كَانَ بَعْدَ  
الْإِسْلَامِ مِنْ خُرُوجِ مُعَاوِيَةَ عَلَى عَلِيٍّ وَقِتَالِهِ الْإِنِّحَ .

قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِ حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ بَعْدَ ذِكْرِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَوِي الْقُرْبَى : وَالْمُلَخَّصُ  
أَنَّ الْآيَةَ نَصَّتْ عَلَى اسْتِحْقَاقِ قُرْبَى النَّبِيِّ ، وَهِيَ مُتَحَقِّقَةٌ فِي بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ؛ لِأَنَّهُ شَقِيقٌ  
، وَفِي نُوفَلٍ إِذَا لَمْ تُعْتَبَرِ قَرَابَةُ الْأُمِّ . وَاخْتَلَفَ الشَّافِعِيُّ فِي سَبَبِ إِخْرَاجِهِمْ فَقِيلَ : الْعِلَّةُ  
(أَيُّ فِي الْاسْتِحْقَاقِ) الْقَرَابَةُ مَعَ النَّصْرَةِ ، فَذَلِكَ دَخَلَ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَلَبِ ، وَلَمْ يَدْخُلْ  
بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ وَبَنُو نُوفَلٍ لِفُقْدَانِ جُزْءِ الْعِلَّةِ أَوْ شَرْطِهَا ، وَقِيلَ : الْاسْتِحْقَاقُ بِالْقَرَابَةِ ،  
وَوُجِدَ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ وَنُوفَلٍ مَانِعٌ ، لِكُونِهِمْ  
أَنْحَازُوا عَنْ بَنِي هَاشِمٍ وَحَارِبُوهُمْ ، وَالثَّلَاثُ أَنَّ الْقُرْبَى عَامٌ مَخْصُوصٌ وَبَيْنَتُهُ السُّنَّةُ أَه .

(234/313)

وَحِكْمَةُ تَقْسِيمِ الْخُمْسِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ أَنَّ الدَّوْلَةَ الَّتِي تُدِيرُ سِيَاسَةَ الْأُمَّةِ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَالٍ  
تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ أَقْسَامٌ: أَوَّلُهَا مَا كَانَ لِلْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ كَشَعَائِرِ الدِّينِ ، وَحِمَايَةِ  
الْحُوزَةِ وَهُوَ مَا جُعِلَ لِلَّهِ فِي الْآيَةِ . وَثَانِيهَا : مَا كَانَ لِنَفَقَةِ إِمَامِهِمْ وَرِئِيسِ حُكُومَتِهَا ، وَهُوَ  
سَهْمُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهَا . وَثَالِثُهَا : مَا كَانَ لِأَقْوَى عَصَبَتِهِ وَأَخْلَصِهِمْ لَهُ ،  
وَأَظْهَرِهِمْ تَمَثِيلًا لِشَرَفِهِ وَكَرَامَتِهِ ، وَهُوَ سَهْمُ أَوْلِي الْقُرْبَى . وَرَابِعُهَا : مَا يَكُونُ لِدَوِي  
الْحَاجَاتِ مِنْ ضِعْفَاءِ الْأُمَّةِ وَهُمْ الْبَاقُونَ . وَهَذَا الْاِعْتِبَارُ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ لَا يَزَالُ مُرَاعَى ،  
وَمَعْمُولًا بِهِ فِي أَكْثَرِ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ مَعَ اخْتِلَافِ شُؤْنِ الْاجْتِمَاعِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ .  
فَأَمَّا الْمَالُ الَّذِي يُرْصَدُ لِهَذِهِ الْمَصَالِحِ فَهُوَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنْوَاعٌ ، يَدْخُلُ كُلُّ نَوْعٍ مِنْهُ فِي  
مِيزَانِيَةِ الْوِزَارَةِ الْمَوْكُولِ إِلَيْهَا أَمْرُ الْمَصْلَحَةِ الَّتِي خُصَّصَ لَهَا الْمَالُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْجَهْرِيَّةِ  
، وَإِلَّا وَكَلَّ إِلَى الْمُخَصَّصَاتِ السَّرِيَّةِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْحَرْبِيَّةِ كَالْتَجَسُّسِ  
وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَهُوَ كَثِيرٌ عِنْدَ جَمِيعِ الدُّوَلِ الْعَسْكَرِيَّةِ .

(235/313)

---

وَكَذَلِكَ رَأَتْهُ الدَّوْلَةُ مِنْ مَلِكٍ أَوْ رِئِيسِ جُمْهُورِيَّةٍ أَوْ غَيْرِهِ فَهُوَ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِيَّةِ  
الْعَامَّةِ لِلدَّوْلَةِ ، وَلَهُ عِنْدَهُمْ مَصَارِفٌ مِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِشَخْصِهِ وَعِيَالِهِ ، وَمِنْهَا مَا يَبْذُلُهُ

مِنَ الْإِعَانَاتِ لِلْجَمْعِيَّاتِ الْخَيْرِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَنَحْوِهَا . وَمِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِعَظَمَةِ الدَّوْلَةِ وَمَكَاتِهَا  
كَأَلْمَالِ الَّذِي يُنْفَقُهُ فِي ضِيَاةِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْعُظَمَاءِ الَّذِينَ يَزُورُونَ عَاصِمَتَهُ ،  
وَالدَّعَوَاتِ الَّتِي تُقَامُ فِي قَصْرِهِنَّ لِكِبَرَاءِ الْأَجَانِبِ ، وَكِبَرَاءِ الْأُمَّةِ فِي بَعْضِ الْمَوَاسِمِ وَالْأَحْوَالِ  
، وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى مِنْ جَمِيعِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ فِي الْعَالَمِ بِمَالٍ  
يُخْتَصُّ بِهِ ؛ لِأَنَّ وِظَانَهُ  
وَأَعْمَالَهُ لِلْأُمَّةِ أَكْبَرُ وَأَكْثَرُ ، وَمَقَامُهُ أَجَلٌ وَأَعْظَمُ ، وَهُوَ عَنِ الْكَسْبِ وَالِاسْتِغْلَالِ أَبْعَدُ ،  
وَأَوْقَاتُهُ عَنْهُمَا أَضْيَقُ .

وَأَمَّا أُولُو الْقُرْبَى مِنْ أُسْرَةِ الْمَلِكِ فَلَا تَزَالُ تُخَصُّهُمْ بَعْضُ الدُّوَلِ بِرَوَاتِبٍ لاثِقَةٍ بِهِمْ مِنْ مَالِ  
الدَّوْلَةِ ، وَيُقَدِّمُونَ أَفْرَادَهُمْ فِي التَّشْرِيفَاتِ الرَّسْمِيَّةِ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ

(236/313)

---

الْوُزَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَسَائِرِ الْكِبَرَاءِ كَمَا كَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، وَكَمَا هُوَ مَعَهُودٌ عِنْدَنَا فِي  
مِصْرَ حَتَّى بَعْدَ تَحْوِيلِ شَكْلِ الدَّوْلَةِ إِلَى الدُّسْتُورِيَّةِ الْبِرْلَمَانِيَّةِ فِيهَا . وَقَدْ كَانَتْ الْحَاجَةُ  
إِلَى مِثْلِ هَذَا طَبِيعَةً فِي الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ أَيَّامَ كَوْنِ قَوَامِ الدَّوْلَةِ وَقُوَّتِهَا بِعَصَبِيَّةِ الْمَلِكِ وَعَلَى  
رَأْسِهَا أُسْرَتُهُ ، وَالدَّوْلَةُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ تَحَافِظُ دَائِمًا عَلَى ثَرْوَةٍ رُءُوسِ الْبُيُوتَاتِ الَّتِي تُمَثِّلُ

عَظْمَةُ الْأُمَّةِ وَعَلَى كَرَامَتِهِمْ وَهُمْ اللُّورِدَاتُ ، لِيُظَلَّ فِيهَا سَرَوَاتٌ كَثِيرُونَ لَا يَشْغَلُهُمُ الْكَسْبُ  
عَنِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى شَرَفِهَا وَعَظَمَتِهَا ، وَلَا يَزَالُ نِظَامُ هَذِهِ الدَّوْلَةِ أَقْرَبَ النُّظْمِ إِلَى التَّشْرِيعِ  
الْإِسْلَامِيِّ وَسِيَاسَتِهِ . عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَيْسَ هُوَ الْمَنَاطُ التَّشْرِيعِيُّ لِسَهْمِ أَوْلِي الْقُرْبَى  
هُنَا ؛ لِأَنَّ الْمَسَاوَاةَ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ وَأَكْمَلُ مِنْهَا فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ ، وَلَكِنَّ لَهُ بَعْضَ الْعِلَاقَةِ بِهِ  
، وَهُوَ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بَعْضُهُمْ بِالنُّصْرَةِ مَعَ الْقَرَابَةِ الَّتِي هِيَ الْمَنَاطُ الْأَصْلِيُّ الْمَنْصُوصُ فِي  
الآيَةِ ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ لَهُ مَنَاطًا آخَرَ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ وَهُوَ تَحْرِيمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ . الصَّدَقَةَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ تَكْرِيمًا لَهُمْ ، وَهَذَا التَّكْرِيمُ لَهُمْ ذُو شَأْنٍ عَظِيمٍ فِي تَكْرِيمِهِ  
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَكِنْ لَمْ يُوضَعْ لَهُ نِظَامٌ يَكْفُلُ بَقَاءَ فَائِدَتِهِ بِجَعْلِهِمْ أُمَّةً لِلنَّاسِ فِي

(237/313)

---

الْعِلْمِ وَالْهُدَى وَذَكَرَى أَسْوَةَ النَّبُوَّةِ ، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى اسْتِقْلَالِ الْمِلَّةِ ، بَلْ أَفْسَدَتْهُ عَلَيْهِمْ  
السِّيَاسَةُ .

وَلَا يُبْعَدُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ لَمَّا كَانَ مِنْ أُصُولِ التَّشْرِيعِ لِلْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنْ تَقُومَ عَلَى قَاعِدَةِ  
الشُّورَى ، وَأَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ فِيهَا مُنْتَخَبًا مِنْ أَيِّ بَطْنٍ مِنْ بَطُونِ قُرَيْشٍ ، وَكَانَ مِنَ  
الْمَعْقُولِ الْمَعْهُودِ مِنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ النَّافِسُ فِي الْمُلْكِ الْمُؤَدِّيِ إِلَى أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ مِنْ

غَيْرِ أَوْلِي الْقُرْبَى ، وَأَنْ يُغْلِبَهُمُ النَّاسُ عَلَى حُقُوقِهِمْ فِي الْوَلَايَاتِ وَمَنَاصِبِ الدَّوْلَةِ ، فَجُعِلَ  
لَهُمْ هَذَا الْحَقُّ فِي الْخُمْسِ تَشْرِيحًا ثَابِتًا بِالنَّصِّ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ إِبْطَالُهُ بِالْاجْتِهَادِ ، وَمَنْ  
الْعَجَبُ أَنَّ أَكْثَرَ فَقَهَاءِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُعْتَبَرُوا هَذِهِ الْمَعَانِي ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُفَكِّرُونَ ، وَلَا  
يُبْحَثُونَ فِي مَقَوِّمَاتِ الْأُمَّمِ وَالِدَوْلِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْمِلِّيَّةِ ، بَلْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ رُوحُ الْمَسَاوَاةِ ، وَمَا يُعْبَرُ  
عَنْهُ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِالدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ حَتَّى اسْتَقَطَ بَعْضُهُمْ سَهْمَ آلِ بَيْتِ الرَّسُولِ . صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . مِنْ بَعْدِهِ مَعَ بَقَاءِ تَحْرِيمِ مَالِ

(238/313)

الصَّدَقَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ فِي مُقَدِّمَةِ هَؤُلَاءِ الْإِمَامِ أَبُو حَنِيفَةَ الْفَارِسِيُّ الْأَصْلُ ، كَمَا كَانَ  
أَكْثَرُ الْغَلَاةِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ أَنْصَارَ الشَّيْعَةِ مِنَ الْفُرْسِ ، وَمَا أَفْسَدَ عَلَى آلِ الْبَيْتِ أَمْرَ دُنْيَاهُمْ  
ثُمَّ أَمْرَ دِينِهِمْ بَعْدَ ذَهَابِ أُمَّةِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ إِلَّا هَؤُلَاءِ الْغَلَاةُ ، وَذَلِكَ أَنَّ زُعَمَاءَهُمْ لَمْ يَكُونُوا  
مُخْلِصِينَ لَهُمْ ، وَلَا لِدِينِهِمْ ، بَلْ كَانُوا زَنَادِقَةً مِنَ الْيَهُودِ وَالْفُرْسِ يُرِيدُونَ

(239/313)



بِالْغُلُوفِ فِي التَّشْيِيعِ تَفْرِيقِ كَلِمَةِ الْعَرَبِ ، وَضَرْبِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ لِاسْتِقْطِاطِ مُلْكِهِمْ ، وَلَا يَزَالُ  
هُؤُلَاءِ الْغُلَاةُ يَلْعَنُونَ سَيِّدَنَا عُمَرَ الْخَلِيفَةَ الثَّانِي وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَزِيدُ آلَ الْبَيْتِ عَلَى الْخُمْسِ ،  
وَيُفَضِّلُهُمْ حَتَّى عَلَى أَوْلَادِهِ ، بَلْ لَمَّا كَانَ الدِّينُ هُوَ الْجَامِعُ لِكَلِمَةِ الْعَرَبِ حَاوَلُوا إِفْسَادَهُ أَيْضًا  
بِغُلُوبِهِمْ وَتَعَالِيمِهِمُ الْبَاطِنِيَّةِ كَمَا فَضَّلْنَا هَذَا مِنْ قَبْلِ تَفْصِيلًا فِي مَوَاضِعٍ مِنَ الْمَنَارِ ، وَكَذَا فِي  
التَّفْسِيرِ - فَفَقَدَتِ الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ بَعْدَ وَضْعِ نِظَامِ لِلْإِمَامَةِ ، وَبَعْدَ كِهَالَةِ الدَّوْلَةِ لِآلِ بَيْتِ  
الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجُودِ طَائِفَةٍ مُنْظَمَةٍ تَتَرَبَّى عَلَى آدَابِ الْإِسْلَامِ الْعُلْيَا  
وَعُلُومِهِ وَتَكْفُلُ الدِّفَاعَ عَنْهُ ، مَعَ اتِّقَاءِ فِتْنَتِهَا بِنَفْسِهَا ، وَافْتِتَانِ النَّاسِ بِهَا بِالنِّظَامِ الْكَافِلِ  
لِذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ سَهَّلَ عَلَى الْأَعَاجِمِ سَلْبَ مُلْكِهَا ، وَالْعَبَثُ بِدِينِهَا وَدُنْيَاهَا - وَحَرَمَتْ  
فَائِدَةَ سِيَادَةِ السَّرَوَاتِ وَالنُّبَلَاءِ ، وَلَمْ تَسْلَمْ مِنْ فِتْنَتِهِمْ ، فَقَدْ اتَّخَذَ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَبَدِّعُونَ آلَ  
الْبَيْتِ أَوْثَانًا ، كَمَا اتَّخَذَ الْجَاهِلُونَ وَالْمُنَافِقُونَ وَعُلُوجُ الْأَعَاجِمِ خُلَفَاءَ وَمُلُوكًا ، فَجَمَعُوا  
بَيْنَ شَرِّ مَفَاسِدِ الْغُلُوفِ عِظَمَةِ النُّبَلَاءِ (الْأُرْسُتُقْرَاطِيَّةِ) شَرِّهَا الدِّينِيِّ وَشَرِّهَا الدُّنْيَوِيِّ ،  
وَدَاسُوا الْمَسَاوَاةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْمُعْتَدِلَةَ (الدِّمُقْرَاطِيَّةَ) .

(240/313)

وَأَمَّا الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ وَأَبْنُ السَّبِيلِ فَذُولُ هَذَا الْعَصْرِ لَا تَجْعَلْ لَهُمْ حَقًّا فِي أَمْوَالِ الدَّوْلَةِ  
بِهَذِهِ الْعَنَاوِينِ وَالْألقَابِ ، وَلَكِنَّ الدَّوْلَ الْمُنظَّمَةَ الَّتِي تُعْنَى بِأُمُورِ الشَّعْبِ تُخَصِّصُ لِلْفُقَرَاءِ  
الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ أَعْمَالًا يُرْزَقُونَ مِنْهَا مَا لَا يَكْفِيهِمْ . وَبَعْضُ الْحُكُومَاتِ تُعْطِي هَؤُلَاءِ  
الْمُحْتَاجِينَ إِعَانَاتٍ مِنَ الْأَوْقَافِ الْخَيْرِيَّةِ الَّتِي تُؤَلَّى أَمْرَ اسْتِغْلَالِهَا ، وَإِنْفَاقِ رِبْعِهَا عَلَى  
الْمُسْتَحِقِّينَ لَهُ .

هَذَا هُوَ الْمُدْرِكُ الظَّاهِرُ لِقِسْمَةِ خُمْسِ الْغَنِيمَةِ ، وَتَوْجِيهِهُ بِمَا يَقْرُبُ مِنْ نِظْمِ بَعْضِ

(241/313)

---

حُكُومَاتِ الْعَصْرِ ، وَقَدْ تَوَسَّعَ فِي هَذَا التَّوْجِيهِ لِمَصَارِفِ الْخُمْسِ وَغَيْرِ الْخُمْسِ مِنْ أَمْوَالِ  
الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَلَامَةِ الْهِنْدِيَّةِ الْأَكْبَرِ ، الْمُلَقَّبُ بِمُجَدِّدِ الْآلْفِ الثَّانِي عَشَرَ ، الشَّيْخِ وَلِيِّ  
اللَّهِ الدَّهْلَوِيِّ فِي كِتَابِهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : (وَاعْلَمُ) أَنَّ الْأَمْوَالَ الْمَأْخُودَةَ مِنْ  
الْكَفَّارِ عَلَى قِسْمَيْنِ : مَا حُصِّلَ مِنْهُمْ بِإِجَافِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ ، وَاحْتِمَالِ أَعْبَاءِ الْقِتَالِ وَهُوَ  
الْغَنِيمَةُ ، وَمَا حُصِّلَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ قِتَالٍ كَالْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ وَالْعُشُورِ الْمَأْخُودَةِ مِنْ تِجَارِهِمْ ، وَمَا  
بَدَلُوا صُلْحًا أَوْ هَرَبُوا عَنْهُ فَزَعًا . فَالْغَنِيمَةُ تُخَمَّسُ ، وَيُصْرَفُ الْخُمْسُ إِلَى مَا ذَكَرَ اللَّهُ  
تَعَالَى فِي كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي

الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ فَيُوزَعُ سَهْمٌ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
بَعْدَهُ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ الْأَهَمِّ فَلَا هَمَّ ، وَسَهْمٌ ذَوِي الْقُرْبَى فِي بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ  
الْفَقِيرِ مِنْهُمْ وَالْغَنِيِّ ، وَالذِّكْرِ وَالنَّثَى . وَعِنْدِي أَنَّهُ يُخَيَّرُ الْإِمَامَ فِي تَعْيِينِ الْمَقَادِيرِ ، وَكَانَ  
عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَزِيدُ فِي فُرْضِ آلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَيُعِينُ

(242/313)

الْمَدِينِ مِنْهُمْ وَالنَّكَاحِ وَذَا الْحَاجَةِ ، وَسَهْمٌ الْيَتَامَى لِصَغِيرٍ فَقِيرٍ لَا أَبَ لَهُ ، وَسَهْمٌ الْفُقَرَاءِ  
وَالْمَسَاكِينَ لَهُمْ ، يُفَوَّضُ كُلُّ ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ يَجْتَهِدُ فِي الْفُرْضِ ، وَتَقْدِيمِ الْأَهَمِّ فَلَا هَمَّ ، وَيَفْعَلُ  
مَا أَدَّى إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ ، وَيُقَسَّمُ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِهِ فِي الْغَانِمِينَ .

يَجْتَهِدُ الْإِمَامُ (أَوَّلًا) فِي حَالِ الْجَيْشِ ، فَمَنْ كَانَ نَفْلُهُ أَوْفَقَ بِمَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ نَفَلَ لَهُ ،  
وَذَلِكَ يَأْخُذُ ثَلَاثَ : (أَوْلَاهَا) أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ دَخَلَ دَارَ الْحَرْبِ فَبَعَثَ سَرِيَّةً تُغَيِّرُ عَلَى  
قَرْبَةٍ مِثْلًا فَيَجْعَلُ لَهَا الرَّبْعَ بَعْدَ الْخُمْسِ أَوْ الثَّلَاثَ بَعْدَ الْخُمْسِ ، فَمَا قَدِمَتْ بِهِ السَّرِيَّةُ رَفَعَ  
خُمْسَهُ ثُمَّ أَعْطَى السَّرِيَّةَ رُبْعَ مَا غَبَرَ أَوْ ثَلَاثَهُ وَجَعَلَ الْبَاقِي فِي الْمَغَانِمِ .

(وَتَائِبَتُهَا) أَنْ يَجْعَلَ الْإِمَامُ جَعْلًا لِمَنْ يَعْمَلُ عَمَلًا فِيهِ غَنَاءٌ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ،  
مِثْلَ أَنْ يَقُولَ : مَنْ طَلَعَ هَذَا الْحِصْنَ فَلَهُ كَذَا ، مَنْ جَاءَ بِأَسِيرٍ فَلَهُ كَذَا ، مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ

سَلْبُهُ ، فَإِنْ شَرَطَ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ أُعْطِيَ مِنْهُ ، وَإِنْ شَرَطَ مِنَ الْغَنِيمَةِ أُعْطِيَ مِنْ أَرْبَعَةِ  
أَخْمَاسٍ .

(243/313)

(وَتَالَتْهَا) أَنْ يُخَصَّ بِهِ الْإِمَامُ بَعْضَ الْغَانِمِينَ بِشَيْءٍ لِعِنَانِهِ وَبِأَسِهِ كَمَا أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَلْمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ فِي غَزْوَةِ ذِي قَرْدٍ سَهْمِ الْفَارِسِ وَالرَّاجِلِ ، حَيْثُ  
ظَهَرَ مِنْهُ نَفْعٌ عَظِيمٌ لِلْمُسْلِمِينَ . وَالْأَصْحُ عِنْدِي أَنَّ السَّلْبَ إِنَّمَا يَسْتَحِقُّهُ الْقَاتِلُ بِجَعْلِ الْإِمَامِ  
قَبْلَ الْقَتْلِ أَوْ تَنْفِيلِهِ بَعْدَهُ ، وَيَرْفَعُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْضَخَ دُونَ السَّهْمِ لِلنِّسَاءِ يُدَاوِينَ الْمَرْضَى ،  
وَيَطْبُخْنَ الطَّعَامَ ، وَيُصْلِحْنَ شَأْنَ الْغَزَاةِ ، وَلِلْعَبِيدِ وَالصَّبِيَّانِ وَأَهْلِ الذِّمَّةِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ  
الْإِمَامُ إِنْ حَصَلَ مِنْهُمْ نَفْعٌ لِلْغَزَاةِ ، وَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَنْ شَيْئًا مِنَ الْغَنِيمَةِ كَانَ مَالُ مُسْلِمٍ ظَفَرَ بِهِ  
الْعَدُوُّ رَدَّ عَلَيْهِ بِمَا شَاءَ ، ثُمَّ يَقَسَّمُ الْبَاقِي عَلَى مَنْ حَضَرَ الْوَقْعَةَ ، لِلْفَارِسِ ثَلَاثَةُ أَسْهُمٍ ،  
وَلِلرَّاجِلِ سَهْمٌ . وَعِنْدِي أَنَّهُ إِنْ رَأَى الْإِمَامُ أَنْ يَزِيدَ لِرُكْبَانِ الْإِبِلِ أَوْ لِلرُّمَاهِ شَيْئًا أَوْ يُفْضَلَ  
الْعَرَابَ عَلَى الْبَرَادِينِ بِشَيْءٍ دُونَ السَّهْمِ فَلَهُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ يُشَاوِرَ أَهْلَ الرَّأْيِ ، وَيَكُونُ أَمْرًا لَا  
يُخْتَلَفُ عَلَيْهِ لِأَجَلِهِ ، وَبِهِ يُجْمَعُ (بَيْنَ) اخْتِلَافِ سِيرِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْبَابِ ، وَمَنْ بَعَثَهُ الْأَمِيرُ لِمَصْلَحَةِ الْجَيْشِ كَالْبُرَيْدِ  
وَالطَّلِيعةِ وَالْجَاسُوسِ يُسْهِمُ لَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَحْضُرِ الْوَقْعَةَ كَمَا كَانَ لِعُثْمَانَ يَوْمَ بَدْرٍ .

(244/313)

" وَأَمَّا الْفِيءُ فَمَصْرُفُهُ مَا بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى حَيْثُ قَالَ : مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى  
فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِلَى قَوْلِهِ : رءُوفٌ رَحِيمٌ  
(59 : 7-10) وَلَمَّا قَرَأَهَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَالَ : هَذِهِ اسْتَوْعَبَتِ الْمُسْلِمِينَ  
فِيَصْرِفُهُ إِلَى الْأَهْمِّ فَالْأَهْمِّ ، وَيَنْظُرُ فِي ذَلِكَ إِلَى مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ لَا مَصْلَحَتِهِ الْخَاصَّةَ بِهِ .  
" وَاخْتَلَفَتِ السُّنَنُ فِي كَيْفِيَّةِ قِسْمَةِ الْفِيءِ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا  
أَتَاهُ الْفِيءُ قَسَمَهُ فِي يَوْمِهِ فَأَعْطَى الْأَهْلَ حَظَّيْنِ ، وَأَعْطَى الْأَعْرَبَ حَظًّا ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْسِمُ لِلْحُرِّ وَالْعَبْدِ يَتَوَخَّى كِفَايَةَ الْحَاجَةِ ، وَوَضَعَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
الدِّيَّانَ عَلَى السَّوَابِقِ وَالْحَاجَاتِ ، فَالرَّجُلُ وَقَدَمُهُ وَالرَّجُلُ وَبِلَاؤُهُ ، وَالرَّجُلُ وَعِيَالُهُ ،  
وَالرَّجُلُ وَحَاجَتُهُ ، وَالْأَصْلُ فِي كُلِّ مَا كَانَ مِثْلَ هَذَا مِنَ الْاِخْتِلَافِ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا  
فَعَلَ ذَلِكَ عَلَى الْاجْتِهَادِ قَتَوَخَّى كُلِّ الْمَصْلَحَةِ بِحَسَبِ مَا رَأَى فِي وَقْتِهِ .

(245/313)

"وَالْأَرْضِي الَّتِي غَلَبَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ لِلْإِمَامِ فِيهَا الْخِيَارُ إِنْ شَاءَ قَسَمَهَا فِي الْغَانِمِينَ ،  
وَإِنْ شَاءَ أَوْقَفَهَا عَلَى الْغَزَاةِ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِخَيْبَرَ قَسَمَ نِصْفَهَا ،  
وَوَقَفَ نِصْفَهَا ، وَوَقَفَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَرْضَ السَّوَادِ ، وَإِنْ شَاءَ أَسْكَنَهَا الْكُفَّارَ ،  
ذِمَّةً لَنَا ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُعَاذًا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ  
دِينَارًا أَوْ عَدْلَهُ مَعَاوِرَ ، وَفَرَضَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَى الْمَوْسِرِ ثَمَانِيَةَ وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا ،  
وَعَلَى الْمُتَوَسِّطِ أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ ، وَعَلَى الْفَقِيرِ الْمُعْتَمَلِ اثْنَيْ عَشَرَ . وَمِنْ هُنَا يُعْلَمُ أَنَّ قَدْرَهُ  
مُفَوَّضٌ إِلَى الْإِمَامِ يَفْعَلُ مَا يَرَى مِنَ الْمَصْلَحَةِ ، وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَتْ سِيرُهُمْ . وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ  
عِنْدِي فِي مَقَادِيرِ الْخَرَاجِ ، وَجَمِيعِ مَا اخْتَلَفَتْ فِيهِ سِيرُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
وَخُلَفَائِهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَإِنَّمَا أَبَاحَ اللَّهُ لَنَا الْغَنِيمَةَ وَالْفِيءَ لَمَّا بَيَّنَّهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ - حَيْثُ قَالَ : لَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا  
فَأَحَلَّهَا لَنَا وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَ أُمَّتِي عَلَى الْأُمَّمِ وَأَحَلَّ لَنَا الْغَنَائِمَ  
وَقَدْ شَرَحْنَا هَذَا فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ فَلَا نَعِيدُهُ .

وَالْأَصْلُ فِي الْمَصَارِفِ أَنَّ أُمَّهَاتِ الْمَقَاصِدِ أُمُورٌ (مِنْهَا) إِبْقَاءُ نَاسٍ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ لَزْمَانَةٍ أَوْ لِحْتِيَاجِ مَالِهِمْ أَوْ بَعْدِهِ مِنْهُمْ . (وَمِنْهَا) حِفْظُ الْمَدِينَةِ عَنْ شَرِّ الْكُفَّارِ بِسَدِّ الثُّغُورِ وَنَفَقَاتِ الْمُقَاتِلَةِ وَالسَّلَاحِ وَالْكَرَاعِ . (وَمِنْهَا) تَدْيِيرُ الْمَدِينَةِ وَسِيَاسَتِهَا مِنْ الْحِرَاسَةِ وَالْقَضَاءِ ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَالْحِسْبَةِ . (وَمِنْهَا) حِفْظُ الْمِلَّةِ بِنَصْبِ الْخُطَبَاءِ وَالْأُمَّةِ وَالْوَعَاظِ وَالْمُدْرَسِينَ .

(247/313)

(وَمِنْهَا) مَنَافِعُ مُشْتَرَكَةٌ كَكُرْبِيِّ الْأَنْهَارِ وَبِنَاءِ الْقَنَاطِرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَأَنَّ الْبِلَادَ عَلَى قِسْمَيْنِ ، قِسْمٌ تَجَرَّدَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ كَالْحِجَازِ ، أَوْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَقِسْمٌ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْكُفَّارُ فَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ بَعْنُوةٍ أَوْ صُلْحٍ . وَالْقِسْمُ الثَّانِي يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ مِنْ جَمْعِ الرِّجَالِ ، وَإِعْدَادِ آتَاتِ الْقِتَالِ ، وَنَصْبِ الْقُضَاةِ وَالْحَرَسِ وَالْعُمَّالِ ، وَالْأَوَّلُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كَامِلَةً وَافِرَةً . وَأَرَادَ الشَّرْعُ أَنْ يُوزَعَ بَيْتُ الْمَالِ الْمُجْتَمَعِ فِي كُلِّ بِلَادٍ عَلَى مَا يَلِائِمُهَا ، فَجَعَلَ مَصْرَفَ الزَّكَاةِ وَالْعُشْرِ مَا يَكُونُ فِيهِ كِفَايَةُ الْمُحْتَاجِينَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا ، وَمَصْرَفَ الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ مَا يَكُونُ فِيهِ إِعْدَادُ الْمُقَاتِلَةِ ، وَحِفْظُ الْمِلَّةِ ، وَتَدْيِيرُ الْمَدِينَةِ أَكْثَرَ

، وَلِذَلِكَ جَعَلَ سَهْمَ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالْفِيءِ أَقْلَ مِنْ سَهْمِهِمْ مِنْ  
الصَّدَقَاتِ ، وَسَهْمُ الْغَزَاةِ مِنْهُمَا أَكْثَرُ مِنْ سَهْمِهِمْ مِنْهَا .

(248/313)

"ثُمَّ الْغَنِيمَةُ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِمَعَانَاةٍ وَإِجَافِ خَيْلٍ وَرِكَابٍ ، فَلَا تَطِيبُ قُلُوبُهُمْ إِلَّا بِأَنْ يُعْطُوا مِنْهَا  
، وَالتَّوَامِيصُ الْكَلِيَّةُ الْمَضْرُوبَةُ عَلَى كَافَةِ النَّاسِ لَا بُدَّ فِيهَا مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَالِ عَامَّةِ النَّاسِ ،  
وَمِنْ ضَمِّ الرَّغْبَةِ الطَّبِيعِيَّةِ إِلَى الرَّغْبَةِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَلَا يَرْغَبُونَ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَا يَجِدُونَهُ  
بِالْقِتَالِ ، فَلِذَلِكَ كَانَ أَرْبَعَةٌ أَخْمَاسِهَا لِلْغَانِمِينَ . وَالْفِيءُ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالرُّعْبِ دُونَ مُبَاشَرَةِ  
الْقِتَالِ ، فَلَا يَجِبُ أَنْ يُصْرَفَ عَلَى نَاسٍ مَخْصُوصِينَ ، فَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يُقَدَّمَ فِيهِ الْأَهَمُّ فَالْأَهَمُّ  
. وَالْأَصْلُ فِي الْخُمْسِ أَنَّهُ كَانَ الْمَرْبَاعُ عَادَةً مُسْتَمَرَّةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَأْخُذُهُ رَيْسُ الْقَوْمِ  
وَعَصْبَتُهُ ، فَتَمَكَّنَ ذَلِكَ فِي عُلُومِهِمْ ، وَمَا كَادُوا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِنْهُ وَفِيهِ قَالَ  
الْقَائِلُ :

وَإِنَّ لَنَا الْمَرْبَاعَ مِنْ كُلِّ غَارَةٍ . . . تَكُونُ بِنَجْدٍ أَوْ بَارِضِ التَّهَائِمِ

(249/313)



فَشَرَعَ اللهُ تَعَالَى الْخُمْسَ لِحَوَائِجِ الْمَدِينَةِ وَالْمِلَّةِ نَحْوًا مِمَّا كَانَ عِنْدَهُمْ ، كَمَا أَنْزَلَ آيَاتِ  
عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نَحْوًا مِمَّا كَانَ شَائِعًا ذَائِعًا فِيهِمْ . وَكَانَ الْمَرْبَاعُ لِرَئِيسِ الْقَوْمِ  
وَعَصَبَتِهِ تَنْوِيهَا بِشَائِنِهِمْ ، وَلِأَنَّهُمْ مَشْغُولُونَ بِأَمْرِ الْعَامَّةِ مُحْتَاجُونَ إِلَى نَفَقَاتٍ كَثِيرَةٍ ، فَجَعَلَ  
اللهُ الْخُمْسَ لِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَشْغُولٌ بِأَمْرِ النَّاسِ لَا يَتَفَرَّغُ  
أَنْ يَكْتَسِبَ لِأَهْلِهِ فَوْجَبَ أَنْ تَكُونَ نَفَقَتُهُ فِي مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلِأَنَّ التُّصْرَةَ حَصَلَتْ بِدَعْوَةِ  
النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالرُّعْبَ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ فَكَانَ كَحَاضِرِ الْوَقْعَةِ ، وَلِذَوِي  
الْقُرْبَى ؛ لِأَنَّهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حَمِيَّةً لِلْإِسْلَامِ ، حَيْثُ اجْتَمَعَ فِيهِمُ الْحَمِيَّةُ الدِّينِيَّةُ إِلَى الْحَمِيَّةِ  
النَّسَبِيَّةِ فَإِنَّهُ لَا فَخْرَ لَهُمْ إِلَّا بِالْعُلُودِ مِنْ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلِأَنَّ فِي ذَلِكَ تَنْوِيهَا  
بِأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتِلْكَ مَصْلَحَةٌ رَاجِعَةٌ إِلَى الْمِلَّةِ . وَإِذَا كَانَ  
الْعُلَمَاءُ وَالْقُرَّاءُ يَكُونُ تَوْقِيرُهُمْ تَنْوِيهَا بِالْمِلَّةِ ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تَوْقِيرُ ذَوِي الْقُرْبَى كَذَلِكَ  
بِالْأَوْلَى ، وَلِلْمُحْتَاجِينَ وَضَبَطَهُمُ بِالْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ

وَالْيَتَامَى - وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُعْطِيَ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنَ  
الْخُمْسِ ، وَعَلَى هَذَا فَتَخْصِيصُ هَذِهِ الْخُمْسَةِ بِالذِّكْرِ لِلْإِهْتِمَامِ بِشَأْنِهَا وَالتَّوَكُّدِ الَّا يَتَّخِذَ  
الْخُمْسَ وَالْفَيْءَ أَغْنِيَا وَهُمْ دَوْلَةً فِيهِمْ لَوْ جَانِبَ الْمُحْتَاجِينَ ، وَلَسَدَ بَابُ الظَّنِّ السَّيِّئِ  
بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَرَأْتِهِ ، وَإِنَّمَا شَرَعَتِ الْأَنْفَالُ وَالْأَرْضَاخُ ؛ لِأَنَّ  
الْإِنْسَانَ كَثِيرًا مَا لَا يَقْدُمُ عَلَى مَهْلَكَةٍ إِلَّا لَشَيْءٍ يَطْمَعُ فِيهِ ، وَذَلِكَ دَيْدَنُ وَخُلُقُ النَّاسِ لَا بُدَّ  
مِنْ رِعَايَتِهِ ، وَإِنَّمَا جُعِلَ لِلْفَارِسِ ثَلَاثَةُ أَسْهُمٍ وَلِلرَّاجِلِ سَهْمٌ ؛ لِأَنَّ غَنَاءَ الْفَارِسِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ  
أَعْظَمَ وَمُؤْتَهُ أَكْثَرُ ، وَإِنْ رَأَيْتَ حَالَ الْجِيُوشِ لَمْ تَشْكَنَّ أَنَّ الْفَارِسَ لَا يَطِيبُ قَلْبُهُ ، وَلَا تَكْفِي  
مُؤْتُهُ إِذَا جُعِلَتْ جَائِزَتُهُ دُونَ ثَلَاثَةِ أَضْعَافِ سَهْمِ الرَّاجِلِ ، لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ طَوَائِفُ الْعَرَبِ  
وَالعَجَمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ .  
" قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " لَنْ عِشْتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالتَّصَارِي مِنْ  
جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَوْصِي بِإِخْرَاجِ الْمُشْرِكِينَ مِنْهَا " .

(251/313)

(أقول) : عَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ الزَّمَانَ دَوْلٌ وَسِجَالٌ ، فَرَبَّمَا ضَعْفَ  
الْإِسْلَامِ ، وَانْتَشَرَ شَمْلُهُ ، فَإِنْ كَانَ الْعَدُوُّ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ فِي بَيْضَةِ الْإِسْلَامِ وَمُحْتَدِهِ

أَفْضَىٰ ذَٰلِكَ إِلَىٰ هَتَاكَ حُرْمَاتِ اللَّهِ وَقَطْعِهَا ، فَأَمْرٌ يَأْخُرُ أَجْهَهُمْ مِنْ حَوَالِي دَارِ الْعِلْمِ وَمَحَلِّ  
بَيْتِ اللَّهِ .

(وَأَيْضًا) الْمُخَالَطَةُ مَعَ الْكُفَّارِ تَفْسِدُ عَلَى النَّاسِ دِينَهُمْ ، وَتَغَيِّرُ نَفُوسَهُمْ ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ  
الْمُخَالَطَةِ فِي الْأَقْطَارِ أَمَرَ بِتَنْقِيَةِ الْحَرَمَيْنِ مِنْهُمْ . (وَأَيْضًا) أَنْكَشَفَ (لَهُ) . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ . مَا يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَقَالَ : " إِنْ الدِّينَ لِيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ " الْحَدِيثَ ، وَلَا يَتِمُّ  
ذَٰلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ سَائِرِ الْأَدْيَانِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنْتَهَى . مِنْ حُجَّةِ اللَّهِ الْبَالِغَةِ .  
هَذَا - وَإِنَّا نَخْتِمُ هَذَا الْبَحْثَ بِذِكْرِ مُلَخَّصِ أَقْوَالِ الْفُقَهَاءِ الْمُجْتَهِدِينَ وَكِبَارِ الْمُفَسِّرِينَ فِي  
قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ نَقْلًا عَنْ فَتْحِ الْبَيَانِ لِعَدَمِ تَعْصِبِهِ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ قَالَ : " وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي  
كَيْفِيَّةِ قِسْمَةِ الْخُمْسِ عَلَى أَقْوَالٍ سِتَّةٍ : (الْقَوْلُ الْأَوَّلُ) : قَالَتْ طَائِفَةٌ : يُقَسَّمُ الْخُمْسُ عَلَى  
سِتَّةٍ : فَيَجْعَلُ السُّدُسُ لِلْكَعْبَةِ

وَهُوَ الَّذِي لِلَّهِ . (وَالثَّانِي) لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . (وَالثَّلَاثُ) لِذَوِي الْقُرْبَى .  
(وَالرَّابِعُ) لِلْيَتَامَى . (وَالْخَامِسُ) لِلْمَسَاكِينِ . (وَالسَّادِسُ) لِابْنِ السَّبِيلِ .

(252/313)

(القول الثاني) قاله أبو العالية والربيع: تُقسَّمُ الْغَنِيمَةُ عَلَى خُمْسَةٍ، فَيُعْزَلُ مِنْهَا سَهْمٌ وَاحِدٌ، وَيُقَسَّمُ أَرْبَعَةٌ عَلَى الْغَانِمِينَ، ثُمَّ يَضْرِبُ يَدُهُ فِي السَّهْمِ الَّذِي عَزَلَهُ فَمَا قَبَضَهُ مِنْ شَيْءٍ، جَعَلَهُ لِلْكَعْبَةِ، ثُمَّ يُقَسَّمُ بِقِيَّةِ السَّهْمِ الَّذِي عَزَلَهُ عَلَى خُمْسَةٍ لِلرَّسُولِ وَمَنْ بَعْدَهُ فِي الْآيَةِ.

(القول الثالث) رُوِيَ عَنْ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الْخُمْسَ لَنَا. فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَقَالَ: يَا مَنَا وَمَسَاكِينَنَا وَأَبْنَاءُ سَبِيلِنَا.

(القول الرابع) قول الشافعي: إِنَّ الْخُمْسَ يُقَسَّمُ عَلَى خُمْسَةٍ، وَإِنَّ سَهْمَ اللَّهِ وَسَهْمَ رَسُولِهِ وَاحِدٌ يُصْرَفُ فِي مَصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَرْبَعَةُ الْأَخْمَاسُ عَلَى الْأَرْبَعَةِ الْأَصْنَافِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ.

(القول الخامس): قول أبي حنيفة: إِنَّهُ يُقَسَّمُ الْخُمْسُ عَلَى ثَلَاثَةِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ، وَقَدْ ارْتَفَعَ حُكْمُ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَوْتِهِ كَمَا ارْتَفَعَ حُكْمُ سَهْمِهِ. قَالَ: يُبْدَأُ مِنَ الْخُمْسِ بِاصْلَاحِ الْقَنَاطِرِ، وَبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ، وَأَرْزَاقِ الْقُضَاةِ وَالْجُنْدِ، وَرُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنِ الشَّافِعِيِّ.

(253/313)

(القول السادس) قول مالك: إنه موكول إلى نظر الإمام واجتهاده فيأخذ منه بغير تقدير،  
ويعطي منه الغزاة باجتهاده، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين. قال القرطبي: وبه  
قال الخلفاء الأربعة، وبه عملوا، وعليه يدل قوله - صلى الله عليه وسلم -: ليس لي مما  
أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم فإنه لم يقسمه أخماساً ولا أثلاثاً،  
وإنما ذكر ما في الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم: لأنهم من أهم من يدفع إليه، قال  
الزجاج محتجاً لهذا القول قال الله تعالى: يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير  
فلوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل

(254/313)

(2: 215) وجائزٌ بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك. أخرج ابن  
المنذر عن ابن عباس قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يجعل سهم الله في السلاح  
والكرع، وفي سبيل الله، وفي كسوة الكعبة وطيبها، وما تحتاج إليه الكعبة، ويجعل  
سهم الرسول في الكراع والسلاح، ونفقة أهله، وسهم ذوي القربى لقربته يضعه رسول الله  
فيهم مع سهمهم مع الناس، ولليتامى وللمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم - فيمن شاء وحيث شاء، ليس ليني عبد المطلب في هذه الثلاثة

الأسهم (؟) وكرسول الله سهم مع سهام الناس ، وعن ابن بريدة قال : الذي لله  
لنبيه ، والذي للرسول لأزواجه ، وعن أبي العالية قال : كان يجاء بالغنيمة فتوضع فيقسمها  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على خمسة أسهم فيعزل سهمًا منها ، ويقسم أربعة  
أسهم بين الناس - يعني لمن شهد الوقعة - ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزله فما

(255/313)

قبض عليه من شيء جعله للكعبة فهو الذي سمي لله لا تجعلوا لله نصيبًا فإن لله الدنيا  
والآخرة ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم ، سهم للنبي - صلى الله عليه  
وسلم - وسهم لذي القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل ، وعن  
ابن عباس قال : فإن لله خمسة مفتاح كلام ، أي على سبيل التبرك ، وإنما أضافه لنفسه ؛  
لأنه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء ، وليس المراد منه أن سهمًا منه لله مفردًا ؛ لأن لله  
ما في السموات وما في الأرض ، وبه قال الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعي قالوا :  
سهم الله وسهم رسوله واحد ، وذكر الله للتعظيم ، فجعل هذين السهمين في الخيل  
والسلاح ، وجعل سهمًا لليتامى والمساكين ، وابن السبيل لا يعطيه غيرهم . وجعل الأربعة  
الأسهم الباقية للفرس سهمين ولركابه سهمًا ، ولرأجل سهمًا ، وعنه - رضي الله عنه - قال

: كَانَتْ الْغَنِيمَةُ تُقَسَّمُ عَلَى خَمْسَةِ أَخْمَاسٍ ، فَأَرْبَعَةٌ مِنْهَا بَيْنَ مَنْ قَاتَلَ عَلَيْهَا ، وَخُمْسٌ  
وَاحِدٌ يُقَسَّمُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَخْمَاسٍ ، فَرُبْعٌ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ يَعْنِي قَرَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . فَمَا كَانَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ فَهُوَ لِقَرَابَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . وَلَمْ

(256/313)

يَأْخُذِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْخُمْسِ شَيْئًا . وَالرُّبْعُ الثَّانِي لِلْيَتَامَى ، وَالرُّبْعُ  
الثَّلَاثُ لِلْمَسَاكِينِ ، وَالرُّبْعُ الرَّابِعُ لِابْنِ السَّبِيلِ وَهُوَ الضَّعِيفُ الْفَقِيرُ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْمُسْلِمِينَ أَهْ .  
وَقَدْ أَكَّدَ اللَّهُ أَمْرَ هَذَا التَّخْمِيسِ بِقَوْلِهِ : إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ  
وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا الْكَامِلِ فِي عِبُودِيَّتِنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْآيَاتِ  
الْبَيِّنَاتِ ، وَالْمَلَائِكَةِ الْمُتَنَبِّئِينَ لَكُمْ فِي الْقِتَالِ ، وَالنَّصْرَ الْمُبِينَ عَلَى الْأَعْدَاءِ يَوْمَ الْفُرْقَانِ الَّذِي  
فَرَقْنَا بِهِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَأَهْلِهِ ، وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ وَهُوَ يَوْمَ بَدْرٍ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانَ جَمْعَ الْمُؤْمِنِينَ  
، وَجَمْعَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْحَرْبِ وَالنِّزَالِ - أَي : إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِمَا ذَكَرَ إِيْمَانٍ إِيقَانٍ وَإِذْعَانَ .  
وَقَدْ شَاهَدْتُمْ ذَلِكَ بِالْعِيَانِ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ ؛ لِأَنَّهُ  
هُوَ مَوْلَاكُمْ وَنَاصِرُكُمْ ، كَمَا أَنَّهُ مَالِكُ أَمْرِكُمْ فِي سَائِرِ شُؤْنِكُمْ ، وَلِلرَّسُولِ الَّذِي هَدَاكُمْ بِهِ ،  
وَفَضَّلَكُمْ عَلَى غَيْرِكُمْ الْإِخ . فَيَجِبُ أَنْ تَرْضَوْا بِحُكْمِ اللَّهِ فِي الْغَنَائِمِ كَثِيرِهَا ،

(257/313)

---

وَيَقْسِمَةَ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهَا ، وَفِيهِ أَنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي الْإِذْعَانَ النَّفْسِيَّ  
وَالْعَمَلَ ، قَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ : كَانَتْ لَيْلَةُ الْفِرْقَانِ الَّتِي اتَّقَى الْجَمْعَانِ فِي  
صَبِيحَتِهَا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ لِسَبْعِ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مُشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَكَانَ مِمَّا شَهِدْتُمْ مِنْ تَصْرِيفِ قُدْرَتِهِ بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ مَعَ  
تَأْيِيدِ رَسُولِهِ ، وَإِنْجَازِ وَعْدِهِ لَهُ ، أَنْ نَصْرَكُمْ عَلَى قَلْتِكُمْ وَجُوعِكُمْ وَضَعْفِكُمْ عَلَى ثَلَاثَةِ  
أَضْعَافٍ عَدَدِكُمْ أَوْ أَكْثَرَ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ أَوَائِلِ السُّورَةِ . انتهى انتهى . ١

﴿ تفسير المنار ج 10 ص 17.3 ﴾

(258/313)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَعَلَّمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ﴾



انتقال لبيان ما أجمل من حكم الأنفال ، الذي افتتحته السورة ، ناسب الانتقال إليه ما جرى من الأمر بقتال المشركين إن عادوا إلى قتال المسلمين .

والجملة معطوفة على جملة ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ [ الأنفال : 39 ] .

واقترحه ب ﴿ اعلموا ﴾ للاهتمام بشأنه ، والتنبية على رعاية العمل به ، كما تقدم في قوله

: ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ [ الأنفال : 24 ] فإن المقصود بالعلم تقرّر

الجزم بأن ذلك حكم الله ، والعمل بذلك المعلوم ، فيكون ﴿ اعلموا ﴾ كناية مراداً به

صريحه ولازمه .

والخطاب لجميع المسلمين وبالخصوص جيش بدر ، وليس هذا نسخاً لحكم الأنفال المذكور

أول السورة ، بل هو بيان لإجمال قوله : ﴿ لله .

وللرسول ﴾ وقال أبو عبيد : إنها ناسخة ، وأن الله شرع ابتداءً أن قسمة المغنم لرسوله

صلى الله عليه وسلم يريد أنها لاجتهاد الرسول بدون تعيين ، ثم شرع التخمس .

وذكروا : أن رسول الله لم يخمس مغنم بدر ، ثم خمس مغنم أخرى بعد بدر ، أي بعد نزول

آية سورة الأنفال ، وفي حديث علي : أن رسول الله أعطاه شارفاً من الخمس يوم بدر ،

فاقتضت هذه الرواية أن مغنم بدر خمسست .

وقد اضطربت أقوال المفسرين قديماً في المراد من المغنم في هذه الآية ، ولم تنضبط تقارير

أصحاب التفسير في طريقة الجمع بين كلامهم على تفاوت بينهم في ذلك ، ومنهم من خلطها مع آية سورة الحشر ، فجعل هذه ناسخة لآية الحشر والعكس ، أو أن إحدى الآيتين مخصصة للأخرى : إما في السهام ، وإما في أنواع المغنم ، وتفصيل ذلك يطول . وترددوا في مسمى الفيء فصارت ثلاثة أسماء مجالا لاختلاف الأقوال : النفل ، والغنيمة ، والفيء .

(259/313)

---

والوجه عندي في تفسير هذه الآية ، وأتصالها بقوله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ [ الأنفال : 1 ] أن المراد بقوله : ﴿ ما غنمتم ﴾ في هذه الآية : ما حصلتم من الغنائم من متاع الجيش ، وذلك ما سمي بالأنفال ، في أول السورة ، فالنفل والغنيمة مترادفان ، وذلك مقتضى استعمال اللغة ، فعن ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، وعطاء : الأنفال الغنائم .

وعليه فوجه المخالفة بين اللفظين إذ قال تعالى هنا ﴿ غنمتم ﴾ وقال في أول السورة [ الأنفال : 1 ] : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ لاقتضاء الحال التعبير هنا بفعل ، وليس في العربية فعل من مادة النفل يفيد إسناد معناه إلى من حصل له ، ولذلك فآية ﴿ واعلموا أنما

غنمتم ﴿ سيقت هنا بياناً لآية ﴿ يسألونك عن الأنفال فإنهما وردتا في انتظام متصل من الكلام.

ونرى أن تخصيص اسم النفل بما يعطيه أمير الجيش أحد المقاتلين زائداً على سهمه من الغنيمة سواء كان سلباً أو نحوه مما يسعه الخمس أو من أصل مال الغنيمة على الخلاف الآتي ، إنما هو اصطلاح شاع بين أمراء الجيوش بعد نزول هذه الآية ، وقد وقع ذلك في كلام عبد الله بن عمر ، وأما ما روي عن ابن عباس : أن الأنفال ما يصل إلى المسلمين بغير قتال ، فجعلها بمعنى الفيء ، فحمله على بيان الاصطلاح الذي اصطلحوا عليه من بعد .  
وتعيرات السلف في التفرقة بين الغنيمة والنفل غير مضبوطة ، وهذا ملاك الفصل في هذا المقام لتمييز أصناف الأموال المأخوذة في القتال ، فأما صور قسمتها فسياًتي بعضها في هذه الآية .

فاصلحوا على أن الغنيمة ، ويُقال : لها المغنم ، ما يأخذه الغزاة من أمتعة المقاتلين غصباً ، بقتل أو بأسر ، أو يقتحمون ديارهم غازين ، أو ما يتركه الأعداء في ديارهم ، إذا فروا عند هجوم الجيش عليهم بعد ابتداء القتال .

(260/313)

---

فأما ما يظفر به الجيش في غير حالة الغزو من مال العدو ، وما يتركه العدو من المتاع إذا  
أخلوا بلادهم قبل هجوم جيش المسلمين ، فذلك الفيء وسيجيء في سورة الحشر .  
وقد اختلف فقهاء الأمصار في مقتضى هذه الآية مع آية ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ [ الأنفال : 1 ] إلخ .

فقال مالك : ليس أموال العدو والمقاتل حق لجيش المسلمين إلا الغنيمة والفيء .  
وأما النفل فليس حقاً مستقلاً بالحكم ، ولكنه ما يعطيه الإمام من الخمس لبعض المقاتلين  
زائداً على سهمه من الغنيمة ، على ما يرى من الاجتهاد ، ولا تعيين لمقدار النفل في الخمس  
ولا حد له ، ولا يكون فيما زاد على الخمس .  
هذا قول مالك ورواية عن الشافعي .

وهو الجاري على ما عمل به الخلفاء الثلاثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبو  
حنيفة ، والشافعي ، في أشهر الروايتين عنه ، وسعيد بن المسيب : النفل من الخمس وهو  
خمس الخمس .

وعن الأوزاعي ، ومكحول ، وجمهور الفقهاء : النفل ما يعطى من الغنيمة يخرج من ثلث  
الخمس .

و( ما ) في قوله : ﴿ أنما ﴾ اسم موصول وهو اسم ( أن ) وكتبت هذه في المصحف  
متصلة بـ ( أن ) لأن زمان كتابة المصحف كان قبل استقرار قواعد الرسم وضبط الفروق

فيه بين ما يتشابه نطقه ويختلف معناه ، فالتفرقة في الرسم بين ( ما ) الكافة وغيرها لم ينضبط زمن كتابة المصاحف الأولى ، وبقيت كتابة المصاحف على مثال المصحف الإمام مبالغة في احترام القرآن عن التغيير .

و ﴿ من شيء ﴾ بيان لعموم ( ما ) لئلا يتوهم أن المقصود غنيمة معينة خاصة .  
والفاء في قوله : ﴿ فأن لله خمسة ﴾ لما في الموصول من معنى الاشتراط ، وما في الخبر من معنى المجازاة بتأويل : إن غنمتم فحق لله خمسة الخ .  
والمصدر المؤول بعد ( أن ) في قوله : ﴿ فأن لله خمسة ﴾ مبتدأ حذف خبره ، أو خبر حذف مبتدؤه ، وتقدير المحذوف بما يناسب المعنى الذي دلت عليه لام الاستحقاق ، أي فحق لله خمسة .

(261/313)

---

وإنما صيغ على هذا النظم ، مع كون معنى اللام كافياً في الدلالة على الأحقية ، كما قرئ في الشاذ ﴿ فله خمسة ﴾ لما يفيد الإتيان بجرف ( أن ) من الإسناد مرتين تأكيداً ، ولأن في حذف أحد ركني الإسناد تكثيراً لوجوه الاحتمال في المقدّر ، من نحو تقدير : حق ، أو ثبات ، أو لازم ، أو واجب .

واللام للملك ، أو الاستحقاق ، وقد علم أنّ أربعة الأقسام للغزاة الصادق عليهم ضمير ﴿ غنمتم ﴾ فثبت به أنّ الغنيمة لهم عدا خمسها .

وقد جعل الله خمس الغنيمة حقاً لله وللرسول ومن عطف عليهما ، وكان أمر العرب في الجاهلية أنّ ربع الغنيمة يكون لقائد الجيش ، ويسمّى ذلك "المربع" بكسر الميم . وفي عرف الإسلام إذا جعل شيء حقاً لله ، من غير ما فيه عبادة له : أنّ ذلك يكون للذين يأمر الله بتسديد حاجتهم منه ، فلكلّ نوع من الأموال مستحقّون عيّنهم الشرع ، فالمعنى في قوله : ﴿ فأن لله خمسها ﴾ أنّ الابتداء باسم الله تعالى للإشارة إلى أنّ ذلك الخمس حقّ الله يصرفه حيث يشاء ، وقد شاء فوكل صرفه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ولمن يخلف رسوله من أئمة المسلمين .

وبهذا التّأويل يكون الخمس مقسوماً على خمسة أسهم ، وهذا قول عامّة علماء الإسلام وشذّ أبو العالية رفيع الرياحي ولاء من التابعين ، فقال : إنّ الخمس يقسم على خمسة أسهم فيعزل منها سهم فيضرب الأمير بيده على ذلك السهم الذي عزله فما قبضت عليه يده من ذلك جعله للكعبة : أي على وجه يشبه القرعة ، ثم يقسم بقية ذلك السهم على خمسة : سهم للنبي صلى الله عليه وسلم وسهم لذوي القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل .

ونسب أبو العالية ذلك إلى فعل النبي صلى الله عليه وسلم

وأما الرسول عليه الصلاة والسلام فلحقه حالتان : حالة تصرفه في مال الله بما أئتمنه الله على سائر مصالح الأمة ، وحالة انتفاعه بما يجب انتفاعه به من ذلك .

(262/313)

---

فلذلك ثبت في الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله ، ويجعل الباقي مجعل مال الله .

وفي الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الفية " مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم " فيقاس عليه خمس الغنيمة ، وكذلك كان شأن رسول الله في انتفاعه بما جعله الله له من الحق في مال الله .

وأوضح شيء في هذا الباب حديث عمر بن الخطاب في محاورته مع العباس وعلي ، حين تحاكما إليه ، رواه مالك في "الموطأ" ورجال "الصحيح" ، قال عمر : "إن الله كان قد خص رسول الله في هذا الفية بشيء لم يعطه غيره قال ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين ﴾ [الحشر : 7] فكانت هذه خالصة لرسول الله ، والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم قد أعطاكموها وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال .

فكان رسول الله ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله".

والغرض من جلب كلام عمر قوله: "ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله".  
وأما ذو ﴿ القربى ﴾ ﴿ ف (أل) في ﴿ القربى ﴾ عوض عن المضاف إليه كما في قوله  
تعالى في سورة [البقرة: 177] ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى ﴾ أي ذوى قرابة  
المؤتى المال.

والمراد هنا هو (الرسول) المذكور قبله، أي ولذوى قربي الرسول، والمراد بـ (ذوي)  
الجنس، أي: ذوي قربي الرسول، أي: قرابته، وذلك إكرام من الله لرسوله إذ جعل لأهل  
قرابته حقاً في مال الله، لأن الله حرّم عليهم أخذ الصدقات والزكاة.  
فلا جرم أنه أغناهم من مال الله.  
ولذلك كان حقهم في الخمس ثابتاً بوصف القرابة.

(263/313)

---

فذو القربى مراد به كل من اتّصف بقرابة الرسول عليه الصلاة والسلام فهو عام في  
الأشخاص، ولكن لفظ القربى ﴿ جنس فهو مجمل، وأجملت رتبة القرابة إحالة على



المعروف في قربي الرجل ، وتلك هي قربي نسب الآباء دون الأمهات .

ثم إن نسب الآباء بين العرب يعدّ مشتركاً إلى الحدّ الذي تنشقّ منه الفصائل ، ومحملها الظاهر على عَصبة الرجل من أبناء جدّه الأدنى .

وأبناء أدنى أجداد النبي صلى الله عليه وسلم هم بنو عبد المطلب بن هاشم ، وإن شئت فقل : هم بنو هاشم ، لأنّ هاشماً لم يبق له عقب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ من عبد المطلب ، فالأرجح أنّ قربي الرسول صلى الله عليه وسلم هم بنو هاشم ، وهذا قول مالك وجمهور أصحابه ، وهو إحدى روايتين عن أحمد بن حنبل ، وقاله ابن عباس ، وعلي بن الحسين ، وعبد الله بن الحسن ، ومجاهد ، والأوزاعي ، والثوري .

وذهب الشافعي ، وأحمد في إحدى روايتين عنه ، التي جرى عليها أصحابه ، وإسحاق وأبو ثور : أنّ القربي هنا : هم بنو هاشم وبنو المطلب ، دون غيرهم من بني عبد مناف . ومال إليه من المالكية ابن العربي ، ومتمسك هؤلاء ما رواه البخاري ، وأبو داود ،

والنسائي ، عن جبير بن مطعم : أنّه قال : أتيت أنا وعثمان بن عفان رسول الله نكلمه فيما قسم من الخمس بين بني هاشم وبني المطلب فقلت يا رسول الله : قسمت لإخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيئاً ، وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال : "إنما بنو هاشم وبنو المطلب

شيء واحد" .

وهو حديث صحيح لا نزاع فيه ، ولا في أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى بني هاشم وبني المطلب دون غيرهم .

(264/313)

---

ولكن فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يحتمل العموم في الأموال المعطاة ويحتمل الخصوص لأمر: أحدها: أنّ للنبي صلى الله عليه وسلم في حياته سهماً من الخمس فيحتمل أنه أعطى بني المطلب عطاءً من سهمه الخاصّ، جزاء لهم على وفائهم له في الجاهلية، وانتصارهم له، وتلك منقبة شريفة أيدوا بها دعوة الدين وهم مشركون، فلم يضعها الله لهم، وأمر رسوله بمواساتهم، وذلك لا يكسبهم حقاً مستمراً.

ثانيها: أنّ الحقوق الشرعية تستند للأوصاف المنضبطة، فالقربى هي النسب، ونسب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهاشم، وأمّا بنو المطلب فهم وبنو عبد شمس وبنو نوفل في رتبة واحدة من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنّ آباءهم هم أبناء عبد مناف، وأخوة لهاشم، فالذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وظاهروه في الجاهلية كانت لهم المزية، وهم الذين أعطى رسول الله أعيانهم ولم يثبت أنه أعطى من نشأ بعدهم من أبناءهم الذين لم يحضروا ذلك النصر، فمن نشأ بعدهم في الإسلام يساؤون أبناء نوفل وأبناء

عبد شمس ، فلا يكون في عطائه ذلك دليل على تأويل ذي القربى في الآية ببني هاشم وبني المطلب .

أما قول أبي حنيفة فقال الجصاص في "أحكام القرآن" : قال أبو حنيفة في "الجامع الصغير" :  
يقسم الخمس على ثلاثة أسهم (أي ولم يتعرض لسهم ذوي القربى ) وروى بشر بن الوليد  
عن أبي يوسف عن أبي حنيفة قال : خمس الله والرسول واحدٌ ، وخمسٌ لذوي القربى  
فلكل صنف سماء الله تعالى في هذه الآية خمس الخمس قال : وإن الخلفاء الأربعة متفقون  
على أن ذا القربى لا يستحق إلا بالفقر .

قال : وقد اختلف في ذوي القربى من هم ؟ فقال أصحابنا : قرابة النبي صلى الله عليه  
وسلم الذين حرّم عليهم الصدقة وهم (آل علي والعباس وآل جعفر وآل عقيل وولد  
الحارث بن عبد المطلب ) وقال آخرون : بنو المطلب داخلون فيهم .

(265/313)

---

وقال أصبغ من المالكية : ذوو القربى هم عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون  
الذين أمره الله بإنذارهم في قوله : ﴿ وأندر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : 214]  
وهم آل قُصي .

وعنه أنهم آل غالب بن فهر ، أي قريش ، ونسب هذا إلى بعض السلف وأخرج أبو حنيفة من القريبى بنى أبي لهب قال : لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا قرابة بيني وبين أبي لهب فإنه آثر علينا الأفجرين " رواه الحنفية في كتاب الزكاة ، ولا يعرف لهذا الحديث سند ، وبعد فلا دلالة فيه ، لأن ذلك خاص بأبي لهب فلا يشمل أبناءه في الإسلام .

ذكر ابن حجر في ❀ الإصابة ❀ أن محمد بن إسحاق ، وغيره .

روى عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قدمت دُرّة بنت أبي لهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن الناس يصيحون بي ويقولون : إنني بنت حطب النار ، فقام رسول الله ؛ وهو مغضب شديد الغضب ، فقال : " ما بال أقوام يؤذونني في نسبي وذوي رحمي الأومن أذى نسبي وذوي رحمي فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله " .  
فوصف دُرّة بأنها من نسبه .

والجمهور على أن ذوي القربى يستحقون دون اشتراط الفقر ، لأن ظاهر الآية أن وصف قربي النبي صلى الله عليه وسلم هو سبب ثبوت الحق لهم في خمس المغنم دون تقييد بوصف فقرهم ، وهذا قول جمهور العلماء .

وقال أبو حنيفة : لا يعطون إلا بوصف الفقر وروى عن عمر بن عبد العزيز .

ففائدة تعيين خمس الخمس لهم أن لا يحاصهم فيه من عداهم من الفقراء ، هذا هو المشهور

عن أبي حنيفة، وبعض الحنفية يحكي عن أبي يوسف موافقة الجمهور في عدم اشتراط  
الفقر فيهم.

(266/313)

---

وقد جعل الله الخمس لخمس مصارف ولم يعين مقدار ما لكل مصرف منه، ولا شك أن  
الله أراد ذلك؛ ليكون صرفه لمصارفه هذه موكولاً إلى اجتهاد رسوله صلى الله عليه وسلم  
وخلفائه من بعده، فيقسم بحسب الحاجات والمصالح، فيأخذ كل مصرف منه ما يفي  
ب حاجته على وجه لا ضرر معه على أهل المصرف الآخر، وهذا قول مالك في قسمة الخمس  
، وهو أصح الأقوال، إذ ليس في الآية تعرض لمقدار القسمة، ولم يرد في السنة ما يصح  
التمسك به لذلك، فوجب أن يناط بالحاجة، وتقديم الأوج والأهم عند التضايق،  
والأمر فيه موكول إلى اجتهاد الإمام، وقد قال عمر: "فكان رسول الله ينفق على أهله نفقة  
سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله".

وقال الشافعي: يقسم لكل مصرف الخمس من الخمس، لأنها خمسة مصارف، فجعلها  
متساوية، لأن التساوي هو الأصل في الشركة الجملة ولم يلتفت إلى دليل المصلحة المقتضية  
للتزجيج وإذ قد جعل ما لله ولرسوله خمساً واحداً تبعاً للجمهور فقد جعله بعد رسول الله

لمصالح المسلمين .

وقال أبو حنيفة: ارتفع سهم رسول الله وسهم قرابته بوفاته ، وبقي الخمس لليتامى  
والمساكين وابن السبيل ، لأن رسول الله إنما أخذ سهماً في المغنم لأنه رسول الله ، لا لأنه  
إمام ، فلذلك لا يخلفه فيه غيره .

وعند الجمهور أن سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلفه فيه الإمام ، يبدأ بنفقته ونفقة  
عياله بلا تقدير ، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين .

﴿ واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ تقدم تفسير معانيها عند قوله تعالى : ﴿ وآتى  
المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [ البقرة : 177 ] وعند  
قوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً إلى قوله وابن السبيل  
﴿ النساء : 36 ﴾ .

(267/313)

---

واليتامى وابن السبيل لا يعطون إلا إذا كانوا فقراء ففائدة تعيين خمس الخمس لكل صنف  
من هؤلاء أن لا يحاصهم فيه غيرهم من الفقراء والشأن ، في اليتامى في الغالب أن لا تكون  
لهم سعة في المكاسب فهم مظنة الحاجة ، ولكنها دون الفقر فجعل لهم حق في المغنم توفيراً

عليهم في إقامة شؤونهم ، فهم من الحاجة المالية أحسن حالاً من المساكين ، وهم من حالة المقدرة أضعف حالاً منهم ، فلو كانوا أغنياء بأموال تركها لهم آباؤهم فلا يعطون من الخمس شيئاً .

والمساكين الفقراء الشديد والفقير جعل الله لهم خمس الخمس كما جعل لهم حقاً في الزكاة ، ولم يجعل للفقراء حقاً في الخمس كما لم يجعل لليتامى حقاً في الزكاة .

وابن السبيل أيضاً في حاجة إلى الإعانة على البلاغ وتسديد شؤونه ، فهو مظنة الحاجة ، فلو كان ابن السبيل ذا وفر وغنى لم يعط من الخمس ، ولذلك لم يشترط مالك وبعض الفقهاء في اليتامى وأبناء السبيل الفقر ، بل مُطلق الحاجة .

واشترط أبو حنيفة الفقر في ذوي القربى واليتامى وأبناء السبيل ، وجعل ذكرهم دون الاكتفاء بالمساكين ؛ لتقرير استحقاقهم .

وقوله : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ شرط يتعلق بما دلّ عليه قوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم ﴾ لأن الأمر بالعلم لما كان المقصود به العمل بالمعلوم والأمثال لمقتضاه كما تقدم ، صحّ تعلق الشرط به ، فيكون قوله : ﴿ واعلموا ﴾ دليلاً على الجواب أو هو الجواب مقدماً على شرطه ، والتقدير : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن ما غنمتم إلخ .

واعلموا بما علمتم فاقطعوا أطماعكم في ذلك الخمس واقتنعوا بالأخماس الأربعة ، لأنّ الذي يتوقف على تحقق الإيمان بالله وآياته هو العلم بأنه حكم الله مع العمل المترتب على

ذلك العلم .

مطلق العلم بأن الرسول قال ذلك .

(268/313)

---

والشرط هنا محقق الوقوع إذ لا شك في أن المخاطبين مؤمنون بالله والمقصود منه تحقق  
المشروط ، وهو مضمون جملة ﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء ﴾ إلى آخرها .  
وجيء في الشرط بجرف (إن) التي شأن شرطها أن يكون مشكوكاً في وقوعه زيادة في  
حثمهم على الطاعة حيث يفرض حالهم في صورة المشكوك في حصول شرطه إلهاباً لهم ؛  
ليبعثهم على إظهار تحقق الشرط فيهم ، فالمعنى : أنكم آمنتم بالله والإيمان يُرشد إلى اليقين  
بتمام العلم والقدرة له وآمنتم بما أنزل الله على عبده يوم بدر حين فرق الله بين الحق والباطل  
فرايتم ذلك رأي العين وارتقى إيمانكم من مرتبة حق اليقين إلى مرتبة عين اليقين فعلمتم أن  
الله أعلم بنفعكم من أنفسكم إذ يعدكم إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات  
الشوكة تكون لكم ، فكان ما دفعكم الله إليه أحفظ لمصلحتكم وأشدّ تشبيهاً لقوة دينكم .  
فمن رأوا ذلك وتحققوه فهم أحرى بأن يعلموا أن ما شرع الله لهم من قسمة الغنائم هو  
المصلحة ، ولم يعابوا بما يدخل عليهم من نقص في حظوظهم العاجلة ، علماً بأن وراء ذلك



مصالح جملة آجلة في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وما أنزلنا ﴾ عطف على اسم الجلالة، والمعنى: وآمنتكم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، وهذا تخلص للتذكير بما حصل لهم من النصر يوم بدر، والإيمانُ به يجوز أن يكون الاعتقاد الجازم بحصوله، ويجوز أن يكون العلم به، فيكون على الوجه الثاني من استعمال المشترك في معنييه، أو من عموم المشترك.

وتخصيص ﴿ ما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ بالذكر من بين جملة المعلومات الراجعة للاعتقاد، لأن ذلك المنزل مزيد تعلق بما أمروا به من العمل المعبر عنه بالأمر بالعلم في قوله تعالى: ﴿ واعلموا ﴾.

(269/313)

---

والإنزالُ: هو إيصال شيء من علو إلى سفلى، وأطلق هنا على إبلاغ أمر من الله، ومن النعم الإلهية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فيجوز أن يكون هذا المنزل من قبيل الوحي، أي الوحي الذي أنزلناه على عبدنا يوم بدر، لكنه الوحي المتضمن شيئاً يؤمنون به مثل قوله: ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ [الأنفال: 7].

ويجوز أن يكون من قبيل خوارق العادات، والألطف العجيبة، مثل إنزال الملائكة للنصر،

وإنزال المطر عند حاجة المسلمين إليه ، لتعبيد الطريق ، وتثبيت الأقدام ، والاستقاء .  
وإطلاق الإنزال على حصوله استعارة تشبيهاً له بالواصل إليهم من علو تشریفاً له كقوله

تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح : 26] .

والتطهر ولا مانع من إرادة الجميع لأن غرض ذلك واحد ، وكذلك ما هو من معناه مما نعلمه  
أو لما علمناه .

و ﴿ يوم الفرقان ﴾ هو يوم بدر ، وهو اليوم السابع عشر من رمضان سنة اثنتين سمي يوم  
الفرقان ؛ لأن الفرقان الفرق بين الحق والباطل كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [الأنفال : 29] وقد كان يوم بدر فارقاً بين الحق والباطل  
؛ لأنه أول يوم ظهر فيه نصر المسلمين الضعفاء على المشركين الأقوياء ، وهو نصر المحقين  
الأذلة على الأعزة المبطلين ، وكفى بذلك فرقاناً وتمييزاً بين من هم على الحق ، ومن هم  
على الباطل .

فإضافة ﴿ يوم ﴾ إلى ﴿ الفرقان ﴾ إضافة تنويه به وتشريف ، وقوله : ﴿ يوم التقى  
الجمعان ﴾ بدل من ﴿ يوم الفرقان ﴾ إضافة ﴿ يوم ﴾ إلى جملة : ﴿ التقى الجمعان ﴾  
﴿ للتذكير بذلك الالتقاء العجيب الذي كان فيه نصرهم على عدوهم .

والتعريف في ﴿ الجمعان ﴾ للعهد .

وهما جمع المسلمين وجمع المشركين .

(270/313)

---

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ اعتراض بتذييل الآيات السابقة وهو متعلق ببعض جملة الشرط في قوله: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانَ ﴾ فَإِنَّ ذَلِكَ دليل على أنه لا يتعاصى على قدرته شيء ، فَإِنَّ مَا أُسْدَاهُ إِلَيْكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ جَارِيًا عَلَىٰ مَعَارِفِ الْأَسْبَابِ الْمَعْتَادَةِ ، فَقُدْرَةُ اللَّهِ قَلْبَتِ الْأَحْوَالِ وَأَنْشَأَتِ الْأَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ مَجَارِيهَا وَلَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ سَبَبِ تَسْمِيَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أَنَّهُ أُضِيفَ إِلَى الْفُرْقَانِ الَّذِي هُوَ لَقَبُ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ الْمَشْهُورَ أَنَّ ابْتِدَاءَ نَزُولِ الْقُرْآنِ كَانَ يَوْمَ سَبْعَةِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ ، فَيَكُونُ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْمَشْتَرِكِ فِي مَعْنِيهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص



(271/313)

---

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ

واليتامى والمساكين وابن السبيل ❁ .

ظاهر هذه الآية الكريمة أن كل شيء حواه المسلمون من أموال الكفار فإنه يـخمس حسبما نص عليه في الآية ، سواء أوجفوا عليه الخيل والركاب أولاً ، ولكنه تعالى بين في سورة "الحشر" أن ما أفاء على رسوله من غير إيجاب المسلمين عليه الخيل والركاب ، أنه لا يـخمس ومصارفه التي بين أنه يصرف فيها كمصارف خمس الغنيمة المذكورة هنا ، وذلك في قوله تعالى : في فيء بني النضير ❁ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ❁ [الحشر : 6] الآية ، ثم بين شمول الحكم لكل ما أفاء الله على رسوله من جميع القرى بقوله : ❁ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ❁ [الحشر : 7] الآية .

(272/313)

---

اعلم أولاً أن أكثر العلماء : فرقوا بين الفيء والغنيمة فقالوا : الفيء : هو ما يسره الله للمسلمين من أموال الكفار من غير انتزاعه منهم بالقهر ، كفيء بني النضير الذين نزلوا على حكم النبي صلى الله عليه وسلم ومكنوه من أنفسهم وأموالهم يفعل فيها ما يشاء لشدة الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم ، ورضي لهم صلى الله عليه وسلم أن يرتحلوا بما يحملون

على الإبل غير السلاح، وأما الغنيمة: فهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالغبلة والقهر، وهذا التفريق يفهم من قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ [الأنفال: 41] الآية مع قوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فإن قوله تعالى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية: ظاهر في أنه يراد به بيان الفرق بين ما أوجفوا عليه وما لم يوجفوا عليه كما ترى، والفرق المذكور بين الغنيمة والفبيء عقده الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي بقوله:

في غزوة بني النضير

وفيهم والفبيء في الأنفال . . . ما لم يكن أخذ عن قتال  
أما الغنيمة فعن زحاف . . . والأخذ عنوة لدى الزحاف  
لخير مرسل الخ.

وقوله: وفيهم مبتدأ خبره لخير مرسل، وقوله: والفبيء في الأنفال إلخ كلام اعتراضى بين المبتدأ والخبر بين به الفرق بين الغنيمة والفبيء، وعلى هذا القول فلا إشكال في الآيات، لأن آية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ ذكر فيها حكم الغنيمة، وآية ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [الحشر: 7] ذكر فيها حكم الفبيء وأشار لوجه الفرق بين المسالتين بقوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: 6] أي فكيف يكون غنيمة لكم، وأنتم لم تتعبوا فيه ولم تنتزعوه بالقوة من مالكه.

(273/313)

---

وقال بعض العلماء : إن الغنيمة والفيء واحد ، فجميع ما أخذ من الكفار على أي وجه كان غنيمة وفيء ، وهذا قول قتادة رحمه الله وهو المعروف في اللغة ، فالعرب تطلق اسم الفيء على الغنيمة ، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي :  
فلا وأبي جلييلة ما أفأنا . . . من النعم المؤيل من بعير  
ولكننا نهكنا القوم ضرباً . . . على الأثباج منهم والنحور

(274/313)

---

يعني أنهم لم يشتغلوا بسوق الغنائم ولكن بقتل الرجال فقوله : أفأنا : يعني غنمنا ، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ [الأحزاب : 50] ، لأن ظاهر هذه الآية الكريمة شمول ذلك لجميع المسبيات ولو كن منتزعات قهراً ، ولكن الاصطلاح المشهور عند العلماء هو ما قدمنا من الفرق بينهما ، وتدلل له آية الحشر المتقدمة . وعلى قول قتادة فآية الحشر مشكلة مع آية الأنفال هذه ، ولأجل ذلك الإشكال

قال قتادة، رحمه الله تعالى: إن آية ﴿واعلموا أنّما غنمتم﴾ الآية، ناسخة لآية ﴿ومآ أفاء الله على رسوله﴾ [الحشر: 6] الآية، وهذا القول الذي ذهب إليه - رحمه الله - باطل بلا شك، ولم يلجئ قتادة - رحمه الله - إلى هذا القول إلا دعواه اتحاد الفيء والغنيمة، فلو فرق بينهما كما فعل غيره لعلم أن آية الأنفال في الغنيمة، وآية الحشر في الفيء، ولا إشكال. ووجه بطلان القول المذكور: أن آية ﴿واعلموا أنّما غنمتم من شيء﴾ الآية نزلت بعد وقعة بدر، قيل قسم غنيمة بدل دليل حديث علي الثابت في صحيح مسلم، الدال على أن غنائم بدر خمست، وآية التخميس التي شرعها الله بها هي هذه، وأما آية الحشر فهي نازلة في غزوة بني النضير بإطباق العلماء، وغزوة بني النضير بعد غزوة بدر بإجماع المسلمين، ولا منازعة فيه البتة، فظهر من هذا عدم صحة قول قتادة رحمه الله تعالى، وقد ظهر لك أنه على القول بالفرق بين الغنيمة والفيء لا إشكال في الآيات، وكذلك على قول من يرى أمر الغنائم والفيء راجعاً إلى نظر الإمام، فلا منافاة على قوله بين آية الحشر، وآية التخميس إذا رآه الإمام، والله أعلم.

مسائل من أحكام هذه الآية الكريمة

(275/313)

---

المسألة الأولى: اعلم أن جماهير علماء المسلمين على أن أربعة أخماس الغنيمة للغزاة الذين غنموها، وليس للإمام أن يجعل تلك الغنيمة لغيرهم، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ غَنِمْتُمْ ﴾ ، فهو يدل على أنها غنيمة لهم فلما قال: ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ علمنا أن الأ خمس الأربعة الباقية لهم لا لغيرهم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَاوَدٌ وَوَرِثَةُ آبَائِهِ ﴾ فَلَا مِمَّ الثلث ﴿ [النساء: 11] ﴾ أي ولأبيه الثلثان الباقيان إجماعاً، فكذلك قوله: ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ أي وللغانمين ما بقي، وهذا القول هو الحق الذي لا شك فيه، وحكى الإجماع عليه غير واحد من العلماء ومن حكى إجماع المسلمين عليه ابن المنذر وابن عبد البر، والداودي والمازري، والقاضي عياض وابن العربي، والأخبار بهذا المعنى متظاهرة، وخالف في ذلك بعض أهل العلم، وهو قول كثير من المالكية، ونقله عنهم المازري - رحمه الله - أيضاً قالوا: للإمام أن يصرف الغنيمة فيما يشاء من مصالح المسلمين، ويمنع منها الغزاة الغانمين.

واحتجوا لذلك بأدلة منها قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: 1] الآية. قالوا: الأنفال: الغنائم كلها، والآية محكمة لا منسوخة، واحتجوا لذلك أيضاً بما وقع في فتح مكة. وقصة حنين قالوا: إنه صلى الله عليه وسلم فتح مكة عنوة بعشرة آلاف مقاتل، ومن على أهلها فردها عليهم، ولم يجعلها غنيمة ولم يقسمها على الجيش، فلو كان قسم الأ خمس الأربعة على الجيش واجباً: لفعله صلى الله عليه وسلم لما



فتح مكة . قالوا : وكذلك غنائم هوازن في غزوة حنين ، أعطى منها عطايا عظيمة جداً ، ولم يعط الأنصار منها مع أنهم من خيار المجاهدين الغازين معه صلى الله عليه وسلم ، وقد أشار لعطاياه من غنائم هوازن في وقعة حنين الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي في غزوة حنين بقوله :

(276/313)

---

أعطى عطايا شهدت بالكرم . . . يومئذ له ولم تجمجم  
أعطى عطايا أخرجت دح الديم . . . إذا ملأت رحب الغضا من النعم  
زهاء ألفى ناقة منها وما . . . ملأين جبيلين غنما  
لرجل وبله ما لحلقه . . . منها ومن رقيقه وورقه  
الح قالوا : لو كان يجب قسم الأخماس الأربعة على الجيش الذي غنمها ، لما أعطى صلى  
الله عليه وسلم ألفى ناقة من غنائم هوازن لغير الغزاة ، ولما أعطى ما ملأين جبيلين من الغنم  
لصفوان بن أمية ، وفي ذلك اليوم أعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة من الإبل ، وكذلك  
عيننة بن حصن الفزاري حتى غار من ذلك العباس بن مرداس السلمي وقال في ذلك شعره  
المشهور :

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ . . . بِنِ عَيْنِيَةِ وَالْأَقْرَعِ  
فَمَا كَانَ حِصْنًا وَلَا حَابِسًا . . . يَفُوقَانِ مِرْدَاسًا فِي مَجْمَعٍ  
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا . . . وَمَنْ تَضَعُ الْيَوْمَ لَا يَرْفَعُ  
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَا تَدْرٍ . . . فَلَمْ أُعْطِ شَيْئًا وَلَمْ أَمْنَعُ  
إِلَّا أَبَاعِيرًا عَطَيْتَهَا . . . عَدِيدَ قَوَائِمِهِ الْأَرْبَعِ  
وَكَانَتْ نَهَايَا تَلَا فَيْتَهَا . . . بِكْرَى عَلَى الْمَهْرِ فِي الْأَجْرَعِ  
وَإِقَاظِي الْقَوْمَ إِنْ يَرِ قَدُوا . . . إِذَا هَجَعَ النَّاسُ لَمْ أَهْجِعْ  
قَالُوا : فَلَوْ كَانَ قِسْمَ الْأَخْمَاسِ الْأَرْبَعَةَ عَلَى الْجَيْشِ الْغَانِمِينَ وَاجِبًا ، لَمَا فَضَّلَ الْأَقْرَعُ وَعَيْنِيَةُ  
فِي الْعَطَاءِ مِنَ الْغَنِيمَةِ عَلَى الْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ شَعْرَهُ الْمَذْكُورَ .  
وَأَجِيبُ مِنْ جِهَةِ الْجُمْهُورِ عَنْ هَذِهِ الْأَحْتِجَاجَاتِ : فَالْجَوَابُ عَنْ آيَةِ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ  
الْأَنْفَالِ ﴾ [ الْأَنْفَالِ : 1 ] هُوَ مَا قَدَّمْنَا مِنْ أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا  
غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الآية ، وَنَسَبَهُ الْقُرْطُبِيُّ لِلْجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ ، وَالْجَوَابُ عَمَّا وَقَعَ فِي فَتْحِ مَكَّةَ  
مِنْ أَوْجِهِ :

الأول : أن بعض العلماء زعموا أن مكة لم تفتح عنوة ، ولكن أهلها أخذوا الأمان منه صلى  
الله عليه وسلم : وممن قال بهذا الشافعي رحمه الله .

---

واستدل قائلو هذا القول بقوله صلى الله عليه وسلم: " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن " وهو ثابت في الصحيح ، وهذا الخلاف في مكة هل أخذها النبي صلى الله عليه وسلم عنوة؟ وهو قول الجمهور ، أو أخذ لها الأمان . والأمان شبه الصلح ، عقده الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في مغازيه بقوله : في غزوة الفتح يعني مكة .

واختلفوا فيها فقليل أمنت . . . وقيل عنوة وكرها أخذت والحق أنها فتحت عنوة كما سيأتي تحقيقه إن شاء الله . ومن أظهر الأجوبة عما وقع في فتح مكة ، أن مكة ليست كغيرها من البلاد ، لأنها حرام بجرمة الله من يوم خلق السماوات والأرض إلى يوم القيامة ، وإنما أحلت له صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار ، ولم تحل لأحد قبله ولا بعده ، وما كان بهذه المثابة ، فليس كغيره من البلاد التي ليست لها هذه الحرمة العظيمة .

وأما ما وقع في قصة حنين فالجواب عنه ظاهر ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم استطاب نفوس الغزاة عن الغنيمة ليؤلف بها قلوب المؤلفة قلوبهم لأجل المصلحة العامة للإسلام والمسلمين ، ويدل على ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما سمع أن بعض الأنصار قال : يميننا ويعطي قريشاً ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ، جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلمهم كلامه المشهور البالغ في الحسن ، ومن جملة أنه قال لهم : " ألا ترضون يا معشر

الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم " إلى آخر كلامه ، فرضي القوم ، وطابت نفوسهم ، وقالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسما وحظاً ، وهذا ثابت في الصحيح ، ونوه الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في مغازيه بحسن هذا الكلام الذي خاطبهم به صلى الله عليه وسلم بقوله : في غزوة حنين .

وكل الأنصار خير العالمين . . . لدينهم إذ ألف المؤلفين  
فوجدوا عليه أن منعهم . . . فأرسل النبي من جمعهم  
وقال قولاً كالفريد المؤثق . . . عن نظمه ضعف سلك منطقي

(278/313)

---

فالحاصل أن أربعة أخماس الغنيمة التي أوجف الجيش عليها الخيل ، والركاب للغزاة الغانمين على التحقيق ، الذي لا شك فيه ، وهو قول الجمهور .  
وقد علمت الجواب عن حجج المخالفين في ذلك . ومن العلماء من يقول : لا يجوز للإمام أن ينفل أحداً شيئاً من هذه الأخماس الأربعة ، لأنها ملك للغانمين ، وهو قول مالك .  
وذهب بعض العلماء إلى أن للإمام أن ينفل منها بعض الشيء باجتهاده ، وهو أظهر دليلاً ،

وسياتي له زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى .

المسألة الثانية : هي تحقيق المقام في مصارف الخمس الذي يؤخذ من الغنيمة قبل القسمة .  
فظاهر الآية الكريمة أنه يجعل ستة أنصباء : نصيب لله جل وعلا ، ونصيب للرسول صلى  
الله عليه وسلم ، ونصيب لذى القربى ، ونصيب لليتامى ، ونصيب للمساكين ، ونصيب  
لابن السبيل .

وبهذا قال بعض أهل العلم : قال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ، عن أبي العالية الرياحي ،  
قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالغنيمة فيخمسها على خمسة تكون  
أربعة أخماس منها لمن شهدها ، ثم يؤخذ الخمس فيضرب بيده فيه ، فيأخذ الذي قبض  
كفه ، فيجعله للكعبة وهو سهم الله ، ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم ، فيكون سهم  
للرسول صلى الله عليه وسلم وسهم لذى القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ،  
وسهم لابن السبيل .

وعلى هذا القول فنصيب الله جل وعلا للكعبة ، ولا يخفى ضعف هذا القول لعدم الدليل  
عليه .

وقال بعض من قال بهذا القول : إن نصيب الله جل وعلا يرد على ذوي الحاجة .  
والتحقيق أن نصيب الله جل وعلا ، ونصيب الرسول صلى الله عليه وسلم واحد ، وذكر  
اسمه جل وعلا استفتاح كلام للتعظيم ، ومن قال بهذا القول ابن عباس ، كما نقله عنه

الضحاك . وهو قول إبراهيم النخعي ، والحسن بن محمد بن الحنفية ، والحسن البصري ،  
والشعبي ، وعطاء بن أبي رباح ، وعبد الله بن بريدة ، وقتادة ، ومغيرة وغير واحد كما  
نقله عنهم ابن كثير .

(279/313)

---

والدليل على صحة هذا القول ما رواه البيهقي بإسناد صحيح ، عن عبد الله بن شقيق ،  
عن رجل ، قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بوادي القرى ، وهو يعرض فرساً ،  
فقلت : يا رسول الله ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : " لله خمسها ، وأربعة أخماسها للجيش "  
قلت : فما أحد أولى به من أحد ، قال : " لا ولا السهم تستخرجه من جيبك لست أحق  
به من أخيك المسلم " وهذا دليل واضح على ما ذكرنا .

ويؤيده أيضاً ما رواه الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب الكندي ، أنه جلس مع عبادة بن  
الصامت ، وأبي الدرداء ، والحارث بن معاوية الكندي رضي الله عنهم ، فتذاكروا  
حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة كلمات رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ، في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس ، فقال عبادة : إن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم في غزوة إلى بغير من المغنم . فلما سلم قام رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فتناول وبرة بين أئمتيه ، فقال : " إن هذى من غنائمكم ، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبى معكم الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوا فإن الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد ، ولا تبالوا في الله لومة لائم ، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر ، وجاهدوا في الله ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ينجي الله به من الهم والغم " .

قال ابن كثير بعد أن ساق حديث أحمد . هذا عن عبادة بن الصامت ، هذا حديث حسن عظيم ، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه : ولكن روى الإمام أحمد أيضاً ، وأبو داود ، والنسائي من حديث عمرو بن شعيب . عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحوه في قصة الخمس ، والنهي عن الغلول .

(280/313)

---

وعن عمرو بن عبسة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم إلى بغير من المغنم ، فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير . ثم قال : " ولا يجلي لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم " رواه أبو داود ، والنسائي .

فإذا عرفت أن التحقيق أن الخمس في حياة النبي صلى الله عليه وسلم . يقسم خمسة أسهم ، لأن اسم الله ذكر للتعظيم ، وافتتاح الكلام به ، مع أن كل شيء مملوك له جل وعلا ، فاعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصرف نصيبه ، الذي هو خمس الخمس ، في مصالح المسلمين . بدليل قوله في الأحاديث التي ذكرناها آنفاً . " والخمس مردود عليكم " ، وهو الحق .

ويدل له ما ثبت في الصحيح : من أنه كان يأخذ قوت سنته من فيء بني النضير ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وأما بعد وفاته ، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى صلوات الله وسلامه عليه . فإن بعض العلماء يقول بسقوط نصيبه بوفاته .

ومن قال بذلك : أبو حنيفة رحمه الله ، واختاره ابن جرير .

وزاد أبو حنيفة سقوط سهم ذوي القربى أيضاً : بوفاته صلى الله عليه وسلم .

والصحيح أن نصيبه صلى الله عليه وسلم باق ، وأن إمام المسلمين يصرفه فيما كان يصرفه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من مصالح المسلمين .

وقال بعض العلماء يكون نصيبه صلى الله عليه وسلم لمن يلي الأمر بعده ، وروي عن أبي بكر ، وعلي وقتادة ، وجماعة ، قال ابن كثير : وجاء فيه حديث مرفوع .

قال مقيدته : - عفا الله عنه - والظاهر أن هذا القول راجع في المعنى إلى ما ذكرنا أنه



الصحيح ، وأن معنى كونه لمن يلي الأمر بعده ، أنه يصرفه فيما كان يصرفه فيه صلى الله عليه وسلم ، والنبي قال : " والخمس مردود عليكم " وهو واضح كما ترى . ولا يخفى أن كل الأقوال في نصيب النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته . راجعة إلى شيء واحد . وهو صرفه في مصالح المسلمين .

(281/313)

---

وقد كان الخلفاء الراشدون المهديون - رضي الله عنهم - يصرفونه فيما كان يصرفه فيه صلى الله عليه وسلم .

وكان أبو بكر ، وعمر - رضي الله عنهما - يصرفانه في الكراع والسلاح . وجمهور العلماء على أن نصيب ذوي القربى باق ، ولم يسقط بموته صلى الله عليه وسلم . واختلف العلماء فيه من ثلاث جهات :

الأولى : هل يسقط بوفاته أو لا ؟

وقد ذكرنا أن الصحيح عدم السقوط . خلافاً لأبي حنيفة .

الثانية : في المراد بذوي القربى .

الثالثة : هل يفضل ذكرهم على أئمتهم أو لا ؟

أما ذوا القربى : فهم بنو هاشم ، وبنو المطلب . على أظهر الأقوال دليلاً ، وإليه ذهب الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وأبو ثور ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن جريج ، ومسلم بن خالد .

قال البخاري في صحيحه ، في كتاب " فرض الخمس " .

حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن ابن المسيب . عن جبير بن مطعم . قال : مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلنا : يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركنا ، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما بنو المطلب ، وبنو هاشم شيء واحد " .

قال الليث : حدثني يونس وزاد قال جبير : ولم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني عبد شمس ، ولا لبني نوفل ، اه .

وقال البخاري أيضاً في المغازي : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، أن جبير بن مطعم أخبره . قال : مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : أعطيت بني المطلب من خمس خير ، وتركنا ، ونحن بمنزلة واحدة منك ، فقال : " إنما بنو هاشم ، وبنو المطلب شيء واحد " ، قال جبير : لم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني عبد شمس ، وبني نوفل شيئاً اه .

وإيضاح كونهم من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة واحدة: أن جبير بن مطعم بن عدي بن

نوفل بن عبد مناف، وعثمان بن عفان بن أبي العاص بن عبد شمس بن عبد مناف.

فأولاد عبد مناف بن قصي أربعة:

هاشم، والمطلب، وعبد شمس.

وهم: أشقاء. أمهم: عاتكة، بنت مرة، بن هلال السلمية، إحدى عواتك سليم.

اللاتي هن جدات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهن ثلاث "

هذه: التي ذكرنا.

والثانية: عمتها. وهي: عاتكة، بنت هلال التي هي أم عبد مناف.

والثالثة: بنت أخي الأولى. وهي عاتكة، بنت الأوقص، بن مرة، بن هلال، وهي أم

وهب، والد أمّنة، أم مازن، بن صعصعة.

قال الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه عمود النسب:

عبد مناف قمر البطحاء . . . أربعة بنوء هؤلاء

مطلب، وهاشم، ونوفل، . . . وعبد شمس، هاشم لا يجهل

وقال في بيان عوانتك سليم اللاتي هن جدات له صلى الله عليه وسلم :

عوانتك النبي : أم وهب ، . . . وأم هاشم ، وأم الندب

عبد مناف ، وذو الأخريرة : . . . عممة عممة الأولى الصغيره

وهن بالترتيب ذا الذي لرجال . . . الأوقص بن مرة بن هلال

فبهذا الذي بينا يتضح أن الصحيح أن المراد بذي القربى في الآية : بنو هاشم ، وبنو المطلب

دون بني عبد شمس ، وبني نوفل .

ووجهه أن بني عبد شمس ، وبني نوفل عادوا الهاشميين ، وظاهروا عليهم قريشاً ، فصاروا

كالأباعد منهم . للعداوة ، وعدم النصرة .

ولذا قال فيهم أبو طالب . في لاميته المشهورة :

جزى الله عنا عبد شمس ، ونوفلا . . . عقوبة شر ، عاجل ، غير آجل

بميزان قسط لا يخيس شعيرة . . . له شاهد من نفسه ، غير عائل

لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا . . . بني خلف قيضاً بنا ، والغياطل

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم . . . وآل قصي في الخطوب الأوائل

بهذا الحديث الصحيح الذي ذكرنا : يتضح عدم صحة قول من قال : بأنهم بنو هاشم

فقط . وقول من قال : إنهم قريش كلهم .

---

ومن قال بأنهم بنو هاشم فقط : عمر بن عبد العزيز ، وزيد بن أرقم ، ومالك ، والثوري ،  
ومجاهد وعلي بن الحسين ، والأوزاعي ، وغيرهم .

وقد أخرج الشافعي ، وعبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن المنذر ،  
وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه : عن ابن عباس : أن نجدة الحروري كتب  
إليه : يسأله عن ذوي القربى الذين ذكر الله ، فكتب إليه : إنا كنا نرى أناهم ، فأبى ذلك  
علينا قومنا ، وقالوا : قريش كلها ذوو قربي .

وزيادة قوله : وقالوا : " قريش كلها " تفرد بها أبو معشر ، وفيه ضعف .

وما قدمنا من قول النبي صلى الله عليه وسلم ، وفعله الثابت في الصحيح : يعين أنهم بنو  
هاشم ، والمطلب ، وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل ، وكثير من أهل العلم .  
فإذا عرفت أنه صلى الله عليه وسلم قضى بخمس الخمس من غنائم خيبر لبني هاشم  
والمطلب ، وأنهم هم ذوو القربى المذكورون في الآية .

فاعلم أن العلماء اختلفوا : هل يفضل ذكرهم على أئمتهم ، أو يقسم عليهم بالسوية ؟  
فذهب بعض العلماء إلى أنه كالميراث ، للذكر مثل حظ الأنثيين . وهذا هو مذهب أحمد  
بن حنبل في أصح الروايتين .

قال صاحب الإنصاف : هذا المذهب جزم به الخرقي ، وصاحب الهداية ، والمذهب ،

ومسبوك الذهب ، والعمدة ، والوجيز ، وغيرهم . وقدمه في الرعائين ، والحاويين ،  
وغيرهم ، وصححه في البلغة ، والنظم ، وغيرهما .  
وعنه : الذكر والأثني . سواء . قدمه ابن رزين في شرحه . وأطلقهما في المغني ، والشرح ،  
والحرر ، والفروع ، اه من الانصاف .  
وتفضيل ذكرهم على أئناهم الذي هو مذهب الإمام أحمد : هو مذهب الشافعي أيضاً .  
وحجة من قال بهذا القول : أنه سهم استحق بقراءة الأب شرعاً . بدليل أن أولاد عماته  
صلى الله عليه وسلم ، كالزبير بن العوام ، وعبد الله بن أبي أمية .  
لم يقسم لهم في خمس الخمس ، وكونه مستحقاً بقراءة الأب خاصة يجعله كالميراث . فيفضل  
فيه الذكر على الأثني .

(284/313)

---

وقال بعض العلماء : ذكرهم وأئناهم سواء .  
ومن قال به المزني : وأبو ثور ، وابن المنذر .  
قال مقيدته : - عفا الله عنه - وهذا القول أظهر عندي ، لأن تفضيل الذكر على الأثني  
يحتاج إلى دليل ، ولم يقم عليه في هذه المسألة دليل ، ولم ينقل أحد عن النبي صلى الله عليه

وسلم : أنه فضل ذكرهم على أئناهم في خمس الخمس .

والدليل على أنه ليس كالميراث : أن الابن منهم يأخذ نصيبه مع وجود أبيه ، وجدده اه .

وصغيرهم ، وكبيرهم سواء . وجمهور العلماء القائلين بنصب القرابة على أنه يقسم على جميعهم . ولم يترك منهم أحد خلافاً لقوم .

والظاهر شمول غنيهم . خلافاً لمن خصص به فقراءهم ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم

يخصص به فقراءهم ، بخلاف نصيب اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

فالظاهر أنه يخصص به فقراؤهم ، ولا شيء لأغنيائهم ، فقد بان لك مما تقدم أن مذهب

الشافعي ، وأحمد - رحمهما الله - في هذه المسألة : أن سهم الله ، وسهم رسوله صلى الله

عليه وسلم واحد . وأنه بعد وفاته يصرف في مصالح المسلمين . وأن سهم القرابة لبني

هاشم ، وبني المطلب . للذكر مثل حظ الأنثيين ، وأنه لجميعهم . غنيهم وفقيرهم ، قاتلوا أم

لم يقاتلوا ، وأن للذكر منهم مثل حظ الأنثيين ، وأن الأنصباء الثلاثة الباقية لخصوص الفقراء

من اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

ومذهب أبي حنيفة : سقوط سهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسهم قرابته بموته ،

وأن الخمس يقسم على الثلاثة الباقية : التي هي اليتامى ، والمساكين وابن السبيل . قال :

ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر ، وبناء المساجد ، وأرزاق القضاة ، والجند ، وروي

نحو هذا عن الشافعي أيضاً .

ومذهب الإمام مالك - رحمه الله - أن أمر خمس الغنيمة موكل إلى نظر الإمام واجتهاده .  
فيما يراه مصلحة ، فيأخذ منه من غير تقدير ، ويعطي القرابة باجتهاده ، ويصرف الباقي  
في مصالح المسلمين .

(285/313)

---

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة التي نحن بصددنا : ويقول مالك هذا : قال الخلفاء  
الأربعة ، وبه عملوا ، وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم : " مالي مما أفاء الله عليكم إلا  
الخمس ، والخمس مردوح عليكم " ، فإنه لم يقسمه أخماساً ، ولا أثلاثاً ، وإنما ذكر في الآية  
من ذكر على وجه التنبية عليهم . لأنهم من أهم من يدفع إليه .

قال الزجاج : محتجاً لمالك ، قال الله عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ

خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة : 215] .

وللرجل جائز ياجماع العلماء أن ينفق في غير هذه الأصناف ، إذا رأى ذلك ، وذكر النسائي

عن عطاء ، قال : " خمس الله ، وخمس رسوله واحد ، كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم يحمل منه ، ويعطى منه ، ويضعه حيث شاء " اه من القرطبي .

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه : " وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه



الإمام بالمصلحة للمسلمين ، كما يتصرف في مال الفيء .

وقال شيخنا العلامة ابن تيمية : رحمه الله - وهذا قول مالك ، وأكثر السلف ، وهو أصح الأقوال اه من ابن كثير .

وهذا القول هو رأي البخاري بدليل قوله : باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ يعني للرسول قسم ذلك .

وقال رسول الله : " إنما أنا قاسم ، وخازن ، والله يعطي " ثم ساق البخاري أحاديث الباب ، في كونه صلى الله عليه وسلم قاسماً بأمر الله تعالى .

قال مقيده - عفا الله عنه - : وهذا القول قوي ، وستأتي له أدلة إن شاء الله في المسألة التي بعد هذا ، ولكن أقرب الأقوال للسلامة هو العمل بظاهر الآية ، كما قال الشافعي ، وأحمد - رحمهما الله - لأن الله أمرنا أن نعلم أن خمس ما غنمنا . لهذه المصارف المذكورة ، ثم أتبع ذلك بقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ ، وهو واضح جداً ، كما ترى .

(286/313)

---

وأما قول بعض أهل البيت . كعبد الله بن محمد بن علي ، وعلي بن الحسين رضي الله عنهم : بأن الخمس كله لهم دون غيرهم ، وأن المراد باليتامى ، والمساكين : يتامهم ، ومساكينهم

، وقول من زعم أنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، يكون لقرابة الخليفة الذي يوليه المسلمون ، فلا يخفى ضعفهما ، والله تعالى أعلم .

المسألة الثالثة : أجمع العلماء على أن الذهب ، والفضة ، وسائر الأمتعة . كل ذلك داخل في حكم الآية : يخمس ، ويقسم الباقي على الغانمين ، كما ذكرنا .

المسألة الرابعة : أما أرضهم المأخوذة عنوة . فقد اختلف العلماء فيها ، فقال بعض العلماء : يخير الإمام بين قسمتها ، كما يفعل بالذهب ، والفضة . ولا خراج عليها . بل هي أرض عشر مملوكة ، للغانمين ، وبين وقفها للمسلمين بصيغة .

وقيل بغير صيغة ، ويدخل في ذلك تركها للمسلمين بخراج مستمر يؤخذ من تقر بيده ، وهذا التخيير : هو مذهب الإمام أحمد .

وعلى هذا القول : إذا قسمها الإمام ، فقليل : تخمس ، وهو أظهر ، وقيل : لا ، واختاره بعض أجلاء العلماء قائلًا : إن أرض خير لم يخمس ما قسم منها . والظاهر أن أرض خير خمست ، كما جزم به غير واحد ، ورواه أبو داود بإسناد صحيح عن الزهري .

وهذا التخيير بين القسم ، وإبقائها للمسلمين ، الذي ذكرنا أنه مذهب الإمام أحمد : هو أيضاً مذهب الإمام أبي حنيفة ، والثوري .

وأما مالك - رحمه الله - فذهب إلى أنها تصير وقفاً للمسلمين ، بمجرد الاستيلاء عليها .  
وأما الشافعي - رحمه الله - فذهب إلى أنها غنيمة يجب قسمها على المجاهدين ، بعد

إخراج الخمس ، وسنذكر - إن شاء الله - حجج الجميع ، وما يظهر لنا رجحانه بالدليل .  
ما حجة الإمام الشافعي - رحمه الله - فهي بكتاب وسنة .  
أما الكتاب ، فقوله تعالى : ﴿ وَعَلِّمُوا النَّاسَ غِنْمًا مِّنْ شَيْءٍ ﴾ [ الأنفال : 41 ] الآية ،  
فهو يقتضي بعمومه شمول الأرض المغتومة .

(287/313)

---

وأما السنة : فما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم ، قسم أرض قريظة ، بعد أن خمسها ، وبنى  
النضير ، ونصف أرض خيبر بين الغانمين .  
قال : فلو جاز أن يدعي ، إخراج الأرض ، جاز أن يدعي إخراج غيرها ، فيبطل حكم  
الآية .

قال مقيد - عفا الله عنه ، الاستدلال بالآية : ظاهر ، وبالسنة غير ظاهر ؛ لأنه لا حجة  
فيه على من يقول بالتحخير ، لأنه يقول : كان مخيراً فاختار القسم ، فليس القسم واجباً ،  
وهو واضح كما ترى .

وحجة من قال بالتحخير : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قسم نصف أرض خيبر ، وترك  
نصفها ، وقسم أرض قريظة ، وترك قسمة مكة ، فدل قسمه تارة ، وتركه القسم أخرى

على التخيير .

ففي (السنن) و(المستدرک) : " أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما ظهر على خيبر قسمها على ستة وثلاثين سهماً ، جمع كل سهم مائة سهم ، فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وللمسلمين ؛ النصف من ذلك ، وعزل النصف الباقي لمن ينزل به من الوفود ، والأمور ، ونوائب الناس " ، هذا لفظ أبي داود .

وفي لفظ " عزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر سهماً ، وهو الشطر - لنوائبه ، وما ينزل به من أمر المسلمين ، فكان ذلك : الوطيح ، والكتيبة ، والسلام ، وتوابعها " .  
وفي لفظ أيضاً : " عزل نصفها لنوائبه ، وما ينزل به ؛ الوطيحة ، والكتيبة ، وما أحيز معهما ، وعزل النصف الآخر : فقسمه بين المسلمين ، الشق ، والنظاة ، وما أحيز معهما ، وكان سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أحيز معهما " .

ورد المخالف هذا الاحتجاج ، بأن النصف المقسوم من خيبر : مأخوذ عنوة ، والنصف الذي لم يقسم منها : مأخوذ صلحاً ، وجزم بهذا ابن حجر في (فتح الباري) .

(288/313)

---

وقال النووي في (شرح مسلم) في الكلام على قول أنس عند مسلم: وأصبناها عنوة ما  
نصه "قال القاضي: قال المازري: ظاهر هذا أنها كلها فتحت عنوة، وقد روى مالك،  
عن ابن شهاب، أن بعضها فتح عنوة، وبعضها صلحاً، قال: وقد يشكّل ما روي في سنن  
أبي داود، أنه قسمها نصفين: نصفاً لنوائبه، وحاجته، ونصفاً للمسلمين، قال: وجوابه،  
ما قال بعضهم: إنه كان حولها ضياع وقرى أجلى عنها أهلها، فكانت خالصة للنبي صلى  
الله عليه وسلم، وما سواها للغانمين، فكان قدر الذي جلوا عنه النصف، فلهذا قسم  
نصفين اه منه بلفظه.

وقال أبو داود في (سننه): حدثنا حسين بن علي العجلي، ثنا يحيى - يعني ابن آدم -،  
ثنا ابن أبي زائدة، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، وعبد الله بن أبي بكر، وبعض  
ولد محمد بن مسلمة، قالوا: بقيت بقية من أهل خير تحصنوا، فسألوا رسول الله صلى  
الله عليه وسلم: أن يحقن دماءهم، ويسيرهم، ففعل، فسمع بذلك أهل فدك، فنزلوا  
على مثل ذلك، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، لأنها لم يوجف عليها  
بجبل ولا ركاب.

حدثنا محمد بن يحيى بن فارس، ثنا عبد الله بن محمد، عن جويرية، عن مالك، عن  
الزهري: أن سعيد ابن المسيب، أخبره: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، افتتح  
بعض خير عنوة".

قال أبو داود : وقرئ على الحارث بن مسكين ، وأنا شاهد ؛ أخبرهم ابن وهب ، قال :  
حدثني مالك ، عن ابن شهاب : أن خير كان بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، والكتيبة  
أكثرها عنوة ، وفيها صلح ؛ قلت لمالك : وما الكتيبة ؟ قال : أرض خير ، وهي أربعون  
ألف عذق .

قال مقيدہ - عفا الله عنه - : وهذا الذي ذكرنا : يقدح في الاحتجاج لتخيير الإمام في  
القسم ، والوقفية بقضية خير ، كما ترى ، وحجة قول مالك - رحمه الله - ومن وافقه في  
أن أرض العدو المفتوحة عنوة تكون وقفاً للمسلمين ، بمجرد الاستيلاء عليها أمور .

(289/313)

---

منها : قوله صلى الله عليه وسلم الثابت في ( صحيح مسلم ) من حديث أبي هريرة ،  
رضي الله عنه : " منعت العراق درهمها وفقيزها ، ومنعت الشام مديها ودينارها ،  
ومنعت مصر إردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم  
من حيث بدأتم " ، شهد على ذلك ، لحم أبي هريرة ودمه .  
ووجه الاستدلال عندهم بالحديث : أن : " منعت العراق . . . الخ " بمعنى ستمنع ؛ وعبر  
بالماضي إيداناً بتحقيق الوقوع ، كقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ [ الكهف : 99 ]

الآية، وقوله: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل: 1] الآية.

قالوا: فدل ذلك على أنها لا تكون للغانمين، لأن ما ملكه الغانمون لا يكون فيه قفيز، ولا درهم، والحديث مسلم هذا؛ شاهد من حديث جابر عند مسلم أيضاً، ومن حديث أبي هريرة أيضاً عند البخاري.

وقال ابن حجر في (فتح الباري) في كتاب "فرض الخمس" ما نصه: وذكر ابن حزم: أن بعض المالكية احتج بقوله في حديث أبي هريرة: "منعت العراق درهما" الحديث. على أن الأرض المغنومة: لا تباع، ولا تقسم، وأن المراد بالمنع: منع الخراج، ورده بأن الحديث: ورد في الإنذار بما يكون من سوء العاقبة، وأن المسلمين سيمنعون حقوقهم في آخر الأمر، وكذلك وقع.

واحتجوا أيضاً بما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها بين أهلها، كما قسم النبي صلى الله عليه وسلم خير".

وفي لفظ في الصحيح عن عمر: "أما والذي نفسي بيده، لولا أن أترك آخر الناس بيانا ليس لهم شيء؛ ما فتحت عليّ قرية إلا قسمتها، كما قسم النبي صلى الله عليه وسلم خير، ولكني أتركها خزانة لهم يقتسمونها".

واحتج أهل هذا القول أيضاً . بأن الأرض المغنومة لو كانت تقسم ، لم يبق لمن جاء بعد الغانمين شيء ، والله أثبت لمن جاء بعدهم شركة بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ﴾ [الحشر : 10] الآية ، فإنه معطوف على قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا ﴾ [الحشر : 8] وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ [الحشر : 9] الآية ، وقول من قال . إن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ [الحشر : 10] مبتدأ خبره ﴿ يَقُولُونَ ﴾ [الحشر : 10] غير صحيح . لأنه يقتضي أنه تعالى . أخبر بأن كل من يأتي بعدهم يقول : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ﴾ [الحشر : 10] الآية .

والواقع خلافه : لأن كثيراً ممن جاء بعدهم يسبون الصحابة ويلعنونهم ، والحق أن قوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا ﴾ معطوف على ما قبله ، وجملة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ حال كما تقدم في " آل عمران " ، وهي قيد لعاملها وصف لصاحبها .

قال مقيده - عفا الله عنه - : هذه الأدلة التي استدل بها المالكية ، لا تنهض فيما يظهر ، لأن الأحاديث المذكورة لا يتعين وجه الدلالة فيها ، لأنه يحتمل أن يكون الإمام مخيراً ، فاختر إبقاءها للمسلمين ، ولم يكن واجباً في أول الأمر ، كما قدمنا . والاستدلال بآية الحشر المذكورة : واضح السقوط لأنها في الفية ، والكلام في الغنيمة ، والفرق بينهما معلوم



كما قدمنا .

قال مقيدہ : - عفا الله عنه - أظهر الأقوال دليلاً أن الإمام مخير ، ويدل عليه كلام عمر في الأثر المارآناً ، وبه تنتظم الأدلة ، ولم يكن بينها تعارض ، والجمع واجب متى ما أمكن .  
وغاية ما في الباب : أن تكون السنة دلت على تخصيص واقع في عموم قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ [ الأنفال : 41 ] الآية .  
وتخصيص الكتاب بالسنة كثير .

(291/313)

---

قال القرطبي في تفسير هذه الآية التي نحن بصددھا ، بعد أن ذكر القول بالتخير : ما نصه : " قال شيخنا أبو العباس رضي الله عنه : وكان هذا جمع بين الدليلين ، ووسط بين المذهبين ، وهو الذي فهمه عمر رضي الله عنه قطعاً .

ولذلك قال : " لولا آخر الناس " فلم يخبر بنسخ فعل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولا يتخصيصه بهم .

فإن قيل : لا تعارض بين الأدلة على مذهب الشافعي : لأن ما وقع فيه القسم من خير مأخوذ عنوة ، وما لم يقسم منها مأخوذ صلحاً ، والنضير فيء ، وقرينة قسمت .

ولو قال قائل: إنها فيء أيضاً؛ لنزولهم على حكم النبي صلى الله عليه وسلم، قبل أن يحكم فيهم سعداً، لكان غير بعيد؛ ولكن يردده: أن النبي صلى الله عليه وسلم خمسها، كما قاله مالك، وغيره.

ومكة مأخوذة صلحاً؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن". هذا ثابت في صحيح مسلم.

فالجواب: أن التحقيق أن مكة فتحت عنوة، ولذلك أدلة واضحة.

منها: أنه لم ينقل أحد أن النبي صلى الله عليه وسلم صالح أهلها زمن الفتح، ولا جاءه أحد منهم؛ فصالحه على البلد؛ وإنما جاءه أبو سفيان؛ فأعطاه الأمان لمن دخل داره، أو أغلق بابه، أو دخل المسجد، أو ألقى سلاحه.

ولو كانت قد فتحت صلحاً لم يقل "من دخل داره، أو أغلق بابه، أو دخل المسجد فهو آمن" فإن الصلح يقتضي الأمان العام.

ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه أذن لي فيها ساعة من نهار".

وفي لفظ: "إنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار

"

وفي لفظ: " فإن أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقولوا : إن الله أذن  
لرسوله ، ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها  
بالأمس " ، وهذا صريح في أنها فتحت عنوة .  
ومنها : أنه ثبت في الصحيح ، " أنه يوم فتح مكة جعل خالد بن الوليد على المجنية اليمنى ،  
وجعل الزبير على المجنية اليسرى ، وجعل أبا عبيدة على الحسر ، فأخذوا بطن الوادي ،  
ثم قال : يا أبا هريرة اهتف لي بالأنصار ، فجاؤوا يهرولون ، فقال : يا معشر الأنصار ، هل  
ترون إلى أوباش قريش ؟ قالوا : نعم ، قال : انظروا إذا لقيتوهم غداً أن تحصدوهم حصداً  
، وأحفي بيده ، ووضع يمينه على شماله ، وقال : موعدكم الصفا ، وجاءت الأنصار ،  
فأطافوا بالصفا ، قال : فما أشرف يومئذ لهم أحد إلا أناموه ، وصعد رسول الله صلى الله  
عليه وسلم الصفا ، وجاءت الأنصار ، فأطافوا بالصفا ، قال : فجاؤا بوسفيان ، فقال :  
يا رسول الله أبيت خضراء قريش ؛ لا قريش بعد اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم : " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو  
آمن " .

أخرجه مسلم في ( صحيحه ) من حديث أبي هريرة .

وذكر أهل المغازي تفصيل ما أجمل في حديث مسلم هذا ، فبينوا أنه قتل من الكفار اثنا عشر ، وقيل : قتل من قريش أربعة وعشرون ، ومن هذيل أربعة ، وقتل يومئذ من المسلمين ثلاثة ، وهم سلمة بن الميلاء الجهني ، وكرز بن جابر الحاربي - نسبة إلى محارب بن فهر - وخنيس بن خالد الخزاعي .

أخوأم معبد ، وقال كرز قبل أن يقتل في دفاعه عن خنيس :

قد علمت بيضاء من بني فهر . . . نقيه اللون نقيه الصدر

لأضربن اليوم عن أبي صخر . . . وفيه نقل الحركة في الوقف ، ورجز حماس بن قيس

المشهور يدل على القتال يوم الفتح ، وذكره الشنقيطي في مغازيه بقوله :

وزعم ابن قيس أن سيحفدا . . . نساءهم خلته وأنشدا

إن يقبلوا اليوم فمالي عله . . . هذا سلاح كامل وآله

(293/313)

---

وذو غرارين سريع السله . . . وشهد المأزق فيه حطما

رمزيب من قومه فانهزما . . . وجاء فاستغلق بابها البتول

فاستفهمته أينما كنت تقول . . . فقال والفرع زعفر دمه  
إنك لو شهدت يوم الخندمه . . . إذ فر صفوان وفر عكرمه  
وبويزيد قائم كالمؤتمه . . . واستقبلتنا بالسيوف المسلمه  
لهم نهيت خلفنا وهمهمه . . . يقطعن كل ساعد وجمجمه  
ضربا فلا تسمع إلا غمغمه . . . لم تنطقي باللوم أدنى كلمه . . . وهذا الرجز صريح في  
وقوع القتال والقتل يوم فتح مكة .  
ومصداقه في الصحيح كما تقدم .

ومنها : أيضاً ؛ أن أم هانئ ، بنت أبي طالب رضي الله عنها أجارت رجلاً ، فأراد علي بن  
أبي طالب رضي الله عنه قتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد أجرنا من  
أجرت يا أم هانئ " ، وفي لفظ عنها : لما كان يوم فتح مكة ، أجرت رجلين من أحمائي ،  
فأدخلتهما بيتاً ؛ وأغلقت عليهما باباً ، فجاء ابن أمي علي ، فقتلت عليهما بالسيف "  
فذكرت حديث الأمان وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ  
" وذلك ضحى ببطن مكة بعد الفتح . وقصتها ثابتة في الصحيح .

فأجارتها له ، وإرادة علي رضي الله عنه قتله ، وإمضاء النبي صلى الله عليه وسلم  
إجارتها : صريح في أنها فتحت عنوة .  
ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم ، أمر بقتل مقيس بن صباية ، وابن خطل ، وجاريتين .

ولو كانت فتحت صلحاً ، لم يؤمر بقتل أحد من أهلها ، ولكان ذكر هؤلاء مستثنى من عقد الصلح .

وأمره صلى الله عليه وسلم بقتل من ذكر : ثابت عنه صلى الله عليه وسلم .  
وفي السنن بإسناد صحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما كان يوم فتح مكة ، قال : " أمنوا الناس إلا امرأتين وأربعة نفر ؛ اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة " إلى غير ذلك من الأدلة .

فهذه أدلة واضحة على أن مكة - حرسها الله - فتحت عنوة .  
وكونها فتحت عنوة : يقدح فيما ذهب إليه الشافعي من وجوب قسم الأرض المغنومة عنوة .

(294/313)

---

فالذي يتفق عليه جميع الأدلة ، ولا يكون بينها أي تعارض : هو ما قدمنا من القول بالتحجير بين قسم الأرض ، وإبقائها للمسلمين ، مع ما قدمنا من الحجج ، والعلم عند الله تعالى .  
وإذا عرفت أن التحقيق أن مكة فتحت عنوة ، فاعلم أن العلماء اختلفوا في رابع مكة : - هل يجوز تملكها ، وبيعها ، وإيجارها ؟ - على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه لا يجوز شيء من ذلك ، وبه قال أبو حنيفة ، والأوزاعي ، والثوري ، ومجاهد ، وعطاء ، وطاوس ، وإبراهيم ، والحسن ، وإسحاق . وغيرهم .  
وكرهه مالك - رحمه الله - .

وأجاز جميع ذلك الشافعي ، وأبو يوسف .

وبه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وجماعة من الصحابة ومن بعدهم .  
وتوسط الإمام أحمد ، فقال : تملك ، وتورث ، ولا توجر ، ولا تباع ، على إحدى الرويتين ،  
جمعاً بين الأدلة ، والرواية الثانية كذهب الشافعي .

وهذه المسألة : تناظر فيها الإمام الشافعي ، وإسحاق بن راهويه في مسجد الخيف -  
والإمام أحمد بن حنبل حاضر - فأسكت الشافعي إسحاق بالأدلة ، بعد أن قال له : ما  
أحوجني أن يكون غيرك في موضعك ، فكنت أمر بفرك أذنيه ، أنا أقول لك : قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، وأنت تقول : قال طاوس ، والحسن ، وإبراهيم ، وهل لأحد مع  
النبي صلى الله عليه وسلم حجة ؟ - في كلام طويل - .

ونحن نذكر إن شاء الله أدلة الجميع ، وما يقتضي الدليل رجحانه منها .

فحجة الشافعي - رحمه الله - ومن وافقه بأمور .

---

الأول: حديث أسامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله. أين تنزل غداً؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "وهل ترك لنا عقيل من ربيع أو دور؟" وفي بعض الروايات "من منزل"، وفي بعضها "منزلاً" أخرج هذا الحديث البخاري في كتاب "الحج" في باب "توريث دور مكة، وشرائها" الخ وفي كتاب "المغازي" في غزوة الفتح في رمضان في باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح، وفي كتاب الجهاد في باب "إذا أسلم قوم في دار الحرب، ولهم مال وأرضون فهم لهم" وأخرجه مسلم في كتاب "الحج" في باب "النزول بمكة للحاج وتوريث دورها. بثلاث روايات هي مثل روايات البخاري. فقله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث المتفق عليه: "وهل ترك لنا عقيل من ربيع" صريح في إرضائه صلى الله عليه وسلم بيع عقيل بن أبي طالب - رضي الله عنه - تلك الرباع.

ولو كان بيعها، وتملكها لا يصح لما أقره النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه لا يقر على باطل بإجماع المسلمين.

الثاني: أن الله تبارك وتعالى أضاف للمهاجرين من مكة ديارهم، وذلك يدل على أنها ملكهم في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر: 8]. قال النووي في (شرح المذهب): فإن قيل: قد تكون الإضافة للبد والسكنى، لقوله تعالى



:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب: 33].

فالجواب: أن حقيقة الإضافة تقتضي الملك، ولذلك لو قال: هذه الدار لزيد حكم بملكها

لزيد، ولو قال: أردت به السكنى واليد، لم يقبل.

ونظير الآية الكريمة: ما احتج به أيضاً. من الإضافة في قوله: "من دخل دار أبي سفيان

فهو آمن" الحديث.

وقد قدمنا أنه في (صحيح مسلم).

(296/313)

---

الثالث: الأثر المشهور في سنن البيهقي وغيره. "أن نافع بن الحارث، اشترى من صفوان

بن أمية، دار السجن لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، بأربعمائة". وفي رواية "بأربعة

آلاف"، ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة.

وروى الزبير بن بكار والبيهقي: أن حكيم بن حزام رضي الله عنه، باع دار الندوة بمكة

من معاوية بن أبي سفيان بمائة ألف، فقال له عبد الله بن الزبير: يا أبا خالد بعت مأثرة

قريش وكرمتها، فقال: هيهات ذهبت المكارم فلا مكرمة اليوم إلا الإسلام، فقال:

اشهدوا أنها في سبيل الله تعالى يعني الدراهم التي باعها بها .

وعقده الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه عمود النسب بقوله يعني قصياً :

واتخذ الندوة لا يخترع . . . في غيرها أمر ولا تدرع

جارية أو بعدر الغلام . . . إلا بأمره بها يرام

وباعها بعد حكيم بن حزام . . . وأنبوه وتصدق الهمام

سيد نادية بكل الثمن . . . إذ العلى بالدين لا بالدمن

الرابع : أنها فتحت صلحاً ، فبقيت على ملك أهلها ، وقد قدمنا ضعف هذا الوجه .

الخامس : القياس ، لأن أرض مكة أرض حية ليست موقوفة ، فيجوز بيعها قياساً على

غيرها من الأرض .

واحتج من قال : بأن رباع مكة لا تملك ولا تباع . بأدلة :

منها قوله تعالى : ﴿ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ [

الحج : 25] قالوا : والمراد بالمسجد : جميع الحرم كله لكثرة إطلاقه عليه في النصوص ،

كقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [الإسراء : 1] الآية ،

وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [التوبة : 7] الآية ، وقوله : ﴿

هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة : 95] مع أن المنحر الأكبر من الحرم " منى " .

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أُعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ [النمل: 91]  
قالوا: والمحرم لا يجوز بيعه.

(297/313)

---

ومنها: ما أخرجه البيهقي من طريق إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن أبيه عن عبد الله بن باباه، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مكة مناخ لا تباع رباعها، ولا توجر بيوتها".

ومنها: ما رواه أبو حنيفة، عن عبيد الله بن أبي زياد، عن أبي نجیح عن عبد الله بن عمرو، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مكة حرام، وحرام بيع رباعها، وحرام أجر بيوتها".

ومنها ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله ألا نبني لك بمنى بيتاً أو بناء يظلك من الشمس؟ قال:  
"لا. إنما هو مناخ من سبق إليه" أخرجه أبو داود.

ومنها: ما رواه البيهقي، وابن ماجه، عن عثمان بن أب يسليمان، عن علقمة بن نضلة الكناني، قال: كانت بيوت مكة تدعى السوائب، لم تبع رباعها في زمان رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، ولا أبي بكر ولا عمر ، من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن .  
ومنها : ما روى عن عائشة رضي الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " منى  
مناخ لمن سبق " .

قال النووي في ( شرح المذهب ) في الجنائز ، في " باب الدفن " في هذا الحديث ، رواه أبو  
محمد الدارمي ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وغيرهم ، بأسانيد جيدة من رواية  
عائشة رضي الله عنها .

قال الترمذي : هو حديث حسن .

وذكر في البيوع ، في الكلام على بيع دور مكة ، وغيرها من أرض الحرم : أن هذا الحديث  
صحيح .

ومنها : ما رواه عبد الرزاق بن مجاهد عن ابن جريج ، قال : كان عطاء ينهى عن الكراء في  
الحرم ، وأخبرني أن عمر بن الخطاب ، كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج في  
عرصاتها ، فكان أول من بوب داره ، سهيل بن عمرو ، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في  
ذلك ، فقال . أنظرنى يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجراً ، فأردت أن أتخذ بايين يجبسان  
لي ظهري ، فقال : ذلك لك إذن .

(298/313)

---

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن منصور ، عن مجاهد : إن عمر بن الخطاب ، قال : يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبواباً ليوزل البادي حيث يشاء . اه ، قاله ابن كثير : إلى غير ذلك من الأدلة .

قال مقيده - عفا الله عنه - : أقوى الأقوال دليلاً فيما يظهر قول الشافعي ومن وافقه ، لحديث أسامة بن زيد المتفق عليه ، كما قدمنا ، وللأدلة التي قدمنا غيره ، ولأن جميع أهل مكة بقيت لهم ديارهم بعد الفتح يفعلون بها ما شاؤوا من بيع ، وإجارة ، وغير ذلك . وأجاب أهل هذا القوم الصحيح عن أدلة المخالفين . فأجابوا عن قوله : ﴿ سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ [الحج : 25] الآية ، وعن قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ الْبَلَدَةُ الَّتِي حَرَّمَهَا ﴾ [النمل : 91] بأن المراد : حرم صيدها ، وشجرها ، وخلالها ، والقتال فيها ، كما بينه صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة ، ولم يذكر في شيء منها مع كثرتها النهي عن بيع دورها . وعن حديث إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه : بأنه ضعيف ، قال النووي في ( شرح المذهب ) : هو ضعيف باتفاق المحدثين ، واتفقوا على تضعيف إسماعيل ، وأبيه إبراهيم . اه .

وقال البيهقي في السنن الكبرى : إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه : بأنه ضعيف ، قال النووي في ( شرح المذهب ) : هو ضعيف باتفاق المحدثين ، واتفقوا على تضعيف

إسماعيل ، وأبيه إبراهيم .

.اه

وقال البيهقي في السنن الكبرى : إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ضعيف ، وأبوه غير قوي ،  
واختلف عليه فروي عنه هكذا ، وروي عنه عن أبيه ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن  
عمر ومرفوعاً ببعض معناه ، وعن حديث عائشة رضي الله عنها . بأنه محمول على الموات  
من الحرم .

قال النووي : وهو ظاهر الحديث .

وعن حديث أبي حنيفة : بأنه ضعيف من وجهين :

أحدهما : تضعيف إسناده بآبن أبي زياد المذكور فيه .

(299/313)

---

والثاني : أن الصواب فيه عند الحفاظ أنه موقوف على عبد الله بن عمر وقالوا : رفعه وهم

قاله : الدارقطني ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والبيهقي .

وعن حديث عثمان بن أبي سليمان بجوابين :

أحدهما : أنه منقطع ، كما قاله البيهقي .

الثاني : ما قال البيهقي أيضاً ، وجماعة من الشافعية ، وغيرهم : أن المراد في الحديث :  
الإخبار عن عاداتهم الكريمة في إسكانهم ما استغنوا عنه من بيوتهم بالإعارة تبرعاً ،  
وجوداً .

وقد أخبر من كان أعلم بشأن مكة منه عن جريان الإرث ، والبيع فيها .  
وعن حديث " منى مناخ من سبق " بأنه محمول على مواتها ، ومواضع نزول الحجيج منها .  
قاله النووي اه .

واعلم أن تضعيف البيهقي لحديث إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ، وحديث عثمان بن  
أبي سليمان ، عن علقمة بن نضلة تعقبه عليه محشيه صاحب ( الجواهر النقي ) ، بما نصه "   
ذكر فيه حديثاً في سنده إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ، فضعف إسماعيل ، وقال عن أبيه  
غير قوي ثم اسنده من وجه آخر ، ثم قال : رفعه وهم ، والصحيح موقوف قلت : أخرج  
الحاكم في ( المستدرک ) هذا الحديث من الوجهين اللذين ذكرهما البيهقي ، ثم صحح الأول  
، وجعل الثاني شاهداً عليه ، ثم ذكر البيهقي في آخره حديثاً عن عثمان بن أبي سليمان  
عن علقمة بن نضلة . ثم قال : هذا منقطع .

قلت : هذا الحديث أخرجه ابن ماجه بسند على شرط مسلم ، وأخرجه الدارقطني  
وغيره ، وعلقمة هذا صحابي . كذا ذكره علماء هذا الشأن ، وإذا قال الصحابي مثل  
هذا الكلام . كان مرفوعاً على ما عرف به ، وفيه تصريح عثمان بالسماع عن علقمة ، فمن

أين الانقطاع؟ اه كلام صاحب (الجوهر النقي) .

قال مقيده - عفا الله عنه - لا يخفى سقوط اعتراض ابن التركماني هذا على الحافظ

البيهقي . في تضعيفه الحديثين المذكورين .

أما في الأول : فالأن تصحيح الحاكم - رحمه الله - لحديث ضعيف لا يصيره صحيحاً .

(300/313)

---

وكم من حديث ضعيف صححه الحاكم - رحمه الله - وتساهله - رحمه الله - في

التصحيح معروف عند علماء الحديث ، وإبراهيم بن مهاجر بن جابر البجلي قد يكون

للمناقشة في تضعيف الحديث به وجه . لأن بعض العلماء بالرجال وثقه وهو من رجال

مسلم .

وقال فيه ابن حجر ، في (التقريب) : " صدوق لين الحفظ " ، أما ابنه إسماعيل فلم يختلف

في أنه ضعيف .

وتضعيف الحديث به ظهر لا مطعن فيه .

وقال فيه ابن حجر في (التقريب) . ضعيف ، فتصحيح هذا الحديث لا وجه له .

وأما قوله في اعتراضه تضعيف البيهقي لحديث الثاني . فمن أين الانقطاع فجوابه : أن



الانقطاع من حيث إن علقمة بن نضلة تابعي صغير، وزعم الشيخ ابن التركماني، أنه صحابي غير صحيح، وقد قال فيه ابن حجر في (التقريب). علقمة بن نضلة - بفتح النون وسكون المعجمة - المكي، كناني.

وقيل: كندي تابعي صغير مقبول، أخطأ من عده في الصحابة، وإذن فوجه انقطاعه ظاهر، فظهر أن الصواب مع الحافظ البيهقي، والنووي وغيرهما في تضعيف الحديثين المذكورين.

ولاشك أن من تورع عن بيع رباة مكة، وإيجارها خروجاً من الخلاف، أن ذلك خير له، لأن من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.

تنبيه

أجمع جميع المسلمين على أن مواضع النسك من الحرم كموضع السعي، وموضع رمي الجمار حكمها حكم المساجد، والمسلمون كلهم سواء فيها.

والظاهر أن ما يحتاج إليه الحجيج من منى، ومزدلفة كذلك، فلا يجوز لأحد أن يضيقهما بالبناء المملوك حتى تضيقا بالحجيج، ويبقى بعضهم لم يجد منزلاً، لأن المبيت بمزدلفة ليلة النحر، ومني ليالي أيام التشريق، من مناسك الحج.

فلا يجوز لأحد أن يضيق محل المناسك على المسلمين، حتى لا يبقى ما يسع الحجيج كله، ويدل له حديث: " منى مناخ لمن سبق " كما تقدم.

المسألة الخامسة: في تحقيق المقام فيما للإمام أن ينقله من الغنيمة ، وسنذكر أقوال العلماء في ذلك ، وأدلتهم ، وما يقتضي الدليل رجحانه .

(301/313)

---

اعلم أن العلماء اختلفوا في هذه المسألة ، كما أشرنا له في أول هذه السورة الكريمة ، ووعدنا بإيضاحه هنا فذهب الإمام مالك - رحمه الله - إلى أن الإمام لا يجوز له أن ينقل أحداً شيئاً إلا من الخمس ، وهو قول سعيد بن المسيب ، لأن الأخماس الأربعة . ملك للغانمين الموجفين عليها بالخييل ، والركاب . هذا مشهور مذهبه ، وعنه قول آخر : أنها من خمس الخمس .

ووجه هذا القول : أن اخماس الخمس الأربعة ، غير خمس الرسول صلى الله عليه وسلم لمصارف معينة في قوله : ﴿ وكذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [ الأنفال : 41 ] وأربعة الأخماس الباقية ملك للغانمين .

وأصح الأقوال عن الشافعي : أن الإمام لا ينقل إلا من خمس الخمس ، ودليله : ما ذكرنا آنفاً .

وعن عمرو بن شعيب أنه قال . لا نقل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن

قدامة في (المغني) : ولعله يحتج بقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ

والرسول ﴾ [ الأنفال : 1 ] .

وذهب الإمام أحمد في طائفة من أهل العلم : إلى أن للإمام أن ينفل الربع بعد الخمس في بدأته ،  
والثلث بعد الخمس في رجعته .

ومذهب أبي حنيفة : أن للإمام قبل إحراز الغنيمة أن ينفل الربع ، أو الثلث ، أو أكثر ، أو  
أقل بعد الخمس ، وبعد إحراز الغنيمة لا يجوز له التنفيل إلا من الخمس .

وقد قدمنا جملة الخلاف في هذه المسألة في أول هذه السورة الكريمة ، ونحن الآن نذكر إن  
شاء الله ما يقتضي الدليل رجحانه .

اعلم أولاً ، أن التنفيل الذي اقتضى الدليل جوازه أقسام :

الأول : أن يقول الإمام لطائفة من الجيش : إن غنمتم من الكفار شيئاً ، فلكم منه كذا بعد  
إخراج خمسه ، فهذا جائز ، وله أن ينفلهم في حالة إقبال جيش المسلمين إلى الكفار الربع ،  
وفي حالة رجوع جيش المسلمين إلى أوطانهم الثلث بعد أخراج الخمس .

(302/313)

---

ومالك وأصحابه يقولون . إن هذا لا يجوز . لأنه تسبب في إفساد نيات المجاهدين ، لأنهم يصيرون مقاتلين من أجل المال الذي وعدهم الإمام تنفيذه .

والدليل على جواز ذلك . ما رواه حبيب بن مسلمة بن مالك القرشي الفهري " أن النبي صلى الله عليه وسلم نفل الربع بعد الخمس في بدأته ، ونفل الثلث بعد الخمس في رجعتة " أخرجه الإمام أحمد ، وأبوداود ، وابن ماجه ، وصححه ابن حبان ، والحاكم ، وابن الجارود .

واعلم أن التحقيق في حبيب المذكور . أنه صحابي ، وقال فيه ابن حجر في (التقريب ) مختلف في صحبته ، والراجح ثبوتها لكنه كان صغيراً ، وله ذكر في (الصحيح ) في حديث ابن عمر مع معاوية اه .

وقد روى عنه أبوداود هذا الحديث من ثلاثة أوجه .

منها : عن مكحول بن عبد الله الشامي ، قال : كنت عبداً بمصر لامرأة من بني هذيل ، فأعتقتني فما رجعت من مصرونها علم إلا حويت عليه ، ثم أتيت الحجاز فما خرجت منها وبها علم إلا حويت عليه فيما أرى ، ثم أتيت العراق ، فما خرجت منها وبها علم إلا حويت عليها فيما أرى ، ثم أتيت الشام فغربلتها ، كل ذلك : أسأل عن النفل فلم أجد أحداً يخبرني فيه بشيء ، حتى لقيت شيخاً يقال له : زياد بن جارية التميمي . فقلت له : هل سمعت في النفل شيئاً ؟ قال : نعم ، سمعت حبيب بن مسلمة الفهري يقول : شهدت النبي

صلى الله عليه وسلم نفل الربع في البداية، والثالث في الرجعة-اه .  
وقد علمت أن الصحيح أنه صحابي ، وقد صرح في هذه الرواية بأنه شهد النبي صلى الله  
عليه وسلم نفل الربع إلى آخر الحديث .  
ومما يدل على ذلك أيضاً : ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله  
عليه وسلم كان ينفل في البداية الربع ، وفي الرجعة الثالث " أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي ،  
وابن ماجه ، وصححه ابن حبان .

(303/313)

---

وفي رواية عند الإمام أحمد : كان إذا غاب في أرض العدو نفل الربع ، وإذا أقبل راجعاً -  
وكل الناس - نفل الثالث ، وكان يكره الأنفال ، ويقول : ليرد قوي المؤمنين على ضعيفهم .  
وهذه النصوص تدل على ثبوت التنفيل من غير الخمس .  
ويدل لذلك أيضاً : ما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود عن معن بن يزيد قال : سمعت رسول  
الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا نفل إلا بعد الخمس " ، قال الشوكاني : في (نيل  
الأوطار) : هذا الحديث صححه الطحاوي اه .  
والفرق بين البداية والرجعة . أن المسلمين في البداية : متوجهون إلى بلاد العدو ، والعدو في

غفلة . وأما في الرجعة : فالمسلمون راجعون إلى أوطانهم من أرض العدو ، والعدو في حذر ويقظة ، وبين الأمرين فرق ظاهر .

والأحاديث المذكورة تدل على أن السرية من العسكر إذا خرجت ، فغنمت ، أن سائر الجيش شركاؤهم ، ولا خلاف في ذلك بين العلماء ، كما قاله القرطبي .

الثاني : من الأقسام التي اقتضى الدليل جوازها : تنفيل بعض الجيش ، لشدة بأسه ، وغنائه ، وتحمله ما لم يتحمله غيره ، والدليل على ذلك ما ثبت في ( صحيح مسلم ) ، ورواه الإمام أحمد ، وأبو داود عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، في قصة إغارة عبد الرحمن الفزاري ، على سرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستنقاذه منه . قال سلمة : فلما أصبحنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير فرساننا اليوم ، أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة قال : ثم أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين : سهم الفارس ، وسهم الراجل فجمعهما لي جميعاً . الحديث . هذا لفظ مسلم في صحيحه من حديث طويل .

وقد قدمنا أن هذه غزوة " ذي قرد " في سورة " النساء " ، ويدل لهذا أيضاً : حديث سعد بن أبي وقاص المتقدم في أول السورة ، فإن فيه : أن سعداً رضي الله عنه قال : لعله يعطى هذا السيف لرجل لم يبل بلائي ، ثم أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم لسعد رضي الله عنه لحسن بلائه وقتله صاحب السيف كما تقدم .

الثالث: من أقسام التنفيل التي اقتضى الدليل جوازها: أن يقول الإمام: "من قتل قتيلاً فله سلبه".

ومن الأدلة على ذلك: ما رواه الشيخان في صحيحيهما، عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: "خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، قال: فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين، فاستدرت إليه حتى أتته من ورائه فضربته على حبل عاتقه. وأقبل علي فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني، فلحقت عمر بن الخطاب، فقال: ما للناس؟ فقلت: أمر الله، ثم إن الناس رجعوا، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه" قال: فقلت، ثم قلت: من يشهد لي؟، ثم جلست، ثم قال مثل ذلك، قال فقلت فقلت من يشهد لي؟، ثم جلست، ثم قال ذلك الثالثة، فقلت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"ما لك يا أبا قتادة؟" فقصصت عليه القصة، فقال رجل من القوم، صدق يا رسول الله سلب ذلك القتل عندي. فأرضه من حقه، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لاها

الله إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله وعن رسوله ، فيعطيك سلبه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صدق فأعطه إياه " فأعطاني ، قال : فبعت الدرع فابتعت بها محرفاً في بني سلمة ، فإنه لأول مال تأثته في الإسلام . والأحاديث بذلك كثيرة . وروى أبو داود ، وأحمد ، عن أنس . أن ابا طلحة يوم حنين قتل عشرين رجلاً ، وأخذ اسلابهم ، وفي رواية عنه عند أحمد ، أحد وعشرين ، وذكر أصحاب المغازي : أن ابا طلحة قال في قتله من ذكر :

أنا أبو طلحة واسمي زيد . . . وكل يوم في سلاحي صيد

والحق أنه لا يشترط في ذلك أن يكون في مبارزة ، ولا أن يكون الكافر المقتول مقبلاً .

أما الدليل على عدم اشتراط المبارزة : فحديث أبي قتادة هذا المتفق عليه .

(305/313)

---

وأما الدليل على عدم اشتراط كونه قتله مقبلاً إليه : فحديث سلمة بن الأكوع ، قال : غزونا

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هوأزن ، فبينما نحن نتضحى مع رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه ، ثم انتزع طلقاً من حقه فقيده به الجمل

، ثم تقدم يتغدى مع القوم ، وجعل ينظر ، وفينا ضعفة ورقة في الظهر ، وبعضنا مشاة إذ



خرج يشد فأتى جملة ، فأطلق قيده ثم أناخه ، وقعد عليه فأثاره فاشتد به الجمل ، فاتبعه ردل على ناقة وورقاء . قال سلمة : وخرجت أشتد فكنت عند ورك الناقة ، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل ، ثم تقدمت حتى أخذت بمخظام الجمل فأنخته ، فلما وضع ركبته في الأرض اخترطت سيفي ، فضربت به رأس الرجل فندر ، ثم جئت بالجمل أقوده وعليه رحله وسلاحه ، فاستقبلني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس معه . فقال : " من قتل الرجل ؟ " قالوا : ابن الأكوخ ، قال : " له سلبه أجمع " متفق عليه ، واللفظ المذكور لمسلم في " كتاب الجهاد والسير " في باب " استحقاق القاتل سلب القتيل " ، وأخرجه البخاري بمعناه " في كتاب الجهاد " في باب " الحربي إذا دخل دار الإسلام بغير أمان " وهو صريح في عدم اشتراط المبارزة ، وعدم اشتراط قتله مقبلاً لا مدبراً كما ترى . ولا يستحق القاتل سلب المقتول ، إلا أن يكون المقتول من المقاتلة الذين يجوز قتالهم . فأما إن قتل امرأة ، أو صبياً ، أو شيخاً فانياً ، أو ضعيفاً مهيناً ، أو مشخناً بالجراح لم يتبق فيه منفعة ، فليس له سلبه .

ولا خلاف بين العلماء : في أن من قتل صبياً ، أو امرأة ، أو شيخاً فانياً ، لا يستحق سلبهم ، إلا قولاً ضعيفاً جداً يروى عن أبي ثور ، وابن المنذر : في استحقاق سلب المرأة .

(306/313)

---

والدليل على أن من قتل مشخناً بالجراح لا يستحق سلبه ، أن عبد الله بن مسعود ، هو الذي ذفف على أبي جهل يوم بدر ، وحزر رأسه . وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم بسلبه لمعاد بن عمرو بن الجموح الذي أثبتته ، ولم يعط ابن مسعود شيئاً .

وهذا هو الحق الذي جاء به الحديث المتفق عليه ، فلا يعارض بما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود عن ابن مسعود " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نقله سيف أبي جهل يوم بدر " . لأنه من رواية ابنه أبي عبيدة ، ولم يسمع منه ، وكذلك المقدم للقتل صبراً لا يستحق قاتله سلبه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ، أمر بقتل النضر بن الحارث ، العبدري ، وعقبة بن أبي معيط الأموي صبراً يوم بدر ولم يعط من قتلها شيئاً من سلبهما .

واختلفوا فيمن أسر أسيراً : هل يستحق سلبه إلحاقاً للأسر بالقتل أو لا ؟ والظاهر أنه لا يستحقه ، لعدم الدليل . فيجب استصحاب عموم ﴿ ﴿ واعلموا أنّما غنمتم ﴾ ﴾ ]

الأنفال : 41 [ الآية حتى يرد مخصص من كتاب أو سنة صحيحة ، وقد أسر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، أسارى بدر ، وقتل بعضهم صبراً كما ذكرنا ، ولم يعط أحداً من الذين أسروهم شيئاً من أسلابهم ، ولا من فدائهم بل جعل فدائهم غنيمه .

أما إذا قاتلت المرأة أو الصبي المسلمين : فالظاهر أن لمن قتل أحدهما سلبه ، لأنه حينئذ ممن يجوز قتله ، فيدخل في عموم " من قتل قتيلاً " الحديث ، وبهذا جزم غير واحد . والعلم

عند الله تعالى .

واعلم أن العلماء اختلفوا في استحقات القاتل السلب ، هل يشترط فيه قول الإمام : " من قتل قتيلاً فله سلبه " ! أو يستحقه مطلقاً . قال الإمام ذلك أو لم يقله ؟  
ومن قال بهذا الأخير : الإمام أحمد ، والشافعي ، والأوزاعي ، والليث ، وإسحاق ، وأبو عبيد ، وأبو ثور ، والطبري ، وابن المنذر .  
ومن قال بالأول : الذي هو أنه لا يستحقه إلا بقول الإمام : " من قتل قتيلاً " الخ الإمام أبو حنيفة ، ومالك ، والثوري .

(307/313)

---

وقد قدمنا عن مالك وأصحابه : أن قول الإمام ذلك : لا يجوز قبل القتال ، لتأدي إلى فساد النية ، ولكن بعد وقوع الواقع ، يقول الإمام : من قتل قتيلاً . . . الخ .  
واحتج من قال : باستحقاق القاتل سلب المقتول مطلقاً . بعموم الأدلة لأن النبي صلى الله عليه وسلم . صرح بأن من قتل قتيلاً فله سلبه ، ولم يخص بشيء . العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب ، كما علم في الأصول .  
واحتج مالك ، وأبو حنيفة ، ومن وافقهما بأدلة :

منها : قوله صلى الله عليه وسلم في حديث سلمة بن الأكوع ، المتفق عليه في قصة قتل معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ ابن عفراء الأنصاريين لأبي جهل يوم بدر . فإن فيه " ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبراه ، فقال : "أيكما قتله " ؟ ! ، فقال كل واحد منهما : أنا قتله ، فقال " هل مسحتما سيفيكما " ؟ قالوا : لا ، فنظر في السيفين ، فقال : كلاكما قتله ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح اه .

قالوا : فتصريحه صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث ، المتفق عليه ، بأن كليهما قتله ، ثم تخصيص أحدهما بسلبه ، دون الآخر ، صريح في أن القاتل لا يستحق السلب ، إلا بقول الإمام : إنه له ، إذ لو كان استحقاقه له بمجرد القتل لما كان لمنع معاذ بن عفراء وجهه ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم صرح بأنه قتله مع معاذ بن عمرو ، ولجعله بينهما .

(308/313)

---

ومنها : ما رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، عن عوف بن مالك قال : قتل رجل من حمير ، رجلاً من العدو ، فأراد سلبه ، فمنعه خالد بن الوليد ، وكان والياً عليهم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عوف بن مالك فأخبره . فقال لخالد : " ما منعك أن تعطيه سلبه " قال : استكثرته يا رسول الله ، قال : " ادفعه إليه " ، فمر خالد بعوف فجر

بردائه ، ثم قال : هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟  
فاستغضب فقال : لا تعطه يا خالد ، لا تعطها خالد ، هل أنتم تاركون لي أمرائي ، إنما  
مثلكم ومثلهم ، كمثل رجل استرعى إيلاً ، أو غنماً فرعاها ، ثم تحين سقيها فأوردها  
حوضاً فشرعت فيه ، فشربت صفوه ، وتركت كدره ، فصفوه لكم وكدره عليهم .  
وفي رواية عند مسلم أيضاً : عن عوف بن مالك الأشجعي ، قال : خرجت مع من خرج مع  
زيد بن حارثة ، في غزوة مؤتة ، ورافقني مددي من اليمن ، وساق الحديث عن النبي صلى  
الله عليه وسلم بنحوه ، غير أنه قال في الحديث : قال عوف بن مالك : فقلت : يا خالد ، أما  
علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالسلب للقاتل ، قال بلى ، ولكني  
استكثرته ، هذا لفظ مسلم في صحيحه .  
وفي رواية عن عوف أيضاً ، عند الإمام أحمد وأبي داود قال خرجت مع زيد بن حارثة في  
غزوة مؤتة ، ورافقني مددي من أهل اليمن ، ومضينا فلقينا جموع الروم ، وفيهم رجل على  
فرس له ، أشقر ، عليه سرج مذهب . وسلاح مذهب . فجعل الرومي يفري في المسلمين .  
فقعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه . فخر وعلاه فقتله . وحاز  
فرسه . وسلاحه . فلما فتح الله عز وجل للمسلمين بعث إليه خالد بن الوليد .

(309/313)

---

فأخذ السلب . قال عوف : فأتيته . فقلت : يا خالد أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قضى بالسلب للقاتل . قال . بلى ولكن استكثرته . قلت : لتردنه إليه ، أو لأعرفنكها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى أن يرد عليه ، قال عوف : فاجتمعنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقصصت عليه قصة المددي ، وما فعل خالد ، وذكر بقية الحديث بمعنى ما تقدم اه .

فقول النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح : " لا تعطه يا خالد " دليل على أنه لم يستحق السلب بمجرد القتل ، إذ لو استحقه به ، لما منعه منه النبي صلى الله عليه وسلم .

ومنها : ما ذكره ابن أبي شيبه ، قال : حدثنا أبو الأحوص ، عن الأسود بن قيس ، عن بشر بن علقمة قال : بارزت رجلاً يوم القادسية ، فقتلته ، وأخذت سلبه ، فأتيت سعداً ، فخطب سعد أصحابه ، ثم قال : هذا سلب بشر ابن علقمة هو خير من اثني عشر ألف درهم ، وإنا قد نفلناه إياه .

فلو كان السلب للقاتل قضاءً من النبي صلى الله عليه وسلم ، لما أضاف الأمراء ذلك التنفيل إلى أنفسهم باجتهادهم ، ولأخذه القاتل دون أمرهم ، قاله القرطبي . قال مقيدته - عفا الله عنه - : أظهر القولين عندي دليلاً ، أن القاتل لا يستحق السلب إلا

يأعطاء الإمام . لهذه الأدلة الصحيحة ، التي ذكرنا فإن قيل : هي شهادة لقول إسحاق :  
إن كان السلب سيرا فهو للقاتل ، وإن كان كثيراً خمس .

فالجواب : أن ظاهرها العموم مع أن سلب أبي جهل لم يكن فيه كثرة زائدة ، وقد منع منه  
النبي صلى الله عليه وسلم معاذ ابن عفراء .

تنبيه

جعل بعض العلماء منشأ الخلاف في سلب القاتل ، هل يحتاج إلى تنفيذ الإمام أولاً ، هو  
الإختلاف في قول النبي صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلاً " الحديث ، هل هو حكم ؟  
وعليه فلا يعم بل يحتاج دائماً إلى تنفيذ الإمام ، أو هو فتوى ؟ فيكون حكماً عاماً غير  
محتاج إلى تنفيذ الإمام .

(310/313)

---

قال صاحب (نشر البنود) شرح (مراقي السعود) في شرح قوله :

وسائر حكاية الفعل بما . . . منه العموم ظاهراً قد علما

ما نصه : " تنبيه " ، : حكى ابن رشد خلافاً بين العلماء ، في قوله صلى الله عليه وسلم : "

من قتل قتيلاً له عليه بينة ، فله سلبه " ، هل يحتاج سلب القتل إلى تنفيذ الإمام ، بناء على

أن الحديث حكم فلايعم ، أو لا يحتاج إليه بناء على أنه فتوى ، وكذا قوله لهند : " خذي ما  
يكفيك ، وولدك بالمعروف " فيه خلاف . هل هو حكم فلايعم ، أو فتوى فيعم .  
قال ميارة في التكميل :

وفي حديث هند الخلاف هل . . . حكم يخصها أو إفتاء شمل  
واعلم أن العلماء اختلفوا في السلب ، هل بخمس أو لا ؟ على ثلاثة أقوال : الأول : لا  
يخمس .

الثاني : يخمس .

الثالث : إن كان كثيراً خمس ، وإلا فلا .

ومن قال : إنه لا يخمس ، الشافعي ، وأحمد ، وابن المنذر ، وابن جرير ، ويروى عن سعد  
بن أبي وقاص .

ومن روي عنه أنه يخمس : ابن عباس ، والأوزاعي ، ومكحول .

ومن فرق بين القليل والكثير : إسحاق ، واحتج من قال : لا يخمس بما رواه الإمام أحمد ،  
وأبو داود وابن حبان ، والطبراني ، عن عوف بن مالك ، وخالد بن الوليد رضي الله  
عنهما . أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخمس السلب .

وقال القرطبي في تفسيره ، بعد أن ساق حديث عوف بن مالك الذي قدمنا عند مسلم ما



نصه . " وأخرجه أبو بكر البرقاني بإسناده ، الذي أخرجه به مسلم ، وزاد بياناً أن عوف بن مالك ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يخمس السلب " اه .

(311/313)

---

وقال ابن حجر في (التلخيص) في حديث خالد وعوف المتقدم ، ما لفظه : " وهو ثابت في (صحيح مسلم) في حديث طويل فيه قصة لعوف مع خالد بن الوليد ، وتعقبه الشوكاني في (نيل الأوطار) بما نصه : وفيه نظر ، فإن هذا اللفظ الذي هو محل الحجة لم يكن في صحيح مسلم ، بل الذي فيه هو ما سيأتي قريباً ، وفي إسناده هذا الحديث إسماعيل بن عياش ، وفيه كلام معروف قد تقدم ذكره مراراً " اه . قال مقيده - عفا الله عنه - : وقد قدمنا حديث عوف المذكور بلفظ مسلم في صحيحه ، وليس فيه ما ذكره الحافظ ابن حجر ، فهو وهم منه ، كما نبه عليه الشوكاني رحمهما الله تعالى .

والتحقيق في إسماعيل بن عياش أن روايته عن غير الشاميين ضعيفة . وهو قوي في الشاميين ، دون غيرهم .

قال مقيده - عفا الله عنه - : وهذا الحديث من رواية إسماعيل بن عياش ، عن صفوان بن عمرو ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن عوف بن مالك ، وإسماعيل ،

وشيخه في هذا الحديث ، الذي هو صفوان بن عمرو ، كلاهما حمصي ، فهو بلدي له :  
وبه تعلم صحة الاحتجاج بالحديث المذكور ، مع قوة شاهده ، الذي قدمنا عن أبي بكر  
البرقاني ، بسند على شرط مسلم .

واحتج من قال بأن السلب يخمس : بعموم قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ  
فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [ الأنفال : 41 ] الآية .

واحتج من قال : يخمس الكثير دون اليسير : بما رواه أنس ، عن البراء بن مالك " أنه قتل من  
المشركين مائة رجل ، إلا رجلاً مبارزة ، وأنهم لما غزوا الزاره ، خرج دهقان الزاره ، فقال :  
رجل ورجل ، فبرز البراء فاختلفا بسيفيهما ، ثم اعتنقا فتوركه البراء فقعده على كبده ، ثم  
أخذ السيف فذبحه ، وأخذ سلاحه ومنطقته ، وأتى به عمر ، فنقله السلاح ، وقوم  
المنطقة بثلاثين ألفاً ، فخمسها ، وقال : إنها مال " اه بنقل القرطبي .

(312/313)

---

وقال قبل هذا : وفعله عمر بن الخطاب مع البراء بن مالك ، حين بارز " المرزبان " فقتله .  
فكانت قيمة منطقته ، وسواريه ثلاثين ألفاً ، فخمس ذلك اه .

وقال ابن قدامة في ( المغني ) : وقال إسحاق : إن استكثر الإمام السلب ، فذلك إليه ، لما

روى ابن سيرين أن البراء بن مالك بارز "مرزبان" الزاره بالبحرين فطعنه ، فذق صلبه ،  
وأخذ سواريه ، وسلبه ، فلما صلى عمر الظهر أتى أبا طلحة في داره ، فقال : إنا كنا لا  
نخمس السلب ، وإن سلب البراء قد بلغ مالاً ، وأنا خامسه . فكان أول سلب خمس في  
الإسلام سلب البراء . رواه سعيد في السنن .

وفيهما أن سلب البراء بلغ ثلاثين ألفاً .

قال مقيدہ - عفا الله عنه - : أظهر الأقوال دليلاً عندني أن السلب لا يخمس لحديث عوف  
وخالد المتقدم ، ويجاب عن أخذ الخمس من سلب البراء بن مالك ، بأن الذي تدل عليه  
القصة أن السلب لا يخمس : لأن قول عمر إنا كنا لا نخمس السلب ، وقول الراوي كان أول  
سلب خمس في الإسلام : يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم . وأبا بكر ، وعمر  
صدراً من خلافته لم يخمسوا سلباً ، واتباع ذلك أولى .

قال الجوزجاني : لا أظنه يجوز لأحد في شيء سبق فيه من الرسول صلى الله عليه وسلم  
شيء إلا اتباعه . ولا حجة في قول أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن  
قدامة في (المغني) ، والأدلة التي ذكرنا يخصص بها عموم قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنّما  
غَنِمْتُمْ ﴾ [ الأنفال : 41 ] الآية .

(313/313)

---

واختلف العلماء فيما إذا ادعى أنه قتله ، ولم يقم على ذلك بينة ، فقال الأوزاعي : يعطاه بمجرد دعواه ، وجمهور العلماء على أنه لا بد من بينة على أنه قتله ، قال مقيدہ - عفا الله عنه - : لا ينبغي أن يختلف في اشتراط البينة لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح " من قتل قتيلًا له عليه بينة " الحديث ، فهو يدل بغيضاح على أنه لا بد من البينة ، فإن قيل : فأين البينة التي أعطى بها النبي صلى الله عليه وسلم أبا قتادة سلب قتيله السابق ذكره .

فالجواب من وجهين :

الأول : ما ذكره القرطبي في تفسيره : قال : سمعت شيخنا الحافظ المنذري الشافعي أبا محمد عبد العظيم يقول : إنما أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم بشهادة الأسود بن خزاعي . وعبد الله بن أنيس ، وعلى هذا يندفع النزاع ، ويزول الإشكال ، ويترد الحكم . اهـ .

الثاني : أنه أعطاه إياه بشهادة الرجل الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " صدق ، سلب ذلك القتل عندي " ، الحديث ، فإن قوله " صدق " شهادة صريحة لأبي قتادة أنه هو الذي قتله .

والاكتفاء بواحد في باب الخبر ، والأمور التي لم يقع فيها ترافع قال به كثير من العلماء ، وعقده

ابن عاصم المالكي في تحفته بقوله :

وواحد يجزئ في باب الخبر . . . واثنان أولى عند كل ذي نظر

وقال القرطبي في تفسيره : إن أكثر العلماء على أجزاء شهادة واحد ، وقيل : يثبت ذلك

بشاهد ويمين ، والله أعلم .

وأما على قول من قال : إن السلب موكول إلى نظر الإمام ، فللإمام أن يعطيه إياه ، ولو لم تقم

بينه ، وإن اشترطها فذلك له ، قاله القرطبي ، والظاهر عندي أنه لا بد من بينة لورود النص

الصحيح بذلك .

واختلف العلماء في السلب ما هو ؟

قال مقيد عفا الله عنه . لهذه المسألة طرفان ، وواسطة .

طرف أجمع العلماء على أنه من السلب : وهو سلاحه ، كسيفه ، ودرعه ، ونحو ذلك ،

وكذلك ثيابه .

(314/313)

---

وطرف أجمع العلماء على أنه ليس من السلب : وهو ما لو وجد في هميانه ، أو منطقتة

دنانير . أو جواهر ، أو نحو ذلك .

وواسطة اختلف العلماء فيها : منها فرسه الذي مات وهو يقاتل عليه ، ففيه للعلماء قولان

: وهما روايتان عن الإمام أحمد ، أصحهما أنه منه ، ومنها ما يترين به للحرب ، فقال

الأوزاعي : ذلك كله من السلب ، وقالت : فرقة ليس منه ، وهذا مروى عن سحنون إلا

المنطقة ، فإنها عنده من السلب ، وقال ابن حبيب في الواضحة ، والسواران من السلب ،

والله أعلم .

واعلم أن حديث عبد الله بن عمر المتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية

قبل نجد . وفيهم ابن عمر ، وأن سهماتهم بلغت اثني عشر بعيراً ، ونقلوا بعيراً بعيراً ، دليل

واضح على بطلان قول من قال : " لا تنفيل إلا من خمس الخمس " لأن الحديث صريح في أنه

نقلهم نصف السدس .

ولا شك أن نصف السدس أكثر من خمس الخمس ، فكيف يصح تنفيل الأكثر من الأقل ،

وهو واضح كما ترى ، وأما غير ذلك من الأقوال ، فالحديث محتمل له . والذي يسبق إلى

الذهن ، أن ما ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عمر بلفظ " أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قد كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامة

الجيش ، والخمس في ذلك واجب كله اه .

يدل على أن ذلك التنفيل من الغنيمة بعد إخراج الخمس ، وهو ما دل عليه حديث حبيب

بن سلمة المتقدم ، وهو الظاهر المتبادر خلافاً لما قاله ابن حجر في ( الفتح ) من أنه محتمل

لكل الأقوال المذكورة ، والله تعالى أعلم .

المسألة السادسة : الحق الذي لا شك فيه أن الفارس يعطى من الغنيمة ثلاثة أسهم :  
سهمان لفرسه ، وسهم لنفسه ، وأن الراجل يعطى سهماً واحداً ، والنصوص الصحيحة  
مصرحة بذلك ، فمن ذلك حديث ابن عمر المتفق عليه ، ولفظ البخاري عن نافع عن ابن  
عمر رضي الله عنهما " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : جعل للفرس سهمين ،  
ولصاحبه سهماً " .

(315/313)

---

ولفظ مسلم ، حدثنا نافع عن عبد الله بن عمر ، " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم  
في النفل للفرس سهمين ، وللرجل سهماً " اهـ .

وأكثر الروايات بلفظ " وللرجل " ، فرواية الشيخين صريحة فيما ذكرنا ، وبذلك فسره  
راويها نافع ، قال البخاري في صحيحه في غزوة خيبر : قال : فسره نافع ، فقال : إذا كان مع  
الرجل فرس فله ثلاثة أسهم ، فإن لم يكن له فرس فله سهم اهـ . وذلك هو معناه الذي لا  
يحتمل غيره في رواية الصحيحين المذكورة .

ومنها ما رواه أبو داود ، حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا عبيد الله .

عن نافع ، عن ابن عمر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم لرجل ولفرسه ثلاثة أسهم : سهماً له ، وسهمين لفرسه " .

حدثنا أحمد بن حنبل ، ثنا أبو معاذية ، ثنا عبد الله بن يزيد ، حدثني المسعودي ، حدثني أبو عمرة عن أبيه ، قال : " أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة نفر ، ومعنا فرس ، فأعطى كل واحد منا سهماً ، وأعطى للفرس سهمين " .

ومن قال بهذا الأئمة الثلاثة : مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وابن سيرين ، وعمر بن عبد العزيز ، والأوزاعي والثوري . والليث ، وحسين بن ثابت ، وأبي يوسف ، ومحمد ، وإسحاق ، وأبي عبيد ، وابن جرير ، وأبي ثور .

وخالف أبو حنيفة - رحمه الله - الجمهور فقال : للفارس سهمان ، وللراجل سهم . محتجاً بما جاء في بعض الروايات " أنه صلى الله عليه وسلم ، قسم يوم خيبر للفارس سهمين ، وللراجل سهماً " رواه أبو داود من حديث مجمع بن جارية الأنصاري رضي الله عنه ، وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن ، ويجاب عنه من وجهين :

الأول : أن المراد بسهمي الفارس خصوص السهمين الذين استحقهما بفرسه ، كما يشعر به لفظ الفارس .

(316/313)



---

الثاني : أن النصوص المتقدمة أصح منه ، وأولى بالتقديم ، وقد قال أبو داود : حديث أبي معاوية أصح ، والعمل عليه ، وأرى الوهم في حديث مجمع أنه قال : ثلاثمائة فارس ، وكانوا مائتي فارس اه .

وقال النووي في (شرح مسلم) : لم يقل يقول أبي حنيفة هذا أحد ، إلا ما روي عن علي ، وأبي موسى اه .

وإن كان عند بعض الغزاة خيل فلا يسهم إلا لفرس واحد ، وهذا مذهب الجمهور منهم مالك ، وأبو حنيفة ، والشافعي ، والحسن ، ومحمد بن الحسن ، وغيرهم . واحتجوا بأنه لا يمكنه أن يقاتل إلا على فرس واحد ، وقال الأوزاعي والثوري ، والليث ، وأبو يوسف : يسهم لفرسين دون ما زاد عليهما ، وهو مذهب الإمام أحمد ، ويروى عن الحسن . ومكحول ، ويحيى الأنصاري ، وابن وهب ، وغيره من المالكيين .

واحتج أهل هذا القول بما روي عن الأوزاعي : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسهم لخيال ، وكان لا يسهم للرجل فوق فرسين وإن كان معه عشرة أفراس " ، وبما روي عن أزهري بن عبد الله أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح ، أن أسهم للفرس من سهمين ، وللفرسين أربعة أسم ولصاحبها سهم ، فلذلك خمسة أسهم ، وما كان فوق

الفرسين فهي جنائب ، رواهما سعيد بن منصور ، قاله ابن قدامة في (المغني) . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان ح 2 ص ﴾

(317/313)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَاَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾

ما سبب ذكر الغنيمة هنا ؟ . وما المناسبة ؟ . ونقول : إن الله سبحانه وتعالى يتحدث

عن القتال . ونهاية كل معركة ينتصر فيها المسلمون يكون فيها غنائم .

وهذه مناسبة الحديث عن الغنائم ، وبما أن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن مدده للمؤمنين

. وأنه ناصرهم ، وأنه نعم النصير ، ولكن الغنائم لا تجيء إلا نتيجة للنصر ، فكأن الله يريد

من المؤمنين أن يتأكدوا أن النصر سيكون من نصيبهم ؛ بدليل أن الحديث انتقل إلى الغنائم .

والغنيمة هي كل منقول يأخذه المسلم المقاتل من الكافر ، والثابت أن الغنائم لم تكن تحل

لأحد من الأنبياء قبل رسول الله صلى عليه وسلم .

ويقول الحق :

﴿ وَاَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [ الأنفال : 41 ] .

إذن فله الخمس وتبقى أربعة أخماس توزع على المقاتلين . والخمس الذي هو لله كيف  
نقسمه ؟

لقد ذكر القرآن أسلوب توزيع هذا الخمس بطريقة اختلف فيها العلماء ؛ فالآية تقول :  
﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [ الأنفال : 41 ] .

ثم تزيد :

﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [ الأنفال : 41 ] .

وقد قال بعض العلماء تمسكاً بظاهر الآية الكريمة : إن خمس الغنائم يوزع على من سماهم  
الله تعالى في كتابه العزيز وهم ستة : ( الله ، الرسول ، ذو القربى ، اليتامى ، المساكين ، ابن  
السبيل ) فتكون الأسهم ستة ، وجمهور العلماء على أن خمس الغنائم يقسم خمسة أسهم  
فيكون لله وللرسول سهم واحد لأنه لا يوجد فصل بين الله ورسوله ، والأسهم الأربعة  
الباقية من هذا الخمس توزع على الأنواع الأربعة ( ذي القربى - اليتامى - المساكين - ابن  
السبيل ) لكل نوع منهم سهم .

واختلفوا أيضاً في معنى ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ هل هم القربى من رسول الله صلى الله عليه  
وسلم أم ممن ؟

(318/313)

---

ثم بعد ذلك جاء نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل فلم يحدث خلاف فيه -  
والخلاصة: أن الغنائم كلها تقسم خمسة أقسام خمسها لهؤلاء الخمسة وأربعة أخماسها  
الباقية للجيش المقاتل؛ لأن الله تعالى بين حكم الخمس وسكت عن الباقي فدل ذلك على  
أنه للغانمين ثم يقول الحق:

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ ﴾ [ الأنفال: 41 ] .

وهم بطبيعة الحال الحال مؤمنون بالله ، وكان هذا القول جاء ليراجعوا إيمانهم إذا اعترضوا  
على هذا التقسيم . فإن طمع أحد منهم في الخمس الذي هو لله ورسوله ولم يقنع بأربعة  
الأخماس المقسمة - كما قال الله تعالى - يكون قد خدش إيمانه بمن أصدر هذا الأمر ،  
وسبحانه هو الذي أنزل هذا التقسيم . فمن زاع وتطلعت عينه إلى شيء فليرد هذا الزيف ؛  
لأن الذي قسم هو الله الذي نصر المقاتلين . وإذا كان النصر هو الذي جاء بالغنائم ، فالذي  
أعطى النصر هو الله سبحانه وتعالى ، والنصر سبب من الله ، وما يوهب للإنسان من  
الحق ، على العبد أن يقبل فيه قسمة الله .

ومثال ذلك ما أراه الله للإنسان المسلم من حسن التصرف في ماله ، فهو في حياته حر  
ويملك حق التصرف في هذا المال ، واحتراماً لمشاعرك الاجتماعية والإنسانية والعاطفية  
في البيئة التي تحيا فيها ، جعل الله لك الحق في الوصية بأن تخصص ثلث مالك لما تريد ومن

تريد ، فقد ترى أن هناك إنساناً من غير أقربائك وهو بطبيعة الحال لن يرثك ، ولكنه  
خدمك في حياتك أو في مرضك أو في شيخوختك ، وأنت تريد أن تترك شيئاً من ثروتك له  
، اعترافاً بجميله ، أو لعل هناك أناساً من معارفك تعرف أنهم أحوج من أبناءك ، فتخصص  
لهم بعضاً من المال ، شرط ألا يتعدى الثلث ، فيشَاء الحق سبحانه وتعالى أن يضع  
للعواطف الإيمانية الإنسانية في الناس مجالاً ، فتترك لك الحرية في أن تتصرف في ثلث التركة ثم  
قسم سبحانه الثلثين على الورثة .

إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ آمِنْتُمْ بِاللّهِ ﴾ [ الأنفال : 41 ] .

(319/313)

---

أي أنه سبحانه قد جعل من الإيمان أن يتم توزيع الغنائم بالشكل الذي حدده الله عز وجل ،  
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَان ﴾ [ الأنفال : 41 ] .

والفرقان هو الشيء الذي يفرق بين الحق والباطل ؛ فرقا واضحا بشدة بحيث يكون ظاهراً  
للجميع . وقد أطلق الله الفرقان على القرآن الكريم في سورة آل عمران فيقول تبارك وتعالى

: ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ \* مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران : 3 -  
[4] .

فحينما أنزل الله تعالى التوراة والإنجيل جاءت التوراة لتفرق بين الحق والباطل ، وأيضاً جاء الإنجيل ليفرق بين الحق والباطل ، وشاء الله سبحانه وتعالى ألا تطلق كلمة "الفرقان" إلا على القرآن الكريم ؛ لأن القرآن هو الفارق النهائي الذي لن يأتي فارق من بعده ، فلن ينزل كتاب سماوي آخر .

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ [الأنفال : 41] .

(320/313)

---

الله سبحانه وتعالى يقصد هنا بيوم الفرقان يوم بدر الذي كان فرقاً بين حق وباطل ؛ فرقاً لافتاً للأنظار ، وقد أخذت كلمة الفرقان المعنى العام وهو أن يفرق بين الحق والباطل ، فالمسلمون كانوا قلة والكفار كانوا كثرة ، والمسلمون كانوا خارجين للاستيلاء على القافلة والعيرو لم يكن لديهم أي عدة أو عتاد للحرب ، بينما استعد الكفار للحرب والقتال بالعدد والعتاد والفرسان ، وكان المسلمون يتمنون أن تكون قافلة قريش لهم ، وهي قافلة لا يحرسها إلا عدد قليل من الرجال ، لا شوكة لهم ، وأراد الحق تبارك وتعالى أن يواجه

المسلمون وهم قلة جيشاً له شوكة أي له عدة وعتاد ؛ لأن المسلمين ظنوا أن الاستيلاء على القافلة لن يستغرق منهم وقتاً طويلاً أو جهداً كبيراً ، فحراس القافلة عدد محدود وبلا سلاح قوي . لكن شاء الله عز وجل أن يخوض المؤمنون المعركة وهم قلة وأن ينتصروا ، حتى يعلم الجميع أن هذه القلة المؤمنة انتصرت بلا عددٍ ولا عُدَّةٍ على من يملكون العدد والعدة ، وبذلك يظهر الفرق بين الإيمان والكفر ، وبين نصر الله وزيف الشيطان ، ولو استولى المسلمون على قافلة قريش لقيل : إن أية مجموعة من المسلحين كانت تستطيع أن تنهب هذه القافلة ، ولذلك لم يعطهم الله العير بل ابتلاهم بالنفير وهو الجيش الخارج من مكة بقصد الحرب وهو مستعد لها ليلفت النظر إلى هؤلاء المؤمنين الذين خرجوا بغير قصد الحرب وقد انتصروا على الكفار الذين خرجوا للحرب واستعدوا لها .

وكان المؤمنون ثلاثمائة وجيش الكفار ألفاً ، فإذا جاء النصر ، تأكد الكل أن كفة المؤمنين قد رجحت ، وإذا تعجب أحد كيف ينتصر هذا العدد القليل غير المسلح على هذا العدد الكثير والمسلح ، يمكن أن يرددوا قول الله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال : 41] .

وهذه المشيئة الإلهية هي التي قلبت الموازين .

(321/313)

وفي أول سورة البقرة يحكي الحق سبحانه وتعالى لنا قصة طالوت وجالوت ، ويروي كيف طلب بنو إسرائيل من نبي لهم أن يحدد السماء شخصاً يكون ملكاً عليهم ، ليقودهم في معركة ضد طاغية اسمه جالوت ؛ أخرجهم من ديارهم وشردهم ، فلما جاء الأمر بأن يكون طالوت هو الملك ، جادل بنو إسرائيل في قيادته لهم . ﴿ قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ﴾ [البقرة: 247] .

كانوا هم الذين طلبوا أن يكون لهم ملك ، فلما جاء طالوت باختيار الله اعترضوا عليه . ثم خرج طالوت مع الذين اتبعوه وابتلاهم الله بنهر وهو عطاش ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مَبْتَلِكُمْ مَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: 249] . وابتلاهم الله سبحانه وتعالى بأن مروا على نهر وهم عطاش ، وطلب منهم ألا يشربوا إلا أن يأخذ كل منهم قليلاً من الماء في كف يده ليرطب به فمه ، فلما وصلوا إلى النهر ، اندفعت أغلبيتهم ليعبوا ويشربوا ما شاء لهم ، والأقلية فقط هي التي امتثلت لأمر الله تعالى ولم تشرب ، وهؤلاء هم الذين بقوا مع طالوت وعبروا النهر ، لكنهم حين رأوا جيش الأعداء ، قالت أغلبيتهم ما جاء في القرآن الكريم وحكاة لنا : ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ [البقرة: 249] .



أي أنهم خافوا من مواجهة جيش جالوت ورفضوا القتال ، إلا الأقلية منهم ، وهكذا حدث لهم التصفية مرتين بالاختيار والابتلاء ؛ الأولى بالصبر على العطش ، والثانية بمواجهة جيش العدو ، وهذه هي الأقلية الصافية التي رسخ إيمانها ، وقالوا ما جاء بالقرآن الكريم : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

[البقرة: 249] .

أي أن هذه الفئة المؤمنة التي بقيت والتي تخشى حساب الله في الآخرة لم تخفهم قتلهم ولا كثرة جنود جالوت ، بل قالوا : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، واتصروا بالفعل ، وكان هذا فرقانا ظاهراً من الله عز وجل .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ تَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ [الأنفال: 41] .

أي يوم التقاء جمع المؤمنين وجمع الكفار ، وتحقق نصر المؤمنين ، رغم قلة العدد والعتاد .  
ولذلك يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم :

﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: 41] .

أي أن الله عز وجل قادر على أن ينصر المؤمنين وهم قلة وغير مستعدين للقتال . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(323/313)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾

أخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : ثم

وضع مقاسم الفيء واعلمه . قال ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ بعد الذي مضى

من بدر ﴿ فإن لله خمسه وللرسول . . . ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن

مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ قال : المخيط من

شيء .

وأخرج ابن المنذر عن ابن أبي نجيح رضي الله عنه قال: إنما المال ثلاثة: مغنم، أو فيء، أو صدقة. فليس فيه درهم إلا بين الله موضعه. قال في المغنم ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله ﴾ تخرجاً عليهم، وقال في الفيء ﴿ كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ [الحشر: 7] وقال في الصدقة ﴿ فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ [التوبة: 60].

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن قيس بن مسلم الجدلي قال: سألت الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب بن الحنفية عن قول الله ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ﴾ قال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة ﴿ وللرسول ولذي القربى ﴾ فاختلّفوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين السهمين. قال قائل: سهم ذوي القربى لقراءة الخليفة، وقال قائل: سهم النبي للخليفة من بعده. واجتمع رأي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله تعالى، فكان كذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(324/313)

---

وأخرج ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :  
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة ، فضرب ذلك  
الخمس في خمسة ، ثم قرأ ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ﴾ قال  
: قوله ﴿ فإن لله خمسه ﴾ مفتاح كلام ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ [ البقرة :  
284 ] فجعل الله سهم الله والرسول واحداً ﴿ ولذي القربى ﴾ فجعل هذين السهمين  
قوة في الخيل والسلاح ، وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيره ، وجعل  
الأربعة أسهم الباقية ، للفرس سهمين ، ولراكبه سهم ، وللراجل سهم .

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فإن لله خمسه ﴾ يقول : هو الله ،  
ثم قسم الخمس خمسة أخماس ﴿ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾  
.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت  
الغنيمة تقسم على خمسة أخماس .

فأربعة منها بين من قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس ، فربع لله ولرسوله  
ولذي القربى - يعني قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم - فما كان لله وللرسول ، فهو  
لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأخذ النبي من الخمس شيئاً ، والربع الثاني لليتامى ،

والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل ، وهو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين .

(325/313)

---

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء . . . ﴾ الآية . قال : كان يجاء بالغنيمة فتوضع ، فيقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم ، فيعزل سهماً منه ويقسم أربعة أسهم بين الناس - يعني لمن شهد الواقعة - ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزله ، فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة ، فهو الذي سمي الله تعالى : لا تجعلوا لله نصيباً ، فإن لله الدنيا والآخرة ، ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم . سهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وسهم لذى القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء . . . ﴾ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم وذو قرابته لا يأكلون من الصدقات شيئاً لا يحل لهم ، فللنبي صلى الله عليه وسلم خمس الخمس ، ولذي قرابته

خمس الخمس ، ولليتامى مثل ذلك ، وللمساكين مثل ذلك ، ولابن السبيل مثل ذلك .  
وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وابن المنذر عن الشعبي رضي الله عنه قال :  
كان سهم النبي صلى الله عليه وسلم يدعى الصفي ، إن شاء عبداً وإن شاء فرساً ،  
يختاره قبل الخمس ، ويضرب له بسهمه ان شهد وإن غاب ، وكانت صفية ابنة حبي من  
الصفي .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه في الآية قال :  
خمس الله والرسول واحد ، إن كان النبي صلى الله عليه وسلم يحمل فيه ويصنع فيه ما  
شاء الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن مطعم رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم تناول شيئاً من الأرض أو ويرة من بعير فقال : والذي نفسي بيده مالي مما أفاء الله  
عليكم ولا مثل هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم " .

(326/313)

---

وأخرج ابن المنذر من طريق أبي مالك رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :  
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ما افتتح على خمسة أخماس . فأربعة منها لمن

شهره ، وأخذ الخمس خمس الله فيقسمه على ستة أسهم .

فسهم لله ، وسهم للرسول ، وسهم لذى القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجعل سهم الله في السلاح والكراع وفي سبيل الله ، وفي كسوة الكعبة وطبيها وما تحتاج إليه الكعبة ، ويجعل سهم الرسول في الكراع والسلاح ونفقة أهله ، وسهم ذى القربى لقربته ، يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم مع سهمهم مع البأس ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ، يضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن شاء وحيث شاء ، ليس لبني عبد المطلب في هذه الثلاثة إلا سهم ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم سهمه مع سهام الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن حسين المعلم قال : سألت عبد الله بن بريدة رضي الله عنه في قوله ﴿ فأن لله خمسه وللرسول ﴾ قال : الذي لله لتبنيه ، والذي للرسول لأزواجه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن السدي رضي الله عنه ﴿ ولذى القربى ﴾ قال : هم بنو عبد المطلب .

وأخرج الشافعي وعبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما . إن نجدة كتب إليه يسأله عن ذوى القربى الذين ذكر الله ، فكتب إليه : انا كنا نرى أناهم ، فأبى ذلك علينا قومنا وقالوا : قرش كلها ذوو قربى .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن نجدة الحروري أرسل إليه يسأله عن سهم ذي القربى الذين ذكر الله ، فكتب إليه : إنا كنا نرى اناهم ، فأبى ذلك علينا قومنا وقالوا : ويقول : لمن تراه . فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو لقربى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قسمه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان عمر رضي الله عنه عرض علينا من ذلك عرضاً رأينا دون حقنا . فرددناه عليه وأبينا أن نقبله ، وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم ، وأن يقضي عن غارمهم ، وأن يعطي فقيرهم ، وأبى أن يزيدهم على ذلك .

وأخرج ابن المنذر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : سألت علياً رضي الله عنه فقلت : يا أمير المؤمنين ، أخبرني كيف كان صنع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الخمس نصيبكم ؟ فقال : أما أبو بكر رضي الله عنه فلم تكن في ولايته أخماس ، وأما عمر رضي الله عنه فلم يزل يدفعه إليّ في كل خمس حتى كان خمس السوس وجند نيسابور . فقال وأنا عنده : هذا نصيبكم أهل البيت من الخمس ، وقد أحل ببعض المسلمين واشتدت حاجتهم فقلت : نعم . فوثب العباس بن عبد المطلب فقال : لا تعرض في الذي لنا . فقلت



: ألسنا أحق من المسلمين وشفع أمير المؤمنين؟ فقبضه ، فوالله ما قبضناه ولا صدرت عليه في ولاية عثمان رضي الله عنه ، ثم أنشأ علي رضي الله عنه يحدث فقال : إن الله حرم الصدقة على رسوله فعوضه سهماً من الخمس عوضاً عما حرم عليه ، وحرمها على أهل بيته خاصة دون أمته فضرب لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهماً عوضاً مما حرم عليهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رغبت لكم عن غسالة الأيدي ، لأن لكم في خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم "

(328/313)

---

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر " أن النبي صلى الله عليه وسلم قسم سهم ذي القربى من خير علي بنى هاشم وبنى المطلب " .  
وأخرج ابن أبي شيبة عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال " قسم رسول الله سهم ذي القربى على بنى هاشم وبنى المطلب ، قال : فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه ، فقلنا : يا رسول الله ، هؤلاء اخوانك من بنى هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي

وضحك الله به منهم ، رأيت اخواننا من بني المطلب ، أعطيتهم دوننا وإنما نحن وهم بمنزلة

واحدة في النسب ؟ فقال : إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام " .

وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : آل محمد صلى الله عليه وسلم

الذين أعطوا الخمس . آل علي ، وآل عباس ، وآل جعفر ، وآل عقيل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه قال : كان آل محمد لا تحل لهم الصدقة

فجعل لهم خمس الخمس .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ واعلموا أنما

غنمتم من شيء ﴾ يعني من المشركين ﴿ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى ﴾ يعني

قراة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ يعني الضيف ،

وكان المسلمون إذا غنموا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أخرجوا خُمُسَهُ فيجعلون

ذلك الخمس الواحد أربعة أرباع ، فربعه لله وللرسول ولقراة النبي صلى الله عليه وسلم ،

فما كان لله فهو للرسول والقراة وكان للنبي صلى الله عليه وسلم نصيب رجل من القراة ،

والربع الثاني للنبي صلى الله عليه وسلم ، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل

، ويعمدون إلى التي بقيت فيقسمونها على سهمانهم ، فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم

رد أبو بكر رضي الله تعالى عنه نصيب القراة ، فجعل يحمل به في سبيل الله تعالى ، وبقي

نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل .

وأخرج ابن أبي شيبة والبغوي وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان " عن رجل من بلقين عن ابن عم له قال : قلت : يا رسول الله ، ما تقول في هذا المال ؟ قال " لله خمسه ، وأربعة أخماسه لهؤلاء - يعني المسلمين - قلت : فهل أحد أحق به من أحد ؟ قال : لا ، ولو انتزعت سهماً من جنبك لم تكن بأحق به من أخيك المسلم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفل قبل أن تنزل فريضة الخمس في المغنم ، فلما نزلت ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء . . . ﴾ الآية . ترك التنفل وجعل ذلك في خمس الخمس ، وهو سهم الله وسهم النبي صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مالك بن عبد الله الحنفي رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند عثمان رضي الله عنه قال : من ههنا من أهل الشام ؟ فقلت ؟ فقال : أبلغ معاوية إذا غنم غنيمة أن يأخذ خمسة أسهم فيكتب على كل سهم منها : لله ثم ليقرع فحيثما خرج منها فليأخذه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي رضي الله عنه ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله

خمسہ ﴿ قال : سهم الله وسهم النبي صلى الله عليه وسلم واحد .  
وأخرج ابن أبي شيبة عن محمد بن سيرين رضي الله عنه قال : في المغنم خمس لله وسهم  
النبي صلى الله عليه وسلم بالصفى ، كان يصطفى له في المغنم خير رأس من السبي إن سبي  
والإغيره ، ثم يخرج الخمس ، ثم يضرب له بسهمه شهد أو غاب مع المسلمين بعد الصفى .  
وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن السائب رضي الله عنه . أنه سئل عن قوله ﴿ واعلموا  
أنما غنمتم من شيء ﴾ وقوله ﴿ ما أفاء الله على رسوله ﴾ [الحشر : 7] ما الفيء ،  
وما الغنيمة ؟ قال : إذا ظهر المسلمون على المشركين وعلى أرضهم فأخذوهم عنوة ، فما  
أخذوا من مال ظهروا عليه فهو غنيمة ، وأما الأرض : فهو فيء .

(330/313)

---

وأخرج ابن أبي شيبة عن سفيان قال : الغنيمة ما أصاب المسلمون عنوة ، فهو لمن سمى الله  
وأربعة أخماس لمن شهدها .  
وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه أنه سئل : كيف كان رسول الله  
يصنع في الخمس ؟ قال : كان يحمل الرجل سهماً في سبيل الله ، ثم الرجل ، ثم الرجل .  
وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان للنبي صلى الله عليه وسلم

شيء واحد في المغنم يصطفيه لنفسه ، أما خادم واما فرس ، ثم نصيبه بعد ذلك من  
الخمس .

وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سلمنا الأنفال لله ورسوله ،  
ولم يخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا ، ونزلت بعد ﴿ واعلموا أنما غنمتم من  
شيء فإن لله خمسه ﴾ فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين الخمس فيما  
كان من كل غنيمة بعد بدر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، ألا  
تولينني ما خصنا الله به من الخمس ؟ فولانيه .

وأخرج الحاكم وصححه عن علي رضي الله عنه قال : ولاني رسول الله صلى الله عليه  
وسلم خمس الخمس ، فوضعت مواضعه حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر  
وعمر رضي الله عنهما .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن مكحول رضي الله عنه رفعه إلى النبي صلى الله عليه  
وسلم قال " لا سهم من الخيل إلا لفرسين ، وإن كان معه ألف فرس إذا دخل بها أرض العدو  
، قال : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر للفارس سهمين وللراجل سهم " .  
وأخرج عبد الرزاق عن ابن عمر رضي الله عنهما " ان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
جعل للفارس سهمين ، وللراجل سهما " .

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة رضي الله عنه . أوصى بالخمسة وقال : أوصي بما رضي الله به لنفسه ، ثم قال ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ﴾ .

(331/313)

---

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل رضي الله عنه في قوله ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ يقول : أقرؤا بحكمي ﴿ وما أنزلنا على عبدنا ﴾ يقول : وما أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم في القسمة ﴿ يوم الفرقان ﴾ يوم بدر ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يوم الفرقان ﴾ قال : هو يوم بدر ، وبدر : ماء بين مكة والمدينة .  
وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يوم الفرقان ﴾ قال : هو يوم بدر ، فرق الله بين الحق والباطل .

وأخرج سعيد بن منصور ومحمد بن نصر والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ قال : كانت بدر لسبع عشرة مضت من شهر

رمضان .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كانت ليلة الفرقان يوم التقى  
الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة ، لسبع عشرة مضت من رمضان .

وأخرج ابن جرير عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : كانت ليلة الفرقان يوم التقى  
الجمعان لسبع عشرة مضت من رمضان .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : أمر رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بالقتل في آي من القرآن ، فكان أول مشهد شهد رسول الله صلى الله  
عليه وسلم بدراً ، وكان رئيس المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، فالتقوا يوم  
الجمعة بيدر لسبع أو ست عشرة ليلة مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً ، والمشركون بين الألف والتسعمائة ، وكان ذلك يوم  
الفرقان : يوم فرق الله بين الحق والباطل ، فكان أول قتيل قتل يومئذ مهجع مولى عمرو ورجل  
من الأنصار ، وهزم الله يومئذ المشركين فقتل منهم زيادة على سبعين رجلاً وأسر منهم مثل  
ذلك .

(332/313)

---

وأخرج ابن أبي شيبة عن جعفر عن أبيه قال: كانت بدر لسبع عشرة من رمضان في يوم  
جمعة.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. أنه سئل أي ليلة  
كانت ليلة بدر؟ فقال: هي ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة بقيت من رمضان.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عامر بن ربيعة البدري قال: كان يوم بدر يوم الاثنين لسبع عشرة  
من رمضان. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(333/313)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله تعالى: ﴿واعلموا أنّما غنمتم من شيء﴾ الآية.

الظاهر أنّ "ما" هذه موصولة بمعنى "الذي"، وكان من حقّها أن تكتب منفصلةً من "أنّ"

"كما كتبت: ﴿إنّ ما تُعدّون لآتٍ﴾ [الأنعام: 134] منفصلةً، ولكن كذا

رُسمت.

و"غنمتم" صلّتها، وعائدها محذوف لاستكمال الشُّروط، أي: غنمتموه.



وقوله "فَأَنَّ لِلَّهِ" الفاءُ مُزِيدَةٌ فِي الْخَبَرِ؛ لِأَنَّ الْمَبْتَدَأَ ضَمَّنَ مَعْنَى الشَّرْطِ، وَلَا يُضَرُّ دُخُولُ  
النَّاسِخِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُغَيَّرِ مَعْنَاهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا﴾ ثم قال: "فَلَهُمْ  
"وَالْأَخْفَشُ مَعَ تَجْوِيزِهِ زِيَادَةَ الْفَاءِ فِي خَبَرِ الْمَبْتَدَأِ مُطْلَقًا، يَمْنَعُ زِيَادَتَهَا فِي الْمَوْصُولِ الْمَشْبَهِ  
بِالشَّرْطِ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ "إِنَّ" الْمَكْسُورَةَ، وَآيَةُ الْبُرُوجِ [10] حُجَّةٌ عَلَيْهِ.

(334/313)

---

وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فِ "أَنَّ" وَمَا عَلِمْتُ فِيهِ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ  
: فَوَاجِبٌ أَنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ، وَالْجُمْلَةُ مِنْ هَذَا الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ خَيْرٌ لِ "أَنَّ".  
وظَاهِرُ كَلَامِ أَبِي حَيَّانَ أَنَّهُ جَعَلَ الْفَاءَ دَاخِلَةً عَلَى: "أَنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ" مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ  
مَبْتَدَأً وَخَبَرًا مَحْذُوفًا، بَلْ جَعَلَهَا بِنَفْسِهَا خَبْرًا، وَلَيْسَ مَرَادُهُ ذَلِكَ، غَذَا لَا تَدْخُلُ هَذِهِ  
الْفَاءُ عَلَى مُفْرَدٍ، بَلْ عَلَى جُمْلَةٍ، وَالَّذِي يُقَوِّي إِرَادَتَهُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ حَكَمَى قَوْلَ الزَّمْخَشَرِيِّ،  
أَعْنِي كَوْنَهُ قَدَّرَ أَنَّ "أَنَّ"، وَمَا فِي حَيْزِهَا مَبْتَدَأٌ، مَحْذُوفُ الْخَبَرِ، فَجَعَلَهُ قَوْلًا زَائِدًا عَلَى مَا  
قَدَّمَ.

وَيَجُوزُ فِي "مَا" أَنْ تَكُونَ شَرْطِيَّةً، وَعَامِلُهَا "غَنِمْتُمْ" بَعْدَهَا، وَاسْمُ "أَنَّ" حِينَئِذٍ ضَمِيرُ  
الْمَرْوَالِشَّانِ وَهُوَ مَذْهَبُ الْفَرَّاءِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ إِلَّا ضَرُورَةً، بِشَرْطِ الْأَ

بليها فعل ؛ كقولهِ : [ الحفيف ]

2707 - إِنَّ مَنْ يَدْخُلُ الْكَنِيسَةَ يَوْمًا . . .

يُلْقَى فِيهَا جَاذِرًا وَظَبَاءً

وقول الآخر : [ الحفيف ]

2708 - إِنَّ مَنْ لَامَ نَبِيَّ بِنْتِ حَسًّا . . .

نَ الْمُهُ وَأَعْصِهِ فِي الْخُطُوبِ

وقيل : الفاء زائدة ، و " أَنْ " الثانية بدل من الأولى .

وقال مكِّي : " وقد قيل " إِنَّ الثانية مؤكدة للأولى ، وهذا لا يجوز لأن الولي تبقى بغير خبر ؛

ولأنَّ الفاء تحول بين المؤكِّد والمؤكِّد وزيادتها لا تحسُن في مثل هذا " .

وقيل : " ما " مصدرية ، والمصدر بمعنى المفعول أي : أَنْ مغنومكم هو المفعول به ، أي :

واعلموا أَنَّ غَنَمَكُمْ ، أي : مغنومكم .

والغنيمة : أصلها من الغنم ، وهو الفوز ، يقال : غنم يغنم فهو غانم ، وأصل ذلك من الغنم

هذا الحيوان المعروف ، فَإِنَّ الظفر به يُسَمَّ غَنَمًا ، ثم اتسع في ذلك ، فَسُمِّي كلُّ شيءٍ

مظفور به غَنَمًا وَمَغَنَمًا وَغَنِيمَةً ؛ قال علقمة بنُ عبدة : [ البسيط ]

2709 - وَمُطْعَمُ الْغَنَمِ يَوْمَ الْغَنَمِ مُطْعَمُهُ . . .

أَنَّى تَوَجَّهَ وَالْمَحْرُومُ مَحْرُومٌ

وقال الآخر: [الوافر]

2710 - لَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الْآفَاقِ حَتَّى . . .

رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

قوله " مِنْ شَيْءٍ " فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ عَائِدِ الْمَوْصُولِ الْمَقْدَّرِ ، وَالْمَعْنَى : مَا غَنِمْتُمُوهُ كَانَتْ مِنْ شَيْءٍ ، أَي : قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا .

وحكى ابن عطية عن الجعفي عن أبي بكر عن عاصم .

وحكى غيره عن الجعفي عن هارون عن أبي عمرو : " فَإِنَّ لِلَّهِ " بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ ، وَيُؤَيِّدُ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ قِرَاءَةُ النَّخَعِيِّ " فَلِلَّهِ خُمْسُهُ " فَإِنَّهَا اسْتِنَافٌ ، وَخَرَجَهَا أَبُو الْبَقَاءِ عَلَى أَنَّهَا وَمَا فِي حَيْزِهَا فِي مَحَلِّ رَفْعٍ ، خَبْرًا لـ " أَنْ " الْأُولَى .

وقرأ الحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو : " خُمْسُهُ " بِسُكُونِ الْمِيمِ ، وَهُوَ تَخْفِيفٌ

حسن .

وقرأ الجعفي " خُمْسُهُ " بِكَسْرِ الْخَاءِ .

قالوا : وَتَخْرِيجُهَا عَلَى أَنَّهُ اتَّبَعَ الْخَاءَ لِحُرُوكَةِ مَا قَبْلَهَا ، وَهِيَ هَاءُ الْجَلَالَةِ مِنْ كَلِمَةِ أُخْرَى

مُسْتَقْلَةٍ ، قَالُوا : وَهِيَ كَقِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ ﴿ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحَبْكَ ﴾ [الذاريات : 7]

بكسر الحاء إبتاعاً لكسرة التاء من " ذاتٍ " ولم يعتدوا بالساكن ، وهو لام التعريف ، لأنه حاجزٌ غير حصين .

قال شهاب الدين " ليت شعري ، وكيف يقرأ الجعفيُّ والحالةُ هذه ؟ فإنه إن قرأ كذلك مع ضم الميم فيكون في غاية الثقل ، لخروجه من كسرٍ إلى ضمٍّ ، وإن قرأ بسكونها وهو الظاهرُ فإنه نقلها قراءةً عن أبي عمرو ، أو عن عاصم ، ولكن الذي قرأ : " ذاتِ الحُبكِ " يبقى ضمّه الباء ، فيؤدي إلى " فَعُل " بكسر الفاء وضمّ العين ، وهو بناءٌ مرفوضٌ .

وإنما قلت : إنه يقرأ كذلك ؛ لأنه لو قرأ بكسر التاء لما احتاجوا إلى تأويل قراءته على الإبتاع ؛ لأن في " الحُبكِ " لغتين : ضمُّ الحاءِ والباءِ ، وكسرهما ، حتى زعم بعضهم أن قراءة الخروج من كسرٍ إلى ضمٍّ من التداخل .

قال القرطبي : " ليست اللّام في " لذي القُرْبى " لبيان الاستحقاق والملك ، وإنما هي للمصرف والحل . "

(336/313)

---

قوله : ﴿ واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ اليتامى : جمع " يتيمٍ وهو الصغير المسلم الذي لا أب له إذا كان فقيراً ، و " المساكين " هم أهلُ الفاقة والحاجة من المسلمين ، و " ابنِ

السَّبِيلِ " هو المسافر البعيد عن ماله ، فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الغامنين الذين شهدوا الواقعة ، للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه ، وللرَّاجل سهم لما روى ابنُ عمر أنَّ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - " أسَّهَمَ لِرَجُلٍ ولفرسه ثلاثة أسهم سَهْمًا له وسهمين لفرسه "

قوله : " إِنْ كُنْتُمْ "

شرطٌ ، جوابه مقدرٌ عند الجمهور ، لا متقدم ، أي : إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ فاعلموا أَنَّ حَكْمَ الخمس ما تقدَّم ، أو : فاقبلوا ما أمرتم به .

وقوله " وَمَا أَنْزَلْنَا "

عطفٌ على الجلالة ، فهي مجرورةٌ محلٌّ ، وعائدها محذوف ، وزعم بعضهم أنَّ جواب

الشَّرْطِ متقدم عليه ، وهو قوله ف ﴿ نَعْمَ الْمَوْلَى ﴾ [ الأنفال : 40 ] .

وهذا لا يجوز على قواعد البصريين .

قوله : " يَوْمَ الْفُرْقَانِ " يجوز فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يكون منصوباً بـ " أَنْزَلْنَا " أي : أَنْزَلْنَاهُ فِي يَوْمِ بَدْرٍ ، الذي فُرِقَ فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ

والباطل .

الثاني : أن ينتصب بقوله " آمَنْتُمْ " أي : إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ فِي يَوْمِ الْفُرْقَانِ ، ذكره أبو البقاء .

الثالث : يجوز أن يكون منصوباً بـ " غَنِمْتُمْ " .

قال الزَّجَّاجُ: أي: ما غنمتم في يوم الفرقان فحكمه كذا وكذا .  
قال ابن عطية: " وهذا تأويلٌ حسنٌ في المعنى ، ويعترضه أن فيه الفصل بين الظرف وما  
يعمل فيه بهذه الجملة الكثيرة الألفاظِ " ، وهو ممنوعٌ أيضاً من جهةٍ أخرى أخصّ من هذه .  
وذلك أن " ما " إمّا شرطية ، كما هو رأي الفراءِ ، وإمّا موصولة ، فعلى الأوّل يُؤدِّي إلى  
الفصل بين فعل الشرط ، ومعموله بجملة الجزاء ، ومتعلقاتها ، وعلى الثاني يُؤدِّي إلى الفصلِ  
بين فعل الصلة ومعموله بنجر " أن " .

(337/313)

---

قوله ﴿ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ ﴾ فيه وجهان :  
أحدهما : أنه بدل من الظرف قبله .  
والثاني : أنه منصوب بـ " الفرقان " ؛ لأنه مصدرٌ ، فكأنه قيل : يوم فرق فيه في يوم التقى  
الجمعان أي : الفرق في يوم التقاء الجمعين .  
وقرأ زيد بن علي : " عَلَى عُبْدَنَا " بضمّين ، وهو جمع " عَبْد " وهذا كما قد قرئ ﴿  
وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ [ المائدة : 60 ] ، والمراد بالعُبد في هذه القراءة هنا رسول الله - صلى  
الله عليه وسلم - ومن معه من المؤمنين ، والمراد بـ " مَا أَنْزَلْنَا " أي : الآيات والملائكة ، والفتح

في ذلك اليوم .

﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي : يقدر على نصركم وأنتم قليلون . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 516 . 526 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى  
والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى  
الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾ (41)

الغنيمة ما أخذه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند المجاهدة والقتال معهم . فإذا لم  
يكن قتال - أو ما في معناه - فهو فيء .

والجهاد قسمان : جهاد الظاهر مع الكفار ، وجهاد الباطن مع النفس والشيطان وهو

الجهاد الأكبر - كما في الخبر .

(338/313)

---

وكما أن في الجهاد الأصغر غنيمةً عند الظفر ، ففي الجهاد الأكبر غنيمة ، وهو يملك العبدُ نفسه التي كانت في يد العدو : الهوى والشيطان . فبعد ما كانت ظواهره مقرّاً للأعمال الذميمة ، وباطنه مستقراً للأحوال الدنيّة يصير محلّ الهوى مسكناً الرضا ، ومقرّ الشهوات والمنى مسلماً لما يرد عليه من مطالبات المولى ، وتصير النفس مُستلبةً من أسر الشهوات ، والقلب مُختطفاً من وصف الغفلات ، والروح مُنزعةً من أيدي العلاقات ، والسرُّ مصوناً عن الملاحظات . وتصبح غاغة النفس مُنهزمةً ، ورياسة الحقوق بالاستجابة لله خافيةً . وكما أن من جملة الغنيمة سهُما لله وللرسول ، وهو الخمسُ فمما هو غنيمة - على لسان الإشارة - سهمٌ خالصٌ لله ؛ وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب ، لا من كرائم العُقبى ، ولا من ثمرات التقريب ، ولا من خصائص الإقبال ، فيكون العبدُ عند ذلك مُحرراً عن رِق كل نصيب ، خالصاً لله بالله ، كما قيل :

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ فَانِيَاً عَنْ حِظِّهِ . . . وَعَنِ الْهَوَى وَالْإِنْسِ وَالْأَحْبَابِ  
فَكَأَنَّهُ - بَيْنَ الْمَرَاتِبِ - وَقِفٌ . . . لِمَنَالِ حِظٍّ أَوْ لِحُسْنِ ثَوَابٍ . انتهى انتهى . ١ هـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 626 ﴾

(339/313)



قوله تعالى ﴿ إِذِ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ  
لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ  
حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (42) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر لهم يوم ملتقاهم ، صور لهم حالتهم الموضحة للأمر المبينة لما كانوا فيه من اعترافهم  
بالعجز تذكيراً لهم بذلك ردعاً عن المنازعة ورداً إلى المطاوعة فقال مبدلاً من ﴿ يوم  
الفرقان ﴾ ﴿ إذ أنتم ﴾ نزول ﴿ بالعدوة الدنيا ﴾ أي القربى إلى المدينة ﴿ وهم ﴾ أي  
المشركون نزول ﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أي البعدى منها القريبة إلى البحر ، والقياس قلب  
واو هياء ، وقد جاء كذلك إلا أن هذا أكثر كما أكثر استصوب وقل استصاب ، والعدوة -  
بالكسر في قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب ، وبالضم في قراءة غيرهم : جانب الوادي  
وشطه ، ومادتها - بأي ترتيب كان - تدور على الاضطراب ويلزمه المجاورة والسكون  
والإقبال والرجوع والاستباق والحل القابل لذلك ، فكأنها الموضع الذي علا عن محل فكان  
السيل موضعاً للعدو ﴿ والركب ﴾ أي العير الذي فيه المتجر الذي خرجتم لاقتطاعه  
ورئيس جماعته أبو سفيان ، ونصب على الظرف قوله : ﴿ أسفل منكم ﴾ أي أيها  
الجمعان إلى جانب البحر على مدى من قرية تكادون تقعون عليه وتمدون أيديكم إليه

مسافة ثلاثة أميال - كما قال البغوي ، وهو كان قصدهم وسؤلهم ، فلو كانت لكم قوة على طرقة لبادرتم إلى الطرف وغالبتهم عليه الحتف ، ولكن منعكم من إدراك ما مولكم منه من كان جاثماً بتلك العدو جثوم الأسد واثقاً بما هو فيه من القوى والعدد كما قال - صلى الله عليه وسلم - لسلمة بن سلامة بن وقش - رضی الله عنهم - - لما قال في تحقيرهم بعد قتلهم وتدميرهم : إن وجدنا إلا عجائز صلعاً ، ما هو إلا أن لقيناهم فمنحونا أكافهم - جواباً له " أولئك يا ابن أخي الملائورأيتهم لهبتهم ولو أمروك لأطعتهم " مع استضعافكم لأنفسكم عن مقاومتهم لولا رسولنا يبشركم وحنودنا تثبتكم ، وإلى مثل هذه المعاني أشار تصوير مكانهم ومكان الركب أيماء إلى ما كان فيه العدو من قوة الشوكة وتكامل العدة وتمهد أسباب الغلبة وضعف حال المسلمين وأن ظفرهم في مثل هذا الحال ليس إلا صنعاً من الله ، وما

(340/313)

---

في البيضاوي تبعاً للكشاف من أن العدو الدنيا كانت تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها تقدم رده أول السورة بأن المشهور في صحيح مسلم والسير وغيرها أن المؤمنين هم السابقون إلى الماء ، وأن جميع أرض ذلك المكان كانت رملاً تسوخ فيه الأقدام ، فأتى المسلمين به من

المطر ما لبد لهم الأرض ، وأتى المشركين منه ما لم يقدرُوا معه على الحركة ﴿ ولو  
تواعدتم ﴾ أي أنتم وهم على الموافاة إلى تلك المواضع في آن واحد ﴿ لاختلفتم في  
الميعاد ﴾ أي لأن العادة قاضية بذلك لأمرين : أحدهما بعد المسافة التي كنتم بها منها  
وتعذر توقيت سير كل فريق بسير صاحبه ، والثاني كراهتكم للقائهم لما وقر في أنفسهم من  
قوتهم وضعفكم ، وقد كان الذي كره إليكم لقاءكم قادر على أن يكره إليهم لقاءكم ، فيقع  
الاختلاف من جهتهم كما كان في بدر الموعد ، وأما في هذه الغزوة فدعاهم من حماية  
غيرهم داع لم يستطيعوا التخلف معه ، وطمس الله بصائرهم وقسى قلوبهم مع قول أبي  
جهل الذي كان السبب الأعظم في اللقاء لمن عرض عليه المدد بالسلاح والرجال : إن كنا  
نقاتل الناس فما بنا ضعف عنهم ، وإن كنا إنما نقاتل - كما يزعم محمد - الله فما لأحد  
بالله من طاقة ، وقوله أيضاً في هذه الغزوة للأخنس بن شريق : إن محمداً صادق وما كذب  
قط ، فعل الله ذلك لما علم في ملاقاتهم لكم من إعلاء كلمته وإظهار دينه ﴿ ولكن ﴾ أي  
دبر ذلك سبحانه حتى توافيتم إلى موطن اللقاء كلكم في يوم واحد من غير ميعاد ولم تختلفوا  
في موافاة ذلك الموضع مع خروج ذلك عن العادة لكونه أثنى أسبابه ، فأطمعكم في العير أولاً  
مع ما أنتم فيه من الحاجة ثم وعدكم إحدى الطائفتين مبهماً وأخرج قريشاً لحماية غيرهم  
إخراجاً لم يجدوا منه بداً ، ولما نجت غيرهم أوردتهم الرياء والسمعة والبطر بما هم فيه من

الكثرة والقوة كما قال أبو جهل : لا نرجع حتى نرد بدرًا فننحربها الجزور ونشرب الخمر  
وتعزف علينا القيان ونطعم من حضرنا من العرب فلا يزالون

(341/313)

---

يها بوننا مدى الزمان - ﴿ ليقضي الله ﴾ أي الذي له جميع الأمر من إعزاز دينه بإعزازكم  
زاد لهم ﴿ أمراً كان ﴾ كما تكون الجبلات والطبائع في التمكّن والتمام ﴿ مفعولاً ﴾ أي  
مقدراً في الأزل من لقاءهم وما وقع فيه من قتلهم وأسره على ذلك الوجه العظيم فهو مفعول  
لا محالة ليتبين به أيّمان من آمن باعتماده على الله وتصديقه بموعده وكفر من كفر .  
ولما علل ذلك التديير في اللقاء بقوله : ﴿ ليقضي الله ﴾ علل تلك العلة بقوله : ﴿ ليهلك ﴾  
أي لعد رؤية ذلك القضاء الخارق للعادة ﴿ من هلك ﴾ أي من الفريقين : الكفار في حالة  
القتال وبعدها ، والمسلمين هلاكاً متجاوزاً وناشئاً ﴿ عن ﴾ حالة ﴿ بينة ﴾ لما بان من  
صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذه الواقعة في كل ما وعد به وكذب الكفار  
في كل ما كانوا يقولونه قاطعين به مع أن ظاهر الحال يقضي لهم ، فكان ذلك من أعظم  
المعجزات ﴿ ويحيى من حي ﴾ أي بالإسلام حياة هي في أعلى الكمال بما تشير إليه قراءة  
نافع والبخاري عن ابن كثير وأبي بكر عن عاصم بإظهار الياءين ، أو في أدنى الكمال بما

يشير إليه إدغام الباقيين تخفيفاً حياة متجاوزة وناشئة ﴿ عن ﴾ حالة ﴿ بينة ﴾ أي كائنة بعد البيان في كون الكافرين على باطل والمؤمنين على حق لما سيأتي من أنهم كانوا يقولون ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ [ الأنفال : 49 ] فحينئذ تبين المغرور وكشفت عجائب المقدور عن أعين القلوب المستور .

ولما كان التقدير : فإن الله في فعل ذلك لعزير حكيم ، عطف عليه قوله : ﴿ وإن الله لسميع ﴾ أي لما كنتم تقولونه وغيره ﴿ عليم ﴾ بما كنتم تضررونه وغيره فاستكينوا لعظمته وارجعوا عن منازعتكم لخشيته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 222.220 ﴾

(342/313)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذِ انْتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله: ﴿إِذِ انْتُم بِالْعُدْوَةِ الدنْيا﴾ قولان: أحدهما: أنه متعلق بمضمر معناه واذكروا إذ  
أنتم كذا وكذا، كما قال تعالى: ﴿واذكروا إِذِ انْتُم قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: 26] والثاني: أن  
يكون قوله: ﴿إِذُ﴾ بدلاً عن يوم الفرقان.

المسألة الثانية:

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿بِالْعُدْوَةِ﴾ بكسر العين في الحرفين.  
والباقون بالضم، وهما لغتان.

قال ابن السكيت: عدوة الوادي وعدوته جانبه، والجمع عدى، وعدى.

قال الأخفش: الكسر كلام العرب لم يسمع عنهم غير ذلك.

وقال أحمد بن يحيى: الضم في العدو أكثر اللغتين.

وحكى صاحب "الكشاف": الضم والفتح والكسر.

قال: وقرىء بهن و ﴿بالعدية﴾ على قلب الواو ياء، لأن بينها وبين الكسر حاجزاً غير  
حصين، كما في الفتية.

وأما ﴿الحياة الدنيا﴾ فتأنيث الأدنى وضده ﴿القصوى﴾ وهو تأنيث الأقصى، وكل

شيء تنحى عن شيء، فقد قصا، والأقصى والقصوى كالأكبر والكبرى.

فإن قيل: كتأنيثها فعلى من باب الواو، فلم جاءت إحداهما بالياء والثانية بالواو؟

قلنا: القياس قلب الواو ياء، كالعليا.

وأما القصوى ، فقد جاء شاذاً ، وأكثر استعماله على أصله .

المسألة الثالثة :

(343/313)

---

المراد بالعدوة الدنيا ، ما يلي جانب المدينة ، وبالقصوى ، ما يلي جانب مكة وكان الماء في  
العدوة التي نزل بها المشركون ، وكان استظهارهم من هذا الوجه أشد ﴿ والركب ﴾ العير  
التي خرجوا لها كانت في موضع ﴿ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ إلى ساحر البحر ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ ﴾  
أتم وأهل مكة على القتال ، لخالف بعضهم بعضاً لقتلكم وكثرتهم ﴿ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ  
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي أنه يثبتكم الله ، وينصركم ، ليقضي أمراً كان مفعولاً ، واجبا أن  
يخرج إلى الفعل وقوله : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ ﴾ بدل من قوله : ﴿ لِيَقْضِيَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لا شك أن عسكر الرسول عليه السلام في أول الأمر كانوا في غاية الخوف والضعف بسبب  
القلة وعدم الأهبة ، ونزلوا بعيدين عن الماء ، وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضاً رملية  
تغوص فيها أرجلهم .

وأما الكفار ، فكانوا في غاية القوة بسبب الكثرة في العدد ، وسبب حصول الآلات

والأدوات ، لأنهم كانوا قريبين من الماء ، ولأن الأرض التي نزلوا فيها كانت صالحة للمشي ،  
ولأن العير كانوا خلف ظهورهم ، وكانوا يتوقعون مجيء المدد من العير إليهم ساعة فساعة ،  
ثم إنه تعالى قلب القصة وعكس القضية ، وجعل الغلبة للمسلمين ، والدمار على الكافرين  
فصار ذلك من أعظم المعجزات وأقوى البينات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ،  
فيما أخبر عن ربه من وعد النصر والفتح والظفر .

فقوله : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى ، وهو أن الذين هلكوا إنما  
هلكوا بعد مشاهدة هذه المعجزة ، والمؤمنون الذين بقوا في الحياة شاهدوا هذه المعجزة  
القاهرة ، والمراد من البينة هذه المعجزة .

المسألة الثانية :

(344/313)

---

اللام في قوله : ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ وفي قوله : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ ﴾  
لام الغرض ، وظاهره يقتضي تعليل أفعال الله وأحكامه بالأغراض والمصالح ، إلا أنا نصرّف  
هذا الكلام عن ظاهره بالدلائل العقلية المشهورة .

المسألة الثالثة :



قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ ظاهره يقتضي أنه تعالى أراد من الكل العلم والمعرفة والخير والصلاح، وذلك يقدح في قول أصحابنا: أنه تعالى أراد الكفر من الكافر، لكننا نترك هذا الظاهر بالدلائل المعلومة.

#### المسألة الرابعة:

قوله: ﴿ويجيبى مَنْ حَىَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم والبخاري عن ابن كثير ونصير عن الكسائي ﴿مَنْ﴾ ياظهار الياءين وأبو عمرو، وابن كثير برواية القواس، وابن عامر وحفص عن عاصم والكسائي بياء مشددة على الإدغام. فأما الإدغام فللزوم الحركة في الثاني، فجرى مجرى رد لأنه في المصحف مكتوب بياء واحدة.

وأما الإظهار فلا امتناع الإدغام في مضارعه من "يجيبى" فجرى على مشاكلته، وأجاز بعض الكوفيين الإدغام في ﴿ولا يجيبى﴾.

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يسمع دعاءكم ويعلم حاجتكم وضعفكم، فأصلح مهمكم. انتهى انتهى. ١٠ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 134.

وقال السمرقندي :

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾

يعني اذكروا هذه النعمة إذ كنتم بالعدوة الدنيا .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ بِالْعُدْوَةِ ﴾ بالكسر ، وقرأ الباقر بالضم ؛ ومعناهما واحد وهو شفير الوادي .

ويقال عِدْوَةُ الوادي وَعُدْوَتِهِ ، يعني كنتم على شاطئ الوادي مما يلي المدينة .

﴿ وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ ، يعني من الجانب الآخر مما يلي مكة ، ﴿ وَالرَّكِبَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ ؛ يعني العير أسفل منكم بثلاثة أميال على شاطئ البحر حين أقبلوا من الشام . ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ ﴾ ، يعني ولو تواعدتم أتم والمشركون بالإجماع للقتال ، ﴿ لَأَخْتَلَقْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ أتم والمشركون ، ﴿ وَلَكِنْ ﴾ جمع الله بينكم على غير ميعاد ، ﴿ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ ؛ يعني كائناً وكان من قضائه هزيمة الكفار ونصرة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

قوله تعالى : ﴿ لَيَهْلِكَنَّ مِنْ هَلَكٍ عَنِ بَيْنَةٍ ﴾ .

أي ليكفر من أراد الكفر بعد البيان له من الله تعالى ، ﴿ وَيُحْيِي مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ ﴾ ، يقول : ويؤمن من أراد أن يؤمن بعد البيان له من الله تعالى .

وقال الكلبي: ليهلك من هلك على الكفر بعد البيان، ويحيى من حي بالإيمان عن بينة  
ويقال: هذا، وعيد من الله تعالى لأهل مكة يقول: ليقم على كفره من أراد أن يقيم بعد ما  
بينت له الحق بيد، حين فرقت الحق من الباطل، ويحيى يعني يقيم على الإيمان من أراد أن  
يقيم بعد ما أرسلت إليه الرسول وأقامت عليه الحجة.

قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر، وابن كثير في رواية شبل البزي ﴿ مِنْ ﴾ ياظهار  
الياءين، والباقون بياء واحدة وأصله بياءين، إلا أن أحد الحرفين أدغم في الآخر، لأنهما  
من جنس واحد.

ثم قال: ﴿ بَيْنَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

(346/313)

وقال الثعلبي:

﴿ إِذِ اتُّمُّ ﴾ يا معشر المسلمين ﴿ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ شفير الوادي الأدنى إلى المدينة ﴿  
وَهُمْ ﴾ يعني عدوكم من المشركين ﴿ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ من الوادي الأقصى من المدينة  
﴿ وَالرُّكْبَ اسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ إلى ساحل البحر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى  
الوادي والمشركين بأسفله والعرقد [ انهرم ] به أبو سفيان على الساحل حتى قدم مكة .

وفي العدو قراءتان : كسر العين وهو قراءة أهل مكة والبصرة .

وضم العين وهو قرأ الباقي واختيار أبي عبيد وأبي حاتم ، وهما لغتان مشهورتان كالكسوة

والكسوة . والرشوة والرشوة . وينشد بيت الراعي :

وعينان حمر ماقيهما . . . كما نظر العدو الجؤذر

بكسر العين .

وينشد بيت أوس بن حجر :

وفارس لو تحل الخيل عدوته . . . ولوا سراعا وما هموا بإقبال

بالضم .

والدنيا تأنيث الأدنى ، والقصوى تأنيث الأقصى .

وكان المسلمون خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار ليمنعوها فالتقوا من غير ميعاد قال

الله ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ لقللكم وكثرة عدوكم ﴿ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ

أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه ﴿ لِيَهْلِكَ ﴾ هذه اللام

مكررة على اللام في قوله ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ ويهلك ﴿ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةِ

﴿ أَي لِيَمُوتَ مَنْ يَمُوتُ عَلَى بَيْنَةٍ [ وَلَهَا وَعِبْرَةٌ ] عَابِنَهَا وَحِجَّةٌ قَامَتْ عَلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ حَيَاةُ

مَنْ يَجِبِي لُوْعُدِهِ ﴾ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [ الإسراء : 15 ] .

وقال محمد بن إسحاق : ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه وقطعت معذرتة ويؤمن من

آمن على [مثواك] .

وقال قتادة: ليضل من ضل عن بينة ويهتدي من اهتدى على بينة .

(347/313)

---

وقال عطاء: ليهلك من هلك عن بينة عن علم بما دخل فيه من الفجور ﴿ ويجيى من حيّ  
عن بينة ﴾ عن علم ويقين بلا إله إلا الله . وفي (حي) قولان، قرأ أهل المدينة: (حيي)  
بيائين مثل خشبي على الإيمان، وقرأ الباقون (حي) بياء واحدة مشددة على الإدغام،  
لأنه في الكتاب بياء واحدة ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف  
والبيان ح 4 ص ﴾

(348/313)

---

وقال الماوردي:

قوله عز وجل: ﴿ إِذِ اتُّمُّ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني شفير الوادي بيدر، الأدنى إلى المدينة .  
﴿ وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ يعني شفير الوادي الأقصى إلى مكة .

وقال الأخفش : عدوه الوادي هو ملطاط شفيره الذي هو أعلى من أسفله ، وأسفل من أعلاه .

﴿ وَالرُّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ يعني غير أبي سفيان أسفل الوادي ، قال الكلبي : على شاطئ البحر بثلاثة أميال .

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ولو تواعدتم أن تتفقوا مجتمعين لاختلتم في الميعاد ، بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان من غير قصد لذلك .

والثاني : ولو تواعدتم ثم بلغكم كثرة عدوكم مع قلة عددكم لتأخرتم فنقضتم الميعاد ، قاله ابن إسحاق .

والثالث : ولو تواعدتم ثم بلغكم كثرة عدوكم من غير معونة الله لكم لأخلفتم بالقواطع والعوائق في الميعاد .

قوله عز وجل ﴿ . . . لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنِ بَيْنَةِ وَيُحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنِ بَيْنَةِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ليقتل بيد من قتل من مشركي قريش عن حجة ، وليبقى من بقي عن قدرة .

والثاني : ليكفر من قريش من كفر بعد الحجة ببيان ما وعدوا ، ويؤمن من آمن بعد العلم

بصحة إيمانهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾

العامل في ﴿ إِذْ ﴾ قوله ﴿ التقى ﴾ و ﴿ العدو ﴾ شفير الوادي وحرفه الذي يتعذر المشي فيه بمنزلة رحا البير لأنها عدت ما في الوادي من ماء ونحوه أن يتجاوز الوادي أي منعته ، ومنه قول الشاعر :

عدتني عن زيارتك العوادي . . . وحالت دونها حرب زبون

ولأنها ما عدا الوادي أي جاوزه ، وتسمى الضفة والفضاء المسابير للوادي عدوة للمجاورة ، وهذه هي العدو التي في الآية ، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " بالعدوة " بضم العين ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " بالعدوة " بكسر العين ، وهما لغتان ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن وقتادة وعمرو " بالعدوة " بفتح العين ، ويمكن أن تكون تسمية بالمصدر ،

قال أبو الفتح : الذي في هذا أنها لغة ثلاثة كقولهم في اللبن رَغْوَةٌ ورَغْوَةٌ ورَغْوَةٌ ، وروى الكسائي : كلمته بحضرة فلان وحضرته إلى سائر نظائر ، ذكر أبو الفتح كثيراً منها ، وقوله

﴿ الدنيا ﴾ و ﴿ القصوى ﴾ إنما بالإضافة إلى المدينة ، وفي حرف ابن مسعود " إذا أتم بالعدوة العليا وهم بالعدوة السفلى " ، ووادي بدر آخذ بين الشرق والقبلة منحرف إلى البحر الذي هو قريب من ذلك الصقع ، والمدينة من الوادي من موضع الوقعة منه في الشرق

وبينهما مرحلتان ، حدثني أبي بأنه رأى هذه المواضع على ما وصفت وقال ابن عباس :  
بدرين مكة والمدينة ، و ﴿ الدنيا ﴾ من الدنو ، و ﴿ القصوى ﴾ من القصو ، وهو البعد  
، وكان القياس أن تكون القصيا لكنه من الشاذ ، وقال الخليل في العين : شذت لفظتان وهما  
القصوى والفتوى ، وكان القياس فيهما بالياء كالدنيا والعليا ، و ﴿ الركب ﴾ بإجماع من  
المفسرين غير أبي سفيان ، ولا يقال ركب إلا لركاب الإبل وهو من أسماء الجمع ، وقد يجمع  
راكب عليه كصاحب وصاحب وتاجر وتجر ، ولا يقال ركب لما كثر جداً من الجموع .

(350/313)

---

وقال القتيبي : الركب الشعرة ونحوها ، وهذا غير جيد لأن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد  
قال " والثلاثة ركب " الحديث وقوله ﴿ أسفل ﴾ في موضع خفض تقديره في مكان أسفل  
كذا قال سيبويه ، قال أبو حاتم : نصب " أسفل " على الظرف ويجوز " الركب أسفل " على  
معنى وموضع الركب أسفل أو الركب مستقراً أسفل .

قال القاضي أبو محمد : وكان الركب ومدبر أمره أبو سفيان بن حرب قد نكب عن بدر  
حين نذر بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذ سيف البحر فهو أسفل بالإضافة إلى أعلى  
الوادي من حيث يأتي ، وقال مجاهد في كتاب الطبري : أقبل أبو سفيان وأصحابه من



الشام تجاراً لم يشعروا بأصحاب بدر ولم يشعروا أصحاب محمد بكفار قريش ولا كفار قريش  
بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى التقوا على ماء بدر من يستقي لهم كلهم ،  
فاقتلو فغلبتهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فأسروهم .  
قال القاضي أبو محمد : وفي هذا تعقب ، وكان من هذه الفرق شعور يبين من الوقوف على  
القصة بكاملها ، وقوله ﴿ ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد ﴾ قال الطبري وغيره : لو  
تواعدتم على الاجتماع ثم علمتم كثرتهم وقتلكم لخالفتهم ولم تجتمعوا معهم ، وقال المهدوي :  
المعنى أي لاختلقتم بالقواطع والعوارض القاطعة بين الناس .

(351/313)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا نبيل واضح ، وإيضاح أن المقصد من الآية نعمة الله وقدرته  
في قصة بدر وتيسيره ما يسر من ذلك ، فالمعنى إذ هباً لكم هذه الجمال ولو تواعدتم لها  
لاختلقتم إلا مع تيسير الذي تم ذلك ، وهذا كما تقول لصاحبك في أمر سناه الله دون تعب  
كثير : ولو بنينا على هذا وسعينا فيه لم يتم هكذا ، ثم بين تعالى أن ذلك إنما كان بلطف الله  
عز وجل ﴿ ليقضي أمراً ﴾ أي لينفذ ويظهر أمراً قد قدره في الأول ﴿ مفعولاً ﴾ لكم  
بشرط وجودكم في وقت وجودكم ، وذلك كله معدوم عنده ، وقوله تعالى : ﴿ ليهلك من

هلك عن بينة ﴿ الآية ، قال الطبري : المعنى ليقتل من قتل من كفار قريش وغيرهم بيان  
من الله وإعذار بالرسالة ، ﴿ ويجي ﴾ أيضاً ويعيش من عاش عن بيان منه أيضاً وإعذار  
لا حجة لأحد عليه فالهلاك والحياة على هذا التأويل حقيقتان وقال ابن إسحاق وغيره :  
معنى ﴿ ليهلك ﴾ أي ليكفر ﴿ ويجي ﴾ أي ليؤمن فالحياة والهلاك على هذا  
مستعارتان والمعنى أن الله تعالى جعل قصة بدر عبرة وآية ليؤمن من آمن عن وضوح وبيان  
ويكفر أيضاً من كفر عن مثل ذلك ، وقرأ الناس " ليهلك " بكسر اللام الثانية وقرأ الأعمش "  
ليهلك " بفتح اللام ، ورواها عصمة عن أبي بكر عن عاصم ، و" البينة " صفة أي عن  
قضية بينة ، واللام الأولى في قوله ﴿ ليهلك ﴾ رد على اللام في قوله ﴿ ليقتل ﴾ .

(352/313)

---

وقرأ ابن كثير في رواية قنبل وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية  
حفص " من حي " بياء واحدة مشددة ، وقرأ نافع وابن كثير في رواية البزي وعاصم في  
رواية أبي بكر " من حيي " بإظهار الياءين وكسر الأولى وفتح الثانية ، قال من قرأ " حي "   
فلأن الياء قد لزمها الحركة فصار الفعل بلزوم الحركة لها مشبهاً بالصحيح مثل عض وشم  
ونحوه ، ألا ترى أن حذف الياء من جوار في الجر والرفع لا يطرد في حال النصب إذا قلت

رأيت جوارى لمشابتها بالحركة سائر الحروف الصراح، ومنه قوله ﴿كلا إذا بلغت  
التراقي﴾ [القيامة: 26]، وعلى نحو "حي" جاء قول الشاعر: [مجزوء الكامل]

عيوا بأمرهم كما . . . عيتُ ببيضتها الحمامه

ومنه قول لبيد: [الرملة]

سألني جارتني عن أمتي . . . وإذا ما عيَّ ذواللب سأل

وقول المتلمس: [الطويل]

فهذا أوان العرض حيّ ذبابه . . . زنايره والأزرق المتلمس

ويروى جن ذبابه، قال أبو علي وغيره: هذا أن كل موضع تلزم الحركة فيه ياء مستقبلية  
فالإدغام في ماضيه جائز، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿على أن يحيي الموتى﴾ [الأحقاف  
: 33، القيامة: 40] لا يجوز الإدغام فيه لأن حركة النصب غير لازمة، ألا ترى أنها  
تزول في الرفع وتذهب في الجزم، ولا يلتفت إلى ما أنشد بعضهم لأنه بيت مجهول: [الكامل

[

وكانها بين النساء سبيكة . . . تمشي بسدة بيتها فتعي

قال أبو علي وأما قراءة من قرأ "حيي"، فبين ولم يدغم، فإن سيبويه قال: أخبرنا بهذه  
اللغة يونس، قال وسمعنا بعض العرب يقول أحياء قال أبو حاتم: القراءة إظهار الياءين  
والإدغام حسن فاقرأ كيف تعلمت فإن اللغتين مشهورتان في كلام العرب، والخط فيه ياء

واحدة.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذه اللفظة استوعب أبو علي القول فيما تصرف من "حيي"  
كالحي الذي هو مصدر منه وغيره. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز ح 2 ص﴾

(353/313)

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا﴾

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: "بالعدوة" و"العدوة" العين فيهما مكسورة.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: بضم العين فيهما.

قال الأخفش: لم يُسمع من العرب إلا الكسر.

وقال ثعلب: بل الضم أكثر اللغتين.

قال ابن السكيت: عُدوة الوادي وعِدوته: جانبه؛ والجمع: عُدَى وعِدَى.

والدنيا: تأنيث الأذنى؛ وضدها: القصوى، وهي تأنيث الأقصى؛ وما كان من النعوت

على "فعلَى" من ذوات الواو، فإن العرب تحوّلُهُ إلى الياء، نحو الدنيا، من: دنوت؛ والعليا

، من علوت؛ لأنهم يستقلون الواو مع ضم الأول، وليس في هذا اختلاف، إلا أن أهل

الحجاز قالوا: القُصوى، فأظهروا الواو، وهو نادر؛ وغيرهم يقول: القُصيا .  
قال المفسرون: إذ أنتم بشفير الوادي الأدنى من المدينة، وعدوكم بشفيره الأقصى من مكة  
، وكان الجمعان قد نزلا وادي بدر على هذه الصفة، والركب: أبو سفيان وأصحابه .  
قال الزجاج: من نصب "أسفل" اراد: والركب مكاناً أسفل منكم، ويجوز الرفع على  
المعنى: والركب أشدُّ تسفلاً منكم .

قال قتادة: وكان المسلمون أعلى الوادي، والمشركون أسفله .

وفي قوله: ﴿ ولو تواعدتم لآخلفتم في الميعاد ﴾ قولان .

أحدهما: لو تواعدتم، ثم بلغكم كثرتهم، لتأخرتم عن الميعاد، قاله ابن اسحاق .

والثاني: لو تواعدتم على الاجتماع في المكان الذي اجتمعتم فيه من عدوتي وادي بدر

لاخلفتم في الميعاد، قاله أبو سليمان .

وقال الماوردي: كانت تقع الزيادة والنقصان، أو التقدم والتأخر من غير قصد لذلك .

قوله تعالى: ﴿ ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ وهو إعزاز الإسلام، وإذلال

الشرك .

قوله تعالى: ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ﴾ وروى خلف عن يحيى: ﴿ ليهلك ﴾ بضم

الياء وفتح اللام .

---

قوله تعالى: ﴿ وَيَجِيئُ مِنْ حِيٍّ عَنْ بَيْنَةٍ ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة،  
والكسائي: "من حيّ" بياء واحدة مشددة، وهذه رواية حفص عن عاصم، وقنبل عن  
ابن كثير.

وروى شبل عن ابن كثير، وابوبكر عن عاصم: "حيي" بياءين الأولى مكسورة، والثانية  
مفتوحة، وهي قراءة نافع.

فمن قرأ بياءين، بين ولم يدغم، ومن أدغم ياء "حيي" فلاجتماع حرفين من جنس واحد.  
وفي معنى الكلام قولان.

أحدهما: يُقْتَلُ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَنْ حُجَّةٍ، ويبقى من بقي منهم عن حُجَّةٍ.

والثاني: ليكفر من كفر بعد حُجَّةٍ، ويؤمن من آمن عن حُجَّةٍ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد

المسير ح 3 ص ﴿

(355/313)

---

وقال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾

أي أنزلنا إذ أنتم على هذه الصفة .

أو يكون المعنى : واذكروا إذ أنتم .

والعدوة : جانب الوادي .

وقرىء بضم العين وكسرها ؛ فعلى الضم يكون الجمع عدى ، وعلى الكسر عدى ، مثل

لحية ولحى ، وفرية وفرى .

والدنيا : تأنيث الأدنى .

والقصوى : تأنيث الأقصى .

من دنا يدنو ، وقصا يقصو .

ويقال : القصيا .

والأصل الواو ، وهي لغة أهل الحجاز قصوى .

فالدنيا كانت مما يلي المدينة ، والقصوى مما يلي مكة .

أي إذ أنتم نزول بشفير الوادي بالجانب الأدنى إلى المدينة ، وعدوكم بالجانب الأقصى .

﴿ والركب أسفل منكم ﴾ يعني ركب أبي سفيان وغيره .

كانوا في موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتعة .

وقيل : هي الإبل التي كانت تحمل أمتعتهم ، وكانت في موضع يأمنون عليها توفيقاً من الله عز

وجل لهم ، فذكرهم نعمه عليهم .

"الركب" ابتداء "أسفل منكم" ظرف في موضع الخبر.

أي مكاناً أسفل منكم.

وأجاز الأخفش والكسائي والفراء "الركبُ أسفلُ منكم" أي أشد تسفلاً منكم.

والرُّكْبُ جمع راكب.

ولا نقول العرب: ركب إلا للجماعة الراكبي الإبل.

وحكى ابن السكيت وأكثر أهل اللغة أنه لا يقال ركب ركب إلا للذي على الإبل، ولا

يقال لمن كان على فرس أو غيرها ركب.

والرُّكْبُ والأرْكُبُ والركبان والراكبون لا يكونون إلا على جمال؛ عن ابن فارس.

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمَبْعَادِ ﴾ أي لم يكن يقع الاتفاق لكثرتهم وقتلكم؛ فإنكم لو

عرفتم كثرتهم لتأخرتم فوق الله عز وجل لكم.

﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ من نصر المؤمنين وإظهار الدين.

واللام في "ليقضي" متعلقة بمحذوف.

والمعنى: جمعهم ليقضي الله، ثم كررها فقال: ﴿ لِيَهْلِكَ ﴾ أي جمعهم هنالك ليقضي

أمراً.

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ ﴾ "من" في موضع رفع.



---

"وَيَحْيَا" فِي مَوْضِعِ نَصَبِ عَطْفٍ عَلَى لِيَهْلِكَ .

وَالْبَيِّنَةُ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانُ .

أَيُّ لَيْمُوتٍ مِنْ يَمُوتٍ عَنِ بَيِّنَةٍ رَأَاهَا وَعِبْرَةٌ عَائِنَهَا .

فَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ .

وَكَذَلِكَ حَيَاةٌ مِنْ يَحْيَا .

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : لِيَكْفُرَ مِنْ كَفَرَ بَعْدَ حُجَّةٍ قَامَتْ عَلَيْهِ وَقَطَعَتْ عِذْرَهُ ، وَيُؤْمِنُ مِنْ آمَنَ

عَلَى ذَلِكَ .

وَقُرِئَ " مِنْ حَيٍّ " بَيِّنَاتٍ عَلَى الْأَصْلِ .

وَبَيَاءٌ وَاحِدَةٌ مُشَدَّدَةٌ ، الْأُولَى قِرَاءَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالْبَرِّيِّ وَأَبِي بَكْرٍ .

وَالثَّانِيَةُ قِرَاءَةُ الْبَاقِينَ .

وَهِيَ اخْتِيَارُ أَبِي عُبَيْدٍ ؛ لِأَنَّهَا كَذَلِكَ وَقَعَتْ فِي الْمَصْحَفِ . انْتَهَى انْتَهَى . ١٠ هـ ﴿ تَفْسِيرٌ

الْقُرْطُبِيُّ ح 8 ص ﴿

(357/313)

---

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إذ أنتم ﴾

أي اذكروا نعمة الله عليكم يا معشر المسلمين إذ أنتم ﴿ بالعدوة الدنيا ﴾ يعني  
بشفير الوادي الأدنى من المدينة والدنيا هنا تأنيث الأدنى ﴿ وهم ﴾ يعني المشركين ﴿  
بالعدوة القصوى ﴾ يعني بشفير الوادي الأقصى من المدينة مما يلي مكة والقصوى تأنيث  
الأقصى ﴿ والركب أسفل منكم ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه وهم غير قريش التي  
خرجوا لأجلها وكانوا في موضع أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال  
من بدر ﴿ ولو تواعدتم ﴾ يعني أنتم والمشركون ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ وذلك لأن  
المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار ليمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير  
ميعاد والمعنى ولو تواعدتم أنتم والكفار على القتال لاختلفتم أنتم وهم لقلتم وكثرة  
عدوكم ﴿ ولكن ﴾ يعني ولكن الله جمعكم على غير ميعاد ﴿ ليقضي الله أمراً كان  
مفعولاً ﴾ يعني من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه وأعداء دينه ﴿ ليهلك من  
هلك عن بينة ﴾ يعني ليموت من مات عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليها ﴿  
ويحيى من حي عن بينة ﴾ يعني ويعيش من عاش عن بينة رآها وعبرة شاهدها وحجة  
قامت عليه وقال محمد بن إسحاق : معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه ويؤمن من  
آمن على مثل ذلك لأن الهلاك هو الكفر الحياة هي الإيمان ونحوه قال قتادة ليضل من ضل

على بينه ويهتدي من اهتدى على بينة ﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾ يعني يسمع دعاءكم  
ويعلم نياتكم ولا تخفى عليه خافية. انتهى انتهى. اه ﴿ تفسير الخازن ج 3 ص ﴾

(358/313)

وقال أبو حيان :

﴿ إذ أتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ﴾  
العدوة شطّ الوادي وتسمي شفيراً وضمّة سميت بذلك لأنها عدت ما في الوادي من ماء  
أن يتجاوزه أي منعه.

وقال الشاعر :

عدتني عن زيارتها العوادي . . .

وقالت دونها حرب زبون

وتسمى الفضاء المسائر للوادي عدوة للمجاورة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ بالعدوة ﴾  
بكسر العين فيهما وباقي السبعة بالضم والحسن وقيادة وزيد بن علي وعمرو بن عبيد  
بالفتح وأنكر أبو عمر والضم، وقال الأخفش لم يسمع من العرب إلا الكسر، وقال أبو عبيد  
الضم أكثرهما، وقال اليزيدي الكسر لغة الحجاز انتهى، فيحتمل أن تكون الثلاث لغى

ويحتمل أن يكون الفتح مصدراً سمي به وروى بالكسر والضم بيت أوس :

وفارس لم يجلّ اليوم عدوته . . .

ولو إسرَاعاً وما هموا بإقبال

وقرىء بالعدية بقلب الواو لكسرة العين ولم يعتدوا بالساكن لأنه حاجز غير حصين كما

فعلوا ذلك في صبية وقنية ودنيا من قولهم هو ابن عمي دنيا والأصل في هذا التصحيح

كالصفوة والذروة والربوة وفي حرف ابن مسعود ﴿ بالعدوة ﴾ العلبا ﴿ وهم بالعدوة ﴾

السفلى ووادي بدر آخذين الشرق والقبلة منحرف إلى البحر الذي هو قريب من ذلك

الصقع والمدينة من الوادي من موضع الوقعة منه في الشرق وبينهما مرحلتان ، وقرأ زيد بن

علي القصيا وقد ذكرنا أنه القياس وذلك لغة تميم والأحسن أن يكون وهم ﴿ والركب ﴾

معطوفان على ﴿ أتم ﴾ فهي مبتدآت تقسيم لحالهم وحال أعدائهم ويحتمل أن تكون

الواوان فيهما واوي الحال وأسفل ظرف في موضع الخبر ، وقرأ زيد بن ﴿ على أسفل ﴾

بالرفع اتسع في الظرف فجعله نفس المبتدأ مجازاً ﴿ والركب ﴾ هم الأربعون الذين كانوا

يقودون العير عير أبي سفيان ، وقيل الإبل التي كانت تحمل أزواد الكفار وأمتعتهم كانت في

موضع يأمنون عليها .

---

قال الزمخشري: (فإن قلت) : ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين وإن العير كانت أسفل منهم (قلت) : الفائدة فيه الإخبار عن الحالة الدالة على قوة شأن العدو وشوكته وتكامل عدته وتمهد أسباب الغلبة له وضعف شأن المسلمين وشتات أمرهم وإن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله تعالى ودليل على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بجوله تعالى وقوته وباهر قدرته ، وذلك أن العدو القسوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها ولا ماء بالعدو الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم وكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ليعتصموا بالذبح عن الحرم والغيرة على الحرم على بذل تجهيداتهم في القتال أن لا يتركوا وراءهم ما يحدون أنفسهم بالأنحياز إليه فيجمع ذلك قلوبهم ويضبط همهم ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا موطنهم ولا يخلو مراكزهم ويبدلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدتهم وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر انتهى ، وهو كلام حسن .

وقال ابن عطية : كان الركب ومدبر أمره أبو سفيان قد نكب عن بدر حين ندر بالنبى ( صلى الله عليه وسلم ) وأخذ سيف البحر فهو أسفل بالإضافة إلى أعلى الوادي من حيث يأتي .

﴿ ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن

بينه ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴾ .

كان الالتقاء على غير ميعاد .

(360/313)

---

قال مجاهد : أقبل أبو سفيان وأصحابه من الشام تجاراً لم يشعروا بأصحاب بدر ولم يشعر

أصحاب محمد ( صلى الله عليه وسلم ) بكفار قريش ولا كفار قريش بمحمد ( صلى الله

عليه وسلم ) وأصحابه حتى التقوا على ماء بدر للستقي كلهم فاقتلوا فغلبهم أصحاب

محمد ( صلى الله عليه وسلم ) فأسروهم ، قال الطبري وغيره : المعنى لو تواعدتم على

الاجتماع ثم علمتم كثرتهم وقتلتم لخالفتهم ولم تجتمعوا معهم وقال معناه الزمخشري ، قال :

﴿ ولو تواعدتم ﴾ أتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخاف

بعضكم بعضاً فثبطكم قتلهم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب

رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) والمسلمين فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله

وسببه له ، وقال المهدوي : المعنى ﴿ لاختلقتم ﴾ بالقواطع والعوارض القاطعة بالناس ،

قال ابن عطية : وهذا أنبل يعني من قول الطبري وأصح وإيضاحه أن المقصد من الآية تبين

نعمة الله وقدرته في قصة بدر وتيسيره ما تيسر من ذلك فالمعنى إذ هيأ الله لكم هذه الحال  
﴿ ولو تواعدتم ﴾ لها ﴿ لاختلفتم ﴾ إلا مع تيسير الله الذي تم ذلك وهذا كما تقول  
لصاحبك في أمر شاءه الله دون تعب كثير لو ثبتنا على هذا وسعينا فيه لم يتم هكذا انتهى ،  
وقال الكرمانى ﴿ ولو تواعدتم ﴾ أتم والمشركون للقتال ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ أي  
كانوا لا يصدقون مواعدتكم طلباً لغرتكم والجميلة عليكم ، وقيل المعنى ﴿ ولو تواعدتم ﴾  
من غير قضاء الله أمر الحرب ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ ﴿ ليقضي الله أمراً ﴾ من نصر  
دينه وإعزاز كلمته وكسر الكفار وإذلالهم كان مفعولاً أي موجوداً متحققاً واقعاً وعبر بقوله  
﴿ مفعولاً ﴾ لتحقق كونه .

(361/313)

---

قال ابن عطية: ليقضي أمراً قد قدره في الأزل مفعولاً لكم بشرط وجودكم في وقت  
وجودكم وذلك كله معلوم عنده ، وقال الزمخشري: ﴿ ليقضي الله ﴾ متعلق بمحذوف  
أي ﴿ ليقضي الله أمراً ﴾ كان واجباً أن يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك ،  
وقيل كان بمعنى ﴿ صار ليهلك ﴾ بدل من ليقضي فيتعلق بمثل ما تعلق به ﴿ ليقضي ﴾  
، وقيل يتعلق بقوله ﴿ مفعولاً ﴾ ، وقيل الأصل و ﴿ ليهلك ﴾ فحذف حرف العطف

والظاهر أن المعنى ليقتل من قتل من كفار قريش وغيرهم عن بيان من الله وإعذار بالرسالة ويعيش من عاش عن بيان منه وأعذار لا حجة لأحد عليه ، وقال ابن إسحاق وغيره :  
ليكفر ويؤمن فالمعنى أن الله تعالى جعل قصة بدر عبرة وآية ليؤمن من آمن عن وضوح وبيان  
ويكفر من كفر عن مثل ذلك ، وقرأ الأعمش وعصمة عن أبي بكر عن عاصم : ﴿ ليهلك  
﴿ بفتح اللام ، وقرأ نافع والبخاري وأبو بكر ﴿ من حيي ﴿ بالفك وباقي السبعة بالإدغام  
وقال المتلمس :

فهذا أوان العرض حيّ ذبابه . . .

والفك والإدغام لغتان مشهورتان وختم بهاتين الصفتين لأن الكفر والإيمان يستلزمان النطق  
اللساني والاعتقاد الجناني فهو سميع لأقوالكم عليهم بنياتكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر  
المحيط ح 4 ص ﴿

(362/313)

وقال أبو السعود :

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾

بدل ثانٍ من (يوم الفرقان) والعدوة بالضم شط الوادي وكذا بالفتح والكسر وقد قرئ



بهما أيضاً ❖ وهُم بالعدوة القصوى ❖ أي البُعدى من المدينة وهي تَأْنِيثُ الأَقْصَى وكان  
القياسُ قلبَ الواوِ ياءَ كالدينا والعليا مع كونهما من بنات الواو ، لكنها جاءت على الأصل  
كالقود واستصوب وهو أكثر استعمالاً من القُصيا ❖ والركب ❖ أي العيرُ أو قوادها ❖  
أَسْفَلَ مِنْكُمْ ❖ أي في مكان أسفل من مكانكم يعني الساحل وهو نصبٌ على الظرفية  
واقعٌ موقعَ الخبر والجملةُ حالٌ من الظرف قبله وفائدتها للدلالة على قوة العدو واستظهارهم  
بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لا يخلوا مراكزهم ويبدلوا  
منتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين والتيات أمرهم واستبعاد غلبتهم عادةً وكذا ذكر  
مراكز الفريقين ، فإن العدو الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يمشى فيها إلا بتعب  
ولم يكن فيها ماءٌ بخلاف العدو القصوى وكذا قوله تعالى : ❖ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي  
الميعاد ❖ أي لو تواعدتم أتمم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلتم أتمم في الميعاد  
هَيْبَةً مِنْهُمْ وَيَأْسًا مِنَ الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعاً من الله  
عز وجل خارقاً للعادات فيزدادوا إيماناً وشكراً وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس ❖ ولكن  
❖ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد ❖ لَيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ❖ حقيقةً  
بأن يفعل من نصر أوليائه وقهر أعدائه ، أو مقدرًا في الأزل وقوله تعالى : ❖ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ  
عَنْ بَيْنَةٍ وَيُحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ ❖ بدل منه أو متعلقٌ بمفعولاً أي ليموت من يموت عن بينة  
عائنها ويعيش من يعيش عن بينة شاهداً لها لئلا يكون له حجةٌ ومعدرةٌ فإن وقعة بدر من

الآيات الواضحة أو ليصدرُ كُفْرٌ من كُفْرٍ وإيمانٌ من آمنٍ عن وضوحٍ بينةٍ على استعارةِ الهلاكِ  
والحياةِ للكُفْرِ والإيمانِ ، والمرادُ بمن هلكَ ومن حييَ المشارفُ للهلاكِ والحياةِ أو مَنْ حاله في  
علمِ الله تعالى الهلاكُ والحياةُ ، وقرىءَ ليهلكَ بالفتحِ وحييَ بفتحِ الإِدْغَامِ حملاً على  
المستقبلِ ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي بكُفْرٍ من كُفْرٍ وعقابهِ وإيمانٍ من آمنٍ وثوابه ، ولعل  
الجمعَ بين الوصفين لاشتمالِ الأمرين على القولِ والاعتقادِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي  
السعود ح 4 ص ﴾

(363/313)

وقال الأوسى :

﴿ إِذِ اتُّمُّ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾

بدل من ﴿ يوم ﴾ [ الأنفال : 41 ] أو معمول لاذكروا مقدرًا ، وجوز أبو البقاء أن يكون

ظرفاً لتقدير وليس بشيء ، والعدوة بالحركات الثلاث ششط الوادي وأصله من العدو

التجاوز والقراءة المشهورة الضم والكسر وهو قراءة ابن كثير .

وأبي عمرو .

ويعقوب .

وقرأ الحسن .

وزيد بن علي وغيرهما بالفتح وكلها لغات بمعنى ولا عبرة بإنكار بعضها و﴿ الدنيا ﴾  
تأنيث الأدنى أي إذ أنتم نازلون بشفير الوادي الأقرب إلى المدينة ﴿ وهُم ﴾ أي المشركون  
﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أي البعدى من المدينة وهو تأنيث الأقصى ، وقرأ زيد بن علي  
رضي الله تعالى عنهما ﴿ القصيا ﴾ ومن قواعدهم أن فعلى من ذوات الواو إذا كان اسماً  
تبدل لامه ياء كدنيا فإنه من دنا يدنو إذا قرب ، ولم يبدل من قصوى على المشهور لأنه  
بحسب الأصل صفة ولم يبدل فيها للفرق بين الصفة والاسم ، وإذا اعتبر غلبته وأنه جرى  
مجرى الأسماء الجامدة قيل قصيا وهي لغة تميم والأولى لغة أهل الحجاز ، ومن أهل  
التصريف من قال : إن اللغة الغالبة العكس فإن كانت صفة أبدلت اللام نحو العليا وإن  
كانت اسماً أقرت نحو حزوى ؛ قيل : فعلى هذا القصوى شاذة والقياس قصيا ، وعنوا  
بالشذوذ مخالفة القياس لا الاستعمال فلا تنافي الفصاحة ، وذكروا في تعليل عدم ازبدال  
بالفرق أنه إنما لم يعكس الأمر وإن حصل به الفرق أيضاً لأن الصفة أثقل فأبقيت على الأصل  
الأخف لثقل الانتقال من الضمة إلى الياء ، ومن عكس أعطى الأصل للأصل وهو الاسم  
وغير في الفرع للفرق ﴿ القصوى والركب ﴾ أي العير أو أصحابها أبو سفيان وأصحابه  
وهو اسم جمع راكب لا جمع على الصحيح ﴿ أسفل منكم ﴾ أي في مكان أسفل من  
مكانكم يعني ساحل البحر ، وهو نصب على الظرفية وفي "الأصل" صفة للظرف كما أرنا

إليه ولهذا انتصب انتصابه وقام مقامه ولم ينسلخ عن الوصفية خلافاً لبعضهم وهو واقع  
موقع الخبر، وأجاز الفراء .

(364/313)

---

والأخفش رفعه على الاتساع أو بتقدير موضع الركب أسفل، والجملة عطف على  
مدخول إذ، أي إذ أتم الخ وإذ الركب الخ.  
واختار الجمهور أنها في موضع الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور قبل، ووجه  
الإطناب في الآية مع حصول المقصود بأن يقال: يوم الفرقان يوم النصر والظفر على الأعداء  
مثلاً تصوير ما بدر سبحانه من أمر وقعة بدر والامتنان والدلالة على أنه من الآيات الغر  
المحجلة وغير ذلك وهذا مراد الزمخشري بقوله فائدة هذا التوقيت، وذكر مراكز الفريقين  
وأن العير كان أسفل منهم الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته.

(365/313)

---

وتكامل عدته وتمهد أسباب العدة له وضعف شأن المسلمين والتباث أمرهم وإن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله تعالى ودليلاً على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله سبحانه وقوته وباهر قدرته ، وذلك أن العدو القصى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها ولا ماء بالعدو الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم وتوطن نفوسهم على أن لا يرحوا مواطنهم ولا يخلو مراكزهم ويبدلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدتهم وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر تلك الواقعة ، وليس السؤال عن فائدة الإخبار بما هو معلوم للمخاطب ليكون الجواب بأن فائدته لازمة كما ظنه غير واحد لما لا يخفى ، وعلى هذا الطرز ذكر قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَقْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ أي لو تواعدتم أتمم وهم القتال وعلمتم حالهم وحالكم لاختلفتم أتمم في الميعاد هيبة منهم ويأساً من الظفر عليهم ، وجعل الضمير الأول شاملاً للجمعين تغليباً والثاني للمسلمين خاصة هو المناسب للمقام إذ القصد فيه إلى بيان ضعف المسلمين ونصرة الله تعالى لهم مع ذلك ، والزمخشري جعله فيهما شاملاً للفريقين لتكون الضمائر على وتيرة واحدة من غير تفكيك على معنى لو تواعدتم أتمم وأهل مكة لخالف بعضكم بعضاً فثبطكم قتلهم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله تعالى من التلاقي وسبب له

ولا يخفى عدم مناسبته ، وأمر التفكيك سهل ﴿ ولكن ﴾ تلاقيم على غير موعد ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا ﴾ وهو نصر المؤمنين وقهر أعدائهم ﴿ كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي كان واجباً أن يفعل بسبب الوعد المشار إليه بقوله سبحانه :

(366/313)

---

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الروم : 47 ] أو كان مقدرًا في الأزل .  
وقيل : كان بمعنى صار الدالة على التحول أي صار مفعولاً بعد أن لم يكن ، وقوله سبحانه :  
﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ ﴾ بدل من ﴿ لِيَقْضِيَ ﴾ بإعادة  
الحرف أو متعلق بمفعولاً .

وجوز أبو البقاء أيضاً تعلقه بيقضي ، واستطيب الطيبي الأول ، والمراد بالبينة الحجة  
الظاهرة ، أي ليموت من يموت عن حجة عاينها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها فلا  
يبقى محل للتلل بالأعدار ، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة والحجج الغر المحجلة ،  
ويجوز أن يراد بالحياة الإيمان وبالموت الكفر استعارة أو مجازاً مرسلًا ، وبالبينة إظهار كمال  
القدرة الدالة على الحجة الدافعة أي ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بينة ،  
وإلى هذا ذهب قتادة .

ومحمد بن إسحاق ، قيل : والمراد بمن هلك ومن حي المشارف للهلاك والحياة أو من هذا حاله في علم الله تعالى وقضائه ، والمشاركة في الهلاك ظاهرة ، وأما مشاركة الحياة فقيل : المراد بها الاستمرار على الحياة بعد الوقعة ، وإنما قيل ذلك : لأن من حي مقابل لمن هلك ، والظاهر أن ﴿ عَنْ ﴾ بمعنى بعد كقوله تعالى :

(367/313)

---

﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ [ المؤمنون : 40 ] ، وقيل : لما لم يتصور أن يهلك في الاستقبال من هلك في الماضي حمل من هلك على المشاركة ليرجع إلى الاستقبال ، وكذا لما لم يتصور أن يتصف بالحياة المستقبلية من اتصف بها في الماضي حمل على ذلك لذلك أيضاً ، لكن يلزم منه أن يختص بمن لم يكن حياً إذ ذاك فيحمل على دوام الحياة دون الاتصاف بأصلها ، فيكون المعنى تدوم حياة من أشرف لدوامها ، ولا يجوز أن يكون المعنى لتدوم حياة من حي في الماضي لأن ذلك صادق على من هلك فلا تحصل المقابلة إلا أن يخص باعتبارها ، وتكلف بعضهم توجيه المضي والاستقبال بغير ما ذكر مما لا يخلو عن تأمل ، واعتبار المضي بالنظر إلى علم الله تعالى وقضائه والاستقبال بالنظر إلى الوجود الخارجي مما لا غبار عليه ، و ﴿ عَنْ ﴾ لا يتعين كونها بمعنى بعد بل يمكن أن تبقى على معنى

المجاوزه الذي لم يذكر البصريون سواه .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ ﴾ [ هود : 53 ] بناءً على

أن المراد ما تركها صادرين عن قولك كما هو رأي البعض ، ويمكن أن تكون بمعنى على كما

في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [ محمد : 38 ] وقول ذي الأصبع :

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب . . .

عني ولا أنت ديانني فتخزوني

وقرأ الأعمش ﴿ لِيُهْلِكَ ﴾ بفتح العين ، وروي ذلك عن عاصم وهي على ما قال ابن

جني في "المحتسب" شاذة مرغوب عنها لأن الماضي هلك بالفتح ولا يأتي فعل يفعل إلا إذا

كان حرف الحلق في العين أو اللام فهو من اللغة المتداخلة .

وفي "القاموس" أن هلك كضرب ومنع وعلم وهو ظاهر في جواز الكسر والفتح في الماضي

والمضارع .

نعم المشهور في الماضي الفتح وفي المضارع الكسر ، وقرأ ابن كثير .

ونافع .

وأبو بكر .



---

ويعقوب ﴿ حَى ﴾ بفك الإدغام قال أبو البقاء: وفيه وجهان أحدهما: الحمل على المستقبل وهو يحى فكما لم يدغم فيه لم يدغم في الماضي.

والثاني: أن حركة الحرفين مختلفة فالأول مكسور والثاني مفتوح واختلاف الحركتين كاختلاف الحرفين، ولذلك أجازوا في الاختيار ضرب البلد إذا كثرت ضبه، ويقوي ذلك أن الحركة الثانية عارضة فكان الياء الثانية ساكنة ولو ساكنت لم يلزم الإدغام فكذلك إذا كانت في تقدير الساكن، والياء أن أصل وليست الثانية بدلاً من واو، وأما الحيوان فالواو فيه بدل من الياء، وأما الحواء فليس من لفظ الحية بل من حوى يحوي إذا جمع ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الكفر والإيمان على الاعتقاد والقول، أما اشتمال الإيمان على القول فظاهر لاشتراط إجراء الأحكام بكلمتي الشهادة، وأما اشتمال الكفر عليه فبناءً على المعتاد فيه أيضاً. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني حـ 10 ص ﴾

(369/313)

---

وقال القاسمي :

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾  
﴿ إِذْ أَنْتُمْ ﴾ بدل من يوم الفرقان ، أو ظرف لمحذوف ، أي : اذكروا إذ أنتم يا معشر  
المؤمنين ﴿ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ يعين بشفير الوادي الأدنى من المدينة ، ﴿ وَهُمْ ﴾ يعني  
المشركين أبا جهل وأصحابه ﴿ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ أي : البُعْدَى عن المدينة ، مما يلي  
مكة ﴿ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ أي : العير التي فيها أبو سفيان ، بما معه من التجارة التي  
كان الخروج لأجلها ، أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر .  
لطيفة :

قال الزمخشري : فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت ، وذكر مراكز الفريقين ، وأن

(370/313)

---

العير كانت أسفل منهم ؟ قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو  
وشوكته وتكامل عدته ، تمهد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين ، والتبأ أمرهم  
، وأن غلبتهم في مثل هذا الحال ، ليست إلا صنعاً من الله سبحانه ، ودليلاً على أن ذلك  
أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته ، باهر قدرته ، وذلك أن العدو القصوى التي أناخ بها المشركون

، كان فيها الماء ، كانت أرضاً لا بأس بها ، ولا ماء بالعدوة الدنيا ، وهي خبار- ما لان من الأرض واسترخى- تسوخ فيه الأرجل ، ولا يمشي فيها إلا بتعب ومشقة ، وكانت العير وراء ظهور العدو ، مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم ، وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم ، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ، لبيعهم الذبّ عن الحريم ، والغيرة على الحرب ، على بذل جهيداهم في القتال ، وألا يتركوا وراءهم ما يحدّثون أنفسهم بالإنحياز إليه ، فيجمع ذلك قلوبهم ، ويضبط همومهم ، ويوطن نفوسهم ، على ألا يبرحوا موطنهم ، ولا يخلوا مراكزهم ، ويبدلوا منتهى نجدتهم ، وقصارى شدتهم ، وفيه تصوير ما دبّر سبحانه من أمر وقعة بدر ، ليقضي أمراً كان مفعولاً ، من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين ، بمهمة غير مبيّنة ، حتى خرجوا ليأخذوا العير ، راغبين في الخروج ، وشخص بقريش مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم ، حتى نفروا ليمنعوا غيرهم ، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا ، وهؤلاء بالعدوة القصوى ، ووراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساق ، وكان ما كان ، انتهى .

قال الناصري "الإتصاف" : وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشري ، وتنقيبه عن أسرار الكتاب العزيز .

---

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ أي: ولو تواعدتم أتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال، لخالف بعضهم بعضاً، فثبطكم قلتكم وكثرتهم، على الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله وسبب له. قاله الزمخشري.

وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

وروى ابن جرير عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقى السقاة وشهد الناس بعضهم إلى بعض.

﴿ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي: ولكن جمع بينكم على هذه الحال على غير ميعاد، ليقضي ما أراد من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، من غير ملامتكم.

وقوله: ﴿ كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي: حقيقة بأن يفعل، وقيل: ﴿ كَانَ ﴾ بمعنى صار، أي: صار مفعولاً، بعد أن لم يكن، وقيل: إنه عبر به عنه لتحقيقه حتى كأنه مضى.

وقوله تعالى: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ ﴾ أي: إنما جمعكم مع

عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد ، لينصركم عليهم ، ويرفع حجة الحق على الباطل ، ليصير الأمر ظاهراً ، والحجة قاطعة ، والبراهين ساطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، فحينئذ يهلك من هلك ، أي : يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره ، أنه مبطل لقيام الحجة عليه ، ويؤمن من آمن عن حدة وبصيرة ويقين ، بأنه دين الحق ، الذي يجب الدخول فيه ، والتمسك به .

(372/313)

---

وذلك أن ما كان من وقعة بدر ، من الآيات الغرّ المحجّلة ، التي من كفر بعدها ، كان مكابراً لنفسه ، مغالطاً لها .

لطائف :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ ﴾ بدل من : ﴿ لِيَقْضِيَ ﴾ أو متعلق بـ : ﴿ مَفْعُولاً ﴾ .

الثانية : الحياة والهلاك استعارة للكفر والإسلام ، وقرئ : ﴿ لِيَهْلِكَ ﴾ بفتح اللام .

الثالثة : ﴿ حَيٍّ ﴾ يقرأ بتشديد الياء ، وهو الأصل ، لأن الحرفين متماثلان متحركان ،

فهو مثل شدّ ومدّ ، ومنه قول عبادة بن الأبرص :

سَعِيُوا بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَيَّتْ بِيُضْتَمُّهَا الْحَمَامَةُ

ويقرأ بالإظهار وفيه وجهان :

أحدهما : أن الماضي حمل على المستقبل ، وهو يحيا ، فكما لم يدغم في المستقبل ، لم يدغم في الماضي ، وليس كذلك شد ومد ، فإنه يدغم فيهما جميعاً .

والوجه الثاني : أن حركة الحرفين مختلفة ، فالأولى مكسورة ، والثانية مفتوحة ، واختلاف الحركتين ، كاختلاف الحرفين ، ولذلك أجازوا في الاختيار : لحت عليه ، وضبب البلد ، إذا كثر ضبه ، ويقوي ذلك أن الحركة الثانية عارضة ، فكان الياء الثانية : ساكنة ، ولو سكت لم يلزم الإدغام ، وكذلك إذا كانت في تقدير الساكن ، والياء أن أصل ، وليست الثانية بدلاً من واو ، فأما الحيوان ، فالواو فيه بدل من الياء . وأما

الحواء ، فليس من لفظ الحية ، بل من حوى يحوي إذا جمع - قاله أبو البقاء - .

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : بكفر من كفر وعقابه ، وإيمان من آمن وثوابه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 8 ص 311.309 ﴾

(373/313)

وقال الشوكاني في الآيتين :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ﴾

وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴿٣٨﴾

لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله: ﴿٣٨﴾ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴿٣٨﴾ [الأنفال: 38]

وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة، ذكر حكم الغنيمة.

والغنيمة قد قدمنا أن أصلها إصابة الغنم من العدو، ثم استعملت في كل ما يصاب منهم،

وقد تستعمل في كل ما ينال بسعي.

ومنه قول الشاعر:

وقد طوّفت في الآفاق حتى . . . رضيت من الغنيمة بالإياب

ومنه قول الآخر:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه . . . أنى توجه والمحروم محروم

وأما معنى الغنيمة في الشرع، فحكى القرطبي الاتفاق على أن المراد بقوله تعالى: ﴿٣٨﴾

واعلموا أنّما غنمتم من شيء ﴿٣٨﴾ مال الكفار إذا ظفروهم المسلمون على وجه الغلبة

والقهر.

قال: ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع.

وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية بعد قوله: ﴿٣٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴿٣٨﴾ [

الأنفال: 1] وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين، وأن قوله: ﴿٣٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ

الأنفال ﴿٣٨﴾ نزلت حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر على ما تقدم أول السورة.

وقيل إنها أعني قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ محكمة غير منسوخة، وأن الغنيمة  
لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست مقسومة بين الغانمين، وكذلك لمن بعده من الأئمة  
، حكاها الماوردي عن كثير من المالكية.

قالوا: وللإمام أن يخرجها عنهم، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين وكان أبو عبيدة يقول:  
اقتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة ومنّ على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها  
ولم يجعلها فيأً.

وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين.

(374/313)

---

ومن حكى ذلك ابن المنذر، وابن عبد البر، والداودي، والمازري، والقاضي عياض،  
وابن العربي، والأحاديث الواردة في قسمة الغنيمة بين الغانمين، وكيفيتها كثيرة جداً.  
قال القرطبي: ولم يقل أحد فيما أعلم أن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية  
ناسخ لقوله: ﴿واعلموا أنّما غنمتم من شئ﴾ الآية، بل قال الجمهور: إن قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية  
واعلموا أنّما غنمتم من شئ﴾ ناسخ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل  
لكتاب الله.



وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها ، قال : وأما قصة حنين فقد  
عوّض الأنصار لما قالوا تعطى الغنائم قريشاً وتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم نفسه ،  
فقال لهم : " أما ترضون أن يرجع الناس بالدينيا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم  
إلى بيوتكم " كما في مسلم وغيره .

وليس لغيره أن يقول هذا القول ، بل ذلك خاص به .

قوله : ﴿ أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ يشمل كل شيء يصدق عليه اسم الغنيمة .

و ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ بيان لـ " ما " الموصولة ، وقد خصّص الإجماع من عموم الآية الأسارى ،  
فإن الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف .

وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام .

وقيل : كذلك الأرض المغنومة .

وردّ بأنه لا إجماع على الأرض .

قوله : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ ﴾ قرأ النخعي " فَإِنَّ لِلَّهِ " بكسر إن .

وقرأ الباقر بفتحها على ﴿ أن ﴾ أن وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف ، والتقدير :

فحق أو فواجب أن لله خمسة .

وقد اختلف العلماء في كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة :

الأول قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس للكعبة ، وهو الذي لله ،

والثاني لرسول الله ، والثالث ، لذوي القربى ، والرابع لليتامى ، والخامس للمساكين ،  
والسادس لابن السبيل .

(375/313)

---

والقول الثاني : قاله أبو العالية والربيع : إنها تقسم الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهم  
واحد ويقسم أربعة على الغانمين ، ثم يضرب يده في السهم الذي عزله ، فما قبضه من شيء  
جعله للكعبة ، ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة للرسول ومن بعده الآية .  
القول الثالث : روي عن زين العابدين علي بن الحسين أنه قال : إن الخمس لنا ، فقيل له : إن  
الله يقول : ﴿ واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ فقال : يتامانا ومساكيننا وأبناء  
سبيلنا .

القول الرابع قول الشافعي : إن الخمس يقسم على خمسة ، وإن سهم الله وسهم رسوله  
واحد يصرف في مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخرى على الأربعة الأصناف المذكورة في  
الآية .

القول الخامس قول أبي حنيفة : إنه يقسم الخمس على ثلاثة : اليتامى ، والمساكين ، وابن  
السبيل ، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بموته ، كما ارتفع حكم

سهمه ، قال : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجنود .  
وروي نحو هذا عن الشافعي .

القول السادس قول مالك : إنه موكل إلى نظر الإمام واجتهاده ، فيأخذ منه بغير تقدير ،  
ويعطى منه الغزاة باجتهاد ، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين .

قال القرطبي ، وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا ، وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم : " ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم " ، فإنه لم يقسمه أخماساً ولا أثلاثاً ، وإنما ذكر ما في الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم ، لأنهم من أهم من يدفع إليه .  
قال الزجاج محتجاً بهذا القول : قال الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة : 215] وجائز  
بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك .

(376/313)

---

قوله : ﴿ وَكَذَى الْقُرْبَى ﴾ قيل إعادة اللام في ذي القربى دون من بعدهم ، لدفع توهم  
اشتراكهم في سهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد اختلف العلماء في القربى على أقوال : الأول : أنهم قريش كلها ، روي ذلك عن بعض

السلف ، واستدل بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما صعد الصفا جعل يهتف  
ببطون قريش كلها قائلاً :

" يا بني فلان يا بني فلان "

وقال الشافعي ، وأحمد ، وأبو ثور ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن جريج ، ومسلم ابن خالد :  
هم بنو هاشم وبنو المطلب لقوله صلى الله عليه وسلم : " إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء  
واحد " ، وشبك بين أصابعه وهو في الصحيح .

وقيل : هم بنو هاشم خاصة ، وبه قال مالك ، والثوري ، والأوزاعي ، وغيرهم ، وهو  
مروي عن علي بن الحسين ، ومجاهد .

قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ آمِنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ قال الزجاج عن فرقة : إن المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن  
كنتم آمنتم بالله .

وقالت فرقة أخرى : إن ﴿ إِن ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ واعلموا أننا غنمتم ﴾ قال ابن  
عطية : وهذا هو الصحيح لأن قوله : ﴿ واعلموا ﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر  
الله في الغنائم ، فعلق ﴿ إِن ﴾ بقوله : ﴿ واعلموا ﴾ على هذا المعنى ، أي إن كنتم  
مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله في الغنائم ، فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة .  
وقال في الكشف : إنه متعلق بحذوف يدل عليه ﴿ واعلموا ﴾ بمعنى : إن كنتم آمنتم  
بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم ، واقتنعوا

بالأخماس الأربعة ، وليس المراد بالعلم المجرد ، ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله ، لأن العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر .  
انتهى .

قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ معطوف على الاسم الجليل أي : إن كنتم آمنتم بالله  
وبما أنزلنا .

و ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ يوم بدر ، لأنه فرق بين أهل الحق وأهل الباطل .

(377/313)

---

و ﴿ الْجَمْعَانِ ﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومن  
قدرته العظيمة نصر الفريق الأقل على الفريق الأكثر .

قوله : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ،  
ويعقوب ، بكسر العين في العدو في الموضعين .

وقرأ الباقر بالضم فيهما .

و " إذ " بدل من يوم الفرقان ، ويجوز أن يكون العامل محذوفاً ، أي واذكروا إذ أنتم .  
والعدوة : جانب الوادي .

والدنيا : تأنيث الأذنى ، والقصوى : تأنيث الأقصى ، من دنا يدنو ، وقصا يقصو ، ويقال القصيا ، والأصل الواو .

وهي لغة أهل الحجاز ، والعدوة الدنيا كانت مما يلي المدينة ، والقصوى : كانت مما يلي مكة .

والمعنى : وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادي إلى جهة المدينة ، وعدوكم بالجانب الأقصى منه مما يلي مكة .

وجملة : ﴿ وَالرَّكِبَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ في محل نصب على الحال ، وانتصاب ﴿ أَسْفَلَ ﴾ على الظرف ، ومحله الرفع على الخبرية ، أي والحال أن الركب في مكان أسفل من المكان الذي أتم فيه .

وأجاز الأخفش والكسائي والفراء رفع أسفل على معنى أشدّ سفلاً منكم ، والركب : جمع راكب ، ولا تقول العرب ركب إلا للجماعة الراكبي الإبل ، ولا يقال لمن كان على فرس وغيرها ركب .

وكذا قال ابن فارس ، وحكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة .

والمراد بالركب ها هنا ركب أبي سفيان ، وهي المراد بالغير ، فإنهم كانوا في موضع أسفل منهم مما يلي ساحل البحر .

قيل : وفائدة ذكر هذه الحالة التي كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة

القصوى والركب أسفل منهم الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته .  
وذلك لأن العدو القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء ، وكانت أرضاً لا يابس  
بها .

وأما العدو الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها .  
وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم ، فامتّن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم  
والحال هذه .

(378/313)

---

قوله : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَقْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ أي : لو تواعدتم أتمتم والمشركون من أهل  
مكة على أن تلتقوا في هذا الموضع للقتال لخالف بعضهم بعضاً .  
فثبطكم قتلهم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما في قلوبهم من المهابة لرسول الله  
صلى الله عليه وسلم ﴿ ولكن ﴾ جمع الله بينكم في هذا الوطن ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ  
مَفْعُولًا ﴾ أي : حقيقاً بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان أعدائه وإعزاز دينه وإذلال الكفر  
، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم ، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها .  
ولم يكن في حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة ، واللام في ﴿ لِيَقْضِيَ ﴾

﴿ متعلقة بمحذوف ، والتقدير : جمعهم ليقضي .

وجملة : ﴿ لِيُهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ ﴾ بدل من الجملة التي قبلها ، أي

ليموت من يموت عن بينة ويعيش عن بينة للأبقي لأحد على الله حجة .

وقيل الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام ، أي ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح

بينة ، ويقين بأنه دين الحق ، ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالفة شبهة .

قرأ نافع ، وخلف ، وسهل ، ويعقوب ، والبخاري وأبو بكر ﴿ مِنْ حَيِّي ﴾ بياءين على

الأصل وقرأ الباقر بياء واحدة على الإدغام ، وهي اختيار أبي عبيد لأنها كذلك وقعت

في المصحف ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : سميع بكفر الكافرين عليهم به ، وسميع بإيمان

المؤمنين عليهم به .

وقد أخرج ابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : ثم وضع

مقاسم الفيء ، فقال : ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بعد الذي كان مضى من بدر

﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ ﴾ إلى آخر الآية .

(379/313)

---



وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، عن قيس بن مسلم الجدي قال : سألت الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية عن قول الله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ قال : هذا مفتاح كلام ، لله الدنيا والآخرة ﴿ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ فاختلّفوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين السهمين .

قال قائل منهم : سهم ذي القربى لقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
وقال قائل منهم : سهم ذي القربى لقراءة الخليفة .

وقال قائل منهم : سهم النبي صلى الله عليه وسلم للخليفة من بعده .

واجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله ، فكان ذلك في خلافة أبي بكر وعمر .

وأخرج ابن جرير ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فضرب ذلك في خمسه ، ثم قرأ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ﴾ الآية ، قال قوله : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ مفتاح كلام ، لله ما في السموات وما في الأرض ، فجعل الله سهم الله والرسول واحداً ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ فجعل هذين السهمين قوّة في الخيل والسلاح ، وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم ، وجعل الأربعة الأسهم الباقية : للفرس سهماً ولراكبه سهماً ، وللراجل

سهماً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عنه ، قال : كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس : فأربعة منها بين من قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس .

(380/313)

---

فربح لله وللرسول ولذي القربى ، يعني قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يأخذ النبي من الخمس شيئاً ، والرابع الثاني لليتامى ، والرابع الثالث للمساكين ، والرابع الرابع لابن السبيل ، وهو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن أبي العالية ، في قوله : ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شئء ﴾ الآية قال : كان يجاء بالغنيمة فتوضع ، فيقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم ، فيعزل سهماً منها ، ويقسم أربعة أسهم بين الناس ، يعني لمن شهد الواقعة ، ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزله ، فما قبض عليه من شئء جعله للكعبة ، فهو الذي سمي الله لا تجعلوا لله نصيباً ، فإن لله الدنيا والآخرة ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم : سهم للنبي صلى الله عليه

وسلم ، وسهم لذي القربى وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل .  
وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يجعل سهم الله في  
السلح والكراع وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة وطبيها وما تحتاج إليه الكعبة ، ويجعل  
سهم الرسول في الكراع والسلح ونفقة أهله ، وسهم ذي القربى لقربته ، يضعه رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فيهم مع سهمهم مع الناس ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة  
أسهم يضعها رسول الله فيمن شاء حيث شاء ، ليس لبني عبد المطلب في هذه الثلاثة  
الأسهم ولرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم مع سهام الناس .  
وأخرج ابن أبي حاتم عن حسين المعلم قال : سألت عبد الله بن بريدة عن قوله : ﴿ فَانَّ لِلَّهِ  
خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ فقال : الذي لله لنبيه ، والذي للرسول لأزواجه .

(381/313)

---

وأخرج الشافعي ، وعبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن المنذر ،  
 وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس ، أن نجدة كتب إليه  
 يسأله عن ذوي القربى الذين ذكر الله ، فكتب إليه إنا كنا نرى أناهم فأبى ذلك علينا قومنا ،  
 وقالوا قريش كلها ذوو قربي ، وزيادة قوله وقالوا قريش كلها تفرد بها أبو معشر .

وفيه ضعف .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، من وجه آخر عن ابن عباس : أن نجدة الحروري أرسل إليه يسأله عن سهم ذي القربى ، ويقول لمن تراه ؟ فقال ابن عباس : هو لقربى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضاً رأيناه دون حقنا فرددناه عليهم وأبيننا أن نقبله ، وكان عرض عليهم أن يعيننا نأكلهم وأن يقضي عن غارمهم ، وأن يعطي فقيرهم ، وأبى أن يزيدهم على ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : رغبت لكم عن غسالة الأيدي ، لأن لكم في خمس الخمس ما يكفيكم أو يغنيكم .

رواه ابن أبي حاتم عن إبراهيم بن مهدي المصيبي حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عنه مرفوعاً .

قال ابن كثير : هذا حديث حسن الإسناد ، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم . وقال يحيى بن معين : يأتي بمناكير .

أخرج ابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر ، عن جبير بن مطعم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قسم سهم ذوي القربى من خير على بني هاشم وبني المطلب .

قال : فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه ، فقلنا يا رسول الله هؤلاء إخوانك من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك منهم ، رأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم دوننا ، فإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب ؟ فقال : " إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام " وقد أخرجه مسلم في صحيحه .

(382/313)

---

وأخرج ابن مردويه ، عن زيد بن أرقم قال : آل محمد الذين أعطوا الخمس : آل عليّ ، وآل العباس ، وآل جعفر ، وآل عقيل .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس قال : كان للنبي صلى الله عليه وسلم شيء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه ، إما خادم وإما فرس ، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن مردويه ، عن عليّ قال : قلت يا رسول الله : ألا وليتني ما خصنا الله به من الخمس ؟ فولانيه .

وأخرج الحاكم وصححه عنه قال : ولاني رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس الخمس فوضعت مواضع حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله :

﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ قال : هو يوم بدر ، وبدر ما بين مكة والمدينة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ،  
والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ قال : هو يوم بدر فرق الله  
فيه بين الحق والباطل .

وأخرج ابن مردويه ، عن علي بن أبي طالب ، قال : كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في  
صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان .  
وأخرجه عنه ابن جرير أيضاً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ  
بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا ﴾ قال : العدوَّة الدنيا شاطئ الوادي ﴿ وَالرُّكْبَ اسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ .  
قال أبو سفيان .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : العدوَّة الدنيا سفير الوادي الأدنى ، والعدوَّة القصى  
سفير الوادي الأقصى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص ﴾

(383/313)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾

﴿ إذ ﴾ بدل من ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ [ الأنفال : 41 ] فهو ظرف ب ﴿ لأنزلنا ﴾ [

الأنفال : 41 ] أي زمن أنتم بالعدوة الدنيا ، وقد أريد من هذا الظرف وما أضيف إليه تذكيرهم بحالة حرجة كان المسلمون فيها ، وتنبههم للطف عظيم حفهم من الله تعالى ، وهي حالة موقع جيش المسلمين من جيش المشركين ، وكيف التقى الجيشان في مكان واحد عن غير ميعاد ، ووجد المسلمون أنفسهم أمام عدوّ قوي العِدَّة والعُدَّة والمكانة من حسن الموقع .

ولولا هذا المقصد من وصف هذه الهيئة لما كان من داع لهذا الإطناب إذ ليس من أغراض القرآن وصف المنازل إذا لم تكن فيه عبرة .

والعدوة بتثليث العين صفة الوادي وشاطئه ، والضم والكسر في العين أفصح وعليهما القراءات المشهورة ، فقرأه الجمهور بضم العين ، وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب بكسر العين .

والمراد بها شاطئ وادي بدر .

وبدر اسم ماء .

﴿ والدنيا ﴾ هي القرية أي العدو التي من جهة المدينة ، فهي أقرب لجيش المسلمين من

العدوة التي من جهة مكة .

﴿ العدوة القصوى ﴾ هي التي تمايلي مكة ، وهي كئيب ، وهي قصوى بالنسبة لموقع بلد المسلمين .

(384/313)

والوصف بـ ﴿ الدنيا ﴾ و ﴿ القصوى ﴾ يشعُر المخاطبون بفائدته ، وهي أن المسلمين كانوا حريصين أن يسبقوا المشركين إلى العدوة القصوى ، لأنها أصلب أرضاً فليس للوصف بالدنو والقصو أثر في تفضيل إحدى العدوتين على الأخرى ، ولكنه صادف أن كانت القصوى أسعدَ بنزول الجيش ، فلما سبق جيشُ المشركين إليها اغتمَّ المسلمون ، فلما نزل المسلمون بالعدوة الدنيا أرسل الله المطر وكان الوادي دهباً فلبد المطرُ الأرضَ ولم يعقهم عن المسير وأصاب الأرض التي بها قريش فعطّلهم عن الرحيل ، فلم يبلغوا بدرًا إلا بعد أن وصل المسلمون وتخيروا أحسن موقع وسبقوا إلى الماء ، فاتخذوا حوضاً يكفيهم وغوروا الماء ، فلما وصل المشركون إلى الماء وجدوه قد احتازه المسلمون ، فكان المسلمون يشربون ولا يجد المشركون ماء .

وضمير ﴿ وهم ﴾ عائد إلى ما في لفظ ﴿ الجمعان ﴾ من معنى : جمعكم وجمع



المشركين ، فلما قال : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ﴾ لم يبق معاد لضمير ﴿ وهم ﴾ إلاّ  
الجمع الآخر وهو جمع المشركين .

﴿ الركب ﴾ هوركب قريش الراجعون من الشام ، وهو العير .

﴿ أسفل ﴾ من الفريقين أي أخفض من منازلهما ، لأن العير كانوا سائرين في طريق

الساحل ، وقد تركوا ماء بدر عن يسارهم .

ذلك أن أبا سفيان لما بلغه أن المسلمين خرجوا لتلقي عيره رجع بالعير عن الطريق التي تمرّ

ببدر ، وسلك طريق الساحل لينجو بالعير ، فكان مسيره في السهول المنخفضة ، وكان

رجال الركب أربعين رجلاً .

(385/313)

---

والمعنى : والركب بالجهة السفلى منكم ، وهي جهة البحر وضمير ﴿ منكم ﴾ خطاب

للمسلمين المخاطبين بقوله : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ﴾ والمعنى أن جيش المسلمين كان

بين جماعتين للمشركين ، وهما جيش أبي سفيان بالعدوة القصوى ، وعير القوم أسفل من

العدوة الدنيا ، فلو علم العدو بهذا الوضع لطبق جماعته على جيش المسلمين ، ولكن الله

صرفهم عن التفطن لذلك وصرف المسلمين عن ذلك ، وقد كانوا يطمعون أن يصادفوا العير

فينتهبونها كما قال تعالى:

﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ [ الأنفال : 7 ] ولوحاولوا ذلك لوقعوا بين جماعتين من العدو .

وانتصب ﴿ أسفل ﴾ على الظرفية المكانية وهو في محل رفع خبر عن (الركب ) أي والركب قد فاتكم وكنتم تأملون أن تدركوه فنتهبوا ما فيه من المتاع .

(386/313)

---

والغرض من التقييد بهذا الوقت ، وبتلك الحالة : إحضارها في ذكرهم ، لأجل ما يلزم ذلك من شكر نعمة الله ، ومن حسن الظنّ بوعدده والاعتماد عليه في أمورهم ، فإنّهم كانوا حينئذ في أشدّ ما يكون فيه جيش تجاه عدوّه ، لأنّهم يعلمون أنّ تلك الحالة كان ظاهرها ملائماً للعدوّ ، إذ كان العدو في شوكة واكتمال عدّة ، وقد تمهدت له أسباب الغلبة بحسن موقع جيشه ، إذ كان بالعدوة التي فيها الماء لسقيهم والتي أرضها متوسّطة الصلابة ، فأما جيش المسلمين فقد وجدوا أنفسهم أمام العدو في عدوة تسوخ في أرضها الأرجل من لين رملها ، مع قلة مائها ، وكانت العير قد فاتت المسلمين وحلت وراء ظهور جيش المشركين ، فكانت في مأمن من أن ينالها المسلمون ، وكان المشركون واثقين بمكنة الذبّ عن غيرهم ،

فكانت ظاهرة هذه الحالة ظاهرة خيبة وخوف للمسلمين ، وظاهرة فوز وقوة للمشركين ، فكان من عجيب عناية الله بالمسلمين أن قلب تلك الحالة رأساً على عقب ، فأنزل من السماء مطراً تعبدت به الأرض لجيش المسلمين فساروا فيها غير مشفوق عليهم ، وتطهروا وسقوا ، وصارت به الأرض لجيش المشركين وحلأً يثقل فيها السير وفاضت المياه عليهم ، وألقى الله في قلوبهم تهوين أمر المسلمين ، فلم يأخذوا حذرهم ولا أعدوا للحرب عدتها ، وجعلوا مقامهم هنالك مقام لهُ وطرب ، فجعل الله ذلك سبباً لنصر المسلمين عليهم ، ورأوا كيف أنجز الله لهم ما وعدهم من النصر الذي لم يكونوا يتوقعونه .

فالذين خوطبوا بهذه الآية هم أعلم السامعين بفائدة التوقيت الذي في قوله : ﴿ إذ أتتم بالعدوة الدنيا ﴾ الآية .

ولذلك تعين على المفسر وصف الحالة التي تضمنتها الآية ، ولولا ذلك لكان هذا التقييد بالوقت قليل الجدوى .

(387/313)

---

وجملة ﴿ ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد ﴾ في موضع الحال من ﴿ الجمعان ﴾ [ الأنفال : 41 ] وعامل الحال فعل ﴿ التقى ﴾ [ الأنفال : 41 ] أي في حال لقاء على غير ميعاد

، قد جاء إلزم تمامًا لو كان على ميعاد ، فإن اللقاء الذي يكون موعوداً قد يتأخر فيه أحد المتواعدين عن وقته ، وهذا اللقاء قد جاء في إبان متحد وفي مكان متجاور متقابل .  
ومعنى الاختلاف في الميعاد : اختلاف وقته بأن يتأخر أحد الفريقين عن الوقت المحدود فلم يأتوا على سواء .

والتلازم بين شرط ﴿ لو ﴾ وجوابها خفي هنا وقد أشكل على المفسرين ، ومنهم من اضطر إلى تقدير كلام محذوف تقديره : ثم علمتم قلتكم وكثرتكم ، وفيه أن ذلك يفضي إلى التخلف عن الحضور لا إلى الاختلاف .

ومنهم من قدر : وعلمتم قلتكم وشعر المشركون بالخوف منكم لما ألقى الله في قلوبهم من الرعب ، أي يجعل أحد الفريقين يتناقل فلم تحضروا على ميعاد ، وهو يفضي إلى ما أفضى إليه القول الذي قبله ، ومنهم من جعل ذلك لما لا يخلو عنه الناس من عروض العوارض والقواطع ، وهذا أقرب ، ومع ذلك لا ينتلج له الصدر .

فالوجه في تفسير هذه الآية أن ﴿ لو ﴾ هذه من قبيل (لو) الصُّهْبِيَّةِ فَإِنَّ لَهَا اسْتِعْمَالَات مَلَائِكَهَا : أن لا يقصد من (لو) ربط انتقاء مضمون جوابها بانتقاء مضمون شرطها ، أي ربط حصول تقيض مضمون الجواب بحصول تقيض مضمون الشرط ، بل يقصد أن مضمون الجواب حاصل لا محالة ، سواء فرض حصول مضمون شرطها أو فرض انتقاؤه ، إما لأن مضمون الجواب أولى بالحصول عند انتقاء مضمون الشرط ، نحو قوله تعالى : ﴿ ولو سمعوا

ما استجابوا لكم ﴿ فاطر: 14 ] ، وإما بقطع النظر عن أولوية مضمون الجواب بالحصول عند انتفاء مضمون الشرط نحو قوله تعالى : ﴿ ولوردوا العادوا لما نهوا عنه ﴾ [ الأنعام: 28 ] .

(388/313)

---

ومحصل هذا أن مضمون الجزاء مستمر الحصول في جميع الأحوال في فرض المتكلم ، فيأتي بجملة الشرط متضمنة الحالة التي هي عند السامع مظنة أن يحصل فيها نقيض مضمون الجواب .

ومن هذا قول طفيل في الثناء على بني جعفر بن كلاب :

أبوا أن يملونا ولو أن أمنا

تلاقي الذي لا قوه منا لملت . . .

أي فكيف بغير أمنا .

وقد تقدمت الإشارة إلى هذا عند قوله تعالى : ﴿ ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ في

هذه السورة [ 23 ] ، وكنا أحلنا عليه وعلى ما في هذه الآية عند قوله تعالى : ﴿ ولو أننا

نزلنا إليهم الملائكة ﴾ الآية في سورة [ الأنعام: 111 ] .

والمعنى : لو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد ، أي في وقت ما تواعدتم عليه ، لأن غالب أحوال المتواعدين أن لا يستوي وفاؤهما بما تواعدا عليه في وقت الوفاء به ، أي في وقت واحد ، لأن التوقيت كان في تلك الأزمان تقريباً يقدرونه بأجزاء النهار كالضحى والعصر والغروب ، لا ينضبط بالدرج والدقائق الفلكية ، والمعنى : فبالأحرى وأنتم لم تتواعدوا وقد أتيتم سواء في اتحاد وقت حلولكم في العدو تين فاعلموا أن ذلك تيسير بقدر الله لأنه قدر ذلك لتعلموا أن نصركم من عنده على نحو قوله : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [ الأنفال : 17 ] .

وهذا غير ما يقال ، في تقارب حصول حال الأناص : "كأنهم كانوا على ميعاد" كما قال الأسود بن يعفريرثي هلاك أحلافه وأنصاره

...

.

جرت الرياح على محل ديارهم

فكأنهم كانوا على ميعاد . . .

فإن ذلك تشبيه للحصول المتعاقب .

وضمير ﴿ اختلفتم ﴾ على الوجوه كلها شامل للفريقين : المخاطبين والغائبين ، على

تغليب المخاطبين ، كما هو الشأن في الضمائر مثله .

وقد ظهر موقع الاستدراك في قوله: ﴿ ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ﴾ إذ التقدير:  
ولكن لم تتواعدوا وجمتم على غير اتّعاد ليقضى الله أي ليحقق ويُجز ما أَراده من نصركم  
على المشركين .

(389/313)

---

ولما كان تعليل الاستدراك المفادِ بلِكِنْ قد وقع بفعل مسند إلى الله كان مفيداً أنّ مجيئهم إلى  
العدوتين على غير تواعد كان بتقدير من الله عنايةً بالمسلمين .

ومعنى ﴿ أمراً ﴾ هنا الشيء العظيم ، فتكبيره للتعظيم ، أو يجعل بمعنى الشأن وهم لا  
يطلقون ( الأمر ) بهذا المعنى إلا على شيء مهمّ ، ولعلّ سبب ذلك أنه ما سُمّي ( أمراً ) لا  
باعتبار أنه مما يؤمر بفعله أو بعمله كقوله تعالى: ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ [ مريم : 21 ]  
وقوله: ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ [ الأحزاب : 38 ] .

﴿ كان ﴾ تدلّ على تحقق ثبوت معنى خبرها لاسمها من الماضي مثل ﴿ وكان حقاً  
علينا نصر المؤمنين ﴾ [ الروم : 47 ] أي ثبت له استحقاق الحقية علينا من قديم الزمن .  
وكذلك قوله: ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ [ مريم : 21 ] .  
فمعنى ﴿ كان مفعولاً ﴾ أنه ثبت له في علم الله أنه يفعل .

فاشتق له صيغة مفعول من فَعَلَ للدلالة على أنه حين قدرت مفعوليته فقد صار كأنه فَعُلَ ،  
فوصف لذلك باسم المفعول الذي شأنه أن يطلق على من اتصف بتسلط الفعل في الحال لا  
في الاستقبال .

فحاصل المعنى : لينجز الله ويوقع حدثاً عظيماً متصفاً منذ القدم بأنه محقق الوقوع عند  
إبانه ، أي حقيقاً بأن يُفعل حتى كأنه قد فعل لأنه لا يمنعه ما يحفّ به من الموانع المعتادة .  
وجملة : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ﴾ في موضع بدل الاشتمال من جملة : ﴿ ليقضي الله  
أمرًا كان مفعولاً ﴾ لأن الأمر هو نصر المسلمين وقهر المشركين وذلك قد اشتمل على  
إهلاك المهزومين وإحياء المنصورين وحفّه من الأحوال الدالة على عناية الله بالمسلمين  
وإهاتته المشركين ما فيه بينه للفريقين تقطع عذر الهالكين ، وتقضي شكر الأحياء .  
ودخول لام التعليل على فعل ﴿ يهلك ﴾ تأكيد للام الداخلة على ل ﴿ يقضي ﴾ في  
الجملة المبدل منها .

ولولم تدخل اللام لقليل : يهلك مرفوعاً .

والهلاك : الموت والاضمحلال ، ولذلك قول بالحياء .



والهلاك والحياة مستعاران لمعنى ذهاب الشوكة، ولمعنى نهوض الأمة وقوتها، لأن حقيقة الهلاك الموت، وهو أشد الضرر فلذلك يشبه بالهلاك كل ما كان ضرراً شديداً، قال تعالى:

﴿ يهلكون أنفسهم ﴾ [التوبة: 42]، وبضده الحياة هي أنفع شيء في طبع الإنسان

فلذلك يشبه بها ما كان مرغوباً، قال تعالى: ﴿ لينذر من كان حياً ﴾ [يس: 70] وقد

جمع التشبيهين قوله تعالى: ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ [الأنعام: 122].

فإن الكفار كانوا في عزّة ومنعة، وكان المسلمون في قلة، فلما قضى الله بالنصر للمسلمين يوم بدر أخفق أمر المشركين ووهنوا، وصار أمر المسلمين إلى جدّة ونهوض، وكان كل ذلك، عن بينة، أي عن حجة ظاهرة تدلّ على تأييد الله قوماً وخذله آخرين بدون ريب.

ومن البعيد حمل ﴿ يهلك ﴾ و ﴿ يحيى ﴾ على الحقيقة لأنه وإن تحمّله المعنى في قوله:

﴿ ليهلك من هلك ﴾ فلا يتحمّله في قوله: ﴿ ويحيى ممن حي ﴾ لأن حياة الأحياء ثابتة

لهم من قبل يوم بدر.

ودل معنى المجاوزة الذي في ﴿ عن ﴾ على أن المعنى، أن يكون الهلاك والحياة صادرين

عن بينة وبارزين منها.

وقرأ نافع، والبرقي عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب، وخلف "حيي" بإظهار

الياءين، وقرأه الباقية: "حيي" بإدغام إحدى الياءين في الأخرى على قياس الإدغام وهما

وجهان فصيحان.

﴿ عن ﴾ للمجاوزه المجازية ، وهي بمعنى ( بعد ) ، أي : بعد بيّنة يتبين بها سبب  
الأميرين : هلاك من هلك ، وحياة من حيي .

وقوله : ﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾ تذييل يشير إلى أن الله سميع دعاء المسلمين طلب  
النصر ، وسميع ما جرى بينهم من الحوار في شأن الخروج إلى بدر ومن مودّتهم أن تكون غير  
ذات الشوكة هي إحدى الطائفتين التي يلاقونها ، وغير ذلك ، وعليم بما يجول في خواطرهم  
من غير الأمور المسموعة وبما يصلح بهم ويبيني عليه مجد مستقبلهم . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(391/313)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾

ساعة تسمع " إذ " تعرف أنها ظرفٌ ، ومعناها : اذكر هذا الوقت ، اذكر إذ أنتم بالعدوة  
الدنيا ، والعدوة شاطئ الوادي وجانبه . وهي جبل مرتفع ؛ لأن الجبال إن كان بينها  
فضاء نسمي هذا الفضاء وادياً ، فيكون الوادي هو الفضاء بين جبلين ، ويكون المكان  
العالي الذي على يمين الوادي وعلى شماله عدوة .

وقوله تعالى :

﴿ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ [ الأنفال : 42 ] .

توضيح وبيان لجغرافية المعركة ، وأهل الإسلام كانوا من ناحية المدينة ، وقوله تعالى : " دنيا " تأنيث الأذنى أي الأقرب ، فالمسلمون كانوا قريبين من المدينة . وكان الكفار قادمين من مكة ، ونزلوا في المكان الأبعد .

فقوله تعالى : ﴿ أُنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ [ الأنفال : 42 ] .

أي في مكان قريب ، وموقع غزوة بدر - كما نعلم - قريب من المدينة ، أما كفار قريش فقد جاءوا من مكة . وبذلك جاءوا من مكان بعيد عن المدينة لذلك سماه الحق تبارك وتعالى هنا :

﴿ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ أي في المكان البعيد عن مكة ، ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله :  
﴿ وَالرَّكِبَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾

(392/313)

---

والركب هو العير أي الجمال التي تحمل التجارة ، وكان المسلمون قد خرجوا ليأخذوها .  
ولما عرف أبو سفيان بذلك غير سير القافلة واتجه إلى ساحل البحر ، ويتكلم الحق

سبحانه وتعالى عن سلوك أبي سفيان حينما أمر أن تسير القوافل بجانب ساحل البحر .  
وساحل البحر - كما هو معلوم - يكون دائماً أسفل من أي أرض يابسة . ويُتخذ سطح  
البحر إلى الآن مقياساً للارتفاعات والانخفاضات بالنسبة للمقاييس البشرية ، فيقال :  
هذا ارتفاعه مائة متراً أو مائتا متراً أو أكثر أو أقل بالنسبة لمستوى سطح البحر . وساحل  
البحر بالنسبة لسطح البحر متساو ، أما الأرض والجبال والوديان فهي تختلف في العلو  
والانخفاض فلا تصلح مقياساً للارتفاعات والانخفاضات ، بينما سطح البحر مستطرق  
استطراقاً سليماً ، بحيث لا توجد في سطح الماء بقعة عالية وأخرى منخفضة .  
وهكذا يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن أسفل ما في الأرض هو ساحل البحر وقد اتخذ  
الناس سطح البحر مقياساً للارتفاعات .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَوْتُوا عِدَّةٌ تُمْ لَّا خَلَّفْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّٰهُ اَمْرًا كَانَ مَفْعُوْلًا ﴾ [الأنفال : 42]

[ .

أي لو أن المؤمنين اتفقوا مع الكفار على موعد ومكان ، لجاء بعضهم متأخراً عن الموعد أو  
منحرفاً عن المكان ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي حدد موعد المعركة ومكانها  
بدقة تامة فتم اللقاء في الموعد والمكان المحددين لئتم الأمر كما قدره الله سبحانه وتعالى ،  
والأمر هو معركة بدر ، وليلقى المؤمنون الكافرين ، لينتصروا عليهم .

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ ﴾ [الأنفال: 42] .

وهل يعني قول الحق ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ ﴾ أن الهلاك هنا هو الموت ؟ لقد مات أيضاً بعض

المؤمنين واستشهدوا .

(393/313)

---

وقول الحق : ﴿ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ ﴾ وهل الحياة هنا تعني مجرد البقاء على قيد الدنيا ؟ .

لقد عاش أيضاً من الكفار كثير رغم أنهم خاضوا معركة بدر . إذن فليس معنى الهلاك

هنا الموت ، وليس معنى الحياة النجاة ، ولكن قول الحق ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ ﴾

تنطبق على الكفار سواء الذين ماتوا أو الذين نجوا ؛ لأن الهلاك هنا هلاك معنوي ، فمن

قتل من الكفار هلك . ومن نجا هلك أيضاً ؛ لأنه بقتاله المؤمنين قد أورد نفسه مورد التهلكة

بالعذاب الذي ينتظره في الآخرة ، إلا إذا أدركته رحمة الله وآمن قبل أن يأتي أجله . والذين

حيوا هم المؤمنون ، والمراد - إذن - ليكفر من كفر ، ويؤمن من آمن عن يقين .

ولقد قلنا من قبل : إنَّ الحق سبحانه وتعالى أطلق الحياة على معان متعددة ، فهناك الحياة

التي فيها الحركة والحس ، وهذه تتحقق ساعة أن تدخل الروح الجسد ليكون للإنسان حياة

. وهذه الحياة هي للمؤمن والكافر . ولكن الحياة بهذا الشكل ؛ حياة منتهية إلى موت غير

موقوت ننتظره في أي لحظة . ولكن الحياة المطلوبة لله هي الحياة التي لا يأتي فيه موت . ولا يكون فيها تعب وشقاء ، تلك هي الحياة الآخرة ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 64] .

أي أنها الحياة الحقيقية . إذن فالذي يؤمن إيماناً حقيقياً يعطيه الله تعالى حياة الخلود في الجنة . ولذلك نستمع جميعاً إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: 42] .

ومنا من يتساءل : كيف يخاطب الله الناس وهم أحياء ويقول لهم : إذا دعاكم لما

يحييكم ؟ ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد لنا بالإيمان حياة خالدة في الجنة . ثم يختم

الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(394/313)

---

ومعنى سميع وعليم أنه سبحانه وتعالى مدرك لكل الأشياء والخواطر ، فما بالسمع يسمعه ، وما بالعين يراه ، وما في الصدر يعلمه ، وما هو في أي حس من أحاسيس الإنسان هو عليم به ؛ لأنه أحاط بكل شيء علماً .

ووسائل الإدراك العلمي في الإنسان هي السمع والبصر والذوق واللمس والشم ، هذه هي الحواس التي تعطي العلم للإنسان الذي لم يكن يعلم شيئاً .

وهو سبحانه وتعالى القائل : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78] .

أي أن هذه الحواس هي التي تعطي الإنسان ما لم يكن قد علمه ، وكلما علم شيئاً ، فليقل : الحمد لله .

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى كيف يتم قدره فيقول : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ . . .

﴿ . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير الشعراوي صـ ﴿

(395/313)

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ قال :

شاطيء الوادي ﴿ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ قال : أبو سفيان .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ إِذْ أَتَمَّ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا . . . ﴾  
الآية . قال : العدوَّة الدُّنْيَا : شفير الوادي الأدنى ، والعدوَّة القُصوى : شفير الوادي  
الأقصى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير رضي الله عنه في قوله ﴿ والركب أسفل منكم ﴾  
﴿ قال : كان أبو سفيان أسفل الوادي في سبعين ركباً . ونفرت قريش وكانت تسعمائة  
وخمسين ، فبعث أبو سفيان إلى قريش وهم بالحنفة : إني قد جاوزت القوم فارجعوا .  
قالوا : والله لا نرجع حتى تأتي ماء بدر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله  
﴿ والركب أسفل منكم ﴾ قال : أبو سفيان وأصحابه مقبلين من الشام تجاراً لم يشعروا  
بأصحاب بدر ، ولم يشعروا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بكفار قريش ، ولا كفار  
قريش ، بهم حتى التقوا على ماء بدر ، فاقتلوا فغلبهم أصحاب محمد صلى الله عليه  
وسلم وأسروهم .

(396/313)

---



وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه في قوله ﴿ وهم بالعدوة القصوى ﴾ من الوادي إلى مكة ﴿ والركب أسفل منكم ﴾ يعني أبا سفيان وغيره، وهي أسفل من ذلك نحو الساحل ﴿ ولو تواعدتم لآخلفتهم في الميعاد ﴾ أي ولو كان على ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ما التقيتم ﴿ ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي ليقضي ما أراد بقدرته من اعزاز الإسلام وأهله واذلال الكفر وأهله من غير ملامنكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه، فأخرجه الله ومن معه إلى العير لا يريد غيرها، وأخرج قريشاً من مكة لا يريدون إلا الدفع عن عيرهم، ثم ألف بين القوم على الحرب وكانوا لا يريدون إلا العير، فقال في ذلك ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ ليفصل بين الحق والباطل ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآيات والعبء، ويؤمن من آمن على مثل ذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور ج 4 ص ﴾

(397/313)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله " إذ أنتم " في هذا الظرف أربعة أوجه :

أحدها : أنه منصوب بـ " اذكروا " مقدراً ، وهو قول الزجاج .

الثاني : أنه بدل من " يوم الفرقان " أيضاً .

الثالث : أنه منصوب بـ " قدير " وهذا ليس بواضح ؛ إذ لا يتقي اتصاله بالقدرة بظرف من الظروف .

الرابع : أنه منصوب بـ " الفرقان " أي : فرق بين الحق والباطل إذ أنتم بالعدوة .

قوله : " بالعدوة " متعلقٌ بمحذوف ؛ لأنه خبر المبتدأ ، والباء بمعنى : طفي كقولك : زيد بمكة .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " بالعدوة " بكسر العين فيهما ، والباقون بالضم فيهما وهما لغتان في شط الوادي وشفيره وضمته ، كالكسوة والكسوة ، والرشوة والرشوة ، سُميت بذلك لأنها عدت ما في الوادي من ماءٍ ونحوه أن يتجاوزها ، أي : منعتها ؛ قال الشاعر : [ الوافر ]

2711 - عدتني عن زيارتها العوادي . . .

وحالت دونها حرب زبون

وقرأ الحسنُ وزيدُ بن علي ، وقتادة وعمرو بن عبيد بالفتح ، وهي كلها لغاتٌ بمعنى واحد .

هذا هو قول جمهور اللغويين ، على أن أبا عمرو بن العلاء أنكر الضم ، ووافقه الأخفش ،

فقال: "لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا الْكُسْرُ".

ونقل أبو عبيد اللغتين، إلا أنه قال: الضمُّ أكثرهما، وقال اليزيديُّ: "الكسر لغةُ الحجاز"؛

وأشددوا قول أوس بن حجر: [البسيط]

2712 - وفارس لم يحلَّ القومُ عدوتَهُ . . .

ولوا سِراعاً وما همُّوا بإقبالِ

بالكسر، والضم.

وهذا هو الذي ينبغي أن يقال، فلا وجه لإنكار الضمِّ، ولا الكسر، لتواتر كلِّ منهما،

ويحمل قول أبي عمرو على أنه لم يبلغه، ويحتمل أن يقال في قراءة من قرأ بفتح العين أن يكون

مصدراً سُمِّيَ به المكان.

(398/313)

---

وقرىء شاذاً "بالعدية" بقلب الواو ياءً لانكسار ما تقدّمها، ولا يُعتبر الفاصل؛ لأنه ساكن

، فهو حاجز غير حصين، وهذا كما قالوا: "هو ابن عمي دنيا" بكسر الدال، وهو من

الدنو، وكذلك: قنينة، وصبيبة، وأصله السلامة، كالذرورة، والصفوة والرُبوة، وقد تقدّم

الكلام على لفظ "الدنيا".

قول "القُصُوى" تأنيث "الأقصى"، والأقصى: الأبعد، والقُصُو: البعد وللصَّرفين  
 عبارتان، إلبهما أن "فُعَلَى" من ذوات الواو، إن كانت اسماً أبدلتْ لأمها ياءً، ثم يُمَثَّلون  
 بنحو: الدُّنْيَا، والعُلْيَا، والقُصْيَا، وهذه صفاتٌ لأنَّها من باب أفعل التَّفْضِيل، وكانَّ العذر  
 لهم أن هذه وإن كانت في الأصلِ صفاتٍ، إلاَّ أنها جرت مجرى الجوامد .  
 قالوا: وإن كانت "فُعَلَى" صفةً أقرتْ لأمها على حالها، نحو: الحُلُوى، تأنيث الأحملى  
 ونصُّوا على أن "القُصُوى" شاذة، وإن كانت لغة الحجاز، وأنَّ "القُصْيَا" قياسٌ وهي لغة  
 تميم، وممن نصَّ على شذوذ: "القُصُوى" يعقوب بن السَّكِّيت .  
 وقال الزمخشريُّ: وأمَّا "القُصُوى" فكالتقود في مجيئه على الأصل، وقد جاء "القُصْيَا"  
 إلا أن استعمال "القُصُوى" أكثر، كما كثر استعمال "استصوب" مع مجيء "استصَاب"  
 ، و"أغيلت" مع "أغالت" انتهى .  
 وقد قرأ زيد بن عليّ: "بالعدوة القُصْيَا" فجاء بها على لغة تميم، وهي القياسُ عند  
 هؤلاء .

والعبارة الثانية - وهي القليلة - العكس، أي: إن كانت صفةً أبدلتْ، نحو: العُلْيَا والدُّنْيَا  
 ، والقُصْيَا، وإن كانت اسماً أقرتْ؛ نحو "حُزُوى"؛ كقوله: [الطويل]  
 2713 - أداراً بحُزُوى هجَّتِ للعَيْنِ عبْرَةً . . .  
 فَمَاءُ الهَوَى يَرَفُضُ، أَوْ يَتَرَقُّ

وعلى هذا فـ "الحلوى" شاذة؛ لإقرار لامها مع كونها صفة، وكذا "القُصوى" أيضاً،  
عند هؤلاء؛ لأنها صفة وقد ترتب على هاتين العبارتين أن "قُصوى" على خلاف القياس  
فيهما وأن "قُصياً" هي القياس؛ لأنها عند الأولين من قبيل الأسماء، وهم يقبلونها ياء  
وعند الآخرين من قبيل الصفات، وهم يقبلونها أيضاً ياءً، وإنما يظهر الفرق في "الحلوى"  
و"حزوى" ف: "الحلوى" عند الأولين تصحيحها قياساً، لكونها صفةً، وشاذة عند  
الآخرين، لأن الصفة عندهم تُلَبُّ وأوها ياءً.  
و"الحزوى" عكسها، فإن الأولين يقبلون في الأسماء، دون الصفات، والآخرين  
عكسهم.

وهذا موضعٌ حسنٌ، يختلط على كثير من الناس، فلذلك شرحناه.  
ونعني بالشدوذ: شدوذ القياس، لاشدوذ الاستعمال، ألا ترى إلى استعمال التواتر بـ  
القُصوى".

قوله ﴿والركب أسفل منكم﴾ الأحسن في هذا الواو، والواو التي قبلها الداخلة على  
هم: "أن تكون عاطفة ما بعدها على "أتم": لأنها مبدأ تقسيم أحوالهم، وأحوال

عدوهم ويجوز أن يكونا وأوي حال، و"أسفل" منصوبٌ على الظرف التائب عن الخبر، وهو في الحقيقة صفةٌ لظرف مكان محذوفٍ، أي: والركبُ مكاناً أسفل من مكانكم. وقرأ زيد بن عليّ "أسفل" بالرفع، على سبيل الاتساع، جعل الظرف نفس الركب مبالغةً واتساعاً.

وقال مكّي: "وأجاز الفراءُ، والأخفشُ، والكسائي رحمهم الله تعالى "أسفل" بالرفع على تقدير محذوفٍ، أي: موضعُ الركب أسفل"، والتخريجُ الأوّلُ أبلغُ في المعنى، والركبُ: اسمُ جمعٍ لـ "راكب" لاجمع تكسر له؛ خلافاً للأخفش؛ كقوله: [الرجز] 2714 - بَنِيهِ مِنْ عَصْبَةٍ مِنْ مَالِيَا . . .

أخشى ركبياً ورُجَيْلاً عادياً

فصغره على لفظه، ولو كان جمعاً لما صغّر على لفظه.

(400/313)

---

قوله "ولكن ليقضي" متلقٍ بمحذوف، أي: ولكن تلاقيتُم ليقضي، وقدّر الزمخشري ذلك المحذوف فقال: "أي: ليقضي الله أمراً كان واجباً أن يفعل، وهو نصرُ أوليائه وقهرُ أعدائه دبر ذلك"، و"كان" يحتمل أن تكون على بابها من الدلالة على اقتران مضمون الجملة

بالزَّمانِ الماضي، وأن تكون بمعنى " صار "، فتدُلُّ على التحوُّلِ، أي: صار مفعولاً بعد أن لم يكن كذلك .

قوله " لِيَهْلِكَ " فيه أوجه :

أحدها : أنه بدلٌ من قوله : " لِيَقْضِيَ اللَّهُ " بإعادة العامل فيتعلَّق بما تعلَّق به الأول .

الثاني : أنه متعلِّقٌ بقوله " مَفْعُولاً " ، أي : فعل هذا الأمر لكيَّت وكَيْتَ .

الثالث : أنه متعلِّقٌ بما تعلَّب به " لِيَقْضِيَ " على سبيل العطفِ عليه بحرفِ عطفٍ محذوفٍ ، تقديره : وليهلكَ ، فحذف العاطفَ ، وهو قليلٌ جداً ، وتقدَّم التنبيه عليه .

الرابع : أنه متعلِّقٌ بـ " يَقْضِيَ " ذكره أبو البقاء رحمه الله تعالى .

وقرأ الأعمشُ وعصمة عن أبي بكر عن عاصم " لِيَهْلِكَ " بفتح اللام ، وقياسُ ما مضى

هذا " هَلِكَ " بالكسر ، والمشهور إنما هو الفتح ، قال تعالى : ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ ﴾ [

النساء : 176 ] ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ ﴾ [ غافر : 34 ] .

قوله " مَنْ حَيَّ " قرأ نافعٌ وأبو بكر عن عاصم ، والبيزيُّ عن ابن كثير بالإظهار والباقون

بالإدغام ، والإظهارُ والإدغامُ في هذا النوع لغتان مشهورتان ، وهو كلُّ ما آخِرُهُ ياءٌ ان من

الماضي أولاهما مكسورة ؛ نحو : " حَيِّي ، وَعَيْي " ، ومن الإدغام قول المتلمس : [ الطويل

[

2715 - فَهَذَا أَوْ أُنِ الْعَرَضُ حَيَّ ذُبَابُهُ . . . . .

وقال الآخرُ: [مجزوء الكامل]

2716 - عَيُّوا بِأَمْرِهِمْ كَمَا . . .

عَيَّتْ بِيُضْنِهَا الْحَمَامَةُ

(401/313)

فأدغم "عَيُّوا"، وينشد "عَيَّتْ"، وعَيَّيْتُ" بالإظهار والإدغام، فمن أظهر؛ فلأنه الأصلُ ولأن الإدغام يُؤدِّي إلى تضعيف حرفِ العلة، وهو ثقيلٌ في ذاته؛ ولأن الياء الأولى يتعينُ فيها الإظهارُ في بعضِ الصُّور، وذلك في مضارع هذا الفعل؛ لانقلاب الثانية ألفاً في يحيياً، ويعيياً، فحمل الماضي عليه طرداً للباب؛ ولأنَّ الحركةَ في الثانية عارضةٌ؛ لزوالها في نحو: حَيَّيْتُ، وبابه؛ ولأنَّ الحركتين مختلفتان؛ واختلاف الحركتين كاختلاف الحرفين . قالوا وكذلك: لِحَحَّتْ عينه وضربَ المكان، وألَّ السَّقَاءُ، ومشَّشَتْ الدَّابَّةُ . قال سيبويه: "أخبرنا بهذه اللغة يونسٌ" يعني بلغة الإظهار .

قال: "قد سمعت بعض العرب يقول: أَحْيِيَا، وَأَحْيِيَّة، فيظهر"

وإذا لم يدغم مع لزوم الحركة فمع عروضها أولضى، ومن أدغم فلاستتقال ظهور الكسرة في حرف يُجانسه؛ ولأنَّ الحركة الثانية لازمةٌ لأنَّها حركةُ بناء، ولا يضرُّ زوالها في نحو: "



حَيِّتُ" ، كما لا يُضَرُّ ذلك فيما يجب إدغامه من الصحيح ، نحو : حَلَّتْ وَظَلَّتْ ، وهذا كله فيما كانت حركته حركة بناء ، ولذلك قِيدَ به الماضي .

أما إذا كانت حركة إعراب فالإظهار فقط ، نحو : لن يُحْيِي ولن يُعْيِي .

## فصل

قوله " عَنْ بَيْنَةِ " متعلق بـ " يَهْلِكَ " و " يَحْيَا " ، والهلاكُ ، والحياةُ عبارةٌ عن الإيمان والكفر ، والمعنى : ليصدر كُفْرٌ من كُفْرٍ عن وضوحٍ وبيان ، لا عن مُخالطةٍ شبيهة ، وليصدر إسلامٌ من أسلم عن وضوحٍ لا عن مُخالطةٍ شبيهة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 526.530 ﴾

(402/313)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذِ اتَّمَّ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ القُصْوَى وَالرُّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاحْتِلَافَتُمْ فِي المِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ .

يخبر - سبحانه - أن ما جرى يوم بدرٍ من القتال ، وما حصل من فنون الأحوال كان بحكم

التقدير ، لا بما يحصل من الخلق من التدبير ، أو بحكم تقضيه روية التفكير . بل لو كان ذلك على اختيار وتواعد ، كنتم عن تلك الجملة على استكراه وتباعد ، فجرى على ما جرى ليقضي الله أمراً كان مقضياً ، وحصل من الأمور ما سبق به التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾



أي ليُضِلَّ مَنْ زَاغَ عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ لُزُومِهِ الْحُجْبَةِ ، وَيَهْتَدِي مَنْ أَقَامَ عَلَى الْحَقِّ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ .

ويقال الحقُّ أَوْضَحَ السَّبِيلَ وَنَصَبَ الدَّلِيلَ ، وَلَكِنْ سَدَّ بَصَائِرَ قَوْمٍ عَنِ شُهُودِ الرِّشْدِ ، وَفَتَحَ بَصَائِرَ آخَرِينَ لِإِدْرَاكِ طَرِيقِ الْحَقِّ .

الهالك من وقع في أودية التفرقة ، والحَيُّ مَنْ حَيَّيَ بِنُورِ التَّعْرِيفِ .  
ويقال الهالك من كان بحظّه مربوطاً ، والحَيُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَسْرِكِ كُلِّ نَصِيبٍ مُسْتَلَباً مَجْذُوباً .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات - ج 1 ص 627 ﴾

(403/313)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوى فى تفسير القرآن الكريم  
ويسمى (جنة المشتاق فى تفسير كلام الملك الخلاق)  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورسُلى - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع عشر بعد الثلاثمائة  
حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع عشر بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 43 ﴾ من سورة الأنفال

وحتى الآية ﴿ 52 ﴾ من نفس السورة

(4/314)

قوله تعالى ﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَتَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (43)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم أتم سبحانه تصوير حالتهم بقوله مبيناً ما أشار إليه من لطف تدبره : ﴿ إِذْ ﴾ أي اذكر إذ أردت علم ذلك حين ﴿ يريكم الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال فهو يفعل ما يشاء ﴿ في منامك قليلاً ﴾ تأكيداً لما تقدم إعلامه به من أن المصادمة - فضلاً عما نشأ عنها - ما كان إلا منه وأنهم كانوا كالآلة التي لا اختيار لها ، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رآهم في منامه قليلاً فحدث أصحاب - رضى الله عنهم -م بذلك فاطمأنت قلوبهم وشجعهم ذلك ؛ وعين ما كان يحصل من الفساد لولا ذلك فقال : ﴿ ولو أراكم ﴾ أي في

منامك أو غيره ﴿ كثيراً ﴾ .

ولما كان الإخبار بعد الوقعة بصد ما وقع فيها مما يقتضي طبع البشر التوقف فيه ، أكد قوله

: ﴿ لفشتم ﴾ أي جبنتم ﴿ ولتنازعتن ﴾ أي اختلفتم فنزع كل واحد منزعاً خلافاً

منزع صاحبه ﴿ في الأمر ﴾ أي فوهنتم فزادكم ذلك ضعفاً وكراهةً للقائهم ﴿ ولكن

الله ﴾ أي الذي أحاط بكل شيء قدرةً وعلماً ﴿ سلم ﴾ أي ولكن لم يركهم كذلك

فحصلت السلامة عما كان يتسبب عنها من النكوص ، ثم بين العلة في ترتيبه ذلك وإخباره

بهذا الأمر المفروض بقوله : ﴿ إنه عليم ﴾ أي بالغ العلم ﴿ بذات الصدور ﴾ أي

ضماؤها من الجراءة والجبن وغيرهما قبل خطورها في القلوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم

الدرج ح 3 ص 222 ﴾

(5/314)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من التي أنعم الله بها على أهل بدر ، وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ ﴾ منصوب يا ضمرا اذكر ، أو هو بدل ثان من يوم الفرقان أو متعلق بقوله :  
﴿ لَسَمِعُ عَلِيمٌ ﴾ أي يعلم المصالح إذ يقللهم في أعينكم .

المسألة الثانية :

قال مجاهد : أرى الله النبي عليه السلام كفار قريش في منامه قليلاً فأخبر بذلك أصحابه .

فقالوا : رؤيا النبي حق ، القوم قليل ، فصار ذلك سبباً لجراءتهم وقوة قلوبهم .

فإن قيل : رؤية الكثير قليلاً غلط ، فكيف يجوز من الله تعالى أن يفعل ذلك ؟

قلنا : مذهبنا أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأيضاً لعله تعالى أراه البعض دون

البعض فحكم الرسول على أولئك الذين رأهم بأنهم قليلون .

وعن الحسن : هذه الأراءة كانت في اليقظة .

قال : والمراد من المنام العين التي هو موضع النوم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا ﴾ لذكرته للقوم ولو سمعوا ذلك لفشلوا ولتنازعوا ،

ومعنى التنازع في الأمر ، الاختلاف الذي يحاول به كل واحد نزع صاحبه عما هو عليه ،

والمعنى : لا اضطرب أمركم واختلفت كلمتكم ﴿ ولكن الله سَلَّمَ ﴾ أي سلمكم من

المخالفة فيما بينكم .

وقيل : سلم الله لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم ، وقيل سلمهم من الهزيمة يوم بدر

والأظهر أن المراد ، ولكن الله سلمكم من التنازع ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ يعلم ما يحصل فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 135 . 136 ﴾

(6/314)

وقال السمرقندي :

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أن العدو قليل قبل أن يلتقوا ، فأخبر أصحابه بما رأى في المنام أن العدو قليل ، فقالوا : رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حق والقوم القليل .

فلما التقوا بدر قتل المشركين في أعين المؤمنين لتصديق رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم قال : ﴿ وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا فَشِلْتُمْ ﴾ ، يعني لجبنتم وتركتهم الصف ، ﴿ ولتنازعتهم في الأمر ﴾ ؛ يعني اختلفتم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ ولكن الله سلم ﴾ ، يعني ولكن الله أتم للمسلمين أمرهم على عدوهم ، ويقال : سلم

يعني قضى بالهزيمة على الكفار والنصرة للمؤمنين ، ويقال : إذ يريكم الله في منامك قليلاً

يعني في عينك ، لأن العين موضع النوم ، أي في موضع منامك .

وروي عن الحسن قال : معناه في عينيك التي تنام بها .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ، يعني إني عالم بسرائركم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بجز العلوم ح 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ ﴾

يا محمد يعني المشركين ﴿ فِي مَنَامِكَ ﴾ أي في نومك ، وقيل : في موضع نومك يعني عينك

﴿ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ ﴾ ﴿ لَجِبْتُمْ ﴾ ﴿ وَتَنَازَعْتُمْ ﴾ ﴿ اِخْتَلَفْتُمْ ﴾ ﴿ فِي الْأَمْرِ ﴾

وذلك أن الله تعالى أراهم إياه في منامه قليلا فأخبر صلى الله عليه وسلم بذلك ، فكان

تثبيتا لهم ونعمة من الله عليهم شجعهم بها على عدوهم فذلك قوله عز وجل ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ

سَلَّمَ ﴾ قال ابن عباس : سلم الله أمرهم حين أظهرهم على عدوهم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(7/314)

---



وقال الماوردي:

قوله عز وجل: ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾

فيه وجهان:

أحدهما: أن الله أرى نبيه صلى الله عليه وسلم قلة المشركين عياناً، وقوله ﴿فِي مَنَامِكَ﴾

﴿يريد في عينيك التي هي محل النوم، قاله الحسن.

والثاني: أنه ألقى عليه النوم وأراه قتلهم في نومه، وهو الظاهر، وعليه الجمهور.

وإنما أراه ذلك على خلاف ما هو به لطفاً أنعم به عليه وعلى أمته، ليكون أثبت لقلوبهم

وأقدم لهم على لقاء عدوهم، ولولا ذلك لما جازت هذه الحالة من الله تعالى في نبيه صلى

الله عليه وسلم.

﴿وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا فَفُشِلْتُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لاختلقتهم في لقاءهم أو الكف عنهم.

والثاني: لجبنتم عنهم وانهزتم منهم.

﴿... وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: سلم من الفشل.

والثاني: لجبنتم عنهم وانهزتم منهم ولكن الله سلم من العدو.

وفيه ثالث : ولكن الله سلم أمره فيهم حتى نفذ ما حكم فيهم به من هلاكهم . انتهى انتهى .

اه ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(8/314)

وقال ابن عطية :

﴿ إِذِ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾

المهدوي ﴿ إذ ﴾ نصب بتقدير واذكر .

قال القاضي أبو محمد : أو بدل من ﴿ إذ ﴾ المتقدمة وهو أحسن ، وتظاهرت الروايات أن هذه الآية نزلت في رؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى فيها عدد الكفار قليلاً فأخبر بذلك أصحابه فقتل نفوسهم وحرصوا على اللقاء ، فهذا معنى قوله ﴿ في منامك ﴾ أي في نومك قاله مجاهد وغيره .

وروي عن الحسن أن معنى قوله ﴿ في منامك ﴾ أي في عينك إذ هي موضع النوم ، وعلى هذا التأويل تكون الرواية في اليقظة .

(9/314)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا القول ضعيف ، وعليه فسر النقاش وذكره عن المازني ،  
والضمير على التأويلين من قوله ﴿ يريكم ﴾ عائد على الكفار من أهل مكة ، ومما  
يضعف ما روي عن الحسن أن معنى هذه الآية يتكرر في التي بعدها ن لأن النبي صلى الله  
عليه وسلم مخاطب في الثانية أيضاً ، وقد تظاهرت الرواية أن النبي صلى الله عليه وسلم ،  
انتبه وقال لأصحابه " أبشروا فلقد نظرت إلى مصارع القوم " ونحو هذا ، وقد كان علم  
أنهم ما بين التسعمائة إلى الألف ، فكيف يراهم ببصره بخلاف ما علم ، والظاهر أنه رآهم  
في نومه قليلاً قدرهم وحالهم وبأسهم مهزومين مصروعين ، ويحتمل أنه رآهم قليلاً عددهم  
، فكان تأويل رؤياه انهزامهم ، فالقلة والكثرة على الظاهر مستعارة في غير العدد ، كما  
قالوا : المرء كثير بأخيه ، إلى غير ذلك من الأمثلة ، والفشل الخور عن الأمر ، إما بعد  
التلبس وإما بعد العزم على التلبس و ﴿ تنازعتم ﴾ أي تخالفتم و ﴿ في الأمر ﴾ يريد في  
اللقاء والحرب و ﴿ سلم ﴾ لفظ يعم كل متخوف اتصل بالأمر أو عرض في وجهه فسلم الله  
من ذلك كله ، وعبر بعض الناس أن قال " سلم لكم أمركم " ونحو هذا مما يندرج فيما ذكرناه  
وقوله ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بإيمانكم وكفركم مجاز بحسب ذلك ، وقرأ  
الجمهور من الناس " ولكن الله سلم " بشد النون ونصب المكتوبة وقرأت فرقة " ولكن الله  
برفع المكتوبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ﴾

فيه قولان .

أحدهما : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم رأى عسكر المشركين في المنام قبل لقاءهم في قلة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

قال مجاهد : لما أخبر أصحابه بأنه رآهم في المنام قليلاً ، كان ذلك تشبيهاً لهم .

قال أبو سليمان الدمشقي : والكلام متعلق بما قبله ، فالمعنى : وإن الله لسميع لما يقوله أصحابك ، عليهم بما يضمرونه ، إذ حدثهم بما رأيت في منامك .

والثاني : إذ يريكهم الله بعينك التي تنام بها ، قاله الحسن .

قال الزجاج : وكثير من النحويين يذهبون إلى هذا المذهب .

ومعناه عندهم : إذ يريكهم الله في موضع منامك ، أي : بعينك ؛ ثم حذف الموضع ، واقام المنام مقامه .

قوله تعالى : ﴿ لفشلتم ﴾ أي : لجبنتم وتأخرتم عن حربهم .

وقال مجاهد : لفشل أصحابك ، ولرأوا ذلك في وجهك .

قوله تعالى : ﴿ ولتنازعتهم في الأمر ﴾ أي : لاختلفتم في حربهم ، فكان ذلك من دواعي هزيمتكم ، ﴿ ولكن الله سلم ﴾ من المخالفة والفشل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ﴾  
ح 3 ص

(11/314)

وقال القرطبي :

﴿ إِذ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾

قال مجاهد : رآهم النبي صلى الله عليه وسلم في منامه قليلاً ، فقص ذلك على أصحابه ؛ فثبتهم الله بذلك .

وقيل : عنى بالمنام محل النوم وهو العين ؛ أي في موضع منامك ، فحذف ؛ عن الحسن .  
قال الزجاج : وهذا مذهب حسن .

ولكن الأولى أسوع في العربية ؛ لأنه قد جاء ﴿ وَإِذ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾  
وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴿ [ الأنفال : 44 ] فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء ، وأن تلك رؤية النوم .

ومعنى ﴿ لَفَشِلْتُمْ ﴾ لَجِبْتُمْ عن الحرب .

﴿ وَلَنَنَازِعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ اختلفتم .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي سلمكم من المخالفة .

ابن عباس : من الفشل .

ويحتمل منهما .

وقيل : سلم أي أتم أمر المسلمين بالظفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 8 ص



(12/314)

---

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ ﴾

يعني : واذكرا يا محمد نعمة الله عليك إذ يريك المشركين ﴿ في منامك ﴾ يعني في نومك ﴿

قليلاً ﴾ قال مجاهد : أراهم الله في منامه قليلاً فأخبر النبي ( صلى الله عليه وسلم )

أصحابه بذلك وكان ذلك تشبيهاً .

وقال محمد بن إسحق : فكان ما أراه الله من ذلك نعمة من نعمه عليهم يشجعهم بها على

عدوهم ، فكف عنهم بها ما تخوف عليهم من ضعفهم لعلمه بما فيهم .  
وقيل : لما أرى الله النبي ( صلى الله عليه وسلم ) كفار قريش في منامه قليلاً فأخبر بذلك  
أصحابه قالوا : رؤيا النبي ( صلى الله عليه وسلم ) حق فصار ذلك سبباً لجراءتهم على  
عدوهم وقوة لقلوبهم .

وقال الحسن : إن هذه الإراءة كانت في اليقظة .

والمراد من المنام ، العين ، لأنها موضع النوم ﴿ ولو أراكم كثيراً لفشلتم ﴾ يعني لجنتم  
والفشل ضعف مع جبن والمعنى ولو أراكم كثيراً فذكرت ذلك لأصحابك لفشلوا وجبنوا  
عنهم ﴿ ولتنازعتهم في الأمر ﴾ يعني اختلفتم في أمر الإقدام عليهم أو الإحجام عنهم وقيل  
معنى التنازع في الأمر الاختلاف الذي تكون معه محاصمة ومجادلة ومجادلة كل واحد إلى  
واحد إلى ناحية والمعنى : لا اضطرب أمركم واختلفت كلمتكم ﴿ ولكن الله سلم ﴾ يعني  
: ولكن الله سلمكم من التنازع والمخالفة فيما بينكم .

وقيل : معناه ولكن الله سلمكم من الهزيمة والفشل ﴿ إنه عليهم بذات الصدور ﴾ يعني أنه  
تعالى يعلم ما يحصل في الصدور من الجراءة والجبن والصبر والجزع .

وقال ابن عباس : إنه عليهم بما في صدوركم من الحب لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الخازن - 3 ص ﴿

وقال أبو حيان :

﴿ إذ يريكم الله في منامك قليلاً ﴾

الخطاب للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) وتظاهرت الروايات أنها رؤيا منام رأى الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) فيها الكفار قليلاً فأخبر بها أصحابه فقويت نفوسهم وشجعت على أعدائهم ، وقال النبي ( صلى الله عليه وسلم ) لأصحابه حين اتبه : " أبشروا لقد نظرت إلى مصارع القوم " والمراد بالقلّة هنا قلة القدر واليأس والنجدة وأنهم مهزومون مصروعون ولا يحمل على قلة العدد لأنه ( صلى الله عليه وسلم ) رؤياه حق وقد كان علم أنهم ما بين تسعمائة إلى ألف فلا يمكن حمل ذلك على قلة العدد وروي عن الحسن أن معنى ﴿ في منامك ﴾ في عينك لأنها مكان النوم كما قيل للقطيفة المنامة لأنه ينام فيها فتكون الرؤية في اليقظة وعلى هذا فسّر النقاش وذكره عن المازني وما روي عن الحسن ضعيف ، قال الزمخشري وهذا تفسير فيه تعسف وما أحسب الرواية فيه صحيحة عن الحسن وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته والمعنى : ﴿ ولو أراكم ﴾ ﴿ في منامك ﴾ كثيراً ففشلتم ﴿ أي لخزتم وجبنتم عن اللقاء ﴾ ﴿ ولتنازعتم في الأمر ﴾ أي تفرقت آراؤكم في أمر القتال فكان يكون ذلك سبباً لانهزامكم وعدم إقدامكم على قتال أعدائكم لأنه لو رآهم كثيراً أخبركم برؤياه ففشلتم ولما كان الرسول عليه السلام محمياً من الفشل معصوماً من النقائص



أسند الفشل إلى مَنْ يمكن ذلك في حقه فقال تعالى ﴿ لفشلتم ﴾ وهذا من محاسن القرآن  
ولكن الله سلم من الفشل والتنازع والاختلاف بإرأيته له ( صلى الله عليه وسلم ) الكفار  
قليلاً فأخبرهم بذلك فقويت به نفوسهم ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ يعلم ما سيكون  
فيها من الجرأة والجبن والصبر والجزع ﴿ وإذ ﴾ بدل من ﴿ إذ ﴾ وانتصب ﴿ قليلاً ﴾  
.

(14/314)

---

قال الزمخشري على الحال وما قاله ظاهر لأن أرى منقولة بالهمزة من رأى البصرية فتعدت  
إلى اثنين الأول كاف خطاب الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، والثاني ضمير الكفار  
قليلاً وكثيراً منصوبان على الحال وزعم بعض النحويين أن أرى الحلمية تعدى إلى ثلاثة  
كأعلم وجعل من ذلك قوله تعالى : ﴿ إذ يريكم الله في منامك قليلاً ﴾ فاتصاف قليلاً  
عنده على أنه مفعول ثالث وجواز حذف هذا المنصوب اقتصاراً يبطل هذا المذهب .

تقول رأيت زيدا في النوم وأراني الله زيدا في النوم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4

ص ﴿

وقال أبو السعود :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾

منصوبٌ باذِكْرٍ أو بدلٍ آخرُ من (يومَ الفرقانِ) أو متعلِّقٌ بعَلِيمٍ أي يعلم المصالحَ إذ يقللهم في عينك في رؤياك وهو أن تخبرَ به أصحابكم فيكونَ تشبيهاً لهم وتشجيعاً على عدوهم ﴿ وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا فَفَشَلْتُمْ ﴾ أي لجبنتم وهبتم الإقدام ﴿ ولتنازعتم في الأمر ﴾ أي أمر القتال وتفرقت أراؤكم في الثبات والقرار ﴿ ولكن الله سلّم ﴾ أي أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبين والصبر والجزع ولذلك دبر ما دبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ﴾

(15/314)

وقال الألويسي :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾

مقدر باذِكْرٍ أو بدلٍ من ﴿ يومَ الفرقانِ ﴾ [ الأنفال : 41 ] وجوز أن يتعلق ب ﴿ عَلِيمٍ ﴾ [ الأنفال : 42 ] وليس بشيء ، ونصب قليلاً على أنه مفعول ثالث عند الأجهوري أو حال على ما يفهمه كلام غيره .

والجمهور على أنه صلى الله عليه وسلم أرى ما أرى في النوم وهو الظاهر المتبادر ، وحكمة

إراءتهم إياه صلى الله عليه وسلم وسلم قليلين أن يخبر أصحابه رضي الله تعالى عنهم  
فيكون ذلك تشبيهاً لهم ، وعن الحسن أنه فسر المنام بالعين لأنها مكان النوم كما يقال للقטיפه  
المنامة لأنها ينام فيها فلم تكن عنده هناك رؤياً أصلاً بل كانت رؤية ، وإليه ذهب البلخي  
ولا يخفى ما فيه لأن المنام شائع بمعنى النوم مصدر ميمي على ما قال بعض المحققين أوفى  
موضع الشخص النائم على ما في "الكشف" ففي الحمل على خلاف ذلك تعقيد ولا نكته  
فيه ، وما قيل : إن فائدة العدول للدلالة على الأمن الوافر فليس بشيء لأنه لا يفيد ذلك  
فالنوم في تلك الحال دليل إلا من لا أن يريهم في عينه التي هي محل النوم ، على أن الروايات  
الجمعة برويته صلى الله عليه وسلم إياهم مناماً وقص ذلك على أصحابه مشهورة لا  
يعارضها كون العين مكان النوم نظراً إلى الظاهر ، ولعل الرواية عن الحسن غير صحيحة  
فإنه الفصيح العالم بكلام العرب ، وتخرج كلامه على أن في الكلام مضافاً محذوفاً أقيم  
المضاف إليه مقامه أي في موضع منامك مما لا يرتضيه اليقظان أيضاً ، والتعبير بالمضارع  
لاستحضار الصورة الغريبة ، والمراد إذا أراكم الله قليلاً ﴿ وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا فَشِلْتُمْ ﴾  
أي لجنتم وهبتم الإقدام ، وجمع ضمير الخطاب في الجزاء مع إفراده في الشرط إشارة كما  
قيل : إلى أن الجبن يعرض لهم لاله صلى الله عليه وسلم إن كان الخطاب للأصحاب فقط  
وإن كان لكل يكون من إسناد ما للأكثر لكل ﴿ ولتنازعتهم في الأمر ﴾ أي أمر القتال

وتفرقت آراؤكم في الثبات والفرار ﴿ ولكن الله سَلَّمَ ﴾ أي أنعم بالسلامة من الفشل  
والتنازع.

(16/314)

---

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي الخواطر التي جعلت كأنها مالكة للصدور ، والمراد أنه  
يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع ولذلك دبر ما دبر . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ روح المعاني ج 10 ص ﴾

(17/314)

---

وقال ابن عاشور :  
﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ ﴾ بدل من قوله : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا ﴾ [ الأنفال : 42 ] فَإِنَّ  
هذه الرؤيا بما اشتمل عليه زمان كونهم بالعدوة الدنيا لوقوعها في مدة نزول المسلمين بالعدوة  
من بدر ، فهو بدل من بدل .  
والمنام مصدر ميمي بمعنى النوم ، ويطلق على زمن النوم وعلى مكانه .

ويتعلق قوله: ﴿ في منامك ﴾ بفعل ﴿ يريكم ﴾ ، فالإراءة إراءة رؤيا ، وأسندت الإراءة إلى الله تعالى ؛ لأن رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وحي بملو لها ، كما دل عليه قوله تعالى ، حكاية عن إبراهيم وابنه ﴿ قال يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ ماذا ترى قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ﴾ [ الصافات : 102 ] فإن أرواح الأنبياء لا تغلبها الأخلاط ، ولا تجول حواسهم الباطنة في العبت ، فما رؤياهم إلا مكاشفات روحانية على عالم الحقائق .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى رؤيا منام ، جيش المشركين قليلا ، أي قليل العدد وأخبر برؤياه المسلمين فتشجعوا للقاء المشركين ، وحملوها على ظاهرها ، وزال عنهم ما كان يخامرهم من تهيب جيش المشركين .

فكانت تلك الرؤيا من أسباب النصر ، وكانت تلك الرؤيا منة من الله على رسوله والمؤمنين ، وكانت قلة العدد في الرؤيا رمزا وكناية عن وهن أمر المشركين لا عن قلة عددهم . ولذلك جعلها الله في رؤيا النوم دون الوحي ، لأن صور المرآئي المنامية تكون رموزا لمعان فلا تعد صورتها الظاهرية خلفا ، بخلاف الوحي بالكلام .

وقد حكاها النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين ، فأخذوها على ظاهرها ، لعلمهم أن رؤيا النبي وحي ، وقد يكون النبي قد أطلع الله على تعبيرها الصائب ، وقد يكون صرفه عن ذلك فظن كالمسلمين ظاهرها ، وكل ذلك للحكمة .

فرؤيا النبي صلى الله عليه وسلم لم تخطىء ولكنها أوهمتهم قلة العدد ، لأن ذلك مرغوبهم والمقصود منه حاصل ، وهو تحقق النصر ، ولو أخبروا بعدد المشركين كما هو لجنبوا عن اللقاء فضعفت أسباب النصر الظاهرة المعتادة التي تكسبهم حسن الأحدث .

ورؤيا النبي لا تخطىء ، ولكنها قد تكون جارية على الصورة الحاصلة في الخارج ، كما ورد في حديث عائشة في بدء الوحي : أنه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وهذا هو الغالب ، وخاصة قبل ابتداء نزول الملك بالوحي ، وقد تكون رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم رمزية وكناية كما في حديث رؤياه بقراً تذبح ، ويُقال له : الله خير ، فلم يعلم المراد حتى تبين له أنهم المؤمنون الذين قتلوا يوم أُحد .

فلما أراد الله خذل المشركين وهزمهم أرى نبيّه المشركين قليلاً كناية بأحد أسباب الانهزام ، فإنّ الانهزام يجيء من قلة العدد .

وقد يُمسك النبي عليه الصلاة والسلام عن بيان التعبير الصحيح للحكمة ، كما في حديث تعبير أبي بكر رؤيا الرجل الذي قصّ رؤياه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول النبي له :

"أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً" وأبى أن يبين له ما أصاب منها وما أخطأ .  
ولو أخبر الله رسوله ليُخبر المؤمنين بأنهم غالبون المشركون لآمنوا بذلك إيماناً عقلياً لا يحصل  
منه ما يحصل من التصوير بالمحسوس ، ولو لم يخبره ولم يُره تلك الرؤيا لكان المسلمون يحسبون  
للمشركين حساباً كبيراً .  
لأنهم معروفون عندهم بأنهم أقوى من المسلمين بكثير .  
وهذه الرؤيا قد مضت بالنسبة لزمان نزول الآية ، فالتعبير بالفعل المضارع لاستحضار حالة  
الرؤيا العجيبة .

والقليل هنا قليل العدد بقرينة قوله : ﴿ كثير ﴾ .

أراه إياهم قليلي العدد ، وجعل ذلك في المكاشفة النومية كناية عن الوهن والضعف .

(19/314)

---

فإن لغة العقول والأرواح أوسع من لغة التخاطب ، لأنّ طريق الاستفادة عندها عقلي  
مستند إلى محسوس ، فهو واسطة بين الاستدلال العقلي المحض وبين الاستفادة اللغوية .  
وأخبر بـ "قليل" و "كثير" وكلاهما مفرد عن ضمير الجمع لما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ معه  
ربيون كثير ﴾ [آل عمران : 146] .

ومعنى : ﴿ ولوأراكم كثيراً لفشلتم ﴾ أنه لو أراكم رؤياً مماثلة للحالة التي تبصرها العين ؛ لدخل قلوب المسلمين الفشل ، أي إذا حدثهم النبي بما رأى ، فأراد الله إكرام المسلمين بأن لا يدخل نفوسهم هلع ، وإن كان النصر مضموناً لهم .

فإن قلت : هذا يقتضي أن الإراءة كانت متعينة ولم لم يترك الله إراءة ته جيش العدو فلا تكون حاجة إلى تمثيلهم بعدد قليل ، قلت : يظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم رجا أن يرى رؤياً تكشف له عن حال العدو ، فحقق الله رجاءه ، وجنّبه ما قد يفضي إلى كدر المسلمين ، أو لعل المسلمين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعلم ربه عن حال العدو .

والفشل : الجبن والوهن .

والتنازع : الاختلاف .

والمراد بالأمر الخطة التي يجب اتباعها في قتال العدو من ثبات أو انجلاء عن القتال .

والتعريف في ﴿ الأمر ﴾ للعهد وهو أمر القتال وما يقتضيه .

والاستدراك في قوله : ﴿ ولكن الله سلم ﴾ راجع إلى ما في جملة : ﴿ ولوأراكم كثيراً ﴾

﴿ من الإشعار بأن العدو كثير في نفس الأمر ، وأن الرؤيا قد تحاكي الصورة التي في نفس

الأمر ، وهو الأكثر في مرآي الأنبياء ، وقد تحاكي المعنى الرمزي وهو الغالب في مرآي غير

الأنبياء ، مثل رؤيا ملك مصر سبع بقرات ، ورؤيا صاحبي يوسف في السجن ، وهو القليل



في مرآة الأنبياء مثل رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم أنه هزَّ سيفاً فانكسر في يده ، فمعنى الاستدراك رفع ما فرض في قوله : ﴿ ولوأراكم كثيراً ﴾ .

(20/314)

فمفعول ﴿ سلم ﴾ ومتعلِّقه محذوفان إيجازاً إذ دلَّ عليه قوله : ﴿ لفشلتم ولتنازعتم ﴾ والتقدير : سلَّمتكم من الفشل والتنازع بأن سلمكم من سببهما ، وهو إراءتكم واقع عدد المشركين ، لأن الإطّلاع على كثرة العدو يلقى في النفوس تهيباً له وتخوفاً منه ، وذلك ينقص شجاعة المسلمين الذين أراد الله أن يوفر لهم منتهى الشجاعة .

ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله : ﴿ ولكن الله سلم ﴾ دون أن يقول : ولكنه سلم ، لقصد زيادة إسناد ذلك إلى الله ، وأنه بعنايته ، واهتماً بهذا الحادث .

وجملة : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تذييل للمنة ، أي : أوحى إلى رسوله بتلك الرؤيا الرمزية ، لعلمه بما في الصدور البشرية من تأثر النفوس بالمشاهدات والمحسوسات أكثر مما تتأثر بالاعتقادات ، فعلم أنه لو أخبركم بأن المشركين ينهزمون ، واعتقدتم ذلك لصدق إيمانكم ، لم يكن ذلك الاعتقاد مثيراً في نفوسكم من الشجاعة والإقدام ما يثيره اعتقادي أنّ عددهم قليل ، لأن الاعتقاد بأنهم ينهزمون لا ينافي توقع شدة نزل بالمسلمين ، من موت

وجراح قبل الانتصار ، فأما اعتقاد قلة العدو فإنها تثير في النفوس إقداماً واطمئناناً بال ،  
فلعلمه بذلك أراكم الله في منامك قليلاً .

ومعنى ﴿ ذات الصدور ﴾ الأحوال المصاحبة لضمائر النفوس ، فالصدور أطلقت على  
ما حل فيها من النوايا والمضمرات ، فكلمة ﴿ ذات ﴾ بمعنى صاحبة ، وهي مؤنث ( ذو  
( أحد الأسماء الخمسة ، فأصل ألفها الواو ووزنها ( ذَوْت ) انقلبت واوها ألفاً لتحركها  
وانفتاح ما قبلها ، قال في "الكشاف" في تفسير سورة [ فاطر : 38 ] في قوله تعالى : ﴿ إنه  
عليم بذات الصدور ﴾ هي تأنيث ذو ، وذو موضوع لمعنى الصحبة من قوله :

لَتَغْنِيَّ عَنِّي ذَا إِنَائِكَ أَجْمَعًا

يعني أن ذات الصدور الحالة التي قرارتها الصدور فهي صاحبها وساكنتها ، فذات  
الصدور النوايا والخواطر وما يهمهم به المرء وما يدبره ويكيده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير  
والتنوير ح 9 ص ﴾

(21/314)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ

سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿43﴾ ❁

والحق سبحانه وتعالى إذا أراد معركة فاصلة ، يجعل الخواطر في كل قوم مهيجة على الحرب ؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد للفئتين أن يشتبكوا ، ويفصل الحق في المسألة ، وهذا الاشتباك لو حدث بالمقاييس العادية ربما جُبِنَتُ الفئَةُ القليلة عن أن تواجه الفئَةَ الكثيرة . ولكي تتم المعركة لا بد أن يكون كل من الفريقين المتحاربين واثقا من النصر ؛ لأنه لو أيقن أحدهما أنه سيهزم لما دخل إلى المعركة .

والله سبحانه وتعالى يُعلم رسوله والمؤمنين كيف أعد الله الإعداد النفسي للمعركة ، فأرى النبي في الرؤيا أن عدد الكفار قليل حتى يؤمن أن المؤمنين سينتصرون عليهم بسهولة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه رؤيا توضح أن عدد الكفار قليل في أعين المؤمنين ، وأخبر قومه بذلك وقد قلل عدد المؤمنين في أعين الكفار ، ليتم اللقاء وتحدث المعركة . انتهى انتهى . اهـ ❁ تفسير الشعراوي ص

(22/314)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (43)

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ قال : أراه الله إياهم في منامه قليلاً ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك وكان تشبيهاً لهم .

وأخرج ابن إسحق وابن المنذر عن حيان بن واسع بن حيان عن أشياخ من قومه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل صفوف أصحابه يوم بدر ورجع إلى العريش ، فدخله ومعنا أبو بكر رضي الله عنه ، وقد خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو في العريش ، ثم اتبه فقال : أبشريا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ قال : لاختلفتم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي أتم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾

﴿ يقول : سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم . انتهى انتهى . اهـ ﴾ الدر المنثور

﴿ 4 ص ﴾

(23/314)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ( إذ يريكم الله في منامك قليلاً )

النَّاصِبُ لـ " إذ " يجوز أن يكون مضمراً ، أي : اذْكُرْ ، ويجوز أن يكون " عليهم " ، وفيه بعدٌ من حيث تقييدُ هذه الصفة بهذا الوقتِ ، ويجوز أن تكون " إذ " هذه بدلاً من " إذ " قبلها ، والإِراءة هنا حُلْمِيَّة .

واختلف فيها النُّحاة : هل تعدَّى في الأصل لواحدٍ كالْبَصْرِيَّة ، أو لاثنتين ، كالظَّنِّيَّة ؟ .

فالجمهورُ على الأوَّل .

فإذا دخلت همزة النَّقْلِ أكسبتُها ثانياً ، أو ثالثاً على حسب القولين فعلى الأوَّل تكون

الكافُ مفعولاً أوَّل ، و " هُم " مفعولُ ثانٍ ، و " قَلِيلاً " حال ، وعلى الثاني يكون " قَلِيلاً "

نصباً على المفعول الثالث ، وهذا يُبطلُ بجواز حذف الثالث في هذا الباب اقتصاراً ، أي :

من غير دليل نقول: أراني الله زيدا في منامي، ورأيتك في النوم، ولو كانت تعدى لثلاثة، لما حُذِفَ اقتصاراً؛ لأنه خبر في الأصل.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُمُ الْإِرَاءَ - هُنَا - بَصْرِيَّةً، وَالْإِتْيَانَ هُنَا بِصَلَةِ مِيمِ الْجَمْعِ وَاجِبٌ، لِاتِّصَالِهَا بِضَمِيرٍ، وَلَا يَجُوزُ التَّسْكِينُ، وَلَا الضَّمُّ مِنْ غَيْرِ وَאו، وَقَدْ جَوَّزَ يُونُسُ ذَلِكَ فِيَقُولُ: "أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْهُ" بِتَسْكِينِ الْمِيمِ وَضَمِّهَا، وَقَدْ يَتَّقَوْنَ بِمَا رَوَى عَنْ عَثْمَانَ: "أَرَاهُمُنِي الْبَاطِلُ شَيْطَانًا" وَفِي هَذَا الْكَلَامِ شَذُوزٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَهُوَ تَقْدِيمُ الضَّمِيرِ غَيْرِ الْأَخْصِ عَلَى الْأَخْصِ مَعَ الْإِتِّصَالِ. انْتَهَى انْتَهَى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل ج 9 ص 531 532﴾. باختصار.

(24/314)

قوله تعالى ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيِّمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (44) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما بين ما نشأ عن رؤيته صلى الله عليه وسلم من قلتهم وما كان ينشأ عن رؤيته الكثرة لو

وقعت ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - لما هو عليه من النصيحة والشفقة - كان يخبرهم بما رأى كما أخبرهم في غزوة أحد بالبقر المذبحه ؛ أتبعه ما فعل من اللطف في رؤيتهم بأنفسهم يقظة فقال : ﴿ واذ ﴾ أي واذكروا أيضاً إذ ﴿ يريكموهم ﴾ أي يبصركم أياهم ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ التقيتم ﴾ ونبه على أن الرؤية ليست على حقيقة ما هم عليه بقوله : ﴿ في أعينكم ﴾ أي لا في نفس الأمر حال كونهم ﴿ قليلاً ﴾ أي عددهم يسيراً أمرهم مصداقاً لما أخبركم به النبي - صلى الله عليه وسلم - عن رؤياه لتجترئوا عليهم ؛ روي عن ابن مسعود - رضي الله عنهم - أنه قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي : أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا : كم كنتم ؟ قال : ألفاً ، قال الحرالي في آل عمران : فجعل القليل وصفاً لهم لازماً ثابتاً دائماً عليهم بما أوجب فيهم من نقص ذواتهم بخفاء فطرتهم وما وراء خلق الفطرة من الذوات ، قال تعالى : ﴿ ويقللكم ﴾ صيغة فعل واقع وقت لا وصفاً لهم من حيث إنه لو أراهم أياهم على الإراءة الحقيقية لزادهم مضاعفين بالعشر ، فكانوا يرونهم ثلاثة آلاف ومائتين وثلاثين - انتهى .

(25/314)

---

﴿ في أعينهم ﴾ قبل اللقاء ليجترؤا على مصادمتكم حتى قال أبو جهل: إنما هم أكلة جزور، ثم كثركم في أعينهم حين المصادفة حتى انهزموا حين فاجأتهم الكثرة فظنوا الظنون؛ قال الحرالي: قللهم حين لم يرهم أيأهم على الإراءة - الحقيقية العشرية، ولا أراهم أيأهم على الصورة الحسية؛ فكان ذلك أية للمؤمنين على قراءة بآء الغائب - أي في آل عمران - وكانت آية للكفار على قراءة ﴿ ترونهم ﴾ - بآء الخطاب، فكان في ذلك في إظهار الإراءة في أعين الفئتين نحو مما كان من الإراءتين الواقعة بين موسى عليه السلام والسحرة في أن موسى عليه السلام ومن معه خيل إليهم من سحرهم أنها تسعى وأن فرعون ومن معه رأوا ثعباناً مبيناً يلقف ما يأفكون رؤية حقيقة، فتناسب ما بين الآيات الماضية القائمة لهذه الآية بوجه ما، وكان هذه الآية أشرف وألطف بما هي في مدافعة بغير آلة من عصى ولا حبل في ذوات الفئتين وإحساسهم - انتهى .

ولما ذكر ما أحاله سبحانه من إحساس الفئتين، علله بقوله: ﴿ ليقضي الله ﴾ أي الذي له العزة البالغة والحكمة الباهرة من نصركم وخذلانهم بأن تفاجئهم كثرتكم بعد رؤيتكم قليلاً فيشجعهم ذلك، ويهزمهم ﴿ أمراً كان مفعولاً ﴾ أي من إعجالهم - بما فجعهم من الكثرة بعد القلة - عن الحذر والاستعداد لذلك وبما فعل بأيديكم في هذه الغزوة من القتل والأسر والهزيمة المشر للذل جميع أهل الكفر، كان مقدرًا في الأزل فلا بد من وقوعه على ما حده لأنه لا راد لأمره ولا يبدل القول لديه، فعل ذلك كله وحده .



ولما كان التقدير: فبيده سبحانه ابتداء الأمور بتقديره أياها في الأزل لا بيد أحد غيره،  
عطف عليه قوله: ﴿وإلى الله﴾ أي الملك الأعلى الذي بيده وحده كل أمر ﴿ترجع  
الأمور﴾ أي كلها فلا ينفذ إلا ما يريد إنفاذه، فلا تجري الأمور على ما يظنه العباد، وهو  
من قولك: هذا الأمر راجع إليك، أي مهما أردته فيه مضى، ولو فرض أن غيرك عاجله لم  
يؤثر فيه؛ ولا يزال كذلك حتى يرجع إليك فيمضي، فالحاصل أن فيه قوة الرجوع بهذا  
الاعتبار وإن لم يكن هناك رجوع بالفعل، وفي هذا تنبيه على أن أمور الدنيا غير مقصودة  
لذواتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زادا ليوم المعاد. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم  
الدرج ح 3 ص 222. 223﴾

(26/314)

فصل

قال الفخر:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْتِمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ  
مَفْعُولًا﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من النعم التي أظهرها الله للمسلمين يوم بدر، والمراد أن القليل

الذي حصل في النوم تأكد ذلك بحصوله في اليقظة .

قال صاحب "الكشاف" : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ﴾ الضميران مفعولان يعني إذ يبصركم أيهم

، و ﴿ قَلِيلًا ﴾ نصب على الحال .

واعلم أنه تعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين ، وقلل أيضاً عدد المؤمنين في أعين

المشركين .

والحكمة في التقليل الأول ، تصديق رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً لتقوى

قلوبهم وتزداد جراءتهم عليهم ، والحكمة في التقليل .

الثاني : أن المشركين لما استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب والحذر ،

فصار ذلك سبباً لاستيلاء المؤمنين عليهم .

فإن قيل : كيف يجوز أن يريهم الكثير قليلاً ؟

قلنا : أما على ما قلنا فذاك جائز ، لأن الله تعالى خلق الإدراك في حق البعض دون

البعض .

وأما المعتزلة فقالوا : لعل العين منعت من إدراك الكل ، أو لعل الكثير منهم كانوا في غاية

البعد فما حصلت رؤيتهم .

ثم قال : ﴿ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ .

فإن قيل : ذكر هذا الكلام في الآية المتقدمة ، فكان ذكره ههنا محض التكرار .

قلنا : المقصود من ذكره في الآية المتقدمة هو أنه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل استيلاء  
المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه  
وسلم .

والمقصود من ذكره ههنا ، ليس هو ذلك المعنى ، بل المقصود أنه تعالى ذكر ههنا أنه قلل  
عدد المؤمنين في أعين المشركين ، فبين ههنا أنه إنما فعل ذلك ليصير ذلك سبباً لتأليب  
الكفار في تحصيل الاستعداد والحذر ، فيصير ذلك سبباً لانكسارهم .

ثم قال : ﴿ وَاللّٰهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ ﴾ والغرض منه التنبيه على أن أحوال الدنيا غير  
مقصودة لذواتها ، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زاداً ليوم المعاد . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ مفاتيح الغيب ج 15 ص 136 ﴾

(27/314)

وقال السمرقندي :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْمَ ﴾

يعني يوم بدر ﴿ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيْلًا ﴾ في العدد .

وروى أبو عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر ، حتى قلت

لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة.

حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كما ألفاً، ثم قال: ﴿وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾  
معشر المؤمنين في أعين المشركين وذلك حين لقوا العدو وقلل الله المشركين في أعين المؤمنين،  
لكي لا يجبنوا وقلل المؤمنين، في أعين المشركين، ليزدادوا جرأة على القتال حتى قتلوا،  
ولكي يظهر الله عندهم فضل المؤمنين.

﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، يعني إذا قضى الله تعالى أمراً فهو كائن، وهو النصره  
للمؤمنين والذل لأهل الشرك بالقتل والهزيمة.

﴿وَالِإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، يعني عواقب الأمور في الآخرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿بجر

العلوم ح 2 ص

(28/314)

وقال الثعلبي:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾

قال مقاتل: ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أن العدو قليل قبل [لقاء]

العدو فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بما رأى.

فقالوا : رؤيا النبي حق ، القوم قليل ، فلما التقوا بيدر قلل الله المشركين في أعين المؤمنين وأصدق رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم .

قال عبد الله بن مسعود : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي : [نراهم سبعين] قال أراهم مائة فأسرنا رجلا فقلنا كم كنتم ؟ قال : ألفاً . ويقللكم يا معشر المؤمنين في أعينهم .

قال السدي : قال أناس من المشركين : إن العير قد انصرفت فارجعوا . فقال أبو جهل : الآن إذا [ينحدر لكم] محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم ولا تقتلوهم بالسلاح خذوهم أخذاً كي لا يعبد الله بعد اليوم ، إنما محمد وأصحابه أكلة جزور فاربطوهم بالجبال .  
كقوله من القدرة على نفسه .

قال الكلبي : استقل المؤمنون المشركين والمشركون المؤمنين ، البحري : بعضهم على بعض . ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ كائناً في علمه ، نصر الإسلام وأهله وذل الشرك وأهله .

وقال محمد بن إسحاق : ليقضي الله أمراً كان مفعولاً بالانتقام من أعدائه والإنعام على أوليائه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ واذا يريكموهم اذا التقيتم ﴾ الآية

﴿ واذا ﴾ عطف على الأولى ، وهذه الرؤية هي في اليقظة بإجماع ، وهي الرؤية التي كانت حين التقوا ووقعت العين على العين ، والمعنى أن الله تعالى لما أراد من إيفاد قضائه في نصرة الإسلام وإظهاره قتل كل طائفة في عيون الأخرى ، فوقع الخلل في التخمين والحزر الذي يستعمله الناس في هذا التجسد كل طائفة على الأخرى وتتسبب أسباب الحرب ، وري في هذا عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لقد قلت ذلك اليوم لرجل إلى جنبي أتظنهم سبعين ؟ قال بل هم مائة ، قال فلما هزمناهم أسرنا منهم رجلاً فقلنا كم كنتم ؟ قال ألفاً .

قال القاضي أبو محمد : ويرد على هذا المعنى في التقليل ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأل عما ينحرون كل يوم ، فأخبر أنهم يوماً عشراً ويوماً تسعاً ، قال هم ما بين التسعمائة إلى الألف ، فإما أن عبد الله ومن جرى مجراه لم يعلم بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما أن فرض التقليل الذي في الآية تقليل القدر والمهابة والمنزلة من النجدة ، وتقدم في مثل قوله ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ والأمر المفعول المذكور في الآيتين هو للقصة بأجمعها ، وذهب بعض الناس إلى أنهما لمعنيين من معاني القصة والعموم أولى ، وقوله ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ تنبيه على أن الحول بأجمعه لله وأن كل أمر فله وإليه ، وقرأ

الحسن وعيسى بن عمر والأعمش "ترجع" بفتح التاء وكسر الجيم، قال أبو حاتم: وهي قراءة عامة الناس، وقرأ الأعرج وابن كثير وأبو عمرو ونافع وغيرهم "ترجع" بضم التاء وفتح الجيم. انتهى انتهى. ١٠هـ ﴿المحرر الوجيز ح 2 ص﴾

(30/314)

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْكُومُهُمْ إِذْ تُقِيمُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾

قال مقاتل: صدق الله رؤيا رسوله التي أخبر بها المؤمنين عن قلة عدوهم قبل لقاءهم، بأن قللهم وقت اللقاء في أعينهم.

وقال ابن مسعود: لقد قلوا في أعيننا، حتى قلت لرجل إلى جاني: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة؛ حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه، فقال: كئنا ألفاً.

قال أبو صالح عن ابن عباس: استقل المسلمون المشركين، والمشركون المسلمين، فاجتراً بعضهم على بعض.

فإن قيل: ما فائدة تكرير الرؤية هاهنا، وقد ذكرت في قوله: ﴿إِذْ يَرْكُومُهُمُ اللَّهُ﴾؟ فعنه جوابان.

أحدهما : أن الأولى كانت في المنام ، والثانية في اليقظة .

والثاني : أن الأولى للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

والثانية : له ولأصحابه .

فإن قيل : تكثير المؤمنين في أعين الكافرين أولى ، لمكان إعزازهم فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنهم لو كثروا في أعينهم ، لم يقدموا عليهم ، فلم يكن قتال ؛ والقتال سبب النصر ،

فقللهم لذلك .

والثاني : أنه قللهم لتأيئتهم للمشركين كل التأئيب ، فإذا تحقق القتال ، وجددهم

المسلمون غير مستعدين ، فظفروا بهم .

والثالث : أنه قللهم ليحمل الأعداء عليهم في كثرتهم ، فيغلبهم المسلمون ، فيكون ذلك آية

للمشركين ومنبهاً على نصرته الحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

(31/314)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ هذا في اليقظة .

ويجوز حمل الأولى على اليقظة أيضاً إذا قلت : المنام موضع النوم ، وهو العين ؛ فتكون الأولى



على هذا خاصةً بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهذه للجميع .

قال ابن مسعود : قلت لإنسان كان بجاني يوم بدر : أتراهم سبعين ؟ فقال : هم نحو المائة .

فأسرنا رجلاً فقلنا : كم كنتم ؟ فقال : كنا ألفاً .

﴿ وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ كان هذا في ابتداء القتال حتى قال أبو جهل في ذلك اليوم : إنما

هم أكلة جزور ، خذوهم أخذاً واربطوهم بالحبال .

فلما أخذوا في القتال عظم المسلمون في أعينهم فكثروا ، كما قال : ﴿ يَرَوْنَهُمْ مَثَلَهُمْ رَأْيِ

العين ﴾ [ آل عمران : 13 ] حسب ما تقدّم في " آل عمران " بيانه ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ

مَفْعُولًا ﴾ تكرر هذا ؛ لأن المعنى في الأوّل من اللقاء ، وفي الثاني من قتل المشركين وإعزاز

الدين ، وهو إتمام النعمة على المسلمين .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي مصيرها ومردّها إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

القرطبي ح 8 ص ﴾

(32/314)

وقال الخازن :

﴿ وَإِذْ يَرِيكُمُوهُمْ إِذْ التَّقِيمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾

يعني أن الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين يوم بدر لما التقوا في القتال ليتأكد في الليفة ما رآه النبي (صلى الله عليه وسلم) في منامه وأخبر به أصحابه قال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين قال: أراهم مائة فأسرنا رجلاً منهم فقلنا كم كنتم قال: كما ألفاً.

ويقللكم في أعينهم يعني ويقللكم يا معشر المؤمنين في أعين المشركين.

قال السدي: قال ناس من المشركين إن العير قد انصرف فارجعوا فقال أبو جهل الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى نستأصلهم إنما محمد وأصحابه أكلة جزور يعني لقلتهم في عينيه ثم قال: فلا تقتلوهم واربطوهم في الحبال يقوله من القدرة التي في نفسه والحكمة في تقليل المشركين في أعين المؤمنين تصديق رؤيا النبي (صلى الله عليه وسلم) ولتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراتهم عليهم ولا يجبنوا عند قتالهم والحكمة في تقليل المؤمنين في أعين المشركين لتلايهم وإذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب لقتالهم فيكون ذلك سبباً لظهور المؤمنين عليهم.

فإن قلت: كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل؟

قلت: ذلك ممكن في القدرة الإلهية فإن الله سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمعجزة من خوارق العادات فلا ينكر ذلك ❀ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ❀ يعني أمراً كان كائناً من إعلاء كلمة الإسلام ونصر أهله

وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله فإن قلت : قد قال في الآية المتقدمة ولكن ليقضي الله  
أمراً كان مفعولاً وقال في هذه الآية ليقضي الله أمراً كان مفعولاً فما معنى هذا التكرار؟

(33/314)

---

قلت : المقصود من ذكره في الآية المتقدمة ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على  
وجه القهر والغلبة ليكون ذلك معجزة دالة على صدق رسول الله ( صلى الله عليه وسلم )  
والمقصود من ذكره في هذه الآية لأنه تعالى قلل عدد الفريقين في أعين بعضهم بعضاً للحكمة  
التي قضاها فلذلك قال ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ يعني في  
الآخرة فيجازي كل عامل على قدر عمله فالمحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أو يغفر .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

(34/314)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وإذا يريدكم وهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان ﴾ .

هذه الرؤية هي يقظة لا منام وقلل الكفار في أعين المؤمنين تحقيراً لهم ولئلا يجبنوا عن لقاءهم .

قال ابن مسعود : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل : إلى جنبي أتراهم سبعين ، قال :

أراهم مائة وهذا من عبد الله لكونه لم يسمع ما أعلم به الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) من

عدد هم وقلل المؤمنون في أعين الكفار حتى قال قائل منهم : إنما هم أكلة جزور وذلك قبل

الالتقاء وذلك ليجترؤا على المؤمنين فتقع الحرب ويلتحم القتال ، إذ لو كثروا قبل اللقاء

لأحجموا وتحيلوا في الخلاص أو استعدوا واستنصروا ولما التحم القتال كثر الله المؤمنين في

أعين الكفار فبهتوا وهابوا وفت شوكتهم ورأوا ما لم يكن في حسابهم كما قال

﴿ يرونهم مثلهم رأي العين ﴾ وعظم الاحتجاج عليهم استيضاح الآية البينة من قلتهم

أولاً وكثرتهم رخصاً ورؤية كل من الطائفتين يكون بأن ستر الله بعضها عن بعض أو بأن

أحدث في أعينهم ما يستقلون به الكثير هذا إذا كانت الرؤية حقيقة وأما إذا كانت بمعنى

التخمين والحذر الذي يستعمله الناس فيمكن ذلك ، وعلى التقديرين لا يندرج الرسول في

خطاب ﴿ وإذ يريكم وهم ﴾ لأنه لا يجوز على أن يرى الكثير قليلاً لا حقيقة ولا تخميناً

على أنه يحتمل أن يكون من باب تقليل القدر والمهابة والنجدة لا من باب تقليل العدد ألا ترى

قولهم المرء كثيراً بأخيه وإلى قول الشاعر :

أروح وأغتدي سفهاً . . .

أكثر من أقل به

(35/314)

---

فهذا من باب التقليل والتكثير في المنزلة والقدر ، لا من باب تقليل العدد ﴿ ليقتضي ﴾ أي فعل ذلك ليقتضي والمفعول في الآتين هو القصة بأسرها ، وقيل هما المعنيين من معاني القصة أريد بالأول الوعد بالنصرة يوم بدر والثاني الاستمرار عليها وتقدم تفسير ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ واختلاف القراء في ﴿ ترجع ﴾ في سورة البقرة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(36/314)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ منصوبٌ بمضمرٍ خوطب به الكل بطريق التلويح والتعميم معطوفٌ على المضمر السابق ، والضميران مفعولاً يري وقليلاً حال من الثاني وإنما قللهم في أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لمن إلى جنبه : أتراهم سبعين فقال : أراهم مائة تشبهاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿ وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتى قال أبو جهل: إنما أصحابُ محمدٍ أكلةُ جَزَورٍ . قللهم في أعينهم قبل التحامِ القتالِ ليجتزئوا عليهم ولا يستعدّوا لهم ثم كثّرهم حتى رأوهم مثلهم لتفاجئهم الكثرةُ فيبيهتوا ويهابوا ، وهذه من عظامِ آياتِ تلكِ الوقعةِ فإن البصرَ قد يرى الكثيرَ قليلاً والقليلَ كثيراً لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الوجه ولا إلى هذا الحد وإنما ذلك بصد الله تعالى الأبصارَ عن إِبصارِ بعضٍ دون بعضٍ مع التساوي في الشرائط ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ كُرِّرَ لاختلافِ الفعلِ المَعْلَلِ به أو لأن المرادَ بالأمرِ ثمةَ الالتقاءِ على الوجهِ المذكورِ وها هنا إعزازُ الإسلامِ وأهله وإذلالُ الكفرِ وحزبه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ كُلُّهَا يَصْرِفُهَا كَيْفَمَا يَرِيدُ لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْجَمِيدُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(37/314)

وقال الأوسى :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾

مقدر بمضمرة خوطب به الكل بطريق التلوين والتعميم معطوف على ما قبل ، والضميران مفعولا يرى وقليلاً حال من الثاني ، وإنما قللهم سبحانه في أعين المسلمين حتى قال ابن

مسعود رضي الله تعالى عنه إلى من بجنبه : أتراهم سبعين ؟ فقال : أراهم مائة تشبيهاً لهم  
وتصديقاً لرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ وَيُقَلِّكُم فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتى قال أبو جهل : إنما  
أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أكلة جزور ، وكان هذا التقليل في ابتداء الأمر قبل  
التحام القتال ليجتروا عليهم ويتركوا الاستعداد والاستمداد ثم كثروهم سبحانه حتى  
رأوهم مثلهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا .  
﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ كرر لاختلاف الفعل المعلل به إذ  
هو في الأول اجتماعهم بلا ميعاد وهنا تقليلهم ثم تكثيرهم ، أولاً لأن المراد بالأمر ثم الالتقاء  
على الوجه المحكي ، وههنا إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وحزبه ، هذا وذكر غير  
واحد أن ما وقع في هذه الواقعة من عظام الآيات فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً  
والقليل كثيراً لكن لا على ذلك الوجه ولا إلى ذلك الحد وإنما يتصور ذلك بصد الأبصار عن  
إبصار بعض دون بعض مع التساوي في الشرائط .

(38/314)

---

واعترض بأن ما ذكر من التعليل مناسب لتقليل الكثير لا لتكثير القليل ، وأجيب بأن تكثير  
القليل من جانب المؤمنين بكون الملائكة عليهم السلام ومن جانب الكفرة حقيقة فلا يحتاج

إلى توجيه فيهما وإنما المحتاج إليه تقليل الكثير، وذكر في "الكشاف" طريقين لإبصار الكثير قليلاً أن يستر الله تعالى بعضه بسائر أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير كما خلق في عيون الحول ما يستكثرون به القليل فيرون الواحد اثنين، وعليه فيمكن أن يقال: إن رؤيتهم للمؤمنين مثلهم من قبيل رؤية الأحوال بل هي أعظم على تقدير أن يراد مثلي أنفسهم وحينئذ لا يحتاج إلى حديث رؤية الملائكة مع المؤمنين، وفي الانتصاف أن في ذلك دليلاً بيناً على أنه تعالى هو الذي يخلق الإدراك في الحاسة غير موقوف على سبب من مقابلة أو قرب أو ارتفاع حجب أو غير ذلك، إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلاً لما أمكن أن يستتر عنهم البعض وقد أدركوا البعض، والسبب الموجب مشترك فعلى هذا يجوز أن يخلق الله تعالى الإدراك مع انتفاء هذه الأسباب ويجوز أن لا يخلقه مع اجتماعها فلا ربط إذن بين الرؤية وبينها في مقدور الله تعالى، وهي رادة على القدرة المنكرين لرؤيته تعالى لفقد شرطها وهو التجسم ونحوه، وحسبهم هذه الآية في بطلان زعمهم لكنهم يرون عليها وهم عنها معرضون، ثم إن رؤياه عليه الصلاة والسلام كانت في قول على طرز رؤية أصحابه رضي الله تعالى عنهم المشركين، وذكر بعض المحققين أنها كانت في مقام التعبير فلا يلزم أن تكون على خلاف الواقع، والقلة معبرة بالمغلوبة، والواقعة من الرؤية منها ما يقع بعينه ومنها ما يعبر ويؤول، وتحقيق الكلام فيها يقتضي بسطاً فتيقظ واستمع لما يتلى فنقول :



اعلم أن النفس الناطقة الإنسانية سلطان القوى البدنية وهي الآت لها وظاهر أن القوة  
الجسمانية تكل بكثرة العمل كالسيف الذي يكل بكثرة القطع فالنفس إذا استعملت القوى  
الظاهرة استعملاً كثيراً بحيث يعرض لها الكلال تعطّلها لتستريح وتقوى كما أن الفارس إذا  
أكثر ركوب فرسه يرسله ليستريح ويرعى .

وهذا التعطل الحاصل باسترخاء الأعصاب الدماغية المتصلة بالآت الإدراك هو النوم وما  
يتراءى هناك هو الرؤيا إلا أن المتكلمين والحكماء المشائين والمتألهين من الإشرافيين  
والصوفية اختلفوا في حقيقتها إلى مذاهب ، فذهب المعتزلة وجمهور أهل السنة من  
المتكلمين إلى أن الرؤيا خيالات باطلة ، ووجه ذلك عند المعتزلة فقد شرائط الإدراك حالة  
النوم من المقابلة وانبثاث الشعاع وتوسط الشغاف والبنية المخصوصة إلى غير ذلك من  
الشرائط المعبرة في الإدراك عندهم وعند الجماعة ، وهم لم يشترطوا شيئاً من ذلك أن  
الإدراك حالة النوم خلاف العادة وأن النوم ضد الإدراك فلا يجامعه فلا تكون الرؤيا إدراكاً  
حقيقة ، وقال الأستاذ أبو إسحاق : إن الرؤيا إدراك حق إذ لا فرق بين ما يجده النائم من  
نفسه من إبصار وسمع وذوق وغيرها من الإدراكات وما يجده اليقظان من إدراكاته فلو

جاز التشكيك فيما يجده النائم لجاز التشكيك فيما يجده اليقظان ولزم السفسطة والقدح  
في الأمور المعلومة حقيقتها بالبدئية ، ولم يخالف في كون النوم ضدًا للإدراك لكنه زعم أن  
الإدراكات تقوم بجزء من أجزاء الإنسان غير ما يقوم به النوم من أجزائه فلا يلزم اجتماع  
الضدين في محل .

(40/314)

---

وذهب المشاءون إلى أن المدرك في النوم يوجد في الحس المشترك الذي هو لوح المحسوسات  
ومجموعها فإن الحواس الظاهرة إذا أخذت صور المحسوسات الخارجية وأدتها إلى الحس  
المشترك صارت تلك الصور مشاهدة هناك ثم إن القوة المتخيلة التي من شأنها تركيب  
الصور إذا ركبت صورة فرما انطبعت تلك الصورة في الحس المشترك وصارت مشاهدة  
على حسب مشاهدة الصورة الخارجية فإن مدار المشاهدة الانطباع في الحس المشترك  
سواء انحدرت إليه من الخارج أو من الداخل ، ثم إن القوة المتخيلة من شأنها التصوير دائماً  
لا تسكن نوماً ولا يقظة فلو خليت وطباعها لما فترت عن رسم الصور في الحس المشترك إلا  
أنه يصرفها عن ذلك أمران .

أحدهما توارد الصور من الخارج على الحس المشترك إذ بعد انتقائه بهذه الصورة لا يسع

أن ينتقش بالصورة التي تركيبها المتخيلة .

وثانيهما تسلط العقل أو الوهم عليها بالضبط عندما يستعملانها في مدركاتهما ، ولا شك في انقطاع هذين الصارفين عند النوم فيتسع لانتقاش الصور من الداخل فيكون ما يدركه النائم صوراً مرتسمة في الحس المشترك وموجودة فيه وهو الرؤيا إلا أن منها ما هو صادق ومنها ما هو كاذب .

(41/314)

---

أما الأولى فهي التي ترد تلك الصور فيها على الحس المشترك من النفس الناطقة ، وبيانه أنه صور جميع الحوادث ما كان وما يكون مرتسمة في المبادئ العالية التي يعبر عنها أرباب الشرع بالملائكة ومنطبعة بالنفوس المجردة الفلكية واتصال النفس المجردة بالمجرد لعله الجنسية أشد من اتصالها بالقوى الجسمانية فمن شأنها أن تتصل بذلك وتنق بما فيه إلا أن اشتغالها بالحواس الظاهرة والباطنة واستغراقها بتدبير بدنها يمنعها عن ذلك الاتصال والانتقاش لأن اشتغال النفس ببعض أفاعيلها يمنعها من الاشتغال بغيره ، فعن الذي لا يشغله شأن عن شأن هو الله تعالى الواحد القهار ، ولا يمكن إزالة العائق بالكلية إلا أنه يسكن اشتغالها بالإدراكات الحسية حالة النوم إذ في اليقظة ينتشر الروح إلى ظاهر البدن

بواسطة الشرايين وينصب إلى الحواس الظاهرة حالة الانتشار ويحصل بها الإدراك فتشغل النفس بتلك الإدراكات ، وأما في النوم الذي هو أخ الموت فينحبس الروح إلى الباطن ويرجع عن الحواس الظاهرة بعد انصبا به إليها فتعطل فيحصل للنفس أدنى فراغ فتصل بتلك المبادئ اتصالاً روحانياً معنوياً وتنقش ببعض ما فيها مما استعدت هي له كالمرايا إذا حوذي بعضها ببعض فانتقش في بعضها ما يتسع له مما انتقش في البعض الآخر فتدرك النفس مما ارتسم في تلك المبادئ ما يناسبها من أحوالها وأحوال ما يقارنها من الأقارب والأهل والولد والإقليم والبلد ماضيه وآتية إلا أن هذا الإدراك لعدم تأديه من طرف الحس كلي فتحاكيه القوة المتخيلة التي جبلت محاكية لما يرد عليها بصور جزئية مثالية خيالية مناسبة إياه فتحاكي ما هو خير بالنسبة إليها في صورة جميلة وما هو شر كذلك في صورة قبيحة هائلة على مراتب مختلفة ووجوه متعددة ومن ثمة قد ترى ذاتها بصفة جميلة صورية ومعنوية من الجمال والعلم والكرم والشجاعة وغير ذلك من الصفات الحمودة ، وقد ترى ذاتها متصفة بأضداد ما ذكر ، وقد ترى تلك الصفات في

(42/314)

---

صورة ما غلبت الصفات عليه ، بل قد ترى أنها نفسها صارت نوعاً آخر لغلبة صفاته  
عليها ، ومتى غلبت عليها الصفات الجميلة والأخلاق الحميدة ترى صوراً جميلة  
وأخصاً حميدة كذوي الجمال والعلماء والأولياء والملائكة ، بل قد ترى أنها صارت  
عالماً أو ملكاً مثلاً ، ومتى غلبت عليها الصفات الذميمة ترى صوراً هائلة كصورة  
غولية أو سبعية ، وكذا رؤية حال من يقاربه من الأهل والولد والإقليم مثلاً فإنها تراها  
باعتبار اختلاف المراتب والمناسبات على ما هي عليه في الماضي أو الحال أو المستقبل  
حتى لو اهتمت بمصالح الناس رأتها ولو كانت منجذبة الهمة إلى المعقولات لاحت لها  
أشياء منها ، فمتى لم يكن اختلاف بين تلك الصورة وبين ما هي مأخوذة منه إلا بالكلية  
والجزئية كانت الرؤية غير محتاجة إلى التعبير ، والتجاوز عنها إلى ما يناسبها بوجه من  
المماثلة أو الضدية التي يقتضيها نحو الألف والخلق والأسباب السماوية وغير ذلك من وجوه  
خفية لا يطلع عليها إلا الأفراد من أئمة التعبير ، وإن كانت مخالفة لها لقصور يقع في التخيلة  
إما لذاتها أو لعروض دهشة وحيرة لها مما ترى أو لغير ذلك كانت محتاجة إلى التعبير ، وهو  
أن يرجع المعبر القهقري مجرداً لما يراه النائم عن تلك الصور التي صورتها التخيلة إلى أن  
ينتهي بمرتبة أو مراتب إلى ما تلقته النفس من تلك المبادئ فيكون هو الواقع ، وقد يتفق  
سيما إذا كان الرائي كثير الاهتمام بالرؤيا أن يعبر رؤياه في النوم الذي رآها فيه أو غيره ، فهو

إما بتذكره لما كانت الرؤيا حكاية عنه ، وإما بتصوير التخيلة حكاية رؤياه بحكاية أخرى ،  
وحينئذٍ يحتاج إلى تعبيرين .

(43/314)

---

وأما الثانية : فهي تكون لأشياء أما لأن النفس إذا أحست في حال اليقظة بتوسط الآلات  
الجسمانية بصور جزئية محسوسة أو خيالية وبقيت مخزونة في قوة الخيال فعند النوم الذي  
يخلص فيه الحس المشترك عما يرد عليه من الحواس الظاهرة ترسم في الحس المشترك  
ارتسام المحسوسات إما على ما كانت عليها وإما بصور مناسبة لها ، أو لأن النفس أتقنت  
بواسطة التخيلة صورة ألفتها فعند النوم تمثل في الحس المشترك ، أو لأن مزاج الدماغ يتغير  
فيتغير مزاج الروح الحاملة للقوة التخيلة فتتغير أفعال التخيلة بحسب تلك التغيرات ،  
ولذلك يرى الدموي الأشياء الحمر والصفراوي النيران والأشعة والسوداوي الجبال  
والأدخنة والبلغمي المياه والألوان البيض ، ومن هذا القبيل رؤية كون بدنه أو بعض أعضائه  
في الثلج أو الماء أو النار عند غلبة السخونة أو البرودة عليه ، ورؤية أنه يأكل أو يشرب أو  
يبول عند عروض الاحتياج إلى أحدها .

ومن العجائب في هذا الباب أنه إذا غلب المني واحتاجت الطبيعة إلى دفعه تحال باستعانة

القوة المتخيلة إلى تصوير ما يندفع به من الصور السحنة وفي إرسال الريح الناشرة لآلة الجماع وإرادة حركاتها حتى يندفع بذلك ما أرادت اندفاعه ، وقد يكون ذلك التوجه والاعتقاد لا لغلبة المني فلماذا قد لا يندفع به شيء ، وقد يعرض للروح اضطراب وتحريك من الأسباب الخارجة والداخلة فترى أموراً متغيرة متفرقة غير منضبطة فربما يتركب من المجموع صورة غير معهودة قلما يتصورها أحد أو يقع مثلها في الخارج ، وقد يكون ذلك لاتصالات فلكية وأوضاع سماوية ، فإذا كانت الرؤيا لأحد هذه الأمور تسمى أضغاث أحلام ولا تعبير لها ولا تقع .

(44/314)

---

وقد ذكروا أن أصدق الناس رؤيا أعد لهم مزاجاف ومن كان مع ذلك منقطعاً عن العلائق الشاغلة والخيالات الفاسدة معتاداً للصدق متوجهاً إلى الرؤيا واستثباتها وكيفية كانت رؤياه أصح وأصدق وأكثر أحلام الكذاب والسكران والمغموم ومن غلب عليه سوء مزاج أو فكر أو خيالات فاسدة ومقتضيات قوى غضبية وشهوية كاذبة لا يعتمد عليها ، ومن هنا قالوا : لا اعتماد على رؤيا الشاعر لتعوده الأكاذيب الباطلة والخيالات الفاسدة .  
وذهب بعض أصحاب المكاشفات وأرباب المشاهدات من الحكماء المتأهين والصوفية

المنكرين لارتسام الصور في الخيال إلى أن الرؤيا مشاهدة النفس صوراً خيالية موجودة في عالم المثال الذي هو برزخ بين عالم الجردات اللطيفة المسمى عندهم بعالم الملكوت ، وبين عالم الموجودات العينية الكثيفة المسمى بعالم الملك ، وقالوا : فيه موجودات متشخصة مطابقة لما في الخارج من الجزئيات مثل لها قائمة بنفسها مناسبة لما في العالمين المذكورين ، إما لعالم الملك فلأنها صور جسمانية شبحية ، وإما لعالم الملكوت فلأنها معلقة غير متعلقة بمكان وجهة كالجردات حتى أنه يرى صوراً مثالية لشخص واحد في مرايا متعددة بل في مواضع متكررة كما يرى بعض الأولياء في زمان واحد في أماكن متعددة شرقية وغربية ، ثم إن تلك الصور مجالي مختلفة كالمرايا والماء الصافي ، والقوى الجسمانية سيما الباطنة إذا انقطعت عن الاشتغال بالأمور الخارجية العائقة إذ بذلك يحصل لها زيادة مناسبة لذلك العالم كما للمتجردين عن العلائق البشرية ، وإذا قويت تلك المناسبة كما للأنبياء عليهم السلام والأولياء الكمل قدس الله تعالى أسرارهم تظهر في القوى الظاهرة أيضاً ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يشاهد جبريل عليه السلام حين ما ينزل بالوحي والصحابة رضي الله تعالى عنهم حوله كانوا لا يشاهدونه .

(45/314)

---



هذا واستشكل قول المتكلمين: أن الرؤيا خيالات باطلة بأنه قد شهد الكتاب والسنة بصحتها بل لم يكن أحد من الناس إلا وقد جربها من نفسه تجربة توجب التصديق بها .  
وأجيب بأن مرادهم أن كون ما يتخيله النائم إدراكاً بالبصر رؤية وكون ما يتخيله إدراكاً بالسمع سمعاً باطل فلا ينافي كونها أمانة لبعض الأشياء .

وذكر حجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة في شرح قوله عليه الصلاة والسلام: " من رآني في المنام فقد رآني " الحديث أنه ليس المراد بقوله عليه الصلاة والسلام فقد رآني رؤية الجسم بل رؤية المثال الذي صار آلة يتأدى بها المعنى الذي في نفسه إليه ، ثم ذكر أن النفس غير المثال المتخيل ، فالشكل المرئي ليس روحه صلى الله عليه وسلم ولا شخصه بل مثاله على التحقيق ، وكذا رؤيته سبحانه نوماً فإن ذاته تعالى منزهة عن الشكل والصورة لكن تنتهي تعريفاته تعالى إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره وهو آلة حقاً في كونه واسطة في التعريف ، فقول الرائي: رأيت الله تعالى نوماً لا يعني به أنه رأى ذاته تعالى .  
وقال أيضاً: من رآه صلى الله عليه وسلم مناماً لم يرد رؤيته حقيقة بشخصه المودع روضة المدينة بل رؤية مثاله وهو مثال روحه المقدسة عليه الصلاة والسلام .

قيل: ومن هنا يعلم جواب آخر للأشكال وهو أن مرادهم أن ما يرى في المنام ليس له حقيقة ثابتة في نفس الأمر كما أن المرئي في اليقظة كذلك بل هو مثال متخيل يظهره الله تعالى للنفس في المنام كما يظهر لها الأمور الغيبية بعد الموت والنوم والموت أخوان ، ووصف ما ذكر

بالباطل لعله من قبيل وصف العالم به في قول لبيد :

الأكل شيء ما خلا الله باطل . . .

وأنت تعلم أن ما ذكره حجة الإسلام ليس مما اتفق عليه علماءه فقد ذهب جمع إلى أن رؤيته صلى الله عليه وسلم بصفته المعلومة إدراك على الحقيقة وبغيرها إدراك للمثال ، على أن كلام المتكلمين ظاهر المخالفة للكتاب والسنة ولا يكاد يسلم تأويله عن شيء فتأمل .

(46/314)

---

ولعل النبوة تقضي إلى ذكر زيادة كلام في هذا المقام .

وبالجملة إنكار الرؤيا على الإطلاق ليس في محله كيف وقد جاء في مدحها ما جاء .  
ففي "صحيح مسلم" أيها الناس لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها مسلم أو ترى له .

وجاء في أكثر الروايات أنها جزء من ست وأربعين .

ووجه ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام عمل بها ستة أشهر في مبدأ الوحي وقد استقام ينزل عليه الوحي ثلاثاً وعشرين سنة ، ولا يتأتى هذا على رواية خمس وأربعين ، وكذا على

رواية سبعين جزءاً؛ أو رواية ست وسبعين وهي ضعيفة ورواية ست وعشرين وقد ذكرها ابن عبد البر ورواية النووي من أربعة وعشرين والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعاني ج 10 ص ﴾

(47/314)

وقال الشوكاني في الآيتين :

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾

" إذ " منصوب بفعل مقدر ، أي اذكر أو هو بدل ثان من يوم الفرقان .

والمعنى : أن النبي صلى الله عليه وسلم رآهم في منامه قليلاً ، فقص ذلك على أصحابه ، فكان ذلك سبباً لثباتهم .

ولورآهم في منامه كثيراً ، لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا في الأمر ، هل يلاقونهم أم لا ؟

﴿ ولكن الله سَلَّمَ ﴾ أي سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع ، فقللهم في عين رسول الله

صلى الله عليه وسلم في المنام .

وقيل عني بالمنام : محل النوم ، وهو العين ، أي في موضع منامك وهو عينك ، روي ذلك عن

الحسن .

قال الزجاج: هذا مذهب حسن ، ولكن الأول أسوغ في العربية لقوله : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْمَةِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء ، وأن تلك رؤية النوم .

قوله : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ﴾ الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأول ، أي واذكروا وقت إراءتكم إياهم حال كونهم قليلاً ، حتى قال القائل من المسلمين لآخر : أتراهم سبعين ؟ قال : هم نحو المائة .

وقل المسلمين في أعين المشركين حتى قال قائلهم : إنما هم أكلة جزور ، وكان هذا قبل القتال ، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين في أعين المشركين ، كما قال في آل عمران : ﴿ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ﴾ [آل عمران : 13] ، ووجه تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على القتال غير خائفين ، ثم يرونهم كثيراً فيفسلون ، وتكون الدائرة عليهم ، ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه .

واللام في ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ متعلقة بمحذوف كما سبق مثله قريباً . وإنما كرره لاختلاف المعلن به ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ كلها يفعل فيها ما يريد ويقضي في شأنها ما يشاء .

---

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله:  
﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ قال: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي  
صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك فكان ذلك تشبيهاً لهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿ وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا فَفُشِلْتُمْ ﴾  
يقول: لجنتم ﴿ ولتنازعتم في الأمر ﴾ قال: لاختلفتم.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي: أتم، وأخرج  
ابن جرير وابن أبي حاتم، عنه ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ يقول: سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم  
على عدوهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن  
مسعود، في قوله: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ﴾ الآية قال: لقد قلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت  
لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه  
قال: كنا ألفاً.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة، في الآية قال: حضض بعضهم على بعض.  
قال ابن كثير: إسناده صحيح.

وأخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير في قوله: ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ

مَفْعُولًا ﴿ أَي لِيَلْقِي بَيْنَهُمُ الْحَرْبَ لِلنَّقْمَةِ مِمَّنْ أَرَادَ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُ ، وَالْإِنْعَامَ عَلَيَّ مِنْ أَرَادَ النِّعْمَةَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ وَوَلَايَتِهِ . انْتَهَى انْتَهَى . ١٠ هـ ﴿ فَتَحَ الْقَدِيرَ ح 2 ص ﴾

(49/314)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ يَرْكُومُهُمْ ﴾ عطف على ﴿ إِذْ يَرْكُومُهُمُ اللَّهُ ﴾ [ الأَنْفَالُ : 43 ] وهذه رُؤْيَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِذَلِكَ عَدِيدٌ رُؤْيَا الْمَنَامِ الصَّادِقَةِ إِلَى ضَمِيرِ النَّبِيِّ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِذْ يَرْكُومُهُمُ اللَّهُ ﴾ [ الأَنْفَالُ : 43 ] وَجُعِلَتِ الرَّؤْيَا الْبَصْرِيَّةُ الْخَاطِئَةُ مَسْنَدَةً إِلَى ضَمَائِرِ الْجَمْعِيِّينَ ، وَظَاهِرُ الْجَمْعِ يَعْمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُخَصُّ مِنَ الْعَمُومِ . أَرَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ قَلِيلُونَ ، وَأَرَى الْمَشْرِكِينَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَلِيلُونَ . خَيْلَ اللَّهُ لِكَلَا الْفَرِيقَيْنِ قَلَّةَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ ، بِإِلْقَاءِ ذَلِكَ التَّخْيِيلِ فِي نَفْسِهِمْ ، وَجَعَلَ الْغَايَةَ مِنْ تَيْبَتِ الرَّؤْيَيْنِ نَصْرَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ صَنْعِ اللَّهِ تَعَالَى إِذْ جَعَلَ لِلشَّيْءِ الْوَاحِدِ أَثْرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ، وَجَعَلَ لِلْأَثْرَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ أَثْرًا مُتَّحِدًا ، فَكَانَ تَخْيِيلَ الْمُسْلِمِينَ قَلَّةَ الْمَشْرِكِينَ مَقْوِيًّا لِقُلُوبِهِمْ ، وَزَائِدًا لِشَجَاعَتِهِمْ ، وَمَزِيدًا لِلرَّعْبِ عَنْهُمْ ، فَعَظُمَ بِذَلِكَ بِأَسْهَمِ عِنْدَ الْإِقْدَاءِ ، لِأَنَّهُمْ

ما كان ليفلّ من بأسهم إلا شعورهم بأنهم أضعف من أعدائهم عدداً وعدداً ، فلما أزيل ذلك عنهم ، بتخييلهم قلة عدوّهم ، خلصت أسباب شدّتهم مما يوهنها .  
وكان تحيّل المشركين قلة المسلمين ، أي كونهم أقلّ مما هم عليه في نفس الأمر ، برداً على غليان قلوبهم من الغيظ ، وغاراً إياهم بأنهم سينالون التغلب عليهم بأدنى قتال ، فكان صارفاً إياهم عن التآهب لقتال المسلمين ، حتى فاجأهم جيش المسلمين ، فكانت الدائرة على المشركين ، فنتج عن تحيّل القلتين انتصار المسلمين .  
وإنما لم يكن تحيّل المسلمين قلة المشركين مثبطاً عزيمتهم ، كما كان تحيّل المشركين قلة المسلمين مثبطاً عزيمتهم ، لأنّ المسلمين كانت قلوبهم مفعمة حنقاً على المشركين ، وإيماناً بفساد شركهم ، وامثالاً أمر الله بقتالهم ، فما كان بينهم وبين صبّ بأسهم على المشركين إلا صرف ما يثبط عزائمهم .

(50/314)

---

فأمّا المشركون ، فكانوا مزدهين بعدائهم وعنادهم ، وكانوا لا يرون المسلمين على شيء ، فهم يحسبون أنّ أدنى جولة تجول بينهم يقبضون فيها على المسلمين قبضاً ، فلذلك لا يعبؤون بالتآهب لهم ، فكان تحييل ما يزيدهم تهاونا بالمسلمين يزيد تهاونهم وإهمال إجماع أمرهم .

قال أهل السير: كان المسلمون يحسبون عدد المشركين يتراوح بين السبعين والمائة وكانوا في نفس الأمر زهاء ألف، وكان المشركون يحسبون المسلمين قليلاً، فقد قال أبو جهل لقومه، وقد حَزَرَ المسلمين: إنما هم أَكَلَةُ جُزُورٍ، أي قرابةُ المائة، وكانوا في نفس الأمر ثلاثمائة وبضعة عشر.

وهذا التخيل قد يحصل من انعكاس الأشعة واختلاف الظلال، باعتبار مواقع الرئين من ارتفاع المواقع وانخفاضها، واختلاف أوقات الرؤية على حسب ارتفاع الشمس، وموقع الرئين من مواجهتها أو استدبارها، وبعض ذلك يحصل عند حدوث الآل والسراب، أو عند حدوث ضباب أو نحو ذلك، وإلقاء الله الخيال في نفوس الفريقين أعظم من تلك الأسباب.

وهذه الرؤية قد مضت بقريظة قوله: ﴿ إِذ التقيتم ﴾ فالتعبير بالمضارع لاستحضار الحالة العجيبة لهاته الإراءة، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ إِذ يريكهم الله في منامك قليلاً ﴾ [ الأنفال: 43 ].

﴿ إِذ التقيتم ﴾ ظرف ل ﴿ يريكهم ﴾ وقوله: ﴿ في أعينكم ﴾ تقييد للإراءة بأنها في الأعين، لا غير، وليس المرئي كذلك في نفس الأمر، ويُعلم ذلك من تقييد الإراءة بأنها في الأعين، لأنه لو لم يكن المقصد لكان مستغنى عنه، مع ما فيه من الدلالة على أن الإراءة بصرية لا حلمية كقوله في الآية الأخرى: ﴿ ترونهم مثلهم رأي العين ﴾ [ آل



عمران : 13 ] .

والالتقاء افتعال من اللقاء ، وصيغة الافتعال فيه دالة على المبالغة .

(51/314)

---

واللقاء والالتقاء في الأصل الحضور لدى الغير ، من صديق أو عدو ، وفي خير أو شر ، وقد  
كثُر إطلاقه على الحضور مع الأعداء في الحرب ، وقد تقدّم عند قوله تعالى في هذه السورة  
﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ﴾ [ الأنفال : 15 ] الآية .  
﴿ ويقللکم ﴾ يجعلکم قليلاً ، لأنّ مادة التّقليل تدلّ على الجعل ، فإذا لم يكن الجعل متعلّقاً  
بذات المفعول ، تعيّن أنّه متعلّق بالإخبار عنه ، كما ورد في الحديث في يوم الجمعة : " وفيه  
ساعة " ، قال الراوي : يقللها ؛ أو متعلّق بالإراءة كما هنا ، وذلك هو الذي اقتضى زيادة  
قوله : ﴿ في أعينهم ﴾ ليُعلم أنّ التقليل ليس بالنقص من عدد المسلمين في نفس الأمر .  
وقوله : ﴿ ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ هو نظير قوله : ﴿ ولكن ليقتضي الله أمراً كان  
مفعولاً ﴾ [ الأنفال : 42 ] المتقدّم أعيد هنا لأنّه علّة إراءة كلا الفريقين الفريق الآخر قليلاً  
، وأما السابق فهو علّة لتلاقي الفريقين في مكان واحد في وقت واحد .  
ثم إنّ المشركين لما يبرزوا لقتال المسلمين ظهر لهم كثرة المسلمين فبهتوا ، وكان ذلك بعد

المناجزة، فكان ملقياً الرعب في قلوبهم، وذلك ما حكاه في سورة [آل عمران: 13]

قوله: ﴿ ترونهم مثلهم رأبي العين ﴾

وخولف الأسلوب في حكاية إراءة المشركين، وحكاية إراءة المسلمين، لأنَّ المشركين كانوا عدداً كثيراً فناسب أن يحكي تليلهم بإراءة تهم قليلاً، المؤذنة بأنهم ليسوا بالتليل.

وأما المسلمون فكانوا عدداً قليلاً بالنسبة لعدوهم، فكان المناسب لتليلهم: أن يعبر عنه بأنه تليل المؤذن بأنه زيادة في قتلهم.

وجملة: وإلى الله ترجع الأمور ﴿ تذييل معطوف على ما قبله عطفاً اعتراضياً، وهو

اعتراض في آخر الكلام، وهذا العطف يسمى: عطفاً اعتراضياً، لأنه عطف صوري

ليست فيه مشاركة في الحكم، وتسمى الواو اعتراضية.

والتعريف في قوله: ﴿ الأمور ﴾ للاستغراق، أي جميع الأشياء.

(52/314)

---

والرجوع هنا مستعمل في الأول وانتهاء الشيء، والمراد رجوع أسبابها، أي إيجادها، فإنَّ

الأسباب قد تلوح جارية بتصرف العباد وتأثير الحوادث، ولكن الأسباب العالية، وهي

الأسباب التي تتصاعد إليها الأسباب المعتادة، لا يتصرف فيها إلا الله وهو مؤثرها

وموجدها .

على أنّ جميع الأسباب ، عاليها وقربها ، متأثر بما أودع الله فيها من القوى والنواميس والطبائع ، فرجوع الجميع إليه ، ولكنّه رجوع متفاوت على حسب جريه على النظام المعتاد ، وعدم جريه ، فإيجاد الأشياء قد يلوح حصوله بفعل بعض الحوادث والعباد ، وهو عند التأمل الحقّ راجع إلى إيجاد الله تعالى خالق كلّ صانع .

والذوات وأحوالها كلّها من الأمور ، ومآلها كلّ رجوع ، فهذا ليس رجوع ذوات ولكنه رجوع تصرف ، كالذي في قوله : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ [البقرة: 156] .  
والمعنى : ولا عجب في ما كونه الله من رؤية الجيشين على خلاف حالهما في نفس الأمر ، فإنّ الإراءة المعتادة ترجع إلى ما وضعه الله من الأسباب المعتادة ، والإراءة غير المعتادة راجعة إلى أسباب يضعها الله عند إرادته .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب ﴿ ترجع ﴾ بضمّ التاء وفتح الجيم أي يرجعها ، راجع إلى الله ، والذي يرجعها هو الله فهو يرجعها إليه .

وقرأ البقية ﴿ ترجع ﴾ بفتح التاء وكسر الجيم أي : ترجع بنفسها إلى الله ، ورجوعها هو بـرجوع أسبابها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمْتُّمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (44)

إذن رأى المؤمنون الكفار قليلاً، ولو كثّر الله الكفار في أعين المؤمنين، أو كثّر المؤمنين في أعين

الكفار ما حدثت المعركة . ولكنه سبحانه وتعالى شاء أن يقلل كل فريق في نظر الآخر

ليبدأ القتال، ويحكي سيدنا عبد الله بن مسعود :

لقد قلت لجارلي أظنهم سبعين، فقال : لا بل مائة .

وهكذا كان عدد الكافرين قليلاً في نظر المؤمنين، وكان عدد المؤمنين بالفعل قليلاً في عيون

الكافرين .

وأيضاً شاء الحق سبحانه أن يجعل في ذلك بلاغاً من إعلانات النبوة في رسول الله صلى الله

عليه وسلم، فقد رأى النبي عدد الكافرين في المنام وهم قليل، وأخبر صلى الله عليه

وسلم قومه بذلك . ودار القتال الذي أراد الله تعالى :

﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [ الأنفال : 44 ] .

والأمر الحاسم هو التقاء الفئتين المتقاتلتين في معركة بدر ليفصل الله بين الحق والباطل، وبين

الإيمان والكفر؛ حتى ترجع الأمور إلى الله، فلكل واحد من جنود المعركة جزاءً من عند

الله سبحانه وتعالى؛ المؤمنون لهم جزاء على قدر نياتهم وإخلاصهم في الجهاد، الكافرون عليهم غضب من الله تعالى. والغضب منازل، كل منزلة من الغضب حسب أحوال صاحبها.

(54/314)

---

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَالِىَ اللّٰهُ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ نجد فيه كلمة "الأمور" وهي جمع أمر، وفي المعارك ألوان مختلفة من الأوامر؛ فلكل جندي أمر، وهناك أمر عام تنتهي إليه المعارك وهو انتصار طرف وانهزام طرف آخر. ولكي يتم النصر للمؤمنين فإن الله يطلب منهم أن يثبتوا في المعركة؛ فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا . . .﴾ انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الشعراوى ص﴾

(55/314)

---

"فصل"

قال السيوطى:

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْتِمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (44)

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : لا ، بل مائة ، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه ؟ قال : كما ألفاً .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْتِمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ قال : حضض بعضهم على بعض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(56/314)

من لطائف الإمام القشيري في الآتين

قال عليه الرحمة :

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْتِمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ (44) ﴾

قيل أراه إياهم في نومه صلى الله عليه وسلم - بوصف القلة ، وأخبر أصحابه بذلك  
فازدادوا جسارة عليهم .

وقيل أراه في منامه أي في محل نومه أي في عينيه ، فمعناه قللهم في عينيه ؛ لأنهم لو  
استكثروهم لفشلوا في قتالهم ، ولانكسرت بذلك قلوب المسلمين .

وفي الجملة أراد الله جريان ما حصل بينهم من القتال يوم بدر ، وإن الله إذا أراد أمراً هَيَّأَ  
أسبابه ؛ فقلل الكفار في أعين المسلمين فزادوا جسارة ، وقلل المسلمين في أعين الكفار  
فازدادوا - عند نشاطهم إلى القتال - صغراً في حكم الله وخسارة .

(57/314)

---

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: 154] : وكيف لا؟ ومنه تصدرُ  
المقاديرُ ، وإليه تُرجعُ الأمور .

ويقال إذا أراد الله نصرته عبدٍ فلو كادَ له جميعُ البشرِ ، وأرادَه الكافةُ بكلِّ ضررٍ ، لا ينفعُ مَنْ  
شاءَ مَضْرَتَهُ كَدُّ ، ويحصلُ بينه وبين مَتَاحِ لُطْفِهِ بِهِ سَدٌّ .

وإذا أرادَ بعبدٍ سوءاً فليسَ له رَدٌّ ، ولا ينفعُه كَدُّ ، ولا ينعشه بعد ما سقط في حكمه

جَهْدٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 628 ﴾

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(45) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر ذلك وتم على هذا السبيل الأحكم والمنهاج الأقوم ، كان علة لمضمون قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآيتين ، فكاتنا تبيجه ، لأنه إذا علم أن الأمر كله له ولا أثر لقله ولا كثرة أثر لمن هو في أدنى درجات الإيمان فضلاً عن غيره قلة المبالاة بالظالمين وإن تجاوزت قواهم الحد ، وزادوا كثرة على العد ، والآيتان تذكرانهم بمجالتهم التي أوجبت نصرهم ليلزموها في كل معترك ولا يتنازعوا كما تنازعوا في المغنم ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ ﴾ أي قاتلتم لأن اللقاء اسم للقتال غالب ﴿ فِئَةً ﴾ أي طائفة مستحقة للقتال كما أغنى عن وصفها بذلك وصفهم بالإيمان ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ أي في لقاءها بقاتلها كما ثبتتم في بدر ولا تحذثوا أنفسكم بفرار ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أي الذي له كل كمال فكل شيء يطلب فهو عنده يوجد ﴿ كَثِيرًا ﴾ أي كما صنعتكم ثم ، لأن ذلك أمانة الصدق في الاعتماد عليه وحده ، وذلك موجب للنصر لا محالة كما في



الحديث القدسي "إن عبدي كل عبدي للذي يذكرني عند لقاء قرنه"  
ولما أمر بذلك، علله بأداة الترجي، ليكون أدل على أنه سبحانه لا يجب عليه شيء  
فيكون للإيمان فقال: ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لتكونوا على رجاء من الفلاح وهو الظفر  
بالمعاد من النصر والأجر وكما كنتم إذ ذاك. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر ح 3 ص  
﴿224.223﴾

(59/314)

فصل

قال الفخر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (45)

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع نعمه على الرسول وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم إذا التقوا بالفئة  
وهي الجماعة من المحاربين نوعين من الأدب: الأول: الثبات وهو أن يوطنوا أنفسهم على  
اللقاء ولا يحدثوها بالتولي.

والثاني: أن يذكروا الله كثيراً، وفي تفسير هذا الذكر قولان:

القول الأول: أن يكونوا بقلوبهم ذاكرين الله وبألسنتهم ذاكرين الله.

قال ابن عباس : أمر الله أوليائه بذكره في أشد أحوالهم ، تنبيهاً على أن الإنسان لا يجوز أن يخلى قلبه ولسانه عن ذكر الله ، ولو أن رجلاً أقبل من المغرب إلى المشرق ينفق الأموال سخاء ، والآخر من المشرق إلى المغرب يضرب بسيفه في سبيل الله ، كان الذاكر لله أعظم أجراً .

والقول الثاني : أن المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر ، لأن ذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى .

ثم قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ وذلك لأن مقاتلة الكافرين كانت لأجل طاعة الله تعالى كان ذلك جارياً مجرى بذل الروح في طلب مرضاة الله تعالى ، وهذا هو أعظم مقامات العبودية ، فإن غلب الخصم فاز بالثواب والغنيمة ، وإن صار مغلوباً فاز بالشهادة والدرجات العالية ، أما إن كانت المقاتلة لا لله بل لأجل الثناء في الدنيا وطلب المال لم يكن ذلك وسيلة إلى الفلاح والنجاح .

فإن قيل : فهذه الآية توجب الثبات على كل حال ، وهذا يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز .

قلنا : هذه الآية توجب الثبات في الجملة ، والمراد من الثبات الجد في المحاربة .  
وآية التحرف والتحيز لا تنقدح في حصول الثبات في المحاربة بل كان الثبات في هذا المقصود ،

لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ

﴿ 137

(60/314)

وقال السمرقندي :

ثم حرّض المؤمنين على القتال فقال تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

فَانبِتُوا ﴾ ،

يعني جماعة من الكفار فانبِتوا لهم وقاتلوهم مع نبيكم ، ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ ؛ يعني في

الحرب ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ ؛ يعني تفوزون به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2

صـ ﴿

وقال الثعلبي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾

أي جماعة كافرة ( فانبِتوا ) لقاتلهم ولا تنهزموا ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ أي ادعوا الله

بالنصر عليهم والظفر بهم ، وقال قتادة : أمر الله بذكره [ أثقل ] ما يكونون عند الضراب

بالسيوف ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ تنجحون بالنصر والظفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف

والبيان ح 4 ص ﴿

(61/314)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

هذا أمر بما فيه داعية النصر وسبب العز ، وهي وصية من الله متوجهة بحسب التقييد التي في آية الضعف ، ويجري مع معنى الآية قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تتموا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا " .

قال القاضي أبو محمد : وهكذا ينبغي أن يكون المسلم في ولاية الإمارة والقضاء لا يطلب ولا يتمنى ، فإن ابتلي صبر على إقامة الحق ، و" الفئّة " الجماعة أصلها فتوة وهي من فأوت أي جمعت ، ثم أمر الله تعالى بإكثار ذكره هنالك إذ هو عصمة المستنجد ووزر المستعين ، قال قتادة : افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ذكر خفي لأن رفع الأصوات في موطن القتال رديء مكروه إذا كان إلغاطاً ، فأما إن كان من الجمع عند الحملة فحسن فات في عضد العدو ، وقال

قيس بن عباد : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون الصوت عند ثلاث  
: عند قراءة القرآن وعند الجنازة والقتال ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اطلبوا  
إجابة الدعاء عند القتال وإقامة الصلاة ونزول الغيث ، " وقال ابن عباس يكره التلثم عند  
القتال .

قال القاضي أبو محمد : ولهذا والله أعلم يتسنن المرابطون بطرحه عند القتال على  
ضنائهم به و ﴿ تفلحون ﴾ تنالون بغيتكم وتبلغون آمالكم ، وهذا مثل قول لبيد : [   
الرجز ]

أفلح بما شئت فقد يبلغ بالض . . . ضعف وقد يمدح الأريب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر  
الوجيز ح 2 ص ﴾

(62/314)

---

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة ﴾

أي جماعة ﴿ فاثبتوا ﴾ أمر بالثبات عند قتال الكفار ، كما في الآية قبلها النهي عن الفرار  
عنهم ، فالتقى الأمر والنهي على سواء .

وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجدد له .

قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال :

الأول اذكروا الله عند جزع قلوبكم ؛ فإن ذكره يُعين على الثبات في الشدائد .

الثاني اثبتوا بقلوبكم ، واذكروه بألسنتكم ؛ فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب

اللسان ؛ فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين ، ويثبت اللسان على الذكر ، ويقول ما

قاله أصحاب طالوت : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وانصرنا على القوم

الكافرين ﴾ .

وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة ، وانقاد البصيرة ، وهي الشجاعة المحمودة في

الناس .

الثالث اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ومُثامنته لكم .

قلت : والأظهر أنه ذكرُ اللسان الموافق للجنان .

قال محمد بن كعب القرظي : لورُخص لأحد في ترك الذكر لرُخص لذكريا ؛ يقول الله عز

وجل : ﴿ أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا ﴾ .

ولرُخص للرجل يكون في الحرب ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ

كَثِيرًا ﴾ .

وقال قتادة : افترض الله جل وعز ذكره على عباده ، أشغل ما يكونون عند الضراب

بالسيوف .

وحكم هذا الذكر أن يكون خفياً ؛ لأن رفع الصوت في مواطن القتال رديء مكروه إذا كان  
الذاكر واحداً .

فأما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن ؛ لأنه يفتّ في أعضاد العدو .

وروى أبو داود عن قيس بن عباد قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يكرهون الصوت عند القتال .

وروى أبو بردة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك .

قال ابن عباس : يكره التلثم عند القتال .

قال ابن عطية : وبهذا والله أعلم استنّ المرابطون بطرحه عند القتال على صياتهم به .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 8 ص ﴾

(63/314)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾

يعني جماعة كافرة ﴿ فاثبتوا ﴾ يعني لقتالهم وهو أن يوطنوا أنفسهم على لقاء العدو وقتاله

ولا يحد ثوها بالتوالي ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ يعني كونوا ذاكرين الله عند لقاء عدوكم ذكراً كثيراً بقلوبكم وألسنتكم أمر الله عباده المؤمنين وأوليائه الصالحين بأن يذكروه في أشد الأحوال وذلك عند لقاء العدو وقتاله ، وفيه تنبيه على أن الإنسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله .

وقيل : المراد من هذا الذكر هو الدعاء بالنصر على العدو وذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى فأمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يسألوه النصر على العدو عند اللقاء ثم قال تعالى : ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ يعني : وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفرة .  
فإن قلت : ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز .

قلت المراد من الثبات هو الثبات عند المحاربة والمقاتلة في الجملة وآية التحرف والتحيز لا تقدر في حصول هذا الثبات في المحاربة بل ربما كان الثبات لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى مؤكداً لذلك ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ تفسير الخازن ج 3 ص ﴾



وقال أبو حيان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾

أي فئة كافرة حذف الوصف لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار واللقاء اسم للقتال  
غالب وأمرهم تعالى بالثبات وهو مقيد بآية الضعف وفي الحديث : " لا تتمنوا لقاء العدو  
وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا " وأمرهم بذكره تعالى كثيراً في هذا الموطن العظيم  
من مصابرة العدو والتلاحم بالرمح والسيوف وهي حالة يقع فيها الذهول عن كل شيء  
فأمروا بذكر الله إذ هو تعالى الذي يفرع إليه عند الشدائد ويستأنس بذكره ويستنصر  
بدعائه ومن كان كثير التعلق بالله ذكره في كل موطن حتى في المواضع التي يذهل فيها عن كل  
شيء ويغيب فيها الحسّ ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وحكى لي بعض الشجعان أنه  
حالة التحام القتال تأخذ الشجاع هزة وتعترية مثل السكر لهول الملقى فأمر المؤمنين بذكر  
الله في هذه الحالة العظيمة وقد نظم الشعراء هذا المعنى فذكروا أنهم في أشقّ الأوقات  
عليهم وأشدّها لم ينسوا محبوبهم وأكثروا في ذلك فقال بعضهم :

ذكرت سليمى وحرّ الوغى . . .

كقلبي ساعة فارقتها

وأبصرت بين القنا قدّها . . .

وقد ملن نحوي فعانقتها

قال قتادة: افترض الله ذكره أشغل ما يكون العبد عند الضراب والسيوف، وقال  
الزمخشري: فيه إشعار بأن على العبد أن لا يفتر عن ذكر الله أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما  
يكون همّاً وأن يكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره، وذكر أن الثبات  
وذكر الله سببا للفلاح وهو الظفر بالعدو في الدنيا والفوز في الآخرة بالثواب، والظاهر أن  
الذكر المأمور به هو باللسان فأمر بالثبات بالجنان وبالذكر باللسان والظاهر أن لا يعين ذكر،  
وقيل هو قول المجاهدين: الله أكبر الله أكبر عند لقاء الكفار، وقيل الدعاء عليهم: اللهم  
اخذ لهم اللهم دمرهم وشبهه، وقيل دعاء المؤمنين لأنفسهم بالنصر والظفر والتثبيت كما  
فعل قوم طالوت فقالوا ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين  
﴾ وقيل: حم لا ينصرون وكان هذا شعار المؤمنين عند اللقاء، وقال محمد بن كعب: لو  
رخص ترك الذكر لرخص في الحرب ولذكرنا حيث أمر بالصمت ثم قيل له: واذا ذكر ربك  
كثيراً، وحكم هذا الذكر أن يكون خفياً إلا إن كان من الجميع وقت الحملة فحسن رفع  
الصوت به لأنه يفت في أعضاء الكفار وفي سنن أبي داود كان أصحاب الرسول (صلى الله

عليه وسلم) يكرهون الصوت عند القتال وعند الجنازة، وقال ابن عباس: يكره التلثم

عند القتال. انتهى انتهى. اهـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(66/314)

وقال أبو السعود :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

صُدِّرَ الخطابُ بجر في النداء والتنبيه إظهاراً لكمال الاعتناء بمضمون ما بعده ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ أي حاربتهم جماعة من الكفرة وإنما لم يوصفوا بالكفر لظهور أن المؤمنين لا يجارون إلا الكفرة، واللقاء مما غلب في القتال ﴿ فَانْتَبُوا ﴾ أي للقائهم في مواطن الحرب ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ أي في تضاعيف القتال مستمدّين منه متسعينين به مستظهريين بذكره مترقبين لنصره ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ أي تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى وأن يلتجئ عند الشدائد ويُقبل إليه بكلية فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ﴾

(67/314)

وقال الأوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾

أي حاربتهم جماعة من الكفرة ولم يصفها سبحانه لظهور أن المؤمنين لا يحاربون إلا الكفار ،  
وقيل : ليشمل بإطلاقه البغاة ولا ينافيه خصوص سبب النزول ، ومنهم من زعم أن  
الانقطاع معتبر في معنى الفئة لأنها من فآوت أي قطعت والمنقطع عن المؤمنين إما كفار أو  
بغاة ، وبنى على ذلك أنه لا ينبغي أن يقال : لم توصف لظهور الخ وليس بشيء كما لا يخفى ،  
واللقاء قد غلب في القتال كالنزال .

وتصدير الخطاب مجري النداء والتنبيه إظهار الكمال الاعتناء بمضمون ما بعده ﴿ فَاثْبُتُوا  
﴿ لِلْقَائِمِ ﴾ وَلَا تَوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَالظَّاهِرَ أَنْ الْمَرَادُ إِلَّا وَأَوْ عَلَى مَا مَرَّ ﴾ واذكروا الله  
كثيراً ﴿ أَي فِي تَضَاعِيفِ الْقِتَالِ ، وَفَسَّرَ بَعْضُهُمْ هَذَا الذِّكْرَ بِالتَّكْبِيرِ ، وَبَعْضُهُمْ بِالدَّعَاءِ  
وَرَوَوْا أَدْعِيَةَ كَثِيرَةً فِي الْقِتَالِ مِنْهَا اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّنَا وَرَبُّهُمْ نَوَاصِينَا وَنَوَاصِيهِمْ بِيَدِكَ فَاقْتُلْهُمْ  
وَاهْزِمْهُمْ ، وَقِيلَ : الْمَرَادُ بِذِكْرِهِ سُبْحَانَهُ إِخْطَارَهُ بِالْقَلْبِ وَتَوَقُّعَ نَصْرِهِ ، وَقِيلَ : الْمَرَادُ إِذْ ذَكَرُوا  
مَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ لِيَدْعُوَكُمْ ذَلِكَ إِلَى  
الثَّبَاتِ فِي الْقِتَالِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ أَي تَفُوزُونَ بِمَرَامِكُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالثَّوَابِ ، وَالْأُولَى  
حَمَلَ الذِّكْرَ عَلَى مَا يَعْمُ التَّكْبِيرَ وَالدَّعَاءَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ ، وَفِي الْآيَةِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنْ

العبد ينبغي أنه لا يشغله شيء عن ذكر مولاه سبحانه ، وذكره جل شأنه في مثل ذلك

الموطن من أقوى أدلة محبته جل شأنه ، ألا ترى من أحب مخلوقاً مثله كيف يقول :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل . . .

مني وبيض الهند تشرب من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها . . .

برقت كبارق ثغرك المتبسم . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعاني ح 10 ص﴾

(68/314)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾

لما عرفهم الله بنعمه ودلائل عنايته ، وكشف لهم عن سر من أسرار نصره إياهم ، وكيف خذل أعداءهم ، وصر فهم عن أذاهم ، فاستب لهم النصر مع قتلهم وكثرة أعدائهم ، أقبل في هذه الآية على أن يأمرهم بما يهيء لهم النصر في المواقع كلها ، ويستدعي عناية الله بهم وتأيد إياهم ، فجمع لهم في هذه الآية ما به قوام النصر في الحروب .

وهذه الجمل معترضة بين جملة : ﴿ وإذ يريكم وهم ﴾ [ الأنفال : 44 ] وجملة : ﴿ وإذ

زين لهم الشيطان أعمالهم ﴿ [ الأنفال : 48 ] .

وافتحت هذه الوصايا بالنداء اهتماماً بها ، وجُعل طريق تعريف المنادى طريق الموصولية لما تؤذن به الصلة من الاستعداد لامثال ما يأمرهم به الله تعالى ، لأن ذلك أخصّ صفاتهم تلقاء أوامر الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ [ النور : 51 ] .

واللقاء : أصله مصادفة الشخص ومواجهته ، باجتماع في مكان واحد ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ [ البقرة : 37 ] وقوله : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ في سورة [ البقرة : 223 ] .

وقد غلب إطلاقه على لقاء خاصّ وهو لقاء القتال ، فيرادف القتال والنزال . وقد تقدم اللقاء قريباً في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا ﴾ [ الأنفال : 15 ] وبهذا المعنى تعين أنّ المراد بالفئة : فئة خاصّة وهي فئة العدو ، يعني المشركين .

و"الفئة" الجماعة من الناس ، وقد تقدّم اشتقاقها عند قوله تعالى : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ﴾ في سورة [ البقرة : 249 ] .

---

وذكر الله، المأمور به هنا : هو ذكره باللسان، لأنه يتضمّن ذكر القلب، وزيادة فإنه إذا ذكر  
بلسانه فقد ذكر قلبه ولسانه، وسَمِعَ الذكرَ بسمعه، وذكرَ مَنْ يليه بذلك الذكر، ففيه  
فوائد زائدة على ذكر القلب المجرد، وقرينة إرادة ذكر اللسان ظاهرٌ وصفه بكثير لأن الذكر  
بالقلب يوصف بالقوة، والمقصود تذكّر أنه الناصر .

وهذان أمران أمروا بهما وهما يخصّان المجاهد في نفسه، ولذلك قال : لعلمكم تفلحون  
.

فهما لإصلاح الأفراد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(70/314)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (45)

وساعة تسمع كلمة " فِئَة " فاعلم أن معناها جماعة اختصت بجوض المعارك في ميدان  
القتال، فليست مطلق جماعة، بل هي جماعة مترابطة من المقاتلين؛ لأن كل مقاتل يفيء  
لغيره من زملائه، أي جماعة أخرى غير مترابطة تستطيع تفريقهم بصرخة أو عصا، أما

المقاتلون فأنت لا تصرفهم إلا بقوة أكبر منهم ، ويحاول كل منهم أن يحمي زميله ، إذن فكل منهم يفىء إلى الآخرين .

والحق تبارك يقول : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: 249] .  
ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّافِئَةِ تَقَاتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران: 13] .

إذن فالفئة هي جماعة في الحرب .

وقوله تعالى :

﴿ لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ [الأنفال: 45] .

يقصد به ساعة حدوث المعركة ونشوب القتال ؛ لأن الحرب تقتضي أولاً إعداداً ، ثم تخطيطاً يتم قبل الالتحام ثم ذهاباً إلى مكان المعركة . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ ﴾ أي أن المسألة قد وصلت إلى الواجهة مع الكفار ويقول الحق تبارك وتعالى ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ والثبات هنا معناه المواجهة الشجاعة ، لأن الإنسان إذا ما كان ثابتاً في القتال ، فالعدو يخشاه ويهابه ، وإن لم يكن كذلك فسوف يضطر إلى النكوص ، وهذا ما يجريء الكفار عليكم .  
وما دمتم قد جئتم إلى القتال ، فلا بد أن يشهد الأعداء شجاعتكم ؛ لأنكم إن فررتم فهذه شهادة ضعف ضدكم .



---

ولذلك لا بد من التدريب على الثبات والقتال ، وهذا هو الإعداد المسبق للحرب ؛  
بالتدريب القوي والتخطيط الدقيق ، وألا يتولى أحد منكم ويفر لحظة الزحف لأن هذا  
العمل هو من أكبر الكبائر ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَلِّمُهُمْ دُبْرَهُ إِلَّا  
مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [ الأنفال : 16 ] .  
﴿ يُؤَلِّمُهُمْ ﴾ أي يعطيهم ، و ﴿ دُبْرَهُ ﴾ أي ظهره ، وهذا تقبيح لعملية الفرار ، لأن الدبر  
محل الصيانة ومحل المحافظة . ونعلم أن هناك من قال للإمام عليّ - كرم الله وجهه - : إن  
درعك له صدر وليس له ظهر ، أي أن الدرع يحمي صدرك إنما وراءك لا يوجد جزء من  
الدرع ليحمي ظهرك . فقال : ( لا كنت إن مكنت خصمي من ظهري ) ، أي أنه - كرم الله  
وجهه - يفضل الاستشهاد على أن يمكّن خصمه من ظهره ، فلو أنّ درعه من الأمام ومن  
الخلف ، ففي هذه الحالة يكون في نيته أن يمكّن خصمه من ظهره ، ولذلك جعل الدرع يحمي  
الصدر فقط ، وهو على يقين أنه لن يدير ظهره لعدوه ، ويسمون تلك الحالة الأخرى " ظاهرة  
ضبط النفس " أي أنها طريق لمنع الشيء أن يحدث ولو في ساعة الشدة ؛ لأن المقاتل حين  
يدخل المعركة ، وهو يحمي صدره فقط فهو لا يتولى ليفر ؛ لأنه يعلم أنه لو تولى فسيكشف  
لهم ظهره وسيتمكن منه عدوه وسوف يقتل .

والحق سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿ فاثبتوا ﴾ لا يطلب هذا الثبات على إطلاقه ،  
ولكن يريد من المؤمنين الثبات والقوة في القتال . أما غذا كانت الفئة التي يواجهها المؤمنون  
كبيرة العدد أو كثيرة العتاد فذلك يتطلب الدراسة والاستعداد ، وهنا طلب الحق الثبات  
ليعلم المؤمنون يقيناً ؛ أنهم لا يواجهون عدوهم بقوتهم ولكن بقوة الله الذي يجاهدون من  
أجله . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ ، أي تذكروا وأنتم  
تقاتلون أن الله معكم بعونه ونصره ، فإن لم تستطع أسبابكم أن تأتي بالنصر ، فإن خالق  
الأسباب يستطيع بقدرته أن يأتي بالنصر .

وكلنا نعلم أن الحق تبارك وتعالى قد وضع في كونه الأسباب ، فإذا استنفدنا أسبابنا ،  
اتجهنا إلى خالق الأسباب ، ولذلك نجد أن من لا يؤمن بالله إذا خاتته الأسباب ينتحر أو  
ينهار تماماً أو يصاب بالجنون ، ولكن المؤمن يقول : إذا خاتني الأسباب فمعي رب الأسباب  
وخالقها ، ويأوي إلى ركن شديد .

إن الطفل الصغير إذا اعتدى عليه أحد يقول : إن لي أباً أو أخاً سيرد عني الإيذاء ؛ لأن  
الأسباب لا تعطيه قدرة الرد ، فكيف لمن له رب قدرته فوق قدرة الكون كله ، وقوته

موجودة دائماً . ولذلك نجد قوم موسى حين وصلوا إلى شاطئ البحر ووجدوا أمامهم الماء ، ونظروا خلفهم ورأوا جنود فرعون مقبلين من بعيد ، قالوا : ﴿ إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ﴾ وكانوا منطقيين فيما قالوه ، فالبحر أمامهم والعدو وراءهم . وليس لهم من طريق للنجاة باستخدام الأسباب العادية في هذا الكون ، ولكن موسى عليه السلام بقوة إيمانه بالله تعالى يقول ما جاء على لسانه في القرآن الكريم : ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ [ الشعراء : 62 ] .

أي إن فرعون وجنوده لن يدركونا ، ولم يفهم قوم موسى ؛ لأن البحر أمامهم وجنود فرعون وراءهم ، وأضاف سيدنا موسى عليه السلام بملء فيه قوله : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [ الشعراء : 62 ] .

(73/314)

---

أي أنه رفع الأمر من الأسباب إلى المسبب ، وإذا بالله يأمره أن يضرب بعصاه البحر ؛ فينفلق ؛ وتظهر الأرض اليابسة . ويعبر بنو إسرائيل البحر ، وعندما وصل موسى وقومه إلى شاطئ البحر بعد أن عبروا ، أراد موسى أن يضرب البحر مرة أخرى حتى يعود الماء إلى الاستطراق . فلا يتمكن جنود فرعون من اللحاق بهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال لموسى : ﴿ وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [ الدخان : 24 ] .

أي لا تتعجل وتضرب البحر ليعود مرة أخرى لاستطراق الماء بل اتركه على حاله ساكناً  
فما أنجى الله به بني إسرائيل سيغرق به آل فرعون ، وبذلك أنجى وأهلك بالشيء الواحد ،  
وهذا لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [ الأنفال :  
45 ] .

وسبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب  
حسابها وكيف تعاني النفس من كرب عظيم ، خصوصاً إذا كان ذلك في ميدان القتال ،  
ولذلك طلب من المؤمنين لأن يتذكروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم في المعركة وأنه سبحانه  
وتعالى معهم ، فليذكروا هذا كثيراً ليوالي نصرهم على عدوهم ؛ لأنهم إذا ما داوموا على  
ذكر الله تعالى فسيقوي هذا الذكر إيمانهم ، ويجعل في قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق  
النصر .

(74/314)

---

وَذَكَرُ الْحَقِّ كَلِمَةً ﴿ كَثِيرًا ﴾ هُنَا يَعْنِي أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَذْكُرُ اللَّهَ عِنْدَ الْيَأْسِ فَقَطْ ، فَإِنْ جَاءَتْ الْحَيَاةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالرَّخَاءِ فَقَدْ يَنْسَى ذِكْرَ اللَّهِ ؛ لِذَلِكَ يُؤَكِّدُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُنَا أَنَّ يَكُونُ ذِكْرَ اللَّهِ كَثِيرًا ، لِيُوَالِيَ اللَّهُ نَصْرَ الْمُؤْمِنِ عَلَى عَدُوِّهِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ : أَنَا نَجِّدُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَمَا يَسْتَحْضِرُ الْخَلْقَ الْمُؤْمِنِينَ لِلصَّلَاةِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [ الجمعة : 9-10 ] .

يَطْلُبُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَلِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ الْعَلِيمُ بِأَنَّهُمْ يَدَاوِمُونَ الْوَلَاءَ لَهُ سُبْحَانَهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ .

ثُمَّ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ يَطَالِبُهُمُ بِالِانْتِشَارِ فِي الْأَرْضِ وَالِابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيُنَبِّهُنَا أَنَّ نِدَاوَمَ عَلَى ذِكْرِهِ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ ؛ إِيَّاكُمْ أَنْ تَلْهِيَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَمَصَالِحُكُمْ الدُّنْيَوِيَّةَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أَوْ تَعْتَقِدُوا أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ فِي الْمَسْجِدِ أَوْ وَقْتُ الصَّلَاةِ فَقَطْ ، بَلْ دَاوَمُوا عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ فِي كُلِّ أَحْدَاثِ الْحَيَاةِ . فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ وَذَكَرْتُمْ اللَّهَ كَثِيرًا فَسَتَكُونُونَ مِنَ الْمَفْلِحِينَ .

وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا مَعْنَاهُ أَنَّكَ تَشْعُرُ فِي كُلِّ لِحْظَةٍ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَعَكَ فَتَخْشَاهُ وَتَحْمَدُهُ وَتَسْتَعِينُ بِهِ . وَهَكَذَا تَكُونُ الصَّلَاةُ دَائِمَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ وَقْتٍ .

مِثَالُ ذَلِكَ مَا حَدَّثَ فِي عَامِ 1973 فِي مَعْرَكَةِ الْعَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ ، كَانَ ذِكْرَ اللَّهِ بِمِلْأِ

القلوب واستمد الجند من قولهم: ﴿الله أكبر﴾ طاقة هائلة واجهوا بها العدو ،  
واقترحوا خط " بارليف " . وأعانهم الحق بمدد الإيمان من عنده ، وأوجد في نفس كل  
منهم طاقة هائلة تحقق بها النصر ؛ وذلك بإجادة التدريب ومداومة الذكر لله تعالى . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي صـ ﴾

(75/314)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (45) ﴿

أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تتمنوا

لقاء العدو وأسألوا الله العافية ، فإن لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله كثيراً ، فإذا جلبوا

وصيحوا فعليكم بالصمت " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار رضي الله عنه قال : ما من شيء أحب إلى الله من

قراءة القرآن والذكر ، ولولا ذلك ما أمر الله الناس بالصلاة والقتال : ألا ترون أنه قد أمر

الناس بالذكر عند القتال فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً  
لعلكم تفلحون ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : افترض  
الله ذكره عند أشغل ما تكونون ، عند الضراب بالسيوف .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر رضي الله عنه قال : أشد الأعمال ثلاثة : ذكر الله  
على كل حال ، وانصافك من نفسك ، ومواساة الأخ في المال .

وأخرج عبد الرزاق عن يحيى بن أبي كثير رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم  
قال : لا تمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرن لعلكم سئبلون بهم وسلوا الله العافية ، فإذا  
جاءكم يبرقون ويرجفون ويصيحون بالأرض ، الأرض جلوساً ثم قولوا : اللهم ربنا وربهم  
نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ، فإذا دنوا منكم فتوروا إليهم واعلموا أن الجنة  
تحت البارقة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء رضي الله عنه قال : وجب الانصات والذكر عند  
الرجف ، ثم تلا ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ .

(76/314)

---

وأخرج ابن عساكر عن عطاء بن أبي مسلم رضي الله عنه قال: "لما ودع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه قال ابن رواحة: يا رسول الله مرني بشيء أحفظه عنك؟ قال "إنك قادم غداً بلداً السجود به قليل فأكثر السجود". قال: زدني. قال: اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب. قال: زدني. قال: يا ابن رواحة فلا تعجزن إن أسأت عشراً أن تحسن واحدة. فقال ابن رواحة رضي الله عنه: لا أسألك عن شيء بعدها " " .

وأخرج الحاكم وصححه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ثنتان لا تردان، الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً".

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي موسى رضي الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الصوت عند القتال".

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم عن قيس بن عباد رضي الله عنه قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون الصوت عند القتال.

وأخرج ابن أبي شيبة عن قيس بن عباد رضي الله عنه قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يستحبون خفض الصوت عند ثلاث. عند القتال، وعند القرآن، وعند الجنائز.



وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكره رفع الصوت عند ثلاث . عند الجنائز ، وإذا التقى الزحفان ، وعند قراءة القرآن " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ج 4 ص ﴾

(77/314)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (45) ﴿

أراد إذا لقيتم فئة من المشركين فاثبتوا . والثبات إنما يكون بقوة القلب وشدة اليقين ، ولا

يكون ذلك إلا لِنفاذ البصيرة ، والتحقق بالله ، وشهود الحادثات كلها منه ، فعند ذلك

يستسلم الله ، ويرضى بحكمه ، ويتوقع منه حُسن الإعانة ، ولهذا أحالهم على الذكر فقال

: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ .

ويقال إن جميع الخيرات في ثبات القلب ، وبه تبيّن أقدار الرجال ، فإذا ورد على الإنسان

خاطرٌ يزعجه أو هاجسٌ في نفسه يهيجه . . . فمن كان صاحب بصيرةٍ توفّر ريشما تبيّن

له حقيقة الوارد ، فيثبتُ لكونه رابطَ الجأش ، ساكنَ القلب ، صافيَ اللب . . وهذا نعت  
الأكابر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات - ج 1 ص 628 . 629 ﴾

(78/314)

---

قوله تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ  
مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (46) ﴿

"فصل"

قال البقاعي :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ أي الذي له الغنى المطلق فلا يقبل إلا الخالص والكمال الأكمل فلا يفعل  
إلا ما يريد ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ أي في الإقدام والإحجام لجهلكم بالعواقب ، وتلك الطاعة أمانة  
إخلاصكم في الذكر ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ بأن يريد كل واحد نزع مال صاحبه من رأي وغيره  
وإثبات ما له ، وأشار إلى عظيم ضرر التنازع ببيان ثمرته المرة فقال ؛ ﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ أي  
تضعفوا ؛ قال في القاموس : فشل كفرح ، فهو فشل ، كسل وضعف وتراخي وجبن -

انتهى .

والمادة راجعة إلى الفيشلة وهي الحشفة ، ومن لازمها الرخاوة وينشأ عن الرخاوة الجبن مع الصلف والخفة والطيش .

(79/314)

---

ولما كان الفشل ربما كان معه الظفر لفشل في العدو وأكثر منه أو غير ذلك ، عطف ما يلزمه غالباً بالواو دون الفاء فقال : ﴿ وتذهب ريحك ﴾ أي غلبتكم وقوتكم ، وأصله أن الريح إذا كانت في الحرب من جهة صف كانت في وجوه أعدائهم فمنعتهم بما يريدون فخذلوا فصارت كأنها قوة من أتت من عنده ، فصارت يكتفى بها عنها ؛ ثم ختم هذه الأسباب بالجامع لشمليها الناظم لمقاصد أهلها فقال : ﴿ واصبروا ﴾ أي على ما يكون من تلك المشاق فإنكم إن تكونوا تألمون فإن أعداءكم كذلك ، وأنتم ترجون من الله ما لا يرجون ؛ ثم علله بما يكون النصر في الحقيقة فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي الميخط بصفات الكمال ﴿ مع الصابرين ﴾ أي لأنهم لا يصبرون إلا اعتماداً عليه ، ومن كان معه عز ، وهذه الجملة فيها - كما قال الإمام شمس الدين محمد بن قيم الجوزية في آخر كتاب الفروسية الحمديّة - تدير الحروب أحسن جمع على أتم وجه ، فأمر فيها بخمسة أشياء ما اجتمعت قط في فئة إلا انتصرت وإن قلت في جنب عدوها ، وخامسها ملاك ذلك وقوامه وأساسه وهو الصبر ،

فعلى هذه الدعائم الخمس تبنى قبة النصر ، ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسبه ،  
وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضاً وصار لها أثر عظيم ، لما اجتمعت في الصحابة .رضى  
الله عنهم .م لم تقم لهم أمة من الأمم ، ففتحوا البلاد شرقاً وغرباً ودانت لهم العباد سلماً  
وحراباً ، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر قليلاً قليلاً إلى ما ترى - فلا قوة إلا  
بالله ، والجامع لذلك كله طاعة الله ورسوله فإنها موجبة لتأييد المطيع بقوة من هو في طاعته  
، وذلك سر قول أبي الدرداء .رضى الله عنهم .الذي رواه البخاري في باب " عمل صالح  
قبل القتال " : إنما تقاتلون الناس بأعمالكم ؛ وهو شرع قديم ، قال في أثناء السفر الخامس  
من التوراة : وإن أتم سمعتم قول الله ربكم وتحفظتم وعملتم بكل هذه الوصية التي أمركم  
بها اليوم يبارك عليكم الله ربكم كما قال لكم ، وترزقون إن تقرضوا شعوباً  
كثيرة ولا تقرضون ، وتسلطون على شعوب كثيرة ولا يتسلطون عليكم . انتهى انتهى . ١٥ هـ

﴿ نظم الدرر ح 3 ص 224 . 225 ﴾

(80/314)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى مؤكداً لذلك: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر ما يأمر به ، لأن الجهاد لا ينفع إلا مع التمسك بسائر الطاعات .

ثم قال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وفيه مسائل:  
المسألة الأولى:

بين تعالى أن النزاع يوجب أمرين: أحدهما: أنه يوجب حصول الفشل والضعف .

والثاني: قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وفيه قولان: الأول: المراد بالريح الدولة ، شبهت الدولة وقت نفاذها وتمشية أمرها بالريح وهبوبها .  
يقال: هبت رياح فلان ، إذا دانت له الدولة ونفذ أمره .

الثاني: أنه لم يكن قط نصر إلا بريح يبعثها الله ، وفي الحديث " نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور " والقول الأول أقوى ، لأنه تعالى جعل تنازعهم مؤثراً في ذهاب الريح ، ومعلوم أن اختلافهم لا يؤثر في هبوب الصبا .

قال مجاهد: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي نصرتكم ، وذهبت ريح أصحاب محمد حين تنازعوا يوم أحد .

المسألة الثانية:

احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: القول بالقياس يفضي إلى المنازعة ، والمنازعة محرمة ، فهذه الآية توجب أن يكون العمل بالقياس حراماً ، بيان الملازمة المشاهدة ، فإننا نرى أن

الدنيا صارت مملوءة من الاختلافات بسبب القياسات ، وبيان أن المنازعة محرمة .  
قوله : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ وأيضاً القائلون بأن النص لا يجوز تخصيصه بالقياس تمسكوا بهذه  
الآية .

وقالوا : قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ صريح في وجوب طاعة الله ورسوله في كل  
ما نص عليه ، ثم أتبعه بأن قال : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ﴾ ومعلوم أن من تمسك بالقياس  
المخصص بالنص فقد ترك طاعة الله وطاعة رسوله .

وتمسك بالقياس الذي يوجب التنازع والفشل ، وكل ذلك حرام ، ومثبت القياس أجابوا عن  
الأول ؛ بأنه ليس كل قياس يوجب المنازعة .

ثم قال تعالى : ﴿ واصبروا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ والمقصود أن كمال أمر الجهاد مبني على  
الصبر ، فأمرهم بالصبر .

كما قال في آية أخرى : ﴿ اصبروا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ [آل عمران : 200] وبين أنه  
تعالى مع الصابرين ، ولا شبهة أن المراد بهذه المعية النصر والمعونة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 137. 138 ﴾

(81/314)

---

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ  
وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ



فيها أربع مسائل :

المسألة الأولى : قوله : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ ظاهر في اللقاء ، ظاهر في الأمر  
بالثبات ، مجمل في الفئتين التي تلقى منا والتي تكون من مخالفتنا ، بين هذا الإجمال التي  
بعدها في تعدد المقاتلين ، وقد أمر الله هاهنا بالثبات عند قتالهم ، كما نهى في الآية قبلها  
عن الفرار عنهم ؛ فالتقى الأمر والنهي على شفا من الحكم بالوقوف للعدو والتجدد له .  
وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلْبَرَاءِ : أفررتم عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يا أبا عمارة ؟ قال : لا ، والله ما ولى رسول الله ولكن ولى سرعان  
من الناس ، فلقيتهم هوازن بالنبل ، ورسول الله على بغلته ، وأبوسفيان بن الحارث بن  
عبد المطلب أخذ بلجامها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أنا النبي لا كذب .  
أنا ابن عبد المطلب ﴾ .

قال ابن عمر : ﴿ لقد رأيتنا يوم حنين ، وإن الفئتين لموليتان ، وما مع رسول الله صلى الله  
عليه وسلم مائة رجل ﴾ .

وَكُلَا الْحَدِيثَيْنِ صَحِيحٌ .

المَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ فِيهِ ثَلَاثُ احْتِمَالَاتٍ : الْأَوَّلُ : اذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ  
جَزَعِ قُلُوبِكُمْ ؛ فَإِنْ ذِكْرُهُ يُثَبِّتُ .

الثَّانِي : اثْبُتُوا بِقُلُوبِكُمْ وَاذْكُرُوهُ بِالسِّنِّتِكُمْ ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ يَسْكُنُ عِنْدَ اللَّقَاءِ ، وَيَضْطَرِبُ  
اللِّسَانَ ؛ فَأَمْرٌ بِذِكْرِ اللَّهِ حَتَّى يَثْبُتَ الْقَلْبُ عَلَى الْيَقِينِ ، وَيُثَبِّتَ اللِّسَانَ عَلَى الذِّكْرِ .

الثَّلَاثُ : اذْكُرُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ [ لَكُمْ ] فِي اتِّبَاعِهِ أَنْفُسَكُمْ مِنْكُمْ وَمُثَامِنَتِهِ لَكُمْ .  
وَكُلُّهَا مُرَادٌ ، وَأَقْوَاهَا وَأَوْسَطُهَا ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ قُوَّةِ الْمَعْرِفَةِ ، وَنَفَازِ الْقَرِيحَةِ ،

وَأَنْقَادِ الْبَصِيرَةِ ، وَهِيَ الشُّجَاعَةُ الْمَحْمُودَةُ فِي النَّاسِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا أَحَدٌ أَقْوَى مِنْ

الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ كَانَ أَشْجَعَ الْخَلِيقَةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَأَمْضَاهُمْ عَزِيمَةً ، وَأَنْفَذَهُمْ قَرِيحَةً ، وَأَنُورَهُمْ بَصِيرَةً ، وَأَصْدَقَهُمْ فِرَاسَةً ، وَأَصَحَّهُمْ رَأْيًا ،

وَأَثَبَتَهُمْ [ جَاشًا ] ، وَأَصْفَاهُمْ إِيْمَانًا ، وَأَشْرَحَهُمْ صَدْرًا ، وَأَسْلَمَهُمْ قَلْبًا .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ ظُهُورُ ذَلِكَ الْمَقَامِ فِي مَقَامَاتِ سِتَّةٍ : الْمَقَامُ الْأَوَّلُ : أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ



عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاتَ ، وَلَمْ تَكُنْ مُصِيبَةً أَعْظَمَ مِنْهَا ، وَلَا تَكُونُ أَبَدًا عَنْهَا تَفَرَّعَتْ مَصَائِبُنَا ،  
وَمِنْ أَجْلِهَا فَسَدَتْ أَحْوَالُنَا ، فَاخْتَلَفَتِ الصَّحَابَةُ ؛ فَأَمَّا عَلِيٌّ فَاسْتَخْفَى .

(83/314)

وَأَمَّا عُثْمَانُ فُبُهِتَ .

وَأَمَّا عُمَرُ فَاخْتَلَطَ ، وَقَالَ : " مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّمَا وَاَعَدَهُ اللَّهُ كَمَا  
وَاَعَدَ مُوسَى ، وَلَيَرْجِعَنَّ رَسُولُ اللَّهِ فَلْيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَّ أَنَا وَأَرْجُلَهُمْ " وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ غَائِبًا  
بِمَنْزِلِهِ بِالسُّنْحِ ، فَجَاءَ فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ ، وَهُوَ  
مَيِّتٌ مُسَجِّجٌ

بِثَوْبِهِ ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَقَالَ : " يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، طُبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي  
كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مَتَّهَا " .

وَخَرَجَ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : " مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا  
قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ " ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ  
خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِذَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ  
يُضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

المَقَامُ الثَّانِي: لَمَّا تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاخْتَلَفَ النَّاسُ أَيْنَ يُدْفَنُ؛ فَقَالَ الْقَوْمُ: يُدْفَنُ بِمَكَّةَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بِالْمَدِينَةِ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ﴿ مَا دُفِنَ قَطُّ نَبِيٍّ إِلَّا حَيْثُ يَمُوتُ ﴾.

(84/314)

المَقَامُ الثَّلَاثُ: لَمَّا تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرْسِلَتْ فَاطِمَةُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَقَوْلُهُ: لَوْ مِتَّ أَلَمْ تَكُنْ ابْنَتَكَ تَرْتِكُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ لَهُ: فَأَعْطِنِي مِيرَاثِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ﴿ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ ﴾.

فَتَذَكَرَ ذَلِكَ جَمِيعُ الصَّحَابَةِ، وَعَلِمَهُ عُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَطَلْحَةُ وَسَعْدُ وَسَعِيدُ، وَأَقْرَبَهُ عَلِيُّ وَالْعَبَّاسُ.

المَقَامُ الرَّابِعُ: لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْتَدَّ الْعَرَبُ، وَانْقَاضَ الْإِسْلَامُ،  
وَتَزَلَّكَتْ الْأَفْدَةُ، وَمَاجَ النَّاسُ؛ فَارْتَاعَ الصَّحَابَةُ؛ فَقَالَ عُمَرُ وَغَيْرُهُ لِأَبِي بَكْرٍ: خُذْ مِنْهُمْ  
الصَّلَاةَ، وَدَعْ الزَّكَاةَ حَتَّى يَتِمَّكَنَ الدِّينُ، وَيَسْكُنَ جَاشُ الْمُسْلِمِينَ.  
فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: "وَاللَّهِ

لَأَقَاتَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ".

المَقَامُ الْخَامِسُ: قَالَتِ الصَّحَابَةُ لَهُ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ؛ أَبْقِ جَيْشَ أُسَامَةَ؛ فَإِنَّ مَنْ  
حَوْلَكَ قَدْ اخْتَلَفَ عَلَيْهِ، "وَاللَّهُ لَوْلَعِبْتَ الْكِلَابَ بِخِلَاحِيلِ نِسَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَا رَدَدْتَ  
جَيْشًا أَنْفَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".  
فَقَالُوا لَهُ: فَمَعَ مَنْ نَقَاتَلْتَهُمْ؟ قَالَ: وَحْدِي حَتَّى تَنْفَرَدَ سَالِفَتِي.

(85/314)

---

المَقَامُ السَّادِسُ: وَهُوَ ضَنْكُ الْحَالِ وَمَازِقُ الْاِخْتِمَالِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ لَمَّا نُوفِيَ اضْطَرَبَ الْأَمْرُ، وَمَاجَ النَّاسُ، وَمَرَجَ قَوْلُهُمْ، وَتَشَوَّفُوا إِلَى رَأْسِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ  
تَدِيرُهُمْ، وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَلَهُمُ الْهَجْرَةُ، وَفِيهِمُ الدَّوْحَةُ،

وَالْمُهَاجِرُونَ عَلَيْهِمْ نُزُلٌ، وَاتَدَبَ الشَّيْطَانُ لِيَزِيعَ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، فَسَوَّلَ لِلْأَنْصَارِ أَنْ

يُعْقِدُوا لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ الْأَمْرَ؛ فَجَاءَ الْمُهَاجِرُونَ.

فَاجْتَمَعُوا إِلَى أَبِي بَكْرٍ، وَقَالُوا: نُرْسِلُ إِلَيْهِمْ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: "لَا، أَلَا نَأْتِيهِمْ فِي مَوْضِعِهِمْ"، فَتَوَزَّعَ فِي ذَلِكَ، فَصَرَمَ وَتَقَدَّمَ وَاتَّبَعَتْهُ

الْمُهَاجِرُونَ حَتَّى جَاءَ الْأَنْصَارُ فِي مَكَانِهِمْ، وَتَقَالُوا، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ فِي كَلَامِهَا: مَنَا أَمِيرٌ

وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَتَصَدَّرَ أَبُو بَكْرٍ بِحَقِّهِ، وَتَكَلَّمَ عَلَى مُقْتَضَى الدِّينِ وَوَقْفِهِ، وَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ

الْأَنْصَارِ؛ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَا رَهْطُ رَسُولِ اللَّهِ وَعِزَّتُهُ الْأَذُنُونَ، وَأَصْلُ الْعَرَبِ، وَقُطِبَ النَّاسُ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿الْأُمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ﴾.

وَقَدْ سَمَّانا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الصَّادِقِينَ حِينَ قَالَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ

الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

(86/314)

وَسَمَّاكُمْ الْمُفْلِحِينَ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

خَصَاصَةً وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٧﴾ .

وَأَمْرُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَكُونُوا مَعَنَا حَيْثُ كُنَّا ، فَقَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ

الصَّادِقِينَ ﴿٨٨﴾ .

وَقَالَ لَكُمْ النَّبِيُّ ﴿ سَتَرُونَ بَعْدِي أَثْرَةً ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تُلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ ﴾ .

وَقَالَ لَنَا فِي آخِرِ خُطْبَةِ خُطْبَتِهَا : ﴿ أَوْصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا أَنْ تَقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ ،

وَتَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ ؛ وَلَوْ كَانَ لَكُمْ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا رَأَيْتُمْ أَثْرَةً ، وَلَا وَصِيَ بِكُمْ ﴾ .

فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ عِلْمِهِ ، وَوَعَوْهُ مِنْ قَوْلِهِ تَذَكَّرُوا الْحَقَّ ؛ فَانْقَادُوا لَهُ ، وَالتَزَمُوا حُكْمَهُ ؛

فَبَادَرَ عُمَرُ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ ، وَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ؛ أُمِدُّ يَدَكَ أَبَايَعُكَ .

فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : مَا سَمِعْتُ مِنْكَ نَهْيًا فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَهَا ، أَتَبَايَعُنِي وَأَبُوبَكْرٍ فِيكُمْ ؟ فَقَالَ لَهُ

عُمَرُ : أُمِدُّ يَدَكَ أَبَايَعُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ .

فَمَدَّ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ وَبَايَعَهُ ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ ، وَصَارَ الْحَقُّ فِي نِصَابِهِ ، وَدَخَلَ الدِّينُ مِنْ بَابِهِ .

(87/314)

---

وَلَوْ هَدُوا لِهَذِهِ الْفِرْقَةِ الْأَدَبِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ لَمَا كَانُوا عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ جَائِرِينَ وَبِحَقِيقَتِهِ جَاهِلِينَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ابْتَلَاهُمْ بِقِرَاءَةِ كِتَابِ مِنَ الْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ قَدْ تَوَلَّاهَا جُهَالًا وَضَلَالًا ، فَقَالُوا : فَعَلَّ

عَلِيٍّ .

وَقَالَ عَلِيٌّ ، وَلَا يَقَعُ عَلِيٌّ مِنْ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا نَقْطَةً مِنْ بَحْرِ ، أَوْ لِقْطَةً فِي قَفْرِ ، لَقَدْ اسْتَقَامَ  
الدِّينُ وَعَلِيٌّ عَنْهُ فِي حِجْرِ ، وَقَدْ كَانَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدَ  
رِجَالِهِ ، وَفَارِسًا مِنْ فُرْسَانِهِ ، وَوَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَائِهِ ، وَقَرِيبًا مِنْ أَقْرَبَائِهِ ، فَلَمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ  
بِرَسُولِهِ ، وَأَنْفَرَدَ بِنَفْسِهِ لَمْ يَقُمْ بِالْأَمْرِ وَلَا قَعَدَ ، وَذَلِكَ أَمْرُ قِضَاءِ اللَّهِ بِالْحَقِّ ، وَقَدَرَهُ بِالصِّدْقِ  
، وَأَنْفَذَهُ بِالْحِكْمَةِ وَالْحُكْمِ ، وَمَا وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ أَحَدًا ثَبَتَ عَلَى الدِّينِ ، وَقَرَّرَ وُلَايَتَهُ فِي  
الْأَقْطَارِ ، وَأَنْفَذَ الْجِيُوشَ إِلَى الْأَمْصَارِ ، وَقَاتَلَ عَلَى الْحَقِّ ، وَقَدَّمَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ خَيْرِ الْخَلْقِ  
الصِّدِّيقِ ؛ فَمَهَّدَ الدِّينَ ، وَاسْتَبَّ بِهِ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(88/314)

المَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وَهَذِهِ الْوَصِيَّةُ هِيَ الْعُمْدَةُ الَّتِي يَكُونُ  
مَعَهَا النَّصْرُ ، وَيُظْهِرُ بِهَا الْحَقُّ ، وَيُسَلِّمُ مَعَهَا الْقَلْبُ ، وَتَسْتَمِرُّ مَعَهَا عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ الْجَوَارِحُ  
؛ وَذَلِكَ بَأَنْ يَكُونَ عَمَلُ الْمَرْءِ كُلُّهُ بِالطَّاعَةِ فِي امْتِثَالِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ ، فَإِنَّمَا يُقَاتِلُ  
الْمُسْلِمُونَ بِأَعْمَالِهِمْ لَا بِأَعْدَادِهِمْ ، وَبِاعْتِقَادِهِمْ لَا بِأَمْدَادِهِمْ ؛ فَلَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ الْفَتْوحَ عَلَى قَوْمٍ  
كَانَتْ حَلِيَّةُ سَيُوفِهِمْ إِلَّا الْغَلَابِيُّ .

وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ إِنَّمَا تُنصَرُونَ بِضَعْفَائِكُمْ ﴾ .  
إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الطَّاقَةَ فِي الطَّاعَةِ ، وَالْمِنَّةَ فِي الْهُدَايَةِ .

(89/314)

المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ﴾ : وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي الْمَعْقُولِ  
وَالْمَشْرُوعِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْقُوَّةَ لِيُظْهَرَ بِهَا الْأَفْعَالُ ، وَقُدْرَتُهُ سُبْحَانَهُ وَاحِدَةٌ نَعْمٌ  
الْمَقْدُورَاتِ ، وَقُدْرَةُ الْخَلْقِ حَادِثَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ تَعَلَّقُ بِالْمَقْدُورَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا ]  
وَأَجْرَى اللَّهُ [ الْعَادَةَ بِأَنَّ الْقُدْرَةَ إِذَا كَثُرَتْ عَلَى رَأْيِ قَوْمٍ أَوْ بَقِيَتْ عَلَى رَأْيِ آخَرِينَ وَالْأَوَّلُ  
أَصَحُّ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي الْأَصُولِ ظَهَرَ الْمَقْدُورُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْقُدْرَةِ إِنْ كَانَ كَثِيرًا فَكَثِيرًا أَوْ  
قَلِيلًا فَقَلِيلًا ، وَكَذَلِكَ تَظْهَرُ الْمَفْعُولَاتُ بِحَسَبِ مَا يُلْقِي اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الطَّمَانِينَةِ ، فَإِذَا  
اتَّفَتِ الْقُلُوبُ عَلَى الْأَمْرِ اسْتَبَّ وَجُودُهُ ، وَاسْتَمَرَّ مَرِيرُهُ ، وَإِذَا تَخَلَّخَ الْقَلْبُ قَصَرَ عَنْ  
النَّظَرِ ، وَضَعَفَتِ الْحَوَاسُّ عَنِ الْقَبُولِ ، وَالِاتِّفَافُ طَمَآنِينَةٌ لِلنَّفْسِ ، وَقُوَّةٌ لِلْقَلْبِ ،  
وَالِاخْتِلَافُ إِضْعَافٌ لَهُ؛ فَتَضَعَّفُ الْحَوَاسُّ ، فَتَقْعُدُ عَنِ الْمَطْلُوبِ ، فَيَفُوتُ الْغَرَضُ؛ وَذَلِكَ  
قَوْلُهُ: ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ، وَكُنِيَ بِالرِّيحِ عَنِ اطِّرَادِ الْأَمْرِ وَمُضَائِهِ  
بِحُكْمِ اسْتِمْرَارِ الْقُوَّةِ فِيهِ وَالْعَزِيمَةِ عَلَيْهِ ، وَأَتْبَعَ ذَلِكَ بِالْأَمْرِ بِالصَّبْرِ الَّذِي يُبَلِّغُ الْعَبْدَ بِهِ إِلَى كُلِّ

أَمْرٌ مُتَعَدِّرٌ بُوْعَدِهِ الصَّادِقِ فِي أَنَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن  
العربي ح 2 ص ﴾

(90/314)

وقال السمرقندي :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

فيما يأمركم من القتال .

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ ، يعني لا تختلفوا فيما بينكم ، ﴿ فَتَقْتُلُوا ﴾ ؛ يعني فتجبنوا من

عدوكم ، ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ .

قال مجاهد : يعني نصرتكم ، وذهب ريحهم يوم أحد حين نازعتموه ؛ وقال الأخفش : يعني

دولتكم ؛ وقال قتادة : ريح الحرب .

وأصله في اللغة تستعمل في الدولة ، ويقال الريح له اليوم يراد به الدولة .

ثم قال : ﴿ واصبروا ﴾ ، يعني لقتال عدوكم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، يعني معين لهم وناصرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح

2 ص ﴾



وقال الثعلبي :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾

ولا تختلفوا ﴿ فَفَشَلُوا ﴾ أي تخسروا وتضعفوا .

وقال الحسن : ففشلوا بكسر الشين ﴿ وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ قال مجاهد : نصركم

وزهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أحد .

وقال السدي : جماعتكم وحدتكم ، وقال مقاتل : [ حياتكم ] ، وقال عطاء : جلدكم .

وقال يمان : غلبتكم ، وقال النضر بن شميل : قوتكم ، وقال الأخفش : دولتكم ، وقال ابن

زيد : هوريج النصر لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثه الله في وجوه العدو ، فإذا كان كذلك لم

يكن لهم قوام ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " نصرت بالصبا وأهلكت عاد

بالدبور " .

يقال للرجل إذا أقبلت الدنيا عليه بما يهواه : الريح اليوم لفلان .

قال عبيد بن الأبرص :

كما حميناك يوم النعف من شطب . . . والفضل للقوم من ريح ومن عدد

وقال الشاعر :

يا صاحبي ألاحي بالوادي . . . إلا عبيد وأم بين أذواد  
أنتظران قليلاً ريث غفلتهم . . . أو تعدوان فإن الريح للعادي  
أنشدني أبو القاسم المذكور قال : أنشدني أبا نصر بن منصور الكرجي الكاتب :  
إذا هبت رياحك فاغتمها . . . فإن لكل خافقة سكون  
ولا يغفل عن الإحسان فيها . . . فما تدري السكون متى يكون  
قوله تعالى ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح  
4 ص ﴿

(92/314)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿ . . . وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ﴾  
والفشل هو التقاعد عن القتال جبناً .  
﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :  
أحدها : يريد بالريح القوة ، وضرب الريح لها مثلاً .

والثاني: يريد بالريح الدولة. ومعناه فتذهب دولتكم، قاله أبو عبيدة.

والثالث: يريد ريح النصر التي يرسلها الله عز وجل لنصر أوليائه وهلاك أعدائه قاله قتادة وابن زيد.

ويحتمل رابعاً، أن الريح الهيبة، وريح القوم هيبتهم التي تتقدمهم كتقدم الريح. ويكون معنى الكلام. فتذهب ريحكم وهيبتكم. انتهى انتهى. اهـ ﴿النكت والعيون ح 2 ص﴾  
وقال ابن عطية:

قوله ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ الآية

استمرار على الوصية لهم والأخذ على أيديهم في اختلافهم في أمر بدر وتنازعهم، و﴿تفشلوا﴾ نصب بالفاء في جواب النهي، قال أبو حاتم في كتاب عن إبراهيم "فتفشلوا" بكسر الشين وهذا غير معروف وقرأ جمهور الناس "وتذهب" بالتاء من فوق ونصب الباء، وقرأ هبيرة عن حفص عن عاصم "وتذهب ريحكم" بالتاء وجزم الباء، وقرأ عيسى بن عمر "ويذهب" بالياء من تحت وجزم يذهب، وقرأ أبو حيوة "ويذهب" بالياء من تحت ونصب الباء، ورواها أبان وعصمة عن عاصم، والجمهور على أن الريح هنا مستعارة والمراد بها النصر والقوة كما تقول: الريح لفلان إذا كان غالباً في أمر، ومن هذا المعنى قول الشاعر وهو عبيد بن الأبرص: [البسيط]

كما حميناك يوم العنف من شطب . . . والفضل للقوم من ريح ومن عدد

وقال مجاهد : " الريح " النصر والقوة ، وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أحد ، وقال زيد بن علي ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ معناه الرعب من قلوب عدوكم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا حسن بشرط أن يعلم العدو بالتنازع ، وإذا لم يعلم فالذاهب قوة المتنازعين فيهمز مون ، وقال شاعر الأنصار : [ البسيط ]  
قد عودتْهم ظباهم أن تكونَ لهمُ . . . ريحُ القتالِ وأسلابُ الذين لقوا  
ومن استعارة الريح قول الآخر : [ الوافر ]

إذا هبت رياحك فاغتنمها . . . فإن لكل عاصفة سكون

وهذا كثير مستعمل وقال ابن زيد وغيره : الريح على بابها ، وروي أن النصر لم يكن قط إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار ، واستند بعضهم في هذه المقالة إلى قوله صلى الله عليه وسلم : " نصرت بالصبا " وقال الحكم ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ يعني الصبا إذ بها نصر محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

قال القاضي أبو محمد : وهذا إنما كان في غزوة الخندق خاصة ، وقوله ﴿ واصبروا ﴾ إلى آخر الآية ، تتميم في الوصية وعدة مؤنسة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2

ص ﴿

---

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا ﴾

قد سبق ذكر التنازع والفشل آنفا .

قوله تعالى : ﴿ وتذهب ريجكم ﴾

وروى أبان : " ويذهب " بالياء والجزم .

وفيه أربعة أقوال .

أحدها : تذهب شدتكم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وقال السدي : حدتكم وجدكم .

وقال الزجاج : صوتكم وقوتكم .

والثاني : يذهب نصركم ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : تنقطع دولتكم ، قاله أبو عبيدة .

وقال ابن قتيبة : يقال : هبت له ريج النصر إذا كانت له الدولة .

ويقال : له الريح اليوم ، أي : الدولة .

والرابع : أنها ريج حقيقة ، ولم يكن نصر قط إلا بريج يبعثها الله فتضرب وجوه العدو ؛ ومنه

قوله عليه السلام "نصرتُ بالصَّبَا ، وأُهْلِكْتُ عادٌ بالدَّبَّورِ" وهذا قول ابن زيد ، ومقاتل .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

(94/314)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾

هذا استمرار على الوصية لهم ، والأخذ على أيديهم في اختلافهم في أمر بدو وتنازعهم .

﴿ فَتَقَشَّلُوا ﴾ نصب بالفاء في جواب النهي .

ولأيجيز سيبويه حذف الفاء والجزم وأجازة الكسائي .

وقرىء "تَقَشَّلُوا" بكسر الشين .

وهو غير معروف .

﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ أي قوتكم ونصركم ؛ كما تقول : الريح لفلان ، إذا كان غالباً في

الأمر .

قال الشاعر :

إذا هبَّت رياحك فاغتنمها . . .

فإن لكل خافقة سكون

وقال قتادة وابن زيد: إنه لم يكن نصر قط إلا بريح تُهبُّ فتضرب في وجوه الكفار .  
ومنه قوله عليه السلام: "نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأَهْلَكَتُ عَادَ بِالذَّبَّورِ" قال الحكم: "وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ" يعني الصَّبَا؛ إذ بها نصر محمد عليه الصلاة والسلام وأُمَّتُهُ .  
وقال مجاهد: وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أُحد .  
قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿أمر بالصبر، وهو محمود في كل المواطن وخاصةً موطن الحرب؛ كما قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: 45] . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿تفسير القرطبي ح 8 ص﴾

(95/314)

وقال الخازن:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ .

يعني في أمر الجهاد والثبات عند لقاء العدو ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ يعني: ولا تختلفوا .  
فإن التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجن .  
وقوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ يعني قوتكم .

وقال مجاهد : نصرتكم .

قال : وذهبت ريح أصحاب محمد ( صلى الله عليه وسلم ) حين نازعوه يوم أحد .  
وقال السدي : جراءتكم وجدكم وقال مقاتل : حدثكم وقال الأخفش وأبو عبيدة :  
دولتكم .

والريح هنا كناية في نفاذ الأمر وجريانه على المراد .

تقول العرب : هبت ريح فلان إذا أقبل أمره على ما يريد وقال قتادة وابن زيد : هي ريح  
النصر ولم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى تضرب وجوه العدو ، ومنه قول النبي ( صلى الله عليه وسلم ) : نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور .

وعن النعمان بن مقرن قال : شهدت رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فكان إذا لم يقاتل  
من أول النهار أحر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر أخرجه أبو داود .  
وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ واصبروا ﴾ يعني عند لقاء عدوكم ولا تنهزموا عنهم ﴿ إن  
الله مع الصابرين ﴾ يعني بالنصر والمعونة ( ق ) .

عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) في بعض أيامه التي لقي  
فيها العدو وانتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو  
وأسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال  
رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم



الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم" (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا تمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا". انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن - 3 ص ﴾

(96/314)

وقال أبو حيان:

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع

الصابرين ﴾

أمرهم تعالى بالطاعة لله ولرسوله ونهاهم عن التنازع وهو تجاذب الآراء وافتراقها والأظهر

أن يكون ﴿ فتفشلوا ﴾ جواباً للنهي فهو منصوب ولذلك عطف عليه منصوب لأنه

يتسبب عن التنازع الفشل وهو الخور والجبن عن لقاء العدو وذهاب الدولة باستيلاء العدو

ويجوز أن يكون ﴿ فتفشلوا ﴾ مجزوماً عطفاً على ﴿ ولا تنازعوا ﴾ وذلك في قراءة

عيسى بن عمر ويذهب بالياء وجزم الباء، وقرأ أبو حيوة وإبان وعصمة عن عاصم

ويذهب بالياء ونصب الباء، وقرأ الحسن وإبراهيم ﴿ فتفشلوا ﴾ بكسر الشين، قال

أبو حاتم: وهذا غير معروف، وقال غيره: هي لغة.

قال مجاهد : الريح والنصرة والقوة وذهبت ريح أصحاب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) حين ناغوه بأحد ، وقال الزمخشري : والريح الدولة شبهت لنفوذ أمرها وتشبيهه بالريح وهبوبها ، فقيل : هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره .  
ومنه قوله :

أتنظر ان قليلاً ريث غفلتهم . . .

أم تعد وان فإنّ الريح للعادي

انتهى وهو قول أبي عبيدة إن الريح هي الدولة ومن استعاره الريح قول الآخر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها . . .

فإن لكل عاصفة سكوناً

ورواه أبو عبيدة ركوداً .

وقال شاعر الأنصار :

قد عودتهم صباهم أن يكون لهم . . .

ريح القتال وأسلاب الذين لقوا

وقال زيد بن علي ويذهب ريحكم معناه الرعب من قلوب عدوكم ومنه قيل للخائف انتفخ

سحره .

قال ابن عطية : وهذا حسن بشرط أن يعلم العدو بالتنازع فإذا لم يعلم فالذهاب قوة

المتنازعين فينهزمون انتهى ، وقال ابن زيد وغيره الريح على بابها وروي في ذلك أن النصر لم يكن قط إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار واستند بعضهم في هذه المقالة إلى قوله ( صلى الله عليه وسلم )

(97/314)

---

"نصرت بالصبا" ، وقال الحكم ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ يعني الصبا إذ بها نصر محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وأمه ، وقال مقاتل ﴿ ريحكم ﴾ حدثكم ، وقال عطاء جلدكم ، وحكى التبريزي هيبتمكم ، ومنه قول الشاعر :

كما حميناك يوم النعف من شطط . . .

والفضل للقوم من ريح ومن عدد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

في كل ما تأتون وما تذرون فيندرج فيه ما أمروا به ها هنا اندراجاً أولياً ﴿ ولا تنازعوا ﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم بيدراً أو أحد ﴿ فتفشلوا ﴾ جواب للنهي وقيل : عطف عليه ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ بالنصب عطف على جواب النهي وقرئء بالجزم على تقدير

عطفِ ففشلوا على النهي أي تذهب دولتكم وشوكتكم فإنها مستعارةٌ للدولة من حيث إنها في تمثي أمرها ونفاذه مشبهةٌ بها في هُبوبها وجريانها . وقيل : المرادُ بها الحقيقةُ فإن النصرَةَ لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى وفي الحديث " نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْكِلْتُ عَادُ بِالذَّبُورِ " ﴿ واصبروا ﴾ على شدائد الحرب ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصرة والكلاءة وما يفهم من كلمة مع من أصلهم إنما هي من حيث إنهم المباشرون للصبر فهم متبعون من تلك الحيشية ، ومعيتة تعالى إنما هي من حيث الإمداد والإعانة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(98/314)

وقال الألوسى :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

في كل ما تأتون وما تذرون ويندرج في ذلك ما أمروا به هنا ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم بيدرو وأحد .

وقرىء ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ بتشديد التاء ﴿ فَفَشَلُوا ﴾ أي فتجبنا عن عدوكم

وتضعفوا عن قتالهم ، والفعل منصوب بأن مقدرة في جواب النهي ، ويحتمل أن يكون

مجزوماً عطفاً عليه ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ بالنصب معطوف على ﴿ ﴾  
تفشلوا ﴿ على الاحتمال الأول .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ بِهِ وَيُذْهِبَ ﴾ بياء الغيبة والجزم وهو عطف عليه أيضاً على  
الاحتمال الثاني ، والريح كما قال الأخفش مستعارة للدولة لشبهها بها في نفوذ أمرها  
وتمشيه .

ومن كلامهم هبت رياح فلان إذ دالت له الدولة وجرى أمره على ما يريد وركدت رياحه  
إذا ولت عنه وأدبر أمره وقال :

إذا هبت رياحك فاغتنمها . . .

فإن لكل خافقة سكون

ولا تغفل عن الإحسان فيها . . .

فما تدري السكون متى يكون

وعن قتادة .

وابن زيد أن المراد بها ريح النصر وقالوا : لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى تضرب  
وجوه العدو .

وعن النعمان بن مقرن قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا لم يقاتل  
أول النهار انتظر حتى تميل الشمس وتهب الرياح ، وعلى هذا تكون الريح على حقيقتها ،

وجوز أن تكون كناية عن النصر وبذلك فسرهما مجاهد ﴿ واصبروا ﴾ على شدائد الحرب ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالإمداد والإعانة وما يفهم من كلمة مع من أصالتهم بناءً على المشهور من حيث أنهم المباشرون للصبر فهم متبوعون من تلك الحيثية . انتهى انتهى .  
اهد ﴿ روح المعاني ح 10 ص ﴾

(99/314)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

ثم أمرهم بأعمال راجعة إلى انتظام جيشهم وجماعتهم ، وهي علائق بعضهم مع بعض ، وهي الطاعة وترك التنازع ، فأما طاعة الله ورسوله فتشمل اتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين ، مثل الغنائم .

وكذلك ما يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من آراء الحرب ، كقوله للرؤساء يوم أحد : " لا تبرحوا من مكانكم ولو تخطفنا الطير " وتشمل طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة أمرائه في حياته ، لقوله : " ومن أطاع أميري فقد أطاعني " وتشمل طاعة أمراء الجيوش بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لمسائرتهم لأمرائه الغائبين عنه في الغزوات

والسرايا في حكم الغيبة عن شخصه .

وأما النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك : بالتقاهم والتشاور ، ومراجعة بعضهم بعضاً ، حتى يصدروا عن رأي واحد ، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم لقوله تعالى :

﴿ ولوردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم ﴾ [ النساء : 83 ] .

وقوله : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ [ النساء : 59 ] .

والنهي عن التنازع أعم من الأمر بالطاعة لولاة الأمور : لأنهم إذا نهوا عن التنازع بينهم ، فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي .

ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء ، وهو أمر مرتكز في الفطرة بسط القرآن القول فيه بيان سبب آثاره ، فجاء بالتفريع بالفاء في قوله : ﴿ فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ فحذرهم أمرين معلوماً سوء مغبتهما : وهما الفشل وذهاب الريح .

والفشل : انخراط القوة وقد تقدم آنفاً عند قوله : ﴿ ولو أراكم كثيراً لفشلتم ﴾ [ الأنفال

: 43 ] وهو هنا مراد به حقيقة الفشل في خصوص القتال ومدافعة العدو ، ويصح أن

يكون تمثيلاً لحال المتعاس عن القتال بحال من خارت قوته وفشلت أعضاؤه ، في انعدام

إقدامه على العمل .

---

وإنما كان التنازع مفضياً إلى الفشل؛ لأنه يثير التفاضل ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يترص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الإشتغال باتقاء بعضهم بعضاً، وتوقع عدم إلقاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكن منهم العدو، كما قال في سورة [آل عمران: 152] ﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم ﴾

والريح حقيقتها تحرك الهواء وتموجه، واستعيرت هنا للغلبة، وأحسب أن وجه الشبه في هذه الاستعارة هو أن الريح لا يمانع جريها ولا عملها شيء فشبه بها الغلب والحكم وأنشد ابن عطية، لعبيد بن الأبرص:

كما حميناك يوم النعب من شطب

والفضل للقوم من ريح ومن عدد . . .

وفي الكشف ﴿ قال سليك بن السلكة:

يا صاحبي الألاحي بالوادي

إلا عبيد قعود بين أذواد . . .

هل تنظران قليلاً ريث غفلتهم

أو تعدوان فإن الريح للعادي . . .



وقال الحريري، في ديباجة "المقامات": "قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركّدت في هذا العصر ريجه".

والمعنى: وتزول قوتكم ونفوذ أمركم، وذلك لأنّ التنازع يفضي إلى التفرّق، وهو يوهن أمر الأمة، كما تقدّم في معنى الفشل.

ثم أمرهم الله بشيء يعمّ نفعه المرء في نفسه وفي علاقته مع أصحابه، ويسهل عليهم الأمور الأربعة، التي أمروا بها آنفاً في قوله: ﴿فأثبتوا واذكروا الله كثيراً﴾ وفي قوله: ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا﴾ الآية.

الأ وهو الصبر، فقال: ﴿واصبروا﴾ لأنّ الصبر هو تحمّل المكروه، وما هو شديد على النفس، وتلك المأمورات كلّها تحتاج إلى تحمّل المكاره، فالصبر يجمع تحمّل الشدائد والمصاعب، ولذلك كان قوله: ﴿واصبروا﴾ بمنزلة التذييل.

(101/314)

---

وقوله: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ إيماء إلى منفعة للصبر إلهية، وهي إعانة الله لمن صبر امتثالاً لأمره، وهذا مشاهد في تصرفات الحياة كلّها.

وجملة ﴿إن الله مع الصابرين﴾ قائمة مقام التعليل للأمر، لأنّ حرف التأكيد في مثل هذا

قائم مقام فاء التفريع ، كما تقدّم في مواضع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص



(102/314)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ (46) ﴾

وعرفنا من قبل أن طاعة الله تعالى تتمثل في تنفيذ ما أمر به في المنهج ، وطاعة الرسول هي طاعة تطبيقية في السلوك ، وهي طاعة لله أيضاً ؛ لأن الرسول مبلغ عن ربه ، ولا بد للطائع أن يتعبد عن التنازع مع إخوته المؤمنين ؛ لأن التنازع هو تعاند القوي ، أي توجد قوة تعاند قوة أخرى ، والقوى المتعاندة تهدر طاقة بعضها البعض ، فالتعاند بين قوتين يهدر طاقة كل منهما فتصبح كل قوة ضعيفة وغير مؤثرة . فكونوا يداً واحدة ؛ لأنكم إن تنازعتم فستضيع قوتكم وتقابلون الفشل ، أي لن تحققوا شيئاً مما تريدون لأنكم أهدرتم قوتكم في التنازع ، ولم تعد لكم قوة تحققون بها ما تريدون وستذهب ريحكم في هذه الحالة . والفشل هو إخفاق الإنسان دون المهمة التي كان يرجوها من نفسه .

وانظروا إلى عبارة الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [ الأنفال : 46 ] .

نحن نعرف أن الريح يُطلق على الهواء الذي حيزه الفضاء على سطح الأرض ، إذن فمكان الهواء هو أي مكان خال على سطح الأرض ، ولذلك نجد العمود المكون من الأسمت والحديد مثلاً ، لا يوجد فيه هواء لأنه لا يوجد فيه فراغ ، أما الفواصل التي بين الأعمدة فيوجد فيها هواء لأن فيها فراغاً . ونعلم أن مقومات الحياة طعام وشراب وهواء ، ولكن الهواء هو المقوم الأول للحياة ؛ لأنك لا تستطيع أن تصبر على الهواء مقدار شهيق وزفير .

(103/314)

---

إذن فالهواء هو المقوم الأول لحياتك وحياة كل من في هذا الكون ، وما دام الهواء محيطاً بالشيء بحيث يتساوى الضغط من جميع نواحيه يكون الشيء ثابتاً ، فإذا فرغت الهواء من ناحية قام ضغط الهواء بتحطيم هذا الشيء . وفي التجارب المدرسية شاهدنا تأثير ضغط الهواء ، وكانوا يأتوننا بصفيحة وضع فيها ماء ويتركونها تغلي على النار ، فيطرد بخار الماء الهواء الموجود في الجزء الفارغ من الصفيحة ليملاً البخار هذا الفراغ ، ثم يغلقون الصفيحة بإحكام ويسكبون عليها من الخارج ماءً بارداً ؛ فيتكثف البخار ، ويقل حجمه

، ويصبح جزء من الصفيحة خالياً من الهواء ، فتنهار جدران الصفيحة إلى الداخل ، بسبب ضغط الهواء خارج الجدران ، وتفرغ الهواء داخل الصفيحة . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما يعذب قوماً أو ينزل بهم عقاباً ، فهو يرسل عليهم ريحاً . ويقول جل وعلا : ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ \* سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6-7]

وكذلك نجد سبحانه وتعالى يقول : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ \* تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : 24-25]

وأيضاً يقول الحق سبحانه عن الريح التي تغرق بأواجها العالية : ﴿ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمُ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾

[يونس : 22]

(104/314)

---

إذن فكلمة ريح تعبر عن القوة المدمرة للهواء ؛ لأن الريح إذا اتحدت قوتها واتجاهها أصبحت مدمرة . ولكن إن قابلتها ريح ثانية فالتوازن يحدث بين القوتين . ولذلك حين

يستخدم الحق كلمة الريح لا يتكلم عنها إلا للتخريب والتدمير . أما إن تكلم عنها للخير فسبحانه يأتي بكلمة " رباح " ؛ لأن تعدد اتجاهات الرياح هو الذي يوجد التوازن في الحياة . فإذا أراد الله أن يهلك بالريح جاء بها من جهة واحدة فتصير قوة الريح من ناحية لا تعادلها قوة أخرى للريح من الجهة المقابلة لتعادل القوتان . ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرَىٰ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [ الفرقان : 48 ] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ [ الحجر : 22 ] . أي أن الرياح تنقل اللقاح بين النبات ، فيتم التلقيح وتنتب الثمار ويأتي الخير . ولكن هناك آية واحدة جاءت فيها كلمة " ربح " وكانت تحمل الخير في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ [ يونس : 22 ] . وسبحانه وتعالى عندما استخدم كلمة ﴿ ربح ﴾ في هذه الآية وصفها بأنها ﴿ طَيِّبَةٍ ﴾ . ﴿ . وهنا في الآية سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [ الأنفال : 46 ] . و" ربحكم " أي قوتكم ؛ لأن الريح هنا معناها القوة التي تدمر عدوكم . ونعلم أن السفن في الماضي كانت تُبحر بقوة الريح . وعندما تقدّم العلم وجاء البخار والكهرباء ألغى شرع المراكب واستخدم بدلاً منه ماكينات تدفع حركة السفينة .

---

وتطلق كلمة ﴿الريح﴾ على الرائحة، فيقال: (ريح عطرة)، وهذه الرائحة تبقى في المكان حتى بعد أن يغادره من استخدم هذه الرائحة، ولكل إنسان من رائحة خاصة، تماماً كما أن لكل إنسان بصمة خاصة، ولكننا لا نستطيع أن نميزها، ولكن الكلاب المدربة تميز الرائحة الخاصة بالإنسان، فيأتي الكلب ويشم رائحة الإنسان ويتبعه إلى المكان الذي ذهب إليه. أو يستطيع أن يخرج من بين عشرات الأشخاص. ولا تختلط رائحة أحد بأحد رغم وجودهم في مكان واحد، وإلما استطاع الكلب المدرب لأن يميز رائحة شخص معين ضمن عشرات الأشخاص الموجودين.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَتَذَهَبَ رِيحِكُمْ﴾ يعني بأن تنتهوا ولا يكون لكم أثر؛ لأنه ما دام لكم أثر في الأرض فلكنم ريح تميزكم. وتلك التي - كما قلنا - أن الكلاب المدربة تميزها، ولكن الإنسان إذا مات ودفن فلا رائحة له. ويدلنا القرآن الكريم على ذلك حين يتكلم عن قصة يوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته في الحب. وعثرت عليه قافلة، ثم اشتراه ملك مصر، ثم دخل السجن وخرج وأصبح هو عزيز مصر. وجاءه إخوته وأعطاهم يوسف عليه السلام قميصه ليلقوه على وجه أبيه يعقوب؛ ليرتد بصيراً، بعد أن أذهب الحزن بصره، يقول الحق عن خروج العير من مصر إلى الشام حيث كان يعيش سيدنا يعقوب:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرَ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ ﴾ [يوسف: 94]

[ .

أي أن القافلة حين خرجت من بين المباني التي يمكن أن تكتم الريح بقوة كئلتها؛ لأن المباني لها إشعاعات قد تكتم الريح وتحجبه، وبعد أن صارت القافلة في الخلاء عرف يعقوب عليه السلام ريح ابنه يوسف من القميص الذي يحملونه: ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ ﴾

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها:

(106/314)

---

﴿ واصبروا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: 46] .

وهذه تمة الصورة التي يريدنا الله أن نلتفت إليها، فقد أمرهم الله أن يثبتوا في القتال، والقتال يحتاج إلى قوة وإلى عدم تنازع وإلى صبر على الشدائد؛ خصوصاً إذا كان عدوك صابراً شديداً بالبأس .

إذن ففي المعركة يريد الله عز وجل من المؤمنين الثبات في القتال وعدم الفرار، وذكر الله كثيراً، وعدم التنازع حتى لا تضعف قوة المؤمنين، ويوصيهم سبحانه بالصبر؛ لأن عدوهم

قد يكون عنده صبر وجلد ، فلا بد أن يمتلك المؤمن رصيذاً من الجلد والصبر؛ يُمكنه من هزيمة عدوه، وصفة الصبر تدل على المنافسة . وهي مأخوذة عندما كانوا يغطسون في الماء ، فالذي يبقى تحت الماء أكثر من الآخر يكون نفسه أطول . ولذلك فسيدنا عباس وسيدنا عمر - رضي الله عنهما - دخلا في منافسة في الغطس . وقال له : نافسي ، أي لنرى من الذي سيمكث تحت الماء أكثر - ويكون ﴿ صابراً ﴾ أي يتحمل أكثر في المواقف الصعبة ويصبر صبراً فوق صبر الخصوم . وقوله الحق عز وجل هنا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [ الأنفال : 46 ] .

يثبت به سبحانه وتعالى أن كل مؤمن عليه أن يشعر أن الله تبارك وتعالى هو الذي انتدبه ليقوم بهذه المهمة القتالية وهو معه ، فلا تخور نفسه ؛ لأن الضعيف إذا ما تحصن بالقوي ؛ أعطاه الجرأة والقدرة على الاحتمال ، تماماً كالولد الصغير ، إذا مشى في الشارع وحده قد يعتدي عليه الأولاد الآخرون ، ولكن إذا كان يسير مع أبيه لا يقترب منه أحد ، فما بالك بالإنسان الذي هو مع ربه ؛ لذلك يوصي الحق كل مقاتل أن يتذكر أنه في معية ربه وأن أي حدث ضار في الكون لا يستطيع أن يناله مهما كان ضعيفاً لأن قوة الله معه .

(107/314)

---



ولذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: "يا ابن آدم مرضت فلم تعدني . قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده . . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده . يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه . . أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي . يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني؟ قال يا رب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي "

فإذا مرض إنسان فقد سلبت منه العافية فلا يستطيع أن يسير ولا أن يتحرك ، بل يرقد في فراشه ليتألم ، ويوضح لنا الحق سبحانه وتعالى: أنا إن سلبت منه العافية ، وهي نعمة فأنا عنده . ولذلك إياك أن تفرح إذا تركت النعمة ما دام المنعم معك . والمريض المؤمن يستشعر أن الله معه .

(108/314)

---

وحين يكون المسلم في معية الله فإن مقاييس المادة والبشريات لا تنجيء أبداً ، والمثال هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في الغار ، وقد جاء الكفار عند باب الغار فرآهم

أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . هذا كلام منطقي مع النظرة المادية ، فلوانحنى أحد هؤلاء الكفار ونظر من باب الغار لرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطمئن أبا بكر وينفي عنه ما جاء في باله من خوف أن يراهما الكفار . كان المفروض أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا اطمئن ، إنهم لن ينظروا داخل الغار ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما وفي ذلك قال الإمام أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : " قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما " . وما دام الله ثالثهما تكون المعية موجودة ، وإذا كنت في معية من لا تدركه الأبصار ، أتدرك الأبصار ؟ . طبعاً لا تدرك أبصار الأعداء والخصوم . اللهم اجعلنا في معيتك دائماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(109/314)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ ﴾ (46)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا

وتذهب ريحكم ﴾ قال : يقول : لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن

مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ قال : نصركم ، وقد ذهب ريح

أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أُحد .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ وتذهب ريحكم

﴿ قال : الريح النصر ، لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تضرب وجوه العدو ، وإذا كان

كذلك لم يكن لهم قوام .

وأخرج ابن أبي شيبه عن النعمان بن مقرن رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله

عليه وسلم إذا كان عند القتال لم يقاتل أول النهار وآخره إلى أن تزول الشمس وتهب الرياح

وينزل النصر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(110/314)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ (46) ﴾

"تفشلوا" يحتمل وجهين:

أحدهما: نصبٌ على جواب النهي.

والثاني: الجزم عطفًا على فعل النهي قبله، وقد تقدّم تحقيقهما في "وتخونوا" قبل ذلك،

ويدلُّ على الثاني قراءة عيسى بن عمر "ويذهب" بياء الغيبة وحزمه، ونقل أبو البقاء

قراءة الجزم ولم يُقَيِّدها بياء الغيبة.

وقرأ أبو حيوة وأبان وعصمة "ويذهب" بياء الغيبة ونصبه.

وقرأ الحسنُ "فتفشلوا" بكسر الشين، قال أبو حاتم: "هذا غير معروف" وقال غيره:

إنها لغة ثانية. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح 9 ص 534.535 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ (46) ﴾

الموافقة بين المسلمين أصل الدين . وأول الفساد ورأس الزلل الاختلافُ . وكما تجب

الموافقة في الدين والعقيدة تجب الموافقة في الرأي والعزيمة .

قال تعالى في صفة الكفار : ﴿ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر: 14] ، وإنما

تتحد عزائم المسلم لأنهم كلهم يجمعهم التبري من حولهم وقوتهم ، ويتمحضون في رجوعهم

إلى الله ، وشهودهم التقدير ، فيتحدون في هذه الحالة الواحدة .

(111/314)

---

وأما الذين توهّموا الحادثات من أنفسهم فضلوا في ساحات حسابانهم ، وأجروا الأمور على ما يسنح لرأيهم ، فكل يبيني على ما يقع له ويختار ، فإذا تنازعوا تشعبت بهم الآراء ، وافترقت بهم الطرق ، فيضعفون ، وتختلف طرقهم . وكما تجب في الدين طاعة رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - تجب طاعة أولي الأمر ، ولهذا يجب في كل وقت نصب إمام

للمسلمين ، ثم لا تجوز مخالفته ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " أطيعوه ولو كان

عبداً مجده " وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا بعث سريةً أمر عليهم أميراً وقال

: " عليكم بالسواد الأعظم " .

وإجماع المسلمين حجة ، وصلاة الجماعة سنة مؤكدة ، والاتباع محمود والابتداع ضلالة .

قوله ﴿وَاصْبِرُوا﴾ الصبر حبسُ النَّفْسِ عَلَى الشَّيْءِ ، والمأثور به من الصبر ما يكون على خلاف هواك .

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يتولى بالكافية إذا حصل منهم الثباتُ وحسنُ التفويضِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات ح 1 ص 629.630﴾

(112/314)

قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (47)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكروهم سبحانه ما أوجب نصرهم أمراً لهم بالثبات عليه ، ذكر لهم حال أعدائهم الذي أوجب قهرهم ناهياً عنه تعريضاً مجال المنازعة في الأنفال وأنها حال من يريد الدنيا ، ويوشك - إن تبادت - أن تجر إلى مثل حال هؤلاء الذي محط نظرهم الدنيا فقال : ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أي يا معشر المؤمنين ﴿كالذين﴾ وصور قبح عملهم من أوله إلى آخره فقال : ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي كل واحد من داره وهم أهل مكة ، وكل من عمل مثل عملهم

كان مثلهم ، ولذا عبر بالوصف ليعم ﴿ بطراً ﴾ أي طغياناً وتكبراً على الحق ، ومادة بطر - بأي ترتيب اتفق - تدور على اللين القابل للعمل حتى ربط ، فإنه لولا الضعف ما استوثق من المربوط ، ومنه بطر الجرح - وهو شقه - والبيطار ، وتارة يكون ذلك اللين عن دهش . ومنه أبطرت حلمه أي أدهشته عنه ، وذهب دمه بطراً أي باطلاً للضعف عنه للحيرة في الأمر الموصل إليه ، وتارة يكون عن مجاوزة الحد في الصلابة ، ومنه بطر النعمة - إذا لم يشكرها فتجاوز الحد في المرح ، فإن فاعل ذلك يمكنه الحكيم من مقاتله فيأخذه وهو يرجع إلى عدم احتمال القوى للشكر ، ففاعل ذلك ضعيف وإن ظهر منه خلاف ذلك ما قال عمر - رضي الله عنهم - : العدل وإن رأيي لينا أكف عن الظلم من الجور وإن رأيي شديداً - أو كما قال - رضي الله عنهم .

وأقرب من ذلك أن تكون المادة دائرة على الخلطة الناقلة من حال إلى حال . ولما ذكر الحامل لهم على الخروج من أنفسهم ، ذكر ما أوجبه لهم من غيرها فقال : ﴿ ورتاء الناس ﴾ أي خرجوا يرون الناس خروجهم وما يتأثر عنه ليروهم ما يقولون فيه ، فإنهم لما قيل لهم : قد نجى الله غيركم فارجعوا ، بطروا النعمة تبعاً لأبي جهل حيث قال : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ فنشرب الخمر وننحر الجزور وتعزف علينا القيان فتسمع بنا العرب فلا تزال تهابنا أبداً ! فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا الحمر ، وناحت عليهم نوائح الزمان مكان العزف والقيان .

ولما ذكر نفس الخروج وما فيه من الفساد وذكر ثمرته الخبيثة الناشئة عن ذنك الخلقين ،  
وعبر عنهما بالاسم إشارة إلى الثبات كما هو شأن الأخلاق ، وعن الثمرة بالمضارع تنبيهاً  
على أنهم لا يزالون يجدونها فقال : ﴿ ويصدون ﴾ أي يوجدون الصد وهو المنع لأنفسهم  
وغيرهم ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي الملك الأعظم في ذلك الوجه وهم عازمون على تجديد  
ذلك في كل وقت ، فلما كانت هذه مقاصدهم كان نسجهم هلهلاً وبنيانهم واهياً ، فإنها  
من عمل الشيطان ، وكل عمل لا يكون لله إذا صدم بما هو لله اضمحل ، بذلك سبحانه  
أجرى سنته ولن تجد لسنة تحويلاً ، فإن العاملين عبيد الله ﴿ والله ﴾ أي فعلوا ذلك  
والحال أن المحيط بكل شيء الذي عادوا أولياءه ﴿ بما ﴾ أو يكون ذلك معطوفاً على  
تقديره : فأبطل الله بجلاله وعظمته أعمالهم وهو بكل ما ﴿ يعملون محيط ﴾ فهم في قبضته  
، فأوردتهم - إذ خرجوا يحادونه - بدرأ فنحر مكان الجزور رقابهم وسقاهم مكان  
الخمور كؤوس المنايا ، وأصاح عليهم مكان القيان صوائح النوائح ، ولعله قدم الجار إشارة  
إلى أنه لشدة إحاطته بأعمالهم كأنه لا نظر له إلى غيرها فلا شاغل له عنها . انتهى انتهى . ا



## فصل

قال الفخر:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

قال المفسرون: المراد قريش حين خرجوا من مكة لحفظ العير، فلما وردوا الجحفة بعث الحقاف الكناني كان صديقاً لأبي جهل إليه بهدايا مع ابن له، فلما أتاه قال: إن أبي ينعمك صباحاً ويقول لك إن شئت أن أمدك بالرجال أمددتك، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت، فقال أبو جهل: قل لأبيك جزاك الله والرحم خيراً، إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس، فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله ما نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرأ فنشرب فيها الخمر وتعزف علينا فيها القيان، فإن بدرأ موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب بهذه الواقعة.

قال المفسرون: فوردوا بدرأ وشربوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان.

واعلم أنه تعالى وصفهم بثلاثة أشياء : الأول : البطر قال الزجاج : البطر الطغيان في  
النعمة .

والتحقيق أن النعم إذا كثرت من الله على العبد فإن صرفها إلى مرضاته وعرف أنها من الله  
تعالى فذاك هو الشكر .

وأما إن توسل بها إلى المفاخرة على الأقران والمكاثرة على أهل الزمان فذاك هو البطر .  
والثاني : قوله : ﴿ وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ والرئاء عبارة عن القصد إلى إظهار الجميل مع أن باطنه  
يكون قبيحاً ، والفرق بينه وبين النفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر ، والرئاء  
إظهار الطاعة مع إبطان المعصية .

روي أنه صلى الله عليه وسلم لما رآهم في موقف بدر قال : " اللهم أن قريشاً أقبلت بفخرها  
وخيلاتها لمعارضة دينك ومحاربة رسولك " والثالث : قوله : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ  
اللَّهِ ﴾ فعل مضارع وعطف الفعل على الاسم غير حسن .

وذكر الواحد في فيه ثلاثة أوجه : الأول : أن يكون قوله : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾  
بمنزلة صادين .

(115/314)

---

والثاني: أن يكون قوله: ﴿بَطْرًا وَرِئَاءً﴾ بمنزلة يبطرون ويرأون، وأقول: إن شيئاً من هذه الوجوه لا يشفي الغليل، لأنه تارة يقيم الفعل مقام الاسم وأخرى يقيم الاسم مقام الفعل، ليصح له كون الكلمة معطوفة على جنسها، وكان من الواجب عليه أن يذكر السبب الذي لأجله عبر عن الأولين بالمصدر، وعن الثالث بالفعل.

وأقول: إن الشيخ عبد القاهر الجرجاني، ذكر أن الاسم يدل على التمكين والاستمرار والفعل على التجدد والحدوث، قال ومثاله في الاسم قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَيْدِ﴾ [الكهف: 18] وذلك يقتضي كون تلك الحالة ثابتة راسخة، ومثال الفعل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: 31] وذلك يدل على أنه تعالى يوصل الرزق إليهم ساعة فساعة، هذا ما ذكره الشيخ عبد القاهر. إذا عرفت هذا فنقول: إن أبا جهل ورهطه وشيعته كانوا مجبولين على البطر والمفاخرة والعجب، وأما صدهم عن سبيل الله فإنما حصل في الزمان الذي ادعى محمد عليه الصلاة والسلام النبوة.

ولهذا السبب ذكر البطر والرئاء بصيغة الاسم، وذكر الصد عن سبيل الله بصيغة الفعل والله أعلم.

وحاصل الكلام: أنه تعالى أمرهم عند لقاء العدو بالثبات والاشتغال بذكر الله، ومنعهم

من أن يكون الحامل لهم على ذلك الثبات؛ البطر والرئاء، بل أوجب عليهم أن يكون الحامل لهم عليه طلب عبودية الله.

(116/314)

---

واعلم أن حاصل القرآن من أوله إلى آخره دعوة الخلق من الاشتغال بالخلق، وأمرهم بالعناء في طريق عبودية الحق، والمعصية مع الانكسار أقرب إلى الإخلاص من الطاعة مع الاقتحار، ثم ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ والمقصود أن الإنسان ربما أظهر من نفسه أن الحامل له والداعي إلى الفعل المخصوص طلب مرضاة الله تعالى مع أنه لا يكون الأمر كذلك في الحقيقة، فبين تعالى كونه عالماً بما في دواخل القلوب، وذلك كالتهديد والزجر عن الرئاء والتصنع. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 138.

﴿ 139

(117/314)

---

وقال السمرقندي :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا ﴾

معناه قاتلوا لوجه الله تعالى ، ولا تقاتلوا رياءً وسمعةً ولا تكونوا يا أصحاب النبي عليه السلام كالذين خرجوا ﴿ مِنْ ديارهم ﴾ وهم أهل مكة ﴿ بَطْرًا ﴾ يعني أشراً .  
وأصله الطغيان في النعمة .

﴿ وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ ، يعني لكي يذكروا بمسيرهم ، ويقولوا : تسامع الناس بمسيرنا .

وقال محمد بن إسحاق : خرجت قريش وهم تسعمائة وخمسون مقاتلاً ، ومعهم مائتا فرس يقودونها ، وخرجوا ومعهم القينات يضربون بالدفوف ويغنون بهجاء المسلمين .

ثم قال : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، يعني يصرفون الناس عن دين الإسلام .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ ، يعني عالم بهم وبأعمالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم

ح 2 ص ﴿

وقال الثعلبي :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا ﴾

فخراً وأشراً ﴿ وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ معطوف على قوله : [ بَطْرًا

ورِئَاءَ النَّاسِ ] ومعناه ينظرون ويرون ، إذ لا يعطف مستقبل على ماض ، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا

يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ وهؤلاء أهل مكة خرجوا يوم بدر ولهم بغيٌ وفخر فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : " اللهم إن قريشاً أقبلت بفخرها وخيلائها ليحادك ورسولك " .  
قال ابن عباس : لما رأى أبو سفيان أنه أحرز غيره أرسل إلى قريش أنكم خرجتم لتمنعوا  
عليكم فقد نجهاها الله فارجعوا فوافى الركب الذي فيه أبو سفيان ليأمروا قريشاً بالرجعة  
إلى مكة فقال لهم : انصرفوا ، فقال أبو جهل : والله لا ننصرف حتى نرد بدرًا وكان بدر  
موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام فنقيم بها ثلاثًا ونحرج الجزر ونطعم  
الطعام ونسقي الخمر ونعزف عليها القيان وتسمع بها العرب . فلا يزالون بها بوننا أبدًا  
فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان .  
ونهى الله عباده المؤمنين بأن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاص النية والخشية في نصرته دينه  
ومؤازرة نبيه صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ الكشف والبيان ٤ ص ﴾

(118/314)

وقال الماوردي :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾

هم قريش حين خرجوا في حماية العير فنجا بها أبو سفيان ، فقال لهم أبو جهل : لا نرجع

حتى نردِ بدرًا وننحر جزوراً ونشرب خمراً وتعزف علينا القيان ، فكان من أمر الله فيهم ما كان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(119/314)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم ﴾ الآية

آية تتضمن الطعن على المشار إليهم وهم كفار قريش ، وخرج ذلك على طريق النهي عن سلوك سبيلهم ، والإشارة هي إلى كفار قريش بإجماع ، و " البطر " الأشر وغمط النعمة والشغل بالمرح فيها عن شكرها ، و " الرياء " المباهاة والتصنع بما يراه غيرك ، وهو فعال من راءى يرأى سهلت همزته ، وروي أن أبا سفيان لما أحس أنه قد تجاوز بغيره الخوف من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه بعث إلى قريش فقال : " إن الله قد سلم غيركم التي خرجتم إلى نصرتها فارجعوا سالمين قد بلغتكم مرادكم " ، فأتى رأي الجماعة على ذلك ، فقال أبو جهل : والله لا نفعل حتى نأتي بدرًا ، وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب لها يوم موسم ، فننحر عليها الإبل ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان ويسمع بنا العرب ويهابنا الناس .

قال القاضي أبو محمد: فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ورثاء الناس﴾، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إن قريشاً أقبلت بفخرها وخيلائها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فاحنها الغداة"، وقال محمد بن كعب القرظي: خرجت قريش بالقيان والدفوف، وقوله ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾، أي غيرهم.

قال القاضي أبو محمد: لأنهم أحرى بذلك من أن يقتصر صدهم على أنفسهم، وقوله ﴿والله بما يعملون محيط﴾ آية تتضمن الوعيد والتهديد لمن بقي من الكفار ونفوذ القدر فيمن مضى بالقتل. انتهى انتهى. ١هـ ﴿المحرر الوجيز ح 2 ص﴾

(120/314)

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً﴾

قال المفسرون: هم أبو جهل ومن خرج معه من مكة، خرجوا ليدفعوا عن غيرهم التي

كانت مع أبي سفيان، ومعهم القيان والمعازف، وهم يشربون الخمر.

فلما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز ما معه، كتب إليهم: إني قد أحرزت أموالكم فارجعوا.

فقال أبو جهل: والله لا نفعل حتى نردّ بدرًا فنقيم ثلاثاً، وننحر الجزر، ونطعم الطعام،



ونسقي الخمر ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابونا .

فساروا إلى بدر ، فكانت الواقعة ؛ فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم

النوائح مكان القيان .

فأما البطر ، فهو الطغيان في النعم ، وترك شكرها .

والرياء : العمل من أجل رؤية الناس ، وسبيل الله هاهنا : دينه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد

المسير ح 3 ص ﴿

(121/314)

وقال القرطبي :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير .

خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف ؛ فلما وردوا الجحفة بعث خُفَّ الكنانيّ : وكان

صديقاً لأبي جهل بهدايا إليه مع ابن له ، وقال : إن شئت أمددتك بالرجال ، وإن شئت

أمددتك بنفسي مع من خفّ من قومي .

فقال أبو جهل : إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد ، فوالله ما لنا بالله من طاقة .

وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد  
بدرًا فنشرب فيها الخمر، وتعزف علينا القيان؛ فإن بدرًا موسم من مواسم العرب،  
وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتها بنا آخر الأبد.  
فوردوا بدرًا ولكن جرى ما جرى من هلاكهم.  
والبطر في اللغة: التقوية بنعم الله عز وجل وما ألبسه من العافية على المعاصي.  
وهو مصدر في موضع الحال.  
أي خرجوا بطرين مراءين صادين.  
وصدُّهم إضلالُ الناس. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبي ج 8 ص ٨﴾

(122/314)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً﴾

يعني فخراً وأشراً.

وقيل: البطر: الطغيان في النعمة وذلك أن النعم إذا كثرت من الله تعالى على العبد فإن

صرفها في المفاخرة على الأقران وكاثر بها أبناء الزمان وأنفقها في غير طاعة الرحمن فذلك

هو البطر في النعم وإن صرفها في طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها ، وهذا معنى قول الزجاج البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها ﴿ ورئاء الناس ﴾ الرياء إظهار الجميل ليراه الناس مع إبطال القبيح والفرق بين الرياء والنفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر والرياء إظهار الطاعة مع إبطان المعصية ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ يعني ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله نزلت هذه الآية في كفار قريش حين خرجوا إلى بدر ولهم فخر ونغي فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به " .

قال ابن عباس : إن أبا سفيان لما رأى أنه قد أحرز عيرة أرسل إلى قريش أنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورحالكم وأموالكم فقد نجهاها الله فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرًا وكان في بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق في كل عام قال فنقيم عليها ثلاثًا ونحرج الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا فأمضوا .

زاد غيره قال : فلما وافوا بدرًا سقوا كؤوس الحمام عوضًا عن الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم والمعنى لا يكونن أمركم أيها المؤمنون رياء وسمعة ولا لالتماس ما عند الله ولكن أخلصوا لله النية وقاتلوا حسبة في نصر دينكم ومؤازرة نبيكم ( صلى الله عليه وسلم ) ولا تعملوا إلا لذلك ولا تطلبوا غيره .

وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فيه وعيد وتهديد يعني أنه تعالى عالم بجميع الأشياء لا يخفى عن علمه شيء لأنه محيط بأعمال العباد كلها فيجازي المحسنين ويعاقب المسيئين. انتهى انتهى. ١هـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

(123/314)

وقال أبو حيان:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

نزلت في أبي جهل وأصحابه خرجوا النصره العير بالقينات والمعازف ووردوا الجحفة فبعث خفاف الكناني وكان صديقاً له بهدايا مع ابنه وقال: إن شئت أمددناك بالرجال وإن شئت بنفسي مع من خف من قومي، فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله طاقة وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة والله، لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمر وتعزف علينا القينات فإن بدرًا مركز من مراكز العرب وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب مخرجنا فتهابنا آخر الأبد فوردوا بدرًا فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القينات، فنهى الله المؤمنين

أن يكون مثل هؤلاء بطرين طرين مرئين بأعمالهم صادين عن سبيل الله ، وقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " اللهم إن قريشاً أقبلت بفخرها وخيالتها تجادل وتكذب رسولك اللهم فاحثها الغداة " وفي قوله ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ وعيد وتهديد لمن بقي من الكفار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾

بعد ما أمروا بما أمروا به من أحسن الأعمال ونهوا عما يقابلها من قبائحها ، والمراد بهم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير ﴿ بَطْرًا ﴾ أي فخراً وأشراً ﴿ وَرِثَاءَ النَّاسِ ﴾ لئسوا عليهم بالشجاعة والسماحة ، وذلك أنهم لما بلغوا جحفة أتاهم رسول أبي سفيان وقال : ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبوا إلا إظهار آثار الجلادة فلقوا ما لقوا حسبما ذكر في أوائل السورة الكريمة فنهي المؤمنون أن يكونوا أمثالهم مرئين بطرين وأمروا بالتقوى والإخلاص من حيث إن النهي عن الشيء مستلزم للأمر بضده ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ عطف على بَطْرٍ إن جعل مصدرًا في موضع الحال وكذا إن جعل مفعولاً له لكن على تأويل المصدر ﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فيجازيهم عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

وقال الأوسى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾

بعد أن أمروا بما أمروا من أحاسن الأعمال ونهوا عما يقابلها ، والمراد بهم أهل مكة أبو جهل وأصحابه حين خرجوا لحماية العير ﴿ بَطْرًا ﴾ أي فخراً وأشراً ﴿ وَرِثَاءَ النَّاسِ ﴾ لئثوا عليهم بالشجاعة والسماحة .

روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش أن أرجعوا فقد سلمت العير فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرًا ونشرب الخمر وتعزف علينا القينات ونطعم بها من حضرنا من العرب فوافوها ولكن سقوا كأس المنيا بدل الخمر وناحت عليهم النوائح ، بدل القينات وكانت أموالهم غنائم بدلاً عن بذلها ، ونصب المصدرين على التعليل ، ويجوز أن يكونا في موضع الحال ، أي بطرين مرأين ، وعلى التقديرين المقصود نهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم في البطر والرياء وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص إذا قلنا : إن النهي عن الشيء أمر بضده .

﴿ وَيَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ عطف على ﴿ بَطْرًا ﴾ وهو ظاهر على تقدير أنه حال بتأويل اسم الفاعل لأن الجملة تقع حالا من غير تكلف وأما على تقدير كونه مفعولاً له فيحتاج إلى تكلف لأن الجملة لا تقع مفعولاً له ، ومن هنا قيل : الأصل أن يصدوا فلما

حذفت أن المصدرية ارتفع الفعل مع القصد إلى معنى المصدرية بدون سابق كقوله :

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى . . .

أي عن أن أحضر وهو شاذ

واختير جعله على هذا استثناءً ؛ ونكتة التعبير بالاسم أولاً والفعل أخيراً أن البطر والرياء

دأبهم بخلاف الصدق عنه تجدد لهم في زمن النبوة ﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

فيجازيهم عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 10 ص ﴾

(125/314)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾

جملة : ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ معطوفة على ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ [ الأنفال : 46 ] عطف نهي

على نهي .

ويصح أن تكون معطوفة على جملة ﴿ فَانْتَبُوا ﴾ [ الأنفال : 45 ] عطف نهي على أمر ،

إكمالاً لأسباب النجاح والفوز عند اللقاء ، بأن يتلبسوا بما يدينهم من النصر ، وأن يتجنبوا

ما يفسد إخلاصهم في الجهاد .

وجيء في نهيمهم عن البطر والرئاء بطريقة النهي عن التشبه بالمشركين إدماجاً للتشيع  
بالمشركين وأحوالهم ، وتكريهاً للمسلمين تلك الأحوال ، لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها  
، وتكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند آخرين ، وذلك أبلغ في  
النهي ، وأكشف لقبح المنهي عنه .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [ الأنفال : 21 ]  
وقد تقدم آنفاً .

فنهوا عن أن يشبهوا حال المشركين في خروجهم لبدر إذ خرجوا بطراً ورئاء الناس ، لأن  
حق كل مسلم أن يريد بكل قول وعمل وجه الله ، والجهاد من أعظم الأعمال الدينية .  
والموصول مراد به جماعة خاصة ، وهم أبو جهل وأصحابه ، وقد مضى خبر خروجهم  
إلى بدر ، فإنهم خرجوا من مكة بقصد حماية غيرهم فلما بلغوا الجحفة جاءهم رسول أبي  
سفيان ، وهو كبير العير يخبرهم أن العير قد سلمت ، فقال أبو جهل : " لا نرجع حتى نقدم  
بدرًا نشرب بها وتعزف علينا القيان ونطعم من حضرنا من العرب حتى يتسامع العرب بأننا  
غلبنا محمداً وأصحابه " .

فعبر عن تجاوزهم الجحفة إلى بدر ، بالخروج لأنه تكلمة لخروجهم من مكة .  
واتصب ﴿ بطراً ورئاء الناس ﴾ على الحالية ، أي بطرين مرأين ، ووصفهم بالمصدر  
للمبالغة في تمكن الصفتين منهم لأن البطر والرياء خلقان من خلقهم .



و"البطر" إعجاب المرء بما هو فيه من نعمة، والاستكبار والفخر بها، فالمشركون لما خرجوا من الجحفة، خرجوا عجباً بما هم فيه من القوة والجدّة.  
والرثاء "بهمزتين أو لهما أصيلة والأخيرة مبدلة عن الياء لوقوعها متطرفة أثر ألف زائدة.  
ووزنه فعّال مصدر راءى فاعل من الرؤية ويقال: مرآة، وصيغة المفاعلة فيه مبالغة، أي بالغ في إراءة الناس عمله محبة أن يروه ليفخر عليهم.  
و﴿سبيل الله﴾ الطريق الموصلة إليه، وهو الإسلام، شبه الدين في إبلاغه إلى رضى الله تعالى، بالسبيل الموصّل إلى بيت سيّد الحي ليصفح عن وارده أو يكرمه.  
وجيء في ﴿يصدون﴾ بصيغة الفعل المضارع للدلالة على حدوث وتجدّد صدّهم الناس عن سبيل الله، وأنهم حين خرجوا صادّين عن سبيل الله ومكرّرين ذلك ومجدّدينه.  
وباعتبار الحدوث كانت الحال مقارنة، وأمّا التجدّد فمستفاد من المضارعية ولا يجعل الحال مقدّرة.

وقوله: ﴿والله بما يعملون محيط﴾ تذكير للمسلمين بصريحه، ووعيد للمشركين بالمعنى الكنائى، لأن إحاطة العلم بما يعملون مجاز في عدم خفاء شيء من عملهم عن علم الله

تعالى ، ويلزمه أنه مجازيهم عن عملهم بما يجازي به العليمُ القدير من اعتدى على حُرْمه ،  
والجملة حال من ضمير ﴿ الذين خرجوا ﴾ [ الأنفال : 47 ] .

وإسناد الإحاطة إلى اسم الله تعالى مجاز عقلي ، لأن المحيط هو علم الله تعالى فأسناد  
الإحاطة إلى صاحب العلم مجاز . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(127/314)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾  
والذين خرجوا من ديارهم بطراً هم الكفار عندما علموا أن أبا سفيان قد نجا بالقافلة ولم  
يتمكن المسلمون من الاستيلاء عليها ، وهم قد خرجوا من مكة ليخلصوا القافلة من أيدي  
المسلمين ، فلما قيل لهم إنَّ القافلة نجت بقيادة أبي سفيان فارجعوا . قالوا : لا يكفينان  
هذا ، بل لا بد أن نخرج ونقاتل محمداً ومن معه ، ومنتصر عليهم وندق الطبول ونذبح  
الذبائح ليعلم أهل الجزيرة بجزية محمد ومن معه فلا يجروا أحد أن يتعرض لقافلة من  
قوافلنا .

إذن فهم لم يكتفوا بأن أموالهم قد رجعت إليهم ، بل أرادوا أكثر مما يقتضي الموقف ، أرادوا

أن يخرجوا في مظاهرة ضاللية للمفاخرة والتكبر تُثبت أن لهم قوة .

وكان يكفيهم نجاة القافلة وينتهي الأمر . وكان عليهم أن يرجعوا ، ولكنهم أرادوا أن يقوموا بمظاهرة لا لزوم لها .

إذن فالمسألة شماعة ، وهذا لون من البطر ؛ أن تكون عندك نعمة فلا تقدرها حق قدرها ، وتحب أن تعلق عليها . ويقال فلان بطران إذا حضر واه الإفطار من الفول مثلاً ويقول : إنه يريد المربي والزبد وعسل النحل . وهكذا فعل كفار قريش ، فلم يكتفوا بنجاة القافلة ، بل استخفوا هذه النعمة فلم يكتفوا بها وطلبوا المزيد .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَرِثَاءَ النَّاسِ ﴾

أي يريدون بالحرب مع رسول الله والذين آمنوا ؛ السمعة بين الناس ، وأن يعرف العرب أنهم خرجوا إلى المدينة وقاتلوا محمداً وصحبه لتكون لهم سمعة وهيبة بين الناس في الجزيرة العربية .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ الأنفال : 47 ] .

(128/314)

---

لأن الناس حين يرون الكفار المعاندين لمنهج الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقد صارت لهم اليد العليا ، وهم يرقصون ويغنون لاتصارهم ، ويرون المسلمين وهم محتفون خائفون من مواجهة الكفار ، فسوف يغري ذلك الناس باتباع منهج الكفر ، فكأن الكفار برغبتهم في قتال رسول الله وصحبه إنما يصدون عن سبيل الله . ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى ليوضح :  
لا تحسبوا أنهم بعيدون عن علمي .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [ الأنفال : 47 ] .

أي أن الله سبحانه وتعالى محيط بكل أعمالهم ، لا يغيب عنه عمل واحد مما يفعلونه ، هو محيط بهم تماماً وهم لا يستطيعون أن يفلتوا منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى

ص ﴿

(129/314)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ

بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ﴾ يعني المشركين الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف ، فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ﴾ قال : أبو جهل وأصحابه يوم بدر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال " كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر خرجوا ولهم بغي وفخر ، وقد قيل لهم يومئذ : ارجعوا فقد انطلقت غيركم وقد ظفرتم ، فقالوا : لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا ، وذكر لنا أن نبي الله قال يومئذ : اللهم إن قريشاً قد أقبلت بفخرها وخيالاتها لتجادل رسولك ، وذكر لنا أنه قال يومئذ : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم . . . ﴾ " انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾

قوله: "بَطْرًا وَرِئَاءَ"

منصوبان على المفعول له، ويجوز أن يكونا مصدرين في موضع نصبٍ على الحال، من فاعل  
: "خَرَجُوا، أي: خَرَجُوا بَطْرِينَ وَمُرَائِينَ، و"رِئَاءَ" مصدرٌ مضاف لمفعوله.

قوله "وَيَصُدُّونَ": يجوز أن يكون مستأنفاً، وأن يكون عطفاً على: "بَطْرًا وَرِئَاءَ" وحفّ  
المفعول للدلالة عليه.

فإن قيل: "يَصُدُّونَ" فعل مضارع، وعطف الفعل على الاسم غير حسن.  
فذكر الواحدي في الجواب ثلاثة أوجه:

الأول: أن "يَصُدُّونَ" بمعنى: صادين، أي: بطرين ومرائين وصادين.  
والثاني: أن يكون قوله "بَطْرًا وَرِئَاءَ" حالان على تأويل: مبطين ومرائين، ويكون قوله  
ويصدون "أي: وصادين.

الثالث: أن يكون قوله "بَطْرًا وَرِئَاءَ" بمنزلة: يبطرون ويرأون.

قال ابن الخطيب: "إن شيئاً من هذه الوجوه لا يشفي الغليل؛ لأنه تارة يقيم الفعل مقام

الاسم وأخرى يقيم الاسم مقام الفعل ليصح له كون الكلمة معطوفة على جنسها .  
وكان من الواجب عليه أن يذكر السبب الذي لأجله عبّر عن الأولين بالمصدر ، وعن  
الثالث بالفعل .

قال : إنَّ الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، ذكر أنَّ الاسم يدلُّ على التمكن والاستمرار ،  
والفعل على التجدد والحدوث ، مثاله في الاسم قوله تعالى ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾ [ الكهف : 18 ]  
وذلك يقتضي كون تلك الحالة ثابتة راسخة ، ومثال الفعل قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [ يونس : 31 ] وذلك يدلُّ على أنه تعالى يوصل  
الرزق إليهم ساعة فساعة .

وإذا عرفت ذلك فنقول : إنَّ أبا جهل ورهطه كانوا مجبولين على البطر ، والمفاخرة  
والعجب وأما صدهم عن سبيل الله فإنما حصل في الزمان الذي ادَّعى محمد - عليه  
الصَّلَاة والسَّلَام - فيه النبوة ، فلهذا ذكر البطر والرئاء بصيغة الاسم ، وذكر الصد بصيغة  
الفعل " .

واعلم أنَّ الذي قاله ابن الخطيب لا يחדش فيما أجاب به الواحدي ؛ لأنَّ الواحدي إنما  
أراد من حيث الصَّنَاعَة ، لا من حيث المعنى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ح

---

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ

بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿47﴾ ﴾

يريد أن أهل مكة لما خرجوا من مكة عام بدر لنصرة العير ملكتهم العزة ، واستمكن منهم

البطْرُ ، وداخلهم رياءُ الناس ، فارتكبوا في شباكِ غلظهم ، وحصلوا على ما لم يحتسبوه .

وأما المؤمنون فنصرهم نصراً عزيزاً ، وأزال عن نبيه - عليه السلام - ما أظله من الخوف

وبصدق تبريه عن حوله ومنته - حين قال : " لا تكلمي إلى نفسي " - كفاه بحسن التولي

فقال ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف

الإشارات - 1 ص 630 ﴾

(132/314)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ

لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقِسَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي



أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48) ❖

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان بين لهم فساد أعمالهم لفساد نياتهم تنفيراً منها ، زاد في التنفير بالإشارة إلى الأمر بدوام تذكرها بعاطف على غير معطوف عليه مذكور فقال : ❖ وإذ ❖ فعلم أن التقدير قطعاً : اذكروا ذلك واذكروا إذ ، وزاد في التنفير بذكر العدو والمبين والتنبيه على أن كل ما يأمر به إنما هو خيال لا حقيقة له كما كان ما سول لهم في هذا الأمر فقال : ❖ زين لهم الشيطان ❖ أي العدو والمحترق البعيد من الخير ❖ أعمالهم ❖ التي أتقنوها بزعمهم في معاداة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم الكنانى حين خافوا من قومه بني كنانة أن يخلفوهم في أهلهم بسوء لما كان بينهم مما يوجب ذلك ، فكاد ذلك أن يشبّطهم عن الميسر ❖ وقال ❖ غاراً لهم في أنفسهم ❖ لا غالب لكم ❖ والجار خبر ❖ لا ❖ وإلا لا انتصب اسمها لكونه يكون إذ ذاك شبيهاً بالمضاف ❖ اليوم من الناس ❖ وغاراً لهم فيمن خلفوه بقوله : ❖ وإني جار لكم ❖ من أن تخلفكم كنانة بشيء تكرهونه ، وسار معهم إلى بدر ينشطهم وينشدهم ويسلطهم بهذا القول الظاهر إلى ما يوسوس لهم به في الصدور ❖ فلما تراءت الفئتان ❖ أي رأت كل فئة الأخرى ورأى جبريل عليه السلام في جنود الله ❖ نكص ❖ أي رجع يمشي القهقري وبطل

كيدته وآثار وسوسته ﴿ على عقبه ﴾ أي إلى ورائه ، فقالوا أين أي سراق ؟ ولا يظنونه إلا سراقه ، فمر ولم يجبههم ولا عرج عليهم ﴿ وقال ﴾ أي بلسان الحال أو القال وهو يسمعونه أولاً يسمعونه ﴿ إني بريء منكم ﴾ ثم علل براءته منهم بقوله : ﴿ إني أرى ﴾ أي بعين بصري ﴿ ما لا ترون ﴾ أي من الملائكة والغضب الذي هو نازل بكم ، فقال له الحارث بن هشام وكانت يده في يده : والله ما نرى إلا جواسيس يثرب ! فاستأنف قوله مؤكداً لإنكارهم لذلك : ﴿ إني أخاف الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً أن يهلكني معكم بالمعاجلة بالعقاب ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ شديد العقاب ﴾ فكانوا يقولون : انهزم بنا سراقه ، فقال : بلغني أنكم تقولون

كذا ! والله ما علمت بمسيركم هذا إلا عندما بلغني انهزامكم فكانوا يكذبونه حتى أسلموا فعلموا أن الذي غرهم الشيطان ، وذلك مشهور في السير ، وهو أولى من أن يحمل على مجرد الوسوسة ، وفي الحديث " ما ربي إبليس يوماً أصغر ولا أحقر ولا أغيظ من يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما ربي يوم بدر " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ

﴿ 227.226

(133/314)

## فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾

اعلم أن هذا من جملة النعم التي خص أهل بدر بها وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

العامل في ﴿ إِذْ ﴾ فيه وجوه : قيل : تقديره اذكر إذ زين لهم ، وقيل : هو عطف على ما تقدم من تذكير النعم ، وتقديره : واذكروا إذ يريكموهم وإذ زين ، وقيل : هو عطف على قوله : خرجوا بطراً ورتاء الناس .

وتقديره : لا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورتاء الناس وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم .

المسألة الثانية :

في كيفية هذا التزيين وجهان : الأول : أن الشيطان زين بوسوسته من غير أن يتحول في صورة الإنسان ، وهو قول الحسن والأصم .

والثاني : أنه ظهر في صورة الإنسان .

قالوا : إن المشركين حين أرادوا المسير إلى بدر خافوا من بني بكر بن كنانة ، لأنهم كانوا قتلوا منهم واحداً ، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم ، فتصور لهم إبليس بصورة سراقه بن مالك بن

جعشم وهو من بني بكر بن كنانة وكان من أشرفهم في جند من الشياطين ، ومعه راية ،  
وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم مجيركم من بني كنانة ، فلما رأى إبليس  
نزول الملائكة نكص على عقبيه .

وقيل : كانت يده في يد الحرث بن هشام ، فلما نكص قال له الحرث : أتخذ لنا في هذه الحال  
؟ فقال : إني أرى ما لا ترونا ودفع في صدر الحرث وانهزموا .

وفي هذه القصة سؤالات :

السؤال الأول : ما الفائدة في تغيير صورة إبليس إلى صورة سراقه ؟

والجواب فيه معجزة عظيمة للرسول عليه السلام وذلك لأن كفار قريش لما رجعوا إلى مكة  
قالوا هزم الناس سراقه ، فبلغ ذلك سراقه فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني  
هزيمتكم .

فعند ذلك تبين للقوم أن ذلك الشخص ما كان سراقه بل كان شيطاناً .

فإن قيل : فإذا حضر إبليس لمحاربة المؤمنين .

ومعلوم أنه في غاية القوة ، فلم لم يهزموا جيوش المسلمين ؟

قلنا : لأنه رأى في جيش المسلمين جبريل مع ألف من الملائكة ، فلهذا السبب خاف وفر .  
فإن قيل : فعلى هذا الطريق وجب أن ينهزم جميع جيوش المسلمين لأنه يشبه بصورة البشر  
ويحضر ويعين جمع الكفار ويهزم جموع المسلمين ، والحاصل : أنه إن قدر على هذا المعنى  
فلم لا يفعل ذلك في سائر وقائع المسلمين ؟ وإن لم يقدر عليه فكيف أضفتم إليه هذا العمل  
في واقعة بدر ؟

الجواب : لعله تعالى إنما غير صورته إلى صورة البشر في تلك الواقعة أما في سائر الوقائع فلا  
يفعل ذلك التغيير .

السؤال الثاني : أنه تعالى لما غير صورته إلى صورة البشر فما بقي شيطانا بل صار بشرا .  
الجواب أن الإنسان إنما كان إنسانا بجوهر نفسه الناطقة ، ونفوس الشياطين مخالفة لنفوس  
البشر فلم يلزم من تغيير الصورة تغيير الحقيقة ، وهذا الباب أحد الدلائل السمعية على أن  
الإنسان ليس إنسانا بحسب بنيته الظاهرة وصورته المخصوصة .

السؤال الثالث : ما معنى قول الشيطان ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ﴾ وما الفائدة في  
هذا الكلام مع أنهم كانوا كثيرين غالبيين ؟

والجواب : أنهم وإن كانوا كثيرين في العدد إلا أنهم كانوا يشاهدون أن دولة محمد عليه  
الصلاة والسلام كل يوم في الترقى والتزايد ، ولأن محمداً كلما أخبر عن شيء فقد وقع فكانوا  
لهذا السبب خائفين جداً من قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، فذكر إبليس هذا الكلام

إزالة للخوف عن قلوبهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه كان يؤمنهم من شر بني بكر بن كنانة  
خصوصاً وقد تصور بصورة زعيم منهم ، وقال : ﴿ إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ والمعنى : إني إذا  
كنت وقومي ظهيرا لكم فلا يغلبكم أحد من الناس ومعنى الجار ههنا : الدافع عن صاحبه  
أنواع الضرر كما يدفع الجار عن جاره ، والعرب تقول : أنا جار لك من فلان أي حافظ من  
مضرته فلا يصل إليك مكروه منه .

(135/314)

---

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَانَ ﴾ أي التقى الجمعان بحيث رأت كل واحدة الأخرى  
نكص على عقبيه ، والنكوص الأحجام عن الشيء ، والمعنى : رجع وقال : إني أرى ما لا  
تروون ، وفيه وجوه : الأول : أنه روحاني ، فرأى الملائكة فخافهم .  
قيل : رأى جبريل يمشي بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام .  
وقيل : رأى ألفاً من الملائكة مردفين .  
الثاني : أنه رأى أثر النصر والظفر في حق النبي عليه الصلاة والسلام ، فعلم أنه لو وقف  
لنزلت عليه بلية .

ثم قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ قال قتادة صدق في قوله : ﴿ إِنِّي أرى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ وكذب

في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ وقيل لما رأى الملائكة ينزلون من السماء خاف أن يكون الوقت الذي أنظر إليه قد حضر فقال: ما قال إشفاقاً على نفسه.

أما قوله: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيجوز أن يكون من بقية كلام إبليس، ويجوز أن ينقطع كلامه عند قوله أخاف الله.

ثم قال تعالى بعده: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب ح

﴿ 15 ص 141.139 ﴾

(136/314)

وقال السمرقندي:

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾

يعني مسيرهم ومعناه أن خروجهم لما كان للشيطان ، زين لهم الشيطان أعمالهم وذلك أن أهل مكة لما وجدوا العير ، أرادوا الرجوع إلى مكة ، فأتاهم إبليس على صورة سراقاة بن مالك بن جعشم الكناني ، فقال لهم : لا ترجعوا حتى تستأصلوهم ، فإنكم كثير وعدوكم قليل .

ثم قال: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ ، يعني لا يطيقكم أحد لكثرتكم

وقوتكم .

﴿ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئْتَانَ ﴾ ، يعني اجتمع الجمعان ، جمع المؤمنين وجمع المشركين ، ﴿ ﴾  
نكص على عقبه ﴿ ﴾ ؛ أي راجعاً وراءه ؛ فقال له الحارث بن هشام : أين ما ضمنت لنا ؟  
﴿ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ .

فقال له الحارث : وهل ترى إلا جعاشيش أهل يثرب ؟ والجعاشيش جمع جعشوش ، وهو  
الرجل الحقير الدميم القصير .

فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

قال ابن عباس : خاف إبليس أن يأخذه جبريل أسيراً ، فيعرفه الناس فيراه الكفار ،  
فيعرفونه بعد ذلك ، فلا يطيعونه ؛ ولم يخف على نفسه الموت والقتل ، لأنه كان يعلم أن له  
بقاء إلى يوم ينفخ في الصور .

قال إبليس : إني أرى ما لا ترون ، أي أرى جبريل معتجراً بردائه يقود الفرس ، فلما تولى قالوا  
هزم الناس سراقه .

فسار سراقه بعد رجوعهم إلى مكة ، وقال : والله ما شعرت بمسيركم ، حتى بلغني  
هزيمتكم .

فقالوا له : ألم تأتتنا يوم كذا وكذا ؟ فحلف أنه لم يحضر ؛ فلما أسلموا ، علموا أنه كان إبليس .  
وقال مقاتل : لم يجتمع جمع قط منذ كانت الدنيا أكثر من يوم بدر ، وذلك أن إبليس جاء



بنفسه ، وحضرت الشياطين ، وحضر كفار الجن كلهم ، وتسعمائة وخمسون من المشركين ، وثلاثمائة وثلاثة عشر من المؤمنين ، وتسعون من مؤمني الجن ، وألف من الملائكة .

(137/314)

---

وروي عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ هذه السورة ، كان يقول : طوبى لجيش كان قائدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومبارزهم أسد الله ، وجهادهم في طاعة الله ، ومددهم ملائكة الله ، وجارهم أمين الله ، وثوابهم رضوان الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجر العلوم ح 2 ص ﴾

(138/314)

---

وقال الثعلبي :

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

وكانت الزينة لهم على ما قاله ابن عباس وابن إسحاق والسدي والكلبي وغيرهم : إن قريشاً لما أجمعت المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناف بن كنانة من الحرب

التي بينها وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب ، فكان ذلك أن يشبههم ، فجاء إبليس في جند من الشياطين معه رايته فتبدى في صورة سراقه بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني ، وكان من أشرف كنانة .

قال الشاعر :

يا ظالمي أنى تروم . . . ظلامتي والله من كل الحوادث خالي  
﴿ فلما ترآءتِ الفئتان ﴾ أي التقى الجمعان ورأى إبليس الملائكة نزلوا من السماء وعلم أنه لا طاقة له بهم ﴿ نكص على عقبيه ﴾ . قال الضحاك : ولى مدبراً . قال النضر بن شميل : رجع القهقري على قفاه هاربا ، وقال قطرب وابان بن ثعلبة : رجع من حيث جاء .

قال الشاعر :

نكصتم على أعقابكم يوم جئتم . . . وتزجون أنفال الخميس العرمرم  
وقال عبد الله بن رواحة : فلما رأيتم رسول الله نكصتم على أعقابكم هاربيننا .  
قال الكلبي : لما التقوا كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقه بن كنانة آخذاً بيد الحرث بن هشام ، فنكص على عقبيه وقال له الحرث : يا سراقه أين ؟ أتخذلنا على هذه الحالة ؟ فقال له ﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ فقال : والله ما نرى إلا جواسيس يثرب . فقال : ﴿ إني أخاف الله ﴾ .

قال الحرث : فهلاً كان هذا أمس ، فدفع في صدر الحرث فانطلق وانهزم الناس ، فلما قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقه فبلغ ذلك سراقه فقال بلغني أنكم تقولون أني هزمت الناس ، فوالله ما شعرت حتى بلغني هزيمتكم ، فقالوا أما أتيتنا في يوم كذا فحلف لهم ، فلما تابوا علموا أن ذلك كان الشيطان .

وقال الحسن في قوله : ( أني أرى ما لا ترون ) فأتى إبليس جبرئيل معتجراً بردة يمشي بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وفي يده اللجام يقود الفرس ماركب .

(139/314)

---

سمعت أبا القاسم الحبيبي سمعت أبا زكريا العنبري ، سمعت أبا عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجي يقول أفخر بيت قيل في الإسلام قوله بغيض الأنصاري يوم بدر :

وبسر بدر إذ نردّ وجوههم . . . جبريل تحت لوائنا ومحمد

وقال قتادة وابن إسحاق . قال إبليس : إني أرى ما لا ترون وصدق الله في عدوّه ، وقال :

إني أخاف الله ، وكذب عدوّ الله ، والله ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة

فأيدهم وأسلمهم ، وذلك عادة عدوّ الله لمن أطاعه ، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم

وتبراً منهم .

قال عطاء إني أخاف الله أن يهلكني فيمن هلك ، وقال الكلبي : خاف أن يأخذه جبرئيل ويعرفهم حاله فلا يطيعوه من بعد ، وقال معناه : إني أخاف الله ، أي أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه على ثقة من أمره .

قال الاستاذ الامام أبو إسحاق ، رأيت في بعض التفاسير : إني أخاف الله عليكم والله شديد العقاب .

قال بعضهم هذا حكاية عن إبليس ، وقال آخرون : انقطع الكلام عند قوله : إني أخاف الله قال الله ﴿ والله شديد العقاب ﴾ .

إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبيد الله بن كرزبان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما رؤي الشيطان يوماً هوفيه أصغر ولا أذجر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر " ، وذلك أنه رأى جبرئيل وهوزع الملائكة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص



وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

قال المفسرون : ظهر لهم في صورة سراقه بن جعشم من بني كنانة فزين للمشركين أعمالهم .

يحتمل وجهين :

أحدهما : زين لهم شركهم .

والثاني : زين لهم قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفيه وجه ثالث : أنه زين لهم قوتهم حتى اعتمدوها .

﴿ وَقَالَ : لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ﴾ يعني أنكم الغالبون دون المؤمنين .

﴿ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعني أني معكم . وفي جواركم ينالني ما نالكم .

الثاني : مجير لكم وناصر . فيكون على الوجه الأول من الجوار ، وعلى الوجه الثاني من

الإجارة .

﴿ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فئة المسلمين وفئة المشركين .

والثاني : المسلمون ومن أمدوا به من الملائكة . فكانوا فئتين .

﴿ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ ﴾ والنكوص أن يهرب ذليلاً خازياً ، قال الشاعر :

وما يفعل المستأخرين نكوصهم . . . ولا ضرَّ أهل السابقات التقدم .

﴿ وَقَالَ إِنِّي بِرِيٍّ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ يعني من الملائكة الذين أمد الله بهم رسوله

والمؤمنين .

﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ وإنما ذكر خوفه من الله تعالى في هذا الموضع ولم يذكره في امتناعه من

السجود لآدم لأنه قد كان سأل الإنظار إلى قيام الساعة فلما رأى نزول الملائكة ببدر تصور

قيام الساعة فخاف فقال ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(141/314)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾

التقدير واذكروا إذ ، والضمير في ﴿ لهم ﴾ عائد على الكفار ، و ﴿ الشيطان ﴾ إبليس

نفسه ، وحكى المهدوي وغيره أن التزيين في هذه الآية وما بعده من الأقوال هو بالوسوسة

والمحادثة في النفوس .

قال القاضي أبو محمد : ويضعف هذا القول أن قوله ﴿ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ ليس مما يلقي

بالوسوسة ، وقال الجمهور في ذلك بما روي وتظاهر أن إبليس جاء كفارقريش ففي السير لابن هشام أنه جاءهم بمكة ، وفي غيرها أنه جاءهم وهم في طريقهم إلى بدر ، وقد لحقهم خوف من بني بكر وكنانة لحروب كانت بينهم ، فجاءهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم وهو سيد من ساداتهم ، فقال لهم " إني جار لكم " ولن تخافوا من قومي وهم لكم أعوان على مقصدكم ولن يغلبكم أحد ، فسروا عند ذلك ومضوا لطيتهم وقال لهم أتم تقاتلون عن دين الآباء ولن تعدموا نصراً .

فروي أنه لما التقى الجمعان كانت يده في يد الحارث بن هشام ، فلما رأى الملائكة نكص فقال له الحارث أتفريا سراقه فلم يلو عليه ، ويروي أنه قال له ما تضمنت الآية .

(142/314)

---

وروي أن عمرو بن وهب أو الحارث بن هشام قال له أين سراقه ؟ فلم يلو ومثل عدو الله فذهب ووقعت الهزيمة ، فتحدث أن سراقه فر بالناس ، فبلغ ذلك سراقه بن مالك ، فأتى مكة فقال لهم : والله ما علمت بشيء من أمركم حتى بلغني هزيمتكم ولا رأيتمكم ولا كنت معكم ، وحكى الطبري عن ابن عباس أنه قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأيتة في صورة رجل من بني مدج ، فقال ﴿ لا غالب لكم اليوم ﴾ الآية ، و ﴿ اليوم

﴿ ظرف ، والعمل فيه معنى نفي الغلبة ، ويحتمل أن يكون العامل متعلق ﴾ لكم ﴿  
﴿ وممتنع أن يعمل ﴾ غالب ﴿ لأنه كان يلزم أن يكون لا غالباً ، وقوله ﴾ إني جار لكم ﴿  
معناه فأنتم في ذمتي وحمائي ، و﴿ وتراءت ﴾ تفاعلت من الرؤية أي رأى هؤلاء هؤلاء ،  
وقرأ الأعمش وعيسى بن عمر " تراءت " مقصورة ، وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه أمال  
والراء مرققة ثم رجع عن ذلك ، وقوله ﴾ نكص على عقبيه ﴿ معناه رجع من حيث جاء  
، وأصل النكوص في اللغة الرجوع القهقري ، وقال زهير :

هم يضربون حبيك البيض إذ لحقوا . . . لا ينكصون إذا ما استلحموا وحموا

كذا أنشد الطبري ، وفي رواية الأصمعي إذا ما استلأموا وبذلك فسر الطبري هذه الآية ،  
وفي ذلك بعد ، وإنما رجوعه في هذه الآية مشبه بالنكوص الحقيقي ، وقال اللغويون :  
النكوص ، الإحجام عن الشيء ، يقال أراد أمراً ثم نكص عنه ، وقال تَابُّطَ شَرًّا : ]

[ البسيط ]

ليس النكوصُ على الأدبار مكرمةً . . . إن المكارم إقدامٌ على الأسل

قال القاضي أبو محمد : فليس هنا قهقري بل هو فرار ، وقال مؤرج : نكص هي رجوع بلغة

سليم .



---

قال القاضي أبو محمد : وقوله ﴿ على عقبه ﴾ يبين أنه إنما أراد الانهزام والرجوع في ضد إقباله ، وقوله ﴿ إني بريء منكم ﴾ هو خذلانه لهم وانفصاله عنهم ، وقوله ﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ يريد الملائكة وهو الخبيث إنما شرط أن لا غالب من الناس فلما رأى الملائكة وخرق العادة خاف وفرّ ، وفي الموطأ وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما رىء الشيطان في يوم أقل ولا أحقر ولا أصغر منه في يوم عرفة ، لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رأى يوم بدر ، قيل وما رأى يا رسول الله ؟ قال : رأى الملائكة يزعمها جبريل " .

وقال الحسن : رأى إبليس جبريل يقود فرسه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو معتج بيردة وفي يده اللجام ، وقوله ﴿ إني أخاف الله ﴾ قيل إن هذه معذرة منه كاذبة ولم تلحقه قط مخافة ، قاله قتادة وابن الكلبي ، وقال الزجاج وغيره : بل خاف مما رأى من الأمر وهوله وأنه يومه الذي أنظر إليه ، ويقوي هذا أنه رأى خرق العادة ونزول الملائكة للحرب ، وحكى الطبري بسنده أنه لما انهزم المشركون يوم بدر حين رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبضة من التراب وجوه الكفار أقبل جبريل صلى الله عليه وسلم إلى إبليس ، فلما رآه إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين اتزعج يده ثم ولى مدبراً ، فقال له الرجل أي سراقاة تزعم أنك لنا جار ؟ فقال ﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ الآية ، ثم ذهب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

قال عروة بن الزبير : لما أجمعت قريش المسير إلى بدر ، ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب ، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك المدلجي ، وكان من اشراف بني كنانة ، فقال لهم : ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم ﴾ من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه ، فخرجوا سراعا .

وفي المراد بأعمالهم ها هنا ثلاثة أقوال .

أحدها : شركهم .

والثاني : مسيرهم إلى بدر .

والثالث : قتالهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ فلما تراءت الفئتان ﴾ أي : صارتا بحيث رأت إحداهما الأخرى .

وفي المراد بالفئتين قولان .

أحدهما : فئة المسلمين ، وفئة المشركين ، وهو قول الجمهور .

والثاني : فئة المسلمين ، وفئة الملائكة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ نكص على عقبيه ﴾ قال أبو عبيدة : رجع من حيث جاء .

وقال ابن قتيبة : رجع القهقري .

قال ابن السائب : كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقه ، آخذاً بيد الحارث بن

هشام ، فرأى الملائكة فنكص على عقبيه ، فقال له الحارث : أفراراً من غير قتال ؟ فقال :

﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ ؛ فلما هُزم المشركون ، قالوا : هزم الناس سراقه ، فبلغه ذلك ،

فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم .

قال قتادة : صدق عدو الله في قوله : ﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ ، ذكر لنا أنه رأى جبريل

ومعه الملائكة ، فعلم أنه لا يد له بالملائكة ، وكذب عدو الله في قوله : ﴿ إني أخاف الله

﴾ ، والله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له بهم .

وقال عطاء : معناه : إني أخاف الله أن يهلكني .

وقال ابن الأباري : لما رأى نزول الملائكة ، خاف أن تكون القيامة ، فيكون انتهاء إنظاره ،

فيقع به العذاب .

ومعنى ﴿ نكص ﴾ : رجع هارباً مجزياً وذلّ .

واختلفوا في قوله : ﴿ والله شديد العقاب ﴾ هل هو ابتداء كلام ، أو تمام الحكاية عن

إبليس ، على قولين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

روي أن الشيطان تمثل لهم يومئذ في صورة سُرَاقَة بن مالك بن جُعْشَم ، وهو من بني بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم ، لأنهم قتلوا رجلاً منهم . فلما تمثل لهم قال ما أخبر الله به عنه .

وقال الضحّاك : جاءهم إبليس يوم بدر برايته وجنوده .

وألقى في قلوبهم أنهم لن يهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم .

وعن ابن عباس قال : " أمدّ الله نبيّه محمداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من

الملائكة ؛ فكان جبريل عليه السلام في خمسمائة من الملائكة مُجَنَّبَة ، وميكائيل في

خمسمائة من الملائكة مُجَنَّبَة .

وجاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مُدَلِّج ، والشيطان في

صورة سُرَاقَة بن مالك بن جُعْشَم .

فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ؛ فلما اصطف القوم

قال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره .

ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال : " يا رَبَّ إِنَّكَ إِن تُهْلِكَ هَذِهِ الْعَصَابَةَ فُلْنُ تَعْبُدُ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا " .

فقال جبريل : " خذ قبضة من التراب " فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم ؛ فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه .

فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس فلما راه كانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبراً وشيعته ؛ فقال له الرجل : يا سُرَاقَةَ ، ألم تزعم أنك لنا جارٌ ؛ قال : أني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون " ذكره البيهقي وغيره .

وفي موطأ مالك عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبيد الله بن كرز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما رأى الشيطان نفسه يوماً هوفيه أصغر ولا أحقر ولا أذحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر " .

(146/314)

---

قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ قال : "أما إنه رأى جبريل ينزع الملائكة" ومعنى

نكص : رجع بلغة سليم ؛ عن مؤرِّج وغيره .

وقال الشاعر :

ليس النكوصُ على الأدبار مكرمةً . . .

إن المكارمَ إقدامٌ على الأسل

وقال آخر :

وما ينفع المستأخرين نكوصُهم . . .

ولا ضرَّ أهل السابقاتِ التقدُّم

وليس ها هنا قهقري بل هو فرار ؛ كما قال : "إذا سمع الأذان أدبر وله ضراط" ❖ إني

أخافُ الله ❖ قيل : خاف إبليس أن يكون يوم بدر اليوم الذي أنظر إليه .

وقيل : كذب إبليس في قوله : ❖ إني أخافُ الله ❖ ولكن علم أنه لا قوَّة له .

ويجمع جار على أجوار وجيران ، وفي القليل جيرة . انتهى انتهى . اه ❖ تفسير القرطبي

ح 8 ص ❖

(147/314)

وقال الخازن :

قوله سبحانه تعالى : ﴿ واذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾

يعني اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذا زين الشيطان يريد إبليس للمشركين أعمالهم الخبيثة ﴿ وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ قال بعضهم : كان تزيينه وسوسة ألقاها في قلوبهم من غير أن يتحول في صورة غير صورته .

وقال جمهور المفسرين : تصور إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم وكان تزيينه أن قريشاً لما أجمعت على المسير إلى بدر ذكرت الذي بينها وبين بكر بن الحرث من الحروب فكاد ذلك أن يشيهم فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي ، وكان من أشرف بين كنانة ، فقال : أنا جار لكم من أن يأتاكم من كنانة شيء تكرهونه فخرجوا سراحاً .

وقال ابن عباس : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأته في صورة رجل من رجال بني مدلج سراقه بن مالك بن جعشم فقال للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين .

وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، لعنه الله فلما رآه وكانت يده في دي رجل من المشركين اتزع إبليس يده ثم ولى مدبراً وشيعته ، فقال الرجال يا سراقه أتزعم أنك جار

لنا؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى  
الملائكة.

(148/314)

---

وقوله: إني جار لكم، يعني مجير لكم من كنانة ﴿ فلما تراءت الفئتان ﴾ أي التقى الجمعان  
رأى إبليس الملائكة قد نزلوا من السماء فعلم عدو الله إبليس أنه لا طاقة له بهم ﴿ نكص  
على عقبيه وقال إني بريء منكم ﴾ يعني رجع القهقري وولى مدبراً هارباً على قفاه،  
وقال الكلبي: لما التقى الجمعان كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقه بن مالك  
بن جعشم وهو أخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله إبليس على عقبيه فقال له  
الحرث: أفراراً من غير قتال؟ وجعل يمسكه فدفغ في صدره وانطلق فانهزم الناس فلما  
قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقه.

فبلغ ذلك سراقه فقال: بلغني أنكم تقولون أنني هزمت الناس فوالله ما شعرت بمسيركم حتى  
بلغتني هزيمتكم.

فقالوا: أما أتيتنا في يوم كذا وكذا فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان شيطاناً قال  
الحسن في قوله: ﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ قال: رأى إبليس جبريل عليه السلام معتجراً



يبرد يمشي بين يدي النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي يده اللجام يقود الفرس ما ركب .  
وقال قتادة : قال إبليس إني أرى ما لا ترون وصدق وقال : إني أخاف الله وكذب ما به  
مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منفعة فأوردهم وأسلمهم وتلك عادة عدو الله إبليس  
لمن أطاعه إذ التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم وقيل إنه خاف أن يهلك فيمن هلك  
وقيل خاف أن يأخذه جبريل فيعرف حاله فلا يطيعوه وقيل معناه ﴿ إني أخاف الله ﴾  
أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمر به وقيل لما رأى الملائكة قد نزلت من  
السماء خاف أن تكون القيامة ﴿ والله شديد العقاب ﴾ قيل معناه إني أخاف الله لأنه  
شديد العقاب فعلى هذا يكون من تمام قول إبليس .  
وقيل : تم كلامه عند قوله : إني أخاف الله .  
وقوله تعالى : والله شديد العقاب ابتداءً كلام .  
يقول الله سبحانه وتعالى : والله شديد العقاب لمن خالف الله وكفر به .

(149/314)

---

عن طلحة بن عبيد الله بن كرز أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " ما رؤي  
الشیطان يوماً هوفيه أصغر ولا أذحر ولا أحقر ولا أغیظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما

يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر فإنه قد رأى جبريل  
ينزع الملائكة "أخرجه مالك في الموطأ .

قوله : ولا أدر هو بالعدل والحياء المهملتين من الدحور ، وهو الإبعاد والطرده مع الإهانة .

وقوله : ينزع الملائكة ، أي يكفهم ويحبسهم لتلايتقدم بعضهم على بعض .

والوازع : هو الذي يتقدم ويتأخر في الصف ليصلحه .

فإن قلت : كيف يقدر إبليس على أن يتصور بصورة البشر وإذا تشكل بصورة البشر

فكيف يسمى شيطانا ؟

قلت : إن الله أعطاه قوة وأقدره على ذلك كما أعطى الملائكة قوة أقدرهم على أن

يتشكوا بصورة البشر لكن النفس الباطنة لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

(150/314)

---

وقال أبو حيان :

﴿ واذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ .

﴿ أعمالهم ﴾ ما كانوا فيه من الشرك وعبادة الأصنام ومسيرهم إلى بدر وعزمهم على

قتال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهذا التزيين والقول والنكوص هل ذلك على سبيل المجاز أو الحقيقة قولان للمفسرين بدأ الزمخشري بالأول فقال: وسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما تجبرهم فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم، أي بطل كيده حين نزلت جنود الله وكذا عن الحسن كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يمتثل لهم انتهى، ويكون ذلك من باب مجاز التمثيل، وقال المهدي يضعف هذا القول إن قوله: ﴿وإني جار لكم﴾ ليس مما يلقي بالوسوسة انتهى، ويمكن أن يكون صدور هذا القول على لسان بعض الغواة من الناس قال لهم ذلك يا غواة إبليس له ونسب ذلك إلى إبليس لأنه هو المتسبب في ذلك القول فيكون القول والنكوص صادرين من إنسان حقيقة والجمهور على أن إبليس تصور لهم فعن ابن عباس في صورة رجل من بني مدلج في جند من الشياطين معه راية، وقيل جاءهم في طريقهم إلى بدر في صورة سراقه بن مالك بن جعشم وقد خافوا من بني بكر وكنانة لدخول كانت بينهم وكان من أشرف كنانة فقال: ما حكى الله عنه ومعنى ﴿جار لكم﴾ مجيركم من بني كنانة فلما رأى الملائكة تنزل نكص، وقيل كانت يده في يد الحارث بن هشام فلما نكص قال له الحارث: إلى أن أتخذ لنا في هذه الحال فقال ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهمزوا فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقه بن مالك فبلغ ذلك سراقه فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان.

وفي الموطأ وغيره ما رؤي الشيطان في يوم قل ولا أحقر ولا أصغر في يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رأى يوم بدر قيل: وما رأى يا رسول الله قال: رأى الملائكة يريها جبريل ، وقال الحسن: رأى إبليس جبريل يقود فرسه بين يدي النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو معتج يبردة وفي يده اللجام و ﴿ لكم ﴾ ليس متعلقاً بقوله: ﴿ لا غالب ﴾ لأنه كان يلزم تنوينه لأنه يكون اسم لا مطولاً والمطول يعرب ولا يبنى بل لكم في موضع رفع على الخبر أي كائن لكم وبما تعلق المجرور تعلق الظرف و ﴿ اليوم ﴾ عبارة عن يوم بدر ويحتمل أن يكون قوله ﴿ واني جار لكم ﴾ معطوفاً على ﴿ لا غالب لكم اليوم ﴾ ويحتمل أن تكون الواو للحال أي لا أحد يغلبكم وأنا جار لكم أعينكم وأنصركم بنفسي وقومي و ﴿ الفئتان ﴾ جمعاً المؤمنين والكافرين ، وقيل فئمة المؤمنين وفئمة الملائكة ﴿ نكص على عقبيه ﴾ رجع في ضد إقباله وقال: ﴿ إني بريء منكم ﴾ مبالغة في الخذلان والانفصال عنهم لم يكف بالفعل حتى أكد ذلك بالقول ﴿ ما لا ترون ﴾ رأي خرق العادة ونزول الملائكة ﴿ إني أخاف الله ﴾ ، قال قتادة وابن الكلبي معذرة كاذبة لم يخف الله قط ، وقال الزجاج وغيره: بل خاف مما رأى من الهول إنه يكون اليوم الذي أنظر إليه انتهى وينظر إلى هذه الآية قوله تعالى

﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿ والله شديد العقاب ﴾ معطوفاً على معمول القول قال : ذلك بسطاً لعذره عندهم وهو متحقق أن عذاب الله شديد ويحتمل أن يكون من كلام الله استأنف تهديداً لإبليس ومن تابعه من مشركي قريش . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(152/314)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

منصوبٌ بمضمرٍ خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين ، أي واذكر وقت تزوين الشيطان أعمالهم في معاداة المؤمنين وغيرها بأن وسوس إليهم ﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ اليوم من الناس وإني جارٌ لكم ﴾ أي ألقى في روعهم وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم ، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم حتى قالوا : اللهم انصر إحدى الفئتين وأفضل الدينين ، ولكم خبرٌ ( لا غالب ) أو صفته وليس صلته ، وإلا لاتصب كقولك : لا ضارباً زيدا عندنا .

(153/314)

﴿ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِتَانَ ﴾ ﴿ أَي تَلَاقَى الْفَرِيقَانِ ﴾ ﴿ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ ﴾ ﴿ رَجَعَ الْقَهْقَرَى أَي  
بَطَلَ كَيْدُهُ وَعَادَ مَا خَيَّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ مَجِيرُهُمْ سَبَبًا لِهَلَاكِهِمْ ﴾ ﴿ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى  
مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ ﴿ أَي تَبَرَّأْتُ مِنْهُمْ وَخَافَ عَلَيْهِمْ وَيَسُّ مِنْ حَالِهِمْ لَمَّا رَأَى إِمْدَادَ  
اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَقِيلَ : لَمَّا اجْتَمَعَتْ قَرِيشٌ عَلَى الْمَسِيرِ ذَكَرْتُ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ  
كِنَانَةَ مِنَ الْإِحْتِاجَةِ فَكَادَ ذَلِكَ يَتْنِيهِمْ فَمَثَلُ لِهْمِ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ سُرَاقَةِ بْنِ مَالِكِ الْكِنَانِيِّ وَقَالَ  
: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي مَجِيرُكُمْ مِنْ كِنَانَةَ فَلَمَّا رَأَى الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلَ نَكَصَ وَكَانَ يَدُهُ  
فِي يَدِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَقَالَ لَهُ : إِلَى أَيْنَ ؟ أَتُخَذِلُنَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَقَالَ : إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ  
وَدَفَعُ فِي صَدْرِ الْحَارِثِ وَانْطَلَقَ فَانْهَزَمُوا فَلَمَّا بَلَغُوا مَكَّةَ قَالُوا : هَزَمَ النَّاسَ سُرَاقَةُ ، فَبَلَغَهُ  
ذَلِكَ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ بِمَسِيرِكُمْ حَتَّى بَلَغْتَنِي هَزِيمَتِكُمْ فَلَمَّا أَسْلَمُوا عَلِمُوا أَنَّهُ الشَّيْطَانُ  
وَعَلَى هَذَا يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ أَخَافُهُ أَنْ يُصِيبَنِي بِمَكْرُوهِهِ مِنْ  
الْمَلَائِكَةِ أَوْ يَهْلِكَنِي وَيَكُونُ الْوَقْتُ هُوَ الْوَقْتُ الْمَوْعُودُ إِذْ رَأَى فِيهِ مَا لَمْ يَرَهُ قَبْلَهُ ، وَالْأَوَّلُ مَا قَالَهُ  
الْحَسَنُ وَاخْتَارَهُ ابْنُ مَجْرٍ ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ﴿ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِهِ أَوْ مُسْتَأْنَفًا مِنْ  
جِهَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . انْتَهَى . انْتَهَى . ١٥٠ هـ ﴿ تَفْسِيرُ أَبِي السُّعُودِ ح 4 ص ﴾

وقال الأوسى :

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

مقدر بمضمرة خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين على ما قيل ، ويجوز أن يكون المضمرة مخاطباً به المؤمنون والعطف على لا تكونوا ، أي واذكروا إذ زين لهم الشيطان أعمالهم في معاداة المؤمنين وغيرها بأن وسوس إليهم ﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ أي ألقى في روعهم وخيل لهم أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم وعددهم وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم وحافظ عن السوء حتى قالوا : اللهم أنصر أهدي الفتنين وأفضل الدينين ، فالقول مجاز عن الوسوسة ، والإسناد في ﴿ إِنِّي جَارٌ ﴾ من قبيل الإسناد إلى السبب الداعي و ﴿ لَكُمْ ﴾ خبر ﴿ لا ﴾ أو صفة ﴿ غَالِبٌ ﴾ والخبر محذوف ، أي لا غالب كائناً لكم موجود و ﴿ اليوم ﴾ معمول الخبر ولا يجوز تعلق الجار بغالب والالانتصب لشبهه بالمضاف حينئذ ، وأجاز البغداديون الفتح وعليه يصح تعلقه به ، و ﴿ مِنَ النَّاسِ ﴾ حال من ضمير الخبر لا من المستتر في ﴿ غَالِبٌ ﴾ لما ذكرنا ، وجملة إني جار تحتل العطف والحالية ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفَتَانِ ﴾ أي تلاقى الفريقان وكثيراً ما يكتفى بالترائي عن التلاقي وإنما أول بذلك لمكان قوله تعالى : ﴿ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ أي رجع القهقري فإن النكوص كان عند التلاقي لا عند الترائي ، والتزام

كونه عنده فيه خفاء .

والجار والمجرور في موضع الحال المؤكدة أو المؤسسة أن فسر النكوص بمطلق الرجوع ، وأياً ما كان ففي الكلام استعارة تمثيلية ، شبه بطلان كيده بعد تزيينه بمن رجع القهقري عما يخافه كأنه قيل : لما تلاقتا بطل كيده وعاد ما خيل إليهم أنه مجيرهم سبب هلاكهم .

(155/314)

---

﴿ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ تبرأ منهم إما بتركهم أو بترك الوسوسة لهم التي كان يفعلها أولاً وخاف عليهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله تعالى المسلمين بالملائكة عليهم السلام ، وإنما لم نقل خاف على نفسه لأن الوسوسة بخوفه عليهم أقرب إلى القبول بل يبعد وسوسته إليهم بخوفه على نفسه ، وقيل : إنه لا يخاف على نفسه لأنه من المنظرين وليس بشيء .

وقد يقال : المقصود من هذا الكلام أنه عظم عليهم الأمر وأخذ يخوفهم بعد أن كان يحرضهم ويشجعهم كأنه قال : يا قوم الأمر عظيم والخطب جسيم وإني تارككم لذلك وخائف على نفسي الوقوع في مهاوي المهالك مع أنني أقدر منكم على الفرار وعلى مراحل هذه القفار ، وحينئذ لا يبعد أن يراد من الخوف الخوف على نفسه حيث لم يكن هناك قول



حقيقة ، وقال غير واحد من المفسرين : أنه لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينها وبين كنانة من الأحنة والحرب فكاد ذلك يثبطهم فتمثل لهم إبليس بصورة سراقه بن مالك الكناني وكان من أشرف كنانة فقال لهم لا غالب لكم اليوم وإني جار لكم من بني كنانة وحافظكم ومانع عنكم فلا يصل إليكم مكروه منهم فلما رأى الملائكة تنزل من السماء نكص وكانت يده في يد الحرث بن هاشم فقال له : إلى أين أتخذ لنا في هذه الحالة ؟ فقال له : إني أرى ما لا ترون فقال : والله ما نرى إلا جعاسيس يثرب فدفغ في صدر الحرث وانطلق وانهزم الناس فلما قدموا مكة قالوا : هزم الناس سراقه فبلغه الخبر فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان ، وروى هذا عن ابن عباس .

والكلبي .

والسدي .

(156/314)

---

وغيرهم ، وعليه يحتمل أن يكون معنى قوله : إني أخاف الله إني أخاف أن يصيبني بمكروه من الملائكة أو يهلكني ، ويكون الوقت هو الوقت الموعود إذ رأى فيه ما لم ير قبله ، وفي

"الموطأ" ما رؤي الشيطان يوماً هو أصغر فيه ولا أدخر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم  
عرفة لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام إلا ما رؤي يوم بدر فإنه  
قد رأى جبريل عليه السلام ينزع الملائكة عليهم السلام، وما في كتاب "التيجان" من أن  
إبليس قتل ذلك اليوم مخرج على هذا وإلهو تاج سلطان الكذب، وروى الأول عن الحسن  
واختاره البلخي.

والجاحظ، وقوله سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ يحتمل أن يكون من كلام اللعين وإن  
يكون مستأنفاً من جهته سبحانه وتعالى، وادعى بعضهم أن الأول هو الظاهر إذ على  
احتمال كونه مستأنفاً يكون تقريراً لمعذرتة ولا يقتضيه المقام فيكون فضلة من الكلام،  
وتعقب بأنه بيان لسبب خوفه حيث أنه يعلم ذلك فافهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح  
المعاني - 10 ص ﴾

(157/314)

---

وقال ابن عاشور:

﴿ وإذ زين ﴾ عطف على ﴿ وإذ يريكم وهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ [ الأنفال:

44 ] الآية.

وما بينهما اعتراض ، رُتّب نظمه على أسلوبه العجيب ؛ ليقع هذا الظرف عقب تلك  
الجملة المعترضة ، فيكون له إتمام المناسبة بحكاية خروجهم وأحواله ، فإنه من عجيب  
صنع الله فيما عرض للمشركين من الأحوال في خروجهم إلى بدر ، مما كان فيه سبب نصر  
المسلمين ، وليقع قوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم ﴾ [ الأتقال : 47 ]  
عقب أمر المسلمين بما ينبغي لهم عند اللقاء ، ليجمع لهم بين الأمر بما ينبغي والتحذير مما لا  
ينبغي ، وترك التشبه بمن لا يرتضى ، فيتم هذا الأسلوب البديع المحكم الانتظام .

(158/314)

---

وأشارت هاته الآية إلى أمر عجيب كان من أسباب خذلان المشركين إذ صرف الله عن  
المسلمين كيدهم حين وسوس الشيطان لسراقه بن مالك بن جعشم الكنانى أن يجيء في  
جيش من قومه بنى كنانة لنصر المشركين حين خرجوا للدفاع عن غيرهم ، فألقى الله في روع  
سراقه من الخوف ، ما أوجب انخزاله وجيشه عن نصر المشركين ، وأفسد الله كيد  
الشيطان بما قذفه الله في نفس سراقه من الخوف وذلك أن قريشاً لما أجمعوا أمرهم على  
السير إلى إنقاذ العير ذكروا ما كان بينهم وبين كنانة من الحرب فكاد أن يتبطهم عن الخروج ،  
فلقبهم في مسيرهم سراقه بن مالك في جند معه راية وقال لهم : لا غالب لكم اليوم ، وإني

مجيركم من كنانة ، فقوي عزم قريش على المسير ، فلما أمعنوا السير وتقارب المشركون من منازل جيش المسلمين ، ورأى سُرَاقَةَ الجيشين ، نكص سُرَاقَةَ بمن معه وانطلقوا ، فقال له الحارث بن هشام ، أخو أبي جهل : "إلى أين أتخذلنا في هذه الحال" فقال سُرَاقَةُ "إني أرى ما لا ترون" فكان ذلك من أسباب عزم قريش على الخروج والمسير ، حتى لقوا هزيمتهم التي كتب الله لهم في بدر ، وكان خروج سُرَاقَةَ ومن معه بوسوسة من الشيطان ، لثلاثيني قريش عن الخروج ، وكان انخزال سُرَاقَةَ بتقدير من الله ليم نصر المسلمين ، وكان خاطر رجوع سُرَاقَةَ خاطراً ملكياً ساقه الله إليه ؛ لأن سُرَاقَةَ لم يزل يتردد في أن يسلم منذ يوم لقائه رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق الهجرة ، حين شاهد معجزة سُوخ قوائم فرسه في الأرض ، وأخذ الأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورويت له آيات خاطب بها أبا جهل في قضيته في يوم الهجرة ، وما زال به ذلك حتى أسلم يوم الفتح .

(159/314)

---

وتزيين الشيطان للمشركين أعمالهم ، يجوز أن يكون إسناداً مجازياً ، وإنما المزين لهم سُرَاقَةُ ياغراء الشيطان ، بما سؤل إلى سُرَاقَةَ بن مالك من تشبته المشركين على المضي في طريقهم لإنقاذ غيرهم ، وأن لا يخشوا غدر كنانة بهم ، وقيل تمثل الشيطان للمشركين في صورة

سراقة ، وليس تمثل الشيطان وجنده بصورة سراقة وجيشه بمروي عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما روي ذلك عن قول ابن عباس ، وتأويل ذلك : أن ما صدر من سراقة كان بوسوسة من الشيطان ، ويجوز أن يكون اسم الشيطان أطلق على سراقة لأنه فعل فعل الشيطان كما يقولون : فلان من شياطين العرب ويجوز أن يكون إسناداً حقيقاً أي زين لهم في نفوسهم بخواطر وسوسته ، وكذلك إسناد قوله : ﴿ لا غالب لكم ﴾ إليه مجاز عقلي باعتبار صدور القول والنكوص من سراقة المتأثر بوسوسة الشيطان .  
وكذلك قوله : ﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ .

وقوله : ﴿ إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون ﴾ إن كان من الشيطان فهو قول في نفسه ، وضمير الخطاب التفات استحضرهم كأنهم يسمعون ، فقال قوله هذا ، وتكون الرؤية بصرية يعني رأى نزول الملائكة وخاف أن يضرّوه بإذن الله وقوله : ﴿ إني أخاف الله ﴾ بيان لقوله : ﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ أي أخاف عقاب الله فيما رأيت من جنود الله .  
وإن كان ذلك كله من قول سراقة فهو إعلان لهم بردّ جواره إياهم لتلايكون خائناً لهم ، لأنّ العرب كانوا إذا أرادوا نقض جوار أعلنوا ذلك لمن أجاروه ، كما فعل ابن الدغنة حين أجار أبا بكر من أذى قريش ثم ردّ جواره من أبي بكر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ [ الأنفال : 58 ] فالمعنى : إني بريء من جواركم ، ولذلك قال له الحارث بن هشام : " إلى أين أتخذلنا " فيكون قد اقتصر

على تأمينهم من غدر قومه بني كنانة .  
وتكون الرؤية علمية ومفعولها الثاني محذوفاً اقتصاراً .

(160/314)

---

وأما قوله : ﴿ إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ فعلى احتمال أن يكون الإسناد إلى  
الشیطان حقيقة فالمراد من خوف الله توقع أن يصيبه الله بضرٍّ ، من نحو الرجم بالشهب ،  
وإن كان مجازاً عقلياً وأن حقيقة قول سُرّاقة فعلل سُرّاقة قال قولاً في نفسه ، لأنه كان  
عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يدلّ عليه المشركين ، فلعله تذكر ذلك  
ورأى أن فيما وعد المشركين من الإعانة ضرباً من خيانة العهد فخاف سوء عاقبة  
الخيانة .

و"التزين" إظهار الشيء زيناً ، أي حسناً ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ كذلك زينا لكل  
أمة عملهم ﴾ في سورة [ الأنعام : 108 ] ، وفي قوله : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا  
﴿ في سورة [ البقرة : 212 ] .

والمعنى : أنه أراهم حسناً ما يعملونه من الخروج إلى إيقاذ العير ، ثم من إزمام السير إلى  
بدر .

وتراءت ﴿ مفاعلة من الرؤية ، أي رأت كلتا الفتيتين الأخرى .

﴿ نكص على عقبيه ﴾ رجع من حيث جاء .

وعن مؤرج السدوسي : أن نكص رجع بلغة سليم ، ومصدره النكوص وهو من باب

رجع .

وقوله : ﴿ على عقبيه ﴾ مؤكّد لمعنى نكص إذ النكوص لا يكون إلا على العقبين ، لأنه

الرجوع إلى الوراء كقولهم : رجع القهقري ، ونظيره قوله تعالى في سورة [ المؤمنين : 66 ] :

﴿ فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾

﴿ على ﴾ مفيدة للتمكن من السير بالعقبين .

والعقبان : تشبة العقب ، وهو مؤخر الرجل ، وقد تقدّم في قوله : ﴿ ونرد على أعقابنا ﴾

في سورة [ الأنعام : 71 ] .

والمقصود من ذكر العقبين نفضيح التهقير لأنّ عقب الرجل أحسن القوائم لملاقاته الغبار

والأوساخ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(161/314)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه الكفار وهم قليل وذلك من صنع الله تعالى لتتم المعركة ، وبدأ الشيطان يزين للكافرين أعمالهم ويمدحها ، ويغويهم : أتم كثيرون ولا أحد مثلكم في فنون القتال وستحصلون على النصر في لمح البصر . لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يثبت المؤمنين ويقويهم ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الكفار وهم قليل . والواقع أنهم قليل ؛ لأن النصر ليس هنا بالعدد ولكن بتأييد الله تعالى ، ومهما كثر الكفار فهم أمام تأييد الله قليل . ويحاول الشيطان أن يزين للكفار قتال المؤمنين ، أي يجعله محبباً إلى نفوسهم وأنهم سيحققون النصر ، ويصبحون حديث الجزيرة العربية كلها ، وتخافهم الناس وتهابهم ويصبحون هم الكبراء وأصحاب الكلمة . وهكذا صور الشيطان لهم عملية قتال المسلمين في صورة محبة إلى قلوبهم . وهنا نرى بوضوح غباء الشيطان وعجزه عن أن يعلم قضاء الله ، فلو علم ما ستنهي إليه معركة بدر ما زين للكفار دخول المعركة ؛ لأن المعركة انتهت بنصر المسلمين وقتل صناديد قريش ، وعلت صورة المؤمنين في الجزيرة العربية كلها . ولم يكن النصر هو ما يريده الشيطان ، ولكنه لجهله زين للكافرين المعركة . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :



﴿ وَإِذِ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ [ الأنفال : 48 ] .

(162/314)

أي أن وسوسة الشيطان للكفار كانت في صورة تضخيم قوتهم وأن أحداً لن يغلبهم في قتالهم بيدٍ ، وأنه - أي الشيطان - سيناصرهم في المعركة ويجيرهم إن حدث لهم سوء ، ولكن هل للشيطان سلطان على أن يُعين الكفار ؟ نحن نعلم أن الشيطان ليس له سلطان إلا التزيين فقط ، فكيف يكون له سلطان على نتيجة المواجهة بين الحق والباطل ؟ . إن الشيطان يأتي في الآخرة فيطلب منه الكفار أن يجبرهم من عذاب الله تعالى ؛ لأنه هو الذي أغواهم وزين لهم سوء أعمالهم وجرهم إلى طريق النار ، فيتبرأ منهم ويقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوَّأَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [ إبراهيم : 22 ] .

أي أنه يقول للكافرين : أنا لم أجبركم على المعاصي ، فلم يكن لي عليكم سلطان القهر ؛ لأتقهركم على أن تفعلوا شيئاً ولا سلطان الحجة لأقنعكم بأن تفعلوا المعاصي ، ولكني بمجرد أن دعوتكم استجبت لي ؛ لأنكم تريدون المعصية واتباع شهواتكم . وقوله : ﴿ وَمَا

أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ ﴿﴾

وأصرخ فلاناً أي سمع صراخه فذهب إليه لينقذه ، والإنسان عندما يواجه قوة أكبر منه يلجأ إلى الصراخ لعل أحداً يسمع صراخه ويأتي لإنجذته . والذي يسمع الصراخ إما أن يكون ضعيفاً فلا يستجيب ؛ لأنه لا يستطيع أن ينقذ ذلك الذي يواجه الخطر ، وإما أن يكون قوياً فيذهب لإنجذته ، فيقال : (أصرخه ) أي أنقذه وأزال سبب صراخه ، وقوله

تعالى : حاكيا ما يقوله الشيطان ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ ﴾

أي أن الشيطان لا يستطيع أن ينجيهم من العذاب وينقذهم منه ، فيزيل سبب صراخهم :

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِحِي ﴾

أي أنتم لا تستطيعون دفع العذاب عني .

(163/314)

---

وقد أخذ الشيطان يزين لهم أعمالهم ويعدهم كذبا بأنه سيجيرهم ويؤازرهم ويعمل على نصرهم حتى اقترب المؤمنون والكفار من بعضهم البعض وأصبحوا على مدى رؤية العين . ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ وَقَالَ إِنِّي بريءٌ مِّنْكُمْ ﴾ [ الأنفال : 48 ] .

أي أنه بمجرد الترائي بين المؤمنين والكفار ، وقبل أن يلتحموا في المعركة وبدأ القتال هرب

الشیطان وتبرأ من الكفار وجرى بعيداً ، وهذا ما يشرحه الله تعالى في قوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [ الحشر : 16 ] .

وهذا كلام منطقي مع موقف الشيطان حينما طرده الله ولعنه ؛ لأنه رفض تنفيذ أمر السجود لآدم ؛ فقال له الله عز وجل : ﴿ وَإِنِّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [ ص : 78 ]

حينئذ تضرع الشيطان إلى الله تعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة : ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ الأعراف : 14 ] .

وهكذا أقر الشيطان بطلاقة القدرة لله تعالى وبأنه عاجز لا يقدر على شيء أمام قوة الله ، فقال الحق تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ \* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [ الحجر : 37-38 ] .

إذن فالشيطان لا قدرة له ولا قوة على فعل شيء ، وكل ما يمكنه هو الخداع والتزيين والكذب ، ولذلك أخذ يخدع الكفار ويكذب عليهم ، وما أن صار المؤمنون والكفار على مدى رؤية العين بعضهم لبعض ، هرب الشيطان وفرغ ونكص على عقبيه ، وأعلن خوفه من الله ؛ لأنه يعلم أن الله شديد العقاب .

إذن فمصدر خوف الشيطان هنا هو الخوف من العقاب ومن العذاب الذي سيصيبه حتماً  
، ولم يفرغ الشيطان - إذن - حباً لله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(164/314)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ الآية .

وهذه من جملة النعم التي خصَّ الله أهل بدر بها ، وفي العامل في " إذ " وجوه : قيل : تقديره

اذكروا إذ زين لهم ، وقيل : عطف على ما تقدم من تذكير النعم ، وتقديره : واذكروا إذ

يريكوهم واذ زين .

وقيل : هو عطف على قوله : ﴿ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ تقديره : ولا

تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطلاً ورئاء الناس واذ زين لهم الشيطان أعمالهم ؛

فتكون الواو للحال ، و " قد " مضمرة بعد الواو ، عند من يشترط ذلك والله أعلم

قوله ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ ﴾

" لكم " خبر " لا " فيتعلق بمحذوف ، و " اليوم " منصوب بما تعلق به الخبر ، ولا يجوز أن

يكون "لكم" أو الظرف متعلقاً بـ "غالب"؛ لأنه يكون مُطَوَّلًا ومتى كان مُطَوَّلًا أعرب نصبًا.

قوله "من الناس" بيان لجنس الغالب.

وقيل: هو حال من الضمير في "لكم" لتضمنه معنى الاستقرار، ومنع أبو البقاء أن يكون من الناس "حالاً من الضمير في "غالب"، قال: "لأن اسم "لا" إذا عمل فيما بعده أعرب" والأمر كذلك.

قوله ﴿وَأَنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ يجوز في هذه الجملة أن تكون معطوفة على قوله ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فيكون قد عطف جملة مثبتة على أخرى منفية، ويجوز أن تكون الواو للحال، وألف "جارٌ" من واو، لقولهم: "تجاوزوا" وقد تقدّم تحقيقه [النساء: 36].

(165/314)

---

و"لكم" متعلقٌ بمحذوف؛ لأنه لـ "جارٌ"، ويجوز أن يتعلق بـ "جار" لما فيه من معنى

الفعل، ومعنى "جار لكم" أي: مجير لكم من كنانة.

قوله ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفَتَانَ﴾ أي: التقى الجمعان؛ ﴿نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ "نكص"

: جواب "لما" والنكوص: قال النضر بن شميل: الرجوع قهقري هارياً، قال بعضهم: هذا

أصله، إلا أنه قد اتسع فيه، حتى استعمل في كل رجوع، وإن لم يكن قهقري؛ قال الشاعر

[البسيط]:

2721 - هُم يَضْرِبُونَ حَبِيكَ الْبَيْضِ إِذْ لَحِقُوا . . .

لَا يَنْكُصُونَ إِذَا مَا اسْتَلْحَمُوا وَحَمُوا

وقال مؤرِّج: "النكوص: الرجوع بلغة سليم"؛ قال: [البسيط]

2722 - لَيْسَ النُّكُوصُ عَلَى الْأَعْقَابِ مَكْرَمَةً . . .

إِنَّ الْمَكَارِمَ إِقْدَامٌ عَلَى الْأَسَلِ

فهذا إنما يريد به مطلق الرجوع؛ لأنه كناية عن الفرار، وفيه نظر؛ لأن غالب الفرار في القتال

إنما هو كما ذكر، رجوع القهقري، كخوف الفار.

و"على عقبه" حال، إما مؤكدة، عند من يخصه بالقهقري، أو مؤسّسة، عند من

يستعمله في مطلق الرجوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 538.

539 . باختصار .

(166/314)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذِ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48) ﴾

الشیطان إذا زین للإنسان بوساوسه أمراً ، والنفس إذا سولت له شيئاً عميت بصائر أرباب الغفلة عن شهود صواب الرشد ، فيبقى الغافل في قياد وساوسه ، ثم تلحقه هواجم التقدير من كوامن المكر من حيث لا يرتقب ، فلا الشيطان يفي بما يعدّه ، ولا النفس شيئاً مما تمنّاه تجده ، وكما قال القائل :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت . . . ولم تخف سوء ما يأتي به القدر  
وسالمك الليالي فاغررت بها . . . وعند صفو الليالي يحدث الكدر . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 630.631 ﴾

(167/314)

---

قوله تعالى ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (49)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما استوفى ما كان يقطع به في حق أولئك مما هو من أنفسهم ومما هو من تزيين الشيطان ،  
أبدل منه ما كان يقطع به في حقهم من أهل الجهل بالله وبأيامه الماضية وآثاره عند أوليائه  
وأعدائه فقال : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ أي من العرب وبني إسرائيل قولاً يجددونه كل وقت  
لما لهم فيه من الرغبة ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه ممن آمن ولم  
يهاجر أو من اليهود المصارحين بالكفر حين يرون الكفار وقوتهم وكثرتهم والمؤمنين  
وضعفهم وقتهم ﴿ غَرَّ هَؤُلَاءِ ﴾ مشيرين إليكم ﴿ دِينَهُمْ ﴾ أي في إقدامهم على ما يقطع  
فيه بهلاكهم ظناً منهم أن الله ناصرهم وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف ملوك العرب  
، فيغيظكم ذلك ، فكذبهم الله وصدق أمركم بتوكلكم عليه وصبركم على دينكم  
﴿ ومن ﴾ أي قالوا ذلك عالمين بأنكم متوكلون عليه وصبركم على دينكم ﴿ ومن ﴾ أي  
قالو ذلك عالمين بأنكم متوكلون على من تدينون له والحال أنه من ﴿ يتوكل على الله ﴾ أي  
الذي له الإحاطة الشاملة ، فهو يفعل ما يشاء منكم ومن غيركم بشرطه من الإيمان والسعي  
في الطاعة كما فعلتم فإنه معز ومكرم .



ولما كان سبحانه محيطاً بكل صفة كمال على الإطلاق من غير قيد توكل ولا غيره، أظهر تعالى فقال عاطفاً على تقديره: **فإن الله قادر على نصره: ﴿فإن الله﴾** أي الذي له الكمال المطلق **﴿عزيز﴾** أي غالب لكل من يغالبه فهو جدير بنصره **﴿حكيم﴾** أي متقن لأفعاله فهو حقيق بأن يأخذ عدو المتوكل عليه من الموضع الذي لا ينفعه فيه حيلة. انتهى انتهى. اهـ **﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 228﴾**

(168/314)

## فصل

قال الفخر:

**﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غُرَّ هُؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾**

وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

إنما لم تدخل الواو في قوله: **﴿إِذْ يَقُولُ﴾** ودخلت في قوله: **﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمْ﴾** [الأنفال:

48] لأن قوله: **﴿وَإِذْ زَيْنَ﴾** عطف على هذا التزيين على حالهم وخروجهم بطراً

ورثاء، وأما هنا وهو قوله: **﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾** فليس فيه عطف لهذا الكلام على ما

قبله بل هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله ، وعامل الإعراب في ﴿ إِذٍ ﴾ فيه وجهان : الأول :

التقدير والله شديد العقاب إذ يقول المنافقون والثاني : اذكروا إذ يقول المنافقون .

المسألة الثانية :

أما المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج ، وأما الذين في قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا وما قومي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا .

ثم إن قريشاً لما خرجوا لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أولئك نخرج مع قومنا فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه ، وإن كان في قلة أقمنا في قومنا .

قال محمد بن إسحق : ثم قتل هؤلاء جميعاً مع المشركين يوم بدر .

وقوله : ﴿ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ قال ابن عباس : معناه أنه خرج بثلاثمائة وثلاثة عشر يقاتلون ألف رجل ، وما ذاك إلا أنهم اعتمدوا على دينهم .

وقيل المراد : إن هؤلاء يسعون في قتل أنفسهم ، رجاء أن يجعلوا أحياء بعد الموت ويثابون على هذا القتل .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسان الله ، فإن الله حافظه وناصره ، لأنه عزيز لا يغلبه شيء ،

حكيم يوصل العذاب إلى أعدائه ، والرحمة والثواب إلى أوليائه . انتهى انتهى . اهـ

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ ، يعني شكاً ونفاقاً .

قال الحسن : هم قوم من المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر ، فسموا منافقين ؛ وقال الضحاك : نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه ؛ ويقال : معناه إذ يقول المنافقون وهم الذين في قلوبهم مرض .

قال ابن عباس : نزلت الآية في الذين أسلموا بمكة وتحلفوا عن الهجرة ، فأخرجهم أهل مكة إلى بدر كرهاً ، فلما رأوا قلة المؤمنين ارتابوا ونافقوا ، وقالوا لأهل مكة : ﴿ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ .

وقاتلوا مع المشركين فقتل عامتهم .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، يعني يثق بالله ولا يثق بغيره ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ بالنقمة ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ حكم بهزيمة المشركين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 2

ص ﴿

وقال الثعلبي :

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾

شك ونفاق ﴿ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ يعني المؤمنين هؤلاء قوم بمكة مستضعفين حبسهم  
آباؤهم وأقرباؤهم من الهجرة، فلما خرجت قريش إلى بدر أخرجوهم كرهاً، فلما نظروا  
إلى حلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا: غرَّ هؤلاء دينهم فقتلوا جميعاً منهم: قيس بن  
الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان والحرث بن زمعة بن الأسود بن  
عبد المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج والوليد بن عتبة  
وعمر بن بن أمية، فلما قتلوا مع المشركين ضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم فذلك قوله  
تعالى: ﴿ وَكَوْثُرَى ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(170/314)

وقال الماوردي:

قوله عز وجل ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾

فيهم ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنهم قوم في قلوبهم شك كانوا تكلموا بالإسلام وهم بمكة، قاله ابن عباس  
ومجاهد .

والثاني : أنهم المشركون ، قاله الحسن .

والثالث : أنهم قوم مرتابون لم يظهروا العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم بخلاف المنافقين .

والمرض في القلب كله هو الشك ، وهو مشهور في كلام العرب ، قال الشاعر :

ولا مرضاً أتقيه إني لصائن . . . لعرضي ولي في الآلية مفخر

وقوله تعالى ﴿ غَرَّهُوْآءَ ﴾ يعني المسلمين .

﴿ دِينُهُمْ ﴾ يعني الإسلام ، لأن الله تعالى قتل المشركين في أعين المسلمين ليتقدموا عليهم ،

وقلَّ المسلمين في أعين المشركين ليستهنوا بهم حتى أظفر بهم المسلمين فقتلوا من قتلوا

وأسروا من أسروا . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(171/314)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾ الآية

العامل في ﴿ إذ ﴾ ﴿ زين ﴾ أو ﴿ نكص ﴾ لأن ذلك الموقف كان ظرفاً لهذه الأمور

كلها ، وقال المفسرون إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من أهل عسكر

الكفار لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قتلهم وقلة عددهم ، قالوا مشيرين إلى المسلمين ﴿

غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ ❁ أَي اغتروا فأدخلوا نفوسهم فيما لا طاقة لهم به .

قال القاضي أبو محمد : والنفاق أخص من مرض القلب لأن مرض القلب مطلق على الكافر وعلى من اعترضته شبهة وعلى من بينهما ، وكني بالقلوب عن الاعتقادات إذ القلوب محلها ، وروي في نحو هذا التأويل عن الشعبي أن قوماً ممن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر ، منهم من أكره ومنهم من داجى وداهن ، فلما أشرفوا على المسلمين ورأوا قتلهم ارتابوا واعتقدوا أنهم مغلوبون ، فقالوا ❁ غرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ ❁ ، قال مجاهد : منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاصي بن أمية .

قال القاضي أبو محمد : ولم يذكر أحد ممن شهد بدراً بنفاق إلا ما ظهر بعد ذلك من معتب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف ، فإنه القائل يوم أحد ❁ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هنا ❁ [آل عمران : 154] وقد يحتمل أن يكون منافقوا المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا عن المسلمين هذه المقالة ، فأخبر الله بها نبيه في هذه الآية ، ثم أخبر الله عز وجل بأن من توكل على الله واستند إليه ، فإن عزة الله تعالى وحكمته كفيلة بنصره وشد أعضاده ، وخرجت العبارة عن هذا المعنى بأوجز لفظ وأبلغه . انتهى

انتهى . اهـ ❁ المحرر الوجيز ح 2 ص ❁

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إذ يقول المنافقون ﴾

قال ابن عباس : هم قوم من أهل المدينة من الأوس والخزرج .

فأما الذين في قلوبهم ، مرض ففيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام بمكة ، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر كرهاً

؛ فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ، ارتابوا ونافقوا ، وقالوا : ﴿ غرَّ هؤلاء دينهم ﴾

، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وإليه ذهب الشعبي في آخرين .

وعدهم مقاتل ، فقال : كانوا سبعة : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبوقيس بن الفاكه بن

المغيرة ، والحارث بن زمعة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منية بن الحجاج ، والوليد

بن الوليد بن المغيرة ، والوليد بن عتبة ابن ربيعة .

والثاني : أنهم المشركون ، لما رأوا قلة المسلمين ، قالوا : ﴿ غرَّ هؤلاء دينهم ﴾ رواه ابن

أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن .

والثالث : أنهم قوم مرتابون ، لم يظهروا عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكره الماوردي .

والمرض ها هنا : الشك ، والإشارة بقوله : ﴿ هؤلاء ﴾ إلى المسلمين ؛ وإنما قالوا هذا ،

لأنهم رأوا قلة المسلمين ، فلم يشكوا في أن قريشاً تغلبهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير

ح 3 ص ﴿

(173/314)

وقال القرطبي :

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾

قيل : المنافقون : الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر .

والذين في قلوبهم مرض : الشاكون ، وهم دون المنافقين ؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام ،

وفيهم بعض ضعف نية .

قالوا عند الخروج إلى القتال وعند التقاء الصفيين : غرَّ هؤلاء دينهم .

وقيل : هما واحد ؛ وهو أولى .

الأتري إلى قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: 3] ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: 4] وهما لواحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي

ح 8 ص ﴿

وقال الخازن :



قوله : ﴿ إذ يقول المنافقون ﴾

يعني من أهل المدينة ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يقو الإسلام في قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج كفار قريش إلى حرب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) خرجوا معهم إلى بدر فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ يعني أن هؤلاء نفر قليلون يقاتلون أضعافهم فقد غرهم دينهم الإسلام على ذلك وحملمهم على قتل أنفسهم رجاء الثواب في الآخرة فقتلوا جميعاً يوم بدر .

وقال مجاهد : إن فئة من قريش وهم قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة بن زمعة بن الأسود بن المطلب ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبه بن الحجاج ، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب ، فحبسهم ارتيابهم فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، قالوا : غر هؤلاء دينهم ثم قال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله ﴾ يعني ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسانه ﴿ فإن الله ﴾ حافظه وناصره لأنه ﴿ عزيز ﴾ لا يغلبه شيء ﴿ حكيم ﴾ فيما قضى وحكم فيوصل الثواب إلى أوليائه والعقاب إلى أعدائه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن

ح 3 ص ﴿

وقال أبو حيان :

﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ﴾

العامل في ﴿ إذ ﴾ ﴿ زين ﴾ أو ﴿ نكص ﴾ أو ﴿ سمع عليم ﴾ أو ﴿ اذكروا ﴾  
أقوال وظاهر العطف التغاير .

فقيل ﴿ المنافقون ﴾ هم من الأوس والخزرج لما خرج الرسول ( صلى الله عليه وسلم )

قال بعضهم : نخرج معه ، وقال بعضهم : لا نخرج ﴿ غرّ هؤلاء ﴾ أي المؤمنين ﴿ دينهم ﴾

﴿ فإنهم يزعمون أنهم على حق وأنهم لا يغلبون هذا معنى قول ابن عباس ، ﴿ والذين في ﴾

قلوبهم مرض ﴾ قوم أسلموا ومنهم أقرباؤهم من الهجرة فأخرجتهم قريش معها كرها فلما

نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وقالوا ﴿ غرّ هؤلاء دينهم ﴾ فقتلوا جميعاً ، منهم قيس بن

الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود وعلي بن أمية

والعاصي بن منبه بن الحجاج ولم يذكر أن منافقاً شهد بدرًا مع المسلمين إلا معتب بن قشير

فإنه ظهر منه يوم أحد قوله : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ ، وقيل ﴿

والذين في قلوبهم مرض ﴾ هو من عطف الصفات وهي لموصوف واحد وصفوا بالنفاق

وهو إظهار ما يخفيه من المرض كما قال تعالى في قلوبهم مرض وهم منافقوا المدينة ، وعن

الحسن هم المشركون ويبعد هذا إذ لا يتصف المشركون بالنفاق لأنهم مجاهرون بالعداوة لا

مناقفون ، وقال ابن عطية ، قال المفسرون : إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من أهل عسكر الكفار لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ أي اغتروا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به وكفى بالقلوب عن العقائد والمرض أعم من النفاق إذ يطلق مرض القلب على الكفر .

(175/314)

---

﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ هذا يتضمن الرد على من قال ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ فكانه قيل هؤلاء في لقاء عدوهم هم متوكلون على الله فهم الغالبون ، ﴿ ومن يتوكل على الله ﴾ ينصره ويعزّه ﴿ فإن الله عزيز ﴾ لا يغالب بقوة ولا بكثرة ﴿ حكيم ﴾ يضع الأشياء مواضعها أو حاكم بنصره من يتوكل عليه فيديل القليل على الكثير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إذ يُقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾

منصوبٌ بزَيْنٍ أو بِنَكْصٍ أو بِشَدِيدِ الْعِقَابِ ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ أي الذين لم تظمن قلوبهم بالإيمان بعد وبقي فيها نوعٌ شبهةٍ وقيل : هم المشركون وقيل : هم المنافقون في

المدينة ، والعطفُ لتغاير الوصفين كما في قوله :

يا لهفَ زِيَاةَ لِحَارِثِ الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالْآيِبِ . . . ﴿ غَرَّ هُوْلَاءُ ﴾ ﴿ يَعْنُونَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾  
﴿ دِينُهُمْ ﴾ حتى تعرّضوا لما طاقه لهم به فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف  
﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ﴿ جَوَابٌ لَهُمْ مِنْ جِهَتِهِ تَعَالَى وَرَدُّ لِمَقَالَتِهِمْ ﴾ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾  
غالبٌ لا يذُلُّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَاسْتَجَارَ بِهِ وَإِنْ قَلَّ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما  
تستبعده العقول وتُحَارِ فِي فَهْمِهِ الْبَابُ الْفُحُولُ ، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ لدلالة المذكور  
عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تَفْسِيرُ أَبِي السُّعُودِ ح 4 ص ﴾

(176/314)

وقال الأوسى :

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾

ظرف لزين أو نكص أو ﴿ شديد العقاب ﴾ [ الأنفال : 48 ] ، وجوز أبو البقاء أيضاً أن  
يقدر اذكروا ﴿ والذين في قلوبهم مرضٌ ﴾ أي الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان بعد وبقي  
فيها شبهة ، قيل : وهم فتية من قريش أسلموا بمكة وحبسهم آباؤهم حتى خرجوا معهم  
إلى بدر .

منهم قيس بن الوليد بن المغيرة .

والعاص بن منبه بن الحجاج .

والحرث بن زمعة .

وأبو قيس بن الفاكه ، فالمرض على هذا مجاز عن الشبهة .

وقيل : المراد بهم المنافقون سواء جعل العطف تفسيرياً أو فسر مرض القلوب بالأحن

والعداوات والشك مما هو غير النفاق ، والمعنى إذ يقول الجامعون بين النفاق ومرض القلوب

، وقيل : يجوز أن يكون الموصول صفة المنافقين ، وتوسط الواو لتأكيد لصوق الصفة

بالموصوف لأن هذه صفة للمنافقين لا تنفك عنهم ، أو تكون الواو داخلة بين المفسر

والمفسر نحو أعجبني زيد وكرمه ، وزعم بعضهم أن ذلك وهم وهو من التحامل بمكان إذ لا

مانع من ذلك صناعة ولا معنى ، والقول بأن وجه الوهم فيه أن المنافقين جار على موصوف

مقدر أي القوم المنافقون فلا يوصف ليس بوجيه إذ للقائل أن يقول : إنه أجرى المنافقون هنا

مجرى الأسماء مع أن الصفة لا مانع من أن توصف وقيام العرض بالعرض دون إثبات امتناعه

خرط القتاد ، ومن فسر الذين في قلوبهم مرض بأولئك الفئة الذين أسلموا بمكة قال : إنهم

لما رأوا قلة المسلمين قالوا : ﴿ غَرَّهٗؤُلَاءِ ﴾ يعنون المؤمنين الذين مع رسول الله صلى الله

عليه وسلم ﴿ دِينَهُمُ ﴾ حتى تعرضوا لمن لا يدي لهم به فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة

عشر إلى زهاء الألف ، وعلى احتمال جعله صفة للمنافقين يشعر كلام البعض أن القول لم يكن عند التلاقي ، فقد روى عن الحسن أن هؤلاء المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر .

(177/314)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : هم يومئذ في المسلمين ، وفي القلب من هذا شيء ، فإن الذي تشهد له الآثار أن أهل بدر كانوا خلاصة المؤمنين ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ جواب لهم ورد لمقاتلهم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يذل من توكل عليه ولا يخذل من استجار به وإن قل ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما تستبعده العقول ، وتحار في فهمه الباب الفحول .

وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه أو أنه قائم مقامه . انتهى انتهى . اه ﴿ روح المعاني ﴾ 10 ص ﴿

(178/314)

---

لطيفة

قال ابن عجيبة:

الإشارة: إذا عظم اليقين في قلوب أهل التقى أقدموا على أمور عظام، تستغرب العادة إدراكها، أو يغلب العطب فيها، فيقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: غر هؤلاء طريقتهم، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز لا يغلب، ولا يغلب من اتسب إليه، وتوكل في أموره عليه، حكيم فلا يخرج عن حكمته وقدرته شيء، أو عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ به، والتجأ إلى ذماره، حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره، قاله في الإحياء. ثم قال: وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد هو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار، والتوكل على الواحد القهار. انتهى انتهى. اهـ وباللغة التوفيق. انتهى انتهى.

اهـ البحر المديد ح 3 ص 338.339 ❁

(179/314)

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة:

❁ إِذِ انْتُم بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ القُصُومَى العُدُوَّةُ ❁

(180/314)

مَثَلَةُ الْعَيْنِ لُغَةً جَانِبُ الْوَادِي، وَهِيَ مِنَ الْعَدْوِ [كَالْغَزْوِ] الَّذِي مَعْنَاهُ التَّجَاوُزُ، وَقَدْ قَرَأَهَا  
الْجُمْهُورُ بِضَمِّ الْعَيْنِ، وَقَرَأَهَا ابْنُ كَثِيرٍ وَيَعْقُوبُ وَأَبُو عَمْرٍو بِكَسْرِهَا، وَمِنْ غَيْرِ السَّبْعِ قِرَاءَةٌ  
الْحَسَنِ وَزَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِمَا بِفَتْحِهَا، وَالذُّبْيَا مُؤَنَّثُ الْأَدْنَى وَهُوَ الْأَقْرَبُ، وَالْقُصْوَى  
مُؤَنَّثُ الْأَقْصَى وَهُوَ الْأَبْعَدُ، وَالْمَعْنَى: إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فِي ذَلِكَ  
الْيَوْمِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ مُرَابِطِينَ بِأَقْرَبِ الْجَانِبَيْنِ مِنَ الْوَادِي إِلَى الْمَدِينَةِ وَفِيهِ الْمَاءُ  
، وَنَزَلَ الْمَطْرُ فِيهِ دُونَ غَيْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ مَعَ بَيَانِ فَوَائِدِهِ، وَالْأَعْدَاءُ فِي الْجَانِبِ الْأَبْعَدِ عَنْهَا،  
وَلَا مَاءَ فِيهِ، وَأَرْضُهُ رَخْوَةٌ تَسُوخُ فِيهَا الْأَقْدَامُ وَالرُّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ الْمُرَادُ بِالرُّكْبِ الْعَيْرُ  
الَّتِي خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ لِلِقَائِهَا، إِذْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَادِمًا بِهَا مِنَ الشَّامِ أَوْ أَصْحَابُهَا، وَهُوَ اسْمُ  
جَمْعِ رَاكِبٍ، أَيْ وَالْحَالُ أَنَّ الرُّكْبَ فِي مَكَانٍ أَسْفَلَ مِنْ مَكَانِكُمْ، وَهُوَ سَاحِلُ الْبَحْرِ كَمَا  
تَقَدَّمَ، وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا؛ لِأَنَّهُ هُوَ السَّبَبُ لِلتَّقَاءِ الْجَمْعَيْنِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَلَوْ عَلِمَ  
الْمُسْلِمُونَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَخَذَ الْعَيْرَ فِي نَاحِيَةِ الْبَحْرِ لَتَبِعُوهَا وَمَا اتَّقَوْا هُنَاكَ بِالْكَفَّارِ، وَلَا  
تَعَيَّنَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ: وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ أَيْ:



وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ أَنَّمْ وَهُمْ التَّلَاقِي لَلْقِتَالِ هُنَالِكَ لَاسْتَخَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ، لَكِرَاهَتِكُمْ لِلْحَرْبِ عَلَى قَتْلِكُمْ ، وَعَدَمِ إِعْدَادِكُمْ شَيْئًا مِنَ الْعُدَّةِ لَهَا ، وَأَنْحِصَارِ هِمَمِكُمْ فِي أَخْذِ الْعِيرِ ، وَلِأَنَّ غَرَضَ الْأَكْثَرِينَ مِنْهُمْ كَانَ إِنْقَاذَ الْعِيرِ دُونَ الْقِتَالِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَهَابُونَ قِتَالَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلَا يَأْمُنُوا نَصْرَ اللَّهِ

لَهُ ؛ لِأَنَّ كُفْرَ أَكْثَرِهِمْ بِهِ كَانَ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا لَا اعْتِقَادًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ السُّورَةِ بَيَانُ حَالِ الْفَرِيقَيْنِ الْمُقْتَضِي لِاخْتِلَافِ الْمِيعَادِ لَوْ حَصَلَ ، وَلِإِرَادَةِ اللَّهِ هَذَا التَّلَاقِي وَتَقْدِيرِ أَسْبَابِهِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا أَيُّ : وَلَكِنْ تَلَاقَيْتُمْ هُنَالِكَ عَلَى غَيْرِ مَوْعِدٍ ، وَلَا رَغْبَةَ فِي الْقِتَالِ ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ ثَابِتًا فِي عِلْمِهِ وَحُكْمِهِ أَنَّهُ وَقَعَ مَفْعُولٌ لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَهُوَ الْقِتَالُ الْمُقْضَى إِلَى خَزِيئِهِمْ وَنَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ وَصِدْقِ وَعْدِهِ لِرَسُولِهِ كَمَا تَقَدَّمَ .

(182/314)

---

لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ أَيُّ : فَعَلَ ذَلِكَ ، لِيَتَرْتَبَ عَلَى قَضَاءِ هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْ حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ مُشَاهِدَةٍ بِالْبَصْرِ عَلَى حَقِّيَّةِ الْإِسْلَامِ ، بِإِنْجَازِ وَعْدِهِ تَعَالَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمَنْ مَعَهُ ، بِحَيْثُ تَنْفِي الشُّبْهَةِ ، وَتَقَطُّعِ

لِسَانَ الْاِعْتِذَارِ عِنْدَ اللّٰهِ عِنْدَ اِجَابَةِ الدَّعْوَةِ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ بَيْنَةِ قَطْعِيَّةٍ  
حَسِيَّةٍ ، كَذَلِكَ فَيَزِدُّوْا يَتَقِنًا بِالْاِيْمَانِ ، وَنَشَاطًا فِي الْاَعْمَالِ ، قَرَأَ ابْنُ كَثِيْرٍ وَنَافِعٌ وَأَبُو بَكْرٍ  
وَيَعْقُوْبُ حَيِّي (كَتَبَ)

بِفِكَ الْاِدْغَامِ وَالْبَاقُوْنَ يَدْغَمُ الْاِيَاءِ الْاُوْلَى فِي الثَّانِيَةِ ، وَكُلُّ مَنْ اَهْلَكَ وَالْحَيَاةُ هُنَا يَشْمَلُ  
الْحَسِيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ مِنْهُمَا . وَقَدْ عُرِفَ مَعْنَاهُ مُفَصَّلًا فِي تَفْسِيْرِ : اسْتَجِيْبُوْا لِلّٰهِ وَلِلرَّسُوْلِ اِذَا  
دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيْكُمْ (8 : 24) .

(183/314)

---

وَإِنَّ اللّٰهَ لَسَمِيْعٌ عَلِيْمٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ اَقْوَالِ اَهْلِ الْاِيْمَانِ وَالْكَفْرِ ، وَلَا مِنْ عَقَائِدِهِمْ  
وَأَفْعَالِهِمْ ، فَهُوَ يَسْمَعُ مَا يَقُوْلُ كُلُّ فَرِيْقٍ مِنَ الْاَقْوَالِ الصَّادِرَةِ عَنْ عَقِيْدَتِهِ ، وَالْاَعْذَارِ الَّتِي  
يَعْتَذِرُ بِهَا عَنْ تَقْصِيْرِهِ فِي اَعْمَالِهِ ، عَلِيْمٌ بِمَا يَخْفِيهِ وَيَكْتُمُهُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ ، فَيُجَازِيْ كُلًّا  
بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُ ، وَمَا يَسْمَعُ مِنْهُ - وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ هَذَا الْفَرْقَانَ الَّذِي رَبَّبَهُ اللّٰهُ عَلَى غَزْوَةِ  
بَدْرٍ قَامَتْ بِهِ حُجَّةُ اللّٰهِ الْبَالِغَةُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ بِنَصْرِهِمْ كَمَا بَشَّرَهُمْ - صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهِيَ  
حُجَّةُ الْبَالِغَةِ عَلَى الْكَافِرِيْنَ بِخِذْلَانِهِمْ ، وَأَنْكِسَارِهِمْ كَمَا أَنْذَرَهُمْ - صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
اِذَا لَا مَجَالَ لِلْمُكَابَرَةِ فِيْهَا وَلَا لِلتَّوْبِلِ .

إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا قَوْلُهُ : إِذْ يُرِيكُمُ هُنَا كَقَوْلِهِ قَبْلَهُ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا كِلَاهُمَا  
بَدَلٌ مِنْ يَوْمِ الْفُرْقَانِ . وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَى

(184/314)

رَسُولُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَوْ الْوَقْتِ رُؤْيَا مَنَامِيَّةٍ مِثْلَ لَهُ فِيهَا عَدَدَ الْمُشْرِكِينَ قَلِيلًا ، فَأَخْبَرَ بِهَا  
الْمُؤْمِنِينَ فَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ ، وَقَوِيَتْ أَمَالُهُمْ بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ ، وَمِنْ الْغَرِيبِ الْأَ  
تَرَى فِي دَوَائِنِ الْحَدِيثِ الْمَشْهُورَةِ حَدِيثًا مُسْنَدًا فِي هَذِهِ الرُّؤْيَا وَلَوْ أَنَّكُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ  
أَيُّ : أَحْجَمْتُمْ وَنَكَلْتُمْ عَنْ لِقَائِهِمْ بِشُعُورِ الْجُبْنِ وَالضَّعْفِ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ أَيُّ : وَلَوْ لَقَعَ  
بَيْنَكُمْ النَّزَاعُ ، وَتَفَرَّقَ الْأَرَاءُ فِي أَمْرِ الْقِتَالِ ، فَمِنْكُمْ الْقَوِيُّ الْإِيمَانَ وَالْعَزِيمَةَ يَقُولُ : نَطِيعُ اللَّهِ  
وَرَسُولُهُ وَتَقَاتَلُ ، وَمِنْكُمْ الضَّعِيفُ الَّذِي يُتَبَطُّ عَنِ الْقِتَالِ بِمِثْلِ الْأَعْذَارِ الَّتِي جَادَلُوا بِهَا  
الرَّسُولَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ (8 : 6) الْآيَةَ .

(185/314)

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَصِحُّ مَعَ هَذَا أَنْ تَكُونَ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ حَقًّا، وَأَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ الْوَحْيِ؟  
(قُلْتُ): قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدَّرَ عَدَدَ الْمُشْرِكِينَ بِالْفِ، وَأَخْبَرَ  
أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ مَعَ أَنَّ عَدَدَهُمْ 313، وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَهُمْ مَعَ هَذَا أَنَّهُ رَأَاهُمْ فِي مَنَامِهِ قَلِيلًا لَا  
أَنَّهُمْ قَلِيلٌ فِي الْوَاقِعِ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ أَوْلُوا الرُّؤْيَا بِأَنَّ بِلَاءَهُمْ يَكُونُ قَلِيلًا، وَأَنَّ كَيْدَهُمْ يَكُونُ  
ضَعِيفًا، فَتَجَرَّءُوا وَقَوِيَتْ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ أَيُّ: سَلَّمَكُمْ مِنَ الْفِشْلِ وَالتَّنَازُعِ وَتَفَرَّقَ  
الْكَلِمَةُ وَعَوَاقِبَ ذَلِكَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَيُّ: عَلِيمٌ بِمَا فِي الْقُلُوبِ الَّتِي فِي الصُّدُورِ  
مِنْ شُعُورِ الْجَبْنِ وَالْجِنْعِ الَّذِي تَضِيقُ بِهِ فَتَنُكُلُ عَنِ الْأَقْدَامِ عَلَى الْقِتَالِ، وَمِنْ شُعُورِ الْإِيمَانِ  
وَالْتَوَكُّلِ الَّذِي يَبْعَثُ فِيهَا طَمَئِينَةَ الشَّجَاعَةِ، وَالصَّبْرَ فَيَحْمِلُهَا عَلَى الْأَقْدَامِ، فَيَسْخَرُ لِكُلِّ  
مِنْهَا الْأَسْبَابَ الَّتِي تَفْضِي إِلَى مَا يَرِيدُهُ مِنْهَا .

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَّمُّ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا  
قَوْلُهُ: وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ قَبْلَهُ: إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ لِأَنَّهُ سَبَبٌ فِي مَعْنَاهُ فَجَمَعَ مَعَهُ  
وَاتَّصَلَ بِهِ - بِخِلَافِ "إِذْ" - فِي الْآيَتَيْنِ قَبْلَهَا، فَلِذَلِكَ جَاءَتْ كُلُّ مِنْهُمَا مَفْصُولَةٌ غَيْرُ  
مَعْطُوفَةٍ . وَالْخِطَابُ هُنَا لِلْمُؤْمِنِينَ كَافَّةً،

وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمْ . فَالْمَعْنَى : وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيكُمْ اللَّهُ الْكُفَّارَ - عِنْدَ التَّلَاقِ مَعَهُمْ - قَلِيلًا بِمَا أُوْدِعَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بَوَعْدِ اللَّهِ بِنَصْرِهِ لَكُمْ ، وَتَشْبِيهِكُمْ بِمَلَائِكَتِهِ ، وَمِنْ احْتِقَارِهِمْ وَالِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ ، وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِقَلَّتْكُمْ بِالْفِعْلِ ، وَلَمَّا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْغُرُورِ وَالْعُجْبِ . حَتَّى قَالَ أَبُو جَهْلٍ : إِنَّمَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ أَكَلَةُ جَزُورٍ . كَأَنَّهُ يَقُولُ : تَغَدَّاهُمْ وَتَعَشَّاهُمْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، وَكَانُوا يَا كَلُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ جَزُورًا . وَمَعْنَى التَّغْلِيلِ لِيُقَدَّمَ كُلُّ مَنْكُمْ عَلَى قِتَالِ الْآخِرِ : هَذَا وَاتِّقَا بِنَفْسِهِ ، مُدَلًّا بِبِأُسِهِ . وَهَذَا مُتَّكِلًا عَلَى رَبِّهِ ، وَاتِّقَا بَوَعْدِهِ ، حَتَّى إِذَا مَا التَّقِيْمُ تَبَّتْكُمْ وَتَبَّطُّهُمْ ، فَيَقْضِي بِإِظْهَارِكُمْ عَلَيْهِمْ أَمْرًا كَانَ فِي عِلْمِهِ مَفْعُولًا ، فَهَيَّا لَهُ أَسْبَابُهُ ، وَقَدَّرَهَا تَقْدِيرًا ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى جَعْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْمَفْعُولِ غَيْرِ الَّذِي ذَكَرَ قَبْلَهُ وَإِنْ سَهَّلَ ذَلِكَ بِغَيْرِ تَكْلِفٍ بِاعْتِبَارِ مَبْدَأِ الْأَمْرِ وَغَايَتِهِ ، وَحُسْنِ تَأْثِيرِهِ وَثَمَرَتِهِ ، وَقَدْ كَانَ فِي الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمًا ، فَإِنْ تَكَرَّرَ مَا تَقْتَضِي الْحَالُ تَكَرَّرَهُ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الْبَلَاغَةِ ، وَمَقْصِدٌ مِنْ أَهَمِّ مَقَاصِدِهَا ، خِلَافًا لِمَا زَعَمَ مُتَنَطِعُو الْمُحَسِّنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فَلَا يُنْفَذُ شَيْءٌ فِي الْعَالَمِ إِلَّا مَا قَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدَّرَ

أَسْبَابُهُ ، وَإِنَّمَا الْقَضَاءُ وَالْقَدْرُ قَائِمَانِ بِسُنَنِهِ تَعَالَى فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، فَهُوَ لَوْ شَاءَ  
لَخَلَقَ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَذْهَانِ مَا أَرَادَهُ بِتَأْثِيرِ مَنَامِ الرَّسُولِ ، وَتَقْلِيلِ كُلِّ مِنَ الْجَمْعَيْنِ فِي أَعْيُنِ  
الْآخَرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرْتَبَهُمَا عَلَى هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ ، وَلَكِنَّهُ نَاطِقٌ كُلُّ شَيْءٍ بِسَبَبٍ ، وَخَلَقَ كُلَّ  
شَيْءٍ بِقَدَرٍ ، حَتَّى إِنْ بَعْضَ آيَاتِهِ لِرُسُلِهِ وَتَوْفِيقَهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ يَكُونَانِ بِتَسْخِيرِ  
الْأَسْبَابِ لَهُمْ ، وَمُوَافَقَةِ اجْتِهَادِهِمْ وَكَسْبِهِمْ لِسُنَنِهِ تَعَالَى فِي الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ  
الْآيَاتِ يَكُونُ بِأَسْبَابٍ غَيْبِيَّةٍ كَأَيْدِ الْمَلَائِكَةِ وَتَشْبِيهِمْ أَوْ بغيرِ سَبَبٍ .  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَانْتَبُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ كَثِيرٌ لِعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ  
قَوْلُهُ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَانْتَبُوا

(188/314)

---

هُوَ النِّدَاءُ الْإِلَهِيُّ السَّادِسُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَهُوَ فِي إِرْشَادِهِمْ إِلَى الْقُوَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ  
لِلْمُقَاتِلِينَ الَّتِي هِيَ السَّبَبُ الْغَالِبُ لِلنَّصْرِ وَالظَّفَرِ . وَالْفِتْنَةُ الْجَمَاعَةُ ، وَغَلَبَتْ فِي جَمَاعَةِ  
الْمُقَاتِلِينَ وَالْحِمَاةِ النَّاصِرِينَ ، وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي التَّنْزِيلِ إِلَّا بِهَذَا الْمَعْنَى حَتَّى قَوْلُهُ تَعَالَى فِي  
سُورَةِ النَّسَاءِ : فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ (4 : 88) فَإِنَّ الْمُخْتَلِفِينَ فِي شَأْنِهِمْ مِنْهُمْ مَنْ

كَانَ يَقُولُ بِوَجُوبِ قِتَالِهِمْ ، لظُهُورِ نِفَاقِهِمْ وَبِقَائِهِمْ عَلَى شِرْكِهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِضِدِّهِ ، فَهِيَ فِي مَوْضِعِ الْقِتَالِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْكَهْفِ : وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ (18 : 43) وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ . وَاللِّقَاءُ يَكْثُرُ اسْتِعْمَالُهُ فِي لِقَاءِ الْقِتَالِ أَيْضًا ، حَتَّى قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : إِنَّهُ غَالِبٌ فِيهِ . وَتَبِعَهُ كَثِيرُونَ وَكَوْنُ اللَّقَاءِ هُنَا لِفِئَةٍ يَعْنِي هَذَا الْمَعْنَى الْغَالِبَ ، وَيُبْطِلُ احْتِمَالَ إِرَادَةِ غَيْرِهِ .

(189/314)

وَالْمَعْنَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً مِنْ أَعْدَائِكُمُ الْكُفَّارِ ، وَكَذَلِكَ الْبُغَاةُ فِي الْقِتَالِ فَأُتُوا لَهُمْ ، وَلَا تَفِرُّوا مِنْ أَمَامِهِمْ - وَلَمْ يَصِفِ الْفِئَةَ لِلْعِلْمِ بِوَصْفِهَا مِنْ قَرِينَةِ الْحَالِ ، وَهِيَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَقَاتِلُونَ إِلَّا الْكُفَّارَ أَوِ الْبُغَاةَ - فَإِنَّ النَّبَاتَ قُوَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ طَالَمَا كَانَتْ هِيَ السَّبَبُ الْأَخِيرُ لِلنَّصْرِ وَالْغَلْبِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ أَوِ الْجُيُوشِ : يَتَصَارَعُ الرَّجُلَانِ الْجِدْلَانِ فَيُعْيَا كُلُّ مِنْهُمَا ، وَتَضَعُفُ مِنْتُهُ ، وَيَتَوَقَّعُ فِي كُلِّ لِحْظَةٍ أَنْ يَتَّعَ صَرِيحًا فَيَخْطُرُ لَهُ أَنْ خَصَمَهُ رَبَّمَا وَقَعَ قَبْلَهُ فَيُنْبِتُ ، حَتَّى يَكُونَ نَبَاتِ الدَّقِيقَةِ الْأَخِيرَةِ هُوَ الصَّرْعَةُ الظَّافِرُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ جِلَادُ فَرِيقِي دَوْلِ أَوْرُبَّةَ فِي الْحَرْبِ الْأَخِيرَةِ . فَقَدْ كَلَّ فَرِيقٌ مِنْهُمَا جَمِيعَ نَقُودِهِ ، وَنَقَصَ عَمَادُ حَرْبِهِ ، وَوَهَنْتْ قُوَى جُنُودِهِ ، وَمَادَّةُ غِذَائِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : "إِلَى السَّاعَةِ الْأَخِيرَةِ" حَتَّى كَانَ فَرِيقٌ

الْحِلْفِ الْبَرِيطَانِيِّ الْفَرَنْسِيِّ وَمَنْ مَعَهُ يَسْتَعِيثُ دَوْلَةَ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ ، وَيَسْأَلُونَهَا تَعْجِيلَ  
الْغُوثِ بِالْأَيَّامِ وَالسَّاعَاتِ ، لَا بِالشُّهُورِ وَالْأَسَابِعِ ، ثُمَّ كَانَ لَهُ الْغَلْبُ بِأَسْبَابِ أَهْمَهَا وَآخِرُهَا  
النَّبَاتُ ، وَعَدَمُ الْيَأْسِ مِمَّا ذَاقُوا مِنْ بَأْسِ . فَالْحِلْفُ الْأَلْمَانِيُّ فِي الْحَرْبِ وَمُخْتَرَعَاتُهُمْ فِيهَا  
مِنَ الْمَدَافِعِ الضَّخْمَةِ وَالطَّيَّارَاتِ تُمْطِرُهُمُ الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ ، وَالْغَوَاصَاتُ تَنْسِفُ

(190/314)

بِوَاخِرِهِمْ وَيُوَارِجُهُمْ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهَا الْإِخْ . وَكَذَلِكَ يُفِيدُ النَّبَاتُ فِي كُلِّ أَعْمَالِ الْبَشَرِ فَهُوَ  
وَسِيلَةُ النَّجَاحِ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا أَيُّ : وَأَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي أَثْنَاءِ الْقِتَالِ وَتَضَاعَيْفِهِ ، اذْكُرُوهُ فِي قُلُوبِكُمْ  
بِذِكْرِ قُدْرَتِهِ ، وَوَعْدِهِ بِنَصْرِ رُسُلِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَنَصْرِكُمْ مِنْ يَتَّبِعُ سُنَنَهُمْ بِنَصْرِ دِينِهِ ، وَإِقَامَةَ  
سُنَنِهِ ، وَبِذِكْرِ نَهْيِهِ لَكُمْ عَنِ الْيَأْسِ مَهْمَا اشْتَدَّ الْبَأْسُ ، وَبِأَنَّ النَّصْرَ بِيَدِهِ وَمِنْ عِنْدِهِ ، يَنْصُرُ  
مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ، فَمَنْ ذَكَرَ هَذَا ، وَتَأَمَّلَ فِيهِ لَا تَهْوَلُهُ قُوَّةُ عَدُوِّهِ وَاسْتِعْدَادُهُ ،  
لِإِيمَانِهِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْوَى مِنْهُ - وَاذْكُرُوهُ أَيْضًا بِالسِّنِّكُمْ مُوَافَقَةً لِقُلُوبِكُمْ بِمِثْلِ التَّكْبِيرِ الَّذِي  
تَسْتَصْغِرُونَ بِمِلَاحِظَةِ مَعْنَاهُ كُلِّ مَا عَدَاهُ ، وَالِدُعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الْيَقِينِ بِأَنَّ لَا  
يَعْجِزُهُ شَيْءٌ .



لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ هَذَا الرَّجَاءُ مَنْوُطٌ بِالْأَمْرَيْنِ كِلَيْهِمَا ، أَيُّ : إِنَّ الثَّبَاتَ وَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى هُمَا  
السَّبَبَانِ الْمَعْنَوِيَّانِ لِلْفَلَاحِ وَالْفُوزِ فِي الْقِتَالِ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ فِي نَيْلِ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ ، أَمَّا  
الْأَوَّلُ فَظَاهِرٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مِثَالَهُ مِنَ الْوَقَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ . وَأَمَّا الثَّانِي فَامْتِلَتْهُ أَظْهَرُ وَأَكْثَرُ ، وَمَنْ  
أَظْهَرَهَا مَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي سِيَاقِهِ ، وَهَذِهِ السُّورَةُ بِجُمْلَتِهَا فِي بَيَانِ حُكْمِهِ وَأَحْكَامِهِ  
وَسُنَنِ اللهِ فِيهِ وَهُوَ غَزْوَةُ بَدْرِ الْكُبْرَى ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَقَدْ كَانَ الْكُفَّارُ يَمْتَرُونَ فِي كَوْنِ  
الْإِيمَانِ - وَلَا سِيَّمَا الصَّحِيحِ وَهُوَ إِيْمَانُ التَّوْحِيدِ الْخَالِي مِنَ الْخُرَافَاتِ ، وَمَا يَسْتَلْزِمُهُ مِنَ  
التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ تَعَالَى فِي الشَّدَائِدِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِعَاثَتِهِ - مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ فِي الْحَرْبِ ،  
وَلَكِنَّ هَذَا قَدْ صَارَ مَعْرُوفًا عِنْدَ عُلَمَاءِ الْجَمَاعِ وَفَلَسَفَةِ التَّارِيخِ ، وَعِلْمِ النَّفْسِ وَعِنْدَ  
قَوَادِمِ الْجِيُوشِ ، وَرُؤَسَاءِ السِّيَاسَةِ ، وَمِمَّا ذَكَرُوا مِنْ أَسْبَابِ فُلْجِ الْبُؤَيْرِ عَلَى الْإِنْكِلِيزِ فِي  
وَقَائِعِ كَثِيرَةٍ فِي حَرْبِ التَّرْنِسِفَالِ أَنَّ التَّدِينِ فِي مُقَاتَلَتِهِمْ أَكْثَرُ وَأَقْوَى مِنْهُ فِي الْجُنُودِ  
الْإِنْكِلِيزِيَّةِ .

وَبَتَّ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَسْبَابِ اتِّصَارِ الْجَيْشِ الْبُلْغَارِيِّ عَلَى الْجَيْشِ التُّرْكِيِّ فِي حَرْبِ الْبَلْقَانِ  
الْمَشْهُورَةِ ، مَا كَانَ مِنْ إِبْطَالِ الْقَوَادِ وَالضُّبَّاطِ مِنَ التُّرْكِ لِلْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ مِنَ الْجَيْشِ ،  
وَالدَّعَايَةِ الَّتِي بَثَّهَا فِيهِ مِنْ وُجُوبِ الْحَرْبِ لِلْوَطَنِ ، وَبِاسْمِ  
الْوَطَنِ ، وَلَشَرَفِ الْوَطَنِ - فَلَمَّا عَلِمُوا بِهَذَا أَعَادُوا الْمُؤَذِّنِينَ وَالْأئِمَّةَ بِعَمَائِمِهِمْ إِلَى كُلِّ تَابُورٍ ،  
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ فِيهِمْ . وَقَدْ رَوَتِ الْجَرَائِدُ أَنَّ الْعَسَاكِرَ لَمَّا سَمِعَتِ الْأَذَانَ صَارَتْ تُبْكِي  
بُكَاءً بِنَشِيحٍ عَالٍ كَانَ لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ ، وَكَانَ تَأْثِيرُ ذَلِكَ بَعُودِ الْكُرَّةِ لَهُمْ عَلَى الْبُلْغَارِ ظَاهِرًا ،  
وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَيْنِ الشَّاهِدَيْنِ فِي الْمَنَارِ كُلِّ وَاحِدٍ فِي وَقْتِهِ ، وَسَوْفَ يَرَى التُّرْكُ سُوءَ عَاقِبَةِ  
كُفْرِ حُكُومَتِهِمْ ، وَمُحَاوَلَتِهَا إِفْسَادَ دِينِ شَعْبِهَا عَلَيْهِ .

(193/314)

---

وَقَدْ نَشَرْنَا فِي (ص 846 و 847) مِنْ مُجَلِّدِ الْمَنَارِ الْأَوَّلِ حَدِيثًا لِلْبَرْنَسِيِّ بِسْمَارِكِ وَزِيرِ  
الْمَانِيَةِ وَمُؤَسَّسِ وَحَدِيثَهَا ، الَّذِي انْتَهَتْ إِلَيْهِ زَعَامَةُ السِّيَاسَةِ وَالتَّفُوقُ فِي أُرْبِيَّةٍ عَلَى جَمِيعِ  
سَاسَةِ الْأُمَّمِ فِي عَصْرِهِ ، قَالَ فِيهِ : إِنْ مِنْ تَأْثِيرِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِ الشَّعْبِ ذَلِكَ الشُّعُورُ الَّذِي  
يَنْفُذُ إِلَى أَعْمَاقِ الْقُلُوبِ بِاسْتِحْسَانِ الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنِ الْوَطَنِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ  
أَمَلٌ فِي الْمُكَافَاةِ ، وَعَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ : " ذَلِكَ لَمَّا اسْتَكَنَّ فِي الضَّمَائِرِ مِنْ بَقَايَا الْإِيمَانِ ، ذَلِكَ لَمَّا

يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ أَنْ وَاحِدًا مُهَيِّمًا يَرَاهُ وَهُوَ يُجَالِدُ وَيُجَاهِدُ وَيَمُوتُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَائِدُهُ  
يَرَاهُ" .

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْمُرْتَابِينَ : أَتَنْظُرُ سَعَادَتَكُمْ أَنْ الْعَسَاكِرُ يَلْحِظُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ تِلْكَ الْمُلَاحَظَةَ  
؟ فَاجَابَهُ الْبَرْنَسُ : لَيْسَ هَذَا مِنْ قِبَلِ الْمُلَاحَظَاتِ وَإِنَّمَا هُوَ شُعُورٌ وَوَجْدَانٌ ، هُوَ بَوَادِرُ  
تَسْبِقُ الْفِكْرَ ، هُوَ مَيْلٌ فِي النَّفْسِ وَهُوَ فِيهَا كَأَنَّهُ غَرِيزَةٌ لَهَا - وَلَوْ أَنَّهُمْ لَحِظُوا لَفَقَدُوا ذَلِكَ  
الْمَيْلَ وَأَضَلُّوا ذَلِكَ الْوَجْدَانَ .

(194/314)

" هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي لَا أَفْهَمُ كَيْفَ يَعْشِقُ قَوْمٌ ، وَكَيْفَ يُمَكِّنُ لَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِتَأْدِيَةِ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ  
الْوَاجِبَاتِ ، أَوْ كَيْفَ يَحْمِلُونَ غَيْرَهُمْ عَلَى أَدَاءِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ - إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِيمَانٌ بِدِينٍ  
جَاءَ بِهِ وَحْيٌ سَمَاوِيٌّ ، وَاعْتِقَادٌ بِإِلَهِ يُحِبُّ الْخَيْرَ ، وَحَاكِمٌ يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْفِضْلُ فِي الْأَعْمَالِ  
فِي حَيَاةٍ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ ؟ .

ثُمَّ سَأَلَ الْوَزِيرُ كَلَامَهُ عَلَى هَذَا النَّمَطِ بِأَسْلُوبٍ آخَرَ وَهُوَ الْكَلَامُ عَنْ نَفْسِهِ ، فَشَرَحَ  
لِلْمُخَاطَبِينَ أَنَّهُ لَوْلَا إِيمَانُهُ بِاللَّهِ وَبِالْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ لَمَا كَانَ يَخْدُمُ سُلْطَانَهُ وَحُكُومَتَهُ ، وَلَمَا  
أَجْهَدَ نَفْسَهُ بِتَأْسِيسِ الْوَحْدَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ ، وَتَشْيِيدِ عَظَمَتِهَا ، وَأَنَّهُ يُفَضِّلُ

العِيشَةُ الخَلَوِيَّةُ فِي مَزَارِعِهِ عَلَى خِدْمَةِ القَيْصَرِ (الإمبراطور)؛ لَأنَّهُ هُوَ جُمْهُورِيٌّ بِالطَّبَعِ الخُ  
. وَالشَّاهِدُ فِي كَلَامِهِ تَأْثِيرُ الإِيْمَانِ فِي القِتَالِ ، وَإِنَّمَا زِدْنَا هَذَا مِنْ كَلَامِهِ ؛ لَأنَّهُ حُجَّةٌ عَلَى  
مَلَّا حِدِنَا دُعَاةَ التَّجْدِيدِ بِتَرْكِ الدِّينِ اتِّبَاعًا بِزَعْمِهِمُ الكَاذِبِ لِأَهْلِ أُورُبَّةِ .

(195/314)

هَذَا وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ بِالإِكْتِرَارِ مِنْ ذِكْرِهِ وَحَثَّ عَلَيْهِمْ ، وَوَصَفَ  
الصَّادِقِينَ بِهِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَمَا وَصَفَ المُنَافِقِينَ بِقَلْبِهِ ؛ لِأَنَّ الذِّكْرَ غِذَاءُ الإِيْمَانِ فَلَا يَكْمُلُ  
إِلَّا بِكثْرَتِهِ ، فَمَنْ غَفَلَ عَنِ ذِكْرِهِ تَعَالَى اسْتَحْوَذَ الشَّيْطَانُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَزَيْنٌ لَهُ الشُّرُورُ  
وَالْمَعَاصِي . وَلِلزَّمْخَشَرِيِّ كَلِمَةٌ بَلِيغَةٌ فِي هَذَا الأَمْرِ بِالذِّكْرِ هُنَا وَفِي السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَمَا  
كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الإِهْتِدَاءِ بِهِ قَالَ : وَفِيهِ إِشْعَارٌ بَأَنَّ عَلَى العَبْدِ أَلَّا يَفْتَرُ عَنِ ذِكْرِ رَبِّهِ أَشْغَلَ مَا  
يَكُونُ قَلْبًا ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ هَمًّا ، وَأَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ مُجْتَمِعَةً لِذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَتْ مُتَوَزَّعَةً عَنِ  
غَيْرِهِ ، وَنَاهِيكَ بِمَا فِي خُطْبِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَيَّامِ صِفِّينَ ، وَفِي مَشَاهِدِهِ مَعَ  
البُغَاةِ وَالخَوَارِجِ مِنَ البَلَاغَةِ وَالبَيَانِ ، وَلطَائِفِ المَعَانِي ، وَبَلِيغَاتِ المَوَاعِظِ وَالنَّصَائِحِ دَلِيلٌ  
عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَشْغَلُهُمْ عَنِ ذِكْرِ اللهِ شَاغِلٌ وَإِنْ تَفَاقَمَ الأَمْرُ اهـ .

(196/314)

---

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَطِيعُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْأُؤْمُرِ الْمُرْشِدَةِ إِلَى أَسْبَابِ الْفَلَاحِ فِي الْقِتَالِ  
وَفِي غَيْرِهَا ، وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ مِنْ شُؤْنِ الْقِتَالِ وَغَيْرِهَا ، مِنْ حَيْثُ  
إِنَّهُ هُوَ الْمُبِينُ لِكَلَامِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْهِ عَلَى مَا يُرِيدُهُ تَعَالَى مِنْهُ ، وَالْمُنْفَذُ لَهُ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ  
وَالْحُكْمِ ، وَمِنْهُ وِلَايَةُ الْقِيَادَةِ الْعَامَّةِ فِي الْقِتَالِ ، فَطَاعَةُ الْقَائِدِ الْعَامِّ هِيَ جَمَاعُ النَّظَامِ الَّذِي  
هُوَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الظَّفَرِ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْقَائِدُ الْعَامُّ رَسُولَ اللَّهِ الْمُؤَيَّدَ مِنْ لَدُنْهُ بِالْوَحْيِ  
وَالْتَوْفِيقِ ، وَالْمُشَارِكِ لَكُمْ فِي الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّاسِيسَةِ فِي الْأُمُورِ ، كَمَا تَبَيَّنَ لَكُمْ فِي  
هَذِهِ الْغَزْوَةِ ثُمَّ فِي غَيْرِهَا . وَقَدْ كَانَ لَهُمْ مِنَ الْعِبْرَةِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الرَّمَاةَ عِنْدَمَا خَالَفُوا أَمْرَهُ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ

كَرَّ الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ ، وَنَالُوا مَا نَالُوا مِنْهُمْ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُمُ الظُّهُورُ عَلَيْهِمْ .  
وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي اسْتِغْرَابِهِمْ لِذَلِكَ : أَوْلَمَا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى  
هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ (3 : 165) .

(197/314)

---

وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ هَذَا التَّهْيِئَةُ لِلْأَمْرِ بِالثَّبَاتِ وَكَثْرَةِ الذِّكْرِ ،  
وَبَطَاعَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، وَمُتَمُّ لِلْغَرَضِ مِنْهُ ، فَإِنَّ الْاِخْتِلَافَ وَالتَّنَازُعَ مَدْعَاةُ الْفَشْلِ ، وَهُوَ  
الْخَيْبَةُ وَالتَّنُكُّولُ عَنِ اِمْتِصَاءِ الْأَمْرِ ، وَأَكْثَرُ أَسْبَابِهِ الضَّعْفُ وَالجَبْنُ ، وَلِذَلِكَ فَسَّرُوهُ هُنَا بِهَمَا  
، وَأَصْلُ التَّنَازُعِ كَالْمَنَازَعَةِ الْمُشَارِكَةِ فِي النَّزْعِ ، وَهُوَ الْجَذْبُ ، وَأَخَذُ الشَّيْءِ بِشِدَّةٍ أَوْ  
لُطْفٍ كَنَزْعِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ ، وَنَزْعِ السُّلْطَانِ الْعَامِلِ مِنْ عَمَلِهِ ، كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ  
الْمُنَازِعِينَ يُرِيدُ أَنْ يَنْزِعَ مَا عِنْدَ الْآخَرِ مِنْ رَأْيٍ وَيُلْقِي بِهِ - أَوْ مِنْ نَزْعٍ إِلَى الشَّيْءِ نَزْوَعًا إِذَا  
مَالَ إِلَيْهِ ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُنَازِعِينَ فِي الْأَمْرِ يَمِيلُ إِلَى غَيْرِ مَا يَمِيلُ إِلَيْهِ الْآخَرُ ، وَهَذَا  
أَخْطَرُهُنَا .

(198/314)

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ فَمَعْنَاهُ تَذْهَبُ قُوَّتُكُمْ ، وَتَرْتَحِي أَعْصَابُ شِدَّتِكُمْ  
فَيُظْهِرُ عَدُوَّكُمْ عَلَيْكُمْ . وَالرِّيحُ فِي اللُّغَةِ الْهَوَاءُ الْمُتَحَرِّكُ ، وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ وَقَدْ تَذَكَّرْتُ بِمَعْنَى  
الْهَوَاءِ ، وَتُسْتَعَارُ لِلْقُوَّةِ وَالْغَلْبَةِ إِذَا لَمْ يَوْجَدْ فِي الْأَجْسَامِ أَقْوَى مِنْهَا ، فَإِنَّهَا تُهَيِّجُ الْبِحَارَ ،  
وَتَقْتُلُ أَكْبَرَ الْأَشْجَارِ ، وَتَهْدِمُ الدُّورَ وَالْقَلَاعَ ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ وَغَيْرُهُ : تُسْتَعَارُ لِلدَّوْلَةِ ،  
لِشَبْهِهَا بِهَا فِي نَفُوزِ أَمْرِهَا . وَيَقُولُونَ : هَبَّتْ " رِيحُ فُلَانٍ " إِذَا دَالَتْ لَهُ الدَّوْلَةُ ، وَجَرَى أَمْرُهُ

عَلَى مَا يُرِيدُ . كَمَا يَقُولُونَ رَكَدَتْ رِيحُهُ أَوْ رِيَا حُهُ إِذَا ضَعُفَ أَمْرُهُ وَوَلَّتْ دَوْلَتُهُ .  
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ أَيُّ : وَاصْبِرُوا عَلَى مَا تَكْرَهُونَ مِنْ شِدَّةٍ ، وَمَا تَلْقَوْنَ مِنْ  
بُؤْسِ الْعَدُوِّ وَاسْتَعْدَادِهِ وَكَثْرَةِ عَدَدِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ بِالْمُعُونَةِ وَالْتَّائِدِ ،  
وَرَبِطِ الْجَاشِ وَالْتَّشْبِيتِ ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَلَا يُغْلِبُهُ شَيْءٌ ، فَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَهُوَ  
الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ . وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي آيَةٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَهِيَ  
اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (2 : 153) فَيُرْاجَعُ تَفْسِيرُهَا هُنَاكَ (ص  
30 وَمَا بَعْدَهَا ج 2 ط الْهَيْئَةِ) بَلْ يُرْاجَعُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ

(199/314)

---

مِنْ أَوَّلِهَا (ص 27 وَمَا بَعْدَهَا ج 2 ط الْهَيْئَةِ) وَكَذَا تَفْسِيرُ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ (2 :  
45) قَبْلِهَا (ص 248 وَمَا بَعْدَهَا ج 1 ط الْهَيْئَةِ) وَهُنَاكَ تَفْسِيرُ كَلِمَةِ الصَّبْرِ ، وَوَجْهُ  
الاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى مُهِمَّاتِ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَلَا سِيَّمَا الْقِتَالَ .  
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا  
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ

بَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ جَلَائِلِ الصِّفَاتِ وَأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ ، الَّتِي

جَرَتْ سُنَّةٌ بِأَنْ تَكُونَ سَبَبَ الظَّفَرِ فِي الْقِتَالِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّنَازُعِ - نَهَاهُمْ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ  
خُصُومُهُمْ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ حِينَ خَرَجُوا لِحِمَايَةِ الْعِيرِ مِنَ الصِّفَاتِ الرَّدِيئَةِ ، وَذَكَرَ لَهُمْ بَعْضَ  
أَحْوَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ فَقَالَ : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ الْبَطْرُ  
كَالْأَشْرِ ، وَهُمَا مَصْدَرُ بَطْرٍ وَأَشْرٌ (كَفْرَح) ضَرْبٌ مِنْ إِظْهَارِ الْفَخْرِ ، وَالِاسْتِعْلَاءِ بِنِعْمَةِ الْقُوَّةِ  
أَوْ الْغِنَى أَوْ الرِّيَاسَةِ ، يُعْرَفُ فِي الْحَرَكَاتِ الْمُتَكَفِّفَةِ ، وَالْكَلامِ الشَّاذِّ - وَيُفَسِّرُ اللَّغَوِيُّونَ  
أَحَدَهُمَا بِالْآخِرِ - وَقَالَ الرَّاعِبُ : الْبَطْرُ : دَهَشٌ يُعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنْ سُوءِ احْتِمَالِ النِّعْمَةِ ،  
وَقَلَّةِ الْقِيَامِ بِحَقِّهَا ، وَصَرَفَهَا إِلَى غَيْرِ وَجْهٍهَا - ثُمَّ قَالَ : وَيُقَالُ الْبَطْرُ الطَّرْبُ ، وَهُوَ خِيفَةٌ  
أَكْثَرُ مَا يُعْتَرِي مِنَ الْفَرَحِ ، وَقَدْ يُقَالُ ذَلِكَ فِي التَّرْحِ . اهـ . وَالرِّئَاءُ

(200/314)

---

مَصْدَرُ رِئَاءٍ زَيْدٌ عَمْرًا وَرِئَاءُ النَّاسِ مُرَاةٌ وَرِئَاءٌ - وَتَقْلِبُ الْهَمْزَةُ يَاءً فَيُقَالُ : رِئَاءٌ كَأَمْثَالِهِ  
- وَهُوَ بِنَاءٌ مُشَارِكَةٌ مِنَ الرُّؤْيَةِ ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ أَنْ يُعْمَلَ الْمَرْءُ مَا يُحِبُّ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ مِنْهُ ،  
وَيُنْتَوَى عَلَيْهِ ، وَيَعْجَبُوا بِهِ ، وَإِنْ كَانَ تَلَبَّسًا ظَاهِرًا غَيْرَ بَاطِنِهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ إِظْهَارُ  
الْحُسْنِ ، وَإِخْفَاءُ الْقَبِيحِ أَيُّ لَأَجْلِ الثَّنَاءِ وَالِإِعْجَابِ .  
وَالْمَعْنَى : امْتَثَلُوا مَا أَمَرْتُمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ ، وَأَنْتَهُوا عَمَّا نَهَيْتُمْ مِنَ الرَّذَائِلِ ، وَلَا تَكُونُوا



كَأَعْدَائِكُمُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِي مَكَّةَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَمَاكِنِ الَّتِي  
اسْتَنْفَرَهُمْ

مِنْهَا أَبُو سُفْيَانَ - بَطْرِينَ بِمَا أُوتُوا مِنْ قُوَّةٍ وَنِعْمٍ لَمْ يَسْتَحِقُّوْهَا ، أَوْ كَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ - مُرَائِنَ  
لِلنَّاسِ بِهَا ، لِيُعْجَبُوا بِهِمْ ، وَيُنْشُوا عَلَيْهِمْ بِالْغِنَى وَالْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْمَنَعَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ  
سَبِيلِ اللَّهِ أَيْ : وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ بِخُرُوجِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ - وَهُوَ الْإِسْلَامُ - بِحَمْلِ  
النَّاسِ عَلَى عِدَاوَةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْإِعْرَاضِ عَنْ تَبْلِيغِ دَعْوَتِهِ ، وَتَعْذِيبِ  
مَنْ أَجَابَهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَنْ يَمْنَعُهُمْ وَيَحْمِيهِمْ مِنْ قَرَابَةِ أَوْ حِلْفٍ أَوْ جَوَارٍ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ  
مُحِيطٌ عِلْمًا وَسُلْطَانًا ، فَهُوَ يُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمُقْتَضَى سُنَّتِهِ فِي تَرْتِيبِ  
الْجَزَاءِ عَلَى صِفَاتِ النَّفْسِ .

(201/314)

---

قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مِنْ مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ : نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ حِينَ أَقْبَلُوا إِلَى بَدْرٍ ، وَلَهُمْ  
بَغْيٌ وَفَخْرٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ  
بِخِيْلَانَهَا وَفَخْرَهَا تُحَادِّدُكَ وَتُكَذِّبُ رَسُوْلَكَ ، اللَّهُمَّ فَنَصْرِكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي " قَالُوا : وَلَمَّا  
رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عَيْرَهُ أَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ : إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لَتَمْنَعُوا عَيْرَكُمْ فَقَدْ

نَجَّاهَا اللهُ فَارْجِعُوا . فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَّ بَدْرًا - وَكَانَ مَوْسِمًا مِنْ  
مَوَاسِمِ الْعَرَبِ يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهَا سُوقٌ كُلِّ عَامٍ - فَتُقِيمُ ثَلَاثًا فَتَنْحَرُ الْجَزُورَ ، وَتُطْعَمُ الطَّعَامَ ،  
وَتَسْقَى الْخَمْرَ ، وَتَعْرِفُ عَلَيْنَا الْقِيَانُ ، وَتَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبِ فَلَا يَزَالُونَ بِهَا بُونَنَا أَبَدًا . فَوَافَوْهَا  
فَسَقُوا كُؤُسَ الْمَنَآيَا مَكَانَ الْخَمْرِ ، وَنَاحَتْ عَلَيْهِمُ النَّوَاحُ  
مَكَانَ الْقِيَانِ . فَهَيَّ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ ، وَأَمْرَهُمْ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ  
فِي نَصْرِ دِينِهِ وَمُؤَاذَرَةِ نَبِيِّهِ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . اهـ .

(202/314)

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ أَيُّ : وَاذْكُرْ  
أَيُّهَا الرَّسُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، إِذْ زَيْنَ الشَّيْطَانُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَعْمَالَهُمْ بوسوسته ، وَقَالَ لَهُمْ بِمَا  
الْقَاهُ فِي هَوَاجِسِهِمْ : لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، لَا أَتْبَاعَ مُحَمَّدٍ الضُّعَفَاءِ ، وَلَا غَيْرَهُمْ  
مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ ، فَاتُّمَّ اعْزَنْتُمْ وَأَكْثَرْتُمْ نَفِيرًا ، وَأَعْظَمْتُمْ بَأْسًا ، وَإِنِّي مَعَ هَذَا - أَوْ وَالْحَالِ إِنِّي  
- جَارٌ لَكُمْ . قَالَ الْبَيْضاويُّ فِي تَفْسِيرِهِ : وَأَوْهَمَهُمْ أَنْ اتَّبَاعَهُمْ إِيَّاهُ فِيمَا يَظُنُّونَ أَنَّهَا قُرْبَاتٌ  
مُجِيرَةٌ لَهُمْ حَتَّى قَالُوا : اللَّهُمَّ أَنْصِرْ أُمَّهُدَى الْفِئْتَيْنِ وَأَفْضَلَ الدِّينَيْنِ اهـ .

(203/314)

---

فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئْتَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ أَيُّ فَلَمَّا قَرَّبَ كَلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُقَاتِلَيْنِ مِنَ الْآخِرِ ،  
وَصَارَ بِحَيْثُ يَرَاهُ وَيَعْرِفُ حَالَهُ ، وَقَبْلَ أَنْ يُلْقَاهُ فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَيَصْطَلِي نَارَ الْقِتَالِ مَعَهُ ،  
نَكَصَ أَيُّ : رَجَعَ الْقَهْقَرَى ، وَتَوَلَّى إِلَى الْوَرَاءِ وَهُوَ جَهَةُ الْعَقَبَيْنِ (أَيُّ مُؤَخَّرِي الرَّجْلَيْنِ)  
وَأَخْطَأَ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْتَّرَائِي التَّلَاقِي ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ كَفَّ عَنْ تَرْبِيئِهِ لَهُمْ  
وَتَغْرِيرِهِ إِيَّاهُمْ ، فَخَرَجَ الْكَلَامُ مَخْرَجَ التَّمْثِيلِ بِتَشْبِيهِهِ وَسُوسَتِهِ بِمَا ذَكَرَ بِحَالِ الْمُقْبِلِ عَلَى  
الشَّيْءِ ، وَتَرَكَهَا بِحَالٍ مَنْ يُنْكَصُ عَنْهُ ، وَيُؤَلِّقُ دُبْرَهُ . ثُمَّ زَادَ عَلَى هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى بَرَاءَتِهِ  
مِنْهُمْ ، وَتَرَكَهُ هُمْ وَشَانُهُمْ ، وَهُوَ : وَقَالَ إِبْنُ بَرِيٍّ مِنْكُمْ إِبْنِي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِبْنِي أَخَافُ اللَّهَ  
أَيُّ : تَبَرَّأَ مِنْهُمْ وَخَافَ عَلَيْهِمْ ، وَأَيْسَ مِنْ حَالِهِمْ لَمَّا رَأَى إِمْدَادَ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَلَائِكَةِ وَاللَّهُ  
شَدِيدُ الْعِقَابِ يَجُوزُ أَنْ يُكُونَ هَذَا مِنْ كَلَامِهِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يُكُونَ مُسْتَأْنَفًا .  
تَفْسِيرُ الْآيَةِ بِوَسُوسَةِ الشَّيْطَانِ وَإِغْوَانِهِ لِلْمُشْرِكِينَ ، وَتَغْرِيرِهِ بِهِمْ قَبْلَ تَقَابُلِ الصُّفُوفِ ، وَتَرَائِي  
الزُّحُوفِ وَتَخْلِيهِ عَنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ

(204/314)

---

وَالْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ ، وَخَرَجَهُ عُلَمَاءُ الْبَيَّانِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ كَالزَّمَخْشَرِيِّ وَالْبَيْضَاوِيِّ بِنَحْوِ  
مِمَّا ذَكَرْنَا ، وَهُوَ لَا يَخْلُو مِنْ تَكْلُفٍ فِي الْجُمْلِ الْأَخِيرَةِ إِلَّا أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ لَمَّا نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ  
تَبَرَّأَ مِنْهُمْ ، وَقَالَ مَا قَالَ فِي نَفْسِهِ لَا لَهُمْ ، وَمِثْلُ هَذَا الْخِطَابِ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى سَمَاعِ  
الْمُخَاطَبِينَ لَهُ حَتَّى فِي خِطَابِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ  
قَالَ لِلنَّاسِ أَكْفَرُ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ (59 : 16) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ سَارَ إِبْلِيسُ بِرَأْيِهِ وَجُنُودِهِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَلْقَى فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ  
أَحَدًا لَنْ يُغْلِبَكُمْ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ . فَلَمَّا اتَّقَوْا ، وَنَظَرَ الشَّيْطَانُ إِلَى إِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ : نَكَصَ  
عَلَى عَقْبِيهِ قَالَ : رَجَعْتُ مُدْبِرًا ، وَقَالَ : إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ - الْآيَةُ . وَمِثْلُهُ قَالَ الْحَسَنُ .

(205/314)

---

أَقُولُ : مَعْنَى هَذَا أَنَّ جُنْدَ الشَّيْطَانِ الْخَبِيثِ كَانُوا مُنْبَثِينَ فِي الْمُشْرِكِينَ يُوسُوسُونَ لَهُمْ  
بِمَلَابَسَتِهِمْ لِأَرْوَاحِهِمُ الْخَبِيثَةَ مَا يُغْرِبُهُمْ وَيُغْرِهُمُ ، كَمَا كَانَ الْمَلَائِكَةُ مُنْبَثِينَ فِي الْمُؤْمِنِينَ  
يُلْهِمُونَهُمْ بِمَلَابَسَتِهِمْ لِأَرْوَاحِهِمُ الطَّيِّبَةَ مَا يُثَبِّتُونَ بِهِ قُلُوبَهُمْ ، وَيَزِيدُهُمْ ثِقَةً بِوَعْدِ اللَّهِ بِنَصْرِهِمْ  
كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ (8 : 12) إِنْخ . فَلَمَّا تَرَاءَتِ  
الْفِئَتَانِ ، وَأَوْشَكَ أَنْ يَتَلَحَّمَا فَرَ الشَّيْطَانُ بِجُنُودِهِ مِنْ بَيْنِ الْمُشْرِكِينَ . لَمَّا تَصَلَّ إِلَيْهِمْ

المَلَائِكَةُ الْمَلَابِسَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمَا ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَلَوْ اجْتَمَعَا لَقَضَىٰ أَقْوَاهُمْ وَهُمْ  
المَلَائِكَةُ عَلَىٰ أضعفِهِمَا ، فَخَوْفُ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ إِحْرَاقِ المَلَائِكَةِ لِجُنُودِهِ لَا عَلَى  
المُشْرِكِينَ ، كَمَا يُقَدِّفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .

(206/314)

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي مَوَاضِعٍ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِ أَنَّ العَوَالِمَ الرُّوحِيَّةَ الخَفِيَّةَ كَعَوَالِمِ العَنَاصِرِ  
المَادِّيَّةِ مِنْهَا المُوْتَلَفُ وَالمُخْتَلَفُ ، وَمِنْهَا مَا يَتَّحِدُ بغيرِهِ فَيَتَأَلَّفُ مِنْهُمَا حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ  
كحَقِيقَةِ المَاءِ وَالهَوَاءِ ، وَمِنْهَا مَا لَا يَتَّحِدُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي حَيْزٍ وَاحِدٍ  
الخَبِيثَاتُ لِلخَبِيثِينَ وَالخَبِيثُونَ لِلخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ (24 :  
26) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ  
زُخْرُفُ القَوْلِ غُرُورًا

(6: 112) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُ أُخْرٍ : هُوَ أَنَّ الشَّيْطَانَ تَمَثَّلَ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ  
سَيِّدِ بَنِي مُدَلِّجٍ ، وَقَالَ لِلْمُشْرِكِينَ مَا قَصَّتْهُ الآيَةُ الكَرِيمَةُ أَوْلًا وَآخِرًا . قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ :  
حَدَّثَنِي الكَلْبِيُّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ إِبْلِيسَ خَرَجَ مَعَ قُرَيْشٍ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ

بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ ، فَلَمَّا حَضَرَ الْقِتَالَ وَرَأَى الْمَلَائِكَةَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ  
مِنْكُمْ ،

(207/314)

---

فَتَشَبَّثَ بِهِ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ فَنَخَرَ فِي وَجْهِهِ فَخَرَّ صَعَقًا فَقِيلَ لَهُ : وَيْلَكَ يَا سُرَاقَةَ ، عَلَى  
هَذِهِ الْحَالِ تَحْذِلُنَا وَتَبْرَأُ مِنَّا ؟ فَقَالَ : " إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ " الْخ . وَرَوَى عَنْهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي  
طَلْحَةَ مَا أَوْلَهُ مِثْلَ رِوَايَةِ ابْنِ جَرِيرٍ إِلَّا أَنَّهُ زَادَ " فِي صُورَةِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي مُدَلِجٍ " وَذَكَرَ فِيهَا أَنَّهُ  
رَأَى رَمِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . الْمُشْرِكِينَ بِقَبْضَةِ التَّرَابِ فَهَزِمَتْهُمْ مِنْهَا ثُمَّ قَالَ :  
فَأَقْبَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى إِبْلِيسَ فَلَمَّا رَأَاهُ ، وَكَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اتَّزَعَّ  
يَدَهُ ثُمَّ وَلَّى مُدْبِرًا وَشَيْعَتُهُ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا سُرَاقَةَ اتَّزَعَّمُ أَنْكَ جَارُ لَنَا ؟ فَقَالَ : " إِنِّي أَرَى  
مَا لَا تَرَوْنَ " الْخ .

(208/314)

(أقول) : أمّا الكلبِيُّ فَرَوَيْتُهُ التَّقْسِيرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هِيَ أَوْهَى الرِّوَايَاتِ وَأَضْعَفُهَا كَمَا قَالَ  
المُحَدِّثُونَ . قَالُوا : فَإِنَّ انْضَمَّ إِلَيْهَا رَوَايَةُ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ السُّدِّيِّ الصَّغِيرِ فِيهِ سِلْسِلَةٌ  
الكُذِبِ . وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ فَرَوَيْتُهُ عَنْهُ أَجْوَدُ الرِّوَايَاتِ إِلَّا أَنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَمْ  
يَسْمَعْ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا أَخَذَهُ عَنْ مُجَاهِدٍ أَوْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَلَا خِلَافَ فِي كَوْنِهِمَا مِنَ الثَّقَاتِ  
أُمَّةً هَذَا الشَّانَ ، وَلَكِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ابْنَ خَمْسِ سِنِينَ فَرَوَيْتُهُ لِأَخْبَارِهَا مُنْقَطَعَةٌ  
، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الإِسْرَائِيلِيَّاتِ . وَرَوَى ذَلِكَ الوَاقِدِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ عُقْبَةَ عَنْ شُعْبَةَ  
مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَالوَاقِدِيُّ غَيْرُ ثِقَةٍ فِي الرِّوَايَةِ . وَرَوَى أَيْضًا عَنْ غَيْرِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ ، وَفِي الرِّوَايَاتِ شَيْءٌ مِنَ الإِخْتِلَافِ ، وَأَصْلُهَا أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَبَيْنَ بَنِي بَكْرٍ  
عَدَاوَةٌ وَحَرْبٌ سَابِقَةٌ فَخَافُوا أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ فِي أَثْنَاءِ قِتَالِهِمُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .  
وَالْمُؤْمِنِينَ فَرُبِّي سُرَاقَةً أَكْبَرُ زُعَمَائِهِمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَضْمَنُ لَهُمْ مَا كَادَ يَنْبِيهِمْ عَنِ الخُرُوجِ .  
وَخَرَجَ مَعَهُمْ يَتَّبِعُهُمْ وَيَقُولُ : لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، ثُمَّ رُبِّي عِنْدَ

تَرَائِي

الْفَيْسَيْنِ هَارِبًا مُتَبَرِّئًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا رَجَعَ فُلُهِمْ إِلَى مَكَّةَ كَانُوا يَقُولُونَ : هَزَمَ النَّاسُ سَرَّاقَةً . فَقَالَ : بَلَّغْنِي أَنْكُمْ تَقُولُونَ : إِنِّي هَزَمْتُ النَّاسَ ، فَوَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ بِمَسِيرِكُمْ حَتَّى بَلَّغْتَنِي هَزِيمَتِكُمْ ، فَقَالُوا : مَا أَتَيْنَا فِي يَوْمٍ كَذَا ؟ " فَحَلَفَ لَهُمْ . فَلَمَّا أَسْلَمُوا عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ ، فَهَذَا وَاللَّهِ أَعْلَمُ سَبَبُ تَخْرِيجِ هَؤُلَاءِ الْمُفْسِرِينَ رَوَايَاتِهِمْ عَلَى أَنَّ الَّذِي رُئِيَ إِنَّمَا كَانَ الشَّيْطَانُ مُمَثَّلًا ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ هُوَمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ جُرَيْجٍ ، وَهُوَ مَا عَلِمْتَ أَنفًا ، وَمَا رَوَاهُ عَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا وَقَدَّمَهُ أَهْلُ التَّفَاسِيرِ الْمَشْهُورَةِ ، وَهُوَ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَتَى فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَغْلِبَهُمْ إِلَّا خ . وَتَقَدَّمَ .

(210/314)

قَدْ كَانَ وَقْتُ تَغْرِيبِ الشَّيْطَانِ بِالْمُشْرِكِينَ وَإِيهَا مِهِمْ أَنَّهُ لَا غَالِبَ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، هُوَ بَعِينُهُ وَقْتُ تَعَجُّبِ الْمُنَافِقِينَ وَمَرَضَى الْقُلُوبِ فِي الدِّينِ مِنْ إِقْدَامِ هَذَا الْعَدَدِ الْقَلِيلِ الْفَاقِدِ لِكُلِّ اسْتِعْدَادٍ حَسْبِيٍّ مِنْ أَسْبَابِ الْحَرْبِ ، عَلَى قِتَالِ ذَلِكَ الْعَدَدِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَفُوقُهُ ثَلَاثَةَ أضعافٍ فِي الْعَدَدِ مَعَ كَوْنِهِ لَا يَنْقُصُهُ مِنَ الْاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ شَيْءٌ ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ وَاحِدَةً ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ فَالْظَّرْفُ هُنَا مُتَعَلِّقٌ بِرَيْنِ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ وَ" الْمُنَافِقُونَ " هُمُ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ وَيُسِرُّونَ الْكُفْرَ



و" وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ " هُمْ ضِعَافُ الْإِيمَانِ تَنُورُ بِهِمُ الشُّكُوكُ وَالشُّبُهَاتُ تَارَةً فَتَزَلُّوا  
اعْتِقَادَهُمْ ، وَتَسْكُنُ تَارَةً فَيَكُونُونَ كَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَلْ يُمَيِّزُ أَهْلَ الْيَقِينِ مِنَ الضَّعْفَاءِ إِلَّا  
الْإِمْتِحَانُ بِمِثْلِ هَذِهِ الشَّدَائِدِ ؟ لَمْ يَرِ الْمُنَافِقُونَ وَمَنْ هُمْ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمْ مِنْ مَرَضَى الْقُلُوبِ  
عِلَّةٌ يَعْلَمُونَ بِهَا هَذَا الْإِقْدَامَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ إِلَّا الْغُرُورَ بِالدِّينِ ، وَلَعَمْرُ الْإِنْصَافِ إِنَّ  
هَذَا لِأَقْرَبِ تَعْلِيلٍ مَعْقُولٍ لِمِثَالِهِمُ الْمَحْرُومِينَ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَالثَّقَّةِ بِهِ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ

(211/314)

وَمِنَ الْمَعْلُومِ مِمَّا وَرَدَ فِي " أَهْلِ بَدْرٍ " مِنْ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَمِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ  
وَالْحَسَنَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيكَ الْمُنَافِقِينَ ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَإِنَّ  
ضِعْفَاءَهُمْ قَدْ مَحَصَّهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانَ مِنْ جِدَالِهِمُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .  
وَمُصَارَحَتِهِمْ لَهُ فِي كَرَاهَةِ الْقِتَالِ قَبْلَ وَقُوعِهِ ، وَبِاقْتِنَاعِهِمْ بِجَوَابِهِ لَهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ - ثُمَّ أَتَمَّ  
تَمْحِيطَهُمْ بِخَوْضِهِمُ الْمَعْرَكَةَ ، فَهُمْ مِنَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ الْمُنَافِقُونَ ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ  
بِأَنَّهُ غَرَّهُمْ دِينُهُمْ ، وَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي الْمُؤْمِنِينَ : " غَرَّهُمْ دِينُهُمْ " وَهُوَ تَبَرُّؤُ مِنْ  
عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ ؟ فَإِنْ صَحَّ مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ :

هُمُ يَوْمَئِذٍ فِي الْمُسْلِمِينَ "يَكُونُ أَرَادَ بِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا مَعْدُودِينَ فِي جُمْلَتِهِمْ لَا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْغَزَاةِ ، وَإِلَّا كَانَ خَطَأً مَرْدُودًا ، وَأَبْنُ عَبَّاسٍ لَمْ يَكُنْ فِي سَنَةِ يَوْمِ بَدْرٍ يَمِيزُ هَذِهِ الْمَسَائِلَ بِنَفْسِهِ ، وَالرَّوَايَةُ عَنْهُ فِيهَا كَمَا عَلِمْتَ أَنفًا .

(212/314)

---

وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَأَبْنِ جُرَيْجٍ وَالشَّعْبِيِّ وَأَبْنِ إِسْحَاقَ وَمَعْمَرٍ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ . قَالَ مُجَاهِدٌ : فِتْنَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ قَيْسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وَالْحَارِثُ بْنُ زُمَعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلِبِ ، وَعَلِيُّ بْنُ أُمَيَّةَ ، وَالْعَاصِمُ بْنُ مُنَبِّهٍ بْنِ الْحَجَّاجِ خَرَجُوا مَعَ قُرَيْشٍ مِنْ مَكَّةَ وَهُمْ عَلَى الْإِرْتِيَابِ فَحَبَسَهُمْ أَرْتِيَابُهُمْ ، فَلَمَّا رَأَوْا قِلَّةَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا : غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ، حَتَّى قَدِمُوا عَلَى مَا قَدِمُوا عَلَيْهِ مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ بَعْدَ نَقْلِهِ : وَهَكَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ سَيَّارٍ سَوَاءً .

(213/314)

---

وَمَنْ يُتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أَيْ: يَكِلْ إِلَيْهِ أَمْرَهُ مُؤْمِنًا إِيمَانًا إِذْعَانًا وَاطْمِئْنَانًا بِأَنَّهُ هُوَ حَسْبُهُ وَكَافِيهِ  
وَنَاصِرُهُ وَمُعِينُهُ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ فَإِنَّ  
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أَيْ: فَهُوَ تَعَالَى بِمُقْتَضَى عِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ عِنْدَ إِيمَانِهِمْ بِهِ، وَتَوَكَّلْهُمْ عَلَيْهِ:  
يَكْفِيهِمْ مَا أَهَمَّهُمْ، وَيُنْصِرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَإِنْ كَثُرَ عَدَدُهُمْ، وَعَظُمَ اسْتِعْدَادُهُمْ؛ لِأَنَّهُ  
عَزِيزٌ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، حَكِيمٌ يَضَعُ كُلَّ أَمْرٍ فِي مَوْضِعِهِ عَلَى مَا جَرَى عَلَيْهِ النَّظَامُ وَالتَّقْدِيرُ  
فِي سُنَنِهِ، وَمِنْهُ نَصْرُ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، بَلْ كَثِيرًا مَا تَدْخُلُ عِنَايَتُهُ بِالْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ فِي  
بَابِ الْآيَاتِ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ (كَمَا حَصَلَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَآيَاتِ اللَّهِ لَانْهَائَةِ لَهَا) وَإِنْ أَجْمَعَ  
الْمُحَقِّقُونَ عَلَى أَنَّ

التَّوَكُّلَ لَا يَقْتَضِي تَرْكَ الْأَسْبَابِ مِنَ الْعَبْدِ، وَلَا الْخُرُوجَ عَنِ السُّنَنِ الْعَامَّةِ فِي أَعْمَالِ الرَّبِّ،  
كَمَا سَبَقَ تَحْقِيقُهُ مُفَصَّلًا مِنْ قَبْلُ .

وَكَمْ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ . . . يَدِقُّ خَفَاهُ عَنْ فُهُمِ الذَّكِيِّ

(214/314)

---

وَقَدْ اشْتَهَرَ فِي عِبَادِ الْمَلَةِ أَفْرَادٌ فِي تَرْكِ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا تَوَكَّلًا عَلَى اللَّهِ، وَثِقَةً بِهِ، وَاشْتَهَرَ  
مِنْ تَسْخِيرِهِ تَعَالَى الْأَسْبَابَ لَهُمْ، وَالْعِنَايَةَ بِهِمْ، مَا يَعْسُرُ عَلَى الذَّكِيِّ تَأْوِيلَهُ كُلَّهُ بِالتَّخْرِيجِ

عَلَى الْمُصَادَفَاتِ الْمُعْتَادَةِ: كَأَبِرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ الَّذِي كَانَ مَلِكًا فَخَرَجَ مِنْ مُلْكِهِ، وَانْقَطَعَ  
لِعِبَادَةِ رَبِّهِ مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ، وَفِي كُلِّ أَمْرِهِ. وَأَبِرَاهِيمَ الْخَوَاصِ وَشَقِيقِ الْبَلْخِيِّ مِنَ  
الْمُتَقَدِّمِينَ، وَقَدْ أَدْرَكْنَا فِي عَصْرِنَا عَالِمًا أَفْغَانِيًّا مِنْهُمْ اسْمُهُ عَبْدُ الْبَاقِي خَرَجَ مِنْ بِلَادِهِ  
بَعْدَ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ إِلَى الْهِنْدِ لِتَوْسُّعِ فِي الْفَلْسَفَةِ وَسَائِرِ الْمَعْقُولَاتِ،  
وَجَدَّ وَاجْتَهَدَ فِيهَا حَتَّى رَأَى فِي مَنَامِهِ مَرَّةً رَجُلًا ذَا هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ مُؤَثَّرَةٍ سَأَلَهُ: أَتَدْرِي مَاذَا  
تَعْمَلُ يَا عَبْدُ الْبَاقِي؟ إِنَّكَ كَمَنْ يَأْخُذُ خَشْبَةً يُحْرِكُ بِهَا الْكَنْيفَ عَامَّةَ نَهَارِهِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ  
حَمَلَتْهُ هَذِهِ الرُّؤْيَا عَلَى التَّفَكُّرِ فِي هَذِهِ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ وَالْفَائِدَةِ مِنْهَا. وَمَا لَبِثَ أَنْ تَرَكَهَا،  
وَعَزَمَ عَلَى الْإِنْقِطَاعِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَتَرَكَ الْعَالَمَ كُلَّهُ لِذَلِكَ، فَخَرَجَ مِنَ الْهِنْدِ إِلَى بِلَادِ الْعَرَبِ  
فَكَانَ يَحْجُجُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَا شِئًا، وَيَعُودُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ فِي الْغَالِبِ فَيُقِيمُ عِنْدَنَا فِي الْقَلَمُونِ  
أَيَّامًا، وَفِي طَرَابُلُسَ وَحِمَصَ كَذَلِكَ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الْحِجَازِ، وَهَكَذَا دَوَائِكَ، وَلَمْ يَكُنْ

(215/314)

---

يَحْمِلُ دَرَاهِمَ، وَلَا زَادًا، وَقَدْ يَحْمِلُ كِتَابًا بِيَدِهِ يَقْرَأُهُ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْهُ وَهَبَهُ، وَتَلَقَّى عَنْهُ بَعْضُ  
الْأَذْكِيَاءِ دُرُوسًا فِي التَّوْحِيدِ وَالْأُصُولِ، وَمِنْهُ يُعْلَمُ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَوْلِيكَ الدَّرَاوِيشِ  
الْكُسَالِيِّ وَالسِّيَّاحِينَ الدَّجَالِينَ.

قَالَ صَدِيقُنَا الْعَالِمُ الذَّكِيُّ النَّقَادَةُ السَّيِّدُ عَبْدُ الْحَمِيدِ الزَّهْرَاوِيُّ: لَوْلَا أَنَا رَأَيْنَا هَذَا الرَّجُلَ  
بِأَعْيُنِنَا وَاخْتَبَرْنَاهُ فِي هَذِهِ السَّنِينَ الطَّوَالَ بِأَنْفُسِنَا، لَكُنَّا نَنْظُرُ أَنْ مَا يُرْوَى مِنْ أَخْبَارِ كِبَارِ  
الصَّالِحِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ كَأَبِرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ، وَالْخَوَاصِّ وَالْبُلْخِيِّ  
مُبَالَغَاتٍ وَإِعْرَاقَاتٍ مِنْ مُتَرْجِمِيهِمْ.

(216/314)

وَقَدْ حَدَّثَنَا الْعَلَمَةُ الْفَقِيهُ الصُّوفِيُّ الْأَدِيبُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْغَنِيِّ الرَّافِعِيُّ أَنَّهُ كَانَ غَلَبَ عَلَيْهِ  
حَالُ التَّوَكُّلِ، وَحَدَّثَهُ نَفْسُهُ بِأَنَّهُ صَارَ مُقَدِّمًا لَهُ، فَامْتَحَنَاهُ بِسَفَرٍ خَرَجَ فِيهِ مِنْ بَلَدِهِ، وَكَيْسَ  
فِي يَدِهِ مَالٌ، فَسَخَّرَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الشَّرِيفَةِ مَا كَانَ بِهِ سَفَرُهُ لاثِقًا بِكَرَامَتِهِ، وَحُسْنِ  
مَظْهَرِهِ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنَّهُ سَخَّرَ لَهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ يُعْرِفُ مِنْ أَغْنِيَاءِ الْمُسَافِرِينَ بِالْبَاخِرَةِ فَتَبِعَ لَهُ  
بِأَجْرَةِ السَّفَرِ فِيهَا إِلَى حَيْثُ أَرَادَ. وَمِثْلُ هَذَا التَّسْخِيرِ يَقَعُ كَثِيرًا لِرِجَالِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ فِي  
أَقْوَامِهِمْ وَأَقْطَارِهِمْ، وَنَاهِيكَ مَا كَانَ يَمْتَازُ بِهِ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ جَمَالِ الصُّورَةِ، وَمَهَابَةِ  
الطَّلَعَةِ، وَحُسْنِ الزِّيِّ وَالْوَقَارِ يُزِينُهُ اللَّطْفُ وَالتَّوَاضُّعُ، وَلَكِنْ هَلْ يُقَدِّمُ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ فِي  
كَرَامَتِهِ وَإِبَاتِهِ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَلَدِهِ، وَرُكُوبِ الْبَحْرِ وَهُوَ لَا يَحْمِلُ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا لَوْلَا  
شِدَّةُ الثِّقَةِ بِاللَّهِ، وَاطْمِئْنَانُ الْقَلْبِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ؟ كَلَّا إِنَّمَا يُقَدِّمُ عَلَى مِثْلِ هَذَا مَنْ لَا يَعْقِلُ

مَعْنَى التَّوَكُّلِ أَنَّا مِنْ الشُّطْرَانِ اتَّخَذُوا الاحْتِيَالَ عَلَى اسْتِجْدَاءِ الْأَغْنِيَاءِ وَالْأَمْرَاءِ  
بِمَظَاهِرِهِمُ الْخَادِعَةَ وَتَلْبِيسَاتِهِمُ الْبَاطِلَةَ ، صِنَاعَةً يَرُوجُونَهَا بِالْغُلُوفِ فِي إِطْرَائِهِمْ .

(217/314)

وَمَثَلُ عِنَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ فِي تَسْخِيرِ الْأَسْبَابِ الشَّرِيفَةِ لَهُمْ مَا وَقَعَ لِشَيْخِنَا  
الْأَسَازِذِ الْإِمَامِ أَيَّامَ كَانُ مَنْفِيًّا فِي بَيْرُوتَ : قَالَ لِي : جَاءَنِي فَلَانٌ مِنْ أَصْدِقَائِي الْمِصْرِيِّينَ  
الْمَنْفِيِّينَ يَوْمًا وَقَالَ : إِنَّهُ نُوفِي وَالِدَهُ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ اللَّائِقَةِ بِهِ فِي تَجْهِيزِهِ ، وَلَيْسَ فِي  
يَدِهِ مَا يَكْفِي لِدَلِكَ : قَالَ الشَّيْخُ : وَكُنْتُ قَبَضْتُ رَاتِبِي الشَّهْرِيَّ مِنَ الْمَدْرَسَةِ السُّلْطَانِيَّةِ لَمْ  
أَعْطِ مِنْهُ شَيْئًا لِلتُّجَّارِ الَّذِينَ نَأْخُذُ مِنْهُمْ مُؤَنَةَ الدَّارِ فَتَقْدُّنُهُ إِيَّاهُ كُلَّهُ لِعِلْمِي بِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ كُلِّهِ ،  
وَوَكَّلْتُ أَمْرِي وَأَمْرَ سُرَّتِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَمْ يُمَرِّ ذَلِكَ النَّهَارُ إِلَّا وَقَدْ جَاءَنِي حَوَالَةَ بَرْقِيَّةِ  
بِمَبْلَغِ أَكْبَرَ مِنْ رَاتِبِ الْمَدْرَسَةِ كَانُ دِينًا

لِي قَدِيمًا عَلَى رَجُلٍ أَعْيَانِي أَمْرُ تَقَاضِيهِ مِنْهُ ، وَأَنَا فِيهَا مُتَمِّعٌ بِمَا تَعْلَمُ مِنَ النُّفُوزِ ، وَكُنْتُ  
إِلَيْهِ بَعْدَ سَفَرِي مَرَارًا اتَّقَاضَاهُ مِنْهُ مُسْتَشْفِعًا بَعْدَ الْحَاجَةِ حَتَّى يَسْتُ مِنْهُ ، فَهَلْ كَانَ  
إِرْسَالُهُ إِيَّاهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِتَحْوِيلِ بَرْقِيَّةِ إِلَّا تَسْخِيرًا مِنْهُ تَعَالَى بِعِنَايَتِهِ الْخَاصَّةِ ؟

(218/314)

---

(أقول) : إِنِّي أَرَانِي غَيْرَ خَارِجٍ بِهَذِهِ الْأُمْتَالِ عَنْ مَنْهَجِ هَذَا التَّفْسِيرِ الْمُرَادُ بِهِ التَّفَقُّهُ  
وَالاعْتِبَارُ ، وَأَنَا أَرَى النَّاسَ يَزْدَادُ اعْرَاضُهُمْ عَنِ الدِّينِ وَالاهْتِدَاءِ بِالْقُرْآنِ ، وَتَقَلُّ فِيهِمْ  
الْقُدُورَةُ الصَّالِحَةُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار - 10 ص 30.17 ﴾

(219/314)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ ﴾

يتعلق ﴿ إذ يقول ﴾ بأقرب الأفعال إليه وهو قوله : ﴿ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ [ الأنفال : 48 ] مع ما عطف عليه من الأفعال ، لأنَّ ﴿ إذ ﴾ لا تقتضي أكثر من المقارنة في الزمان بين ما تضاف إليه وبين متعلقها ، فتعين أن يكون قول المنافقين واقعاً في وقت تزوين الشيطان أعمال المشركين فيتم تعليق وقت قول المنافقين بوقت تزوين الشيطان أعمال المشركين ، وإنما تطلب المناسبة لذكر هذا الخبر عقب الذي وليه هو ، وتلك هي أن كلا الخبرين يتضمّن قوة جيش المشركين ، وضعف جيش المسلمين ، ويقين أولياء الشيطان بأنّ النصر سيكون للمشركين على المسلمين .

فالخبر الأول عن طائفة أعانت المشركين بتأمينهم من عدوٍ يخشونه فأنحازت إليهم علناً ،  
وذلك يستلزم تقييح ما أقحم المسلمون فيه أنفسهم إذ عمدوا إلى قتال قوم أقوياء .

والخبر الثاني : عن طائفتين شوّهتا صنيع المسلمين حَمَقَتَاهُمْ ونَسَبَتَاهُمْ إلى الغرور فأسروا  
ذلك ولم يوحوا به ، وتحذّثوا به فيما بينهم ، أو أسروه في نفوسهم .

فَنَظَمَ الكَلَامَ هَكَذَا : وزَيْنَ الشَّيْطَانَ لِلْمَشْرُوكِينَ أَعْمَالَهُمْ حِينَ كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَقْبِحُونَ أَعْمَالَ  
المسلمين ويصفونهم بالغرور وقلة التديير من اعتقادهم في دينهم الذي أوقعهم في هذا الغرور  
ويجول في نفوس الذين في قلوبهم مرض مثل هذا .

و"القول" هنا مستعمل في حقيقته ومجازه : الشامل لحديث النفس ، لأنّ المنافقين يقولون  
ذلك بالسنتهم ، وأمّا الذين في قلوبهم مرض وهم طائفة غير المنافقين ، بل هم من لم يتمكن  
الإيمان من قلوبهم .

فيقولونه في أنفسهم لما لهم من الشكّ في صدق وعد النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم غير  
موالين للمنافقين ، ويجوز أن يتحدّثوا به بين جماعتهم .

و"المرض" هنا مجاز في اختلال الاعتقاد ، شبه بالمرض بوجهٍ سوءٍ عاقبته عليهم .

(220/314)

---



وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ في أول [البقرة: 10].

وأشاروا ﴿ بهؤلاء ﴾ إلى المسلمين الذين خرجوا إلى بدر، وقد جرت الإشارة على غير مشاهد، لأنهم مذكورون في حديثهم أو مستحضرون في أذهانهم، فكانوا بمنزلة الحاضر المشاهد لهم وهم يتعارفون بمثل هذه الإشارة في حديثهم عن المسلمين.

والغرور: الإيقاع في المضرة بإيهاام المنفعة، وقد تقدّم عند قوله تعالى: ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ في سورة [آل عمران: 196]، وقوله: ﴿ زخرف القول غروراً ﴾ في سورة [الأنعام: 112].

والدين هو الإسلام، وإسنادهم الغرور إلى الدين باعتبار ما فيه من الوعد بالنصر من نحو قوله: ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ [الأنفال: 65] الآية، أي غرهم ذلك فخرجوا وهم عدد قليل للقاء جيش كثير، والمعنى: إذ يقولون ذلك عند اللقاء وقبل حصول النصر.

فإطلاق الغرور هنا مجاز، وإسناده إلى الدين حقيقة عقلية.

وجملة: ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ معطوفة على جملة: ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾

[الأنفال: 48] لأنها من جملة الأخبار المسوقة؛ لبيان عناية الله تعالى بالمسلمين،

وللامتنان عليهم، فالمناسبة بينها وبين الجملة التي قبلها: أنها كالعلة لخبية ظنون المشركين

ونصرائهم ، أي أن الله خيب ظنونهم لأنّ المسلمين توكّلوا عليه وهو عزيز لا يغلب ، فمن تمسك بالاعتماد عليه نصره ، وهو حكيم يكوّن أسباب النصر من حيث يجهلها البشر .  
والتوكّل : الاستسلام والتفويض ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فإذا عزمتم فتوكّل على الله ﴾ في سورة [آل عمران : 159] .

وجعل قوله : فإن الله عزيز حكيم ﴿ جواباً للشرط باعتبار لازمه وهو عزّة المتوكّل على الله وإفائه منجياً من مضيق أمره ، فهو كناية عن الجواب وهذا من وجوه البيان وهو كثير الوقوع في القرآن ، وعليه قول زهير :  
من يلق يوماً على علاته هراً . . .

(221/314)

---

يلقّ السماحة فيه والندى خُلِقا  
أي ينل من كرمه ولا يتخلف ذلك عنه في حال من الأحوال ، وقول الربيع بن زياد العبسي :  
من كان مسروراً بمقتل مالك  
فليات نسوتنا بوجه نهار . . .  
يجد النساء حواسراً يندبنه

بالليل قبل تبليج الأسفار . . .

أي من كان مسروراً بمقتله فسروره لا يدوم إلا بعض يوم ثم يحزنه أخذ النارِ إِمَّا من ذلك  
المسرور إن كان هو القاتل أو من أحد قومه وذلك يُحزن قومه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(222/314)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ إِذِ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غُرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾

"المنافق" كلمة مأخوذة من نفاق اليربوع، وهو حيوان يشبه الفأر يعيش في الجبال في  
سرايب، وحين يتبعه حيوان آخر ليفترسه، فهو يسرع إلى جحره الذي يشبه السرداب،  
وهو يفتح أكثر من فتحة لهذا الجحر لتكون مخارج له، ومثل هذه الفتحات كالأبواب الخلفية  
، فينجو من الافتراس، فكأنه فتح لنفسه نفقاً، ينافق منه غيره فلا يقوى على اللحاق به .  
ولذلك نجد المنافق متعارضاً مع نفسه؛ ينطق لسانه بما لا يؤمن به، وبينما المؤمن منسجم  
النفس؛ ينطق لسانه بما في قلبه، والكافر أيضاً كذلك منسجم ينطق لسانه بما في قلبه من  
الكفر، ولكن المنافق متخبط مع نفسه، لسانه يقول كلمات الإيمان وقلبه يضم الكفر،

وهكذا تتعاند ملكات المنافق ، وحينما يكون القلب واللسان متعاندين لا توجد راحة نفسية ، وحسبك من المنافق أنه متعاند في الملكات .

ويصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين بقوله : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة: 14] .

إذن فالذاتية ضائعة ؛ لأن الإنسان لا يفقد ذاته حينما تكون ملكاته منسجمة ولا توجد ملكة تعارض ملكة أخرى ويكون عمله متوازناً ، ولكن الذي تتعاند ملكاته يعيش دائماً في قلق نفسي وحيرة . ولذلك يحاول أن يهرب من واقعه ، فيلجأ إلى المخدرات أو غيرها ، وليس الحل بأن يخدر الإنسان نفسه أمام الأحداث ، ولكن لا بد أن يواجه الإنسان الأحداث ويحاول إيجاد حل لها ، والمنافق لا يقدر على ذلك فينهار ، ويقول الله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال: 49] .

(223/314)

---

وبعد أن ينتصر المؤمنون نجدهم وهم يزدادون إيماناً وثقة في أنفسهم ، وتملأهم عزة الإيمان ، فينظر إليهم المنافقون بحسد وحقدهم ؛ لأنهم يكرهون المؤمنين ؛ ولا يتمنون لهم خيراً ، فهم في نفاقهم كفار ، في قلوبهم غل للمؤمنين يخاطب بعضهم البعض ويقولون : أصاب هؤلاء الغرور

بدينهم . ولكن ما أصاب المؤمنين ليس غروراً ؛ لأن معنى الغرور أن تغار بخصلة فيك تجعلك متفوقاً على غيرك ؛ والمؤمن ساعة النصر لا يغتر بنفسه ولكنه يعتز بالله القوي العزيز ، ويزداد تواضعاً له ويكون مشغولاً بشكر الله على ما حققه له من نصر ، أما المغرور فهو من يعزل النعمة عن المنعم وينسبها لنفسه . والمؤمنون ينسبون كل شيء لله تبارك وتعالى ؛ لأنهم يعلمون أن النعمة عطاء من يد الله الممدودة بالنعمة التي لا تعد ولا تحصى وما دامت النعمة لم تبعد الإنسان عن الله ، فإن الله يزيده منها ؛ لأنه مأمون على النعمة وينسبها لصاحبها ، والمغرور يستعلي بأي خصلة يميز بها عكس المؤمن الذي لا يستعلي أبداً بها ؛ لأنه يعلم أنه لا ذاتية له ، وأن الفضل لله تعالى ، وذلك يقول الحق تبارك وتعالى وهو يصف المؤمنين :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: 29] .

والشدة هنا ليست غروراً ، ولكنها طبع وملكة ، ولو كانت غروراً لبقيت كما هي ، ولكن المؤمن شديد على الكفار ذليل على المؤمنين لا يتكبر عليهم أبداً ، ولا يمكن أن يجعله إيمانه في قلب جامد ؛ لأن الإيمان يعطي المؤمنين مرونة أمام الأحداث ، لذلك نجد المؤمن لا هو شديد على إطلاقه ، لأن هناك مواقف تتطلب الرحمة في التعامل مع المؤمنين ، ولا هو رحيم على إطلاقه ؛ لأن هناك مواقف تتطلب الشدة في مواجهة الكفار .

---

وكان سيدنا أبو بكر - رضي الله عنه - معروفاً بأنه كان كثير البكاء من خوفه وخشيته لله؛ وقلبه مليء بالرحمة على المؤمنين . ولكن عندما جاءت حرب الردة لما نعي الزكاة ماذا حدث ؟ . جلس هو وعمر بن الخطاب ، والمعروف عن عمر أنه كان شديداً ، وجلسا يتشاوران ، وكان رأي عمر ألا يقاتلوا من ارتدوا بإنكارهم ومنعهم الزكاة ؛ لأنهم قالوا : لا إله إلا الله ، فقال له أبو بكر : " والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه " .

هذا هو أبو بكر الذي عُرف عنه أنه كان كثير البكاء من خشية الله تعالى ، وكان قلبه يمتلئ بالرحمة للمؤمنين . إنه يعلن في قوة وشدة في الحق أنه سوف يقاتل الخارجين على حدود الله والمانعين المنكرين للزكاة . ولو أن هذا الأمر حدث من عمر لقال الناس : شدة ألفناها ، ولكن أن يحدث هذا الأمر من هذا الرجل الطيب الرحيم المطبوع على الرقة وعلى اللين ؛ فهو أمر يبين لنا شدة المؤمن في مواجهة الكفر . المؤمن - إذن - لا هو مطبوع على الشدة المطلقة ولا هو مطبوع على الرحمة المطلقة ، لكنه شديد حين تكون الشدة مطلوبة للدين ، ورحيم حينما تكون الرحمة مطلوبة للدين ، وعزيز حين تكون العزة للدين ، وذليل حين تكون الذلة للدين . إذن فقول المنافقين : ﴿ غَرَّهُمْ دِينُهُمْ ﴾ لا يستند إلى

حكم صحيح ، بل هو مما يمليه عليهم نفاقهم ، لماذا ؟ .

لأن المؤمنين يتوكلون على الله دائماً وينسبون كل الفضل لله تعالى :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [ الأنفال : 49 ] .

وما دام الله عزيزاً فالذي آمن به عزيز ، وسبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ

وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ المنافقون : 8 ] .

(225/314)

---

وما دام الله حكيماً فهو يعطي الحكمة للمؤمنين ، والتوكل على الله معناه أن تكل كل أمورك إليه سبحانه وتعالى ، وأول هذه الأمور أنه أمرك بالأخذ بالأسباب ، فلا تترك الأسباب أبداً ، بل خذ بها دائماً مع التوكل عليه فإذا لم تسعفك فهناك المسبب . فقد قال الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [ التوبة : 14 ] .

وأمرنا سبحانه وتعالى : بالسعي فقال عز وجل :

﴿ فامشوا في مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [ الملك : 15 ] .

فهو سبحانه وتعالى كما أمر المؤمنين بأن يقاتلوا ويأخذوا بالأسباب ؛ لأنه سبحانه يريد أن يعذب الكفار بأيدي المؤمنين ، أمرهم سبحانه وتعالى كذلك أن يسعوا في سبيل الرزق .

وأنت حين تتوكل تنقل صفة إلى صفة؛ لأن التوكل عمل القلوب، والعمل تقوم به الجوارح،  
فلا تجعل التوكل عمل الجوارح؛ لأن الجوارح تعمل بالأسباب. والقلوب تتوكل على الله،  
وهكذا نفهم أن التوكل الحقيقي للجوارح هو أن تعمل ولذلك فلا بد من العمل والأخذ  
بالأسباب مع التوكل، ولا بد لنا أن ننتبه إلى المنافقين في بدر الذين قال عنهم الله سبحانه  
وتعالى:

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال: 49].

(226/314)

---

والمنافقون - كما قلنا - هم القوم الذين تتصارع ملكاتهم، وما على ألسنتهم يتناقض مع ما  
في صدورهم، أما الذين في قلوبهم مرض فهم ضعيفو الإيمان؛ مسلمون ساعة الرخاء؛  
فارون من الدين ساعة الشدة. إذن فهناك فريقان ذكرهما الحق سبحانه وتعالى؛  
المنافقون وهؤلاء كانوا من الأوس والخزرج ملكاتهم متضاربة؛ لأنهم كانوا يريدون السيادة  
على المدينة. وواحد منهم كان ينتظر أن يلبس تاج الملك، وبمجيء رسول الله صلى الله  
عليه وسلم إلى المدينة تنتهي منه هذه الفرصة وتضيع فرصة الملك والزعامة، وقد أوجد  
ذلك في نفسه حقداً وغيظاً. ولكن ظاهرة الإقبال من أهل المدينة كلهم على الإيمان



والدخول في الإسلام؛ جعلت هؤلاء المنافقين لا يستطيعون المقاومة؛ لذلك نطقوا  
الشهادتين بألسنتهم وبقي في قلوبهم حقد وضعينة على الإسلام، فالواحد منهم تتجاذبه  
ناحيتان متعارضتان .

والذين في قلوبهم مرض ليسوا منافقين ولكنهم ضعيفو الإسلام، وقد دخلوا إلى الدين  
ليأخذوا وهم لا يعطون، فإذا أعطاهم الإسلام بعضاً من نعم الدنيا فرحوا بها، وإذا  
أصابتهم شدة هربوا . ومن هؤلاء بعض الذين أسلموا في مكة . ولكن إسلامهم لم يصل بهم  
إلى أن يهاجروا إلى المدينة؛ خوفاً من أن يتركوا أموالهم وأولادهم فظلوا في مكة، ومرضى  
القلوب هؤلاء لا يعدمون الحياة؛ لأن المرض لا يعدم الحياة، لكنهم كانوا يعانون من عدم  
صحة الإيمان، ولما جاءت عملية القتال في غزوة بدر تشاوروا: أيذهبون مع الكفار أولاً  
يذهبون؟ ومع أي من الفريقين يقاتلون؟ . وقالوا: نخرج مع الكفار فإن وجدنا أنهم أقوى  
كنا معهم، وإن وجدنا المسلمين هم الأقوياء انضمنا إليهم .

(227/314)

---

ومن هؤلاء قيس بن الوليد المغيرة وعلي بن أمية بن خلف والعاصي ابن منيه بن الحجاج  
والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وأبو القيس بن الفاكه ابن المغيرة . وتجمع هؤلاء مع

بعضهم وذهبوا إلى المعركة لينضموا إلى المنتصر ، مؤمناً كان أو كافراً . وهم أخذوا هذا الموقف ؛ لأن صحة الإيمان في قلوب هؤلاء غير موجودة فهم أصحاب قلوب مريضة ومتعلقة بحب الدنيا .

وما قاله المنافقون والذين في قلوبهم مرض يدل على الرغبة في اتقاء الضرر ، مع أن هؤلاء في المدينة وهؤلاء في مكة ولكنهم قالوا شيئاً واحداً ، وهذا دليل على أن إغواء الشيطان للفريقين كان واحداً . ولذلك اتحدت العبارة . وقال هؤلاء وهؤلاء : ﴿ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ ﴾

قالها الفريقان (فريق المنافقين وفريق الذين في قلوبهم مرض) مع اختلاف المكان ، فبعضهم - كما علمنا - من مكة وبعضهم من المدينة . إذن فلا بد من وجود قاسم مشترك دفعهم أن يقولوا قولاً واحداً ، أي أن الشيطان وسوس إليهم بهذه العبارة . ولذلك كان الوجب أن ينتبهوا إلى أن اتفاق القول دليل إغواء الشيطان لهم .

وما معنى : ﴿ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ ﴾ .

غررت فلاناً أي زينت له الأمر تزيناً بحيث يقبل عليه إقبالاً لا ترشحه قوته له ، وقويت استعداده لكي يقوم به ، فإذا جئت لإنسان محدود الدخل مثلاً وأردت أن تغريه بشراء سيارة . فأنت تقول لتزين له المسألة : اقترض من فلان وفلان وادفع الباقي بالتقسيط ،

كأنك تعريه أن يتخذ موقفاً غير موقفه الذي كان ينوي القيام به .  
ولكن ما وجه الغرور في الدين ؟ .

(228/314)

---

إن المؤمنين المغترين بدينهم قد أحسوا بكثرتهم رغم أن عددهم قليل . فأقبلوا على الحرب بالرويا التي أراها الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن عدد الكفار قليل ، وبوعد الله لهم بالنصر ، أو غرهم بأن أوضح لهم أن الذي يموت مقتولاً في هذه الحرب يصير شهيداً وتكتب له حياة خالدة ، وقد جعل ذلك القوي منهم والضعيف يقاتلان بقوة؛ لأن الشهيد سيذهب إلى الجنة . وهكذا - في رأي المنافقين - اغتر المؤمنون بدينهم .  
ويرد الله عز وجل عليهم بقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [ الأنفال : 49 ] .

هذا هو الرد عليهم في أن المؤمنين لم يغرهم دينهم ، بل إنهم متوكلون على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكافيه ، وسبحانه عزيز لا يغلب ، وحكيم يضع الهزيمة في موضعها والنصر في موضعه .

إذن فالمسألة أن هؤلاء المؤمنين قد اختاروا الله فأعزهم ونصرهم .

ولكن هل قيلت هذه العبارة من المنافقين علناً؟ لا، إنهم لم يجروا أن يعلنوها بل قالوها سراً في أنفسهم، فأعلم الله سبحانه وتعالى رسوله بما حدث في نفوسهم، وكانت هذه لفظة من الله سبحانه وتعالى بأن فضح حقيقتهم لعلهم ساعة يسمعون ما يدور في نفوسهم؛ قد يتركون نفاقهم ويعودون إلى حظيرة الإيمان الصحيح، خصوصاً إذا اتبها إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبُّونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ وَنَحْنُ تُرَبِّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا فْتَرَبِّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: 52].

(229/314)

---

ففي هذه الآية الكريمة يوضح الله سبحانه وتعالى موقف المؤمنين في كل معركة يخوضونها، فهم إما أن ينتصروا ويهزموا الكفار ويقتلوهم ويأخذوا غنائمهم، وإما أن يستشهدوا فيدخلوا الجنة، وكل من الأمرين خير. وكشف الحق ما يدور في صدور المنافقين، وكان ذلك تنبيهاً للمؤمنين ألا يؤثر فيهم كلام المنافقين؛ لأن المؤمنين قد توكلوا على الله والله غالب على أمره. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(230/314)

## "فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرُونَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غُرْهُوْلًا دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49) ﴾

أخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قال : قرش يوم بدر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدلج في صورة سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ وأقبل جبريل عليه السلام على إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين فلما رأى جبريل انتزع يد ، وولى مدبراً هو وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقه انك جار لنا ؟ ! فقال ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرُونَ ﴾ وذلك حين رأى الملائكة ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ قال : ولما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين

المشركين فقال المشركون : وما هؤلاء ❁ غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز

حكيم ❁ .

(231/314)

---

وأخرج الواقدي وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما تواقف الناس أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم سري عنه فبشر الناس بجبريل عليه السلام في جند من الملائكة ميمنة الناس ، وميكائيل في جند آخر ميسرة ، وإسرافيل في جند آخر ألف ، وإبليس قد تصور في صورة سراقه بن جعشم المدلجي يجير المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، فلما أبصر عدو الله الملائكة ❁ نكص على عقبه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون ❁ فتشبت به الحارث ، وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر ورفع يديه وقال : يا رب موعدك الذي وعدتني .

وأخرج الطبراني وأبو نعيم في الدلائل عن رفاعه بن رافع الأنصار رضي الله عنه قال : لما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه ، فتشبت به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقه بن مالك ، فوكز في صدر الحارث فألقاه ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر ، فرفع يديه فقال : اللهم إني أسألك نظرتك إياي .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بمكة ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ [ القمر: 45 ] فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أي جمع يهزم؟! - وذلك قبل بدر - فلما كان يوم بدر وانهمزت قريش، نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم مصلاً بالسيف ويقول: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فكانت بيوم بدر، فأنزل الله فيهم ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب ﴾ [ المؤمنون: 24 ] الآية.

(232/314)

---

وأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ [ إبراهيم: 28 ] الآية. ورواهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوسعهم الرمية، وملأت أعينهم وأفواههم حتى أن الرجل ليقتل وهو يقذي عينيه وفاه، فأنزل الله ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [ الأنفال: 17 ] وأنزل الله في إبليس ﴿ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون ﴾ وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ فأنزل الله ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ قال: أرى جبريل عليه السلام معتجراً بردائه يقود الفرس بين يدي أصحابه ما ركبه.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ قال: ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة، وقال ﴿إني أخاف الله﴾ وكذب عدو الله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له به ولا منعة له.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن معمر قال: ذكروا أنهم أقبلوا على سراقه بن مالك بعد ذلك، فأنكر أن يكون شيء من ذلك.

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عبادة بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: كان الذي رآه نكص حين نكص الحارث بن هشام، أو عمرو بن وهب الجمحي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿إذ يقول المنافقون﴾ قال: وهم يومئذ في المسلمين.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين.



وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الكلبي رضي الله عنه قال : هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة ، ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا المسلمين قالوا ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن الشعبي رضي الله عنه في الآية قال : كان أناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا وفد المسلمين قالوا ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن إسحق رضي الله عنه في قوله ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾ قال : هم الفئة الذين خرجوا مع قريش ، احتبسهم آبؤهم فخرجوا وهم على الارتياب ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ حين قدموا على ما قدموا عليه من قلة عددهم وكثرة عدوهم ، وهم فئة

من قريش مسمون خمسة : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان ، والحارث بن زمعة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله تعالى: ﴿إِذ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾

العامل في "إِذ" إمَّا "زَيْن" ، وإمَّا "نَكْصَ" وإمَّا "شَدِيدُ الْعِقَابِ" وإمَّا "اذكروا" .  
قال ابن الخطيب: " وإنما لم تدخل الواو في قوله "إِذ يَقُولُ" ودخلت في قوله "وَإِذ زَيْن" ؛ لِأَنَّ

قوله: "وَإِذ زَيْن" عطف التزین على حالهم وخروجهم بطراً ورثاء الناس .

وأما قوله ﴿إِذ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ فليس فيه عطف على ما قبله ، بل هو ابتداء كلام

منقطع عما قبله .

و﴿غَرَّ هَوْلَاءَ دِينَهُمْ﴾ منصوب المحل بالقول . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير ابن عادل حـ

9 ص 540﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿إِذ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوْلَاءَ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49) ﴿﴾

إن أصحاب الغفلة وأرباب الغرّة إذا هبّت رياح صَوْلَتِهِمْ في زمان غفلتهم يلاحظون أهل الحقيقة بعين الاستحْقار، وَيَحْكُمُونَ عليهم بضعف الحال، وينسبونهم إلى الضلال، ويعدونهم من جملة الجهّال، وذلك في زمان الفترة ومدة مُهَلَّةِ أهل الغيبة.

(235/314)

---

والذين لهم قوة اليقين ونور البصيرة ساكنون تحت جريان الحكم، يَرَوْنَ الغائبات عن الحواس بعيون البصيرة من وراء ستر رقيق؛ فلا الطوارق تُهْزِمُهُمْ، ولا هواجم الوقت تستفزهم، وعن قريب يلوح علمُ اليُسْرِ، وتنجلي سحائبُ العُسْرِ، ويمحق اللهُ كيد الكائدين. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 631 ﴾ ﴿﴾

(236/314)

---

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابوري في الآيات السابقة:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ﴾

﴿ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهََ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿49﴾ ﴾

(237/314)

---

التفسير: لما أمر سبحانه بالقتال في قوله ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ [ الأنفال : 39 ] والمقاتلة مظنة حصول الغنيمة أعاد حكم الغنيمة ببيان أوفى وأشفى فقال ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ﴾ أي الذي حزتم من أموال الكفرة قهراً . وقوله ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بيان " ما " أي من كل ما يقع عليه اسم الشيء حتى المخيط والخيط . وقوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ بالفتح مبتدأ محذوف الخبر . وروى الجعفي عن أبي عمرو ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ بالكسر . قال في الكشاف : والمشهورة أكد وأثبت للإيجاب كأنه قيل : فلا بد من ثبات الخمس فيه ولا سبيل إلى الإخلال به لأنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات كقولك : ثابت واجب حق لازم كان أقوى لإيجابه من النص على واحد . عن الكلبي أن الآية نزلت ببدر . وقال الواقدي : كان الخمس

في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً في  
الهجرة. واعلم أن الآية تقتضي أخذ الخمس من الغنائم واختلفوا في كيفية قسمة ذلك  
الخمس على أقوال أشهرها: أن ذلك الخمس يخمس حتى يكون مجموع الغنيمة ومقسماً  
بخمسة وعشرين قسماً عشرون الغنائم بالاتفاق لأنهم كسبوها كالاخطاب والاصطياد ،  
وأما الخمسة الباقية فواحد منها كان لرسول الله ويصرف الآن ما كان يصرفه إليه من مصالح  
المسلمين كسد الثغور وعمارة الحصون والقناطر والمساجد وأرزاق القضاة والأئمة الأهم  
فالأهم ، وواحد لذوي القربى يعني أقارب رسول الله من أولاد هاشم والمطلب ابني عبد  
مناف دون عبد شمس ونوفل وهما ابنا عبد مناف أيضاً لما روي عن عثمان بن عفان  
وجبير بن مطعم - وكان عثمان من بني عبد شمس وجبير من بني نوفل - أنهما قالاً لرسول  
الله صلى الله عليه وسلم: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك  
الله منهم ، أرأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة؟  
فقال صلى الله عليه وسلم: إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو  
المطلب شيء واحد -

(238/314)

وشبك بين أصابعه - يستوي في هذا السهم غنيهم وفقيرهم إلا أن للذكر مثل حظ  
الأنثيين .

(239/314)

---

وثلاثة أخماس الباقية لليتامى والمساكين وابن السبيل . وهذا عند الإمامين أبي حنيفة  
والشافعي إلا أن أبا حنيفة قال : إن سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ساقط بموته  
وكذلك سهم ذوي القربى وإنما يعطون لفقرهم فهم أسوة سائر الفقراء . فعلى مذهب  
الإمامين . معنى قوله سبحانه ﴿ فأن لله خمسه وللرسول ﴾ [ التوبة : 62 ] فأن لرسول  
الله خمسة كقوله ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ وعن أبي العالية إيجاب سهم آخر لله  
وأنه يقسم الخمس على ستة أسهم . والذاهبون إلى هذا القول اختلفوا فقيل : إن ذلك  
السهم لبيت المال . وقيل : يصرف إلى مصالح الكعبة لما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان  
يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة فهو سهم الله . وعن ابن  
عباس أنه كان يقسم على ستة لله وللرسول سهمان ، وسهم لأقاربه حتى قبض فأجرى أبو  
بكر الخمس على ثلاثة وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل ، وكذلك روي عن عمرو ومن  
بعده من الخلفاء . وروي أن أبا بكر منع بني هاشم الخمس وقال : إنما لكم أن يعطى فقيركم

ويزوج أئيمكم ويخدم من لا خادم له منكم ، فأما الغني منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غني لا يعطى هو ولا يتيم موسر من الصدقة شيئاً ، وروي عن زيد بن علي أنه قال : ليس لنا أن نبني منه قصوراً ولا أن نركب منه البراذين . وقيل : الخمس كله للقرابة لما روي عن علي عليه السلام أنه قيل له : إن الله تعالى قال ﴿ واليتامى والمساكين ﴾ فقال : أيتامنا ومساكيننا . وعن الحسن : في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لولي الأمر من بعده . وعند مالك بن أنس الأمر في الخمس مفوض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين الأصناف الخمسة عند الشافعي وإن رأى أعطى بعضهم دون بعض ، وإن رأى غيرهم أولى وأهم فذاك . فعند هذا يكون معنى قوله ﴿ فأن لله خمسه ﴾ أن من حق الخمس أن يكون متقرباً به إلى الله لا غير . ثم خص من وجوه القرب هذه الخمسة تفضيلاً لها على غيرها كقوله ﴿ وملائكته ورسله ﴾

(240/314)

---

وجبريل وميكائيل ﴿ وحاصل الآية إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل على عبدنا فاعلموا علماً يتضمن العلم والطاعة أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به فاقطعوا عنه أطما عكم

واقنعوا بالأخماس الأربعة ❖ يوم الفرقان ❖ يوم بدر لأنه فرق فيه بين أهل الحق وأهل  
الباطل .

(241/314)

---

والجمعان فريقياهما والذي أنزل عليه يومئذ الآيات والملائكة والنصر والتأييد ❖ والله على  
كل شيء قدير ❖ فبذلك نصر القليل على الكثير ❖ إذ أنتم ❖ بدل من يوم الفرقان ❖  
بالعدوة ❖ بالكسر والضم شط الوادي أي جانبه وحافته . وقال أبو عمرو ، هي المكان  
المرتفع و ❖ الدنيا ❖ تأنيث الأدنى يعني الجانب الذي يلي المدينة وقلب الواو ياء فيه على  
القياس لأن " فعلى " من بنات الواو وتقلب ياء كالعليا ، وأما القصوى تأنيث الأقصى فإنه  
كالقود في مجيئه على الأصل وقد جاء القصيا أيضاً قليلاً والعدوة القصوى مما يلي مكة ❖  
والركب ❖ يعني الأربعين الذين كانوا يقودون العير ❖ أسفل منكم ❖ بالساحل وهو  
نصيب على الظرف مرفوع المحل خبراً للمبتدأ أي مكاناً أسفل من مكانكم والفائدة في ذكر  
مراكز الفرق الثلاث تصوير وقعة بدر وما دبر الله سبحانه من عجب صنعته وكمال راقته  
ونصره حتى كان ما كان . وذلك أن العدو القصوى التي أناخ بها المشركون كانت في مكان  
فيه الماء وكانت أرضاً لا بأس بها ، وأما العدو الدنيا فهي رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا ماء



بها وكانت العير وراء ظهور العدو ومع كثرة عددهم فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم  
وعبدتهم ، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحروب بعيالهم وأثقالهم لبيعتهم الذب عن الحرم  
على بذل مجهودهم حيث لم يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالانحياز إليه . ﴿ ولو  
تواعدتم ﴾ أتم وأهل مكة على موضع تلاقون فيه ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ فثبطكم  
قلتم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد وثبطهم ما في قلوبهم من هيبة الرسول والمسلمين فلم يتفق  
لكم من التلاقي ما تيسر بتوفيق الله وتسبيبه ﴿ ولكن ليقضي الله ﴾ أي ليظهر ﴿ أمراً  
كان مفعولاً ﴾ مقدراً وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك . وقوله ﴿ ليهلك ﴾ بدل  
من ﴿ ليقضي ﴾ بدل الخاص من العام واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام ، وذلك أن  
وقعة بدر كان فيها من الآيات والمعجزات ما يكون الكافر بعدها كالمكابر

(242/314)

---

لنفسه فكفره صادر عن وضوح بينة أي لا شك في كفره وعناده كما أنه لم يبق شك  
للمسلمين في حقية دين الإسلام . وفي قوله ﴿ ليقضي ﴾ و ﴿ ليهلك ﴾ دلالة على أن  
أفعاله تعالى مستتبعة للحكم والمقاصد والغايات خلاف ما عليه ظاهر الأشاعرة . ﴿  
وإن الله لسميع ﴾ لدعائكم ﴿ عليهم ﴾ بنياتكم ﴿ إذيريكم ﴾ منصوب باذكر أو بدل

آخر من يوم الفرقيان أو متعلق بعليم أي يعلم تدايركم إذ يريكهم ﴿ في منامك ﴾ أي في رؤياك ﴿ قليلاً ﴾ أراه وإياهم في رؤياه قليلاً فأخبر بذلك أصحابه فكان تشبيهاً لهم وتشجيعاً على عدوهم . وقيل : في منامك أي في عينك في اليقظة لأن العين موضع النوم وفيه تكلف .

(243/314)

---

﴿ ولو أراكم كثيراً ﴾ على ما هم عليه ﴿ لفشتم ﴾ والفشل الجبن والخور . ﴿ ولتنازعتهم في الأمر ﴾ أمر الحرب والإقدام ﴿ ولكن الله سلم ﴾ عصم من الفشل والتنازع ﴿ إنه عليهم بذات الصدور ﴾ يعلم ما سيحدث فيها من مواجب الإقدام والإحجام ﴿ وإذ يريكموهم ﴾ يبصركم إياهم ﴿ إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ نصب على الحال لأن الرؤية رؤية العين لا القلب وقد استوفت الإراءة مفعولية فلن يتعدى إلى ثالث ﴿ ويقللكنم في أعينهم ﴾ الحكمة في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهرة مع أن في ذلك تصديقاً لرؤيا النبي ، وأما تقليل المؤمنين في أعين الكفار فالحكمة في ذلك أن يجترىء الكفار عليهم قلة مبالاة بهم وأن يستعدوا لهم كما ينبغي ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ فعل ما فعل من التقليل ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ فيه أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها .

وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زاداً للمعاد . ثم علم المؤمنين آداب اللقاء في الحروب فقال  
﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ لقاتلهم ولا تقروا باللقاء اسم غلب في القتال فهذا ترك وصف  
الفئة بالحارين ونحو ذلك ، والأمر بالثبات في القتال لا ينافي الرخصة في التحرف والتحيز  
فعل الثبات في الحرب لا يحصل إلا بهما . ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ في مواطن الحرب ﴿  
لعلكم تفلحون ﴾ تظفرون بمرادكم من النصر والثبوت . وفيه إشعار بأن العبد لا يجوز له أن  
يفتر عن ذكر ربه في أي شغل وعمل كان ، ولو أن رجلاً أقبل من المغرب إلى المشرق منفقاً  
أمواله لله ، والآخر من المشرق إلى المغرب ضارباً بسيفه في سبيل الله كان الذاكر لله أعظم  
أجراً . وقيل : المراد من هذا الذكر أن يدعو على العدو : اللهم اخذهم اللهم اقطع دابرهم  
ونحو ذلك والأولى حملة على العموم ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ في سائر ما يأمر به لأن  
الجهاد لا ينفع إلى مع التمسك بسائر الطاعات ﴿ ولا تنازعوا فتشلقوا ﴾ منصوب  
بإضمار " أن " أو مجزوم لدخوله في حكم النهي ويظهر

(244/314)

---

التقدير " أن " في قوله ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ على القراءتين . والريح الدولة شبهت في  
نفوذ أمرها وتمشيته على وفق المشيئة بالريح وهبوبها . يقال : هبت رياح فلان إذا دالت له

الدولة ونفذ أمره . وقيل : الريح حقيقة ولم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله . وفي الحديث :  
" نصرت بالصبا " حذرهم التنازع واختلاف الرأي نحو ما وقع لهم بأحد بمخالفتهم رسول  
الله . احتج نفاة القياس بالآية لأن القول به يفضي غالباً إلى النزاع المنهى عنه . وكذا القائلون  
: بأن النص لا يجوز تخصيصه بالقياس .

قال أهل السير : إن أهل مكة حين نفروا لحماية العير أتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة  
أن ارجعوا فقد سلمت غيركم ، فأبى أبو جهل وقال : حتى تقدم بدرأ نشرب بها الخمر  
وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب .

(245/314)

---

فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله  
المؤمنين أن يكونوا مثلهم بطرين مرأين بأعمالهم كإطعام الطعام ونحوه فقال ﴿ ولا تكونوا  
كالذين خرجوا من ديارهم ﴾ الآية . وصفهم بأوصاف ثلاثة : أولها : البطر وهو الطغيان  
في النعمة ويقال أيضاً شدة المرح . والتحقيق إن النعم إذا كثرت من الله على العبد فإن  
صرفها في مرضاته وعرف حق الله فيها فذاك هو الشكر وإن توسل بها إلى المفاخرة على  
الأقران والمكاثرة على أبناء الزمان فذاك هو البطر . وثانيها : رثاء الناس وهو القصد إلى

إظهار الجميل مع قبح النية وفساد الطوية ، أو هو إظهار الجميل مع قبح النية وفساد الطوية ،  
أو هو إظهار الطاعة مع إبطان المعصية كما أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر .

وثالثها قوله ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ أي يمنعون عن قبول دين محمد صلى الله عليه  
وسلم . قال الواحدي : معناه وصدوا عن سبيل الله ليكون عطفاً للاسم على الاسم ، أو  
يكون الكل أحوالاً على تأويل بطرين مرآين صادّين أو يبطرون ويراءون ويصدّون .

واعترض عليه في التفسير الكبير بأنه تارة يقيم الاسم مقام الفعل والأخرى بالعكس ليصح له  
كون الكلمة معطوفة على جنسها ، وكان من الواجب عليه أن يذكر السبب الذي لأجله  
عبر عن الأولين بالمصدر وعن الثالث بالفعل . ثم ذكر السبب فقال : إن أبا جهل ورهطه  
كانوا محبوبين على البطر والرياء فذكرا بلفظ الاسم تنبيهاً على أصالتهم فيهما ، وأما الصدّ  
فإنما حصل في زمان ادعاء محمد النبوة فذكر بلفظ الفعل الدال على التجدد . قلت : لو  
جعلنا قوله ﴿ ويصدون ﴾ عطفاً على صلة " الذين " لم يحتج إلى هذه التكاليف التي

اخترعها الإمامان . ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ فيه زجر عن التصنع والافتخار ، ويعلم  
منه أن المعصية مع الانكسار أقرب إلى الخلاص من الطاعة مع الاستكبار . ﴿ وإذ زين

﴿ معناه واذكر إذ زين أو هو معطوف على ما قبله من النعم وأقربها قوله ﴾ وإذ

---

يريكموهم ﴿ وفي هذا التزيين وجهان : أحدهما . أن الشيطان زين بوسوسته من غير أن  
يتمثل بصورة إنسان وهو قول الحسن والأصم . وفي الكشف : زين لهم الشيطان أعمالهم  
التي عملوها في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا  
يطاقون ، وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجرتهم . فلما تلاقى الفريقان  
نكص الشيطان وتبرأ منهم أي بطل كيده حين نزلت جنود الله . وثانيهما : أنه ظهر في صورة  
إنسان وذلك أن المشركين حين أرادوا المسير إلى بدر ذكروا الذي بينهم وبين بني كنانة من  
الحرب فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم ، فتمثل لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن  
جعشم الشاعر الكناني وكان من أشرفهم في جند من الشياطين معه راية ﴿ وقال لا  
غالب لكم اليوم من الناس ﴿ أي لا غالب كائن لكم ولو كان لكم مفعولاً بمعنى لا غالب إلا  
إياكم لا تنصب كما يقال لا ضارباً زيداً .

(247/314)

---

﴿ وإني جار لكم ﴾ أي مجيركم من بني كنانة أو من كل عدو يعرض من البشر . ومعنى  
الجار ههنا الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار . ﴿ فلما تراءت

الفئان ﴿ أي التقى الجمعان بحيث رأت كل واحدة الأخرى ﴾ نكص على عقبيه ﴿  
والنكوص الإحجام عن الشيء أي رجع . ﴿ وقال إني بريء منكم ﴾ قيل : كانت يده  
في يد الحرث بن هشام فلما نكص قال له الحرث إلى أين ؟ أتخذلنا في هذه الحالة فقال ﴿ إني  
أرى ما لا ترون ﴾ أي من نزول الملائكة ودفعت في صدر الحرث وانطلق وانهمزوا ، فلما بلغوا  
مكة قالوا : هزم الناس سراقه فبلغ ذلك سراقه فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني  
هزيمتكم ، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان . وفي الحديث : " ما رؤي إبليس يوماً أصغر ولا  
أدحر ولا أغيظ من يوم عرفه لما يرى من نزل الرحمة إلا ما رأى يوم بدر " وأما قوله ﴿ إني  
أخاف الله ﴾ فقد قيل : إنه لما رأى جبريل خافه ، وقيل : لما رأى الملائكة ينزلون من  
السماء خافهم لأنه ظن أن الوقت الذي أنظر إليه قد حضر . قال قتادة : صدق في قوله ﴿  
إني أرى ما لا ترون ﴾ وكذب في قوله : ﴿ إني أخاف الله ﴾ وقوله ﴿ والله شديد  
العقاب ﴾ يجوز أن يكون من بقية حكاية كلام إبليس ، ويجوز أن يكون اعتراضاً وظرفه  
﴿ إذ يقول ﴾ أو لا ظرف له ﴿ وإذ يقول ﴾ ينتصب بذكر على أنه كلام مبتدأ منقطع  
عما قبله ولهذا فقد العاطف . و ﴿ المنافقون ﴾ قوم من الأوس والخزرج بالمدينة ﴿  
والذين في قلوبهم مرض ﴾ يجوز أن يكون من صفة المنافقين وأن يراد قوم من قريش وأسلموا  
وما قوي الإسلام في قلوبهم ولم يهاجروا . ثم إن قريشاً لما خرجوا إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم قال : أولئك نخرج مع قومنا فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه ، وإن كان في قلة

أقمنا في قومنا ، وقال محمد بن إسحق . ثم قتلوا جميعاً مع المشركين يوم بدر . ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ قال ابن عباس : معناه أنه خرج بثلاثمائة وثلاثة عشر إلى زهاء ألف وما ذلك إلا لأنهم

(248/314)

---

اعتمدوا على دينهم . وقيل : المراد أن هؤلاء يسعون في قتل أنفسهم رجاء أن يجعلوا أحياء بعد الموت . ثم قال جواباً لهم ﴿ ومن يتوكل على الله ﴾ يكل أمره إليه ويثق بفضله ﴿ فإن الله عزيز ﴾ غالب يسلط الضعيف القليل على القوي الكثير ﴿ حكيم ﴾ يوصل العذاب إلى أعدائه والرحمة إلى أوليائه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 406.401 ﴾

(249/314)

---

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾



قوله: ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ اللقاء .

الحرب ، والفئة : الجماعة ، أي إذا حاربتهم جماعة من المشركين ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ لهم ولا تجبنوا عنهم ، وهذا لا ينافي الرخصة المتقدمة في قوله: ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ [ الأنفال : 16 ] فإن الأمر بالثبات هو في حال السعة ، والرخصة هي في حال الضرورة .

وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحرف والتحيز ﴿ واذكروا الله ﴾ أي : اذكروا الله عند جزع قلوبكم ، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد ؛ وقيل المعنى : اثبتوا بقلوبكم واذكروا بألسنتكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان ، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان .

قيل وينبغي أن يكون الذكر في هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [ البقرة : 250 ] .

وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الأحوال ، حتى في هذه الحالة التي ترجف فيها القلوب ، وتزيغ عندها البصائر ، ثم أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم إليه ، ونهاهم عن التنازع وهو الاختلاف في الرأي ، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل ، وهو الجبن في الحرب .

والفاء جواب النهي ، والفعل منصوب بإضمار أن ، ويجوز أن يكون الفعل معطوفاً على ﴿

تنازعوا ﴿ مجزوماً بجازمه .

قوله : ﴿ وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ قرىء بنصب الفعل ، وجزمه عطفاً على تفشلوا على

الوجهين ، والريح : القوّة والنصر ، كما يقال الريح لفلان إذا كان غالباً في الأمر .

وقيل الريح الدولة ، شبهت في نفوذ أمرها بالريح في هبوبها ، ومنه قول الشاعر :

إذ هبت رياحك فاغتنمها . . . فعقبى كل خافقة سكون

(250/314)

---

وقيل المراد بالريح : ريح الصبا ، لأن بها كان ينصر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أمرهم

بالصبر على شدائد الحرب ، وأخبرهم بأنه مع الصابرين في كل أمر ينبغي الصبر فيه ، ويا

حبذا هذه المعية التي لا يغلب من رزقها غالب ، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات ،

وإن كانت كثيرة ، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم

بطراً ورثاء الناس ، وهم قريش .

فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع أبي سفيان ، ومعهم القيان والمعازف ، فلما

بلغوا الجحفة بلغهم أن العير قد نجت وسلمت ، فلم يرجعوا بل قالوا لا بدّ لهم من الوصول إلى

بدر ليشربوا الخمر ، وتغني لهم القيان ، وتسمع العرب بمخرجهم ، فكان ذلك منهم بطراً

وأشراً وطلباً للثناء من الناس، ولتمدح إليهم، والفخر عندهم، وهو الرياء؛ وقيل والبطر  
في اللغة: التقوي بنعم الله على معاصيه، وهو مصدر في موضع الحال، أي خرجوا بطرين  
مرائين.

وقيل هو مفعول له وكذا رياء، أي خرجوا للبطر والرياء.

وقوله: ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ معطوف على بطراً، والمعنى كما تقدم، أي خرجوا بطرين مرائين  
صادقين عن سبيل الله، أو للصد عن سبيل الله.

والصد: إضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية.

ويجوز أن يكون ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ معطوفاً على يخرجون، والمعنى: يجمعون بين الخروج  
على تلك الصفة والصد ﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ لا تخفى عليه من أعمالهم خافية،  
فهو: مجازيهم عليها.

(251/314)

---

قوله: ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ الظرف متعلق بمحذوف، أي واذكري يا محمد  
وقت تزيب الشيطان لهم أعمالهم، والتزيب: التحسين، وقد روي أن الشيطان تمثل لهم  
وقال لهم تلك المقالة، وهي: ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ أي: مجير

لكم من كل عدو أو من بني كنانة ، ومعنى الجار هنا : الدافع عن صاحبه أنواع الضرر ، كما يدفع الجار عن الجار ، وكان في صورة سراقاة بن مالك بن جشعم ، وهو من بني بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم .

وقيل المعنى : إنه ألقى في روعهم هذه المقالة ، وخيل إليهم أنهم لا يغلزون ولا يطاقون ❀  
فلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانَ ❀ أَي : فئة المسلمين والمشركين ❀ نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ ❀ أَي : رجع القهقري ، ومنه قول الشاعر :

ليس النكوص على الأعقاب مكرمة . . . إن المكارم إقدام على الأمل  
وقول الآخر :

وما نفع المستأخرين نكوصهم . . . ولا ضرراً أهل السابقات التقدّم  
وقيل معنى نكص هاهنا : بطل كيده وذهب ما خيله ❀ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ ❀ أَي : تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة ، ثم علل ذلك بقوله :  
❀ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ❀ يعني : الملائكة ، ثم علل بعله أخرى فقال : ❀ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ❀  
❀ قيل : خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الوقعة ؛ وقيل إن دعوى الخوف كذب منه ، ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتلّ بذلك ، وجملة ❀ والله شديد العقاب ❀ يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس ، ويحتمل أن تكون كلاماً مستأنفاً من جهة الله سبحانه .

قوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ الظرف معمول لفعل محذوف هو اذكر ، ويجوز أن يتعلق  
بنكص أو بزبن أو بشديد العقاب .

(252/314)

قيل : المنافقون هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ هم  
الشاكون من غير نفاق ، بل لكونهم حديثي عهد بالإسلام ، فوافقوا المنافقين في قولهم بهذه  
المقالة ، أعني : ﴿ غَرَّهؤلاء ﴾ أي : المسلمين ﴿ دينهم ﴾ حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم  
به من قتال قريش .

وقيل : الذين في قلوبهم مرض هم المشركون ، ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة  
وما حولها ، وأنهم هم والمنافقون من أهل المدينة ، قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين  
إلى بدر لما رأوهم في قلة من العدد وضعف من العدد ، فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ وَمَنْ  
يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلبه غالب ، ولا يذل من توكل عليه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ له  
الحكمة البالغة التي تقصر عندها العقول .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ واذكروا الله  
﴾ قال : افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون : عند الضراب بالسيوف .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن سهل بن سعد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
: " ثنتان لا يردان : الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً " وأخرج  
الحاكم وصححه ، عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الصوت  
عند القتال .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا  
فَتَقْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ يقول : لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم .  
وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ،  
عن مجاهد في قوله : ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ قال : نصركم .  
وقد ذهب ریح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد .

(253/314)

---

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ  
خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ الآية ، يعني المشركين الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يوم بدر .

وأخرج ابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظي قال : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر

خرجوا بالقيان والدفوف ، فأنزل الله هذه الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، عن مجاهد ، في الآية قال : أبوجهل وأصحابه يوم بدر .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في الآية قال : كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر خرجوا ولهم بغى وفخر ، وقد قيل لهم يومئذ ارجعوا فقد انطلقت غيركم وقد ظفرتم ، فقالوا : لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا ، وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ " اللهم إن قريشاً قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك " وذكر لنا أنه صلى الله عليه وسلم قال يومئذ " جاءت من مكة أفلاذها " .

(254/314)

---

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس ، قال : جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدج ، والشيطان في صورة سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان : ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ وأقبل جبريل على إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من

المشركين انتزع إبليس يده وولى مدبراً وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقَة إنك جار لنا فقال :

﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ وذلك حين رأى الملائكة ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ

العقاب ﴾ قال : ولما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين ، وقلل

المشركين في أعين المسلمين ، فقال المشركون : وما هؤلاء ؟ غر هؤلاء دينهم ، وإنما قالوا

ذلك من قلتهم في أعينهم ، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك ، فقال الله : ﴿ وَمَنْ

يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وأخرج الطبراني ، وأبو نعيم ، عن رفاعة بن رافع الأنصاري ، قال : لما رأى إبليس ما تفعل

الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه فتشبت به الحارث بن هشام ، وهو

يظن أنه سراقَة بن مالك ، فوكر في صدر الحارث ، فألقاه ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في

البحر ، ورفع يديه فقال : اللهم إني أسألك نظرتك إياي .

وأخرج الواقدي وابن مردويه ، عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ قال :

ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة ، فعلم عدوّ الله أنه لا يدان له بالملائكة ، وقال :

﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ وكذب عدوّ الله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوّة له به ولا منعة



وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن معمر قال: ذكروا أنهم أقبلوا على سراقه بن مالك بعد ذلك، فأنكر أن يكون قال شيئاً من ذلك.

(255/314)

---

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِذ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال: وهم يومئذ في المسلمين.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن الكلبي في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال: هم قوم كانوا أقرؤا بالإسلام، وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾.

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الشعبي نحوه. انتهى انتهى. اهـ ﴿فتح القدير حـ 2

ص ﴿

(256/314)

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ واعلموا ﴾ يا أهل الجهاد الأكبر ﴿ إنما غنمتم ﴾ عند رفع الحجب من أنوار  
المشاهدات وأسرار المكاشفات فلکم أربعة أخماسه تعيشون بها مع الله وتكتمونها عن  
الأغيار وتنفقون خمسها فى الله مخلصاً وللرسول متابعا ﴿ ولذی القربى ﴾ يعنى الإخوان  
فى الله مواصلاً ﴿ والیتامى ﴾ يعنى أهل الطلب من الذين غاب عنهم مشايخهم قبل  
بلوغهم إلى حد الكمال ﴿ والمساکین ﴾ الذين تمسكوا بأيدي الإرادة بأذيال إرشادكم ﴿  
وابن السبيل ﴾ يعنى الصادر والوارد من الصدق والإرادة مراعيًا جانب كل طائفة على  
حسب صدقهم وإرادتهم واستعدادهم .

(257/314)

---

إن كنتم وصلتم فى متابعة الرسول إلى الإيمان بالله عياناً ﴿ وبما أنزلنا على عبدنا ﴾ فى  
سفر ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ [ النجم : 10 ] ﴿ يوم الفرقان ﴾ الذى فيه  
الرحمن علم القرآن ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ جمع الصفات الإنسانية وجمع الأخلاق الربانية

فصار لحمد صلى الله عليه وسلم مع الله خلوة لا يتبعه فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿  
والله على كل شيء قدير ﴿ فيقدر على أن يوصلكم في متابعة رسوله إلى هذا المقام وهو  
الفناء عن الوجود والبقاء بالمعبود ﴿ إذ أنتم ﴿ أيها الصادقون في الطلب ﴿ بالعدو  
الدنيا ﴿ نازلة ﴿ وهم بالعدو القصوى ﴿ أي الأرواح بأقصى عالم الملكوت بارزة ﴿  
والركب أسفل منكم ﴿ يعني الهياكل والقوالب في أسفل سافلي الطبيعة . ﴿ ولو  
تواعدتم ﴿ أيها الأرواح والنفوس والأجساد ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴿ لما بينكم من  
التباين والتضاد ﴿ ولكن ﴿ جمعكم الله بالقدرة والحكمة ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً  
﴿ وهو إيصال كل شخص إلى رتبته التي استعد لها ﴿ فيهلك من هلك عن بينة ﴿ عن  
حجة ثابتة عليه ﴿ ويجيا من حيى عن بينة ﴿ فالأشقياء يقعون في سجين الطبيعة ونار  
القطيعة ، وأما السعداء فأرواحهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، قال ﴿ ارجعي  
إلى ربك راضية ﴿ [ الفجر : 28 ] ونفوسهم مع الملائكة المقربين كما قال ﴿ فادخلي في  
عبادي ﴿ [ الفجر : 29 ] وأبدانهم في جنات النعيم كما قال ﴿ وادخلي جنتي ﴿ [ ]  
الفجر : 30 ] ﴿ إن الله لسميع ﴿ من دعاه للوصول والوصال بالغدو والآصال ﴿ عليهم  
﴿ بمن يستحق الإذلال أو يستأهل الإجلال ﴿ إذ يريكم الله في منامك قليلاً ﴿ مع  
كثرتهم في الصورة ليدل على قلتهم في المعنى ﴿ لفشلتم ﴿ على عادة طبع الإنسان ﴿  
ولكن الله سلم ﴿ من الخوف البشري ﴿ ويقللكم في أعينهم ﴿ لأنهم نظروا إليكم

بالأبصار الظاهرة فلم يدركوا كثرة معنائكم ومددكم بالملائكة. ﴿ وإذا لقيتم فئة ﴾ هي النفس وهواها والشيطان وأعدائه والدنيا وزينتها ﴿ فاثبتوا ﴾

(258/314)

---

على ما أتم عليه من اليقين والصدق والإخلاص والطلب ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديار أوصافهم وتركوا الدين وداروا البلاد وزاروا العباد ليتباهوا بذلك على الإخوان والأقران. ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ فظنوا أنهم بلغوا مبلغ الرجال وأنه لا يضرهم التصرف في الدنيا وارتكاب بعض المنهيات بل ينفعهم في نفي الرياء والعجب إذ هو طريق أهل الملامة. ﴿ فلما تراءت الفئتان ﴾ فئة الأرواح والقلوب وفئة النفوس وصفاتها وأمد الله تعالى فئة الأرواح والقلوب بالأوصاف الملكية والواردات الربانية حتى انقادت النفوس لها ﴿ نكص على عقبيه ﴾ زهق باطله وصار مخالفاً للنفس كما قال ﴿ إني بريء منكم ﴾ ، ﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ لأنه يرى بنظر الروحانية تجلي الأنوار الربانية من القلوب ، ولو وقع على الشيطان من ذلك تالأؤ لأحرقه ولهذا قال ﴿ إني أخاف الله ﴾ وفيه إشارة إلى أنه غير منقطع الرجاء من رحمة الله إنه أرحم الراحمين . انتهى

انتهى . ١ هـ ﴿ غرائب القرآن ح 3 ص 406 . 408 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تَوْفَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا

عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما سرهم من حال أعدائهم المجاهرين والمساترين في الدنيا مرصعاً ذلك بجواهر الحكم وبدائع الكلم التي بملازمتها تكون السعادة وبالإخلال بها تحل الشقاوة ، أتبعه ما يسرهم من حال أعدائهم عند الموت وبعده ، فقال مخاطباً لمن لو كشف الغطاء لم يزدد يقيناً ، حادياً بتخصيصه بالخطاب كل سامع على قوة اليقين ليؤهل لمثل هذا الخطاب حكاية لحالهم في ذاك الوقت ﴿ ولو ﴾ أي يقولون ذلك والحال أنك ﴿ لو ترى ﴾ يا أعلى الخلق ﴿ إذ توفى ﴾ أي يستوفي إخراج نفوس ﴿ الذين كفروا ﴾ أي من هؤلاء القائلين ومن غيرهم ممن قتلتموهم بيدر ومن غيرهم بعد ذلك وقبله ﴿ الملائكة ﴾ أي جنودها الذي وكلناهم بهم حال كونهم ﴿ يضربون ﴾ .

ولما كان ضرب الوجه والدبر أدل ما يكون على الذل والخزي ، قال : ﴿ وجوههم

وأدبارهم ﴿ أي أعلى أجسامهم وأدناها فغيره أولى ﴾ ﴿ و ﴾ حال كونهم يقولون لهم :  
ذوقوا ما كنتم به تكذبون ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ أي لرأيتم منظراً هائلاً وأمرأً فظيعاً .  
فسركم ذلك غاية السرور ، وما أثر كلامهم في غيظهم ، فإنهم يعلمون حينئذ من الذي غره  
دينه و " لو " وإن كانت تقلب المضارع ماضياً فلا يخلو التعبير بالمضارع في حيزها من فائدة  
، وهي ما ذكر من الإشارة إلى أن هذا لا يخص ميتاً منهم دون ميت ، بل لافرق بين  
متقدمهم ومتأخرهم ، من مات ببدراً أو غيرها وليس في الكلام ما يقتضي أن يكون القائلون  
﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ حضروا بداراً ، بل الظاهر أن قائله كانوا بالمدينة وتعيرهم ب  
﴿ هؤلاء ﴾ التي هي أداة القرب للتحقير واستسهال أخذهم كما أن أداة البعد تستعمل  
للتعظيم ببعدها ، وعلى مثل هذا ينزل قول فرعون بعد أن سار بنو إسرائيل زماناً أقله  
ليلة وبعض يوم كما حكاها الله عنهم ﴿ إن هؤلاء لشردمة قليلون ﴾ [ الشعراء : 54 ]  
على أن البغوي قد نقل في تفسير قوله تعالى ﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ [ آل عمران :  
13 ] أن جماعة من اليهود حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة .  
وإذا تأملت هذا مع قوله تعالى ﴿ كذاب آل فرعون ﴾ علمت أن جل المقصود من هذه  
الآيات إلى قوله ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ اليهود ، وفي تعبيره ب ﴿ لا يفقهون ﴾  
تبكيت شديد لهم كما قال تعالى في آية الحشر ﴿ لآتم أشد رهبة في صدورهم من الله

ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴿ [الحشر: 13] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ

﴿ 229.228

(260/314)

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ تتوفى ﴾ بـاء التأنيث : شامي . الباقون : بالتذكير ﴿ ولا يحسن ﴾ بياء الغيبة : ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص والمفضل . الآخرون : بـاء الخطاب . ﴿ أنهم ﴾ بالفتح : ابن عامر ﴿ السلم ﴾ بكسر السين : أبو بكر وحماد ﴿ ترهبون ﴾ بالتشديد : رويس . الباقون : بالتخفيف من الإرهاب ﴿ وإن يكن منكم ﴾ بالياء التحتانية : أبو عمرو وسهل ويعقوب وعاصم وحمزة وعلي وخلف . الباقون : بالياء الفوقانية ﴿ وعلم ﴿ مبنياً للمفعول ﴾ ضعفاء ﴿ بالمد جمعاً : يزيد وقرأ حمزة وعاصم غير المفضل وخلف لنفسه ﴿ ضعفاً ﴾ بفتح الضاد . الآخرون بالضم . ﴿ فإن لم يكن منكم مائة ﴾ بالتحتانية : عاصم وحمزة وعلي وخلف .

الوقوف : ﴿ كفروا ﴾ لأن فاعل ﴿ يتوفى ﴾ الملائكة . وما قيل إن المتوفي هنا الله

غير صحيح لاختلال النظم وفساد المعنى لأن الكفار لا يستحقون أن يتوفاهم الله بلا  
واسطة. ﴿ وأدبارهم ﴾ ج لحق الإضمار أي يقولون ذوقوا ﴿ الحريق ﴾ ه ﴿ للعبيد  
﴿ لا تعلق الكاف ﴾ فرعون ﴿ لا للعطف ﴾ من قبلهم ﴿ ط ﴾ بذنوبهم ﴿ ط  
﴿ العقاب ﴾ ه ﴿ بأنفسهم ﴾ لا لعطف « أن » على « أن » ﴿ عليهم ﴾ ه لا للكاف  
﴿ من قبلهم ﴾ ط ﴿ بآيات ربهم ﴾ ج لاختلاف الجملتين من الفاء ﴿ آل فرعون ﴾ ج  
لأن الواو تصلح للاستئناف والحال ﴿ ظالمين ﴾ ه ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه ج لاحتمال الوصف  
واحتمال النصب والرفع على الذم ﴿ لا يتقون ﴾ ه ﴿ يذكرون ﴾ ه ﴿ على سواء ﴾  
ط ﴿ الخائنين ﴾ ه ﴿ سبقوا ﴾ ط لمن قرأ ﴿ إنهم ﴾ بالكسر ﴿ لا يعجزون ﴾ ه  
﴿ من دونهم ﴾ ج لاحتمال الجملة الجملة بعده الوصف والاستئناف ﴿ لا تعلمونهم ﴾  
ج لذلك ﴿ يعلمهم ﴾ ط ﴿ لا تظلمون ﴾ ه ﴿ على الله ﴾ ط ﴿ العليم ﴾ ه  
حسبك الله ﴿ ط ﴾ بين قلوبهم ﴿ الأول ﴾ ط ﴿ بينهم ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ ه ﴿ من  
المؤمنين ﴾ ه ﴿ على القتال ﴾ ط ﴿ مائتين ﴾ ج لابتداء الشرط مع العطف ﴿ لا  
يفقهون ﴾ ه ﴿ ضعفاً ﴾ ج ﴿ مائتين ﴾ ج ﴿ يأذن الله ﴾ ط ﴿ الصابرين ﴾ ه .  
انتهى انتهى . اه ﴿ غرائب القرآن ﴾ ح 3 ص 408.409 ﴿



## فصل

قال الفخر:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تُتَوَفَّىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ  
الْحَرِيقِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال هؤلاء الكفار شرح أحوال موتهم، والعذاب الذي يصل إليهم  
في ذلك الوقت، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى:

قرأ ابن عامر وحده ﴿ إِذِ ﴾ بالتاء على تأنيث لفظ الملائكة والجمع، والباقون بالياء على  
المعنى.

المسألة الثانية:

جواب ﴿ عَلَيْهِمْ لَوْ ﴾ محذوف.

والتقدير: لرأيت منظرًا هائلًا، وأمرًا فظيعةً، وعذابًا شديدًا.

المسألة الثالثة:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ ﴾ ولو عاينت وشاهدت، لأن لو ترد المضارع إلى الماضي كما ترد إن الماضي  
إلى المضارع.

المسألة الرابعة :

الملائكة رفعها بالفعل ، ويضربون حال منهم ، ويجوز أن يكون في قوله : ﴿ تَوَفَّى ﴾ ضمير لله تعالى ، والملائكة مرفوعة بالابتداء ، ويضربون خبر .

المسألة الخامسة :

(262/314)

---

قال الواحدي : معنى يتوفى الذين كفروا يقبضون أرواحهم على استيفائها وهذا يدل على أن الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد ، وأنه هو الروح فقط ؛ لأن قوله : ﴿ تَوَفَّى ﴾ الذين كفروا ﴿ يدل على أنه استوفى الذات الكافرة ، وذلك يدل على أن الذات الكافرة هي التي استوفيت من هذا الجسد ، وهذا برهان ظاهر على أن الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد ، وقوله : ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيف ، وإذا ولوا ضربوا أدبارهم ، فلا جرم قابلهم الله بمثله في وقت نزع الروح ، وأقول فيه معنى آخر أطف منه ، وهو أن روح الكافر إذا خرج من جسده فهو معرض عن عالم الدنيا مقبل على الآخرة ، وهو لكفره لا يشاهد في عالم الآخرة إلا الظلمات ، وهو لشدة حبه للجسمانيات ، ومفارقة لها لا ينال من مباحثته

عنها إلا الآلام والحسرات ، فسبب مفارقتها لعالم الدنيا تحصل له الآلام بعد الآلام والحسرات ، وسبب إقباله على الآخرة مع عدم النور والمعرفة ، ينتقل من ظلمات إلى ظلمات ، فهاتان الجهتان هما المراد من قوله : ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ وفيه إضمار ، والتقدير : وتقول ذوقوا عذاب الحريق ونظيره في القرآن كثير قال تعالى : ﴿ وَإِذِ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ [البقرة: 127] أي ويقولان ربنا ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمَجْرُمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا ﴾ [السجدة: 12] أي يقولون ربنا .

قال ابن عباس : قول الملائكة لهم : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ إنما صح لأنه كان مع الملائكة مقامع ، وكلما ضربوا بها التهمت النار في الأجزاء والأبعاض ، فذاك قوله :

﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ قال الواحدي : والصحيح أن هذا تقوله الملائكة لهم في الآخرة .

(263/314)

---

وأقول : أما العذاب الجسماني فحق وصدق .

وأما الروحاني فحق أيضاً لدلالة العقل عليه ، وذلك لأننا بينا أن الجاهل إذا فارق الدنيا

حصل له الحزن الشديد بسبب مفارقة الدنيا المحبوبة ، والخوف الشديد بسبب تراكم  
الظلمات عليه في عالم الخوف والحزن .

والخوف والحزن كلاهما يوجبان الحرقه الروحانية ، والنار الروحانية . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 142. 143 ﴾

(264/314)

وقال السمرقندي :

فلما قتلوا ضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم ، فنزل : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا  
﴿ ، يعني ولوترى ، يا محمد إذ يتوفى الذين كفروا ، يعني حين يقبض أرواح الذين كفروا ﴾  
الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ عند قبض أرواحهم ، ﴿ وأدبارهم ﴾ ، ﴿ و ﴾ يقول  
لهم الملائكة يوم القيامة : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ؛ ولم يذكر الجواب ، لأن في  
الكلام دليلاً عليه ، ومعناه لو رأيت ذلك لرأيت أمراً عظيماً .

قرأ ابن عامر ﴿ إِذِ ﴾ الذين بلفظ التأنيث ، وقرأ الباقر ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى ﴾ بلفظ  
التذكير .

وروي عن ابن مسعود أنه كان يُذكَرُ الملائكة في جميع القرآن ، خلافاً للمشركين بقولهم :

الملائكة بنات الله . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ بجر العلوم ح 2 ص ﴾

(265/314)

وقال الثعلبي :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ .

تعاين يا محمد ﴿ إِذِ تَوْفَى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ أي يقبضون أرواحهم بيد ﴿ يَضْرِبُونَ

﴿ حال أي ضاربين ﴾ ﴿ وُجُوهُهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ قال سعيد بن جبير ، ومجاهد : يريد

أستاهم ولكن الله تعالى كريم [يكني] .

وقال مرة الهمداني وابن جريج : وجوههم ما أقبل عنهم ، وأدبارهم ما أدبر عنهم ، وتقديره

: يضربون أجسادهم كلها ، وقال ابن عباس : كانوا إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى

المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة ف ضربوا أدبارهم ، وقال

الحسن : " قال رجل : يا رسول الله رأيت بظهراني رجل مثل الشراك ، قال : ذلك ضرب

الملائكة " وقال الحسين بن الفضل : ضرب الوجه عقوبة كفرهم ، وضرب الأدبار عقوبة

معاصيهم .

﴿ وَذُوقُوا ﴾ فيه إضمار ، أي ويقولون لهم ذوقوا ﴿ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ في الآخرة ،  
ورأيت في بعض التفاسير : كان مع الملائكة مقامع من حديد كلما ضربوا التهب النار في  
الجرافات فذلك قوله تعالى : وذوقوا عذاب الحريق ، ومعنى قوله ذوقوا : قاسوا واحتملوا  
. قال الشاعر :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر . . . من الغيظ في أكبادنا والتحوب  
ويجوز ذوقوا بمعنى موضع الابتلاء والاختبار يقول العرب اركب هذا الفرس فذقه ، وانظر  
فلانا وذق ما عنده . قال الشماخ في وصف قوس :  
فذاق وأعطاه من اللين جانبا . . . كفى ولها أن يغرق السهم حاجز  
وأصله من الذوق بالفم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(266/314)

---

وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾  
فيه قولان :

أحدهما : يتوفاهم ملك الموت عند قبض أرواحهم ، قاله مقاتل .

والثاني: قتل الملائكة لهم حين قاتلوهم يوم بدر.

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ تأويله على القول الأول: يضربون وجوههم يوم القيامة

إذا واجهوهم، وأدبارهم إذا ساقوهم إلى النار.

وتأويله على القول الثاني يحتمل وجهين:

أحدهما: يضربون وجوههم ببدر لما قاتلوا، وأدبارهم لما انهزموا.

والثاني: أنهم جاءوهم من أمامهم وورائهم، فمن كان من أمامهم ضرب وجوههم، ومن

كان من ورائهم ضرب أدبارهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(267/314)

وقال ابن عطية:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تُوْفِّي الذِّينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

الْحَرِيقِ ﴾

هذه الآية تتضمن التعجيب مما حل بالكفار يوم بدر، قاله مجاهد وغيره، وفي ذلك وعيد

لمن بقي منهم، وحذف جواب، ﴿ لو ﴾ إيهام بليغ، وقرأ جمهور السبعة والناس "يتوفى

" بالياء فعل فيه علامة التذكير إلى مؤنث في اللفظ، وساغ ذلك أن التأنيث غير حقيقي،

وارتفعت ﴿ الملائكة ﴾ ب ﴿ يتوفى ﴾ ، وقال بعض من قرأ هذه القراءة إن المعنى إذ يتوفى الله الذين كفروا و ﴿ الملائكة ﴾ رفع بالابتداء ، و ﴿ يضربون ﴾ خبره والجملة في موضع الحال .

قال القاضي أبو محمد : ويضعف هذا التأويل سقوط واو الحال فإنها في الإغلب تلزم مثل هذا ، وقرأ ابن عامر من السبعة والأعرج "توفى" بالتاء على الإسناد إلى لفظ "الملائكة" ، و ﴿ يضربون ﴾ في موضع الحال ، وقوله ﴿ وأدبارهم ﴾ قال جمهور المفسرين يريد أستاذهم ، ولكن الله كريم كنى ، وقال ابن عباس أراد ظهورهم وما أدبر منهم ، ومعنى هذا أن الملائكة كانت تلحقهم في حال الإدبار فتضرب أدبارهم ، فأما في حال الإقبال فينبى تمكن ضرب الوجوه ، وروى الحسن أن رجلاً قال : يا رسول الله رأيت في ظهر أبي جهل مثل الشراك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذلك ضرب الملائكة " ، وعبر بجمع الملائكة ، وملك الموت واحد إذ له على ذلك أعوان من الملائكة ، وقوله ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ قيل كانوا يقولون للكفار حينئذ هذا اللفظ فحذف يقولون اختصار ، وقيل معناه وحالهم يوم القيامة أن يقال لهم هذا ، و ﴿ الحريق ﴾ فعيل من الحرق . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾



---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولوترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾

قرأ الجمهور "توفى" بالياء .

وقرأ ابن عامر : "توفى" بتاءين .

قال المفسرون : نزلت في الرهط الذين قالوا : ﴿ غرَّ هؤلاء دينهم ﴾ وفي المراد بالملائكة  
ثلاثة أقوال .

أحدها : ملك الموت وحده ، قاله مقاتل .

والثاني : ملائكة العذاب ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والثالث : الملائكة الذين قاتلوا يوم بدر ، ذكره الماوردي .

وفي قوله : ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : يضربون وجوههم ببدر لما قاتلوا ، وأدبارهم لما انهزموا .

والثاني : أنهم جاؤوهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، فالذين أمامهم ضربوا وجوههم ،

والذين وراءهم ضربوا أدبارهم .

والثالث : يضربون وجوههم يوم القيامة إذا لقوهم ، وأدبارهم إذا ساقوهم إلى النار .

والرابع : أنهم يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت بسياط من نار .

وهل المراد نفس الوجوه والأدبار ، أم المراد ما أقبل من أبدانهم وأدبر ؟ فيه قولان .

وفي قوله : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ قولان .

أحدهما : أنه في الدنيا ، وفيه إضمار " يقولون " ، فالمعنى : يضربون ويقولون ، كقوله : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا ﴾ [ البقرة : 127 ] أي : ويقولان .

قال النابغة :

كأنك من جمال بني أقيش . . .  
يقتع خلف رجله بشن

والمعنى : كأنك جمل من جمال لبني أقيش ، هذا قول الفراء ، وأبي عبيدة .

والثاني : أن الضرب لهم في الدنيا ، فإذا وردوا يوم القيامة إلى النار ، قال خزنتها : ذوقوا

عذاب الحريق ، هذا قول مقاتل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

(269/314)

وقال القرطبي :

﴿ ولوترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب

الحريق ﴾

قيل : أراد من بقي ولم يُقتل يوم بدر .

وقيل : هي فيمن قتل ببدر .

وجواب "لو" محذوف ، تقديره : لرأيت أمراً عظيماً .

﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ في موضع الحال .

﴿ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أي أسنانهم ، كنى عنها بالأدبار ؛ قاله مجاهد وسعيد بن

جبير .

الحسن : ظهورهم ، وقال : " إن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله

، إنني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك ؟ قال : " ذلك ضرب الملائكة " وقيل : هذا

الضرب يكون عند الموت .

وقد يكون يوم القيامة حين يصيرون بهم إلى النار .

﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ قال الفراء : المعنى ويقولون ذوقوا ؛ فحذف .

وقال الحسن : هذا يوم القيامة ، تقول لهم خزنة جهنم : ذوقوا عذاب الحريق .

وروي أن في بعض التفاسير أنه كان مع الملائكة مقامع من حديد ، كلما ضربوا التهبّت النار

في الجراحات ؛ فذلك قوله : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

والذوق يكون محسوساً ومعنى .

وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار ؛ تقول : اركب هذا الفرس فذقه .

وانظر فلاناً فذق ما عنده .

قال الشمّاح يصف فرساً :

فذاق فأعطته من اللبن جانباً . . .

كفى ولها أن يُغرق السهم حاجزُ

وأصله من الذوق بالفم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 8 ص ﴾

(270/314)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾

يعني : ولو عاينت يا محمد وشهدت إذا تقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت لرأيت

أمراً عظيماً ومنظراً فظيماً وعذاباً شديداً ينالهم في ذلك الوقت ﴿ يضربون وجوههم

وأدبارهم ﴾ اختلفوا في وقت هذا الضرب ، فقيل : هو عند الموت تضرب الملائكة وجوه

الكفار وأدبارهم بسياط من نار .

وقيل : إن الذين قتلوا يوم بدر من المشركين كانت الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم .

وقال ابن عباس : كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم

بالسيوف وإذا ولوا أذبارهم ضربت الملائكة أذبارهم .

وقال ابن جريج : يريد ، ما أقبل من أجسادهم وأدبر يعني يضربون جميع أجسادهم ❖

وذوقوا عذاب الحريق ❖ يعني وتقول لهم الملائكة عند القتل : ذوقوا عذاب الحريق .

قيل : كان مع الملائكة مقامع من حديد محمية بالنار يضربون بها الكفار فتلهب النار في

جراحاتهم .

وقال ابن عباس : تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت .

وقال الحسن : هذا يوم القيامة تقول لهم الزبانية ذوقوا عذاب الحريق . انتهى انتهى . ١ هـ

❖ تفسير الخازن - 3 ص ❖

(271/314)

وقال أبو حيان :

❖ ولوترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأذبارهم ❖ .

❖ لو ❖ التي ليست شرطاً في المستقبل تقلب المضارع للمضي فالمعنى لورأت

وشاهدت وحذف جواب لوجاز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدل على التعظيم أي لرأيت

أمراً عجبياً وشأناً هائلاً كقوله ❖ ولوترى إذ وقفوا على النار ❖ ، والظاهر أن ❖

الملائكة ﴿ فاعل ﴾ يتوفى ﴿ ويدل عليه قراءة ابن عامر والأعرج توفى بالتاء وذكر في قراءة غيرهما لأن تأنيث الملائكة مجاز وحسنه الفضل ، وقيل : الفاعل في هذه القراءة الفاعل ضمير الله و﴿ الملائكة ﴾ مبتدأ والجملة حالية ، كهي في ﴿ يضربون ﴾ ، قال ابن عطية : يضعفه سقوط واو الحال فإنها في الأغلب تلزم مثل هذا انتهى ، ولا يضعفه إذ جاء بغير واو في كتاب الله وفي كثير من كلام العرب و﴿ الملائكة ﴾ ملك الموت وذكر بلفظ الجمع تعظيماً أو هو وأعوانه من الملائكة فيكون التوفي قبض أرواحهم أو الملائكة الممد بهم يوم بدر ، والتوفي قتلهم ذلك اليوم أو ملائكة العذاب فالتوفي سوقهم إلى النار أقوال ثلاثة ، والظاهر حقيقة الوجوه والإدبار كناية عن الأستاه .

قال مجاهد : وخصاً بالضرب لأن الخزي والنكال فيهما أشد ، وقيل : ما أقبل منهم وما أدبر فيكون كناية عن جميع البدن وإذا كان ذلك يوم بدر فالظاهر أن الضار بين هم الملائكة . وقيل : الضمير عائذ على المؤمنين أي يضرب المؤمنون فمن كان أمامهم من المؤمنين ضربوا وجوههم ومن كان وراءهم ضربوا أديبارهم فإن كان ذلك عند الموت ضربتهم الملائكة بسياط من نار ، وقوله ﴿ ذوقوا ﴾ هذا على إضمار القول من الملائكة أي ويقولون لهم ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ ويكون ذلك يوم بدر وكانت لهم أسواط من نار يضربونهم بها فتشتغل جراحاتهم ناراً أو يقال لهم ذلك في الآخرة وهو كلام مستأنف من الله على سبيل التقرير للكافرين أما في الدنيا حالة الموت أي مقدمة عذاب النار ، وأما في الآخرة ويحتمل

ذلك وما يعده أن يكون من كلام الملائكة أو من كلام الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط

ح 4 ص ﴿

(272/314)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾

أي ولورأيت ، فإن لو الامتناعية ترد المضارع ماضياً كما أن إن ترد الماضي مضارعاً ،  
والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقد مر  
تحقيقه في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ (سورة الأنعام ، الآية 27)  
وكلمة إذ في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَوْفَى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ ظرفٌ لتري والمفعول  
محذوف أي ولوترى الكفرة ، أو حال الكفرة حين يتوفاهم الملائكة بيدر ، وتقديم المفعول  
للاهتمام به ، وقيل : الفاعل ضميرٌ عائدٌ إلى الله عز وجل ، والملائكة مبتدأٌ وقوله تعالى :  
﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ خبره ، والجملة حالٌ من الموصول قد استغني فيها بالضمير عن  
الواو ، وهو على الأول حالٌ منه أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على ضميريهما ﴿  
وأدبارهم ﴾ أي وأستاههم أو ما أقبل منهم وما أدبر من الأعضاء ﴿ وذوقوا عذابَ

الحريق ﴿ على إرادة القول معطوفاً على يضربون أو حالاً من فاعله أي ويقولون أو قائلين :  
ذوقوا بشاره لهم بعداب الآخرة وقيل : كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهبت  
النار منها ، وجوابٌ لو محذوفٌ للإيدان بخروجه عن حدود البيان أي لرأيت أمراً فظيماً لا  
يكاد يوصف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ﴾

(273/314)

وقال الأوسى :

﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾

خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب ، والمضارع هنا  
بمعنى الماضي لأن ﴿ لَوْ ﴾ الامتناعية ترد المضارع ماضياً كما أن إن ترد الماضي  
مضارعاً ، أي ولورأيت ﴿ إِذْ يُتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ الخ لرأيت أمراً فظيماً ، ولا  
بد عند العلامة من حمل معنى الماضي هنا على الفرض والتقدير ، وليس المعنى على  
حقيقة الماضي ، قيل : والقصد إلى استمرار امتناع الرؤية وتجده وفيه بحث ، وإذ ظرف  
لترى والمفعول محذوف ، أي ولوترى الكفرة أو حالهم حينئذٍ ، و﴿ الْمَلَائِكَةُ ﴾ فاعل  
يتوفى ، وتقديم المفعول للاهتمام به ، ولم يؤنث الفعل لأن الفاعل غير حقيقي التأنث ،



وحسن ذلك الفصل بينهما ، ويؤيد هذا الوجه قراءة ابن عامر ﴿ تتوقى ﴾ بالتاء .  
وجوز أبو البقاء أن يكون الفاعل ضمير الله تعالى ، والملائكة على هذا مبتدأ خبره جملة  
﴿ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة ، وعند أبي البقاء في موضع  
الحال ، ولم يحتاج إلى الواو لأجل الضمير ، ومن يرى أنه لا بد فيها من الواو وتركها ضعيف  
يلتزم الأول ، وعلى الأول يحتمل أن يكون جملة يَضْرِبُونَ مستأنفة وأن تكون حالاً من الفاعل  
أو المفعول أو منهما لاشتمالها على ضميريهما وهي مضارعية يكتفي فيها بالضمير كما لا  
يخفى .

والمراد من وجوههم ما أقبل منهم ، ومن قوله سبحانه : ﴿ وأدبارهم ﴾ ما أدبر وهو كل  
الظهر .

وعن مجاهد أن المراد منه أستاذهم ولكن الله تعالى كريم يكتفى والأول أولى ، وذكرهما  
يحتمل أن يكون للتخصيص بهما لأن الخزي والنكال في ضربهما أشد ويحتمل أن يراد  
التعميم على حد قوله تعالى : ﴿ بالغدو والآصال ﴾ [ الأعراف : 205 ] لأنه أقوى المأ  
، والمراد من الذين كفروا قتلى بدر كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وغيره .

(274/314)

---

وروي عن الحسن أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إني رأيت بظهر أبي  
جهل مثل الشرك فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك ضرب الملائكة.

وفي رواية عن ابن عباس ما يشعر بالعموم.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال: آيتان يبشر بهما الكافر عند موته وقرأ ﴿ وَكُوتِرَى  
﴿ الخ، ولعل الرواية عنه رضي الله تعالى عنه لم تصح ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾  
عطف على ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ يا ضمائر القول، أي ويقولون ذوقوا، أو حال من ضميره كذلك  
أي ضاربين وجوههم وقائلين ذوقوا، وهو على الوجهين من قول الملائكة، والمراد بعذاب  
الحريق عذاب النار في الآخرة، فهو بشارة لهم من الملائكة بما هو أدهى وأمر مما هم فيه،  
وقيل كان مع الملائكة يوم بدر مقامع من حديد كلما ضربوا المشركين بها التهبت النار في  
جراحاتهم، وعليه فالقول للتوبيخ، والتعبير بذوقوا قيل: للتهكم لأن الذوق يكون في  
المطعمات المستلذة غالباً، وفيه نكته أخرى وهو أنه قليل من كثير وأنه مقدمة كأنموذج  
الذائق.

وبهذا الاعتبار يكون فيه المبالغة، وإن أشعر الذوق بقلته.

وذكر بعضهم: وهو خلاف الظاهر أنه يحتمل أن يكون هذا القول من كلام الله تعالى كما في  
بي آل عمران ﴿ وَتَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: 181] وجواب ﴿ لَوْ ﴾

مُحذوف لتفطيع الأمر وتهويله وتقديره ما أشرنا إليه سابقاً ، وقدره الطيبي لرأيت قوة أوليائه  
ونصرهم على أعدائه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 10 ص ﴾

(275/314)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تُتَوَفَّىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾

لَمَّا وَفِّيَ وَصْفُ حَالِ الْمُشْرِكِينَ حَقَّهُ ، وَفَصَّلَتْ أَحْوَالَ هَزِيمَتِهِمْ بِيَدْرِ ، وَكَيْفَ أَمَكَّنَ اللَّهُ  
مِنْهُمْ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى ضَعْفِ هَؤُلَاءِ وَقُوَّةِ أَوْلَئِكَ ، بِمَا شَاهَدَهُ كُلُّ حَاضِرٍ حَتَّىٰ لِيُوقِنَ السَّامِعُ  
أَنَّ مَا نَالَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ إِنَّمَا هُوَ خِذْلَانٌ مِنَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ ، وَإِيذَانٌ بِأَنَّهُمْ لَاقُونَ هَلَاكَهُمْ مَا دَامُوا  
مُنَاوِئِينَ لِلَّهِ وَرَسُولَهُ ، انْتَقَلَ إِلَى وَصْفِ مَا لَقِيَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، ثُمَّ هُوَ  
مُغِيبٌ عَنِ النَّاسِ ، لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنُونَ وَيُرْتَدِعَ الْكَافِرُونَ ، وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا هُنَا الَّذِينَ قَتَلُوا  
يَوْمَ بَدْرٍ ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ تَمَامِ الْخَبْرِ عَنْ قَوْمِ بَدْرٍ .

ويجوز أن يكون المراد بالذين كفروا جميع الكافرين حملاً للموصول على معنى العموم فتكون  
الآية اعتراضاً مستطرداً في خلال القصة بمناسبة وصف ما لقيه المشركون في ذلك اليوم ،  
الذي عجل لهم فيه عذاب الموت .

وابتدىء الخبر بـ ﴿ ولو ترى ﴾ مخاطباً به غير معين ، ليعمَّ كلَّ مخاطب ، أي : لو ترى أيها السامع ، إذ ليس المقصود بهذا الخبر خصوص النبي صلى الله عليه وسلم حتى يحمل الخطاب على ظاهره ، بل غير النبي أولى به منه ، لأن الله قادر أن يطلع نبيه على ذلك كما أراه الجنة في عرض الحائط .

ثم إن كان المراد بالذين كفروا مشركي يوم بدر ، وكان ذلك قد مضى يكن مقتضى الظاهر أن يقال : ولورأيت إذ توفى الذين كفروا الملائكة .

فالإتيان بالمضارع في الموضعين مكان الماضي ؛ لقصد استحضار تلك الحالة العجيبة ، وهي حالة ضرب الوجوه والأدبار ، ليخيّل للسامع أنه يشاهد تلك الحالة ، وإن كان المراد المشركين حينما كانوا كان التعبير بالمضارع على مقتضى الظاهر .

وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف تقديره : لرأيت أمراً عجبياً .

وقرأ الجمهور : يتوفى بياء الغائب وقراه ابن عامر : تتوفى بقاء التأنيث رعيًا لصورة جمع الملائكة .

(276/314)

---

والتوفى: الإماتة سُميت توفياً؛ لأنها تنهي حياة المرء أو تستوفيها ﴿ قل توفاكم ملك

الموت الذي وكل بكم ﴾ [السجدة: 11]

وجملة: ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ في موضع الحال إن كان المراد من التوفى قبض

أرواح المشركين يوم بدر حين يقتلهم المسلمون، أي: يزيدهم الملائكة تعذيباً عند نزع

أرواحهم، وهي بدل اشتغال من جملة: ﴿ يتوفى ﴾ إن كان المراد بالتوفى توفياً يتوفاه

الملائكة الكافرين.

وجملة: ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ معطوفة على جملة: ﴿ يضربون ﴾ بتقدير القول،

لأن هذه الجملة لا موقع لها مع التي قبلها، إلا أن تكون من قول الملائكة، أي: ويقولون:

ذوقوا عذاب الحريق كقوله: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل

منا ﴾ [البقرة: 127]، وقوله: ﴿ ولوترى إذ الجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم

ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ [السجدة: 12].

وذكر الوجوه والأدبار للتعميم، أي: يضربون جميع أجسادهم.

فالأدبار: جمع دبر وهو ما دبر من الإنسان.

ومنه قوله تعالى: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ [القمر: 45].

وكذلك الوجوه كناية عما أقبل من الإنسان، وهذا كقول العرب: ضربته الظهر والبطن،

كناية عما أقبل وما أدبر أي ضربته في جميع جسده.

و"الذوق" مستعمل في مطلق الإحساس ، بعلاقة الإطلاق .

وإضافة العذاب إلى الحريق من إضافة الجنس إلى نوعه ، لبيان النوع ، أي عذاباً هو الحريق ، فهي إضافة بيانية .

(277/314)

---

و ﴿ الحريق هو اضطرام النار ، والمراد به جهنم ، فلعل الله عجل بأرواح هؤلاء المشركين إلى النار قبل يوم الحساب ، فالأمر مستعمل في التكوين ، أي : يذيقونهم ، أو مستعمل في التشفي ، أو المراد بقول الملائكة وذوقوا ﴾ إنذارهم بأنهم سيدوقونه ، وإنما يقع الذوق يوم القيامة ، فيكون الأمر مستعملاً في الإنذار كقوله تعالى : ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ [إبراهيم : 30] بناء على أن التمتع يؤذن بشيء سيحدث بعد التمتع مضاد لما به التمتع . انتهى انتهى . اهـ ﴾ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(278/314)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تُتَوَفَّىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

الْحَرِيقِ (50) ﴾

والذي يُوجه إليه هذا الخطاب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعناه لو كشفنا لك الغيب لترى ، وتلاحظ أن الله سبحانه وتعالى ترك الجواب ، فلم يقل ماذا يحدث لهذا الكافر الملائكة يضربونه ، وإذا ما حذف الجواب فإنك تترك لخيال كل إنسان أن يتصور ما حدث في أشنع صورة ، ولو أن الحق سبحانه وتعالى جاء بجوابه لحدد لنا ما يحدث ، ولكن ترك الجواب جعل كلامنا يتخيل أمراً عجبياً لا يخطر على البال ، ويكون هذا تفضيلاً لما سوف يحدث .

والصورة هنا تنتقل بنا من عذاب الدنيا للكفار إلى ساعة الموت .

﴿ وَيَتَوَفَّى ﴾ أي لحظة أن تقبض الملائكة أرواح الكافرين ، والتوفي وهو قبض الأرواح

يجيء مرة منسوباً لله سبحانه وتعالى مصداقاً لقوله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ ومرة يأتي منسوباً لرسول من الله : ﴿ تَوَفَّاهُ رُسُلَنَا ﴾ ومرة يأتي

منسوباً إلى ملك الموت وهو عزرائيل : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ﴾

وبذلك يكون التوفي في أسند مرة إلى الله عز وجل ومرة إلى عزرائيل ومرة إلى رسل الموت ،

ونقول : لا تعارض في هذه الأقوال ؛ لأن الأمر في كل الأحوال يصدر من الله سبحانه وتعالى ،

إما أن يقوم عزرائيل بتنفيذه وإما جنوده وهم كثيرون .

الأمر الأصيل - إذن - من الله ، وينسب إلى المتلقي المباشر من الله وهو عزرائيل ،

وينسب إلى من يطلب منهم ملك الموت أن يقوموا بهذه العمليات .

(279/314)

---

وهذا العذاب يحدث ساعة الاحتضار وهي اللحظة التي لا يكذب الإنسان فيها على نفسه ؛ لأن الإنسان قد يكذب على نفسه في الدنيا ، وقد يكون مريضاً بمرض لا شفاء منه فيقول : سأشفى غداً ، ويعطي لنفسه الأمل في الحياة ، وقد يكون فقيراً لا يملك من وسائل الدنيا شيئاً ويقول : سوف أغني ؛ لأن الإنسان دائماً يغلب عليه الأمل إلا ساعة الاحتضار ، فهذه لحظة يوقن فيها كل ميت أنه ميت فعلاً ولا مفراً من لقاء الله ، ولذلك تجد أن الذي ظلم إنساناً لحظة يموت يقول لأولاده : أحضروا فلاناً لقد ظلمته فردوا له حقوقه نحوي وما ظلمته فيه ، والإنسان لحظة الاحتضار يرى كل شريط عمله . فإن كان مؤمناً رأى شريطاً منيراً ؛ فيبتسم ويستقبل الموت وهو مطمئن . وإن كانت أعماله سيئة فهو يرى ظلاماً ، ويتملكه الذعر والخوف لأنه عرف مصيره .

وحينما زين الشيطان للكفار أن يقاتلوا المؤمنين ووعدهم بالنصر ، وقال : إني سأجبركم



إذا دارت عليكم الدائرة، فلما أصبح المؤمنون والكفار على مدى الرؤية من بعضهم البعض هرب الشيطان؛ لأنه رأى من بأس الله ما لم يره الكفار، وهذا هو موقف الشيطان دائماً، إذا رأى بأس الله أسرع بالفرار، ويعترف أن كل حديثه لابن آدم إنما هو وعد كاذب سببه الحقد الذي في قلبه؛ لأنه تلقى العقاب من الله عز وجل بعد أن رفض تنفيذ أمر الله له بالسجود لآدم، وهو الذي أوجب عليه العذاب الذي سيلاقيه .

ونرى الشيطان مثلاً كما يخبرنا الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ ص : 82 ] .

(280/314)

---

أي أنه أقسم بجلال الله وعزته . ومعنى عزة الله أنه غني عن خلقه جميعاً لا يحتاج لأحد منهم، فهو الله بجلال وجمال صفاته قبل أن يوجد أحد من خلقه قد خلق هذا الكون وأوجده ولم يستعن بأحد، ولو آمن به الناس جميعاً ما زاد ذلك في ملكه شيئاً . ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من ملكه شيئاً . وقسم إبليس بعزة الله إقرار منه بها . وقد أقسم بعزة الله أن يطلب الغواية للإنسان؛ لأن الله سبحانه وتعالى ما دام لا يزيد ملكه ولا ينقص بإيمان خلقه؛ لذلك أعطاهم حرية الاختيار، ولو أراد الله الناس مؤمنين ما استطاع

إبليس أن يقترب من أحد منهم ، ويحاول إبليس بحقه على الإنسان وكرهه له أن يصرفه عن طريق الإيمان ، ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن ؟ . لا ، ولذلك فهناك استثناء : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمِْ الْمُخْلِصِينَ ﴾ [ ص : 83 ] .

أي أن إبليس لا يستطيع أن يقترب من عبد مؤمن مخلص في إيمانه . ولذلك لا بد أن نلقت إلى قول الشيطان الذي جاء على لسانه في الآية الكريمة : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [ الأنفال : 48 ] .

إذن فما دام إبليس يخاف الله ، وما دام يعلم أن الله شديد العقاب فما الذي أذهب عنه هذا الخوف حين أمره الله بالسجود لآدم فعصى ؟ . خصوصاً وهو يعلم أن الله شديد العقاب ، ولو كان قد عرف أن الله لا يعاقب أو يعاقب عقاباً خفيفاً لقلنا أغرته بساطة العقاب بالمعصية . ولكن علمه بشدة العقاب كان يجب أن يدفعه إلى الطاعة من باب أولى .

ونقول : إنه في ساعة الكبر نسي إبليس كل شيء !! !

فأنت في حين يأخذك الكبر تتعالى ولوفي مواقع الشدة ، حتى وإن علمت أنه قد يصيبك عقاب شديد ، ولكن يختفي كل هذا من نفسك إذا دخل فيها الكبر .

---

ولذلك قد تجد إنساناً يُعذب بضرب شديد ولكن الكبر في نفسه يجعله لا يصيح ولا يصرخ . ونجد إنساناً قد يتخذ في لحظة كبر قراراً له عواقب وخيمة ولكنه يتحمله . وإبليس ساعة رفضه تنفيذ أمر السجود كان يمتلىء بالكبر والغرور ، فتكبر على أمر الله ومملكه الغرور فقال : ﴿ السُّجُدِ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [الإسراء : 61] .

إذن ففي لحظة الكبر نسي إبليس كل شيء ، واندفع في معصيته يملؤه الزهو وأصر على المعصية رغم علمه أن الله شديد العقاب .

وفي قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تُتَوَفَّىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال : 50] .

نجد أنه قد حذف جواب "لو" والمعنى لو كشف الحجاب لترى الملائكة وهم يتوفون الذين كفروا لرأيت أمراً عظيماً فظيماً ، وهل يحدث هذا ساعة القتال عندما يُقتل الكفار في المعركة وتستقبلهم الملائكة بالضرب ، أم يحدث هذا الأمر لحظة الوفاة الطبيعية ؟ . كلاهما صحيح والعذاب هذا أخذ صفة الإقبال ومحاولة الهرب ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . . ﴾ [الأنفال : 50] .

فالمقبل منهم يضربونه على وجهه ، فإذا أدار ، وجهه ليتقي الضرب ، يضربونه على ظهره ، وكان الكفار يعذبون المؤمنين بهذه الطريقة ؛ فالمقبل عليهم من المؤمنين يضربونه على وجهه ، فإذا حاول الفرار ضربه على ظهره وعلى رأسه .

ويذيق الله الكافرين ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين . ولكن الفارق أن الضارب من الكفار كان يضرب بقوته البشرية المحدودة . أما الضارب من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة . ويقال : إن الملائكة معهم مقامع من حديد . أي قطع حديد ضخمة يضربون بها وجوه الكفار وأدبارهم . ومن شدة الضربة واحتكاك الحديد بالجسم تخرج منه شرارة من نار لتحرق أجساد الكفار .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [ الأنفال : 50 ] .

(282/314)

---

إذن فهم يضربون الكفار ساعة الاحتضار ضرباً مؤلماً جداً هذا الضرب رغم قسوته ، والشرر الذي يخرج منه لا ينجيهم في الآخرة من عذاب الحريق .  
ولذلك " أقبل صحابي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله . .

لقد رأيت في ظهر أبي جهل مثل شرك النعل . أي علامة من الضرب الشديد ظاهرة على جسده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك ضرب الملائكة ، وجاء صحابي آخر وقال : يا رسول الله . . لقد هممت بأن أقتل فلانا فتوجهت إليه بسيفي ، وقبل أن يصل سيفي إلى رقبته رأيت رأسه قد طار من فوق جسده . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبقك إليه الملك " وذلك مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [ الأنفال : 12 ] .

وهنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ تَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [ الأنفال : 50 ]

[ .

أي أن الضرب فيه إهانة أكثر من العذاب ، ولو أن العذاب قد يكون أكثر إيلاماً . فقد يقوم مجرم بارتكاب جريمة ما فإذا أخذ وعُذب ربما تحمل العذاب بجلد ، ولكنه إذا ضرب أمام الناس كان ذلك أشد إهانة له ، فإذا كان الضرب من الذي وقعت عليه الجريمة كانت الإهانة أكبر .

ولكن هذا الضرب والعذاب لا ينجيهم من عذاب النار ، بل يدخلون إلى أشد العذاب يوم

القيامة ، وهذه نتيجة منطقية لما يفعله الكفار من عدم الإيمان بالله ومن قيامهم بإيذاء  
المؤمنين به والإفساد في الأرض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(283/314)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تَتَوَفَّىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾

قرأ ابن عامر والأعرج " تتوفى " بقاء التأنيث ، لتأنيث الجماعة ، والباقون بياء الغيبة وفيها  
تخريجان ، أظهرهما - لموافقة قراءة من تقدم - : أن الفاعل هم الملائكة ، وإنما ذكر للفصل ؛  
ولأن التأنيث مجازي .

والثاني : أن الفاعل ضمير الله تعالى : لتقدم ذكره و" الملائكة " مبتدأ ، و" يضرُّون " خبره ،

وفي هذه الجملة حينئذٍ وجهان :

أحدهما : أنها حالٌ من المفعول .

والثاني : أنها استئنافية ، جواباً لسؤالٍ مقدر ، وعلى هذا فيوقف على " الذين كفروا "

بخلاف الوجهين قبله .

وضَعَّف ابنُ عطية وجه الحالِ بعدم الواو، وليس بضعيفٍ لكثرة مجيء الجملة الحالية  
مشملة على ضمير ذي الحال خاليةً من "واو" نظماً ونثراً، وعلى كون "الملائكة" فاعلاً  
، يكون "يَضْرِبُونَ" جملةً حاليةً، سواءً قرئ بالتأنيث أم بالتذكير، وجواب "لو" محذوفٌ  
للدلالة عليه، أي: رأيتُ أمراً عظيماً.

قوله ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

هذا منصوب بإضمار قول الملائكة، أي: يضربونهم ويقولون لهم: ذوقوا.  
وقيل: الواو في "يَضْرِبُونَ" للمؤمنين أي: يضربونهم حال القتال، وحال توفي أرواحهم  
الملائكة. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل ح 9 ص 541.542﴾.

باختصار.

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تُوْفَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

الْحَرِيقِ (50)﴾

يُسَلِّبُهُمْ عِنْدَمَا يُقَاسُونَ مِنْ اخْتِبَارَاتِ التَّقْدِيرِ بِمَا يُذَكِّرُهُمْ زَوَالِ الْحِنَةِ، وَوَشْكَ رُوحِ الْيَسْرِ  
، وَسُرْعَةِ حُصُولِ النَّصْرِ، وَحُلُولِ النَّقْمِ بِمَرْتَكِبِي الظُّلْمِ. وَالْمُؤْمِنُ كَثِيرُ الظَّنِّ؛ فَإِذَا شَهِدَ  
بِأَرْبَابِ الْجَرَائِمِ حُلُولَ الْإِنْتِقَامِ رَقَّ قَلْبُهُ لَهُمْ، فَلَا يَنْخَرُطُ فِي سِلْكِ الشَّمَاتَةِ؛ إِذْ يَخْلُقُ قَلْبُهُ مِنْ

شهوة الانتقام ، بل يجب أن يكون كل أحد مجسناً الصفة ، وكما قيل :

قومٌ إذا ظفروا بنا . . . جادوا بعق رقابنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1

صـ 631.632 ﴿

(284/314)

قوله تعالى ﴿ ذِكْ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (51) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما عذبوهم قولاً وفعلاً ، عللوا لهم ذلك بقولهم زيادة في تأسيهمهم : ﴿ ذلك ﴾ أي هذا  
الفعل العظيم الذي يفعله بكم من العذاب الأليم ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ أي من الجراءة  
على الله ﴿ وأن ﴾ أي وسبب أن له أن يفعل ذلك وإن لم تقدموا شيئاً فإن ﴿ الله ﴾ أي  
الذي له صفات الكمال ﴿ ليس بظلام ﴾ أي بذي ظلم ﴿ للعبيد ﴾ فإن ملكه لهم تام .  
والمالك التام الملك على ما يملكه الملك الذي لا شيء يخرج عن دائرة ملكه ، وهو الذي  
جبلكم هذه الجبلية الشريرة التي تأثرت عنها هذه الأفعال القبيحة ، وهو لا يسأل عما يفعل ،  
من الذي يسأله ! ويجوز أن يكون المعنى : وليس بذي ظلم لأنه لا يترك الظالم يبغى على



المظلوم من غير جزاء لكم على ظلمكم لأهل طاعته، وسيأتي في " فصلت " حكمة  
التعبير بصيغة تحتمل المبالغة. انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 229 ﴾

(285/314)

فصل

قال الفخر :

﴿ ذلك بما قدّمتُ أيديكم ﴾

قيل هذا إخبار عن قول الملائكة ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي : يجوز أن يقال ذلك مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ بما قدّمتُ أيديكم ﴾ ويجوز أن  
يكون محل ذلك نصباً ، والتقدير : فعلنا ذلك بما قدمت أيديكم .

المسألة الثانية :

المراد من قوله : ﴿ ذلك ﴾ هذا أي هذا العذاب الذي هو عذاب الحريق ، حصل بسبب  
ما قدمت أيديكم ، وذكرنا في قوله : ﴿ ألم \* ذلك الكتاب ﴾ أن معناه هذا الكتاب وهذا  
المعنى جائز .

### المسألة الثالثة :

ظاهر قوله : ﴿ ذَلِكِ بِمَا قَدَمْتُ ﴾ يقتضي أن فاعل هذا الفعل هو اليد ، وذلك ممتنع من وجوه : أحدها : أن هذا العذاب إنما وصل إليهم بسبب كفرهم ، ومحل الكفر هو القلب لا اليد .

وثانيها : أن اليد ليست محلاً للمعرفة والعلم ، فلا يتوجه التكليف عليها ، فلا يمكن إيصال العذاب إليها ، فوجب حمل اليد ههنا على القدرة ، وسبب هذا المجازان اليد آلة العمل والقدرة هي المؤثرة في العمل ، فحسن جعل اليد كناية عن القدرة .

واعلم أن التحقيق أن الإنسان جوهر واحد وهو الفعل وهو الدراك وهو المؤمن وهو الكافر وهو المطيع والعاصي ، وهذه الأعضاء آلات له وأدوات له في الفعل فأضيف الفعل في الظاهر إلى الآلة ، وهو في الحقيقة مضاف إلى جوهر ذات الإنسان .

### المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ بِمَا قَدَمْتُ أَيْدِيكُمْ ﴾ يقتضي أن ذلك العقاب كالأمر المتولد من الفعل الذي صدر عنه ، وقد عرفت أن العقاب إنما يتولد من العقائد الباطلة التي يكتبها الإنسان ، ومن الملكات الراسخة التي يكتسبها الإنسان ، فكان هذا الكلام مطابقاً للمعقول .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ وفيه مسائل :

### المسألة الأولى :

في محل أن وجهان: أحدهما: النصب بنزع الخافض يعني بأن الله: والثاني: أنك إن جعلت قوله: ﴿ ذلك ﴾ في موضع رفع جعلت أن في موضع رفع أيضاً، بمعنى وذلك أن الله قال الكسائي ولو كسرت ألف أن على الابتداء كان صواباً، وعلى هذا التقدير: يكون هذا كلاماً مبتدأً منقطعاً عما قبله.

#### المسألة الثانية:

قالت المعتزلة: لو كان تعالى يخلق الكفر في الكافر، ثم يعذبه عليه لكان ظالماً، وأيضاً قوله تعالى: ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ يدل على أنه تعالى إنما لم يكن ظالماً بهذا العذاب، لأنه قدم ما استوجب عليه هذا العذاب، وذلك يدل على أنه لو لم يصدر منه ذلك التقديم لكان الله تعالى ظالماً في هذا العذاب، فلو كان الموجد للكفر والمعصية هو الله لا العبد لوجب كون الله ظالماً، وأيضاً تدل هذه الآية على كونه قادراً على الظلم، إذ لو لم يصح منه لما كان في التمدح بنفيه فائدة.

واعلم أن هذه المسألة قد سبق ذكرها على الاستقصاء في سورة آل عمران، فإلا فائدة في الإعادة. والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15 ص 143. 144 ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ ﴾ كسبت وعملت ﴿ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾  
أخذهم من غير جزم، وفي محل " أن " وجهان من الاعراب : أحدهما النصب عطفاً على  
قوله ( بما قدمت ) تقديره : وأن الله ، والآخر : الرفع عطفاً على قوله ( ذلك ) معناه : وذلك  
أن الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 ص ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ ﴾  
يحتمل أن يكون من قول الملائكة في وقت توفيتهم لهم على الصورة المذكورة ، ويحتمل أن  
يكون كلاماً مستأنفاً تقريراً من الله عز وجل للكافرين حبيهم وميتهم ، ﴿ وَأَنَّ ﴾ يصح أن  
تكون في موضع رفع على تقدير والحكم أن ، ويصح أن تكون في موضع خفض عطفاً على  
ما في قوله ﴿ بِمَا قَدَّمْتُ ﴾ ، وقال مكِّي والزهرابي : ويصح أن تكون في موضع نصب  
بإسقاط الباء تقديره " وبأن " ، فلما حذف الباء حصلت في موضع نصب .

قال القاضي أبو محمد: وهذا غير متجه ولا بين إلا أن تنصب بإضمار فعل. انتهى انتهى.

اه ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(288/314)

وقال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿ ذلك بما قدّمت أيديكم ﴾

أي: بما كسبتم من قبائح أعمالكم.

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ لا يظلم عباده بعقوبتهم على الكفر، وإن كان كفرهم بقضائه، لأنه مالك، فله التصرف في ملكه كما يشاء، فيستحيل نسبة الظلم إليه. انتهى

انتهى. اه ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال القرطبي:

﴿ ذلك ﴾ في موضع رفع؛ أي الأمر ذلك.

أو "ذلك" جزاؤكم.

﴿ بما قدّمت أيديكم ﴾ أي اكتسبتم من الآثام.

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ إذ قد أوضح السبيل وبعث الرسل، فلم خالفتكم؟.

"وَأَنَّ" في موضع خفض عطف على "ما" وإن شئت نصبت ، بمعنى وبأنّ ، وحذفت الباء ، أو بمعنى : وذلك أن الله .

ويجوز أن يكون في موضع رفع نسقاً على ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 8

ص ﴿

(289/314)

وقال الخازن :

﴿ ذلك ﴾ يعني الذي نزل بكم من القتل والضرب والحريق ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ يعني إنما حصل لكم ذلك بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر والمعاصي .

فإن قلت : اليد ليست محلاً للكفر وإنما محله القلب لأن الكفر اعتقاد والاعتقاد محله القلب وظاهر الآية يقتضي أن فاعل هذا الكفر هي اليد وذلك ممتنع .

قلت : اليد هنا عبارة عن القدرة لأن اليد آلة العمل والقدرة هي المؤثرة في العمل فاليد كناية عن القدرة .

قوله تعالى : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى لا يعذر أحداً من

خلقه إلا بجرم اجترمه لأنه لا يظلم أحداً من خلقه وإنما نفى الظلم عن نفسه مع أنه يعذب

الكافر على كفره والعاصي على عصيانه لأنه يتصرف في ملكه كيف شاء ومن كان كذلك استحال نسبة الظلم إليه فلا يتوهم متوهم أنه سبحانه وتعالى مع خلقه كفر الكافر وتعذيبه عليه ظالم فهذا قال الله سبحانه وتعالى وأن الله ليس بظلام للعبيد لأنهم في ملكه وتحت قدرته فهو يتصرف فيهم كيف يشاء . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾  
وقال أبو حيان :

﴿ ذلك ﴾ أي ذلك العذاب وهو مبتدأ خبره ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ ﴿ وأن الله ﴾ عطف على ما أي ذلك العذاب بسبب كفركم وسبب أن الله لا يظلمكم إذ أنتم مستحقون العذاب فتعذيبكم عدل منه وتقدم تفسير هذه الجملة في أواخر سورة آل عمران . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(290/314)

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الضرب والعذاب ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بكونهما في الغاية القاصية من الهول والفظاعة ، وهو مبتدأ خبره ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ أي ذلك الضربُ واقعٌ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي ، ومحل أن في قوله : ﴿

وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ الرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَيْ وَالْأَمْرُ أَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ  
بِمُعَذِّبٍ لِعَبِيدِهِ بغير ذنبٍ مِنْ قَبْلِهِمْ وَالتَّعْيِيرُ عَنْ ذَلِكَ بِنَفْيِ الظُّلْمِ مَعَ أَنَّ تَعَذِّيبَهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ  
لَيْسَ بِظُلْمٍ قَطْعًا عَلَى مَا تَقَرَّرَ مِنْ قَاعِدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ ظُلْمًا بِالْغَاقِدِ مَرَّ تَحْقِيقُهُ  
فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، وَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ تَذْيِيلِيٌّ مُقَرَّرٌ لِمُضْمُونِ مَا قَبْلَهَا ، وَأَمَّا مَا قِيلَ مِنْ أَنَّهَا  
مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ سَبَبِيَّتَهُ مُقَيَّدَةٌ بِانضِمَامِهِ إِلَيْهِ إِذْ لَوْلَاهُ لَأَمْكُنُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِغَيْرِ  
ذُنُوبِهِمْ فَلَيْسَ ( ذَلِكَ ) بِسَدِيدٍ لَمَّا أَنَّ إِمْكَانَ تَعَذِّيبِهِ تَعَالَى لِعَبِيدِهِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ بَلْ وَقُوعَهُ لَا يَنَافِي  
كَوْنَ تَعَذِّيبِ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةَ الْمَعِينَةَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ حَتَّى يُحْتَاجَ إِلَى اعْتِبَارِ عَدَمِهِ مَعَهُ ، نَعَمْ لَوْ  
كَانَ الْمُدْعَى كَوْنَ جَمِيعِ تَعَذِّيبَاتِهِ تَعَالَى بِسَبَبِ ذُنُوبِ الْمُعَذِّبِينَ لِاحْتِياجِ إِلَى ذَلِكَ . انْتَهَى  
انْتَهَى . اهـ ﴿ تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ح 4 ص ﴾

(291/314)

وقال الألويسي :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51) ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ أَيْ الضَّرْبُ وَالْعَذَابُ اللَّذَانِ هُمَا هُمَا وَهُوَ مُبْتَدَأٌ خَبَرَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِمَا

قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ ﴾ وَالْبَاءُ لِلْسَّبَبِيَّةِ ، وَتَقْدِيمُ الْأَيْدِي مَجَازٌ عَنِ الْكَسْبِ وَالْفِعْلُ ، أَيْ ذَلِكَ



واقع بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي ، وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ قيل خبر مبتدأ محذوف ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها ، أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده من غير ذنب من قبلهم ، والتعير عن ذلك بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعاً على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلاً عن كونه ظلماً بالغاً لبيان كمال نزاهته تعالى بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من الظلم .

وقال البيضاوي بيض الله غرة أحواله : هو عطف على ﴿ مَا ﴾ للدلالة على أن سببته مقيدة بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم .

لأن لا يعذبهم بذنوبهم ، فإن ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعاً ولا عقلاً حتى ينتهض نفي الظلم سبباً للتعذيب وأراد بذلك الرد على الزمخشري عامله الله تعالى بعدله حيث جعل كلاً من الأمرين سبباً بناءً على مذهبه في وجوب الأصلح ، فقوله : لأن لا يعذبهم عطف على أن يعذبهم والمعنى أن سبب هذا القيد دفع احتمال أن يعذبهم بغير ذنوبهم لا احتمال أن لا يعذبهم بذنوبهم فإنه أمر حسن ، وقوله للدلالة الخ على معنى أن تعينه للسببية إنما يحصل بهذا القيد إذ بإمكان تعذيبهم بغير ذنب يحتمل أن يكون سبب التعذيب إرادة العذاب بلا ذنب ، فحاصل معنى الآية أن عذابكم هذا إنما نشأ من ذنوبكم لا من شيء آخر .

فلا يرد عليه ما قيل : كون تعذيب الله تعالى للعباد بغير ذنب ظلماً لا يوافق مذهب الجماعة ، وما قيل : إن هذا يخالف ما في آل عمران من أن سببته للعذاب من حيث أن نفي الظلم يستلزم العدل المقتضى إثابة المحسن ومعاقبة المسيء مدفوع بأن لنفي الظلم معينين : أحدهما ما ذكر من إثابة المحسن الخ ، والآخر عدم التعذيب بلا ذنب وكل منهما يؤول إلى معنى العدل فلا تدافع بين كلاميه .

وأما جعله هناك سبباً وهنا قيداً للسبب فلا يوجب التدافع أيضاً فإن المراد كما ذكرنا فيما قبل بالسبب الوسيلة المحضة وهو وسيلة سواء اعتبر سبباً مستقلاً أو قيداً للسبب . ولمولانا شيخ الإسلام في هذا المقام كلام لا يخفى عليك رده بعد الوقوف على ما ذكرنا . وقد تقدم لك بسط الكلام فيه ، ومن الناس من بين قول القاضي : للدلالة الخ بقوله يريد أن سببية الذنوب للعذاب تتوقف على انتفاء الظلم منه تعالى فإنه لو جاز صدوره عنه سبحانه لأمكن أن يعذب عبده بغير ذنوبهم .

فلا يصلح أن يكون الذنب سبباً للعذاب لافي هذه الصورة ولا في غيرها ؛ ثم قال : فإن قلت : لا يلزم من هذا الإنفي انحصار السبب للعذاب في الذنوب لأنفي سببها له والكلام فيه

إذ يجوز أن يقع العذاب في الصورة المفروضة بسبب غير الذنوب ، ولا ينافي هذا كونها سبباً  
له في غير هذه الصورة كما في أهل بدر .

فلا يتم التقريب .

قلت : السبب المفروض في الصورة المذكورة إن أوجب استحقاق العذاب يكون ذنباً لا  
محالة .

والمفروض خلافه وإن لم يوجب فلا يتصور أن يكون سبباً إذ لا معنى لكون شيء سبباً إلا  
كونه مقتضياً لاستحقاقه له فإذا انتفى هذا ينتفي ذلك ، وبالجملة فمال كون التعذيب من  
غير ذنب إلى كونه بدون السبب لانحصار السبب فيه انتهى .

(293/314)

---

ورد بأن قوله : وإن لم يوجب فلا يتصور أن يكون سبباً ممنوع فإن السبب الموجب ما يكون  
مؤثراً في حصول شيء سواء كان عن استحقاق أو لم يكن ، ألا يرى أن الضرب بظلم والقتل  
كذلك سببان للإيلام والموت مع أنهما ليسا عن استحقاق ، فاعتراض السائل واقع موقعه  
ولا يمكن التصدي عنه إلا بما قرر سابقاً من معنى الآية ، فإن المقام مقام تعيين السببية  
وتخصيصها للذنوب وذلك لا يحصل إلا بنفي صدور العذاب بلا ذنب منه سبحانه وتعالى

، ومن هنا علم أن قوله : وبالجملة الخ ليس بسديد فإن مبناه كون الاستحقاق شرطاً  
للسببية وقد مر ما فيه مع ما فيه من المخالفة لكلام الاجلة من كون نفي الظلم سبباً آخر  
للتعذيب لأن سببية نفي الظلم موقوفة على إمكان إرادة التعذيب بلا ذنب وكونها سبباً  
للعذاب فكيف يكون ما لكون التعذيب بلا ذنب إلى كونه بدون السبب فتأمل فالمقام  
معتك الإفهام ، ثم أن المراد في الآية نفي نفس الظلم وإنما كثر توزيعاً على الأحاد كأنه قيل :  
ليس بظالم لفلان ولا بظالم لفلان وهكذا فلما جمع هؤلاء عدل إلى ظلام لذلك ، وجوز أن  
يكون إشارة إلى عظم العذاب على سبيل الكناية وذلك لأن الفعل يدل بظاهره على غاية  
الظلم إذا لم يتعلق بمستحقه فإذا صدر ممن هو أعدل العادلين دل على أنه استحق أشد  
العذاب لأنه أشد المسيئين .

قال في "الكشف" : وهذا أوفق للطائف كلام الله تعالى المجيد ، وفيه وجوه أخر مرر لك  
بعضها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 10 ص ﴾

(294/314)

وقال القاسمي :

﴿ ذَلِكْ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ 51 ] .

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الضرب والعذاب ﴿ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي : ما كسبتم من الكفر والمعاصي ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أي : بأن يأخذهم بلا جرم .

فإن قيل : ما سر التعبير بظلام بالمبالغة ، مع أن نفي نفس الظلم أبلغ من نفي كثرته ، ونفي الكثرة لا ينفي أصله ، بل ربما يشعر بوجوده ، ورجوع النفي للتقيد ؟  
وأجيب بأجوبة :

منها : أنه نفي لأصل الظلم وكثرته ، باعتبار آحاد من ظلم ، كأنه قيل : ظالم لفلان ولفلان وهلم جراً ، فلما جمع هؤلاء عدل إلى ظلام لذلك ، أي : لكثرة الكمية فيه .  
ومنها : أنه إذا انتفى الظلم الكثير ، انتفى الظلم القليل ، لأن من يظلم ، يظلم للإنتفاع بالظلم فإذا ترك كثيره ، مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضرر ، كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركاً .

ومنها : أن ظلاماً للنسب ، كقطار ، أي : لا ينسب إليه الظلم أصلاً .  
ومنها : أن كل صفة له تعالى في أكمل المراتب ، فلو كان تعالى ظالماً ، كان ظلاماً ، فنفي اللازم ، لنفي الملزوم .

ومنها : أن في الظلام لنفي الظالم ، ضرورة أنه إذا انتفى الظلم انتفى كماله ، فجعل نفي المبالغة كناية عن نفي أصله ، انتقالاً من اللازم إلى الملزوم .

ومنها : أن العذاب من العظم بحيث ، لولا الإستحقاق ، لكان المعذب بمثله ظلماً بليغ

الظلم متفاقمه ، فالمراد تنزيهه تعالى ، وهو جدير بالمبالغة .

وأيضاً لو عذب تعالى عبده بدونه استحقاق وسبب ، لكان ظلماً عظيماً ، لصدروه عن

العدل الرحيم . كذا في " العناية " .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله

(295/314)

---

تعالى يقول : > إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، يا  
عبادي ! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير  
ذلك فلا يلومن إلا نفسه < . والحديث طويل جليل ، معروف عند المحدثين ، بالحديث  
المسلسل بالدمشقيين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ح 8 ص 318.319 ﴾

(296/314)

---

وقال ابن عاشور :

واسم الإشارة ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾

إلى ما يشاهدونه من العذاب ، وجيء بإشارة البعيد لتعظيم ما يشاهدونه من الأهوال .  
والجملة مستأنفة لقصد التنكيل والتشفي .

والباء للسببية ، وهي ، مع الجرور ، خبر عن اسم الإشارة .

و"ما" في قوله : ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ موصولة ، ومعنى ﴿ قدمت أيديكم ﴾

أسلفته من الأعمال فيما مضى ، أي من الشرك وفروعه من الفواحش .

وذكر الأيدي استعارة مكنية بتشبيه الأعمال التي اقترفوها ، وهي ما صدق ﴿ ما قدمت

﴿ بما يجتنيه المجتني من الثمر ، أو يقبضه البائع من الأثمان ، تشبيه المعقول بالحسوس ،

وذكر رديف المشبه وهو الأيدي التي هي آلة الأكتساب ، أي : بما قدّمته أيديكم لكم .

وقوله : ﴿ وأن الله ليس بظالم للعبيد ﴾ عطف على ﴿ ما قدمت أيديكم ﴾ والتقدير :

وبأن الله ليس بظالم للعبيد ، وهذا علة ثانية لإيقاع تلك العقوبة عليهم ، فالعلة الأولى ،

المفادة من باء السببية تعليل لإيقاع العقاب .

والعلة الثانية ، المفادة من العطف على الباء ومجورها ، تعليل لصفة العذاب ؛ أي هو

عذاب معادل لأعمالهم ، فمورد العلتين شيء واحد لكن باختلاف الاعتبار .

ونفي الظلم عن الله تعالى كناية عن عدله ، وأن الجزاء الأليم كان كفاء للعمل المجازي عنه

دون إفراط.

وجعل صاحب "الكشاف" التعليلين لشيء واحد ، وهو ذلك العذاب ، فجعلهما سببين لكفرهم ومعاصيهم ، وأن التعذيب من العدل مثل الإثابة ، وهو بعيد ، لأنّ ترك الله المؤاخذة على الاعتداء على حقوقه إذا شاء ذلك ، ليس بظلم ، والموضوع هو العقاب على الإشراك والفواحش ، وأمّا الاعتداء على حقوق الناس فترك المؤاخذة به على تسليم أنه ليس بعدل ، وقد يعوض المعتدى عليه بترضية من الله ، فلذلك كان ما في "الكشاف" غير خال عن تعسف حمله عليه الإسراع لنصرة مذهب الاعتزال من استحالة العفو عن العصاة ، لأنه مناف للعدل أو للحكمة .

(297/314)

---

ونفي ظلام بصيغة المبالغة لا يفيد إثبات ظلم غير قوي ؛ لأنّ الصيغ لا مفاهيم لها ، وجرت عادة العلماء أن يجيبوا بأنّ المبالغة منصرفة إلى النفي كما جاء ذلك كثيراً في مثل هذا ، ويزاد هنا الجواب باحتمال أنّ الكثرة باعتبار تعلق الظلم المنفي ، لو قدر ثبوته ، بالعبيد الكثيرين ، فعبر بالمبالغة عن كثرة إعداد الظلم باعتبار تعدّد أفراد معموله .  
والتعريف باللام في ﴿ العبيد ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي : لعبيده كقوله : ﴿ فإن



الجنة هي المأوى ﴿ [النازعات : 41] ويجوز أن يكون ﴿ العبيد ﴾ أطلق على ما يرادف الناس كما أطلق العباد في قوله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ في سورة [يس : 30] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(298/314)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51) ﴾

نحن نعلم أن معظم أعمال الإنسان يزاو لها بيده ، وقد يفعل أشياء بقدميه أو بلسانه ؛ لكن معظم الأعمال تتم باليد ؛ لأن اليد تحمل القدرة على الفعل . فسبحانه لم يفتت عليهم . و" ذلك " إشارة إلى الضرب والعذاب الذي ينالونه جزاء ما قدمت أيديهم . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [الأنفال : 51] .

أي أن العذاب الذي يصيب الكفار يكون نتيجة أمرين ؛ ما قدمت أيديهم أي بما كسبت من الآثام والمعاصي ، وعدل الله سبحانه وتعالى .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ \* ذَلِكَ بِمَا  
قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿ [آل عمران: 181-182] .  
ويقول سبحانه وتعالى في سورة الحج: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ  
﴿ [الحج: 10] .

(299/314)

---

وهكذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد قال: إنه ليس بظلام للعبيد ثلاث مرات في القرآن  
الكريم، والذين يحبون أن يستدركوا على كتاب الله يقولون: إنه جاء في القرآن أكثر من مرة  
أنه سبحانه وتعالى ليس بظلام للعبيد. فهل هذا يعني أن الله - معاذ الله - ظالم؟ . ونقول  
: لا، فسبحانه ينفي الظلم عن نفسه على إطلاقه. والإنسان حين يظلم فهو ظالم، فإذا  
اشتد ظلمه وتعدد، يقال: "ظلام". إذن فهذه صيغة مبالغة في الظلم، مثلما نقول: فلان  
"أكل" وفلان "أكل" أي كثير الأكل مبالغة في تناول الطعام. ونقول: فلان "ناجر" أي  
أمسك قطعة خشب بدون خبرة وصنع منها شيئاً. ولكنك إذا قلت: "نجار" كانت  
هذه صيغة مبالغة تبين إتقانه في صنعه، كذلك "خائط" و"خيَّاط"، ونقول: فلان  
"جازر" أي يستطيع أن يذبح، فإذا قلت: "جزَّار" أي عمله هو أن يذبح ياتقان.

إذن "فعَّال" صيغة مبالغة في الفعل . وصيغ المبالغة لها حالتان ، حالة إثبات وحالة نفي .  
فأنت حين تقول : فلان "أَكَل" أثبت له صفة المبالغة في الأكل - أي كثرة الأكل ، ومن باب  
أولى صفة الأكل مطلقاً ، وما دمت قد أثبت له الصفة الأعلى تكون الصفة الأدنى ثابتة ،  
فإذا قلت : إن فلاناً "خياط" أثبت له أنه يعرف الخياطة ويجيدها . وإن قلت : إنه "نجار"  
"أثبت له أنه ناجر متقن للنجارة ، أما من ناحية النفي فإذا قلت : إن فلاناً ليس أكلاً تنفي  
المبالغة ولكنها لا تنفي أنه يأكل ، فإذا قلت : إن فلاناً ليس نجاراً نفيت عنه إتقانه للنجارة  
ولكنك لا تنفي عنه أنه قد يكون نجاراً ، وإذا قلت : إن فلاناً ليس علامة فقد يكون عالماً

(300/314)

---

وأنت عندما تثبت الأعلى تثبت الأدنى ، وعندما تنفي الأعلى لا تنفي الأدنى . وعندما  
تقول : إن فلاناً ليس ظلاماً ، تكون قد نفيت الأعلى . ولكن لا يلزم نفي الأدنى فقد يكون  
ظلاماً فقط وليس ظلاماً . إذن فكلمة "ليس ظلاماً" نفي المبالغة فقط ولكنها لم تنف  
الظلم . وهذا ما قاله المستشرقون : إن آيات القرآن يناقض بعضها بعضاً ، ففي آية مثلاً  
يقول : ﴿ لَيْسَ بِظُلَامٍ ﴾ فنفي الأعلى ولا يلزم من نفي الأعلى نفي الأدنى . ويقول

سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: 40] .  
فنفي الأدنى والأعلى . وهذا في رأيهم تضارب . نقول: هل إذا نفي الأعلى يلزم أن يثبت  
الأدنى ؟ طبعاً لا ، إن نفي الأعلى لا يمنع أن يوجد الأدنى ولكنه لا يلزم بوجوده .  
إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

نفي مبدأ الظلم ، وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [الأنفال: 51] .

نفي مبدأ المبالغة ، والقرآن يكمل بعضه بعضاً ، فإذا قيل : إن الله نفي الأعلى وهذا إثبات  
للأدنى نقول : إن نفي الأعلى لا يلزم منه إثبات الأدنى ولا يمنع من وجود الأدنى ، فإذا  
جاءت آية أخرى ونفت الأدنى ، إذن فلا هو بظالم ولا هو بظالم . ولا بد أن نلتفت إلى  
الإعجاز القرآني في الأسلوب ، فالمتكلم هو الله . نقول : هل قال الله سبحانه وتعالى : ليس  
بظالم للعبد أم ليس بظالم للعبيد ؟ لقد قال الحق : ﴿ لَيْسَ بِظَالَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ وهي هنا  
صيغة مبالغة ، والمبالغة مرة تكون في قوة الحدث وإن لم يتكرر ، ومرة تكون في المبالغة في  
تكرار الحدث ، والإنسان حين يظلم ظلماً بيناً مبالغاً فيه يقال عنه : إنه ظالم ؛ لأنه بالغ في  
الظلم ، فإذا لم يبالغ في الظلم وكان ظلماً بسيطاً ولكنه شمل عدداً كبيراً من الناس يكون  
ظالماً نظراً لتعدد المظلومين .

---

وما دام الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿لَيْسَ بظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ؛ ولم يقل: ليس بظلام للعبد ،  
وبما أن الظلم يتناسب مع القدرة . نجد مثلاً قدرة الحاكم على الظلم أكبر من قدرة محدود  
النفوذ ؛ وهذه أكبر من قدرة الشخص العادي ، فلو كان الله سبحانه وتعالى مع كل واحد  
من عباده ظالماً ولو مثقال ذرة لثقل : ظلام . وقد أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية  
الكريمة أن يخبرنا أنه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة ، إذن فهو ليس بظلام للعبيد ؛ لأنه لو ظلم  
كل عبد من عباده ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد . ولكن حتى هذه الذرة من  
الظلم لا تحدث من الله سبحانه ؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد .  
ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى أمثلة قمة الكفر في الحياة الدنيا فيقول تبارك وتعالى : ﴿  
كذَّبَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص  
﴿

(302/314)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل :

قوله: ﴿ ذَلِكِ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ ﴾ .

قال الواحديُّ: "يجوز أن يقال " ذلك " مبتدأ ، وخبره ﴿ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ ﴾ ويجوز أن يكون خبره محذوفاً ، والتقدير : ذلك جزاؤكم بما قدمت أيديكم ، ويجوز أن يكون محل " ذلك " نصباً والتقدير : فعلنا ذلك بما قدمت أيديكم " .

قوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ .

في محل " أن " وجهان :

أحدهما : النصبُ بنزع الخافض يعني : بأنَّ الله .

والثاني : أنك إن جعلت قوله : " ذلك " في موضع رفع ، جعلت " أن " في موضع رفع أيضاً ، أي : وذلك أنَّ الله .

قال الكسائيُّ : " ولو كسرت ألف " أن " على الابتداء كان صواباً ، وعلى هذا التقدير يكون كلاماً مبتدأً منقطعاً عمَّ قبله " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 542 . 543 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ذَلِكِ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (51) ﴿

يُعرفهم أنَّ ما أصابهم من شِدَّةِ الوَطْءِ جَزَاءٌ لَهُمْ عَلَى مَا أَسْلَفُوهُ مِنْ قَبِيحِ الزَّلَّةِ ، كما قيل :

سَنَنْتَ فِينَا سَنَنَا . . . قَذَفَ الْبَلَايَا عُنُقَهُ

يَصِيرُ عَلَى أَهْوَالِهَا . . . مَنْ بَرَّ يَوْمَ رَبِّهِ

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي كيفما يعاملهم في السَّراءِ والضَّرَّاءِ فذلك منه حَسَنٌ وَعَدْلٌ، إِذِ الْمَلِكُ مُلْكُهُ، وَالْخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالْحُكْمُ حُكْمُهُ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف

الإشارات حـ 1 صـ 632 ﴿

(303/314)

قوله تعالى ﴿ كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (52) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين بما مضى ما يوجب الاجتماع عليه والرجوع في كل أمر إليه ، وبين أن من خالف ذلك هلك كائناً من كان ؛ أتبعه بما يبين أن هذا من العموم والاطراد بحيث لا يخص زماناً دون زمان ولا مكاناً سوى مكان فقال تعالى : ﴿ كَذَّابٌ ﴾ أي عادة هؤلاء الكفار وشأنهم الذي دأبوا فيه وداموا وواظبوا فموتوا عليه كعادة ﴿ آل فرعون ﴾ أي الذين هؤلاء اليهود

من أعلم الناس بأحوالهم ﴿والذين﴾ ولما كان المهلكون لأجل تكذيب الرسل بعض أهل  
الزمان الماضي ، أدخل الجار فقال : ﴿من قبلهم﴾ وهو مع ذلك من أدلة ﴿فلم  
تقتلوه﴾ لأن هؤلاء الذين أشار إليهم كان هلاكهم بغير قتال ، بل بعضهم بالريح وبعضهم  
بالصيحة وبعضهم بالغرق وبعضهم بالحسف الذي هو غرق في الجامد ، فكأنه يقول : لا  
ينسب أحد لنفسه فعلاً ، فإنه لا فرق عندي في إهلاك أعدائي بين أن يكون إهلاكهم  
بتسليط من قتال أو غيره ، الكل بفعلتي ، لولا أنا ما وقع ، وذلك زاجر عظيم لمن افتخر بقتل  
من قتله الله على يده ، أو نازع في النفل ، وهو راجع إلى قوله تعالى ﴿لكيلا تأسوا على ما  
فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [الحديد : 23] وفي ذلك حث على التمرن على عدم  
الاكتراث بشيء يكون للنفس فيه أدنى حظ ليصير ذلك خلقاً كما هو دأب رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم - ، لا يضيف شيئاً من محاسنه إلا إلى خالقه إلا إن كان مأموراً فيه  
بالتشريع ، بل يقول : قتلهم الله ، صرفهم الله ، نصرنا الله ، كفى الله ، فإذا صار ذلك  
للمستمسكين به خلقاً أفضى بهم إلى مدح الخالق والمخلوق لهم كما قال كعب بن زهير -  
رضى الله عنهم - في مدحهم :  
ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم . . .  
قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا



---

ثم بين تعالى الحال الذي شابها فيه من قبلهم بقوله: ﴿كفروا بآيات الله﴾ أي ستروا ما  
دلته عليه أنوار عقولهم من دلالات الملك الأعلى وغطوها لأنهم لم يعملوا بها وصدوا عن  
ذلك من تبعهم، فكان جزاؤهم ما تسبب عن ذلك من قوله: ﴿فأخذهم الله﴾ أي الذي  
له مجامع الكبر ومقاعد العظمة والعز أخذ غلبة وقهر وعقوبة ﴿بذنوبهم﴾ كما أخذهم  
فإنهم تجرؤوا على رتبة الألوهية التي تحسأ دون شوايحها نوافذ الأبصار، وتظلم عند  
بوارق أشعتها سواطع الأنوار، وتضمحل بالبعد عن أول مراقبها القوي، وتنقطع بتوهم  
الدنومن فيافيها الأعناق، فنزلت بهم صواعق هيبتها، وأناخت عليهم صروف عظمتها  
، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ولا تحس إلا ملاعبهم وأمكاكنهم.  
ولما أخبر بأخذهم، علله بقوله: ﴿إن الله﴾ أي الذي له الإحاطة الشاملة ﴿قوي﴾  
أي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿شديد العقاب﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر  
ح 3 ص 229. 230﴾

(305/314)

---

## فصل

قال الفخر :

﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ

شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لما بين ما أنزله بأهل بدر من الكفار عاجلاً وآجلاً كما شرحناه أتبعه بأن بين أن هذه طريقته وسنته في الكل .

فقال : ﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ والمعنى : عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون في كفرهم .

فجوزي هؤلاء بالقتل والسبي كما جوزي أولئك بالإغراق وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل يقال : فلان يدأب في كذا ، أي يداوم عليه ويواظب ويتعب نفسه ، ثم سميت العادة دأباً لأن الإنسان مداوم على عادته ومواظب عليها .

ثم قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ والغرض منه التنبيه على أن لهم عذاباً

مدخراً سوى ما نزل بهم من العذاب العاجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 15

وقال السمرقندى :

﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم الخالية .

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ، يعني جحدوا بعذاب الله في الدنيا أنه غير نازل بهم ،

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ يعني عاقبهم وأهلكهم ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وشركهم .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ، يعني قوي في أخذه ، شديد العقاب لمن

عصاه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 2 ص ٢٠٠ ﴾

(306/314)

وقال الثعلبي :

﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾

قال ابن عباس : كفعل آل فرعون ، وقال الضحاك : كصنيعهم ، وقال مجاهد ، وعطاء :

كسنتهم ، وقال يمان : كمثلهم يعني أن أهل بدر فعلوا كفعل آل فرعون من الكفر والذنوب ،

ففعل الله بهم كما فعل بآل فرعون من الهلاك والعذاب ، وقال الكسائي : كما أن آل فرعون

جحدوا كما جحدتم وكفروا كما كفرتم . قال الاخفش ، والمؤرخ ، وأبو عبيدة : كحادثة آل

فرعون .

﴿ والذين من قبلهم كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ فعاقبهم الله ﴿ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 ص ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ الآية

الدأب : العادة في كلام العرب ، ومنه قول امرئ القيس : [ الطويل ]

كدأبك من أم الحويرث قبلها . . . وجارتها أم الرباب بمأسل

ويروى كدينك ، ومنه قول خراش بن زهير العامري :

فما زال ذاك الدأب حتى تحاذلت . . . هوأزن وارفضت سليم وعامر

وهو مأخوذ من دأب على العمل إذا لزمه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم ، لصاحب

الجميل الذي هس إليه وأقبل نحوه وقد ذل ودمعت عيناه : " إنه شكا إلي أنك تجيعه وتدببه

فكان العادة دؤوب ما "

وقال جابر بن زيد وعامر الشعبي ومجاهد وعطاء : المعنى كسنن آل فرعون ، ويحتمل أن

يراد كعادة آل فرعون وغيرهم ، فتكون عادة الأمم بجملتها لا على انفراد أمة ، إذ آل فرعون

لم يكفروا وأهلكوا مراراً بل لكل أمة مرة واحدة ، ويحتمل أن يكون المراد كعادة الله فيهم ،

فأضاف العادة إليهم إذ لهم نسبة إليها يضاف المصدر إلى الفاعل وإلى المفعول ، والكاف

من قوله ﴿ كدأب ﴾ يجوز أن يتعلق بقوله ﴿ وذوقوا ﴾ وفيه بعد ، والكاف على هذا

في موضع نصب نعت لمصدر محذوف ، ويجوز أن تتعلق بقوله ﴿ قدمت أيديكم ﴾  
وموضعها أيضاً على هذا نصب كما تقدم ، ويجوز أن يكون معنى الكلام الأمر مثل دأب آل  
فرعون فتكون الكاف في موضع خبر الابتداء ، وقوله ﴿ فأخذهم ﴾ معناه أهلكهم وأتى  
عليهم بقرينة قوله ﴿ بذنوبهم ﴾ ثم ابتداء الإخبار بقوة الله تعالى وشدة عقابه . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(307/314)

وقال ابن الجوزي :  
قوله تعالى : ﴿ كذاب آل فرعون ﴾  
أي : كعادتهم .  
والمعنى : كذب هؤلاء كما كذب أولئك ، فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك ، قال ابن عباس  
: أيقن آل فرعون أن موسى نبي الله فكذبوه ، فكذلك هؤلاء في حق محمد صلى الله عليه  
وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾  
وقال القرطبي :

﴿ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ﴾

الدأب العادة .

وقد تقدم في "آل عمران" .

أي العادة في تعذيبهم عند قبض الأرواح وفي القبور كعادة آل فرعون .

وقيل : المعنى جُوزي هؤلاء بالقتل والسبي كما جُوزي آل فرعون بالغرق .

أي دأبهم كدأب آل فرعون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 8 ص ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون ﴾

يعني أن عادة هؤلاء الكفار في كفرهم كعادة آل فرعون في كفرهم فجوزي هؤلاء بالقتل والأسريوم بدر كما جوزي آل فرعون بالإغراق وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل يقال فلان يدأب في كذا وكذا يداوم عليه ويتعب نفسه فيه ثم سميت العادة دأباً لأن الإنسان يداوم على عادته ويواظب عليها .

قال ابن عباس : معناه أن آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبي من الله تعالى فكذبوه

فكذلك هؤلاء لما جاءهم محمد ( صلى الله عليه وسلم ) بالصدق كذبوه فأنزل الله بهم

عقوبته كما أنزل بال فرعون ﴿ والذين من قبلهم ﴾ يعني من قبل آل فرعون ﴿ كفروا بآيات

الله ﴾ يعني أن عادة الأمم السالفة هو كفرهم بآيات الله ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ يعني

بسبب كفرهم وذنوبهم ﴿ إن الله قوي ﴾ يعني في أخذه وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله

﴿ شديد العقاب ﴾ يعني لمن كفر به وكذب رسله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن

﴿ 3 ص ﴾

(308/314)

وقال أبو السعود :

﴿ كدأب آل فرعون ﴾

في محل الرفع على أنه خبرٌ مبتدأٌ محذوفٌ والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لبيان أن ما حل بهم من

العذاب بسبب كفرهم لا بشيءٍ آخر ، من جهة غيرهم بتشبيه حالهم بحال المعرفين

بالإهلاك بسبب جرائمهم لزيادة تقبيح حالهم وللتنبية على أن ذلك سنةٌ مطردةٌ فيما بين

الأمم المهلكة أي شأنهم الذي استمروا عليه مما فعلوا وفعل بهم من الأخذ كدأب آل فرعون

المشهورين بقباحة الأعمال وفضاعة العذاب والنكال ﴿ والذين من قبليهم ﴾ أي من قبل

آل فرعون من الأمم التي فعلوا من المعاصي ما فعلوا ولقوا من العقاب ما لقوا كقوم نوح وعادٍ

وأضرابهم من أهل الكفر والعناد وقوله تعالى : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ تفسيرٌ لدأبهم

الذي فعلوه لا لدأب آل فرعون ونحوهم كما قيل ، فإن ذلك معلومٌ منه بقضية التشبيه ، وقوله

تعالى : ﴿ فأخذهم الله ﴾ تفسيرٌ لدأبهم الذي فعل بهم ، وإلقاءً لبيان كونه من لوازم

جناياتهم وتبعاتها المتفرعة عليها ، وقوله تعالى : ﴿ بَدَنُوهُمْ ﴾ لتأكيد ما أفاده الفاء من السببية مع الإشارة إلى أن لهم مع كفرهم ذنوباً أخر لها دخل في استتباع العقاب ، ويجوز أن يكون المراد بذنوبهم معاصيهم المتفرعة على كفرهم فتكون الباء للملابسة أي فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها فدأبهم مجموع ما فعلوا وفعل بهم لا ما فعلوه فقط كما قيل .

(309/314)

---

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبي الله فكذبوه كذلك هؤلاء جاء محمدٌ صلى الله عليه وسلم بالصدق فكذبوه فأنزل الله تعالى بهم عقوبته كما أنزل بالفرعون ، وجعل العذاب من جملة دأبهم مع أنه ليس مما يتصور مداومتهم عليه واعتيادهم إياه كما هو المعتبر في مدلول الدأب إما لتغليب ما فعلوه على ما فعل بهم أو لتنزيل مداومتهم على ما يوجبه من الكفر والمعاصي منزلة مداومتهم عليه لما بينهما من الملابسة التامة ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ اعتراضٌ مقررٌ لمضمون ما قبله من الأخذ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ج 4 ص ﴾

(310/314)



وقال الأوسى :

﴿ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾

خبر مبتدأ محذوف أي دأب هؤلاء كائن كذاب الخ؛ والجملة استئناف مسوق لبيان أن ما حل بهم من العذاب بسبب كفرهم لا بشيء آخر حيث شبه حالهم بحال المعروفين بالإهلاك لذلك لزيادة تقبيح حالهم وللتنبية على أن ذلك سنة مطردة فيما بين الأمم المهلكة ، والدأب العادة المستمرة ومنه قوله :

وما زال ذاك الدأب حتى تجادلت . . .

هو ازن وارفضت سليم وعامر

والمراد شأنهم الذي استمروا عليه مما فعلوا وفعل بهم من الأخذ كذاب آل فرعون المشهورين بقباحة الأعمال وفضاعة العذاب والنكال ﴿ والذين من قبلهم ﴾ أي من قبل آل فرعون وأصحابه من الأمم الذين فعلوا ما فعلوا وتلقوا من العذاب ما لقوا كقوم نوح . وعاد .

واضربهم ، وقوله تعالى : ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ تفسير لدأبهم لكن بملاحظة أنه الذي فعلوه لا لدأب آل فرعون ومن بعدهم فإن ذلك معلوم منه بقضية التشبيه .

والجملة لا محل لها من الاعراب لما أشير إليه ، وكذا على ما قيل : من أنها مستأنفة استئنافاً

نحوياً أو بيانياً ، وقيل : انها حالية بتقدير قد فهي في محل نصب ، وقوله سبحانه : ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ عطف عليها وحكمة في التفسير حكمها لكن بملاحظة الدأب الذي فعل بهم ، والفاء لبيان كونه من لوازم جنائياتهم وتبعاتها المتفرعة عليها .

(311/314)

---

وذكر الذنوب لتأكيد ما أفدته الفاء من السببية من الإشارة إلى أن لهم مع كفرهم ذنوباً آخر لها دخل في استتباع العقاب ، وجوز أن يراد بذنوبهم معاصيهم المتفرعة على كفرهم فيكون الباء للملاسة أي فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها ، وجعل العذاب من جملة دأبهم مع أنه ليس مما يتصور مداومتهم عليه واعتيادهم إياه كما هو المعتبر في مدلول الدأب كما عرفت اما تغليب ما فعلوه على ما فعل بهم أو لتنزيل مداومتهم على ما يوجبه من الكفر والمعاصي بمنزلة مداومتهم عليه لما بينهما من الملاسة التامة ، وإلى كون المراد بدأبهم مجموع ما فعلوه وما فعل بهم يشير ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : إن آل فرعون أيقنوا بأن موسى عليه السلام نبي الله تعالى فكذبوه كذلك هؤلاء جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق فكذبوه فأنزل الله تعالى لهم عقوبة كما أنزل بال فرعون ، وإلى ذلك ذهب ابن الخازن وغيره ، وقيل : المراد بدأبهم ما فعلوا فقط ، وقيل : ما فعل

بهم فقط ، وليس بشيء .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ أي أنه سبحانه لا يغلبه غالب فيدفع عقابه عن من أراد معاقبته . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ روح المعاني ج 10 ص ﴾

(312/314)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾  
﴿ كَذَّبَ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، وهو حذف تابع للاستعمال في مثله ، فإن العرب إذا تحدّثوا عن شيء ثم أتوا بخبر دون مبتدأ علم أنّ المبتدأ محذوف ، فقدّر بما يدل عليه الكلام السابق .

فالتقدير هنا : دأبهم كذآب آل فرعون والذين من قبلهم ، أي من الأمم المكذّبين برسول ربهم ، مثل عاد وثمود .

والدأب : العادة والسيرة المألوفة ، وقد تقدّم مثله في سورة آل عمران .

وتقدّم وجه تخصيص آل فرعون بالذكر .

ولا فرق بين الآيتين إلا اختلاف العبارة، ففي سورة [آل عمران: 11] ﴿كذبوا بآياتنا﴾ وهنا ﴿كفروا بآيات الله﴾، وهناك ﴿والله شديد العقاب﴾ [آل عمران: 11] وهنا ﴿إن الله قوي شديد العقاب﴾ .

فأما المخالفة بين ﴿كذبوا﴾ [آل عمران: 11] و﴿كفروا﴾ فلأن قوم فرعون والذين من قبلهم شاركوا المشركين في الكفر بالله وتكذيب رسله، وفي جحد دلالة الآيات على الوحدانية وعلى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فذكروا هنا ابتداء بالأفضع من الأمرين فعبر بالكفر بالآيات عن جحد الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، لأن الكفر أصرح في إنكار صفات الله تعالى.

وقد عقب هذه الآية بالتي بعدها، فذكر في التي بعدها التكذيب بالآيات، أي التكذيب بآيات صدق الرسول عليه الصلاة والسلام، وجحد الآيات الدالة على صدقه. فأما في سورة آل عمران [11] فقد ذكر تكذيبهم بالآيات، أي الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لأن التكذيب متبادر في معنى تكذيب المخبر، لوقوع ذلك عقب ذكر تنزيل القرآن وتصديق من صدق به، والحاد من قصد الفتنة بمتشابهه، فعبر عن الذين شابهوهم في تكذيب رسولهم بوصف التكذيب.

(313/314)

---

فأما الإظهار هنا في مقام الإضمار ، فافتضاه أن الكفر كفر بما يرجع إلى صفات الله فأضيفت الآيات إلى اسم الجلالة ؛ ليدل على الذات بعنوان الإله الحق وهو الوحدانية .  
وأما الإضمار في آل عمران فلكون التكذيب تكذيباً لآيات دالة على ثبوت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فأضيفت الآيات إلى الضمير على الأصل في التكلم .  
وأما الاختلاف بذكر حرف التأكيد هنا ، دونه في سورة آل عمران [ 11 ] ، فلأنه قصد هنا التعريض بالمشركين ، وكانوا ينكرون قوة الله عليهم ، بمعنى لازمها ، وهو إنزال الضرب بهم ، وينكرون أنه شديد العقاب لهم ، فأكد الخبر باعتبار لازمه التعريضي الذي هو إيلاب هذا الإنذار إلى من بقي من المشركين ، وفي سورة آل عمران [ 11 ] لم يقصد إلا الإخبار عن كون الله شديد العقاب إذا عاقب ، فهو تذكير للمسلمين وهم المقصود بالإخبار بقرينة قوله ، عقبه : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ [ آل عمران : 12 ] الآية .  
وزيد وصف "قوي" هنا مبالغة في تهديد المشركين المقصودين بالإنذار والتهديد .  
والقوي الموصوف بالقوة ، وحقيقتها كمال صلابة الأعضاء لأداء الأعمال التي تراد منها ، وهي متفاوتة مقول عليها بالتشكيك .  
وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فخذها بقوة ﴾ [ الأعراف : 145 ] .  
وهي إذا وصف الله بها مستعملة في معناها اللزومي وهي منتهى القدرة على فعل ما

تتعلق به إرادته تعالى من الممكنات .

والمقصود من ذكر هذين الوصفين : الإيماء إلى أن أخذهم كان قويا شديداً ، لأنه عقابٌ قوي شديد العقاب ، كقوله : ﴿ فَأَخَذْنَا هِمَّ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [ القمر : 42 ] ، وقوله : ﴿ إِن أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ ﴾ [ هود : 102 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح

9 ص ﴿

(314/314)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ﴾

و ﴿ الدَّابُّ ﴾ هو العادة التي تتكرر مع الإنسان ويقال : دؤوب على كذا ؛ أي يفعله باستمرار . ويوضح الله سبحانه وتعالى هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم : دأب هؤلاء الكفار معك يا محمد ، أي عاداتهم معك ، كدأب آل فرعون مع رسوهم ، أي أنهم يفعلون معك يا محمد ، أي عاداتهم معك ، كدأب آل فرعون مع رسوهم ، أي أنهم يفعلون معك كما فعل آل فرعون مع موسى عليه السلام .

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

أي قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم ، ما الذي حدث لهؤلاء ؟ ؛ هلاك أو اسئصال أو تعذيب أو إغراق أو خسف . إذن فالكفار الذين يعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحاربونه ، ويتفنون موقف الأذى منه ، هذا الدأب والموقف منهم معه مثل دأب وموقف آل فرعون مع موسى عليه السلام ، وقوم لوط مع لوط عليه السلام ، وكذلك الذين من قبلهم ، ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [ الأنفال : 52 ] .

فهل تركهم الله ؟ . لا . ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

فمنهم من أغرقوا ، ومنهم من أصابتهم الصاعقة ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، وما دام الله سبحانه وتعالى قد فعل ذلك مع الكفار السابقين كما هو ثابت . فسبحانه سوف ينزل عقابه على الكفار الذين يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم لن يخرجوا عن قاعدة التعامل مع المكذبين للرسول ، وقد حدثت سوابق مشابهة في الكون وقضايا واقعية . قال فرعون مثلاً بلغوا قمة التقدم والحضارة في عصرهم وسبحانه وتعالى يقول عن حضارة الفراعنة : ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ [ الفجر : 10 ] .

(315/314)

---

وبالنسبة لثمود إذا ذهبنا إلى مدائن صالح في السعودية نجد آثار ثمود وقد حفروا بيوتهم في صخور الجبال ، ويقول الحق عن حضارة ثمود : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ [ الفجر : 9 ] .

وكل الحضارات القديمة قد زالت في غالبيتها ولا أثر لها ، وإن وجد أثر ، فهو أثر قليل وسيط لا يحمل كل سمات الحضارة ، إلا آثار الفراعنة ؛ حيث تحوي مسلات ضخمة وأعمدة عالية وأهرامات كبيرة وهي باقية ، أما حضارة قوم عاد فالحق سبحانه قد طمس آثارها فلم نعرث منها على شيء حتى الآن . لقد انطمست غالبية آثار الحضارات إلا آثار حضارة آل فرعون التي يأتي إليها الناس من أنحاء الدنيا كلها ؛ ليتعجبوا من جمال البناء وروعة الفن وقمة التقدم في التصميم الهندسي ، وكيف نُقلت هذه الأحجار الضخمة إلى الأماكن العليا بدون سقالات ، وكيف ارتبطت الأحجار كلها مع بعضها البعض كل هذه السنوات الطويلة دون استخدام الأسمنت أو غيره من مواد التثبيت للأحجار ، بل تم ذلك بتفريغ الهواء . فكيف استطاعت هذه الهندسة العجيبة أن تفرغ الهواء بين حجرتين كبيرين ضخمين ؛ ليلتصقا ببعضهما التصاقاً محكماً بغير لاصق ولا يستطيع أحد أن يزحزحه ، فإذا كانت حضارة الفراعنة قد وصلت إلى هذا الفن الهندسي باستخدام تفريغ الهواء بين أثقال ضخمة فهي حضارة راقية جدا .



هذا إن نظرت إلى فن البناء فقط ، وكذلك إن نظرنا إلى تحنيط الجثث التي لا يعرف أحد سرها حتى الآن ، وكيف أمكن المحافظة على المومياوات آلاف السنين دون أن تتحلل . وكذلك إن نظرت إلى الألوان التي طليت بها المعابد والرسومات وبقيت زاهية كما هي رغم كل ذلك الزمن الطويل ، وإلى الحبوب التي حُنِطت وبقيت آلاف السنين دون أن يصيبها أي تلف ، بل وصالحة للطعام ، هذه الحضارة التي احتفظت بأسرار هذه الأشياء فلم تصل إليها البشرية حتى الآن ، لا بد أن تكون حضارة قوية وعالية ، ولكنها رغم قوتها وعلوها لم تستطع أن تحفظ نفسها من الانهيار لتصبح أثراً وتظل آثاراً .

أين ذهب صناع هذه الحضارة وقد بلغوا شأواً كبيراً وملكوا زمام الدنيا في عصرهم ؟ لا بد - إذن - من وجود قوة أعلى منهم ، قد دكهم . ولماذا أتى الله بآل فرعون في هذه الآفة بالاسم بينما أتى بالحضارات التي كانت قبلهم إجمالاً ؟ ، فقال تعالى :

﴿ كَذَّبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [ الأنفال : 52 ] .

لأن آثار آل فرعون قد كشف الله عنها ورغب فيها البشرية كلها ؛ ليأتوا ويروا تلك الحضارة الهائلة التي لم تستطع أن تحمي نفسها ، وذلك الفرعون الذي ادعى أنه إله يستطع أن يضمن

لنفسه البقاء . وشاء الله سبحانه أن تبقى آثار هذه الحضارة ليشاهدها الناس جميعاً ، ثم يروا أن الله عز وجل قد أهلك أصحابها وأصبحوا أثراً بعد عين ؛ ليعرفوا أن القوة لله جميعاً ، وأن الألوهية لله وحده ، وأن كل شيء هالك إلا الله ؛ لذلك ذكرت حضارة آل فرعون مخصصة ، وهذا الذكر لآثار قوم فرعون من إعجازات القرآن ؛ لأنه ذكر هذه الحضارة تخصيصاً ثم جاء الحق بخير الحضارات الأخرى إجمالاً ؛ قوم نوح وعاد وإرم وثمود . وكلهم : ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾

(317/314)

---

وعرفنا أن الآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الآيات الكونية التي تثبت وجود الخالق الأعلى مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [ فصلت : 37 ] . وكذلك المعجزات التي يؤتيها الله رسله لإثبات صدق بلاغهم عن الله مثل انشقاق البحر لموسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى عليه السلام ، ثم آيات القرآن الكريم التي هي محكم منهج الله في الأرض .

وقول الحق : ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ، نعلم منه أنهم أنكروا وجود الخالق ، والأصل في الكفر هو الستر ، وكفري يعني ستر . ولذلك يسمون الزارع بالمعنى اللغوي : كافر ؛ لأنه يحضر

الحب ويستره بالتراب ، ويسمون الليل لغويا : كافر ؛ لأنه يستر الأشياء . والشاعر يقول :

لي فيك أجر مجاهد . . . إن صح أن الليل كافر

ومعنى "كفروا" أي ستروا وجود الله تعالى ، إذن فالله عز وجل موجود ثابت الوجود قبل

أن يستروه بالكفر ؛ لأن الإيمان أصل في وجود الخلق ، والخلق قد وجدوا على الإيمان ، ثم

جاء أناس ستروا هذا الإيمان .

إذن فكلمة الكفر التي معناها الستر دليل من أدلة الإيمان ، وإلا لو لم يكن الله موجوداً فكيف

يسترون ما ليس له وجود ؟ ، فإذا قال لك أحد : إنه كفر – والعياذ بالله – تقول : الكفر هو

الستر ؛ فماذا سترت ؟ لا بد أنك سترت ما هو موجود ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿

كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

أي كفروا بآياته الكونية فلم يؤمنوا رغم الآيات الظاهرة التي تملأ الكون ، وكفروا بآيات

الرسول فكذبوا رسولهم رغم أنهم جاء وهم بمعجزات تحرق قوانين الحياة ، ولم يصدقوا آيات

الكتاب التي أنزلت من السماء لتبين لهم منهج الله تعالى :

وقوله تعالى :

﴿ كَذَّبَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [ الأنفال : 52 ] .

إيجاز معبر يذكر لك لماذا أخذهم الله بذنوبهم :

---

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [ الأنفال : 52 ] .  
والأخذ في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ﴾ كان بسبب ما ارتكبه من ذنوب وإفساد في  
الأرض . والإنسان حين يجد سوءاً يحيط به وعذاباً أليماً يأتيه فهو يحاول أن يفر منه ،  
ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى : ﴿ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴾ [ القمر : 42 ]

أي أن قدرة الله تعالى تمسك الكافر مسكة محكمة فلا يستطيع فراراً أو هروباً .  
وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [ الأنفال : 52 ] .

أي أن الله أقوى من كل ما تصنعون في كونه ، وعقابه تعالى شديد وأليم . ونعلم أن العقاب لا  
يعم الناس إلا بقدر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب من  
فعل ذنباً بسيطاً ، ولكن لكل جزاؤه على قدر ذنبه ؛ وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو  
شديد أليم ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

هذا القول لا يدخل في الجبرية التي يقول عنها الشاعر :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له . . . إياك إياك أن تبتل بالماء

ويخطيء من يظن أن الله قد كتب جبراً على إنسان أن يكون كافراً ثم يلقى به في نار جهنم ،

لا؛ لأن مثل هذا الأمر يتنافى مع عدالة الله سبحانه وتعالى ، فأنت أيها الإنسان مخير بين

الطاعة وبين المعصية ، بين الإيمان وبين الكفر . وعلى هذا نفهم قول الحق :

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [ الأنفال : 52 ] .

أي بسبب ذنوبهم ، وما دام الحق تبارك وتعالى قد توعدهم بعقاب شديد فهذا دليل على

شدة ظلمهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(319/314)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ كَذَّبَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ

شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ﴾

لما سلكوا مسلك أهل فرعون في الضلال ، سلكنا بهم مسلكهم فيما أذقناهم من العذاب

وسوء الحال ، وسنة الله ألا تغيير في الإنعام ، وعادته ألا تبديل في الانتقام ، ومن لم يعتبر بما

يشهد اعتبر بما يصنعه به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 632 ﴾

(320/314)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوي في تفسير القرآن الكريم  
ويُسمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَأِقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)  
العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش  
إمام وخطيب مسجد بُورُسُلِي - رأس الخيمة  
دولة الإمارات العربية المتحدة  
عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس عشر بعد الثلاثمائة  
حُقوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ  
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس عشر بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 53 ﴾ من سورة الأنفال

وحتى الآية ﴿ 58 ﴾ من نفس السورة

(4/315)

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (53)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل : فما له يمهلم ولا يعالجهم بالأخذ قبل النكاية في أوليائه وأهل وده وأصفيائه ؟ قال : ﴿ ذلك ﴾ أي الأخذ على هذه الحالة ﴿ بأن الله ﴾ أي بسبب أنهم غيروا ما في أنفسهم ، وقد كان له سبحانه أن يأخذهم قبل أن يغيروا العلم به بما في ضمائرهم ، ولكنه تعالى أجرى سنته الإلهية تمام علمه وكمال قدرته وإحاطته بجميع صفات الكمال بأنه ﴿ لم يك ﴾ هكذا كان الأصل ، ولكن حذف اختصاراً تقريباً لبيان تعميم العلة وإبعاد السامع من مثل ذلك ، وحذف نون " يكن " إرشاداً إلى أن هذه الموعظة خليفة

بأن يوجز بها غاية الإيجاز فيبادر إلى إلقائها لما في حسن تلقيها من عظيم المنفعة ، لأن من خالفها جدير بتعجيل الانتقام ﴿ مغيراً نعمة ﴾ أي قلت أو جلت ، وبين أنه لانهمة على أحد إلا منه فقال : ﴿ أنعمها على قوم ﴾ أي من أي طائفة كانوا ﴿ حتى يغيروا ﴾ أي يدلوا ﴿ ما ﴾ يعتقدونه ﴿ بأنفسهم ﴾ بغيره مما هو غريزة لهم وهو حفي عنهم ، يظنون اتصافهم بضده مما هو ظاهر لهم اتصافاً غريباً ﴿ وأن ﴾ أي وسبب أن ﴿ الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ سميع ﴾ أي لما يكذبون به الرسل ولأقوالهم : إن ما يظهره وصفهم الحقيقي ﴿ عليم ﴾ أي بما تكن ضمائرهم من غيره وإن جهلوه هم فيبتليهم ببلاء يظهر به ذلك المكنون ويبرز به كل سر مصون ، فإذا تعلق به العلم ظاهراً علق به الحكم قاهراً لتام قيام الحجة ، وتمام علمه مجاهم أمهلم ، وإنما يستعجل من يخاف أن تخيب فراسته أو يتغير علمه ، وأما الذي علمه بالظواهر والضمائر على حد سواء فالحالتان عنده سياتان ، فهو يميل لإتمام الحكمة ولا يهمل من استحق النقمة ، وذلك التغيير الذي أظهره البلاء هو التكذيب بالحق عناداً والبعد عما كانوا يدعون من العدل والمشي على مناهيج العقل والاستحياء من العناد ، والتنزه من طرق الفساد ، هكذا كانت كل أمة أرسلت إليها الرسل تدعي وما عندها من خلاف ذلك مستور في ضمائرهم مكنون في سرائرها ، لا تعلمه كما تشاهد أكثر

من تعاشره ، يظن في نفسه ما ليس فيها ، وعند الامتحان يكذبه العيان ، فلما جاءتهم



الرسل وأوضحوا لهم الأمر أيضاً ليس معه ، لبس فكذبوهم ، غيروا ما كان في نفوسهم  
مما كانوا يزعمون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 231 ﴾

(5/315)

فصل

قال الفخر :

ثم ذكر ما يجري مجرى العلة في العقاب الذي أنزله بهم ، فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا  
نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ لَمْ يَكُ ﴾ أكثر النحويين يقولون إنما حذف النون .

لأنها لم تشبه الغنة المحضة ، فأشبهت حروف اللين ووقعت طرفاً ، فحذفت تشبيهاً بها  
كما تقول لم يدع ولم يرم ولم يل وقال الواحدي : وهذا ينتقض بقولهم لم يزن ولم يخن فلم يسمع  
حذف النون ههنا .

وأجاب علي بن عيسى عنه .

فقال إن كان ويكون أم الأفعال من أجل أن كل فعل قد حصل فيه معنى كان فقولنا ضرب معناه كان ضرب ويضرب معناه يكون ضرب ، وهكذا القول في الكل فثبت أن هذه الكلمة أم الأفعال .

فاحتج إلى استعمالها في أكثر الأوقات ، فاحتملت هذا الحذف بخلاف قولنا لم يخن ولم يزن ، فإنه لا حاجة إلى ذكرها كثيراً فظهر الفرق . والله أعلم .  
المسألة الثانية :

(6/315)

---

قال القاضي : معنى الآية أنه تعالى أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ويعدلوا عن الكفر ، فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر ، فقد غيروا نعمة الله تعالى على أنفسهم ، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم والمنح بالحن قال : وهذا من أوكد ما يدل على أنه تعالى لا يتدىء أحداً بالعذاب والمضرة ، والذي يفعله لا يكون الأجزاء على معاص سلفت ، ولو كان تعالى خلقهم وخلق جسمانهم وعقولهم ابتداء للنار كما يقوله القوم ، لما صح ذلك ، قال أصحابنا : ظاهر الآية مشعر بما قاله القاضي الإمام إلا أنا لو حملنا الآية عليه لزم أن يكون صفة الله تعالى معللة

بفعل الإنسان ، وذلك لأن حكم الله بذلك التغيير وإرادته لما كان لا يحصل إلا عند إتيان الإنسان بذلك الفعل ، فلو لم يصدر عند ذلك الفعل لم يحصل لله تعالى ذلك الحكم وتلك الإرادة ، فحينئذ يكون فعل الإنسان مؤثراً في حدوث صفة في ذات الله تعالى ، ويكون الإنسان مغيراً صفة الله ومؤثراً فيها ، وذلك محال في بديهية العقل ، فثبت أنه لا يمكن حمل هذا الكلام على ظاهره ، بل الحق أن صفة الله غالبية على صفات المحدثات ، فلولا حكمه وقضاؤه أولاً لما أمكن للعبد أن يأتي بشيء من الأفعال والأقوال . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب ج 15 ص 144 . 145 ﴾

(7/315)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ العذاب الذي نزل بهم ، ﴿ بَانَ اللَّهُ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ في الدين والنعم ؛ فإذا غيروا ، غير الله عليهم ما بهم من النعم ؛ وهذا قول الكلبي .

وروى أسباط ، عن السدي في قوله ﴿ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ ﴾ قال : أنعم الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وسلم على أهل مكة وكفروا به ، فنقله إلى الأنصار ؛ ويقال :

أطعمهم من جوع، وأمنهم من خوف، فلم يشكروا، فجعل لهم مكان الأمن الخوف،  
ومكان الرخاء الجوع.

وهذا كقوله: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ  
مَكَانٍ فَكَفَّرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل]:

[ 112 ]

وقال الضحاك: ما عذب الله قوماً قط وسلبهم النعم، ولا فرق بينهم وبين العافية، حتى  
كذبوا رسلهم؛ فلما فعلوا ذلك ألزمهم الذل وسلبهم العز، فذلك قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ  
اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ثم قال: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ  
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سميع لمقاتلهم، عليم بأفعالهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص



وقال الثعلبي:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

قال الكلبي: يعني أهل مكة، أطعمهم من جوع، وأمنهم من خوف، وبعث إليهم محمداً ( عليه السلام ) فغيروا نعم الله، وتغيروا أن كفروا بها وتركوا شكرها، وقال السدي:

نعمة الله محمد صلى الله عليه وسلم أنعم به على قريش فكذبوه وكفروا به فنقله إلى

الأنصار .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 ص ﴾

(8/315)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾



يحتمل خمسة أوجه :

أحدها : لم يك مغيراً نعمة أنعمها عليهم بالنصر لهم على أعدائهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الثقة به والتوكل عليه .

والثاني : لم يك مغيراً نعمته عليهم في كف أعدائهم عنهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعته والكف عن معصيته .

والثالث : لم يك مغيراً نعمته عليهم في الغنى والسعة حتى يغيروا ما بأنفسهم . من تأدية حق الله تعالى منه .

والرابع : لم يك مغيراً نعمته في الثواب والجزاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من الإيمان .

والخامس : لم يك مغيراً نعمته عليهم في الإرشاد حتى يغيروا ما بأنفسهم من الانتقاد . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(9/315)

وقال ابن عطية :

﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

﴿ ذلك ﴾ في موضع رفع على خبر الابتداء تقديره عند سيبويه الأمر ذلك ، ويحتمل أن

يكون التقدير وجب ذلك ، والباء بـ السبب ، وقوله ﴿ لم يك مغيراً ﴾ جزم بـ ﴿ لم ﴾

وجزمه بحذف النون ، والأصل يكون فإذا دخلت لم جاء لم يكن ، ثم قالوا " لم يك مغيراً "

كأنهم قصدوا التخفيف فتوهموا دخول " لم " على يكن فحذفت النون للجزم ، وحسن

ذلك فيها لمشابهتها حروف اللين التي تحذف للجزم كما قالوا لم أبال ، ثم قالوا لم أبال فتوهموا

دخول لم على أبال ؟ ومعنى هذه الآية الإخبار بأن الله عز وجل إذا أنعم على قوم نعمة فإنه

بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغيرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراد

وتحسن منهم ، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم

غير الله نعمته عليهم بنقمة منهم ، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد صلى الله عليه

وسلم فكفروا ما كان يجب أن يكونوا عليه ، فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار وأحل بهم عقوبته .

وقوله ﴿ وأن ﴾ عطف على الأولى ، و ﴿ سميع عليم ﴾ أي لكل ويكل ما يقع من الناس في تغيير ما بأنفسهم لا يخفى عليه من ذلك سر ولا جهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(10/315)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله ﴾

أي : ذلك الأخذ والعقاب بأن الله ﴿ لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ﴾ بالكفران وترك الشكر .

قال مقاتل : والمراد بالقوم ها هنا أهل مكة ، أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، ثم بعث

فيهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فلم يعرفوا المنعم عليهم ، فغير الله ما بهم .

وقال السدي : كذبوا بمحمد ، فنقله الله إلى الأنصار .

قال أبو سليمان الخطابي : والقوي يكون بمعنى القادر ، فمن قوي على شيء فقد قدر عليه

، وقد يكون معناه: التَّامُّ القُوَّةُ الذي لا يستوي عليه العجز في حال، والمخلوق وإن وُصف  
بالقُوَّة، فقوَّته متناهية، وعن بعض الأمور قاصرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير ح 3

ص ﴿

وقال القرطبي:

﴿ ذَلِكْ بَأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلٰى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

تعليل.

أي هذا العقاب؛ لأنهم غيروا وبدلوا، ونعمة الله على قريش الخصب والسعة، والأمن  
والعافية.

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: 67]

الآية.

وقال السدّي: نعمة الله عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به، فنقل إلى المدينة  
وحلّ بالمشركين العقاب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 8 ص ﴿

(11/315)

---



وقال الخازن :

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾  
يعني : أن الله سبحانه وتعالى أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف  
وبعث إليهم محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) فقابلوا هذه النعمة بأن تركوا شكرها وكذبوا  
رسوله محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وغيروا ما بأنفسهم فسلبهم الله سبحانه وتعالى  
النعمة وأخذهم بالعقاب قال السدي : نعمة الله هو محمد ( صلى الله عليه وسلم ) أنعم به  
على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله تعالى إلى الأنصار ﴿ وأن الله سميع ﴾ يعني لأقوال  
خلقه لا يخفى عليه شيء من كلامهم ﴿ عليهم ﴾ يعني بما في صدورهم من خير وشر ،  
فيجازي كل واحد على عمله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

(12/315)

وقال أبو حيان :

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع  
عليم ﴾ .

﴿ ذلك ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ بأن الله لم يك ﴾ أي ذلك العذاب أو الانتقام بسبب كذا

وظاهر النعمة أنه يُراد به ما يكونون فيه من سعة الحال والرفاهية والعزّة والأمن والخصب وكثرة الأولاد والتغيير قد يكون بإزالة الذات وقد يكون بإزالة الصفات فقد تكون النعمة أذهبت رأساً وقد تكون قلّت وأضعفت ، وقال القاضي أنعم الله عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبيل والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ويعدلوا عن الكفر فإذا صرفوا هذه الأمور إلى الكفر والفسق فقد غيروا أنعم الله على أنفسهم فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنعم والمنح بالحن وهذا من أوكد ما يدلّ على أنه تعالى لا يتدىء أحداً بالعذاب والمضرة وأنّ الذي يفعله لا يكون إلا جزاءً على معاص سلفت ولو كان تعالى خلقهم وخلق حياتهم وعقوبهم ابتداءً للنار كما يقوله القوم لما صحّ ذلك انتهى .

قيل : وظاهر الآية يدلّ على ما قاله القاضي إلا أنه يمكن الحمل على الظاهر لأنه يلزم من ذلك أن يكون صفة الله معللة بفعل الإنسان ومتأثرة له وذلك محال في بديهة العقل وقد قام الدليل على أنّ حكمه وقضائه سابق أولاً فلا يمكن أن يكون فعله الإقبضائه وإرادته .

(13/315)

---

وقيل أشار بالنعمة إلى محمد ( صلى الله عليه وسلم ) بعثه رحمة فكذبوه فبدّل الله ما كانوا فيه من النعمة بالنقمة في الدنيا وبالعقاب في الآخرة قاله السدّي والظاهر من قوله ﴿ على

قوم ﴿ العموم في كل من أنعم الله عليه من مسلم وكافر وبرّ وفاجر وأنه تعالى متى أنعم على أحد فلم يشكر بدّله عنها بالنعمة ، وقيل القوم هنا قريش أنعم الله تعالى عليهم ليشكروا ويفردوه بالعبادة فجدوا وأشركوا في الوهية وبعث إليهم الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) فكذبوه فلما غيروا ما اقتضته نعمة وحدّتهم أنفسهم بأن تلك النعم من قبل أوثانهم وأصنامهم غير تعالى عليهم بنعمة في الدنيا وأعدّ لهم العذاب في العقبى ، وقال ابن عطية : ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) فكفروا وغيروا ما كان يجب أن يكونوا عليه فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار وأحلّ بهم عقوبته انتهى .

وتغيير آل فرعون ومشركي مكة ومن يجري مجراهم بأن كانوا كفاراً ولم تكن لهم حالة مرضية فغيّروا تلك الحالة المسخوطة إلى أسخط منها من تكذيب الرّسل والمعاندة والتخريب وقتل الأنبياء والسعي في إبطال آيات الله فغير الله تعالى ما كان أنعم عليهم به وعاجلهم ولم يمهّلهم وفي قول الزمخشري ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله تعالى لم ينبغ له ولم يصحّ في حكمته أن يغير نعمه عند قوم حتى يغيّروا ما بهم من الحال دسيسة الاعتزال ﴿ وأن الله سميع ﴿ لأقوال مكذّبي الرسول ، ﴿ عليهم ﴿ بأفعالهم فهو مجازيهم على ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴿

وقال أبو السعود :

﴿ ذَلِكُ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُ ﴾ الخ استئنافٌ مسوقٌ لتعليل ما يفيدُه النظمُ الكريمُ من كون ما حل

بهم من العذاب منوطاً بأعمالهم السيئة غير واقع بلا سابقة ما يقتضيه وهو المشار إليه لا

نفس ما حل بهم من العذاب والانتقام كما قيل ، فإنه مع كونه معللاً بما ذكر من كفرهم

وذنوبهم لا يتصور تعليله بجريان عادته تعالى على عدم تغيير نعمته على قوم قبل تغييرهم

لحالهم وتوهم أن السبب ليس ما ذكر كما هو منطوق النظم الكريم بل ما يستفاد من مفهوم

الغاية من جريان عادته تعالى على تغيير نعمتهم عند تغيير حالهم بناءً على تخيل أن المعلل

ترتب عقابهم على كفرهم من غير تخلف عنه ركوب شطط هائل وإبعاد عن الحق بمراحل

، وتهوين الأمر الكفر بآيات الله وإسقاطه عن رتبة إيجاب العقاب في مقام تهويله والتحذير

منه ، فالمعنى ذلك أي ترتب العقاب على أعمالهم السيئة دون أن يقع ابتداءً مع قدرته

تعالى على ذلك ﴿ بَأَنَّ اللَّهَ ﴾ أي بسبب أنه تعالى ﴿ لَمْ يَكُ ﴾ في حد ذاته ﴿ مُغَيِّرًا ﴾

نِعْمَةً أَنْعَمَهَا ﴾ أي لم ينبغ له سبحانه ولم يصح في حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أنعم بها

﴿ عَلَى قَوْمٍ ﴾ من الأقوام أي نعمة كانت جلت أو هانت ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها وقت ملاستهم بالنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء

كانت أحوالهم السابقة مرضيةً صالحةً أو قريبةً من الصلاحِ بالنسبة إلى الحادثة كدأب هؤلاء الكفرة حيث كانوا قبل البعثة كفرةً عبدةً أصنامٍ مستمرين على حالة مصححة لإفاضة نعمة الإمهال وسائر النعمِ الدنيوية عليهم فلما بُعث إليهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالبينات غيروها إلى أسوأ منها وأسخط حيث كذبه عليه الصلاة والسلام وعادوه ومن تبعه من المؤمنين وتحزّبوا عليهم يبغيونهم الغوائل فغيّر الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال وعاجلهم

(15/315)

---

بالعذاب والنكال ، وأصل يكُ يكنُ فحذفت النونُ تخفيفاً لشبهها بالحروف اللينة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ عطفٌ على أن الله الخ داخلٌ معه في حيز التعليل أي وسبب أنه تعالى سميعٌ عليمٌ يسمع ويعلم جميع ما يأتون وما يذرون من الأقوال والأفعال السابقة واللاحقة فيرتب على كل منها ما يليق بها من إبقاء النعمة وتغييرها ، وقرىء وإن الله بكسر الهمزة فالجملة حينئذٍ استئنافٌ مقرر لمضمون ما قبلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ﴾ 4 ص

(16/315)

وقال الأوسى :

﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما يفيدُه النظم الكريم من كون ما حل بهم من العذاب منوطاً

بأعمالهم السيئة غير واقع بلا سابقة ما يقتضية ، وهو مبتدأ خبره قوله سبحانه : ﴿ بِأَنَّ

اللَّهُ ﴾ إلى آخره ، والباء للسببية ، والجملة مسوقة لتعليل ما أشير إليه أي ذلك كائن بسبب

أن الله سبحانه ﴿ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا ﴾ أي لم ينبغ له سبحانه ولم يصح في حكمته أن

يكون بحيث يغير نعمة أي نعمة كانت جلت أو هانت أنعم بها ﴿ عَلَى قَوْمٍ ﴾ من الأقوام

﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أي ذواتهم من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها وقت

ملاستهم للنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة أو أهون

من الحالة الحادثة كدأب كفر قريش المذكورين حيث كانوا قبل البعثة كفرة عبدة أصنام

مستمرين على حال مصححة لافاضة نعم الإمهال وسائر النعم الدنيوية عليهم كصلة الرحم

والكف عن تعرض الآيات والرسل عليهم السلام فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم

غيروها على أسوء حال منها وأسخط حيث كذبه عليه الصلاة والسلام وعادوه ومن

تبعه من المؤمنين وتحزبوا عليهم وقطعوا أرحامهم فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة

الإمهال ووجه إليهم نبال العقاب والنكال ، وقيل : إنهم لما كانوا متمكنين من الإيمان ثم لم

يؤمنوا كان ذلك كأنه حاصل لهم فغيروه كما قيل في قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ [البقرة: 16] ولا يخلو عن حسن .

(17/315)

---

وجعل بعضهم الإشارة إلى ما حل بهم ثم أنه لما رأى أن انتفاء تغيير الله تعالى حتى يغيروا لا يقتضي تحقق تغييره إذا غيروا وأن العدم ليس سبباً للوجود هنا وأيضاً عدم التغيير صارف عما حل بهم لا موجب له بحسب الظاهر قال: إن السبب ليس منطوق الآية بل مفهومها ، وهو جرى عادته سبحانه على التغيير حين غيروا حالهم فالسبب ليس انتفاء التغيير بل التغيير ، قيل: وإنما أوتر التعبير بذلك لأن الأصل عدم التغيير من الله تعالى لسبق إنعامه ورحمته ولأن الأصل فيهم الفطرة وأما جعله عادة جارية فبيان لما استقر عليه الحال من ذلك لأن كونه عادة له دخل في السببية ، ولا يخفى أن ما ذكرناه أسلم من القيل والقال على أن ما فعله البعض لا يخلو بعد عن مقال قدبر ، وأصل ﴿ يَكُ ﴾ يكن فحذفت النون تخفيفاً لشبهها بأحرف العلة في أنها من الزوائد وهي تحذف من أحرف المجزوم فلذا حذفت هذه وهو مختص بهذا الفعل لكثرة استعماله ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ عطف على ﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾ الخ داخل معه في حيز التعليل ، أي وسبب أنه تعالى سميع عليم يسمع

ويعلم جميع ما يأتون ويذرون من الأقوال والأفعال السابقة واللاحقة فيرتب على كل منها ما يليق من إبقاء النعمة وتغييرها .

وقرىء ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ بكسر الهمزة فالجملة حينئذ استئناف مقرر لمضمون ما قبله .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 10 ص ﴾

(18/315)

فائدة

قال صاحب روح البيان :

قال الإمام الغزالي قدس سره :

إن النعمة إنما تسلب ممن لا يعرف قدرها وأقنع في هذا الباب بمثال ملك يكرم عبداً له فيخلع عليه خاصة ثيابه ويقربه منه ويجعله فوق سائر حجابيه وخدامه ويأمره بملازمة بابه ثم يأمر أن يبنتى له في موضع آخر القصور وتوضع له الأسرة وتنصب له الموائد وتزين له الجواري ويقام له الغلمان حتى إذا رجع من الخدمة أجلس هنالك ملكاً مخدوماً مكرمًا وما بين حال خدمته إلى ملكه وولايته إلا ساعة من نهار أو أقل فإن أبصر هذا العبد بجانب باب الملك سائساً للدواب يأكل رغيفاً أو كلباً يوضع عظماً فجعل يشتغل عن خدمة الملك بنظره إليه



وإقباله عليه ولا يلتفت إلى ما له من الخلع والكرامة فيسعى إلى ذلك السائس ويمد يده  
ويسأله كسرة من رغيفه أو يزاحم الكلب على العظم ويعظمهما ويعظم ما هما فيه أليس  
الملك إذا نظر إليه على مثل هذه الحالة ، يقول هذا السفية لم يعرف حق كرامتنا ولم ير قدر  
إعزازنا إياه بخلعنا والتقرب إلى حضرتنا مع صرفنا إليه من عنايتنا وأمرنا له من الذخائر  
وضروب الأيادي ما هذا إلا ساقط عظيم الجهل قليل التمييز اسلبوه الخلع واطردوه عن  
بابنا ، فهذا حال العالم إذا مال إلى الدنيا والعابد إذا اتبع الهوى فعليك أيها الرجل ببذل  
المجهود حتى تعرف نعم الله تعالى عليك واحذر من أن تكون النعمة نقمة والولاء بلاء والعز  
ذلاً والإقبال إداراً واليمين يساراً فإن الله تعالى غيور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان ح

﴿ 3 ص 460 ﴾

(19/315)

وقال ابن عجيبة :

الإشارة : إذا أنعم الله على قوم بنعم ظاهرة أو باطنة ، ثم لم يشكروا الله عليها ، بل قابلوها  
بالكفران ، وبارزوا المنعم بالذنوب والعصيان ، فاعلم أن الله تعالى أراد أن يسلبهم تلك  
النعم ، ويبدلها بأضدادها من النقم ، فمن شكر النعم فقد قيدها بعقالها ، ومن لم يشكرها

فقد تعرض لزوالها . فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود ، فمن أعطي ولم يشكر ، سلب منها ولم يشعر ، والشكر ؛ أَلْيُعْصَى اللهُ بِنِعْمِهِ ، كما قال الجنيد رضي الله عنه . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد ح 3 ص 340 ﴾

(20/315)

وقال القاسمي :

﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [ 53 ] .

﴿ ذَلِكْ ﴾ أي : التعذيب الذي علم كونه مؤاخذه بالذنوب ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ ﴾ أي : بسبب أنه تعالى : ﴿ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ بتبديله إياها بالنقمة ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ من وجبات تلك النعم من اعتقاد أو قول أو علم .

وهذا الإخبار عن تمام عدله وقسطه في حكمه ، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ . قال القاشاني : كل ما يصل إلى الإنسان هو الذي يقتضيه استعداده ، ويسأله بدعاء الحال ، وسؤال الاستحقاق .

فإذا أنعم على أحد النعمة الظاهرة أو الباطنة

لسلامة الاستعداد ، وبقاء الخيرية فيه لم يغيرها حتى أفسد استعداده ، وغير قبوله  
للصلاح ، بالاحتجاب وانقلاب الخير الذي فيه بالقوة إلى الشر ، لحصول الرين وارتكام  
الظلمة فيه ، بحيث لم يبق له مناسبة للخير ، ولا إمكان لصدروه منه ، فيغيرها إلى النعمة  
عدلاً منه وجوداً ، وطلباً من ذلك الاستعداد إياها بجاذبة الجنسية والمناسبة ، لا ظلماً  
وجوراً . انتهى .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : فيغير إذا غيروا ، غضباً عليهم بما يسمع منهم أو يعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 320 ﴾

(21/315)

وقال ابن عاشور :

﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

استئناف بياني .

والإشارة إلى مضمون قوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [

الأنفال : 52] أي ذلك المذكور بسبب أن الله لم يك مغيراً الخ أي ذلك الأخذ بسبب

أعمالهم التي تسببوا بها في زوال نعمتهم .

والإشارة تفيد العناية بالمخبر عنه ، وبالخبر .

والتسبيب يقتضي أنّ آل فرعون والذين من قبلهم كانوا في نعمة فغيرها الله عليهم بالنعمة ، وأنّ ذلك جرى على سنة الله أنّه لا يسلب نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ذلك بأنفسهم ، وأنّ قوم فرعون والذين من قبلهم كانوا من جملة الأقسام الذين أنعم الله عليهم فتسببوا بأنفسهم في زوال النعمة كما قال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ [القصص :

58] .

وهذا إنذار لقريش يحلّ بهم مثل ما حلّ بغيرهم من الأمم الذين بطروا النعمة .

فقوله : ﴿ لم يك مغيراً ﴾ مؤذن بأنّه سنة الله ومقتضى حكمته ، لأنّ نفي الكون بصيغة

المضارع يقتضي تجدد النفي ومنفيّه .

و"التغيير" تبديل شيء بما يضاذه فقد يكون تبديل صورة جسم كما يقال : غيّرْتُ داري ،

ويكون تغيير حال وصفة ومنه تغيير الشيب أي صباغه ، وكأنّه مشتقّ من الغير وهو

المخالف ، فتغيير النعمة إبدالها بضرّها وهو النعمة وسوء الحال ، أي تبديل حالة حسنة

بجالة سيّئة .

ووصف النعمة بـ ﴿ أنعمها على قوم ﴾ للتذكير بأنّ أصل النعمة من الله .

و ﴿ ما بأنفسهم ﴾ موصول وصلّة ، والباء للملابسة ، أي ما استقرّ وعلق بهم .

وما صدق ﴿ ما ﴾ النعمة التي أنعم الله عليهم كما يؤذن به قوله : ﴿ مغيراً نعمة أنعمها  
على قوم ﴾ والمراد بهذا التغيير تغيير سببه .  
وهو الشكر بأن يبدلوه بالكفران .

(22/315)

---

ذلك أن الأمم تكون صالحة ثم تتغير أحوالها ببطر النعمة فيعظم فسادها ، فذلك تغيير ما  
كانوا عليه ؛ فإذا أراد الله إصلاحهم أرسل إليهم هداة لهم ، فإذا أصلحوا استمرت عليهم  
النعمة مثل قوم يونس وهم أهل ( نينوى ) ، وإذا كذبوا وبطروا النعمة غير الله ما بهم من  
النعمة إلى عذاب ونقمة .

فالغاية الاستفادة من ﴿ حتى ﴾ لانتفاء تغيير نعمة الله على الأقسام هي غاية متسعة ، لأن  
الأقسام إذا غيروا ما بأنفسهم من هدى ؛ أمهلهم الله زمناً ثم أرسل إليهم الرسل فإذا أرسل  
إليهم الرسل فقد تبهم إلى اقتراب المواقفة ثم أمهلهم مدة لتبليغ الدعوة والنظر فإذا أصروا  
على الكفر غير نعمته عليهم يبدلها بالعذاب أو الذل أو الأسر كما فعل بيني إسرائيل حين  
أفسدوا في الأرض فسلط عليهم الأشوريين .

و ﴿ أن الله سميع عليم ﴾ عطف على قوله : ﴿ بأن الله لم يك مغيراً ﴾ أي ذلك بأن الله

يعلم ما يضمرة الناس وما يعملونه ويعلم ما ينطقون به فهو يعاملهم بما يعلم منهم .  
وذكر صفة ﴿ سميع ﴾ قبل صفة ﴿ علیم ﴾ يومىء إلى أن التغيير الذي أحدثه المعرّض  
بهم متعلق بأقوالهم وهو دعوتهم آلهة غير الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير  
ح 9 ص ﴾

(23/315)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ  
عَلِيمٌ ﴾ (53)

و" ذلك " إشارة إلى ما تقدم ، وأنت إن نظرت إلى بداية البشرية تجد أن الله تعالى خلق آدم  
ليجعله خليفة في الأرض ، وخلق حواء لإبقاء النوع الإنساني . وقبل أن ينزل آدم على  
الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى المنهج ، ومن آدم وحواء بدأت ذريتهما ، ولو ساروا على  
المنهج الذي علمه آدم لهذه الذرية ، لصارت البشرية إلى سعادة . ولكن الذرية تغيرت ،  
وجحدوا النعمة وأنكروا أن للنعمة خالقاً ، فهل يبقى الله عليهم الأمن والسلامة والنعمة ما  
داموا قد تغيروا ؛ لا . بل لا بد - إذن - أن يغير الله نعمه عليهم ، وإلما أصبح هناك أي

منطق للدين؛ لأن الإنسان قد طرأ على النعم، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم خلق له النعم . بل خلق النعم أولاً ثم جاء الإنسان إلى كون أعد له إعداداً كاملاً؛ وفيه كل مقومات الحياة واستمرار الحياة . وظل الإنسان فترة طويلة في طفولة الحياة يرتع في نعم الله، فقبل أن يعرف الزراعة؛ وجد الثمار التي يأكلها . وقبل أن يعرف كيف يبحث عن الماء وجد الماء الذي يشربه، وعلمه الله كيف يعيش . وذلك له من الحيوان ما يعطيه اللبن واللحم، وكل هذه النعم وغيرها كان لا بد أن يأخذها الإنسان بالشكر واستمرار الولاء لله الخالق المنعم .

ولكن الإنسان جحد نعمة الله تعالى وجحد المنعم، أتبقى له سعادة وحياة مطمئنة في الأرض؟ طبعاً لا، وما دام الإنسان قد غير، لا بد أن يغير الحق النعمة إلى نقمة، ومن رحمته سبحانه أنه شاء أن يكون الإنسان هو البادىء، فالحق سبحانه منزّه أن يكون البادىء بالظلم، بل بدأ الإنسان يظلم نفسه .  
ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

(24/315)

---

﴿ ذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:

. [53]

إذن فذرية آدم بدأت أولاً بتغيير نعمة الإيمان إلى الكفر ، ومن شكر النعمة إلى جحودها ، فجزاهم الله تعالى بالطوفان وبالصواعق وبالهلاك ؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم ، ولو أنهم عادوا إلى شكر الله وعبادته ؛ لأعاد لهم الله نعم الأمن والاستقرار والحياة الطيبة . ويلفتنا المولى سبحانه وتعالى إلى أن اتباع المنهج يزيد النعم ولا ينقصها ، فيقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: 96] . وطبقاً لهذا القانون الإلهي نجد أن تغيير الناس من الإيمان إلى الكفر لا بد أن يقابله تغيير من نعمة الله عليهم وإلا أصبح منهج الله بلاقيمة ، والمثال أن كل طالب يدخل امتحاناً ، ولكن لا ينجح إلا من ذاكر فقط ، وأما من لم يستذكر فإنه يرسب ؛ حتى لا تكون الدنيا فوضى . ولو أن الله سبحانه وتعالى أعطى لمن اتبعوا المنهج نفس العطاء الذي يعطيه لمن لا يتبعون المنهج فما هي قيمة المنهج ؟ .

إذن لا بد أن يدخل الإنسان إلى الإيمان ، وأن يكون هذا الإيمان متغلغلاً في أعماقك وليس أمراً ظاهرياً فقط ، فلا تدع الإصلاح وأنت تفسد ، ولا تدع الشرف والأمانة وأنت تسرق ، ولا تدع العدل وأنت تظلم الفقير وتحابي الغني ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يعطي نعمه



الظاهرة والباطنة إلا لمن يتبعون منهجه . وإذا رأيت قوماً عمّ فيهم الفساد فاعلم أن نفوسهم لم تتغير رغم أنهم يتظاهرون باتباع المنهج الإلهي .

(25/315)

---

وإن شكونا من سوء حالنا فلنعرف أولاً ماذا فعلنا ثم نغيره إلى ما يرضي الله عز وجل فيغير الله حالنا . ولذلك إذا وجدت كل الناس يشكون فاعلم أن هذا قد حدث بسبب أن الله غير نعمه عليهم ؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم . أي أن حالتهم الأولى أنهم كانوا في نعمة ومنسجمين مع منهج الله ، فغيروا انسجامهم وطاعتهم فتغيرت النعمة ، أي أن هناك تغييرين أساسيين ، أن يغير الله نعمة أنعمها على قوم ، وهذا لا يحدث حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنفال : 53 ] .

أي أن الله تعالى يعلم حقيقة ما يفعلون ويسمع سرهم وجهرهم ، ولذلك إذا غيروا ، سمع الله سبحانه وعلم ؛ لأن التغيير إما أن يكون بالقول وإما أن يكون بالفعل ، فإن كان التغيير بالقول فالحق سبحانه يسمعه ولو كان مجرد خواطر في النفوس ، وإن كان التغيير بالعمل

فالحق يراه ويعلمه ولو كان في أقصى الأرض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص



(26/315)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تُوْفَىٰ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوْهُهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُقُوا عَذَابَ  
ٱلْحَرِيقِ (50) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (51) كَذَٰبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا  
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَآخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (52)  
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ  
(53) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تُوْفَىٰ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا  
ٱلْمَلَائِكَةُ ﴾ قال : الذين قتلهم الله بيد من المشركين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : آيتان يبشر بهما الكافر عند  
موته ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تُوْفَىٰ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوْهُهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وأدبارهم ﴾ قال : وأشباههم ولكن الله كريم يكتي .  
وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ قال : نعمة الله : محمد صلى الله عليه وسلم ، أنعم الله بها على قريش فكفروا فنقله إلى الأنصار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(27/315)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾

" ذلك " مبتدأ وخبر أيضاً ، كظيره أي : ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله .

قوله " لم يك " قال أكثر النحاة : إنما حذف النون ؛ لأنها لم تشبه الغنة المحضة فأشبهت

حروف اللين ووقعت طرفاً ، فحذفت تشبيهاً بها ، كما تقول : لم يدع ، ولم يرم .

قال الواحدي - رحمه الله تعالى - : " هذا ينتقض بقولهم : لم يزن ، ولم يخن ، ولم يسمع

حذف النون ههنا " .

وأجاب علي بن عيسى فقال: إنَّ "كان" و"يكون" أم الأفعال، من أجل أن كل فعل قد حصل فيه معنى "كان"، فقولنا: ضرب، معناه: كان ضرب، ويضرب معناه يكون ضرب، وهكذا القول في الكل؛ فثبت أن هذه الكلمة أم الأفعال، فاحتيج إلى الاستعمال في أكثر الأوقات، فاحتملت هذا الحذف، بخلاف قولنا: لم يخن، ولم يزن، فإنه لا حاجة إلى ذكرها كثيرا، فظهر الفرق. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 543.﴾

﴿ 544﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ (53)﴾

إذا أنعم الحق - سبحانه - على قوم نعمة وأراد إهمالهم أكرمهم بتوفيق الشكر، فإذا

شكروا نعمته فبقدر الشكر دامت فيهم.

وإذا أراد - سبحانه - إزالة نعمة عن عبد أذله بجدلان الكفر، فإذا حال عن طريق

الشكر عرض النعمة للزوال. فما دام العبد يشكر النعمة مقيما كان الحق في إنعامه عليه

مُديماً ، فإذا قابل النعمة بالكفر انتثر سلكُ نظامه ، فبقدر ما يزيد في إصراره يزول الأمر عن قراره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات - 1 ص 633 ﴾

(28/315)

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (54)

"فصل"

قال البقاعي :

ثم كرر قوله : ﴿ كَذَّبَ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي فرعون وقومه فإنهم أتباعه فلا يخيل أنهم يفعلون شيئاً إلا وهو قائدهم فيه ﴿ والذين من قبلهم ﴾ - لدقيقة ، وهي أنه قد تقدم أنه ما من أمة إلا ابتليت بالضراء والسراء ، فالأولى ينظر إليها مقام الإلهية الناظر إلى العظمة والكبرياء والقهر والانتقام ، والثانية ثمرة مقام الربوبية الناشئة عنه التودد والرحمة والرافة والإكرام ، لذا عبر في الأولى باسم الذات الجامع لجميع الصفات الذي لفظه - عند من يقول باشتقاقه - موضوع لمعنى الإلهية إشارة إلى أنهم أعرضوا في حال الضراء عن التصديق وعاملوا بالتجلد والإصرار ، ولذا عبر في هذه الثانية باسم الرب فقال : ﴿ كذبوا ﴾ أي

عناداً زيادة على تغطية ما دل عليه العقل بالتكذيب بالنقل ﴿بآيات ربهم﴾ فأشار بذلك إلى بطرهم بالنعم وتكذيبهم أنها بسبب دعاء الرسل .

(29/315)

---

ولما أشار بالتعبير به إلى أنه غرهم معاملته بالعطف والإحسان ، قال : ﴿فأهلكناهم﴾  
أي جميعاً ﴿بذنوبهم وأغرقنا﴾ فأتى بنون العظمة إشارة إلى أنه أتاهاهم بما أنساهم ذلك  
البر ﴿آل فرعون﴾ وإشارة إلى أنهم نسوا أن الرب كما أنه يتصف بالرحمة فلا بد أن  
يتصف بالعظمة والنقمة وإلا لم تتم ربوبيته ، وهذا واضح مما تقدم في الأعراف عن التوراة  
في شرح ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ [الأعراف : 133] - إلى آخرها ، من أن فرعون  
كان يسأل موسى عليه السلام عند كل نازلة الدعاء برفعها معتلاً بأن الرب ذو حلم وأناة  
ورحمة ، وقدم الأولى إشارة إلى أنهم بلغوا الغاية في الجراءة ، والتعبير فيها ب ﴿كفروا﴾  
يؤيد لذلك ، أي أن مجرد الستر للآيات بالإعراض عنها كافٍ في إيجاب الانتقام ولو لم يصرح  
بتكذيب لعظم المقام ، ومادة كفر - بأي ترتيب كان - تدور على الخاطئة المميلة المحيلة ،  
وبخصوص هذا الترتيب تدور على الستر ، أي غطوا التصديق بآيات ربهم ، ويجوز -  
وهو الأحسن - أن يكون دورانها - مطلقاً لا بقيد ترتيب - على الفكر ، وهو إرسال عين

البصيرة في طلب أمر ويلزمه الكشف والستر لأنه تارة يرفع أذيال الشبه عن ذلك الأمر  
فينجلي ويتحقق ، وتارة يسلط قواطع الأدلة عليه فينعدم ويتمحق ، وربما أرخى أذيال  
الشبه عليه فأخفى بعد أن كان جلياً كما كان شمرها عنه فألقى وقد كان خفياً .  
ولما أخبر سبحانه بهلاكهم ، أخبر بالوصف الجامع لهم بالهلاك فقال : ﴿ وكل ﴾ أي من  
هؤلاء ومن تقدمهم من آل فرعون ومن قبلهم ﴿ كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ ظالمين ﴾ أي  
لأنفسهم وغيرهم واضعين الآيات في غير مواضعها وهم يظنون بأنفسهم العدل . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 231-232 ﴾

(30/315)

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى ذكر مرة أخرى قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ ذكروا فيه وجوهاً كثيرة :  
الأول : أن الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأول ، لأن الكلام الأول فيه ذكر  
أخذهم ، وفي الثاني ذكر إغراقهم وذلك تفصيل .

والثاني : أنه أريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة في حال الموت ، والثاني ما ينزل بهم في القبر

في الآخرة.

الثالث: أن الكلام الأول هو قوله: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ والكلام الثاني هو قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فالأول إشارة إلى أنهم أنكروا الدلائل الإلهية، والثاني إشارة إلى أنه سبحانه رباهم وأنعم عليهم بالوجوه الكثيرة، فأنكروا دلائل التربية والإحسان مع كثرتها وتواليها عليهم، فكان الأثر اللازم من الأول هو الأخذ والأثر اللازم من الثاني هو الإهلاك والإغراق، وذلك يدل على أن لكفران النعمة أثراً عظيماً في حصول الهلاك والبوار، ثم ختم تعالى الكلام بقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ والمراد منه أنهم كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعصية، وظالمين سائر الناس بسبب الإيذاء والإيحاء، وأن الله تعالى إنما هلكهم بسبب ظلمهم، وأقول في هذا المقام اللهم أهلك الظالمين وطهر وجه الأرض منهم فقد عظمت فنتهم وكثر شرهم، ولا يقدر أحد على دفعهم إلا أنت، فادفع يا قهار يا جبار يا منقم. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 15 صـ 145﴾

(31/315)

وقال السمرقندي:

ثم قال ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في الهلاك.



﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، يعني بكفرهم ، ﴿ وَإِذْ  
فَرَقْنَا بِكُمْ ﴾ ؛ يعني فرعون لادعائه الربوبية ، وآله لأنهم عبدوا غيري .  
﴿ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ، يعني مشركين .

ومعناه كصنيع آل فرعون ، قد أعطاه الله تعالى الملك والعز في الدنيا ، ولم يغير عليه تلك  
النعمة ، حتى كذب بآيات الله ، فغير الله عليه النعمة وأهلكه مع قومه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بجز العلوم ح 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾  
من كفار الامم ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ بعضاً بالرجفة وبعضاً  
بالحسف وبعضاً بالمسخ وبعضاً بالحصى وبعضاً بالماء ، فكذلك أهلكنا كفار مكة  
بالسيف والذل ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ الآية

الكاف من ﴿ كَذَّبَ ﴾ في هذه الآية متعلقة بقوله ﴿ حتى يغيروا ﴾ ، وهذا التكرير هو

لمعنى ليس للأول ، إذ الأول دأب في أن هلكوا الآية الأولى ، والإشارة بقوله ﴿ الذين من

قبلهم ﴿ إلى قوم هود وصالح ونوح وشعيب وغيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴾ المحرر الوجيز

﴿ ح 2 ص ﴾

(32/315)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم ﴾

أي : كذب أهل مكة بمحمد والقرآن ، كما كذب آل فرعون بموسى والتوراة ، وكذب من قبلهم بأنبيائهم .

قال مكّي بن أبي طالب : الكاف من ﴿ كذاب ﴾ في موضع نصب ، نعت لمحذوف

تقديره : غيرنا بهم لما غيروا تغييراً مثل عادتنا في آل فرعون ، ومثلها الآية الأولى ، إلا أن

الأولى للعادة في العذاب ؛ تقديره : فعلنا بهم ذلك فعلاً مثل عادتنا في آل فرعون .

قوله تعالى : ﴿ فأهلكناهم ﴾ يعني : الأمم المتقدمة ، بعضهم بالرجفة ، وبعضهم بالريح ،

فكذلك أهلكنا كفار مكة بيدر .

وقال بعضهم : يعني بقوله ﴿ فأهلكناهم ﴾ الذين أهلكوا بيدر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

﴿ كَذَّبَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

ليس هذا بتكرير ؛ لأن الأول للعادة في التكذيب ، والثاني للعادة في التغيير ، وباقي الآية

بين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 8 ص ٨ ﴾

وقال الخازن :

﴿ كَذَّبَ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾

يعني أن هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر وغيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون ﴿ والذين

من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ يعني : أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم

بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسح فكذلك أهلكنا كفار قريش

بالسيف ﴿ وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ يعني الأولين والآخرين ، فإن قلت ما

الفائدة في تكرير هذه الآية مرة ثانية ؟ .

قلت : فيها فوائد منها الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأول لأن الآية الأولى فيها

ذكر أخذهم ، وفي الآية الثانية ذكر إغراقهم ، فهذه تفسير للأولى .

الفائدة الثانية : أنه ذكر في الآية الأولى أنهم كفروا بآيات الله وفي الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات

ربهم ففي الآية الأولى إشارة إلى أنهم أنكروا آيات الله وجحدوها ، وفي الآية الثانية إشارة

إلى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها .

الفائدة الثالثة: أن تكرير هذه القصة للتأكيد وفي قوله ﴿ كذبوا بآيات ربهم ﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب . انتهى انتهى . اهـ  
﴿ تفسير الخازن - 3 ص ﴾

(33/315)

وقال أبو حيان :

﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾

قال قوم: هذا التكرير للتأكيد ، وقال ابن عطية: هذا التكرير لمعنى ليس للأول أو الأول أو الأول دأب في أن هلكوا لما كفروا وهذا الثاني دأب في أن لم يغير نعمتهم حتى يغيروا ما بأنفسهم انتهى ، وقال قوم: كرر لوجوه منها أن الثاني جرى مجرى التفصيل للأول لأن في ذلك ذكر إجرامهم وفي هذا ذكر إغراقهم وأريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة حال الموت وبالثاني ما نزل بهم من العذاب في الآخرة وفي الأول ﴿ بآيات الله ﴾ إشارة إلى إنكار دلائل الإلهية وفي الثاني ﴿ بآيات ربهم ﴾ إشارة إلى إنكار نعم من ربهم ودلائل تربيته وإحسانه علي كثرتها وتواليها وفي الأول اللام منه الأخذ ، وفي الثاني اللام منه الهلاك والإغراق ، وقال

الزمنخشري في قوله تعالى: ﴿بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق  
وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب، وقال الكرمانبي يحتمل أن يكون الضمير في الآية  
الأولى في ﴿كفروا﴾ عائداً على قريش وفي الأخيرة في ﴿كذبوا﴾ عائداً على ﴿آل  
فرعون والذين من قبلهم﴾ انتهى.

(34/315)

---

وقيل فأهلكناهم هم الذين أهلكوا يوم بدر فيلزم من هذا القول أن يكون كذبوا عائداً على  
كفار قريش، وقال التبريزي ﴿فأهلكناهم﴾ قوم نوح بالطوفان وعادا بالريح وثمروداً  
بالصيحة وقوم لوط بالحسف، وفرعون وآله بالغرق، وقوم شعيب بالظلة، وقوم داود  
بالمسخ وأهلك قريشاً وغيرها بعضهم بالفزع وبعضهم بالسيف وبعضهم بالعدسة كأبي  
لهب، وبعضهم بالعدة كما مر بن الطفيل، وبعضهم بالصاعقة كأويد بن قيس انتهى، فيظهر  
من هذه الكلام أن الضمير في ﴿كذبوا﴾ و﴿أهلكناهم﴾ عائداً على المشبه والمشبه  
به في ﴿كذاب﴾ إذ عمّ الضمير القبيلتين وإنما خصّ ﴿آل فرعون﴾ بالذكر وذكر  
الذي أهلكوا به وهو إغراقهم لأنه انضم إلى كفرهم دعوى الإلهية والربوبية لغير الله تعالى  
فكان ذلك أشنع الكفر وأفظعه ومراعاة لفظ كل إذا حذف ما أضيف إليه ومعناه جائزة

واختير هنا مراعاة المعنى لأجل الفواصل إذ لو كان التركيب وكل كان ظالماً لم يقع فاصلة ،  
وقال الزمخشري ﴿ وكلهم ﴾ من غرقى القبط وقتلى قريش ﴿ كانوا ظالمين ﴾ أنفسهم  
بالكفر والمعاصي انتهى ، ولا يظهر تخصيص الزمخشري كلاً بغرقى القبط وقتلى قريش إذ  
الضمير في ﴿ كذبوا ﴾ وفي ﴿ فأهلكناهم ﴾ لا يختص بهما فالذي يظهر عموم المشبه به  
وهم آل فرعون والذين من قبلهم أو عموم المشبه والمشبه بهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر  
المحيط ح 4 ص ﴾

(35/315)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

في محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييراً كائناً  
كذاب آل فرعون أي كغيرهم على أن دأبهم عبارة عما فعلوه فقط كما هو الأنسب بمفهوم  
الدأب وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ تفسيرُ بتمامه وقوله تعالى : ﴿ فأهلكناهم  
﴿ إخبارٌ بترتب العقوبة عليه لأنه من تمام تفسيره ، ولا ضمير في توسط قوله تعالى : ﴿  
وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ بينهما كما مر نظيره في سورة آل عمران حيث جوزوا انتصاب محلِّ

الكافِ بلنِ تغنيَ مع ما بينهما من قوله تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ وهذا على تقدير عطفِ الجملةِ على ما قبلها وأما على تقدير كونها اعتراضاً فلا غبارَ في توسطها قطعاً وقيل: في محل الرفع على أنه خبرٌ مبتدأٌ محذوفٌ كما قبله فالجملة حينئذٍ استئنافٌ آخرٌ مسوقٌ لتقرير ما سبق له الاستئنافُ الأولُ بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين لكن لا بطريق التكرير المحض بل بتغيير العُنوانِ ، وجعل الدأبِ في الجانبين عبارةً عما يلزم معناه الأول من تغيير الحالِ وتغيير النعمة أخذاً مما نطق به قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً ﴾ الآية ، أي دأب هؤلاء وشأنهم الذي هو عبارةٌ عن التغييرين المذكورين كدأب أولئك حيث غيِّروا حالهم فغير الله تعالى نعمته عليهم فقوله تعالى: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ تفسير لدأبهم الذي فعلوه من تغيير حالهم ، وقوله تعالى ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ تفسير لدأبهم الذي فعل بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته ، وأما دأب قريشٍ فمستقادٌ منه بحكم التشبيهِ فله درُشأنِ التنزيلِ حيث اكتفى في كل من التشبيهين بتفسير أحدِ الطرفين .

(36/315)

---

وإضافة الآياتِ إلى الرب المضافِ إلى ضميرهم لزيادة تقبيح ما فعلوا بها من التكذيب ، والالتفاتُ إلى نون العظمةِ في أهلكنا جرياً على سنن الكبرياء لتحويل الخطبِ ، والكلامُ في

الفاء وفي قوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كالذي مر، وعطف قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ﴾ على أهلكتنا مع اندراجہ تحتہ للإيدان بكمال هول الإغراق وفضاعته كعطف جبريل عليه السلام على الملائكة ﴿وَكَلُّوا﴾ أي وكل من الفرق المذكورين أو كل من هؤلاء وأولئك أو كل من غرقى القبط وقتلى قريش ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي أنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرضوها للهلاك أو واضعين للكفر والتكذيب مكان الإيمان والتصديق ولذلك أصابهم ما أصابهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير أبي السعود ح 4 ص﴾

(37/315)

وقال الألوسی :

﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾

استئناف آخر على ما ذكره بعض المحققين مسوق لتقرير ما سيق له الاستئناف الأول بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين لكن لا بطريق التكرير المحض بل بتغيير العنوان وجعل الدأب في الجانبين عبارة عما يلزم معناه الأول من تغيير الحال وتغيير النعمة أخذاً مما نطق به قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ [الأنفال: 53] تفسير لدأبهم الذي فعلوه من تغييرهم لحالهم، وأشير بلفظ الرب إلى أن ذلك التغيير كان بكفران نعمه تعالى لما فيه من



الدلالة على أنه مريبهم المنعم عليهم ، وقوله سبحانه : ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ تفسير لدأبهم الذي فعل بهم من تغييرهم تعالى ما بهم من نعمته جل شأنه .

وفي الاهلاك رمز إلى التغيير ولذا عبر به دون الأخذ المعبر به أولاً وليس الأخذ مثله في ذلك

، ألا ترى أنه كثيراً ما يطلق الاهلاك على إخراج الشيء عن نظامه الذي هو عليه ولم نر

اطلاق الأخذ على ذلك ، وقيل ؛ إنما عبر أولاً بالأخذ وهنا بالاهلاك لأن جنائتهم هنا

الكفران وهو يقتضي أعظم النكال والاهلاك مشير إليه ولا كذلك ما تقدم وفيه نظر ، وأما

دأب قريش فمستفاد مما ذكر بحكم التشبيه فله تعالى در التنزيل حيث اكتفى في كل من

التشبيهين بتفسير أحد الطرفين ، وفي الفرائد أن هذا ليس بتكرير لأن معنى الأول حال

هؤلاء كحال آل فرعون في الكفر فأخذهم وأتاهم العذاب ، ومعنى الثاني حال هؤلاء

كحال آل فرعون في تغييرهم النعم وتغيير الله تعالى حالهم بسبب ذلك التغيير وهو أنه

سبحانه أغرقهم بدليل ما قبله وما ذكرناه أتم تحريراً ، واعترضه العلامة الطيبي بأن النظم

الكريم يأباه لأن وجه التشبيه في الأول كفرهم المترتب عليه العقاب فكذلك ينبغي أن يكون

وجه في الثاني ما يفهم من قوله سبحانه : ﴿ كَذَّبُوا ﴾ الخ لأنه مثله لأن كلا منهما جملة

مبتدأة بعد تشبيهه صالحة لأن تكون وجه الشبه فتحمل عليه كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ

عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ [آل عمران : 59] وأما قوله سبحانه :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ ﴾ [الأنفال : 53] الخ فكالتعليل لحلول النكال معترض بين التشبيهين

غير مختص بقوم بل هو متناول لجميع من يغير نعمة الله تعالى من الأمم السابقة واللاحقة  
فاختصاصه بالوجه الثاني دون الأول وإيقاعه وجهاً للتشبيه مع وجوده صريحاً كما علمت  
بعيد عن ذاق معرفة الفصاحتين ووقف على ترتيب النظم من الآيتين انتهى .  
ولا يخفى أن هذا غير وارد على ما قدمناه عند التأمل .

(38/315)

---

والقول في التفرقة بين الآيتين أن الأولى لبيان حالهم في استحقاقهم عذاب الآخرة والثانية  
لبيان استحقاقهم عذاب الدنيا ، أو أن المقصود أولاً تشبيه حالهم بحال المذكورين في  
التكذيب والمقصود ثانياً تشبيه حالهم في الاستئصال ، أو أن المراد فيما تقدم بيان أخذهم  
بالعذاب وهنا بيان كفيته مما لا ينبغي أن يعول عليه .

وقال بعض الأكابر : إن قوله سبحانه : ﴿ كَذَّبُوا ﴾ في محل نصب على أنه نعت لمصدر  
محذوف ، أي حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييراً كأنك كذاب آل فرعون أي كغيرهم على أن  
دأبهم عبارة عما فعلوه كما هو الأنسب بمفهوم الدأب ، وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبُوا ﴾ الخ  
تفسيره بتمامه ، وقوله سبحانه : ﴿ فأهلكناهم ﴾ الخ إخبار بترتب العقوبة عليه لأنه

من تمام تفسيره ولا ضير في توسط قوله عز شأنه: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنفال :  
53 ] بينهما سواء عطفاً أو استئناً ، وفيه خروج الآية عن نمط أختها بالكلية .

(39/315)

---

وأيضاً لا وجه لتقييد التغيير الذي يترتب عليه تغيير الله تعالى بكونه كغير آل فرعون على  
أن كون الجار في محل نصب على أنه نعت بعيد مع وجود ذلك الفاصل وإن قلنا بجواز  
الفصل ، ومن أنصف علم أن بلاغة التنزيل تقتضي الوجه الأول ، والاتفات إلى نون العظمة  
في أهلكتنا جرياً على سنن الكبرياء تهويل الخطب ، وهذا لا ينافي النكته التي أشرنا إليها  
سابقاً كما لا يخفى ، والكلام في الفاء وذكر الذنوب على طرز ما ذكرنا في نظيره ، وقوله  
سبحانه : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ ﴾ عطف على ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ وفي عطفه عليه مع اندراج  
مضمونه تحت مضمونه إيدان بكمال هول الاغراق وفضاعته ﴿ وَكُلُّ ﴾ أي كل من الفرق  
المذكورين أو كل من هؤلاء وأولئك أو كل من آل فرعون وكفار قريش على ما قيل بناء على  
أن ما قبله في تشبيهه دأب كفرة قريش بدأب آل فرعون صريحاً وتعييناً وأن مثله يكفي قرينة  
للتخصيص ﴿ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أي أنفسهم بالكفر والمعاصي ولو عمم لكان له وجه أو

واضعين للكفر والتكذيب مكان الإيمان والتصديق ولذلك أصابهم ما أصابهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 10 ص ﴾

(40/315)

---

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾

هَذَا بَيَانٌ لِبَعْضِ مَضْمُونِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ الْأَخِيرَةِ : وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَمَعْنَاهُ

: وَلَوْ رَأَيْتَ أَيُّهَا الرَّسُولُ - أَوِ الْخِطَابُ لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهُ أَوْ تَلَّوهُ - إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

قَتْلِي بَدْرٍ وَغَيْرِهِمْ (وَمَعْلُومٌ أَنَّ " لَوْ " الْاِمْتِنَاعِيَّةَ تَرُدُّ الْمُضَارِعَ مَا ضِيًّا) مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ حَالَةَ

كُونِهِمْ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ أَي : ظُهُورَهُمْ وَأَقْفِيهِمْ بِجُمْلَتِهَا - وَهُوَ ضَرْبٌ مِنْ عَالَمِ

الْغَيْبِ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ ، فَلَا يَقْتَضِي أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ الَّذِينَ

(41/315)

---

يَحْضُرُونَ وَفَانَّهُمْ ، كَمَا أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ كَلَامَهُمْ عِنْدَمَا يَقُولُونَ لَهُمْ : وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ -  
لَوْ رَأَيْتَ ذَلِكَ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا ، يَرُدُّ الْكَافِرَ عَنْ كُفْرِهِ ، وَالظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ ، إِذَا هُوَ عِلْمٌ  
عَاقِبَةٌ أَمْرُهُ . وَالْمُرَادُ بِعَذَابِ الْحَرِيقِ عَذَابُ النَّارِ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ الْبَعْثِ . وَرُوِيَ أَنَّ  
ضَرْبَ الْوُجُوهِ وَالْأَذْبَارِ كَانَ بِيَدِ : كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَضْرِبُونَ مَا أَقْبَلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ وُجُوهِهِمْ  
، وَالْمَلَائِكَةُ تَضْرِبُ أذْبَارَهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ . وَقَدْ عَلِمْتَ مِمَّا تَقَدَّمَ مِنَ التَّحْقِيقِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ  
تُقَاتِلْ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ مُتَبَتَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَلَا تَعْرَنُكَ الرَّوَايَاتُ ، وَمِنْهَا حَدِيثُ الْحَسَنِ  
الْبَصْرِيِّ عِنْدَ ابْنِ جَرِيرٍ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَأَيْتُ بَطْنًا أَبِي جَهْلٍ مِثْلَ الشَّوْكِ  
. فَقَالَ : " ذَلِكَ ضَرْبُ الْمَلَائِكَةِ " وَلَعَلَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ مَرَّاسِيلَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ  
الْمُحَدِّثِينَ كَالرِّيحِ أَيُّ لَا يُقْبَضُ مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ .

(42/315)

وَيُؤَيِّدُ الْقَوْلَ الظَّاهِرُ بِأَنَّ هَذَا فِي عَذَابِ الْآخِرَةِ بَقِيَّةُ قَوْلِهِمْ لَهُمْ : ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ أَيُّ :  
ذَلِكَ الْعَذَابُ الَّذِي ذُقْتُمْ وَتَذُوقُونَ بِسَبَبِ مَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ فِي الدُّنْيَا فَقَدَّمْتُمُوهُ إِلَى الْآخِرَةِ  
مِنْ كُفْرٍ وَظُلْمٍ ، وَهُوَ يَشْمَلُ الْقَوْلَ وَالْعَمَلَ سَوَاءً كَانَ مِنْ عَمَلِ الْأَيْدِيِ أَوْ الْأَرْجُلِ أَوْ الْحَوَاسِّ  
أَوْ تَدْبِيرِ الْعَقْلِ - كُلُّ ذَلِكَ يُنْسَبُ إِلَى عَمَلِ الْأَيْدِيِ تَوْسَعًا وَتَجَوُّزًا ، وَأَصْلُهُ أَنَّ أَكْثَرَ الْأَعْمَالِ

الْبَدِيَّةُ تَزَاوَلُ بِهَا . وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ أَيُّ : وَبِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْعَذَابُ ظُلْمًا مِنْهُ عَلَى تَقْدِيرِ عَدَمِ وَقُوعِ سَبَبِهِ مِنْ كَسْبِ أَيْدِيكُمْ ، وَلَكِنْ سَبَبُ ذَلِكَ مِنْكُمْ ثَابِتٌ قَطْعًا ، كَمَا أَنَّ وَقُوعَ الظُّلْمِ مِنْهُ لِعَبِيدِهِ مُنْتَفٍ قَطْعًا ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ تَكُونُوا أَنْتُمْ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِكُمْ قَطْعًا ، فَلَوْ مَوْهَا فَلَا لَوْمَ لَكُمْ إِلَّا عَلَيْهَا . وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الَّذِي يَرْوِيهِ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ رَبِّهِ " يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا " الْخ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَالْحَقُّ أَنَّ الظُّلْمَ حَقِيقَةً ، وَأَنَّهُ تَعَالَى مُنْزَهُ عَنْهُ كَتَنَزُّهُ عَنْ سَائِرِ النَّقَائِصِ ،

(43/315)

وَمَا يُنَافِي كَمَالَ الرُّبُوبِيَّةِ وَاللَّوْهِيَّةِ ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ التَّصَرُّفُ فِي مَلِكِ الْغَيْرِ ، وَلَا مَلِكَ لِغَيْرِهِ تَعَالَى - كَمَا قَالَتِ الْأَشْعَرِيَّةُ - وَهُوَ خَطَأٌ فِي تَعْرِيفِ الظُّلْمِ ، وَخَطَأٌ فِي أَصْلِ الْمَسْأَلَةِ بَيِّنَاهُ مِنْ قَبْلُ .

هَذَا التَّعْبِيرُ بَعِيْنُهُ وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيْقِ إِلَى الْعَبِيدِ قَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (3) :  
 181 و 182) فَيُرَاجَعُ تَفْسِيْرُهُ فِي (ص 217 و 218 ج 4 ط الْهَيْئَةِ) وَمِنْهُ بَيَانُ نَكْتَةِ  
 نَفِي الْمُبَالَغَةِ فِي الظُّلْمِ مَعَ أَنَّ الظُّلْمَ قَلِيْلُهُ وَكَثِيْرُهُ لَا يَقَعُ مِنْهُ تَعَالَى ، وَيُرَاجَعُ فِي بَيَانِ هَذَا أَيْضًا

تفسير إن الله لا يظلم مثقال ذرة (4 : 40) في (ص 85 - 91 ج 5 ط الهيئة) .  
 ونكته هذا التكرار اللفظي بيان أن هذه الحجة الإلهية تقام في الآخرة على جميع الكفار  
 المجرمين بهذا القول ، فليست خاصة بحال أناس أو قوم دون آخرين ، وما سبق في سورة  
 آل عمران ورد في اليهود الذين عاندوا النبي . صلى الله عليه وسلم . وجحدوا بؤته ، كما  
 آذوا النبيين قبله ، وكانوا يقتلونهم بغير حق ، على ما كان من بخلهم وقول بعضهم : إن الله  
 فقير ونحن أغنياء (3 : 181) ويتضح هذا المعنى بما بعده وهو .

(44/315)

كذاب آل فرعون والذين من قبلهم أي : دأب هؤلاء وشأنهم الثابت لهم - والدأب  
 الاستمرار على الشيء - كذاب آل فرعون والذين من قبلهم من الفراعنة ، وسائر الملوك  
 العتاة ، وأقوام الرسل في التاريخ ، وقد فسره بقوله تعالى : كفروا بآيات الله فأخذهم الله  
 بذنوبهم ولم يظلم أحدا منهم مثقال ذرة ، ونصر رسله والمؤمنين بهم عليهم ، على ما بين  
 الفريقين من تفاوت في العدد والعدد وسائر الأسباب ، فكما كان دأبهم واحدا كانت سنة  
 الله فيهم واحدة ، فنصره تعالى لرسوله ، والمؤمنين في بدر هو مقتضى تلك السنة إن الله  
 قوي شديد العقاب لمن يستحق عقابه ، ولكن لكل شيء عنده أجلا . قال صلى الله

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ  
وَأَبْنُ مَاجَهَ - مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . .

(45/315)

وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهَا : كَذَبُوا بِآيَاتِنَا (3 : 11)  
وَالنُّكْتَةُ فِي هَذَا التَّكْرَارِ بَيَانُ أَنَّهُ سُنَّةُ اللَّهِ فَاطْرَدَ . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمَوْضِعَيْنِ أَنَّ آيَةَ آلِ عِمْرَانَ  
فِي الْكُفَّارِ الْمَغْرُورِينَ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، الْمُحْتَرِينَ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنْ ضُعْفَاءِ  
الْمُؤْمِنِينَ بِفَقْرِهِمْ وَضَعْفِ عَصَبِيَّتِهِمْ النَّسَبِيَّةِ ، وَأَمَّا آيَةُ الْأَنْفَالِ فَهِيَ فِي الْكُفَّارِ الْمَغْرُورِينَ  
بِقُوَّتِهِمْ وَبَأْسِهِمْ ، الْمُحْتَرِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِفَقْدِ ذَلِكَ وَهِيَ سَابِقَةٌ فِي النُّزُولِ .  
ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، أَيُّ : ذَلِكَ الَّذِي  
ذَكَرَ مِنْ أَخْذِهِ تَعَالَى لِقُرَيْشٍ بِكُفْرِهَا لِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهَا ، الَّتِي أَتَمَّهَا بِبِعْثِهِ خَاتَمَ رُسُلِهِ مِنْهُمْ ،  
كَأَخْذِهِ لِلْأَمَمِ قَبْلَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، مُؤَيِّدٌ بِأَمْرِ آخِرِيَّتِهِمْ بِهِ عَدْلُهُ تَعَالَى وَحِكْمَتُهُ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ  
مِنْ شَأْنِهِ ، وَلَا مُقْتَضَى رِسَالَتِهِ أَنْ يُغَيِّرَ نِعْمَةً مَا أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا هُمْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ  
مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي اسْتَحَقُّوا بِهَا تِلْكَ النِّعْمَةَ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لِقَوْلِهِمْ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ



وَأَعْمَالُهُمْ مُحِيطٌ بِمَا يَكُونُ مِنْ كُفْرِهِمْ لِلنَّعْمَةِ فَيَعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ .  
(فصل في بيان سننه تعالى في تغيير أحوال الأمم)

(46/315)

هَذَا بَيَانٌ لِسُنَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ أَعْظَمِ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي نِظَامِ الْجَمَاعِ الْبَشَرِيِّ ، يُعَلِّمُ مِنْهَا  
بُطْلَانَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ الَّتِي كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى عُقُولِ النَّاسِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، وَلَا يَزَالُ جَمَاهِيرُ  
النَّاسِ يُخَدَعُونَ بِهَا ، وَهِيَ مَا يَتَعَلَّقُ بِنُوطِ سَعَادَةِ الْأُمَّمِ وَقُوَّتِهَا وَغَلِبَتِهَا وَسُلْطَانِهَا بِسَعَةِ  
الثَّرْوَةِ ، وَكَثْرَةِ حَصَى الْأُمَّةِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ :  
وَلَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى . . . وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاتِرِ  
وَكَانَ مِنْ غُرُورِهِمْ بِهَا أَنْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ مَنْ أُوْتِيَهَا لَا تُسَلَبُ مِنْهُ ، وَأَنَّهُ كَمَا فَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَى  
غَيْرِهِ بِأَيْدَائِهَا ، كَذَلِكَ يُفَضِّلُهُ بِدَوَامِهَا وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ  
(34 : 35) وَقَدْ بَيَّنَّا غُرُورَ الْبَشَرِ بِهَذِهِ الظُّوَاهِرِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ . ثُمَّ ظَهَرَ  
أَقْوَامٌ آخَرُونَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحَابِي بَعْضَ الْأُمَمِ

(47/315)

وَالشُّعُوبَ عَلَى بَعْضِ بِنْسَبِهَا ، وَفَضَلَ بَعْضَ أَجْدَادِهَا عَلَى غَيْرِهِمْ بِنُبُوَّةِ أَوْ مَا دُونَهَا ،  
فِيؤْتِيهِمُ الْمُلْكَ وَالسِّيَادَةَ وَالسَّعَادَةَ لِأَجْلِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يُنْسَبُونَ إِلَيْهِمْ وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا  
مِنْ آبَائِهِمْ ، كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي غُرُورِهِمْ وَتَفْضِيلِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى جَمِيعِ الشُّعُوبِ  
بِنَسَبِهِمْ ، وَكَمَا فَعَلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا سُنَنَهُمْ مِنَ النَّصَارَى ثُمَّ الْمُسْلِمِينَ ، بِالْغُرُورِ فِي الدِّينِ ،  
وَدَعْوَةِ اتِّبَاعِ التَّبِيِّينَ ، وَبِكِرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَإِنْ كَانُوا لَهُمْ مِنْ أَشَدِّ الْمُخَالَفِينَ .  
فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى لِكُلِّ قَوْمٍ خَطَأَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَبِمَا سَبَقَ فِي مَعْنَاهَا ، وَهُوَ أَعْمٌ مِنْهَا فِي  
سُورَةِ الرَّعْدِ مِنْ قَوْلِهِ : إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (13 : 11) وَأُثِّبَتْ  
لَهُمْ أَنْ نَعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْأَقْوَامِ وَالْأُمَمِ مُنَوَّطَةً ابْتِدَاءً وَدَوَامًا بِأَخْلَاقٍ وَصِفَاتٍ وَعَقَائِدِ  
وَعَوَائِدِ وَأَعْمَالٍ تَقْتَضِيهَا ، فَمَا دَامَتْ هَذِهِ الشُّيُونُ لاصِقَةً بِأَنْفُسِهِمْ مُتَمَكِّنَةً مِنْهَا كَانَتْ تِلْكَ  
النِّعَمُ ثَابِتَةً بِنَبَاتِهَا ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ الْكَرِيمُ لِيَنْتَزِعَهَا مِنْهُمْ ابْتِرَاعًا بِغَيْرِ ظَلَمٍ مِنْهُمْ وَلَا ذَنْبٍ ،  
فَإِذَا هُمْ غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ تِلْكَ الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ مَحَاسِنِ  
الْأَعْمَالِ ، غَيَّرَ اللَّهُ عِنْدَئِذٍ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَسَلَبَ نِعْمَتَهُ مِنْهُمْ ، فَصَارَ الْغَنِيُّ فَقِيرًا ، وَالْعَزِيزُ  
ذَلِيلًا

---

، وَالْقَوِيُّ ضَعِيفًا . هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الْمُطْرَدُ فِي الْأَقْوَامِ وَالْأُمَّمِ ، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي الْأَفْرَادِ إِلَّا أَنَّهُ  
غَيْرُ مُطْرَدٍ فِيهِمْ ، لِقَصْرِ أَعْمَارِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ دُونَ تَأْثِيرِ التَّغْيِيرِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى غَايَتِهِ .  
إِنَّ لِلْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْخُرَافِيَّةِ آثَارًا فِي وَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَتَكَافُلِهَا وَقُوَّةِ سُلْطَانِهَا أَوْ  
ضَعْفِهِ ، وَلَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فِي الْوُجُودِ إِلَّا بِوُقُوعِ التَّنَازُعِ بَيْنَ أُمَّتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ فِيهَا . وَإِنَّ  
لِلْأَخْلَاقِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي يَتَحَقَّقُ بِكَثْرَةٍ بَعْضُهَا مَا يُسَمَّى خُلُقًا لِلْأُمَّةِ أَوْ الشَّعْبِ مِثْلَ ذَلِكَ فِي  
حُكْمِهَا وَسُلْطَانِهَا وَفِي ثَرَوَتِهَا وَعِزَّتِهَا أَيْضًا ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ فِي سِيرَةِ كُلِّ أُمَّةٍ وَدَوْلَةٍ ذَاتِ  
تَارِيخٍ مَعْرُوفٍ ، وَمَنْ اطَّلَعَ عَلَى كِتَابِ (الدُّكْتُورِ غُوسْتَا فِ لُوبُونِ) الْاجْتِمَاعِيِّ الْكَبِيرِ فِي  
عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ يَجِدُ فِيهَا شَوَاهِدَ كَثِيرَةً عَلَى هَذِهِ الْقَوَاعِدِ أَظْهَرُهَا مَا يَبِينُهُ مِنَ الْفُرُوقِ بَيْنَ  
فِرْنَسَةٍ .

وَأَنْكِلَرَةَ - وَبَيْنَ الشُّعُوبِ

اللاتينية والشعوب " الأنجلوسكسونية " عامة - في الأخلاق ، وما لذلك من الآثار في  
حياة الفريقين الاجتماعيّة والسياسة والاستعماريّة والتجاريّة .

وَمِنْ كَلَامِهِ فِي تَأْثِيرِ الْأَخْلَاقِ فِي تَرْقِيِ الْأُمَّمِ وَتَدْلِيلِهَا وَقَوِّمَتَهَا وَضَعْفِهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ ، قَوْلُهُ فِي  
 الْفَصْلِ الثَّلَاثِ مِنْ كِتَابِهِ (رُوحُ الْأَشْتِرَاكِيَّةِ) وَمَوْضُوعُهُ (نَفْسِيَّةُ الشُّعُوبِ) : وَأَذْكَرُ هُنَا مَا  
 أَشْرَتْ إِلَيْهِ كَثِيرًا فِي كُتُبِي الْأَخِيرَةِ ، وَهُوَ أَنَّ الْأُمَّمَ لَا تَنْحَطُّ وَتَزُولُ إِذَا تَنَاقَصَ ذَكَاءُ أَبْنَائِهَا ،  
 بَلْ إِذَا سَقَطَتْ أَخْلَاقُهَا . هَذِهِ سُنَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ جَرَتْ أَحْكَامُهَا عَلَى الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ ،  
 وَأَخَذَتْ تَجْرِي فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ أَيْضًا ، لَا يَزَالُ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَفْقَهُونَ هَذَا الْقَوْلَ ، وَيُجَادِلُونَ فِي  
 صِحَّتِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَخَذَ يَنْتَشِرُ ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ مُفَصَّلًا فِي كِتَابٍ وَضَعَهُ حَدِيثًا الْكَاتِبُ  
 الْإِنْكَلِيزِيُّ (الْمَسْتَرُ بِنْيَامِينَ كِيد) وَلَا أَرَى لِتَأْيِيدِ قَضِيَّتِي أَفْضَلَ مِنْ اقْتِبَاسِ بَعْضِ عِبَارَاتٍ  
 عَنْهُ بَيْنَ فِيهَا - مُنْصِفًا غَيْرَ مُحَابٍ - الْفَرْقَ بَيْنَ الْخُلُقِ (الْأَنْجُلُوسْكَسُونِيِّ) وَالْخُلُقِ  
 الْفَرَنْسَوِيِّ وَتَوَائِجِ هَذَا الْفَرْقِ أَه . (ص 104 و 105) مِنَ التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

(50/315)

ثُمَّ أوردَ شَوَاهِدَ مِنْهُ عَلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ مِنْ مُرَادِهِ ، وَبَيَّنَ تَفُوقَ الْإِنْكَلِيزِيِّ عَلَى الْفَرَنْسِيسِ  
 بِأَخْلَاقِهِمْ ، فَإِنَّ فَسَادَ الْأَخْلَاقِ الَّذِي أَهْلَكَ الْأُمَّمَ التَّارِيخِيَّةَ الشَّهِيرَةَ كَالْفَرْسِ وَالْيُونَانَ  
 وَالرُّومَانَ وَالْعَرَبَ قَدْ دَبَّ إِلَى الْإِفْرَنْجِ ، وَكَانَ بَدْءُ فَتْكَهَ بِاللَّاتِينَ وَلَا سِيَّمَا الْفَرَنْسِيسِ مِنْهُمْ ،  
 فَقَلَّ نَسْلُهُمْ ، وَصَارُوا يَرْجِعُونَ الْقَهْقَرِيِّ أَمَامَ الْإِنْكَلِيزِيِّ وَإِخْوَانِهِمِ الْأَمِيرِ كَاتِبِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ،

دَعِ الْأَمَانَ الَّذِينَ فَاقُوا الْفَرِيقَيْنِ .

وَقَدْ دَبَّ هَذَا الْفَسَادُ الْأَخْلَاقِي إِلَى الْإِنْكِلِيزِ أَيْضًا كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ أَعْظَمُ فَلَاسِفَتِهِمْ  
(هَرِبْرْت سِبِنْسِر) الشَّهِيرُ لِأَسَاتِذِنَا الشَّيْخِ (مُحَمَّدَ عَبْدُهُ) وَسَبَقَ نَقْلُهُ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ مِنْ  
أَنَّ الْأَفْكَارَ الْمَادِيَّةَ الَّتِي أَفْسَدَتْ أَخْلَاقَ اللَّاتِينَ فِي أُورِبَةِ قَدْ دَبَّتْ إِلَى الْإِنْكِلِيزِ ، وَأَخَذَتْ  
تَفْتِكُ بِأَخْلَاقِهِمْ ، وَأَنَّهَا سَتُفْسِدُ أُورِبَةَ كُلَّهَا .

وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِمَّا يَغْفُلُ عَنْهُ أَكْثَرُ الْمُتَعَلِّمِينَ فِي هَذَا

(51/315)

---

الْعَصْرِ بَعْدَ اتِّسَاعِ نِطَاقِ عِلْمِ الْجَمَاعِ ، وَكَثْرَةِ الْمُصَنَّفَاتِ فِيهِ ، وَكَثْرَةِ مَا يُكْتَبُ فِي  
الصُّحُفِ الْعَامَّةِ فِي مَوْضُوعِ الْأَخْلَاقِ ، وَتَأْثِيرِهَا فِي أَحْوَالِ الْأَفْرَادِ وَالْأُمَّمِ ، حَتَّى قَالَ  
غُوسْتَا فُ لُوبُونُ : أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَفْقَهُونَ هَذَا الْقَوْلَ بَلْ يُجَادِلُونَ فِي صِحَّتِهِ ، فَالْمَسْأَلَةُ عَلَيَّ  
كُونُهَا صَارَتْ مَعْرُوفَةً لِلْجَمَاهِيرِ لَا تَزَالُ مَوْضِعَ مِرَاءٍ وَجِدَالٍ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ ؛ لِأَنَّهَا مِنْ مَسَائِلِ  
الْعِلْمِ الصَّحِيحِ الْعَالِيِّ الَّتِي لَا يَفْقَهُهَا إِلَّا أَصْحَابُ الْبَصِيرَةِ النَّافِذَةِ ، وَالْمَعْرِفَةِ الْمُمَحَّصَةِ . وَلَوْ  
فَقَّهَهَا الْجُمْهُورُ لَكَانَ لَهَا الْأَثَرُ الصَّالِحُ فِي أَعْمَالِهِ . وَإِنَّا لَنَرَى الْأَلُوفَ فِي بِلَادِنَا يَتَمَثَّلُونَ بِقَوْلِ

أَحْمَدَ شَوْقِي بِكَ أَشْهَرِ شُعْرَاءِ الْعَصْرِ :  
وَإِنَّمَا الْأُمَّمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ . . . فَإِنَّهُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

(52/315)

يَتَمَثَّلُونَ بِهِ مُعْجَبِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يَفْهَمُونَ مَدْلُولَ الْفَاضِلِ، وَشَرَفَ مَوْضُوعِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ حِكْمَتَهُ التَّفْصِيلِيَّةَ الْعَمَلِيَّةَ، وَمَاذَا يَكُونُ مِنْ تَأْثِيرِ فَسَادِ كُلِّ خُلُقٍ مِنْ أَخْلَاقِ الْفُضَائِلِ فِي أَعْمَالِ الْأَفْرَادِ، ثُمَّ فِي ضَعْفِ الْأُمَّةِ وَأَنْحِلَالِهَا - ذَلِكَ الْفِقْهُ الَّذِي حَقَّقْنَا مَعْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا (7: 179) فَرَأَجَعُهُ مَعَ بَيَانِ مَرَاتِبِ السَّمَاعِ وَالْفَهْمِ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ 20 - 23 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

إِنَّ مِنَ الْأَخْلَاقِ مَا لَا يُجَادِلُ أَحَدٌ فِي حُسْنِهِ فِي نَفْسِهِ، وَفِي اسْتِقَامَةِ الْمُعَامَلَاتِ الْعَامَّةِ فِي الْأُمَّةِ بِهِ كَالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَالْعَدْلِ، وَإِنْ امْتَرَى كَثِيرُونَ أَوْ مَارَوْا فِي كَوْنِهَا دَعَائِمَ أَسْبَابِ النَّجَاحِ وَالْفَلَاحِ فِي الْمَعِيشَةِ أَوْ التَّرَقِّيِّ فِي مَنَاصِبِ الْحُكُومَةِ، وَلَكِنْ قَلَّمَا يَجْهَلُ أَحَدٌ مِنْ أَدْكِيَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُتَمَرِّينَ فِي فَسَادِ الْجَمَاعَةِ أَوْ الشَّرِكَةِ أَوْ الْحُكُومَةِ الَّتِي يَرْتَقِي الْعَامِلُ فِيهَا بِالْكَذِبِ، وَالْحِيَانَةِ وَالظُّلْمِ، وَإِذَا بَلَغَ قَوْمٌ هَذِهِ الْغَايَةَ مِنَ الْفُسَادِ الْفُؤِهِ وَعَدُوِّهِ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ

الْحَيَاةَ ، وَلَمْ تُعَدُّ قُلُوبُهُمْ تَوَجُّهَهُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ بِإِصْلَاحِ مَا بَانْفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَتَلَفَّؤْنَ مِنْ شَرِّهِ  
مَا اسْتَطَاعُوا بِبَعْضِ النُّظْمِ وَالْقَوَائِنِ الصُّورِيَّةِ .

(53/315)

وَإِنَّ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ مَا صَارَ الْفَاسِدُونَ الْمُفْسِدُونَ يُجَادِلُونَ فِي حُسْنِهِ ، وَكَوْنِهِ مِنْ  
الْفَضَائِلِ الَّتِي يَصْلُحُ بِهَا حَالُ الْأَفْرَادِ ، وَيَرْتَقِي بِهِ مَجْمُوعُ الْأُمَّةِ كَالْحَيَاءِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعِفَّةِ .  
يَقُولُونَ : إِنَّ الْحَيَاءَ ضَعْفٌ فِي النَّفْسِ ، وَكَذَلِكَ الرَّحْمَةُ . وَهَذَا خَطَأٌ لَا مَحَلَّ هُنَا لِبَيَانِهِ ،  
وَهُوَ قَدِيمٌ ، وَإِنَّمَا الْجَدِيدُ الَّذِي لَمْ يَطْرُقْ مَسَامِعَنَا قَبْلَ هَذِهِ الْأَيَّامِ هُوَ الْمِرَاءُ فِي فَضِيلَةِ الْعِفَّةِ  
، فَإِنَّ دُعَاةَ الْفُسَادِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ تَجْدِيدَ الْأُمَّةِ قَدْ اقْتَرَفُوا هَذِهِ الْجَرِيمَةَ ، وَلَا غُرُوفَانَ مِنْ  
أَرْكَانِهِ عِنْدَهُمْ نَهَتْكَ النِّسَاءُ ، وَامْتَرَّاجَهُنَّ بِالرِّجَالِ فِي الْمَلَاعِبِ وَالْمَرَاقِصِ وَالْمَسَارِحِ  
وَالْمَسَابِحِ مَوَاضِعِ السَّبَاحَةِ فِي الْبَحْرِ (فَقَدْ كَتَبَ أَحَدُهُمْ فِي بَعْضِ الصُّحُفِ النَّاشِرَةِ  
لِدَعَايَتِهِمْ أَنَّ الْعِفَّةَ يَخْتَلِفُ مَعْنَاهَا بِاخْتِلَافِ مَعَارِفِ النَّاسِ وَعُرْفِهِمْ وَأَذْوَابِهِمْ وَتَقَدُّمِهِمْ فِي  
الْحَضَارَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرْتَقِينَ الْآنَ لَا يَعُدُّونَ رَقْصَ النِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ مُنَافِيًا لِلْعِفَّةِ ، وَلَا  
مُخِلًّا بِهَا . وَوَيْبَ كَاتِبِ آخِرِ مِنْهُمْ وَوَيْبَةَ آخَرِي فَقَالَ : إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَنْ إِرْخَاءَ  
الْعِنَانِ لِلشَّهَوَاتِ الْبَدَنِيَّةِ لَا يَضُرُّ فِي الْجَسَدِ ، وَلَا فِي النَّفْسِ ، وَلَا يَخِلُّ بِالْآدَابِ ، وَلَا يُضَعِفُ

الْأُمَّةَ عَدَمَ التَّرَامِ الْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ فِيهِ - قَالَ الْمُفْسِدُ قَاتِلُهُ اللَّهُ : وَقَدْ ثَبَتَ هَذَا بِالتَّجْرِبَةِ فِي  
الْأُمَّةِ

(54/315)

الْأَمِيرِ كَاتِبَةٍ فَظَهَرَ بِهِ خَطَأُ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيهِ ، وَهَذَا زَعْمٌ بَاطِلٌ يَتَقَرَّبُ بِهِ قَاتِلُهُ إِلَى الْمُسْرِفِينَ مِنَ  
الْفُسَاقِ ، وَلَا يَزَالُ الْأَطِبَّاءُ وَالْحُكَمَاءُ مُجْمَعِينَ عَلَى هَدْمِ الْإِسْرَافِ فِي الشَّهَوَاتِ لِبِنَاءِ  
الْبُنْيَةِ بِمَا يُؤَكِّدُهُ مِنَ الضَّعْفِ وَالْأَمْرَاضِ ، كَمَا أَنَّهُ مُفْسِدٌ لِلْأَدَابِ وَالْأَخْلَاقِ .  
مَا زَالَ الْبَشَرِيُّ مَارُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِسِّيَّاتِ وَالضَّرُورِيَّاتِ ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ الْمَقْبُولُ فِي  
كُلِّ مَوْضِعٍ لِعُلَمَاءِ أَهْلِهِ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ يُمَارُونَ فِي مَضَارِّ شُرْبِ الْخَمْرِ ، وَيَدْعُونَ نَفْعَهَا ،  
وَالْأَطِبَّاءُ الْمُحَقِّقُونَ يُشْتَبُونَ خِلَافَ ذَلِكَ ، يُشْتَبُونَ أَنَّ إِثْمَهَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهَا ، وَأَنَّ النَّفْعَ الْقَلِيلَ  
الْخَاصَّ بِبَعْضِ الْأَحْوَالِ الْمَرْضِيَّةِ قَدْ يُعَارِضُهَا فِيهَا نَفْسُهَا مِنَ الضَّرَرِ مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ ،  
فِيُجْعَلُ تَرْكُ التَّدَاوِيِّ بِهَا أَوْلَى إِذَا وَجِدَ أَيُّ شَيْءٍ آخَرَ يَقُومُ مَقَامَهَا .

(55/315)



إِنِّي ذَكَرْتُ فِي فَاتِحَةِ هَذَا التَّفْسِيرِ مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ أَنَّ مَسَلِكَ جَرِيدَةِ الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى فِي  
الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ طَرِيقِ إِرْشَادِ الْقُرْآنِ ، وَبَيَانِهِ لِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْإِنْسَانِ  
وَالْأَكْوَانِ قَدْ فَتَحَ لِي فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ بَابًا لَمْ يَأْخُذْ بِحَلْقَتِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ ،  
وَإِنِّي أَخْتِمُ هَذَا الْفَصْلَ الْاسْتِطْرَادِيَّ بِمَقَالَةٍ مِنْ مَقَالَاتِ تِلْكَ الْجَرِيدَةِ اقْتَحَهُ أُسْتَاذُنَا  
مُحَرَّرُهَا رَحِمَهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بَصَدَدٍ تَفْسِيرِهَا ، لِيَكُونَ مُصْبِحًا لِلْمُفَسِّرِينَ  
وَالْمُرْشِدِينَ وَالْوَعَاظِ يَهْتَدُونَ بِضَوْئِهِ - وَلْيُعْلَمَ الْفَرْقُ بَيْنَ فَهْمِ هَذَا الْإِمَامِ وَأُسْتَاذِهِ الْحَكِيمِ  
لِلْقُرْآنِ ، وَبَيْنَ أَفْهَامِ الْمُتَقَدِّمِينَ الَّذِينَ كَانَتْ حُضُوظُهُمْ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ كِتَابَةَ سَطْرَيْنِ أَوْ  
بِضْعَةِ أَسْطُرٍ أَكْثَرَهَا فِي غَيْرِ سَبِيلِ هِدَايَتِهَا . وَهَذَا نَصُّ الْمَقَالَةِ :

### المقالة الثامنة عشرة

سُنُّنُ اللَّهِ فِي الْأُمَّمِ وَتَطْبِيقُهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ  
إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (13 : 11) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً  
أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (8 : 53) .

تلك آيات الكتاب الحكيم، تُهدي إلى الحق، وإلى طريق مُستقيم، ولا يَرْتَابُ فِيهَا إِلَّا الضَّالُّونَ، هل يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ وَهُوَ أَصْدَقُ مَنْ وَعَدَ، وَأَقْدَرُ مَنْ أُوْعِدَ؟ هل كَذَبَ اللهُ رُسُلَهُ؟ هل وَدَعَ أَنْبِيَاءَهُ وَقَلَّاهُمْ؟ هل غَشَّ خَلْقَهُ، وَسَلَكَ بِهِمْ طَرِيقَ الضَّلَالِ؟ نَعُودُ بِاللَّهِ! هل أَنْزَلَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ لَعُوًا وَعَبَثًا؟ هل افترت عليه رُسُلُهُ كَذِبًا؟ هل اخْتَلَقُوا عَلَيْهِ إِفْكًَا؟ هل خَاطَبَ اللهُ عِبِيدَهُ بِرُؤُوسٍ لَا يَفْهَمُونَهَا، وَإِشَارَاتٍ لَا يُدْرِكُونَهَا؟ هل دَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِمَا لَا يَعْقِلُونَ؟ نَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَلَيْسَ قَدْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ؟ وَفَصَّلَ فِيهِ كُلَّ أَمْرٍ،

وَأُوْدِعَهُ نُبِيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ؟ تَقَدَّسَتْ صِفَاتُهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا هُوَ الصَّادِقُ فِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، مَا اتَّخَذَ رَسُولًا كَذَابًا، وَلَا أَتَى شَيْئًا عَبَثًا، وَمَا هَدَانَا إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ، وَلَا تَبْدِيلَ لآيَاتِهِ، تَزُولُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَلَا يَزُولُ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ كِتَابِهِ الَّذِي: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ (41: 42).

(57/315)

---

يَقُولُ اللهُ: وَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (21):  
(105) وَيَقُولُ: وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (63: 8) وَقَالَ: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

المؤمنين (30 : 47) وقال : لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا (48 : 28) هَذَا مَا وَعَدَ اللَّهُ فِي مُحْكَمِ الْآيَاتِ مِمَّا لَا يَقْبَلُ تَأْوِيلًا ، وَلَا يَنَالُ هَذِهِ الْآيَاتِ بِالتَّوِيلِ ، إِلَّا مَنْ ضَلَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَرَامَ تَحْرِيفَ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ . هَذَا عَهْدُهُ إِلَى تِلْكَ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، وَعَدَهَا بِالنَّصْرِ وَالْعِزَّةِ وَعُلُوِّ الْكَلِمَةِ ، وَمَهَّدَ لَهَا سَبِيلَ مَا وَعَدَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِمَجْدِهَا أَمَدًا ، وَلَا لِعِزَّتِهَا حَدًّا .

(58/315)

هَذِهِ أُمَّةٌ أَنْشَأَهَا اللَّهُ عَنْ قَلَّةٍ ، وَرَفَعَ شَأْنَهَا إِلَى ذِرْوَةِ الْعُلَى ، حَتَّى ثَبَتَ أَقْدَامَهَا عَلَى قَنْنِ الشَّامِيخَاتِ ، وَدَكَّتْ لِعَظَمَتِهَا عَوَالِي الرَّأْسِيَّاتِ ، وَأَنْشَقَّتْ لِهَيْبَتِهَا مَرَائِرُ الضَّارِيَّاتِ ، وَذَابَتْ لِلرُّعْبِ مِنْهَا أَعْشَارُ الْقُلُوبِ ، هَالًا ظُهُورُهَا الْهَائِلُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَتَحْيِيرَ فِي سَبَبِهِ كُلِّ عَقْلٍ ، وَاهْتَدَى إِلَى السَّبَبِ أَهْلُ الْحَقِّ فَقَالُوا : قَوْمٌ كَانُوا مَعَ اللَّهِ فَكَانَ اللَّهُ مَعَهُمْ ، جَمَاعَةٌ قَامُوا بِنَصْرِ اللَّهِ ، وَاسْتَرَشَدُوا بِسُنَّتِهِ فَأَمَدَهُمْ بِنَصْرٍ مِنْ عِنْدِهِ . هَذِهِ أُمَّةٌ كَانَتْ فِي نَشَأَتِهَا فَاقِدَةً الذِّخَائِرِ ، مَعُوذَةً مِنَ الْأَسْلِحَةِ وَعُدَدِ الْقِتَالِ ، فَاخْتَرَقَتْ صُفُوفَ الْأُمَمِ ، وَاخْتَطَّتْ دِيَارَهَا ، لَا دَفْعَ لَهَا أَبْرَاجُ الْمَجُوسِ وَخَنَادِقُهُمْ ، وَلَا صَدَّتْهَا قَلَاعُ الرُّومَانِ وَمَعَاقِلُهُمْ ، وَلَا عَاقَتْهَا صُعُوبَةُ الْمَسَالِكِ ، وَلَا أَثَرٌ فِي هِمَّتِهَا اخْتِلَافُ الْأَهْوِيَةِ ، وَلَا فَعَلَ فِي نَفْسِهَا غَزَارَةٌ

الثَّرْوَةَ عِنْدَ مَنْ سِوَاهَا ، وَلَا رَاعِيَهَا جَلَالَةَ مُلُوكِهِمْ ، وَقَدَمَ بِيُوتِهِمْ ، وَلَا تَنُوعَ صِنَائِعِهِمْ ، وَلَا سِعَةَ دَائِرَةِ فُنُونِهِمْ ، وَلَا عَاقَ سَيْرِهَا أَحْكَامَ الْقَوَانِينِ ، وَلَا تَنْظِيمَ الشَّرَائِعِ ، وَلَا تَقَلُّبُ غَيْرِهَا مِنْ الْأُمَمِ فِي فُنُونِ السِّيَاسَةِ . كَانَتْ تُطْرَقُ دِيَارَ الْقَوْمِ فَيُحَقَّرُونَ أَمْرَهَا ، وَيَسْتَهِينُونَ بِهَا ،

(59/315)

وَمَا كَانَ يَخْطُرُ بِبَالِ أَحَدٍ أَنَّ هَذِهِ الشَّرْذِمَةَ الْقَلِيلَةَ تَزْعُجُ أَرْكَانَ تِلْكَ الدُّوَلِ الْعَظِيمَةِ ، وَتَمْحُو أَسْمَاءَهَا مِنْ لَوْحِ الْمَجْدِ . وَمَا كَانَ يَخْتَلِجُ بِصَدْرٍ أَنَّ هَذِهِ الْعِصَابَةَ الصَّغِيرَةَ تَقْهَرُ تِلْكَ الْأُمَّمَ الْكَبِيرَةَ ، وَتُمْكِنُ فِي نَفْسِهَا عِقَائِدَ دِينِهَا ، وَتُخْضِعُهَا لِأَمْرِهَا وَعَادَاتِهَا وَشَرَائِعِهَا ، لَكِنْ كَانَ كُلُّ ذَلِكَ ، وَنَالَ تِلْكَ الْأُمَّةَ الْمَرْحُومَةَ عَلَى ضَعْفِهَا مَا لَمْ تَنْلَهُ أُمَّةٌ سِوَاهَا . نِعَمَ قَوْمٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَوَفَّاهُمْ أَجُورَهُمْ مَجْدًا فِي الدُّنْيَا ، وَسَعَادَةً فِي الْآخِرَةِ .

هَذِهِ الْأُمَّةُ يُبْلَغُ عَدْدُهَا الْيَوْمَ زَهَاءَ مَائِي مَلْيُونٍ مِنَ النَّفُوسِ وَأَرْضِيهَا آخِذَةٌ مِنَ الْمُحِيطِ الْإِتِلَاتِيكِيِّ إِلَى أَحْشَاءِ بِلَادِ الصِّينِ - تُرْبَةٌ طَيِّبَةٌ ، وَمَنَابِتُ خِصْبَةٌ ، وَدِيَارُ رَحْبَةٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ نَرَى بِلَادَهَا مُنْهَوِيَةً ، وَأَمْوَالَهَا مَسْلُوبَةٌ ، تَتَغَلَّبُ الْأَجَانِبُ عَلَى شُعُوبِ هَذِهِ الْأُمَّةِ شَعْبًا شَعْبًا ، وَيُقَاسِمُونَ أَرْضِيهَا قِطْعَةً بَعْدَ قِطْعَةٍ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا كَلِمَةٌ تَسْمَعُ ، وَلَا أَمْرٌ يُطَاعُ ،

حَتَّىٰ إِنَّ الْبَاقِينَ مِنْ مُلُوكِهَا يُصْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ فِي مُلَمَّةٍ ، وَيُمْسُونَ فِي كُرْبَةٍ مُدْلِهَمَّةٍ ، ضَاقَتْ  
أَوْقَاتُهُمْ عَنْ سِعَةِ الْكَوَارِثِ الَّتِي تَلَمُّ بِهِمْ ، وَصَارَ الْخَوْفُ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ مِنَ الرَّجَاءِ لَهُمْ .

(60/315)

هَذِهِ هِيَ الْأُمَّةُ الَّتِي كَانَ الدُّوَلُ الْعِظَامُ يُؤَدِّينَ لَهَا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُنَّ صَاغِرَاتٌ ، اسْتَبْقَاءً  
لِحَيَاتِهِنَّ ، وَمُلُوكُهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يَرُونَ بَقَاءَهُمْ فِي التَّزَلُّفِ إِلَى تِلْكَ الدُّوَلِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، يَا  
لِلْمُصِيبَةِ وَيَا لِلرَّزِيَّةِ ! ! .

أَلَيْسَ هَذَا بِخُطْبِ جَلَلٍ ، أَلَيْسَ هَذَا بِلَاءٍ نَزَلَ ، مَا سَبَبُ هَذَا الْهُبُوطِ ، وَمَا عِلَّةُ هَذَا  
الْإِنْحِطَاطِ ؟ هَلْ نُسِيءُ الظَّنَّ بِالْعُهُودِ الْإِلَهِيَّةِ ؟ مَعَاذَ اللَّهِ ! هَلْ نَسْتَيْسُّ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ،  
وَنُظَنُّ أَنْ قَدْ كَذَبَ عَلَيْنَا ؟ نَعُوذُ بِاللَّهِ ! هَلْ نَرْتَابُ فِي وَعْدِهِ بِنَصْرِنَا بَعْدَ مَا أَكَّدَهُ لَنَا ؟  
حَاشَاهُ سُبْحَانَهُ ! لَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَنْ يَكُونَ ، فَعَلَيْنَا

أَنْ نَنْظُرَ لِنَنْفُسِنَا ، وَلَا لَوْمَ لَنَا إِلَّا عَلَيْهَا ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ قَدْ وَضَعَ لِسِيرِ الْأُمَّمِ سُنَنًا  
مُتَّبَعَةً ثُمَّ قَالَ : وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (33 : 62) .

(61/315)

---

أَرْشَدَنَا سُبْحَانَهُ فِي مُحْكَمِ آيَاتِهِ إِلَى أَنَّ الْأُمَّمَ مَا سَقَطَتْ مِنْ عَرْشِ عِزِّهَا ، وَلَا بَادَتْ  
وَمُحِيَّ اسْمِهَا مِنْ لَوْحِ الْوُجُودِ إِلَّا بَعْدَ نَكُوبِهَا عَنْ تِلْكَ السُّنَنِ الَّتِي سَنَّهَا اللَّهُ عَلَى أَسَاسِ  
الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنْ عِزَّةٍ وَسُلْطَانٍ وَرَفَاهَةٍ وَخَفْضِ عَيْشٍ وَأَمْنٍ  
وَرَاحَةٍ ، حَتَّى يُغَيِّرَ أَوْلَئِكَ مَا بِنَفْسِهِمْ مِنْ نُورِ الْعَقْلِ ، وَصِحَّةِ الْفِكْرِ ، وَإِشْرَاقِ الْبَصِيرَةِ ،  
وَالْإِعْتِبَارِ بِأَفْعَالِ اللَّهِ فِي الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ ، وَالتَّدْبِيرِ فِي أَحْوَالِ الَّذِينَ جَارُوا عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ  
فَهَلَكُوا ، وَحَلَّ بِهِمُ الدَّمَارُ ، ثُمَّ لَعُدُّوْلَهُمْ عَنْ سُنَّةِ الْعَدْلِ ، وَخُرُوجِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْبَصِيرَةِ  
وَالْحِكْمَةِ ، حَادُوا عَنِ السُّتْقَامَةِ فِي الرَّأْيِ ، وَالصِّدْقِ فِي الْقَوْلِ ، وَالسَّلَامَةِ فِي الصِّدْرِ ،  
وَالْعَفَّةِ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَالْحَمِيَّةِ عَلَى الْحَقِّ ، وَالْقِيَامِ بِنَصْرِهِ ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى حِمَايَتِهِ ،  
خَذَلُوا الْعَدْلَ ، وَلَمْ يُجْمِعُوا هِمَمَهُمْ عَلَى إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، وَاتَّبَعُوا الْأَهْوَاءَ الْبَاطِلَةَ ، وَأَنْكَبُوا  
عَلَى الشَّهَوَاتِ الْفَانِيَةِ ، وَأَتَوْا عِظَائِمَ الْمُنْكَرَاتِ ، خَارَتْ عِزَّتُهُمْ ، فَشَحُّوا بِبِذْلِ مُهْجِهِمْ  
فِي حِفْظِ السُّنَنِ الْعَادِلَةِ وَاخْتَارُوا الْحَيَاةَ فِي الْبَاطِلِ عَلَى الْمَوْتِ فِي نَصْرَةِ الْحَقِّ ،  
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً لِّلْمُعْتَبِرِينَ .

هَكَذَا جَعَلَ اللهُ بَقَاءَ الْأُمَّمِ وَبِمَاءِهَا فِي التَّحَلِّيِ بِالْفَضَائِلِ الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ هَلَاكَهَا  
وَدَمَارَهَا فِي التَّحَلِّيِ عَنْهَا . سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ لَا تَحْتَفِ بِاخْتِلَافِ الْأُمَّمِ ، وَلَا تَتَبَدَّلُ بِتَبَدُّلِ  
الْأَجْيَالِ ، كَسُنَّتِهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ وَالْإِيْجَادِ ، وَتَقْدِيرِ الْأَرْزَاقِ ، وَتَحْدِيدِ الْأَجَالِ .  
عَلَيْنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَى قُلُوبِنَا ، وَنَمْتَحِنَ مَدَارِكَنَا ، وَنَسِيرَ أَخْلَاقِنَا ، وَنَلَاحِظَ مَسَالِكَ سَيْرِنَا ،  
لِنَعْلَمَ هَلْ نَحْنُ عَلَى سِيرَةِ الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيْمَانِ ، هَلْ نَحْنُ نَقْتَفِي أَثَرَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ؟ هَلْ  
غَيَّرَ اللهُ مَا بَنَا قَبْلَ أَنْ نُغَيِّرَ مَا بَانْفُسِنَا ، وَخَالَفَ فِينَا حُكْمَهُ ، وَبَدَّلَ فِي أَمْرِنَا سُنَّتَهُ ؟  
حَاشَاهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ، بَلْ صَدَقْنَا اللهُ وَعَدَّهُ ، حَتَّى  
إِذَا فَشَلْنَا وَتَنَازَعْنَا فِي الْأَمْرِ ، وَعَصَيْنَاهُ مِنْ  
بَعْدِ مَا أَرَى أَسْلَافَنَا مَا يُحِبُّونَ ، وَأَعْجَبْتَنَا كَثْرَتُنَا فَلَمْ تَعْنِ عَنَّا شَيْئًا ، فَبَدَّلَ عِزَّنَا بِالذُّلِّ ،  
وَسُمُونَا بِالْأَنْحِطَاطِ ، وَعِنَانَا بِالْفَقْرِ ، وَسَيَادَتَنَا بِالْعُبُودِيَّةِ . نَبْذُنَا أَوْ أَمَرَ اللهُ ظَهْرِيًّا ،  
وَتَخَاذَلْنَا عَنْ نَصْرِهِ ، فَجَازَانَا بِسُوءِ أَعْمَالِنَا ، وَلَمْ يُبِقْ لَنَا سَبِيلَ إِلَى النَّجَاةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ .  
كَيْفَ لَا نَلُومُ أَنْفُسَنَا ، وَنَحْنُ نَرَى الْأَجَانِبَ عَنَّا يَغْتَصِبُونَ دِيَارَنَا ، وَيَسْتَذِلُّونَ أَهْلَهَا ،  
وَيَسْفِكُونَ دِمَاءَ الْأَبْرِيَاءِ مِنْ إِخْوَانِنَا ، وَلَا نَرَى فِي أَحَدٍ مِنَّا حِرَاكًا ؟

هَذَا الْعَدَدُ الْوَافِرُ ، وَالسَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْمِلَّةِ لَا يُبْذَلُونَ فِي الدَّفَاعِ عَنْ أَوْطَانِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنْ فُضُولِ أَمْوَالِهِمْ ، يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُودُّ  
لَوْ عَيْشَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ غِذَاؤُهُ الذَّلَّةَ ، وَكِسَاؤُهُ الْمَسْكَنَةَ ، وَمَسْكَنُهُ الْهُوَانَ ، تَفَرَّقَتْ  
كَلِمَتُنَا شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَكَادَتْ تَقَطُّعُ مَا بَيْنَنَا ، لَا يَحِنُّ أَخٌ لِأَخِيهِ ، وَلَا يُهَمُّ جَارٌ بِشَأْنِ جَارِهِ ، وَلَا  
يُرْقُبُ أَحَدُنَا فِي الْآخِرِ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ، وَلَا نَحْتَرِمُ شَعَائِرَ دِينِنَا ، وَلَا نُدَافِعُ عَنْ حَوْزَتِهِ ، وَلَا  
نُعَزِّزُهُ بِمَا نُبْذَلُ مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَرْوَاحِنَا حَسْبَمَا أَمَرْنَا .

(64/315)

أَيَحْسَبُ اللَّابِسُونَ لِبَاسِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ يَرْضَى مِنْهُمْ بِمَا يَظْهَرُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ ، وَلَا يَمَسُّ  
سَوَادَ الْقُلُوبِ ؟ هَلْ يَرْضَى مِنْهُمْ بِأَنْ يُعْبِدُوهُ عَلَى حَرْفٍ ؟ فَإِنْ أَصَابَهُمْ خَيْرٌ أَطْمَأَنَّنَا بِهِ ،  
وَإِنْ أَصَابَتْهُمْ فِتْنَةٌ انْقَلَبُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ خَسِرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ؟ هَلْ ظَنُّوا أَنَّ يَتَلَّى اللَّهُ مَا  
فِي صُدُورِهِمْ ، وَلَا يَمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ؟ أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَذُرُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا هُمْ  
عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ؟ هَلْ نَسُوا أَنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ  
وَأَمْوَالَهُمْ لِلْقِيَامِ بِنَصْرِهِ ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ لَا يَخْلُونَ فِي سَبِيلِهِ بِمَالٍ ، وَلَا يَشْحُونَ بِنَفْسٍ ؟ فَهَلْ  
لِلْمُؤْمِنِ بَعْدَ هَذَا أَنْ يُزْعِمَ نَفْسَهُ مُؤْمِنًا ، وَهُوَ لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً فِي سَبِيلِ الْإِيمَانِ ، لَا بِمَالِهِ وَلَا



برُوحِه ؟ .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ هُمُ الَّذِينَ إِذَا قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ - لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَثَبَاتًا ، وَيَقُولُونَ فِي إِقْدَامِهِمْ: حَسْبُنَا

اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (3 : 173) . كَيْفَ يَخْشَى الْمَوْتَ الْمُؤْمِنُ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَقْتُولَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ حَيٌّ يُرْزَقُ عِنْدَ رَبِّهِ ؟ مُتَمِّعٌ بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ، كَيْفَ

يَخَافُ مُؤْمِنٌ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَقُولُ: فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (3 : 175)

(65/315)

فَلْيَنْظُرْ كُلٌّ إِلَى نَفْسِهِ ، وَلَا يَتَّبِعْ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ ، وَلْيَمْتَحِنْ كُلٌّ وَاحِدٌ قَلْبَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ يَوْمٌ

لَا تَنْفَعُ فِيهِ خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَلْيَطَّابِقْ بَيْنَ صِفَاتِهِ وَبَيْنَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا

جَعَلَهُ مِنْ خَصَائِصِ الْإِيمَانِ ، فَلَوْ فَعَلَ كُلٌّ مِنَّا ذَلِكَ لَرَأَيْنَا عَدْلَ اللَّهِ فِيْنَا وَاهْتَدَيْنَا .

يَا سُبْحَانَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُنَا أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَالْعَمَلُ فِي صِيَّاتِهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ أَهْمُ فَرَضٍ مِنْ

فُرُوضِ الدِّينِ عِنْدَ حُصُولِ الْأَعْدَاءِ ، يُثَبِّتُ ذَلِكَ نَصُّ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ سَلَفًا

وَخَلْفًا ، فَمَا لَنَا نَرَى الْأَجَانِبَ يَصُولُونَ عَلَى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ صَوْلَةً بَعْدَ صَوْلَةٍ وَيَسْتَوْلُونَ

عَلَيْهَا دَوْلَةٌ بَعْدَ دَوْلَةٍ ، وَالْمُتَّسِمُونَ بِسِمَةِ الْإِيمَانِ أَهْلُونَ لِكُلِّ أَرْضٍ مُتَمَكِّنُونَ بِكُلِّ قُطْرٍ ، وَلَا تَأْخُذُهُمْ عَلَى الدِّينِ نُغْرَةٌ ، وَلَا تَسْتَفْزَهُمْ لِلدِّفَاعِ عَنْهُ حَمِيَّةٌ ؟ .

(66/315)

أَلَا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا الْقُرْآنَ ، وَتَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِي ، وَتَتَّخِذُوهُ إِمَامًا لَكُمْ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ مَعَ مُرَاعَاةِ الْحُكْمِ فِي الْعَمَلِ كَمَا كَانَ سَلْفُكُمْ الصَّالِحُ ، أَلَا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ هَذَا كِتَابُكُمْ فَاقْرَءُوا مِنْهُ : فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (47) :

20) أَلَا تَعْلَمُونَ فِيمَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ؟ نَزَلَتْ فِي وَصْفٍ مِنْ لَا إِيمَانَ لَهُمْ . هَلْ يَسِرُّ مَوْمِنًا أَنْ يَتَنَاوَلَهُ هَذَا الْوَصْفُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ؟ أَوْ غَرَّ كَثِيرِينَ مِنَ الْمُدَّعِينَ لِلْإِيمَانِ مَا زَيْنَ لَهُمْ مِنْ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ ، وَمَا حَسَنَتْهُ لَدَيْهِمْ أَهْوَاؤُهُمْ : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (47 : 24) .

أَقُولُ وَلَا أَخْشَى نَكِيرًا : لَا يَمَسُّ الْإِيمَانَ قَلْبُ شَخْصٍ إِلَّا وَيَكُونُ أَوَّلَ أَعْمَالِهِ تَقْدِيمَ مَالِهِ وَرُوحِهِ فِي سَبِيلِ الْإِيمَانِ ، لَا يُرَاعِي فِي ذَلِكَ عُذْرًا وَلَا عِلَّةً ، وَكُلُّ اعْتِدَارٍ فِي التُّعُودِ عَنْ نُصْرَةِ اللَّهِ فَهُوَ آيَةُ التَّفَاقِقِ ، وَعَلَامَةُ الْبُعْدِ عَنِ اللَّهِ .

مَعَ هَذَا كُلِّهِ نَقُولُ: إِنَّ الْخَيْرَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا جَاءَنَا بِهِ نَبَأُ التُّبُوَّةِ، وَهَذَا  
الْانْحِرَافُ الَّذِي نَرَاهُ الْيَوْمَ نَزْجُو أَنْ يَكُونَ عَارِضًا يَزُولُ، وَلَوْ قَامَ الْعُلَمَاءُ الْأَتْقِيَاءُ وَأَدَّوْا مَا  
عَلَيْهِمْ مِنَ النَّصِيحَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَحْيَوْا رُوحَ الْقُرْآنِ، وَذَكَرُوا الْمُؤْمِنِينَ بِمَعَانِيهِ  
الشَّرِيفَةِ وَاسْتَلْفَتْهُمْ إِلَى عَهْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُخْلَفُ لَرَأَيْتَ الْحَقَّ يَسْمُو، وَالْبَاطِلَ يَسْفُلُ،  
وَلَرَأَيْتَ نُورًا يَبْهَرُ الْأَبْصَارَ، وَأَعْمَالًا تَحَارُّ فِيهَا الْأَفْكَارُ. وَإِنَّ الْحَرَكَةَ الَّتِي نَحْسِبُهَا مِنْ نُفُوسِ  
الْمُسْلِمِينَ فِي أَغْلَبِ الْأَقْطَارِ هَذِهِ الْأَيَّامِ تُبَشِّرُنَا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَدَّ النَّفُوسَ لِصِيحَةِ حَقِّ  
يَجْمَعُ بِهَا كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُوَحِّدُ بِهَا بَيْنَ جَمِيعِ الْمُوَحِّدِينَ، وَنَزْجُو أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ قَرِيبًا،  
فَإِنْ فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ، وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ لِلْقِيَامِ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، صَحَّتْ لَهُمُ الْأُوبَةُ،  
وَنَصَحَتْ مِنْهُمْ التَّوْبَةُ، وَعَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَعَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ  
يُسَارِعُوا إِلَى هَذَا الْخَيْرِ، وَهُوَ الْخَيْرُ كُلُّهُ: جَمْعُ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْفَضْلُ كُلُّ الْفَضْلِ لِمَنْ  
يَبْدَأُ مِنْهُمْ بِالْعَمَلِ الَّذِي مِنَ يَهْدِي اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يَضِلُّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (18):

أَقُولُ: رَحِمَ اللهُ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ كَاتِبَ هَذَا الْخِطَابِ، وَرَحِمَ اللهُ السَّيِّدَ الْأَفْغَانِيَّ الَّذِي فَتَحَ لَهُ  
وَلَنَا هَذَا الْبَابَ، فَهَكَذَا فَلْيَكُنِ التَّذْكِيرُ بِالْقُرْآنِ: وَمَا يَذْكَرُ إِلَّا أَوْلُو الْأَلْبَابِ كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ  
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ الْكَلَامَ فِي هَذَا كَلِّمًا  
فِي نَظِيرِهِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَاهِدٌ حَقٌّ وَأَقْعٌ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ،  
وَإِنَّمَا يُخَالِفُهُ فِي مَوْضِعِ دَابِ الْقَوْمِ، وَفِي الْجَزَاءِ عَلَيْهِ الْمُشَارِ إِلَيْهِمَا فِيمَا اخْتَلَفَ بِهِ  
التَّعْبِيرُ مِنَ الْآيَاتِ، فَالآيَةُ السَّابِقَةُ فِي بَيَانِ كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ، وَهُوَ جَحْدُ مَا قَامَتْ عَلَيْهِ  
أَدْلَةُ الرُّسُلِ مِنْ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ، وَوَجُوبِ إِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ الْإِلَهِ. وَفِي تَعْذِيبِ اللهِ إِيَاهُمْ فِي  
الْآخِرَةِ. فَتَكَرَّرَ اسْمُ الْجَلَالَةِ فِيهَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا؛ لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِحَقِّهِ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ  
ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَفِي الْجَزَاءِ الدَّائِمِ عَلَى الْكُفْرِ بِهِ  
الَّذِي يُبْتَدِئُ بِالْمَوْتِ وَيُنْتَهِي بِدُخُولِ النَّارِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ مِنْ حَيْثُ  
إِنَّهُ هُوَ الْمُرَبِّيُّ لَهُمْ بِنِعْمِهِ، وَلِهَذَا ذَكَرَ فِيهَا اسْمَ الرَّبِّ مُضَافًا إِلَيْهِمْ بَدَلِ اسْمِ الْجَلَالَةِ هُنَاكَ -  
فِي دُخُولِ فِي ذَلِكَ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَمُعَانَدَتِهِمْ وَإِيْدَاؤُهُمْ وَكُفْرَ النِّعَمِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِبِعْثِهِمْ وَالسَّابِقَةَ  
عَلَيْهَا، وَفِي الْجَزَاءِ عَلَى ذَلِكَ بِعَذَابِ الدُّنْيَا.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: فَأَهْلَكْنَا هُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ كَقَوْلِهِ فِي آيَةِ  
الْعُنُكُوتِ: فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ  
وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ  
يُظْلِمُونَ (29: 40).

وَحَاصِلُ الْمَعْنَى: أَنَّ مَا يَحْفَظُهُ التَّارِيخُ مِنْ وَقَائِعِ الْأُمَّمِ مِنْ دَابِّهَا وَعَادَتِهَا فِي الْكُفْرِ  
وَالْتَكْذِيبِ وَالظُّلْمِ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ عِقَابِ اللَّهِ آيَاهَا، هُوَ جَارٍ عَلَى سُنَّتِهِ تَعَالَى الْمُطْرَدَةِ  
فِي الْأُمَّمِ، وَلَا يَظْلِمُ تَعَالَى أَحَدًا بِسَلْبِ نِعْمَةٍ، وَلَا إِيقَاعِ نِقْمَةٍ، وَإِنَّمَا عِقَابُهُ لَهُمْ أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ،  
لِكُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَظُلْمِهِمْ لِنَفْسِهِمْ - هَذَا هُوَ الْمُطْرَدُ فِي كُلِّ الْأُمَّمِ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَنَةِ .  
وَأَمَّا عَذَابُ الْأَسْتِصَالِ بِعَذَابِ سَمَاوِيٍّ فَهُوَ خَاصٌّ بِمَنْ طَلَبُوا الْآيَاتِ مِنَ الرَّسُلِ،  
وَأَنْذَرَهُمُ الْعَذَابَ إِذَا كَفَرُوا بِهَا ففَعَلُوا .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ  
فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ فِيمَا تَشَفَّعْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْتَهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ وَإِنَّمَا  
تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ وَلَا يُحْسِنُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا سَبَقُوا إِيَّاهُمْ لَا يُعْجِزُونَ

(70/315)

الآيَاتُ الثَّلَاثُ الْأُولَى بَيَانُ لِحَالِ فَرِيقٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْكُفَّارِ ، الَّذِينَ عَادُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَاتَلُوهُ بَعْدَ بَيَانِ حَالِ مُشْرِكِي قَوْمِهِ فِي قِتَالِهِمْ لَهُ فِي بَدْرٍ ، وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْفَرِيقِ : الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا فِي بِلَادِ الْعَرَبِ كُلِّهَا أَوْ الْحِجَازِ مِنْهَا ، وَهُوَ الرَّاجِحُ عِنْدِي . قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : نَزَلَتْ فِي سِتَّةِ رَهْطٍ مِنَ الْيَهُودِ مِنْهُمْ ابْنُ تَابُوتِ أَهْ . أَوْ يَهُودَ الْمَدِينَةِ أَوْ بَنُو قُرَيْظَةَ مِنْهُمْ ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ ، وَكَانَ زَعِيمُهُمُ الطَّاغُوتُ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ كَأَبِي جَهْلٍ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ - وَالآيَةُ الرَّابِعَةُ فِي حُكْمِ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ الْخَوَنَةِ ، وَالْخَامِسَةُ فِي تَهْدِيدِهِمْ ، وَتَأْمِينِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . مِنْ عَاقِبَةِ كَيْدِهِمْ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

المنار ح 10 ص 42.30 ﴿

(71/315)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

تكرير لقوله: ﴿ كذأب آل فرعون ﴾ المذكور قبله لقصد التأكيد والتسميع ، تقرير للإنذار والتهديد ، وخولف بين الجملتين تفنناً في الأسلوب ، وزيادة للفائدة ، بذكر التكذيب هنا بعد ذكر الكفر هناك ، وهما سببان للأخذ والإهلاك كما قدمناه آنفاً .

وذكر وصف الربوبية هنا دون الاسم العلم لزيادة نفضيع تكذيبهم ، لأن الاجترأ على الله مع ملاحظة كونه رباً للمجترىء ، يزيد جرأته قبحاً لإشعاره بأنها جرأة في موضع الشكر ، لأن الرب يستحق الشكر .

وعبر بالإهلاك عوض الأخذ المتقدم ذكره ليفسر الأخذ بأنه آل إلى الإهلاك ، وزيد الإهلاك بياناً بالنسبة إلى آل فرعون بأنه إهلاك الغرق .

وتنوين ﴿ كل ﴾ للتعويض عن المضاف إليه ، أي : وكل المذكورين ، أي آل فرعون والذين من قبلهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(72/315)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ كذأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ (54)

يتساءل البعض : لماذا عاد الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون ولم يأت بها مع الآية الأولى ؟

. نقول : لأن هناك فرقا دقيقا بين كل منهما . فالآية الأولى يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [ الأنفال : 52 ] في الآية الثانية يقول فيها :

﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [ الأنفال : 54 ] .

والآية الأولى تدل على أنهم كفروا بالآيات الكونية المثبتة لوجود الله تعالى وآيات الرسل وآيات الكتب التي أنزلت إليهم ، وفي هذه الآية كذبوا بآيات ربهم أي لم يصونوا النعم التي أعطاهما الله لهم ، فنعم الله عطاء ربوبية ، وتكليفه ومنهجه عطاء ألوهية ، وهم في الآية الأولى كذبوا بعطاء الألوهية ، أي كفروا بالله . وفي الآية الثانية كذبوا بعطاء الربوبية أي بنعم الله ، فعطاء الربوبية هو عطاء رب خلق من عدم وأمد من عدم لتكتمل للإنسان مقومات حياته . والله يساوي في عطاء الربوبية بين المؤمن والكافر وبين العاصي والطائع ، ولا يفرق بينهم بسبب الإيمان أو الكفر .

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [ الأنفال : 54 ] .

(73/315)

---



أي لم يكن بينهم مؤمن وكافر بحيث يكون هنا تفرقة بأن ينجي المؤمنين ويغرق الكافرين ، بل كلهم ظلموا أنفسهم بالكفر ؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ، وذكر سبحانه آل فرعون بالتخصيص ؛ لأنهم الأمة الوحيدة التي بقيت حضارتها تدل على مدى تقدمها ، هذا التقدم الذي لم يصل إلى كل أسراره حتى الآن . ولا يمكن أن تنتهي مثل هذه الحضارة إلا بقوة أعلى من قوتها . فكان الحق قد أراد أن يلفتنا إلى آل فرعون بالذات ؛ لأنه قدر للبشرية أن تكشف آثار آل فرعون ، وآثارهم لافقة للعالم أجمع ، ووضع في قلوب البشر حب أن يأتوا ليروا حضارة آل فرعون ، ويتعجبوا كيف وصلوا إلى هذه المنزلة العالية من الحضارة ، ثم انهارت هذه الحضارة كدليل على وجود قوة أعلى وهي الله سبحانه وتعالى ، وقد أهلكهم الحق لأنهم كفروا بالالوهية واتخذوا فرعون إلهاً ورباً من دون الله ، وكفروا بنعمة الربوبية التي أعطاهم الله لهم ، والتي يذكر الله جزءاً منها في قوله الكريم : ﴿ كُمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ \* وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاعْبُدُوا ﴾ [الدخان : 25-27] .

إذن فالله تعالى قد أعطاهم الزرع والماء ولم يعطهم بتقير ، بل أعطاهم بوفرة وسعة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

وأعطاهم الثروة والقوة التي تحفظ لهم كرامتهم ؛ وتجعلهم أسياد الأرض في عصرهم ، وحققت لهم مقاماً كريماً ولم يجرؤ أحد على أن يهينهم ، ولا أن يعتدي عليهم ، فقد كان

عندهم كنوز الأرض ؛ وعندهم القوة التي تحفظ لهم الكرامة في قوله تعالى : ﴿ وَزُرُوعٍ  
وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ \* وَنِعْمَةَ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنَ ﴿ [الدخان : 26-27]

(74/315)

---

وأعطاهم من العلم ما يوفر لهم الترف والحياة الطيبة الرغدة المريحة في كل شيء ، ولكنهم  
كفروا بنعم الربوبية هذه ، كما كفروا بنعمة الألوهية ؛ فاستحقوا العقاب ، وبقيت آثارهم  
تدل عليهم ؛ نجد فيها الذهب والكنوز ، وقد دفنت مع موتاهم ، ونجد فيها الحضارة  
والقوة في المعارك التي صوروها على معابدهم بتوضيح وإتقان . ونرى فيها النعمة الهائلة  
التي كان يعيش فيها فرعون وقومه ، ولكنهم لم يؤدوا حقها وكفروا بالخلق واهب النعم .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(75/315)

---

من لطائف الإمام القشيري في الآية  
قال عليه الرحمة :

﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (54)

تنوعتُ من آل فرعون الذنوب فنوع لهم العقوبة ، وكذلك هؤلاء : عُوقِبُوا بأنواعٍ من العقوبة لَمَّا ارْتَكَبُوا أنواعاً من الزَّلَّةِ .

وفائدة تكرار ذِكْرِهِمْ تأكيدٌ في التعريف أنه لا يهمل المُكَلَّفَ أصلاً ، وإنْ أهمله حيناً ودهراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات - ج 1 ص 633 ﴾

(76/315)

## فصل

قال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ تَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (50)

قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه في غير موضع .

والمعنى : ولورأيت ، لأن " لو " تقلب المضارع ماضياً ، و " إذ " ظرف لتري ، والمفعول

محذوف ، أي ولو ترى الكافرين وقت توفى الملائكة لهم .

قيل أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر .

وقيل : هي فيمن قتل ببدر وجواب " لو " محذوف تقديره لرأيت أمراً عظيماً .

وجملة ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهُهُمْ ﴾ في محل نصب على الحال ، والمراد بأدبارهم أساتهم ،

كنى عنها بالأدبار .

وقيل ظهورهم .

قيل هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيد ذكر التوفي .

وقيل : هو يوم القيامة حين يسرون بهم إلى النار .

قوله : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ قاله : الفراء ، المعنى : ويقولون ذوقوا عذاب الحريق ،

والجملة معطوفة على يضربون .

وقيل : إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم ، والذوق قد يكون محسوساً ، وقد يوضع

موضع الابتلاء والاختبار ، وأصله من الذوق بالضم ، والإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى ما

تقدم من الضرب والعذاب والباء في ﴿ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ ﴾ سببية ، أي ذلك واقع

بسبب ما كسبتم من المعاصي ، واقترفتم من الذنوب .

وجملة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي  
والأمر أنه لا يظلمهم ، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾  
وهي : ﴿ بِمَا قَدَّمْتُمْ أُيُودِيَكُمْ ﴾ أي ذلك العذاب بسبب المعاصي ، وسبب : ﴿ أَنْ  
اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وأوضح  
لهم السبيل ، وهداهم للتجدين كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ  
يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل : 118] .

قوله : ﴿ كَذَّابٌ آءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ لما ذكر الله سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على  
أن هذه سنته في فرق الكافرين .

والدأب : العادة ، والكاف في محل الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف ، أي دأب هؤلاء مثل  
دأب آل فرعون ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، والمعنى : أنه جوزي هؤلاء كما جوزي أولئك ،  
فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر ، وجملة قوله :  
﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ مفسرة لدأب آل فرعون ، أي دأبهم هذا هو أنهم كفروا بآيات الله  
، فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم ، والمراد بذنوبهم : معاصيهم المترتبة على  
كفرهم ، فيكون الباء في ﴿ بذنوبهم ﴾ للملابسة ، أي فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير  
تائبين عنها ، وجملة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها .

والإشارة بقوله: ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إلى العقاب الذي أنزله الله بهم، وهو مبتدأ وخبره ما بعده،  
والجملة جارية مجرى التعليل لما حلَّ بهم من عذاب الله.

(78/315)

---

والمعنى: أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله في عباده عدم تغيير نعمه التي ينعم بها عليهم  
﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ من الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله وغمط إحسانه  
وإهمال أوامره ونواهيه، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من  
المشركين، فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات في الدنيا ومنّ عليهم بإرسال الرسل، وإنزال  
الكتب، فقبلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم، كما غيروا ما كان يجب عليهم  
سلوكه، والعمل به من شكرها وقبولها، وجملة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ معطوفة على  
﴿ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً ﴾ داخلة معها في التعليل، أي ذلك بسبب أن الله لم يك مغيراً  
، إلخ.

وسبب أن الله سميع عليم يسمع ما يقولونه ويعلم ما يفعلونه.

وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف.

ثم كرر ما تقدم، فقال ﴿ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ لقصد

التأكيد مع زيادة أنه كالبيان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق ، وقيل : إن الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم ، والثاني : باعتبار ما فعل بهم .  
وقيل : المراد بالأول كفرهم بالله ، والثاني تكذيبهم الأنبياء .  
وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف ، والكلام في ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ كالكلام المتقدم في ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ معطوف على أهلكتناهم ، عطف الخاص على العام ، لفظاعته وكونه من أشد أنواع الإهلاك ، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم ، ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم ، بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله ، وبالظلم لغيرهم ، كما كان يجري منهم في معاملاتهم للناس بأنواع الظلم .

(79/315)

---

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ تَوْفَى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ قال : الذين قتلهم الله بيد من المشركين .  
وأخرج ابن جرير ، عن الحسن ، قال : قال رجل يا رسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك قال : " ذلك ضرب الملائكة " وهذا مرسل .

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله : ﴿ وأدبارهم ﴾ قال : وأسأهم، ولكن الله كريم يكنى .

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ قال : نعمة الله : محمد صلى الله عليه وسلم أنعم الله به على قريش فكفروا فنقله الله إلى الأنصار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ﴾

(80/315)

وقال الشيخ سيد قطب في الآيات السابقة :

﴿ واعلموا أننا غنمتم من شيء فإن لله خمسهُ ولدرّسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾ (41)

إلى قوله تعالى :

﴿ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ (54)



السياق متصل بين مطالع هذا الدرس وخواتم الدرس الماضي في آخر الجزء التاسع . . فهو  
استطرد في أحكام القتال الذي بدأ الحديث عنه هناك في قوله تعالى : ﴿ . . قل للذين  
كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم  
حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا  
فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير ﴾ ثم تابع الحديث في هذا الدرس عن  
أحكام الغنائم التي تنشأ من النصر في ذلك القتال الذي بين غايته وهدفه : ﴿ حتى لا تكون  
فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ ومع أن غاية الجهاد قد تحددت بهذا النص الواضح ؛ وتبين  
منها أنه جهاد لله ، وفي سبيل أهداف تخص دعوة الله ودينه ومنهجه للحياة . . ومع أن  
ملكية الأنفال التي تخلف عن هذا الجهاد قد بت في أمرها من قبل ، فردت إلى الله  
والرسول ، وجرّد منها المجاهدون لتخلص نيتهم وحركتهم لله . . مع هذا وذلك فإن المنهج  
القرآني الرباني يواجه الواقع الفعلي بالأحكام المنظمة له . فهناك غنائم وهناك محاربون .  
وهؤلاء المحاربون يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم : هم تطوعون للجهاد ، وهم  
يجهزون أنفسهم على نفقتهم الخاصة ؛ وهم يجهزون غيرهم من المجاهدين الذين لا يجدون  
ما ينفقون . . ثم هم يغنمون من المعركة غنائم . يغنمونها بصبرهم وثباتهم وبلائهم في  
الجهاد . . ولقد خلص الله نفوسهم وقلوبهم من أن يكون فيها شيء يحيك من شأن هذه  
الغنائم فرد ملكيتها ابتداءً لله ورسوله . . وهكذا لم يعد من بأس في إعطائهم نصيبهم من

هذه الغنائم - وهم يشعرون أنهم إنما يعطيهم الله ورسوله - فيلبي هذا الإعطاء حاجتهم الواقعية ، ومشاعرهم البشرية ، دون أن ينشأ عنه محذور من التكالب عليه ، والتنازع فيه ، بعد ذلك الحسم الذي جاء في أول السورة .

(81/315)

---

إنه منهج الله الذي يعلم طبيعة البشر ؛ ويعاملهم بهذا المنهج المتوازن المتكامل ، الذي يلبي حاجات الواقع كما يلبي مشاعر البشر ؛ وفي الوقت ذاته يتقي فساد الضمائر وفساد المجتمع ، من أجل تلك المغانم !

❖ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ، وللرسول ، ولذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل . . إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . والله على كل شيء قدير ❖ . .

وبين الروايات المأثورة والآراء الفقهية خلاف طويل . . أولاً : حول مدلول " الغنائم " ومدلول " الأنفال " هل هما شيء واحد ، أم هما شيئان مختلفان ؟ وثانياً : حول هذا الخمس - الذي يتبقى بعد الأخماس الأربعة التي منحها الله للمقاتلين - كيف يقسم ؟ وثالثاً : حول خمس الخمس الذي لله . أهو الخمس الذي لرسول الله ، أم هو خمس مستقل ؟ .

. ورابعاً : حول خمس الخمس الذي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أهو خاص به أم ينتقل لكل إمام بعده ؟ وخامساً : حول خمس الخمس الذي لأولي القربى ، أهو باق في قرابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بني هاشم وبني عبد المطلب ، كما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم يرجع إلى الإمام يتصرف فيه ؟ وسادساً : أهى أخماس محددة يقسم إليها الخمس . أم يترك التصرف فيه كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولخلفائه من بعده ؟ . . . وخلافات أخرى فرعية .

(82/315)

---

ونحن - على طريقتنا في هذه الظلال - لاندخل في هذه التفريعات الفقهية التي يحسن أن تطلب في مباحثها الخاصة . . . هذا بصفة عامة . . . وبصفة خاصة فإن موضوع الغنائم بجملة ليس واقعاً إسلامياً يواجهنا اليوم أصلاً . فنحن لسنا أمام قضية واقعة ، لسنا أمام دولة مسلمة وإمامة مسلمة وأمة مسلمة تجاهد في سبيل الله ، ثم تقع لها غنائم تحتاج إلى التصرف فيها ! لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية أول مرة ؛ ورجع الناس إلى الجاهلية التي كانوا عليها ، فأشركوا مع الله أرباباً أخرى تصرف حياتهم بشرائعها البشرية ! ولقد عاد هذا الدين أدراجه ليدعو الناس من جديد إلى الدخول

فيه . . إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . . إلى أفراد الله سبحانه بالألوهية  
والحاكمية والسلطان . والتلقي في هذا الشأن عن رسول الله وحده ! وإلى التجمع تحت  
قيادة مسلمة تعمل لإعادة إنشاء هذا الدين في حياة البشر ، والتوجه بالولاء كله لهذا  
التجمع ولقيادته المسلمة ؛ ونزع هذا الولاء من المجتمعات الجاهلية وقياداتها جميعاً .  
هذه هي القضية الحية الواقعية التي تواجه اليوم هذا الدين ؛ وليس هناك - في البدء -  
قضية أخرى سواها . . ليس هناك قضية غنائم ، لأنه ليس هناك قضية جهاد ! بل ليس  
هناك قضية تنظيمية واحدة ، لا في العلاقات الداخلية ولا في العلاقات الخارجية ، وذلك  
لسبب بسيط : هو أنه ليس هناك مجتمع إسلامي ذو كيان قائم مستقل ، يحتاج إلى الأحكام  
التي تضبط العلاقات فيه والعلاقات بينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى !!

(83/315)

---

والمنهج الإسلامي منهج واقعي ، لا يشتغل بقضايا ليست قائمة بالفعل ؛ ومن ثم لا يشتغل  
أصلاً بأحكام تتعلق بهذه القضايا التي لا وجود لها من ناحية الواقع ! . . إنه منهج أكثر  
جدية وواقعية من أن يشتغل بالأحكام ! هذا ليس منهج هذا الدين . هذا منهج الفارغين  
الذين ينفقون أوقات الفراغ في البحوث النظرية وفي الأحكام الفقهية ، حيث لا مقابل لها من

الواقع أصلاً! بدلاً من أن ينفقوا هذه الجهود في إعادة إنشاء المجتمع المسلم وفق المنهج  
الحركي الواقعي لهذا الدين نفسه: دعوة إلى لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ ينشأ عنها  
دخول فئة في هذا الدين من جديد - كما دخل فيه الناس أول مرة - كما ينشأ عن هذا  
الدخول في الدين تجمع حركي ذو قيادة مسلمة وذو ولاء خاص به وذو كينونة مستقلة عن  
المجتمعات الجاهلية.

. ثم يفتح الله بينه وبين قومه بالحق . . ثم يحتاج حينئذ - وحينئذ فقط - إلى الأحكام التي  
تنظم علاقاته فيما بينه؛ كما يحتاج إلى الأحكام التي تنظم علاقاته مع غيره . . وحينئذ -  
وحينئذ فقط - يجتهد المجتهدون فيه لاستنباط الأحكام التي تواجه قضاياها الواقعية - في  
الداخل وفي الخارج - وحينئذ - وحينئذ فقط - تكون لهذا الاجتهاد قيمته، لأنه تكون  
لهذا الاجتهاد جديته وواقعيته!

من أجل هذا الإدراك الجدية المنهج الحي الواقعي الحركي لهذا الدين، لا ندخل هنا في تلك  
التفصيلات الفقهية الخاصة بالأنفال والغنائم؛ حتى يحين وقتها عندما يشاء الله؛ وينشأ  
المجتمع الإسلامي، ويواجه حالة جهاد فعلي، تنشأ عنه غنائم تحتاج إلى أحكام!  
وحسبنا - في هذه الظلال - أن تتبع الأصل الإيمان في السياق التاريخي الحركي، والمنهج  
القرآني التربوي. فهذا هو العنصر الثابت، الذي لا يتأثر بالزمن في هذا الكتاب الكريم . .

وكل ما عداه تبع له وقائم عليه :  
إن الحكم العام الذي تضمنه النص القرآني :

(84/315)

---

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ، وللرسول ، ولذي القربى ، واليتامى ،  
والمساكين ، وابن السبيل ﴾ . . .

يتلخص في رد أربعة أخماس كل شيء من الغنيمة إلى المقاتلين ، واستبقاء الخمس يتصرف  
فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والأئمة المسلمون القائمون على شريعة الله  
المجاهدون في سبيل الله ، من بعده في هذه المصارف : " لله وللرسول ، ولذي القربى ،  
واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل " . . . بما يواجه الحاجة الواقعة عند وجود ذلك  
المغنم . . . وفي هذا كفاية . . .

أما التوجيه الدائم بعد ذلك فهو ما تضمنه شطر الآية الأخير :

﴿ إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل  
شيء قدير ﴾ . . .

إن للإيمان أمارات تدل عليه ؛ والله - سبحانه - يعلق الاعتراف لأهل بدر - وهم أهل

بدر - بأنهم آمنوا بالله ، وبما أنزله على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . يعلق الاعتراف لأهل بدر هؤلاء بالإيمان ، على قبولهم لما شرع الله لهم في أمر الغنائم في صدر الآية ؛ فيجعل هذا شرطاً لاعتبارهم عنده قد آمنوا بالله وبما أنزله على عبده من القرآن ؛ كما يجعله مقتضى لإعلانهم الإيمان لا بد أن يتحقق ليتحقق مدلول هذا الإعلان . وهكذا نجد مدلول الإيمان - في القرآن - واضحاً جازماً لا تميم فيه ، ولا تفصيلاً ولا تأويل مما استحدثته التطويلات الفقهية فيما بعد ، عندما وجدت الفرق والمذاهب والتأويلات ، ودخل الناس في الجدل والفروض المنطقية الذهنية ، كما دخل الناس - بسبب الفرق المذهبية والسياسية - في الاتهامات ودفع الاتهامات ؛ وصار النبز بالكفر ، ودفع هذا النبز ، لا يقومان على الأصول الواضحة البسيطة لهذا الدين ؛ إنما يقومان على الغرض والهوى ومكايده المنافسين والمخالفين ! عندئذ وجد من ينبز مخالفه بالكفر لأمر فرعية ؛ ووجد من يدفع هذا الاتهام بالتشدد في التحرج والتغليظ على من ينبز غيره بهذه التهمة .

(85/315)

---

. وهذا وذلك غلو سببه تلك الملابس التاريخية . . أما دين الله فواضح جازم لا تميع فيه ولا تفصيص ولا غلو . . " ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل " . ولا بد لقيامه من قبول ما شرع الله وتحقيقه في واقع الحياة . . والكفر : رفض ما شرع الله ، والحكم بغير ما أنزل الله ، والتحاكم إلى غير شرع الله . . في الصغير وفي الكبير سواء . . أحكام صريحة جازمة بسيطة واضحة . . وكل ما وراءها فهو من صنع تلك الخلافات والتأويلات . .

وهذا نموذج من التقريرات الصريحة الواضحة الجازمة من قول الله سبحانه :

❖ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . ❖

ومثله سائر التقريرات الواضحة الجازمة الصريحة التي ترسم حقيقة الإيمان وحدوده في كتاب الله .

لقد نزع الله ملكية الغنيمة ممن يجمعونها في المعركة ؛ وردّها إلى الله والرسول - في أول السورة - ليخلص الأمر لله والرسول ؛ وليتجرد المجاهدون من كل ملابس من ملابس الأرض ؛ وليسلموا أمرهم كله - أوله وآخره - لله ربهم وللرسول قائدهم ؛ وليخوضوا المعركة لله وفي سبيل الله ، وتحت راية الله ، طاعة لله ؛ يحكمونه في أرواحهم ،



ويحكمونه في أموالهم ويحكمونه في أمرهم كله بلا تعقيب ولا اعتراض . . فهذا هو  
الإيمان . . كما قال لهم في مطلع السورة وهو ينتزع منهم ملكية الغنيمة ويردها إلى الله  
ورسوله :

(86/315)

---

﴿ يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ،  
وأطيعوا الله ورسوله . . إن كنتم مؤمنين . . ﴾ حتى إذا استسلموا لأمر الله ، وارتضوا  
حكمه ذاك ، فاستقر فيهم مدلول الإيمان . . عاد ليرد عليهم أربعة أخماس الغنيمة ،  
ويستبقي الخمس على الأصل - لله والرسول - يتصرف فيه رسول صلى الله عليه وسلم ،  
وينفق منه على من يعولهم في الجماعة المسلمة من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن  
السبيل . . عاد ليرد عليهم الأخماس الأربعة ، وقد استقر في نفوسهم أنهم لا يملكونها  
ابتداءً بحق الغزو والفتح ، فهم إنما يغزون لله ويفتحون لدين الله ؛ إنما هم يستحقونها بمنح  
الله لهم إياها ؛ كما أنه هو الذي يمنحهم النصر من عنده ؛ ويدبر أمر المعركة وأمرهم كله . .  
وعاد كذلك ليدكرهم بأن الاستسلام لهذا الأمر الجديد هو الإيمان . . هو شرط الإيمان ،  
وهو مقتضى الإيمان .

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين  
وابن السبيل . . إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان  
. . ﴾

وهكذا تتواتر النصوص ، لتقرر أصلاً واضحاً جازماً من أصول هذا الدين في اعتبار  
مدلول الإيمان وحقيقته وشرطه ومقتضاه .

ثم نقف أمام وصف الله - سبحانه - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بقوله : ﴿ عبدنا  
﴿ في هذا الموضع الذي يرد إليه فيه أمر الغنائم كلها ابتداء ، وأمر الخمس المتبقي أخيراً :  
﴿ إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ . .  
إنه وصف موحٍ . . إن العبودية لله هي حقيقة الإيمان ؛ وهي في الوقت ذاته أعلى مقام  
للإنسان يبلغ إليه بتكريم الله له ؛ فهي تجلّى وتذكر في المقام الذي يوكل فيه إلى رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم - التبليغ عن الله ، كما يوكل إليه فيه التصرف فيما خوله الله .  
وإنه كذلك في واقع الحياة ! إنه كذلك مقام كريم . . أكرم مقام يرتفع إليه الإنسان . .

إن العبودية لله وحده هي العاصم من العبودية للهوى ، والعاصم من العبودية للعباد . . وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له ، إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه .

إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله وحده ، يقعون من فورهم ضحايا لأحط العبوديات الأخرى . يقعون من فورهم عبيداً لهواهم وشهواتهم ونزواتهم ودفعاتهم ؛ فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التي خص الله بها نوع " الإنسان " من بين سائر الأنواع ؛ وينحدرون في سلم الدواب فإذا هم شر الدواب ، وإذا هم كالأنعام بل هم أضل ، وإذا هم أسفل سافلين بعد أن كانوا - كما خلقهم الله - في أحسن تقويم .

كذلك يقع الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله في شر العبوديات الأخرى وأحطها . . يقعون في عبودية العبيد من أمثالهم ، يصرفون حياتهم وفق هواهم ، ووفق ما يبدو لهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر ، مشوبة بحب الاستعلاء ، كما هي مشوبة بالجهل والنقص والهوى !

ويقعون في عبودية " الحتميات " التي يقال لهم : إنه لا قبل لهم بها ، وإنه لا بد من أن يخضعوا لها ولا يناقشوها . . " حتمية التاريخ " . . و " حتمية الاقتصاد " . . و " حتمية التطور " وسائر الحتميات المادية التي تمرغ جبين " الإنسان " في الرغام وهو لا يملك أن يرفعه ، ولا أن يناقش - في عبوديته البائسة الذليلة - هذه الحتميات الجبارة المذلة المخيفة !

ثم نقف كذلك أمام وصف الله - سبحانه - ليوم بدر بأنه يوم الفرقان :  
﴿ إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ . .  
لقد كانت غزوة بدر - التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده - فرقاناً .  
فرقاناً بين الحق والباطل - كما يقول المفسرون إجمالاً - وفرقاناً بمعنى أشمل وأوسع  
وأدق وأعمق كثيراً . .

(88/315)

---

كانت فرقاناً بين الحق والباطل فعلاً . . ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات  
والأرض ، وقامت عليه فطرة الأشياء والأحياء . . الحق الذي يتمثل في تفرد الله -  
سبحانه - بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير ؛ وفي عبودية الكون كله : سمائه وأرضه  
، أشيائه وأحيائه ، لهذه الألوهية المتفردة ولهذا السلطان المتوحد ، ولهذا التدبير وهذا  
التقدير بلا معقب ولا شريك . . والباطل الزائف الطارئ الذي كان يعم وجه الأرض إذ  
ذاك ؛ ويغشي على ذلك الحق الأصيل ؛ ويقوم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد  
الله بما تشاء ، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء ! . . فهذا هو الفرقان الكبير الذي تم يوم  
بدر ؛ حيث فرق بين ذلك الحق الكبير وهذا الباطل الطاغي ؛ وزيل بينهما فلم يعودا

يلتبان !

لقد كانت فرقاناً بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق ، على أبعاد  
وآماد : كانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير . . فرقاناً بين الوحدانية  
المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور ، وفي الخلق والسلوك ، وفي العبادة والعبودية  
؛ وبين الشرك في كل صورته التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص والأهواء  
والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات . .  
وكانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر كذلك . . فرقاناً بين العبودية  
الواقعية للأشخاص والأهواء ، وللقيم والأوضاع ، وللشرائع والقوانين ، وللتقاليد  
والعادات . . . وبين الرجوع في هذا كله لله الواحد الذي لا إله غيره ، ولا متسلط سواه ،  
ولا حاكم من دونه ، ولا مشرع إلا إياه . . فارتفعت الهامات لا تنحني لغير الله ؛ وتساوت  
الرؤوس لا تخضع إلا لحاكميته وشرعه ؛ وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة  
للطغاة . .

(89/315)

---

وكانت فرقاناً بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية: عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار . وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع . . والإسلام بوصفه تصوراً جديداً للحياة ، ومنهجاً جديداً للوجود الإنساني ، ونظماً جديداً للمجتمع ، وشكلاً جديداً للدولة . . بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير " الإنسان " في " الأرض " بتقرير الوهية الله وحده وحاكميته ، ومطاردة الطواغيت التي تغتصب الوهيته وحاكميته . . الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بد من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، لأنه لم يكن يملك أن يقف كامناً منتظراً على طول الأمد . لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة في نفوس أصحابه ، تتمثل في شعائر تعبديّة لله ، وفي أخلاق سلوكية فيما بينهم . ولم يكن له بد أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد ، والمنهج الجديد ، والدولة الجديدة ، والمجتمع الجديد ، في واقع الحياة ؛ وأن يزيل من طريقها العوائق المادية التي تكبتها وتحول بينها وبين التطبيق الواقعي في حياة المسلمين أولاً ؛ ثم في حياة البشرية كلها أخيراً . . وهي لهذا التطبيق الواقعي جاءت من عند الله .

(90/315)

---

وكانت فرقاناً بين عهدين في تاريخ البشرية . . فالبشرية بمجموعها قبل قيام النظام الإسلامي هي غير البشرية بمجموعها بعد قيام هذا النظام . . هذا التصور الجديد الذي انبثق منه هذا النظام . وهذا النظام الجديد الذي انبثق من هذا التصور . وهذا المجتمع الوليد الذي يمثل ميلاداً جديداً للإنسان . وهذه القيم التي تقوم عليها الحياة كلها ويقوم عليها النظام الاجتماعي والتشريع القانوني سواء . . هذا كله لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر وتوكيد وجود المجتمع الجديد . إنما صار - شيئاً فشيئاً - ملكاً للبشرية كلها ؛ تأثرت به سواء في دار الإسلام أم في خارجها ، سواء بصداقة الإسلام أم بعداوته ! . . والصليبيون الذين زحفوا من الغرب ، ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه في ربوعه ، قد تأثروا بتقاليد هذا المجتمع الإسلامي الذي جاءوا ليحطموه ؛ وعادوا إلى بلادهم ليحطموا النظام الإقطاعي الذي كان سائداً عندهم ، بعد ما شاهدوا بقايا النظام الاجتماعي الإسلامي ! والتار الذين زحفوا من الشرق ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه - بإيحاء من اليهود والصليبيين من أهل دار الإسلام ! - قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية في النهاية ، وحملوها لينشروها في رقعة من الأرض جديدة ؛ وليقيموا عليها خلافة ظلت من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين في قلب أوروبا ! . . وعلى أية حال فالتاريخ البشري كله - منذ وقعة بدر - متأثر بهذا الفرقان في أرض الإسلام ، أو في الأرض التي تناهض الإسلام على السواء .

وكانت فرقانا بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة . فجرت وكل عوامل النصر الظاهرية في صف المشركين ؛ وكل عوامل الهزيمة الظاهرية في صف العصابة المؤمنة ، حتى نقال المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ . . . وقد أراد الله أن تجري المعركة على هذا النحو - وهي المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقللة المؤمنة - لتكون فرقانا بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر وأسباب الهزيمة ؛ ولتنصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد ؛ فيتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية ، لا مجرد السلاح والعتاد ؛ وأن أصحاب العقيدة الحقمة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ، لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة ؛ وأن هذا ليس كلاماً يقال ، إنما هو واقع متحقق للعيان .

وأخيراً فلقد كانت بدر فرقانا بين الحق والباطل بمدلول آخر . ذلك المدلول الذي يوحى به قول الله تعالى في أوائل هذه السورة :

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كرهه



المجرمون ﴿ لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين ، إنما خرجوا يريدون غير أبي  
سفيان واغتنام القافلة . فأراد الله لهم غير ما أرادوا .

أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبي سفيان ﴿ غير ذات الشوكة ﴾ وأن يلاقوا نفيراً أبي جهل  
﴿ ذات الشوكة ﴾ وأن تكون معركة وقتال وقتل وأسر ؛ ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة  
مريجة ! وقال لهم الله - سبحانه - إنه صنع هذا :

(92/315)

---

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة . . إن الحق لا  
يحق ، وإن الباطل لا يبطل - في المجتمع الإنساني - بمجرد البيان " النظري " للحق  
والباطل . ولا بمجرد الاعتقاد " النظري " بأن هذا حق وهذا باطل . . إن الحق لا يحق ولا  
يوجد في واقع الناس ؛ وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس . إلا بأن يتحطم  
سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق ، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا ، ويهزم  
جند الباطل ويندحروا . . فهذا الدين منهج حركي واقعي ، لا مجرد " نظرية " للمعرفة  
والجدل ! أو مجرد الاعتقاد السلبي !

ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة ؛ وكان هذا النصر العملي فرقاناً واقعياً بين الحق

والباطل بهذا الاعتبار الذي أشار إليه قول الله تعالى في معرض بيان إرادته - سبحانه -  
من وراء المعركة ، ومن وراء إخراج الرسول - صلى الله عليه وسلم - من بيته بالحق ؛ ومن  
وراء إفلات القافلة ❁ غير ذات الشوكة ❁ ولقاء الفئة ذات الشوكة . .

ولقد كان هذا كله فرقاناً في منهج هذا الدين ذاته ، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته في  
حس المسلمين أنفسهم . . وأنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته ؛ حينما ننظر إلى ما أصاب  
مفاهيم هذا الدين من تميع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين ! حتى ليصل هذا التميع  
إلى مفاهيم بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين !

وهكذا كان يوم بدر ❁ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ❁ بهذه المدلولات المنوعة الشاملة  
العميقة . .

❁ والله على كل شيء قدير ❁ . .

وفي هذا اليوم مثل من قدرته على كل شيء . . مثل لا يجادل فيه مجادل ، ولا يماري فيه  
ممار . . مثل من الواقع المشهود ، الذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدره الله . وأن الله على كل  
شيء قدير .

(93/315)

---

وهنا يعود السياق إلى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . يعود إلى المعركة ، فيعيد عرضها بأسلوب عجيب في استحضار مشاهدتها ومواقفها ، كما لو كانت معروضة فعلاً ، ويكشف عن تدير الله في إدارتها . حتى ليكاد الإنسان يرى يد الله - سبحانه - من وراء الأحداث والحركات كما يكشف عن غاية ذلك التدير التي تحققت كما أرادها الله سبحانه :

﴿ إذ أتتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم . ولو تواعدتم لاختلتم في الميعاد ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ، وإن الله لسميع عليم . إذ يريكم الله في منامك قليلاً ، ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وإلى الله ترجع الأمور ﴾ .

إن المعركة شاخصة بمواقع الفريقين فيها ؛ وشاهدة بالتدير الخفي من ورائها . . إن يد الله تكاد ترى ، وهي توقف هؤلاء هنا ، وهؤلاء هناك ، والقافلة من بعيد ! والكلمات تكاد تشف عن تدير الله في رؤيا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي تقليل كل فريق في عين الفريق الآخر ، وفي إغراء كل منهما بالآخر . . وما يملك إلا الأسلوب القرآني الفريد ، عرض المشاهد وما وراء المشاهد بهذه الحيوية ، وبهذه الحركة المرئية ، وفي مثل هذه

المساحة الصغيرة من التعبير!

وهذه المشاهد التي تستحضرها النصوص ، قد مر بنا في استعراض الوقعة من السيرة  
الإشارة إليها . . ذلك أن المسلمين حين خرجوا من المدينة نزلوا بصفة الوادي القريبة من  
المدينة ؛ ونزل جيش المشركين بقيادة أبي جهل بالصفة الأخرى البعيدة من المدينة ؛ وبين  
الفريقين ربوة تفصلهما . . أما القافلة فقد مال بها أبو سفيان إلى سيف البحر أسفل من  
الجيشين .

(94/315)

---

ولم يكن كل من الجيشين يعلم بموقع صاحبه . وإنما جمعها الله هكذا على جانبي الربوة لأمر  
يريده . حتى لو أن بينهما موعداً على اللقاء ما اجتمعا بمثل هذه الدقة والضبط من ناحية  
المكان والموعده ! وهذا ما يذكر الله به العصبية المسلمة ليدكرها بتديره وتقديره .

✽ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم  
لاختلفتم في الميعاد ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ✽ . .

إن وراء هذا التلاقي على غير موعد - بهذه الدقة وبهذا الضبط - لأمرًا مقضياً يريد الله  
تحقيقه في عالم الواقع ، ويدبر له هذا التدبير الخفي اللطيف ؛ ويجعلكم أتم أداة تحقيقه ،

ويهيئ له جميع الظروف التي تيسر لكم القيام به !

أما هذا الأمر المقتضى الذي دبر الله الظروف لتحقيقه فهو الذي يقول عنه :

﴿ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ﴾ . .

والهلاك يعبر به عن مدلوله المباشر ، كما يعبر به عن الكفر . وكذلك الحياة فإنها قد تفيد مدلولها المباشر وقد يعبر بها عن الإيمان . . وهذا المدلول الثاني أظهر هنا ، وذلك كما قال الله سبحانه في مثل هذا المعنى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ ﴾ فعبر عن الكفر بالموت وعبر عن الإيمان بالحياة ؛ وجرى في هذا على نظرة الإسلام لحقيقة الكفر وحقيقة الإيمان . هذه النظرة التي أوضحناها بشيء من التفصيل عند استعراض هذه الآية من سورة الأنعام في الجزء الثامن .

ووجه ترجيح هذا المدلول هنا أن يوم بدر - كما قال الله سبحانه - كان " يوم الفرقان " وقد فرق الله فيه بين الحق والباطل - كما ذكرنا منذ قليل - ومن ثم فإن من يكفر بعدها فإنما يكفر في غير شبهة - يكفر عن بينة فيهلك عن بينة - ومن يؤمن بعدها فإنما يؤمن عن بينة واضحة تبرزها المعركة .

---

إن الموقعة - بظروفها التي صاحبها - تحمل بينة لا تجحد ، وتدل دلالة لا تنكر ، على تديرو وراء تديرو البشر ، وعلى قوى وراءها غير قوة البشر . . إنها تثبت أن لهذا الدين رباً يتولى أصحابه متى أخلصوا له وجاهدوا في سبيله وصبروا وثبتوا ، وأنه لو كان الأمر إلى القوى المادية الظاهرة ما هزم المشركون ولا انتصرت العصابة المسلمة هذا الانتصار العظيم .

ولقد قال المشركون أنفسهم لحليفهم الذي أراد أن يمدهم بالرجال وهم ذاهبون للقتال : " فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ، ولئن كنا إنما نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله من طاقة " ! ولقد علموا - لو كان العلم يجدي - أنهم إنما يقاتلون الله كما قال لهم محمد الصادق الأمين ، وأنه ما لأحد بالله من طاقة . . فإذا هلكوا بعد ذلك بالكفر فإنما يهلكون عن بينة !

هذا ما يتبادر إلى الذهن من معنى هذا التعقيب : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ . . ولكن يبقى وراءه إيحاء آخر :

إن وقوع المعركة بين جند الحق وجند الباطل ؛ واستعلاء سلطان الحق في عالم الواقع - بعد استعلائه في عالم الضمائر - إن هذا كله مما يعين على جلاء الحق للعيون والقلوب ؛ وعلى إزالة اللبس في العقول والنفوس ؛ بحيث يتبين الأمر بهذا الفتح ويتجلى ؛ فلا تعود لمن يختار

الهلاك - أي الكفر - شبهة في الحق الذي استعلن واستعلى ؛ كما أن الذي يريد أن يجيأ -  
أي يؤمن - لا يعود لديه شك في أن هذا هو الحق الذي ينصره الله ، ويجذل الطغاة .

(96/315)

---

وهذا يعود بنا إلى ما قدمناه في الجزء التاسع - في التعريف بسورة الأنفال - من الحديث عن  
ضرورة الجهاد لتحطيم قوى الشر ولساطان الطاغوت ؛ وإعلاء راية الحق ولسطان الله . .  
فهذا مما يعين على جلاء الحق : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ . .  
كما أن هذه اللفظة تساعدنا على تفهم أبعاد الإيحاء الذي يعطيه قول الله تعالى ، في هذه  
السورة : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله  
وعدوكم . . . ﴾ فإعداد القوة والإرهاب بهما مما يعين على جلاء الحق في أنماط من  
القلوب . لا تستيقظ ولا تتبين إلا على إيقاعات القوة التي تحمل الحق وتنطلق به لإعلان  
تحرير " الإنسان " في " الأرض " كما أسلفنا .  
والتعقيب على ذلك الجانب من التدبير الإلهي في المعركة ، وعلى غاية هذا التدبير التي  
تحققت فعلاً هو :

﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾ .

فهو - سبحانه - لا يخفى عليه شيء مما يقول فريق الحق أو فريق الباطل ؛ ولا شيء مما يخفونه في صدورهم وراء الأقوال والأفعال ؛ وهو يدبر ويقدر باطلاعه على الظواهر وعلمه بالسرائر ، وهو السميع العليم . .

وبعد هذا التعقيب الذي يتوسط استعراض المعركة وأحداثها وملابساتها يمضي السياق في هذا الاستعراض ؛ ويكشف التديير الخفي اللطيف :

﴿ إذ يريكم الله في منامك قليلاً ، ولو أراكم كثيراً لفشلتم وتنازعتم في الأمر . ولكن الله سلم . إنه عليم بذات الصدور ﴾ . .

(97/315)

---

ولقد كان من تديير الله في المعركة أن يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الكافرين في الرؤيا في منامه قليلاً لا قوة لهم ولا وزن ، فينبئ أصحابه برؤياه ، فيستبشروا بها ويتشجعوا على خوض المعركة . . ثم يخبر الله هنا لم أراهم لنبيه قليلاً . فلقد علم - سبحانه - أنه لو أراهم له كثيراً ، لفت ذلك في قلوب القلة التي معه ، وقد خرجت على غير استعداد ولا توقع لقتال ، ولضعفوا عن لقاء عدوهم ؛ وتنازعوا فيما بينهم على ملاقاتهم :



فريق يرى أن يقاتلهم وفريق يرى تجنب الالتحام بهم . . وهذا النزاع في هذا الظرف هو أبأس ما يصيب جيشاً يواجه عدواً !

❖ ولكن الله سلم . إنه علیم بذات الصدور ❖ . .

ولقد كان - سبحانه - يعلم بذوات الصدور ؛ فلفظ بالعصبة المسلمة أن يعرضها لما يعلمه من ضعفها في ذلك الموقف ؛ فأرى نبيه المشركين في رؤياه قليلاً ، ولم يرهم إياه كثيراً . .

والرؤيا صادقة في دلالتها الحقيقية . فقد رأهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قليلاً . . وهم كثير عددهم ، ولكن قليل غناؤهم ، قليل وزنهم في المعركة ، قلوبهم خواء من الإدراك الواسع ، والإيمان الدافع ، والزاد النافع . . وهذه الحقيقة الواقعة - من وراء الظاهر الخادع - هي التي أراها الله لرسوله ؛ فأدخل بها الطمأنينة على قلوب العصبة المسلمة . والله علیم بسرائرهم ، مطلع على قلة عددهم وضعف عدتهم ، وما تحدثه في نفوسهم لو عرفوا كثرة عدوهم ، من ضعف عن المواجهة ؛ وتنازع على الالتحام أو الإحجام . وكان هذا تديراً من تدير الله العليم بذات الصدور .

وحيثما التقى الجمعان وجهاً لوجه ، تكررت الرؤيا النبوية الصادقة ، في صورة عيانية من الجانبين ؛ وكان هذا من التدير الذي يذكرهم الله به ؛ عند استعراض المعركة وأحداثها وما وراءها .

﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ، ويقللکم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وإلى الله ترجع الأمور ﴾ . .

(98/315)

---

ولقد كان في هذا التدبير الإلهي ما أغرى الفريقين مجوض المعركة . . والمؤمنون يرون أعداءهم قليلاً - لأنهم يرونهم بعين الحقيقة ! - والمشركون يرونهم قليلاً - وهم يرونهم بعين الظاهر - ومن وراء الحقيقتين اللتين رأى كل فريق منهما صاحبه بها ، تحققت غاية التدبير الإلهي ؛ ووقع الأمر الذي جرى به قضاؤه .

﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ . .

وهو التعقيب المناسب لتحقيق التدبير ووقوع القضاء . . فهو أمر من الأمور التي مرجعها لله وحده ، يصرفها بسلطانه ، ويوقعها بإرادته ، ولا تند عن قدرته وحكمه . ولا ينفذ شيء في الوجود إلا ما قضاؤه وأجرى به قدره .

وإذ إن الأمر كذلك . . التدبير تدبير الله . والنصر من عند الله . والكثرة العددية ليست هي التي تكفل النصر . والعدة المادية ليست هي التي تقرر مصير المعركة . . فليثبت الذين

آمنوا إذن حين يلقون الذين كفروا ؛ وليتزودوا بالعدة الحقيقية للمعركة ؛ وليأخذوا  
بالأسباب الموصولة بصاحب التدبير والتقدير ، وصاحب العون والمدد ، وصاحب القوة  
والسلطان ؛ وليتجنبوا أسباب الهزيمة التي هزمت الكفار على كثرة العدد وكثرة العدة ؛  
وليتجردوا من البطر والكبرياء والباطل ؛ وليحتزوا من خداع الشيطان ، الذي أهلك  
أولئك الكفار ؛ وليتوكلوا على الله وحده فهو العزيز الحكيم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا . واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله  
ورسوله ؛ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا  
كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون  
محيط . واذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار  
لكم . فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال : إني بريء منكم ، إني أرى ما لا ترون ،  
إني أخاف الله ، والله شديد العقاب . إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، غر هؤلاء  
دينهم ! ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ . .

(99/315)

---

وفي هذه الفقرات القليلة تحتشد معان وإيجاعات ، وقواعد وتوجيهات ، وصور ومشاهد ؛ وتشخص مواقف من المعركة كأنها حية واقعة ، وتكشف خواطر ومشاعر وضمائٍ وسرائر . . . مما يحتاج تصويره إلى أضعاف هذه المساحة من التعبير ؛ ثم لا يبلغ ذلك شيئاً من هذا التصوير المدهش الفريد !

إنها تبدأ بنداء الذين آمنوا - في سلسلة النداءات المتكررة للعصبة المسلمة في السورة - وتوجيههم إلى الثبات عند لقاء الأعداء ، وإلى التزويد بزاد النصر ؛ والتأهب بأهبة .  
﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتشعلوا وتذهب ربحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط . . ﴾

فهذه هي عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو . والاتصال بالله بالذكر . والطاعة لله والرسول . وتجنب النزاع والشقاق . والصبر على تكاليف المعركة . والحذر من البطر والرئاء والبغي . .

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر . فأثبت الفريقين أغلبهما . وما يُدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون ؛ وأنه يألم كما يألمون ، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون ؛ فلا مدد له من رجاء في الله ثبت أقدامه وقلبه ! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل

عدوهم وينهار؛ وما الذي ينزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسينين :  
الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا؛ وهو حريص على هذه الحياة  
التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها؟!  
وأما ذكر الله كثيراً عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن؛ كما أنه التعليم المطرد  
الذي استقر في قلوب العصابة المؤمنة، وحكاه عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في  
موكب الإيمان التاريخي.

(100/315)

---

ومما حكاه القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عندما استسلمت قلوبهم للإيمان فجأة،  
فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغوي، قولهم: ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمننا بآيات  
ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ ومما حكاه كذلك عن الفئة  
القليلة المؤمنة من بني إسرائيل، وهي تواجه جالوت وجنوده: ﴿ ولما برزوا لجالوت  
وجنوده قالوا: ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ومما  
حكاه عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ في مواجهة المعركة: ﴿ وكأبي من بني قاتل معه  
ربيون كثير . فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب

الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت  
أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ﴿ ولقد استقر هذا التعليم في نفوس العصابة  
المسلمة ؛ فكان هذا شأنها حينما واجهت عدواً . وقد حكى الله - فيما بعد - عن  
العصابة التي أصابها القرع في " أحد " ؛ فلما دعيت إلى الخروج ثاني يوم ، كان هذا التعليم  
حاضراً في نفوسها : ﴿ الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ،  
فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿ إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدي وظائف  
شتى : إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب ؛ والثقة بالله الذي ينصر أوليائه . . وهو في الوقت  
ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها ، فهي معركة لله ، لتقرير الوهية في  
الأرض ، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية ؛ وإذن فهي معركة لتكون كلمة الله هي  
العليا ؛ لا للسيطرة ، ولا للمغنم ، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي . . كما أنه تؤكد  
لهذا الواجب - واجب ذكر الله - في أخرج الساعات وأشد المواقف . . وكلها إيجاعات  
ذات قيمة في المعركة ؛ يحققها هذا التعليم الرباني .

(101/315)

---

وأما طاعة الله ورسوله ، فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء ؛ فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة : ﴿ ولا تنازعوا فتشلقوا وتذهب ربحكم ﴾ . . . فما يتنازع الناس إلا حين تعدد جهات القيادة والتوجيه ؛ وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار . فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم - مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة - فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر ، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها ! وإنما هو وضع " الذات " في كفة ، والحق في كفة ؛ وترجيح الذات على الحق ابتداء ! .

. ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة . . إنه من عمليات " الضبط " التي لا بد منها في المعركة . . إنها طاعة القيادة العليا فيها ، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها . وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي تجاهد لله ، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلاً . . والمسافة كبيرة كبيرة . .  
وأما الصبر . فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة . . أية معركة . . في ميدان النفس أم في ميدان القتال .

﴿ واصبروا ، إن الله مع الصابرين ﴾ . .

وهذه المعية من الله هي الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح . .

ويبقى التعليم الأخير :

﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله

بما يعملون محيط ﴾ . .

(102/315)

---

يبقى هذا التعليم ليحمي العصابة المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعجب بقوتها ! وتستخدم نعمة القوة التي أعطاها الله لها في غير ما أرادها . . والعصابة المؤمنة إنما تخرج للقتال في سبيل الله ؛ تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر ، وتقرير عبودية العباد لله وحده . وتخرج لتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق الله في تعبيد العباد له وحده ، والتي تزاول الألوهية في الأرض بمزاولتها للحاكمية - بغير إذن الله وشرعه - وتخرج لإعلان تحرير " الإنسان " في " الأرض " من كل عبودية لغير الله ، تستذل إنسانية الإنسان وكرامته . وتخرج لحماية حرمة الناس وكراماتهم وحررياتهم ، لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر . وتخرج متجردة من حظ نفسها في المعركة جملة ، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد ؛ وفي إقامة منهجه في الحياة ؛ وفي إعلاء كلمته في الأرض ؛ وفي



التماس فضله بعد ذلك ورضاه . . حتى الغنائم التي تحلفها المعركة فهي من فضل الله . .  
ولقد كانت صورة الخروج بطراً ورتاء الناس وصداء عن سبيل الله حاضرة أمام العصابة  
المسلمة؛ يرونها في خروج قريش بالصورة التي خرجت بها؛ كما كانت صورة العاقبة لهذا  
الخروج حاضرة فيما أصاب قريشاً التي خرجت في ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبرياتها  
تحاد الله ورسوله: وعادت في آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة . . وكان الله  
سبحانه يذكر العصابة المسلمة بشيء حاضره وقعه وله إيحاءه:

﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورتاء الناس ويصدون عن سبيل الله . والله  
بما يعملون محيط ﴾ . .

والبطر والمراعاة والصد عن سبيل الله تتجلى كلها في قولة أبي جهل، وقد جاءه رسول أبي  
سفيان - بعد أن ساحل بالغير فنجت من رصد المسلمين - يطلب إليه الرجوع بالنفير، إذ  
لم تعد بهم حاجة لقتال محمد وأصحابه .

(103/315)

---

وكانت قريش قد خرجت بالقيان والدفوف يغنون وينحرون الجزر على مراحل الطريق .  
فقال أبو جهل: " لا والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم ثلاثًا، ننحر الجزر، ونطعم الطعام،

ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا ، فلن تزال العرب تهابنا أبداً " . . فلما عاد الرسول إلى أبي سفيان برد أبي جهل قال : " واقوماه ! هذا عمل عمرو بن هشام (يعني أبا جهل) كره أن يرجع ، لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذلنا " . . وصحت فراسة أبي سفيان ، وأصاب محمد - صلى الله عليه وسلم - النفير ؛ وذل المشركون بالبطر والبغي والرياء والصد عن سبيل الله ؛ وكانت بدر قاصمة الظهر لهم :

❖ والله بما يعملون محيط ❖ . .

لا يفوته منهم شيء ، لا يعجزه من قوتهم شيء ، وهو محيط بهم وبما يعملون .  
ويمضي السياق يصور وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بهذا الخروج الذي نالهم منه ما نالهم من الذل والخيبة والخسار والانكسار :

❖ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني جار لكم .  
فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وقال : إني بريء منكم ، إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب ❖ . .

ولقد وردت في هذه الآية والحادث الذي تشير إليه عدة آثار ؛ ليس من بينها حديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا ما رواه مالك في الموطأ : حدثنا أحمد بن الفرج ، قال : حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ، قال : حدثنا مالك ، عن إبراهيم بن أبي

عبلة ، عن طلحة بن عبيد الله بن كرين : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " ما رأيي إبليس يوماً هوفيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة ، وذلك ما يرى من تنزيل الرحمة والعتو عن الذنوب ، إلا ما رأى يوم بدر ! " قالوا : يا رسول الله ، وما رأى يوم بدر ؟ قال : " أما إنه رأى جبريل ينزع الملائكة " .

(104/315)

---

وفي هذا الأثر عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ، وهو ضعيف الحديث ، والخبر مرسل .

فأما سائر الآثار فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - من طريق علي بن أبي طلحة وطريق ابن جريج . وعن عروة بن الزبير من طريق ابن إسحاق . وعن قتادة من طريق سعيد بن جبير . وعن الحسن وعن محمد بن كعب . وهذه أمثلة منها من رواية ابن جرير الطبري :

\* حدثني المشنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثني معاوية عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه راية ، في صورة رجل من بني مدلج ، والشيطان في صورة سراقه بن مالك بن جعشم .

فقال الشيطان للمشركين : ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإنني جار لكم ﴾ . . فلما

اصطف الناس أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبضة من التراب فرمى بها في  
وجوه المشركين ، فولوا مدبرين . وأقبل جبير إلى إبليس ، فلما رآه ، وكانت يده في يد رجل  
من المشركين ، اتزع إبليس يده فولى مدبراً هو وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقه ، تزعم أنك  
لنا جار ؟ قال : ﴿ إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ وذلك حين  
رأى الملائكة .

\* حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : قال ابن إسحاق : حدثني يزيد بن رومان .  
عن عروة بن الزبير قال : لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر - يعني من  
الحرب - فكاد ذلك أن يثنيهم . فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم  
المدلجي ، وكان من أشرف كنانة ، فقال : أنا جار لكم من أن تأتكم كنانة من خلفكم  
بشيء تكرهونه . فخرجوا سراعاً .

(105/315)

---

\* حدثنا بشر بن معاذ قال : حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : ﴿ وإذ زين  
لهم الشيطان أعمالهم ﴾ إلى قوله : ﴿ شديد العقاب ﴾ قال : ذكر لنا أنه رأى جبريل  
تنزل معه الملائكة فزعم عدو الله أنه لا يد له بالملائكة ، وقال : ﴿ إني أرى ما لا ترون إني

أخاف الله ﷻ . . . وكذب والله عدو الله ، ما به مخافة الله ، ولكن علم أن لا قوة له ولا منعة له ، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له ، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم ، وتبرأ منهم عند ذلك .

ونحن - على منهجنا في هذه الظلال - لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يرد به نص قرآني أو حديث نبوي صحيح متواتر . فهي من أمور الاعتقاد التي لا يلتزم فيها إلا بنص هذه درجته . ولكننا في الوقت ذاته لا نقف موقف الإنكار والرفض . . .

وفي هذا الحادث نص قرآني يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم ، وشجعهم على الخروج بإعلان إجارته لهم ونصرته إياهم ؛ وأنه بعد ذلك - لما تراءى الجمعان أي رأى أحدهما الآخر - ﷻ نكص على عقبيه وقال : إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب ﷻ . . . فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم ، ولم يوف بعهدهم معهم . . .

ولكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم ، والتي قال لهم بها : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم . والتي نكص بها كذلك وقال ما قاله بعد ذلك .

الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها . ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ؛ ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في أمره إلا في حدود النص المسلم . والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت

الحادث . .

فإلى هنا ينتهي اجتهادنا . ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير من محاولة تأويل كل أمر غيبي من هذا القبيل تأويلاً معيناً ينفي الحركة الحسية عن هذه العوالم . وذلك كقول الشيخ رشيد رضا في تفسير الآية :

(106/315)

---

❖ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم . . ❖ أي واذكر أيها الرسول للمؤمنين ، إذ زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه في هواجسهم : لا غالب لكم اليوم من الناس ، لا أتباع محمد الضعفاء ولا غيرهم من قبائل العرب ، فأنتم أعز نفراً وأكثر نفيراً وأعظم بأساً ، وإني مع هذا - أو والحال أني - جار لكم . قال البيضاوي في تفسيره : وأوهمهم أن اتباعهم إياه ، فيما يظنون أنها قربات ، مجير لهم ، حتى قالوا : اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين " . ❖ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ❖ . . أي فلما قرب كل من الفريقين المتقاتلين من الآخر ، وصار بحيث يراه ويعرف حاله ، وقبل أن يلقاه في المعركة ويصطلي نار القتال معه ، نكص : أي رجع القهقري ، وتولى إلى الوراء ، وهو جهة العقبين (أي مؤخري الرجلين )

وأخطأ من قال من المفسرين: إن المراد بالتراخي التلاقي - والمراد: أنه كف عن تزيينه لهم  
وتغيره إياهم، فخرج الكلام مخرج التمثيل بتشبيهه وسوسته بما ذكر بحال المقبل على  
الشيء؛ وتركها بحال من ينكص عنه ويوليه دبره. ثم زاد على هذا ما يدل على براءته  
منهم، وتركه إياهم وشأنهم وهو ﴿ وقال: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون، إني  
أخاف الله ﴾ أي تبرأ منهم وخاف عليهم، وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين  
بالملائكة ﴿ والله شديد العقاب ﴾ يجوز أن يكون هذا من كلامه ويجوز أن يكون مستأنفاً  
.. "

... "أقول: معنى هذا أن جند الشيطان الخبيث كانوا منبئين في المشركين يوسوسون  
لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة ما يغيرهم ويغريهم؛ كما كان الملائكة منبئين في المؤمنين  
يلهمونهم بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم ويزيدهم ثقة بوعده الله  
بنصرهم... "

(107/315)

---

وهذا الميل الظاهر إلى تفسير أفعال الملائكة بأنها مجرد ملابس لأرواح المؤمنين؛ وقد جزم  
في موضع آخر بأن الملائكة لم تقا تل يوم بدر على الرغم من قول الله تعالى: ﴿ فاضربوا فوق

الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴿٤٠﴾ - وتفسير فعل الشيطان بأنه مجرد ملابسة لأرواح  
المشركين . . هو منهج تلك المدرسة بجملتها . . ومثله تفسير " الطير الأبايل " بأنها  
ميكروبات الجدري ! في تفسير الشيخ محمد عبده لجزء عم .  
. هذا كله مبالغة في تأويل هذه النصوص المتعلقة بأمور غيبية ؛ حيث لا ضرورة لهذا  
التأويل ، لأنه ليس هناك ما يمنع من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها . . وكل ما ينبغي هو  
الوقوف وراء النصوص بلا تفصيلات لا تدل عليها دلالة صريحة . . وهو المنهج الذي  
اتخذناه فعلاً . .

وبعد ، فإنه بينما كان الشيطان يخدع المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورتاء الناس  
ويصدون عن سبيل الله ، ويشجعهم على الخروج ، ثم يتركهم لمصيرهم البأس . . . كان  
المنافقون والذين في قلوبهم ضعف ، يظنون بالعصبة المؤمنة الظنون ؛ وهم يرونها تواجه  
جحافل المشركين ، وهي قليلة العدد ضعيفة العدة ؛ ويرون - بقلوبهم المدخولة ونظرتهم  
إلى الظواهر المادية الخادعة - أن المؤمنين أوردوا أنفسهم موارد التهلكة ، مخدوعين بدينهم  
، ظانين أنه ينصرهم أو يقيهم :

﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : غر هؤلاء دينهم ﴾ . .

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض قيل : إنهم مجموعة من الذين مالوا إلى الإسلام في مكة -



ولكن لم تصح عقيدتهم ولم تظمن قلوبهم - خرجوا مع النفي مزعزعين ، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين قالوا هذه المقالة !

(108/315)

---

والمناقون والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ؛ فهم يرون ظواهر الأمور ، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ؛ ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة ، والثقة في الله ، والتوكل عليه ، واستصغار شأن الجموع والقوى التي لا ترتكن إلى عقيدة في الله تمنحها القوة الحقيقية . . فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين في موقفهم ، مغرورين بدينهم ، واردين موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التي يرونها !

إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة وعند القلوب الخاوية من الإيمان . ولكن الذي يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادي الظاهر . . فالقلوب الخاوية تراه ولا ترى شيئاً وراءه ؛ والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من " الواقع " الحقيقي ! الواقع الذي يشمل جميع القوى ، ويوازن بينها موازنة صحيحة :

﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ . .

هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتظمن إليه ؛ وما هو محبوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب

حسابه! وهذا ما يرجح الكفة، ويقرر النتيجة، ويفصل في القضية في نهاية المطاف في كل زمان وفي كل مكان.

وقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، عن العصبية المسلمة يوم بدر: ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ . . هي قولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض كلما رأوا العصبية المسلمة تتعرض لجحافل الطاغوت في عنفوانه؛ وعدتها الأساسية التي تملكها هي هذا الدين؛ وهي هذه العقيدة الدافعة الدافقة؛ وهي الغيرة على ألوهية الله وعلى حرمة الله؛ وهي التوكل على الله والثقة بنصره لأوليائه.

إن المنافقين والذين في قلوبهم مرض يقفون ليتفرجوا والعصبية المسلمة تصارع جحافل الطاغوت، وفي نفوسهم سخرية من هذه العصبية التي تصدى للخطر، وتستخف بالخطر! وفي نفوسهم عجب كذلك ودهشة في اقتحام العصبية المسلمة للمكاره الظاهرة، وللأخطار الواضحة.

(109/315)

---

. إنهم هم لا يعرفون مبرراً لهذا التهور - كما يسمونه - وللإلقاء بالنفس إلى التهلكة! . .  
إنهم يحسبون الحياة كلها - بما فيها الدين والعقيدة - صفقة في سوق التجارة. إن كانت

ظاهرة الريح أقدموا عليها ؛ فأما إذا كان الخطر فالسلامة أولى ! . . . إنهم لا يدركون الأمور  
ببصيرة المؤمن ، ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الإيمان . . . إنها في حس المؤمن وميزانه صفقة  
راجحة دائماً ؛ فهي مؤدية إلى إحدى الحسنيين : النصر والغلب ، أو الشهادة والجنة . . . ثم إن  
حساب القوى في نفسه يختلف ؛ فهناك الله . . . وهذا ما لا يدخل في حساب المنافقين  
والذين في قلوبهم مرض !

والعصبة المسلمة في كل مكان وفي كل زمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة ؛ وأن  
تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه ، وأن ترى بنور الله وهداه ، وألا تتعاضمها قوى الطاغوت  
الظاهرة ، وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله ، وأن تلقي بالها دائماً إلى تعليم الله  
سبحانه للمؤمنين .

❖ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ❖ . . .

. . . وصدق الله العظيم . . .

وأخيراً يعرض السياق القرآني مشهداً من مشاهد التدخل الإلهي في المعركة ، والملا  
الأعلى من الملائكة - بأمر الله وإذنه - يشارك في أخذ الذين كفروا بالتعذيب والتأنيب ؛  
والملائكة يقبضون أرواحهم في صورة منكرة ، ويؤذونهم أذى مهيناً - جزاء على البطر  
والاستكبار - ويذكرونهم في أشد اللحظات ضيقاً وحرماً بسوء أعمالهم وسوء ما لهم  
، جزاء وفاقاً لا يظلمهم الله فيه شيئاً . . . ويقرر السياق في إثر عرض هذا المشهد أن أخذ

الكفار بتكذيبهم سنة ماضية: ﴿ كذأب آل فرعون والذين من قبلهم ﴾ ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وأنه كذلك أخذ فرعون وملائه ، وكذلك يأخذ كل من يفعل فعله ويشرك شركه :

(110/315)

---

﴿ ولوترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد . كذأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم ، إن الله قوي شديد العقاب . ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن الله سميع عليم . كذأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون . وكل كانوا ظالمين ﴾ .

والآيتان الأوليان في هذا المقطع :

﴿ ولوترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ . .

قد تعنيان حال المشركين يوم بدر ؛ والملائكة تشترك في المعركة - كما قال لهم الله سبحانه

: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن

يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾

وإن كنا - كما قلنا عند استعراض هذا النص في الجزء التاسع - لا ندري كيف تضرب

الملائكة فوق الأعناق وكل بنان . ولكن جهلنا بالكيفية لا يدعونا إلى تأويل هذا النص عن

مدلوله الظاهر ؛ وهو أن هناك أمراً من الله للملائكة بالضرب ، وأن الملائكة ﴿ لا يعصون

الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ﴾ وتكون هاتان الآيتان هنا تذكيراً بما كان يوم بدر ؛

وتكملة لحكاية فعل الملائكة فيه بالذين كفروا . .

كما أن هاتين الآيتين قد تعنيان حالة دائمة كلما توفت الملائكة الذين كفروا . . في يوم بدر

وفي غيره . . ويكون قوله تعالى : ﴿ ولوترى ﴾ . . موجهاً توجيه الخطاب لكل من يرى ،

كما يكثر مثل هذا الأسلوب في التوجيه إلى المشاهد البارزة التي من شأنها أن توجه إليها

كل من يرى . .

وسواء كان هذا أو ذاك . فالتعبير القرآني يرسم صورة منكرة للذين كفروا ، والملائكة

تستل منهم أرواحهم في مشهد مهين ؛ يضيف المهانة والخزي ، إلى العذاب والموت :

(111/315)



﴿ ولوترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ . .

ثم يتحول السياق من صيغة الخبر إلى صيغة الخطاب :

﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ .

ليرد المشهد حاضراً كأنه اللحظة مشهود ؛ وكأننا جهنم بناورها وحريقها في المشهد وهم

يدفعون إليها دفعا مع التأنيب والتهديد :

﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ . .

وأتم إنما تلاقون جزاء عادلاً ، تستحقونه بما قدمت أيديكم :

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ . .

وهذا النص - بما يعرضه من مشهد ﴿ عذاب الحريق ﴾ - يثير في النفس سؤالاً : ترى

هذا تهديد من الملائكة للذين كفروا بعذاب المستقبل المقرر لهم - كأنه واقع بهم - بعد

البعث والحساب ؟ أم إنهم يلاقون عذاب الحريق بمجرد توفيتهم ؟ . .

وكلاهما جائز ، لا يمنع مانع من فهمه من النص القرآني . . ولا نحب أن نزيد شيئاً على هذا

التقرير . . فهو أمر من أمور الغيب الذي استأثر الله بعلمه ؛ وليس علينا فيه إلا اليقين

بوقوعه . وهو واقع ماله من دافع . أما مواعده فعلم ذلك عند علام الغيوب .

وننتقل من هذه الوقفة الخاطفة ، مع السياق في انتقاله إلى تقرير الحقيقة الكلية وراء هذا

المشهد . . إن أخذ الذين كفروا بالمهانة والعذاب ، سنة ماضية لا تتخلف ولا تتبدل ؛

فهذا هو المصير المحتوم الذي جرت به السنة من قديم :

﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ؛ كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم ، إن الله

قوي شديد العقاب ﴾ . . .

إن الله - سبحانه - لا يكل الناس إلى فلتات عابرة ، ولا إلى جزاف لا ضابط له . . إنما هي

سنته يمضي بها قدره . . وما أصاب المشركين في يوم بدر ، هو ما يصيب المشركين في كل

وقت ؛ وقد أصاب آل فرعون والذين من قبلهم :

﴿ كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ .

ولم يعجزوه - سبحانه - ولم يتخلف عنهم عقابه :

﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ . .

(112/315)

---

ولقد آتاهم الله من نعمته ، ورزقهم من فضله ، ومكن لهم في الأرض ، وجعلهم خلائف فيها . . وهذا كله إنما يعطيه الله للناس ابتلاءً منه وامتحاناً ، لينظر أيشكرون أم يكفرون ؟ ولكنهم كفروا ولم يشكروا ؛ وطغوا وبنوا بما أعطوا ، وغيرتهم النعمة والقوة فصاروا جبابرة

وطواغيت كفرة فجرة . . وجاءتهم آيات الله فكفروا بها . . وعندئذ حقت عليهم سنة  
الله في أخذ الكافرين بعد أن تبلغهم آياته فيكذبوا بها . . وعندئذ غير الله النعمة ،  
وأخذهم بالعذاب ، ودمر عليهم تدميراً :

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وأن الله سميع  
عليم . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم . كذبوا بآيات ربهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ،  
وأغرقنا آل فرعون . وكل كانوا ظالمين ﴾ . .

لقد أهلكهم الله بعد التكذيب بآياته . ولم يهلكهم قبلها سبحانه - مع أنهم كانوا كافرين -  
لأن هذه سنته ورحمته : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ وهو يعبر هنا عن آل  
فرعون والذين من قبلهم من أمثالهم الذين كذبوا بآيات الله فأهلكهم . . بأنهم ﴿ كانوا  
ظالمين ﴾ . . مستخدماً لفظ "الظلم" بمعنى "الكفر" أو "الشرك" وهذا هو الاستعمال  
الغالب في القرآن . .

ولا بد أن نقف قليلاً عند نص هذه الآية :

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ . .



إنه ، من جانب ، يقرر عدل الله في معاملة العباد ؛ فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها . . . ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم ، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ؛ ويجعل التغيير القدرى في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم ، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم . . . ومن الجانب الثالث يلقي تبعة عظيمة - تقابل التكريم العظيم - على هذا الكائن . فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه ويملك أن يزداد عليها ، إذا هو عرف فشكر ؛ كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر ، وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه .

وهذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانباً من جوانب " التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان " ؛ وعلاقة قدر الله به في هذا الوجود ؛ وعلاقته هو بهذا الكون وما يجري فيه . . . ومن هذا الجانب يتبين تقدير هذا الكائن في ميزان الله ؛ وتكريمه بهذا التقدير ؛ كما تتبين فاعلية الإنسان في مصير نفسه وفي مصير الأحداث من حوله ؛ فيبدوا عنصراً إيجابياً في صياغة هذا المصير - بإذن الله وقدره الذي يجري من خلال حركته وعمله ونيته وسلوكه - وتنتفي عنه تلك السلبية الذليلة التي تفرضها عليه المذاهب المادية ، التي تصوره عنصراً سلبياً إزاء الحتميات الجبارة .

حتمية الاقتصاد ، وحتمية التاريخ ، وحتمية التطور . . . إلى آخر الحتميات التي ليس  
للکائن الإنساني إزاءها حول ولا قوة ، ولا يملك إلا الخضوع المطلق لما تفرضه عليه وهو  
ضائع خانع مذلول !

كذلك تصور هذه الحقيقة ذلك التلازم بين العمل والجزاء في حياة هذا الكائن ونشاطه ؛  
وتصور عدل الله المطلق ، في جعل هذا التلازم سنة من سننه يجري بها قدره ، ولا يظلم  
فيها عبد من عباده :

(114/315)

---

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ . . .  
﴿ فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ . . .  
﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ . . . والحمد لله  
رب العالمين . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال ح 3 ص 1515 . 1536 ﴾

(115/315)

---

قوله تعالى ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (55) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم علل اتصافهم بالظلم أو استأنف بياناً له بقوله : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ أي ظلموا لأنهم كفروا بآيات ربهم الذي تفرد بالإحسان إليهم وشر الدواب ﴿ عند الله ﴾ أي في حكم الحكم العدل الذي له الأمر كله وفي علمه ﴿ الذين كفروا ﴾ أي منهم ومن غيرهم ، أي حكم عليهم بلزوم الكفر لما ركب فيهم من فساد الأمزجة لعدم الملاءمة للخير ، فكانوا بذلك قد نزلوا عن رتبة الإنسان إلى رتبة مطلق الحيوان ، ثم إلى دركة الحشرات والديدان بل العجلان ، لأن شر الناس الكفار ، وشر الكفار المصرون منهم ، وشر المصرين الناكثون للعهود ﴿ فهم ﴾ أي بسبب ذلك ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي لا يتجدد منهم إيمان يستمرون عليه لما سبق من علم الله فيهم ، فلم ينتفعوا بما أتاهم من صفة الربوبية فمحققهم صفة الإلهية ، ولعله إنما خص آل فرعون تذكيراً - لأكثر من كان يقول ﴿ غرّهؤلاء دينهم ﴾ وهم - اليهود - بأنهم كانوا بالنسبة إلى فرعون وآله أضعف من الصحابة رضوان الله عليهم بالنسبة إلى قريش وأتباعهم ، فإن اليهود مع قتلهم عندهم كانوا قد دانوا لهم بذل العبيد لمواليهم بل أعظم ، ومع ذلك فإنهم نصرروا عليهم لما كان الله معهم ، وإعلاماً لهم بأنهم الآن كآل فرعون في العناد مع ما هم فيه من القلة والذلة ، فقد جمعوا من كل قوم أحسن صفاتهم وأردأ

حالاتهم ، ولذلك أبدل من عموم ﴿الذين كفروا﴾ ﴿الذين عاهدت منهم﴾ . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر ح 3 ص 232.233﴾

(116/315)

فصل

قال الفخر :

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (55) ﴿  
اعلم أنه تعالى لما وصف كل الكفار بقوله : ﴿وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أفرد بعضهم بمزية في  
الشر والعناد .

فقال : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وعلمه من حصلت له صفتان :  
الصفة الأولى : الكافر الذي يكون مستمراً على كفره مصراً عليه لا يتغير عنه البتة . انتهى  
انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب ح 15 ص 145.146﴾

وقال السمرقندي :

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، يعني شر الناس .  
قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في بني قريظة ، كعب بن الأشرف وأصحابه ، لأنهم

عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نقضوا العهد وأعانوا أهل مكة بالسلاح على

قتال النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قالوا : نسينا وأخطأنا .

فعاهدهم مرة أخرى ، فنقضوا العهد ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ نقض

العهد . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ بجز العلوم ح 2 ص ﴾

(117/315)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ إلى ﴿ يَتَّقُونَ ﴾

المعنى المقصود تفضيل الدواب الذميمة كالخنزير والكلب العقور على الكافرين الذين حتم

عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وهذا الذي يقتضيه اللفظ ، وإما الكافر الذي يؤمن فيما يستأنفه من

عمره فليس بشر الدواب . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

نزلت في بني قريظة منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدهم الرسول أن لا يمالؤا عليه

فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا نسينا وأخطأنا ثم عاهدهم فنكثوا مالؤوا

معهم يوم الخندق وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم قال البغوي من روى أنه كعب بن الأشرف أخطأ ووهم بل يحتمل أنه كعب بن أسد فإنه كان سيّد قريظة ، وقيل : هم بنو قريظة والنضير ، وقيل : نفر من قريش من عبد الدار حكاه التبريزي في تفسيره ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ إخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون فلا يمكن أن يقع منهم إيمان ، قال ابن عباس شرّ الناس الكفار وشرّ الكفار المصرّون منهم وشرّ المصرّين الناكثون للعهود فأخبر تعالى أنهم جامعون لأنواع الشرّ الذين عاهدت بدل من الذين كفروا قاله الحوفي والزمخشري وأجاز أبو البقاء أن يكون خبر المبتدأ محذوف وضمير الموصول محذوف أي عاهدتهم منهم أي من الذين كفروا .

قال ابن عطية : يحتمل أن يكون ﴿ شرّ الدواب ﴾ بثلاثة أوصاف : الكفر والموافاة عليه والمعاهدة مع النقض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(118/315)

---

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾

بعد ما شرح أحوال المهلكين من شرار الكفرة شرع في بيان أحوال الباقين منهم وتفصيل

أحكامهم .

وقوله تعالى : ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي أصرّوا على الكفر ولجّوا فيه ، جعلوا شرّ الدوابّ لا شرّ الناس إيماءً إلى أنهم بمعزل من مجانستهم وإنما هم من جنس الدوابّ ومع ذلك شرّ من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (سورة الفرقان ، الآية 44) وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ حكم مترتب على تماديهم في الفكر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أصل الطبع لا يلويهم صارف ولا يشبههم عاطف أصلا جيء به على وجه الاعتراض لأنه عطف كفروا داخل معه في حيز الصلة التي لا حكم فيه بالفعل . انتهى انتهى . ١ هـ

﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

وقال الألوسي :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

أي في حكمه وقضائه ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي أصرّوا على الكفر ورسخوا فيه ، وهذا شروع في بيان أحوال سائر الكفرة بعد بيان أحوال المهلكين منهم ولم يقل سبحانه شر الناس إيماءً إلى أنهم بمعزل عن مجانستهم بل هم من جنس الدواب وأشر أفرادهم ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ حكم مترتب على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أهل الطبع لا يلويهم صارف ولا يشبههم عاطف جيء به على وجه الاعتراض ، وقيل : عطف

على الصلة مفهم معنى الحال كأنه قيل : إن شر الدواب الذين كفروا مصرين على عدم الإيمان ، وقيل : الفاء فصيحة أي إذا علمت أن أولئك شر الدواب فاعلم أنهم لا يؤمنون أصلاً فلا تتعب نفسك ، وقيل : هي للعطف وفي ذلك تنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف حيث جعل ذلك مترتباً عليه ترتب المسبب على سببه والكل كما ترى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ج 10 ص ﴾

(119/315)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (55)

استئناف ابتدائي انتقل به من الكلام على عموم المشركين إلى ذكر كفار آخرين هم الذين بينهم بقوله : ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم ﴾ الآية .

وهؤلاء عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم وهم على كفرهم ، ثم نقضوا عهدهم ، وهم مستمرّون على الكفر ، وإنما وصفهم بـ ﴿ شر الدواب ﴾ لأن دعوة الإسلام أظهر من دعوة الأديان السابقة ، ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم أسطع ، ولأن الدلالة على أحقية الإسلام دلالة عقلية بيّنة ، فمن يجحده فهو أشبه بما لا عقل له ، وقد اندرج الفريقان



من الكفار في جنس ﴿ شر الدواب ﴾ .

وتقدّم آفا الكلام على نظير قوله : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم ﴾ [ الأنفال :

22 ] الآية .

وتعريف المسند بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر عنهم بأنهم شرّ الدوابّ .

والفاء في ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ عطفت صلة على صلة ، فأفادت أنّ الجملة الثانية من

الصلة ، وأنها تمام الصلة المقصودة للإيماء ، أي : الذين كفروا من قبل الإسلام فاستمر

كفرهم فهم لا يؤمنون بعد سماع دعوة الإسلام .

ولما كان هذا الوصف هو الذي جعلهم شرّ الدوابّ عند الله عطف هنا بالفاء للإشارة إلى

أنّ سبب إجراء ذلك الحكم عليهم هو مجموع الوصفين ، وأتى بصلة ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾

جملة إسمية ؛ لإفادة ثبوت عدم إيمانهم وأنهم غير مرجومين منهم الإيمان .

فإنّ تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي مع عدم إيلاء المسند إليه حرف النفي ،

لقصد إفادة تقوية نفي الإيمان عنهم ، أي الذين ينتفي الإيمان منهم في المستقبل اتقاء قويا فهم

بعداء عنه أشدّ الابتعاد .

(120/315)

وليس التقديم هنا مفيداً للتخصيص؛ لأنّ التخصيص لا أثر له في الصلة، ولأنّ الأكثر في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي، إذا لم يقع المسند إليه عقب حرف النفي، أن لا يفيد تقديمه إلاّ التقوي، دون التخصيص، وذلك هو الأكثر في القرآن كقوله تعالى: ﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [البقرة: 272] إذ لا يراد وأنتم دون غيركم لا تظلمون. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(121/315)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (55)

﴿ الدوَابّ ﴾ جمع دابة، والدابة هي كل ما يدب على وجه الأرض، فإذا كان هذا هو

المعنى يكون الإنسان داخلًا في هذا التعريف، ولكن العرف اللغوي حدد الدابة بذوات

الأربع، أي الحيوانات. وشرف الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأن جعله لا يمشي على

أربع، فلا يدخل في هذا التعريف. وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال: 55].

يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد ألقى الكفار بالدواب واستثنى المؤمنين فقط، فسبحانه

خلق الدواب وباقي أجناس الكون مقهورة تؤدي مهمتها في الحياة بالغريزة وبدون اختيار؛  
والشيء الذي يحدث بالغرائز لا تختلف فيه العقول، ولذلك نجد كثيراً من الأشياء تعلمها  
نحن أصحاب العقول من الحيوانات والحشرات التي لا عقول لها؛ لأن الحيوانات تتصرف  
بالغريزة، والغريزة لا تخطئ أبداً، فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ  
غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: 31].

نجد أن الغراب الذي لا اختيار له، ولا عقل؛ علم الإنسان الذي له عقل واختيار. وقد  
حدث ذلك لأن الغراب محكوم بالغريزة. إذن فكل ما يقوم به الحيوان من سلوك هو باختيار  
الله سبحانه وتعالى؛ لأن الحيوان مقهور على التكليف. ومن رحمة الله تعالى أن  
المخلوقات باستثناء الإنسان خلقت مقهورة؛ تفعل كل شيء بالغريزة وليس بالعقل، ولكن  
الإنسان الذي كرمه الله بالعقل يكفر ويعصي. رغم أن الحق أنعم على الإنسان بنعمة  
الاختيار.

(122/315)

---

ومن العجيب أننا نجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا يخرج سلوكه عن النظام المجهول عليه  
ويؤدي مهمته كما رسمت له تماماً، فالدابة مثلاً تلد ويأخذون وليدها ليزجوه فلا تنفعل؛

لأن هذه مهمتها في الحياة أن تعطي للإنسان اللحم . والحمامة ترقد على بيضها وعندما يخرج الفرج الصغير تتولاه لفترة بسيطة جداً حتى يعرف كيف يطير وكيف يأكل ثم بعد ذلك تتركه ؛ ليؤدي مهمته ؛ لأنه محكوم بالغريزة . والغرائز لا تخطئ . ويتصرف بها الحيوان بدون تعليم له .

فإذا جننا للإنسان نجد أن ألوان السلوك المحكومة بالغريزة فيه لا يتعلمها ؛ إذا جاع طلب الطعام دون أن يعلمه أحد كيف يشعر بالجوع ، فهذه غريزة . وإذا عطش طلب الماء دون يعلمه أحد معنى العطش ولا كيف يشرب . وكل واحد منا في الغرائز متساوم مع الآخر . ونجد الغني والفقير والحاكم والغفير إذا شعروا بالجوع طلبوا الطعام ، وإذا شعروا بالعطش طلبوا الماء . فكل شيء محكوم بالغرائز لا يوجد فيه تغيير .

ومن العجيب - مثلاً - أن الحمار حين يريد أن يعبر مجرى مائياً ينظر إليه ، وبمجرد النظرة يستطيع أن يعرف هل سيعبره أولاً ، فإن كان قادراً قفز قفزة واحدة ليعبر ، وإن لم يقدر بحث عن طريق آخر .

ولا تستطيع أن تجبر حماراً على أن يعبر مجرى مائياً لا يقدر على عبوره ، ومهما ضربته فلن يستجيب لك ولن يعبر . أما الإنسان إن طلبت منه أن يعبر قناة مائية فقد يقول لنفسه : سأجمع كل قوتي وأقفز قفزة هائلة ، وإن لم يكن قياسه صحيحاً ، يسقط في الماء ، ذلك لأنه

أخطأ وصورت له أداة الاختيار أنه يستطيع أن يفعل ما لا يقدر عليه . إذن فالمحكوم  
بالغريزة هو الأوعى .

(123/315)

---

وعندما نأتي إلى الأكل ، نجد الحيوان المحكوم بالغريزة أكثر وعياً ؛ لأنه يأكل فإذا شبع لا  
يذوق شيئاً . ولو جئت له بأشهى الأطعمة . فأنت لا تستطيع أن تجعل الحيوان يأكل عود  
برسيم واحداً ، أو حفنة تبن ، أو حبة فول بعد أن يشبع ، وتجده يدوس على زاد عن  
حاجته بقدميه . وتعال إلى إنسان ملاً بطنه وشبع وغسل يديه ، ثم قالوا له مثلاً : أنت  
نسيت الفاكهة ، أو نسيت الحلوى ، تجده يعود مرة أخرى ليأكل وهو شبعان ؛ فيتلف  
معدته ويتلف جسده . ولذلك تجد الإنسان مصاباً بأمراض كثيرة لا تصيب الحيوان ؛ لأنه  
يسرف في أشياء كثيرة ، بل تجد أن الأمراض التي تصيب الحيوان معظمها من تلوث بيئة  
الحيوان مما يفعله الإنسان .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الدابة المحكومة بالغريزة خير من الكافر ؛ لأن الدابة  
تؤدي مهمتها في الحياة تماماً . بينما لا يؤدي الكافر مهمته في الأرض ، بل يفسد فيها ويسفك  
الدماء ، وبذلك يكون شراً من الدابة . ولقد قلنا : إن الدابة تحملك من مكان إلى مكان

ولا تشكو، وتحمل أثقالك ولا تتبرم . وتظل سائرة فترة طويلة وأنت جالس فوقها فلا تضيق بك وتلقيك على الأرض ، لقد خُلقت لهذه المهمة وهي تؤديها كما خلقت لها دون شكوى أو ضجر ؛ لأنها محكومة بنظام دقيق تتبعه وتنفذه . ولكن الإنسان اخترع السيارة وطور فيها ، وقد يجلس أمام مقعد القيادة ويصيبه التعب فينعس ويقع في حادثة فيصاب فيها ويصيب غيره أيضاً .

(124/315)

---

وكان من المفروض أن يتبع الإنسان في حياته منهج ربه الذي أنزله إليه ، لكن من البشر من كفر وأخذ يعرّب في الكون ، وبذلك يكون شراً من الدابة ؛ لأن الكافر لا يستخدم عقله في أولويات الوجود ، وهو لو استخدم عقله لعرف أنه أقبل على كون قد أعد إعداداً دقيقاً ؛ شمس تضيء نصف الكون لتعطيه النهار ، وتغرب ليطل قمر يضيء بالليل يؤنسه في الظلام ؛ ونجوم تهديه الطريق في البر والبحر ، ومطر ينزل لينبت الزرع . وحيوان مسخر له يعطيه اللبن واللحم ويحمل أثقاله . كان لا بد - إذن - للإنسان صاحب العقل أن يفكر : من الذي خلق له كل هذه النعم ؟ لأن هذه هي من أولى مهمات العقل الذي يفكر ، ويدلنا على الخالق . وكان لا بد في هذه الحالة أن يعرف الإنسان بعقله أن الذي صنع له كل هذه النعم

وسخرها له لا بد أنه يريد به خيراً . ولذلك إذا جاءه المنهج من السماء عليه أن يتبعه ؛ لأنه يعلم أن هذا المنهج خير ما يصلح له ؛ لأنه جاء من خالقه .  
وفي هذه الحالة كان لا بد لأمر الكون أن تستقيم . ولكن بعضاً من بني الإنسان ستروا وجود الله وكفروا به ولذلك يوضح لنا الحق تبارك وتعالى أنهم شرّ من الدواب ، لأنهم لا يؤمنون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(125/315)

من لطائف الإمام القشيري في الآية  
قال عليه الرحمة :

﴿ إِنِ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (55) ﴿  
﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ : في سابق علمه وصادق حكمه ؛ فإذا كانوا في علمه شرّ الخلائق فكيف يسعدون باختلاف السعایات وصنوف الطوارق ؟  
هیهات أن تبدل الحقائق ! .

وإذا قال : ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ - وكلامه صدق وقوله حق - فلم يبق للرجاء فيهم مساغ ، ولا ينجع فيهم نصح وإبلاغ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات - 1 ص 633 ﴾

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتَضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ (56)

"فصل"

قال البقاعي :

﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ﴾ وهم اليهود بلا شك ، إما بنوقينقاع أو النضير أو قريظة أو الجميع بحسب التوزيع ، فكل منهم نقض ما كان أخذ عليه . صلى الله عليه وسلم . من العهود ، وأخلف ما كان أكده من الوعود .

ولما كان العهد جديراً بالوفاء ولا سيما من العلماء ، عبر بقوله : ﴿ ثُمَّ يَنْتَضُونَ عَهْدَهُمْ ﴾ أي يجددون نقضه كلما لاح لهم خلب برق أو زور بطل يغير في وجه الحق ؛ ثم عظم الشناعة عليهم بقوله : ﴿ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ﴾ ثم نبه على رضاهم من رتبة الشرف العلية القدر وهدة السفه والسرف بعدم الخوف من عاقبة الغدر بقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أي الناس في الذم لهم على ذلك ولا الله في الدنيا بأن يمكن منهم ، ولا في الآخرة بأن يخزيهم ثم يركسهم بعد المنادة بالعار في النار . انتهى انتهى . ١ هـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 233 ﴾



## فصل

قال الفخر:

الصفة الثانية: أن يكون ناقضاً للعهد على الدوام فقوله: ﴿الذين عاهدت منهم﴾ بدل من قوله: ﴿الذين كفروا﴾ أي الذين عاهدت من الذين كفروا وهم شر الدواب وقوله: ﴿منهم﴾ لتبعض فإن المعاهدة إنما تكون مع أشرفهم وقوله: ﴿ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ قال أهل المعاني إنما عطف المستقبل على الماضي، لبيان أن من شأنهم نقض العهد مرة بعد مرة.

قال ابن عباس: هم قريظة فإنهم نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعانوا عليه المشركين بالسلاح في يوم بدر، ثم قالوا: أخطأنا فعاهدهم مرة أخرى فنقضوه أيضاً يوم الخندق، وقوله: ﴿وهم لا يتقون﴾ معناه أن عادة من رجع إلى عقل وحزم أن يتقي نقض العهد حتى يسكن الناس إلى قوله ويثقوا بكلامه، فبين تعالى أن من جمع بين الكفر الدائم وبين نقض العهد على هذا الوجه كان شر الدواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب ح

﴿ 15 ص 146 ﴾

(128/315)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ الذين عاهدت منهم ﴾

يحتمل أن يريد أن الموصوف ب ﴿ شر الدواب ﴾ هم الذين لا يؤمنون المعاهدون من الكفار فكانوا شر الدواب على هذا بثلاثة أوصاف : الكفر والموافاة عليه والمعاهدة مع النقض ، و ﴿ الذين ﴾ على هذا بدل البعض من الكل ، ويحتمل أن يريد بقوله ﴿ الذين عاهدت ﴾ ﴿ الذين ﴾ الأولى ، فتكون بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة ، والمعنى على هذا الذين عاهدت فرقة أو طائفة منهم ، ثم ابتداء يصف حال المعاهدين بقوله : ﴿ ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ﴾ والمعاهدة في هذه الآية المسالمة وترك الحرب ، وأجمع المتأولون أن الآية نزلت في بني قريظة وهي بعد تعم كل من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة ، ومن قال إن المراد ب ﴿ الدواب ﴾ الناس فقول لا يستوفي المذمة ، ولا مرية في أن الدواب تعم الناس وسائر الحيوان ، وفي تعميم اللفظة في هذه الآية استيفاء المذمة ، وقوله ﴿ في كل مرة ﴾ يقتضي أن الغدر قد كان وقع منهم وتكرر ذلك ، وحديث قريظة هو أنهم عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ألا يجاربه ولا يعينوا عليه عدواً من غيرهم ، فلما اجتمعت الأحزاب على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة غلب على ظن بني قريظة أن النبي صلى الله عليه وسلم ، مغلوب ومستأصل ، وخذع حبي بن أخطب

النضري كعب بن أسد القرظي صاحب بني قريظة وعهدهم ، فغدروا ووالوا قريشاً  
وأمدوهم بالسلاح والأدراع ، فلما انجلت تلك الحال عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أمره  
الله بالخروج إليهم وحربهم فاستنزلوا ، وضربت أعناقهم بحكم سعد بن معاذ ، واستيعاب  
القصة في سيرة ابن هشام ، وإنما اقتضبت منها ما يخص تفسير الآية . انتهى انتهى . ١ هـ

﴿ المحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(129/315)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ﴾

في " من " أربعة أقوال .

أحدها : أنها صلة ، والمعنى : الذين عاهدتم .

الثاني : أنها للتبويض ، فالمعنى : إن شر الدواب الكفار ، وشرُّهم الذين عاهدت

ونقضوا .

والثالث : أنها بمعنى " مع " والمعنى : عاهدت معهم .

والرابع : أنها دخلت ، لأن العهد أخذ منهم .

قوله تعالى: ﴿ ثم ينتقضون عهدهم في كل مرة ﴾ أي: كلما عاهدتهم نقضوا .

وفي قوله: ﴿ وهم لا يتقون ﴾ قولان .

أحدهما: لا يتقون نقض العهد .

والثاني: لا يتقون الله في نقض العهد .

قال المفسرون: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد يهود قريظة أن لا يجاربه

ولا يعاونوا عليه، فنقضوا العهد وأعانوا عليه مشركي مكة بالسلاح، ثم قالوا: نسينا

وأخطأنا؛ ثم عاهدوه الثانية، فنقضوا وماتوا الكفار يوم الخندق، وكتب كعب ابن

الأشرف إلى مكة يوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال القرطبي:

﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينتقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴾

أي لا يخافون الانتقام .

"ومن" في قوله "منهم" للتبعيض؛ لأن العهد إنما كان يجري مع أشرفهم ثم ينتقضونه .

والمعنى بهم قريظة والنضير؛ في قول مجاهد وغيره .

نقضوا العهد فأعانوا مشركي مكة بالسلاح، ثم اعتذروا فقالوا: نسينا؛ فعاهدهم عليه

السلام ثانية فنقضوا يوم الخندق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 8 ص ﴾

وقال الخازن :

﴿ الذين عاهدت منهم ﴾

قيل : من صلة يعني الذين عاهدتهم وقيل : هي للتبويض لأن المعاهدة مع بعض القوم وهم الرؤساء والأشراف ﴿ ثم يتقضون عهدهم في كل مرة ﴾ قال المفسرون : إن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) كان عاهد يهود بني قريظة أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه فنقضوا العهد وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وأصحابه ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضاً ومالئوا الكفار على رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ﴿ وهم لا يتقون ﴾ يعني أنهم لا يخافون الله في نقض العهد لأن عادة من يرجع إلى دين وعقل وحزم أن يتقي نقض العهد حتى يسكن الناس إلى قوله ويتقون بكلامه فيبين الله أن من جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ﴾

بدل من الموصول الأول أو عطف بيان له أو نصب على الذم أي عاهدتهم ، ومن للإيدان بأن المعاهدة التي هي عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين معتبرة هاهنا من حيث

أخذه عليه الصلاة والسلام عهدهم إذ هو المناط لقباحة ما نعي عليهم من النقض لا

إعطاؤه عليه الصلاة والسلام إياهم عهداً كأنه قيل : الذين أخذت منهم عهدهم ، وقيل :

هي للتبعيض لأن المباشرة بالذات للعهد بعضهم لا كلهم ﴿ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ ﴾ عطف

على عاهدت داخل معه في حكم الصلة ، وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض

وتعدده وكونهم على نيته في كل حال ، أي ينقضون عهدهم الذي أخذته منهم ﴿ فِي كُلِّ

مَرَّةٍ ﴾ أي من مرات المعاهدة إذ هي التي يتوقع فيها عدم النقض ويستتبع وجوده لا من

مرات المحاربة كما قيل إذ لا يتوقع فيها عدم النقض بل لا يتصور أصلاً حتى يستتبع فيها

وجوده لكونها مظنة لعدمه ، فلا فائدة في تقييد النقض بالوقوع في كل مرة من مراتها بل لا

صحة له قطعاً لأن النقض لا يتحقق إلا في المرة الواردة على المعاهدة لا في المرات الواقعة

بعدها بلا معاهدة ، ولئن سلم أن المراد هي المرات الواقعة إثر المعاهدة يبقى النقض الواقع

بلا محاربة كبيع السلاح ونحوه خارجاً من البيان ، ولئن عد ذلك من المحاربة فلا محيص من

لزوم خلو الكلام عن الفائدة بالمرّة لأن المحاربة بهذا المعنى عين النقض فيؤول الأمر إلى أن يقال: ينقضون عهدهم في كل مرة من مرات النقض، وحمل المحاربة على محاربة غيرهم ليكون المعنى ينقضون عهدهم في كل مرة من مرات محاربة الأعداء مع كونه في غاية البعد والركاكة يستلزم خروج بدئهم بالنقض من البيان ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ حال من فاعل ينقضون أي يستمرون على النقض والحال أنهم لا يتقون سبب الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(132/315)

وقال الأوسى :

﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ﴾

بدل من الموصول الأول أو عطف بيان أو نعت أو خبر مبتدأ محذوف أو نصب على الذم، وعائد الموصول قيل: ضمير الجمع المجرور، والمراد عاهدتهم و﴿ مِنْ ﴾ للإيذان بأن المعاهدة التي هي عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين معتبرة ههنا من حيث أخذه صلى الله عليه وسلم إذ هو المناط لما نعى عليهم من النقض لا اعطاؤه عليه الصلاة والسلام إياهم عهده كأنه قيل: الذين أخذت منهم عهدهم، وإلى هذا يرجع قولهم: إن ﴿

مِنْ ﴿ لتضمنين العهد معنى الأخذ أي عاهدت آخذاً منهم .

وقال أبو حيان : انها تبعيضية لأن المباشر بعضهم لأكلهم ، وذكر أبو البقاء أن الجار  
والجرور في موضع الحال من العائد المحذوف ، أي الذين عاهدتهم كائين منهم ، وقيل : هي  
زائدة وليس بذاك ، وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ ﴾ عطف على الصلة ،  
وصيغة الاستقبال للدلالة على تعدد النقض وتجده وكونهم على نيته في كل حال ، أي  
ينقضون عهدهم الذي أخذ منهم ﴿ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ﴾ أي من مرات المعاهدة كما هو الظاهر  
واختاره غير واحد ، وجوز أن يراد في كل مرة من مرات الحاربة وفيه بحث ﴿ وَهُمْ لَا  
يَتَّقُونَ ﴾ في موضع الحال من فاعل ينقضون ، أي يستمرون على النقض والحال أنهم لا يتقون  
سبة الغدر ومغبته ، أو لا يتقون الله تعالى فيه ، وقيل : لا يتقون نصرمة المسلمين وتسلطهم  
عليهم ، والآية على ما قال جمع نزلت في يهود قريظة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه  
وسلم أن لا يمالئوا عليه فاعانوا المشركين بالسلاح فقالوا نسينا ثم عاهدهم عليه الصلاة  
والسلام فنكثوا وماؤهم عليه عليه الصلاة والسلام يوم الخندق وركب كعب إلى مكة  
فحالفهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن  
جبير أنها نزلت في ستة رهط من يهود منهم ابن تابوت ، ولعله أراد بهم الرؤساء المباشرين  
للعهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني ح 10 ص ﴾



وقال القاسمي :

﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أي : لا يخافون

عاقبة الغدر ، ولا يبالون بما فيه من العار والنار .

تنبيهات :

الأول : قال المهامي : أشار تعالى إلى أنه كيف يترك نعمه على من غير أحواله التي كانت أسباب النعم ، وقد كان بها إنسانيته ، فبتغييرها لحق بالدواب ، وبإنكار المنعم صار شراً منها ، والنعم تسلب ممن لا يعرف قدرها ، فكيف لا تسلب ممن ينكر المنعم ؟ .

الثاني : دلت الآية على جواز تحقير العصاة ، والإستخفاف بهم ، حيث سماهم تعالى دواب ، وأخبر أنهم شر الدواب .

الثالث : قالوا : نزلت الآية في يهود بني قريظة ، رهط كعب بن الأشرف ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان عاهدهم ألا يجاربوه ، ولا يعاونوا عليه ، فنقضوا العهد ، وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم قالوا : نسينا وأخطأنا ، فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضاً . ومالئوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة ، فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الرابع: الذين بدل من الموصول الأول، أو عطف بيان له، أو نصب له على الذم. وضمن عاهدت معنى الأخذ، حتى عدِّي بمن، أي: أخذت منهم عهدهم.  
وقيل: من صلة، وقال أبو حيان: هي للتبعيض، لأن المباشرة بالذات للمعاهدة بعض القوم، وهي الرؤساء والأشراف.

الخامس: قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾، حال من فاعل ينتقضون، أي: يستمرون على النقض، والحال أنهم لا يتقون العار فيه، لأن عادة من يرجع إلى دين وعقل وحزم أن يتقي نقض العهد، حتى يسكن الناس إلى قوله، ويتقون بكلامه، فبين الله عز وجل أن من جمع بين الكفر ونقض العهد، فهو شر من الدواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿محاسن التأويل ح 8 ص 321.322﴾

(134/315)

وقال ابن عاشور:

قوله: ﴿الذين عاهدت منهم﴾ بدل من ﴿الذين كفروا﴾ بدلاً مطابقاً، فالذين عاهدتهم هم الذين كفروا، فهم لا يؤمنون.  
وتعدية ﴿عاهدت﴾ بـ ﴿من﴾ للدلالة على أن العهد كان يتضمن التزاماً من جانبهم

، لأنه يقال أخذت منه عهداً ، أي التزاماً ، فلما ذكر فعل المفاعلة ، الدال على حصول الفعل ، من الجانبين ، ثبته على أن المقصود من المعاهدة التزامهم بأن لا يعينوا عليه عدواً ، وليست من تبعيضية لعدم متانة المعنى إذ يصير الظم متوجّهاً إلى بعض الذين كفروا ، فهم لا يؤمنون ، وهم الذين ينتفضون عهدهم .

وعن ابن عباس ، وقادة : أن المراد بهم قريظة فإنهم عاهدوا النبي أن لا يجاربه ولا يعينوا عليه عدوه ، ثم نقضوا عهدهم فأمدوا المشركين بالسلاح والعدّة يوم بدر ، واعتذروا فقالوا : نسينا وأخطأنا ، ثم عاهدوه أن لا يعودوا لمثل ذلك فنكثوا عهدهم يوم الخندق ، ومالوا مع الأحزاب ، وأمدّوهم بالسلاح والأدراع .

والأظهر عندي أن يكون المراد بهم قريظة وغيرهم من بعض قبائل المشركين ، وأخصها المنافقون فقد كانوا يعاهدون النبي ثم ينتفضون عهدهم كما قال تعالى : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ﴾ [ التوبة : 12 ] الآية .

وقد نقض عبد الله بن أبي ومن معه عهد النصره في أحد ، فانخزل بمن معه وكانوا ثلث الجيش .

وقد ذكر ، في أول سورة براءة عهد فرق من المشركين .

وهذا هو الأنسب بإجراء صلة الذين كفروا عليهم لأن الكفر غلب في اصطلاح القرآن إطلاقه على المشركين .

والتعبير، في جانب نقضهم العهد، بصيغة المضارع للدلالة على أن ذلك يتجدد منهم ويتكرر، بعد نزول هذه الآية، وأنهم لا ينتهون عنه، فهو تعريض بالتأيس من وفائهم بعهدهم، ولذلك فرّع عليه قوله: ﴿فإما نثقفنهم في الحرب﴾ الخ.  
فالتقدير: ثم نقضوا عهدهم وينقضونه في كل مرة.

(135/315)

---

والمراد بـ ﴿كل مرة﴾ كل مرة من المرات التي يحقّ فيها الوفاء بما عاهدوه عليه سواء تكرر العهد أم لم يتكرر، لأنّ العهد الأول يقتضي الوفاء كلما دعا داع إليه.  
والأظهر أنّ هذه الآية نزلت عقب وقعة بدر، وقبل وقعة الخندق، فالتنقض الحاصل منهم حصل مرّة واحدة، وأخبر عنه بأنه يتكرر مرات، وإن كانت نزلت بعد الخندق، بأن امتدّ زمان نزول هذه السورة، فالتنقض منهم قد حصل مرّتين، والإخبار عنه بأنه يتكرر مرّات هو هو، فلا جدوى في ادّعاء أنّ الآية نزلت بعد وقعة الخندق.  
وجملة: ﴿وهم لا يتقون﴾ إمّا عطف على الصلة، أو على الخبر، أو في محلّ الحال من ضمير ﴿ينقضون﴾.

وعلى جميع الاحتمالات فهي دالة على أنّ انتفاء التقوى عنهم صفة متمكّنة منهم، وملكة

فيهم ، بما دلّ عليه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي من تقوي الحكم وتحقيقه ،

كما تقدّم في قوله : ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ .

ووقع فعل ﴿ يتقون ﴾ في حيز النفي يُعمّ سائر جنس الاتقاء وهو الجنس المتعارف منه ،

الذي يهتمّ به أهل المروءات والمتديّنون ، فيعمّ اتقاء الله وخشية عقابه في الدنيا والآخرة ،

ويعمّ اتقاء العار ، واتقاء المسبّة واتقاء سوء السمعة .

فإنّ الخسيس بالعهد ، والغدر ، من القبائح عند جميع أهل الأحلام ، وعند العرب أنفسهم

، ولأنّ من عرف بنقض العهد عدم من يركن إلى عهده وحلفه ، فيبقى في عزلة من الناس

فهؤلاء الذين نقضوا عهدهم قد غلبهم البغض في الدين ، فلم يعبأوا بما يجره نقض العهد ، من

الأضرار لهم .

وإذ قد تحقّق منهم نقض العهد فيما مضى ، وهو متوقّع منهم فيما يأتي ، لا جرم تفرّع عليه

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجعلهم نكالا لغيرهم ، متى ظفروا بهم في حرب

يشهرونها عليه أو يعينون عليه عدوّه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(136/315)

---

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتَضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ (56)

وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الكافرين الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينتقل هنا للكلام عن الجماعة التي عاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يكفوا عنه شرهم ، وألا يتعرض لهم الرسول ، وهم اليهود ، فهل ظلوا على وفائهم بالعهد ؟ لا . بل نقضوا العهد .

بنو قريظة - مثلاً - عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يعينوا عليه أحداً ، ولما جاءت موقعة بدر ومدوا الكفار بالسلاح ونقضوا العهد ، ثم عادوا وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً ثانياً ، وعندما جاءت غزوة الخندق اتفقوا على أن يدخل جنود قريش من المنطقة التي يسيطرون عليها ليضربوا جيش المسلمين من الخلف في ظهره ، فأرسل الله ريحاً بددت شمل الكفار ، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتَضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ﴾ [ الأنفال : 56 ] .

وهم قد فعلوا ذلك ؛ لأنهم تركوا منهج الله وخافوا من رسول الله فحاولوا أن يخذعوه بنقض المعاهدات . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾

(137/315)

---

إنهم لا يتقون الله - عز وجل - الذي يؤمنون به إلهاً؛ لأنهم أهل كتاب؛ جاءتهم التوراة،  
وجاءهم رسول وهو موسى عليه السلام، وهم ليسوا جماعة لم يأتها كتاب بل نزل عليهم  
كتاب سماوي هو التوراة، ومع ذلك لا يتبعون ما في كتابهم ولا يتقون الله تعالى، فهم أولاً  
ينقضون العهد، والنقض ضد الإبرام، والإبرام هو أن تقوي الشيء تماماً كما تبرم الخيط أي  
تقويه، وعندما تقوي الخيط فأنت تجعله ملفوفاً على بعضه ليصبح متيناً. فالخيط الذي  
طوله شبران عندما تبرمه يصبح طوله شبراً واحداً ويصبح قويا، فإذا فككته أي نقضته  
أصبح ضعيفاً، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ  
بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: 92]. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الشعراوي صـ﴾

(138/315)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله "الذين عاهدت" يجوز فيه وجهان:

أحدها: الرفع على البدل من الموصول قبله، أو على التعت له، أو على عطف البيان، أو

النصبُ على الذمِّ، أو الرفع على الابتداء، والخبرُ قوله "فإِذَا تَثَقَّفْتَهُمْ" بمعنى: من تعاهد منهم، أي: من الكفار ثم ينقضون عهدهم، فإن ظفرت بهم فاصنع كيت وكيت، فدخلت الفاءُ في الخبر لشبهه المبتدأ بالشرط، وهذا ظاهر كلام ابن عطية رحمه الله تعالى.

و"مِنْهُمْ" يجوز أن يكون حالاً من عائد الموصول المحذوف، إذ التقدير: الذين عاهدتهم، أي: كائنين منهم، ف"مِنْ" للتبويض.

وقيل: هي بمعنى: "مع".

وقيل: الكلام محمول على معناه، أي: أخذت منهم العهد.

وقيل: زائدةٌ أي: عاهدتهم.

والأقوالُ الثلاثةُ ضعيفةٌ، والأولُ أصحُّ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص

﴿ 546

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56) ﴾

أي الذين صار نقضُ العهد لهم سجيةً؛ فلم يذروا من استفراغ الوسع في جهلهم بقية.

وإن من الكبائر التي لا يغفران لها من هذه الطريق أن ينقض العبدُ عهداً، أو يترك عهداً



التممه بقلبه مع الله . أولئك الذين سقطوا عن ( . . . ) الله ، فرغ عنهم ظل العناية

والعصمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات - 1 ص 634 ﴾

(139/315)

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا تَتَفَنَّهٖمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (57) ﴿

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أياسه من تقواهم بما اشموا عليه من تكرير النقص الناشئ عن غاية الحسد وصلابة الرقاب وقساوة القلوب والقساوة على الكفر ، أمره بما يوهن قواهم ويحل عراهم من إلباس اليأس بإنزال البأس كما جرت عادته سبحانه أنه يوصيه بالرفق ببعض الناس لعلهم أن عمله يزكو لبنيانه على أحسن أساس ، فقال مؤكداً للأجل ما جبل عليه . صلى الله عليه وسلم .

من محبة الرفق : ﴿ فَأَمَّا تَتَفَنَّهٖمْ ﴾ أي تصادفهم وتظفرن بهم ﴿ في الحرب ﴾ أي التي من شأنها أن يجرب فيها المبطل ، ويربح الحق الجمل ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾ أي فنكل بهم

تنكياً لصدع ويفرق عن محاربتك من وراءهم ممن هو على مثل رأيهم في المنافرة لك ولا

تتركهم أصلاً لأن أتباعك أمهر منهم وأحذق ، فهم لذلك أثبت وأمكن ، فإذا أوقعت بهم

ذلك لم يجسر عليك أحد بعده اتعاضاً بهم واعتباراً مجالهم؛ ومادة شرد بكل ترتيب تدور على النفوذ، فإن كان على قصد وسنن فهو رشد ويلزمه الاجتماع، وإن كان على غير سنن وجامع استقامة فهو شرود، ودرشة، أي لجانة ويلزمه التفرق؛ قال ابن فارس: شرد البعير شروداً وشردت به تشريداً، فأما قوله لجانة ويلزمه التفرق؛ قال ابن فارس: شرد البعير شروداً وشردت به تشريداً، فأما قوله ﴿فشرد بهم﴾ فالمراد نكل بهم وسمع، قال القزاز: شردت الرجل تشريداً - إذا طردته، وشردت به - إذا سمعت به وذكرت عيوبه للناس، وقوله تعالى ﴿فشرد بهم﴾ أي اجعلهم مطردين - انتهى.

(140/315)

---

فالمراد المبالغة في الإيقاع بهم لأنهم إذا ضربوا ضربة تفرقوا فيها على غير وجه ولا انتظام علم من شرودوا إليه ممن وراءهم أنه قد تنهى بهم الذعر فدعر هو فوقع في الشرود قوة أو فعلاً، فعلى قراءة من جعل "من" حرف جريكون المفعول محذوفاً، والتقدير: أوقع - بما تفعل بهؤلاء من الأمور الهائلة - التشريد في المكان الذي خلفهم بشرود من فيه قوة أو فعلاً بما سمعوا أو رأوا من حال هؤلاء حين واجهوك للقتال، وعلى قراءة من جعلها اسماً موصولاً تكون هي المفعول، فالمعنى: شرد الذين خلفهم من أماكنهم إما بالفعل أو بالقوة بأن تفرق

قلوبهم بما تفعل بهؤلاء فتصير - بما ترى من قبيح حالهم - قابلة للشروء ، ويكون اختلاف المعنى بالتبويض في جعل " من " حرف جر والتعميم في جعلها موصولاً بالنظر إلى القوة أو الفعل .

ولما ذكر الحكم ، ذكر ثمرته بأداة الترجي إدارة له على الرجاء فقال : ﴿ لعلمهم ﴾ أي المشردين والمشردين بهم ﴿ يذكرون ﴾ ما سبق من أيام الله فيعلموا أن هذه أفعاله ، وهؤلاء رجاله ، فينفعهم ذلك فلا ينتقصوا عهداً بعده ولقد فعل بهم - صلى الله عليه وسلم - ذلك فإنهم إن كانوا بني قريظة فقد ضربهم - صلى الله عليه وسلم - ضربة لم يفلت منهم مخبر ، بل ضرب أعناقهم في حفائر في سوق المدينة وكانوا نحو سبعمائة على دم واحد .

(141/315)

---

إلا من أسلم منهم وهم يسير ، وسبى ذراريهم ونساءهم وغنم أموالهم ، وإن كانوا قينقاع فقد نزل بساحتهم بعد نقضهم وإظهارهم غاية الاستخفاف والعناد فلم يكتبهم الله أن جعلهم في قبضته وما بقي إلا ضرب أعناقهم كما وقع لبني قريظة فسأله فيهم عبد الله بن أبي المنافق وألح عليه - صلى الله عليه وسلم - في أمرهم وكان يألفه ويتألف به فتركهم له - صلى الله عليه وسلم - وأجلاهم من المدينة ، وكانت واقعتهم أول وقائع اليهود بالمدينة ،

وإن كانوا بني النضير فقد تقضوا أيضاً فأحاط بهم ، ومناهم المنافقون الغرور فقد ذف الله  
الرعب في قلوبهم فسألوه . صلى الله عليه وسلم . أن يجليهم ويكف عن دمائهم ففعل ، ثم أتم  
الله له الأمر فيهم في خيبر ووادي القرى وغيرهما إلى أن لم يدع منهم في جزيرة العرب فريقاً إلا  
ضربه بالذل وأجرى عليه الهوان والصغار ، ووقائعه فيهم مشهورة الخبر معروفة في السير .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3 ص 233 . 234 ﴾

(142/315)

## فصل

قال الفخر :

﴿ فَأَمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ (57) ﴿

اعلم أنه تعالى تارة يرشد رسوله إلى الرفق واللفظ في آيات كثيرة .

منها قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ الأنبياء : 107 ] ومنها قوله :

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [ آل عمران : 159 ] وتارة يرشد

إلى التعليل والتشديد كما في هذه الآية ، وذلك لأنه تعالى لما ذكر الذين ينقضون عهدهم في

كل مرة ، بين ما يجب أن يعاملوا به فقال : ﴿ فَأَمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ قال الليث : ثقفنا

فلاناً في موضع كذا ، أي أخذناه وظفرنا به ، والتشريد عبارة عن التفريق مع الاضطراب .  
يقال : شرده يشرد شروداً ، وشرده تشريداً ، فمعنى الآية أنك إن ظفرت في الحرب بهؤلاء  
الكفار الذين ينقضون العهد فافعل بهم فعلاً يفرق بهم من خلفهم .

قال عطاء : نشخ فيهم القتل حتى يخافك غيرهم ، وقيل : نكل بهم تنكياً يشرد غيرهم  
من ناقضي العهد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي لعل من خلفهم يذكرون ذلك النكال فيمنعهم ذلك  
عن نقض العهد ، وقرأ ابن مسعود فشرذ بالذال المنقطة من فوق بمعنى ففرق وكأنه مقلوب  
شذر ، وقرأ أبو حيوة من خلفهم ، والمعنى : فشرده تشريداً متلبساً بهم من خلفهم لأن أحد  
العسكريين إذا كسروا الثاني ، فالكاسرون يعدون خلف المكسرين فأمر رسول الله صلى  
الله عليه وسلم أن يشردهم في ذلك الوقت . انتهى انتهى . ١٥ هـ ﴿ مفاتيح الغيب ح 15

ص 146 ﴿

(143/315)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمُ فِي الْحَرْبِ ﴾

يقول : إن تظفر بهم في الحرب ، يعني في القتال ، ويقال : إن أدركتهم في القتال ، ﴿ فَشَرَّدَ بِهِمِ

﴿ يقول نكل بهم في العقوبة ﴾ ﴿ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ ، يعني ليتعظ بهم من بعدهم الذين بينك وبينهم عهد ، ويقال : اعمل بهم فعلاً من العقوبة والتنكيل يفرق به من وراءهم من أعدائك .  
وقال أبو عبيدة : فشرد بهم إنها لغة لقريش ، سمع بهم ، أي خوف .  
والتشريد في كلامهم ، التشريد والتفريق .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ ، يعني النكال فلا ينتفضون العهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح

﴿ 2 ص

وقال الثعلبي :

﴿ فَأَمَّا تَتَفَنَّهٖمْ ﴾ ﴿ تَرِيْنَهُمْ وَتَجِدْنَهُمْ ﴾ ﴿ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : فنكل بهم من ورائهم ، وقال قتادة : عظ بهم من سواهم من الناس ، وقال سعيد بن جبير : أنذر بهم من خلفهم ، وقال ابن زيد : أخفهم بهم .

وقيل : فرق جمع كل ناقض مما بلغ من هؤلاء ، وقال عطاء : أثنخ فيهم القتل حتى يخافك غيرهم من أهل مكة وأهل اليمن ، وقال ابن كيسان : اقاتلهم فلا من يهرب عنك من بعدهم .

وقال القتيبي : سمع بهم ، وأنشد :

أطوف في الأباطح كل يوم . . . مخافة أن يشرد بي حكيم

وأصل التشريد : التطريد والتفريق والتبديد ، وقرأ ابن مسعود ( وشرذ ) بالذال معجم

وهو واحد .

قال قطرب التشرىذ بالذال التنكىل ، وبالذال للتفرىق من خلفهم أى من ورائهم ، وقيل من يأتى خلفهم ، وقرأ الأعمش من ( خلفهم ) بكسر الميم والفاء تقديره : فشرّد بهم من خلفهم من عمل قبل عملهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يعتبرون العهد فلا ينتقضون العهد . انتهى انتهى .  
اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 ص ﴾

(144/315)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَإِمَّا تَنْتَفِنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : تصادفهم .

والثاني : تظفر بهم .

﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنذر بهم من خلفهم ، قال الشاعر من هذيل :

أطوف في الأباطح كل يوم . . . مخافة أن يشرّد بي حكيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت  
والعيون ح 2 ص ﴾

(145/315)

وقال ابن عطية :

﴿ فَأَمَّا تَتَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدُ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾

دخلت النون مع "إما" تأكيداً ولتفرق بينها وبين إما التي هي حرف انفصال في قولك  
جاءني إما زيد وإما عمرو ﴿ وتنفهم ﴾ معناه وتحصلهم في ثقافك أو تلقاهم بحال  
ضعف تقدر عليهم فيها وتغلبهم ، وهذا لازم من اللفظ لقوله ﴿ في الحرب ﴾ ، وقيل تنف  
أخذ بسرعة ومن ذلك قولهم : رجل تنف لقف ، وقال بعض الناس معناه تصادفهم إلى  
نحو هذا من الأقوال التي لا ترتبط في المعنى ، وذلك أن المصادف يغلب فيمكن التشريد به ،  
وقد لا يغلب ، والثقاف في اللغة ما تشد به القناة ونحوها ، ومنه قول الشاعر : [ البسيط ]

إن قناتي لنبتع ما يؤيسها . . . عض الثقاف ولا دهن ولا نار

وقال آخر : [ البسيط ]

تدعوقعيناً وقد عضّ الحديد بها . . . عض الثقاف على صم الأنايب



وقوله ﴿ فشرد ﴾ معناه طرد وخوف وأبعده عن مثل فعلهم ، والشريد المبعد عن وطن أو نحوه ، والمعنى بفعل تفعله بهم من قتل أو نحوه يكون تخويفاً لمن خلفهم أي لمن يأتي بعدهم بمثل ما أتوا به ، وسواء كان معاصراً لهم أم لا ، وما تقدم الشيء فهو بين يديه وما تأخر عنه فهو خلفه ، فمعنى الآية فإن أسرت هؤلاء الناقضين في حربك لهم فافعل بهم من النعمة ما يكون تشريداً لمن يأتي خلفهم في مثل طريقتهم ، والضمير في ﴿ لعلمهم ﴾ عائد على الفرقة المشردة ، وقال ابن عباس : المعنى نكل بهم من خلفهم ، وقالت فرقة " شرد بهم " معناه سمع بهم ، حكاه الزهراوي عن أبي عبيدة ، والمعنى متقارب لأن التسميع بهم في ضمن ما فسرناه أولاً ، وفي مصحف عبد الله " فشرد " بالذال منقوطة ، وهي قراءة الأعمش ولم يحفظ شرد في لغة العرب ولا وجه لها إلا أن تكون الذال المنقوطة تبدل من الدال كما قالوا لحم خراديل وخراديل ، وقرأ أبو حيوة وحكاها المهدي عن الأعمش بخلاف عنه : " من خلفهم " بكسر الميم من قوله ﴿ من ﴾ وخفض الفاء من قوله ﴿ خلفهم ﴾ والترجي في قوله ﴿ لعلمهم ﴾ بحسب البشر ، و ﴿ يذكرون ﴾ معناه يتعظون . انتهى انتهى . اهـ

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا تَتَفَنَّهٗمُ ﴾

قال أبو عبيدة مجازه : فإن تَتَفَنَّهٗمُ .

فعلى قوله ، تكون ﴿ ما ﴾ زائدة .

وقد سبق بيان ﴿ فاما ﴾ في [ البقرة : 38 ] .

قال ابن قتيبة : فمعنى "تتفنههم" تظفر بهم ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾ أي : افعل بهم فعلاً

من العقوبة والتنكيل يفرق به من وراءهم من أعدائك .

قال : ويقال شردهم أي : سمع بهم ، بلغة قريش .

قال الشاعر :

أطوف في الأباطح كل يوم . . .

مخافة أن يشرد بي حكيم

وقال ابن عباس : نكل بهم تنكيلاً يشرد غيرهم من ناقضي العهد ، لعلمهم يذكرون النكال

فلا ينتقضون العهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

﴿ فَإِمَّا تَنْتَفِنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ ﴾ (57)

شرط وجوابه .

ودخلت النون توكيداً لما دخلت ما ؛ هذا قول البصريين .

وقال الكوفيون : تدخل النون الثقيلة والخفيفة مع "إمّا" في المجازاة للفرق بين المجازاة

والتخيير .

ومعنى "تنتفنههم" تأسرهم وتجعلهم في ثقاف ، أو تلقاهم بحال ضعف ، تقدر عليهم فيها

وتغلبهم .

وهذا لازم من اللفظ ؛ لقوله "في الحرب" .

وقال بعض الناس : تصادفهم وتلقاهم يقال : ثقفته أثقفه ثقفاً ، أي وجدته .

وفلان ثقف لقف أي سريع الوجود لما يحاوله ويطلبه .

وثقف لقف .

وامرأة ثقاف .

والقول الأول أولى؛ لارتباطه بالآية كما بينا .

والمصادف قد يغلب فيمكن التشريد به ، وقد لا يغلب .

والثقاف في اللغة : ما يُشدّ به القناة ونحوها .

ومنه قول النابغة :

تدعوقعيننا وقد عضّ الحديد بها . . .

عضّ الثقاف على صمّ الأنايب

﴿ فشردّ بهم من خلفهم ﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى أنذر بهم من خلفهم .

قال أبو عبيد : هي لغة قريش : شردّ بهم سمع بهم .

وقال الضحّاك : نكلّ بهم .

الزجاج : افعل بهم فعلاً من القتل تفرّق به من خلفهم .

والتشريد في اللغة : التبديد والتفريق ؛ يقال : شردّت بني فلان قلعتهم عن مواضعهم

وطردتهم عنها حتى فارقوها .

وكذلك الواحد ، تقول : تركته شريداً عن وطنه وأهله .

قال الشاعر من هذيل :

أطوّف في الأباطح كل يوم . . .

مخافة أن يشرد بي حكيم

ومنه شرَد البعير والدابة إذا فارق صاحبه .

و"مَن" بمعنى الذي ، قاله الكسائي .

وروي عن ابن مسعود "فشرذ" بالذال المعجمة ، وهما لغتان .

وقال قُطْرُبُ : التشرِذُ (بالذال المعجمة) التنكيل .

وبالذال المهملة التفريق ؛ حكاه الثعلبي .

وقال المَهْدَوِيُّ : الذال لا وجه لها ، إلا أن تكون بدلاً من الدال المهملة لتقاربهما ، ولا يعرف

في اللغة "فشرذ" .

وقرئ "مِن خلفهم" بكسر الميم والفاء .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ أي يتذكرون بوعدك إياهم .

وقيل : هذا يرجع إلى من خلفهم ، لأن من قتل لا يتذكر أي شردهم من خلفهم من عمل بمثل

عملهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 8 ص ﴾

(149/315)

---

وقال الخازن :

﴿ فإما تتقنهم في الحرب ﴾

يعني فأما تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وتظفرون بهم في الحرب ❀ فشرّد بهم من خلفهم

❀ قال ابن عباس : معناه فنكل بهم من ورائهم .

وقال سعيد بن جبير : أنذر بهم من خلفهم وأصل التشريد في اللغة التفريق مع اضطراب

ومعنى الآية إنك إذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد فافعل بهم فعلاً من القتل

والتنكيل تفرق به جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من ورائهم من أهل مكة واليمن ❀

لعلهم يذكرون ❀ يعني لعل ذلك النكار يمنعهم من نقض العهد . انتهى انتهى . اهـ ❀ تفسير

الخازن - 3 ص ❀

(150/315)

وقال أبو حيان :

❀ فإما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ❀

أي فإن تظفرون بهم في الحرب وتتمكن منهم ❀ فشرّد بهم من خلفهم ❀ ، قال ابن عباس

فنكل بهم من خلفهم ، وقال ابن جبير : أنذر من خلفهم عن قتل من ظفربه وتنكيله فكان

المعنى فإن تظفرون بهم فاقتلهم قتلاً ذريعاً حتى يفرّ عنك من خلفهم ويتفرّق ولما كان التشريد

وهو التطريد والإبعاد ناشئاً عن قتل من ظفربه في الحرب من المعاهدين الناقضين جعل

جواباً للشرط إذ هو يتسبب عن الجواب ، وقالت فرقة فسمع بهم وحكاه الزهراوي عن  
أبي عبيدة ، وقال الزمخشري : من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد  
اعتباراً بهم واتعاضاً مجالهم ، وقال الكرمانى : قيل التشريد التخويف الذي لا يبقى معه  
القرار أي لا ترض منهم إلا الإيمان أو السيف .

وقرأ الأعمش بخلاف عنه فشرذ بالذال وكذا في مصحف عبد الله قالوا ولم تحفظ هذه  
المادة في لغة العرب ، فقيل : الذال بدل من الدال كما قالوا لحم خراذيل وخراذيل ، وقال  
الزمخشري : فشرذ بالذال المعجمة بمعنى ففرق وكأنه مقلوب شذر من قولهم ذهبوا شذر  
ومنه الشذر الملتقط من المعدن لتفرقه انتهى .

وقال الشاعر :

غرائر في كن وصون ونعمة . . .

تحلين يا قوتا وشذرا مفقرا

وقال قطرب : بالذال المعجمة التنكيل وبالمهملة التفريق ، وقرأ أبو حيوة والأعمش بخلاف

عنه ﴿ من خلفهم ﴾ جارا ومجرورا ومفعول ﴿ فشرذ ﴾ محذوف أي ناسا ﴿ من

خلفهم ﴾ والضمير في ﴿ لعلهم ﴾ يظهر أنه عائد على ﴿ من خلفهم ﴾ وهم المشردون

أي لعلهم يتعظون بما جرى لنا قضي العهد أو يتذكرون بوعدك إياهم وقيل : الضمير عائد

إلى المتقوفين وفيه بعد لأن من قتل لا يتذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص



(151/315)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾

شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي فإذا كان حالهم كما ذكر فإمّا تصادفتهم وتظفرن بهم ﴿ في الحرب ﴾ أي في تضاعيفهم ﴿ فشرد بهم ﴾ أي ففرق عن مناصبتك تفريقاً عنيفاً موجباً للاضطراب والاضطراب ونكل عنها بأن تفعل بهم من النكاية والتعذيب ما يوجب أن تنكل ﴿ من خلفهم ﴾ أي من وراءهم من الكفرة ، وفيه إيحاء إلى أنهم بصدد الحرب قريب من هؤلاء ، وقرىء شرذ بالذال المعجمة ، ولعله مقلوب شذر بمعنى فرق ، وقرىء من خلفهم أي افعل التشريد من ورائهم ، والمعنى واحد لأن إيقاع التشريد في الورا لا يتحقق إلا بتشريد من وراءهم ﴿ لعلمهم يذكرون ﴾ يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالناقضين فيرتدعوا عن النقض أو عن

الكفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴿



وقال الأوسى :

﴿ فَأَمَّا تَتَفَنَّهْمُ ﴾

شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ،  
والثقف يطلق على المصادفة وعلى الظفر ، والمراد به هنا المترتب على المصادفة والملاقة  
، أي إذا كان حالهم كما ذكر فأما تصادفهم وتظفرن بهم دفي الحَرْبُ ﴿ أي في تضاعيفها  
﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ ﴾ أي فرق بهم ﴿ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي من وراءهم من الكفرة ، يعني افعل  
بهؤلاء الذين نقضوا عهدك فعلا من القتل والتنكيل العظيم يفرق عنك ويخافك بسببه من  
خلفهم ويعتبر به من سمعه من أهل مكة وغيرهم ، وإلى هذا يرجع ما قيل : من أن المعنى  
نكل به ليتعظ من سواهم ، وقيل : إن معنى شرّد بهم سمع بهم في لغة قريش قال الشاعر :

أطوف بالاباطح كل يوم . . .

مخافة أن يشرّد بي حكيم

وقرأ ابن مسعود .

والأعمش ﴿ فشرد ﴾ بالذال المعجمة وهو بمعنى شرّد بالمهملة ، وعن ابن جنى أنه لم يمر

بنا في اللغة تركيب شرذ والأوجه أن تكون الذال بدلاً من الدال ، والجامع بينهما أنهما  
مجهوران ومتقاربان ، وقيل : إنه قلب من شذر ، ومنه شذر مذر للمتفرق ، وذهب بعض  
أهل اللغة إلى أنها موجودة ومعناها التنكيل ومعنى المهمل التفريق كما قاله قطرب لكنها  
نادرة ، وقرأ أبو حيون ﴿ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ بمن الجارة ، والفعل عليها منزل منزلة اللانم  
كما في قوله :

يجرح في عراقبها نصلي . . .

فالمعنى افعل التشريد من ورائهم ، وهو في معنى جعل الراء ظرفاً للتشريد لتقارب معنى  
من وفي تقول : اضرب زيدا من وراء عمرو وورائه أي في ورائه ، وذلك يدل على تشريد من  
في تلك الجهة على سبيل الكناية فإن إيقاع التشريد في الراء لا يتحقق إلا بتشريد من  
وراءهم فلا فرق بين القراءتين الفتح والكسر إلا في المبالغة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي لعل  
المشردين يعظون بما يعلمونه مما نزل بالناقضين فيرتدعون عن النقض قيل : أو عن الكفر .  
انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 10 ص ﴾

(153/315)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأَمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ .

وجاء الشرط بحرف (إن) مزيدة بعدها (ما) لإفادة تأكيد وقوع الشرط وبذلك تنسلخ (

إن) عن الإشعار بعدم الجرم بوقوع الشرط وزيد التأكيد باجتلاب نون التوكيد .

وفي "شرح الرضي على الحاجبية" ، عن بعض النحاة : لا يجيء (إمّا) إلا بنون التأكيد

بعده كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا تَرِينَ ﴾ [مریم : 26] .

وقال ابن عطية في قوله : ﴿ فَأَمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ ﴾ دخلت النون مع إمّا : إمّا للتأكيد أو للفرق

بينها وبين إمّا التي هي حرف انفصال في قولك : جاءني إمّا زيد وإمّا عمرو .

وقلت : دخول نون التوكيد بعد (إن) المؤكدة بما ، غالب ، وليس بمطرد ، فقد قال

الأعشى :

إمّا تريننا حفاة لانعال لنا

إنا كذلك ما تحفى ومنتعل . . .

فلم يدخل على الفعل نون التوكيد .

والثقف : الظفر بالمطلوب ، أي : فإن وجدتهم وظفرت بهم في حرب ، أي انتصرت

عليهم .

والتشريدُ : التطريد والتفريق ، أي : فبعّد بهم من خلفهم ، وقد يجعل التشريد كناية عن

التخويف والتنفير .

وجعلت ذوات المتحدث عنهم سبب التشريد باعتبارها في حال التلبس بالهزيمة والنكال ، فهو من إناطة الأحكام بالذوات والمراد أحوال الذوات مثل ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] .

وقد علم أنّ متعلق تشريد ﴿ من خلفهم ﴾ هو ما أوجب التنكيل بهم وهو نقض العهد .  
والخلف هنا مستعار للاقتداء بجامع الاتباع ، ونظيره (الوراء) .  
في قول ضمّام بن ثعلبة:  
"وأنا رسول من ورائي" .

(154/315)

---

وقال وفد الأشعرين للنبي صلى الله عليه وسلم "فمرنا بأمر نأخذ به ونُخبر به من وراءنا"  
، والمعنى : فاجعلهم مثلاً وعبرة لغيرهم من الكفار الذين يترقبون ماذا يجتني هؤلاء من نقض  
عهدهم فيفعلون مثل فعلهم ، ولأجل هذا الأمر نكل النبي صلى الله عليه وسلم بقريظة حين  
حاصرهم ونزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فحكم بأن تقتل مقاتلة وتسبى الذرية ،  
فقتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكانوا أكثر من ثمانمائة رجل .

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر بالإغلاظ على العدو ولما في ذلك من مصلحة إرهاب أعدائه ، فإنهم كانوا يستضعفون المسلمين ، فكان في هذا الإغلاظ على الناكثين تحريض على عقوبتهم ، لأنهم استحقوا .

وفي ذلك رحمة لغيرهم لأنه يصد أمثالهم عن النكث ويكفي المؤمنين شرّ الناكثين الخائنين . فلا تخالف هذه الشدة كون الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين ، لأن المراد أنه رحمة لعموم العالمين وإن كان ذلك لا يخلو من شدة على قليل منهم كقوله تعالى : ﴿ ولکم فی القصص حیاة ﴾ [ البقرة : 179 ] .

وضمير الغيبة في ﴿ لعلمهم يذكرون ﴾ راجع إلى ﴿ من ﴾ الموصولة باعتبار كون مدلول صلتها جماعة من الناس .

والتذكر تذكر حالة المثقفين في الحرب التي انجرت لهم من نقض العهد ، أي لعل من خلفهم يذكرون ما حلّ بناقضي العهد من النكال ، فلا يقدموا على نقض العهد ، فال معنى التذكر إلى لازمه وهو الاتعاظ والاعتبار ، وقد شاع إطلاق التذكر وإرادة معناه الكنائى وغلب فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(155/315)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ فَإِمَّا تَثَقَّفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشِرْدُ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (57)

أي إن وجدتهم في أي حرب فشرد بهم من خلفهم .

ولنا أن نلاحظ أن كلمة "إما" هي إن الشرطية المدغمة في "ما" إذا ما حذفنا منها ما ، نجد أنها تصبح إن ، كأنه يقول : "إن ما" ، وأدغمت نون "إن" في "ما" ، مثلها مثل أن نقول : إن جاءك زيد فأكرمه ؛ هذه جملة شرطية فيها شرط وجواب وأداة شرط ، ولكنه إذا تم مرة واحدة يكون قد انتهى . ولكن "ما" مع إن الشرطية تدلنا على أنه كلما حدث ذلك فإننا نفعل بهم ما أمر الله تعالى به ، كما نقول : كلما جاءك زيد فأكرمه ؛ لأن إما هذه تتضمن ما يفيد الاستمرارية ، مثل "كلما" فكلما جاءك تكرمه ولو جاء مائة مرة ، ولو لم تجيء "ما" لكان يكفي أن تصنعها مرة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ تَثَقَّفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ ، ثقف بمعنى وجد ، أي كلما وجدتهم في الحرب : فشرد بهم من خلفهم ، أي اجعلهم أداة لتشريد من خلفهم . وعليك أن تؤدبهم أدباً يجعل الذين وراءهم يخافون منكم ، ويتعدون عنكم ، وكلما رأوكم أصابهم الخوف والهلع ، وكما يقول المثل العامي : "اضرب الربوط يخاف السايب" . أي أن المطلوب أن نجاهدهم بقوة وبدون شفقة ، حتى لا يفكر في مساندتهم من جاءوا خلفهم لينصروهم أو يؤازروهم بالدخول معهم في القتال ، ولا تحذتهم أنفسهم في أن يستمروا في المعركة ، فشرد بهم ،

والتشريد هو التشيت والتفريق والإبعاد ولكن بقسوة . فحيثما يريدوا أن يذهبوا ؛ امنعهم

وشتهم على غير مرادهم . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

أي لكي تكون هذه التجربة درساً لهم ؛ كيلا يفكروا مرةً أخرى في حربٍ معك ؛ لأنهم

سوف يتذكرون ما حدث لهم فيبتعدون عن مواجهتك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير

الشعراوى ص ﴿

(156/315)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ فَإِمَّا تَنْفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ .

العامة على الدال المهملة في " فشرّد .

وأصل التشريد ، التطريد والتفريق والتبديد .

وقيل : التفريق مع الاضطراب ، والمعنى : فرق بهم جمع كل ناقض ، أي : افعل بهؤلاء الذين

نقضوا عهدك وجاءوا لحربك فعلاً من الحرب والتمكين ، يفرق منك ويخافك من خلفهم من

أهل مكة واليمن ، " لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ " يتذكرون ويعتبرون فيما ينقضون العهد .

وقرأ الأعمش بخلاف عنه: "فَشَرَّذُ" بالذال المعجمة .

وقال أبو حيان رحمه الله تعالى: "وكذا هي في مصحف عبد الله".

قال شهاب الدين: "وقد تقدم أن التَّقَطَّ والشَّكْلُ أمرٌ حادثٌ، أحدثه يحيى بن يعمر،

فكيف يوجد ذلك في مصحف ابن مسعود؟".

قيل: وهذه المادة - أعني: الشين، والراء، والذال المعجمة - مهملة في لغة العرب وفي هذه

القراءة أوجه، أحدها: أن الذال بدل من مجاورتها، كقولهم: خراذيل وخراذيل.

الثاني: أنه مقلوبٌ من "شذر"، من قولهم: تَفَرَّقُوا شَذَرَ مَذَرَ، ومنه: الشَذْرُ الملتقط من

المعدن؛ لتفريقه؛ قال: [الطويل]

2723 - غرأثرُ في كِنٍّ وَصَوْنٍ وَنَعْمَةٍ . . .

يُحَلِّينَ يَا قُوتًا وَشَذْرًا مُفَقَّرًا

الثالث: أنه من ذر في مقاله، إذا أكثر فيه، قاله أبو البقاء، ومعناه غير لائق هنا.

وقال قطرب: "شَرَّذُ" بالمعجمة، التنكيل، وبالمهملة: التفريق.

وهذا يُقَوِّي قول من قال إن هذا المادَّة ثابتة في لغة العرب.

قوله "مَنْ خَلَفَهُمْ" مفعول: "شَرَّذَ".

وقرأ الأعمش بخلاف عنه وأبو حيوه "مَنْ خَلَفَهُمْ" جارا ومجرورا، والمفعول على هذه

القراءة محذوفٌ، أي: فشرَّد أمثالهم من الأعداء، وأنا ساء يعملون بعملهم، والضميران في



"لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ" الظاهرُ عودهما على "مَنْ خَلَفَهُمْ" ، أي: إذا راوا ما حلَّ بالمناقضين تذكروا .

وقيل : يعودان على المثقفين ، وليس له معنى طائل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل

ح 9 ص 546.547 ﴿

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَإِمَّا تَنْتَفِنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (57) ﴾

يريد إن صادفت واحداً من هؤلاء الذين دأبهم تقضُّ العهد فاجعلهم عبرة لمن يأتي بعدهم  
لئلا يسلكوا طريقهم فيستوجبوا عقوبتهم .

كذلك مَنْ فَسَخَ عَقْدَهُ مع الله بقلبه برجوعه إلى رُحْصِ التَّأْوِيلَاتِ ، وتزوله إلى السكون مع العادات يجعله الله نكالا لمن بعده ، بجرمانه ما كان خوِّله ، وتنغيصه عليه ما من حظوظه  
أمله ، فيفوته حق الله ، ولا يكون له امتناع عما آثره على حق الله :

تبدلت وتبدلنا واحسرتا لمن . . . ابتغى عوضاً لليلي فلم يجد . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 634 ﴾

(157/315)

قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

﴿ (58) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أمره بما يفعل تحقق نقضه ، أرشده إلى ما يفعل بمن خاف غدره فقال : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ ﴾ وأكدته إشارة ظهور القرائن ووضوح الأمارت ﴿ من قوم ﴾ أي ذوي قوة ، بينك وبينهم عهد ﴿ خيانة ﴾ أي في ذلك العهد ﴿ فانبذ ﴾ أي اطرح طرح مستهين محقر ﴿ إليهم ﴾ أي ذلك العهد نبذاً كائناً ﴿ على سواء ﴾ أي أمر مستوفي العلم بزواله بينكم وبينهم وعدل ونصفه ولا تناجزوهم وهم على توهم من بقاء العهد ، وهذا إشارة إلى أن يكونوا على غاية الحذر والفحص عن أخبار العدو بحيث لا يتركونه إلى أن ينقض ثم يعلمون ميله إلى النقض فينبذون إليه عهده لأن ذلك أودع له ، فهو أدمى إلى السلم ؛ ثم علل جواز النبذ ووجوب النصفه بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ لا يحب الخائنين ﴾ أي لا يفعل بهم فعل المحب لا منكم ولا من غيركم . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ نظم

الدرج 3 ص 235 ﴿

## فصل

قال الفخر:

وأما قوله: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾

يعني من قوم معاهدين وخيانة ونكثاً بأمارات ظاهرة ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم العهد على طريق مستو ظاهر، وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم أخباراً مكشوفاً بينا أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تبادرهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد، فيكون ذلك خيانة منك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ في العهود وحاصل الكلام في هذه الآية أنه تعالى أمره بنبذ من ينتقض العهد على أقبح الوجوه وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه من كل ما يوهم نكث العهد وبقضه.

قال أهل العلم: آثار نقض العهد إذا ظهرت، فإما أن تظهر ظهوراً محتملاً أو ظهوراً مقطوعاً به، فإن كان الأول وجب الإعلام على ما هو مذکور في هذه الآية، وذلك لأن قريظة عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله فحصل لرسول الله خوف الغدر منهم به وبأصحابه فهنا يجب

على الإمام أن ينبذ إليهم عهودهم على سواء ويؤذنتهم بالحرب ، أما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به فهنا لا حاجة إلى نبذ العهد كما فعل رسول الله بأهل مكة فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم من ذمة النبي صلى الله عليه وسلم وصل إليهم جيش رسول الله بمر الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة .

والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ح

﴿ 15 ص 146.147 ﴾

(159/315)

فصل

قال الجصاص :

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ الآية .  
يعني والله أعلم : إذا خفت غدركهم وخذعتهم وإيقاعهم بالمسلمين وفعلوا ذلك خفياً ولم يظهروا نقض العهد فانبذ إليهم على سواء ، يعني ألق إليهم فسخ ما بينك وبينهم من العهد والهدنة حتى يستوي الجميع في معرفة ذلك ، وهو معنى قوله : ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ لئلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب .

وَقِيلَ: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ عَلَى عَدَلٍ، مِنْ قَوْلِ الرَّاجِزِ: فَاصْرِبْ وَجُوهَ الْغَدْرِ لِلْأَعْدَاءِ  
حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى السَّوَاءِ وَمِنْهُ قَبِيلٌ لِلْوَسْطِ سَوَاءٌ لِاعْتِدَالِهِ، كَمَا قَالَ حَسَّانٌ: يَا وَيْحَ أَنْصَارِ  
النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ بَعْدَ الْمُغَيْبِ فِي سَوَاءِ الْمَلْحَدِ أَيُّ فِي وَسْطِهِ.  
﴿وَقَدْ غَزَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ مَكَّةَ بَعْدَ الْهُدْنَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْبَذَ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ  
قَدْ كَانُوا نَقَضُوا الْعَهْدَ بِمَعَاوَتِهِمْ بَنِي كِنَانَةَ عَلَى قَتْلِ خِرَازَةَ وَكَانَتْ حُلَفَاءَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾، وَلِذَلِكَ جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَسْأَلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
تَجْدِيدَ الْعَهْدِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ فَلَمْ يُجِبْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى ذَلِكَ، فَمِنْ أَجْلِ  
ذَلِكَ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى التَّبَذِ إِلَيْهِمْ؛ إِذْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا نَقْضَ الْعَهْدِ بِنَصْبِ الْحَرْبِ لِحُلَفَاءِ  
النَّبِيِّ.

(160/315)

---

وَرُوِيَ نَحْوُ مَعْنَى الْآيَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا  
أَبُو دَاوُدَ قَالَ: حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ التَّمْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي الْفَيْضِ عَنْ سُلَيْمِ  
وَقَالَ غَيْرُهُ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ رَجُلٌ مِنْ حَمِيرٍ قَالَ: كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ، وَكَانَ  
يَسِيرُ نَحْوَ بِلَادِهِمْ، حَتَّى إِذَا

انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء  
لا غدر فنظروا فإذا عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿ من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدُّ عقده ولا يحلها حتى  
ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء ﴾ فرجع معاوية. انتهى انتهى. اهـ ﴿ أحكام  
القرآن للجصاص ج 3 ص ﴾

(161/315)

وقال السمرقندي:

قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾

يعني وإن علمت من قوم نقض العهد؛ والخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء، فلا يؤدي  
الأمانة.

وسمي ناقض العهد خائناً، لأنه أوتمن بالعهد فغدر ونكث.

﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾، أي فأعلمهم بأنك قد نقضت العهد وأعلمهم بالحرب،

لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء.

وقال القتيبي: إذا أردت أن تعرف فضل العربية على غيرها، فانظر في الآية.

وقد ترجموا سائر الكتب ؛ ومن أراد أن يترجم القرآن إلى لغة أخرى ، فلا يمكنه ذلك ، لأنك لو أردت أن تنقل قوله : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ لم تستطع بهذا اللفظ ، ما لم تبسط مجموعها وتظهر مستورها فتقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد ، فخفت منهم خيانة ونقضاً ، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم وأذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ ، يعني الناقضين للعهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ح 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ ﴾ تعلمن يا محمد ﴿ مِنْ قَوْمٍ ﴾ معاهدين لك ﴿ خِيَانَةً ﴾ نكت عهد ونقض عقد بما يظهر لك منهم من آثار الغدر والخيانة كما ظهر من قريظة والنضير ﴿ فانبذ إِلَيْهِمْ ﴾ فاطرح إليهم عهدهم ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ وهذا من الحان القرآن ، ومعناه : فناجزهم الحرب ، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك فسخت العهد بينك وبينهم حتى نصير أنت وهم على سواء من العلم بأنك محارب ، فيأخذوا للحرب أهبتها وتبرؤوا من الغدر ، وقال الوليد بن مسلم : على سواء أي على مهل وذلك قوله ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [ التوبة : 2 ] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

وقال الماوردي:

قوله عز وجل ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾

يعني في نقض العهد .

﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي فآلق إليهم عهدهم حتى لا ينسبوك إلى الغدر . بهم .

والنبذ هو الإلقاء . قال الشاعر:

فهن ينبذن من قول يصبن به . . . مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

وفي قوله تعالى ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ خمسة أوجه:

أحدها : على مهل ، قال الوليد بن مسلم .

والثاني : على محاجزة مما يفعل بهم ، قاله ابن بحر .

والثالث : على سواء في العلم حتى لا يسبقوك إلى فعل ما يريدونه بك .

والرابع : على عدل من غير حيف ، واستشهد بقول الراجز :

فاضرب وجوه الغد والأعداء . . . حتى يجيبوك إلى السواء

أي إلى العدل .



والخامس : على الوسط واستشهد قائله بقول حسان :

يا ويح أنصار النبي ورهطه . . . بعد المغيب في سواء الملحد

وذكر مجاهد أنها نزلت في بني قريظة . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ النكت والعيون ح 2 ص ﴾

(163/315)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإما تخافن ﴾ الآية

قال أكثر المؤلفين في التفسير : إن هذه الآية هي من بني قريظة ، وحكاها الطبري عن مجاهد ،

والذي يظهر من ألفاظ القرآن أمر بني قريظة قد انقضى عند قوله ﴿ فشرد بهم من خلفهم

﴿ ثم ابتداء تبارك وتعالى في هذه الآية بأمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة

إلى سالف الدهر ، وبنو قريظة لم يكونا في حد من تخاف خيائته فترتب فيهم هذه الآية وإنما

كانت خيائتهم ظاهره مشتهرة ، فهذه الآية هي عندي فيمن يستقبل حاله من سائر الناس

غير بني قريظة ، وخوف الخيانة بأن تبدو جنادع الشر من قبل المعاهدين وتصل عنه أقوال

وتحسس من تلقائهم مبادئ الغدر فتلك المبادئ معلومة والخيانة التي هي غايتهم مخوفة

لامتيقنة ، وحينئذ ينبذ إليهم على سواء ، فإن التزموا السلم على ما يجب والإحوربوا ،

وبنو قريظة نبذوا العهد مرتين ، وقال يحيى بن سلام : تخاف في هذه الآية بمعنى تعلم .  
قال القاضي أبو محمد : وليس كذلك ، وقوله ﴿ خيانة ﴾ يقتضي حصول عهد لأن من  
ليس بينك وبينه عهد فليست محاربتك لخيانة ، فأمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله  
عليه وسلم إذا أحس من أهل عهد ما ذكرنا ، وخاف خيانتهم أن يلقي إليهم عهدهم ، وهو  
النبذ ومفعول قوله ﴿ فانبذ ﴾ محذوف تقديره إليهم عهدهم .

قال القاضي أبو محمد : وتقتضي قوة هذا اللفظ الحض على حربهم ومناجرتهم إن لم  
يستقيموا ، وقوله ﴿ على سواء ﴾ قيل معناه يكون الأمر في بيانه والعلم به على سواء  
منك ومنهم ، فتكونون فيه أي في استشعار الحرب سواء ، وقيل معنى قوله ﴿ على سواء ﴾  
﴿ أي على معدلة أي فذلك هو العدل والاستواء في الحق ، قال المهدوي : معناه جهراً إلا  
سراً .

قال القاضي أبو محمد : وهذا نحو الأول ، وقال الوليد بن مسلم : ﴿ على سواء ﴾ معناه  
على مهل كما قال تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتكم من المشركين  
فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ [ التوبة : 2 ] .

(164/315)

---

قال القاضي أبو محمد: واللغة تأبى هذا القول، وذكر الفراء أن المعنى انبذ إليهم على اعتدال وسواء من الأمر أي بين لهم على قدر ما ظهر منهم لا تفرط ولا تفجأ بحرب، بل أفعل بهم مثلما فعلوا بك.

قال القاضي أبو محمد: يعني موازنة ومقايسة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ الْخَائِنِينَ﴾<sup>\*</sup> يحتمل أن يكون طعناً على الخائنين من الذين عاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يريد فانبذ إليهم على سواء حتى تبعد عن الخيانة، فإن الله لا يجب الخائنين فيكون النبذ على هذا التأويل لأجل أن الله لا يجب الخائنين، والسواء في كلام العرب قد يكون بمعنى العدل والمعدلة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: 64] ومنه قول الراجز: [الرجز]

فاضرب وجوه الغدر الأعداء . . . حتى يجيبوك إلى السواء

وقد يكون بمعنى الوسط، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: 55] ومنه قول حسان بن ثابت: [الكامل]

يا ويح أنصار النبي ورهطه . . . بعد المغيب في سواء الملحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز ح 2 ص﴾<sup>\*</sup>

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾

قال المفسرون .

الخوف ها هنا بمعنى العلم ، والمعنى : إن علمت من قوم قد عاهدتهم خيانة ، وهي نقض عهد .

وقال مجاهد : نزلت في بني قريظة .

وفي قوله : ﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : فأتى إليهم نقضك العهد لتكون وإياهم في العلم بالنقض سواء ، هذا قول الأكثرين ، واختاره الفراء ، وابن قتيبة ، وأبو عبيدة .

والثاني : فانبذ إليهم جهراً غير سر ، ذكره الفراء أيضاً في آخرين .

والثالث : فانبذ إليهم على مهل ، قاله الوليد بن مسلم .

والرابع : فانبذ إليهم على عدل من غير حيف ، وأنشدوا :

فَاضْرِبْ وَجْوهَ الغُدْرِ الأعداءِ . . .

حَتَّى يُجِيبُوكَ إلى السَّوَاءِ

ذكره أبو سليمان الدمشقي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (58)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ أي غشاً وتقصاً للعهد .

﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ وهذه الآية نزلت في بني قريظة وبني النضير .

وحكاه الطبري عن مجاهد .

قال ابن عطية : والذي يظهر من الفاظ القرآن أن أمر بني قريظة انقضى عند قوله "فَشَرَّدُ بِهِمْ

مَنْ خَلَفَهُمْ" ثم ابتداء تبارك وتعالى في هذه الآية بأمره فيما يصنعه في المستقبل مع من يخاف

منه خيانة ؛ فتترتب فيهم هذه الآية .

وبنو قريظة لم يكونوا في حدّ من تخاف خيانتهم ، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشهورة .

الثانية قال ابن العربي : فإن قيل كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة ، والخوف ظنّ لا

يقين معه ، فكيف يسقط يقين العهد مع ظنّ الخيانة .

فالجواب من وجهين : أحدهما أن الخوف قد يأتي بمعنى اليقين ، كما قد يأتي الرجاء بمعنى

العلم؛ قال الله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ .

الثاني إذا ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها ، وجب نبذ العهد للأيقوع التمادي عليه في الهلكة ، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة .

وأما إذا علم اليقين فيستغنى عن نبذ العهد إليهم ، وقد سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عام الفتح ؛ لما اشتهر منهم نقض العهد من غير أن ينبذ إليهم عهدهم .  
والنبذ : الرمي والرفض .

وقال الأزهرى : معناه إذا عاهدت قوماً فعلمت منهم النقض بالعهد فلا توقع بهم سابقاً إلى النقض حتى تلقي إليهم أنك قد نقضت العهد والموادعة ؛ فيكونوا في علم النقض مستويين ، ثم أوقع بهم .

قال النحاس : هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه .

(167/315)

---

والمعنى : وإما تخافن من قوم بينك وبينهم عهدٌ خيانةً فانبذ إليهم العهد ، أي قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم ، وأنا مقاتلكم ؛ ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء ، ولا تقاتلهم

وبينك وبينهم عهد وهم يتقون بك ؛ فيكون ذلك خيانة وغدراً .

ثم بين هذا بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ .

قلت : ما ذكره الأزهرى والنحاس من إنباد العهد مع العلم بنقضه يردّه فعل النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة ؛ فإنهم لما نقضوا لم يوجه إليهم بل قال : " اللَّهُمَّ اقْطَعْ خَبْرَ عَنْهُمْ " وغزاهم .

وهو أيضاً معنى الآية ؛ لأن في قطع العهد منهم ونكثه مع العلم به حصول نقض عهدهم والاستواء معهم .

فأما مع غير العلم بنقض العهد منهم فلا يجل ولا يجوز .

روى الترمذى وأبو داود عن سليمان بن عامر قال : كان بين معاوية والروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم ؛ فجاءه رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، (وفاء لا غدر) ؛ فنظروا فإذا هو عمرو بن عبسة ، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يجلها حتى ينقضى أمدّها أو ينبذ إليهم على سواء " فرجع معاوية بالناس .

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

والسواء : المساواة والاعتدال .

وقال الراجز:

فاضرب وجوه الغدر الأعداء . . .

حتى يجيبوك إلى السواء

وقال الكسائي: السواء العدل.

وقد يكون بمعنى الوسط؛ ومنه قوله تعالى: "في سَوَاءِ الْجَحِيمِ".

ومنه قول حسان:

يا وَيْحَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ . . .

بعد المغيب في سواء الملحد

الفراء: ويقال "فانبذ إليهم على سواء" جهراً لاسراً.

(168/315)

---

الثالثة روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل غادر لواء يوم القيامة يُرفع له بقدر غدره ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامّة" قال علماءنا رحمة الله عليهم: إنما كان الغدر في حق الإمام أعظم وأفحش منه في غيره لما في ذلك من المفسدة؛ فإنهم إذا غدروا وعلم ذلك منهم ولم ينبذوا بالعهد لم يأمنهم العدو على



عهد ولا صلح ، فتشدد شوكته ويعظم ضرره ، ويكون ذلك منفراً عن الدخول في الدين ،  
وموجباً لذم أئمة المسلمين .

فأما إذا لم يكن للعدو عهد فينبغي أن يتحيل عليه بكل حيلة ، وتدار عليه كل خديعة .  
وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : " الحرب خدعة " وقد اختلف العلماء هل

يجاهد مع الإمام الغادر ؛ على قولين .

فذهب أكثرهم إلى أنه لا يقاتل معه ، بخلاف الخائن والفاسق .

وذهب بعضهم إلى الجهاد معه .

والقولان في مذهبننا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 8 ص ﴾

(169/315)

وقال الخازن :

﴿ وإما تخافن ﴾ يعني وإما تعلمن يا محمد ﴿ من قوم ﴾ يعني معاهدين ﴿ خيانة ﴾  
يعني نقضاً للعهد بما يظهر لك منهم من آثار الغدر كما ظهر من بني قريظة والنضير ﴿ فانبد ﴾  
﴿ أي فاطرح ﴾ إليهم ﴿ يعني عهدهم ورام به إليهم ﴾ على سواء ﴿ يعني على طريق ﴾  
ظاهر مستوي يعني أعلمهم قبل حربك إياهم إنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون

أنت وهم في العلم ينقض العهد سواء فلا يتوهمون أنك نقضت العهد أولاً بنصب الحرب معهم ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ يعني في نقض العهد عن سليم بن عمر عن رجل من حمير قال : كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاءه رجل على فرس أو برزون وهو يقول : الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدراً فإذا هو عمرو بن عنبسة فأرسل إليه معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يقول

(170/315)

---

" من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يجلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء " ، فرجع معاوية أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي عن سليم بن عامر نفسه بلا زيادة رجل من حمير وعنده الله أكبر مرة واحدة وفيه جاء على دابة أو فرس وأما حكم الآية فقال أهل العلم إذا ظهرت آثار نقض الهد من هادهم الإمام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض استغنى الإمام عن نبد العهد وإعلامهم بالحرب وإن ظهرت الخيانة بأمارات تلوح وتنضح له من غير أمر مستفيض فحينئذ يجب على الإمام أن ينبذ إليهم العهد ويعلمهم بالحرب وذلك لأن قريظة كانوا قد عاهدوا النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ثم أجابوا أبا

سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فحصل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) خوف الغدر به وبأصحابه فها هنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم على سواء ويعلمهم بالحرب وأما إذا ظهر نقض العهد ظهروا مقطوعاً به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمر الظهران وذلك على أربع فراسخ من مكة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ح 3 ص ﴾

(171/315)

وقال أبو حيان :

﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ .

الظاهر أن هذا استئناف كلام أخبره الله تعالى بما يصنع في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر .

وقال مجاهد هي في بني قريظة ولا يظهر ما قال لأن بني قريظة لم يكونوا في حد من خاف منه خيانة لأن خيانتهم كانت ظاهرة مشهورة ، ولقوله ﴿ من قوم ﴾ فلو كانت في بني قريظة

﴿ وإما تخافن ﴾ منهم ، وقال يحيى بن سلام : ﴿ تخافن ﴾ بمعنى تعلم وحكاه بعضهم أنه قول الجمهور ، وقيل الخوف على بابه فالمعنى أنه يظهر منهم مبادئ الشر وينقل عنهم أقوال تدل على الغدر فالمبادئ معلومة والخيانة التي هي غاية المبادئ مخوفة لا متيقنة ولفظ الخيانة دال على تقدم عهد لأنه من لا عهد بينك وبينه لا تكون محاربه خيانة فأمر الله تعالى نبيه إذا أحسن من أهل عهد ما ذكرنا وخاف خيانتهم أن يلقي إليهم عهدهم وهو النبد ومفعول ﴿ فانبذ ﴾ محذوف التقدير ﴿ فانبذ إليهم ﴾ عهدهم أي ارمه واطرحه ، وفي قوله ﴿ فانبذ ﴾ عدم أكثرات به كقوله ﴿ فنبذوه وراء ظهورهم ﴾ ﴿ فنبذناهم في اليم ﴾ كما قال ، نبذ الحذاء المرقع ، وكأنه لا ينبذ ولا يرمي إلا الشيء التافه الذي لا يبالي به وقوة هذا اللفظ تقتضي حربهم ومناجزتهم أن يستقصوا ومعنى على سواء أي على طريق مستوقصد وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بيناً إنك قطعت ما بينك وبينهم ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ فلا يكن منك إخفاء للعهد قاله الزمخشري بلفظه وغيره كابن عباس بمعناه ، وقال الوليد بن مسلم : على سواء على مهل كما قال تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ الآية .

---

وقال الفراء المعنى ﴿ فانبذ إليهم ﴾ على اعتدال وسواء من الأمر أي بين لهم على قدر ما ظهر منهم لا تفرط ولا تفجأ بحرب بل افعل بهم مثل ما فعلوا بك يعني موازنة ومقايسة .  
وقرأ زيد بن علي سواء بكسر السين وظاهر أن الله أن يكون تعليلاً لقوله : ﴿ فانبذ ﴾ أي ﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ على تبعد من الخيانة ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ ويحتمل أن يكون طعناً على الخائنين الذين عاهدهم الرسول ويحتمل على سواء أن يكون في موضع الحال من الفاعل في ﴿ فانبذ ﴾ أي كائناً على طريق قصد أو من الفاعل والمجرور أي كائنين على استواء في العلم أو في العداوة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ج 4 ص ﴾

(173/315)

---

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾  
بيان لأحكام المشرفين إلى نقض العهد إثر بيان أحكام الناقضين له بالفعل ، والخوف مستعارٌ للعلم أي وإما تعلمن من قوم من المعاهدين نقض عهد فيما سيأتي بما لاحك منهم من دلائل الغدر ومخايل الشر ﴿ فانبذ إليهم ﴾ أي فاطرح إليهم عهدهم ﴿ على سواء ﴾ على

طريق مستوقصدٍ بأن تظهر لهم النقص وتُخبرهم إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما  
بينك وبينهم من الوصلة ولا تنجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد كيلا يكون من  
قبلك شائبةُ خيانةٍ أصلاً فالجارُّ متعلقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من النابذ أي فانبذ إليهم ثابتاً  
على سواءٍ وقيل : على استواءٍ في العلم بنقض العهد بحيث يستوى فيه أقصاهم وأدناهم ،  
أو تستوى فيه أنت وهم فهو على الأول حالٌ من المنبوذ إليهم وعلى الثاني من الجانبيين ﴿  
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ ﴿ تعليلٌ للأمر بالنبذ إما باعتبار استلزامه للنهي عن المناجزة التي  
هي خيانةٌ فيكون تحذيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها وإما باعتبار استباحه  
للقتال بالآخرة فيكون حثاً له عليه الصلاة والسلام على النبذ أولاً وعلى قتالهم ثانياً ، كأنه  
قيل : وإما تعلمن من قوم خيانةً فانبذ إليهم ثم قاتلهم إن الله لا يحب الخائنين وهم من جملتهم  
لما علمت من حالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾ ﴿

(174/315)

وقال الألويسي :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾

بيان لأحكام المشرفين إلى نقض العهد اثر بيان أحكام الناقضين له بالفعل ، والخوف مستعار

للعلم ، أي واما تعلمن من قوم معاهدين لك نقض عهد فيما سيأتي بما يلوح لك منهم من  
الدلائل ﴿ فانبذ إليهم ﴾ أي فاطرح إليهم عهدهم ، وفيه استعارة مكنية تخيلية ﴿ على  
سواء ﴾ أي على طريق مستو وحال قصد بأن تظهر لهم النقض وتخبرهم اخباراً مكشوفاً  
بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد  
كيلا يكون من قبلك شائبة خيانة أصلاً ، فالجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من  
المستكن في ﴿ انبذ ﴾ أي فانبذ إليهم ثابتاً على سواء ، وجوز أن يكون حالاً من ضمير  
إليهم أو من الضميرين معا ، أي حال كونهم كائين على استواء في العلم بنقض العهد بحيث  
يستوي فيه أقصاهم وادناهم ، أو حال كونك أنت وهم على استواء في ذلك ، ولزوم  
الإعلام عند أكثر العلماء الإعلام إذا لم تنقض مدة العهد أو لم يستقض نقضهم له ويظهر  
ظهوراً مقطوعاً به أما إذا انقضت المدة أو استفاض النقض وعلمه الناس فلا حاجة إلى ما  
ذكر ، ولهذا غزا النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة من غير نبذ ولم يعلمهم بأنهم كانوا  
نقضوا العهد علانية بمعاوتهم بني كنانة على قتل خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم  
﴿ سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ تعليل للأمر بالنبذ باعتبار استلزامه للنهي عن  
المناجزة التي هي خيانة فيكون تحذيراً للنبي صلى الله عليه وسلم منها .

(175/315)

---

وجوز أن يكون تعليلاً لذلك باعتبار استتباعه للقتال بالآخرة فتكون حثاً له صلى الله عليه وسلم على النبذ أولاً وعلى قتلهم ثانياً ، كأنه قيل : وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم ثم قاتلهم إن الله لا يحب الخائنين وهم من جملتهم لما علمت حالهم ، والأول هو المتبادر ، وعلى كلا التقديرين المراد من نفي الحب إثبات البغض إذ لا واسطة بين الحب والبغض بالنسبة إليه تعالى . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ روح المعاني ج 10 ص ﴾

(176/315)

---

وقال القاسمي :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾

بيان لأحكام المشرفين إلى نقض العهد ، وإثر بيان الناقضين له بالفعل . والخوف مستعار للعلم ، أي : وإما تعلمن من قوم من المعاهدين نقض عهد فيما سيأتي ، بما لاحك منهم من دلائل الغدر ، ومخايل الشر .

﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : فاطرح إليهم عهدهم ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أي : على طريق مستو ، قصد بأن تظهر لهم النقض ، وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من



الوصلة ، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد ، كي لا يكون من قبلك شائبة  
خيانة أصلاً ، وإن كانت في مقابلة خيانتهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ تعليل للأمر بالنبذ ، إما باعتبار استلزامه النهي عن  
مناجزة القتال ، لكونها خيانة ، فيكون تحذيراً له صلى الله عليه وسلم منها ، وإما باعتبار  
استتباعه للقتال ، فيكون حثاً له صلى الله عليه وسلم على النبذ أولاً ، وعلى قتالهم ثانياً  
، كأنه قيل : وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم ، ثم قاتلهم ، إن الله لا يحب الخائنين ، وهم  
من جملتهم ، ولما علمت من حالهم . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلت الآية على جواز معاهدة الكفار لمصلحة ، ووجوب الوفاء بالعهد إذا لم يظهر منهم  
أمانة الخيانة ، وتدل على إباحة نبذ العهد لمن توقع منهم غائلة مكر ، وأن يعلمهم بذلك ،  
لئلا يعيبوا علينا بنصب الحرب مع العهد .

(177/315)

---

روى أصحاب السنن أنه كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقترب ،  
حتى إذا انقضى العهد غزاهم ، فجاء رجل على فرس أوبرذون وهو يقول : الله أكبر ! الله

أكبر! وفاء لا غدر، فإذا هو عمرو بن عبسة فأرسل إليه معاوية فسأله، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: > من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يشد عقدة ولا يجلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء < فرجع معاوية. وروى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله عز وجل للإسلام، فإن أسلمتم فلکم مالنا، وعليكم ما علينا، وإن أتم أبيتهم، فأدوا الجزية وأتم صاغرون، فإن أبيتهم نابذناكم على سوء، إن الله لا يحب الخائنين.

يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها.

هذا، وما ذكر من وجب إعلامهم، وإنما هو عند خوف الخيانة منهم وتوقعها، كما هو منطوق الآية.

وأما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد، بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة، وهو في ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران، وذلك على أربعة فراسخ من مكة. انتهى انتهى. اهـ ﴿محاسن التأويل ح

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾

عطف حكم عام لمعاملة جميع الأقسام الخائنين بعد الحكم الخاص بقوم معينين الذين تلوح منهم بوارق الغدر والخيانة ، بحيث يبدو من أعمالهم ما فيه مخيلة بعدم وفائهم ، فأمره الله أن يرد إليهم عهدهم ، إذ لا فائدة فيه وإذ هم ينتفعون من مسالمة المؤمنين لهم ، ولا ينتفع المؤمنون من مسالمتهم عند الحاجة .

والخوف توقع ضرر من شيء ، وهو الخوف الحق المحمود .

وأما تخيل الضرر بدون أمانة فليس من الخوف وإنما هو الهوس والتوهم .

وخوف الخيانة ظهور بوارقها .

وبلوغ إضمارهم إياها ، بما يتصل بالمسلمين من أخبار أولئك وما يأتي به تجسس أحوالهم

كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ [

البقرة : 229] وقوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء : 3] .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ في سورة [البقرة :

وقوم ﴿ نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم ، أي كل قوم تخاف منهم خيانة .

والخيانة : ضد الأمانة ، وهي هنا : نقض العهد ، لأنّ الوفاء من الأمانة .

وقد تقدّم معنى الخيانة عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ﴾ في

هذه السورة [ 27 ] .

والنبد : الطرح وإلقاء الشيء .

وقد مضى عند قوله تعالى : ﴿ أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ﴾ في سورة [ البقرة

: 100 ] .

(179/315)

---

وإنما رتب نبد العهد على خوف الخيانة ، دون وقوعها ، لأن شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون ومخائل الأحوال ولا ينتظر تحقق وقوع الأمر المظنون لأنّه إذا تريتّ ولاة الأمور في ذلك يكونون قد عرضوا الأمة للخطر ، أو للتورط في غفلة وضياع مصلحة ، ولا تدار سياسة الأمة بما يدار به القضاء في الحقوق ، لأنّ الحقوق إذا فاتت كانت بليتّها على واحد ، وأمكن تدارك فائتها .

ومصالح الأمة إذا فاتت تمكّن منها عدوّها ، فلذلك علق نبذ العهد بتوقع خيانة المعاهدين من الأعداء ، ومن أمثال العرب : خُذ اللص قبل يأخُذك ، أي وقد علمت أنه لص .  
وعلى سواء ❖ صفة لمصدر محذوف ، أي نبذاً على سواء ، أو حال من الضمير في ( انبذ ) أي حالة كونك على سواء .

❖ على ❖ فيه للاستعلاء المجازي فهي تؤذن بأن مدخولها مما شأنه أن يعتلى عليه .  
❖ سواء ❖ وصف بمعنى مستو ، كما تقدم في قوله تعالى : ❖ سواء عليهم أأنذرتهم ❖ في سورة [ البقرة : 6 ] .

وإنما يصلح للاستواء مع معنى ( على ) الطريق ، فعلم أن سواء ❖ وصف لموصوف محذوف يدلّ عليه وصفه ، كما في قوله تعالى : ❖ على ذات ألواح ❖ [ القمر : 13 ] ،  
أي سفينة ذات ألواح .

وقوله النابغة :

كما لقيت ذات الصّفا من حليفها

أي الحية ذات الصفا .

ووصف النبذ أو النابذ بأنه على سواء ، تمثيل بحال الماشي على طريق جادة لا التواء فيها ، فلامخاتلة لصاحبها كقوله تعالى :

❖ فقل آذنتكم على سواء ❖ [ الأنبياء : 109 ] وهذا كما يقال ، في ضده : هو يتبع

بنيات الطريق ، أي يراوغ ويخاتل .

والمعنى : فانبذ إليهم نبذاً واضحاً علناً مكشوفاً .

ومفعول ( انبذ ) محذوف بقرينة ما تقدم من قوله : ﴿ ثم ينقضون عهدهم ﴾ [ الأنفال :

56 ] وقوله : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة ﴾ أي انبذ عهدهم .

(180/315)

---

وَعُدِّي "انبذ" بـ (إلى) لتضمينه معنى اردد إليهم عهدهم ، وقد فهم من ذلك لا يستمرّ

على عهدهم لتلايقع في كيدهم وأنه لا يخونهم لأن أمره ينبذ عهده معهم ليستلزم أنه لا

يخونهم .

وجملة : ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ تذييل لما اقتضته جملة : ﴿ وإما تخافن من قوم

خيانة ﴾ إلخ تصريحاً واستلزماً .

والمعنى : لأن الله لا يحبهم ، لأنهم متصفون بالخيانة فلا تستمرّ على عهدهم فتكون معاهداً

لمن لا يحبهم الله ؛ ولأن الله لا يحب أن تكون أنت من الخائنين كما قال تعالى : ﴿ ولا تجادل

عن الذين يفتنون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ﴾ في سورة [ النساء :

. [ 107 ] .

وذكر القرطبي عن النحاس أنه قال: هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام  
مثله على اختصاره وكثرة معانيه .

قلت: وموقع (إن) فيه موقع التعليل للأمر برد عهدهم ونبذهم إليهم فهي مغنية غناء فاء  
التفريع كما قال عبد القاهر، وتقدم في غير موضع وهذا من نكت الإعجاز. انتهى انتهى .  
اه ﴿ التحرير والتنوير ح 9 ص ﴾

(181/315)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (58) ﴿

وسبحانه وتعالى يبدأ هذه الآية بقوله: " وإما " ومثلها مثل " فإما " في الآية السابقة وقد تم  
التوضيح فيها ، وهنا يتحدث عن الآخرين الذين لا يواجهون بالحرب ، بل يدبرون لخيانة  
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتقول: هل هذه الخيانة مقطوع بها ؟ أو أنت أخذت بالشبهات ؟ . الله سبحانه وتعالى  
هنا يفرق بعد الله في خلقه بين الخيانة المقطوع بها والخيانة غير المقطوع بها ، فالخيانة المقطوع  
بها لها حكم ، والخيانة المظنون بها لها حكم آخر . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ [ الأنفال : 58 ] .

أي بلغك أنهم سيخونونك ، ماذا تفعل فيهم ؟ .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَاَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ [ الأنفال : 58 ] .

أي أنه ما دام هناك عهد والعهد ملك لطرفين ، هذا عاهد وذاك عاهد ، فإياك أن تأخذهم على غرة ، بل انبذ إليهم ، والنبذ هو الطرح والإبعاد ، أي عليك أن تلغي العهد الذي بينك وبينهم ، وتنهيه ، وتبعده بكراهية . فساعة تخاف الخيانة أبعدهم ، ولكن لا تحاربهم قبل أن تعلمهم أنك قد ألغيت العهد بسبب واضح معلوم .

(182/315)

---

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبيلة خزاعة - كانت من حلفائه بعد صلح الحديبية - وكان الصلح يقضي ألاتهاجم قريش حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يهاجم رسول الله صلى الله عليه وسلم حلفاء قريش ، وذهب بعض من أفراد قريش إلى قبيلة خزاعة وضربوهم ، أي أن قريشاً خانت العهد ، ونقضت الميثاق الذي كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بمعاوتها بني بكر في الاعتداء على خزاعة



حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فماذا فعل الناجون من خزاعة؟ . أرسلوا عنهم عمرو بن سالم الخزاعي يصرخ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وقال: إن قريشاً أخلفتك الوعد وتقضت ميثاقك ، ولما حدث هذا لم يبق رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة سراً ، بل أبلغ قريشاً بما حدث . وأنه طرح العهد الذي تم في صلح الحديبية بينه وبين قريش .

وعندما جاء أبو سفيان إلى المدينة ليحاول أن يبرر ما حدث . رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقابله .

إذن فإن وجدت من القوم الذين عاهدتهم بوادر خيانة فانبذ العهد ، أما إن تأكدت أنهم خانوك فعلاً وحدثت الخيانة ففاجئهم بالحرب ، تماماً كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود بعد أن خانوه في غزوة الخندق وتقضوا العهد والميثاق .  
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [ الأنفال : 58 ] .

فكان الله تعالى بريء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بريء ، والمسلمون أبرياء أن يخونوا حتى مع الذين كفروا ؛ وهذه تؤكد لنا أن الإسلام جاء ليعدل الموازين في الأرض ؛ ليس بالنسبة للمؤمنين به فقط بل بالنسبة للناس جميعاً .

ولذلك إن قرأت قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ  
النَّاسِ بِمَا آرَأَى اللَّهُ ﴾ [النساء: 105] .

(183/315)

---

تلاحظ أن الآية لم تقل: بين المؤمنين . ، ولكن قالت: ﴿ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ؛ حتى لا تكون  
هناك تفرقة في العدل بين مؤمن وغير مؤمن ، فغير المؤمن مخلوق لله ، استدعاه الله إلى هذا  
الوجود ، وسبحانه قد أعد له مكانه في هذا العالم ؛ لذلك لا بد أن تراعي العدل معه في كل  
الأمر ولا تظلمه بل تعطيه حقه ؛ لأنك بذلك تكون أنت مددا من إمدادات الله . وقد كان  
هذا السلوك العادل الذي أمر به الله سبباً في دخول عدد كبير في الإسلام . ونجد الحق  
سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: 105] .

(184/315)

---

أي لا تناصر - يا محمد - الخائنين حتى وإن كانوا من أتباعك . وقد نزلت هذه الآية  
عندما سُرِقَ درع من قتادة بن النعمان وهو من الأنصار ، وحامت الشبهة حول رجل من

الأنصار من بيت يقال لهم : بنو أيرق . فجاء صاحب الدرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن طعمة بن أيرق سرق درعي ، فلما علم السارق بما حدث ، وضع الدرع في جوال دقيق وأسرع وألقاه في بيت رجل يهودي اسمه زيد بن السمين . وقال لعشيرته : إني وضعت الدرع في منزل اليهودي زيد بن السمين ، فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله إن صاحبنا بريء . والذي سرق الدرع هو فلان اليهودي . وذهب الصحابة فوجدوا الدرع في جوال دقيق في بيت اليهودي . ولكن اليهودي أنكر أنه سرق الدرع وقال : لقد أتى به طعمة بن أيرق ولم يلاحظ طعمة أثناء نقل جوال الدقيق أن بالجوال ثقباً صغيراً ، تسرب منه الدقيق ليصنع علامة على الأرض ، وذلك من غفلته ؛ لأن الله لا بد أن يترك دليلاً للحق يهتدي به القاضي حتى لا يضيع الحق ؛ فتبع المسلمون علامة الدقيق حتى أوصلتهم إلى بيت طعمة بن أيرق وأصبحت القضية أن السارق مسلم . ولكنه اتهم اليهودي كذباً بالسرقة . وقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن حكمت لليهودي على المسلم يكون المسلمون في خسة ودناءة وحرَج ، وإذا بالوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعصمه من تعدي خواطره في هذه المسألة : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [ النساء : 105 ] .

---

أي لا تكن لأجل ولصالح الخائنين مدافعا عن أي واحد منهم ولو كان هذا الخائن مسلماً .  
وهكذا كان عدل الإسلام في أن حكم الله تعالى لا ينصر مسلماً على باطل ولا يظلم يهودياً ،  
الأيرون هذا الدين وما فيه من قوة الحق ؟ ألا يدفعهم ذلك إلى أن يتجهوا إلى هذا الدين  
الإسلامي دين العدالة والإنصاف ليكونوا في أحضانه ؟ !

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ [ الأنفال : 58 ] .

أي قل لهم إني ألغيت هذا العهد الذي بيني وبينكم وأصبحت في حل منه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

يبين أنه سبحانه وتعالى لا يحب الخائنين حتى ولو كانوا من المنسويين للإسلام . انتهى انتهى .

اه ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(186/315)

---

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (55) الَّذِينَ عَاهَدتَ مِنْهُمْ ثُمَّ  
يَنْتُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ (56) فَأَمَّا تَقَفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ  
خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ ﴾ (57) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا  
يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (58) ﴿

أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: نزلت ﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ

اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ في ستة رهط من اليهود منهم ابن تابوت .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في

قوله ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتُضُونَ عَهْدَهُمْ ﴾ قال: قريظة يوم الخندق ما لأوا على

محمد صلى الله عليه وسلم أعداءه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ

خَلَفَهُمْ ﴾ قال: نكل بهم من بعدهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ ﴾ قال

: نكل بهم من وراءهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ

خَلَفَهُمْ ﴾ قال: نكل بهم الذين خلفهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ فَشَرَّدَ

بهم من خلفهم ﴿ قال : أنذرهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في

قوله ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾ قال : اصنع بهم كما تصنع بهؤلاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ لعلمهم يذكرون ﴾ يقول : لعلمهم يحذرون أن

ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك .

(187/315)

---

وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب رضي الله عنه قال : دخل جبريل عليه السلام على

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قد وضعت السلاح وما زلنا في طلب القوم فاخرج

فان الله قد أذن لك في قريظة ، وأنزل فيهم ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإما تخافن من قوم

خيانة ﴾ قال : قريظة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة . . .

﴿ الآية . قال : من عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إن خفت أن يمتحنوك ويغدروا

فتأتيهم فانبذ إليهم على سواء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين رضي الله عنه قال: لا تقاتل عدوك حتى تنبذ إليهم على سواء ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن سليم بن عامر رضي الله عنه قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان يسير حتى يكون قريباً من أرضهم ، فإذا انقضت المدة أغار عليهم ، فجاءه عمرو بن عبسة فقال : الله أكبر وفاء لا غدر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقده ولا يجلها حتى ينتضي أمرها أو ينبذ إليهم على سواء " قال : فرجع معاوية بالجيش .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال : ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء . من عاهدته فوفى بعهدة مسلماً كان أو كافراً فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلماً كان أو كافراً ، ومن ائتمنك على أمانة فأدها إليه مسلماً كان أو كافراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور ح 4 ص ﴾

(188/315)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ .

مفعول انبذ محذوف ، أي : انبذ إليهم عهدهم ، أي : اطرحها ، ولا تكثر بها و " على سواء " حال إمّا من الفاعل ، أي انبذها ، وأنت على طريق قصدٍ ، أي : كائناً على عدل ، فلا تبتغهم بالقتال بل أعلمهم به ، وإمّا من الفاعل والمفعول معاً ، أي : كائنين على استواء في العلم ، أو في العداوة .

وقرأ العامةُ بفتح السين ، وزيد بن علي بكسرهما ، وهي لغة تقدم التنبيه عليها أول البقرة .  
وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ هذه الجملة يحتمل أن تكون تعليلاً معنوياً للأمر بنبذ العهد على عدل ، وهو إعلامهم ، وأن تكون مستأنفة ، سيقت لزم من خان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ونقض عهده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 547-548﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (58) ﴿  
يريد إذا تحققت بخيانة قوم منهم فصّح بأنه لا عهد بينك وبينهم ، فإذا حصلت الخيانة زال سمّت الأمانة ، وخيانة كل أحدٍ على ما يليق بحاله ، ومن ضنّ بميسور له فقد خان في



عهده، وزاغ عن جده، وعقوبته مُعَجَّلَةٌ، فهو لا يحبُّه اللهُ، وتكون عقوبته بإذلاله وإهانتة.

انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات - ج 1 ص 634﴾

(189/315)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الكتاب: الحاوي في تفسير القرآن الكريم  
ويُسمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَأِقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسُلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس عشر بعد الثلاثمائة

حُقوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/316)

---

الجزء السادس عشر بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 59 ﴾ من سورة الأنفال

وحتى الآية ﴿ 60 ﴾ من نفس السورة

(4/316)

---

قوله تعالى ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ (59)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان نبذ العهد مظنة الخوف من تكثير العدو وإيقاظه ، وكان الإيقاع أولى بالخوف ، أتبع

سبحانه ذلك ما يجري عليه ويسلي عن فوت من هرب من الكفار في غزوة بدر فلم يقتل ولم

يؤسر فقال : ﴿ ولا يحسبن ﴾ بالياء غيباً على قراءة ابن عامر وحمزة وحفص ، أي أحد

من أتباعك في وقت من الأوقات ، ووجه قراءة الباقيين بالخطاب أن أمر الرئيس ونهيه أوقع

في نفوس الأتباع وأدعى لهم إلى السماع ﴿الذين كفروا﴾ أي عامة من نبذ ومن لم ينبذ  
﴿سبقوا﴾ أي وقع لهم السبق ، وهو الظفر في وقت ما ، فإنهم لم يفوتوا شيئاً من أوامرنا ؛  
ثم علل ذلك بقوله : ﴿إنهم لا يعجزون﴾ أي لا يفوتون شيئاً مما يزيد تسليطه عليهم ، أي لا  
يغرنك علوهم وكثرتهم وجرى كثير من الأمور على مرادهم فكل ذلك بتدبيرنا ، ولا يخرج  
شيء عن مرادنا ، ولا بد أن نهلكهم فإنهم في قبضتنا ، لم يخرجوا منها ولا يخرجون فضلاً  
عن أن يفوتوها فاصبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر ح 3 ص 235﴾

(5/316)

فصل

قال الفخر :

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (59)

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما بين ما يفعل الرسول في حق من يجده في الحرب ويتمكن منه وذكر أيضاً ما  
يجب أن يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد ، بين أيضاً حال من وفاته في يوم بدر وغيره ، لئلا

يبقى حسرة في قلبه فقد كان فيهم من بلغ في أذية الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغاً عظيماً  
فقال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا \* سَبَقُوا﴾ والمعنى: أنهم لما سبقوا فقد فاتوك ولم  
تقدر على إنزال ما يستحقونه بهم، ثم ههنا قولان: الأول: أن المراد ولا تحسبن أنهم انفلتوا  
منك، فإن الله يظفرك بغيرهم.

والثاني: لا تحسبن أنهم لما تخلصوا من الأسر والقتل أنهم قد تخلصوا من عقاب الله ومن  
عذاب الآخرة ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي أنهم بهذا السبق لا يعجزون الله من الانتقام منهم  
والمقصود تسلية الرسول فيمن فاتته ولم يتمكن من التشفيع والانتقام منه.

المسألة الثانية:

قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم "لا يحسبن" بالياء المنقطة من تحت، وفي تصحيحه ثلاثة  
أوجه: الأول: قال الزجاج: ولا يحسبن الذين كفروا أن يسبقونا، لأنها في حرف ابن  
مسعود أنهم سبقونا فإذا كان الأمر كذلك فهي بمنزلة قولك حسبت أن أقوم، وحسبت  
أقوم وحذف أن كثير في القرآن قال تعالى: ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ والمعنى: أن  
أعبد.

الثاني: أن نضم فاعلاً للحسبان ونجعل الذين كفروا المفعول الأول، والتقدير: ولا يحسبن  
أحد الذين كفروا.

والثالث : قال أبو علي : ويجوز أيضاً أن يضم المفعول الأول ، والتقدير : ولا يحسن الذين كفروا أنفسهم سبقوا أو إياهم سبقوا ، وأما أكثر القراء فقرأوا ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ بالتاء المنقطعة من فوق على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والذين كفروا المفعول الأول وسبقوا المفعول الثاني وموضعه نصب والمعنى : ولا تحسن الذين كفروا سابقين .

المسألة الثالثة :

أكثر القراء على كسر ﴿ ان ﴾ في قوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَا ﴾ وهو الوجه لأنه ابتداء كلام غير متصل بالأول كقوله : ﴿ الكاذبين أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ﴾ وتم الكلام ثم قال : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ فكما أن قوله : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ منقطع من الجملة التي قبلها ، كذلك قوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يَعْبِرُونَ ﴾ وقرأ ابن عامر ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بفتح الألف ، وجعله متعلقاً بالجملة الأولى ، وفيه وجهان : الأول : التقدير لا تحسبنهم سبقوا ، لأنهم لا يفوتون فهم يجزون على كفرهم .

الثاني : قال أبو عبيد : يجعل ﴿ لا ﴾ صلة ، والتقدير : لا تحسن أنهم يعجزون . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب ﴾ 15 ص 147 ﴿

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

يعني لا يظنن الذين كفروا من العرب وغيرهم من الذين جحدوا بوحدانية الله تعالى ﴿ ﴾  
سَبَقُوا ﴾ ، يعني فاتوا بأعمالهم الخبيثة ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ ، يقول لن يفوتوا الله تعالى  
حتى يعاقبهم ، ويقال : لا يجحدون الله تعالى عاجزاً عن عقوبتهم .

قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ بالياء على وجه المغايبة

ونصب السين ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ بالتاء على وجه

المخاطبة ونصب السين ، وقرأ الباقون على وجه المخاطبة وكسر السين ، وقرأ ابن عامر

﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بالنصب على معنى البناء ، وقرأ الباقون بالكسر على معنى الابتداء .

فمن قرأ بالنصب ، معناه لأنهم لا يعجزون ، يعني لا يفوتون .

وقرأ بعضهم بكسر النون ﴿ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ يعني لا يعجزونني ؛ وهي قراءة شاذة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 2 ص ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾

قرأ أبو جعفر ، وابن عامر بالياء على معنى لا تحسبن الذين كفروا انهم أنفسهم سابقين فائتين

من عذابنا ، وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب ﴿ الذين كفروا سبقوا إنيهم ﴾ قرأ العامة  
بالكسر على الابتداء ، وقرأ أهل الشام وفارس بالفتح ويكون لا صلة ، تقديره : ولا  
تحسين الذين كفروا أن سبقوا أنهم يعجزون أي يفوتون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف  
والبيان ح 4 ص ﴾

(8/316)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إنيهم لا يعجزون ﴾  
قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم والكسائي " ولا تحسبن " بالتاء مخاطبة للنبي صلى  
الله عليه وسلم ، وبكسر السين غير عاصم فإنه فتحها ، و ﴿ الذين كفروا ﴾ مفعول أول  
، و ﴿ سبقوا ﴾ مفعول ثان ، والمعنى فأتوا بأنفسهم وأنجوها " إنيهم لا يعجزون " بكسر  
ألف " إن " على القطع والابتداء ، و ﴿ يعجزون ﴾ معناه مفلتون ويعجزون طالبهم ، فهو  
معدى عجز بالهمزة تقول عجز زيد وأعجزه غيره وعجزه أيضاً ، قال سويد : [ الوافر ]  
وأعجزنا أبو ليلى طفيل . . . صحيح الجلد من أثر السلاح

(9/316)

وروي أن الآية نزلت فيمن أفلت من الكفار في حرب النبي صلى الله عليه وسلم ، كقريش في بدر وغيرهم ، فالمعنى لا تظنهم ناجين بل هم مدركون ، وقيل معناه لا يعجزون في الدنيا ، وقيل المراد في الآخرة ، قال أبو حاتم وقرأ مجاهد وابن كثير وشبل " ولا تحسبن " بكسر التاء ، وقرأ الأعرج وعاصم وخالد بن الياس " تحسبن " بفتح التاء من فوق وفتح السين ، وقرأ الأعمش " ولا يحسب " بفتح السين والياء من تحت وحذف النون ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وأبو عبد الرحمن وابن محيصن وعيسى " ولا يحسبن " بياء من تحت وسين مكسورة ونون مشددة ، وقرأ حفص عن عاصم وابن عامر وحمزة " ولا يحسبن " بالياء على الكناية عن غائب وفتح السين ، فإما أن يكون في الفعل ضمير النبي صلى الله عليه وسلم ، أو يكون التقدير ولا يحسبن أحد ، ويكون ﴿ قوله الذين كفروا ﴾ مفعولاً أولاً و ﴿ سبقوا ﴾ مفعولاً ثانياً ، وإما أن يكون ﴿ الذين كفروا ﴾ هم الفاعلون ، ويكون المفعول الأول مضمراً و ﴿ سبقوا ﴾ مفعول ثان ، وتقدير هذا الوجه ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا ، وإما أن يكون ﴿ الذين كفروا ﴾ هو الفاعل وتضمير " أن " فيكون التقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ، وتسد أن سبقوا مسد المفعولين ، قال الفارسي :

ويكون هذا كما تأوله سيبويه في قوله عز وجل قال ﴿ أغير الله تأمروني أعبد ﴾ [

الزمر : 64 ] التقدير أن أعبد .



قال القاضي أبو محمد: ونحوه قول الشاعر: [الطويل]

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى . . . قال أبو علي: وقد حذف "أن" وهي مع صلتها

في موضع الفاعل، وأنشد أحمد بن يحيى في ذلك: [الطويل]

وما راعنا إلا سير بشرطة . . . وعهدي به قيناً يفش بكير

(10/316)

---

وقرأ ابن عامر وحده من السبعة "أنهم لا يعجزون" بفتح الألف من "أنهم"، ووجهه أن  
يقدر بمعنى أنهم لا يعجزون أي لا تحسن عليهم النجاة لأنهم لا ينجون، وقرأ الجمهور  
يعجزون "بسكون العين، وقرأ بعض الناس فيما ذكر أبو حاتم "يعجزون" بفتح العين وشد  
الجيم، وقرأ ابن محيصن "يعجزون" بكسر النون ومنحاهما يعجزوني بالحاق الضمير، قال  
الزجاج: الاختيار فتح النون ويجوز كسرها على المعنى أنهم لا يعجزونني، وتحذف النون

الأولى لاجتماع النونين، كما قال الشاعر: [الوافر]

تراه كالثغام يعل مسكاً . . . يسوء الفاليات إذا فليني

قال القاضي أبو محمد: البيت لعمر بن معد يكرب وقال أبو الحسن الأخفش في قول متمم

بن نويرة: [الكامل]

ولقد علمت ولا محالة أنني . . . للحادثات فهل تريني أجزع

هذا يجوز على الاضطرار ، فقال قوم حذف النون الأولى وحذفها لا يجوز لأنها موضع الإعراب ، وقال أبو العباس المبرد : أرى فيما كان مثل هذا حذف الثانية ، وهكذا كان يقول في بيت عمرو بن معد يكرب ، وفي مصحف عبد الله " ولا يحسب الذين كفروا أنهم سبقوا أنهم لا يعجزون " قال أبو عمرو الداني بالياء من تحت وبغير نون في يحسب . قال القاضي أبو محمد : وذكرها الطبري بنون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الحرر الوجيز ح 2

ص ﴿

(11/316)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : " ولا تحسبن " بالتاء وكسر السين ؛ إلا أن عاصماً فتح السين .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : بالياء وفتح السين .

وفي الكافرين ها هنا قولان .

أحدهما : جميع الكفار ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين انهزموا يوم بدر ، ذكره محمد بن القاسم النحوي وغيره .

و"سبقوا" بمعنى : فاتوا .

قال ابن الأنباري : وذلك أنهم أشفقوا من هلكة تنزل بهم في بعض الأوقات ؛ فلما سلموا

منها ، قيل : لا تحسبن أنهم فاتوا بسلامتهم الآن ، فانهم لا يعجزونا ، أي : لا يفوتونا فيما

يستقبلون من الأوقات .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ قرأ الجمهور : بكسر الألف .

وقرأ ابن عامر : بفتحها ؛ وعلى قراءته اعتراض .

لقائل أن يقول : إذا كان قد قرأ "يحسبن" بالياء ، وقرأ "أنهم" بالفتح ، فقد أقرهم على أنهم

لا يعجزون ؛ ومتى علموا أنهم لا يعجزون ، لم يلاموا .

فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال : المعنى : "لا يحسبن الذين كفروا سبقوا" لا يحسبن أنهم

يعجزون ؛ و"لا" زائدة مؤكدة .

وقال أبو علي : المعنى : لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا وآباءهم سبقوا ، لأنهم لا

يفوتون ، فهم يُعْجِزُونَ على كفرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير ح 3 ص ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾

أي من أفلت من وقعة بدر سبق إلى الحياة .

ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ أي في الدنيا حتى يظفرك الله بهم .

وقيل : يعني في الآخرة .

وهو قول الحسن .

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة "يحسين" بالياء والباقون بالتاء ، على أن يكون في الفعل ضمير الفاعل .

و"الَّذِينَ كَفَرُوا" مفعول أول .

و"سَبَقُوا" مفعول ثان .

وأما قراءة الياء فزعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم أن هذا الخن لا تحل القراءة به ، ولا تسع لمن عرّف الإعراب أو عرّفه .

قال أبو حاتم : لأنه لم يأت ل "يحسين" بمفعول وهو يحتاج إلى مفعولين .

قال النحاس : وهذا تحامل شديد ، والقراءة تجوز ويكون المعنى : ولا يحسين من خلفهم

الذين كفروا سبقوا ؛ فيكون الضمير يعود على ما تقدم ، إلا أن القراءة بالتاء أئين .

المُهْدَوِيّ: ومن قرأ بالياء احتمل أن يكون في الفعل ضمير النبي صلى الله عليه وسلم،  
ويكون "الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا" المفعولين.

ويجوز أن يكون "الَّذِينَ كَفَرُوا" فاعلاً، والمفعول الأول محذوف؛ المعنى: ولا يحسن الذين  
كفروا أنفسهم سبقوا.

مَكِّيّ: ويجوز أن يضم مع سبقوا أن، فيسدّ مسدّ المفعولين والتقدير: ولا يحسن الذين  
كفروا أن سبقوا؛ فهو مثل ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا﴾ [العنكبوت: 2] في سدّ أن  
مسدّ المفعولين.

وقرأ ابن عامر "أنهم لا يعجزون" بفتح الهمزة.

واستبعد هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد.

قال أبو عبيد: وإنما يجوز على أن يكون المعنى: ولا تحسن الذين كفروا أنهم لا يعجزون.

قال النحاس: الذي ذكره أبو عبيد لا يجوز عند النحويين البصريين، لا يجوز حسب زيداً

أنه خارج، إلا بكسر الألف، وإنما لم يجز لأنه في موضع المبتدأ؛ كما تقول: حسبت زيداً

أبوه خارج، ولو فتحت لصار المعنى حسبت زيداً خروجه.

وهذا محال ، وفيه أيضاً من البعد أنه لا وجه لما قاله يصحّ به معنًى ؛ إلا أن يجعل "لا" زائدة ،

ولا وجه لتوجيه حرف في كتاب الله عز وجل إلى التّطول بغير حجة يجب التسليم لها .

والقراءة جيدة على أن يكون المعنى : لأنهم لا يعجزون .

مَكِّيٌّ : فالمعنى لا يحسن الكفار أنفسهم فاتوا لأنهم لا يعجزون ، أي لا يفوتون .

ف "أن" في موضع نصب بحذف اللام ، أو في موضع خفض على إعمال اللام لكثرة حذفها

مع "أن" ، وهو يروى عن الخليل والكسائي .

وقرأ الباقر بكسر "إن" على الاستناف والقطع مما قبله ، وهو الاختيار ؛ لما فيه من معنى

التأكيد ، ولأن الجماعة عليه .

وروي عن ابن محيصن أنه قرأ "لا يعجزون" بالتشديد وكسر النون .

النحاس : وهذا خطأ من وجهين : أحدهما أن معنى عجزه ضعفه وضعف أمره .

والآخر أنه كان يجب أن يكون بنونين .

ومعنى أعجزه سبقه وفاته حتى لم يقدر عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ح 8

ص ﴿

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولا يحسبن ﴾

قرئ بالتاء على الخطاب للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) والمعنى ولا تحسبن يا محمد ﴿ الذين كفروا سبقوا ﴾ يعني فاتوا وانهمزوا يوم بدر وقرئ بالياء على الغيبة ومعناه ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا يعني خلصوا من القتل والأسر يوم بدر ﴿ إنهم لا يعجزون ﴾ يعني أنهم بهذا سبق لا يعجزون الله من الانتقام منهم إما في الدنيا بالقتل وإما في الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فأعلمهم الله أنهم لا يعجزونه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن - 3 ص ﴾

(15/316)

وقال أبو حيان :

﴿ ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون ﴾ قال الزهري : نزلت فيمن أفلت من الكفار في بدر فالمعنى لا تظنهم ناجين مفلتين فإنهم لا يعجزون طال بهم بل لا بد من أخذهم ، قيل : وذلك في الدنيا ولا يفوتون بل يظفرك الله بهم ، وقيل : في الآخرة قاله الحسن وقيل : ﴿ الذين كفروا ﴾ عام قاله ابن عباس وأعجز غلب وفات ، قال سويد :

وأعجزنا أبو ليلى طفيل . . .  
صحيح الجلد من أثر السلاح

(16/316)

---

وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص ولا يحسن بالياء أي ﴿ ولا يحسن ﴾ الرسول أو حاسب  
أو المؤمن أو فيه ضمير يعود على من خلفهم فيكون مفعولاً يحسن ﴿ الذين كفروا وسبقوا  
﴿ القراءة باقي السبعة بالتاء خطاباً للرسول أو للسامع وجوزوا أن يكون في قراءة الياء  
فاعل ﴿ لا يحسن ﴾ هو ﴿ الذين كفروا ﴾ وخرج ذلك على حذف المفعول الأول  
لدلالة المعنى عليه تقديره أنفسهم سبقوا وعلى إضمار أن قبل سبقوا فحذفت وهي مرادة  
فسدت مسدّ مفعولي ﴿ يحسن ﴾ ويؤيده قراءة عبد الله أنهم سبقوا ، وقيل التقدير ولا  
تحسبنهم ﴿ الذين كفروا ﴾ فحذف الضمير لكونه مفهوماً وقد ردّنا هذا القول في أواخر  
آل عمران ، وعلى أن الفاعل هو الذين كفروا خرج الزمخشري قراءة الياء وذكر نقل توجيهها  
على حذف المفعول إما الضمير وإما أنفسهم وإما حذف أن وإما أن الفعل وقع على أنهم لا  
يعجزون على أن لا صلة وسبقوا في موضع الحال يعني سابقين أو مفلتين هارين وعلى ﴿  
ولا تحسن ﴾ قتل المؤمنين الذين كفروا سبقوا ثم قال وهذه الأقاويل كلها متمحلة وليست



هذه القراءة التي تفرد بها حمزة بنيرة انتهى ، ولم يتقرّد بها حمزة كما ذكر بل قرأ بها ابن عامر وهو من العرب الذين سبقوا اللحن وقرأ علي وعثمان وحفص عن عاصم وأبو جعفر يزيد بن القعقاع وأبو عبد الرحمن وابن محيصن وعيسى والأعمش ، وتقدم ذكر توجيهها على غير ما نقل مما هو جيد في العربية فلا التقات لقوله وليست بنيرة وتقدم ذكر في فتح السين وكسرها في قوله ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء ﴾ وأما قوله : وقيل وقع على أنهم لا يعجزون على أن لا صلة فهذا لا يتأتى على قراءة حمزة لأنه يقرأ بكسر الهمزة ولو كان واقعاً عليه لفتح أن وإنما فتحها من السبعة ابن عامر وحده واستبعد أبو عبيد وأبو حاتم قراءة ابن عامر ولا استبعاد فيها لأنها تعليل للنهي أي لا تحسبتهم فائتين لأنهم لا يعجزون أي لا يقع منك حسابان لفوتهم لأنهم لا يعجزون أي لا يفوتون ، وقرأ

(17/316)

---

الأعمش ولا يحسب بفتح السين والياء من تحت وحذف النون وينبغي أن يخرج على حذف النون الخفيفة لملاقاة الساكن فيكون كقوله :

لا تهين الفقير علك أن . . .

تركع يوماً والدهر قد رفعه

وقرأ ابن محيصة لا تعجزوني بكسر النون وياء بعدها ، وقال الزجاج : الاختيار فتح النون ويجوز كسرها على أن المعنى أنهم لا يعجزوني وتحذف النون الأولى لاجتماع النونين كما قال الشاعر :

تراه كالثغام يعل مسكا . . .

يسوء الغالبات إذا فليني

البيت لعمر بن معدى كرب ، وقال أبو الحسن الأخفش في قول متمم بن نويرة :  
ولقد علمت ولا محالة أنني . . .

للحادثات فهل تريني أجزع

فهذا يجوز على الاضطرار فقال قوم : حذف النون الأولى وحذفها لا يجوز لأنها في موضع الإعراب ، وقال المبرد أرى فيما كان مثل هذا حذف الثانية وكذا كان يقول في بيت عمرو ،  
وقرأ طلحة بكسر النون من غير تشديد ولا ياء ، وعن ابن محيصة تشديد النون وكسرها  
أدغم نون الإعراب في نون الوقاية وعنه أيضاً بفتح النون وتشديد الجيم وكسر النون ، قال  
النحاس : وهذا خطأ من وجهين أحدهما إن معنى عجزه ضعفه وضعف أمره والآخر أنه  
كان يجب أن يكون بنونين انتهى ، أما كونه بنون واحدة فهو جائز لا واجب وقد قرئ به في  
السبعة وأما عجزني مشدداً فذكر صاحب اللوامح أن معناه بطاً وثبط قال وقد يكون

بمعنى نسبي إلى العجز والتشديد في هذه القراءة من هذا المعنى فلا تكون القراءة خطأ كما

ذكر النحاس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(18/316)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

أي أنفسهم فحذف للتكرار وقوله تعالى ﴿ سَبَقُوا ﴾ أي فاتوا وأفلتوا من أن يُظفرَ بهم  
مفعول ثانٍ ليحسبن والمراد إقناطهم من الخلاص وقطع أطماعهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ  
والاقتصار على دفع هذا التوهم مع أن مقاومة المؤمنين بل الغلبة عليهم أيضاً مما تتعلق به  
أمانيتهم الباطلة للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حوله وهمهم وحُسابُهم وإنما الذي يمكن أن  
يدور في خلدِهم حسابُ المناص فقط ، وقيل : الفعل مُسندٌ إلى أحد أو إلى مَنْ خلفهم  
والمفعول الأول الموصول المتناول لهم أيضاً وقيل : هو الفاعل وأن محذوفة من سبقوا ، وهي  
مع ما في حيزها سادة مسدّ المفعولين ، والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ويعضده  
قراءة من قرأ أنهم سبقوا ونظيره في الحذف قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا ﴾  
﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ ﴾ الآية ، قاله الزجاج وقرئ بالتاء على

خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قراءة واضحة وقرىء ولا تحسبن الذين بكسر الباء وفتحها على حذف النون الخفيفة وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم ، تعليل للنهي على طريقة الاستئناف ، وقرىء بفتح الهمزة على حذف لام التعليل ، وقيل : الفعل واقع عليه ولا زائدة ، وسبقوا حال بمعنى سابقين أي مُفْلَتِينَ هَارِبِينَ وهذا على قراءة الخطاب لإزاحة ما عسى يُحذر من عاقبة النبد لما أنه إيقاظ للعدو وتمكين لهم الهرب والخلص من أيدي المؤمنين وفيه نفي لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجهٍ وأكده كما أشير إليه ، وقيل : نزلت فيمن أفلت من فلّ المشركين وقرىء لا يعجزون بكسر النون ولا يعجزون بالتشديد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود ح 4 ص ﴾

(19/316)

وقال الأوسى :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾

ببإاء الغيبة وهي قراءة حفص .

وابن عامر .

وأبي جعفر .

وحمزة ، وزعم نفرد الأخير بها وهم كزعم أنها غير نيرة ، فقد نص في التيسير على أنه قرأ بها إلا ولأن أيضاً ، وفي الجمع على أنه قرأ بها الأربعة ، وقال المحققون : إنها أنور من الشمس في رابعة النهار لأن فاعل يحسن الموصول بعده ومفعوله الأول محذوف أي أنفسهم وحذف للتكرار والثاني جملة سبقوا ، أي لا يحسن أولئك الكافرون أنفسهم سابقين أي مفلتين من أن يظفر بهم .

والمراد من هذا إقناطهم من الخلاص وقطع أطماعهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ ، والاقتصار على دفع هذا التوهم وعدم دفع توهم سائر ما تتعلق به أمانتهم الباطلة من مقاومة المؤمنين أو الغلبة عليهم للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم عليه عقاب وهمهم وحسابانهم وإنما الذي يمكن أن يدور في خلد هم حسابان المناص فقط ، ويحتمل أن يكون الفاعل ضميراً مستتراً ، والحذف لا يخطر بالبال كما توهم ، أي لا يحسن هو أي أي قبيل المؤمنين أو الرسول أو الحاسب أو من خلفهم أو أحد ، وهو معلوم من الكلام فلا يرد عليه أنه لم يسبق له ذكر ، ومفعولا الفعل الذين كفروا وسبقوا ، وحكى عن الفراء أن الفاعل الذين كفروا وان سبقوا بتقدير أن سبقوا فتكون أن وما بعدها سادة مسد المفعولين ، وأيد بقراءة ابن مسعود ﴿ أَنَّهُمْ سَبَقُوا ﴾ .

واعترضه أبو البقاء .

وغيره بأن أن المصدرية موصول وحذف الموصول ضعيف في القياس شاذ في الاستعمال لم يرد منه إلا شيء يسير كتسمع بالمعيدي خير من أن تراه ونحوه فلا ينبغي أن يخرج كلام الله تعالى عليه .

وقرأ من عدا من ذكر ﴿ تَحْسَبَنَّ ﴾ بالتاء الفوقية على أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من له حظ في الخطاب ﴿ والذين كفروا سَبَقُوا ﴾ مفعولاه ولا كلام في ذلك .

(20/316)

---

وقرأ الأعمس ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ ﴾ بكسر الباء وفتحها على حذف النون الخفيفة ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ أي لا يفوتون الله تعالى أو لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم تعليل للنهي على طريق الاستئناف .

وقرأ ابن عامر ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بفتح الهمزة وهو تعليل أيضاً بتقدير اللام المطرد حذفها في مثله . وقيل : الفعل واقع عليه ، و ﴿ لا ﴾ صلة ويؤيده أنه قرئ مجذفاً و ﴿ سَبَقُوا ﴾ حال بمعنى سابقين أي مفلتين هارين .

وضعف بأن ﴿ لا ﴾ لا تكون صلة في موضع يجوز أن لا تكون كذلك وبأن المعهود كما قال أبو البقاء في المفعول الثاني لحسب في مثل ذلك أن تكون أن فيه مكسورة ، وهذا على

قراءة الخطاب لإزاحة ما عسى أن يحذر من عاقبة النبذ لما أنه يقاظ للعدو وتمكين لهم من الهرب والخلاص من أيدي المؤمنين ، وفيه نفي لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجه وأكده كما يشير إليه .

وذكر الجبائي أن ﴿ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ على معنى لا يعجزونك على أنه خطاب أيضاً للنبي عليه الصلاة والسلام ولا يخلو عن حسن ، والظاهر أن عدم الاعجاز كيفما قدر المفعول اشارة إلى أنه سبحانه سيمكن منهم في الدنيا ، فما روي عن الحسن أن المعنى لا يفوتون الله تعالى حتى لا يبعثهم في الآخرة غريب منه ان صح .

وادعى الخازن أن المعنى على العموم على معنى لا يعجزون الله تعالى مطلقاً اما في الدنيا بالقتل وإما في الآخرة بعذاب النار .

وذكر أن فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منه . وهو ظاهر على القول بأن الآية نزلت فيمن أفلت من فل المشركين ، وروي ذلك عن الزهري .

وقرىء ﴿ يُعْجِزُونَ ﴾ بالتشديد .

وقرأ ابن محيصن ﴿ يُعْجِزُونَ ﴾ بكسر النون بتقدير يعجزونني فحذفت إحدى النونين للتخفيف والياء اكتفاء بالكسرة ، ومثله كثير في الكتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح

المعاني - 10 ص ﴿

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ (59)

تسليية النبي صلى الله عليه وسلم على ما بدأه به أعداؤه من الخيانة مثل ما فعلت قريظة ، وما فعل عبد الله بن أبي سلول وغيرهم من فلول المشركين الذين نجوا يوم بدر ، وطمانة له وللمسلمين بأنهم سيد الون منهم ، ويأتون على بقيتهم ، وتهديد للعدو بأن الله سيمكن منهم المسلمين .

والسبق مستعار للنجاة ممن يطلب ، والتقلت من سلطته .

شبه المتخلص من طالبه بالسابق كقوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن

يسبقونا ﴾ [ العنكبوت : 4 ] وقال بعض بني فقعس :

كأنك لم تسبق من الدهر مرة

إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب . . .

أي كأنك لم يفتك ما فاتك إذا أدركته بعد ذلك ، ولذلك قول السبق هنا بقوله تعالى : ﴿

إنهم لا يعجزون ﴾ ، أي هم وإن ظهرت نجاتهم الآن ، فما هي إلا نجاة في وقت قليل ، فهم



لا يعجزون الله ، أو لا يعجزون المسلمين ، أي لا يُصَيِّرُونَ من أفلتوا منه عاجزاً عن نوالهم ،

كقول إياس بن قبيصة الطائي :

ألم تر أن الأرض رحب فسيحة

فهل تعج زني بُقعة من بقاعها . . .

وحذف مفعول ﴿ يعجزون ﴾ لظهور المقصود .

وقرأ الجمهور ﴿ ولا تحسبن ﴾ بالتاء الفوقية .

وقراه ابن عامر ، وحمزة ، وحفص ، وأبو جعفر ﴿ ولا تحسبن ﴾ بالياء التحتية وهي

قراءة مشككة لعدم وجود المفعول الأول لحسب ، فزعم أبو حاتم هذه القراءة لحناً ، وهذا

اجتراء منه على أولئك الأئمة وصحة روايتهم ، واحتج لها أبو علي الفارسي بإضمار

مفعول أول يدل عليه قوله : ﴿ إنهم لا يعجزون ﴾ أي لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا

، واحتج لها الزجاج بتقدير ( أن ) قبل ﴿ سبقوا ﴾ فيكون المصدر ساداً مسدّ المفعولين

، وقيل : حذف الفاعل لدلالة الفعل عليه .

والتقدير : ولا يحسبن حاسب .

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قرأه الجمهور بكسر همزة ﴿إِنَّهُمْ﴾ استئناف بياني  
جواباً عن سؤال تثيره جملة: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ وقرأ ابن عامر ﴿أَنَّهُمْ﴾  
بفتح همزة (أَنَّ) على حذف لام التعليل فالجملة في تأويل مصدر هو علة للنهي، أي لأنهم لا  
يعجزون، قال في الكشاف: ﴿كل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل إلا أن المكسورة  
على طريقة الاستئناف والمفتوحة تعليل صريح. انتهى انتهى. اهـ﴾ التحرير والتنوير ح  
9 ص

(23/316)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (59)

حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الكفار في حرب، قُتل فريق من الكفار،  
وأُسِرَ فريق آخر منهم، وفر فريق ثالث، وأما الذين قتلوا والذين أُسروا فقد أخذوا  
جزاءهم، والذين فروا نجوا من القتل ومن الأسر، فكأنهم سبقوا فلم يلحق بهم المسلمون  
الذين أرادوا أن يقتلوهم أو يأسروهم. والسبق أن يوجد شيء يريد أن يلحق بشيء أمامه  
فيسبقه؛ ولا يستطيع اللحاق به. فكان الكفار عندما فروا سبقوا المسلمين الذين لو لحقوا

بهم لقتلوهم أو أسروهم .

الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن هذا هو ظاهر ما حدث ، ولكن الحقيقة التي يريدنا الله عز وجل أن نفهمها هي أن هؤلاء الكفار الذين فروا وسبقوا ، ولم تلحقهم أيدي المسلمين ، هؤلاء لا يعجزون الله تعالى ولا يخرجون عن قدرته سبحانه وتعالى وسوف يأتيهم العذاب في وقت لاحق ، إما بانقضاء الأجل وإما في معركة ثانية .

وعادة نجد أن كلاً من السابق والمسبوق يستخدم أقصى قوته ، الأول ليفر والثاني ليلحق به . ولذلك عندما تراهما فقد تعجب من القوة التي يجري كل منهما بها ، وهذه هي

الطبيعة الإنسانية ، فساعة الأحداث العادية يكون للإنسان قوة وقدرة . وساعة

الأحداث المفاجئة تكون له أي للإنسان ملكات أخرى . فإذا غرقت سفينة في البحر مثلاً وتعلق واحد من ركبها بقطعة خشب من حطام السفينة ، تجده يسبح لفترة طويلة دون أن يشعر بالتعب . فإذا وصل إلى الشاطئ خارت قواه .

(24/316)

---

ولقد عرفنا سر ذلك عندما اكتشف علم وظائف الأعضاء أن الإنسان عنده غدة فوق

الكلي هي الغدة الكظرية ، إذا وقع في مأزق مفاجيء تفرز مادة "الادرينالين" وهذه مادة

يمكن أن تعطيه عشرة أضعاف قوته ، ولكن إذا زال الخطر تتوقف الغدة عن إفراز هذه المادة إلا بالنسبة التي يحتاجها الجسم ، ولذلك تجد الإنسان الذي يضارع الموج في البحر تمده هذه الغدة بالوقود ، فإذا وصل إلى الشاطئ ء توقفت الغدة عن الإفراز الزائد المناسب للخطر فتخور قواه وربما يظل ثلاثة أيام نائماً من التعب .

وهناك قصة خيالية رمزية تروى عن صائد أرسل كلبه يجري وراء غزال ليأتيه به ، والكلب يجري يريد اللحاق بالغزال ، والغزال يجري طلباً للنجاة ، وفجأة التفت الغزال إلى الكلب وقال له : لن تلحقني ؛ لأنني أجري لحساب نفسي وأنت تجري لحساب صاحبك . فمن يفعل شيئاً لينجو بنفسه يكون قوياً . وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنْهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ [ الأنفال : 59 ] .

أي إنهم في قبضة المشيئة لا يخرجون عن قدرة الله الذي سيحضرهم ويحاسبهم . وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن حارب ، ومن عاهد وغدر ، ومن فرو وسبق ، ومن يريد أن يلحق به ، أراد أن ينبهنا إلى حقيقة هامة وهي ألا نقصر في إعدادنا للقوة التي تعيننا على ملاقاتة الأعداء وقت الحرب أو حتى تأتينا الحرب ؛ لأننا قد نفاجأ بها فلا نستطيع أن نستعد ، ولذلك لا يجب أن يقتصر استعدادنا للقتال إلى أن تأتي ساعة القتال ذاتها ، لا ، بل يجب أن نستعد سلماً وحرباً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص



"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم "يَحْسَبَنَّ" بياء الغيبة هنا، وفي النور في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ [النور: 57] كذلك، خلا حفصاً، والباقون بـ"تاء الخطاب"، وفي قراءة الغيبة تخريجات كثيرة سبق نظائرها في أواخر آل عمران، ولا بد من التنبية هنا على ما تقدم، فمنها، أَنَّ الفعل مسندٌ إلى ضميرٍ يُفسرُه السياق، تقديره: ولا يحسبنَّ هوأي: قبيل المؤمنين، أو الرسول، أو حاسب.

أو يكون الضمر عائداً على: "مَنْ خَلَفَهُمْ".

وعلى هذه الأقوال، فيجوز أن يكون "الذين كفروا" مفعولاً أولاً و"سَبَقُوا" جملة في محل نصب مفعولاً ثانياً.

وقيل: الفعل مسندٌ إلى "الذين كفروا" ثم اختلف هؤلاء في المفعولين، فقال قوم: الأول محذوفٌ تقديره: ولا يحسبنَّهم الذين كفروا سبقوا، ف"هم" مفعول أول، و"سَبَقُوا" في

محل الثاني: أو يكون التقدير: لا يحسن الذين كفروا أنفسهم سبقوا.

وهو في المعنى كالذي قبله.

وقال قوم: بل "أن" الموصولة محذوفة، وهي وما في حيزها سادة مسدّ المفعولين،

والتقدير: ولا سحن الذين كفروا أن سبقوا، فحذفت "أن" الموصولة وبقيت صلتها،

كقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ ﴾ [الروم: 24] وقوله: ﴿ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ ﴾

[الزمر: 64].

قاله الزجاج: والتقدير: ولا يحسن الذين كفروا أن سبقونا، وحذف "أن" الموصولة في

القرآن، وفي كلام العرب كثير، فأما القرآن فكالآيات، ومن كلام العرب: تسمع بالمعيدي

خير من أن تراه؛ وقوله: [الطويل]

2724 - ألا أي هذا الزاجري أحضر الوغى . . . . .

ويؤيد هذا الوجه قراءة عبد الله "أنهم سبقوا".

وقال قوم: بل "سبقوا" في محل نصب على الحال، والسادة مسدّ المفعولين: ﴿ إِنَّهُمْ لَا

يُعْجِزُونَ ﴾، وتكون "لا" مزيدة ليصح المعنى.

قال الزمخشري - بعد ذكره هذه الأوجه - "وليست هذه القراءة التي تفرّد بها حمزة بنيرة"

وقد ردّ عليه جماعة هذا القول، وقالوا: لم ينفرد بها حمزة، بل وافقه عليها من قرأ السبعة

ابن عامر أسن القراءة وأعلاهم إسناداً، وعاصم في رواية حفص ثم هي قراءة أبي جعفر

المدني شيخ نافع، وأبي عبد الرحمن السلمي، وابن محيصن وعيسى، والأعمش،  
والحسن البصريين، وأبي رجاء، وطلحة، وابن أبي ليلى.

(26/316)

وقد ردَّ عليه أبو حيان أيضاً أنَّ "لا يُحسبنَ" واقع على "أنهم لا يُعجزون" وتكون "لا" صلة، بأنَّه لا يأتى على قراءة حمزة، فإنَّه يُقرأ بكسر الهمزة، يعني فكيف تلتئم قراءة حمزة على هذا التخريج.

قال شهابُ الدِّين: "هو لم يلتزم التخريج على قراءة حمزة في الموضعين، أعني: "لا يُحسبنَ" وقوله: "أنهم لا يعجزون"، حتى نلزمه ما ذكر "وأما قراءة الخطاب فواضحة، أي: لا تحسبنَ يا محمد، أو يا سامع، و"الذين كفروا" مفعول أول، والثاني: "سبقوا"، وقد تقدّم في آل عمران وجه أنه يجوز أن يكون الفاعل الموصول، وإنما أتى بباء التانيث، لأنه بمعنى "القوم"، كقوله:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [الشعراء: 105].

وقرأ الأعمش "ولا يحسب الذين كفروا" بفتح الباء.

وتخرجها على أن الفعل مؤكَّد بنون التوكيد الخفيفة، فحذفها؛ لالتقاء الساكنين، كما

يُحذفُ له التَّنوينُ ؛ فهو كقولهِ : [ المنسرح ]

2725 - لَا تُهَيِّنَ الْفَقِيرَ عَلَيْكَ أَنْ . . .

تَرْكِعُ يَوْمًا وَالذَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

أي : لا تُهَيِّنَنَّ ، وتقل بعضهم : ﴿ وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ ﴾ من غير توكيدِ البتَّة ، وهذه القراءةُ

بكسر الباءِ على أصل التقاء الساكنين .

قوله : " سَبَقُوا " أي : فاتوا .

نزلت في الذين انهزموا يوم بدرٍ من المشركين ، فمن قرأ بالياء ، يقول لا يحسبن الذين كفروا

أنفسهم سابقين فائتين من عذابنا ، ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب .

قوله ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ قرأ ابن عامر بالفتح ، والباقون بالكسر .

فالفتح إمَّا على حذفِ لامِ العلة ، أي : لأنهم .

واستبعد أبو عبيد وأبو حاتم قراءة ابن عامر ، ووجهُ الاستبعادِ أنَّها تعليلٌ للنَّهْيِ ، أي : لا

تحسبنهم فائتين لأنهم لا يعجزون ، أي : لا يقع منك حُسبانٌ لفوتهم ؛ لأنهم لا يعجزون ،

وإمَّا على أنَّها بدلٌ من مفعولي الحسبان .

(27/316)



وقال أبو البقاء: "إنه متعلقٌ بـ" حسب"، إمّا مفعولٌ، أو بدلٌ من سَبَقُوا".

وعلى كلا الوجهين تكون "لا" زائدةً، وهو ضعيفٌ، لوجهين:

أحدهما: زيادة "لا".

والثاني: أن مفعول "حسبن" إذا كان جملةً، وكان مفعولاً ثانياً كانت "إن" فيه مكسورة؛ لأنه موضع ابتداء وخبر.

وقرأ العامة: "لا يُعْجِزُونَ" بنون واحدة خفيفة مفتوحة، وهي نونُ الرفع.

وقرأ ابن مُحَيِّصٍ "يُعْجِزُونِي" بنون واحدة، بعدها ياء المتكلم، وهي نون الوقاية، أو نون

الرفع، وقد تقدّم الخلافُ في ذلك في سورة الأنعام في: "أَتَحَاجُّونِي".

قال الزجاج: الاختيارُ الفتحُ في النونِ، ويجوزُ كسرها، على أن المعنى: لا يُعْجِزُونِي

وتحذف النون الأولى، لاجتماع النونين؛ كما قال عمر بن أبي ربيعة: [الوافر]

2726 - تَرَاهُ كَالثَّغَامِ يعلُ مِسْكَاً . . .

يسوءُ الفالياتِ إذا فليني

وقال متمم بن نُويرَةَ: [الكامل]

2727 - ولقد علمتِ ولا محالة أني . . .

للحادثاتِ فهل تريني أجزعُ

قال الأخفش: "فهذا البيتُ يجوزُ على الاضطرار".

وقرأ ابنُ محيِصن أيضاً "يُعْجِزُونَ" بنون مشددة مكسورة، أدغم نون الرفع في نون الوقاية، وحذف ياء الإضافة مُجْتَزِئاً عنها بالكسرة، وعنه أيضاً فتح العين وتشديد الجيم وكسر النون، مِنْ "عَجَزَ" مشدداً.

قال أبو جعفر: "وهذا خطأ من وجهين:

أحدهما: أن معنى "عَجَّضَه" ضعفه وضعف أمره.

والآخر: كان يجب أن يكون بنونين."

قال شهابُ الدين: "أمَّا تَخْطِئَةُ النَّحَّاسِ لَهُ فَخَطَأٌ؛ لِأَنَّ الْإِتْيَانَ بِالتُّونِينَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ بَلْ هُوَ

جَائِزٌ، وَقَدْ قَرِئَ بِهِ فِي مَوَاضِعٍ فِي الْمُتَوَاتِرِ، سَيَأْتِي بَعْضُهَا، وَأَمَّا "عَجَزَ" بِالتَّشْدِيدِ فَلَيْسَ

مَعْنَاهُ مُقْتَصِرًا عَلَى مَا ذَكَرَ، بَلْ نَقَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّ مَعْنَاهُ نَسَبِيٌّ إِلَى الْعِجْزِ، أَوْ مَعْنَاهُ:

بَطَأٌ، وَتَبَّطٌ، وَالْقِرَاءَةُ مَعْنَاهَا لِاتِّقُ بِأَحَدِ الْمَعْنِيِّينَ."

(28/316)

---

قرأ طلحة بكسر النون خفيفة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل ج 9 ص 548.

﴿ 551

من لطائف الإمام القشيري في الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِلَهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59) ﴾

كيف يعارض الحق أو ينازعه من في قبضته تَقْبُضُهُ ، وبقدرته تَصْرُفُهُ ، وتصريفه إياه عَدَمَهُ

وثبوته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص 635 ﴾

(29/316)

قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوَّ اللَّهِ  
وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ  
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا ربما أدى إلى ترك المناصب والمحاربة والمغالبة اعتماداً على الوعد الصادق

المؤيد بما وقع لهم في بدر من عظيم النصر مع نقص دعوى العدة والعدة ، أتبعه ما بين أن

اللازم ربط الأسباب بمسبباتها ، وليتبين الصادق في دعوى الإيمان من غيره فقال :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ﴾ أي للأعداء ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي دخل في طاعتكم وكان بقوة

جهدكم تحت مقدر وكم وطاقتم ﴿ من قوة ﴾ أي قوة كانت ، وفسرها النبي - صلى الله عليه وسلم - بالرمي إشارة إلى أنه أعظم عدده على نحو " الحج عرفة " وفي أمرهم بقوله ﴿ ومن رباط الخيل ﴾ إيماء إلى باب من الامتنان بالنصر في بدر لأنهم لم يكن معهم فيه غير فرسين ، والرباط هو الخيل التي تربط في سبيل الله الخمس منها فما فوقها ، وخصها مع دخولها فيما قبل إشارة إلى عظيم غنائها ، والرباط أيضاً ملازمة تغر العدو وربط الخيل به إعداداً للعدو ؛ ثم أجاب من كأنه قال : لم نفعل ذلك وما النصر إلا بيدك ؟ بقوله : ﴿ ترهبون ﴾ أي تحافون تخويفاً عظيماً باهراً يؤدي إلى الهرب على ما أجريت من العوائد ﴿ به ﴾ أي بذلك الذي أمرتكم به من المستطاع أو من الرباط ﴿ عدو الله ﴾ أي الذي له العظمة كلها لأنه الملك الأعلى ﴿ وعدوكم ﴾ أي المجاهدين ، والأليق بقوله - : ﴿ وآخرين ﴾ أي وترهبون بذلك آخرين ﴿ من دونهم ﴾ - أي يحمل على المنافقين لوصفهم بقوله : ﴿ لا تعلمونهم ﴾ كما قال تعالى ﴿ ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم ﴾ [ التوبة : 101 ] ولأنهم لا يكونون دونهم إلا إذا لم يكونوا في العدو مثلهم ، وكل من فرض غير المنافقين مظهرين للعدواة ، وأما المنافقون فإنهم مدعون يظهرون الإسلام أنهم أولياء لا أعداء ﴿ الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ يعلمهم ﴾ أي فهو يكتفيكم ما يظن من أمرهم ، وليس عليكم إلا الجهد بحسب ما

تعلمون ، والآية بالنسبة إلى ما تقدمها من باب " اعقلها وتوكل " والمعنى لا تظنوا أن الكفار فاتونا وأفلتوا من

(30/316)

---

عذابنا بامتناعهم منكم فإنهم في قبضتنا أينما توجهوا وحيثما حلوا فسوف نهلكهم ولا يعجزوننا ، ومع ذلك فلا يحملنكم الاتكال على قوتنا على ترك أسباب مغالبتهم بما أعطيناكم من القوى بل ابدلوا جهدكم وطاقتم في إعداد مكاييد الحرب وما يتعلق بالرمي من القوة وبالخيل من الطعن والضرب والفروسية لنلقي بذلك رعبكم في قلوب عدوكم القريب والبعيد من تعلمونه منهم ومن لا تعلمونه .

ولما كان أغلب معاني هذه الآية الإنفاق ، لأن مبنى إعداد القوة عليه ، رغب فيه بقوله : ﴿ وما تنفقوا من شيء ﴾ أي من الأشاء وإن قلَّ ﴿ في سبيل الله ﴾ أي طريق من له صفات الكمال من الجهاد وغيره ﴿ يوف إليكم ﴾ أي أجره كاملاً في الدنيا والآخرة أوفى ما يكون مضاعفاً أحوج ما تكونون إليه ﴿ وأتم ﴾ .

ولما كان المخوف مطلق النقص ، بنى للمفعول قوله : ﴿ لا تظلمون ﴾ أي لا تنقصون شيئاً

منه ، وأما الزيادة فلا بد منها وهي على قدر النية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر ح 3

ص 235 . 237 ﴿

(31/316)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أوجب على رسوله أن يشرد من صدر منه نقض العهد ، وأن ينبذ العهد إلى من خاف منه النقض ، أمره في هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفار .

قيل : إنه لما انفق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قصة بدر أن قصدوا الكفار بلا

آلة ولا عدة أمرهم الله أن لا يعودوا لمثله وأن يعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة ،

والمراد بالقوة ههنا : ما يكون سبباً لحصول القوة وذكروا فيه وجوهاً : الأول : المراد من القوة

أنواع الأسلحة .

الثاني : روي أنه صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على المنبر وقال : " ألا إن القوة الرمي "

قالها ثلاثاً .

الثالث : قال بعضهم : القوة هي الحصون .

الرابع : قال أصحاب المعاني الأولى أن يقال : هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة .

وقوله عليه الصلاة والسلام : " القوة هي الرمي " لا ينفي كون غير الرمي معتبراً ، كما أن قوله عليه الصلاة والسلام : " الحج عرفة " و " الندم توبة " لا ينفي اعتبار غيره ، بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود فكذا ههنا ، وهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسية والرمي فريضة ، إلا أنه من فروض الكفايات .  
وقوله : ﴿ ومن رباط الخيل ﴾ الرباط المرابطة أو جمع ربيط ، كفصال وفصيل ، ولا شك أن ربط الخيل من أقوى آلات الجهاد .

روي أن رجلاً قال لابن سيرين : إن فلاناً أوصى بثلاث ماله للحصون .

فقال ابن سيرين : يشتري به الخيل فتربط في سبيل الله ويغزى عليها ، فقال الرجل إنما

أوصى للحصون ، فقال هي الخيل ألم تسمع قول الشاعر :

ولقد علمت على تجنبي الردى . . إن الحصون الخيل لا مدر القرى

قال عكرمة : ومن رباط الخيل الأناث وهو قول الفراء ، ووجه هذا القول أن العرب تسمي الخيل إذا ربطت في الأفنية وعلقت ربطاً واحداً ربيط ، ويجمع ربط على رباط وهو جمع الجمع ، / فمعنى الرباط ههنا ، الخيل المربوط في سبيل الله ، وفسر بالإناث لأنها أولى ما يربط لتناسلها ونمائها بأولادها ، فارتباطها أولى من ارتباط الفحول ، هذا ما ذكره الواحدي .

ولقائل أن يقول : بل حمل هذا اللفظ على الفحول أولى ، لأن المقصود من رباط الخيل المحاربة عليها ، ولا شك أن الفحول أقوى على الكر والفر والعدو ، فكانت المحاربة عليها أسهل ، فوجب تخصيص هذا اللفظ بها ، ولما وقع التعارض بين هذين الوجهين وجب حمل اللفظ على مفهومه الأصلي ، وهو كونه خيلاً مربوطاً ، سواء كان من الفحول أو من الإناث ، ثم إنه تعالى ذكر ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء .

فقال : ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم ، وذلك الخوف يفيد أموراً كثيرة : أولها : أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام .  
وثانيها : أنه إذا اشتد خوفهم فرموا التزموا من عند أنفسهم جزية .  
وثالثها : أنه ربما صار ذلك داعياً لهم إلى الإيمان .  
ورابعها : أنهم لا يعينون سائر الكفار .



وخامسها : أن يصير ذلك سبباً لمزيد الزينة في دار الإسلام .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ ﴾ والمراد أن تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين نعلم كونهم أعداء ، كذلك يرهب الأعداء الذين لانعلم أنهم أعداء ، ثم فيه وجوه : الأول : وهو الأصح أنهم هم المنافقون ، والمعنى : أن تكثير أسباب الغزو كما يوجب رهبة الكفار فكذلك يوجب رهبة المنافقين .  
فإن قيل : المنافقون لا يخافون القتال فكيف يوجب ما ذكرتموه الإرهاب ؟

(33/316)

---

قلنا : هذا الإرهاب من وجهين : الأول : أنهم إذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأدواتهم انقطع عنهم طمعهم من أن يصيروا مغلوبين ، وذلك يحملهم على أن يتركوا الكفر في قلوبهم وبواطنهم ويصيروا مخلصين في الإيمان ، والثاني : أن المنافق من عادته أن يترص ظهور الآفات ويحتمل في إلقاء الإفساد والتفريق فيما بين المسلمين ، فإذا شاهد كون المسلمين في غاية القوة خافهم وترك هذه الأفعال المذمومة .

والقول الثاني : في هذا الباب ما رواه ابن جريج عن سليمان بن موسى قال : المراد كفار الجن .

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ﴾ فقال  
إنهم الجن .

ثم قال: "إن الشيطان لا يخبل أحداً في دار فيها فرس عتيق" وقال الحسن: سهيل الفرس  
يرهب الجن، وهذا القول مشكل، لأن تكثير آيات الجهاد لا يعقل تأثيره في إرهاب الجن .  
والقول الثالث: أن المسلم كما يعاديه الكافر، فكذلك قد يعاديه المسلم أيضاً، فإذا كان  
قوي الحال كثير السلاح، فكما يخافه أعداؤه من الكفار، فكذلك يخافه كل من يعاديه  
مسلماً كان أو كافراً .

ثم إنه تعالى قال: ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو عام في الجهاد وفي سائر  
وجوه الخيرات ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: يوف لكم أجره، أي لا يضيع في الآخرة  
أجره، ويعجل الله عوضه في الدنيا ﴿وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ﴾ أي لا تنقصون من الثواب، ولما  
ذكر ابن عباس هذا التفسير تلا قوله تعالى: ﴿اتَّ أَكَلَهَا وَلَمْ تظَلِمِ مِنْهُ شَيْئاً﴾ [الكهف  
: 33]. انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب ح 15 ص 148. 149﴾

(34/316)

---

## فصل

قال الجصاص :

قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾  
أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بإعداد السلاح والكرَاع قبل وقت القتال إرهاباً للعدو  
والتقدم في ارتباط الخيل استعداداً للقتال المشركين .

وقد روي في القوة أنها الرمي ، حدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا  
سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ عَنْ أَبِي  
عَلِيٍّ ثَمَامَةَ بْنِ شَفِيٍّ الْهَمْدَانِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِيَّ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾  
أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ .

وحدَّثنا عَبْدُ الْبَاقِيِّ بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ الْفَضْلِ قَالَ : حَدَّثَنَا فَضْلُ بْنُ  
سَحْبٍ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بِلَالٍ عَنْ عَمْرٍو عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ :  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ ارْمُوا وَارْكَبُوا ، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ  
تَرْكَبُوا ، وَكُلُّ لَهْوٍ الْمُؤْمِنِ بَاطِلٌ إِلَّا رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ أَوْ تَأْدِيْبَهُ فَرَسَهُ أَوْ مَلَاعِبَتَهُ أَمْرَأَتَهُ فَإِنَّهُنَّ مِنْ  
الْحَقِّ .

﴿ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ قَالَ :  
حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ : حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو  
سَلَامٍ عَنْ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
يُقُولُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ ،  
وَالرَّامِي بِهِ ،

وَمُنْبَلُهُ ؛ وَارْمُوا وَارْكَبُوا وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا ، لَيْسَ مِنَ اللَّهِو ثَلَاثَةٌ : تَأْدِيبُ  
الرَّجُلِ فَرَسَهُ وَمَلَأَ عَيْتَهُ أَهْلَهُ وَرَمِيَهُ بِقَوْسِهِ وَنَبَلَهُ ، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمِيَّ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ  
فَانْهَاهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا أَوْ قَالَ : كَفَرَهَا .

﴿

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْمُغِيرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ  
قَالَ : حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : حَدَّثَنَا الْجَرَّاحُ بْنُ مِنْهَالٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي  
سَلِيمَانَ مَوْلَى أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مِنْ  
حَقِّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُعَلِّمَهُ كِتَابَ اللَّهِ وَالسَّبَّاحَةَ وَالرَّمِيَّ ﴾ .

---

وَمَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ﴾ أَنَّهُ مِنْ مُعْظَمِ مَا يَجِبُ إِعْدَادُهُ  
مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى قِتَالِ الْعَدُوِّ، وَلَمْ يَنْفِ بِهِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَهُ مِنَ الْقُوَّةِ، بَلْ عُمُومُ اللَّفْظِ شَامِلٌ لِجَمِيعِ  
مَا يُسْتَعَانَ بِهِ عَلَى الْعَدُوِّ مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ السِّلَاحِ وَأَلَاتِ الْحَرْبِ.  
وَقَدْ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي الْقَتِيلِ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ:  
: حَدَّثَنَا كَثِيرُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ إِبْرَاهِيمَ الثَّمَالِيُّ عَنْ الْحَكَمِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ:  
﴿أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا نُحْفِيَ الْأُظْفَارَ فِي الْجِهَادِ وَقَالَ: إِنَّ الْقُوَّةَ  
فِي الْأُظْفَارِ،﴾ وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَا يُقَوِّي عَلَى الْعَدُوِّ فَهُوَ مَأْمُورٌ بِاسْتِعْدَادِهِ.  
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ فَذَمُّهُمْ عَلَى تَرْكِ الْإِسْتِعْدَادِ  
وَالتَّكْدِيمِ قَبْلَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ.  
وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ارْتِبَاطِ الْخَيْلِ مَا يُوَاطِئُ مَعْنَى الْآيَةِ، وَهُوَ

(37/316)

---

مَا حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِيِّ بْنُ قَانِعٍ قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ إِسْحَاقِ التُّسْتَرِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا  
أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ عَنْ ابْنِ لَهَيْعَةَ عَنْ عَبْدِ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ الْأَزْدِيِّ عَنْ

الْحُصَيْنُ بْنُ حَرْمَلَةَ الْمَهْرِيِّ عَنْ أَبِي الْمُبَرِّقِ قَالَ : سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْخَيْلُ مَعْقُودَةٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ وَالنَّيْلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَصْحَابُهَا مُعَانُونَ ، قَلَدُوهَا وَكَانُوا تَقْلِدُوهَا الْأَوْتَارَ .

(38/316)

﴿ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : بَيْنَ فِي الْخَبَرِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْخَيْرَ هُوَ الْأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ ، وَفِي ذَلِكَ مَا يُوجِبُ أَنْ ارْتِبَاطُهَا قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِذَا أُريدَ بِهِ الْجِهَادُ ؛ وَهُوَ يُدَلُّ أَيْضًا عَلَى بَقَاءِ الْجِهَادِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ إِذْ كَانَ الْأَجْرُ مُسْتَحَقًّا بِارْتِبَاطِهَا لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَلَا تَقْلِدُوهَا الْأَوْتَارَ ﴾ قِيلَ فِيهِ مَعْنِيَانِ : أَحَدُهُمَا : خَشْيَةُ اخْتِنَاقِهَا بِالْوَتْرِ ، وَالثَّانِي : أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا إِذَا طَلَبُوا بِالْأَوْتَارِ الدُّخُولَ قَلَدُوا وَخَيْلَهُمُ الْأَوْتَارَ يَدُلُّونَ بِهَا عَلَى أَنَّهُمْ طَالِبُونَ بِالْأَوْتَارِ مُجْتَهِدُونَ فِي قَتْلِ مَنْ يَطْلُبُونَهُمْ بِهَا ، فَأَبْطَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّلَبَ بِدُخُولِ الْجَاهِلِيَّةِ ؛ وَلِذَلِكَ ﴾ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : أَلَا إِنَّ كُلَّ دَمٍ وَمَا نُثِرَ فَهُوَ مَوْضِعٌ تَحْتَ قَدَمِي هَاتَيْنِ وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دَمُ رَيْبَعَةَ بِنِ الْحَارِثِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص ج 3 ص ﴾

(39/316)

وقال ابن العربي :

قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ .

فيها تسع مسائل : المسألة الأولى : أمر الله سبحانه وتعالى بإعداد القوة للأعداء بعد أن أكد في تقدمه التقوى ؛ فإن الله تعالى لو شاء لهزمهم بالكلام ، والتقل في الوجوه ، وحفنة من تراب ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه أراد أن يبلي بعض الناس ببعض ، بعلمه السابق وقضائه الناقد ؛ فأمر بإعداد القوى والآلة في فنون الحرب التي تكون لنا عُدَّةً ، وعليهم قُوَّةٌ ، ووعد على الصبر والتقوى بأمداد الملائكة العليا .

المسألة الثانية : روى الطبري وغيره : عن عتبة بن عامر ؛ قال : ﴿ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ ؛ فقال : أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ ﴾ ثلاثاً .

وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع ، قال : ﴿ مرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على نفرٍ من أسلمٍ ينتصلون بالسهم ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ ، فَإِنَّ آبَاكُمْ كَانَ رَامِيَا ، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ .

قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟ قَالُوا: وَكَيْفَ نَرْمِي، وَأَنْتَ مَعَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلُّكُمْ ❀ .

زَادَ الْحَاكِمُ فِي رِوَايَةٍ: ❀ فَلَقَدْ رَمَوْا عَامَةً يَوْمِهِمْ  
ذَلِكَ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا عَلَى السَّوَاءِ مَا نَضَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ❀ .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ❀ عَلِيٍّ قَالَ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَفْدِي رَجُلًا بَعْدَ سَعْدٍ، سَمِعْتُهُ  
يَقُولُ: ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ❀ .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ❀ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ: صَانِعُهُ  
يَحْتَسِبُ فِي صُنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالرَّامِي بِهِ، وَمُنْبَلُهُ ❀ .

وَفِي رِوَايَةٍ: ❀ وَالْمَمْدُ بِهِ، فَارْمُوا وَارْكَبُوا، وَلَئِنْ تَرَمُّوا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا، لَيْسَ مِنْ  
اللَّهُوِ ثَلَاثٌ: تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ، وَرَمِيَهُ بِقَوْسِهِ وَنَبْلِهِ.  
وَمَنْ تَرَكَ الرَّمِيَّ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ كَفَرَهَا ❀ .

وَقَدْ شَاهَدْتُ الْقِتَالَ مَرَارًا فَلَمْ أَرَفِي الْآلَةَ أَنْجَعَ مِنَ السَّهْمِ، وَلَا أَسْرَعَ مَنْفَعَةً مِنْهُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ❀ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ❀ الرِّبَاطُ: هُوَ حَبْسُ النَّفْسِ فِي



سَبِيلَ اللَّهِ حِرَاسَةً لِلشُّغُورِ أَوْ مُلَازِمَةً لِلأَعْدَاءِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ شَيْءٍ مِنْهُ فِي سُورَةِ آلِ  
عِمْرَانَ .

(41/316)

وَقَدْ رَوَى البُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ  
الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَمَوْضِعُ سَوْطِ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَالرَّوْحَةُ يُرْوِحُهَا العَبْدُ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ﴾ .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ كُلُّ  
مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلاَّ الَّذِي يَمُوتُ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ  
وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ ﴾ .

المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : وَأَمَّا رِبَاطُ الخَيْلِ : فَهُوَ فَضْلٌ عَظِيمٌ وَمَنْزِلَةٌ شَرِيفَةٌ .  
وَرَوَى الأئِمَّةُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الخَيْلُ ثَلَاثَةٌ :  
لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ .

(42/316)

فَأَمَّا الَّذِي هِيَ عَلَيْهِ وَزُرُّهُ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْرًا وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَهِيَ عَلَيْهِ وَزُرُّهُ ،  
وَأَمَّا الَّذِي هِيَ عَلَيْهِ سِتْرُهُ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَعْنِيًا وَتَعَفُّفًا ، وَلَمْ يَنْسُ حَقَّ اللَّهِ فِي ظُهُورِهَا فَهِيَ  
عَلَيْهِ سِتْرُهُ ، وَأَمَّا الَّذِي هِيَ لَهُ أَجْرُهُ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ  
فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٍ ،  
وَكَتَبَ لَهُ أَرْوَاتِهَا وَأَبْوَالَهَا حَسَنَاتٍ ، وَلَا يَقْطَعُ طَوْلَهَا فَتَسْتَنْ شَرَفًا أَوْ شَرَفِينَ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ  
ذَلِكَ حَسَنَاتٍ ، وَلَا مَرَبَّهَا صَاحِبَهَا عَلَى نَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَا يَرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ  
عَدَدَ مَا شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ ❁ .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ ❁ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ يَلُوبِي نَاصِيَةَ فَرَسٍ بِأَصْبَعِيهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : الْخَيْرُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيِ الْخَيْلِ إِلَى يَوْمِ  
الْقِيَامَةِ ❁ .

وَتَبَّتْ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ : ❁ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ  
النِّسَاءِ مِنَ الْخَيْلِ ❁ .  
خَرَجَهُ النَّسَائِيُّ .

المَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : الْمُسْتَحَبُّ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ الْإِنَاثُ قَبْلَ الذُّكُورِ : قَالَ عِكْرِمَةُ وَجَمَاعَةٌ

، وَهَذَا صَحِيحٌ ، فَإِنَّ الْأَنْثَى بَطْنُهَا كَنْزٌ ، وَظَهْرُهَا عِزٌّ .  
وَفَرَسٌ جُبْرِيْلٌ أَنْثَى

(43/316)

المَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : يُسْتَحَبُّ مِنَ الْخَيْلِ مَا رَوَى أَبُو وَهَبٍ الْجُشَمِيُّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ  
: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ عَلَيْكُمْ بِكُلِّ كُمَيْتٍ أَعْرَمَ مُحَجَّلٍ ، أَوْ أَدْهَمَ أَعْرَمَ  
مُحَجَّلٍ ، أَوْ أَشْقَرَ أَعْرَمَ مُحَجَّلٍ ﴾ .  
خَرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّنَسَائِيُّ .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ : ﴿ خَيْرُ الْخَيْلِ الْأَدْهَمُ  
الْأَقْرَحُ الْمُحَجَّلُ الْأَرْتَمُ ، ثُمَّ الْأَقْرَحُ الْمُحَجَّلُ طَلَقُ الْيَمِينِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَدْهَمَ فَكُمَيْتٌ عَلَى  
هَذِهِ الْهَيْئَةِ ﴾ .

المَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : رَوَى مُسْلِمٌ وَالتَّنَسَائِيُّ أَنَّهُ يَكْرَهُ الشَّكَالَ مِنَ الْخَيْلِ .  
وَبَيَّنَتْ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِنَّمَا الشُّؤْمُ  
فِي الْمَرْأَةِ ، وَالْفَرَسِ ، وَالِدَّارِ ﴾ .  
وَقَدْ بَيَّنَّا تَحْقِيقَ ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ .

المَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ يَعْنِي تَخِيفُونَ بِذَلِكَ أَعْدَاءَ  
اللَّهِ وَأَعْدَاءَكُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَقُرَيْشٍ ، وَكُفَّارِ الْعَرَبِ .  
﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ يَعْنِي فَارِسَ وَالرُّومَ .  
وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَمَّا فَارِسٌ فَنَطْحَةٌ أَوْ نَطْحَتَانِ ، ثُمَّ  
لَا فَارِسَ بَعْدَهَا .  
وَأَمَّا الرُّومُ ذَوَاتُ الْقُرُونِ فَكَلَّمَا هَلَكَ قَرْنٌ خَلَفَهُ آخِرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

(44/316)

---

المَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ رَبَّاطِ الْخَيْلِ ﴾ عَامٌّ فِي الْخَيْلِ كُلِّهَا وَأَجْوَدُهَا أَعْظَمُهَا  
أَجْرًا .  
وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ عَنْ مَالِكٍ قَالَ اللَّهُ: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ  
قُوَّةٍ وَمَنْ رَبَّاطِ الْخَيْلِ ﴾ فَارَى الْبَرَّادِينَ مِنَ الْخَيْلِ إِذَا أَجَازَهَا الْوَالِي ، وَكَذَلِكَ قَالَ سَعِيدُ  
بْنِ الْمُسَيَّبِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لابن العربي ح 2 ص ﴾

(45/316)

وقال السمرقندي :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

يعني السلاح.

وروى عقبه بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا

اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ قال: "الْإِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، الْإِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ" ثلاثاً.

وفي خبر آخر وزيادة: "لَهُوَ الْمُؤْمِنِ فِي الْخَلَاءِ وَقُوَّتُهُ عِنْدَ الْقِتَالِ".

وروي عن عكرمة قال: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ قال الحصون.

﴿ وَمَنْ رَبَّاطِ الْخَيْلِ ﴾ ، قال الإناث من الخيل.

ثم قال: ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ ﴾ ، أي تخوفون بالسلاح ﴿ عَدَّوَاللَّهِ وَعَدُّوَكُمْ ﴾ ، يعني تخوفون

بالسلاح كفار العرب ، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ﴾ ، يعني بني قريظة.

ثم قال: ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ﴾ ، يعني لا تعرفونهم.

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ ، يعرفهم ويعرفكم ، فأعدوا لهم أيضاً.

وقال مقاتل: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ﴾ أي من دون كفار العرب ، يعني اليهود.

وقال السدي: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ﴾ أهل فارس.

ثم قال ﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، يعني السلاح والخيل.

﴿ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ ﴾ ثوابه .

﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴾ ، أي لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً .

ويقال : إن الجن لا تدخل بيتاً فيه قوس وسهام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم ج 2 ص



(46/316)

وقال الثعلبي :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

أي من الآلات يكون قوته عليهم من الخيل والسلاح والكراع . صالح بن كيسان عن رجل عن عقبة بن مسافر الجهني " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، فقال : ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي " وروى ضمرة بن ربيعة عن رجاء بن أبي سلمة فقال : لقي رجلاً مجاهداً بمكة ومع مجاهد جوالق فقال مجاهد هذا من القوة ، ومجاهد يتجهز للغزو ، وقال عكرمة القوة الحصون .

﴿ وَمَنْ رَبَّاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الاناث] ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ ﴾ تخوفون ، ابن عباس : تخزون ، وقرأ

يعقوب : ترهبون بتشديد الهاء وهما لغتان : أرهبتة ورهبتة ﴿ عَدُّوا لِلَّهِ وَعَدُّوْكُمْ

وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴿٤٧﴾ قال مجاهد : بنو قريظة . السدي : أهل فارس . ابن زيد : المنافقون لا تعلمونهم لأنهم منكم يقولون : لا إله إلا الله ، ويغزون معكم ، وقال بعضهم : هم كفار الجن ، وقال بعضهم : هم كل عدو من المسلمين غير الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرّد بهم .

﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ ﴾ يدخر ويوفر لكم أجره ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان ح 4 ص ﴾

(47/316)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾

فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن القوة ذكور الخيل ، ورباط الخيل إنائها ، وهذا قول عكرمة .

والثاني : القوة السلاح ، قاله الكلبي .

والثالث : القوة التصافي واتفاق الكلمة .

والرابع : القوة الثقة بالله تعالى والرغبة إليه .

والخامس : القوة الرمي . روى يزيد بن أبي حبيب عن أبي عليّ الهمزاني عن عقبة بن عامر

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا

اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ الْإِنِّ الْقُوَّةَ الرَّمِيُّ " قالها ثلاثاً .

﴿ وَمَنْ رَبَّاطِ الْخَيْلِ ﴾ على قول عكرمة إناثها خاصة ، وعلى قول الجمهور على العموم

الذكور والإناث .

وقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "

ارتبطوا الخيل فإنَّ ظُهورها لكم عِزٌّ ، وأجوافها لكم كَنْزٌ " . ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدُوَّكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عدو الله بالكفر وعدوكم بالمباينة .

والثاني : عدو الله هو عدوكم لأن عدو الله عدو لأوليائه . والإرهاب : التخويف .

﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : هم بنو قريظة ، قاله مجاهد .

والثاني : أهل فارس والروم قاله السدي .

والثالث : المنافقون ؛ قاله الحسن وابن زيد .

والرابع : الشياطين ، قاله معاذ بن جبل .



والخامس: كل من لا تعرفون عداوته ، قاله بعض المتأخرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت

والعيون ح 2 ص ﴿

(48/316)

وقال ابن عطية:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين ، والضمير في قوله ﴿ لهم ﴾ عائد على الذين ينبذ إليهم العهد ، أو على الذين لا يعجزون على تأويل من تأول ذلك في الدنيا ، ويحتمل أن يعيده على جميع الكفار المأمور مجربهم في ذلك الوقت ثم استمرت الآية في الأمة عامة ، إذ الأمر قد توجه مجرب جميع الكفار وقال عكرمة مولى ابن عباس : " القوة " ذكور الخيل و " الرباط " إناثها ، وهذا قول ضعيف ، وقالت فرقة : القوة الرمي واحتجت بحديث عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي " ثلاثاً ، وقال السدي : القوة السلاح ، وذهب الطبري إلى عموم اللفظة ، وذكر عن مجاهد أنه رأي يتجهز وعنده جوالق فقال : هذا من القوة .

(49/316)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو الصواب ، و ﴿ الخيل ﴾ والمركوب في الجملة والمحمول عليه من الحيوان والسلاح كله والملابس الباهتة والآلات والنفقات كلها داخلة في القوة ، وأمر المسلمون بإعداد ما استطاعوا من ذلك ، ولما كانت الخيل هي أصل الحروب وأوزارها والتي عقد الخير في نواصيها وهي أقوى القوة وحصون الفرسان خصها الله بالذكر تشریفاً على قوله ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكائيل ﴾ [ البقرة : 98 ] وعلى نحو قوله ﴿ فأكهة ونخل ورمان ﴾ [ الرحمن : 68 ] وهذا كثير ، ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، " هذا في البخاري وغيره ، وقال في صحيح مسلم " جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً " ، فذكرت التراب على جهة التحفي به إذ هو أعظم أجزاء الأرض مع دخوله في عموم الحديث الآخر ، ولما كانت السهام من أنجع ما يتعاطى في الحرب وأنكاه في العدو وأقربه تناولاً للأرواح خصها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر والتنبيه عليها ، وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال " إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد الثلاثة من المسلمين الجنة ، صانعة والذي يحتسب في صنعته والذي يرمى به " وقال عمرو بن عبسة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من رمى بسهم في سبيل الله أصاب العدو أو أخطأ فهو كعتق رقبة " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ارموا واركبوا ، وأن

تموا أحب إليّ من أن تركبوا" و ﴿رباط الخيل﴾ جمع ربط ككلب وكلاب، ولا يكثر ربطها إلا وهي كثيرة، ويجوز أن يكون الرباط مصدراً من ربط كصاح صياحاً ونحوه لأن مصادر الثلاثي غير المزيد لا تنقاس، وإن جعلناه مصدراً من رباط فكأن ارتباط الخيل واتخاذها يفعله كل واحد لفعل آخر له فترابط المؤمنون بعضهم بعضاً، فإذا ربط كل واحد منهم فرساً لأجل صاحبه فقد حصل بينهم رباط، وذلك الذي حض في الآية عليه، وقد قال صلى الله عليه وسلم:

(50/316)

"من ارتبط فرساً في سبيل الله فهو كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها"، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وقرأ الحسن وعمر بن دينار وأبو حيوة "من رُبط" بضم الراء والباء وهو جمع رباط ككتاب وكتب، كذا نصبه المفسرون وفي جمعه وهو مصدر غير مختلف نظر و ﴿ترهبون﴾ معناه تفرعون وتخوفون، والرهبنة الخوف، قال طفيل الغنوي: ]

[البيسط

ويل أم حيّ دفعتم في نحورهم . . . بني كلاب غداة الرعب والرهب

ومنه راهب النصارى، يقال رهب إذا خاف، ف ﴿ترهبون﴾ معدى بالهمزة، وقرأ

الحسن ويعقوب " ترهبون " بفتح الراء وشد الهاء معدى بالتضعيف ، ورويت عن أبي عمرو بن العلاء قال أبو حاتم : وزعم عمرو أن الحسن قرأ " يرهبون " بالياء من تحت وخففها ، فهو على هذا المعدى بالتضعيف ، وقرأ ابن عباس وعكرمة " تخزون به عدو الله " .

قال القاضي أبو محمد : ذكرها الطبري تفسيراً لا قراءة ، وأثبتها أبو عمرو الداني قراءة ، وقوله ﴿ عدو الله وعدوكم ﴾ ذكر الصفتين وإن كانت متقاربة إذ هي متغايرة المنحى ، وبذكرهما يتقوى الذم وتتضح وجوه بغضنا لهم وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي " عدواً لله " بتونين عدو وبلاد في المكتوبة والمراد بهاتين الصفتين من قرب وصاقب من الكفار وكانت عداوته متحركة بعد ، ويجوز أن يراد بها جميع الكفار ويبين هذا من اختلافهم في قوله ﴿ وآخرين من دونهم ﴾ الآية ، قال مجاهد الإشارة بقوله ﴿ وآخرين ﴾ إلى قريظة ، وقال السدي : إلى أهل فارس ، وقال ابن زيد : الإشارة إلى المنافقين ، وقالت فرقة : الإشارة إلى الجن ، وقالت فرقة : هم كل عدو للمسلمين غير الفرقة التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرد بهم من خلفهم .

(51/316)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا الخلاف إنما ينبغي أن يترتب على ما يتوجه من المعنى في قوله ﴿ لا تعلمونهم ﴾ فإذا حملنا قوله ﴿ لا تعلمونهم ﴾ على عمومته ونقينا علم المؤمنين بهذه الفرقة المشار إليها جملة واحدة كان العلم بمعنى المعرفة لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد لم يثبت من الخلاف في قوله ﴿ آخرين ﴾ إلا قول من قال الإشارة إلى المنافقين وقول من قال : الإشارة إلى الجن ، وإذا جعلنا قوله ﴿ لا تعلمونهم ﴾ محاربين أو نحو هذا مما تفيد به نفي العلم عنهم حسنت الأقوال ، وكان العلم متعدياً إلى مفعولين .

(52/316)

---

قال القاضي أبو محمد : هذا الوجه أشبه عندي ، ورجح الطبري أن الإشارة إلى الجن وأسند في ذلك ما روي من أن صهيل الخيل ينفر الجن وأن الشيطان لا يدخل داراً فيها فرس الجهاد ونحو هذا ، وفيه على احتمال نظر ، وكان الأهم في هذه الآيات أن يبزر معناها في كل ما يقوي المسلمين على عدوهم من الإنس وهم المحاربون والذين يدافعون على الكفر ورهبتهم من المسلمين على عدوهم من الإنس وهم المحاربون والذين يدافعون على الكفر ورهبتهم من المسلمين هي النافعة للإسلام وأهله ورهبة الجن وفزعهم لا غناء له في ظهور الإسلام ، بل هو تابع لظهور الإسلام وهو أجني جداً والأولى أن يتأول المسلمين إذا ظهروا

وعزواها بهم من جاورهم من العدو والمخارب لهم ، فإذا اتصلت حالهم تلك بمن بعد من الكفار داخلته الهيبة وإن لم يقصد المسلمون إرهابهم فأولئك هم الآخرون ، ويحسن أن يقدر قوله ﴿ لا تعلمونهم ﴾ بمعنى لا تعلمونهم فازعين راهبين ولا تظنون ذلك بهم ، والله تعالى يعلمهم بتلك الحالة ، ويحسن أيضاً أن تكون الإشارة إلى المنافقين على جهة الطعن عليهم والتنبية على سوء حالهم وليستريب بنفسه كل من يعلم منها نفاقاً إذا سمع الآية ، ولفزعهم ورهبتهم غناء كثير في ظهور الإسلام وعلوه ، وقوله ﴿ من دونهم ﴾ بمنزلة قولك دون أن يكون هؤلاء ف " دون " في كلام العرب و " من دون " يقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة التي هي فيها القول ، ومنه المثل :

وأمر دون عبادة الودم . . . تفضل تعالى بعدة المؤمنين على إنفاقهم في سبيل الله بأن النفقة لا بد أن توفى أي تجازى ويثاب عليها ، ولزوم هذا هو في الآخرة ، وقد يمكن أن يجازي الله تعالى بعض المؤمنين في الدنيا مجازاة مضافة إلى مجازاة الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الحرر الوجيز ح 2 ص ﴾

(53/316)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

في المراد بالقوة أربعة أقوال .

أحدها : أنها الرمي ، رواه عقبه بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الحكم بن أبان : هي النبل .

والثاني : ذكور الخيل ، قاله عكرمة .

والثالث : السلاح ، قاله السدي ، وابن قتيبة .

والرابع : أنه كل ما يُتقوى به على حرب العدو من آلة الجهاد .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ يعني ربطها واقتناءها للغزو ؛ وهو عام في الذكور

والإناث في قول الجمهور .

وكان عكرمة يقول : المراد بقوله : " ومن رباط الخيل " : إناثها .

قوله تعالى : ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ ﴾ روى رويس ، وعبد الوارث : " تَرْهَبُونَ " بفتح الراء وتشديد

الهاء ، أي : تخيفون وترعبون به عدو الله وعدوكم ، وهم مشركو مكة وكفار العرب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أي : من دون كفار العرب .

واختلفوا فيهم على خمسة أقوال .

أحدها : أنهم الجن ، روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " هم الجن ، وإن

الشیطان لا یجبل أحداً فی داره فرس عتیق " والثانی : أنهم بنو قریظة ، قاله مجاهد .

والثالث : أهل فارس ، قاله السدی .

والرابع : المنافقون ، قاله ابن زید .

والخامس : اليهود ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسیر حـ 3 ص ﴾

(54/316)

وقال ابن جزى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ﴾

الضمیر للذین یبذل لهم العهد أو للذین لا یعجزون ، وحكمه عام فی جمیع الكفار ﴿ مِّن قُوَّةٍ

﴿ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا إن القوة الرمي» ﴾ ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾

قال الزمخشري : الرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله .

وقال ابن عطية : رباط الخيل جمع ربط أو مصدر ﴿ عَدُّواْ لِلَّهِ وَعَدُّوْكُمْ ﴾ يعني الكفار

﴿ وَأَخْرَيْنَ ﴾ يعني المنافقين : وقيل : بني قريظة ، وقيل : الجن لأنها تنفر من صهيل الخيل

، وقيل : فارس ، والأول أرجح لقوله مردوا على النفاق ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ قال

السهيلي : لا ينبغي أن يقال فيهم شيء ، لأن الله تعالى قال : لا تعلمونهم ، فكيف يعلمهم



أحد ، وهذا لا يلزم ، لأن معنى قوله لا تعلمونهم : لا تعرفونهم : أي لا تعرفون آحادهم وأعيانهم وقد يعرف صنفهم من الناس ، ألا ترى أنه قال مثل ذلك في المنافقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل ح 2 ص 68 ﴾

(55/316)

وقال القرطبي :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ﴾ أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوة للأعداء بعد أن أكد تقدمه التقوى .

فإن الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتغل في وجوههم ومجفنة من تراب ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكنه أراد أن يتلي بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ .

وكلما تعدّه لصديقك من خير أو لعدوك من شر فهو داخل في عدتك .

قال ابن عباس : القوة ها هنا السلاح والقسي .

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : " وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة إلا إن القوة الرميُّ إلا إن القوة الرميُّ إلا إن القوة الرميُّ " وهذا نصُّ رواه عن عقبة أبو علي ثمامة بن شُفِيّ الهمدانيّ ، وليس له في الصحيح غيره .

وحدث آخر في الرمي عن عقبة أيضاً قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يُلْهُوَ بأسهمه " وقال صلى الله عليه وسلم : " كلُّ شيءٍ يُلْهُوُ به الرجل باطل إلا رُمِيَهُ بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنه من الحق " ومعنى هذا والله أعلم : أن كل ما يتلّهى به الرجل مما لا يفيدُه في العاجل ولا في الآجل فائدة فهو باطل ، والإعراض عنه أولى .

وهذه الأمور الثلاثة فإنه وإن كان يفعلها على أنه يتلّهى بها وينشَطُ ، فإنها حق لاتصالها بما قد يفيد ، فإن الرمي بالقوس وتأديب الفرس جميعاً من معاون القتال . وملاعبة الأهل قد تودّي إلى ما يكون عنه ولد يوحد الله ويعبده ؛ فهذا كانت هذه الثلاثة من الحق .

(56/316)

---

وفي سنن أبي داود والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم :  
" إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد صانعه يحتسب في صنعه الخير والرامي ومُنْبَلَه  
" وفضل الرمي عظيم ومنفعته عظيمة للمسلمين ، ونكايته شديدة على الكافرين .  
قال صلى الله عليه وسلم : " يا بني إسماعيل ارموا فإن أباكم كان رامياً " وتعلم الفروسية  
واستعمال الأسلحة فرض كفاية .  
وقد يتعين .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ رَبَّاطِ الْخَيْلِ ﴾ وقرأ الحسن وعمر بن دينار وأبو حيوة " ومن  
رُبط الخيل " بضم الراء والباء ، جمع رباط ؛ ككتاب وكتب قال أبو حاتم عن ابن زيد :  
الرباط من الخيل الخمس فما فوقها ، وجماعته رُبط .  
وهي التي ترتبط ؛ يقال منه : رَبط يَربُط رُبطاً .  
وارتبط يرتبط ارتباطاً .  
ومرابط الخيل ومرابطها وهي ارتباطها بإزاء العدو .  
قال الشاعر :

أمر الإله برُبطها لعدوه . . .  
في الحرب إنَّ الله خير موفقٍ  
وقال مكحول بن عبد الله :

تلوم على ربط الجياد وحبسها . . .

وأوصى بها الله النبي محمداً

ورباط الخيل فضل عظيم ومنزلة شريفة .

وكان لعروة البارقي سبعون فرساً معدة للجهاد .

والمستحب منها الإناث ؛ قاله عكرمة وجماعة .

وهو صحيح ؛ فإن الأثني بطنها كنز وظهرها عزّ وفرس جبريل كان أثني .

وروى الأئمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخيل ثلاثة لرجل

أجر ولرجل ستر ولرجل وزر " الحديث .

ولم يخص ذكراً من أثني .

وأجودها أعظمها أجراً وأكثرها نفعاً .

(57/316)

---

وقد " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الرقاب أفضل ؟ فقال : " أغلاها ثمناً  
وأنفسها عند أهلها " وروى النسائي عن أبي وهب الجشمي وكانت له صحبة قال قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تسمّوا بأسماء الأنبياء وأحبُّ الأسماء إلى الله عز

وجل عبد الله وعبد الرحمن وارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفأها وقلدوها ولا  
تقلدوها الأوتار وعليكم بكل كُميت أغرَّ محجَّل أو أشقرَّ أغرَّ محجَّل أو أدهمَّ أغرَّ محجَّل  
" وروى الترمذي عن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " خير الخيل الأدهمُّ  
الأقرحُ الأَرثَمُ ثم الأقرحُ المحجَّل طلق اليمين فإن لم يكن أدهمَّ فكُميت على هذه الشَّيَّة "  
ورواه الدارمي عن أبي قتادة أيضاً ، " أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني أريد أن أشتري  
فرساً ، فأيتها أشتري ؟ قال : " اشترا دهمَّ أرثَم محجلاً طلق اليد اليمنى أو من الكُميت  
على هذه الشَّيَّة تغنم وتسلم " .

" وكان صلى الله عليه وسلم يكره الشَّكَّال من الخيل " والشكَّال : أن يكون الفرس في رجله  
اليمنى بياض وفي يده اليسرى ، أو في يده اليمنى ورجله اليسرى .  
خرَّجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ويذكر أن الفرس الذي قتل عليه الحسين بن علي رضي الله عنهما كان أشكل .

الثالثة فإن قيل : إن قوله ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ كان يكفي ؛ فلم خص  
الرَّمي والخيل بالذكر ؟ قيل له : إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها التي عُقد الخير في  
نواصيها ، وهي أقوى القوَّة وأشدَّ العُدَّة وحصون الفرسان ، وبها مجال في الميدان ، خصَّها  
بالذكر تشريفاً ، وأقسم بغيرها تكريماً .

فقال : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ [ العاديات : 1 ] الآية .

ولما كانت السهام من أنجع ما يُتعاطى في الحروب والنكايّة في العدوِّ وأقربها تناولاً للأرواح،  
خصّها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر لها والتنبيه عليها .

(58/316)

---

ونظير هذا في التنزيل ؛ "وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ" ومثله كثير .

الرابعة وقد استدل بعض علمائنا بهذه الآية على جواز وقف الخيل والسلاح، واتخاذ  
الخزائن والخزان لها عُدّة للأعداء .

وقد اختلف العلماء في جواز وقف الحيوان كالخيل والإبل على قولين : المنع ، وبه قال أبو  
حنيفة .

والصحة ، وبه قال الشافعي رضي الله عنه .

وهو أصح ؛ لهذه الآية ، ولحديث ابن عمر في الفرس الذي حمل عليه في سبيل الله وقوله  
عليه السلام في حق خالد : " وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً فإنه قد احتبس أذراعه  
وأعتاده في سبيل الله " الحديث .

وما روي " أن امرأة جعلت بعيراً في سبيل الله ، فأراد زوجها الحج ، فسألت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فقال : " دفعه إليه ليحج عليه فإن الحج من سبيل الله " " ولأنه مال

يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَجْهِ قُرْبَةٍ؛ فِجَازٌ أَنْ يُوقَفَ كَالرِّبَاعِ.

وَقَدْ ذَكَرَ السُّهَيْلِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَسْمِيَةَ خَيْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآلَةَ حَرْبِهِ.

مَنْ أَرَادَهَا وَجَدَهَا فِي كِتَابِ الْأَعْلَامِ.

الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ يَعْنِي تُخِيفُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدُوَّكُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَقَرِيْشٍ وَكُفَّارِ الْعَرَبِ.

﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ يَعْنِي فَارِسَ وَالرُّومَ؛ قَالَ السُّدِّيُّ.

وَقِيلَ: الْجَنِّ.

وَهُوَ اخْتِيَارُ الطَّبْرِيِّ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ كُلُّ مَنْ لَا تَعْرِفُ عِدَاوَتَهُ.

قَالَ السُّهَيْلِيُّ: قِيلَ هُمْ قُرَيْظَةُ.

وَقِيلَ: هُمْ مِنَ الْجَنِّ.

وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ فِيهِمْ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَالَ: ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ

يَعْلَمُهُمْ ﴾؛ فَكَيْفَ يَدَّعِي أَحَدٌ عِلْمًا بِهِمْ، إِلَّا أَنْ يَصِحَّ حَدِيثٌ جَاءَ فِي ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: "هَمُّ الْجَنِّ".

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان لا يخبل أحداً في دار فيها فرس عتيق" وإنما سُمِّيَ عتيقاً لأنه قد تخلص من الهجانة.

(59/316)

---

وهذا الحديث أسنده الحارث بن أبي أسامة عن ابن المليكي عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروي: أن الجن لا تقرب داراً فيها فرس، وأنها تنفر من صهيل الخيل.

السادسة قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي تصدّقوا.

وقيل: تنفقوه على أنفسكم أو خيلكم.

﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ في الآخرة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف،

إلى أضعاف كثيرة.

﴿ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي ج 8 ص ﴾

(60/316)

---



وقال الثعالبي :

قوله سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين ، وفي «صحيح مسلم» : «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ» ولما كانت الخيل هي أصل الحرب ، وأوزارها ، والتي عُقدَ الخير في نواصيها ، خصَّها الله تعالى بالذكر ، تشريفا لها ، ولما كانت السهام من أنجع ما يُعطى في الحرب وأنكاه في العدو وأقربه تناولا للأرواح ، خصَّها صلى الله عليه وسلم بالذكر والتنبية عليها .

\* ت \* : وفي «صحيح مسلم» ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمِيَّ ، وَتَرَكَهُ ، فَلَيْسَ مِنَّنَا ، أَوْ قَدْ عَصَى " ، وفي «سنن أبي داود ، والترمذي ، والنسائي» ، عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " إِنَّ اللَّهَ لَيُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ أَنْفُسٍ الْجَنَّةَ ؛ صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صُنْعَتِهِ الْخَيْرَ ، وَالرَّامِيَّ بِهِ ، وَمُنْبَلَهُ ، فَارْمُوا وَارْكَبُوا ، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا ، كُلُّ شَيْءٍ يُلْهُو بِهِ الرَّجُلُ ، بَاطِلٌ إِلَّا رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ ، وَمُلَاعَبَتَهُ امْرَأَتَهُ " انتهى .

ورباط الخيل : مصدرٌ من رَبط ، ولا يكثر رُبطها إلا وهي كثيرة ، ويجوز أن يكون مصدراً من رَابط ، وإذا رَبطَ كل واحد من المؤمنين فرسا لأجل صاحبه ، فقد حصلَ بينهم رباطٌ ،

وذلك الذي حضَّ عليه في الآية، وقد قال عليه السلام: "مَنْ ارْتَبَطَ فِرْسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ كَالْبَاسِطِ يَدِهِ بِالصَّدَقَةِ لَا يَقْبِضُهَا"، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

(61/316)

\* ت \* : وقد ذكرنا بعض ما ورد في فضل الرباط في آخر «آل عمران»؛ قال صاحبُ «التذكرة»: وعن عثمان بن عفان، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ رَاطَبَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَانَتْ لَهُ كَأَنَّ لَيْلَةً؛ صِيَامَهَا وَقِيَامَهَا"، وعن أبي بن كعب، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لِرِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُحْتَسِبًا مِنْ غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ - أَكْبَرُ أَجْرًا مِنْ عِبَادَةِ مِائَةِ سَنَةٍ؛ صِيَامَهَا وَقِيَامَهَا، وَرِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ - أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَكْبَرُ أَجْرًا - أَرَاهُ قَالَ: مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ سَنَةٍ؛ صِيَامَهَا وَقِيَامَهَا - فَإِنْ رَدَّ اللَّهُ إِلَى أَهْلِهِ سَالِمًا، لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ سِتَّةٌ أَلْفَ سَنَةٍ، وَيُكْتَبُ لَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَيَجْرِي لَهُ أَجْرُ الرِّبَاطِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"، قال القرطبيُّ في «تذكرته»: فدلَّ هذا الحديثُ على أن رِبَاطَ يَوْمٍ فِي رَمَضَانَ يَحْصُلُ لَهُ هَذَا الثَّوَابُ الدَّائِمَ، وَإِنْ لَمْ يَمُتْ مُرَابِطًا. خَرَجَ هَذَا الْحَدِيثُ، وَالَّذِي قَبْلَهُ ابْنُ مَاجَهَ. انْتَهَى مِنْ «التذكرة».

﴿ تَرْهَبُونَ ﴾ : معناه: تَخَوَّفُونَ وَتَفْزَعُونَ ، والرهبية: الخَوْفُ : وقوله: ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ ، فيه أقوال: قيل: هم المنافقون ، وقيل: فارس ، وقيل: غير هذا .  
قال \*ع\* : ويحسنُ أن يقدرَ قوله: ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ﴾ ، بمعنى: لَا تَعْلَمُونَهُمْ فَازِعِينَ رَاهِبِينَ .

وقال \*ص\* : لَا تَعْلَمُونَهُمْ بِمَعْنَى: لَا تَعْرِفُونَهُمْ ، فَيَتَعَدَّى لَوَاحِدٍ ، وَمَنْ عَدَّاهُ إِلَى اثْنَيْنِ ، قَدَرَهُ: مُحَارِبِينَ ، وَاسْتُبْعِدَ ؛ لِعَدَمِ تَقَدُّمِ ذِكْرِهِ ، فَهُوَ مَمْنُوعٌ عِنْدَ بَعْضِهِمْ ، وَعَزِيزٌ جَدًّا عِنْدَ بَعْضِهِمْ انْتَهَى . انْتَهَى ١٠ هـ ﴿ الجواهر الحسان ح 2 ص ﴾

(62/316)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

الإعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه وفي المراد بالقوة أقوال أحدها: أنها جميع أنواع الأسلحة والآلات التي تكون لكم قوة في الحرب على قتال عدوكم ، الثاني: أنها الحصون والمعقل الثالث: الرمي وقد جاءت مفسرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما رواه عقبه بن عامر قال "سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو على المنبر يقول:

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة إلا إن القوة الرمي ثلاثاً " أخرجه مسلم (خ) عن أبي أسيد  
قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يوم بدر حين صفنا لقريش إذا أكتبوكم "  
يعني غشوكم وفي رواية أكثروكم فارموهم واستبقوا نبلكم وفي رواية " إذا أكتبوكم فعليكم  
بالنبيل " (م) عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول "  
ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه " (م) عن فقيم  
اللخمي قال قلت لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير يشق عليك  
فقال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم أغانه قال قلت وما  
ذاك؟ قال سمعته يقول: " من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى " عن أبي نجيح  
السلمي قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " من بلغ بسهم فهو له درجة  
في الجنة " فبلغت يومئذ عشرة أسهم قال وسمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول  
" من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر " أخرجه النسائي والترمذي بمعناه وعنده قال  
عدل رقبة محررة وأخرجه أبو داود أيضاً عن عقبة بن عامر بمعناه قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)  
يقول " إن الله ليدخلن بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانعه  
يحتسب في عمله الخير والرامي به والممد به " وفي رواية " ومنبله فارموا واركبوا وأن ترموا  
أحب إليّ من أن تركبوا كل لهو باطل ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة تأديب الرجل فرسه  
وملاعبته أهله ورميه بقوسه أي نبهه إنهن من الحق ومن ترك

الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها أو كفرها "

أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي مختصر إلى نبه (خ) .

عن سلمة بن الأكوع قال " مر النبي ( صلى الله عليه وسلم ) على نفر من أسلم ينتضلون

بالقوس فقال النبي ( صلى الله عليه وسلم ) : " ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً

ارموا وأنا مع بني فلان " فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال النبي ( صلى الله عليه وسلم ) :

" ما لكم لا ترمون " ؟ فقالوا : كيف نرمي وأنت معهم ؟ فقال : " ارموا وأنا معكم كلكم "

القول الرابع : أن المراد بالقوة جميع ما يتقوى به في الحرب على العدو فكل ما هو آلة يستعان

بها في الجهاد فهو من جملة القوة المأمور باستعدادها وقوله ( صلى الله عليه وسلم ) " ألا أن

القوة الرمي " لا ينفي كون غير الرمي من القوة فهو كقوله ( صلى الله عليه وسلم ) " الحج

عرفة " وقوله : " الندم توبة " فهذا لا ينفي اعتبار غيره بل يدل على أن هذا المذكور من

أفضل المقصود وأجله فكذا ها هنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال في الحرب

وجهاد العدو بجميع ما يمكن من الآلات كالرمي بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم

الفروسية كل ذلك مأمور به إلا أنه من فروض الكفايات وقوله تعالى : ﴿ ومن رباط الخيل

﴿ يعني اقتناءها وربطها للغزو في سبيل الله والربط شد الفرس وغيره بالمكان للحفاظ  
وسمي المكان الذي يخص إقامة حفظة فيه رباطاً والمرابطة إقامة المسلمين بالثغور  
للحراسة فيها وربط الخيل الجهاد من أعظم من يستعان به .  
روي أن رجلاً قال لابن سيرين : إن فلاناً أوصى بثلاث ماله للحصون فقال ابن سيرين :  
يشترى به الخيل ويربطها في سبيل الله .  
وقال عكرمة : القوة الحصون ومن رباط الخيل يعني الإناث ووجه هذا أن العرب تربط  
الأنث من الخيل بالأفنية للنسل .  
وروي أن خالد بن الوليد كان لا يركب في القتال إلا الإناث لقلّة صهيلها .

(64/316)

---

وعن ابن محيرز قال : كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل  
عند الشنات والغارات .

وقيل : ربط الفحول أولى من الإناث لأنها أقوى على الكر والفر والعدو فكانت المحاربة  
عليها أولى من الإناث وقيل إن لفظ الخيل عام فيتناول الفحول والإناث فأبي ذلك ربط بنية  
الغزاة كان في سبيل الله ( ق ) عن عروة بن الجعد البارقي أن رسول الله ( صلى الله عليه

وسلم) قال " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة " (ق) .

عن ابن عمر أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال

(65/316)

---

" الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة " (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ( صلى الله عليه )  
وسلم) قال " من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه  
وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة " يعني حسنات (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ( صلى  
الله عليه وسلم ) قال " الخيل ثلاثة هي لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر ، فأما  
الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله زاد في رواية لأهل الإسلام فأطال لها في مرج أو  
روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان لها حسنات ولو أنها قطعت  
طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت له آثارها وأرواثها حسنات ولو أنها مرت بنهر  
فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات فهي لذلك الرجل أجر ورجل ربطها  
تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك الرجل ستر ورجل ربطها  
فخراً ورياءً ونواءً لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر " وسئل رسول الله ( صلى الله عليه )  
وسلم) عن الحمر فقال : ما أنزل عليّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفائزة فمن يعمل

مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره الطيل الحبل الذي يشد به الفرس وقت الرعي واستنان الجري والشرف الشوط الذي تجري فيه الفرس وقوله تغنياً يعني استغناء بها عن الطلب لما في أيدي الناس أما حق ظهورها فهو أن يحمل عليها منقطعاً إلى أهله وأما حق رقابها فقيل: أراد به الإحسان إليها .

وقيل: أراد به الحمل عليها فعبر بالرقبة عن الذات وقوله: نواء لأهل الإسلام النواء المعادة يقال نأوت الرجل مناواة إذا عادته .

وقوله تعالى: ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ يعني: تحوفون بتلك القوة وبذلك الرباط عدو الله وعدوكم يعني الكفار من أهل مكة وغيره .

(66/316)

---

وقال ابن عباس: تحزنون به عدو الله وعدوكم وذلك لأن الكفار إذا علموا أن المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الأسلحة والآلات والحرب وإعداد الخيل مربوط للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الإسلام بل يصير ذلك سبباً لدخول الكفار في الإسلام أو بذل الجزية للمسلمين .

وقوله تعالى: ﴿ وآخرين من دونهم ﴾ يعني وترهبون آخرين من دونهم اختلف العلماء



فيهم فقال مجاهد : هم بقرينة ، وقال السدي : هم فارس وقال ابن زيد هم المنافقون لقوله تعالى : ﴿ لا تعلمونهم ﴾ لأنهم معكم يقولون بألسنتهم لا إله إلا الله ﴿ الله يعلمهم ﴾ يعني أنهم منافقون وأورد على هذا القول أن المنافقين لا يقاتلون لإظهارهم كلمة الإسلام فكيف يخفون بإعداد القوة ورباط الخيل .

وأجيب عن هذا الإيراد أن المنافقين إذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آياتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويحزنهم فكان في ذلك إرهابهم وقال الحسن : هم كفار الجن وصحح هذا القول الطبري قال : لأن الله تعالى قال لا تعملونهم ولا شك بأن المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لعلمهم بأنهم مشركون ولأنهم حرب للمؤمنين أما الجن فلا يعلمونهم الله يعلمهم يعني يعلم أحوالهم وأماكنهم دونكم ويعضد هذا القول ما روي " أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) قال هم الجن وأن الشيطان لا يخيل أحداً في داره فرس عتيق " ذكر هذا الحديث ابن الجوزي وغيره من المفسرين بغير إسناد وقال الحسن : سهيل الخيل يهرب الجن .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله ﴾ قيل أراد به نفقة الجهاد والغزو وقيل هو أمر عام في كل وجه الخير والطاعة فيدخل فيه نفقة الجهاد وغيره ﴿ يوف إليكم ﴾ يعني أجره في الآخرة ويعجل لكم عوضه في الدنيا ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ يعني

وأتم لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن ج 3 ص



(67/316)

وقال أبو حيان :

﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ .

لما انفق في قصة بدر أن قصدوا الكفار بلا تكميل آلة ولا عدة وأمره تعالى بالتشريد ونبذ العهد للناقضين كان ذلك سبيلاً للأخذ في قتاله والتماؤ عليه فأمره تعالى للمؤمنين بإعداد ما قدروا عليه من القوة للجهاد والإعداد الارصاد وعلق ذلك بالاستطاعة لطفاً منه تعالى والمخاطبون هم المؤمنون والضمير في ﴿ لهم ﴾ عائد على الكفار المتقدمي الذكر وهم المأمور مجربهم في ذلك الوقت ويعم من بعده .

وقيل : يعود على الذين ينبذ إليهم العهد والظاهر العموم في كل ما يتوقى به على حرب العدو مما أورده المفسرون على سبيل الخصوص والمراد به التمثيل كالرمي وذكر الخيل وقوة القلوب واتفاق الكلمة والحصون المشيدة وآلات الحرب وعددها والأزواد والملابس الباهية حتى أن مجاهداً رؤي يتجهز للجهاد وعنده جوائز فقال هذا من القوة وأما ما ورد

في صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وهو على المنبر يقول " ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ألا وإنّ القوة الرميّ ألا إنّ القوة الرميّ " فمعناه والله أعلم أنّ معظم القوة وأنكأها للعدو الرمي كما جاء " الحجّ عرفة " وجاء في فضل الرمي أحاديث وعلى ما اخترناه من عموم القوة يكون قوله ﴿ ومن رباط الخيل ﴾ تنصيص على فضل رباط الخيل إذا كانت الخيل هي أصل الحروب والخير معقود بنواصيها وهي مراكب الفرسان الشجعان ، وقال أبو زيد الرّباط من الخيل الخمس فما فوقها وجماعة ربط وهي التي ترتبط يقال : منه ربطاً وربطاً وارتبط انتهى ، قال :

تلوم على ربط الجياد وحبسها . . .

وأوصى بها الله النبيّ محمداً

(68/316)

---

قال ابن عطية : ﴿ ورباط الخيل ﴾ جمع ربط ككلب وكلاب ولا يكثر ربطها إلا وهي كثيرة ويجوز أن يكون الرّباط مصدراً من ربط كصاح صياحاً لأنّ مصادر الثلاثي غير المزيد لا تنقاس وإن جعلناه مصدراً من رباط وكان ارتباط الخيل واتخاذها يفعله كل واحد لفعل آخر فيربط المؤمنون بعضهم بعضاً فإذا ربط كل واحد منهم فرساً لأجل صاحبه فقد

حصل بينهم رباط وذلك الذي حضّ في الآية عليه وقال قال (صلى الله عليه وسلم) :  
" من ارتبط فرساً في سبيل الله فهو كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها " والأحاديث في هذا  
المعنى كثيرة انتهى ، فجوز في رباط أن يكون جمعاً لربط وأن يكون مصدراً لربط والرباط  
وقوله : لأنّ مصادر الثلاثي غير المزيد لا تنقاس ليس بصحيح بل لها مصادر مُنقاسة  
ذكرها النحويون ، وقال الزمخشري والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله ويجوز أن  
تسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال ، وقرأ  
الحسن وأبو حيوة وعمر بن دينار ومن ربط بضمّ الراء والباء وعن أبي حيوة والحسن أيضاً  
ربط بضمّ الراء وسكون الباء وذلك نحو كتاب وكتب وكتب ، قال ابن عطية : وفي جمعه  
وهو مصدر غير مختلف نظراته ، ولا يتعيّن كونه مصدراً ألا ترى إلى قول أبي زيد إنه من  
الخيل الخمس فما فوقها وإنّ جماعها ربط وهي التي ترتبط والظاهر عموم الخيل ذكورها  
وإناثها .

(69/316)

---

وقال عكرمة : ﴿ رباط الخيل ﴾ إناثها وفسر القوة بذكورها واستحبّ رباطها بعض  
العلماء لما فيها من النَّتاج كما قال : بطونها كنز ، وقيل : ﴿ رباط الخيل ﴾ الذكور منها لما

فيها من القوة والجلد على القتال والكفاح والكرّ والفرّ والعدو والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على ما من قوله ﴿ ما استطعتم ﴾ ، وقيل : على الإعداد ، وقيل : على القوة ، وقيل : على ﴿ رباط ﴾ و ﴿ ترهبون ﴾ ، قالوا : حال من ضمير ﴿ وأعدّوا ﴾ أو من ضمير ﴿ لهم ﴾ ويحصل بهذا الارتباط والإرهاب فوائد منها : إنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام واشتداد الخوف قد يلتزمون الجزية أو يسلمون أو لا يعينون سائر الكفار ، وقرأ الحسن ويعقوب وابن عقيل لأبي عمرو و ﴿ ترهبون ﴾ مشدداً عدي بالتضعيف كما عدى بالهمزة ، قال أبو حاتم وزعم عمرو أن الحسن قرأ يرهبون بالياء من تحت وخففها انتهى ، والضمير في يرهبون عائد على ما عاد عليه ﴿ لهم ﴾ وهم الكفار والمعنى أن الكفار إذا علموا بما أعددتهم للحرب من القوة ورباط الخيل خوفوا من يليهم من الكفار وأرهبوهم إذ يعلمونهم ما أتم عليه من الإعداد للحرب فيخافون منكم وإذا كانوا قد أخافوا من يليهم منكم فهو أشد خوفاً لكم .

وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد : تحزون به مكان ترهبون به وذكرها الطبري على جهة التفسير لا على جهة القراءة وهو الذي ينبغي لأنه مخالف لسواد المصحف ، وقرأ السلمي عدواً لله بالتثنية ولا م الجر ، قال صاحب اللوامح : فقيل أراد به اسم الجنس ومعناه أعداء الله وإنما جعله نكرة بمعنى العامة لأنها نكرة أيضاً لم تعرف بالإضافة إلى المعرفة لأنه اسم الفاعل ومعناه الحال والاستقبال ولا يتعرف ذلك وإن أضيف إلى المعارف وأما ﴿ عدوكم ﴾

﴿ فيجوز أن يكون كذلك نكرة ويجوز أن يكون قد تعرّف لإعادة ذكره ومثله رأيت صاحباً لكم فقال لي صاحبكم والله أعلم انتهى .

(70/316)

---

وذكر أولاً ﴿ عدوّ الله ﴾ تعظيماً لما هم عليه من الكفر وتقوية لذمهم وأنه يجب لأجل  
عداوتهم لله أن يقاتلوا ويبغضوا ثم قال ﴿ وعدوكم ﴾ على سبيل التحريض على قتالهم  
إذ في الطبع أن يعادي الإنسان من عاداه وأن يبغى له الغوائل والمراد بهاتين الصفتين من قرب  
من الكفار من ديار الإسلام من أهل مكة ومشركي العرب ، قيل ويجوز أن يراد جميع الكفار  
وآخرين من دونهم أصل دون أن تكون ظرف مكان حقيقة أو مجاز .

(71/316)

---

قال ابن عطية : ﴿ من دونهم ﴾ بمنزلة قولك دون أن تكون هؤلاء فدون في كلام العرب  
ومن دون تقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة التي فيها القول ومنه المثل : وأمر دون  
عبدة الوزم ، قال مجاهد وآخرين : بنو قريظة ، وقال مقاتل : اليهود ، وقال السدّي : أهل

فارس ، وقالت فرقة : كفار الجن ورجح الطبري واستند في ذلك إلى ما روي من أن صهيل الخيل تنفر الجن منه وأن الشياطين لا تدخل داراً فيها فرس الجهاد ونحو هذا ،  
وقالت فرقة : هم كل عدو للمسلمين غير الفرقة التي أمر النبي ( صلى الله عليه وسلم ) أن يشرد بهم من خلفهم ، وقال ابن زيد : هم المنافقون وهذا أظهر لأنه قال ﴿ لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ أي لا تعلمون أعيانهم وأشخاصهم إذ هم مستترون عن أن تعلموهم بالإسلام فالعلم هنا كالمعرفة تعدى إلى واحد وهو متعلق بالذوات وليس متعلقاً بالنسبة ومن جعله متعلقاً بالنسبة فقدّر مفعولاً ثانياً محذوفاً وقدره محارين فقد أبعده لأن حذف مثل هذا دون تقدّم ذكر ممنوع عند بعض النحويين وعزيز جداً عند بعضهم فلا يحمل القرآن عليه مع إمكان حمل اللفظ على غيره وتمكنه من المعنى وقدره بعضهم لا تعلمونهم فازغين راهبين الله يعلمهم بتلك الحالة والظاهر أن يكون إشارة إلى المنافقين كما قلنا على جهة الطعن عليهم والتنبية على سوء حالهم وليستريب بنفسه كل من يعلم منها نفاقاً إذا سمع الآية وبنزعهم ورهبتهم غنى كبير في ظهور الإسلام وعلوه ، وقال القرطبي ما معناه لا ينبغي أن يعين قوله ﴿ وآخرين ﴾ لأنه تعالى قال ﴿ لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ فكيف يدعي أحد علماً بهم إلا أن يصحّ حديث فيه عن الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) انتهى ، ثم حضّ تعالى على النفقة في سبيل الله من جهاد وغيره وكان الصحابة يحمل واحد الجماعة على الخيل والإبل وجّهز عثمان جيش العسرة بألف دينار يوفّ إليكم جزاؤه وثوابه من غير نقص

، وقيل هذه التوفية في الدنيا على ما أنفقوا مع ما

أعدّ لهم في الآخرة من الثواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط ح 4 ص ﴾

(72/316)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ﴾

توجيه الخطاب إلى المؤمنين لما أن المأمور به من وظائف الكل كما أن توجيهه فيما سبق وما لحق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكون ما في حيزه من وظائفه عليه الصلاة والسلام أي أعدوا لقتال الذين نبذ إليهم العهد وهبوا لحرابهم أو لقتال الكفار على الإطلاق وهو الأنسب بسياق النظم الكريم ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب كائناً ما كان وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر : " ألا إن القوة الرمي " قالها ثلاثاً . ولعل تخصيصه عليه الصلاة والسلام إياه بالذكر لإناقته على نظائره من القوى ﴿ وَمَنْ رَبَّاطِ الْخَيْلِ ﴾ الرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله تعالى فعال بمعنى مفعول أو مصدر سميت هي به يقال : ربط ربطاً ورباطاً ورباطاً ورباطة ورباطاً ، أو جمع ربيط كفصيل وفصال ، أو جمع ربيط ككعب وكعاب وكلب وكلاب ،



وقرىء رُبَط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط ، وعطفها على القوة مع كونها من جملتها  
 للإيدان بفضلها على بقية أفرادها كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ ﴾  
 أي تخوفون وقرىء تَرْهَبُونَ بالتشديد وقرىء تُخْزُونَ به والضمير لما استطعتم أو  
 للإعداد وهو الأنسب ومحل الجملة نصب على الحالية من فاعل أعدوا مرهين به أو من  
 الموصول أو من عائده المحذوف أي أعدوا ما استطعتموه مرهباً به ﴿ عَدَّوْا لِلَّهِ وَعَدَّوْكُمْ ﴾  
 وهم كفار مكة خصوصاً بذلك من بين الكفار مع كون الكل كذلك لغاية عتوهم ومجاوزتهم  
 الحد في العداوة ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ﴾ من غيرهم من الكفرة وقيل : هم اليهود وقيل :  
 المنافقون وقيل : الفرس ﴿ لَا تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم أو لا تعلمونهم كما هم  
 عليه من العداوة وهو الأنسب بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ أي لا غيره تعالى أيضاً : ﴿  
 وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ

(73/316)

شَيْءٍ ﴿ لإعداد العتادِ قل أو جل : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الذي أوضحه الجهاد ﴿ يُوفَّ ﴾  
 إِلَيْكُمْ ﴿ أي جزاؤه كاملاً ﴾ وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُمُونَ ﴿ بترك الإثابة أو بنقض الثواب ، والتعبير  
 عن تركها بانظلم مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلماً لبيان

كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح ،

وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى كما مر في تفسير قوله تعالى : ﴿

فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ . انتهى انتهى . ١٠ هـ ﴿ تفسير أبي

السعود ح 4 ص ﴿

(74/316)

وقال الأوسى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ﴾

خطاب لكافة المؤمنين لما أن المأمور به من وظائف الكل أي أعدوا لقتال الذين نبذ إليهم  
العهد وهيئوا لحراهم كما يقتضيه السباق أو لقتال الكفار على الاطلاق وهو الأولى كما  
يقتضيه ما بعده ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أي من كل ما يتقوى به في الحرب كأنما ما كان ،  
وأطلق عليه القوة مبالغة ، وإنما ذكر هذا لأنه لم يكن له في بدر استعداد تام فنبهوا على أن  
النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما  
تفسير القوة بأنواع الأسلحة ، وقال عكرمة : هي الحصون والمعقل .

وفي رواية أخرى عنه أنها ذكور الخيل .

وأخرج أحمد .

ومسلم .

وخلق كثير عن عقبة بن عامر الجهني قال : "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة إلا أن القوة الرمي قالها ثلاثا " والظاهر العموم إلا أنه عليه الصلاة والسلام خص الرمي بالذكر لأنه أقوى ما يتقوى بها فهو من قبيل قوله صلى الله عليه وسلم " الحج عرفة " .

وقد مدح عليه الصلاة والسلام الرمي وأمر بتعلمه في غير ما حديث ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام " كل شيء من هو الدنيا باطل إلا ثلاثة انتضالك بقوسك وتأديبك فرسك وملاعبتك أهلك فانها من الحق " وجاء في رواية أخرى النسائي وغيره " كل شيء ليس من ذكر الله تعالى فهو لغو وسهوا إلا أربع خصال مشى الرجل بين الغرضين وتأديب فرسه وملاعبته أهله وتعليم السباحة " وجاء أيضاً " انتضلوا واركبوا وأن تنتضلوا أحب إليّ ان الله تعالى ليدخل بالسهم والواحد ثلاثة الجنة صانعه محتسبا والمعين به والرامي به في سبيل الله تعالى " .

(75/316)

---



من التبعية، وجوز أن يكون جمع ربيط كفضيل وفصال أو جمع ربط ككعب وكعاب  
وكلب وكلاب.

وعن عكرمة تفسيره يانات الخيل وهو كتفسيره القوة بما سبق قريباً بعيد ، وذكر ابن المنيران  
المطابق للرمي أن يكون الرباط على بابهِ مصدرًا ، وعلى تفسير القوة بالحصون يتم  
التناسب بينه وبين رباط الخيل لأن العرب سميت الخيل حصوناً وهي الحصون التي لا تحاصر  
كما في قوله :

ولقد علمت على تجنبي الردا . . .

أن الحصون الخيل لا مدر القرى

وقال :

(76/316)

---

وحصني من الأحداث ظهر حصاني . . .

وقد جاء مدحها فيما لا يحصى من الأخبار وضح " الخيل معقود في نواصها الخير إلى يوم

القيامة " .

وأخرج أحمد عن معقل بن يسار .

والنسائي عن أنس لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل .

وميز صلى الله عليه وسلم بعض أصنافها على بعض .

فقد أخرج أبو عبيدة عن الشعبي في حديث رفعه " التمسوا الحوائج على الفرس الكميت الارثم المحجل الثلاث المطلق اليد اليمنى " .

وأخرج أبو داود .

والترمذي وحسنه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الشكال من الخيل " واختلف في تفسيره ففي النهاية الشكال في الخيل أن تكون ثلاث قوائم محجلة وواحدة مطلقة تشبيهاً بالشكال الذي يشكل به الخيل لأنه يكون في ثلاث قوائم غالباً وقيل : هو أن تكون الواحدة محجلة والثلاث مطلقة ، وقيل : هو أن تكون إحدى يديه وإحدى رجليه من خلاف محجلتين ، وإنما كرهه عليه الصلاة والسلام تفاؤلاً لأنه كالمشكول صورة ، ويمكن أن يكون جرب ذلك الجنس فلم يكن فيه نجابة ، وقيل : إذا كان مع ذلك أغرب زالت الكراهة لزوال شبه الشكال انتهى .

ولا يخفى عليك أن حديث الشعبي يشكل على القول الأول إلا أن يقال : إنه يخص عمومته وإن حديث التفاؤل غير ظاهر ، والظاهر التشاؤم وقد جاء " إنما الشؤم في ثلاث في الفرس والمرأة والدار " وحمله الطيبي على الكراهة التي سببها ما في هذه الأشياء من مخالفة الشرع

أو الطبع كما قيل شؤم الدار ضيقها وسوء جيرانها وشؤم المرأة عقمها وسلطنة لسانها  
وشؤم الفرس أن لا يغزي عليها ، لكن قال الجلال السيوطي في فتح المطلب المبرور : أن  
حديث التشاؤم بالمرأة والدار والفرس قد اختلف العلماء فيه هل هو على ظاهره أو  
مؤول ؟ والمختار أنه على ظاهره وهو ظاهر قول مالك انتهى .

(77/316)

---

ولا يعارضه ما صح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : ذكر الشؤم عند النبي صلى  
الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام : " إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة  
والفرس " فانه ليس نصا في استثناء نقيض المقدم وان حمله عياض على ذلك لاحتمال أن  
يكون على حد قوله صلى الله عليه وسلم : " قد كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون فإن  
يكن في أمتي منهم أحد فإنه عمر بن الخطاب " وقد ذكروا هناك أن التعليق للدلالة على  
التأكيد والاختصاص ونظيره في ذلك إن كان لي صديق فهو زيد فإن قائله لا يريد به الشك  
في صداقة زيد بل المبالغة في أن الصداقة مختصة به لا تتخطاه إلى غيره ولا مخطور في اعتقاد  
ذلك بعد اعتقاد أن المذكورات أمارات وأن الفاعل هو الله تبارك وتعالى : وقرأ الحسن ﴿  
وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ ﴾ بضم الباء وسكونها جمع رباط ، وعطف ما ذكر على القوة ببناء على

المعنى الأول لها للايدان بفضلها على سائر افرادها كعطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ ﴾ أي تخوفون به ، وعن الراغب أن الرهبة والرهب مخافة مع تحرز واضطراب وعن يعقوب أنه قرأ ﴿ تَرْهَبُونَ ﴾ بالتشديد .  
وقرأ ابن عباس .

(78/316)

---

ومجاهد ﴿ تَخْزُونَ ﴾ والضمير الجرور لما استطعتم أو للاعداد وهو الأنسب ، والجملة في محل نصب على الحالية من فاعل أعدوا أي أعدوا مرهبين به ، أو من الموصول كما قال أبو البقاء ، أو من عائدة المحذوف أي أعدوا ما استطعتموه مرهبا به ، وفي الآية إشارة إلى عدم تعين القتال لأنه قد يكون لضرب الجزية ونحوه مما يترتب على ارهاب المسلمين بذلك ﴿ عَدُوَّ اللَّهِ ﴾ المخالفين لأمره سبحانه ﴿ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ المتربصين بكم الدوائر ، والمراد بهم على ما ذكره جمع أهل مكة وهم في الغاية القصوى من العداوة ، وقيل : المراد هم وسائر كفاء العرب ﴿ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أي من غيرهم من الكفرة ، وقال مجاهد : هم بنو قريظة ، وقال مقاتل : وابن زيد : هم المنافقون ، وقال السدي : هم أهل فارس .  
وأخرج الطبراني .



وأبو الشيخ .

وابن المنذر .

وابن مردويه .

وابن عساكر .

وجماعة عن يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " هم الجن ولا يخبل الشيطان إنساناً في داره فرس عتيق " وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً ، واختاره الطبري وإذا صح الحديث لا ينبغي العدول عنه ، وقوله سبحانه : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ لا غير في غاية الظهور وله وجه على غير ذلك وإطلاق العلم على المعرفة شائع وهو المراد هنا كما عرفت ولذا تعدى إلى مفعول واحد ، وإطلاق العلم بمعنى المعرفة على الله تعالى لا يضر .

(79/316)

---

نعم منع الأكثر إطلاق المعرفة عليه سبحانه وجوزه البعض بناءً على إطلاق العارف عليه تعالى في " نهج البلاغة " وفيه بحث ، وبالجملة لا حاجة إلى القول بأن الإطلاق هنا للمشاكلة

لما قبله ، وجوز أن يكون العلم على أصله ومفعوله الثاني محذوف أي لا تعلمونهم معادين أو محاربين لكم بل الله تعالى يعلمهم كذلك وهو تكلف ، واختار بعضهم أن المعنى لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة وقال : إنه الأنسب بما تفيده الجملة الثانية من الحصر نظراً إلى تعليق المعرفة بالأعيان لأن أعيانهم معلومة لغيره تعالى أيضاً وهو مسلم نظراً إلى تفسيره ، وأما الاحتياج إليه في تفسير النبي صلى الله عليه وسلم ففيه تردد .

﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ ﴾ جل أو قل ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهي وجوه الخير والطاعة ويدخل في ذلك النفقة في الإعداد السابق والجهاد دخولاً أولياً ، وبعضهم خصص اعتباراً للمقام ﴿ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ ﴾ أي يؤدي بتمامه والمراد يؤدي إليكم جزاؤه فالكلام على تقدير المضاف أو التجوز في الإسناد ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴾ بترك الإثابة أو بنقص الثواب ، وفي التعبير عن ذلك بالظلم مع أن له سبحانه أن يفعل ما يشاء للمبالغة كما مر . انتهى انتهى .

هـ ﴿ روح المعاني ح 10 ص ﴾

(80/316)

وقال القاسمي :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ﴾

أي: لقتال ناقضي العهد السابق ذكرهم، أو الكفار مطلقاً، وهو الأنسب بسياق النظم  
الكريم ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أي: من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها، أطلق  
عليه القوة مبالغة .

قال الشهاب: وإنما ذكر لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنبهوا على أن النصر من غير  
استعداد لا يتأتى في كل زمان .

﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ الرباط في الأصل مصدر ربط، أي: شد، ويطلق بمعنى المربوط  
مطلقاً، كثر استعماله في الخيل التي تربط في سبيل الله، فالإضافة إما باعتبار عموم المفهوم  
الأصلي، أو بملاحظة كون الرباط مشتركاً بين معانٍ آخر، كانتظار الصلاة وملازمة ثغر  
العدو، والمواظبة على الأمر، فإضافته لأحد معانيه للبيان، كعين الشمس، ومنه يعلم أنه  
يجوز إضافة الشيء لنفسه إذا كان مشتركاً .

وإذا كان من إضافة المطلق للمقيد، فهو على معنى من التبعية .

وقد يكون الرباط جمع ربيط، كفصيل وفصال .

قال في "التاج": يقال: نعم الربيط هذا، لما

يرتبط من الخيل، ثم إن عطفها على القوة مع كونها من جملتها للإيدان بفضلها على بقية  
أفرادها، كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ ﴾ أي: تخوفون بذلك  
الإعداد ﴿ عَدُوَّ اللَّهِ ﴾ وهو المثبت له شريكاً، المبطل لكلمته ﴿ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ أي:

الذي يظهر عداوتك ، فتخوفونهم لئلا يجار بكم باعتقاد القوة في أنفسهم دونكم .

تنبيه :

دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية ، إنقاء بأس العدو وهجومه .

(81/316)

---

ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية ، أيام حضارة الإسلام ، كان الإسلام عزيزاً عظيماً ،  
أبي الضيم ، قوي القنا ، جليل الجاه ، وفير السنا ، إذا نشر لواء سلطته على منبسط  
الأرض ، فبفض على ناصية الأقطار والأمصار ، وخضد شوكة المستبدين الكافرين ،  
وزحزح سجوف الظلم والإستعباد ، وعاش بنوه أحقاباً متتالية وهم سادة الأمم ، وقادة  
مشعوب ، وزمام الحول والطول وعطب روعي العز والمجد ، لا يستكينون لقوة ، ولا  
يرهبون لسطوة .

وأما اليوم ، فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف فأهملوا  
فرضاً من فروض الكفاية ، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض ولذا تعاني اليوم من  
غصته ما تعاني ، وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية ، ولا ترى فيها معامل للأسلحة  
، وذخائر الحرب ، بل كلها مما يشتري من بلاد العدو ؟

أما أن لها أن تتنبه من غفلتها ، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية ؟ فلقد ألقى عليها تنقص العدو وبلادها من أطرافها درساً يجب أن تدبره ، وتلافي ما فرطت به قبل أن يداهم ما بقي منها بجيله ورجله ، فيقضي - والعياذ بالله - على الإسلام وممالك المسلمين ، لاستعمار الأمصار ، واستعباد الأحرار ، ونزع الإستقلال المؤذن بالدمار . وبالله الهداية .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَيْنَ آي : وترعبون قوماً آخرين ﴾ ﴿ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ آي : من دون من يظهر عداوتكم ، وهم المنافقون ﴾ ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ﴾ آي : أنهم يعادونكم ﴾ ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ آي : أنهم أعداؤكم ، يظهرون عداوتهم إذا رأوا ضعفكم .

(82/316)

---

ثم شجعهم سبحانه على إنفاق المال في إعداد القوة ، ورباط الخيل ، مبشراً لهم بتوفية جزائه كاملاً ، بقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ آي : الذي أوضحه الجهاد : ﴿ يُوفِّ إِلَيْكُمْ ﴾ آي : في الدنيا من الفيء والغنيمة والجزية والخراج ، وفي الآخرة بالثواب المقيم : ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴾ آي : بترك الإثابة .

تنبيهات :

الأول: هذه الآية أصل في كل ما يلزم إعداده للجهاد من الأدوات .

الثاني: في قوله تعالى: ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ ﴾ إشارة إلى التجافي عن أن يكون الإعداد لغير الإرهاب كالخيلاء .

وفي حديث الإمام مالك عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: > الخيل ثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر ولرجل وزر، فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً لأهل الإسلام، فهي على ذلك وزر < .

الثالث: ما ذكرناه في تأويل الآخرين من أنهم المنافقون، يشهد له قوله تعالى ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل ج 8 ص 325 . 327 ﴾

(83/316)

وقال السعدي:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ .

أي ﴿ وَأَعِدُّوا ﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم . ﴿ مَا

اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴿٣٢٥﴾ أي: كل ما تقدرُون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة [ ص 325 ] ونحو ذلك مما يعين على قتالهم ، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات ، والبنادق ، والطائرات الجوية ، والمراكب البرية والبحرية ، والحصون والقلاع والخنادق ، وآلات الدفاع ، والرأبي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم ، وتعلم الرَّمِي ، والشجاعة والتدبير .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿الْإِنِّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ﴾ ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان ، وهي إرهاب الأعداء ، والحكم يدور مع علته .

فإذا كان شيء موجود أكثر إرهاباً منها ، كالسيارات البرية والهوائية ، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد ، كانت مأموراً بالاستعداد بها ، والسعي لتحصيلها ، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة ، وجب ذلك ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب ﴿وقوله: ﴿تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم . ﴿وآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ ممن سيقا تلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم ، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك النفقات

المالية في جهاد الكفار .

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿ يُوفِّ إِلَيْكُمْ ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفاً ضعفاً كثيراً ، حتى إن النفقة في سبيل الله ، تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ أَي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئاً . انتهى انتهى . اهـ ﴾ تفسير السعدي ص 324 .

﴿ 325 ﴾

(84/316)

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

قَالَ تَعَالَى : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ  
أَيُّ : إِنَّ شَرَّ مَا يَدْبُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ عِنْدَ اللَّهِ أَيُّ فِي حُكْمِهِ الْعَدْلَ عَلَى الْخَلْقِ ، هُمْ  
الْكَافِرُ الَّذِينَ جَمَعُوا مَعَ أَصْلِ الْكُفْرِ الْأَصْرَارَ عَلَيْهِ وَالرُّسُوحَ فِيهِ بِحَيْثُ لَا يُرْجَى إِيْمَانُهُمْ  
جُمْلَتُهُمْ أَوْ إِيْمَانُ جُمُوهَرِهِمْ ؛ لِأَنَّهْمُ بَيْنَ رُؤْسَاءِ حَاسِدِينَ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
مُعَانِدِينَ لَهُ جَاحِدِينَ بآيَاتِ اللَّهِ الْمُؤَيَّدَةَ لِرِسَالَتِهِ عَلَى عِلْمٍ ، عَلَى التَّقْلِيدِ لَا يَنْظُرُونَ فِي  
الدَّلَائِلِ وَالآيَاتِ ، وَلَا يُبْحَثُونَ فِي الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ ، حَتَّى حَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى تَقْضِ الْعُهُودِ ،



وَنَكْتِ الْأَيْمَانَ بِحَيْثُ لَا حِيلَةَ فِي الْحَيَاةِ مَعَهُمْ أَوْ فِي جَوَارِهِمْ حَيَاةً سَلْمًا وَأَمَانَ كَمَا ثَبَتَ  
بِالتَّجْرِبَةِ .

(85/316)

عَبَّرَ عَنْهُمْ بِالذَّوَابِّ وَهُوَ اللَّفْظُ الَّذِي غَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْبَهَائِمِ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ أَوْ فِيمَا يُرَكَّبُ  
مِنْهَا لِإِفَادَةِ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ شَرَارِ الْبَشَرِ فَقَطُّ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ مِنْ عَجَمَاوَاتِ الذَّوَابِّ ؛ لِأَنَّ فِيهَا  
مَنَافِعَ لِلنَّاسِ ، وَهَوْلَاءَ لَا خَيْرَ فِيهِمْ ، وَلَا نَفْعَ لِغَيْرِهِمْ مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُمْ لَشِدَّةٌ تَعْصِبُهُمْ لِجِنْسِهِمْ قَدْ  
صَارُوا أَعْدَاءَ لِسَائِرِ الْبَشَرِ . كَمَا قَالَ فِي وَصْفِ أَمْثَالِهِمْ : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ  
أَوْ يُعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (25 : 44) وَكَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ 22 مِنْ

هَذِهِ السُّورَةِ : إِنَّ شَرَّ الذَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ

الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ وَقَدْ اقْتَبَسَ أَسَاذَنَا الْإِمَامُ هَذَا الْاسْتِعْمَالَ فَقَالَ فِي مَقَالَةٍ مِنْ  
مَقَالَاتِ الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى : وَكَثِيرٌ مِمَّنْ عَلَى شَكْلِ الْإِنْسَانِ يَحْيَا حَيَاتَهُ هَذِهِ بَرُوحِ حَيَوَانٍ آخَرَ ،  
وَهُوَ يُعَانِي تَحْصِيلَ شَهَوَاتِهَا أَوْ قَالَ كَلِمَةً أُخْرَى قَرِيبَةً مِنْهَا أَكْثَرَ مِمَّا يُعَانِيهِ الْإِنْسَانُ فِي إِبْرَازِ  
مَزَايَا الْإِنْسَانِ .

(86/316)

---

وَقَالَ: الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَبَّرَ عَنْهُمْ بِفِعْلِ الْكُفْرِ دُونَ الْوَصْفِ (الْكَافِرُونَ) لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ فَعَرَضَ لَهُمُ الْكُفْرُ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي جُمْلَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا كَفَرُوا بِمَنْ قَبْلَهُ، وَهُمْ فِي عُرْفِ الْقُرْآنِ مُتَكَافِلُونَ مُتَشَابِهُونَ، آخِرُهُمْ فِي ذَلِكَ كَأَوْلِهِمْ، وَهُمْ أَظْهَرُ فِي يَهُودِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَصْرِ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ سَيَبْعَثُ النَّبِيَّ الْكَامِلَ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ مُوسَى فِي التَّوْرَةِ كَمَا تَقَدَّمَ مُفَصَّلًا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَمُجْمَلًا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَغَيْرِهَا . وَكَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُبْعَثُ مِنَ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّ مِنْ نُصُوصِ التَّوْرَةِ الْمَوْجُودَةِ إِلَى الْآنِ أَنَّهُ تَعَالَى يُبْعَثُ لَهُمْ نَبِيًّا مِثْلَ مُوسَى بَيْنَ بَنِي إِخْوَتِهِمْ أَيْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَكَانُوا يَطْمَعُونَ فِي أَنْ يَكُونَ هَذَا النَّبِيُّ مِنْهُمْ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ يَكْفِي فِي صِحَّةِ خَبَرِ التَّوْرَةِ ظُهُورُهُ بَيْنَ الْعَرَبِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّةَ بَزَعَهُمْ مُحْتَكِرَةً مُحْتَجِنَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، عَلَى مَا اعْتَادُوا مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّوِيلِ .

(87/316)

---

وَقَالَ: فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ "كَفَرُوا" لَا تَقْتَضِي الثَّبَاتَ عَلَى الْكُفْرِ دَائِمًا، فَعَطَفَ عَلَيْهَا الْإِخْبَارَ بِأَنَّ كُفْرَهُمْ دَائِمٌ لَا يَرْجِعُونَ عَنْهُ فِي جُمْلَتِهِمْ، حَتَّى يُبَيِّنَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ

مِمَّا كَانُوا يَرْجِعُونَ مِنْ إِيْمَانِهِمْ ، وَهَذَا لَا يُنَافِي وَقُوعَ الْإِيْمَانِ مِنْ بَعْضِهِمْ وَقَدْ وَقَعَ ، وَهَذَا  
الْخَبْرُ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ، ثُمَّ أَيَّاسُهُمْ مِنْ ثَبَاتِهِمْ عَلَى السَّلَامِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ بِمُقْتَضَى الْعَهْدِ بَعْدَ  
إِيْيَاسِهِمْ مِنْ اهْتِدَائِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَالَ :  
الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتَقِضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ فَ "الَّذِينَ" هَذِهِ بَدَلٌ مِنَ  
الْأُولَى أَوْ عَطْفٌ بَيَانٌ لَهَا ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَدَ مَعَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ  
عَقِبَ هِجْرَتِهِ إِلَيْهَا عَهْدًا أَقْرَهُمْ فِيهِ عَلَى دِينِهِمْ ، وَأَمَّنَّهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ،

(88/316)

---

فَنَقَضَ كُلُّ مِنْهُمْ عَهْدَهُ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : مِنْهُمْ قِيلَ : مَعْنَاهُ أَخَذْتَ الْعَهْدَ مِنْهُمْ وَقِيلَ : " مِنْ "   
صِلَةٌ وَالْمُرَادُ عَاهَدْتُهُمْ ، وَالْمُبَادِرُ أَنَّهَا لِلتَّبَعِيضِ أَيُّ عَاهَدْتَ بَعْضَهُمْ ، وَالْمُرَادُ بِهِمْ طَوَائِفُ  
يَهُودِ الْمَدِينَةِ ، وَلَا يَظْهَرُ التَّبَعِيضُ فِيهِ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الْآيَاتُ فِي يَهُودِ بِلَادِ الْعَرَبِ كُلِّهِمْ ، وَقِيلَ :  
قُرَيْظَةُ ، بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ أَصْلَ الْكَلَامِ فِي يَهُودِ الْمَدِينَةِ وَهُمْ مِنْهُمْ ، وَقِيلَ : زُعَمَاءُ وَهُمْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا  
عَقْدَ الْعَهْدِ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ أَصْلَ الْكَلَامِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَإِنَّمَا قَالَ  
: (يَنْتَقِضُونَ) بِفِعْلِ الْاسْتِقْبَالِ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَقَضَوْهُ قَبْلَ نَزُولِ الْآيَةِ ، لِإِفَادَةِ اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى  
ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هَفْوَةً رَجَعُوا عَنْهَا ، وَنَدِمُوا عَلَيْهَا كَمَا سَيَأْتِي عَنْ بَعْضِهِمْ ، بَلْ أَنَّهُمْ

يُنْقِضُونَهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَإِنْ تَكَرَّرَ ، وَهُوَ يَصْدُقُ عَلَى عُهُودِ طَوَائِفِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ  
الْمَدِينَةِ فِي جُمْلَتِهِمْ ، وَهُمْ ثَلَاثُ طَوَائِفٍ كَمَا سَيَأْتِي ، وَيَصْدُقُ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَحَدَهُمْ  
وَكَانُوا أَشَدَّهُمْ كُفْرًا ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ تَكَرَّرَ عَهْدُهُ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . لَهُمْ . قَالَ بَعْضُ  
الْمُفَسِّرِينَ ، وَعَزَى إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ : هُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ ، تَقَضُوا عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ . وَأَعَانُوا عَلَيْهِ بِالسَّلَاحِ فِي يَوْمِ بَدْرٍ ثُمَّ قَالُوا نَسِينَا وَأَخْطَأْنَا ، فَعَاهَدَهُمُ الثَّانِيَةَ

(89/316)

فَنَقَضُوا الْعَهْدَ ، وَمَالُوا الْكُفْرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . يَوْمَ الْخَنْدَقِ ،  
وَرَكِبَ زَعِيمُهُمْ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ إِلَى مَكَّةَ فَحَالَفَهُمْ عَلَى مُحَارَبَةِ النَّبِيِّ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ . وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ فِي نَقْضِ الْعَهْدِ ، وَلَا يَتَّقُونَ مَا قَدْ يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ مِنْ قِتَالِهِمْ وَالظَّرِّ بِهِمْ  
. وَسَيَأْتِي بَعْضُ التَّفْصِيلِ لِمُعَامَلَةِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَرَسُولِ السَّلَامِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .  
لِلْيَهُودِ بَعْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ .

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حُكْمَهُمْ بِقَوْلِهِ لِرَسُولِهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . : فَأِمَّا تَتَّقِنَهُمْ فِي الْحَرْبِ  
قَالَ الرَّاعِبُ : التَّقْفُ الْحِذْقُ فِي إِدْرَاكِ الشَّيْءِ وَفِعْلُهُ ، وَمِنْهُ اسْتَعِيرَ الْمُثَاقِقَةُ وَرُمِحَ مُثَقِّفٌ  
وَمَا يُتَّقَفُ بِهِ الثَّقَافُ . . . ( قَالَ ) : ثُمَّ يَجُوزُ بِهِ فَيُسْتَعْمَلُ فِي الْإِدْرَاكِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَعَهُ

ثقافة، واستشهد بهذه الآية وغيرها، وقال غيره: هو يدل على إدراكهم مع التمكن منهم،  
والظهور عليهم. وفيه إيدان بأنهم سيحاربونه. صلى الله عليه وسلم. لأن نقض العهد  
يكون بالحرب، أو بما يقتضيها ويستلزمها، وذلك من أنباء الغيب، إذ كان

(90/316)

قبل وقوعه عقب غزوة بدر والمعنى: فإن تدرك هؤلاء الناقضين لعهدهم، وتصادفهم في  
الحرب ظاهراً عليهم فشرد بهم من خلفهم أي: فنكل بهم تنكيلاً يكونون به سبباً لشروء  
من وراءهم من الأعداء وتفرقتهم كالإبل الشاردة النادرة اعتباراً بحالهم. والمراد بمن  
خلف يهود المدينة: كفار مكة وأعدائهم من مشركي القبائل الموالية لهم، فإنهم هم الذين  
تواطؤوا مع اليهود الناكثين لعهدهم. صلى الله عليه وسلم. على قتاله، وإنما أمر الله تعالى  
رسوله. صلى الله عليه وسلم. بالاثخان في هؤلاء الأعداء الذين تكررت مسألتهم،  
وتجديده لعهدهم بعد نقضه، لئلا ينخدع مرة أخرى بكذبهم لما جبل عليه من الرحمة  
وحب السلم، وعدة الحرب ضرورة اجتماعية تترك إذا زالت الضرورة الدافعة إليها على  
القاعدة العامة التي ستأتي في آية: وإن جنحوا للسلم فاجنح لها (61) وهؤلاء اليهود  
أوهموه المرة بعد المرة أنهم يرغبون في السلم معذرين عن نقضهم للعهد، وكانوا في ذلك

مُخَادِعِينَ . وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ بِالْغَلْظَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِثْحَانَ فِيهِمْ لِتَرْبِيَّتِهِمْ ، وَاعْتِبَارِ  
أَمْثَالِهِمْ بِحَالِهِمْ دُونَ حُبِّ الْحَرْبِ أَوْ الطَّمَعِ فِي غَنَائِمِهَا ، قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

(91/316)

---

لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ أَيُّ : لَعَلَّ مَنْ خَلَفَهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ يَتَعَطَّوْنَ وَيَعْتَبِرُونَ ، فَلَا يُقَدِّمُونَ عَلَى الْقِتَالِ ،  
وَلَا يُعَوِّدُ الْمُعَاهِدُ مِنْهُمْ لِنَقْضِ الْعَهْدِ وَنَكَثِ الْأَيْمَانِ . وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ أَنَّهُ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . خَطَبَ النَّاسَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا  
تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُّوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلِّ  
السُّيُوفِ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ مَنْزِلِ الْكِتَابِ ، وَمُجْرِي السَّحَابِ ، وَهَازِمِ الْأَحْزَابِ ، اهْزِمِهِمْ  
وَأَنْصِرْنَا عَلَيْهِمْ " وَهَذَا يُؤَيِّدُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ مِنْ أَنَّ الْحَرْبَ لَيْسَتْ مَحْبُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَا  
عِنْدَ رَسُولِهِ لِذَاتِهَا ، وَلَا لِمَا فِيهَا مِنْ مَجْدِ الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا هِيَ ضَرُورَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ يُقْصَدُ بِهَا  
مَنْعُ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ ، وَإِعْلَاءُ كَلِمَةِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ ، وَدَحْضُ الْبَاطِلِ ، وَاكْتِفَاءُ شَرِّ عَمَلِهِ ،  
بِنَاءٍ عَلَى سُنَّةِ فَا مَّا الزَّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّثُ فِي الْأَرْضِ (13) :

(17) وَتُسَمَّى فِي عُرْفِ عَصْرِنَا سُنَّةَ الْإِتِّخَابِ الطَّبِيعِيِّ .

(92/316)

---

وَهَذَا الْإِرْشَادُ الْحَرْبِيُّ فِي اسْتِعْمَالِ الْقَسْوَةِ مَعَ الْبَادِيَيْنِ بِالْحَرْبِ ، وَالتَّاقِصِينَ فِيهَا لِعُهُودِ  
السَّلَامِ ، وَالتَّنْكِيلِ بِالْبَادِيَيْنِ بِالشَّرِّ ، لِتَشْرِيدِ مَنْ وَّرَاءَهُمْ ، مُتَّفِقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ قُوَادِ الْحَرْبِ فِي  
هَذَا الْعَصْرِ ، وَلَكِنَّهُمْ يُقْصِدُونَ مَعَ ذَلِكَ الْإِنْتِقَامَ ، وَشِفَاءَ مَا فِي الصُّدُورِ مِنَ الْأَحْقَادِ ،  
وَالسَّعْيِ لِإِذْلَالِ الْعِبَادِ ، وَالتَّمَتُّعِ بِالْغَنَائِمِ مِنْ مَالٍ وَعَقَارٍ ، دُونَ الْمَوْعِظَةِ وَالتَّرْبِيَةِ بِالْإِعْتِبَارِ .

(93/316)

---

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حُكْمَ مَنْ لَا ثِقَةَ بِعُهُودِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يُخْشَى مِنْهُمْ نَقْضَهَا عِنْدَ مَا تَسْحُ  
لَهُمْ غُرَّةٌ فَقَالَ : وَإِنَّمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَاذْبُدْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ أَيُّ : وَإِنْ تَتَوَقَّعُ مِنْ قَوْمٍ  
خِيَانَةً بِنَقْضِ عَهْدِكَ مَعَهُمْ بَأَنَّ يَظْهَرُ لَكَ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْقَرَائِنِ مَا يُنْذِرُ بِهِ ، فَاقْطَعْ عَلَيْهِمْ طَرِيقَ  
الْخِيَانَةِ لَكَ قَبْلَ وَقُوعِهِ ، بَأَنَّ تُبْذِلَ إِلَيْهِمْ عُهُودَهُمْ ، أَيُّ تُعَلِّمُهُمْ بِفَسْخِهَا ، وَعَدَمِ تَقْيِيدِكَ بِهِ ، وَلَا  
اهْتِمَامِكَ بِأَمْرِهِمْ فِيهِ - شَبَّهَ مَا لَا ثِقَةَ بِوَفَائِهِمْ بِهِ مِنْ عُهُودِهِمْ بِالشَّيْءِ الَّذِي يُلْقَى بِاحْتِقَارٍ ،  
وَيُرْمَى كَالْتَوَى الَّتِي يَلْفِظُهَا الْأَكْلُ ، وَيُرْمِيهَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ - اذْبُدْهُ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، أَيُّ عَلَى  
طَرِيقٍ سَوِيٍّ وَاضِحٍ لَا خِدَاعَ فِيهِ ، وَلَا اسْتِخْفَاءَ وَلَا خِيَانَةَ ، وَلَا ظُلْمَ وَقَالَ الْبَغَوِيُّ : يَقُولُ  
أَعْلَمُهُمْ قَبْلَ حَرْبِكَ إِيَاهُمْ أَنَّكَ قَدْ فَسَخْتَ الْعَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ وَهُمْ فِي

الْعِلْمِ بِنَقْضِ الْعَهْدِ سَوَاءً ، فَلَا يَتَوَهَّمُوا أَنَّكَ نَقَضْتَ الْعَهْدَ بِنَصْبِ الْحَرْبِ مَعَهُمْ . اهـ . وَأَمَّا  
الَّذِينَ يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ بِالْفِعْلِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى نَبْذِ الْمُسْلِمِينَ عَهْدَهُمْ إِلَيْهِمْ ، بَلْ يُنَاجِرُونَ  
الْحَرْبَ عِنْدَ الْإِمْكَانِ كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . حِينَ نَقَضْتَ قُرَيْشُ عَهْدَ  
الْحُدَيْبِيَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ بِمُظَاهَرَةِ بَكْرِ عَلَى خِرَاعَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي ذِمَّتِهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(94/316)

وَسَلَّمَ .

وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا التَّبَذِ لِعَهْدٍ مِنْ ذِكْرٍ ، بَلِ الْعِلَّةُ لَهُ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُبِيحُ لِأَهْلِهِ الْخِيَانَةَ مُطْلَقًا ،  
فَكَيْفَ تَقَعُ مِنْ أَكْمَلِ الْبَشَرِ الَّذِي كَانَ يُلَقَّبُهُ أَهْلُ وَطَنِهِ مِنْذُ تَمْيِيزِهِ بِالْأَمِينِ ، ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ لِيَتَمَّمَ  
مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ بِنَقْضِ  
عُهُودِهِمْ مَعَ النَّاسِ ، وَلَا يُغَيِّرُ ذَلِكَ ، فَالْخِيَانَةُ مَبْغُوضَةٌ عِنْدَ اللَّهِ بِجَمِيعِ صُورِهَا وَمُظَاهِرِهَا  
، فَلَا وَسِيلَةَ إِذَا لَاتَقَاءَ ضَرَرَ خِيَانَةَ الْمُعَاهِدِينَ مِنْ

الْكَفَّارِ إِذَا ظَهَرَتْ أَمَارَاتُهَا مِنْهُمْ مَعَ عَدَمِ إِيَاحَةِ مُعَامَلَتِهِمْ بِمِثْلِهَا مَعَ بَقَاءِ الْعَهْدِ مِنْ جِهَتِنَا ،  
وَعَدَمِ جَوَازِ حُسْبَانِهِ كَمَا يَقُولُ الْأَقْوِيَاءُ مِنْ مُلُوكِ أَوْرُبَّةَ : " قُصَاصَةٌ وَرَقٍ " - إِلَّا نَبْذُ عَهْدِهِمْ  
جَهْرًا ، وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْوَسِيلَةُ مَانِعَةً مِنْ خِيَانَةِ الْعُقَلَاءِ مِنْهُمْ ، الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَاقِبَةَ نَقْضِ



العُهدُ إِذَا كَانُوا ضَعْفَاءَ لَا تَجْرَأُ عَلَيَّ خِيَانَةٌ إِلَّا إِذَا كَانُوا آمِنِينَ مِنْ مُعَامَلَةِ الرَّسُولِ  
وَالْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ مُعَامَلَةُ الْأَعْدَاءِ الْمُحَارِبِينَ وَمُنَاجَزَتُهُمْ إِيَّاهُمْ الْقِتَالِ ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى :  
وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ .

(95/316)

رَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ : ثَلَاثَةٌ الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ فِيهِنَّ سَوَاءٌ  
- مَنْ عَاهَدْتَهُ فَوْفَ بَعْدِهِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا ، فَإِنَّمَا الْعُهُدُ لِلَّهِ ، وَمَنْ كَانَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ  
رَحْمٌ فَصَلِّهَا مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا ، وَمَنْ ائْتَمَنَكَ عَلَى أَمَانَةٍ فَأَدَّهَا إِلَيْهِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا .  
وَرَوَى فِيهَا عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عُهُدٌ ، وَكَانَ يَسِيرُ حَتَّى  
يَكُونَ قَرِيبًا مِنْ أَرْضِهِمْ ، فَإِذَا انْقَضَتِ الْمُدَّةُ أَغَارَ عَلَيْهِمْ ، فَجَاءَهُ عَمْرُو بْنُ عُنْبَسَةَ - رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ : وَفَاءٌ لَا غَدْرٌ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ مَنْ كَانَ  
بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عُهُدٌ فَلَا يَشُدُّ عَقْدَهُ وَلَا يَحِلُّهَا حَتَّى يَنْقُضِيَ أَمْرُهَا وَيَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ قَالَ  
: فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ بِالْجِيُوشِ . فَهَذَا صَحَابِيٌّ وَعَظَ قَائِدًا صَحَابِيًّا مِنَ الْأَسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ فِي  
وَقْتِ عَهْدِ السَّلْمِ فَاتَّعَظَ وَرَجَعَ .

(96/316)

---

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالْآثَارِ الْوَارِدَةِ فِي مَعْنَاهَا مِنْ مُرَاعَاةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِي الْحَرْبِ مَا انْفَرَدَ بِهِ  
الْإِسْلَامُ دُونَ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ ، وَقَوَائِنِ الْمَدِينَةِ الْمَلْحَقَةِ . وَمَعَ هَذِهِ الْفَضَائِلِ وَالْمَزَايَا كُلِّهَا  
يَطْعُنُ دُعَاةُ النَّصْرَانِيَّةِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ مُكَابِرِي الْحَقِّ فِي هَذَا الدِّينِ ، وَفِي أَخْلَاقٍ مِنْ أَنْزَلَ اللَّهُ  
تَعَالَى عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَحْكَامَ الشَّرِيفَةَ وَقَالَ لَهُ : وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (68 : 4) .  
ثُمَّ أَنْذَرَ اللَّهُ تَعَالَى أُولَئِكَ الْخَائِنِينَ بِالْفِعْلِ مَا سَيَحِلُّ بِهِمْ فَقَالَ : وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
سَبَقُوا قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةٌ وَحَفْصٌ (يَحْسَبَنَّ) بِالْمُسْتَأْنَةِ التَّحِيَّةِ وَالْبَاقُونَ بِالْفَوْقِيَّةِ ، وَهَذِهِ  
الْقِرَاءَةُ أَظْهَرُ ، وَمَعْنَاهَا : وَلَا تَحْسَبَنَّ أَيُّهَا

(97/316)

---

الرَّسُولُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَدْ سَبَقُوا بِخِيَابَتِهِمْ لَكَ ، وَتَقْضِيهِمْ لِعَهْدِكَ بِالسَّرِّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ  
بِأَنْ أَفْلَتُوا مِنْ عِقَابِنَا مُتَحَصِّنِينَ بِعَهْدِهِمْ الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنْ قِتَالِهِمْ وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : أَمْ  
حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (29 : 4) - وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ  
الْأُولَى فَمَعْنَاهَا : وَلَا يَحْسَبَنَّ حَاسِبٌ أَوْ أَحَدٌ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَدْ سَبَقُوا بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ تَقْضِيهِمْ  
لِلْعَهْدِ ، وَمُظَاهَرَتِهِمْ لِأَهْلِ الشِّرْكِ فِي الْحَرْبِ - أَوْ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْفُسَهُمْ سَبَقُونَا ،

وَنَجُوا مِنْ عَاقِبَةِ حَيَاتِهِمْ وَشَرِّهِمْ ، وَقَدْ عَلَّلَ هَذَا النَّهْيَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَعَلَّ : إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ  
قَرَأَهُ الْجُمْهُورُ بِكَسْرِ "إِنَّ" عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ وَأَبْنُ عَامِرٍ بَفَتْحِهَا بِتَقْدِيرِ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" وَحَذْفِ لَامِ  
التَّعْلِيلِ مُطَّرَدٌ فِي مِثْلِ هَذَا . وَالْمَعْنَى : إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَكْرِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ  
لِرَسُولِهِ بِمُسَاعَدَةِ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِ ، بَلْ هُوَ سَيَجْزِيهِمْ وَيُسَلِّطُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ ،  
فَيَذِيقُونَهُمْ عَاقِبَةَ كَيْدِهِمْ . وَهَذَا كَمَا قَالَ فِي بَدْءِ عَهْدِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ (بِرَاءةٍ)  
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (9 : 2) فَهُوَ قَدْ أَعْلَمَ رَسُولَهُ  
بِحَيَاتِهِمْ ، وَأَذَنَ لَهُمْ بِبَدْءِ عَهْدِهِمْ ، لِيُحِلَّ لَهُ مُنَاجَزَتَهُمُ الْقِتَالَ جَزَاءً عَلَى مُسَاعَدَتِهِمْ  
لِأَعْدَائِهِ عَلَيْهِ وَإِغْرَائِهِمْ

(98/316)

بِقِتَالِهِ .

وَفِي هَذِهِ آيَةٌ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا أَوْجِبَهُ الْإِسْلَامُ مِنَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْعُهُودِ مَعَ الْمُخَالِفِينَ مِنْ  
أَعْدَائِهِ الْمُخَالِفِينَ لَهُ فِي الدِّينِ : وَمَا حَرَّمَهُ مِنَ الْخِيَانَةِ لَهُمْ فِيهَا ، وَمَا شَرَعَهُ مِنَ الْعَدْلِ  
وَالصَّرَاحَةِ فِي مُعَامَلَتِهِمْ - لَيْسَ عَنْ ضَعْفٍ وَلَا عَنْ عَجْزٍ ، بَلْ عَنْ قُوَّةٍ وَتَأْيِيدٍ إِلَهِيٍّ ، وَقَدْ  
نَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ الْخَائِنِينَ النَّاقِضِينَ لِعُهُودِهِمْ ، وَثَبَّتَ بِهَذَا أَنَّ قِتَالَ

المُسْلِمِينَ لَهُمْ وَإِجْلَاءَهُمْ لِبَقِيَّةِ السَّيْفِ مِنْهُمْ مَنْ جَوَّارِ عَاصِمَةِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ مِنْ مَهْدِهِ وَمَعْقَلِهِ  
(الْحِجَازِ) كَانَ عَدْلًا وَحَقًّا . (فُصُولُ فِي الْمُعَامَلَةِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَهُودِ  
الْمَدِينَةِ فِي السَّلْمِ وَالْحَرْبِ)

نَحْنُمُ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَاتِ بِمَا شَرَحَهُ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيْمِ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي كِتَابِ  
الْهُدِيِّ النَّبَوِيِّ إِتِمَامًا لِمَا فَسَّرْنَا بِهِ الْآيَاتِ ، وَإِثْبَاتًا لَهُ بِالْوَقَائِعِ وَالْبَيِّنَاتِ ، قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى  
:

(99/316)

---

(فَصْلٌ) وَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ صَارَ الْكُفَّارُ مَعَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ :  
قِسْمٌ صَالِحُهُمْ وَوَادَعُهُمْ عَلَى الْأَيْحَارِ بُوهُ ، وَلَا يُظَاهِرُوا عَلَيْهِ ، وَلَا يُؤَالُوا عَلَيْهِ عَدُوَّهُ ، وَهُمْ  
عَلَى كُفْرِهِمْ آمِنُونَ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَقِسْمٌ حَارِبُوهُ وَنَصَبُوا لَهُ الْعِدَاوَةَ ، وَقِسْمٌ تَارِكُوهُ  
فَلَمْ يُصَالِحُوهُ ، وَلَمْ يُحَارِبُوهُ بَلْ أَنْتَظَرُوا مَا يُؤَلُّ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَأَمْرُ أَعْدَائِهِ ، ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ كَانَ  
يُحِبُّ ظُهُورَهُ ، وَأَتَصَّارُهُ فِي الْبَاطِنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ ظُهُورَ عَدُوِّهِ عَلَيْهِ وَأَتَصَّارَهُمْ ،  
وَمِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ مَعَهُ فِي الظَّاهِرِ وَهُوَ مَعَ عَدُوِّهِ فِي الْبَاطِنِ ، لِيَأْمَنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَهَؤُلَاءِ  
الْمُنَافِقُونَ : فَعَامِلٌ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْ هَذِهِ الطَّوَائِفِ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

فَصَالِحُ يَهُودِ الْمَدِينَةِ ، وَكُتِبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ كِتَابُ أَمْنٍ ، وَكَانُوا ثَلَاثَ طَوَائِفَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ :  
بَنِي قَيْنُقَاعَ ، وَبَنِي التَّضْيِيرِ ، وَبَنِي قَرْيِظَةَ ، فَحَارِبَتُهُ بَنُو قَيْنُقَاعَ بَعْدَ ذَلِكَ بَعْدَ بَدْرٍ ، وَشَرَقُوا  
بِوَقْعَةِ بَدْرٍ وَأَظْهَرُوا الْبَغْيَ وَالْحَسَدَ ، فَسَارَتْ إِلَيْهِمْ جُنُودُ اللَّهِ يُقَدِّمُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ يَوْمَ  
السَّبْتِ لِلنَّصْفِ مِنْ شَوَّالٍ عَلَى رَأْسِ عِشْرِينَ شَهْرًا مِنْ مُهَاجِرِهِ ، وَكَانُوا حُلَفَاءَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
أَبِي آيْنٍ سَلُولِ رَيْسِ الْمُنَافِقِينَ ، وَكَانُوا أَشْجَعِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ ، وَحَامِلِ لُؤَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ  
حُمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ ، وَحَاصَرَهُمْ  
خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً إِلَى هِلَالِ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ حَارَبَ مِنَ الْيَهُودِ ، وَتَحَصَّنُوا فِي  
حُصُونِهِمْ ، فَحَاصَرَهُمْ أَشَدَّ الْحِصَارِ ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ الَّذِي إِذَا أَرَادَ  
خِذْلَانَ قَوْمٍ وَهَزَمَتَهُمْ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَذَفَهُ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي رِقَابِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَنَسَائِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ فَأَمَرَهُمْ فَكَتَفُوا ، وَكَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
أَبِي فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْحَّ عَلَيْهِ فَوَهَبَهُمْ لَهُ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ  
الْمَدِينَةِ ، وَلَا يُجَاوِرُوهُ بِهَا ، فَخَرَجُوا إِلَى أَدْرِعَاتِ الشَّامِ فَقُلَّ أَنْ لَبِثُوا فِيهَا حَتَّى هَلَكَ  
أَكْثَرُهُمْ ، وَكَانُوا صَاعَةً

وَتُجَارًا ، وَكَانُوا نَحْوَ السِّمَاءَةِ مُقَاتِلٍ ، وَكَانَتْ

دَارُهُمْ فِي طَرْفِ الْمَدِينَةِ ، وَقَبِضَ مِنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَخَذَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثَلَاثَ قِسِيٍّ وَدَرْعَيْنِ وَثَلَاثَةَ أَسْيَافٍ وَثَلَاثَةَ رِمَاحٍ وَخَمْسَ غَنَائِمُهُمْ ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى جَمَعَ الْغَنَائِمَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ .

(فصل) ثُمَّ نَقَضَ الْعَهْدَ بَنُو النَّضِيرِ . قَالَ الْبُخَارِيُّ : وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ بَدْرِ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ قَالَهُ عُرْوَةٌ . وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَرَجَ إِلَيْهِمْ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَكَلَّمَهُمْ أَنْ يُعِينُوهُ فِي دِيَةِ الْكَلَابِيِّينَ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ ، فَقَالُوا : نَفَعَلْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ . اجْلِسْ هَاهُنَا حَتَّى تَقْضِيَ حَاجَتَكَ ، وَخَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَسَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الشَّقَاءَ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِمْ فَتَأَمَّرُوا بِقَتْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَالُوا : أَيُّكُمْ يَأْخُذُ هَذِهِ الرَّحَى وَيَصْعَدُ فَيُلْقِيهَا عَلَى رَأْسِهِ يَشْدُخُهَا بِهَا ؟ فَقَالَ أَشْقَاهُمْ عَمْرُو بْنُ جَحَّاشٍ : أَنَا ، فَقَالَ لَهُمْ سَلَامُ بْنُ مِشْكَمٍ : لَا تَفْعَلُوا ، فَوَاللَّهِ لِيُخْبِرَنَّ بِمَا هَمَمْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّهُ لِنَقِضَ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ، وَجَاءَ الْوَحْيُ عَلَى الْفُورِ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَا هَمُّوا بِهِ فَنَهَضَ مُسْرِعًا ، وَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلَحِقَهُ أَصْحَابُهُ ، فَقَالُوا :

نَهَضْتُ وَلَمْ نَشْعُرْ بِكَ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا هَمَّتْ يَهُودُ بِهِ ، وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ أَخْرُجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَلَا تُسَاكُنُونِي بِهَا ، وَقَدْ أَجَلْتُكُمْ عَشْرًا ، فَمَنْ وَجَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِهَا ضَرِبْتُ عُنُقَهُ ، فَأَقَامُوا أَيَّامًا يَتَجَهَّزُونَ ، وَأُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْأَخْرَجِيِّ مِنْ دِيَارِكُمْ فَإِنَّ مَعِيَ الْفَيْنِ يَدْخُلُونَ مَعَكُمْ حِصْنَكُمْ فَيَمُوتُونَ دُونَكُمْ ، وَتَنْصُرُكُمْ قَرِيظَةُ وَحُلَفَاؤُكُمْ مِنْ غَطَفَانَ ، وَطَمَعَ رَئِيسُهُمْ حَيِيُّ بْنُ أَخْطَبٍ فِيمَا قَالَهُ لَهُ ، وَبَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : إِنَّا لَا نَخْرُجُ مِنْ دِيَارِنَا فَاصْنَعْ مَا بَدَأَ لَكَ . فَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابُهُ وَنَهَضُوا إِلَيْهِ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَحْمِلُ اللَّوَاءَ . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ أَقَامُوا عَلَى حُصُونِهِمْ يَرْمُونَ بِالتَّبْلِ وَالْحِجَارَةِ وَاعْتَزَلْتَهُمْ قَرِيظَةُ ، وَخَانَهُمْ ابْنُ أَبِي وَحُلَفَاؤُهُمْ مِنْ غَطَفَانَ ، وَلِهَذَا شَبَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قِصَّتَهُمْ ، وَجَعَلَ مَثَلَهُمْ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ أَكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ (59) :

16) فَإِنَّ سُورَةَ الْحَشْرِ هِيَ سُورَةُ بَنِي التَّضْيِيرِ ، وَفِيهَا مَبْدَأُ قِصَّتِهِمْ وَنَهَائِيهَا ، فَحَاصِرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

---

وَقَطَعَ نَخْلَهُمْ وَحَرَقَ ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ : نَحْنُ نَخْرُجُ عَنِ الْمَدِينَةِ ، فَأَنْزَلَهُمْ عَلَيَّ أَنْ يَخْرُجُوا  
عَنْهَا بِنَفْسِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ ، وَأَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ إِلَّا السَّلَاحَ ، وَقَبَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . الْأَمْوَالَ وَالْحَلَقَةَ وَهِيَ السَّلَاحُ ، وَكَانَتْ بَنُو النَّضِيرِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . لِنَوَائِبِهِ وَمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَخْمَسْهَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَفَاءَهَا عَلَيْهِ ، وَلَمْ  
يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، وَخَمَسَ قُرَيْظَةَ .  
قَالَ مَالِكٌ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . : خَمَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قُرَيْظَةَ وَلَمْ يَخْمَسْ  
بَنِي النَّضِيرِ ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُوجِفُوا بِخَيْلِهِمْ وَلَا رِكَابِهِمْ عَلَيَّ بَنِي النَّضِيرِ كَمَا أُوجِفُوا عَلَيَّ  
قُرَيْظَةَ ، وَأَجْلَاهُمْ إِلَى خَيْبَرَ وَفِيهِمْ حَيٌّ بَنُ أَخْطَبِ كَبِيرِهِمْ ، وَقَبَضَ السَّلَاحَ وَاسْتَوْلَى عَلَيَّ  
أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَوَجَدَ مِنَ السَّلَاحِ خَمْسِينَ دِرْعًا وَخَمْسِينَ بَيْضَةً ، وَثَلَاثِمِائَةَ  
وَأَرْبَعِينَ سَيْفًا ، وَقَالَ : هَؤُلَاءِ فِي قَوْمِهِمْ بِمَنْزِلَةِ بَنِي الْمُغِيرَةَ فِي قُرَيْشٍ ، وَكَانَتْ قِصَّتُهُمْ فِي  
رَبِيعِ أَوَّلِ سَنَةِ أَرْبَعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ .

(104/316)

---



(فصل) وَأَمَّا قُرَيْظَةُ فَكَانَتْ أَشَدَّ الْيَهُودِ عَدَاوَةً لِرَسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَغْلَظَهُمْ كُفْرًا، وَلِذَلِكَ جَرَى عَلَيْهِمْ مَا لَمْ يَجْرَ عَلَى إِخْوَانِهِمْ، وَكَانَ سَبَبُ غَزْوِهِمْ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَرَجَ إِلَى غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ وَالْقَوْمُ مَعَهُ صَلَحَ جَاءَ حَيْبِيُّ بْنُ أُخْطَبَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فِي دِيَارِهِمْ، فَقَالَ: قَدْ جِئْتُكُمْ بِعِزِّ الدَّهْرِ، جِئْتُكُمْ بِقُرَيْشٍ عَلَى سَادَاتِهَا وَغَطَفَانَ عَلَى قَادَاتِهَا وَأَنْتُمْ أَهْلُ الشُّوْكَةِ وَالسَّلَاحِ، فَهَلُمَّ حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا وَنَفْرُغَ مِنْهُ فَقَالَ لَهُ

رَبِّسُهُمْ: بَلْ جِئْتَنِي وَاللَّهِ بِذَلِّ الدَّهْرِ، جِئْتَنِي بِسَحَابٍ قَدْ أَرَأَقَ

(105/316)

مَاءُهُ فَهُوَ يَرْعُدُ وَيَبْرُقُ. فَلَمْ يَزَلْ يُخَادِعُهُ وَيَعِدُّهُ وَيَمِينِيهِ، حَتَّى أَجَابَهُ بِشَرْطِ أَنْ يَدْخُلَ مَعَهُ فِي حِصْنِهِ يُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ، فَفَعَلَ وَتَقَضُوا عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَظْهَرُوا سَبَّهُ، فَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَبْرَ، فَأَرْسَلَ يَسْتَعْلِمُ الْأَمْرَ فَوَجَدَهُمْ قَدْ تَقَضُوا الْعَهْدَ فَكَبَّرَ وَقَالَ: (أُبَشِّرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ) فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ وَضَعَ سِلَاحَهُ فَبَجَاءَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: وَضَعْتَ السَّلَاحَ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَتَهَا، فَانْهَضْ بِمَنْ مَعَكَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنِّي

سَأَرُّ أَمَّا مَكَ أَزَلَزِلْ بِهِمْ حُصُونَهُمْ ، وَأَقْدِفْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ . فَسَارَ جِبْرَائِيلُ فِي مَوْكِبِهِ  
مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى أَثَرِهِ فِي مَوْكِبِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ  
وَالْأَنْصَارِ .

(106/316)

(فَصَلِّ) وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الرَّايَةَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَاسْتَخْلَفَ  
عَلِيَّ الْمَدِينَةَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ، وَنَازَلَ حُصُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَحَصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ،  
وَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْحِصَارُ عَرَضَ عَلَيْهِمْ رِئِيسُهُمْ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ ثَلَاثَ خِصَالٍ : إِمَّا أَنْ  
يُسَلِّمُوا ، وَيَدْخُلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ فِي دِينِهِ ، وَإِمَّا أَنْ يُقَاتِلُوا ذُرَارِيَهُمْ ، وَيَخْرُجُوا إِلَيْهِ بِالسُّيُوفِ  
مُصْلِتِينَ يُنَاجِزُونَهُ حَتَّى يَنْظُرُوا بِهِ أَوْ يُقَاتِلُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَإِمَّا أَنْ يَهْجُمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابِهِ وَيَكْبِسُوهُمْ يَوْمَ السَّبْتِ ؛ لِأَنََّّهُمْ قَدْ أَمِنُوا أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ فِيهِ ،  
فَأَبَوْا عَلَيْهِ أَنْ يُجِيبُوهُ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ أَنْ أَرْسِلْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ  
نَسْتَشِيرُهُ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامُوا فِي وَجْهِهِ يَبْكُونَ ، وَقَالُوا : يَا أَبَا لُبَابَةَ : كَيْفَ تَرَى لَنَا أَنْ نُنْزَلَ  
عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ . وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ يَقُولُ : إِنَّهُ الذَّبْحُ ، ثُمَّ عَلِمَ مِنْ فَوْرِهِ  
أَنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ. حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ ، مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ فَرَبَطَ نَفْسَهُ بِسَارِيَةِ الْمَسْجِدِ ، وَحَلَفَ أَلَّا  
يَحِلَّهُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بِيَدِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَرْضَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَدًا فَلَمَّا  
بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ.

(107/316)

---

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ذَلِكَ قَالَ : " دَعَوُهُ حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ " ثُمَّ تَابَ اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَحَلَّهُ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بِيَدِهِ . ثُمَّ إِيَّاهُمْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ. صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَامَتْ إِلَيْهِ الْأَوْسُ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ فَعَلْتَ فِي بَنِي قَيْنُقَاعٍ مَا قَدْ  
عَلِمْتَ وَهُمْ حُلَفَاءُ إِخْوَانِنَا الْخَزْرَجِ ، وَهَؤُلَاءِ مَوَالِينَا فَأَحْسِنُ فِيهِمْ . فَقَالَ : " أَلَا تَرْضَوْنَ  
أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ ؟ " قَالُوا : بَلَى . قَالَ : " فَذَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ " قَالُوا : قَدْ  
رَضِينَا ، فَأَرْسَلَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ لَمْ يَخْرُجْ مَعَهُمْ لَجُرْحِ كَانِ بِهِ ، فَرَكِبَ  
حِمَارًا وَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَجَعَلُوا يَقُولُونَ

(108/316)

لَهُ وَهُمْ كَفَيْهِ: يَا سَعْدُ أَجْمِلْ إِلَى مَوَالِيكَ، فَأَحْسِنْ فِيهِمْ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ حَكَمَكَ فِيهِمْ لِتَحْسِنَ فِيهِمْ، وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ: لَقَدْ أَنْ لَسَعْدِ أَلَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ. فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ رَجَعَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ فَنَعَى إِلَيْهِمُ الْقَوْمَ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لِلصَّحَابَةِ: "قَوْمُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ" فَلَمَّا أَنْزَلُوهُ. قَالُوا: يَا سَعْدُ، هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ. قَالَ: وَحُكْمِي نَافِذٌ عَلَيْهِمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: وَعَلَى مَنْ هَاهُنَا؟ وَأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ وَأَشَارَ إِلَى نَاحِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِجْلَالًا لَهُ وَتَعْظِيمًا، قَالَ: "نَعَمْ وَعَلَيَّ" قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ يُقْتَلَ الرَّجَالُ وَتُسَبَى الذَّرِيَّةُ وَتُقَسَّمُ الْأَمْوَالُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ" وَأَسْلَمَ مِنْهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ نَفَرًا قَبْلَ التَّزْوُلِ. وَهَرَبَ عَمْرُو بْنُ سَعْدٍ فَانْطَلَقَ فَلَمْ يَعْلَمْ أَيْنَ ذَهَبَ، وَكَانَ قَدْ أَبَى الدُّخُولَ مَعَهُمْ فِي نَقْضِ الْعَهْدِ، فَلَمَّا حُكِمَ فِيهِمْ بِذَلِكَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَوْسَى مِنْهُمْ، وَمَنْ لَمْ يَنْبِتِ الْحَقَّ بِالذَّرِيَّةِ،

---

فَحَفَرُوا لَهُمْ خَنَادِقَ فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ وَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ ، وَكَانُوا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى السَّبْعِمِائَةِ ، وَلَمْ يُقْتَلْ مِنَ النِّسَاءِ أَحَدًا سِوَى امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ كَانَتْ طَرَحَتْ عَلَى رَأْسِ سُؤَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ رَحَى فَقَتَلَتْهُ " انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْ فُصُولِ الْهُدْيِ بِحُرُوفِهِ مَعَ حَذْفِ بَعْضِ الْمَسَائِلِ كَصَلَاةِ الْعَصْرِ فِي قَرْيَظَةَ .

وَرَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ يَهُودَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَرْيَظَةَ حَارَبُوا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَجَلَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَنِي النَّضِيرِ ، وَأَقْرَقَ قَرْيَظَةَ وَمَنْ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَارَبَتْ قَرْيَظَةَ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ . إِلَّا أَنَّ بَعْضَهُمْ لَحِقُوا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَمَنَهُمْ وَأَسْلَمُوا . وَأَجَلَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَنِي قَيْنُقَاعَ (وَهُمْ قَوْمُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ) وَيَهُودَ بَنِي حَارِثَةَ ، وَكُلَّ يَهُودِيٍّ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ أَهًا . وَلَوْلَا أَنَّ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (59 : 3 و 4) .

(110/316)

---

ثُمَّ إِنَّ كُلَّ هَذَا لَمْ يَعِظُ يَهُودَ خَيْبَرَ ، وَلَمْ يُزَجِّرْهُمْ عَنْ عِدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْكِيدِ لَهُ ، بَلْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِمُ السَّعْيُ لِتَأْلِيفِ الْأَحْزَابِ مِنْ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ لِقِتَالِهِ مِنْ قَبْلِ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَكَانُوا سَبَبَ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ الَّتِي زَلَزَلَ الْمُؤْمِنُونَ فِيهَا زَلْزَالًا شَدِيدًا كَمَا وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ ، وَسَنَحَتَ لِلْمُؤْمِنِينَ فُرْصَةَ الْأَسْتِرَاحَةِ مِنْ شَرِّهِمْ بَعْدَ صَلْحِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ سِتٍّ ، فَغَزَاهُمْ

رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَظْفَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ بَعْدَ حِصَارٍ شَدِيدٍ لِحُصُونِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْمُحَرَّمِ سَنَةِ سَبْعٍ . وَبِذَلِكَ زَالَتْ قُوَّةُ الْيَهُودِ مِنْ بِلَادِ الْحِجَازِ كُلِّهَا .

(111/316)

---

هَذَا وَإِنَّهُ لَمَا كَانَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْيَهُودِ مِمَّا تَقَدَّمَ شَرَحُهُ ، أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بِإِجْلَاءِ مَنْ بَقِيَ فِي ذِمَّتِهِ مِنْهُمْ وَإِنْ كَانُوا رَاضِينَ بِحُكْمِ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ عَدْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ بَعْدَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ أَنْ نَصَحَ لِلْبَاقِينَ مِنْهُمْ قَبْلَ إِجْلَائِهِمْ بِبَيْعِ أَمْوَالِهِمْ وَإِحْرَازِ أَيْمَانِهَا ، فَقَدُ رَوَى الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا - وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ - مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : " انْطَلِقُوا

بَنَّا إِلَى الْيَهُودِ " فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ الْمَدْرَاسِ ، فَقَامَ النَّبِيُّ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَنَادَاهُمْ : " يَا مَعْشَرَ يَهُودٍ اسْلُمُوا تَسْلُمُوا " فَقَالُوا : قَدْ بَلَغْتَ يَا أَبَا  
الْقَاسِمِ . فَقَالَ : " ذَلِكَ أُرِيدُ " ثُمَّ قَالَهَا الثَّانِيَةَ ، فَقَالُوا : قَدْ بَلَغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، ثُمَّ قَالَ فِي  
الثَّلَاثَةِ : " اعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ  
شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ " اهـ .

(112/316)

---

قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " ذَلِكَ أُرِيدُ " مَعْنَاهُ أُرِيدُ اعْتِرَافَكُمْ بَأَنِّي بَلَغْتُ دَعْوَةَ رَبِّي لَا أَنْ  
أُكْرِهَكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَإِنِّي إِذَا نَبِيٌّ إِلَيْكُمْ بِالْجَلَاءِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْكُمْ  
يُبْلُوغُ الدَّعْوَةَ وَعَدَمِ إِجَابَتِهَا ، وَقَوْلُهُ : " إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ " مَعْنَاهُ أَنَّهَا لِلَّهِ مُلْكًا وَحُكْمًا  
وَلِرَسُولِهِ تَنْفِيذًا لِلْحُكْمِ وَتَصَرُّفًا فِي الْأَرْضِ بِأَمْرِهِ .

(113/316)

---

وَبَعْدَ هَذِهِ الْعِبْرَةِ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِإِجْلَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ  
الْعَرَبِ ، وَبِالْإِتْقَانِ فِيهَا دِينَانِ ، بَلْ لَهَذَا سِرٌّ ظَهَرَ لِلْعِيَانِ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ ، وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ  
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مِثْلِ قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَأْرُزُ إِلَى  
الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرُزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا رَوَاهُ الشَّيْخَانُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَقَوْلُهُ وَهُوَ  
أَوْضَحُ : إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرُزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرُزُ  
الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ عَوْفِ  
الْمُزَنِيِّ بَلْفِظٍ " إِنَّ الدِّينَ لِيَأْرُزُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْرُزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا وَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ  
الْحِجَازِ مَعْقِلَ الْأَرُويَّةِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ " إلخ . وَرَوَى أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَصَّى عِنْدَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ (أُولَئِهِنَّ) : " أَخْرِجُوا  
الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ " وَرَوَى أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدْعَ فِيهَا  
إِلَّا مُسْلِمًا " وَرَوَى أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ قَالَتْ : أَخْرُمَا عَهْدَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ

(114/316)



قال: لا يُبركُ بجزيرة العرب دينارٌ ورُوي عن أبي عبيدة عامر بن الجراح قال: آخر ما تكلم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب" قال

الشافعي: جزيرة العرب التي أخرج عمر منها اليهود والنصارى مكة والمدينة واليمامة ومخاليقها، فأما اليمن فليس من جزيرة العرب اهـ. أي ليس من الجزيرة المرادة بالحديث؛ لأن عمر المنفذ للوصية النبوية لم يخرج اليهود منه، فهذا خصوا لفظ الجزيرة بالحجاز، ومنه أرض خيبر فإن عمر أجلاهم منها. ويقول بعض العلماء بعموم الأحاديث وليس هذا المحل محل تحقيقه.

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

(115/316)

---

عَلِمَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ عَقَدَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَهُمُ الْعُهُودَ الَّتِي أَمَّنَّهُمْ بِهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَحُرِّيَّةِ دِينِهِمْ، فَقَدْ خَانُوهُ وَتَقَضُوا عَهْدَهُ وَسَاعَدُوا عَلَيْهِ أَعْدَاءَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُ هُوَ وَمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَوَطَنِهِمْ، ثُمَّ تَبَعُوهُمْ إِلَى مَهْجَرِهِمْ يُقَاتِلُونَهُمْ فِيهِ لِأَجْلِ دِينِهِمْ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ صَارَ جَمِيعُ أَهْلِ

الْحِجَازِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ حَرْبًا لَهُ ، الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ سِوَاهُ ،  
فَنَاسَبَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُبَيِّنَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِي حَالِ الْحَرْبِ الَّتِي كَانَتْ أَمْرًا  
وَاقِعًا لَمْ يَكُونُوا هُمْ الْمُحَدِّثِينَ لَهُ

وَالْأَبَادِينَ بِالْعُدْوَانِ فِيهِ ، كَمَا أَنَّهُ سَنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الْجَمَاعِ الْبَشَرِيِّ فِي الْمَصَارَعَةِ بَيْنَ الْحَقِّ  
وَالْبَاطِلِ ، وَالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ الْأَعْدَادُ نَهْيَةً الشَّيْءِ لِلْمُسْتَقْبَلِ ،  
وَالرِّبَاطُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْحَبْلُ الَّذِي تُرْبَطُ بِهِ الدَّابَّةُ كَالْمُرْبُطِ (بِالْكَسْرِ) وَرِبَاطُ الْخَيْلِ  
حَبْسُهَا وَاقْتِنَاؤُهَا - وَرِبَاطُ الْجَيْشِ : أَقَامَ فِي الشَّجَرِ ، وَالْأَصْلُ أَنْ يُرْبَطَ هُوَ لَاءٌ وَهُوَ لَاءٌ  
خَيْوَلُهُمْ ، ثُمَّ سُمِّيَ الْإِقَامَةُ فِي الشَّجَرِ مُرَابِطَةً وَرِبَاطًا هـ . مِنْ الْأَسَاسِ .

(116/316)

---

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَجْعَلُوا الْأَسْتِعْدَادَ لِلْحَرْبِ (الَّتِي عَلِمُوا أَنْ لَا مَنَدُوحَةَ  
عَنْهَا لِدَفْعِ الْعُدْوَانِ وَالشَّرِّ ، وَلِحِفْظِ الْأَنْفُسِ وَرِعَايَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْفَضِيلَةِ) بِأَمْرَيْنِ :  
(أَحَدِهِمَا) إِعْدَادُ جَمِيعِ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ لَهَا بِقَدْرِ الْإِسْطَاعَةِ . (وِثَانِيهِمَا) مُرَابِطَةُ فُرْسَانِهِمْ  
فِي ثُغُورِ بِلَادِهِمْ وَحُدُودِهَا ، وَهِيَ مَدَاخِلُ الْأَعْدَاءِ وَمَوَاضِعُ مَهَا جَمْتَهُمْ لِلْبِلَادِ ، وَالْمُرَادُ أَنْ

يَكُونُ لِلأُمَّةِ جُنْدٌ دَائِمٌ مُسْتَعِدٌّ لِلدَّفَاعِ عَنْهَا إِذَا فَاجَأَهَا العَدُوُّ عَلَى غِرَّةٍ ، قَاوَمَهُ الفُرْسَانُ ،  
لِسُرْعَةِ حَرَكَتِهِمْ ، وَقَدَّرْتَهُمْ عَلَى الجَمْعِ بَيْنَ القِتَالِ ، وَإِيصَالِ أَخْبَارِهِ مِنْ تُغُورِ البِلَادِ إِلَى  
عَاصِمَتِهَا وَسَائِرِ أَرْجَائِهَا ، وَلِذَلِكَ عَظَّمَ الشَّارِعُ أَمْرَ الخَيْلِ وَأَمَرَ بِإِكْرَامِهَا . وَهَذَانِ  
الأَمْرَانِ هُمَا اللَّذَانِ تُعَوَّلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعُ الدُّوَلِ الحَرَبِيَّةِ إِلَى هَذَا العَهْدِ الَّتِي ارْتَفَتُ فِيهِ الفُنُونُ  
العَسْكَرِيَّةُ وَعَدَادُ الحَرْبِ إِلَى دَرَجَةٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا نَظِيرٌ ، بَلْ لَمْ تَكُنْ تُدْرِكُهَا العُقُولُ وَلَا  
تَتَخِيلُهَا الأَفْكَارُ .

(117/316)

وَمِنَ المَعْلُومِ بِالبَدَاهَةِ أَنَّ إِعْدَادَ المُسْتَطَاعِ مِنَ القُوَّةِ يَخْتَلِفُ امْتِثَالُ الأَمْرِ الرِّبَاطِيِّ بِهِ بِاخْتِلَافِ  
دَرَجَاتِ الاسْتِطَاعَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ بِحَسْبِهِ ، وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ  
عُقْبَةَ بِنِ عَامِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَدْ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ عَلَى المُنْبِرِ يَقُولُ :  
" أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمِيَّ " قَالَهَا ثَلَاثًا ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ مِنْ قَبِيلِ حَدِيثِ الحَجِّ عَرَفَةَ  
بِمَعْنَى أَنَّ كِلَا مِنْهُمَا أَعْظَمُ الأَرْكَانِ فِي بَابِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَمِيَّ العَدُوِّ عَنْ بُعْدٍ بِمَا يَقْتُلُهُ أَسْلَمُ مِنْ  
مُصَاوَلَتِهِ عَلَى القُرْبِ بِسَيْفٍ أَوْ رُمْحٍ أَوْ حَرْبِيَّةٍ ، وَإِطْلَاقُ الرَّمِيِّ فِي الحَدِيثِ يَشْمَلُ كُلَّ مَا  
يُرْمَى بِهِ العَدُوُّ مِنْ سَهْمٍ أَوْ

قَذِيفَةٌ مُنْجَنِيْقٌ أَوْ طَيَّارَةٌ أَوْ بُنْدُقِيَّةٌ أَوْ مِدْفَعٌ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ هَذَا مَعْرُوفًا فِي عَصْرِهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَإِنَّ اللَّفْظَ يَشْمَلُهُ وَالْمُرَادُ مِنْهُ يَتَّقِضِيهِ ، وَلَوْ كَانَ قَيْدُهُ بِالسِّهَامِ الْمَعْرُوفَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ فَكَيْفَ وَهُوَ لَمْ يَقَيِّدْهُ ، وَمَا يُدْرِيْنَا لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجْرَاهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُطْلَقًا ، لِيَدُلَّ عَلَى الْعُمُومِ لِأُمَّتِهِ فِي كُلِّ عَصْرِ بِحَسَبِ مَا يُرْمَى بِهِ فِيهِ - وَهُنَاكَ أَحَادِيثُ أُخْرَى فِي الْحَثِّ عَلَى الرَّمْيِ بِالسِّهَامِ ؛ لِأَنَّهُ كَرَّمِي الرِّصَاصِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، عَلَى أَنْ لَفْظَ الْآيَةِ أَدَلُّ عَلَى الْعُمُومِ ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِالْمُسْتَطَاعِ مُوجَّهٌ إِلَى الْأُمَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَمَكَانٍ كَسَائِرِ خِطَابَاتِ التَّشْرِيْعِ حَتَّى مَا كَانَ مِنْهَا وَارِدًا فِي سَبَبٍ مُعَيَّنٍ . وَمِنْ قَوَاعِدِ الْأُصُولِ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ صُنْعُ الْمَدَافِعِ بِأَنْوَاعِهَا وَالْبِنَادِقِ وَالِدَبَابَاتِ وَالطَّيَّارَاتِ وَالْمَنَاطِيدِ وَإِنشَاءُ السُّفُنِ الْحَرْبِيَّةِ بِأَنْوَاعِهَا ، وَمِنْهَا الْغَوَاصَاتُ الَّتِي تَغُوصُ فِي الْبَحْرِ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ تَعَلُّمُ الْفُنُونِ وَالصِّنَاعَاتِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا

صُنِعَ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَغَيْرَهَا مِنْ قُوَى الْحَرْبِ بِدَلِيلٍ : مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ الْمَطْلُوقُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ  
وَاجِبٌ " وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الصَّحَابَةَ اسْتَعْمَلُوا الْمُنْجِنِيقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ وَغَيْرِهَا . وَكُلُّ الصَّنَاعَاتِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْمَعِيشَةِ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ  
كَصِّنَاعَاتِ آتَاتِ الْقِتَالِ .

وَقَدْ أَدْرَكَ بَعْضُ هَذِهِ الْأَلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ السَّيِّدُ الْأَلُوسِيُّ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ ، فَقَالَ بَعْدَ  
إِيرَادِ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الرَّمِيِّ مَا نَصَّه : وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الرَّمِيَّ بِالنَّبَالِ الْيَوْمَ لَا يُصِيبُ  
هَدَفَ الْقَصْدِ مِنَ الْعَدُوِّ ، وَلَئِنْهُمْ اسْتَعْمَلُوا الرَّمِيَّ بِالْبُنْدُقِ وَالْمَدَافِعِ وَلَا يَكَادُ يَنْفَعُ مَعَهُمَا نَبْلٌ  
، وَإِذَا لَمْ يُقَابَلُوا بِالْمِثْلِ عَمَّ الدَّاءُ الْعُضَالَ ، وَاشْتَدَّ الْوَبَالُ وَالنَّكَالُ ، وَمَلَكَ الْبَسِيطَةُ أَهْلُ  
الْكَفْرِ وَالضَّلَالِ ، فَالَّذِي أَرَاهُ وَالْعُلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى تَعَيَّنَ تِلْكَ الْمُقَابَلَةَ عَلَى أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ،  
وَحُمَاةِ الدِّينِ ، وَلَعَلَّ فَضْلَ ذَلِكَ الرَّمِيِّ يَثْبُتُ لِهَذَا الرَّمِيِّ لِقِيَامِهِ مَقَامَهُ فِي الذَّبِّ عَنِ بَيْضَةِ  
الْإِسْلَامِ ، وَلَا أَرَى مَا فِيهِ مِنَ النَّارِ لِلضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ إِلَّا سَبَبًا لِلْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ  
تَعَالَى ، وَلَا يَبْعُدُ

دُخُولِ مِثْلِ هَذَا الرَّمِيِّ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ .

وَأَقُولُ: قَدْ جَزَمَ الْعُلَمَاءُ قَبْلَهُ بِعُمُومِ نَصِّ الْآيَةِ، قَالَ الرَّازِيُّ بَعْدَ أَنْ أُوْرِدَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ فِي تَفْسِيرِهَا مِنْهَا الرَّمِيُّ الْوَارِدُ فِي الْحَدِيثِ: قَالَ أَصْحَابُ الْمَعَانِي: الْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَا يُتَّقَى بِهِ عَلَى حَرْبِ الْعَدُوِّ، وَكُلِّ مَا هُوَ أَلَّةٌ لِلْغَزْوِ وَالْجِهَادِ فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْقُوَّةِ، ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ الرَّمِيِّ وَأَنَّهُ كَحَدِيثِ الْحَجِّ عَرَفَةَ وَأَنَا لَا أُدْرِي سَبَبًا لِاتِّجَاءِ الْأَلُوسِيِّ فِي الْمَسْأَلَةِ إِلَى الرَّأْيِ وَالْإِجْتِهَادِ، وَكَتَفَاتِهِ بِدُخُولِ هَذِهِ الْأَلَاتِ فِي عُمُومِ نَصِّ الْآيَةِ بَعْدَ الْإِسْتِيعَادِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الْمُعَمَّمِينَ فِي عَصْرِهِ حَرَمُوا اسْتِعْمَالَ هَذِهِ الْأَلَاتِ النَّارِيَّةِ بِشُبُهَةِ أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ التَّعْذِيبِ بِالنَّارِ الَّذِي مَنَعَهُ الْإِسْلَامُ كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: وَلَا أَرَى مَا فِيهِ مِنَ النَّارِ الْإِخْ .

(121/316)

نَعَمْ: إِنَّ الْإِسْلَامَ دِينَ الرَّحْمَةِ قَدْ مَنَعَ مِنَ التَّعْذِيبِ بِالنَّارِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الظَّالِمُونَ وَالْجَبَّارُونَ مِنْ الْمُلُوكِ بَأَعْدَائِهِمْ، كَأَصْحَابِ الْأَخْذُودِ الْمُلْعُونِينَ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ، وَلَكِنْ مِنَ الْجَهْلِ وَالْغَبَاوَةِ أَنْ يُعَدَّ حَرْبُ الْأَسْلِحَةِ النَّارِيَّةِ لِلْأَعْدَاءِ الَّذِينَ يُحَارِبُونَنا بِهَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ بَأَنْ يُقَالَ: إِنَّ دِينَنَا دِينَ الرَّحْمَةِ يَأْمُرُنَا أَنْ نَحْتَمِلَ قَتْلَهُمْ إِيَّانَا بِهَذِهِ الْمَدَافِعِ، وَالْأَنْتِقَاتِ لَهُمْ بِهَا رَحْمَةً بِهِمْ، مَعَ الْعِلْمِ بَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبَاحَ لَنَا فِي التَّعَامُلِ فِيْمَا بَيْنَنَا أَنْ نَجْزِيَ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا عَمَلًا

بِالْعَدْلِ ، وَجَعَلَ الْعَفْوَ فَضِيلَةً لَا فَرِيضَةَ فَقَالَ : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ  
فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنْ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ  
(42 : 40 و 14) إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ . وَقَالَ : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ  
صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (16 : 126) أَفَلَا يَكُونُ مِنَ الْعَدْلِ بَلْ فَوْقَ الْعَدْلِ فِي الْأَعْدَاءِ  
أَنْ نَعَامِلَهُمْ بِمِثْلِ الْعَدْلِ الَّذِي نَعَامِلُ بِهِ إِخْوَانَنَا أَوْ بِمَا وَرَدَ بِمَعْنَى الْآيَةِ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ ،  
قَاتَلُوهُمْ بِمِثْلِ مَا يُقَاتِلُونَكُمْ

(122/316)

---

بِهِ ؟ وَهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِلْعَدْلِ فِي حَالِ الْحَرْبِ ، نَعَمْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ النَّهْيُ عَنْ  
تَحْرِيقِ الْكُفَّارِ الْحَرَبِيِّينَ بِالنَّارِ ، وَلَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْهُ ، عَلَى أَنَّ عُلَمَاءَ السَّلَفِ وَفُقَهَاءَ  
الْأُمَّصَارِ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِهِ ، فَأَبَاحَهُ بَعْضُهُمْ مُطْلَقًا ، وَبَعْضُهُمْ عِنْدَ  
الْحَاجَةِ الْحَرْبِيَّةِ كَأِحْرَاقِ سَفْنِ الْحَرْبِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ جَزَاءً بِالْمِثْلِ ، وَالْجَزَاءُ أَوْلَى .

(123/316)

---

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ فَمَعْنَاهُ: أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنَ الْقُوَّةِ  
الْحَرْبِيَّةِ الشَّامِلَةَ لِجَمِيعِ عِتَادِ الْقِتَالِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْجُنْدُ، وَمِنَ الْفُرْسَانِ الْمُرَابِطِينَ فِي  
تُغُورِكُمْ وَأَطْرَافِ بِلَادِكُمْ حَالَةَ كَوْنِكُمْ تَرْهَبُونَ بِهَذَا الْأَعْدَادِ - أَوِ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ  
وَالرِّبَاطِ - عَدُوَّ اللَّهِ الْكَافِرِينَ بِهِ، وَمِمَّا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَعَدُوَّكُمْ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ  
الدَّوَائِرَ وَيُنَاجِرُونَكُمْ الْحَرْبَ عِنْدَ الْإِمْكَانِ. وَالْإِرْهَابُ: الْإِيقَاعُ فِي الرَّهْبَةِ، وَمِثْلُهَا  
الرَّهْبُ بِالتَّحْرِيكِ، وَهُوَ الْخَوْفُ الْمُقْتَرَنُ بِالْاضْطِرَابِ، كَمَا قَالَ الرَّاعِبُ. وَكَانَ مُشْرِكُو  
مَكَّةَ وَمَنْ وَالَاهُمْ هُمُ الْجَامِعِينَ لَهَا تَيْنِ الْعِدَاوَتَيْنِ فِي وَقْتِ نَزُولِ الْآيَةِ عَقِبَ غَزْوَةِ بَدْرٍ،  
وَفِيهِمْ نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ: لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ (60: 1) وَقِيلَ: يَدْخُلُ فِيهِمْ  
أَيْضًا مَنْ وَالَاهُمْ مِنَ الْيَهُودِ كَنَبِيِّ قَرْيَظَةَ. وَقِيلَ: لَا، وَإِيْمَانُ هَؤُلَاءِ بِاللَّهِ وَبِالْوَحْيِ لَمْ يَكُنْ  
يُؤْمِدُ عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِّ الَّذِي يُرْضِي اللَّهَ تَعَالَى، وَالْيَهُودُ الَّذِينَ وَالَوْهُمْ عَلَى عِدَاوَتِهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هُمُ الْمَعْنِيُّونَ أَوْ بَعْضُ الْمَعْنِيِّينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ أَيُّ:  
وَتَرْهَبُونَ بِهِ أَنَسًا مِنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ الْمَعْرُوفِينَ أَوْ مِنْ وَرَائِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ أَيُّ  
: لَا تَعْلَمُونَ الْآنَ

(124/316)



عَدَاوَتِهِمْ ، أَوْ لَا تَعْرِفُونَ ذَوَاتِهِمْ وَأَعْيَانَهُمْ بَلِ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَهُوَ عَلَامُ الْغُيُوبِ . قَالَ مُجَاهِدٌ :  
 هُمُ بَنُو قُرَيْظَةَ ، وَعَزَاهُ الْبَغَوِيُّ إِلَى مُقَاتِلٍ وَقِتَادَةَ أَيْضًا . وَقَالَ السُّدِّيُّ : هُمُ أَهْلُ فَارِسَ قَالَ  
 مُقَاتِلٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ . وَسَيَأْتِي تَوْجِيهَهُ ، وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ :  
 الْمُرَادُ كُلُّ مَنْ لَا تَعْرِفُ عَدَاوَتَهُ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ عَامٌّ فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ أَظْهَرَتْ  
 الْأَيَّامُ بَعْدَ ذَلِكَ عَدَاوَتَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ وَمِنْ بَعْدِهِ كَالرُّومِ ، وَعَجِيبٌ مِمَّنْ ذَكَرَ  
 الْفَرَسَ فِي تَفْسِيرِهَا وَلَمْ يَذْكُرِ الرُّومَ الَّذِينَ كَانُوا أَقْرَبَ إِلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، بَلْ قَالَ بَعْضُهُمْ مَا  
 مَعْنَاهُ : إِنَّهُ يَشْمَلُ مَنْ عَادَى جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّتَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسَهُمْ وَقَاتَلَهُمْ ،  
 كَالْمُبْتَدِعَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ وَقَاتَلُوهُمْ أَوْ أَعَانُوا أَعْدَاءَهُمْ عَلَيْهِمْ . وَقَالَ  
 الْحَسَنُ : هُمُ الشَّيَاطِينُ وَالْجِنُّ وَرَوَوْا فِيهِ

(125/316)

حَدِيثًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَرِيبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَنَّهُ قَالَ :  
 " هُمُ الْجِنُّ وَلَا يَخْبِلُ الشَّيْطَانُ إِنْسَانًا فِي دَارِهِ فَرَسٌ عَتِيقٌ " قَالَ الْأَلُّوسِيُّ : وَرُويَ ذَلِكَ عَنْ  
 ابْنِ عَبَّاسٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . أَيْضًا وَاخْتَارَهُ الطَّبْرِيُّ ، وَإِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ لَا يَنْبَغِي الْعُدُولُ  
 عَنْهُ . اهـ . وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي اخْتِيَارِهِ لَهُ بِظَنِّهِ أَنَّ الْحَدِيثَ صَحِيحٌ ، وَمِثْلُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ

الْمُنْكَرَةَ عَنِ الْمَجْهُولِينَ يَصْرِفُونَ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمَقَاصِدِ الْمُهْمَةِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ شَوْكِهِمْ  
وَحَيَاتِهِمْ، إِلَى مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى الْخُرَافِيِّ الَّذِي حَاصِلُهُ أَنَّ اقْتِنَاءَ الْخَيْلِ الْعِتَاقِ يُرْهَبُ  
الْجِنَّ وَيَحْفَظُ النَّاسَ مِنْ خَيْلِهِمْ، كَأَنَّهَا تَعَاوِدُ لِلْوَقَايَةِ مِنَ الْجُنُونِ، لَا عُدَّةَ لِارْتِهَابِ الْعَدُوِّ،  
وَهُوَ خِلَافُ الْمُبَادَرِ مِنَ الْآيَةِ، وَمِنْ سَائِرِ السِّيَاقِ الَّذِي هُوَ فِي قِتَالِ الْمُحَارِبِينَ مِنْ أَعْدَاءِ  
الْمُؤْمِنِينَ، وَالْحَدِيثُ فِيهِ لَمْ يَصِحَّ، قَالَ الْحَافِظُ أَبُو كَثِيرٍ بَعْدَ أَنْ أُورِدَهُ: وَهَذَا الْحَدِيثُ  
مُنْكَرٌ لَا يَصِحُّ إِسْنَادُهُ وَلَا مَتْنُهُ اهـ .

(126/316)

وَأَقُولُ: إِنَّ مِنْ سَقَطَاتِ ابْنِ جَرِيرٍ اخْتِيَارُهُ لَهُ، وَاسْتِدْلَالُهُ عَلَى بَطْلَانِ سَائِرِ الْأَقْوَالِ الَّتِي  
رَوَاهَا فِي مَعْنَى الْآيَةِ وَتَقَدَّمَ ذِكْرُهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَزَعَمَهُ أَنَّهُمْ كَانُوا  
يَعْلَمُونَ عَدَاوَةَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَفَارِسَ وَالْمُنَافِقِينَ لَهُمْ قَبْلَ نَزُولِ الْآيَةِ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلِّمٍ عَلَى إِطْلَاقِهِ  
، فَأَمَّا تَقْضُ قُرَيْظَةَ لِلْعَهْدِ فَقَدْ اعْتَذَرُوا عَنْهُ فَقَبِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَذْرَهُمْ وَلَمْ  
يُعَامِلَهُمْ مُعَامَلَةَ الْأَعْدَاءِ وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ عَقِبَ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَأَمَّا الْفُرْسُ فَلَمْ  
تَكُنْ عَدَاوَتُهُمْ تَخْطُرُ بِأَلِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ، وَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُونَ لَمْ يَكُونُوا  
يَعْدُونَ مِنَ الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ يُرْهَبُونَ بِأَعْدَادِ قُوَى الْحَرْبِ وَرِبَاطِ الْخَيْلِ، إِذْ لَمْ يَفْضَحِ الْوَحْيُ

كُفِرَ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِلَّا بَعْدَ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَبَقِيَ بَاقِيَهُمْ عَلَى ظَاهِرِ إِسْلَامِهِ ، قَالَ ابْنُ  
كثيرٍ بَعْدَ نَقْلِ الْأَقْوَالِ السَّابِقَةِ وَمَا تَقَدَّمَ عَنْهُ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَرِيبٍ : وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ  
حِيَّانٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ . وَهَذَا أَشْبَهُ الْأَقْوَالَ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ  
تَعَالَى : وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ  
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ (9 : 101) اهـ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ بِالْوَقْفِ عَنْ تَعْيِينِهِمْ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى

(127/316)

لِنَبِيِّهِ : لَا تَعْلَمُهُمْ

نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ وَلَكِنْ عَدَمُ عِلْمِهِمْ عِنْدَ نَزُولِ الْآيَةِ لَا يُنَافِي هَذَا الْعِلْمَ بَعْدَ ذَلِكَ . وَالْمُخْتَارُ  
عِنْدَنَا أَنَّ الْعِبَارَةَ تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ ظَهَرَتْ عِدَاؤُهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ  
وَرَسُولِهِ ، وَمِنَ الْمُبْتَدِعِينَ فِي دِينِهِ الْكَارِهِينَ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا تَقَدَّمَ بَعْدَ نَقْلِ عِبَارَةِ  
السُّهَيْلِيِّ .

وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي التَّعْلِيلِ : ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ مَا لِأَجْلِهِ أَمْرٌ بِإِعْدَادِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَقَالَ :  
تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَذَلِكَ أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ كَوْنَ الْمُسْلِمِينَ مَتَّهَبِينَ لِلْجِهَادِ  
وَمُسْتَعِدِّينَ لَهُ مُسْتَكْمِلِينَ لِجَمِيعِ الْأَسْلِحَةِ وَالْأَلَاتِ خَافُوهُمْ ، وَذَلِكَ الْخَوْفُ يُفِيدُ أُمُورًا

كثيرة: (أولها) أنهم لا يتصدون دار الإسلام . (وثانيها) أنه إذا اشتد خوفهم فربما التزموا  
من عند أنفسهم جزية . (وثالثها) أنه ربما صار ذلك داعياً لهم إلى الإيمان (ورابعها) أنهم لا  
يعينون سائر الكفار . (وخامسها) أن يصير ذلك سبباً لمزيد الزينة في دار الإسلام .

(128/316)

ثم قال في تفسير الآخرين من دُونِهِمْ: والمراد أن تكثير الآتِ الجهادِ وأدواتها كما يُرهبُ  
الأعداء الذين نعلم كونهم أعداء، كذلك يُرهبُ الأعداء الذين لا نعلم أنهم أعداء، ثم فيه  
وجوه الأول وهو الأصح أنهم هم المنافقون - وبينه من وجهين: (الأول) أنهم إذا شاهدوا  
قوة المسلمين وكثرة آياتهم وأدواتهم انقطع طمعهم من أن يصيروا مغلوبين، وذلك يحملهم  
على أن يتركوا الكفر في قلوبهم وبواطنهم ويصيروا مخلصين في الإيمان . (الثاني) أن  
المنافق من عادته أن يتربص ظهور الآفات، ويحتمل في إلقاء الإفساد والتفريق فيما بين  
المسلمين، فإذا شاهد كون المسلمين في غاية القوة خافهم، وترك هذه الأفعال المذمومة  
أه . وكل ما قاله حسنٌ وصوابٌ إلا قوله بترك المنافق للكفر الذي في قلبه إلخ . ففيه أن  
ذلك ليس باختياره . والأولى أن يقال: إنه يوطن نفسه على أعمال الإسلام حتى يرجي أن

يَصِيرُ مُخْلِصًا بظُهُورِ مَحَاسِنِ الْإِسْلَامِ لَهُ بَعْدَ خَفَائِهَا عَنْهُ بِتَوَقُّعِهِ هَلَاكَ الْمُسْلِمِينَ .  
وَقَالُوا : الْعِلْمُ هُنَا بِمَعْنَى الْمَعْرِفَةِ ؛ لِأَنَّهُ تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ مِنَ الْبَسَائِطِ ، أَيِّ

(129/316)

لَا تَعْرِفُونَ ذَوَاتَهُمْ وَأَعْيَانَهُمْ . وَمَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ عَدَمِ إِسْنَادِ الْمَعْرِفَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . أَوْ  
وَصَفَهُ بِهَا خَاصٌّ بِلَفْظِهَا ، أَوْ بِمَا يُشْعَرُ بِمَا خَصُّوا بِهَا مَعْنَاهَا مِنْ كَوْنِهِ إِدْرَاكَ الشَّيْءِ بِتَفَكُّرٍ  
وَتَدَبُّرٍ لآثَرِهِ ، كَمَا قَالَ الرَّاعِبُ . وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ لَا تَعْلَمُونَهُمْ مُعَادِينَ لَكُمْ ، وَيُعَلِّلُهُ مَنْ قَالَ :  
هُمُ الْمُنَافِقُونَ بِأَنَّهُمْ مَرَدُّوا عَلَى التَّفَاقُقِ وَأَنْتَنُوهُ بِحَيْثُ لَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ مَا يَفْضَحُهُمْ فِيهِ .

(130/316)

أَقُولُ : وَهَذَا التَّقْيِيدُ لِأَعْدَادِ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ بِقَصْدِ إِرْهَابِ الْأَعْدَاءِ  
الْمُجَاهِرِينَ وَالْأَعْدَاءِ الْمُسْتَخْفِينَ وَغَيْرِ الْمَعْرُوفِينَ - وَمَنْ سَيَظْهَرُ مِنَ الْأَعْدَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ  
كَالْفُرْسِ وَالرُّومِ - دَلِيلٌ عَلَى تَفْضِيلِ جَعْلِهِ سَبَبًا لِمَنْعِ الْحَرْبِ عَلَى جَعْلِهِ سَبَبًا لِإِقْذَارِهَا ،  
فَهُوَ يَقُولُ : اسْتَعْدُوا لَهَا لِيُرْهِبَكُمْ الْأَعْدَاءُ عَسَى أَنْ يَمْتَنِعُوا عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَى قِتَالِكُمْ ، وَهَذَا

عَيْنُ مَا يُسَمَّى فِي عُرْفِ دَوْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ بِالسَّلَامِ الْمُسَلِّحِ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الضَّعْفَ يُغْرِي  
الْأَقْوِيَاءَ بِالْتَّعَدِّيِّ عَلَى الضُّعْفَاءِ ، وَلَكِنَّ الدُّوْلَ الْاِسْتِعْمَارِيَّةَ تَدَّعِي هَذَا بِالْسِّنْتِهَا وَهِيَ  
كَاذِبَةٌ فِي دَعْوَاهَا أَنَّهَا تَقْصِدُ بِالْاِسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ حِفْظَ السَّلْمِ الْعَامِّ ، وَكَانَ يُظَنُّ أَنَّهُمْ  
يَقْصِدُونَ السَّلْمَ الْخَاصَّ بِدَوْلِ أُوْرِيَّةَ ، وَأَنَّ الْحَرْبَ اِمْتَنَعَتْ مِنْهَا ، فَأَبْطَلَتْ ذَلِكَ الظَّنَّ  
الْحَرْبُ الْعَامَّةُ الْاٰخِرَةُ الَّتِي كَانَتْ أَشَدَّ حُرُوبِ التَّارِيخِ أَهْوَالًا وَتَقْتِيلًا وَتَخْرِيْبًا ، وَالْاِسْلَامُ  
لَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ تَعَبَّدُ النَّاسُ بِهَذِهِ التَّنْصُوصِ تَعَبْدًا ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى آيَةُ السَّلْمِ الَّتِي تَلِي  
هَذِهِ الْآيَةَ .

(131/316)

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى حَضَّ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى اِنْفَاقِ الْمَالِ وَغَيْرِهِ مِمَّا يَعِينُ عَلَى الْقِتَالِ فَقَالَ : وَمَا  
تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوْفِّ إِلَيْكُمْ أَيْ : وَمَهْمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ نَقْدًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ ،  
قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا فِي اِعْدَادِ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْمُرَابَطَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُعْطِيكُمْ اللَّهُ جَزَاءَهُ  
وَإِفْيَا تَامًا وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ أَيْ : وَالْحَالُ أَنْكُمْ لَا تُنْقِصُونَ مِنْ جَزَائِهِ شَيْئًا ، أَوْ لَا يَلْحَقُكُمْ فِي  
هَذِهِ الْحَالَةِ ظَلْمٌ وَلَا اضْطِهَادٌ مِنْ اِعْدَائِكُمْ ؛ لِأَنَّ الْقَوِيَّ الْمُسْتَعِدَّ لِمَقَاوِمَةِ الْمُعْتَدِينَ بِالْقُوَّةِ  
قَلَّمَ يَعْتَدِي عَلَيْهِ أَحَدٌ ، فَإِنْ اِعْتَدَى عَلَيْهِ فَقَلَّمَ يَظْفِرُ بِهِ الْمُعْتَدِي وَيَنَالُ مِنْهُ مَا يُعَدُّ بِهِ ظَالِمًا

لَهُ ، فَاتُّمَّ مَا ظَلَمْتُمْ بِإِخْرَاجِكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ  
إِلَّا لِضَعْفِكُمْ ، وَسَيَأْتِي التَّذْكِيرُ بِذَلِكَ الظلمِ فِي بَيَانِ الْإِذْنِ الْأَوَّلِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ ، فَهَذَا  
مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ إِعْدَادَ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى

(132/316)

الْجِهَادِ وَالْمُرَابَطَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يُمكنُ الْقِيَامُ بِهِ إِلَّا بِإِنْفَاقِ الْمَالِ الْكَثِيرِ ، فَهَذَا رَغْبٌ  
سُبْحَانَهُ عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ ، وَوَعْدُهُمْ بِأَنْ كُلُّ مَا يُنْفِقُونَهُ فِيهَا يُوفَى إِلَيْهِمْ ،  
أَيُّ : يُجْزَوْنَ عَلَيْهِ جَزَاءٌ وَاقِيًا إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كِلَيْهِمَا ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ فَقَطُّ ، كَمَا  
أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلْمُنَافِقِينَ : قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ تَرَبَّصُ  
بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا (9 : 52) الْآيَةَ . وَسَأْتِي قَرِيبًا فِي سُورَةِ  
التَّوْبَةِ ، وَالْحُسَيْنِيَّانِ فِيهَا هُمَا : النَّصْرُ وَالْغَنِيمَةُ فِي الدُّنْيَا ، وَالشَّهَادَةُ الْمَفْضِيَّةُ إِلَى الْمَثُوبَةِ  
فِي الْآخِرَةِ . فَيَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ بِذَلِكَ مَا يَكْفِي لِلْإِعْدَادِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَبْذُلُوا  
طَوْعًا وَجَبَ عَلَى الْإِمَامِ الْحَقِّ الْعَادِلِ الزُّرْمُ الْأَغْنِيَاءِ ذَلِكَ بِحَسَبِ اسْتَطَاعَتِهِمْ لِقِيَامِ الْأُمَّةِ  
وَالْمَلَّةِ ، كَمَا قَالَ فِي سِيَاقِ أَحْكَامِ الْقِتَالِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا  
بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ (2 : 195) فَسَبِيلُ اللَّهِ هُنَا وَهُنَا لِكَ هُوَ الْجِهَادُ الْوَاقِعِيُّ لِلْأَهْلِ الْحَقِّ

مِنْ بَغْيِ أَهْلِ الْبَاطِلِ - وَإِنْ كَانَ لَفِظُهُ عَامًّا يَشْمَلُ كُلَّ مَا يُوصَلُ إِلَى مَرْضَاتِهِ وَمَثُوبَتِهِ مِنْ  
أَعْمَالِ الْبِرِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْإِذْنِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ تَعْلِيلًا لَهُ: أُذِنَ لِلَّذِينَ

(133/316)

---

يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ  
يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ  
يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي  
الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ  
(22 : 39 - 41) .

فَهَذَا هُوَ الْجِهَادُ الْإِسْلَامِيُّ ، وَهَذِهِ هِيَ أَحْكَامُهُ وَأُصُولُهُ وَعِلْمُهَا ، وَهِيَ فِي جُمْلَتِهَا  
وَتَفْصِيلِهَا تُقَدِّمُ تَقَوُّلَاتِ أَعْدَاءِ الْحَقِّ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ قَامَ بِالسَّيْفِ ،

(134/316)

---



وَعَلَبَ بِالْفَهْرِ وَسَفَكَ الدَّمَاءَ ، وَقَدْ عَلِمَ مِنْ هَذِهِ التُّصُوصِ الَّتِي هِيَ أَسَاسُ أَحْكَامِ هَذَا  
الدِّينِ الْقَطْعِيَّةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَمَا تَوَاتَرَ مِنْ تَارِيخِهِ أَنَّهُ دِينَ قَامَ بِالِدَّعْوَةِ وَالْإِقْتِنَاعِ ، كَانَ  
أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهَذَا الدَّاعِيِ أَهْلُ بَيْتِهِ الْأَدْنَوْنَ : زَوْجُهُ الَّتِي كَانَتْ أَعْلَمَ النَّاسِ بِحَالِهِ ، وَرَبِيبُهُ  
ابْنُ عَمِّهِ عَلِيُّ الْمُرْتَضَى ، وَعَتِيقَةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَأَوَّلُ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ  
خَارِجَ بَيْتِهِ فَعَقَلَهَا وَفَقَهَ سِرَّهَا ، وَأَدْرَكَ حَقِيقَتَهَا وَفَضَّلَهَا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ فَقَبِلَهَا بِلَا تَلَبُّثٍ أَبُو  
بَكْرٍ الصِّدِّيقُ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَمَا زَالَ جُمْهُورُ قَوْمِ الدَّاعِيِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . يُؤَذِّنُهُ  
وَيُصَدِّقُونَ عَنْهُ وَيَفْتِنُونَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الضُّعَفَاءِ بِأَنْوَاعِ التَّعْذِيبِ ، حَتَّى اضْطُرُّوهُمْ  
إِلَى الْهَجْرَةِ وَتَرَكَ دِيَارَهُمْ وَوَطَنَهُمْ ، ثُمَّ هَاجَرَهُ هُوَ بَعْدَ ظُهُورِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ بِعَشْرِ سِنِينَ ، ثُمَّ  
صَارَ هُوَ لَاءَ الْمُشْرِكِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ إِلَى مَهَاجِرِهِمْ يُقَاتِلُونَهُمْ فِيهِ .  
وَلَمَّا أَدَانَ اللَّهُ لَهُمْ بِالِدِّفَاعِ بَيْنَ حِكْمَتِهِ ، وَأَنَّهُمْ مَظْلُومُونَ لَا ظَالِمُونَ ، وَأَنَّهُ لَوْلَا هَذَا الدِّفَاعُ  
لَغَلَبَ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْبَاطِلِ وَالْخُرَافَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ  
وَالْفَضَائِلِ ، وَهَدَمُوا بُيُوتَ اللَّهِ تَعَالَى لِإِبْقَاءِ هِيََاكِلِ الْأَصْنَامِ وَبُيُوتِ الْأَوْثَانِ .

(135/316)

---

ثُمَّ وَصَفَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُعْتَبَرُ شَرْطًا لِإِبَاحَةِ الْقِتَالِ لَهُمْ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عِنْدَ اتِّصَارِهِمْ  
وَتَمَكِينِهِمْ فِي الْأَرْضِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ الَّتِي وَصَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهَا تُنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ  
وَالْمُنْكَرِ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ الَّتِي تَقُومُ بِهَا الْمَصَالِحُ الْمَعَاشِيَّةُ الْعَامَّةُ ، وَيُزِيلُ بُؤْسَ الْفُقَرَاءِ  
وَالْمَسَاكِينِ وَالْغَارِمِينَ بِمُشَارِكَتِهِمْ لِلْأَغْنِيَاءِ فِي أَمْوَالِهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ الْمُغْنِي لَهُمْ ، لَا بِمُجَرَّدِ  
أَرْيَحَتِهِمْ وَتَفَضُّلِهِمْ ، وَتَعَيَّنَ عَلَى السِّيَاحَةِ بِكِفَايَةِ أُنْبَاءِ السَّبِيلِ ، وَيُكَلِّفُونَ حِفْظَ الْفَضِيلَةِ  
وَمَنْعَ الرِّذَائِلِ بِإِقَامَةِ فَرِيضَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ  
الشَّرِيفَةِ مِنْ إِبَاحَةِ الْجِهَادِ تُخَالَفُهَا الدُّوَلُ الْحَرَبِيَّةُ قَبِيحُ الْمُنْكَرَاتِ وَالْفَوَاحِشِ ، وَتُفْسِدُ  
الْأَخْلَاقَ .

هَذَا أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي شَرْعِيَّةِ هَذَا الْجِهَادِ الَّذِي يَعِيبُهُ الْمُتَعَصِّبُونَ الْمُرَاءُونَ مِنْ  
الْكُفَّارِ أَعْدَاءِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، ثُمَّ نَزَلَ مِنْ أَحْكَامِهِ مَا نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهِ ، وَمَنْ  
أَهْمُهُ أَنْ يَكُونَ الْفُرْضُ الْأَوَّلُ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ الْحَرَبِيِّ لِأَهْلِ الْحَقِّ إِرْهَابَ أَعْدَائِهِمْ أَهْلِ الْبَاطِلِ  
لَعَلَّهُمْ يَكْفُونَ عَنِ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا كَانَ أَهْلُ الْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ قَادِرِينَ عَلَى  
حِفْظِهَا بِالِدِّفَاعِ عَنْهُمَا ، وَإِضْعَافِ شَوْكَةِ الْبَاغِينَ الْمُبْطِلِينَ أَوْ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير المنار ﴾ 10 ص 42.59 ﴿

(136/316)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

عطف جملة : ﴿ وَأَعِدُّوا ﴾ على جملة : ﴿ فإِذَا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ [ الأنفال : 57

[ أو على جملة : ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ [ الأنفال : 59 ] ، فتفيد مفاد

الاحتراس عن مفادها ، لأنَّ قوله : ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ يُفيد توهيناً

لشأن المشركين ، فتعقيبه بالأمر بالاستعداد لهم : لتلايحسب المسلمون أنَّ المشركين قد

صاروا في مكنتهم ، ويلزم من ذلك الاحتراس أنَّ الاستعداد لهم هو سبب جعل الله

إياهم لأيعجزون الله ورسوله ، لأنَّ الله هياً أسباب استصّاهم ظاهرها وباطنها .

والإعداد التهيئة والإحضار ، ودخل في ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ كل ما يدخل تحت قدرة

الناس اتخاذه من العُدّة .

والخطاب لجماعة المسلمين وولاية الأمر منهم ، لأنَّ ما يراد من الجماعة إنما يقوم بتنفيذه وولاية

الأمر الذين هم وكلاء الأمة على مصالحها .

والقوة كمال صلاحية الأعضاء لعملها وقد تقدّمت آنفاً عند قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ

العقاب ﴾ [ الأنفال : 52 ] وعند قوله تعالى : ﴿ فَخِذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ وتطلق القوة مجازاً

على شدة تأثير شيء ذي أثر ، وتطلق أيضاً على سبب شدة التأثير ، فقوة الجيش شدة

وقعه على العدو ، وقوته أيضاً سلاحه وعتاده ، وهو المراد هنا ، فهو مجاز مرسل  
بواسطتين ، فاتخاذ السيوف والرماح والأقواس والنبال من القوة في جيوش العصور الماضية  
، واتخاذ الدبابات والمدافع والطائرات والصواريخ من القوة في جيوش عصرنا .  
وبهذا الاعتبار يُفسر ما روى مسلم والترمذي عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم قرأ هذه الآية على المنبر ثم قال " ألا إن القوة الرمي " قالها ثلاثاً ، أي أكمل أفراد  
القوة آلة الرمي ، أي في ذلك العصر .  
وليس المراد حصر القوة في آلة الرمي .  
وعطف ﴿ رباط الخيل ﴾ على ﴿ القوة ﴾ من عطف الخاص على العام ، للاهتمام  
بذلك الخاص .

(137/316)

---

و ﴿ الرباط ﴾ صيغة مفاعلة أتى بها هنا للمبالغة لتدل على قصد الكثرة من ربط الخيل  
للغزو ، أي احتباسها وربطها انتظاراً للغزو عليها ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم " من  
ارتبط فرساً في سبيل الله كان روثها وبولها حسنة له " الحديث .  
يقال : ربط الفرس إذا شدّه في مكان حفظه ، وقد سمّوا المكان الذي ترتبط فيه الخيل

رباطاً ، لأنهم كانوا يجرسون الثغور المخوفة راكبين على أفراسهم ، كما وصف ذلك لبيد في قوله :

ولقد حميت الحمي تحملُ شِكِّتي  
فُرْطٌ وشاحي إن ركبتُ زمامها . . .

إلى أن قال :

حتى إذا أَلَّتْ يدا في كافر  
وأجنَّ عوراتِ الثغور ظلامها . . .  
أسهلتُ وانتصبت كجذع مُنيفة  
جرداءٍ يحصرَ دونها جرّامها . . .

ثم أطلق الرباط على محرس الثغر البحري ، وبه سمّوا رباط (دمياط) بمصر ، ورباط (المنستير) بتونس ، ورباط (سلا) بالمغرب الأقصى .

وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ في سورة [آل عمران : 200] .

وجملة : ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴿ إمّا مستأنفة استئفاً بيانياً ، ناشأً عن

تخصيص الرباط بالذكر بعد ذكر ما يعتمه ، وهو القوة ، وإمّا في موضع الحال من ضمير ﴿ وأعدّوا ﴾ .

وعدو الله وعدوهم : هم المشركون فكان تعريفهم بالإضافة ، لأنها أخصر طريق لتعريفهم ، ولما تضمنه من وجه قتالهم وإرهابهم ، ومن ذمهم ، أن كانوا أعداء ربهم ، ومن تحريض المسلمين على قتالهم إذ عُدُّوا أعداء لهم ، فهم أعداء الله ؛ لأنهم أعداء توحيدهم وهم أعداء رسوله صلى الله عليه وسلم لأنهم صارحوه بالعداوة ، وهم أعداء المسلمين ، لأن المسلمين أولياء دين الله والقائمون به وأنصاره ، فعطف ﴿ وَعَدُوِّكُمْ ﴾ على ﴿ عَدُوَّ اللَّهِ ﴾ من عطف صفة موصوف واحد مثل قول الشاعر ، وهو من شواهد أهل العربية :

إلى الملك القرم وابن الهما

م وليث الكتيبة في المزدحم . . .

(138/316)

---

والإرهاب جعل الغير رهبا ، أي خائفاً ، فإن العدو إذا علم استعداد عدوه لقتاله خافه ، ولم يجرأ عليه ، فكان ذلك هناء للمسلمين وأمناً من أن يغزوهم أعداؤهم ، فيكون الغزو بأيديهم : يغزون الأعداء متى أرادوا ، وكان الحال أوفق لهم ، وأيضاً ذارهبوهم تجنبوا إعانة الأعداء عليهم .

والمراد بـ ﴿ الآخريين من دونهم ﴾ أعداء لا يعرفهم المسلمون بالتعيين ولا بالإجمال ، وهم

من كان يضرر للمسلمين عداوة وكيداً ، ويتربص بهم الدوائر ، مثل بعض القبائل .

فقوله : ﴿ لا تعلمونهم ﴾ أي لم تكونوا تعلمونهم قبل هذا الإعلام ، وقد علمتموهم الآن إجمالاً ، أو أريد : لا تعلمونهم بالتفصيل ، ولكنكم تعلمون وجودهم إجمالاً مثل المنافقين ، فالعلم بمعنى المعرفة ، ولهذا نصب مفعولاً واحداً .

وقوله : ﴿ من دونهم ﴾ مؤذن بأنهم قبائل من العرب كانوا ينتظرون ما تنكشف عنه عاقبة المشركين من أهل مكة من حربهم مع المسلمين ، فقد كان ذلك دأب كثير من القبائل كما ورد في السيرة ، ولذلك ذكر ﴿ من دونهم ﴾ بمعنى : من جهات أخرى ، لأن أصل ( دون ) أنها للمكان المخالف ، وهذا أولى من حمله على مطلق المغايرة التي هي من إطلاقات كلمة ( دون ) لأن ذلك المعنى قد أغنى عنه وصفهم بـ ﴿ آخرين ﴾ .

وجملة ﴿ الله يعلمهم ﴾ تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين ، فالخبر مستعمل في معناه الكنائي ، وهو تعقبهم والإغراء بهم ، وتعريض بالامتنان على المسلمين بأنهم بمحل عناية الله فهو يحصي أعداءهم وينبئهم إليهم .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي : للتقوي ، أي تحقيق الخبر وتأكيده ، والمقصود تأكيد لازم معناه ، أما أصل المعنى فلا يحتاج إلى التأكيد إذ لا ينكره أحد ، وأما حمل التقديم هنا على إرادة الاختصاص فلا يحسن للاستغناء عن طريق القصر بجملة النفي في قوله : ﴿ لا تعلمونهم ﴾ فلو قيل : ويعلمهم الله لحصل معنى القصر من مجموع الجملتين .

وإذ قد كان إعداد القوة يستدعي إنفاقاً ، وكانت النفوس شحيحة بالمال ، تكفل الله  
للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه ، فقال : ﴿ وما تنفقوا من شيء في  
سبيل الله يوف إليكم ﴾ فسبيل الله هو الجهاد لإعلاء كلمته .  
والتوفية : أداء الحق كاملاً ، جعل الله ذلك الإنفاق كالقرض لله ، وجعل على الإنفاق جزاء  
، فسمى جزاءه توفية على طريقة الاستعارة المكنية ، وتدل التوفية على أنه يشمل الأجر  
في الدنيا مع أجر الآخرة ، ونقل ذلك عن ابن عباس .  
وتعدية التوفية إلى الإنفاق بطريق بناء للفعل للنائب ، وإنما الذي يوفى هو الجزاء على  
الإنفاق في سبيل الله ، للإشارة إلى أن الموفى هو الثواب .  
والتوفية تكون على قدر الإنفاق وأنها مثله ، كما يقال : وفاه دينه ، وإنما وفاه مماثلاً لدينه .  
وقريب منه قولهم : قضى صلاة الظهر ، وإنما قضى صلاة بمقدارها فالإسناد : إما مجاز  
عقلي ، أو هو مجاز بالحذف .  
والظلم : هنا مستعمل في النقص من الحق ، لأن نقص الحق ظلم ، وتسمية النقص من الحق  
ظلماً حقيقة .



وليس هو كالذي في قوله تعالى: ﴿كَلَّمَا الْجِنِّينَ آتَتْ أَكْطَاهَا وَلَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [لكهف:

33]. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير ح 9 ص﴾

(140/316)

وقال الشيخ الشعراوي:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ يعني أن يكون الإعداد لكل من تحدث عنهم، وهم الذين

قاتلوا وقتلوا وأصاب أهلهم ضرورة الثأر لمقتلهم، والذين أسروا، والذين نقضوا العهد

نقضاً أكيداً أو نقضاً محتملاً، كل هؤلاء لا بد أن تعد لهم ما جاء به قول الحق تبارك وتعالى:

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾

وهذا تكليف من الله تعالى لعباده المؤمنين الذين يجاهدون لإعلاء كلمته بضرورة أن يعدوا

دائماً قدر إمكانهم ما استطاعوا من قوة.

ولماذا قدر استطاعتهم؟

لأن الإنسان محدود بطاقة، ووراء قدرة المؤمنين قدرة الله سبحانه. ولذلك أنت تعد

قدر ما تستطيع ثم تطلب من الله أن يعينك. وإذا ما صنعت قدر استطاعتك، إياك أن

تقول : إن هذه الاستطاعة لن توصلني إلى مواجهة ما يملكه خصمي من معدات يمكن أن يهاجمني بها ، فخصمك ليس له مدد من السماء إنما أنت لك المدد السماوي ، وما دام لك هذا المدد فقوتك بمدد الله تجعلك الأقوى مهما كان عدوك ، ولذلك عندما يحدث الله تعالى المؤمنين يوضح لهم : إياكم أن تخافوا من كثرة عدد عدوكم ، والمطلوب منكم أن تعدوا له ما استطعتم من قوة وحتى أطمئنكم أني معكم ، تذكروا آية واحدة أنزلتها ، وهي : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [آل عمران : 151] .

وساعة يلقي الله عز وجل في قلوب الذين كفروا الرعب سيلقون سلاحهم ويفرون من ميدان القتال ولو كانوا يجارون بأقوى الأسلحة ، وسيتمكن المؤمنون منهم وينتصرون عليهم بأية قوة أعدوها . وقوله تعالى :

﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

(141/316)

---

هذه القوة قد تكون ذاتية في النفس بحيث لا تخاف شيئاً ، فجسم كل مقاتل قوي ممتليء بالصحة وله عقل يعمل باقتدار وإقبال على القتال في شجاعة ، بالإضافة إلى قوة السلاح بأن يكون سلاحاً حديثاً متطوراً بعيد المدى ، وأن يحرص المؤمنون على امتلاك كل شيء

موصول بالقوة . وكان الهدف قديماً وحديثاً أن يمتلك المقاتل قوة تمكنه من عدوه ولا تمكن  
عدوه منه . وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مدى رمي السهام هو رمز القوة  
 . فأول ما تبدأ الحرب يضرّبون العدو بالنبال ، فإذا زحف العدو وتقدم يستخدمون له  
الرماح ، فإذا تم الالتحام كان ذلك بالسيوف . وكانت أحسن قوة في الحرب هي السهام التي  
ترمي بها خصمك قتاله وهو بعيد عنك ، ولا يستطيع أن ينالك أو يقترب منك . ولذلك  
عندما فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة قال فيما يرويه عنه عقبه بن عامر رضي  
الله عنه قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : ﴿ وَأَعِدُّوا  
لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ثم قال : " ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة  
الرمي " .

لأنك بالرمي تتمكن من عدوك ولا يتمكن هو منك ، فإذا تفوقت في الرمي كنت أنت  
المنتصر عليه .

(142/316)

---

ولكن كيف ينطبق ذلك على الحرب في العصر الحديث بعد أن تطورت الأسلحة الفتاكة ؟  
لقد صارت المدفعية لفترة من الزمن هي السلاح ؛ لأنها المحقق للنصر لبعدها ، ثم

جاءت الطائرات لتصبح هي السلاح الأقوى؛ لأنها تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وتلقي بقنابلها وتعود . وصارت قوة الطيران هي التي تحدد المنتصر في الحرب؛ لأنها تلحق بالعدو خسائر جسيمة دون أن يستطيع هو أن يرد عليها ما دام غير متفوق في الطيران ، ثم بعد ذلك جاءت الصواريخ والصواريخ عابرة للقارات ، إلى آخر الأسلحة المتطورة التي تتسابق على اختراعها الدول الآن ، وكلها أسلحة بعيدة المدى ، والهدف أن تنال كل دولة أرض عدوها ولا يستطيع هو أن ينال أرضها . ويضيف الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: 60] .

(143/316)

---

ورباط الخيل هو القوة التي تحتل الأرض ، فمهما بلغت قدرتك في الرمي فأنت لا تستطيع أن تستولي على أرض عدوك ، ولكن راجي الخيل كانوا يدخلون المعركة في الماضي بعد الرمي ليحتلوا الأرض . وهذه عملية تقوم بها المدرعات الآن . فالمعركة تبدأ أولاً رمية بالصواريخ والطائرات حتى إذا حطمت قوة عدوك انطلقت المدرعات لتحتل الأرض ، فالطائرات والصواريخ تهلك العدو وتخطمه ولكنها لا تأخذ الأرض . ولكن الذي يمكننا من الأرض والاستيلاء عليها هو : رباط الخيل ، أو المدرعات ، ورباط الخيل هو عقده

للحرب ، أي أن الخيل تُعد وتُعلم وتُدرَّب وتكون مستعدة للحرب في أية لحظة ، تماماً كما تأتي للمدركات وتُعدها إعداداً جيداً بالذخيرة ، وتصلح ما كيناتها وتُدرَّب عليها لتكون مستعدة للقتال في أي لحظة . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من خير معاش الناس لهم رجل يمسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على منته كلما سمع هيعة أو فرجة طار على منته يتبغي القتل أو الموت مظانه ، ورجل في غنيمة في شعبة من هذه الشعفاء وبطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير " .

أي أنه لا ينتظر بل ينطلق لأي صيحة . ومن الإعجاز في الأداء القرآني أنه أعطانا ترتيباً للحرب ، فالحرب أولاً تبدأ بهجوم يحطم قوى العدو بالرمي ، سواء كان بالصواريخ أم بالطائرات أم بغيرهما ، ثم بعد ذلك يحدث الهجوم البري ، ولا يحدث العكس أبداً . ورتب الحق سبحانه وتعالى وسائل استخدام القوة أثناء القتال ، فهي أولاً الرمي ، وبه نهلك مكينا ثم نستولي على المكان ، وكان ذلك يتم برباط الخيل الذي تقوم مقامه المدرعات الآن .

---

ونجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء في القرآن الكريم بالأداء الذي يعلم ما تأتي به الأيام من اختراعات الخلق ، ونجد في زماننا هذا كل قوة للسيارة أو المدرعة أو الدبابة إنما تقاس منسوبة إلى الخيل ، فيقال قوة خمسة أحصنة أو خمسمائة حصان .

ويقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا لِلَّهِ وَعَدُّوْكُمْ ﴾ [ الأنفال : 60 ] .

فالقصد - إذن - من إعداد هذه القوة هو إرهاب العدو حتى لا يطمع فيكم ؛ لأن مجرد الإعداد للقوة ، هو أمر يسبب رهبا للعدو . ولهذا تقام العروض العسكرية ليرى الخصم مدى قوة الدولة ، وحين تبين لخصمك القوة التي تملكها لا يجترىء عليك ، ويتحقق بهذا ما نسميه بلغة العصر " التوازن السلمي " . والذي يحفظ العالم الآن بعد سقوط الاتحاد السوفيتي هو التوازن السلمي بين مجموعات من الدول ، بالإضافة إلى العامل الاقتصادي المكلف للحرب ، فالقوة الآن لا تقتصر على السلاح فقط ، ولكن تعتمد القوة على عناصر كثيرة منها الاقتصاد والإعلام وغيرهما . وصار الخوف من رد الفعل أحد الأسباب القوية المانعة للحرب . وكل دولة تخشى مما تخفيه أو تظهره الدولة الأخرى . وهكذا صار الإعداد للحرب ينفي قيام الحرب .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا اللَّهَ وَعَدُّوكُمْ ﴾ [ الأنفال : 60 ] .

(145/316)

ولا تظنوا أن من يواجهونكم هم أعداء الله فقط وقد سلطكم سبحانه عليهم ، لا بل عليكم أن تعرفوا أت أعداء الله هم أعداؤكم أيضاً ؛ لأنهم يفسدون الحياة على المؤمنين . وعدو الله دائماً يحاول أن ينال من المؤمنين . وأن ينكل بهم ، وأن يجبرهم إن استطاع على الكفر وأن يغيرهم على ذلك . فالحق سبحانه وتعالى لا يغضب ؛ لأنهم لم يؤمنوا به ، بل لأنهم لا يطبقون المنهج الذي يسعد الإنسان على الأرض ، فسبحانه وتعالى لا يكرههم ولكن يعاقبهم بسبب الإفساد في الأرض وبغيهم وطغيانهم .

﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [ الأنفال : 60 ] .

وهذه لفظة من الحق سبحانه وتعالى إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا أثناء الرسالة من كفار قريش واليهود والمنافقين وغيرهم ، ولكن هناك خلقاً كثيراً سيأتون بعد ذلك لا تعلمونهم أتم الآن ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم ، كما يلفتنا سبحانه إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم الذين يظهرون في ميدان القتال فقط ليحاربوا المسلمين ، ولكن

هناك كثيراً ممن لا يظهرون في ميدان القتال يحاربون دين الله ويحاربون المسلمين . وقد ظهر معنى هذه الآية الكريمة ، ولا يزال يظهر للمسلمين ، فظهرت عداوة الفرس والروم وحربهم ضد المسلمين ، وظهرت عداوة الصليبيين وغيرهم . ومع الزمن سوف يظهر من يعلمهم الله ولا نعلمهم نحن . وقد جاءت أحداث الحياة لتؤكد دقة تعبير القرآن الكريم .

(146/316)

---

ثم تناول الحق سبحانه وتعالى هواجس النفس البشرية ، وهي تنصت لهذه الآيات من الإعداد العسكري ، فالذي يخطر على البال أولاً أن مثل هذا الإعداد يتطلب مالا ، ويتطلب جهداً ، ويتطلب زمناً فوق الزمن لقضاء المصالح والحوائج . فإياكم أن تنكصوا عن الاستعداد ؛ لأن كل ما تنفقونه في سبيل الله محسوب عند الله . وإياكم أن تقولوا : إنَّ الإعداد لقوة المجتمع يحتاج مالا ويقتري على الأبناء ؛ لأن الله يرزقكم . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴾ [ الأنفال : 60 ] .  
أي أن ما تنفقونه مما يقال له : شيء سواء أكان قليلاً أم كثيراً يرد إليكم ، ولقد جاء التعبير  
﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ أي مما يقال له شيء



. ولوجاءت الآية : غنمتم شيئاً ، لما شملت الأشياء البسيطة ، ولكن قوله تعالى : ﴿ مَنْ شَيْءٍ ﴾ أي من بداية ما يقال له شيء ، حتى قالوا : إن الخيط الذي يوجد عند العدو لا بد أن يذهب للغنائم ، وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ الأنفال : 60 ] .

يعني أي شيء تنفقونه في سبيل الله تعالى مدخر لكم ما دمتم أنفقتموه وليس في بالكم إلا الله عز وجل . أما الإنفاق الذي ظاهره لله وحقيقته للشهرة أو الحصول على الثناء أو للتفاخر أو لقضاء المصالح . فكل ذلك اللون من الإنفاق خارج عن الإنفاق في سبيل الله ، لكن الإنفاق في سبيل الله سيرده الله لكم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ﴾



أي أن ما تنفقونه في سبيل الله لا ينقص مما معكم شيئاً .

(147/316)

---

على أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نأخذ طريق العدل وليس طريق الافتراء ؛ لذلك يطلب منا عز وجل ألا يطغينا هذا الاستعداد للحرب على خلق الله ، فما دام لدينا

استطاعة وأعدنا قوتنا وأسلحتنا فليس معنى ذلك أن نصاب بالغرور ونجتريء على خلق الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوي ص ﴾

(148/316)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأب يعقوب إسحاق بن إبراهيم القراب في كتاب فضل الرمي . والبيهقي في شعب الإيمان عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي إلا أن القوة الرمي قالها ثلاثاً " .

وأخرج ابن المنذر عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ومن رباط الخيل ﴿ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي ثَلَاثًا ، إِنَّ الْأَرْضَ سَتْفَحَ لَكُمْ وَتَكْفُونَ الْمُؤَنَةَ ، فَلَا يَعْجِزَنَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ " .

وأخرج البيهقي عن عقبه بن عامر رضي الله عنه . أنه تلا هذه الآية ﴿ وأعدوا لهم ما

استطعتم من قوّة ﴾ قال : ألا أن القوّة الرمي .

وأخرج ابن المنذر عن مكحول رضي الله عنه قال : ما بين الهدفين روضة من رياض الجنة

، فتعلموا الرمي فإني سمعت الله تعالى يقول ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ﴾ قال :

فالرمي من القوّة .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأعدوا لهم ما

استطعتم من قوّة ﴾ قال : الرمي والسيوف والسلاح .

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه في قوله ﴿

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ﴾ قال : أمرهم بإعداد الخيل .

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ﴾ قال : القوّة ذكور الخيل ، والرباط

الإناث .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة

﴾ قال : القوّة ذكور الخيل ، ورباط الخيل الإناث .

---

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه في الآية قال :  
القوة الفرس إلى السهم فما دونه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه في  
قوله ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ قال : تحزون به عدو الله وعدوكم .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن  
النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم وهم يرمون ، فقال : رميا بني إسماعيل لقد كان أبوكم  
رامياً " .

وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي عن عقبة بن عامر  
الجهني رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول  
" إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة . صانعه الذي يحتسب في صنعه الخير ،  
والذي يجهز به في سبيل الله ، والذي يرمي به في سبيل الله . وقال : ارموا واركبوا وان ترموا  
خير من أن تركبوا ، وقال : كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة ، رمية عن قوسه ،  
وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله فإنهن من الحق ، ومن علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها  
." .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبيهقي في شعب الإيمان عن حرام بن معاوية قال : كتب

إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن لا يجاورنكم خنزير ، ولا يرفع فيكم صليب ، ولا تأكلوا على مائدة يشرب عليها الخمر ، وأدبوا الخيل ، وامشوا بين الفرقتين .  
وأخرج البزار والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم وقوم من أسلم يرمون فقال " ارموا بني اسمعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع ابن الأدرع . فأمسك القوم فسألهم ؟ فقالوا : يا رسول الله من كنت معه غلب . قال : ارموا وأنا معكم كلكم " .

(150/316)

---

وأخرج أحمد والبخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم من أسلم يتناضلون في السوق فقال " ارموا يا بني اسمعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع بني فلان - لاحد الفريقين - فأمسكوا بأيديهم فقال : ارموا . . . ! قالوا : يا رسول الله كيف نرمي وأنت مع بني فلان ؟ قال : ارموا وأنا معكم كلكم " .  
وأخرج الحاكم وصححه عن محمد بن إياس بن سلمة عن أبيه عن جده " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على ناس ينتضلون فقال : حسن اللهم مرتين أو ثلاثاً ، ارموا وأنا مع ابن الأدرع . فأمسك القوم قال : ارموا وأنا معكم جميعاً ، فلقد رموا عامة يومهم ذلك ثم

تفرقوا على السواء ما نضل بعضهم بعضاً " .

وأخرج الطبراني في الأوسط والحاكم والقرباب في فضل الرمي عن أبي هريرة رضي الله عنه  
" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل شيء من لهو الدنيا باطل إلا ثلاثة .

انتضالك بقوسك ، وتأديبك فرسك ، وملاعبتك أهلِكَ فإنها من الحق ، وقال عليه السلام  
: انتضلوا واركبوا وان تنضلوا أحب إليّ ، إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة .  
صانعه محتسباً ، والمعين به ، والرامي به في سبيل الله تعالى " .

وأخرج الحاكم وصححه والقرباب عن أبي نجيح السلمي رضي الله عنه قال : حاصرنا  
قصر الطائف ، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من رمى بسهم في سبيل  
الله فله عدل محرر " قال : فبلغت يومئذ ستة عشر سهماً .

وأخرج ابن ماجة والحاكم والقرباب عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه  
" سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رمى العدو بسهم فبلغ سهمه أو أخطأ  
أو أصاب فعدل رقبة " .

وأخرج الحاكم عن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه قال : لما كان يوم بدر قال لنا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم " إذا أكتبوكم فارموا بالنبل واستبقوا نبلكم " .

(151/316)

---

وأخرج المحاكم وصححه عن سعد بن أبي وقاص " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال  
يوم أحد : أنبلوا سعد ، أرم يا سعد رمى الله لك ، فذاك أبي وأمي " .

وأخرج المحاكم وصححه عن عائشة بنت سعد رضي الله عنها عن أبيها أنه قال :  
الأهل أتى رسول الله أني . . . حميت صحابتي بصدور نبلي

وأخرج الثقفى في فوائده عن أبي أيوب الأنصارى رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه  
وسلم قال : لا تحضر الملائكة من الله شيئاً إلا ثلاثة . هو الرجل مع امرأته ، وإجراء الخيل  
، والنضال " .

وأخرج ابن عدي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
" الملائكة تشهد ثلاثاً . الرمي ، والرهان ، وملاعبة الرجل أهله " .

وأخرج أبو عبيدة في كتاب الخيل عن أبي الشعثاء جابر بن يزيد رضي الله عنه " أن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم قال : ارموا واركبوا الخيل ، وان ترموا أحب إليّ ، كل لهو لهاية  
المؤمن باطل إلا ثلاث خلال . رميك عن قوسك ، وتأديبك فرسك ، وملاعبتك أهلك  
فإنهن من الحق " .

وأخرج النسائي والبزار والبخاري والبارودي والطبراني والقراب وأبو نعيم والبيهقي  
والضياء عن عطاء بن أبي رباح قال : رأيت جابر بن عبد الله وجابر بن عمير الأنصارى

يرتبان ، فمل أحدهما فجلس فقال الآخر : كسلت . . . ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " كل شيء ليس من ذكر الله فهو لغو وسهو إلا أربع خصال . مشي الرجل بين الغرضين ، وتأديب فرسه ، وملاعبته أهله ، وتعليم السباحة " .  
وأخرج القراب عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة . الرامي ، والممد به ، والمحتسب له " .

(152/316)

---

وأخرج القراب عن حذيفة رضي الله عنه قال : كتب عمر رضي الله عنه إلى الشام : أيها الناس ارموا واركبوا والرمي أحب إلي من الركوب ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة من عمله في سبيله ، ومن قوّي به في سبيل الله عز وجل " .

وأخرج القراب عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " نعم لهو المؤمن الرمي ، ومن ترك الرمي بعدما علمه فهو نعمة تركها " .

وأخرج القراب عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : لا أترك الرمي أبداً ولو كانت يدي مقطوعة بعد شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم " سمعت رسول الله صلى



الله عليه وسلم يقول " من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني " .

وأخرج القراب عن مكحول يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال " كل لهو باطل إلا ركوب الخيل ، والرمي ، وهو الرجل مع امرأته ، فعليكم بركوب الخيل والرمي ، والرمي أحبهما إليَّ " .

وأخرج القراب من طريق مكحول عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الله في ثلاث : تأديبك فرسك ، ورميك بقوسك ، وملاعبتك أهلك " .  
وأخرج القراب من طريق مكحول . أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أهل الشام :  
أن علموا أولادكم السباحة والفروسية .

وأخرج القراب عن سليمان التيمي قال " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يكون الرجل ساججاً رامياً " .

وأخرج القراب عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من رمى بسهم في سبيل الله فأصاب أو أخطأ أو قصر فكأنما أعتق رقبة كانت فكأكلاً له من النار " .

وأخرج القراب عن أبي نجیح السلمي رضي الله عنه قال : حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قصر الطائف ، فسمعتة يقول " من رمى بسهم في سبيل الله قصر أو بلغ كانت له درجة في الجنة " .

وأخرج القراب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قاتلوا أهل الصقع ، فمن بلغ منهم فله درجة في الجنة . قالوا : يا رسول الله ما الدرجة ؟ قال : ما بين الدرجتين خمسمائة عام " .

وأخرج الطبراني والقراب عن أبي عمرة الأنصاري رضي الله عنه " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رمى بسهم في سبيل الله فبلغ أو قصر كان السهم نوراً يوم القيامة " .

وأخرج ابن عدي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أحب الله إلى الله إجراء الخيل ، والرمي بالنبل ، ولعبكم مع أزواجكم " .  
وأخرج البزار والطبراني في الأوسط عن سعد رضي الله عنه قال : عليكم بالرمي فإنه خير ، أو من خير لهُوكم .

وأخرج أبو عوانة عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : تعلموا الرمي فإنه خير لعبكم .

وأخرج البزار عن جابر رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على قوم وهم

يرمون فقال : ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً " .

وأخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه

" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من تعلم الرمي ثم نسيه فهي نعمة جحدتها " .

وأخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تحضر

الملائكة من لهُوكم إلا الرهان والنضال " .

وأخرج البزار بسند حسن عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم " من رمى رمية في سبيل الله قصر أو بلغ كان له مثل أجر أربعة أناس من ولد إسماعيل

اليوم " .

وأخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من

رمى بسهم في سبيل الله كان له نور يوم القيامة " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم " كل لهُويكره إلا ملاعبة الرجل امرأته ، ومشيه بين الهدفين ، وتعليمه

فرسه " .

(154/316)

---

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الرمي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي رافع رضي الله عنه  
قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة  
والسباحة والرمي".

وأخرج ابن أبي الدنيا والديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم "تعلموا الرمي فإن ما بين الهدفين روضة من رياض الجنة".  
وأخرج الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم "من مشى بين العرضين كان له بكل خطوة حسنة".

وأخرج الطبراني في الصغير عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم "ما على أحدكم إذا ألح به همه أن يتقلد قوسه فينفي بها همه".  
وأخرج البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "  
علموا أبناءكم السباحة والرمي، والمرأة المغزل".

وأخرج ابن منده في المعرفة عن بكر بن عبد الله بن الربيع الأنصاري رضي الله عنه قال:  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "علموا أبناءكم السباحة والرمي، والمرأة المغزل".  
وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه "سمعت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يقول: من شاب شيبته في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة، ومن رمى  
بسهم في سبيل الله كان له عدل رقبة".

وأخرج عبد الرزاق عن أبي أمامة رضي الله عنه . أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :  
" من شاب شيبة في الإسلام كان له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم في سبيل الله أخطأ  
أو أصاب كان له عدل رقبة من ولد إسماعيل . "

وأخرج أحمد عن مرة بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "  
من بلغ العدو بسهم رفعه الله به درجة بين الدرجتين مائة عام ، ومن رمى بسهم في سبيل الله  
كان كمن أعتق رقبة . "

(155/316)

---

وأخرج الخطيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "  
إن الله ليدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة : صانعه محسباً صنعته ، والرامي به ، والمقوي به  
." .

وأخرج الواقدي عن مسلم بن جندب رضي الله عنه قال : أول من ركب الخيل إسماعيل بن  
إبراهيم عليهما السلام ، وإنما كانت وحشاً لا تطاق حتى سخرت له . "

وأخرج الزبير بن بكار في الأنساب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت الخيل  
وحشاً لا تطاق حتى سخرت له . "

وأخرج الزبير بن بكار في الأنساب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الخيل وحشاً لا تتركب، فأول من ركبها اسمعيل عليه السلام، فبذلك سميت العرب .  
وأخرج أحمد بن سليمان والنجاد في جزئه المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الخيل وحشاً كسائر الوحوش، فلما أذن الله تعالى لإبراهيم واسمعيل برفع القواعد من البيت قال الله عز وجل: إني معطيكما كنزاً ادخرته لكما، ثم أوحى الله إلى اسمعيل عليه السلام: إن أخرج فادع بذلك الكنز، فخرج اسمعيل عليه السلام إلى أجناد وكان موطناً منه وما يدري ما الدعاء ولا الكنز، فألهمه الله الدعاء فلم يبق على وجه الأرض فرس إلا أجابته فأمكنته من نواصيها وذلها له، فاركبوها واعدوها فإنها ميامين، وإنها ميراث أبيكم اسمعيل عليه السلام.

(156/316)

---

وأخرج الثعلبي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما أراد الله أن يخلق الخيل قال للريح الجنوب: إني خالق منك خلقاً فاجعله عزاً لأوليائي، ومذلة على أعدائي، وجمالاً لأهل طاعتي فقالت الريح: اخلق فقبض منها قبضة فخلق فرساً فقال له: خلقتك عربياً، وجعلت الخير معقوداً بناصيتك، والغنائم مجموعة على

ظهرك ، عطفت عليك صاحبك وجعلتك تطير بلا جناح ، فأنت للطلب وأنت للهرب ،  
وسأجعل على ظهرك رجالاً يسبحوني ويحمدوني ويهللوني ، تسبحن إذا سبحوا وتهلن  
إذا هللوا وتكبرن إذا كبروا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من تسيحة أو  
تحميدة أو تكبيرة يكبرها صاحبها فتسمعه الا تجيبه بمثها ، ثم قال : سمعت الملائكة  
صنعة الفرس وعانوا خلقها ، قالت : رب نحن ملائكتك نسبحك ونحمدك فماذا لنا ؟  
فخلق الله لها خيلاً بلقاً أعناقها كأعناق البخت ، فلما أرسل الله الفرس إلى الأرض  
واستوت قدماه على الأرض ، سهل فقيل : بوركت من دابة أذل بصهيلك المشركين ، أذل  
به أعناقهم ، وأملأ به آذانهم ، وارعب به قلوبهم ، فلما عرض الله على آدم من كل شيء  
قال له : اختر من خلقي ما شئت ؟ فاختر الفرس قال له : اخترت لعزك وعز ، ولدك ،  
خالداً ما خلدوا وباقياً ما بقوا ، بركتي عليك وعليهم ما خلقت خلقاً أحب إلي منك  
ومنهم " .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما . مثله سواء .

(157/316)

---

وأخرج مالك والبخاري ومسلم والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الخيل لثلاثة لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر. فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له فهي لذلك أجر، ورجل ربطها تغنياً ثم لم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك ستر، ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر".

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، والخيل ثلاثة: خيل أجر، وخيل وزر، وخيل ستر. فأما خيل ستر فمن اتخذها تعففاً وتكرماً وتجملاً ولم ينس حق بطونها وظهورها في عسره ويسره، وأما خيل الأجر فمن ارتبطها في سبيل الله فإنها لا تغيب في بطونها شيئاً إلا كان له أجر حتى ذكر أرواثها وأبوالها، ولا تعدو في واد شوطاً أو شوطين إلا كان في ميزانه، وأما خيل الوزر فمن ارتبطها تبذخاً على الناس فإنها لا تغيب في بطونها شيئاً إلا كان وزر عليه حتى ذكر أرواثها وأبوالها، ولا تعدو في واد شوطاً أو شوطين إلا كان عليه وزر".



وأخرج مالك وأحمد بن حنبل والطيالسي وابن شيببة البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن ابن عمر رضي الله عنهما " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة " .

(158/316)

---

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عروة البارقي رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة . قيل : يا رسول الله وما ذلك ؟ قال : الأجر والغنيمة " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال " رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يلوي ناصية فرسه باصبعه ويقول : الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة " .

وأخرج النسائي وأبو مسلم الكشي في سننه عن سلمة بن نفيل رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، قيل : يا رسول الله وما ذلك ؟ قال : الأجر والغنيمة " .

وأخرج الطبراني والآجري في كتاب النصيحة عن أبي كبشة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها

معانن عليها ، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة " .

وأخرج الطبراني عن سودة بن الربيع الجرمي رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى

الله عليه وسلم فأمرني بذود ، وقال " عليك بالخيل فإن الخيل معقود في نواصيها الخير إلى

يوم القيامة " .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "

الخيل في نواصيها الخير والمغنم إلى يوم القيامة ، ونواصيها أذناها وأذناها مذابها " .

وأخرج ابن سعد في الطبقات وابن منده في الصحابة عن يزيد بن عبد الله بن غريب المليكي

عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الخيل معقود في نواصيها الخير

والنيل إلى يوم القيامة ، وأهلها معانن عليها ، والمنفق عليها كباسط كفيه في الصدقة لا

يقبضها ، وأبوالها وأرواؤها عند الله يوم القيامة كذكي المسك " .

(159/316)

---

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنهما " أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال : الخيل معقود في نواصيها الخير أبداً إلى يوم القيامة ، فمن ربطها عدة في

سبيل الله وأنفق عليها احتساباً في سبيل الله فإن شبعها وجوعها وريها وظمأها وأبوالها وأرواثها فلاح في موازينه يوم القيامة ، ومن ربطها رياءً وسمعةً وفخراً ومرحاً فإن شبعها وجوعها وريها وظمأها وأرواثها وأبوالها خسران في موازينه يوم القيامة " .

وأخرج أبو بكر بن عاصم في الجهاد والقاضي عمر بن الحسن الأشناني في بعض تاريخه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها ، فخذوا بنواصيها وادعوا بالبركة وقلدوها ولا تقلدوها إلا وتار " .

وأخرج أبو عبيدة في كتاب الخيل عن زياد بن مسلم الغفاري رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : الخيل ثلاثة ، فمن ارتبطها في سبيل الله وجهاد عدوه كان شبعها وجوعها وريها وعطشها وجريها وعرقها وأرواثها وأبوالها أجراً في ميزانه يوم القيامة ، ومن ارتبطها للجمال فليس له إلا ذاك ومن ارتبطها فخراً ورياءً كان مثل ما نص في الأول ، وزراً في ميزانه يوم القيامة " .

وأخرج الطبراني والآجري في الشريعة والنصيحة عن خباب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان . فأما فرس الرحمن ، فما أعد في سبيل الله وقوتل عليه أعداء الله ، وأما فرس

الإنسان ، فما استبطن ويحمل عليه ، وأما فرس الشيطان ، فما قور عليه " . وأخرجه  
ابن أبي شيبة عن خباب موقوفاً .

(160/316)

---

وأخرج أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الخيل  
ثلاثة : فرس للرحمن ، وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان . فأما فرس الرحمن ، فالذي  
يرتبط في سبيل الله فعلفه وروثه وبوله وذكر ما شاء الله ، وأما فرس الشيطان ، فالذي  
يقامر أي يراهن عليه ، وأما فرس الإنسان ، فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها فهي  
ستر من فقر " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد من طريق أبي عمرو الشيباني رضي الله عنه عن رجل من  
الأنصار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الخيل ثلاثة : فرس يربطه الرجل في سبيل الله  
فثمنه أجر ورعايته أجر وعلفه أجر ، وفرس يعالق فيه الرجل ويراهن فثمنه وزر وعلفه  
وزر ، وفرس للبطنة ، فعسى أن يكون سداً من الفقر إن شاء الله تعالى " .  
وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " البركة في نواصي الخيل " .

وأخرج النسائي عن أنس رضي الله عنه قال " لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل " .

وأخرج ابن سعد وأحمد في الزهد عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال " ما كان شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخيل . ثم قال : اللهم غفرا إلا النساء " .

وأخرج الدمي في كتاب الخيل عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من حبس فرساً في سبيل الله ، كان سترة من النار " .

وأخرج ابن أبي عاصم في الجهاد عن يزيد بن عبد الله بن غريب المليكي عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " في الخيل وأبوالها وأرواثها كف من مسك الجنة " .

وأخرج ابن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المنفق على الخيل كباسط يده بالصدقة لا يقبضها ، وأبوالها وأرواثها عند الله يوم القيامة كذكي المسك " .

(161/316)

---

وأخرج ابن ماجة وابن أبي عاصم عن تميم الداري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" من ارتبط فرساً في سبيل الله ثم عاجل علفه بيده ، كان له بكل حبة حسنة " .

وأخرج أحمد وابن أبي عاصم عن تميم رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من امرئ مسلم ينقي لفرسه شعيراً ثم يعلفه عليه الا كتب الله تعالى له بكل حبة حسنة " .

وأخرج ابن ماجة وابن أبي عاصم عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يدخل الجنة سيء الملكة . قالوا : يا رسول الله ، أليس أخبرتنا أن هذه الأمة أكثر الأمم مملوكين وأيامي ؟ قال : بلى ، فاكرمهم بكرامة أولادكم ، واطعموهم مما تأكلون . قالوا : فما ينفعنا في الدنيا ؟ قال : فرس تربطه تقاتل عليه في سبيل الله ، ومملوك يكفيك فإذا كفأك فهو أخوك " .

وأخرج أبو عبد الله الحسين بن اسمعيل المحاملي عن سلمان رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من رجل مسلم إلا حق عليه أن يرتبط فرساً إذا أطاق ذلك " .

وأخرج ابن أبي عاصم عن سودة بن الربيع رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ارتبطوا الخيل ، فإن الخيل في نواصيها الخير " .

وأخرج ابن أبي عاصم عن ابن الحنظلية رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من ارتبط فرساً في سبيل الله ، كانت النفقة عليه كلما دّيه بصدقة لا يقطعها " .

وأخرج أبو طاهر المخلص عن ابن الحنظلية رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة وصاحبها يعان عليها ، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها " .

وأخرج أحمد وأبو داود وابن أبي عاصم والحاكم عن ابن الحنظلية رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن المنفق على الخيل في سبيل الله ، كباسط يده بالصدقة لا يقبضها " .

(162/316)

---

وأخرج البخاري والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بموعود الله كان شبعه وريه وبوله حسنات في ميزانه يوم القيامة " .

وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال " ما من فرس عربي إلا يؤذن له عند كل سحر بدعوتين ، يقول : اللهم كما  
خولتني من خولتي من بني آدم فاجعلني من أحب ماله وأهله إليه " .  
وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه  
وسلم كان يسمي الأثني من الخيل فرساً " .  
وأخرج الطبراني عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله  
عليه وسلم يقول " من أطرق مسلماً فرساً فأعقب له الفرس ، كتب الله له أجر سبعين  
فرساً يحمل عليها في سبيل الله ، وإن لم تعقب له كان له كأجر سبعين فرساً يحمل عليه في  
سبيل الله " .

وأخرج الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ما تعاطى الناس بينهم شيئاً قط  
أفضل من الطرق ، يطرق الرجل فرسه فيجري له أجره ، ويطرق الرجل فحله فيجري له  
أجره ، ويطرق الرجل كبشه فيجري له أجره " .

وأخرج أبو عبيدة في كتاب الخيل عن معاوية بن خديج رضي الله عنه . أنه لما اقتتحت  
مصر كان لكل قوم مراغة يمرغون فيها خيولهم ، فمر معاوية بأبي ذر رضي الله عنه وهو  
يمرغ فرساً له ، فسلم عليه ووقف ثم قال : يا أبا ذر ، ما هذا الفرس ؟ قال : فرس لي لا أراه  
إلا مستجاباً . قال : وهل تدعو الخيل وتجاب ؟ قال : نعم ، ليس من ليلة إلا والفرس يدعو  
فيها ربه فيقول : رب إنك سخرتني لابن آدم وجعلت رزقي في يده : اللهم فاجعلني أحب



إليه من أهله وولده ، فمنها المستجاب ومنها غير المستجاب ، ولا أرى فرسي هذا إلا  
مستجاباً .

(163/316)

---

وأخرج أبو عبيدة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال " أصاب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم وسلم فرساً من جدس حي من اليمن ، فأعطاه رجلاً من الأنصار  
وقال : إذا نزلت فأنزل قريباً مني فإني أسار إلى صهيله ، ففقدته ليلة فسأل عنه فقال : يا  
رسول الله ، إنا خصيناه . فقال : مثلت به يقولها ثلاثاً ، الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم  
القيامة ، أعرافها ادفاؤها وأذناها مذاها ، التمسوا نسلها وباهوا بصهيلها المشركين " .  
وأخرج أبو عبيدة عن مكحول رضي الله عنه قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
عن جزأذنا الخيل وأعرافها ونواصيها وقال " أما أذناها فمذاها ، وأما أعرافها  
فادفاؤها ، وأما نواصيها ففيها الخير " .  
وأخرج أبو نعيم عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "   
لا تلهبوا أذنا الخيل ، ولا تجزوا أعرافها ونواصيها ، فإن البركة في نواصيها ، ودفاؤها في  
أعرافها ، وأذناها مذاها " .

وأخرج أبو داود عن عتبة بن عبد الله السلمي رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تقصوا نواصي الخيل ولا معارفها ولا أذناها ، فأما أذناها مذاها ، ومعارفها ادفاؤها ، ونواصيها معقود فيها الخير " .

وأخرج ابن سعد عن أبي واقد أنه بلغه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قام إلى فرسه فمسح وجهه بكم قميصه فقالوا : يا رسول الله أبقميصك ؟ قال : إن جبريل عاتبني في الخيل " .

وأخرج أبو عبيدة من طريق يحيى بن سعيد عن شيخ من الأنصار " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح بطرف رداءه وجه فرسه وقال : إني عتبت الليلة في اذلة الخيل " .

وأخرج أبو عبيدة عن عبد الله بن دينار رضي الله عنه قال " مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه فرسه بثوبه ، وقال : إن جبريل بات الليلة يعاتبني في اذلة الخيل " .

(164/316)

---

وأخرج أبو داود في المراسيل عن الوضين بن عطاء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تقودوا الخيل بنواصيها فتذلوها " .

وأخرج أبو داود في المراسيل عن مكحول رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أكرموا الخيل وجللوها " .

وأخرج الحسن بن عرفة عن مجاهد رضي الله عنه قال : " أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إنساناً ضرب وجه فرسه ولعنه فقال " هذه مع تلك ، إلا أن تقاتل عليه في سبيل الله ، فجعل الرجل يقاتل عليه ويحمل إلى أن كبر وضعف وجعل يقول : اشهدوا اشهدوا " .  
وأخرج أبو نصر يوسف بن عمر القاضي في سننه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في عين الفرس ربع ثمنه " .

وأخرج محمد بن يعقوب الخلي في كتاب الفروسية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما من ليلة إلا ينزل ملك من السماء يجبس عن دواب الغزاة الكلال ، إلا دابة في عنقها جرس .  
وأخرج ابن سعد وأبو داود والنسائي عن أبي وهب الجشمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكافها وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار ، وعليكم بكل كميث أغر محجل ، أو أشقر أغر محجل ، أو أدهم أغر محجل " .

وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يمين الخيل في شقرها " .

وأخرج الواقدي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خير الخيل الشقر ، وإلا فالأدهم أغر محجل ثلاث طليق اليمنى " .

وأخرج أبو عبيدة عن الشعبي رضي الله عنه في حديث رفعه أنه قال " التمسوا الحوائج  
على الفرس الكميت الأثرم المحجل الثلاث المطلق اليد اليمنى " .

(165/316)

---

وأخرج الحسن بن عرفة عن موسى بن علي بن رباح اللخمي عن أبيه قال : " جاء رجل إلى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إني أريد أن أبتاع فرساً . فقال له رسول الله صلى  
الله عليه وسلم : عليك به كميتاً وأدهم أقرا ثم محجل ثلاث طليق اليمنى " .  
وأخرج أبو عبيدة وابن أبي شيبه عن عطاء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم " إن خير الخيل الحو " .

وأخرج ابن عرفة عن نافع بن جبير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "   
اليمن في الخيل في كل احوى احم " .

وأخرج ابن أبي شيبه ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة  
رضي الله عنه قال " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الشكال من الخيل " .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي قتادة رضي الله  
عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خير الخيل الأدهم الأقرح المحجل الأثرم

طلق اليد اليمنى ، فإن لم يكن ادهم فكفيت على هذه النسبة " .  
وأخرج الطبراني والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم " إذا أردت أن تغزي فاشتر فرساً ادهم أغر محجلاً مطلق اليمنى ،  
فإنك تغنم وتسلم " .

وأخرج سعد والحرث بن أبي أسامة وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن قانع في  
معجمه والطبراني وأبو الشيخ وابن منده والرويانى في مسنده وابن مردويه وابن عساكر عن  
يزيد بن عبد الله بن عريب عن أبيه عن جده " عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : في قوله  
﴿ وآخري من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ قال : " هم الجن ، ولا يخبل الشيطان  
إنساناً في داره فرس عتيق " .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الهدى عن أبيه عن حدثه " عن النبي صلى الله عليه وسلم في  
قوله ﴿ وآخري من دونهم لا تعلمونهم ﴾ قال : " هم الجن ، فمن ارتبط حصاناً من الخيل  
لم يتخلل منزله شيطان " .

(166/316)

---

وأخرج ابن المنذر عن سليمان بن موسى رضي الله عنه في قوله ﴿ وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَّا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ ولن يجبل الشيطان إنساناً في داره فرس عتيق .  
وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ يعني الشيطان لا يستطيع ناصية فرس لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الخيل معقود في نواصيها الخير فلا يستطيعه شيطان أبداً " .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ قال : قريظة .  
وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل في قوله ﴿ وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَّا تَعْلَمُونَهُمْ ﴾ قال : يعني المنافقين ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ يقول : الله يعلم ما في قلوب المنافقين من النفاق الذي يسرون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَّا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ قال : هؤلاء المنافقون لا تعلمونهم ، لأنهم معكم يقولون : لا إله إلا الله ويغزون معكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ قال : أهل فارس .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سفیان رضي الله عنه في قوله ﴿ وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾

﴿ قال: قال ابن اليمان رضي الله عنه: هم الشياطين التي في الدور. انتهى انتهى. ١٥ هـ ﴾

﴿ الدر المنثور ج 4 ص ﴾

(167/316)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

قوله " مِنْ قُوَّةٍ "

في محل نصب على الحال، وفي صاحبها وجهان:

أحدهما: أنه الموصول، والثاني: أنه العائد عليه، إذ التقدير: ما استطعتموه حال كونه

بعض القوة، ويجوز أن تكون " مِنْ " لبيان الجنس.

قوله: " وَمِنْ رِبَاطٍ "، جَوَّزُوا فِيهِ أَنْ يَكُونَ جَمْعَ " رِبْطٍ " مصدر: رَبَّطَ يَرْبِطُ، نَحْوُ: كَتَبَ

وَكَتَّابٌ، وَكَلَّبَ وَكِلَابٌ، وَأَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا لـ " رِبْطًا "، نَحْوُ: صَاحَ صِيَّاحًا.

قالوا: لأنَّ مَصَادِرَ الثَّلَاثِي لَا تَنْقَاسُ، وَأَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا: " رَابِطٌ "، وَمَعْنَى الْمَفَاعَلَةِ: أَنْ

ارْتِبَاطُ الْخَيْلِ يَفْعَلُهُ كُلُّ وَاحِدٍ لِفِعْلِ الْآخَرِ، فَيَرَابِطُ الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَالَ مَعْنَاهُ ابْنُ

عطية.

قال أبو حيان: قوله "مصادرُ الثلاثي غير المزيّد لا تُنقّسُ" ليس بصحيحٍ، بل لها مصادر منقّسةٌ ذكرها النحويون.

قال شهابُ الدّين: "في المسألة خلافٌ مشهور، وهو لم ينقل الإجماع على عدم القياس حتى يرُدَّ عليه بالخلاف؛ فإنه قد يكون اختيار أحد المذاهب، وقال به، فلا يرُدُّ عليه بالقول الآخر".

وقال الزمخشري: "والرِّباط: الخَيْلُ التي تُربطُ في سبيل الله ويجوز أن يُسمّى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة، ويجوز أن يكون جمع: ربيط يعني: بمعنى مربوط، ك: فصيل وفصال. والمصدرُ هنا مضافٌ لمفعوله"

وقرأ الحسنُ، وأبو حيوة، ومالك بن دينار: "ومن رُبط" بضمّين، وعن الحسن أيضاً "رُبط" بضم وسكون، نحو: كتاب وكتب.

قال ابن عطية "وفي جمعه، وهو مصدرٌ غيرٌ مختلفٍ نظرٌ".

قال شهابُ الدّين "لا نسلمُ والحالة هذه أنه مصدرن بل حكى أبو زيد أن "الرِّباط" الخمسة من الخيلِ فما فوقها، وأن جمعها "رُبط" ولو سلّم أنه مصدرٌ فلانسلم أنه لم تختلف أنواعه، وقد تقدّم أن "رباطاً" يجوز أن يكون جمعالاً "رُبط" المصدر، فما كان جواباً هناك، فهو جوابٌ هنا".



قوله "تُرْهَبُونَ"

يجوز أن يكون حالاً من فاعل: "أعدُّوا"، أي: حَصَلُوا لهم هذا حال كونكم مُرْهَبِينَ،  
وأن يكون حالاً من مفعوله، وهو الموصول، أي: أعدُّوه مُرْهَبًا بِهِ.  
وجاز نسبته لكلٍ منهما؛ لأنَّ في الجملة ضميرها، هذا إذا أعدنا الضمير من "به" على "  
ما" الموصولة، أمَّا إذا أعدناه على الإعدادِ المدلولِ عليه بـ "أعدُّوا"، أو على "الرباط"  
، أو على: "القوَّة" بتأويل الحول؛ فلا يتأتَّى مجيئها من الموصول، ويجوز أن يكون حالاً من  
ضمير "لَهُمْ"، كذا نقله أبو حيان عن غيره، فقال: "تُرْهَبُونَ" قالوا: حال من ضمير في "  
لَهُمْ" ولا رابط بينهما؟ ولا يصحُّ تقدير ضمير في جملة "تُرْهَبُونَ" لأخذه معموله.

(168/316)

---

وقرأ الحسنُ ويعقوبُ، ورواها ابن عقيل عن أبي عمرو: "تُرْهَبُونَ" مضعفاً عدَّاهُ  
بالتضعيف، كما عدَّاهُ العامَّةُ بالهمزة، والمفعول الثاني على كلتا القراءتين محذوف؛ لأنَّ  
الفعل قبل النَّفْلِ بالهمزة، أو بالتضعيف متعدِّلاً واحد، نحو: "رَهَبْتُكَ" والتقدير: تُرْهَبُونَ  
عدوَّ الله قتالكم، أو لقاءكم.

وزعم أبو حاتم أنَّ أبا عمرو نقل قراءة الحسن بياء الغيبة وتخفيف "يُرْهَبُونَ"، وهي قراءة

واضحة، فإنَّ الضمير حينئذٍ يرجع إلى من يرجع إليهم ضمير "لَهُمْ"، فَإِنَّهُمْ إِذَا خَافُوا  
خَوْفًا مِنْ وِرَاءِهِمْ.

قوله "عَدُوَّ اللَّهِ"

العامة قراءوا بالإضافة، وقرأ السلميُّ منوناً، و"لِلَّهِ" بلامِ الجِرِّ، وهو مفرد، والمراد به  
الجنس، فمعناه: أعداء الله.

قال صاحبُ اللوامح " وإنما جعله نكرةً بمعنى العامة؛ لأنها نكرةٌ أيضاً لم تعرّف بالإضافة  
إلى المعرفة؛ لأنَّ اسمَ الفاعل بمعنى الحال، أو الاستقبال، ولا تعرّف ذلك وإن أُضيف إلى  
المعارف، وأمّا "وعَدُوَّكُمْ" فيجوز أن يكون كذلك نكرةً، ويجوز أن تعرّف لأنه قد أُعيد  
ذكره، ومثله: رأيت صاحباً لكم، فقال لي صاحبكم "يعني: أن "عَدُوًّا" يجوز أن يلمح  
فيه الوصف فلا تعرّف، والألّ يلمح فيتعرّف.

قوله "وَأَخْرَيْنَ" نسق على "عَدُوَّ اللَّهِ"، و"مِنْ دُونِهِمْ" صفة لـ "أَخْرَيْنَ".

قال ابن عطية: "مِنْ دُونِهِمْ" بمنزلة قولك: دون أن تكون هؤلاء، فـ "دون" في كلام

العرب، و"مِنْ دُونِ" تقتضي عدم المذكور بعدها من التنازلة التي فيها القول؛ ومنه المثل: [

[الكامل

..... - 2730

وَأَمْرٌ دُونَ عُبَيْدَةَ الْوَدَمِ

يعني: أَنَّ الظَّرْفِيَّةَ هُنَا مَجَازِيَّةٌ، لِأَنَّ "دُونَ" لَا بَدَأَ أَنْ تَكُونَ ظَرْفًا حَقِيقَةً، أَوْ مَجَازًا.

قوله ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾

في هذه الآية قولان:

(169/316)

---

أحدهما: أَنَّ "عِلْمًا" هُنَا مُتَعَدِّيَةٌ لِوَاحِدٍ؛ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى "عَرَفَ"، وَلِذَلِكَ تَعَدَّتْ لِوَاحِدٍ.  
والثاني: أَنَّهَا عَلَى بَابِهَا، فَتَعْدَى لِاثْنَيْنِ، وَالثَّانِي مَحْذُوفٌ، أَي: لَا تَعْلَمُونَهُمْ فَازْعِينَ، أَوْ  
مَحَارِبِينَ.

وَلَا بُدَّ هُنَا مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ أَنَّ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَا فِي قَوْلِهِ "اللَّهُ  
يَعْلَمُهُمْ" بَلْ يَجِبُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا الْمُتَعَدِّيَّةُ إِلَى اثْنَيْنِ، وَأَنَّ ثَانِيَهُمَا مَحْذُوفٌ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْفَرْقِ  
بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ.

مِنْهَا: أَنَّ الْمَعْرِفَةَ تَسْتَدْعِي سَبْقَ جَهْلٍ، وَمِنْهَا: أَنَّ مُتَعَلِّقَهَا الذَّوَاتُ دُونَ النِّسْبِ، وَقَدْ  
نَصَّ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُطْلَقَ ذَلِكَ - أَعْنِي الْوَصْفَ بِالْمَعْرِفَةِ - عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.  
انتهى انتهى. اهـ ﴿ تَفْسِيرُ ابْنِ عَادِلٍ ح 9 ص 552-556 ﴾. باختصار.

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ .

أعدوا لقتال الأعداء ما يبلغ وسعكم ذلك من قوة، وأتمها قوة القلب بالله، والناس فيها

مختلفون: فواحد يقوى قلبه بموعود نصره، وآخر يقوى قلبه بأن الحق عالم مجاله، وآخر

يقوى قلبه لتحقيقه بأن يشهد من ربه، قال تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

[الطور: 48]، وآخر يقوى قلبه بإيثار رضاء الله تعالى على مراد نفسه، وآخر يقوى

قلبه برضاه بما يفعله مولاه به .

ويقال أقوى محبة للعبد في مجاهدة العبد وتبريه عن حاله وقوته .

(170/316)

قوله جلّ ذكره: ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ﴾ .

الإشارة فيه أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها، أو لاشتقاء صدره من قضية حقد،

بل قصده أن تكون كلمة الله هي العليا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات ح 1 ص

ومن فوائد العلامة الزمخشري في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَعَلَّمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾

أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ما موصولة. وَمِنْ شَيْءٍ بيانه. قيل: من شيء حتى الخيط والمخيط، فَإِنَّ لِلَّهِ

مبتدأ خبره محذوف، تقديره: فحق، أو فواجب أن الله خمسة. وروى الجعفي عن أبي

عمرو، فإن الله بالكسر. وتقوية قراءة النخعي: فله خمسة. والمشهورة آكد وأثبت

للإيجاب، كأنه قيل: فلا بد من ثبات الخمس فيه، لا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه،

من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات، كقولك: ثابت واجب

حق لازم، وما أشبه ذلك، كان أقوى لإيجابه من النص على واحد، وقرئ: خمسة

بالسكون فإن قلت: كيف قسمة الخمس؟ قلت: عند أبي حنيفة رحمه الله أنها كانت في

عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله صلى الله عليه

وسلم، وسهم لذوي قرباء من بنى هاشم وبنى المطلب، دون بنى عبد شمس وبنى نوفل

، استحقوه حينئذ بالنصرة والمظاهرة، لما روى عن عثمان وجبير بن مطعم رضی الله

عنهما ، أنهما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم ، رأيت إخواننا بنى

المطلب أعطيتهم وحرمتنا ، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة : فقال صلى الله عليه وسلم :

إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد ، وشبك بين

أصابعه «1» وثلاثة أسهم : لليتامى والمساكين ، وابن السبيل . وأما بعد رسول الله صلى

الله عليه وسلم فسهمه ساقط بموته ، وكذلك سهم ذوى القربى ، وإنما يعطون لفقرهم ، فهم

أسوة سائر الفقراء ، ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل .

وأما عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه

وسلم يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين : كعدة الغزاة من السلاح والكرع

«2» ونحو ذلك . وسهم لذوى القربى من أغنيائهم وفقرائهم ، يقسم بينهم الذكر مثل حظ

الأنثيين . والباقي للفرق الثلاث . وعند مالك ابن أنس رحمه الله : الأمر فيه مفوض إلى

اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء ، وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعض ، وإن رأى

غيرهم أولى وأهم فغيرهم . فإن قلت : ما معنى ذكر الله عز وجل وعطف الرسول وغيره

عليه «3» قلت : يحتمل أن يكون معنى لله وللرسول ، لرسول الله

---

(1) . أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة من طريق سعيد بن المسيب عن جبير بن

مطعم بتمامه وهو في الصحيح دون قوله «لم يفارقوني» . [ . . . . ]

(2) . قوله «من السلاح والكراع» الكراع : هو اسم جمع الخيل اه صحاح . (ع)

(3) . قال محمود «إن قلت ما معنى ذكر الله وعطف الرسول وغيره عليه . . . الخ» قال

أحمد : لأن مالكا رضى الله عنه لا يرى ذكر الوجوه المذكورة لبيان أنه لا يصرف فيما سواها ، وليس لأن يملكها ولا على التحديد حتى لا يجوز الاقتصار على بعض الوجوه دون بعض ، بل الأمر عنده موكول إلى نظر الامام فيصرف الخمس في مصالح المسلمين ومن جعلتها قرابته عليه الصلاة والسلام ، ولا تحديد عنده في ذلك البتة ، وهذا التأويل الثالث ينطبق على مذهبه ، وبيان ذلك أن المراد حينئذ بذكر الله تعالى بيان أن الخمس يصرف في وجوه التقربات لله تعالى غير مقيد ، ثم تخصيص الوجوه المذكورة بعد ليس تحديداً ، ولكن تنبيها على فضلها والتخصيص لقصد التفصيل بعد التعميم لا يرفع حكم العموم الأول ، بل هو قار على حاله ، كما أن العموم ثابت للملائكة وإن خص جبريل وميكال ، بعده ، والله تعالى أعلم .

(172/316)

---

صلى الله عليه وسلم ، كقوله وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ وَأَنْ يُذَكَّرَ بِإِجَابِ سَهْمِ سَادِسٍ يُصْرَفُ إِلَى وَجْهِ مَنْ وَجَّهَ الْقُرْبَ . وَأَنْ يُرَادَ بِقَوْلِهِ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ أَنْ مِنْ حَقِّ

الخمسة أن يكون متقرباً به إليه لا غير . ثم خص من وجوه القرب هذه الخمسة ، تفضيلاً لها على غيرها . كقوله تعالى وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فعلى الاحتمال الأول مذهب الإمامين . وعلى الثاني ما قال أبو العالية :

أنه يقسم على ستة أسهم : سهم لله تعالى يصرف إلى رتاج الكعبة «1» . وعنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه ، فيأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة وهو سهم الله تعالى ، ثم يقسم ما بقي على خمسة «2» . وقيل : إن سهم الله تعالى لبيت المال ، وعلى الثالث مذهب مالك بن أنس . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان على ستة أسهم لله وللرسول سهمان ، وسهم لأقاربه حتى قبض ، فأجرى أبو بكر رضى الله عنه الخمس على ثلاثة . وكذلك روى عن عمر ومن بعده من الخلفاء . وروى أن أبا بكر رضى الله عنه منع بنى هاشم الخمس وقال : إنما لكم أن يعطى فقيركم ويزوج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم ، فأما الغنى منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غنى لا يعطى من الصدقة شيئاً ، ولا يتيم موسر . وعن زيد بن علي رضى الله عنه : كذلك قال ، ليس لنا أن نبني منه قصوراً ، ولا أن نركب منه البراذين . وقيل : الخمس كله للقراة . وعن علي رضى الله عنه أنه قيل له : إن الله تعالى قال وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ فقال : أيتامنا ومساكيننا .

وعن الحسن رضى الله عنه في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه لولى الأمر من



بعده .

وعن الكلبي رضى الله عنه أن الآية نزلت ببدر . وقال الواقدي : كان الخمس في غزوة بنى قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال ، على رأس عشرين شهراً من الهجرة .  
فإن قلت :

بم تعلق قوله **إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ** ؟ قلت : بمحذوف يدل عليه **وَأَعْلَمُوا** المعنى : **إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ** فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم واقتنعوا بالأخماس الأربعة ، وليس المراد بالعلم المجرد ، ولكنه العلم المضمن بالعمل ، والطاعة لأمر الله تعالى ،

---

(1) . قوله «يصرف إلى رتاج الكعبة» في الصحاح «الرتج» بالتحريك : الباب العظيم ، وكذلك الرتاج . ومنه .

ورتاج الكعبة ، (ع)

(2) . أخرجه أبو داود في كتاب المراسيل من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية . قال «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالغنيمة قسمها خمسة أقسام ، ثم يقبض بيده قبضة من الخمس أجمع ثم يقول : هذه الكعبة . ثم يقول لا تجعلوا لله نصيباً فإن لله الآخرة والدنيا ثم يأخذ سهماً لنفسه وسهماً لذى القربى وسهماً لليتامى ، وسهماً لمساكين ، وسهماً لابن السبيل ، أخرجه أبو عبيدة في الأموال ، والطبري من هذا الوجه .

لأن العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر وما أنزلنا معطوف على بالله أى إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل على عبدنا وقرئ عبدنا كقوله وعبد الطاغوت بضمين يوم الفرقان يوم بدر .  
والجمعان الفرقان من المسلمين والكافرين . والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ والله على كل شيء قدير يقدر على أن ينصر القليل على الكثير والذليل على العزيز ، كما فعل بكم ذلك اليوم .

[سورة الأنفال (8) : آية 42]

إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة  
وإن الله لسميعٌ عليمٌ (42)

إذ بدل من يوم الفرقان . والعدوة : شط الوادي بالكسر والضم والفتح . وقرئ بهن وبالعدية ، على قلب الواو ياء ، لأن بينها وبين الكسرة حاجزاً غير حصين كما في الصبية .  
والدنيا والقصوى : تأنيث الأدنى والأقصى . فإن قلت : كلتا هما «فعلى» من بنات الواو ، فلم جاءت إحداهما بالياء والثانية بالواو ؟ قلت : القياس هو قلب الواو ياء كالعليا . وأما

القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل . وقد جاء القصيا ، إلا أن استعمال القصوى أكثر ، كما كثر استعمال «استصوب» مع مجيء «استصاب» و«أغيلت» مع «أغالت» «1» والعدوة الدنيا مما يلي المدينة ، والقصوى مما يلي مكة والرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ يعني الركب الأربعين الذين كانوا يقودون العير أسفل منكم بالساحل . وأسفل : نصب على الظرف ، معناه : مكانا أسفل من مكانكم ، وهو مرفوع المحل ، لأنه خبر للمبتدأ . فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين «وأن العير كانت أسفل منهم» «2» ؟ قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته ، وتكامل عدته ، وتمهد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين والوثايا أمرهم «3» وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعا من الله سبحانه ، ودليلا على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بجوله وقوته وباهر قدرته ، وذلك أن العدو القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء ، وكانت أرضا لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار «4»

---

(1) . قوله «وأغيلت مع أغالت» أغيلت : أى أرضعت وهي موطوءة . أفاده

الصحاح . (ع)

(2) . قال محمود : «إن قلت ما فائدة ذكر مركز الفريقين وأن العير كانت أسفل منهم . . .

الح» قال أحمد : وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشري وتنقيبه عن أسرار الكتاب

العزير .

(3) . قوله «والتياث أمرهم» أى اختلاط أمرهم اه صحاح . (ع)

(4) . قوله «وهي خبار» أى رخوة ذات جحرة . اه صحاح (ع)

(174/316)

---

تسوخ فيها الأرجل ، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة . وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها ، تضاعف حميتهم وتشجذ في المقاتلة عنها نياتهم . ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ، لبيعهم الذب عن الحريم والغيرة على الحرم على بذلك جهيداهم في القتال ، وأن لا يتركوا وراءهم ما يحدّثون أنفسهم بالانحياز إليه ، فيجمع ذلك قلوبهم ويضبط همهم ويوطن نفوسهم على أن لا يرحوا مواطنهم ولا يخلوا مراكزهم ، ويدلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدّتهم . وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر ، ليقضى أمراً كان مفعولاً من إعزاز دينه وإعلاء كلمته حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة ، حتى خرجوا ليأخذوا الغير راغبين في الخروج ، وشخص بقريش «1» مرعوبين مما بلغهم من تعرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم ، حتى نفروا ليمنعوا غيرهم ، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى ووراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساق

وكان ما كان وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ أَتَمَّ وَأَهْلَ مَكَّةَ وَتَوَاضَعْتُمْ بَيْنَكُمْ عَلَى مَوْعِدٍ تَلْتَقُونَ فِيهِ لِلْقِتَالِ ،  
لخالف بعضكم بعضاً فثبّطكم قتلكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما في قلوبهم من  
تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فلم يتفق لكم من التلاقي في ما وفقه الله  
وسبب له لِيَقْضِيَ مَتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ ، أى ليقضى أمراً كان واجباً أن يفعل ، وهو نصر أوليائه  
وقهر أعدائه دبر ذلك . وقوله لِيُهْلِكَ بَدَلَ مِنْهُ . واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام ،  
أى ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة ، لا عن مخالفة شبهة ، حتى لا تبقى له على الله  
حجة ، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه  
والتمسك به وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغر المحجّلة التي من كفر بعدها كان  
مكابراً لنفسه مغالطاً لها .

وقرى: ليهلك ، بفتح اللام . وحيي ، بإظهار التضعيف لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ يَعْلَمُ كَيْفَ يَدْبُرُ أُمُورَكُمْ  
ويسوى مصالحكم . أو لسميع عليم بكفر من كفر وعقابه ، وبإيمان من آمن وثوابه .

[سورة الأنفال (8) : آية 43]

إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ  
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43)

إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ نَصْبَهُ بِإِضْمَارِ أَذْكَرٍ . أو هو بدل ثان من يوم الفرقان ، أو متعلق بقوله لَسَمِيعٌ  
عَلِيمٌ أى يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك في منامك في رؤياك . وذلك أن الله عز وجل أراه

إياهم في رؤياه قليلا، فأخبر بذلك أصحابه فكان تشبهاً لهم وتشجيعاً على عدوهم.

وعن

(1). قوله «وشخص بقريش» يقال للرجل إذا ورد عليه أمراً ألقه: شخص به. اه

صاح. (ع)

(175/316)

الحسن: في منامك في عينك، لأنها مكان النوم، كما قيل للقليفة «1»: المنام، لأنه ينام فيها.

وهذا تفسير فيه تعسف، وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن، وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته لفشلتُم لجبنتم وهبتم الإقدام وتنازعتم في الرأي، وتفرقت فيما تصنعون كلمتكم، وترجحتم بين الثبات والفرار ولكن الله سلم أي عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف إنه عليم بذات الصدور يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجنين والصبر والجزع.

[سورة الأنفال (8): آية 44]

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا

وَاللّٰهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ (44)

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ الضميران مفعولان . يعنى : وإذ يبصركم إياهم . وقليلاً نصب على الحال ، وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليعانينا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدّوا ويشبّوا . قال ابن مسعود رضى الله عنه : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي : أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له : كم كنتم ؟ قال .

ألفاً «2» وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ حَتَّى قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنَّمَا هُمْ أَكْلَةٌ جَزُورٌ . فَإِنْ قُلْتَ : الْغَرَضُ فِي تَقْلِيلِ الْكُفَّارِ فِي أَعْيُنِ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرٌ ، فَمَا الْغَرَضُ فِي تَقْلِيلِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ ؟ قُلْتَ : قَدْ قَلَّلَهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ قَبْلَ الْلِقَاءِ ، ثُمَّ كَثَرَهُمْ فِيهَا بَعْدَهُ لِيَجْتَرَّءُوا عَلَيْهِمْ ، قَلَّةٌ مَبَالَاةٌ بِهِمْ ، ثُمَّ تَفَجَّؤُهُمُ الْكَثْرَةُ فِيبِهِتُوا وَيَهَابُوا ، وَتَقَلَّ شَوْكُهُمْ «3» حِينَ يَرُونَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِمْ وَتَقْدِيرِهِمْ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَلِئَلَّا يَسْتَعْدُوا لَهُمْ ، وَلِيَعْظُمَ الْاِحْتِجَاجُ عَلَيْهِمْ بِاسْتِيضَاحِ الْآيَةِ الْبَيِّنَةِ مِنْ قَلْتِهِمْ أَوْلَا وَكَثْرَتِهِمْ آخِرًا . فَإِنْ قُلْتَ : بِأَيِّ طَرِيقٍ يَبْصُرُونَ الْكَثِيرَ قَلِيلًا «4» ؟ قُلْتَ بِأَنْ يَسْتَرِ اللَّهُ عَنْهُمْ

(1) . قوله «للقطفية» هي دثار مخمل . اه صحاح . (ع)

(2) . قال إسحاق في مسنده : أخبرنا عمرو بن محمد ، ويحيى بن آدم قال حدثنا

إسرائيل . عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود . فذكره ، ومن هذا

الوجه أخرجه الطبري وابن أبي حاتم .

(3) . قوله «وتقل شوكتهم» أى تكسر . أفاده الصحاح . (ع)

(4) . قال محمود : «إن قلت بأى طريق يبصرون الكثير قليلا . . . الخ» قال أحمد : وفي

هذا دليل بين على أن الله تعالى هو الذي يخلق الإدراك في الحاسة غير موقوف على سبب من مقابلة أو قرب أو ارتفاع حجب أو غير ذلك ، إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلا لما أمكن أن يستر عنهم البعض وقد أدركوا البعض ، والسبب الموجب مشترك ،

فعلى هذا يجوز أن يخلق الإدراك مع اجتماعها ، فلا ربط إذا بين الرؤية ونفيها في مقدرة الله تعالى ، وهي رادة على القدرية المنكرين لرؤية الله تعالى ، بناء على اعتبار هذه الأسباب في حصول الإدراك عقلا ، وأنها تستلزم الجسمية ، إذ المقابلة والقرب وارتفاع الحجب إنما تنأتى في جسم ، فهذه الآية حسبهم في إبطال زعمهم ، ولكنهم يرون عليها . وهم عنها معرضون ، والله الموفق .

(176/316)

---

بعضه بساثر أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير ، كما أحدث في أعين الحول ما يرون

به الواحد اثنين . قيل لبعضهم : إن الأحول يرى الواحد اثنين ، وكان بين يديه ديك واحد



فقال :

مالى لا أرى هذين الديكين أربعة ؟

[سورة الأنفال (8) : الآيات 45 إلى 46]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46)

إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً إِذَا حَارَبْتُمْ جَمَاعَةً مِنَ الْكُفَّارِ ، وَتَرَكَ أَنْ يَصِفَهَا لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانُوا يَلْقَوْنَ إِلَّا  
الْكُفَّارَ . وَاللِّقَاءَ اسْمٌ لِلْقِتَالِ غَالِبٌ فَاثْبُتُوا لِقَاتِهِمْ وَلَا تَفَرُّوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا فِي مَوَاطِنِ  
الْحَرْبِ مُسْتَظْهِرِينَ بِذِكْرِهِ ، مُسْتَنْصِرِينَ بِهِ ، دَاعِينَ لَهُ عَلَى عَدُوِّكُمْ : اللَّهُمَّ اخْذِلْهُمْ ، اللَّهُمَّ  
اقْطَعْ دَابِرَهُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ لَعَلَّكُمْ تَنْظَفِرُونَ بِمِرَادِكُمْ مِنَ النَّصْرَةِ وَالْمَثُوبَةِ . وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ  
عَلَى الْعَبْدِ أَنْ لَا يَفْتَرِعَنَّ ذِكْرَ رَبِّهِ أَشْغَلَ مَا يَكُونُ قَلْبًا وَأَكْثَرَ مَا يَكُونُ هِمًّا ، وَأَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ  
مُجْتَمِعَةً لِذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مُتَوَزِعَةً عَنْ غَيْرِهِ . وَنَاهِيكَ بِمَا فِي خُطْبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
فِي أَيَّامِ صَفِينِ وَفِي مَشَاهِدِهِ مَعَ الْبَغَاةِ وَالْخَوَارِجِ - مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ وَلِطَائِفِ الْمَعَانِي  
وَبَلِيغَاتِ الْمَوَاعِظِ وَالنِّصَائِحِ - دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَشْغَلُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ شَاغِلٌ وَإِنْ  
تَفَاقَهُمُ الْأَمْرُ وَلَا تَنَازَعُوا قَرِيًّا بِتَشْدِيدِ التَّاءِ فَتَفْشَلُوا مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ أَنْ ، أَوْ مَجْزُومٌ  
لِدُخُولِهِ فِي حُكْمِ النَّهْيِ ، وَتَدُلُّ عَلَى التَّقْدِيرِ قِرَاءَةً مِنْ قَرَأَ وَتَذْهَبُ رِيحُكُمْ بِالتَّاءِ وَالنِّصْبِ  
، وَقِرَاءَةً مِنْ قَرَأَ : وَيَذْهَبُ رِيحُكُمْ ، بِالْيَاءِ وَالْجُزْمِ . وَالرِّيحُ : الدَّوْلَةُ ، شَبِهَتْ فِي نَفْوِذِ أَمْرِهَا

وتمشيه بالريح وهبوبها ، فقيل :

هبّت رِيح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره . ومنه قوله :

يَا صَاحِبِيَّ أَلَا لَاحِيَّ بِالْوَادِيِّ إِلَّا عَبِيدٌ قُعُودٌ بَيْنَ أَذْوَادِ  
أَنْتَظِرَانِ قَلِيلًا رِيثَ غَفْلَتِهِمْ أَمْ تَعْدُونَ أَنْ فِانَّ الرِّيحَ لِلْعَادِي «1»

(1) . لسليك بن سلكة ، مر مع صاحبيه بجوف مراد واد باليمن فوجدوا إبلا قد ملأته ،

فقال لهما : أنتظراني هنا حتى آتى الرعاء فأعلم خبر الحمي أقرب أم بعيد ، فلم يزل

يلاطفهم حتى أخبروه بمكان الحمي ، فإذا هم بعيد ، فقال لهم : ألا أغنيكم ؟ قالوا : بلى ،

فتغنى بأعلى صوته بالبيتين ، فاتاه صاحباها فاستاقوا الإبل . وأم بالمد . قيل : جمع إماء

جمع أمة . وقيل : هو أيضا جمع أمة ، فأصله أممو كأذرع جمع ذراع . وعلى الثاني أممو أيضا

، كما جمع أكمة ، لأن أمة أصله أموة ، فأبدلت الهمزة الثانية في الجمع ألفا وقلبت الواو ياء

لتطرفها . والهمزة كسرة لمناسبتها ، ثم أعل إعلال قاض . وروى بدله «قعود» والذود من

الإبل : من ثلاثة إلى عشرة . وأنتظران ، من أنظرته إذا أخرته . والرِيث : التأخر والتواني ،

وهو نصب على البدلية من قليلا . أو على الظرفية . ويجوز قراءة «أنتظران» من نظره إذا

انتظره . فريث . يجوز أنه مفعول به . و«وتعدوان» من العدو ، وهو السرعة السير ، أو من

العدوان ، وهو تعدى الحد . واستعار الريح الدولة والأمر النافذ بجامع النفوذ من كل .

ويروى «تعدوان» و«للغادي» بالغين المعجمة: أى أم تسرعان إلى ، فان الظفر للمسرع .  
وفيه دلالة على أن السرعة أرجح من التأخر . [ . . . . . ]

(177/316)

---

وقيل لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى . وفي الحديث : «نصرت بالصبا وأهلكت  
عاد بالدبور» «1»

[سورة الأنفال (8) : آية 47]

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا  
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47)

حذرهم - بالنهي عن التنازع واختلاف الرأي - نحو ما وقع لهم بأحد لمخالفتهم رسول الله  
صلى الله عليه وسلم من فشلهم وذهاب ريحهم كالذين خرجوا من ديارهم هم أهل مكة  
حين خرجوا الحماية العير ، فأتاهم رسول أبى سفيان وهم بالجحفة : أن ارجعوا فقد  
سلمت عيركم ، فأبى أبو جهل وقال : حتى تقدم بدرا نشرب بها الخمر ، وتعزف علينا  
القيان «2» ونطعم بها من حضرنا من العرب . فذلك بطرهم ورتاؤهم الناس بإطعامهم ،  
فوافوها ، فسقوا كئوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان ، فنهاهم أن

يكونوا مثلهم بطرين طريين مرابين بأعمالهم ، وأن يكونوا من أهل التقوى «3» والكآبة  
والحزن من خشية الله عز وجل ، مخلصين أعمالهم لله .

[سورة الأنفال (8) : آية 48]

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ  
الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ  
شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)

وَأَذْكَرِ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمَلُوهَا فِي مَعَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ، وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته  
مما يجيرهم فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم ، أى بطل كيده حين نزلت جنود  
الله وكذا عن الحسن رحمه الله : كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم . وقيل : لما  
اجتمعت قريش على السير ذكرت الذي بينها وبين بنى كنانة من الحرب ، فكان ذلك يشبههم  
، فتمثل لهم إبليس ،

---

(1) . متفق عليه من طريق مجاهد عن ابن عباس .

(2) . قوله «وتعزف علينا القيان» تلعب بالملاهي وتعنى والقينة الأمة مغنية أو غير

مغنية والجمع القيان والقين الحداد والجمع القيون وكل عبد هو عند العرب قين وقان الشيء

يقينه قينا إذا أصلحه وزينه أفاده الصحاح. (ع)

(3). قوله «وأن يكونوا من أهل التقوى» لعله: وأن لا يكونوا. أو لعله بأن يكونوا. (ع)

(178/316)

---

في صورة سراقه بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني - وكان من أشرفهم - في جند من الشياطين معه راية، وقال: لا غالب لكم اليوم، وإنى مجيركم من بنى كناية. فلما رأى الملائكة تنزل، نكص وقيل: كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما نكص قال له الحارث: إلى أين؟ أتخذ لنا في هذه الحال؟ فقال: إنى أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث وانطلق، وانهمزوا، فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقه، فبلغ ذلك سراقه فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان. وفي الحديث: وما رئي إبليس يوماً أصغر ولا أذحر «1» ولا أغيب من يوم عرفه لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رئي يوم بدر «2». فإن قلت: هلا قيل لا غالباً لكم كما يقال: لا ضاربا زيدا عندنا؟ قلت: لو كان لكمُ مفعولاً لغالب، بمعنى: لا غالباً إياكم لكان الأمر كما قلت: لكنه خبر تقديره: لا غالب كائن لكم.

[سورة الأنفال (8): آية 49]

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49)

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ بِالْمَدِينَةِ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ صِفَةِ الْمُنَافِقِينَ ، وَأَنْ يَرَادَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى حَرْفٍ لَيْسُوا بِثَابِتِي الْأَقْدَامِ فِي الْإِسْلَامِ . وَعَنْ الْحَسَنِ : هُمُ الْمُشْرِكُونَ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ يَعْنُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ اغْتَرَوْا بِدِينِهِمْ وَأَنْهُمْ يَتَّقُونَ بِهِ وَيَنْصَرُونَ مِنْ أَجْلِهِ ، فَخَرَجُوا وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةِ عَشَرَ إِلَى زَهَاءِ أَلْفٍ ، ثُمَّ قَالَ جَوَابًا لَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَالِبٌ يَسْلُطُ الْقَلِيلَ الضَّعِيفَ عَلَى الْكَثِيرِ الْقَوِي .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 50 إلى 51]

وَلَوْ تَرَى إِذِ تُوْفِّي الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51)

وَلَوْ تَرَى وَلَوْ عَانَيْتَ وَشَاهَدْتَ ، لِأَنَّ «لَوْ» تَرَدَّدَ الْمُضَارِعَ إِلَى مَعْنَى الْمَاضِي ، كَمَا تَرَدَّدَ «إِنْ»

---

(1) . قوله «ولا أدحر» الدحور : الطرد والابعاد ، اه صحاح ، (ع)

(2) . أخرجه مالك في الموطأ من رواية طلحة بن عبيد الله بن كرز مرسلًا ، ومن طريق مالك أخرجه عبد الرزاق والطبري ، والبيهقي في الشعب وانفرد أبو النضر بن إسماعيل بن إبراهيم العجلي عن مالك . فقال عن طلحة عن أبيه قال ابن عبد البر : الصواب مرسل

«تنبيه» هو طلحة بن عبد الله بن بكير، وكريز مصغر، ووقع في المناسك للنووي طلحة بن عبد الله أحد العشرة، وهو وهم بين.

(179/316)

الماضي إلى معنى الاستقبال. وإذ نصب على الظرف. وقرئ: يتوفى. بالياء والتاء.  
والملائكة رفعها بالفعل وَيَضْرِبُونَ حال منهم، ويجوز أن يكون في تَوَفَّى ضمير الله عز وجل،  
والملائكة مرفوعة بالابتداء، وَيَضْرِبُونَ خبر. وعن مجاهد: وأدبارهم:  
أستاهم، ولكن الله كريم يكنى، وإنما خصوهما بالضرب. لأن الخزي والنكال في  
ضربهما أشده، وبلغني عن أهل الصين أن عقوبة الزاني عندهم أن يصبر، ثم يعطى الرجل  
القوى البطش شيئاً عمل من حديد كهيئة الطبق فيه رزانة وله مقبض، فيضربه على دبره  
ضربة واحدة بقوته فيجمد في مكانه. وقيل: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر وذوقوا  
معطوف على يَضْرِبُونَ على إرادة القول: أى ويقولون ذوقوا عذاب الحريق أى مقدمة  
عذاب النار. او وذوقوا عذاب الآخرة: بشارة لهم به. وقيل: كانت معهم مقامع من  
حديد، كلما ضربوا بها التهمت النار أو يقال لهم يوم القيامة: ذوقوا. وجواب لُوْ محذوف  
: أى لرأيت أمراً فظيماً منكراً ذلك بما قدّمت أيديكمُ يحتمل أن يكون من كلام الله ومن كلام

الملائكة ، وذلك رفع بالابتداء وبما قدّمتُ خبره وأنَّ اللهَ عطف عليه ، أى ذلك العذاب بسببين : بسبب كفركم ومعاصيكم وبأن الله ليسَ بظلامٍ للعبيدِ لأن تعذيب الكفار من العدل كإثابة المؤمنين . وقيل : ظلامٌ للتكثير لأجل العبيد «1» أو لأن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلاما بليغ الظلم متفاقمه .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 52 إلى 54]

كَذَّبَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَذَّبَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ ظَالِمٍ (54)

الكاف في محل الرفع : أى دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون . ودأبهم : عاداتهم وعملهم الذي دأبوا فيه : أى داوموا عليه وواظبوا . وكفروا تفسير لدأب آل فرعون . وذلك إشارة

---

(1) . قال محمود : «وقيل ظلامٌ للتكثير لأجل العبيد . . . الخ» قال أحمد : وبهذه النكتة

يجاب عن قول القائل نفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى ، فلم عدل عن الأبلغ . والمراد تنزيه الله

تعالى وهو جدير بالمبالغة ، فهذان الجوابان عتيدان في هذا السؤال .

(180/316)



إلى ما حل بهم ، يعنى ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله لم ينبغ له ولم يصح في حكمته أن يغير نعمته عند قوم حتى يُغَيَّرُوا ما بهم من الحال . فإن قلت : فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم ؟ ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة قلت : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة ، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها ، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام ، فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت ، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما يقول مكذبو الرسل عَلِيمٌ بما يفعلون كدأب آل فرعون تكبير للتأكيد . وفي قوله آيات ربهم زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق . وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب وكل كانوا ظالمين وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي .

[سورة الأنفال (8) : الآيات 55 إلى 57]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفِضُونَ  
عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56) فَمَا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْتَهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ  
يَذَكَّرُونَ (57)

الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أى أصروا على الكفر ولجوا فيه ، فلا يتوقع منهم إيمان وهم بنو

قريظة ، عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يمالئوا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا : نسينا وأخطأنا ، ثم عاهدهم فنكثوا ومالوا معهم يوم الخندق ، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم الذين عاهدت منهم بدل من الذين كفروا ، أى الذين عاهدتهم من الذين كفروا جعلهم شر الدواب ، لأن شر الناس الكفار ، وشر الكفار المصرون منهم ، وشر المصيرين الناكثون للعهود وهم لا يتقون لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون ما فيه من العار والنار فإمّا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فإمّا تصادفهم وتظفرن بهم فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم ، من وراءهم من الكفرة ، حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد ، اعتباراً بهم واتعاضاً مجالهم .  
وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : فشرذ ، بالذال المعجمة ، بمعنى : فرق ، وكأنه مقلوب «شذر» من قولهم «ذهبوا شذر مذر» «1» ومنه : الشذر : المتلقط من المعدن لتفرقه .  
وقرأ أبو حيوة : من خلفهم . ومعناه : فافعل

---

(1) . قوله «وكانه مقلوب شذر ، من قولهم ذهبوا «شذر مذر» بفتحات ، أى في كل

وجهة . اه صحاح . (ع)

(181/316)

التشريد من ورائهم ، لأنه إذا شرد الذين وراءهم فقد فعل التشريد في الورا وأوقعه فيه ، لأن الورا جهة المشردين ، فإذا جعل الورا ظرفاً للتشريد فقد دل على تشريد من فيه ، فلم يبق فرق بين القراءتين لعلهم يذكرون لعل المشردين من ورائهم تعظون .

[سورة الأنفال (8) : آية 58]

وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58)  
وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ مُعَاهِدِينَ خِيَانَةً وَنَكَثُوا بِأَمَارَاتِ تَلْوَحْ لَكَ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ فَاطْرَحِ إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ عَلَى سَوَاءٍ عَلَى طَرِيقٍ مُسْتَوْقِصٍ ، وَذَلِكَ أَنْ تَظْهَرَ لَهُمْ نَبْذُ الْعَهْدِ وَتُخْبِرَهُمْ إِخْبَارًا مُكْشُوفًا بَيْنَا أَنْكَ قَطَعْتَ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، وَلَا تَنَاجِزُهُمُ الْحَرْبَ وَهُمْ عَلَى تَوْهَمِ بَقَاءِ الْعَهْدِ فَيَكُونُ ذَلِكَ خِيَانَةً مِنْكَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ فَلَا يَكُنْ مِنْكَ إِخْفَاءٌ نَكَثَ الْعَهْدَ وَالْخِدَاعَ وَقِيلَ : عَلَى اسْتِوَاءٍ فِي الْعِلْمِ بِنَقْضِ الْعَهْدِ . وَقِيلَ عَلَى اسْتِوَاءٍ فِي الْعِدَاوَةِ . وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ ثَابِتًا عَلَى طَرِيقِ قَصْدٍ سَوِيٍّ ، أَوْ حَاصِلِينَ عَلَى اسْتِوَاءٍ فِي الْعِلْمِ أَوْ الْعِدَاوَةِ ، عَلَى أَنَّهَا حَالٌ مِنَ النَّابِذِ وَالْمُنْبِذِ إِلَيْهِمْ مَعًا .

[سورة الأنفال (8) : آية 59]

وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِيَّاهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59)  
سَبَقُوا أَفَلَتُوا وَفَاتُوا مِنْ أَنْ يَظْفَرُ بِهِمْ إِيَّاهُمْ لَا يُعْجِزُونَ إِنَّهُمْ لَا يَفُوتُونَ وَلَا يَجِدُونَ طَالِبَهُمْ عَاجِزًا عَنْ إِدْرَاكِهِمْ . وَقُرِئَ : أَنَّهُمْ ، بِالْفَتْحِ ، بِمَعْنَى : لِأَنَّهُمْ ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْمَكْسُورَةِ وَالْمَفْتُوحَةِ

تعليل ، إلا أن المكسورة على طريقة الاستئناف ، والمفتوحة تعليل صريح وقرى :  
يعجزون ، بالتشديد . وقرأ ابن محيصن : يعجزون ، بكسر النون . وقرأ الأعمش : ولا  
تحسب الذين كفروا ، بكسر الباء وفتحها ، على حذف النون الخفيفة . وقرأ حمزة : ولا  
يحسبن بالياء على أن الفعل للذين كفروا . وقيل فيه : أصله أن سبقوا ، فحذفت أن ، كقوله  
وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ وَاسْتَدْلَ عَلَيْهِ بِقِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّهُمْ سَبَقُوا . وقيل  
: وقع الفعل على أنهم لا يعجزون ، على أن «لا» صلة ، وسبقوا في محل الحال ، بمعنى  
سابقين أى مفلتين هارين . وقيل معناه : ولا يحسبنهم الذين كفروا سبقوا ، فحذف الضمير  
لكونه مفهوما . وقيل : ولا يحسبن قبيل المؤمنين الذين كفروا سبقوا . وهذه الأقاويل كلها  
متمحلة ، وليست هذه القراءة التي تفرد بها حمزة بنيرة . وعن الزهري أنها نزلت فيمن  
أفلت من فل المشركين .

(182/316)

[سورة الأنفال (8) : آية 60]

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ  
دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ

مِنْ قُوَّةٍ مِنْ كُلِّ مَا يَتَّقَى بِهِ فِي الْحَرْبِ مِنْ عَدَدِهَا . وَعَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ «1» : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عَلَى الْمَنْبَرِ : «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي «2»» قَالَهَا ثَلَاثًا . وَمَاتَ عَقْبَةَ عَنْ سَبْعِينَ قَوْسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَعَنْ عَكْرَمَةَ : هِيَ الْحِصُونُ ، وَالرِّبَاطُ : اسْمٌ لِلْخَيْلِ الَّتِي تَرْتَبِطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَيَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى بِالرِّبَاطِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الْمُرَابِطَةِ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْعُ رِبِيطٍ كَفَصِيلٍ وَفِصَالٍ . وَقَرَأَ الْحَسَنُ : وَمَنْ رَبَطَ الْخَيْلَ ، بِضَمِّ الْبَاءِ وَسُكُونِهَا جَمْعَ رِبَاطٍ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ وَمَنْ رَبَطَ الْخَيْلَ تَخْصِيصًا لِلْخَيْلِ مِنْ بَيْنِ مَا يَتَّقَى بِهِ ، كَقَوْلِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ وَعَنْ ابْنِ سَيْرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ سَأَلَ عَمْرًا أَوْصَى بِثَلَاثِ مَالِهِ فِي الْحِصُونِ ؟ فَقَالَ : يَشْتَرَى بِهِ الْخَيْلَ ، فَتَرَابِطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَغْزَى عَلَيْهَا ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّمَا أَوْصَى فِي الْحِصُونِ ، فَقَالَ : أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

أَنَّ الْحِصُونَ الْخَيْلَ لَا مَدْرَ الْقَرَى «3»

تُرْهَبُونَ قَرَى بِالْخَفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَخْزُونَ وَالضَّمِيرُ فِيهِ رَاجِعٌ إِلَى مَا اسْتَطَعْتُمْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ هُمْ الْيَهُودُ وَقَيْلُ الْمُنَافِقُونَ «وَعَنْ السُّدِيِّ هُمْ أَهْلُ فَارَسَ ، وَقَيْلُ كُفْرَةَ الْجَنِّ ، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ . إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَقْرَبُ صَاحِبَ فَرَسٍ وَلَا دَارًا فِيهَا فَرَسٌ عَتِيقٌ» وَرَوَى أَنَّ صَهْبِيلَ الْخَيْلِ يَرْهَبُ الْجَنِّ «4» . انْتَهَى انْتَهَى . ١٠ هـ ﴿الكشاف ح 2 ص 221.232﴾

(1) . قال محمود : «القوة الرمي ، روى عقبة بن عامر أنها الرمي . . . الخ» قال أحمد :  
والمطابق للرمي أن يكون الرباط على بابه مصدراً ، والله أعلم ، وهو حسبي ونعم الوكيل .  
(2) . أخرجه مسلم أتم منه .

(3) ولقد علمت على تجنبي الردى أن الحصون الخيل لا مدر القرى  
لأشعر الجعفي ، يقول : ولقد تيقنت مع أنى متجنب للردى أن الحصون المانعة منه هي الخيل  
وآلات الحرب لا البناء ، كالقلاع التي في القرى . وأتى بقوله «على تجنبي الردى» لدفع توهم  
أنه رجل يلقي بنفسه إلى التهلكة فلذلك يجب الحرب ، فهو من باب الاحتراس . ويروى :  
على توقي الردى - بتشديد الياء - أى : مع أنى أتوقى الهلاك .

قال رجل لعبيد الله بن الحسن : إن أبى أوصى بثلاث ماله للحصون . قال : اذهب فاشتر به  
خيلاً . قال : إنما ذكر الحصون . فقال : أما سمعت قول الأشعر ، فأنشد البيت .

(4) . لم أجده هكذا ، وروى ابن سعد والطبراني وابن عدى من رواية سعيد بن سنان  
عن يزيد بن عبد الله ابن عريب عن أبيه عن جده . رفعه في قوله عز وجل وَأَخْرَيْنَ مِنْ  
دُونِهِمْ - الآية قال : هم الجن ، ولن يخل الشيطان إنساناً في داره فرس عتيق وأهله ابن  
عدى ، بسعيد بن سنان وضعفه عن أبي معين ، وغيره ، وله شاهد من رواية الوضين بن  
عطاء عن سليمان بن موسى مرسلًا ، ولا بن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس في

هذه الآية قال : هو الشيطان ، لا يقرب ناصية فرس وإسناده واه . وقوله : «روى أن سهيل الخيل يطرد الجن» لم أجده .

(183/316)

وقال الخطيب الشربيني في الآيات السابقة :

﴿واعلموا أنما غنمتم﴾

أي : أخذتم من الكفار الحريين ﴿من شيء﴾ مما يقع عليه اسم شيء مما هو لهم ولو اختصاصاً ﴿فإنَّ خمسَهُ وللرسول﴾ .

واعلم أن الغنيمة والفبيء إسمان لما يصيبه المسلمون من الحريين والصحيح أنهما مختلفان ، فالفبيء ما حصل لنا مما هو لهم بلا إيجاب كجزية وعشر تجارة وما جلوا عنه ولو لغير خوف كضراً أصابهم ، وتركه مرتدّ وكافر معصوم بلا وارث ، وكذا الفاضل عن وارث له غير حائز وسيأتي حكمه إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ما أفاء الله على رسوله﴾ (الحشر ، ) ، وأمّا الغنيمة فهي ما حصل لنا منهم مما هو لهم بإيجاب أو سرقة أو التقاط ، وكذا ما انهزموا عنه عند التقاء الصفين ، ولو قبل شهر السلاح ، أو أهداه الكافر لنا والحرب قائمة ، ولم تحلّ الغنائم لأحد قبل الإسلام بل كانت الأنبياء إذا غنموا ما لا جموعه ،

فتأتي نار من السماء تأخذه ، ثم أحلت للنبي صلى الله عليه وسلم وكانت في صدر الإسلام له خاصة ؛ لأنه كالمقاتلين كلهم نصرة وشجاعة بل أعظم ، ثم نسخ ذلك واستقل الأمر على أنها تجعل خمسة أقسام متساوية ، ويؤخذ خمس رقاع ويكتب على واحدة لله أو للمصالح وعلى أربع للغانمين ، ثم تدرج في بنادق مستوية ، ويخرج لكل خمس رقعة ، فما خرج لله أو للمصالح جعل بين أهل الخمس على خمسة أصناف ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه وذكر الله تعالى في الآية للتبرك ، وأما ما كان له صلى الله عليه وسلم فهو لمصالح المسلمين كسد الثغور وأرزاق علماء بعلوم تتعلق بمصالحنا كتفسير وفقه وحديث ، والصنف الثاني : ما ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ ولذي القربى ﴾ أي : قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب دون من عداهم لاقتصاره صلى الله عليه وسلم في القسم عليهم مع سؤال غيرهم من بني عمهم نوفل وعبد شمس له لقوله صلى الله عليه وسلم "إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبك بين أصابعه" فيعطون ولو أغنياء ، ويفضل الذكر على الأنثى كالإرث ؛ لأنه عطية من الله تعالى تستحق بقرابة الأب كالإرث ، فلا يعطي أولاد البنات من بني هاشم والمطلب شيئاً ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير



---

وعثمان

مع أن أم كل واحد منهما كانت هاشمية .

والصنف الثالث : ما ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ واليتامى ﴾ اليتيم صغير ولو أتى الخبر : "لا يتم بعد احتلام" لأب له وإن كان له أم وجد ، ومن فقد أمه فقط يقال له : منقطع ، واليتيم في البهائم من فقد أمه ، وفي الطير من فقد أباه وأمّه .

(185/316)

---

والصنف الرابع : ما ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ والمساكين ﴾ الصادقين بالفقراء والمسكين من له مال أو كسب لائق به يقع موقعاً من كفايته ولا يكفيه العمر الغالب ، وقيل : سنة كمن يملك أو يكسب سبعة أو ثمانية ولا يكفيه إلا عشرة ، والفقير من لا مال له أو له ذلك ولا يقع موقعاً من كفايته كمن يحتاج إلى عشرة ، ولا يملك أو لا يكسب إلا درهمن أو ثلاثة .

والخامس : ما ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المحتاج ، ولا معصية بسفره والأخماس الأربعة الباقية للغانمين ، وهم من حضر القتال ولو في أثائه بنية القتال وإن لم يقاتل أو حضر بلانية وقاتل كأجير لحفظ أمتعة وتاجر ومحترف ، وقوله تعالى : ﴿ إن

كنتم آمنتم با ﴿ متعلق بمحذوف دل عليه واعلموا أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقنعوا بالأخماس الأربعة الباقية ، فإن العلم العملي إذا أمر به لم يرد منه العلم المجرد ؛ لأنه مقصود بالعرض ، والمقصود بالذات هو العمل وقوله تعالى : ﴿ وما ﴿ عطف على بالله ﴿ أنزلنا على عبدنا ﴿ محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات والملائكة والنصر ﴿ يوم الفرقان ﴿ أي : يوم بدر ، فإنه فرق به بين الحق والباطل ﴿ يوم التقى الجمعان ﴿ أي : جمع المؤمنين وجمع الكافرين ، وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة ، فالتقوا يوم الجمعة تسعة عشر أو لسبعة عشر من رمضان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه الجمعة تسعة عشر أو لسبعة عشر رجلاً والمشركون ما بين الألف والتسعمائة فهزم الله تعالى المشركين ، وقتل منهم سبعون ، وأسر منهم مثل ذلك

﴿ والله على كل شيء قدير ﴿ فيقدر على نصر القليل على الكثير ، والدليل على العزيز كما فعل ذلك بكم ذلك اليوم وقوله تعالى :

(186/316)

---

﴿ إذ أتتم بالعدوة الدنيا ﴾ أي: القربى من المدينة، بدل من يوم الفرقان أو من يوم التقى الجمعان، أو منصوب باذكروا مقدراً، والعدوة الدنيا مما يلي المدينة ﴿ وهم بالعدوة القصوى ﴾ أي: البعدى من المدينة، وهي مما يلي مكة وكان الماء بها، وكان استظهار المشركين من هذا الوجه أشدّ.

والقصوى تأنيث الأقصى، وكان قياسه قلب الواو كالدينا والعليا، ولكن لم تغلب تفرقة بين الاسم والصفة، فإنها تقلب في الاسم دون الصفة على الأكثر وقيل: بالعكس وعلى الأول القصوى وإن كان صفة للعدوة في الآية كالدينا لكن غلب عليها الاسم لتترك الوصف بها في أكثر الاستعمالات كما قاله ابن جني، فالقصوى بالواو على القولين شاذ بالنظر إلى اسميتها في الأول وإلى وصفيتها في الثاني، ومثال الصفة الخالصة حلوى تأنيث الأحملى فهي بالواو مقيسة على الأول شاذة على الثاني، ومثال الاسم الخالص حزوى اسم مكان فهو بالواو شاذ على الأول مقيس على الثاني، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والعدوة وهي شط الوادي بكسر العين فيهما، والباقون بضمّ العين فيهما، وأمّا الدنيا والقصوى فأماهما حمزة والكسائي محضة، وأبو عمرو بين بين، وورش بالفتح وبين اللفظين ﴿ والركب ﴾ أي: العير التي خرجوا لها التي يقودها أبو سفيان ﴿ أسفل منكم ﴾ أي: أسفل منكم على ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر، وأسفل نصب على الظرفية معناه مكاناً أسفل من مكانكم، وهو مرفوع المحل؛ لأنه خبر المبتدأ ﴿ ولوتواعدتم ﴾ أتم والنفير للقتال

﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ وذلك أنّ المسلمين خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج،  
وخرج الكفار مرعوبين مما بلغهم من تعرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم  
فيمنعوها من المسلمين، فالتقوا على غير ميعاد لقلتهم وكثرة عدوّهم ﴿ ولكن ﴾ جمع الله  
تعالى بينهم على هذه  
الحالة من غير

(187/316)

---

ميعاد ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ في علمه وهو نصر أوليائه وإعزاز دينه وإعلاء  
كلمته وقهر أعدائه، وقوله تعالى: ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾  
بدل من ليقضي أو متعلق بقوله: ﴿ مفعولاً ﴾ واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام أي  
: ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالطة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة،  
ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه  
والتمسك به، فإن وقعت بدر من الآيات الواضحة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه  
مغالطاً لها .

وقرأ نافع والبيزي وشعبة بياءين: الأولى مكسورة والثانية مفتوحة، والباقون بياء واحدة

مشددة ، ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : يسمع دعاءكم ويعلم حاجتكم وضعفكم لا تخفى عليه خافية .

﴿ إِذْ ﴾ أي : واذكري يا محمد نعمة الله عليك إذ ﴿ يريكم الله ﴾ أي : المشركين ﴿ في منامك ﴾ أي : نومك ﴿ قليلاً ﴾ فأخبرت أصحابك فسروا وقالوا : رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حق ، وصار ذلك سبباً لجرائتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم .

فإن قيل : رؤيا الكثير قليلاً غلط ، فكيف يجوز على الله تعالى ؟

أجيب : بأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا يسأل عما يفعل ، أو أنه تعالى أراه بعضهم دون بعض ، فحكم صلى الله عليه وسلم على أولئك الذين رأهم بأنهم قليلون ، وقال الحسن : إن هذه الإراءة كانت في اليقظة قال : والمراد من المنام العين التي هي موضع النوم ﴿ ولو أراكم كثيراً لفشلتم ﴾ أي : ولو أراكم كثيراً لذكرته للقوم ولو سمعوا ذلك لفشلوا أي : جبنوا ﴿ ولتنازعتهم ﴾ أي : اختلفتم ﴿ في الأمر ﴾ أي : أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الفرار والقتال ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أي : سلمكم من الفشل والتنازع فيما بينكم ، وقيل : سلمكم من الهزيمة والقتل ﴿ إنه ﴾ تعالى ﴿ عليم ﴾ أي : بالغ العلم ﴿ بذات الصدور ﴾ أي : بما في القلوب من الجراءة والجبن والجزع وغير ذلك .

---

﴿ وإذ يريكموهم ﴾ أي: المؤمنون ﴿ إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ أي: إن الله تعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين يوم التقوا في القتال ليتأكد في اليقظة ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في منامه ، وأخبر به أصحابه ، وتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جرائتهم ولا يجبنوا عن قتالهم .

قال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى اجنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً، والضميران مفعولاً يري، وقليلاً حال من الثاني ﴿ ويقللکم في أعينهم ﴾ أي: ويقللکم يا معشر المؤمنین في أعينهم أي: المشركين؛ لتلايهم وإذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب لقتالهم، فيكون ذلك سبباً لظهور المؤمنين .

قال السدي: قال ناس من المشركين: إن العير قد انصرفت، فارجعوا، فقال أبو جهل: الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه، فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم إنما محمد وأصحابه أكلة جزور يعني جمع آكل أي: قليل يشبعهم جزور واحد، يضرب مثلاً في القلة والأمر الذي لا يعبأ به، ثم قال: فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال، أراد بقوله ذلك القدرة والقوة .

فإن قيل: كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل؟

أجيب: بأن ذلك ممكن في قدرة الله تعالى، وإن الله تعالى على ما يشاء قدير، ويكون ذلك

معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم والمعجزة هي من خوارق العادات ، فلا ينكر ذلك ، أو أن الله تعالى يستر عنهم بعضه بساير ، أو يحدث في أعينهم ما يستقلون له الكثير كما أحدث في عيون الحول ما يرون له الواحد اثنين ، قيل لبعضهم : إنَّ الأحول يرى الواحد اثنين ، وكان بين يديه ديك قال : فما لي أرى هذين الديكين أربعة ، وهذا قبل : التحام القتال فلما التحم أراهم إياهم مثلهم كما في آل عمران ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي : في علمه ، وهو إعلاء كلمة الإسلام ونصر أهله .

(189/316)

---

فإن قيل : قد تقدّم ذلك في الآية المتقدمة ، فكان ذكره هنا محض تكرار أجيب : بأنَّ المقصود من ذكره في الآية المتقدمة هو أنه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل استيلاء المؤمنين على الكافرين على وجه يكون معجزة دالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم والمقصود من ذكره هنا ليس هو ذلك المعنى بل المقصود أنه تعالى ذكره هنا أنه قلل عدد المؤمنين في أعين الكفار ، فبين تعالى أنه إنما فعل ذلك ليصير ذلك سبباً ؛ لتلايبلغ الكفار في تحصيل الاستعداد والحذر فيصير ذلك سبباً لانكسارهم ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ كلها فلا ينفذ إلا ما يريد إنفاذه فلا تجري الأمور على ما يظنه العباد ، وفي هذا تنبيه على أن

أمر الدنيا غير مقصودة وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زاد اليوم المعاد .

ولما ذكر تعالى أنواع نعمه على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم إذا

التقوا بالفئة وهي الجماعة من المحاربين نوعين من الأدب بقوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم ﴾ أي: قاتلتم؛ لأن اللقاء سبب للقتال غالباً ﴿ فئة ﴾ أي:

جماعة كافرة ﴿ فاثبتوا ﴾ لقاتلهم كما ثبتتم في بدر ولا تحذثوا أنفسكم بفرار هذا هو النوع

الأول ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ بقلوبكم وألسنتكم قال ابن عباس: أمر الله تعالى أوليائه

بذكره في أشد أحوالهم تنبيهاً على أن الإنسان لا يجوز له أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله،

ولو أن رجلاً أقبل من المشرق إلى المغرب على أن ينفق الأموال سخاء والآخر من المغرب

إلى المشرق يضرب بسيفه في سبيل الله لكان الذكر لله أعظم أجراً، وقيل: المراد من هذا

الذكر الدعاء بالنصر والظفر؛ لأن ذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى ﴿ لعلكم تفلحون ﴾

أي: تظفرون بمرادكم من النصر والثبوت .

(190/316)

---

فإن قيل: هذه الآية توجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف

والتحيز . أجيب: بأن المراد من الثبات الجد في المحاربة بل كان الثبات في هذا المقصود لا



يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز .

ثم قال تعالى مؤكداً لذلك:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في سائر ما يأمران به ؛ لأنّ الجهاد لا ينفع إلا مع التمسك بسائر الطاعات ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ أي : تختلفوا فيما بينكم ﴿ قَتَفَشَلُوا ﴾ أي : تجبنوا ﴿ وَتَذَهَب رِيحِكُمْ ﴾ أي : قوتكم ودولتكم ، والريح مستعارة للدولة شبهها في نفوذ أثرها بالريح ، ثم أدخل المشبه في جنس المشبه به ادعاء ، وأطلق اسم المشبه به على المشبه ، وقيل : المراد بها الحقيقة ؛ لأنه لم يكن قط نصر إلا بريح يبعثها الله تعالى ، وفي حديث الشيخين "نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور" ، وعن النعمان بن مقرن قال : "شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا لم يقاتل من أول النهار أخرج القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر" أخرجه أبو داود ﴿ وَاصْبِرُوا ﴾ أي : عند لقاء العدو ولا تنهزموا عنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصر والمعونة .

روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أنّ الجنة تحت ظلال السيوف" ثم قال صلى الله عليه وسلم "اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم" .

(191/316)

---

﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم ﴾ أي : ليمنعوا غيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها  
﴿ بطراً ﴾ أي : فخراً وطغياناً في النعمة وذلك إنّ النعم إذا كثرت من الله تعالى على العبد  
فإن صرفها في المفاخرة على الأقران وكاثر بها أبناء الزمان وأنفقها في غير طاعة الرحمن ،  
فذلك هو البطر في النعمة ، وإن صرفها في طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها  
﴿ ورتاء الناس ﴾ أي : ليشنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة ،  
وأتاهم رسول أبي سفيان أن يرجعوا فقد سلمت غيركم ، فقال أبو جهل : لا والله حتى  
تقدم بدرًا ، وكان بدر موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم فيها سوق في كل عام ، ونشرب  
بها الخمر وتعزف علينا القينات ، والعزف اللعب بالمعازف ، وهي الدفوف وغيرها مما  
يضرب به قاله ابن الأثير وغيره ، والقينات الجوارى ، ونطعم بها من حضرنا من العرب ،  
فذلك بطرهم ورياءهم الناس بإطعامهم فوافوها فسقوا المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم  
النوائح مكان القينات ، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرأين ، وأمرهم أن  
يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث إنّ النهي عن الشيء أمر بضده ﴿ ويصدّون عن  
سبيل الله ﴾ أي : ويمنعون الناس الدخول في دين الله ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ لا يخفى  
عليه شيء ؛ لأنه محيط بأعمال العباد كلها فيجازيهم بأعمالهم .

﴿ واذ ﴾ أي : واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذ ﴿ زين لهم ﴾ أي : المشركين ﴿ الشيطان ﴾ أي : إبليس ﴿ أعمالهم ﴾ الخبيثة بأن شجعهم على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج من أعدائهم بني بكر بن الحرث جاء إبليس وجند من الشياطين معه راية فتمثل لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني وكان من أشرفهم ﴿ وقال ﴾ غاراً لهم في أنفسهم ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ أي : مجير لكم من كنانة ﴿ فلما تراءت الفئتان ﴾ أي : التقى الفريقان رأى إبليس الملائكة قد نزلوا من السماء علم عدو الله إبليس أنهم لا طاقة لهم بهم ﴿ نكص على عقبيه ﴾ قال الضحاك : ولى مدبراً وقال النضر بن شميل : رجع القهقري على قفاه هارباً ﴿ وقال إني بريء منكم ﴾ قال الكلبي : لما التقى الجمعان كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقه بن مالك ، وهو أخذ بيد الحرث بن هشام ، فنكص عدو الله إبليس على عقبيه ، فقال له الحرث : إلى أين أتخذلنا في هذه الحالة ؟ فقال له عدو الله إبليس : ﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ ودفع في صدر الحرث ، وانطلق فانهزموا قال الحسن : رأى إبليس جبريل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وفي يده اللجام يقود الفرس ما ركب ، قال قتادة : قال إبليس :

إني أرى ما لا ترون وصدق وقال: ﴿إني أخاف الله﴾ وكذب والله ما به مخافة الله ،  
ولكن علم أنه لا قوّة له ولا منعة ، فأوردتهم وأسلمهم ، وذلك من عادة عدوّ الله إبليس لعنه  
الله لمن أطاعه إذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم ، وقال عطاء : خاف إبليس أن  
يهلكه الله تعالى فيمن يهلك ، وقيل : أخاف الله عليكم ، وقيل : إنه لما رأى جبريل خافه ،  
وقيل : لما رأى الملائكة تنزل من السماء خاف أن يكون الوقت الذي أنظر إليه قد حضر ،  
فقال ما قال إشفاقاً على نفسه .

(193/316)

---

ولما انهزموا وبلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقاً ، فبلغه ذلك فقال : والله ما شعرت  
بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان ، وقوله تعالى : ﴿والله  
شديد العقاب﴾ يجوز أن يكون من كلام إبليس أي : إني أخاف الله ؛ لأنه شديد العقاب  
وأن يكون مستأنفاً أي : والله شديد العقاب لمن خالفه وكفر به .  
فإن قيل : كيف يقدر إبليس أن يتصوّر بصورة البشر وإذا تشكل بصورة البشر فكيف  
يسمى شيطاناً ؟

أجيب : بأن الله تعالى أعطاه قوّة ، وأقدره على فعل ذلك كما أعطى الملائكة قوّة وأقدرهم

على أن تشكّلوا بصورة البشر لكن النفس الباطنية لم تتغير ، فلم يلزم من تغيير الصورة تغيير الحقيقة .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ما رؤي إبليس يوماً فيه أصغر ولا أدهر ولا أحقر ولا أغيب منه يوم عرفة " وما ذاك إلا لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما كان من يوم بدر .

﴿ إذ ﴾ أي : واذكر إذ ﴿ يقول المنافقون ﴾ أي : من أهل المدينة ، والمنافق هو من يظهر الإسلام ويخفي الكفر كما أن المرابي هو من يظهر الطاعة ويخفي المعصية ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ أي : شك وارتياب ، وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يقع الإسلام في قلوبهم ولم يتمكن ، فلما خرج قريش إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم إلى بدر ، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا : ﴿ غرّ هؤلاء ﴾ المسلمين ﴿ دينهم ﴾ إذ خرجوا مع قتلهم يقاتلون الجمع الكثير توهماً أنهم ينصرون بسببه ، فقتلوا جميعاً منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وعدي بن أمية بن خلف الجمحي والعاص بن أمية بن الحجاج ، قال تعالى في جوابهم : ﴿ ومن توكل على الله ﴾ أي : يثق به يغلب ﴿ فإن الله عزيز ﴾ أي : غالب على أمره ﴿ حكيم ﴾ أي : في صنعه يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ، ويعجز عن إدراكه .

ولما شرح تعالى أحوال هؤلاء الكفار شرح أحوال موتهم ، والعذاب الذي يصل إليهم في ذلك الوقت بقوله تعالى:

(194/316)

---

﴿ ولوترى ﴾ أي : عاينت وشاهدت يا محمد ﴿ إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ أي :  
بقبض أرواحهم عند الموت ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ أي : ظهورهم وأستاهم ،  
قال البيضاوي : ولعل المراد تعميم الضرب أي : يضربون ما أقبل منهم وما أدبر بمقامع من  
حديد ﴿ و ﴾ يقولون لهم : ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ أي : النار .  
قال ابن عباس : كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيف ،  
وإذا ولوا ضربوا أدبارهم ، فلا جرم قابلهم الله بمثله في وقت نزع الروح ، وجواب لو محذوف  
، والتقدير لرأيت منظراً هائلاً وأمرأً فظيماً وعقاباً شديداً ، والملائكة مرفوع بالفعل  
ويضربون حال منهم ويجوز أن يكون في قوله : يتوفى ضمير الله تعالى والملائكة مرفوعة  
بالابتداء ويضربون خبر .

﴿ ذلك ﴾ أي : الذي نزل بكم من القتل والضرب والحريق ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما  
﴿ قدّمت ﴾ أي : كسبت ﴿ أيديكم ﴾ من الكفر والمعاصي ، وإنما عبر بالأيدي دون

غيرها لأن أكثر الأفعال تزاوُل بها والتحقيق إنّ الإنسان جوهر واحد وهو الفعّال وهو  
الدراك وهو المؤمن وهو الكافر وهو المطيع وهو العاصي وهذه الأعضاء آلة له وأدوات في  
الفعل فأضيف الفعل في الظاهر إلى الآلة وهو في الحقيقة مضاف إلى جوهر ذات الإنسان  
﴿ وأنّ الله ليس بظلام للعبيد ﴾ فلا يعذب أحداً من خلقه بغير ذنب وظلام للتكثير لأجل  
العبيد أي: أنه بمعنى ذي ظلم.

(195/316)

---

﴿ كدأب ﴾ أي: دأب هؤلاء الكفار بكفرهم مثل دأب ﴿ آل فرعون ﴾ وهو عادتهم  
وعملهم الذي دأبوا فيه أي: داموا عليه فجوزي هؤلاء بالقتل والأسريوم بدر كما جوزي آل  
فرعون بالإغراق، وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل يقال: فلان دأب في كذا أي: داوم  
عليه وسميت العادة دأباً لأنّ الإنسان مداوم على عادته مواظب عليها ﴿ والذين من  
قبلهم ﴾ أي: من قبل آل فرعون وقوله تعالى: ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ تفسير لدأب آل  
فرعون ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ أي: بسبب كفرهم كما أخذ هؤلاء ﴿ الله الله  
قوي ﴾ أي: على ما يريد فينتقم من كفر وكذب رسله ﴿ شديد العقاب ﴾ ممن كفر  
وكذب رسله وقوله تعالى:

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما حلّ بهم من العقاب ﴿ بأن ﴾ أي : بسبب أن ﴿ الله لم يك مغيراً ﴾  
نعمة أنعمها على قوم ﴿ أي : مبدلاً لها بالنعمة ﴾ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴿ أي : بأن ﴾  
يبدّلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ منه .

فإن قيل : فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله تعالى نعمته عليهم ، ولم  
تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة أجيب : بأنه تعالى كما يغير الحال  
المرضية إلى المسخوطة يغير الحال المسخوطة ؟ إلى أسخط منها ، وأولئك كانوا قبل بعثة  
الرسول صلى الله عليه وسلم كفرة عبدة أو ثان فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه  
وعادوه وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت عليه فغير الله  
تعالى ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب ﴿ وإن الله سميع ﴾ لما يقولون  
﴿ عليهم ﴾ بما يفعلون .

﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ أي :  
أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم  
بالمسخ ، كذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف ﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ أي : هو وقومه .  
فإن قيل : ما فائدة تكرير هذه الآية مرة ثانية ؟

أجيب : بأن فيها فوائد :



---

منها : إنَّ الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأوَّل ؛ لأنَّ الكلام الأوَّل فيه ذكر أخذهم ، وفي الثاني ذكر إغراقهم وذلك تفصيل .

ومنها : أنه ذكر في الآية الأولى أنهم كفروا بآيات الله ، وفي الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم ففي الآية الثانية إشارة إلى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها .

ومنها : أنَّ تكرير هذه القصة للتأكيد ، ولما نيظ به من الدلالة على كفران النعم بقوله : ﴿ بآيات ربهم ﴾ وبيان ما أخذ به آل فرعون .

ومنها : أنَّ الأولى لسببية الكفر ، والثانية لسببية التغيير ، والنقمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم ﴿ وكل ﴾ أي : من الفرق المكذبة أو من غرقى القبط وقتلى قریش ﴿ كانوا ظالمين ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي وغيرهم بالإضلال واضعين الآيات في غير موضعها وهم يظنون بأنفسهم العدل ، ولما وصف تعالى كل الكفار بقوله تعالى : ﴿ وكل كانوا ظالمين ﴾ أفرد بعضهم بمزية في الشر والفساد فقال :

﴿ إنَّ شرَّ الدواب عند الله ﴾ في حكمه وعلمه ﴿ الذين كفروا ﴾ أي : أصروا على الكفر ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ أي : لا يتوقع منهم إيمان وقوله تعالى :

﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرّة ﴾ بدل البعض من الذين كفروا ، وهم يهود قريظة عاهدتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يمالئوا أي : يساعدوا عليه

فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح، وقالوا: نسينا وأخطأنا ثم عاهدهم فنكثوا  
وماؤوا معهم يوم الخندق وانطلق كعب بن الأشرف إلى أهل مكة فحالفهم، وإنما جعلهم  
الله تعالى شر الدواب؛ لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرور منهم وشر المصرين  
الناكثون العهود ﴿ وهم لا يتقون ﴾ الله في حذرهم.

(197/316)

---

﴿ فإمّا ﴾ فيه إدغام إن الشرطية في ما الزائدة ﴿ تنقنهم ﴾ أي: تجدن هؤلاء الذين  
نقضوا العهد وظفرت بهم ﴿ في الحرب فشرذ ﴾ قال ابن عباس: فنكل ﴿ بهم ﴾ أي:  
بهؤلاء الذين نقضوا العهد ﴿ من خلفهم ﴾ أي: من وراءهم من أهل مكة واليمن وغيرهما  
، فيخافون أن تفعل بهم كفعل هؤلاء ، وقال عطاء: أثنى فيهم القتل حتى يخافك غيرهم  
﴿ لعلمهم ﴾ أي: الذين خلفهم ﴿ يذكرون ﴾ أي: يتعظون بهم.

﴿ وإمّا تخافن ﴾ أي: تعلمن يا محمد ﴿ من قوم ﴾ عاهدتهم ﴿ خيانة ﴾ في العهد  
بإمارات تلوح لك كما ظهر من قريظة والنضير ﴿ فانبذ ﴾ أي: اطرح عهدهم ﴿ إليهم ﴾  
، وقوله تعالى: ﴿ على سواء ﴾ حال أي: مستويا أنت وهم في العلم بنقض العهد ، بأن

تعلمهم به؛ لئلا يتهموك بالغدر إذا نصبت الحرب معهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿أَي: فِي نَقْضِ الْعَهْدِ أَوْ غَيْرِهِ.

(198/316)

---

روي أنّ معاوية كان بينه وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدراً ، فإذا هو عمرو بن عبسة ، فأرسل إليه معاوية يسأله فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذ عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء" فرجع معاوية ، قال الرازي : حاصل الكلام في هذه الآية أنه تعالى أمره بقتل من ينقض العهد على أقبح الوجوه ، وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه ، من كل ما يوهم نكث العهد ونقضه ، قال أهل العلم : إذا ظهرت آثار نقض العهد ممن عاهدهم الإمام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض ، إما أن يظهر ظهوراً محتملاً أو ظهوراً مقطوعاً به ، فإن كان الأوّل وجب الإعلام عليه على ما هو مذكور في هذه الآية ، وذلك أن قريظة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على النبي صلى الله عليه وسلم فحصل للنبي صلى الله عليه وسلم خوف

الغدربه وبأصحابه فهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم على سواء ، ويعلمهم بالحرب ،  
وأما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به فهنا لا حاجة إلى نبذ العهد بل يفعل كما فعل  
رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة ، وهم في ذمة النبي  
صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم إلا وجيش النبي صلى الله عليه وسلم بمر الظهران ، وذلك  
على أربعة فراسخ من مكة .

ولما بين تعالى ما يفعله صلى الله عليه وسلم في حق من يجده في الحرب ويتمكن منه ، وذكر  
أيضاً ما يجب أن يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد ، بين أيضاً حال من فاته في يوم بدر وغيره  
لكي لا تبقى حسرة في قلبه فقد كان فيهم من بلغ في أذية النبي صلى الله عليه وسلم مبلغاً  
عظيماً بقوله تعالى:

(199/316)

---

﴿ ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا ﴾ أي : خلصوا من القتل والأسر يوم بدر ﴿ إنهم لا  
يعجزون ﴾ الله أي : لا يفوتونه بهذا السبق في الانتقام منهم ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة  
بعذاب النار ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن ، فاته من المشركين ولم ينتقم منه  
، فأعلمه الله تعالى أنهم لا يعجزونه ، وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص يحسبن بالياء على

الغيبة على أن الفعل للذين كفروا ، والباقون بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم  
ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرّد من صدر منه نقض العهد إلى من  
خاف منه النقص واتفق لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قصدوا الكفار بلا آلة  
ولا عدة أمرهم في هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفار بقوله تعالى:

﴿ وأعدوا لهم ﴾ أي: لقتالهم ﴿ ما استطعتم من قوّة ﴾ الإعداد اتخذ الشيء لوقت

الحاجة إليه ، وفي المراد بالقوّة أقوال .t

الأوّل: الرمي وقد جاءت مفسرة به عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عقبة بن  
عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: "وأعدوا لهم ما  
استطعتم إلا إن القوّة الرمي ثلاثاً" أخرجه مسلم ، وعن أبي أسيد رضي الله عنه قال: قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش وصفوا لنا: "إذا كبسوكم  
فعليكم بالنبل" ، وفي رواية: "ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة: تأديب الرجل فرسه ،  
وملاعبة أهله ، ورميه بقوسه أي: نبهه ، فإنهنّ من الحق ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة  
عنه ، فإنها نعمة تركها أو كفرها" أخرجه الترمذي .

والثاني: إنها الحصون .

والثالث: إنها جميع الأسلحة والآلات التي تكون لكم قوّة في الحرب على قتال عدوكم وقوله

تعالى: ﴿ومن رباط الخيل﴾ مصدر بمعنى حبسها في سبيل الله سواء كانت ذكورا أو إناثاً، وقال عكرمة: المراد الإناث.

(200/316)

---

وروي عن خالد بن الوليد أنه قال: لا يركب في القتال إلا الإناث لقلة صهيلها، وعن أبي محيرز أنه قال: كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف، وإناث الخيل عند البيات والغارات، وقيل: ربط الفحول أولى؛ لأنها أقوى على الكرّ والفرّ، ويدلّ للأول ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله، وتصديقاً بوعده، فإنّ شبعه وريه وبوله وروثه في ميزانه يوم القيامة" يعني حسناته، وعن عروة البارقيّ إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم"، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال: "ما أنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة" ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ ﴿ترهبون﴾ أي: تخوفون ﴿به﴾ أي: بتلك القوة أو بذلك الرباط ﴿عدوّ الله وعدوكم﴾ أي: الكفار من أهل مكة وغيرهم، وذلك إنّ الكفار إذا علموا أنّ المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له

مستكملون لجميع الأسلحة وآلات الحرب وإعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم ، فلا يقصدون دخول دار الإسلام بل يصير ذلك سبباً لدخول الكفار في الإسلام أو بذل الجزية للمسلمين ﴿ و ﴾ ترهبون ﴿ آخرين من دونهم ﴾ أي : غيرهم وهم المنافقون لقوله تعالى : ﴿ لا تعلمونهم ﴾ ؛ لأنهم معكم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴿ الله يعلمهم ﴾ أي : إنهم منافقون .

فإن قيل : المنافقون لا يخافون القتال فكيف يوجب ما ذكر الإرهاب ؟

(201/316)

---

أجيب : بأنّ المنافقين إذا شاهدوا قوّة المسلمين ، وكثرة آلتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويقطع طمعهم من أن يصيروا غالبين ، فيحملهم ذلك على أن يتركوا الكفر من قلوبهم ، وبواطنهم ويصيروا مخلصين في الإيمان ، وقيل : هم اليهود ، وقيل : الفرس ﴿ وما تنفقوا من شيء ﴾ وإن قل ﴿ في سبيل الله ﴾ أي : طاعته جهاداً كان أو غيره ﴿ يوفّ إليكم ﴾ قال ابن عباس : أجره ، أي : لا يضيع في الآخرة أجره ويعجل الله عوضه في الدنيا ﴿ وأتم لا تظلمون ﴾ أي : لا تنقصون من الثواب ، ولما سئل ابن عباس عن هذا التفسير تلا قوله

تعالى: ﴿آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً﴾ (الكهف). انتهى انتهى. اهـ ﴿السراج المنير

ح 2 ص 335.349﴾

(202/316)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (55)

قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي: شر ما يدب على وجه الأرض ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في

حكمه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: المصرون على الكفر المتمادون في الضلال.

ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبداً، ولا يرجعون عن

الغواية أصلاً، وجعلهم شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية،

ودخولهم في جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم.

قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين كفروا أو عطف بيان أو في محل نصب

على الذم.

والمعنى: أن هؤلاء الكافرين الذين هم شر الدواب عند الله هم هؤلاء الذين عاهدت منهم

، أي أخذت منهم عهدهم، ثم هم ﴿يَنْتَضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ الذي عاهدتهم ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ



﴿ من مرّات المعاهدة ، والحال أنّهم ﴾ لا يتقون ﴾ النقض ، ولا يخافون عاقبته ولا

يتجنبون أسبابه .

وقيل إن " من " في قوله : ﴿ منهم ﴾ للتبعيض ، ومفعول عاهدت محذوف ، أي الذين

عاهدتهم ، وهم بعض أولئك الكفرة : يعني الأشراف منهم ، وعطف المستقبل وهو ﴿ ثم

ينقضون ﴾ على الماضي ، وهو ﴿ عاهدت ﴾ للدلالة على استمرار النقض منهم ،

وهؤلاء هم قريظة ، عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعينوا الكفار فلم يفوا

بذلك كما سيأتي ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشدة والغلظة عليهم ، فقال :

﴿ فإِذَا تَقَفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أي : فإما تصادفهم في ثقاف ،

وتلقاهم في حالة تقدر عليهم فيها ، وتمكن من غلبهم ﴾ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أي :

افرق بقتلهم والتنكيل بهم من خلفهم من المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهابوا جانبك ،

ويكفوا عن حربك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء .

(203/316)

---

والثقاف في أصل اللغة : ما يشد به القناة أو نحوها ، ومنه قول النابغة :

تدعوقعيباً وقد غض الحديد بها . . . غض الثقاف على ضم الأنايب

يقال ثقفته: وجدته، وفلان ثقف: سريع الوجود لما يحاوله، والتشريد: التفريق مع الاضطراب.

وقال أبو عبيدة ❖ شرد بهم ❖ سمع بهم.

وقال الزجاج: افعل بهم فعلاً من القتل تفرق به من خلفهم، يقال شردت بني فلان: قلعتهم عن مواضعهم وطردهم عنها حتى فارقوها.  
قال الشاعر:

أطوف في الأباطح كل يوم... مخافة أن يشردني حكيم

ومنه شرد البعير: إذا فارق صاحبه، وروى عن ابن مسعود أنه قرأ "فشرد بهم" بالذال المعجمة.

قال قطرب: التشريد بالذال المعجمة هو التنكيل، وبالمهملة هو التفريق.

وقال المهدي: الذال المعجمة لا وجه لها إلا أن تكون بدلاً من الدال المهملة لتقاربهما، قال:  
ولا يعرف فشرد في اللغة، وقرىء "مَنْ خَلْفَهُمْ" بكسر الميم والفاء.

قوله: ❖ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ❖ أي: غشاً وتقضاً للعهد من القوم المعاهدين ❖  
فانبذ إليهم ❖ أي فاطرح إليهم العهد الذي بينك وبينهم ❖ على سؤاء ❖ على طريق  
مستوية.

والمعنى: أنه يخبرهم إخباراً ظاهراً مكشوفاً بالنقض، ولا يناجزهم الحرب بغتة، وقيل

معنى: ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ على وجه يستوي في العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم ، أو تستوي أنت وهم فيه .

قال الكسائي: السواء العدل ، وقد يكون بمعنى الوسط ، ومنه قوله: ﴿ فِي سَوَاءٍ

البحيم ﴾ [الصفات: 55] ، ومنه قول حسان:

يا ويح أنصار النبي ورهطه . . . بعد المغيب في سواء الملحد

ومن الأول قول الشاعر:

فاضرب وجوه الغدر الأعداء . . . حتى يجيبوك إلى سواء

وقيل: معنى ﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ على جهر لا على سرّ ، والظاهر أن هذه الآية

عامة في كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه .

(204/316)

---

قال ابن عطية: والذي يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بني قريظة انقضى عند قوله: ﴿

فَشَرَدُ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ ثم ابتداء تبارك وتعالى في هذه الآية يأمره بما يصنعه في المستقبل مع

من يخاف منه خيانة ، وجملة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ تعليل لما قبلها ، يحتمل أن

تكون تحذيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء ،

ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة .

قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ قرأ ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص بالياء التحتية .

وقرأ الباقون بالمشناة من فوق .

فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا فاعل الحسبان ، ويكون مفعوله الأول محذوفاً ، أي لا

يحسبن الذين كفروا أنفسهم ، ومفعوله الثاني سبقوا ومعناه : فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم .

وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومفعوله الأول الذين

كفروا ، والثاني سبقوا ، وقرئ " إِنَّهُمْ سَبَقُوا " وقرئ " يحسبن " بكسر الياء ، وجملة ﴿

إِنَّهُمْ لَا يَعْجِزُونَ ﴾ تعليل لما قبلها ، أي إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن

إدراكهم .

وقرأ ابن عامر " أنهم " بفتح الهمزة ، والباقون بكسرها ، وكلا القراءتين مفيدة لكون الجملة

تعليلية .

وقيل المراد بهذه الآية : من أفلت من وقعة بدر من المشركين .

والمعنى : أنهم وإن أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا فإنهم لا يعجزون ، بل هم واقعون في عذاب

الله في الدنيا أو في الآخرة .

وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم ، أن قراءة من قرأ " يحسبن " بالتحية لحن ، لا

تحل القراءة بها ، لأنه لم يأت ليحسبن بمفعول ، وهو يحتاج إلى مفعولين .

قال النحاس : وهذا تحامل شديد .

ومعنى هذه القراءة : ولا يحسبنّ من خلفهم الذين كفروا سبقوا ، فيكون الضمير يعود على ما تقدم إلا أن القراءة بالتاء أبين .

(205/316)

---

وقال المهدوي : يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلاً ، والمفعول الأوّل محذوف .

والمعنى ولا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم سبقوا .

قال مكّي : ويجوز أن يضمّر مع سبقوا "أن" فتسدّ مسدّ المفعولين ، والتقدير : ولا يحسبنّ الذين كفروا أن سبقوا ، فهو مثل : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾ [العنكبوت : 2] في سدّ أن مسدّ المفعولين .

ثم أمر سبحانه بإعداد القوّة للأعداء ، والقوّة كل ما يتقوى به في الحرب ، ومن ذلك السلاح والقسى .

وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : " ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ إلا إن القوّة

الرمي ، قالها ثلاث مرات " وقيل : هي الحصون ، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متعين .

قوله : ﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ .

قرأ الحسن وعمر بن دينار وأبو حيوة "ومن ربط الخيل" بضم الراء والباء ككتب : جمع كتاب .

قال أبو حاتم : الرباط من الخيل الخمس فما فوقها ، وهي الخيل التي ترتبط بإزاء العدو .  
ومنه قول الشاعر :

أمر الإله بربطها لعدوه . . . في الحرب إن الله خير موق

قال في الكشاف : والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله ، ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة .

ويجوز أن يكون جمع رباط كفضيل وفضال .

انتهى .

ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به في الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام ،

وجملة ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ في محل نصب على الحال ، والترهيب :

التخويف ، والضمير في ﴿ به ﴾ عائد إلى "ما" في ﴿ ما استطعتم ﴾ أو إلى المصدر

المفهوم من ﴿ وأعدوا ﴾ وهو الإعداد .

والمراد بعدو الله وعدوهم هم المشركون من أهل مكة ، وغيرهم من مشركي العرب .

قوله : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ معطوف على عدو الله وعدوكم .

ومعنى من دونهم : من غيرهم .

وقيل هم اليهود .

(206/316)

وقيل فارس والروم ، وقيل الجن ، ورجحه ابن جرير .

وقيل المراد بالآخرين من عدوهم : كل من لا تعرف عداوته ، قاله السهيلي .

وقيل : هم بنو قريظة خاصة ، وقيل غير ذلك .

والأولى : الوقف في تعيينهم لقوله : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ .

قوله : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : في الجهاد وإن كان يسيراً حقيراً ﴿ ﴾

يُوفَّ إِلَيْكُمْ ﴿ ﴾ جزاؤه في الآخرة .

فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، كما قرّناه سابقاً .

﴿ وَأَنْتُمْ لَا تظْلُمُونَ ﴾ في شيء من هذه النفقة التي تنفقونها في سبيل الله ، أي من ثوابها ،

بل يصير ذلك إليكم وافياً وافراً كاملاً ﴿ ﴾ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً

عَظِيمًا ﴿ [النساء: 40] ﴾ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلًا عَامِلٍ مِّنْكُمْ ﴿ [آل عمران: 195]

[.

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبیر قال: نزلت ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ الآية في ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتَظُونَ عَهْدَهُمْ ﴾ قال : قريظة يوم الخندق ما ثؤوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أعداءه .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ قال : نكل بهم من بعدهم .

وأخرج ابن جرير ، عنه ، في الآية قال : نكل بهم من رواءهم .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن سعيد بن جبیر ، في الآية قال : أنذر بهم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة قال : عظ بهم من سواهم من الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، قال : أخفهم بهم .



---

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يقول: لعلمهم يحدرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قد وضعت السلاح وما زلنا في طلب القوم، فأخرج فإن الله قد أذن لك في قريظة، وأنزل فيهم: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قال: لا يفوتونا.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال: الرمي والسيوف والسلاح.

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال: أمرهم بإعداد الخيل.

وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن عكرمة في الآية قال: القوّة ذكور الخيل، والرباط الإناث.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب في الآية قال: القوّة الفرس إلى

السهم فما دونه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن عكرمة قال : القوة الحصون .

﴿ وَمِنْ رَبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ قال : الإناث .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن

عباس ، في قوله : ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ قال : تحزون به عدو الله

وعدوكم .

وقد ورد في استحباب الرمي ، وما فيه من الأجر أحاديث كثيرة ، وكذلك ورد في

استحباب اتخاذ الخيل وإعدادها ، وكثرة ثواب صاحبها أحاديث لا يتسع المقام لبسطها .

وقد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير ح 2 ص



**AL-HAWI  
FE  
AL-TAFSEER**

**Sheikh Abdul Rahman**

**Bin Mohammed**

**AL-QAMMASH**

**16**